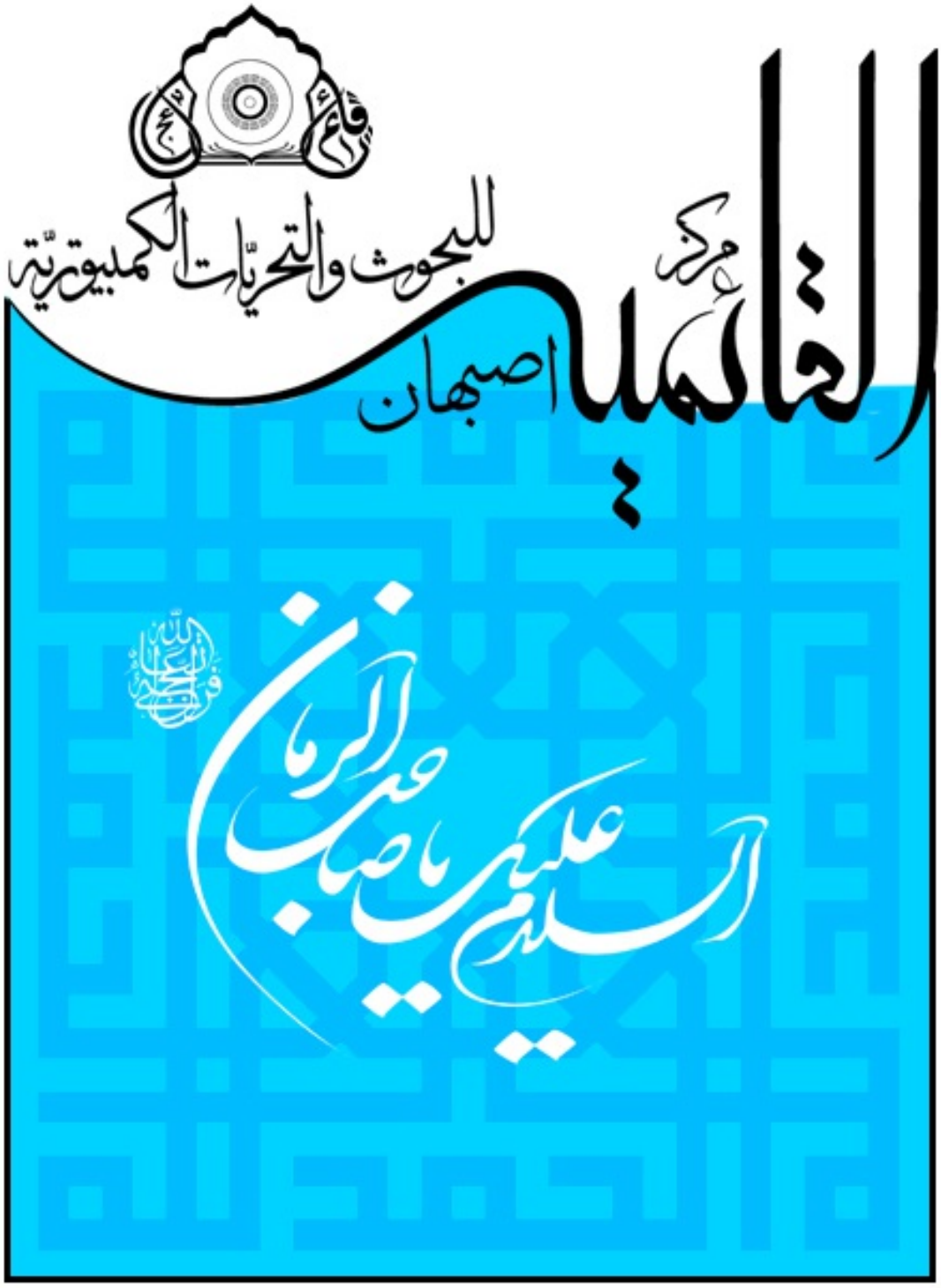

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

العلامة الفقيه المفسر
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحیم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

کاتب:

ناصرمکارم شیرازی

نشرت فی الطباعة:

مدرسه الامام علی بن ابی طالب (علیه السلام)

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ----- ۴۵۷

اشارة ----- ۴۵۷

الجزء الأول ----- ۴۵۷

الأمثل من جدید ----- ۴۵۷

المقدّمة ----- ۴۵۸

ما هو التّفسیر؟ ----- ۴۵۸

متی بدأ تفسیر القرآن؟ ----- ۴۵۸

خطر التّفسیر بالرأی: ----- ۴۵۹

متطلّبات العصر: ----- ۴۵۹

الأمثل بین التفاسیر: ----- ۴۶۰

خصائص هذا التّفسیر: ----- ۴۶۱

الصّحوة الإسلامیة المعاصرة و زیادة الحاجة إلی تفسیر القرآن: ----- ۴۶۲

سورة الحمد ----- ۴۶۳

اشارة ----- ۴۶۳

خصائصها: ----- ۴۶۳

محتوی السّورة: ----- ۴۶۵

لماذا سمّیت فاتحة الکتاب؟ ----- ۴۶۶

سؤال: ----- ۴۶۷

الآیات [سورة الفاتحة (۱): الآیات ۱ الی ۷] ----- ۴۶۷

اشارة ----- ۴۶۷

التّفسیر ----- ۴۶۷

۱- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ ----- ۴۶۸

بحوث ----- ۴۶۹
۱- هل البسملة جزء من السّورة؟ ----- ۴۶۹
۲- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالى: ----- ۴۷۰
۳- الرّحمة الإلهية الخاصة و العامّة: ----- ۴۷۱
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۲] ----- ۴۷۳
اشارة ----- ۴۷۳
التّفسير ----- ۴۷۳
العالم مغمور فى رحمته ----- ۴۷۳
بحثان ----- ۴۷۵
۱- رفض الآلهة: ----- ۴۷۵
۲- ربوبية اللّه طريق لمعرفة اللّه ----- ۴۷۶
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۳] ----- ۴۷۶
اشارة ----- ۴۷۶
التّفسير ----- ۴۷۶
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۴] ----- ۴۷۷
اشارة ----- ۴۷۷
التّفسير ----- ۴۷۷
الرّكيزة الثّانية: الإيمان بيوم القيامة ----- ۴۷۷
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۵] ----- ۴۷۸
اشارة ----- ۴۷۸
التّفسير ----- ۴۷۸
الإنسان بين يدى اللّه ----- ۴۷۸
بحوث ----- ۴۷۹
۱- هو المستعان وحده ----- ۴۷۹

۲- استعمال صيغ الجمع فى تعبير الآيات ۴۸۰
۳- الاستعانة به فى كل الأمور ۴۸۰
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۶] ۴۸۰
اشارة ۴۸۰
التّفسير ۴۸۰
السير على الصراط المستقيم ۴۸۰
ما هو الصّراط المستقيم؟ ۴۸۲
الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۷] ۴۸۳
اشارة ۴۸۳
التّفسير ۴۸۳
خطّان منحرفان! ۴۸۳
بحثان ۴۸۳
۱- من هم الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ۴۸۳
۲- من هم الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و من هم الضَّالِّينَ ۴۸۴
سورة البقرة ۴۸۵
اشارة ۴۸۵
محتوى سورة البقرة: ۴۸۵
فضيلة هذه السّورة: ۴۸۵
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱ الى ۲] ۴۸۶
اشارة ۴۸۶
التّفسير ۴۸۶
تحقيق فى الحروف المقطعة فى القرآن ۴۸۶
الأدب فى العصر الجاهلى: ۴۸۷
شاهد ناطق: ۴۸۸

بحوث ----- ۴۸۹
۱- لماذا الإشارة إلى البعيد؟ ----- ۴۸۹
۲- معنى الكتاب: ----- ۴۸۹
۳- ما هى الهداية؟ ----- ۴۸۹
۴- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟ ----- ۴۸۹
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳ الى ۵] ----- ۴۹۰
اشارة ----- ۴۹۰
التّفسير ----- ۴۹۰
آثار التقوى فى روح الإنسان و بدنه: ----- ۴۹۰
۱- الإيمان بالغيب: ----- ۴۹۱
۲- الارتباط باللّه: ----- ۴۹۲
۳- الارتباط بالنّاس: ----- ۴۹۲
۴- الإيمان بالأنبياء عليهم السّلام: ----- ۴۹۳
۵- الإيمان بيوم القيامة: ----- ۴۹۳
بحثان ----- ۴۹۴
۱- مواصلة طريق الإيمان و العمل: ----- ۴۹۴
۲- ما هى حقيقة التقوى؟ ----- ۴۹۴
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۶ الى ۷] ----- ۴۹۵
اشارة ----- ۴۹۵
التّفسير ----- ۴۹۵
المجموعة الثّانية: الكفّار المعاندون ----- ۴۹۵
بحوث ----- ۴۹۶
۱- سلب قدرة التشخيص و مسألة الجبر ----- ۴۹۶
۲- لماذا يصرّ الأنبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟ ----- ۴۹۷

۳- الختم على القلوب: ۴۹۷
۴- المقصود من «القلب» فى القرآن ۴۹۸
۵- لماذا جاءت «قلوبهم» و «أبصارهم» بصيغة الجمع، و «سمعهم» بصيغة المفرد؟ ۴۹۸
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸ الى ۱۶] ۴۹۹
اشارة ۴۹۹
التّفسير ۴۹۹
المجموعة الثّالثة: المنافقون ۴۹۹
بحوث ۵۰۱
۱- ظهور النّفاق و أسبابه: ۵۰۱
۲- ضرورة معرفة المنافقين فى كل مجتمع ۵۰۱
۳- سعة معنى النفاق: ۵۰۲
۴- مؤامرة المنافقين: ۵۰۲
۵- خداع الضمير: ۵۰۳
۶- التجارة الخاسرة: ۵۰۴
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ۵۰۵
اشارة ۵۰۵
التّفسير ۵۰۵
مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين: ۵۰۵
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ۵۰۷
اشارة ۵۰۷
التّفسير ۵۰۸
اشارة ۵۰۸
نعم الأرض و السماء: ۵۰۸
بحث ۵۱۰

الشّرک فی أشکال مختلفة: ----- ۵۱۰
الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۲۳ الی ۲۴] ----- ۵۱۱
اشارة ----- ۵۱۱
التّفسیر ----- ۵۱۱
القرآن معجزة خالدة: ----- ۵۱۱
بحوث ----- ۵۱۲
۱- لماذا یحتاج الأنبیاء إلی المعجزة؟ ----- ۵۱۲
۲- القرآن معجزة نبی الإسلام الخالدة: ----- ۵۱۲
۳- هل تحدّی القرآن؟ ----- ۵۱۳
۴- هل جیء بمثله؟ ----- ۵۱۴
۵- شهادات حول القرآن: ----- ۵۱۵
الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۵] ----- ۵۱۶
اشارة ----- ۵۱۶
التّفسیر ----- ۵۱۶
خصائص نعم الجنّة: ----- ۵۱۶
بحوث ----- ۵۱۷
۱- «الإیمان» و «العمل»: ----- ۵۱۷
۲- الأزواج المطهّرة: ----- ۵۱۸
۳- النعم المادیة و المعنویة فی الجنّة: ----- ۵۱۸
الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۲۶] ----- ۵۱۸
اشارة ----- ۵۱۸
سبب النّزول ----- ۵۱۸
التّفسیر ----- ۵۱۹
هل اللّه یضرب المثل؟! ----- ۵۱۹

بحوث ----- ۵۲۰
۱- أهمية المثال فى بيان الحقائق: ----- ۵۲۰
۲- لماذا التمثيل بالبعوضة؟ ----- ۵۲۰
۳- هداية اللّه و إضلاله: ----- ۵۲۱
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷] ----- ۵۲۱
اشارة ----- ۵۲۱
التّفسير ----- ۵۲۲
الخاسرون الحقيقيون: ----- ۵۲۲
بحثان ----- ۵۲۳
۱- أهمية صلة الرحم فى الإسلام: ----- ۵۲۳
۲- القطع بدل الوصل: ----- ۵۲۴
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۸ الى ۲۹] ----- ۵۲۴
اشارة ----- ۵۲۴
التّفسير ----- ۵۲۴
نعمة الحياة: ----- ۵۲۴
بحوث ----- ۵۲۶
۱- التناسخ أو عودة الأرواح ----- ۵۲۶
۲- السّماوات السّبع ----- ۵۲۶
۳- عظمة الكائنات ----- ۵۲۷
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ----- ۵۲۸
اشارة ----- ۵۲۸
التّفسير ----- ۵۲۸
الإنسان خليفة اللّه فى الأرض ----- ۵۲۸
الملائكة فى بودقة الاختبار ----- ۵۳۰

جواب على سؤالين ----- ۵۳۱
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۴ الى ۳۶] ----- ۵۳۱
اشارة ----- ۵۳۱
التّفسير ----- ۵۳۲
آدم عليه السّلام فى الجنّة ----- ۵۳۲
بحثان ----- ۵۳۲
۱- لماذا أبى إبليس؟ ----- ۵۳۲
۲- هل كان السّجود للّه أم لآدم عليه السّلام؟ ----- ۵۳۳
بحوث ----- ۵۳۴
۱- ما هى جنّة آدم عليه السّلام؟ ----- ۵۳۴
۲- ما هو ذنب آدم؟ ----- ۵۳۴
۳- المقارنة بين معارف القرآن و التوراة: ----- ۵۳۵
۴- المقصود من الشّيطان فى القرآن ----- ۵۳۶
۵- لماذا خلق الشيطان؟! ----- ۵۳۷
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۷ الى ۳۹] ----- ۵۳۷
اشارة ----- ۵۳۷
التّفسير ----- ۵۳۷
عودة آدم عليه السّلام إلى اللّه ----- ۵۳۸
بحوث ----- ۵۳۸
۱- الكلمات التى تلقاها آدم ----- ۵۳۸
۲- سبب تكرار جملة «اهبطوا» ----- ۵۳۹
۳- من هم المخاطبون فى جملة «اهبطوا»؟ ----- ۵۳۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۴۰] ----- ۵۳۹
اشارة ----- ۵۳۹

التّفسير ----- ۵۳۹
ذكر النّعم الإلهية ----- ۵۳۹
بحوث ----- ۵۴۰
۱- اليهود فى المدينة ----- ۵۴۰
۲- ميثاق بنى إسرائيل: ----- ۵۴۱
۳- وفاء اللّه بعهده ----- ۵۴۱
۴- لماذا سمى اليهود «بنى إسرائيل»؟ ----- ۵۴۱
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۱ الى ۴۳] ----- ۵۴۲
اشاره ----- ۵۴۲
سبب النّزول ----- ۵۴۲
التّفسير ----- ۵۴۲
جشع اليهود ----- ۵۴۲
بحث ----- ۵۴۳
هل يؤيّد القرآن ما جاء فى التّوراة و الإنجيل؟! ----- ۵۴۴
الجواب ----- ۵۴۴
شاهد حىّ آخر: ----- ۵۴۴
الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۴ الى ۴۶] ----- ۵۴۵
اشارة ----- ۵۴۵
التّفسير ----- ۵۴۶
بحثان ----- ۵۴۷
۱- ما هو لقاء اللّه؟ ----- ۵۴۷
۲- سبيل التغلب على الصعاب ----- ۵۴۷
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۷ الى ۴۸] ----- ۵۴۸
اشارة ----- ۵۴۸

التّفسير ----- ۵۴۸
أوهام اليهود ----- ۵۴۸
القرآن و مسألة الشّفاعة ----- ۵۴۹
اشارة ----- ۵۴۹
۱- المفهوم الحقيقى للشّفاعة: ----- ۵۵۰
۲- الشّفاعة فى عالم التكوين ----- ۵۵۰
۳- مستندات الشفاعة: ----- ۵۵۱
۴- الشّروط المختلفة للشفاعة: ----- ۵۵۱
۵- الشّفاعة فى الحديث: ----- ۵۵۲
۶- التّأثير المعنوى للشّفاعة: ----- ۵۵۳
۷- فلسفة الشّفاعة ----- ۵۵۴
۸- شروط «توفّر الشّفاعة» ----- ۵۵۵
۹- شبهات حول مسألة الشفاعة ----- ۵۵۵
۱۰- الشّفاعة و التّوحيد ----- ۵۵۶
نظرة على منطق الوهّابيين فى حقل الشفاعة ----- ۵۵۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۴۹] ----- ۵۶۰
اشارة ----- ۵۶۰
التّفسير ----- ۵۶۰
نعمة الحرية ----- ۵۶۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۵۰] ----- ۵۶۱
اشارة ----- ۵۶۱
التّفسير ----- ۵۶۱
النّجاة من آل فرعون: ----- ۵۶۱
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۱ الى ۵۴] ----- ۵۶۱

اشارة ----- ۵۶۱
التّفسير ----- ۵۶۲
اشارة ----- ۵۶۲
أكبر انحرافات بنى إسرائيل ----- ۵۶۲
ذنب عظيم و توبة فريدة ----- ۵۶۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۵ الى ۵۶] ----- ۵۶۳
اشارة ----- ۵۶۳
التّفسير ----- ۵۶۳
طلب عجيب! ----- ۵۶۴
الآيتان [سورة البقرة (۲): آية ۵۷] ----- ۵۶۴
اشارة ----- ۵۶۴
التّفسير ----- ۵۶۴
النّعم المتنوعة ----- ۵۶۴
بحوث ----- ۵۶۵
۱- الحياة الجديدة بعد التحرر: ----- ۵۶۵
۲- المنّ و السّلوى: ----- ۵۶۵
۳- لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟ ----- ۵۶۶
۴- ما هو الغمام؟ ----- ۵۶۷
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۸ الى ۵۹] ----- ۵۶۷
اشارة ----- ۵۶۷
التّفسير ----- ۵۶۷
عناد بنى إسرائيل ----- ۵۶۷
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۰] ----- ۵۶۸
اشارة ----- ۵۶۸

التّفسير ----- ۵۶۸
بحوث ----- ۵۶۹
۱- الفرق بين العتّى و الإفساد ----- ۵۶۹
۲- المعاجز فى حياة بنى إسرائيل ----- ۵۶۹
۳- الفرق بين الإنفجار و الانبجاس ----- ۵۷۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۱] ----- ۵۷۰
اشارة ----- ۵۷۰
التّفسير ----- ۵۷۰
المطالبة بالأطعمة المتنوعة ----- ۵۷۰
بحوث ----- ۵۷۱
۱- آراء المفسرين فى كلمة «مصر» ----- ۵۷۱
۲- التنوع و طبيعة الإنسان ----- ۵۷۱
۳- هل «المنّ» و «السلوى» خير الأطعمة؟ ----- ۵۷۲
۴- ذلة بنى إسرائيل و مسكنتهم ----- ۵۷۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۲] ----- ۵۷۲
اشارة ----- ۵۷۲
التّفسير ----- ۵۷۲
القانون العام للنّجاة ----- ۵۷۳
تساؤل هام ----- ۵۷۳
بحوث ----- ۵۷۳
۱- قصّة سلمان الفارسى رحمه اللّه ----- ۵۷۴
۲- من هم الصّابئون؟ ----- ۵۷۵
۳- معتقدات الصّابئين ----- ۵۷۶
كتبهم المقدسة: ----- ۵۷۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۳ الى ۶۴] ----- ۵۷۷
اشارة ----- ۵۷۷
التّفسير ----- ۵۷۷
الالتزام بالميثاق ----- ۵۷۷
بحوث ----- ۵۷۷
۱- الميثاق ----- ۵۷۷
۲- رفع جبل الطّور ----- ۵۷۸
۳- الالتزام و الإرهاب ----- ۵۷۸
۴- جبل الطّور ----- ۵۷۸
۵- خذوا تعاليم السّماء بقوّة ----- ۵۷۹
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۵ الى ۶۶] ----- ۵۷۹
اشارة ----- ۵۷۹
التّفسير ----- ۵۷۹
عصاة يوم السبت ----- ۵۷۹
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۷ الى ۷۴] ----- ۵۸۰
اشارة ----- ۵۸۰
التّفسير ----- ۵۸۰
قصّة بقرة بنى إسرائيل ----- ۵۸۰
بحوث ----- ۵۸۱
۱- أسئلة كثيرة تافهة ----- ۵۸۱
۲- مدلول هذه الأوصاف: ----- ۵۸۲
۳- ما هو دافع القتل؟ ----- ۵۸۲
۴- العبر فى هذه القصّة ----- ۵۸۳
۵- الإحسان إلى الأب ----- ۵۸۳

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۷۵ الى ۷۷] ----- ۵۸۴
اشارة ----- ۵۸۴
سبب النّزول ----- ۵۸۴
التّفسير ----- ۵۸۴
لا أمل فى هؤلاء ----- ۵۸۴
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۷۸ الى ۷۹] ----- ۵۸۵
اشارة ----- ۵۸۵
سبب النّزول ----- ۵۸۵
التّفسير ----- ۵۸۵
خطّة اليهود فى استغلال الجهلة! ----- ۵۸۵
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۰ الى ۸۲] ----- ۵۸۷
اشارة ----- ۵۸۷
التّفسير ----- ۵۸۷
بحوث ----- ۵۸۷
۱- كسب السيئة ----- ۵۸۷
۲- إحاطة الخطيئة ----- ۵۸۸
۳- عنصرية اليهود ----- ۵۸۸
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۳ الى ۸۶] ----- ۵۸۸
اشارة ----- ۵۸۸
التّفسير ----- ۵۸۹
النّاكثون ----- ۵۸۹
بحوث ----- ۵۹۰
۱- إشارة تأريخية: ----- ۵۹۰
۲- الازدواجية فى الالتزام: ----- ۵۹۰

۳- منهج البقاء و عوامل السقوط ----- ۵۹۱
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۷ الى ۸۸] ----- ۵۹۱
اشارة ----- ۵۹۱
التّفسير ----- ۵۹۲
القلوب المغلّفة ----- ۵۹۲
بحوث ----- ۵۹۲
۱- رسالة الأنبياء فى مسيرة التاريخ ----- ۵۹۲
۲- ما هو روح القدس؟ ----- ۵۹۳
۳- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين ----- ۵۹۳
۴- قلوب غافلة محجوبة ----- ۵۹۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۹ الى ۹۰] ----- ۵۹۴
اشارة ----- ۵۹۴
سبب النّزول ----- ۵۹۴
التّفسير ----- ۵۹۵
كفروا بما دعوا الناس اليه ----- ۵۹۵
بحثان ----- ۵۹۵
۱- صفقة خاسرة ----- ۵۹۵
۲- غضب على غضب ----- ۵۹۶
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۱ الى ۹۳] ----- ۵۹۶
اشارة ----- ۵۹۶
التّفسير ----- ۵۹۶
العصبية القومية لدى اليهود ----- ۵۹۶
بحثان ----- ۵۹۷
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۴ الى ۹۶] ----- ۵۹۸

اشارة ----- ۵۹۸
التّفسير ----- ۵۹۸
فئة مغرورة: ----- ۵۹۸
بحوث ----- ۵۹۹
۱- المقصود من الأعوام الألف ----- ۵۹۹
۳- إفرازات العنصرية: ----- ۵۹۹
۴- عوامل الخوف من الموت: ----- ۵۹۹
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۷ الى ۹۸] ----- ۶۰۰
اشارة ----- ۶۰۰
اسباب النّزول ----- ۶۰۰
التّفسير ----- ۶۰۰
قوم جادلون: ----- ۶۰۰
جبريل و ميكال ----- ۶۰۱
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۹ الى ۱۰۱] ----- ۶۰۲
اشارة ----- ۶۰۲
سبب النّزول ----- ۶۰۲
التّفسير ----- ۶۰۲
الناكثون من اليهود ----- ۶۰۲
بحوث ----- ۶۰۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۳] ----- ۶۰۳
اشارة ----- ۶۰۳
التّفسير ----- ۶۰۳
سليمان و سحرة بابل ----- ۶۰۴
بحوث ----- ۶۰۵

۱- قصّة هاروت و ماروت ----- ۶۰۵
۲- لفظ هاروت و ماروت ----- ۶۰۵
۳- كيف يكون الملك معلما للإنسان؟ ----- ۶۰۶
۴- لا قدرة لأحد على عمل دون إذن اللّه ----- ۶۰۶
۵- السحر و تأريخه: ----- ۶۰۶
اشارة ----- ۶۰۶
السّحر فى رأى الإسلام ----- ۶۰۷
السحر فى رأى التوراة ----- ۶۰۷
السحر فى عصرنا ----- ۶۰۸
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۵] ----- ۶۰۸
اشارة ----- ۶۰۸
سبب النّزول ----- ۶۰۹
التّفسير ----- ۶۰۹
لا توفّروا للأعداء فرصة الطعن: ----- ۶۰۹
بحث ----- ۶۰۹
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷] ----- ۶۱۰
اشارة ----- ۶۱۰
التّفسير ----- ۶۱۰
الغرض من النّسخ ----- ۶۱۰
بحوث ----- ۶۱۰
۱- هل يجوز النّسخ فى الأحكام؟ ----- ۶۱۱
۲- المقصود من الآية ----- ۶۱۱
۳- تفسير عبارة «ننسها» ----- ۶۱۲
۴- تفسير أَوْ مِثْلِها. ----- ۶۱۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۰۸] ----- ۶۱۲
اشارة ----- ۶۱۳
سبب النّزول ----- ۶۱۳
التّفسير ----- ۶۱۳
حجج واهية ----- ۶۱۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۰] ----- ۶۱۴
اشارة ----- ۶۱۴
التّفسير ----- ۶۱۴
حسد و عناد ----- ۶۱۴
بحوث ----- ۶۱۴
الايتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲] ----- ۶۱۵
اشارة ----- ۶۱۵
التّفسير ----- ۶۱۵
بحوث ----- ۶۱۵
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۳] ----- ۶۱۶
اشارة ----- ۶۱۶
سبب النّزول ----- ۶۱۶
التّفسير ----- ۶۱۶
تعصّب و تناقض ----- ۶۱۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۴] ----- ۶۱۷
اشارة ----- ۶۱۷
سبب النّزول ----- ۶۱۷
التّفسير ----- ۶۱۸
أظلم النّاس ----- ۶۱۸

بحثان ----- ۶۱۸
۱- تخريب المساجد ----- ۶۱۸
۲- أكبر الظّلم ----- ۶۱۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۵] ----- ۶۱۹
اشارة ----- ۶۱۹
سبب النّزول ----- ۶۱۹
التّفسير ----- ۶۲۰
أينما تولّوا فثمّ وجه اللّه: ----- ۶۲۰
بحوث ----- ۶۲۰
۱- فلسفة القبلة ----- ۶۲۰
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷] ----- ۶۲۱
اشارة ----- ۶۲۱
التّفسير ----- ۶۲۱
خرافات اليهود و النصارى و المشركين ----- ۶۲۱
بحوث ----- ۶۲۱
۱- دلائل نفى الولد ----- ۶۲۱
۲- تفسير كُنْ فَيَكُونُ ----- ۶۲۲
۳- كيف يوجد الشىء من العدم؟ ----- ۶۲۲
اشارة ----- ۶۲۲
الجواب ----- ۶۲۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۸ الى ۱۱۹] ----- ۶۲۳
اشارة ----- ۶۲۳
التّفسير ----- ۶۲۳
حجج اخرى ----- ۶۲۳

بحثان ----- ۶۲۴
۱- تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ----- ۶۲۴
۲- أصلان تربويان ----- ۶۲۴
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۱] ----- ۶۲۵
اشارة ----- ۶۲۵
أسباب النّزول ----- ۶۲۵
التّفسير ----- ۶۲۶
إرضاء هذه المجموعة محال ----- ۶۲۶
بحوث ----- ۶۲۶
۱- سؤال عن عصمة الأنبياء ----- ۶۲۶
۲- للاسترضاء حدود ----- ۶۲۷
۳- إنّ هدى اللّه هو الهدى ----- ۶۲۷
۴- حق التلاوة ----- ۶۲۷
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳] ----- ۶۲۸
اشارة ----- ۶۲۸
التّفسير ----- ۶۲۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۴] ----- ۶۲۸
اشارة ----- ۶۲۸
التّفسير ----- ۶۲۸
الإمامة قمة مفاخر إبراهيم عليه السّلام ----- ۶۲۸
بحوث ----- ۶۲۹
۱- المقصود من «الكلمات» ----- ۶۲۹
۲- من هو الإمام؟ ----- ۶۳۰
۳- الفرق بين النّبوة و الإمامة و الرسالة ----- ۶۳۱

۴- الإمامة آخر مراحل مسيرة إبراهيم التكاملية ----- ۶۳۱
۵- من الظّالم؟ ----- ۶۳۲
۶- تعيين الامام من قبل اللّه ----- ۶۳۲
۷- جواب عن سؤالين ----- ۶۳۳
۸- شخصية إبراهيم المثالية ----- ۶۳۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۵] ----- ۶۳۴
اشارة ----- ۶۳۴
التّفسير ----- ۶۳۴
عظمة بيت اللّه ----- ۶۳۴
بحثان ----- ۶۳۵
۱- الآثار الاجتماعية و التّربوية للبيت الآمن: ----- ۶۳۵
۲- بيت اللّه ----- ۶۳۵
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۶] ----- ۶۳۵
اشارة ----- ۶۳۵
التّفسير ----- ۶۳۵
إبراهيم يدعو ربّه ----- ۶۳۶
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۷ الى ۱۲۹] ----- ۶۳۶
اشارة ----- ۶۳۶
التّفسير ----- ۶۳۶
إبراهيم يبنى الكعبة ----- ۶۳۶
بحثان ----- ۶۳۷
۱- هدف بعثة الأنبياء ----- ۶۳۷
۲- «التعليم» مقدم أو «التربية»؟ ----- ۶۳۸
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۲] ----- ۶۳۸

اشارة ----- ۶۳۸
التّفسير ----- ۶۳۸
إبراهيم الإنسان النّموذج ----- ۶۳۸
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۴] ----- ۶۳۹
اشارة ----- ۶۴۰
سبب النّزول ----- ۶۴۰
التّفسير ----- ۶۴۰
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۵ الى ۱۳۷] ----- ۶۴۰
اشارة ----- ۶۴۱
سبب النّزول ----- ۶۴۱
التّفسير ----- ۶۴۱
نحن على حقّ لا غيرنا! ----- ۶۴۱
بحوث ----- ۶۴۲
۱- وحدة دعوة الأنبياء ----- ۶۴۲
۲- من هم الأسباط؟ ----- ۶۴۲
۳- الحنيف ----- ۶۴۳
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۱] ----- ۶۴۳
اشارة ----- ۶۴۳
التّفسير ----- ۶۴۳
التّخلّى عن غير صبغة اللّه: ----- ۶۴۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۲] ----- ۶۴۵
اشارة ----- ۶۴۵
التّفسير ----- ۶۴۵
تغيير القبلة ----- ۶۴۵

بحوث ----- ۶۴۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۳] ----- ۶۴۶
اشارة ----- ۶۴۶
التّفسير ----- ۶۴۶
الأمّة الوسط ----- ۶۴۶
بحوث ----- ۶۴۷
۱- أسرار تغيير القبلة ----- ۶۴۷
۲- الأمّة الوسط ----- ۶۴۸
۳- الامّة الشاهدة ----- ۶۴۹
۴- علم اللّه ----- ۶۴۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۴] ----- ۶۴۹
اشارة ----- ۶۴۹
التّفسير ----- ۶۵۰
كل الوجوه شطر الكعبة ----- ۶۵۰
بحوث ----- ۶۵۰
۱- نظم الآيات ----- ۶۵۰
۲- انتظار صعب! ----- ۶۵۱
۳- معنى الشطر ----- ۶۵۱
۴- خطاب عام ----- ۶۵۱
۵- هل الهدف من هذا التغيير تحقيق رضى النّبى؟ ----- ۶۵۱
۶- الكعبة مركز دائرة كبرى ----- ۶۵۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۵] ----- ۶۵۲
اشارة ----- ۶۵۲
التّفسير ----- ۶۵۲

لا يرضون بأىّ ثمن ----- ۶۵۲
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷] ----- ۶۵۳
اشارة ----- ۶۵۳
التّفسير ----- ۶۵۳
يعرفون حقّ المعرفة و لكن ... ----- ۶۵۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۸] ----- ۶۵۴
اشارة ----- ۶۵۴
التّفسير ----- ۶۵۴
لكلّ أمّة قبلة ----- ۶۵۴
بحثان ----- ۶۵۵
۱- يوم يجتمع أصحاب المهدى عليه السّلام ----- ۶۵۵
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۴۹ الى ۱۵۰] ----- ۶۵۵
اشارة ----- ۶۵۵
التّفسير ----- ۶۵۵
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۲] ----- ۶۵۷
اشارة ----- ۶۵۷
التّفسير ----- ۶۵۷
مهمّة رسول اللّه: ----- ۶۵۷
بحثان ----- ۶۵۸
۱- أقوال المفسرين فى تفسير فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ----- ۶۵۸
۲- المقصود من ذكر اللّه ----- ۶۵۹
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۴] ----- ۶۵۹
اشارة ----- ۶۶۰
سبب النّزول ----- ۶۶۰

التّفسير ----- ۶۶۰
الشّهداء أحياء ----- ۶۶۰
بحوث ----- ۶۶۱
۱- خلود الشّهداء ----- ۶۶۱
۲- الشّهادة سعادة فی الإسلام ----- ۶۶۲
۳- الحياة البرزخية و بقاء الروح ----- ۶۶۲
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۵ الی ۱۵۷] ----- ۶۶۲
اشارة ----- ۶۶۲
التّفسير ----- ۶۶۳
الدّنيا دار اختبار إلهی ----- ۶۶۳
بحوث ----- ۶۶۳
۱- لماذا الاختبار الإلهی؟ ----- ۶۶۳
۲- الاختبار الإلهی عام ----- ۶۶۴
۳- طرق الاختبار ----- ۶۶۴
۴- عوامل النجاح فی الامتحان ----- ۶۶۵
۵- الاختبار بالخير و الشرّ ----- ۶۶۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۵۸] ----- ۶۶۷
اشارة ----- ۶۶۷
النّزول ----- ۶۶۷
التّفسير ----- ۶۶۷
أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر ----- ۶۶۸
بحوث ----- ۶۶۸
۱- الصفا و المروة ----- ۶۶۸
۲- من أسرار السعی بين الصفا و المروة ----- ۶۶۸

۳- جواب على سؤال ----- ۶۷۰
۴- معنى التطوع ----- ۶۷۰
۵- شكر اللّه ----- ۶۷۱
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰] ----- ۶۷۱
اشارة ----- ۶۷۱
سبب النّزول ----- ۶۷۱
التّفسير ----- ۶۷۱
حرمة كتمان الحق ----- ۶۷۱
بحوث ----- ۶۷۲
۱- مفاسد كتمان الحق ----- ۶۷۲
۲- كتمان الحق فى الأحاديث ----- ۶۷۳
۳- معنى اللعن ----- ۶۷۳
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۳] ----- ۶۷۴
اشارة ----- ۶۷۴
التّفسير ----- ۶۷۴
الّذين ماتوا و هم كفّار ----- ۶۷۴
بحوث ----- ۶۷۴
۱- يوضح القرآن فى مواضع متعدّدة ----- ۶۷۴
۲- الآية الثالثة فى بحثنا هذا تبين أحدية اللّه بشكل ينفى كل شرك و انحراف. ----- ۶۷۵
۳- ألا يكفى لعن اللّه؟! ----- ۶۷۵
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۶۴] ----- ۶۷۵
اشارة ----- ۶۷۵
التّفسير ----- ۶۷۵
مظاهر عظمة اللّه فى الكون ----- ۶۷۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۵ الى ۱۶۷] ۶۷۷
اشارة ۶۷۸
التّفسير ۶۷۸
أئمّة الكفر يتبرّءون من أتباعهم! ۶۷۸
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۸ الى ۱۶۹] ۶۷۹
اشارة ۶۷۹
سبب النّزول ۶۷۹
التّفسير ۶۷۹
خطوات الشيطان! ۶۷۹
بحوث ۶۸۰
۱- أصل الحليّة: ۶۸۰
۲- الانحرافات التدريجية ۶۸۱
۳- الشّيطان عدوّ قديم ۶۸۱
۴- طريقة الوسوسة الشّيطانية ۶۸۱
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۰ الى ۱۷۱] ۶۸۲
اشارة ۶۸۲
التّفسير ۶۸۲
التّقليد الأعمى ۶۸۲
بحثان ۶۸۳
۱- سبل المعرفة ۶۸۳
۲- نعق الغراب: ۶۸۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۳] ۶۸۴
اشارة ۶۸۴
التّفسير ۶۸۴

الطّيبات و الخبائث ۶۸۴
بحوث ۶۸۵
۱- فلسفة تحريم اللحوم المحرمة: ۶۸۶
۲- التكرار و التأكيد ۶۸۷
۳- حقن الدم ۶۸۷
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۴ الى ۱۷۶] ۶۸۸
اشارة ۶۸۸
سبب النّزول ۶۸۸
التّفسير ۶۸۸
إدانة كتمان الحقّ مرّة اخرى ۶۸۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۷۷] ۶۸۹
اشارة ۶۸۹
النّزول ۶۹۰
التّفسير ۶۹۰
أساس البرّ ۶۹۰
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۸ الى ۱۷۹] ۶۹۱
اشارة ۶۹۱
سبب النّزول ۶۹۲
التّفسير ۶۹۲
فى القصاص حياة ۶۹۲
بحوث ۶۹۳
۱- القصاص و العفو تركيب عادل ۶۹۳
۲- هل يتعارض القصاص مع العقل و العواطف الإنسانية؟ ۶۹۴
اشارة ۶۹۴

الجواب ۶۹۴
۳- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟ ۶۹۵
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۸۰ الى ۱۸۲] ۶۹۶
اشارة ۶۹۶
التّفسير ۶۹۶
الوصية بالمعروف ۶۹۶
بحوث ۶۹۸
۱- فلسفة الوصية ۶۹۸
۲- العدالة فى الوصية ۶۹۸
۳- الوصايا الواجبة و المستحبة ۶۹۹
۴- الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة ۶۹۹
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۸۳ الى ۱۸۵] ۶۹۹
اشارة ۶۹۹
التّفسير ۶۹۹
الصوم مدرسة التّقوى ۶۹۹
بحوث ۷۰۱
۱- الآثار التّربوية و الاجتماعية و الصحّيّة للصوم ۷۰۱
الآثار الصحية للصوم ۷۰۲
۲- الصوم فى الأمم السابقة ۷۰۳
۳- امتياز شهر رمضان ۷۰۴
۴- قاعدة «لا حرج» ۷۰۴
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۶] ۷۰۵
اشارة ۷۰۵
سبب النّزول ۷۰۵

التّفسير ----- ۷۰۵
بحوث ----- ۷۰۵
۱- فلسفة الدعاء ----- ۷۰۶
۲- المفهوم الحقيقى للدعاء ----- ۷۰۷
۳- شروط استجابة الدعاء ----- ۷۰۷
الآيتان [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۷] ----- ۷۰۹
اشارة ----- ۷۰۹
سبب النّزول ----- ۷۰۹
التّفسير ----- ۷۰۹
رخصة فى أحكام الصّوم ----- ۷۰۹
بحوث ----- ۷۱۰
۱- الحدود الإلهية: ----- ۷۱۰
۲- الاعتكاف: ----- ۷۱۱
۳- طلوع الفجر: ----- ۷۱۱
الجزء الثانى ----- ۷۳۰
[تتمة سورة البقرة] ----- ۷۳۰
الآيات [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۸] ----- ۷۳۰
اشارة ----- ۷۳۰
التّفسير ----- ۷۳۱
المبادئ الأوليّة للاقتصاد الإسلامى: ----- ۷۳۱
بحث ----- ۷۳۲
وباء الرشوة: ----- ۷۳۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۹] ----- ۷۳۳
اشارة ----- ۷۳۳

سبب النّزول ----- ۷۳۳
التّفسير ----- ۷۳۳
التقويم الطبيعى: ----- ۷۳۳
بحوث ----- ۷۳۵
۱- أسئلة مختلفة من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم ----- ۷۳۵
۲- التقويم و نظام الحياة ----- ۷۳۶
الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۹۰ الى ۱۹۳] ----- ۷۳۶
اشارة ----- ۷۳۶
سبب النّزول ----- ۷۳۷
التّفسير ----- ۷۳۷
بحوث ----- ۷۴۰
۱- مسألة الجهاد فى الإسلام ----- ۷۴۰
۲- أهداف الجهاد فى الإسلام ----- ۷۴۱
۳- لماذا شرّع الجهاد فى المدينة ----- ۷۴۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۴] ----- ۷۴۳
اشارة ----- ۷۴۳
التّفسير ----- ۷۴۳
احترام الأشهر الحرم و المقابلة بالمثل: ----- ۷۴۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۵] ----- ۷۴۴
اشارة ----- ۷۴۴
التّفسير ----- ۷۴۴
الإنفاق و الخلاص من المازق: ----- ۷۴۴
بحوث ----- ۷۴۵
۱- الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع ----- ۷۴۵

۲- سوء الاستفادة من مضمون الآية ۷۴۶
۳- ما هو المنظور من الإحسان ۷۴۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۶] ۷۴۶
اشارة ۷۴۷
التّفسير ۷۴۷
بعض أحكام الحجّ المهمّة: ۷۴۷
بحوث ۷۴۹
۱- أهميّة الحجّ بين الواجبات الإسلاميّة ۷۴۹
۲- أقسام الحجّ و بيان أعمال حجّ التمتّع ۷۵۰
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۹۷ الى ۱۹۹] ۷۵۱
اشارة ۷۵۱
التّفسير ۷۵۱
خير الزّاد و المتاع: ۷۵۱
بحوث ۷۵۴
۱- أول موقف للحجيج ۷۵۴
۲- المشعر الحرام- الموقف الثانى للحجيج ۷۵۴
۳- درس الوحدة و الاتحاد ۷۵۵
۴- ارتباط الآيات ۷۵۵
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۰ الى ۲۰۲] ۷۵۶
اشارة ۷۵۶
سبب النّزول ۷۵۶
التّفسير ۷۵۶
الحجّ رمز وحدة المسلمين: ۷۵۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۰۳] ۷۵۸

اشارة ----- ۷۵۸
التّفسير ----- ۷۵۸
آخر كلام عن الحجّ: ----- ۷۵۸
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۴ الى ۲۰۶] ----- ۷۵۹
اشارة ----- ۷۵۹
سبب النّزول ----- ۷۶۰
التّفسير ----- ۷۶۰
مصير المفسدين فى الأرض: ----- ۷۶۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۰۷] ----- ۷۶۱
اشارة ----- ۷۶۱
سبب النّزول ----- ۷۶۱
التّفسير ----- ۷۶۲
اشارة ----- ۷۶۲
التضحيّة الكبرى فى دولة الهجرة التاريخيّة: ----- ۷۶۲
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۸ الى ۲۰۹] ----- ۷۶۳
اشارة ----- ۷۶۳
التّفسير ----- ۷۶۳
السّلام العالمى فى ظلّ الإسلام: ----- ۷۶۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۰] ----- ۷۶۴
اشارة ----- ۷۶۵
التّفسير ----- ۷۶۵
توقّع غير معقول: ----- ۷۶۵
بحث ----- ۷۶۶
استحالة رؤية اللّه: ----- ۷۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۱] ۷۶۶
اشارة ۷۶۶
التّفسير ۷۶۷
تبديل نعمة اللّه بالعذاب الأليم: ۷۶۷
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۲] ۷۶۷
اشارة ۷۶۷
سبب النّزول ۷۶۷
التّفسير ۷۶۸
الكافرون عبيد الدّنيا: ۷۶۸
ملاحظة ۷۶۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۳] ۷۶۸
اشارة ۷۶۸
التّفسير ۷۶۹
طريق الوصول إلى الوحدة: ۷۶۹
بحوث ۷۷۰
۱- الدين و المجتمع ۷۷۰
۲- بداية التشريع ۷۷۰
۳- الشرق الأوسط مهد الأديان الكبرى ۷۷۰
۴- حلّ الاختلافات من أهم أهداف الدّين ۷۷۱
۵- الدّليل على عصمة الأنبياء ۷۷۱
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۴] ۷۷۱
اشارة ۷۷۱
سبب النّزول ۷۷۲
التّفسير ۷۷۲

الصعاب و المشاقّ سنّة إلهية: ----- ۷۷۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۵] ----- ۷۷۳
اشارة ----- ۷۷۳
سبب النّزول ----- ۷۷۳
التّفسير ----- ۷۷۴
بحث ----- ۷۷۴
التجانس فی السؤال و الجواب: ----- ۷۷۴
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۶] ----- ۷۷۴
اشارة ----- ۷۷۵
التّفسير ----- ۷۷۵
التضحية بالنفس و المال: ----- ۷۷۵
بحوث ----- ۷۷۵
۱- لماذا كان الجهاد مكروها ----- ۷۷۶
۲- القانون الكلّی ----- ۷۷۶
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱۷ الی ۲۱۸] ----- ۷۷۶
اشارة ----- ۷۷۶
سبب النّزول ----- ۷۷۶
التّفسير ----- ۷۷۷
القتال فی الأشهر الحرم: ----- ۷۷۷
بحث ----- ۷۷۸
الإحباط و التكفير: ----- ۷۷۸
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱۹ الی ۲۲۰] ----- ۷۷۹
اشارة ----- ۷۷۹
سبب النّزول ----- ۷۷۹

التّفسير ----- ۷۷۹
الجواب على أربعة أسئلة: ----- ۷۷۹
بحوث ----- ۷۸۲
۱- الترابط ببين الأحكام الأربعة ----- ۷۸۲
۲- أضرار المشروبات الكحولية ----- ۷۸۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۱] ----- ۷۸۵
اشارة ----- ۷۸۵
سبب النّزول ----- ۷۸۵
التّفسير ----- ۷۸۵
حرمة الزواج مع المشركين: ----- ۷۸۵
بحوث ----- ۷۸۶
۱- الحكمة فى تحريم نكاح المشركين ----- ۷۸۶
۲- حقيقة المشركين ----- ۷۸۶
۳- هل نسخت هذه الآية؟ ----- ۷۸۷
۴- تشكيل العائلة و الدّقّة فى الأمر ----- ۷۸۷
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۲ الى ۲۲۳] ----- ۷۸۷
اشارة ----- ۷۸۷
سبب النّزول ----- ۷۸۸
التّفسير ----- ۷۸۸
أحكام النساء فى العادة الشهريّة: ----- ۷۸۸
بحوث ----- ۷۹۰
۱- الحكم الإسلامى العادل فى مسألة الحيض ----- ۷۹۰
۲- اقتران الطهارة بالتوبة ----- ۷۹۰
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۴ الى ۲۲۵] ----- ۷۹۱

اشارة ----- ۷۹۱
سبب النّزول ----- ۷۹۱
التّفسير ----- ۷۹۱
لا ينبغى القسم حتّى الإمكان: ----- ۷۹۱
الأيمان غير المعتبرة: ----- ۷۹۲
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۶ الى ۲۲۷] ----- ۷۹۲
اشارة ----- ۷۹۳
التّفسير ----- ۷۹۳
القضاء على تقليد جاهلى: ----- ۷۹۳
بحوث ----- ۷۹۳
۱- الإيلاء حكم استثنائى ----- ۷۹۳
۲- الإيلاء فى حكم الإسلام و الغرب ----- ۷۹۴
۳- الصّفات الإلهيّة فى ختام كلّ آية ----- ۷۹۴
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۸] ----- ۷۹۴
اشارة ----- ۷۹۴
التّفسير ----- ۷۹۴
حريم الزّواج أو العدّة: ----- ۷۹۴
بحوث ----- ۷۹۷
۱- العدّة وسيلة للعودة و الصّلح ----- ۷۹۷
۲- العدّة وسيلة لحفظ النّسل ----- ۷۹۷
۳- تلازم الحقّ و الوظيفة ----- ۷۹۸
۴- قصّة المرأة فى التّاريخ و حقوقها المهدورة ----- ۷۹۸
۵- المرحلة الجديدة فى حياة المرأة ----- ۷۹۹
۶- المفهوم الصحيح للمساواة ----- ۸۰۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۹] ---- ۸۰۰
اشارة ---- ۸۰۰
سبب النّزول ---- ۸۰۰
التّفسير ---- ۸۰۱
إمّا الحياة الزوجيّة أو الطّلاق بالمعروف: ---- ۸۰۱
مسائل مهمة ---- ۸۰۲
۱- لزوم تعدّد مجالس الطّلاق ---- ۸۰۲
۲- شيخ الأزهر يأخذ برأى الشيعة ---- ۸۰۲
۳- الحدود الإلهيّة ---- ۸۰۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۰] ---- ۸۰۳
اشارة ---- ۸۰۳
سبب النّزول ---- ۸۰۳
التّفسير ---- ۸۰۳
بحث ---- ۸۰۴
المحلّل مانع من تكرّر الطّلاق: ---- ۸۰۴
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۱] ---- ۸۰۵
اشارة ---- ۸۰۵
التّفسير ---- ۸۰۵
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۲] ---- ۸۰۶
اشارة ---- ۸۰۶
سبب النّزول ---- ۸۰۶
التّفسير ---- ۸۰۷
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۳] ---- ۸۰۸
اشارة ---- ۸۰۸

التّفسير ----- ۸۰۸
أحكام الرّضاع السّبعة: ----- ۸۰۸
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۴ الى ۲۳۵] ----- ۸۱۰
اشارة ----- ۸۱۰
التّفسير ----- ۸۱۱
خرافات تبعث على تعاسة المرأة: ----- ۸۱۱
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۶ الى ۲۳۷] ----- ۸۱۳
اشارة ----- ۸۱۳
التّفسير ----- ۸۱۳
كيفيّة أداء المهر: ----- ۸۱۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۸ الى ۲۳۹] ----- ۸۱۵
اشارة ----- ۸۱۵
سبب النّزول ----- ۸۱۵
التّفسير ----- ۸۱۶
أهميّة الصّلاة و خاصّة الوسطى: ----- ۸۱۶
بحث ----- ۸۱۷
دور الصلاة فى تقوية المعنويّات: ----- ۸۱۷
الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۰ الى ۲۴۲] ----- ۸۱۸
اشارة ----- ۸۱۸
التّفسير ----- ۸۱۸
قسم آخر من أحكام الطّلاق: ----- ۸۱۸
مسألة: هل نسخت هذه الآية؟ ----- ۸۱۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۴۳] ----- ۸۲۰
اشارة ----- ۸۲۱

سبب النّزول ----- ۸۲۱
التّفسير ----- ۸۲۱
كيف ماتوا و كيف عادوا إلى الحياة؟! ----- ۸۲۱
بحوث ----- ۸۲۲
هنا ينبغى أن نشير إلى بعض النقاط: ----- ۸۲۲
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۴ الى ۲۴۵] ----- ۸۲۳
اشارة ----- ۸۲۳
سبب النّزول ----- ۸۲۳
التّفسير ----- ۸۲۳
الجهاد بالنّفس و المال: ----- ۸۲۳
بحث ----- ۸۲۴
لماذا ورد التعبير بالقرض؟ ----- ۸۲۴
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۶ الى ۲۵۲] ----- ۸۲۵
اشارة ----- ۸۲۵
حادثة ذات عبرة: ----- ۸۲۵
من هو طالوت؟ ----- ۸۲۶
طالوت فى الحكم ----- ۸۲۶
اشارة ----- ۸۲۷
التّفسير ----- ۸۲۷
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۳] ----- ۸۳۳
اشارة ----- ۸۳۳
التّفسير ----- ۸۳۳
دور الأنبياء فى حياة البشر: ----- ۸۳۳
مسألة: هل الأديان تسبّب الاختلافات؟ ----- ۸۳۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۴] ۸۳۶
اشارة ۸۳۶
التّفسير ۸۳۶
الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة: ۸۳۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۵] ۸۳۷
اشارة ۸۳۷
آية الكرسى من أهم آيات القرآن: ۸۳۷
التّفسير ۸۳۸
مجموعة من صفات الجمال و الجلال: ۸۳۸
و لكن ما مفهوم «اللّه حيّ»؟ ۸۳۸
مالكية اللّه المطلقة ۸۳۹
بحث ۸۴۰
الشفاعة ليست محسوبية: ۸۴۰
بحوث ۸۴۲
الأوّل: المراد من العرش و الكرسيّ ۸۴۲
الثّاني: هل أنّ آية الكرسيّ هى هذه الآية فحسب؟ ۸۴۴
الثّالث: الدليل على أهميّة آية الكرسيّ. ۸۴۴
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۶] ۸۴۵
اشارة ۸۴۵
سبب النّزول ۸۴۵
التّفسير ۸۴۵
الدين ليس إجباريّا: ۸۴۵
بحث ۸۴۶
الدين لا يفرض: ۸۴۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۷] ۸۴۷
اشارة ۸۴۸
التّفسير ۸۴۸
نور الإيمان و ظلمات الكفر: ۸۴۸
ملاحظات ۸۴۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۸] ۸۴۹
اشارة ۸۴۹
التّفسير ۸۴۹
محاجة إبراهيم مع طاغوت زمانه: ۸۴۹
ملاحظات ۸۵۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۹] ۸۵۱
اشارة ۸۵۱
التّفسير ۸۵۲
قصة «عزير» العجيبة: ۸۵۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۰] ۸۵۴
اشارة ۸۵۴
التّفسير ۸۵۴
تجلّى آخر للمعاد فى هذه الدنيا: ۸۵۴
بحوث ۸۵۶
۱- الحادثة الخارقة للعادة ۸۵۶
۲- أربع طيور مختلفة ۸۵۷
۳- عدد الجبال ۸۵۷
۴- متى وقعت هذه الحادثة؟ ۸۵۷
۵- المعاد الجسمانى ۸۵۷

۶- شبهة الأكل و المأكول ----- ۸۵۸
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۱] ----- ۸۵۹
اشارة ----- ۸۵۹
التّفسير ----- ۸۵۹
الإنفاق و ترشيد الشخصيّة: ----- ۸۶۰
بحث ----- ۸۶۱
الإنفاق و مشكلة الفوارق الطبقيّة: ----- ۸۶۱
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۲] ----- ۸۶۲
اشارة ----- ۸۶۲
التّفسير ----- ۸۶۲
الإنفاق المقبول: ----- ۸۶۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۳] ----- ۸۶۳
اشارة ----- ۸۶۳
التّفسير ----- ۸۶۳
الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة مع المنّة: ----- ۸۶۳
بحوث ----- ۸۶۳
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۶۴ الى ۲۶۵] ----- ۸۶۴
اشارة ----- ۸۶۵
التّفسير ----- ۸۶۵
دوافع الإنفاق و نتائجه: ----- ۸۶۵
مثال رائع آخر ----- ۸۶۵
بحوث ----- ۸۶۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۶] ----- ۸۶۶
اشارة ----- ۸۶۶

التّفسير ----- ۸۶۶
مثال آخر للإنفاق الملوث بالرياء و المنّة: ----- ۸۶۶
بحوث ----- ۸۶۷
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۷] ----- ۸۶۷
اشارة ----- ۸۶۸
سبب النّزول ----- ۸۶۸
التّفسير ----- ۸۶۸
الأموال التى يمكن إنفاقها: ----- ۸۶۸
ملاحظة ----- ۸۶۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۸] ----- ۸۶۹
اشارة ----- ۸۶۹
التّفسير ----- ۸۶۹
مكافحة موانع الإنفاق: ----- ۸۷۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۹] ----- ۸۷۱
اشارة ----- ۸۷۱
التّفسير ----- ۸۷۱
أفضل النعم الإلهيّة: ----- ۸۷۱
الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۰ الى ۲۷۱] ----- ۸۷۲
اشارة ----- ۸۷۲
التّفسير ----- ۸۷۲
كيفيّة الإنفاق: ----- ۸۷۲
بحوث ----- ۸۷۳
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۲] ----- ۸۷۴
اشارة ----- ۸۷۴

سبب النّزول ----- ۸۷۴
التّفسير ----- ۸۷۴
الإنفاق على غير المسلمين: ----- ۸۷۵
بحوث ----- ۸۷۵
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۳] ----- ۸۷۷
اشارة ----- ۸۷۷
سبب النّزول ----- ۸۷۷
التّفسير ----- ۸۷۸
خير مواضع الإنفاق: ----- ۸۷۸
بحث ----- ۸۷۹
الاستجداء بدون حاجة حرام: ----- ۸۷۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۴] ----- ۸۷۹
اشارة ----- ۸۷۹
سبب النّزول ----- ۸۷۹
التّفسير ----- ۸۷۹
الإنفاق محمود بكلّ أشكاله: ----- ۸۷۹
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۵ الى ۲۷۷] ----- ۸۸۰
اشارة ----- ۸۸۰
التّفسير ----- ۸۸۰
الربا فى القرآن: ----- ۸۸۰
منطق المرابين: ----- ۸۸۲
الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۸ الى ۲۸۱] ----- ۸۸۴
اشارة ----- ۸۸۴
سبب النّزول ----- ۸۸۴

التّفسير ----- ۸۸۴
اشارة ----- ۸۸۴
أضرار الربا ----- ۸۸۶
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۲] ----- ۸۸۷
اشارة ----- ۸۸۷
التّفسير ----- ۸۸۷
تدوين الأوراق التجارية: ----- ۸۸۷
بحوث ----- ۸۸۹
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۳] ----- ۸۹۰
اشارة ----- ۸۹۰
التّفسير ----- ۸۹۰
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۴] ----- ۸۹۱
اشارة ----- ۸۹۱
التّفسير ----- ۸۹۱
مالک کلّ شیء: ----- ۸۹۱
ملاحظتان ----- ۸۹۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۵] ----- ۸۹۲
اشارة ----- ۸۹۲
التّفسير ----- ۸۹۲
علائم الإيمان و طريقه: ----- ۸۹۲
الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۶] ----- ۸۹۳
اشارة ----- ۸۹۳
التّفسير ----- ۸۹۴
عدّة حاجات مهمّة: ----- ۸۹۴

العقاب على النسيان و الخطأ: ۸۹۴
سورة آل عمران ۸۹۶
اشارة ۸۹۶
فضيلة تلاوة هذه السورة: ۸۹۶
محتوى السورة: ۸۹۶
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱ الى ۴] ۸۹۷
اشارة ۸۹۷
سبب النّزول ۸۹۷
التّفسير ۸۹۸
تفسير الحروف المقطّعة بالعقول الإلكترونية: ۸۹۸
۱- لا بدّ من الإبقاء على إملاء القرآن الأصلى ۹۰۱
۲- دليل على عدم تحريف القرآن ۹۰۱
۳- إشارات عميقة المعنى ۹۰۱
نتيجة البحث ۹۰۱
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵ الى ۶] ۹۰۴
اشارة ۹۰۴
التّفسير ۹۰۴
علم اللّه و قدرته المطلقة: ۹۰۴
بحوث ۹۰۵
۱- مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق ۹۰۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷] ۹۰۵
اشارة ۹۰۶
سبب النّزول ۹۰۶
التّفسير ۹۰۶

المحكم و المتشابه فی القرآن: ۹۰۶
بحوث ۹۰۷
اشارة ۹۰۷
۱- ما المقصود بالآيات المحكمة و المتشابهة؟ ۹۰۷
۲- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟ ۹۰۸
۳- ما التأويل؟ ۹۰۹
۴- من هم الراسخون فی العلم؟ ۹۰۹
۵- الراسخون فی العلم يعرفون معنی المتشابهات ۹۱۰
۶- نتيجة الكلام فی تفسير الآية ۹۱۱
۷- وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ ۹۱۱
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸ الی ۹] ۹۱۲
اشارة ۹۱۲
التّفسير ۹۱۲
النجاة من الزيغ: ۹۱۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰ الی ۱۱] ۹۱۲
اشارة ۹۱۲
التّفسير ۹۱۲
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲] ۹۱۳
اشارة ۹۱۳
سبب النّزول ۹۱۳
التّفسير ۹۱۴
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۳] ۹۱۴
اشارة ۹۱۴
سبب النّزول ۹۱۴

التّفسير ----- ۹۱۵
معركة بدر و التأييد الإلهى: ----- ۹۱۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۴] ----- ۹۱۶
اشارة ----- ۹۱۶
التّفسير ----- ۹۱۶
جاذبية المتاع الدنيوى: ----- ۹۱۶
۱- من الذى جعل المادّيات زينة؟ ----- ۹۱۶
۲- ما هى «القناطير المقنطرة» و «الخيل المسوّمة»؟ ----- ۹۱۷
۳- ما هو المراد ب مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا؟ ----- ۹۱۷
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵ الى ۱۷] ----- ۹۱۸
اشارة ----- ۹۱۸
التّفسير ----- ۹۱۸
اشارة ----- ۹۱۸
هل فى الجنّة لذائذ مادّية أيضا؟ ----- ۹۱۸
بحوث ----- ۹۱۹
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸] ----- ۹۲۰
اشارة ----- ۹۲۰
التّفسير ----- ۹۲۰
الجميع يشهد بالوحدانية: ----- ۹۲۰
بحوث ----- ۹۲۰
۱- كيف يشهد اللّه على وحدانيّته؟ ----- ۹۲۰
۲- ما القيام بالقسط؟ ----- ۹۲۰
۳- أهمية العلماء ----- ۹۲۱
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹] ----- ۹۲۱

اشارة ----- ۹۲۱
التّفسير ----- ۹۲۲
روح الدين التسليم للحقّ: ----- ۹۲۲
ملاحظة ----- ۹۲۳
منشأ الاختلافات الدينية ----- ۹۲۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۰] ----- ۹۲۳
اشارة ----- ۹۲۳
التّفسير ----- ۹۲۳
بحوث ----- ۹۲۴
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ----- ۹۲۴
اشارة ----- ۹۲۴
التّفسير ----- ۹۲۴
علامات الطغيان: ----- ۹۲۵
بحوث ----- ۹۲۵
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ----- ۹۲۶
اشارة ----- ۹۲۶
سبب النّزول ----- ۹۲۶
التّفسير ----- ۹۲۷
اشارة ----- ۹۲۷
سؤالان ----- ۹۲۸
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۶ الى ۲۷] ----- ۹۲۸
اشارة ----- ۹۲۸
سبب النّزول ----- ۹۲۹
التّفسير ----- ۹۲۹

بيده كلّ شيء: ---- ۹۲۹
بحوث ---- ۹۳۱
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۸] ---- ۹۳۳
اشارة ---- ۹۳۳
التّفسير ---- ۹۳۳
العلاقة مع الأجنبى: ---- ۹۳۳
بحوث ---- ۹۳۴
۱- التقية أو الدرع الواقى ---- ۹۳۴
۲- التقية أو تغيير أسلوب النضال: ---- ۹۳۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۹] ---- ۹۳۵
اشارة ---- ۹۳۵
التّفسير ---- ۹۳۵
العالم بأسراركم: ---- ۹۳۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۳۰] ---- ۹۳۶
اشارة ---- ۹۳۶
التّفسير ---- ۹۳۶
حضور الأعمال يوم القيامة: ---- ۹۳۶
القرآن و تجسيد الأعمال و حضورها ---- ۹۳۷
رأى العلماء فى الثواب و العقاب ---- ۹۳۸
العلم و تجسيد الأعمال ---- ۹۳۸
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ---- ۹۳۹
اشارة ---- ۹۳۹
سبب النّزول ---- ۹۳۹
التّفسير ---- ۹۳۹

الحب الحقيقي: ----- ۹۳۹
الدين و الحبّ ----- ۹۴۰
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۳ الى ۳۴] ----- ۹۴۱
اشارة ----- ۹۴۱
التّفسير ----- ۹۴۱
اشارة ----- ۹۴۱
۱- امتياز الأنبياء: ----- ۹۴۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۵ الى ۳۶] ----- ۹۴۳
اشارة ----- ۹۴۳
التّفسير ----- ۹۴۳
كيفية ولادة مريم: ----- ۹۴۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۳۷] ----- ۹۴۵
اشارة ----- ۹۴۵
التّفسير ----- ۹۴۵
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۹۴۶
اشارة ----- ۹۴۶
التّفسير ----- ۹۴۷
بحوث ----- ۹۴۷
۱- هل العزوبة فضيلة؟ ----- ۹۴۷
۲- يحيى و عيسى ----- ۹۴۸
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۱] ----- ۹۴۹
اشارة ----- ۹۴۹
التّفسير ----- ۹۴۹
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۲ الى ۴۳] ----- ۹۵۰

اشارة ----- ۹۵۰
التّفسير ----- ۹۵۰
الانتخاب الإلهى لمريم: ----- ۹۵۰
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۴] ----- ۹۵۱
اشارة ----- ۹۵۱
التّفسير ----- ۹۵۱
كفالة مريم: ----- ۹۵۱
الاقتراع الحلّ الأخير: ----- ۹۵۲
الآية [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۵ الى ۴۶] ----- ۹۵۲
اشارة ----- ۹۵۲
التّفسير ----- ۹۵۲
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۷] ----- ۹۵۳
اشارة ----- ۹۵۴
التّفسير ----- ۹۵۴
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۸ الى ۴۹] ----- ۹۵۴
اشارة ----- ۹۵۴
التّفسير ----- ۹۵۴
بقية امتيازات المسيح عليه السّلام: ----- ۹۵۵
بحوث ----- ۹۵۶
۱- أ كانت معجزات المسيح عجيبة؟ ----- ۹۵۶
۲- الولاية التكوينية ----- ۹۵۶
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۰ الى ۵۱] ----- ۹۵۷
اشارة ----- ۹۵۷
التّفسير ----- ۹۵۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۲ الى ۵۴] ----- ۹۵۸
اشارة ----- ۹۵۸
التّفسير ----- ۹۵۸
استقامة الحواريين: ----- ۹۵۸
بحوث ----- ۹۵۹
۱- من هم الحواريون؟ ----- ۹۵۹
۲- الحواريّون فى القرآن و الإنجيل ----- ۹۵۹
۳- ما المراد بالمكر الإلهى ----- ۹۶۰
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۵۵] ----- ۹۶۰
اشارة ----- ۹۶۰
التّفسير ----- ۹۶۰
ملاحظة ----- ۹۶۱
هل الديانتان اليهودية و المسيحيّة باقيتان؟ ----- ۹۶۱
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸] ----- ۹۶۲
اشارة ----- ۹۶۲
التّفسير ----- ۹۶۲
عاقبة أنصار و أعداء المسيح عليه السّلام: ----- ۹۶۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۹ الى ۶۰] ----- ۹۶۳
اشارة ----- ۹۶۳
سبب النّزول ----- ۹۶۳
التّفسير ----- ۹۶۳
نفى الوهية المسيح: ----- ۹۶۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۱] ----- ۹۶۳
اشارة ----- ۹۶۴

سبب النّزول ----- ۹۶۴
التّفسير ----- ۹۶۴
فَمَنْ حَاجَّکَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ .... ----- ۹۶۴
بحوث ----- ۹۶۵
۱- المباهلة دليل قاطع على أحقية نبى الإسلام: ----- ۹۶۵
۲- أحد أدلة عظمة أهل البيت: ----- ۹۶۵
۳- اعتراض و جوابه: ----- ۹۶۷
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۶۲ الى ۶۳] ----- ۹۶۹
اشارة ----- ۹۶۹
التّفسير ----- ۹۶۹
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۴] ----- ۹۷۰
اشارة ----- ۹۷۰
التّفسير ----- ۹۷۰
الدعوة إلى الاتّحاد: ----- ۹۷۰
بحث ----- ۹۷۱
رسائل النبىّ إلى رؤساء العالم: ----- ۹۷۱
۱- رسالة إلى المقوقس ۳۶۱] ----- ۹۷۱
۲- رسالة إلى قيصر الروم ----- ۹۷۲
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۶۵ الى ۶۸] ----- ۹۷۴
اشارة ----- ۹۷۴
سبب النّزول ----- ۹۷۴
التّفسير ----- ۹۷۴
اشارة ----- ۹۷۴
كيف كان إبراهيم مسلما؟ ----- ۹۷۵

ملاحظة ----- ۹۷۶
الارتباط الدينى أوثق الروابط: ----- ۹۷۶
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۹] ----- ۹۷۶
اشارة ----- ۹۷۶
سبب النّزول ----- ۹۷۶
التّفسير ----- ۹۷۶
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۰ الى ۷۱] ----- ۹۷۷
اشارة ----- ۹۷۷
التّفسير ----- ۹۷۷
كتمان الحقّ لما ذا؟ ----- ۹۷۷
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۲ الى ۷۴] ----- ۹۷۸
اشارة ----- ۹۷۸
سبب النّزول ----- ۹۷۸
التّفسير ----- ۹۷۸
مؤامرة خطيرة: ----- ۹۷۸
خطط قديمة ----- ۹۷۹
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۵ الى ۷۶] ----- ۹۸۰
اشارة ----- ۹۸۰
سبب النّزول ----- ۹۸۰
التّفسير ----- ۹۸۰
بحث ----- ۹۸۱
۱- اعتراض: ----- ۹۸۱
الجواب: ----- ۹۸۲
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷۷] ----- ۹۸۲

اشارة ----- ۹۸۲
سبب النّزول ----- ۹۸۲
التّفسير ----- ۹۸۲
المحرفون للحقائق: ----- ۹۸۳
ملاحظة ----- ۹۸۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷۸] ----- ۹۸۳
اشارة ----- ۹۸۳
التّفسير ----- ۹۸۴
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۹ الى ۸۰] ----- ۹۸۴
اشارة ----- ۹۸۴
سبب النّزول ----- ۹۸۴
التّفسير ----- ۹۸۵
الدعوة إلى عبادة غير اللّه مستحيلة: ----- ۹۸۵
ملاحظة ----- ۹۸۶
منع عبادة البشر: ----- ۹۸۶
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۱ الى ۸۲] ----- ۹۸۶
اشارة ----- ۹۸۶
التّفسير ----- ۹۸۷
الميثاق المقدس: ----- ۹۸۷
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۳ الى ۸۵] ----- ۹۸۸
اشارة ----- ۹۸۹
التّفسير ----- ۹۸۹
الإسلام أفضل الأديان الإلهيّة: ----- ۹۸۹
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۶ الى ۸۹] ----- ۹۹۰

اشارة ----- ۹۹۱
سبب النّزول ----- ۹۹۱
التّفسير ----- ۹۹۱
اشارة ----- ۹۹۱
هل تقبل توبة المرتد؟ ----- ۹۹۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۰ الى ۹۱] ----- ۹۹۳
اشارة ----- ۹۹۳
سبب النّزول ----- ۹۹۳
التّفسير ----- ۹۹۳
التوبة الباطلة: ----- ۹۹۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۹۲] ----- ۹۹۴
اشارة ----- ۹۹۴
التّفسير ----- ۹۹۴
من علائم الإيمان: ----- ۹۹۴
ماذا يعنى «البر» فى الآية؟ ----- ۹۹۵
تأثير القرآن فى قلوب المسلمين: ----- ۹۹۵
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۳ الى ۹۵] ----- ۹۹۶
اشارة ----- ۹۹۶
سبب النّزول ----- ۹۹۶
التّفسير ----- ۹۹۷
اشارة ----- ۹۹۷
التوراة الرائجة و تحريم بعض اللحوم: ----- ۹۹۷
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۶ الى ۹۷] ----- ۹۹۸
اشارة ----- ۹۹۸

أول بيت وضع للناس: ۹۹۸
ما هو المراد من «بكّة»؟ ۹۹۹
بحث تاريخى ۹۹۹
توسيع المسجد الحرام: ۱۰۰۰
مزايا الكعبة و فضائلها: ۱۰۰۰
أهمية الحجّ ۱۰۰۳
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۸ الى ۱۰۱] ۱۰۰۳
اشارة ۱۰۰۳
سبب النّزول ۱۰۰۴
التّفسير ۱۰۰۴
مفرقو الصفوف و مثيرو الخلاف: ۱۰۰۴
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۳] ۱۰۰۶
اشارة ۱۰۰۶
سبب النّزول ۱۰۰۶
التّفسير ۱۰۰۷
الدعوة إلى التقوى: ۱۰۰۷
الدعوة إلى الاتحاد ۱۰۰۸
التعبير ب «حبل اللّه» لماذا؟ ۱۰۰۸
أعداء الأمس و إخوان اليوم: ۱۰۰۸
اعتراف العلماء و المؤرخين: ۱۰۰۹
دور الاتحاد فى بقاء الأمم ۱۰۱۰
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۵] ۱۰۱۱
اشارة ۱۰۱۱
التّفسير ۱۰۱۱

الدعوة إلى الحقّ و مكافحة الفساد: ۱۰۱۱
سؤال ۱۰۱۱
و الجواب: ۱۰۱۲
الفرقة بعد الاتحاد من شيم النصارى و اليهود: ۱۰۱۵
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷] ۱۰۱۷
اشارة ۱۰۱۷
التّفسير ۱۰۱۷
الوجوه المبيضة و الوجوه المسودة: ۱۰۱۷
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۸ الى ۱۰۹] ۱۰۱۸
اشارة ۱۰۱۸
التّفسير ۱۰۱۸
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۱۰] ۱۰۱۸
اشارة ۱۰۱۸
التّفسير ۱۰۱۹
مكافحة الفساد و الدعوة إلى الحقّ أيضا: ۱۰۱۹
وقفتان عند هذه الآية: ۱۰۱۹
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲] ۱۰۲۰
اشارة ۱۰۲۰
سبب النّزول ۱۰۲۰
التّفسير ۱۰۲۰
اشارة ۱۰۲۰
اليهود و المصير الخطير: ۱۰۲۱
اليهود و المسكنة الدائمة: ۱۰۲۲
مصير اليهود المظلم: ۱۰۲۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۵] ----- ۱۰۲۳
اشارة ----- ۱۰۲۳
سبب النّزول ----- ۱۰۲۳
التّفسير ----- ۱۰۲۳
الإسلام و خصيصة البحث عن الحقّ: ----- ۱۰۲۳
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷] ----- ۱۰۲۴
اشارة ----- ۱۰۲۴
التّفسير ----- ۱۰۲۴
اشارة ----- ۱۰۲۴
إنفاق الكفّار: ----- ۱۰۲۵
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۸ الى ۱۲۰] ----- ۱۰۲۶
اشارة ----- ۱۰۲۶
سبب النّزول ----- ۱۰۲۶
التّفسير ----- ۱۰۲۷
لا تتخذوا الأعداء بطانة: ----- ۱۰۲۷
البغض فى مقابل الحبّ: ----- ۱۰۲۸
تحذير إلى المسلمين: ----- ۱۰۲۸
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۲۱ الى ۱۲۲] ----- ۱۰۲۹
اشارة ----- ۱۰۲۹
التّفسير ----- ۱۰۲۹
اشارة ----- ۱۰۲۹
غزوة أحد ----- ۱۰۳۰
سبب هذه الغزوة: ----- ۱۰۳۰
العباس يرفع تقريرا إلى النبى: ----- ۱۰۳۰

النبی یشاور المسلمین ----- ۱۰۳۱
المسلمون یتهیئون للدفاع: ----- ۱۰۳۱
بدء القتال: ----- ۱۰۳۲
من الصائح: قتل محمّد؟ ----- ۱۰۳۳
الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۲۳ الی ۱۲۷] ----- ۱۰۳۴
اشارة ----- ۱۰۳۴
التّفسیر ----- ۱۰۳۴
المرحلة الخطیرة من الحرب: ----- ۱۰۳۴
الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۲۸] ----- ۱۰۳۵
اشارة ----- ۱۰۳۵
التّفسیر ----- ۱۰۳۵
اشارة ----- ۱۰۳۶
تصحیح خطأ: ----- ۱۰۳۶
الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۲۹] ----- ۱۰۳۷
اشارة ----- ۱۰۳۷
التّفسیر ----- ۱۰۳۷
الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۳۰ الی ۱۳۲] ----- ۱۰۳۸
اشارة ----- ۱۰۳۸
التّفسیر ----- ۱۰۳۸
حول الارتباط بین الآیات القرآنیة: ----- ۱۰۳۸
تحریم الرّبا فی مراحل: ----- ۱۰۳۹
التحریم فی الآیة الحاضرة: ----- ۱۰۳۹
الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۳۳ الی ۱۳۶] ----- ۱۰۴۰
اشارة ----- ۱۰۴۰

التّفسير ----- ۱۰۴۰
السباق فی مضمار السعادة: ----- ۱۰۴۰
و هنا سؤالان: ----- ۱۰۴۱
هل الجنة و النار موجودتان الآن؟ ----- ۱۰۴۱
أين تقع الجنة و النار؟ ----- ۱۰۴۲
سيماء المتقين: ----- ۱۰۴۳
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۸] ----- ۱۰۴۶
اشارة ----- ۱۰۴۶
التّفسير ----- ۱۰۴۶
النظر فی تاريخ الماضين و آثارهم: ----- ۱۰۴۶
السياحة و السير فی الأرض: ----- ۱۰۴۶
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۹ الى ۱۴۳] ----- ۱۰۴۸
اشارة ----- ۱۰۴۸
سبب النّزول ----- ۱۰۴۸
التّفسير ----- ۱۰۴۹
دراسة نتائج غزوة أحد: ----- ۱۰۴۹
الحوادث المرة ميدان تربية: ----- ۱۰۵۰
مزاعم جوفاء ----- ۱۰۵۱
دراسة سريعة لعلل الهزيمة فی «أحد»: ----- ۱۰۵۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۵] ----- ۱۰۵۲
اشارة ----- ۱۰۵۲
سبب النّزول ----- ۱۰۵۲
التّفسير ----- ۱۰۵۳
لا لعبادة الشخصية و تقديس الفرد: ----- ۱۰۵۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۸] ----- ۱۰۵۵
اشارة ----- ۱۰۵۵
التّفسير ----- ۱۰۵۵
المجاهدون السابقون: ----- ۱۰۵۵
وقفات اخرى عند هذه الآيات ----- ۱۰۵۶
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۹ الى ۱۵۱] ----- ۱۰۵۷
اشارة ----- ۱۰۵۷
التّفسير ----- ۱۰۵۷
تحذيرات مكررة: ----- ۱۰۵۷
الإنتصار بسبب خوف العدو: ----- ۱۰۵۸
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۲ الى ۱۵۴] ----- ۱۰۵۹
اشارة ----- ۱۰۵۹
التّفسير ----- ۱۰۵۹
الهزيمة بعد الإنتصار: ----- ۱۰۵۹
وساوس الجاهلية: ----- ۱۰۶۱
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۵۵] ----- ۱۰۶۲
اشارة ----- ۱۰۶۲
التّفسير ----- ۱۰۶۲
الذنب ينتج ذنبا آخر: ----- ۱۰۶۲
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۶ الى ۱۵۸] ----- ۱۰۶۳
اشارة ----- ۱۰۶۳
التّفسير ----- ۱۰۶۳
استغلال المنافقين: ----- ۱۰۶۳
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰] ----- ۱۰۶۵

اشارة ----- ۱۰۶۵
التّفسير ----- ۱۰۶۵
الأمر بالعفو العام: ----- ۱۰۶۵
الأمر بالمشاورة: ----- ۱۰۶۶
أهمية المشاورة فى نظر الإسلام: ----- ۱۰۶۷
مع من تشاور؟ ----- ۱۰۶۸
وظيفة المشير: ----- ۱۰۶۸
شورى عمر بن الخطاب ----- ۱۰۶۸
مرحلة القرار الأخير! ----- ۱۰۶۹
نتيجة التوكل و ثمرته: ----- ۱۰۷۰
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۱] ----- ۱۰۷۰
اشارة ----- ۱۰۷۱
التّفسير ----- ۱۰۷۱
الخيانة ممنوعة مطلقا: ----- ۱۰۷۱
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۲ الى ۱۶۳] ----- ۱۰۷۲
اشارة ----- ۱۰۷۲
التّفسير ----- ۱۰۷۲
المتخلفون عن الجهاد: ----- ۱۰۷۲
مع أسلوب تربوى قرآنى مؤثر ----- ۱۰۷۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۴] ----- ۱۰۷۳
اشارة ----- ۱۰۷۴
التّفسير ----- ۱۰۷۴
النعمة الإلهية الكبرى: ----- ۱۰۷۴
متى تعرف قيمة البعثة النبوية؟ ----- ۱۰۷۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۵] ۱۰۷۶
اشارة ۱۰۷۶
التّفسير ۱۰۷۶
دراسة أخرى لمعركة أحد: ۱۰۷۶
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۶ الى ۱۶۷] ۱۰۷۷
اشارة ۱۰۷۷
التّفسير ۱۰۷۷
لا بد أن تتميز الصفوف: ۱۰۷۷
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۸] ۱۰۷۸
اشارة ۱۰۷۸
التّفسير ۱۰۷۸
مزاعم المنافقين الباطلة: ۱۰۷۸
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۹ الى ۱۷۱] ۱۰۷۹
اشارة ۱۰۷۹
التّفسير ۱۰۷۹
الحياة الخالدة: ۱۰۷۹
أجر الشهداء ۱۰۸۱
الجزء الثالث ۱۱۰۰
[تتمة سورة آل عمران ۱۱۰۰
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴] ۱۱۰۰
اشارة ۱۱۰۰
التفسير ۱۱۰۰
غزوة حمراء الأسد: ۱۱۰۰
التّربية الإلهية و عطاؤها السّريع: ۱۱۰۲

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۵] ----- ۱۱۰۲
اشارة ----- ۱۱۰۲
التّفسير ----- ۱۱۰۲
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۷۶ الى ۱۷۷] ----- ۱۱۰۳
اشارة ----- ۱۱۰۳
التّفسير ----- ۱۱۰۳
تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ----- ۱۱۰۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۸] ----- ۱۱۰۴
اشارة ----- ۱۱۰۴
التّفسير ----- ۱۱۰۴
المثقلون بأوزارهم: ----- ۱۱۰۴
جواب على سؤال: ----- ۱۱۰۵
لفتة أدبية: ----- ۱۱۰۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۹] ----- ۱۱۰۶
اشارة ----- ۱۱۰۶
التّفسير ----- ۱۱۰۶
المسلمون فى بوتقة الاختبار و الفرز: ----- ۱۱۰۶
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۰] ----- ۱۱۰۷
اشارة ----- ۱۱۰۷
التّفسير ----- ۱۱۰۸
طوق الأسر الثّقيل: ----- ۱۱۰۸
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۱ الى ۱۸۲] ----- ۱۱۰۹
اشارة ----- ۱۱۰۹
سبب النّزول ----- ۱۱۰۹

التّفسير ----- ۱۱۰۹
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۳ الى ۱۸۴] ----- ۱۱۱۱
اشارة ----- ۱۱۱۱
سبب النّزول ----- ۱۱۱۱
التّفسير ----- ۱۱۱۱
مغالطات اليهود و تعللاتهم: ----- ۱۱۱۱
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۵] ----- ۱۱۱۲
اشارة ----- ۱۱۱۳
التّفسير ----- ۱۱۱۳
الموت و قانونه العام: ----- ۱۱۱۳
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۶] ----- ۱۱۱۴
اشارة ----- ۱۱۱۴
سبب النّزول ----- ۱۱۱۴
التّفسير ----- ۱۱۱۵
لا تتبعكم المقاومة: ----- ۱۱۱۵
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۷] ----- ۱۱۱۵
اشارة ----- ۱۱۱۵
التّفسير ----- ۱۱۱۵
العلماء و الوظيفة الكبرى: ----- ۱۱۱۶
الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۸ الى ۱۸۹] ----- ۱۱۱۷
اشارة ----- ۱۱۱۷
سبب النّزول ----- ۱۱۱۷
التّفسير ----- ۱۱۱۷
المعجبون بأنفسهم: ----- ۱۱۱۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۹۰ الى ۱۹۴] ---- ۱۱۱۸
اشارة ---- ۱۱۱۸
التّفسير ---- ۱۱۱۸
أهمية هذه الآيات: ---- ۱۱۱۸
التّفسير ---- ۱۱۱۹
أوضح السّبل لمعرفة اللّه: ---- ۱۱۱۹
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹۵] ---- ۱۱۲۲
اشارة ---- ۱۱۲۲
سبب النّزول ---- ۱۱۲۲
التّفسير ---- ۱۱۲۳
النّتيجة الطّيبة لموقف أولى الألباب: ---- ۱۱۲۳
القيّمة المعنويّة للرّجل و المرأة: ---- ۱۱۲۳
الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۹۶ الى ۱۹۸] ---- ۱۱۲۴
اشارة ---- ۱۱۲۴
سبب النّزول ---- ۱۱۲۵
التّفسير ---- ۱۱۲۵
سؤال مزعج: ---- ۱۱۲۵
معرفة نقاط الضّعف و القوّة معا: ---- ۱۱۲۶
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹۹] ---- ۱۱۲۷
اشارة ---- ۱۱۲۷
سبب النّزول ---- ۱۱۲۷
التّفسير ---- ۱۱۲۸
أهل الكتاب ليسوا سواء: ---- ۱۱۲۸
الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۰۰] ---- ۱۱۲۹

اشارة ----- ۱۱۲۹
التّفسير ----- ۱۱۲۹
سؤال: ----- ۱۱۳۰
الجواب: ----- ۱۱۳۰
سورة النّساء ----- ۱۱۳۱
اشارة ----- ۱۱۳۱
۱- موضع نزول هذه السورة ----- ۱۱۳۱
۲- محتويات هذه السورة: ----- ۱۱۳۲
۳- فضل تلاوة هذه السّورة ----- ۱۱۳۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱] ----- ۱۱۳۳
اشارة ----- ۱۱۳۳
التّفسير ----- ۱۱۳۳
مكافحة التّمييزات و الاستثناءات: ----- ۱۱۳۳
كيف كان زواج أبناء آدم؟: ----- ۱۱۳۴
الدّعوة إلى العناية بالرّحم: ----- ۱۱۳۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۲] ----- ۱۱۳۶
اشارة ----- ۱۱۳۶
سبب النّزول ----- ۱۱۳۶
التّفسير ----- ۱۱۳۶
لا ... للخيانة فى أموال اليتامى: ----- ۱۱۳۶
ما ذا يعنى الحوب؟: ----- ۱۱۳۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳] ----- ۱۱۳۷
اشارة ----- ۱۱۳۷
سبب النّزول ----- ۱۱۳۷

التّفسير ----- ۱۱۳۸
اشارة ----- ۱۱۳۸
«مثنى» و «ثلاث» و «رباع»: ----- ۱۱۳۸
ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟: ----- ۱۱۳۹
تعدد الزّوجات ضرورة اجتماعية: ----- ۱۱۴۰
سؤال ----- ۱۱۴۳
الجواب ----- ۱۱۴۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴] ----- ۱۱۴۳
اشارة ----- ۱۱۴۳
التّفسير ----- ۱۱۴۴
اشارة ----- ۱۱۴۴
الصّداق دعامة اجتماعية للمرأة: ----- ۱۱۴۴
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵ الى ۶] ----- ۱۱۴۵
اشارة ----- ۱۱۴۶
التّفسير ----- ۱۱۴۶
اشارة ----- ۱۱۴۶
من هو السّفيه؟: ----- ۱۱۴۶
أموالكم قوام لكم: ----- ۱۱۴۷
تعليمان فى شأن اليتامى: ----- ۱۱۴۸
تعليم آخر فى شأن اليتامى و أموالهم: ----- ۱۱۴۸
الآية [سورة النساء (۴): آية ۷] ----- ۱۱۴۹
اشارة ----- ۱۱۵۰
سبب النّزول ----- ۱۱۵۰
التّفسير ----- ۱۱۵۰

خطوة أخرى لحفظ حقوق المرأة: ۱۱۵۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸] ۱۱۵۱
اشارة ۱۱۵۱
التّفسير ۱۱۵۱
حكم أخلاقى: ۱۱۵۱
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹] ۱۱۵۲
اشارة ۱۱۵۲
التّفسير ۱۱۵۲
دعوة إلى العطف على اليتامى: ۱۱۵۲
إيضاح ضرورى: ۱۱۵۲
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰] ۱۱۵۳
اشارة ۱۱۵۳
التّفسير ۱۱۵۳
الوجه الحقيقى لأفعال البشر: ۱۱۵۳
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ۱۱۵۴
اشارة ۱۱۵۴
سبب النّزول ۱۱۵۵
الإرث حق طبيعى: ۱۱۵۵
الإرث فى الأمم السابقة: ۱۱۵۶
التّفسير ۱۱۵۷
اشارة ۱۱۵۷
و هاهنا سؤال: ۱۱۵۷
الجواب: ۱۱۵۷
لما ذا يرث الرّجل ضعف المرأة؟: ۱۱۵۸

إرث الأب و الأمّ: ---- ۱۱۵۹
سؤال: ---- ۱۱۵۹
الجواب: ---- ۱۱۵۹
الإرث بعد الوصية و الدّين: ---- ۱۱۶۰
سهم الأزواج بعضهم من بعض: ---- ۱۱۶۰
إرث أخوة الميت و أخواته: ---- ۱۱۶۱
عودة إلى تفسير الآية: ---- ۱۱۶۲
بحوث أخرى عند هذه الآية: ---- ۱۱۶۲
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳ الى ۱۴] ---- ۱۱۶۳
اشارة ---- ۱۱۶۳
التّفسير ---- ۱۱۶۳
اشارة ---- ۱۱۶۳
ميزات قانون الإرث الإسلامى: ---- ۱۱۶۴
ما هو العول، و ما هو التعصيب؟: ---- ۱۱۶۵
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵ الى ۱۶] ---- ۱۱۶۶
اشارة ---- ۱۱۶۶
التّفسير ---- ۱۱۶۶
اشارة ---- ۱۱۶۶
العقوبات الإسلامية السهل الممتنع: ---- ۱۱۶۸
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷ الى ۱۸] ---- ۱۱۶۹
اشارة ---- ۱۱۶۹
التّفسير ---- ۱۱۶۹
شرائط قبول التوبة: ---- ۱۱۶۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۹] ---- ۱۱۷۱

اشارة ----- ۱۱۷۲
سبب النّزول ----- ۱۱۷۲
التّفسير ----- ۱۱۷۲
الدفاع عن حقوق المرأة أيضا: ----- ۱۱۷۲
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۲۰ الى ۲۱] ----- ۱۱۷۳
اشارة ----- ۱۱۷۳
سبب النّزول ----- ۱۱۷۳
التّفسير ----- ۱۱۷۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۲] ----- ۱۱۷۵
اشارة ----- ۱۱۷۵
سبب النّزول ----- ۱۱۷۵
التّفسير ----- ۱۱۷۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۳] ----- ۱۱۷۶
اشارة ----- ۱۱۷۶
التّفسير ----- ۱۱۷۶
تحريم الزّواج بالمحارم: ----- ۱۱۷۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۴] ----- ۱۱۷۸
اشارة ----- ۱۱۷۹
التّفسير ----- ۱۱۷۹
اشارة ----- ۱۱۷۹
الزّواج المؤقت فى الإسلام: ----- ۱۱۸۰
هل نسخ هذا الحكم؟: ----- ۱۱۸۱
الزّواج المؤقت ضرورة اجتماعية: ----- ۱۱۸۳
مؤاخذات على الزواج المؤقت: ----- ۱۱۸۴

«راسل» و الزواج المؤقت: ۱۱۸۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۵] ۱۱۸۶
اشارة ۱۱۸۶
التّفسير ۱۱۸۶
التّزوج بالإماء: ۱۱۸۶
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ۱۱۸۸
اشارة ۱۱۸۹
التّفسير ۱۱۸۹
هذه القيود لما ذا؟: ۱۱۸۹
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۲۹ الى ۳۰] ۱۱۹۰
اشارة ۱۱۹۰
التّفسير ۱۱۹۰
سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد: ۱۱۹۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۱] ۱۱۹۱
اشارة ۱۱۹۱
التّفسير ۱۱۹۱
المعاصى الكبيرة و الصّغيرة: ۱۱۹۱
إشكال: ۱۱۹۲
الجواب: ۱۱۹۲
متى تنقلب الصّغيرة إلى كبيرة؟: ۱۱۹۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۲] ۱۱۹۳
اشارة ۱۱۹۳
سبب النّزول ۱۱۹۴
التّفسير ۱۱۹۴

اشارة ----- ۱۱۹۴
التفاوت الطبيعى بين النّاس لما ذا؟: ----- ۱۱۹۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۳] ----- ۱۱۹۶
اشارة ----- ۱۱۹۶
التّفسير ----- ۱۱۹۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۴] ----- ۱۱۹۷
اشارة ----- ۱۱۹۷
التّفسير ----- ۱۱۹۷
القوامة فى النّظام العائلى: ----- ۱۱۹۷
النّساء المقصرات النّاشزات ----- ۱۱۹۹
۱- المواعظة ----- ۱۱۹۹
۲- الهجر فى المضاجع ----- ۱۱۹۹
۳- الضرب: ----- ۱۱۹۹
اشكال: ----- ۱۱۹۹
الجواب: ----- ۱۲۰۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۵] ----- ۱۲۰۰
اشارة ----- ۱۲۰۰
التّفسير ----- ۱۲۰۱
محكمة الصّلح العائلية: ----- ۱۲۰۱
الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۶] ----- ۱۲۰۲
اشارة ----- ۱۲۰۲
التّفسير ----- ۱۲۰۲
اشارة ----- ۱۲۰۲
۱- و اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا ----- ۱۲۰۲

۲- و بالوالدين إحسانا ----- ۱۲۰۳
۳- و بذى القربى ----- ۱۲۰۳
۴- و اليتامى ----- ۱۲۰۳
۵- و المساكين ----- ۱۲۰۴
۶- و الجار ذى القربى ----- ۱۲۰۴
۷- و الجار الجنب ----- ۱۲۰۴
۸- و الصّاحب بالجنب ----- ۱۲۰۵
۹- و ابن السبيل ----- ۱۲۰۵
۱۰- و ما ملكت أيمانكم ----- ۱۲۰۶
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۳۷ الى ۳۹] ----- ۱۲۰۶
اشارة ----- ۱۲۰۶
التّفسير ----- ۱۲۰۶
الإنفاق رياء و الإنفاق قربة: ----- ۱۲۰۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۰] ----- ۱۲۰۸
اشارة ----- ۱۲۰۸
التّفسير ----- ۱۲۰۸
ما هى «الذّرة»؟: ----- ۱۲۰۸
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲] ----- ۱۲۰۹
اشارة ----- ۱۲۰۹
التّفسير ----- ۱۲۰۹
شهود يوم القيامة: ----- ۱۲۰۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۳] ----- ۱۲۱۱
اشارة ----- ۱۲۱۱
التّفسير ----- ۱۲۱۱

بعض الأحكام الفقهية: ---- ۱۲۱۱
بحوث عند الآية: ---- ۱۲۱۳
اشارة ---- ۱۲۱۳
فلسفة التيمم: ---- ۱۲۱۳
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۴ الى ۴۵] ---- ۱۲۱۴
اشارة ---- ۱۲۱۴
التّفسير ---- ۱۲۱۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۶] ---- ۱۲۱۵
اشارة ---- ۱۲۱۵
التّفسير ---- ۱۲۱۵
جانب آخر من أعمال اليهود: ---- ۱۲۱۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۷] ---- ۱۲۱۶
اشارة ---- ۱۲۱۷
التّفسير ---- ۱۲۱۷
مصير المعاندين: ---- ۱۲۱۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۸] ---- ۱۲۱۸
اشارة ---- ۱۲۱۸
التّفسير ---- ۱۲۱۸
أرجى آيات القرآن: ---- ۱۲۱۸
أسباب مغفرة الذنوب: ---- ۱۲۱۹
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۹ الى ۵۰] ---- ۱۲۲۰
اشارة ---- ۱۲۲۰
سبب النّزول ---- ۱۲۲۰
التّفسير ---- ۱۲۲۰

تزكية النفس ۱۲۲]: ۱۲۲۰
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵۱ الى ۵۲] ۱۲۲۱
اشارة ۱۲۲۱
سبب النّزول ۱۲۲۱
التّفسير ۱۲۲۲
المداهنون: ۱۲۲۲
الجبت و الطّاغوت: ۱۲۲۲
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۵۳ الى ۵۵] ۱۲۲۳
اشارة ۱۲۲۳
التّفسير ۱۲۲۳
اشارة ۱۲۲۳
دور الحسد فى الجرائم: ۱۲۲۵
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵۶ الى ۵۷] ۱۲۲۶
اشارة ۱۲۲۶
التّفسير ۱۲۲۶
بحث عن الآية: ۱۲۲۶
اشارة ۱۲۲۷
سؤال: ۱۲۲۷
جواب: ۱۲۲۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۵۸] ۱۲۲۷
اشارة ۱۲۲۷
سبب النّزول ۱۲۲۸
التّفسير ۱۲۲۸
قانونان إسلاميان مهمان: ۱۲۲۸

أهميّة الأمانة و العدل فى الإسلام: ۱۲۲۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۵۹] ۱۲۳۰
اشارة ۱۲۳۰
التّفسير ۱۲۳۰
اشارة ۱۲۳۰
من هم أولوا الأمر؟ ۱۲۳۰
أجوبة على أسئلة: ۱۲۳۳
شهادة الأحاديث: ۱۲۳۴
الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۰] ۱۲۳۵
اشارة ۱۲۳۵
سبب النّزول ۱۲۳۵
التّفسير ۱۲۳۶
حكومة الطّاغوت: ۱۲۳۶
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۶۱ الى ۶۳] ۱۲۳۶
اشارة ۱۲۳۶
التّفسير ۱۲۳۷
نتائج حكم الطّاغوت: ۱۲۳۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۴] ۱۲۳۸
اشارة ۱۲۳۸
التّفسير ۱۲۳۸
الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۵] ۱۲۴۰
اشارة ۱۲۴۰
سبب النّزول ۱۲۴۰
التّفسير ۱۲۴۰

التّسليم أمام الحق: ۱۲۴۰
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۶۶ الى ۶۸] ۱۲۴۱
اشارة ۱۲۴۱
التّفسير ۱۲۴۲
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۶۹ الى ۷۰] ۱۲۴۳
اشارة ۱۲۴۳
سبب النّزول ۱۲۴۳
التّفسير ۱۲۴۳
رفقاء الجنّة: ۱۲۴۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۱] ۱۲۴۵
اشارة ۱۲۴۵
التّفسير ۱۲۴۵
الحذر الدّائم: ۱۲۴۵
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۷۲ الى ۷۳] ۱۲۴۶
اشارة ۱۲۴۶
التّفسير ۱۲۴۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۴] ۱۲۴۷
اشارة ۱۲۴۷
التّفسير ۱۲۴۷
إعداد المؤمنين للجهاد: ۱۲۴۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۵] ۱۲۴۸
اشارة ۱۲۴۸
التّفسير ۱۲۴۸
الاستعانة بالعواطف و المشاعر الإنسانية: ۱۲۴۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۶] ---- ۱۲۴۹
اشارة ---- ۱۲۴۹
التّفسير ---- ۱۲۴۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۷] ---- ۱۲۵۰
اشارة ---- ۱۲۵۰
سبب النّزول ---- ۱۲۵۰
التّفسير ---- ۱۲۵۱
قوم بضاعتهم الكلام دون العمل: ---- ۱۲۵۱
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۷۸ الى ۷۹] ---- ۱۲۵۲
اشارة ---- ۱۲۵۲
التّفسير ---- ۱۲۵۲
اشارة ---- ۱۲۵۲
من أين تأتى الانتصارات و الهزائم؟ ---- ۱۲۵۳
جواب على سؤال مهم: ---- ۱۲۵۴
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۸۰ الى ۸۱] ---- ۱۲۵۵
اشارة ---- ۱۲۵۵
التّفسير ---- ۱۲۵۵
سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمنزلة الوحى: ---- ۱۲۵۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۲] ---- ۱۲۵۷
اشارة ---- ۱۲۵۷
التّفسير ---- ۱۲۵۷
خلوّ القرآن من الاختلاف دليل حى على إعجازه: ---- ۱۲۵۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۳] ---- ۱۲۵۸
اشارة ---- ۱۲۵۸

التّفسير ----- ۱۲۵۸
نشر الإشاعات: ----- ۱۲۵۸
أضرار اختلاق الإشاعة و نشرها: ----- ۱۲۵۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۴] ----- ۱۲۶۰
اشارة ----- ۱۲۶۰
سبب النّزول ----- ۱۲۶۰
التّفسير ----- ۱۲۶۰
كل انسان مسئول عمّا كلّف به: ----- ۱۲۶۰
معنى كلمتى «عسى» و «لعل» فى كلام اللّه: ----- ۱۲۶۱
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۵] ----- ۱۲۶۱
اشارة ----- ۱۲۶۲
التّفسير ----- ۱۲۶۲
عواقب التّحريض على الخير أو الشرّ: ----- ۱۲۶۲
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۶] ----- ۱۲۶۴
اشارة ----- ۱۲۶۴
التّفسير ----- ۱۲۶۴
دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ: ----- ۱۲۶۴
السّلام، تحية الإسلام الكبرى: ----- ۱۲۶۴
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۷] ----- ۱۲۶۶
اشارة ----- ۱۲۶۶
التّفسير ----- ۱۲۶۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۸] ----- ۱۲۶۷
اشارة ----- ۱۲۶۷
سبب النّزول ----- ۱۲۶۷

التّفسير ----- ۱۲۶۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۹] ----- ۱۲۶۸
اشارة ----- ۱۲۶۸
التّفسير ----- ۱۲۶۸
اشارة ----- ۱۲۶۸
سؤال: ----- ۱۲۶۹
الجواب: ----- ۱۲۶۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۰] ----- ۱۲۶۹
اشارة ----- ۱۲۶۹
سبب النّزول ----- ۱۲۶۹
التّفسير ----- ۱۲۷۰
التّرحيب باقتراح السّلم: ----- ۱۲۷۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۱] ----- ۱۲۷۱
اشارة ----- ۱۲۷۱
سبب النّزول ----- ۱۲۷۱
التّفسير ----- ۱۲۷۱
عقاب ذى الوجهين: ----- ۱۲۷۱
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۲] ----- ۱۲۷۲
اشارة ----- ۱۲۷۲
سبب النّزول ----- ۱۲۷۲
التّفسير ----- ۱۲۷۲
أحكام القتل النّاتج عن الخطأ: ----- ۱۲۷۲
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۳] ----- ۱۲۷۵
اشارة ----- ۱۲۷۵

سبب النّزول ----- ۱۲۷۵
التّفسير ----- ۱۲۷۵
عقوبة القتل العمد: ----- ۱۲۷۵
جريمة القتل العمد و العقاب الأبدى: ----- ۱۲۷۶
ما هى أنواع القتل؟ ----- ۱۲۷۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۴] ----- ۱۲۷۸
اشارة ----- ۱۲۷۸
سبب النّزول ----- ۱۲۷۸
التّفسير ----- ۱۲۷۹
اشارة ----- ۱۲۷۹
الجهاد الإسلامى نفى من البعد المادى: ----- ۱۲۷۹
سؤال: ----- ۱۲۷۹
الجواب: ----- ۱۲۸۰
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۹۵ الى ۹۶] ----- ۱۲۸۰
اشارة ----- ۱۲۸۰
التّفسير ----- ۱۲۸۰
اشارة ----- ۱۲۸۰
نكات مهمة حول المجاهدين: ----- ۱۲۸۱
الأهمية بالبالغة للجهاد: ----- ۱۲۸۲
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۹۷ الى ۹۹] ----- ۱۲۸۳
اشارة ----- ۱۲۸۳
سبب النّزول ----- ۱۲۸۳
التّفسير ----- ۱۲۸۴
اشارة ----- ۱۲۸۴

نقاط يجب الالتفات إليها: ۱۲۸۴
۱- استقلال الرّوح ۱۲۸۴
۲- ملک الموت أم ملائکة الموت ۱۲۸۵
۳- من هو المستضعف؟ ۱۲۸۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۰] ۱۲۸۶
اشارة ۱۲۸۶
التّفسير ۱۲۸۶
الهجرة حكم اسلامى بنّاء: ۱۲۸۶
الإسلام و الهجرة: ۱۲۸۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۱] ۱۲۸۹
اشارة ۱۲۸۹
التّفسير ۱۲۸۹
صلاة المسافر: ۱۲۸۹
سؤال: ۱۲۹۰
الجواب: ۱۲۹۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۲] ۱۲۹۱
اشارة ۱۲۹۱
سبب النّزول ۱۲۹۲
التّفسير ۱۲۹۲
اشارة ۱۲۹۲
و هنا عدّة ملاحظات جديرة بالانتباه، هى: ۱۲۹۳
كيفية صلاة الخوف: ۱۲۹۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۳] ۱۲۹۴
اشارة ۱۲۹۴

التّفسير ----- ۱۲۹۴
أهمية فريضة الصّلاة: ----- ۱۲۹۴
سؤال: ----- ۱۲۹۵
الجواب: ----- ۱۲۹۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۴] ----- ۱۲۹۵
اشارة ----- ۱۲۹۵
سبب النّزول ----- ۱۲۹۵
قرع السّلاح بسلاح يشابهه: ----- ۱۲۹۵
التّفسير ----- ۱۲۹۶
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۶] ----- ۱۲۹۷
اشارة ----- ۱۲۹۷
سبب النّزول ----- ۱۲۹۷
التّفسير ----- ۱۲۹۸
منع الدّفاع عن الخائنين: ----- ۱۲۹۸
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۷ الى ۱۰۹] ----- ۱۲۹۹
اشارة ----- ۱۲۹۹
التّفسير ----- ۱۲۹۹
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۲] ----- ۱۳۰۰
اشارة ----- ۱۳۰۰
التّفسير ----- ۱۳۰۰
اشارة ----- ۱۳۰۰
جريمة البهتان: ----- ۱۳۰۱
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۳] ----- ۱۳۰۲
اشارة ----- ۱۳۰۲

التّفسير ----- ۱۳۰۲
اشارة ----- ۱۳۰۲
مصدر عصمة الأنبياء! ----- ۱۳۰۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۴] ----- ۱۳۰۴
اشارة ----- ۱۳۰۴
التّفسير ----- ۱۳۰۴
النجوى أو الهمس: ----- ۱۳۰۴
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۵] ----- ۱۳۰۵
اشارة ----- ۱۳۰۵
سبب النّزول ----- ۱۳۰۶
التّفسير ----- ۱۳۰۶
اشارة ----- ۱۳۰۶
حجية الإجماع: ----- ۱۳۰۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۶] ----- ۱۳۰۷
اشارة ----- ۱۳۰۷
التّفسير ----- ۱۳۰۷
الشّرک ذنب لا يغتفر: ----- ۱۳۰۷
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۷ الى ۱۲۱] ----- ۱۳۰۸
اشارة ----- ۱۳۰۸
التّفسير ----- ۱۳۰۸
مكائد الشّيطان: ----- ۱۳۰۸
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۲] ----- ۱۳۱۰
اشارة ----- ۱۳۱۰
التّفسير ----- ۱۳۱۱

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۴] ----- ۱۳۱۱
اشارة ----- ۱۳۱۱
سبب النّزول ----- ۱۳۱۱
التّفسير ----- ۱۳۱۲
امتيازات حقيقية و أخرى زائفة: ----- ۱۳۱۲
سؤال: ----- ۱۳۱۲
الجواب: ----- ۱۳۱۲
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۶] ----- ۱۳۱۳
اشارة ----- ۱۳۱۳
التّفسير ----- ۱۳۱۳
ما هو معنى الخليل؟ ----- ۱۳۱۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۷] ----- ۱۳۱۴
اشارة ----- ۱۳۱۴
التّفسير ----- ۱۳۱۴
عود على حقوق المرأة: ----- ۱۳۱۴
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۸] ----- ۱۳۱۵
اشارة ----- ۱۳۱۵
سبب النّزول ----- ۱۳۱۵
التّفسير ----- ۱۳۱۵
الصّلح خير: ----- ۱۳۱۵
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۹ الى ۱۳۰] ----- ۱۳۱۶
اشارة ----- ۱۳۱۶
التّفسير ----- ۱۳۱۷
العدالة شرط فى تعدد الزّوجات: ----- ۱۳۱۷

جواب على سؤال ضرورى: ۱۳۱۸
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۴] ۱۳۱۸
اشارة ۱۳۱۹
التّفسير ۱۳۱۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۳۵] ۱۳۲۰
اشارة ۱۳۲۰
التّفسير ۱۳۲۰
العدالة الاجتماعية: ۱۳۲۰
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۳۶] ۱۳۲۲
اشارة ۱۳۲۲
سبب النّزول ۱۳۲۲
التّفسير ۱۳۲۲
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۹] ۱۳۲۳
اشارة ۱۳۲۳
التّفسير ۱۳۲۳
مصير المنافقين المعاندين: ۱۳۲۳
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۰] ۱۳۲۴
اشارة ۱۳۲۴
سبب النّزول ۱۳۲۵
التّفسير ۱۳۲۵
النّهى عن المشاركة فى مجالس يعصى اللّه فيها: ۱۳۲۵
إنّ الآية تخبرنا عن عدة أمور: ۱۳۲۵
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۱] ۱۳۲۶
اشارة ۱۳۲۶

التّفسير ----- ۱۳۲۶
صفات المنافقين: ----- ۱۳۲۶
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۲ الى ۱۴۳] ----- ۱۳۲۷
اشارة ----- ۱۳۲۷
التّفسير ----- ۱۳۲۷
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۶] ----- ۱۳۲۸
اشارة ----- ۱۳۲۸
التّفسير ----- ۱۳۲۹
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۷] ----- ۱۳۲۹
اشارة ----- ۱۳۲۹
التّفسير ----- ۱۳۳۰
العقاب الإلهى ليس دافعه الانتقام: ----- ۱۳۳۰
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹] ----- ۱۳۳۰
اشارة ----- ۱۳۳۰
التّفسير ----- ۱۳۳۰
اشارة ----- ۱۳۳۰
العفو عن المعتدى و أثره على نزعة العدوان: ----- ۱۳۳۱
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۲] ----- ۱۳۳۲
اشارة ----- ۱۳۳۲
التّفسير ----- ۱۳۳۲
لا تمييز بين الأنبياء: ----- ۱۳۳۲
التّناسب بين الذّنب و العقاب: ----- ۱۳۳۳
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۴] ----- ۱۳۳۴
اشارة ----- ۱۳۳۴

سبب النّزول ----- ۱۳۳۴
التّفسير ----- ۱۳۳۴
هدف اليهود من اختلاق الأعذار: ----- ۱۳۳۴
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۸] ----- ۱۳۳۶
اشارة ----- ۱۳۳۶
التّفسير ----- ۱۳۳۶
نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية: ----- ۱۳۳۶
اسطورة الصّليب؟ ----- ۱۳۳۷
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۵۹] ----- ۱۳۳۹
اشارة ----- ۱۳۳۹
التّفسير ----- ۱۳۳۹
اشارة ----- ۱۳۳۹
سؤال: ----- ۱۳۴۰
الجواب: ----- ۱۳۴۰
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۶۰ الى ۱۶۲] ----- ۱۳۴۱
اشارة ----- ۱۳۴۱
التّفسير ----- ۱۳۴۱
مصير الصالحين و الطالحين من اليهود: ----- ۱۳۴۱
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۶۳ الى ۱۶۶] ----- ۱۳۴۲
اشارة ----- ۱۳۴۲
التّفسير ----- ۱۳۴۲
الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۶۷ الى ۱۶۹] ----- ۱۳۴۵
اشارة ----- ۱۳۴۵
التّفسير ----- ۱۳۴۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۰] ----- ۱۳۴۶
اشارة ----- ۱۳۴۶
التّفسير ----- ۱۳۴۶
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۱] ----- ۱۳۴۶
اشارة ----- ۱۳۴۶
التّفسير ----- ۱۳۴۷
اسطورة التثليث الوهمية: ----- ۱۳۴۷
عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية: ----- ۱۳۴۹
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۳] ----- ۱۳۵۲
اشارة ----- ۱۳۵۲
سبب النّزول ----- ۱۳۵۲
التّفسير ----- ۱۳۵۲
المسيح هو عبد اللّه: ----- ۱۳۵۲
الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷۴ الى ۱۷۵] ----- ۱۳۵۳
اشارة ----- ۱۳۵۳
التّفسير ----- ۱۳۵۴
النّور المبين: ----- ۱۳۵۴
الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۶] ----- ۱۳۵۴
اشارة ----- ۱۳۵۴
سبب النّزول ----- ۱۳۵۴
التّفسير ----- ۱۳۵۵
سورة المائدة ----- ۱۳۵۶
اشارة ----- ۱۳۵۶
محتويات سورة المائدة ----- ۱۳۵۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱] ---- ۱۳۵۷
اشارة ---- ۱۳۵۷
التّفسير ---- ۱۳۵۷
الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق: ---- ۱۳۵۷
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۲] ---- ۱۳۶۰
اشارة ---- ۱۳۶۰
التّفسير ---- ۱۳۶۰
ثمانية احكام فى آية واحدة: ---- ۱۳۶۰
التعاون فى أعمال الخير: ---- ۱۳۶۲
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳] ---- ۱۳۶۳
اشارة ---- ۱۳۶۳
التّفسير ---- ۱۳۶۳
اشارة ---- ۱۳۶۳
الاعتدال فى تناول اللحوم: ---- ۱۳۶۵
متى أكمل اللّه الدين للمسلمين: ---- ۱۳۶۶
سؤال يفرض نفسه: ---- ۱۳۶۹
الجواب: ---- ۱۳۶۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴] ---- ۱۳۷۰
اشارة ---- ۱۳۷۰
سبب النّزول ---- ۱۳۷۱
التّفسير ---- ۱۳۷۱
الحلال من الصيد: ---- ۱۳۷۱
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵] ---- ۱۳۷۲
اشارة ---- ۱۳۷۲

التّفسير ----- ۱۳۷۲
حكم طعام أهل الكتاب و حكم الزّواج بهم: ----- ۱۳۷۲
حكم الزّواج بغير المسلمات: ----- ۱۳۷۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶] ----- ۱۳۷۶
اشارة ----- ۱۳۷۶
التّفسير ----- ۱۳۷۶
تطهير الجسم و الرّوح: ----- ۱۳۷۶
فلسفة الوضوء و التيمم: ----- ۱۳۷۹
فلسفة الغسل: ----- ۱۳۷۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۷] ----- ۱۳۸۱
اشارة ----- ۱۳۸۱
التّفسير ----- ۱۳۸۱
العهود الرّبانية: ----- ۱۳۸۱
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۱۳۸۳
اشارة ----- ۱۳۸۳
التّفسير ----- ۱۳۸۳
دعوة مؤكّدة إلى العدالة: ----- ۱۳۸۳
العدل ركن إسلامى مهم: ----- ۱۳۸۴
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۱] ----- ۱۳۸۵
اشارة ----- ۱۳۸۵
التّفسير ----- ۱۳۸۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۲] ----- ۱۳۸۶
اشارة ----- ۱۳۸۶
التّفسير ----- ۱۳۸۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۳] ۱۳۸۸
اشارة ۱۳۸۸
التّفسير ۱۳۸۸
اشارة ۱۳۸۸
الممارسات التّحريفية لليهود: ۱۳۸۹
هل يجعل اللّه قلب الإنسان قاسيا؟ ۱۳۸۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۴] ۱۳۹۰
اشارة ۱۳۹۰
التّفسير ۱۳۹۰
العداء الأبدى: ۱۳۹۰
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۵ الى ۱۶] ۱۳۹۲
اشارة ۱۳۹۲
التّفسير ۱۳۹۲
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۷] ۱۳۹۴
اشارة ۱۳۹۴
التّفسير ۱۳۹۴
كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟! ۱۳۹۴
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۸] ۱۳۹۵
اشارة ۱۳۹۵
التّفسير ۱۳۹۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۹] ۱۳۹۷
اشارة ۱۳۹۷
التّفسير ۱۳۹۷
اشارة ۱۳۹۷

سؤال: ۱۳۹۷
الجواب: ۱۳۹۸
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۲۰ الى ۲۶] ۱۳۹۸
اشارة ۱۳۹۸
التّفسير ۱۳۹۸
بنو إسرائيل و الأرض المقدسة: ۱۳۹۹
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۲۷ الى ۲۹] ۱۴۰۳
اشارة ۱۴۰۳
التّفسير ۱۴۰۳
أوّل حادثة قتل على الأرض: ۱۴۰۳
نقاط مهمّة يجب الانتباه لها: ۱۴۰۴
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۰ الى ۳۱] ۱۴۰۵
اشارة ۱۴۰۵
التّفسير ۱۴۰۵
التّستر على الجريمة: ۱۴۰۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳۲] ۱۴۰۶
اشارة ۱۴۰۶
التّفسير ۱۴۰۷
وحدة الإنسانية و كرامتها: ۱۴۰۷
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۳ الى ۳۴] ۱۴۰۸
اشارة ۱۴۰۸
سبب النّزول ۱۴۰۸
جزاء مرتكب العدوان: ۱۴۰۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳۵] ۱۴۱۰

اشارة ----- ۱۴۱۰
التّفسير ----- ۱۴۱۱
حقيقة التوسل إلى اللّه: ----- ۱۴۱۱
التوسل فى القرآن: ----- ۱۴۱۲
التّوسل فى الرّوايات الإسلامية: ----- ۱۴۱۲
ملاحظات ضرورية: ----- ۱۴۱۳
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ----- ۱۴۱۴
اشارة ----- ۱۴۱۴
التّفسير ----- ۱۴۱۴
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۱۴۱۵
اشارة ----- ۱۴۱۵
التّفسير ----- ۱۴۱۵
عقوبة السّرقة: ----- ۱۴۱۵
أ- شروط معاقبة السارق: ----- ۱۴۱۶
ب- المقدار الذى يجب قطعه من يد السّارق: ----- ۱۴۱۷
ج- حدّ السرقة و أقاويل اعداء الإسلام: ----- ۱۴۱۷
د- اعتراضات أخرى: ----- ۱۴۱۸
الجزء الرابع ----- ۱۴۳۵
[تتمة سورة المائدة] ----- ۱۴۳۵
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۴۱ الى ۴۲] ----- ۱۴۳۵
اشارة ----- ۱۴۳۵
سبب النّزول ----- ۱۴۳۵
التّفسير ----- ۱۴۳۶
التّحكيم بين الأنصار و الأعداء: ----- ۱۴۳۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۳] ۱۴۳۸
اشارة ۱۴۳۸
التّفسير ۱۴۳۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۴] ۱۴۳۹
اشارة ۱۴۳۹
التّفسير ۱۴۳۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۵] ۱۴۴۰
اشارة ۱۴۴۰
التّفسير ۱۴۴۰
القصاص و العفو: ۱۴۴۰
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۶] ۱۴۴۲
اشارة ۱۴۴۲
التّفسير ۱۴۴۲
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۷] ۱۴۴۳
اشارة ۱۴۴۳
التّفسير ۱۴۴۴
الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهى: ۱۴۴۴
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۸] ۱۴۴۴
اشارة ۱۴۴۴
التّفسير ۱۴۴۴
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۴۹ الى ۵۰] ۱۴۴۶
اشارة ۱۴۴۶
سبب النّزول ۱۴۴۶
التّفسير ۱۴۴۶

اشارة ----- ۱۴۴۶
سؤال: ----- ۱۴۴۷
الجواب: ----- ۱۴۴۷
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۳] ----- ۱۴۴۸
اشارة ----- ۱۴۴۸
سبب النّزول ----- ۱۴۴۸
التّفسير ----- ۱۴۴۸
اشارة ----- ۱۴۴۸
الاعتماد على الغرباء: ----- ۱۴۵۰
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۴] ----- ۱۴۵۱
اشارة ----- ۱۴۵۱
التّفسير ----- ۱۴۵۱
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۵] ----- ۱۴۵۳
اشارة ----- ۱۴۵۳
سبب النّزول ----- ۱۴۵۳
التّفسير ----- ۱۴۵۴
اشارة ----- ۱۴۵۴
شهادة الأحاديث و المفسّرين و المؤرخين: ----- ۱۴۵۵
الرّد على اعتراضات ثمانية: ----- ۱۴۵۶
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۶] ----- ۱۴۵۹
اشارة ----- ۱۴۵۹
التّفسير ----- ۱۴۶۰
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۵۷ الى ۵۸] ----- ۱۴۶۰
اشارة ----- ۱۴۶۰

سبب النّزول ----- ۱۴۶۰
التّفسير ----- ۱۴۶۱
اشارة ----- ۱۴۶۱
الأذان شعار اسلامی کبیر: ----- ۱۴۶۱
نزول الأذان وحيا على النّبی: ----- ۱۴۶۲
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۵۹ الى ۶۰] ----- ۱۴۶۳
اشارة ----- ۱۴۶۳
سبب النّزول ----- ۱۴۶۳
اشارة ----- ۱۴۶۳
التّفسير ----- ۱۴۶۳
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۱ الى ۶۳] ----- ۱۴۶۴
اشارة ----- ۱۴۶۴
التّفسير ----- ۱۴۶۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶۴] ----- ۱۴۶۶
اشارة ----- ۱۴۶۶
التّفسير ----- ۱۴۶۷
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۵ الى ۶۶] ----- ۱۴۶۸
اشارة ----- ۱۴۶۸
التّفسير ----- ۱۴۶۹
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶۷] ----- ۱۴۷۰
اشارة ----- ۱۴۷۰
التّفسير ----- ۱۴۷۰
اختيار الخليفة مرحلة انتهاء الرسالة: ----- ۱۴۷۰
نزول آية التبليغ: ----- ۱۴۷۱

حادثة الغدير بايجاز: ---- ۱۴۷۳
محاورات و شبهات: ---- ۱۴۷۵
اشارة ---- ۱۴۷۵
۱- هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرف»؟ ---- ۱۴۷۶
۲- ترابط الآيات ---- ۱۴۷۷
۳- أتذكر الصّحاح كلّها هذا الحديث؟ ---- ۱۴۷۸
۴- لم لم يستدل على و أهل البيت عليهم السّلام بهذا الحديث؟ ---- ۱۴۷۸
۵- مفهوم الجملة الأخيرة من الآية ---- ۱۴۷۹
۶- هل يمكن وجود وليّين فى وقت واحد؟ ---- ۱۴۷۹
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۸ الى ۶۹] ---- ۱۴۸۰
اشارة ---- ۱۴۸۰
سبب النّزول ---- ۱۴۸۰
اشارة ---- ۱۴۸۰
التّفسير ---- ۱۴۸۱
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۰ الى ۷۱] ---- ۱۴۸۲
اشارة ---- ۱۴۸۲
التّفسير ---- ۱۴۸۲
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۲ الى ۷۴] ---- ۱۴۸۳
اشارة ---- ۱۴۸۳
التّفسير ---- ۱۴۸۳
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۵ الى ۷۷] ---- ۱۴۸۵
اشارة ---- ۱۴۸۵
التّفسير ---- ۱۴۸۵
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۸ الى ۸۰] ---- ۱۴۸۷

اشارة ----- ۱۴۸۷
التّفسير ----- ۱۴۸۷
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۸۱] ----- ۱۴۸۸
اشارة ----- ۱۴۸۸
التّفسير ----- ۱۴۸۸
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۲ الى ۸۶] ----- ۱۴۸۹
اشارة ----- ۱۴۸۹
سبب النّزول ----- ۱۴۸۹
المهاجرون الأوّل فى الإسلام: ----- ۱۴۸۹
التّفسير ----- ۱۴۹۱
حقد اليهود و مودّة النصارى: ----- ۱۴۹۱
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۹] ----- ۱۴۹۲
اشارة ----- ۱۴۹۲
سبب النّزول ----- ۱۴۹۳
لا تتجاوزوا الحدود! ----- ۱۴۹۳
التّفسير ----- ۱۴۹۳
القسم و كفارته: ----- ۱۴۹۳
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۰ الى ۹۲] ----- ۱۴۹۶
اشارة ----- ۱۴۹۶
سبب النّزول ----- ۱۴۹۶
التّفسير ----- ۱۴۹۶
مراحل تحريم الخمر و حكمها النهائى: ----- ۱۴۹۷
الآثار المهلكة للخمر و الميسر: ----- ۱۴۹۸
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۹۳] ----- ۱۴۹۹

اشارة ----- ۱۴۹۹
سبب النّزول ----- ۱۴۹۹
التّفسير ----- ۱۵۰۰
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۴ الى ۹۶] ----- ۱۵۰۰
اشارة ----- ۱۵۰۰
سبب النّزول ----- ۱۵۰۱
التّفسير ----- ۱۵۰۱
أحكام الصّيد عند الإحرام: ----- ۱۵۰۱
حكمة تحريم الصّيد حال الإحرام: ----- ۱۵۰۴
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۷ الى ۹۹] ----- ۱۵۰۴
اشارة ----- ۱۵۰۴
التّفسير ----- ۱۵۰۴
اشارة ----- ۱۵۰۵
أهمية الكعبة: ----- ۱۵۰۵
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۰] ----- ۱۵۰۶
اشارة ----- ۱۵۰۶
التّفسير ----- ۱۵۰۶
الأكثرية ليست دليلا على الطهارة: ----- ۱۵۰۶
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲] ----- ۱۵۰۷
اشارة ----- ۱۵۰۷
سبب النّزول ----- ۱۵۰۷
التّفسير ----- ۱۵۰۸
الأسئلة الفضولية: ----- ۱۵۰۸
سؤال: ----- ۱۵۰۸

الجواب: ----- ۱۵۰۹
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۴] ----- ۱۵۰۹
اشارة ----- ۱۵۰۹
التّفسير ----- ۱۵۱۰
بحوث ----- ۱۵۱۰
اشارة ----- ۱۵۱۰
وثن اسمه «الأسلاف»: ----- ۱۵۱۱
تناقض بلا مبرّر: ----- ۱۵۱۲
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۵] ----- ۱۵۱۲
اشارة ----- ۱۵۱۲
التّفسير ----- ۱۵۱۲
كلّ امرئ مسئول عن عمله: ----- ۱۵۱۲
ردّ على اعتراض: ----- ۱۵۱۲
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۸] ----- ۱۵۱۳
اشارة ----- ۱۵۱۳
سبب النّزول ----- ۱۵۱۴
التّفسير ----- ۱۵۱۴
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۹] ----- ۱۵۱۶
اشارة ----- ۱۵۱۶
التّفسير ----- ۱۵۱۶
الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۱۰] ----- ۱۵۱۷
اشارة ----- ۱۵۱۷
التّفسير ----- ۱۵۱۷
نعم اللّه على المسيح: ----- ۱۵۱۷

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۵] ۱۵۱۸
اشارة ۱۵۱۸
التّفسير ۱۵۱۹
قصّة نزول المائدة على الحواريين: ۱۵۱۹
ملاحظات: ۱۵۲۰
اشارة ۱۵۲۰
۱- ما القصد من طلب المائدة؟ ۱۵۲۰
۲- ما المقصود بعبارة هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّکَ ۱۵۲۰
۳- ما هى تلک المائدة السماوية؟ ۱۵۲۱
۴- هل نزلت عليهم مائدة؟ ۱۵۲۱
۵- ما العيد؟ ۱۵۲۱
۶- لماذا العقاب الشديد؟ ۱۵۲۱
۷- «العهد الجديد» و المائدة. ۱۵۲۲
الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۸] ۱۵۲۲
اشارة ۱۵۲۲
التّفسير ۱۵۲۲
براءة المسيح من شرک أتباعه: ۱۵۲۲
الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۹ الى ۱۲۰] ۱۵۲۴
اشارة ۱۵۲۴
التّفسير ۱۵۲۴
الفوز العظيم: ۱۵۲۴
سورة الأنعام ۱۵۲۵
اشارة ۱۵۲۵
سورة محاربة أنواع الشرک و الوثنية ۱۵۲۵

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱ الى ۲] ----- ۱۵۲۶
اشارة ----- ۱۵۲۶
التّفسير ----- ۱۵۲۶
اشارة ----- ۱۵۲۶
هل الظّلمة من المخلوقات؟ ----- ۱۵۲۷
النّور رمز الوحدة، و الظلمة رمز التشتت: ----- ۱۵۲۷
ما معنى الأجل المسمى؟ ----- ۱۵۲۸
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳] ----- ۱۵۲۹
اشارة ----- ۱۵۲۹
التّفسير ----- ۱۵۲۹
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴ الى ۵] ----- ۱۵۲۹
اشارة ----- ۱۵۲۹
التّفسير ----- ۱۵۳۰
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۶] ----- ۱۵۳۰
اشارة ----- ۱۵۳۰
التّفسير ----- ۱۵۳۰
مصير الطّغاة: ----- ۱۵۳۱
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷] ----- ۱۵۳۱
اشارة ----- ۱۵۳۱
التّفسير ----- ۱۵۳۲
منتهى العنادا ----- ۱۵۳۲
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۱۵۳۲
اشارة ----- ۱۵۳۲
التّفسير ----- ۱۵۳۲

خلق المبررات: ----- ۱۵۳۲
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۱] ----- ۱۵۳۳
اشارة ----- ۱۵۳۳
التّفسير ----- ۱۵۳۴
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الى ۱۳] ----- ۱۵۳۴
اشارة ----- ۱۵۳۴
التّفسير ----- ۱۵۳۴
اشارة ----- ۱۵۳۴
سؤال: ----- ۱۵۳۵
الجواب: ----- ۱۵۳۵
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴ الى ۱۶] ----- ۱۵۳۶
اشارة ----- ۱۵۳۶
التّفسير ----- ۱۵۳۶
لا ملجأ غير اللّه! ----- ۱۵۳۷
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۷ الى ۱۸] ----- ۱۵۳۸
اشارة ----- ۱۵۳۸
التّفسير ----- ۱۵۳۸
قدرة اللّه القاهرة: ----- ۱۵۳۸
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۹ الى ۲۰] ----- ۱۵۴۰
اشارة ----- ۱۵۴۰
التّفسير ----- ۱۵۴۰
أعظم الشّاهدين: ----- ۱۵۴۰
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۱ الى ۲۴] ----- ۱۵۴۱
اشارة ----- ۱۵۴۱

التّفسير ----- ۱۵۴۲
أشدّ الظّلم: ----- ۱۵۴۲
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۵ الى ۲۶] ----- ۱۵۴۴
اشارة ----- ۱۵۴۴
التّفسير ----- ۱۵۴۴
حجب لا تقبل الاختراق: ----- ۱۵۴۴
الصاق تهمة عظيمة بأبى طالب مؤمن قريش: ----- ۱۵۴۵
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۷ الى ۲۸] ----- ۱۵۴۷
اشارة ----- ۱۵۴۸
التّفسير ----- ۱۵۴۸
يقظة عابرة عقيمة: ----- ۱۵۴۸
ملاحظات: ----- ۱۵۴۸
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲] ----- ۱۵۴۹
اشارة ----- ۱۵۴۹
التّفسير ----- ۱۵۴۹
فى تفسير الآية الأولى احتمالان: ----- ۱۵۴۹
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۳ الى ۳۴] ----- ۱۵۵۱
اشارة ----- ۱۵۵۱
التّفسير ----- ۱۵۵۱
المصلحون يواجهون الصعاب دائما: ----- ۱۵۵۱
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۵ الى ۳۶] ----- ۱۵۵۳
اشارة ----- ۱۵۵۳
التّفسير ----- ۱۵۵۳
الأموات المتحركون: ----- ۱۵۵۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۷] ---- ۱۵۵۵
اشارة ---- ۱۵۵۵
التّفسير ---- ۱۵۵۵
اشارة ---- ۱۵۵۵
إشكال: ---- ۱۵۵۵
الجواب: ---- ۱۵۵۵
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۸] ---- ۱۵۵۶
اشارة ---- ۱۵۵۶
التّفسير ---- ۱۵۵۶
ملاحظات: ---- ۱۵۵۷
۱- هل هناک بعث للحيوانات؟ ---- ۱۵۵۷
۲- الحشر و التكليف: ---- ۱۵۵۸
۳- هل تدل هذه الآية على التناسخ؟ ---- ۱۵۵۹
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۹] ---- ۱۵۵۹
اشارة ---- ۱۵۵۹
التّفسير ---- ۱۵۵۹
الصّم و البكم: ---- ۱۵۵۹
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۰ الى ۴۱] ---- ۱۵۶۰
اشارة ---- ۱۵۶۰
التّفسير ---- ۱۵۶۰
التّوحيد الفطرى: ---- ۱۵۶۰
بحوث ---- ۱۵۶۱
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۲ الى ۴۵] ---- ۱۵۶۱
اشارة ---- ۱۵۶۱

التّفسير ----- ۱۵۶۲
مصير الذين لا يعتبرون: ----- ۱۵۶۲
ملاحظات: ----- ۱۵۶۲
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۶ الى ۴۹] ----- ۱۵۶۴
اشارة ----- ۱۵۶۴
التّفسير ----- ۱۵۶۴
اعرفوا واهب النعم! ----- ۱۵۶۴
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۰] ----- ۱۵۶۵
اشارة ----- ۱۵۶۵
التّفسير ----- ۱۵۶۶
معرفة الغيب: ----- ۱۵۶۶
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۱] ----- ۱۵۶۷
اشارة ----- ۱۵۶۷
التّفسير ----- ۱۵۶۷
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۲ الى ۵۳] ----- ۱۵۶۸
اشارة ----- ۱۵۶۸
سبب النّزول ----- ۱۵۶۸
اشارة ----- ۱۵۶۸
مكافحة التّفكير الطّبقى: ----- ۱۵۶۹
امتياز كبير للإسلام: ----- ۱۵۷۰
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۴ الى ۵۵] ----- ۱۵۷۱
اشارة ----- ۱۵۷۱
التّفسير ----- ۱۵۷۱
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۶ الى ۵۸] ----- ۱۵۷۲

اشارة ----- ۱۵۷۲
التّفسير ----- ۱۵۷۲
الإصرار العقيم: ----- ۱۵۷۲
بحوث ----- ۱۵۷۳
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲] ----- ۱۵۷۴
اشارة ----- ۱۵۷۴
التّفسير ----- ۱۵۷۵
أسرار الغيب: ----- ۱۵۷۵
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۳ الى ۶۴] ----- ۱۵۷۸
اشارة ----- ۱۵۷۹
التّفسير ----- ۱۵۷۹
النّور الّذى يضىء فى الظلّام: ----- ۱۵۷۹
ملاحظات: ----- ۱۵۷۹
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۶۵] ----- ۱۵۸۰
اشارة ----- ۱۵۸۰
التّفسير ----- ۱۵۸۰
ألوان العذاب: ----- ۱۵۸۰
بحوث ----- ۱۵۸۱
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۶ الى ۶۷] ----- ۱۵۸۲
اشارة ----- ۱۵۸۲
التّفسير ----- ۱۵۸۲
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹] ----- ۱۵۸۳
اشارة ----- ۱۵۸۳
سبب النّزول ----- ۱۵۸۳

التّفسير ----- ۱۵۸۳
اجتناب مجالس أهل الباطل: ----- ۱۵۸۳
سؤالان: ----- ۱۵۸۳
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۰] ----- ۱۵۸۴
اشارة ----- ۱۵۸۴
التّفسير ----- ۱۵۸۴
الذين اتّخذوا الدّين لعبا: ----- ۱۵۸۵
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۷۱ الى ۷۲] ----- ۱۵۸۶
اشارة ----- ۱۵۸۶
التّفسير ----- ۱۵۸۶
اشارة ----- ۱۵۸۶
سؤال: ----- ۱۵۸۶
الجواب: ----- ۱۵۸۷
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۳] ----- ۱۵۸۷
اشارة ----- ۱۵۸۷
التّفسير ----- ۱۵۸۷
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۴] ----- ۱۵۸۸
اشارة ----- ۱۵۸۸
التّفسير ----- ۱۵۸۸
اشارة ----- ۱۵۸۸
هل كان آزر أبا إبراهيم؟ ----- ۱۵۸۹
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۷۵ الى ۷۹] ----- ۱۵۹۰
اشارة ----- ۱۵۹۰
التّفسير ----- ۱۵۹۱

أدلة التوحيد فى السموات: ----- ۱۵۹۱
كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد: ----- ۱۵۹۳
ملاحظات ----- ۱۵۹۳
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۰ الى ۸۳] ----- ۱۵۹۴
اشارة ----- ۱۵۹۴
التّفسير ----- ۱۵۹۴
اشارة ----- ۱۵۹۴
ما معنى «الظلم» هنا؟ ----- ۱۵۹۵
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۴ الى ۸۷] ----- ۱۵۹۷
اشارة ----- ۱۵۹۷
التّفسير ----- ۱۵۹۷
ملاحظات ----- ۱۵۹۸
اشارة ----- ۱۵۹۸
۱- أبناء النّبى: ----- ۱۵۹۸
۲- لماذا وردت أسماء الأنبياء فى ثلاث مجموعات فى ثلاث آيات؟ ----- ۱۵۹۹
۳- أهمية الأبناء الصالحين فى تعريف شخصية الإنسان: ----- ۱۶۰۰
۴- جواب على اعتراض: ----- ۱۶۰۰
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۸ الى ۹۰] ----- ۱۶۰۰
اشارة ----- ۱۶۰۰
التّفسير ----- ۱۶۰۰
ثلاثة امتيازات مهمّة: ----- ۱۶۰۰
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۱] ----- ۱۶۰۲
اشارة ----- ۱۶۰۲
سبب النّزول ----- ۱۶۰۲

الغافلون عن اللّه: ۱۶۰۲
التّفسير ۱۶۰۳
ملاحظات: ۱۶۰۴
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۲] ۱۶۰۵
اشارة ۱۶۰۵
التّفسير ۱۶۰۵
بحوث ۱۶۰۵
اشارة ۱۶۰۵
۱- الإسلام دين عالمى ۱۶۰۵
۲- العلاقة بين الإيمان بالقرآن و الإيمان بالآخرة ۱۶۰۶
۳- أهمية الصّلاة ۱۶۰۷
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۳] ۱۶۰۷
اشارة ۱۶۰۷
سبب النّزول ۱۶۰۷
التّفسير ۱۶۰۷
ملاحظات: ۱۶۰۸
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۴] ۱۶۰۸
اشارة ۱۶۰۸
سبب النّزول ۱۶۰۹
التّفسير ۱۶۰۹
الضّالون: ۱۶۰۹
هنا ينبغى الالتفات إلى نقطتين: ۱۶۰۹
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۹۵ الى ۹۶] ۱۶۱۰
اشارة ۱۶۱۰

التّفسير ----- ۱۶۱۰
فالق الإصباح: ----- ۱۶۱۰
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۷] ----- ۱۶۱۳
اشارة ----- ۱۶۱۳
التّفسير ----- ۱۶۱۳
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۹۸ الى ۹۹] ----- ۱۶۱۴
اشارة ----- ۱۶۱۴
التّفسير ----- ۱۶۱۴
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۳] ----- ۱۶۱۷
اشارة ----- ۱۶۱۷
التّفسير ----- ۱۶۱۷
خالق كل شيء: ----- ۱۶۱۷
بحوث ----- ۱۶۱۹
اشارة ----- ۱۶۱۹
۱- لا تدركه الأبصار: ----- ۱۶۱۹
۲- اللّه خالق كل شيء ----- ۱۶۲۱
۳- ما معنى «بديع»؟ ----- ۱۶۲۱
۴- ما معنى «اللطيف»؟ ----- ۱۶۲۲
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۷] ----- ۱۶۲۲
اشارة ----- ۱۶۲۳
التّفسير ----- ۱۶۲۳
ليس من واجبك الإكراه: ----- ۱۶۲۳
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۰۸] ----- ۱۶۲۴
اشارة ----- ۱۶۲۴

التّفسير ----- ۱۶۲۴
اشارة ----- ۱۶۲۴
بحوث ----- ۱۶۲۵
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۰] ----- ۱۶۲۶
اشارة ----- ۱۶۲۶
سبب النّزول ----- ۱۶۲۶
التّفسير ----- ۱۶۲۶
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۱۱] ----- ۱۶۲۷
اشارة ----- ۱۶۲۷
التّفسير ----- ۱۶۲۷
لماذا لا يرعوى المعاندون؟ ----- ۱۶۲۷
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۳] ----- ۱۶۲۸
اشارة ----- ۱۶۲۸
التّفسير ----- ۱۶۲۸
وساوس الشياطين: ----- ۱۶۲۸
ملاحظات: ----- ۱۶۲۹
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۴ الى ۱۱۵] ----- ۱۶۲۹
اشارة ----- ۱۶۲۹
التّفسير ----- ۱۶۳۰
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷] ----- ۱۶۳۱
اشارة ----- ۱۶۳۱
التّفسير ----- ۱۶۳۱
لا أهمية للكثرة العددية: ----- ۱۶۳۱
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۸ الى ۱۲۰] ----- ۱۶۳۲

اشارة ----- ۱۶۳۲
التّفسير ----- ۱۶۳۲
لا بدّ من إزالة آثار الشرک: ----- ۱۶۳۳
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۱] ----- ۱۶۳۴
اشارة ----- ۱۶۳۴
التّفسير ----- ۱۶۳۴
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳] ----- ۱۶۳۵
اشارة ----- ۱۶۳۵
سبب النّزول ----- ۱۶۳۵
التّفسير ----- ۱۶۳۶
الإيمان و الرّؤية الواضحة: ----- ۱۶۳۶
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۴] ----- ۱۶۳۷
اشارة ----- ۱۶۳۷
سبب النّزول ----- ۱۶۳۷
التّفسير ----- ۱۶۳۸
اللّه أعلم حيث يجعل رسالته: ----- ۱۶۳۸
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۷] ----- ۱۶۳۸
اشارة ----- ۱۶۳۸
التّفسير ----- ۱۶۳۹
الإمدادات الإلهية: ----- ۱۶۳۹
ملاحظات ----- ۱۶۳۹
اشارة ----- ۱۶۳۹
۱- ما المقصود من «الهداية» و «الضلالة»؟ ----- ۱۶۳۹
۲- المقصود من «الصّدر» ----- ۱۶۳۹

۳- «الحرج» بمعنى الضيق الشديد ۱۶۴۰
۴- معجزة قرآنية علمية: ۱۶۴۰
۵- ما هو شرح الصدر؟ ۱۶۴۰
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹] ۱۶۴۱
اشارة ۱۶۴۱
التّفسير ۱۶۴۱
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۲] ۱۶۴۲
اشارة ۱۶۴۲
التّفسير ۱۶۴۲
إتمام الحجة: ۱۶۴۲
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۵] ۱۶۴۴
اشارة ۱۶۴۴
التّفسير ۱۶۴۴
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۳۶] ۱۶۴۴
اشارة ۱۶۴۴
التّفسير ۱۶۴۴
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۳۷] ۱۶۴۵
اشارة ۱۶۴۵
التّفسير ۱۶۴۶
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۸ الى ۱۳۹] ۱۶۴۷
اشارة ۱۶۴۷
التّفسير ۱۶۴۷
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۰] ۱۶۴۸
اشارة ۱۶۴۸

التّفسير ----- ۱۶۴۸
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۱] ----- ۱۶۴۹
اشارة ----- ۱۶۴۹
التّفسير ----- ۱۶۴۹
درس عظيم على درب التوحيد: ----- ۱۶۴۹
بحوث ----- ۱۶۵۰
۱- ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة ----- ۱۶۵۰
۲- ماذا تعنى جملة ----- ۱۶۵۱
۳- ما هو المراد من الحقّ الذى يجب إعطاؤه؟ ----- ۱۶۵۱
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۲ الى ۱۴۴] ----- ۱۶۵۱
اشارة ----- ۱۶۵۱
التّفسير ----- ۱۶۵۲
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۵] ----- ۱۶۵۳
اشارة ----- ۱۶۵۳
التّفسير ----- ۱۶۵۴
بعض الحيوانات المحرّمة: ----- ۱۶۵۴
جواب على سؤال: ----- ۱۶۵۵
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷] ----- ۱۶۵۶
اشارة ----- ۱۶۵۶
التّفسير ----- ۱۶۵۶
ما حرّم على اليهود: ----- ۱۶۵۶
بحثان ----- ۱۶۵۷
۱- ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟ ----- ۱۶۵۷
۲- ما معنى «إنّا لصادقون»؟ ----- ۱۶۵۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۰] ----- ۱۶۵۸
اشارة ----- ۱۶۵۸
التّفسير ----- ۱۶۵۸
التملّص من المسؤولية بحجة «الجبر»: ----- ۱۶۵۸
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۳] ----- ۱۶۶۱
اشارة ----- ۱۶۶۱
التّفسير ----- ۱۶۶۱
الأوامر العشرة: ----- ۱۶۶۱
بحوث ----- ۱۶۶۲
اشارة ----- ۱۶۶۲
۱- الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف ----- ۱۶۶۲
۲- التأكيدات المتتابعة ----- ۱۶۶۲
۳- التعاليم و الأوامر الخالدة ----- ۱۶۶۳
۴- أهمية الإحسان إلى الوالدين ----- ۱۶۶۳
۵- قتل الأولاد من الإملاق و الجوع ----- ۱۶۶۳
۶- ما هو المقصود من الفواحش؟ ----- ۱۶۶۴
۷- لا تقربوا هذه الذّنوب ----- ۱۶۶۴
۸- الذّنوب الظاهرة و الباطنة ----- ۱۶۶۴
۹- الوصايا العشر عند اليهود ----- ۱۶۶۴
۱۰- كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنورة؟ ----- ۱۶۶۵
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۴ الى ۱۵۷] ----- ۱۶۶۶
اشارة ----- ۱۶۶۶
التّفسير ----- ۱۶۶۶
رد حاسم على المتحججين و المتعلّلين: ----- ۱۶۶۶

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۵۸] ----- ۱۶۶۸
اشارة ----- ۱۶۶۹
التّفسير ----- ۱۶۶۹
توقعات باطلة و مطاليب مستحيلة: ----- ۱۶۶۹
لا فائدة للإيمان بدون عمل: ----- ۱۶۷۰
الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰] ----- ۱۶۷۰
اشارة ----- ۱۶۷۰
التّفسير ----- ۱۶۷۰
رفض المفرّقين للصّفوف و نفيهم: ----- ۱۶۷۰
بحثان ----- ۱۶۷۱
اشارة ----- ۱۶۷۱
۱- من هم المقصودون فى الآية؟ ----- ۱۶۷۱
۲- بشاعة التفرقة و زرع الاختلاف ----- ۱۶۷۱
حملات كاتب «المنار» الظالمة على الشّيعة: ----- ۱۶۷۲
ثواب أكثر، عقاب أقلّ: ----- ۱۶۷۴
بحوث ----- ۱۶۷۴
اشارة ----- ۱۶۷۴
إنّ المقصود من قوله: «جاء به» ----- ۱۶۷۴
۲- أجر الحسنة، عشرة أضعاف ----- ۱۶۷۵
۳- لماذا كفارة يوم واحد ستين يوما؟ ----- ۱۶۷۵
۴- منتهى اللّطف الرّبانى ----- ۱۶۷۵
الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۳] ----- ۱۶۷۶
اشارة ----- ۱۶۷۶
التّفسير ----- ۱۶۷۶

هذا هو طريقى المستقيم ----- ۱۶۷۶
كيف كان النّبىّ أوّل مسلم؟ ----- ۱۶۷۷
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۴] ----- ۱۶۷۸
اشارة ----- ۱۶۷۸
التّفسير ----- ۱۶۷۸
بحثان ----- ۱۶۷۹
۱- ربّما حملنا وزر غيرنا ----- ۱۶۷۹
۲- هل أن أعمال الآخرين الصالحة تنفعنا؟ ----- ۱۶۷۹
الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۵] ----- ۱۶۸۰
اشارة ----- ۱۶۸۰
التّفسير ----- ۱۶۸۰
اشارة ----- ۱۶۸۰
التفاوت بين أفراد البشر و مبدأ العدالة: ----- ۱۶۸۱
خلافة الإنسان فى الأرض: ----- ۱۶۸۲
سورة الأعراف ----- ۱۶۸۲
اشارة ----- ۱۶۸۲
لمحة سريعة عن محتويات هذه السّورة: ----- ۱۶۸۳
أهمية هذه السّورة: ----- ۱۶۸۴
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۱۶۸۴
اشارة ----- ۱۶۸۴
التّفسير ----- ۱۶۸۴
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴ الى ۵] ----- ۱۶۸۶
اشارة ----- ۱۶۸۶
التّفسير ----- ۱۶۸۶

الأقوام التى هلكت و بادت: ---- ۱۶۸۶
بحوث ---- ۱۶۸۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۶ الى ۹] ---- ۱۶۸۸
اشارة ---- ۱۶۸۸
التّفسير ---- ۱۶۸۸
التّحقيق الشّامل: ---- ۱۶۸۸
المساءلة لماذا؟ ---- ۱۶۸۹
التّوفيق بين آيات المساءلة فى القرآن: ---- ۱۶۸۹
ما هو ميزان الأعمال يوم القيامة؟ ---- ۱۶۹۰
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۰] ---- ۱۶۹۱
اشارة ---- ۱۶۹۲
التّفسير ---- ۱۶۹۲
مكانة الإنسان و عظمته فى عالم الوجود: ---- ۱۶۹۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱ الى ۱۸] ---- ۱۶۹۲
اشارة ---- ۱۶۹۲
التّفسير ---- ۱۶۹۳
قصّة عصيان إبليس ---- ۱۶۹۳
بحثان ---- ۱۶۹۳
۱- سجود الملائكة لم يكن سجود عبادة ---- ۱۶۹۳
۲- إبليس لم يكن من الملائكة ---- ۱۶۹۳
أوّل قياس هو قياس الشيطان: ---- ۱۶۹۴
إبليس أوّل القائلين بالجبر: ---- ۱۶۹۷
فلسفة خلق الشيطان و حكمة إمهاله: ---- ۱۶۹۸
فرضية تطور الأنواع و خلقة آدم: ---- ۱۷۰۰

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹ الى ۲۲] ۱۷۰۰
اشارة ۱۷۰۰
التّفسير ۱۷۰۰
وساوس شيطانيّة فى حلل خلّابة: ۱۷۰۰
بحوث ۱۷۰۲
اشارة ۱۷۰۲
۱- كيفية وسوسة الشيطان ۱۷۰۲
۲- ماذا كانت الشّجرة الممنوعة؟ ۱۷۰۳
۳- هل ارتكب آدم معصية؟ ۱۷۰۴
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ۱۷۰۵
اشارة ۱۷۰۶
التّفسير ۱۷۰۶
رجوع آدم إلى اللّه و توبته: ۱۷۰۶
قصّة آدم و مستقبل هذا العالم: ۱۷۰۶
الجزء الخامس ۱۷۲۲
[تتمة سورة الأعراف ۱۷۲۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ۱۷۲۳
اشارة ۱۷۲۳
التّفسير ۱۷۲۳
إنذار إلى كل أبناء آدم: ۱۷۲۳
نزول اللباس! ۱۷۲۴
اللباس فى الماضى و الحاضر: ۱۷۲۴
ما هو المقصود من الفحشاء؟ ۱۷۲۷
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۹ الى ۳۰] ۱۷۲۸

اشارة ----- ۱۷۲۸
التفسير ----- ۱۷۲۸
بحثان ----- ۱۷۲۹
اشارة ----- ۱۷۲۹
۱- ما المقصود من «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ...» ----- ۱۷۲۹
۲- أقصر الأدلة على المعاد ----- ۱۷۲۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۱۷۳۰
اشارة ----- ۱۷۳۰
التّفسير ----- ۱۷۳۰
اشارة ----- ۱۷۳۰
الزّينة و التّجمل من وجهة نظر الإسلام: ----- ۱۷۳۱
توصية صحية هامّة: ----- ۱۷۳۳
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۳] ----- ۱۷۳۳
اشارة ----- ۱۷۳۳
التّفسير ----- ۱۷۳۴
المحرمات الإلهية: ----- ۱۷۳۴
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۴] ----- ۱۷۳۵
اشارة ----- ۱۷۳۵
التّفسير ----- ۱۷۳۵
لكلّ أمّة أجل: ----- ۱۷۳۵
الرد على خطأ: ----- ۱۷۳۵
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۵ الى ۳۶] ----- ۱۷۳۶
اشارة ----- ۱۷۳۶
التفسير ----- ۱۷۳۶

تعليم آخر لأبناء آدم: ۱۷۳۶
رد على سفسطة أخرى: ۱۷۳۷
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۷] ۱۷۳۷
اشارة ۱۷۳۷
التفسير ۱۷۳۷
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۸ الى ۳۹] ۱۷۳۸
اشارة ۱۷۳۸
التفسير ۱۷۳۸
تنازع القادة و الاتباع فى جهنم! ۱۷۳۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۰ الى ۴۱] ۱۷۴۰
اشارة ۱۷۴۰
التفسير ۱۷۴۰
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۲ الى ۴۳] ۱۷۴۱
اشارة ۱۷۴۱
التّفسير ۱۷۴۱
الطّمأنينة الكاملة و السّعادة الخالدة: ۱۷۴۱
لماذا عبّر بالإرث؟ ۱۷۴۳
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۴ الى ۴۵] ۱۷۴۳
اشارة ۱۷۴۳
التّفسير ۱۷۴۳
اشارة ۱۷۴۳
من هو المؤذّن! و المنادى؟ ۱۷۴۴
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۶ الى ۴۹] ۱۷۴۵
اشارة ۱۷۴۵

التّفسير ----- ۱۷۴۶
الأعراف معبر مهم إلى الجنّة: ----- ۱۷۴۶
من هم أصحاب الأعراب: ----- ۱۷۴۷
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۰ الى ۵۱] ----- ۱۷۴۹
اشارة ----- ۱۷۴۹
التّفسير ----- ۱۷۴۹
نعم الجنّة حرام على أهل النّار: ----- ۱۷۴۹
بحوث ----- ۱۷۴۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۲ الى ۵۳] ----- ۱۷۵۰
اشارة ----- ۱۷۵۰
التّفسير ----- ۱۷۵۱
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۵۴] ----- ۱۷۵۱
اشارة ----- ۱۷۵۱
التّفسير ----- ۱۷۵۲
اشارة ----- ۱۷۵۲
هل خلق العالم فى ستّة أيّام؟ ----- ۱۷۵۲
و هذه الدورات- احتمالا- هى على الترتيب: ----- ۱۷۵۳
لماذا لم يخلق اللّه العالم فى لحظة واحدة؟ ----- ۱۷۵۳
ما هو العرش؟ ----- ۱۷۵۴
ما هو «الخلق» و «الأمر»؟ ----- ۱۷۵۵
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۵ الى ۵۶] ----- ۱۷۵۶
اشارة ----- ۱۷۵۶
التّفسير ----- ۱۷۵۶
شروط استجابة الدعاء: ----- ۱۷۵۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۷ الى ۵۸] ----- ۱۷۵۸
اشارة ----- ۱۷۵۸
التّفسير ----- ۱۷۵۸
لا بد من المربى و القابليّة: ----- ۱۷۵۸
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۹ الى ۶۴] ----- ۱۷۵۹
اشارة ----- ۱۷۵۹
التّفسير ----- ۱۷۵۹
رسالة نوح أوّل الرّسل من أولى العزم: ----- ۱۷۵۹
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۶۵ الى ۷۲] ----- ۱۷۶۱
اشارة ----- ۱۷۶۲
التّفسير ----- ۱۷۶۲
لمحة عن قصّة قوم هود: ----- ۱۷۶۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۷۳ الى ۷۹] ----- ۱۷۶۵
اشارة ----- ۱۷۶۵
التّفسير ----- ۱۷۶۵
قصة قوم صالح و ما فيها من عبر ----- ۱۷۶۵
بأىّ شىء أهلك قوم ثمود: ----- ۱۷۶۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الى ۸۴] ----- ۱۷۶۸
اشارة ----- ۱۷۶۸
التّفسير ----- ۱۷۶۸
مصير قوم لوط المؤلم: ----- ۱۷۶۸
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۵ الى ۸۷] ----- ۱۷۷۰
اشارة ----- ۱۷۷۰
التّفسير ----- ۱۷۷۰

رسالة شعيب فى مدين: ۱۷۷۰
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۸ الى ۸۹] ۱۷۷۲
اشارة ۱۷۷۲
التّفسير ۱۷۷۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۰ الى ۹۳] ۱۷۷۳
اشارة ۱۷۷۳
التّفسير ۱۷۷۳
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۴ الى ۹۵] ۱۷۷۵
اشارة ۱۷۷۵
التّفسير ۱۷۷۵
إذ لم تنفع المواعظ: ۱۷۷۵
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۶ الى ۱۰۰] ۱۷۷۶
اشارة ۱۷۷۶
التّفسير ۱۷۷۶
التّقدم و العمران فى ظل الإيمان و التقوى: ۱۷۷۶
بحوث ۱۷۷۷
اشارة ۱۷۷۷
۱- بركات الأرض و السماء ۱۷۷۷
۲- معنى «البركات» ۱۷۷۷
۳- ماذا يعنى «الأخذ»؟ ۱۷۷۷
۴- المفهوم الواسع للآية ۱۷۷۸
لماذا تعيش الأمم الكافرة فى الرخاء؟ ۱۷۷۸
اشارة ۱۷۷۸
جواب على سؤال: ۱۷۸۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲] ۱۷۸۱
اشارة ۱۷۸۱
التّفسير ۱۷۸۱
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸] ۱۷۸۲
اشارة ۱۷۸۳
التّفسير ۱۷۸۳
المواجهة بين موسى و فرعون: ۱۷۸۳
هل يمكن قلب العصا إلى حية عظيمة؟! ۱۷۸۵
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۲] ۱۷۸۶
اشارة ۱۷۸۶
التّفسير ۱۷۸۷
بدء المواجهة: ۱۷۸۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱۳ الى ۱۲۲] ۱۷۸۸
اشارة ۱۷۸۸
التّفسير ۱۷۸۸
كيف انتصر الحقّ فى النهاية؟ ۱۷۸۸
بحوث ۱۷۸۹
اشارة ۱۷۸۹
۱- المشهد العجيب لسحر السّاحرين ۱۷۸۹
۲- الاستفادة من السلاح المشابه ۱۷۹۰
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۶] ۱۷۹۲
اشارة ۱۷۹۲
التّفسير ۱۷۹۲
التّهديدات الفرعونية الجوفاء: ۱۷۹۲

الاستقامة الواعية: ۱۷۹۴
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۷ الى ۱۲۹] ۱۷۹۵
اشارة ۱۷۹۵
التّفسير ۱۷۹۵
اشارة ۱۷۹۵
سؤال: ۱۷۹۶
جواب: ۱۷۹۶
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۱] ۱۷۹۸
اشارة ۱۷۹۸
التّفسير ۱۷۹۸
العقوبات التنبيهية: ۱۷۹۸
التفاؤل و التشاؤم (الفأل و الطيرة): ۱۸۰۰
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۲ الى ۱۳۳] ۱۸۰۱
اشارة ۱۸۰۱
التّفسير ۱۸۰۱
النّوائب المتنوعة: ۱۸۰۱
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۴ الى ۱۳۶] ۱۸۰۳
اشارة ۱۸۰۳
التّفسير ۱۸۰۳
نقض العهد المتكرر: ۱۸۰۳
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۳۷] ۱۸۰۴
اشارة ۱۸۰۴
التّفسير ۱۸۰۴
قوم فرعون و المصير المؤلم: ۱۸۰۴

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۱] ۱۸۰۶
اشارة ۱۸۰۶
التّفسير ۱۸۰۶
الاقتراح على موسى بصنع الوثن: ۱۸۰۶
بحوث ۱۸۰۷
اشارة ۱۸۰۷
۱- الجهل منشأ الوثنية ۱۸۰۷
۲- أرضية الوثنية عند بنى إسرائيل ۱۸۰۷
۳- الكفرة بالنعم فى بنى إسرائيل ۱۸۰۸
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۲] ۱۸۰۹
اشارة ۱۸۰۹
التّفسير ۱۸۰۹
الميعاد الكبير: ۱۸۰۹
بحوث ۱۸۱۰
اشارة ۱۸۱۰
۱- لماذا التفكيک بين الثلاثين و العشر؟ ۱۸۱۰
۲- كيف نصب موسى عليه السلام هارون قائدا و إماما؟ ۱۸۱۰
۳- لماذا طلب موسى عليه السلام من أخيه الإصلاح و عدم اتّباع المفسدين؟ ۱۸۱۰
۴- ميقات واحد أو مواقيت متعددة؟ ۱۸۱۱
۵- حديث المنزلة ۱۸۱۱
اشارة ۱۸۱۱
أسانيد حديث المنزلة: ۱۸۱۱
حديث المنزلة فى سبعة مواضع: ۱۸۱۳
محتوى حديث المنزلة: ۱۸۱۴

أسئلة حول حديث المنزلة: ۱۸۱۴
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۳] ۱۸۱۶
اشارة ۱۸۱۶
التّفسير ۱۸۱۶
المطالبة برؤية اللّه: ۱۸۱۶
بحوث ۱۸۱۷
اشارة ۱۸۱۷
۱- لماذا طلب موسى رؤية اللّه؟ ۱۸۱۷
۲- هل يمكن رؤية اللّه أساسا؟ ۱۸۱۷
۳- ما هو المراد من تجلّى اللّه؟ ۱۸۱۸
۴- مم تاب موسى عليه السلام؟ ۱۸۱۸
۵- اللّه غير قابل للرؤية مطلقا ۱۸۱۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۵] ۱۸۱۹
اشارة ۱۸۱۹
التّفسير ۱۸۱۹
ألواح التوراة: ۱۸۱۹
بحوث ۱۸۲۰
اشارة ۱۸۲۰
۱- نزول الألواح على موسى ۱۸۲۰
۲- كيف كلّم اللّه موسى؟ ۱۸۲۰
۳- عدم وجوب جميع تعاليم الألواح ۱۸۲۱
۴- هل فى الألواح تعاليم حسنة و أخرى غير حسنة؟ ۱۸۲۱
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷] ۱۸۲۲
اشارة ۱۸۲۲

التّفسير ----- ۱۸۲۲
مصير المتكبرين: ----- ۱۸۲۲
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹] ----- ۱۸۲۳
اشارة ----- ۱۸۲۳
التّفسير ----- ۱۸۲۳
اليهود و عبادتهم للعجل: ----- ۱۸۲۳
كيف كان للعجل الذهبى خوار؟ ----- ۱۸۲۴
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۱] ----- ۱۸۲۵
اشارة ----- ۱۸۲۵
التّفسير ----- ۱۸۲۵
ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل: ----- ۱۸۲۵
مقاربة بين تواريخ القرآن و التوراة الحاضرة: ----- ۱۸۲۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۲ الى ۱۵۴] ----- ۱۸۲۸
اشارة ----- ۱۸۲۸
التّفسير ----- ۱۸۲۸
اشارة ----- ۱۸۲۸
جواب على سؤالين: ----- ۱۸۲۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۶] ----- ۱۸۳۰
اشارة ----- ۱۸۳۰
التّفسير ----- ۱۸۳۰
مندوبو بنى إسرائيل فى الميقات: ----- ۱۸۳۰
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۷] ----- ۱۸۳۳
اشارة ----- ۱۸۳۳
التّفسير ----- ۱۸۳۳

اتبعوا هذا النّبى: ۱۸۳۳
بحوث ۱۸۳۵
اشارة ۱۸۳۵
۱- خمسة أدلة على النّبوة فى آية واحدة ۱۸۳۵
۲- كيف كان النّبى أميّا؟ ۱۸۳۵
۳- البشارات بظهور النّبى فى العهدين: ۱۸۳۷
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۸] ۱۸۳۸
اشارة ۱۸۳۸
التّفسير ۱۸۳۸
دعوة النّبى العالميّة: ۱۸۳۸
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰] ۱۸۳۹
اشارة ۱۸۳۹
التّفسير ۱۸۳۹
جانب من نعم اللّه على بنى إسرائيل: ۱۸۳۹
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۲] ۱۸۴۱
اشارة ۱۸۴۱
التّفسير ۱۸۴۱
اشارة ۱۸۴۱
ما هى «حطّة» و ماذا تعنى؟ ۱۸۴۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۳ الى ۱۶۶] ۱۸۴۲
اشارة ۱۸۴۲
التّفسير ۱۸۴۲
قصّة فيها عبرة: ۱۸۴۳
بحوث ۱۸۴۴

اشارة ----- ۱۸۴۴
۱- كيف ارتكبوا هذه المعصية؟ ----- ۱۸۴۵
۲- من هم الذين نجوا؟ ----- ۱۸۴۵
۳- هل أنّ كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد ----- ۱۸۴۵
۴- هل المسخ كان جسمانيا أو روحانيا؟ ----- ۱۸۴۶
۵- المخالفة تحت غطاء الحيلة الشّرعية ----- ۱۸۴۷
۶- أنواع الابتلاء الإلهى المختلفة ----- ۱۸۴۷
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۷ الى ۱۶۸] ----- ۱۸۴۸
اشارة ----- ۱۸۴۸
التّفسير ----- ۱۸۴۸
تفرق اليهود و تشتتهم: ----- ۱۸۴۸
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۹ الى ۱۷۰] ----- ۱۸۴۹
اشارة ----- ۱۸۴۹
التّفسير ----- ۱۸۴۹
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۷۱] ----- ۱۸۵۱
اشارة ----- ۱۸۵۱
التّفسير ----- ۱۸۵۱
آخر كلام حول اليهود: ----- ۱۸۵۱
أسئلة و أجوبة: ----- ۱۸۵۲
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴] ----- ۱۸۵۳
اشارة ----- ۱۸۵۳
التّفسير ----- ۱۸۵۳
العهد الأوّل و عالم الذّر: ----- ۱۸۵۳
عالم الذر فى الرّوايات الإسلاميّة: ----- ۱۸۵۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۵ الى ۱۷۸] ----- ۱۸۵۶
اشارة ----- ۱۸۵۶
التّفسير ----- ۱۸۵۶
اشارة ----- ۱۸۵۶
العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»: ----- ۱۸۵۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۹ الى ۱۸۱] ----- ۱۸۵۸
اشارة ----- ۱۸۵۹
التّفسير ----- ۱۸۵۹
علائم أهل النّار: ----- ۱۸۵۹
لماذا هم كالأنعام؟ ----- ۱۸۶۰
بحوث ----- ۱۸۶۱
۱- ما هى الأسماء الحسنى؟ ----- ۱۸۶۱
۲- الأمّة الهداة! ----- ۱۸۶۳
۳- اسم اللّه الأعظم ----- ۱۸۶۴
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۲ الى ۱۸۳] ----- ۱۸۶۵
اشارة ----- ۱۸۶۵
التّفسير ----- ۱۸۶۵
الاستدراج! ... ----- ۱۸۶۵
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۴ الى ۱۸۶] ----- ۱۸۶۶
اشارة ----- ۱۸۶۶
سبب النّزول ----- ۱۸۶۷
التّفسير ----- ۱۸۶۷
التهم و الأباطيل: ----- ۱۸۶۷
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۷] ----- ۱۸۶۸

اشارة ----- ۱۸۶۸
سبب النّزول ----- ۱۸۶۸
أيّان يوم القيامة؟! ----- ۱۸۶۸
التّفسير ----- ۱۸۶۹
الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۸] ----- ۱۸۶۹
اشارة ----- ۱۸۶۹
سبب النّزول ----- ۱۸۷۰
التّفسير ----- ۱۸۷۰
لا يعلم الغيب إلّا اللّه: ----- ۱۸۷۰
ملاحظة ----- ۱۸۷۱
ألم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلم الغيب؟! ----- ۱۸۷۱
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۹ الى ۱۹۳] ----- ۱۸۷۲
اشارة ----- ۱۸۷۲
التّفسير ----- ۱۸۷۲
جحد نعمة عظمى: ----- ۱۸۷۲
الجواب على سؤال مهم! ----- ۱۸۷۲
رواية مجعولة: ----- ۱۸۷۳
الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۴ الى ۱۹۵] ----- ۱۸۷۴
اشارة ----- ۱۸۷۴
التّفسير ----- ۱۸۷۵
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۶ الى ۱۹۸] ----- ۱۸۷۶
اشارة ----- ۱۸۷۶
التّفسير ----- ۱۸۷۶
المعبودات التى لا قيمة لها: ----- ۱۸۷۶

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۹ الى ۲۰۳] ۱۸۷۶
اشارة ۱۸۷۶
التّفسير ۱۸۷۷
وساوس الشّيطان: ۱۸۷۷
أجمع آية أخلاقية ...: ۱۸۷۷
الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۰۴ الى ۲۰۶] ۱۸۷۹
اشارة ۱۸۷۹
التّفسير ۱۸۷۹
وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا: ۱۸۸۰
سورة الأنفال ۱۸۸۲
اشارة ۱۸۸۲
نظرة خاطفة إلى محتويات هذه السورة ۱۸۸۲
الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱] ۱۸۸۳
اشارة ۱۸۸۳
سبب النّزول ۱۸۸۳
التّفسير ۱۸۸۳
اشارة ۱۸۸۳
ما هى الأنفال؟ ۱۸۸۴
ملاحظات ۱۸۸۴
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲ الى ۴] ۱۸۸۵
اشارة ۱۸۸۶
التّفسير ۱۸۸۶
خمس صفات خاصّة بالمؤمنين: ۱۸۸۶
الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵ الى ۶] ۱۸۸۷

اشارة ----- ۱۸۸۷
التّفسير ----- ۱۸۸۷
الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۷ الى ۸] ----- ۱۸۸۸
اشارة ----- ۱۸۸۸
غزوة بدر أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام و الكفر ... ----- ۱۸۸۸
التّفسير ----- ۱۸۹۱
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۹ الى ۱۴] ----- ۱۸۹۲
اشارة ----- ۱۸۹۲
التّفسير ----- ۱۸۹۲
دروس مفيدة من ساحة المعركة: ----- ۱۸۹۲
هل قاتلت الملائكة؟ ----- ۱۸۹۳
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۱۵ الى ۱۸] ----- ۱۸۹۵
اشارة ----- ۱۸۹۵
التّفسير ----- ۱۸۹۵
الفرار من الجهاد ممنوع! ----- ۱۸۹۵
الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱۹] ----- ۱۸۹۸
اشارة ----- ۱۸۹۸
التّفسير ----- ۱۸۹۸
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۰ الى ۲۳] ----- ۱۸۹۹
اشارة ----- ۱۸۹۹
التّفسير ----- ۱۸۹۹
الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون! ----- ۱۸۹۹
ملاحظتان ----- ۱۹۰۰
۱- «و لو علم اللّه فيهم خيرا لأسمعهم» ----- ۱۹۰۰

۲- لاستماع الحق مراحل ۱۹۰۰
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۴ الى ۲۶] ۱۹۰۱
اشارة ۱۹۰۱
التّفسير ۱۹۰۱
دعوة للحياة: ۱۹۰۱
الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۷ الى ۲۸] ۱۹۰۴
اشارة ۱۹۰۴
سبب النّزول ۱۹۰۴
التّفسير ۱۹۰۵
الخيانة و أساسها: ۱۹۰۵
الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۲۹] ۱۹۰۶
اشارة ۱۹۰۶
التّفسير ۱۹۰۶
الإيمان و وضوح الرّؤية: ۱۹۰۶
الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۳۰] ۱۹۰۸
اشارة ۱۹۰۸
سبب النّزول ۱۹۰۹
التّفسير ۱۹۰۹
سرّ بداية الهجرة: ۱۹۰۹
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۱ الى ۳۵] ۱۹۱۰
اشارة ۱۹۱۰
التّفسير ۱۹۱۰
القائلون شططا: ۱۹۱۰
الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ۱۹۱۳

اشارة ----- ۱۹۱۳
سبب النّزول ----- ۱۹۱۳
التّفسير ----- ۱۹۱۴
ملاحظات ----- ۱۹۱۴
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۱۹۱۵
اشارة ----- ۱۹۱۵
التّفسير ----- ۱۹۱۵
اشارة ----- ۱۹۱۵
الهدف من الجهاد و بشرى كريمة: ----- ۱۹۱۶
الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۴۱] ----- ۱۹۱۷
اشارة ----- ۱۹۱۷
التّفسير ----- ۱۹۱۷
الخمس فرض إسلامى مهم: ----- ۱۹۱۷
ملاحظات ----- ۱۹۱۸
۱- يوم الفرقان بين الحق و الباطل ----- ۱۹۱۸
[۲- عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال و هذه الآية] ----- ۱۹۱۸
۳- ما هو المراد من ذى القربى؟ ----- ۱۹۱۸
۴- ما هو المراد من اليتامى و المساكين و ابن السبيل ----- ۱۹۱۹
۵- هل الغنائم منحصرة فى غنائم الحرب ----- ۱۹۱۹
اشارة ----- ۱۹۱۹
و أمّا ما قاله المفسّرون: ----- ۱۹۲۰
۶- ألا يعد تخصيص نصف الخمس لبنى هاشم تبعيضا بين المسلمين؟! ----- ۱۹۲۲
اشارة ----- ۱۹۲۲
الجواب: ----- ۱۹۲۲

۷- ما هو المراد من سهم اللّه؟ ۱۹۲۳
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴] ۱۹۲۴
اشارة ۱۹۲۴
التّفسير ۱۹۲۴
الأمر الذى لا بدّ منه: ۱۹۲۴
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ۱۹۲۶
اشارة ۱۹۲۶
التّفسير ۱۹۲۶
ستة أوامر أخرى فى شأن الجهاد: ۱۹۲۶
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۸ الى ۵۱] ۱۹۲۸
اشارة ۱۹۲۸
التّفسير ۱۹۲۸
المشركون و المنافقون و وساوس الشيّطان: ۱۹۲۸
هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسدا لهم؟ ۱۹۲۹
الآيات: [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۲ الى ۵۴] ۱۹۳۰
اشارة ۱۹۳۰
التّفسير ۱۹۳۱
سنّة اللّه تقبل التغيير و التبديل: ۱۹۳۱
الجواب على سؤال: ۱۹۳۱
ملاحظتان ۱۹۳۲
۱- أسباب حياة الشعوب و موتها ۱۹۳۲
۲- لا جبر فى العاقبة و لا جبر فى التأريخ، و لا فى سائر الأمور ... ۱۹۳۴
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۵ الى ۵۹] ۱۹۳۴
اشارة ۱۹۳۴

التّفسير ----- ۱۹۳۴
مواجهة من ينقض العهد بشدّة! ----- ۱۹۳۴
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۰ الى ۶۴] ----- ۱۹۳۶
اشارة ----- ۱۹۳۶
التّفسير ----- ۱۹۳۶
المزيد من التعبئة العسكرية و الهدف منها: ----- ۱۹۳۶
ملاحظات ----- ۱۹۳۶
اشارة ----- ۱۹۳۶
الهدف من تهيئة السلاح و زيادة التعبئة العسكرية: ----- ۱۹۳۸
ملاحظتان ----- ۱۹۳۹
۱- من هم المقصودون فى الآية «الذين لا تعلمونهم» ----- ۱۹۳۹
۲- الاستعداد فى كل مكان و زمان ----- ۱۹۳۹
أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه: ----- ۱۹۴۰
الاستعداد للصّلح: ----- ۱۹۴۰
ملاحظتان ----- ۱۹۴۲
الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۵ الى ۶۶] ----- ۱۹۴۲
اشارة ----- ۱۹۴۲
التّفسير ----- ۱۹۴۲
لا ترتقبوا تساوى القوى: ----- ۱۹۴۳
بحوث ----- ۱۹۴۴
اشارة ----- ۱۹۴۴
۱- هل نسخت الآية الأولى ----- ۱۹۴۴
۲- أسطورة توازن القوى ----- ۱۹۴۴
۳- ما هو المراد من الآيتين؟ ----- ۱۹۴۵

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۷ الى ۷۱] ----- ۱۹۴۶
اشارة ----- ۱۹۴۶
التّفسير ----- ۱۹۴۶
أسرى الحرب: ----- ۱۹۴۶
ملاحظات ----- ۱۹۴۷
اشارة ----- ۱۹۴۷
هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقىّ عادل؟! ----- ۱۹۴۹
الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۷۲ الى ۷۵] ----- ۱۹۵۰
اشارة ----- ۱۹۵۱
التّفسير ----- ۱۹۵۱
أربع طوائف مختلفة: ----- ۱۹۵۱
ملاحظات ----- ۱۹۵۳
۱- الهجرة و الجهاد ----- ۱۹۵۳
۲- المبالغة و الإغراق فى تنزيه الصحابة ----- ۱۹۵۴
۳- الإرث فى قوانين الإسلام ----- ۱۹۵۶
۴- ما المراد من الفتنة و الفساد الكبير ----- ۱۹۵۶
سورة التّوبة ----- ۱۹۵۶
اشارة ----- ۱۹۵۶
۱- أسماء هذه السّورة ... ----- ۱۹۵۷
۲- متى نزلت هذه السورة ----- ۱۹۵۷
۳- محتوى السّورة ----- ۱۹۵۷
۴- لم لم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟ ----- ۱۹۵۸
۵- فضيلة هذه السورة و آثارها ----- ۱۹۵۸
۶- حقيقة تأريخية يسعى بعضهم إلى طمس معالمها ----- ۱۹۵۹

توضيح و تحقيق: ۱۹۶۰
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱ الى ۲] ۱۹۶۱
اشارة ۱۹۶۱
التّفسير ۱۹۶۱
إلغاء عهود المشركين: ۱۹۶۱
ملاحظتان ۱۹۶۲
۱- هل يصحّ إلغاء المعاهدة من جانب واحد؟! ۱۹۶۲
۲- متى بدأت الأشهر الأربعة؟ ۱۹۶۳
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳ الى ۴] ۱۹۶۳
اشارة ۱۹۶۳
التّفسير ۱۹۶۳
العهود المحترمة: ۱۹۶۳
ملاحظات ۱۹۶۴
۱- الحج الأكبر! ۱۹۶۴
۲- المواد الأربع التى أعلنت ذلک اليوم ۱۹۶۵
۳- من هم الذين كانت لهم عهود «إلى مدّة» ۱۹۶۵
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵ الى ۶] ۱۹۶۵
اشارة ۱۹۶۵
التّفسير ۱۹۶۵
الشدّة المقرونة بالرّفق: ۱۹۶۵
ملاحظات ۱۹۶۶
۱- ما المراد من الأشهر الحرم؟ ۱۹۶۷
۲- هل الصّلاة و الزّكاة شرط فى قبول الإسلام؟ ۱۹۶۷
۳- الإيمان وليد العلم ۱۹۶۷

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۷ الى ۱۰] ۱۹۶۷
اشارة ۱۹۶۷
التّفسير ۱۹۶۸
المعتدون النّاقضون العهد: ۱۹۶۸
ملاحظتان ۱۹۶۹
۱- من هم المستثنون فى هذه الآية؟ ۱۹۶۹
۲- متى يجوز الغاء المعاهدة؟ ۱۹۷۰
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ۱۹۷۰
اشارة ۱۹۷۰
التّفسير ۱۹۷۰
لم تخشون مقاتلة العدوّ؟! ۱۹۷۰
ملاحظات ۱۹۷۲
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۶] ۱۹۷۳
اشارة ۱۹۷۳
التّفسير ۱۹۷۴
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۷ الى ۱۸] ۱۹۷۴
اشارة ۱۹۷۴
التّفسير ۱۹۷۵
من يعمر مساجد اللّه؟ ۱۹۷۵
ملاحظات ۱۹۷۵
۱- ما المراد من العمارة ۱۹۷۵
۲- العمل الخالص ينبع من الإيمان فحسب ۱۹۷۶
۳- الحماة الشجعان ۱۹۷۶
۴- هل المراد من الآية هو المسجد الحرام فحسب؟! ۱۹۷۶

۵- أهمية بناء المساجد ----- ۱۹۷۷
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۹ الى ۲۲] ----- ۱۹۷۷
اشارة ----- ۱۹۷۷
سبب النّزول ----- ۱۹۷۷
التّفسير ----- ۱۹۷۸
مقياس الفخر و الفضل: ----- ۱۹۷۸
ملاحظتان ----- ۱۹۷۹
۱- تحريف التاريخ ----- ۱۹۷۹
۲- ما هو مقام الرضوان؟ ----- ۱۹۸۱
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۲۳ الى ۲۴] ----- ۱۹۸۱
اشارة ----- ۱۹۸۱
التّفسير ----- ۱۹۸۱
كلّ شيء فداء للهدف: ----- ۱۹۸۱
ملاحظات ----- ۱۹۸۳
اشارة ----- ۱۹۸۳
الماضى و الحاضر مرهونان بهذا الأمر: ----- ۱۹۸۳
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۲۵ الى ۲۷] ----- ۱۹۸۳
اشارة ----- ۱۹۸۴
التّفسير ----- ۱۹۸۴
الكثرة وحدها لا تجدى نفعا: ----- ۱۹۸۴
ملاحظات ----- ۱۹۸۵
۱- غزوة حنين ذات العبرة ----- ۱۹۸۵
۲- من هم الفارّين ----- ۱۹۸۶
۳- الإيمان و السكينة ----- ۱۹۸۷

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۲۸] ۱۹۸۸
اشارة ۱۹۸۸
التّفسير ۱۹۸۸
لا يحقّ للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام: ۱۹۸۸
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۲۹] ۱۹۸۹
اشارة ۱۹۸۹
التّفسير ۱۹۸۹
مسئوليتنا إزاء أهل الكتاب: ۱۹۸۹
ما هى الجزية؟! ۱۹۹۱
نص كتاب المعاهدة: ۱۹۹۲
الجزء السادس ۲۰۰۴
[تتمة سورة التوبة] ۲۰۰۴
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ۲۰۰۴
اشارة ۲۰۰۴
التّفسير ۲۰۰۵
شرك أهل الكتاب: ۲۰۰۵
بحوث ۲۰۰۵
۱- من هو عزير؟! ۲۰۰۵
۲- لم يكن المسيح ابن اللّه ۲۰۰۶
۳- اقتباس هذه الخرافات ۲۰۰۶
۴- ما هو معنى قاتَلَهُمُ اللَّهُ ۲۰۰۷
درس تعليمى: ۲۰۰۸
ملاحظات ۲۰۰۸
اشارة ۲۰۰۸

المستقبل للإسلام: ----- ۲۰۰۹
بحوث ----- ۲۰۰۹
۱- المراد «الهدى و دين الحقّ» ----- ۲۰۰۹
۲- انتصار المنطق أم انتصر القوّة؟ ----- ۲۰۱۰
۳- القرآن و ظهور المهدى ----- ۲۰۱۰
الرّوايات الإسلاميهٔ فى المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» ----- ۲۰۱۱
ثمّ تضيف الرسالهٔ: ----- ۲۰۱۲
الانتظار و آثاره البنّاءهٔ: ----- ۲۰۱۳
الرّوايات الشّريفهٔ: ----- ۲۰۱۴
مفهوم الانتظار! ----- ۲۰۱۴
الانتظار يعنى الاستعداد الكامل: ----- ۲۰۱۵
الحكمهٔ الأولى، بناء الشّخصيهٔ الفرديّهٔ: ----- ۲۰۱۶
الحكمهٔ الثّانيهٔ، التعاون الاجتماعى: ----- ۲۰۱۶
الحكمهٔ الثّالثهٔ، المنتظرون بحق لا يذوبون فى المحيط الفاسد: ----- ۲۰۱۷
الآيتان [سورهٔ التوبهٔ (۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵] ----- ۲۰۱۸
اشارهٔ ----- ۲۰۱۸
التّفسير ----- ۲۰۱۸
كنز الأموال: ----- ۲۰۱۸
حتى يعدّ جمع الثروهٔ كنزا؟ ----- ۲۰۲۰
أبو ذر و الاشتراكيهٔ!! ----- ۲۰۲۲
جزاء من يكنز! ----- ۲۰۲۴
الآيتان [سورهٔ التوبهٔ (۹): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ----- ۲۰۲۴
اشارهٔ ----- ۲۰۲۴
التّفسير ----- ۲۰۲۴

وقف القتال «الإجبارى»: ----- ۲۰۲۵
بحوث ----- ۲۰۲۶
۱- فلسفة الأشهر الحرم! ----- ۲۰۲۶
۲- مفهوم النسىء و فلسفته فى الجاهليّة ----- ۲۰۲۶
۳- وحدة الكلمة مقابل العدو ----- ۲۰۲۷
۴- كيف يزيّن للناس سوء أعمالهم؟! ----- ۲۰۲۷
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۸ الى ۳۹] ----- ۲۰۲۸
اشارة ----- ۲۰۲۸
سبب النّزول ----- ۲۰۲۸
التّفسير ----- ۲۰۲۸
التّحرك نحو سوح الجهاد مرّة أخرى ----- ۲۰۲۸
ملاحظات ----- ۲۰۲۹
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۴۰] ----- ۲۰۳۰
اشارة ----- ۲۰۳۰
التّفسير ----- ۲۰۳۰
المدد الإلهى للرّسول فى أشد اللحظات: ----- ۲۰۳۰
قصّة صاحب النّبى فى الغار: ----- ۲۰۳۱
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۱ الى ۴۲] ----- ۲۰۳۲
اشارة ----- ۲۰۳۲
التّفسير ----- ۲۰۳۲
الكسالى الطّامعون: ----- ۲۰۳۲
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۳ الى ۴۵] ----- ۲۰۳۳
اشارة ----- ۲۰۳۳
التّفسير ----- ۲۰۳۴

التعرّف على المنافقين! ----- ۲۰۳۴
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۶ الى ۴۸] ----- ۲۰۳۵
اشارة ----- ۲۰۳۵
التّفسير ----- ۲۰۳۶
عدم وجودهم أفضل: ----- ۲۰۳۶
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۴۹] ----- ۲۰۳۷
اشارة ----- ۲۰۳۷
سبب النزول ----- ۲۰۳۷
التّفسير ----- ۲۰۳۸
المنافقون المتذرّعون: ----- ۲۰۳۸
ملاحظتان ----- ۲۰۳۸
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۰ الى ۵۲] ----- ۲۰۳۸
اشارة ----- ۲۰۳۹
التّفسير ----- ۲۰۳۹
بحوث ----- ۲۰۳۹
۱- المقادير و سعى الإنسان ----- ۲۰۳۹
۲- لا وجود للهزيمة فى قاموس المؤمنين ----- ۲۰۴۰
۳- صفات المنافقين ----- ۲۰۴۱
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۳ الى ۵۵] ----- ۲۰۴۱
اشارة ----- ۲۰۴۱
التّفسير ----- ۲۰۴۱
ملاحظتان ----- ۲۰۴۳
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۶ الى ۵۷] ----- ۲۰۴۳
اشارة ----- ۲۰۴۳

التّفسير ----- ۲۰۴۳
علامة أخرى للمنافقين: ----- ۲۰۴۳
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۸ الى ۵۹] ----- ۲۰۴۴
اشارة ----- ۲۰۴۴
سبب النّزول ----- ۲۰۴۴
التّفسير ----- ۲۰۴۴
الأنانيون السفهاء: ----- ۲۰۴۴
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۰] ----- ۲۰۴۵
اشارة ----- ۲۰۴۵
التّفسير ----- ۲۰۴۵
موارد صرف الزكاة و دقائقها: ----- ۲۰۴۵
بحوث ----- ۲۰۴۷
اشارة ----- ۲۰۴۷
۱- الفرق بين الفقير و المسكين ----- ۲۰۴۷
۲- هل يجب تقسيم الزّكاة إلى ثمانية أجزاء متساوية؟ ----- ۲۰۴۷
۳- متى شرعت الزّكاة؟ ----- ۲۰۴۸
۴- من هم المقصودون ب الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ----- ۲۰۴۸
۵- دور الزّكاة فى الإسلام ----- ۲۰۴۸
۶- ما الفرق بين العطف ب «اللام أو فى»؟ ----- ۲۰۴۹
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۱] ----- ۲۰۵۰
اشارة ----- ۲۰۵۰
سبب النّزول ----- ۲۰۵۰
هذا حسن لا قبيح! ----- ۲۰۵۰
التّفسير ----- ۲۰۵۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۲ الى ۶۳] ----- ۲۰۵۲
اشارة ----- ۲۰۵۲
سبب النّزول ----- ۲۰۵۲
التّفسير ----- ۲۰۵۲
المنافقون و التظاهر بالحق: ----- ۲۰۵۲
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۴ الى ۶۶] ----- ۲۰۵۳
اشارة ----- ۲۰۵۳
سبب النّزول ----- ۲۰۵۳
التّفسير ----- ۲۰۵۴
مؤامرة أخرى للمنافقين: ----- ۲۰۵۴
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۷ الى ۷۰] ----- ۲۰۵۶
اشارة ----- ۲۰۵۶
التّفسير ----- ۲۰۵۶
علامات المنافقين: ----- ۲۰۵۶
تكرر التأريخ و الإعتبار به: ----- ۲۰۵۷
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲] ----- ۲۰۵۹
اشارة ----- ۲۰۵۹
التّفسير ----- ۲۰۵۹
صفات المؤمنين الحقيقيين: ----- ۲۰۵۹
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۷۳] ----- ۲۰۶۱
اشارة ----- ۲۰۶۱
التّفسير ----- ۲۰۶۱
جهاد الكفار و المنافقين: ----- ۲۰۶۱
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۷۴] ----- ۲۰۶۲

اشارة ----- ۲۰۶۲
سبب النّزول ----- ۲۰۶۲
التّفسير ----- ۲۰۶۳
مؤامرة خطرة: ----- ۲۰۶۳
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۵ الى ۷۸] ----- ۲۰۶۴
اشارة ----- ۲۰۶۴
سبب النّزول ----- ۲۰۶۴
التّفسير ----- ۲۰۶۵
المنافقون و قلّة الاستيعاب: ----- ۲۰۶۵
ملاحظات ----- ۲۰۶۶
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۹ الى ۸۰] ----- ۲۰۶۸
اشارة ----- ۲۰۶۸
سبب النّزول ----- ۲۰۶۸
التّفسير ----- ۲۰۶۸
خبث المنافقين: ----- ۲۰۶۸
ملاحظات ----- ۲۰۶۹
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۱ الى ۸۳] ----- ۲۰۷۱
اشارة ----- ۲۰۷۱
التّفسير ----- ۲۰۷۱
إعاقة المنافقين مرّة أخرى: ----- ۲۰۷۱
ملاحظات ----- ۲۰۷۲
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۴ الى ۸۵] ----- ۲۰۷۳
اشارة ----- ۲۰۷۳
التّفسير ----- ۲۰۷۳

أسلوب أشدّ فى مواجهة المنافقين: ----- ۲۰۷۳
و هنا يجب الانتباه لمسألتين: ----- ۲۰۷۴
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۶ الى ۸۹] ----- ۲۰۷۵
اشارة ----- ۲۰۷۵
التّفسير ----- ۲۰۷۵
دناءة الهمّة ----- ۲۰۷۵
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۹۰] ----- ۲۰۷۷
اشارة ----- ۲۰۷۷
التّفسير ----- ۲۰۷۷
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۱ الى ۹۳] ----- ۲۰۷۸
اشارة ----- ۲۰۷۸
سبب النّزول ----- ۲۰۷۸
التّفسير ----- ۲۰۷۸
العشق للجهاد و دموع الحسرة: ----- ۲۰۷۸
ملاحظات ----- ۲۰۸۰
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۴ الى ۹۶] ----- ۲۰۸۱
اشارة ----- ۲۰۸۱
سبب النّزول ----- ۲۰۸۱
التّفسير ----- ۲۰۸۱
لا تصغوا إلى أعذارهم و أيمانهم الكاذبة: ----- ۲۰۸۱
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۷ الى ۹۹] ----- ۲۰۸۳
اشارة ----- ۲۰۸۳
التّفسير ----- ۲۰۸۳
الأعراب القساة و المؤمنون: ----- ۲۰۸۳

بحوث ----- ۲۰۸۴
اشارة ----- ۲۰۸۵
۱- التّجمعات الكبيرة ----- ۲۰۸۵
۲- الأعراب من سكان المدن ----- ۲۰۸۵
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۰] ----- ۲۰۸۶
اشارة ----- ۲۰۸۶
التّفسير ----- ۲۰۸۶
السّابقون إلى الإسلام: ----- ۲۰۸۶
بحوث ----- ۲۰۸۷
۱- موقع السّابقين ----- ۲۰۸۷
۲- من هم التابعون؟ ----- ۲۰۸۷
۳- من هو أوّل من أسلم؟ ----- ۲۰۸۸
۴- هل كان الصحابة كلهم صالحين؟ ----- ۲۰۹۰
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۱] ----- ۲۰۹۱
اشارة ----- ۲۰۹۱
التّفسير ----- ۲۰۹۱
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۲] ----- ۲۰۹۲
اشارة ----- ۲۰۹۲
سبب النّزول ----- ۲۰۹۳
التّفسير ----- ۲۰۹۳
التّوابون: ----- ۲۰۹۳
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۵] ----- ۲۰۹۴
اشارة ----- ۲۰۹۴
التّفسير ----- ۲۰۹۴

الزّكاة مطهرة للفرد و المجتمع: ----- ۲۰۹۴
ملاحظات ----- ۲۰۹۵
اشارة ----- ۲۰۹۵
التّوبة و الجبران: ----- ۲۰۹۷
ملاحظات ----- ۲۰۹۷
۱- مسألة عرض الأعمال ----- ۲۰۹۷
۲- هل الرّؤية هنا تعنى النظر؟ ----- ۲۰۹۹
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۶] ----- ۲۰۹۹
اشارة ----- ۲۰۹۹
سبب النّزول ----- ۲۰۹۹
التّفسير ----- ۲۱۰۰
اشارة ----- ۲۱۰۰
سؤال: ----- ۲۱۰۰
الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۰] ----- ۲۱۰۱
اشارة ----- ۲۱۰۱
سبب النّزول ----- ۲۱۰۱
التّفسير ----- ۲۱۰۳
معبد و ثنى فى صورة مسجد! ----- ۲۱۰۳
بحوث ----- ۲۱۰۵
۱- درس كبير ----- ۲۱۰۵
۲- النفى لا يكفى لوحده! ----- ۲۱۰۷
۳- شرطان أساسيان ----- ۲۱۰۷
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲] ----- ۲۱۰۷
اشارة ----- ۲۱۰۷

التّفسير ----- ۲۱۰۸
تجارة لا نظير لها: ----- ۲۱۰۸
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴] ----- ۲۱۱۰
اشارة ----- ۲۱۱۰
سبب النّزول ----- ۲۱۱۰
التّفسير ----- ۲۱۱۱
ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء: ----- ۲۱۱۱
ملاحظات ----- ۲۱۱۱
۱- رواية موضوعة! ----- ۲۱۱۲
۲- لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار؟ ----- ۲۱۱۳
۳- ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء ----- ۲۱۱۴
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۵ الى ۱۱۶] ----- ۲۱۱۴
اشارة ----- ۲۱۱۴
سبب النّزول ----- ۲۱۱۴
التّفسير ----- ۲۱۱۴
العقاب بعد البيان: ----- ۲۱۱۴
جواب سؤال ----- ۲۱۱۵
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸] ----- ۲۱۱۶
اشارة ----- ۲۱۱۶
سبب النّزول ----- ۲۱۱۶
درس كبير! ----- ۲۱۱۶
التّفسير ----- ۲۱۱۷
الحصار الاجتماعى للمذنبين: ----- ۲۱۱۷
بحوث ----- ۲۱۱۸

اشارة ----- ۲۱۱۸
۱- المراد من توبة اللّه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ----- ۲۱۱۸
۲- غزوة تبوک و ساعة العسرة ----- ۲۱۱۹
۳- ما هو معنى خُلِّفُوا؟ ----- ۲۱۱۹
۴- درس كبير دائمى ----- ۲۱۲۰
۵- غزوة تبوک و نتائجها ----- ۲۱۲۰
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۱۹] ----- ۲۱۲۱
اشارة ----- ۲۱۲۱
التّفسير ----- ۲۱۲۱
كونوا مع الصّادقين: ----- ۲۱۲۲
هل المراد من الصّادقين هم المعصومون فقط؟ ----- ۲۱۲۲
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۱] ----- ۲۱۲۴
اشارة ----- ۲۱۲۴
التّفسير ----- ۲۱۲۴
معاناة المجاهدين لا تبقى بدون ثواب: ----- ۲۱۲۴
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۲۲] ----- ۲۱۲۶
اشارة ----- ۲۱۲۶
سبب النّزول ----- ۲۱۲۶
التّفسير ----- ۲۱۲۶
محاربة الجهل و جهاد العدو: ----- ۲۱۲۶
ملاحظات ----- ۲۱۲۷
الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۲۳] ----- ۲۱۲۹
اشارة ----- ۲۱۲۹
التّفسير ----- ۲۱۲۹

قتال الأقرب فالأقرب: ۲۱۲۹
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۴ الى ۱۲۵] ۲۱۳۰
اشارة ۲۱۳۰
التّفسير ۲۱۳۰
تأثير آيات القرآن المتباين على القلوب: ۲۱۳۰
ملاحظات ۲۱۳۱
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۶ الى ۱۲۷] ۲۱۳۲
اشارة ۲۱۳۲
التّفسير ۲۱۳۲
الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹] ۲۱۳۳
اشارة ۲۱۳۳
التّفسير ۲۱۳۳
آخر آيات القرآن المجيد: ۲۱۳۳
سورة يونس ۲۱۳۵
اشارة ۲۱۳۵
محتوى و فضيلة هذه السورة ۲۱۳۵
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱ الى ۲] ۲۱۳۶
اشارة ۲۱۳۶
التّفسير ۲۱۳۶
رسالة النّبى: ۲۱۳۶
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳ الى ۴] ۲۱۳۷
اشارة ۲۱۳۸
التّفسير ۲۱۳۸
معرفة اللّه و المعاد: ۲۱۳۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵ الى ۶] ----- ۲۱۳۹
اشارة ----- ۲۱۴۰
التّفسير ----- ۲۱۴۰
جانب من آيات عظمة اللّه: ----- ۲۱۴۰
ملاحظات ----- ۲۱۴۱
و هنا ملاحظات ينبغى الانتباه لها: ----- ۲۱۴۱
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۲۱۴۳
اشارة ----- ۲۱۴۳
التّفسير ----- ۲۱۴۳
أهل الجنّة و النّار: ----- ۲۱۴۳
ملاحظات ----- ۲۱۴۴
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ----- ۲۱۴۵
اشارة ----- ۲۱۴۵
التّفسير ----- ۲۱۴۵
الهمج الرّعاع: ----- ۲۱۴۵
الإنسان فى القرآن الكريم: ----- ۲۱۴۶
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۳ الى ۱۴] ----- ۲۱۴۷
اشارة ----- ۲۱۴۷
التّفسير ----- ۲۱۴۷
الإعتبار بالظّالمين السابقين: ----- ۲۱۴۷
ملاحظات ----- ۲۱۴۸
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۵ الى ۱۷] ----- ۲۱۴۸
اشارة ----- ۲۱۴۸
سبب النّزول ----- ۲۱۴۸

التّفسير ----- ۲۱۴۸
ملاحظات ----- ۲۱۴۹
الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۱۸] ----- ۲۱۵۰
اشارة ----- ۲۱۵۰
التّفسير ----- ۲۱۵۰
آلهة بدون خاصية! ----- ۲۱۵۰
الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۱۹] ----- ۲۱۵۱
اشارة ----- ۲۱۵۱
التّفسير ----- ۲۱۵۱
الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۲۰] ----- ۲۱۵۲
اشارة ----- ۲۱۵۲
التّفسير ----- ۲۱۵۲
المعجزات المقترحة! ----- ۲۱۵۲
ملاحظتان ----- ۲۱۵۲
و هنا ملاحظتان ينبغى الالتفات إليهما: ----- ۲۱۵۲
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۱ الى ۲۳] ----- ۲۱۵۳
اشارة ----- ۲۱۵۳
التّفسير ----- ۲۱۵۳
ملاحظات ----- ۲۱۵۵
و هنا يجب الالتفات إلى عدّة ملاحظات: ----- ۲۱۵۵
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۴ الى ۲۵] ----- ۲۱۵۶
اشارة ----- ۲۱۵۶
التّفسير ----- ۲۱۵۶
لوحة الحياة الدّنيا: ----- ۲۱۵۶

ملاحظات ----- ۲۱۵۷
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۶ الى ۲۷] ----- ۲۱۵۷
اشارة ----- ۲۱۵۷
التّفسير ----- ۲۱۵۸
بيض الوجوه و سود الوجوه: ----- ۲۱۵۸
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۸ الى ۳۰] ----- ۲۱۵۹
اشارة ----- ۲۱۵۹
التّفسير ----- ۲۱۵۹
مشهد من قيامة عبدة الأوثان: ----- ۲۱۵۹
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۱ الى ۳۳] ----- ۲۱۶۰
اشارة ----- ۲۱۶۰
التّفسير ----- ۲۱۶۱
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۴ الى ۳۶] ----- ۲۱۶۳
اشارة ----- ۲۱۶۳
التّفسير ----- ۲۱۶۳
واحدة من علامات الحق و الباطل: ----- ۲۱۶۳
ملاحظات ----- ۲۱۶۴
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰] ----- ۲۱۶۵
اشارة ----- ۲۱۶۵
التّفسير ----- ۲۱۶۵
عظمة دعوة القرآن و حقانيته: ----- ۲۱۶۵
مظاهر و تجليات جديدة من إعجاز القرآن: ----- ۲۱۶۶
الجهل و الإنكار: ----- ۲۱۶۹
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ----- ۲۱۷۰

اشارة ----- ۲۱۷۰
التّفسير ----- ۲۱۷۰
العمى و الصمّ: ----- ۲۱۷۰
ملاحظتان ----- ۲۱۷۱
و هنا ينبغى الالتفات لملاحظتين: ----- ۲۱۷۱
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ----- ۲۱۷۱
اشارة ----- ۲۱۷۱
التّفسير ----- ۲۱۷۱
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۸ الى ۵۲] ----- ۲۱۷۲
اشارة ----- ۲۱۷۲
التّفسير ----- ۲۱۷۲
العذاب الإلهى و اختيارات الرّسول: ----- ۲۱۷۲
ملاحظات ----- ۲۱۷۴
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۳ الى ۵۶] ----- ۲۱۷۴
اشارة ----- ۲۱۷۴
التّفسير ----- ۲۱۷۵
لا معنى للشك فى العذاب الإلهى: ----- ۲۱۷۵
ملاحظتان ----- ۲۱۷۶
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۷ الى ۵۸] ----- ۲۱۷۶
اشارة ----- ۲۱۷۶
التّفسير ----- ۲۱۷۶
القرآن رحمة إلهية كبرى: ----- ۲۱۷۶
ملاحظتان ----- ۲۱۷۷
۱- هل أنّ القلب هو مركز الإحساسات؟ ----- ۲۱۷۷

۲- ما هو الفرق بين الفضل و الرحمة؟ ----- ۲۱۷۸
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۹ الى ۶۱] ----- ۲۱۷۹
اشارة ----- ۲۱۷۹
التّفسير ----- ۲۱۷۹
هو الشاهد فى كل مكان! ----- ۲۱۷۹
ملاحظات ----- ۲۱۸۰
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۲ الى ۶۵] ----- ۲۱۸۲
اشارة ----- ۲۱۸۲
التّفسير ----- ۲۱۸۲
طمأنينة الروح فى ظل الإيمان: ----- ۲۱۸۲
ملاحظتان ----- ۲۱۸۴
اشارة ----- ۲۱۸۴
۱- ما هو المراد من البشارة فى الآية؟ ----- ۲۱۸۴
۲- الرّويات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام ----- ۲۱۸۵
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۶ الى ۶۷] ----- ۲۱۸۶
اشارة ----- ۲۱۸۶
التّفسير ----- ۲۱۸۶
جانب من آيات عظمته: ----- ۲۱۸۶
ملاحظات ----- ۲۱۸۷
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۸ الى ۷۰] ----- ۲۱۸۷
اشارة ----- ۲۱۸۷
التّفسير ----- ۲۱۸۷
ملاحظات ----- ۲۱۸۸
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۱ الى ۷۳] ----- ۲۱۸۹

اشارة ----- ۲۱۸۹
التّفسير ----- ۲۱۸۹
جانب من جهاد نوح: ----- ۲۱۸۹
الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۷۴] ----- ۲۱۹۰
اشارة ----- ۲۱۹۰
التّفسير ----- ۲۱۹۰
الرّسل بعد نوح: ----- ۲۱۹۰
ملاحظتان ----- ۲۱۹۰
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۵ الى ۷۸] ----- ۲۱۹۱
اشارة ----- ۲۱۹۱
التّفسير ----- ۲۱۹۱
جانب من جهاد موسى و هارون: ----- ۲۱۹۱
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۹ الى ۸۲] ----- ۲۱۹۲
اشارة ----- ۲۱۹۳
التّفسير ----- ۲۱۹۳
المرحلة الثّانية: ----- ۲۱۹۳
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۳ الى ۸۶] ----- ۲۱۹۴
اشارة ----- ۲۱۹۴
التّفسير ----- ۲۱۹۴
المرحلة الثّالثة: ----- ۲۱۹۴
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۷ الى ۸۹] ----- ۲۱۹۶
اشارة ----- ۲۱۹۶
التّفسير ----- ۲۱۹۶
المرحلة الرّابعة: مرحلة البناء من أجل الثّورة: ----- ۲۱۹۶

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۰ الى ۹۳] ---- ۲۱۹۷
اشارة ---- ۲۱۹۸
التّفسير ---- ۲۱۹۸
الفصل الأخير من المجابهة مع الظّالمين: ---- ۲۱۹۸
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۴ الى ۹۷] ---- ۲۲۰۰
اشارة ---- ۲۲۰۰
التّفسير ---- ۲۲۰۰
لا تدع للشک طريقا إلى نفسک! ---- ۲۲۰۰
هل كان النّبى شاكّا؟! ---- ۲۲۰۱
الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۹۸] ---- ۲۲۰۲
اشارة ---- ۲۲۰۲
التّفسير ---- ۲۲۰۲
الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب! ---- ۲۲۰۲
قصّة إيمان قوم يونس: ---- ۲۲۰۳
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۰] ---- ۲۲۰۳
اشارة ---- ۲۲۰۳
التّفسير ---- ۲۲۰۴
لا خير فى الإيمان الإجبارى: ---- ۲۲۰۴
ملاحظتان ---- ۲۲۰۴
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۳] ---- ۲۲۰۵
اشارة ---- ۲۲۰۵
التّفسير ---- ۲۲۰۵
الموعظة و النصيحة: ---- ۲۲۰۵
الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۷] ---- ۲۲۰۶

اشارة ----- ۲۲۰۶
التّفسير ----- ۲۲۰۶
الحزم فی التّعامل مع المشركين: ----- ۲۲۰۶
الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۸ الی ۱۰۹] ----- ۲۲۰۷
اشارة ----- ۲۲۰۷
التّفسير ----- ۲۲۰۷
الكلمة الأخيرة: ----- ۲۲۰۷
سورة هود ----- ۲۲۰۸
اشارة ----- ۲۲۰۸
محتوی هذه السّورة و فضيلتها! ----- ۲۲۰۸
شيبتنی سورة هود! ----- ۲۲۰۹
التّأثير المعنوی لهذه السّورة: ----- ۲۲۰۹
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱ الی ۴] ----- ۲۲۱۰
اشارة ----- ۲۲۱۰
التّفسير ----- ۲۲۱۰
الأصول الاربعة فی دعوة الأنبياء: ----- ۲۲۱۰
علاقة الدين بالدنيا: ----- ۲۲۱۲
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۵] ----- ۲۲۱۲
اشارة ----- ۲۲۱۲
التّفسير ----- ۲۲۱۲
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۶] ----- ۲۲۱۳
اشارة ----- ۲۲۱۳
التّفسير ----- ۲۲۱۳
جميع الاحياء ضيوف مأدبته: ----- ۲۲۱۳

ملاحظات ----- ۲۲۱۴
اشارة ----- ۲۲۱۴
تقسيم الأرزاق و السعى من أجل الحياة! ----- ۲۲۱۵
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۷] ----- ۲۲۱۷
اشارة ----- ۲۲۱۷
التّفسير ----- ۲۲۱۷
الهدف من الخلق: ----- ۲۲۱۷
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸ الى ۱۱] ----- ۲۲۱۹
اشارة ----- ۲۲۱۹
التّفسير ----- ۲۲۱۹
استيعاب المؤمنين و عدم استيعاب غيرهم: ----- ۲۲۱۹
بحوث ----- ۲۲۲۰
۱- الأمّة المعدودة و أصحاب المهدى عليه السّلام: ----- ۲۲۲۱
۲- أربع ظواهر لضيق الأفق الفكرى ----- ۲۲۲۱
۳- معيار الضعف النفسى ----- ۲۲۲۱
۴- النعم جميعها مواهب: ----- ۲۲۲۱
۵- أثران للأعمال الحسنة ----- ۲۲۲۲
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۲ الى ۱۴] ----- ۲۲۲۲
اشارة ----- ۲۲۲۲
سبب النّزول ----- ۲۲۲۲
التّفسير ----- ۲۲۲۳
القرآن المعجزة الخالدة: ----- ۲۲۲۳
بحوث ----- ۲۲۲۳
اشارة ----- ۲۲۲۳

جميع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة! ۲۲۲۵
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۵ الى ۱۶] ۲۲۲۶
اشارة ۲۲۲۶
التّفسير ۲۲۲۶
ملاحظات ۲۲۲۷
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۱۷] ۲۲۲۸
اشارة ۲۲۲۸
التّفسير ۲۲۲۸
بحوث ۲۲۲۹
۱- ما المقصود «بالشاهد» فى الآية؟! ۲۲۲۹
۲- لماذا أشير إلى التوراة فحسب؟! ۲۲۳۰
۳- من هو المخاطب فى قوله: فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ۲۲۳۱
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۸ الى ۲۲] ۲۲۳۱
اشارة ۲۲۳۱
التّفسير ۲۲۳۱
أخسر النّاس أعمالا: ۲۲۳۱
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۳ الى ۲۴] ۲۲۳۳
اشارة ۲۲۳۳
التّفسير ۲۲۳۴
ملاحظتان ۲۲۳۴
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۵ الى ۲۸] ۲۲۳۵
اشارة ۲۲۳۵
التّفسير ۲۲۳۵
قصّة نوح المثيرة مع قومه: ۲۲۳۵

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۹ الى ۳۱] ۲۲۳۷
اشارة ۲۲۳۷
التّفسير ۲۲۳۷
ما أنا بطارد الذين آمنوا: ۲۲۳۷
ملاحظات ۲۲۳۹
۱- أولياء اللّه و معرفة الغيب ۲۲۳۹
۲- مقياس معرفة الفضيلة: ۲۲۳۹
۳- معنى علم الغيب فى القرآن ۲۲۴۰
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۳۲ الى ۳۵] ۲۲۴۰
اشارة ۲۲۴۰
التّفسير ۲۲۴۰
كفانا الكلام فأين ما تعدنا به؟! ۲۲۴۰
ملاحظات ۲۲۴۲
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۳۶ الى ۳۹] ۲۲۴۳
اشارة ۲۲۴۳
التّفسير ۲۲۴۳
بداية النّهاية: ۲۲۴۳
ملاحظات ۲۲۴۵
۱- التصفية لا الانتقام ۲۲۴۵
۲- علائم المستكبرين: ۲۲۴۵
۳- سفينة نوح: ۲۲۴۶
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۰ الى ۴۳] ۲۲۴۶
اشارة ۲۲۴۶
التّفسير ۲۲۴۶

شروع الطّوفان: ۲۲۴۶
بحوث ۲۲۴۸
۱- هل كان طوفان نوح مستوعبا للعالم؟! ۲۲۴۸
۲- هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟! ۲۲۴۹
۳- دروس تربوية من طوفان نوح: ۲۲۵۰
اشارة ۲۲۵۰
أ- تطهير وجه الأرض: ۲۲۵۰
ب- لم كان العقاب أو الطوفان؟! ۲۲۵۰
ج- اسم اللّه على كل حال و فى كل مكان ۲۲۵۰
د- المرتكزات الجوفاء: ۲۲۵۱
ه- سفينة النجاة: ۲۲۵۱
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۴۴] ۲۲۵۱
اشارة ۲۲۵۲
التّفسير ۲۲۵۲
نهاية الحادث: ۲۲۵۲
أين يقع الجودى؟ ۲۲۵۳
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ۲۲۵۴
اشارة ۲۲۵۴
التّفسير ۲۲۵۴
حادثة ابن نوح المؤلمة: ۲۲۵۴
بحوث ۲۲۵۴
۱- لم كان ابن نوح «عملا غير صالح»؟! ۲۲۵۵
۲- دائرة الوعد الإلهى ۲۲۵۵
۳- هناک حيث تنقطع العلائق ۲۲۵۵

۴- المسلمون المطرودون ----- ۲۲۵۶
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۸ الى ۴۹] ----- ۲۲۵۷
اشارة ----- ۲۲۵۷
التّفسير ----- ۲۲۵۷
هبوط نوح بسلام: ----- ۲۲۵۷
الآية الأخيرة تشير إلى عدّة مسائل: ----- ۲۲۵۸
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۵۲] ----- ۲۲۵۹
اشارة ----- ۲۲۵۹
التّفسير ----- ۲۲۵۹
محطّم الأصنام الشّجاع: ----- ۲۲۵۹
بحوث ----- ۲۲۶۰
۱- التوحيد أساس دعوة الأنبياء: ----- ۲۲۶۰
۲- قادة الحق لا يطلبون أجرا من أتباعهم. ----- ۲۲۶۱
۳- الذنب و هلاک المجتمعات ----- ۲۲۶۱
۴- ما المراد من قوله تعالى: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ ----- ۲۲۶۲
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۳ الى ۵۷] ----- ۲۲۶۲
اشارة ----- ۲۲۶۲
التّفسير ----- ۲۲۶۳
قوّة المنطق: ----- ۲۲۶۳
ملاحظتان ----- ۲۲۶۴
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۸ الى ۶۰] ----- ۲۲۶۵
اشارة ----- ۲۲۶۵
التّفسير ----- ۲۲۶۵
اللعن الأبدى على القوم الظّالمين: ----- ۲۲۶۵

بحثان ----- ۲۲۶۷
۱- قوم عاد من منظار التاريخ ----- ۲۲۶۷
۲- اللعن الدائم الأبدى على «عاد»: ----- ۲۲۶۸
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۶۱] ----- ۲۲۶۸
اشارة ----- ۲۲۶۸
التّفسير ----- ۲۲۶۸
قصّة ثمود: ----- ۲۲۶۹
الاستعمار فى القرآن و فى عصرنا الحاضر: ----- ۲۲۶۹
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۲ الى ۶۵] ----- ۲۲۷۰
اشارة ----- ۲۲۷۰
التّفسير ----- ۲۲۷۰
اشارة ----- ۲۲۷۱
ناقة صالح: ----- ۲۲۷۱
العلاقة الدّينية: ----- ۲۲۷۲
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۶ الى ۶۸] ----- ۲۲۷۳
اشارة ----- ۲۲۷۳
التّفسير ----- ۲۲۷۴
نهاية ثمود «قوم صالح»: ----- ۲۲۷۴
ملاحظات ----- ۲۲۷۴
الجزء السابع ----- ۲۲۸۶
[تتمة سورة هود] ----- ۲۲۸۶
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۹ الى ۷۳] ----- ۲۲۸۶
اشارة ----- ۲۲۸۶
التّفسير ----- ۲۲۸۶

جانب من حياة محطم الأصنام: ۲۲۸۶
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۷۴ الى ۷۶] ۲۲۸۹
اشارة ۲۲۸۹
التّفسير ۲۲۸۹
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۷۷ الى ۸۰] ۲۲۹۰
اشارة ۲۲۹۰
التّفسير ۲۲۹۰
قوم لوط و حياة الخزى: ۲۲۹۰
ملاحظات ۲۲۹۲
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۱ الى ۸۳] ۲۲۹۳
اشارة ۲۲۹۳
التّفسير ۲۲۹۳
عاقبة الجماعة الظّالمة: ۲۲۹۳
ملاحظات ۲۲۹۵
۱- لم كان العذاب صباحا ۲۲۹۵
۲- لم قلب اللّه عاليها سافلها ۲۲۹۵
۳- لماذا الوابل من الأحجار ۲۲۹۵
۴- لماذا العلامة المتميّزة ۲۲۹۶
۵- تحريم الانحراف الجنسى ۲۲۹۶
اشارة ۲۲۹۶
فلسفة تحريم الميول الجنسية لامثالها ۲۲۹۷
أخلاق قوم لوط: ۲۲۹۸
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۴ الى ۸۶] ۲۲۹۹
اشارة ۲۲۹۹

التّفسير ----- ۲۲۹۹
مدين بلدة شعيب ... ----- ۲۲۹۹
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۷ الى ۹۰] ----- ۲۳۰۱
اشارة ----- ۲۳۰۱
التّفسير ----- ۲۳۰۱
المنطق الواهى: ----- ۲۳۰۱
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۱ الى ۹۳] ----- ۲۳۰۳
اشارة ----- ۲۳۰۳
التّفسير ----- ۲۳۰۳
التّهديدات المتبادلة بين شعيب و قومه: ----- ۲۳۰۳
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۴ الى ۹۵] ----- ۲۳۰۴
اشارة ----- ۲۳۰۴
التّفسير ----- ۲۳۰۴
عاقبة المفسدين فى مدين: ----- ۲۳۰۵
دروس تربوية فى قصّة شعيب: ----- ۲۳۰۵
اشارة ----- ۲۳۰۵
۱- اهمية المسائل الاقتصادية ----- ۲۳۰۵
۲- لا ينبغى التّضحية بالاصالة من اجل التعصب ----- ۲۳۰۶
۳- الصلاة تدعو الى التوحيد و التطهير ----- ۲۳۰۶
۴- النظرة الذاتيّة (الانانيّة) رمز للجمود ----- ۲۳۰۶
۵- تلازم الايمان و العمل ----- ۲۳۰۶
۶- الملكية غير المحدودة أساس الفساد ----- ۲۳۰۷
۷- هدف الأنبياء هو الإصلاح ----- ۲۳۰۷
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۶ الى ۹۹] ----- ۲۳۰۷

اشارة ----- ۲۳۰۷
التّفسير ----- ۲۳۰۸
البطل المبارز لفرعون: ----- ۲۳۰۸
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۴] ----- ۲۳۰۹
اشارة ----- ۲۳۰۹
التّفسير ----- ۲۳۰۹
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۸] ----- ۲۳۱۱
اشارة ----- ۲۳۱۱
التّفسير ----- ۲۳۱۱
السّعادة الشّقاوة: ----- ۲۳۱۱
ملاحظات ----- ۲۳۱۲
۱- هل انّ السعادة و الشقاوة ذاتيان ----- ۲۳۱۲
۲- واقع الإنسان بين السعادة و الشقاوة ----- ۲۳۱۳
۳- مسألة الخلود فى القرآن ----- ۲۳۱۴
اشارة ----- ۲۳۱۴
سؤال مهم: ----- ۲۳۱۴
الاجوبة غير المقنعة ----- ۲۳۱۴
الحلّ النهائى للإشكال ----- ۲۳۱۵
۴- مفهوم الخلود فى هذه الآيات ----- ۲۳۱۶
۵- ما معنى الاستثناء فى الآية ----- ۲۳۱۷
اسباب السعادة و الشقاء ----- ۲۳۱۸
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۲] ----- ۲۳۲۰
اشارة ----- ۲۳۲۰
التّفسير ----- ۲۳۲۰

الاستقامة و الثّبات: ۲۳۲۰
المسؤولية الكبيرة!! ۲۳۲۱
الآية [سورة هود (۱۱): آية ۱۱۳] ۲۳۲۲
اشارة ۲۳۲۲
التّفسير ۲۳۲۲
الرّكون الى الظالمين: ۲۳۲۲
ملاحظات ۲۳۲۲
۱- ما هو مفهوم الرّكون ۲۳۲۳
۲- فى اىّ الأمور لا ينبغى الرّكون الى الظالمين ۲۳۲۳
۳- فلسفة تحريم الركون الى الظالمين ۲۳۲۳
۴- من المقصود ب «الَّذِينَ ظَلَمُوا» ۲۳۲۴
۵- اشكال ۲۳۲۴
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۴ الى ۱۱۵] ۲۳۲۵
اشارة ۲۳۲۵
التّفسير ۲۳۲۵
الصلاة و الصبر: ۲۳۲۵
الاهميّة القصوى للصلاة: ۲۳۲۶
أرجى آية فى القرآن: ۲۳۲۷
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷] ۲۳۲۸
اشارة ۲۳۲۸
التّفسير ۲۳۲۸
عامل الانحراف و الفساد فى المجتمعات: ۲۳۲۸
من هم أُولُوا بَقِيَّةٍ ۲۳۲۹
الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۸ الى ۱۱۹] ۲۳۳۰

اشارة ----- ۲۳۳۰
التّفسير ----- ۲۳۳۰
ملاحظات ----- ۲۳۳۱
الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۳] ----- ۲۳۳۲
اشارة ----- ۲۳۳۲
التّفسير ----- ۲۳۳۲
اربع معطيات لقصص الماضين: ----- ۲۳۳۲
ملاحظات ----- ۲۳۳۳
۱- علم الغيب خاص باللّه ... ----- ۲۳۳۴
۲- العبادة للّه وحده ----- ۲۳۳۴
سورة يوسف ----- ۲۳۳۵
اشارة ----- ۲۳۳۵
بداية سورة يوسف ----- ۲۳۳۵
اشارة ----- ۲۳۳۵
۴- قصّة يوسف قبل الإسلام و بعده ----- ۲۳۳۶
۵- لم ذكرت قصّة يوسف فى مكان واحد على خلاف قصص سائر الأنبياء ----- ۲۳۳۷
۶- فضيلة سورة يوسف ----- ۲۳۳۷
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۲۳۳۸
اشارة ----- ۲۳۳۸
التّفسير ----- ۲۳۳۸
احسن القصص بين يديک: ----- ۲۳۳۸
اثر القصّة فى حياة الناس ----- ۲۳۴۰
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۲۳۴۱
اشارة ----- ۲۳۴۱

التّفسير ----- ۲۳۴۲
بارقة الأمل و بداية المشاكل: ----- ۲۳۴۲
ملاحظات ----- ۲۳۴۳
۱- الرّؤيا و الحلم ----- ۲۳۴۳
اشارة ----- ۲۳۴۳
۱- التّفسير المادى: ----- ۲۳۴۴
۲- التّفسير المعنوى ----- ۲۳۴۴
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۲۳۴۷
اشارة ----- ۲۳۴۷
التّفسير ----- ۲۳۴۷
المؤامرة: ----- ۲۳۴۷
ملاحظات ----- ۲۳۴۹
اشارة ----- ۲۳۴۹
۵- اثر الحسد المدمّر فى حياة الناس ----- ۲۳۴۹
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ----- ۲۳۵۰
اشارة ----- ۲۳۵۰
التّفسير ----- ۲۳۵۱
المؤامرة المشؤومة ----- ۲۳۵۱
بحوث ----- ۲۳۵۲
اشارة ----- ۲۳۵۲
۱- مؤامرات الأعداء فى ثياب الأصدقاء ----- ۲۳۵۲
۲- حاجة الإنسان الفطرية و الطبيعية الى التنزّه و الارتياح ----- ۲۳۵۳
۳- الولد فى ظلّ الوالد ----- ۲۳۵۴
۴- لا قصاص و لا اتهام قبل الجناية ----- ۲۳۵۵

۵- تلقين العدوّ ----- ۲۳۵۵
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۵ الى ۱۸] ----- ۲۳۵۵
اشارة ----- ۲۳۵۶
التّفسير ----- ۲۳۵۶
الكذب المفضوح: ----- ۲۳۵۶
ملاحظات ----- ۲۳۵۸
۱- حول الترک «الاولى» ----- ۲۳۵۸
۲- دعاء يوسف البليغ الجذّاب ----- ۲۳۵۹
۴- تسويل النفس ----- ۲۳۵۹
۵- الكذاب عديم الحافظة ----- ۲۳۶۰
۶- ما هو الصبر الجميل ----- ۲۳۶۰
الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰] ----- ۲۳۶۱
اشارة ----- ۲۳۶۱
التّفسير ----- ۲۳۶۱
نحو ارض مصر: ----- ۲۳۶۱
الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ----- ۲۳۶۲
اشارة ----- ۲۳۶۲
التّفسير ----- ۲۳۶۲
فى قصر عزيز مصر: ----- ۲۳۶۲
ملاحظات ----- ۲۳۶۴
۱- ما هو اسم «عزيز» مصر ----- ۲۳۶۴
۲- يوسف عليه السّلام و تعبير الأحلام ----- ۲۳۶۴
۳- المراد من قوله تعالى: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ----- ۲۳۶۵
الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۳ الى ۲۴] ----- ۲۳۶۶

اشارة ----- ۲۳۶۶
التّفسير ----- ۲۳۶۶
العشق الملتهب: ----- ۲۳۶۶
المراد من كلمة «ربّى» ----- ۲۳۶۷
ما المراد من برهان ربّه ----- ۲۳۶۹
ملاحظات ----- ۲۳۷۰
۱- جهاد النفس ----- ۲۳۷۰
۲- ثواب الإخلاص ----- ۲۳۷۱
۳- العفّة و المتانة فى البيان ----- ۲۳۷۲
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۵ الى ۲۹] ----- ۲۳۷۳
اشارة ----- ۲۳۷۳
التّفسير ----- ۲۳۷۳
فضيحة امراة العزيز ----- ۲۳۷۳
ملاحظات ----- ۲۳۷۴
۱- من كان الشاهد ----- ۲۳۷۴
۲- الموقف الضعيف لعزيز مصر ----- ۲۳۷۵
۳- حماية اللّه فى الأزمات ----- ۲۳۷۵
۴- خطّة امراة العزيز ----- ۲۳۷۶
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۰ الى ۳۴] ----- ۲۳۷۶
اشارة ----- ۲۳۷۶
التّفسير ----- ۲۳۷۶
مؤامرة اخرى: ----- ۲۳۷۶
ملاحظات ----- ۲۳۷۹
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۵ الى ۳۸] ----- ۲۳۸۰

اشارة ----- ۲۳۸۰
التّفسير ----- ۲۳۸۰
السّجن بسبب البراءة: ----- ۲۳۸۰
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۹ الى ۴۲] ----- ۲۳۸۲
اشارة ----- ۲۳۸۲
التّفسير ----- ۲۳۸۳
السّجن او مركز التّربية: ----- ۲۳۸۳
ملاحظات ----- ۲۳۸۴
۱- السّجن مركز للإرشاد او بؤرة للفساد ----- ۲۳۸۴
۲- حين يصلب المصلحون ----- ۲۳۸۵
۳- اكبر دروس الحرّية ----- ۲۳۸۵
۴- استغلال شعار بنّاء بشكل سيئ ----- ۲۳۸۶
۵- التوجّه لغير اللّه ----- ۲۳۸۶
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۴۹] ----- ۲۳۸۷
اشارة ----- ۲۳۸۷
التّفسير ----- ۲۳۸۷
رؤيا ملك مصر و ما جرى له: ----- ۲۳۸۷
ملاحظات ----- ۲۳۸۹
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۰ الى ۵۳] ----- ۲۳۹۰
اشارة ----- ۲۳۹۰
التّفسير ----- ۲۳۹۰
تبرئة يوسف من كلّ اتّهام ----- ۲۳۹۰
ملاحظات ----- ۲۳۹۲
۱- هذه عاقبة التقوى ----- ۲۳۹۲

۲- الهزائم التی تکون سببا للتیقّظ ۲۳۹۲
۳- الحفاظ علی الشرف خیر من الحریة الظاهریة ۲۳۹۳
۴- النفس الامّارة «المتمرّدة» ۲۳۹۳
الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۵۴ الی ۵۷] ۲۳۹۴
اشارة ۲۳۹۴
التّفسیر ۲۳۹۴
یوسف أمینا علی خزائن مصر: ۲۳۹۴
بحوث ۲۳۹۶
۱- کیف استجاب یوسف لطلب طاغوت زمانه ۲۳۹۶
۲- اهمیّة المسائل الاقتصادیة و الاداریة ۲۳۹۷
۳- الرّقابة علی الاستهلاک ۲۳۹۷
۴- مدح النفس ۲۳۹۸
۵- افضلیّة الجزاء المعنوی علی سواه ۲۳۹۹
۶- الدفاع عن المسجونین ۲۳۹۹
الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۵۸ الی ۶۲] ۲۴۰۰
اشارة ۲۴۰۰
التّفسیر ۲۴۰۰
اقتراح جدید من یوسف لإخوته: ۲۴۰۰
بحوث ۲۴۰۲
۱- لماذا لم یظهر یوسف حقیقته لإخوته ۲۴۰۲
۲- لماذا ارجع یوسف الأموال الی اخوته ۲۴۰۲
۳- کیف وهب یوسف الی اخوته اموال بیت المال ۲۴۰۲
الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۶۳ الی ۶۶] ۲۴۰۳
اشارة ۲۴۰۳

التّفسير ----- ۲۴۰۳
موافقة يعقوب: ----- ۲۴۰۳
بحوث ----- ۲۴۰۴
الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۷ الى ۶۸] ----- ۲۴۰۵
اشارة ----- ۲۴۰۵
التّفسير ----- ۲۴۰۵
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۹ الى ۷۶] ----- ۲۴۰۶
اشارة ----- ۲۴۰۶
التّفسير ----- ۲۴۰۷
يوسف يخطّط للاحتفاظ بأخيه: ----- ۲۴۰۷
بحوث ----- ۲۴۰۹
اشارة ----- ۲۴۰۹
۱- لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة ----- ۲۴۰۹
۲- لماذا اتّهم يوسف أخاه ----- ۲۴۰۹
۳- لماذا اتّهام الجميع بالسرقة ----- ۲۴۱۰
۴- عقوبة السرقة فى تلك الازمنة ----- ۲۴۱۰
۵- السقاية او الصواع ----- ۲۴۱۱
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۷۷ الى ۷۹] ----- ۲۴۱۱
اشارة ----- ۲۴۱۱
التّفسير ----- ۲۴۱۱
موقف اخوة يوسف: ----- ۲۴۱۱
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۰ الى ۸۲] ----- ۲۴۱۲
اشارة ----- ۲۴۱۲
التّفسير ----- ۲۴۱۳

رجوع الاخوة الى أبيهم خائبين: ۲۴۱۳
بحوث ۲۴۱۴
۱- من هو اكبر الاخوة ۲۴۱۴
۲- الحكم وفق الدلائل الظاهرة: ۲۴۱۴
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۸۶] ۲۴۱۵
اشارة ۲۴۱۵
التّفسير ۲۴۱۵
يعقوب و الألطاف الالهية: ۲۴۱۵
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۷ الى ۹۳] ۲۴۱۶
اشارة ۲۴۱۶
التّفسير ۲۴۱۶
اليأس علامة الكفر ۲۴۱۷
بحوث ۲۴۱۹
۱- من الذى حمل قميص يوسف ۲۴۱۹
۲- يوسف و جلالة شأنه: ۲۴۲۰
۳- الشكر على الانتصار: ۲۴۲۰
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۹۴ الى ۹۸] ۲۴۲۱
اشارة ۲۴۲۱
التّفسير ۲۴۲۱
و أخيرا شملتهم رعاية اللّه و لطفه: ۲۴۲۱
ملاحظات ۲۴۲۲
۱- كيف احسّ يعقوب برائحة قميص يوسف ۲۴۲۲
۲- اختلاف حالات الأنبياء: ۲۴۲۳
۳- كيف ردّ على يعقوب بصره؟! ۲۴۲۴

۴- الوعد بالاستغفار: ۲۴۲۴
۵- التوسّل جائز: ۲۴۲۴
۶- نهاية الليلة السوداء ۲۴۲۴
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۹۹ الى ۱۰۱] ۲۴۲۵
اشارة ۲۴۲۵
التّفسير ۲۴۲۵
عاقبة امر يوسف و أبيه و اخوته: ۲۴۲۵
بحوث ۲۴۲۶
۱- هل السجود لغير اللّه جائز ۲۴۲۷
۲- وساوس الشيطان: ۲۴۲۷
۳- الأمن نعمة اللّه الكبرى ۲۴۲۸
۴- اهميّة مقام العلم: ۲۴۲۸
۵- حسن العاقبة: ۲۴۲۸
۶- هل جاءت امّ يوسف الى مصر ۲۴۲۹
۷- عدم ذكر القصّة للأب: ۲۴۲۹
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۷] ۲۴۲۹
اشارة ۲۴۲۹
التّفسير ۲۴۳۰
الأدعياء مشركون غالبا ۲۴۳۰
الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۸ الى ۱۱۱] ۲۴۳۲
اشارة ۲۴۳۲
التّفسير ۲۴۳۲
اصدق الدروس و العبر: ۲۴۳۲
سورة الرّعد ۲۴۳۵

اشارة ----- ۲۴۳۵
محتوى السّورة ----- ۲۴۳۵
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۲۴۳۵
اشارة ----- ۲۴۳۶
التّفسير ----- ۲۴۳۶
آيات اللّه فى السّماء و الأرض و عالم النّبات: ----- ۲۴۳۶
هناک عدّة نقاط: ----- ۲۴۳۹
۱- ما هى وجه العلاقة بين التوحيد و المعاد ----- ۲۴۳۹
۲- الاعجاز العلمى للقرآن ----- ۲۴۴۰
۳- تسخير الشمس و القمر ----- ۲۴۴۰
الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۵ الى ۶] ----- ۲۴۴۱
اشارة ----- ۲۴۴۱
التّفسير ----- ۲۴۴۱
تعجّب الكفّار من المعاد: ----- ۲۴۴۱
ملاحظتان ----- ۲۴۴۲
۱- لماذا التعجّب فى الخلق الجديد ----- ۲۴۴۲
۲- هل انّ اللّه يعفو عن الظالمين ----- ۲۴۴۲
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۷] ----- ۲۴۴۳
اشارة ----- ۲۴۴۳
التّفسير ----- ۲۴۴۳
ذريعة اخرى ----- ۲۴۴۳
بحثان ----- ۲۴۴۴
هنا يرد سؤالان: ----- ۲۴۴۴
۱- هل الآية «انّما أنت منذر ...» جواب للكفّار؟ ----- ۲۴۴۴

۲- ما هو المقصود من جملة لِكُلَ قَوْمٍ هادٍ ----- ۲۴۴۴
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۲۴۴۵
اشارة ----- ۲۴۴۵
التّفسير ----- ۲۴۴۵
علم اللّه المطلق: ----- ۲۴۴۵
فى تفسير هذه الجمل الثلاث هناک آراء مختلفة بين المفسّرين: ----- ۲۴۴۶
بحوث ----- ۲۴۴۶
۱- القرآن و علم الاجنّة ----- ۲۴۴۶
۲- كلّ شىء له مقدار ----- ۲۴۴۷
۳- الغيب و الشهادة سواء عند اللّه ----- ۲۴۴۷
۴- الآثار التربوية فى إدراكنا لعلم اللّه ----- ۲۴۴۸
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۱] ----- ۲۴۴۸
اشارة ----- ۲۴۴۸
التّفسير ----- ۲۴۴۸
المعقّبات الغيبية ----- ۲۴۴۸
بحوث ----- ۲۴۴۹
۱- ما هى المعقّبات ----- ۲۴۴۹
۲- التغيير يبدأ من النفس (قانون عام) ----- ۲۴۵۰
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۲ الى ۱۵] ----- ۲۴۵۱
اشارة ----- ۲۴۵۱
التّفسير ----- ۲۴۵۱
قسم آخر من دلائل عظمة اللّه: ----- ۲۴۵۱
بركات الرعد و البرق: ----- ۲۴۵۱
بحوث ----- ۲۴۵۳

۱- ما هو المقصود من سجود الكائنات ۲۴۵۳
۲- ما هو معنى طَوْعاً وَ كَرْهاً ۲۴۵۴
۳- ما هو معنى كلمة الظلال ۲۴۵۴
۴- ما هو معنى كلوة الْآصالِ ۲۴۵۴
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۶] ۲۴۵۵
اشارة ۲۴۵۵
التّفسير ۲۴۵۵
لماذا عبادة الأصنام ۲۴۵۵
بحوث ۲۴۵۵
۱- الخالقية و الرّبوبية يتطلّبان العبادة ۲۴۵۵
۲- كيف يسأل و يجيب بنفسه ۲۴۵۶
۳- العين المبصرة و نور الشمس شرطان ضروريان ۲۴۵۶
۴- هل انّ خلق اللّه لكلّ شيء دليل على الجبر ۲۴۵۶
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۷] ۲۴۵۷
اشارة ۲۴۵۷
التّفسير ۲۴۵۷
وصف دقيق لمنظر الحقّ و الباطل: ۲۴۵۷
بحوث ۲۴۵۸
اشارة ۲۴۵۸
۱- ما هى علائم معرفة الحقّ و الباطل ۲۴۵۸
۲- ما هو الزّبد ۲۴۵۸
۳- الاستفادة تكون بقدر الاستعداد و اللياقة ۲۴۵۹
۴- الباطل و الأوضاع المضطربة ۲۴۵۹
۵- الباطل يتشكّل بأشكال مختلفة ۲۴۵۹

۶- ارتباط البقاء بالنفع ۲۴۵۹
۷- كيف يطرد الحقّ الباطل ۲۴۶۰
۸- الباطل مدين للحقّ ببقائه ۲۴۶۰
۹- صراع الحقّ و الباطل مستمر ۲۴۶۰
۱۰- تزامن الحياة مع السعى و الجهاد ۲۴۶۰
الأمثال فى القرآن: ۲۴۶۱
اشارة ۲۴۶۱
۱- المثال يجعل المسائل محسوسة: ۲۴۶۱
۲- المثال يقرّب المعنى: ۲۴۶۱
۳- المثال يعمّم المفاهيم ۲۴۶۱
۴- المثال، يزيد فى درجة التصديق: ۲۴۶۲
۵- المثال يخرس المعاندين: ۲۴۶۲
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۸] ۲۴۶۳
اشارة ۲۴۶۳
التّفسير ۲۴۶۳
الذين استجابوا لدعوة الحقّ: ۲۴۶۳
بحث ۲۴۶۴
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۹ الى ۲۴] ۲۴۶۵
اشارة ۲۴۶۵
التّفسير ۲۴۶۵
الأبواب الثّمانية للجنّة و صفات اولى الألباب: ۲۴۶۵
بحوث ۲۴۶۸
۱- لماذا ذكر الصبر فقط ۲۴۶۸
۲- أبواب الجنّة ۲۴۶۹

۳- يلحق بأهل الجنّة اقرباؤهم ----- ۲۴۶۹
۴- ما هى جنّات عدن ----- ۲۴۶۹
۵- التطهير من آثار الذنوب ----- ۲۴۶۹
الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۲۵ الى ۲۶] ----- ۲۴۷۰
اشارة ----- ۲۴۷۰
التّفسير ----- ۲۴۷۰
المفسدون فى الأرض ----- ۲۴۷۰
بحثان ----- ۲۴۷۱
۱- من هو المفسد فى الأرض ----- ۲۴۷۱
۲- الرزق بيد اللّه سبحانه و تعالى و لكن ... ----- ۲۴۷۲
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۲۷ الى ۲۹] ----- ۲۴۷۳
اشارة ----- ۲۴۷۳
التّفسير ----- ۲۴۷۳
الا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب: ----- ۲۴۷۳
بحوث ----- ۲۴۷۴
۱- كيف يطمئن القلب بذكر اللّه ----- ۲۴۷۴
۲- الطمأنينة و الخوف من اللّه ----- ۲۴۷۶
۳- ما هو ذكر اللّه، و كيف يتمّ ----- ۲۴۷۶
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۰ الى ۳۲] ----- ۲۴۷۷
اشارة ----- ۲۴۷۷
اسباب النّزول ----- ۲۴۷۷
التّفسير ----- ۲۴۷۸
لا امل فى ايمان اهل العناد: ----- ۲۴۷۸
بحوث ----- ۲۴۷۹

۱- لماذا التركيز على كلمة «الرّحمان» ۲۴۷۹
۲- لماذا لم يستجب النّبى لمطاليبهم ۲۴۷۹
۳- ما هى القارعة ۲۴۸۰
الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۳ الى ۳۴] ۲۴۸۰
اشارة ۲۴۸۰
التّفسير ۲۴۸۰
اشارة ۲۴۸۱
كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه ۲۴۸۱
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۳۵] ۲۴۸۲
اشارة ۲۴۸۲
التّفسير ۲۴۸۲
الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۳۶] ۲۴۸۳
اشارة ۲۴۸۳
التّفسير ۲۴۸۳
المؤمنون و الأحزاب ۲۴۸۳
بحث ۲۴۸۴
الايمان و الائتلاف الحزبى: ۲۴۸۴
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۷ الى ۴۰] ۲۴۸۴
اشارة ۲۴۸۴
التّفسير ۲۴۸۵
الحوادث «الثّابتة» و «المتغيّرة»: ۲۴۸۵
نقطتان ۲۴۸۶
اشارة ۲۴۸۶
۱- لوح المحو و الإثبات و امّ الكتاب ۲۴۸۶

۲- ما هو البداء ----- ۲۴۸۸
الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۴۱ الى ۴۳] ----- ۲۴۹۰
اشارة ----- ۲۴۹۰
التّفسير ----- ۲۴۹۰
البشرية فانية و وجه اللّه باق: ----- ۲۴۹۰
سورة ابراهيم ----- ۲۴۹۲
اشارة ----- ۲۴۹۲
محتوى السورة ----- ۲۴۹۲
فضيلة السورة ----- ۲۴۹۲
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۲۴۹۳
اشارة ----- ۲۴۹۳
التّفسير ----- ۲۴۹۳
الخروج من الظّلمات الى النّور ----- ۲۴۹۳
ملاحظات ----- ۲۴۹۴
۱- مثل الإيمان و طريق اللّه مثل النّور ----- ۲۴۹۴
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴ الى ۷] ----- ۲۴۹۵
اشارة ----- ۲۴۹۵
التّفسير ----- ۲۴۹۵
الايّام الحسّاسة فى الحياة: ----- ۲۴۹۵
بحوث ----- ۲۴۹۷
۱- التذكّر لايام اللّه ----- ۲۴۹۷
۲- طريقة الجبّارين فى التعامل ----- ۲۴۹۸
۳- الحرية من أفضل النعم ----- ۲۴۹۸
۴- الشكر سبب لزيادة النعم و الكفر سبب للفناء ----- ۲۴۹۹

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۲۵۰۱
اشارة ----- ۲۵۰۱
التّفسير ----- ۲۵۰۱
أ فى اللّه شكّ ----- ۲۵۰۱
الآيتان [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ----- ۲۵۰۳
اشارة ----- ۲۵۰۳
التّفسير ----- ۲۵۰۳
التوكّل على اللّه وحده: ----- ۲۵۰۳
ملاحظات ----- ۲۵۰۴
۱- ما هو معنى التوكّل ----- ۲۵۰۴
۲- المعاجز بيد اللّه تعالى ----- ۲۵۰۴
۳- ما هى حقيقة و فلسفة التوكّل ----- ۲۵۰۴
فلسفة التوكّل ----- ۲۵۰۵
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۳ الى ۱۷] ----- ۲۵۰۶
اشارة ----- ۲۵۰۶
التّفسير ----- ۲۵۰۶
خطط الجبّارين المعاندين و مصيرهم ----- ۲۵۰۶
بحوث ----- ۲۵۰۸
۱- ماذا يعنى مقام الربّ ----- ۲۵۰۸
الآية [سورة إبراهيم (۱۴): آية ۱۸] ----- ۲۵۰۹
اشارة ----- ۲۵۰۹
التّفسير ----- ۲۵۰۹
رماد اشتدّت به الريح: ----- ۲۵۰۹
بحوث ----- ۲۵۰۹

۱- لماذا شبّهت اعمالهم كرماد اشتدّت به الريح؟ الجواب: ۲۵۰۹
۲- لماذا فرغت اعمالهم من المحتوى ۲۵۱۰
۳- مسألة الإحباط ۲۵۱۱
۴- هل للمخترعين و المكتشفين ثواب الهى ۲۵۱۱
الآيتان [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۹ الى ۲۰] ۲۵۱۳
اشارة ۲۵۱۳
التّفسير ۲۵۱۳
الخلق على أساس الحقّ: ۲۵۱۳
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۱ الى ۲۳] ۲۵۱۴
اشارة ۲۵۱۴
التّفسير ۲۵۱۴
المحادثة الصريحة بين الشيطان و اتباعه: ۲۵۱۴
ملاحظات ۲۵۱۴
۱- ما هو المراد من وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ۲۵۱۴
۲- ما هو المقصود من جملة لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ ۲۵۱۵
۳- أوضح بيان فى ذمّ التقليد الأعمى ۲۵۱۵
بحوث ۲۵۱۶
۱- جواب الشيطان الحاسم لاتباعه ۲۵۱۶
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۴ الى ۲۷] ۲۵۱۷
اشارة ۲۵۱۷
التّفسير ۲۵۱۷
الشّجرة الطيّبة و الشّجرة الخبيثة ۲۵۱۷
بحوث ۲۵۲۰
۱- هل القصد من الآخرة فى الآية هو القبر ۲۵۲۰

۲- دور الثبات و الاستقامة ----- ۲۵۲۰
۳- الشجرة الطيّبة و الخبيثة فى الرّوايات الاسلامية ----- ۲۵۲۰
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۸ الى ۳۰] ----- ۲۵۲۱
اشارة ----- ۲۵۲۱
التّفسير ----- ۲۵۲۱
نهاية كفران النعم: ----- ۲۵۲۱
بحوث ----- ۲۵۲۲
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۳۱ الى ۳۴] ----- ۲۵۲۳
اشارة ----- ۲۵۲۳
التّفسير ----- ۲۵۲۳
عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن: ----- ۲۵۲۳
بحوث ----- ۲۵۲۴
۱- الصلة بالخالق و الصلة بالخلق ----- ۲۵۲۴
۲- لماذا السرّ و العلانية ----- ۲۵۲۴
۳- يوم لا بيع فيه و لا خلال ----- ۲۵۲۵
۴- كلّ الموجودات تحت امرة الإنسان ----- ۲۵۲۵
۵- دائبين ----- ۲۵۲۶
۶- هل يعطينا اللّه كلّ ما نطلب منه ----- ۲۵۲۶
۷- لماذا لا تحصى نعماؤه ----- ۲۵۲۷
۸- أسفا .. انّ الإنسان ظلوم و كفّار ----- ۲۵۲۷
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۳۵ الى ۴۱] ----- ۲۵۲۷
اشارة ----- ۲۵۲۷
التّفسير ----- ۲۵۲۸
دعاء ابراهيم عليه السّلام: ----- ۲۵۲۸

بحوث ----- ۲۵۲۹
۱- هل كانت مكّة فى ذلک الوقت مدينة ----- ۲۵۲۹
۲- أمان ارض مكّة ----- ۲۵۲۹
۳- دعاء ابراهيم لاجتناب عبادة الأصنام ----- ۲۵۲۹
۴- من هم اتباع ابراهيم ----- ۲۵۳۰
۵- واد غير ذى زرع و الحرم الآمن ----- ۲۵۳۰
۶- الدعوات السبعة لإبراهيم ----- ۲۵۳۱
اشارة ----- ۲۵۳۱
هل يدعو ابراهيم لأبيه ----- ۲۵۳۱
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۲ الى ۴۵] ----- ۲۵۳۲
اشارة ----- ۲۵۳۲
التّفسير ----- ۲۵۳۲
اليوم الذى تشخّص فيه الأبصار ----- ۲۵۳۲
بحوث ----- ۲۵۳۳
۱- لماذا وجّه الخطاب هنا الى الرّسول الأكرم ----- ۲۵۳۳
۲- ما هو المقصود من يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ ----- ۲۵۳۳
۳- لماذا لا تقبل المهلة ----- ۲۵۳۴
الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۶ الى ۵۲] ----- ۲۵۳۴
اشارة ----- ۲۵۳۴
التّفسير ----- ۲۵۳۵
لا فائدة من مكرهم ----- ۲۵۳۵
بحوث ----- ۲۵۳۷
۱- تبديل الأرض غير الأرض و السماوات ----- ۲۵۳۷
۲- بداية و ختام سورة ابراهيم ----- ۲۵۳۸

۳- التوحيد هو البداية و النهاية ----- ۲۵۳۸
حياة النّبى ابراهيم عليه السّلام ----- ۲۵۳۹
اشارة ----- ۲۵۳۹
ولادته و طفولته ----- ۲۵۳۹
محاربته للمجاميع المختلفة من الوثنيين ----- ۲۵۴۰
الجهاد المنطقى مع الوثنيين ----- ۲۵۴۰
الحديث مع آزر ----- ۲۵۴۰
نبوّة ابراهيم عليه السّلام ----- ۲۵۴۰
الجهاد العملى مع الوثنيين ----- ۲۵۴۱
الحديث مع الحاكم المتجبّر! ----- ۲۵۴۱
هجرة ابراهيم ----- ۲۵۴۱
المرحلة الاخيرة للرسالة ----- ۲۵۴۱
منزلته عليه السّلام فى القرآن ----- ۲۵۴۲
الجزء الثامن ----- ۲۵۵۷
سورة الحجر ----- ۲۵۵۷
اشارة ----- ۲۵۵۷
محتوى السّورة: ----- ۲۵۵۷
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۲۵۵۷
اشارة ----- ۲۵۵۸
التّفسير ----- ۲۵۵۸
الأمانى الزّائفة! ----- ۲۵۵۸
ملاحظة: ----- ۲۵۶۰
الغفلة و طول الأمل ----- ۲۵۶۰
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶ الى ۸] ----- ۲۵۶۰

اشارة ----- ۲۵۶۰
التّفسير ----- ۲۵۶۱
طلب نزول الملائكة: ----- ۲۵۶۱
الآية [سورة الحجر (۱۵): آية ۹] ----- ۲۵۶۲
اشارة ----- ۲۵۶۲
التّفسير ----- ۲۵۶۲
حفظ القرآن من التحريف: ----- ۲۵۶۲
بحث ----- ۲۵۶۳
فی عدم تحريف القرآن: ----- ۲۵۶۳
أدلة عدم تحريف القرآن: ----- ۲۵۶۴
روايات التّحريف: ----- ۲۵۶۷
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۰ الی ۱۵] ----- ۲۵۶۹
اشارة ----- ۲۵۶۹
التّفسير ----- ۲۵۶۹
العناد و التعصب: ----- ۲۵۶۹
ملاحظات ----- ۲۵۷۰
اشارة ----- ۲۵۷۰
سنّة الأولين: ----- ۲۵۷۱
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۶ الی ۱۸] ----- ۲۵۷۲
اشارة ----- ۲۵۷۲
التّفسير ----- ۲۵۷۲
نتيجة البحث: ----- ۲۵۷۵
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۹ الی ۲۱] ----- ۲۵۷۷
اشارة ----- ۲۵۷۷

التّفسير ----- ۲۵۷۷
بحوث ----- ۲۵۷۹
۱- ما هی خزائن اللّه تعالی؟ ----- ۲۵۷۹
۲- التّزول مکانیّ و مقامی ----- ۲۵۷۹
الآیات [سورة الحجر (۱۵): الآیات ۲۲ الی ۲۵] ----- ۲۵۸۰
اشارة ----- ۲۵۸۰
التّفسير ----- ۲۵۸۰
دور الرّیاح و الأمطار: ----- ۲۵۸۰
بحث ----- ۲۵۸۱
من هم المستقدمون و المستأخرون؟ ----- ۲۵۸۱
الآیات [سورة الحجر (۱۵): الآیات ۲۶ الی ۴۴] ----- ۲۵۸۲
اشارة ----- ۲۵۸۲
التّفسير ----- ۲۵۸۲
خلق الإنسان: ----- ۲۵۸۲
بحوث ----- ۲۵۸۴
۱- التکبر و الغرور من المهالک العظام: ----- ۲۵۸۴
۲- علی من یتسلط الشیطان؟ ----- ۲۵۸۵
۳- أبواب جهنم! ----- ۲۵۸۶
۴- (الحمأ المسنون) و (روح اللّه): ----- ۲۵۸۶
۵- ما هو الجان؟ ----- ۲۵۸۷
۶- القرآن و خلق الإنسان: ----- ۲۵۸۸
أدلة القائلین بالتکامل: ----- ۲۵۸۹
أجوبة القائلین بثبوت الأنواع: ----- ۲۵۸۹
نظریة التکامل و .. الإیمان باللّه: ----- ۲۵۹۰

القرآن و مسألة التكامل: ۲۵۹۰
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰] ۲۵۹۲
اشارة ۲۵۹۲
التّفسير ۲۵۹۲
نعم الجنّة الثّمان: ۲۵۹۲
بحوث ۲۵۹۳
۱- رياض و عيون الجنّة: ۲۵۹۳
۲- النّعم المادية و غير المادية: ۲۵۹۴
۳- الحقد و الحسد عدوّا الأخوة: ۲۵۹۴
۴- الجزاء الكامل: ۲۵۹۴
۵- تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّة: ۲۵۹۵
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۵۱ الى ۶۰] ۲۵۹۵
اشارة ۲۵۹۵
التّفسير ۲۵۹۵
الضّيوف الغرباء ..! ۲۵۹۵
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶۱ الى ۷۷] ۲۵۹۷
اشارة ۲۵۹۷
التّفسير ۲۵۹۷
عاقبة مذنبى قوم لوط: ۲۵۹۷
بحوث ۲۶۰۰
۱- ما المقصود ب بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ۲۶۰۰
۲- تفسير قوله تعالى: وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ۲۶۰۱
۳- علاقة الرّبط بين «المتوسم» و «المؤمن». ۲۶۰۱
۴- سكر الشّهوة و الغرور! ۲۶۰۱

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۷۸ الى ۸۴] ۲۶۰۲
اشارة ۲۶۰۲
التّفسير ۲۶۰۲
خاتمة أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر: ۲۶۰۲
من هم أصحاب الأيكة؟ ۲۶۰۲
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۸۵ الى ۹۱] ۲۶۰۴
اشارة ۲۶۰۴
التّفسير ۲۶۰۵
بحوث ۲۶۰۷
۱- القرآن .. عطاء إلهى عظيم ۲۶۰۷
۲- الطمع بما عند الغير .. مصدر الانحطاط ۲۶۰۸
۳- تواضع القائد ۲۶۰۸
۴- من هم المقتسمون؟ ۲۶۰۹
الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۹۲ الى ۹۹] ۲۶۰۹
اشارة ۲۶۱۰
التّفسير ۲۶۱۰
فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ! ۲۶۱۰
بحوث ۲۶۱۲
۱- بداية الدعوة العلنية للإسلام ۲۶۱۲
۲- الأثر الرّوحى لذكر اللّه ۲۶۱۲
۳- العبادة و التكامل ۲۶۱۲
سورة النّحل ۲۶۱۳
اشارة ۲۶۱۳
محتويات السّورة: ۲۶۱۳

فضيلة السّورة: ----- ۲۶۱۴
الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱ الى ۲] ----- ۲۶۱۵
اشارة ----- ۲۶۱۵
التّفسير ----- ۲۶۱۵
أَتى أَمْرُ اللَّهِ: ----- ۲۶۱۵
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳ الى ۸] ----- ۲۶۱۶
اشارة ----- ۲۶۱۶
التّفسير ----- ۲۶۱۶
الحيوان ذلک المخلوق المعطاء: ----- ۲۶۱۶
أهمية الزراعة و الثروة الحيوانية: ----- ۲۶۱۹
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹ الى ۱۳] ----- ۲۶۲۰
اشارة ----- ۲۶۲۰
التّفسير ----- ۲۶۲۰
كل شيء فى خدمة الإنسان! ----- ۲۶۲۰
توضيح: ----- ۲۶۲۱
البحوث ----- ۲۶۲۲
۱- النعم المادية و المعنوية ----- ۲۶۲۲
۲- لما ذا الزّيتون و النخيل و الأعناب دون غيرها؟! ----- ۲۶۲۳
۳- التفكر و التعقل و التذكر: ----- ۲۶۲۴
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۴ الى ۱۸] ----- ۲۶۲۵
اشارة ----- ۲۶۲۵
التّفسير ----- ۲۶۲۵
نعمة الجبال و البحار و النجوم: ----- ۲۶۲۵
بحث ----- ۲۶۲۸

الطريق، العلامة، القائد: ۲۶۲۸
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۹ الى ۲۳] ۲۶۲۹
اشارة ۲۶۲۹
التّفسير ۲۶۲۹
آلهة لا تشعر! ۲۶۲۹
بحث ۲۶۳۱
من هم المستكبرون؟ ۲۶۳۱
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۴ الى ۲۹] ۲۶۳۲
اشارة ۲۶۳۲
سبب النّزول ۲۶۳۲
التّفسير ۲۶۳۲
حمل أوزار الآخرين: ۲۶۳۲
بحثان ۲۶۳۵
۱- السنّة سنتان .. حسنة و سيئة: ۲۶۳۵
۲- التّسليم بعد فوات الأوان: ۲۶۳۷
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۰ الى ۳۲] ۲۶۳۷
اشارة ۲۶۳۷
التّفسير ۲۶۳۷
عاقبة المتقين و المحسنين: ۲۶۳۷
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۳ الى ۳۷] ۲۶۳۹
اشارة ۲۶۳۹
التّفسير ۲۶۳۹
البلاغ المبين .. وظيفة الأنبياء: ۲۶۳۹
بحثان ۲۶۴۳

۱- ما هو البلاغ المبين؟ ----- ۲۶۴۳
۲- لكل أمّة رسول ----- ۲۶۴۳
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۲۶۴۴
اشارة ----- ۲۶۴۴
سبب النّزول ----- ۲۶۴۴
التّفسير ----- ۲۶۴۴
المعاد و .. نهاية الاختلافات: ----- ۲۶۴۴
الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۱ الى ۴۲] ----- ۲۶۴۶
اشارة ----- ۲۶۴۶
سبب النّزول ----- ۲۶۴۶
التّفسير ----- ۲۶۴۶
ثواب المهاجرين: ----- ۲۶۴۶
بحوث ----- ۲۶۴۶
الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۳ الى ۴۴] ----- ۲۶۴۸
اشارة ----- ۲۶۴۸
التّفسير ----- ۲۶۴۸
بحث ----- ۲۶۴۹
من هم أهل الذكر؟ ----- ۲۶۴۹
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ----- ۲۶۵۰
اشارة ----- ۲۶۵۰
التّفسير ----- ۲۶۵۰
لكلّ ذنب عقابه: ----- ۲۶۵۱
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۸ الى ۵۰] ----- ۲۶۵۲
اشارة ----- ۲۶۵۲

التّفسير ----- ۲۶۵۲
سجود الكائنات للّه عزّ و جلّ: ----- ۲۶۵۲
أثر الظلال فى حياتنا: ----- ۲۶۵۳
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۵۱ الى ۵۵] ----- ۲۶۵۴
اشارة ----- ۲۶۵۴
التّفسير ----- ۲۶۵۵
دين حق و معبود واحد: ----- ۲۶۵۵
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۵۶ الى ۶۰] ----- ۲۶۵۷
اشارة ----- ۲۶۵۷
التّفسير ----- ۲۶۵۷
عند ما كانت ولادة البنت عارا! ----- ۲۶۵۷
بحوث ----- ۲۶۵۸
۱- لماذا اعتبروا الملائكة بناتا للّه؟ ----- ۲۶۵۸
۲- لما ذا شاع وأد البنات فى الجاهلية؟ ----- ۲۶۵۸
۳- دور الإسلام فى إعادة اعتبار المرأة: ----- ۲۶۶۰
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۱ الى ۶۴] ----- ۲۶۶۱
اشارة ----- ۲۶۶۱
التّفسير ----- ۲۶۶۱
وسعت رحمته غضبه: ----- ۲۶۶۱
بحث ----- ۲۶۶۲
ما هو الأجل المسمى؟ ----- ۲۶۶۲
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۵ الى ۶۷] ----- ۲۶۶۴
اشارة ----- ۲۶۶۴
التّفسير ----- ۲۶۶۴

المياه، الثمار، الأنعام: ----- ۲۶۶۴
بحوث ----- ۲۶۶۵
۱- كيف يتكوّن اللبن؟ ----- ۲۶۶۵
۲- أهم ما فى اللبن من مواد غذائية ----- ۲۶۶۶
۳- اللبن .. غذاء خالص و سهل الهضم ----- ۲۶۶۷
الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹] ----- ۲۶۶۷
اشارة ----- ۲۶۶۷
التّفسير ----- ۲۶۶۷
وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ ----- ۲۶۶۷
اشارة ----- ۲۶۶۷
۱- ما هو «الوحى» ----- ۲۶۶۸
۲- هل يختص الإلهام الغريزى بالنحل؟ ----- ۲۶۶۸
۳- المهمّة الأولى فى حياة النحل: ----- ۲۶۶۸
۴- اين مكان النحل: ----- ۲۶۶۹
بحوث ----- ۲۶۶۹
اشارة ----- ۲۶۶۹
۱- مم يتكون العسل؟ ----- ۲۶۶۹
۲- السّبل المذللة! ----- ۲۶۷۰
۳- أين يصنع العسل؟ ----- ۲۶۷۰
۴- ألوان العسل المختلفة ----- ۲۶۷۰
۵- العسل .. و الشفاء من الأمراض: ----- ۲۶۷۰
۶- لِلنَّاسِ ----- ۲۶۷۲
۷- ملاحظات مهمّة بخصوص العسل: ----- ۲۶۷۲
۸- عجائب حياة النحل ----- ۲۶۷۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۰ الى ۷۲] ----- ۲۶۷۴
اشارة ----- ۲۶۷۴
التّفسير ----- ۲۶۷۴
سبب اختلاف الأرزاق: ----- ۲۶۷۴
هل التفاضل فى الرّزق من العدالة؟! ... ----- ۲۶۷۵
بحثان ----- ۲۶۷۷
۱- أسباب الرزق: ----- ۲۶۷۷
اشارة ----- ۲۶۷۷
و للاجابة نذكر الملاحظتين التاليتين: ----- ۲۶۷۸
۲- مواساة الآخرين: ----- ۲۶۷۹
الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۳ الى ۷۴] ----- ۲۶۷۹
اشارة ----- ۲۶۷۹
التّفسير ----- ۲۶۷۹
لا تجعلوا للّه شبيها: ----- ۲۶۷۹
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۵ الى ۷۷] ----- ۲۶۸۰
اشارة ----- ۲۶۸۰
التّفسير ----- ۲۶۸۰
مثلان للمؤمن و الكافر! ----- ۲۶۸۱
بحوث ----- ۲۶۸۲
۱- الإنسان بين الحرية و الأسر ----- ۲۶۸۲
۲- دور العدل و الاستقامة فى حياة الإنسان ----- ۲۶۸۳
۳- أمّا الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام ----- ۲۶۸۳
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۸ الى ۸۳] ----- ۲۶۸۳
اشارة ----- ۲۶۸۴

التّفسير ----- ۲۶۸۴
أنواع النعم المادية و المعنوية: ----- ۲۶۸۴
ملاحظات ----- ۲۶۸۴
اشارة ----- ۲۶۸۴
۱- بداية الإدراک عند الإنسان ----- ۲۶۸۴
۲- نعمة وسائل المعرفة ----- ۲۶۸۵
۳- لعلكم تشكرون ----- ۲۶۸۶
بحوث ----- ۲۶۸۶
۱- أسرار تحليق الطيور فى السماء ----- ۲۶۸۷
۲- ترابط الآيات: ----- ۲۶۸۷
۳- الظلال، المساكن، الأغطية: ----- ۲۶۸۹
بحثان ----- ۲۶۹۰
۱- كلمات المفسّرين ----- ۲۶۹۰
۲- صراع الحقّ مع الباطل ----- ۲۶۹۱
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۸۴ الى ۸۹] ----- ۲۶۹۱
اشارة ----- ۲۶۹۱
التّفسير ----- ۲۶۹۲
عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمين: ----- ۲۶۹۲
و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات: ----- ۲۶۹۳
بحثان ----- ۲۶۹۵
۱- القرآن تبيان لكل شىء: ----- ۲۶۹۵
۲- مراحل الهداية الأربع ----- ۲۶۹۶
الآية [سورة النحل (۱۶): آية ۹۰] ----- ۲۶۹۷
اشارة ----- ۲۶۹۷

التّفسير ----- ۲۶۹۷
أكمل برنامج اجتماعى: ----- ۲۶۹۷
أشمل آيات الخير و الشر: ----- ۲۶۹۹
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۱ الى ۹۴] ----- ۲۷۰۰
اشارة ----- ۲۷۰۰
سبب النّزول ----- ۲۷۰۰
التّفسير ----- ۲۷۰۰
الوفاء بالعهد دليل الإيمان: ----- ۲۷۰۱
بحثان ----- ۲۷۰۲
۱- فلسفة احترام العهد ----- ۲۷۰۲
۲- ما لا يقبل فى نقض العهود: ----- ۲۷۰۴
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۵ الى ۹۷] ----- ۲۷۰۴
اشارة ----- ۲۷۰۴
سبب النّزول ----- ۲۷۰۴
التّفسير ----- ۲۷۰۵
ثمن الحياة الطيبة: ----- ۲۷۰۵
بحوث ----- ۲۷۰۶
۱- منابع الخلود ----- ۲۷۰۶
۲- التساوى بين الرجل و المرأة ----- ۲۷۰۶
۳- جذور العمل الصالح ترتوى من الإيمان ----- ۲۷۰۷
۴- ما هى الحياة الطيبة؟ ----- ۲۷۰۸
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰] ----- ۲۷۰۸
اشارة ----- ۲۷۰۸
التّفسير ----- ۲۷۰۹

اقرأ القرآن هكذا: ----- ۲۷۰۹
بحوث ----- ۲۷۰۹
۱- موانع المعرفة ----- ۲۷۰۹
۲- لما ذا يكون التعوذ «من الشيطان الرجيم»؟ ----- ۲۷۱۰
۳- بين لوائى الحقّ و الباطل ----- ۲۷۱۰
۴- آداب تلاوة القرآن: ----- ۲۷۱۱
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۵] ----- ۲۷۱۲
اشارة ----- ۲۷۱۲
سبب النّزول ----- ۲۷۱۲
التّفسير ----- ۲۷۱۲
الافتراء ----- ۲۷۱۲
بحوث ----- ۲۷۱۵
۱- قبح الكذب فى المنظور الإسلامى ----- ۲۷۱۵
۲- الكذب منشأ جميع الذنوب: ----- ۲۷۱۵
۳- الكذب منشأ للنفاق: ----- ۲۷۱۶
۴- لا انسجام بين الكذب و الإيمان: ----- ۲۷۱۶
۵- الكذب يرفع الاطمئنان: ----- ۲۷۱۶
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰۶ الى ۱۱۱] ----- ۲۷۱۷
اشارة ----- ۲۷۱۷
سبب النّزول ----- ۲۷۱۷
التّفسير ----- ۲۷۱۷
المرتدون عن الإسلام: ----- ۲۷۱۸
بحثان ----- ۲۷۱۹
۱- التقية و فلسفتها: ----- ۲۷۱۹

۲- المرتد الفطرى و الملى و .. المخدوعين: ۲۷۲۰
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۴] ۲۷۲۱
اشارة ۲۷۲۱
التّفسير ۲۷۲۱
الذين كفروا فأصابهم العذاب ۲۷۲۱
بحوث ۲۷۲۲
۱- أهو مثال أم حدث تاريخى؟ ۲۷۲۲
۲- الرابطة ما بين الأمن و الرّزق الكثير ۲۷۲۳
۳- لباس الجوع و الخوف ۲۷۲۳
۴- أثر كفران النعمة فى تضييع المواهب الإلهية ۲۷۲۴
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۵ الى ۱۱۹] ۲۷۲۴
اشارة ۲۷۲۴
التّفسير ۲۷۲۵
لا يفلح الكاذبون: ۲۷۲۵
جواب على سؤال: ۲۷۲۵
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۴] ۲۷۲۸
اشارة ۲۷۲۸
التّفسير ۲۷۲۸
كان إبراهيم لوحده أمّة! ۲۷۲۸
۱- إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً. ۲۷۲۸
الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۸] ۲۷۳۰
اشارة ۲۷۳۰
التّفسير ۲۷۳۰
عشرة قواعد أخلاقية .. سلاح داعية الحق: ۲۷۳۰

خاتمة مقال سورة النحل «سورة النعم»: ۲۷۳۴
الهدف من ذكر النعم: ۲۷۳۵
سورة الإسراء ۲۷۳۶
اشارة ۲۷۳۶
أوّلا: أسماء السّورة و مكان النّزول: ۲۷۳۷
ثانيا: فضيلة سورة الإسراء: ۲۷۳۷
ثالثا: خطوط عامّة فى محتوى السورة: ۲۷۳۷
الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۱] ۲۷۳۸
اشارة ۲۷۳۸
التّفسير ۲۷۳۹
معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ۲۷۳۹
المعراج: ۲۷۴۰
اشارة ۲۷۴۱
المعراج فى القرآن و الحديث: ۲۷۴۱
هل كان المعراج جسديا أم روحيا؟ ۲۷۴۳
هدف المعراج: ۲۷۴۳
المعراج و العلوم العصرية: ۲۷۴۴
فى مواجهة هذه الأسئلة: ۲۷۴۴
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۲ الى ۸] ۲۷۴۵
اشارة ۲۷۴۵
التّفسير ۲۷۴۵
ملاحظات ۲۷۴۷
الأولى: الإفسادان التأريخيان لبنى إسرائيل: ۲۷۴۷
الثّانية: تحمّل الإنسان لتبعات أعماله: ۲۷۴۹

الثّالثة: تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامى: ۲۷۵۰
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹ الى ۱۲] ۲۷۵۰
اشارة ۲۷۵۰
التّفسير ۲۷۵۱
أقصر الطرق للهداية و السعادة: ۲۷۵۱
بحوث ۲۷۵۴
أوّلا: هل الإنسان عجول ذاتا؟ ۲۷۵۴
ثانيا: أضرار العجلة ۲۷۵۴
ثالثا: دور العدد و الحساب فى حياة الإنسان: ۲۷۵۵
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۳ الى ۱۵] ۲۷۵۶
اشارة ۲۷۵۶
التّفسير ۲۷۵۶
أربعة أصول إسلامية مهمّة: ۲۷۵۶
بحوث ۲۷۵۸
۱- التفؤل و التطير ۲۷۵۸
۲- صحيفة أعمال الإنسان العجيبة: ۲۷۵۹
۳- البرىء لا يؤخذ بجريرة المذنب: ۲۷۶۰
۴- قاعدة «أصل البراءة» و آية! ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ: ۲۷۶۱
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۶ الى ۱۷] ۲۷۶۱
اشارة ۲۷۶۱
التّفسير ۲۷۶۱
مراحل العقاب الإلهى: ۲۷۶۱
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۸ الى ۲۱] ۲۷۶۳
اشارة ۲۷۶۳

التّفسير ----- ۲۷۶۳
طلاب الدنيا و الآخرة: ----- ۲۷۶۳
بحوث ----- ۲۷۶۵
أوّلا: هل الدنيا و الآخرة تقعان على طرفى نقيض؟ ----- ۲۷۶۵
ثانيا: دور السعى فى تحقيق المكاسب: ----- ۲۷۶۶
ثالثا: الإمدادات الإلهية: ----- ۲۷۶۶
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۲۲ الى ۲۵] ----- ۲۷۶۶
اشارة ----- ۲۷۶۶
التّفسير ----- ۲۷۶۷
أحكام إسلامية مهمّة: ----- ۲۷۶۷
الأهمية الاستثنائية لاحترام الوالدين: ----- ۲۷۶۸
بحوث ----- ۲۷۶۹
أوّلا: احترام الوالدين فى المنطق الإسلامى ----- ۲۷۶۹
ثانيا: بحث حول كلمة «قضى»: ----- ۲۷۷۱
ثالثا: بحث حول معنى كلمة «أف»: ----- ۲۷۷۱
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ----- ۲۷۷۲
اشارة ----- ۲۷۷۲
التّفسير ----- ۲۷۷۲
رعاية الاعتدال فى الإنفاق و الهبات: ----- ۲۷۷۲
بحوث ----- ۲۷۷۵
أوّلا: من هم المقصودون بذى القربى؟ ----- ۲۷۷۵
ثانيا: مصائب الإسراف و التبذير: ----- ۲۷۷۶
ثالثا: الفرق بين الإسراف و التبذير: ----- ۲۷۷۶
رابعا: هل ثمّة تعارض بين الاعتدال فى الإنفاق و الإيثار؟ ----- ۲۷۷۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۳۱ الى ۳۵] ---- ۲۷۷۷
اشارة ---- ۲۷۷۷
التّفسير ---- ۲۷۷۷
ستة أحكام مهمّة: ---- ۲۷۷۸
فلسفة تحريم الزنا: ---- ۲۷۷۹
ملاحظات ---- ۲۷۸۲
۱- أضرار التطفيف فى الكيل: ---- ۲۷۸۲
۲- ما هو حكم التطفيف و بخس الكيل؟ ---- ۲۷۸۳
۳- ما هو معنى «قسطاس»؟ ---- ۲۷۸۳
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۳۶ الى ۴۰] ---- ۲۷۸۳
اشارة ---- ۲۷۸۳
التّفسير ---- ۲۷۸۴
الانقياد للعلم: ---- ۲۷۸۴
درس فى استقرار النظام الاجتماعى: ---- ۲۷۸۴
الأوهام و سبل مكافحتها ---- ۲۷۸۶
ثانيا: الكبر و الغرور: ---- ۲۷۸۶
ثالثا: لا تكن مشركا: ---- ۲۷۸۷
بنات اللّه!! ---- ۲۷۸۸
الجزء التاسع ---- ۲۸۰۲
[تتمة سورة الاسراء] ---- ۲۸۰۲
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ---- ۲۸۰۲
اشارة ---- ۲۸۰۲
التّفسير ---- ۲۸۰۲
كيف يفرّون من الحق؟ ---- ۲۸۰۲

دليل التمانع: ۲۸۰۳
تسبيح الكائنات: ۲۸۰۴
الجواب على سؤال: ۲۸۰۶
جانب من روايات العترة الطاهرة: ۲۸۰۶
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۵ الى ۴۸] ۲۸۰۷
اشارة ۲۸۰۷
سبب النّزول ۲۸۰۷
التّفسير ۲۸۰۸
المغرورون و موانع المعرفة: ۲۸۰۸
بحوث ۲۸۰۹
۱- خلاصة عامّة للآيات ۲۸۰۹
۲- لماذا تنسب الحجب للخالق؟ ۲۸۱۰
۳- ما معنى الحجاب المستور؟! ۲۸۱۰
۴- «أكنّة» و «وقر» ماذا يعنيان؟ ۲۸۱۰
۵- تفسير جملة بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ ۲۸۱۱
۶- لماذا اتهموا النّبى بأنّه مسحور؟ ۲۸۱۱
۷- تخوّف المشركين من نداء التوحيد ۲۸۱۱
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۹ الى ۵۲] ۲۸۱۱
اشارة ۲۸۱۱
التّفسير ۲۸۱۲
حتمية البعث و يوم الحساب ۲۸۱۲
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۳ الى ۵۷] ۲۸۱۳
اشارة ۲۸۱۴
التّفسير ۲۸۱۴

التعامل المنطقى مع المعارضين: ۲۸۱۴
ما هى الوسيلة؟ ۲۸۱۷
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۸ الى ۶۰] ۲۸۱۸
اشارة ۲۸۱۸
التّفسير ۲۸۱۸
بحوث ۲۸۱۹
۱- رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الشّجرة الملعونة ۲۸۱۹
۲- أعذار منكرى الإعجاز ۲۸۲۱
۳- ما العلاقة بين المنكرين سابقا و المنكرين لا حقا؟ ۲۸۲۲
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۱ الى ۶۵] ۲۸۲۳
اشارة ۲۸۲۳
التّفسير ۲۸۲۳
مكر إبليس: ۲۸۲۳
بحوث ۲۸۲۴
۱- فى معانى الكلمات ۲۸۲۴
۲- وسائل الشيطان المختلفة فى الوسوسة و الإغواء ۲۸۲۴
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۶ الى ۶۹] ۲۸۲۶
اشارة ۲۸۲۶
التّفسير ۲۸۲۶
لماذا الكفران مع كلّ هذه النعم؟ ۲۸۲۷
بحوث ۲۸۲۸
۱- الشّخصية المتقلّبة ۲۸۲۸
۲- لا يمكن الهروب من حكومة اللّه ۲۸۲۹
ثالثا: معانى الكلمات ۲۸۲۹

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۰ الى ۷۲] ---- ۲۸۳۰
اشارة ---- ۲۸۳۰
التّفسير ---- ۲۸۳۰
الإنسان سيّد الموجودات: ---- ۲۸۳۰
بحوث ---- ۲۸۳۰
أوّلا: وسيلة النقل أوّل نعمة للإنسان ---- ۲۸۳۰
ثانيا، تكريم الإنسان من قبل الخالق ---- ۲۸۳۰
ثالثا: الفرق بين (كرّمنا) و (فضّلنا) ---- ۲۸۳۱
رابعا: ما معنى كلمة (كثير) فى الآية؟ ---- ۲۸۳۱
خامسا: لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ ---- ۲۸۳۲
بحوث ---- ۲۸۳۳
۱- دور القيادة فى حياة البشر ---- ۲۸۳۳
۲- تكريم بنى آدم ---- ۲۸۳۴
۳- دور القيادة فى الإسلام ---- ۲۸۳۴
۴- عميان القلوب ---- ۲۸۳۵
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۳ الى ۷۵] ---- ۲۸۳۵
اشارة ---- ۲۸۳۵
سبب النّزول ---- ۲۸۳۵
التّفسير ---- ۲۸۳۷
بحوث ---- ۲۸۳۷
۱- هل أبدى الرّسول ليونة إزاء المشركين؟ ---- ۲۸۳۷
۲- لماذا العذاب المضاعف؟ ---- ۲۸۳۸
۳- معنى (الضعف) ---- ۲۸۳۸
۴- تفسير جملة إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ---- ۲۸۳۹

۵- إلهى لا تكلنى إلى نفسى ---- ۲۸۳۹
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۶ الى ۷۷] ---- ۲۸۳۹
اشارة ---- ۲۸۳۹
أسباب النّزول ---- ۲۸۴۰
التّفسير ---- ۲۸۴۰
مؤامرة خبيثة أخرى: ---- ۲۸۴۰
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۸ الى ۸۱] ---- ۲۸۴۱
اشارة ---- ۲۸۴۱
التّفسير ---- ۲۸۴۱
الفناء نهاية الباطل: ---- ۲۸۴۱
بحوث ---- ۲۸۴۴
۱- صلاة اللّيل عبادة روحية عظيمة ---- ۲۸۴۴
۲- ما هو المقام المحمود؟ ---- ۲۸۴۶
۳- العوامل الثّلاثة للانتصار ---- ۲۸۴۷
۴- حتمية انتصار الحق و هزيمة الباطل ---- ۲۸۴۷
۵- آية جاء الحق ... و قيام المهدى عليه السّلام ---- ۲۸۴۷
الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۸۲] ---- ۲۸۴۸
اشارة ---- ۲۸۴۸
التّفسير ---- ۲۸۴۸
القرآن و صفة للشفاء ---- ۲۸۴۸
بحوث ---- ۲۸۴۸
۱- مفهوم كلمة (من) فى مِنَ الْقُرْآنِ ---- ۲۸۴۸
۲- الفرق بين الشّفاء و الرّحمة ---- ۲۸۴۹
۳- الظّالمون و نصيبهم من القرآن ---- ۲۸۴۹

۴- القرآن دواء ناجع لكل الأمراض الاجتماعية و الأخلاقية ۲۸۵۰
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۳ الى ۸۴] ۲۸۵۱
اشارة ۲۸۵۱
التّفسير ۲۸۵۱
كل يتصرف وفق فطرته: ۲۸۵۱
بحوث ۲۸۵۲
۱- الغرور و اليأس ۲۸۵۲
۲- ما معنى (شاكلة)؟ ۲۸۵۳
الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۸۵] ۲۸۵۴
اشارة ۲۸۵۴
التّفسير ۲۸۵۴
ما هى الرّوح؟ ۲۸۵۴
أصالة و استقلال الرّوح: ۲۸۵۶
دلائل الماديين على عدم استقلال الروح ۲۸۵۸
نقد هذه النظرية: ۲۸۵۹
أدلة استقلال الروح ۲۸۶۰
اشارة ۲۸۶۰
أوّلا: ادراک الواقع الخارجى ۲۸۶۰
ثانيا: وحدة الشخصية ۲۸۶۱
اشارة ۲۸۶۱
الحذر من هذا الاشتباه! ۲۸۶۲
ثالثا: عدم تطابق الكبير مع الصغير ۲۸۶۲
اشارة ۲۸۶۲
سؤال مهم: ۲۸۶۳

رابعا: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية ---- ۲۸۶۳
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۶ الى ۸۷] ---- ۲۸۶۴
اشارة ---- ۲۸۶۴
التّفسير ---- ۲۸۶۴
ما عندک هو من رحمته و بركته: ---- ۲۸۶۴
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۸ الى ۸۹] ---- ۲۸۶۵
اشارة ---- ۲۸۶۵
التّفسير ---- ۲۸۶۵
معجزة القرآن: ---- ۲۸۶۵
و نلاحظ فى هذه الآية عدّة نقاط ملفتة للنظر: ---- ۲۸۶۶
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۰ الى ۹۳] ---- ۲۸۶۷
اشارة ---- ۲۸۶۷
سبب النّزول ---- ۲۸۶۷
التّفسير ---- ۲۸۶۸
أعذار و ذرائع مختلفة: ---- ۲۸۶۸
بحوث ---- ۲۸۶۹
۱- جواب الرّسول للمتذرعين ---- ۲۸۶۹
۲- الأفكار المحدودة و الطلبات غير المعقولة ---- ۲۸۷۰
۳- ذريعة أخرى لنفى الإعجاز ---- ۲۸۷۱
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۴ الى ۹۵] ---- ۲۸۷۲
اشارة ---- ۲۸۷۲
التّفسير ---- ۲۸۷۲
ذريعة عامّة: ---- ۲۸۷۲
اشارة ---- ۲۸۷۲

المهتدون الحقيقيون: ۲۸۷۳
ملاحظات ۲۸۷۵
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۶ الى ۹۷] ۲۸۷۵
اشارة ۲۸۷۵
التّفسير ۲۸۷۵
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰] ۲۸۷۵
اشارة ۲۸۷۶
التّفسير ۲۸۷۶
كيف يكون المعاد ممكنا؟ ۲۸۷۶
ملاحظات ۲۸۷۶
۱- المعاد الجسمانى ۲۸۷۶
۲- أىّ الآيات؟ ۲۸۷۷
۳- ما هو الغرض من «مثلهم»؟ ۲۸۷۷
۴- ما هو (الأجل)؟ ۲۸۷۷
۵- الترابط بين الآيات ۲۸۷۸
۶- هل أن جميع البشر بخلاء؟ ۲۸۷۸
۷- استخدام تعبير خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ ۲۸۷۹
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴] ۲۸۷۹
اشارة ۲۸۷۹
التّفسير ۲۸۷۹
لم يؤمنوا رغم الآيات: ۲۸۷۹
بحوث ۲۸۸۰
۱- المقصود من الآيات التسع ۲۸۸۰
۲- هل أنّ السائل هو الرّسول نفسه؟ ۲۸۸۲

۳- ما المراد ب (الأرض) المذكورة فی الآيات؟ ----- ۲۸۸۲
۴- هل تعنی كلمة (وعد الآخرة) يوم البعث و الآخرة؟ ----- ۲۸۸۲
الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۵ الی ۱۰۹] ----- ۲۸۸۲
اشارة ----- ۲۸۸۲
التّفسير ----- ۲۸۸۳
عشاق الحق ----- ۲۸۸۳
ملاحظات ----- ۲۸۸۴
فی هذه الآية ينبغی الالتفات إلی الملاحظات الآتية: ----- ۲۸۸۴
بحثان: ----- ۲۸۸۵
۱- التخطيط للتربية و التعلم ----- ۲۸۸۵
۲- علاقة العلم بالإيمان ----- ۲۸۸۶
الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۱۰ الی ۱۱۱] ----- ۲۸۸۶
اشارة ----- ۲۸۸۶
سبب النّزول ----- ۲۸۸۶
التّفسير ----- ۲۸۸۷
آخر الذرائع و الأغذار ----- ۲۸۸۷
ملاحظة ----- ۲۸۸۹
و نلاحظ فی هذه الآية عدة أمور: ----- ۲۸۸۹
۱- تناسب الصفات الثلاثية ----- ۲۸۸۹
۲- ما هو التكبير؟ ----- ۲۸۹۰
۳- الإجابة علی هذا السؤال ----- ۲۸۹۰
سورة الكهف ----- ۲۸۹۱
اشارة ----- ۲۸۹۱
فضيلة سورة الكهف ----- ۲۸۹۱

محتوى سورة الكهف ۲۸۹۲
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱ الى ۵] ۲۸۹۳
اشارة ۲۸۹۳
التّفسير ۲۸۹۳
البداية باسم اللّه، و القرآن: ۲۸۹۳
بحوث ۲۸۹۴
۱- افتتاح السورة بحمد اللّه سبحانه و تعالى ۲۸۹۴
۲- القرآن كتاب ثابت و مستقيم و حافظ ۲۸۹۴
۳- انذارين شديدين عام و خاص: ۲۸۹۴
۴- الادعاء الفارغ ۲۸۹۵
۵- العمل الصالح برنامج مستمر ۲۸۹۵
۶- صفة العبد أرقى و سام للإنسان ۲۸۹۵
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶ الى ۸] ۲۸۹۶
اشارة ۲۸۹۶
التّفسير ۲۸۹۶
العالم ساحة اختبار: ۲۸۹۶
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹ الى ۱۲] ۲۸۹۷
اشارة ۲۸۹۸
أسباب النّزول ۲۸۹۸
التّفسير ۲۸۹۸
بداية قصّة أصحاب الكهف ۲۸۹۸
ملاحظات ۲۹۰۰
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۳ الى ۱۶] ۲۹۰۰
اشارة ۲۹۰۰

التّفسير ----- ۲۹۰۱
القصّة المفصّلة لأصحاب الكهف: ----- ۲۹۰۱
ملاحظات ----- ۲۹۰۲
۱- الفتوة و الإيمان ----- ۲۹۰۲
۲- الإيمان و الإمداد الإلهى ----- ۲۹۰۲
۳- ملجأ باسم الغار ----- ۲۹۰۳
الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۷ الى ۱۸] ----- ۲۹۰۳
اشارة ----- ۲۹۰۳
التّفسير ----- ۲۹۰۴
مكان أصحاب الكهف: ----- ۲۹۰۴
الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۹ الى ۲۰] ----- ۲۹۰۵
اشارة ----- ۲۹۰۵
التّفسير ----- ۲۹۰۶
اليقظة بعد نوم طويل: ----- ۲۹۰۶
بحوث ----- ۲۹۰۶
۱- أزكى الطعام ----- ۲۹۰۶
اشارة ----- ۲۹۰۶
ثانيا: التقية البنّاءة ----- ۲۹۰۷
ثالثا: اللطف مركز القرآن ----- ۲۹۰۷
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۱ الى ۲۴] ----- ۲۹۰۷
اشارة ----- ۲۹۰۷
التّفسير ----- ۲۹۰۸
نهاية قصّة أصحاب الكهف: ----- ۲۹۰۸
بحوث ----- ۲۹۱۱

۱- قوله تعالى: رَجْماً بِالْغَيْبِ ----- ۲۹۱۱
۲- الواو فى قوله: وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ----- ۲۹۱۱
۳- المسجد إلى جوار المقبرة ----- ۲۹۱۲
۴- كل شيء يعتمد على مشيئته تعالى ----- ۲۹۱۲
۵- الإجابة على سؤال ----- ۲۹۱۲
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۵ الى ۲۷] ----- ۲۹۱۳
اشارة ----- ۲۹۱۳
التّفسير ----- ۲۹۱۳
نوم أصحاب الكهف: ----- ۲۹۱۳
بحوث ----- ۲۹۱۴
۱- قصّة أصحاب الكهف فى الرّوايات الإسلامية ----- ۲۹۱۴
۲- أين كان الكهف؟ ----- ۲۹۱۶
۳- الجوانب التربوية لقصّة أهل الكهف ----- ۲۹۱۷
۴- هل أنّ قصّة أصحاب الكهف علمية؟ ----- ۲۹۱۸
حالة السبات: ----- ۲۹۲۰
نموذج آخر: دفن المرتاضين ----- ۲۹۲۱
تجميد جسم الإنسان و هو حى: ----- ۲۹۲۱
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۸ الى ۳۱] ----- ۲۹۲۳
اشارة ----- ۲۹۲۳
سبب النّزول ----- ۲۹۲۳
التّفسير ----- ۲۹۲۳
الحفاة الأطهار! ----- ۲۹۲۴
بحوث ----- ۲۹۲۵
۱- الرّوح الطبقية مشكلة اجتماعية كبيرة ----- ۲۹۲۵

۲- المقارنة بين الحياة فى هذا العالم و عالم الآخرة: ۲۹۲۶
۳- العلاقة بين عبادة الهوى و الغفلة عن اللّه ۲۹۲۷
۴- ملابس الزينة فى العالم الآخر ۲۹۲۷
۵- الاقتراب من الأثرياء بسبب ثروتهم: ۲۹۲۸
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۳۲ الى ۳۶] ۲۹۲۸
اشارة ۲۹۲۸
التّفسير ۲۹۲۹
تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: ۲۹۲۹
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۳۷ الى ۴۱] ۲۹۲۹
اشارة ۲۹۳۰
التّفسير ۲۹۳۰
جواب المؤمن: ۲۹۳۰
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴] ۲۹۳۲
اشارة ۲۹۳۲
التّفسير ۲۹۳۲
العاقبة السوداء: ۲۹۳۲
بحثان ۲۹۳۳
۱- غرور الثروة ۲۹۳۳
دروس و عبر ۲۹۳۴
الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۵ الى ۴۶] ۲۹۳۵
اشارة ۲۹۳۵
التّفسير ۲۹۳۵
بداية و نهاية الحياة فى لوحة حيّة: ۲۹۳۵
بحوث ۲۹۳۷

۱- المغريات ۲۹۳۷
۲- عوامل تحطيم الغرور ۲۹۳۷
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۷ الى ۴۹] ۲۹۳۸
اشارة ۲۹۳۸
التّفسير ۲۹۳۸
يا ويلتاه من هذا الكتاب! ۲۹۳۸
بحوث ۲۹۴۰
۱- سر انهدام الجبال ۲۹۴۰
۲- صحيفة الأعمال ۲۹۴۰
۳- الإيمان بالمعاد و دوره فى تربية الناس ۲۹۴۱
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۰ الى ۵۳] ۲۹۴۲
اشارة ۲۹۴۲
التّفسير ۲۹۴۲
لا تتخذوا الشياطين أولياء: ۲۹۴۲
بحثان ۲۹۴۴
۱- هل كان الشيطان ملكا؟ ۲۹۴۴
۲- لا تستعينوا بالضالّين ۲۹۴۵
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۴ الى ۵۶] ۲۹۴۶
اشارة ۲۹۴۶
التّفسير ۲۹۴۶
فى انتظار العقاب: ۲۹۴۶
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۷ الى ۵۹] ۲۹۴۷
اشارة ۲۹۴۷
التّفسير ۲۹۴۷

لا استعجال فی العقاب الإلهی: ۲۹۴۸
الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۶۰ الی ۶۴] ۲۹۴۹
اشارة ۲۹۴۹
التّفسیر ۲۹۴۹
لقاء موسی و الخضر علیهما السّلام: ۲۹۴۹
الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۶۵ الی ۷۰] ۲۹۵۱
اشارة ۲۹۵۲
التّفسیر ۲۹۵۲
رؤیة المعلم الکبیر: ۲۹۵۲
الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۷۱ الی ۷۸] ۲۹۵۳
اشارة ۲۹۵۳
التّفسیر ۲۹۵۳
المعلم الإلهی و الأفعال المنکرة!! ۲۹۵۳
الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۷۹ الی ۸۲] ۲۹۵۶
اشارة ۲۹۵۶
التّفسیر ۲۹۵۶
الأسرار الداخلیة لهذه الحوادث: ۲۹۵۶
بحوث ۲۹۵۸
۱- هل کانت مهمّة الخضر فی اطار النظام التشریعی أم التکوینی!؟ ۲۹۵۸
۲- من هو الخضر؟ ۲۹۶۱
۳- الأساطیر الموضوعة ۲۹۶۲
۴- هل یمکن أن یصاب الأنبیاء بالنسیان؟ ۲۹۶۲
۵- لماذا ذهب موسی لرؤیة الخضر؟ ۲۹۶۳
۶- ماذا کان الکنز؟ ۲۹۶۴

۷- دروس هذه القصّة ----- ۲۹۶۵
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۸۳ الى ۹۱] ----- ۲۹۶۷
اشارة ----- ۲۹۶۷
التّفسير ----- ۲۹۶۷
قصّة «ذو القرنين» العجيبة: ----- ۲۹۶۷
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹۲ الى ۹۸] ----- ۲۹۶۹
اشارة ----- ۲۹۶۹
التّفسير ----- ۲۹۷۰
كيف تمّ بناء سد ذى القرنين؟ ----- ۲۹۷۰
بحوث ----- ۲۹۷۲
أولا- الملاحظات التربوية فى هذه القصة التأريخية ----- ۲۹۷۲
ثانيا: من هو ذو القرنين؟ ----- ۲۹۷۴
ثالثا: أين يقع سد ذى القرنين؟ ----- ۲۹۷۷
رابعا: من هم يأجوج و مأجوج؟ ----- ۲۹۷۸
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹۹ الى ۱۰۲] ----- ۲۹۷۸
اشارة ----- ۲۹۷۸
التّفسير ----- ۲۹۷۹
عاقبة الكافرين: ----- ۲۹۷۹
الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸] ----- ۲۹۸۰
اشارة ----- ۲۹۸۰
التّفسير ----- ۲۹۸۰
أخسر الناس: ----- ۲۹۸۰
بحوث ----- ۲۹۸۲
۱- من هم الأخسرون أعمالا؟ ----- ۲۹۸۲

۲- ماذا يعنى لقاء اللّه؟ ۲۹۸۳
۳- وزن الأعمال ۲۹۸۴
۴- تفسير قوله تعالى: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا ۲۹۸۴
۵- الفردوس لمن؟ ۲۹۸۵
الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۰] ۲۹۸۵
اشارة ۲۹۸۵
سبب النّزول ۲۹۸۵
التّفسير ۲۹۸۶
الذين يأملون لقاء اللّه: ۲۹۸۶
توضيح لمفهوم اللانهاية: ۲۹۸۷
الإخلاص أو روح العمل الصالح: ۲۹۸۹
دعاء الختام: ۲۹۸۹
سورة مريم ۲۹۹۰
اشارة ۲۹۹۰
محتوى السورة: ۲۹۹۰
فضل السورة: ۲۹۹۰
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱ الى ۶] ۲۹۹۱
اشارة ۲۹۹۱
التّفسير ۲۹۹۱
دعاء زكريا المستجاب: ۲۹۹۱
بحوث ۲۹۹۲
۱- المراد من الإرث ۲۹۹۲
۲- ماذا تعنى كلمة «نادى»؟ ۲۹۹۴
۳- وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۲۹۹۴

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۷ الى ۱۱] ۲۹۹۴
اشارة ۲۹۹۴
التّفسير ۲۹۹۴
بلوغ زكريا أمله: ۲۹۹۴
بحثان ۲۹۹۶
۱- يحيى عليه السّلام النّبى المتألّه الورع ۲۹۹۶
۲- ما معنى كلمة «المحراب»؟ ۲۹۹۷
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۲ الى ۱۵] ۲۹۹۷
اشارة ۲۹۹۷
التّفسير ۲۹۹۷
صفات يحيى عليه السّلام البارزة: ۲۹۹۷
يحيى و صفاته العشرة: ۲۹۹۸
بحوث ۲۹۹۸
۱- خذ الكتاب السماوى بقوة و اقتدار! ۲۹۹۸
۲- ثلاثة أيّام صعبة فى مصير الإنسان ۲۹۹۹
۳- النّبوة فى الطفولة ۲۹۹۹
۴- شهادة يحيى ۳۰۰۰
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۶ الى ۲۱] ۳۰۰۰
اشارة ۳۰۰۱
التّفسير ۳۰۰۱
ولادة عيسى عليه السّلام: ۳۰۰۱
بحثان ۳۰۰۲
۱- ما هو المراد من روح اللّه؟ ۳۰۰۲
۲- ما هو التمثل؟ ۳۰۰۳

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۲۲ الى ۲۶] ----- ۳۰۰۳
اشارة ----- ۳۰۰۳
التّفسير ----- ۳۰۰۳
مريم فى عاصفة: ----- ۳۰۰۳
بحوث ----- ۳۰۰۵
۱- ازدياد قوة مريم عند تراكم المشاكل ----- ۳۰۰۵
۲- لماذا طلبت مريم الموت من اللّه؟ ----- ۳۰۰۵
۳- سؤال و جواب ----- ۳۰۰۶
۴- صوم الصمت ----- ۳۰۰۶
۵- غذاء مولد للطاقة ----- ۳۰۰۷
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۲۷ الى ۳۳] ----- ۳۰۰۷
اشارة ----- ۳۰۰۷
التّفسير ----- ۳۰۰۷
المسيح يتكلم فى المهد: ----- ۳۰۰۸
بحوث ----- ۳۰۰۹
۱- أوضح تصوير عن ولادة عيسى عليه السّلام ----- ۳۰۰۹
۲- منزلة الأم ----- ۳۰۱۰
۳- إنجاب البكر ----- ۳۰۱۱
۴- كيف يتكلم الصبى؟ ----- ۳۰۱۱
الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵] ----- ۳۰۱۱
اشارة ----- ۳۰۱۲
التّفسير ----- ۳۰۱۲
أ يمكن أن يكون للّه ولدا!؟ ----- ۳۰۱۲
نفى الولد يعنى نفى الاحتياج عن اللّه: ----- ۳۰۱۲

ملاحظة تاريخية هامة حول الهجرة الأولى ----- ۳۰۱۳
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۳۶ الى ۴۰] ----- ۳۰۱۴
اشارة ----- ۳۰۱۴
التّفسير ----- ۳۰۱۴
يوم القيامة .. يوم الحسرة و الأسف: ----- ۳۰۱۴
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۴۱ الى ۴۵] ----- ۳۰۱۶
اشارة ----- ۳۰۱۶
التّفسير ----- ۳۰۱۶
إبراهيم و منطقه المؤثر و القاطع: ----- ۳۰۱۶
بحوث ----- ۳۰۱۸
۱- طريق النفوذ إلى الآخرين ----- ۳۰۱۸
۲- دليل اتباع العالم ----- ۳۰۱۸
۳- سوره الرحمة و التذكير ----- ۳۰۱۸
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۴۶ الى ۵۰] ----- ۳۰۱۹
اشارة ----- ۳۰۱۹
التّفسير ----- ۳۰۱۹
نتيجة البعد عن الشرک و المشركين: ----- ۳۰۱۹
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۱ الى ۵۳] ----- ۳۰۲۱
اشارة ----- ۳۰۲۱
التّفسير ----- ۳۰۲۱
موسى النّبى المخلص: ----- ۳۰۲۱
بحثان ----- ۳۰۲۲
۱- من هو المخلص؟ ----- ۳۰۲۲
۲- الفرق بين الرّسول و النّبى ----- ۳۰۲۲

الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۴ الى ۵۵] ----- ۳۰۲۳
اشارة ----- ۳۰۲۳
التّفسير ----- ۳۰۲۳
إسماعيل نبى صادق الوعد: ----- ۳۰۲۳
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰] ----- ۳۰۲۴
اشارة ----- ۳۰۲۴
التّفسير ----- ۳۰۲۴
هؤلاء أنبياء اللّه، و لكن .. ----- ۳۰۲۵
بحثان ----- ۳۰۲۶
۱- من هو إدريس؟ ----- ۳۰۲۶
۲- من هم الذين أَضاعُوا الصَّلاةَ ----- ۳۰۲۷
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۱ الى ۶۳] ----- ۳۰۲۷
اشارة ----- ۳۰۲۷
التّفسير ----- ۳۰۲۷
بعض صفات الجنّة: ----- ۳۰۲۷
الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۴ الى ۶۵] ----- ۳۰۲۹
اشارة ----- ۳۰۲۹
سبب النّزول ----- ۳۰۲۹
التّفسير ----- ۳۰۲۹
الطاعة التّامة: ----- ۳۰۲۹
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۶ الى ۷۰] ----- ۳۰۳۰
اشارة ----- ۳۰۳۰
سبب النّزول ----- ۳۰۳۰
التّفسير ----- ۳۰۳۰

حال أهل النّار: ۳۰۳۰
الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲] ۳۰۳۲
اشارة ۳۰۳۲
التّفسير ۳۰۳۲
الجميع يردون جهنم! ۳۰۳۲
جواب عن سؤال: ۳۰۳۳
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۷۳ الى ۷۶] ۳۰۳۳
اشارة ۳۰۳۳
التّفسير ۳۰۳۳
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۷۷ الى ۸۲] ۳۰۳۵
اشارة ۳۰۳۵
التّفسير ۳۰۳۵
تفكير خرافى و منحرف: ۳۰۳۵
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۸۳ الى ۸۷] ۳۰۳۷
اشارة ۳۰۳۷
التّفسير ۳۰۳۷
من هم الذين لهم أهلية الشفاعة؟ ۳۰۳۷
ما معنى العهد؟ ۳۰۳۸
الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۸۸ الى ۹۵] ۳۰۴۰
اشارة ۳۰۴۰
التّفسير ۳۰۴۰
ملاحظتان ۳۰۴۱
۱- إلى الآن يظنون أنّه ابن اللّه! ۳۰۴۱
۲- كيف تفنى السماوات و تتلاشى؟ ۳۰۴۱

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۹۶ الى ۹۸] ----- ۳۰۴۱
اشارة ----- ۳۰۴۲
التّفسير ----- ۳۰۴۲
الإيمان و المحبوبية: ----- ۳۰۴۲
بحثان ----- ۳۰۴۳
۱- محبّة على عليه السّلام فى قلوب المؤمنين ----- ۳۰۴۳
۲- تفسير جملة: يَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ ----- ۳۰۴۴
«سورة طه» ----- ۳۰۴۵
فضل سورة طه ----- ۳۰۴۵
محتوى السّورة ----- ۳۰۴۵
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۳۰۴۶
اشارة ----- ۳۰۴۶
سبب النّزول ----- ۳۰۴۶
التّفسير ----- ۳۰۴۶
لا تجهد نفسک إلى هذا الحد: ----- ۳۰۴۶
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹ الى ۱۶] ----- ۳۰۴۹
اشارة ----- ۳۰۴۹
التّفسير ----- ۳۰۴۹
نار فى الجانب الآخر من الصحراء! ----- ۳۰۴۹
بحوث ----- ۳۰۵۲
۱- المراد من قوله تعالى: فَاخْلَعْ نَعْلَيْکَ ----- ۳۰۵۲
۲- جواب عن سؤال، ----- ۳۰۵۳
۳- الصلاة أفضل وسيلة لذكر اللّه ----- ۳۰۵۳
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۷ الى ۲۳] ----- ۳۰۵۴

اشارة ----- ۳۰۵۴
التّفسير ----- ۳۰۵۴
عصا موسى و اليد البيضاء: ----- ۳۰۵۴
بحوث ----- ۳۰۵۵
۱- معجزتان كبيرتان ----- ۳۰۵۵
۲- قابليات الأشياء الخارقة ----- ۳۰۵۶
۳- ماذا تقول التوراة حول هذا الموضوع؟ ----- ۳۰۵۶
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۲۴ الى ۳۶] ----- ۳۰۵۶
اشارة ----- ۳۰۵۷
التّفسير ----- ۳۰۵۷
موسى و طلباته القيمة: ----- ۳۰۵۷
بحوث ----- ۳۰۵۹
۱- شروط قيادة الثورة ----- ۳۰۵۹
۲- مقارعة الطغاة ----- ۳۰۵۹
۳- كل عمل يحتاج إلى تخطيط و وسائل ----- ۳۰۵۹
۴- التسبيح و الذكر ----- ۳۰۶۰
۵- الرّسول الأعظم يكرر مطالب موسى ----- ۳۰۶۰
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۳۷ الى ۴۱] ----- ۳۰۶۱
اشارة ----- ۳۰۶۱
التّفسير ----- ۳۰۶۱
الربّ الرحيم: ----- ۳۰۶۱
الجزء العاشر ----- ۳۰۷۹
[تتمة سورة طه ----- ۳۰۷۹
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۴۲ الى ۴۸] ----- ۳۰۷۹

اشارة ----- ۳۰۷۹
التّفسير ----- ۳۰۷۹
أوّل لقاء مع فرعون الجبّار: ----- ۳۰۷۹
بحوث ----- ۳۰۸۱
۱- قدرة اللّه العجيبة ----- ۳۰۸۱
۲- التعامل المناسب مع الأعداء ----- ۳۰۸۱
۳- هل يوحى إلى غير الأنبياء؟ ----- ۳۰۸۲
۴- سؤال و جواب ----- ۳۰۸۲
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۴۹ الى ۵۵] ----- ۳۰۸۲
اشارة ----- ۳۰۸۲
التّفسير ----- ۳۰۸۳
من ربّكما؟ ----- ۳۰۸۳
ملاحظات ----- ۳۰۸۵
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۵۶ الى ۶۴] ----- ۳۰۸۶
اشارة ----- ۳۰۸۶
التّفسير ----- ۳۰۸۶
فرعون يهيء نفسه للجولة الأخيرة: ----- ۳۰۸۶
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۶۵ الى ۶۹] ----- ۳۰۸۸
اشارة ----- ۳۰۸۸
التّفسير ----- ۳۰۸۸
موسى عليه السّلام ينزل إلى الساحة: ----- ۳۰۸۸
بحثان ----- ۳۰۹۰
۱- ما هى حقيقة السحر؟ ----- ۳۰۹۰
۲- السّاحر لا يفلح أبدا ----- ۳۰۹۱

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۰ الى ۷۶] ۳۰۹۲
اشارة ۳۰۹۲
التّفسير ۳۰۹۲
الإنتصار العظيم لموسى عليه السّلام: ۳۰۹۲
بحوث ۳۰۹۴
۱- العلم أساس الإيمان و الوعى ۳۰۹۴
۲- لن نؤثرک على البيّنات ۳۰۹۵
۳- من هو المجرم؟ ۳۰۹۵
۴- جبر البيئة خرافة ۳۰۹۶
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۷ الى ۷۹] ۳۰۹۶
اشارة ۳۰۹۶
التّفسير ۳۰۹۶
نجاة بنى إسرائيل و غرق الفراعنة: ۳۰۹۶
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۰ الى ۸۲] ۳۰۹۸
اشارة ۳۰۹۸
التّفسير ۳۰۹۸
طريق النجاة الوحيد: ۳۰۹۸
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۳ الى ۹۱] ۳۱۰۰
اشارة ۳۱۰۰
التّفسير ۳۱۰۰
صخب السامرى: ۳۱۰۰
بحوث ۳۱۰۳
۱- شوق اللقاء! ۳۱۰۳
۲- الحركات المناوئة لنهضة الأنبياء! ۳۱۰۳

۳- مراحل القيادة ----- ۳۱۰۴
۴- سؤال و جواب؟ ----- ۳۱۰۵
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹۲ الى ۹۸] ----- ۳۱۰۵
اشارة ----- ۳۱۰۵
التّفسير ----- ۳۱۰۵
نهاية السّامرى المريرة: ----- ۳۱۰۶
بحثان ----- ۳۱۰۸
۱- يجب الثبات أمام الحوادث الصعبة ----- ۳۱۰۸
۲- من هو السامرى؟ ----- ۳۱۰۹
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۴] ----- ۳۱۰۹
اشارة ----- ۳۱۰۹
التّفسير ----- ۳۱۱۰
أسوأ ما يحملون على عاتقهم! ----- ۳۱۱۰
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۲] ----- ۳۱۱۲
اشارة ----- ۳۱۱۲
التّفسير ----- ۳۱۱۲
مشهد القيامة المهول: ----- ۳۱۱۲
بحثان ----- ۳۱۱۴
۱- الفرق بين الظلم و الهضم ----- ۳۱۱۴
۲- مراحل القيامة ----- ۳۱۱۵
الآيتان [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴] ----- ۳۱۱۵
اشارة ----- ۳۱۱۵
التّفسير ----- ۳۱۱۵
بحثان ----- ۳۱۱۶

۱- لا تعجل حتّى فى تلقّى الوحى! ----- ۳۱۱۶
۲- أطلب المزيد من العلم ----- ۳۱۱۷
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۵ الى ۱۲۲] ----- ۳۱۱۸
اشارة ----- ۳۱۱۸
التّفسير ----- ۳۱۱۸
آدم و مكر الشّيطان: ----- ۳۱۱۸
هل ارتكب آدم معصية؟ ----- ۳۱۲۰
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۷] ----- ۳۱۲۱
اشارة ----- ۳۱۲۱
التّفسير ----- ۳۱۲۱
المعيشة الضنكا: ----- ۳۱۲۱
بحوث ----- ۳۱۲۲
۱- الغفلة عن ذكر الحقّ و آثارها ----- ۳۱۲۲
۲- عمى البصر و عمى البصيرة! ----- ۳۱۲۳
۳- الإسراف فى المعصية ----- ۳۱۲۴
۴- ما هو الهبوط؟ ----- ۳۱۲۴
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۸ الى ۱۳۰] ----- ۳۱۲۵
اشارة ----- ۳۱۲۵
التّفسير ----- ۳۱۲۵
اعتبروا بتاريخ الماضين: ----- ۳۱۲۵
الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۵] ----- ۳۱۲۷
اشارة ----- ۳۱۲۷
التّفسير ----- ۳۱۲۷
سورة الأنبياء ----- ۳۱۲۹

اشارة ----- ۳۱۲۹
فضل سورة الأنبياء: ----- ۳۱۲۹
محتوى السورة: ----- ۳۱۲۹
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۳۱۳۰
اشارة ----- ۳۱۳۰
التّفسير ----- ۳۱۳۱
أعذار متنوّعة: ----- ۳۱۳۱
ملاحظة: ----- ۳۱۳۳
هل القرآن محدث؟ ----- ۳۱۳۳
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶ الى ۱۰] ----- ۳۱۳۳
اشارة ----- ۳۱۳۳
التّفسير ----- ۳۱۳۴
كلّ الأنبياء كانوا بشرا: ----- ۳۱۳۴
من هم أهل الذكر؟ ----- ۳۱۳۴
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ----- ۳۱۳۶
اشارة ----- ۳۱۳۶
التّفسير ----- ۳۱۳۶
كيف وقع الظّالمون فى قبضة العذاب؟ ----- ۳۱۳۶
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۶ الى ۱۸] ----- ۳۱۳۷
اشارة ----- ۳۱۳۷
التّفسير ----- ۳۱۳۷
خلق السّماء و الأرض ليس لهوا: ----- ۳۱۳۷
بحث ----- ۳۱۳۸
الهدف من الخلق: ----- ۳۱۳۸

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۹ الى ۲۵] ۳۱۴۰
اشارة ۳۱۴۰
التّفسير ۳۱۴۰
الشرک ينبع من الظنّ: ۳۱۴۰
برهان التمانع: ۳۱۴۱
سؤال: ۳۱۴۲
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹] ۳۱۴۴
اشارة ۳۱۴۴
التّفسير ۳۱۴۴
الملائكة عباد مكرمون مطيعون: ۳۱۴۴
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ۳۱۴۶
اشارة ۳۱۴۶
التّفسير ۳۱۴۶
علامات أخرى للّه فى عالم الوجود: ۳۱۴۶
بحثان ۳۱۴۸
۱- تفسير قوله تعالى: كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۳۱۴۸
۲- السّماء سقف محكم ۳۱۴۹
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۴ الى ۳۵] ۳۱۴۹
اشارة ۳۱۴۹
التّفسير ۳۱۵۰
الموت يتربّص بالجميع: ۳۱۵۰
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۶ الى ۴۰] ۳۱۵۱
اشارة ۳۱۵۱
التّفسير ۳۱۵۱

خلق الإنسان من عجل! ----- ۳۱۵۱
ملاحظتان ----- ۳۱۵۳
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۴۱ الى ۴۵] ----- ۳۱۵۳
اشارة ----- ۳۱۵۳
التّفسير ----- ۳۱۵۳
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۴۶ الى ۴۷] ----- ۳۱۵۵
اشارة ----- ۳۱۵۵
التّفسير ----- ۳۱۵۵
موازين العدل فى القيامة: ----- ۳۱۵۵
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۴۸ الى ۵۰] ----- ۳۱۵۶
اشارة ----- ۳۱۵۶
التّفسير ----- ۳۱۵۶
لمحة من قصص الأنبياء: ----- ۳۱۵۶
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۱ الى ۵۸] ----- ۳۱۵۸
اشارة ----- ۳۱۵۸
التّفسير ----- ۳۱۵۸
تخطيط إبراهيم عليه السّلام لتحطيم الأصنام: ----- ۳۱۵۸
ملاحظتان ----- ۳۱۶۰
۱- الصنميّة فى أشكال متعدّدة ----- ۳۱۶۰
۲- قول عبدة الأصنام و جواب إبراهيم ----- ۳۱۶۰
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۹ الى ۶۷] ----- ۳۱۶۰
اشارة ----- ۳۱۶۰
التّفسير ----- ۳۱۶۱
إبراهيم و برهانه المبين: ----- ۳۱۶۱

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶۸ الى ۷۰] ۳۱۶۳
اشارة ۳۱۶۳
التّفسير ۳۱۶۴
عند ما تصير النّار جنّة: ۳۱۶۴
بحوث ۳۱۶۵
۱- السعى للخير و الشرّ ۳۱۶۵
۲- الفتى الشّجاع ۳۱۶۶
۳- إبراهيم و نمرود ۳۱۶۶
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۱ الى ۷۳] ۳۱۶۷
اشارة ۳۱۶۷
التّفسير ۳۱۶۷
هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين ۳۱۶۷
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۴ الى ۷۵] ۳۱۶۹
اشارة ۳۱۶۹
التّفسير ۳۱۶۹
نجاة لوط من أرض الفجّار: ۳۱۶۹
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۶ الى ۷۷] ۳۱۷۰
اشارة ۳۱۷۰
التّفسير ۳۱۷۰
نجاة نوح من القوم الكافرين: ۳۱۷۰
ملاحظة ۳۱۷۱
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۸ الى ۸۰] ۳۱۷۲
اشارة ۳۱۷۲
التّفسير ۳۱۷۲

قضاء داود و سليمان عليهما السّلام: ----- ۳۱۷۲
بحث ----- ۳۱۷۳
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۱ الى ۸۲] ----- ۳۱۷۴
اشارة ----- ۳۱۷۴
التّفسير ----- ۳۱۷۴
الرياح تحت إمرة سليمان: ----- ۳۱۷۴
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۳ الى ۸۴] ----- ۳۱۷۶
اشارة ----- ۳۱۷۶
التّفسير ----- ۳۱۷۶
أيّوب و نجاته من المصاعب: ----- ۳۱۷۶
بحوث ----- ۳۱۷۷
۱- لمحة من قصّة أيّوب ----- ۳۱۷۷
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۵ الى ۸۶] ----- ۳۱۷۸
اشارة ----- ۳۱۷۸
التّفسير ----- ۳۱۷۸
إسماعيل و إدريس و ذو الكفل عليه السّلام: ----- ۳۱۷۸
إدريس و ذو الكفل عليهما السّلام: ----- ۳۱۷۹
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۷ الى ۸۸] ----- ۳۱۷۹
اشارة ----- ۳۱۷۹
التّفسير ----- ۳۱۷۹
نجاة يونس من السجن المرعب: ----- ۳۱۷۹
بحوث ----- ۳۱۸۰
۱- قصّة يونس عليه السّلام ----- ۳۱۸۰
۲- ما معنى الظلمات هنا؟ ----- ۳۱۸۱

۳- أى أولى تركه يونس؟ ----- ۳۱۸۱
۴- درس مصيرى ----- ۳۱۸۱
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۹ الى ۹۰] ----- ۳۱۸۲
اشارة ----- ۳۱۸۲
التّفسير ----- ۳۱۸۲
نجاة زكريا من الوحدة: ----- ۳۱۸۲
الآية [سورة الأنبياء (۲۱): آية ۹۱] ----- ۳۱۸۳
اشارة ----- ۳۱۸۳
التّفسير ----- ۳۱۸۳
مريم السيّدة الطاهرة: ----- ۳۱۸۳
ملاحظات ----- ۳۱۸۳
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۲ الى ۹۴] ----- ۳۱۸۴
اشارة ----- ۳۱۸۴
التّفسير ----- ۳۱۸۴
امّة واحدة: ----- ۳۱۸۴
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۵ الى ۹۷] ----- ۳۱۸۵
اشارة ----- ۳۱۸۵
التّفسير ----- ۳۱۸۶
الكافرون على أعتاب القيامة: ----- ۳۱۸۶
معنى بعض الكلمات: ----- ۳۱۸۷
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۸ الى ۱۰۳] ----- ۳۱۸۷
اشارة ----- ۳۱۸۷
التّفسير ----- ۳۱۸۷
حصب جهنّم! ----- ۳۱۸۷

فإذا سأل سائل ما الهدف من إلقاء الأصنام فى جهنّم؟ ----- ۳۱۸۸
الآية [سورة الأنبياء (۲۱): آية ۱۰۴] ----- ۳۱۸۹
اشارة ----- ۳۱۸۹
التّفسير ----- ۳۱۸۹
يوم تطوى السّماء! ----- ۳۱۸۹
الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۶] ----- ۳۱۹۰
اشارة ----- ۳۱۹۰
التّفسير ----- ۳۱۹۰
سيحكم الصالحون الأرض: ----- ۳۱۹۰
بحوث ----- ۳۱۹۲
۱- روايات حول ثورة المهدى عليه السّلام ----- ۳۱۹۲
۲- بشارة حكومة الصالحين فى مزامير داود ----- ۳۱۹۲
۳- حكم الصالحين قانون تكوينى ----- ۳۱۹۳
الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۲] ----- ۳۱۹۴
اشارة ----- ۳۱۹۴
التّفسير ----- ۳۱۹۴
النّبى رحمة للعالمين: ----- ۳۱۹۴
نهاية سورة الأنبياء ----- ۳۱۹۷
سورة الحجّ ----- ۳۱۹۷
اشارة ----- ۳۱۹۷
مضمون سورة الحجّ: ----- ۳۱۹۷
فضيلة تلاوة سورة الحجّ: ----- ۳۱۹۸
الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱ الى ۲] ----- ۳۱۹۸
اشارة ----- ۳۱۹۸

التّفسير ----- ۳۱۹۸
زلزلة البعث العظيمة: ----- ۳۱۹۸
مسائل مهمّة ----- ۳۱۹۹
الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳ الى ۴] ----- ۳۲۰۰
اشارة ----- ۳۲۰۰
التّفسير ----- ۳۲۰۰
أتباع الشيطان! ----- ۳۲۰۰
ملاحظات ----- ۳۲۰۱
۱- الجدال فى الحقّ و الباطل ----- ۳۲۰۱
۲- جدال الباطل سبيل الشيطان ----- ۳۲۰۱
۳- لماذا أى شيطان كان؟ ----- ۳۲۰۱
۴- تفسير عبارة كُتِبَ عَلَيْهِ ۲۰۶]. ----- ۳۲۰۲
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵ الى ۷] ----- ۳۲۰۲
اشارة ----- ۳۲۰۲
التّفسير ----- ۳۲۰۲
دليل المعاد فى عالم الأجنّة و النّبات: ----- ۳۲۰۲
ملاحظات ----- ۳۲۰۳
بحوث ----- ۳۲۰۴
۱- مراحل حياة الإنسان السبع ----- ۳۲۰۴
۲- المعاد الجسمانى ----- ۳۲۰۵
۳- ما هو «أرذل العمر»؟ ----- ۳۲۰۵
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۳۲۰۶
اشارة ----- ۳۲۰۶
التّفسير ----- ۳۲۰۶

الجدال بالباطل مرّة أخرى: ----- ۳۲۰۶
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ----- ۳۲۰۷
اشارة ----- ۳۲۰۷
التّفسير ----- ۳۲۰۷
الواقف على حافّة وادى الكفر ----- ۳۲۰۷
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۵ الى ۱۷] ----- ۳۲۰۹
اشارة ----- ۳۲۰۹
سبب النّزول ----- ۳۲۱۰
التّفسير ----- ۳۲۱۰
البعث نهاية جميع الخلافات: ----- ۳۲۱۰
بحوث ----- ۳۲۱۱
۱- ارتباط الآيات ----- ۳۲۱۱
۲- من هم المجوس؟ ----- ۳۲۱۱
۳- من هم الصابئة؟ ----- ۳۲۱۲
۴- مجموعة المنحرفين عن التوحيد ----- ۳۲۱۳
الآية [سورة الحج (۲۲): آية ۱۸] ----- ۳۲۱۳
اشارة ----- ۳۲۱۳
التّفسير ----- ۳۲۱۳
الوجود كلّه يسجد للّه: ----- ۳۲۱۳
بحثان ----- ۳۲۱۳
۱- فى كيفية السجود العام! ----- ۳۲۱۳
۲- هل سجود الملائكة تشريعى؟ ----- ۳۲۱۴
أجوبة عن استفسارات ----- ۳۲۱۴
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۹ الى ۲۴] ----- ۳۲۱۵

اشارة ----- ۳۲۱۵
سبب النّزول ----- ۳۲۱۵
التّفسير ----- ۳۲۱۵
خصمان متقابلان! ----- ۳۲۱۵
الآية [سورة الحج (۲۲): آية ۲۵] ----- ۳۲۱۷
اشارة ----- ۳۲۱۷
التّفسير ----- ۳۲۱۷
الذين يصدّون عن بيت اللّه الحرام! ----- ۳۲۱۷
ملاحظات ----- ۳۲۱۷
اشارة ----- ۳۲۱۷
۴- ما الذى تعنيه هذه الآية بالمسجد الحرام؟ ----- ۳۲۱۸
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ----- ۳۲۱۹
اشارة ----- ۳۲۱۹
التّفسير ----- ۳۲۱۹
الدّعوة العامّة للحجّ! ----- ۳۲۱۹
بحوث ----- ۳۲۲۲
۱- ما هى الأيّام المعلومات؟ ----- ۳۲۲۲
۲- ذكر اللّه فى أرض «منى» ----- ۳۲۲۳
۳- فلسفة الحجّ و أسراره العميقة! ----- ۳۲۲۳
اشارة ----- ۳۲۲۳
۱- البعد الأخلاقى للحج: ----- ۳۲۲۳
۲- البعد السياسى للحجّ ----- ۳۲۲۴
۳- البعد الثقافى للحجّ ----- ۳۲۲۴
۴- البعد الاقتصادى للحجّ ----- ۳۲۲۵

۴- ما هو مصير لحوم الأضاحى فى عصرنا؟ ----- ۳۲۲۶
الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۹ الى ۳۰] ----- ۳۲۲۷
اشارة ----- ۳۲۲۷
التّفسير ----- ۳۲۲۷
اشارة ----- ۳۲۲۷
مسألة: ما معنى قَوْلَ الزُّورِ؟ ----- ۳۲۲۹
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۱ الى ۳۳] ----- ۳۲۲۹
اشارة ----- ۳۲۳۰
التّفسير ----- ۳۲۳۰
تعظيم شعائر اللّه دليل على تقوى القلوب: ----- ۳۲۳۰
الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۴ الى ۳۵] ----- ۳۲۳۲
اشارة ----- ۳۲۳۲
التّفسير ----- ۳۲۳۲
بشرّ المخبتين: ----- ۳۲۳۲
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۶ الى ۳۸] ----- ۳۲۳۴
اشارة ----- ۳۲۳۴
التّفسير ----- ۳۲۳۴
لماذا الأضحية؟ ----- ۳۲۳۴
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۹ الى ۴۱] ----- ۳۲۳۶
اشارة ----- ۳۲۳۶
التّفسير ----- ۳۲۳۶
أوّل حكم بالجهاد: ----- ۳۲۳۶
بحوث ----- ۳۲۳۸
۱- فلسفة تشريع الجهاد ----- ۳۲۳۸

۲- من هم الذين وعدهم اللّه بالنصر؟ ۳۲۳۹
۳- «المحسنين»، «المخبتين»، «أنصار اللّه». ۳۲۴۰
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۲ الى ۴۵] ۳۲۴۰
اشارة ۳۲۴۰
التّفسير ۳۲۴۰
بئر معطّلة و قصر مشيد! ۳۲۴۰
ملاحظة ۳۲۴۱
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۶ الى ۴۸] ۳۲۴۲
اشارة ۳۲۴۲
التّفسير ۳۲۴۲
السير فى الأرض و العبرة: ۳۲۴۲
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۹ الى ۵۱] ۳۲۴۳
اشارة ۳۲۴۳
التّفسير ۳۲۴۴
الرزق الكريم: ۳۲۴۴
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۲ الى ۵۴] ۳۲۴۴
اشارة ۳۲۴۴
التّفسير ۳۲۴۵
وساوس الشّياطين فى مساعى الأنبياء: ۳۲۴۵
بحوث ۳۲۴۵
۱- المراد من إلقاءات الشيطان ۳۲۴۵
۲- اسطورة الغرانيق المختلفة! ۳۲۴۶
۳- الفرق بين الرّسول و النبى! ۳۲۴۷
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۵ الى ۵۹] ۳۲۴۷

اشارة ----- ۳۲۴۸
التّفسير ----- ۳۲۴۸
الرّزق الحسن: ----- ۳۲۴۸
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۰ الى ۶۲] ----- ۳۲۴۹
اشارة ----- ۳۲۴۹
سبب النّزول ----- ۳۲۴۹
التّفسير ----- ۳۲۵۰
من هم المنتصرون؟ ----- ۳۲۵۰
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۳ الى ۶۶] ----- ۳۲۵۱
اشارة ----- ۳۲۵۱
التّفسير ----- ۳۲۵۱
دلائل اللّه فى ساحة الوجود: ----- ۳۲۵۱
ملاحظات ----- ۳۲۵۲
۱- الصفات الخاصّة باللّه: ----- ۳۲۵۳
۲- الآيات تدلّ على توحيد اللّه و على المعاد ----- ۳۲۵۳
۳- تسخير الأرض و السّماء للإنسان: ----- ۳۲۵۳
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۷ الى ۷۰] ----- ۳۲۵۳
اشارة ----- ۳۲۵۳
التّفسير ----- ۳۲۵۴
لكلّ أمّة عبادة: ----- ۳۲۵۴
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۷۱ الى ۷۴] ----- ۳۲۵۴
اشارة ----- ۳۲۵۴
التّفسير ----- ۳۲۵۵
معبودات أضعف من ذبابة! ----- ۳۲۵۵

بحث ----- ۳۲۵۷
مثال واضح لبيان نقاط الضعف: ----- ۳۲۵۷
سؤال و جواب: ----- ۳۲۵۷
الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۷۵ الى ۷۸] ----- ۳۲۵۸
اشارة ----- ۳۲۵۸
سبب النّزول ----- ۳۲۵۸
التّفسير ----- ۳۲۵۸
خمسة تعاليم بنّاءة و مهمّة: ----- ۳۲۵۸
سورة المؤمنين ----- ۳۲۶۱
اشارة ----- ۳۲۶۱
فضيلة سورة المؤمنون: ----- ۳۲۶۱
مضمون سورة المؤمنين: ----- ۳۲۶۲
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱ الى ۱۱] ----- ۳۲۶۲
اشارة ----- ۳۲۶۲
التّفسير ----- ۳۲۶۳
صفات المؤمنين البارزة: ----- ۳۲۶۳
ملاحظات ----- ۳۲۶۷
۱- إختيار الفعل الماضى «أفلح» لنجاح المؤمنين، تأكيد أقوى ----- ۳۲۶۷
۲- الزوجة الدائمة و المؤقتة ----- ۳۲۶۷
۳- الخشوع روح الصلاة ----- ۳۲۶۷
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۲ الى ۱۶] ----- ۳۲۶۸
اشارة ----- ۳۲۶۸
التّفسير ----- ۳۲۶۸
مراحل تكامل الجنين فى الرحم: ----- ۳۲۶۸

بحوث ----- ۳۲۷۰
۱- اتّباع المبدأ و المعاد بدليل واحد ----- ۳۲۷۰
۲- آخر مرحلة فی تکامل جنین الإنسان فی الرحم ----- ۳۲۷۰
۳- کساء اللحم فوق العظام ----- ۳۲۷۱
۴- اللباس صیانة للعظام! ----- ۳۲۷۱
الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۱۷ الی ۲۲] ----- ۳۲۷۱
اشارة ----- ۳۲۷۱
التّفسیر ----- ۳۲۷۲
مرّة أخری مع علائم التوحید: ----- ۳۲۷۲
الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۲۳ الی ۲۵] ----- ۳۲۷۴
اشارة ----- ۳۲۷۵
التّفسیر ----- ۳۲۷۵
منطق الجبناء المغرورین: ----- ۳۲۷۵
الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۲۶ الی ۳۰] ----- ۳۲۷۶
اشارة ----- ۳۲۷۶
التّفسیر ----- ۳۲۷۶
خاتمة حیاة قوم معاندین: ----- ۳۲۷۶
الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۳۱ الی ۴۱] ----- ۳۲۷۷
اشارة ----- ۳۲۷۷
التّفسیر ----- ۳۲۷۷
المصیر المؤلم لقوم ثمود: ----- ۳۲۷۸
تعلیقات: ----- ۳۲۷۹
۱- الحیاة المترفة و أثرها المشؤوم ----- ۳۲۷۹
۲- «التراب» و «العظام» ----- ۳۲۸۰

۳- ما معنى الغثاء؟ ----- ۳۲۸۰
۴- مصير عام ----- ۳۲۸۰
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۴۲ الى ۴۴] ----- ۳۲۸۰
اشارة ----- ۳۲۸۰
التّفسير ----- ۳۲۸۰
هلاک الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر: ----- ۳۲۸۱
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۴۵ الى ۴۹] ----- ۳۲۸۱
اشارة ----- ۳۲۸۱
التّفسير ----- ۳۲۸۲
قيام موسى و هلاک الفراعنة: ----- ۳۲۸۲
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): آية ۵۰] ----- ۳۲۸۳
اشارة ----- ۳۲۸۳
التّفسير ----- ۳۲۸۳
آية أخرى من آيات اللّه: ----- ۳۲۸۳
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۱ الى ۵۴] ----- ۳۲۸۴
اشارة ----- ۳۲۸۴
التّفسير ----- ۳۲۸۴
جميع الامّة يد واحدة: ----- ۳۲۸۴
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۵ الى ۶۱] ----- ۳۲۸۶
اشارة ----- ۳۲۸۶
التّفسير ----- ۳۲۸۶
المسارعون فى الخيرات: ----- ۳۲۸۶
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۲ الى ۶۷] ----- ۳۲۸۸
اشارة ----- ۳۲۸۸

التّفسير ----- ۳۲۸۸
قلوب فی الجهل مغمورة!: ----- ۳۲۸۸
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۸ الى ۷۴] ----- ۳۲۹۰
اشارة ----- ۳۲۹۰
التّفسير ----- ۳۲۹۰
أعذار المنكرين المختلفة: ----- ۳۲۹۰
بحوث ----- ۳۲۹۲
۱- التمسّک بالحقّ أو بالأهواء النفسيّة ----- ۳۲۹۲
۲- صفات القائد ----- ۳۲۹۲
۳- لماذا لا يميل أكثر الناس إلى الحقّ؟ ----- ۳۲۹۳
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۷۵ الى ۸۰] ----- ۳۲۹۴
اشارة ----- ۳۲۹۴
التّفسير ----- ۳۲۹۴
طرق التوعية الإلهيّة المختلفة: ----- ۳۲۹۴
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۸۱ الى ۹۰] ----- ۳۲۹۶
اشارة ----- ۳۲۹۶
التّفسير ----- ۳۲۹۶
القرآن يدعو الضمائر إلى التحكيم: ----- ۳۲۹۷
ملاحظات ----- ۳۲۹۸
۱- معنى عدد من الكلمات ----- ۳۲۹۸
۲- تأكيد المعاد بالاستناد إلى قدرة اللّه الشاملة ----- ۳۲۹۸
۳- اختلاف نهايات الآيات ----- ۳۲۹۹
الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۱ الى ۹۲] ----- ۳۲۹۹
اشارة ----- ۳۲۹۹

التّفسير ----- ۳۲۹۹
الشرک یجرّ العالم نحو الدمار: ----- ۳۲۹۹
الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۹۳ الی ۹۸] ----- ۳۳۰۰
اشارة ----- ۳۳۰۰
التّفسير ----- ۳۳۰۱
تعوّذوا باللّه من همزات الشياطين: ----- ۳۳۰۱
ملاحظتان ----- ۳۳۰۲
۱- ما معنی همزات الشياطين؟ ----- ۳۳۰۲
۲- ردّ السيّئة بالحسنة ----- ۳۳۰۲
الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۹ الی ۱۰۰] ----- ۳۳۰۳
اشارة ----- ۳۳۰۳
التّفسير ----- ۳۳۰۳
طلب المستحيل: ----- ۳۳۰۳
بحوث ----- ۳۳۰۳
۱- من هو المخاطب فی قوله تعالی: رَبِّ ارْجِعُونِ ----- ۳۳۰۳
۲- تفسير عبارة فِيما تَرَكْتُ ----- ۳۳۰۴
۳- ما الذی تنفيه «كلّا»؟ ----- ۳۳۰۴
۴- ما هو عالم البرزخ؟ ----- ۳۳۰۵
البرزخ و الاتّصال بعالم الأرواح ----- ۳۳۰۷
صورة عن عالم البرزخ ----- ۳۳۰۷
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۰۱ الی ۱۰۴] ----- ۳۳۰۹
اشارة ----- ۳۳۰۹
التّفسير ----- ۳۳۰۹
جانب من عقاب المسيئين: ----- ۳۳۰۹

ملاحظات ----- ۳۳۱۰
۱- اليوم الذى لا يعتنى فيه بالأنساب: ----- ۳۳۱۰
۲- حكاية الأصمعى المؤثّرة: ----- ۳۳۱۱
۳- تناسب العقاب مع الذنب ----- ۳۳۱۲
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۱] ----- ۳۳۱۲
اشارة ----- ۳۳۱۲
التّفسير ----- ۳۳۱۲
لا تكلّمون! ----- ۳۳۱۲
الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۶] ----- ۳۳۱۳
اشارة ----- ۳۳۱۳
التّفسير ----- ۳۳۱۴
الدنيا، و عمرها القصير: ----- ۳۳۱۴
بحث ----- ۳۳۱۵
الموت ليس نهاية الحياة: ----- ۳۳۱۵
الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸] ----- ۳۳۱۶
اشارة ----- ۳۳۱۶
التّفسير ----- ۳۳۱۶
المفلحون و الخائبون: ----- ۳۳۱۶
الجزء الحادى عشر ----- ۳۳۳۶
«سورة النّور» ----- ۳۳۳۶
فضل سورة النور: ----- ۳۳۳۶
محتوى سورة النّور: ----- ۳۳۳۶
اشارة ----- ۳۳۳۶
المرحلة الأولى: ----- ۳۳۳۷

المرحلة الثّانية: ۳۳۳۷
و فی المرحلة الثّالثة: ۳۳۳۷
و فی المرحلة الرّابعة: ۳۳۳۷
و فی المرحلة الخامسة: ۳۳۳۷
و فی المرحلة السادسة: ۳۳۳۷
الآیات [سورة النور (۲۴): الآیات ۱ الی ۳] ۳۳۳۸
اشارة ۳۳۳۸
التّفسیر ۳۳۳۸
حد الزانی و الزانیة: ۳۳۳۸
ملاحظات ۳۳۴۰
۱- الحالات التی یعدم فیها الزانی ۳۳۴۰
۲- لماذا ذکرت الزانیة أولا؟ ۳۳۴۱
۳- لماذا تکون العقوبة علنیة؟ ۳۳۴۱
۴- ماذا کان حدّ الزانی سابقا؟ ۳۳۴۱
۵- منع الإفراط و التفریط عند تنفیذ الحدّ! ۳۳۴۲
۶- شروط تحریم الزواج بالزانیة و الزانی: ۳۳۴۲
۷- فلسفة تحریم الزنا: ۳۳۴۲
الآیتان [سورة النور (۲۴): الآیات ۴ الی ۵] ۳۳۴۳
اشارة ۳۳۴۳
التّفسیر ۳۳۴۳
عقوبة البهتان: ۳۳۴۳
بحوث ۳۳۴۴
۱- المراد من کلمة «رمی» ۳۳۴۴
۲- لماذا أربعة شهود؟ ۳۳۴۴

۳- الشّرط المهم فی قبول التوبة ----- ۳۳۴۵
۴- أحكام القذف: ----- ۳۳۴۵
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۶ الى ۱۰] ----- ۳۳۴۶
اشارة ----- ۳۳۴۶
سبب النّزول ----- ۳۳۴۶
التّفسير ----- ۳۳۴۷
عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة! ----- ۳۳۴۷
ملاحظات ----- ۳۳۴۸
۱- لماذا استثنى الزوجان من حكم القذف؟ ----- ۳۳۴۸
۲- كيفية اللعان ----- ۳۳۴۹
۳- العقاب المحذوف فی الآية: ----- ۳۳۴۹
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۱۶] ----- ۳۳۴۹
اشارة ----- ۳۳۵۰
سبب النّزول ----- ۳۳۵۰
اشارة ----- ۳۳۵۰
تحقيق المسألة: ----- ۳۳۵۳
التّفسير ----- ۳۳۵۴
حديث الافک المثير: ----- ۳۳۵۴
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ----- ۳۳۵۶
اشارة ----- ۳۳۵۶
التّفسير ----- ۳۳۵۶
حرمة إشاعة الفحشاء: ----- ۳۳۵۶
بحوث ----- ۳۳۵۸
۱- ما معنى إشاعة الفحشاء؟ ----- ۳۳۵۸

۲- مصيبة الشائعات ۳۳۵۹
۳- استصغار الذنب ۳۳۵۹
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۱ الى ۲۶] ۳۳۶۰
اشارة ۳۳۶۰
التّفسير ۳۳۶۰
للعقوبات حساب! ۳۳۶۰
بحوث ۳۳۶۳
۱- من هن الخبيثات و من هم الخبيثون؟ ۳۳۶۳
۲- هل هذا حكم تكوينى أم تشريعى؟ ۳۳۶۴
۳- جواب استفسار: ۳۳۶۵
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۷ الى ۲۹] ۳۳۶۵
اشارة ۳۳۶۵
التّفسير ۳۳۶۶
لا تدخلوا بيوت الناس حتّى يؤذن لكم: ۳۳۶۶
بحوث ۳۳۶۷
۱- الأمن و الحرية فى حريم المنزل ۳۳۶۷
۲- ما المقصود بالبيوت غير المسكونة؟ ۳۳۶۸
۳- عقاب من يتلصّص على منازل الناس: ۳۳۶۹
الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۰ الى ۳۱] ۳۳۶۹
اشارة ۳۳۶۹
سبب النّزول ۳۳۶۹
التّفسير ۳۳۶۹
مكافحة السفور و خائنة الأعين: ۳۳۶۹
بحوث ۳۳۷۲

۱- فلسفة الحجاب ۳۳۷۲
اشارة ۳۳۷۲
الإشكال الذی یورده معارضو الحجاب: ۳۳۷۴
۲- استثناء الوجه و الكفلين ۳۳۷۵
۳- ما المقصود من نسائهنّ؟ ۳۳۷۶
۴- تفسير عبارة أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُنَ ۳۳۷۶
۵- تفسير أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ ۳۳۷۶
۶- أی طفل مستثنی من هذا الحكم؟ ۳۳۷۷
۷- لماذا لم يذكر العم و الخال ضمن المحارم؟ ۳۳۷۷
۸- تحريم سبل الإثارة! ۳۳۷۷
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۲ الی ۳۴] ۳۳۷۸
اشارة ۳۳۷۸
التّفسير ۳۳۷۸
الترغيب فی زواج يسير التكاليف: ۳۳۷۸
مسائل مهمّة: ۳۳۸۱
۱- الزواج سنّة إلهية ۳۳۸۱
۲- المراد من عبارة وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ ۳۳۸۲
۳- ما هو عقد المكاتبة؟ ۳۳۸۲
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۵ الی ۳۸] ۳۳۸۳
اشارة ۳۳۸۳
التّفسير ۳۳۸۳
آية النور! ۳۳۸۳
ملاحظات ۳۳۸۹
الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۹ الی ۴۰] ۳۳۹۰

اشارة ----- ۳۳۹۰
التّفسير ----- ۳۳۹۱
أعمال سرابية ----- ۳۳۹۱
الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲] ----- ۳۳۹۲
اشارة ----- ۳۳۹۲
التّفسير ----- ۳۳۹۳
الجميع يسبّح للّه: ----- ۳۳۹۳
مسائل مهمة: ----- ۳۳۹۳
۱- ماذا تعنى عبارة أ لَمْ تَرَ ----- ۳۳۹۳
۲- التسبيح العامّ لجميع المخلوقات ----- ۳۳۹۳
۳- التسبيح الخاصّ بالطيور: ----- ۳۳۹۴
۴- عبارة كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ ----- ۳۳۹۵
۵- ما المقصود بالصلاة؟ ----- ۳۳۹۵
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵] ----- ۳۳۹۵
اشارة ----- ۳۳۹۵
التّفسير ----- ۳۳۹۵
جانب آخر من الخلق العجيب: ----- ۳۳۹۶
ردّ على استفسار: ----- ۳۳۹۶
بحوث ----- ۳۳۹۸
۱- ماذا يعنى الماء هنا؟ ----- ۳۳۹۸
۲- جواب على استفسار ----- ۳۳۹۸
۳- صورة الحياة المختلفة: ----- ۳۳۹۹
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۶ الى ۵۰] ----- ۳۳۹۹
اشارة ----- ۳۳۹۹

سبب النّزول ----- ۳۴۰۰
التّفسير ----- ۳۴۰۰
الإيمان و قبول حكم اللّه: ----- ۳۴۰۰
بحثان ----- ۳۴۰۱
۱- مرض النفاق ----- ۳۴۰۲
۲- الحكومة العادلة هى الحكومة الإلهية فقط: ----- ۳۴۰۲
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴] ----- ۳۴۰۳
اشارة ----- ۳۴۰۳
التّفسير ----- ۳۴۰۳
الإيمان و التسليم التام إزاء الحقّ: ----- ۳۴۰۳
الآية [سورة النور (۲۴): آية ۵۵] ----- ۳۴۰۵
اشارة ----- ۳۴۰۵
سبب النّزول ----- ۳۴۰۵
التّفسير ----- ۳۴۰۵
حكومة المستضعفين العالمية: ----- ۳۴۰۵
بحوث ----- ۳۴۰۶
۱- تفسير عبارة كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ----- ۳۴۰۶
۲- الذين وعدهم اللّه باستخلاف الأرض: ----- ۳۴۰۶
۳- الهدف النهائى عبادة خالصة: ----- ۳۴۰۸
الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۶ الى ۵۷] ----- ۳۴۰۸
اشارة ----- ۳۴۰۸
التّفسير ----- ۳۴۰۸
استحالة الفرار من حكومته تعالى: ----- ۳۴۰۸
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۸ الى ۶۰] ----- ۳۴۰۹

اشارة ۳۴۰۹
التّفسير ۳۴۰۹
آداب الدخول إلى المكان الخاصّ بالوالدين: ۳۴۰۹
بحثان ۳۴۱۱
۱- فلسفة الاستئذان و المفاسد المترتبة على عدم الالتزام به ۳۴۱۱
۲- حكم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز: ۳۴۱۲
الآية [سورة النور (۲۴): آية ۶۱] ۳۴۱۳
اشارة ۳۴۱۳
التّفسير ۳۴۱۴
البيوت التى يسمح بالأكل فيها: ۳۴۱۴
بحوث ۳۴۱۶
۱- هل أن تناول غذاء الآخرين غير منوط بإذنهم؟ ۳۴۱۶
۲- فلسفة هذا الحكم الإسلامى: ۳۴۱۶
۳- من هو الصديق؟ ۳۴۱۷
۴- تفسير عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ ۳۴۱۷
۵- السّلام و التحية ۳۴۱۸
الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۶۲ الى ۶۴] ۳۴۱۸
اشارة ۳۴۱۸
سبب النّزول ۳۴۱۸
التّفسير ۳۴۱۹
لا تتركوا النبىّ وحده! ۳۴۱۹
سورة الفرقان ۳۴۲۲
اشارة ۳۴۲۲
محتوى سورة الفرقان: ۳۴۲۲

فضيلة سورة الفرقان: ----- ۳۴۲۳
الآيتان [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱ الى ۲] ----- ۳۴۲۳
اشارة ----- ۳۴۲۳
التّفسير ----- ۳۴۲۳
المقياس الأعلى للمعرفة: ----- ۳۴۲۳
بحث ----- ۳۴۲۵
تقدير الموجودات بدقة: ----- ۳۴۲۵
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳ الى ۶] ----- ۳۴۲۷
اشارة ----- ۳۴۲۷
التّفسير ----- ۳۴۲۷
الاتهامات المتعددة الألوان: ----- ۳۴۲۷
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۳۴۳۰
اشارة ----- ۳۴۳۰
سبب النّزول ----- ۳۴۳۰
التّفسير ----- ۳۴۳۰
لم لا يملک هذا الرّسول كنوزا و جنات؟! ----- ۳۴۳۰
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱۱ الى ۱۶] ----- ۳۴۳۳
اشارة ----- ۳۴۳۳
التّفسير ----- ۳۴۳۳
مقارنة بين الجنة و النار: ----- ۳۴۳۳
ملاحظات ----- ۳۴۳۵
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱۷ الى ۱۹] ----- ۳۴۳۶
اشارة ----- ۳۴۳۶
التّفسير ----- ۳۴۳۶

المحاكمة بين المعبودين و عبدتهم الضالين: ----- ۳۴۳۶
مسائل مهمة: ----- ۳۴۳۷
۱- من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟ ----- ۳۴۳۷
۲- دافع الانحراف عن أصل التوحيد ----- ۳۴۳۷
۳- كلمة «بور». ----- ۳۴۳۸
الآية [سورة الفرقان (۲۵): آية ۲۰] ----- ۳۴۳۸
اشارة ----- ۳۴۳۹
سبب النّزول ----- ۳۴۳۹
التّفسير ----- ۳۴۳۹
هكذا كان جميع الأنبياء ----- ۳۴۳۹
سؤال: ----- ۳۴۴۰
و الجواب: ----- ۳۴۴۰
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۱ الى ۲۴] ----- ۳۴۴۰
اشارة ----- ۳۴۴۰
التّفسير ----- ۳۴۴۰
الادعاءات الكبيرة: ----- ۳۴۴۱
آفات العمل الصالح: ----- ۳۴۴۳
الآيتان [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۵ الى ۲۶] ----- ۳۴۴۴
اشارة ----- ۳۴۴۴
التّفسير ----- ۳۴۴۴
تشقق السماء بالغمام: ----- ۳۴۴۴
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۷ الى ۲۹] ----- ۳۴۴۵
اشارة ----- ۳۴۴۵
سبب النّزول ----- ۳۴۴۵

التّفسير ----- ۳۴۴۶
أضلنى صديق السوء ----- ۳۴۴۶
بحث ----- ۳۴۴۷
أثر الصديق فى مصير الإنسان: ----- ۳۴۴۷
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳۰ الى ۳۴] ----- ۳۴۴۸
اشارة ----- ۳۴۴۸
التّفسير ----- ۳۴۴۸
إلهى، إنّ الناس قد هجروا القرآن: ----- ۳۴۴۸
بحوث ----- ۳۴۵۰
۱- تفسير جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا. ----- ۳۴۵۰
۲- الآثار العميقة لنزول القرآن التدريجى ----- ۳۴۵۱
۳- معنى الترتيل فى القرآن: ----- ۳۴۵۲
۴- تفسير يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ ----- ۳۴۵۲
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳۵ الى ۴۰] ----- ۳۴۵۳
اشارة ----- ۳۴۵۳
التّفسير ----- ۳۴۵۳
مع كل هذه الدروس و العبر، و لكن ... ----- ۳۴۵۳
بحثان ----- ۳۴۵۴
۱- من هم «أصحاب الرس» ----- ۳۴۵۴
۲- مجموعة من الدروس المؤثرة: ----- ۳۴۵۶
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ----- ۳۴۵۶
اشارة ----- ۳۴۵۶
التّفسير ----- ۳۴۵۷
أضلّ من الأنعام: ----- ۳۴۵۷

بحثان ----- ۳۴۵۸
۱- اتباع الهوى و عواقبه الأليمة ----- ۳۴۵۹
۲- لماذا أضلّ من الأنعام!؟ ----- ۳۴۶۰
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰] ----- ۳۴۶۱
اشارة ----- ۳۴۶۱
التّفسير ----- ۳۴۶۱
حركة الظلال: ----- ۳۴۶۱
ملاحظات ----- ۳۴۶۴
و هنا ملاحظات مهمّة: ----- ۳۴۶۴
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۵۱ الى ۵۵] ----- ۳۴۶۵
اشارة ----- ۳۴۶۵
التّفسير ----- ۳۴۶۵
بحران متجاوران: عذب فرات و ملح أجاج: ----- ۳۴۶۵
مسألتان ----- ۳۴۶۹
۱- وحدة القيادة ----- ۳۴۶۹
۲- القرآن وسيلة الجهاد الكبير ----- ۳۴۶۹
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۵۶ الى ۵۹] ----- ۳۴۷۰
اشارة ----- ۳۴۷۰
التّفسير ----- ۳۴۷۰
أجرى هو هدايتكم: ----- ۳۴۷۱
مسألتان ----- ۳۴۷۲
۱- أجر الرسالة ----- ۳۴۷۲
۲- على من يجب التوكل؟ ----- ۳۴۷۳
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۰ الى ۶۲] ----- ۳۴۷۴

اشارة ----- ۳۴۷۴
التّفسير ----- ۳۴۷۴
البروج السماوية: ----- ۳۴۷۴
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۳ الى ۶۷] ----- ۳۴۷۶
اشارة ----- ۳۴۷۶
التّفسير ----- ۳۴۷۶
الصفات الخاصّة لعباد الرحمن: ----- ۳۴۷۶
مسألتان ----- ۳۴۷۸
۱- طريقة مشى المؤمنين ----- ۳۴۷۸
۲- البخل و الإسراف ----- ۳۴۷۹
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۸ الى ۷۱] ----- ۳۴۷۹
اشارة ----- ۳۴۸۰
التّفسير ----- ۳۴۸۰
بحث آخر فى صفات عباد الرحمن: ----- ۳۴۸۰
تبديل السيئات حسنات: ----- ۳۴۸۱
هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعا: ----- ۳۴۸۲
الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷۲ الى ۷۶] ----- ۳۴۸۲
اشارة ----- ۳۴۸۲
التّفسير ----- ۳۴۸۳
جزاء «عباد الرحمن»: ----- ۳۴۸۳
الآية [سورة الفرقان (۲۵): آية ۷۷] ----- ۳۴۸۶
اشارة ----- ۳۴۸۶
التّفسير ----- ۳۴۸۶
لو لا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: ----- ۳۴۸۶

بحث ----- ۳۴۸۷
الدعاء طريق إصلاح النفس و معرفة اللّه: ----- ۳۴۸۷
سورة الشّعراء ----- ۳۴۸۸
اشارة ----- ۳۴۸۸
محتوى سورة الشعراء: ----- ۳۴۸۸
فضيلة سورة الشعراء: ----- ۳۴۸۹
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۳۴۸۹
اشارة ----- ۳۴۸۹
التّفسير ----- ۳۴۹۰
إنهم يعرضون عن كل جديد! ----- ۳۴۹۰
ملاحظتان ----- ۳۴۹۲
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۷ الى ۹] ----- ۳۴۹۳
اشارة ----- ۳۴۹۳
التّفسير ----- ۳۴۹۳
الزوجية فى النباتات: ----- ۳۴۹۳
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰ الى ۱۵] ----- ۳۴۹۴
اشارة ----- ۳۴۹۴
التّفسير ----- ۳۴۹۴
بداية رسالة موسى: ----- ۳۴۹۴
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶ الى ۲۲] ----- ۳۴۹۶
اشارة ----- ۳۴۹۶
التّفسير ----- ۳۴۹۶
مواجهة فرعون مواجهة منطقية و قاطعة: ----- ۳۴۹۶
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۳ الى ۲۹] ----- ۳۴۹۹

اشارة ----- ۳۴۹۹
التّفسير ----- ۳۴۹۹
الاتهام بالجنون و التهديد بالسجن: ----- ۳۴۹۹
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۰ الى ۳۷] ----- ۳۵۰۱
اشارة ----- ۳۵۰۱
التّفسير ----- ۳۵۰۱
بلادكم فى خطر: ----- ۳۵۰۱
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۸ الى ۴۲] ----- ۳۵۰۳
اشارة ----- ۳۵۰۳
التّفسير ----- ۳۵۰۳
اجتماع السحرة من كلّ مكان: ----- ۳۵۰۳
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۴۳ الى ۵۱] ----- ۳۵۰۴
اشارة ----- ۳۵۰۵
التّفسير ----- ۳۵۰۵
نور الإيمان فى قلوب السحرة: ----- ۳۵۰۵
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۵۲ الى ۵۹] ----- ۳۵۰۸
اشارة ----- ۳۵۰۸
التّفسير ----- ۳۵۰۸
مصير الفراعنة: ----- ۳۵۰۸
ملاحظتان ----- ۳۵۰۹
۱- هل حكم بنو إسرائيل فى مصر؟! ----- ۳۵۱۰
۲- ترتيب الآيات ----- ۳۵۱۰
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۶۰ الى ۶۸] ----- ۳۵۱۰
اشارة ----- ۳۵۱۰

التّفسير ----- ۳۵۱۱
عاقبة فرعون و أتباعه الوخيمة ----- ۳۵۱۱
مسائل مهمة: ----- ۳۵۱۲
۱- معبر بنى إسرائيل! ----- ۳۵۱۲
۲- كيفية نجاة بنى إسرائيل و غرق فرعون و قومه ----- ۳۵۱۳
۳- اللّه عزيز رحيم ----- ۳۵۱۴
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۶۹ الى ۸۲] ----- ۳۵۱۴
اشارة ----- ۳۵۱۴
التّفسير ----- ۳۵۱۴
أعبد ربّا ... هذه صفاته: ----- ۳۵۱۴
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷] ----- ۳۵۱۷
اشارة ----- ۳۵۱۷
التّفسير ----- ۳۵۱۷
دعاء إبراهيم عليه السّلام: ----- ۳۵۱۷
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۸۸ الى ۱۰۴] ----- ۳۵۱۸
اشارة ----- ۳۵۱۹
التّفسير ----- ۳۵۱۹
الخصام بين المشركين و معبوداتهم: ----- ۳۵۱۹
ملاحظات ----- ۳۵۲۱
۱- القلب السليم- وحده- وسيلة النجاة ----- ۳۵۲۱
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۵] ----- ۳۵۲۲
اشارة ----- ۳۵۲۳
التّفسير ----- ۳۵۲۳
يا نوح، لم يحف بک الأرذلون؟! ----- ۳۵۲۳

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۲] ----- ۳۵۲۵
اشارة ----- ۳۵۲۵
التّفسير ----- ۳۵۲۵
نجاة نوح و غرق المشركين: ----- ۳۵۲۵
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۲۳ الى ۱۳۵] ----- ۳۵۲۶
اشارة ----- ۳۵۲۶
التّفسير ----- ۳۵۲۶
جنايات عاد و اعمالهم العدوانية: ----- ۳۵۲۶
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۳۶ الى ۱۴۰] ----- ۳۵۲۹
اشارة ----- ۳۵۲۹
التّفسير ----- ۳۵۲۹
لا تتعب نفسک فى نصحنا: ----- ۳۵۲۹
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۴۱ الى ۱۵۲] ----- ۳۵۳۰
اشارة ----- ۳۵۳۰
التّفسير ----- ۳۵۳۰
لا تطيعوا المسرفين المفسدين: ----- ۳۵۳۰
ملاحظة: ----- ۳۵۳۱
العلاقة بين الإسراف و الفساد فى الأرض! ----- ۳۵۳۱
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۹] ----- ۳۵۳۲
اشارة ----- ۳۵۳۲
التّفسير ----- ۳۵۳۳
عناد قوم صالح و لجاجتهم: ----- ۳۵۳۳
الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶۰ الى ۱۶۶] ----- ۳۵۳۴
اشارة ----- ۳۵۳۴

التّفسير ----- ۳۵۳۴
السفلة المعتدون: ----- ۳۵۳۴
بحثان ----- ۳۵۳۵
۱- الانحراف الجنسی انحراف مخجل ----- ۳۵۳۵
۲- العواقب الوخیمة للانحراف الجنسی. ----- ۳۵۳۶
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۶۷ الی ۱۷۵] ----- ۳۵۳۶
اشارة ----- ۳۵۳۶
التّفسير ----- ۳۵۳۷
عاقبة قوم لوط: ----- ۳۵۳۷
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۷۶ الی ۱۸۴] ----- ۳۵۳۹
اشارة ----- ۳۵۳۹
التّفسير ----- ۳۵۳۹
شعیب و أصحاب الأیکة: ----- ۳۵۳۹
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۸۵ الی ۱۹۱] ----- ۳۵۴۱
اشارة ----- ۳۵۴۱
التّفسير ----- ۳۵۴۱
عاقبة الحمقی: ----- ۳۵۴۱
بحوث ----- ۳۵۴۳
۱- الانسجام التام فی دعوات الأنبیاء ----- ۳۵۴۳
۲- التقوی، بدایة دعوة الأنبیاء جمیعا: ----- ۳۵۴۴
۳- الانحرافات الاخلاقیة ----- ۳۵۴۴
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۹۲ الی ۱۹۷] ----- ۳۵۴۵
اشارة ----- ۳۵۴۵
التّفسير ----- ۳۵۴۵

عظمة القرآن فی کتب «السابقین».[۳۳۱] ----- ۳۵۴۵
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۱۹۸ الی ۲۰۳] ----- ۳۵۴۶
اشارة ----- ۳۵۴۶
التّفسیر ----- ۳۵۴۶
لو نزّل القرآن علی الأعاجم ... ----- ۳۵۴۶
بحوث ----- ۳۵۴۷
۱- العصبیة القومیة و القبلیة الشدیدة! ... ----- ۳۵۴۷
۲- طلب الرجوع إلی الدنیا ... ----- ۳۵۴۸
۳- فضل العجم: ----- ۳۵۴۹
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۲۰۴ الی ۲۱۲] ----- ۳۵۴۹
اشارة ----- ۳۵۴۹
التّفسیر ----- ۳۵۴۹
تهمة أخری للقرآن: ----- ۳۵۴۹
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۲۱۳ الی ۲۲۰] ----- ۳۵۵۱
اشارة ----- ۳۵۵۱
التّفسیر ----- ۳۵۵۱
و أنذر عشیرتک الأقربین ... ----- ۳۵۵۱
بحثان ----- ۳۵۵۲
۱- تفسیر وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ ----- ۳۵۵۳
۲- إنذار الأقربین «حدیث یوم الدار» ----- ۳۵۵۳
الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۲۲۱ الی ۲۲۷] ----- ۳۵۵۴
اشارة ----- ۳۵۵۴
التّفسیر ----- ۳۵۵۴
النّبی لیس شاعرا: ----- ۳۵۵۵

بحوث ----- ۳۵۵۷
۱- لم كانوا يتهمون النّبى بالشعر ----- ۳۵۵۷
۲- الشعر و الشاعرية فى الإسلام ----- ۳۵۵۷
۳- ذكر اللّه: ----- ۳۵۵۹
الجزء الثانى عشر ----- ۳۵۷۵
سورة النمل ----- ۳۵۷۵
اشارة ----- ۳۵۷۵
محتوى سورة النمل ----- ۳۵۷۵
فضيلة سورة النمل: ----- ۳۵۷۶
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۳۵۷۶
اشارة ----- ۳۵۷۶
التّفسير ----- ۳۵۷۶
القرآن منزل من لدن حكيم عليم: ----- ۳۵۷۶
الواقعية و الإيمان: ----- ۳۵۷۸
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۷ الى ۱۴] ----- ۳۵۷۹
اشارة ----- ۳۵۷۹
التّفسير ----- ۳۵۷۹
موسى يقتبس النّور: ----- ۳۵۷۹
الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۱۶] ----- ۳۵۸۳
اشارة ----- ۳۵۸۳
التّفسير ----- ۳۵۸۳
حكومة داود و سليمان عليهما السّلام: ----- ۳۵۸۳
بحوث ----- ۳۵۸۵
۱- علاقة الدين بالسيّاسة ----- ۳۵۸۵

۲- آيات الحكومة الإلهية ----- ۳۵۸۶
۳- منطق الطير ----- ۳۵۸۶
۴- رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» .. ----- ۳۵۸۷
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۷ الى ۱۹] ----- ۳۵۹۰
اشارة ----- ۳۵۹۰
التّفسير ----- ۳۵۹۰
سليمان فى وادى النمل: ----- ۳۵۹۰
بحوث ----- ۳۵۹۲
۱- معرفة سليمان بلغة الحيوانات و منطقها ----- ۳۵۹۲
۲- سليمان و إلهامه الشكر للّه ----- ۳۵۹۲
۳- سليمان و العمل الصالح ----- ۳۵۹۳
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۲۰ الى ۲۶] ----- ۳۵۹۳
اشارة ----- ۳۵۹۳
التّفسير ----- ۳۵۹۴
قصّة الهدهد و ملكة سبأ: ----- ۳۵۹۴
ملاحظتان ----- ۳۵۹۶
أ- الدروس التعليميّة ----- ۳۵۹۶
ب- الجواب على بعض الأسئلة ----- ۳۵۹۶
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۲۷ الى ۳۵] ----- ۳۵۹۷
اشارة ----- ۳۵۹۷
التّفسير ----- ۳۵۹۷
الملوك مفسدون مخرّبون: ----- ۳۵۹۷
بحوث ----- ۳۵۹۹
۱- آداب كتابة الرسائل ----- ۳۵۹۹

۲- هل دعا سليمان إلى التقليد؟! ۳۶۰۰
۳- مداليل عميقة فى قصّة سليمان عليه السّلام ۳۶۰۰
۴- علامات الملوک ۳۶۰۱
الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ۳۶۰۱
اشارة ۳۶۰۱
التّفسير ۳۶۰۲
لا تخدعونى بالمال: ۳۶۰۲
ملاحظات ۳۶۰۲
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ۳۶۰۳
اشارة ۳۶۰۳
التّفسير ۳۶۰۳
حضور العرش فى طرفة عين: ۳۶۰۳
مسائل مهمة: ۳۶۰۵
۱- الجواب على بعض الاسئلة ۳۶۰۵
۲- القوة و الأمانة شرطان مهمان ۳۶۰۶
۴- هذا من فضل ربّى ۳۶۰۶
۵- كيف أحضر «آصف» عرش الملكة؟! ۳۶۰۷
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ۳۶۰۷
اشارة ۳۶۰۷
التّفسير ۳۶۰۸
نور الايمان فى قلب الملكة: ۳۶۰۸
بحثان ۳۶۱۰
۱- عاقبة أمر ملكة سبأ ۳۶۱۰
۲- خلاصة عامة عن حياة سليمان ۳۶۱۰

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ---- ۳۶۱۱
اشارة ---- ۳۶۱۱
التّفسير ---- ۳۶۱۱
صالح فى ثمود: ---- ۳۶۱۱
بحث ---- ۳۶۱۲
«التطيّر و التفاؤل» ---- ۳۶۱۲
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۸ الى ۵۳] ---- ۳۶۱۳
اشارة ---- ۳۶۱۳
التّفسير ---- ۳۶۱۳
تآمر تسعة رهط فى وادى القرى: ---- ۳۶۱۳
ملاحظات ---- ۳۶۱۵
۱- عقوبة ثمود ---- ۳۶۱۵
الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۴ الى ۵۵] ---- ۳۶۱۶
اشارة ---- ۳۶۱۶
التّفسير ---- ۳۶۱۶
انحراف قوم لوط! ---- ۳۶۱۶
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۶ الى ۵۹] ---- ۳۶۱۷
اشارة ---- ۳۶۱۷
التّفسير ---- ۳۶۱۷
عند ما تعدّ الطهارة عيبا كبيرا! ---- ۳۶۱۷
الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۰ الى ۶۴] ---- ۳۶۱۹
اشارة ---- ۳۶۱۹
التّفسير ---- ۳۶۱۹
أ مع كلّ هذه الأدلة ما تزالون مشركين؟! ---- ۳۶۱۹

بحوث ----- ۳۶۲۲
۱- من المضطر الذی یجاب إذا دعاه؟ ----- ۳۶۲۲
۲- الاستدلال المنطقی فی کلّ مکان ----- ۳۶۲۳
۳- خلاصهٔ عامّهٔ و مرور علی الآیات السابقهٔ ----- ۳۶۲۳
الآیات [سورهٔ النمل (۲۷): الآیات ۶۵ الی ۶۸] ----- ۳۶۲۴
اشارهٔ ----- ۳۶۲۴
التّفسیر ----- ۳۶۲۴
الآیات [سورهٔ النمل (۲۷): الآیات ۶۹ الی ۷۵] ----- ۳۶۲۵
اشارهٔ ----- ۳۶۲۵
التّفسیر ----- ۳۶۲۶
لا یضیق صدرک بمؤامراتهم: ----- ۳۶۲۶
ملاحظات ----- ۳۶۲۷
الآیات [سورهٔ النمل (۲۷): الآیات ۷۶ الی ۸۱] ----- ۳۶۲۸
اشارهٔ ----- ۳۶۲۸
التّفسیر ----- ۳۶۲۸
عمی القلوب لا یقبلون دعوتک! ----- ۳۶۲۸
بحثان ----- ۳۶۳۰
۱- أسباب التوکل ----- ۳۶۳۰
۲- الموت و الحیاهٔ فی منطق القرآن! ----- ۳۶۳۱
الآیات [سورهٔ النمل (۲۷): الآیات ۸۲ الی ۸۵] ----- ۳۶۳۲
اشارهٔ ----- ۳۶۳۲
التّفسیر ----- ۳۶۳۲
بحوث ----- ۳۶۳۴
۱- ما هی دابهٔ الأرض؟! ----- ۳۶۳۴

۲- الرجعة فی الکتاب و السنة! ----- ۳۶۳۵
۴- فلسفة الرجعة! ----- ۳۶۳۷
الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۶ الی ۸۸] ----- ۳۶۳۸
اشارة ----- ۳۶۳۹
التّفسیر ----- ۳۶۳۹
حرکة الأرض إحدی معاجز القرآن العلمیّة: ----- ۳۶۳۹
و توضیح ذلک: ----- ۳۶۴۱
الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۹ الی ۹۳] ----- ۳۶۴۱
اشارة ----- ۳۶۴۲
التّفسیر ----- ۳۶۴۲
آخر ما أمر به النّبی! ----- ۳۶۴۲
سورة القصص ----- ۳۶۴۴
اشارة ----- ۳۶۴۴
محتوی سورة القصص: ----- ۳۶۴۴
فضیلة تلاوة سورة القصص: ----- ۳۶۴۶
الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۱ الی ۶] ----- ۳۶۴۶
اشارة ----- ۳۶۴۶
التّفسیر ----- ۳۶۴۶
المشیئة الالهیة تقتضی انتصار: ----- ۳۶۴۶
بحوث ----- ۳۶۵۰
۱- حکومة المستضعفین العالمیة ----- ۳۶۵۰
۲- من هم المستضعفون و من هم المستکبرون؟! ----- ۳۶۵۱
۳- أسلوب المستکبرین علی مدی التأریخ ----- ۳۶۵۲
الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۷ الی ۹] ----- ۳۶۵۲

اشارة ----- ۳۶۵۲
التّفسير ----- ۳۶۵۲
فی قصر فرعون! ----- ۳۶۵۲
ملاحظة ----- ۳۶۵۵
تخطيط اللّه العجيب .. ----- ۳۶۵۵
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۰ الی ۱۳] ----- ۳۶۵۶
اشارة ----- ۳۶۵۶
التّفسير ----- ۳۶۵۶
عودة موسی إلی حضن أمّه: ----- ۳۶۵۶
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۴ الی ۱۷] ----- ۳۶۵۸
اشارة ----- ۳۶۵۸
التّفسير ----- ۳۶۵۹
موسی عليه السّلام و حماية المظلومين: ----- ۳۶۵۹
مسألتان ----- ۳۶۶۱
۱- أ لم يكن عمل موسی هذا مخالفا للعصمة! ----- ۳۶۶۱
۲- دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام: ----- ۳۶۶۲
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۸ الی ۲۲] ----- ۳۶۶۳
اشارة ----- ۳۶۶۳
التّفسير ----- ۳۶۶۳
موسی يتوجّه إلی مدين خفية: ----- ۳۶۶۳
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۳ الی ۲۵] ----- ۳۶۶۵
اشارة ----- ۳۶۶۵
التّفسير ----- ۳۶۶۵
عمل صالح يفتح لموسی أبواب الخير: ----- ۳۶۶۵

مسألتان ----- ۳۶۶۷
۱- أين كانت مدين؟! ----- ۳۶۶۷
۲- دروس كثيرة توحى بالعبر: ----- ۳۶۶۷
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ----- ۳۶۶۸
اشارة ----- ۳۶۶۸
التّفسير ----- ۳۶۶۸
موسى فى دار شعيب: ----- ۳۶۶۸
بحوث ----- ۳۶۶۹
۱- شرطان أساسيان للإدارة الصحيحة ----- ۳۶۶۹
۲- اسئلة عن زواج موسى من بنت شعيب! ... ----- ۳۶۷۰
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۹ الى ۳۵] ----- ۳۶۷۱
اشارة ----- ۳۶۷۱
التّفسير ----- ۳۶۷۲
الشّرارة الأولى للوحى: ----- ۳۶۷۲
الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ----- ۳۶۷۵
اشارة ----- ۳۶۷۵
التّفسير ----- ۳۶۷۵
موسى فى مواجهة فرعون: ----- ۳۶۷۵
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۸ الى ۴۲] ----- ۳۶۷۶
اشارة ----- ۳۶۷۶
التّفسير ----- ۳۶۷۶
كيف كان عاقبة الظالمين؟ ----- ۳۶۷۶
ملاحظة! ----- ۳۶۷۹
أئمّة «النّور» و أئمّة «النّار» ----- ۳۶۷۹

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۳ الى ۴۶] ---- ۳۶۸۰
اشارة ---- ۳۶۸۰
التّفسير ---- ۳۶۸۰
الأخبار الغيبيّة هى من عند اللّه وحده .. ---- ۳۶۸۰
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۷ الى ۵۰] ---- ۳۶۸۱
اشارة ---- ۳۶۸۱
التّفسير ---- ۳۶۸۲
ذريعة للفرار من الحق: ---- ۳۶۸۲
ملاحظة ---- ۳۶۸۳
اتباع الهوى مدعاة للظلال: ---- ۳۶۸۳
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۱ الى ۵۵] ---- ۳۶۸۴
اشارة ---- ۳۶۸۴
سبب النّزول ---- ۳۶۸۴
التّفسير ---- ۳۶۸۵
طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن: ---- ۳۶۸۵
ملاحظة! ---- ۳۶۸۶
القلوب المهيّأة للإيمان: ---- ۳۶۸۶
الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۶ الى ۵۷] ---- ۳۶۸۸
اشارة ---- ۳۶۸۸
التّفسير ---- ۳۶۸۸
الهداية بيد اللّه وحده! .. ---- ۳۶۸۸
ملاحظة ---- ۳۶۹۰
إيمان أبى طالب و الضجيج حوله: ---- ۳۶۹۰
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۸ الى ۶۰] ---- ۳۶۹۲

اشارة ----- ۳۶۹۲
التّفسير ----- ۳۶۹۲
لا تخدعنكم علائق الدنيا: ----- ۳۶۹۲
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۶۱ الى ۶۴] ----- ۳۶۹۴
اشارة ----- ۳۶۹۴
التّفسير ----- ۳۶۹۴
أنّهم عبدة الهوى: ----- ۳۶۹۴
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰] ----- ۳۶۹۶
اشارة ----- ۳۶۹۶
التّفسير ----- ۳۶۹۶
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۱ الى ۷۵] ----- ۳۶۹۸
اشارة ----- ۳۶۹۸
التّفسير ----- ۳۶۹۸
نعمتا «الليل و النهار» العظيمتان: ----- ۳۶۹۸
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۶ الى ۷۸] ----- ۳۷۰۰
اشارة ----- ۳۷۰۰
التّفسير ----- ۳۷۰۰
الثّرى الاسرائيلى البخيل: ----- ۳۷۰۰
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۹ الى ۸۲] ----- ۳۷۰۴
اشارة ----- ۳۷۰۴
التّفسير ----- ۳۷۰۴
جنون الثّروة: ----- ۳۷۰۴
بحوث ----- ۳۷۰۷
۱- نماذج قارونية بالأمس و اليوم! ----- ۳۷۰۷

۲- من أين جاء قارون بهذه الثروة العريضة؟ ۳۷۰۹
۳- موقف الإسلام من الثّروة! ۳۷۰۹
الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۳ الى ۸۴] ۳۷۱۰
اشارة ۳۷۱۰
التّفسير ۳۷۱۱
نتيجة حبّ التسلط و الفساد فى الأرض: ۳۷۱۱
ملاحظات ۳۷۱۲
الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۵ الى ۸۸] ۳۷۱۳
اشارة ۳۷۱۳
سبب النّزول ۳۷۱۳
التّفسير ۳۷۱۳
الوعد بعودة النّبى إلى حرم اللّه الآمن: ۳۷۱۳
مسألتان ۳۷۱۶
۱- كيف تفنى جميع الأشياء؟! ۳۷۱۷
۲- التّفسير المنحرف لجملة وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ! ۳۷۱۷
سورة العنكبوت ۳۷۱۸
اشارة ۳۷۱۸
محتوى سورة العنكبوت! ۳۷۱۸
فضيلة هذه السورة! ۳۷۱۹
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱ الى ۳] ۳۷۱۹
اشارة ۳۷۱۹
سبب النّزول ۳۷۱۹
التّفسير ۳۷۲۰
الامتحان الإلهى سنة خالدة: ۳۷۲۰

بحث ----- ۳۷۲۱
الامتحانات فی وجوه مختلفة: ----- ۳۷۲۱
الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۴ الی ۷] ----- ۳۷۲۲
اشارة ----- ۳۷۲۲
التّفسیر ----- ۳۷۲۲
لا مهرب من سلطان اللّه: ----- ۳۷۲۲
الآیتان [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۸ الی ۹] ----- ۳۷۲۴
اشارة ----- ۳۷۲۴
سبب النّزول ----- ۳۷۲۴
التّفسیر ----- ۳۷۲۴
أفضل الوصایا بالنسبة للوالدین: ----- ۳۷۲۴
ملاحظة ----- ۳۷۲۶
الإحسان إلی الوالدین: ----- ۳۷۲۶
الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۱۰ الی ۱۳] ----- ۳۷۲۶
اشارة ----- ۳۷۲۶
التّفسیر ----- ۳۷۲۶
شرکاء فی الانتصار أمّا فی الشدّة فلا! ----- ۳۷۲۶
مسألتان ----- ۳۷۲۸
۱- السنن الحسنة و السنن السیئة: ----- ۳۷۲۸
۲- جواب علی سؤال: ----- ۳۷۲۹
الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۱۴ الی ۱۹] ----- ۳۷۲۹
اشارة ----- ۳۷۲۹
التّفسیر ----- ۳۷۳۰
إشارة لقصتی نوح و إبراهیم: ----- ۳۷۳۰

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۰ الى ۲۳] ۳۷۳۲
اشارة ۳۷۳۲
التّفسير ۳۷۳۲
الآيسون من رحمة اللّه: ۳۷۳۲
يبقى هنا سؤالان:- ۳۷۳۴
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۴ الى ۲۷] ۳۷۳۵
اشارة ۳۷۳۵
التّفسير ۳۷۳۵
أسلوب المستكبرين فى جوابهم لإبراهيم: ۳۷۳۵
ملاحظتان ۳۷۳۸
۱- أكبر الفخر! ... ۳۷۳۸
۲- مواهب إبراهيم العظيمة ۳۷۳۸
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۸ الى ۳۰] ۳۷۳۹
اشارة ۳۷۳۹
التّفسير ۳۷۳۹
المنحرفون جنسيا: ۳۷۳۹
ملاحظة ۳۷۴۰
بلاء الانحراف الجنسى: ۳۷۴۰
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۳۱ الى ۳۵] ۳۷۴۱
اشارة ۳۷۴۱
التّفسير ۳۷۴۱
و هذه هى عاقبة المنحرفين: ۳۷۴۱
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۳۶ الى ۴۰] ۳۷۴۴
اشارة ۳۷۴۴

التّفسير ----- ۳۷۴۴
تنوع العذاب للظالمين: ----- ۳۷۴۴
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ----- ۳۷۴۷
اشارة ----- ۳۷۴۷
التّفسير ----- ۳۷۴۷
دعامة واهية كبيت العنكبوت: ----- ۳۷۴۷
الآية [سورة العنكبوت (۲۹): آية ۴۵] ----- ۳۷۵۰
اشارة ----- ۳۷۵۰
التّفسير ----- ۳۷۵۰
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر: ----- ۳۷۵۰
«أحاديث» ينبغى الالتفات إليها ----- ۳۷۵۱
بحث ----- ۳۷۵۳
تأثير الصلاة فى تربية الفرد و المجتمع: ----- ۳۷۵۳
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۶ الى ۴۹] ----- ۳۷۵۵
اشارة ----- ۳۷۵۵
التّفسير ----- ۳۷۵۵
اتّبعوا أحسن الأساليب فى البحث و الجدال: ----- ۳۷۵۵
بحوث ----- ۳۷۵۹
۱- الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. الأمى ----- ۳۷۵۹
۲- طريق النفوذ فى الآخرين ----- ۳۷۶۰
۳- الكافرون و الظالمون ----- ۳۷۶۱
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۰ الى ۵۵] ----- ۳۷۶۲
اشارة ----- ۳۷۶۲
التّفسير ----- ۳۷۶۲

أ ليس القرآن كافيا فى إعجازه؟! ----- ۳۷۶۲
ملاحظات ----- ۳۷۶۶
۱- دلائل إعجاز القرآن: ----- ۳۷۶۶
۲- التشبث بالحيل لإنكار المعجزات: ----- ۳۷۶۶
۳- المعجزات الاقتراحيّة: ----- ۳۷۶۶
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰] ----- ۳۷۶۷
اشارة ----- ۳۷۶۷
سبب النّزول ----- ۳۷۶۷
التّفسير ----- ۳۷۶۷
لا بدّ من الهجرة: ----- ۳۷۶۷
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الى ۶۶] ----- ۳۷۷۰
اشارة ----- ۳۷۷۰
التّفسير ----- ۳۷۷۰
الإقرار بالتوحيد فى الباطن و الشرك فى الظاهر: ----- ۳۷۷۰
ملاحظة ----- ۳۷۷۳
الشدائد و اشراق القطرة: ----- ۳۷۷۳
الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۷ الى ۶۹] ----- ۳۷۷۴
اشارة ----- ۳۷۷۴
سبب النّزول ----- ۳۷۷۴
التّفسير ----- ۳۷۷۴
ملاحظتان ----- ۳۷۷۶
۱- الجهاد و الإخلاص ----- ۳۷۷۶
۲- الناس ثلاثة أصناف: ----- ۳۷۷۷
سورة الروم ----- ۳۷۷۷

اشارة ----- ۳۷۷۷
محتوى سورة الروم: ----- ۳۷۷۷
فضيلة سورة الروم: ----- ۳۷۷۸
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۳۷۷۹
اشارة ----- ۳۷۷۹
سبب النّزول ----- ۳۷۷۹
التّفسير ----- ۳۷۷۹
تنبؤ عجيب! ----- ۳۷۷۹
بحوث ----- ۳۷۸۱
۱- إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب» ----- ۳۷۸۱
۲- السطحيّون «أصحاب الظاهر» ----- ۳۷۸۲
۳- المطابقة التاريخية ----- ۳۷۸۳
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۳۷۸۴
اشارة ----- ۳۷۸۴
التّفسير ----- ۳۷۸۴
عاقبة المسيئين: ----- ۳۷۸۴
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۱ الى ۱۶] ----- ۳۷۸۶
اشارة ----- ۳۷۸۶
التّفسير ----- ۳۷۸۶
مصير المجرمين و مآلهم يوم القيامة! ----- ۳۷۸۶
ملاحظة ----- ۳۷۸۷
لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»؟! ----- ۳۷۸۷
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۷ الى ۱۹] ----- ۳۷۸۸
اشارة ----- ۳۷۸۸

التّفسير ----- ۳۷۸۸
التسبيح و الحمد فى جميع الأحوال للّه! ----- ۳۷۸۸
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۰ الى ۲۲] ----- ۳۷۹۰
اشارة ----- ۳۷۹۰
التّفسير ----- ۳۷۹۰
آيات اللّه فى الآفاق و فى الأنفس: ----- ۳۷۹۱
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ----- ۳۷۹۴
اشارة ----- ۳۷۹۴
التّفسير ----- ۳۷۹۴
آيات عظمته- مرّة أخرى: ----- ۳۷۹۴
بحوث ----- ۳۷۹۶
۱- دورة دروس كاملة لمعرفة اللّه ----- ۳۷۹۷
۲- من هم المستلهمون من هذه الآيات ----- ۳۷۹۷
۳- عجائب عالم النوم ----- ۳۷۹۷
۴- علاقة الحب بين الزوجين ----- ۳۷۹۸
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۶ الى ۲۹] ----- ۳۷۹۸
اشارة ----- ۳۷۹۹
التّفسير ----- ۳۷۹۹
المالكية للّه وحده: ----- ۳۷۹۹
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۰ الى ۳۲] ----- ۳۸۰۱
اشارة ----- ۳۸۰۱
التّفسير ----- ۳۸۰۲
بحثان ----- ۳۸۰۴
۱- التوحيد باعث داخلى قوى: ----- ۳۸۰۴

۲- فطرة التوحيد فى الأحاديث الإسلامية ----- ۳۸۰۷
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۳ الى ۳۶] ----- ۳۸۰۸
اشارة ----- ۳۸۰۸
التّفسير ----- ۳۸۰۸
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰] ----- ۳۸۱۰
اشارة ----- ۳۸۱۱
التّفسير ----- ۳۸۱۱
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۱ الى ۴۵] ----- ۳۸۱۵
اشارة ----- ۳۸۱۵
التّفسير ----- ۳۸۱۵
أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم: ----- ۳۸۱۵
بحوث ----- ۳۸۱۷
۱- العلاقة بين الذنب و الفساد ----- ۳۸۱۷
۲- فلسفة السير فى الأرض ----- ۳۸۱۸
۳- الدين القيّم ----- ۳۸۱۹
۴- لا عودة فى يوم القيامة! ----- ۳۸۱۹
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۶ الى ۵۰] ----- ۳۸۲۰
اشارة ----- ۳۸۲۰
التّفسير ----- ۳۸۲۰
انظر إلى آثار رحمة اللّه: ----- ۳۸۲۰
الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۱ الى ۵۴] ----- ۳۸۲۴
اشارة ----- ۳۸۲۴
التّفسير ----- ۳۸۲۴
الموتى و الصّمّ لا يسمعون كلامک: ----- ۳۸۲۴

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۵ الى ۶۰] ----- ۳۸۲۷
اشارة ----- ۳۸۲۷
التّفسير ----- ۳۸۲۷
يوم لا ينفع الاعتذار: ----- ۳۸۲۷
مسألتان ----- ۳۸۲۸
الجزء الثالث عشر ----- ۳۸۴۸
سورة لقمان ----- ۳۸۴۸
اشارة ----- ۳۸۴۸
محتوى السورة: ----- ۳۸۴۸
فضل سورة لقمان: ----- ۳۸۴۹
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۳۸۴۹
اشارة ----- ۳۸۴۹
التّفسير ----- ۳۸۵۰
من هم المحسنون؟ ----- ۳۸۵۰
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۶ الى ۹] ----- ۳۸۵۱
اشارة ----- ۳۸۵۱
سبب النّزول ----- ۳۸۵۱
التّفسير ----- ۳۸۵۱
الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة. ----- ۳۸۵۲
بحوث ----- ۳۸۵۴
۱- تحريم الغناء ----- ۳۸۵۴
۲- ما هو الغناء؟ ----- ۳۸۵۵
۳- فلسفة تحريم الغناء: ----- ۳۸۵۶
الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۰ الى ۱۱] ----- ۳۸۵۸

اشارة ----- ۳۸۵۸
التّفسير ----- ۳۸۵۸
هذا خلق اللّه: ----- ۳۸۵۸
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۲ الى ۱۵] ----- ۳۸۶۰
اشارة ----- ۳۸۶۰
التّفسير ----- ۳۸۶۰
احترام الوالدين: ----- ۳۸۶۰
فما هى الحكمة؟ ----- ۳۸۶۰
بحثان ----- ۳۸۶۳
۱- من هو لقمان؟ ----- ۳۸۶۳
۲- صور من حكمة لقمان ----- ۳۸۶۴
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۶ الى ۱۹] ----- ۳۸۶۶
اشارة ----- ۳۸۶۶
التّفسير ----- ۳۸۶۶
أثبت كالجبل، و عامل الناس بالحسنى! ----- ۳۸۶۶
تعليقات ----- ۳۸۶۸
۱- آداب المشى ----- ۳۸۶۸
۲- آداب الحديث ----- ۳۸۶۹
۳- آداب العشرة ----- ۳۸۶۹
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۰ الى ۲۴] ----- ۳۸۷۰
اشارة ----- ۳۸۷۰
التّفسير ----- ۳۸۷۰
الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۵ الى ۳۰] ----- ۳۸۷۳
اشارة ----- ۳۸۷۳

التّفسير ----- ۳۸۷۳
عشر صفات للّه سبحانه: ----- ۳۸۷۳
الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۳۸۷۷
اشارة ----- ۳۸۷۸
التّفسير ----- ۳۸۷۸
فى دوّامة البلاء! ----- ۳۸۷۸
الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۳ الى ۳۴] ----- ۳۸۸۰
اشارة ----- ۳۸۸۰
التّفسير ----- ۳۸۸۰
سعة علم اللّه: ----- ۳۸۸۰
بحوث ----- ۳۸۸۲
۱- أنواع الغرور و الخدع! ----- ۳۸۸۲
۲- خداع الدنيا ----- ۳۸۸۲
۳- هذه العلوم الخمسة مختصّة باللّه ----- ۳۸۸۳
سورة السّجدة ----- ۳۸۸۴
اشارة ----- ۳۸۸۴
أسماء هذه السورة: ----- ۳۸۸۴
فضل تلاوة سورة السجدة: ----- ۳۸۸۴
محتوى سورة السجدة: ----- ۳۸۸۵
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۳۸۸۵
اشارة ----- ۳۸۸۵
التّفسير ----- ۳۸۸۶
عظمة القرآن، و المبدأ و المعاد: ----- ۳۸۸۶
بحث ----- ۳۸۸۹

إساءة الاستفادة من آية يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ----- ۳۸۸۹
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۶ الى ۹] ----- ۳۸۹۱
اشارة ----- ۳۸۹۱
التّفسير ----- ۳۸۹۱
مراحل خلق الإنسان العجيبة! ----- ۳۸۹۲
بحث ----- ۳۸۹۴
كيفية خلق آدم من التراب: ----- ۳۸۹۴
و من هنا تتّضح عدّة نقاط: ----- ۳۸۹۴
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱۰ الى ۱۴] ----- ۳۸۹۵
اشارة ----- ۳۸۹۵
التّفسير ----- ۳۸۹۶
الندم و طلب الرجوع: ----- ۳۸۹۶
مسألتان ----- ۳۸۹۸
۱- استقلال الروح و أصالتها ----- ۳۸۹۸
۲- ملک الموت ----- ۳۸۹۸
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱۵ الى ۲۰] ----- ۳۸۹۹
اشارة ----- ۳۸۹۹
التّفسير ----- ۳۸۹۹
جوائز عظيمة لم يطّلع عليها أحد! ----- ۳۸۹۹
بحث ----- ۳۹۰۳
أصحاب الليل! ----- ۳۹۰۳
الآيتان [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ----- ۳۹۰۴
اشارة ----- ۳۹۰۴
التّفسير ----- ۳۹۰۴

عقوبات تربوية: ۳۹۰۴
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ۳۹۰۶
اشارة ۳۹۰۶
التّفسير ۳۹۰۶
شرط الإمامة: الصبر و الإيمان: ۳۹۰۶
ملاحظة ۳۹۰۸
صمود و استقامة القادة الإلهيين ۳۹۰۸
الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ۳۹۰۹
اشارة ۳۹۰۹
التّفسير ۳۹۱۰
يوم انتصارنا: ۳۹۱۰
سورة الأحزاب ۳۹۱۲
اشارة ۳۹۱۲
سبب التسمية و فضلها: ۳۹۱۲
محتوى سورة الأحزاب: ۳۹۱۲
آيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۳] ۳۹۱۳
اشارة ۳۹۱۳
سبب النّزول ۳۹۱۳
التّفسير ۳۹۱۴
اتّبع الوحى الإلهى فقط: ۳۹۱۴
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴ الى ۶] ۳۹۱۵
اشارة ۳۹۱۵
التّفسير ۳۹۱۵
ادّعاءات جوفاء: ۳۹۱۵

ملاحظة ----- ۳۹۲۱
الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۷ الى ۸] ----- ۳۹۲۲
اشارة ----- ۳۹۲۲
التّفسير ----- ۳۹۲۲
ميثاق اللّه الغليظ: ----- ۳۹۲۲
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۹ الى ۱۱] ----- ۳۹۲۴
اشارة ----- ۳۹۲۴
التّفسير ----- ۳۹۲۴
الامتحان الإلهى العظيم فى مواجهة الأحزاب: ----- ۳۹۲۴
و هنا جملة مطالب تستحقّ الدقّة: ----- ۳۹۲۵
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۲ الى ۱۷] ----- ۳۹۲۷
اشارة ----- ۳۹۲۷
التّفسير ----- ۳۹۲۷
المنافقون فى عرصة الأحزاب: ----- ۳۹۲۷
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۸ الى ۲۰] ----- ۳۹۳۰
اشارة ----- ۳۹۳۰
التّفسير ----- ۳۹۳۰
فئة المعوّقين: ----- ۳۹۳۰
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۱ الى ۲۵] ----- ۳۹۳۲
اشارة ----- ۳۹۳۲
التّفسير ----- ۳۹۳۲
دور المؤمنين المخلصين فى معركة الأحزاب: ----- ۳۹۳۲
بحوث ----- ۳۹۳۶
۱- ملاحظات هامّة فى معركة الأحزاب ----- ۳۹۳۶

۲- النّبی أسوة و قدوة ----- ۳۹۴۱
۳- اذکروا اللّه کثیرا ----- ۳۹۴۱
الآیتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۲۶ الی ۲۷] ----- ۳۹۴۲
اشارة ----- ۳۹۴۲
التّفسیر ----- ۳۹۴۲
بحوث ----- ۳۹۴۴
۱- غزوة بنی قریظة و دوافعها ----- ۳۹۴۴
۲- أحداث غزوة بنی قریظة ----- ۳۹۴۴
۳- نتائج غزوة بنی قریظة ----- ۳۹۴۵
۴- الآیات و تعبیراتها العمیقة! ----- ۳۹۴۵
الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۲۸ الی ۳۱] ----- ۳۹۴۶
اشارة ----- ۳۹۴۶
سبب النّزول ----- ۳۹۴۶
التّفسیر ----- ۳۹۴۷
أمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنیا! ----- ۳۹۴۷
بحث ----- ۳۹۴۹
لما ذا یضاعف ثواب و عقاب المرموقین؟ ----- ۳۹۴۹
الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۳۲ الی ۳۴] ----- ۳۹۵۰
اشارة ----- ۳۹۵۰
التّفسیر ----- ۳۹۵۰
هکذا یجب أن تکون نساء النّبی! ----- ۳۹۵۰
بحوث ----- ۳۹۵۴
۱- آیة التطهیر برهان واضح علی العصمة: ----- ۳۹۵۴
۲- فیمن نزلت آیة التطهیر؟ ----- ۳۹۵۴

۳- هل أن الإرادة الإلهية هنا تكوينية أم تشريعية؟ ----- ۳۹۵۷
۴- جاهلية القرن العشرين! ----- ۳۹۵۸
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۳۵] ----- ۳۹۵۸
اشارة ----- ۳۹۵۸
سبب النّزول ----- ۳۹۵۸
التّفسير ----- ۳۹۵۹
شخصية المرأة و مكانتها فى الإسلام: ----- ۳۹۵۹
بحث ----- ۳۹۶۱
مساواة الرجل و المرأة عند اللّه: ----- ۳۹۶۱
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۶ الى ۳۸] ----- ۳۹۶۱
اشارة ----- ۳۹۶۱
سبب النّزول ----- ۳۹۶۲
التّفسير ----- ۳۹۶۲
تمرّد عظيم على العرف: ----- ۳۹۶۲
بحثان ----- ۳۹۶۵
۱- أساطير كاذبة ----- ۳۹۶۵
۲- روح الإسلام التسليم أمام اللّه ----- ۳۹۶۷
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۳۹] ----- ۳۹۶۷
اشارة ----- ۳۹۶۷
التّفسير ----- ۳۹۶۸
من هم المبلّغون الحقيقيون؟ ----- ۳۹۶۸
ملاحظات ----- ۳۹۶۸
[۱- المراد من «التبليغ»] ----- ۳۹۶۸
[۲- المراد من «الخشية»] ----- ۳۹۶۸

۳- جواب عن سؤال؟ ۳۹۶۹
۴- هل كان الأنبياء يستعملون التقيّة؟ ۳۹۶۹
۵- شرط الإنتصار فى التبليغ: ۳۹۷۰
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۴۰] ۳۹۷۱
اشارة ۳۹۷۱
التّفسير ۳۹۷۱
بحوث ۳۹۷۲
۱- ما هو الخاتم؟ ۳۹۷۲
۲- أدلّة كون نبىّ الإسلام خاتما للأنبياء: ۳۹۷۳
۳- إجابة عن عدّة أسئلة: ۳۹۷۵
۱- كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملى؟ ۳۹۷۵
۲- كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيّرة؟ ۳۹۷۵
۳- كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟ ۳۹۷۶
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ۳۹۷۷
اشارة ۳۹۷۷
التّفسير ۳۹۷۷
تحيّة اللّه و الملائكة فرج للمؤمنين: ۳۹۷۷
بحوث ۳۹۷۹
۱- ذكر اللّه على كلّ حال: ۳۹۷۹
۲- توضيح حول «لقاء اللّه»: ۳۹۸۰
۳- أجور المؤمنين معدّة منذ الآن! ۳۹۸۱
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۵ الى ۴۸] ۳۹۸۱
اشارة ۳۹۸۱
التّفسير ۳۹۸۱

السّراج المنير! ----- ۳۹۸۱
ملاحظات ----- ۳۹۸۲
و هنا ينبغى الانتباه إلى عدّة ملاحظات: ----- ۳۹۸۲
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۴۹] ----- ۳۹۸۵
اشارة ----- ۳۹۸۵
التّفسير ----- ۳۹۸۵
جانب من أحكام الطلاق: ----- ۳۹۸۵
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۰] ----- ۳۹۸۷
اشارة ----- ۳۹۸۷
التّفسير ----- ۳۹۸۷
يمكنک الزواج من هذه النّسوة: ----- ۳۹۸۷
بحث ----- ۳۹۸۹
جانب من حكمة تعدّد زوجات النّبى: ----- ۳۹۸۹
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۱] ----- ۳۹۹۰
اشارة ----- ۳۹۹۰
سبب النّزول ----- ۳۹۹۰
التّفسير ----- ۳۹۹۱
حلّ مشكلة اخرى فى حياة النّبى: ----- ۳۹۹۱
ملاحظة ----- ۳۹۹۲
هل كان هذا الحكم فى حقّ كلّ نساء النّبى: ----- ۳۹۹۲
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۲] ----- ۳۹۹۳
اشارة ----- ۳۹۹۳
التّفسير ----- ۳۹۹۳
حكم مهمّ آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبى: ----- ۳۹۹۳

مسائل مهمّة: ۳۹۹۳
۱- فلسفة هذا الحكم: ۳۹۹۳
۲- الروايات المخالفة: ۳۹۹۴
۳- هل يمكن النظر إلى زوجة المستقبل قبل الزواج؟ ۳۹۹۵
الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۳ الى ۵۴] ۳۹۹۵
اشارة ۳۹۹۵
سبب النّزول ۳۹۹۶
التّفسير ۳۹۹۶
بحوث ۳۹۹۹
اشارة ۳۹۹۹
۱- الضيافة: ۳۹۹۹
۲- مراعاة البساطة فى الضيافة: ۴۰۰۰
۳- حقّ الضيف: ۴۰۰۰
۴- واجبات الضيف: ۴۰۰۱
الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۵] ۴۰۰۱
اشارة ۴۰۰۱
سبب النّزول ۴۰۰۱
التّفسير ۴۰۰۱
الموارد المستثناة من قانون الحجاب: ۴۰۰۲
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸] ۴۰۰۲
اشارة ۴۰۰۳
التّفسير[۳۰۱] ۴۰۰۳
الصلاة على النّبى و السلام عليه: ۴۰۰۳
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۹ الى ۶۲] ۴۰۰۶

اشارة ----- ۴۰۰۶
سبب النّزول ----- ۴۰۰۶
التّفسير ----- ۴۰۰۷
تحذير شديد للمؤذين و مختلقى الإشاعات! ----- ۴۰۰۷
تعليقات ----- ۴۰۰۹
۱- ابدأ بنفسک! ----- ۴۰۰۹
۲- العلاج من طريقين: ----- ۴۰۰۹
۳- موقع المسلمين القوى: ----- ۴۰۰۹
۴- اجتثاث جذور الفساد: ----- ۴۰۱۰
۵- سنن اللّه الثابتة: ----- ۴۰۱۰
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۳ الى ۶۸] ----- ۴۰۱۱
اشارة ----- ۴۰۱۱
التّفسير ----- ۴۰۱۱
يسألون أيّان يوم القيامة؟! ----- ۴۰۱۱
الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۹ الى ۷۱] ----- ۴۰۱۳
اشارة ----- ۴۰۱۳
التّفسير ----- ۴۰۱۳
بما ذا رموا موسى عليه السّلام و اتّهموه؟ ----- ۴۰۱۳
قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم: ----- ۴۰۱۴
الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۷۲ الى ۷۳] ----- ۴۰۱۵
اشارة ----- ۴۰۱۵
التّفسير ----- ۴۰۱۵
حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر: ----- ۴۰۱۵
و هنا امور ينبغى الالتفات إليها: ----- ۴۰۱۹

سورة سبأ ----- ۴۰۱۹
اشارة ----- ۴۰۱۹
محتوى سورة سبأ: ----- ۴۰۲۰
فضيلة هذه السورة: ----- ۴۰۲۰
الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱ الى ۲] ----- ۴۰۲۱
اشارة ----- ۴۰۲۱
التّفسير ----- ۴۰۲۱
هو المالک لکلّ شيء و العالم بکلّ شيء: ----- ۴۰۲۱
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳ الى ۵] ----- ۴۰۲۳
اشارة ----- ۴۰۲۳
التّفسير ----- ۴۰۲۳
أقسم باللّه لتأتينکم القيامة: ----- ۴۰۲۳
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۶ الى ۹] ----- ۴۰۲۵
اشارة ----- ۴۰۲۵
التّفسير ----- ۴۰۲۵
العلماء يرون دعوتک إنّها حقّ: ----- ۴۰۲۵
هنا يجب الالتفات إلى جملة امور: ----- ۴۰۲۸
الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۰ الى ۱۱] ----- ۴۰۲۸
اشارة ----- ۴۰۲۸
التّفسير ----- ۴۰۲۸
المواهب الإلهية العظيمة لداود: ----- ۴۰۲۸
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۲ الى ۱۴] ----- ۴۰۳۱
اشارة ----- ۴۰۳۱
التّفسير ----- ۴۰۳۱

هيبة سليمان و موته العبرة!! ----- ۴۰۳۱
بحوث ----- ۴۰۳۵
۱- صور من حياة سليمان عليه السّلام: ----- ۴۰۳۵
۲- لماذا خفى موت سليمان مدّة من الزمن؟ ----- ۴۰۳۶
۳- سليمان فى القرآن و التوراة الحالية ----- ۴۰۳۶
۴- و قليل من عبادى الشكور ----- ۴۰۳۸
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۵ الى ۱۷] ----- ۴۰۳۹
اشارة ----- ۴۰۳۹
التّفسير ----- ۴۰۳۹
المدينة الراقية التى أضاعها الكفران: ----- ۴۰۳۹
الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۸ الى ۱۹] ----- ۴۰۴۱
اشارة ----- ۴۰۴۱
التّفسير ----- ۴۰۴۲
فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ!! ----- ۴۰۴۲
بحوث ----- ۴۰۴۳
۱- المصير المذهل لقوم سبأ!! ----- ۴۰۴۳
۲- الإعجاز القرآنى التأريخى ----- ۴۰۴۴
۳- لفتات هامّة للعبرة فى قصّة قصيرة ----- ۴۰۴۵
الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۰ الى ۲۱] ----- ۴۰۴۶
اشارة ----- ۴۰۴۶
التّفسير ----- ۴۰۴۶
لا أحد مجبر على اتّباع الشّيطان: ----- ۴۰۴۶
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۲ الى ۲۷] ----- ۴۰۴۷
اشارة ----- ۴۰۴۷

التّفسير ----- ۴۰۴۷
نبئونی لماذا؟ ----- ۴۰۴۷
بحث ----- ۴۰۵۱
طريق تسخير القلوب: ----- ۴۰۵۱
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۸ الى ۳۰] ----- ۴۰۵۲
اشارة ----- ۴۰۵۲
التّفسير ----- ۴۰۵۲
الدّعوة العالمية: ----- ۴۰۵۲
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۱ الى ۳۳] ----- ۴۰۵۴
اشارة ----- ۴۰۵۴
التّفسير ----- ۴۰۵۴
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۴ الى ۳۸] ----- ۴۰۵۷
اشارة ----- ۴۰۵۷
التّفسير ----- ۴۰۵۷
الأموال و الأولاد ليست دليلا على القرب من اللّه .. ----- ۴۰۵۷
بحث ----- ۴۰۵۹
معايير التقييم: ----- ۴۰۵۹
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۹ الى ۴۲] ----- ۴۰۶۰
اشارة ----- ۴۰۶۱
التّفسير ----- ۴۰۶۱
نفور المعبودين من عابديهم: ----- ۴۰۶۱
بحوث ----- ۴۰۶۳
۱- الإنفاق سبب النماء لا النقصان ----- ۴۰۶۳
۲- أمنوا على أموالكم بتأمين إلهى!! ----- ۴۰۶۴

۳- سعة مفهوم الإنفاق: ۴۰۶۴
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵] ۴۰۶۵
اشارة ۴۰۶۵
التّفسير ۴۰۶۵
بأىّ منطق ينكرون آيات اللّه: ۴۰۶۵
الآية [سورة سبإ (۳۴): آية ۴۶] ۴۰۶۷
اشارة ۴۰۶۷
التّفسير ۴۰۶۷
الثّورة الفكرية أساس لأىّ ثورة أصيلة: ۴۰۶۷
بحث ۴۰۶۹
الدين أصل التحوّلات: ۴۰۶۹
۲- جانب من الروايات الإسلامية فى التفكّر و التأمّل: ۴۰۷۰
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۴۷ الى ۵۰] ۴۰۷۱
اشارة ۴۰۷۱
التّفسير ۴۰۷۱
و ما يبدئ الباطل و ما يعيد: ۴۰۷۱
سؤال: ۴۰۷۳
الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴] ۴۰۷۴
اشارة ۴۰۷۴
التّفسير ۴۰۷۴
ليس للكافرين مفرّ: ۴۰۷۴
الجزء الرابع عشر ۴۰۹۳
سورة فاطر ۴۰۹۳
محتوى السورة: ۴۰۹۳

فضيلة هذه السورة: ۴۰۹۴
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱ الى ۳] ۴۰۹۴
اشارة ۴۰۹۴
التّفسير ۴۰۹۴
فاتح مغاليق الأبواب! ۴۰۹۴
ملاحظات ۴۰۹۷
«بحث» ۴۰۹۸
الملائكة فى القرآن الكريم: ۴۰۹۸
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۴ الى ۷] ۴۱۰۰
اشارة ۴۱۰۰
التّفسير ۴۱۰۰
لا يغرنكم الشيطان و الدنيا ۴۱۰۰
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۸ الى ۱۰] ۴۱۰۳
اشارة ۴۱۰۳
التّفسير ۴۱۰۳
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۴۱۰۳
ملاحظتان ۴۱۰۷
۱- العزّة جميعا من اللّه عزّ اسمه ۴۱۰۷
۲- الفرق بين «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح» ۴۱۰۷
الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ۴۱۰۸
اشارة ۴۱۰۸
التّفسير ۴۱۰۸
و ما يستوى البحران!! ۴۱۰۸
تأمّل الأمور التالية: ۴۱۱۰

بحث ----- ۴۱۱۱
العوامل المعنوية المؤثّرة فی طول العمر ----- ۴۱۱۱
الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۳ الی ۱۴] ----- ۴۱۱۲
اشارة ----- ۴۱۱۲
التّفسير ----- ۴۱۱۲
الأصنام لا تسمع دعاءكم!! ----- ۴۱۱۲
بحوث ----- ۴۱۱۴
۱- استقلال آيات القرآن الكريم و تفسيرها المنحرف. ----- ۴۱۱۴
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۵ الی ۱۸] ----- ۴۱۱۵
اشارة ----- ۴۱۱۵
التّفسير ----- ۴۱۱۵
اشارة ----- ۴۱۱۵
شرح برهان الإمكان و الوجوب «الفقر و الغنی»: ----- ۴۱۱۶
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۹ الی ۲۳] ----- ۴۱۱۸
اشارة ----- ۴۱۱۸
التّفسير ----- ۴۱۱۸
و ما تستوی الظلمات و لا النّور: ----- ۴۱۱۸
بحوث ----- ۴۱۱۹
۱- آثار الإيمان و الكفر ----- ۴۱۲۰
۲- هل أنّ الموتی واقعا لا يدركون؟ ----- ۴۱۲۰
۳- تنويع التعبيرات جزء من الفصاحة ----- ۴۱۲۱
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۴ الی ۲۶] ----- ۴۱۲۲
اشارة ----- ۴۱۲۲
التّفسير ----- ۴۱۲۲

لا عجب من عدم إيمان: ----- ۴۱۲۲
الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۷ الى ۲۸] ----- ۴۱۲۴
اشارة ----- ۴۱۲۴
التّفسير ----- ۴۱۲۴
العجائب المختلفة للخلقة: ----- ۴۱۲۴
الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۹ الى ۳۰] ----- ۴۱۲۷
اشارة ----- ۴۱۲۷
التّفسير ----- ۴۱۲۷
التجارة المربحة مع اللّه: ----- ۴۱۲۷
تعليقة ----- ۴۱۲۹
شروط تلك التجارة العجيبة: ----- ۴۱۲۹
الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۴۱۲۹
اشارة ----- ۴۱۲۹
التّفسير ----- ۴۱۲۹
الورثة الحقيقيّون لميراث الأنبياء: ----- ۴۱۲۹
ملاحظة ----- ۴۱۳۲
من هم حرّاس الكتاب الإلهى؟ ----- ۴۱۳۲
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۳ الى ۳۵] ----- ۴۱۳۳
اشارة ----- ۴۱۳۳
التّفسير ----- ۴۱۳۳
الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن: ----- ۴۱۳۳
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۶ الى ۳۸] ----- ۴۱۳۵
اشارة ----- ۴۱۳۵
التّفسير ----- ۴۱۳۵

ربّنا أخرجنا نعمل صالحا! ----- ۴۱۳۵
ملاحظتان ----- ۴۱۳۷
۱- ما هو المقصود من «ذات الصدور»؟ ----- ۴۱۳۷
۲- لا سبيل للرجوع! ----- ۴۱۳۷
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۹ الى ۴۱] ----- ۴۱۳۸
اشارة ----- ۴۱۳۸
التّفسير ----- ۴۱۳۸
السماوات و الأرض بيد القدرة الإلهية: ----- ۴۱۳۸
ملاحظة ----- ۴۱۴۱
الصغير و الكبير سيّان أمام قدرة اللّه! ----- ۴۱۴۱
الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۴۲ الى ۴۴] ----- ۴۱۴۲
اشارة ----- ۴۱۴۲
سبب النّزول ----- ۴۱۴۲
التّفسير ----- ۴۱۴۲
استكبارهم و مكرهم سبب شقائهم: ----- ۴۱۴۲
الآية [سورة فاطر (۳۵): آية ۴۵] ----- ۴۱۴۵
اشارة ----- ۴۱۴۵
التّفسير ----- ۴۱۴۵
لو لا لطف اللّه و رحمته! ----- ۴۱۴۵
سورة يس ----- ۴۱۴۶
اشارة ----- ۴۱۴۶
محتوى السورة: ----- ۴۱۴۷
فضيلة سورة «يس»: ----- ۴۱۴۷
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۱ الى ۱۰] ----- ۴۱۴۸

اشارة ----- ۴۱۴۸
التّفسير ----- ۴۱۴۸
بحوث ----- ۴۱۵۲
۱- فقدان وسائل المعرفة ----- ۴۱۵۲
۲- السدود من الأمام و الخلف ----- ۴۱۵۳
۳- الحرمان من السير الآفاقى و الأنفسى ----- ۴۱۵۳
الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ----- ۴۱۵۳
اشارة ----- ۴۱۵۳
التّفسير ----- ۴۱۵۴
من هم الذين يتقبّلون إنذارک؟ ----- ۴۱۵۴
مسألتان ----- ۴۱۵۶
۱- أنواع الكتب التى تثبت بها أعمال الناس ----- ۴۱۵۶
۲- كلّ شيء أحصيناه ----- ۴۱۵۶
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۱۳ الى ۱۹] ----- ۴۱۵۷
اشارة ----- ۴۱۵۷
التّفسير ----- ۴۱۵۷
و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية: ----- ۴۱۵۸
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۲۰ الى ۳۰] ----- ۴۱۶۰
اشارة ----- ۴۱۶۰
التّفسير ----- ۴۱۶۰
المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف! ----- ۴۱۶۰
بحوث ----- ۴۱۶۴
۱- قصّة رسل أنطاكية ----- ۴۱۶۴
۲- ما نتعلّمه من هذه القصّة ----- ۴۱۶۶

۳- ثواب و عقاب البرزخ ----- ۴۱۶۷
۴- قادة الأمم ----- ۴۱۶۷
الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۴۱۶۷
اشارة ----- ۴۱۶۸
التّفسير ----- ۴۱۶۸
الغفلة الدائمة: ----- ۴۱۶۸
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۳ الى ۳۶] ----- ۴۱۶۹
اشارة ----- ۴۱۶۹
التّفسير ----- ۴۱۶۹
آيات اخرى!! ----- ۴۱۶۹
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۷ الى ۴۰] ----- ۴۱۷۲
اشارة ----- ۴۱۷۲
التّفسير ----- ۴۱۷۲
بحوث ----- ۴۱۷۵
۱- حركة الشمس (الدورانية) و (الجريانية) ----- ۴۱۷۵
۲- تعبير «تدرک» و «سابق» ----- ۴۱۷۶
۳- نظام النور و الظلام فى حياة البشر: ----- ۴۱۷۶
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ----- ۴۱۷۷
اشارة ----- ۴۱۷۷
التّفسير ----- ۴۱۷۷
حركة السفن فى البحار آية إلهيّة: ----- ۴۱۷۷
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷] ----- ۴۱۷۹
اشارة ----- ۴۱۷۹
التّفسير ----- ۴۱۷۹

الإعراض عن جميع آيات اللّه: ۴۱۷۹
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۸ الى ۵۳] ۴۱۸۱
اشارة ۴۱۸۱
التّفسير ۴۱۸۱
صيحة النشور! ۴۱۸۲
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۵۴ الى ۵۸] ۴۱۸۴
اشارة ۴۱۸۴
التّفسير ۴۱۸۴
أصحاب الجنّة فاكهون! ۴۱۸۴
ملاحظة ۴۱۸۶
أنواع «السلام» المنثور على أهل الجنّة ۴۱۸۶
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲] ۴۱۸۷
اشارة ۴۱۸۷
التّفسير ۴۱۸۷
لماذا عبدتم الشيطان؟! ۴۱۸۷
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۳ الى ۶۸] ۴۱۸۹
اشارة ۴۱۸۹
التّفسير ۴۱۸۹
يوم تسكت الألسن و تشهد الأعضاء!! ۴۱۸۹
الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۹ الى ۷۰] ۴۱۹۲
اشارة ۴۱۹۲
التّفسير ۴۱۹۲
انّه ليس بشاعر .. بل نذير!! ۴۱۹۲
بحث ۴۱۹۴

حياة و موت القلوب: ۴۱۹۴
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۱ الى ۷۶] ۴۱۹۵
اشارة ۴۱۹۵
التّفسير ۴۱۹۶
فوائد الأنعام للإنسان!! ۴۱۹۶
بحث ۴۱۹۸
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۷ الى ۷۹] ۴۱۹۹
اشارة ۴۱۹۹
سبب النّزول ۴۱۹۹
التّفسير ۴۱۹۹
الآية [سورة يس (۳۶): آية ۸۰] ۴۲۰۱
اشارة ۴۲۰۱
التّفسير ۴۲۰۱
مسألتان ۴۲۰۳
۱- شجر أخضر .. لماذا؟ ۴۲۰۳
۲- الفرق بين الوقود و الوقود: ۴۲۰۳
الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۸۱ الى ۸۳] ۴۲۰۴
اشارة ۴۲۰۴
التّفسير ۴۲۰۴
هو المالک و الحاکم على كلّ شيء!! ۴۲۰۴
بحوث ۴۲۰۶
اشارة ۴۲۰۶
۱- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى: ۴۲۰۶
۲- أثر الإعتقاد بالمعاد على حياة البشر: ۴۲۰۷

۳- الدلائل العقليّة على المعاد: ۴۲۰۸
اشارة ۴۲۰۸
أ- برهان الحكمة: ۴۲۰۸
ب- برهان العدالة: ۴۲۰۹
ج- برهان الهدف: ۴۲۱۰
د- برهان نفى الاختلاف: ۴۲۱۰
۴- القرآن و مسألة المعاد: ۴۲۱۱
۵- المعاد الجسمانى: ۴۲۱۲
۶- الجنّة و النار ۴۲۱۳
سورة الصّافات ۴۲۱۳
اشارة ۴۲۱۳
محتوى سورة الصّافات: ۴۲۱۴
فضيلة تلاوة سورة الصافات: ۴۲۱۴
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱ الى ۵] ۴۲۱۵
اشارة ۴۲۱۵
التّفسير ۴۲۱۵
الملائكة المستعدّة لتنفيذ المهام: ۴۲۱۵
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۶ الى ۱۰] ۴۲۱۸
اشارة ۴۲۱۸
التّفسير ۴۲۱۸
حفظ السماء من تسلّل الشياطين! ۴۲۱۸
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ۴۲۲۱
اشارة ۴۲۲۱
التّفسير ۴۲۲۱

الذين لا يقبلون الحقّ أبدا: ---- ۴۲۲۱
ملاحظتان ---- ۴۲۲۲
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶ الى ۲۳] ---- ۴۲۲۲
اشارة ---- ۴۲۲۲
التّفسير ---- ۴۲۲۳
هل نبعث من جديد؟ ---- ۴۲۲۳
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۲۴ الى ۳۲] ---- ۴۲۲۵
اشارة ---- ۴۲۲۵
التّفسير ---- ۴۲۲۵
الحوار بين القادة و الأتباع الضالّين: ---- ۴۲۲۵
ملاحظتان ---- ۴۲۲۷
۱- السؤال أيضا عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: ---- ۴۲۲۷
۲- المتبوعون و التابعون الضالّون: ---- ۴۲۲۸
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۳۳ الى ۴۰] ---- ۴۲۲۹
اشارة ---- ۴۲۲۹
التّفسير ---- ۴۲۲۹
مصير أئمّة الضلال و أتباعهم: ---- ۴۲۲۹
ملاحظة ---- ۴۲۳۱
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۴۱ الى ۴۹] ---- ۴۲۳۱
اشارة ---- ۴۲۳۱
التّفسير ---- ۴۲۳۱
جوانب من النعم لأهل الجنّة: ---- ۴۲۳۲
ملاحظة ---- ۴۲۳۴
إلقاء نظرة عامّة على ما جاء فى الآيات السابقة: ---- ۴۲۳۴

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۵۰ الى ۶۱] ---- ۴۲۳۵
اشارة ---- ۴۲۳۵
التّفسير ---- ۴۲۳۵
البحث عن رفيق السوء: ---- ۴۲۳۵
بحوث ---- ۴۲۳۷
۱- الرابطة بين أهل الجنّة و أهل النار ---- ۴۲۳۷
۲- بحقّ من نزلت هذه الآيات ---- ۴۲۳۷
۳- لنيل مثل هذه النعم علينا المثابرة ---- ۴۲۳۸
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۶۲ الى ۷۰] ---- ۴۲۳۸
اشارة ---- ۴۲۳۸
التّفسير ---- ۴۲۳۸
جوانب من العذاب الأليم لأهل النار: ---- ۴۲۳۸
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۱ الى ۷۴] ---- ۴۲۴۱
اشارة ---- ۴۲۴۱
التّفسير ---- ۴۲۴۱
الأمم الضالّة السابقة: ---- ۴۲۴۱
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۵ الى ۸۲] ---- ۴۲۴۲
اشارة ---- ۴۲۴۲
التّفسير ---- ۴۲۴۲
مقتطفات من قصّة نوح: ---- ۴۲۴۲
ملاحظة ---- ۴۲۴۴
هل أنّ البشر الموجودين على الأرض هم من ذريّة نوح؟ ---- ۴۲۴۴
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۸۳ الى ۹۴] ---- ۴۲۴۴
اشارة ---- ۴۲۴۴

التّفسير ---- ۴۲۴۵
خطّة إبراهيم الذكيّة فى تحطيم الأصنام: ---- ۴۲۴۵
ملاحظات ---- ۴۲۴۸
۱- هل أنّ الأنبياء يستخدمون التورية؟ ---- ۴۲۴۸
۲- إبراهيم و القلب السليم: ---- ۴۲۴۹
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۹۵ الى ۱۰۰] ---- ۴۲۵۰
اشارة ---- ۴۲۵۰
التّفسير ---- ۴۲۵۰
فشل مخطّطات المشركين: ---- ۴۲۵۰
بحثان ---- ۴۲۵۲
۱- خالق كلّ شىء: ---- ۴۲۵۲
۲- هجرة إبراهيم عليه السّلام: ---- ۴۲۵۳
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۱۰] ---- ۴۲۵۳
اشارة ---- ۴۲۵۴
التّفسير ---- ۴۲۵۴
إبراهيم عند المذبح: ---- ۴۲۵۴
بحوث ---- ۴۲۵۸
۱- من هو ذبيح اللّه؟ ---- ۴۲۵۸
۲- هل أنّ إبراهيم كان مكلّفا بذبح ابنه؟ ---- ۴۲۵۹
۳- كيف يمكن أن تكون رؤيا إبراهيم حجّة؟ ---- ۴۲۵۹
۴- عدم تأثّر روح إبراهيم الكبيرة بوساوس الشيطان: ---- ۴۲۶۰
۵- فلسفة التكبيرات فى (منى): ---- ۴۲۶۱
۶- الحجّ عبادة مهمّة تبنى الإنسان: ---- ۴۲۶۱
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۳] ---- ۴۲۶۲

اشارة ---- ۴۲۶۲
التّفسير ---- ۴۲۶۲
إبراهيم ذلک العبد المؤمن: ---- ۴۲۶۲
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱۴ الى ۱۲۲] ---- ۴۲۶۴
اشارة ---- ۴۲۶۴
التّفسير ---- ۴۲۶۴
النعم التى منّ بها اللّه على موسى و هارون: ---- ۴۲۶۴
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۳۲] ---- ۴۲۶۶
اشارة ---- ۴۲۶۶
التّفسير ---- ۴۲۶۶
النّبى إلياس و مواجهته للمشركين: ---- ۴۲۶۶
بحثان ---- ۴۲۶۸
۱- من هو إلياس؟ ---- ۴۲۶۸
۲- من هم إل ياسين؟ ---- ۴۲۶۹
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۸] ---- ۴۲۶۹
اشارة ---- ۴۲۶۹
التّفسير ---- ۴۲۷۰
تدمير قوم لوط: ---- ۴۲۷۰
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۹ الى ۱۴۸] ---- ۴۲۷۱
اشارة ---- ۴۲۷۱
التّفسير ---- ۴۲۷۱
يونس فى بوتقة الامتحان: ---- ۴۲۷۱
بحوث ---- ۴۲۷۵
۱- عرض موجز لحياة يونس عليه السّلام ---- ۴۲۷۶

۲- كيف بقى يونس حيّا فى بطن الحوت؟ ----- ۴۲۷۶
۳- دروس و عبر كبيرة فى قصص صغيرة: ----- ۴۲۷۷
۴- الجواب على سؤال: ----- ۴۲۷۸
۵- القرعة و مشروعيتها فى الإسلام: ----- ۴۲۷۸
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۴۹ الى ۱۶۰] ----- ۴۲۷۹
اشارة ----- ۴۲۷۹
التّفسير ----- ۴۲۷۹
التهم القبيحة: ----- ۴۲۷۹
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۷۰] ----- ۴۲۸۲
اشارة ----- ۴۲۸۲
التّفسير ----- ۴۲۸۲
الادّعاءات الكاذبة: ----- ۴۲۸۲
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۷۱ الى ۱۷۷] ----- ۴۲۸۴
اشارة ----- ۴۲۸۴
التّفسير ----- ۴۲۸۴
حزب اللّه هو المنتصر: ----- ۴۲۸۴
اشارة ----- ۴۲۸۴
سؤال مهمّ: ----- ۴۲۸۵
الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۷۸ الى ۱۸۲] ----- ۴۲۸۷
اشارة ----- ۴۲۸۷
التّفسير ----- ۴۲۸۷
تولّ عنهم! ----- ۴۲۸۷
ملاحظة ----- ۴۲۸۹
التفكّر فى نهاية كلّ عمل: ----- ۴۲۸۹

سورة ص ----- ۴۲۹۰
اشارة ----- ۴۲۹۰
محتويات السورة: ----- ۴۲۹۰
فضيلة تلاوة سورة (ص) ----- ۴۲۹۰
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۴۲۹۱
اشارة ----- ۴۲۹۱
أسباب النّزول ----- ۴۲۹۱
التّفسير ----- ۴۲۹۱
انقضاء مهلة النّجاة: ----- ۴۲۹۲
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴ الى ۷] ----- ۴۲۹۳
اشارة ----- ۴۲۹۳
أسباب النّزول ----- ۴۲۹۴
التّفسير ----- ۴۲۹۴
هل يمكن قبول إله واحد بدلا من كلّ تلك الآلهة؟ ----- ۴۲۹۴
ملاحظة ----- ۴۲۹۶
الخوف من الجديد! ----- ۴۲۹۶
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۸ الى ۱۱] ----- ۴۲۹۷
اشارة ----- ۴۲۹۷
التّفسير ----- ۴۲۹۷
الجيش المهزوم: ----- ۴۲۹۷
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱۲ الى ۱۶] ----- ۴۲۹۹
اشارة ----- ۴۲۹۹
التّفسير ----- ۴۳۰۰
تكفيهم صيحة سماوية واحدة: ----- ۴۳۰۰

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ---- ۴۳۰۳
اشارة ---- ۴۳۰۳
التّفسير ---- ۴۳۰۳
تعلّم من داود: ---- ۴۳۰۳
بحث ---- ۴۳۰۵
الصفات العشر لداود عليه السّلام: ---- ۴۳۰۵
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۲۱ الى ۲۵] ---- ۴۳۰۶
اشارة ---- ۴۳۰۶
التّفسير ---- ۴۳۰۶
داود و الامتحان الكبير: ---- ۴۳۰۶
بحوث ---- ۴۳۰۸
۱- ما هى حقيقة وقائع قصّة داود؟ ---- ۴۳۰۸
۲- التوراة و القصص الخرافية بشأن داود ---- ۴۳۰۸
اشارة ---- ۴۳۰۸
و الآن نسأل: ---- ۴۳۱۰
۳- الأحاديث الإسلامية و قصّة داود عليه السّلام ---- ۴۳۱۰
اشارة ---- ۴۳۱۰
آراء المفسّرين ---- ۴۳۱۲
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۲۶ الى ۲۹] ---- ۴۳۱۳
اشارة ---- ۴۳۱۳
التّفسير ---- ۴۳۱۳
احكم بالعدل و لا تتّبع هوى النفس: ---- ۴۳۱۳
ملاحظتان ---- ۴۳۱۶
۱- التقوى و الفجور أمام بعضهما البعض ---- ۴۳۱۶

۲- لمن تعنى هذه الآيات؟ ۴۳۱۷
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ۴۳۱۷
اشارة ۴۳۱۷
التّفسير ۴۳۱۷
سليمان عليه السّلام يستعرض قوّاته القتالية: ۴۳۱۷
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۳۴ الى ۴۰] ۴۳۲۰
اشارة ۴۳۲۰
التّفسير ۴۳۲۰
الامتحان الصعب لسليمان و ملكه الواسع: ۴۳۲۰
هنا يطرح سؤالان: ۴۳۲۲
۱- هل يستشفّ البخل من طلب سليمان عليه السّلام ۴۳۲۲
ملاحظتان ۴۳۲۵
۱- الحقائق التى تبيّنها لنا قصّة سليمان ۴۳۲۵
۲- سليمان فى القرآن و التوراة ۴۳۲۶
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ۴۳۲۶
اشارة ۴۳۲۶
التّفسير ۴۳۲۶
حياة أيّوب المليئة بالحوادث و العبر: ۴۳۲۶
بحوث ۴۳۳۰
۱- دروس مهمّة فى قصّة أيّوب ۴۳۳۰
۲- أيّوب عليه السّلام فى القرآن و التوراة ۴۳۳۱
۳- إطلاق صفة (أوّاب) على الأنبياء الكبار ۴۳۳۱
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۵ الى ۴۸] ۴۳۳۲
اشارة ۴۳۳۲

التّفسير ----- ۴۳۳۲
الأنبياء السّتّة: ----- ۴۳۳۲
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۹ الى ۵۴] ----- ۴۳۳۵
اشارة ----- ۴۳۳۵
التّفسير ----- ۴۳۳۵
هذا ما وعد به المتّقون: ----- ۴۳۳۵
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۶۱] ----- ۴۳۳۷
اشارة ----- ۴۳۳۷
التّفسير ----- ۴۳۳۷
و هذه هى عاقبة الطغاة! ----- ۴۳۳۷
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۶۲ الى ۶۴] ----- ۴۳۳۹
اشارة ----- ۴۳۳۹
التّفسير ----- ۴۳۳۹
تخاصم أهل النّار: ----- ۴۳۳۹
ملاحظة ----- ۴۳۴۰
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰] ----- ۴۳۴۰
اشارة ----- ۴۳۴۰
التّفسير ----- ۴۳۴۱
إنّما أنا نذير! ----- ۴۳۴۱
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۷۱ الى ۸۳] ----- ۴۳۴۳
اشارة ----- ۴۳۴۳
التّفسير ----- ۴۳۴۳
تكبّر الشيطان و طرده من رحمة اللّه! ----- ۴۳۴۳
بحثان ----- ۴۳۴۷

۱- فلسفة وجود الشيطان ----- ۴۳۴۷
۲- نيران الأنانية و الغرور تحرق رأسمال الوجود ----- ۴۳۴۸
الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۸۴ الى ۸۸] ----- ۴۳۴۹
اشارة ----- ۴۳۴۹
التّفسير ----- ۴۳۴۹
آخر حديث بشأن إبليس! ----- ۴۳۴۹
ملاحظة ----- ۴۳۵۰
من هو المتكلّف؟ ----- ۴۳۵۰
الجزء الخامس عشر ----- ۴۳۷۱
سورة الزّمر ----- ۴۳۷۱
محتوى سورة الزّمر: ----- ۴۳۷۱
فضيلة سورة الزمر: ----- ۴۳۷۲
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۴۳۷۳
اشارة ----- ۴۳۷۳
التّفسير ----- ۴۳۷۳
عليک الإخلاص فى الدين! ----- ۴۳۷۳
ملاحظة ----- ۴۳۷۶
الفرق بين التنزيل و الإنزال: ----- ۴۳۷۶
الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴ الى ۵] ----- ۴۳۷۷
اشارة ----- ۴۳۷۷
التّفسير ----- ۴۳۷۷
ما حاجة اللّه إلى الأولاد؟ ----- ۴۳۷۷
الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶ الى ۷] ----- ۴۳۷۹
اشارة ----- ۴۳۷۹

التّفسير ----- ۴۳۷۹
الجميع مخلوقون من نفس واحدة: ----- ۴۳۷۹
الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۸ الى ۹] ----- ۴۳۸۲
اشارة ----- ۴۳۸۲
التّفسير ----- ۴۳۸۲
هل العلماء و الجهلة متساوون؟ ----- ۴۳۸۲
ملاحظة ----- ۴۳۸۴
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۰ الى ۱۶] ----- ۴۳۸۶
اشارة ----- ۴۳۸۶
التّفسير ----- ۴۳۸۶
الخطوط الرئيسة لمناهج العباد المخلصين: ----- ۴۳۸۶
ملاحظات ----- ۴۳۸۹
۱- حقيقة الخسران! ----- ۴۳۸۹
۲- ما هو المراد من الآية: فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ ----- ۴۳۸۹
۳- من هم الأهل؟ ----- ۴۳۹۰
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ----- ۴۳۹۰
اشارة ----- ۴۳۹۰
التّفسير ----- ۴۳۹۰
عباد اللّه الحقيقيون: ----- ۴۳۹۰
بحوث ----- ۴۳۹۲
۱- منطق حرية التفكير فى الإسلام ----- ۴۳۹۲
۲- الردّ على بعض الأسئلة ----- ۴۳۹۳
۳- نماذج من الروايات الإسلامية التى تؤكد على حرية التفكير ----- ۴۳۹۳
۴- سبب النّزول ----- ۴۳۹۴

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ----- ۴۳۹۴
اشارة ----- ۴۳۹۴
التّفسير ----- ۴۳۹۴
الذين هم على مركب من نور!! ----- ۴۳۹۴
بحث ----- ۴۳۹۶
عوامل (شرح الصدر) و (قسوة القلب) ----- ۴۳۹۶
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۳ الى ۲۶] ----- ۴۳۹۷
اشارة ----- ۴۳۹۷
سبب النّزول ----- ۴۳۹۸
التّفسير ----- ۴۳۹۸
اشارة ----- ۴۳۹۸
أمّا الخاصية الأولى فهى كِتاباً مُتَشابِهاً ----- ۴۳۹۸
أما الخاصية الثّانية فهى مَثانِيَ أى المكرر- ----- ۴۳۹۸
أمّا الخاصية الثّالثة فهى تقشعر منه الجلود ----- ۴۳۹۹
بحث ----- ۴۴۰۱
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۷ الى ۳۱] ----- ۴۴۰۱
اشارة ----- ۴۴۰۱
التّفسير ----- ۴۴۰۲
قرآن لا عوج فيه: ----- ۴۴۰۲
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۲ الى ۳۵] ----- ۴۴۰۴
اشارة ----- ۴۴۰۴
التّفسير ----- ۴۴۰۴
أولئک الذين يصدقون كلام اللّه: ----- ۴۴۰۴
مسألة: ----- ۴۴۰۶

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ---- ۴۴۰۷
اشارة ---- ۴۴۰۷
سبب النّزول ---- ۴۴۰۷
التّفسير ---- ۴۴۰۸
إن اللّه كاف! ---- ۴۴۰۸
بحثان ---- ۴۴۰۹
۱- الهداية و الإضلال من اللّه: ---- ۴۴۰۹
۲- الاتكال على لطف اللّه ---- ۴۴۱۲
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ---- ۴۴۱۲
اشارة ---- ۴۴۱۲
التّفسير ---- ۴۴۱۲
هل إن آلهتكم قادرة على حل مشاكلكم؟ ---- ۴۴۱۲
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴] ---- ۴۴۱۴
اشارة ---- ۴۴۱۴
التّفسير ---- ۴۴۱۴
اللّه سبحانه يتوفى الأنفس: ---- ۴۴۱۴
ملاحظتان ---- ۴۴۱۶
۱- عجائب عالم الرؤيا؟ ---- ۴۴۱۶
۲- النوم كما ورد فى الروايات الإسلامية: ---- ۴۴۱۷
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۵ الى ۴۸] ---- ۴۴۱۸
اشارة ---- ۴۴۱۸
التّفسير ---- ۴۴۱۸
الذين يخافون من اسم اللّه! ---- ۴۴۱۸
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۹ الى ۵۲] ---- ۴۴۱۹

اشارة ----- ۴۴۲۰
التّفسير ----- ۴۴۲۰
فی الشدائد یذکرون اللّه، و لکن ... ----- ۴۴۲۰
الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۵۳ الی ۵۵] ----- ۴۴۲۲
اشارة ----- ۴۴۲۲
التّفسير ----- ۴۴۲۲
إنّ اللّه یغفر الذنوب جمیعا علیهم السّلام ----- ۴۴۲۲
بحثان ----- ۴۴۲۴
۱- باب التوبة مفتوح للجمیع ----- ۴۴۲۴
۲- اصحاب الأحمال الثقیلة ----- ۴۴۲۵
الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۵۶ الی ۵۹] ----- ۴۴۲۷
اشارة ----- ۴۴۲۷
التّفسير ----- ۴۴۲۷
الندم لا ینفع فی ذلک الیوم: ----- ۴۴۲۷
ملاحظتان ----- ۴۴۲۹
۱- التفریط فی جنب اللّه ----- ۴۴۲۹
۲- علی أعتاب الموت أو القیامة؟ ----- ۴۴۲۹
الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۶۰ الی ۶۴] ----- ۴۴۳۰
اشارة ----- ۴۴۳۰
التّفسير ----- ۴۴۳۰
اللّه خالق کلّ شیء و حافظه: ----- ۴۴۳۰
الآیات [سورة الزمر (۳۹): الآیات ۶۵ الی ۶۷] ----- ۴۴۳۳
اشارة ----- ۴۴۳۳
التّفسير ----- ۴۴۳۴

الشرک محبط للأعمال: ۴۴۳۴
ملاحظتان ۴۴۳۶
۱- مسألة إحباط الأعمال ۴۴۳۶
۲- هل عرف المؤمنون اللّه؟ ۴۴۳۷
الآية [سورة الزمر (۳۹): آية ۶۸] ۴۴۳۷
اشارة ۴۴۳۷
التّفسير ۴۴۳۷
(النفخ فی الصور) و موت و إحياء جميع العباد: ۴۴۳۷
بحوث ۴۴۳۸
۱- هل أنّ النفخ فی الصور يتمّ مرتين، أو أكثر؟ ۴۴۳۸
۲- ما هو صور إسرافيل: ۴۴۳۹
۳- من هم المستثنون؟ ۴۴۴۰
۴- فجائية النفختين: ۴۴۴۰
۵- ما هی الفاصلة الزمنية بين النفختين؟ ۴۴۴۰
الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۹ الی ۷۰] ۴۴۴۱
اشارة ۴۴۴۱
التّفسير ۴۴۴۱
ذلک اليوم الذی تشرق الأرض بنور ربّها: ۴۴۴۱
الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۱ الی ۷۲] ۴۴۴۳
اشارة ۴۴۴۳
التّفسير ۴۴۴۳
الذين يدخلون جهنم زمرا: ۴۴۴۳
الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۳ الی ۷۵] ۴۴۴۵
اشارة ۴۴۴۵

التّفسير ----- ۴۴۴۵
المتقون يدخلون الجنّة أفواجا!! ----- ۴۴۴۵
سورة المؤمن ----- ۴۴۴۷
اشارة ----- ۴۴۴۷
نظرة مختصرة فى محتوى السورة: ----- ۴۴۴۷
فضيلة تلاوة السورة: ----- ۴۴۴۸
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۴۴۴۹
اشارة ----- ۴۴۴۹
التّفسير ----- ۴۴۵۰
صفات تبعث الأمل فى النفوس: ----- ۴۴۵۰
عن الامام الصادق عليه السّلام ۱۶۷]. ----- ۴۴۵۰
ملاحظات ----- ۴۴۵۱
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۴۴۵۲
اشارة ----- ۴۴۵۲
التّفسير ----- ۴۴۵۲
الأمر الإلهى الحاسم: ----- ۴۴۵۲
بحثان ----- ۴۴۵۴
أوّلا: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية ----- ۴۴۵۴
ثانيا: المجادلة فى القرآن الكريم ----- ۴۴۵۵
أ- مفهوم «جدال» و «مراء» ----- ۴۴۵۵
ب: الجدال السلبى و الإيجابى ----- ۴۴۵۵
ج: الآثار السيئة للجدال السلبى ----- ۴۴۵۷
د: أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن: ----- ۴۴۵۸
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷ الى ۹] ----- ۴۴۵۹

اشارة ---- ۴۴۵۹
التّفسير ---- ۴۴۵۹
دعاء حملة المستمر للمؤمنين: ---- ۴۴۵۹
بحوث ---- ۴۴۶۰
أوّلا: الأدعية الأربعة لحملة العرش ---- ۴۴۶۰
ثانيا: آداب الدعاء ---- ۴۴۶۱
ثالثا: لماذا تبدأ الأدعية بكلمة «ربّنا»؟ ---- ۴۴۶۱
رابعا: ما هو العرش الإلهى؟ ---- ۴۴۶۲
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۰ الى ۱۲] ---- ۴۴۶۳
اشارة ---- ۴۴۶۳
التّفسير ---- ۴۴۶۴
اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟ ---- ۴۴۶۴
ملاحظة ---- ۴۴۶۷
الدعاء البعيد عن الإجابة! ---- ۴۴۶۷
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۳ الى ۱۵] ---- ۴۴۶۷
اشارة ---- ۴۴۶۸
التّفسير ---- ۴۴۶۸
ادع اللّه وحده رغما على الكافرين: ---- ۴۴۶۸
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۶ الى ۱۷] ---- ۴۴۷۱
اشارة ---- ۴۴۷۱
التّفسير ---- ۴۴۷۱
يوم التلاقى! ---- ۴۴۷۱
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۸ الى ۲۰] ---- ۴۴۷۳
اشارة ---- ۴۴۷۳

التّفسير ----- ۴۴۷۳
يوم تبلغ القلوب الحناجر: ----- ۴۴۷۳
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۱ الى ۲۲] ----- ۴۴۷۵
اشارة ----- ۴۴۷۵
التّفسير ----- ۴۴۷۵
اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين: ----- ۴۴۷۵
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۳ الى ۲۷] ----- ۴۴۷۷
اشارة ----- ۴۴۷۷
التّفسير ----- ۴۴۷۷
ذرونى أقتل موسى!! ----- ۴۴۷۷
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۸ الى ۲۹] ----- ۴۴۸۰
اشارة ----- ۴۴۸۰
التّفسير ----- ۴۴۸۰
أ تقتلون رجلا أن يقول ربّى اللّه! ----- ۴۴۸۰
بحوث ----- ۴۴۸۲
أوّلا: من هو مؤمن آل فرعون؟ ----- ۴۴۸۲
ثانيا: التقية أداة مؤثّرة فى الصراع ----- ۴۴۸۳
ثالثا: من هم الصدّيقون؟ ----- ۴۴۸۴
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ----- ۴۴۸۴
اشارة ----- ۴۴۸۴
التّفسير ----- ۴۴۸۴
التحذير من العاقبة! ----- ۴۴۸۴
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۴ الى ۳۵] ----- ۴۴۸۶
اشارة ----- ۴۴۸۶

التّفسير ----- ۴۴۸۶
عجز المتكبرين عن الإدراک الصحيح! ----- ۴۴۸۶
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۶ الى ۳۷] ----- ۴۴۸۷
اشارة ----- ۴۴۸۷
التّفسير ----- ۴۴۸۷
أريد أن أطلع إلى إليه موسى!! ----- ۴۴۸۸
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۴۴۸۹
اشارة ----- ۴۴۸۹
التّفسير ----- ۴۴۸۹
اتبعون أهدكم سبيل الرشاد: ----- ۴۴۸۹
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴۱ الى ۴۶] ----- ۴۴۹۰
اشارة ----- ۴۴۹۰
التّفسير ----- ۴۴۹۱
الكلام الأخير: ----- ۴۴۹۱
بحوث ----- ۴۴۹۳
أوّلا: مؤمن آل فرعون و الدرس العظيم فى مواجهة الطواغيت ----- ۴۴۹۳
ثانيا: تفويض الأمور إلى اللّه ----- ۴۴۹۴
ثالثا: عالم البرزخ ----- ۴۴۹۴
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴۷ الى ۵۰] ----- ۴۴۹۵
اشارة ----- ۴۴۹۵
التّفسير ----- ۴۴۹۵
نقاش الضعفاء و المستكبرين فى جهنّم: ----- ۴۴۹۵
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۵۱ الى ۵۵] ----- ۴۴۹۶
اشارة ----- ۴۴۹۶

التّفسير ----- ۴۴۹۷
الوعد بنصر المؤمنين: ----- ۴۴۹۷
سؤال: ----- ۴۴۹۷
سؤال آخر ----- ۴۴۹۸
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۵۶ الى ۵۹] ----- ۴۵۰۱
اشارة ----- ۴۵۰۱
التّفسير ----- ۴۵۰۱
ما يستوى الأعمى و البصير! ----- ۴۵۰۱
ملاحظة ----- ۴۵۰۳
اليهود المغرورون: ----- ۴۵۰۳
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۰ الى ۶۳] ----- ۴۵۰۴
اشارة ----- ۴۵۰۴
التّفسير ----- ۴۵۰۴
ادعونى أستجب لكم: ----- ۴۵۰۴
أهمية الدعاء و شروط الاستجابة ----- ۴۵۰۵
موانع استجابة الدعاء ----- ۴۵۰۶
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۴ الى ۶۶] ----- ۴۵۰۸
اشارة ----- ۴۵۰۸
التّفسير ----- ۴۵۰۸
ذلكم اللّه ربّكم: ----- ۴۵۰۹
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۷ الى ۶۸] ----- ۴۵۱۱
اشارة ----- ۴۵۱۱
التّفسير ----- ۴۵۱۱
اشارة ----- ۴۵۱۱

المراحل السبع لخلق الإنسان: ---- ۴۵۱۱
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۹ الى ۷۶] ---- ۴۵۱۳
اشارة ---- ۴۵۱۳
التّفسير ---- ۴۵۱۴
عاقبة المعاندين المغرورين: ---- ۴۵۱۴
الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷۷ الى ۷۸] ---- ۴۵۱۶
اشارة ---- ۴۵۱۶
التّفسير ---- ۴۵۱۷
فاصبر ... حتى يأتيک وعد اللّه: ---- ۴۵۱۷
ملاحظة فى عدد الأنبياء؟! ---- ۴۵۱۸
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷۹ الى ۸۱] ---- ۴۵۱۹
اشارة ---- ۴۵۱۹
التّفسير ---- ۴۵۱۹
منافع الأنعام المختلفة: ---- ۴۵۱۹
الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۸۲ الى ۸۵] ---- ۴۵۲۱
اشارة ---- ۴۵۲۱
التّفسير ---- ۴۵۲۱
لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب: ---- ۴۵۲۱
المغرورون بالعلم! ---- ۴۵۲۳
سورة فصّلت ---- ۴۵۲۴
اشارة ---- ۴۵۲۴
نظرة فى المحتوى العام للسورة: ---- ۴۵۲۴
فضيلة تلاوة السورة: ---- ۴۵۲۵
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱ الى ۵] ---- ۴۵۲۵

اشارة ----- ۴۵۲۵
التّفسير ----- ۴۵۲۶
عظمة القرآن: ----- ۴۵۲۶
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۶ الى ۸] ----- ۴۵۲۸
اشارة ----- ۴۵۲۸
التّفسير ----- ۴۵۲۸
من هم المشركون؟ ----- ۴۵۲۹
ملاحظة ----- ۴۵۳۰
الأهمية الاستثنائية للزكاة فى الإسلام: ----- ۴۵۳۰
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۹ الى ۱۲] ----- ۴۵۳۱
اشارة ----- ۴۵۳۱
التّفسير ----- ۴۵۳۱
مراحل خلق السماوات و الأرض: ----- ۴۵۳۱
ملاحظتات ----- ۴۵۳۲
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۳ الى ۱۶] ----- ۴۵۳۵
اشارة ----- ۴۵۳۵
التّفسير ----- ۴۵۳۵
أحذركم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود! ----- ۴۵۳۵
ملاحظتان ----- ۴۵۳۷
أوّلا: ما هى وسيلة فناء قوم عاد؟ ----- ۴۵۳۷
ثانيا: أيام قوم عاد النحسة ----- ۴۵۳۸
الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۷ الى ۱۸] ----- ۴۵۳۸
اشارة ----- ۴۵۳۸
التّفسير ----- ۴۵۳۸

عاقبة قوم ثمود: ---- ۴۵۳۹
ملاحظة ---- ۴۵۴۰
أنواع الهداية الإلهية: ---- ۴۵۴۰
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۹ الى ۲۳] ---- ۴۵۴۰
اشارة ---- ۴۵۴۰
التّفسير ---- ۴۵۴۰
بحثان ---- ۴۵۴۲
الأوّل: حسن الظن و سوء الظن باللّه تعالى ---- ۴۵۴۲
الثّانى: الشهود فى محكمة القيامة ---- ۴۵۴۳
الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۴ الى ۲۵] ---- ۴۵۴۵
اشارة ---- ۴۵۴۵
التّفسير ---- ۴۵۴۵
قرناء السوء: ---- ۴۵۴۵
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹] ---- ۴۵۴۶
اشارة ---- ۴۵۴۶
التّفسير ---- ۴۵۴۶
الضجيج فى مقابل صوت القرآن!! ---- ۴۵۴۶
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۰ الى ۳۲] ---- ۴۵۴۸
اشارة ---- ۴۵۴۸
التّفسير ---- ۴۵۴۸
نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين: ---- ۴۵۴۸
ملاحظات ---- ۴۵۴۹
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۳ الى ۳۶] ---- ۴۵۵۱
اشارة ---- ۴۵۵۱

التّفسير ----- ۴۵۵۱
ادفع السيئة بالحسنة: ----- ۴۵۵۱
ملاحظتان ----- ۴۵۵۴
أوّلا: برنامج الدعاء إلى اللّه ----- ۴۵۵۴
ثانيا: الإنسان فى مواجهة عواصف الوسواس: ----- ۴۵۵۵
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۷ الى ۳۹] ----- ۴۵۵۶
اشارة ----- ۴۵۵۶
التّفسير ----- ۴۵۵۶
السّجدة للّه تعالى: ----- ۴۵۵۶
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۰ الى ۴۲] ----- ۴۵۵۸
اشارة ----- ۴۵۵۸
التّفسير ----- ۴۵۵۸
محرفوا آيات الحق: ----- ۴۵۵۸
سؤال: ----- ۴۵۶۰
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۳ الى ۴۶] ----- ۴۵۶۰
اشارة ----- ۴۵۶۰
التّفسير ----- ۴۵۶۱
كتاب الهداية و الشفاء: ----- ۴۵۶۱
مسائل: ----- ۴۵۶۳
أوّلا: الإختيار و العدالة ----- ۴۵۶۳
ثانيا: الذنوب و سلب النعم ----- ۴۵۶۴
ثالثا: لماذا كلّ هذا التحجج؟! ----- ۴۵۶۴
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۷ الى ۴۸] ----- ۴۵۶۴
اشارة ----- ۴۵۶۴

التّفسير ----- ۴۵۶۵
اللّه العالم بكلّ شيء: ----- ۴۵۶۵
الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۹ الى ۵۲] ----- ۴۵۶۶
اشارة ----- ۴۵۶۶
التّفسير ----- ۴۵۶۶
مسألة: ----- ۴۵۶۹
الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۵۳ الى ۵۴] ----- ۴۵۶۹
اشارة ----- ۴۵۶۹
التّفسير ----- ۴۵۶۹
علائم الحق فى العالم الكبير و الصغير: ----- ۴۵۶۹
بحوث ----- ۴۵۷۱
أوّلا: التوحيد بين دليل «النظم» و دليل «الصدّيقين» ----- ۴۵۷۱
ثانيا: حقيقة إحاطة اللّه بكل شيء ----- ۴۵۷۲
ثالثا: آيات الآفاق و الأنفس ----- ۴۵۷۲
سورة الشّورى ----- ۴۵۷۴
اشارة ----- ۴۵۷۴
نظرة عامة فى محتوى السورة: ----- ۴۵۷۴
فضيلة تلاوة السورة: ----- ۴۵۷۵
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۴۵۷۵
اشارة ----- ۴۵۷۵
التّفسير ----- ۴۵۷۵
تكاد السماوات يتفطّرن! ----- ۴۵۷۵
هل تستغفر الملائكة للجميع؟ ----- ۴۵۷۸
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۶ الى ۸] ----- ۴۵۷۹

اشارة ----- ۴۵۷۹
التّفسير ----- ۴۵۷۹
انطلاقة من «أم القرى»: ----- ۴۵۷۹
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۹ الى ۱۲] ----- ۴۵۸۲
اشارة ----- ۴۵۸۲
التّفسير ----- ۴۵۸۲
الولى المطلق: ----- ۴۵۸۲
بحوث ----- ۴۵۸۵
۱- معرفة صفات اللّه تعالى ----- ۴۵۸۵
۲- ملاحظة أدبية ----- ۴۵۸۵
۳- بعض الملاحظات حول الرزق الإلهى: ----- ۴۵۸۶
الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۳ الى ۱۴] ----- ۴۵۸۸
اشارة ----- ۴۵۸۸
التّفسير ----- ۴۵۸۸
الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء: ----- ۴۵۸۸
ملاحظات ----- ۴۵۸۹
ملاحظة ----- ۴۵۹۱
الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۱۵] ----- ۴۵۹۱
اشارة ----- ۴۵۹۱
التّفسير ----- ۴۵۹۱
فاستقم كما أمرت! ----- ۴۵۹۱
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۶ الى ۱۸] ----- ۴۵۹۲
اشارة ----- ۴۵۹۲
التّفسير ----- ۴۵۹۲

لا تستعجلوا بالساعة!! ----- ۴۵۹۳
الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰] ----- ۴۵۹۵
اشارة ----- ۴۵۹۵
التّفسير ----- ۴۵۹۵
مزرعة الدنيا و الآخرة: ----- ۴۵۹۵
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۱ الى ۲۳] ----- ۴۵۹۷
اشارة ----- ۴۵۹۷
سبب النّزول ----- ۴۵۹۷
التّفسير ----- ۴۵۹۷
أجر الرسالة فى مودة أهل البيت عليهم السّلام ----- ۴۵۹۷
توضيح ----- ۴۵۹۹
الروايات الواردة فى تفسير هذه الآية ----- ۴۶۰۰
بحوث ----- ۴۶۰۳
۱- كلام مع المفسر المعروف (الآلوسى) ----- ۴۶۰۳
اشارة ----- ۴۶۰۳
تحليل و مناقشة: ----- ۴۶۰۳
۲- سفينة النجاة ----- ۴۶۰۵
۳- تفسير «و من يقترف حسنة ...» ----- ۴۶۰۵
۴- مكان نزول هذه الآيات ----- ۴۶۰۶
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۴ الى ۲۶] ----- ۴۶۰۶
اشارة ----- ۴۶۰۶
التّفسير ----- ۴۶۰۶
يقبل التوبة عن عباده: ----- ۴۶۰۶
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۷ الى ۳۱] ----- ۴۶۰۸

اشارة ----- ۴۶۰۸
سبب النّزول ----- ۴۶۰۸
التّفسير ----- ۴۶۰۸
المترفون الباغون: ----- ۴۶۰۸
و هنا يطرح سؤالان: ----- ۴۶۰۹
النجوم السماوية الآهلة: ----- ۴۶۱۱
ملاحظات ----- ۴۶۱۲
علّة المصائب: ----- ۴۶۱۲
مسائل مهمّة ----- ۴۶۱۴
الاولى: مصائبكم بما كسبت أيديكم: ----- ۴۶۱۴
الثانية: اشتباه كبير ----- ۴۶۱۴
الثّالثة: من هم أصحاب الصفة؟ ----- ۴۶۱۵
توضيح: ----- ۴۶۱۵
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۳۲ الى ۳۶] ----- ۴۶۱۵
اشارة ----- ۴۶۱۵
التّفسير ----- ۴۶۱۶
هبوب الرياح المنتظمة و حركة السفن عليهم السّلام ----- ۴۶۱۶
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۳۷ الى ۴۰] ----- ۴۶۱۸
اشارة ----- ۴۶۱۸
التّفسير ----- ۴۶۱۸
المؤمنون لا يستسلمون للظلم: ----- ۴۶۱۸
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۱ الى ۴۳] ----- ۴۶۲۲
اشارة ----- ۴۶۲۲
التّفسير ----- ۴۶۲۲

الظلم و الإنتصار: ----- ۴۶۲۳
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۴ الى ۴۶] ----- ۴۶۲۴
اشارة ----- ۴۶۲۴
التّفسير ----- ۴۶۲۴
هل من سبيل للرجعة؟ ----- ۴۶۲۴
الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۷ الى ۵۰] ----- ۴۶۲۵
اشارة ----- ۴۶۲۵
التّفسير ----- ۴۶۲۶
الأولاد ... هبة الرحمن: ----- ۴۶۲۶
الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۵۱] ----- ۴۶۲۸
اشارة ----- ۴۶۲۸
سبب النّزول ----- ۴۶۲۸
التّفسير ----- ۴۶۲۸
طرق ارتباط الأنبياء بالخالق: ----- ۴۶۲۸
بحثان ----- ۴۶۳۰
الأوّل: الوحى فى اللغة و القرآن و السنة ----- ۴۶۳۰
الثّانى: حقيقة (الوحى) المجهولة ----- ۴۶۳۱
اشارة ----- ۴۶۳۱
۱- تفسير بعض الفلاسفة القدماء ----- ۴۶۳۱
اشارة ----- ۴۶۳۱
و توضيح ذلک: ----- ۴۶۳۱
نقد و تحليل ----- ۴۶۳۲
۲- تفسير بعض الفلاسفة الجدد ----- ۴۶۳۲
اشارة ----- ۴۶۳۲

نقد و تحليل ----- ۴۶۳۳
۳- النبوغ الفكرى ----- ۴۶۳۳
الكلام الحق فى الوحى: ----- ۴۶۳۳
منطق منكرى الوحى: ----- ۴۶۳۴
الإيراد الدائمى و الرد الدائمى: ----- ۴۶۳۴
بعض الأحاديث بخصوص قضية الوحى: ----- ۴۶۳۵
الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۵۲ الى ۵۳] ----- ۴۶۳۵
اشارة ----- ۴۶۳۵
التّفسير ----- ۴۶۳۶
القرآن روح من الخالق: ----- ۴۶۳۶
ملاحظات ----- ۴۶۳۷
۱- ماذا كان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟ ----- ۴۶۳۸
۲- الجواب على سؤال ----- ۴۶۳۸
۳- ملاحظة أدبية ----- ۴۶۳۹
الجزء السادس عشر ----- ۴۶۶۲
سورة الزّخرف ----- ۴۶۶۲
محتوى سورة الزّخرف: ----- ۴۶۶۲
فضل تلاوة السّورة ----- ۴۶۶۳
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۴۶۶۳
اشارة ----- ۴۶۶۳
التّفسير ----- ۴۶۶۳
ذنوبكم لا تمنع رحمتنا! ----- ۴۶۶۳
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۹ الى ۱۴] ----- ۴۶۶۶
اشارة ----- ۴۶۶۶

التّفسير ----- ۴۶۶۶
بعض أدلّة التوحيد: ----- ۴۶۶۶
ملاحظة ----- ۴۶۶۹
ذكر اللّه عند الانتفاع بالنعم: ----- ۴۶۶۹
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱۵ الى ۱۹] ----- ۴۶۷۰
اشارة ----- ۴۶۷۰
التّفسير ----- ۴۶۷۰
كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه؟ ----- ۴۶۷۰
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۰ الى ۲۲] ----- ۴۶۷۲
اشارة ----- ۴۶۷۲
التّفسير ----- ۴۶۷۲
لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين! ----- ۴۶۷۲
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵] ----- ۴۶۷۴
اشارة ----- ۴۶۷۴
التّفسير ----- ۴۶۷۴
عاقبة هؤلاء المقلدين: ----- ۴۶۷۴
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ----- ۴۶۷۵
اشارة ----- ۴۶۷۵
التّفسير ----- ۴۶۷۶
التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة: ----- ۴۶۷۶
الآيتان [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۴۶۷۸
اشارة ----- ۴۶۷۸
التّفسير ----- ۴۶۷۸
لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟ ----- ۴۶۷۸

سؤالين مهمّين: ---- ۴۶۷۹
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۳ الى ۳۵] ---- ۴۶۸۰
اشارة ---- ۴۶۸۰
التّفسير ---- ۴۶۸۱
قصور فخمة سقفها من فضة؟ (قيم كاذبة) ---- ۴۶۸۱
ملاحظتان ---- ۴۶۸۲
۱- الإسلام يحطم القيم الخاطئة ---- ۴۶۸۲
۲- جواب عن سؤال ---- ۴۶۸۳
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۶ الى ۴۰] ---- ۴۶۸۳
اشارة ---- ۴۶۸۳
التّفسير ---- ۴۶۸۳
أقران الشياطين! ---- ۴۶۸۳
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۱ الى ۴۵] ---- ۴۶۸۶
اشارة ---- ۴۶۸۶
التّفسير ---- ۴۶۸۶
استمسک بالذى اوحى إليک: ---- ۴۶۸۶
ملاحظة ---- ۴۶۸۸
من هم قوم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟ ---- ۴۶۸۸
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۶ الى ۵۰] ---- ۴۶۸۸
اشارة ---- ۴۶۸۸
التّفسير ---- ۴۶۸۹
الفراعنة المغرورون و نقض العهد: ---- ۴۶۸۹
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۱ الى ۵۶] ---- ۴۶۹۰
اشارة ---- ۴۶۹۰

التّفسير ---- ۴۶۹۱
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۷ الى ۶۲] ---- ۴۶۹۳
اشارة ---- ۴۶۹۳
سبب النّزول ---- ۴۶۹۴
التّفسير ---- ۴۶۹۴
أى الالهة فى جهنم؟ ---- ۴۶۹۴
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۶۳ الى ۶۵] ---- ۴۶۹۶
اشارة ---- ۴۶۹۶
التّفسير ---- ۴۶۹۷
الذين غالوا فى المسيح: ---- ۴۶۹۷
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۶۶ الى ۶۹] ---- ۴۶۹۸
اشارة ---- ۴۶۹۸
التّفسير ---- ۴۶۹۸
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۰ الى ۷۳] ---- ۴۷۰۰
اشارة ---- ۴۷۰۰
التّفسير ---- ۴۷۰۰
اشارة ---- ۴۷۰۰
سؤال: ---- ۴۷۰۱
و الجواب: ---- ۴۷۰۱
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۴ الى ۸۰] ---- ۴۷۰۲
اشارة ---- ۴۷۰۲
التّفسير ---- ۴۷۰۳
نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب: ---- ۴۷۰۳
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۸۱ الى ۸۵] ---- ۴۷۰۵

اشارة ----- ۴۷۰۵
التّفسير ----- ۴۷۰۵
ملاحظات ----- ۴۷۰۷
الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۸۶ الى ۸۹] ----- ۴۷۰۸
اشارة ----- ۴۷۰۸
التّفسير ----- ۴۷۰۸
من يملک الشفاعة؟ ----- ۴۷۰۸
سورة الدّخان ----- ۴۷۰۹
اشارة ----- ۴۷۱۰
محتوى سورة الدّخان: ----- ۴۷۱۰
و يمكن تلخيص فصول هذه السورة فى سبعة: ----- ۴۷۱۰
فضل تلاوة هذه السورة ----- ۴۷۱۰
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۴۷۱۱
اشارة ----- ۴۷۱۱
التّفسير ----- ۴۷۱۱
نزول القرآن فى الليلة المباركة: ----- ۴۷۱۱
نزول القرآن الدفعى و التدريجى: ----- ۴۷۱۲
ملاحظة ----- ۴۷۱۵
علاقة القرآن بليلة القدر: ----- ۴۷۱۵
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۹ الى ۱۶] ----- ۴۷۱۵
اشارة ----- ۴۷۱۵
التّفسير ----- ۴۷۱۵
الدّخان القاتل: ----- ۴۷۱۵
ملاحظة ----- ۴۷۱۶

ما المراد من الدخان المبين؟ ---- ۴۷۱۶
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱۷ الى ۲۱] ---- ۴۷۱۸
اشارة ---- ۴۷۱۸
التّفسير ---- ۴۷۱۸
إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرين عن الإيمان: ---- ۴۷۱۸
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۲۲ الى ۲۹] ---- ۴۷۲۰
اشارة ---- ۴۷۲۰
التّفسير ---- ۴۷۲۰
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۰ الى ۳۳] ---- ۴۷۲۳
اشارة ---- ۴۷۲۳
التّفسير ---- ۴۷۲۳
بنو إسرائيل فى بوتقة الاختبار: ---- ۴۷۲۳
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۴ الى ۳۶] ---- ۴۷۲۵
اشارة ---- ۴۷۲۵
التّفسير ---- ۴۷۲۵
لا شىء بعد الموت! ---- ۴۷۲۵
ملاحظة ---- ۴۷۲۶
عقيدة المشركين فى المعاد: ---- ۴۷۲۶
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۷ الى ۳۹] ---- ۴۷۲۷
اشارة ---- ۴۷۲۷
التّفسير ---- ۴۷۲۷
قوم تبع: ---- ۴۷۲۷
بحث ---- ۴۷۲۸
من هم قوم تبّع؟ ---- ۴۷۲۸

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۴۰ الى ۴۲] ---- ۴۷۲۹
اشارة ---- ۴۷۲۹
التّفسير ---- ۴۷۳۰
يوم الفصل! ---- ۴۷۳۰
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۴۳ الى ۵۰] ---- ۴۷۳۱
اشارة ---- ۴۷۳۱
التّفسير ---- ۴۷۳۱
شجرة الزقوم! ---- ۴۷۳۱
بحث ---- ۴۷۳۲
العقوبات الجسمية و الروحية: ---- ۴۷۳۳
الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۵۱ الى ۵۷] ---- ۴۷۳۳
اشارة ---- ۴۷۳۳
التّفسير ---- ۴۷۳۳
المتقون و مختلف نعم الجنّة: ---- ۴۷۳۳
بحث ---- ۴۷۳۵
ما هى الموتة الأولى؟ ---- ۴۷۳۵
الآيتان [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۵۸ الى ۵۹] ---- ۴۷۳۶
اشارة ---- ۴۷۳۶
التّفسير ---- ۴۷۳۶
ارتقب فإنهم مرتقبون! ---- ۴۷۳۶
ملاحظات ---- ۴۷۳۷
سورة الجاثية ---- ۴۷۳۸
اشارة ---- ۴۷۳۸
محتوى السورة: ---- ۴۷۳۸

فضل تلاوة السورة: ---- ۴۷۳۹
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱ الى ۶] ---- ۴۷۳۹
اشارة ---- ۴۷۳۹
التّفسير ---- ۴۷۳۹
آيات اللّه فى كلّ مكان: ---- ۴۷۳۹
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۷ الى ۱۰] ---- ۴۷۴۳
اشارة ---- ۴۷۴۳
التّفسير ---- ۴۷۴۳
ويل لكلّ أفاک أثيم: ---- ۴۷۴۳
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ---- ۴۷۴۵
اشارة ---- ۴۷۴۵
التّفسير ---- ۴۷۴۵
كل شيء مسخر للإنسان: ---- ۴۷۴۵
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۰] ---- ۴۷۴۸
اشارة ---- ۴۷۴۸
التّفسير ---- ۴۷۴۸
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۱ الى ۲۳] ---- ۴۷۵۱
اشارة ---- ۴۷۵۱
التّفسير ---- ۴۷۵۱
ليسوا سواء محياهم و مماتهم: ---- ۴۷۵۱
ملاحظات ---- ۴۷۵۴
۱- أخطر الأصنام صنم هوى النفس ---- ۴۷۵۴
الآيتان [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۴ الى ۲۵] ---- ۴۷۵۵
اشارة ---- ۴۷۵۵

التّفسير ----- ۴۷۵۵
عقائد الدهريين: ----- ۴۷۵۶
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۶ الى ۳۱] ----- ۴۷۵۸
اشارة ----- ۴۷۵۸
التّفسير ----- ۴۷۵۸
الكلّ جاث فى محكمة العدل الإلهى: ----- ۴۷۵۸
الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۳۲ الى ۳۷] ----- ۴۷۶۱
اشارة ----- ۴۷۶۱
التّفسير ----- ۴۷۶۱
يوم تبدو السيئات: ----- ۴۷۶۱
سورة الأحقاف ----- ۴۷۶۳
اشارة ----- ۴۷۶۳
محتوى السورة: ----- ۴۷۶۴
فضل هذه السورة: ----- ۴۷۶۴
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۴۷۶۵
اشارة ----- ۴۷۶۵
التّفسير ----- ۴۷۶۵
خلق هذا العالم على أساس الحق: ----- ۴۷۶۵
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۴۷۶۶
اشارة ----- ۴۷۶۶
التّفسير ----- ۴۷۶۶
أضل الناس: ----- ۴۷۶۶
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۴۷۶۸
اشارة ----- ۴۷۶۸

التّفسير ----- ۴۷۶۸
لم أكن أوّل نبيّ!! ----- ۴۷۶۸
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ----- ۴۷۷۱
اشارة ----- ۴۷۷۱
سبب النّزول ----- ۴۷۷۱
التّفسير ----- ۴۷۷۲
شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامة: ----- ۴۷۷۲
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۵ الى ۱۶] ----- ۴۷۷۴
اشارة ----- ۴۷۷۴
التّفسير ----- ۴۷۷۴
أيّها الإنسان أحسن إلى والديک: ----- ۴۷۷۴
ملاحظات ----- ۴۷۷۷
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۷ الى ۱۹] ----- ۴۷۷۸
اشارة ----- ۴۷۷۸
التّفسير ----- ۴۷۷۹
مضيّعو حقوق الوالدين: ----- ۴۷۷۹
ملاحظة كيف حرّفت هذه الآية من قبل بنى أمية؟ ----- ۴۷۸۰
الآية [سورة الأحقاف (۴۶): آية ۲۰] ----- ۴۷۸۰
اشارة ----- ۴۷۸۰
التّفسير ----- ۴۷۸۱
الزهد و الادخار للآخرة: ----- ۴۷۸۱
بحوث ----- ۴۷۸۱
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۵] ----- ۴۷۸۳
اشارة ----- ۴۷۸۳

التّفسير ----- ۴۷۸۳
قوم عاد و الريح المدمرة: ----- ۴۷۸۳
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ----- ۴۷۸۵
اشارة ----- ۴۷۸۶
التّفسير ----- ۴۷۸۶
لستم بأقوى من قوم عاد أبدا: ----- ۴۷۸۶
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲] ----- ۴۷۸۷
اشارة ----- ۴۷۸۷
سبب النّزول ----- ۴۷۸۷
التّفسير ----- ۴۷۸۸
إيمان طائفة من الجن: ----- ۴۷۸۸
بحثان ----- ۴۷۹۰
۱- الإعلام المؤثر ----- ۴۷۹۰
۲- أفضل دليل على عظمة القرآن محتواه ----- ۴۷۹۱
الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۳۳ الى ۳۵] ----- ۴۷۹۱
اشارة ----- ۴۷۹۱
التّفسير ----- ۴۷۹۱
فاصبر كما صبر أولوا العزم: ----- ۴۷۹۱
من هم أولو العزم من الرسل؟ ----- ۴۷۹۲
ملاحظة كان نبيّ الإسلام مثال الصبر و الاستقامة: ----- ۴۷۹۴
سورة محمّد ----- ۴۷۹۵
اشارة ----- ۴۷۹۵
محتوى السورة: ----- ۴۷۹۵
فضل تلاوة السورة: ----- ۴۷۹۶

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱ الى ۳] ---- ۴۷۹۷
اشارة ---- ۴۷۹۷
التّفسير ---- ۴۷۹۷
المؤمنون أنصار الحق، و الكافرون أنصار الباطل: ---- ۴۷۹۷
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۴ الى ۶] ---- ۴۷۹۹
اشارة ---- ۴۷۹۹
التّفسير ---- ۴۷۹۹
يجب الحزم فى ساحة الحرب: ---- ۴۷۹۹
بحوث ---- ۴۸۰۲
۱- مقام الشهداء السامى ---- ۴۸۰۲
۲- أهداف القتال فى الإسلام ---- ۴۸۰۴
۳- أحكام أسرى الحرب ---- ۴۸۰۵
۴- الرق فى الإسلام ---- ۴۸۰۶
اشارة ---- ۴۸۰۶
الجواب: ---- ۴۸۰۶
۳- مصير الرقيق المؤلم فى الماضى ---- ۴۸۰۷
۴- خطة الإسلام لتحرير العبيد ---- ۴۸۰۷
اشارة ---- ۴۸۰۷
المادة الأولى: غلق مصادر الرق ---- ۴۸۰۸
المادة الثانية: فتح نافذة الحرية ---- ۴۸۰۸
المادة الثالثة: إحياء شخصية الرقيق ---- ۴۸۰۹
المادة الرابعة: المعاملة الإنسانية مع العبيد ---- ۴۸۱۰
المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان ---- ۴۸۱۰
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۷ الى ۱۱] ---- ۴۸۱۱

اشارة ----- ۴۸۱۱
التّفسير ----- ۴۸۱۱
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴] ----- ۴۸۱۴
اشارة ----- ۴۸۱۴
التّفسير ----- ۴۸۱۴
عاقبة المؤمنين و الكافرين: ----- ۴۸۱۴
الآية [سورة محمد (۴۷): آية ۱۵] ----- ۴۸۱۶
اشارة ----- ۴۸۱۶
التّفسير ----- ۴۸۱۶
وصف آخر للجنّة: ----- ۴۸۱۶
ملاحظات ----- ۴۸۱۷
۱- أنهار الجنّة الأربعة ----- ۴۸۱۷
۲- الشراب الطهور ----- ۴۸۱۸
۳- أشربة لا يعتريها الفساد ----- ۴۸۱۸
۴- لماذا الفواكه؟ ----- ۴۸۱۸
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الى ۱۹] ----- ۴۸۱۸
اشارة ----- ۴۸۱۸
التّفسير ----- ۴۸۱۹
ظهرت علامات القيامة! ----- ۴۸۱۹
بحث ----- ۴۸۲۲
ما هى أشراط الساعة؟ ----- ۴۸۲۲
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۰ الى ۲۴] ----- ۴۸۲۴
اشارة ----- ۴۸۲۴
التّفسير ----- ۴۸۲۴

يخافون حتى من اسم الجهاد! ---- ۴۸۲۴
بحث ---- ۴۸۲۷
القرآن كتاب فكر و عمل: ---- ۴۸۲۷
حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: ---- ۴۸۲۸
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۵ الى ۲۸] ---- ۴۸۲۸
اشارة ---- ۴۸۲۸
التّفسير ---- ۴۸۲۸
أ فلا يتدبّرون القرآن: ---- ۴۸۲۸
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۹ الى ۳۱] ---- ۴۸۳۰
اشارة ---- ۴۸۳۰
التّفسير ---- ۴۸۳۰
يعرف المنافقون من لحن قولهم: ---- ۴۸۳۰
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۴] ---- ۴۸۳۲
اشارة ---- ۴۸۳۲
التّفسير ---- ۴۸۳۲
الذين يموتون على الكفر لن يغفر اللّه لهم: ---- ۴۸۳۲
بحث ---- ۴۸۳۳
عوامل إحباط ثواب العمل: ---- ۴۸۳۳
الآية [سورة محمد (۴۷): آية ۳۵] ---- ۴۸۳۴
اشارة ---- ۴۸۳۴
التّفسير ---- ۴۸۳۴
الصلح المذل!! ---- ۴۸۳۴
الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۶ الى ۳۸] ---- ۴۸۳۵
اشارة ---- ۴۸۳۵

التّفسير ----- ۴۸۳۶
إن تتولّوا سيمنح اللّه الرسالة قوما آخرين: ----- ۴۸۳۶
سورة الفتح ----- ۴۸۳۸
اشارة ----- ۴۸۳۸
محتوى السورة ----- ۴۸۳۸
فضيلة تلاوة سورة الفتح: ----- ۴۸۳۹
الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۱] ----- ۴۸۴۰
اشارة ----- ۴۸۴۰
التّفسير ----- ۴۸۴۰
الفتح المبين: ----- ۴۸۴۰
قصّة «صلح الحديبية»: ----- ۴۸۴۱
الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲ الى ۳] ----- ۴۸۴۴
اشارة ----- ۴۸۴۴
التّفسير ----- ۴۸۴۴
نتائج الفتح المبين الكبرى: ----- ۴۸۴۴
بحثان ----- ۴۸۴۵
۱- الإجابة على بعض الأسئلة المهمة: ----- ۴۸۴۵
۲- المراد من «ما تقدّم» و «ما تأخّر» .. ----- ۴۸۴۶
الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۴] ----- ۴۸۴۷
اشارة ----- ۴۸۴۷
التّفسير ----- ۴۸۴۷
نزول السكينة على قلوب المؤمنين: ----- ۴۸۴۷
ماذا كانت هذه السكينة؟! ----- ۴۸۴۷
ملاحظات ----- ۴۸۴۸

۱- السكينة التى لا نظير لها! ---- ۴۸۴۹
۲- سلسلة مراتب الإيمان: ---- ۴۸۴۹
۳- ركنى السكينة: ---- ۴۸۵۰
الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۵ الى ۷] ---- ۴۸۵۰
اشارة ---- ۴۸۵۰
التّفسير ---- ۴۸۵۰
نتيجة أخرى من الفتح المبين: ---- ۴۸۵۰
ما المراد من «جنود السماوات و الأرض»؟! ---- ۴۸۵۲
من هم الظانّون باللّه ظنّ السوء؟! ---- ۴۸۵۲
الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۸ الى ۱۰] ---- ۴۸۵۳
اشارة ---- ۴۸۵۳
التّفسير ---- ۴۸۵۳
مكانة النّبى و واجب الناس تجاهه! ---- ۴۸۵۳
الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ---- ۴۸۵۵
اشارة ---- ۴۸۵۵
التّفسير ---- ۴۸۵۶
اعتذار المخلفين: ---- ۴۸۵۶
ملاحظة ---- ۴۸۵۷
تعليل الذنب و توجيهه مرض عام: ---- ۴۸۵۸
الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۵ الى ۱۷] ---- ۴۸۵۹
اشارة ---- ۴۸۵۹
التّفسير ---- ۴۸۵۹
المخلّفون الانتهازيّون: ---- ۴۸۵۹
الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۸ الى ۱۹] ---- ۴۸۶۲

اشارة ---- ۴۸۶۲
التّفسير ---- ۴۸۶۲
رضى اللّه عن المشتركين فى بيعة الرضوان: ---- ۴۸۶۲
بحث ---- ۴۸۶۳
البيعة و خصوصيّاتها! ---- ۴۸۶۳
الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۰ الى ۲۱] ---- ۴۸۶۷
اشارة ---- ۴۸۶۷
التّفسير ---- ۴۸۶۷
من بركات صلح الحديبيّة مرّة أخرى! ---- ۴۸۶۷
ملاحظة ---- ۴۸۶۸
قصة غزوة خيبر: ---- ۴۸۶۸
الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۲ الى ۲۵] ---- ۴۸۷۰
اشارة ---- ۴۸۷۰
التّفسير ---- ۴۸۷۰
لو حدثت الحرب فى الحديبيّة!؟ ---- ۴۸۷۰
الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۲۶] ---- ۴۸۷۲
اشارة ---- ۴۸۷۲
التّفسير ---- ۴۸۷۳
التعصّب «و حمية الجاهلية» أكبر سدّ فى طريق الكفّار: ---- ۴۸۷۳
ملاحظة ---- ۴۸۷۴
ما هى حميّة الجاهلية؟! ---- ۴۸۷۴
الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۲۷] ---- ۴۸۷۵
اشارة ---- ۴۸۷۵
التّفسير ---- ۴۸۷۵

رؤيا النّبى الصادقة: ---- ۴۸۷۵
ملاحظات ---- ۴۸۷۶
اشارة ---- ۴۸۷۶
عمرة القضاء: ---- ۴۸۷۷
الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۸ الى ۲۹] ---- ۴۸۷۸
اشارة ---- ۴۸۷۸
التّفسير ---- ۴۸۷۸
بحثان ---- ۴۸۸۲
۱- قصة تنزيه الصحابة! ---- ۴۸۸۲
۲- المحبّة الإسلامية المتبادلة ---- ۴۸۸۴
سورة الحجرات ---- ۴۸۸۴
اشارة ---- ۴۸۸۴
محتوى السورة: ---- ۴۸۸۵
فضيلة تلاوة هذه السورة! ---- ۴۸۸۵
الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۵] ---- ۴۸۸۶
اشارة ---- ۴۸۸۶
سبب النّزول ---- ۴۸۸۶
التّفسير ---- ۴۸۸۷
آداب الحضور عند النبى: ---- ۴۸۸۷
بحوث ---- ۴۸۸۹
۱- الأدب أغلى القيم ---- ۴۸۸۹
۲- رفع الصوت عند قبر الرسول ---- ۴۸۹۱
۳- الانضباط الإسلامى فى كلّ شىء و فى كلّ مكان! ---- ۴۸۹۱
الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۶ الى ۸] ---- ۴۸۹۳

اشارة ----- ۴۸۹۳
سبب النّزول ----- ۴۸۹۳
التّفسير ----- ۴۸۹۴
لا تكترث بأخبار الفاسقين: ----- ۴۸۹۴
ملاحظات ----- ۴۸۹۷
۱- هداية اللّه و حريّة الإرادة ----- ۴۸۹۷
۲- القيادة و الطاعة ----- ۴۸۹۷
۳- الإيمان نوع من العشق لا إدراک العقل فحسب ... ----- ۴۸۹۸
الآيتان [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۹ الى ۱۰] ----- ۴۸۹۸
اشارة ----- ۴۸۹۸
سبب النّزول ----- ۴۸۹۸
التّفسير ----- ۴۸۹۹
المؤمنون أخوة: ----- ۴۸۹۹
بحثان ----- ۴۹۰۰
الأوّل: شروط قتال أهل البغى «البغاة» ----- ۴۹۰۰
الثّانى: أهميّة الأخوة الإسلامية ----- ۴۹۰۱
الآيتان [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۱ الى ۱۲] ----- ۴۹۰۲
اشارة ----- ۴۹۰۲
سبب النّزول ----- ۴۹۰۳
التّفسير ----- ۴۹۰۳
الاستهزاء و سوء الظنّ و الغيبة و التجسّس و الألقاب السيئة حرام! ----- ۴۹۰۳
بحوث ----- ۴۹۰۶
۱- الأمن الاجتماعى الكامل ----- ۴۹۰۶
۲- لا تجسّسوا! ----- ۴۹۰۷

۳- الغيبة من أعظم الذنوب و أكبرها! ۴۹۰۸
۴- مفهوم الاغتياب؟ ۴۹۰۹
۵- علاج الغيبة و التوبة منها! ۴۹۱۰
الآية [سورة الحجرات (۴۹): آية ۱۳] ۴۹۱۰
اشارة ۴۹۱۰
التّفسير ۴۹۱۰
بحثان ۴۹۱۱
۱- القيم الحقّة و القيم الباطلة ۴۹۱۱
۲- حقيقة التقوى ۴۹۱۳
الآيتان [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۴ الى ۱۵] ۴۹۱۵
اشارة ۴۹۱۵
سبب النّزول ۴۹۱۵
التّفسير ۴۹۱۵
الفرق بين الإسلام و الإيمان: ۴۹۱۶
الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۶ الى ۱۸] ۴۹۱۷
اشارة ۴۹۱۷
سبب النزول ۴۹۱۷
اشارة ۴۹۱۷
التّفسير ۴۹۱۸
الجزء السابع عشر ۴۹۴۳
سورة ق ۴۹۴۳
اشارة ۴۹۴۳
محتوى السورة: ۴۹۴۳
فضيلة تلاوة سورة «ق»: ۴۹۴۴

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱ الى ۵] ۴۹۴۴
اشارة ۴۹۴۴
التّفسير ۴۹۴۴
المنكرون المعاندون فى أمر مريج! ۴۹۴۴
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۶ الى ۱۱] ۴۹۴۷
اشارة ۴۹۴۷
التّفسير ۴۹۴۷
انظروا إلى السماء لحظة! ۴۹۴۷
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۲ الى ۱۵] ۴۹۴۸
اشارة ۴۹۴۸
التّفسير ۴۹۴۸
لست وحدک المبتلى بالعدو ۴۹۴۸
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۶ الى ۱۸] ۴۹۵۰
اشارة ۴۹۵۰
التّفسير ۴۹۵۰
كتابه جميع الأقوال: ۴۹۵۰
ملاحظة ۴۹۵۳
الحبيب أقرب إلى الإنسان من نفسه!! ۴۹۵۳
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۹ الى ۲۲] ۴۹۵۳
اشارة ۴۹۵۳
التّفسير ۴۹۵۴
القيامة- و البصر الحديد- ۴۹۵۴
بحوث ۴۹۵۶
۱- حقيقة الموت ۴۹۵۶

۲- سكرات الموت ----- ۴۹۵۷
۳- الموت حقّ ----- ۴۹۵۸
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۲۳ الى ۳۰] ----- ۴۹۵۸
اشارة ----- ۴۹۵۸
التّفسير ----- ۴۹۵۸
قرناء الإنسان من الملائكة و الشياطين: ----- ۴۹۵۸
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۳۱ الى ۳۷] ----- ۴۹۶۲
اشارة ----- ۴۹۶۲
التّفسير ----- ۴۹۶۲
ادخلوا الجنّة .. أيّها المتّقون! ----- ۴۹۶۲
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۴۹۶۵
اشارة ----- ۴۹۶۵
التّفسير ----- ۴۹۶۵
خالق السموات و الأرض قادر على إحياء الموتى: ----- ۴۹۶۵
ملاحظة ----- ۴۹۶۷
الصبر مفتاح لكلّ فلاح: ----- ۴۹۶۷
الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۴۱ الى ۴۵] ----- ۴۹۶۸
اشارة ----- ۴۹۶۸
التّفسير ----- ۴۹۶۸
يخرج الجميع أحياء عند صيحة القيامة: ----- ۴۹۶۸
سورة الذّاريات ----- ۴۹۷۰
اشارة ----- ۴۹۷۰
محتوى السورة: ----- ۴۹۷۰
فضيلة تلاوة هذه السورة: ----- ۴۹۷۱

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱ الى ۶] ---- ۴۹۷۱
اشارة ---- ۴۹۷۱
التّفسير ---- ۴۹۷۱
قسما بالأعاصير و السحب الذاريات: ---- ۴۹۷۱
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۷ الى ۱۴] ---- ۴۹۷۳
اشارة ---- ۴۹۷۳
التّفسير ---- ۴۹۷۳
و السّماء ذات الحبک: ---- ۴۹۷۳
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱۵ الى ۱۹] ---- ۴۹۷۵
اشارة ---- ۴۹۷۶
التّفسير ---- ۴۹۷۶
ثواب المستغفرين بالأسحار ---- ۴۹۷۶
بحوث ---- ۴۹۷۸
۱- التوجّه نحو اللّه و خلق اللّه ---- ۴۹۷۸
۲- السهر ديدن العشّاق ---- ۴۹۷۸
۳- حقّ السائل و المحروم! ---- ۴۹۷۹
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۲۰ الى ۲۳] ---- ۴۹۷۹
اشارة ---- ۴۹۷۹
التّفسير ---- ۴۹۷۹
آيات اللّه و آثاره فى أنفسكم: ---- ۴۹۷۹
بحوث ---- ۴۹۸۲
۱- قصّة الأصمعى المثيرة ---- ۴۹۸۲
۲- أين الجنّة؟! ---- ۴۹۸۳
۳- الاستفادة من آيات اللّه تحتاج إلى قابلية! ---- ۴۹۸۳

۴- الرزق حقّ ----- ۴۹۸۴
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۲۴ الى ۳۰] ----- ۴۹۸۴
اشارة ----- ۴۹۸۴
التّفسير ----- ۴۹۸۴
ضيوف إبراهيم عليه السّلام ----- ۴۹۸۵
ملاحظة ----- ۴۹۸۷
كرم الأنبياء: ----- ۴۹۸۷
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۱ الى ۳۷] ----- ۴۹۸۷
اشارة ----- ۴۹۸۷
التّفسير ----- ۴۹۸۸
مدن قوم لوط المدمرة آية و عبرة: ----- ۴۹۸۸
بحث ----- ۴۹۸۹
أين تقع مدن قوم لوط؟ ----- ۴۹۸۹
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۸ الى ۴۶] ----- ۴۹۹۰
اشارة ----- ۴۹۹۰
التّفسير ----- ۴۹۹۰
دروس العبرة من الأقوام السالفة: ----- ۴۹۹۰
تعقيب ----- ۴۹۹۳
۱- أوجه عذاب اللّه! ----- ۴۹۹۳
۲- الرياح اللواقح و الرياح العقيم! ----- ۴۹۹۳
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۴۷ الى ۵۱] ----- ۴۹۹۳
اشارة ----- ۴۹۹۳
التّفسير ----- ۴۹۹۳
و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون: ----- ۴۹۹۴

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۲ الى ۵۵] ---- ۴۹۹۶
اشارة ---- ۴۹۹۶
التّفسير ---- ۴۹۹۶
إنّ الذكرى تنفع المؤمنين: ---- ۴۹۹۶
ملاحظة ---- ۴۹۹۷
لا بدّ من قلوب مهيّأة .. لقبول الحقّ: ---- ۴۹۹۸
الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۶ الى ۵۸] ---- ۴۹۹۸
اشارة ---- ۴۹۹۸
التّفسير ---- ۴۹۹۸
هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن: ---- ۴۹۹۸
توضيح ذلک: ---- ۴۹۹۹
بحوث ---- ۵۰۰۰
۱- اللّه غنى على الإطلاق ---- ۵۰۰۰
۲- اللّه ذو القوّة المتين ---- ۵۰۰۰
۳- لم قدّم ذكر الجنّ ---- ۵۰۰۰
۴- الحكمة من الخلق فى نظر الفلسفة ---- ۵۰۰۱
۵- الرّوايات الإسلامية و فلسفة خلق الإنسان ---- ۵۰۰۳
۶- الإجابة على سؤال ---- ۵۰۰۴
الآيتان [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۹ الى ۶۰] ---- ۵۰۰۴
اشارة ---- ۵۰۰۴
التّفسير ---- ۵۰۰۴
هؤلاء يشاركون أصحابهم فى عذاب اللّه: ---- ۵۰۰۵
سورة الطّور ---- ۵۰۰۶
اشارة ---- ۵۰۰۶

محتوى السورة: ----- ۵۰۰۶
فضيلة تلاوة هذه السورة: ----- ۵۰۰۷
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۰۰۷
اشارة ----- ۵۰۰۷
التّفسير ----- ۵۰۰۷
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۹ الى ۱۶] ----- ۵۰۱۰
اشارة ----- ۵۰۱۰
التّفسير ----- ۵۰۱۰
تعقيب ----- ۵۰۱۱
۱- كيف يساق المجرمون إلى جهنّم؟ ----- ۵۰۱۱
۲- الخائضون فى الأباطيل! ----- ۵۰۱۲
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۱۷ الى ۲۱] ----- ۵۰۱۲
اشارة ----- ۵۰۱۲
التّفسير ----- ۵۰۱۲
مواهب اللّه للمتّقين: ----- ۵۰۱۲
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۲ الى ۲۸] ----- ۵۰۱۴
اشارة ----- ۵۰۱۴
التّفسير ----- ۵۰۱۵
مواهب اخرى لأهل الجنّة: ----- ۵۰۱۵
ملاحظات ----- ۵۰۱۶
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۹ الى ۳۴] ----- ۵۰۱۷
اشارة ----- ۵۰۱۷
سبب النّزول ----- ۵۰۱۷
التّفسير ----- ۵۰۱۸

أمنيات المشركين و تحدّى القرآن ----- ۵۰۱۸
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۳۵ الى ۴۳] ----- ۵۰۲۱
اشارة ----- ۵۰۲۱
التّفسير ----- ۵۰۲۱
ما هو كلامكم الحقّ؟ ----- ۵۰۲۱
الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۴۴ الى ۴۹] ----- ۵۰۲۴
اشارة ----- ۵۰۲۴
التّفسير ----- ۵۰۲۴
إنّک بأعيننا! ----- ۵۰۲۴
سورة النّجم ----- ۵۰۲۷
اشارة ----- ۵۰۲۷
محتوى السّورة: ----- ۵۰۲۷
فضيلة تلاوة هذه السورة: ----- ۵۰۲۸
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۰۲۸
اشارة ----- ۵۰۲۸
التّفسير ----- ۵۰۲۸
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵ الى ۱۲] ----- ۵۰۳۰
اشارة ----- ۵۰۳۰
التّفسير ----- ۵۰۳۰
أوّل لقاء مع الحبيب: ----- ۵۰۳۰
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۱۳ الى ۱۸] ----- ۵۰۳۴
اشارة ----- ۵۰۳۴
التّفسير ----- ۵۰۳۴
الرّؤية الثّانية: ----- ۵۰۳۴

بحوث ----- ۵۰۳۶
۱- المعراج حقيقة مقطوع بها ----- ۵۰۳۶
۲- ما هو الهدف من المعراج؟ ----- ۵۰۳۶
۳- المعراج و الجنّة ----- ۵۰۳۷
۴- المعراج فی الرّوايات الإسلامية: ----- ۵۰۳۷
۵- جانب من إيحاءات اللّه و كلماته لرسوله فی ليلة المعراج: ----- ۵۰۳۸
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۱۹ الی ۲۳] ----- ۵۰۴۰
اشارة ----- ۵۰۴۰
التّفسير ----- ۵۰۴۰
هذه الأصنام وليدة أهوائكم: ----- ۵۰۴۰
بحوث ----- ۵۰۴۱
۱- أصنام العرب الثلاثة المشهورة ----- ۵۰۴۱
۲- أسماء دون مسمّيات ----- ۵۰۴۲
۳- الدافع النفسی لعبادة الأصنام ----- ۵۰۴۲
۴- اسطورة الغرانيق مرّة اخری: ----- ۵۰۴۳
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۴ الی ۲۶] ----- ۵۰۴۴
اشارة ----- ۵۰۴۴
التّفسير ----- ۵۰۴۴
الشفاعة أيضا بإذنه: ----- ۵۰۴۴
تعقيب ----- ۵۰۴۵
۱- سعة الأمانی: ----- ۵۰۴۵
۲- كلام فی شأن الشفاعة ----- ۵۰۴۵
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۷ الی ۳۰] ----- ۵۰۴۶
اشارة ----- ۵۰۴۶

التّفسير ----- ۵۰۴۶
إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا: ----- ۵۰۴۶
ملاحظة ----- ۵۰۴۸
رأس مال عبدة الدنيا: ----- ۵۰۴۸
الآيتان [سورة النجم (۵۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲] ----- ۵۰۴۸
اشارة ----- ۵۰۴۸
التّفسير ----- ۵۰۴۸
لا تزكّوا أنفسكم: ----- ۵۰۴۸
بحوث ----- ۵۰۵۰
۱- علم اللّه المطلق ----- ۵۰۵۰
۲- ما هى كبائر الإثم ----- ۵۰۵۰
۳- تزكية النفس: ----- ۵۰۵۱
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۳۳ الى ۴۱] ----- ۵۰۵۲
اشارة ----- ۵۰۵۲
سبب النّزول ----- ۵۰۵۲
التّفسير ----- ۵۰۵۲
كلّ يتحمّل مسئولية أعماله: ----- ۵۰۵۲
بحوث ----- ۵۰۵۳
۱- ثلاثة اصول إسلامية مهمّة ----- ۵۰۵۴
۲- سوء الاستفادة من مفاد الآية: ----- ۵۰۵۴
۳- الجواب على سؤالين ----- ۵۰۵۵
۴- صحف إبراهيم و موسى ----- ۵۰۵۵
۵- المسؤولية عن الأعمال فى كتب السابقين ----- ۵۰۵۶
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۴۲ الى ۴۹] ----- ۵۰۵۶

اشارة ----- ۵۰۵۶
التّفسير ----- ۵۰۵۶
كلّ شيء ينتهى إليه: ----- ۵۰۵۶
بحوث ----- ۵۰۵۸
۱- كلّ الدلائل تشير إليه ----- ۵۰۵۸
۲- عجائب نجم الشعرى: ----- ۵۰۵۸
۳- حديث عميق المحتوى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ----- ۵۰۵۹
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵۰ الى ۵۵] ----- ۵۰۶۰
اشارة ----- ۵۰۶۰
التّفسير ----- ۵۰۶۰
ألا تكفى دروس العبرة هذه؟! ----- ۵۰۶۰
الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵۶ الى ۶۲] ----- ۵۰۶۱
اشارة ----- ۵۰۶۱
التّفسير ----- ۵۰۶۲
اسجدوا له جميعا .. ----- ۵۰۶۲
سورة القمر ----- ۵۰۶۴
اشارة ----- ۵۰۶۴
محتوى السورة: ----- ۵۰۶۴
فضيلة تلاوة سورة القمر: ----- ۵۰۶۴
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۰۶۵
اشارة ----- ۵۰۶۵
التّفسير ----- ۵۰۶۵
شقّ القمر!! ----- ۵۰۶۵
بحوث ----- ۵۰۶۷

[۱- شقّ القمر معجزة كبيرة] ----- ۵۰۶۷
۲- مسألة شقّ القمر و العلم الحديث: ----- ۵۰۶۸
اشارة ----- ۵۰۶۸
أ- ظهور المنظومة الشمسية: ----- ۵۰۶۸
ب- (الأستروئيدات): ----- ۵۰۶۹
ج- الشهب: ----- ۵۰۶۹
۳- شقّ القمر تاريخيّا: ----- ۵۰۷۰
۴- تأريخ وقوع هذه المعجزة: ----- ۵۰۷۱
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴ الى ۸] ----- ۵۰۷۱
اشارة ----- ۵۰۷۱
التّفسير ----- ۵۰۷۱
يوم البعث و النشور: ----- ۵۰۷۱
مسألة ----- ۵۰۷۳
لماذا كان يوم القيامة يوما عسيرا؟: ----- ۵۰۷۳
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۹ الى ۱۷] ----- ۵۰۷۴
اشارة ----- ۵۰۷۴
التّفسير ----- ۵۰۷۴
قصّة قوم نوح عبرة و عظة: ----- ۵۰۷۴
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۱۸ الى ۲۲] ----- ۵۰۷۷
اشارة ----- ۵۰۷۷
التّفسير ----- ۵۰۷۷
مصير قوم عاد: ----- ۵۰۷۷
بحث ----- ۵۰۷۸
سعد الأيّام و نحسها: ----- ۵۰۷۸

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۲۳ الى ۳۲] ----- ۵۰۸۱
اشارة ----- ۵۰۸۱
التّفسير ----- ۵۰۸۱
العاقبة الأليمة لقوم ثمود: ----- ۵۰۸۱
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۳۳ الى ۴۰] ----- ۵۰۸۵
اشارة ----- ۵۰۸۵
التّفسير ----- ۵۰۸۵
المصير الأكثر شؤما: ----- ۵۰۸۵
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۱ الى ۴۶] ----- ۵۰۸۸
اشارة ----- ۵۰۸۸
التّفسير ----- ۵۰۸۸
هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة؟! ----- ۵۰۸۸
ملاحظة ----- ۵۰۹۰
تنبّؤ إعجازى صريح: ----- ۵۰۹۰
الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۷ الى ۵۵] ----- ۵۰۹۰
اشارة ----- ۵۰۹۰
التّفسير ----- ۵۰۹۱
المؤمنون فى ضيافة اللّه: ----- ۵۰۹۱
بحوث ----- ۵۰۹۳
۱- التّقدير و الحساب فى كلّ شىء ----- ۵۰۹۳
۲- التقدير الإلهى و إرادة الإنسان ----- ۵۰۹۴
۳- الأمر الإلهى كلمة واحدة ----- ۵۰۹۵
۴- بداية و نهاية سورة القمر ----- ۵۰۹۶
سورة الرّحمن ----- ۵۰۹۷

اشارة ----- ۵۰۹۷
محتوى السورة: ----- ۵۰۹۷
فضيلة تلاوة سورة الرحمن: ----- ۵۰۹۸
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۰۹۸
اشارة ----- ۵۰۹۸
التّفسير ----- ۵۰۹۸
بداية النعم الإلهية: ----- ۵۰۹۸
ملاحظة ----- ۵۱۰۲
تأمّلات فى الرّوايات ----- ۵۱۰۲
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۷ الى ۱۳] ----- ۵۱۰۳
اشارة ----- ۵۱۰۳
التّفسير ----- ۵۱۰۳
السماء رفعها و وضع الميزان: ----- ۵۱۰۳
تعقيب ----- ۵۱۰۶
۱- معرفة النعم طريق لمعرفة اللّه: ----- ۵۱۰۶
۲- مسألة النظم و الحساب فى الحياة: ----- ۵۱۰۷
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۴ الى ۱۸] ----- ۵۱۰۷
اشارة ----- ۵۱۰۷
التّفسير ----- ۵۱۰۸
الصلصال و خلق، الإنسان: ----- ۵۱۰۸
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۹ الى ۲۵] ----- ۵۱۰۹
اشارة ----- ۵۱۰۹
التّفسير ----- ۵۱۱۰
البحار و ذخائرها الثمينة: ----- ۵۱۱۰

بحوث ----- ۵۱۱۲
۱- البحر مركز النعم الإلهيّة ----- ۵۱۱۲
۲- الأنهار البحرية العظيمة و الكلف استيرين ----- ۵۱۱۳
۳- تفسير من أعماق الآيات ----- ۵۱۱۴
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ----- ۵۱۱۴
اشارة ----- ۵۱۱۴
التّفسير ----- ۵۱۱۴
كلّ شيء هالک إلّا وجهه: ----- ۵۱۱۴
بحوث ----- ۵۱۱۷
۱- ما هى حقيقة الفناء؟ ----- ۵۱۱۷
۲- استمرار الخلق و الإبداع ----- ۵۱۱۷
۳- الحركة الجوهرية ----- ۵۱۱۸
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۳۱ الى ۳۶] ----- ۵۱۱۸
اشارة ----- ۵۱۱۸
التّفسير ----- ۵۱۱۹
التحدّى المشروط: ----- ۵۱۱۹
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۳۷ الى ۴۵] ----- ۵۱۲۱
اشارة ----- ۵۱۲۱
التّفسير ----- ۵۱۲۱
يعرف المجرمون بسيماهم: ----- ۵۱۲۱
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۵۵] ----- ۵۱۲۳
اشارة ----- ۵۱۲۳
التّفسير ----- ۵۱۲۳
الجنّتان اللتان أعدتا للخائفين: ----- ۵۱۲۴

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۵۶ الى ۶۱] ----- ۵۱۲۶
اشارة ----- ۵۱۲۶
التّفسير ----- ۵۱۲۶
الجنّة و الزوجات الحسان: ----- ۵۱۲۶
بحث ----- ۵۱۲۸
جزاء الإحسان: ----- ۵۱۲۸
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۶۲ الى ۶۹] ----- ۵۱۲۸
اشارة ----- ۵۱۲۸
التّفسير ----- ۵۱۲۸
جنّتان بأوصاف عجيبة: ----- ۵۱۲۸
بحث ----- ۵۱۲۹
قيمة الفاكهة: ----- ۵۱۳۰
الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۷۰ الى ۷۸] ----- ۵۱۳۰
اشارة ----- ۵۱۳۱
التّفسير ----- ۵۱۳۱
زوجات الجنّة .. مرّة اخرى: ----- ۵۱۳۱
ملاحظات ----- ۵۱۳۳
سورة الواقعة ----- ۵۱۳۴
اشارة ----- ۵۱۳۴
محتوى السورة: ----- ۵۱۳۴
فضيلة تلاوة هذه السورة: ----- ۵۱۳۵
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱ الى ۱۴] ----- ۵۱۳۵
اشارة ----- ۵۱۳۵
التّفسير ----- ۵۱۳۶

الواقعة العظيمة: ----- ۵۱۳۶
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱۵ الى ۲۶] ----- ۵۱۳۹
اشارة ----- ۵۱۳۹
التّفسير ----- ۵۱۴۰
الجنّة بانتظار المقرّبين: ----- ۵۱۴۰
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۴۰] ----- ۵۱۴۲
اشارة ----- ۵۱۴۲
التّفسير ----- ۵۱۴۲
أصحاب اليمين و هباتهم: ----- ۵۱۴۲
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۴۱ الى ۵۰] ----- ۵۱۴۵
اشارة ----- ۵۱۴۵
التّفسير ----- ۵۱۴۵
العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال: ----- ۵۱۴۵
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۱ الى ۵۶] ----- ۵۱۴۷
اشارة ----- ۵۱۴۷
التّفسير ----- ۵۱۴۸
عقوبات جديدة للمجرمين: ----- ۵۱۴۸
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۷ الى ۶۲] ----- ۵۱۴۹
اشارة ----- ۵۱۴۹
التّفسير ----- ۵۱۴۹
سبعة أدلّة على المعاد: ----- ۵۱۴۹
ملاحظة ----- ۵۱۵۱
حجيّة القياس: ----- ۵۱۵۱
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۳ الى ۶۷] ----- ۵۱۵۲

اشارة ----- ۵۱۵۲
التّفسير ----- ۵۱۵۲
هل أنتم الزارعون أم اللّه؟ ----- ۵۱۵۲
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۸ الى ۷۴] ----- ۵۱۵۳
اشارة ----- ۵۱۵۳
التّفسير ----- ۵۱۵۳
من الذى خلق الماء و النار؟ ----- ۵۱۵۴
تعقيب ----- ۵۱۵۷
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۷۵ الى ۸۲] ----- ۵۱۵۷
اشارة ----- ۵۱۵۸
التّفسير ----- ۵۱۵۸
المطهّرون و معرفة أسرار القرآن: ----- ۵۱۵۸
تعقيب ----- ۵۱۶۱
أوّلا: خصوصية القرآن الكريم ----- ۵۱۶۱
ثانيا: القرآن و الطهارة ----- ۵۱۶۱
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷] ----- ۵۱۶۲
اشارة ----- ۵۱۶۲
التّفسير ----- ۵۱۶۲
عند ما تصل الروح إلى الحلقوم: ----- ۵۱۶۲
تعقيب ----- ۵۱۶۳
۱- لحظة ضعف الجبّارين ----- ۵۱۶۳
ثانيا: هل أنّ قبض الروح يكون تدريجيّا؟ ----- ۵۱۶۴
الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۸۸ الى ۹۶] ----- ۵۱۶۴
اشارة ----- ۵۱۶۴

التّفسير ----- ۵۱۶۴
مصير الصالحين و الطالحين: ----- ۵۱۶۴
تعقيب ----- ۵۱۶۷
عالم البرزخ: ----- ۵۱۶۷
الجزء الثامن عشر ----- ۵۱۹۱
«سورة الحديد» ----- ۵۱۹۱
محتوى السورة: ----- ۵۱۹۱
فضيلة تلاوة سورة الحديد: ----- ۵۱۹۱
الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۱۹۲
اشارة ----- ۵۱۹۲
التّفسير ----- ۵۱۹۲
آيات للمتفكّرين: ----- ۵۱۹۲
بحث ----- ۵۱۹۴
جمع الأضداد فى صفات اللّه: ----- ۵۱۹۴
الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۵۱۹۵
اشارة ----- ۵۱۹۵
التفسير ----- ۵۱۹۵
على عرش القدرة دائما: ----- ۵۱۹۵
تعقيب ----- ۵۱۹۸
آيات الاسم الأعظم: ----- ۵۱۹۸
الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۷ الى ۱۱] ----- ۵۱۹۹
اشارة ----- ۵۱۹۹
التّفسير ----- ۵۱۹۹
الإيمان و الإنفاق أساسان للنجاة ----- ۵۱۹۹

بحوث ----- ۵۲۰۲
۱- بواعث الإنفاق ----- ۵۲۰۲
۲- شروط الإنفاق فی سبیل اللّه! ----- ۵۲۰۳
۳- السابقون فی الإیمان و الجهاد و الإنفاق ----- ۵۲۰۴
الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۲ الی ۱۵] ----- ۵۲۰۴
اشارة ----- ۵۲۰۴
التفسیر ----- ۵۲۰۵
انظرونا نقتبس من نورکم: ----- ۵۲۰۵
ملاحظة ----- ۵۲۰۸
الإستغاثة العقیمة للمجرمین: ----- ۵۲۰۸
الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۶ الی ۱۸] ----- ۵۲۰۸
اشارة ----- ۵۲۰۸
سبب النزول ----- ۵۲۰۹
التّفسیر ----- ۵۲۰۹
إلی متی هذه الغفلة؟ ----- ۵۲۰۹
موعظة و توبة: ----- ۵۲۱۰
الآیتان [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۹ الی ۲۰] ----- ۵۲۱۱
اشارة ----- ۵۲۱۱
التفسیر ----- ۵۲۱۱
الدنیا متاع الغرور: ----- ۵۲۱۱
تعقیب ----- ۵۲۱۴
۱- مقام الصدّیقین و الشهداء ----- ۵۲۱۴
۲- الحیاة الدنیا .. لهو و لعب ----- ۵۲۱۵
الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۲۱ الی ۲۴] ----- ۵۲۱۵

اشارة ----- ۵۲۱۵
التّفسير ----- ۵۲۱۵
المسابقة المعنوية الكبرى!! ----- ۵۲۱۵
الآية [سورة الحديد (۵۷): آية ۲۵] ----- ۵۲۱۹
اشارة ----- ۵۲۲۰
التّفسير ----- ۵۲۲۰
الهدف الأساس من بعثة الأنبياء: ----- ۵۲۲۰
تعقيب ----- ۵۲۲۲
۱- الحدود بين القوّة و المنطق ----- ۵۲۲۲
۲- الحديد و احتياجات الحياة الأساسية ----- ۵۲۲۳
الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۶ الى ۲۷] ----- ۵۲۲۳
اشارة ----- ۵۲۲۳
التّفسير ----- ۵۲۲۴
تعاقب الرسل واحدا بعد الآخر: ----- ۵۲۲۴
بحوث ----- ۵۲۲۶
۱- الإسلام و الرهبانية ----- ۵۲۲۶
۲- المصدر التأريخى للرهبانية ----- ۵۲۲۷
۳- المفاسد الأخلاقية و الاجتماعية الناشئة من الرهبانية ----- ۵۲۲۸
۴- إنجيل أم أناجيل! ----- ۵۲۲۹
الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۸ الى ۲۹] ----- ۵۲۲۹
اشارة ----- ۵۲۲۹
سبب النّزول ----- ۵۲۲۹
التّفسير ----- ۵۲۳۰
الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهية: ----- ۵۲۳۰

بحث ----- ۵۲۳۲
التقوى و الوعى: ----- ۵۲۳۲
سورة المجادلة ----- ۵۲۳۲
اشارة ----- ۵۲۳۳
محتوى السورة: ----- ۵۲۳۳
فضيلة تلاوة سورة المجادلة: ----- ۵۲۳۳
الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۲۳۳
اشارة ----- ۵۲۳۳
سبب النّزول ----- ۵۲۳۴
التّفسير ----- ۵۲۳۴
الظهار عمل جاهلى قبيح: ----- ۵۲۳۵
ملاحظات ----- ۵۲۳۷
۱- قسم من أحكام الظهار ----- ۵۲۳۷
۲- الظهار من كبائر الذنوب ----- ۵۲۳۸
الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۵ الى ۷] ----- ۵۲۳۹
اشارة ----- ۵۲۳۹
التّفسير ----- ۵۲۳۹
أولئک أعداء اللّه: ----- ۵۲۳۹
بحث ----- ۵۲۴۱
حضور اللّه سبحانه فى كلّ نجوى: ----- ۵۲۴۱
الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۵۲۴۱
اشارة ----- ۵۲۴۲
سبب النّزول ----- ۵۲۴۲
التّفسير ----- ۵۲۴۲

النجوى من الشيطان: ----- ۵۲۴۲
بحثان ----- ۵۲۴۴
۱- أنواع النجوى ----- ۵۲۴۴
۲- كيف تكون التحيّة الإلهيّة؟ ----- ۵۲۴۴
الآية [سورة المجادلة (۵۸): آية ۱۱] ----- ۵۲۴۵
اشارة ----- ۵۲۴۵
سبب النّزول ----- ۵۲۴۵
التفسير ----- ۵۲۴۶
احترام أهل السابقة و الإيمان: ----- ۵۲۴۶
بحثان ----- ۵۲۴۷
۱- مقام العلماء ----- ۵۲۴۷
۲- آداب المجلس فى القرآن الكريم ----- ۵۲۴۷
الآيتان [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۲ الى ۱۳] ----- ۵۲۴۸
اشارة ----- ۵۲۴۸
سبب النّزول ----- ۵۲۴۸
التّفسير ----- ۵۲۴۹
الصدقة قبل النجوى (اختبار رائع): ----- ۵۲۴۹
بحوث ----- ۵۲۵۰
۱- الملتزم الوحيد بآية الصدقة قبل النجوى ----- ۵۲۵۰
۲- فلسفة تشريع و نسخ حكم الصدقة ----- ۵۲۵۰
۳- هل الالتزام بالصدقة فضيلة؟ ----- ۵۲۵۱
۴- مدّة الحكم و مقدار الصدقة: ----- ۵۲۵۱
الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۴ الى ۱۹] ----- ۵۲۵۲
اشارة ----- ۵۲۵۲

التّفسير ----- ۵۲۵۲
حزب الشيطان: ----- ۵۲۵۲
الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۲۰ الى ۲۲] ----- ۵۲۵۴
اشارة ----- ۵۲۵۴
التّفسير ----- ۵۲۵۴
حزب اللّه .. و النصر الدائم!! ----- ۵۲۵۴
بحثان ----- ۵۲۵۷
۱- العلامة الفارقة بين حزب اللّه و حزب الشيطان ----- ۵۲۵۷
۲- جزاء الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه ----- ۵۲۵۸
سورة الحشر ----- ۵۲۵۹
اشارة ----- ۵۲۵۹
محتوى السورة: ----- ۵۲۵۹
فضيلة تلاوة هذه السورة: ----- ۵۲۶۰
الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۲۶۰
اشارة ----- ۵۲۶۰
سبب النّزول ----- ۵۲۶۰
التّفسير ----- ۵۲۶۲
نهاية مؤامرة يهود بنى النضير: ----- ۵۲۶۲
بحثان ----- ۵۲۶۶
۱- الجيوش الإلهيّة اللامرئية: ----- ۵۲۶۶
۲- مؤامرات اليهود المعاصرة ----- ۵۲۶۷
الآيتان [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۶ الى ۷] ----- ۵۲۶۷
اشارة ----- ۵۲۶۷
سبب النّزول ----- ۵۲۶۷

التّفسير ----- ۵۲۶۸
حكم الغنائم بغير الحرب: ----- ۵۲۶۸
بحوث ----- ۵۲۷۰
۱- مصارف الفيء ----- ۵۲۷۰
۲- جواب على سؤال: ----- ۵۲۷۱
۳- القصّة المؤلمة ل (فدک) ----- ۵۲۷۲
الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۵۲۷۳
اشارة ----- ۵۲۷۳
التّفسير ----- ۵۲۷۳
السمات الأساسية للأنصار و المهاجرين و التابعين: ----- ۵۲۷۳
بحث ----- ۵۲۷۷
الصحابة فى ميزان القرآن و التاريخ: ----- ۵۲۷۷
الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۱ الى ۱۴] ----- ۵۲۷۷
اشارة ----- ۵۲۷۷
سبب النّزول ----- ۵۲۷۸
التّفسير ----- ۵۲۷۸
دور المنافقين فى فتن اليهود: ----- ۵۲۷۸
الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۵ الى ۲۰] ----- ۵۲۸۱
اشارة ----- ۵۲۸۱
التّفسير ----- ۵۲۸۱
حيل الشيطان و المهالک: ----- ۵۲۸۱
بحوث ----- ۵۲۸۴
۱- التعاون العقيم مع أهل النفاق ----- ۵۲۸۴
۲- قصّة العابد (برصيصا) ----- ۵۲۸۵

۳- ما ينبغى عمله ----- ۵۲۸۵
الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۲۱ الى ۲۴] ----- ۵۲۸۶
اشارة ----- ۵۲۸۶
التّفسير ----- ۵۲۸۶
لو نزل القرآن على جبل: ----- ۵۲۸۶
ملاحظتان ----- ۵۲۹۰
۱- التأثير الخارق للقرآن الكريم ----- ۵۲۹۰
۲- عظمة الآيات الأخيرة لسورة الحشر ----- ۵۲۹۰
سورة الممتحنة مدنيّة ----- ۵۲۹۱
اشارة ----- ۵۲۹۱
محتوى السورة: ----- ۵۲۹۲
فضيلة تلاوة سورة الممتحنة: ----- ۵۲۹۲
الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۲۹۲
اشارة ----- ۵۲۹۲
سبب النّزول ----- ۵۲۹۲
التّفسير ----- ۵۲۹۳
نتيجة الولاء لأعداء اللّه: ----- ۵۲۹۳
الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۴ الى ۶] ----- ۵۲۹۵
اشارة ----- ۵۲۹۵
التّفسير ----- ۵۲۹۵
أسوة للجميع: ----- ۵۲۹۵
بحوث ----- ۵۲۹۸
۱- نماذج خالدة ----- ۵۲۹۸
۲- اللّه غنى عن الجميع ----- ۵۲۹۹

۳- الأصل فی العلاقات الرسالیة: (الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه). ----- ۵۲۹۹

الآیات [سورة الممتحنة (۶۰): الآیات ۷ الی ۹] ----- ۵۳۰۰

اشارة ----- ۵۳۰۰

التّفسیر ----- ۵۳۰۰

مودّة الکفّار غیر الحربیین: ----- ۵۳۰۰

الآیتان [سورة الممتحنة (۶۰): الآیات ۱۰ الی ۱۱] ----- ۵۳۰۲

اشارة ----- ۵۳۰۲

سبب النّزول ----- ۵۳۰۲

التّفسیر ----- ۵۳۰۳

تعویض خسائر المسلمین و الکفّار: ----- ۵۳۰۳

العدل حتّی مع الأعداء: ----- ۵۳۰۶

الآیة [سورة الممتحنة (۶۰): آیة ۱۲] ----- ۵۳۰۶

اشارة ----- ۵۳۰۶

التّفسیر ----- ۵۳۰۶

شروط بیعة النساء: ----- ۵۳۰۶

بحوث ----- ۵۳۰۸

۱- ارتباط بیعة النساء ببناء شخصیتهنّ الإسلامیة ----- ۵۳۰۸

۲- قصّة بیعة (هند) زوجة أبی سفیان ----- ۵۳۰۸

۳- الطاعة بالمعروف ----- ۵۳۰۹

الآیة [سورة الممتحنة (۶۰): آیة ۱۳] ----- ۵۳۰۹

اشارة ----- ۵۳۰۹

التّفسیر ----- ۵۳۰۹

سورة الصّفّ ----- ۵۳۱۰

اشارة ----- ۵۳۱۰

محتوى سورة الصّف: ----- ۵۳۱۰
فضيلة تلاوة سورة الصّف: ----- ۵۳۱۱
الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۳۱۱
اشارة ----- ۵۳۱۱
سبب النّزول ----- ۵۳۱۱
التّفسير ----- ۵۳۱۲
المقاتلون المؤمنون صفّ حديدى منيع: ----- ۵۳۱۲
بحثان ----- ۵۳۱۳
۱- ضرورة وحدة الصفوف ----- ۵۳۱۳
۲- الأقوال المجرّدة عن العمل ----- ۵۳۱۴
الآيتان [سورة الصف (۶۱): الآيات ۵ الى ۶] ----- ۵۳۱۴
اشارة ----- ۵۳۱۵
التّفسير ----- ۵۳۱۵
البشارة بظهور النّبى (أحمد): ----- ۵۳۱۵
بحوث ----- ۵۳۱۶
۱- الصلة بين البشارة و تكامل الدين ----- ۵۳۱۶
۲- بشارة العهدين و تعبير (فارقليطا): ----- ۵۳۱۶
۳- هل أنّ اسم رسول الإسلام كان (أحمد) ----- ۵۳۱۸
الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۷ الى ۹] ----- ۵۳۱۹
اشارة ----- ۵۳۱۹
التّفسير ----- ۵۳۱۹
يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم: ----- ۵۳۱۹
الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۱۰ الى ۱۳] ----- ۵۳۲۱
اشارة ----- ۵۳۲۱

التّفسير ----- ۵۳۲۲
التجارة الرّابحة: ----- ۵۳۲۲
بحوث ----- ۵۳۲۴
۱- أى فتح هو «الفتح القريب»!؟ ----- ۵۳۲۴
۲- ما هى خصائص المساكين الطيّبة؟ ----- ۵۳۲۴
۳- الدنيا موضع تجارة أولياء اللّه ----- ۵۳۲۴
الآية [سورة الصف (۶۱): آية ۱۴] ----- ۵۳۲۵
اشارة ----- ۵۳۲۵
التّفسير ----- ۵۳۲۵
كونوا كالحواريين: ----- ۵۳۲۵
تعقيب ----- ۵۳۲۶
من هم الحواريون؟ ----- ۵۳۲۶
سورة الجمعة ----- ۵۳۲۶
اشارة ----- ۵۳۲۷
محتوى السورة: ----- ۵۳۲۷
فضيلة تلاوة سورة الجمعة: ----- ۵۳۲۷
الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۳۲۸
اشارة ----- ۵۳۲۸
التّفسير ----- ۵۳۲۸
الهدف من بعثة الرّسول: ----- ۵۳۲۸
ملاحظة ----- ۵۳۳۰
الفضل الإلهى له حساب: ----- ۵۳۳۰
الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۵ الى ۸] ----- ۵۳۳۱
اشارة ----- ۵۳۳۱

التّفسير ----- ۵۳۳۱
الحمار الذى يحمل الأسفار: ----- ۵۳۳۱
بحثان ----- ۵۳۳۳
۱- العالم بلا عمل ----- ۵۳۳۳
۲- لماذا أخاف الموت ----- ۵۳۳۴
الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱] ----- ۵۳۳۵
اشارة ----- ۵۳۳۵
سبب النّزول ----- ۵۳۳۵
التّفسير ----- ۵۳۳۵
أكبر تجمّع عبادى سياسى اسبوعى: ----- ۵۳۳۵
بحوث ----- ۵۳۳۷
۱- أوّل صلاة جمعة فى الإسلام ----- ۵۳۳۷
۲- أهميّة صلاة الجمعة ----- ۵۳۳۸
۳- فلسفة صلاة الجمعة العبادية و السياسيّة ----- ۵۳۳۹
۴- آداب صلاة الجمعة و مضمون الخطبتين ----- ۵۳۴۰
۵- شرائط وجوب صلاة الجمعة ----- ۵۳۴۱
سورة المنافقون ----- ۵۳۴۲
اشارة ----- ۵۳۴۲
محتوى السورة: ----- ۵۳۴۲
فضيلة تلاوة سورة المنافقين: ----- ۵۳۴۲
الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۳۴۳
اشارة ----- ۵۳۴۳
التّفسير ----- ۵۳۴۳
مصدر النفاق و علامات المنافقين: ----- ۵۳۴۳

الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۵ الى ۸] ----- ۵۳۴۶
اشارة ----- ۵۳۴۶
سبب النّزول ----- ۵۳۴۶
التّفسير ----- ۵۳۴۷
علامات اخرى للمنافقين: ----- ۵۳۴۷
بحوث ----- ۵۳۴۹
۱- للمنافقين علامات عشر ----- ۵۳۴۹
۲- خطر المنافقين ----- ۵۳۵۰
۳- المنافق فارغ و منخور ----- ۵۳۵۰
الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۹ الى ۱۱] ----- ۵۳۵۱
اشارة ----- ۵۳۵۱
التّفسير ----- ۵۳۵۱
لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم! ----- ۵۳۵۱
تعقيب ----- ۵۳۵۲
۱- طريقة التغلّب على الاضطرابات و القلق ----- ۵۳۵۲
۲- النفاق العقائدى و النفاق العملى ----- ۵۳۵۳
سورة التّغابن ----- ۵۳۵۳
اشارة ----- ۵۳۵۳
محتوى السورة: ----- ۵۳۵۴
فضيلة تلاوة السورة: ----- ۵۳۵۴
الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۳۵۴
اشارة ----- ۵۳۵۴
التّفسير ----- ۵۳۵۵
يعلم ما تخفى الصدور: ----- ۵۳۵۵

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۵۳۵۶
اشارة ----- ۵۳۵۶
التّفسير ----- ۵۳۵۶
يوم التغابن و ظهور الغبن: ----- ۵۳۵۶
الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۱ الى ۱۳] ----- ۵۳۵۸
اشارة ----- ۵۳۵۸
التّفسير ----- ۵۳۵۸
كلّ ما يصيبنا بإذنه و علمه: ----- ۵۳۵۸
الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۴ الى ۱۸] ----- ۵۳۵۹
اشارة ----- ۵۳۵۹
سبب النّزول ----- ۵۳۶۰
التّفسير ----- ۵۳۶۰
أولادكم و أموالكم وسيلة لامتحانكم: ----- ۵۳۶۰
ملاحظة ----- ۵۳۶۳
حديث مهمّ: ----- ۵۳۶۳
سورة الطّلاق ----- ۵۳۶۳
اشارة ----- ۵۳۶۳
محتوى السورة: ----- ۵۳۶۳
فضيلة تلاوة السورة: ----- ۵۳۶۴
الآية [سورة الطلاق (۶۵): آية ۱] ----- ۵۳۶۴
اشارة ----- ۵۳۶۴
التّفسير ----- ۵۳۶۴
شرائط الطلاق و الانفصال: ----- ۵۳۶۴
ملاحظات ----- ۵۳۶۶

۱- أبغض الحلال إلى اللّه الطلاق ----- ۵۳۶۶
۱- المشاكل العاطفية: ----- ۵۳۶۶
۲- المشاكل الاجتماعية: ----- ۵۳۶۷
۳- مشاكل الأطفال: ----- ۵۳۶۷
۲- أسباب الطلاق: ----- ۵۳۶۷
۳- فلسفة ضبط و إحصاء العدّة ----- ۵۳۶۸
الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۲ الى ۳] ----- ۵۳۶۹
اشارة ----- ۵۳۶۹
التّفسير ----- ۵۳۶۹
فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف: ----- ۵۳۶۹
بحثان ----- ۵۳۷۱
۱- التقوى و النجاة من المشاكل ----- ۵۳۷۱
۲- روح التوكّل ----- ۵۳۷۲
الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۴ الى ۷] ----- ۵۳۷۲
اشارة ----- ۵۳۷۲
التّفسير ----- ۵۳۷۳
أحكام النساء المطلّقات و حقوقهنّ: ----- ۵۳۷۳
بحوث ----- ۵۳۷۵
۱- أحكام الطلاق الرجعى ----- ۵۳۷۵
۲- لا يكلّف اللّه نفسا إلّا وسعها ----- ۵۳۷۶
۳- أهميّة النظام العائلى ----- ۵۳۷۶
الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۸ الى ۱۱] ----- ۵۳۷۷
اشارة ----- ۵۳۷۷
التّفسير ----- ۵۳۷۷

العاقبة المؤلمة للعاصين: ۵۳۷۷
الآية [سورة الطلاق (۶۵): آية ۱۲] ۵۳۷۹
اشارة ۵۳۷۹
التّفسير ۵۳۷۹
الهدف من خلق العالم: ۵۳۷۹
سورة التّحريم ۵۳۸۱
اشارة ۵۳۸۱
محتوى السورة: ۵۳۸۱
فضيلة تلاوة سورة التحريم: ۵۳۸۲
الآيات [سورة التحريم (۶۶): الآيات ۱ الى ۵] ۵۳۸۲
اشارة ۵۳۸۲
اسباب النّزول ۵۳۸۲
التّفسير ۵۳۸۳
التوبيخ الشديد لبعض زوجات الرّسول: ۵۳۸۳
بحوث ۵۳۸۵
۱- صفات الزوجة الصالحة: ۵۳۸۵
۲- من هم (صالح المؤمنين)؟ ۵۳۸۵
۳- عدم رضا الرّسول عن بعض زوجاته ۵۳۸۶
۴- إفشاء السرّ ۵۳۸۷
۵- لا تحرّموا على أنفسكم ما أحلّه اللّه لكم ۵۳۸۷
الآيات [سورة التحريم (۶۶): الآيات ۶ الى ۸] ۵۳۸۷
اشارة ۵۳۸۷
التّفسير ۵۳۸۷
قوا أنفسكم و أهليكم النار: ۵۳۸۷

بحثان ----- ۵۳۹۰
۱- تعليم و تربية العائلة ----- ۵۳۹۰
۲- التوبة باب إلى رحمة اللّه ----- ۵۳۹۱
الآيات [سورة التحريم (۶۶): الآيات ۹ الى ۱۲] ----- ۵۳۹۱
اشارة ----- ۵۳۹۱
التّفسير ----- ۵۳۹۲
نماذج من النساء المؤمنات و الكافرات: ----- ۵۳۹۲
سورة الملک ----- ۵۳۹۵
اشارة ----- ۵۳۹۵
محتوى سورة الملک: ----- ۵۳۹۵
فضيلة تلاوة السورة: ----- ۵۳۹۵
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۳۹۶
اشارة ----- ۵۳۹۶
التّفسير ----- ۵۳۹۶
عالم الوجود المتكامل: ----- ۵۳۹۶
ملاحظة ----- ۵۴۰۰
عظمة عالم الخلق: ----- ۵۴۰۰
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۶ الى ۱۱] ----- ۵۴۰۰
اشارة ----- ۵۴۰۰
التّفسير ----- ۵۴۰۰
لو كنّا نسمع أو نعقل: ----- ۵۴۰۰
ملاحظة ----- ۵۴۰۲
المقام السامى للعقل: ----- ۵۴۰۲
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴] ----- ۵۴۰۳

اشارة ----- ۵۴۰۳
التّفسير ----- ۵۴۰۳
خالق الوجود عليم بأسراره: ----- ۵۴۰۳
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۱۵ الى ۱۸] ----- ۵۴۰۴
اشارة ----- ۵۴۰۴
التّفسير ----- ۵۴۰۴
لا أمان للعاصين من عقاب اللّه: ----- ۵۴۰۵
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۱۹ الى ۲۱] ----- ۵۴۰۶
اشارة ----- ۵۴۰۷
التّفسير ----- ۵۴۰۷
انظروا إلى الطير فوقكم: ----- ۵۴۰۷
ملاحظة ----- ۵۴۰۸
العوامل الأربعة فى محروميۀ البشر: ----- ۵۴۰۸
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۲۲ الى ۲۷] ----- ۵۴۰۹
اشارة ----- ۵۴۰۹
التّفسير ----- ۵۴۰۹
السائر سويّا على جادّة التوحيد: ----- ۵۴۰۹
الآيات [سورة الملک (۶۷): الآيات ۲۸ الى ۳۰] ----- ۵۴۱۱
اشارة ----- ۵۴۱۱
التّفسير ----- ۵۴۱۱
من الذى يأتيكم بالمياه الجارية؟ ----- ۵۴۱۱
تعقيب ----- ۵۴۱۳
سورة القلم ----- ۵۴۱۴
اشارة ----- ۵۴۱۴

محتوى السورة: ----- ۵۴۱۴
فضيلة تلاوة سورة القلم: ----- ۵۴۱۴
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۵۴۱۵
اشارة ----- ۵۴۱۵
التّفسير ----- ۵۴۱۵
عجبا لأخلاقک السامية: ----- ۵۴۱۵
بحثان ----- ۵۴۱۷
۱- دور القلم فى حياة الإنسان ----- ۵۴۱۸
۲- نموذج من أخلاق الرّسول ----- ۵۴۱۹
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۸ الى ۱۶] ----- ۵۴۲۱
اشارة ----- ۵۴۲۱
التّفسير ----- ۵۴۲۱
اجتنب أصحاب هذه الصفات: ----- ۵۴۲۱
بحثان ----- ۵۴۲۴
۱- الرذائل الأخلاقية ----- ۵۴۲۴
۲- المداهنة و الصلح ----- ۵۴۲۴
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۱۷ الى ۲۵] ----- ۵۴۲۵
اشارة ----- ۵۴۲۵
التّفسير ----- ۵۴۲۵
قصّة (أصحاب الجنّة): ----- ۵۴۲۵
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۲۶ الى ۳۳] ----- ۵۴۲۶
اشارة ----- ۵۴۲۶
التّفسير ----- ۵۴۲۷
أصحاب البستان و المصير المؤلم: ----- ۵۴۲۷

بحثان ----- ۵۴۲۹
۱- الاستئثار بالنعم بلاء عظيم ----- ۵۴۲۹
۲- العلاقة بين (الرزق) و (الذنوب) ----- ۵۴۲۹
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الى ۴۱] ----- ۵۴۳۰
اشارة ----- ۵۴۳۰
التّفسير ----- ۵۴۳۰
۱- استجواب كامل: ----- ۵۴۳۰
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۴۲ الى ۴۵] ----- ۵۴۳۱
اشارة ----- ۵۴۳۱
التّفسير ----- ۵۴۳۱
العجز عن السجود: ----- ۵۴۳۱
الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۴۶ الى ۵۰] ----- ۵۴۳۳
اشارة ----- ۵۴۳۳
التّفسير ----- ۵۴۳۴
لا تستعجل بعذابهم: ----- ۵۴۳۴
الآيتان [سورة القلم (۶۸): الآيات ۵۱ الى ۵۲] ----- ۵۴۳۶
اشارة ----- ۵۴۳۶
التّفسير ----- ۵۴۳۶
يريدون قتلك .. لكنّهم عاجزون ----- ۵۴۳۶
بحث ----- ۵۴۳۷
هل أنّ إصابة العين لها حقيقة؟ ----- ۵۴۳۷
سورة الحاقّة ----- ۵۴۳۸
اشارة ----- ۵۴۳۸
محتوى السورة: ----- ۵۴۳۸

فضيلة تلاوة سورة الحاقّة ----- ۵۴۳۸
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۴۳۹
اشارة ----- ۵۴۳۹
التّفسير ----- ۵۴۳۹
الطغاة و العذاب الأليم: ----- ۵۴۳۹
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۹ الى ۱۲] ----- ۵۴۴۱
اشارة ----- ۵۴۴۱
التّفسير ----- ۵۴۴۱
أين الآذان الواعية؟ ----- ۵۴۴۱
تعقيب ----- ۵۴۴۲
۱- فضيلة اخرى من فضائل الإمام على عليه السّلام ----- ۵۴۴۲
۲- التناسب بين (الذنب) و (العقاب) ----- ۵۴۴۳
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۳ الى ۱۷] ----- ۵۴۴۳
اشارة ----- ۵۴۴۳
التّفسير ----- ۵۴۴۳
الصّيحة العظيمة: ----- ۵۴۴۳
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۸ الى ۲۴] ----- ۵۴۴۵
اشارة ----- ۵۴۴۵
التّفسير ----- ۵۴۴۶
يا أهل المحشر: اقرؤا صحيفة أعمالى ----- ۵۴۴۶
ملاحظات ----- ۵۴۴۷
۱- تفسير آخر لكلمة (العرش) ----- ۵۴۴۷
۲- مقام الإمام على عليه السّلام و شيعته ----- ۵۴۴۷
۳- جواب على سؤال ----- ۵۴۴۸

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۲۵ الى ۲۹] ----- ۵۴۴۸
اشارة ----- ۵۴۴۸
التّفسير ----- ۵۴۴۸
يا ليتنى متّ قبل هذا: ----- ۵۴۴۸
ملاحظة ----- ۵۴۴۹
بعض القصص المثيرة: ----- ۵۴۴۹
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۳۰ الى ۳۷] ----- ۵۴۵۰
اشارة ----- ۵۴۵۰
التّفسير ----- ۵۴۵۰
خذوه فغلّوه: ----- ۵۴۵۰
ملاحظة ----- ۵۴۵۲
بداية وضع الحركات على حروف القرآن الكريم: ----- ۵۴۵۲
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۳۸ الى ۴۳] ----- ۵۴۵۲
اشارة ----- ۵۴۵۲
التّفسير ----- ۵۴۵۳
القرآن كلام اللّه قطعا: ----- ۵۴۵۳
الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۴۴ الى ۵۲] ----- ۵۴۵۴
اشارة ----- ۵۴۵۵
التّفسير ----- ۵۴۵۵
ملاحظة ----- ۵۴۵۷
الجزء التاسع عشر ----- ۵۴۸۱
سورة المعارج ----- ۵۴۸۱
اشارة ----- ۵۴۸۱
محتوى السورة: ----- ۵۴۸۲

فضيلة هذه السورة: ۵۴۸۲
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱ الى ۳] ۵۴۸۲
اشارة ۵۴۸۲
سبب النّزول ۵۴۸۳
التّفسير ۵۴۸۴
العذاب العاجل: ۵۴۸۴
ملاحظة: ۵۴۸۴
إشكالات المعاندين الواهية! ۵۴۸۴
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴ الى ۷] ۵۴۸۶
اشارة ۵۴۸۶
التّفسير ۵۴۸۶
يوم مقداره خمسين ألف سنة: ۵۴۸۶
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۸ الى ۱۸] ۵۴۸۷
اشارة ۵۴۸۷
التّفسير ۵۴۸۷
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱۹ الى ۲۸] ۵۴۸۹
اشارة ۵۴۸۹
التّفسير ۵۴۸۹
أوصاف المؤمنين: ۵۴۸۹
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۲۹ الى ۳۵] ۵۴۹۱
اشارة ۵۴۹۱
التّفسير ۵۴۹۲
القسم الآخر من صفات أهل الجنّة: ۵۴۹۲
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۳۶ الى ۴۱] ۵۴۹۳

اشارة ----- ۵۴۹۳
التّفسير ----- ۵۴۹۳
الطمع الواهى فى الجنّة: ----- ۵۴۹۴
ملاحظة ----- ۵۴۹۵
ربّ المشارق و المغارب: ----- ۵۴۹۵
الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴۲ الى ۴۴] ----- ۵۴۹۵
اشارة ----- ۵۴۹۵
التّفسير ----- ۵۴۹۶
كأنّهم يهرعون إلى الأصنام!! ----- ۵۴۹۶
سورة نوح ----- ۵۴۹۷
اشارة ----- ۵۴۹۷
محتوى سورة: ----- ۵۴۹۷
فضيلة هذه السورة: ----- ۵۴۹۷
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۴۹۸
اشارة ----- ۵۴۹۸
التّفسير ----- ۵۴۹۸
رسالة نوح الأولى: ----- ۵۴۹۸
ملاحظة ----- ۵۴۹۹
العوامل المعنوية لزيادة و نقصان العمر: ----- ۵۴۹۹
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۵ الى ۹] ----- ۵۴۹۹
اشارة ----- ۵۴۹۹
التّفسير ----- ۵۴۹۹
استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، و لكن!!! ----- ۵۴۹۹
ملاحظتان ----- ۵۵۰۱

۱- أسلوب الإبلاغ و منهجه ----- ۵۵۰۱
۲- لماذا الفرا من الحقيقة؟ ----- ۵۵۰۱
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴] ----- ۵۵۰۲
اشارة ----- ۵۵۰۲
التّفسير ----- ۵۵۰۲
ثمرة الإيمان فى الدنيا: ----- ۵۵۰۲
ملاحظة ----- ۵۵۰۳
الرّابطة بين التقوى و العمران: ----- ۵۵۰۳
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱۵ الى ۲۰] ----- ۵۵۰۴
اشارة ----- ۵۵۰۴
التّفسير ----- ۵۵۰۴
خلقكم اللّه من الأرض كالنبات: ----- ۵۵۰۴
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۲۱ الى ۲۵] ----- ۵۵۰۵
اشارة ----- ۵۵۰۶
التّفسير ----- ۵۵۰۶
لطف اللّه معک: ----- ۵۵۰۶
الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۲۶ الى ۲۸] ----- ۵۵۰۸
اشارة ----- ۵۵۰۸
التّفسير ----- ۵۵۰۸
على الفاسدين و المفسدين أن يرحلوا: ----- ۵۵۰۸
بحث ----- ۵۵۰۹
نوح عليه السّلام أوّل أنبياء أولى العزم ----- ۵۵۰۹
سورة الجنّ ----- ۵۵۱۰
اشارة ----- ۵۵۱۰

محتوى السورة: ----- ۵۵۱۰
فضيلة سورة الجن: ----- ۵۵۱۱
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۵۱۱
اشارة ----- ۵۵۱۱
سبب النّزول ----- ۵۵۱۱
التّفسير ----- ۵۵۱۲
القرآن العجيب!! ----- ۵۵۱۲
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۷ الى ۱۰] ----- ۵۵۱۴
اشارة ----- ۵۵۱۴
التّفسير ----- ۵۵۱۴
كنّا من قبل نسترق السمع و لكن ... ----- ۵۵۱۴
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ----- ۵۵۱۵
اشارة ----- ۵۵۱۵
التّفسير ----- ۵۵۱۵
إنّ سمعنا الحقّ فأطعناه: ----- ۵۵۱۵
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱۶ الى ۱۹] ----- ۵۵۱۷
اشارة ----- ۵۵۱۷
التّفسير ----- ۵۵۱۷
الفتنة باغدق النعمة: ----- ۵۵۱۷
ملاحظة ----- ۵۵۱۹
التّحريف فى تفسير الآية: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ ----- ۵۵۱۹
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۲۰ الى ۲۴] ----- ۵۵۲۰
اشارة ----- ۵۵۲۰
التّفسير ----- ۵۵۲۰

الأمور كلّها بيد اللّه لا بيدى: ----- ۵۵۲۰
ملاحظتات ----- ۵۵۲۱
۱- صفاء القادة الإلهيين ----- ۵۵۲۱
۲- ليس المهم الكم بل الكيف! ----- ۵۵۲۲
الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۲۵ الى ۲۸] ----- ۵۵۲۲
اشارة ----- ۵۵۲۲
التّفسير ----- ۵۵۲۳
اللّه عالم الغيب: ----- ۵۵۲۳
بحوث ----- ۵۵۲۴
۱- تحقيق موسّع حول علم الغيب ----- ۵۵۲۴
۲- الطريق الآخر لإثبات علم الغيب للأئمّة عليهم السّلام ----- ۵۵۲۷
۳- تحقيق حول خلق الجن ----- ۵۵۲۸
سورة المزّمّل ----- ۵۵۳۰
اشارة ----- ۵۵۳۰
محتوى السورة: ----- ۵۵۳۰
فضيلة السّورة: ----- ۵۵۳۱
الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۵۳۱
اشارة ----- ۵۵۳۱
التّفسير ----- ۵۵۳۱
بحوث ----- ۵۵۳۳
۱- قيام الليل بتلاوة القرآن و الدعاء ----- ۵۵۳۳
۲- معنى التّرتيل ----- ۵۵۳۳
۳- فضيلة صلاة الليل ----- ۵۵۳۴
الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۶ الى ۱۰] ----- ۵۵۳۴

اشارة ----- ۵۵۳۴
التّفسير ----- ۵۵۳۴
تأثير الدعاء و المناجاة فى أعماق الليل: ----- ۵۵۳۵
الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱۱ الى ۱۹] ----- ۵۵۳۷
اشارة ----- ۵۵۳۷
التّفسير ----- ۵۵۳۷
ذرنى و المكذبين المستكبرين: ----- ۵۵۳۷
ملاحظة ----- ۵۵۳۹
المراحل الأربع للعذاب الإلهى ----- ۵۵۳۹
الآية [سورة المزمل (۷۳): آية ۲۰] ----- ۵۵۴۰
اشارة ----- ۵۵۴۰
التّفسير ----- ۵۵۴۰
فاقرؤوا ما تيسر من القرآن: ----- ۵۵۴۰
ملاحظات ----- ۵۵۴۲
۱- ضرورة الاستعداد العقائدى و الثقافى ----- ۵۵۴۲
۲- قراءة القرآن و التفكر ----- ۵۵۴۳
۳- السعى للعيش كالجهاد فى سبيل اللّه ----- ۵۵۴۳
سورة المدّثّر ----- ۵۵۴۳
اشارة ----- ۵۵۴۳
محتوى السورة: ----- ۵۵۴۳
فضيلة السورة: ----- ۵۵۴۴
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱ الى ۱۰] ----- ۵۵۴۴
اشارة ----- ۵۵۴۴
التّفسير ----- ۵۵۴۵

قم و انذر النّاس: ----- ۵۵۴۵
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱۱ الى ۱۷] ----- ۵۵۴۸
اشارة ----- ۵۵۴۸
سبب النّزول ----- ۵۵۴۸
ذكر سببان هذه الآيات، هما: ----- ۵۵۴۸
التّفسير ----- ۵۵۴۹
الوليد بن المغيرة ... الثرى المغرور: ----- ۵۵۴۹
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱۸ الى ۲۵] ----- ۵۵۵۰
اشارة ----- ۵۵۵۰
التّفسير ----- ۵۵۵۱
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ----- ۵۵۵۲
اشارة ----- ۵۵۵۲
التّفسير ----- ۵۵۵۲
المصير المشؤوم: ----- ۵۵۵۲
ملاحظة ----- ۵۵۵۳
ملائكة العذاب تسعة عشر: ----- ۵۵۵۳
الآية [سورة المدثر (۷۴): آية ۳۱] ----- ۵۵۵۳
اشارة ----- ۵۵۵۳
التّفسير ----- ۵۵۵۴
لم هذا العدد من أصحاب النّار؟ ----- ۵۵۵۴
ملاحظة: ----- ۵۵۵۵
عدد جنود الرّب! ----- ۵۵۵۵
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۲ الى ۳۷] ----- ۵۵۵۶
اشارة ----- ۵۵۵۶

التّفسير ----- ۵۵۵۶
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۸ الى ۴۸] ----- ۵۵۵۷
اشارة ----- ۵۵۵۷
التّفسير ----- ۵۵۵۷
لم صرتم من أصحاب الجحيم؟ ----- ۵۵۵۷
ملاحظة: ----- ۵۵۵۹
شفعاء يوم القيامة: ----- ۵۵۵۹
الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۴۹ الى ۵۶] ----- ۵۵۶۰
اشارة ----- ۵۵۶۰
التّفسير ----- ۵۵۶۰
يفرّون من الحق كما تفرّ الحمر من الأسد: ----- ۵۵۶۱
سورة القيامة ----- ۵۵۶۲
اشارة ----- ۵۵۶۲
محتوى السورة: ----- ۵۵۶۳
فضيلة السورة: ----- ۵۵۶۳
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۵۶۳
اشارة ----- ۵۵۶۳
التّفسير ----- ۵۵۶۴
قسما بيوم القيامة و النفس اللوامة: ----- ۵۵۶۴
ملاحظات ----- ۵۵۶۶
اشارة ----- ۵۵۶۶
۱- محكمة الضمير أو القيامة الصغرى ----- ۵۵۶۶
۲- أسماء القيامة فى القرآن المجيد ----- ۵۵۶۷
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۷ الى ۱۵] ----- ۵۵۶۸

اشارة ----- ۵۵۶۸
التّفسير ----- ۵۵۶۸
الإنسان نعم الحكم لنفسه: ----- ۵۵۶۸
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱۶ الى ۱۹] ----- ۵۵۷۰
اشارة ----- ۵۵۷۰
التّفسير ----- ۵۵۷۰
إنّ علينا جمعه و قرآنه: ----- ۵۵۷۰
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۰ الى ۲۵] ----- ۵۵۷۱
اشارة ----- ۵۵۷۱
التّفسير ----- ۵۵۷۲
الوجوه الضاحكة و الوجوه العابسة فى ساحة القيامة: ----- ۵۵۷۲
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۶ الى ۳۰] ----- ۵۵۷۴
اشارة ----- ۵۵۷۴
التّفسير ----- ۵۵۷۴
ملاحظة ----- ۵۵۷۵
لحظة الموت المؤلمة: ----- ۵۵۷۵
الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۳۱ الى ۴۰] ----- ۵۵۷۶
اشارة ----- ۵۵۷۶
التّفسير ----- ۵۵۷۶
خلق الإنسان من نطقة قذرة: ----- ۵۵۷۶
ملاحظتان ----- ۵۵۷۸
۱- أطوار الجنين أو البعثات المكررة! ----- ۵۵۷۸
۲- نظام الأجناس البشرية ----- ۵۵۷۹
سورة الإنسان ----- ۵۵۷۹

اشارة ----- ۵۵۷۹
محتوى السورة: ----- ۵۵۷۹
هل أنّ هذه السورة مدنية؟ ----- ۵۵۸۰
فضيلة السورة: ----- ۵۵۸۱
الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۵۸۱
اشارة ----- ۵۵۸۱
التّفسير ----- ۵۵۸۱
الإنسان مخلوق من النطفة التافهة: ----- ۵۵۸۱
توضيح: ----- ۵۵۸۲
ملاحظة ----- ۵۵۸۳
عالم الجنين الصاخب: ----- ۵۵۸۳
الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۵ الى ۱۱] ----- ۵۵۸۴
اشارة ----- ۵۵۸۴
سبب النزول ----- ۵۵۸۴
البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النّبى: ----- ۵۵۸۴
التّفسير ----- ۵۵۸۶
جزاء الأبرار العظيم ----- ۵۵۸۷
إشباع الجياع من أفضل الحسنات: ----- ۵۵۹۰
الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱۲ الى ۲۲] ----- ۵۵۹۰
اشارة ----- ۵۵۹۰
التّفسير ----- ۵۵۹۱
مكافئات الجنان العظيمة ----- ۵۵۹۱
الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۲۳ الى ۲۶] ----- ۵۵۹۵
اشارة ----- ۵۵۹۵

التّفسير ----- ۵۵۹۵
خمسة مبادئ مهمّة فى تنفيذ حكم اللّه: ----- ۵۵۹۵
الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۲۷ الى ۳۱] ----- ۵۵۹۷
اشارة ----- ۵۵۹۷
التّفسير ----- ۵۵۹۷
تحذير مع بيان السبيل!! ----- ۵۵۹۷
سورة المرسلات ----- ۵۵۹۹
اشارة ----- ۵۵۹۹
محتوى السورة: ----- ۵۵۹۹
فضيلة السورة: ----- ۵۶۰۰
الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۱۵] ----- ۵۶۰۰
اشارة ----- ۵۶۰۰
التّفسير ----- ۵۶۰۱
الوعود الإلهية و جزاء المكذبين: ----- ۵۶۰۱
ملاحظات ----- ۵۶۰۳
۱- محتوى هذه الأيمان ----- ۵۶۰۳
الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱۶ الى ۲۸] ----- ۵۶۰۴
اشارة ----- ۵۶۰۴
التّفسير ----- ۵۶۰۴
جزاء المكذبين بالمعاد ----- ۵۶۰۴
الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۲۹ الى ۴۰] ----- ۵۶۰۶
اشارة ----- ۵۶۰۶
التّفسير ----- ۵۶۰۶
لا قدرة لهم للدفاع و لا طريقا للفرار ----- ۵۶۰۶

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۴۱ الى ۵۰] ----- ۵۶۰۹
اشارة ----- ۵۶۰۹
التّفسير ----- ۵۶۰۹
إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأىّ حديث يؤمنون؟! ----- ۵۶۰۹
ملاحظة: ----- ۵۶۱۱
سورة النّبإ ----- ۵۶۱۱
اشارة ----- ۵۶۱۱
محتويات السورة: ----- ۵۶۱۱
فضل تلاوتها: ----- ۵۶۱۲
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۶۱۲
اشارة ----- ۵۶۱۲
التّفسير ----- ۵۶۱۳
خبر هام! ----- ۵۶۱۳
بحوث ----- ۵۶۱۴
۱- «الولاية» و «النبأ العظيم» ----- ۵۶۱۴
۲- سرّ التأكيد على المعاد: ----- ۵۶۱۵
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۶ الى ۱۶] ----- ۵۶۱۶
اشارة ----- ۵۶۱۶
التّفسير ----- ۵۶۱۶
كل شىء بأمرك يا ربّ ... ----- ۵۶۱۶
ملاحظة: ----- ۵۶۲۱
علاقة الآيات ب «المعاد»: ----- ۵۶۲۱
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰] ----- ۵۶۲۲
اشارة ----- ۵۶۲۲

التّفسير ----- ۵۶۲۲
سيأتى اليوم الموعود: ----- ۵۶۲۲
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۲۱ الى ۳۰] ----- ۵۶۲۴
اشارة ----- ۵۶۲۴
التّفسير ----- ۵۶۲۵
جهنّم .. المرصاد الرهيب: ----- ۵۶۲۵
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۱ الى ۳۷] ----- ۵۶۲۷
اشارة ----- ۵۶۲۷
التّفسير ----- ۵۶۲۷
ممّا وعد اللّه المتقين: ----- ۵۶۲۷
بحثان ----- ۵۶۳۰
۱- ثواب المتقين و عقاب العاصين ----- ۵۶۳۰
۲- أشربة الجنّة! ----- ۵۶۳۰
الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰] ----- ۵۶۳۱
اشارة ----- ۵۶۳۱
التّفسير ----- ۵۶۳۱
الندم الشديد: ----- ۵۶۳۱
بحث ----- ۵۶۳۴
النظرة الصائبة لمسألة «الجبر و الإختيار» ----- ۵۶۳۴
سورة النّازعات ----- ۵۶۳۵
اشارة ----- ۵۶۳۶
محتوى السورة: ----- ۵۶۳۶
فضيلة السورة: ----- ۵۶۳۶
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۶۳۶

اشارة ----- ۵۶۳۶
التّفسير ----- ۵۶۳۷
القسم بالملائكة: ----- ۵۶۳۷
ملاحظتان ----- ۵۶۳۹
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۶ الى ۱۴] ----- ۵۶۳۹
اشارة ----- ۵۶۳۹
التّفسير ----- ۵۶۳۹
صيحة الموت المرعبة! ----- ۵۶۳۹
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱۵ الى ۲۶] ----- ۵۶۴۱
اشارة ----- ۵۶۴۱
التّفسير ----- ۵۶۴۱
افتراء فرعون! ----- ۵۶۴۱
بحث ----- ۵۶۴۴
بلاغة القرآن: ----- ۵۶۴۴
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۲۷ الى ۳۳] ----- ۵۶۴۴
اشارة ----- ۵۶۴۴
التّفسير ----- ۵۶۴۴
اللمسات الرّبانية فى عالم الطبيعة و نظام الكون: ----- ۵۶۴۴
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۳۴ الى ۴۱] ----- ۵۶۴۶
اشارة ----- ۵۶۴۷
التّفسير ----- ۵۶۴۷
التنزّه عن الهوى: ----- ۵۶۴۷
ملاحظات ----- ۵۶۴۸
۱- مقام الرّب؟ ----- ۵۶۴۸

۲- علاقة الطغيان بعبادة الدنيا ----- ۵۶۴۹
۳- فريقان لا ثالث لهما ----- ۵۶۴۹
الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۴۲ الى ۴۶] ----- ۵۶۵۰
اشارة ----- ۵۶۵۰
التّفسير ----- ۵۶۵۰
يوما لقيامة: الوقت المجهول! ----- ۵۶۵۰
سورة عبس ----- ۵۶۵۱
اشارة ----- ۵۶۵۱
محتوى السورة: ----- ۵۶۵۲
فضيلة السورة: ----- ۵۶۵۲
الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۱۰] ----- ۵۶۵۲
اشارة ----- ۵۶۵۲
سبب النّزول ----- ۵۶۵۲
التّفسير ----- ۵۶۵۴
عتاب ربّانى! ----- ۵۶۵۴
الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۱۱ الى ۲۳] ----- ۵۶۵۵
اشارة ----- ۵۶۵۵
التّفسير ----- ۵۶۵۵
الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۲۴ الى ۳۲] ----- ۵۶۵۹
اشارة ----- ۵۶۵۹
التّفسير ----- ۵۶۵۹
فلينظر الإنسان إلى طعامه: ----- ۵۶۵۹
بحث ----- ۵۶۶۳
الغذاء النافع: ----- ۵۶۶۳

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۳۳ الى ۴۲] ----- ۵۶۶۴
اشارة ----- ۵۶۶۴
التّفسير ----- ۵۶۶۴
صيحة البعث ... ----- ۵۶۶۴
بحث ----- ۵۶۶۶
أسس البناء الذاتى: ----- ۵۶۶۶
سورة التّكوير ----- ۵۶۶۷
اشارة ----- ۵۶۶۷
محتوى السورة: ----- ۵۶۶۷
فضيلة السورة: ----- ۵۶۶۷
الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۹] ----- ۵۶۶۸
اشارة ----- ۵۶۶۸
التّفسير ----- ۵۶۶۸
يوم تطوى الكائنات فيها! ----- ۵۶۶۸
ملاحظات ----- ۵۶۷۱
۱- وأد البنات ----- ۵۶۷۱
۲- أهمية المرأة فى الإسلام ----- ۵۶۷۱
۳- من الإنسان .. الموءودة أم الوائد؟ ----- ۵۶۷۲
الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴] ----- ۵۶۷۲
اشارة ----- ۵۶۷۲
التّفسير ----- ۵۶۷۲
يوم يرى الإنسان ما قدّم!! ----- ۵۶۷۲
بحثان ----- ۵۶۷۳
۱- تناسق الآيات ----- ۵۶۷۴

۲- هل ستنطفئ المنظومة الشمسية، و هل ستخمد النجوم؟؟ ----- ۵۶۷۴
الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۵ الى ۲۵] ----- ۵۶۷۵
اشارة ----- ۵۶۷۵
التّفسير ----- ۵۶۷۵
نزل به رسول كريم: ----- ۵۶۷۵
بحث ----- ۵۶۷۹
مؤهلات الرّسول: ----- ۵۶۷۹
الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹] ----- ۵۶۷۹
اشارة ----- ۵۶۷۹
التّفسير ----- ۵۶۷۹
إلى اين ... أيّها الغافلون؟! ----- ۵۶۸۰
سورة الإنفطار ----- ۵۶۸۱
اشارة ----- ۵۶۸۱
محتوى السورة: ----- ۵۶۸۱
فضيلة السورة: ----- ۵۶۸۲
الآيات [سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۶۸۲
اشارة ----- ۵۶۸۲
التّفسير ----- ۵۶۸۲
عند ما يحلّ الحدث المروع! ----- ۵۶۸۲
بحث ----- ۵۶۸۴
ما يخلفه الإنسان بعد موته: ----- ۵۶۸۴
الآيات [سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۶ الى ۱۲] ----- ۵۶۸۵
اشارة ----- ۵۶۸۵
التّفسير ----- ۵۶۸۵

لا داعی للغرور: ----- ۵۶۸۵
بحث ----- ۵۶۸۹
کتبة صحائف الأعمال: ----- ۵۶۸۹
الآیات [سورة الانفطار (۸۲): الآیات ۱۳ الی ۱۹] ----- ۵۶۹۰
اشارة ----- ۵۶۹۰
التّفسیر ----- ۵۶۹۰
«یوم ... لا تملک نفس لنفس شیئا»: ----- ۵۶۹۱
الجزء العشرون ----- ۵۷۱۴
نهایة تجربة و بدایة تجربة اخری ----- ۵۷۱۵
سورة المطفّفین ----- ۵۷۱۶
اشارة ----- ۵۷۱۶
محتوی السّورة: ----- ۵۷۱۶
فضیلة السّورة: ----- ۵۷۱۷
الآیات [سورة المطففین (۸۳): الآیات ۱ الی ۶] ----- ۵۷۱۷
اشارة ----- ۵۷۱۷
سبب النّزول ----- ۵۷۱۷
التّفسیر ----- ۵۷۱۷
وَیْلٌ لِلْمُطَفِّفِینَ ----- ۵۷۱۷
ملاحظة ----- ۵۷۱۹
التطفیف من عوامل الفساد فی الأرض: ----- ۵۷۱۹
الآیات [سورة المطففین (۸۳): الآیات ۷ الی ۱۰] ----- ۵۷۲۰
اشارة ----- ۵۷۲۰
التّفسیر ----- ۵۷۲۰
و ما أدراک ما سجّین؟! ----- ۵۷۲۰

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۱ الى ۱۷] ----- ۵۷۲۲
اشارة ----- ۵۷۲۲
التّفسير ----- ۵۷۲۳
صدأ الذنوب: ----- ۵۷۲۳
ملاحظتان ----- ۵۷۲۴
۱- لم كانت الذنوب صدأ القلب؟! ----- ۵۷۲۵
۲- حجاب الروح! ----- ۵۷۲۵
الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۸ الى ۲۸] ----- ۵۷۲۶
اشارة ----- ۵۷۲۶
التّفسير ----- ۵۷۲۶
عليّون فى انتظار الأبرار: ----- ۵۷۲۶
بحثان ----- ۵۷۲۹
۱- من هم «الأبرار» و «المقرّبين»؟ ----- ۵۷۲۹
۲- خمور الجنّة ----- ۵۷۲۹
الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۲۹ الى ۳۶] ----- ۵۷۳۰
اشارة ----- ۵۷۳۰
سبب النّزول ----- ۵۷۳۰
التّفسير ----- ۵۷۳۱
بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين .. أمّا!! ----- ۵۷۳۱
بحث ----- ۵۷۳۳
الاستهزاء ... سلاح بائس: ----- ۵۷۳۳
سورة الإنشقاق ----- ۵۷۳۴
اشارة ----- ۵۷۳۴
محتوى السّورة ----- ۵۷۳۴

فضيلة السّورة: ----- ۵۷۳۴
الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۹] ----- ۵۷۳۴
اشارة ----- ۵۷۳۴
التّفسير ----- ۵۷۳۴
نحو الكمال المطلق: ----- ۵۷۳۴
بحثان ----- ۵۷۳۷
۱- خذ العلم من علىّ عليه السّلام ----- ۵۷۳۷
۲- الدنيا دار بلاء ----- ۵۷۳۷
الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱۰ الى ۱۵] ----- ۵۷۳۸
اشارة ----- ۵۷۳۸
التّفسير ----- ۵۷۳۸
الذين يستلمون كتابهم من وراء ظهرهم: ----- ۵۷۳۸
الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱۶ الى ۲۵] ----- ۵۷۴۰
اشارة ----- ۵۷۴۰
التّفسير ----- ۵۷۴۰
سنّة التغيّر! ----- ۵۷۴۰
بحث ----- ۵۷۴۳
سورة البروج ----- ۵۷۴۴
اشارة ----- ۵۷۴۴
محتوى السّورة: ----- ۵۷۴۴
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۴۴
الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱ الى ۹] ----- ۵۷۴۵
اشارة ----- ۵۷۴۵
التّفسير ----- ۵۷۴۵

الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران! ----- ۵۷۴۵
بحثان ----- ۵۷۴۸
۱- من هم أصحاب الأخدود؟ ----- ۵۷۴۹
۲- الإيمان الثابت ----- ۵۷۵۰
الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱۰ الى ۱۶] ----- ۵۷۵۰
اشارة ----- ۵۷۵۱
التّفسير ----- ۵۷۵۱
العذاب الالهى للمجرمين: ----- ۵۷۵۱
الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱۷ الى ۲۲] ----- ۵۷۵۲
اشارة ----- ۵۷۵۳
التّفسير ----- ۵۷۵۳
ألم تر ما حلّ بجيش فرعون و ثمود؟! ----- ۵۷۵۳
سورة الطّارق ----- ۵۷۵۴
اشارة ----- ۵۷۵۴
محتوى السّورة: ----- ۵۷۵۴
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۵۵
الآيات [سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۰] ----- ۵۷۵۵
اشارة ----- ۵۷۵۵
التّفسير ----- ۵۷۵۵
ممّ خلق الإنسان؟! ----- ۵۷۵۵
الآيات [سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱۱ الى ۱۷] ----- ۵۷۵۹
اشارة ----- ۵۷۵۹
التّفسير ----- ۵۷۵۹
خواء خطط الأعداء: ----- ۵۷۵۹

سورة الأعلى ----- ۵۷۶۲
اشارة ----- ۵۷۶۲
محتوى السّورة: ----- ۵۷۶۲
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۶۲
و خلاصة القول: ----- ۵۷۶۳
الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۷۶۳
اشارة ----- ۵۷۶۳
التّفسير ----- ۵۷۶۴
تسبيح اللّه: ----- ۵۷۶۴
بحث ----- ۵۷۶۶
الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۶ الى ۱۳] ----- ۵۷۶۷
اشارة ----- ۵۷۶۷
التّفسير ----- ۵۷۶۷
التوفيق الرّبانى: ----- ۵۷۶۷
الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱۴ الى ۱۹] ----- ۵۷۶۹
اشارة ----- ۵۷۶۹
التّفسير ----- ۵۷۷۰
أسس دعوة الأنبياء جميعا عليهم السّلام: ----- ۵۷۷۰
بحث ----- ۵۷۷۲
شرح الحديث الشريف: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» ----- ۵۷۷۲
سورة الغاشية ----- ۵۷۷۳
اشارة ----- ۵۷۷۳
محتوى السّورة: ----- ۵۷۷۳
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۷۳

الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۵۷۷۴
اشارة ----- ۵۷۷۴
التّفسير ----- ۵۷۷۴
المتعبون .. الأخسرون! ----- ۵۷۷۴
الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۸ الى ۱۶] ----- ۵۷۷۵
اشارة ----- ۵۷۷۵
التّفسير ----- ۵۷۷۵
صور من نعيم الجنّة: ----- ۵۷۷۶
الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱۷ الى ۲۶] ----- ۵۷۷۷
اشارة ----- ۵۷۷۷
التّفسير ----- ۵۷۷۸
الإبل .. من آيات خلق اللّه: ----- ۵۷۷۸
سورة الفجر ----- ۵۷۸۲
اشارة ----- ۵۷۸۲
محتوى السّورة: ----- ۵۷۸۲
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۸۲
الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۷۸۳
اشارة ----- ۵۷۸۳
التّفسير ----- ۵۷۸۳
و الفجر ..! ----- ۵۷۸۳
الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۶ الى ۱۴] ----- ۵۷۸۶
اشارة ----- ۵۷۸۶
التّفسير ----- ۵۷۸۶
إمهال الظالمين .. و الانتقام! ----- ۵۷۸۶

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱۵ الى ۲۰] ----- ۵۷۹۰
اشارة ----- ۵۷۹۰
التّفسير ----- ۵۷۹۰
موقف الإنسان من تحصيل النعمة و سلبها! ----- ۵۷۹۰
الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۲۱ الى ۲۶] ----- ۵۷۹۲
اشارة ----- ۵۷۹۲
التّفسير ----- ۵۷۹۲
يوم لا تنفع الذكرى! ----- ۵۷۹۲
الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۲۷ الى ۳۰] ----- ۵۷۹۴
اشارة ----- ۵۷۹۴
التّفسير ----- ۵۷۹۵
الشّرف العظيم: ----- ۵۷۹۵
سورة البلد ----- ۵۷۹۶
اشارة ----- ۵۷۹۶
محتوى السّورة: ----- ۵۷۹۶
فضيلة السّورة: ----- ۵۷۹۷
الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۵۷۹۷
اشارة ----- ۵۷۹۷
التّفسير ----- ۵۷۹۷
لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ[۱۶۶] ----- ۵۷۹۷
الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۸ الى ۱۰] ----- ۵۷۹۹
اشارة ----- ۵۸۰۰
التّفسير ----- ۵۸۰۰
نعمة العين و اللسان و الهداية: ----- ۵۸۰۰

بحوث ----- ۵۸۰۱
۱- عجائب العين ----- ۵۸۰۱
۲- عجائب اللسان ----- ۵۸۰۲
۳- هداية النجدين ----- ۵۸۰۳
الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۱۱ الى ۲۰] ----- ۵۸۰۳
اشارة ----- ۵۸۰۳
التّفسير ----- ۵۸۰۴
العقبة! ----- ۵۸۰۴
ملاحظات ----- ۵۸۰۵
سورة الشّمس ----- ۵۸۰۷
اشارة ----- ۵۸۰۷
محتوى السّورة: ----- ۵۸۰۷
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۰۷
الآيات [سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱ الى ۱۰] ----- ۵۸۰۷
اشارة ----- ۵۸۰۷
التّفسير ----- ۵۸۰۷
ملاحظات ----- ۵۸۱۲
۱- ارتباط القسم القرآنى بجواب القسم ----- ۵۸۱۲
۲- دور الشمس فى عالم الحياة ----- ۵۸۱۲
الآيات [سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱۱ الى ۱۵] ----- ۵۸۱۳
اشارة ----- ۵۸۱۳
التّفسير ----- ۵۸۱۳
عاقبة مرّة للطغاة: ----- ۵۸۱۳
بحوث ----- ۵۸۱۵

۱- ملخص حديث قوم ثمود ----- ۵۸۱۵
۲- أشقى الأولين و أشقى الآخرين ----- ۵۸۱۵
۳- أهمية تهذيب النفس ----- ۵۸۱۶
سورة اللّيل ----- ۵۸۱۶
اشارة ----- ۵۸۱۷
محتوى السّورة: ----- ۵۸۱۷
فضيلة تلاوة السّورة: ----- ۵۸۱۷
الآيات [سورة الليل (۹۲): الآيات ۱ الى ۱۱] ----- ۵۸۱۷
اشارة ----- ۵۸۱۷
سبب النّزول ----- ۵۸۱۷
التّفسير ----- ۵۸۱۸
التقوى و الإمداد الإلهى: ----- ۵۸۱۸
الآيات [سورة الليل (۹۲): الآيات ۱۲ الى ۲۱] ----- ۵۸۲۰
اشارة ----- ۵۸۲۱
التّفسير ----- ۵۸۲۱
الإنفاق و النجاة من النّار: ----- ۵۸۲۱
بحثان ----- ۵۸۲۳
۱- حول سبب نزول سورة الليل ----- ۵۸۲۳
۲- فضيلة الإنفاق فى سبيل اللّه ----- ۵۸۲۴
سورة الضّحى ----- ۵۸۲۵
اشارة ----- ۵۸۲۵
محتوى السّورة: ----- ۵۸۲۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۲۵
الآيات [سورة الضحى (۹۳): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۸۲۶

اشارة ----- ۵۸۲۶
سبب النّزول ----- ۵۸۲۶
التّفسير ----- ۵۸۲۷
يعطيک فترضى: ----- ۵۸۲۷
بحث ----- ۵۸۲۸
فلسفة انقطاع الوحى: ----- ۵۸۲۸
الآيات [سورة الضحى (۹۳): الآيات ۶ الى ۱۱] ----- ۵۸۲۸
اشارة ----- ۵۸۲۹
التّفسير ----- ۵۸۲۹
الشكر على كلّ هذه النعم الإلهية: ----- ۵۸۲۹
بحوث ----- ۵۸۳۲
۱- القيادة المنطلقة من المعاناة و الآلام ----- ۵۸۳۲
۲- الاهتمام بالأيتام ----- ۵۸۳۲
۳- التحدّث بالنعم ----- ۵۸۳۴
سورة الشّرح ----- ۵۸۳۴
اشارة ----- ۵۸۳۴
محتوى السّورة: ----- ۵۸۳۴
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۳۵
الآيات [سورة الشرح (۹۴): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۸۳۵
اشارة ----- ۵۸۳۵
التّفسير ----- ۵۸۳۵
نعم إلهية: ----- ۵۸۳۵
ملاحظتان ----- ۵۸۳۹
سورة التّين ----- ۵۸۴۰

اشارة ----- ۵۸۴۰
محتوى السّورة و فضيلتها: ----- ۵۸۴۰
الآيات [سورة التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۸۴۱
اشارة ----- ۵۸۴۱
التّفسير ----- ۵۸۴۱
سورة العلق ----- ۵۸۴۴
اشارة ----- ۵۸۴۴
محتوى السّورة: ----- ۵۸۴۴
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۴۴
الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۸۴۵
اشارة ----- ۵۸۴۵
سبب النّزول ----- ۵۸۴۵
التّفسير ----- ۵۸۴۶
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ ----- ۵۸۴۶
بحثان ----- ۵۸۴۷
۱- بداية نزول الوحى مقرون ببداية حركة علمية ----- ۵۸۴۷
۲- باسم اللّه فى كلّ حال ----- ۵۸۴۸
الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۶ الى ۱۴] ----- ۵۸۴۹
اشارة ----- ۵۸۴۹
التّفسير ----- ۵۸۴۹
سبب الطغيان: ----- ۵۸۴۹
ملاحظة ----- ۵۸۵۰
عالم الوجود محضر اللّه: ----- ۵۸۵۰
الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۱۵ الى ۱۹] ----- ۵۸۵۱

اشارة ----- ۵۸۵۱
التّفسير ----- ۵۸۵۱
السجود و التقرب: ----- ۵۸۵۱
ملاحظة ----- ۵۸۵۳
الطغيان و الإحساس بالاستغناء: ----- ۵۸۵۳
سورة القدر ----- ۵۸۵۳
اشارة ----- ۵۸۵۴
محتوى السّورة: ----- ۵۸۵۴
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۵۴
الآيات [سورة القدر (۹۷): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۸۵۴
اشارة ----- ۵۸۵۴
التّفسير ----- ۵۸۵۵
ليلة القدر ليلة نزول القرآن: ----- ۵۸۵۵
بحوث ----- ۵۸۵۷
۱- ما هى الأمور التى تقدّر فى ليلة القدر؟ ----- ۵۸۵۷
۲- أية ليلة هى ليلة القدر؟ ----- ۵۸۵۸
۳- لماذا خفيت ليلة القدر؟ ----- ۵۸۵۸
۴- هل كانت ليلة القدر معروفة بين الأمم السابقة؟ ----- ۵۸۵۹
۵- ليلة القدر خير من ألف شهر ----- ۵۸۵۹
۶- لما ذا انزل القرآن فى ليلة القدر؟ ----- ۵۸۵۹
۷- هل ليلة القدر واحدة فى المعمورة؟ ----- ۵۸۶۰
سورة البيّنة ----- ۵۸۶۰
اشارة ----- ۵۸۶۰
محتوى السّورة: ----- ۵۸۶۰

فضيلة السّورة: ----- ۵۸۶۱
الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۸۶۱
اشارة ----- ۵۸۶۱
التّفسير ----- ۵۸۶۱
ذلک دين القيّمة: ----- ۵۸۶۱
الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۶ الى ۸] ----- ۵۸۶۴
اشارة ----- ۵۸۶۴
التّفسير ----- ۵۸۶۴
خير البريّة و شرّها: ----- ۵۸۶۴
بحوث ----- ۵۸۶۵
۱- على عليه السّلام و شيعته خير البريّة ----- ۵۸۶۵
۲- ضرورة إخلاص النيّة فى العبادة ----- ۵۸۶۷
۳- منحنى الصعود و السقوط ----- ۵۸۶۷
سورة الزّلزلة ----- ۵۸۶۷
اشارة ----- ۵۸۶۷
محتوى السّورة: ----- ۵۸۶۷
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۶۸
الآيات [سورة الزلزلة (۹۹): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۸۶۸
اشارة ----- ۵۸۶۸
التّفسير ----- ۵۸۶۸
يوم يرى النّاس أعمالهم: ----- ۵۸۶۸
بحوث ----- ۵۸۷۱
۱- الدقّة فى تحرى الأعمال ----- ۵۸۷۱
۲- جواب على سؤال ----- ۵۸۷۲

۳- الآية الجامعة ----- ۵۸۷۲
سورة العاديات ----- ۵۸۷۳
اشارة ----- ۵۸۷۳
محتوى السّورة: ----- ۵۸۷۳
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۷۴
الآيات [سورة العاديات (۱۰۰): الآيات ۱ الى ۱۱] ----- ۵۸۷۴
اشارة ----- ۵۸۷۴
سبب النّزول ----- ۵۸۷۴
التّفسير ----- ۵۸۷۵
قسما بالمجاهدين الواعين: ----- ۵۸۷۵
مسائل: ----- ۵۸۷۹
۱- ارتباط قسم هذه السّورة بأهدافها ----- ۵۸۷۹
۲- هل الإنسان كنود بطبيعته؟ ----- ۵۸۸۰
۳- عظمة الجهاد ----- ۵۸۸۰
سورة القارعة ----- ۵۸۸۱
اشارة ----- ۵۸۸۱
محتوى السّورة: ----- ۵۸۸۱
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۸۱
الآيات [سورة القارعة (۱۰۱): الآيات ۱ الى ۱۱] ----- ۵۸۸۱
اشارة ----- ۵۸۸۱
التّفسير ----- ۵۸۸۲
الحادثة القارعة: ----- ۵۸۸۲
بحث ----- ۵۸۸۴
سبب ثقل ميزان الأعمال: ----- ۵۸۸۴

سورة التّكاثر ----- ۵۸۸۵
اشارة ----- ۵۸۸۵
محتوى السّورة: ----- ۵۸۸۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۸۵
الآيات [سورة التكاثر (۱۰۲): الآيات ۱ الى ۸] ----- ۵۸۸۵
اشارة ----- ۵۸۸۶
سبب النّزول ----- ۵۸۸۶
التّفسير ----- ۵۸۸۶
بلاء التكاثر و التفاخر: ----- ۵۸۸۶
بحوث ----- ۵۸۸۷
۱- منبع التفاخر و التكاثر ----- ۵۸۸۷
۲- اليقين و مراحله ----- ۵۸۸۸
۳- الجميع يرى جهنم ----- ۵۸۸۹
۴- أيّ نعيم يسأل عنه يوم القيامة؟ ----- ۵۸۹۰
سورة العصر ----- ۵۸۹۰
اشارة ----- ۵۸۹۰
محتوى السّورة: ----- ۵۸۹۱
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۹۱
الآيات [سورة العصر (۱۰۳): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۸۹۱
اشارة ----- ۵۸۹۱
التّفسير ----- ۵۸۹۱
طريق النجاة الوحيد: ----- ۵۸۹۱
بحث ----- ۵۸۹۴
منهج السعادة ذو المواد الأربع: ----- ۵۸۹۴

سورة الهمزة ----- ۵۸۹۶
اشارة ----- ۵۸۹۶
محتوى السّورة: ----- ۵۸۹۶
فضيلة السّورة: ----- ۵۸۹۶
الآيات [سورة الهمزة (۱۰۴): الآيات ۱ الى ۹] ----- ۵۸۹۶
اشارة ----- ۵۸۹۶
سبب النّزول ----- ۵۸۹۶
التّفسير ----- ۵۸۹۷
الويل للهمّازين و اللمّازين: ----- ۵۸۹۷
بحثان ----- ۵۹۰۰
۱- الكبر و الغرور أساس الذنوب الكبيرة ----- ۵۹۰۰
۲- الحرص على جمع المال ----- ۵۹۰۱
سورة الفيل ----- ۵۹۰۲
اشارة ----- ۵۹۰۲
محتوى السّورة: ----- ۵۹۰۲
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۰۳
الآيات [سورة الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۹۰۳
اشارة ----- ۵۹۰۳
سبب النّزول ----- ۵۹۰۳
اشارة ----- ۵۹۰۳
قصّة أصحاب الفيل: ----- ۵۹۰۳
التّفسير ----- ۵۹۰۵
كيد ابرهة: ----- ۵۹۰۵
بحوث ----- ۵۹۰۶

۱- المعجزة (للبيت ربّ يحميه) ----- ۵۹۰۶
۲- أشد الجزاء بأبسط وسيلة ----- ۵۹۰۷
۳- أهداف قصّة الفيل ----- ۵۹۰۷
۴- حادثة تاريخية قطعية ----- ۵۹۰۸
سورة قريش ----- ۵۹۰۸
اشارة ----- ۵۹۰۸
محتوى السّورة: ----- ۵۹۰۸
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۰۹
الآيات [سورة قريش (۱۰۶): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۹۰۹
اشارة ----- ۵۹۰۹
التّفسير ----- ۵۹۰۹
ربّ هذا البيت يجب أن يعبد: ----- ۵۹۰۹
سورة الماعون ----- ۵۹۱۱
اشارة ----- ۵۹۱۱
محتوى السّورة: ----- ۵۹۱۱
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۱۱
الآيات [سورة الماعون (۱۰۷): الآيات ۱ الى ۷] ----- ۵۹۱۲
اشارة ----- ۵۹۱۲
التّفسير ----- ۵۹۱۲
إنكار المعاد و آثاره المشؤومة: ----- ۵۹۱۲
تعقيب ----- ۵۹۱۴
۱- تلخيص موضوعات سورة الماعون ----- ۵۹۱۴
۲- التظاهر و الرياء بلاء اجتماعى كبير ----- ۵۹۱۴
سورة الكوثر ----- ۵۹۱۵

اشارة ----- ۵۹۱۵
محتوى السّورة: ----- ۵۹۱۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۱۶
الآيات [سورة الكوثر (۱۰۸): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۹۱۶
اشارة ----- ۵۹۱۶
التّفسير ----- ۵۹۱۶
أعطيناک الخير العميم، ----- ۵۹۱۶
بحوث ----- ۵۹۱۸
۱- فاطمة عليها السّلام و الكوثر ----- ۵۹۱۸
۲- إعجاز السّورة ----- ۵۹۱۹
۳- «إنّا» بصيغة الجمع، لما ذا؟ ----- ۵۹۱۹
سورة الكافرون ----- ۵۹۲۰
اشارة ----- ۵۹۲۰
محتوى السّورة: ----- ۵۹۲۰
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۲۰
الآيات [سورة الكافرون (۱۰۹): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۹۲۱
اشارة ----- ۵۹۲۱
سبب النّزول ----- ۵۹۲۱
التّفسير ----- ۵۹۲۱
لا أهادن الكافرين: ----- ۵۹۲۱
أسئلة: ----- ۵۹۲۲
۱- لما ذا بدأت السّورة بفعل الأمر «قل» ----- ۵۹۲۲
۲- أ كان عبدة الأصنام منكرين للّه؟ ----- ۵۹۲۲
۳- لم هذا التكرار؟ ----- ۵۹۲۳

۴- هل الآية لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ تعنى جواز عبادة الأصنام؟! ----- ۵۹۲۳
۵- هل هادن الشرک یوما؟ ----- ۵۹۲۴
سورة النّصر ----- ۵۹۲۴
اشارة ----- ۵۹۲۵
محتوى السّورة: ----- ۵۹۲۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۲۵
الآيات [سورة النصر (۱۱۰): الآيات ۱ الى ۳] ----- ۵۹۲۶
اشارة ----- ۵۹۲۶
التّفسير ----- ۵۹۲۶
عند انبلاج فجر النصر: ----- ۵۹۲۶
بحث ----- ۵۹۲۸
عند فتح مكّة: ----- ۵۹۲۸
سورة تبّت ----- ۵۹۳۱
اشارة ----- ۵۹۳۱
محتوى السّورة: ----- ۵۹۳۱
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۳۱
الآيات [سورة المسد (۱۱۱): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۹۳۱
اشارة ----- ۵۹۳۱
سبب النّزول ----- ۵۹۳۱
التّفسير ----- ۵۹۳۲
تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ ----- ۵۹۳۲
ملاحظات ----- ۵۹۳۴
۱- إعجاز آخر ----- ۵۹۳۴
۲- جواب عن سؤال ----- ۵۹۳۴

سورة الإخلاص ----- ۵۹۳۵
اشارة ----- ۵۹۳۵
محتوى السّورة: ----- ۵۹۳۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۳۶
الآيات [سورة الإخلاص (۱۱۲): الآيات ۱ الى ۴] ----- ۵۹۳۷
اشارة ----- ۵۹۳۷
التّفسير ----- ۵۹۳۷
أحد- صمد: ----- ۵۹۳۷
بحوث ----- ۵۹۴۱
الأوّل: التوحيد ----- ۵۹۴۱
الثّانى: فروع دوحة التوحيد ----- ۵۹۴۳
الثّالث: التوحيد الأفعالى ----- ۵۹۴۳
اشارة ----- ۵۹۴۳
۱- توحيد الخالقية ----- ۵۹۴۳
۲- توحيد الربوبية ----- ۵۹۴۳
۳- التوحيد فى التقنين و التشريع ----- ۵۹۴۴
۴- التوحيد فى المالكية ----- ۵۹۴۴
۵- توحيد الحاكمية ----- ۵۹۴۴
۶- توحيد الطاعة ----- ۵۹۴۴
سورة الفلق ----- ۵۹۴۵
اشارة ----- ۵۹۴۵
محتوى السّورة: ----- ۵۹۴۵
فضيلة السّورة: ----- ۵۹۴۶
الآيات [سورة الفلق (۱۱۳): الآيات ۱ الى ۵] ----- ۵۹۴۶

اشارة ----- ۵۹۴۶
التّفسير ----- ۵۹۴۶
بربّ الفلق أعوذ: ----- ۵۹۴۶
بحوث ----- ۵۹۴۸
۱- أخطر مصادر الشرّ و الفساد ----- ۵۹۴۸
۲- تناسب الآيات ----- ۵۹۴۸
۳- تأثير السحر ----- ۵۹۴۸
۴- شرّ الحاسدين ----- ۵۹۴۹
سورة النّاس ----- ۵۹۴۹
اشارة ----- ۵۹۴۹
محتوى السّورة: ----- ۵۹۴۹
و فضيلة السّورة: ----- ۵۹۵۰
الآيات [سورة الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶] ----- ۵۹۵۰
اشارة ----- ۵۹۵۰
التّفسير ----- ۵۹۵۰
بربّ النّاس أعوذ: ----- ۵۹۵۰
ملاحظات ----- ۵۹۵۲
۱- لما ذا نستعيذ باللّه؟! ----- ۵۹۵۲
۲- لما ذا تكررت كلمة «النّاس» ----- ۵۹۵۲
۳- معنى الخناس على لسان الرّواية ----- ۵۹۵۲
تعريف مركز ----- ۵۹۷۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : الامثل فی تفسیر کتاب‌الله المنزل/ تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست : [ویرایش]۲

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام علی‌بن ابی‌طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ج ۲۰

شابک : ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۰(ج.۱۰) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱(ج.۱۱) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۲(ج.۱۲) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳) ؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتاب حاضر ترجمه و تلخیص" تفسیر نمونه "است

یادداشت : کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت : کتابنامه

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مدرسه الامام علی‌بن ابی‌طالب(ع)

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ت۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م۷۹-۱۰۳۹۱

الجزء الأول

الأمثل من جديد

لكلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلباته، و هی تنطلق من الأوضاع الاجتماعيّه و الفكريّة السائدة فی ذلك العصر، و لكلّ عصر مشاكله و ملابساته النّاتجة من تغيير المجتمعات و الثّقافات، و هو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التّاريخيّة الفكرية الفاعلة، هو ذلك الّذی فهم الضّرورات و المتطلبات، و أدرك المشاكل و الملابسات.

هذا ما قاله البحاثة الفريد الفقيه و المفسر المعاصر الأمثل، العلّامة آية اللّه العظمی مكارم الشّيرازی فی دوافع تأليف تفسيره الأمثل.

و يقول: واجهنا دوما أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات- و خاصة الشباب المتعطّش الی نبع القرآن- عن التّفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوی ضمنيا علی بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق و لا عن تقليد و يجيب علی ما فی الساحة من احتياجات و تطلّعات و آلام و آمال ... تفسير يجدی كل الفئات، و يخلو من المصطلحات العلميّة المعقّدة.

و هذا التّفسير دوّن علی أساس هذين الهدفين.

و لتنفیذ هذا الهدف العظیم، صـمّم القسم الثّقافی لمدرسة الامام أمیر المؤمنین علیه السّلام بعرض جدید لکامل التّفسیر الأمثل، فأعاد النظر و إمعان فیه بدقّة، مع تصـحیح الأخطاء المطبعیّة و الإنشائیّه و الإملائیّة، و اضافة کثیر من الأحادیث الّتی کانت محذوفة فی الطبعة الاولی.

نأمل أن یکون مقبولا لدی الباری عزّ اسمه و جمیع الباحثین فی حقائق القرآن الکریم.

القسم الثّقافی لمدرسة الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

المقدّمة

ما هو التّفسیر؟

التّفسیر فی اللغة الإبانة و إماطة اللّثام.

و لکن هل یحتاج القرآن إلی إبانة و إماطة لثام ... و هو «النّور» و «الکلام المبین»؟! کلّا، لیس علی وجه القرآن لثام أو نقاب ... بل إنّنا بالتّفسیر ینبغی أن نکشف اللثام عن روحنا، و نزیح الستار المسدول علی بصیرتنا، فنستجلی بذلک مفاهیم القرآن و نعیش أجواءه.

من جهة اخری، لیس للقرآن بعد واحد ... نعم، له بعد عام میسّر للجمیع، ینیر الطریق، و یهدی البشریّة إلی سواء السبیل.

و له أیضـا أبعاد اخری للعلماء و المتفکّرین، لأولئک الطامحین إلی مزیـد من الارتواء ... و هؤلاء یجـدون فی القرآن ما یروی ظمأهم إلی الحقیقة، و یغرفون من بحره قدر آنیتهم ... و تتسع الآنیة باتّساع دائرة السعی و الجهد و الإخلاص.

هـذه الأبعـاد أطلقت علیها الأحادیث اسم «البطون» ... بطون القرآن ... و هی لا تتجلّی للجمیع، أو بعبارة أدقّ لا تقوی کلّ العیون علی رؤیتها.

و التّفسیر یمنح العیون قوة، و یقشع عن البصائر الحجب و الأستار، و یمنحنا اللیاقة لرؤیة تلک الأبعاد بدرجة و اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶

و للقرآن أبعـاد اخری تنجلی بمرور الزمـان و تعاقب التجارب البشـریة و نموّ الکفاءات الفکریّـة، و هـذا ما أشار إلیه ابن عباس إذ قال: «القرآن یفسّره الزمان».

أضف إلی ذلک أنّ «القرآن یفسّر بعضه بعضا»، و هذا لا یتنافی مع کونه نورا و کلاما مبینا، لأنّه کلّ لا یتجزأ، و جمیع لا تفرّد، یشکّل بمجموعه النور و الکلام المبین.

متی بدأ تفسیر القرآن؟

تفسـیر القرآن بالمعنی الحقیقی بدأ منذ عصـر رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و اله و سـلّم، بل من بدء نزول الوحی إلّا أنّه ک «علم مدوّن» بـدأ من زمن أمیر المؤمنین علی بن أبی طـالب علیه السّلام کمـا تجمع علی ذلـک أقوال المورّخین و المفسّـرین، و رجـال هـذا العلم یصلون بسلسلة أسانیدهم إلیه، و لا عجب فی ذلک، فهو باب مدینة علم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

إنّ مئات التفاسـیر کتبت لحـدّ الآن، و بلغات مختلفـة، و بأسالیب و مناهـج متنوعـة، منها الأدبی، و الفلسـفی، و الأخلاقی، و الروائی، و التأریخی، و العلمی، و کلّ واحد من المفسّرین تناول القرآن من زاویة تخصّصه.

و فی هذا «بستان» مثمر و مزدهر ...، شغف أحدهم بمناظره الشاعریّة الخلّابة.

و آخر عکف علی ما فیه من أشکالیات طبیعیّة ترتبط بتکوین النبات و هندسة الأزهار و عمل الجذور.

و ثالث ألفت نظره الی المواد الغذائیة المستفادة منه.

و رابع اتّجه إلی دارسة الخواصّ العلاجیّة فی نباتاته.

و خامس اهتمّ بکشف أسرار الخلقة فی عجائب ثماره الیانعة و أوراده الملوّنة.

و سادس راح یفکّر من أیّ أزهاره یستطیع استخراج أفضل العطور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۷

و سابع کالنحلة لا تفکّر إلّا بامتصاص رحیق الورد لتهیئة العسل.

و هکذا روّاد طریق التّفسیر القرآنی، عکس کلّ منهم بما یملکه من مرآة خاصّة، مظهرا من مظاهر جمال القرآن و أسراره.

واضح أنّ کلّ هذه التفاسیر فی الوقت الذی تعتبر فیه تفسیرا للقرآن، إلّا أنها لیست تفسیرا للقرآن، لأنّ کلّ واحد منها یمیط اللثام عن بعد من أبعاد القرآن لا عن کلّ الأبعاد، و حتی لو جمعناها لتجلّی من خلالها بعض أبعاد القرآن لا جمیع أبعاده.

ذلک لأنّ القرآن کلام اللّه و فیض من علمه اللامتناهی، و کلامه مظهر لعلمه، و علمه مظهر لذاته، و کلّها لا متناهیة.

من هنا، لا ینبغی أن نتوقع استطاعة البشر إدراک جمیع أبعاد القرآن، فالکوز لا یسع البحر.

طبعا، ممّا لا شکّ فیه أنّنا نستطیع أن نغرف من هذا البحر الکبیر ... الکبیر جدا ... بقدر سعة آنیة فکرنا، و من هنا کان علی العلماء فرض أن لا یتوانوا فی کلّ عصر و زمان عن کشف مزید من حقائق القرآن الکریم، و أن یبذلوا جهودهم المخلصة فی هذا المجال ما استطاعوا، علیهم أن یستفیدوا ممّا خلّفه الأسلاف رضوان اللّه علیهم فی هذا المجال، و لکن لا یجوز لهم أن یکتفوا به،

فرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال عن کتاب اللّه العزیز: «لا تحصی عجائبه، و لا تبلی غرائبه».

خطر التّفسیر بالرأی:

أخطر طریقة فی تفسیر القرآن هی أن یأتی المفسّر إلی کتاب اللّه العزیز معلّما لا تلمیذا.

أی یأتی إلیه لیفرض أفکاره علی القرآن، و لیعرض رؤاه و تصوراته المتولّدة من إفرازات البیئة و التخصّص العلمی، و الاتّجاه المذهبیّ الخاص،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۸

و الذّوق الشّخصی، باسم القرآن، و بشکل تفسیر للقرآن، مثل هذا الشخص لا یتّخذ القرآن هادیا و إماما، بل یتّخذه وسیلة لإثبات نظریاته و تبریر ذوقه و أفکاره.

هذا اللون من تفسیر القرآن- أو قل تفسیر الأفکار الشخصیة بالقرآن- راج بین جماعة، و لیس وراءه إلّا الانحراف ... الانحراف عن طریق اللّه ... و الانزلاق فی متاهات الضّلال.

إنّه لیس بتفسیر، و إنّما هو قسر و فرض و تحمیل ... لیس باستفتاء، و إنّما إفتاء ... لیس بهدایة، و إنّما هو الضلال ... إنّه مسخ و تفسیر بالرأی، و نحن فی منهجنا التّفسیری سوف لا ننحو- بإذن اللّه- هذا النحو، بل نتّجه بکلّ قلوبنا و أفکارنا نحو القرآن لنتتلمذ علیه، لا غیر.

متطلّبات العصر:

لکلّ عصر خصائصه و ضروراته و متطلّباته، و هی تنطلق من الأوضاع الاجتماعیة و المتغیّرات الفکریة و المستجدّات الثقافیة الطارئة علی مفاصل الحیاة فی ذلک العصر.

و لكلّ عصر مشاكله و ملابساته الناتجة عن تغيير المجتمعات و الثقافات، و هو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التأريخية.

المفكّر الفاعل فى الحياة الاجتماعية هو ذلك الذى فهم الضرورات و المتطلّبات، و أدرك المشاكل و الملابسات ... و بعبارة اخرى هو الذى استوعب مسائل عصره.

أمّا أولئك الّذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقا، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتمائهم إلى عصرهم، أى بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشيّون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹

الذين لا يقدرون على التأثير و لا على المعالجة، بل يقفون دوما متأسّفين و متحسّرين و شاكين و منتقدين، و يزداد تشاؤمهم و يأسهم باستمرار حتى يقعوا فى طامّة «الانزواء الاجتماعى».

ذلك لأنّهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم و مشاكله.

هؤلاء يعيشون فى ظلام مطبق، و بسبب عدم تفهّمهم لأسباب الحوادث و عللها و نتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث و يرتبكون و يخافون و يظلّون دون خطّة للمواجهة و الدفاع، و بما أنّ مسيرتهم فى الظلام فسوف تزلّ قدمهم فى كلّ خطوة، و ما أجمل ما

قاله الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللّوابس».

رسالة العلماء فى كلّ عصر أن يدركوا بوعى كامل هذه المسائل ... هذه الاحتياجات، و هذا الفراغ الروحى و الفكرى و الاجتماعى، و أن يسعوا لمعالجتها بشكل صحيح كى لا يفسحوا المجال للأطروحات المنحرفة أن تخترق الساحة و تملأ الفراغ و تقدّم الحلول الكاذبة.

من المسائل التى تلمّسناها بوضوح عطش الجيل الراهن لدرك المفاهيم الإسلاميّة و المسائل الدينيّة- و خلافا لما يردّده اليائسون و المتشائمون- إنّ هذا الجيل لا يتوق إلى الفهم فحسب، بل يتلهف إلى التطبيق العملى لهذه المفاهيم و المسائل، و لمس المعطيات الدّينيّة من خلال العمل بها.

من الواضح أنّ أمام هذا الجيل التوّاق مسائل غامضة و نقاط إبهام و مواضع استفهام كثيرة، و الخطوة الاولى لتلبية هذه الحاجات إعادة كتابة التراث العلمى و الفكرى الإسلامى بلغة العصر، و تقديم كلّ هذه المفاهيم السامية عن طريق هذه اللغة إلى روح الجيل و عقله.

و الخطوة الاخرى استنباط الاحتياجات و المتطلّبات الخاصة بهذا الزمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰

من مبادئ الإسلام العامّة.

و هذا التّفسير دوّن على أساس هذين الهدفين.

الأمثل بين التفاسير:

واجهنا دوما أسئلة وردت إلينا من مختلف الفئات و خاصّة الشباب المتعطّش إلى نبع القرآن عن التّفسير الأفضل.

هذه الأسئلة تنطوى ضمنيا على بحث عن تفسير يبيّن عظمة القرآن عن تحقيق لا تقليد، و يجيب على ما فى الساحة من احتياجات و تطلّعات و آلام و آمال ... تفسير نافع لكلّ الفئات، و يخلو من المصطلحات العلميّة المعقّدة.

فى الواقع نحن نفتقر إلى مثل هذا التّفسير، فالأسلاف و المعاصرون رضوان اللّه عليهم كتبوا فى حقل التّفسير كثيرا، لكنّ بعضها كتب قبل عدّة قرون و بأسلوب خاصّ لا يستفيد منه إلّا العلماء و الأدباء، و بعضها مدوّن بمستوى علمى لا يدركه سوى الخواصّ، و بعضها تناول جانبا معيّنا من القرآن، و كأنّها باقة ورد اقتطفت من بستان مزدان، فهى قبس من هذا البستان، و ليست البستان ... و هكذا.

من هنا لم نجد أمام هذه الأسئلة المتدفّقة علینا جوابا مقنعا یرضی هذه الأرواح المتعطّشة التّواقة. فآلینا علی أنفسنا أن نجیب علی هذا السؤال عملیّا، فالکلام لا یرضی السائلین.

لکنّنا وجدنا أنفسنا فی خضمّ الأشغال المتزایدة من جهة، و أمام القرآن ...

البحر الذی لا ساحل له ... من جهة اخری، فأنّی لنا أن نخوض عبابه دون عدّة و وقت و استعداد فکری، لذلک وقفنا علی ضفاف هذا البحر الموّاج ننظر إلیه بحسرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱

و فجأة هدانا اللّه إلی الطریق الحلّ، و انقدحت فی الذهن فکرة العمل الجماعی، فکان أن اجتمع معنا علی الطریق عشرة من الفضلاء المخلصین الواعین کانوا حقّا مصداق «عشرة کاملة» فبذلت المساعی الدائبة لیلا و نهارا لتثمر خلال مدّة أقصر ممّا توقّعناها هذا الذی یراه القارئ الکریم.

و لکی لا تبقی نقطة غموض أمام القارئ الکریم نشرح باختصار منهج عملنا فی هذا التّفسیر.

قسّمت الآیات الکریمة أوّلا فی الفروع المختلفة بین الاخوة و بتوجیه موحّد، و درسوا المصادر المختلفة فی التّفسیر لکبار المفسّرین من علماء الشیعة و أهل السنّة، مثل:

۱- مجمع البیان للشیخ الطبرسی. ۲- أنوار التنزیل للقاضی البیضاوی.

۳- الدرّ المنثور لجلال الدین السیوطی. ۴- البرهان للمحدّث البحرانی.

۵- المیزان للعلّامة الطباطبائی. ۶- المنار، تقریر دروس للشیخ محمّد عبده.

۷- فی ضلال القرآن للأستاذ سید قطب. ۸- المراغی لأحمد مصطفی المراغی.

۹- مفاتیح الغیب للفخر الرازی. ۱۰- روح الجنان لأبی الفتوح الرازی.

۱۱- أسباب النّزول للواحدی. ۱۲- تفسیر القرطبی لمحمّد بن أحمد الأنصاری القرطبی. ۱۳- روح المعانی للعلّامة شهاب الدین الآلوسی.

۱۴- نور الثقلین لعبد علی بن جمعة الحویزی. ۱۵- الصافی للملّا محسن الفیض الکاشانی. ۱۶- التبیان للشیخ الطوسی. و تفاسیر اخری ...

ثمّ جمعنا من المفاهیم ما یتناسب مع متطلّبات عصرنا و احتیاجاته، و فی الجلسات العامّة التی عقدناها یومیّا أضفنا إلی کلّ ذلک المستجدات الضروریة من المعارف القرآنیة، و بعد دراسات و مشاورات حول المباحث المختلفة، و مراجعة المصادر المتنوعة، أملیت تلک البحوث و دوّنها الاخوان بسرعة، ثمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲

راجعنا الکتابات و دقّقنا فیها بصبر وسعة صدر، و أعددناها للطبع، و بعد الطبع أیضا- و قبل مرحلة النشر- أعید النظر فیها مرة اخری.

و کانت نتیجة هذه الجهود ما یراه القارئ العزیز، و نرجو أن یکون بإذن اللّه نافعا مفیدا للجمیع.

خصائص هذا التّفسیر:

لکی یرد القرّاء الأعزّاء إلی هذا التّفسیر برؤیة أوضح، و لیجدوا فیه ما یریدونه بشکل أیسر، نذکر باختصار خصائص هذا التّفسیر و مزایاه:

۱- لمّا کان القرآن «کتاب حیاة» فإنّا لم نرکّز- فی التّفسیر- علی المسائل الأدبیة و العرفانیّة، بل بدلا من ذلک عالجنا المسائل الحیویة- المادیّة و المعنویّة- و خاصّة المسائل الاجتماعیّة، و سعینا إلی إشباعها بحثا و تحلیلا، و خاصّة ما یرتبط من قریب بحیاة الفرد

و المجتمع.

۲- فی ذیل کلّ آیة تناولنا تحت عنوان «بحوث» المسائل المطروحة فی الآیة بشکل مستقل، کالربا، و الرّق، و حقوق المرأة، و فلسفة الحج، و أسرار تحریم القمار، و الخمر، و لحم الخنزیر، و مسائل الجهاد الإسلامی، و أمثالها من الموضوعات، کی یستغنی القارئ عن مراجعة الکتب الاخری فی هذه المجالات.

۳- عزفنا عن تناول البحوث ذات الفائدة القلیلة، و أعطینا الأهمیّة لمعانی الکلمات و أسباب النّزول ممّا له تأثیر فی الفهم الدقیق لمعنی الآیة.

۴- عرضنا التساؤلات و الشبهات و الاعتراضات المطروحة حول أصول الإسلام و فروعه بمناسبة کلّ آیة، و ذکرنا الجواب علیها باختصار، مثل شبهة الآکل و المأکول، و المعراج، و تعدّد الزوجات، و سبب الاختلاف بین إرث المرأة و الرجل، و دیة المرأة و الرجل، و الحروف المقطّعة فی القرآن، و نسخ الأحکام، و الغزوات الإسلامیّة، و الاختبارات الإلهیّة، و عشرات المسائل الاخری، کی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳

تبقی أیّة علامة استفهام عند مطالعة تفسیر الآیات.

۵- أعرضنا عن استعمال المصطلحات العلمیة المعقّدة التی تجعل الکتاب خاصّا بفئة خاصّة من القرّاء، ولدی الضرورة تناولنا ذلک فی هامش الکتاب من أجل استفادة المتخصّصین.

نسأل اللّه سبحانه أن یأخذ بأیدینا لما فیه رضاه، و یوفّق کلّ العالمین لخدمة کتابه العظیم.

الصّحوة الإسلامیة المعاصرة و زیادة الحاجة إلی تفسیر القرآن:

تشهد أمتنا الإسلامیّة خلال هذه الأعوام صحوة إسلامیّة عامّة، تتمثل فی رفض کلّ المستوردات الفکریّة، و العودة إلی الإسلام، لإقامة حیاتها علی أساس أحکام الرسالة الخاتمة.

هذه الصّحوة تعود إلی فشل کلّ الأطروحات الوضعیة الکافرة فی تحقیق ما لوّحت به من تقدّمیّة و تحرّر و سعادة کما تعود أیضا إلی العواطف الإسلامیّة المتوغّلة فی أعماق أبناء الامّة.

و یتحمّل العلماء الواعون فی هذه المرحلة الحسّاسة مسئولیّات کبری تفرض علیهم أن یعمّقوا هذا التحرک الواعی بین صفوف الامّة و یجذّروه و یؤصّلوه، کی تکون المسیرة علی بصیرة فی حرکتها و علی یقظة فی اتّخاذ قراراتها، و علی ثقة من أنّها تسلک الطریق نحو أهدافها الإسلامیّة الکبری دون زیغ أو انحراف أو التقاط.

و کتاب اللّه هدی و نور، و فیه الإطار العامّ للمسیرة، و فیه الزاد اللازم لمواصلة الطریق المستقیم نحو ربّ العالمین.

و أخیرا نشکر جهود العلماء و الفضلاء الذین شارکونا فی تألیف هذا التفسیر الجلیل:

۱- الشیخ محمّد رضا الآشتیانی.

۲- الشیخ محمّد جعفر الإمامی.

۳- الشیخ داود الإلهامی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴

۴- الشیخ أسد اللّه الإیمانی ۵- الشیخ عبد الرسول الحسنی.

۶- السید حسن الشجاعی.

۷- السید نور اللّه الطباطبائی.

۸- الشیخ محمود عبد اللهی.

۹- الشیخ محسن القرائتی.

۱۰- الشیخ محمّد محمّدی الإشتهاردی و کذلک نشکر الإخوة الأفاضل الأستاذ محمد علی آذرشب، الشّیخ محمد رضا آل صادق، الأستاذ خالد توفیق عیسی، السیّد محمّد الهاشمی، الأستاذ قصی هاشم فاخر، الأستاذ أسد مولوی، الشیخ مهدی الأنصاری و السیّد أحمد القبانچی و الشّیخ هاشم الصالحی بمساهمتهم فی تنقیح و إخراج هذا السفر الجلیل و داموا مشکورین.

نسأل اللّه سبحانه أن نکون بهذا التّفسیر قد ساهمنا فی إعلان کلمة القرآن بشأن واقعنا، و بشأن مستقبلنا، و بشأن ما یجب أن نفعله للخروج من الواقع المؤلم الذی تعیش فیه أمتنا.

و نسأله سبحانه أنّ یوفّق کلّ العالمین علی إعلاء رایة القرآن فی العالم و یسدّد خطاهم و ینصرهم علی أعدائهم.

نسأله جلّ و علا أن یوفّق العلماء و المفکّرین الواعین الملتزمین إلی قیادة هذا التحرک الإسلامی المتصاعد فی کلّ أرجاء العالم الإسلامی، قیادة أصیلة قائمة علی هدی القرآن و السنة.

و نتضرّع إلیه أن یوفّقنا لإکمال بقیّة أجزاء هذا التّفسیر و أن یتقبّل من کلّ العاملین علیه فی أی سبیل إنّه تعالی سمیع مجیب.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمین.

ناصر مکارم الشیرازی قم- الحوزة العلمیة ۱۴۰۴ ه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۵

سورة الحمد

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها سبع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷

بسم الله الرحمن الرحیم سورة الحمد

خصائصها:

لهذه السّورة مکانة متمیّزة بین سائر سور القرآن الکریم، و تتمیز بالخصائص التالیة:

۱- سیاق السّورة- تختلف سورة الحمد عن سائر سور القرآن فی لحنها و سیاقها، فسیاق السور الاخری یعبّر عن کلام اللّه، و سیاق هذه السّورة یعبّر عن کلام عباد اللّه. و بعبارة اخری: شاء اللّه فی هذه السّورة أن یعلّم عباده طریقة خطابهم له و مناجاتهم إیّاه.

تبدأ هذه السّورة بحمد اللّه و الثناء علیه، و تستمر فی إقرار الإیمان بالمبدأ و المعاد «باللّه و یوم القیامة» و تنتهی بالتضرع و الطلب.

الإنسان الواعی المتیقّظ یحسّ و هو یقرأ هذه السّورة بأنّه یعرج علی أجنحة الملائکة، و یسمو فی عالم الروح و المعنویة، و یدنو باستمرار من ربّ العالمین.

هذه السّورة تعبّر عن اتجاه الإسلام فی رفض الوسطاء بین اللّه و الإنسان ...

هؤلاء الوسطاء الذین افتعلتهم المذاهب الزائفة المنحرفة، و تعلّم البشر أن یرتبطوا باللّه مباشرة دونما واسطة، فهذه السّورة عبارة عن تبلور هذا الارتباط المباشر و الوثیق بین اللّه و الإنسان ... بین الخالق و المخلوق. فالإنسان لا یری فی مضامین آیات السّورة سوی اللّه ... یخاطبه ... یناجیه ... یتضرّع إلیه ... دونما واسطة حتی و إن کانت الواسطة نبیّا مرسلا أو ملکا مقرّبا. و من العجیب أن یحتلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸

هذا الارتباط المستقیم بین الخالق و المخلوق مکان الصدارة فی کتاب اللّه العزیز!.

۲- سورة الحمد أساس القرآن-

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال لجابر بن عبد اللّه الأنصاری: «ألا ـ أعلّمک أفضل سورة أنزلها اللّه فی کتابه؟» قال جابر: بلی بأبی أنت و أمّی یا رسول اللّه، علّمنیها. فعلّمه الحمد أمّ الکتاب، و قال: هی شفاء من کلّ داء، إلّا السّام، و السّام الموت»

[۱].

و روی عنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أیضا أنّه قال: «و الّذی نفسی بیده ما أنزل اللّه فی التّوراة، و لا فی الإنجیل و لا فی الزّبور و لا فی القرآن مثلها، و هی أمّ الکتاب»

[۲].

سبب أهمیة هذه السّورة یتضح من محتواها، فهی فی الحقیقة عرض لکل محتویات القرآن، جانب منها یختصّ بالتوحید و صفات اللّه، و جانب آخر بالمعاد و یوم القیامة، و قسم منها یتحدّث عن الهدایة و الضلال باعتبارهما علامة التمییز بین المؤمن و الکافر و فیها أیضا إشارات إلی حاکمیة اللّه المطلقة، و إلی مقام ربوبیّته، و نعمه اللامتناهیة العامة و الخاصة «الرحمانیة و الرحیمیة»، و إلی مسألة العبادة و العبودیة و اختصاصهما بذات اللّه دون سواه.

إنّها تتضمّن فی الواقع توحید الذات، و توحید الصفات، و توحید الأفعال، و توحید العبادة.

و بعبارة اخری: تتضمّن هذه السّورة مراحل الإیمان الثلاث: الاعتقاد بالقلب، و الإقرار باللسان، و العمل بالأرکان. و من المعلوم أنّ لفظ «الأمّ» یعنی هنا الأساس و الجذر.

و لعل ابن عباس ینطلق من هذا الفهم إذ یقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹

«إن لکل شیء أساسا ... و أساس القرآن الفاتحة».

و من هذا المنطلق أیضا

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فیما روی عنه: «أیّما مسلم قرأ فاتحة الکتاب أعطی من الأجر کأنّما قرأ ثلثی القرآن، و أعطی من الأجر کأنّما تصدّق علی کلّ مؤمن و مؤمنة»

[۳].

تعبیر «ثلثی القرآن»، ربّما کان إشارة إلی أنّ القرآن ینطوی علی ثلاثة أقسام: الدّعوة إلی اللّه، و الإخبار بیوم الحساب، و الفرائض و الأحکام. و سورة الحمد تتضمن القسمین الأوّلین. و تعبیر «أمّ القرآن» إشارة إلی القرآن یتلخّص من وجهة نظر اخری فی (الإیمان و العمل) و قد جمعا فی سورة الحمد.

۳- سورة الحمد شرف النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم- القرآن الکریم یتحدّث عن سورة الحمد باعتبارها هبة إلهیة لرسوله الکریم، و یقرنها بکل القرآن إذ یقول:

وَ لَقَدْ آتَیْناکَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِی وَ الْقُرْآنَ الْعَظِیمَ ۴].

فالقرآن بعظمته یقف هنا إلی جنب سورة الحمد، و لأهمیة هذه السّورة أیضا أنّها نزلت مرّتین.

نفس هذا المضمون

رواه أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إنّ اللّه تعالی قال لی یا محمّد و لقد آتیناک سبعا من

المثانی و القرآن العظیم، فأفرد الامتنان علیّ بفاتحة الکتاب و جعلها بإزاء القرآن العظیم، و إنّ فاتحة الکتاب أشرف ما فی کنوز العرش ...»

[۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰

۴- التّأکید علی تلاوة هذه السّورة- ممّا تقدم نفهم سبب تأکید السّنة بمصادرها الشیعیة و السنّیة علی تلاوة هذه السّورة- فتلاوتها تبعث الروح و الإیمان و الصفاء فی النفوس، و تقرّب العبد من اللّه، و تقوّی إرادته، و تزید اندفاعه نحو تقدیم المزید من العطاء فی سبیل اللّه، و تبعده عن ارتکاب الذنوب و الانحرافات. و لذلک کانت أمّ الکتاب صاعقة علی رأس إبلیس کما

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «رنّ إبلیس أربع رنّات، أوّلهنّ یوم لعن، و حین أهبط إلی الأرض، و حین بعث محمّد صلّی اللّه علیه و اله علی حین فترة من الرّسل، و حین نزلت أمّ الکتاب»

[۶].

محتوی السّورة:

کلّ واحدة من الآیات السبع فی هذه السّورة تشیر إلی حقیقة هامّة:

بِسْمِ اللَّهِ ... بدایة لکلّ عمل، و تعلّمنا الاستمداد من الباری تعالی لدی البدء بأی عمل.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ درس فی عودة کلّ نعمة و رعایة إلی اللّه تعالی، و إلفات إلی حقیقة انطلاق کلّ هذه المواهب من ذات اللّه تعالی.

الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ تبیّن هذه الحقیقة، و هی: إنّ خلق اللّه و رعایته و حاکمیته تقوم علی أساس الرّحمة و الرّحمانیة، و هذا المبدأ یشکّل المحور الأساس لنظام رعایة العالم.

مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ استحضار للمعاد و یوم الجزاء، و لحاکمیة اللّه علی تلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱

المحکمة الکبری.

إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ تبیّن التوحید فی العبادة، و التوحید فی الاستعانة بالأسباب.

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ توضّح حاجة العباد و رغبتهم الشدیدة للهدایة، و تؤکّد حقیقة أن کل ألوان الهدایة إنما تصدر منه تعالی.

و آخر آیة من هذه السّورة ترسم معالم الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ و تمیّز بین صراط الذین أنعم اللّه علیهم، و صراط الذین ضلّوا و الذین استحقّوا غضب اللّه علیهم.

و یمکن تقسیم هذه السّورة، من منظار آخر إلی قسمین: قسم یختصّ بحمد اللّه و الثناء علیه، و قسم یتضمّن حاجات العبد.

و إلی هذا التقسیم یشیر

الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «قال اللّه عزّ و جلّ: قسّمت فاتحة الکتاب بینی و بین عبدی، فنصفها لی و نصفها لعبدی و لعبدی ما سأل.

إذا قال العبد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ قال اللّه جلّ جلاله: بدأ عبدی باسمی و حقّ علیّ أن أتمّم له أموره و أبارک له فی أحواله.

فإذا قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ قال اللّه جلّ جلاله: حمدنی عبدی و علم أنّ النعم الّتی له من عندی، و أنّ البلایا الّتی دفعت عنه فبتطوّلی، أشهدکم أنّی أضیف له إلی نعم الدّنیا نعم الآخرة، و أدفع عنه بلایا الآخرة کما دفعت عنه بلایا الدّنیا.

و إذا قال: الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ قال اللّه جلّ جلاله: شهد لی عبدی أنّی الرّحمن الرّحیم، أشهدکم لأوفّرنّ من رحمتی حظّه و لأجزلنّ من

عطائی نصیبه.

فإذا قال: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ قال اللّه تعالی: أشهدكم كما اعترف بأنیّ أنا مالك يوم الدّين لأسهّلنّ يوم الحساب حسابه، و لأتقبّلنّ حسناته، و لأتجاوزنّ عن سيّئاته.

فإذا قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ قال اللّه عزّ و جلّ: صدق عبدی، إيّای يعبد أشهدكم لأثيبنّه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲

علی عبادته ثوابا يغبطه كلّ من خالفه فی عبادته لی.

فإذا قال: وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ قال اللّه تعالی: بی استعان عبدی، و إلیّ التجأ، أشهدكم لأعينّه علی أمره، و لأغيثّه فی شدائده و لآخذنّ بيده يوم نوائبه.

فإذا قال: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ إلی آخر السّورة قال اللّه عزّ و جلّ: هذا لعبدی و لعبدی ما سأل و قد استجبت لعبدی و أعطيته ما أمّل و آمنته ممّا منه و جل»[۷].

لماذا سمّيت فاتحة الكتاب؟

«فاتحة الكتاب» اسم اتخذته هذه السّورة فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم، كما يبدو من الأخبار و الأحاديث المنقولة عن النّبی الأعظم صلّی اللّه عليه و اله و سلّم.

و هذه المسألة تفتح نافذة علی مسألة مهمّة من المسائل الإسلامية، و تلقی الضوء علی قضية جمع القرآن، و توضّح أنّ القرآن جمع بالشكل الذی عليه الآن فی زمن الرّسول صلّی اللّه عليه و اله و سلّم، خلافا لما قيل بشأن جمع القرآن فی عصر الخلفاء، فسورة الحمد ليست أول سورة فی ترتيب النّزول حتی تسمّی بهذا الاسم و لا يوجد دليل آخر لذلك، و تسميتها بفاتحة الكتاب يرشدنا إلی أنّ القرآن قد جمع فی زمن الرّسول صلّی اللّه عليه و اله و سلّم بهذا الترتيب الذی هو عليه الآن.

و ثمّة أدلّة اخری تؤيّد حقيقة جمع القرآن بالترتيب الذی بأيدينا اليوم فی عصر الرّسول صلّی اللّه عليه و اله و سلّم و بأمره.

روی علیّ بن إبراهيم، عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم قال لعلّی عليه السّلام: «يا علیّ، إنّ القرآن خلف فراشی فی الصّحف و الحرير و القراطيس، فخذوه و اجمعوه

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳

و لا تضيّعوه كما ضيّعت اليهود التّوراة، و انطلق علیّ عليه السّلام فجمعه فی ثوب أصفر، ثمّ ختم عليه»

[۸].

و

يروی (الخوارزمی) فی المناقب عن (علی بن رباح) أنّ علی بن أبی طالب و أبیّ بن كعب جمعا القرآن فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم.

و روی (الحاكم) فی (المستدرك) عن (زيد بن ثابت) قال: «كنّا نؤلّف القرآن من الرّقاع».

و يقول العالم الجليل السيد المرتضی رحمة اللّه: «إنّ القرآن كان علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و اله و سلّم مجموعا مؤلّفا علی ما هو عليه الآن»[۹].

و يروی الطبرانی و ابن عساكر عن الشعبی أنّ القرآن جمعه ستة من الأنصار فی عصر النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم ۱۰].

و يروی قتادة أنّه سأل أنس عن جمع القرآن فی عصر النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم فقال:

أربعة من الأنصار هم: أبیّ بن کعب، و معاذ، و زید بن ثابت، و أبو زید[۱۱] و هناک روایات اخری یطول ذکرها.

علی أیّ حال، اتّخاذ سورة الحمد اسم (فاتحة الکتاب) دلیل واضح علی إثبات هذه المسألة، إضافة إلی الأدلة الاخری المستفیضة فی مصادر الشیعة و السنّة.

سؤال:

و هنا یثار سؤال حول المشهور بین بعض العلماء بشأن جمع القرآن بعد عصر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و فی الجواب نقول: ما روی بشأن جمع القرآن علی ید الامام علیّ علیه السّلام بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴

عصر الرّسول، لم یکن القرآن وحده، بل مجموعة تتضمّن القرآن و تفسیره و أسباب نزول الآیات، و ما شابه ذلک ممّا یحتاجه الفرد لفهم کلام اللّه العزیز.

و أمّا ما فعله عثمان فی هذا الصدد، فتدلّ القرائن أنّه أقدم علی کتابة قرآن واحد علیه علامات التلاوة و الإعجام، منعا للاختلاف فی القراءات، إذ لم یکن التنقیط معمولا به حتی ذلک الوقت.

و ما نراه من إصرار لدی جماعة علی عدم جمع القرآن فی عصر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و علی نسبة هذا الأمر للخلیفة عثمان أو للخلیفة الأول أو الثانی، فإنّما یعود إلی ظروف و ملابسات و عصبیات تأریخیة لسنا بصددها الآن.

و إذا رجعنا إلی استقصاء طبیعة الأشیاء فی مجال جمع القرآن، ألفینا أنّه من غیر المعقول أن یترک النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هذه المهمّة الکبیرة، بینما نجده یهتمّ بدقائق الأمور المرتبطة بالرسالة.

ألیس القرآن دستور الإسلام، و کتاب هدایة البشریة، و أساس عقائد الإسلام و أحکامه؟

ألیس من الممکن أن یتعرّض القرآن- إن لم یجمع- فی عصر الرّسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی الضیاع، و إلی الاختلاف فیه بین المسلمین؟! (حدیث الثقلین) المروی فی المصادر الشیعیة و السنّیة، حیث أوصی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بودیعته: کتاب اللّه و عترته، یؤکّد أیضا أن القرآن کان قد جمع فی مجموعة واحدة فی عصر الرّسول الأعظم.

أمّا اختلاف الرّوایات فی عدد الصحابة الذین جمعوا القرآن خلال عصر النّبی فلا یشکّل عقبة فی البحث، و من الممکن أنّ تتّجه کلّ روایة إلی ذکر عدد منهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵

سورة الحمد

الآیات [سورة الفاتحة (۱): الآیات ۱ الی ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (۱)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۲) الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (۳) مالِکِ یَوْمِ الدِّینِ (۴) إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ (۵)

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِیمَ (۶) صِراطَ الَّذِینَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِمْ غَیْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَیْهِمْ وَ لا الضَّالِّینَ (۷)

التّفسیر

۱- بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

دأبت الأمم و الشّعوب على أن تبدأ كل عمل هام ذى قيمة باسم كبير من رجالها. و الحجر الأساس لكل مؤسسة هامّة يوضع باسم شخصية مرموقة فى نظر أصحابها، أى أن أصحاب المؤسسة يبدأون العمل باسم تلك الشّخصية.

و لكن، أليس من الأفضل أن يبدأ العمل فى اطروحة أريد لها البقاء و الخلود باسم وجود خالد قائم لا يعتريه الفناء؟ فكلّ ما فى الكون يتجه إلى الزّوال و الفناء، إلا ما كان مرتبطا بالذات الأبدية الخالدة ... ذات اللّه سبحانه.

إنّ خلود ذكر الأنبياء سببه ارتباطهم باللّه و بالقيم الإنسانية الإلهية الخالدة كالعدالة و طلب الحقيقة، و خلود اسم رجل فى التّاريخ مثل (حاتم الطّائى)، يعود إلى ارتباطه بواحدة من تلك القيم هى (السّخاء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶

صفة الخلود و الأبدية يختص بها اللّه تعالى من بين سائر الموجودات، و من هنا ينبغى أن يبدأ كلّ شىء باسمه و تحت ظلّه و بالاستمداد منه. و لذلك كانت البسملة أوّل آية فى القرآن الكريم.

و البسملة لا ينبغى أن تنحصر فى اللفظ و الصورة، بل لا بدّ أن تتعدّى ذلك إلى الارتباط الواقعى بمعناها، و هذا الارتباط يخلق الاتجاه الصحيح و يصون من الانحراف، و يؤدى حتما إلى نتيجة مطلوبة مباركة. لذلك

جاء فى الحديث النّبوى الشريف: «كلّ أمر ذى بال لم يذكر فيه اسم اللّه فهو أبتر»[۱۲].

و أمير المؤمنين عليه السّلام بعد نقله لهذا الحديث الشريف قال: «إنّ العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملا فيقول بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فإنّه يبارك فيه»[۱۳].

و يقول الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: «... و ينبغى الإتيان به عند افتتاح كلّ أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه»[۱۴].

بعبارة موجزة: بقاء العمل و خلوده يتوقف على ارتباطه باللّه.

من هنا كانت الآية الاولى التى أنزلها اللّه على نبيّه الكريم تحمل أمرا لصاحب الرسالة أن يبدأ مهمته الكبرى باسم اللّه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ...[۱۵].

و لذلك أيضا فإنّ نوحا عليه السّلام- حين يركب السفينة فى ذلك الطوفان العجيب، و يمخر عباب الأمواج الهادرة، و يواجه ألوان الأخطار على طريق تحقيق هدفه- يطلب من أتباعه أن يردّدوا البسملة فى حركات السفينة و سكناتها. وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها[۱۶]. و انتهت هذه السفرة المليئة بالأخطار بسلام و بركة كما يذكر القرآن الكريم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷

قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ۱۷].

و سليمان عليه السّلام يبدأ رسالته إلى ملكة سبأ بالبسملة: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ...[۱۸].

و انطلاقا من هذا المبدأ تبدأ كلّ سور القرآن بالبسملة، كى يتحقّق هدفها الأصل المتمثل بهداية البشرية نحو السعادة، و يحالفها التوفيق من البداية إلى ختام المسيرة.

و تنفرد سورة التوبة بعدم بدئها بالبسملة، لأنّها تبدأ بإعلان الحرب على مشركى مكة و ناكثى الأيمان، و إعلان الحرب لا ينسجم مع وصف اللّه بالرحمن الرحيم.

تجدر الإشارة إلى أنّ البسملة تقتصر على صيغة «بسم اللّه» و لا تقول فيها:

باسم الخالق أو باسم الرزاق و ما شابهها من الصيغ. و السبب يعود إلى أنّ كلمة (اللّه)- كما سيأتى- جامعة لكلّ أسماء اللّه و صفاته. أمّا الأسماء الاخرى للّه فتشير إلى قسم من كمالاته كالرحمة و الخالقية.

اتضح ممّا سبق أيضا أنّ قولنا: «باسم اللّه» فی بدایة كلّ عمل يعنی «الاستعانة» باللّه، و يعنی أيضا «البدء» باسم اللّه. و هذان المعنيان يعودان إلى أصل واحد، و إن عمد بعض المفسّرين إلى التفكيك بينهما و تقدير كل واحد منهما فی الكلام.

فالمعنيان متلازمان، أی: أبدأ باسم اللّه و أستعين بذاته المقدّسة.

و طبيعی أنّ البدء باسم اللّه الذی تفوق قدرته كل قدرة، يبعث فينا القوة، و العزم، و الثقة، و الاندفاع، و الصمود و الأمل أمام الصعاب و المشاكل، و الإخلاص و النزاهة فی الحركة.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸

و هذا رمز آخر للنجاح، حين تبدأ الأعمال باسم اللّه.

مهما أطلنا الحديث فی تفسير هذه الآية فهو قليل، فالمعروف عن علیّ عليه السّلام أنّه بدأ يفسّر لابن عباس آية البسملة فی أول الليل، فأسفر الصبح و هو لم يتجاوز تفسير الباء منها، غير أنّنا ننهی البحث بحديث عنه عليه السّلام، و ستكون لنا بحوث أخرى فی هذا الصدد خلال بحوثنا القادمة.

دخل عبد اللّه بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السّلام و بين يديه كرسیّ فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه فمال به حتّى سقط على رأسه فأوضح عن عظم رأسه و سال الدّم، فأمر أمير المؤمنين عليه السّلام بماء فغسل عنه ذلك الدّم ثمّ قال: أدن منّی، فوضع يده على موضحته «... أما علمت أنّ رسول اللّه حدّثنی عن اللّه جلّ و عزّ: كلّ أمر ذی بال لم يذكر فيه بسم اللّه فهو أبتر؟» فقلت: بلى بأبی أنت و أمّی لا أتركها بعدها، قال: «إذا تحظى بذلك و تسعد»[۱۹].

و

قال الصّادق عليه السّلام: «و لربّما ترك فی افتتاح أمر بعض شيعتنا بسم اللّه الرّحمن الرّحيم فيمتحنه اللّه بمكروه ليتّبهه على شكر اللّه تعالى و الثّناء عليه و يمحو فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قول بسم اللّه»[۲۰].

بحوث

۱- هل البسملة جزء من السّورة؟

أجمع علماء الشيعة على أنّ البسملة جزء من سورة الحمد و كلّ سور القرآن، و كتابتها فی مطالع السور أفضل شاهد على ذلك، لأنّنا نعلم أن النصّ القرآنی مصون عن أيّة اضافة، و ذكر البسملة معمول به منذ زمن النّبی صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹

أمّا علماء السنّة فاختلفوا فی ذلك، و صاحب المنار يجمع أقوالهم فيما يلی:

«أجمع المسلمون على أن البسملة من القرآن و أنها جزء آية من سورة النمل. و اختلفوا فی مكانها من سائر السور، فذهب إلى أنّها جزء آية من كل سورة علماء السلف من أهل مكة- فقهاؤهم و قراؤهم- و منهم: ابن كثير. و أهل الكوفة و منهم عاصم و الكسائی من القراء، و بعض الصحابة و التابعين من أهل المدينة، و الشافعی فی الجديد و أتباعه، و الثورى و أحمد فی أحد قوليه، و الإمامية، و من المروى عنهم ذلك من علماء الصحابة علیّ و ابن عباس و ابن عمر و أبو هريرة، و من علماء التابعين سعيد بن جبير و عطاء و الزهرى و ابن المبارك. و أقوى حججهم فی ذلك إجماع الصحابة و من بعدهم على إثباتها فی المصحف أول كل سورة سوى سورة البراءة (التوبة) مع الأمر بتجريد القرآن عن كل ما ليس منه.

و لذلك لم يكتبوا (آمين) فی آخر الفاتحة ...».

ثم ینقل عن مالک و الحنفیة و آخرین، أنّهم ذهبوا إلی أنّ البسملة آیة مستقلّة نزلت لبیان رؤوس السور و الفصل بینها.

و عن حمزة من قرّاء الکوفة و أحمد «الفقیه السنّی المعروف» أنّها من الفاتحة دون غیرها من سور القرآن ۲۱].

و من مجموع ما ذکر یستفاد أنّ الأکثریة الساحقة من أهل السنة یرون أنّ البسملة جزء من السّورة کذلک.

ننقل هنا طائفة من الروایات المنقولة فی هذا الصدد بطرق الشیعة و السنة، و بالقدر الذی یتناسب مع هذا البحث التّفسیری:

۱-

عن معاویـة بن عمّار قال: قلت لأبی عبد اللّه علیه السّـلام: إذا قمت للصّـلاة أقرأ بسم اللّه الرّحمن الرّحیم فی فاتحة القرآن؟ قال: «نعم» قلت: فإذا قرأت فاتحة القرآن أقرأ بسم اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰

الرّحمن الرّحیم مع السّورة؟ قال: «نعم»[۲۲].

۲- ما

أخرجه الدار قطنی بسـند صـحیح عن علی علیه السّـلام: «أنّه سـئل عن السّـبع المثانی، فقال: الحمد للّه ربّ العالمین، فقیل له: إنّما هی ستّ آیات فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ آیة»[۲۳].

-۳

روی البیهقی بسنده عن ابن جبیر، عن ابن عباس، قال: «استرق الشّیطان من النّاس أعظم آیة من القرآن: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ (إشارة إلی شیوع عدم قراءتها فی مطالع السور)[۲۴].

أضف إلی ذلک، أنّ سیرة المسلمین جرت دوما علی قراءة البسملة فی مطالع السور لدی تلاوة القرآن، و ثبت بالتواتر قراءة النّبی لها.

و کیـف یمکن أن تکـون أجنبیـة عن القرآن و النّبی و المسـلمون یواظبون علی قراءتهـا لـدی تلاـوتهم القرآن؟! و أمّـا مـا ذهب إلیه بعضـهم من احتمال أنّ البسـملة آیـة مسـتقلّة و لیست جزء من سور القرآن، فهو احتمال واه ضـعیف، لأن مفهوم البسـملة یشـعر ببدایة العمل، و لا یفصح عن معنی منفصل مستقل.

و فی اعتقادنا أنّ الإصـرار علی فصل البسـملة عن السور تعصّب لا مبرر له، و لا ینهض علیه دلیل، فی حین أنّ مضمونها مسفر عن أنّها بدایة لما بعدها من الأبحاث.

یبقی إیراد واحد، هو أنّ البسملة لا تحتسب فی عدّ آیات سور القرآن (عدا بسملة سورة الحمد)، بل یبدأ العدّ من الآیة التالیة للبسملة.

و الجواب علی ذلک ما ذکره (الفخر الرازی) فی تفسیره الکبیر، إذ قال: لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱

یمنـع أن تکـون البسـملة لوحـدها آیـة فی سورة الحمـد، و أن تکون جزء من الآیـة الاـولی فی سـائر سور القرآن (أی أنّ مطلع سورة الکوثر مثلا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ یعتبر کلّه آیة واحدة.

و المسألة- علی أیّ حال- واضـحة إلی درجة کبیرة حتی روی: أنّ معاویة صلّی بالنّاس فی فترة حکومته فلم یقرأ البسملة، فصاح جمع من المهاجرین و الأنصار بعد الصّلاة: أسرقت أم نسیت؟[۲۵].

۲- لفظ الجلالة جامع لصفاته تعالی:

کلمة (اسم) أول ما تطالعنا فی البسـملة من کلمات، و هو فی رأی علماء اللغة من (السـموّ) علی وزن (العلوّ)، و معناه الارتفاع، و یفهم

أن الشيء بعد التسمية يخرج من مرحلة الخفاء إلى مرحلة البروز و الظهور و الرقى، أو إنّه يرتفع بالتسمية عن مرحلة الإهمال و يكتسب المعنى و العلو[۲۶].

بعد كلمة الاسم نلتقى بكلمة (اللّه) و هى أشمل أسماء ربّ العالمين فكل اسم ورد للّه فى القرآن الكريم و سائر المصادر الإسلامية يشير إلى جانب معين من صفات اللّه. و الاسم الوحيد الجامع لكل الصفات و الكمالات الإلهية أو الجامع لكل صفات الجلال و الجمال هو (اللّه).

و لذلك اعتبرت بقية الأسماء صفات لكلمة (اللّه) مثل: (الغفور) و (الرحيم) و (السميع) و (العليم) و (البصير) و (الرزاق) و (ذو القوة) و (المتين) و (الخالق)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲

و (البارى) و (المصوّر).

كلمة (اللّه) هى وحدها الجامعة، و من هنا اتّخذت هذه الكلمة صفات عديدة فى آية كريمة واحدة، حيث يقول تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ[۲۷] أحد شواهد جامعية هذا الاسم أنّ الإيمان و التوحيد لا يمكن إعلانه إلّا بعبارة (لا إله إلّا اللّه)، و عبارة (لا إله إلّا القادر ... أو إلّا الخالق ... أو إلّا الرّزّاق) لا تفى بالغرض. و لهذا السبب يشار فى الأديان الاخرى إلى معبود المسلمين باسم (اللّه) فهذه التسمية الشاملة خاصة بالمسلمين.

۳- الرّحمة الإلهية الخاصة و العامّة:

المشهور بين جماعة من المفسّرين أنّ صفة (الرحمن) تشير إلى الرحمة الإلهية العامة، و هى تشمل الأولياء و الأعداء، و المؤمنين و الكافرين، و المحسنين و المسيئين، فرحمته تعمّ المخلوقات، و خوان فضله ممدود أمام جميع الموجودات، و كلّ العباد يتمتعون بموهبة الحياة، و ينالون حظهم من مائدة نعمه اللامتناهية. و هذه هى رحمته العامة الشاملة لعالم الوجود كافة و ما تسبّح فيه من كائنات.

و صفة (الرحيم) إشارة إلى رحمته الخاصة بعباده الصالحين المطيعين، قد استحقوها بإيمانهم و عملهم الصالح، و حرم منها المنحرفون و المجرمون.

الأمر الذى يشير إلى هذا المعنى أنّ صفة (الرحمن) ذكرت بصورة مطلقة فى القرآن الكريم ممّا يدل على عموميتها، لكنّ صفة (الرحيم) ذكرت أحيانا مقيّدة، لدلالتها الخاصة، كقوله تعالى: وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً[۲۸] و أحيانا اخرى مطلقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳

كما فى هذه السّورة.

و فى رواية عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «و اللّه إله كلّ شيء الرّحمن بجميع خلقه، الرّحيم بالمؤمنين خاصّة»[۲۹].

من جهة اخرى، كلمة (الرحمن) اعتبروها صيغة مبالغة، و لذلك كانت دليلا آخر على عمومية رحمته. و اعتبروا (الرحيم) صفة مشبّهة تدلّ على الدوام و الثبات، و هى خاصة بالمؤمنين.

و ثمّة دليل آخر، هو إنّ (الرحمن) من الأسماء الخاصة باللّه، و لا تستعمل لغيره، بينما (الرحيم) صفة تنسب للّه و لعباده. فالقرآن وصف بها الرّسول الكريم، حيث قال: عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ (عَلَيْكُمْ) بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ۳۰].

و إلى هذا المعنى

أشار الإمام الصادق علیه السّلام، فیما روی عنه: «الرّحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، و الرّحیم عامّ بصفة خاصّة»[۳۱].

و مع کل هـذا، نجد کلمة (الرحیم) تستعمل أحیانا کوصف عام. و هذا یعنی أن التمییز المذکور بین الکلمتین إنما هو فی جذور کل منهما، و لا یخلو من استثناء.

فی دعاء عرفة- المنقول عن الحسین بن علی علیه السّلام- وردت عبارة: «یا رحمن الدّنیا و الآخرة و رحیمهما».

نختتم هذا الموضوع بحدیث عمیق المعنی،

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إنّ للّه عزّ و جلّ مائة رحمة، و إنّه أنزل منها واحدة إلی الأرض، فقسّمها بین خلقه، بها یتعاطفون و یتراحمون، و أخّر تسعا و تسعین لنفسه یرحم بها عباده یوم القیامة»[۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۴

لم لم ترد بقیة صفات اللّه فی البسملة؟

فی البسملة ذکرت صفتان للّه فقط هما: الرحمانیة و الرحیمیة، فما هو السبب؟

الجواب یتضح لو عرفنا أنّ کل عمل ینبغی أن یبدأ بالاستمداد من صفة تعم آثارها جمیع الکون و تشمل کلّ الموجودات، و تنقذ المستغیثین فی اللحظات الحساسة.

هـذه حقیقة یوضّحها القرآن إذ یقول: وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ[۳۳]، و یقول علی لسان حملة العرش: رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً[۳۴].

و من جانب آخر نری الأنبیاء و أتباعهم یتوسّلون برحمة اللّه فی المواقف الشدیدة الحاسمة. فقوم موسی تضرّعوا إلی اللّه أن ینقذهم من تجبّر فرعون و ظلمه، و توسّلوا إلیه برحمته فقالوا: وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِکَ ۳۵].

و بشأن هود و قومه، یقول القرآن: فَأَنْجَیْناهُ وَ الَّذِینَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا[۳۶].

من الطبیعی أنّنا- حین نتضرّع إلی اللّه- نناديه بصفات تتناسب مع تلک الحاجة، فعیسی علیه السّلام حین یطلب من اللّه مائدة من السماء، یقول: اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَیْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ ... وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ ۳۷].

و نوح علیه السّلام یدعو اللّه فی حطّ رحاله: رَبِّ أَنْزِلْنِی مُنْزَلًا مُبارَکاً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ ۳۸].

و زکریا نادی ربّه لدی طلب الولد الوارث قال: رَبِّ لا تَذَرْنِی فَرْداً وَ أَنْتَ خَیْرُ الْوارِثِینَ ۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۵

للبدء بأیّ عمل ینبغی- إذن- أن نتوسّل برحمة اللّه الواسعة، رحمته العامة و رحمته الخاصة. و هل هناک أنسب من هذه الصفة لتحقّق النجاح فی الأعمال، و للتغلب علی المشاکل و الصعاب؟! و القوة التی تستطیع أن تجذب القلوب نحو اللّه و تربطها به هی صفة الرحمة، إذ لها طابعها العام مثل قانون الجاذبیة، ینبغی الاستفادة من صفة الرحمة هذه لتوثیق العری بین المخلوقین و الخالق.

المؤمنون الحقیقیون یطهّرون قلوبهم بذکر البسملة فی بدایة کلّ عمل من کل علقة و ارتباط، و یرتبطون باللّه وحده و یستمدّون منه العون، و یتوسلون إلیه برحمته التی وسعت کلّ شیء.

و البسملة أیضا تعلّمنا أنّ أفعال اللّه تقوم أساسا علی الرحمة، و العقاب له طابع استثنائی لا ینزل إلّا فی ظروف خاصة،

کما نقرأ فی الأدعیة المرویة عن آل بیت رسول اللّه: «یا من سبقت رحمته غضبه»[۴۰].

المجموعة البشریة السائرة علی طریق اللّه ینبغی أن تقیم نظام حیاتها علی هـذا الأساس أیضا، و أن تقرن مواقفها بالرحمة و المحبة، و أن تترک العنف إلی المواضع الضروریة، «۱۱۳» سورة من مجموع «۱۱۴» سورة قرآنیة تبدأ بالتأکید علی رحمة اللّه، و سورة التوبة وحدها تبدأ بإعلان الحرب و العنف بدل البسملة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۶

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۲]

اشارة

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۲)

التّفسير

العالم مغمور فى رحمته

بعد البسملة، أول واجبات العباد أن يستحضروا دوما مبدأ عالم الوجود، و نعمه اللامتناهية، هذه النعم التى تحيطنا و تغمر وجودنا، و تهدينا إلى معرفة اللّه من جهة، و تدفعنا على طريق العبودية من جهة اخرى.

و عند ما نقول أن النعم تشكّل دافعا و محرّكا على طريق العبودية، لأنّ الإنسان مفطور على البحث عن صاحب النعمة حينما تصله النعمة، و مفطور على أن يشكر المنعم على أنعامه.

من هنا فان علماء الكلام (علماء العقائد) يتطرقون فى بحوثهم الأولية لهذا العلم إلى «وجوب شكر المنعم» باعتباره أمرا فطريا و عقليا دافعا إلى معرفة اللّه سبحانه.

و إنما قلنا إن النعم تهدينا إلى معرفة اللّه، لأن أفضل طريق و أشمل سبيل لمعرفته سبحانه، دراسة أسرار الخليقة، و خاصة ما يرتبط بوجود النعم فى حياة الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷

ممّا تقدم ابتدأت سورة الحمد بعبارة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و لفهم عمق هذه العبارة و عظمتها يلزمنا توضيح الفرق بين «الحمد» و «المدح» و «الشكر» و النتائج المترتبة على ذلك:

۱- «الحمد» فى اللغة: الثناء على عمل أو صفة طيبة مكتسبة عن اختيار، أى حينما يؤدى شخص عملا طيّبا عن وعى، أو يكتسب عن اختيار صفة تؤهله لأعمال الخير فإنّنا نحمده و نثنى عليه.

و «المدح» هو الثناء بشكل عام، سواء كان لأمر اختيارى أو غير اختيارى، كمد حنا جوهرة ثمينة جميلة. و مفهوم المدح عام، بينما مفهوم الحمد خاص.

أمّا مفهوم «الشكر» فأخصّ من الاثنين، و يقتصر على ما نبديه تجاه نعمة تغدق علينا من منعم عن إختيار[۴۱].

و لو علمنا أنّ الألف و اللام فى (الحمد) هى لاستغراق الجنس، لعلمنا أنّ كل حمد و ثناء يختص باللّه سبحانه دون سواه.

ثناؤنا على الآخرين ينطلق من ثنائنا عليه تعالى، لأنّ مواهب الواهبين كالأنبياء فى هدايتهم للبشر، و المعلمين فى تعليمهم، و الكرماء فى بذلهم و عطائهم، و الأطباء فى علاجهم للمرضى و تطبيبهم للمصابين، إنّما هى فى الأصل من ذاته المقدسة. و بعبارة اخرى: حمد هؤلاء هو حمد للّه، و الثناء عليهم ثناء على اللّه تعالى.

و هكذا الشمس حين تغدق علينا بأشعتها، و السحب بأمطارها، و الأرض ببركاتها، كلّ ذلك منه سبحانه، و لذلك فكلّ الحمد له.

و بكلمة أخرى: جملة الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ إشارة إلى توحيد الذات، و الصفات، و الأفعال (تأمّل بدقة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸

۲- وصف (اللّه) بأنّه (ربّ العالمين) هو من قبيل ذكر الدليل بعد ذكر الادعاء، و كأنّ سائلا يقول: لم كان حمد للّه؟ فيأتى الجواب:

لأنّه (رب العالمين).

و فى موقع آخر يقول القرآن عن البارى سبحانه: الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ...[۴۲].

و يقول أيضا: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها[۴۳].

۳- يستفاد من (الحمد) أن اللّه سبحانه واهب النعم عن إرادة و إختيار، خلافا لأولئك القائلين إنّ اللّه تعالى مجبر على أن يفيض بالعطاء كالشمس!! ۴- جدير بالذكر أن الحمد ليس بداية كل عمل فحسب، بل هو نهاية كل عمل أيضا كما يعلمنا القرآن.

يقول سبحانه عن أهل الجنة: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ، وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۴۴].

۵- أما كلمة «ربّ» ففى الأصل بمعنى مالك و صاحب الشىء الذى يهتم بتربيته و إصلاحه. و كلمة «ربيبة» و هى بنت الزوجة، و مأخوذة من هذا المفهوم للكلمة. لأن الربيبة تعيش تحت رعاية زوج أمّها.

و الكلمة بلفظها المطلق تعنى ربّ العالمين، و إذا أطلقت على غير اللّه لزم أن تضاف، كأن نقول: ربّ الدار، و ربّ السفينة[۴۵].

و ذكر صاحب تفسير (مجمع البيان) معنى آخر للرب، و هو السيد المطاع، و لكن لا يبعد أن يعود المعنيان إلى أصل واحد[۴۶].

۶- كلمة «عالمين» جمع «عالم»، و العالم: مجموعة من الموجودات المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹

ذات صفات مشتركة، أو ذات زمان و مكان مشتركين، كأن نقول: عالم الإنسان، و عالم الحيوان، و عالم النبات. أو نقول عالم الشرق و عالم الغرب، و عالم اليوم، و عالم الأمس. فكلمة العالم وحدها تتضمن معنى الجمع، و حين تجمع بصيغة «عالمين»، فيقصد منها كل مجموعات هذا العالم.

و يلفت النظر هنا أن كلمة عالم جمعت هنا جمعا مذكرا سالما، و نعرف أن جمع المذكر السالم يستعمل فى العاقل عادة، و من هنا ذهب بعض المفسرين إلى أن كلمة «عالمين» إشارة إلى المجموعات العاقلة فى الكون كالبشر، و الملائكة، و الجن، و لكن قد يكون هذا الاستعمال للتغليب، أى لتغليب المجموعات العاقلة على غير العاقلة.

۷- يقول صاحب المنار: (و

يؤثر عن جدنا الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أن المراد ب (العالمين) النّاس فقط)[۴۷].

ثم يضيف: و قد وردت كلمة (العالمين) فى القرآن الكريم أيضا بهذا المعنى كقوله: لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً[۴۸].

و لكن، لو استعرضنا مواضع استعمال (عالمين) فى القرآن، لرأينا أن هذه الكلمة وردت فى كثير من الآيات بمعنى بنى الإنسان، بينما وردت فى مواضع اخرى بمعنى أوسع يشمل البشر و سائر موجودات الكون الاخرى، كقوله تعالى:

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۴۹] و كقوله سبحانه: قالَ فِرْعَوْنُ: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ؟ قالَ: رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا[۵۰].

و

عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام فى تفسير (ربّ العالمين) قال: «ربّ العالمين هم الجماعات من كلّ مخلوق من الجمادات و الحيوانات»[۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰

كلمة عالمين يمكن فهمها فى إطارها الكونى الأوسع، و يمكن فهمها فى إطار عالم (الإنسان)- كما

ورد فى رواية الإمام زين العابدين عليه السّلام، لأن الكائن البشرى أشرف المخلوقات، و لأنّ الإنسان هو الهدف الأساس من هذه المجموعة الكبرى و ليس بين الفهمين أى تناقض.

۸- جدير بالذكر أن هناك من قسّم العالم إلى: عالم صغير و عالم كبير، و المقصود من العالم الصغير هو الإنسان، لأنه لوحده ينطوى

على مجموعة من نفس القوى المتحكمة فى هذا الكون الفسيح. و الإنسان- فى الواقع- عينيّة مصغرة لكل هذا العالم.
الذى دعانا إلى التوسّع فى مفهوم كلمة (العالم) هو أن عبارة «ربّ العالمين» جاءت و كأنّها دليل على عبارة (الحمد للّه)، أى أننا نقول فى سورة الفاتحة: إن الحمد مختص باللّه تعالى لأنه صاحب كل كمال و نعمة و موهبة فى العالم.

بحثان

۱- رفض الآلهة:

شهد التاريخ البشرى ألوان الانحرافات عن خط التوحيد، و الصفة البارزة فى هذه الانحرافات هو الاعتقاد بوجود آلهة متعددة لهذا العالم، و فكرة التعدد انطلقت من ضيق نظرة أصحابها الذين راحوا يعيّنون لكل جانب من جوانب الكون و الحياة إلها، و كأنّ ربوبيّة العالمين لا يمكن إناطتها لمصدر واحد!! و راحت بعض الأمم تصنع الآلهة لأمور جزئية كالحب و العقل و التجارة و الحرب و الصيد.
اليونانيّون مثلا كانوا يعبدون اثنتى عشرة الهة وضعوها على قمة (أولمپ)
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱
و كل واحدة منها تمثل جانبا من صفات البشر!![۵۲].
و الكلدانيّون اعتقدوا بإله الماء و إله القمر و إله الشمس و إله الزهرة، و أطلقوا على كل واحد منها اسما معينا، و اتخذوا فوق ذلك «مردوخ» إلها أكبر لهم.
و الروم تعددت آلهتهم أيضا، و راج سوق الشرك عندهم أكثر من أية أمّة اخرى. فقد قسموا الآلهة إلى مجموعتين: آلهة الأسرة و آلهة الحكومة. و لم يكونوا يكنون ولاء لآلهة الحكومة، (لعدم ارتياحهم من حكومتهم!).
و قد ورد فى التاريخ أن الروم اتخذوا لهم ثلاثين ألف إلها حتى قال أحد رجالهم مازحا: إن عدد الهتنا من الكثرة إلى درجة أنها اكثر من المارّة فى الأزقة و الطرقات، و كلّ واحد منها مظهر من مظاهر الكون المشهودة، إله مثل إله الزراعة، و إله المطبخ، و إله مستودع الطعام، و إله البيت، و إله النار، و إله الفاكهة، و إله الحصاد، و إله شجرة العنب، و إله الغابة، و إله الحريق، و إله بوابة روما، و إله بيت النار[۵۳].
و للخلاصة، أن البشرية كانت غارقة فى و حل الخرافات كما أنها تعانى الآن أيضا من ذلك الموروث السقيم.
و فى عصر نزول القرآن كان فى الجزيرة العربية و فى كثير من مناطق العالم، آلهة تعبد من دون اللّه، كما كانت عبادة الأفراد رائجة، و إلى ذلك يشير القرآن فى خطابه لليهود و النصارى إذ يقول: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ۵۴].
بعبارة موجزة: حين تنحرف البشرية عن خط التوحيد، و تتورط فى شراك الخرافات و فخاخ الأوهام. فمضافا الى أنها تساهم فى تغريب العقل و انحطاط الفكر، تؤدى الى تشتت المجتمع و تعمل على تمزيقه.
خط التوحيد الذى دعا إليه الأنبياء يتميز بنبذ الآلهة المتعددة، و هداية
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲
البشرية نحو الإله الواحد الأحد، و انطلاقا من هذه الأهمية القصوى للقضاء على الآلهة المتعددة جاء التأكيد القرآنى بعد آية البسملة بقوله: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ
و بهذا يرسم القرآن الكريم خط البطلان على جميع الآلهة المزيفة و ارباب النوع و يلقى بها فى وادى العدم مكانها الاوّلى، و يغرس محلّها أزهار التوحيد و الاتحاد.

هذا التأكيد يتلوه الإنسان المسلم عشر مرات فی صلواته اليومية- على الأقل- لتترسخ فكرة التوحيد، و فكرة رفض ربوبية كل الأرباب و الآلهة، غير ربوبيّة اللّه ربّ العالمين.

۲- ربوبية اللّه طريق لمعرفة اللّه

كلمة (الربّ)، و إن كانت تعنی فی الأصل المالك و الصاحب، تتضمّن معنى الصاحب المتعهّد بالتربية.

إمعان النظر فی المسيرة التكاملية للموجودات الحيّة، و فی التغييرات و التحولات التی تجری فی عالم الجماد، و فی الظروف التی تتوفّر لتربية الموجودات، و فی تفاصيل هذه الحركات و العمليات، هو أفضل طريق لمعرفة اللّه.

و التنسيق اللاإرادی بين أعضاء جسدنا هو نموذج حیّ لذلك.

لو واجهنا فی حياتنا- مثلا- حادثة هامّة تتطلب منّا أن ننهض أمامها بقوة و حزم، فإنّ أوامر منسّقة تصدر خلال لحظة قصيرة إلى جميع أجزاء جسدنا بشكل لا إرادی. و بسرعة خاطفة يشتد ضربان قلبنا و تنفسنا، و تتجهز كل قوانا، و تتدفق المواد الغذائية و الأوكسجين- المحمولة عن طريق الدم- إلى جميع الخلايا، و تتأهب الأعصاب و العضلات للعمل و الحركة السريعة، و ترتفع قدرة تحمّل الإنسان للمتاعب و الآلام، و يغادر النوم العيون، و يزول التعب من الأعضاء،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳

و يزول الإحساس بالجوع.

من الذی أوجد هذا التنسيق العجيب فی هذه اللحظة الحساسة، و بهذه السرعة، بين جميع أجزاء وجود الإنسان؟ هل هذه العناية و التربية ممكنة من غير اللّه العالم القادر؟! آيات القرآن الكريم تكثر من عرض نماذج لهذه التربية الإلهية، سنتعرض لها فی مكانها إن شاء اللّه تعالى، و كل واحدة منها دليل واضح على معرفة اللّه.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۳]

اشارة

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳)

التّفسير

معنى (الرّحمن) و (الرّحيم) و اتساع مفهومهما و الفرق بينهما، شرحناه فی تفسير البسملة، و لا حاجة إلى التكرار. و ما نضيفه هنا هو أن هاتين الصفتين تتكرران فی البسملة و الحمد، «و الملتزمون» بذكر البسملة فی السّورة بعد الحمد يكررون هاتين الصفتين فی صلواتهم اليومية الواجبة ثلاثين مرّة. و بذلك يصفون اللّه برحمته ستين مرّة يوميا.

و هذا فی الواقع درس لكل جماعة بشرية سائرة على طريق اللّه، و تواقة للتخلق بأخلاق اللّه. إنه درس يبعد البشرية عن تلك الحالات التی شهدها تاريخ الرق فی ظل القياصرة و الأكاسرة و الفراعنة.

القرآن يركز على علاقة الرحمة و الرأفة بين ربّ العباد و العباد، حيث يقول:

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً[۵۵].

هذه العلاقة نستحضرها مرات يوميا إذ نقول: الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ لنربّى أنفسنا تربية صحيحة فى علاقتنا باللّه، و فى علاقتنا بأبناء جنسنا.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۴]

اشارة

مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (۴)

التّفسير

الرّكيزة الثّانية: الإيمان بيوم القيامة

هذه الآية تلفت الأنظار إلى أصل هامّ آخر من أصول الإسلام، هو يوم القيامة: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ و بذلك يكتمل محور المبدأ و المعاد، الذى يعتبر أساس كل إصلاح أخلاقى و اجتماعى فى وجود الإنسان.
تعبير (مالك) يوحى بسيطرة اللّه التامة و هيمنته المستحكمة على كل شىء و على كل فرد فى ذلك اليوم، حيث تحضر البشرية فى تلك المحكمة الكبرى للحساب، و تقف أمام مالكها الحقيقى للحساب، و ترى كل ما فعلته و قالته، بل و حتى ما فكرت به، حاضرا، فلا يضيع أى شىء- مهما صغر- و لا ينسى، و الإنسان- وحده- يحمل أعباء نتائج أعماله، بل نتائج كل سنّة استنّها فى الأرض أو مشروع أقامه.
مالكية اللّه فى ذلك اليوم دون شك ليست ملكية اعتبارية، نظير ملكيتنا للأشياء فى هذا العالم، ملكيتنا هذه عقد يبرم بموجب تعامل و وثائق، و ينفسخ بموجب تعامل آخر و وثائق اخرى، لكن ملكية اللّه لعالم الكون ملكية حقيقية،
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶
تتمثل فى ارتباط الموجودات ارتباطا خاصا باللّه. و لو انقطع هذا الارتباط لحظة لزالت الموجودات تماما مثل زوال النور من المصابيح الكهربائية، حين ينقطع اتصالها بالمولّد الكهربائى.
بعبارة اخرى: مالكية اللّه نتيجة خالقيته و ربوبيته. فالذى خلق الموجودات و رعاها و ربّاها، و أفاض عليها الوجود لحظة بلحظة، هو المالك الحقيقى للموجودات.
نستطيع أن نرى نموذجا مصغرا للمالكية الحقيقية، فى مالكيتنا لأعضاء بدننا، نحن نملك ما فى جسدنا من عين و أذن و قلب و أعصاب، لا بالمعنى الاعتبارى للملكية، بل بنوع من المعنى الحقيقى القائم على أساس الارتباط و الإحاطة.
و قد يسأل سائل فيقول: لماذا وصفنا اللّه بأنه مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ بينما هو مالك الكون كله؟
و الجواب هو أنّ اللّه مالك لعالم الدنيا و الآخرة، لكن مالكيته ليوم القيامة أبرز و أظهر، لأن الارتباطات المادية و الملكيات الاعتبارية تتلاشى كلها فى ذلك اليوم، و حتى الشفاعة لا تتم يومئذ إلا بأمر اللّه: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۵۶].
بتعبير آخر: قد يسارع الإنسان فى هذه الدنيا لمساعدة إنسان آخر، و يدافع عنه بلسانه، و يحميه بأمواله، و ينصره بقدرته و أفراده، و قد يشمله بحمايته من خلال مشاريع و مخططات مختلفة، لكن هذه الألوان من المساعدات غير موجودة فى ذلك اليوم. من هنا حين يوجه هذا السؤال إلى البشر: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ يجيبون: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۵۷].
الإيمان بيوم القيامة، و بتلك المحكمة الإلهية الكبرى التى يخضع فيها كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷

شيء للاحصاء الدقيق، له الأثر الكبير فى ضبط الإنسان أمام الزلات، و وقايته من السقوط فى المنحدرات، و أحد أسباب قدرة الصلاة على النهى عن الفحشاء و المنكر هو أنها تذكر الإنسان بالمبدأ المطلّع على حركاته و سكناته و تذكّره أيضا بمحكمة العدل الإلهى الكبرى.

التركيز على مالكية اللّه ليوم القيامة يقارع من جهة اخرى معتقدات المشركين و منكرى المعاد، لأن الإيمان باللّه عقيدة فطرية عامة، حتى لدى مشركى العصر الجاهلى، و هذا ما يوضحه القرآن إذ يقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۵۸] بينما الإيمان بالمعاد ليس كذلك، فهؤلاء المشركون كانوا يواجهون مسألة المعاد بعناد و استهزاء و لجاج: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۵۹].

و روى عن على بن الحسين السجاد عليه السّلام: «أنّه كان إذا قرأ مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ يكرّرها حتّى يكاد أن يموت»[۶۰].

أما تعبير يَوْمِ الدِّينِ فحيثما ورد فى القرآن يعنى يوم القيامة، و تكرر ذلك فى أكثر من عشرة مواضع من كتاب اللّه العزيز، و فى الآيات ۱۷ و ۱۸ و ۱۹ من سورة الإنفطار ورد هذا المعنى بصراحة.

و أما سبب تسمية هذا اليوم بيوم الدين، فلأن يوم القيامة يوم الجزاء، و (الدين) فى اللغة (الجزاء)، و الجزاء أبرز مظاهر القيامة، ففى ذلك اليوم تكشف السرائر و يحاسب النّاس عما فعلوه بدقة، و يرى كل فرد جزاء ما عمله صالحا أم طالحا.

و

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام يقول: «يوم الدّين هو يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸

الحساب»[۶۱]

(و الدين) استنادا إلى هذه الرواية يعنى (الحساب)، و قد يكون هذا التعبير من قبيل ذكر العلّة و إرادة المعلول. لأن الحساب دوما مقدمة للجزاء.

من المفسّرين من يعتقد أن سبب تسمية يَوْمِ الدِّينِ يعود إلى أن كل إنسان يوم القيامة يجازى إزاء دينه و معتقده. لكن المعنى الأول (الحساب و الجزاء) يبدو أقرب إلى الصحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۵]

اشارة

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۵)

التّفسير

الإنسان بين يدى اللّه

فى هذه الآية يتغيّر لحن السّورة، إذ يبدأ فيها دعاء العبد لربّه و التضرّع إليه.

الآیات السابقة دارت حول حمد اللّه و الثناء علیه، و الإقرار بالإیمان و الاعتراف بیوم القیامة، و فی هذه الآیة یستشعر الإنسان- بعد رسوخ أساس العقیدة و معرفة اللّه فی نفسه حضوره بین یدی اللّه ... یخاطبه و یناجیه، یتحدث إلیه أولا عن تعبّده، ثم یستمد العون منه وحده دون سواه: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ

بعبارة اخری: عند ما تتعمق مفاهیم الآیات السابقة فی وجود الإنسان، و تتنّور روحه بنور ربّ العالمین، و یدرک رحمة اللّه العامة و الخاصة، و مالکیته لیوم الجزاء، یکتمل الإنسان فی جانبه العقائدی. و هذه العقیدة التوحیدیة العمیقة، ذات عطاء یتمثّل أوّلا: فی تربیة الإنسان العبد الخالص للّه، المتحرر من العبودیة للآلهة الخشبیة و البشریة و الشهویة، و یتجلّی ثانیا: فی الاستمداد من ذات اللّه تبارک و تعالی.

الآیات السابقة تحدثت فی الحقیقة عن توحید الذات و الصفات، و هذه الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۰

تتحدّث عن توحید العبادة و توحید الأفعال.

توحید العبادة: یعنی الاعتراف بأن اللّه سبحانه هو وحده اللائق بالعبادة و الطاعة و الخضوع، و بالتشریع دون سواه، کما یعنی تجنب أیّ نوع من العبودیة و التسلیم، لغیر ذاته المقدسة.

و توحید الأفعال: هو الإیمان بأن اللّه هو المؤثّر الحقیقی فی العالم (لا مؤثّر فی الوجود إلّا اللّه). و هذا لا یعنی إنکار عالم الأسباب، و تجاهل المسببات، بل یعنی الإیمان بأن تأثیر الأسباب، إنّما کان بأمر اللّه، فاللّه سبحانه هو الذی یمنح النار خاصیة الإحراق، و الشمس خاصیة الإنارة، و الماء خاصیة الإحیاء.

ثمرة هذا الاعتقاد أن الإنسان یصبح معتمدا علی (اللّه) دون سواه، و یری أن اللّه هو القادر العظیم فقط، و یری ما سواه شبحا لا حول له و لا قوّة، و هو وحده سبحانه اللائق بالاتکال و الاعتماد علیه فی کل الأمور.

هذا التفکیر یحرر الإنسان من الانشداد بأی موجود من الموجودات، و یربطه باللّه وحده. و حتی لو تحرک هذا الإنسان فی دائرة استنطاق عالم الأسباب، فإنما یتحرّک بأمر اللّه تعالی، لیری فیها تجلّی قدرة اللّه، و هو «مسبّب الأسباب».

هذا المعتقد یسمو بروح الإنسان و یوسّع آفاق فکره، لیرتبط بالأبدیة و اللانهایة، و یحرر الکائن البشری من الأطر الضیقة الهابطة.

بحوث

۱- هو المستعان وحده

تقدم المفعول علی الفاعل یفید الحصر- کما یذکر أصحاب اللغة- و تقدم «إیّاک» علی «نعبد» یدلّ علی الحصر، أی أننا نعبدک دون سواک، و نتیجة هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۱

الحصر، هو توحید العبادة و توحید الأفعال.

نعم، نحن محتاجون إلی عونه حتی فی العبودیة و الطاعة، و لذلک ینبغی أن نستعین به فی ذلک أیضا، کی لا تتسرب إلی أنفسنا أوهام العجب و الریاء و أمثالها من الانحرافات التی تجهض عبودیتنا.

بعبارة اخری: حین نقول إِیَّاکَ نَعْبُدُ فان هذه الجملة یشم منها رائحة الاستقلالیة، لذلک نتبعها مباشرة بعبارة إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ کی نجسّم حالة الأمر بین الأمرین (لا جبر و لا تفویض)، فی عباداتنا، و من ثمّ فی کل أعمالنا.

۲- استعمال صيغ الجمع فى تعبير الآيات

كلمة «نعبد» و «نستعين» بصيغة الجمع تشير إلى أن العبادة- خاصة الصلاة- تقوم على أساس الجمع و الجماعة. و على العبد أن يستشعر وجوده ضمن الجمع و الجماعة، حتى حين يقف متضرّعا بين يدى اللّه، فما بالك فى المجالات الاخرى! و هذا الاتجاه فى العبادة يعنى رفض الإسلام لكل ألوان الفردية و الانعزال.

الصلاة خاصة- ابتداء من اذانها و إقامتها حتى تسليمها- تدل على أن هذه العبادة هى فى الأصل ذات جانب اجتماعى، أى أنها ينبغى أن تؤدّى بشكل جماعة، صحيح أن الصلاة فرادى صحيحة فى الإسلام، لكن العبادة الفردية ذات طابع فرعى ثانوى.

۳- الاستعانة به فى كل الأمور

يواجه الإنسان فى مسيرته التكاملية قوى مضادة داخلية (فى نفسه)، و خارجية (فى مجتمعه)، و يحتاج فى مقاومة هذه القوى المضادة إلى العون و المساعدة، و من هنا يلزم على الإنسان عند ما ينهض صباحا أن يكرر عبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ليعترف بعبوديته للّه سبحانه، و ليستمد العون منه فى مسيرته الطويلة الشاقة. و عند ما يجنّ عليه الليل لا يستسلم للرقاد إلّا بعد تكرار هذه العبارة أيضا. و الإنسان المستعين حقّا، هو الذى تتضاءل أمام عينيه كلّ القوى المتجبّرة المتغطرسة. و كل الجواذب المادية الخادعة، و ذلك ما لا يكون إلّا حينما يرتفع الإنسان إلى مستوى القول: إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۶۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۶]

اشارة

اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۶)

التّفسير

السير على الصراط المستقيم

بعد أن يقرّ الإنسان بالتسليم لربّ العالمين، و يرتفع إلى مستوى العبودية للّه و الاستعانة به تعالى، يتقدّم هذا العبد بأول طلب من بارئه، و هو الهداية إلى الطريق المستقيم، طريق الطّهر و الخير، طريق العدل و الإحسان، طريق الإيمان و العمل الصالح، ليهبه اللّه نعمة الهداية كما وهبه جميع النعم الاخرى.

الإنسان فى هذه المرحلة مؤمن طبعا و عارف بربّه، لكنه معرّض دوما بسبب العوامل المضادة إلى سلب هذه النعمة و الانحراف عن الصراط المستقيم. من هنا كان عليه لزاما أن يكرر عشر مرات فى اليوم على الأقل طلبه من اللّه أن يقيه العثرات و الانحرافات.

أضف إلى ما تقدم أن الصراط المستقيم هو دين اللّه، و له مراتب و درجات لا يستوى فى طيّها جميع النّاس، و مهما سما الإنسان فى مراتبه، فثمّة مراتب اخرى أبعد و أرقى، و الإنسان المؤمن توّاق دوما إلى السير الحثيث على هذا السلّم الارتقائى، و عليه أن يستمد العون من اللّه فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۴

ثمة سؤال يتبادر إلى الأذهان عن سبب طلبنا من اللّه الهداية إلى الصراط المستقيم، ترى هل نحن ضالون كى نحتاج إلى هذه الهداية؟ و كيف يصدر مثل هذا الأمر عن المعصومين و هم نموذج الإنسان الكامل؟! و فى الجواب نقول:

أوّلا- الإنسان معرض فى كل لحظة إلى خطر التعثر و الانحراف عن مسير الهداية- كما أشرنا إلى ذلك- و لهذا كان على الإنسان تفويض أمره إلى اللّه، و الاستمداد منه فى تثبيت قدمه على الصراط المستقيم.

ينبغى أن نتذكر دائما أن نعمة الوجود و جميع المواهب الإلهية، تصلنا من المبدأ العظيم تعالى لحظة بلحظة. و ذكرنا من قبل أننا و جميع الموجودات (بلحاظ معين) مثل مصابيح كهربائية، النور المستمر فى هذه المصابيح يعود إلى وصول الطاقة إليها من المولد الكهربائى باستمرار. فهذا المولّد ينتج كل لحظة طاقة جديدة و يرسلها عن طريق الأسلاك إلى المصابيح لتتحول إلى نور.

وجودنا يشبه نور هذه المصابيح. هذا الوجود، و إن بدا ممتدا مستمرا، هو فى الحقيقة وجود متجدّد يصلنا باستمرار من مصدر الوجود الخالق الفيّاض.

هذا التجدّد المستمر فى الوجود، يتطلب باستمرار هداية جديدة، فلو حدث خلل فى الأسلاك المعنوية التى تربطنا باللّه، كالظلم و الإثم و ... فإن ارتباطنا بمنبع الهداية سوف ينقطع، و تزيغ أقدامنا فورا عن الصراط المستقيم.

نحن نتضرّع إلى اللّه فى صلواتنا أن لا يعترى ارتباطنا به مثل هذا الخلل، و أن نبقى ثابتين على الصراط المستقيم.

ثانيا: الهداية هى السير على طريق التكامل، حيث يقطع فيه الإنسان تدريجيا مراحل النقصان ليصل إلى المراحل العليا. و طريق التكامل- كما هو معلوم- غير محدود، و هو مستمر الى اللانهاية.

ممّا تقدّم نفهم سبب تضرّع حتى الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام للّه تعالى أن يهديهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۵

الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فالكمال المطلق للّه تعالى، و جميع ما سواه يسيرون على طريق التكامل، فما الغرابة فى أن يطلب المعصومون من ربّهم درجات أعلى؟! نحن نصلّى على محمّد و آل محمّد، و الصلاة تعنى طلب رحمة إلهية جديدة لمحمّد و آل محمّد، و مقام أعلى لهم.

و الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: رَبِّ زِدْنِى عِلْماً[۶۳].

و القرآن الكريم يقول: وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ۶۴].

و يقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ ۶۵].

و لمزيد من التوضيح نذكر الحديثين التاليين:

۱-

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام، قال فى تفسير اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

أى: «أدم لنا توفيقك الّذى أطعناك به فى ما مضى من أيّامنا، حتّى نطيعك فى مستقبل أعمارنا»[۶۶].

۲-

و قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «يعنى أرشدنا للزوم الطّريق المؤدّى إلى محبّتك، و المبلّغ إلى جنّتك، و المانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو أن نأخذ بآرائنا فنهلك»[۶۷].

ما هو الصّراط المستقيم؟

هذا الصّراط كما يبدو من تفحص آيات الذكر الحكيم هو دين التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۶

و الالتزام بأوامر اللّه. و لكنه ورد فى القرآن بتعابير مختلفة.

فهو الدين القيم و نهج إبراهيم عليه السّلام و نفى كل أشكال الشّرك كما جاء فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۶۸]، فهذه الآية الشريفة عرّفت الصراط المستقيم من جنبة ايديولوجية.

و هو أيضا رفض عبادة الشيطان و الاتجاه إلى عبادة اللّه وحده، كما فى قوله:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ۶۹]، و فيها إشارة إلى الجنبة العملية للدين.

أمّا الطريق إلى الصراط المستقيم فتمّ من خلال الاعتصام باللّه: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۷۰].

يلزمنا أن نذكر أنّ الطريق المستقيم هو طريق واحد لا أكثر، لأنه لا يوجد بين نقطتين أكثر من خطّ مستقيم واحد، يشكل أقصر طريق بينهما. من هنا كان الصراط المستقيم فى المفهوم القرانى، هو الدين الإلهى فى الجوانب العقائدية و العملية، ذلك لأن هذا الدين أقرب طريق للارتباط باللّه تعالى. و من هنا أيضا فإن الدين الحقيقى واحد لا أكثر إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ ۷۱].

و سنرى فيما بعد- إن شاء اللّه- أن للإسلام معنى واسعا يشمل كل دين توحيدى فى عصره، أى قبل أن ينسخ بدين جديد.

من هذا يتضح أن التفاسير المختلفة للصراط المستقيم، تعود كلها إلى معنى واحد.

فقد قالوا: إنه الإسلام.

و قالوا: إنه القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۵۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۷

و قالوا: إنه الأنبياء و الأئمة.

و قالوا: إنه دين اللّه، الذى لا يقبل سواه.

و كل هذا المعانى تعود إلى نفس الدين الإلهى فى جوانبه الاعتقادية و العملية.

و الروايات الموجودة فى المصادر الإسلامية فى هذا الحقل، تشير إلى جوانب متعددة من هذه الحقيقة الواحدة، و تعود جميعا إلى أصل واحد منها:

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «اهدنا الصّراط المستقيم صراط الأنبياء، و هم الّذين أنعم اللّه عليهم ۷۲].

و عن جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير الاية: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ قال: «الطّريق هو معرفة الإمام»[۷۳].

و عنه أيضا: «و اللّه نحن الصّراط المستقيم»[۷۴].

و عنه أيضا: «الصّراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السّلام»[۷۵].

و من الواضح أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، دعوا جميعا إلى دين التوحيد الإلهى، و الالتزام به عقائديا و عمليا.

و اللافت للنظر، أنّ «الراغب» يقول فى مفرداته فى معنى الصراط: إنّه الطريق المستقيم، فكلمة الصراط تتضمّن معنى الاستقامة. و وصفه بالمستقيم كذلك تأكيد على هذه الصفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۸

الآية [سورة الفاتحة (۱): آية ۷]

اشارة

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لا الضَّالِّينَ (۷)

التّفسير

خطّان منحرفان!

هذه الآية تفسير واضح للصراط المستقيم المذكور فى الآية السابقة، إنّه صراط المشمولين بأنواع النعم (مثل نعمة الهداية، و نعمة التوفيق، و نعمة القيادة الصالحة، و نعمة العلم و العمل و الجهاد و الشهادة) لا المشمولين بالغضب الإلهى بسبب سوء فعالهم و زيغ قلوبهم، و لا الضائعين التائهين عن جادة الحق و الهدى:

صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ

و لأننا لسنا على معرفة تامّة بمعالم طريق الهداية، فإن اللّه تعالى يأمرنا فى هذه الكريمة أن نطلب منه هدايتنا إلى طريق الأنبياء و الصالحين من عباده:

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و يحذّرنا كذلك بأن أمامنا طريقين منحرفين، و هما طريق الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و طريق الضَّالِّينَ و بذلك يتبين للإنسان طريق الهداية بوضوح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۹

بحثان

۱- من هم الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الذين أنعم اللّه عليهم، تبيّنهم الآية الكريمة من سورة النساء إذ يقول: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً[۷۶].

و الآية- كما هو واضح- تقسم الذين أنعم اللّه عليهم على أربع مجاميع:

الأنبياء، و الصديقين، و الشهداء، و الصالحين.

لعل ذكر هذه المجاميع الأربع، إشارة إلى المراحل الأربع لبناء المجتمع الإنسانى السالم المتطوّر المؤمن.

المرحلة الاولى: مرحلة نهوض الأنبياء بدعوتهم الإلهية.

المرحلة الثانية: مرحلة نشاط الصديقين، الذين تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، لنشر الدعوة.

المرحلة الثالثة: مرحلة الكفاح بوجه العناصر المضادة الخبيثة فى المجتمع.

و فى هذه المرحلة يقدم الشهداء دمهم لإرواء شجرة التوحيد.

المرحلة الرابعة: هى مرحلة ظهور «الصالحين» فى مجتمع طاهر ينعم بالقيم و المثل الانسانية باعتباره نتيجة للمساعى و الجهود المبذولة.

نحن- إذن- فى سورة الحمد نطلب من اللّه- صباحا و مساء- أن يجعلنا فى خط هذه المجاميع الأربع: خط الأنبياء، و خط الصديقين، و خط الشهداء، و خط الصالحين. و من الواضح أنّ علينا أن ننهض فى كل مرحلة زمنيّة بمسؤوليتنا و نؤدّى رسالتنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۰

۲- من هم الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و من هم الضَّالِّينَ

يتضح من الآية الكريمة أن الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ و الضَّالِّينَ مجموعتان لا مجموعة واحدة، و أما الفرق بينهما ففيه ثلاثة أقوال:

۱- يستفاد من استعمال التعبيرين فى القرآن أنّ «المغضوب عليهم» أسوأ و أحطّ من «الضّالّين»، أى إنّ الضّالين هم التائهون العاديّون، و المغضوب عليهم هم المنحرفون المعاندون، أو المنافقون، و لذلك استحقوا لعن اللّه و غضبه.

قال تعالى: وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ۷۷].

و قال سبحانه: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۷۸].

الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ إذن يسلكون- إضافة إلى كفرهم- طريق اللجاج و العناد و معاداة الحق، و لا يألون جهدا فى توجيه ألوان التنكيل و التعذيب لقادة الدعوة الإلهية.

يقول سبحانه: وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ... ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ ۷۹].

۲- ذهب جمع من المفسرين إلى أن المقصود من الضَّالِّينَ المنحرفون من النصارى، و الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ المنحرفون من اليهود.

هذا الفهم ينطلق من مواقف هذين الفريقين تجاه الدعوة الإسلامية. فالقرآن يصرّح مرارا أنّ المنحرفين من اليهود كانوا يكنون عداءا شديدا و حقدا دفينا للإسلام.

مع أن علماء اليهود كانوا من مبشّرى ظهور الإسلام، لكنهم تحوّلوا إلى أعداء ألدّاء للإسلام لدى انتشار الدعوة لأسباب عديدة لا مجال لذكرها، منها تعرّض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۱

مصالحهم المادية للخطر. (تماما مثل موقف الصهاينة اليوم من الإسلام و المسلمين).

تعبير الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ينطبق تماما على هؤلاء اليهود، لكن هذا لا يعنى حصر مفهوم المغضوب عليهم بهذه المجموعة من اليهود، بل هو من قبيل تطبيق الكلى على الفرد.

أما منحرفو النصارى فلم يكن موقفهم تجاه الإسلام يبلغ هذا التعنت، بل كانوا ضالين فى معرفة الحق. و التعبير عنهم بالضالين هو أيضا من قبيل تطبيق الكلى على الفرد.

الأحاديث الشريفة أيضا فسّرت الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ باليهود، و الضَّالِّينَ بمنحرفى النصارى، و السبب فى ذلك يعود إلى ما ذكرناه ۸۰].

۳- من المحتمل أن الضَّالِّينَ إشارة إلى التائهين الذين لا يصرّون على تضليل الآخرين، بينما الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم الضالّون و المضلّون الذين يسعون إلى جرّ الآخرين نحو هاوية الانحراف.

الشاهد علی ذلک حدیث القرآن عن المغضوب علیهم بوصفهم: الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ ۸۱] إذ یقول: وَ الَّذِینَ یُحَاجُّونَ فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِیبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَیْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ[۸۲].

و یبدوا أن التّفسیر الأول أجمع من التّفسیرین التالیین، بل إن التّفسیرین التالیین یتحرکان علی مستوی التطبیق للتفسیر الأول. و لا دلیل لتحدید نطاق المفهوم الواسع للآیة.

و الحمد للّه رب العالمین (نهایة سورة الحمد)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۳

سورة البقرة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها مائتان و ست و ثمانون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۴

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۵

سورة البقرة

محتوی سورة البقرة:

هذه السّورة أطول سور القرآن، و من المؤکد أنّها لم تنزل مرّة واحدة. بل فی مناسبات عدیدة، حسب متطلبات المجتمع الإسلامی فی المدینة. و تتمیز بشمولها لمبادئ العقیدة و لکثیر من الأحکام العملیة (العبادیة، و الاجتماعیة، و السیاسیة، و الاقتصادیة). ففی هذه السّورة.

۱- موضوعات حول التوحید و معرفة الخالق، عن طریق استنطاق أسرار الکون.

۲- جولات فی عالم المعاد و البعث و النشور مقرونة بأمثلة حسیّة، مثل قصّة إبراهیم علیه السّلام و إحیاء الطیر، و قصّة عزیر علیه السّلام.

۳- آیات ترتبط بإعجاز القرآن و أهمیة کتاب اللّه العزیز.

۴- سرد مطوّل حول وضع الیهود و المنافقین و مواقفهم المعادیة للقرآن و الإسلام و شدّة ضررهم فی هذا المجال.

۵- استعراض لتاریخ الأنبیاء، و خاصة إبراهیم و موسی علیهما السّلام.

۶- بیان لأحکام إسلامیة مختلفة مثل: الصلاة، و الصوم، و الجهاد، و الحج، و القبلة، و الزواج و الطلاق، و التجارة و الدّین، و الربا، و الإنفاق، و القصاص، و تحریم بعض الأطعمة و الأشربة، و القمار، و ذکر نبذة من أحکام الوصیة و أمثالها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۶۶

و أما تسمیتها بالبقرة، فمأخوذة من قصّة بقرة بنی إسرائیل، التی سیأتی شرحها فی الآیات ۶۷- ۷۳ إن شاء اللّه.

فضیلة هذه السّورة:

وردت فى فضيلة هذه السّورة نصوص عديدة فى المصادر الاسلامية، منها:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه سئل أىّ سور القرآن أفضل؟ قال: «البقرة» قيل: أىّ آية البقرة أفضل؟ قال: «آية الكرسىّ»[۸۳].

أفضلية هذه السور تعود على ما يبدو إلى جامعيتها. و أفضلية آية الكرسى تعود إلى محتواها التوحيدى، و سيأتى ذكر ذلك فى تفسيرها بإذن اللّه. و هذا لا يتنافى مع أفضلية سور اخرى من جهات اخرى. و

روى على بن الحسين عليهما السّلام عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال:

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة، و آية الكرسىّ، و آيتين بعدها، و ثلاث آيات من آخرها، لم ير فى نفسه و ماله شيئا يكرهه و لا يقربه الشّيطان، و لا ينسى القرآن»[۸۴].

من اللازم هنا أن نعيد التأكيد على هذه الحقيقة، و هى إنّ ما ذكر من ثواب و فضيلة و جزاء لتلاوة بعض السور و الآيات الخاصة، لا يعنى- إطلاقا- قراءتها بشكل أوراد، و لا الاكتفاء بترديد ألفاظها، بل التلاوة للفهم، و الفهم من أجل التفكير، و التفكير لغرض العمل.

و من الملاحظ أنّ كل فضيلة ذكرت لآية أو سورة إنما تتناسب كثيرا مع محتوى السّورة و الآية.

ففى فضيلة سورة النور ذكر أنّ من يواظب على قراءتها يصونه اللّه و أولاده

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۷

من (الزنا) و ذلك لأن محتوى هذه السّورة يتضمن تعاليم فى حقل مكافحة الانحرافات الجنسية، مثل حث العزاب على الزواج، و الأمر بالحجاب و غضّ الأبصار عما يثير الشهوة، و التحذير من إشاعة الفاحشة و القذف، و كذلك الأمر بإجراء الحد الشرعى على الزانى و الزانية.

و من الطبيعى أن محتوى هذه السّورة- إن دخل حيّز التنفيذ- يصون المجتمع و الأسرة من الزنا. و هكذا الآيات المذكورة من سورة البقرة، ستكون لها تلك الفضائل حتما إن قرأها الإنسان بامعان و تشبّعت نفسه بمحتواها، خاصة و أنّها جميعا تدور حول محور التوحيد و الإيمان بالغيب و معرفة اللّه، و الحذر من وساوس الشيطان.

صحيح أنّ قراءة القرآن عمل مثاب عليه فى أى حال من الأحوال، لكن الثواب الأساس يترتب على التلاوة المقرونة بالتفكير و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ (۲)

التّفسير

تحقيق فى الحروف المقطعة فى القرآن

تسع و عشرون سورة من سور القرآن تبدأ بحروف مقطعة، و هذه الحروف- كما هو واضح من اسمها- لا تشكل كلمة مفهومة.

هـذه الحروف من أسـرار القرآن، و ذكر المفسـرون لهـا تفاسـير عديـدة، و أضـاف لهـا العلماء المعاصـرون تفاسـير جديـدة من خلال تحقيقاتهم.

جـدير بالـذّكر أن التاريـخ لم يحـدثنا أنّ عرب الجاهلية و المشـركين عابوا على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله اله و سـلّم وجود هذه الحروف المقطعة فى القرآن. و لم يتخذوا منها وسـيلة للطعن و الاسـتهزاء. و هذا يشـير إلى أنهم لم يكونوا جاهلين تماما بأسرار وجود الحروف المقطعة.

اخترنا من التفاسـير الكثيرة لهذه الحروف، عددا من التفاسير باعتبار مسنديتها و انسجامها مع آخر الدراسات فى هذا المجال. و سنذكر هذه التفاسير بالتدريج فى بداية هذه السّورة، و سورة آل عمران، و سورة الأعراف، إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۶۹

و نبدأ الآن بأهمها:

هذه الحروف إشارة إلى أن هذا الكتاب السـماوى، بعظمته و أهميّته التى حيّرت فصـحاء العرب و غير العرب، و تحدت الجن و الإنس فى عصر الرسالة و كل العصور، يتكون من نفس الحروف المتيسرة فى متناول الجميع.

و مع أنّ القرآن يتكون من هـذه الحروف الهجائيـة و الكلمـات المتداولـة، فإن ما فيه من جمال العبارة و عمق المعنى يجعله ينفـذ إلى القلب و الروح، و يملأ النفس بالرضا و الإعجاب، و يفرض احترامه على الأفكار و العقول.

فى القرآن من الفصاحـة و البلاغـة ما لا يخفى على أحـد، و ليس هـذا مجرّد ادّعاء، فخالق الكون تحـدّى بهذا الكتاب جميع (الجن و الإنس)، ليأتوا بمثله وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[۸۵]، و لكنهم عجزوا جميعا عن ذلك، و تلك دلالة على أن هذا الكتاب لم يصدر عن فكر بشر.

و كما إن اللّه تعالى خلق من التراب موجودات، كالإنسان بما فيه من أجهزة معقّـدة محيّرة، و كأنواع الطيور الجميلـة الرائقـة، و الأحياء المتنوعـة، و النباتات و الزهور المختلفـة، و كما إننا ننتـج من هـذا التراب نفسه ألوان المصـنوعات، كـذلك اللّه سـبحانه خلق من هذه الحروف الهجائيـة المتداولـة، موضوعات و معان سامية، فى قوالب لفظية جميلة، و عبارات موزونة، و أسـلوب خاص مدهش معجز، و هذه الحروف الهجائية موجودة تحت تصرف الإنسان، لكنه عاجز عن صنع جمل و عبارات شبيهة بالقرآن.

الأدب فى العصر الجاهلى:

من المهم أن نذكر هنا أن العصر الجاهلى كان عصرا ذهبيا للأدب العربى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۰

فالوثائق المتوفرة بأيـدينا تشـير إلى أن العرب الحفاة الجفاة الجاهليين، كانوا يتمتعون بـذوق أدبى رفيع. و ما وصـلنا من شـعر و نثر من تلك الفترة، يشير إلى قدرة أولئك على التعبير الجميل الدقيق، و يحتل ذروة الفصاحة فى الأدب العربى.

و كـان للأدب سـوق رائجـة تـدلّ على اهتمـام العرب بلغتهم و آدابهم، و (سوق عكـاظ) و أمثالهـا من الأسـواق الأدبيـة تعكس هـذا الاهتمام بوضوح.

و السوق المـذكور كان يشـهد- إضافـة إلى المعاملات الاقتصادية و القضايا الاجتماعية- حركة أدبية تعرض خلالها أفضل مقطوعات الشـعر و النثر، و يتم فيها انتخاب أفضل ما قيل من النظم خلال العام، و (المعلقات السـبع) أو (العشـر) نموذج لذلك، و كانت القصيدة الفائزة تعدّ فخرا كبيرا للشاعر و لقبيلته.

فى مثـل هـذا العصـر من الانتعاش الأدبى، يتحـدى القرآن النّاس أن يأتوا بمثله، و لكنهم عجزوا (سـنذكر مزيـدا من إعجاز القرآن فى

مجال التحدی لدی تفسیر الآیة ۲۳ من هذه السّورة).

شاهد ناطق:

الشاهد الناطق علی هذا المنحی من تفسیر الحروف المقطعة،

حدیث عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام حیث یقول: «کذّب قریش و الیهود بالقرآن و قالوا هذا سحر مبین، تقوّله، فقال اللّه: الم، ذلِکَ الْکِتابُ ...: أیّ یا محمّد، هذا الکتاب الّذی أنزلته إلیک هو الحروف المقطّعة الّتی منها الف و لام و میم، و هو بلغتکم و حروف هجائکم فأتوا بمثله إن کنتم صادقین ...»[۸۶].

و ثم شاهد آخر

عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی قوله: «ثمّ قال إنّ اللّه تبارک و تعالی انزل هذا القرآن بهذه الحروف الّتی یتداولها جمیع العرب، ثمّ قال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۱

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ ...[۸۷].

و هناک ملاحظة تؤید ما ذهبنا إلیه فی تفسیر معنی الحروف المقطعة، و هی أن هذه الحروف فی السور الأربع و العشرین التی ذکرناها، یتلوها مباشرة ذکر لعظمة القرآن، و هذا یدل علی الارتباط بین الحروف المقطعة و عظمة القرآن. و علی سبیل المثال نذکر الآیات التالیة:

۱- الر، کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ[۸۸].

۲- طس، تِلْکَ آیاتُ الْقُرْآنِ وَ کِتابٍ مُبِینٍ ۸۹].

۳- الم، تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْحَکِیمِ ۹۰].

۴- المص، کِتابٌ أُنْزِلَ إِلَیْکَ ۹۱].

بعد البسملة و ذکر الآیة الاولی من سورة البقرة یقول تعالی: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ قد یشیر هذا التعبیر إلی أن اللّه تعالی وعد نبیّه أن ینزّل علیه کتابا یهتدی به من طلب الحق، و لا یشک فیه من کان له قلب أو ألقی السمع و هو بصیر، و ها هو سبحانه قد وفی بوعده الآن.

و قوله: لا رَیْبَ فِیهِ لیس ادعاء، بل تقریر لحقیقة قرآنیة مشهودة، هی إنّ القرآن یشهد بذاته علی حقّانیته. و بعبارة اخری فإن مظاهر الصدق و العظمة و الانسجام و الاستحکام و عمق المعانی و حلاوة الألفاظ و العبارات و فصاحتها من الوضوح بدرجة تبعد عنه کلّ شک.

من المشهود أن مرّ العصور و کرّ الدهور لم یقلل من طراوة القرآن، بل إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۲

حقائق القرآن، ازدادت وضوحا بتطور العلوم و بانکشاف أسرار الکائنات. و کلما ازداد العلم تکاملا ازدادت آیات القرآن جلاء و سطوعا.

و سنوضح هذه الحقیقة أکثر بإذن اللّه فی مواضع اخری من هذا التّفسیر.

بحوث

۱- لماذا الإشارة إلى البعيد؟

نعلم أن كلمة (ذلك) إشارة إلى البعيد فى لغة العرب، و قرب القرآن من أيدى النّاس يقتضى أن تكون الإشارة للقريب.
السبب فى استعمال اسم الإشارة للبعيد يعود إلى بيان سموّ القرآن و رفعته، حتى كأنه- فى عظمته- يحتل نقطة الذروة فى هذا الوجود.
و مثل هذا الاستعمال شائع فى سائر اللغات أيضا حين يراد الإشارة إلى شخص ذى منزلة كبيرة مثلا.
فى بعض مواضع القرآن وردت أيضا كلمة (تلك)، و هى اسم إشارة للبعيد أيضا، مثل: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ ۹۲]. و السبب فيه ما ذكرنا.

۲- معنى الكتاب:

«الكتاب» يعنى المكتوب و المخطوط، و لا شك أن المراد منه فى الآية كتاب اللّه الكريم.
و هنا يثار سؤال حول سبب استعمال كلمة الكتاب للقرآن و هو آنئذ لم يكتب كلّه.
و فى الجواب نقول: استعمال هذه الكلمة لا يستلزم أن يكون القرآن كله
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۳
مكتوبا. لإن اسم القرآن يطلق على كل هذا الكتاب، و على أجزائه أيضا.
أضف إلى ذلك أن «الكتاب» يطلق أحيانا بمعنى أوسع، ليشمل كل ما يليق أن يكتب فيما بعد، و إن لم يكن كذلك حين إطلاق اسم الكتاب عليه. ففى آية اخرى نقرأ: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ۹۳]. و من المؤكد أن القرآن لم يكن بشكل كتاب مدوّن بين النّاس قبل نزوله.
و ثمة احتمال آخر و هو إن التعبير بالكتاب يشير إلى كتابة القرآن فى «اللوح المحفوظ»[۹۴].

۳- ما هى الهداية؟

كلمة (الهداية) لها عدة معانى فى القرآن الكريم، و كلها تعود أساسا إلى معنيين:
۱- الهداية التكوينية: و هى قيادة رب العالمين لموجودات الكون، و تتجلى هذه الهداية فى نظام الخليقة و القوانين الطبيعية المتحكمة فى الوجود. و واضح أن هذه الهداية تشمل كل موجودات الكون.
يقول القرآن على لسان موسى عليه السّلام: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ۹۵].
۲- الهداية التشريعية: و هى التى تتم عن طريق الأنبياء و الكتب السماوية، و عن طريقها يرتفع الإنسان فى مدارج الكمال، و شواهدها فى القرآن كثيرة منها قوله تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا[۹۶].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۴

۴- لماذا اختصت هداية القرآن بالمتقين؟

واضح أن القرآن هداية للبشرية جمعاء، فلما ذا خصت الآية الكريمة المتقين بهذه الهداية؟

السبب هو أن الإنسان لا يتقبل هداية الكتب السماوية و دعوة الأنبياء، ما لم يصل إلى مرحلة معينة من التقوى (مرحلة التسليم أمام الحق و قبول ما ينطبق مع العقل و الفطرة).

و بعبارة اخرى: الأفراد الفاقدون للإيمان على قسمين:

قسم يبحث عن الحق، و يحمل مقدارا من التقوى يدفعه لأن يقبل الحق أنّى وجده.

و قسم لجوج متعصب قد استفحلت فيه الأهواء، لا يبحث عن الحق، بل يسعى فى إطفاء نوره حيثما وجده.

و من المسلّم به أن أفراد القسم الأول هم الذين يستفيدون من القرآن أو أىّ كتاب سماوى آخر، أما القسم الثانى فلا حظّ لهم فى ذلك.

و بعبارة ثالثة: كما إنّ «فاعليّة الفاعل» شرط فى الهداية التكوينية و فى الهداية التشريعية، كذلك «قابلية القابل» شرط فيهما أيضا.

الأرض السبخة لا تثمر و إن هطل عليها المطر آلاف المرات، فقابلية الأرض شرط فى استثمار ماء المطر.

و ساحة الوجود الإنسانى لا تتقبّل بذر الهداية ما لم يتمّ تطهيرها من اللجاج و التعصب و العناد. و لذلك قال سبحانه فى كتابه العزيز أنه: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۵

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳ الى ۵]

اشارة

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴) أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵)

التّفسير

آثار التقوى فى روح الإنسان و بدنه:

فى بداية هذه السّورة قسم القرآن النّاس حسب ارتباطهم بخط الإسلام على ثلاثة أقسام:

۱- المتقون: و هم الذين تقبّلوا الإسلام فى جميع أبعاده.

۲- الكافرون: و يقعون فى النقطة المقابلة للمتقين، و يعترفون بكفرهم، و لا يأبون أن يظهروا عداءهم للإسلام فى القول و العمل.

۳- المنافقون: و لهم وجهان، فهم مسلمون ظاهرا أمام المسلمين، و كفّار أمام أعداء الدين. و شخصيتهم الأصلية هى الكفر طبعا و إن تظاهروا بالإسلام.

المجموعة الثالثة تضر بالإسلام- دون شك- أكثر من المجموعة الثانية، و لذلك فإن القرآن يقابلهم بشدّة أكثر كما سنرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۶

هذه المسألة لا تختص بالإسلام طبعا، كل المذاهب فى العالم لها مؤمنون معتقدون، أو معارضون صريحون، أو منافقون محافظون. كما أنها لا تختص بزمان معين، بل هى سارية فى كل العصور.

الآيات المذكورة تدور حول المجموعة الاولى، و تطرح خصائصهم فى خمسة عناوين هى:

۱- الإيمان بالغيب:

«الغيب و الشهود» نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، و عالم الغيب هو ما وراء الحس. لأنّ «الغيب» فى الأصل يعنى ما بطن و خفى.

و قيل عن عالم ما وراء المحسوسات «غيب» لخفائه عن حواسّنا. التقابل بين العالمين مذكور فى آيات عديدة كقوله تعالى: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ ۹۷].

الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الاولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، و بين منكرى الخالق و الوحى و القيامة. و من هنا كان الإيمان بالغيب أول سمة ذكرت للمتّقين.

المؤمنون خرقوا طوق العالم المادى، و اجتازوا جدرانه، إنّهم بهذه الرؤية الواسعة مرتبطون بعالم كبير لا متناه. بينما يصرّ معارضوهم على جعل الإنسان مثل سائر الحيوانات، محصورا فى موقعه من العالم المادى. و هذه الرؤية المادية تقمّصت فى عصرنا صفات العلمية و التقدمية و التطورية! لو قارنّا بين فهم الفريقين و رؤيتهما، لعرفنا أن: «المؤمنين بالغيب» يعتقدون أن عالم الوجود أكبر و أوسع بكثير من هذا العالم المحسوس، و خالق عالم الوجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۷

غير متناه فى العلم و القدرة و الإدراك، و أنّه أزلىّ و أبدىّ. و أنّه صمّم هذا العالم وفق نظام دقيق مدروس. و يعتقدون أنّ الإنسان- بما يحمله من روح إنسانية- يسمو بكثير على سائر الحيوانات. و أنّ الموت ليس بمعنى العدم و الفناء، بل هو مرحلة تكاملية فى الإنسان، و نافذة تطل على عالم أوسع و أكبر.

بينما الإنسان المادى يعتقد أن عالم الوجود محدود بما نلمسه و نراه. و أن العالم وليد مجموعة من القوانين الطبيعية العمياء الخالية من أى هدف أو تخطيط أو عقل أو شعور. و الإنسان جزء من الطبيعة ينتهى وجوده بموته، يتلاشى بدنه، و تندمج أجزاؤه مرّة اخرى بالمواد الطبيعية. فلا بقاء للإنسان، و ليس ثمّة فاصلة كبيرة بينه و بين سائر الحيوانات ۹۸]! ما أكبر الهوة التى تفصل بين هاتين الرؤيتين للكون و الحياة! و ما أعظم الفرق بين ما تفرزه كل رؤية، من حياة اجتماعية و سلوك و نظام! الرؤية الاولى تربّى صاحبها على أن ينشد الحق و العدل و الخير و مساعدة الآخرين. و الثانية، لا تقدّم لصاحبها أى مبرّر على ممارسة الأمور اللهم إلّا ما عاد عليه بالفائدة فى حياته المادية. من هنا يسود فى حياة المؤمنين الحقيقيين التفاهم و الإخاء و الطّهر و التعاون، بينما تهيمن على حياة الماديين روح الاستعمار و الاستغلال و سفك الدماء و النهب و السلب. و لهذا السبب نرى القرآن يتخذ من «الإيمان بالغيب» نقطة البداية فى التقوى.

يدور البحث فى كتب التّفسير عن المقصود بالغيب، أهو إشارة إلى ذات البارى تعالى، أم أنه يشمل- أيضا- الوحى و القيامة و عالم الملائكة و كل ما هو وراء الحس؟ و نحن نعتقد أن الآية أرادت المعنى الشامل لكلمة الغيب، لأن الإيمان بعالم ما وراء الحس- كما ذكرنا- أول نقطة افتراق المؤمنين عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۸

الكافرين، إضافة إلى ذلك، تعبير الآية مطلق ليس فيه قيد يحدده بمعنى خاص.

بعض الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام تفسّر الغيب فى الآية، بالمهدى الموعود المنتظر (سلام اللّه عليه) و الذى نعتقد بحياته و خفائه عن الأنظار، و هذا لا ينافى ما ذكرناه بشأن معنى الغيب، لأن الروايات الواردة فى تفسير الآيات تبين غالبا مصاديق خاصة للآيات، دون أن تحدد الآيات بهذه المصاديق الخاصة، و سنرى فى صفحات هذا التّفسير أمثلة كثيرة لذلك. و الروايات

المذكورة بشأن تفسير معنى الغيب، تستهدف فى الواقع توسيع نطاق معنى الإيمان بالغيب، ليشمل حتى الإيمان بالمهدى المنتظر عليه السّلام و يمكننا القول أنّ الغيب له معنى واسع قد نجد له بمرور الزمن مصاديق جديدة.

۲- الارتباط باللّه:

الصفة الاخرى للمتقين هى أنهم يُقِيمُونَ الصَّلاةَ.

«الصّلاة» باعتبارها رمز الارتباط باللّه، تجعل المؤمنين المنفتحين على عالم ما وراء الطبيعة على ارتباط دائم بالخالق العظيم. فهم لا يحنون رؤوسهم إلّا أمام اللّه، و لا يستسلمون إلّا لرب السماوات و الأرض، و لذلك لا معنى فى قاموس حياتهم لعبادة الأوثان، أو التسليم أمام الجبابرة و الطواغيت.

مثل هذا الإنسان يشعر أنّه أسمى من جميع المخلوقات الاخرى، إذ أنّه منح لياقة الحديث مع ربّ العالمين، و هذا الإحساس الوجدانى أكبر عامل فى تربية الموجود البشرى.

الإنسان الذى يقف خمس مرات يوميّا أمام اللّه، يتضرع إليه و يناجيه، ينطبع فكره و عمله و قوله بطابع إلهى، و مثل هذا الإنسان لا ينهج طريقا فيه سخط اللّه (على أن يكون تضرعه للّه صادرا عن أعماق قلبه و منطلقا من تمام وجوده)[۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۷۹

۳- الارتباط بالنّاس:

المتقون- إضافة إلى ارتباطهم الدائم بالخالق- لهم ارتباط وثيق و مستمر بالمخلوقين، و من هنا كانت الصفة الثالثة التى يبيّنها لهم القرآن أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

يلاحظ أن القرآن لا يقول: و من أموالهم ينفقون، بل يقول: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

يلاحظ أن القرآن لا يقول: و من أموالهم ينفقون، بل يقول: وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ و بذلك وسّع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية و المعنوية.

فالمتقون لا ينفقون أموالهم فسحب، بل ينفقون من علمهم و مواهبهم العقلية و طاقاتهم الجسميّة و مكانتهم الاجتماعية، و بعبارة اخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقّع الجزاء منه.

الملاحظة الاخرى: إن الإنفاق قانون عام فى عالم الخليقة، و خاصة فى التركيب العضوى لكل موجود حى. قلب الإنسان لا يعمل لنفسه فقط، بل ينفق ما عنده لجميع خلايا البدن. الدماغ و الرئة و سائر أجهزة البدن تنفق دائما من ثمار عملها، و الحياة الجماعية- أساسا- لا مفهوم لها دو نما إنفاق ۱۰۰].

الارتباط بالنّاس- فى الحقيقة حصيلة الارتباط باللّه. فالإنسان المرتبط باللّه يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنّما هى مواهب إلهيّة مودعة لديه لفترة زمنيّة معينة.

و من هنا فلا يزعجه الإنفاق بل يسره و يفرحه، لأنه بالإنفاق قسّم مال اللّه بين عباد اللّه، و بقيت له نتائج هذا العمل و بركاته المادية و المعنوية. و هذا التفكير يطهّر روح الإنسان من البخل و الحسد، و يحوّل الحياة من ساحة لتنازع البقاء إلى مسرح للتعاون حيث يشعر كل فرد بأنه مسئول أن يضع ما لديه من مواهب تحت تصرف كل المحتاجين، مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۰

أحد جزاء.

فی حـدیث عن الإمـام جعفر بن محمّـد الصادق علیه السّـلام بشأن تفسـیر الآیـة وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ یقول: «إنّ معناه و ممّا علّمناهم یبثّون»[۱۰۱].

بـدیهی أنّ الرّوایـة لا تریـد أن تجعل الإنفاق مختصا بالعلم، بل إن الإمام الصادق یرید- بذکر هذا اللون من الإنفاق- أن یوسّع مفهوم الإنفاق کی لا یکون مقتصرا علی الجانب المالی کما یتبادر إلی الأذهان لأول وهلة.

و من هنا یتضح ضـمنیا أن الإنفاق المذکور فی الآیة، لا یقتصـر علی الزکوات الواجبة و المسـتحبة، بل یتسع معناه لیشمل کل مساعدة بلا مقابل.

۴- الإیمان بالأنبیاء علیهم السّلام:

الخاصـیة الرابعـة للمتّقین الإیمـان بجمیع الأنبیـاء و برسالاـتهم الإلهیـة؛ وَ الَّذِینَ یُؤْمِنُونَ بِمـا أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ و فی هـذا التعبیر القرآنی إشارة إلی أن المتقین یؤمنون بتوافق دعوة الأنبیاء فی المبادی و الاسـس، بأنهم جمیعا هداة البشـریة نحو صراط مستقیم واحد، أحدهم یکمل الشوط الذی قطعه سـلفه فی قیادة البشریة نحو کمالها المرسوم. و یؤمنون بأن الأدیان الإلهیة لیست وسیلة للتفرقة و النفاق، بل علی العکس وسیلة للارتباط و عامل للشّد بین أبناء البشر.

الأشـخاص الـذین یحملون مثـل هـذه الرّؤیـة و مثـل هـذا الإـدراک، یسـعون تطهیر أرواحهم من التعصّب، و یؤمنون بما جاء به جمیع الأنبیاء لهدایة البشر و تکاملهم، و یحترمون کل دعاة و هداة طریق التوحید.

الإیمان برسالات الأنبیاء السابقین، لا یمنع طبعا من انتهاج رسالة خاتم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۱

الأنبیاء فی الفکر و العمل، لأن هـذه الرّسالـة هی آخر حلقـة من السلسـلة التکاملیة للأدیان، و عدم انتهاجها یعنی التخلف عن المسـیرة التکاملیة للبشریة.

۵- الإیمان بیوم القیامة:

آخر صفة فی هذه السلسلة من الصفات التی قررها القرآن للمتقین وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ

إنهم یوقنون بأن الإنسان لم یخلق هملا و عبثا، فالخلیقة عینت للکائن البشـری مسـیرة تکاملیة لا تنتهی إطلاقا بموته، إذ لو کان الموت نهایة المسیر لکانت حیاة الإنسان عبثا لا طائل تحته.

المتّقون یقرّون بأن عدالة اللّه المطلقة تنتظر الجمیع، و لا شیء من أعمال البشر فی هذه الدنیا یبقی بدون جزاء.

هـذا اللون من التفکیر یبعث فی نفس حامله الهـدوء و السـکینة، و یجعله یتحمل أعباء المسؤولیـة و مشاقها بصـدر رحب، و یقف أمام الحوادث کالطود الأشمّ، و یرفض الخضوع للظلم. و هـذا التفکیر یملأ الإنسان ثقة بأن الأعمال- صالحها و طالحها- لها جزاء و عقاب، و بأنه ینتقل بعد الموت إلی عالم أرحب خال من کل ألوان الظلم، یتمتع فیه برحمة اللّه الواسعة و ألطافه الغزیرة.

الإیمان بالآخرة یعنی شقّ حاجز عالم المادة و الدخول إلی عالم أسمی.

و یعنی أن عالمنا هـذا مزرعـة لـذلک العالم الأسـمی و مدرسـة إعدادیـة له، و أنّ الحیاة فی هـذا العالم لیست هدفا نهائیّا، بل تمهید و

إعداد للعالم الآخر.

الحياة فى هـذا العالم شبيهـة بحياة المرحلـة الجنينيـة، فهى ليست هـدفا لخلقـة الإنسان، بل مرحلة تكاملية من أجل حياة اخرى. و ما لم يولد هذا الجنين سالما خاليا من العيوب، لا يستطيع أن يعيش سعيدا فى الحياة التالية.

الإيمان بيوم القيامة له أثر عميق فى تربية الإنسان. يهبه الشجاعة و الشهامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۲

لأن أسـمى و سام يتقلـده الإنسان فى هـذا العالم، هو و سام «الشـهادة» على طريق هدف مقدس إلهى، و الشـهادة أحبّ شـىء للإنسان المؤمن، و بداية لسعادته الأبديّة.

الإيمـان بيوم القيامـة يصون الإنسـان من ارتكاب الـذّنوب. بعبارة اخرى، يتناسب ارتكابنا للـذنوب مع إيماننا باللّه و اليوم الآخر تناسبا عكسـيا، فكلمـا قوى الإيمان قلت الـذنوب. يقول اللّه سـبحانه لنبيّه داود: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ ۱۰۲].

نسيان يوم الحساب أساس كل طغيان و ظلم و ذنب، و بالتالى أساس استحقاق العذاب الشديد.

آخر آية فى هذا البحث تشـير إلى النتيجة التى يتلقاها المؤمنون المتصـفون بالصفات الخمس المذكورة، تقول: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ ... وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و قد ضمن ربّ العالمين لهؤلاء هدايتهم و فلاحهم، و عبارة مِنْ رَبِّهِمْ إشارة إلى هذه الحقيقة.

و اسـتعمال حرف (على) فى عبـارة عَلى هُـدىً مِنْ رَبِّهِمْ يوحى بـأن الهدايـة الإلهيـة مثـل سـفينة يركبهـا هؤلاء المتقون لتوصـلهم إلى السعادة و الفلاح. (لأن حرف- على- يوحى غلبا معنى الاستعلاء).

و استعمال كلمة «هدى» فى حالة نكرة يشير إلى عظمة الهداية التى شملهم اللّه بها.

و تعبير هُمُ الْمُفْلِحُونَ يفيد الانحصار كما يذكر علماء البلاغة، أى إن الطريق الوحيد للفلاح هو طريق هؤلاء المفلحين ۱۰۳]!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۳

بحثان

۱- مواصلة طريق الإيمان و العمل:

الآيات المـذكورة اسـتعملت الفعل المضارع الذى يشـير عادة إلى الاسـتمرار يؤمنون بالغيب- يقيمون الصـلاة- ينفقون- و بالآخرة هم يوقنون. و هـذا يعنى أن المتقين و المؤمنين الحقيقيين هم الـذين يواصـلون مسـيرتهم الحياتيـة بثبـات و اسـتمرار، دون تعثر أو تلكّؤ أو توقف.

هؤلاء ينطلقون منـذ البـدء بروح البحث عن الحق، و هذا يؤدى بهم إلى تلبية دعوة القرآن، و القرآن بعد ذلك يوجد فيهم الخصائص الخمس المذكورة.

۲- ما هى حقيقة التقوى؟

التقوى من الوقاية، أى الحفظ و الصيانة[۱۰۴]، و هى بعبارة اخرى جهاز الكبح الداخلى الذى يصون الإنسان أمام طغيان الشهوات.

لهذا السبب

وصف أمير المؤمنين على عليه السّلام التقوى بأنها الحصن الذى يقى الإنسان أخطار الانزلاق إذ قال: «اعلموا عباد اللّه أنّ التّقوى دار حصن عزيز»[۱۰۵].

و فى النصوص الدينية و الأدبية تشبيهات كثيرة تجسّم حالة التقوى، فعن الامام على عليه السّلام قال: «ألا و إنّ التّقوى مطايا ذلل، حمل عليها أهلها، و أعطوا أزمّتها، فأوردتهم الجنّة»[۱۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۴

و عبد اللّه بن المعتز شبّه التقوى بحالة رجل يسير على طريق شائكة، و يسعى إلى أن يضع قدمه على الأرض بتأنّ و حذر، كى لا تخزه الأشواك، أو تتعلق بثيابه، يقول:

خل الذّنوب صغيرهاو كبيرها فهو التّقى

و اصنع كماش فوق أرض الشّوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرةإنّ الجبال من الحصى![۱۰۷]

هذا التشبيه يفيد أيضا أن التقوى لا تعنى العزلة و الانزواء عن المجتمع، بل تعنى دخول المجتمع، و خوض غماره، مع الحذر من التلوّث بأدرانه إن كان المجتمع ملوثا.

بشكل عام، فانّ حالة التقوى و الضبط المعنوى من أوضح آثار الإيمان باللّه و اليوم الآخر. و معيار فضيلة الإنسان و افتخاره، و مقياس شخصيته فى الإسلام، حتى أضحت الآية الكريمة: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ۱۰۸] شعارا إسلاميا خالدا.

يقول الامام علىّ عليه السّلام «انّ تقوى اللّه مفتاح سداد، و ذخيرة معاد، و عتق من كلّ ملكة، و نجاة من كلّ هلكة»[۱۰۹].

جدير بالذكر أن التقوى ذات شعب و فروع، منها التقوى المالية و الاقتصادية، و التقوى الجنسية و الاجتماعية و التقوى السياسية ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۵

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۶ الى ۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۶) خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۷)

التّفسير

المجموعة الثّانية: الكفّار المعاندون

هذه المجموعة تقف فى النقطة المقابلة تماما للمتقين، و الآيتان المذكورتان بيّنتا باختصار صفات هؤلاء.

الآية الاولى تقول إن الإنذار لا يجدى نفعا مع هؤلاء، فهم متعنتون فى كفرهم إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ بعكس الطائفة الاولى المستعدّة لقبول الحق لدى أول ومضة.

هذه المجموعة غارقة فى ضلالها و ترفض الانصياع للحق حتى لو اتضح لديها. من هنا كان القرآن غير مؤثر فى هؤلاء. و هكذا الوعد و الوعيد، لأنهم يفتقدون الأرضية اللازمة لقبول الحق و الاستسلام له.

الآيـة الثّانيـة تشـير إلى سـبب هـذا اللجـاج و التعصب و تقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ، و لـذلك استحقوا أن يكون لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۶

عَذابٌ عَظِيمٌ

أجهزة اسـتقبال الحقـائق معطوبـة عنـد هؤلاء ... العين التى يرى المتقون فيها آيات اللّه، و الاذن التى يسـمعون بها نـداء الحق، و القلب الذى يدركون به الحقائق، كلها قد تعطّلت و توقفت عن العمل لدى الكافرين. هؤلاء لهم عيون و آذان و عقول، لكنهم يفتقدون قدرة «الرؤية» و «الإدراك» و «السمع». لأن انغماسهم فى الانحراف و عنادهم و لجاجهم، كلها عناصر تشكل حجابا أمام أجهزة المعرفة.

الإنسان قابل للهدايـة طبعا- إن لم يصل إلى هـذه المرحلـة- مهما بلغ به الضـلال أمّا حينما يبلغ فى درجـة يفقد معها حسّ التشـخيص «فلات حين نجاة» لأنه افتقد أدوات الوعى و الفهم، و من الطبيعى أن يكون فى انتظاره عذاب عظيم.

بحوث

۱- سلب قدرة التشخيص و مسألة الجبر

أول سؤال يطرح فى هـذا المجـال يـدور حول مسألـة الجبر، التى قـد تتبـادر إلى الأذهـان من قوله تعـالى: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصـارِهِمْ غِشـاوَةٌ ... فهـذا الختم يفيـد بقـاء هؤلاـء فى الكفر إجبـارا، دون أن يكون لهم اختيار فى الخروج من حالتهم هذه. أليس هذا بجبر؟ و إذا كان جبرا فلما ذا العقاب؟

القرآن الكريم يجيب على هـذه التساؤلاـت و يقول: إن هـذا الختم و هـذا الحجـاب هما نتيجـة إصـرار هؤلاء و لجاجهم و تعنتهم أمام الحق، و استمرارهم فى الظلم و الطغيان و الكفر. يقول تعالى: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ ۱۱۰] و يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۷

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[۱۱۱] و يقول أيضا: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً[۱۱۲].

كـل هـذه الآيات تقرر أنّ السـبب فى سـلب قـدرة التشـخيص، و توقف أجهزة الإدراك عن العمل يعود إلى الكفر و التكبر و التجبر و اتباع الهوى و اللجاج و العناد أمام الحق، هذه الحالة التى تصيب الإنسان، هى فى الحقيقة ردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه.

من المظاهر الطبيعية فى الموجود البشـرى، أن الإنسان لو تعوّد على انحراف و استأنس به، يتخذ فى المرحلة الاولى ماهية ال «حالة» ثمّ يتحول إلى «عادة» و بعدها يصبح «ملكة» و جزء من تكوين الإنسان حتى يبلغ أحيانا درجة لا يستطيع الإنسان أن يتخلّى عنها أبدا. لكن الإنسـان اختـار طريق الاـنحراف هـذا عن علم و وعى، و من هنا كان هو المسؤول عن عواقب أعماله، دون أن يكون فى المسألـة جبر. تماما مثل شخص فقأ عينيه و سدّ أذنيه عمدا، كى لا يسمع و لا يرى.

و لو رأينا أن الآيات تنسب الختم و إسدال الغشاوة إلى اللّه، فذلك لأن اللّه هو الذى منح الانحراف مثل هذه الخاصية. (تأمّل بدقّة).

عكس هـذه الظاهرة مشـهود أيضا فى قوانين الطبيعة، أى إن الفرد السائر على طريق الطهر و التقوى و الاسـتقامة تمتد يد اللّه عز و جل إليه لتقـوّى حاسّـة تشـخيصه و إدراكه و رؤيته، هـذه الحقيقـة توضـحها الآيـة الكريمـة. يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقاناً[۱۱۳].

فى حياتنـا اليوميـة صور عديـدة لأـفراد ارتكبوا عملاـ محرّما، فتألموا فى البدايـة لما فعلوه و اعترفوا بـذنبهم، لكنهم اسـتأنسوا تـدريجيا

بفعلهم، و زالت من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۸

نفوسهم حساسيتهم السابقة تجاه الذنب، و وصل أمرهم إلى حدّ يجدون اللذة و الإنشراح فى الانحراف، و قد يضفون عليه صفة الواجب الإنسانى! أو الواجب الدينى!! و فى تاريخنا الإسلامى ظهر مجرمون سفّاكون مولعون بإزهاق الأرواح و التنكيل بالمسلمين كما ذكر فى حالات «الحجاج بن يوسف الثقفى» أنه كان يضع لأعماله الإجرامية تبريرات دينية، و يقول مثلا: إن اللّه سلّطنا على هؤلاء النّاس المذنبين لنظلمهم، فهم مستحقون لذلك!! و كذلك قيل إن أحد جنود المغول خطب فى أحد مدن ايران الحدودية و قال:

- ألستم يعتقدون أن عذاب اللّه يصيب المذنبين؟ فنحن عذاب اللّه عليكم، فلا ينبغى لكم المقاومة.

۲- لماذا يصرّ الأنبياء على هداية هؤلاء، إذا كانوا لا يهتدون؟

و هذا سؤال آخر يطرح فى إطار الآيات المذكورة. و الجواب عليه يتضح لو عرفنا أن العقاب الإلهى يرتبط بمواقف الإنسان العملية و سلوكه الفعلى، لا بما يكنّه فى قلبه من زيغ و ضلال فقط. من هنا كان لا بدّ من توجيه الدعوة حتى إلى هؤلاء الذين لا يهتدون. بعد ذلك يستحق الفرد العقاب تبعا لموقفه من الدعوة.

بعبارة اخرى لا بدّ من «إتمام الحجّة» قبل العقاب.

بعبارة موجزة: الثّواب و العقاب يتوقفان حتما على العمل بعد إنجازه، لا على المحتوى الفكرى و الروحى للفرد.

أضف إلى ما سبق: أن الأنبياء بعثوا للناس جميعا، و هؤلاء الذين طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ قليلون فى المجتمع، أما الأكثرية فهم التائهون الذين يتقبّلون الهداية ضمن برنامج تعليمى تربوى صحيح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۸۹

۳- الختم على القلوب:

فى الآيات المذكورة و آيات اخرى عبّر القرآن عن عملية سلب حسّ التشخيص و الإدراك الواقعى للأفراد بالفعل «ختم»، و أحيانا بالفعل «طبع» و «ران».

فى اللغة «ختم» الإناء بمعنى سدّه بالطين أو غيره، و أصلها من وضع الختم على الكتب و الأبواب كى لا تفتح، و الختم اليوم مستعمل فى الاستيثاق من الشّىء و المنع منه كختم سندات الأملاك و الرسائل السرّية الهامة.

و هناك شواهد من التأريخ تدلّ على أن الملوك و أرباب السلطة كانوا سابقا يختمون صرر الذهب بخاتمهم الخاص و يبعثون بها إلى المنظورين للاطمئنان على سلامة الصرر و عدم التلاعب فى محتوياتها.

و الشائع فى هذا الزمان الختم على الطرود البريدية أيضا، و قد استعمل القرآن كلمة «الختم» هنا للتعبير عن حال الأشخاص المعاندين الذين تراكمت الذنوب و الآثام على قلوبهم حتى منعت كلمة الحق من النفوذ إليها و أمست كالختم لا سبيل إلى فتحه.

و «طبع» بمعنى ختم أيضا.

أما «ران» فمن «الرين» و هو صدأ يعلو الشىء الجلىّ، و استعمل القرآن هذه الكلمة فى حديثه عن قلوب الغارقين فى أوحال الفساد و الرّذيلة: كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ۱۱۴].

المهم أن الإنسان ينبغى أن يكون حذرا لدى صدور الذنب منه، فيسارع إلى غسله بماء التوبة و العمل الصالح، كى لا يتحول إلى صفة

ثابتة مختوم علیها فی القلب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۰

فی حدیث عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام: «ما من عبد مؤمن إلّا و فی قلبه نکتة بیضاء، فإذا أذنب ذنبا خرج فی تلک النّکتة نکتة سوداء، فإذا تاب ذهب ذلک السّواد، فإن تمادی فی الذّنوب زاد ذلک السّواد حتّی یغطّی البیاض، فإذا غطّی البیاض لم یرجع صاحبه إلی خیر أبدا، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: کَلَّا بَلْ رانَ عَلی قُلُوبِهِمْ ما کانُوا یَکْسِبُونَ ۱۱۵].

۴- المقصود من «القلب» فی القرآن

لماذا نسب إدراک الحقائق فی القرآن إلی القلب، بینما القلب لیس بمرکز للإدراک بل مضخة لدفع الدم إلی البدن؟! الجواب علی ذلک، أن القلب فی القرآن له معان متعددة منها:

۱- بمعنی العقل و الإدراک کقوله تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَذِکْری لِمَنْ کانَ لَهُ قَلْبٌ ۱۱۶].

۲- بمعنی الروح و النفس کقوله سبحانه: وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ[۱۱۷].

۳- بمعنی مرکز العواطف، کقوله: سَأُلْقِی فِی قُلُوبِ الَّذِینَ کَفَرُوا الرُّعْبَ ۱۱۸] و قوله: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ کُنْتَ فَظًّا غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ ۱۱۹].

لمزید من التوضیح نقول:

فی وجود الإنسان مرکزان قویّان هما:

۱- مرکز الإدراک، و یتکون من الدماغ و جهاز الأعصاب. لذلک نشعر أننا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۱

نستقبل المسائل الفکریة بدماغنا حیث یتمّ تحلیلها و تفسیرها. (و إن کان الدماغ و الأعصاب فی الواقع وسیلة و آلة للروح).

۲- مرکز العواطف، و هو عبارة عن هذا القلب الصنوبری الواقع فی الجانب الأیسر من الصدر. و المسائل العاطفیة تؤثر أول ما تؤثر علی هذا المرکز حیث تنقدح الشرارة الاولی.

حینما نواجه مصیبة فإننا نحسّ بثقلها علی هذا القلب الصنوبری، و حینما یغمرنا الفرح فإننا نحسّ بالسرور و الإنشراح فی هذا المرکز (لا حظ بدقّة).

صحیح أن المرکز الأصلی للإدراک و العواطف هو الروح و النفس الإنسانیة، لکن المظاهر و ردود الفعل الجسمیة لها مختلفة. ردود فعل الفهم و الإدراک تظهر أولا فی جهاز الدماغ، بینما ردود فعل القضایا العاطفیة کالحب و البغض و الخوف و السکینة و الفرح و الهمّ تظهر فی القلب بشکل واضح، و یحسّها الإنسان فی هذا الموضوع من الجسم.

ممّا تقدم نفهم سبب ارتباط المسائل العاطفیة فی القرآن بالقلب (العضو الصنوبری المخصوص)، و ارتباط المسائل العقلیة بالقلب (أی العقل أو الدماغ).

أضف إلی ما تقدم أنّ عضو القلب له دور مهم فی حیاة الإنسان و بقائه، و توقفه لحظه یؤدی إلی الموت، فما ذا یمنع أن تنسب النشاطات الفکریة و العاطفیة إلیه؟!

۵- لماذا جاءت «قلوبهم» و «أبصارهم» بصیغة الجمع، و «سمعهم» بصیغة المفرد؟

يتكرر فى القرآن استعمال القلب و البصر بصيغة الجمع: قلوب و أبصار، بينما يستعمل السمع دائما بصيغة المفرد، فما السرّ فى ذلك؟

قبل الإجابة لا بد من الإشارة إلى أن القرآن استعمل السمع و البصر بصيغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۲

المفرد أيضا كقوله تعالى: وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً[۱۲۰].

الشّيخ الطّوسى رحمه اللّه فى تفسير «التبيان» ذكر نقلا عن لغوى معروف، أن سبب ذلك قد يعود إلى أحد أمرين:

أوّلا: إن كلمة «السمع» قد تستعمل باعتبارها اسم جمع، و لا حاجة عندئذ إلى جمعها.

ثانيا: إن كلمة «السمع» لها معنى المصدر، و المصدر يدل على الكثير و القليل، فلا حاجة إلى جمعه.

و يمكننا أن نضيف إلى ما سبق تعليلا ذوقيا و علميا هو أن الإدراكات القلبية و المشاهدات العينية تزيد بكثير على «المسموعات»، و لذا جاءت القلوب و الأبصار بصيغة الجمع، و الفيزياء الحديثة تقول لنا إن الأمواج الصوتية المسموعة معدودة لا تتجاوز عشرات الآلاف، بينما أمواج النور و الألوان المرئية تزيد على الملايين. (تأمل بدقة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۳

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸ الى ۱۶]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (۸) يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ ما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۹) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۱۰) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ (۱۱) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ (۱۲)

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ قالُوا أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ (۱۴) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۱۶)

التّفسير

المجموعة الثّالثة: المنافقون

هذه الآيات تبين- باختصار و عمق- الخصائص الروحية للمنافقين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۴

و أعمالهم.

الإسلام واجه فى عصر انبثاق الرسالة مجموعة لم تكن تملك الإخلاص اللازم للإيمان، و لا القدرة اللازمة للمعارضة.

هذه المجموعة المذبذبة المصابة بازدواج الشخصية توغلت فى أعماق المسلمين، و شكّلت خطرا كبيرا على الإسلام و المسلمين. كان تشخيصهم صعبا لأنهم متظاهرون بالإسلام، غير أن القرآن بيّن بدقة مواصفاتهم و أعطى للمسلمين فى كل القرون و الأعصار معايير حيّة لمعرفتهم.

الآيات المذكورة قبلها بيّنت فى مطلعها الخط العام للنفاق و المنافقين: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

هؤلاء يعتبرون عملهم المذبذب هذا نوعا من الشطارة و الدهاء يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بينما لا يشعر هؤلاء أنهم يسيئون بعملهم هذا إلى أنفسهم، و يبدّدون بانحرافهم هذا طاقاتهم، و لا يجنون من ذلك إلّا الخسران و العذاب الإلهى. وَ ما يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

فى الآية التالية يبيّن القرآن أن النفاق فى حقيقته نوع من المرض. الإنسان السالم له وجه واحد فقط، و فى ذاته انسجام تام بين الروح و الجسد، لأن الظاهر و الباطن، و الروح و الجسم، يكمل أحد هما الآخر. إذا كان الفرد مؤمنا فالإيمان يتجلى فى كل وجوده، و إذا كان منحرفا فظاهره و باطنه يدلان على انحرافه.

و ازدواجية الجسم و الروح مرض آخر و علّة إضافية. إنه نوع من التضاد و الانفصال فى الشخصية الإنسانية: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

و بما أنّ سنّة اللّه فى الكون اقتضت أن يتيسّر الطريق لكل سالك، و أن تتوفر سبل التقدّم لكل من يجهد فى وضع قدمه على طريق. و بعبارة اخرى: إن تكريس أعمال الإنسان و أفكاره فى خط معين، تدفعه نحو الانغماس و الثبات فى ذلك الخط فقد أضاف القرآن قوله: فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۵

و بما أن الكذب رأس مال المنافقين، يبرّرون به ما فى حياته من متناقضات، و لهذا أشار القرآن فى ختام الآية إلى هذه الحقيقة: وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ

ثم تستعرض الآيات خصائص المنافقين، و تذكر أوّلا أنهم يتشدّقون بالإصلاح، بينما هم يتحركون على خط التخريب و الفساد: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، قالُوا: إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَ لكِنْ لا يَشْعُرُونَ

ذكرنا سابقا أنّ الإنسان، لو تمادى فى الغىّ و الضلال، يفقد قدرة التشخيص، بل تنقلب لديه الموازين، و يصبح الذنب و الإثم جزء من طبيعته. و المنافقون أيضا بإصرارهم على انحرافهم يتطبّعون بخط النفاق، و تتراءى لهم أعمالهم بالتدريج و كأنهم أعمال إصلاحية، و تغدو بصورة طبيعة ثانية لهم.

علامتهم الاخرى: اعتدادهم بأنفسهم و اعتقادهم أنهم ذووا عقل و تدبير، و أن المؤمنين سفهاء و بسطاء: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَما آمَنَ النَّاسُ، قالُوا: أَ نُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ؟!!.

و هكذا تنقلب المعايير لدى هؤلاء المنحرفين، فيرون الانصياع للحق و إتباع الدعوة الإلهية سفاهة، بينما يرون شيطنتهم و تذبذبهم تعقّلا و درايةً!! غير أن الحقيقة عكس ما يرون: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهاءُ وَ لكِنْ لا يَعْلَمُونَ

أليس من السفاهة أن لا يضع الإنسان لحياته خطا معينا، و يبقى يتلوّن بألوان مختلفة؟ أليس من السفاهة أن يضيّع الإنسان وحدة شخصيته، و يتجه نحو ازدواجية الشخصية و تعدّد الشخصيات فى ذاته، و يهدر بذلك طاقاته على طريق التذبذب و التآمر و التخريب، و هو مع ذلك يعتقد برجاحة عقله؟! العلامة الثالثة لهؤلاء، هى تلوّنهم بألوان معينة تبعا لما تفرضه عليهم مصالحهم، فهم انتهازيون يظهرون الولاء للمؤمنين و لأعدائهم من الشياطين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۶

وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا: آمَنَّا، وَ إِذا خَلَوْا إِلى شَياطِينِهِمْ قالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ، إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ .

يؤكدون لشياطينهم أنهم معهم، و أن ولاءهم للمؤمنين ظاهرى، هدفه الاستهزاء.

و بلهجة قويّة حاسمة يردّ القرآن الكريم على هؤلاء و يقول: اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَ يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۱۲۱].

الآية الأخيرة توضّح المصير الأسود المظلم لهؤلاء المنافقين، و خسارتهم فى سيرتهم الحياتية الضّالة: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

بحوث

۱- ظهور النّفاق و أسبابه:

حينما تنـدلع الثورة فى منطقـة معينـة، فإن مصالح الفئة الظالمة الناهبة المسـتبدة تتعرض للخطر حتما، خاصة إذا كانت الثورة مثل ثورة الإسـلام تقوم على أساس الحقّ و العدالة. هذه الفئة تسعى للإطاحة بالثورة عن طريق السخريّة و الاستهزاء أوّلا، ثمّ بالاستفادة من القوة المسلحة و الضغوط الاقتصادية، و التضليل الاجتماعى.

و حين تبـدو فى الأفق علامـات انتصـار الثورة، تعمـد فئـة من المعارضـين إلى تغيير موقفها، فتستسـلم ظاهريا، و تتحول فى الواقع إلى مجموعة معارضة سريّة.

هؤلاء يسمّون «منافقين» لانطوائهم على شخصيتين مختلفتين (المنافق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۷

مشتقة من النفق: و هو الطريق النافذ فى الأرض المحفور فيها للاستتار أو الفرار)، و هم أخطر أعداء الثورة، لأن مواقفهم غير واضحة، و الامّـة الثائرة لا تسـتطيع أن تعرفهم و تطردهم من صـفوفها، لذلك يتغلغلون فى صـفوف النّاس المخلصـين الطيبين، و يتسـلمون أحيانا المناصب الحساسة فى المجتمع.

ثورة الإسـلام فى عصـرها الأوّل واجهت مثل هـذه المجموعـة. فبعـد الهجرة المباركـة وضـعت أول لبنـة للدولة الإسـلامية فى المدينة المنورة، و ازداد الكيان الإسـلامى الوليـد قوة بعـد انتصار المسـلمين فى غزوة «بـدر». و هذه الانتصارات عرضت للخطر مصالح زعماء المدينـة، و خاصة اليهود منهم، لأن اليهود كانوا يتمتعون فى المدينة بمكانة ثقافية و اقتصادية مرموقة. و هؤلاء أنفسـهم كانوا يبشّـرون قبل البعثة النّبوية المباركة بظهور النّبى.

كمـا كـان فى المدينـة أفراد مرشـحون للزعامـة و الملكيـة، لكن الهجرة النّبويـة بـدّدت آمـال هؤلاـء المتضـررون من الـدعوة رأوا أن الجماهير تندفع نحو الإسلام، و تنقاد إلى النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حتى عمّت الدعوة ذويهم و أقاربهم.

و بعد مدّة من الدين الجديد، لم يروا بدّا من الاستسـلام و التظاهر بالإسـلام، تجنبا لمزيد من الأخطار الاقتصادية و الاجتماعية و حذرا من الإبـادة، خاصـة و أن قوّة العربى تتمثـل فى قـبيلته، و القبائـل أسـلمت للـدين الجديـد لكن هؤلاـء راحوا يخططون خفيـة للإطـاحة بالإسلام.

بعبـارة موجزة، إن ظـاهرة «النفـاق» فى المجتمع، تعود إلى عاملين: أحـد هما، انتصار الثورة و سـيطرة الرسالـة الثوريـة على المجتمع، و الآخر: انهزام المعارضين نفسيا، و فقدانهم للشجاعة الكافية لمواجهة المد الجديد، و اضطرارهم إلى الاستسلام الظاهرى أمام الدعوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۹۸

۲- ضرورة معرفة المنافقين فى كل مجتمع

ظاهرة النفاق و المنافقين لا تختص- دون شك- بعصر الرسالة الأول، بل هى ظاهرة عامة تظهر بشكل و آخر فى كل المجتمعات. من هنـا لا بـدّ للجماعـة المسـلمة أن تعرف أوصافهم كما جاء فى القرآن، كى تحبط مؤامراتهم و تقف بوجههم. فى الآيات السابقـة و فى سورة المنافقين و هكذا فى النصوص الإسلامية وردت للمنافقين أوصاف مختلفة منها:

۱- كثرة الضجيج و الادعاءات الفارغة، أو بعبارة اخرى كثرة القول و قلّة العمل المفيد المتزن.

۲- التلوّن و التذبذب، فمن المؤمنین یقولون «آمنا» و مع المعارضین یقولون «إنّا معکم».

۳- الانفصال عن الامّة، و تشکیل الجمعیات السریة وفق خطط مبیّتة.

۴- المکر و الخداع و الکذب و التملق و النکول و الخیانة.

۵- التعالی علی النّاس، و تحقیرهم، و اعتبارهم بلهاء سفهاء، إلی جانب الاعتداد بالنفس.

علی أی حال، ازدواجیة الشخصیة، و التضاد بین المحتوی الداخلی و السلوک الخارجی فی وجود المنافقین، یفرز ظواهر عدیدة بارزة مشهودة فی أعمالهم و أقوالهم و سلوکهم الفردی و الاجتماعی.

و ما أجمل تعبیر القرآن فی حقّ هؤلاء إذ یقول: فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و أیّ مرض أسوأ من ازدواجیة الظاهر و الباطن، و من التعالی علی النّاس؟!! هذا المرض مثل سائر الأمراض الخفیة التی تصیب القلب لا یمکن إخفاؤه تماما، بل تظهر علائمه بوضوح علی جمیع أعضاء الإنسان.

فی مجلدات هذا التّفسیر شرح أو فی لحالة النفاق و المنافقین لدی البحث فی الآیات ۱۴۱- ۱۴۳ من سورة النساء (المجلد الثالث).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۹۹

و فی الآیات ۴۹- ۵۷ من سورة التّوبة (المجلد السادس).

و فی الآیات ۶۲- ۸۵ من سورة التوبة أیضا (المجلد السادس).

۳- سعة معنی النفاق:

النفاق فی مفهومه الخاص- کما ذکرنا- صفة أولئک الذین یظهرون الإسلام، و یبطنون الکفر. لکن النفاق له معنی عام واسع یشمل کل ازدواجیة بین الظاهر و الباطن، و کل افتراق بین القول و العمل. من هنا قد یوجد فی قلب المؤمن بعض ما نسمیه «خیوط النفاق».

ففی الحدیث النّبوی: «ثلاث من کنّ فیه کان منافقا و إن صام و صلّی و زعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، و إذا حدّث کذب، و إذا وعد أخلف»[۱۲۲].

الحدیث لا یدور هنا طبعا عن المنافق بالمعنی الخاص، بل عن الذی فی قلبه خیوط من النفاق، تظهر علی سلوکه بأشکال مختلفة، و خاصة بشکل ریاء، کما

جاء فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «الرّیاء شجرة لا تثمر إلّا الشّرک الخفیّ، و أصلها النّفاق»[۱۲۳].

و فی نهج البلاغة نصّ رائع فی وصف المنافقین عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام یقول فیه:[۱۲۴] «أوصیکم عباد اللّه بتقوی اللّه، و أحذّرکم أهل النّفاق، فإنّهم الضّالّون المضلّون، و الزّالّون المزلّون ۱۲۵]، یتلوّنون ألوانا، و یفتنّون افتتانا[۱۲۶]، و یعمدونکم بکلّ عماد، و یرصدونکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۰

بکلّ مرصاد، قلوبهم دویّة[۱۲۷] و صفاحهم نقیّة. یمشون الخفاء[۱۲۸]، و یدبّون الضراء وصفهم دواء، و قولهم شفاء، و فعلهم الدّاء العیاء[۱۲۹]، حسدة الرّخاء[۱۳۰]، و مؤکّدو البلاء، و مقنطو الرّجاء، لهم بکلّ طریق صریع ۱۳۱] و إلی کلّ قلب شفیع، و إلی کلّ شجو دموع ۱۳۲] یتقارضون الثّناء[۱۳۳] و یتراقبون الجزاء: إن سألوا الحفوا[۱۳۴]، و إن عذلوا کشفوا ...».

۴- مؤامرة المنافقین:

المنافقون یشکّلون أخطر تجمع معارض، لا ـ علی الإسلام فحسب، بل علی کلّ رسالة ثوریة تقدمیة، حیث ینفذون بین صفوف المسلمین، و یستغلّون کل فرصة للتآمر.

یتحدّث القرآن عن تآمر هؤلاء فی صدر الإسلام و یذکر نماذج من أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۱

یذکر مثلا استهانة هؤلاء بشخصیة المؤمنین، و بما یقدمه المؤمنون علی قدر طاقتهم من صدقات فیقول: الَّذِینَ یَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِینَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فِی الصَّدَقاتِ وَ الَّذِینَ لا یَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَیَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ ۱۳۵].

و یتخذون أحیانا فی اجتماعاتهم السریّة قرارات بشأن قطع مساعدتهم المالیة لأصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، کی یتفرقوا عن الرسالة و الرّسول: هُمُ الَّذِینَ یَقُولُونَ لا ـ تُنْفِقُوا عَلی مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّی یَنْفَضُّوا، وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لکِنَّ الْمُنافِقِینَ لا یَفْقَهُونَ ۱۳۶].

کما یتخذون القرارات بإخراج المؤمنین من المدینة بعد انتهاء الحرب و العودة إلی المدینة: لَئِنْ رَجَعْنا إِلَی الْمَدِینَةِ لَیُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ ۱۳۷].

و کانوا یتخلفون عن الجهاد بمبررات مختلفة من قبیل الانشغال بالحصاد مثلا، و یترکون الرّسول فی ساعات الشدّة. و هم مع ذلک خائفین من انفضاح أمرهم و انکشاف سرّهم.

بسبب هذه المواقف العدائیة التآمریة رکز القرآن علی التندید بالمنافقین فی مواضع عدیدة، و احتوت سورة المنافقین عرضا مفصّلا لوضعهم. کما تضمنت سورة التوبة و الحشر و سور اخری حملات شدیدة علی المنافقین، و تحدثت ثلاث عشرة آیة من سورة البقرة عن صفاتهم و عواقب مکرهم.

۵- خداع الضمیر:

المنافقون یشکلون مشکلة کبری للمسلمین، ذلک لأن المسلمین مکلفون-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۰۲

من جهة- باحتضان کلّ من یظهر الإسلام و بالامتناع عن تفتیش عقائد الأفراد، و مسئولون- من جهة اخری- عن الحذر من مؤامرات المنافقین و تحرکاتهم المشبوهة التی یستهدفون منها الوقوف بوجه الرسالة، و إن اتخذت هذه التحرکات صفة إسلامیة ظاهریة.

المنافقون یظنون أنهم بعملهم هذا یستطیعون أن یخدعوا المسلمین و یمرروا علیهم مؤامراتهم، بینما هؤلاء یخدعون أنفسهم.

التعبیر القرآنی یُخادِعُونَ اللَّهَ وَ الَّذِینَ آمَنُوا یوضّح مفهوما دقیقا، فکلمة یخادعون تعنی الخداع المشترک من الطرفین، و تبین أن هؤلاء المنافقین کانوا یعتقدون- لعمی بصیرتهم- أنّ النّبی خدّاع توسّل بالدین و النبوّة و جمع حوله السذّج من النّاس لیکون له حکم و سلطان، و من هنا راح المنافقین یتوسلون بخدعة لمقابلة خدعة النّبی! فالتعبیر القرآنی المذکور یوضّح إذن لجوء المنافقین إلی الخدعة، و یبین کذلک نظرة هؤلاء الخاطئة إلی النّبی الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

ثم تردّ الآیة الکریمة علی هؤلاء و تقول: وَ ما یَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ فالفعل «یخدعون» یوضّح أنّ الخداع من جانب المنافقین فقط، و تؤکد الآیة أیضا أنهم یخدعون أنفسهم دون أن یشعروا، لأنهم یبددون. بأفعالهم هذه طاقاتهم العظیمة علی طریق الانحراف، و یحرمون أنفسهم من السعادة التی رسم اللّه طریقها لهم، و یغادرون الدنیا و هم صفر الیدین من کل خیر، مثقلون بأنواع الذنوب و الآثام.

لا ـ يمكن لأحد أن يخدع اللّه طبعا لأنه سبحانه عالم بالجهر و ما يخفى، و تعبير «يخادعون اللّه» إمّا أن يكون المقصود به يخادعون الرّسول و المؤمنين، لأن من يخدع الرّسول و المؤمنين فكأنه خدع اللّه (فى القرآن مواضع كثيرة عظم فيها اللّه رسوله و المؤمنين إذ قرن اسمهم باسمه). و إمّا أن يكون نقص العقل و سوء الفهم قد بلغ بالمنافقين حدا تصوروا معه أنهم قادرون على أن يخفوا على اللّه شيئا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۳

أعمالهم (شبيه ذلك ما ورد فى آيات اخرى من كتاب اللّه العزيز).

على أىّ حال، الآية المذكورة تشير بوضوح إلى حقيقة خداع الضمير و الوجدان، و أن الإنسان النمحرف الملوث كثيرا ما يعمد إلى خداع نفسه و وجدانه للتخلص من تأنيب الضمير، و يصبح بالتدريج مقتنعا بأن قبائحه ليست عملا انحرافيا، بل هى أعمال إصلاحية إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ و بذلك يخدعون أنفسهم، و يستمرون فى غيّهم.

ذكر أنّ أحد القادة الأمريكيين وجّه إليه سؤال حول سبب إلقاء القنبلة الذرية على مدينتى (هيروشيما و ناكازاكى) اليابانيتين ممّا أدّى إلى مقتل مائتى ألف إنسان برىء أو أصابتهم بالعاهات، فقال: نحن فعلنا ذلك من أجل السلام! و لو لم نفعل ذلك لطالت الحرب أكثر، و لذهب ضحيتها عدد أكبر من القتلى!! المنافقون فى كل عصر و فى عصرنا هذا يتشبثون بمثل هذه الأقاويل لخداع النّاس و خداع أنفسهم، فهذا الزعيم الأمريكى يضع أمامه طريقين فقط هما:

استمرار الحرب أو القصف الذرى للمدن الآمنة، متناسيا طريقا ثالثا واضحا و هو الكف عن الاعتداء على الشعوب و ترك النّاس أحرارا مع ثرواتهم! و ممّا تقدم يتضح أن النفاق وسيلة لخداع الضمير و شلّ مفعوله، و ما أخطر عملية شلّ الضمير الإنسانى، الذى يعتبر الواعظ الداخلى و الرقيب اليقظ الأمين و المندوب الإلهى فى نفس الإنسان!!.

۶- التجارة الخاسرة:

شبّه القرآن الكريم فى مواضع عديدة عمل الإنسان فى الحياة الدنيا بالتجارة. و نحن فى الحياة الدنيا تجار نأتى إلى هذا المتجر الكبير برأس مال وهبه لنا اللّه سبحانه، و عناصره العقل و الفطرة و العواطف و الطاقات الجسميّة المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۴

و مواهب عالم الطبيعة، ثم قيادة الأنبياء، جمع يربحون و يفوزون و يسعدون، و جمع لا يجنون ربحا، بل أكثر من ذلك يفقدون رأس مالهم، و يفلسون بكل ما لهذه الكلمة من معنى. المجاهدون فى سبيل اللّه من أفراد الجمع الأول، و يقول عنهم اللّه تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ۱۳۸].

و المنافقون من أبرز نماذج الجمع الثانى، فبعد أن يذكر القرآن أعمالهم التخريبية المتلبسة بظاهر الإصلاح و التعقّل يقول عنهم: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

كان بمقدور هؤلاء أن ينتخبوا أفضل طريق لحياتهم، لأنهم كانوا يعيشون إلى جانب ينبوع الوحى الصافى، و فى جوّ مفعم بالصدق و الإخلاص و الإيمان. لكنهم فوّتوا على أنفسهم هذه الفرصة الفريدة العظيمة، و أضاعوا ما وهبهم اللّه من هداية فطرية فى ذواتهم، و من هداية تشريعية فى إطار نور الوحى، و اشتروا الضلالة و سلكوا طريقا خالوا أنهم يستطيعون به أن يقضوا على الدعوة و يصلوا إلى مآربهم الخبيثة.

و كان فى هذه المقايضة الخاطئة خسارتان:

الاولى: ضياع ثرواتهم المادية و المعنوية. و الثانية: فشلهم فى تحقيق أهدافهم المشؤومة. فالإسلام سرعان ما ضرب بجرانه فى أرجاء الأرض فاضحا خطط المنافقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ (۱۷) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ (۱۸) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (۱۹) يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰)

التّفسير

مثالان رائعان لوصف حالة المنافقين:

بعد أن بين القرآن صفات المنافقين و خصائصهم، يقدّم مثالين متحركين لتجسيم وضعهم:

۱- مَثَلُهُمْ المنافقين كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً فى ليلة مظلمة، كى يهتدى بها إلى طريق و يبلغ مقصده. فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۶

وَ تَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ

لقد ظنّ هؤلاء أنهم قادرون على أن يحققوا أهدافهم بما لديهم من إمكانات إنارة محدودة.

و لكن نارهم سرعان ما انطفأت بسبب عوامل جوّيّة، أو بسبب نفاد الوقود، و ظلّوا حائرين لا يهتدون سبيلا.

ثم تضيف الآية الكريمة أن هؤلاء فقدوا كل وسيلة لدرك الحقائق: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ

و المثال المذكور يصوّر بدقّة عمل المنافقين على ساحة الحياة الإنسانية.

فهذه الحياة مملوءة بطرق الانحراف و الضلال، و ليس فيها سوى طريق مستقيم واحد للهداية، و هذا الطريق ملىء بالمزالق و الأعاصير.

و لا يستطيع الفرد أن يهتدى من بين الطرق الملتوية إلى الصراط المستقيم، كما لا يستطيع أن يتجنب المزالق و يقاوم أمام الأعاصير، إلّا بنور العقل و الإيمان، و بمصباح الوحى الوهّاج.

و هل تستطيع الشعلة المحدودة المؤقتة التى يضيئها الإنسان، أن تهدى الكائن البشرى فى هذا الطريق الشائك الطويل؟! هؤلاء الذين سلكوا طريق النفاق، ظنوا أنّهم قادرون بذلك أن يحافظوا على مكانتهم و مصالحهم لدى المؤمنين و الكافرين. و أن ينضمّوا إلى الفئة الغالبة بعد نهاية المعركة. كانوا يخالون أن عملهم هذا ذكاء و حنكة. و أرادوا أن يستفيدوا من هذا الذكاء و هذه الحنكة، كضوء يشقّ لهم طريق الحياة و يوصلهم إلى مآربهم. لكن اللّه سبحانه ذهب بنورهم و فضحهم، إذ قال لرسوله: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا: نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ ۱۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۷

و القرآن الكريم يفضح المنافقين لدى الكافرين أيضا، و يبيّن كذبهم و نكولهم إذ يقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً، وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ، وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ ۱۴۰].

جدير بالذكر أن القرآن استعمل عبارة اسْتَوْقَدَ ناراً أى إنهم استفادوا للإنارة من «النار» ذات الدخان و الرّماد و الحريق، بينما يستنير المؤمنون بنور الإيمان الخالص و بضوئه الساطع.

باطن المنافقين ينطوى على النار، و إن تظاهروا بنور الإيمان، و إذا كان ثمة نور فهو ضعيف فى قوته و قصير فى مدته.

هذا النور الضعيف المؤقّت، إمّا أن يكون إشارة إلى الضمير و الفطرة التوحيدية، أو إشارة إلى الإيمان الأوّلى لهؤلاء المنافقين حيث أسدلت عليه ستائر مظلمة على أثر التقليد الأعمى و التعصب المقيت و اللجاج و العداء، فتحولت ساحة حياتهم لا إلى ظلمة، بل إلى «ظلمات» فى التعبير القرآنى.

و هؤلاء سيفقدون فى النهاية قدرة الرؤية الصحيحة، و الاستماع الصحيح، و النطق الصحيح، و هذه نتيجة طبيعية- كما ذكرنا سابقا- للاستمرار على الانحراف و الإصرار على الغىّ، حيث يؤدى إلى إضعاف آليات الإدراك لدى الإنسان فيرى الحقائق مقلوبة، فالخير فى نظره شرّ، و الملك شيطان، و هكذا.

على أى حال هذا التشبيه يوضّح واحدة من حقائق النفاق، و هى إن عمر النفاق و التذبذب لا يدوم طويلا، قد يستطيع المنافقون لمدة قصيرة أن يتمتعوا بمصونية الإسلام و الإيمان، و بصداقة الكفار سرا. لكن هذه الحالة مثل شعلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۸

ضعيفة معرضة لألوان العواصف، سرعان ما تنطفئ، و يظهر الوجه الحقيقى للمنافقين، و يظلون منفورين مطرودين حائرين، مثل إنسان يتخبّط فى ظلام دامس.

لا بدّ من الإشارة إلى ما ورد فى تفسير الآية الكريمة: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً[۱۴۱].

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «أضاءت الأرض بنور محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كما تضىء الشّمس، فضرب اللّه مثل محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم الشّمس و مثل الوصىّ القمر»[۱۴۲].

و هذا يعنى أن نور الإيمان و الوحى يغمر العالم كلّه. و لا يمتلك منه المنافقون شيئا، حتّى لو كان فى النفاق نور، فإنّ مدياته قصيرة و دائرته صغيرة لا يضىء إلّا (ما حوله).

فى المثال الثانى صوّر القرآن حياة المنافقين بشكل ليلة ظلماء مخوفة خطرة، يهطل فيها مطر غزير، و ينطلق من كل ناحية منها نور يكاد يخطف الأبصار، و يملأ الجوّ صوت مهيب مرعب يكاد يمزّق الآذان. و فى هذا المناخ القلق ضلّ مسافر طريقه، و بقى فى بلقع فسيح لا ملجأ فيه و لا ملاذ، لا يستطيع أن يحتمى من المطر الغزير، و لا من الرعد و البرق، و لا يهتدى إلى طريق لشدّة الظلام.

هذه الصورة يرسمها القرآن على النحو التالى: أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ، يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ، وَ اللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا.

هؤلاء يحسّون كلّ لحظة بخطر، لأنهم يطوون صحراء لا جبال فيها و لا أشجار تحميهم من خطر الرعد و البرق و الصواعق، و نحن نعلم أن خطر الصاعقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۰۹

يتجه إلى كل ارتفاع على الأرض. لكن الأرض التى يسير عليها هؤلاء خالية من أى ارتفاع سوى مرتفع أجسامهم، و من هنا فخطر الصاعقة يهددهم كل آن بتحويلهم إلى رماد! (أهمية هذا المثال تتضح لدى أهل الحجاز- حيث الصحارى المنبسطة- أكثر من وضوحها لدى أهالى المناطق الجبلية).

نعم، هؤلاء حيارى مضطربون، لا يجدون طريقا يسلكونه، و لا دليلا يهتدون به، خطر صوت الرعد يهدّد أسماعهم، و نور البرق يكاد يذهب بأبصارهم وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

المنافقون مثل هؤلاء المسافرين، يعيشون بين المؤمنين المتزايدين المتدفقين كالسيل الهادر و كالمطر الغزير، لكنهم لم يتخذوا لهم ملجأ آمنا يقيهم من شر صاعقة العقاب الإلهى.

نهوض المسلمين بواجبهم الجهادى المسلح بوجه أعداء الإسلام، يشكل صواعق و حمما تنزل على رؤوس المنافقين. و تسنح أحيانا لهؤلاء المنافقين فرصة للهداية و اليقظة، لكن هذه الفرصة لا تلبث طويلا، إذ تمرّ كما يمرّ نور البرق، و يعود الظلام يطبق عليهم، و يعودون إلى ضلالهم و حيرتهم.

انتشار الإسلام بسرعة كالبرق الخاطف قد أذهلهم. و آيات القرآن التى تفضح أسرارهم صعقتهم، و فى كل لحظة يحتملون أن تنزل آية تكشف عن مكائدهم و نواياهم. و هذا ما تعبّر عنه الآية الكريمة: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ، قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ ۱۴۳].

و المنافقون خائفون أيضا أن يأذن اللّه بمحاربتهم، و أن يحثّ القوة الإسلامية المتصاعدة على مجابهتهم، لأنهم كانوا يواجهون مثل هذه التهديدات القرآنية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۰

كقوله تعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا[۱۴۴].

مثل هذه الآيات كانت تنزل كالرعد و البرق على المنافقين، و تتركهم فى خوف و ذعر و حيرة فى المدينة، و تضعهم أمام خطر الإبادة أو الإخراج من المدينة كلّ حين.

هذه الآيات- و إن كانت تتحدث عن المنافقين فى عصر نزول الوحى- تمتد لتشمل كلّ المنافقين فى التاريخ، لإن خطّ النفاق يقف دوما بوجه الخط الثورى الصادق الصحيح. و نحن نرى بأعيننا اليوم مدى انطباق ما يقوله القرآن على منافقى عصرنا بدقّة. نرى حيرتهم و خوفه و اضطرابهم، و نرى تعاستهم و بؤسهم و انفضاحهم تماما مثل تلك المجموعة المسافرة الهائمة فى صحراء مقفرة و فى ليلة ظلماء موحشة.

أما بشأن الفرق بين المثالين فثمة تفسيران:

الأوّل: إنّ قوله تعالى: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي ... يصور حالة المنافقين الذين انخرطوا فى صفوف المؤمنين عن اعتقاد حقيقى، ثم تزعزعوا و اتّجهوا نحو النفاق. أما قوله: كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ ... فيمثل حالة المنافقين الذين كانوا منذ البداية فى صف النفاق، و لم يؤمنوا باللّه قط.

الثّانى: أن المثال الأول يتحدث عن حالة الأفراد، و لذلك يقول: مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ و الثانى يجسّد وضع الأجواء المخيفة المرعبة الخطرة التى تحدق بهؤلاء المنافقين، و من هنا جاء التشبيه بالجوّ المظلم الممطر المليء بالخوف و الذعر و الاضطراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۲۱) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكَمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۲)

التّفسير

اشارة

فيما سبق من آيات كتاب اللّه سبحانه تبيّن ثلاث مجموعات هى: مجموعة المتقين، و مجموعة الكافرين، و مجموعة المنافقين، فالمتقون هم المشمولون بالهداية الإلهية، و المنافقون هم الذين طبع اللّه على قلوبهم، و المنافقون هم المرضى الذين زادهم اللّه مرضا، و فقدوا قدرة التشخيص نتيجة أعمالهم.

أمّا الآيات المذكورة فدعت النّاس إلى انتخاب طريق المجموعة الاولى، و إلى عبادة اللّه الواحد الأحد.

و فى الآية الكريمة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ عدة ملاحظات نشير إليها فيما يلى:

۱- قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ تكرر فى القرآن عشرين مرّة تقريبا، و هو نداء عام شامل يشير إلى أن القرآن لا يختص بعنصر أو قبيلة أو طائفة أو فئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۲

خاصة، بل يوجّه دعوته إلى البشرية عامة لعبادة اللّه، و للثورة على كل ألوان الشرك و الانحراف عن طريق التوحيد.

۲- يركّز القرآن، فى دعوته إلى عبادة اللّه و إلى شكر اللّه، على نعمة خلق البشر. و هى نعمة تتجلى فيها قدرة اللّه كما يتجلى فيها علم اللّه و حكمته و كذلك رحمته العامة و الخاصّة. لأن الموجود البشرى سيّد الموجودات، و مظهر علم اللّه و قدرته اللامتناهية و نعمه الكثيرة الواسعة.

أولئك الذين يستنكفون عن عبادة اللّه و الخضوع له، غافلون غالبا عن العظمة المنطوية فى خلقهم و خلق الذين من قبلهم، و عن اليد المدبّرة المقدّرة التى أو جدت هذا الخلق، و أودعت فيه النعم الدقيقة المدروسة المتجلية فى جسم الإنسان و روحه.

فالتذكير بهذه النعم دليل لمعرفة اللّه، و محرك للشكر على هذه النعم.

۳- نتيجة هذه العبادة هى التقوى: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فعباداتنا لا تزيد اللّه عظمة و جلالا، كما أن إعراضنا عن العبادة لا ينقص من عظمة اللّه شيئا. هذه العبادات مدرسة لتعليم التقوى، و التقوى هى الإحساس بالمسؤولية و المحرّك الذاتى للفرد، و هى معيار قيمة الإنسان و ميزان تقييم شخصيته.

۴- عبارة: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لعلها ردّ على استدلال المشركين الذين برروا عبادتهم للأصنام بتمسكهم بسنة آبائهم. و الآية الكريمة تشير بهذه العبارة إلى أن اللّه الواحد الأحد، خالق البشر و خالق آبائهم، و كل شرك يعترى المسيرة البشرية فى حاضرها و سالفها هو انحراف عن الخط الصحيح.

نعم الأرض و السماء:

الآية التالية استعرضت قسما آخر من النعم الإلهية التى تستحق الشكر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۳

ذكرت أوّلا خلق الأرض: الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً.

فهذه الكرة السائرة بسرعة مذهلة فى الفضاء، قد سخرت للإنسان كى يمتطيها و يستقر عليها دون أن تؤثر عليه حركتها.

و تتجلى عظمة نعمة الأرض أكثر حين نلاحظ خاصّية الجاذبية التى تؤمّن لنا إمكانية الاستقرار و إنشاء الأبنية و المزارع، و سائر مستلزمات الحياة على هذه الأرض. فلو انعدمت هذه الخاصية لحظة واحدة لتناثر كل ما على هذه الأرض من إنسان و حيوان و نبات فى الفضاء! تعبير «فراش» يصوّر بشكل رائع مفهوم الاستقرار و الاستراحة، كما يصوّر إضافة إلى ذلك مفهوم الاعتدال و التناسب فى الحرارة. هذه الحقيقة يعبّر عنها الإمام على بن الحسين عليه السّلام مفسرا هذه الآية إذ

يقول: «جعلها ملائمة لطباعكم، موافقة لأجسادكم و لم يجعلها شديدة الحماء و الحرارة فتحرقكم، و لا شديدة البرودة فتجمدكم، و لا شديدة طيب الرّيح فتصدع هاماتكم، و لا شديدة النّتن فتعطبكم، و لا شديدة اللّين كالماء فتغرقكم، و لا شديدة الصّلابة فتمتنع عليكم فى دوركم و أبنيتكم و قبور موتاكم ... فلذلك جعل الأرض فراشا لكم»![۱۴۵].

ثم تتعرض الآية إلى نعمة السماء فتقول: وَ السَّماءَ بِناءً.

كلمة «سماء» وردت فى القرآن بمعان مختلفة، و كلها تشير إلى العلو، و اقتران كلمة «سماء» مع «بناء» يوحى بوجود سقف يعلو البشر على ظهر هذه الأرض. بل إنّ القرآن صرّح بكلمة «سقف» فى بيان حال السماء إذ قال: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً[۱۴۶].

لعل هذا التعبير القرآنى يثير استغراب أولئك الذين يفهمون موقع الأرض فى الفضاء، فيتساءلون عن هذا السقف ... عن مكانه و كيفيته. و لعل هذا التعبير يعيد-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۴

بادئ الرأى- إلى الأذهان فرضية بطليموس التى تصور الكون على أنه طبقات من الأفلاك متراكمة بعضها فوق بعض مثل طبقات قشور البطل!! من هنا لا بدّ من توضيح لمفهوم السماء و البناء و السقف فى التعبيرات القرآنية.

ذكرنا أن سماء كل شىء أعلاه، و أحد معانى السماء «جوّ الأرض»، و هو المقصود فى الآية الكريمة. و جوّ الأرض هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، و يبلغ سمكها عدّة مئات من الكيلومترات.

لو أمعنّا النظر فى الدور الحياتى الأساس الذى تؤديه هذه الطبقة الهوائية لفهمنا مدى استحكام هذا السقف و أهميته لصيانة البشر.

هذه الطبقة الهوائية مثل سقف شفّاف يحيط بكرتنا الأرضية من كل جانب، و قدرة استحكامه تفوق قدرة أضخم السدود الفولاذية، على الرغم من أنه لا يمنع وصول أشعة الشمس الحيوية الحياتية إلى الأرض.

لو لم يكن هذا السقف لتعرضت الأرض دوما إلى رشق الشهب و النيازك السماوية المتناثرة، و لما كان للبشر أمان و لا استقرار على ظهر هذا الكوكب، و هذه الطبقة الهوائية التى يبلغ سمكها عدّة مئات من الكيومترات ۱۴۷] تعمل على إبادة كل الصخور المتجهة إلى الكرة الأرضية، و قليل جدا من هذه الصخور تستطيع أن تخترق هذا الحاجز و تصل الأرض لتنذر أهل الأرض دون أن تعكّر صفو حياتهم.

من الشواهد الدالة على أن أحد معانى السماء هو «جو الأرض»

حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام يتحدث فيه إلى «المفضّل» عن السماء فيقول: «فكّر فى لون السّماء و ما فيه من صواب التّدبير، فإنّ هذا اللّون أشدّ الألوان موافقة للبصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۵

و تقوية ...»[۱۴۸].

و من الواضح أن زرقة السماء ليست إلّا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض.

و لهذا فإن المقصود بالسماء فى هذا الحديث هو جوّ الأرض نفسه.

و أضيفت كلمة الجوّ إلى السماء فى قوله تعالى: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ[۱۴۹].

و حول معانى السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى فى ذيل الآية ۲۹ من هذه السّورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۱۱۵

حول معانى السماء الاخرى سنتحدّث بشكل أوفى فى ذيل الآية ۲۹ من هذه السّورة.

بعد ذلك تطرقت الآية الى نعمة المطر: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً ... ماء يحيى الأرض و يخرج منها الثمرات.

عبارة وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً تؤكد مرّة اخرى أن المقصود من «السماء» هنا هو جوّ الأرض، لأننا نعلم أن المطر ينزل من الغيوم، و الغيوم بخار متناثر فى جوّ الأرض.

الإمام على بن الحسين عليه السّلام يتحدث عن نزول المطر فى تفسير هذه الآية فيقول: «ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم و تلالكم و هضابكم و أوهادكم، ثمّ فرّقه رذاذا و وابلا- و هطلا- لتنشفه أرضوكم، و لم يجعل ذلك المطر نازلا- عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم و أشجاركم و زرعكم و ثماركم»[۱۵۰].

ثم تشير الآية إلى نعمة الثمرات التى تخرج من بركة الأمطار لتكون رزقا لبنى البشر فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ

و إخراج الثمرات مدعاة للشكر على رحمة رب العالمين لعباده، و مدعاة للإذعان بقدرة ربّ العالمين فى إخراج ثمر مختلف ألوانه، من ماء عديم اللون، ليكون قوتا للإنسان و الحيوان، لذلك عطف عليها قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۱۶

فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

فهذه الأنداد المفتعلة و ما تعبدون من دون اللّه، لم يخلقوكم و لا خلقوا آباءكم، و لا خلقوا ما ترونه حولكم من مظاهر كونية و نعم موفورة.

و «الأنداد» جمع «ند» على وزن ضدّ، و هو الشبيه و الشريك، و واضح أن هذا الشبه قائم فى أذهان المشركين و ليس أمرا واقعيا.

و بعبارة أدق: ندّ الشىء و نديده- كما يقول الراغب فى المفردات- مشاركة فى جوهره، و ذلك ضرب من المماثلة، أى المماثلة فى جوهر الذات.

بحث

الشّرك فى أشكال مختلفة:

لا بدّ من التأكيد على أن الشّرك باللّه لا ينحصر باتّخاذ الأوثان الحجرية و الخشبية آلهة من دون اللّه كما يفعل الوثنيون، أو القول بأن اللّه ثالث ثلاثة كما تقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع و صورا متنوعة أكثر ضمورا و خفاء.

و بشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء لها نفس تأثير اللّه فى الحياة هو نوع من الشرك. و هذا ما يعبّر عنه ابن عباس إذ يقول:

(الأنداد) هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ليلة ظلماء، و هو أن يقول: و اللّه، و حياتك يا فلان، و حياتى! ... و يقول: لو لا كلبه هذا لأتانا اللصوص البارحة! ... و قول الرجل لصاحبه: ما شاء اللّه و شئت ... هذا كله به شرك ۱۵۱].

و نقرأ

فى حديث شريف أن رجلا قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ما شاء اللّه و شئت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۷

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أ جعلتنى للّه ندّا»؟!

مثل هذه التعابير التى يشمّ منها رائحة الشرك رائجة- مع الأسف- بين سواد المسلمين و غير لائقة بالشخص الموحّد، كقولهم: اعتمادى على اللّه و عليك!!

فى الرواية عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى:

وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ ۱۵۲] قال: «قول الرّجل لو لا فلان لهلكت، و لو لا فلان لأصبت كذا و كذا، و لو لا فلان لضاع عيالى»[۱۵۳].

و سيأتى توضيح أكثر فى هذا المجال فى ذيل الآية ۱۰۶ من سورة يوسف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

اشارة

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۳) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (۲۴)

التّفسير

القرآن معجزة خالدة:

ظاهرة الكفر و النفاق، التى دارت حولها موضوعات الآيات السابقة، تنشأ أحيانا عن عدم فهم محتوى النّبوة و معجزة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. و الآيات التى نحن بصددها تعالج هذه المسألة، و تركز على المعجزة القرآنية الخالدة كى تزيل كل شك و ترديد فى رسالة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. تقول الآية:

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ۱۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۱۹

و بهذا الشكل تحدى القرآن كل المنكرين أن يأتوا بسورة من مثله، كى يكون عجزهم دليلا واضحا على أصالة هذا الوحى السماوى و على الجانب الإلهى للرسالة و الدعوة.

و لأجل أن يؤكد هذا التحدى دعاهم أن لا يقوموا بهذا العمل منفردين، بل وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

كلمة «شهداء» تشير إلى الفئة التى كانت تساعدهم فى رفض رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و عبارة مِنْ دُونِ اللَّهِ إشارة إلى عجز جميع البشر عن الإتيان بسورة قرآنية و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، و إلى قدرة اللّه وحده على ذلك.

و عبارة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ تستهدف حثّهم على قبول هذا التحدى، و مفهومها: لو عجزتم عن هذا العمل فذلك دليل كذبكم، فانهضوا إذن لإثبات ادعائكم.

طبيعة التحدى تقتضى أن يكون صارخا إلى أبعد حدّ ممكن، و أن يكون محفّزا للعدو مهما أمكن، و بعبارة اخرى أن يثير الحميّة فيه،

كى يجنّد كل طاقاته لعملية المجابهة، حتى إذا فشل و أيقن بعجزه علم أنه أمام ظاهرة إلهية لا بشرية.

من هنا فسياق الآيات التالية، يركز على عنصر الإثارة و يقول: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ و هذه النار ليست حديث مستقبل، بل هى واقع قائم: أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ

جمع من المفسرين قالوا: إن المقصود بالحجارة: الأصنام الحجرية، و استشهدوا لذلك بالآية الكريمة: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۱۵۵].

جمع آخر قالوا: (الحجارة) إشارة إلى صخور معدنية كبريتية تفوق حرارتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۰

حرارة الصخور الأخرى.

و هناك من المفسرين من يعتقد أن المقصود من هذا التعبير، إلفات النظر إلى شدة حرارة جهنم، أى إن حرارة جهنّم و حريقها يبلغ درجة تشتعل فيها الصخور و الأجساد كما يشتعل الوقود.

و يبدو من ظاهر الآيات المذكورة، أن نار جهنم تستعر من داخل النّاس و الحجارة. و لا يصعب فهم هذه المسألة لو علمنا أن العلم الحديث أثبت أن كل أجسام العالم تنطوى فى أعماقها على نار عظيمة (أو بعبارة اخرى على طاقة قابلة للتبديل إلى نار)، و لا يلزم أن نتصور نار جهنم شبيهة بالنار المشهودة فى هذا العالم.

فى موضع آخر يقول تعالى: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ[۱۵۶].

خلافا لنيران هذا العالم التى تنفذ من الخارج إلى الداخل.

بحوث

۱- لماذا يحتاج الأنبياء إلى المعجزة؟

نعلم أن منصب النّبوة أعظم منصب منحه اللّه لخاصة أوليائه. فكل المناصب عادة تمنح صاحبها القدرة للحكم على أبدان الأفراد، إلّا منصب النّبوة، فالنّبى يحكم على الأجسام و القلوب فى مجتمعه. من هنا كان مقام النّبوة لا يبلغه مقام فى سموّه، و من هنا أيضا كان أدعياء النبوّات الكاذبة أحطّ النّاس و أشدّهم انحرافا.

و النّاس هنا أمام أمرين: إمّا أن يؤمنوا بدعوات النّبوة جميعا، أو يرفضوها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۲۱

جميعا، لو قبلوها جملة لتحولت ساحة الأديان إلى فوضى و هرج و مرج. و لو رفضوها جملة لكان عاقبة ذلك الضلال و الضياع.

فالدليل على مبدأ البعثة ذاته يفرض إذن أن يكون الأنبياء الصادقين مجهزين بالدليل على نبوتهم كى يتميز الصادقون من الكاذبين.

أى أن يكونوا مجهزين بالمعجزة الدالة على صدق ادعائهم.

و «المعجزة»- كما هو واضح من لفظها- عمل خارق يأتى به النّبى و يعجز عن الإتيان به الآخرون.

على النّبى صاحب المعجزة أن يتحدى النّاس بمعجزته، و أن يعلن لهم أن معجزته دليل على صدق دعواه.

۲- القرآن معجزة نبى الإسلام الخالدة:

القرآن کتاب یسمو علی أفکار البشر، و لم یستطع أحد حتی الیوم أن یأتی بمثله، و هو معجزة سماویة کبری.

هذا الکتاب الکریم یعتبر- بین معاجز النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم- أقوی سند حیّ علی نبوة الرّسول الخاتم، لأنه معجزة «ناطقة» و «خالدة» و «عالمیة» و «معنویة».

أمّا أنّه معجزة «ناطقة» فإنّ معاجز الأنبیاء السابقین لم تکن کذلک، أی أنها کانت بحاجة إلی وجود النّبی لکی یتحدث للناس عن معجزته و یتحداهم بها، و معاجز النّبی الخاتم- عدا القرآن- هی من هذا اللون. أما القرآن فمعجزة ناطقة.

لا یحتاج إلی تعریف، یدعو لنفسه بنفسه، یتحدی بنفسه المعارضین و یدینهم و یخرج منتصرا من ساحة التحدی. و هو یتحدی الیوم جمیع البشر کما کان یتحداهم فی عصر الرسالة. إنه دین و معجزة، إنه قانون، و وثیقة تثبت الهیة القانون.

أما الخلود و العالمیة: فإنّ القرآن حطم سدود «الزمان و المکان» و تعالی علیهما، لأن معاجز الأنبیاء السابقین- و حتی معاجز النّبی الخاتم غیر القرآن-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۲

مسجلة علی شریط معین من الزمان، و واقعة فی مساحة معینة من المکان، و أمام جمع معدود من النّاس، مثل معاجز عیسی علیه السّلام کحدیثه فی المهد و إحیائه الموتی.

و واضح أن الأحداث المقیّدة بزمان و مکان معینین تمسی صورتها باهتة کلما ابتعدنا عن ظروفها الزمانیة و المکانیة. و هذا من خصائص الأمور الزمنیة.

لکن القرآن لا یرتبط بالزمان و المکان، فهو یطلع علینا الیوم کما طلع علی عرب الجاهلیة قبل قرون، بل إن مرور الزمن زاد البشریة قدرة فی العلم و الإمکانات لتستفید منه أکثر من ذی قبل، و ما لا یرتبط بزمان أو مکان فانه یحوی عناصر الدوام و الخلود وسعة دائرته العالمیة، و بدیهی أن الدین العالمی الخالد بحاجة إلی مثل هذه الوثیقة العالمیة الخالدة.

أمّا الصّفة «المعنویة» للقرآن فنفهمها حین ننظر إلی معاجز الأنبیاء السابقین، و نری أنها کانت غالبا «جسمیة» مثل: شفاء الأمراض الجسمیة المستعصیة، و تحدث الطفل فی المهد ... و کانت تتجه نحو تسخیر الأعضاء البدنیة. أما القرآن، فیسخر القلوب و النفوس، و یبعث فیها الإعجاب و الإکبار. إنه یتعامل مع الأرواح و الأفکار و العقول البشریة، و واضح امتیاز مثل هذه المعجزة علی المعاجز الجسمیة.

۳- هل تحدّی القرآن؟

القرآن تحدی البشریة فی مواضع عدیدة من سوره، منها:

۱- قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً[۱۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۳

۲- أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَیاتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ. فَإِلَّمْ یَسْتَجِیبُوا لَکُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ۱۵۸].

۳- أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ ۱۵۹].

۴- الآیة الثالثة و العشرون من سورة البقرة التی یدور حولها بحثنا.

القرآن تحدی بصراحة و قوة فی هذه الآیات جمیع البشریة، و فی هذه الصراحة و القوّة دلالة حیّة علی حقّانیته. و لم یکتف فی تحدّیه بدعوة النّاس إلی أن یأتوا بمثله، بل حفّزهم و شجعهم علی ذلک، و عبارات التحفیز نجدها فی قوله تعالی:

إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ... فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ ... قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ...
وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُ ... لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ... فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ ... فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ لَنْ تَفْعَلُوا ....

هذا التحفيز و الحثّ و الإثارة لم يصدر ضمن إطار معركة أدبية أو عقائدية، بل فى إطار معركة «سياسية» «اقتصادية» «اجتماعية»، ضمن إطار معركة حياة أو موت، يرتبط بمصيرها وجود هذا الكيان الجديد. و عجز المعارضين أمام هذا التحدّى الحياتى الصارخ، يبيّن بشكل أوضح أبعاد المعجزة القرآنية.

جدير بالذّكر أن تحدى القرآن لا ينحصر بزمان أو مكان، بل إن هذا التحدّى قائم حتى يومنا هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۴

۴- هل جىء بمثله؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو ألقينا نظرة على الظروف و الملابسات التى عاصرت نزول القرآن، و على تاريخ ما ذكر من محاولات لكتابة ما يشبه القرآن.

غير خفىّ أن الرسالة فى عصر النّزول و ما بعده، واجهت خصوما ألدّاء من المشركين و اليهود و النصارى و المنافقين. و هؤلاء توسّلوا بكل ما لديهم من قوة و حيلة للوقوف بوجه الدعوة. (حتى إن بعض المنافقين مثل (ابو عامر) الراهب و من وافقه من المنافقين اتّصلوا بأمبراطور الرّوم للتآمر على الإسلام، و بلغ الأمر بهؤلاء المتآمرين أن شيّدوا «مسجد ضرار» فى المدينة، و حدثت على أثر ذلك وقائع عجيبة أشار إليها القرآن فى سورة التوبة).

من الطبيعى أن هؤلاء الأعداء الألدّاء من المنافقين و غيرهم كانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، و يتحينون كل فرصة للإضرار بالمسلمين. و لو كان هؤلاء قد حصلوا على كتاب يجيب على تحدى القرآن، لتهافتوا عليه و نشروه و طبّلوا له و زمّروا، أو لسعوا فى حفظه على الأقل.

و لذلك نرى أن التاريخ احتفظ بأسماء أولئك الذين يحتمل احتمالا ضعيفا أنهم عارضوا القرآن، مثل:

«عبد اللّه بن المقفع»، فقد قيل أنه عارض القرآن بكتابه «الدرّة اليتيمة» بينما لا نعثر فى هذا الكتاب الموجود بين أيدينا اليوم على إشارة إلى هذه المعارضة، و لا نعرف لماذا وجهت التهمة إلى ابن المقفع بهذا الكتاب؟

و المتنبى، أحمد بن الحسين الكوفى الشاعر، ذكر فى زمرة المعارضين و أصحاب النبوءات، بينما تؤكد دراسات حياة المتنبى و أدبه، أنه كان ينطلق فى شعره غالبا من روح الخيبة فى بلوغ المناصب الرفيعة، و من الحرمان العائلى.

و أبو العلاء المعرّى، اتهم بهذا أيضا، و نقلت عنه أشعار تنم عن رفضه لبعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۵

مسائل الدين، لكنه لم يرفع صوته يوما بمعارضة القرآن، بل نقلت عنه عبارات فى عظمة كتاب اللّه العزيز سنشير إليها فيما بعد.

أما مسيلمة الكذاب من أهل اليمامة فقد عارض القرآن، و أتى بآيات!! أقرب إلى الهزل منها إلى الجد، و من ذلك.

۱- ما قاله معارضا سورة «الذاريات»: «و المبذرات بذرا. و الحاصدات حصدا. و الذاريات قمحا. و الطاحنات طحنا. و العاجنات عجنا. و الخابزات خبزا.

و الثاردات ثردا. و اللاقمات لقما. اهالة و سمنا»[۱۶۰].

۲- من النماذج الاخرى لآياته: «يا ضفدع نقّى فإنّك نعم ما تنقين، لا واردا تنفرين، و لا ماء تكدرين»[۱۶۱].

۵- شهادات حول القرآن:

یجدر بنا أن ننقل جملا من أقوال المشاهیر بشأن القرآن بمن فیهم أولئک الذین اتهموا بمعارضة القرآن.

۱- أبو العلاء المعری (المتهم بمعارضة القرآن) یقول:

«و أجمع ملحد و مهتد أن هذا الکتاب الذی جاء به محمّد کتاب بهر بالإعجاز، و لقی عدوه بالإرجاز، ما حذی علی مثال، و لا أشبه غریب الأمثال، ... ما هو من القصید الموزون، و لا الرجز، و لا شاکل خطابة العرب و لا سجع الکهنة، و جاء کالشمس، لو فهمه الهضب لتصدع، و أن الآیة منه أو بعض الآیة لتعرض فی أفصح کلم یقدر علیه المخلوقون، فتکون فیه کالشهاب المتلألئ فی جنح غسق،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۶

و الظهرة البادیة فی جدوب»[۱۶۲].

۲- الولید بن المغیرة المخزومی، و هو رجل عرف بین عرب الجاهلیة بکیاسته و حسن تدبیره، و لذلک سمی «ریحانة قریش»، سمع آیات من سورة «غافر» فرجع إلی قوم من بنی مخزوم فقال لهم:

«و اللّه لقد سمعت من محمّد آنفا کلاما ما هو من کلام الإنس و لا من کلام الجن، و إن له لحلاوة، و إن علیه لطلاوة، و ان أعلاه لمثمر، و إن أسفله لمغدق، و إنه لیعلو و ما یعلی علیه»[۱۶۳].

۳- العالم المؤرخ البریطانی «کارلیل» یقول حول القرآن:

«لو ألقینا نظرة علی هذا الکتاب المقدس لرأینا الحقائق الکبیرة، و خصائص أسرار الوجود، مطروحة بشکل ناضج فی مضامینه، ممّا یبین بوضوح عظمة القرآن. و هذه المیزة الکبری خاصة بالقرآن، و لا توجد فی أی کتاب علمیّ و سیاسی و اقتصادی آخر. نعم، قراءة بعض الکتب تترک تأثیرا عمیقا فی ذهن الإنسان، و لکن هذا التأثیر لا یمکن مقارنته بتأثیر القرآن. من هنا ینبغی أن نقول:

المزایا الأساسیة للقرآن، ترتبط بما فیه من حقائق و عواطف طاهرة، و مسائل کبیرة، و مضامین هامة لا یعتریها شک و تردید. و ینطوی هذا الکتاب علی کل الفضائل اللازمة لتحقیق تکامل البشریة و سعادتها»[۱۶۴].

۴- جان دیفن بورت مؤلف کتاب: «الاعتذار إلی محمّد و القرآن». یقول:

«القرآن بعید للغایة عن کل نقص، بحیث لا یحتاج إلی أدنی إصلاح أو تصحیح، و قد یقرؤه شخص من أوّله إلی آخره دون أن یحسّ بأی ملل»[۱۶۵].

و یقول: «لا خلاف فی أن القرآن نزل بأبلغ لسان و أفصحه، و بلهجة قریش

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۷

أکثر العرب أصالة و أدبا ... و ملیء بأبلغ التشبیهات و أروعها»[۱۶۶].

۵- غورة الشاعر الألمانی یقول:

«قد یحسّ قرّاء القرآن للوهلة الاولی بثقل فی العبارات القرآنیة، لکنه ما أن یتدرج حتی یشعر بانجذاب نحو القرآن، ثم إذا توغّل فیه ینجذب- دون إختیار- إلی جماله الساحر»[۱۶۷].

و فی موضع آخر یقول: «لسنین طویلة، أبعدنا القساوسة عن فهم حقائق القرآن المقدس و عن عظمة النّبی محمّد، و لکن کلما خطونا علی طریق فهم العلم تنزاح من أمام أعیننا حجب الجهل و التعصب المقیت، و قریبا سیلفت هذا الکتاب الفرید أنظار العالم، و یصبح محور أفکار البشریة»! و یقول کذلک: «کنا معرضین عن القرآن، و لکن هذا الکتاب ألفت أنظارنا، و حیّرنا، حتی جعلنا نخضع لما

قدمه من مبادئ و قوانين علمية كبرى»! ۶- «ويل ديورانت» المؤرخ المعروف يقول: «القرآن أوجد فى المسلمين عزّة نفس و عدالة و تقوى لا نرى لها نظيرا فى أية بقعة من بقاع العالم».

۷- المفكر الفرنسى «جول لا- بوم» فى كتاب «تفصيل الآيات» يقول: «العلم انتشر فى العالم على يد المسلمين، و المسلمون أخذوا العلوم من (القرآن) و هو بحر العلم، و فرّعوا منه أنهارا جرت مياهها فى العالم ...».

۸- المستشرق البريطانى دينورت يقول:

«يجب أن نعترف أنّ العلوم الطبيعية و الفلكية و الفلسفة و الرياضيّات التى شاعت فى أوربا، هى بشكل عام من بركات التعاليم القرآنية، و نحن فيها مدينون للمسلمين، بل إن أوربا من هذه الناحية من بلاد الإسلام»[۱۶۸].

۹- الدكتورة لورا واكسيا واغليرى أستاذة جامعة نابولى فى كتاب «تقدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۸

الإسلام السريع» تقول:

«كتاب الإسلام السماوى نموذج الإعجاز ... (القرآن) كتاب لا يمكن تقليده، و أسلوبه لا نظير له فى الآداب، و التأثير الذى يتركه هذا الأسلوب فى روح الإنسان ناشئ عن امتيازاته و سموّه ... كيف يمكن لهذا الكتاب الإعجازى أن يكون من صنع محمّد، و هو رجل أميّ؟! ....

نحن نرى فى هذا الكتاب كنوزا من العلوم تفوق كفاءة أكثر النّاس ذكاء و أكبر الفلاسفة و أقوى رجال السياسة و القانون.

من هنا لا يمكن اعتبار القرآن عمل إنسان متعلّم عالم»[۱۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۲۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵]

اشارة

وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً وَ لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۵)

التّفسير

خصائص نعم الجنّة:

آخر آية فى بحثنا السابق تحدثت عن مصير الكافرين، و هذه الآية تتحدث عن مصير المؤمنين، كى تتضح الحقيقة أكثر بالمقارنة بين الصورتين، على الطريقة القرآنية فى التوضيح.

المقطع الأوّل فى الآية يبشر الذين آمنوا و عملوا الصالحات، بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار.

نعلم أن البساتين التى تفتقد الماء الدائم، و تسقى بين حين و حين ليس لها حظ كبير من النظارة، فالنظارة تطفح على البساتين التى تمتلك ماء سقى دائم مستمر لا ينقطع أبدا. و مثل هذه البساتين لا يعتريها جفاف و لا تهددها شحة ماء.

و هذه هى بساتين الجنّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۰

و بعد الإشارة إلى ثمار الجنّة المتنوعة تقول الآية: كُلَّما رُزِقُوا مِنْها مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قالُوا هذَا الَّذِى رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ

ذكر المفسرون لهذا المقطع من الآية تفاسير متعددة:

قال بعضهم: المقصود من قولهم: هذَا الَّذِى رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ هو أن هذه النعم أغدقت علينا بسبب ما أنجزناه من عمل فى الحياة الدنيا، و غرسنا بذوره من قبل.

و قال بعض آخر: عند ما يؤتى بالثمار إلى أهل الجنّة ثانية يقولون: هذا الذى تناولناه من قبل، و لكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديدا و لذّة اخرى، فالعنب أو التفاح الذى نتناوله فى هذه الحياة الدنيا مثلا له فى كل مرّة نأكله نفس طعم المرّة السابقة، أمّا ثمار الجنّة فلها فى كلّ مرّة طعم و إن تشابهت أشكالها، و هذه من امتيازات ذلك العالم الذى يبدو أنه خال من كل تكرار! و قال آخرون: المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنّة يلقونها شبيهة بثمار هذه الدنيا، فيأنسون بها و لا تكون غريبة عليهم، و لكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعما جديدا لذيذا.

و يجوز أن تكون عبارة الآية متضمنة لكل هذه المفاهيم و التفاسير، لأن ألفاظ القرآن تنطوى أحيانا على معان ۱۷۰].

ثم تقول الآية: وَ أُتُوا بِهِ مُتَشابِهاً، أى متشابها فى الجودة و الجمال. فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى، خلافا لثمار هذا العالم المختلفة فى درجة النضج و الرائحة و اللون و الطعم.

و آخر نعمة تذكرها الآية هى نعمة الأزواج المطهرة من كل أدران الروح و القلب و الجسد.

أحد منغّصات نعم الدنيا زوالها، فصاحب النعمة يقلقه زوال هذه النعمة، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۱

هنا فلا تكون هذه النعم عادة باعثة على السعادة و الاطمئنان. أمّا نعم الجنّة ففيها السعادة و الطمأنينة لأنها خالدة لا يعتريها الزوال و الفناء. و إلى هذه الحقيقة تشير الآية فى خاتمتها و تقول: وَ هُمْ فِيها خالِدُونَ

بحوث

۱- «الإيمان» و «العمل»:

فى كثير من الآيات القرآنية يقترن ذكر الإيمان بذكر العمل الصالح، حتى كان الاثنين متلازمان دونما افتراق. و الحق كذلك، لأن الإيمان و العمل يكمل بعضها الآخر.

لو نفذ الإيمان إلى أعماق النفس لتجلت آثاره فى الأعمال حتما، مثله كمثل مصباح لو أضاء فى غرفة لشع نوره من كل نوافذ الغرفة. و مصباح الإيمان كذلك لو شعّ فى قلب إنسان، لسطع شعاعه من عين ذلك الإنسان و أذنه و لسانه و يده و رجله.

يقول تعالى فى الآية الحادية عشرة من سورة الطلاق: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

و يقول فى الآية الخامسة و الخمسين من سورة النور:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ

فالإيمان بمثابة جذر شجرة و العمل الصالح ثمرتها. و وجود الثمر السليم دليل على سلامة الجذر. و وجود الجذر السليم يؤدى إلى نموّ الثمر الطيب.

من الممكن أن يصدر عمل صالح أحيانا عن أفراد ليس لهم إيمان، و لكن ذلك لا يحدث باستمرار حتما. فالذى يضمن بقاء العمل

الصالح هو الإيمان المتغلغل فى أعماق وجود الإنسان، الإيمان الذى يضع الإنسان دوما أمام مسئولياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۲

۲- الأزواج المطهّرة:

ممّا يلفت النظر فى هـذه الآيـة أن الوصف الوحيد الذى استعمله القرآن لمدح الأزواج فى جنّات النعيم هو أنّها «مطهرة». و هى إشارة إلى أول شرط فى الزوجة هو «الطهر». و كل ما سواه من الشروط و الأوصاف ثانوى.

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنه قال: «إيّاكم و خضـراء الـدّمن. قيل: يا رسول اللّه! و ما خضـراء الدّمن؟ قال: المرأة الحسناء فى منبت السّوء»[۱۷۱].

۳- النعم المادية و المعنوية فى الجنّة:

ذكر القرآن الكريم أنواع النعم الماديـة فى الجنة مثل: جنات تجرى من تحتها الأنهار، و مساكن طيبة، و أزواج مطهرة، و ثمار متنوعة، و خلّان متحابين. و لكنه ذكر إلى جانب هذه النعم المادية نعما أهم منها هى النعم المعنوية التى لا نسـتطيع أن نفهم عظمتها بمقاييسنا، كقوله: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۱۷۲].

و فى آية اخرى يقول سبحانه بعد ذكر النعم المادية: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ۱۷۳].

لو بلغ الإنسان هـذه المرتبـة حيث يرضـى اللّه عنه و يرضـى عن اللّه لأحسّ بلـذّة لا ترقى إليها لـذّة، و لهانت فى نظر هذا الإنسان سائر اللذات، عندها يرتبط هذا الإنسان باللّه و لا يفكر بما سواه، و هى مرتبة يعجز القلم و اللسان عن وصف سموّها و أبعادها.

بعبارة موجزة: كما أن للمعاد جانبا روحيا جسميا، كذلك نعم الجنة ذات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۳

جانبين أيضا، كى تكون جامعة و قابلة لاستفادة أهل الجنة جميعا، كلّ على قدر كفاءته و لياقته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ (۲۶)

سبب النّزول

ذكر جمع من المفسـرين عن ابن عباس أن سـبب نزول هـذه الآية هو اعتراض المنافقين على ما ورد من أمثلة فى الآيات السابقة مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ... أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ ...، و قالوا إن اللّه أسـمى من أن يضرب مثل هذه الأمثال، و بذلك راحوا يشككون

فى الرسالة و فى القرآن. و فى هذه الظروف نزلت الآية الكريمة المذكورة.

قال آخرون: عند نزول الآيات التى تضرب الأمثال بالذباب و العنكبوت، بدأ المشركون ينتقدون و يسخرون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۵

التّفسير

هل اللّه يضرب المثل؟!

الفقرة الاولى من الآية تقول: إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها.

ذلك لأن المثال يجب أن ينسجم مع المقصود، بعبارة اخرى، المثال وسيلة لتجسيد الحقيقة حين يقصد المتحدث بيان ضعف المدّعى و تحقيره فإنّ بلاغة الحديث تستوجب انتخاب موجود ضعيف للتمثيل به، كيما يتضح ضعف أولئك.

فى الآية (۷۳) من سورة الحج مثلا يقول سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ

يلاحظ فى هذا المثال أن الذباب و أمثاله أحسن وسيلة لتجسيد ضعف هؤلاء.

و هكذا فى الآية (۴۱) من سورة العنكبوت، حين يريد القرآن أن يجسد ضعف المشركين فى انتخابهم أولياء من دون اللّه، يشبههم بالعنكبوت التى تتخذ لنفسها بيتا، و هو أضعف البيوت و أوهنها: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

من المؤكد أن القرآن لو ساق الأمثلة فى هذه المجالات على الكواكب و السماوات لما أدّى الغرض فى التصغير و التحقير، و لما كانت أمثلته متناسبة مع أصول الفصاحة و البلاغة، فكأن اللّه تعالى يريد بهذه الامثلة القول: بأنه لا مانع من التمثيل بالبعوضة أو غيرها لتجسيد الحقائق العقلية فى ثياب حسّيّة و تقديمها للناس.

الهدف هو إيصال الفكرة، و الأمثلة يجب أن تتناسب مع موضوع الفكرة، و لذلك فهو سبحانه يضرب الأمثلة بالبعوضة فما فوقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۶

و ما المقصود من فَما فَوْقَها للمفسرين فى هذه رأيان:

الأوّل: «فوقها» فى الصغر، لأن المقام مقام بيان صغر المثال. و هذا مستعمل فى الحوار اليومى، نسمع مثلا رجل يقول لآخر: ألا تستحى أن تبذل كل هذا الجهد من أجل دينار واحد؟! فيجيب الآخر: لا، بل أكثر من ذلك أنا مستعد لأبذل هذا الجهد من أجل نصف دينار! فالزيادة هنا فى الصغر.

الثّانى: «فوقها» فى الكبر. أى إن اللّه يضرب الأمثال بالصغير و بالكبير، حسب مقتضى الحال.

لكن الرأى الأوّل يبدو أنسب.

ثم تقول الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ فهؤلاء، بإيمانهم و تقواهم، بعيدون عن اللجاجة و العناد و الحقد للحقيقة. و يستطيعون أن يروا الحق بجلاء و يدركوا أمثلة اللّه بوضوح.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيراً.

هؤلاء يعترضون على هذه الأمثلة لأنّها لا تهدى الجميع، و يزعمون أنها لو كانت من عند اللّه لاهتدى بها النّاس جميعا، و لما أدّت الى ضلال أحد! فيجيبهم اللّه بعبارة قصيرة تحسم الموقف و تقول: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ

فکل هـذه الأمثلـة من اللّه، و کلها نور و هدایة، لکنها تحتاج إلی عین البصـیرة التی تسـتفید منها، و مخالفة المخالفین تنطلق من نقص فیهم، لا من نقص فی الآیات الإلهیة[۱۷۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۷

بحوث

۱- أهمیة المثال فی بیان الحقائق:

الأمثلة المناسبة لها دور حساس: و عظیم فی التوضیح و الإقناع و الإفهام.

المثال المناسب قد یقرّب طریق الفهم إلی الأذهان بحیث نستعیض به عن الاقتحام فی الاستدلالات الفلسفیة المعقدة.

و أهم من ذلک، نحن لا نستطیع أن نستغنی عن الأمثلة المناسبة فی تعمیم و نشر الموضوعات العلمیة الصعبة بین عامة النّاس.

و لا یمکننا أن ننکر دور المثال فی إسکات الأفراد المعاندین اللجوجین المتعنّتین.

علی کـل حـال، تشـبیه «المعقول» ب «المحسوس» أحـد الطرق المؤثرة فی تفهیم المسائـل العقلیـة، علی أن یکون المثـال- کمـا قلنـا- مناسبا، و إلّا فهو مضلّ و خطر.

من هنا نجد فی القرآن أمثلة کثیرة رائعة شـیقة مؤثّرة، ذلک لأنه کتاب لجمیع البشـر علی اختلاف عصورهم و مستویاتهم الفکریة، إنه کتاب فی غایة الفصاحة و البلاغة[۱۷۵].

۲- لماذا التمثیل بالبعوضة؟

المعاندون اتخذوا من صغر البعوضة و الذبابة ذریعة للاستهزاء بالأمثلة القرآنیة.

لکنّهم لو أنصفوا و أمعنوا النظر فی هذا الجسم الصغیر، لرأوا فیه من عجائب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۸

الخلقة و عظیم الصنع و الدّقة ما یحیّر العقول و الألباب.

یقول الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام بشأن خلقة هذا الحیوان الصغیر:

«إنّما ضـرب اللّه المثل بالبعوضة لأنّ البعوضة علی صغر حجمها خلق اللّه فیها جمیع ما خلق فی الفیل مع کبره و زیادة عضوین آخرین فأراد اللّه سبحانه أن ینبّه بذلک المؤمنین علی لطف (لطیف) خلقه و عجیب صنعته»[۱۷۶].

یرید اللّه سبحانه بهذا المثال أن یبین للمؤمنین دقّة الصنع فی الخلق، التفکیر فی هذا الموجود الضعیف علی الظاهر، و الشبیه بالفیل فی الواقع، یبیّن للإنسان عظمة الخالق.

خرطوم هذا الحیوان الصغیر یشبه خرطوم الفیل، أجوف، ذو فتحة دقیقة جدا، و له قوّة ماصة تسحب الدم.

منـح اللّه هـذا الحیوان قوة هضم و تمثیل و دفع، کما منحه أطرافا و أذنا و أجنحـة تتناسب تماما مع وضع معیشـته. هـذه الحشـرة تتمتع بحساسـیة تشـعر فیها بالخطر بسـرعة فائقـة و تفرّ عنـد ما یداهمها عدوّ بمهارة عجیبة، و هی مع صـغرها و ضـعفها یعجز عن دفعها کبار الحیوانات.

أمیر المؤمنین علی علیه السّـلام یقول فی هـذا الصـدد: «کیف و لو اجتمع جمیع حیوانهـا من طیرهـا و بهائمهـا و مـا کـان من مرحها و

سائمها، و أصناف أسناخها و أجناسها، و متبلدة أممها و أكياسها، على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها، و لا عرفت كيف السّبيل إلى إيجادها، و لتحيّرت عقولها فى علم ذلك و تاهت، و عجزت قواها و تناهت، و رجعت خاسئة حسيرة، عارفة بأنّها مقهورة، مقرّة بالعجز عن إنشائها، مذعنة بالضّعف عن إفنائها»[۱۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۳۹

۳- هداية اللّه و إضلاله:

ظاهر عبارة الآية المذكورة يوحى بأن الهداية و الضلال جبريان و مرتبطان بإرادة اللّه تعالى. بينما العبارة الأخيرة من الآية توضح أن الهداية و الضلال مترتبان على أعمال الإنسان نفسه.

و لمزيد من التوضيح نقول: إن أعمال الإنسان و تصرفاته لها نتائج و ثمار معيّنة. لو كان العمل صالحا فنتيجته مزيد من التوفيق و الهداية فى السير نحو اللّه و مزيد من أداء الأعمال الصالحة. يقول تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً[۱۷۸].

و إن جنح الإنسان نحو المنكرات، فان الظلمات تتراكم على قلبه، و يزداد نهما لارتكاب المحرمات، و قد يبلغ به الأمر إلى أن ينكر خالقه، قال تعالى: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ ۱۷۹]. و قال أيضا: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۱۸۰].

و الآية التى يدور حولها بحثنا شاهد آخر على ذلك حيث يقول تعالى: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ

ممّا تقدم يتضح أن الإنسان حرّ فى انتخاب الطريق فى بداية الأمر، و هذه حقيقة يقبلها ضمير كل إنسان، ثم على الإنسان بعد ذلك أن ينتظر النتائج الحتمية لأعماله.

بعبارة موجزة: الهداية و الضلالة- فى المفهوم القرآنى- لا- يعنيان الإجبار على انتخاب الطريق الصحيح أو الخاطئ، بل إن الهداية- المفهومة من الآيات المتعدّدة- تعنى توفّر سبل السعادة، و الإضلال: يعنى زوال الأرضية المساعدة للهداية، دون أن يكون هناك إجبار فى المسألة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۰

توفّر السبل (الذى نسميه التوفيق)، و زوال هذه السبل (الذى نسميه سلب التوفيق)، هما نتيجة أعمال الإنسان نفسه. فلو منح اللّه فردا توفيق الهداية، أو سلب من أحد هذا التوفيق، فإنما ذلك نتيجة الأعمال المباشرة لهذا الفرد أو ذاك.

و يمكن التمثيل لهذه الحقيقة بمثال بسيط: حين يمرّ الإنسان قرب هاوية خطرة، فإنه يتعرّض لخطر الانزلاق و السقوط فيها كلّما اقترب منها أكثر.

كما أن احتمال سقوطه فى الهاوية يقلّ كلما ابتعد عنها أكثر، و الحالة الاولى هداية و الثانية ضلال.

من مجموع ما ذكرنا يتضح الجواب على ما يثار من أسئلة فى حقل الهداية و الضلال.

۴- «الفاسقون»: هم المنحرفون عن طريق العبودية، لأن الفسق فى اللغة إخراج النوى من التمر، ثم انتقل إلى الخروج عن طريق اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷]

اشارة

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۲۷)

التّفسير

الخاسرون الحقيقيون:

هذه الآية الكريمة توضح مواصفات الفاسقين بعد أن تحدثت الآية السابقة عن ضلال هذه الفئة، و تذكر لهم ثلاث صفات:

۱- إنهم يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ

هؤلاء لهم مع اللّه عهود و مواثيق، مثل عهد التوحيد، و عهد الرّبوبية، و عهد عدم اتّباع الشيطان و هوى النفس. لكنهم نقضوا كل هذه العهود، و تمرّدوا على أوامر اللّه، و اتبعوا أهواءهم و ما أراده الشيطان لهم.

طبيعة هذا العهد: يثار سؤال حول العهد المبرم بين اللّه و الإنسان، فالعهد عقد ذو جانبين، و قد يقول قائل: متى أبرمت مع اللّه عهدا من العهود المذكورة؟

الجواب على هذا السؤال يتضح لو عرفنا أن اللّه سبحانه أودع فى أعماق النفس الإنسانية شعورا خاصا و قوى خاصة يستطيع بها أن يهتدى إلى الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۲

الصحيح، و يتجنب مزالق الشيطان و أهواء النفس، و يستجيب لداعى اللّه.

هذه القوى الفطرية يعبّر عنها القرآن بالعهد الإلهى، و هو فى الحقيقة «عهد تكوينى» لا تشريعى أو قانونى. يقول تعالى: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ![۱۸۱].

و واضح أنّ الآية تشير إلى فطرة التوحيد العبودية و الميل إلى الاتجاه نحو التكامل فى النفس الإنسانية.

الدليل الآخر على هذا الاتجاه فى فهم العهد الإلهى،

ما جاء فى أول خطب نهج البلاغة عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: حيث قال: «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته».

بتعبير آخر: كل موهبة يمنحها اللّه للإنسان يصحبها عهد طبيعى بين اللّه و الإنسان، موهبة العين يصحبها عهد يفرض على الإنسان أى يرى الحقائق، و موهبة الاذن تنطوى على عهد مدوّن فى ذات الخلقة يفرض الاستماع إلى نداء الحق ... و بهذا يكون الإنسان قد نقض العهد متى ما غفل عن استثمار القوى الفطرية المودعة فى نفسه، أو استخدم الطاقات الموهبة له فى مسير منحرف.

الفاسقون، ينقضون بعض هذه العهود الفطرية الإلهية، أو جميعها.

۲- الصفة الاخرى لهؤلاء الفاسقين هى أنهم ... يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ....

أكثر المفسرين ذهبوا إلى أن القطع المذكور فى الآية يعنى قطع الرحم، لكن مفهوم الآية- فى نظرة أعمق- أعم من ذلك، و ما قطع الرحم إلّا أحد مصاديقها، لأن الآية تتحدث عن قطع الفاسقين لكل ارتباط أمر اللّه به أن يوصل، بما فى ذلك رابطة الرحم، رابطة الصداقة، و الروابط الاجتماعية، و الرابطة بهداة البشرية إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۳

اللّه، و الارتباط باللّه. و لا دليل على حصر الآية برابطة الرحم.

بعض المفسرين ذهبوا إلى أن الآية تشير إلى قطع الارتباط بالأنبياء و المؤمنين، و بعضهم فسّرها بالارتباط بأئمة أهل البيت عليهم

السّلام ۱۸۲]. و واضح أن هذه التفاسير تبيّن جزء من المفهوم الكلى للآية.

۳- علامة الفاسقين الثالثة هى الفساد: ... وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ

و من الواضح أن يكون هؤلاء مفسدين، لأنهم نسوا اللّه و عصوه، و خلت نفوسهم من كل عاطفة إنسانية حتى تجاه أرحامهم، هؤلاء لا يتحركون إلّا على خط مصالحهم و أهدافهم الذاتية الدنيّة، و لا يهمّهم على هذا الطريق أن يعيثوا فى الأرض فسادا، و يرتكبوا كل لون من الانحراف.

و تؤكد الآية فى الخاتمة أن أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و أى خسران أكبر من تبديد كل القوى المادية و المعنوية المودعة فى الإنسان الرّامية لإسعاده، و إهدارها على طريق الشقاوة و التعاسة و الانحراف؟! نعم، هؤلاء الفاسقون الذين خرجوا عن خط إطاعة اللّه ليس لهم مصير سوى الخسران.

بحثان

۱- أهمية صلة الرحم فى الإسلام:

الآية المذكورة أعلاه، و إن تحدثت عن كل ارتباط أمر اللّه به أن يوصل، إلّا أن الارتباط الرحمى دون شك أحد مصاديقها البارزة.

لقد أعار الإسلام اهتماما بالغا بصلة الرحم و بالتودّد إلى الأهل و الأقارب.

و نهى بشدّة عن قطع الارتباط بالرحم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۴

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يصوّر أهمية صلة الرحم

بقوله: «صلة الرّحم تعمر الدّيار و تزيد فى الأعمار، و إن كان أهلها غير أخيار»[۱۸۳].

و عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «صل رحمك و لو بشربة ماء، و أفضل ما يوصل به الرّحم كفّ الأذى عنها»[۱۸۴].

الإمام على بن الحسين السّجاد عليه السّلام يحذّر ولده من صحبة خمس مجموعات، إحداها قطاع الرحم، و

يقول: «... و إيّاك و مصاحبة القاطع لرحمه فإنّى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه».

و يقول سبحانه: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۱۸۵].

السبب فى كل هذا التأكيد الإسلامى على الرحم هو أن عملية إصلاح المجتمع و تقوية بنيته و صيانة مسيرة تكامله و عظمته فى الحقول المادية و المعنوية، تفرض البدء بتقوية اللّبنات الأساسية التى يتكون منها البناء الاجتماعى، و عند استحكام اللّبنات و تقويتها يتم إصلاح المجتمع تلقائيّا.

الإسلام مارس هذه العملية على النحو الأكمل فى بناء المجتمع الإسلامى القوى الشامخ، و أمر بإصلاح الوحدات الاجتماعية. و الكائن الإنسانى لا يأبى عادة أن ينصاع إلى مثل هذه الأوامر اللازمة لتقوية ارتباط أفراد الأسرة، لاشتراك هؤلاء الأفراد فى الرحم و الدم.

و واضح أن المجتمع يزداد قوة و عظمة كلّما ازداد التماسك و التعاون و التعاضد فى الوحدات الاجتماعية الصغيرة المتمثلة بالأسرة. و إلى هذه الحقيقة قد يشير

الحديث الشريف: «صلة الرحم تعمر الديار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۵

۲- القطع بدل الوصل:

ذكرت الآية الكريمة: أنّ الفاسقين. يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و فى هذا الصدد يثار سؤال يقول: هل القطع ممكن قبل الوصل؟ و الجواب: إن المقصود بالوصل استمرار الروابط التى أقرّها اللّه سبحانه بينه و بين عباده، أو بين عباده مع بعضهم بشكل طبيعى و فطرى.

بعبارة اخرى، إن اللّه سبحانه أمر بالحفاظ على هذه الروابط الفطرية و الطبيعية و بصيانتها، لكنّ المذنبين يقطعونها (تأمّل بدقة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۸) هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۹)

التّفسير

نعمة الحياة:

القرآن فى الآيتين يلفت أنظار البشر إلى عظمة الخالق عن طريق ذكر بعض النعمّ الإلهية و بعض المظاهر المدهشة للخلقة. و بذلك يكمل الأدلة التى أوردها فى الآيتين (۲۱ و ۲۲) من هذه السّورة حول معرفة اللّه.

القرآن يبدأ فى أدلته من نقطة لا تقبل الإنكار، و يركز على مسألة (الحياة) بكل ما فيها من تعقيد و غموض، و يقول: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ

و فى هذه العبارة تذكير للإنسان بما كان عليه قبل الحياة ... لقد كان ميتا تماما مثل الأحجار و الأخشاب و لم يكن فيه أى أثر للحياة، لكنه الآن يتمتع بنعمة الحياة، و بنعمة الشعور و الإدراك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۷

من الذى منح الإنسان نعمة الحياة؟ هل أن الكائن البشرى هو الذى منح نفسه الحياة؟! كل إنسان منصف لا يتردد أن يجيب: أن هذه الحياة موهوبة للإنسان من لدن عالم قادر ... عالم برموز الحياة و قوانينها المعقدة ... و قادر على تنظيمها. إذن كيف يكفر هذا الإنسان بمن أحياه بعد موته؟! أجمعت العلماء اليوم أن مسألة الحياة أعقد مسألة فى عالمنا هذا، لأن لغز الحياة لم ينحل حتى اليوم على الرغم من كل ما حققه البشر من تقدّم هائل فى حقل العلم و المعرفة. قد يستطيع العلم فى المستقبل أن يكتشف بعض أسرار الحياة ... لكن السؤال يبقى قائما بحاله: كيف يكفر الإنسان باللّه و ينسب هذه الحياة بتعقيداتها و غموضها و أسرارها إلى صنع الطبيعة العمياء الصّماء الفاقدة لكل شعور و إدراك؟! من هنا نقول إن ظاهرة الحياة فى عالم الطبيعة أعظم سند لإثبات وجود اللّه تعالى. و القرآن يركز فى الآية المذكورة على هذه المسألة بالذات، و هى مسألة تحتاج إلى مزيد من الدراسة و التعمق، لكننا نكتفى هنا بهذه الإشارة.

بعد التذكير بهذه النعمة، تؤكد الآية على دليل واضح آخر و هو «الموت» ثُمَّ يُمِيتُكُمْ

ظاهرة «الموت» يراها الإنسان فى حياته اليومية، من خلال وفاة من يعرفهم و من لا يعرفهم، و هذه الظاهرة تبعث أيضا على التفكير، من الذى قبض أرواحهم؟

ألا يدلّ سلب الحياة منهم على أن هناك من منحهم هذه الحياة؟

نعم ... إن خالق الحياة هو خالق الموت أيضا، و إلى ذلك تشير الآية الكريمة:

الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۱۸۶].

بعد أن ذكرت الآية هذين الدليلين الواضحين على وجود اللّه، تناولت المعاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۸

و الحياة بعد الموت: ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

و يأتى ذكر المعاد فى سياق هذه الآية ليبين أن مسألة الحياة بعد الموت (المعاد) مسألة طبيعية جدا لا تختلف عن مسألة إحياء الإنسان فى هذه الدنيا بل إنها أيسر من الخلق الاول (مع أن السهل و الصعب ليس لها مفهوم بالنسبة للقادر المطلق). و هل بمقدور إنسان أن ينكر إمكان المعاد و هو يرى أنه خلق من عناصر ميتة؟! و هكذا، و بعبارة موجزة رائعة يفتح القرآن أمام الإنسان سجل حياته منذ ولادته و حتى بعثه.

و فى نهاية الآية يقول تعالى: ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و المقصود بالرجوع هو الرجوع إلى نعم اللّه تعالى يوم القيامة. و الرجوع غير البعث. و القرآن يفصل بين الاثنين كما فى قوله تعالى: وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۱۸۷].

قد يكون الرجوع فى الآية الكريمة إشارة إلى معنى أدقّ، هو إن جميع الموجودات تبدأ مسيرة تكاملها من نقطة العدم التى هى نقطة «الصفر» و تواصل السير نحو «اللانهاية» التى هى ذات اللّه سبحانه و تعالى. من هنا فإن هذه المسيرة لا تتوقف لدى الموت، بل تستمر فى الحياة الاخرى على مستوى أسمى.

بعد ذكر نعمة الحياة و الإشارة إلى مسألة المبدأ و المعاد، تشير الآية إلى واحدة اخرى من النعمّ الإلهية السابقة و تقول: هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً.

و بهذا تعيّن الآية قيمة الإنسان فى هذه الأرض، و سيادته على ما فيها من موجودات. و منها نستطيع أن نفهم المهمّة العظيمة الثقلية الموكولة إلى هذا المخلوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۴۹

فى ساحة الوجود.

و فى القرآن آيات اخرى تؤكد على مكانة الإنسان السامية، و توضّح أن هذا الكائن هو الهدف النهائى من خلق كل موجودات الكون.

وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ ۱۸۸] و ثمة آيات اخرى تحدثت عن هذا المفهوم بالتفصيل كقوله تعالى ۱۸۹].

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ...[۱۹۰].

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ ...[۱۹۱].

وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ ...[۱۹۲].

و سخر لكم البحر ...[۱۹۳].

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ ...[۱۹۴].

و تعود الآية إلى ذكر أدلة التوحيد و تقول: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الفعل «استوى» من «الاستواء» و هو التسلط و الإحاطة الكاملة و القدرة على الخلق و التدبير، و كلمة «ثم» فى الآية لا تعنى لزاما التأخير

الزمانی، بل تعنی أیضا التأخیر فی البیان و توالی فی ذکر الحقائق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۰

بحوث

۱- التناسخ أو عودة الأرواح

الآیة المذکورة أعلاه من الآیات التی ترفض بوضوح فکرة التناسخ، فالمعتقدون بالتناسخ یؤمنون بأن الإنسان یعود بعد الموت ثانیة إلی هذه الحیاة، بعد أن تحلّ روحه فی جسم آخر (و نطفة اخری)، و یحیا فی هذه الدنیا حیاة اخری، و قد تتکرر هذه العودة مرات، و تکرر هذه الحیاة یسمی بالتناسخ أو عودة الأرواح.

الآیة تصرح بعدم وجود أکثر من حیاة واحدة بعد الموت، هی حیاة البعث و النشور. و بعبارة اخری توضح الآیة أن للإنسان حیاتین و مماتین لا أکثر، و کان الإنسان میتا یوم کان جزءا من الطبیعة غیر الحیّة، ثم أحیاه اللّه یوم ولد، ثم یمیته، ثم یعیده. و لو کان التناسخ صحیحا لکان للإنسان أکثر من مماتین و حیاتین.

هذا المفهوم مذکور فی آیات اخری أیضا، سنشیر إلیه فی موضعه ۱۹۵].

فکرة التناسخ إذن مرفوضة قرآنیا، کما أنّه مرفوضة عقلیا، و هی نوع من الرجعیة و الانتکاس فی قانون التکامل ۱۹۶].

جدیر بالذکر أنّ هذه الآیة لا تشیر إلی الحیاة البرزخیة (الحیاة بین الموت و النشور) کما توهم البعض، بل إلی الحیاة بعد الموت فی هذه الدنیا (إحیاء الإنسان بعد تکونه من مواد طبیعیّة میتة)، ثم الموت بعد هذه الحیاة الدنیویة، ثم الحیاة الاخری، و استمرار المسیرة التکاملیة نحو اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۱

۲- السّماوات السّبع

کلمة «سماء» تشیر إلی جهة علیا، و لها مفهوم واسع ذو مصادیق مختلفة.

و لذلک کان لها استعمالات عدیدة فی القرآن الکریم:

۱- أطلقت أحیانا علی «الجهة العلیا» المجاورة للأرض کقوله تعالی: أَ لَمْ تَرَ کَیْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا کَلِمَةً طَیِّبَةً کَشَجَرَةٍ طَیِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِی السَّماءِ[۱۹۷].

۲- و عنی بها القرآن تارة المنطقة البعیدة عن سطح الأرض: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَکاً[۱۹۸].

۳- عبّر القرآن بها فی موضع آخر عن (الغلاف الجوی) المحیط بالأرض:

وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً[۱۹۹]. لأن هذا الغلاف یقی الکرة الأرضیة من الصخور السماویة (النیازک) التی تتجه إلی الأرض لیلا و نهارا بفعل جاذبیة الأرض، لکن اصطدام هذه الصخور بجوّ الأرض یؤدی إلی اشتعالها و من ثم تحوّلها إلی رماد.

۴- و أراد القرآن بالسماء فی موضع آخر (الکرات العلیا): ثُمَّ اسْتَوی إِلَی السَّماءِ وَ هِیَ دُخانٌ ۲۰۰].

نعود الآن إلی «السماوات السبع» لنری ما المقصود من هذا العدد. تعددت آراء المفسرین و العلماء المسلمین فی ذلک.

۱- منهم من قال إنها السّیارات السّبع ۲۰۱] فی اصطلاح الفلکیین القدماء: أی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۲

عطارد و الزهرة و المریخ و المشتری و زحل و القمر و الشمس.

۲- و منهم من قال إن المقصود بها هو الطبقات المتراکمة للغلاف الجوی المحیط بالکرة الأرضیة.

۳- و منهم من قال إن العدد (سبعة) لا یراد به هذا العدد المعروف، بل یراد به الکثرة، أی أن معنی «السماوات السبع» هو السماوات و الکرات الکثیرة فی الکون.

و لهذا نظیر فی کلام العرب و فی القرآن، کقوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ ۲۰۲].

و واضح أن المقصود بالسبعة فی هذه الآیة لیس العدد المعروف، لأن علم اللّه لا ینتهی حتی و لو أن البحر یمده من بعده الآلاف المؤلفة من الأبحر.

۴- الأصح فی رأینا أن المقصود بالسماوات السبع، هو وجود سبع سماوات بهذا العدد. و تکرر هذه العبارة فی آیات الذکر الحکیم یدل علی أن العدد المذکور فی هذا الآیات لا یعنی الکثرة، بل یعنی العدد الخاص بالذات.

و یستفاد من آیات اخری أن کل الکرات و السیّارات المشهودة هی جزء من السماء الاولی، و ثمة ستة عوالم اخری خارجة عن نطاق رؤیتنا و وسائلنا العلمیة الیوم. و هذه العوالم السبعة هی التی عبّر عنها القرآن بالسماوات السبع.

یقول تعالی: وَ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ ۲۰۳].

و یقول أیضا: إِنَّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَواکِبِ ۲۰۴].

و یتضح من هاتین الآیتین أن ما نراه و ما یتکون منه عالم الأفلاک هو جزء من السماء الاولی، و ما وراء هذه السماء ست سماوات اخری لیس لدینا الیوم معلومات عن تفاصیلها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۳

نحن نری الیوم أنه کلما تقدمت العلوم الناقصة للبشر اکتشفت عجائب و مجاهیل عظیمة. علم الفلک تقدّم إلی مرحلة بعیدة جدا فی الرصد عن طریق التلسکوبات، ثم توقفت قدرة الرؤیة إلی أکثر من ذلک.

أبعد ما اکتشفته دوائر الأرصاد الفلکی العالمیة حتی الآن مسافة فی الکون تعادل ألف ملیون (ملیار) سنة ضوئیة. و الراصدون یعترفون أن أقصی ما اکتشفوه هو بدایة الکون لا نهایته. و ما یدریک أن العلم سیکتشف فی المستقبل سماوات و عوامل اخری! من الأفضل أن نسمع هذا الحدیث عن لسان مرصد عالمی کبیر.

۳- عظمة الکائنات

المرصد ل «بالومر» یصف عظمة الکون کالآتی:

«... قبل نصب مرصد بالومر، کان العالم فی نظرنا لا یزید علی خمسمائة سنة ضوئیة. لکن هذا الناظور وسّع عالمنا إلی ألف ملیون سنة ضوئیة. و اکتشف علی أثر ذلک ملایین المجرات الجدیدة التی یبعد بعضها عنا ألف ملیون سنة ضوئیة. أما بعد هذه المسافة فیتراءی لنا فضاء عظیم مهیب مظلم لا نبصر فیه شیئا، أی أن النور لا ینفذ إلیه کی یؤثر علی صفحة التصویر فی المرصد.

و من دون شک أن هذا الفضاء المهیب المظلم یحتوی علی مئات الملایین من المجرات التی تحافظ بجاذبیّتها علی هذا العالم المرئی. کل هذا العالم العظیم المرئی الحاوی علی مئات آلاف الملایین من المجرات لیس إلا جزءا صغیرا جدا من عالم أعظم. و لسنا واثقین من عدم وجود عالم آخر غیر هذا العالم الأعظم»[۲۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ (۳۰) وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۱) قالُوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۳۲) قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمائِهِمْ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۳۳)

التّفسير

الإنسان خليفة اللّه فى الأرض

الآيات السابقة ذكرت أن اللّه سبحانه خلق ما فى الأرض جميعا للإنسان، و فى هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الإنسان و قيادته، و توضيح لمكانته المعنوية التى استحق بها كل هذه المواهب.

فى هذه الآيات عرض لخلقة آدم (أبو البشر)، و فى الآيات ۳۰ إلى ۳۹ تركيز على ثلاث مسائل أساسية هى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۵

۱- إخبار اللّه ملائكته بشأن خلافة الإنسان فى الأرض، و ما دار فى المشهد من حوار.

۲- أمر اللّه تعالى ملائكته بإكرام و تعظيم الإنسان الأول، و هذا ما نجده فى مواضع عديدة من القرآن الكريم بمناسبات مختلفة.

۳- شرح وضع آدم و حياته فى الجنّة، و الحوادث التى أدت إلى خروجه من الفردوس، ثم توبة آدم، و حياته هو و ذريته فى الأرض.

الآيات المذكورة تتحدث عن المرحلة الاولى، حين شاء اللّه أن يخلق على ظهر الأرض موجودا، يكون فيها خليفته، و يحمل أشعة من صفاته، و تسمو مكانته على مكانة الملائكة، و شاء سبحانه أن تكون الأرض و نعمها و ما فيها من كنوز و معادن و إمكانات تحت تصرف هذا الإنسان.

مثل هذا الموجود بحاجة إلى قسط وافر من العقل و الشعور و الإدراك و الكفاءة الخاصة، كى يستطيع أن يتولى قيادة الموجودات الأرضية.

و بهذه المناسبة تقول الآية الاولى: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، و الخليفة هو النائب عن الغير. أما هذا الغير الذى ينوب الإنسان عنه فاختلفت فيه أقوال المفسرين ....

منهم من قال إنه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الأرض. و منهم من قال إنه خليفة بشر آخرين أو موجودات اخرى كانت تعيش قبل ذلك على الأرض.

و ذهب بعضهم إلى أن الخليفة إشارة إلى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق.

و الحق أن المقصود بالخليفة هو خليفة اللّه و نائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين، لأن سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذى قد يفسد فى الأرض و يسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأن نيابة اللّه فى الأرض لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۶

تتناسب مع الفساد و سفك الدماء.

مسألة «تعليم الأسماء» لآدم التى سيأتى شرحها، و هكذا سجود الملائكة لآدم من أدلة ما ذهبنا إليه فى تفسير معنى الخليفة.

الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام يشير أيضا إلى هذا المعنى فى تفسير هذه الآيات إذ يقول: «إنّ اللّه عزّ و جلّ علّم آدم أسماء حججه كلّها ثمّ عرضهم و هم أرواح على الملائكة فقال أنبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنّكم أحقّ بالخلافة فى الأرض لتسبيحكم و تقديسكم من آدم فقالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم قال اللّه تبارك و تعالى يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبئهم بأسمائهم وقفوا على عظيم منزلتهم عند اللّه عزّ ذكره فعلموا أنّهم أحقّ بأن يكونوا خلفاء اللّه فى أرضه و حججه على بريّته ثمّ غيّبهم عن أبصارهم و استعبدهم بولايتهم و محبّتهم و قال لهم ألم أقل لكم إنّى أعلم غيب السّموات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون»[۲۰۶].

ثم تذكر الآية سؤال الملائكة الذى وجّهوه لربّ العالمين مستفسرين لا معترضين: قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها. مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ

اللّه سبحانه أجاب الملائكة جوابا مغلقا اتضح فى المراحل التالية: قالَ إِنِّى أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ

الملائكة كانوا عالمين- كما يبدو من تساؤلهم- أن هذا الإنسان موجود يفسد فى الأرض و يسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك؟! قيل إن اللّه سبحانه أوضح للملائكة من قبل على وجه الإجمال مستقبل الإنسان، و قيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارة «فى الأرض»، لأنهم علموا أن هذا الإنسان يخلق من التراب، و المادة لمحدوديتها هى حتما مركز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۷

للتنافس و النزاع. و هذا العالم المحدود المادى لا يستطيع أن يشبع طبيعة الحرص فى الإنسان. و هذه الدنيا لو وضعت بأجمعها فى فم الإنسان فقد لا تشبعه. و هذا الوضع- إن لم يقترن بالالتزام و الشعور بالمسؤولية- يؤدى إلى الفساد و سفك الدماء.

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ تنبؤ الملائكة يعود إلى تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، و هذه المخلوقات تنازعت و سفكت الدماء و خلفت فى الملائكة انطباعا مرّا عن موجودات الأرض.

هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض مع بعضها. و قد يكون موقف الملائكة من استخلاف آدم ناشئا عن هذه الأسباب الثلاثة معا.

الملائكة بيّنوا حقيقة من الحقائق. و لذلك لم ينكر اللّه عليهم قولهم، بل أشار إلى أن ثمة حقائق اخرى إلى جانب هذه الحقيقة، حقائق ترتبط بمكانة الإنسان فى الوجود؛ و هذا ما لم تعرفه الملائكة.

الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلقة هو العبودية و الطاعة، و كانوا يرون فى أنفسهم مصداقا كاملا لذلك، فهم فى العبادة غارقون. و لذلك فهم- أكثر من غيرهم- للخلافة لائقون، غير عالمين أن بين عبادة الإنسان الملىء بألوان الشهوات، و المحاط بأشكال الوساوس الشيطانية و المغريات الدنيوية و بين عبادتهم- و هم خالون من كل هذه المؤثرات- بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التى تعيش على ساحل آمن؟! ماذا تعرف الملائكة من أبناء آدم أمثال محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و ابراهيم و نوح و موسى و عيسى و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام و عباد اللّه الصالحين و الشهداء و المضحّون من الرجال و النساء الذين قدّموا وجودهم على مذبح العشق الإلهى، و الذين تساوى ساعة من تفكّرهم سنوات متمادية من عبادة الملائكة.

الجدير بالذكر، إن الملائكة ركنوا فى بيان فضلهم إلى ثلاثة امور: التسبيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۸

و الحمد، و التقديس، أمّا التسبيح و الحمد فمعنا هما واضح، و هو تنزيه اللّه عزّ و جلّ من كل نقص و الاعتراف له بكل كمال و جمال. أمّا ما هو معنى التقديس؟ البعض يرى أنه عبارة عن تنزيه اللّه عزّ و جلّ عن كل نقص، و هو معنى التسبيح المتقدم.

و لكن آخرين ذهبوا إلى ان التقـديس من مادة «قـدس» أى تطهير الأرض من الفاسـدين و المفسدين، أو تطهير النفس من كل رذيلة، أو تطهير الجسم و الروح للّه.

و الشاهـد على ذلك كلمـة «لك»، فى جملـة «نقـدس لك» لأن الملائكـة لم يقولوا «نقدسك» بل «نقدس لك»، أى تطهر المجتمع و الأرض لك.

و فى الحقيقـة أن مرادهم هو القول بأن الهدف إذا كان هو الطاعة و العبودية فنحن على أتمّ الاسـتعداد. و لو كان هو العبادة فنحن فى هذه الحالة دائما، و إذا كان المقصود هو تطهير النفس أو تطهير الأرض فسوف ننفذ هذا الأمر. فى حين أن الإنسان المادى مضافا إلى فساده. فإنّه يفسد الأرض.

و من أجل أن تتضح الحقيقة للملائكة أقدم اللّه سبحانه على هذه التجربة ليعلموا الفرق الشاسع بينهم و بين آدم عليه السّلام.

الملائكة فى بودقة الاختبار

كان آدم يملك- بفضل اللّه- قابليـة خارقـة لفهم الحقائق، و شاء اللّه أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل، و هذا ما عبر عنه القرآن بقوله:

وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها.

اختلف المفسـرون فى تفسـير «تعليم الأسـماء»، و من المؤكـد أن المقصود من ذلـك ليس هو تعليم الأسـماء دون المعانى. فـذلك لا يكسب آدم فخرا بل المقصود هو معانى الأسماء و المفاهيم و المسميات.

هذا العلم بالكون و بأسرار الموجودات و خواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۵۹

عن أبى العبـاس قـال: سألت الإمام الصادق عليه السّـلام عن قول اللّه: و علّم آدم الأسـماء كلها، ماذا علّمه؟ قال: «الأرضـين و الجبال و الشعاب و الأودية ثم نظر إلى بساط تحته فقال: و هذا البساط ممّا علّمه»[۲۰۷].

علم الأسـماء إذن لم يكن يشـبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسـفة الأسـماء و أسـرارها و كيفياتها و خواصها. و اللّه سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب المادية و المعنوية فى الكون على طريق تكامله.

كما منح اللّه آدم قابلية التسـمية، ليسـتطيع أن يضع للأشـياء أسـماء، و بذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها. و هـذه نعمـة كبرى، نفهمهـا لو عرفنا أن علوم البشـرية تنقل عن طريق الكتب و المـدوّنات. و ما كان هـذا التـدوين مقـدورا لو لا وضـع الأسماء للأشياء و خواصها.

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقالَ: أَنْبِئُونِي بِأَسْماءِ هؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ...

و أمام هـذا الاختبار تراجع الملائكـة لأنهم لم يملكوا هـذه القـدرة العلمية التى منحها اللّه لآدم، قالُوا: سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

و هكـذا أدركت الملائكـة تلـك القـدرة التى يحملها آدم، التى تجعله لائقا لخلافـة اللّه على الأرض. و فهمت مكانـة هـذا الكائن فى الوجود.

و حان الدور لآدم كى يشرح أسماء الموجودات و أسرارها أمام الملائكة:

قـالَ يـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمائِهِمْ قـالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْـدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

و هنا اتضح للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

عبارة ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ إشارة إلى أن الملائكة كانوا يخفون شيئا لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۰

يظهروه فى أقوالهم. قال بعض المفسرين: إنها إشارة إلى حالة استكبار إبليس الذى كان يومئذ بين الملائكة. و كان يكتم إصراره على عدم الخضوع لآدم.

و من المحتمل أيضا أن تكون العبارة إشارة إلى ما كان يبطنه الملائكة من اعتقاد بأنهم أليق من غيرهم للخلافة الإلهية على الأرض. فهم أشاروا إلى مثل هذا الاعتقاد و لم يصرّحوا به.

جواب على سؤالين

و يبقى سؤالان فى هذا المجال، الأوّل يدور حول تعليم اللّه لآدم، كيف تمّ ذلك؟ و لو قدّر أن يكون هذا التعليم من نصيب الملائكة لنالوا نفس فضيلة آدم، فهل هناك مفخرة يمتلكها آدم و لا تمتلكها الملائكة؟

أما بشأن كيفية التعليم فالجواب هو أن هذا التعليم تكوينى، أى إن اللّه أودع هذا العلم فى وجود آدم بالقوة، و دفعه خلال مدّة قصيرة إلى المرحلة الفعلية.

إطلاق كلمة «تعليم» فى القرآن على «التعليم التكوينى» ورد فى موضع آخر من القرآن، كقوله تعالى: عَلَّمَهُ الْبَيانَ ۲۰۸] و واضح أن اللّه سبحانه علّم الإنسان البيان فى مدرسة الخلقة، أى منحه الكفاءة و الخصائص الفطرية اللازمة للبيان و الكلام.

أما الشطر الآخر من هذا السؤال فيتبين جوابه لو علمنا أن الملائكة كانت لهم خلقة خاصة، ما كانت تؤهلهم لتلقى كل هذه العلوم. إنهم مخلوقون لهدف آخر، لا لهذا الهدف، و هذه الحقيقة فهمها الملائكة و تقبلوها بعد أن مرّوا بتلك التجربة المذكورة فى الآية. و لعلهم اعتقدوا فى البداية أنهم يحملون الكفاءة اللازمة لهذا الهدف، لكن اللّه بيّن لهم الفرق بين كفاءتهم و كفاءة آدم بتجربة تعليم الأسماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۱

أمّا السّؤال الثّانى فيرتبط بالضمير «هم» فى قوله تعالى: ثُمَّ عَرَضَهُمْ و أسمائهم و باسم الإشارة هؤلاء فى الآية. فالمعروف أنّ «هم» و «هؤلاء» يستعملان فى العاقل، و هذا لا ينسجم مع تفسير «الأسماء» بأنهم أسرار الخلقة و فهم خواص جميع الموجودات.

و الجواب هو أن استعمال الضمير «هم» و اسم الإشارة «هؤلاء» لا يختص بالعاقل، بل قد يستعملان فى جمع مكوّن من عاقل و غير عاقل، و قد يستعملان فى جمع غير عاقل. كقوله تعالى: رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ ۲۰۹] و الضمير «هم» فى الآية يعود على الكواكب و الشمس و القمر التى رآها يوسف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۳۴ الى ۳۶]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ (۳۴) وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (۳۵) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ وَ قُلْنَا اهْبِطُوا

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۳۶)

التّفسير

آدم عليه السّلام فى الجنّة

ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمة الإنسان، و يقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ، وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

يبدو للوهلة الاولى أن مسألة السجود لآدم جاءت بعد تجربة الملائكة المذكورة فى الآيات السابقة و بعد تعليم الأسماء. و لكن لو أمعنّا النظر فى آيات القرآن الكريم لألفينا أن موضوع السجود جاء بعد اكتمال خلقة الإنسان مباشرة، و قبل امتحان الملائكة.

يقول تعالى: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۳

السجود إذن جاء مباشرة بعد نفخ الروح فى الإنسان، و هذا المعنى جاء فى الآية ۷۲ من سورة (ص)[۲۱۰].

ثمة دليل آخر على هذه المسألة هو أن استجابة الملائكة لأمر اللّه بالسجود، لو كانت بعد اتضاح مكانة آدم، لما اعتبرت مفخرة للملائكة.

على أى حال، الآية المذكورة تقرير قرآنى واضح صريح لشرف الإنسان و عظمة مكانته. فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

حقا، إن هذا الموجود، اللائق لخلافة اللّه على الأرض، و المؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل و تربية أبناء عظام كالأنبياء و خاصة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، يستحق كل احترام.

نحن نشعر بالتعظيم و التكريم لمن حوى بعض العلوم و علم شيئا من القوانين و المعادلات العلمية، فكيف حال الإنسان الأوّل مع كل تلك العلوم و المعارف الزاخرة عن عالم الوجود؟!

بحثان

۱- لماذا أبى إبليس؟

«الشّيطان» اسم جنس شامل للشيطان الأوّل و لجميع الشّياطين. أمّا «إبليس» فاسم علم للشيطان الذى وسوس لآدم. و إبليس- كما صرح القرآن- ما كان من جنس الملائكة و إن كان فى صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، و هى مخلوقات مادية. قال تعالى: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِ ۲۱۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۴

باعثه على الامتناع عن السجود كبر و غرور و تعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنه أفضل من آدم، و لا ينبغى أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغى أن يؤمر آدم بالسجود له، و سيأتى شرح ذلك فى تفسير الآية ۱۲ من سورة الأعراف ۲۱۲].

كفر إبليس كان يعود إلى نفس السبب أيضا، فقد اعتقد بعدم صواب الأمر الإلهى، و بذلك لم يعص فحسب، بل انحرف عقائديا. و هكذا ذهبت أدراج الرياح كل عباداته و طاعاته نتيجة كبره و غروره. و هكذا تكون دوما نتيجة الكبر و الغرور.

و عبارة كانَ مِنَ الْكافِرِينَ تشير إلى أن إبليس كان قبل صدور الأمر الإلهى إليه بالسجود، قد انفصل عن مسير الملائكة و طاعة اللّه، و أسرّ فى نفسه الاستكبار و الجحود. لعله عزم فى قرارة نفسه أن لا يخضع لو صدرت إليه أوامر بالخضوع و السجود. و من المحتمل أن تكون عبارة ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ إشارة إلى ذلك.

و ورد هذا المعنى فى حديث عن الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام. قال إبليس «لئن أمرنى اللّه بالسّجود لهذا لعصيته إلى أن قال: ثمّ قال اللّه تعالى للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا فأخرج إبليس ما كان فى قلبه من الحسد فأبى أن يسجد»[۲۱۳].

۲- هل كان السّجود للّه أم لآدم عليه السّلام؟

لا شك أن السجود يعنى «العبادة» للّه، إذ لا معبود غير اللّه، و توحيد العبادة يعنى أن لا نعبد إلّا اللّه.

من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم يعنى «سجدة عبادة» قطعا. بل كان السجود للّه من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۵

سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء فى «عيون الأخبار» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام: «كان سجودهم للّه تعالى عبوديّة، و لآدم إكراما و طاعة، لكوننا فى صلبه»[۲۱۴].

بعد هذا المشهد و مشهد اختبار الملائكة، أمر آدم و زوجه أن يسكنا الجنّة، كما جاء فى قوله تعالى: وَ قُلْنا يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ، وَ كُلا مِنْها رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ[۲۱۵].

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خلق للعيش على هذه الأرض. لكنّ اللّه شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنّة، و هى روضة خضراء موفورة النعمة فى هذا العالم، و خالية من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحلة مكوث آدم فى الجنّة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسة آدم للحياة على الأرض و صعوبة تحمّل المشاكل الدنيوية بدون مقدمة، و من أجل تأهيل آدم لتحمل مسئوليات المستقبل، و لتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات و التكاليف الإلهية فى تحقيق سعادته، و لإعطائه صورة عن الشقاء الذى يستتبع إهمال هذه التكاليف، و لتنبيهه بالمحظورات التى سيواجهها على ظهر الأرض.

و كان من الضرورى أيضا أن يعلم آدم بإمكان العودة إلى اللّه بعد المعصية.

فمعصية اللّه- لا تسدّ إلى الأبد- أبواب السعادة أمامه، بل يستطيع أن يرجع و يعاهد اللّه أن لا يعود لمثلها، و عند ذاك يعود إلى النعم الإلهية.

ينبغى أن ينضج آدم عليه السّلام فى هذا الجوّ إلى حد معيّن، و أن يعرف أصدقاءه و أعداءه، و يتعلم كيف يعيش على ظهر الأرض. نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التى تؤهله للحياة على ظهر الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۶

كانت هذه مقدمات تأهيلية يحتاجها آدم و أبناء آدم فى حياتهم الجديدة.

و لعل الفترة التى قضاها آدم فى الجنّة أن ينهض بمسؤولية الخلافة على الأرض كانت تدريبية أو تمرينية.

و هنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهى يقضى بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبى إلّا أن ينفذ بقسمه فى إغواء آدم و ذريته، فطفق يوسوس لآدم و يعده و زوجه- كما يبدو من سائر آيات القرآن الكريم- بالخلود و باتخاذ شكل الملائكة و أقسم أنه لهما من الناصحين.[۲۱۶] تقول الآية بعد ذلك: فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ ۲۱۷].

نعم. أخرجا من الجنة حيث الراحة و الهدوء و عدم الألم و التعب و العناء، على أثر وسوسة الشيطان.

و صدر لهما الأمر الإلهى بالهبوط وَ قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ

و هنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أخرج من الجوّ الهادى المليء بنعم الجنّة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان. و هبط فى جوّ مفعم بالتعب و المشقة و العناء. مع أن آدم كان نبيّا و معصوما، فإن اللّه يؤاخذ الأنبياء بترك الأولى- كما سنرى- كما يؤاخذ باقى الأفراد على ذنوبهم. و هو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۷

بحوث

۱- ما هى جنّة آدم عليه السّلام؟

يبدو أن الجنّة التى مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنّة التى وعد بها المتقون. بل كانت من جنان الدنيا، و صقعا منعّما خلّابا من أصقاع الأرض. و دليلنا على ذلك:

أوّلا: الجنّة الموعودة فى القيامة نعمة خالدة، و القرآن ذكر مرارا خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانيا: إبليس الملعون ليس له طريق للجنّة، و ليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثا: وردت عن أهل البيت عليهم السّلام روايات تصرّح بذلك.

منها ما

روى عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام أنه سئل عن جنّة آدم، فقال: «جنّة من جنّات الدّنيا، يطلع فيها. الشّمس و القمر، و لو كان من جنان الاخرة ما خرج منها أبدا»[۲۱۸].

من هذا يتضح أن هبوط آدم و نزوله إلى الأرض لم يكن مكانيا بل مقاميا.

أى أنه هبط من مكانته السامية و من تلك الجنّة المزدانة.

من المحتمل أيضا أن تكون هذه الجنّة غير الخالدة فى إحدى الكواكب السماوية، و فى بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى أن هذه الجنّة فى السماء.

غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء فى هذه الرّوايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

على كل حال، توجد شواهد كثيرة على أن هذه الجنّة هى غير جنّة الخلد الموعودة. لأن جنّة آدم بداية مسير الإنسان و جنّة الخلد نهايتها. و هذه مقدمة لأعمال الإنسان و مراحل حياته، و تلك نتيجة أعمال الإنسان و مسيرته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۶۸

۲- ما هو ذنب آدم؟

المكانة التى ذكرها القرآن لآدم سامية و رفيعة، فهو خليفة اللّه فى الأرض و معلم الملائكة، و على درجة كبيرة من التقوى و المعرفة، و هو الذى سجدت له ملائكة اللّه المقربين. و من المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة إلى أنه كان نبيّا، و النّبى معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذى صدر عن آدم. و توجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

۱- ما ارتکبه آدم کان «ترکا للأولی» أو بعبارة اخری کان «ذنبا نسبیا»، و لم یکن «ذنبا مطلقا».

الذنب المطلق، و هو الذنب الذی یستحق مرتکبه العقاب أیا کان، مثل الشرک و الکفر و الظلم و العدوان. و الذنب النسبی هو الذی لا یلیق بمرتکبه أن یفعله لعلوّ منزلة ذلک الشخص، و إن کان ارتکابه مباحا، بل مستحبا أحیانا من قبل الأفراد العادیین. علی سبیل المثال، نحن نؤدی الصلاة بحضور القلب تارة، و بعدم حضور القلب تارة اخری. و هذه الصلاة تتناسب و شأننا، لکن مثل هذه الصلاة لا تلیق بأفراد عظام مثل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم. صلاة الرّسول ینبغی أن تکون بأجمعها اتصالا عمیقا باللّه تعالی، و إن فعل الرّسول غیر ذلک فلا یعنی أنه ارتکب محرّما، بل یعنی أنه ترک الاولی.

و آدم کان یلیق به أن لا یأکل من تلک الشجرة، و إن کان الأکل منها غیر محرّم بل «مکروها».

۲- نهی اللّه لآدم إرشادی، مثل قول الطبیب: لا تأکل الطعام الفلانی فتمرض.

و اللّه سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنّة. و آدم فی أکله من الشجرة خالف نهیا إرشادیا.

۳- الجنّة التی مکث فیها آدم لم تکن محلا للتکلیف، بل کانت دورة اختباریة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۶۹

و تمهیدیة لآدم کی یهبط بعدها إلی الأرض. و کان النهی ذا طابع اختیاری ۲۱۹].

۳- المقارنة بین معارف القرآن و التوراة:

أکبر مفاخر آدم و أعظم نقاط قوته التی جعلته زبدة الکون و مسجود الملائکة هی- کما یظهر من الآیات- تعلیمه الأسماء و اطلاعه علی حقائق الکون و أسراره.

واضح أن آدم خلق لهذه العلوم، و أبناء آدم- إن أرادوا التکامل- علیهم أن یستزیدوا من هذه العلوم، و تکاملهم یتناسب مرادفا مع معلوماتهم عن أسرار الخلیفة.

نعم، القرآن یصرّح بأن عظمة آدم تکمن فی هذه النقطة. و لکن التوراة تذهب إلی أن سبب خروج آدم من الجنّة و خطیئته الکبری هو اتجاهه نحو العلم و معرفة الصالح و الطالح! جاء فی الفصل الثانی من «سفر التکوین» من التوراة:

«و أخذ الرّبّ الإله آدم و وضعه فی جنّة عدن لیعلمها و یحفظها. و أوصی الرّب الإله آدم قائلا من جمیع شجر الجنّة تأکل آکلا. و أمّا شجرة معرفة الخیر و الشّرّ فلا تأکل منها.

لأنّک یوم تأکل منها موتا تموت».

و جاء فی الفصل الثالث من التوراة:

«و سمعا صوت الرّبّ الإله ماشیا فی الجنّة عند هبوب ریح النّهار. فاختبأ آدم و امرأته من وجه الرّبّ الإله فی وسط شجر الجنّة. فنادی الرّبّ الإله آدم و قال له أین أنت. فقال سمعت صوتک فی الجنّة فخشیت لأنّی عریان فاختبأت. فقال من أعلمک أنّک عریان. هل أکلت من الشّجرة الّتی أوصیتک أن لا تأکل منها. فقال آدم: المرأة الّتی جعلتها معی هی أعطتنی من الشّجرة فأکلت ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۱۶۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۷۰

و قال الرّبّ الإله هو ذا الإنسان قد صار کواحد منّا عارفا الخیر و الشّر، و الآن لعلّه یمدّ یده و یأخذ من شجرة الحیوة أیضا و یأکل و یحیا إلی الأبد. فأخرجه الرّبّ الإله من جنّة عدن لیعمل الأرض الّتی أخذ منها. فطرد الإنسان و أقام شرقیّ جنّة عدن الکروبیم و لهیب

سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحيوة»!! من هذه «الأسطورة التافهة»، التى تعرضها التوراة الحالية باعتبارها واقعا تاريخيا يتبين لنا رأى التوراة الحالية فى سبب خروج آدم من الجنّة، فهو على رأى هذه الأسطورة معرفة آدم بالخير و الشر، و ذنبه الأكبر هو الاتجاه نحو العلم و المعرفة!! و إن لم يمدّ آدم يده إلى «شجرة الخير و الشّر» لبقى جاهلا حتى بقبح التعرّى، و لما أخرج من الجنّة، بل كان فيها خالدا.

فيا عجبا، لم إذا حزن آدم على خروجه من الجنّة إذا كان خروجه قد اقترن باكتسابه العلم و المعرفة و بتمييزه بين الخير و الشر، إنها صفقة رابحة تلك التى حصل عليها آدم، فلما ذا ندم عليها؟! و يتضح من ذلك أنّ أسطورة التوراة تقع فى النقطة المقابلة للاتجاه القرآنى الذى يرى أن مكانة الإنسان و مقامه و سرّ خلقته تكمن فى «تعليمه الأسماء».

أضف إلى ما سبق أن هذه الأسطورة تتضمّن مفاهيم مشينة مخجلة بشأن اللّه سبحانه و بشأن المخلوقات، كل واحدة منها تثير الدهشة أكثر من غيرها، و هى عبارة عن:

۱- نسبة الكذب إلى اللّه، تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا (كما جاء فى الجملة ۱۷ من الاصحاح الثانى: أما شجرة معرفة الخير و الشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت)! ۲- نسبة البخل إلى اللّه سبحانه (كما جاء فى الجملة ۲۲ من الاصحاح الثالث:

و قال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير و الشر. و الآن لعله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۱

يمدّ يده و يأخذ من شجرة الحياة أيضا و يأكل و يحيا إلى الأبد)! ۳- إمكان وجود الشريك للّه تعالى (كما فى العبارة السابقة: قد صار كواحد منا).

۴- نسبة الحسد إلى اللّه (و يستفاد ذلك من العبارة السابقة أيضا).

۵- تجسيم اللّه سبحانه (... و سمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنّة عند هبوب ريح النهار)! ۶- نسبة الجهل إلى اللّه بالحوادث التى تقع قريبا منه (كما تقول هذه التوراة:

فاختبأ آدم و امرأته من وجه الربّ الإله فى وسط شجر الجنّة. فنادى الرب الإله آدم و قال له: أين أنت؟!) (و لا بدّ من التأكيد هنا أن هذه الخرافة لم تكن فى التوراة المنزلة، بل أضيفت فيما أضيف إلى التوراة).

۴- المقصود من الشّيطان فى القرآن

كلمة الشيطان من مادة «شطن» و «الشاطن» هو الخبيث و الوضيع. و الشيطان تطلق على الموجود المتمرد العاصى، إنسانا كان أو غير إنسان، و تعنى أيضا الروح الشريرة البعيدة عن الحق. و بين كل هذه المعانى قدر مشترك.

و الشّيطان اسم جنس عام، و إبليس اسم علم خاص، و بعبارة اخرى، الشيطان كل موجود مؤذ مغو طاغ متمرّد، إنسانا كان أم غير إنسان، و إبليس اسم الشيطان الذى أغوى آدم و يتربّص هو و جنده الدوائر بأبناء آدم دوما.

من مواضع استعمال هذه الكلمة فى القرآن يفهم أن كلمة الشيطان تطلق على الموجود المؤذى المضر المنحرف الذى يسعى إلى بث الفرقة و الفساد و الاختلاف. مثل قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۲

إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ ...[۲۲۰].

و فى استعمال فعل المضارع «يريد» دلالة على استمرار إرادة الشيطان على هذا النحو.

و الاستعمال القرآنى لكلمة شيطان يشمل حتى أفراد البشر المفسدين المعادين للدعوة الإلهية، كقوله تعالى:

وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ ۲۲۱].

کلمة الشیطان أطلقت علی إبلیس أیضا بسبب فساده و انحرافه.

و المیکروبات المضرّة تشملها کلمة الشیطان أیضا، کما

ورد عن علی أمیر المؤمنین علیه السّلام: «لا تشربوا الماء من ثلمة الإناء و لا من عروته، فإنّ الشّیطان یقعد علی العروة و الثّلمة»[۲۲۲].

و روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام: «و لا یشرب من أذن الکوز، و لا من کسره إن کان فیه، فإنّه مشرب الشّیاطین»[۲۲۳].

و عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «لا یطوّلنّ أحدکم شاربه فإنّ الشّیطان یتّخذه مخبئا یستتر به»[۲۲۴].

و من الواضح أننا لا نقصد أن معنی کلمة الشیطان هو المیکروب أینما وردت هذه الکلمة، بل نقصد أن الکلمة لها معان متعددة، أحد مصادیقها الواضحة «إبلیس» و جنده و أعوانه. و مصداقها الآخر أفراد البشر المفسدون المنحرفون.

و وردت فی مواضع اخری بمعنی المیکروبات المؤذیة (تأمل بدقّة)!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۳

۵- لماذا خلق الشیطان؟!

یثار أحیانا سؤال عن سبب خلق هذا الموجود المضل المغوی. و فی الجواب نقول:

أوّلا: لم یخلق اللّه الشیطان، شیطانا. و الدلیل علی ذلک وجوده بین ملائکة اللّه و علی الفطرة الطاهرة. لکنه بعد تحرره أساء التصرف، و عزم علی الطغیان و التمرّد.

إنه إذن خلق طاهرا، و سلک طریق الانحراف مختارا.

ثانیا: وجود الشیطان لا یسبب ضررا للأفراد المؤمنین، و لطلاب طریق الحق، فی منظار نظام الخلیقة. بل إنه وسیلة لتقدمهم و تکاملهم، إذ إن التطوّر و التقدّم یتم من خلال صراع الأضداد.

بعبارة أوضح: قوی الإنسان و طاقاته الکامنة لا تتأهب و لا تتفجر إلّا حینما یواجه الإنسان عدوا قویا. هذا العدو یؤدّی إلی تحریک طاقات الإنسان و بالتالی إلی تقدّمه و تکامله.

الفیلسوف المعاصر «توینبی» یقول: «لم تظهر فی العالم حضارة راقیة إلّا بعد تعرّض شعب من الشعوب إلی هجوم خارجی قوی. و هذا الهجوم یؤدی إلی تفجیر النبوغ و الکفاءات، لصنع مثل هذه الحضارة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۴

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشارة

فَتَلَقَّی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِماتٍ فَتابَ عَلَیْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۳۷) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِیعاً فَإِمَّا یَأْتِیَنَّکُمْ مِنِّی هُدیً فَمَنْ تَبِعَ هُدایَ فَلا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ (۳۸) وَ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا أُولئِکَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِیها خالِدُونَ (۳۹)

التّفسیر

عودة آدم عليه السّلام إلى اللّه

بعد حادثة وسوسة إبليس، و صدور الأمر الإلهى لآدم بالخروج من الجنّة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، و أنه أخرج من ذلك الجوّ الهادىء المنعّم على أثر إغواء الشيطان، ليعيش فى جوّ جديد ملىء بالتعب و النصب. و هنا أخذ آدم يفكر فى تلافى خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه و هو نادم أشدّ الندم.

و أدركته رحمة اللّه فى هذه اللحظات كما تقول الآية فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

«التوبة» فى اللغة بمعنى «العودة»، و هى فى التعبير القرآنى، بمعنى العودة عن الذنب، إن نسبت إلى المذنب. و إن نسبت كلمة التوبة إلى اللّه فتعنى عودته سبحانه إلى الرحمة التى كانت مسلوبة عن العبد المذنب. و لذلك فهو تعالى «توّاب» فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۵

التعبير القرآنى.

بعبارة اخرى «توبة» العبد عودته إلى اللّه، لأن الذنب فرار من اللّه و التوبة رجوع إليه. و توبة اللّه، إغداق رحمته على عبده الآئب ۲۲۵].

صحيح أن آدم لم يرتكب محرّما، و لكن ترك الأولى يعتبر معصية منه. و لذلك سرعان ما تداركه الموقف، و عاد إلى خالقه.

و سنتحدث فيما بعد عن المقصود ب «الكلمات» فى الآية.

على أىّ حال، لقد حدث ما لا ينبغى أن يحدث- أو ما ينبغى أن يحدث- و قبلت توبة آدم، لكن الأثر الوضعى للهبوط فى الأرض لم يتغير، كما يذكر القرآن: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً، فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

بحوث

۱- الكلمات التى تلقاها آدم

تعددت الآراء فى تفسير «الكلمات»، التى تلقاها آدم عليه السّلام من ربّه.

المعروف أنها الكلمات المذكورة فى الآية ۲۳ من سورة الأعراف: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و قال آخرون أن المقصود من الكلمات هذا الدعاء:

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك و بحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فاغفر لى إنّك خير الغافرين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۶

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك و بحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فارحمنى إنّك خير الرّاحمين».

«اللّهمّ لا إله إلّا أنت سبحانك و بحمدك، ربّ إنّى ظلمت نفسى، فتب علىّ إنّك أنت التّوّاب الرّحيم».

و هذا ما نقل فى رواية عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام ۲۲۶].

مثل هذه التعابير ذكرها القرآن على لسان يونس و موسى عليهما السّلام. يونس ناجى ربّه فقال: سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۲۲۷]. و موسى أيضا: قالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ۲۲۸].

و فی روایات وردت عن طرق أهل البیت علیهم السّلام أن المقصود من «الکلمات» أسماء أفضل مخلوقات اللّه و هم: محمّد و علیّ و فاطمة و الحسن و الحسین- علیهم أفضل الصلاة و السلام- و آدم توسل بهذه الکلمات لیطلب العفو من ربّ العالمین فعفا عنه.

هذه التفاسیر الثلاثة لا تتعارض مع بعضها، و لعلّ آدم تلقی من ربّه کل هذه الکلمات، کی یحدث فیه تغییر روحی تام بعد أن یعی حقیقة هذه الکلمات، و لیشمله بعد ذلک لطف اللّه و رحمته.

۲- سبب تکرار جملة «اهبطوا»

الأمر بالهبوط تکرر فی الآیتین: ۳۶ و ۳۸ من هذه السّورة، أی قبل توبة آدم و حواء و بعدها. للمفسرین رأیان فی سبب التکرار، بعضهم قالوا للتأکید، و آخرون قالوا إن موضوع الجملة الاولی یختلف عن موضوع الجملة الثانیة.

و الظاهر أن الجملة الثانیة توضح لآدم مسألة عدم انتفاء الأمر بالهبوط فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۷

الأرض بعد قبول التوبة، و عدم الانتفاء هذا یعود إمّا إلی أن آدم قد خلق منذ البدایة لهذا الهدف، أو لأن هذا الهبوط أثر وضعی لعمله. و هذا الأثر الوضعی لا یتغیر بالتوبة.

۳- من هم المخاطبون فی جملة «اهبطوا»؟

الضمیر فی «اهبطوا» للجمع، بینما عدد المخاطبین اثنان فقط، هما آدم و زوجه. و الجمع هنا ناظر إلی النتیجة التی تستتبع هبوط آدم و حواء فی الأرض.

فأبناؤهما و أجیال البشر بعد هما سیستقرون علی هذه المعمورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۸

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۴۰]

اشارة

یا بَنِی إِسْرائِیلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِی أَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِی أُوفِ بِعَهْدِکُمْ وَ إِیَّایَ فَارْهَبُونِ (۴۰)

التّفسیر

ذکر النّعم الإلهیة

مرّت بنا فی الآیات السابقة قصّة خلافة آدم فی الأرض، و موقف الملائکة منه، ثم نسیانه العهد الإلهی و هبوطه إلی الأرض، و بعد ذلک توبته.

و من أحداث قصّة آدم علیه السّلام، اتضح أن الساحة الکونیة تنطوی دوما علی قوتین: قوّة الحق و قوّة الباطل. و هاتان القوتان متقابلتان و متصارعتان، و من اتبع الشیطان فی هذا الصراع فقد اختار طریق الباطل، و مصیره الابتعاد عن الجنّة و السّعادة، و معاناة

المصائب و الآلام، و من ثمّ النـدم. و من التزم بأوامر اللّه و نواهيه و تغلب على وساوس الشـيطان و أتباعه، فقد سار على طريق الحق، و ابتعد عن نكد العيش و ضنكه و آلامه.

لمّا كانت قصّة بنى إسـرائيل ابتداء من تحررهم من السـيطرة الفرعونية و اسـتخلافهم فى الأرض، و مرورا بنسيان العهد الإلهى، و انتهاء بسقوطهم فى حضيض الانحراف و العذاب و المشقة، تشبه إلى حد كبير قصة آدم، بل هى فرع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۷۹

من ذلك الأصل العام، فإن اللّه سـبحانه فى آيـة بحثنا و عشـرات الآيات الاخرى التاليـة، بيّن مقاطع من حياة بنى إسـرائيل و مصـيرهم، لإكمال الدرس التربوى الذى بدأ بقصة آدم.

يوجه القرآن خطابه إلى بنى إسـرائيل و يقول: يا بَنِي إِسْـرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْـدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّايَ فَارْهَبُونِ

الأوامر الثلاثـة التى تـذكرها الآية الكريمة و هى: تذكّر النعم الإلهية، و الوفاء بالعهد، و الخوف من اللّه، تشـكل المنهج الإلهى الكامل للبشرية.

تذكّر النعم الإلهية يحفّز الإنسان للاتجاه نحو معرفة اللّه سبحانه و شكره.

و استشـعار العهد الإلهى الذى يسـتتبع النعم الإلهية يدفع الكائن البشرى إلى النهوض بمسؤولياته و واجباته. ثم الخوف من اللّه وحده- دون سواه- يمنح الإنسان العزم على تحدّى كل العقبات التى تقف بوجه تحقيق أهدافه و الالتزام بعهده. لأن التخوف الموهوم من هذا و ذاك أهم موانع الالتزام بالعهد الإلهى.

و ظاهرة الخوف كانت متغلغلة فى أعماق نفوس بنى إسرائيل نتيجة السيطرة الفرعونية الطّويلة عليهم.

بحوث

۱- اليهود فى المدينة

يحتل الحديث عن اليهود قسما هاما من سورة البقرة، التى هى أوّل سورة نزلت فى المدينة كما صرح بذلك بعض العلماء، لأنّ اليهود كانوا أشـهر مجموعة من أهل الكتاب فى المدينة، و كانوا قبل ظهور النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم ينتظرون رسولا بشّرت به كتبهم الدينيّة، كما أنهم كانوا يتمتعون بمكانة اقتصادية مرموقة، و لذلك كله كان لليهود نفوذ عميق فى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۰

و لمّـا ظهر الإسـلام، باعتبـاره الرسالـة التى تقف بوجه مصالحهم اللامشـروعة و انحرافاتهم و غطرسـتهم، فمضافا إلى عـدم إيمانهم به وقفوا بوجه الدعوة، و بدأوا يحوكون ضدها المؤامرات التى لا زالت مستمرة بعد أربعة عشر قرنا من البعثة النبوية المباركة.

الآيـة المـذكورة و آيات تالية أنحت باللائمة الشديدة على اليهود، و هزت عواطفهم بذكر مقاطع حساسة من تاريخهم، بحيث لو كان لأحدهم قليل من الموضوعية لاستيقظ و اتجه نحو الإسلام. كما إن هذا السرد لتاريخ اليهود درس ملىء بالعبر للمسلمين.

و سـنقف فى آيـات تاليـة بـإذن اللّه عنـد دروس من تاريـخ اليهود، مثل نجاتهم من فرعون، و انفلاق البحر لهم، و غرق الفرعونيين، و ميعاد موسى فى جبل الطور، و عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب موسى، و الأمر بالتوبة و قتل النفس، و نزول النعم الخاصة الإلهية، و أمثالها من الدروس.

۲- میثاق بنی إسرائیل:

میثاق بنی إسرائیل الإلهی یتکون من اثنی عشر بندا، عشر منها ذکرت فی آیتین متوالیتین من هذه السّورة.

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ، وَ بِالْوالِدَیْنِ إِحْساناً، وَ ذِی الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینِ، وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً، وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ، وَ آتُوا الزَّکاةَ ...

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ لا تَسْفِکُونَ دِماءَکُمْ، وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَکُمْ مِنْ دِیارِکُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۲۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۱

و بندان ذکرا فی الآیة الکریمة:

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّی مَعَکُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَیْتُمُ الزَّکاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِی، وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ ...[۲۳۰].

و هما: الإیمان بالأنبیاء و مؤازرتهم.

کان بنو إسرائیل قد وعدوا بالنعیم إن وفوا بعهودهم، وَ لَأُدْخِلَنَّکُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لکنهم نقضوا المیثاق، و لا یزالون حتی الیوم ینقضونه.

و کان نتیجة ذلک التشتیت و التشرید، و سیبقون کذلک ما داموا ناکثین. و إذا رأینا لهم یوما جولة و ضجیجا بفضل الدعم الاستکباری لهم، فإن هذه الجولة سرعان ما ستخبو إن شاء اللّه أمام صولة أبناء الإسلام ... و ها نحن نری فی الأفق بوادر الصحوة الإسلامیة التی تدفع بالشباب أن یتخلوا عن المدارس الفکریة المنحرفة و الاتجاهات القومیة و العنصریة الکافرة و یقضوا علی هذا الضجیج.

۳- وفاء اللّه بعهده

نعم اللّه تستتبعها دوما قیود و شروط، و إلی جانب کل نعمة، مسئولیة و شرط.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی قوله اللّه عزّ و جلّ: أَوْفُوا بِعَهْدِی قال: قال بولایة أمیر المؤمنین علیه السّلام «أوف بعهدکم أوف لکم بالجنّة»[۲۳۱].

و لا عجب إن ورد الإیمان بولایة علی علیه السّلام فی هذا الحدیث، باعتباره جزءا من العهد. لأن الإیمان بالأنبیاء و مؤازرتهم، من بنود العهد مع بنی إسرائیل، و یستتبع ذلک الإیمان بخلفاء الأنبیاء باعتبارهم امتدادا لمسألة القیادة و الولایة و هذه المسألة ینبغی تحققها بشکل یتناسب مع زمانها. موسی علیه السّلام فی زمانه کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۱۸۲

یتولی مسئولیة القیادة و الولایة، و الرّسول الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو الذی کان یتولی هذه المسؤولیة فی عصره، ثم تولّاها فی زمن تال علی بن أبی طالب علیه السّلام.

جملة إِیَّایَ فَارْهَبُونِ تأکید علی کسر کل حواجز الخوف القائمة فی طریق الوفاء بالعهد الإلهی، و علی الخوف من اللّه وحده دون سواه، و هذا الحصر یتضح من تقدیم ضمیر النصب المنفصل «إیّای» علی جملة «فارهبون».

۴- لماذا سمی الیهود «بنی إسرائیل»؟

«إسرائيل» أحد أسماء يعقوب والد يوسف، و فى سبب تسمية يعقوب بهذا الاسم، ذكر المؤرّخون غير المسلمين عللا ـ ممزوجة بالخرافة.

ورد فى «قاموس الكتاب المقدس»: «أن إسرائيل تعنى الشخص المنتصر على اللّه»!! و يقول: «و هذه الكلمة لقّب بها يعقوب بن إسحاق بعد أن صرع الملك الإلهى».

و يقول تحت عنوان «يعقوب»: إنه أثبت مقاومته و استقامته و إيمانه، و فى هذه الحالة غيّر اللّه اسمه إلى «إسرائيل»، و وعده أن يكون أبا لكل الطوائف ... ثم مات بعد أن هرم، و دفن كما يدفن السلاطين الدنيويون و أطلق اسم يعقوب و إسرائيل على جميع قومه».

و يقول تحت كلمة «إسرائيل»: «لهذا الاسم معان كثيرة، يقصد به أحيانا نسل إسرائيل و نسل يعقوب»[۲۳۲].

أمّا علماؤنا كالمفسر المعروف «الطبرسى رحمه اللّه» فيقول فى «مجمع البيان»: إن إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السّلام و إن «أسر» تعنى «العبد» و «ئيل»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۳

بمعنى اللّه، فيكون معنى إسرائيل عبد اللّه.

واضح أن ما تتحدث عنه التوراة من مصارعة بين يعقوب و الملك الإلهى، أو بين يعقوب و اللّه، خرافة و سخافة لا تتناسب إطلاقا مع الكتاب الإلهى، و هى أوضح دليل على تحريف التوراة الموجودة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۱ الى ۴۳]

اشاره

وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ (۴۱) وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۲) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسرين العظام رواية عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: فى سبب نزول هذه الآية قال: «كان حىّ بن أخطب و كعب بن أشرف و آخرون من اليهود، لهم مأكلة على اليهود فى كلّ سنة، فكرهوا بطلانها بأمر النّبىّ صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فحرّفوا لذلك آيات من التّوراة فيها صفته و ذكره فذلك الثّمن الّذى أريد فى الآية»[۲۳۳].

التّفسير

جشع اليهود

الآيات المذكورة أعلاه تتطرق إلى تسعة من بنود العهد الذى أخذه اللّه على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۵

بنى إسرائيل.

يقول تعالى: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ فالقرآن مصدق لما مع اليهود من كتاب، أى أن البشائر التى زفتها التوراة و الكتب السماوية الاخرى بشأن النّبى الخاتم، و الأوصاف التى ذكرتها لهذا النّبى و الكتاب السماوى تنطبق على محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و على القرآن المنزل عليه، فلما ذا لا تؤمنون به؟! ثمّ يقول سبحانه: وَ لا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ أى- لا عجب أن يكون المشركون و الوثنيون فى مكة- كفّارا بالرسالة، بل العجب فى كفركم، بل فى كونكم روّادا للكفر، و سباقين للمعارضة. لأنكم أهل الكتاب، و كتابكم يحمل بشائر ظهور هذا النّبى، و كنتم لذلك تترقبون ظهوره. فما عدى ممّا بدا؟ و لماذا كنتم أول كافر به؟!.

إنه تعنتهم الذى لولاه لكانوا أول المؤمنين برسالة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

المقطع الثالث من الآية يقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا.

آيات اللّه، لا ينبغى- دون شك- معاوضتها، بأى ثمن، قليلا كان أم كثيرا.

و فى تعبير هذه الآية إشارة إلى دناءة هذه المجموعة من اليهود، التى تنسى كل التزاماتها من أجل مصالحها التافهة. هذه الفئة، التى كانت قبل البعثة من المبشرين بظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و بكتابه السماوى، أنكرت بشارات التوراة و حرفتها، حين رأت مصالحها معرضة للخطر، و علمت أن مكانتها الاجتماعية معرضة للإنهيار عند انكشاف الحقيقة للناس.

فى الواقع، لو أعطيت الدنيا بأجمعها لشخص ثمنا لإنكار آية واحدة من آيات اللّه، لكان ثمنا قليلا، لأنّ هذه الحياة فانية، و الحياة الاخرى هى دار البقاء و الخلود. فما بالك بإنسان يفرّط بهذه الآيات الإلهية فى سبيل مصالحه التافهة؟! فى المقطع الرابع تقول الآية: وَ إِيَّايَ فَاتَّقُونِ و الخطاب موجّه إلى زعماء اليهود الذين يخشون أن ينقطع رزقهم، و أن يثور المتعصبون اليهود ضدّهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۶

و تطلب منهم أن يخشوا اللّه وحده، أى أن يخشوا عصيان أوامره سبحانه.

فى البند الخامس من هذه الأوامر ينهى اللّه سبحانه عن خلط الحق بالباطل وَ لا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ

و فى البند السادس ينهى عن كتمان الحق: ... وَ تَكْتُمُوا الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

كتمان الحق، مثل خلط الحق بالباطل ذنب و جريمة، و الآية تقول لهم: قولوا الحق و لو على أنفسكم، و لا- تشوهوا وجه الحقيقة بخلطها بالباطل و إن تعرضت مصالحكم الآنية للخط.

البند السابع و الثامن و التاسع من هذه الأوامر يبينه قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

البند الأخير يأمر بالصلاة جماعة، غير أن «الركوع» هو الذى ذكر دون غيره من أجزاء الصلاة، و لعل ذلك يعود إلى أنّ صلاة اليهود كانت خالية من الركوع، تماما، بينما احتل الركوع مكان الرّكن الأساسى فى صلاة المسلمين.

و من الملفت للنظر أنّ الآية لم تقل «أدّوا الصلاة»، بل قالت: أَقِيمُوا الصَّلاةَ، و هذا الحث يحمّل الفرد مسئولية خلق المجتمع المصلى، و مسئولية جذب الآخرين نحو الصلاة.

بعض المفسرين قال إن تعبير «أقيموا» إشارة إلى إقامة الصلاة كاملة، و عدم الاكتفاء بالاذكار و الأوراد، و أهم أركان كمال الصلاة حضور القلب و الفكر لدى اللّه سبحانه، و تأثير الصلاة على المحتوى الداخلى للإنسان ۲۳۴].

هذه الأوامر الأخيرة تتضمن فى الحقيقة: أولا بيان ارتباط الفرد بخالقه (الصلاة)، ثمّ ارتباطه بالمخلوق (الزكاة)، و بعد ذلك ارتباط المجموعة البشرية مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۷

بعضها على طريق اللّه!

بحث

هل يؤيّد القرآن ما جاء فى التّوراة و الإنجيل؟!

فى مواضع عديدة يصرّح القرآن بتصديقه لما جاء فى الكتب الإلهية السابقة، كما جاء فى الآية المذكورة: مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ و كما جاء فى الآيتين ۸۹ و ۱۰۱ من سورة البقرة: مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ و فى الآية ۴۸ من سورة المائدة: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ

بعض دعاة اليهودية و النصرانية. استدلوا بهذه الآيات لإثبات عدم تحريف التوراة و الإنجيل. و قالوا: إن التوراة و الإنجيل فى عصر نبى الإسلام لا يختلفان حتما عمّا عليه الآن. و إن أصابهما تحريف فهذا التحريف يعود إلى فترة سابقة على ذلك العصر. و لما كان القرآن قد أيّد صحة التوراة و الإنجيل الموجودين فى عصر نبى الإسلام، فعلى المسلمين أن يعترفوا بصحة هذين الكتابين الموجودين بين ظهرانينا اليوم.

الجواب

يؤكد القرآن فى مواضع عديدة وجود علائم نبى الإسلام و دينه فى تلك الكتب المحرفة التى كانت موجودة فى أيدى اليهود و النصارى آنذاك. و هذا يعنى وجود حقائق فى تلك الكتب لم تمتد إليها يد التحريف، ذلك لأنّ التحريف لا ـ يعنى تغيير كل نصوص تلك الكتب السماويّة، بل إن تلك الكتب كانت تحمل بين طياتها حقائق، و من تلك الحقائق علامات النّبى الخاتم (و لا زالت بعض هذه البشائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۸

مشهودة فى الكتب الموجودة الآن).

بعثة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و كتابه السماوى تصديق لما جاء فى تلك الكتب من علامات، أى تحقيق عملى لتلك العلامات. و كلمة التصديق بمعنى (التحقيق العملى) وردت فى مواضع اخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى لنبيّه إبراهيم عليه السّلام:

قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا[۲۳۵].

أى أنك قد حققت عمليا رؤياك.

و تصرح الآية ۱۵۷ من سورة الأعراف بأن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم تحقيق عملى لما يجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ...[۲۳۶].

على أى حال، ليس فى الآيات المذكورة دلالة على تصديق جميع محتويات التوراة و الإنجيل، بل دلالتها تقتصر على «التصديق العملى» لما جاء فى الكتب الموجودة بيد اليهود و النصارى بشأن النّبى الخاتم و كتابه. هذا، إلى جانب وجود آيات عديدة فى القرآن تتحدث عن تحريف اليهود و النصارى لآيات التوراة و الإنجيل، و هو شاهد حىّ صريح على مسألة التحريف.

شاهد حىّ آخر:

«فخر الإسلام»- الذى كان من كبار قساوسة المسيحيين، و تتلمذ عند علمائهم حتى حاز مراتب كبيرة فى الدراسات الكنيسية- يتحدث فى مقدمة كتابه «أنيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية إلى الإسلام فيقول:

«... بعد بحث طويل و عناء كبير و تجوال فى المدن، عثرت على قسيس كبير متميز فى زهده و تقواه، كان يرجع إليه الكاتوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۸۹

زمنا مذاهب النصارى، و كان له طلاب كثيرون، و لكنه كان ينظر إلىّ من بينهم نظرة خاصة، و كانت كل مفاتيح البيت بيدى، إلّا مفتاحا واحدا لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده ....

و فى يوم اعتلّت صحة القسيس، فقال لى: قل للطلاب إنى لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين فى نقاش حول معنى «فارقليطا» فى السريانية، و «پريكلتوس» فى اليونانية ... و استمر بينهم النقاش، و كل كان يدلى برأيه ....

بعد أن عدت إلى الأستاذ سألنى عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لى: و ما رأيك؟

قلت: اخترت الرأى الفلانى.

قال القسيس: ما قصّرت فى عملك، و لكن الحقّ غير ذلك. لأن حقيقة هذا الأمر لا يعلمها إلّا الراسخون فى العلم، و قليل ما هم، أكثرت فى الإلحاح عليه أن يوضح لى معنى الكلمة، فبكى بكاء مرّا و قال: لم أخف عليك شيئا ... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثرا كبيرا، و لكنه إن انتشر فستتعرض للقتل! فإن عاهدتنى أن لا تفشيه فسأخبرك ... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لأحد، فقال: إنه اسم من أسماء نبى المسلمين، و يعنى «أحمد» و «محمّد».

ثم أعطانى مفتاح الغرفة و قال: افتح الصندوق الفلانى، و هات الكتابين اللذين فيه، جئت إليه بالكتابين و كانا مكتوبين باليونانية و السريانية على جلد، و يعودان إلى عصر ما قبل الإسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد و محمّد، ثم أضاف الأستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد و محمّد»، و لكن بعد ظهور محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، غيّروا هذا المعنى حفظا لمكانتهم و رئاستهم و أوّلوه، و اخترعوا له معنى آخر لم يكن على الإطلاق هدف صاحب الإنجيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۰

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجىء الإسلام، و كرر ذلك ثلاثا، ثم قلت:

ما هى طريقة النجاة و الصراط المستقيم فى زماننا هذا؟ قال: إنما هى باتباع محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

قلت: و هل التابعون له ناجون؟

قال: إى و اللّه، و كرر ذلك ثلاثا.

ثم بكى الأستاذ و بكيت كثيرا ثم قال: إذا أردت الآخرة و النجاة فعليك بدين الحق ... و أنا أدعو لك دائما، شرط أن تكون شاهدا لى يوم القيامة أنّى كنت فى الباطن مسلما، و من أتباع محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ... و ما من شك أن الإسلام هو دين اللّه اليوم على ظهر الأرض»[۲۳۷].

و كما يلاحظ فإن هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من تحريف لتفسير اسم النّبى و علاماته، تحقيقا لمصالحهم الشخصية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۱

الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۴ الى ۴۶]

اشارة

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۴۴) وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخاشِعِينَ (۴۵) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ (۴۶)

التّفسير

أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ! هذا السّؤال الاستنكارى- و إن كان موجها إلى بنى إسرائيل كما يتبين من سياق الآيات السابقة و التالية- له حتما مفهوم واسع يشمل الآخرين أيضا.

قال «الطّبرسى رحمه اللّه» فى «مجمع البيان»: هذه الآية خطاب لعلماء اليهود.

وبّخهم اللّه تعالى على ما كانوا يفعلون من أمر النّاس بالإيمان بمحمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و ترك أنفسهم فى ذلك.

و قال أيضا: كان علماء اليهود يقولون لأقربائهم من المسلمين اثبتوا على ما أنتم عليه و لا يؤمنون هم.

لذلك كانت الآية الأولى من الآيات التى يدور حولها بحثنا تحمل توبيخا لهذا العمل: أ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ، وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ، أ فَلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۲

تَعْقِلُونَ ! منهج الدعاة إلى اللّه يقول على أساس العمل أوّلا ثم القول. فالدّاعية إلى اللّه يبلّغ بعمله قبل قوله، كما

جاء فى الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: كونوا دعاة الناس بأعمالكم و لا تكونوا دعاة بألسنتكم ۲۳۸].

التأثير العميق للدعوة العملية يأتى من قدرة مثل هذه الدعوة على فتح منافذ قلب السامع، فالسامع يثق بما يقوله الداعية العامل، و يرى أن هذا الداعية مؤمن بما يقول و أن ما يقوله صادر عن القلب. و الكلام الصادر عن القلب ينفذ إلى القلب.

و أفضل دليل على إيمان القائل بما يقوله، هو العمل بقوله قبل غيره، كما

يقول على عليه السّلام: «أيّها النّاس إنّى و اللّه ما أحثّكم على طاعة إلّا و أسبقكم إليها، و لا أنهاكم عن معصية إلّا و أتناهى قبلكم عنها»[۲۳۹].

و فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «من أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة من وصف عدلا و عمل بغيره»[۲۴۰].

علماء اليهود كانوا يخشون من انهيار مراكز قدرتهم و تفرّق عامة النّاس عنهم، إن اعترفوا برسالة خاتم الأنبياء صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و لذلك حرّفوا ما ورد بشأن صفات نبى الإسلام فى التوراة.

و القرآن يحث على الاستعانة بالصبر و الصّلاة للتغلب على الأهواء الشخصية و الميول النفسية، فيقول فى الآية التالية: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ ثم يؤكد أن هذه الاستعانة ثقيلة لا ينهض بعبئها إلا الخاشعون: وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ

و فى الآية الأخيرة من هذه المجموعة وصف للخاشعين: الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۳

كلمة «يظنّون» من مادة «ظنّ» و قد تأتى بمعنى اليقين ۲۴۱]. و فى هذا الموضع تعنى الإيمان و اليقين القطعى. لأن الإيمان بلقاء اللّه و الرجوع إليه، يحيى فى قلب الإنسان حالة الخشوع و الخشية و الإحساس بالمسؤولية، و هذا أحد آثار تربية الإنسان على الإيمان بالمعاد، حيث تجعل هذه التربية الفرد مائلا دوما أمام مشهد المحكمة الكبرى، و تدفعه إلى النهوض بالمسؤولية و إلى الحق و العدل.

و يحتمل أن يكون استعمال «الظن» فى الآية للتأكيد، أى أن الإنسان لو ظنّ بالآخرة فقط، فظنه كاف لأن يصده عن ارتكاب أى ذنب.

و هو تقريع لعلماء اليهود و تأكيد على أنهم لا يمتلكون إيمانا باليوم الآخر حتى على مستوى الظن، فلو ظنوا بالآخرة لأحسّوا بالمسؤولية، و كفّوا عن هذه التحريفات![۲۴۲]

بحثان

۱- ما هو لقاء اللّه؟

عبارة «لقاء اللّه» وردت مرارا فى القرآن الكريم، و تعنى بأجمعها الحضور على مسرح القيامة. من البديهى أن المقصود بلقاء اللّه ليس هو اللقاء الحسّى، كلقاء أفراد البشر مع بعضهم، لأن اللّه ليس بجسم، و لا يحده مكان، و لا يرى بالعين. بل المقصود مشاهدة آثار قدرة اللّه و جزاءه و عقابه و نعمه و عذابه على ساحة القيامة، كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين.

أو إن المقصود الشهود الباطنى و القلبى، لأن الإنسان يصل درجة كأنه يرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۴

اللّه ببصيرته أمامه، بحيث لا يبقى فى نفسه أى شك و ترديد.

هذه الحالة قد تحصل للأفراد نتيجة الطّهر و التقوى و العبادة و تهذيب النفس فى هذه الدنيا. و

فى «نهج البلاغة» نقرأ: أن «ذعلب اليمانى» و هو من فضلاء أصحاب الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، سأل عليا هل رأيت ربّك؟

أجابه على: أ فأعبد ما لا أرى؟! و حين طلب ذعلب مزيدا من التوضيح قال الإمام:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، و لكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۲۴۳].

هذا الشهود الباطنى ينجلى للجميع يوم القيامة، و لا يبقى أحد إلّا و قد آمن إيمانا قاطعا، لوضوح آثار عظمة اللّه و قدرته فى ذلك اليوم.

۲- سبيل التغلب على الصعاب

ثمة منطلقان أساسيان للتغلب على الصعاب و المشاكل، أحد هما داخلى، و الآخر خارجى.

أشارت الآية إلى هذين المنطلقين بعبارة «الصبر» و «الصلاة». فالصبر هو حالة الصمود و الاستقامة و الثبات فى مواجهة المشاكل، و الصلاة هى وسيلة الارتباط باللّه حيث السند القوىّ المكين.

كلمة «الصبر» فسرت فى روايات كثيرة بالصوم، لكنها لا تنحصر حتما. بل الصوم أحد المصاديق الواضحة البارزة للصبر. لأن الإنسان يحصل فى ظل هذه العبادة الكبرى على الإرادة القوية و الإيمان الراسخ و القدرة على التحكم فى الميول و الرغبات.

روى بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية: أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان إذا أحزنه أمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۵

استعان بالصلاة و الصوم ۲۴۴].

و عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام أنه قال: «ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمّ من غموم الدّنيا أن يتوضّا ثمّ يدخل المسجد فيركع ركعتين يدعو اللّه فيهما، أما سمعت اللّه تعالى يقول: و استعينوا بالصّبر و الصّلاة»[۲۴۵].

التوجه إلى الصلاة و التضرّع إلى اللّه سبحانه يمنح الإنسان طاقة جديدة تجعله قادرا على مواجهة المشاكل.

و فى كتاب «الكافى» عن الصادق عليه السّلام: «كان علىّ عليه السّلام إذا هاله أمر فزع إلى الصّلاة ثمّ تلا هذه الآية: و استعينوا بالصّبر و الصّلاة».

نعم، الصلاة تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التى لا ـ يقهرها شىء. و هذا الإحساس يبعث فى الإنسان قوّة و شهامة على تحدّى المشاكل و الصعاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۴۷ الى ۴۸]

اشارة

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۴۷) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۸)

التّفسير

أوهام اليهود

فى هذه الآيات خطاب آخر إلى بنى إسرائيل فيه تذكير بنعم اللّه: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

هذه النعم سابغة واسعة النطاق، ابتداء من الهداية و الإيمان، و انتهاء بالنجاة من فرعون و نيل العظمة و الاستقلال.

ثم تشير الآية من بين كل هذه النعم إلى نعمة التفضيل على بقية البشر، و هى نعمة مركبة من نعم مختلفة، و تقول: وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

لعل البعض تصور أن هذا التفضيل صفة أبدية مستمرة على مرّ العصور. لكن دراسة سائر آيات القرآن تبين أن هذا التفضيل هو تفضيل بنى إسرائيل على غيرهم من أفراد عصرهم و منطقتهم، لا تفضيلا مطلقا. فالقرآن الكريم يخاطب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۷

المسلمين فى آية اخرى و يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۲۴۶].

كما يتحدث القرآن عن وراثة بنى إسرائيل للأرض فيقول: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۲۴۷].

و واضح أن هذه الوراثة لم تكن تشمل آنذاك جميع العالم، و المقصود من الآية مشارق المنطقة التى كانوا يعيشون فيها و مغاربها، من هنا فالتفضيل على العالمين هو تفضيلهم على أفراد منطقتهم.

الآية التالية ترفض أوهام اليهود، التى كانوا يتصورون بموجبها أن الأنبياء من أسلافها سوف يشفعون لهم، أو أنّهم قادرون على دفع فدية و بدل عن ذنوبهم، كدفعهم الرشوة فى هذه الحياة الدنيا.

القرآن يخاطبهم و يقول: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً. وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ. وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

الحاكم أو القاضى فى تلك المحكمة الإلهية، لا يقبل سوى العمل الصالح، كما تقول الآية الكريمة: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۲۴۸].

إنّ الآية المذكورة من سورة البقرة، تشير فى الواقع إلى ما يجرى من محاولات فى هذه الحياة الدنيا لانقاذ المذنب من العقاب.

ففى الحياة الدنيا قد يتقدم إنسان لدفع غرامة عن إنسان مذنب لانقاذه من العقاب، أما فى الآخرة فإنّه: لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ

و ربّما يلجأ المذنب فى هذه الحياة إلى الشفعاء لينقذوه ممّا ينتظره من الجزاء، و يوم القيامة ... لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ.

و إذا لم توجد الشفاعة، يتقدم الإنسان فى الحياة الدنيا بدفع (العدل) و هو بدل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۸

الشیء من جنسه، أما فی الآخرة ف لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ

و إذا لم تنفع الوسائل المذکورة کلها، یستصرخ أصحابه لینصروه و یخلصوه من الجزاء، و فی الآخرة لا یقوم بنجاتهم أحد وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ

القرآن الکریم یؤکد أن الأصول الحاکمة علی قوانین الجزاء یوم القیامة تختلف کلیّا عمّا هو السائد فی هذه الحیاة، فالسبیل الوحید للنجاة یوم القیامة، هو الإیمان و التقوی و الاستعانة بلطف البارئ تعالی.

تاریخ الشرک و تاریخ المنحرفین من أهل الکتاب، ملیء بأفکار خرافیة تدور حول محور التوسل و بمثل الأمور التی ذکرتها الآیة الکریمة للفرار من العقاب الاخروی. صاحب المنار یذکر مثلا، أن النّاس فی بعض مناطق مصر- کانوا یدفعون مبلغا من المال إلی الذی یتعهد غسل المیت، و یسمون هذا المبلغ أجرة الانتقال إلی الجنّة[۲۴۹].

و فی تاریخ الیهود نقرأ أنهم کانوا یقدمون القرابین للتکفیر عن ذنوبهم، و إن لم یجدوا قربانا کبیرا یکتفون بتقدیم زوج من الحمام.[۲۵۰] و فی التاریخ القدیم کانت بعض الأقوام تدفن مع المیت حلیّة و أسلحته، لیستفید منها فی الحیاة الاخری ۲۵۱].

القرآن و مسألة الشّفاعة

اشارة

العقاب الإلهی فی هذه الحیاة الدنیا و فی الآخرة، لا ینزل بساحة الإنسان دون شک من أجل الانتقام. بل إن العقوبات الإلهیة تشکل عنصر الضمان فی تنفیذ القوانین، و تؤدی فی النتیجة إلی تقدم الإنسان و تکامله. من هنا یجب الاحتراز عن أی شیء یضعف من قوّة عنصر الضمان هذا، کی لا تنتشر بین النّاس الجرأة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۱۹۹

علی ارتکاب المعاصی و الذنوب.

من جهة اخری، لا یجوز غلق باب العودة و الإصلاح بشکل کامل فی وجه المذنبین، بل یجب فسح المجال لإصلاح أنفسهم و للعودة إلی اللّه و إلی الطهر و التقوی.

«الشفاعة» بمعناها الصحیح تستهدف حفظ هذا التعادل، إنها وسیلة لعودة المذنبین و الملوثین بالخطایا، و بمعناها الخاطئ تشجع علی ارتکاب الذنوب.

أولئک الذین لم یفرقوا بین المعنی الصحیح و الخاطئ لمسألة الشفاعة، أنکروا هذه المسألة بشکل کامل، و اعتبروها شبیهة بالوساطات التی تقدم إلی السلاطین و الحکام الظالمین.

و ثمة مجموعة کالوهابیین استندوا إلی الآیة الکریمة: لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ فأنکروا الشفاعة تماما، دون الالتفات إلی سائر الآیات فی هذا المجال.

اعتراضات المنکرین لمسألة الشفاعة یمکن تلخیصها بما یلی:

۱- الاعتقاد بالشفاعة، یضعف روح السعی و المثابرة فی نفس الإنسان.

۲- الاعتقاد بالشفاعة، انعکاس عن ظروف المجتمعات المتأخرة و الإقطاعیة.

۳- الاعتقاد بالشفاعة، یؤدی إلی التشجیع علی ارتکاب الذنوب و ترک المسؤولیات.

۴- الاعتقاد بالشفاعة، نوع من الشرک باللّه، و هو معارض للقرآن! ۵- الاعتقاد بالشفاعة، یعنی تغییر أحکام اللّه و تغییر إرادته و

أوامره! و لکن کل هذه الاعتراضات ناتجة- کما سنری- عن الخلط بین الشفاعة بمفهومها القرآنی، و الشفاعة بمعناها المنحرف الرائج بین الجهلة من النّاس.

و لمّا کانت هـذه المسألة فی جانبها الإیجابی و السلبی ذات أهمیة بالغة، فعلینا أن ندرسـها بالتفصـیل من حیث مفهومها و فلسـفتها، و ارتباطها بعالم التکوین،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۰

و موقعهـا فی القرآن و الحـدیث، وصـلته بالتوحیـد و الشـرک، کی یزول کـل إبهـام یرتبـط بالآیـة المـذکورة و سائر الآیات فی حقل الشفاعة.

۱- المفهوم الحقیقی للشّفاعة:

کلمة «الشفاعة» من «الشفع» بمعنی «الزوج» و «ضم الشیء إلی مثله»، یقابلها «الوتر» بمعنی «الفرد». ثم أطلقت علی انضمام الفرد الأقوی و الأشرف إلی الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعیف، و لها فی العرف و الشرع معنیان متباینان کل التباین:

أ: إن الشـفاعة لدی السواد تعنی أن الشـفیع یسـتفید من مکانته و شخصیته و نفوذه، لتغییر رأی صاحب قدرة بشأن معاقبة من هم تحت سیطرته.

و الشـفیع قـد یرعب صاحب القـدرة هـذا، أو قـد یسـتعطفه، أو قـد یغیر أفکاره بشأن ذنب المجرم و اسـتحقاقه للعقاب ... و أمثال هذه الأسالیب.

الشـفاعة بهـذا المعنی هی- بعبـارة مـوجزة- لاـ تعنی حـدوث أی تغییر فی المحتوی النفسـی و الفکری للمجرم أو المتهم. بـل إن کل التغییرات و التحولات تتوجه نحو الشخص الذی تقدم إلیه الشفاعة (تأمل بدقة).

هذا اللون من الشـفاعة لیست له مکانة فی المفهوم الدینی علی الإطلاق. لأن اللّه سبحانه و تعالی لا یخطأ حتی یتوسط الشفیع فی تغییر رأیه، و لاـ یحمل تلک العواطف الموجودة فی نفس الإنسان کی یمکن إثارة عواطفه، و لا یهاب نفوذ شـخص کی ینصاع لأوامره، و لا یدور ثوابه و عقابه حول محور غیر محور العدالة.

ب: المفهوم الآخر للشفاعة یقوم علی أساس تغییر موقف «المشفوع له».

أی أن الشـخص المشـفوع له یوفّر فی نفسه الظروف و الشـروط التی تؤهّله للخروج من وضـعه السیء الموجب للعقاب، و ینتقل- عن طریق الشفیع إلی وضع مطلوب حسن یستحق معه العفو و السماح. و الإیمان بهذا النوع من الشفاعة- کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۰۱

سنری- یربّی الإنسان، و یصلح الأفراد المذنبین، و یبعث فیهم الصحوة و الیقظة.

و الشفاعة فی الإسلام لها هذا المفهوم السامی.

و سـنری أن کـل الاعتراضـات و الانتقـادات و الحملاـت التی توجه إلی مسألـة الشـفاعة، إنمـا تنطلق من فهم الشـفاعة بالمعنی الأوّلی المنحرف، و لا تلتفت إلی المعنی الثانی المنطقی المعقول البنّاء.

هذا تفسیر مقتضب للونین من ألوان الشفاعة: أحد هما «تخدیری»، و الآخر «بنّاء».

۲- الشّفاعة فی عالم التکوین

التّفسـیر الصـحیح و المنطقی للشفاعة- بالمفهوم الذی مرّ بنا- له مصادیق کثیرة فی عالم التکوین و الخلقة، (إضافة إلی عالم التشریع). الطاقات الأقوی فی هذا العالم تنضم إلی الأضعف منها لتسیّرها نحو أهداف بنّاءة.

الشمس تشرق و الأمطار تتساقط، لتفجّر القوّة الكامنة فى البذرة لتحركها نحو الإنبات، و نحو شقّ جسم التربة و الخروج إلى الفضاء الذى استمدت البذرة منه طاقات النموّ و التكامل.

هذه الظواهر هى فى الحقيقة شفاعة تكوينية على صعيد قيامة الحياة الدنيا.

و لو انطلقنا من هذه النماذج الكونية فى الشفاعة لفهم الشفاعة على صعيد التشريع، لابتعدنا عن الانحراف، و سنوضح ذلك قريبا.

۳- مستندات الشفاعة:

القرآن الكريم تحدث فى ثلاثين موضعا عن مسألة «الشفاعة» (بهذا اللفظ)،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۲

و هناك إشارات اخرى إلى هذه المسألة دون ذكر لفظها.

يمكن تقسيم آيات الشفاعة فى القرآن إلى المجموعات التالية.

المجموعة الاولى: ايات ترفض الشفاعة بشكل مطلق كقوله تعالى: أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ[۲۵۲]، و كقوله تعالى:

وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ[۲۵۳].

هذه الآيات رفضت كل الطرق المتصورة لانقاذ المجرمين غير الإيمان و العمل الصالح، سواء كان طريق دفع العوض المادى، أو طريق الصداقة و الخلة، أو طريق الشفاعة.

و يقول تعالى بشأن بعض المجرمين: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ ۲۵۴].

المجموعة الثانية: آيات تحصر الشفاعة باللّه تعالى، كقوله سبحانه: ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ ۲۵۵] و قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً[۲۵۶].

المجموعة الثالثة: آيات تجعل الشفاعة متوقفة على إذن اللّه تعالى كقوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۲۵۷]، و قوله وَ لا- تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۲۵۸].

المجموعة الرابعة: آيات تبين شروطا خاصة للمشفوع له. هذه الشروط تتمثل أحيانا فى رضا للّه سبحانه: وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى ۲۵۹].

و استنادا إلى هذه الآية، شفاعة الشفعاء تشمل فقط أولئك الذين بلغوا مرتبة «الارتضاء» أى القبول لدى اللّه سبحانه و تعالى.

و يتمثل الشرط أحيانا بالعهد عند اللّه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۳

لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً[۲۶۰]، و المقصود من هذا العهد الإيمان باللّه و رسوله.

و يتحدث القرآن عن سلب صلاحية الاستشفاع عن بعض الأفراد مثل المجرمين، كقوله تعالى: ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ ۲۶۱].

ممّا تقدم يتضح أن اتخاذ العهد الإلهى، و الوصول إلى منزلة نيل رضا اللّه، و اجتناب بعض الذنوب مثل الظلم، شروط حتمية للشفاعة.

۴- الشّروط المختلفة للشفاعة:

آيات الشفاعة تصرح أن مسألة الشفاعة فى مفهوم الإسلام مقيدة بشروط، هذه الشروط تحدد تارة الخطيئة التى يستشفع المذنب لها، و تحدّد تارة اخرى الشخص المشفوع له، كما تقيد من جهة اخرى الشفيع، و هذه الشروط بمجموعها تكشف عن المفهوم الحقيقى

للشفاعة و عن فلسفتها.

ثمة ذنوب کالظلم مثلا خارجة عن دائرة الشفاعة حیث یقول القرآن ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ کما مرّ، و لو فهمنا «الظلم» بمعناه الواسع- کما سنری من خلال الأحادیث- فان الشفاعة تقتصر حینئذ علی المجرمین النادمین السائرین علی طریق إصلاح أنفهسم، و الشفاعة فی هذه الحالة ستکون دعامة للتوبة و للندم (سنجیب أولئک الذین یتصورون أن التائب النادم لا یحتاج إلی الشفاعة).

کما أن الشفاعة- و طبقا للآیة ۲۸ من سورة الأنبیاء- لا تشمل إلّا أولئک المرتقین إلی درجة «الارتضاء» و إلی درجة الالتزام بالعهد الإلهی کما مرّ أیضا فی الآیة ۸۷ من سورة مریم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۴

الارتضاء، و اتخاذ العهد، یعنیان علی المستوی اللغوی و کذلک ما ورد من الروایات فی تفسیر هذه الآیات الإیمان باللّه و الحساب و المیزان و الثواب و العقاب، و الاعتراف بالحسنات و السیئات، و بما أنزل اللّه، إیمانا عمیقا فی الفکر، ظاهرا فی العمل ... إیمانا یبعد صاحبه عن صفات الظالمین الذین لا یؤمنون بأیة قیمة إنسانیة، و یدفعه إلی إعادة النظر فی منهج حیاته.

یقول تعالی: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً[۲۶۲]، هذه الآیة تجعل الاستغفار مقدمة لشفاعة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

و یقول: قالُوا یا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا کُنَّا خاطِئِینَ، قالَ: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ رَبِّی إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ ۲۶۳]، آثار الندم واضحة علی إخوة یوسف فی طلبهم من أبیهم.

و یقول سبحانه: وَ یَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِینَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِیمِ ۲۶۴] فاستغفار الملائکة و شفاعتهم تقتصر علی الأفراد المؤمنین السالکین سبیل اللّه.

و هنا یطرح أیضا سؤال بشأن جدوی الشفاعة للأفراد المؤمنین السالکین سبیل اللّه، و سنجیب علی ذلک فی دراسة حقیقة الشفاعة.

و بشأن الشفعاء ذکر القرآن لهم شرطا فی قوله تعالی: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ ۲۶۵]. من هنا فالمشفوع له أیضا ینبغی أن یسلک طریق الحق فی القول و العمل، کی یکون له ارتباط بالشفیع، و هذا الارتباط الضروری بین الشفیع و المشفوع له یعتبر بدوره عاملا بنّاء فی تعبئة الطاقات علی طریق الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۵

۵- الشّفاعة فی الحدیث:

فی الروایات الإسلامیة تعابیر کثیرة تکمل محتوی الآیات المذکورة و توضّح ما خفی منها، من ذلک:

۱-

فی تفسیر «البرهان» عن الإمام موسی بن جعفر الکاظم علیه السّلام عن علی بن أبی طالب علیه السّلام قال: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یقول: «شفاعتی لأهل الکبائر من أمّتی ...» راوی الحدیث ابن أبی عمیر یقول: فقلت له: یا بن رسول اللّه کیف تکون الشّفاعة لأهل الکبائر و اللّه یقول وَ لا یَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضی و من یرتکب الکبائر لا یکون مرتضی به؟ فقال: یا أبا أحمد ما من مؤمن یرتکب ذنبا إلّا ساءه ذلک و ندم علیه و قد قال النّبیّ صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کفی بالندم توبة ... و من لم یندم علی ذنب یرتکبه فلیس بمؤمن و لم تجب له الشّفاعة و کان ظالما و اللّه تعالی ذکره یقول ما لِلظَّالِمِینَ مِنْ حَمِیمٍ وَ لا شَفِیعٍ یُطاعُ ۲۶۶]

صدر الحدیث یتضمن أن الشفاعة تشمل مرتکبی الکبائر. لکن ذیل الحدیث یوضح أن الشرط الأساسی فی قبول الشفاعة هو الإیمان الذی یدفع المجرم إلی مرحلة الندم و جبران ما فات، و یبعده عن الظلم و الطغیان و العصیان. (تأمل بدقة).

۲-

فی کتاب «الکافی» عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق علیه السّلام فی رسالة کتبها إلی أصحابه قال: «من سرّه أن ینفعه شفاعة الشّافعین عند اللّه فلیطلب إلی اللّه أن یرضی عنه»

[۲۶۷] یتبین من سیاق الروایة، أن کلام الإمام یستهدف إصلاح الخطأ الذی وقع فیه بعض أصحاب الإمام فی فهم مسألة الشفاعة: و یرفض بصراحة مفهوم الشفاعة الخاطئ المشجع علی ارتکاب الذنوب.

۳-

و عن الصادق علیه السّلام أیضا: «إذا کان یوم القیامة بعث اللّه العالم و العابد، فإذا وقفا بین یدی اللّه عزّ و جلّ قیل للعابد: انطلق إلی الجنّة، و قیل للعالم: قف تشفع للنّاس بحسن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۶

تأدیبک لهم»[۲۶۸].

فی هذا الحدیث نجد ارتباطا بین «تأدیب العالم» و «شفاعته لمن أدّبهم» و هذا الارتباط یوضّح کثیرا من المسائل المبهمة فی بحثنا هذا.

أضف إلی ما سبق أن فی اختصاص الشفاعة بالعالم و سلبها من العابد، دلالة اخری علی أن الشفاعة فی المفهوم الإسلامی لیست معاملة و عقدا و تلاعبا بالموازین، بل مدرسة للتربیة، و تجسید لما مرّ به الفرد من مراحل تربویة فی هذا العالم.

۶- التّأثیر المعنوی للشّفاعة:

ما ذکرناه من روایات بشأن الشفاعة هو غیض من فیض، فالروایات فی هذا المجال کثیرة تبلغ حدّ التواتر، و إنما اخترنا منها ما یتناسب مع بحثنا.

النووی الشافعی ۲۶۹] فی شرحه لصحیح مسلم، نقل عن القاضی عیاض- و هو من کبار علماء أهل السنة،- أنّ أحادیث الشفاعة متواترة[۲۷۰].

ابن تیمیة (المتوفی ۷۲۸ ه) و محمّد بن عبد الوهّاب (المتوفی ۱۲۰۶ ه)، مع ما لهما من تعصّب و لجاج فی مثل هذه الأمور، یقرّان بتواتر هذه الروایات.

ثمة کتاب دراسی معروف و متداول بین «الوهّابیة» هو «فتح المجید» للشیخ عبد الرحمن بن حسن، ینقل عن «ابن القیم» ما یلی:

«الرابع: شفاعته فی العصاة من أهل التوحید الذین یدخلون النار بذنوبهم.

و الأحادیث بها متواترة عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و قد أجمع علیها الصحابة و أهل السنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۷

قاطبة و بدعوا من أنکرها و صاحوا به من کل جانب و نادوا علیه بالضلال»[۲۷۱].

و قبل أن ندرس الآثار الاجتماعیة و النفسیة لمسألة الشفاعة و الاشکالیات الأربع حول فلسفة الشفاعة، نلقی نظرة علی الآثار المعنویة لهذه المسألة فی إطار آراء الموحّدین المؤمنین بالشفاعة، فمثل هذه النظرة تمهّد السبیل لدراستنا القادمة فی حقل الشفاعة و معطیاتها الاجتماعیة و النفسیة.[۲۷۲] اختلف علماء العقائد المسلمون فی کیفیة التأثیر المعنوی للشفاعة. فقال جمع یسمون «الوعیدیة»، و هم المؤمنون بخلود مرتکبی الکبائر فی جهنم: إن الشفاعة لیس لها أثر علی إزالة آثار الذنوب، بل تأثیرها یقتصر علی زیادة الثواب و علی التکامل المعنوی.

و «التفضيلية» و هم من يعتقد بعدم خلود مرتكبى الكبائر فى جهنم، فيذهبون إلى أن الشفاعة تشمل المذنبين، و تؤثر فى إسقاط العقاب عنهم.

أما «الخواجة نصير الدين الطوسى رحمه اللّه» فيؤيد كلا الأمرين فى كتابه «تجريد الاعتقاد» و يرى وجود كلا الأثرين للشفاعة.

«العلّامة الحلى رحمه اللّه» شرح عبارة الطوسى فى كتابه «كشف المراد» و لم يردّ عليها بل أورد شواهد عليها.

لو أخذنا بنظر الاعتبار ما مرّ بنا بشأن معنى الشفاعة لغويا و مقارنتها بالشفاعة التكوينيّة، لما ترددنا فى صحة ما ذهب إليه المحقق الطوسى.

فمن جهة، ثمة

رواية معروفة عن الإمام الصادق عليه السّلام هى: «ما من أحد من الأوّلين و الآخرين إلّا و هو محتاج إلى شفاعة محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يوم القيامة»[۲۷۳].

و استنادا إلى هذه الرواية، يحتاج إلى الشفاعة كل النّاس، حتى التائبون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۸

المغفور لهم، و فى مثل هذه الحالة لا بدّ أن تكون الشفاعة ذات تأثيرين، فى الحطّ من الذنوب، و فى علوّ المنزلة.

أما الروايات التى تذهب إلى عدم حاجة الصالحين للشفاعة فهى تنفى ذلك النوع من الشفاعة الخاص بالمجرمين و المذنبين.

و من جهة اخرى ذكرنا أن الشفاعة تعنى انضمام الفرد الأشرف و الأقوى إلى الفرد الأضعف لمساعدة هذا الضعيف، و هذه المساعدة قد تكون لزيادة نقاط القوّة، و قد تكون لإزالة نقاط الضعف.

فى الشفاعة التكوينية نشهد هذين اللونين من الشاعة فى مسيرة حركة التكامل و النمو، فإنّ الكائنات الأضعف تحتاج إلى عوامل أقوى لإزالة عوامل التخريب تارة (كحاجة النباتات إلى نور الشمس لإبادة الآفات)، و تارة اخرى لزيادة نقاط القوّة و سرعة التطور (كحاجة النباتات إلى نور الشمس من أجل النموّ)، و هكذا الطالب يحتاج إلى الأستاذ لإصلاح أخطائه من جهة، و لزيادة معلوماته من جهة اخرى.

كل ذلك يدلّ على أن للشفاعة أثرين، و لا تقتصر على دائرة إزالة آثار الذنب و الإثم (تأمل بدقّة).

ممّا تقدم نفهم أن التائبين بحاجة أيضا إلى الشفاعة مع علمنا بأن التوبة وحدها كافية لغفران الذنوب، و ذلك لسببين:

۱- التائبون بحاجة إلى الشفاعة لزيادة مكانتهم المعنوية، و لتقدمهم فى مضمار التكامل و الارتقاء، و ان كان الغفران يتحقق بالتوبة.

۲- ثمة خطأ وقع فيه كثيرون فى فهم التوبة، إذ تصوروا أنّ التوبة من الذنب قادرة على إرجاع الإنسان إلى حالة ما قبل ارتكاب الذنب، بينما التوبة ليست- كما ذكرنا فى موضعه- سوى مرحلة أولى، إنها كالدواء الذى يقطع عوارض المرض، و انقطاع العوارض لا يعنى عودة الإنسان إلى حالته الطبيعية، بل يعنى انتقاله إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۰۹

حالة نقاهة يحتاج خلالها إلى تقوية بنيته الجسمية، ليعود بعد مدة إلى مرحلة ما قبل المرض.

بعبارة اخرى، للتوبة مراحل، و الندم على الذنب و العزم على التطهر فى المستقبل هو المرحلة الاولى للتوبة. و المرحلة النهائية تتحق حين يعود التائب إلى حالة ما قبل الذنب من كل النواحى. و فى هذه المرحلة تكون شفاعة الشافعين ذات أثر و عطاء.

أفضل شاهد على هذا ما ورد فى القرآن و ذكرناه من قبل بشأن استغفار الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم للتائبين، و توبة إخوة يوسف و استغفار يعقوب لهم، و أوضح من كل ذلك استغفار الملائكة للصالحين و المصلحين الوارد فى الآيات المذكورة آنفا. (تأمل بدقّة)!.

۷- فلسفة الشّفاعة

مرّ بنا فيما سبق «مفهوم» الشّفاعة و «أسانيدها»، و نستطيع من ذلك أن نفهم بسهولة فلسفة الشفاعة على الصعيد الاجتماعى و النفسى.

و بشكل عام و انطلاقا من مفهوم الشفاعة نستطيع أن نتلمس الآثار التالية فى المؤمنين بالشفاعة.

«مكافحة روح اليأس» من أهم آثار الشفاعة فى نفس المعتقدين بها. مرتكبو الجرائم الكبيرة يعانون من و خز الضمير، كما يشعرون بيأس من عفو اللّه، و لذلك لا يفكّرون بالعودة و لا بإعادة النظر فى طريقة حياتهم الآثمة. و قد يدفعهم المستقبل المظلم إلى التعنت و الطغيان، و إلى التحلل من كل قيد تماما، كالمريض اليائس من الشفاء الذى يتحلل من أى نظام غذائى، لاعتقاده بعدم جدوى التقيد بنظام.

قلق الضمير الناتج عن هذه الجرائم قد يؤدى إلى اختلالات نفسية، و إلى تحفيز الشعور بالانتقام من المجتمع الباعث على تلوّثه. و بذلك يتبدل المذنب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۰

عنصر خطر، و إلى مصدر قلق اجتماعى.

الإيمان بالشفاعة يفتح أمام الإنسان نافذة نحو النور، و يبعث فيه الأمل بالعفو و الصفح، و هذا الأمل يجعله يسيطر على نفسه، يعيد النظر فى مسيرة حياته، بل و يشجعه على تلافى سيئات الماضى.

و الإيمان بالشفاعة يحافظ على التعادل النفسى و الروحى للمذنب، و يفسح الطريق أمامه إلى أن يتبدل إلى عنصر سالم صالح.

من هنا يمكن القول أن الاهتمام بالشفاعة بمعناها الصحيح عامل رادع بنّاء، قادر أن يجعل من الفرد المجرم المذنب فردا صالحا. و انطلاقا من هذا الفهم نجد أن مختلف قوانين العالم وضعت فسحة أمل أمام المحكومين بالسجن المؤبّد باحتمال العفو بعد مدة إن أصلحوا أنفسهم، كى لا يتسرب اليأس إلى نفوسهم بذلك و يتبدّلوا إلى عناصر خطرة داخل السجن أو يصابون باختلالات نفسية.

۸- شروط «توفّر الشّفاعة»

الشفاعة بمعناها الصّحيح لها قيود و شروط متعددة الجوانب، كما ذكرنا. من هنا فالمؤمنون بهذا المبدأ لا بدّ أن يسعوا لتوفير شروط الشّفاعة كى يشملهم عطاؤها، و أن يجتنبوا الذنوب التى تقضى على كل أمل فى الشفاعة كالظلم، و أن يستأنفوا حياة جديدة قائمة على أساس تغيير عميق فى أنفسهم و أن يتوبوا من الذنب أو يهمّوا بالتوبة على الأقل من أجل بلوغ درجة «الارتضاء» و اتخاذ «العهد الإلهى» (بالتّفسير المذكور).

عليهم أن يكفوا عن مخالفة الأحكام و القوانين الإلهية، أو يقللوا من هذه المخالفة ما أمكنهم، و يعمقوا فى أنفسهم الإيمان باللّه و اليوم الآخر.

من جهة اخرى لا بدّ لنيل شفاعة «الشفيع»، أن يسعى الفرد لإيجاد نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۱

التشابه و السنخية و إن كان ضعيفا بينه و بين الشفيع.

و كما أن «الشّفاعة التّكوينية» لا تتمّ إلّا بوجود نوع من السّنخية و التسليم و الاستعداد فى الموجود الأضعف، كذلك الشفاعة التشريعية لا تتحقق إلّا بتوفر مثل هذه القابليّات، (تأمل بدقّة).

و بهذا يتضح بجلاء أن الشفاعة بمعناها الصحيح لها دور فعّال فى تغيير وضع المجرمين و إصلاحهم.

۹- شبهات حول مسألة الشفاعة

ذكرنا أن بين «الشفاعة» فى مفهومها المنحرف و «الشفاعة» فى مفهومها الإسلامى الصحيح بونا شاسعا. المفهوم الأوّل يقوم على أساس تغيير وجهة نظر «المستشفع»، و الآخر يدور حول محور التغييرات المختلفة فى وضع المستشفع له.

واضح أن الشفاعة بمفهومها الأول مرفوضة لأنها تقتل روح السعى و المثابرة فى النفوس ... و تشجع على ارتكاب الذنوب ... و تعتبر انعكاسا عن المجتمعات المتخلفة و الإقطاعية ... و تتضمن أكثر من ذلك نوعا من الشرك و الانحراف عن خط التوحيد.

لا شك أن الإنسان المسلم يبتعد عن خط التوحيد لو اعتقد بإمكان تقديم «وساطة» إلى اللّه كما تقدم «الوساطات»، إلى أصحاب النفوذ فى هذه الدنيا. لأن مثل هذا الفرد قد اعتقد بشكل غير مباشر بإمكان تغيير علم اللّه! و بإمكان خفاء أمر من أمور «المستشفع» على اللّه! أو بوجود مصدر يمكن أن يطفئ الإنسان به غضب اللّه أو يكسب به ودّه و رضاه!، أو بحاجة اللّه إلى مكانة بعض عباده و بسبب احتياجه إليهم يقبل شفاعتهم. أو أنه تعالى يقبل شفاعتهم بسبب خوفه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۲

نفوذهم!! تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا.

كل هذه المعانى تبعدنا من أصل التوحيد و تؤدى بنا إلى السقوط فى وادى الشرك ... إنها المفهوم السلبى للشفاعة و السائد لدى العرف العام.

أما الشفاعة بمعناها الصحيح الذى ذكرناه، فلا تنطوى على هذه العيوب، بل إنها أكثر من ذلك تصلح العيوب، و تعمّق النقاط الإيجابية فى الكائن البشرى.

هذا النوع من الشفاعة لا يشجع على ارتكاب الذنب، بل يدفع إلى ترك الذنوب.

لا يدعو إلى التقاعس و التماهل، بل يبعث فى الإنسان روح الأمل التى يستتبعها عادة تصعيد الإرادة لتلافى أخطاء الماضى.

هذه الشفاعة لا ترتبط بالمجتمعات المتخلّفة، بل هى وسيلة تربوية فعّالة لإصلاح المجرمين و المذنبين و المعتدين.

ليست هذه الشفاعة بشرك، بل هى عين التوحيد و التأكيد على التوجه إلى اللّه و الاستمداد من صفاته و إذنه و أمره.

و لمزيد من التوضيح نتحدث أكثر عن مسألة الشفاعة و التوحيد.

۱۰- الشّفاعة و التّوحيد

الفهم الخاطئ لمسألة الشّفاعة آثار اعتراض فئتين على ما بينهما من تضاد.

الفئة الاولى: اعترضت على الشفاعة من منطلق مادى و اعتبرتها عاملا للتخدير و لإماتة روح السّعى و المثابرة، و قد أجبنا على اعتراضات هذه الفئة فيما سبق.

الفئة الاخرى: اعترضت على الشفاعة من منطلق السلفية، و اعتبرتها شركا و انحرافا عن خط التوحيد، و يمثل هذه الفئة «الوهّابيون» و من لفّ لفّهم. و الإجابة على اعتراضات الوهّابيين و إن كانت تحتاج إلى إطالة و خروج عن طريقة التّفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۳

إلّا أنها ضرورية لأسباب عديدة.

لا بد من الالتفات أولا إلى أن الحركة الوهّابيّة، التى ظهرت خلال القرنين الأخيرين فى الجزيرة العربية على يد «محمّد بن عبد الوهّاب» لم تتجه فى أفكارها المتطرفة الجافة إلى معارضة مدرسة أهل البيت عليهم السّلام فقط، بل اصطدمت بمعظم المسلمين من أهل السنة أيضا.

محمّد بن عبد الوهاب (المتوفّى ۱۲۰۶ ه) استقى أفكاره من «ابن تيمية» (أحمد بن عبد الحليم الدمشقى المتوفى سنة ۷۲۸ ه)، أى قبل أربعة قرون تقريبا من ظهور الوهّابية، و يعتبر المنظّر لهذه الحركة.

استطاع عبد الوهّاب خلال الأعوام (۱۱۶۰- ۱۲۰۶ ه) بالتعاون مع الحكام المحليين أن ينشر دعوته بين القبائل البدوية المتنقّلة فى الجزيرة العربية و يبثّ فيهم تعصبا أعمى باسم الدفاع عن التوحيد و مكافحة الشرك، و عبّد البدو و المتعصبين من أتباعه على طريق قمع معارضيه، و استطاع بذلك أن يكتسب قدرة سياسية و يسيطر بشكل مباشر و غير مباشر على الحكم، و أراق من أجل ذلك دماة كثيرة من المسلمين فى أرض الجزيرة العربية و خارجها.

فى سنة ۱۲۱۶ ه (عشر سنوات بعد وفاة مؤسس الحركة الوهّابية) هاجمت جماعة من الوهّابيين مدينة كربلاء قادمة من صحراء الجزيرة العربية، و استغلوا فرصة سفر أهالى المدينة إلى النجف الأشرف بمناسبة عيد الغدير، فدخلوا المدينة و قاموا بتخريب و هدم مرقد سيد الشهداء الحسين بن على عليه السّلام و سائر المراقد الشريفة فى هذه المدينة، و نهبوا ما فيها من أبواب ذهبية و نفائس، و قتلوا ما يقرب من خمسين شخصا عند ضريح الحسين، و خمسمائة شخص فى صحن الروضة المشرفة، كما قتلوا أعدادا كبيرة فى سائر أنحاء المدينة، حتى بلغ عدد المقتولين فى ذلك الهجوم الوهابى خمسة آلاف إنسان، و لم يسلم منهم حتى الشيوخ و العجائز و الأطفال، كما نهبوا كثيرا من البيوت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۴

فى عام ۱۳۴۴ أفتى فقهاء المدينة الخاضعون لجهاز الحكم الوهابى بهدم قبور أئمّة الإسلام و أولياء اللّه الصالحين، و نفذت هذه الفتوى فى اليوم الثامن من شوّال من السنة المذكورة، و همّ المنفذون أن يهدموا قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أيضا، لو لا تراجعهم أمام صيحات اعتراض المسلمين.

أتباع محمّد بن عبد الوهاب يتميزون على العموم بالخشونة و التصلّب و السطحية و اللجاج و البعد عن المنطق و التعقّل و قد حصروا الإسلام- عمدا أو غفلة- فى إطار مكافحة عدد من الظواهر كالشفاعة و زيارة القبور و التوسل، و بذلك أبعدوا أتباعهم و من خضع لسيطرتهم عن المسائل الإسلامية الحياتية، و خاصة فيما يرتبط بالعدالة الاجتماعية، و مكافحة السيطرة الاستعمارية، و التصدى للثقافة الماديّة و للمدارس الإلحادية.

لذلك لا تجد فى أوساط الوهابيين حديثا عن هذه المسائل، بل تسود أجواءهم حالة فظيعة من الغفلة و الركود.

نعود إلى رأى هذه الفئة بشأن الشفاعة، هؤلاء يقولون: لا يحق لأحد أن يستشفع برسول اللّه، و أن يقول: «يا محمّد اشفع لى عند اللّه» لأن اللّه سبحانه يقول:

وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً[۲۷۴].

و فى رسالة «كشف الشبهات» لمحمّد بن عبد الوهاب نقرأ ما يلى:

«فإن قال أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أعطى الشفاعة و أطلبه ممّا أعطاه اللّه. فالجواب أن اللّه أعطاه الشفاعة و نهاك عن هذا و قال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً و أيضا فإن الشفاعة أعطاها غير النّبى، فصح أن الملائكة يشفعون و الأولياء يشفعون ...

أتقول أن اللّه أعطاهم الشفاعة فاطلبها منهم؟ فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين»[۲۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۵

و يقول محمّد بن عبد الوهاب فى رسالة أربع قواعد ما حاصله: إن الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد.

الأولى: انّ الكفار الذين قاتلهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مقرّون بأن اللّه تعالى هو الخالق الرازق المدبر ... لقوله تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ...[۲۷۶].

الثّانية: إنّهم يقولون ما دعونا الأصنام و توجهنا إليهم إلّا لطلب القرب و الشفاعة ... وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ۲۷۷].

الثّالثة: إنّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ظهر على قوم متفرقين فى عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، و بعضهم الأنبياء الصالحين، و بعضهم الأشجار و الأحجار، و بعضهم الشمس و القمر، فقاتلهم و لم يفرق بينهم.

الرّابعة: إن مشركى زماننا أغلظ شركا من الأولين، لأن أولئك يشركون فى الرخاء و يخلصون فى الشدة، هؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ...[۲۷۸][۲۷۹].

و من العجيب أن الوهابيين تبلغ بهم الجرأة فى تكفير المسلمين بحيث يبيحون نهب أموال المسلم و سفك دمه بسهولة، و قد فعلوا ذلك فى تاريخهم مرارا.

يقول الشيخ «سليمان بن لحمان» فى كتابه «الهدية السنية»:

«إن الكتاب و السنّة دلّا على أن من جعل الملائكة و الأنبياء أو ابن عباس أو أبا طالب أو ... وسائط بينهم و بين اللّه ليشفعوا لهم عند اللّه لأجل قربهم إلى اللّه- كما يفعل عند الملوك- إنه كافر مشرك حلال الدم و المال! و ان قال أشهد أن لا إله إلّا اللّه و أشهد أن محمّدا رسول اللّه و صلّى و صام»!![۲۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۶

و مع هذا الإفتاء يتضح حال المسلمين فى جميع أقطار العالم الإسلامى الذين يستشفعون بهم، اقتداء بكتاب اللّه و سنّة نبيّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

روح البطش و السفك و اللجاجة فى هؤلاء لا تخفى على أحد، و هكذا جهلهم بالمسائل الإسلامية و القرآنية.

نظرة على منطق الوهّابيين فى حقل الشفاعة

و هكذا يظهر ممّا نقلنا عن مؤسس الحركة الوهّابية «محمّد بن عبد الوهّاب» أنّ اتّهام الوهّابيين بالشرك للمؤمنين بالشفاعة يستند إلى مسألتين:

۱- التشابه بين المؤمنين بشفاعة الأنبياء و الصالحين، و بين المشركين فى عصر الجاهلية.

۲- نهى القرآن عن عبادة غير اللّه و عن دعوة فرد مع اللّه: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً[۲۸۱]، و الاستشفاع نوع من العبادة.

بالنسبة للمسألة الاولى، ارتكب الوهّابية خطأ فظيعا، و ذلك للأسباب التالية:

أوّلا- القرآن أقرّ منزلة الشفاعة بصراحة لجمع من الأنبياء و الصالحين و الملائكة كما مرّ، لكنه قيّدها بإذن اللّه. و ليس من المعقول إطلاقا أن يكون اللّه قد نهى عن الاستشفاع المشروط بإذن اللّه بمن قد منحهم هو سبحانه هذه المنزلة.

و صرّح القرآن بطلب إخوة يوسف من أبيهم أن يستغفر لهم، و هكذا صرّح بطلب الصحابة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أن يستغفر لهم أيضا.

أ ليست هذه من المصاديق الواضحة لطلب الشفاعة؟! إن الاستشفاع برسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بعبارة: «اشفع لنا عند اللّه» هى نفسها عبارة إخوة يوسف إذ قالوا لأبيهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۷

يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا[۲۸۲] كيف يجرأ هؤلاء على إلقاء تهمة الشرك على من يؤمن بما يصرّح به القرآن، بل و يستبيحون دمه و ماله؟! لو كان هذا العمل شركا، فلم لم ينه يعقوب بنيه عن ذلك.

ثانيا: لا يوجد أدنى شبه بين «عبدة الأصنام» و «الموحّدين المؤمنين بالشفاعة بإذن اللّه»، لأن الوثنيين كانوا يعبدون الأصنام و يتخذونها شفعاء، بينما المسلمون المؤمنون بالشفاعة لا تخطر فى ذهنهم عبادة الشفعاء، بل يستشفعون بهم إلى اللّه، و طلب الشفاعة لا ارتباط له بمسألة العبادة كما سنبيّن.

عبدة الأصنام كانوا يتعجبون من عبادة الإله الواحد الأحد: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ۲۸۳].

الوثنيون كانوا يجعلون الوثن فى منزلة اللّه: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ ۲۸۴].

الوثنيون كانوا يعتقدون بتأثير الأوثان على حياتهم و مصيرهم و وجودهم، كما تذكر كتب التاريخ، و المسلمون المؤمنون بالشفاعة يعتقدون بانفراد اللّه فى التأثير، و لا يرون لموجود آخر غير اللّه استقلالا فى التأثير.

و المقارنة بين الرؤيتين مقارنة جاهلة مجافية للمنطق.

أما بشأن المسألة الثانية، علينا أوّلا أن نفهم معنى «العبادة» لو فسّرنا العبادة بأنها كل لون من ألوان الخضوع و الاحترام، لكان ذلك يعنى حرمة الاحترام و الخضوع لأحد غير اللّه، و هذا ما لا يقرّه مسلم. و لو فسّرنا العبادة أنها كل ألوان الطلب، فهذا يعنى أن التقدم بالطلب من أية جهة هو شرك، و هذا يخالف ضروريات العقل و الدين. كما أن العبادة لا يمكن فهمها على أنها كل لون من ألوان اتباع فرد لفرد آخر، فاتباع الأفراد لمسؤوليهم و رؤسائهم فى المؤسسات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۸

و التنظيمات الاجتماعية من أولى ضروريات الحياة البشرية، كما أن اتّباع الأنبياء و أئمّة الدين من الواجبات الحتمية للمتدينين.

من هنا فالعبادة لا تعنى كل ذلك، بل هى الحدّ الأعلى للخضوع و التواضع المعبّرين عن الارتباط المطلق و التسليم بلا منازع للمعبود، و إيكال كل عواقب الأمور إليه.

و هل فى طلب الشفاعة من الشفعاء أثر من الآثار المذكورة للعبادة.

أمّا بشأن النهى عن دعوة أحد سوى اللّه، فلا يعنى النهى عن نداء الأفراد، كأن نقول يا علىّ و يا حسن و يا أحمد، و لا يعنى النهى عن الاستعانة بالأفراد، لأن التعاون أحد الأركان الأساسية للحياة الاجتماعية و قد عمل به الأنبياء و الأولياء كافة، و لم يرفضه الوهابيون أنفسهم.

أمّا الأمر الذى يمكن الاعتراض عليه فهو ما أوضحه «ابن تيمية» فى رسالة «زيارة القبور» إذ قال ما حاصله: «مطلوب العبد إن كان ممّا لا يقدر عليه إلّا اللّه فسائله من المخلوق مشرك من جنس عباد الملائكة و التماثيل و من اتّخذ المسيح و أمه إلهين، مثل أن يقول لمخلوق حى أو ميت: اغفر ذنبى أو انصرنى على عدوى أو اشف مريضى أو عافنى أو عاف أهلى أو دابتى، أو يطلب منه وفاء دينه من غير جهة معينة أو غير ذلك.

و إن كان ممّا يقدر عليه العبد فيجوز طلبه منه فى حال دون حال، فان مسألة المخلوق قد تكون جائزة و قد تكون منهيا عنها قال اللّه تعالى: فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ و

أوصى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ابن عباس: إذا سألت فاسئل اللّه، و إذا استعنت فاستعن باللّه. و أوصى طائفة من أصحابه أن لا يسألوا النّاس شيئا، فكان سوط أحدهم يسقط من كفه فلا يقول لأحد ناولنى إياه. و قال: فهذه المنهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۱۹

عنها و الجائزة طلب دعاء المؤمن لأخيه»[۲۸۵].

نحن أيضا نقول: من الشرك أن يطلب الإنسان من أحد شيئا يختص به الخالق، و من الشرك أن يتجه الإنسان فى ذلك الطلب إلى فرد يعتبره قادرا بشكل مستقل عن تلبية ذلك الطلب. أما إذا طلب الإنسان من أحد شفاعة منحها له اللّه، فما ذلك بشرك، بل هو عين الإيمان و التوحيد، و يشهد على ذلك كلمة «مع» فى قوله تعال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً التى تفيد أن المنهى عنه هو دعوة شخص نعتبره فى منزلة اللّه، و نعتبره مصدرا مستقلا فى التأثير. (تأمل بدقّة).

هدفنا من التأكيد على هذا الموضوع، هو أن ما اعتراه من مسخ و تحريف و فّر الفرصة لأعداء الدين كى يطعنوا فى المقدسات الدينية، كما أدّى إلى ظهور تفسيرات و استنتاجات خاطئة لدى بعض المجموعات الإسلامية، ممّا جرّ بدوره إلى تفرقة صفوف المسلمين.

و الفهم الصحيح للشفاعة يؤدى كما رأينا إلى سموّ أخلاق المجتمع و تكاملها.

و إلى إصلاح الأفراد الفاسدين، كما يؤدى إليه قطع دابر الطعانين، و إلى إحلال الوحدة بين المسلمين.

نأمل من العلماء و المفكرين الإسلاميين أن يتعمّقوا فى تحليل هذه المسألة قرآنيا و منطقيا، كى يسدّوا الطريق أمام طعن أعداء الإسلام و يساهموا فى رصّ الصفوف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۴۹]

اشارة

وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۴۹)

التّفسير

نعمة الحرية

فى هذه الآية إشارة إلى نعمة كبيرة اخرى، منّ بها اللّه سبحانه على بنى إسرائيل، و هى نعمة تحريرهم من براثن الظالمين: وَ إِذْ نَجَّيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

القرآن يعبّر عن العذاب الذى أنزله فرعون ببنى إسرائيل بفعل يَسُومُونَكُمْ من «سام» التى تعنى فى الأصل الذهاب فى ابتغاء الشىء، و استعمال هذا الفعل بصيغة المضارع يشير إلى استمرار العذاب، و إلى أن بنى إسرائيل كانوا دوما تحت التعذيب من قبل الفراعنة.

و القرآن عبّر بكلمة «البلاء» عمّا كان ينزل ببنى إسرائيل من عذاب يتمثل فى قتل الذكور و استخدام الإناث لخدمة آل فرعون، و استثمار طاقات بنى إسرائيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۱

لخدمة الاقباط و إشباع رغبات و نزوات المستكبرين.

و البلاء يعنى الامتحان، فالحوادث و المصائب التى نزلت ببنى إسرائيل كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتى البلاء بمعنى العقاب، لأن بنى إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقابا على كفرانهم.

و ذكر بعض المفسرين معنى ثالثا للبلاء، و هو النعمة، و بذلك يكون البلاء العظيم يعنى النعمة العظيمة، و المقصود منها نعمة النجاة من آل فرعون ۲۸۶].

على كل حال، يوم نجاة بنى إسرائيل من آل فرعون يوم تاريخى مهم، ركّز عليه القرآن فى مواضع عديدة و لنا وقفات اخرى عند هذا الحدث الكبير.

من الملفت للنظر أن القرآن يسمّى ذبح الأبناء و استحياء النساء عذابا. و لو عرفنا أن استحياء النساء يعنى استبقاءهنّ، و تركهن أحياء، لاتّضح لنا أن القرآن يشير إلى أن مثل هذا الاستبقاء المذل هو عذاب أيضا مثل عذاب القتل. و هذا المعنى يشير إليه

الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام إذ يقول: «فالموت فى حياتكم مقهورين و الحياة فى موتكم قاهرين»[۲۸۷].

عملية الإماتة كانت شاملة للذكور و الإناث مع اختلاف فى ممارسة هذه العملية، و فى عالمنا المعاصر يمارس طواغيت الأرض عملية الإماتة أيضا بأساليب اخرى، و ذلك عن طريق قتل روح الرجولة فى الذكور، و دفع الإناث إلى مستنقع إشباع الشهوات.

من المفسرين من ذهب إلى أن سبب قتل أبناء بنى إسرائيل و استحياء نسائهم، يعود إلى رؤيا عرضت لفرعون فى منامه. و لكن السبب

ليس الرؤيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۲

وحدها- كما سنبيّن ذلك فى تفسير الآية الرابعة من سورة القصص- بل أيضا خوف الفرعونيين من اشتداد قوة بنى إسرائيل و تشكيلهم خطرا على سلطة آل فرعون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۵۰]

اشارة

وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۰)

التّفسير

النّجاة من آل فرعون:

الآية السابقة أشارت إلى نجاة بنى إسرائيل من براثن الفرعونيين، و هذه الآية توضح طريقة النجاة، وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ، فَأَنْجَيْناكُمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

قضية غرق آل فرعون فى البحر و نجاة بنى إسرائيل وردت فى سور عديدة مثل سورة الأعراف الآية (۱۲۶). و سورة الأنفال، الآية (۵۴). و سورة الإسراء الآية (۱۰۳). و الشعراء الآية (۶۳ و ۶۶). و الزخرف، (۵۵). و الدخان، الآية (۱۷) و ما بعدها.

فى هذه السور ذكرت كل تفاصيل الحادث، أمّا هذه الآية فاكتفت بالإشارة إلى هذه النعمة الإلهية فى معرض دعوة بنى إسرائيل إلى قبور الرسالة الخاتمة[۲۸۸].

حادثة الانقاذ باختصار حدثت بعد عدم استجابة فرعون و قومه لدعوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۴

موسى عليه السّلام مع كل ما شاهدوه منه من معجزات. إذ ذاك امر أن يخرج مع بنى إسرائيل فى منتصف الليل من مصر، و عند وصولهم النيل، علموا أن فرعون و جيشه يلاحقونهم، فاعترى، بنى إسرائيل خوف و اضطراب شديد. فالبحر أمامهم و العدوّ وراءهم. و فى هذه اللحظات الحساسة، امر موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانشقت فيه طرق متعدّدة عبر منها بنو إسرائيل، بينما التحم الماء حينما كان آل فرعون فى وسطه، فغرقوا جميعا و نجا بنو إسرائيل، و هم ينظرون إلى هلاك أعدائهم.

الهدف من تذكير بنى إسرائيل بهذا الحدث الذى بدأ بخوف شديد و انتهى بانتصار ساحق، هو دفعهم للشكر و للسير على طريق الرسالة الإلهية المتمثلة فى دين النّبى الخاتم.

كما أنه تذكير للبشرية بالامداد الإلهى الذى يشمل كل أمّة سائرة بجد و إخلاص على طريق اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۵

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۵۱) ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۲) وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۵۳) وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۵۴)

التّفسير

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۲۲۵

أكبر انحرافات بنى إسرائيل

فى هذه الآيات الأربع، تأكيد على مقطع آخر من تاريخ بنى إسرائيل، و على أكبر انحراف أصيبوا به فى تاريخهم الطويل، و هو الانحراف عن مبدأ التوحيد، و الاتجاه إلى عبادة العجل. و هذا التأكيد تذكير لهم بما لحقهم من زيغ نتيجة إغواء الغاوين، و تحذير لهم من تكرر هذه التجربة فى مواجهة الدين الخاتم: وَ إِذْ واعَدْنا مُوسى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً و هى ليالى افتراق موسى عن قومه، ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ

شرح هذا المقطع من تاريخ بنى إسرائيل سيأتى فى سورة الأعراف الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۲۶

(۱۴۲) و ما بعدها، و فى سورة طه الآية (۳۶) و ما بعدها.

و خلاصته، إن موسى عليه السّلام بعد نجاة بنى إسرائيل من قبضة الفراعنة امر بالذهاب إلى جبل الطور مدة ثلاثين ليلة لتسلم ألواح التوراة، ثم مدّت هذه الليالى إلى أربعين ليلة من أجل اختبار قومه. و استغل السامرىّ الدّجال هذه الفرصة، فجمع ما كان لدى بنى إسرائيل من ذهب الفراعنة و مجوهراتهم، و صنع منها عجلا له صوت خاص، و دعا بنى إسرائيل لعبادته. فأتبعه أكثر بنى إسرائيل، و بقى هارون- أخو موسى و خليفته- مع أقلية من القوم على دين التوحيد، و حاول هؤلاء الموحّدون الوقوف بوجه هذا الانحراف فلم يفلحوا، و أوشك المنحرفون أن يقضوا على حياة هارون أيضا.

بعد أن عاد موسى من جبل الطور تألم كثيرا لما رآه من قومه، و وبّخهم بشدّة فثاب بنو إسرائيل إلى رشدهم، و أدركوا خطأهم و طلبوا التوبة، فجاءهم أمر السماء بتوبة ليس لها نظير، سنذكرها فيما يلى.

فى الآية التالية يقول سبحانه: ثُمَّ عَفَوْنا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ و بعد إشارة إلى ما جاء بنى إسرائيل من هداية تشريعية: وَ إِذْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ الْفُرْقانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

كلمتا «الكتاب» و «الفرقان» قد تشيران كلاهما إلى التوراة، و قد يكون المقصود من «الكتاب» التوراة و «الفرقان» ما قدمه موسى من معاجز بإذن اللّه، لأنّ الفرقان يعنى فى الأصل ما يفرّق بين الحق و الباطل.

ثم يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة على بنى إسرائيل: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخاذِكُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلى بارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بارِئِكُمْ، فَتابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۷

و «البارى» هو الخالق، و فى الكلمة إشارة إلى أن هذا الأمر الإلهى بالتوبة الشديدة صادر عمّن خلقكم، و عمّن هو أعرف بما يضرّكم و ينفعكم.

ذنب عظيم و توبة فريدة

لا شك أن عبادة عجل السامرى لم تكن مسألة هينة، لأن بنى إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات اللّه و معجزات نبيّهم موسى عليه السّلام، ثم نسوا ذلك دفعة، و خلال فترة قصيرة من غياب النّبى انحرفوا تماما عن مبدأ التوحيد و عن الدين الإلهى.

كان لا بدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كى لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

و من هنا كانت الأوامر الإلهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير فى تاريخ الأنبياء، و تقضى هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعى لعدد كبير من المذنبين، على أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضا، و فى ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء و المعارف على يديه، و ما ينزل به- هو نفسه- من عذاب القتل.

و جاء فى الأخبار أن موسى أمر فى ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا و يرتدوا الأكفان و يعملوا السيف بعضهم فى البعض الاخر.

و لعلك تسأل عن السبب فى قساوة هذه التوبة و لماذا لم يقبل اللّه تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب فى شدّة هذا الحكم- كما ذكرنا- يعود إلى عظمة الذنب الذى ارتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات و معاجز، و إلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة و مستقبلها لإن اصول و مبادئ جميع الأديان السماوية يمكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۸

اختزالها فى التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعنى انهيار جميع اللبنات الفوقية و المبانى الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السّلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقى سنّة فى الأجيال القادمة، خاصة و أن بنى إسرائيل كانوا على مرّ التاريخ قوما متعنتين لجوجين.

و لا بدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعا للأجيال التالية عن السقوط فى هاوية الشرك.

و لعل فى عبارة قوله تعالى: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إشارة إلى هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۲۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۵ الى ۵۶]

اشارة

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶)

التّفسير

طلب عجيب!

هاتان الآيتان تـذكّران بنى إسـرائيل بنعمـة إلهية اخرى، كما توضـحان فى الوقت نفسه روح اللجاج و العناد فى هؤلاء القوم، و تبيان ما نزل بهم من عقاب إلهى، و ما شملهم اللّه به من رحمة بعد ذلك العقاب.

تقول الآية الاولى: وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً.

هذا الطلب قد ينم عن جهل بنى إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدّى حواسه. و لذلك يرمى إلى أن يرى اللّه بعينه.

أو قد يحكى هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم و عنادهم التى يتميزون بها دوما.

على أى حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا اللّه جهرة، و جعلوا ذلك شرطا لإيمانهم.

عندئـذ شـاء اللّه سـبحانه أن يرى هؤلاـء ظـاهرة من خلقه لاـ يطيقون رؤيتهـا، ليفهموا أن عينهم الظـاهرة هـذه لاـ تطيق رؤيـة كـثير من مخلوقات اللّه، فما بالك برؤية اللّه سبحانه نزلت الصاعقة على الجبل و صحبها برق شديد و رعد مهيب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۰

و زلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

اغتم موسـى لما حدث بشدّة، لأن هلاك سـبعين نفرا من كبار بنى إسـرائيل، قد يوفّر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجّة بوجه نبيهم. لـذلك تضـرّع موسـى إلى اللّه أن يعيـدهم إلى الحيـاة، فقبـل طلبه و عـادوا إلى الحياة: ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

هذا باختصار شرح الواقعة، و سيأتى تفصيلها فى سورة الأعراف، الآية ۱۵۵، و سورة النساء الآية ۱۵۳[۲۸۹].

هـذه القصـة تبين من جانب آخر ما عاناه الأنبياء من مشاكل كبرى على طريق دعوتهم. كان قومهم يطلبون منهم معاجز خاصة، و كان العنـاد يبلـغ ببعض الأـقوام حـدا يطلبون فيه أن يروا اللّه جهرة، شـرطا لإيمـانهم. و حينمـا يواجه هـذا الطلب غير المنطقى بجواب إلهى مناسب حاسم تحدث للنبى مشكلة اخرى. و لو لا لطف اللّه و تثبيته لما كان بالإمكان المقاومة تجاه كل هذا العناد.

هذه الآية تشير ضمنا إلى إمكان «الرجعة»، أى الرجوع إلى هذه الحياة الدنيا بعد الموت. لأن وقوعها فى مورد يدل على إمكان الوقوع فى موارد اخرى.

و لكن عدد من مفسرى أهل السنة أوّلوا «الموت» فى هذه الآية إلى غير المعنى الظاهر لعدم رغبتهم فى قبول «الرجعة»[۲۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): آية ۵۷]

اشارة

وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۵۷)

التّفسير

النّعم المتنوعة

بعد أن نجا بنو إسـرائيل من الفرعونيين، تذكر الآيات ۲۳- ۲۹ من سورة المائدة، أن بنى إسـرائيل أمروا لأن يتجهوا إلى أرض فلسطين

المقدسة، لكن هؤلاء عصوا هذا الأمر، و أصروا على عدم الذهاب ما دام فيها قوم جبارون (العمالقة)، و أكثر من ذلك تركوا أمر مواجهة هؤلاء الظالمين لموسى وحده قائلين له:

فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ۲۹۱].

تألم موسى لهذا الموقف و دعا ربه قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ ۲۹۲] فكتب عليهم التيه أربعين عاما فى صحراء سيناء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۲

مجموعة من التائهين ندمت على ما فعلته أشد الندم، و تضرعت إلى اللّه، فشمل اللّه سبحانه بنى إسرائيل ثانية برحمته، و أنزل عليهم نعمه التى تشير الآية إلى بعضها: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ

و الظّل له أهمية الكبرى لمن يطوى الصحراء طيلة النهار و تحت حرارة الشمس اللّافحة، خاصة أن مثل هذا الظّل لا يضيّق الفضاء على الإنسان و لا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذى تشير إليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذى يظهر عادة فى سماء الصحراء، و لا يلبث أن يتفرق و يزول، بل هو من نوع خاص تفضل به اللّه على بنى إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافى.

و إضافة إلى الظل فانّ اللّه سبحانه و فّر لبنى إسرائيل بعد تيههم الطعام الذى كانوا فى أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاما خلت من ضياعهم: وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ و سنشرح «المن» و «السلوى» فى البحوث الآتية.

بحوث

۱- الحياة الجديدة بعد التحرر:

الامّة التى تتحرر بعد عصر من الذّل و الاستضعاف و الاستعباد، لا تستطيع أن تتخلى تماما عن حالتها النفسية و الثقافية الموروثة عن عصر الطاغوت، و لا بدّ من فترة برزخية تمر بها كى تكون قادرة على إقامة حكم اللّه فى الأرض، وفق معايير إلهية بعيدة عن مؤثرات عصر الطاغوت.

و سواء امتدت هذه الفترة البرزخية أربعين عاما كما حدث لبنى إسرائيل، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۳

أقل أو أكثر، فهى فترة عقاب إلهى هدفها التزكية و الإصلاح و البناء لأنّ مجازاة اللّه ليست لها جنبة انتقامية.

و لا بدّ أن يبقى بنو إسرائيل فترة أربعين عاما من «التيه» فى الصحراء ليتربّى جيل جديد حامل لصفات توحيدية ثورية، و مؤهل لإقامة الحكم الإلهى فى الأرض المقدسة.

۲- المنّ و السّلوى:

تعددت أقوال المفسرين فى معنى هاتين الكلمتين، و لا حاجة إلى استعراضها جميعا، بل نكتفى بذكر معنا هما اللغوى، ثم نذكر تفسيرا واحدا لهما هو فى اعتقادنا أوضح التفاسير و أقربها إلى الفهم القرآنى.

«المنّ» شيء كالطلّ فيه حلاوة يسقط على الشجر[۲۹۳] أو بعبارة اخرى هو عصارة شجر ذات طعم حلو، و قيل طعم حلو ممزوج بالحموضة.

و «السّلوى» يعنى التسلّى، و قال بعض اللغويين و جمع من المفسرين إنه «طائر».

و روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إن الكماة من المنّ».

و ذهب البعض إلى أن «المنّ» هو جميع ما أنعم اللّه تعالى على بنى إسرائيل و منّ عليهم. و «السّلوى» هى جميع المواهب و الملكات النفسانية التى توجب لهم التسلية و الهدوء النفسى.

و هو مع مخالفته لرأى معظم المفسرين، يخالف ظاهر الآية حيث تقول:

كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ و فى هذا التعبير دلالة واضحة على أن المنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۴

و السلوى نوعان من الطعام. و هذه العبارة وردت كذلك فى الآية ۱۶۰ من سورة الأعراف.

و تذكر التوراة أن «المنّ» حبّ يشبه بذر الكزبرة يتساقط على الأرض ليلا، و كان بنو إسرائيل يجمعونه و يصنعون منه خبزا ذا طعم خاص.

و ثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيرة النافعة التى هطلت بفضل اللّه على تلك الصحراء أثرت على أشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائيل.

و احتمل بعضهم أن يكون «المنّ» نوعا من العسل الطبيعى حصل عليه بنو إسرائيل فى الجبال و المرتفعات المحيطة بصحراء التيه. و هذا التّفسير يؤيد ما ورد من شروح على العهدين (التوراة و الإنجيل) حيث جاء: «الأراضى المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد و الأزهار، و من هنا فإن مجاميع النحل تبنى خلاياها فى أخاديد الصخور و على أغصان الأشجار و ثنايا بيوت النّاس، بحيث يستطيع أفقر النّاس أن يتناول العسل»[۲۹۴].

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، و أجمع الباقون على أنه نوع من الطير، كان يأتى على شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، و كان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها.

فى النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأى حيث ورد فى تفسير على العهدين ما يلى: «اعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من افريقيا، فتتجه إلى الشمال، و فى جزيرة كابرى وحدها يصطاد من هذا الطائر ۱۶ ألفا فى الفصل الواحد ... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، و خليج العقبة و السويس، و يدخل شبه جزيرة سيناء و بعد دخوله لا يستطيع أن يطير فى ارتفاعات شاهقة لشدّة ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۵

لاقاه من تعب و عناء فى الطريق، فيطير على ارتفاع منخفض و لذلك يمكن اصطياده بسهولة ... و ورد ذكر ذلك فى سفر الخروج و سفر الأعداء من التوراة»[۲۹۵].

يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف فى تلك الأرض.

شاء اللّه بفضله و منّه أن يكثر هذا الطير فى صحراء سيناء آنئذ لسدّ حاجة بنى إسرائيل من اللحوم، و لم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية فى تلك المنطقة.

۳- لماذا قالت الآية «أنزلنا»؟

عبرت الآية الكريمة عن نعمة تقديم المن و السلوى بالإنزال، و ليس الإنزال دائما إرسال الشيء من مكان عال، كقوله تعالى: وَ أَنْزَلَ

لَكَمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ ۲۹۶].

واضح أن الأنعام لم تهبط من السماء، من هنا فالإنزال فى مثل هذه المواضع:

إمّا أن يكون «نزولا مقاميا» أى نزولا من مقام أسمى إلى مقام أدنى.

أو أن يكون من «الإنزال» بمعنى الضيافة، يقال أنزلت فلانا: أى أضفته، و النزل (على وزن رسل) ما يعدّ للنازل من الزاد، و منه قوله تعالى: فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ۲۹۷] و قوله سبحانه: خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۲۹۸].

و تعبير «الإنزال» للمنّ و السلوى، قد يشير إلى أن بنى إسرائيل كانوا ضيوف اللّه فى الأرض، فاستضافهم بالمن و السلوى.

و يحتمل أن يكون الإنزال بمعنى الهبوط من الأعلى لأن النعم المذكورة و خاصة (السلوى) تهبط إلى الأرض من الأعلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۶

۴- ما هو الغمام؟

قيل: الغمام و السحاب بمعنى واحد، و قيل الغمام هو السحاب الأبيض، و ذكروا فى وصفه أنه ابرد و أرق من السحاب، و الغمام فى الأصل من الغمّ و هو تغطية الشىء، و سمّى الغمام بهذا الاسم لأنه يغطى صفحة السماء، و سمّى الهمّ غما بهذا الاسم لأنه يحجب القلب ۲۹۹].

على أى حال، قد يشير تعبير «الغمام» إلى أن بنى إسرائيل، كانوا يستفيدون من ظل الغمام إضافة إلى تمتعهم بالنور الكافى لبياض هذه السّحبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۵۹)

التّفسير

عناد بنى إسرائيل

و هنا نصل إلى مقطع جديد من حياة بنى إسرائيل، يرتبط بورودهم الأرض المقدسة. تقول الآية الاولى: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ و القرية كل مكان يعيش فيه جمع من النّاس، و يشمل ذلك المدن الكبيرة و الصغيرة، خلافا لمعناها الرائج المعاصر، و المقصود بالقرية هنا بيت المقدس.

ثم تقول الآية: فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ أى حطّ عنا خطايانا، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

كلمة «حطّة» فى اللغة، تأتى بمعنى التناثر و المراد منها فى هذه الآية الشريفة، آلهنا نطلب منك أن تحطّ ذنوبنا و أوزارنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۸

أمرهم اللّه سبحانه أن يردّدوا من أعماق قلوبهم عبارة الاستغفار المذكورة، و يدخلوا الباب، و يبدو أنه من أبواب بيت المقدس ۳۰۰]، و قد يكون هذا سبب تسمية أحد أبواب بيت المقدس «باب الحطة».

و الآية تنتهى بعبارة وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ أى أن المحسنين سينالون المزيد من الأجر إضافة إلى غفران الخطايا.

و القرآن يحدثنا عن عناد مجموعة من بنى إسرائيل حتى فى ترتيل عبارة الاستغفار، فهؤلاء لم يرددوا العبارة بل بدلوها بعبارة اخرى فيها معنى السخرية و الاستهزاء، و القرآن يقول عن هؤلاء المعاندين: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ و كانت نتيجة هذا العناد ما يحدثنا عنه كتاب اللّه حيث يقول:

فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و «الرجز» أصله الاضطراب- كما يقول الراغب فى مفرداته- و منه قيل رجز البعير إذا اضطرب مشيه لضعفه.

و يقول «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: إنّ الرجز يعنى العذاب عند أهل الحجاز،

و يروى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله بشأن مرض الطاعون: «إنّه رجز عذّب به بعض الأمم قبلكم»[۳۰۱].

و من هنا يتضح سبب تفسير «الرجز» فى بعض الروايات أنه نوع من الطاعون فشا بسرعة بين بنى إسرائيل و أهلك جمعا منهم.

قد يقال إن الطاعون لا ينزل من السماء، لكن هذا التعبير قد يشير إلى حقيقة انتشار هذا المرض عن طريق الهواء الملوّث بميكروب الطاعون الذى هبّ بأمر اللّه آنذاك فى بيئة بنى إسرائيل.

يلفت النظر أن من عوارض الطاعون اضطرابا فى المشى و الكلام، و هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۳۹

يتناسب مع أصل معنى «الرجز» تماما.

و من الملفت للنظر أيضا أن القرآن يؤكد أن هذا العذاب نزل عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فقط، و لم يشمل جميع بنى إسرائيل.

ثم تذكر الآية تأكيدا آخر على سبب نزول العذاب على هذه المجموعة من بنى إسرائيل بعبارة: بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و الآية الكريمة بعد ذلك تبين بشكل غير مباشر سنة من سنن اللّه تعالى، هى أن الذنب حينما يتعمق فى المجتمع و يصبح عادة اجتماعية، عند ذاك يقترب احتمال نزول العذاب الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۰]

اشارة

وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۶۰)

التّفسير

انفجار العيون فى الصّحراء تذكير آخر بنعمة اخرى من نعم اللّه على بنى إسرائيل: و هذا التذكير تشير إليه كلمة «إذ» المقصود منها (و اذكروا إذ)، و هذه النعمة أغدقها اللّه عليهم، حين كان بنو إسرائيل فى أمسّ الحاجة إلى الماء و هم فى وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السّلام من اللّه عزّ و جلّ الماء: وَ إِذِ اسْتَسْقى مُوسى لِقَوْمِهِ فتقبل اللّه طلبه، و أمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: فَقُلْنَا اضْرِبْ

بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً بعدد قبائل بنى إسرائيل.

و كل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التى تخصّها قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ

كثرت الأقوال فى طبيعة الحجر الذى انفجرت منه العيون، و كيفية ضربه بالعصا، و القرآن لا يزيد على ذكر ما سبق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۱

قال بعض المفسرين: إن هذا الحجر كان فى ثنايا الجبال المطلة على الصحراء و تدل جملة «انبجست» الواردة فى الآية ۱۶۰ من سورة الأعراف على أن المياه جرت قليلة أولا، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بنى إسرائيل مع مواشيهم و دوابهم.

ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز كما هو واضح.

ثمة أقوال تذكر أن ذلك الحجر كان من نوع خاص حمله بنو إسرائيل معهم، و متى احتاجوا إلى الماء ضربه موسى بعصاه فيجرى من الماء. و ليس فى القرآن ما يثبت ذلك، و إن أشارت إليه بعض الروايات.

فى الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراة:

فقال الرب لموسى سر قدام الشعب و خذ معك من شيوخ إسرائيل و عصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك و اذهب- ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل»[۳۰۲].

لقد منّ اللّه على بنى إسرائيل بإنزال المنّ و السلوى، و فى هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذى يعزّ فى تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

و فى هذه العبارة حث لهم على ترك العناد و إيذاء الأنبياء، و أن يكون هذا أقل شكرهم للّه على هذه النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۲

بحوث

۱- الفرق بين العثّى و الإفساد

نهى اللّه سبحانه بنى إسرائيل عن الفساد بفعل لا تَعْثَوْا، من العثّى و هو شدة الفساد، و تشبه فى معناها «العيث»، إلّا أنّ العيث أكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا، و العثىّ فيما يدرك حكما[۳۰۳]. و بهذا يكون معنى لا- تَعْثَوْا هو معنى «المفسدين» و لكنه مع تأكيد أشد.

و قد تشير عبارة النهى بأجمعها إلى حقيقة بدء الفساد من نقطة صغيرة، و اتساعها و اشتدادها بعد ذلك. أى تبدأ بالفساد و تنتهى بالعثىّ الأرض، و هو شدة الفساد و اتساعه.

۲- المعاجز فى حياة بنى إسرائيل

قد تثير مسألة انفجار الماء من الحجر و ما شابهها من المعاجز فى حياة الأنبياء تساؤلات فى ذهن أولئك الذين لم يستوعبوا منطق الإعجاز. و لا نريد هنا أن نتعرض إلى مسألة الإعجاز، لأنها تحتاج إلى بحث مستقل. و نكتفى بالقول: إن المعجزة ليست أمرا محالا، و ليست استثناء فى قانون العليّة. بل إنها خرق لما ألفناه و اعتدنا عليه، أو بعبارة اخرى، خرق لما ألفناه فى حياتنا اليوميّة من ارتباط بين

العلة و المعلول.

و طبيعى أن تغيير مسير العلل و المعلولات ليس بعسير على اللّه سبحانه، و لو خلق اللّه هذه العلل و المعلولات منذ البدء بشكل آخر غير ما هى عليه اليوم، لكان هذا الذى نألفه اليوم خارقا للعادة.

باختصار، خالق عالم الوجود و نظام العليّة حاكم على ما خلق لا محكوم له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۳

و فى حياتنا اليومية صور كثيرة للاستثناءات فى النظام القائم للعلل و المعلولات.

و مسألة الإعجاز لا تشكل أية مشكلة عقلية أو علمية.

۳- الفرق بين الإنفجار و الانبجاس

فى الآية المذكورة ورد الفعل «انفجر» ليعبّر عن تدفق الماء من الحجر، بينما ورد الفعل «انبجس» فى الآية ۱۶۰ من سورة الأعراف ليشير إلى نفس الحقيقة مع فارق هو أن الأول يفصح عن شدة تدفّق الماء، و الثانى عن سيلانه بشكل هادئ.

لعل آية سورة الأعراف تتحدث عن المرحلة الأولى من ظهور الماء، و جريانه بشكل هادئ لا يثير فزع القوم، و لا يمنعهم من السيطرة عليه، بينما تشير الآية التى نحن فى صددها إلى المرحلة النهائية حيث اشتد جريان الماء.

و الراغب فى مفرداته يفسر الانبجاس و الإنفجار بشكل يتناسب مع ما أشرنا إليه إذ يقول: بجس الماء و انبجس: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق. و الإنفجار يستعمل فيه و فيما يخرج من شىء واسع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۱]

اشارة

وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۶۱)

التّفسير

المطالبة بالأطعمة المتنوعة

بعد أن شرحت الآيات السابقة نعم اللّه على بنى إسرائيل، ذكرت هذه الآية صورة من عنادهم و كفرانهم بهذه النعم الكبرى.

تتحدث الآية أولا عن مطالبة بنى إسرائيل نبيّهم بأطعمة متنوعة بدل اطعام الواحد (المنّ و السّلوى): وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعامٍ واحِدٍ فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِها وَ قِثَّائِها وَ فُومِها وَ عَدَسِها وَ بَصَلِها.

فخاطبهم موسى قالَ أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۵

مِصْراً فَإِنَّ لَكَمْ ما سَأَلْتُمْ

و يضيف القرآن: وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ

بحوث

۱- آراء المفسرين فى كلمة «مصر»

من المفسرين من قال إن المقصود من كلمة «مصر» فى الآية الكريمة هو المفهوم العام للمدينة. و قوله سبحانه: اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ أى إنكم الآن تعيشون فى هذه الصحراء ضمن إطار منهج للاختبار و بناء الذات، و ليس هذا مكان الأطعمة المتنوعة، اذهبوا إلى المدن حيث التنوع فى المأكولات، و لكن لا يوجد فيها المنهج المذكور.

و يستدل أصحاب هذا الرأى بأن بنى إسرائيل لم يطلبوا العودة إلى «مصر» موطنهم السابق و لم يعودوا إليه إطلاقا[۳۰۴].

و منهم من اختار هذا التّفسير لمصر، و أضاف إليه أن المقصود من قوله تعالى:

اهْبِطُوا ... هو أن بقاءكم فى الصحراء و اقتصاركم على الطعام الواحد يعودان إلى ضعفكم، فكونوا أقوياء، و حاربوا الأعداء، و حرروا من سيطرتهم مدن الشام و الأرض المقدسة، ليتوفر لكم ما شئتم ۳۰۵].

و هناك رأى ثالث للمفسرين هو أن المقصود من «مصر» البلد المعروف.

و يكون المعنى عندئذ: إنكم فى هذه الصحراء الخالية من الأطعمة المتنوعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۶

تملكون الإيمان و الحرية و الاستقلال، و إن أبيتم إلّا أن تكون لكم أطعمة متنوعة، فارجعوا إلى مصر حيث الذل و الاستعباد، لتأكلوا من فتات موائد الفراعنة. إن مشتهيات بطونكم أنستكم ما كنتم تعانون منه من ذل و استعباد، و ما حصلتم اليوم عليه من حرية و رفعة و افتخار، و ما تتحملونه من حرمان يسير إنما هو ثمن لحريتكم ۳۰۶].

و يبدو أن التّفسير الأول أنسب من التاليين.

۲- التنوع و طبيعة الإنسان

التنوع هو- دون شك- من متطلبات البشر، و حبّ التنويع خصلة طبيعية فى البشر. و الإنسان- إن استمرّ على تناول طعام معين لمدّة طويلة- يمل ذلك الطعام.

فلم إذن توجّه اللوم و التقريع إلى بنى إسرائيل حين طلبوا الخضروات و الخيار و الثوم و العدس و البصل ليتخلصوا من الطعام الواحد؟!

الجواب يتضح لو علمنا أنّ الحياة الإنسانية تقوم على أساس حقائق هامّة لا يمكن التخلّى عنها، هى الإيمان و الطهر و التقوى و التحرّر.

و قد تمرّ الجماعة البشرية بمرحلة يتعارض فيها هذا الأساس الهام مع متطلبات الإنسان من الطعام و الشراب و اللذائذ الاخرى. و هنا تصبح الجماعة أمام خيارين، إمّا أن تنغمس فى اللذات و تترك قيمها و شرفها، أو تضحى بلذّاتها من أجل إنسانيتها و كرامتها.

بنو إسرائيل كانوا يعيشون أمام هذين الخيارين.

و لا بدّ من الإشارة إلى أن حقيقة حبّ التنويع استغلها الطامعون و المستعمرون دوما، ليدفعوا الشعوب إلى هاوية حياة استهلاكية

شهوانية هابطة، يعيش الأفراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۷

فيها بين المعلف و المضجع، ناسين شخصيتهم الإنسانية، و غافلين عن النير الذى يطوق أعناقهم.

۳- هل «المنّ» و «السلوى» خير الأطعمة؟

حين طلب بنو إسرائيل أطعمة متنوعة جاءهم التقريع بالقول: أَ تَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟! أى أ تختارون الأدنى و تتركون الأفضل؟! و يبدو أن المقصود بالأفضل هنا هو ما لديهم من طعام متمثل بالمن و السلوى. غير أن التفضيل الذى يطرحه القرآن هنا يعود إلى الحياة بكل أبعادها، و التقريع يتجه إلى بنى إسرائيل لرغبتهم فى التنويع مع ما قد يكشف هذا التنويع من ذلّ و هوان.

و على صعيد القيمة الغذائية، فإن الأطعمة النباتية التى طلبها بنو إسرائيل لها قيمتها الغذائية طبعا، غير أن مقدار الموارد الغذائية النافعة الموجودة فى «المن»- و هو العسل أو مادة سكرية مقوّية- و كذلك فى لحوم السلوى يفوق ما فى الأطعمة النباتية المذكورة، كما أن المن و السلوى أسهل هضما من الحبوب المذكورة[۳۰۷].

و لا بأس من الإشارة إلى أن «الفوم» الذى طلبه بنو إسرائيل فسّر بالحنطة مرة و بالثوم مرة اخرى، و لكلّ من المادتين قيمتها الغذائية، و يرى بعض أن تفسير الفوم بالقمح أصحّ لاستبعاد أن يطلب القوم طعاما خاليا من القمح ۳۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۸

۴- ذلة بنى إسرائيل و مسكنتهم

تفيد الآية الكريمة أن بنى إسرائيل ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ لعاملين:

الأوّل- لكفرهم بآيات اللّه، و انحرافهم عن خط التوحيد.

الثانى- لقتلهم الأنبياء بغير حق.

ظاهرة الانحراف عن خط التوحيد و ظاهرة القسوة و الفظاظة، لا زالتا مشهودتين حتى اليوم عند جمع من هؤلاء القوم، و لا زالتا سببا لشقاوتهم و طيشهم و تعاستهم ۳۰۹].

فى تفسير الآية ۱۱۲ من سورة آل عمران تحدثنا بالتفصيل عن مصير اليهود و حياتهم التعيسة، (المجلد الثانى من هذا التّفسير).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۴۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۶۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲)

التّفسير

القانون العام للنّجاة

بعد عرض لمقاطع من تاريخ بنى إسرائيل، تطرح هذه الآية الكريمة مبدأ عاما فى التقييم وفق المعايير الإلهية. و هذا المبدأ ينص على أن الإيمان و العمل الصالح هما أساس تقييم الأفراد، و ليس للتظاهر و التصنّع قيمة فى ميزان اللّه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

هذه الآية تكررت مع اختلاف يسير فى سورة المائدة، الآية ۷۲ و فى سورة الحج الآية ۱۷.

سياق الآية فى سورة المائدة يشير إلى أن اليهود و النصارى فخروا بدينهم، و اعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين، و ادّعوا بأن الجنّة خاصة بهم دون غيرهم.

و لعل مثل هذا التفاخر صدر عن بعض المسلمين أيضا، و لذلك نزلت هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۰

الآية الكريمة لتؤكد أن الإيمان الظاهرى لا قيمة له فى الميزان الإلهى، سواء فى ذلك المسلمون و اليهود و النصارى و أتباع الأديان الاخرى. و لتقول الآية أيضا: إن الأجر عند اللّه يقوم على أساس الإيمان الحقيقى باللّه و اليوم الآخر إضافة إلى العمل الصالح. و هذا الأساس هو الباعث الوحيد للسعادة الحقيقة و الابتعاد عن كل خوف و حزن.

تساؤل هام

بعض المضللين اتخذوا من الآية الكريمة التى نحن بصددها وسيلة لبثّ شبهة مفادها أن العمل بأى دين من الأديان الإلهية له أجر عند اللّه، و ليس من اللازم أن يعتنق اليهودى أو النصرانى الإسلام، بل يكفى أن يؤمن باللّه و اليوم الآخر و يعمل صالحا.

الجواب: نعلم أن القرآن يفسّر بعضه بعضا، و الكتاب العزيز يقول: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ۳۱۰].

كما أن القرآن مليء بالآيات التى تدعو أهل الكتاب إلى اعتناق الدين الجديد، و تلك الشبهة تتعارض مع هذه الآيات. من هنا يلزمنا أن نفهم المعنى الحقيقى للآية الكريمة.

و نذكر تفسيرين لها من أوضح و أنسب ما ذكره المفسرون:

۱- لو عمل اليهود و النصارى و غيرهم من أتباع الأديان السماوية بما جاء فى كتبهم، لآمنوا حتما بالنّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، لأن بشارات الظهور و علائم النّبى و صفاته مذكورة فى هذه الكتب السماوية، و سيأتى شرح ذلك فى تفسير الآية ۱۴۶ من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۱

۲- هذه الآية تجيب على سؤال عرض لكثير من المسلمين فى بداية ظهور الإسلام، يدور حول مصير آبائهم و أجدادهم الذين لم يدركوا عصر الإسلام، ترى، هل سيؤاخذون على عدم إسلامهم و إيمانهم؟! الآية المذكورة نزلت لتقول إن كل أمّة عملت فى عصرها بما جاء به نبيّها من تعاليم السماء و عملت صالحا؛ فإنها ناجية، و لا خوف على أفراد تلك الامّة و لا هم يحزنون.

فاليهود المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور المسيح، و المسيحيون المؤمنون العاملون ناجون قبل ظهور نبى الإسلام.

و هذا المعنى مستفاد من سبب نزول هذه الآية كما سيأتى.

بحوث

۱- قصّة سلمان الفارسی رحمه اللّه

إكمالا للبحث، لا بأس أن نذكر هنا سبب نزول هذه الآية كما جاء فی جامع البيان للطبری:

«كان سلمان من جنديسابور، و كان من أشرافهم، و كان ابن الملك صديقا له مؤاخيا، لا يقضی واحد منهم أمرا دون صاحبه. و كانا يركبان إلى الصيد معا. فبينما هما فی الصيد، إذ بدا لهما بيت من خباء، فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف، يقرأ فيه، و هو يبكی.

سألاه: ما هذا؟

قال: إن كنتما تريدان أن تعلما ما فيه فانزلا، حتى أعلّمكما. فنزلا إليه.

فقال لهما: هذا كتاب من عند اللّه، أمر فيه بطاعته، و نهى عن معصيته، فيه ان لا تزنی و لا تسرق و لا تأخذ أموال النّاس بالباطل، فقص عليهما ما فيه، و هو

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۲

الإنجيل الذی أنزله اللّه على عيسى.

فوقع فی قلوبهما، و تابعاه، فأسلما.

و قال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام. فلم يزالا معه كذلك يتعلّمان منه.

ثم اتفق أن كان للملك عيد، فجعل طعاما، و دعی إليه الأشراف، فأبى ابن الملك أن يحضر الوليمة، فدعاه أبوه فقال له: ما أمرك هذا؟

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال: إنا لا نأكل من ذبائحكم، إنكم كفار لا تحل ذبائحكم.

قال له الملك: من أمرك بهذا؟ فأخبره أن الراهب أمر بذلك.

فدعا الراهب فقال: ماذا يقول ابنی؟

قال: صدق ابنك.

قال له: لو لا أن الدم فينا عظيم لقتلتك، و لكن اخرج من أرضنا. فأجّله أجلا.

قال سلمان: فقمنا نبكی عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين فأنا فی بيعة فی الموصل، مع ستين رجلا نعبد اللّه فيها، فأتونا فيها، فخرج الراهب، و بقی سلمان و ابن الملك، فجعل يقول لابن الملك: انطلق بنا، و ابن الملك يقول: نعم.

و جعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز. فلما أبطأ على سلمان، خرج سلمان حتى أتاهم، فنزل على صاحبه، و هو ربّ البيعة، و كان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان. فكان سلمان معهم يجتهد فی العبادة و يتعب نفسه.

قال له الشيخ يوما: إنك غلام حدث، تتكلف من العبادة ما لا تطيق، و أنا خائف أن تفتر و تعجز، فارفق بنفسك، و خفف عليها.

قال له سلمان: أ رأيت الذی تأمرنی به أهو أفضل أو الذی أصنع؟

قال: بل الذی تصنع.

قال: فخلّ عنی، ثم إن صاحب البيعة دعاه، فقال: إنی رجل أضعف عن عبادة هؤلاء، و أنا أريد أن أتحول من هذه البيعة إلى بيعة اخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيمها هنا فأقم، و إن شئت أن تنطلق معی فانطلق.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۳

قال له سلمان: أی البيعتين أفضل حالا؟

قال: هذه.

قال سلمان: فأنا أكون فی هذه، و أوصی صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبد معهم.

ثم إن الشيخ العالم عزم أن يأتی بيت المقدس، فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معی فانطلق، و إن شئت أن تقيم فأقم.

فقال له سلمان: أيّهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟

قال: بل تنطلق معی، و انطلقا حتی أتيا بيت المقدس.

فقال الشيخ لسلمان: أخرج فاطلب العلم، فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض. فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوما حزينا.

فقال له الشيخ: ما لك يا سلمان؟ قال: أری الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء و أتباعهم.

فقال له الشيخ: يا سلمان لا تحزن فإنه بقی نبی ليس من نبی بأفضل منه، و هذا زمانه الذی يخرج فيه، و لا أرانی أدركه، و أما أنت فشاب لعلك تدركه، و هو يخرج فی أرض العرب، فإن أدركته فآمن به و اتبعه، فقال له سلمان: فأخبرنی عن علامته بشیء، قال: نعم، هو مختوم فی ظهره بخاتم النّبوة. و هو يأكل الهدية و لا يأكل الصدقة.

ثم اتفق أن افترق سلمان عن الراهب لدی عودتهما من بيت المقدس، ففقده فی الطريق، و بينما هو يبحث عنه إذ رآه رجلان عربيان من بنی كلب، فأسراه، و أخذاه معهما إلی المدينة، قال سلمان: فأصابنی من الحزن شیء لم يصبنی مثله قط، فاشترته امرأة من جهينة، فكان يرعی عليها هو و غلام لها يتراوحان الغنم هذا يوما و هذا يوما. فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمّد صلّی اللّه عليه و اله و سلّم فبينا هو يرعی يوما إذ أتاه صاحبه الذی يعقبه فقال: أعلمت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل يزعم أنه نبی؟! فقال له سلمان: أقم فی الغنم حتی آتيك.

فذهب سلمان إلی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۴

المدينة، فنظر إلی النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم و دار حوله، فلما رآه النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم عرف ما يريد.

فأرسل ثوبه حتی خرج خاتمه. فلما رآه أتاه و كلمه. ثم انطلق فاشتری طعاما و جاء به، فقال له النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم: ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة. قال: لا حاجة لی بها فأخرجها فليأكل المسلمون. ثمّ انطلق فاشتری طعاما، فأتی النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم فقال: ما هذا؟ قال: هدية. قال: فاقعد، فقعد فأكلا جميعا منها. فبينا هو يحدثه، إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون و يصلون و يؤمنون بك، و يشهدون أنك ستبعث نبيّا. فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النّبی صلّی اللّه عليه و اله و سلّم: يا سلمان هم من أهل النار. فاشتدّ ذلك علی سلمان، فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية.

۲- من هم الصّابئون؟

يقول الرّاغب الأصفهانی: الصّابئون قوم كانوا علی دين نوح ۳۱۱] و ذكرهم إلی جانب المؤمنين و اليهود و النصاری يدل علی أنهم كانوا يدينون بدين سماوی و يؤمنون باللّه و اليوم الآخر.

و اعتبر البعض أنهم مشركون، و قيل عنهم أنهم مجوس، و ليسوا كذلك، لأن القرآن ذكرهم إلی جانب المشركين و المجوس إذا قال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ...[۳۱۲].

و اختلف المفسّرون و أصحاب الملل و النحل فی تشخيص هوية الصابئين، و وجه تسميتهم.

«الشّهرستانی» فی «الملل و النحل» يقول: الصابئة من صبأ أی انحرف عن طريق الأنبياء، و هؤلاء قوم انحرفوا عن طريق الحق و دين الأنبياء فهم «صابئة».

و یقول «الفیومی» فی «المصباح المنیر» إن «صبأ» تعنی الخروج من الدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۵

إلی دین آخر.

و فی معجم (دهخدا) الفارسی: الصابئون جمع صابئ و هی کلمة مشتقة من (ص- ب- ع) العبریة التی تعنی الغوص فی الماء (أو التعمید)، و سقطت العین فی التعریب، و تسمی هذه الطائفة التی تسکن خوزستان باسم (المغتسلة) لذلک.

دائرة المعارف الفرنسیة، فی المجلد الرابع، ص ۲۲، ذکرت أن هذه الکلمة عربیة و تعنی الانغماس فی الماء أو التعمید.

(جسینوس) الألمانی یذهب إلی أن هذه الکلمة عبریة، و لا یستبعد أن تکون مشتقة من کلمة تعنی «النّجم».

صاحب کتاب «کشاف اصطلاح الفنون» یقول: «الصابئون فرقة تعبد الملائکة و یقرءون (الزبور) و یتجهون نحو القبلة».

و جاء فی کتاب «التنبیه و الإشراف» نقلا عن «الأمثال و الحکم» ص ۱۶۶۶:

«قبل أن یطرح (زراتشت) دعوة المجوسیة علی (جشتاسب)، و کان أهل هذه الدیار علی مذهب (الحنفاء)، و هم الصابئون، و هو دین جاء به (بوذاسب) علی عهد (طهمورس)».

سبب اختلاف الآراء حول هذه الطائفة یعود إلی قلة أفرادها و إصرارهم علی إخفاء تعالیمهم، و امتناعهم عن الدعوة إلی دینهم، و اعتقادهم أن دینهم خاص بهم لا عام لکل النّاس، و أن نبیهم مبعوث إلیهم لا لغیرهم. و لذلک أحیطوا بکثیر من الغموض و اکتنفتهم الأسرار، و هم یتجهون نحو الانقراض.

الالتزام بتعالیمهم علی غایة الصعوبة، ففیها أنواع الأغسال و التعمیدات فی الشتاء و الصیف، و یمیلون إلی الانزواء و الابتعاد عن غیر أبناء دینهم و یحرمون تزوّج النساء من غیر الصابئین، و کثیر منهم اعتنق الإسلام نتیجة اختلاطهم بالمسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۶

۳- معتقدات الصّابئین

یعتقد الصائبة أن أول کتاب مقدّس سماوی نزل علی آدم، و بعده علی نوح، ثم علی سام، ثم علی «رام»، ثم علی إبراهیم الخلیل، ثم علی موسی، و أخیرا علی یحیی بن زکریا.

کتبهم المقدسة:

۱- «کیزاربا» و یسمی أیضا «سدره» أو «صحف» آدم، و فیه آراء حول کیفیة بدء الخلق.

۲- کتاب «أدر أفشادهی» أو «سدرادهی» و یتحدث عن یحیی و تعالیمه و یعتقد الصابئة أنه موحی إلی یحیی عن طریق جبرائیل.

۳- کتاب «قلستا» و فیه تعالیم الزّواج و الزّوجیة، و هذا إلی جانب کتب کثیرة اخری یطول ذکرها.

یبدو ممّا سبق أنّ هؤلاء أتباع یحیی بن زکریا، الذی یسمیه المسیحیون یحیی المعمّد، أو یوحنا المعمّد[۳۱۳].

صاحب کتاب «بلوغ الإرب» له رأی آخر بشأن الصّابئة، یقول:

«هم من یعتقد فی الأنواء اعتقاد المنجمین فی السیارات حتی لا یتحرک و لا یسکن و لا یسافر و لا یقیم إلّا بنوء من الأنواء و یقول مطرنا بنوء کذا ...[۳۱۴].

و هؤلاء کانوا قوم إبراهیم الخلیل علیه السّلام و هو أهل دعوته و کانوا بحرّان، فهی دار الصابئة، و کانوا قسمین: صابئة حنفاء، و صابئة

مشـرکین، و المشـرکون منهم یعظمون الکواکب السـبعة و البروج الاـثنی عشـر، و یصورونهـا فی هیـاکلهم ... و یتخـذون لهـا أصـناما تخصها و یقربون لها القرابین.

و طوائف منهم یصومون شهر رمضان و یستقبلون فی صلواتهم الکعبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۷

و یعظمون مکـة و یرون الحـج إلیها و یحرمون المیتـة و الـدم و لحم الخنزیر و یحرمون من القرابات فی النکاح ما یحرم المسـلمون، و علی هـذا المـذهب کان جماعـة من أعیان الدولـة ببغـداد منهم هلال بن المحسن الصّابی صاحب الدیوان الإنشائی و صاحب الرسائل المشـهورة، و کـان مع المسـلمین و یعبـد معهم و یزکی و یحرم المحرمـات، و کـان النّاس یعجبون من موافقته للمسـلمین و لیس علی دینهم، و أصل دین هؤلاء فیما زعموا أنهم یأخـذون محاسن دیانات العالم و مـذاهبهم و یخرجون من قبیح ما هم علیه قولا و عملا، و لهذا سموا صابئة، أی خارجین، فقد خرجوا عن تقییدهم بجملة کل دین و تفصیله إلّا ما رأوه فیه من الحق ۳۱۵]».

من مجموع ما سـبق یتبین أن الصابئین کانوا فی الأصل أتباع أحد الأنبیاء و إن اختلف المحققون فی تعیین نبیّهم. و تبین أیضا أن عدد هؤلاء قلیل و هم فی حالة انقراض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۸

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۶۳ الی ۶۴]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْکُرُوا ما فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ (۶۳) ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَکُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ (۶۴)

التّفسیر

الالتزام بالمیثاق

هاتان الآیتان تطرحان مسألة أخذ میثاق بنی إسرائیل بشأن العمل بالتوراة، ثمّ نقضهم للمیثاق: وَ إِذْ أَخَذْنا مِیثاقَکُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ و الطور جبل و سیأتی ذکره. و قلنا لکم: خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ، و اجعلوا التوراة دوما نصب أعینکم: وَ اذْکُرُوا ما فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ لکنکم نقضتم المیثاق و جعلتموه وراء ظهورکم: ثُمَّ تَوَلَّیْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَلَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَکُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۵۹

بحوث

۱- المیثاق

المقصود من المیثاق فی الآیـة الکریمـة هو نفس ما جاء فی الآیة ۴۰ من هذه السّورة و ما سـیأتی فی الآیتین ۸۳ و ۸۴ أیضا. مواد هذا المیثاق عبارة عن:

توحید اللّه، و الإحسان إلی الوالدین و الأقربین و الیتامی و المساکین، و القول الصالح، و إقامة الصلاة، و أداء الزکاة، و اجتناب سفک الدماء. هذه المواد وردت فی التّوراة کذلک.

من الآیة ۱۲ لسورة المائدة یتضح أیضا أن اللّه أخذ میثاق بنی إسرائیل أن یؤمنوا بجمیع الأنبیاء و یساندوهم، و أن ینفقوا فی سبیل اللّه. و فی هذه الآیة ضمان للقوم بدخول الجنّة إن عملوا بهذا المیثاق.

۲- رفع جبل الطّور

أمّا بشأن کیفیة رفع جبل الطور فی قوله تعالی: وَ رَفَعْنا فَوْقَکُمُ الطُّورَ یقول الطبرسی عن أبی زید: حدث هذا حین رجع موسی من الطور، فأتی بالألواح، فقال لقومه: جئتکم بالألواح و فیها التوراة و الحلال و الحرام فاعملوا بها، قالوا: و من یقبل قولک؟! فأرسل اللّه عزّ و جلّ الملائکة حتی نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسی علیه السّلام: إن قبلتم ما آتیتکم به و إلّا أرسلوا الجبل علیکم، فأخذوا التوراة و سجد و اللّه تعالی ملاحظین الجبل (أی و هم ینظرون إلی الجبل من طرف خفی)، فمن ثمّ یسجد الیهود علی أحد شقی وجوههم».

مضمون هذه الآیة ورد مع تفاوت بسیط فی الآیة ۹۳ من سورة البقرة و ۱۵۴ النساء، و ۱۱۷ الأعراف.

الطبرسی- کما ذکرنا- و جمع من المفسرین- یذهبون إلی أن جبل الطور رفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۰

فوق رؤوس بنی إسرائیل بأمر اللّه لا یجاد الظل علیهم ۳۱۶]، و هناک من یقول إن زلزالا شدیدا ضرب الجبل، بحیث کان یری بنو إسرائیل ظل قمة الجبل علی رؤوسهم من شدة الاهتزاز، و ترقبوا أن یسقط الجبل علیهم، لکن الزلزال هدأ بفضل اللّه و استقرّ الجبل ۳۱۷].

و یحتمل أیضا أن تکون قد انفصلت من الجبل صخرة عظیمة بأمر اللّه علی أثر زلزال شدید أو صاعقة، و مرّت فوق رؤوسهم فی لحظات، فرأوها و تصوروا أنها ستسقط علیهم.

۳- الالتزام و الإرهاب

مسألة رفع الجبل فوق بنی إسرائیل لتهدیدهم عند أخذ المیثاق تثیر سؤالا بشأن إمکان تحقیق الالتزام عن طریق التخویف و الإرهاب.

هناک من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ینطوی علی إرهاب و تخویف أو إکراه، لأن أخذ المیثاق بالإکراه لا قیمة له.

و الأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندین المتمردین علی الرضوخ للحق بالقوّة. و هذا الإرغام مؤقت هدفه کسر أنفتهم و عنادهم و غرورهم، و من ثم دفعهم للفکر الصحیح، کی یؤدوا واجباتهم بعد ذلک عن إرادة و إختیار.

علی أی حال، هذا المیثاق یرتبط بالمسائل العملیة، لا بالجانب الاعتقادی، فالمعتقدات لا یمکن تغییرها بالإکراه.

۴- جبل الطّور

اختلف المفسرون فی المقصود من جبل «الطّور»، منهم من قال: إنه نفس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۶۱

الجبل الذى أوحى فيه إلى موسى. و قال آخرون: إنه اسم جنس بمعنى مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. و جاء تعبير (الجبل) بدل كلمة الطور فى قوله تعالى: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ ۳۱۸].

۵- خذوا تعاليم السّماء بقوّة

خاطب اللّه سبحانه بنى إسرائيل فقال: خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و عن هذه الآية

سئل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام عن المقصود من القوّة فى هذه الآية:

«أ بقوّة بالأبدان أم بقوّة فى القلوب»؟

قال: «بهما جميعا»[۳۱۹].

و هذا الأمر الإلهى يتجه إلى كل أتباع الأديان الإلهية فى كل زمان و مكان، و يطلب منهم أن يتجهزوا بالقوى المادية و القوى المعنوية معا، لصيانة خط التوحيد و إقامة حاكمية اللّه فى الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۲

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۵ الى ۶۶]

اشارة

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (۶۵) فَجَعَلْناها نَكالاً لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۶۶)

التّفسير

عصاة يوم السبت

هاتان الآيتان الكريمتان تتحدثان- كالآيات السابقة- عن روح العصيان و التمرد المتغلغلة فى اليهود، و التصاقهم الشديد بالمسائل المادية: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ ۳۲۰].

فَجَعَلْناها نَكالًا لِما بَيْنَ يَدَيْها وَ ما خَلْفَها أى جعلناها عبرة لتلك الامّة و لأمم تليها وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

ملخص الحادثة التى تشير إليها الآية: «أن اللّه سبحانه أمر اليهود أن يسبتوا- أى أن يقطعوا أعمالهم- يوم السبت، و هذا الأمر شمل طبعا أولئك القاطنين قرب البحر الذين يعيشون على صيد الأسماك، و شاء اللّه أن يختبر هؤلاء، فكثرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۳

الأسماك يوم السبت قرب الساحل بينما ندرت فى بقية الأيّام. طفق هؤلاء يتحايلون لصيد الأسماك يوم السبت. فعاقبهم اللّه على عصيانهم و مسخهم على هيئة حيوان».

و هل كان هذا المسخ جسمى أم نفسى و أخلاقى؟ و أين كان يسكن هؤلاء القوم؟ و بأية حيلة توسلوا للصيد؟ هذا ما سنجيب عليه و على غيره من المسائل المرتبطة بهذا الموضوع فى المجلد الخامس من هذا التّفسير، لدى توضيح الآيات ۱۶۳- ۱۶۶ من سورة الأعراف.

و قوله تعالى: فَقُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ إشارة إلى فورية المسخ الذى تمّ بأمر إلهى واحد.

و من المفيد أن ننقل فى هذا المجال رواية عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام فى تفسير قوله تعالى فَجَعَلْناها نَكالًا ... قالا: لِما بَيْنَ يَدَيْها إى لما معها ينظر إليها من القرى (فى زمان تلك الامّة)، وَ ما خَلْفَها نحن (المسلمون) و لنا فيها موعظة[۳۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۶۷ الى ۷۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۶۷) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (۶۸) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (۶۹) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (۷۱)

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۷۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۵

التّفسير

قصّة بقرة بنى إسرائيل

هذه الآيات تتحدث بالتفصيل عن حادثة اخرى من حوادث تاريخ بنى إسرائيل، هذا التفصيل لم نألفه فى الآيات السابقة، و لعله يعود إلى أن هذه الحادثة ذكرت فى هذا الموضع- لا غير- من القرآن الكريم، و إلى أنها تتضمن عبرا كثيرة تستوجب هذا التفصيل. من هذه الدروس: لجاج بنى إسرائيل و عنادهم، و مستوى إيمانهم بكلام موسى عليه السّلام، و أهمّ من كل هذا البرهنة على إمكان المعاد.

الحادثة (كما يبينها القرآن و كتب التّفسير) على النحو التالى: قتل شخص من بنى إسرائيل بشكل غامض، و لم يعرف القاتل.

حدث بين قبائل بنى إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الاخرى بالقتل. توجّهوا إلى موسى ليقضى بينهم. فما كانت الأساليب الاعتيادية ممكنة فى هذا القضاء. و ما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بنى إسرائيل. لجأ موسى- بإذن اللّه- إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة كما ستوضحها الآيات الكريمة[۳۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۶

يقوله سبحانه فى هذه الآيات: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً؟! قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ

أى إن الاستهزاء من عمل الجاهلين، و أنبياء اللّه مبرّأون من ذلك.

بعد أن أيقنوا جديّة المسألة، قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ و عبارة «ربك» تتكرر فى خطاب بنى إسرائيل لموسى، و تنطوى على نوع من إساءة الأدب و السخرية، و كأن ربّ موسى غير ربهم!! موسى عليه السّلام أجابهم: قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ أى إنها لا كبيرة هرمة و لا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ

لكن بنى إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها؟

أجابهم موسى: قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ أى إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

و لم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرّوا على لجاجهم، و ضيّقوا دائرة انتخاب البقرة على أنفسهم.

عادوا و قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ طالبين بذلك مزيدا من التوضيح، متذرعين بالقول: إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ

أجابهم موسى قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ أى ليست من النوع المذلل لحرث الأرض و سقيها.

مُسَلَّمَةٌ من العيوب كلها.

لا شِيَةَ فِيها أى لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۷

فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ أى أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

بعد أن ذكر القرآن تفاصيل القصة، عاد فلخص الحادث بآيتين: وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها أى فاختلفتم فى القتل و تدافعتم فيه. وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها أى اضربوا المقتول ببعض أجزاء البقرة، كى يحيى و يخبركم بقاتله. كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و بعد هذه الآيات البينات، لم تلن قلوب بنى إسرائيل، بل بقيت على قسوتها و غلظتها و جفافها. ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.

إنها أشد قسوة من الحجارة، لأن بعض الحجارة تتفجر منها الأنهار، أو تنبع منها المياه أو تسقط من خوف اللّه: وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

لكن قلوب بنى إسرائيل أشدّ قسوة من الحجارة، فلا تنفجر منها عاطفة و لا علم، و لا تنبع منها قطرة حبّ، و لا تخفق من خوف اللّه.

و اللّه عالم بما تنطوى عليه القلوب و ما تفعله الأيدى: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

بحوث

۱- أسئلة كثيرة تافهة

«السّؤال» دون شك مفتاح لحل المشاكل، و وسيلة لإزالة الجهل و الإبهام، لكنه مثل بقية الأمور، إن تجاوز حدّه و جاء فى غير موضعه فإنّه يدلّ على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۸

الانحراف و يؤدى إلى أضرار، و من ذلك ما نراه فى هذه القصة.

بنو إسرائيل أمروا أن يذبحوا بقرة. و كان بإمكانهم أن يذبحوا أيّة بقرة شاؤوا، لأن الأمر الإلهى لم يحدّد شكل البقرة و نوعها، و لو أراد اللّه بقرة بعينها لحدّد مواصفاتها حين الأمر. لكن اللّه أمرهم أن يذبحوا «بقرة» و صيغة التنكير تدل على عدم إرادة التحديد.

هؤلاء المعاندون أبوا إلّا أن يطرحوا أسئلة متكررة، أملا فى تضييع الحقيقة و إخفاء القاتل، و بقوا يصرون على ترددهم فى الذبح حتى النهاية، و هذا ما تشير إليه عبارة: فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ

و فى الآيات ما يشير إلى أن مجموعة من بنى إسرائيل- على الأقل- كانت تعرف القاتل، و قد يكون القتل قد تمّ بمؤامرة بين هؤلاء الأفراد، لكنهم كانوا يكتمون الأمر، و لهذا يقول سبحانه: وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

أضف إلى ما سبق أنّ أهل العناد و اللجاج يكثرون دائما من الجدل و الإحتجاج على كل شىء.

و ثمة قرائن فى الآيات توضح أن هؤلاء القوم لم تكن لهم معرفة كاملة باللّه و لا- بالنبى المرسل إليهم، لذلك قالوا له بعد كل أسئلتهم: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ و كأنّ ما جاء به حتى ذلك الوقت كان باطلا!! و الملاحظ أن اللّه سبحانه ضيّق عليهم دائرة الانتخاب، و اشتد بذلك عليهم التكليف كلّما زادوا فى أسئلتهم، لأنهم مستحقون لمثل هذا العقاب. و لذلك نرى فى الأثر حثّ على السكوت عمّا سكتت عنه تعاليم السماء ففى ذلك حكمة.

عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أنّهم أمروا بأدنى بقرة و لكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم شدّد اللّه عليهم»[۳۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۶۹

۲- مدلول هذه الأوصاف:

كان تكليف بنى إسرائيل- كما ذكرنا- مطلقا غير مقيّد بمواصفات معيّنة. لكن لجاج هؤلاء ضيّق عليهم الدائرة و غيّر عليهم حكم التكليف ۳۲۴].

إلى جانب هذه الحقيقة، ثمة حقيقة اجتماعية قد يمكن استنتاجها من الأوصاف التى ذكرت للبقرة.

يبدو أن القرآن يريد أن يبين أنّ البقرة التى كتب لها أن تحيى فردا ميّتا ينبغى أن لا تكون «ذلولا» أى تأبى التسليم و الخضوع الأعمى. كما أنها ذات لون واحد خالص لا تشوبه ألوان اخرى.

و هذا يعنى أن القائد الذى يستهدف إحياء المجتمع ينبغى أوّلا- أن يكون متحررا من تأثيرات الضغوط الاجتماعية التى يمارسها أصحاب الثروة و الجاه و القوّة، و أن يستسلم للّه وحده دون أن تأخذه فى ذلك لومة لائم، كما أن القائد يجب أن يكون مبرّءا من أى لون غير اللون التوحيدى، و مثل هؤلاء الأفراد فقط يستطيعون أن يعالجوا أمور النّاس باتزان و اعتدال و يبعثوا فى قلوب و أفكار أمّتهم الخصب و الحياة.

أما المنشدّ بنير الدنيا و الخاضع لها و المشوب بالألوان و الأهواء فلا يستطيع أن يحيى القلوب الميتة، و لا يقدر أن ينهض بدور الإحياء.

۳- ما هو دافع القتل؟

تذكر كتب التأريخ و التّفسير أن دافع القتل فى هذه الحادثة إمّا المال، أو الزّواج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۰

من المفسرين من قال: إنّ ثريا من بنى إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه، فطال عمر هذا الثرى و لم يطق الوارث مزيدا من

الانتظار، فقتله خفية ليحصل على أمواله، و ألقى جسده فى الطريق، ثم بدأ بالصراخ و العويل، و شكا الأمر إلى موسى.

و قال آخرون: إن القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، و زوّج ابنته إلى أحد أخيار بنى إسرائيل. فقعد له و قتله، ثم شكا القاتل الأمر إلى موسى.

و من الممكن أن تشير القصة إلى حقيقة هى: إن كل المفاسد و الجرائم مصدرها فى الغالب أمران: الطمع فى المال، و الطمع فى الجنس.

۴- العبر فى هذه القصّة

هذه القصة لها دلالات على قدرة اللّه اللامتناهية، و كذلك على مسألة المعاد، و لذلك وردت فى الآية ۷۳ عبارة كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى إشارة إلى مسألة المعاد، و عبارة وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ تأكيد على قدرة اللّه و عظمته.

إضافة إلى ما سبق، هذه القصة تتحدث عن سنّة من سنن اللّه تعالى، و هى أن الامّة تستوجب غضب اللّه حين تصرّ على عنادها و لجاجها و استهتارها بكل شىء.

العبارات التى وردت على لسان بنى إسرائيل فى هذه القصة توضّح أن هؤلاء القوم بلغوا الذروة فى إهانة النّبى، بل و بلغت بهم الجرأة إلى إساءة الأدب تجاه ربّ العالمين.

فى البداية قالوا لنبيّهم: أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً؟ و بذلك اتهموا نبيّهم بارتكاب ذنب الاستهزاء بالآخرين.

و فى مواضع عديدة خاطبوه بعبارة ادْعُ لَنا رَبَّكَ و كأن ربّ موسى غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۱

ربّهم، مع أن موسى قد قال لهم: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ

و قالوا له أيضا: ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ و يعنون بذلك أنّ كلام موسى أدّى إلى ضلالهم فى تشخيص البقرة، ثمّ يخاطبوه فى النهاية: الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ

هذه التعبيرات تدل على جهل هؤلاء القوم و تعنّتهم و غرورهم و لجاجهم.

و هذه القصة من جهة اخرى تعلّمنا أننا ينبغى أن لا نتزمّت و لا نتشدّد فى الأمور كى لا يتشدّد اللّه معنا.

و لعل انتخاب البقرة للذبح يستهدف غسل أدمغة هؤلاء القوم من فكرة عبادة العجل.

۵- الإحسان إلى الأب

يذكر المفسرون أنّ البقرة التى ذكرت الآيات مواصفاتها، كانت وحيدة لا تشاركها بقرة اخرى فى ذلك، و لذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمن باهظ.

و يقولون: إن هذه البقرة كانت ملكا لشاب صالح على غاية البّر بوالده. هذا الرجل واتته سابقا فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقدا. و كانت النقود فى صندوق مغلق مفتاحه تحت و سادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائما، فأبى إيقاظه و إزعاجه، ففضّل أن يترك الصفقة على أن يوقظ والده.

و قال بعض المفسرين: «كان البائع على استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفا نقدا، و لكن الرجل أبى أن يوقظ والده و اقترح شراء تلك البضاعة بثمانين ألفا على أن يدفع المبلغ بعد استيقاظ والده. و أخيرا لم تتم صفقة المعاملة، و لذا أراد اللّه تعالى تعويضه على

إيثاره هذا بمعاملة اخرى و فيرة الربح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۲

و قالوا أيضا: بعد أن استيقظ الوالد و علمه بالأمر، أهدى لولده البقرة المذكورة، فدّرت عليه ربحا عظيما»[۳۲۵].

و إلى هذه القصّة يشير

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إذ يقول: «أنظروا إلى البّر ما بلغ بأهله»[۳۲۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۳

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

اشارة

أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۷۶) أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۷)

سبب النّزول

روى عن الإمام أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السّلام أنّه قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتوطئين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما فى التّوراة من صفة محمّد، فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، و قالوا: لا تخبروهم بما فى التّوراة من صفة محمّد فيحاجّوكم به عند ربّكم فنزلت هذه الآية»[۳۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۴

التّفسير

لا أمل فى هؤلاء

كان سياق الآيات السابقة يتجه نحو سرد تاريخ بنى إسرائيل، و فى هاتين الآيتين يتجه الخطاب نحو المسلمين و يقول لهم: لا تعقدوا الآمال على هداية هؤلاء اليهود، فهم مصرون على تحريف الحقائق و نكران ما عقلوه أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ و هذه عظة للمسلمين، و دفع لما قد يعتريهم من يأس نتيجة عدم استطاعتهم إقناع اليهود و جذبهم إلى الدين الجديد.

الآيتان الكريمتان توضحان أن السبب فى عدم استسلام هؤلاء القوم أمام المعجزة القرآنية و سائر المعاجز النبوية الاخرى، إنما يعود لعناد متأصل فى هؤلاء ورثوه عن آبائهم الذين سمعوا كلام اللّه عند جبل الطور، ثم ما لبثوا أن حرّفوه بعد عودتهم.

من عبارة وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ... نفهم أن بنى إسرائيل لم يكونوا بأجمعهم محرفين، بل إن فريقا منهم- و من المحتمل أن يشكل عددهم أكثرية بنى إسرائيل- كانوا هم المحرفين.

ورد فى أسباب النّزول أن مجموعة من بنى إسرائيل حين عادوا من جبل الطور قالوا: «سمعنا أن اللّه قال لموسى: اعملوا بأوامرى قدر

استطاعتكم، و اتركوها متى تعذر عليكم العمل بها»! و كان ذلك أول تحريف فى بنى إسرائيل.

على أى حال، كان من المتوقع أن يكون اليهود أول من يؤمن بالرسالة الإسلامية بعد إعلانها لأنهم أهل كتاب (خلافا للمشركين)، و لأنهم قرءوا صفات النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى كتبهم. لكن القرآن يوجه أنظار المسلمين إلى سوء السابقة لدى هؤلاء القوم، و يوضح لهم أن الانحراف النفسى يدفع إلى الإعراض عن الحقيقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۵

مهما كانت هذه الحقيقة واضحة بيّنة.

الآية التّالية تلقى الضوء على حقيقة مرّة اخرى بشأن هذه الزمرة المنافقة و تقول: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ قالُوا أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ! من المحتمل أيضا أن تتحدث هذه الآية فى صدرها عن المنافقين من اليهود الذين يتظاهرون بالايمان لدى لقائهم بالمسلمين، و يبرزون إنكارهم عند لقائهم بأصحابهم، بل يلومون أولئك اليهود الذين يكشفون للمسلمين عمّا فى التوراة من أسرار.

هذه الآية- على أى حال- تأييد للآية السابقة، التى نهت المسلمين عن عقد الأمل على إيمان مثل هؤلاء القوم.

عبارة بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ قد تعنى الميثاق الإلهى الذى كان محفوظا لدى بنى إسرائيل. و قد تشير إلى الأسرار الإلهية المرتبطة بالشريعة الجديدة.

و يتضح من الآية أن إيمان هذه الفئة المنافقة من اليهود، كان ضعيفا إلى درجة أنهم تصوروا اللّه مثل إنسان عادىّ، و ظنوا أنهم إذا أخفوا شيئا عن المسلمين فسيخفى عن اللّه أيضا.

لذلك تقول الآية التالية بصراحة: أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۷۸ الى ۷۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (۷۸) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (۷۹)

سبب النّزول

عمد جمع من علماء اليهود إلى تغيير صفات نبى الإسلام فى التوراة من أجل صيانة مصالحهم، و استمرار الأموال التى كانت تتدفق عليهم سنويا من جهلة اليهود. فعند ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم غيّروا ما ذكر من صفاته فى التوراة و أبدلوها بصفات اخرى على العكس منها، كى يموّهوا الأمر على الأميين الذين كانوا قد سمعوا من قبل بصفات النّبى فى التوراة، فمتى ما سألوا علماءهم عن هذا النّبى الجديد قرءوا لهم الآيات المحرّفة من التوراة لإقناعهم بهذه الطريقة.

التّفسير

خطّة اليهود فى استغلال الجهلة!

بعد الحديث عن انحرافات اليهود فى الآيات السابقة، قسّمت هاتان الآيتان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۷

اليهود على مجموعتين: أميين و علماء ماكرين، (هناك طبعا أقلية من علمائهم آمنت و التحقت بصفوف المسلمين).

عن المجموعة الاولى يقول تعالى: وَ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

و الأميّون جمع أمّيّ، و الأمّيّ غير الدارس. و سمّوا بذلك لأنهم فى معلوماتهم كما ولدتهم أمهاتهم، أو لشدّة تعلق امّهاتهم بهم، صعب عليهنّ فراقهم جهلا، و منعهم من الذهاب إلى المدرسة[۳۲۸].

و الأمانى جمع امنية، و لعل الآية تشير هنا إلى الامتيازات الموهومة التى كان ينسبها اليهود لأنفسهم، كقولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ ۳۲۹]، و كقولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ ۳۳۰].

و من المحتمل أيضا أن يكون المقصود من الأمانى الآيات المحرفة التى كان علماء اليهود يشيعونها بين الأميين من الناس، و هذا المعنى ينسجم أكثر مع قوله تعالى: لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَ

و على أى حال عبارة: إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ دلالة واضحة على بطلان اتّباع الظن فى فهم أصول الدين و معرفة مدرسة الوحى، و لا بدّ من التتبع و التحقيق فى هذا الأمر.

ثمّة مجموعة اخرى من العلماء كانت تحرف الحقائق لتحقيق مصالحها، و إلى هؤلاء يشير القرآن: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ....

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ....

وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۸

و من العبارة الأخيرة نفهم الهدف الدنىء لهؤلاء، و كذلك عاقبتهم الوخيمة.

و قد أورد بعض المفسرين حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية حديث فيه ملاحظات هامة:

قال رجل للصادق عليه السّلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم، فكيف ذمّهم بتقليدهم و القبول من علمائهم؟ و هل عوام اليهود إلّا كعوامنا، يقلّدون علماءهم- إلى أن قال- فقال عليه السّلام: «بين عوامنا و عوام اليهود فرق من جهة، و تسوية من جهة، أمّا من حيث الاستواء فإنّ اللّه ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم، كما ذمّ عوامهم، و أمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح، و أكل الحرام، و الرشاء و تغيير الأحكام، و اضطرّوا بقلوبهم إلى أنّ من فعل ذلك فهو فاسق، لا يجوز أن يصدّق على اللّه، و لا على الوسائط بين الخلق و بين اللّه، فلذلك ذمّهم، و كذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر، و العصبيّة الشديدة، و التكالب على الدنيا و حرامها، فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذين ذمّهم اللّه بالتقليد لفسقة علمائهم، فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا على هواه، مطيعا لأمر مولاه، فللعوام أن يقلّدوه

، و ذلك لا يكون إلّا بعض فقهاء الشيعة لا كلّهم، فإنّ من ركب من القبائح و الفواحش مراكب علماء العامة، فلا تقبلوا منهم عنّا شيئا، و لا كرامة، و إنّما كثر التخليط فيما يتحمّل عنّا أهل البيت لذلك، لأنّ الفسقة يتحمّلون عنّا فيحرّفونه بأسره لجهلهم، و يضعون الأشياء على غير وجهها لقلّة معرفتهم و آخرون يتعمّدون الكذب علينا»[۳۳۱] واضح أن هذا الحديث لا يدور حول التقليد التعبدى فى الأحكام، بل يشير إلى اتباع العلماء من أجل تعلم أصول الدين، لأن الحديث يتناول معرفة النّبى، و هذه المعرفة من أصول الدين، و لا يجوز فيها التقليد التعبدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۰ الى ۸۲]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۰) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۸۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۸۲)

التّفسير

غرور و ادعاء فارغ يشير القرآن الكريم هنا إلى واحدة من ادعاءات اليهود الدالة على غرورهم، هذا الغرور الذى يشكل الأساس لكثير من انحرافات هؤلاء القوم:

وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً، ثم تجيبهم الآية بأسلوب مفحم:

قل أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

اعتقاد اليهود بأنّهم شعب اللّه المختار، و أن عنصرهم متفوق على سائر الأجناس البشرية، و أن مذنبيهم لن يدخلوا جهنم سوى أيّام قليلة ليتنعموا بعدها بالجنّة، من مظاهر أنانية هؤلاء و استفحال ذاتياتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۰

ادعاء اليهود المذكور فى الآية الكريمة لا ينسجم مع أى منطق، إذ لا يمكن أن يكون بين أفراد البشر أى تفاوت فى نيل الثواب و العقاب أمام اللّه سبحانه و تعالى.

بم استحق اليهود أن يكونوا مستثنين من القانون العام للعقاب الإلهى؟! الآية الكريمة تدحض مزاعمهم بدليل منطقى، و تفهمهم أن مزاعمهم هذه إمّا أن تكون قائمة على أساس عهد لهم اتخذوه عند اللّه، و لا يوجد مثل هذا العهد، أو أن تكون من افترائهم الكذب على اللّه.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة التّالية قانونا عاما يقوم على أساس المنطق و تقول:

بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و هذا القانون عام يشمل المذنبين من كل فئة و قوم.

و بشأن المؤمنين الأتقياء، فهناك قانون عام شامل تبيّنه الآية التالية:

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

بحوث

۱- كسب السيئة

الكسب و الاكتساب: الحصول على الشىء عن إرادة و اختيار، من هنا عبارة بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً إشارة إلى أولئك الذين يرتكبون الذنوب عن علم و انتخاب. و تعبير الآية بكلمة «كسب» قد يكون إشارة إلى المحاسبة الخاطئة العاجلة التى يرتكب المذنب على أساسها ذنبه ظانا أنه يكسب بارتكاب الذنب نفعا، و يتحمل بتركه خسارة! و إلى مثل هؤلاء المذنبين تشير آية كريمة ستأتى بعد عدد

من الآيات إذ يقول سبحانه: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۱

فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

۲- إحاطة الخطيئة

الخطيئة تستعمل غالبا فى الذنوب التى لا يرتكبها صاحبها عن عمد، لكنها وردت فى هذه الآية بمعنى الذنوب الكبيرة[۳۳۲]، أو بمعنى آثار الذنب فى قلب الإنسان و روحه ۳۳۳].

مفهوم إحاطة الخطيئة يعنى انغماس الفرد فى الذنب إلى درجة يصبح ذلك الفرد سجين ذنبه.

بعبارة أوضح، الذنوب الكبيرة و الصغيرة تبدأ على شكل «فعل» ثم تتحول إلى «حالة» و مع الاستمرار و الإصرار تتحول إلى «ملكة». و عند اشتدادها تغمر وجود الإنسان و تصبح عين وجوده. عندئذ لا تجدى مع هذا الفرد موعظة و لا يؤثر فيه توجيه و لا نصح، إذ أنه عمل عن اختيار على قلب ماهيته فمثلهم مثل دودة القز التى تلف حولها من نسيج الحرير حتى تمسى سجينة عملها.

الآية الكريمة تتحدث عن خلود مثل هؤلاء الأفراد فى النار، و هذا يعنى أن هؤلاء يغادرون الدنيا و هم مشركون. لأن الشرك هو الذنب الوحيد الذى لا يغفره اللّه سبحانه: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ[۳۳۴].

۳- عنصرية اليهود

نفهم من الآيات الكريمة أن روح التمييز العنصرى لدى اليهود، التى هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۲

مبعث كثير من مشاكل الساحة العالمية اليوم، كانت راسخة لدى اليهود منذ تلك الأيّام. و كانوا يعتقدون بوجود تفوّق و امتياز لعنصر بنى إسرائيل على سائر الأجناس البشرية الاخرى. و لا زالت هذه الذهنية سائدة لدى هؤلاء القوم بعد مرور آلاف السنين على أسلافهم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم. و هذا التعصب العنصرى هو الأساس الذى تقوم عليه الدولة الصهيونية الغاصبة اليوم.

هؤلاء يعتقدون بأن عنصرهم متميز عن سائر البشر لا فى هذه الدنيا فحسب، بل فى الاخرة أيضا، حيث لا ينال المجرم منهم- على رأيهم- سوى عقوبة خفيفة قصيرة. و هذه التصورات المغلوطة هى التى دفعتهم إلى أن يرتكبوا ألوان الجرائم و الموبقات ۳۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۳

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۳ الى ۸۶]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ ذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (۸۳) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۸۴) ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ

ذلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۸۵) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۸۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۴

التّفسير

النّاكثون

تقدم ذكر ميثاق بنى إسرائيل، و لكن الآيات السابقة لم تتعرض إلى تفاصيل هذا الميثاق على النحو المذكور فى هذه الآيات. يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى مواد هذا الميثاق، و هى بأجمعها- أو معظمها- من المبادئ الثابتة فى الأديان الإلهية. و موجودة بشكل من الأشكال فى كل الأديان السماوية.

القرآن يندّد فى هذه الآيات بشدّة باليهود لنقضهم هذه العهود، و يتوعدهم نتيجة لهذا النقض بالخزى فى الحياة الدنيا و العذاب فى الآخرة.

بنود هذا العهد الذى أقرّ به بنو إسرائيل:

۱- التوحيد و إخلاص العبودية للّه وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

۲- الإحسان إلى الوالدين: وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

۳- الإحسان إلى الأقارب و اليتامى و الفقراء: وَ ذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ

۴- التعامل الصحيح مع الآخرين: وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً.

۵- إقامة الصلاة: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ.

۶- إيتاء الزكاة: وَ آتُوا الزَّكاةَ.

ثم تذكر الآية الكريمة نقض القوم للميثاق و عدم وفائهم بالعهد: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَ أَنْتُمْ مُعْرِضُونَ

۷- عدم سفك الدماء: وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ

۸- عدم إخراج بنى جلدتكم من ديارهم: وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ

۹- إفداء الأسرى، أى بذل المال لتحريرهم من الأسر (و هذا البند نفهمه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۵

عبارة أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ و سيأتى ذكرها).

ثم تذكر الآية إقرار القوم بالميثاق: ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

ثم يتعرض القرآن إلى نقض بنى إسرائيل للميثاق، بقتل بعضهم و تشريد بعضهم الآخر: ثُمَّ أَنْتُمْ هؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَ تُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيارِهِمْ و يشير القرآن إلى تعاون بعضهم ضد البعض الآخر: تَظاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ

ثم يشير إلى تناقض هؤلاء فى مواقفهم، إذ يحاربون بنى جلدتهم و يخرجونهم من ديارهم، ثم يفدونهم إن وقعوا فى الأسر: وَ إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسارى تُفادُوهُمْ وَ هُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْراجُهُمْ

فهم يفادونهم استنادا إلى أوامر التوراة، بينما يشردونهم و يقتلونهم خلافا لما أخذ اللّه عليهم من ميثاق: أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ! و من الطبيعى أن يكون هذا الانحراف سببا لانحطاط الإنسان فى الدنيا و الآخرة:

فَما جَزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذلِكَ مِنْكَمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُرَدُّونَ إِلى أَشَدِّ الْعَذابِ

و انحرافات أيّة أمة من الأمم لا بدّ أن تعود عليها بالنتائج الوخيمة، ذلك لأن اللّه سبحانه و تعالى أحصاها عليهم بدقّة: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

الآية الأخيرة تشير إلى تخبط بنى إسرائيل و تناقضهم فى مواقفهم، و المصير الطبيعى الذى ينتظرهم نتيجة لذلك: أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۶

بحوث

۱- إشارة تأريخية:

فى الآيات إشارة لتناقض بنى إسرائيل فى مواقف بعضهم من البعض الآخر.

قيل فى ذلك: «كان بنو إسرائيل إذا استضعف قوم قوما أخرجوهم من ديارهم، و قد أخذ عليهم الميثاق إن لا يسفكوا دماءهم و لا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، و أخذ عليهم الميثاق إن أسر بعضهم بعضا أن يفادوهم. فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمنوا بالفداء ففدوا و كفروا بالإخراج من الديار فأخرجوهم».

و

روى فى المعنىّ بهذه الآية: «أن قريظة و النضير كانا أخوين كالأوس و الخزرج فافترقوا فكانت النضير مع الخزرج و كانت قريظة مع الأوس، فإذا اقتتلوا عاونت كل فرقة حلفاءها، فإذا وضعت الحرب أوزارها فدوا أسراها تصديقا لما فى التوراة، و الأوس و الخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنّة و لا نارا و لا قيامة و لا كتابا، فأنبأ اللّه تعالى اليهود بما فعلوه»[۳۳۶].

و هكذا سقط اليهود و غيرهم من أهل العناد فى مثل هذه التناقضات فى حياتهم لانحرافهم عن خط العبودية التّامة للّه تعالى.

۲- الازدواجية فى الالتزام:

مرّ بنا أن القرآن الكريم يوبّخ اليهود بشدّة على التزامهم ببعض الأحكام الإلهية و تركهم لبعضها الآخر، و ينذرهم بخزى الدنيا و بعذاب الآخرة و خاصة فى عملهم بالاحكام الجزئية، و مخالفتهم لأهم الأحكام الشرعية. أى قانون حرمة إراقة الدماء، و تهجير من يشاركهم فى العقيدة من ديارهم و أوطانهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۲۸۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۷

هؤلاء فى الواقع التزموا بالاحكام التى تنسجم مع مصالحهم الدنيوية من الأحكام، أما حين تقتضى مصلحتهم أن يريقوا دم الآخرين و يستضعفوهم، فلا يألون جهدا فى ارتكاب كل ذلك مخالفين بذلك أهم أحكام ربّ العالمين.

التزامهم بفداء الأسرى لا ينطلق من روح تعبّدية، بل من روح مصلحية ترى أنّ من مصلحتها أن تفدى الأسرى اليوم، كى تفدى هى حين تقع بالأسر فى المستقبل.

العمل بالأحكام المنسجمة مع مصالح الإنسان الدنيوية، ليس دلالة على طاعة اللّه و عبادته، لأن الدافع لم يكن الاستجابة إلى دعوة اللّه بقدر ما كان استجابة لنداء الذات و المصالح الذاتية. روح الطاعة تبرز لدى التزام الإنسان بما لا ينسجم مع مصالحه الآنية الذاتية. و هذا هو المعيار الذى يميّز به المؤمن عن العاصى، فالازدواجية فى الالتزام بأحكام اللّه تعالى، تدلّ على روح العصيان، بل أحيانا على عدم الإيمان و بعبارة اخرى، إن الايمان يظهر أثره فيما لو كان القانون على خلاف مصالح الفرد و مع ذلك يلتزم به الفرد، و إلّا فان العمل بالاحكام الشرعية، إذا اتفقت مع المصالح الشخصيّة لا يعتبر افتخارا و لا علامة على الايمان و لهذا يمكن تمييز المؤمنين عن المنافقين من هذا الطريق فالمؤمنون يلتزمون بجميع الأحكام، و المنافقون يذهبون إلى التبعيض.

و مصير هذه الامّة- بالتعبير القرآنى- الخزى فى الدنيا و أشدّ العذاب فى الآخرة ... و لا خزى أكبر من سقوط هذه الأمّة السائرة على خط الازدواجية بيد الغزاة الأجانب، و هبوطها فى مستنقع الذلة على الساحة العالمية.

هذه السنّة الكونية لا تقتصر على بنى إسرائيل، بل هى سارية فى كل زمان و مكان، و تشملنا نحن المسلمين أيضا. و ما أكثر الذين يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض فى مجتمعاتنا اليوم! و ما أشقى هؤلاء فى الدنيا و الآخرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۸

۳- منهج البقاء و عوامل السقوط

الآيات الكريمة فى معرض حديثها عن بنى إسرائيل تطرح سننا كونية فى بقاء الشعوب و انحطاطها.

أهم عامل لبقاء الامّة و رفعتها و عزتها فى المنظار القرآنى، اعتماد الامّة على قوّة اللّه و قدرته الأبدية و خضوعها له وحده دون سواه و خشيته وحده دون غيره:

لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ

و من عوامل البقاء أيضا التلاحم الاجتماعى بين أفراد الامّة، و هذا ما يعبّر عنه القرآن بالإحسان إلى الوالدين باعتبار هما أقرب أفراد المجتمع إلى الإنسان، ثم الإحسان إلى ذى القربى، ثم بعد ذلك إلى عامة أفراد المجتمع من الفقراء و المساكين و غيرهم من النّاس.

إزالة التمييز الطبقى و رفع الهوة السحيقة الفاصلة بين الأغنياء و الفقراء فى المجتمع، عن طريق إيتاء الزكاة، و من عوامل بقاء المجتمع أيضا و رفعته.

أما عوامل السقوط فهى عبارة عن تفكّك البنية الاجتماعية، و نشوب النزاعات و الحروب الداخلية بين أفراد المجتمع، و استضعاف بعضهم بعضا. لا تَسْفِكُونَ دِماءَكُمْ وَ لا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ ....

ثم الازدواجية فى الالتزام بأحكام اللّه تعالى عامل هام من عوامل السقوط، يدفع بالأفراد لأن يتحركوا حول محور مصالحهم الآنيّة الذاتية الضيقة، فيلتزموا بالقوانين التى تحفظ لهم منافعهم الشخصية، و يتركوا القوانين النافعة للمجتمع أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ

هذه هى الأسباب و العلل فى تكامل و انحطاط الأمم و الحضارات فى منظور القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۸۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۷ الى ۸۸]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ (۸۷) وَ قالُوا قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ (۸۸)

التّفسير

القلوب المغلّفة

الحديث فى هاتين الآيتين عن بنى إسرائيل، و إن كانت المفاهيم و المعايير التى تطرحها الآيتان عامّة و شاملة.

تقول الآية الاولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ ثم تذكر بعثة الأنبياء بعد موسى مثل داود و سليمان و يوشع و زكريا و يحيى ... وَ قَفَّيْنا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ و تشير إلى بعثة عيسى وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ لكن تعامل بنى إسرائيل كان مع كل هؤلاء الأنبياء قائما على أساس نزعات هوى النفس أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ! و كان موقفهم إمّا اغتيال شخصية النّبى أو شخص النّبى: فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۰

تَقْتُلُونَ لو كان اغتيال الشخصية كافيا لتحقيق أهدافهم الدنيئة اكتفوا بذلك، و إن لم يكن كافيا سفكوا دمه!! ذكرنا فى تفسير الآيات السابقة عند حديثنا عن الازدواجية فى الالتزام بالاحكام الإلهية أن معيار الإيمان و التسليم هو الالتزام بما لا تهوى النفس، لأن كل أصحاب الأهواء مستسلمون لما ينسجم مع ميولهم و أهوائهم.

و من جانب آخر يستفاد من الآية أن القادة الإلهيين لم يكونوا يأبهون بمعارضة أصحاب الأهواء، و هذا هو شأن القائد لمنهج الحق. و لو انساقوا وراء أهواء الآخرين لما كانوا قادة لطلّاب صراط الحق. بل أتباع لطلاب الدنيا.

الآية التالية تذكر ما كانوا يقولونه باستهزاء مقابل دعوة الأنبياء لهم أو دعوة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: وَ قالُوا: قُلُوبُنا غُلْفٌ و الغلف جمع أغلف أى مغلّف.

نعم، إنها كذلك مغلّفة و بعيدة عن نفوذ النور الإلهى إليها، لأن أصحابها لعنوا بعد التمادى فى الكفر بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ

قد تشير الآية إلى اليهود الذين كذبوا الأنبياء و قتلوهم، و قد تشير إلى اليهود المعاصرين للنبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ممّن وقف بوجه الرسالة. لكنها على أى حال تبين حقيقة هامّة هى: إن الانغماس فى الأهواء يبعد الفرد عن اللّه، و يسدل الحجب على قلبه، فلا تكاد الحقيقة تجد لها طريقا إلى نفسه.

بحوث

۱- رسالة الأنبياء فى مسيرة التاريخ

ذكرنا أن أصحاب الأهواء المنحرفين كانوا يقفون دوما بوجه دعوة الأنبياء، لأنها كانت تهدد مصالحهم الآنيّة التافهة، و تحريف الرسالات الإلهية أحد السبل التى انتهجها هؤلاء المنحرفون لمحاربة الدعوة، لذلك كان لا بدّ من توالى الرسل-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۱

على مرّ التاريخ- لمواصلة بقاء خط النّبوة على الأرض، و لإتمام الحجة على البشرية، قال سبحانه: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً

رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً[۳۳۷] هذا المفهوم عبّر عنه

أمير المؤمنين على عليه السّلام بقوله: «فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكّروهم منسىّ نعمته، و يحتجّوا عليهم بالتّبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول»[۳۳۸].

هدف بعثة الأنبياء على مرّ العصور التاريخية إذن هو تذكير البشر بنعم اللّه سبحانه، و دعوتهم إلى الالتزام بميثاق الفطرة، و إحياء دعوات الأنبياء السابقين.

هنا يثار سؤال حول سبب ختم النّبوة بنبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سنجيب عليه إن شاء اللّه فى تفسير الآية ۴۰ من سورة الأحزاب.

۲- ما هو روح القدس؟

للمفسرين آراء مختلفة فى معنى روح القدس:

۱- قالوا إنه جبرائيل، فيكون معنى الآية على هذا إن اللّه أيّد عيسى بجبرائيل. و شاهدهم على ذلك قوله تعالى: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ ۳۳۹] و وجه تسمية جبرائيل بروح القدس، هو أن جبرائيل ملك، و الجانب الروحى فى الملائكة أمر واضح، و إطلاق كلمة «الروح» عليهم متناسب مع طبيعتهم، و إضافة الروح إلى «القدس» إشارة إلى طهر هذا الملك و قداسته الفائقة.

۲- و قيل إن «روح القدس» هو القوّة الغيبية التى أيّدت عيسى عليه السّلام، و بهذه القوة الخفية الإلهية كان عيسى يحيى الموتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۲

هذه القوّة الغيبية موجودة طبعا بشكل أضعف فى جميع المؤمنين على اختلاف درجة إيمانهم. و هذا الإمداد الإلهى هو الذى يعين الإنسان فى أداء الطاعات و تحمل الصعاب، و يقيه من السقوط فى الذنوب و الزلات. من هنا

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله لحسان: «لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا»

و قول بعض أئمة أهل البيت لشاعر قرأ أبياتا ملتزمة: «إنّما نفث روح القدس على لسانك».

۳- و من المفسرين من قال إن روح القدس هو «الإنجيل»[۳۴۰] و يبدو أن التّفسيرين السابقين أقرب إلى المعنى.

۳- مفهوم «روح القدس» لدى المسيحيين

ورد فى قاموس الكتاب المقدس: «إن روح القدس هو الأقنوم الثالث من الأقانيم الثلاثة الإلهية. و يقال له (الروح)، لأنه مبدع الحياة، و يسمى مقدسا لأن من أعماله تقديس قلوب المؤمنين، و لما له من علاقة باللّه و المسيح يسمى أيضا (روح اللّه) و (روح المسيح)».

و ورد أيضا فى هذه القاموس تفسير آخر هو: «أما روح القدس الذى يؤنسنا فهو الذى يحثنا دوما إلى قبول و فهم الاستقامة و الإيمان و الطاعة، و يحيى الأشخاص الذين ماتوا فى الذنوب و الخطايا، و يطهرهم و ينزههم و يجعلهم لائقين لتمجيد حضرة واجب الوجود».

و كما يلاحظ، إن عبارات قاموس الكتاب المقدس أشارات إلى معنيين لروح القدس: الأول، إن روح القدس أحد الأرباب الثلاثة، و هذه هى عقيدة التثليث، و هى عقيدة شرك باللّه و مرفوضة، و الثانى يشبه التّفسير الثانى المذكور أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۲۹۳

۴- قلوب غافلة محجوبة

كان اليهود فى المدينـة يقفون بوجه الـدعوة، و يمتنعون عن قبولها، و يتـذرعون لـذلك بمختلف الحجـج، و الآيـة التى نحن بصددها تشير إلى واحدة من ذرائعهم.

وَ قالُوا: قُلُوبُنا غُلْفٌ و لا ينفـذ إليها قول!! كانوا يقولون ذلك عن اسـتهزاء، غير أن القرآن أيّـد مقالتهم، فبكفرهم و نفاقهم أسدل على قلوبهم حجب من الظلمات و الذنوب، و ابتعدوا عن رحمة اللّه، فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ

و هذه مسألة تطرحها آية اخرى من قوله تعالى: وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا[۳۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۸۹ الى ۹۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ (۸۹) بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (۹۰)

سبب النّزول

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «كانت اليهود تجد فى كتبها أنّ مهاجر (مكان هجرة) محمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما بين (جبلى) غير واحـد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يقال له حـداد، فقالوا: حـداد و أحد سواء، فتفرّقوا عنده، فنزل بعضـهم بتيماء و بعضـهم بفدك و بعضـهم بخيبر، فاشـتاق الذين بتيماء إلى بعض إخوانهم، فمرّ بهم أعرابى من قيس فتكاروا منه (أى استأجروا إبله) و قال لهم: أمرّ بكم ما بين عير و أحـد، (فعلموا أنهم أصابوا ضالّتهم) فقالوا له: إذا مررت بهما فآذنّا (أخبرنا) بهما، فلما توسط بهم أرض المدينة، قال:

ذلك عير، و هذا أحد، فنزلوا عن ظهر إبله، و قالوا: قد أصـبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شـئت، و كتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك و خيبر أنا قد أصبنا الموضع فهلمّوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۵

إلينا، فكتبوا إليهم أنّا قـد اسـتقرت بنا الـدار و اتخذنا بها الأموال، و ما أقربنا منكم، فإن كان ذلك فما أسـرعنا إليكم، و اتخذوا بأرض المدينـة أموالا فلما كثرت أموالهم بلغ ذلك تبّعا فغزاهم، فتحصـنوا منه، فحاصـرهم ثمّ أمّنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إنّى قـد اسـتطبت بلادكم، و لا أرانى إلّا مقيما فيكم. فقالوا له: ليس لك ذلك، إنها مهاجر نبى، و ليس ذلك لأحـد حتى يكون ذلك، فقال لهم: فإنى مخلف فيكم من أسـرتى من إذا كان ذلك ساعـده و نصـره، فخلف حين تراهم الأوس و الخزرج، فلما كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أما لو بعث محمّـد لنخرجنكم من ديارنا و أموالنا، فلما بعث اللّه محمّدا عليه السّلام آمنت به الأنصار و كفرت به اليهود،

و هو قوله تعـالى: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ... إلى آخر الآيـة.» نعم، هـذه الفئـة التى كانت تبحث بولع شديـد عن منطلق البعثـة المحمّديـة، لتكون أول من تؤمن برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كـانت تفتخر أمـام الأوس و الخزرج بـأنها ستكون من خاصـة صـحابة النّبى المبعوث، إذا هى تقف- بسـبب لجاجهـا و عنادها- إلى جانب أعـداء النّبى، بينما التف حول الرّسول

من كان بعيدا عن هذه الأجواء.

التّفسير

كفروا بما دعوا الناس اليه

هـذه الآيات تتحدث أيضا عن اليهود و مواقفهم، هؤلاء- كما ورد فى أسـباب النّزول- هاجروا ليتخذوا من يثرب سـكنا بعد أن وجدوا فيها ما يشير إلى أنها أرض الرّسول المرتقب، و بقوا فيها ينتظرون بفارغ الصبر النّبى الذى بشرت به التوراة، كما كانوا ينتظرون الفتح و النصـر على الـذين كفروا تحت لواء هذا النّبى، لكنهم مع كل ذلك أعرضوا عن الرّسول و عن الرسالة وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ... فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۶

و هكذا تسـتطيع الأهواء و المصالح الشخصـية أن تقف بوجه طالب الحقيقة، مهما كان الفرد عاشقا لهذه الحقيقة و توّاقا للوصول إليها فيتركها و يعرض عنها، بل تستطيع الأهواء أيضا أن تحوّل هذا الفرد إلى عدوّ لدود لهذه الحقيقة.

ما أشـدّ خسارة هؤلاء اليهود، تركوا أوطانهم و هاموا فى الأرض بحثا عن علامات أرض الرسالة، ثم ها هم خسـروا كل شـىء، و باعوا أنفسهم بأسوأ ثمن:

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ

لقـد ضـيعوا كل شـىء و كأنهم أرادوا أن يكون النّبى الموعود من بنى إسـرائيل، و لهـذا تألموا من نزول القرآن على غيرهم، بل ممن شاء اللّه: أَنْ يَكْفُرُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

و لذلك شملهم غضب اللّه المتوالى: فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ

بحثان

۱- صفقة خاسرة

إنه لخسـران عظيم أن تتهيّا للإنسان كل سـبل الهدايـة ثم يعرض عنها لأمور تافهة، و اليهود المعاصـرون للنبى الخاتم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم هم من أولئك، توفّرت لهم كل هـذه السـبل، بل تحركوا زمنا يبتغون مصـدر هـذه الهداية، و عثروا بعد جهد على مبتغاهم حين حطوا رحالهم بين «العير» و «أحـد» انتظارا للنبى الموعود، ثم إذا هم يخسـرون كل شـىء، حين علموا أن هذا النّبى المبعوث ليس من بنى إسرائيل، أو أنه لا يحقق مصالحهم الشخصية.

ما أكبر الخسارة حين يبيع الإنسان نفسه بهذا الشكل و يشترى بها غضب اللّه عزّ و جلّ! بينما ليس لوجود الإنسان ثمن إلّا الجنّة كما يقول أمير المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۷

على عليه السّلام: «إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة فلا تبيعوها إلّا بها»[۳۴۲].

عبارة «اشتراء النفس» أى بيعها توحى أن الاتجاه نحو طريق الضـلال بيع للنفس، و كأن الكافر يبيع شخصـيته الإنسانية، لأن الكفر يهدم قيمة الإنسان من الأساس، و بعبارة اخرى إنه يكون كالعبيد الذين باعوا أنفسـهم فأمسوا اسرى بيد الآخرين ... أجل إنّهم أسرى الأهواء

و عبيد الشيطان.

۲- غضب على غضب

القرآن الكريم قال عن بنى إسرائيل حين تاهوا فى صحراء سيناء بأنّهم وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ بسبب كفرهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء و فى سورة آل عمران الآية ۱۲، ورد هذا المعنى أيضا و أن اليهود بسبب كفرهم بآيات اللّه و قتلهم الأنبياء باءوا بغضب من اللّه تعالى. و هذا هو الغضب الاول.

و هؤلاء أحفادهم من اليهود المعاصرين للبعثة المحمّدية ساروا على طريق أسلافهم فى الكفر بالرسالة، و زادوا على ذلك بوقوفهم بوجه الرّسول و تآمرهم على الدعوة و لذلك قال عنهم «فباء و بغضب على غضب».

و «باءو» بمعنى رجعوا- و أقاموا فى المكان- و هنا تعنى استحقاقهم لعذاب اللّه. فكأنهم عادوا و هم محملون بهذا الغضب الإلهى، أو كأنهم اتخذوا موقفا يغضب اللّه.

هؤلاء القوم كانوا يعيشون أمل ظهور النّبى المنقذ، قبل دعوة موسى و قبل دعوة النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان موقفهم من الرّسولين الكريمين واحدا، هو النكول و الإعراض، و استحقوا غضب اللّه و سخطه مرّة بعد اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۸

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۱) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ (۹۲) وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اسْمَعُوا قالُوا سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۹۳)

التّفسير

العصبية القومية لدى اليهود

يشير القرآن مرّة اخرى إلى عصبية اليهود القومية و يقول:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ يَكْفُرُونَ بِما وَراءَهُ

فهم لم يؤمنوا بالإنجيل و لا- بالقرآن، بل إنهم يدورون حول محور العنصرية و المصلحية، فيجرأون على رفض الدعوة التى جاءت تصديقا لما معهم فى التوراة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۲۹۹

وَ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما مَعَهُمْ

و يكشف القرآن زيف ادعائهم مرة اخرى حين يقول لهم: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِياءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هؤلاء يدّعون أنهم

يؤمنون بما أنزل عليهم، فهل التوراة تبيح لهم قتل الأنبياء؟! و هذا الذى يقوله بنو إسرائيل: نُؤْمِنُ بِما أُنْزِلَ عَلَيْنا ينطلق من روح ذاتية فردية أو فئوية، و هى تخالف روح التوحيد. فالتوحيد يستهدف القضاء على كل المحاور الذاتية فى حركة الإنسان و مواقفه، و تكريس نشاطات الفرد حول محور العبودية للّه لا غير.

بعبارة اخرى، لو كان الانصياع للأوامر الإلهية متوقفا على نزولها عليهم، فهو الشرك لا الإيمان، و هو الكفر لا الإسلام، و مثل هذا الانصياع ليس بدليل على الإيمان قط.

و عبارة بِما أَنْزَلَ اللَّهُ تحمل مفهوم نفى كل ذاتية بشرية فى الرسالة، بما فى ذلك ذات النّبى المرسل، فلم تتضمن العبارة اسم محمّد و عيسى و موسى عليهم أفضل الصلاة و السلام، بل التأكيد على الإيمان بما أنزل اللّه تعالى.

و يعرض القرآن وثيقة اخرى لإدانة اليهود و لكشف زيف ادعائهم فيقول:

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَنْتُمْ ظالِمُونَ

ما هذا الانحراف نحو عبادة العجل بعد أن جاءتكم البينات إن كنتم فى إيمانكم صادقين؟! لو كنتم آمنتم به حقّا، فلم تبدّل إيمانكم إلى كفر عند غياب موسى و ذهابه إلى جبل الطور، و بذلك ظلمتم أنفسكم و مجتمعكم و الأجيال المتعاقبة بعدكم؟! فى الآية الثالثة يطرح القرآن وثيقة إدانة اخرى، فيشير إلى مسألة ميثاق جبل الطور و يقول: وَ إِذْ أَخَذْنا مِيثاقَكُمْ وَ رَفَعْنا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۰

وَ اسْمَعُوا، قالُوا: سَمِعْنا وَ عَصَيْنا.

و ما كان عصيانهم إلّا عن انغماس فى حبّ الدنيا الذى تمثّل فى حبّ عجل السّامرى الذّهبى: وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ و لذا نسوا اللّه عزّ و جلّ؟! كيف يجتمع الايمان باللّه مع قتل أنبيائه و عبادة العجل و نقض العهود و المواثيق الالهية المؤكدة؟! أجل قُلْ بِئْسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۳۴۳].

بحثان

۱- عبارة قالُوا: سَمِعْنا وَ عَصَيْنا ليست حكاية عمّا قالوه بألسنتهم، بل حسب الظاهر هى تعبير عن واقع عملى لهؤلاء القوم، و كناية رائعة عن انحرافهم.

۲- عبارة وَ أُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ هى أيضا كناية رائعة تعبّر عن وضع هذه الجماعة.

و الاشراب له معنيان كما ورد فى المفردات: الإحكام كقولك «أشربت البعير» إذا شددت رقبته بالحبل. و كذلك الإرواء، و يكون المعنى على الوجهين أن حبّ العجل قد غمر قلوب بنى إسرائيل و استحكم فى أنفسهم.

و العبارة توحى أيضا ما يصدر عن هؤلاء القوم من انحراف، إنما هو ظاهرة طبيعية ناتجة عن تغلغل روح الشرك فى قلوبهم. و القلوب التى أشربت الشرك لا يصدر عنها إلا القتل و الإنكار و الخيانة.

و تتبين أهمية الموضوع أكثر لو طالعنا مقدار ما أكدت عليه الديانة اليهودية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۱

من تقبيح لعملية القتل و نهى عنها فقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس، ص ۶۷۸: «القتل العمدى و تقبيحه كان على درجة من الأهمية لدى بنى إسرائيل، بحيث لا تبرأ ذمّة القاتل له لولجا إلى الأماكن المقدسة، بل لا بدّ إنزال عقوبة القصاص به بأىّ حال من الأحوال».

هذا هو معنى قتل الإنسان فى نظر التوراة، فما بالك بقتل الأنبياء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۴ الى ۹۶]

اشارة

قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۹۴) وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۹۵) وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۹۶)

التّفسير

فئة مغرورة:

يبدو من تاريخ اليهود- مضافا لما أخبر القرآن عنه- أن هؤلاء القوم كانوا يعتبرون أنفسهم فئة متميزة فى العنصر، و متفوقة على سائر الأجناس البشرية، و كانوا يعتقدون أن الجنّة خلقت لهم لا لسواهم، و أن نار جهنم لن تمسّهم، و أنّهم أبناء اللّه و خاصته، و أنّهم يحملون جميع الفضائل و المحاسن.

هذا الغرور الأرعن تعكسه كثير من آيات الذكر الحكيم الآية (۱۸) من سورة المائدة تقول عن لسانهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ و فى الآية ۱۱۱ من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۳

البقرة نرى ادعاء آخر لهم: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى و هكذا فى الآية ۸۰ من سورة البقرة: وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً.

هذه التصورات الموهومة كانت تدفعهم من جهة إلى الظلم و الجريمة و الطغيان، و تبعث فيهم- من جهة اخرى- الغرور و التكبر و الاستعلاء.

و القرآن الكريم يجيب هؤلاء القوم جوابا دامغا إذ يقول: قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

ألا تحبّون رحمة اللّه و جواره و نيل النعيم الخالد فى الجنان؟ ألا يحب الحبيب لقاء حبيبه؟! لقد كان اليهود يهدفون من كلامهم هذا و أن الجنّة خالصة لنا دون سائر النّاس:

أو أن النار لا تمسّنا إلّا أيّاما معدودات- إلى توهين إيمان المسلمين و تخدير عقائدهم.

لماذا تفرون من الموت، و كل ما فى الآخرة من نعيم هو لكم كما تدّعون؟! لماذا هذا الالتصاق بالأرض و بالمصالح الذاتية الفردية، إن كنتم مؤمنين بالآخرة و بنعيمها حقّا؟! بهذا الشكل فضح القرآن أكذوبة هؤلاء و بيّن زيف ادعائهم.

فى الآية التّالية تأكيد على ما سبق بشأن ابتعاد القوم عن الموت: وَ لَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ، وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

هؤلاء يعلمون ما فى ملفّ أعمالهم من وثاق سوداء و من صحائف إدانة، و اللّه عليم بكل ذلك، و لذلك فهم لا يتمنون الموت، لأنه بداية حياة يحاسبون فيها على كل أعمالهم.

الآية الأخيرة تذكر انشداد هؤلاء بالأرض و حرصهم الشديد على المال و المتاع: وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ و تذكر الآية أن

حرصهم هذا يفوق حرص الذين أشركوا: وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۴

المشركون ينبغى أن يكونوا أحرص من غيرهم على جمع المال و المتاع، لكن هؤلاء من أصحاب الادعاءات الفارغة، بلغوا من الحرص ما لم يبلغه المشركون.

و بلغ شغفهم بالدنيا أنّه يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ لجمع مزيد من متاع الدنيا، أو خوفا من عقاب الآخرة! لكن هذا العمر الذى يتمناه كل واحد منهم لا يبعده عن العذاب، و لا يغيّر من مصيره شيئا وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ إذ كل شىء محصى لدى اللّه، و لا يعزب عن عمله شىء وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ

بحوث

۱- المقصود من الأعوام الألف

فى قوله تعالى: يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ليس هذا العدد المعروف، بل يعنى العمر الطويل المديد، فهو ليس للتعدد، بل للتكثير.

و ذهب بعض المفسرين إلى أن العرب لم تكن تعرف آنذاك عددا أكبر من الألف، و لم يكن لما يزيد على الألف اسم عند العرب، و لذلك كان أبلغ تعبير عن الكثرة![۳۴۴].

۲- تنكير الحياة فى تعبير الآية وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ تفيد- كما ذهب إلى ذلك جمع من المفسرين- الاستهانة و التحقير، أى إن هؤلاء حريصون حتى على أتفه حياة و أرخصها و أشقاها، و يفضلونها على الآخرة[۳۴۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۵

۳- إفرازات العنصرية:

كان التعصّب العنصرى وراء كثير من الحروب و المآسى التى حدثت على الساحة البشرية خلال جميع عصور التأريخ، و فى عصرنا الحديث كان التعصب العرقى الألمانى عاملا فعالا فى إشعال لظى الحربين العالميتين الاولى و الثانية.

و اليهود يحتلون دون شك مكان الصدارة بين العنصريين المتعصبين على مرّ التأريخ، و ها هى دويلتهم المسماة بإسرائيل أقيمت على أساس هذه العنصرية المقيتة، و ما يرتكبه هذا الكيان العنصرى الصهيونى من جرائم فظيعة إنما هو استمرار لجرائمه التأريخية الناشئة عن عنصريته البغيضة.

لقد دفعتهم عنصريتهم لأن يحتكروا حتّى تعاليم موسى، و يزيلوا عنصر الدعوة من دينهم، كى لا يعتنق تعاليمهم أحد غيرهم.

و هذه النزعة الأنانية هى التى جعلت هؤلاء القوم منبوذين ممقوتين من قبل كل شعوب العالم.

التعصب العنصرى شعبة من الشرك، و لذلك حاربه الإسلام بشدّة، مؤكدا أن كل أبناء البشر من أب واحد و أمّ واحدة، و لا تمايز إلّا بالتقوى و العمل الصالح.

۴- عوامل الخوف من الموت:

أكثر النّاس يخافون من الموت، و خوفهم هذا يعود إلى عاملين:

۱- الخوف من الفناء و العدم، فالذين لا يؤمنون بالآخرة لا يرون بعد هذه الحياة استمرار لحياتهم، و من الطبيعى أن يخاف الإنسان من الفناء، و هذا الخوف يلاحق هؤلاء حتى فى أسعد لحظات حياتهم فيحوّلها إلى علقم فى أفواههم.

۲- الخوف من العقاب، و مثل هذا الخوف يلاحق المذنبين المؤمنين بالآخرة، فيخافون أن يحين حينهم و هم مثقلون بالآثام و الأوزار، فينالوا جزاءهم، و لذلك يؤدّون أن تتأخّر ساعة انتقالهم إلى العالم الآخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۶

الأنبياء العظام أحيوا فى القلوب الإيمان باليوم الآخر، و بذلك أبعدوا شبح الفناء و الانعدام من الأذهان، و بينوا أن الموت انتقال إلى حياة أبدية خالدة منعّمة.

من جهة اخرى دعا الأنبياء إلى العمل الصالح، كى يبتعد الإنسان عن الخوف من العقاب، و لكى يزول عن القلوب و الأذهان كل خوف من الموت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۹۷ الى ۹۸]

اشارة

قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۹۷) مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ (۹۸)

اسباب النّزول

روى عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية، ما

روى أن ابن صوريا و جماعة من يهود أهل فدك، لما قدم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم المدينة، سألوه أسئلة، و كان رسول اللّه يجيبهم و هم يصدّقون جوابه، من ذلك أنهم قالوا له: يا محمّد كيف نومك؟ فقد أخبرنا عن نوم النّبى الذى يأتى فى أواخر الزمان، فقال: تنام عيناى و قلبى يقظان.

قالوا: صدقت يا محمّد ... ثم قال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك و اتبعتك: أىّ ملك يأتيك بما ينزل اللّه عليك؟ قال: جبريل. قال ابن صوريا: ذاك عدونا ينزل بالقتال و الشدة و الحرب، و ميكائيل ينزل باليسر و الرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذى يأتيك لآمنّا بك!![۳۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۸

التّفسير

قوم جادلون:

سبب نزول الآية الكريمة يبيّن طبيعة العناد و اللجاج و الجدل فى اليهود، ابتداء من زمان موسى عليه السّلام و مرورا بعصر خاتم الأنبياء

و حتى يومنا هذا يعرضون عن الحقّ بألوان الحجج الواهية.

حجّتهم فى هذا الموضع المذكور فى الآية ثقل التكاليف التى يأتى بها جبرائيل، و عداؤهم لهذا الملك، و رغبتهم فى أن يكون ميكائيل أمينا للوحى!! و كأن الملائكة هم مصدر الأحكام الإلهية! و القرآن الكريم يصرّح بأن الملائكة ينفّذون أوامر اللّه و لا ينحرفون عن طاعته: لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ ۳۴۷].

القرآن يجيب عن ذريعة هؤلاء: قُلْ مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ و ما جاء به جبرائيل يصدّق ما نزل فى الكتب السماوية السابقة:

مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ و هو إضافة إلى كل هذا: وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ

فالجواب فى هذه الآية ينطوى على ثلاث شعب:

أوّلا: إن جبريل لا يأتى بشىء من عنده، بل ما يأتى به هو بِإِذْنِ اللَّهِ

ثانيا: ما جاء به جبريل تصدّقه الكتب السماوية السابقة، لانطباقه على العلامات و الدلالات المذكورة فى تلك الكتب.

ثالثا: محتوى ما جاء به جبرائيل يدلّ على أصالته و حقّانيته.

الآية التالية تؤكد نفس هذا الموضوع تأكيدا مقرونا بالتهديد و تقول: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ ۳۴۸] مشيرة بذلك إلى أن موقف الإنسان من اللّه و ملائكته و رسله و من جبرئيل و ميكائيل، لا يقبل التفكيك، و أن الموقف المعادى من أحدهم هو معاداة للآخرين ۳۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۰۹

و بعبارة اخرى: الأوامر الإلهية الباعثة على تكامل الإنسان، تنزل عن طريق الملائكة على الرسل، و إن كان بين مهمات الملائكة اختلاف، فذلك يعود إلى تقسيم المسؤوليات لا إلى التناقض بين المهمات، و اتخاذ موقف معاد من أحدهم هو عداء اللّه سبحانه.

جبريل و ميكال

ورد اسم جبريل ثلاث مرات، و اسم ميكال مرة واحدة فى القرآن الكريم ۳۵۰].

و يستفاد من الآيات أنّهما ملكان مقرّبان من ملائكة اللّه تعالى. قيل إن اسم جبرئيل عبرى يعنى «رجل اللّه» أو «قوة اللّه» (جبر: تعنى الرجل أو القوّة، و ئيل:

بمعنى اللّه).

هذه الآيات الكريمة تعرّف جبريل أنه رسول الوحى الإلهى إلى النّبى، و منزّل القرآن على قلبه، و لواسطة الوحى اسم آخر فى الآية ۱۰۲ من سورة النحل هو:

رُوحُ الْقُدُسِ أمّا الآية ۱۹۱ من سورة الشعراء فتسميه الرُّوحُ الْأَمِينُ و يصرّح المفسرون أن المقصود من روح المقدس و الروح الأمين، هو جبرئيل.

و هناك أحاديث تدور حول تشكل جبرائيل بصور متعددة لدى نزوله على النّبى، و كان فى المدينة ينزل على صورة (دحية الكلبى) و هو رجل جميل الطلعة.

يستفاد من سورة النجم أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم شاهد جبرائيل مرّتين على هيئته الأصلية[۳۵۱].

ذكرت المصادر الإسلامية أسماء أربعة من الملائكة المقربين هم: جبرائيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل، و أعظمهم مرتبة جبرائيل.

و فى كتب اليهود ورد ذكر جبريل و ميكال، و من ذلك ما ورد فى كتاب دانيال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۰

حیث وصف جبرائیل بأنه الغالب لرئیس الشیاطین، و وصف میکائیل بأنه حامی قوم بنی إسرائیل ۳۵۲].

ذکر بعض المحققین أن المصادر الیهودیة خالیة من الدلالة علی خصومة جبرائیل لهؤلاء القوم، و هذا یؤید أن ادعاءات الیهود بشأن موقفهم من جبرائیل، لم یکن إلّا ذریعة للتنصل من الإسلام إذ لا یوجد فی مصادرهم الدینیة ما یشیر إلی وجود مثل هذه العداوة بینهم و بین جبرئیل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۱

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۹۹ الی ۱۰۱]

اشارة

وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ ما یَکْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ (۹۹) أَ وَ کُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِیقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یُؤْمِنُونَ (۱۰۰) وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِیقٌ مِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ کِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ کَأَنَّهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۰۱)

سبب النّزول

قال ابن عباس: إن ابن صوریا- و هو من أحبار الیهود- قال لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:

یا محمّد ما جئتنا بشیء نعرفه، و ما أنزل اللّه علیک من آیة بینة فنتبعک لها، فأنزل اللّه هذه الآیة[۳۵۳]

التّفسیر

الناکثون من الیهود

الآیة الاولی تشیر إلی الآیات و العلامات و الدلائل الکافیة الواضحة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۲

توفرت لدی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و تؤکد أن المعرضین عن هذه الآیات البینات أدرکوا فی الواقع حقّانیة الدعوة، لکنهم هبّوا للمعارضة مدفوعین بأغراضهم الشخصیة: وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ آیاتٍ بَیِّناتٍ وَ ما یَکْفُرُ بِها إِلَّا الْفاسِقُونَ

التفکیر فی آیات القرآن ینیر الطریق لکل طالب حق منصف، و بمطالعة هذه الآیات یمکن فهم صدق دعوة نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و عظمة القرآن.

لکن هذه الحقیقة الواضحة لا یفهمها الذین انطفأ نور قلوبهم بسبب الذنوب، من هنا نری الفاسقین الملوثین بالخطایا یعرضون عن الإیمان بالرسالة.

ثم یتطرق القرآن إلی صفة مجموعة من الیهود، و هی صفة النکول و نقض العهود و المواثیق، و کأنها صفة تأریخیة تلازمهم علی مرّ العصور أ وَ کُلَّما عاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِیقٌ مِنْهُمْ، بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یُؤْمِنُونَ

لقد أخذ اللّه میثاقهم فی جانب الطور أن یعملوا بالتوراة لکنهم نقضوا المیثاق، و أخذ منهم المیثاق أن یؤمنوا بالنّبی الخاتم المذکور عندهم فی التوراة فلم یؤمنوا به.

يهود «بنى النضير» و «بنى قريضة» عقدوا الميثاق مع النّبى لدى هجرته المباركة إلى المدينة أن لا يتواطؤوا مع أعدائه، لكنهم نقضوا العهد، و تعاونوا مع مشركى مكة فى حرب الأحزاب ضد المسلمين.

و هذه الخصلة فى هذا الفريق من اليهود نجدها اليوم متجسدة فى الصهيونية العالمية التى تضع كل المواثيق و القرارات و المعاهدات الدولية تحت قدميها، متى ما تعرّضت مصالحها للخطر.

الآية الأخيرة تؤكد بصراحة أكثر على هذا الموضوع: وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ

كان أحبار اليهود يبشرون النّاس قبل البعثة النبوية بالرّسول الموعود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۳

و يذكرون لهم علاماته و صفاته، فلمّا بعث نبى الإسلام، أعرضوا عمّا جاء فى كتابهم، و كأنهم لم يروا و لم يقرءوا ما ذكرته التوراة فى هذا المجال.

هذه هى النتيجة الطبيعية للأفراد الغارقين فى ذاتياتهم، هؤلاء- حتى فى دعوتهم إلى حقيقة من الحقائق- لا يتجردون عن ذاتياتهم، فإن وصلوا إلى تلك الحقيقة و وجدوها تنسجم مع أهوائهم، أعرضوا عنها و نبذوها وراء ظهروهم.

بحوث

۱- واضح أن تعبير «النّزول» أو «الإنزال» بشأن القرآن الكريم لا يعنى الانتقال المكانى من الأعلى إلى الأسفل و أن اللّه مثلا فى السماء و أنزل القرآن إلى الأرض، بل التعبير يشير إلى علو مكانة ربّ العالمين.

۲- كلمة «فاسق» من مادة «فسق» و تعنى خروج النّواة من الرطب، فقد تسقط الرطبة من النخلة، و تنفصل عنها النّواة. و يقال عن هذا الانفصال فى العربية «فسقت النواة»، ثم أطلقت الكلمة على كل انفصال عن خط طاعة اللّه، و عن طريق العبودية.

فكما أن النّواة تفسق إذا نزعت لباسها الحلو المفيد المغذى، كذلك الفاسق ينزع عنه بفسقه كل قيمه و شخصيّته الإنسانية.

۳- القرآن فى حديثه عن اليهود لا يوبّخ الجميع بسبب ذنوب الأكثرية، بل يستعمل كلمات مثل «فريق» «أكثر» ليصون حق الأقلية المؤمنة المتقية، و طريقة القرآن هذه فى حديثه عن الأمم درس لنا كى لا نحيد فى أحاديثنا و مواقفنا عن الحقّ و الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۳]

اشارة

وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى مُلْكِ سُلَيْمانَ وَ ما كَفَرَ سُلَيْمانُ وَ لكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَ ما أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ ماروُتَ وَ ما يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۲) وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰۳)

التّفسير

سلیمان و سحرة بابل

یفهم من الأحادیث أن مجموعة من النّاس مارست السحر فی عصر النّبی سلیمان علیه السّلام، فأمر سلیمان بجمع کل أوراقهم و کتاباتهم، و احتفظ بها فی مکان خاص. (لعل الاحتفاظ بها یعود إلی إمکان الاستفادة منها فی إبطال سحر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۵

السحرة).

بعد وفاة سلیمان عمدت جماعة إلی إخراج هذه الکتابات، و بدأوا بنشر السحر و تعلیمه. و استغلت فئة هذه الفرصة فأشاعت أن سلیمان لم یکن نبیّا أصلا، بل کان یسیطر علی ملکه و یأتی بالأمور الخارقة للعادة عن طریق السحر! مجموعة من بنی إسرائیل سارت مع هذه الموجة و لجأت إلی السحر، و ترکت التوراة.

عند ما ظهر النّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و جاءت آیات القرآن مؤیدة لنبوة سلیمان، قال بعض أحبار الیهود: ألا تعجبون من محمّد یقول: سلیمان نبی و هو ساحر! و جاءت الآیة ترد علی مزاعم هؤلاء و تنفی هذه التّهمة الکبری عن سلیمان علیه السّلام [۳۵۴].

الآیة الاولی إذن تکشف فضیحة اخری من فضائح الیهود و هی اتهامهم لنبی اللّه بالسحر و الشعوذة، تقول الآیة عن هؤلاء القوم: وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّیاطِینُ عَلی مُلْکِ سُلَیْمانَ

و الضمیر فی «و اتّبعوا» قد یعود إلی المعاصرین للنبی، أو إلی أولئک الیهود المعاصرین لسلیمان، أو لکلا الفریقین.

و المقصود بکلمة «الشّیاطین» قد یکون الطغاة من البشر أو من الجن أو من کلیهما.

ثم تؤکد الآیة علی نفی الکفر عن سلیمان: وَ ما کَفَرَ سُلَیْمانُ

فسلیمان علیه السّلام لم یلجأ إلی السحر، و لم یحقق أهدافه عن طریق الشعوذة:

وَ لکِنَّ الشَّیاطِینَ کَفَرُوا یُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

هؤلاء الیهود لم یستغلوا ما تعلموه من سحر الشیاطین فحسب، بل أساؤوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۶

الاستفادة أیضا من تعلیمات هاروت و ماروت: وَ ما أُنْزِلَ عَلَی الْمَلَکَیْنِ بِبابِلَ هارُوتَ وَ مارُوتَ [۳۵۵].

هاروت و ماروت ملکان إلهیّان جاءا إلی النّاس فی وقت راج السحر بینهم و ابتلوا بالسحرة و المشعوذین، و کان هدفهما تعلیم النّاس سبل إبطال السحر، و کما إن إحباط مفعول القنبلة یحتاج إلی فهم لطریقة فعل القنبلة، کذلک کانت عملیة إحباط السحر تتطلب تعلیم النّاس اصول السحر، و لکنهما کانا یقرنان هذا التعلیم بالتحذیر من السقوط فی الفتنة بعد تعلم السحر وَ ما یُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّی یَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَکْفُرْ.

و سقط أولئک الیهود فی الفتنة، و توغلوا فی انحرافهم، فزعموا أن قدرة سلیمان لم تکن من النّبوة، بل من السحر و السحرة. و هذا هو دأب المنحرفین دائما، یحاولون تبریر انحرافاتهم باتهام العظماء بالانحراف.

هؤلاء القوم لم ینجحوا فی هذا الاختبار الإلهی، فأخذوا العلم من الملکین و استغلّوه علی طریق الإفساد لا الإصلاح، لکن قدرة اللّه فوق قدرتهم و فوق قدرة ما تعلموه: فَیَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما یُفَرِّقُونَ بِهِ بَیْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ، وَ ما هُمْ بِضارِّینَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ یَتَعَلَّمُونَ ما یَضُرُّهُمْ وَ لا یَنْفَعُهُمْ

لقد تهافتوا علی اقتناء هذا المتاع الدّنیوی و هم عالمون بأنه یصادر آخرتهم وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَراهُ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ [۳۵۶].

لقد باعوا شخصیتهم الإنسانیة بهذا المتاع الرخیص وَ لَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

لقد أضاعوا سعادتهم و سعادة مجتمعهم عن علم و وعی، و غرقوا فی مستنقع الکفر و الانحراف وَ لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۷

بحوث

۱- قصّة هاروت و ماروت

کثر الحدیث بین أصحاب القصص و الأساطیر عن هذین الملکین، و اختلطت الخرافة بالحقیقة بشأنهما، حتی ما عاد بالإمکان استخلاص الحقائق مما کتب بشأن هذه الحادثة التاریخیة، و یظهر أن أصح ما قیل بهذا الشأن و أقربه إلی الموازین العقلیة و التاریخیة و الأحادیث الشریفة هو ما یلی:

شاع السحر فی أرض بابل و أدّی إلی إحراج النّاس و ازعاجهم، فبعث اللّه ملکین بصورة البشر، و أمرهما أن یعلما النّاس طریقة إحباط مفعول السحر، لیتخلصوا من شرّ السحرة.

کان الملکان مضطرین لتعلیم النّاس اصول السحر، باعتبارها مقدمة لتعلیم طریقة إحباط السحر. و استغلت مجموعة هذه الأصول، فانخرطت فی زمرة الساحرین، و أصبحت مصدر أذی للناس.

الملکان حذرا النّاس- حین التعلیم- من الوقوع فی الفتنة، و من السقوط فی حضیض الکفر بعد التعلم، لکن هذا التحذیر لم یؤثّر فی مجموعة منهم ۳۵۷].

و هذا الذی ذکرناه ینسجم مع العقل و المنطق، و تؤیده أحادیث أئمّة آل البیت علیهم السّلام منها ما ورد فی کتاب عیون أخبار الرضا (و قد أورده فی أحد طرقه عن الإمام الرضا علیه السّلام فی طریق آخر عن الامام الحسن العسکری علیه السّلام)[۳۵۸].

أمّا ما تتحدث عنه بعض کتب التاریخ و دوائر المعارف بهذا الشأن فمشوب بالخرافات و الأساطیر، و بعید کل البعد عمّا ذکره القرآن، من ذاک مثلا أن الملکین أرسلا إلی الأرض لیثبت لهما سهولة سقوطهما فی الذنب إن کانا مکان البشر، فنزلا و ارتکبا أنواع الآثام و الذنوب و الکبائر!! و النص القرآنی بعید عن هذه الأساطیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۸

و منزّه منها.

۲- لفظ هاروت و ماروت

زعم بعض المحققین أن «هاروت» و «ماروت» لفظان فارسیان قدیمان.

و قال: إن کلمة «هوروت» تعنی «الخصب»، و «موروت» تعنی «عدیم الموت» و اسما هاروت و ماروت مأخوذان، من هذین اللفظین ۳۵۹]. و هذا الاتجاه فی فهم معنی الاسمین لا یقوم علی دلیل.

و فی کتاب «أوستا» وردت ألفاظ مثل: «هرودات» و یعنی «شهر خرداد»، و کذلک «أمردات» بمعنی عدیم الموت، و هو نفسه اسم «شهر مرداد»[۳۶۰].

و فی معجم (دهخدا) تفسیر للفظین شبیه بما سبق.

و العجیب أن البعض ذهب إلی أن هاروت و ماروت من البشر و من سکنة بابل!، و قیل أیضا أنّهما من الشیاطین!! و الآیات المذکورة ترفض ذلک طبعا.

۳- کیف یکون الملک معلما للإنسان؟

یبقی السّؤال عن الرابطة بین الملک و الإنسان، و هل یمکن أن تکون بینهما رابطة تعلیمیة؟ الآیات المذکورة تصرح بأن هاروت و ماروت علّما النّاس السحر، و هذا تمّ طبعا من أجل إحباط سحر السحرة فی ذلک المجتمع. فهل یمکن للملک أن یکون معلما للإنسان؟

الأحادیث الواردة بشأن الملکین تجیب علی هذا السّؤال، و تقول: إن اللّه بعثهما علی شکل البشر، و هذه الحقیقة یمکن فهمها من الآیة التاسعة لسورة الأنعام أیضا، حیث یقول تعالی: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَکاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۱۹

۴- لا قدرة لأحد علی عمل دون إذن اللّه

نفهم من قول اللّه فی هذه الآیات أن السحرة ما کانوا قادرین علی إنزال الضّرر بأحد دون إذن اللّه سبحانه، و لیس فی الأمر «جبر» و لا إرغام، بل إن هذا المعنی یشیر إلی مبدأ أساس فی التوحید، و هو إن کلّ القوی فی هذا الکون تنطلق من قدرة اللّه تعالی، النار إذ تحرق إنما تحرق بإذن اللّه، و السکین إذ تقطع إنما تقطع بأمر اللّه. لا یمکن للساحر أن یتدخل فی عالم الخلیفة خلافا لإرادة اللّه.

کلّ ما نراه من آثار و خواص إنما هی آثار و خواص جعلها اللّه سبحانه للموجودات المختلفة، و من هذه الموجودات من یحسن الاستفادة من هذه الهبة الإلهیة و منهم من یسیء الاستفادة منها. و «الإختیار» الذی منحه اللّه للإنسان إنما هو وسیلة لاختباره و تکامله.

۵- السحر و تأریخه:

اشارة

الحدیث عن السحر و تاریخه طویل، و نکتفی هنا بالقول إن جذوره ضاربة فی أعماق التاریخ، و لکن بداياته و تطوراته التاریخیة یلفّها الغموض و لا یمکن تشخیص أول من استعمل السحر.

و بشأن معناه یمکن القول: إنه نوع من الأعمال الخارقة للعادة، تؤثر فی وجود الإنسان، و هو أحیانا نوع من المهارة و الخفة فی الحرکة و إیهام للأنظار، کما إنه أحیانا ذو طابع نفسی خیالی.

و السحر فی اللغة له معنیان:

۱- الخداع و الشّعوذة و الحرکة الماهرة.

۲- کل ما لطف و دقّ.

و الراغب ذکر للفظ السحر ثلاثة معان قرآنیة:

الأوّل: الخداع و تخییلات لا حقیقة لها، نحو ما یفعله المشعبذ بصرف الأبصار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۰

عما یفعله لخفة یده، و ما یفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع.

الثّانی: استجلاب معاونة الشیطان بضرب من التقرب إلیه.

الثّالث: هو اسم لفعل یزعمون أنه من قوّته یغیّر الصور و الطبائع فیجعل الإنسان حمارا، و لا حقیقة لذلک ۳۶۱].

نستنتج من دراسة ۵۱ موضعا من مواضع ذکر کلمة «سحر» فی القرآن الکریم أن السحر ینقسم فی رأی القرآن الکریم علی قسمین:

۱- الخداع و الشعبذة و خفة الید و لیس له حقیقة کما جاء فی قوله تعالی:

فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى ۳۶۲] و قوله: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ ۳۶۳] و یستفاد من هذه الآیات أن السحر لیس له حقیقة موضوعیة حتی یمکنه التأثیر فی الأشیاء، بل هو خفة حرکة الید و نوع من خداع البصر فیظهر ما هو خلاف الواقع.

۲- یستفاد من آیات اخری أن للسحر أثرا واقعیا، کقوله سبحانه:

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ و قوله: وَ يَتَعَلَّمُونَ ما يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ کما مرّ فی الآیات التی نحن بصددها.

و هل إن للسحر تأثیرا نفسیا فقط، أم یتعدی ذلک إلی الجسم أیضا؟ لم تشر الآیات أعلاه إلی ذلک، و یعتقد بعض النّاس أن هذا التأثیر نفسی لا غیر.

جدیر بالذکر أن بعض ألوان السحر کانت تمارس عن طریق الاستفادة من خواص المواد الکیمیاویة و الفیزیاویة لخداع النّاس. فیحدثنا التاریخ أن سحرة فرعون وضعوا داخل حبالهم و عصیّهم مادة کیمیاویة خاصّة (و لعلها الزئبق)، کانت تتحرک بتأثیر حرارة الشمس أو أیة حرارة اخری، و توحی للمشاهد أنها حیّة. و هذا اللون من السحر لیس بقلیل فی عصرنا الرّاهن.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۱

السّحر فی رأی الإسلام

أجمعت الفقهاء علی حرمة تعلم السحر و ممارسته، و

جاء عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «من تعلّم من السّحر قلیلا أو کثیرا فقد کفر و کان آخر عهده بربّه»[۳۶۴].

و لکن- کما ذکرناه یجوز تعلم السحر لإبطال سحر السحرة، بل یرتفع الجواز أحیانا إلی حد الوجوب الکفائی، لإحباط کید الکائدین و الحیلولة دون نزول الأذی بالنّاس من قبل المحتالین. دلیلنا علی ذلک حدیث

روی عن الإمام أبی عبد اللّه جعفر محمّد الصادق علیه السّلام: «کان عیسی بن شقفی ساحرا یأتیه النّاس و یأخذ علی ذلک الأجر فقال له جعلت فداک أنا رجل کانت صناعتی السّحر و کنت آخذ علیه الأجر و کان معاشی و قد حججت منه و منّ اللّه علیّ بلقائک و قد تبت إلی اللّه عزّ و جلّ فهل لی فی شیء من ذلک مخرج فقال له أبو عبد اللّه حلّ و لا تعقد»[۳۶۵].

و یستفاد من هذا الحدیث أن تعلّم السحر و العمل به من أجل فتح و حلّ عقد السحر لا إشکال فیه.

السحر فی رأی التوراة

أعمال السحر و الشّعبذة فی کتب العهد القدیم (التوراة و ملحقاتها) هی أیضا ذمیمة غیر جائزة. فالتوراة تقول: «لا تلتفتوا إلی الجان و لا تطلبوا التوابع فتنجسوا بهم و أنا الربّ إلهکم»[۳۶۶].

و جاء فی موضع آخر من التوراة: «و النفس التی تلتفت إلی الجان و إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۲۲

التوابع لتزنی ورائهم اجعل وجهی ضد تلک النفس و اقطعها من شعبها»[۳۶۷].

و یقول قاموس الکتاب المقدس: «واضح أن السحر لم یکن له وجود فی شریعة موسی، بل إن الشریعة شددت کثیرا علی أولئک الذین کانوا یستمدون من السحر».

و من الطریف أن قاموس الکتاب المقدس الذی یؤکد علی أن السحر مذموم فی شریعة موسی، یصرح بأن الیهود تعلّموا السحر و عملوا به خلافا لتعالیم التوراة فیقول: «... و لکن مع ذلک تسرّبت هذه المادة الفاسدة بین الیهود، فآمن بها قوم، و لجأوا إلیه فی وقت الحاجة»[۳۶۸].

و لذلک ذمهم القرآن، و أدانهم لجشعهم و طمعهم و تهافتهم علی متاع الحیاة الدنیا.

السحر فی عصرنا

توجد فی عصرنا مجموعة من العلوم کان السحرة فی العصور السالفة یستغلونها للوصول إلی مآربهم.

۱- الاستفادة من الخواص الفیزیاویة و الکیمیاویة للأجسام، کما ورد فی قصّة سحرة فرعون و استفادتهم من خواص الزئبق أو أمثاله لتحریک الحبال و العصیّ.

واضح أن الاستفادة من الخصائص الکیمیاویة و الفیزیاویة للأجسام لیس بالعمل الحرام، بل لا بدّ من الاطلاع علی هذه الخصائص لاستثمار مواهب الطبیعة، لکن المحرم هو استغلام هذه الخواص المجهولة عند عامة النّاس لإیهام الآخرین و خداعهم و تضلیلهم، مثل هذا العمل من مصادیق السحر، (تأمل بدقة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۳

۲- الاستفادة من التنویم المغناطیسی، و الهیبنوتیزم، و المانیةتیزم، و التلهباتی (انتقال الأفکار من المسافات البعیدة).

هذه العلوم هی أیضا إیجابیة یمکن الاستفادة منها بشکل صحیح فی کثیر من شؤون الحیاة. لکن السحرة کانوا یستغلونها للخداع و التضلیل.

و لو استخدمت هذه العلوم الیوم أیضا علی هذا الطریق المنحرف فهی من «السحر» المحرّم.

بعبارة موجزة: إن السحر له معنی واسع یشمل کل ما ذکرناه هنا و ما أشرنا إلیه سابقا.

و من الثابت کذلک أن قوة الإرادة فی الإنسان تنطوی علی طاقات عظیمة.

و تزداد هذه الطاقات بالریاضات النفسیة، و یصل بها الأمر أنها نستطیع أن تؤثر علی الموجودات المحیطة بها، و هذا مشهود فی قدرة المرتاضین علی القیام بأعمال خارقة للعادة نتیجة ریاضاتهم النفسیة.

جدیر بالذکر أن هذه الریاضات تکون مشروعة تارة، و غیر مشروعة تارة اخری. الریاضات المشروعة تخلق فی النفوس الطاهرة قوة إیجابیة بناءة، و الریاضات غیر المشروعة تخلق قوة شیطانیة، و قد تکون کلا القوتین قادرتین علی القیام بأعمال خارقة للعادة، لکن الاولی إیجابیة بناءة، و الاخری مخربة هدامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۴

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۵]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْکافِرِینَ عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۰۴) ما یَوَدُّ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ وَ لا الْمُشْرِکِینَ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْکُمْ مِنْ خَیْرٍ مِنْ رَبِّکُمْ وَ اللَّهُ یَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِیمِ (۱۰۵)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس أنه قال: إن الصحابة كانوا يطلبون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لدى تلاوته الآيات و بيانه الأحكام الإلهية أن يتمهّل فى حديثه حتى يستوعبوا ما يقوله، و حتى يعرضوا عليه أسئلتهم، و كانوا يستعملون لذلك عبارة: «راعنا» أى أمهلنا. و اليهود حوّروا معنى هذه الكلمة لتكون من «الرعونة» فتكون راعنا بمعنى اجعلنا رعناء، و اتخذوا ذلك وسيلة للسخرية من النّبى و المسلمين.

الآية تطلب من المسلمين أن يقولوا «انظرنا» بدلا من «راعنا» لسد الطريق أمام طعن الأعداء.

و قال بعض المفسرين: إنّ عبارة «راعنا» فى كلام اليهود سبّة تعنى «اسمع و لمّا تسمع»، و كانوا يرددون هذه العبارة مستهزئين!.

و قيل إن اليهود كانوا يقولون بدلا من راعنا «راعينا» (راعى+ نا)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۵

و يخاطبون بذلك النّبى ساخرين ۳۶۹]. و ليس بين هذه العلل المذكورة لنزول الآية الكريمة تناقض، فقد تكون بأجمعها صحيحة.

التّفسير

لا توفّروا للأعداء فرصة الطعن:

الآية الكريمة تخاطب المسلمين قائلة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَ قُولُوا انْظُرْنا وَ اسْمَعُوا وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ

ممّا سبق من سبب نزول هذه الآية الكريمة نستنتج أنّ على المسلمين أن لا يوفروا للأعداء فرصة الطعن بهم، و أن لا يتيحوا لهم بفعل أو قول ذريعة يسيئون بها إلى الجماعة المسلمة. عليهم أن يتجنبوا حتى ترديد عبارة يستغلها العدوّ لصالحه.

الآية تصرّح بالنهى عن قول عبارة تمكن الأعداء أن يستثمروا أحد معانيها لتضعيف معنويات المسلمين، و تأمرهم باستعمال كلمة اخرى غير تلك الكلمة القابلة للتحريف و لطعن الأعداء.

حين يشدّد الإسلام إلى هذا الحد فى هذه المسألة البسيطة، فإن تكليف المسلمين فى المسائل الكبرى واضح، عليهم فى مواقفهم من المسائل العالمية أن يسدوا الطريق أمام طعن الأعداء، و أن لا يفتحوا ثغرة ينفذ منها المفسدون الداخليون و الأجانب للإساءة إلى سمعة الإسلام و المسلمين.

جدير بالذكر أن عبارة راعنا- إضافة إلى ما فيها من معنى آخر استغله اليهود- فيها نوع من سوء الأدب، لأنّها من باب المفاعلة، و باب المفاعلة يفيد المبادلة و الاشتراك، و هى لذلك تعنى: راعنا لنراعيك، و قد نهى القرآن عن ترديدها[۳۷۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۶

الآية التالية تكشف عن حقيقة ما يكنّه مجموعة من أهل الكتاب و المشركين من حقد و عداء للجماعة المؤمنة: ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ و سواء ودّ هؤلاء أم لم يودّوا فرحمة اللّه لها سنّة إلهية و لا تخضع للميول و الأهواء: وَ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

الحاقدون لم يطيقوا أن يروا ما شمل اللّه المسلمين من فضل و نعمة، و ما منّ عليهم من رسالة عظيمة، و لكن فضل اللّه عظيم.

بحث

مغزى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أكثر من ثمانين موضعا خاطب اللّه المسلمين فى كتابه الكريم بهذه العبارة، و كل هذه المواضع من القرآن الكريم نزلت فى المدينة، و لا وجود لهذه العبارة فى الآيات المكية، و لعل ذلك يعود إلى تشكل الجماعة المسلمة فى المدينة، و إلى ظهور المجتمع الإسلامى بعد الهجرة. و لذلك خاطب اللّه الجماعة المؤمنة بعبارة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

و هذا الخطاب يتضمن إشارة إلى ميثاق التسليم الذى عقدته الجماعة المسلمة مع ربّها بعد الإيمان به، و هذا الميثاق يفرض على الجماعة الطاعة و الانصياع لأوامر ربّ العالمين، و الاستجابة لما يأتى بعد هذه العبارة من أحكام.

جدير بالذكر أن كثيرا من المصادر الإسلامية بما فى ذلك مصادر أهل السنة،

روت عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «ما أنزل اللّه آية فيها يا أيّها الّذين آمنوا إلّا و علىّ رأسها و أميرها»[۳۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷]

اشارة

ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۶) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۰۷)

التّفسير

الغرض من النّسخ

الآية الاولى تشير أيضا إلى بعد آخر من أبعاد حملة التشكيك اليهودية ضد المسلمين.

كان هؤلاء القوم يخاطبون المسلمين أحيانا قائلين لهم إن الدين دين اليهود و أن القبلة قبلة اليهود، و لذلك فإن نبيّكم يصلى تجاه قبلتنا (بيت المقدس)، و حينما نزلت الآية ۱۴۴ من هذه السّورة و تغيّرت بذلك جهة القبلة، من بيت المقدس إلى مكة، غيّر اليهود طريقة تشكيكهم، و قالوا: لو كانت القبلة الاولى هى الصحيحة، فلم هذا التغيير؟ و إذا كانت القبلة الثانية هى الصحيحة، فكل أعمالكم السابقة- إذن- باطلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۸

القرآن الكريم فى هذه الآية يردّ على هذه المزاعم و ينير قلوب المؤمنين[۳۷۲].

و يقول: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها ... و ليس مثل هذا التغيير على اللّه بعسير أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؟! الآية التالية تؤكد مفهوم قدرة اللّه سبحانه و تعالى و حاكميته فى السماوات و الأرض و فى الأحكام، فهو البصير بمصالح عباده: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و فى هذه العبارة من الآية أيضا تثبيت لقلوب المؤمنين، كى لا- تتزلزل أمام حملات التشكيك هذه، و تستمر الآية فى تعميق هذا التثبيت، مؤكدة أن المجموعة المؤمنة ينبغى أن تعتمد على اللّه وحده، و تستند إلى قوته و قدرته دون سواه، فليس فى هذا الكون سند حقيقى سوى اللّه سبحانه: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

بحوث

۱- هل يجوز النّسخ فى الأحكام؟

النسخ فى اللغة الإزالة، و فى الاصطلاح تغيير حكم شرعى و إحلال حكم آخر محله، من ذلك:

۱- المسلمون كانوا يصلون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، و استمروا على ذلك ستة عشر شهرا، ثم نزل الأمر بتغيير القبلة، فوجب على المسلمين أن يصلوا تجاه الكعبة.

۲- الآية ۱۵ من سورة النساء قررت معاقبة الزانية بعد شهادة أربعة شهود بإمساكها فى البيت حتى الوفاة، أو يجعل اللّه لها سبيلا، و الآية الثانية من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۲۹

النور نسخت الآية المذكورة و بدّلت الحكم بمائة جلدة.

و هنا يطرح سؤال معروف بشأن سبب النسخ يقول: لو كان فى الحكم مصلحة فلما ذا نسخ؟ و إن لم يكن كذلك فلما ذا شرع؟ لماذا لم تطرح الشريعة منذ البداية حكما غير قابل للنسخ؟

علماء الإسلام أجابوا منذ القديم على هذا السؤال، و تقرير هذا الجواب باختصار كما يلى:

نعلم أن بعض احتياجات الإنسان ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها ترتبط بفطرة الإنسان و طبيعته، و بعضها الآخر تتغير بتغير الزمان و ظروف البيئة، و هذه المتغيرات قد تضمن سعادة الإنسان فى زمن معين، لكنها تصبح عقبة أمام تقدم الفرد فى زمان آخر.

قد يكون نوع من الدواء نافعا للمريض فى ظرف زمنى معين، و قد لا يكون نافعا- بل ضارا- فى مرحلة نقاهة المريض، لذلك يأمر الطبيب بدواء فى وقت، ثم يأمر بقطعه و الامتناع عن تناوله فى وقت آخر.

قد يكون درس معين مفيدا للطالب فى مرحلة دراسية معينة، لكن هذا الدرس يصبح عديم الفائدة فى المراحل الدراسة التالية. المنهج التعليمى الصحيح ينبغى أن ينظم الدروس بشكل يتناسب مع حاجة الطالب فى كل مرحلة من مراحله الدراسية.

هذه المسألة تتضح أكثر فى إطار القانون اللازم لتكامل الإنسان و المجتمع الإنسانى، هذا القانون لا بدّ أن يتضمن متغيرات كى يكون المنهج التكاملى مفيدا لكل مراحل مسيرة المجتمع. و تزداد أهمية هذه التغييرات عند اندلاع الثورات الاجتماعية و العقائدية، و تزداد ضرورة مواكبة متطلبات التغيير فى كل مرحلة من مراحل الثورة.

لا بدّ من التأكيد أنّ اصول الأحكام الإلهية ثابتة لا يعتريها التغيير، فالتوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۰

و العدالة الاجتماعية و سائر الأصول و المبادئ المشابهة ثابتة لا تتغير، و إنما يطرأ التغيير على المسائل الفرعية و الثانوية.

و من الضرورى أن نؤكد أيضا أن تكامل الدين قد يبلغ مرحلة يصبح فيها (الدين الخاتم)، و تصبح جميع أحكامه ثابتة لا تقبل التغيير (سنشرح مسألة خاتمية الرسالة فى تفسير الآية ۴۰ من سورة الأحزاب).

اليهود، مع اعتراضهم على المسلمين بشأن نسخ حكم القبلة الاولى، أقرّوا النسخ فى الأحكام الإلهيّة، و استنادا إلى ما جاء فى مصادرهم الدينية.

تذكر التوراة أن كل الحيوانات كانت حلا لنوح عليه السّلام حين نزل من سفينته، لكن هذا الحكم نسخ فى شريعة موسى، و حرّم قسم من الحيوانات ۳۷۳].

۲- المقصود من الآية

الآیة فی اللغة العلامة، و فی القرآن لها معان متعددة:

۱- مقاطع من القرآن، مفصولة عن بعضها بعلائم خاصة، و هذا المعنی للآیة نجده فی قوله تعالی: تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِ ۳۷۴].

۲- المعجزة سمیت فی القرآن آیة کقوله سبحانه: وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَةً أُخْری ۳۷۵].

۳- الدلیل علی وجود اللّه أو المعاد کقوله: وَ جَعَلْنَا اللَّیْلَ وَ النَّهارَ آیَتَیْنِ ۳۷۶] و قوله: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنَّکَ تَری الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِی أَحْیاها لَمُحْیِ الْمَوْتی إِنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ[۳۷۷].

۴- الأشیاء البارزة الملفتة للأنظار کالأبنیة الشاهقة، کما فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۱

أَ تَبْنُونَ بِکُلِّ رِیعٍ آیَةً تَعْبَثُونَ ۳۷۸].

و المعنی المشترک بین کل هذه المعانی هو «العلامة».

و قوله سبحانه: ما نَنْسَخْ مِنْ آیَةٍ ... یشیر إلی نسخ الأحکام، فالحکم النّاسخ خیر من المنسوخ أو مثله، أو إنه یشیر إلی نسخ معجزة الأنبیاء، فیکون المعنی أن معجزة النّبی التالی أفصح و أوضح من معجزة النّبی السابق.

ثمّة روایات فی تفسیر هذه الآیة ذکرت أن المقصود من نسخ الآیة هو وفاة الإمام و مجیء الإمام التالی بعده، و هذا طبعا بیان مصداق من مصادیق الآیة، لا تحدیدا لمفهومها.

۳- تفسیر عبارة «ننسها»

جملة «ننسها» فی الآیة معطوفة علی جملة «ننسخ» و هی من مادة «أنساء» بمعنی التأخیر أو الحذف من الأذهان ۳۷۹].

فما هو معنی هذه العبارة فی الآیة الکریمة؟

المقصود من العبارة هو: ما ننسخ من آیة أو نؤخر نسخها استنادا إلی مصالح معینة ... نأت بخیر منها أو مثلها ....

فعبارة «ننسخ» تشیر إلی النسخ علی المدی القصیر، و عبارة «ننسها» النسخ علی المدی البعید، (لا حظ بدقّة).

ثمّة احتمالات اخری ذکرت فی هذا المجال لا تبلغ أهمیتها ما ذکرناه.

۴- تفسیر أَوْ مِثْلِها.

سؤال آخر یطرح فی هذا المجال بشأن عبارة «أو مثلها» فلو کان الحکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۲

النّاسخ مثل الحکم المنسوخ فلا فائدة من هذا التغییر، النسخ تظهر فائدته حین یکون النّاسخ خیرا من المنسوخ.

و الجواب علی ذلک هو أن الآیة النّاسخة لها آثار فی زمانها کتلک الآثار التی کانت الآیة المنسوخة فی زمانها.

بعبارة أوضح: قد یکون لحکم الیوم فوائد معینة، لکن هذه الفوائد لا تظهر لهذا الحکم غدا، و لا بدّ أن ینسخ هذا الحکم بحکم آخر تکون له فی زمن لا حق- علی الأقل- نفس الفوائد التی کانت للمنسوخ فی زمن سابق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۰۸]

اشارة

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۰۸)

سبب النّزول

تعددت الآراء فى كتب التّفسير حول سبب نزول هذه الآية الشريفة، إلّا أنها متقاربة فى المضمون و النتيجة.

فقد نقل عن ابن عباس أنه: جاء وهب بن زيد، و رافع بن حرملة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و قالا: إئت لنا بكتاب من اللّه مرسل إلينا نقرأه لكى نؤمن بك، أو أجر الأنهار لنا حتى نتبعك! و قال بعض آخر إن جماعة من الاعراب جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و طلبوا منه ما طلب بنو إسرائيل من موسى، فقالوا: أرنا اللّه جهرة.

و قال آخرون: إنهم طلبوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أن يجعل لهم صنما من شجرة خاصة (ذات أنواط) ليعبدوه كما قال بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ. و الآية أعلاه نزلت جوابا لهؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۴

التّفسير

حجج واهية

هذا الآية الكريمة، و إن كانت تخاطب مجموعة من المسلمين ضعاف الإيمان أو المشركين إلّا أنّها ترتبط أيضا بمواقف اليهود.

لعل هذا السؤال وجه إلى الرّسول بعد تغيير القبلة، و بعد حملات التشكيك التى شنها اليهود بين المسلمين و غير المسلمين، و اللّه سبحانه فى هذه الآية الكريمة نهى عن توجيه مثل هذه الأسئلة السخيفة أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَما سُئِلَ مُوسى مِنْ قَبْلُ ! مثل هذا العمل إعراض عن الإيمان و اتجاه نحو الكفر، و لذلك قالت الآية:

وَ مَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ

الإسلام طبعا لا يمنع طرح الأسئلة العلمية و المنطقية، و لا يحول دون طلب المعجزة من أجل اثبات صحة الدعوة، لأن مثل هذه الأسئلة و الطلبات هى طريق الإدراك و الفهم و الإيمان. و هذه الآية الكريمة تشير إلى أولئك الذين يتذرعون بمختلف الحجج الواهية كى يتخلصوا من حمل أعباء الرسالة.

هؤلاء كانوا قد شاهدوا من الرّسول معاجز كافية لإيمانهم بالدعوة و صاحبها، لكنهم يتقدمون إلى النّبى بطلب معاجز اقتراحية اخرى! المعجزة ليست العوبة بيد هذا و ذاك كى تحدث وفق الميول و الاقتراحات و المشتهيات، بل إنها ضرورة لازمة للاطمئنان من صدق أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و ليست مهمّة النّبى صنع المعاجز لكل من تهوى نفسه معجزة.

ثم هناك من الأسئلة ما هو بعيد عن العقل و المنطق، كرؤية اللّه جهرة، و كطلب اتخاذ الصنم.

القرآن الكريم ينبه فى هذه الآية بأن المجموعة البشرية التى لا تسلك طريق العقل و المنطق فى اسئلتها و مطالبتها، سينزل بها ما نزل بقوم موسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۵

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۰]

اشارة

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۰۹) وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۰)

التّفسير

حسد و عناد

كثير من أهل الكتاب و خاصة اليهود لم يكتفوا بإعراضهم عن الدين المبين، بل كانوا يودّون أن يرتد المسلمون عن دينهم، و لم يكن ذلك إلّا عن حسد يستعر فى أنفسهم، تقول الآية: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

و أمام هذه المواقف الدنيئة و النظرات الضيقة و الآمال التافهة و النوايا الخبيثة التى تحملها الفئة الكافرة، يحدد الإسلام موقف الجماعة المسلمة، على أساس من رحابة الصدر وسعة الأفق و بعد النظرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۶

فَاعْفُوا وَ اصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذا الإمر الإلهى نزل حيث كان المسلمون بحاجة إلى بناء المجتمع الإسلامى. و فى تلك الظروف يوجب على المسلمين أن يلجأوا إلى سلاح العفو و الصفح حتى يأتى اللّه بأمره.

كثير من المفسرين قالوا إن «أمر اللّه» فى هذه الآية يعنى «أمر الجهاد»، و لعل الجماعة المسلمة لم تكن على استعداد شامل لخوض معركة دامية حين نزلت هذه الآية، و لذلك قيل إن آيات الجهاد نسخت هذه الآية.

و لعل التعبير بالنسخ فى هذا الموضع ليس بصحيح، لأن الآية تحمل فى عبارتها الإطار الذى يحدّها بفترة زمنية محدودة.

الآية التالية تأمر المسلمين بحكمين هامّين: إقامة الصلاة باعتبارها رمز ارتباط الإنسان باللّه، و إيتاء الزكاة و هى أيضا رمز التكافل بين أبناء الامّة المسلمة، و كلاهما ضروريان لتحقيق الإنتصار على العدو: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ.

ثم تؤكّد الآية على خلود العمل الصالح و بقائه: وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ و اللّه سبحانه عالم بالسرائر، و يعلم دوافع الأعمال، و لا يضيع عنده أجر العاملين إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

بحوث

۱- «اصفحوا» من «صفح»، و صفح الشىء عرضه و جانبه كصفحة الوجه و صفحة السيف و صفحة الحجر، و الأمر بالصفح هو الأمر بالإعراض، لكنّ عطفها على «فاعفوا» يفهم أنه أمر بالإعراض لا عن جفاء، بل عن عفو و سماح.

و هذا التعبير يوحى أيضا أن المسلمين كانت لهم قدرة المقابلة و عدم الصفح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۳۷

لكن الأمر بالعفو و الصفح يستهدف إتمام الحجّة على العدوّ، كى يهتدى من هو قابل للإصلاح. بعبارة اخرى: ممارسة القوّة ليست المرحلة الاولى فى مواجهة العدوّ، بل العفو و الصفح، فإن لم يجد نفعا فالسيف.

۲- عبارة إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ قد تشير إلى أن اللّه قادر على أن ينصر المسلمين على أعدائهم بطرق غيبية، و لكن طبيعة حياة البشر و الكون قائمة على أن الأعمال لا تتم إلا بالتدريج و بعد توفّر المقدمات.

۳- عبارة حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ قد تكون إشارة إلى توغل هؤلاء الحسدة فى ذاتياتهم، فالحسد قد يتخذ أحيانا طابع الدين و الرسالة، لكن حسد هؤلاء لم يكن له حتى هذا الظاهر، بل كان ضيقا شخصيا[۳۸۰].

و يحتمل أيضا أن تكون إشارة إلى أن الحسد متجذّر فى نفوسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۸

الايتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۱۱) بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۱۲)

التّفسير

احتكار الجنّة! القرآن فى هاتين الآيتين يشير إلى ادعاء آخر من الادعاءات الفارغة لمجموعة من اليهود و النصارى، وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى ۳۸۱]، ثم يجيبهم جوابا رادعا قائلا- تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ ثم تخاطب الآية رسول اللّه و تقول: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

بعد التأكيد على أن ادعاء هؤلاء فارغ لا قيمة له، و أنه مجرد أمنية تخامر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۳۹

أذهانهم، يطرح القرآن المعيار الأساس لدخول الجنّة على شكل قانون عام بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ و من هنا فالمشمولون بهذا القانون هم فى ظلال رحمة اللّه وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

بعبارة موجزة: الجنّة و مرضاة اللّه و السعادة الخالدة ليست حكرا على طائفة معينة، بل هى نصيب كل من يتوفر فيه شرطان:

الأوّل: التسليم التام للّه تعالى، أو الانصياع لأوامره سبحانه، و عدم التفريق بين هذه الأوامر، أى عدم ترك ذلك القسم من الأوامر الذى لا ينسجم مع المصالح الفردية الذاتية.

الثّانى: و هو ما يترتب على التسليم فى المرحلة الاولى، من القيام بالأعمال الصالحة و الإحسان فى جميع المجالات.

و القرآن، بطرحه هذه الحقيقة، يرفض بشكل تام مسألة التعصب العنصرى و يكسر طوق احتكار فئة معينة للسعادة، و يضع ضمنيا معيار الفوز متمثلا بالإيمان، و العمل الصالح.

بحوث

۱- «الأمانى» جمع «أمنية» و هى الرجاء الذى لا يتحقق للإنسان.

و الآيـة تطرح أمنيـة واحـدة من أمنيات أهل الكتاب، و لكن هـذه الأمنيـة- أى أمنيـة احتكار الجنّـة- هى مصـدر أمان اخرى، و بعبارة اخرى: أمنيتهم لها فروع و امتدادات، و لذلك عبر عنها القرآن بلفظ (أمانى).

۲- نسبت الآية الكريمة التسليم إلى (الوجه): بَلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ...، و ذلك يعود إلى أن الإنسان حين يستسلم لشىء، فأوضح مظهر لهذا الاستسلام هو أن يولى وجهه تجاه ذلك الشىء. و من المتحمل أيضا أن «الوجه» يعنى فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۰

الذات، و يكون المعنى أن هؤلاء أسلموا بكل وجودهم لأوامر اللّه.

۳- الآيتان المـذكورتان تعلّمان المسـلمين عـدم الانجراف وراء الادعاءات الباطلـة غير القائمة على دليل، و تعلّمهم أن يطلبوا الدليل و البرهـان من صـاحب الادعـاء، و بـذلك يسـدّ القرآن الطريق أمام الانجراف الأعمى وراء التقليـد، و يجعل التفكير المنطقى سائـدا فى المجتمع.

۴- ذكر عبـارة وَ هُوَ مُحْسِنٌ بعـد طرح مسألـة التسـليم، إشـارة إلى أن الإحسان بالمعنى الواسع للكلمـة لا يتحقق إلّا برسوخ الإيمان فى النفوس. كما تفهم العبارة أن صفة الإحسان ليست طارئة فى نفوس المؤمنين، بل هى خصلة نافذة فى أعماق هؤلاء.

و نفى الخوف و الحزن عن أتبـاع خـط التوحيـد سـببه واضـح، لأـن هؤلاء يخافون اللّه دون سواه، بينما المشـركون يخشون من كل ما يهدد مصالحهم الدنيوية التافهة، بل يخشون أمورا خرافية موهومة تقلقهم و تقضّ مضاجعهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۳]

اشارة

وَ قـالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَـيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَـيْءٍ وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَـذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۱۳)

سبب النّزول

قال ابن عباس أنه لما قدم و فد نجران من النصارى على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم آتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم، فقـال رافع بن حرملـة: مـا أنتم على شـىء، و جحـد بنبوّة عيسـى و كفر بالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران: ليست اليهود على شىء، و جحد بنبوّة موسى و كفر بالتوراة، فأنزل اللّه هذه الآية.[۳۸۲]

التّفسير

تعصّب و تناقض

فيما مرّ بنا من آيات رأينا جانبا من الادعاءات الفارغة التى أطلقها جمع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۲

اليهود و النصارى، و رأينا أن هذه الادعاءات الفارغة تستتبعها روح احتكارية ضيقة، ثم وقوع فى التناقضات.

تقول الآية: وَ قالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَ قالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ.

عبارة «ليست على شيء» تعنى أن أفراد هذا الدين لا مكانة لهم و لا منزلة لدى اللّه سبحانه، أو تعنى أن هذا الدين لا وزن له و لا قيمة.

ثم تضيف الآية: وَ هُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ

أى إنّ هؤلاء لديهم الكتاب الذى يستطيع أن ينير لهم الطريق فى هذه المسائل، و مع ذلك ينطلقون فى أحكامهم من التعصب و اللجاج و العناد!! ثم تقول الآية: كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ

و هذه الآية الكريمة تجعل أقوال هذه المجموعة من أهل الكتاب المتعصبين شبيهة بأقوال الجهلة من الوثنيين. بعبارة اخرى: هذه الآية تقرر أن المصدر الأساس للتعصب هو الجهل و البعد عن العلم، لأن الجاهل مطوّق بمحيطه المحدود، لا يقبل غيره، بل هو ملتصق بما ملأ ذهنه منذ صغره و إن كان خرافيا، و يرفض ما سواه.

ثم اختتمت الآية بالتأكيد على أن الحقائق إن خفيت فى هذه الدنيا، فهى لا تخفى فى الآخرة حيث تنكشف كل الأوراق: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

و هذه الآية فيها أيضا تثبيت للقلوب و طمأنة للنفوس، فهى تؤكد للمسلمين أن الطوائف التى تجهزت لمحاربتهم لا تتميز بالانسجام و الوحدة، بل إن مجاميعها يكفّر بعضهم بعضا، و الذى يجمع بينهم على الظاهر هو الجهل، و بالتالى التعصب الناشئ عن هذا الجهل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۴]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۱۴)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى «فطلوس» الرومى و جنده النصارى الذين حاربوا بنى إسرائيل، و أحرقوا التوراة، و أسروا الأبناء و هدموا بيت المقدس.

و عن ابن عباس أيضا أنها نزلت فى الروم، غزوا بيت المقدس وسعوا فى خرابه حتى أظهر اللّه المسلمين عليهم.

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنها نزلت فى قريش حين حالوا دون دخول الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مدينة مكة و المسجد الحرام.

و قيل إنها نزلت فى مشركى مكة ممن هدموا الأماكن التى اتخذها المسلمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۴

للصلاة فى مكّة، بعد هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم منها[۳۸۳].

و لا يمنع أن يكون نزول الآية بسبب كل هذه الأحداث، و بذلك يكون كل واحد من أسباب النّزول المذكورة قد تناول بعدا واحدا من أبعاد المسألة.

التّفسير

أظلم النّاس

أسباب النّزول توضّح أن الآية تتحدث عن اليهود و النصارى و المشركين، مع أن الآيات السابقة تتحدث أكثر ما تتحدث عن اليهود و أحيانا عن النصارى.

على أى حال «اليهود» بوسوستهم بشأن مسألة تغيير القبلة، سعوا إلى أن يتجه المسلمون فى صلاتهم نحو بيت المقدس، ليتفوقوا بذلك على المسلمين، و ليحطوا من مكانة الكعبة[۳۸۴].

و «مشركو مكة» بمنعهم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المسلمين زيارة الكعبة سعوا عمليا فى هدم هذا البناء الإلهى.

و «النصارى» باستيلائهم على بيت المقدس و العبث فيه على ما ذكر ابن عباس سعوا فى تخريبه.

القرآن يقول لهؤلاء جميعا و لكل من يسلك طريقا مشابها لهؤلاء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها.

القرآن الكريم أطلق على مثل هذا العمل اسم «الظلم الكبير»، و على العاملين اسم «أظلم النّاس» و أى ظلم أكبر من تخريب قاعدة التوحيد، و صدّ النّاس عن ذكر اللّه؟! ثم تقول الآية: أُولئِكَ ما كانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوها إِلَّا خائِفِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۵

أى إن المسلمين و الموحدين ينبغى أن يكونوا على درجة من القوّة و المقاومة بحيث لا يستطيع الظلمة أن يمدوا أيديهم إلى هذه الأماكن المقدسة، و لا يستطيعون أن يدخلوها جهرة بدون خوف أو خشية.

و من المحتمل أيضا أن الآية تقول: إن الظلمة لن يستطيعوا أبدا أن ينجحوا فى الاستيلاء على هذه المراكز العبادية، بل إنهم سوف لا يستطيعون فى المستقبل أن يدخلوا هذه المساجد إلّا و هم خائفون مذعورون، تماما كالمصير الذى لاقاه مشركو مكة بشأن المسجد الحرام.

و الآية تبين بعد ذلك العقاب الذى ينتظر هؤلاء الظلمة ممن يريد أن يفصل بين اللّه و عباده: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

بحثان

۱- تخريب المساجد

مفهوم الآية المذكورة واسع- دون شك- غير محدود بزمان أو مكان معينين.

إنها مثل سائر الآيات التى نزلت فى ظروف خاصة لكن حكمها ثابت على مرّ العصور و الدهور. فكل الذين يسعون بنوع من الأنواع فى تخريب المساجد مشمولون بهذا الخزى و العذاب العظيم.

من الضرورى أن نؤكد أن منع الذكر فى مساجد اللّه و السعى فى خرابها، لا يقتصر على هدم بنائها، بل إن كل عمل يؤدى إلى القضاء على دور المسجد فى المجتمع مشمول بهذه الآية.

و سوف نرى فى الآية إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ ...[۳۸۵] أن المقصود من العمران- استنادا إلى الأحاديث و الروايات الصريحة- ليس هو تشييد البناء فحسب، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۶

الحضور فيها و احياؤها بالذكر، هو نوع من العمران، بل أهم أنواع العمران.

و فى النقطة المقابلة- إذن- يكون كل عمل يبعد النّاس عن المساجد، و يبعد المساجد عن دورها ظلما كبيرا.

و من المؤسف أن عصرنا يشهد ظهور مجموعة جاهلة متعصبة متعنتة بعيدة عن المنطق، تطلق على نفسها اسم الوهابيّة تسعى فى تخريب المساجد بحجة إحياء التوحيد!! هؤلاء عمدوا إلى تخريب المساجد المبنيّة على قبور الأئمة و الصالحين، و التى كانت مركزا للذكر و الدعاء و الارتباط باللّه و بخط الصالحين من آل اللّه.

و من الغريب أنهم يمارسون هذه الأعمال تحت عنوان مكافحة الشرك مرتكبين بذلك أفظع الكبائر.

و لو افترضنا حدوث ما يخالف الشرع فى بعض هذه الأماكن الدينية من قبل الجهلة، فيجب الوقوف بوجه مثل هذه الأعمال، لا أن تتجه الجهود إلى تخريب هذه القواعد التوحيدية، فهذا عمل يشبه عمل المشركين الجاهليين.

۲- أكبر الظّلم

و مسألة اخرى تلفت النظر فى هذه الآية، هى وصفها مثل هؤلاء الأفراد بأنهم أظلم النّاس. و هم كذلك، لأن تعطيل المساجد و تخريبها و منع ذكر اللّه فيها، يؤدى إلى ابتعاد النّاس عن الدين، و بالتالى إلى عواقب سيئة و مأساة اجتماعية عظيمة.

و صفة «الأظلم» ذكرها القرآن الكريم فى مواضع اخرى للحكاية عن كبائر اخرى، لكن كل هذه الذنوب تعود إلى أصل واحد هو صدّ النّاس عن طريق التوحيد.

و سيأتى شرح ذلك أكثر فى المجلد الرابع من هذا التّفسير عند الحديث عن الآية ۲۱ من سورة الأنعام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۷

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۱۵]

اشارة

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ (۱۱۵)

سبب النّزول

اختلفت الروايات فى سبب نزول هذه الآية:

روى عن ابن عباس أن الآية ترتبط بتغيير القبلة، فعند ما تغيرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة بدأ اليهود يشككون قائلين: و هل من الممكن أن تتغير الكعبة؟ فنزلت الآية ترد عليهم و تقول إن المشرق و المغرب للّه.

و

روى أيضا: أنّ الاية نزلت فى الصّلاة المستحبّة يستطيع الإنسان أن يؤدّيها على راحلته أينما اتّجهت الرّاحلة، دون اشتراط الاتّجاه نحو القبلة.

و

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص ۳۴۷

روی عن جابر أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بعث جماعة فی غزوة، فجنّ علیهم اللّیل و لم یستطیعوا أن یعرفوا اتّجاه القبلة، فصلّت کلّ مجموعة صوب جهة، و بعد طلوع الشّمس تبیّن أنّهم لم یستقبلوا القبلة سألوا النّبیّ عن ذلک فنزلت الآیة الکریمة

(هذا الحکم له شروط طبعا تذکره الکتب الفقهیة).

و من الممکن أن تکون أسباب النّزول المذکورة کلها ثابتة للآیة، أضف الی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۸

ذلک أن کل آیة فی القرآن لا تنحصر بأسباب نزولها، بل ینبغی أن یؤخذ مفهومها بشکل حکم عام، و ربما استخرج منها أحکام متعددة.

التّفسیر

أینما تولّوا فثمّ وجه اللّه:

الآیة السابقة تحدثت عن الظالمین الذین یمنعون مساجد اللّه أن یذکر فیها اسمه و یسعون فی خرابها، و هذه الآیة تواصل موضوع الآیة السابقة فتقول: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَیْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ

تؤکد هذه الآیة أن منع النّاس عن إحیاء المساجد لا یقطع الطریق أمام عبودیة اللّه، فشرق هذا العالم و غربه للّه سبحانه، و أینما تولوا وجوهکم فاللّه موجود. و تغییر القبلة تمّ لظروف خاصة، و لیس له علاقة بمکان وجود اللّه، فاللّه سبحانه و تعالی لا یحده مکان، و لذلک تقول الآیة بعد ذلک: إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِیمٌ

واضح أن المقصود بالمشرق و المغرب فی الآیة لیس هو الجهتین الخاصتین، بل هو کنایة عن کل الجهات. کأن یقول أحد مثلا: أعداء علی علیه السّلام سعوا للتغطیة علی فضائله، لکن فضائله انتشرت فی شرق العالم و غربه، (أی فی کل العالم).

و لعل سبب شیوع استعمال الشرق و الغرب فی الکلام أن الإنسان یتعرف أولا علی هاتین الجهتین، ثم یعرف بقیة الجهات عن طریق هاتین الجهتین.

و فی آیة اخری یقول القرآن الکریم: وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۳۸۶]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۴۹

بحوث

۱- فلسفة القبلة

اللّه موجود فی کل جهة و مکان، فلما ذا وجب الاتجاه نحو القبلة فی الصلاة؟

واضح أن الاتجاه نحو القبلة لا یعنی تحدید ذات الباری تعالی فی مکان و فی جهة، بل إن الإنسان موجود مادی، و لا بدّ أن یصلی باتجاه معین، ثم إن ضرورة الوحدة و التنسیق فی صفوف المسلمین تفرض اتجاههم فی الصلاة نحو قبلة واحدة، و إلّا ساد الهرج و الفوضی، و تفرّقت الصفوف و تشتت.

أضف إلی ذلک أن الکعبة التی جعلت قبلة للمسلمین بقعة مقدسة و من أقدم قواعد التوحید، و الاتجاه نحوها یوقظ فی النفوس

ذکریات المسیرة التوحیدة.

۲- عبارة وَجْهُ اللَّهِ لا تعنی هذا الوجه المتعارف، بل تعنی ذات اللّه تعالی.

۳- استدلت الروایات بهذه الآیة علی صحة الصلاة إلی غیر القبلة لسهو أو اضطرار، و علی صحة الصلاة علی ظهر الراحلة.

(لمزید من التوضیح راجع وسائل الشیعة، کتاب الصلاة، باب القبلة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۰

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۱۶ الی ۱۱۷]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۱۱۶) بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ (۱۱۷)

التّفسیر

خرافات الیهود و النصاری و المشرکین

المسیحیون و جمع من الیهود و المشرکون تبنّوا عقیدة تافهة بشأن اتخاذ اللّه ابنا.

قال سبحانه: وَ قالَتِ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصاری الْمَسِیحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِکَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ یُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّی یُؤْفَکُونَ ۳۸۷].

و قال عزّ شأنه: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِیُ ۳۸۸].

و هناک آیات اخری ذکرت هذا المعتقد المنحرف.

و هذه الآیة الکریمة التی نحن بصددها تقول: وَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ثم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۱

تجیب علیهم أوّلا بتنزیه اللّه عن هذه النسبة: سُبْحانَهُ فما حاجة اللّه إلی الولد؟

هل هو محتاج إلی المساعدة أو إلی بقاء النسل؟! نعم، لا- یمکن نسبة أی احتیاج إلی اللّه بَلْ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و جمیع الکون خاضع له کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ

و لیس هو مالک جمیع موجودات الکون فحسب، بل هو خالقها ... بل مبدعها أی موجدها دون احتیاج إلی مادة أولیة فی هذا الإیجاد بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

ما حاجة اللّه إلی الولد و هو النافذ الإرادة فی جمیع الموجودات؟! وَ إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۳۸۹]

بحوث

۱- دلائل نفی الولد

نسبة الولد إلى اللّه سبحانه، هى دون شك وليدة سذاجة فكرية، قائمة على أساس مقارنة كل شىء بالوجود البشرى المحدود.

الإنسان يحتاج إلى الولد لأسباب عديدة: فهو من جانب ذو عمر محدود يحتاج إلى توليد المثل لاستمرار نسله.

و من جهة اخرى هو ذو قوّة محدودة تضعف بالتدريج، و يحتاج لذلك- و خاصة فى فترة الشيخوخة- إلى من يساعده فى أعماله.

و هو أيضا ينطوى على عواطف و حبّ للأنيس، و ذلك يتطلب وجود فرد أنيس فى حياة الإنسان، و الولد يلبى هذه الحاجة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۲

واضح أن كل هذه الأمور لا يمكن أن تجد لها مفهوما بشأن اللّه سبحانه، و هو خالق عالم الوجود و القادر على كلّ شىء، و هو الأزلى الأبدى.

أضف إلى ذلك، الولد يستلزم أن يكون الوالد جسما و اللّه منزّه عن ذلك ۳۹۰].

۲- تفسير كُنْ فَيَكُونُ

هذا التعبير ورد فى آيات عديدة منها الآية ۴۷ و ۵۹ من سورة آل عمران، و الآية ۷۳ من سورة الأنعام، و الآية ۴۰ من سورة النحل و الآية ۳۵ من سورة مريم، و الآية ۸۲ من سورة يس، و غيرها، و المراد منها الإرادة التكوينية للّه تعالى و حاكميته فى الخليقة.

بعبارة أوضح: المقصود من جملة كُنْ فَيَكُونُ ليس هو صدور الأمر اللفظى «كن» من قبل اللّه تعالى، بل المقصود تحقق إرادة اللّه سبحانه حينما تقتضى إيجاد شىء من الأشياء، صغيرا بحجم الذّرة كان، أم كبيرا بحجم السماوات و الأرض، بسيطا كان أم معقدا، دون أن يحتاج فى ذلك الإيجاد إلى أية علّة اخرى، و دون أن تكون هناك أية فترة زمنية بين الإرادة و الإيجاد.

لا يمكن للزمان أن يفصل بين الأمر و الكينونة، و لذلك فإن الفاء فى جملة «فيكون»، لا تدل على تأخير زمنى كما هو الحال فى الجمل الاخرى، بل إنها تدل فقط على التأخير فى الرتبة (الفلسفة أثبتت تأخر المعلول عن العلة، و هذا التأخر ليس زمنيا، بل فى الرتبة- تأمل بدقة-).

ليس المقصود أن الشىء يصبح موجودا متى ما أراد اللّه ذلك، بل المقصود أن الشىء يصبح موجودا بالشكل الذى أراده اللّه.

على سبيل المثال، لو أراد اللّه أن يخلق السماوات و الأرض فى ستة أيّام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۳

لكان ذلك، دون زيادة أو نقص، و لو أراد أن توجد فى لحظة واحدة لوجدت بأجمعها فى لحظة واحدة، فذلك تابع لكيفية إرادته و لما يراه من مصلحة.

و لو شاء اللّه- مثلا- أن يبقى الجنين فى رحم أمه تسعة أشهر و تسعة أيّام ليطوى مراحل تكامله، لما زادت هذه المدة و ما نقصت. أمّا لو شاء أن يطوى هذا الجنين مراحل تكامله خلال لحظة واحدة لحدث ذلك قطعا، لأن إرادته علّة تامّة للخليقة، و لا يمكن أن توجد فاصلة بين العلة التامة و وجود المعلول.

۳- كيف يوجد الشىء من العدم؟

اشارة

كلمة «بديع» من «بدع»، و الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء و اقتداء منه، و فى الآية بمعنى إيجاد الشىء من غير مادة سابقة[۳۹۱].

و السّؤال الذى يطرح فى هذا المجال يدور حول إمكان إيجاد الشىء من العدم، فكيف يمكن للعدم- و هو نقيض الوجود- أن يكون

منشأ للوجود؟ و هـذه هى الشـبهة التى يوردها الماديون فى مسألـة «الإبـداع» ليسـتنتجوا منها أن المادة الأصـلية للعالم أزلية أبدية، و لا يطرأ عليها وجود و عدم إطلاقا.

الجواب

فى المرحلـة الاولى، يوجّه نفس هـذا الاعتراض إلى الماديين فهؤلاء يعتقـدون أن مادة هذا العالم قديمة أزلية، و لم ينقص منها شـىء حتى الآن، و الـذى نراه يتغير هو «الصورة» وحدها، لا أصل المادة. و نحن بدورنا نسأل: كيف وجدت الصورة الحالية للمادة و لم تكن موجودة من قبل؟ هل وجدت من العدم؟ إذا كان كذلك، فكيف يمكن للعدم أن يكون منشأ للوجود؟ (تأمل بدقّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۴

على سبيل المثال، يقول الماديون فى لوحة زيتية مرسومة على ورقة أنّ زيوت التلوين كانت موجودة، و نحن نسأل: كيف وجدت هذه «الصورة» التى لم تكن موجودة من قبل؟

كل جواب يقدمونه بشأن إيجاد «الصورة» من «العدم» نقدمه نحن أيضا بشأن إيجاده «المادة».

و فى المرحلـة الثانيـة، ينبغى التأكيـد على أن خطأ الماديين ناتـج عن كلمة «من». هؤلاء تصوروا قولنا: (أن العالم وجد من العدم) شبيه بقولنا (أن المنضـدة وجـدت من الخشب) حيث لا بدّ من وجود الخشب أوّلا لكى توجد المنضدة. بينما جملة «وجود العالم من العدم» لا تعنى ذلك. بل تعنى «أن العالم لم يكن موجودا ثم وجـد». و هل فى هذه العبارة تضاد أو تناقض؟! و بالتعبير الفلسـفى: كل موجود ممكن (الـذى لا ـ يملـك الوجود ذاتيا) له جانبان: ماهيـة و وجود، «الماهيـة» هى «المعنى الاعتبارى» الـذى يتساوى فى نسـبته للعـدم و الوجود. بعبارة اخرى، الماهيـة هى المقـدار المشترك الـذى نفهمه من ملاحظـة وجود شـىء و عـدمه. فهذه الشـجرة لم تكن موجودة سابقا و هى موجودة الآن، و الشخص الفلانى لم يكن موجودا سابقا و هو الآن موجود، و ما أسندنا إليه الحالتين (الوجود و العدم) هى «الماهية».

من هنا يكون معنى قولنا (إن اللّه أوجـد العالم من العـدم) هو أنه سـبحان نقل الماهية من حالة العدم إلى حالة الوجود، و بعبارة اخرى وضع لباس «الوجود» على جسد «الماهية»[۳۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۵

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۱۸ الى ۱۱۹]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۱۱۸) إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (۱۱۹)

التّفسير

حجج اخرى

بمناسـبة ذكر حجـج اليهود فى الآيات السابقـة، تتحـدث الآية عن حجج مجموعة اخرى من المعاندين و يبدو أنهم المشـركون العرب فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ.

هؤلاء الجاهلون- أو الذين لا يعملون- بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

۱- أن يكلّمهم اللّه: لَوْ لا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ

۲- أن تنزل عليهم آية: أَوْ تَأْتِينا آيَةٌ.

و القرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلا: كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۶

لو أن هؤلاء يستهدفون حقا إدراك الحقيقة، ففى هذه الآيات النازلة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعى إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! و ما معنى الإصرار على أن يكلمهم اللّه مباشرة؟! مثل هذا الطلب تذكره الآية ۵۲ من سورة المدثر: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه- إضافة إلى عدم ضرورته- مخالف لحكمة البارى سبحانه، لما يلى:

أوّلا: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكن عن طريق الآيات التى تنزل عليهم.

ثانيا: لا يمكن للآيات و المعاجز أن تنزل على أى فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعا من اللياقة و الاستعداد و الطّهارة الرّوحية. فالأسلاك الكهربائية تتحمل من التيّار ما يتناسب مع ضخامتها. الأسلاك الرقيقة لا تتحمل التّيار العالى، و لا يمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمة القادرة على توصيل التّيارات العالية.

و المهندس يفرّق بين الأسلاك التى تستقبل التّيارات العالية من المولدات مباشرة، و الأسلاك التى تنقل التيّار الواطئ داخل البيوت.

الآية التالية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و تبين موقفه من الطلبات المذكورة و تقول:

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً.

فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهية، و تقديم المعاجز، و توضيح الحقائق، و هذه الدعوة ينبغى أن تقترن بتبشير المهتدين و إنذار العاصين و هذه مسئوليتك أيّها الرّسول، و أما الفئة التى لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فأنت غير مسئول عنها: وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۷

بحثان

۱- تَشابَهَتْ قُلُوبُهُمْ

مرّ علينا فى الآية أن القرآن يصف الحجج الواهية التى يطرحها المعاصرون لصاحب الرسالة الخاتمة، بأنها شبيهة بتلك التى كان يتذرع بها المنحرفون من الأمم السابقة، فقلوبهم متشابهة.

القرآن يشير بهذا التقريع و اللوم إلى أنّ مرور الزمن ينبغى أن يكون عاملا على زيادة وعى الأجيال البشرية، و على تفهّم هذه الأجيال اللاحقة أكثر من السابقة لتعاليم الأنبياء، لكن مرور الزمن لا يرفع مستوى المنحرفين، بل يبقى خط الانحراف واحدا متشابها على مرّ الأجيال و كأنها متعلقة بآلاف الأعوام السالفة.

۲- أصلان تربويان

«البشارة» و «الإنذار» أو «التشجيع» و «التهديد» من أهم الأصول اللازمة للتربية و للحركة الاجتماعية. ينبغى أن يلقى الفرد تشجيعا على أعماله الصالحة، و توبيخا على أعماله الطالحة، كى يواصل مسيره الأول، و يرتدع عن ارتياد المسير الثانى.

«التشجيع» وحده لا يكفى لدفع الفرد و المجتمع على طريق التكامل، لأن الإنسان سوف يكون مطمئنا من عدم الخطر فى حالة ارتكاب المعاصى.

على سبيل المثال، نرى ارتكاب المعاصى بين النصارى الحاليين أمرا عاديا، لأنهم يعتقدون بالفداء، أى بأن السيد المسيح عليه السّلام قد ضحى بنفسه لغفران ذنوب أتباعه، أو لاعتقادهم بأن أحبارهم قادرون أن يغفروا لهم ذنوبهم بسبل شتى، منها منحم صكوك الغفران. أو يبيعون لهم الجنّة مثل هؤلاء القوم يسمحون لأنفسهم ارتكاب الذنوب بسهولة.

جاء فى قاموس الكتاب المقدس: «... الفداء أيضا إشارة إلى كفارة دم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۸

المسيح، الذى أخذ على عاتقه كل ذنوبنا و تحمل ذنوبنا فى جسده على الصليب».

هذا المنطق يجعل الأفراد دون شك جريئين على ارتكاب المعاصى.

بعبارة اخرى، من يرى أن التشجيع وحده كاف لتربية الإنسان (طفلا كان أم كبيرا)، و ضرورة ترك التهديد و التقريع، فهو مجانب للصواب و مخطئ تماما.

و هكذا أولئك الذين يعتقدون أن التربية ينبغى أن تقوم على أساس التخويف و التأنيب لا غير.

الفريقان المذكوران خاطئان فى فهم الإنسان، حيث إن الإنسان يتجاذبه كلّ الخوف و الرجاء، حبّ الذات و كره الفناء، تحصيل المنفعة و دفع الضرر. و هل يمكن لموجود يحمل فى ذاته هذين البعدين أن يربّى وفق بعد واحد؟! و التعادل ضرورى بين هذين الجانبين، فلو تجاوز التشجيع حدّه لأدّى إلى التجرؤ و الغفلة، و لو تعدّى التخويف حدّه لبعث على اليأس و القنوط و انطفاء شعلة الشوق و التحرك فى النفوس.

ممّا سبق نفهم سبب اقتران البشارة بالإنذار أو «البشير» ب «النذير» فى القرآن الكريم، فتارة تقدم كلمة البشير على النذير كالآية التى نحن بصددها: بَشِيراً وَ نَذِيراً و تارة تقدم كلمة النذير كقوله تعالى فى الآية ۱۸۸ من سورة الأعراف:

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و أكثر الآيات القرآنية فى هذا المورد تتقدم فيها صفة البشير، و لعل ذلك يعود إلى أن رحمة اللّه من حيث المجموع سابقة على غضبه: يا من سبقت رحمته غضبه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۵۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۱]

اشارة

وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۲۰) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۲۱)

أسباب النّزول

روى عن ابن عباس بشأن نزول الآيـة الاـولى أن يهود المدينـة و نصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبلـة المسـلمين موافقـة دائما لقبلتهم، فلمّا تغيّرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة يئسوا من نبى الإسلام.

و لعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبته أن لا يحدث عملا يؤدى إلى إزعاج اليهود و النصارى ۳۹۳].

الآية الاولى نزلت لتعلن للنبى أن هذه الفئة من اليهود و النصارى لا ترضى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۰

عنك بالاشتراك فى قبلتهم و لا بأى شىء آخر، إلّا أن تقبل كلّ ما يتبعونه.

و قيل: إن الآيـة نزلت إثر إصـرار النّبى على إرضاء أهل الكتاب طمعا فى قبولهم الإسـلام، فنزلت الآيـة لتؤكد أن رضـى هؤلاء غاية لا تدرك إلا باعتناق دينهم ۳۹۴].

و بشأن نزول الآيـة الثانية وردت روايات مختلفة، قيل إنها نزلت فيمن التحق بجعفر بن أبى طالب لدى عودته من الحبشة و هم أربعون نفرا، اثنان و ثلاثون من أهل الحبشة و ثمانية رهبان فيهم «بحيرا» الراهب المعروف. و قيل إنّها نزلت فى يهود أسلموا و حسن إسلامهم من أمثال: عبد اللّه بن سلام و سعيد بن عمرو، و تمام بن يهودا[۳۹۵].

التّفسير

إرضاء هذه المجموعة محال

الآيـة السابقـة رفعت المسؤوليـة عن النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم إزاء الضالين المعاندين. و الآية أعلاه تواصل الموضوع السابق و تخاطب الرّسول بأن لا يحاول عبثا فى كسب رضا اليهود و النصارى لأنه: وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

واجبـك أن تقول لهم: إِنَّ هُـدَى اللَّهِ هُوَ الْهُـدى هـدى اللّه هو الهـدى البعيـد عن الخرافـات و عن الأفكـار التافهـة التى تفرزهـا عقول الجهّال، و يجب إتباع مثل هذا الهدى الخالص.

ثم تقول الآية: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۱

و بعـد أن ذمّ القرآن الفئـة المـذكورة من اليهود و النصارى، أشاد بأولئك الـذين آمنوا من أهل الكتاب و انضـموا تحت رايـة الرسالة الخاتمة الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ اى بالتفكر و التدبر ثم العمل به- أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ أى يؤمنون بالرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

هؤلاـء كانوا قـد تلوا كتابهم السـماوى حقّا، و كان ذلك سـبب هـدايتهم، فهم قرءوا فيه بشارات ظهور النّبىّ الموعود، و قرءوا صـفاته المنطبقة مع صفات نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فآمنوا به، و اللّه مدحهم و أشاد بهم.

بحوث

۱- سؤال عن عصمة الأنبياء

العبارة القرآنية: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ قد تثير سؤالا بشأن عصـمة الأنبياء، فهل يمكن للنبىّ صـلّى اللّه عليه و اله و سلّم- و هو معصوم- أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود و النصارى؟

فی الجواب نقول: مثل هذه التعبیرات تکررت فی القرآن الکریم، و لا تتعارض مع مقام عصمة الأنبیاء، لأنها- من جهة- جملة شرطیة، و الجملة الشرطیّة لا تدل علی تحقق الشرط.

و من جهة اخری، عصمة الأنبیاء لا- تجعل الذنب علی الأنبیاء محالا- بل المعصوم له قدرة علی ارتکاب الذنب، و لم یسلب منه الإختیار، و مع ذلک لم یتلوث بالذنوب. بعبارة اخری: إن المعصوم قادر علی الذنب، و لکن إیمانه و علمه و تقواه بدرجة لا تجعله یتجه معها إلی ذنب. من هنا فالتحذیرات المذکورة بشأنهم مناسبة تماما.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب و إن اتجه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و لکن قد یکون موجها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۲

إلی النّاس جمیعا.

۲- للاسترضاء حدود

صحیح أن الإنسان الرّسالی یجب أن یسعی بأخلاقه إلی جذب الأعداء إلی صفوف الدعوة، لکن مثل هذا الموقف یجب أن یکون تجاه المخالفین المرنین اللیّنین، أما الموقف تجاه المعاندین المتصلبین فینبغی أن یکون غیر ذلک. لا یجوز إهدار الوقت مع هؤلاء، بل لا بدّ من الإعراض عنهم و ترکهم.

۳- إنّ هدی اللّه هو الهدی

نفهم من الآیة المذکورة أن القانون الوحید القادر علی إنقاذ البشریة هو قانون الهدایة الإلهیة، لأن علم البشر- مهما قدر له من التکامل- یبقی مخلوطا بالجهل و الشک و القصور فی جهات مختلفة. و الهدایة فی ضوء مثل هذا العلم الناقص لا یمکن أن تکون هدایة مطلقة، و لا یستطیع أن یضع للإنسان برنامج «الهدایة المطلقة» إلّا من له «علم مطلق»، و من هو خال من الجهل و النقص، و هو اللّه وحده.

۴- حق التلاوة

عبر القرآن عن الفئة المهتدیة من أهل الکتاب بأنهم یَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ و هو تعبیر عمیق یرسم لنا سبیلا واضحا تجاه القرآن الکریم و الکتب السماویة، فالنّاس أمام الآیات الإلهیة علی أقسام:

قسم یکرسون اهتمامهم علی أداء الألفاظ بشکل صحیح و علی قواعد التجوید، و یشغل ذهنهم دوما الوقف و الوصل و الإدغام و الغنّة فی التلاوة، و لا یهتمون إطلاقا بمحتوی القرآن فما بالک بالعمل به! و هؤلاء بالتعبیر القرآنی کَمَثَلِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۳

الْحِمارِ یَحْمِلُ أَسْفاراً[۳۹۶].

و قسم یتجاوز إطار الألفاظ، و یتعمق فی المعانی، و یدقّق فی الموضوعات القرآنیة، و لکن لا یعمل بما یفهم! و قسم ثالث، و هو المؤمنون حقّا یقرءون القرآن باعتباره کتاب عمل، و منهجا کاملا- للحیاة، و یعتبرون قراءة الألفاظ و التفکیر فی المعانی و إدراک مفاهیم الآیات الکریمة مقدمة للعمل، و لذلک تصحو فی نفوسهم روح جدیدة کلما قرءوا القرآن، و تتصاعد فی داخلهم عزیمة و

إرادة و استعداد جديد للأعمال الصالحة، و هذه هى التلاوة الحقة.

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «يرتّلون آياته، و يتفقّهون به، و يعملون بأحكامه، و يرجون وعده، و يخافون وعيده، و يعتبرون بقصصه، و يأتمرون بأوامره، و ينتهون بنواهيه، ما هو و اللّه حفظ آياته و درس حروفه، و تلاوة سوره و درس أعشاره و أخماسه ۳۹۷]، حفظوا حروفه و أضاعوا حدوده، و إنّما هو تدبّر آياته و العمل بأركانه، قال اللّه تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ۳۹۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳]

اشارة

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۲۲) وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۱۲۳)

التّفسير

مرّة اخرى يتجه الخطاب الإلهى إلى بنى إسرائيل ليذكرهم بالنعم التى أحيطوا بها، و خاصة نعمة تفضيلهم على أمم زمانهم، فتقول الآية: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ أى على كل من كان يعيش فى ذلك الزمان.

كل نعمة تقترن بمسؤولية، و تقترن بالتزام و تكليف إلهى جديد، و لذلك قال سبحانه فى الآية التالية: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ... وَ لا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ أى غرامة أو فدية، وَ لا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ إلّا بإذن اللّه، و لا يستطيع أحد غير اللّه أن يساعد أحدا وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

فكل سبل النجاة التى تتوسلون بها فى هذه الدنيا موصدة يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۵

و الطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان و العمل الصالح، و طريق التوبة من الذنوب.

هذه المفاهيم مطروحة فى الآيتين ۴۷ و ۴۸ من هذه السورة حيث تعرضنا لها بالتفصيل، و نكتفى هنا بهذا القدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۴]

اشارة

وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (۱۲۴)

التّفسير

الإمامة قمة مفاخر إبراهيم عليه السّلام

هذه الآية و ما بعدها تتحدث عن بطل التوحيد نبى اللّه الكبير إبراهيم على نبيّنا و عليه الصلاة و السلام، و عن بناء الكعبة و أهمية هذه القاعدة التوحيدية العبادية.

و الهدف من هذه الآيات- و عددها ثمانى عشرة آية- ثلاثة أمور:

أوّلا: أن تكون مقدمة لمسألة تغيير القبلة التى ستطرح بعد ذلك، كى يعلم المسلمون أن هذه الكعبة من ذكريات إبراهيم محطم الأصنام، و لكى يفهموا أن التلويث الذى طرأ على الكعبة إذ حولها المشركون إلى بيت للأصنام، إنما هو تلويث سطحى لا يحط من قيمة الكعبة و مكانتها.

ثانيا: لفضح ادعاءات اليهود و النصارى بشأن انتسابهم لإبراهيم، و أنهم ورثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۷

دينه و طريقته، و لتوضيح مدى ابتعاد هؤلاء عن ملة إبراهيم.

ثالثا: لتفهيم مشركى العرب أيضا ببعدهم عن منهج النّبى الكبير محطم الأصنام، و الرّد على ما كانوا يتصورونه من ارتباط بينهم و بين إبراهيم.

الآية الكريمة تقول أوّلا: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَ

هذه الفقرة من الآية تشير إلى الاختبارات المتتالية التى اجتازها إبراهيم عليه السّلام بنجاح، و تبين من خلالها مكانة إبراهيم و عظمته و شخصيته.

و بعد أن اجتاز هذه الاختبارات بنجاح استحق أن يمنحه اللّه الوسام الكبير قالَ إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً.

و هنا تمنى إبراهيم عليه السّلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، و أن لا يبقى محصورا بشخصه قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى

لكن اللّه أجابه: قالَ لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ

و قد استجيب طلب إبراهيم عليه السّلام فى استمرار خط الإمامة فى ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلّا الطاهرون المعصومون من ذريّته لا غيرهم.

بحوث

۱- المقصود من «الكلمات»

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السّلام، و ما أدّاه هذا النّبى العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء اللّه، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات و المهام الثقيلة الصعبة التى وضعها اللّه على عاتق إبراهيم عليه السّلام، فحملها و أحسن حملها، و أدّى ما عليه خير أداء، و هى عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح و الاستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

إسكان الزوج و الولد فى واد غير ذى زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۸

النهوض بوجه عبدة الأصنام و تحطيم الأصنام، و الوقوف ببطولة فى تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه فى وسط النيران. و ثباته و رباطة جأشه فى كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام و الابتعاد عن الوطن، و الاتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... و أمثالها[۳۹۹].

كان كل واحد من هذه الاختبارات ثقيلا و صعبا حقّا، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعا، و أثبت لياقته لمقام «الإمامة».

۲- من هو الإمام؟

يتبين من الآية الكريمة التى نحن بصددها، أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السّلام بعد كل هذه الاختبارات، تفوق منزلة النّبوة و الرسالة.

و لتوضيح ذلك نقول: إن للإمامة معانى مختلفة:

۱- الإمامة بمعنى الرئاسة و الزعامة فى أمور الدنيا، (قال بذلك فريق من علماء أهل السنة).

۲- الإمامة بمعنى الرئاسة فى أمور الدين و الدنيا، (قال بذلك فريق آخر من علماء أهل السنة).

۳- الإمامة بمعنى تحقيق المناهج الدينية بما فى ذلك منهج الحكم بالمعنى الواسع للحكومة، و إجراء الحدود و أحكام اللّه، و تطبيق العدالة الاجتماعية، و تربية الأفراد فى محتواهم الداخلى و فى سلوكهم الخارجى. و هذه المنزلة أسمى من منزلة النّبوة و الرسالة، لأن منزلة النّبوة و الرسالة تقتصر على إبلاغ أوامر اللّه، و البشارة و الإنذار، أمّا الإمامة فتشمل مسئوليات النّبوة و الرسالة إضافة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۶۹

«إجراء الأحكام» و «تربية النفوس ظاهريا و باطنيا» (من الواضح أن كثيرا من الأنبياء كانوا يتمتعون بمنزلة الإمامة).

منزلة الإمامة هى فى الحقيقة منزلة تحقيق أهداف الدين و الهداية، أى «الإيصال إلى المطلوب»، و ليست هى «إراءة الطريق» فحسب.

و مضافا لما سبق فانّ الإمامة تتضمن أيضا على «الهداية التكوينية»، أى النفوذ الروحى للإمام، و تأثيره على القلوب المستعدة للهداية المعنوية (تأمل بدقّة).

الإمام فى ذلك يشبه الشمس التى تبعث الحياة فى النباتات، فكذلك دور الامام فى بعث الحياة الروحية و المعنوية فى الكائنات الحيّة؟.

يقول سبحانه: هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً[۴۰۰].

و من هذه الآية نفهم بوضوح أن رحمة اللّه الخاصة و المعونة الغيبية للملائكة بإمكانها أن تخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور.

هذا الموضوع يصدق على الإمام أيضا، فالقوّة الروحية للإمام و للأنبياء الحائزين على منزلة الإمامة و خلفائهم، لها التأثير العميق على تربية الأفراد المؤهلين، و إخراجهم من ظلمات الجهل و الضلالة إلى نور الهداية.

لا شك أن المراد من الإمامة فى الآية التى نحن بصدد تفسيرها هو المعنى الثالث للإمامة، لأنّه يستفاد من آيات متعددة أن مفهوم «الإمامة» ينطوى على مفهوم «الهداية»، كقوله تعالى: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ ۴۰۱].

هذه الهداية لا تعنى إراءة الطريق، لأن إبراهيم عليه السّلام كانت له قبل ذلك مكانة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۰

النّبوة و الرسالة، أى مكانة إراءة الطريق.

القرائن الواضحة تشير إلى أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيم عليه السّلام بعد الامتحانات العسيرة، و اجتياز مراحل اليقين و الشجاعة و الاستقامة، هى غير منزلة البشارة و الإبلاغ و الإنذار.

إذن، الهداية التى يتضمنها مفهوم الإمامة ما هى إلّا «الإيصال إلى المطلوب» و «تحقيق روح الدين»، و تطبيق المناهج التربوية فى النفوس المستعدة.

هذا الحقيقة يوضحها بإجمال حديث عميق المعنى

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام یقول: «إنّ اللّه تبارک و تعالی اتّخذ إبراهیم عبدا قبل أن یتخذه نبیّا، و إنّ اللّه اتّخذه نبیّا قبل أن یتّخذه رسولا، و إنّ اللّه اتّخذه رسولا قبل أن یتّخذه خلیلا، و إنّ اللّه اتّخذه خلیلا قبل أن یجعله إماما، فلمّا جمع له الأشیاء، قال: إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قال: فمن عظمها فی عین إبراهیم قال: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ قال: لا یکون السّفیه إمام التّقیّ»[۴۰۲].

۳- الفرق بین النّبوة و الإمامة و الرسالة

یفهم من الآیات الکریمة و المأثور عن المعصومین، أن حملة المهمات من قبل اللّه تعالی لهم منازل مختلفة:

۱- منزلة النّبوة: أی استلام الوحی من اللّه، فالنبی هو الذی ینزل علیه الوحی، و ما یستلمه من الوحی یعطیه للنّاس إن طلبوا منه ذلک.

۲- منزلة الرسالة: و هی منزلة إبلاغ الوحی، و نشر أحکام اللّه، و تربیة الأفراد عن طریق التعلیم و التوعیة. فالرّسول إذن هو المکلف بالسعی فی دائرة مهمته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۱

لدعوة النّاس إلی اللّه و تبلیغ رسالته، و بذل الجهد لتغییر فکری عقائدی فی مجتمعه.

۳- منزلة الإمامة: و هی منزلة قیادة البشریة، فالإمام یسعی إلی تطبیق أحکام اللّه عملیا عن طریق إقامة حکومة إلهیة و استلام مقالید الأمور اللازمة. و إن لم یستطع إقامة الدولة یسعی قدر طاقته فی تنفیذ الأحکام.

بعبارة اخری، مهمة الإمام تنفیذ الأوامر الإلهیة، بینما تقتصر مهمة الرّسول علی تبلیغ هذه الأوامر. و بتعبیر آخر أیضا، مهمة الرّسول، إراءة الطریق، و مهمة الإمام «الإیصال إلی المطلوب» (إضافة إلی المهام الثقیلة الاخری المذکورة).

من نافلة القول أن کثیرا من الأنبیاء کنبیّ الإسلام علیه أفضل الصلاة و السلام حازوا علی المنازل الثلاث، کانوا یستلمون الوحی، و یبلغون أوامر اللّه، و یسعون إلی إقامة الحکومة و تنفیذ الأحکام، و ینهضون- بما لهم من تأثیر روحی- بمهمة تربیة النفوس.

الإمامة- بعبارة موجزة- هی منزلة القیادة الشاملة لجمیع المجالات المادیة و المعنویة و الجسمیة و الروحیة و الظاهریة و الباطنیة. الإمام رئیس الدولة و زعیم المجتمع و معلم الأخلاق و قائد المحتوی الداخلی للأفراد المؤهلین.

فهو بقوّته المعنویة یقود النفوس المؤهلة علی طریق التکامل.

و بقدرته العلمیة یعلم الجهلة.

و بقوّة حکومته أو أیة قوّة تنفیذیة اخری یطبق مبادی العدالة.

۴- الإمامة آخر مراحل مسیرة إبراهیم التکاملیة

بما تقدم فی بیان حقیقة الإمامة یتضح أنه من الممکن أن تکون لشخص منزلة النّبوة و تبلیغ الرسالة، بینما لا تکون له منزلة الإمامة. و هذه المنزلة تحتاج إلی مؤهلات کثیرة فی جمیع المجالات. و هی المنزلة التی نالها إبراهیم علیه السّلام بعد کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۳۷۲

هذه الامتحانات و المواقف العظیمة، و کانت آخر مرحلة من مراحل مسیرته التکاملیة.

من ذهب إلی أن الإمامة هی «أن یکون الفرد لائقا و نموذجیا» فقط، ما فهم أن هذه الصفة کانت موجودة فی إبراهیم علیه السّلام منذ بدایة النّبوة.

و من قال إنّ المقصود من الإمامة «أن يكون الفرد قدوة»، فاته أن هذه صفة جميع الأنبياء منذ ابتدائهم بدعوة النّبوة، و لذلك وجب أن يكون النّبى معصوما لأن أعماله قدوة للآخرين.

من هنا، فمنزلة الإمامة أسمى ممّا ذكر، بل أسمى من النّبوة و الرسالة، و هى المنزلة التى نالها إبراهيم من قبل اللّه بعد أن اجتاز الامتحان تلو الامتحان.

۵- من الظّالم؟

المقصود من «الظلم» فى التعبير القرآنى: لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ لا يقتصر على ظلم الآخرين، بل الظلم (مقابل العدل)، و قد استعمل هنا بالمعنى الواسع للكلمة، و يقع فى النقطة المقابلة للعدل: و هو وضع الشىء فى محله.

فالظلم إذن وضع الشخص أو العمل أو الشىء فى غير مكانه المناسب.

و لما كانت منزلة الإمامة و القيادة الظاهرية و الباطنية للبشرية منزلة ذات مسئوليات جسيمة هائلة عظيمة، فإن لحظة من الذنب و المعصية خلال العمر تسبب سلب لياقة هذه المنزلة عن الشخص.

لذلك نرى أئمة آل البيت عليهم السّلام يثبتون بهذه الآية تعيّن الخلافة بعد النّبى مباشرة لعلى عليه السّلام و انحصارها به، مشيرين إلى أن الآخرين عبدوا الأصنام فى الجاهلية، و علىّ عليه السّلام وحده لم يسجد لصنم. و أىّ ظلم أكبر من عبادة الأصنام؟! ألم يقل لقمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۳

لابنه: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۴۰۳]؟! من هذه الاستدلالات ما

رواه هشام بن سالم عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «قد كان إبراهيم نبيّا و ليس بإمام، حتّى قال اللّه: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً، قالَ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي فقال الله لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ من عبد صنما أو وثنا لا يكون إماما»[۴۰۴].

و فى حديث آخر عن عبد اللّه بن مسعود عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّ اللّه قال لإبراهيم «لا أعطيك عهدا للظّالم من ذرّيّتك، قال: يا ربّ و من الظّالم من ولدى الّذى لا ينال عهدك؟ قال: من سجد لصنم من دونى لا أجعله إماما أبدا، و لا يصلح أن يكون إماما»[۴۰۵].

۶- تعيين الامام من قبل اللّه

من الآية مورد البحث نفهم ضمنيا أن الإمام (القائد المعصوم لكل جوانب المجتمع) يجب أن يكون معينا من قبل اللّه سبحانه، لما يلى:

أوّلا: الإمامة ميثاق إلهى، و طبيعى أن يكون التعيين من قبل اللّه، لأنه طرف هذا الميثاق.

ثانيا: الأفراد الذين تلبّسوا بعنوان الظلم، و ما رسوا فى حياتهم لحظة ظلم بحقّ أنفسهم أو بحقّ الآخرين، كأن تكون لحظة شرك مثلا، لا يليقون للإمامة، فالإمام يجب أن يكون طيلة عمره معصوما.

و هل يعلم ذلك فى نفوس الأفراد إلّا اللّه؟! و لو أردنا بهذا المعيار أن نعيّن خليفة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فلا يمكن أن يكون غير على عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۴

جدير بالذكر أن صاحب «المنار» نقل عن أبى حنيفة قوله: أن الخلافة لا تليق إلّا بالعلويين، و من هنا أجاز الخروج على حكومة العباسيين، و من هنا أيضا رفض منصب القضاء فى حكومة خلفاء بنى العباس.

و يقول صاحب المنار أيضا: إن أئمة المذاهب الأربعة كانوا معارضين لحكام زمانهم، و كانوا يعتبرون أولئك الحكام غير لائقين لزعامة المسلمين، لأنهم ظالمون ۴۰۶].

و من العجيب أن كثيرا من علماء أهل السنة فى عصرنا هذا، يؤيدون و يدعمون الحكومات الظالمة المتجبّرة المرتبطة ارتباطا واضحا جليّا بجبهة الكفر العالمية، و المفسدة فى الأرض إفسادا لا يخفى على أحد، بل أكثر من ذلك يعتبرون هؤلاء الحكام «أولى الأمر» و يركزون على وجوب طاعتهم!!

۷- جواب عن سؤالين

۱- قلنا فى تفسير معنى الإمامة أن عمل الإمامة هو «الإيصال إلى المطلوب» و «تنفيذ المناهج الإلهية»، و هنا قد يقول قائل: إن هذا المعنى لم يتحقق فى كثير من الأنبياء، بل لم يتحقق حتى بالنسبة للنبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمة الأطهار فى المقياس العام، فقد كان يقف فى مقابلهم دوما أفراد ضالون مضلون.

جوابا على ذلك نقول: تعريفنا لعمل الإمام لا يعنى أن الإمام يجرّ الامّة قسرا نحو الحق، بل إن الأفراد يستطيعون- و هم مختارون- أن يهتدوا بما يمتلكه الإمام من قوّة ظاهرية و باطنية، على شرط امتلاك هؤلاء الأفراد للّياقة و الاستعداد.

و هذا كقولنا الشمس خلقت لاستمرار حياة الموجودات الحيّة، أو أن المطر يعمل على إحياء الأرض الميتة، تأثير الشمس و المطر له طابع عام، لكنه لا يصدق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۵

إلّا فى الموجودات المستعدة لقبول هذا التأثير.

۲- التّفسير المذكور للإمام يستدعى أن يكون كل إمام نبيّا و رسولا- أوّلا، و بعد ذلك يبلغ درجة الإمامة. بينما لم يكن الخلفاء المعصومون لنبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كذلك.

نقول فى الجواب: لا يلزم أن يكون الإمام قد بلغ حتما منزلة النّبوة و الرسالة، فالذى اجتمعت فيه منزلة النّبوة و الرسالة و الإمامة (مثل النّبى الخاتم) يمكن لخليفته أن يواصل طريق الإمامة، و ذلك حين تنتفى الحاجة إلى رسالة جديدة كما هو الحال بعد خاتم الأنبياء.

بعبارة اخرى، حين تكون مرحلة استلام الوحى الإلهى و تبليغ جميع الأحكام قد انتهت و بقيت المرحلة التنفيذية، فإن خليفة النّبى يستطيع أن يواصل الخط التنفيذى، و لا حاجة لأن يكون هذا الخليفة نبيا أو رسولا.

۸- شخصية إبراهيم المثالية

ورد اسم إبراهيم عليه السّلام فى ۶۹ موضعا من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس و عشرين سورة. و القرآن يثنى كثيرا على هذا النّبى الكريم و يذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة و أسوة فى كل المجالات، و نموذج للإنسان الكامل.

مكانته فى سلّم معرفة اللّه ... و منطقه الصريح أمام عبدة الأوثان ... و نضاله المرير ضد الجبابرة ... و تضحياته على طريق اللّه، و صموده الغريب أمام عواصف الحوادث و الاختبارات الصعبة ... كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الأعلى للسائرين على طريق التوحيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۶

إبراهيم كما يصفه القرآن من الْمُحْسِنِينَ ۴۰۷]، و من الصالحين ۴۰۸]، و من القانتين ۴۰۹]، و من الصديقين ۴۱۰]، و إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۴۱۱]، و وَ إِبْراهِيمَ الَّذِى وَفَّى ۴۱۲]، ذو سخاء عظيم و شجاعة منقطعة النظير.

فى تفسير سورة إبراهيم (خاصة فى القسم الأخير من السّورة) سنفصل الحديث فى هذا المجال. (راجع المجلد السابع من هذا التّفسير).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۷

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۲۵]

اشارة

وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۱۲۵)

التّفسير

عظمة بيت اللّه

بعد الإشارة إلى مكانة إبراهيم عليه السّلام فى الآية السابقة، تناولت هذه الآية موضوع عظمة الكعبة التى وضع قواعدها إبراهيم عليه السّلام، فهى تبدأ بالتذكير بعبارة «و إذ» أى اذكروا: وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً.

المثابة من الثوب، أى عودة الشىء إلى حالته الاولى. و لما كانت الكعبة مركزا يتجه إليه الموحدون كلّ عام، فهى محل لعودة جسمية و روحية إلى التوحيد و الفطرة الاولى، و من هنا كانت مثابة. و كلمة «مثابة» تتضمن معنى الراحة و الاستقرار، لأن بيت الإنسان- و هو محل عودته الدائم- مكان للراحة و الاستقرار، و هذا المعنى تؤكده كلمة «أمنا» التى تلى كلمة «مثابة» فى الآية.

و كلمة «للنّاس» توضح أنه ملجأ عام لكل العالمين، و لكل الشعوب المحرومة.

و هذه الصفة للبيت هى فى الحقيقة استجابة لأحد مطاليب إبراهيم عليه السّلام من ربّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۸

ما سيأتى.

ثمّ تضيف الآية: وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى

اختلف المفسرون فى معنى «مقام إبراهيم»، قيل: إنّ كل الحج هو مقام إبراهيم. و قيل: إنه «عرفة» و «المشعر الحرام» و «الجمار الثلاث»، و قيل: كل حرم مكة مقام.

و لكن يبدو من ظاهر الآية أن المقام هو مقام إبراهيم المعروف الكائن قرب الكعبة، و ذهبت إلى ذلك الرّوايات و كثير من المفسّرين. و على الحجاج أن يصلّوا خلفه بعد الطواف، و من هنا كان هذا المقام «مصلّى».

ثم تشير الآية إلى المسؤولية المعهودة إلى إبراهيم و ابنه إسماعيل عليهما السّلام بشأن تطهير البيت للطائفين و المجاورين و المصلين: وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ.

و فى التطهير قيل: إنه التطهير من لوثة وجود الأصنام. و قيل: إنه التطهير من الدنس الظاهر، كالدم و أحشاء الذبائح التى كان يلقى بها الجهلة فى البيت.

و قيل: إنه يعنى إخلاص النية عند بناء البيت.

و لا دلیل علی تحدید مفهوم الطهارة، فهی تعنی تطهیر هذا البیت ظاهریا و معنویا من کل تلویث.

لذلک نجد بعض الروایات فسرت التطهیر فی الآیة بأنه تطهیر الکعبة من المشرکین، و بعضها بأنه تطهیر البدن و إزالة الأدران.

بحثان

۱- الآثار الاجتماعیة و التّربویة للبیت الآمن:

الکعبة- طبعا للآیة أعلاه- ملاذ و بیت آمن، و الإسلام وضع الأحکام المشددة بشأن إبعاد هذه الأرض المقدسة عن کل نزاع و اشتباک و حرب و إراقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۷۹

دماء. و لیس أفراد البشر آمنین هناک فحسب، بل الحیوانات و الطیور آمنة أیضا فی هذه البقعة، و لا یحق لأحد أن یمسها بسوء.

و فی عالم یعجّ دوما بالنزاع و الصراع، یستطیع مثل هذا المرکز الآمن أن یکون له الأثر العمیق فی حل المشاکل و فضّ النزاعات، إذ یستطیع الفرقاء المتنازعون أن یجلسوا حول طاولة واحدة عند هذا البیت الآمن، و یفتحوا بینهم حورا قد یکون مقدمة لإزالة الخصومات و النزاعات.

و قد یتفق أن ترغب الأطراف المتنازعة فی إجراء مباحثات، لکنهم لا یتفقون علی مکان مقبول و محترم و آمن لدی جمیع الأطراف، و الإسلام أقرّ مکة لتکون مرکزا کهذا.

و الیوم، إذ المسلمون- مع الأسف الشدید- یعانون من ألوان النزاعات و الاختلافات حریّ بهم أن یستفیدوا من قداسة هذا البیت و أمنه لفتح باب المحادثات بینهم، و لرفع ما بینهم من اختلافات بفضل معنویة هذا المکان المقدس.[۴۱۳]

۲- بیت اللّه

و صفت الکعبة بأنها بیت اللّه، و عبرت الآیة عن الکعبة ب «بیتی». و واضح أن اللّه لیس بجسم، و لا یحده بیت، و لا یحتاج إلی ذلک، و هذه الإضافة هی «إضافة تشریفیة» تبیّن قدسیة الشیء الذی ینسب إلی اللّه، و لذلک کان شهر رمضان «شهر اللّه» و کانت الکعبة «بیت اللّه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۰

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۲۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِیمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ کَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِیلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلی عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِیرُ (۱۲۶)

التّفسیر

إبراهيم يدعو ربّه

فى هذه الآية توجّه إبراهيم إلى ربّه بطلبين هامين لسكنة هذه الأرض المقدسة، أشرنا إلى أحد هما فى الآية السّابقة. القرآن يذكّر بما قاله إبراهيم: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً.

و كما ذكرنا فى الآية السابقة، استجاب اللّه لدعاء إبراهيم، و جعل هذه الأرض المقدسة مركزا آمنا بالمعنى الواسع لكلمة لأمن.

و الطلب الآخر هو: وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و هكذا يطلب إبراهيم «الأمن» أوّلا، ثم «المواهب الاقتصادية»، إشارة إلى أنّ الإقتصاد السالم لا يتحقق إلّا بعد الأمن الكامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۱

و للمفسرين آراء عديدة فى معنى «الثّمرات»، و يبدو أن معناها واسع يشمل النعم المادية و النعم المعنوية. و

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «هى ثمرات القلوب»

إشارة إلى جعل قلوب النّاس تهوى إلى هذه الأرض.

إبراهيم فى دعائه اقتصر على المؤمنين باللّه و اليوم الآخر، و لعل ذلك كان بعد أن قال له اللّه سبحانه: لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ففهم أن مجموعة من ذريّته سيسلكون طريق الشرك و الظلم، فاستثناهم فى دعائه.

و اللّه سبحانه استجاب لإبراهيم طلبه الثانى أيضا، و لكنه قال وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا فى الدّنيا، ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ فى الحياة الآخرة.

هذه فى الواقع صفة «الرحمانية» و هى الرحمة العامة للبارى تعالى التى تشمل كل المخلوقات، صالحهم و طالحهم فى الدنيا. أما الآخرة فهى عالم رحمته الخاصة التى لا ينالها إلّا من آمن و عمل صالحا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۲۷ الى ۱۲۹]

اشارة

وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۲۷) رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنا مَناسِكَنا وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۲۸) رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۲۹)

التّفسير

إبراهيم يبنى الكعبة

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجودا قبل إبراهيم، و كان قائما منذ زمن آدم. تتحدث الآية ۳۷ من سورة إبراهيم عن لسان إبراهيم تقول: رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ

و هذه الآية تدل على أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه و ابنه الرضيع إلى مكة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۳

و تقول الآية ۹۶ من سورة آل عمران: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً. و من المؤكد أن عبادة اللّه و إقامة أماكن العبادة لم تبدأ فى زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الإنسان على ظهر هذه الأرض.

عبارة الآية الاولى من الآيات محل البحث يؤكد هذا المعنى، إذ تقول: وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

فإبراهيم و إسماعيل قد رفعا قواعد البيت التى كانت موجودة.

و فى خطبة للإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى نهج البلاغة، و هى المسماة بالقاصعة، يقول: «ألا ترون أنّ اللّه سبحانه اختبر الأوّلين من لدن آدم صلوات اللّه عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار ... فجعلها بيته الحرام ... ثمّ أمر آدم عليه السّلام و ولده أن يثنوا أعطافهم نحوه ۴۱۴] ...»[۴۱۵].

القرائن القرآنية و الروائية تؤيد أن الكعبة بنيت أوّلا بيد آدم، ثم انهدمت فى طوفان نوح، ثم أعيد بناؤها على يد إبراهيم و إسماعيل ۴۱۶].

فى الآيتين التاليتين يتضرع إبراهيم و إسماعيل إلى ربّ العالمين بخمسة طلبات هامّة. و هذه الطلبات المقدّسة حين الإشتغال بإعادة بناء الكعبة جامعة و دقيقة بحيث تشمل كل احتياجات الإنسان المادية و المعنوية، و تفصح عن عظمة هذين النبيين الكبيرين.

قالا أوّلا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ

ثم أضافا: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۴

و طلبا تفهم طريق العبادة: وَ أَرِنا مَناسِكَنا، ليعبد اللّه حقّ عبادته.

ثم طلبا التوبة: وَ تُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

الآية الأخيرة تضمنت الطلب الخامس، و هو هداية الذرية رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

بحثان

۱- هدف بعثة الأنبياء

فى الآيات أعلاه، بعد أن يطلب إبراهيم و إسماعيل من اللّه ظهور نبى الإسلام، يذكران ثلاثة أهداف لبعثته:

الأوّل: تلاوة آيات اللّه على النّاس، أى إيقاظ الأفكار و الأرواح فى ظل الآيات الإلهية المبشرة و المنذرة.

«يتلو» من تلا، أى اتبع الشىء بالشىء، و سميت «التلاوة» كذلك لأنها قراءة وفق تتبع و نظم. هى مقدمة لليقظة و الإعداد و التعليم و التربية.

الثّانى: «تعليم الكتاب و الحكمة» و لا تتحقق التربية إلّا بالتعليم.

و لعل التفاوت بين «الكتاب» و «الحكمة» فى أن الكتاب يعنى الكتب السماوية، و الحكمة تعنى العلوم و الأسرار و العلل و النتائج الموجودة فى الأحكام، و هى التى يعلمها النّبى أيضا.

الثّالث: «التزكية» و هو الهدف الأخير.

و «التزكية» فى اللغة هى الإنماء، و هى التطهير أيضا.

و بذلك يتلخص الهدف النهائى من بعثة الأنبياء فى دفع الإنسان على مسيرة التكامل «العلمى» و «العملى».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۵

ينبغى التأكيد هنا على أنّ علوم البشر محدودة، مقرونة بآلاف الفجوات المبهمة و الأخطاء الكبيرة، و الإنسان أيضا لا يطمئن بدقة إلى معلوماته، لأنه شاهد أخطائه و أخطاء الآخرين.

من هنا كان من الضرورى مجىء الأنبياء بعلومهم الحقّة الخالية من الأخطاء المستمدة من مبدأ الوحى إلى النّاس، ليزيلوا أخطاءهم، و يملأوا فراغات جهلهم، و يبعثوا فيهم اطمئنانا بعلمهم.

و يلزم التأكيد أيضا على أن الشخصية البشرية تتكون من «عقل» و «غرائز»، و لذلك كان الإنسان بحاجة إلى «التربية» بقدر حاجته إلى «العلم»، و ينبغى أن يتكامل عقله، و أن تتجه غرائزه نحو هدف صحيح.

لذلك فإن الأنبياء معلمون، و مربون، يزودون النّاس بالعلم، و بالتربية.

۲- «التعليم» مقدم أو «التربية»؟

- فى أربعة مواضع ذكر القرآن مسألة التربية و التعليم باعتبار هما هدف الأنبياء، و فى ثلاثة مواضع منها قدمت «التربية» على «التعليم» (البقرة، ۱۵۱- آل عمران، ۱۶۴- الجمعة، ۲).

و فى موضع واحد تقدم التعليم على التربية (آية بحثنا). و نعلم أن التربية لا تتم إلّا بالتعليم.

لذلك حين يتقدم التعليم على التربية فى الآية فإنما ذلك بيان للتسلسل المنطقى الطبيعى لهما. و فى المواضع التى تقدمت فيها التربية، فقد يكون ذلك إشارة إلى أنها الهدف، لأن الهدف الاصلى هو التربية، و ما عداها مقدمة لها.

۳- النّبى من النّاس- تعبير «منهم» فى الآية وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يشير إلى أن قادة البشرية ينبغى أن يكونوا بشرا بنفس صفات البشر الغريزية، كى يكونوا القدوة اللائقة فى الجوانب العملية. و من الطبيعى أنهم- لو كانوا من غير البشر- ما استطاعوا إدراك حاجات النّاس و المشكلات العويصة الكامنة لهم فى حياتهم، و لا أمكنهم أن يكونوا قدوة و أسوة لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۲]

اشارة

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۳۰) إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۳۱) وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۳۲)

التّفسير

إبراهيم الإنسان النّموذج

الآيات السابقة ألقت الضوء على جوانب من شخصية إبراهيم عليه السّلام، فتحدثت عن بعض خدماته و طلباته الشاملة للجوانب المادية و المعنوية.

من مجموع ما مرّ نفهم أن اللّه سبحانه شاء أن يكون هذا النّبى، شيخ الموحدين و قدوة الرساليين، على مرّ العصور.

لذلك تقول الآية الاولى من آيات بحثنا هذا: وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْراهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ! أليس من السفاهة أن يعرض الإنسان عن مدرسة الطهر و النقاء و الفطرة و العقل و سعادة الدنيا و الآخرة، و يتجه إلى طريق الشرك و الكفر و الفساد و ضياع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۷

العقل و الانحراف عن الفطرة و فقدان الدين و الدنيا؟! ثم تضيف الآية: وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

نعم، إبراهيم عليه السّلام اصطفاه اللّه فى الدنيا ليكون «الأسوة» و «القدوة» للصالحين.

الآية التالية تؤكد على صفة اخرى من صفات إبراهيم التى هى الواقع أساس بقية صفاته العظيمة و تقول: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

هذا الإنسان المتحرر من الانشدادات الوضيعة يسارع إلى التسليم التام حال سماعه نداء ربّه: «أسلم»، و لا يتوانى فى رفض كل أوهام زمانه القائمة على عبادة النجوم و الشمس و القمر، فيتركها بعد أن رآها محكومة بالقوانين التى تسود الخليفة و يقول: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۴۱۷].

مرّ بنا فى الآيات السابقة أن إبراهيم و إسماعيل عليهما السّلام بعد بناء الكعبة طلبا من اللّه سبحانه أن يتقبل أعمالهما، ثم بعد ذلك طلبا أن يمنّ عليهما اللّه بنعمة التسليم لوجهه الكريم: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ و مثل هذا طلباه لذريّتهما: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ذلك لأن الخطوة الاولى فى سموّ الشخصية الإنسانية الطهر و الإخلاص، و من هنا أسلم إبراهيم عليه السّلام وجهه لربّه دون سواه، و لذلك عرف هو و دينه بهذا العنوان.

حياة إبراهيم عليه السّلام بأجمعها كانت مفعمة بأعمال جسيمة نادرة، نضاله المرير ضد المشركين، صموده الكبير فى قلب النيران، هذا الصمود الذى أثار إعجاب نمرود الطاغية نفسه حيث راح يردد دون وعى: من اتخذ إلها فليتخذ إلها مثل إله إبراهيم ۴۱۸].

و كذلك إسكان الزوج و الطفل الرضيع فى تلك الأرض الجافة القاحلة ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۸

و المقدسة، و بناء الكعبة، و تقديم الولد على مذبح التضحية و الفداء استجابة لأمر اللّه تعالى ... كل واحدة من هذه الأعمال قمة من سلسلة قمم حياة إبراهيم عليه السّلام.

و وصية إبراهيم بنية فى أواخر أيّام حياته تجسيد آخر لهذه الحياة الشامخة:

وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ ... فكل من إبراهيم و يعقوب وصّيا أبناء هما بالقول: يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

لعلّ القرآن الكريم، بنقله وصية إبراهيم، يريد أن يقول للإنسان إنه مسئول عن مستقبل أبنائه، عليه أن يهتم بمستقبلهم المعنوى قبل أن يهتم بمستقبلهم المادى.

يعقوب كإبراهيم وصّى أيضا أبناءه، بنفس هذه الوصايا، و أكد لأبنائه أن رمز نجاحهم يتلخص فى جملة واحدة، هى التسليم لربّ العالمين.

ربّما يعود ذكر اسم يعقوب هنا من بين سائر الأنبياء، إلى أن اليهود و النصارى كانوا يعتقدون بانتسابهم إلى يعقوب بشكل من الأشكال، فأرادت الآية أن توضح لهم أن خط الشرك الذى يسلكونه لا يتناسب مع منهج يعقوب، و هو منهج التسليم المحض لربّ العالمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۸۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۴]

اشارة

أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۳) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۴)

سبب النّزول

كان جمع من اليهود يعتقدون أن يعقوب عند ما حضرته الوفاة أوصى بنيه أن يعتنقوا اليهودية (بتحريفاتها السائدة خلال عصر البعثة المباركة)، و اللّه سبحانه أنزل هذه الآية[۴۱۹].

التّفسير

كما رأينا فى سبب النّزول، و ظاهر الآية يدل على ذلك أيضا، كان جمع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۰

منكرى الإسلام ينسبون ما لا ينبغى نسبته إلى النّبى يعقوب، و القرآن يرد عليهم بالقول: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ! هذا الذى نسبوه إليه ليس بصحيح، بل الذى حدث آنذاك إِذْ قالَ لِبَنِيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي

فى الجواب قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

أجل فإنّ يعقوب لم يوص أبناءه بشىء غير التوحيد و التسليم لربّ العالمين و الذى هو الأساس لبرنامج الأنبياء.

من الآية يبدو أن قلقا ساور يعقوب لدن أن حضرته الوفاة بشأن مستقبل أبنائه، و عبّر عن قلقه هذه متسائلا: ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي و إنما قال: ما تَعْبُدُونَ ... و لم يقل «من تعبدون ...» لتلوث البيئة الاجتماعية آنذاك بالشرك و الوثنية، أى بعبادة الأشياء من دون اللّه. فأراد يعقوب أن يفهم ما فى قرارة نفوس أبنائه من ميول و اتجاهات، و بعد أن استمع الجواب اطمأنت نفسه.

و يلفت النظر هنا أن إسماعيل لم يكن أبا ليعقوب و لا جدّه، بل عمّه، بينما الآية استعملت كلمة «آباء»، و يتضح من ذلك أن كلمة «الأب» تطلق أيضا على «العم» توسعا، و من هنا نقول بالنسبة لآزر، الذى ذكره القرآن باعتباره والد إبراهيم، أنه لا يمنع أن يكون عمّ إبراهيم لا والده. (تأمل بدقّة).

آخر آية فى بحثنا، تجيب على توهّم آخر من توهمات اليهود، فكثير من هؤلاء كانوا يستندون إلى مفاخر الآباء و الأجداد و قرب منزلة أسلافهم من اللّه تعالى، فلا يرون بأسا فى انحرافهم هم ظانين أنهم ناجون بوسيلة أولئك الأسلاف.

يقول القرآن: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۱

و بذلك أرادت الآية أن توجّه أنظار هؤلاء إلى أعمالهم و سلوكهم و أفكارهم، و تصرفهم عن الانغماس فى الافتخار بالماضين.

هذه الآية- و إن اتجهت فى الخطاب إلى فئة اليهود، أهل الكتاب فى عصر البعثة- تخاطبنا نحن المسلمين أيضا، و تطرح أمامنا مبدأ:

إن الفتى من يقول ها أنا ذاليس الفتى من يقول كان أبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۵ الى ۱۳۷]

اشارة

وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۳۵) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۱۳۶) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳۷)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن جماعة من علماء اليهود و نصارى أهل نجران خاصموا أهل الإسلام، كل فرقة تقول إنها أحق بدين اللّه من غيرها، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، و كتابنا التوراة أفضل الكتب، و قالت النصارى: عيسى أفضل الأنبياء، و كتابنا الإنجيل أفضل الكتب، و كل فريق منهما قال للمؤمنين:

كونوا على ديننا، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۳

التّفسير

نحن على حقّ لا غيرنا!

التمحور و الانغماس فى الذاتية يؤدى إلى أن يحتكر الإنسان الحقّ لنفسه، و يعتبر الآخرين على باطل، و يسعى إلى أن يجرهم الى معتقداته الآية الاولى تتحدث عن مجموعة من أهل الكتاب يحملون مثل هذه النظرة الضيقة، و نقلت عنهم القول: وَ قالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا.

فيردّ عليهم القرآن مؤكدا أن الأديان المحرّفة لا تستطيع إطلاقا أن تهدى الإنسان قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

التدين الخالص هو اتباع الخط التوحيدى الخالص غير المشوب بالشرك.

و رعاية هذا الأساس أهم معيار للتمييز بين الأديان الصحيحة و الأديان المنحرفة.

يعلمنا الإسلام أن لا نفرق بين الرسل، و أن نحترم رسالاتهم، لأن المبادئ الأساسية للأديان الحقّة واحدة، موسى و عيسى كانا أيضا من أتباع ملة إبراهيم ...

أى من أتباع الدين التوحيدى الخالص من الشرك، و إن حرّف المغرضون من أتباعهما ما جاءا به، و جعلوه مشوبا بالشرك. و (كلامنا هذا لا يتنافى طبعا مع إيماننا بأن البشرية يجب أن تتبع آخر الأديان السماوية أى الإسلام).

الآية التالية تأمر المسلمين أن قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ، لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

لا يجوز أن ننطلق من محور الذاتية فى الحكم على هذا النّبى أو ذاك، بل يجب أن ننظر إلى الأنبياء بمنظار رسالى، و نعتبرهم جميعا رسل ربّ العالمين و معلّمى البشرية، قد أدّى كل منهم دوره فى مرحلة تاريخية معينة، و كان هدفهم واحدا، و هو هداية النّاس فى ظل التوحيد الخالص و الحق و العدالة.

ثم يضيف القرآن قائلا: فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۴

هُمْ فِي شِقاقٍ

و لو تخلى هؤلاء عن عنصريتهم و ذاتياتهم، و آمنوا بجميع أنبياء اللّه فقد اهتدوا أيضا، و إلّا فقد ضلوا سواء السبيل.

و «الشّقاق» النزاع و الحرب، و فسرت فى الآية بالكفر و بالضلال، و بالابتعاد عن الحق و الاتجاه نحو الباطل، و كل هذه المعانى تعود إلى حقيقة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن الآية السابقة التى ساوت بين عيسى و سائر الأنبياء.

أثارت اعتراض جمع من النصارى و قالوا: إن عيسى ليس كسائر الأنبياء، بل هو ابن اللّه، فنزلت هذه الآية لتؤكد على انحراف هؤلاء و أنهم فى شقاق.

ثم تثبت الآية على قلوب المؤمنين و تبعث فيهم الثقة و الطمأنينة بالقول:

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ لأقوالهم الْعَلِيمُ بمؤامراتهم.

بحوث

۱- وحدة دعوة الأنبياء

فى مواضع عديدة أكد القرآن على أن هدف الأنبياء واحد، و لا انفصال فى خط النبوات، فكل الأنبياء عليهم السّلام يصدرون عن منبع الوحى الإلهى، و لذلك يوصى القرآن باحترام جميع الأنبياء، لكن هذا لا يمنع- كما قلنا- أن تنسخ كلّ رسالة جديدة تنزل من اللّه سبحانه الرسالات السابقة، و الإسلام خاتم الرسالات السماوية.

أنبياء اللّه كالمعلمين، ربّى كل منهم البشرية فى فصل دراسى، و بعد انتهاء المرحلة الدراسية الخاصة به يسلم المجتمع البشرى إلى معلم آخر ليجتاز الأفراد مرحلة دراسية أعلى. و من هنا فالمجتمع البشرى مكلّف بتحمل مسئوليات ما يأتى به آخر نبى، و هذا لا يتعارض مع كون سائر الأنبياء على حق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۵

۲- من هم الأسباط؟

الأسباط جمع سبط، و الأسباط أحفاد يعقوب، و هم اثنا عشر سبطا من اثنى عشر ابنا، أو أنهم قبائل من بنى إسرائيل، و السّبط فى اللغة: الجماعة يرجعون إلى أب واحد، و السبط (على وزن درج) قد يأتى بمعنى: الشجر، و الأسباط الذين هم من شجرة واحدة، و يقال: سبط عليه العطاء، إذا تابع عليه حتى يصل بعضه ببعض.

المقصود من الأسباط- إذن- ليس أبناء يعقوب، فهؤلاء ارتكبوا جميعا ذنبا بحق أخيهم و لا يصلحون للنبوّة، بل المقصود قبائل بنى إسرائيل، أو أحفاد يعقوب ممن كان لهم أنبياء. و لما كان بين هؤلاء الأسباط أنبياء، فالآية عدتهم بين أولئك الذين نزلت عليهم آيات اللّه.

۳- الحنيف

الحنيف، من مادة حنف: أى مال عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق، و به سميت الحنيفية، لأنها مالت عن اليهودية و النصرانية. و عكس ذلك «جنف» أى مال عن الطريق المستقيم إلى الانحراف. و لهذا السبب كان أحد معانى الحنيف هو المستقيم و الذى لا عوج فيه.

و للمفسرين آراء فى الحنيفية، منها حج بيت اللّه، و أتباع الحق، و أتباع إبراهيم، و الإخلاص فى العمل، و كلها ترجع إلى معنى عام و شامل، ما ذكره المفسرون مصاديق لذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۱]

اشارة

صِبْغَةَ اللَّهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ (۱۳۸) قُلْ أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (۱۳۹) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۰) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۱)

التّفسير

التّخلّى عن غير صبغة اللّه:

بعد الدّعوة التى وجهتها الآيات السابقة لإتّباع الأديان بشأن انتهاج طريق جميع الأنبياء، أول آية فى بحثنا تأمرهم جميعا بترك كل صبغة، أى دين، غير «صبغة اللّه»[۴۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۷

ثم تضيف الآية: وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً؟! أى لا أحسن من اللّه صبغة، وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ فى اتباع ملّة إبراهيم التى هى صبغة اللّه، و قيل المعنى: من نحن له عابدون يجب أن تتبع صبغته، لا ما صبغنا عليه الآباء و الأجداد[۴۲۱].

و بهذا أمر القرآن بالتخلى عن الصبغات العنصرية و الطائفية و الذاتية و عن كل الصّبغات المفرّقة، و الاتّجاه نحو صبغة اللّه.

ذكر المفسرون أن النصارى دأبوا على غسل أبنائهم بعد ولادتهم فى ماء أصفر اللون، و يسمونه غسل التعميد، و يجعلون ذلك تطهيرا للمولود من الذنب الذاتى الموروث من آدم! القرآن يرفض هذا المنطق الخاوى، و يقول: من الأفضل أن تتركوا هذه الصبغات الظاهرية الخرافية المفرقة، و تصطبغوا بصبغة اللّه، لتطهر روحكم.

ما أجمل تعبير «الصبغة» فى هذه الآية! و ما أروع هذه الدعوة إلى الاصطباغ بصبغة اللّه! لو حدث ذلك ... لو اختارت البشرية صبغة اللّه ... أى صبغة الطهر و التقوى و العدالة و المساواة و الأخوّة ... صبغة التوحيد و الإخلاص ... لاستطاعت أن تستأصل جذور الشرك و النفاق و التفرقة ... إنّها فى الحقيقة الصبغة التى لا لون بها و تطهر الإنسان من جميع الألوان.

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام: أن «صبغة اللّه» هى الإسلام ۴۲۲]،

و هذا إشارة إلى ما ذكرناه.

كـان اليهود و غيرهم يحـاجّون المسـلمين بصور شتّى، كـانوا يقولون: إنّ جميع الأنبيـاء مبعوثون منا، و إن ديننا أقـدم الأديان، و كتابنا أعرق الكتب السماوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۸

و كانوا يقولون: إن عنصرنا أسمى من عنصر العرب، و نحن المؤهلون لحمل الرسالة لا غيرنا، لأن العرب أهل أوثان.

و كانوا يدّعون أحيانا أنهم أبناء اللّه و أن الجنّة لهم لا لغيرهم.

القرآن يردّ على كلّ هذه الأقاويل و يقول: أَ تُحَاجُّونَنا فِي اللَّهِ وَ هُوَ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ

فاللّه سبحانه ليس ربّ شعب أو قبيلة معينة، إنه ربّ العالمين.

و اعلموا أيضا أن لا امتياز لأحد على غيره إلّا بالأعمال، و كل شخص رهن أعماله وَ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ

مع فارق، هو إن كثيرا منكم يشركون فى توحيدهم: وَ نَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

الآية التالية تجيب على واحد آخر من هذه الادعاءات الفارغة و تقول: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى ! ثم تجيب الآيـة عن هـذا الادعاء بشـكل رائع فتقول: قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ! فاللّه أعلم أنهم ما كانوا يهودا و لا نصارى.

و قد تعلمون أنتم أيضا أن هؤلاء الأنبياء أدّوا رسالتهم قبل موسى و عيسى.

و إن كنتم لا تعلمون فإطلاق مثل هذه الأقوال بدون علم و تثبيت تهمة و ذنب، و كتمان للحقيقة وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ

اعلموا أنه وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

حين ينتهج الإنسان خط العناد و اللجاج فإن إعراضه عن الحقيقة لا حدّ له، ينكر أبسط المسلّمات، و يرفض أوضح الواضحات. و الآية تذكر نموذجا لذلك فى هذه المجموعة التى بلغ بها العناد و اللجاج أن تعتبر أنبياء اللّه- الذين سبقوا موسى و عيسى من أمثال إبراهيم و إسماعيل و إسحاق و يعقوب- من اليهود أو النصارى.

و بذلك يكتمون حقيقة واضحة لها ارتباط بإيمان النّاس و معتقداتهم، و لذلك يصف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۳۹۹

القرآن هؤلاء الذين يكتمون الحقائق بأنهم أظلم النّاس، لأنه لا ظلم أكبر من كتمان الحقائق عن النّاس عمدا، و جرّ الآخرين إلى طريق الضلال.

فى آخر آية من الآيات التى نحن بصددها يقول سبحانه لهؤلاء القوم العنودين الجدليين: افترضوا أن ادعاءاتكم صحيحة، فهذا لا يعود عليكم بالنفع لأنه تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَها ما كَسَبَتْ وَ لَكُمْ ما كَسَبْتُمْ وَ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ

الامّة الحيـة ينبغى أن تعتمـد على أعمالهـا لا على ذكريات تاريخها، و الإنسان يجب أن يسـتند إلى فضائله، لا أن يجترّ مفاخر الآباء و الأجداد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۱

الجزء الثانى من القرآن الكريم من الآية مائة و اثنتين و أربعين إلى الآية مائة و سبع و ثمانين من سورة البقرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۲

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۳

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۴۲]

اشارة

سَیَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی کانُوا عَلَیْها قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۱۴۲)

التّفسیر

تغییر القبلة

هذه الآیة و آیات تالیة تتحدث عن حادث مهم من حوادث التاریخ الإسلامی، کان له آثاره الکبیرة فی المجتمع آنذاک.

رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم صلّی صوب (بیت المقدس) بأمر ربّه مدّة ثلاثة عشر عاما بعد البعثة فی مکة، و بضعة أشهر فی المدینة بعد الهجرة. ثم تغیّرت القبلة، و أمر اللّه المسلمین أن یصلّوا تجاه (الکعبة).

و اختلف المفسرون فی المدّة التی صلّی خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بیت المقدس، فذکروا مددا مختلفة تتراوح بین سبعة أشهر و سبعة عشر شهرا.

کانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال کل هذه المدّة (مدة صلاة المسلمین تجاه بیت المقدس) إلی لوم الیهود و تقریعهم، و کان الیهود یقولون عن المسلمین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۴

إن هؤلاء غیر مستقلین لأنّهم یصلون تجاه قبلتنا، و هذا دلیل أننا علی حقّ.

کانت هذه الأقوال تؤلم الرّسول و صحبه، فالأمر الإلهی یوجب أن یصلوا تجاه بیت المقدس، و الیهود لا ینفکّون یرشقون المسلمین بوابل تهمهم و تقریعهم.

و بلغ الأمر أن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بدأ یقلب وجهه فی السماء انتظارا للوحی.

و استمر الانتظار مدّة، حتی نزل الوحی یأمر بتغییر القبلة، کان الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی مسجد «بنی سالم» یصلی الظهر، فما إن أتمّ رکعتین حتی أمر جبرائیل أن یأخذ بعضد الرّسول و یدیر وجهه تجاه الکعبة[۴۲۳].

لم یکفّ الیهود بعد هذا التغییر عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامیة بشکل آخر، بدأوا یلقون التشکیکات بشأن هذا التغییر، و القرآن الکریم یتحدث عن هذه الاعتراضات: سَیَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی کانُوا عَلَیْها.

بدأوا یرددون: لو کانت القبلة الاولی هی الصحیحة فلم هذا التغییر؟ و إن کانت الثانیة صحیحة فلما ذا صلی المسلمون أکثر من ثلاثة عشر عاما تجاه بیت المقدس؟! و اللّه سبحانه یجیب علی هذا الاعتراض، فأمر رسوله أن قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ

فلیس لمکان قداسة ذاتیة، إنما یکتسب قداسته بإذن اللّه، و کل مکان ملک للّه، و المهم هو الطاعة و الاستسلام لربّ العالمین.

تغییر القبلة فی الواقع مرحلة من مراحل الاختبار الإلهی، و کل مرحلة خطوة علی الصراط المستقیم نحو الهدایة الإلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۵

بحوث

۱- «السفهاء» جمع «سفیه» أطلقت فی الأصل علی من خفّت حرکة جسمه، و قیل: زمام سفیه، أی کثیر الاضطراب خفیف الوزن. ثم استعملت الکلمة فی خفة النفس لنقصان العقل فی الأمور الدینیة و الدنیویة.

۲- ذکرنا أن مسألة «النسخ» فی الأحکام و تغییر المنهج التربوی بتغیر المراحل الزمانیة لیست مسألة غریبة جدیدة فی تاریخ الرسالات. لکن هؤلاء القوم العنودین الجدلیین من الیهود اتخذوا من هذا التغییر ذریعة لإعلامهم المضاد، و القرآن یجیبهم بشکل یفحمهم.

۳- جملة یَهْدِی مَنْ یَشاءُ لا- تعنی کما ذکرنا أن هدایة اللّه لیس لها حساب، لأن المشیئة الإلهیة تنطلق من «حکمة» اللّه، و من محاسبات المصالح و المفاسد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۶

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۴۳]

اشارة

وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِی کُنْتَ عَلَیْها إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ یَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ یَنْقَلِبُ عَلی عَقِبَیْهِ وَ إِنْ کانَتْ لَکَبِیرَةً إِلاَّ عَلَی الَّذِینَ هَدَی اللَّهُ وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُضِیعَ إِیمانَکُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِیمٌ (۱۴۳)

التّفسیر

الأمّة الوسط

هذه الآیة تشیر إلی جانب من أسباب تغییر القبلة، تقول أوّلا: وَ کَذلِکَ جَعَلْناکُمْ أُمَّةً وَسَطاً أی کما جعلنا القبلة وسطا، کذلک جعلناکم أمّة فی حالة اعتدال، لا یشوبها إفراط و لا تفریط فی کل جوانب حیاتها.

أما سبب کون قبلة المسلمین قبلة وسطا، فلأن النصاری- الذین یعیش معظمهم فی غرب الکرة الأرضیة- یولون وجوههم صوب الشرق تقریبا حین یتجهون إلی قبلتهم فی بیت المقدس حیث مسقط رأس السید المسیح. و الیهود- الذین یتواجدون غالبا فی الشامات و بابل- یتجهون نحو الغرب تقریبا حین یقفون تجاه بیت المقدس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۷

أما «الکعبة» فکانت بالنسبة للمسلمین فی المدینة تجاه الجنوب، و بین المشرق و المغرب، و فی خط وسط.

و هذا ما یفهم من عبارة «و کذلک»، و إن کان للمفسرین آراء اخری فی هذه العبارة لا تخلو من مناقشة.

القرآن یؤکد أن المنهج الإسلامی فی کل أبعاده- لا فی بعد القبلة فقط- یقوم علی أساس التوازن و الاعتدال.

و الهدف من ذلک لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ وَ یَکُونَ الرَّسُولُ عَلَیْکُمْ شَهِیداً.

و «شهادة» الأمّة المسلمة علی النّاس، و «شهادة» النّبی علی المسلمین، قد تکون إشارة إلی الأسوة و القدوة، لأن الشاهد ینتخب من بین

أزكى النّاس و أمثلهم.

فيكون معنى هذا التعبير القرآنى أن الأمّة المسلمة نموذجيّة بما عندها من عقيدة و منهج، كما أن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فرد نموذجىّ بين أبناء الامّة.

الامّة المسلمة بعملها و بتطبيقها المنهج الإسلامى تشهد أن الإنسان بمقدوره أن يكون رجل دين و رجل دنيا ... أن يكون إنسانا يعيش فى خضم الأحداث الاجتماعية وفق معايير روحية و معنوية. الامّة المسلمة بمعتقداتها و مناهجها تشهد بعدم وجود أى تناقض بين الدين و العلم، بل إن كلا منهما يخدم الآخر.

ثم تشير الآية إلى واحد آخر من أسرار تغيير القبلة فتقول: وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ

الآية لم تقل: يتبعك، بل قالت: يَتَّبِعُ الرَّسُولَ إشارة إلى أن هذا الإتباع إنما هو تسليم لأمر اللّه، و كل اعتراض إنما هو عصيان و تمرد على اللّه، و لا يصدر ذلك إلّا عن مشرك جاهلى.

و عبارة مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى عَقِبَيْهِ تعنى فى الأصل الرجوع على مؤخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۸

الرجل، و تعنى هنا الانتكاس و التراجع.

ثم تضيف الآية: وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

لو لا الهداية الإلهية، لما وجدت فى نفس الإنسان روح التسليم المطلق أمام أوامر اللّه. المهم أن يكون الإنسان المسلم مستسلما إلى درجة لا يحسّ معها بثقل مثل هذه الأوامر، بل يشعر بلذتها و حلاوتها.

و أمام وسوسة الأعداء المضللين و الأصدقاء الجاهلين، الذين راحوا يشككون فى صحة ما سبق من العبادات قبل تغيير القبلة، تقول الآية: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

فأوامر اللّه مثل و صفات الطبيب لكل مرحلة من مراحل العلاج نسخة خاصة، و كلها شافية وافية تضمن سعادة الإنسان و سلامته، و العمل بأجمعها صحيح لا غبار عليه.

بحوث

۱- أسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغى أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هى الكعبة، فلما ذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، و إن كانت بيت المقدس فلم هذا التغيير؟! و أعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم و لإعلامهم المضّاد.

قالوا إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصرى، و زعموا أن النّبى اتجه أوّلا- إلى قبلة الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! و قالوا: إن محمّدا صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، و لمّا يئس منهم استبدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۰۹

الكعبة بها.

واضح مدی القلق و الاضطراب الذی تترکه هذه الوساوس علی مجتمع لم یتغلغل نور العلم و الإیمان فی کل زوایاه، و لم یتخلص بعد تماما من رواسب الشرک و العصبیة.

لذلک تصرّح الآیة أعلاه أن تغییر القبلة اختبار کبیر لتمییز المؤمنین من المشرکین.

لا نستبعد أن یکون أحد أسباب تغییر القبلة ما یلی:

لما کانت الکعبة فی بدایة البعثة المبارکة بیتا لأصنام المشرکین، فقد أمر المسلمون مؤقتا بالصلاة تجاه بیت المقدس، لیتحقّق الانفصال التام بین الجبهة الإسلامیة و جبهة المشرکین.

و بعد الهجرة و إقامة الدولة الإسلامیة و المجتمع الإسلامی، حدث الانفصال الکامل بین الجبهتین، و لم تعد هناک ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حینئذ عاد المسلمون إلی الکعبة أقدم قاعدة توحیدیة، و أعرق مرکز للأنبیاء.

و من الطبیعی أن یستثقل الصلاة نحو بیت المقدس لأولئک الذین کانوا یعتبرون الکعبة الرصید المعنوی لقومیتهم، و أن یستثقلوا أیضا العودة إلی الکعبة بعد أن اعتادوا علی قبلتهم الاولی (بیت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وضعوا فی بوتقة الاختبار، لتخلیصهم ممّا علّق فی نفوسهم من آثار الشرک، و لتنقطع کل انشداداتهم بماضیهم المشرک، و لتنمو فی وجودهم روح التسلیم المطلق أمام أوامر اللّه سبحانه.

إن اللّه سبحان لیس له مکان و محل- کما ذکرنا- و القبلة رمز لوحدة صفوف المسلمین و لإحیاء ذکریات خط التوحید، و تغییرها لا یغیّر شیئا، المهم هو الاستسلام الکامل أمام اللّه، و کسر أوثان التعصب و اللجاج و الأنانیة فی النفوس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۰

۲- الأمّة الوسط

«الوسط» ما توسط بین شیئین، و بمعنی الجمیل و الشریف، و المعنیان یعودان ظاهرا إلی حقیقة واحدة لأن الجمال و الشرف فیما اعتدل و ابتعد عن الإفراط و التفریط.

ما أجمل التعبیر القرآنی عن الامّة المسلمة ... الامّة الوسط.

الوسط: المعتدلة فی «العقیدة» لا تسلک طریق «الغلو» و لا طریق «التقصیر و الشرک»، لا تنحو منحی «الجبر» و لا «التفویض»، و لا تؤمن «بالتشبیه» فی صفات اللّه و لا «بالتعطیل».

معتدلة فی «القیم المادیة و المعنویة» لا تغطّ فی عالم المادة و تنسی المعنویات، و لا تغرق فی المعنویات و تتناسی المادیات. لیست کمعظم الیهود لا یفهمون سوی المادة، و لیست کرهبان النصاری یترکون الدنیا تماما.

معتدلة فی «الجانب العلمی» ... لا ترفض الحقائق العلمیة، و لا تقبل کل نعرة ترتفع باسم العلم.

معتدلة فی «الرّوابط الاجتماعیة» لا تضرب حولها حصارا یعزلها عن العالم، و لا تفقد استقلالها و تذوب فی هذه الکتلة أو تلک، کما نری الذائبین فی الشرق و الغرب الیوم! معتدلة فی «الجانب الأخلاقی» ... فی عباداتها ... فی تفکیرها ... و فی جمیع أبعاد حیاتها.

المسلم الحقیقی لا یمکن إطلاقا أن یکون إنسانا ذا بعد واحد، بل هو إنسان ذو أبعاد مختلفة ... مفکر، مؤمن، عادل، مجاهد، مکافح، شجاع، عطوف، واع، فعّال، ذو سماح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۴۱۰

ارة الامّة الوسط توضّح من جانب مسألة شهادة الامّة الإسلامیة، لأن من یقف علی خطّ الوسط یستطیع أن یشهد کل الخطوط

الانحرافية المتجهة نحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۱

اليمين و اليسار.

و من جانب آخر تحمل العبارة دليلها و تقول: «إنّما كنتم شهداء على النّاس لأنّكم معتدلون و أنكم أمة وسط»[۴۲۴].

۳- الامّة الشاهدة

لو اجتمعت الصفات التى ذكرناها للأمّة الوسط فى أمّة، فهذه الامّة دون شك رائدة للحق، و شاهدة على الحقيقة، لأن مناهجها تشكل الميزان و المعيار لتمييز الحق عن الباطل.

ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام قولهم: «نحن الامّة الوسطى، و نحن شهداء اللّه على خلقه و حججه فى أرضه ... نحن الشّهداء على النّاس ... إلينا يرجع الغالى و بنا يرجع المقصّر»

[۴۲۵] مثل هذه الروايات- كما ذكرنا- لا تحدد المفهوم الواسع للآية، بل تبين المصداق الأمثل للأمّة الوسط، و تعطى نموذجا متكاملا لها.

۴- علم اللّه

عبارة لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ ... و أمثالها من التعبيرات القرآنية، لا تعنى أن اللّه لم يكن يعلم شيئا، ثم علم به بعد ذلك، بل تعنى تحقّق هذه الواقعيات.

بعبارة أوضح، اللّه سبحانه يعلم منذ الأزل بكل الحوادث و الموجودات، و إن ظهرت بالتدريج على مسرح الوجود. فحدوث الموجودات و الأحداث لا يزيد اللّه علما، بل إن هذا الحدوث تحقّق لما كان فى علم اللّه. و هذا يشبه علم المهندس بكل تفاصيل البناء عند وضعه التصميم. ثم يتحول التصميم إلى بناء عملى.

و المهندس يقول حين ينفّذ تصميمه على الأرض: أريد أن أرى عمليا ما كان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۲

علمى نظريا. (علم اللّه يختلف دون شك عن علم البشر اختلافا كبيرا كما ذكرنا ذلك فى بحث صفات اللّه، و إنما ذكرنا هذا المثال للتوضيح).

عبارة وَ إِنْ كانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ توضّح حقيقة الصعوبة فى مخالفة العادة الجارية، و فى التخلص من سيطرة العواطف غير الصحيحة، إلّا على الذين آمنوا باللّه حقّا، و استسلموا لأوامره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۴]

اشارة

قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَ إِنَّ

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۴۴)

التّفسير

كل الوجوه شطر الكعبة

ذكرنا أن بيت المقدس كان القبلة الاولى المؤقتة للمسلمين. و الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان ينتظر الأمر الإلهى بتغيير القبلة، خاصة و أن اليهود استغلّوا مسألة اشتراك المسلمين معهم فى القبلة، ليوجهوا سهام إعلامهم المضاد للمجموعة المسلمة، مرددين أن المسلمين لا- استقلال لهم، و أنهم لا- يعرفون معنى القبلة و إنما اقتبسوه منّا، و أن قبولهم قبلتنا يعنى اعترافهم بديننا! و أمثال هذه الأقاويل.

الآية تشير إلى هذه المسألة و تقول:

قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ، فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ، وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

ذكرت الرواية- كما أشرنا من قبل- أن هذا الأمر الإلهى نزل فى لحظة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۴

حساسة ملفتة للأنظار، حين كان الرّسول و المسلمون يؤدون صلاة الظهر. فأخذ جبرائيل بذراع الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و أدار وجهه نحو الكعبة. و تذكر الرواية أن صفوف المسلمين تغيّرت على أثر ذلك، و ترك النساء مكانهنّ للرجال و بالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريبا، بينما كان اتجاه الكعبة نحو الجنوب).

من المفيد أن نذكر أنّ تغيير القبلة من علامات نبى الإسلام المذكورة فى الكتب السابقة. فقد كان أهل الكتاب على علم بأن النّبى المبعوث «يصلّى إلى القبلتين».

لذلك تضيف الآية: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

أضف إلى ذلك أن دلائل نبوّة رسول الإسلام، تحرره من التأثر بعادات بيئته الاجتماعية، و تركه الكعبة التى كانت موضع تقديس العرب، و اتجاهه نحو قبلة أقلية محدودة.

ثم تقول الآية: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

فهؤلاء الذين يكتمون ما جاء فى كتبهم بشأن تغيير قبلة نبى الإسلام، و يستغلون هذه الحادثة لإثارة ضجة بوجه المسلمين، بدل أن يتخذوها دليلا على صدق دعوى النّبى، سيلاقون جزاء أعمالهم، و اللّه ليس بغافل عن أعمالهم و نياتهم.

بحوث

۱- نظم الآيات

محتوى هذه الآية يبيّن بوضوح أنها نزلت قبل الآية التى سبقتها فى الترتيب القرآنى. ذلك لأن القرآن لم تجمع آياته حسب نزوله، بل كان ترتيب الآيات يتم استنادا إلى مناسبات معينة بتعيين من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و بأمر من البارى سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۵

(و من تلك المناسبات مثلا رعاية الأولوية و أهمية الموضوعات).

۲- انتظار صعب!

یستفاد من هذه الآیة أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان مرتبطا بالکعبة ارتباطا خاصا، و منتظرا لأمر تغییر القبلة، و لعلنا نستطیع أن نتلمس سبب ذلک فی ارتباط النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بإبراهیم علیه السّلام، أضف إلی ذلک أن الکعبة أقدم قاعدة توحیدیة، و أنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یعلم بوقوع هذا التغییر، و کان یترقب حدوثه.

و هنا تبرز ظاهرة الاستسلام المطلق للرسول، حیث لم یتردد علی لسانه طلب بهذا الشأن، بل کان یقلب طرفه فی السماء منتظرا بتلهّف نزول الوحی.

و تعبیر «السماء» فی الآیة قد یشیر إلی انتظاره هبوط «جبرائیل» من الأعلی، و إلّا فاللّه لا مکان له، و هکذا وحیه المرسل.

۳- معنی الشطر

یثیر الالتفات أن الآیة لم تأمر المسلمین أن یصلوا تجاه الکعبة، بل «شطر المسجد الحرام».

لعل ذلک یعود إلی صعوبة بل تعذّر محاذاة الکعبة علی المصلین البعیدین عن الکعبة. لذلک ذکر المسجد الحرام بدل الکعبة لأنه أوسع، ثم کلمة «شطر» تعنی السمت و الجانب، و بذلک کان الاتجاه شطر المسجد الحرام عملا میسورا للجمیع، و خاصة لصفوف الجماعة الطویلة التی یزید طولها غالبا علی طول الکعبة.

بدیهی أن المحاذاة الدقیقة للکعبة- و حتی للمسجد الحرام- عمل صعب علی المصلین البعیدین، لکن الوقوف شطره یخلو من کل صعوبة[۴۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۴۱۶

۴- خطاب عام

کل خطابات القرآن هی دون شک- شاملة لکل المسلمین- و إن اتجهت إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم (اللهم إلّا فی مواضع دل الدلیل علی أنّها خاصّة بالنّبی)، من هنا یطرح سؤال بشأن سبب اتّجاه الآیة الّتی نحن بصددها فی الخطاب إلی النّبی تارة تأمره أن یصلی شطر المسجد الحرام، و تارة اخری إلی عامة المسلمین.

هذا التکرار قد یعود إلی أنّ تغییر القبلة مسألة مثیرة حساسة، و من الممکن أن تؤدی الضجة التی تثیرها هذه المسألة إلی اضطراب بین المسلمین، و قد یتذرع بعض فی وسط هذه الضجة بأن الخطاب «فولّ وجهک» موجّه إلی النّبی خاصة، فلا یصلی تجاه الکعبة. لذلک خاطبت الآیة الرّسول مرة و عامة المسلمین مرّة اخری لتؤکد أن هذا التغییر غیر خاص بالرّسول، بل یشمل عامّة المسلمین أیضا.

۵- هل الهدف من هذا التغییر تحقیق رضی النّبی؟

عبارة «قبلة ترضاها» قد توهم أن هذا التغییر تم إرضاء للنبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و یزول هذا التوهم لو علمنا أن بیت المقدس کان قبلة مؤقتة، و أن النّبی کان ینتظر القبلة النهائیة، و بصدور أمر التغییر وضع حد لطعن الیهود من جهة، و توفرت أرضیة استمالة

أهل الحجاز المرتبطين ارتباطا خاصا بالكعبة نحو الإسلام من جهة اخرى، كما أن إعلان بيت المقدس كقبلة اولى أزال عن الإسلام الطابع القومى، و أسقط اعتبار الأصنام المتواجدة فى الكعبة.

۶- الكعبة مركز دائرة كبرى

لو نظر شخص من خارج الكرة الأرضية إلى المصلين المسلمين لرأى دوائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۷

متعددة بعضها داخل بعض و تضيق بالتدريج لتصل إلى المركز الأصلى المتمثل بالكعبة. و هذه الصورة توضح محورية و مركزية بيت اللّه الحرام. و هذه ظاهرة متميزة فى الإسلام دون سواه من الأديان.

جدير بالذكر أن ضرورة اتجاه المسلمين شطر المسجد الحرام كان باعثا على تطور علم الهيئة و علم الجغرافيا و الفلك عند المسلمين بسرعة مدهشة خلال العصور الإسلامية الاولى، لأن معرفة جهة القبلة فى مختلف بقاع الأرض ما كانت متيسّرة من دون معرفة بهذه العلوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۵]

اشارة

وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۴۵)

التّفسير

لا يرضون بأىّ ثمن

مرّ بنا فى تفسير الآية السابقة أن تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة لا يمكن أن يثير شبهة حول النّبى، بل إنه من دلائل صحة دعواه، فأهل الكتاب قد قرءوا عن صلاة النّبى الموعود إلى قبلتين، لكن تعصبهم منعهم من قبول الحق.

و الإنسان، حين لا يواجه المسائل بقناعات مسبقة، يكون مستعدا للتفاهم و لتصحيح تصوراته بالدليل و المنطق، أو عن طريق إراءة المعجزة.

أمّا حينما يكون قد كوّن له رأيا مسبقا قاطعا، و خاصّة حين يكون مثل هذا الفرد جاهلا متعصبا، فلا يمكن تغيير رأيه بأى ثمن.

لذلك تقول الآية: وَ لَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ بِكُلِّ آيَةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ

فلا تتعب نفسك إذن، لأن هؤلاء يأبون الاستسلام للحق، و لا توجد فيهم روح طلب الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۱۹

كل الأنبياء واجهوا مثل هؤلاء الأفراد، و هم إمّا أثرياء متنفذون، أو علماء منحرفون، أو جاهلون متعصبون.

ثم تضيف الآية: وَ ما أَنْتَ بِتابِعٍ قِبْلَتَهُمْ

أى إن هؤلاء لا يستطيعون مهما افتعلوا من ضجيج، أن يغيروا مرّة اخرى قبلة المسلمين، فهذه هى القبلة الثابتة النهائية.

و هذا التعبير القاطع الحاسم أحد سبل الوقوف بوجه الضجيج المفتعل، و من الضرورى فى مثل هذه الظروف أن يعلن الإنسان المسلم أمام الأعداء كلمته صريحة قوية، مؤكدا أنه لا ينثنى أمام هذه الانفعالات.

ثم تقول الآية: وَ ما بَعْضُهُمْ بِتابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ

لا النصارى بتابعين قبلة اليهود، و لا اليهود بتابعين قبلة النصارى.

و لمزيد من التأكيد و الحسم ينذر القرآن النّبى و يقول: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ

و فى القرآن يكثر مثل هذا اللون من الخطاب التهديدى للنبى بأسلوب القضية الشرطية، و الهدف من ذلك ثلاثة أشياء:

الأوّل: أن يعلم الجميع عدم وجود أى تمييز بين النّاس فى إطار القوانين الإلهية، و حتى الأنبياء مشمولون بهذه القوانين. و من هنا فلو صدر عن النّبى- على الفرض المحال- انحراف، فسيشمله العقاب الإلهى، مع استحالة صدور ذلك عن النّبى (بعبارة اخرى القضية الشرطية لا تدل على تحقق الشرط).

الثّانى: أن يتنبّه النّاس إلى واقعهم، فإذا كان ذلك شأن النّبى، فمن الأولى أن يكونوا هم أيضا واعين لمسؤولياتهم، و أن لا يستسلموا إطلاقا لميول الأعداء و ضجاتهم المفتعلة.

الثّالث: أن يتّضح عدم قدرة النّبى على تغيير أحكام اللّه، و عدم إمكان الطلب إليه أن يغير حكما من الأحكام، فهو عبد أيضا خاضع لأمر اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۰

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

اشارة

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴۶) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۴۷)

التّفسير

يعرفون حقّ المعرفة و لكن ...

استمرارا لحديث القرآن عن تعصب مجموعة من أهل الكتاب و لجاجهم، تقول الآية: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ

إنهم يعرفون النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و اسمه و علاماته من خلال كتبهم الدينية، وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

و هناك طبعا فريق سارع لاعتناق الإسلام بعد أن رأى هذه الصفات و العلامات فى نبى الإسلام، مثل عبد اللّه بن سلام و هو من علماء اليهود، و نقل عنه بعد إسلامه قوله «أنا أعلم به منى بابنى»[۴۲۷].

هذه الآية تميط اللثام فى الواقع عن حقيقة هامّة، هى إن صفات نبى الإسلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۱

الجسمية و الروحية و خصائصه كانت بقدر من الوضوح فى الكتب السماوية السابقة، بحيث ترسم الصورة الكاملة فى أذهان المطلعين

على هذه الكتب.

و هـل من الممكن أن تصـرح الآيـة بوجود اسم النّبى و علامـاته فى كتب أهل الكتاب إذا لم تكن بالفعل موجودة عنـدهم؟! ألا يـدل عـدم معارضـة علمـاء اليهود لهـذا التصـريح، بـل اعتراف بعضـهم به و استسـلامهم للحق، أن اسم النّبى الخاتم و صـفاته كانت معروفة لديهم!؟

هذه الآيات- إذن- دليل على صدق دعوة الرّسول و صحّة نبوته.

ثم تؤكـد الآيـة ما سبق أن طرحته بشأن تغيير القبلة، أو بشأن أحكام الإسـلام بشـكل عام: الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ أى المترددين.

و بهـذه العبارة تثبّت الآيـة فؤاد النّبى، و تنهاه عن أى ترديـد أمام افتراءات الأعـداء بشأن تغيير القبلـة و غيرها، و إن جنّد هؤلاء الأعداء كل طاقاتهم للمحاربة.

المخـاطب فى الآيـة و إن كـان شـخص النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم، و لكن الهـدف هو تربيـة البشـرية كمـا ذكرنا من قبل، فمن المؤكد أن النّبى المتصل بالوحى الإلهى لا يعتريه تردد، لأن الوحى بالنسبة له ذو جانب حسّى و عين اليقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۴۸]

اشارة

وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۴۸)

التّفسير

لكلّ أمّة قبلة

هـذه الآية الكريمة ترد على الضـجة التى أثارها اليهود حول تغيير القبلة و تقول: وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها كان للأنبياء على مرّ التاريخ و جهـات عديـدة يولونهـا، و ليست القبلـة كأصول الـدين لا تقبل التغيير، و لا أمرا تكوينيا لا يمكن مخالفته، فلا تطيلوا الحـديث فى أمر القبلة، و بدل ذلك فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ لأن معيار القيمة الوجودية للإنسان هى أعمال البرّ و الخير.

مثل هذا المعنى تضـمنته الآية ۱۷۷ من هـذه السّورة: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ

إن كنتم تريدون اختبار الإسلام أو المسلمين، فاختبروهم بهذه الأمور لا بمسألة تغيير القبلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۳

ثم تتغير لهجة الآية إلى نوع من التحذير و التهديد لأولئك المفترين، و التشـجيع للمحسـنين فتقول: أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فى تلك المحكمة الكبرى حيث يتلقى كل جزاء عمله.

لا يتساوى المفترون و المشاغبون المخربون مع المحسنين المؤمنين، و لا بدّ من يوم ينال كل فريق جزاءه.

و قـد يخال بعض أن جمع النّاس لمثل هذا اليوم عجيب، فكيف تجتمع ذرات التراب المتناثرة لترتدى ثانية حلّة الحياة؟! لذلك تجيب الآية بالقول: إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه العبارة الأخيرة فى الآية بمثابة الدليل على العبارة السابقة: أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً.

بحثان

۱- يوم يجتمع أصحاب المهدى عليه السّلام

ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً أن المقصود بهم أصحاب المهدى عليه السّلام. من ذلك

ما ورد فى «روضة الكافى» عن «الإمام الباقر» عليه السّلام أنه تلا الفقرة المذكورة من الآية ثم قال: «يعنى أصحاب القائم الثلاثمائة و البضعة عشر رجلا، و هم و اللّه الأمّة المعدودة، قال: يجتمعون و اللّه فى ساعة واحدة قزع ۴۲۸] كقزع الخريف» [۴۲۹].

و روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أيضا: «و ذلك و اللّه أن لو قام قائمنا يجمع اللّه إليه جميع شيعتنا من جميع البلدان» [۴۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۴

هذا التّفسير للآية دون شك يتحدث عن «بطن» الآية، و الأحاديث ذكرت أن لكلام اللّه ظاهرا لعامة النّاس، و باطنا لخاصّتهم.

بعبارة اخرى: هذه الروايات تشير إلى حقيقة، هى إن اللّه القادر على أن يجمع النّاس من ذرات التراب المتناثرة فى يوم القيامة، لقادر على أن يجمع أصحاب المهدى فى ساعة بسهولة، من أجل انقداح الشرارة الاولى للثورة العالمية الرّامية إلى إقامة حكم اللّه على ظهر الأرض، و إزالة الظلم و العدوان عن وجهها.

۲- عبارة وَ لِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيها فسرناها سابقا بأنها إشارة للقبلات المتعددة للأمم. و من المفسرين من توسع فى المعنى و قال إنها تعبّر عن القضاء و القدر التكوينيين أيضا (تأمل بدقة)[۴۳۱].

و لو خلت الآية ممّا يحيطها من قرائن قبلها و بعدها لأمكن مثل هذا التّفسير، لكن القرائن تدل على أن المراد هو المعنى الأوّل. و لو افترضنا أن الآية تشير إلى المعنى الثّانى، فلا تعنى إطلاقا القضاء و القدر الجبريين، بل القضاء و القدر المنسجمين مع الإرادة و الإختيار[۴۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۵

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۴۹ الى ۱۵۰]

اشارة

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۴۹) وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۰)

التّفسير

الخوف من اللّه فقط هذه الآيات تتابع الحديث عن مسألة تغيير القبلة و نتائجها.

الآية الاولى تأمر النّبى عليه السّلام و تقول: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ... من أية مدينة، و أية ديار فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

و لمزيد من التأكيد تقول الآية: وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

و تنتهى الآية بتهديد المتآمرين: وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

هذه التأكيدات المتوالية فى الآية و فى الآية التالية تبيّن أن مسألة تغيير القبلة كانت صعبة و ثقيلة على مجموعة من المسلمين حديثى العهد بالإسلام، كما كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۶

ذريعة بيد أعداء الإسلام اللجوجين لبثّ سمومهم.

مثل هذه الحالة تتطلب دائما موقفا قاطعا حاسما ينهى كل شك و ريبة، من هنا توالت التأكيدات القرآنية القارعة لتبعث العزم و اليقين فى نفوس الأتباع، و تعمق اليأس و الخيبة بين الأعداء. و هذا أسلوب اتبعه القرآن فى مواقف عديدة.

إضافة إلى ما سبق، فالتكرار فى هذه الآيات يتضمن أيضا أحكاما جديدة.

على سبيل المثال، الآيات السابقة و ضحت حكم القبلة فى المدينة التى يسكنها المسلمون. و هذه الآية و الآية التالية أوضحت الحكم لدى السفر و الخروج من المدن و الديار.

الآية التالية كررت الحكم العام بشأن التوجه إلى المسجد الحرام فى أى مكان: وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

صحيح أن هذه العبارة القرآنية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، لكنها تقصد دون شك مخاطبة عامّة المسلمين، و لمزيد من التأكيد تخاطب الجملة التالية المسلمين و تقول: وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

ثم تشير الآية إلى ثلاث مسائل هامّة:

۱- إلجام المعارضين- تقول الآية: لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ.

قبل تغيير القبلة كانت ألسنة المعارضين من اليهود و المشركين تقذف المسلمين بالتهم و الحجج، اليهود يعترضون قائلين: إن النّبى الموعود يصلى إلى قبلتين، و هذه العلامة غير متوفرة فى محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و المشركون يعترضون على النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قائلين: كيف ترك محمّد الكعبة و هو يدعى أنّه بعث لإحياء ملّة إبراهيم.

هذا التغيير أنهى كل هذه الاعتراضات.

لكن هذا لا يمنع الأفراد اللجوجين المعاندين أن يصروا على مواقفهم، و أن يرفضوا كل منطق، لذلك تقول الآية: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

فهؤلاء لا يستقيمون على طريق، حتّى اتجهتم صوب بيت المقدس للصلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۷

اتهموكم بالذيلية و عدم الأصالة، و حين عدلتم إلى الكعبة و صفوكم بعدم الثبات! هؤلاء المفترون ظالمون حقا ... ظالمون لأنفسهم، و ظالمون لمن يقطعون عليه طريق الهداية.

۲- حين وصف الآية هؤلاء المعاندين أنهم ظالمون، فقد يثير هذا الوصف خوفا فى نفوس البعض لذلك قالت الآية: فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِي

و هذه الفقرة من الآية تطرح أصلا عاما أساسيا من أصول التربية التوحيدية الإسلامية، هو عدم الخوف من أى شىء سوى اللّه (أو بعبارة أصح الخوف فقط من معصية اللّه)، و إذا ترسخ هذا المبدأ التربوى فى نفوس الجماعة المسلمة، فلن تفشل و لن تنهزم قط.

أما المتظاهرون بالإسلام فهم يخافون من «الشرق» تارة، و من «الغرب» تارة اخرى، و من «المنافقين الداخليين» و من «الأعداء

الخارجيين» و من كل شيء سوى اللّه. و هؤلاء دائما أذلاء ضعفاء مهزومون.

۳- و آخر هدف ذكر لتغيير القبلة هو إتمام النعمة: وَ لِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

تغيير القبلة كان فى الواقع نوعا من التربية و التكامل و النعمة للمسلمين كى يتعرفوا على الانضباط الإسلامى و يتخلصوا من التقليد و التعصب، فاللّه سبحانه أمر المسلمين فى البداية أن يصلوا تجاه بيت المقدس كى تنعزل صفوف المسلمين- كما قلنا- عن صفوف المشركين الذين كانوا يقدسون الكعبة. و بعد الهجرة و إقامة الدولة الإسلامية صدر الأمر بالصلاة نحو الكعبة ... نحو أقدم بيت توحيدى، و بذلك تحقق اجتياز مرحلة من مراحل تكامل المجتمع الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۲]

اشارة

كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا وَ يُزَكِّيكُمْ وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۱۵۱) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ (۱۵۲)

التّفسير

مهمّة رسول اللّه:

ذكرت الفقرة الأخيرة من الآية السابقة أن أحد أسباب تغيير القبلة هو إتمام النعمة على النّاس و هدايتهم، و الآية أعلاه ابتدأت بكلمة «كما» إشارة إلى أن تغيير القبلة ليس هو النعمة الوحيدة التى أنعمها اللّه عليكم، بل منّ عليكم بنعم كثيرة كَما أَرْسَلْنا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ

و كلمة «منكم» قد تعنى أن الرّسول بشر مثلكم، و الإنسان وحده هو القادر على أن يكون مربّى البشر و قدوتهم و أن يتحسس آمالهم و آلامهم، و تلك نعمة كبرى أن يكون الرّسول بشرا «منكم».

و قد يكون المعنى أنه من بنى قومكم و وطنكم، فالعرب الجاهليون قوم متعصبون عنصريون، و ما كان بالإمكان أن يخضعوا لنبى من غير قومهم، كما قال سبحانه فى الآيتين: (۱۹۸ و ۱۹۹) من سورة الشعراء: وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۲۹

الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

كان هذا طبعا المرحلة الاولى من الدعوة، و فى المراحل التالية ألغيت مسائل القومية و الوطن (الجغرافى)، و ربّى الإسلام أبناءه على أساس مبادئ «العالميّة» كوطن، و «الإنسانية» كقومية.

بعد ذكر هذه النعمة يشير القرآن إلى أربع نعم عادت على المسلمين ببركة هذه النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:

۱- يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنا، و يتلو من التلاوة، أى من إتيان الشيء متواليا، و الإتيان بالعبارات المتوالية (و بنظام صحيح) هى التلاوة.

النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إذن يقرأ عليكم آيات اللّه متتالية، لتنفذ إلى قلوبكم، و لإعداد أنفسكم إلى التعليم و التربية.

۲- وَ يُزَكِّيكُمْ

و «التّزكية» هو الزيادة و الإنماء، أى إنّ النّبى بفضل آيات اللّه يزيدكم كمالا ماديا و معنويا، و ينمّى أرواحكم، و يربّى فى أنفسكم

الطهر و الفضيلة، و يزيل ألوان الرذائل التى كانت تغمر مجتمعكم فى الجاهلية.

۳- وَ يُعَلِّمُكُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ.

التعليم طبعا مقدم بشكل طبيعى على التربية، و لكن القرآن- كما ذكرنا- يقدم التربية فى مواضع تأكيدا على أنها هى الهدف النهائى.

الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» قد يكون بلحاظ أن الكتاب إشارة إلى آيات القرآن و الوحى الإلهى النازل على النّبى بشكل إعجازى، و الحكمة حديث النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تعاليمه المسمّاة بالسنة.

و قد يكون الكتاب إشارة إلى أصل التعاليم الإسلامية، و الحكمة إشارة إلى أسرارها و عللها و نتائجها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۰

و من المفسرين من احتمل أن «الحكمة» إشارة إلى الحالة و الملكة الحاصلة من تعاليم الكتاب. و بامتلاكها يستطيع الفرد أن يضع الأمور فى نصابها[۴۳۳].

صاحب «المنار» يرفض أن يكون معنى الحكمة «السنة»، و يستدل على رفضه بالآية الكريمة ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ[۴۳۴].

لكننا نعتقد أن الحكمة لها معنى واسع يشمل الكتاب و السنة معا، أمّا استعمالها القرآنى مقابل «الكتاب» (كما فى هذه الآية) فيشير إلى أنها «السنة» لا غير.

۴- وَ يُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ و هذا الموضوع طرحته الفقرات السابقة من الآية، حيث دار الحديث عن تعليم الكتاب و الحكمة. لكن القرآن عاد فأكد ذلك فى فقرة مستقلة تنبيها على أن الأنبياء هم الذين بيّنوا لكم المعارف و العلوم، و لولا هم لخفى كثير من ذلك عليكم. فهم لم يكونوا قادة أخلاقيين و اجتماعيين فحسب، بل كانوا هداة طريق العلم و المعرفة، و بدون هدايتهم لم يكتب النضج للعلوم الإنسانية.

بعد استعراض جانب من النعم الإلهية فى الآية، تذكر الآية التالية أن هذه النعم تستدعى الشكر، و بالاستفادة الصحيحة من هذه النعم يؤدى الإنسان حقّ شكر البارى تعالى: فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ

واضح أن عبارة فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ لا تشير إلى معنى عاطفى بين اللّه و عباده كما يقول النّاس لبعضهم ذلك. بل تشير إلى أصل تربوى و تكوينى، أى اذكرونى ... اذكروا الذات المقدسة التى هى معدن الخيرات و الحسنات و المبرات و لتطهر أرواحكم و أنفسكم، و تكون قابلة لشمول الرحمة الإلهية. ذكركم لهذه الذات المقدسة يجعل تحرككم أكثر إخلاصا و مضاء و قوّة و اتحادا.

كذلك المقصود من «الشكر و عدم الكفران» ليس تحريك اللسان بعبارات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۱

الشكر، بل المقصود استثمار كل نعمة فى محلها و على طريق نفس الهدف الذى خلقت له، كى يؤدى ذلك الى زيادة الرحمة الإلهية.

بحثان

۱- أقوال المفسرين فى تفسير فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

للمفسرين آراء متنوعة فى تفسير هذه الآية، و فى بيان كيفية ذكر العبد و ذكر اللّه.

الفخر الرازى فى تفسيره لخصها فى عشرة:

۱- اذكرونى «بالإطاعة» كى أذكركم «برحمتى». و الشاهد على ذلك قوله تعالى: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۴۳۵].

۲- اذکرونی «بالدعاء» کی أذکرکم «بالإجابة»، دلیل ذلک قوله تعالی:

ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ

۳- اذکرونی «بالثناء و الطاعة» لأذکرکم «بالثناء و النعمة».

۴- اذکرونی فی «الدنیا» لأذکرکم فی «الآخرة».

۵- اذکرونی فی «الخلوات» کی أذکرکم فی «الجمع».

۶- اذکرونی «لدی وفور النعمة» لأذکرکم فی «الصعاب».

۷- اذکرونی «بالعبادة» لأذکرکم «بالعون»، و الشاهد علی ذلک قوله: إِیَّاکَ نَعْبُدُ وَ إِیَّاکَ نَسْتَعِینُ

۸- اذکرونی «بالمجاهدة» لأذکرکم «بالهدایة»، الشاهد علی ذلک قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۲

سبحانه فی الآیة ۶۹ من سورة العنکبوت: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا.

۹- اذکرونی «بالصدق و الإخلاص» لأذکرکم «بالخلاص و مزیدا للاختصاص».

۱۰- اذکرونی «بالربوبیة» لأذکرکم بالرحمة. دلیل ذلک مجموع آیات سورة الحمد.[۴۳۶] کل واحدة من التفاسیر المذکورة هی طبعا مظهر من مظاهر المعنی الواسع للآیة. و لا تقتصر هذه المظاهر علی ما سبق فیشمل المعنی أیضا: اذکرونی «بالشکر» لأذکرکم «بزیادة النعمة» کما ورد فی قوله سبحانه: لَئِنْ شَکَرْتُمْ لَأَزِیدَنَّکُمْ ۴۳۷] کل ذکر للّه- کما قلنا- له أثر تربوی فی وجود الإنسان إذ یجعل روحه مستعدة لنزول برکات جدیدة متناسبة مع طریقة الذکر.

۲- المقصود من ذکر اللّه

من المؤکد أن ذکر اللّه لیس بتحریک اللسان فقط، بل اللسان ترجمان القلب، الهدف هو التوجه بکل الوجود إلی ذات الباری سبحانه، ذلک التوجّه الذی یصون الإنسان من الذنب و یدعوه إلی الطاعة.

و من هنا ورد فی أحادیث عدیدة عن المعصومین: أن ذکر اللّه لیس باللسان فحسب، و من ذلک

حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یوصی به علیا قائلا: «ثلاث لا تطیقها هذه الأمّة: المواساة للأخ فی ماله، و إنصاف النّاس من نفسه، و ذکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۳

اللّه علی حال، و لیس هو سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أکبر، و لکن إذا ورد علی ما یحرم علیه خاف اللّه تعالی عنده و ترکه»

[۴۳۸].

علی أیة حال، لا ینبغی أن نغفل عن الروعة فی هذا الاقتران ... اللّه سبحانه علی عظمته و جلاله و جبروته یقرن ذکره بذکر عبده الضعیف المحدود الصغیر، إنه تکریم ما بعده تکریم للإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۴

الآیتان [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۵۳ الی ۱۵۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۱۵۳) وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (۱۵۴)

سبب النّزول

روى عن ابن عباس بشأن نزول الآيـة الثانية إنها نزلت فى قتلى بدر، و عددهم أربعة عشـر، ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار. و بعد انتهاء الغزوة قال بعض المسلمين عن هؤلاء الشهداء إنّهم «أموات» فنهت الآية عن ذلك.

التّفسير

الشّهداء أحياء

الآيات السابقة عرضت مفاهيم التعليم و التربية و الذكر و الشكر، و هى مفاهيم ذات معنى واسع جدا، و تتضمن أغلب التعاليم الدينية، و فى الآية الاولى من آيتى بحثنا دار الحديث حول الصبر الذى لا تتحقق المفاهيم السابقة بدونه.

تقول الآية أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ.

واجهوا المشاكل و الصعاب بهاتين القوتين، فالنصر حليفكم: إِنَّ اللَّهَ مَعَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۵

الصَّابِرِينَ

خلافا لما يتصور بعض النّاس «الصّبر» لا يعنى تحمل الشـقاء و قبول الذلـة و الاستسـلام للعوامل الخارجيـة، بل الصبر يعنى المقاومـة و الثبات أمام جميع المشاكل و الحوادث.

لذلك قال علماء الأخلاق إن الصبر على ثلاث شعب:

الصبر على الطّاعة: أى المقاومة أمام المشاكل التى تعترى طريق الطاعة.

الصبر على المعصية: أى الثبات أمام دوافع الشهوات العادية و ارتكاب المعصية.

الصبر على المصيبة: أى الصمود أمام الحوادث المرّة و عدم الانهيار و ترك الجزع و الفزع.

قلّما كرر القرآن موضوعا و أكد عليه كموضوع «الصبر»، ففى سـبعين موضـعا قرآنيا تقريبا دار الحديث عن الصبر. بينها عشـرة تختص بالنّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

تاريخ العظماء يؤكد أن أحد عوامل انتصارهم- بل أهمها- صبرهم و اسـتقامتهم. و الأفراد الفاقدون لهذه الصـفة سرعان ما ينهزمون و ينهارون. و يمكن القول أن دور هذا العامل فى تقدم الأفراد و المجتمعات يفوق دور الإمكانات و الكفاءات و الذكاء و نظائرها.

من هنـا طرح القرآن هـذا الموضوع بعبـارات مؤكـدة كقوله تعـالى: إِنَّمـا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ۴۳۹] و فى موضع آخر يقول سبحانه بعد أن ذكر الصبر أمام الحوادث: فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[۴۴۰] من خصائص الصبر أن بقية الفضائل لا يكون لها قيمة بدونه، لأن السند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۶

و الرصيد فى جميعها هو الصبر، لذلك

يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «و عليكم بالصّبر فإنّ الصّبر من الإيمان كالرّأس من الجسد، و لا خير فى جسد لا رأس معه و لا فى إيمان لا صبر معه»

[۴۴۱].

الروايات الإسلامية ذكرت أن أسمى مراحل الصبر ضبط النفس تتجلّى فى مقاومة الإنسان عند توفّر وسائل المعاصى و الذنوب.

الآية التى يدور حولها بحثنا تؤكد للجماعة المسلمة الثائرة فى صدر الإسلام خاصة أن الأعداء يحيطونهم من كل حدب و صوب، و تأمرهم أن يستعينوا بالصبر أمام الحوادث، فنتيجة ذلك استقلال الشخصية و الاعتماد على النفس و الثّقة بالذات فى كنف الإيمان باللّه. و تاريخ الإسلام يشهد بوضوح أن هذا الأصل كان أساس كل الانتصارات.

الموضوع الآخر الذى أكدت عليه الآية أعلاه باعتباره السند الهام إلى جانب الصبر هو «الصلاة».

و روى أن عليّا عليه السّلام: «كان إذا أهاله أمر فزع قام إلى الصّلاة ثمّ تلا هذه الآية: اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ ...

[۴۴۲].

و لا عجب فى ذلك، فالإنسان حين يرى نفسه أمام عواصف المشاكل المضنية، و يحسّ بضعفه فى مواجهتها، يحتاج إلى سند قوى لا متناه يعتمد عليه.

و الصلاة تحقق الارتباط بهذا السند، و تخلق الطمأنينة الروحية اللازمة لمواجهة التحديات.

فالآية أعلاه تطرح مبدأين هامّين: الأوّل- الاعتماد على اللّه، و مظهره الصلاة، و الآخر- الاعتماد على النفس، و هو الذى عبرت عنه الآية بالصبر.

و بعد ذكر الصبر و الاستقامة تتحدث الآية التالية عن خلود الشهداء، الذين يجسّدون أروع نماذج الصابرين على طريق اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۷

تقول الآية: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ ثم تؤكد هذا المفهوم ثانية بالاستدراك بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ

فى كل حركة- أساسا- تنزوى مجموعة محبّة للعافية، و تبتعد عن الامّة الثائرة، و لا تكتفى هى بالتقاعس و التكاسل، بل تسعى إلى تثبيط عزائم الآخرين و بثّ الرخوة و التماهل فى المجتمع. و ما أن تظهر حادثة مؤلمة حتى يعربون عن أسفهم و ينقمون على الحركة التى أدت إلى هذه الحادثة، غافلين أن كل هدف مقدس يحتاج إلى تضحيات، و تلك سنة كونية.

القرآن الكريم يتحدث عن مثل هذه الفئة كرارا و يؤنّبهم بشدّة.

ثمة أفراد من هؤلاء كانوا يتظاهرون بالتأسف و التألم على (موت) شهيد من شهداء الإسلام فى المعركة، و يبعثون بذلك القلق و الاضطراب فى النفوس.

و اللّه سبحانه يرد على هذه الأقاويل السامة بالكشف عن حقيقة كبرى هى إن الذين يضحون بأنفسهم فى سبيل اللّه ليسوا بأموات ... هؤلاء أحياء ... و يتمتعون بنعم اللّه و رضوانه، لكن البشر المحدودين فى عالم الحسّ لا يدركون هذه الحقائق.

بحوث

۱- خلود الشّهداء

للمفسرين آراء مختلفة فى معنى حياة الشّهداء و خلودهم. ظاهر الآية يشير دون شك إلى أنّهم يتمتعون بنوع من الحياة البرزخية

الروحية، لأن أجسامهم قد تلاشت، فهم يعيشون تلك الحياة بجسم مثالى ۴۴۳] كما يقول الإمام الصادق عليه السّلام ۴۴۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۸

من المفسرين من قال إنها «حياة غيبية» خاصة بالشّهداء لا تتوفر لدينا تفاصيلها و خصائصها.

و قيل إن الحياة المذكورة فى الآية تعنى الهداية، و الموت يعنى الضلال، فتكون الآية قد نهت عن وصف الشهداء بالضلالة، بل هم مهتدون. و قيل إن الشهداء أحياء لأن هدفهم حى و رسالتهم حية.

و لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار التّفسير الأول للحياة يتضح أن المعانى فى الاخرى غير مقبولة. فلا حاجة لأن نتكلف التّفسيرين التاليين، و لا أن الحياة البرزخية مختصة بالشهداء فهم يحيون حياة برزخية روحانية، و يتنعمون كذلك بالقرب من رحمة اللّه و بأنواع نعمه.

۲- الشّهادة سعادة فى الإسلام

قرر الإسلام مسألة الشهادة و بيّن منزلتها العظيمة فى الآية أعلاه و آيات اخرى لتكون عاملا فعّالا هامّا على ساحة المواجهة بين الحق و الباطل. و هذا العامل أمضى من أى سلاح و أقوى من كل المؤثرات، و هو قادر على أن يجابه أخطر الأسلحة و أفتكها فى عصرنا الراهن، و تجربة الثورة الإسلامية فى إيران أثبتت ذلك بوضوح. و قد شاهدنا بأم أعيننا انتصار المندفعين نحو الشهادة- بالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية- على أعتى القوى المتجبّرة.

و لو ألقينا نظرة على تاريخ الإسلام، و الملاحم التى سطرها المسلمون فى جهادهم الدّامى، و التضحيات التى قدمها المجاهدون على طريق الرسالة، لألفينا أن الدافع الأساس لكل هذه التضحيات هو درس الشهادة الذى لقنه الإسلام لأبنائه، و بموجبه آمنوا أن الشهادة على طريق اللّه و طريق الحق و العدالة لا تعنى الفناء، بل السعادة و الحياة الخالدة.

المقاتلون الذين تلقوا مثل هذا الدرس فى مثل هذه المدرسة الكبرى، لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۳۹

يقاسون بالمقاتلين العاديين الذين يفكّرون فى صيانة أرواحهم. أولئك يحاربون من أجل الرسالة و يندفعون بشوق عظيم نحو كسب و سام الشهادة.

۳- الحياة البرزخية و بقاء الروح

هذه الآية تثبت بوضوح بقاء الروح و الحياة البرزخية للبشر (الحياة بعد الموت و قبل البعث)، و تردّ بصراحة على أولئك الذين ينكرون تعرض القرآن للحياة البرزخية و بقاء الروح.

سنفصّل الحديث فى هذا الموضوع، و فى موضوع خلود الشّهداء و منزلتهم العظيمة، فى المجلد الثانى من هذا التّفسير عند تناولنا الآية ۱۶۹ من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۰

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۷]

اشارة

وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ (۱۵۵) الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ (۱۵۶) أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (۱۵۷)

التّفسير

الدّنيا دار اختبار إلهى

بعد ذكر مسألة الشهادة فى سبيل اللّه، و الحياة الخالدة للشّهداء، و مسألة الصبر و الشكر ... و كلّها من مظاهر الاختبار الإلهى، تعرضت هذه الآية للاختبار الإلهى العام، و لمظاهره المختلفة، باعتباره سنة كونية لا تقبل التغيير وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ وَ نَقْصٍ مِنَ الْأَمْوالِ وَ الْأَنْفُسِ وَ الثَّمَراتِ

و لمّا كان الإنتصار فى هذه الاختبارات، لا يتحقق إلّا فى ظل الثبات و المقاومة، قالت الآية بعد ذلك وَ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ

فالصابرون هم الذين يستطيعون أن يخرجوا منتصرين من هذه الامتحانات، لا غيرهم.

الآية التالية تعرّف الصابرين و تقول: الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا: إِنَّا لِلَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۱

وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

الإقرار التام بالعبودية المطلقة للّه، يعلمنا أن لا نحزن على ما فاتنا، لأنه سبحانه مالكنا و مالك جميع ما لدينا من مواهب، إن شاء منحنا إيّاها، و إن استوجبت المصلحة أخذها منا، و فى المنحة و المحنة مصلحة لنا.

و الالتفات المستمر إلى حقيقة عودتنا إلى اللّه سبحانه، يشعرنا بزوال هذه الحياة، و بأن نقص المواهب المادية و وفورها غرض زائل، و وسيلة لارتقاء الإنسان على سلم تكامله، فاستشعار العبودية و العودة فى عبارة إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ له الأثر الكبير فى تعميق روح المقاومة و الاستقامة و الصبر فى النفس.

واضح أن المقصود من قول هذه العبارة ليس ترديدها باللسان فقط، بل استشعار هذه الحقيقة، و الالتفات إلى ما تنطوى عليه من توحيد و إيمان.

و آخر آية فى بحثنا هذا، تتحدث عن الألطاف الإلهية الكبرى، التّى تشمل الصابرين الصامدين المتخرجين بنجاح من هذه الامتحانات الإلهية: أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ رَحْمَةٌ[۴۴۵].

هذه الصلوات و الرحمة تجعل هؤلاء على بصيرة من أمرهم، فى مسيرتهم الحياتية المحفوفة بالمزالق و الأخطار، لذلك تقول الآية: وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

و بهذه العبارات المختصرة المقتضبة، يطرح القرآن مسألة الامتحان الكبير بأبعاده المختلفة، و عوامل النجاح فيه و نتائجه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۲

بحوث

۱- لماذا الاختبار الإلهى؟

فى مجال الاختبار الإلهى تطرح بحوث كثيرة، و أوّل ما يتبادر للذهن فى هذا المجال هو سبب هذا الاختبار. فنحن نختبر الأفراد لنفهم

ما نجهله عنهم. فهل أن اللّه سبحانه و تعالی بحاجة إلی مثل هذا الاختبار لعباده، و هو العالم بکل الخفایا و الأسرار؟! و هل هناک شیء خفی عنه حتی یظهر له بهذا الامتحان؟! و الجواب أن مفهوم الاختبار الإلهی یختلف عن الاختبار البشری.

اختباراتنا البشریة- هی کما ذکرت آنفا- تستهدف رفع الإبهام و الجهل، و الاختبار الإلهی قصده «التربیة».

فی أکثر من عشرین موضعا تحدث القرآن عن الاختبار الإلهی، باعتباره سنّة کونیة لا تنقض من أجل تفجیر الطاقات الکامنة، و نقلها من القوّة إلی الفعل، و بالتالی فالاختبار الإلهی من أجل تربیة العباد، فکما أن الفولاذ یتخلص من شوائبه عند صهره فی الفرن، کذلک الإنسان یخلص و ینقی فی خضمّ الحوادث، و یصبح أکثر قدرة علی مواجهة الصعاب و التحدیات.

الاختبار الإلهی یشبه عمل زارع خبیر، ینثر البذور الصالحة فی الأرض الصالحة، کی تستفید هذه البذور من مواهب الطبیعة و تبدأ بالنمو، ثمّ تصارع هذه البذرة کل المشاکل و الصعاب بالتدریج، و تقاوم الحوادث المختلفة کالرّیاح العاتیة و البرد الشدید و الحر اللافح، لتخرج بعد ذلک نبتة مزهره أو شجرة مثمرة، تستطیع أن تواصل حیاتها أمام الصعاب.

و من أجل تصعید معنویات القوات المسلحة، یؤخذ الجنود إلی مناورات و حرب اصطناعیة، یعانون فیها من مشاکل العطش و الجوع و الحر و البرد و الظروف الصعبة و الحواجز المنیعة.

و هذا هو سرّ الاختبارات الإلهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۳

یقول سبحانه فی موضع آخر من کتابه العزیز: وَ لِیَبْتَلِیَ اللَّهُ ما فِی صُدُورِکُمْ وَ لِیُمَحِّصَ ما فِی قُلُوبِکُمْ وَ اللَّهُ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ[۴۴۶].

و یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی بیان سبب الاختبارات الإلهیة: «... و إن کان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، و لکن لتظهر الأفعال الّتی بها یستحقّ الثّواب و العقاب»

[۴۴۷].

أی أن الصفات الکامنة لا یمکن أن تکون وحدها معیارا للثواب و العقاب، فلا بدّ أن تظهر من خلال أعمال الإنسان، و اللّه یختبر عباده لیتجلّی ما یضمرونه فی أعمالهم، و لکی تنتقل قابلیّاتهم من القوّة إلی الفعل، و بذلک یستحقون الثواب أو العقاب.

لو لم یکن الاختبار الإلهی لما تفجرت هذه القابلیات، و لما أثمرت الکفاءات، و هذه هی فلسفة الاختبار الإلهی فی منطق الإسلام.

۲- الاختبار الإلهی عام

نظام الحیاة فی الکون نظام تکامل و تربیة، و کل الموجودات الحیّة تطوی مسیرة تکاملها، حتی الأشجار تعبّر عن قابلیاتها الکامنة بالأثمار، من هنا فإن کل البشر، حتی الأنبیاء، مشمولون بقانون الاختبار الإلهی کی تنجلی قدراتهم.

الامتحانات تشمل الجمیع و إن اختلفت شدّتها و بالتالی تختلف نتائجها أیضا، یقول سبحانه: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ یُتْرَکُوا أَنْ یَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا یُفْتَنُونَ ۴۴۸].

القرآن یعرض نماذج لاختبارات الأنبیاء إذ یقول: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ ۴۴۹].

و یقول فی موضع آخر بشأن اختبار سلیمان: فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ ...[۴۵۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۴

۳- طرق الاختبار

ذکرت الایة أعلاه نماذج ممّا یختبر به الإنسان، کالخوف و الجوع و الأضرار المالیة و الموت ... لکن سبل الاختبار الإلهی لا تنحصر بما تقدم فذکر القرآن منها فی مواضع اخری: البنین، و الأنبیاء، و أحکام اللّه، بل حتی بعض ألوان الرؤیا:

وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ[۴۵۱].

نعلم أن النّاس إزاء الاختبارات الإلهیة علی نوعین: متفوّق فی الامتحان، و خاسر.

فحیثما تسود حالة «الخوف» مثلا، تری جماعة یتراجعون کی لا یصیبهم سوء، فینفضون أیدیهم من المسؤولیة، أو یلجأون إلی المداهنة أو التماس الأعذار، کقولهم الذی یحکیه القرآن: نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَةٌ[۴۵۲].

و ثمة جماعة تقف کالطود الأشمّ أمام کل المخاوف، تزداد توکلا و إیمانا، و هؤلاء الذین یقول عنهم القرآن: الَّذِینَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ، فَزادَهُمْ إِیماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَکِیلُ ۴۵۳].

و هکذا موقف النّاس من ألوان الامتحانات الاخری، یعرض القرآن نماذج لموقف النّاجحین و الفاشلین فی الاختبار الإلهی، سنتناولها فی مواضعها.

۴- عوامل النجاح فی الامتحان

هنا یتعرض الإنسان لاستفهام آخر، و هو أنه إذا کان القرار أن یتعرض جمیع أفراد البشر للامتحان الإلهی، فما هو السبیل لاحراز النجاح و التوفیق فی هذا الامتحان؟ القرآن یعرض هذه السبل فی القسم الأخیر من آیة بحثنا و فی آیات اخری:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۵

۱- أهمّ عامل للانتصار أشارت إلیه الآیة بعبارة: وَ بَشِّرِ الصَّابِرِینَ فالآیة تبشّر بالنجاح أولئک الصابرین المقاومین، و مؤکدة أن الصبر رمز الإنتصار.

۲- الالتفات إلی أن نکبات الحیاة و مشاکلها مهما کانت شدیدة و قاسیة فهی مؤقّتة و عابرة و هذا الإدراک یجعل کل المشاکل و الصعاب عرضا عابرا و سحابة صیف، و هذا المعنی تضمنته عبارة: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَیْهِ راجِعُونَ

«کلمة الاسترجاع» هذه خلاصة کل دروس التوحید، و الانقطاع إلی اللّه، و الاعتماد علی ذاته المقدسة فی کل شیء و فی کل زمان. و أولیاء اللّه ینطلقون من هذا التعلیم القرآنی، فیسترجعون لدی المصائب کی لا تهزمهم الشدائد، و کی یجتازوا مرحلة الاختبار بسلام فی ظل الإیمان بمالکیة اللّه و الرجوع إلیه.

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام فی تفسیر الاسترجاع: «إنّ قولنا: إنّا للّه إقرار علی أنفسنا بالملک، و قولنا: إنا إلیه راجعون إقرار علی أنفسنا بالهلک».

[۴۵۴] ۳- الاستمداد من قوّة الإیمان و الألطاف الإلهیة عامل مهم آخر فی اجتیاز الاختبار دون اضطراب و قلق و فقدان للتوازن. فالسائرون علی طریق اللّه یتقدّمون بخطوات ثابتة و قلوب مطمئنة لوضوح النهج و الهدف لدیهم. و ترافقهم الهدایة الإلهیة فی اختیار الطریق الصحیح، یقول سبحانه: وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا[۴۵۵].

۴- التدقیق فی تأریخ الأسلاف، و إمعان النظر فی مواقفهم من الاختبارات الإلهیة، عامل مؤثر فی إعداد الإنسان لاجتیاز الامتحان الإلهی بنجاح.

لو عرف الإنسان بأن ما أصیب به لیس حالة شاذّة، و إنما هو قانون عام شامل لکل الأفراد و الجماعات، لهان الخطب علیه، و لتفهم الحالة بوعی، و لاجتاز المرحلة بمقاومة و ثبات. و لذلک یثبّت اللّه سبحانه علی قلب نبیّه و المؤمنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۶

باستعراض تأریخ الماضین، و ما واجهه الأنبیاء، و الفئات المؤمنة من محن و مصائب خلال مراحل دعوتهم، یقول سبحانه: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ [۴۵۶].

و یقول تعالی: وَ لَقَدْ کُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِکَ فَصَبَرُوا عَلی ما کُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّی أَتاهُمْ نَصْرُنا[۴۵۷].

۵- الالتفات الی حقیقة علم اللّه سبحانه بکل مجریات الأمور، عامل آخر فی التثبیت و زیادة المقاومة.

المتسابقون فی ساحة اللعب یشعرون بالارتیاح حینما یعلمون أنهم فی معرض أنظار أصدقائهم من المتفرجین، و یندفعون بقوّة أکثر فی تحمل الصعاب.

إذا کان تأثیر وجود الأصدقاء کذلک، فما بالک بتأثیر استشعار رؤیة اللّه لما یجری علی الإنسان و هو علی ساحة الجهاد و المحنة؟! ما أعظم القوّة التی یمنحها هذا الاستشعار لمواصلة طریق الجهاد و تحمل مشاقّ المحنة! حین واجه نوح علیه السّلام أعظم المصائب و الضغوط من قومه و هو یصنع الفلک، جاءه نداء التثبیت الإلهی لیقول له: وَ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا[۴۵۸].

و عبارة «بأعیننا» کان لها- دون شک- وقع عظیم فی نفس هذا النّبی الکریم، فاستقام و واصل عمله حتی المرحلة النهائیة دون الالتفات إلی تقریع الأعداء و استهزائهم.

ورد عن سیّد الشهداء الحسین بن علی علیه السّلام أنّه قال بعد أن تفاقم الخطب أمامه فی کربلاء، و استشهد أصحابه و أهل بیته: «هوّن علیّ ما نزل بی أنّه بعین اللّه»

[۴۵۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۷

۵- الاختبار بالخیر و الشرّ

الامتحان الإلهی لا یجری عن طریق الحوادث الصعبة القاسیة فحسب، بل قد یمتحن اللّه عبده بالخیر و بوفور النعمة، کما یقول سبحانه: وَ نَبْلُوکُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَیْرِ فِتْنَةً[۴۶۰].

و یقول سبحانه علی لسان نبیّه سلیمان: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّی لِیَبْلُوَنِی أَ أَشْکُرُ أَمْ أَکْفُرُ[۴۶۱].

و هنا ینبغی أن نشیر إلی عدّة مسائل أحدها: أنه لیس من الضروری أن یختبر جمیع النّاس بجمیع وسائل الاختبار، بل من الممکن أن یکون اختبار کل فئة بلون من الامتحان یتناسب مع الوضع الفردی و الاجتماعی لتلک الفئة.

و الاخری: أنه من الممکن أن یجتاز الإنسان بعض الامتحانات، بینما یفشل فی امتحانات اخری.

و قد یکون امتحان فرد من الأفراد موضع امتحان فرد آخر، کأن یکون موت ولد لإنسان موضع امتحان أصدقائه و أقاربه، لیری مدی اتخاذهم موقف المواساة من صاحبهم.

و أخیرا، فالاختبار الإلهی- کما ذکرنا- شامل عام یدخل فی نطاقه حتی الأنبیاء علیهم السّلام، بل إن اختبارهم بسبب ثقل مسئولیتهم أشدّ بکثیر من اختبار الآخرین.

القرآن الکریم یعرض صورا لاختبارات شدیدة مرّ بها الأنبیاء علیهم السّلام و بعضهم مرّ بمراحل طویلة شاقة قبل وصوله إلی مقام الرسالة، کی یکون علی أتمّ الاستعداد لتحمل أعباء قیادة أمّته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۸

و بین أتباع مدرسة الأنبیاء نماذج رائعة للصابرین المحتسبین، کل واحد منهم قدوة علی ساحة الامتحان الإلهی.

فقد روی «أنّ أمّ عقیل کانت امرأة فی البادیة فنزل علیها ضیفان و کان ولدها عقیل مع الإبل فأخبرت بأنّه ازدحمت علیه الإبل فرمت

به فی البئر فهلک فقالت المرأة للنّاعی انزل و اقض ذمام القوم و دفعت إلیه کبشا فذبحه و أصلحه و قرّب إلی القوم الطّعام فجعلوا یأکلون و یتعجّبون من صبرها (قال الرّاوی) فلمّا فرغنا خرجت إلینا و قالت یا قوم هل فیکم من یحسن من کتاب اللّه شیئا؟ فقلت: نعم. قالت: فاقرأ علیّ آیات أتعزّی بها عن ولدی فقرأت: «و بشّر الصّابرین الّذین إذا أصابتهم مصیبة قالوا إنّا للّه و إنّا إلیه راجعون إلی قوله المهتدون».

«فقالت السّلام علیکم، ثمّ صفّت قدمیها وصلّت رکعات ثمّ قالت: اللّهمّ إنّی فعلت ما أمرتنی فانجز لی ما وعدتنی. و لو بقی أحد لأحد- قال فقلت فی نفسی لبقی ابنی لحاجتی إلیه- فقالت لبقی محمّد صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لأمّته، فخرجت»[۴۶۲]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۴۹

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۵۸]

اشارة

إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَیْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاکِرٌ عَلِیمٌ (۱۵۸)

النّزول

کان المشرکون فی الجاهلیة یأتون مکة لأداء مناسک الحج، و کانت هذه المناسک ذات أصل إبراهیمی مع کثیر من التحریف و الخرافات و الشرک. فکانت المناسک عبارة عن الوقوف بعرفات و الاضحیة و الطّواف و السّعی بین الصفا و المروة. و لکن بشکل خاص بالجاهلیین.

و جاء الإسلام و أصلح هذه المناسک، و طهّرها مما علق بها من تحریف، و أقرّ ما کان صحیحا منها و من جملتها السعی بین الصفا و المروة.

و استنادا إلی روایات المؤرخین من الشّیعة و أهل السّنة أن المشرکین کانوا یسعون بین الصفا و المروة، و قد وضعوا علی الصفا صنما اسمه «أساف»، و علی المروة صنما آخر سموه «نائلة» و کانوا یتمسحون بهما لدی السعی، من هنا خال المسلمون أن السعی بین الصفا و المروة عمل غیر صحیح، و کرهوا أن یفعلوا ذلک.

الآیة المذکورة نزلت لتعلن أن الصفا و المروة من شعائر اللّه، و تلویثها بالشرک علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۰

ید الجاهلیین لا یبرر إعراض المسلمین عن السعی بینهما.

و اختلف المفسرون فی وقت نزول الآیة، منهم من قال إنها نزلت فی (عمرة القضاء) فی السنة السابعة للهجرة، و کان من شروط النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مع المشرکین فی هذه السفرة رفع الصنمین من الصفا و المروة، و قد عملوا بهذا الشرط، لکنهم أعادوهما إلی محلهما. و هذا أدّی إلی کراهة المسلمین و السعی بین الصفا و المروة، فنزلت الآیة لتنهاهم عن هذه الکراهة.

و قیل إنّها نزلت فی حجة الوداع فی السنة العاشرة للهجرة. و من المؤکد أن مکة کانت فی هذه السنة خالیة من الأصنام. و من هنا یلزمنا أن نعتبر کراهة المسلمین السعی بین الصفا و المروة بسبب السوابق التاریخیة لهذین المکانین حیث انتصب فیهما «أساف و نائلة».

التّفسیر

أعمال الجهلة لا توجب تعطيل الشعائر

هذه الآية الكريمة تستهدف إزالة ما علق فى ذهن المسلمين و نفوسهم من رواسب بشأن الصفا و المروة كما مرّ فى سبب النّزول، و تقول للمسلمين: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ

و من هذه المقدمة تخرج الآية بنتيجة هى: فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُناحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِما.

لا ينبغى أن تكون أعمال المشركين الجاهليين عاملا على إيقاف العمل بهذه الشعيرة، و على تقليل شأن و قدسية هذين المكانين.

ثم تقول الآية أخيرا: وَ مَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شاكِرٌ عَلِيمٌ

فاللّه يشكر عباده المتطوعين للخير بأن يجازيهم خيرا، و هو سبحانه عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۱

بسرائرهم، يعلم من تعلّق قلبه بهذه الأصنام و من تبرّأ منها.

بحوث

۱- الصفا و المروة

الصفا و المروة اسمان لجبلين صغيرين فى مكة، يقعان اليوم بعد توسيع المسجد الحرام، فى الضلع الشرقى للمسجد، فى الجهة التى يقع فيها الحجر الأسود و مقام إبراهيم.

يفصل بين الجبلين ۴۲۰ مترا تقريبا، و المسعى اليوم بدل بصالة كبيرة مسقّفة ذات طابقين يسعى الحجاج فيهما، و ارتفاع الصفا خمسة عشر مترا، و المروة ثمانية أمتار.

و اللفظان اليوم علمان لهذين الجبلين، و فى الأصل الصفا هى الصخرة الملساء القوية المختلطة بالحصى و الرمل، و المروة الصخرة القوية المتعرّجة.

و الشعائر جمع شعيرة أى العلامة، و شعائر اللّه أى العلامات التى تذكّر الإنسان باللّه، و تعيد إلى الأذهان ذكريات مقدسة.

و «اعتمر» أى أدى العمرة، و العمرة فى الأصل الملحقات الإضافية فى البناء، و فى الشريعة تطلق على الأعمال الخاصة، التى يؤديها المسلم إلى جانب أعمال الحج، أو يؤديها لوحدها فى العمرة المفردة. و بينها و بين أعمال الحج أوجه اشتراك و افتراق.

۲- من أسرار السعى بين الصفا و المروة

صحيح أن قراءة تاريخ حياة عظماء التاريخ يدفع الإنسان إلى الاقتداء بهم، لكن هناك طريقا أكثر تأثيرا، و هو مشاهدة المعالم الأثرية التى كافح عليها هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۲

الرجال، و سجلوا فيها بطولاتهم.

هذه المعالم هى فى الواقع ليست مثل كتب التاريخ الميتة، بل هى تاريخ حىّ ناطق، يستطيع أن يحلّق بالإنسان عبر القرون و الأعصار، ليجعله يعيش مع الحوادث الماضية بكل مشاعره.

الأثر التربوى لهذه المشاهدات أعمق بكثير من تأثير الكتب و المحاضرات و أمثالها ... فهنا الشعور لا الإدراك، و التصديق لا التصور، و العينية لا الذهنية.

من جهة اخرى، قلّ أن يوجد بين الأنبياء نبىّ كإبراهيم عليه السّلام، خاض ألوان النضال و تعرض لأنواع الامتحان، حتى قال القرآن عمّا اختبر به: إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ۴۶۳].

و هذه المعاناة الطويلة التى عاشها إبراهيم هى التى أهّلته لأن ينال مقام «الإمامة».

مناسك الحج تجسّد فى الأذهان دورة كاملة من مشاهد كفاح إبراهيم و مراحل تكامله التوحيدى و عبوديته و تضحياته و إخلاصه.

لو فهم المسلمون- لدى أدائهم مناسك الحج- روح الحج و أسراره، و تعمّقوا فى جوانبه «الرّمزية» لكان الحج دورة تربوية فى حقل معرفة اللّه و النّبوة و الشخصية الإنسانية.

بعد هذه المقدمة نعود إلى الخلفيّة التاريخية للصّفا و المروة.

إبراهيم عليه السّلام بلغه الكبر و لم يرزق ولدا، فدعى ربّه أن لا يتركه فردا، فاستجاب له، و رزقه من جاريته هاجر ولدا سمّاه «إسماعيل».

لم تستطع «سارة» زوجته الاولى أن تطيق الحالة الجديدة، و قد رزق إبراهيم ولدا من غيرها، فأمر اللّه إبراهيم أن يهاجر بالطفل و الأم إلى مكة حيث الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۳

القاحلة المجدبة آنذاك، و يسكنهما هناك.

امتثل إبراهيم أمر ربه، و ذهب بهما إلى صحراء مكة و أسكنهما فى تلك الأرض، و همّ بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع فى مثل هذه الأرض؟! بكاء هاجر و معه بكاء الطفل الرضيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد على أن ناجى ربّه قائلا: رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۴۶۴]، ثم ودّع زوجه و طفله بحزن و ألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الأمّ و ماؤها، و جفّ لبنها. بكاء الطفل أضرم فى نفس الأم نارا، و دفعها لأن تبحث بقلق و اضطراب عن الماء. اتجهت أولا إلى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثرا، لفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت إليه فوجدته سرابا، ثم رأت عند المروة بريقا لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئا، و هكذا جالت سبع مرات بين الصفا و المروة بحثا عن الماء.

و فى النهاية، و بعد أن أشرف الطفل على الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل و أمه و نجيا من الموت المحقق.

الماء، رمز الحياة، و انفجار العين جرّ الطيور من الآفاق نحو هذه الأرض، و القوافل شاهدت حركة الطيور، فاتجهت هى أيضا نحو الماء و ببركة هذه العائلة تحولت أرض مكة إلى مركز حضارى عظيم.

و يقع جوار الكعبة حجر إسماعيل حيث مدفن تلك المرأة و ابنها، و على الحاج أن يضمه إلى البيت فى طوافه، أى يجب على الحجاج أن يطوفوا خارج هذه الحجر و كأنه جزء من الكعبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۴

فى الصفا و المروة درس فى التضحية بكل غال و نفيس، حتى بالطفل الرضيع، من أجل المبدأ و العقيدة.

السعى بينهما يعلمنا أن نعيش دائما أمل النجاح و الإنتصار، حتى فى أشدّ لحظات الشدّة، فهاجر بذلت سعيها و جاءها رزق اللّه من حيث لا تحتسب.

السعى بين الصفا و المروة يقول لنا: إن هاتين الشعيرتين كانتا يوما و كرا لصنمين من أصنام العرب، و أصبحتا اليوم معلمين من معالم التوحيد بفضل جهاد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، من حق جبل الصفا أن يفخر و يقول: أنا أول منطلق لدعوة رسول اللّه

صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فحينما كانت مكة تغطّ فى ظلمات الشرك و بزغ من عندى فجر الهداية.

و اعلموا أيّها الساعون بين الصفا و المروة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم صعد يوما على هذا الجبل ليدعو النّاس إلى اللّه، فلم يجبه أحد، و اليوم فإن الآلاف المؤلفة تجيب الدعوة و تحج بيت اللّه على النهج المحمّدى الإبراهيمى. و إنه لدرس لكم يعلمكم أن تسيروا على طريق الحقّ دونما يأس، و إن قلّ الناصر و المجيب.

السعى بين الصفا و المروة يقول لنا: اعرفوا قدر نعمة هذا الدين و هذا المركز التوحيدى، فثمة أفراد حفظوا الشريعة و شعائرها لنا بدمائهم على مرّ التاريخ.

من أجل إحياء كل تلك الأحاسيس و المشاعر فى النفوس، أمر اللّه الحجيج أن يسعوا سبع مرات بين الصفا و المروة.

أضف إلى ما تقدم أن السعى يقضى على كبر الإنسان و غروره، فلا أثر للتبختر و التصنع فى السعى، بل لا بدّ من قطع هذه المسافة ذهابا و مجيئا مع كافة النّاس، و بنفس لباس النّاس، و بهرولة أحيانا!! و لذلك ورد فى الروايات أن السعى إيقاظ للمتكبرين.

على أية حال، بعد أن ذكرت الآية أن الصفا و المروة من شعائر اللّه، أكدت عدم وجود جناح على من يطوّف بهما فى الحج و العمرة، و الطواف بين الصفا و المروة هو السعى بينهما، لأن الحركة التى يعود فيها الإنسان إلى حيث ابتدأ هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۵

طواف و إن لم تكن الحركة دائرية.

۳- جواب على سؤال

لفظ فَلا جُناحَ يشير إلى عدم حرمة السعى بين الصفا و المروة و جواز ذلك، و قد يسأل سائل عن سبب وجوب السعى فى الفقه الإسلامى، بينما الآية تبيحه فقط؟

الجواب على هذا السؤال نفهمه بوضوح من سبب نزول الآية. فالمسلمون كرهوا السعى بين الصفا و المروة، بعد أن شاهدوا بأم أعينهم مدى عبث المشركين بهذا المكان، و مدى تلويثهم إياه بالأصنام. فخالوا أن من غير اللائق بالمسلم أن يسعى فى هذا المكان.

جاءت الآية لتقول لهم: إن الصفا و المروة من شعائر اللّه، و عبارة فَلا جُناحَ ۴۶۵] لإزالة ما تصوروه من كراهة لهذا العمل.

و ثمّة تعبيرات مشابهة ذكرها القرآن لأحكام اخرى كصلاة المسافر فى قوله تعالى: وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ[۴۶۶].

و نعلم أن القصر واجب فى صلاة المسافر، لا جائز. بشكل عام قد تستعمل كلمة (لا جناح) لإزالة التوهم بحرمة الشىء أو بكراهته، و هذا المعنى يؤكده حديث عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام فى كتاب «من لا يحضره الفقيه».

۴- معنى التطوع

التطوع فى اللغة: قبول الطاعة و الانصياع للأوامر، و فى الفقه يطلق على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۶

الأعمال المستحبة، من هنا ذهب أغلب المفسرين إلى تفسير «و من تطوع ...» بالحج المستحب و العمرة المستحبة، أو الطواف، أو أى عمل مستحب آخر.

فالعبارة تعنى إذن أن اللّه شاكر لمن يعمل الخيرات امتثالا لأوامره سبحانه، و اللّه عليم بكل هذه الأعمال.

و من المحتمل أيضا أن تكون العبارة تأكيدا لما سبقها، و يكون المقصود بالتطوع حينئذ قبول الطاعة فى أداء الأعمال الشاقة.
معنى العبارة، على هذا، على الحجاج السعى بين الصفا و المروة بكل ما فيه من مشاق و رغم كراهتكم لذلك ... هذه الكراهة الناتجة عن سوء تصرف الجاهليين بهذا المكان المقدس.

۵- شكر اللّه

ينبغى الالتفات هنا إلى عبارة الشاكر فى الآية، و هو تعبير فى غاية الروعة، و إنه لتكريم ما بعده تكريم للإنسان، أن يشكره اللّه على أعماله الخيّرة.
و حين يكون اللّه شاكرا لعبده على برّه، فمن الأولى أن يكون العبد شاكرا لربّه على نعمه التى لا تحصى، و شاكرا لمن أحسن إليه من العباد.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (۱۵۹) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۶۰)

سبب النّزول

روى جلال الدين السيوطى عن ابن عباس، أن عددا من المسلمين أمثال «معاذ بن جبل» و «سعد بن معاذ» و «خارجة بن زيد» سألوا أحبار اليهود عن مسائل فى التوراة قد ترتبط بظهور النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فأبى الأحبار أن يجيبوا و كتموا ما عندهم من علم ۴۶۷].

التّفسير

حرمة كتمان الحق

الآية- و إن خاطبت كما فى أسباب النّزول، علماء اليهود- غير محدودة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۸
بمخاطبيها، بل تبين حكما عاما بشأن كاتمى الحق.
الآية الكريمة تتحدث عن هؤلاء بشدّة و تقول: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الْهُدى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ، أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ
فاللّه سبحانه و عباده الصالحون و ملائكته المقربون يلعنون من يكتم الحق، و بعبارة اخرى، كل أنصار الحق يغضبون على من كتم

الحق. و أية خيانة للعالم أكبر من محاولة العلماء كتمان آيات اللّه المودعة عندهم من أجل مصالحهم الشخصية و لتضليل النّاس.

و عبارة مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتابِ إشارة إلى أن هؤلاء الأفراد يصادرون فى الواقع جهود الأنبياء و تضحيات أولياء اللّه الصالحين، و هو ذنب عظيم.

و الفعل (يلعن) تكرر فى الآية للتأكيد، و استعمل بصيغة المضارع لبيان استمرار اللعن، و من هنا فإنّ لعنة اللّه و لعنة اللاعنين تلاحق هؤلاء الكاتمين لآيات اللّه باستمرار، و ذلك أقسى صور العقاب.

«البينات» و «الهدى» لهما معنى واسع يشمل كل وسائل الهداية و التوعية و الإيقاظ و إنقاذ النّاس.

و لما كان القرآن كتاب هداية، فإنه لا يغلق منافذ الأمل و التوبة أمام الأفراد، و لا يقطع أملهم فى العودة مهما ارتكسوا فى الذنوب، لذلك تبين الآية التالية طريق النجاة من هذا الذنب الكبير و تقول: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

عبارة أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ جاءت بعد عبارة فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ للدلالة على كثرة محبة اللّه، و سبق عطفه على عباده التائبين. فيقول سبحانه لهؤلاء: إن تبتم، أى عدتم إلى نشر الحقائق، فأنا أعود أيضا إلى إغداق الرحمة و المواهب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۵۹

عليكم.

و من الملفت للنظر، أن اللّه لم يقل أنه يقبل التوبة ممن تاب، بل يقول: من تاب فأنا أيضا أتوب عليه، و الفرق فى التعبيرين واضح، فالثانى فيه من التودّد و التحنن و إغداق اللطف ما لا يمكن وصفه.

ثم استعمال الضمير (أنا) فى هذا الموضع يستهدف نوعا من التودّد و بيان الارتباط المباشر بين المتكلم و السّامع و خاصة إذا قال عظيم من العظماء: «أنا أتكفل لك بالعمل الفلانى» حيث يختلف عما لو قال: «سنقوم نحن بإنجاز العمل» فالمحبّة الكامنة فى الأسلوب الاول غير خافية على أحد.

و كلمة «توّاب» صيغة مبالغة تبعث الأمل فى نفوس المذنبين و تمزق أستار اليأس، عن سماء أرواحهم خاصة و أنها اقترنت بكلمة (رحيم) التى تشير إلى الرحمة الالهية الخاصة.

بحوث

۱- مفاسد كتمان الحق

كتمان الحقائق من المسائل التى عانت منها المجتمعات البشرية على مرّ التاريخ، و كان لها دوما آثار سيئة عميقة استمرت قرونا و اعصارا. و يتحمل تبعة هذه المساوئ دون شك أولئك العلماء الذين يعلمون تلك الحقائق و يكتمونها.

لعل القرآن لم يهدد و يذمّ فئة كما هدّد و ذم هذه الفئة الكاتمة للحقائق. و لم لا؟

فإن عمل هؤلاء يجرّ أجيالا متعاقبة إلى طريق الضلال و الفساد، كما أن نشر الحقائق يدفع بالأمم إلى طريق الهداية و الصلاح.

البشرية تميل للحقائق بفطرتها، و كتمان الحقائق عنها يعنى صدّ البشرية عن طريق تكاملها الفطرى المرسوم لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۰

لو أن علماء اليهود و النصارى أعلنوا ما عندهم من حقائق بشأن النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و نشروا ما جاء فى العهدين من بشائر حول رسول الإسلام، لانضوى أهل الكتاب تحت راية الإسلام، و لأصبحوا مع المسلمين أمة واحدة.

کتمان الحقائق لا ینحصر دون شک فی کتمان علامات النّبوة و البشائر بالنّبی الخاتم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، بل یشمل کتمان کل حقیقة تستطیع أن تدفع النّاس إلی الفهم الصحیح بالمعنی الواسع لهذه الکلمة.

السکوت فی مواضع یجب فیها البیان قد یکون من مصادیق کتمان الحق، و ذلک یکون فی موارد یحتاج النّاس فیها بشدّة إلی فهم الحقائق و یستطیع العلماء فیها أن یلبّوا هذه الحاجة.

بعبارة اخری: نشر الحقائق التی یعانی منها النّاس لا یتوقف علی السّؤال، و ما یذهب إلیه صاحب المنار من أن کتمان الحقائق یکون فی مواضع السؤال لیس بصحیح. خاصة و أن القرآن لا یتحدث عن کتمان الحقائق فحسب، بل یتحدث فی مواضع اخری عن تبیین الحقائق أیضا، و هذا یرد علی أولئک الذین یلتزمون جانب الصمت أمام الانحرافات بحجّة عدم وجود سائل یطرح علیهم سؤالا بشأن تلک الانحرافات. یقول سبحانه:

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ لَتُبَیِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَکْتُمُونَهُ ۴۶۸].

جدیر بالذکر أن إلهاء النّاس بالمسائل الفرعیة، لصرف أنظارهم عن المسائل السیاسیة الحیاتیة نوع من کتمان الحقائق. إذا لم یشمله فرضا تعبیر «کتمان الحقائق» فهو مشمول حتما بملاک و فلسفة کتمان الحق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۱

۲- کتمان الحق فی الأحادیث

حملت الأحادیث بشدّة أیضا علی کاتمی الحق،

فروی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «من سئل عن علم یعلمه فکتم ألجم یوم القیامة بلجام من نار» [۴۶۹].

و نعید هنا القول أن ابتلاء الناس بمسألة و الحاجة الی بیانها یحل محل السّؤال. و بیان الحقائق فی هذه الحالة واجب.

و

سئل الامام أمیر المؤمنین علیه السّلام:

«من شرّ خلق اللّه بعد إبلیس و فرعون؟ قال: العلماء إذا فسدوا، هم المظهرون للأباطیل، الکاتمون للحقائق، و فیهم قال اللّه عزّ و جلّ: أُولئِکَ یَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَ یَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۴۷۰]

۳- معنی اللعن

اللعن فی الأصل: الطرد و الإبعاد الممزوج بالغضب و الاستیاء. فاللعن الإلهی إذن إبعاد الإنسان عن رحمة اللّه، و عن جمیع المواهب المغدقة علی عباده.

و ما قیل بشأن تقسیم اللعن إلی: لعن فی الآخرة، و هو العذاب و العقوبة، و لعن فی الدنیا و هو سلب التوفیق، إنما هو من قبیل بیان المصداق، لا حصر اللعن بهذین القسمین.

و کلمة (اللاعنون) لها معنی واسع لا یقتصر علی الملائکة و المؤمنین، بل یشمل کل الموجودات التی تتحدث بلسان القال أو الحال.

و فی بعض الروایات نری أن کل الموجودات تدعو لطلب العلم

کقول المعصوم: «و إنّه یستغفر لطالب العلم من فی السّماء و من فی الأرض حتّی الحوت فی البحر»

[۴۷۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۲

و إن استغفرت هذه الموجودات لطالب العالم، فمن الطبیعی أن تلعن کاتمه.

۴- کلمة (توّاب) صیغة مبالغة من تاب: عاد، و تبین حقیقة انفتاح باب التوبة أمام الإنسان، حتی و لو انخدع الإنسان بوساوس الشیطان بعد توبته، فیستطیع أن یتوب ثانیة و یعود إلی اللّه و یکشف ما عنده من الحق، فاللّه توّاب، و لا یجوز الیأس من رحمته و عفوه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۳

الآیات [سورة البقرة (۲): الآیات ۱۶۱ الی ۱۶۳]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ أُولئِکَ عَلَیْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ (۱۶۱) خالِدِینَ فِیها لا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ (۱۶۲) وَ إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ (۱۶۳)

التّفسیر

الّذین ماتوا و هم کفّار

تحدثت الآیات السابقة عن نتیجة کتمان الحقائق، و هذه الآیات تکمل الموضوع السابق، و تتناول جزاء الذین یواصلون طریق الکفر و الکتمان و العناد إلی آخر عمرهم.

تقول الآیة: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ کُفَّارٌ أُولئِکَ عَلَیْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ

هؤلاء أیضا مثل کاتمی الحق، مستحقون للعنة اللّه و الملائکة و جمیع النّاس، مع اختلاف هو أن هؤلاء المصرّین علی الکفر حتی نهایة حیاتهم لا رجعة لهم طبعا و لا توبة.

ثم تقول الآیة التالیة إن هؤلاء الکفار المصرّین علی کفرهم حتی اللحظات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۴

الأخیرة من حیاتهم: خالِدِینَ فِیها لا یُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ

و لما کان التوحید ینهی کل هذه المصائب، فالآیة الثالثة تطرح هذا الأصل و تقول: وَ إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

ثم تؤکد هذا الأصل و تقول: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

بعد ذلک تصف الآیة اللّه بأنه الرَّحْمنُ الرَّحِیمُ لتقول إن اللّه الذی تشمل رحمته العامة کل الموجودات، و رحمته الخاصة المؤمنین، هو اللائق بالعبودیة لا الموجودات المحتاجة.

بحوث

۱- یوضح القرآن فی مواضع متعدّدة

، أن الـذين ماتوا على كفرهم لا نجاة لهم، و هـذا أمر طبيعى، لأن سـعادة الحياة الآخرة و شـقاءها نتيجة مباشـرة لما ادّخره الإنسان من أعمـال فى هـذه الحيـاة. و من أحرق جنـاحيه فى الحياة الـدنيا بنار الكفر و الانحراف لا يسـتطيع طبعا أن يحلّق فى الآخرة، و لا بـدّ من سقوطه فى درك الجحيم. و واضـح أيضا أن هذا الفرد سـيبقى على وضـعه هذا فى عالم الآخرة، لأن ذلك العالم ليس عالم الحصول على وسيلة.

هذا يشبه إنسانا فقد عينيه بسبب جنوحه و اتباعه الشهوات و الأهواء عالما عامدا، فلا بدّ له أن يعيش أعمى طول حياته.

و بديهى أن هذا مصير الكافرين الذين سلكوا طريق الكفر عن علم و عمد.

(و سنوضح مسألة الخلود أكثر فى تفسير الآيتين ۱۰۷ و ۱۰۸ من سورة هود، فى المجلد السابع من هذا التّفسير).

۲- الآية الثالثة فى بحثنا هذا تبين أحدية اللّه بشكل ينفى كل شرك و انحراف.

قد نرى أحيانا موجودات منفردة فى صفة من صفاتها، لكن هذه الموجودات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۵

تتفرد فى صـفة أو عـدّة صـفات. أمّا اللّه فهو أحد فى ذاته، و أحد فى صـفاته، و أحد فى أفعاله، أحديته لا تقبل التعدد عقلا، إنه أحد أزلى و أبدى لا تؤثر الحوادث على أحديته. إنه أحد فى الذهن و خارج الذهن. إنه أحد فى أحديته!

۳- ألا يكفى لعن اللّه؟!

الآيـة أعلاه ذكرت أن الذين ماتوا و هم كفار، مشـمولون بلعنة اللّه و الملائكة و النّاس أجمعين. و هنا قد يسأل سائل: أ ليست لعنة اللّه كافية؟

الجواب واضح، فلعنة الملائكة و النّاس زيدت على لعنة اللّه للتأكيد، و لبيان كراهة النّاس لمثل هؤلاء المذنبين.

و لو قيل لم ذكرت الآية (النّاس) بشكل عام، بينما يوجد بين النّاس من هم شركاء فى الجريمة، و هؤلاء لا يلعنون أولئك المجرمين؟

و الجواب: إن هؤلاء أيضا كـارهون لأعمـال أولئـك، فهؤلاء يكرهون مثلا كتمان الحقائق عنهم، و يلعنون من يستر عنهم الحقيقـة، لكنهم يفعلون هم أيضا هذه السيئة إن اقتضت مصلحتهم ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۶۴]

اشارة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۶۴)

التّفسير

مظاهر عظمة اللّه فى الكون

آخر آية فى المبحث الماضى دارت حول توحيد اللّه، و هذه الآية تقدم الدليل على وجود اللّه و وحدانيته.

قبل أن نـدخل فى تفسـير الآيـة، لا بدّ من مقدمة موجزة. حيثما كان «النظم و الانسـجام»، فهو دليل على وجود العلم و المعرفة، و أينما كان «التنسـيق» فهو دليل على الوحدة. من هنا، حينما نشاهد مظاهر النظم و الانسـجام فى الكون من جهة، و التنسـيق و وحدة العمل فيه من جهة اخرى، نفهم وجود مبدأ واحد للعلم و القدرة صدرت منه كل هذه المظاهر.

حينما نمعن النظر فى الأغشية الستة للعين الباصرة و نرى جهازها البديع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۷

نفهم أن الطبيعـة العمياء الصـماء لا يمكن إطلاقا أن تكون مبـدأ مثل هـذا الأثر البـديع، ثم حينما نـدقق فى التعاون و التنسـيق بين هذه الأغشية، و التنسيق بين العين بكل أجزائها و بين جسم الإنسان، و التنسيق الفطرى الموجود بين الإنسان و بين سائر البشر، و التنسيق بين بنى البشر و بين كل مجموعة نظام الكون، نعلم أن كل ذلك صادر من مبدأ واحد، و كل ذلك من آثار و قدرة ذات مقدسة واحدة.

ألا تـدل القصـيدة الجميلـة العميقـة المعنى على ذوق الشاعر و قريحته؟! ألا يدلّ التنسـيق الموجود بين قصائد الديوان الواحد على أنها جميعا صادرة من قريحة شاعر مقتدر واحد؟

بعد هذه المقدمة نعود إلى تفسـير الآية، هذه الآية الكريمة تشـير إلى سـتة أقسام من آثار النظم الموجود فى عالم الكون، و كل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.

۱- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...

من العلامات الدالـة على ذات اللّه المقدسـة و على قـدرته و علمه و وحـدانيته، السـماء و كرات العالم العلوى، أى هـذه المليارات من الشـموس المشـرقة و النجوم الثابتة و السيارة، التى ترى بالعين المجردة أو بالتلسكوبات، و لا يمكن رؤية بعضها بأقوى أجهزة الإرصاد لبعدها الشاسع ... الشاسع للغاية، و التى تنتظم مع بعضها فى نظام دقيق مترابط.

و هكذا الأرض بما على ظهرها من حياة، تتجلّى بمظاهر مختلفة و تتلبس بلباس آلاف الأنواع من النبات و الحيوان.

و من المـدهش أن عظمة هذا العالم و سـعته و امتداده تظهر أكثر كلما تقدّم العلم، و لا ندرى المدى الذى سـيبلغه العلم فى فهم سـعة هـذا الكون! يقول العلم لنـا اليوم: إن فى السـماء آلافـا مؤلفـة من المجرات، و منظومتنـا الشمسـية جزء من واحـدة من المجرات، و فى مجرتنا وحدها مئات الملايين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۸

الشـموس و النجوم السّاطعـة، و حسب دراسات العلماء يوجـد بين هـذه الكواكب مليون كوكب مسـكون بمليارات الموجودات الحيّة! حقا ما أعظم هذا الكون! و ما أعظم قدرة خالقه!! ۲- وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱ ؛ ص۴۶۸

الـدّلائل الاخرى على ذاته المقدسـة و صـفاته المباركـة تعاقب الليل و النهار، و الظلمة و النور بنظام خاص، فينقص أحد هما بالتدريج ليزيد فى الآخر، و ما يتبع ذلك من تعاقب الفصول الأربعة، و تكامل النباتات و سائر الأحياء فى ظل هذا التكامل.

لو انعدم هذا التغيير التدريجى، أو انعدم النظام فى هذا التدريج، أو انعدم تعاقب الليل و النهار لانمحت الحياة من وجه الكرة الأرضـية، و لو بقيت و استمرت- فرضا- لأصابتها الفوضى و الخبط[۴۷۲].

۳- وَ الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ الإنسان يمخر عباب البحار و المحيطات بالسـفن الكبيرة و الصـغيرة، مسـتخدما هـذه

السفن للسفر و لنقل المتاع. و حركة هذه السفن خاصة الشراعية منها تقوم على عدّة أنظمة:

الأوّل، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الأرضية، فهناك الرياح القارية التى تهبّ من القطبين الشمالى و الجنوبى نحو خطّ الإستواء و بالعكس و تدعى «اليزه» و «كنترااليزه»؟؟. و هناك الرياح الإقليمية التى تهب وفق نظام معين، و تعتبر قوة طبيعية لتحريك السفن نحو مقاصدها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۶۹

و هكذا خاصية الخشب، أو خاصية القوّة الدافعة التى يسلطها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.

أضف إلى ذلك خاصية القطبين المغناطيسيين للكرة الأرضية، التى تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم فى وسط البحار، إضافة إلى استفادتهم من نظام حركة الكواكب فى معرفة جهة السير.

كل هذه الأنظمة تساعد على الاستفادة من الفلك ۴۷۳]، و تعطى دليلا ـ محسوسا على قدرة اللّه و عظمته، و تعتبر آية من آيات وجوده.

استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة فى السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة، بل زادها عجبا و دهشة، إذ نرى اليوم السفن العملاقة التى تشبه مدينة بجميع مرافقها، تطفو على سطح الماء و تتنقل بفنادقها و ساحات لعبها و أسواقها، بل و مدارج للطائرات فيها ... على ظهر البحار و المحيطات.

۴- وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ....

من مظاهر قدرة اللّه و عظمته المطر الذى يحيى الأرض، فتهتز ببركته و تنمو فيها النباتات و تحيا الدواب بحياة هذه النباتات، و كل هذه الحياة تنتشر على ظهر الأرض من قطرات ماء لا حياة فيها.

۵- وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ ...، لا على سطح البحار و المحيطات لحركة السفن فحسب، بل على الجبال و الهضاب و السهول أيضا لتلقيح النباتات فتخرج لنا ثمارها اليانعة.

و تارة تعمل على تحريك أمواج المحيطات بصورة مستمرة و مخضها مخض السقاء لإيجاد محيط مستعد لنمو و حياة الكائنات البحرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۰

و اخرى تقوم بتعديل حرارة الجو و تلطيف المناخ بنقلها حرارة المناطق الاستوائية إلى المناطق الباردة، و بالعكس.

و أحيانا تقوم بنقل الهواء الملوّث الفاقد للاوكسجين من المدن إلى الصحارى و الغابات لمنع تراكم السموم فى الفضاء.

أجل فهبوب الرياح مع كل تلك البركات و الفوائد علامة اخرى على حكمة البارى و لطفه الدائم.

۶- وَ السَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و السحب المتراكمة فى أعالى الجو، المحمّلة بمليارات الأطنان من المياه خلافا لقانون الجاذبية، و المتحركة من نقطة إلى اخرى دون إيجاد خطر، من مظاهر عظمة اللّه سبحانه.

إضافة إلى أن هذا الودق (المطر) الّذى يخرج من خلال السحاب يحيى الأرض، و بحياة الأرض تحيا النباتات و الحيوانات و الإنسان، و لو لا ذلك لتحولت الكرة الأرضية إلى أرض مقفرة موحشة. و هذا مظهر آخر لعلم اللّه سبحانه و قدرته.

و كل تلك العلامات و المظاهر لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ لا للغافلين الصم البكم العمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۱

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۵ الى ۱۶۷]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ (۱۶۵) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ (۱۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ (۱۶۷)

التّفسير

أئمّة الكفر يتبرّءون من أتباعهم!

تناولت الآيات السابقة دلائل وجود اللّه سبحانه و إثبات وحدانيته، عن طريق عرض مظاهر لنظام الكون. و هذه الآيات تتحدث عن أولئك الذين أعرضوا عن كل تلك الدلائل الواضحة، و ساروا على طريق الشرك و الوثنية و تعدّد الآلهة .. عن أولئك الذين يحنون رؤوسهم تعظيما أمام الآلهة المزيفة، و يتعشقونها و يشغفون بها حبّا لا يليق إلّا باللّه سبحانه مصدر كل الكمالات و واهب جميع النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۲

تقول الآية: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً[۴۷۴].

و لم يتخذ المشركون هؤلاء الأنداد للعبادة فحسب، بل يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ لأنهم أصحاب عقل و إدراك، يفهمون أن اللّه سبحانه مصدر كل الكمالات، و هو وحده اللائق بالحبّ، و لا يحبون شيئا آخر إلّا من أجله. و قد غمر الحبّ الإلهى قلبهم حتى أصبحوا يرددون مع أمير المؤمنين علىّ عليه السّلام:

«فهبنى صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك»؟!

[۴۷۵].

الحبّ الحقيقى يتجه دائما نحو نوع من الكمال، فالإنسان لا يحبّ العدم و النقص، بل يسعى دوما وراء الوجود و الكمال، و لذلك كان الأكمل فى الوجود و الكمال أحق بالحبّ.

الآية أعلاه تؤكد أن حبّ المؤمنين للّه أشدّ من حبّ الكافرين لمعبوداتهم.

و لم لا يكون كذلك؟! فلا يستوى من يحبّ عن عقل و بصيرة، و من يحبّ عن جهل و خرافة و تخيّل.

حبّ المؤمنين ثابت عميق لا يتزلزل، و حبّ المشركين سطحى تافه لا بقاء له و لا استمرار.

لذلك تقول الآية: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِذْ يَرَوْنَ الْعَذابَ، أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذابِ لرأوا سوء فعلهم و سوء عاقبتهم [۴۷۶].

فى هذه اللحظات تزول حجب الجهل و الغرور و الغفلة من أمام أعينهم، و حين يرون أنفسهم دون ملجأ أو ملاذ، يتجهون إلى قادتهم و معبوديهم، ولات حين ملاذ بغير اللّه إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا، وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۳

. واضح أن المعبودين هنا ليسوا الأصنام الحجرية أو الخشبية، بل الطغاة الجبابرة الذين استعبدوا النّاس، فقدم لهم المشركون فروض الولاء و الطاعة، و استسلموا لهم دون قيد أو شرط.

هؤلاء الغافلون المغفّلون حين يروا ما حلّ بهم يمنّون أنفسهم: وَ قالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا لكنها أمنية لا تتحقق، و عبرت آية اخرى عن مثل هذا التمنى على لسان كافر يقول لمعبوده المزيف: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ

الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۴۷۷].

ثم تقول الآية: كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ، وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

ليس لهم إلّا أن يتحسّروا، يتحسّرون على أموالهم التى كنزوها و استفاد منها غيرهم ... و على فرصة الهداية و النجاة التى هيئت لهم فلم يستثمروها ... و على عبادتهم لآلهة زائفة بدل عبادة اللّه الواحد الأحد.

لكنّها حسرة غير نافعة ... فاليوم الجزاء على ما جنته يد الإنسان من أخطاء، و ليس يوم تلافى الأخطاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۶۸ الى ۱۶۹]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۶۸) إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۱۶۹)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن طوائف من العرب مثل ثقيف و خزاعة، حرموا على أنفسهم بعض النباتات و الحيوانات دونما دليل، (و نسبوا التحريم إلى اللّه أيضا)، فنزلت الآيتان تنهاهم عن ذلك.

التّفسير

خطوات الشيطان!

ذمّت الآيات السابقة الشرك و المشركين، و أحد أنواع الشرك إيكال أمر التقنين و التشريع و تقرير الحلال و الحرام إلى غير اللّه.

الآية أعلاه اعتبرت هذا العمل شيطانيا و قالت: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالًا طَيِّباً، وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

تكرر فى القرآن طلب الاستفادة من الأطعمة، و ورد الطلب عادة مقيّدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۵

بالحلال و بالطيّب.

و «الحلال» ما أبيح تناوله، و الطيب ما طاب و وافق الطبع السليم، و يقابله «الخبيث» الذى يشمأز منه الإنسان.

و «الخطوات» جمع «خطوة» و هى المرحلة التى يقطعها الشيطان للوصول إلى هدفه و للتغرير بالنّاس.

عبارة لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ تكررت خمس مرات فى القرآن الكريم، و كانت فى موضعين بشأن الاستفادة من الأطعمة و الرزق الإلهى. و هى تحذير من استهلاك هذه النعم الإلهية فى غير موضعها. و حثّ على الاستفادة منها على طريق العبودية و الطاعة لا الفساد و الطغيان فى الأرض.

النهى عن اتباع خطوات الشيطان فى استثمار مواهب الطبيعة، توضحه آيات اخرى تنهى أيضا عن الإفساد فى استثمار ما وهبه اللّه

للناس، كقوله تعالى: كُلُوا وَ اشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۴۷۸]، و كقوله سبحانه كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ ۴۷۹].

هذه المواهب و الإمكانات ينبغى أن تكون طاقة دافعة نحو الطاعة لا وسيلة لارتكاب الذنوب.

عبارة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ تكررت فى القرآن الكريم عشر مرات بعد الحديث عن الشيطان، كى تحفّز الإنسان، و تجعله متأهبا لمجابهة هذا العدوّ اللدود الظاهر.

الآية التالية تؤكد على عداء الشيطان، و على هدفه المتمثل فى شقاء الإنسان، و تقول: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

منهج الشيطان يتلخص فى ثلاثة أبعاد هى: السوء، و الفحشاء، و التّقول على اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۶

الفحشاء من «الفحش»، و هو كل عمل خارج عن حدّ الاعتدال، و يشمل كل المنكرات و القبائح المبطنة و العلنية. و استعمال هذه المفردة حاليا بمعنى الأعمال المنافية للعفّة هو من قبيل استعمال اللفظ الكلى فى بعض مصاديقه.

عبارة تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ قد تشير إلى تحريم بعض الأطعمة المحللة، كما مرّ بنا فى سبب النّزول. و هو عمل بعض القبائل العربية فى الجاهلية، و قيل: إن رواسبه كانت باقية فى ذهن بعض المسلمين الجدد[۴۸۰].

و قد يتسع معناها ليشمل الشرك و التشبيه باللّه أيضا.

على أية حال، العبارة تشير إلى القول غير القائم على العلم، و هو قول شيطانى مذموم، خاصة إذا كان متضمنا نسبة شىء إلى اللّه.

الإسلام يحثّ دوما على الانطلاق من العقل و المنطق فى اتخاذ المواقف و فى إصدار الأحكام، و لو كان دأب أفراد المجتمع ذلك لزال من المجتمع الشقاء.

كل ما دخل فى الأديان الإلهية من تحريف و مسخ إنما كان على يد أفراد بعيدين عن المنطق، و الجانب الأكبر من الانحرافات العقائدية يعود إلى عدم رعاية هذا الأصل، لذلك كان محورا من محاور النشاط الشيطانى بعنوان مستقل- فى مقابل السوء و الفحشاء- فى الآية المذكورة.

بحوث

۱- أصل الحليّة:

هذه الآية تدل على أنّ الأصل فى كل الأغذية الموجودة على ظهر الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۷

الحليّة، و المستثناة هى الأغذية المحرمة. من هنا فإن الحرمة تحتاج إلى دليل لا الحلية. و هذا ما يقتضيه أيضا طبيعة الخليقة. إذ لا بدّ من وجود تنسيق بين القوانين التشريعية و القوانين التكوينية.

بعبارة أوضح ما خلقه اللّه لا بدّ أن ينطوى على فائدة لعباده. من هنا فلا معنى أن يكون الأصل الأوّلى للأطعمة على ظهر الأرض التحريم. فكل غذاء إذن حسب هذه الآية الكريمة حلال ما لم تثبت حرمته بدليل صحيح، و ما دام لا يشكل ضررا على الفرد و المجتمع.

۲- الانحرافات التدريجية

عبارة خُطُواتِ الشَّيْطانِ قد تشير إلى مسألة تربوية دقيقة، هى إنّ الانحرافات تدخل ساحة الإنسان بشكل تدريجى، لا دفعى فورى. فتلوّث شاب بالقمار، أو شرب الخمر، أو بالمخدرات مثلا يتم على مراحل:

يشترك أوّلا متفرجا فى جلسة من جلسات الخمارين أو المقامرين، ظانا أنه عمل اعتيادى لا ضير فيه.

ثم يشترك فى القمار للترويح عن النفس (دون ربح أو خسارة)، أو يتناول شيئا من المخدرات بحجة رفع التعب أو المعالجة أو أمثالها من الحجج.

و فى الخطوة الاخرى يمارس العمل المحرم قاصدا أنه يمارسه مؤقتا.

و هكذا تتوالى الخطوات واحدة بعد اخرى و يصبح الفرد مقامرا محترفا أو مدمنا خطرا.

وساوس الشيطان تدفع بالفرد على هذه الصورة التدريجية نحو هاوية السقوط، و ليست هذه طريقة الشيطان الأصلى فحسب، بل كل الأجهزة الشيطانية تنفذ خططها المشؤومة على شكل «خطوات» لذلك يحذّر القرآن كثيرا من اتّخاذ الخطوة الاولى على طريق الانزلاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۸

جدير بالذكر أن الأعمال الخرافية غير القائمة على أساس منطقى اعتبرتها النصوص الإسلامية من «خطوات الشّيطان».

و قد ورد فى رجل أقسم أن يذبح ابنه،

قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «ذلك من خطوات الشّيطان»

[۴۸۱].

و عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام: «كلّ يمين بغير اللّه فهو من خطوات الشّيطان».

[۴۸۲] و

عن الامام الصادق أيضا: «إذا حلف الرّجل على شىء و الّذى حلف عليه إتيانه خير من تركه فليأت الّذى هو خير و لا كفّارة له و إنّما ذلك من خطوات الشّيطان»[۴۸۳].

۳- الشّيطان عدوّ قديم

الآية الكريمة و صفت الشّيطان أنّه عَدُوٌّ مُبِينٌ و ذلك إمّا لعدائه لآدم بعد أن أبى السجود له، و خسر كل شىء على أثر ذلك. و إما بسبب إغوائه الواضح لبنى البشر و دفعهم على طريق الإجرام. و واضح أن هذا الدفع لا يصدر إلّا من عدوّ لدود.

أو لأن الشيطان أعلن عداءه صراحة للإنسان، و عاهد نفسه على إغوائهم إذ قال: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

۴- طريقة الوسوسة الشّيطانية

الآية الكريمة تحدثت عن أمر الشيطان: فقالت: إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَ الْفَحْشاءِ ... و هذا الأمر هو الوسوسة الشيطانية. و قد يطرح سؤال بشأن هذه الأوامر الشيطانية إذ لا يحسّ الإنسان بأمر خارجى يصدر إليه حين يرتكب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۷۹

السيئات، و لا يتلمس سعيا شيطانيا لإضلاله.

الجواب هو أن هـذه «الوسوسـة» تأثير خفى عبّرت عنه بعض الآيات بالإيحاء: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ ۴۸۴]. و الإيحاء من «الوحى» الذى هو تأثير غيبى خفى أو التأثيرات اللاواعية أحيانا.

و ثمّة فرق بين «الإلهام الإلهى» و «الوسوسة الشيطانية» هو إن الإلهام الإلهى لانسجامه مع الفطرة الإنسانية و مع تركيب الجسم و الروح، يترك فى النفس حالة انبساط و انشراح.

بينما الوسوسة الشـيطانية لتناقضـها مع الفطرة الإنسانية السليمة، تجعل القلب يحسّ بظلام و انزعاج و ثقل. و إن لم يحدث فيه مثل هذا الإحساس قبل ارتكاب السيئة فإنه يحسّ بها بعد الارتكاب. هذا هو الفرق بين الإلهامات الشيطانية و الإلهامات الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۰

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۰ الى ۱۷۱]

اشارة

وَ إِذا قِيـلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مـا أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَـيْئاً وَ لا يَهْتَـدُونَ (۱۷۰) وَ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۷۱)

التّفسير

التّقليد الأعمى

تشـير الآيـة إلى منطق المشـركين الواهى فى تحريم ما أحلّ اللّه، أو عبادة الأوثان و تقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا.

و يـدين القرآن هـذا المنطق الخرافى، القائم على أساس التقليـد الأعمى لعادات الآباء و الأجداد، فيقول: أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ

أى إن اتباع الآباء صـحيح لو أنهم كانوا على طريق العقل و الهدايـة. أمّا إذا كانوا لا يعقلون و لا يهتدون، فما اتباعهم إلّا تركيز للجهل و الضلال.

الإنسان الجاهلى لا يسـتند إلى قاعـدة ايمانيـة يحسّ معها بوجوده و بشخصـيته و بأصالته، لـذلك يسـتند إلى مفاخر الآباء و عاداتهم و تقاليدهم، ليصطنع له شخصية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۱

كاذبة و أصالة موهومة. و هذه عادة الجاهليين قديما و حديثا فى تعصبهم القومى و خاصة فى ما يتعلق باسلافهم.

الإسلام أدان المنطق الرجعى القائم على تقديس ما عليه الآباء و الأجداد، لأنه ينفى العقل الإنسانى. و يرفض تطوّر التجارب البشرية، و يصادر الموضوعية فى معالجة قضايا السلف.

هذا المنطق الجاهلى يسود اليوم- و مع الأسف- فى بقاع مختلفة من عالمنا، و يظهر هنا و هناك بشـكل «صنم» يوحى بعادات و تقاليد خرافية مطروحة باسم «آثار الآباء» و مؤامرة باسم الحفاظ على المآثر القوميّة و الوطنية، مشـكّلا بذلك أهم عامل لانتقال الخرافات من جيل إلى جيل آخر.

لا ـ مانع طبعا من تحلیل عادات الآباء و تقالیدهم، فما انسجم منها مع العقل و المنطق حفظ، و ما کان وهما و خرافة لفظ. المقدار المنسجم مع العقل و المنطق من العادات و التقالید یستحق الحفظ و الصیانة باعتباره تراثا قومیا. أمّا الاستسلام التام الأعمی لتلک العادات و التقالید فلیس إلّا الرجعیة و الحماقة.

جدیر بالذکر أن الآیة أعلاه تتحدث عن آباء هؤلاء المشرکین و تقول عنهم إنهم لا یعلمون، و لا یهتدون. و هذا یعنی إمکان الاقتداء باثنین. بمن کان یملک الفکر و العقل و العلم، و من کان قد اهتدی بالعلماء.

أما أسلاف هؤلاء فلم یکونوا یعلمون، و لم یکونوا قد اهتدوا بمن یعلم و هذا اللون من التقلید الأعمی هو السبب فی تخلف البشریة لأنه تقلید الجاهل للجاهل.

الآیة التالیة تبین سبب تعصّب هؤلاء و إعراضهم عن الانصیاع لقول الحق تقول: وَ مَثَلُ الَّذِینَ کَفَرُوا کَمَثَلِ الَّذِی یَنْعِقُ بِما لا یَسْمَعُ إِلَّا دُعاءً وَ نِداءً. تقول الآیة:

إن مثلک فی دعوة هؤلاء المشرکین إلی الایمان و نبذ الخرافات و التقلید الأعمی کمن یصیح بقطیع الغنم (لإنقاذهم من الخطر) و لکن الأغنام لا تدرک منه سوی أصوات غیر مفهومة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۲

أجل فهؤلاء الکفار و المشرکین کالحیوانات و الانعام التی لا تسمع من راعیها الذی یرید لها الخیر سوی أصوات مبهمة.

ثم تضیف الآیة لمزید من التأکید و التوضیح أن هؤلاء صُمٌّ بُکْمٌ عُمْیٌ فَهُمْ لا یَعْقِلُونَ ۴۸۵].

و لذلک یتمسکون بالتقالید الخاطئة لآبائهم، و یعرضون عن کل دعوة بنّاءة.

و قیل فی تفسیر الآیة أیضا إن معناها: مثل الذین یدعون أصنامهم و آلهتهم الکاذبة کالذی یدعو البهائم، لا الحیوانات تفهم النداء و لا تلک الأصنام، لأن هذه الأصنام صمّاء بکماء عمیاء لا تعقل.

أکثر المفسرین علی التّفسیر الأوّل للآیة، و الروایات الإسلامیة تؤیده و نحن علی ذلک أیضا.

بحثان

۱- سبل المعرفة

یحتاج الإنسان فی ارتباطه بالخارج دون شک إلی سبل، تسمّی سبل المعرفة. أهم هذه السبل العین و الأذن للرؤیة و السماع، و اللسان للسؤال.

لذلک، بعد أن تصف الآیة هؤلاء بأنهم صم بکم عمی، تستنتج باستعمال فاء التفریع و تقول: فَهُمْ لا یَعْقِلُونَ

من هنا یقرر القرآن أن أساس العلوم العین و الأذن و اللسان، العین و الأذن للفهم المباشر، و اللسان لإقامة الارتباط بالآخرین و کسب علومهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۳

و الفلسفة أثبتت أیضا حقیقة انطلاق العلوم غیر الحسیة أیضا من العلوم الحسیّة، و هو بحث واسع لا مجال هنا لشرحه. (لمزید من التوضیح عن نعمة أدوات المعرفة راجع المجلد الثامن من هذا التّفسیر، فی شرح الآیة ۷۸ من سورة النحل).

۲- نعق الغراب:

إذا صوّت دون أن يمدّ عنقه، فإذا مدّ عنقه و حركها ثم صاح قيل: نغق (بالغين)[۴۸۶].

ثم توسّعوا فى نعق لتشمل كل صوت تنادى به البهائم، و واضح أن هذه البهائم لا تفهم شيئا من هذا النداء و إن أبدت ردّ فعل تجاه هذا النداء، فإنما هو لدوىّ هذا الصوت و طريقة أدائه الخاصة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۴

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۷۲) إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۷۳)

التّفسير

الطّيبات و الخبائث

القرآن ينهج أسلوب التأكيد و التكرار بأشكال مختلفة فى معالجته للانحرافات المزمنة. و فى هذه الآيات عودة إلى مسألة تحريم المشركين فى الجاهلية لبعض الأطعمة دونما دليل. مع فارق هو أن الخطاب يتجه فى هذه الآيات إلى المؤمنين، بينما خاطبت الآيات السابقة جميع النّاس.

تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

هذه النعم الطيبة المحللة المتناسبة مع الفطرة الإنسانية السليمة قد خلقت لكم، فلم لا تستفيدون منها؟! هذه الأطعمة تمنحكم القوة على أداء مهامكم، و تذكركم بشكر خالقكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۵

و عبادته.

لو قارنا هذه الآية بقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ ۴۸۷] لفهمنا نكتتين:

تقول الآية هنا: مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ بينما تقول تلك مِمَّا فِي الْأَرْضِ

و لعل هذا الاختلاف يشير إلى أن النعم الطيبة مخلوقة أصلا للمؤمنين، و غير المؤمنين يتناولون هذه الأطعمة ببركة المؤمنين، كالماء الذى يستعمله البستانى لسقى أشجاره و أغراسه، بينما تستفيد من هذا الماء أيضا الأعشاب و النباتات الطفيلية.

و الاخرى، أن الآية تقول لعامة النّاس: كُلُوا ... وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ و هذه الآية تخاطب المؤمنين و تقول: كُلُوا ... وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ أى لا تكتفى هذه الآية بالطلب من المؤمنين أن لا يسيئوا الاستفادة من هذه النعم، بل تحثهم على حسن الاستفادة منها.

فالمتوقع من النّاس العاديين أن لا يذنبوا فى استهلاك هذه النعم، بينما المتوقع من المؤمنين أن يستثمروها فى أفضل طريق.

و قد يثير تكرار التأكيد فى القرآن الكريم على الاستفادة من الأطعمة الطيبة تساؤلا عن سبب هذا التكرار. أمّا لو عدنا إلى تاريخ العصر الجاهلى لفهمنا السبب. فالجاهليون قد حرّموا على أنفسهم بعض الأطعمة دونما دليل، و تناقلت أجيالهم هذا التحريم و كأنّه وحى منزل، و نسبوه أحيانا بصراحة إلى اللّه، و القرآن استهدف اقتلاع جذور هذه الأفكار الخرافية من أذهانهم.

ثم إن التركيز على كلمة «طيب» يتضمن أيضا دعوة إلى اجتناب ما خبث من الأطعمة، كالميتة و الوحوش و الحشرات، و كالمسكرات السائدة بين النّاس بشدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۶

آنذاك.

فى تفسير الآية ۳۲ من سورة الأعراف تحدثنا بالتفصيل عن استثمار المؤمنين الأطعمة الطيبة و الزينة المعقولة (المجلد الخامس من هذا التّفسير).

الآية التالية تبين بعض ألوان الأطعمة المحرمة، و تقول: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

تذكر الآية ثلاثة أنواع من اللحوم المحرمة إضافة إلى الدم، و هى من أكثر المحرمات انتشارا فى ذلك العصر، فى بعضها خبث ظاهر لا يخفى على أحد كالميتة و الدم و لحم الخنزير، و فى بعضها خبث معنوى كالتى ذبحت من أجل الأصنام.

الحصر فى الآية بكلمة «إنما» هو «حصر إضافى» لا يستهدف منه بيان جميع المحرمات، بل نفى ما ابتدعوه بشأن بعض اللحوم المحللة. بعبارة اخرى، هؤلاء الجاهليون حرّموا بعض الأطعمة الطيبة استنادا إلى ما توارثوه من خرافات و أوهام، لكنهم بدلا من ذلك كانوا يعمدون عند قلة الطعام إلى أكل الميتة أو الخنزير أو الدم.

القرآن يقول لهؤلاء إن هذه هى الأطعمة المحرمة لا تلك (و هذا هو معنى الحصر الإضافى).

و لمّا كانت بعض الضرورات تدفع الإنسان إلى تناول الأطعمة المحرمة حفظا لحياته، فقد استثنت الآية هذه الحالة و قالت: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ

و من أجل أن تقطع الآية الطريق أمام من يتذرع بالاضطرار، أكدت على كون المضطر «غير باغ» و «لا عاد». و الباغى هو الطالب، و المراد هنا طالب اللذة و العادى هو المتجاوز للحد، أى المتجاوز حدّ الضرورة، فالرخصة هنا إذن لمن لا يريد اللذة فى تناول هذه الأطعمة، و لا يتجاوز حد الضرورة اللازمة لنجاته من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۷

الموت.

و لأن معنى البغى الظلم أيضا ذهب بعض المفسرين إلى أن الرخصة ممنوحة لأولئك الذين يضطرون خلال سفر محلل، لا خلال سفر المعصية.

فالمسافرون لهدف غير مشروع قد يجب عليهم تناول الأطعمة المحرمة لحفظ النفس من التلف، إلّا أن هذا العمل يكتب فى صحيفة أعماله من الذنوب.

بعبارة اخرى: هؤلاء العاصون قد يجب عليهم عقلا فى أسفارهم المحرمة أن يتناولوا شيئا من الأطعمة المحرمة لدى الاضطرار، لكن هذا الوجوب لا يرفع عنهم المسؤولية، لأنهم أجبروا على ذلك و هم على مسير خاطئ.

و هناك روايات تذكر أن الآية تشير إلى السائرين على طريق الخروج على إمام المسلمين، فهؤلاء مستثنون من هذه الرخصة. و هذه الروايات تشير فى الواقع إلى نفس الحقيقة المذكورة، و هكذا الأمر فى أحكام صلاة المسافر، فالمسافر يقصر الصلاة فى السفر إلّا ما كان سفرا حراما، و لذلك يستدلّ بعبارة (غير باغ و لا عاد) للحكمين معا، حكم صلاة المسافر، و حكم ضرورة تناول اللحوم المحرمة[۴۸۸] و فى الختام تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فإن اللّه الذى حرّم تلك الأطعمة أباح تناولها فى موارد الضرورة برحمته الخاصة.

بحوث

۱- فلسفة تحریم اللحوم المحرمة:

الأغذیة المحرمة التی ذکرتها الآیة الکریمة أعلاه لها- کسائر المحرمات الإلهیة- فلسفتها الخاصة. و قد شرّعت انطلاقا من خصائص الإنسان جسمیا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۸

و روحیا. و الروایات الإسلامیة ذکرت علل بعض هذه الأحکام، و العلوم الحدیثة أماطت اللثام أیضا عن بعض هذه العلل.

علی سبیل المثال،

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «... أمّا المیتة فإنّه لم ینل منها أحد إلّا ضعف بدنه، و ذهبت قوّته، و انقطع نسله، و لا یموت آکل المیتة إلّا فجأة»

[۴۸۹].

و لعل هذه المفاسد تعود إلی أن جهاز الهضم لا یستطیع أن یصنع من المیتة دما سالما حیا، إضافة إلی أن المیتة مرتع أنواع المیکروبات، و الإسلام اعتبر المیتة نجسة، کی یبتعد عنها المسلم فضلا عن عدم تناولها.

و المحرّم الثانی فی هذه الآیة «الدم»، و شرب الدم له مفاسد أخلاقیة و جسمیة، فهو وسط مستعد تماما لتکاثر أنواع المیکروبات.

المیکروبات التی تدخل البدن تتجه أول ما تتجه إلی الدم، و تتخذه مرکزا لنشاطهم، و لذلک اتخذت الکریات البیضاء مواقعها فی الدم للوقوف بوجه توغل هذه الأحیاء المجهریة فی الدم المرتبط بکل أجزاء الجسم.

و حین یتوقف الدم عن الحرکة و تنعدم الحیاة فیه، یتوقف نشاط الکریات البیض أیضا، و یصبح الدم علی بذلک وسطا صالحا لتکاثر المیکروبات دون أن تواجه عقبة فی التکاثر. و لذلک نستطیع القول إن الدم- حین یتوقف عن الحرکة- یکون أکثر أجزاء جسم الإنسان و الحیوان تلوثا.

و من جهة اخری ثبت الیوم فی علم الأغذیة، أن الأغذیة لها تأثیر علی الأخلاق و المعنویات عن طریق التأثیر فی الغدد و إیجاد الهورمونات. و منذ القدیم ثبت تأثیر شرب الدم علی تشدید قسوة الإنسان، و أصبح ذلک مضرب الأمثال. لذلک نری الروایة عن الإمام جعفر بن محمّد علیه السّلام تقول: «أمّا الدم فإنه یورث القسوة فی القلب و قلّة الرأفة و الرحمة حتی لا یؤمن أن یقتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۸۹

ولده و والدیه و لا یؤمن علی حمیمه و لا یؤمن علی من یصحبه»[۴۹۰].

ثالث: المحرمات المذکورة فی الآیة «لحم الخنزیر».

الخنزیر- حتی عند الأوروبیین المولعین بأکل لحمه- رمز التحلل الجنسی.

و هو حیوان قذر للغایة، و تأثیر تناول لحمه علی التحلل الجنسی لدی الإنسان مشهود.

حرمة تناول لحمه صرحت بها شریعة موسی علیه السّلام أیضا، و فی الأناجیل شبّه المذنبون بالخنزیر، کما أن هذا الحیوان مظهر الشیطان فی القصص.

و من العجیب أن أناسا یرون بأعینهم قذارة هذا الحیوان حتی إنه یأکل عذرته، و یعلمون احتواء لحمه علی نوعین خطرین من الدیدان، و مع ذلک یصرّون علی أکله.

دودة «التریشین» التی تعیش فی لحم هذا الحیوان تتکاثر بسرعة مدهشة، و تبیض فی الشهر الواحد خمسة عشر ألف مرة، و تسبب

للإنسان أمراضا متنوعة كفقر الدم، و الغثيان، و حمّى خاصة، و الإسهال، و آلام المفاصل، و توتر الأعصاب، و الحكّة، و تجمع الشحوم داخل البدن، و الإحساس بالتعب، و صعوبة مضغ الطعام و بلعه، و التنفس و ....

و قد يوجد فى كيلو واحد من لحم الخنزير (۴۰۰) مليون دودة من هذه الديدان!! و لذلك أقدمت بعض البلدان الأوروبية فى السنوات الماضية على منع تناول لحم هذا الحيوان.

و هكذا تتجلى عظمة الأحكام الإلهية بمرور الأيّام أكثر فأكثر.

يقول البعض أن العلم تطور بحيث استطاع أن يقضى على ديدان هذا الحيوان، و لكن على فرض اننا استطعنا بواسطة العقاقير، أو بالاستفادة من الحرارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۰

الشديدة فى طبخه، إلّا أن أضراره الاخرى ستبقى. و قد ذكرنا أن للأطعمة تأثيرا على أخلاق الإنسان عن طريق تأثيرها على الغدد و الهورمونات و ذلك الأصل علمى مسلّم، و هو أن لحم كل حيوان يحوى صفات ذلك الحيوان أيضا. من هنا تبقى للحم الخنزير خطورته فى التأثير على التحلل الجنسى للآكلين، و هى صفة بارزة فى هذا الحيوان.

و لعل تناول لحم هذا الحيوان أحد عوامل التحلّل الجنسى فى أوربا.

رابع، المحرمات فى الآية ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ و هى الحيوانات التى تذبح على غير اسم اللّه، كالتى كانت تقدم للأصنام فى الجاهلية.

و تحريم لحوم هذه الحيوانات لا يلزم بالضرورة أن تكون لها إضرار صحية حتى؟ يقال: إن ذكر اسم اللّه أو غير اللّه حين الذبح لا ربط له بالأمور الصّحيحة.

فليس من الحتم أن تكون للحم آثار صحية حتى تكون محرمة. لان المحرمات فى الإسلام لها أبعاد مختلفة، فتارة بسبب الصحة و حفظ البدن و اخرى يكون للتحريم جانب معنوى و أخلاقى و تربوى، فهذه اللحوم تبعد الإنسان عن اللّه، و لها تأثير نفسى و تربوى سلبى على الآكل، لأنها من سنن الشرك و الوثنية و تعيد إلى الذهن تلك التقاليد الخرافية.

۲- التكرار و التأكيد

تحريم المواد الأربع المذكورة تكرر فى أربع سور من القرآن، سورتين مكيتين (الأنعام، ۱۴۵ و النحل، ۱۱۵) و سورتين مدنيتين (البقرة، ۱۷۳ و المائدة، ۳).

يبدو أن تحريم هذه اللحوم أعلن أولا فى أوائل البعثة، ثم أعلن ثانية فى أواخر إقامة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى مكة، و تكرر الإعلان ثالثة فى أوائل الهجرة إلى المدينة، ثم أعيد التأكيد رابعة فى أواخر عمر الرّسول فى سورة المائدة و هى آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۱

سور القرآن.

كل هذا التأكيد يعود إلى أهمية الموضوع و إلى ما فى هذه المواد من أخطار جسمية و روحية، و إلى اتساع نطاق تلوث النّاس آنئذ بها.

۳- حقن الدم

واضح أن تحريم تناول الدم فى الآية لا يشمل موارد الاستفادة المعقولة من هذه المادة مثل حقن الدم لإنقاذ الجرحى و المرضى، كما

لا يتوفر لدينا دليل على حرمة بيع الدم و شرائه فى هذه الموارد، لأنها موارد استفادة عقلائية مشروعة عامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۲

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۴ الى ۱۷۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۴) أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (۱۷۵) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۱۷۶)

سبب النّزول

أجمع المفسرون على نزول هذه الآية فى أهل الكتاب، و قيل إنها نزلت خاصة فى علماء اليهود. فقد كانوا قبل ظهور الإسلام يبشرون بصفات النّبى المرتقب و بعلاماته. و بعد البعثة خاف هؤلاء الأحبار على مصالحهم فكفّوا عن طريقتهم السابقة، و كتموا ما عندهم فى التوراة من صفات النّبى، فنزلت الآيات تؤنّبهم.

التّفسير

إدانة كتمان الحقّ مرّة اخرى

هذه الآيات تأكيد على ما مرّ فى الآية ۱۵۹ بشأن كتمان الحقّ. و هى- و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۳

كانت تخاطب أحبار اليهود- لها مفهوم عام، لا يقتصر- كما ذكرنا مرارا- على سبب نزولها. فسبب النّزول- فى الواقع- وسيلة لبيان الأحكام الكلية العامة، و مصداق من مصاديق الحكم الكلى للآية.

فكل الذين يكتمون أحكام اللّه و ما يحتاجه النّاس من حقائق طلبا للرّئاسة أو الثروة، قد ارتكبوا خيانة كبرى، و عليهم أن يعلموا أنهم باعوا حقيقة نفيسة بثمن بخس، و هى تجارة خاسرة.

الآية الاولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ.

هذه الهدايا و العطايا التى ينالونها من هذا الطريق نيران محرقة تدخل بطونهم. هذا التعبير يوضح ضمنيا مسألة تجسيم الأعمال فى الآخرة و تدل على أن الأموال المكتسبة عن هذا الطريق المحرّم، هى فى الواقع نيران تدخل فى بطونهم و ستتجسّم بشكل واقعى فى الآخرة.

ثم تتعرض الآية إلى عقاب معنوى سينال هؤلاء أشدّ من العقاب المادى، و تقول: وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و فى موضع آخر ذكر القرآن مثل هذا اللون من العقاب لأولئك الذين ينكثون عهد اللّه من أجل مصالح تافهة، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ

عَذابٌ أَلِيمٌ ۴۹۱].

يستفاد من هذه الآية و الآية التالية أن واحدة من أعظم المواهب الإلهية فى الآخرة أن يكلم اللّه المؤمنين تلطفا بهم. أى إن المؤمنين سينالون فى الآخرة نفس المنزلة التى نالها أنبياء اللّه فى الدنيا، و سيلتذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۴

المنزلة التى نالها أنبياء اللّه فى الدنيا، و سيلتذون بما التذ به الأنبياء من تكليم إلهى ... و أية لذة أعظم من هذه اللذة؟! أضف إلى ذلك إن اللّه ينظر إليهم بعين لطفه، و يطهرهم بماء عفوه و رحمته، و أية نعمة أعظم من هذه النعمة؟! بديهى أن تكليم اللّه عباده لا يعنى أن اللّه له جسم و لسان، بل إنه بقدرته الواسعة يخلق فى الفضاء أمواجا صوتية خاصة قابلة للسمع و الإدراك، (كما كلّم اللّه موسى عند جبل الطور)، أو أنه يتكلم مع خاصة عباده بلسان القلب عن طريق الإلهام.

على أية حال، هذا اللطف الإلهى الكبير، و هذه اللذة المعنوية المنقطعة النظير، للعباد المخلصين الذين ينطقون بالحق و يعرّفون النّاس بالحقائق، و يلتزمون بعهودهم و مواثيقهم، و لا يضحون برسالتهم من أجل مصالحهم المادية.

و قد يسأل سائل عن تكليم اللّه المجرمين يوم القيامة، استنادا الى ما ورد فى الآيات كقوله تعالى: قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ ۴۹۲]. و هذا جواب من اللّه لأولئك الذين يطلبون الخروج من النار. و مثل هذا الحوار نجده فى الآيتين ۳۰ و ۳۱ من سورة الجاثية.

و الجواب: أن المقصود من التكليم فى آيات بحثنا، هو تكليم عن لطف و حبّ و احترام، لا عن تحقير و طرد و عقوبة فذلك من أشدّ الجزاء.

من الواضح أن عبارة يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا لا تعنى السماح بأن يشتروا به ثمنا باهظا، فالمقصود أن الثمن المادّى مهما زاد فهو تافه لا قيمة له أمام كتمان الحقّ، حتى و لو كان الثمن الدنيا و ما فيها.

الآية التالية تحدد وضع هذه المجموعة و تبين نتيجة صفقتها الخاسرة و تقول:

أُولئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدى وَ الْعَذابَ بِالْمَغْفِرَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۵

فهؤلاء خاسرون من ناحيتين: من ناحية تركهم الهداية و اختيار الضلالة، و من ناحية حرمانهم من رحمة اللّه و استحقاقهم بدل ذلك العقاب الإلهى، و هذه مبادلة لا يقدم عليها إنسان عاقل.

لذلك تتحدث الآية عن هؤلاء بلغة التعجب و تقول: فَما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ؟! آخر آية فى بحثنا تقول إن ذلك التهديد و الوعيد بالعذاب لكاتمى الحق، يعود إلى أن اللّه أنزل القرآن بالدلائل الواضحة، حتى لم تبق شبهة لأحد: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ مع ذلك فإن زمرة محرفة تعمد إلى كتمان الحقائق صيانة لمصالحها، و تثير الاختلاف فى الكتاب السماوى لتتصيد فى الماء العكر.

مثل هؤلاء الذين يثيرون الاختلاف فى الكتاب السماوى بعيدون عن الحقيقة: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ.

كلمة «شقاق» تعنى فى الأصل الشق و الانفصال، و لعل المراد به أن الإيمان و التقوى و نشر الحقائق رمز وحدة المجتمع الإنسانى، أما الخيانة و كتمان الحقائق فعامل التفرقة و التبعثر و الإنشقاق لا الإنشقاق السطحى الذى يمكن التغافل عنه بل البعيد و العميق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۷۷]

اشارة

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ

عَلى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِى الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِى الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۱۷۷)

النّزول

تغيير القبلة أثار بين النّاس ضجة، و خاصة بين اليهود و النصارى الذين كانوا يرون فى اتّباع المسلمين لقبلتهم سند افتخار لهم. القرآن الكريم رد فى الآية ۱۴۲ من هذه السّورة على اعتراضاتهم فى قوله تعالى: سَيَقُولُ السُّفَهاءُ ... و فى هذه الآية يطرح المعيار الصحيح لتقييم المجموعة البشرية.

التّفسير

أساس البرّ

ذكرنا فى تفسير آيات تغيير القبلة، أن النصارى كانوا يتجهون فى عباداتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۷

نحو الشرق و اليهود نحو الغرب، و قرر اللّه الكعبة قبلة للمسلمين، و كانت فى اتجاه الجنوب وسطا بين الاتجاهين.

و مرّ بنا الحديث عن الضّجة التى أثيرت بين اعداء الإسلام و المسلمين الجدد بشأن تغيير القبلة.

الآية أعلاه تخاطب هؤلاء و تقول: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ

«البر» فى الأصل التوسّع، ثم أطلق على أنواع الإحسان، لأن الإنسان بالإحسان يخرج من إطار ذاته ليتسع و يصل عطاؤه إلى الآخرين.

و «البرّ» بفتح الباء، فاعل البرّ، و هى فى الأصل الصحراء و المكان الفسيح، و أطلقت على المحسن بنفس اللحاظ السابق.

ثمّ يبين القرآن أهم أصول البرّ و الإحسان و هى ستة، فيقول: وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ

هذا هو الأساس الأوّل: الإيمان بالمبدأ، و المعاد، و الملائكة المأمورين من قبل اللّه، و المنهج الإلهى، و النبيّين الدعاة إلى هذا المنهج.

و الإيمان بهذه الأمور يضىء وجود الإنسان، و يخلق فيه الدافع القوى للحركة على طريق البناء و الأعمال الصالحة.

جدير بالذكر أن الآية تقول: وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ... و لم تقل و لكن البرّ بفتح الباء، أو البار بصيغة اسم الفاعل. أى أن الآية استعملت المصدر بدل الوصف، و هذا يفيد بيان أعلى درجات التأكيد فى اللغة العربية. فحين يقول أحد: على عليه السّلام هو العدل فى عالم الإنسانية. فهو يقصد أنه عادل للغاية و أن العدالة قد ملأت وجوده بحيث أن من يراه فكأنما لا يرى سوى العدالة متجسدة. و حين يقول: بنى أمية ذلّ الإسلام، فيعنى أن كل وجودهم ذلّ للإسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۸

ثم تذكر الآية الإنفاق بعد الإيمان، و تقول: وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِى الرِّقابِ

إنفاق المال ليس بالعمل اليسير على الجميع، خاصة إذا بلغ الإنفاق درجة الإيثار، لأن حبّ المال موجود بدرجات متفاوتة فى كل القلوب. و عبارة عَلى حُبِّهِ إشارة إلى هذه الحقيقة. هؤلاء يندفعون للإنفاق رغم هذا الحبّ للمال من أجل رضا اللّه سبحانه.

الآية عددت ستة أصناف من المحتاجين إلى المال:

ذكرت بالدرجة الاولى ذوى القربى، ثم اليتامى و المساكين، ثم أولئك الذين اعترتهم الحاجة مؤقتا كابن السبيل و هو المسافر

المحتاج، ثم تذكر الآية بعد ذلك السائلين إشارة إلى أنّ المحتاجين ليسوا جميعا أهل سؤال. فقد يكونون متعففين لا تبدو على سيمائهم الحاجة. لكنهم فى الواقع محتاجون، و عن هؤلاء قال القرآن فى موضع آخر: يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ۴۹۳].

ثم تشير الاية إلى الرقيق الذين يتعطشون إلى الحرية و الاستقلال بالرغم من عدم احتياجهم المادى و تأمين نفقتهم على عهدة مالكيهم.

و الأصل الثالث من أصول البرّ: إقامة الصلاة: وَ أَقامَ الصَّلاةَ. و الصلاة إن أدّاها الفرد بشروطها و حدودها، و بإخلاص و خضوع، تصده عن كل ذنب و تدفعه نحو كل سعادة و خير.

و الأصل الرابع: أداء الزكاة و الحقوق المالية الواجبة: وَ آتَى الزَّكاةَ.

فالآية سبق أن ذكرت الإنفاق المستحب، و هنا تذكر الإنفاق الواجب. بعض النّاس يكثر من المستحبات فى الإنفاق و يتساهل فى الواجب، و بعضهم يلتزم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۴۹۹

بالواجب فقط و لا ينفق درهما فى إيثار. و المحسنون الحقيقيون هم الذين ينفقون فى المجالين معا.

يلفت النظر أن الآية ذكرت عبارة عَلى حُبِّهِ بعد الإنفاق المستحب. و لم تذكر ذلك مع الزكاة الواجبة. و لعل ذلك يعود إلى أن أداء الحقوق الواجبة وظيفة إلهية و اجتماعية، و الفقراء- فى منطق الإسلام- شركاء فى أموال الأغنياء، و دفع المال للشريك لا يحتاج إلى العبارة المذكورة.

الخامس من الأصول: الوفاء بالعهد: وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا، فالثقة المتبادلة رأس مال الحياة الاجتماعية. و ترك الوفاء بالعهد من الذنوب التى تزلزل الثقة و توهن عرى العلاقات الاجتماعية، من هنا وجب على المسلم أن يلتزم بثلاثة أمور تجاه المسلم و الكافر، و إزاء البرّ و الفاجر، و هى: الوفاء بالعهد، و أداء الأمانة، و احترام الوالدين ۴۹۴].

الأساس السادس و الأخير من أسس البرّ فى نظر الإسلام: الصبر وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ (حال الفقر و المسكنة) وَ الضَّرَّاءِ (حال المرض) وَ حِينَ الْبَأْسِ (حال القتال مع الأعداء)[۴۹۵].

ثم تؤكد الآية على أهمية الأسس الستة و على عظمة من يتجلّى بها، فتقول:

أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

صدقهم يتجلّى فى انطباق أعمالهم و سلوكهم مع إيمانهم و معتقداتهم، و تتجلى تقواهم فى التزامهم بواجبهم تجاه اللّه و تجاه المحتاجين و المحرومين و كل المجتمع الإنسانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۰

و الملفت للنظر أن الصفات الست المذكورة تشمل الأصول الاعتقادية و الأخلاقية و المناهج العملية. فتضمنت الآية كل أسس العقيدة، و كذلك أشارت إلى الإنفاق و الصلاة و الزكاة بين المناهج العملية، و هى أسس ارتباط المخلوق بالخالق، و المخلوق بالمخلوق. و فى الحقل الأخلاقى ركزت الآية على الوفاء بالعهد، و على الصبر و الاستقامة و الثبات، و هى أساس كل الصفات الأخلاقية السامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۷۸ الى ۱۷۹]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصـاصُ فِي الْقَتْلى الْحُرُّ بِـالْحُرِّ وَ الْعَبْـدُ بِالْعَبْـدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَـيْءٌ فَاتِّبـاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۸) وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۹)

سبب النّزول

شاع بين القبائل العربيـة انتقام قبيلـة من قبيلـة اخرى، و لم يكن لهـذا الانتقام حـدود، فقـد يقتل رجل فتهـدد قبيلته قتل كل رجال قبيلة القاتل، فنزلت الآية و شرعت حكم القصاص.

و هـذا الحكم الإسـلامى جـاء ليقرر الموقـف من عرفين قـائمين عن العرب، عرف يرى حتميـة القصـاص، و عرف يرى حتميـة الديـة. فجاءت الآية لتقرر القصاص عند عدم موافقة أولياء المقتول على أخذ الدية، و إن وافقوا فالدية.

التّفسير

فى القصاص حياة

الآيات السابقة طرحت المنهج الإسلامى فى «البرّ»، و هنا يقدّم القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۲

الكريم- و هكذا فى الآيات التالية- مجموعة من الأحكام الإسلامية، إكمالا لبيان المنهج الإسلامى فى الحياة.

تبـدأ هـذه الأحكام من مسألـة حفظ حرمـة الـدماء، و هى مسألـة هامة فى الحياة الاجتماعية، فتنفى العادات و التقاليد الجاهلية، و تقول للمؤمنين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى

عبـارة كُتِبَ عَلَيْكُمُ تـبيّن أهميـة الموضوع، و توحى بالتأكيـد عليه، و ذكرت فى آيـات اخرى بشـأن الصوم و الوصيّة، و لا ـ يكتب من المسائل عادة إلّا ما كان قاطعا و جادّا.

و «القصـاص» من «قصّ»، يقـال قصّ أثره: أى تلاـه شـيئا بعـد شـىء. و منه القصاص لأنه يتلو أصل الجنايـة و يتبعه، و قيل هو أن يفعل بالثانى مثل ما فعله هو بالأول، مع مراعاة المماثلة، و منه أخذ القصص كأنه يتبع آثارهم شيئا بعد شىء[۴۹۶].

الآيـة كما ذكرنا تسـتهدف بيان الموقف الصـحيح من المجرم، و لفظ القصاص يـدلّ على إنزال عقوبـة بالمجرم مماثلة لما ارتكبه هو، لكن الآية لا تكتفى بذلك، بل بينت التفاصيل فقالت: الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَ الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَ الْأُنْثى بِالْأُنْثى

و سنوضح إن شاء اللّه مسألة قصاص الأنثى بالأنثى، و نبيّن أنّ الرجل قاتل المرأة يمكن إنزال عقوبة القتل بحقّه ضمن شروط.

ثم تبين الآيـة أنّ القصـاص، حق لأوليـاء المقتول، و ليس حكما إلزاميا، فإن شاؤوا أن يعفوا و يأخـذوا الديـة، و إن شاؤوا ترك الـدية فلهم ذلك، و تقول: فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَـيْءٌ فبعد تبدل حكم القصاص عند عفو أولياء المقتول إلى دية فَاتِّباعٌ بِالْمَعْرُوفِ أى فعل العافى إتباع بالمعروف، و هو أن لا يشدّد فى طلب الدّية و ينظر من عليه الدية وَ أَداءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسانٍ أى على المعفوّ عنه أن يبادر إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۳

دفع الدية عند الإمكان، و أن لا يماطل.

التوصـية إلى من له الديـة أن لا يشددّ فى طلبه، و أن يسـتوفى حقّه بشـكل معقول ... و على من عليه الدية أن يؤديها بإحسان، و أن لا يسوّف و يماطل.

ثم تؤكد الآية على ضرورة الالتزام بحدود ما أقرّه اللّه، و عدم تجاوز هذه الحدود: ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ رَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ

و هذا الأمر بالقصاص و بالعفو يشكل تركيبا انسانيا منطقيا. فهو من جهة يدين التقاليد السائدة فى الجاهلية الأولى و الجاهليات التالية إلى يومنا هذا القاضية بالانتقام للمقتول الواحد بقتل الآلاف.

و من جهة اخرى، يفتح باب العفو أمام المذنب، مع الحفاظ على احترام الدم و ردع القاتلين.

و من جهة ثالثة، لا يحقّ للطرفين بعد العفو و أخذ الدية التّعدّى، خلافا للجاهليين الذين كانوا يقتلون القاتل أحيانا حتى بعد العفو و أخذ الدية.

الآية التالية قصيرة العبارة وافرة المعنى، تجيب على كثير من الأسئلة المطروحة فى حقل القصاص، و يقول: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا؟ أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

هذه الآية بكلماتها العشر، تضع الإطار العام- ببلاغة و فصاحة متناهيتين- للقصاص فى الإسلام، و تبين أن القصاص ليس انتقاما، بل السبيل إلى ضمان حياة النّاس.

إنه يضمن حياة المجتمع، إذ لو انعدم حكم القصاص، و تشجّع القتلة القساة على تعريض أرواح النّاس للخطر- كما هو الحال فى البلدان التى ألغت حكم القصاص- لارتفعت إحصائيات القتل و الجريمة بسرعة.

و هو من جهة اخرى، يصون حياة القاتل، بعد أن يصدّه إلى حدّ كبير عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۴

ارتكاب جريمته.

كما أنه يصون المجتمع بجعله قانون المماثلة من الانتقام و الإسراف فى القتل على طريقة التقاليد الجاهلية التى تبيح قتل الكثير مقابل فرد واحد. و هو بذلك يصون حياة المجتمع.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار أن القصاص مشروط بعدم العفو عن القاتل فهذا الشرط نافذة أمل للحياة أيضا بالنسبة للقاتل.

و عبارة لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ تحذير من كل عدوان لتكميل هذا الحكم الإسلامى العادل الحكيم.

بحوث

۱- القصاص و العفو تركيب عادل

النظرة الإسلامية نظرة شمولية فى كل المجالات، قائمة على احتساب جميع جوانب الأمر الذى تعالجه. مسألة صيانة دم الأبرياء عالجها الإسلام بشكل دقيق بعيد عن كل إفراط أو تفريط، لا كما عالجتها الديانة اليهودية المحرّقة التى اعتمدت القصاص، و لا الديانة المسيحية المحرّفة التى ركزت على العفو ... لأن فى الاولى خشونة و انتقاما، و فى الثانية تشجيعا على الإجرام.

و لو افترضنا أنّ القاتل و المقتول أخوان أو قريبان أو صديقان، فإن الإجبار على القصاص يدخل لوعة اخرى فى قلب أولياء المقتول، خاصّة إذا كان هؤلاء من ذوى العواطف الإنسانية المرهفة. و تحديد الحكم بالعفو يؤدى إلى تجرّؤ المجرمين و تشجيعهم.

لذلك ذكرت الآية حكم القصاص باعتباره أساسا للحكم، ثم ذكرت إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۵

جانبه حكم العفو.

بعبارة أوضح، إن لأولياء المقتول أن ينتخبوا أحد ثلاثة أحكام:

۱- القصاص.

۲- العفو دون أخذ الدية.

۳- العفو مع أخذ الدية (و فى هذه الحالة تشترط موافقة القاتل أيضا).

۲- هل يتعارض القصاص مع العقل و العواطف الإنسانية؟

اشارة

ثمّة فئة يحلو لها أن توجه إلى الإسلام- دون تفكير- اعتراضات و كثير شبهات، خاصة بالنسبة لمسألة القصاص. يقول:

۱- الجريمة لا تزيد على قتل إنسان واحد، و القصاص يؤدّى إلى تكرار هذا العمل الشنيع.

۲- القصاص ينمّ عن روح الانتقام و التشفّى و القسوة، و يجب إزالة هذه الروح عن طريق التربية، بينما يعمّق القصاص هذه الروح.

۳- القتل لا يصدر عن إنسان سالم، لا بدّ أن يكون القاتل مصابا بمرض نفسى، و يجب علاجه، و القصاص ليس بعلاج.

۴- قوانين النظام الاجتماعى يجب أن تتطور مع تطور المجتمع. و لا يمكن لقانون سنّ قبل أربعة عشر قرنا أن يطبق اليوم.

۵- من الأفضل الاستفادة من القاتل بتشغيله فى معسكرات العمل الإجبارى، و بذلك نستفيد من طاقاته و نصون المجتمع من شروره.

هذا ملخص ما يوجه للقصاص من اعتراضات.

الجواب

لو أمعنا النظر فى آيات القصاص، لرأينا فيها الجواب على كل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۶

الاعتراضات: وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ

فالحياة الاجتماعية لا يمكن أن تطوى مسيرتها الحياتية التكاملية، دون اقتلاع العوامل المضرّة الهدامة فيها. و لما كان القصاص فى هذه المواضع يضمن استمرار الحياة و البقاء، فإن الشعور بضرورة القصاص أودع على شكل غريزة فى وجود الإنسان.

أنظمة الطب و الزراعة و الرعى قائمة على أساس هذا الأصل العقلى، و هو إزالة الموجودات المضرة الخطرة. فنرى الطب يجيز قطع العضو الفاسد إذا شكل خطورة على بقية أعضاء الجسد، و تقتلع النباتات و الأغصان المضرة من أجل استمرار نمو النباتات المفيدة بشكل صحيح.

أولئك الذين يرون فى الاقتصاص من القاتل قتلا لشخص آخر، ينظرون إلى المسألة من منظار فردى. و لو أخذوا بنظر الإعتبار مصلحة المجتمع، و علموا ما فى القصاص من دور فى حفظ سائر أفراد المجتمع و تربيتهم، لأعادوا النظر فى أقوالهم.

إزالة مثل هؤلاء الأفراد الخطرين المضرين من المجتمع، كقطع العضو الفاسد من جسد الإنسان، و كقطع الغصن المضر من الشجرة. و لا أحد يعترض على قطع ذلك العضو و هذا الغصن. هذا بشأن الاعتراض الأول.

و بالنسبة إلى الاعتراض الثانى، لا بدّ من الالتفات إلى أن تشريع القصاص لا ارتباط له بمسألة الانتقام. لأن الهدف من الانتقام إطفاء نار الغضب المتأججة لمسألة شخصية، بينما القصاص يستهدف الحيلولة دون استمرار الظلم فى المجتمع، و حماية سائر الأبرياء.

و بشأن الاعتراض الثالث القائل إن القاتل مريض نفسيا، و لا تصدر هذه الجريمة من إنسان طبيعى، لا بدّ أن نقول: هذا الكلام صحيح فى بعض المواضع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۷

و الإسلام لم یشرع حکم القصاص للقاتل المجنون و أمثاله، و لکن لا یمکن اعتبار المرض عذرا لکل قاتل، إذ لا یخفی ما یجرّ إلیه ذلک من فساد، و من تشجیع القتلة علی ارتکاب جرائمهم.

و لو صح هذا الاستدلال بالنسبة للقاتل، لصح أیضا بشأن جمیع المعتدین علی حقوق الآخرین. لأن الإنسان العاقل المعتدل لا یعتدی إطلاقا علی الآخرین. و بذلک یجب حذف کل القوانین الجزائیة، و یجب إرسال المعتدین و المجرمین إلی مستشفیات الأمراض النّفسیة بدل السجون.

أمّا ادعاء عدم إمکان قبول قانون القصاص الیوم بسبب تطور المجتمع، و بسبب قدم هذا القانون، فمردود أمام إحصائیات الجرائم الفظیعة الی ترتکب فی عصرنا الراهن، و أمام التجاوزات الوحشیة التی تنتشر فی بقاع مختلفة من عالمنا بسبب الحروب و غیر الحروب.

و لو أتیح للبشریة أن تقیم مجتمعا إنسانیا متطورا تطورا حقیقیا، فإن مثل هذا المجتمع یستطیع أن یلجأ إلی العفو بدل القصاص، فقد أقرّ الإسلام ذلک، و من المؤکد أن المجتمع المتطور فی آفاقه الإنسانیة سیفضّل عفو القاتل. أمّا فی مجتمعاتنا المعاصرة حیث ترتکب فیها أفظع الجرائم تحت عناوین مختلفة، فإن إلغاء قانون القصاص لا یزید فی جرائم المجتمع إلّا اتساعا و ضراوة.

و حول حفظ القتلة فی السجون، فإن هذه العملیة لا تحقق هدف الإسلام من القصاص. فالقصاص- کما ذکرنا- یستهدف حفظ حیاة المجتمع، و الحیلولة دون تکرار القتل و الجریمة. السجون و أمثالها لا تستطیع أن تحقق هذا الهدف (خاصة السجون الحالیة التی هی أفضل من أکثر بیوت المجرمین). و لا أدل علی ذلک من ارتفاع إحصائیات جرائم القتل خلال فترة قصیرة، فی البلدان التی ألغت حکم الإعدام. و لو کانت أحکام السجن عرضة للتقلّص بسبب أحکام العفو- کما هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۸

سائد الیوم- فإن المجرمین یعمدون إلی ارتکاب جرائمهم دون تخوّف أو تردّد.

۳- هل انتقص قانون القصاص المرأة؟

قد یظن البعض أن قانون القصاص الإسلامی قد انتقص المرأة حین قرّر أن «الرجل» لا یقتل «بالمرأة»، أی إن الرجل- قاتل المرأة- لا یقتص منه.

و لیس الأمر کذلک، مفهوم الآیة لا یعنی عدم جواز قتل الرجل بالمرأة، بل- کما هو مبین فی کتب الفقه- یجوز لأولیاء المقتولة أن یطلبوا القصاص من الرجل القاتل، بشرط أن یدفعوا نصف دیته.

بعبارة اخری: المقصود من عدم قصاص الرجل بالمرأة، هو القصاص دون شرط، أمّا إذا دفعت نصف دیته فیجوز قتله.

واضح أن دفع نصف دیة الرجل القاتل، لا یعنی انتقاص الإسلام للمرأة، بل یعنی جبران الضرر المالی الذی یصیب عائلة الرجل القاتل بعد قتله، (تأمل بدقّة).

و لمزید من التوضیح نقول: الرجال یتحملون غالبا مسئولیات إعالة الأسرة، و یؤمنون نفقاتها الاقتصادیة، و لا یخفی الفرق بین أثر غیاب الرجل و غیاب المرأة علی العائلة اقتصادیا، و لو لم یراع هذا الفرق لأصیبت عائلة المقتص منه بأضرار مالیة، و لوقعت فی حرج اقتصادی، و دفع نصف الدیة یحول دون تزلزل تلک العائلة اقتصادیا. و لا یسمح الإسلام أن یتعرض أفراد أسرة لخطر اقتصادی و تغمط حقوقهم تحت شعار «المساواة».

قد تکون امرأة فی أسرتها عضوة فعالة اقتصادیا أکثر من الرجل، و لکن الأحکام و القوانین لا تقوم علی أساس الحالات الاستثنائیة، بل

على أساس الوضع العام، و فى هذه الحالة يجب أن نقارن كل الرجال بكل النساء. (تأمل بدقّة).

۴- يلفت النظر أيضا فى الآية عبارة مِنْ أَخِيهِ فالقرآن يركز على مفهوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۰۹

الأخوة بين المسلمين، حتى يطلق هذا التعبير على القاتل. و بهذا التعبير يضرب القرآن على وتر العاطفة الأخوية بين المسلمين، كى يشجع أولياء المقتول على العفو!! هذا طبعا بالنسبة للقاتل الذى انزلق فى هاوية الجريمة فى ظروف عصبية خاصة، و ندم بذلك على فعلته. أمّا المجرمون الذى يفخرون بجرائمهم، و لا يشعرون بندم على ما ارتكبوه فلا يستحقون اسم الأخ و لا العفو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۰

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۸۰ الى ۱۸۲]

اشارة

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (۱۸۰) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۸۱) فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸۲)

التّفسير

الوصية بالمعروف

الآيات السابقة ذكرت تشريع القصاص، و هذه الآيات تذكر تشريع الوصية، باعتباره جزءا من النظام المالى، و تذكر بأسلوب الحكم الإلزامى فتقول: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ

ثم تضيف الآية أن هذه الوصيّة كتبت حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

ذكرنا أن تعبير كُتِبَ عَلَيْكُمْ يدل على الوجوب، من هنا كان هذا التعبير وقع بحث لدى المفسرين فى هذه الآية، و لهم فيها أقوال مختلفة:

۱- جاء فى الآية الكريمة بشأن كتابة الوصية كونها حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۱

هنا فإنها مستحبة استحبابا مؤكدا، و لو كانت واجبة لقالت الآية، «حقّا على المؤمنين».

۲- قيل أيضا: إن هذه الآية نزلت قبل نزول أحكام الإرث، و كانت الوصية آنئذ واجبة، كى لا يقع نزاع بين الورثة. ثم نسخ هذا الوجوب بعد نزول آيات الإرث، و أصبح حكما استحبابيا. و فى تفسير «العيّاشى» حديث يؤيّد هذا الاتجاه.

۳- يحتمل أيضا أن يكون حديث الآية عن موارد الضرورة و الحاجة، أى حين يكون الإنسان مدينا، أو فى ذمته حق، و الوصية واجبة فى هذه الحالات.

يبدو أن التّفسير الأول أقرب من بقية التفاسير.

يلفت النظر أن الآية الكريمة عبرت عن المال بكلمة «خير» فقالت: إِنْ تَرَكَ خَيْراً. و هذا يعنى أن الإسلام يعتبر الثروة المستحصلة عن طريق مشروع، و المستخدمة على طريق تحقيق منافع المجتمع و مصالحه خيرا و بركة. و يرفض النظرات الخاطئة التى ترى الثروة شرا

ذاتيا، و يردّ على أولئك المتظاهرين بالزهد، القائلين إن الزهد مساو للفقر، مسببين بذلك ركود المجتمع الإسلامى اقتصاديا، و مؤدين بمواقفهم الانزوائية إلى فسح المجال لاستثمار الطامعين خيرات أمتهم.

هذا التعبير يشير ضمنيا إلى مشروعية الثروة، لأن الأموال غير المشروعة ليست خيرا بل شرا وبالا.

و يستفاد من بعض الروايات أن تعبير «خيرا» يراد به الأموال الموفورة، لأن المال اليسير لا يحتاج إلى وصية، و يستطيع الورثة أن يقسّموه بينهم حسب قانون الإرث. بعبارة اخرى المال اليسير ليس بشيء يستدعى أن يفصل الإنسان ثلثه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۲

عن طريق الوصية[۴۹۷].

و جملة إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تبيّن آخر فرصة للوصيّة، و هذه الفرصة الأخيرة إن فاتت أيضا فلا فرصة بعدها ... أى لا مانع أن يكتب الإنسان وصيته قبل ذلك، بل يستفاد من الروايات أن هذا عمل مستحسن.

و لا قيمة لتلك التصورات المتشائمة من كتابة الوصية، فالوصية إن لم تكن باعثا على طول العمر، لا تبعث إطلاقا على تقريب أجل الإنسان! بل هى دليل على بعد النظر و تحسّب الاحتمالات.

تقييد الوصية بِالْمَعْرُوفِ إشارة إلى أن الوصية ينبغى أن تكون موافقة للعقل من كل جهة، لأن «المعروف» هو المعروف بالحسن لدى العقل. يجب أن تكون الوصية متعقلة فى مقدارها و فى نسبة توزيعها، دون أن يكون فيها تمييز، و دون أن تؤدى إلى نزاع و انحراف عن أصول الحق و العدالة.

حين تكون الوصية جامعة للخصائص المذكورة فهى محترمة و مقدسة، و كل تبديل و تغيير فيها محظور و حرام. لذلك تقول الآية التالية: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّما إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ

و لا يظنّن المحرفون المتلاعبون أن اللّه غافل عمّا يفعلون، كلّا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

و لعل هذه الآية تشير إلى أن تلاعب «الوصىّ» (و هو المسؤول عن تنفيذ الوصية) لا يصادر أجر الموصى. فالموصى ينال أجره، و الإثم على الوصى المحرّف فى كميّة الوصية أو كيفيتها أو فى أصلها.

و يحتمل أيضا أن الآية تبرئ ساحة غير المستحقين الذين قسم بينهم الإرث عند عدم التزام الوصىّ بمفاد الوصية. و تقول إن هؤلاء (الذين لا يعملون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۳

بتلاعب الوصى) لا إثم عليهم، بل الإثم على الوصىّ المحرّف، و لا تناقض بين التّفسيرين، فالآية تجمع التّفسيرين معا.

بيّن القرآن فيما سبق الأحكام العامّة للوصية، و أكد على حرمة كل تبديل فيها، و لكن فى كل قانون استثناء، و الآية الثالثة من آيات بحثنا هذا تبين هذا الاستثناء و تقول: فَمَنْ خافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الاستثناء يرتبط بالوصية المدونة بشكل غير صحيح، و هنا يحق للوصى أن ينبّه الموصى على خطئه إن كان حيّا، و أن يعدّل الوصيّة إن كان ميتا، و حدّد الفقهاء مواضع جواز التعديل فيما يلى:

۱- إذا كانت الوصيّة تتعلق بأكثر من ثلث مجموع الثروة، فقد أكدت نصوص المعصومين على جواز الوصية فى الثلث، و حظرت ما زاد على ذلك ۴۹۸].

من هنا لو وصّى شخص بتوزيع كل ثروته على غير الورثة الشرعيين، فلا تصح وصيته، و على الوصى أن يقلل إلى حدّ الثلث.

۲- إذا كان فى الوصية ما يؤدى إلى الظلم و الإثم، كالوصية بإعانة مراكز الفساد، أو الوصية بترك واجب من الواجبات.

۳- إذا أدت الوصية إلى حدوث نزاع و فساد و سفك دماء، و هنا يجب تعديل الوصية بإشراف الحاكم الشرعى.

عبرت الآية «بالجنف» عن الانحرافات التى تصيب الموصى فى وصيته عن سهو، و «بالإثم» عن الانحرافات العمدية.

عبارة إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ تشير إلى ما قد يقع فيه الوصى من خطأ غير عمدى عند ما يعدّل الوصية المنحرفة، و تقول: إن اللّه يعفو عن مثل هذا الخطأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۴

بحوث

۱- فلسفة الوصية

الإرث يوزع حسب القانون الإسلامى بنسب معينة على عدد محدود من الأقارب، و قد يكون بين الأقارب و الأصدقاء و المعارف من له حاجة ماسة إلى المال، و لكن لا سهم له فى قانون الإرث. و قد يكون بين الورثة من له حاجة أكبر إلى المال من بقية الورثة.

من هنا وضع الإسلام قانون الوصية إلى جانب قانون الإرث، و أجاز للمسلم أن يتصرّف فى ثلث أمواله (بعد الوفاة) بالشكل الذى يرشد لملء هذا الفراغ.

أضف إلى ما سبق، قد يرغب إنسان أن يعمل بعد مماته الخيرات التى ما أتيح له أن يعملها فى حياته، و منطق العقل يفرض أن لا يحرم هذا الشخص من مثل هذا العمل الخيرى.

الوصية غير محصورة بالموارد المذكورة طبعا، بل على الإنسان أن يشخّص فى وصيته ما لديه من أمانات و ما عليه من ديون و أمثالها، حتى لا يبقى فى أمواله شيء مبهم من حقوق النّاس و حقوق اللّه.

النصوص الإسلامية أكّدت على ضرورة الوصية كثيرا، من ذلك

ما روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلم: «ما ينبغى لامرئ مسلم أن يبيت ليلة إلّا و وصيّته تحت رأسه»

[۴۹۹] و المقصود بوضع الوصية تحت الرأس إعدادها و تهيئتها طبعا.

و فى رواية اخرى: «من مات بغير وصيّة مات ميتة جاهليّة»

[۵۰۰].

۲- العدالة فى الوصية

فى الروايات الإسلامية تأكيد وافر على «عدم الجور» و «عدم الضرار» فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۵

الوصية، يستفاد منها جميعا أنّ تعدى الحدود الشرعية المنطقية فى الوصية عمل مذموم و من كبائر الذنوب.

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من عدل فى وصيّته كان كمن تصدّق بها فى حياته، و من جار فى وصيّته لقى اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة و هو عنه معرض»

[۵۰۱].

و الجور فى الوصية هو الوصية بأكثر من الثلث، و حرمان الورثة من حقهم المشروع، أو التمييز بين الورثة بسبب عواطف شخصية سطحية. و أوصت النصوص الإسلامية أيضا بعدم الوصية بالثلث إن كان الورثة فقراء محتاجين، و تقليل النسبة إلى الربع و إلى الخمس ۵۰۲].

موضوع العدالة فى الوصية يبلغ درجة من الأهمية نراها فى هذه

الرواية: «أنّ رجلا من الأنصار توفى و له صبية صغار و له ستّة من الرّقيق فأعتقهم عند موته و ليس له مال غيرهم فلمّا علم النّبىّ صلّى اللّه عليه و اله و سلّم سأل قومه ما صنعتم بصاحبكم قالوا دفنّاه قال: أما إنّى لو علمته ما تركتكم تدفنونه مع أهل الإسلام ترك ولده صغارا يتكفّفون النّاس»[۵۰۳].

۳- الوصايا الواجبة و المستحبة

الوصية و إن كانت مستحبة بطبيعة حالها- كما أشرنا إليه- و لكن قد تكون واجبة لأمور طارئة، مثل أن يكون على الإنسان حقوق واجبة للناس أو للّه قصّر فى أدائها، أو كانت عنده أمانات و ديون أو مثل ذلك بحيث لو لم يوص احتمل ضياع حقوق النّاس بذلك، و أهم من الكل أن يكون للإنسان مكانة خاصة فى المجتمع لو لم يوص لمن بعده وقعت اضطرابات و أمور مؤسفة ففى جميع هذه الصور تجب الوصيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۶

۴- الوصية قابلة للتغيير خلال الحياة

القوانين الإسلامية أجازت للموصى أن يعيد النظر فى وصيته ما دام على قيد الحياة. و جواز هذا التغيير يشمل الوصى و كيفية الوصية. ذلك لأن مرور الزمان قد يغيّر نظرات الموصى، و يغير المصالح المرتبطة بالوصية.

۵- جدير بالذكر أن الإنسان ينبغى أن يجعل وصيته وسيلة لتلافى ما مضى من تقصير، و أن يتودّد بها إلى من جفاه من أقاربه أيضا. و فى الروايات أن قادة الإسلام كانوا يوصون خاصة لمن جفاهم من أقاربهم و يخصصون لهم مبلغا من المال، كى يعيدوا ما انقطع من أواصر الودّ، و يحررون عبيدهم، أو يوصون بتحريرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۷

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۸۳ الى ۱۸۵]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۸۳) أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۴) شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۸۵)

التّفسير

الصوم مدرسة التّقوى

فى سياق طرح مجموعة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآيات أحكام واحدة من أهم العبادات، و هى عبادة الصوم، و بلهجة مفعمة بالتأكيد قالت الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۸

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

ثم تذكر الآية مباشرة فلسفة هذه العبادة التربوية، فى عبارة قليلة الألفاظ، عميقة المحتوى، و تقول: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

نعم، الصوم- كما سيأتى شرح ذلك- عامل فعّال لتربية روح التقوى فى جميع المجالات و الأبعاد.

لما كانت هذه العبادة مقرونة بمعاناة و صبر على ترك اللذائذ المادية، و خاصة فى فصل الصيف، فإن الآية طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعة لتهيّئ روح الإنسان لقبول هذا الحكم.

تبتدئ الآية أولا بأسلوب خطابى و تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و هو نداء يفتح شغاف القلب، و يرفع معنويات الإنسان، و يشحذ همته، و فيه لذة

قال عنها الإمام الصادق عليه السّلام: «لذّة ما فى النّداء- أى يا ايّها الّذين آمنوا- أزال تعب العبادة و العناء» [۵۰۴].

ثمّ تبيّن الآية أن الصوم فريضة كتبت أيضا على الأمم السابقة.

ثم تبيّن الآية فلسفة الصوم و ما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العبادة محبوبة ملتصقة بالنفس.

الآية التالية تتجه أيضا إلى التخفيف من تعب الصوم و تقول:

أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فالفريضة لا تحتل إلّا مساحة صغيرة من أيّام السنة.

ثم تقول فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، فالمريض و المسافر معفوان من الصوم، و عليهما أن يقضيا صومهما فى أيّام اخرى.

ثم تصدر الآية عفوا عن الطّاعنين فى السنّ، و عن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، و ترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۱۹

وَ عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ [۵۰۵] ثم يقول الآية فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۵۰۶] أى من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له.

و أخيرا تبين الآية حقيقة هى: وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

استدل بعض بهذه الآية على أن الصوم كان فى بداية التشريع واجبا تخييريا، و كان المسلمون مخيرين بين الصوم و الفدية، ثم نسخ هذا الحكم بعد أن تعوّد المسلمون على الصوم و أصبح واجبا عينيّا، و لكن ظاهر الآية يدلّ على تأكيد آخر على فلسفة الصوم، و على أن هذه العبادة- كسائر العبادات- لا تزيد اللّه عظمة أو جلالا، بل تعود كل فوائدها على النّاس.

الشاهد على ذلك ما جاء فى القرآن من تعبير مشابه لذلك، كقوله سبحانه بعد ذكر وجوب صلاة الجمعة: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۵۰۷].

و قوله تعالى: وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۵۰۸].

بهذا تبين أن عبارة وَ أَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ موجهة إلى كل الصائمين لا إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۰

مجموعة خاصة.

آخر آية فى بحثنا تتحدث عن زمان الصوم و بعض أحكامه و معطياته تقول:

شَهْرُ رَمَضانَ هو الشهر الذى فرض فيه الصيام.

و هو الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدىً لِلنَّاسِ وَ بَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَ الْفُرْقانِ أى معيار معرفة الحق و الباطل.

ثم تؤكد ثانية حكم المسافر و المريض و تقول: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، وَ مَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ[۵۰۹].

تكرار حكم المسافر و المريض فى هذه الآية و الآية السابقة، قد يكون سبب كراهية بعض المسلمين أن لا يصوموا أيام شهر رمضان حتى و لو كانوا مرضى أو مسافرين. و القرآن بهذا التكرار يفهم المسلمين أن الصوم فى حالة السلام و الحضر حكم إلهى، و الإفطار فى حال السفر و المرض حكم إلهى أيضا لا تجوز مخالفته.

و فى آخر الآية إشارة اخرى إلى فلسفة تشريع الصوم، تقول: يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَ لا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ. فالصوم- و إن كان على الظاهر نوعا من التضييق و التحديد- مؤدّاه راحة الإنسان و نفعه على الصعيدين المادى و المعنوى، (و سيأتى تفصيل ذلك فى بحث فلسفة الصوم).

و لعل هذه العبارة إشارة إلى أن الأوامر الإلهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففى الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم، لذلك رفع تكليف الصوم- على أهميته- عن المريض و المسافر و الضعيف.

ثم تقول الآية: وَ لِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ أى يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهرا، فذلك ضرورى لتربية جسمه و نفسه. لذلك وجب على المريض و المسافر أن يقضى ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدّة، و حتى الحائض- التى أعفيت من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۱

قضاء الصلاة- غير معفوّة عن قضاء الصوم.

و العبارة الأخيرة من الآية تقول: وَ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ لتكبروه على ما وفّر لكم من سبل الهداية، و لتشكروه على ما أنعم عليكم.

الشكر فى الآية مسبوق بكلمة «لعلّ»، لكن التكبير مؤكد بشكل قاطع غير مسبوق بترجّ. و قد يعود الاختلاف فى التعبير إلى أن عبادة (الصوم) هى على كل حال تكبير للّه و تعظيم له سبحانه، أما الشكر- و هو إنفاق النعم فى مواضعها و الاستفادة من الآثار العملية للصوم- فله شروط أهمها الإخلاص التام، و فهم حقيقة الصوم، و الاطلاع على أبعاده و أعماقه.

بحوث

۱- الآثار التّربوية و الاجتماعية و الصحّيّة للصوم

للصوم أبعاد متعددة و آثار غزيرة مادية و معنوية فى وجود الإنسان، و أهمها البعد الأخلاقى، التّربوى.

من فوائد الصوم الهامة «تلطيف» روح الإنسان، و «تقوية» إرادته، و «تعديل» غرائزه.

على الصائم أن يكف عن الطعام و الشراب على الرغم من جوعه و عطشه، و هكذا عليه أن يكف عن ممارسة العمل الجنسى، ليثبت عمليا أنه ليس بالحيوان الأسير بين المعلف و المضجع، و أنه يستطيع أن يسيطر على نفسه الجامحة و على أهوائه و شهواته.

الأثر الروحى و المعنوى للصوم يشكل أعظم جانب من فلسفة هذه العبادة.

مثل الإنسان الذى يعيش إلى جوار أنواع الأطعمة و الأشربة، لا يكاد يحس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۲

بجوع أو عطش حتى يمدّ يده إلى ما لذّ و طاب كمثل شجرة تعيش إلى جوار نهر وفير المياه، ما إن ينقطع عنها الماء يوما حتى تذبل و تصفرّ.

أما الأشجار التى تنبت بين الصخور و فى الصحارى المقفرة، و تتعرض منذ أوائل إنباتها إلى الرياح العاتية، و حرارة الشمس المحرقة حينا، و برودة الجوّ القارصة حينا آخر، و تواجه دائما أنواع التحديات، فإنها أشجار قوية صلبة مقاومة.

و الصوم له مثل هذا الأثر فى نفس الإنسان، فبهذه القيود المؤقتة يمنحه القدرة و قوة الإرادة و عزيمة الكفاح، كما يبعث فى نفسه النور و الصفاء بعد أن يسيطر على غرائزه الجامحة.

بعبارة موجزة: الصوم يرفع الإنسان من عالم البهيمية إلى عالم الملائكة و عبارة لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ تشير إلى هذه الحقائق.

و هكذا

الحديث المعروف: «الصّوم جنّة من النّار»

[۵۱۰] يشير إلى هذه الحقائق.

و عن على عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنه سئل عن طريق مجابهة الشيطان، قال:

«الصّوم يسوّد وجهه، و الصّدقة تكسر ظهره، و الحبّ فى اللّه و المواظبة على العمل الصّالح يقطع دابره، و الاستغفار يقطع وتينه»

[۵۱۱].

و فى نهج البلاغة عرض لفلسفة العبادات، و فيه يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «و الصّيام ابتلاء لإخلاص الخلق»

[۵۱۲].

و روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ للجنّة بابا يدّعى الرّيّان، لا يدخل فيها إلّا الصّائمون».

يقول المرحوم الصدوق فى «معانى الأخبار» معلقا على هذا الحديث: إنما سمى هذا الباب بالريّان لأن مشقة الصائم إنما تكون فى الأغلب من العطش،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۳

و عند ما يدخل الصائمون من هذا الباب يرتوون حتى لا يظمأوا بعده أبدا[۵۱۳].

الأثر الاجتماعى للصوم لا يخفى على أحد. فالصوم درس المساواة بين أفراد المجتمع. الموسرون يحسّون بما يعانيه الفقراء المعسرون، و عن طريق الاقتصاد فى استهلاك المواد الغذائية يستطيعون أن يهبوا لمساعدتهم.

قد يمكن تحسيس الأغنياء بما يعانيه الفقراء عن طريق الكلام و الخطابة، لكن المسألة حين تتخذ طابعا حسّيّا عينيّا لها التأثير الأقوى و الأبلغ. الصوم يمنح هذه المسألة الهامة الاجتماعية لونا حسيا، لذلك

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب عن سؤال بشأن علّة الصوم: «إنّما فرض اللّه الصّيام ليستوى به الغنىّ و الفقير، و ذلك إنّ الغنىّ لم يكن ليجد مسّ الجوع فيرحم الفقير، و إنّ الغنىّ كلّما أراد شيئا قدر عليه فأراد اللّه تعالى أن يسوّى بين خلقه، و أن يذيق الغنىّ مسّ الجوع و الألم، ليرقّ على الضّعيف و يرحم الجائع»

[۵۱۴].

ترى، لو أن الدول الغنية فى العالم صامت عدّة أيّام فى السنة و ذاقت مرارة الجوع، فهل يبقى فى العالم كل هذه الشعوب الجائعة؟!

الآثار الصحية للصوم

أهمیة «الإمساک» فی علاج أنواع الأمراض ثابتة فی الطب القدیم و الحدیث.

البحوث الطبیة لا تخلو عادة من الحدیث عن هذه المسألة، لأن العامل فی کثیر من الأمراض الإسراف فی تناول الأطعمة المختلفة. المواد الغذائیة الزائدة تتراکم فی الجسم علی شکل مواد دهنیة، و تدخل هی و المواد السکریة فی الدم، و هذه المواد الزائدة وسط صالح لتکاثر أنواع المیکروبات و الأمراض، و فی هذه الحالة یکون الإمساک أفضل طریق لمکافحة هذه الأمراض، و للقضاء علی هذه المزابل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۴

المتراکمة فی الجسم.

الصوم یحرق الفضلات و القمامات المتراکمة فی الجسم، و هو فی الواقع عملیة تطهیر شاملة للبدن، إضافة إلی أنه استراحة مناسبة لجهاز الهضم و تنظیف له، و هذه الاستراحة ضروریة لهذا الجهاز الحساس للغایة، و المنهمک فی العمل طوال أیام السنة.

بدیهی أن الصائم ینبغی أن لا یکثر من الطعام عند «الإفطار» و «السّحور» حسب تعالیم الإسلام، کی تتحقق الآثار الصحیة لهذه العبادة، و إلّا فقد تکون النتیجة معکوسة.

العالم الروسی «الکسی سوفورین» یقول فی کتابه:

«الصوم سبیل ناجح فی علاج أمراض فقر الدم، و ضعف الأمعاء، و الالتهابات البسیطة و المزمنة، و الدمامل الداخلیة و الخارجیة، و السل، و الاسکلیروز، و الروماتیزم، و النقرس و الاستسقاء، و عرق النساء، و الخراز (تناثر الجلد)، و أمراض العین، و مرض السکر، و أمراض الکلیة، و الکبد و الأمراض الاخری.

العلاج عن طریق الإمساک لا یقتصر علی الأمراض المذکورة، بل یشمل الأمراض المرتبطة بأصول جسم الإنسان و خلایاه مثل السرطان و السفلیس، و السل و الطاعون أیضا»[۵۱۵].

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «صوموا تصحّوا»

[۵۱۶].

و عنه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أیضا: «المعدة بیت کلّ داء و الحمیّة رأس کلّ دواء»

[۵۱۷].

۲- الصوم فی الأمم السابقة

یظهر من النصوص الموجودة فی التوراة و الإنجیل، أن الصوم کان موجودا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۵

بین الیهود و النصاری، و کانت الأمم الاخری تصوم فی أحزانها و مآسیها، فقد ورد فی «قاموس الکتاب المقدس»: «الصوم بشکل عام و فی جمیع الأوقات کان متداولا فی أوقات الأحزان و النوائب بین جمیع الطوائف و الملل و المذاهب»[۵۱۸].

و یظهر من التوراة أن موسی علیه السّلام صام أربعین یوما، فقد جاء فیها: «أقمت فی الجبل أربعین نهارا و أربعین لیلة لا آکل خبزا و لا أشرب ماء»[۵۱۹].

و کان الیهود یصومون لدی التوبة و التضرع إلی اللّه: «الیهود کانوا یصومون غالبا حینما تتاح لهم الفرصة للإعراب عن عجزهم و تواضعهم أمام اللّه، لیعترفوا بذنوبهم عن طریق الصوم و التوبة، و لیحصلوا علی رضا حضرة القدس الإلهی»[۵۲۰].

«الصوم الأعظم مع الکفارة کان علی ما یبدو خاصا بیوم من أیام السنة بین طائفة الیهود، طبعا کانت هناک أیام اخری مؤقتة للصوم بمناسبة ذکری تخریب أورشلیم و غیرها»[۵۲۱].

السید المسیح علیه السّلام صام أیضا أربعین یوما کما یظهر من «الإنجیل»: «ثم اصعد یسوع إلی البریة من الروح لیجرّب من إبلیس فبعد ما صام أربعین نهارا و أربعین لیلة جاع أخیرا»[۵۲۲].

و یبدو من نصوص إنجیل «لوقا» أن حواریّی السید المسیح صاموا أیضا[۵۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱ ؛ ص۵۲۵

جاء فی قاموس الکتاب المقدس أیضا: «... من هنا کانت حیاة الحواریین و المؤمنین مملوءة بالابتعاد عن اللذات و بالأتعاب و بالصوم»[۵۲۴].

بهذا نستطیع أن نجد فی نصوص الکتب الدینیة القدیمة (حتی بعد تحریفها) شواهد علی ما جاء فی القرآن الکریم کَما کُتِبَ عَلَی الَّذِینَ مِنْ قَبْلِکُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۶

۳- امتیاز شهر رمضان

هذا الشهر- إنما اختیر شهرا للصوم- لأنه یمتاز عن بقیة الشهور. و القرآن الکریم بیّن مزیة هذا الشهر فی الآیة الکریمة بأنه الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ أی القرآن الذی یفصل الصالح عن الطالح و یضمن سعادة البشریة. و فی الروایات الإسلامیة أن کل الکتب السماویة: «التوراة» و «الإنجیل» و «الزبور» و «الصحف» و «القرآن» نزلت فی هذا الشهر[۵۲۵]. فهو إذن شهر تربیة و تعلیم، لأن التربیة غیر ممکنة دون تعلیم صحیح، و منهج الصوم التربوی یجب أن یکون مرافقا لوعی عمیق منطلق من تعالیم السماء لتطهیر الإنسان من کل أثم.

فی آخر جمعة من شهر شعبان، ألقی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم خطبة أعدّ فیها المسلمین لاستقبال شهر رمضان المبارک قال فیها:

«أیّها النّاس إنّه قد أقبل إلیکم شهر اللّه بالبرکة و الرّحمة و المغفرة، شهر هو عند اللّه أفضل الشّهور، و أیّامه أفضل الأیّام، و لیالیه أفضل اللّیالی، و ساعاته أفضل السّاعات، هو شهر دعیتم فیه إلی ضیافة اللّه، و جعلتم فیه من أهل کرامة اللّه. أنفاسکم فیه تسبیح، و نومکم فیه عبادة، و عملکم فیه مقبول، و دعاؤکم فیه مستجاب فاسألوا اللّه ربّکم بنیّات صادقة، و قلوب طاهرة أن یوفّقکم لصیامه و تلاوة کتابه، فإنّ الشّقیّ من حرم غفران اللّه فی هذا الشّهر العظیم، و اذکروا بجوعکم و عطشکم فیه جوع یوم القیامة و عطشه، و تصدّقوا علی فقرائکم و مساکینکم، و وقّروا کبارکم، و ارحموا صغارکم، و صلوا أرحامکم، و احفظوا ألسنتکم، و غضّوا عمّا لا یحلّ النّظر إلیه أبصارکم، و عمّا لا یحلّ الاستماع إلیه أسماعکم، و تحنّنوا علی أیتام النّاس یتحنّن علی أیتامکم ...»

[۵۲۶].

۴- قاعدة «لا حرج»

آیات بحثنا فیها إشارة إلی أن اللّه یرید بالنّاس الیسر و لا یرید بهم العسر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۲۷

و هـذه الإشارة تـدور طبعا هنا حول موضوع الصوم و فوائـده و حكم المسافر و المريض، لكن أسـلوبها العام يجعلها قاعدة تشـمل كل الأحكام الإسلامية، و يصيّر منها سندا لقاعدة «لا حرج» المعروفة.

هـذه القاعـدة تقول: لا تقوم قوانين الإسـلام على المشـقة، و إن أدّى حكم إسـلامى إلى حرج و مشـقة، فإنه يرفع عنه مؤقتا، و لـذلك أجاز الفقهاء التيمّم لمن يشق عليه الوضوء، و الصلاة جلوسا لمن يشق عليه الوقوف.

و فى موضع آخر من القرآن الكريم، يقول سبحانه: هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۵۲۷].

و عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «بعثت على الشّريعة السّمحة السّهلة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۶]

اشارة

وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

سأل رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن اللّه سبحانه، أهو قريب ليناجيه بصوت خفى أم بعيد ليدعوه بصوت مرتفع؟ فنزلت الآية[۵۲۸].

التّفسير

سلاح اسـمه الدعاء بعد أن ذكرت الآيات السابقة مجموعة هامّة من الأحكام الإسلامية، تناولت هذه الآية موضوع الدعاء باعتباره أحد وسائل الارتباط بين العباد و المعبود سـبحانه. و مجيء هـذه الآيـة فى سـياق الحديث عن الصوم، يعطيه مفهوما جديدا، إذ أن الدعاء و التقرب إلى اللّه روح كل عبادة.

هذه الآية تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تقول: وَ إِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۲۹

إنه أقرب ممّا تتصورون، أقرب منكم إليكم، بل وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[۵۲۹].

ثم تقول الآية: أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ

إذن فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي، وَ لْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ

و يلفت النظر فى الآيـة، أن اللّه سـبحانه أشار إلى ذاته المقدسة سـبع مرات، و أشار إلى عباده سـبعا! مجسدا بذلك غاية لطفه و قربه و ارتباطه بعباده.

روى عبد اللّه بن سنان عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «الدّعاء يردّ القضاء بعد ما أبرم إبراما فأكثر من الدّعاء فإنّه مفتاح كلّ رحمة و نجاح كلّ حاجة و لا ينال ما عند اللّه عزّ و جلّ إلّا بالدّعاء و إنّه ليس باب يكثر قرعه إلّا يوشك أن يفتح لصاحبه»[۵۳۰].

نعم، إنه قريب منّا، و كيف يبتعد و هو سبحانه يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ ۵۳۱].

بحوث

۱- فلسفة الدعاء

أولئك الجاهلون بحقيقة الدعاء و آثاره التربويّة و النفسية، يطلقون أنواع التشكيك بشأن الدعاء.

يقولون: الدعاء عامل مخدّر، لأنه يصرف النّاس عن الفعّالية و النشاط و عن تطوير الحياة، و يدفعهم بدلا من ذلك إلى التوسّل بعوامل غيبية.

و يقولون: إن الدعاء تدخّل فى شؤون اللّه، و اللّه يفعل ما يريد، و فعله منسجم مع مصالحنا، فما الداعى إلى الطلب منه و التضرّع إليه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۰

و يقولون أيضا: إنّ الدعاء يتعارض مع حالة الإنسان الراضى بقضاء اللّه المستسلم لإرادته سبحانه! هؤلاء- كما ذكرنا- يطلقون هذا التشكيك لجهلهم بالآثار التربوية و النفسية و الاجتماعية للدعاء، فالإنسان بحاجة أحيانا إلى الملجأ الذى يلوذ به فى الشدائد، و الدعاء يضىء نور الأمل فى نفس الإنسان.

من يبتعد عن الدعاء يواجه صدمات عنيفة نفسية و اجتماعية. و على حد تعبير أحد علماء النفس المعروفين:

«ابتعاد الامّة عن الدعاء يعنى سقوط تلك الامّة! المجتمع الذى قمع فى نفسه روح الحاجة إلى الدعاء سوف لا يبقى مصونا عادة من الفساد و الزوال.

و من نافلة القول أنه من العبث الاكتفاء بالدعاء لدى الصباح و قضاء بقية اليوم كالوحش الكاسر، لا بدّ من مواصلة الدعاء، و من اليقظة المستمرة، كى لا يزول أثره العميق من نفس الإنسان».[۵۳۲] و أولئك الذين يصفون الدعاء بأنه تخديرى لم يفهموا معنى الدعاء، لأن الدعاء لا يعنى ترك العلل و الوسائل الطبيعية و اللجوء بدلها إلى الدعاء، بل المقصود أن نبذل نهاية جهدنا للاستفادة من كل الوسائل الموجودة، بعد ذلك إن انسدت أمامنا الطرق، و أعيتنا الوسيلة، نلجأ إلى الدعاء، و بهذا اللجوء إلى اللّه يحيى فى أنفسنا روح الأمل و الحركة، و نستمد من عون المبدأ الكبير سبحانه.

الدعاء إذن لا يحل محل العوامل الطبيعية.

«الدعاء- إضافة إلى قدرته فى بث الطمأنينة فى النفس- يؤدى إلى نوع من النشاط الدماغى فى الإنسان، و إلى نوع من الإنشراح و الانبساط الباطنى و أحيانا إلى تصعيد روح البطولة و الشجاعة فيه. الدعاء يتجلى بخصائص مشخصة فريدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۱

... صفاء النظرة، و قوة الشخصية، و الإنشراح و السرور، و الثقة بالنفس، و الاستعداد للهداية، و استقبال الحوادث بصدر رحب، كل هذه مظاهر لكنز عظيم دفين فى نفوسنا. و انطلاقا من هذه القوّة يستطيع حتى الأفراد المتخلفون أن يستثمروا طاقاتهم العقلية و الأخلاقية بشكل أفضل، و أكثر. لكن الأفراد الذين يفهمون الدعاء حق فهمه قليلون جدا- مع الأسف- فى عالمنا اليوم»[۵۳۳].

ممّا تقدم نفهم الرد على من يقول أن الدعاء يخالف روح الرضا و التسليم، لأن الدعاء- كما ذكرنا- نوع من كسب القابلية على تحصيل سهم أكبر من فيض اللّه اللامتناهى.

بعبارة اخرى: الإنسان ينال بالدعاء لياقة أكبر للحصول على فيض البارى تعالى. و واضح أن السعى للتكامل و لكسب مزيد من اللياقة هو عين التسليم أمام قوانين الخليقة، لا عكس ذلك.

أضف إلى ذلك، الدعاء نوع من العبادة و الخضوع و الطاعة، و الإنسان- عن طريق الدعاء- يزداد ارتباطا باللّه تعالى، و كما أن كلّ العبادات ذات أثر تربوى كذلك الدّعاء له مثل هذا الأثر.

و القائلون أن الدعاء تدخّل فى أمر اللّه و أن اللّه يفعل ما يشاء، لا يفهمون أن المواهب الإلهية تغدق على الإنسان حسب استعداده و

کفاءته و لیاقته، و کلّما ازداد استعداده ازداد ما یناله من مواهب.

لذلک

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ عند اللّه عزّ و جلّ منزلة لا تنال إلّا بمسألة»

[۵۳۴].

و یقول أحد العلماء: «حینما ندعو فإننا نربط أنفسنا بقوة لا متناهیة تربط جمیع الکائنات مع بعضها»[۵۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۲

و یقول: «إنّ أحدث العلوم الإنسانیة- أعنی علم النفس- یعلّمنا نفس تعالیم الأنبیاء، لماذا؟ لأن أطباء النفسانیین أدرکوا أن الدعاء و الصلاة و الإیمان القوی بالدین یزیل عوامل القلق و الاضطراب و الخوف و الهیجان الباعثة علی أکثر أمراضنا»[۵۳۶].

۲- المفهوم الحقیقی للدعاء

علمنا أنّ الدعاء إنّما یکون فیما خرج عن دائرة قدرتنا، بعبارة اخری الدعاء المستجاب هو ما صدر لدی الاضطرار و بعد بذل کل الجهود و الطاقات أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ[۵۳۷]. یتضح من ذلک أن مفهوم الدعاء طلب تهیئة الأسباب و العوامل الخارجة عن دائرة قدرة الإنسان، و هذا الطلب یتجه به الإنسان إلی من قدرته لا متناهیة و من یهون علیه کل أمر.

هذا الطلب طبعا یجب أن لا یصدر من لسان الإنسان فقط، بل من جمیع وجوده، و اللسان ترجمان جمیع ذرات وجود الإنسان و أعضائه و جوارحه.

یرتبط القلب و الروح باللّه عن طریق الدعاء ارتباطا وثیقا، و یکتسبان القدرة عن طریق اتصالهما المعنوی بالمبدأ الکبیر، کما تتصل القطرة من الماء بالبحر الواسع العظیم.

جدیر بالذکر أن هناک نوعا آخر من الدعاء یردّده المؤمن حتی فیما اقتدر علیه من الأمور، لیعبّر به عن عدم استقلال قدرته عن قدرة الباری تعالی، و لیؤکد أن العلل و العوامل الطبیعیة إنما هی منه سبحانه، و تحت إمرته. فإن بحثنا عن الدواء لشفاء دائنا، فإنّما نبحث عنه لأنّه سبحانه أودع فی الدواء خاصیة الشفاء (هذا نوع آخر من الدعاء أشارت إلیه الروایات الإسلامیة أیضا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱، ص: ۵۳۳

بعبارة موجزة: الدعاء نوع من التوعیة و إیقاظ القلب و العقل، و ارتباط داخلی بمبدإ کل لطف و إحسان، لذلک نری

أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام یقول: «لا یقبل اللّه عزّ و جلّ دعاء قلب لاه»

[۵۳۸].

و عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ لا یستجیب دعاء بظهر قلب ساه»

[۵۳۹].

۳- شروط استجابة الدعاء

دراسة شروط استجابة الدعاء توضّح لنا کثیرا من الحقائق الغامضة فی مسألة الدعاء، و تبین لنا آثاره البناءة، و الروایات الإسلامیة تذکر شروطا لاستجابة الدعاء منها:

۱- ینبغی لمن یدعو أن یسعی أولا لتطهیر قلبه و روحه، و أن یتوب من الذنب، و أن یقتدی بحیاة قادة البشریة الإلهیین.

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إیّاکم أن یسأل أحدکم ربّه شیئا من حوائج الدّنیا و الاخرة حتّی یبدأ بالثّناء علی اللّه، و المدحة له و الصّلاة علی النّبی و آله، و الاعتراف بالذّنب، ثمّ المسألة»

[۵۴۰].

۲- أن یسعی الداعی إلی تطهیر أمواله من کل غصب و ظلم، و أن لا یکون طعامه من حرام.

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «من أحبّ أن یستجاب دعاؤه فلیطب مطعمه و مکسبه»

[۵۴۱].

۳- أن لا یفترق الدعاء عن الجهاد المستمرّ ضدّ کل ألوان الفساد، لأنّ اللّه لا یستجیب ممن ترک الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، عن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «لتأمرنّ بالمعروف و لتنهنّ عن المنکر، أو لیسلّطنّ اللّه شرارکم علی خیارکم فیدعو خیارکم فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۴

یستجاب لهم»

[۵۴۲].

ترک هذه الفریضة الإلهیة (فریضة المراقبة الاجتماعیة) یؤدی إلی خلوّ الساحة الاجتماعیة من الصالحین، و ترکها للمفسدین، و عند ذاک لا أثر للدعاء، لأن هذا الوضع الفاسد نتیجة حتمیة لأعمال الإنسان نفسه.

۴- العمل بالمواثیق الإلهیة، الإیمان و العمل الصالح و الأمانة و الصلاح من شروط استجابة الدعاء، فمن لم یف بعهده أمام بارئه لا ینبغی أن یتوقع من اللّه استجابة دعائه.

جاء رجل إلی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، و شکا له عدم استجابة دعائه، فقال الإمام:

«إنّ قلوبکم خانت بثمان خصال:

أوّلها: إنّکم عرفتم اللّه فلم تؤدّوا حقّه کما أوجب علیکم، فما أغنت عنکم معرفتکم شیئا.

و الثانیة: إنّکم آمنتم برسوله ثمّ خالفتم سنّته، و أمتّم شریعته فأین ثمرة إیمانکم؟! و الثّالثة: إنّکم قرأتم کتابه المنزل علیکم فلم تعملوا به، و قلتم سمعنا و أطعنا ثمّ خالفتم! و الرّابعة: إنّکم قلتم تخافون من النّار، و أنتم فی کلّ وقت تقدمون إلیها بمعاصیکم فأین خوفکم؟! و الخامسة: إنّکم قلتم ترغبون فی الجنّة، و أنتم فی کلّ وقت تفعلون ما یباعدکم منها فأین رغبتکم فیها؟

و السّادسة: إنّکم أکلتم نعمة المولی فلم تشکروا علیها! و السّابعة: إنّ اللّه أمرکم بعداوة الشّیطان، و قال: إِنَّ الشَّیْطانَ لَکُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا، فعادیتموه بلا قول، و والیتموه بلا مخالفة.

و الثّامنة: إنّکم جعلتم عیوب النّاس نصب أعینکم و عیوبکم وراء ظهورکم تلومون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۵

من أنتم أحقّ باللوم منه فأیّ دعاء یستجاب لکم مع هذا، و قد سددتم أبوابه و طرقه؟ فاتّقوا اللّه و أصلحوا أعمالکم و أخلصوا سرائرکم و أمروا بالمعروف و انهوا عن المنکر فیستجیب اللّه لکم دعاءکم»

[۵۴۳].

هذا الحدیث یقول بصراحة: إن وعد اللّه باستجابة الدعاء وعد مشروط لا مطلق. مشروط بتنفیذ المواثیق الإلهیة، و إن عمل الإنسان بهذه المواثیق الثمانیة المذکورة فله أن یتوقع استجابة الدعاء، و إلّا فلا.

العمل بالأمور الثمانیة المذکورة باعتبارها شروطا لاستجابة الدعاء کاف لتربیة الإنسان و لاستثمار طاقاته علی طریق مثمر بنّاء.

۵- من الشروط الاخرى لاستجابة الدعاء العمل و السعى،

عن على عليه السّلام: «الدّاعى بلا عمل كالرّامى بلا وتر»[۵۴۴].

الوتر بحركته يدفع السهم نحو الهدف، و هكذا دور العمل فى الدعاء.

من مجموع شروط الدعاء المذكورة نفهم أن الدعاء لا يغنينا عن التوسل بالعوامل الطبيعية، بل أكثر من ذلك يدفعنا إلى توفير شروط استجابة الدعاء فى أنفسنا، و يحدث بذلك تغييرا كبيرا فى حياة الإنسان و تجديدا لمسيرته، و إصلاحا لنواقصه.

أليس من الجهل أن يصف شخص الدعاء بهذا المنظار الإسلامى أنه مخدّر؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۷]

اشارة

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إِلى نِسائِكُمْ هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

روى أن الأكل كان محرّما فى شهر رمضان بالليل بعد النوم، و كان النكاح حراما بالليل و النهار فى شهر رمضان. و كان رجل من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يقال له مطعم بن جبير شيخا ضعيفا، و كان صائما، فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر، فلما انتبه قال لأهله: قد حرّم علىّ الأكل فى هذه الليلة.

فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمى عليه، فرآه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فرقّ له.

و كان قوم من الشباب ينكحون بالليل سرّا فى شهر رمضان، فأنزل اللّه هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۷

الآية فأحلّ النّكاح بالليل فى شهر رمضان، و الأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر[۵۴۵].

التّفسير

رخصة فى أحكام الصّوم

مرّ بنا فى سبب نزول الآية أن النكاح كان محرّما فى ليالى شهر رمضان إضافة إلى نهاره، و أن الأكل و الشرب كانا محرمين فى الليل أيضا بعد النوم، و لعل ذلك كان اختبارا للجيل الإسلامى الأوّل و إعدادا له كى يتقبل أحكام الصوم الثابتة.

الآية الكريمة تتضمن أربعة أحكام إسلامية فى حقل الصوم و الاعتكاف.

تقول أولا: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ ۵۴۶] إِلى نِسائِكُمْ

ثم تذكر الآية سبب الحكم فتقول: هُنَّ لِباسٌ لَكَمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ، لَهُنَ

و اللباس يحفظ الجسم من الحر و البرد و أنواع الأخطار من جهة، و يستر عيوب الجسم من جهة اخرى، أضف إلى أنه زينة للإنسان، و تشبيه الزوج باللباس يشمل كل هذه الجوانب.

الزوجان يحفظ كل منهما الآخر من الانحراف و العيوب، و يوفّر كل منهما سبل الراحة و الطمأنينة للآخر، و كل منهما زينة للآخر.

هـذا التعبير يوضّـح غايـة الارتباط المعنوى بين الرجل و المرأة و مساواتهما فى هـذا المجال، فالتعبير جاء للرجل كما جاء للمرأة بدون تغيير.

ثم يبين القرآن سبب تغيير هذا القانون الإلهى و يقول: عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتابَ عَلَيْكُمْ وَ عَفا عَنْكُمْ

فاللّه سبحانه وسّع عليكم الأمر و خفّفه، و جعل فيه رخصة بلطفه و رحمته، كى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۸

لا تتلوثوا بالذنوب.

فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ

و هذا الأمر لا يعنى طبعا الوجوب، بل هو رخصة بعد المنع، أو هو بتعبير الأصوليين «الأمر عقيب الخطر»، و يدل على الجواز.

عبارة وَ ابْتَغُوا ما كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ إشارة إلى أن الاستفادة من هذه الرخصة الكائنة فى مسير قوانين الخلقة و حفظ النظام و بقاء النسل لا مانع فيها.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الثانى و تقول: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ.

للمسلم- إذن- أن يأكل و يشرب فى الليل، حتى إذا طلع الفجر يمسك.

و تبين الآية الحكم الثالث: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إِلَى اللَّيْلِ

هـذه الجملة تأكيد على حظر الأكل و الشرب و النكاح فى أيّام شـهر رمضان للصائمين، و تشـير إلى أن الحظر يبدأ من طلوع الفجر و ينتهى عند الليل.

تطرح الآية بعد ذلك الحكم الرّابع و تقول: وَ لا تُباشِرُوهُنَّ وَ أَنْتُمْ عاكِفُونَ فِي الْمَساجِدِ.

هـذا الحكم يرتبـط بالاعتكـاف، و هو شبيه بالاسـتثناء من الحكم السـابق، ففى الاعتكـاف الـذى لا تقلّ مـدّته عن ثلاثـة أيّام، لا يحق للمعتكف الصائم أن يباشر زوجته لا فى الليل و لا فى النهار.

فى ختـام الآيـة عبـارة تشـير إلى كـل مـا ورد فيها من أحكام تقول: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها لأن الاقتراب من الحـدود يبعث على الوسوسة، و قد يدفع الإنسان إلى تجاوز الحدود و الوقوع فى الذنب.

نعم، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۳۹

بحوث

۱- الحدود الإلهية:

بعـد أن ذكرت الآيـة الكريمة بعض أحكام الصوم و الاعتكاف، عبّرت عن هذه الأحكام بالحدود الإلهية، و هى الحدود بين الحلال و الحرام ... بين الممنوع و المباح. و من الملفت للنظر أن الآية لم تقل لا تتجاوزوا هذه الحدود، بل قالت:

فَلا تَقْرَبُوها، لأن الاقتراب منها يؤدى إلى إثارة الوساوس، و قد يؤدى أحيانا إلى تجاوز هذه الحدود.

لـذلك نهى الإسـلام عن الولوج فى منـاطق تؤدى إلى انزلاـق الإنسـان فى المحرمـات، كالنهى مثلا عن الاشتراك فى مجالس شـرب الخمر حتى مع عدم التلوث بالخمرة، أو النهى عن الاختلاء بالمرأة الأجنبية.

هذا النهى ورد فى النصوص الإسلامية تحت عنوان «حماية الحمى».

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ حمى اللّه محارمه، فمن يرتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه» [۵۴۷].

من هنا فالمتقون لا يجنّبون أنفسهم الوقوع فى المحرمات فحسب، بل يسعون إلى عدم الاقتراب من حافّة الحرام.

۲- الاعتكاف:

العكوف و الاعتكاف أصـله اللزوم، يقال: عكفت بالمكان، أى أقمت به ملازما له، و هو فى الشـرع اللبث فى المساجـد للعبادة، و أقلّه ثلاثة أيّام يصوم خلالها المعتكف و يكفّ عن بعض المباحات.

هـذه العبـادة لهـا الأثر العميق على تصـفية الروح و القرب من اللّه، و ذكرت كتب الفقه آدابها و شـروطها، هـذه العبادة مسـتحبة، و قد تتخذ أحيانا فى ظروف استثنائية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱، ص: ۵۴۰

طـابع الوجوب. فى الآيـة التى نبحث فيهـا ورد ذكر أحـد شـروط الاعتكـاف و هو حظر النكـاح ليلاـ و نهـارا، و هـذه الإشـارة جـاءت لارتباطها بمسألة الصوم.

۳- طلوع الفجر:

الفجر فى الأصل شقّ الشىء شقا واسعا، و سمّى الصبح فجرا لأنه فجر الليل.

و عبّرت الآية عن الفجر أيضا بأسلوب حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ. و من الظريف

أن «عدى بن حاتم» قال للنبى: إنى وضـعت خيطين من شـعر أبيض و أسود فكنت أنظر فيهما فلا يتبين لى، فضـحك رسول اللّه صـلّى اللّه عليـه و الـه و سـلّم حـتى رؤيـت نواجـذه ثم قـال: «يـا ابن حـاتم إنّمـا ذلـك بيـاض النّهـار و سـواد اللّيـل فابتـداء الصّـوم من هـذا الوقت»[۵۴۸].

و هـذا التعبير يوضّـح أيضا الفرق بين الصـبح الصادق و الصـبح الكاذب: لأنّ الفجر فجران: الفجر الكاذب و هو على شـكل عمود من الضوء يظهر فى السـماء كـذنب السـرحان (الثعلب)، و بعده يظهر الفجر الصادق و هو بياض شـفّاف أفقى يظهر فى أفق السـماء كخيط أبيض يظهر إلى جوار الخيط الأسود. و هذا هو الصبح الصادق و به يتعلق حكم الصوم و الصلاة. و لا يشبه الفجر الكاذب.

۴- التقوى، هى الأـوّل و الآـخر: فى أوّل آيـة ترتبـط بأحكـام الصوم ورد ذكر التقوى على أنها الهـدف النهائى للصوم، و فى آخر آية أيضـا وردت عبـارة لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ و هـذا يؤكـد أن كل مناهـج الإسـلام وسـيلة لتربيـة الروح و التقوى و الفضـيلة و الإرادة و الإحساس بالمسؤولية.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين

[۱] (۱، ۲)- مجمع البیان، و نور الثقلین، مقدمة سورة الحمد.

[۲] (۱، ۲)- مجمع البیان، و نور الثقلین، مقدمة سورة الحمد.

[۳] (۱)- مجمع البیان، بدایة سورة الحمد.

[۴] (۲)- سیأتی تفسیر« سبعا من المثانی» فی ذیل الآیة المذکورة. انظر: المجلد الثامن من هذا التّفسیر، ذیل الآیة ۸۷ من سورة« الحجر».

[۵] (۳)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۲۶، نقلا عن تفسیر البیان.

[۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴.

[۷] (۱)- عیون أخبار الرضا، نقلا عن المیزان، ج ۱، ص ۳۷.

[۸] (۱)- تاریخ القرآن، أبو عبد اللّه الزنجانی، ص ۴۴.

[۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۱۵.

[۱۰] (۳)- منتخب کنز العمال، ج ۲، ص ۵۲.

[۱۱] (۴)- صحیح البخاری، ج ۶، ص ۱۰۲.

[۱۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۶، باب ۵۸. نقلا عن تفسیر البیان، ج ۱، ص ۴۶۱.

[۱۳] (۲)- بحار الأنوار، مجلد ۹۲، باب ۲۹، ص ۲۴۲.

[۱۴] (۳)- المیزان، ج ۱، ص ۲۱.

[۱۵] (۴)- العلق، ۱.

[۱۶] (۵)- هود، ۴۱.

[۱۷] (۱)- هود، ۴۸.

[۱۸] (۲)- النمل، ۳۰.

[۱۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۲، الباب ۲۹، ص ۲۴۱ و ۲۴۲.

[۲۰] (۲)- نفس المصدر، ص ۲۴۰.

[۲۱] (۱)- تفسیر المنار، ج ۱، ص ۳۹- ۴۰.

[۲۲] (۱)- الکافی، ج ۳، ص ۳۱۲.

[۲۳] (۲)- الإتقان، مجلد ۱، ص ۱۳۶. نقلا عن البیان، ص ۴۴۱.

[۲۴] (۳)- البیهقی، ج ۲، ص ۵۰.

[۲۵] (۱)- البیهقی، ج ۲، ص ۴۹. و الحاکم فی المستدرک، ج ۱، ص ۲۳۳.

[۲۶] (۲)- ذهب بعضهم إلی أنّ(الاسم) من(السمة) علی وزن(الهبة) من مادة(وسم) أی وضع علامة. لان الاسم علامة المعنی. و لکن أکثر علماء اللغة رفضوا هذا الاشتقاق، لأنه من الواضح أن الجذور الاصلیة للکلمة تظهر عند الجمع و التصغیر فالواو لا تظهر فی الجمع و التصغیر(کما تظهر فی المثال الواوی عادة) فنقول فی الجمع أسماء، فی التصغیر، سمّی، و سمیّة فهو إذن ناقص واوی لا مثال واوی.

[۲۷] (۱)- الحشر، ۲۳.

[۲۸] (۲)- الأحزاب، ۴۳.

[۲۹] (۱)- الکافی، و توحید الصدوق، و معانی الأخبار(نقلا عن المیزان).

[۳۰] (۲)- التوبة، ۱۲۸.

[۳۱] (۳)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۱.

[۳۲] (۴)- نفس المصدر.

[۳۳] (۱)- الأعراف، ۱۵۶.

[۳۴] (۲)- المؤمن، ۷.

[۳۵] (۳)- یونس، ۸۶.

[۳۶] (۴)- الأعراف، ۷۲.

[۳۷] (۵)- المائدة، ۱۱۴.

[۳۸] (۶)- المؤمنون، ۲۹.

[۳۹] (۷)- الأنبیاء، ۸۹.

[۴۰] (۱)- دعاء الجوشن الکبیر، الفقرة، ۲۰.

[۴۱] (۱)-« الشکر»، من وجهة نظر اخری أوسع إطارا، لأنّ الشکر یؤدی بالقول أحیانا و بالعمل اخری. أمّا الحمد و المدح فبالقول غالبا.

[۴۲] (۱)- السجدة، ۷.

[۴۳] (۲)- هود، ۶.

[۴۴] (۳)- یونس، ۱۰.

[۴۵] (۴)- قاموس اللغة، و مفردات الراغب، و تفسیر مجمع البیان، و تفسیر البیان.

[۴۶] (۵)- لا بدّ من الالتفات إلی أن(رب) من مادة(ربب)، لا من(ربو)، أی إنه مضاعف لا ناقص.

[۴۷] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۵۱.

[۴۸] (۲)- الفرقان، ۱.

[۴۹] (۳)- الجاثیة، ۳۶.

[۵۰] (۴)- الشعراء، ۲۳ و ۲۴.

[۵۱] (۵)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۷.

[۵۲] (۱)- أعلام قرآن، ص ۲۰۲.

[۵۳] (۲)- تاریخ« آلبرماله»، ج ۱، الفصل الرابع.

[۵۴] (۳)- التوبة، ۳۱.

[۵۵] (۱)- الزمر، ۵۳.

[۵۶] (۱)- الانفطار، ۱۹.

[۵۷] (۲)- المؤمن، ۱۶.

[۵۸] (۱)- لقمان، ۲۵.

[۵۹] (۲)- سبأ، ۷ و ۸.

[۶۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۹.

[۶۱] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة: مالک یوم الدین.

[۶۲] (۱)- الأنعام، ۱۶۲.

[۶۳] (۱)- طه، ۱۱۴.

[۶۴] (۲)- مریم، ۷۶.

[۶۵] (۳)- محمّد، ۱۷.

[۶۶] (۴)- معانی الاخبار، و تفسیر الإمام الحسن العسکری، نقلا عن تفسیر الصافی ذیل الآیة المذکورة.

[۶۷] (۵)- معانی الاخبار، و تفسیر الإمام الحسن العسکری، نقلا عن تفسیر الصافی.

[۶۸] (۱)- الأنعام، ۱۶۱.

[۶۹] (۲)- یس، ۶۱ و ۶۲.

[۷۰] (۳)- آل عمران، ۱۰۱.

[۷۱] (۴)- آل عمران، ۱۹.

[۷۲] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۳] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۴] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۵] (۱، ۲، ۳، ۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۰ و ۲۱.

[۷۶] (۱)- النساء، ۶۹.

[۷۷] (۱)- النحل، ۱۰۶.

[۷۸] (۲)- الفتح، ۶.

[۷۹] (۳)- آل عمران، ۱۱۲.

[۸۰] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۳ و ۲۴.

[۸۱] (۲)- هود، ۱۹.

[۸۲] (۳)- الشوری، ۱۶.

[۸۳] (۱، ۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۶. و مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۲.

[۸۴] (۱، ۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۶. و مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۲.

[۸۵] (۱)- الإسراء، ۸۸.

[۸۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۴.

[۸۷] (۱)- توحید الصدوق، ص ۱۶۲، ط سنة ۱۳۷۵ ه. ق ..

[۸۸] (۲)- هود، ۱- ۲.

[۸۹] (۳)- النمل، ۱- ۲.

[۹۰] (۴)- لقمان، ۱- ۲.

[۹۱] (۵)- الأعراف، ۱- ۲.

[۹۲] (۱)- لقمان، ۲.

[۹۳] (۱)- ص ۲۹.

[۹۴] (۲)- راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیة ۳۹ من سورة الرعد.

[۹۵] (۳)- طه، ۵۰.

[۹۶] (۴)- الأنبیاء، ۷۳.

[۹۷] (۱)- الحشر، ۲۲.

[۹۸] (۱)- نقلا عن:« محمّد و القرآن».

[۹۹] (۱)- بشأن أهمیة الصلاة و آثارها التربویة الکبری، راجع تفسیر الآیة ۱۱۴ من سورة هود(فی المجلد السابع من هذا التّفسیر).

[۱۰۰] (۱)- راجع بشأن الإنفاق و أهمیته و آثاره، المجلد الثانی من هذا التّفسیر، ذیل الآیات ۲۶۱- ۲۷۴ من سورة البقرة.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البیان، و نور الثقلین، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۱۰۲] (۱)- ص، ۲۶.

[۱۰۳] (۲)- صاحب« المنار» یصر علی أن تکرار کلمة« أولئک» فی الآیة یفید الإشارة إلی مجموعتین: الاولی- أولئک الذین یتصفون بالإیمان بالغیب، و بإقامة الصلاة، و بالإنفاق. و الثانیة- هم المؤمنون بالوحی السماوی و بالاخرة. نحن نستبعد کثیرا هذا التّفسیر، لأن الصفات الخمس المذکورة مترابطة لا یمکن التفکیک بینها، و کلها تصف مجموعة واحدة.

[۱۰۴] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: الوقایة حفظ الشیء ممّا یؤذیه و یضرّه، و التقوی جعل النفس فی وقایة ممّا یخاف، لذلک یسمی الخوف تارة تقوی بینما الخوف سبب للتقوی. و فی عرف الشرع، التقوی حفظ النفس عمّا یؤثم. و« کمال التقوی» اجتناب المشتبهات.

[۱۰۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

[۱۰۶] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۱۰۷] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱، ص ۶۲.

[۱۰۸] (۲)- الحجرات، ۱۴.

[۱۰۹] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۳۰.

[۱۱۰] (۱)- النساء، ۱۵۵.

[۱۱۱] (۱)- المؤمن، ۳۵.

[۱۱۲] (۲)- الجاثیة، ۲۳.

[۱۱۳] (۳)- الأنفال، ۲۹.

[۱۱۴] (۱)- المطففین، ۱۴.

[۱۱۵] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب الذنوب، ح ۲۰، ص ۲۰۹.

[۱۱۶] (۲)- ق، ۳۷.

[۱۱۷] (۳)- الأحزاب، ۱۰.

[۱۱۸] (۴)- الأنفال، ۱۲.

[۱۱۹] (۵)- آل عمران، ۱۵۹.

[۱۲۰] (۱)- الجاثیة، ۲۳.

[۱۲۱] (۱)- یعمهون، من« العمه» أی التردّد فی الأمر، و أیضا بمعنی عمی القلب و البصیرة بسبب التحیّر(راجع: مفردات الراغب، و تفسیر المنار، و قاموس اللغة).

[۱۲۲] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۰۵.

[۱۲۳] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، مادة(رئی).

[۱۲۴] (۳)- ننقل نص الخطبة مع هوامشها کما جاءت فی نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، ص ۳۸۱(م).

[۱۲۵] (۴)- الزالون من زلّ أخطأ. و المزلون من أزله إذا أوقعه فی الخطأ.

[۱۲۶] (۵)- یفتنون أی یأخذون فی فنون من القول لا یذهبون مذهبا واحدا. و یعمدونکم أی یقیمونکم بکل عماد. و العماد: ما یقام علیه البناء. أی إذا ملتم عن أهوائهم أقاموکم علیها بأعمدة من الخدیعة حتی توافقوهم.

و المرصاد محل الارتقاب. و یرصدونکم: یقعدون لکم بکل طریق لیحوّلوکم عن الاستقامة.

[۱۲۷] (۱)- دویّة أی مریضة من الدّوی بالقصر و هو المرض. و الصفاح- جمع صفحة: و المراد منها صفاح وجوههم، و نقاوتها: صفاؤها من علامات العداوة و قلوبهم ملتهبة بنارها.

[۱۲۸] (۲)- یمشون مشی التستّر. و یدبون: أی یمشون علی هیئة دبیب الضراء، أی یسرون سریان المرض فی الجسم أو سریان النقص فی الأموال و الأنفس و الثمرات.

[۱۲۹] (۳)- الداء العیاء- بالفتح: الّذی أعیی الأطباء و لا یمکن منه الشفاء.

[۱۳۰] (۴)- حسدة: جمع حاسد، أی یحسدون علی السعة، و إذا نزل بلاء بأحد أکدوه و زادوه. و إذا رجی أحد شیئا أوقعوه فی القنوط و الیأس.

[۱۳۱] (۵)- الصریع: المطروح علی الأرض، أی إنّهم کثیرا ما خدعوا أشخاصا حتی أوقعوهم فی الهلکة.

[۱۳۲] (۶)- الشجو: الحزن، أی یبکون تصنّعا متی أرادوا.

[۱۳۳] (۷)- یتقارضون: کل واحد منهم یثنی علی الآخر لیثنی الآخر علیه، کأنّ کلا منهم یسلف الآخر دینا لیؤدیه إلیه، و کل یعمل للآخر عملا یرتقب جزاءه علیه.

[۱۳۴] (۸)- ألحفوا: بالغوا فی السؤال و ألحوا. و إن عذلوا أی لاموا، کشفوا أی فضحوا من یلومونه.

[۱۳۵] (۱)- التوبة، ۷۹.

[۱۳۶] (۲)- المنافقون، ۷.

[۱۳۷] (۳)- المنافقون، ۸.

[۱۳۸] (۱)- الصف، ۱۰ و ۱۱.

[۱۳۹] (۱)- المنافقون، ۱ و ۲.

[۱۴۰] (۱)- الحشر، ۱۱ و ۱۲.

[۱۴۱] (۱)- یونس، ۵.

[۱۴۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۳۶.

[۱۴۳] (۱)- التوبة، ۶۴.

[۱۴۴] (۱)- الأحزاب، ۶۰- ۶۱.

[۱۴۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۱.

[۱۴۶] (۲)- الأنبیاء، ۳۲.

[۱۴۷] (۱)- تذکر کثیر من الکتب أن سمک الجوّ المحیط بالأرض یبلغ مائة کیلومتر، و یبدو أن المقصود بهذا السمک هو الطبقة الجویة الکثیفة، لأن العلم الحدیث أثبت أن الهواء موجود بشکل رقیق متباعد الجزئیات علی بعد مئات الکیلومترات.

[۱۴۸] (۱)- بحار الأنوار، ط الجدید، ج ۳، ص ۱۱۱.

[۱۴۹] (۲)- النحل، ۷۹.

[۱۵۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۱.

[۱۵۱] (۱)- فی ظلال القرآن، سید قطب، ج ۱، ص ۵۳.

[۱۵۲] (۱)- یوسف، ۱۰۶.

[۱۵۳] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۶۹۷.

[۱۵۴] (۱)- ذهب بعض المفسرین إلی أن الضمیر فی(مثله) یعود علی النّبی کما یعود الضمیر فی(عبدنا) علیه أیضا.

و یصبح المعنی حینئذ: لو کنتم فی شک من الوحی فأتوا بشخص أمّی مثل محمّد یستطیع أن یأتی بمثل هذا القرآن. لکن هذا الاحتمال بعید، إذ ورد فی موضوع آخر\:i فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ E الطور، ۳۴، و فی موضع آخر أیضا\i فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ E یونس، ۳۸، و هذه دلالة علی أن الضمیر فی(مثله) یعود علی القرآن.

[۱۵۵] (۱)- الأنبیاء، ۹۸.

[۱۵۶] (۱)- الهمزة، ۶ و ۷.

[۱۵۷] (۱)- الاسراء، ۸۸.

[۱۵۸] (۱)- هود، ۱۳ و ۱۴.

[۱۵۹] (۲)- یونس، ۳۸.

[۱۶۰] (۱)- إعجاز القرآن، الرافعی.

[۱۶۱] (۲)- نقلا عن کتاب« إعجاز القرآن» للخطیب، ج ۱، ص ۴۸۳.

[۱۶۲] (۱)- رسالة الغفران، ص ۲۶۳.

[۱۶۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، سورة المدثر.

[۱۶۴] (۳)- من مقدمة کتاب« التنظیمات الحضاریة فی الإمبراطوریة الإسلامیة».

[۱۶۵] (۴)- نفس المصدر، ص ۱۱۱.

[۱۶۶] (۱)- نفس المصدر، ص ۹۱.

[۱۶۷] (۲)- عن کتاب« الاعتذار إلی محمّد و القرآن».

[۱۶۸] (۳)- المعجزة الخالدة.

[۱۶۹] (۱)- تقدم الإسلام السریع« نقلا عن محمّد و القرآن ...».

[۱۷۰] (۱)- فی بحث« استعمال اللفظ فی أکثر من معنی» أثبتنا إمکان هذه الأمر.

[۱۷۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۴، ص ۱۹.

[۱۷۲] (۲)- التوبة، ۷۲.

[۱۷۳] (۳)- البیّنة، ۸.

[۱۷۴] (۱)- جمع من المفسرین قالوا: إن عبارة\i يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً\ ...E لیس حکایة عن لسان المشرکین، بل هو حدیث اللّه.

و یکون المعنی بذلک« أن اللّه یجیب علی هؤلاء المعترضین الذین قالوا\:i ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا\E؟ و یقول سبحانه: إن اللّه یضل به کثیرا و یهدی به کثیرا، و لکن لا یضل إلا الفاسقین».(أما التّفسیر الأول فیبدو أنه أصح).

[۱۷۵] (۱)- حول دور الأمثال فی حیاة البشر، راجع الآیة ۱۷ من سورة الرعد فی المجلد السابع من هذا التّفسیر.

[۱۷۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۷۲.

[۱۷۷] (۲)- نهج البلاغة، شرح محمّد عبده، الخطبة ۱۸۶، ص ۲۷۵.

[۱۷۸] (۱)- الأنفال، ۲۹.

[۱۷۹] (۲)- الروم، ۱۰.

[۱۸۰] (۳)- الصف، ۵.

[۱۸۱] (۱)- یس، ۶۰ و ۶۱.

[۱۸۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۵، لمزید من التوضیح فی هذا المجال راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر ذیل الآیة ۲۱ من سورة الرعد.

[۱۸۳] (۱)- سفینة البحار(مادة رحم).

[۱۸۴] (۲)- سفینة البحار(مادة رحم).

[۱۸۵] (۳)- محمّد، ۲۲.

[۱۸۶] (۱)- الملک، ۲.

[۱۸۷] (۱)- الأنعام، ۳۶.

[۱۸۸] (۱)- الجاثیة، ۱۳.

[۱۸۹] (۲)- هناک دراسة أو فی لهذا المفهوم فی الجزء السابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیة ۲ من سورة الرعد، و ذیل الآیتین ۳۲ و ۳۳ من سورة إبراهیم.

[۱۹۰] (۳)- إبراهیم، ۳۲.

[۱۹۱] (۴)- إبراهیم، ۳۲.

[۱۹۲] (۵)- إبراهیم، ۳۳.

[۱۹۳] (۶)- الجاثیة، ۱۲.

[۱۹۴] (۷)- إبراهیم، ۳۳.

[۱۹۵] (۱)- موضوع« الرجعة» لا یعارض هذا المفهوم، لأنه محدود بعدد خاص من الأشخاص، و لیس بقانون عام.

و الآیة المذکورة تتحدث عن قضیة عامة.

[۱۹۶] (۲)- درسنا هذه المسألة فی« عود الأرواح و الارتباط بالأرواح».

[۱۹۷] (۱)- إبراهیم، ۲۴.

[۱۹۸] (۲)- ق، ۹.

[۱۹۹] (۳)- الأنبیاء، ۳۲.

[۲۰۰] (۴)- فصلت، ۱۱.

[۲۰۱] (۵)- منهم من قسّم کرات المنظومة الشمسیة العشر(تسع سیارات معروفة إضافة سیارة کانت موجودة بین المریخ و المشتری، ثم تهشمت و ظلت بقایاها تدور فی نفس المدار) إلی مجموعتین: مجموعة تحت مدار الأرض(عطارد و الزهرة) و مجموعة خارج مدار الأرض و فوقه، و هی سبع سیارات. و لعلهم بهذا أرادوا تفسیر السماوات السبع بالکرات السبع الخارجیة.(تأمل بدقة).

[۲۰۲] (۱)- لقمان، ۲۷.

[۲۰۳] (۲)- فصلت، ۱۲.

[۲۰۴] (۳)- الصافات، ۶.

[۲۰۵] (۱)- نقلا عن مجلة« فضاء» العدد ۵۶، فروردین ۱۳۵۱.

[۲۰۶] (۱)-« المیزان» ج ۱، ص ۱۲۱. نقلا عن معانی الأخبار، و هذا الحدیث و إن کان یوضح أکثر مکانة الأنبیاء و الأئمة- لا ینحصر بهذه الصفوة المقدسة بل إنهم المصداق الأتم و الأکمل لهذا الموضوع.

[۲۰۷] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۱۱۹.

[۲۰۸] (۱)- الرحمن، ۴.

[۲۰۹] (۱)- یوسف، ۴.

[۲۱۰] (۱)- إلی هذا أشار أیضا الآلوسی فی روح المعانی، و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر.

[۲۱۱] (۲)- الکهف، ۵۰.

[۲۱۲] (۱)- راجع المجلد الرابع من هذا التّفسیر.

[۲۱۳] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۱۲۵.

[۲۱۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۵۸.

[۲۱۵] (۲)- الرغد علی وزن الصمد یعنی الکثیر و الواسع و الهنیء، و عبارة« حیث شئتما» تعنی: من أی مکان شئتما فی الجنّة، أو من أی نوع شئتم من فاکهة الجنّة.

[۲۱۶] (۱)- الأعراف، ۲۰ و ۲۱.

[۲۱۷] (۲)- مرجع الضمیر فی« عنها» إمّا أن یعود علی« الجنّة» و یکون معنی« ممّا کانا فیه» فی هذه الحالة: من مقامهما الذی کانا فیه. و إمّا أن یعود علی« الشّجرة» فیکون معنی الآیة: إن الشیطان أزلهما بوسیلة الشّجرة، و أخرجهما من الجنّة التی کانا فیها.

[۲۱۸] (۱)- کتاب الکافی، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲.

[۲۱۹] (۱)- لمزید من التوضیح فی هذا المجال، راجع المجلد الرابع من هذا التّفسیر، ذیل الآیات(۱۹- ۲۲) من سورة الأعراف، و المجلد العاشر ذیل الآیة(۱۲۱) من سورة طه.

[۲۲۰] (۱)- المائدة، ۹۱.

[۲۲۱] (۲)- الأنعام، ۱۱۲.

[۲۲۲] (۳)- کتاب الکافی، ج ۶، کتاب الأطعمة و الأشربة، باب الأوانی.

[۲۲۳] (۴)- کتاب الکافی، ج ۶، کتاب الأطعمة و الأشربة، باب الأوانی.

[۲۲۴] (۵)- کتاب الکافی، ج ۶، ص ۴۸۷، ح ۱۱.

[۲۲۵] (۱)- و لذلک، توبة العبد تتعدی بحرف الجر(إلی)، و توبة اللّه تتعدی ب(علی)، فیقال فی الاولی« تاب إلیه» و فی الثانیة« تاب علیه»، راجع التّفسیر الکبیر للفخر الرازی و تفسیر الصافی، ذیل آیات بحثنا.

[۲۲۶] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات التی نحن بصددها.

[۲۲۷] (۲)- الأنبیاء، ۸۷.

[۲۲۸] (۳)- القصص، ۱۶.

[۲۲۹] (۱)- البقرة، ۸۳ و ۸۴.

[۲۳۰] (۱)- المائدة، ۱۲.

[۲۳۱] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الأول الصفحة ۷۲.

[۲۳۲] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۵۳ و ۹۵۷.

[۲۳۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، المجلد الأول ذیل الآیة.

[۲۳۴] (۱)- المنار، ج ۲، ص ۲۹۳، و مفردات الراغب، مادة« قوم».

[۲۳۵] (۱)- الصافات، ۱۰۵.

[۲۳۶] (۲)- الأعراف، ۱۵۷.

[۲۳۷] (۱)- نقلا باختصار عن« الهدایة الثانیة» مقدمة کتاب« أنیس الأعلام».

[۲۳۸] (۱)- سفینة البحار، مادة« عمل».

[۲۳۹] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۵.

[۲۴۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۴.

[۲۴۱] (۱)- یقول الراغب فی المفردات: الظن اسم لما یحصل عن أمارة متی قویت أدّت إلی العلم، و متی ضعفت جدا لم یتجاوز حدّ التوهم.

[۲۴۲] (۲)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۲، و المیزان، ج ۱، ص ۱۵۴. و تفسیر روح المعانی، ج ۱، ص ۲۲۸. و فی آیات اخری إشارة إلی هذا المعنی کقوله تعالی\:i فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً\E(الکهف، ۱۰).

[۲۴۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلام ۱۷۹.

[۲۴۴] (۱)- الطبرسی، مجمع البیان، ذیل الآیة المذکورة.

[۲۴۵] (۲)- نفس المصدر.

[۲۴۶] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۲۴۷] (۲)- الأعراف، ۱۳۷.

[۲۴۸] (۳)- الشعراء، ۸۸ و ۸۹.

[۲۴۹] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۶.

[۲۵۰] (۲)- المنار، ج ۱، ص ۳۰۶.

[۲۵۱] (۳)- المیزان، ج ۱، ص ۱۵۶.

[۲۵۲] (۱)- البقرة، ۲۵۴.

[۲۵۳] (۲)- البقرة، ۴۸.

[۲۵۴] (۳)- المدثر، ۴۸.

[۲۵۵] (۴)- السجدة، ۴.

[۲۵۶] (۵)- الزمر، ۴۴.

[۲۵۷] (۶)- البقرة، ۲۵۵.

[۲۵۸] (۷)- سبأ، ۲۳.

[۲۵۹] (۸)- الأنبیاء، ۲۸.

[۲۶۰] (۱)- مریم، ۸۷.

[۲۶۱] (۲)- غافر، ۱۸.

[۲۶۲] (۱)- النساء، ۶۴.

[۲۶۳] (۲)- یوسف، ۹۷ و ۹۸.

[۲۶۴] (۳)- المؤمن، ۷.

[۲۶۵] (۴)- الزخرف، ۸۶.

[۲۶۶] (۱)- تفسير البرهان، ج ۳، ص ۵۷.

[۲۶۷] (۲)- عن بحار الأنوار، ج ۳، ص ۳۰۴ الطبعة القديمة.

[۲۶۸] (۱)- الإختصاص، للمفيد، نقلا عن البحار، ج ۳، ص ۳۰۵.

[۲۶۹] (۲)- هو يحيى بن شرف، من علماء القرن السابع الهجرى، و النووى نسبة إلى مدينة« النوى» قرب دمشق.

[۲۷۰] (۳)- البحار، ج ۳، ص ۳۰۷.

[۲۷۱] (۱)- فتح المجيد، ص ۲۱۱.

[۲۷۲] (۲)- ينبغى الالتفات إلى أننا نعالج هذه المسألة من خلال المنطق الخاص لعلماء العقائد.

[۲۷۳] (۳)- نقلا عن البحار و كتب اخرى.

[۲۷۴] (۱)- الجن، ۱۸.

[۲۷۵] (۲)- كشف الشبهات لمحمّد بن عبد الوهاب، نقلا عن رسالة البراهين الجلية، ص ۱۷.

[۲۷۶] (۱)- يونس، ۳۱.

[۲۷۷] (۲)- يونس، ۱۸.

[۲۷۸] (۳)- العنكبوت، ۶۵.

[۲۷۹] (۴)- رسالة أربع قواعد، ص ۲۴- ۲۷ طبع المنار بمصر(نقلا عن كتاب كشف الارتياب، ص ۱۶۳).

[۲۸۰] (۵)- الهدية السنية، ص ۶۶(نقلا عن البراهين الجليّة، ص ۸۳).

[۲۸۱] (۱)- الجن، ۱۸.

[۲۸۲] (۱)- يوسف، ۹۷.

[۲۸۳] (۲)- ص، ۵.

[۲۸۴] (۳)- الشعراء، ۹۷ و ۹۸.

[۲۸۵] (۱)- زيارة أهل القبور، ص ۱۵۲، نقلا عن كشف الارتياب، ص ۲۶۸.

[۲۸۶] (۱)- يقال بلى الثوب أى خلق، و بلوته: اختبرته كأنى أخلقته من كثرة اختيارى له، و سمّى الغمّ بلاء من حيث إنه يبلى الجسم، و سمّى التكليف بلاء لأن التكاليف مشاقّ على الأبدان و لأنها اختبارات، و لأن اختبار اللّه تعالى للعباد تارة بالمسارّ ليشكروا و تارة بالمضار ليصبروا، فصارت المنحة و المحنة جميعا بلاء.(المفردات، مادة:

بلى).

[۲۸۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۵۱.

[۲۸۸] (۱)- راجع التفاصيل فى المجلد العاشر تفسير، الآية(۷۷) و ما بعدها من سورة طه.

[۲۸۹] (۱)- راجع المجلدين الثالث و الخامس من هذا التّفسير.

[۲۹۰] (۲)- ذهب صاحب المنار، إلى أن المقصود بالبعث بعد الموت، منح الذرية الكثيرة لبنى إسرائيل كى لا ينقطع نسلهم، و قال الآلوسى فى« روح المعانى» إن الموت هنا يعنى الغيبوبة، و البعث يعنى صحوة بنى إسرائيل من غيبوبتهم، و راح بعض يفسّر الموت بالجهل، و البعث بالتعليم.

و لكن هذه المعانى كلها بعيدة عن هذه الآية و الآيات المشابهة لها فى سورة الأعراف، و لا تليق بمفسر ينشد فهم الحقيقة.

[۲۹۱] (۱)- المائدة، ۲۴.

[۲۹۲] (۲)- المائدة، ۲۵.

[۲۹۳] (۱)- المفردات، للراغب الأصفهانی.

[۲۹۴] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۶۱۲.

[۲۹۵] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۸۳.

[۲۹۶] (۲)- الزمر، ۶.

[۲۹۷] (۳)- الواقعة، ۹۳.

[۲۹۸] (۴)- آل عمران، ۱۹۸.

[۲۹۹] (۱)- تفسیر« روح المعانی» فی تفسیر الآیة المذکورة، و المفردات مادة« غمّ».

[۳۰۰] (۱)- علی روایة أبی حیان الأندلسی، نقلا عن تفسیر« الکاشف».

[۳۰۱] (۲)- راجع حول معنی« الجز» الجزء الخامس من هذا التّفسیر.

[۳۰۲] (۱)- الفصل السابع عشر، العدد ۶ و ۵.

[۳۰۳] (۱)- المفردات، مادة عثی.

[۳۰۴] (۱)- التنوین فی کلمة(مصر) دلیل علی تنکیرها، و علی عدم اختصاصها بالأرض المعروفة.

[۳۰۵] (۲)- تفسیر المنار، ذیل الآیة المذکورة.

[۳۰۶] (۱)- فی ظلال القرآن.

[۳۰۷] (۱)- راجع:« قرآن بر فراز قرون و اعصار»،(فارسی)، ص ۱۱۲.

[۳۰۸] (۲)- تفسیر القرطبی.

[۳۰۹] (۱)- نحن إذ نکتب هذه السطور، تصلنا أنباء عما ارتکبه هؤلاء القوم فی لبنان، من أعمال قاسیة وحشیة ذهب ضحیتها الآلاف من المدنیّین العزل، خلال مجازر وحشیة. قلّ أن شهد لها التاریخ نظیرا. و سیدفع هؤلاء المجرمون الثمن غالیا لفعلتهم الشنعاء هذه\i، وَ سَیَعْلَمُ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَیَّ مُنْقَلَبٍ یَنْقَلِبُونَ E.

[۳۱۰] (۱)- آل عمران، ۸۵.

[۳۱۱] (۱)- المفردات، مادة صبا.

[۳۱۲] (۲)- الحج، ۱۷.

[۳۱۳] (۱)- راجع لمزید من التوضیح کتاب« آراء و عقائد بشری»(فارسی).

[۳۱۴] (۲)- الأنواء جمع نوء و هو النّجم مال للغروب، بلوغ الإرب جزء، ۲۶، ص ۲۲۲- ۲۲۸.

[۳۱۵] (۱)- بلوغ الإرب، ج ۲، ص ۲۲۳- ۲۲۵.

[۳۱۶] (۱)- مجمع البیان و تفاسیر اخری، ذیل الآیة ۱۷۱ من سورة الأعراف.

[۳۱۷] (۲)- المنار، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۱۸] (۱)- تفسیر أبی الرّازی و التّفسیر الکبیر للرّازی، ذیل الآیة التی نحن بصددها، و الآیة فی سورة الأعراف، ۱۷۱.

[۳۱۹] (۲)- رواه العیاشی، نقلا عن مجمع البیان.

[۳۲۰] (۱)- خسأ: طرد و زجر، و یستعمل لطرد الکلب، و للطرد المقرون بالاستهانة یقال: اخسأه.

[۳۲۱] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۲۲] (۱)- فی الفصل الحادی و العشرین من سفر التثنیة فی العهد القدیم وردت إشارة عابرة لهذه القصة. و ما ورد فی التوراة الحالیة لیس بسرد للحادثة و إنما إعطاء حکم من الأحکام، و هذا نص السفر المذکور من الجملة ۱ إلی ۹:

« إذا وجد قتیل فی الأرض التی یعطیک الرب إلهک لتمتلکها واقعا فی الحقل لا یعلم من قتله- یخرج شیوخک و قضاتک و یقیسون إلی المدن التی حول القتیل- فالمدینة القربی من القتیل یأخذ شیوخ تلک المدینة عجلة من البقر لم یحرث علیها لم تجر بالنیر- و ینحدر شیوخ تلک المدینة بالعجلة إلی واد دائم السیلان لم یحرث فیه و لم یزرع، و یکسرون عنق العجلة فی الوادی- ثم یتقدم الکهنة بنو لاوی لأنه إیاهم اختار الرب إلهک لیخدموه و یبارکوا باسم الرب و حسب قولهم تکون کل خصومة و کل ضربة- و یغسل جمیع شیوخ تلک المدینة القریبین من القتیل أیدیهم علی العجلة المکسورة العنق فی الوادی- و یصرحون و یقولون أیدینا لم تسفک هذا الدّم و أعیننا لم تبصر- اغفر لشعبک إسرائیل الذی فدیت یا رب و لا تجعل دم بریء فی وسط شعبک إسرائیل فیغفر لهم الدم- فتنزع الدم البریء من وسطک إذا عملت الصالح فی عینی الرب».

[۳۲۳] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۲۴] (۱)- هذه القصة تشیر إلی جواز نسخ الحکم قبل العمل وفق ما تقتضیه المصلحة، و تشیر أیضا إلی وجود النسخ فی دین موسی، کما تدل علی أن التکلیف قد یکون له طابع العقاب. و هذه مباحث سنطرحها فی محلها.

[۳۲۵] (۱)- تفسیر ابن کثیر، ج ۱.

[۳۲۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۸۸.

[۳۲۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۱۴۲.

[۳۲۸] (۱)- معنی« الأمّی» بحث بشکل أوفی فی تفسیر الآیة ۱۵۷ من سورة الأعراف، راجع المجلد الخامس.

[۳۲۹] (۲)- المائدة، ۱۸.

[۳۳۰] (۳)- آل عمران، ۲۴.

[۳۳۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۹۴، کتاب القضاء، باب ۱۰.

[۳۳۲] (۱)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، الآیة المذکورة.

[۳۳۳] (۲)- المیزان، الآیة المذکورة.

[۳۳۴] (۳)- النساء، ۴۸.

[۳۳۵] (۱)- فی تفسیر الآیة ۱۲۳ من سورة النساء بحثنا أیضا فی هذه الامتیازات الکاذبة(المجلد الثالث من هذا التّفسیر).

[۳۳۶] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۳۷] (۱)- المؤمنون، ۴۴.

[۳۳۸] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة الاولی.

[۳۳۹] (۳)- النحل، ۱۰۲.

[۳۴۰] (۱)- تفسیر المنار، ذیل الآیة المذکورة.

[۳۴۱] (۱)- النساء، ۱۵۵.

[۳۴۲] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة رقم ۴۵۶.

[۳۴۳] (۱)- مرّ بنا فی الآیتین(۵۱ و ۶۳) من هذه السّورة المبارکة موضوع میثاق بنی إسرائیل و خصائصه.

[۳۴۴] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۳۳۱.

[۳۴۵] (۲)- المیزان، ج ۱، ص ۲۳۰- المنار، ج ۱، ص ۳۹۰.

[۳۴۶] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة، مع شیء من الاختصار.

[۳۴۷] (۱)- التحریم، ۶.

[۳۴۸] (۲)- البقرة، ۹۸.

[۳۴۹] (۳)- المیزان، فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۳۵۰] (۱)- اسم« جبریل» ورد مرّتین فی هـذه الآیات و مرّة فی سورة التحریم الآیة(۴) و اسم میکال لم یرد إلّا فی هذا الموضوع من القرآن.

[۳۵۱] (۲)- أعلام القرآن، ص ۲۷۷ و ۶۲۹.

[۳۵۲] (۱)- أعلام القرآن، ص ۲۷۷ و ۶۲۹.

[۳۵۳] (۱)- مجمع البیان، و تفسیر القرطبی.

[۳۵۴] (۱)- سیرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۹۲. و مجمع البیان فی تفسیر الآیة، مع قلیل من الاختلاف.

[۳۵۵] (۱)- بعض المفسـرین عطفوا جملـة« مـا أنزل» علی« ما تتلوا» و علی هـذا الأساس فسـرنا الآیـة أعلاه، و بعضـهم عطفوها علی(السحر).

[۳۵۶] (۲)- الخلاق یعنی الخلق، و قد یعنی الحظّ و النصیب و هذا هو معنی الکلمة فی الآیة.

[۳۵۷] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة المذکورة. الوسائل، ج ۱۲، ص ۱۰۶- ۱۰۷.

[۳۵۸] (۲)- نفس المصدر.

[۳۵۹] (۱)- أعلام القرآن، ص ۶۵۵.

[۳۶۰] (۲)- نفس المصدر.

[۳۶۱] (۱)- مفردات الراغب، مادة سحر.

[۳۶۲] (۲)- طه، ۶۶.

[۳۶۳] (۳)- الأعراف، ۱۱۶.

[۳۶۴] (۱)- وسائل الشیعة، الباب ۲۵، من أبواب ما یکتسب به، حدیث ۷.

[۳۶۵] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۱۰۵، ح ۵.

[۳۶۶] (۳)- الکتاب المقدس سفر لاویین الإصحاح، ۱۹ الرقم ۳۱.

[۳۶۷] (۱)- الکتاب المقدس سفر لاویین الإصحاح ۲۰ الرقم ۶.

[۳۶۸] (۲)- قاموس الکتاب المقدس، تألیف المستر هاکس الإمریکی، ص ۴۷۱.

[۳۶۹] (۱)- تفسیر القرطبی، و تفسیر المنار و تفسیر الفخر الرازی، ذیل الآیة المذکورة.

[۳۷۰] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، و المنار، ذیل الآیة المذکورة.

[۳۷۱] (۱)- الدر المنثور، نقلا عن أبی نعیم فی« حلیة الأولیاء» عن ابن عباس.

[۳۷۲] (۱)- یحتمل أیضا أن تشیر الآیة إلی نسخ أحکام إسلامیة اخری، کما ذکر الفخر الرازی فی تفسیره، و سید قطب فی ظلاله.

[۳۷۳] (۱)- سفر التکوین، الفصل ۹، الفقرة ۳.

[۳۷۴] (۲)- البقرة، ۲۵۲.

[۳۷۵] (۳)- طه، ۲۲.

[۳۷۶] (۴)- الإسراء، ۱۲.

[۳۷۷] (۵)- فصلت، ۳۹.

[۳۷۸] (۱)- الشعراء، ۱۲۸.

[۳۷۹] (۲)- إن كانت بمعنى التأخير فهى من مادة(نسأ) و إن كانت بمعنى الحذف من الأذهان فهى من مادة(نسى).

[۳۸۰] (۱)- تفسير المنار، الآية المذكورة.

[۳۸۱] (۱)- واضح أن المقصود من« قالوا» ادعاء اليهود من جهة بأن الجنّة خاصة بهم، و ادعاء النصارى من جهة اخرى بأن الجنة حكر عليهم.

[۳۸۲] (۱)- تفسير مجمع البيان، و تفسير القرطبى، و تفسير المنار فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۸۳] (۱)- مجمع البيان، و الميزان فى تفسير الآية المذكورة.

[۳۸۴] (۲)- تفسير الفخر الرازى، الآية المذكورة.

[۳۸۵] (۱)- التوبة، ۱۸.

[۳۸۶] (۱)- الأعراف، ۱۳۷.

[۳۸۷] (۱)- التوبة، ۳۰.

[۳۸۸] (۲)- يونس، ۶۸.

[۳۸۹] (۱)- غافر، ۶۸.

[۳۹۰] (۱)- هذه المسألة بحثناها فى سورة الأنبياء، الآية ۲۶، المجلد العاشر من هذا التّفسير.

[۳۹۱] (۱)- المفردات، مادة بدع.

[۳۹۲] (۱)- راجع لمزيد من التوضيح كتاب: خالق العالم.

[۳۹۳] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، و تفسير الفخر الرازى(مع اختلاف بسيط).

[۳۹۴] (۱)- مجمع البيان، الآية المذكورة.

[۳۹۵] (۲)- تفسير أبى الفتوح الرازى، و مجمع البيان.

[۳۹۶] (۱)- الجمعة، ۵.

[۳۹۷] (۲)- المقصود من الأعشار و الأخماس تقسيمات القرآن.

[۳۹۸] (۳)- الميزان، نقلا عن إرشاد الديلمى.

[۳۹۹] (۱)- روى عن ابن عباس أنه استخرج اختبارات إبراهيم من أربع سور قرآنية فكانت ثلاثين موضعا(تفسير المنار، تفسير الآية المذكورة)، و خلاصتها ما ذكرناه.

[۴۰۰] (۱)- الأحزاب، ۴۳.

[۴۰۱] (۲)- السجدة، ۲۴.

[۴۰۲] (۱)- أصول الكافى، ج ۱، باب طبقات الأنبياء و الرسل و الأئمة، ص ۱۳۳.

[۴۰۳] (۱)- لقمان، ۱۳.

[۴۰۴] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، باب« طبقات الأنبياء و الرسل» حديث ۱.

[۴۰۵] (۳)- أمالى الشيخ المفيد، و مناقب ابن المغازلى، نقلا عن الميزان، تفسير الآية المذكورة.

[۴۰۶] (۱)- المنار، ج ۱، ص ۴۵۷- ۴۵۸.

[۴۰۷] (۱)- الصافات، ۱۰۵.

[۴۰۸] (۲)- النحل، ۱۲۲.

[۴۰۹] (۳)- النحل، ۱۲۰.

[۴۱۰] (۴)- مریم، ۴۱.

[۴۱۱] (۵)- التوبة، ۱۱۴.

[۴۱۲] (۶)- النجم، ۳۷.

[۴۱۳] (۱)- بشأن أمن أرض مکة لنا بحث آخر فی تفسیر الآیة ۳۵ من سورة إبراهیم.(راجع المجلد السابع من هذا التّفسیر).

[۴۱۴] (۱)- أی أن یطوفوا حوله.

[۴۱۵] (۲)- نهج البلاغة، صبحی صالح، ص ۲۹۲-(الخطبة القاصعة).

[۴۱۶] (۳)- صاحب المنار، ینکر هذا الموضوع بالمرة، و یری أن إبراهیم و إسماعیل أول من بنی الکعبة، و هذا ما لا تؤیّده الروایات و لا عبارات القرآن الکریم.

[۴۱۷] (۱)- الأنعام، ۷۹.

[۴۱۸] (۲)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۳۹.

[۴۱۹] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی، آیة البحث.

[۴۲۰] (۱)-« صبغة» منصوبة علی أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف أی(اصطبغوا) صبغة اللّه، أو أنّها بدل من« ملة إبراهیم» فی الآیات المتقدمة، أو مفعول به لفعل محذوف و التقدیر(اتبعوا صبغة اللّه) و اللّه أعلم!

[۴۲۱] (۱)- مجمع البیان، الآیة.

[۴۲۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۲.

[۴۲۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۲۳.

[۴۲۴] (۱)- المنار، تفسیر الآیة المذکورة.

[۴۲۵] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۴.

[۴۲۶] (۱)- من المفسرین من قال إن أحد معانی« شطر»: النصف، و من هنا فإن مفهوم« شطر المسجد الحرام» یساوی مفهوم« وسط المسجد الحرام» و نعلم أن الکعبة تقع وسط المسجد الحرام.(التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، الآیة المذکورة).

[۴۲۷] (۱)- المنار، ج ۲، و التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، فی تفسیر الآیة.

[۴۲۸] (۱)- أی یجتمعون کاجتماع قطع السحب الخریفیة لدی هبوب الریح.

[۴۲۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۳۹.

[۴۳۰] (۳)- مجمع البیان، الآیة.

[۴۳۱] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۳۳۱.

[۴۳۲] (۲)- لمزید من التوضیح راجع(انگیزه پیدایش مذهب) دافع وجود الدین، فصل القضاء و القدر.

[۴۳۳] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۱.

[۴۳۴] (۲)- الإسراء، ۳۹.

[۴۳۵] (۱)- آل عمران، ۱۳۲.

[۴۳۶] (۱)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، ج ۴، ص ۱۴۴، مع شیء من التصرف.

[۴۳۷] (۲)- إبراهیم، ۷.

[۴۳۸] (۱)- کتاب الخصال، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۴۰.

[۴۳۹] (۱)- الزمر، ۱۰.

[۴۴۰] (۲)- لقمان، ۱۷.

[۴۴۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۸۲.

[۴۴۲] (۲)- الکافی، نقلا عن المیزان، ج ۱، ص ۱۵۴.

[۴۴۳] (۱)- سنشرح ذلک فی تفسیر الآیة ۱۰۰ من سورة(المؤمنون).« و من ورائهم برزخ إلی یوم یبعثون».

[۴۴۴] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۵۵۹.

[۴۴۵] (۱)- قیل إن الصّلوات هنا ألوان التکریم و التأیید و رفعة المقام، و عن ابن عباس أنّها غفران الذنوب(المنار، ج ۲، ص ۴۰)، و واضح أن الصّلوات لها مفهوم واسع یشمل هذه الأمور و سائر النعم الإلهیة.

[۴۴۶] (۱)- آل عمران، ۱۵۴.

[۴۴۷] (۲)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۹۳.

[۴۴۸] (۳)- العنکبوت، ۲.

[۴۴۹] (۴)- البقرة ۱۲۴.

[۴۵۰] (۵)- النمل، ۴۰.

[۴۵۱] (۱)- الأنبیاء، ۳۵.

[۴۵۲] (۲)- المائدة، ۵۲.

[۴۵۳] (۳)- آل عمران، ۱۷۳.

[۴۵۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۹۹.

[۴۵۵] (۲)- العنکبوت، ۶۹.

[۴۵۶] (۱)- الأنعام، ۱۰.

[۴۵۷] (۲)- الانعام، ۳۴.

[۴۵۸] (۳)- هود، ۳۷.

[۴۵۹] (۴)- بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۴۶.

[۴۶۰] (۱)- الأنبیاء، ۳۵.

[۴۶۱] (۲)- النمل، ۴۰.

[۴۶۲] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۷،(مادة صبر).

[۴۶۳] (۱)- الصافات، ۱۰۶.

[۴۶۴] (۱)- إبراهیم، ۳۷.

[۴۶۵] (۱)-(الجناح) فی الأصل المیل نحو اتجاه معیّن، و قیل للذنب جناح لأنه یمیل بالإنسان عن طریق الحق.(قاله الراغب فی المفردات).

[۴۶۶] (۲)- النساء، ۱۰۱.

[۴۶۷] (۱)- لباب النقول فی أسباب النّزول، ص ۲۲.

[۴۶۸] (۱)- آل عمران، ۱۸۷.

[۴۶۹] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۴۷۰] (۲)- الاحتجاج للطبرسی، نقلا عن نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۹.

[۴۷۱] (۳)- أصول الکافی، ج ۱، باب ثواب العالم و المتعلم.

[۴۷۲] (۱)-« الاختلاف» قد یعنی التعاقب أی مجیء شیء و ذهاب آخر، و قد یعنی الزیادة و النقصان فی اللیل و النهار، و علی المعنیین تتحدث الآیة عن نظام خاص للّیل و النهار لا یمکن أن یکون قائما علی الصدفة. و من دون تدخل وجود عالم و قادر فی ذلک. و لهذا ورد فی القرآن الکریم، هذا المعنی فی موارد متعددة کدلیل علی الذات المقدسة.

[۴۷۳] (۱)- الفلک، هی السفینة أو السفن، فاللفظ مفرد و جمع.

[۴۷۴] (۱)- الأنداد جمع(ند) و هو(المثل)، و قال جمع من علماء اللغة، هو المثل المشابه فی الجوهر، أی إن المشرکین کانوا یعتقدون بأن هذه الأنداد تحمل الصفات الإلهیة!

[۴۷۵] (۲)- من دعاء علی علیه السلام المروی علی لسان کمیل بن زیاد. المعروف بدعاء(کمیل).

[۴۷۶] (۳)- هذا علی تفسیر« لو» شرطیة و جوابها محذوف، و من المفسرین من قال إن(لو) هنا للتمنی.

[۴۷۷] (۱)- الزخرف، ۳۸.

[۴۷۸] (۱)- البقرة، ۶۰.

[۴۷۹] (۲)- طه، ۸۱.

[۴۸۰] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۴۲۵.

[۴۸۱] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱، ص ۴۲۸.

[۴۸۲] (۲)- نفس المصدر.

[۴۸۳] (۳)- نفس المصدر.

[۴۸۴] (۱)- الأنعام، ۱۲۱.

[۴۸۵] (۱)- وفقا لهذا التّفسیر فان المعنی بحاجة إلی تقدیر، ففی الأصل: مثل الداعی للذین کفروا إلی الایمان ... و علی هذا تکون جملة« صم بکم عمی فهم لا یعقلون» و صفیة لهؤلاء الأشخاص الذین فقدوا جمیع آلیات الإدراک عملیا. لا أنهم فقدوا العین و الاذن و اللسان و لکن بما أنهم لم ینتفعوا بها بالوجه الصحیح، فکأنما قد فقدوها.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البیان، تفسیر الآیة مورد البحث.

[۴۸۷] (۱)- الآیة ۱۶۸ من هذه السّورة.

[۴۸۸] (۱)-

\i\i روی عن الإمام الصادق علیه السّلام\:E« أنّ(الباغی) هو الذّاهب للصّید علی سبیل التّنزّه، و(العادی) هو السّارق، و هذان مستثنیان من رخصة أکل المیتة و قصر الصّلاة\»،i(وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵۰۹)\E

[۴۸۹] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۶، ص ۳۱۰.

[۴۹۰] (۱)- الوسائل، ج ۱۶، ص ۳۱۰.

[۴۹۱] (۱)- آل عمران، ۷۷.

[۴۹۲] (۱)- المؤمنون، ۱۰۸.

[۴۹۳] (۱)- البقرة، ۲۷۳.

[۴۹۴] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب البر بالوالدین، ص ۱۲۹، حدیث ۱۵.

[۴۹۵] (۲)- البأساء من البؤس و هو الفقر، و الضراء تعنی الألم و المرض، و حین البأس أی حین الحرب(مجمع البیان، الآیة).

[۴۹۶] (۱)- مجمع البیان، الآیة.

[۴۹۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۱۵۹.

[۴۹۸] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۶۱(کتاب أحکام الوصایا، الباب العاشر).

[۴۹۹] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۵۲.

[۵۰۰] (۲)- نفس المصدر.

[۵۰۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۵۹.

[۵۰۲] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۳۶۰.

[۵۰۳] (۳)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۵۹، مادّة وصی.

[۵۰۴] (۱)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۵۰۵] (۱)-« یطیقونه» من« الطوق» و هو الحلقة التی تلقی علی العنق، أو توجد علیه بشکل طبیعی(کطوق الحمام) ثم أطلقت الکلمة علی نهایة الجهد و الطاقة، و الضمیر فی« یطیقونه» یعود علی الصوم، أی الذین یبذلون غایة طاقتهم لدی الصوم، أو بعبارة اخری: الذین یجهدهم الصوم و یثقل علیهم، و هم الطاعنون فی السّن و المرضی الذین لا یرجی علاجهم، فهؤلاء معفوون من الصوم و علیهم أن یدفعوا الفدیة بدل ذلک(و علی المرضی الذین یشفون أن یقضوا صومهم).

و قیل« الّذین یطیقونه» یعنی الذین کانوا یطیقونه، و لم یعودوا الیوم قادرین علی الصوم(و هذا المعنی جاء فی بعض الروایات).

[۵۰۶] (۲)- قیل فی عبارة« تطوّع خیرا» إنها إشارة إلی الصوم المستحب، و قیل أیضا: إنها تأکید علی أن الصوم ینبغی أن یکون عن رغبة و طواعیة، لا عن إجبار و إکراه.

[۵۰۷] (۳)- الجمعة، ۹.

[۵۰۸] (۴)- العنکبوت، ۱۶.

[۵۰۹] (۱)- أی من کان فی حضر فلیصم شهر رمضان، و قیل إن جملة« من شهد منکم الشّهر» تعنی رؤیة الهلال، و هو بعید، و الحق ما ذکرناه و روایات أئمة أهل البیت تؤید ذلک.

[۵۱۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۶.

[۵۱۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۵.

[۵۱۲] (۳)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۵۲.

[۵۱۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۲.

[۵۱۴] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۷، أول کتاب الصوم، ص ۳.

[۵۱۵] (۱)- کتاب« الصوم طریقة حدیثة لعلاج الأمراض»، ص ۶۵، الطبعة الاولی.

[۵۱۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۲۵۵.

[۵۱۷] (۳)- بحار الأنوار، ج ۱۴، من الطبعة القدیمة.

[۵۱۸] (۱)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۲۷.

[۵۱۹] (۲)- التوراة، سفر التثنیة، الفصل ۹، الرقم ۹.

[۵۲۰] (۳)- قاموس الکتاب المقدس، ص ۴۲۸.

[۵۲۱] (۴)- نفس المصدر.

[۵۲۲] (۵)- إنجيل متى، الإصلاح الرابع، الرقم ۱ و ۲.

[۵۲۳] (۶)- إنجيل لوقا، الإصحاح الخامس، الرقم ۳۵- ۳۳.

[۵۲۴] (۷)- قاموس الكتاب المقدس، ص ۴۲۸.

[۵۲۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۷، أبواب أحكام شهر رمضان، الباب ۱۸، الحديث ۱۶.

[۵۲۶] (۲)- وسائل الشّيعة، ج ۷، الباب ۱۸ من أبواب أحكام شهر رمضان، ح ۲۰.

[۵۲۷] (۱)- الحج، ۷۸.

[۵۲۸] (۱)- مجمع البيان، فی تفسير الآية.

[۵۲۹] (۱)- ق، ۱۶.

[۵۳۰] (۲)- أصول الكافی، ج ۲، كتاب الدعاء(باب إن الدعاء يرد البلاء)، الحديث ۷.

[۵۳۱] (۳)- الأنفال، ۲۴.

[۵۳۲] (۱)- الدعاء، الطبيب و عالم النفس الشهير« الكسيس كاريل».

[۵۳۳] (۱)- الدعاء للكسيس كاريل.

[۵۳۴] (۲)- أصول الكافی، ج ۲، ص ۳۳۸، باب فضل الدعاء و الحثّ عليه، حديث ۳.

[۵۳۵] (۳)- آئين زندگی(فارسی)، ص ۱۵۶.

[۵۳۶] (۱)- ن. م. ص ۱۵۲.

[۵۳۷] (۲)- النمل، ۶۲.

[۵۳۸] (۱)- أصول الكافی، ج ۲، ص ۳۴۲، باب الإقبال على الدعاء، الحديث ۱.

[۵۳۹] (۲)- نفس المصدر.

[۵۴۰] (۳)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۴۸ و ۴۴۹.

[۵۴۱] (۴)- نفس المصدر.

[۵۴۲] (۱)- نفس المصدر السابق.

[۵۴۳] (۱)- نفس المصدر.

[۵۴۴] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۳۳۷.

[۵۴۵] (۱)- مجمع البيان، فی تفسير الآية.

[۵۴۶] (۲)- الرفث: هو الحديث المكشوف عن المسائل الجنسية، و استعير لمعنى الجماع كما فی الآية.

[۵۴۷] (۱)- تفسير الصافی، فی تفسير الآية المذكورة.

[۵۴۸] (۱)- مجمع البيان، فی تفسير الآية.

الجزء الثانی

[تتمة سورة البقرة]

الآيات [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۸]

اشارة

وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۸۸)

التّفسير

المبادئ الأوليّة للاقتصاد الإسلامى:

هـذه الآيـة الكريمـة تشـير إلى أحـد الأصول المهمّـة و الكليّة للاقتصاد الإسـلامى الحاكمة على مجمل المسائل الاقتصاديّة، بل يمكن القول إنّ جميع أبواب الفقه الإسـلامى فى دائرة الإقتصاد تدخل تحت هذه القاعدة و لذا نلاحظ أنّ الفقهاء العظام تمسّـكوا بهذه الآية فى مواضع كثيرة فى الفقه الإسلامى و هو قوله تعالى وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ

أمّا المراد من «الباطل» فى هذه الآية الشريفة فقد ذكر له عدّة تفاسير، ذهب أحدها إلى أنّ معناه الأموال الّتى يستولى عليها الإنسان من طريق الغصب و العدوان، و ذهب آخرون أنّ المراد هو الأموال الّتى يحصل عليها الشّخص من القمار و أمثاله.

و يرى ثالث أنّها إشارة إلى الأموال الّتى يكتسبها الشخص بواسطة القسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶

الكاذب (و أشكال الحيل فى المعاملات و العقود التّجاريّة).

و لكنّ الظاهر أنّ مفهوم الآية عام يستوعب جميع ما ذكرنا من المعانى للباطل لأنّ الباطل يعنى الزّائل و هو شامل لما ذكر من المعانى، فلو ورد فى بعض الرّوايـات- كمـا عن الإمـام البـاقر عليه السّـلام أنّ معنـاه (القسم الكاذب) أو ورد عن الإمام الصادق عليه السّـلام فى تفسيره ب (القمار) فهو فى الواقع من قبيل المصاديق الواضحة له.

فعلى هـذا يكـون كـلّ تصـرّف فى أموال الآـخرين من غير الطريق المشـروع مشـمولا لهـذا النهى الإـلهى. و كـذلك فهكـذا أنّ جميع المعاملات الّتى لا تتضمّن هدفا سليما و لا ترتكز على أساس عقلائى فهى مشمولة لهذه الآية.

و نفس هـذا المضـمون ورد فى سورة النساء الآية ۲۹ مع توضـيح أكثر حيث تخـاطب المؤمنين يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ

إنّ اسـتثناء التّجارة المقترنـة مع التراضـى هو فى الواقع بيان لمصداق بارز للمعاملات المشـروعة و المبّاحة، فلا تنفى الهبة و الميراث و الهديّة و الوصيّة و أمثالها، لأنّها تحقّقت عن طريق مشروع و عقلائى.

و الملفت للنظر أنّ بعض المفسّـرين قالوا: أنّ جعل هذه الآية مورد البحث بعد آيات الصوم (آيات ۱۸۲- ۱۸۷) علامة على وجود نوع من الارتبـاط بينهما، فهناك نهى عن الأكل و الشـرب من أجل أداء عبادة إلهيّـة، و هنا نهى عن أكل أموال الناس بالباطل الّـذى يعتبر أيضـا نوع من الصوم و رياضـة النفوس، فهما فى الواقع فرعان لأصل التقوى. ذلك التقوى الّـذى ورد فى الآيـة بعنوان الهـدف النّهائى للصوم ۱].

و لا بدّ من ذكر هذه الحقيقة و هى أنّ التعبير ب (الأكل) يعطى معنا واسعا حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷

يشمل كلّ أنواع التصرّفات، أى أنه تعبير كنائى عن أنواع التصرّفات، و (الأكل) هو أحد المصاديق البارزة له.

ثمّ يشـير فى ذيل الآية إلى نموذج بارز لأكل المال بالباطل و الّذى يتصوّر بعض الناس أنّه حقّ و صـحيح لأنّهم أخذوه بحكم الحاكم فيقول: وَ تُدْلُوا بِها إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۲].

(تـدلوا) من مـادّة (إدلاء)، و هى فى الأصل بمعنى إنزال الـدلو فى البئر لإخراج الماء، و هو تعبير جميل للموارد الّتى يقوم الإنسان فيها

بتسبيب الأسباب لنيل بعض الأهداف الخاصّة.

و هناك احتمالان فى تفسير هذه الجملة:

الأول: هو أن يكون المراد أن يقوم الإنسان بإعطاء قسما من ماله إلى القضاة على شكل هديّة أو رشوة (و كليهما هنا بمعنى واحد) ليتملّك البقيّة، فالقرآن يقول:

إنّكم بالرّغم من حصولكم على المال بحكم الحاكم أو القاضى ظاهرا، و لكنّ هذا العمل يعنى أكل للمال بالباطل، و هو حرام.

الثّانى: أن يكون المراد أنّكم لا ينبغى أن تتحاكموا إلى القضاة فى المسائل الماليّة بهدف و غرض غير سليم، كأن يقوم أحد الأشخاص بإيداع أمانة أو مال ليتيم لدى شخص آخر من دون شاهد، و عند ما يطالبه بالمال يقوم ذلك الشخص بشكايته لدى القاضى، و بما أنّ المودع يفتقد إلى الشاهد فسوف يحكم القاضى لصالح الطرف الآخر، فهذا العمل حرام أيضا و أكل للمال بالباطل.

و لا مانع من أن يكون لمفهوم الآية هذه معنا واسعا يشمل كلا المعنيين فى جملة (لا تدلوا)، بالرغم من أنّ كلّ واحد من المفسرين ارتضى أحد هذين الاحتمالين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸

و الملفت للنظر أنّه

ورد حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «إنّما أنا بشر و إنّما يأتينى الخصم فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضى له فإن قضيت له بحق مسلّم فإنّما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها»

[۳] أى لا تتصوروا أنه من أمواله و يحل له أكله لأن رسول اللّه حكم له بهذا المال، بل هى قطعة من نار.

بحث

وباء الرشوة:

من الأوبئة الاجتماعية التى ابتلى بها البشر منذ أقدم العصور وباء الارتشاء، و كانت هذه الظاهرة المرضيّة دوما من موانع إقامة العدالة الاجتماعية و من عوامل جرّ القوانين لصالح الطبقات المقتدرة، بينما سنّت القوانين لصيانة مصالح الفئات الضعيفة من تطاول الفئات القوية عليهم. الأقوياء قادرون بما يمتلكونه من قوّة أن يدافعوا عن مصالحهم، بينما لا يملك الضعفاء إلّا أن يلوذوا بالقانون ليحميهم، و لا تتحقّق هذه الحماية فى جوّ الارتشاء، لأنّ القوانين ستصبح ألعوبة بيد القادرين على دفع الرشوة، و سيستمر الضعفاء يعانون من الظلم و الاعتداء على حقوقهم.

و لهذا شدّد الإسلام على مسألة الرشوة و أدانها و قبّحها و اعتبرها من الكبائر، فهى تفتّت الكيان الاجتماعى، و تؤدى إلى تفشّى الظلم و الفساد و التمييز بين الأفراد فى المجتمع الإنسانى، و تصادر العدالة من جميع مؤسّساته.

جدير بالذكر أنّ قبح الرشوة قد يدفع بالراشين إلى أن يغطّوا رشوتهم بقناع من الأسماء الأخرى كالهدية و نظائرها، و لكن هذه التغطية لا تغيّر من ماهيّة العمل شيئا، و الأموال المستحصلة عن هذا الطريق محرّمة غير مشروعة.

و هذا «الأشعث بن قيس» يتوسّل بهذه الطريقة، فيبعث حلوى لذيذة إلى بيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹

أمير المؤمنين على عليه السّلام أملا فى أن يستعطف الإمام تجاه قضية رفعها إليه، و يسمّى ما قدّمه هديّة، فيأتيه جواب الإمام صارما قاطعا، قال:

«هبلتك الهبول، أعن دين اللّه أتيتنى لتخدعنى؟ ... و اللّه لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى اللّه فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته، و أنّ دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها. ما لعليّ و نعيم يفنى و لذّة لا تبقى؟! ...»

الإسلام أدان الرشوة بكلّ أشكالها، و فى السيرة

أنّ واحدا ممّن ولّاه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل رشوة قدّمت إليه بشكل هدية، فقال له الرسول: «كيف تأخذ ما ليس لك بحق؟!» قال: كانت هدية يا رسول اللّه. قال: «أ رأيت لو قعد أحدكم فى داره و لم نولّه عملا أ كان الناس يهدونه شيئا؟!»[۴].

و من أجل أن يصون الإسلام القضاة من الرشوة بكلّ أشكالها الخفيّة و غير المباشرة، أمر أن لا يذهب القاضى بنفسه إلى السوق للشراء، كى لا يؤثّر فيه بائع من الباعة فيبيعه بضاعة بثمن أقل، و يكسب على أثرها تأييد القاضى فى المرافعة.

أين المسلمون اليوم من هذه التعاليم الدقيقة الصارمة الهادفة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بشكل حقيقىّ عملىّ فى الحياة؟! إن مسألة الرشوة مهمّة فى الإسلام إلى درجة

أن الإمام الصادق عليه السّلام يقول عنها: «و أمّا الرشا فى الحكم فهو الكفر باللّه العظيم»[۵]

و ورد فى الحديث النبوى المعروف: «لعن اللّه الراشى و المرتشى و الماشى بينهما»

[۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۸۹]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ وَ لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقى وَ أْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۸۹)

سبب النّزول

روى أنّ معاذ بن جبل قال: يا رسول اللّه إنّ اليهود يكثرون مسألتنا عن الأهلّة فأنزل اللّه هذه الآية. و قيل: إنّ اليهود سألوا رسول اللّه: لم خلقت هذه الأهلّة؟ فنزلت هذه الآية، لتقول إنّ للأهلّة فوائد ماديّة و معنوية فى نظام الحياة الإنسانية.

التّفسير

التقويم الطبيعى:

كما اتّضح من سبب نزول هذه الآية الشريفة من أنّ جماعة سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن الهلال و ما يحصل عليه من تغييرات متدرّجة و عن أسبابها و نتائجها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱

فيجيب القرآن الكريم على سؤالهم بقوله يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ.

(أهلّة) جمع «هلال» و يعنى القمر فى اللّيلة الاولى و الثانية من الشهر، و قال بعضهم أنّ التسمية تطلق عليه لثلاث ليالى من أوّل الشّهر و

بعد ذلك يسمّى (قمر)، و ذهب بعضهم إلى أكثر من هذا المقدار.

و يرى المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان و آخرون من المفسّرين أنّ مفردة «الهلال» هى فى الأصل من (استهلال الصبى) و يعنى بكاء الطفل من بداية تولّده، ثمّ استعمل للقمر فى بداية الشهر، و كذلك استعمل أيضا فى قول الحجّاج فى بداية مناسكهم: «لبّيك لبّيك». بصوت عال، فيقال (أهلّ القوم بالحج) و لكن يستفاد من كلمات الرّاغب فى المفردات عكس هذا المطلب و أنّ أصل هذه المفردة هو الهلال فى بداية الشهر و قد استفيد منه (استهلال الصبى) أى بكائه عند ولادته.

و على كلّ حال يستفاد من جملة (يسألونك) الّتى هى فعل مضارع يدل على التكرار أنّ هذا السؤال قد تكرّر مرّات عديدة على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ تقول الآية قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ

فما يحصل عليها من تغييرات منتظمة تدريجيّة، يجعل منها تقويما طبيعيا يساعد الناس على تنظيم أمورهم الحياتية القائمة على التوقيت و تحديد الزمن، و كذلك على تنظيم امور عباداتهم المحدّدة بزمان معيّن كالحجّ و الصوم، و الهلال هو المرجع فى تعيين هذا الزمان، و بالاستهلال ينظّم الناس امور عبادتهم و شؤون دنياهم.

هذا التقويم الطبيعى ميسور لجميع البشر متعلّمهم و أمّيّهم، فى جميع بقاع الأرض، و بموجبه يمكن تعيين أوّل الشهر و وسطه و آخره، بل كلّ يوم من أيّامه بدقّة.

و واضح أنّ نظام الحياة الاجتماعية يحتاج إلى تقويم، أى إلى وسيلة تعيّن التاريخ الدقيق، و من هنا وضع اللّه سبحانه هذا التقويم الطبيعى للناس فى كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲

زمان و مكان.

من امتيازات قوانين الإسلام أنّ أحكامه قائمة عادة على المقاييس الطبيعية لأنّ هذه المقاييس متوفّرة لدى جميع الناس، و لا يؤثّر عليها مرور الزمان شيئا.

أمّا المقاييس غير الطبيعية فليست فى متناول يد الجميع و لم يستطع جميع البشر حتّى فى زماننا هذا أن يستفيدوا من مقاييس عالمية موحّدة.

لذلك نرى أنّ المقياس فى الأحكام الإسلامية يقوم فى الأطوال على أساس الشبر و الخطوة و الذراع و القامة، و فى الزمان على غروب الشمس و طلوع الفجر و زوال الشمس و روبة الهلال.

و هنا يتّضح امتياز الأشهر القمريّة عن الشمسيّة، فالبرغم من أنّ كلا منهما يترتّب على حركات الكواكب السماويّة، و لكنّ الأشهر القمريّة قابلة للمشاهدة من الجميع، فى حين أنّ الأشهر الشمسيّة لا يمكن تشخيصها إلّا بواسطة المنجمّين و بالوسائل الخاصّة لديهم، فيعرفون مثلا أنّ الشمس فى هذا الشهر سوف تقع فى مقابل أىّ صورة فلكيّة و أىّ برج سماوى.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أنّ الأشخاص الّذين سألوا عن الاهلّة كان هدفهم هو الاستفسار عن فائدة هذه التغيّرات او السؤال عن كيفيّة ظهور الهلال و تكامله إلى مرحلة البدر الكامل؟

ذهب بعض المفسّرين إلى الاحتمال الأوّل، و البعض الآخر ذهب إلى الثانى و أضاف: بما أنّ السؤال عن الأسباب و علل التغييرات ليست ذات فائدة لهم و لعلّ فهم الجواب أيضا سيكون عسيرا على أذهانهم، فلهذا بيّن القرآن النتائج المترتبّة على تغييرات الهلال لكى يتعلّم الناس أن يتوجّهوا دوما صوب النتائج.

ثمّ إنّ القرآن أشار فى ذيل هذه الآية و بمناسبة الحديث عن الحجّ و تعيين موسمه بواسطة الهلال الّذى ورد فى أوّل الآية إلى إحدى عادات الجاهليّين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳

الخرافیّة فی مورد الحجّ و نهت الآیة الناس عن ذلک، حیث تقول: وَ لَیْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَ لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی وَ أْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ

ذهب کثیر من المفسّرین إلی أن الناس فی زمن الجاهلیّة کانوا یمتنعون لدی لبسهم ثیاب الإحرام من الدخول فی بیوتهم من أبوابها و یعتقدون بحرمة هذا العمل، و لهذا السبب فإنّهم کانوا یفتحون کوّه و ثقب خلف البیوت لکی یدخلوا بیوتهم منها عند إحرامهم، و کانوا یعتقدون أنّ هذا العمل صحیح و جیّد، لأنّه بمعنی ترک العادة[۷] و الإحرام یعنی مجموعة من تروک العادات فیکتمل کذلک بترک هذه العادة.

و یری بعضهم أنّ هذا العمل کان بسبب أنّهم لا یستظلّون بسقف فی حال الإحرام، و لذلک فإنّ المرور من خلال ثقب الحائط بالقیاس مع دخول الدار من الباب یکون أفضل، و لکنّ القرآن یصرّح لهم أنّ الخیر و البر فی التقوی لا فی العادات و الرّسوم الخرافیّة، و یأمر بعد ذلک فورا بأن یدخلوا بیوتهم من أبوابها.

و هذه الآیة لها معنی أوسع و أشمل، و ذلک أنّ الإنسان لا بدّ له عند ما یقدم علی أیّ عمل من الأعمال سواء کان دینیا أو دنیویا لا بدّ له من أن یرده من طریق الصحیح لا من الطرق المنحرفة، کما ورد هذا المعنی فی روایة جابر عند ما سأل الإمام الباقر علیه السّلام عن ذلک ۸].

و هکذا یکون بامکاننا العثور علی ارتباط جدید بین بدایة الآیة و نهایتها، و ذلک أنّ کلّ عمل لا بدّ أن یرده الإنسان من الطریق الصحیح، فالعبادة فی الحجّ أیضا لا بدّ أن یبتدأ الإنسان بها فی الوقت المقرّر و تعیینه بواسطة الهلال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴

التفسیر الثالث المذکور لهذه الآیة هو أنّ الإنسان عند ما یبحث عن الخیرات و البر لا بدّ أن یتوجّه صوب أهله و لا یطلبه من غیر أهله، و لکنّ هذا التفسیر یمکن إدراجه فی التفسیر الثانی حیث

ورد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام عن الإمام الباقر علیه السّلام (آل محمّد أبواب اللّه و سبله و الدّعاة إلی الجنّة و القادة إلیها و الأدلّاء علیها إلی یوم القیامة)

[۹].

هذا الحدیث قد یشیر إلی أحد مصادیق المفهوم الکلّی للآیة لأنّه یقول أنّ علیکم أن تردوا فی جمیع أموورکم الدینیّة عن الطریق الصحیح لها، یعنی أهل بیت النبوّة الّذین هم طبقا لحدیث الثقلین قرین القرآن، و لذلک یمکنکم أن تأخذوا معارفکم الدینیّة منهم، لأنّ الوحی الإلهی نزل فی بیوتهم، فهم أهل بیت الوحی و صنائع القرآن و ثمار تربیته.

جملة (لیس البرّ) یمکنها أن تکون إشارة إلی نکتة لطیفة اخری أیضا، و هی أنّ سؤالکم عن الأهلّة بدل سؤالکم عن المعارف الدینیّة بمثابة من یترک الدخول إلی داره من الباب الأصلی ثمّ یرده من ظهر البیت فهو عمل مستقبح و مستهجن.

ضمنا یجب الالتفات إلی هذه النکتة فی قوله تعالی لکِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقی أنّ وجود المتّقین بمثابة الینابیع المستفیضة بالخیرات، بحیث أنّهم قد یطلق علیهم کلمة (البر) نفسه ۱۰].

بحوث

۱- أسئلة مختلفة من رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم

وردت فى ۱۵ مورد من الآيات القرآنية جملة (يسألونك) و هذه علامة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵

أنّ الناس يسألون من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم مسائل مختلفة كرارا و مرارا، و الملفت للنظر أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم مضافا إلى أنّه لا ينزعج من هذه الأسئلة، فانه يستقبلهم بصدر رحب، و يجيب على أسئلتهم من خلال الآيات القرآنية.

و أساسا فإنّ السؤال هو أحد حقوق الناس فى مقابل القادة، و هذا الحقّ مشروع حتّى للأعداء أيضا، فبإمكانهم طرح اسئلتهم بشكل معقول. فالسؤال مفتاح حل المشكلات. و السؤال بوّابة العلوم. و السؤال وسيلة انتقال المعارف المختلفة.

و أساسا فإنّ طرح الأسئلة المختلفة فى كلّ مجتمع علامة على التحرك الفكرى و الحضارى و الثقافى للنّاس، و وجود كلّ هذه الأسئلة فى عصر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو علامة على تحرّك أفكار الناس فى ذلك المحيط ضمن تعليمات القرآن الكريم و الدين الإسلامى.

فمن هنا يتّضح أنّ الأشخاص الّذين يعارضون طرح الأسئلة المنطقيّة فى المجتمع يخالفون بذلك روح تعاليم الإسلام، و عملهم هذا مخالف لروح تعاليم الإسلام.

۲- التقويم و نظام الحياة

أنّ الحياة الفرديّة و الاجتماعية لا يمكن لها أن تقوم من دون نظم صحيح، نظم فى التخطيط، و نظم فى المديريّة و الإجراء، فمن خلال نظرة سريعة إلى عالم الخلق من المنظومات الشمسيّة فى السماء إلى بدن الإنسان و بناء هيكله و أعضائه المختلفة ندرك جيدا هذا الأصل الشامل و الحاكم على جميع المخلوقات.

و على هذا الأساس جعل اللّه سبحانه و تعالى هذا النظم تحت اختيار الإنسان و قرّر أن تكون الحركات المنظّمة للكرة الأرضيّة حول نفسها و حول الشمس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶

و كذلك دوران القمر حول الأرض بانتظام وسيلة لتنظيم حياة الإنسان الماديّة و المعنويّة و ترتيبها وفق برنامج معيّن.

و لنفترض أنّ هذا النظم فى الكون لم يكن موجودا و لم يكن لدينا مقياس معيّن لقياس الزّمان، فما ذا سيحصل من اضطراب فى حياتنا اليوميّة؟! و لهذا فإنّ اللّه تعالى ذكر هذا النظم الزمانى فى الأجرام السماويّة بعنوان أحد المواهب المهمّة الإلهيّة للإنسان، ففى سورة يونس فى الآية الخامسة يقول هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و مثل ذلك ما ورد فى سورة الإسراء الآية (۱۲) حول النظام الحاكم على اللّيل و النهار[۱۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷

الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۹۰ الى ۱۹۳]

اشارة

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۱۹۰) وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ

(۱۹۱) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۲) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (۱۹۳)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسرين سببين لنزول الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث:

الأوّل: إنّ هذه الآية هى أوّل آية نزلت فى جهاد أعداء الإسلام و بعد نزول هذه الآية شرع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى قتالهم إلّا الكفّار الّذين لم يكونوا فى حرب مع المسلمين، و استمرّ هذا الحال حتّى نزل الأمر (اقتلوا المشركين) الّذى أجاز جهاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸

و قتال جميع المشركين ۱۲].

الثانى: من أسباب النزول ما ورد عن ابن عباس أنّ هذه الآية نزلت فى صلح الحديبيّة، و ذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا خرج هو و أصحابه فى العام الذى أرادوا فيه العمرة، و كانوا ألفا و أربعمائة، فساروا حتّى نزلوا الحديبيّة فصدّهم المشركون عن البيت الحرام، فنحروا الهدى بالحديبيّة، ثمّ صالحهم المشركون على أن يرجع النبى من عامه و يعود العام المقبل، و يخلوا له مكّة ثلاثة أيّام، فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء، فرجع إلى المدينة من فوره. فلمّا كان العام المقبل تجهّز النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه لعمرة القضاء، و خافوا أن لا تفى لهم قريش بذلك و أن يصدّوهم عن البيت الحرام و يقاتلوهم، و كره رسول اللّه قتالهم فى الشهر الحرام فى الحرم، فأنزل اللّه هذه الآية لتبيح للمسلمين القتال إن بدأهم المشركون به ۱۳].

و الظاهر أن شأن النزول الأوّل يناسب الآية الاولى، و الثانى يناسب الآيات التالية، و على أية حال فإن مفهوم الآيات يدلّ على أنها نزلت جميعا بفاصلة قصيرة.

التّفسير

القرآن أمر فى هذه الآية الكريمة بمقاتلة الذين يشهرون السلاح بوجه المسلمين، و أجازهم أن يواجهوا السلاح بالسلاح، بعد أن انتهت مرحلة صبر المسلمين على الأذى، و حلّت مرحلة الدفاع الدامى عن الحقوق المشروعة.

تقول الآية: وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ

عبارة فِي سَبِيلِ اللَّهِ توضّح الهدف الأساسى من الحرب فى المفهوم الإسلامى، فالحرب ليست للانتقام و لا للعلوّ فى الأرض و التزعم، و لا للاستيلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹

على الأراضى، و لا للحصول على الغنائم ... فهذا كلّه مرفوض فى نظر الإسلام.

حمل السلاح إنّما يصحّ حينما يكون فى سبيل اللّه و فى سبيل نشر أحكام اللّه، أى نشر الحقّ و العدالة و التوحيد و اقتلاع جذور الظلم و الفساد و الانحراف.

و هذه هى الميزة التى تميّز الحروب الإسلامية عن ساير الحروب فى العالم، و هذا الهدف المقدّس يضع بصماته على جميع أبعاد الحرب فى الإسلام و يصبغ كيفيّة الحرب و كميّتها و نوع السلاح و التعامل مع الأسرى و أمثال ذلك بصبغة «فى سبيل اللّه».

«سبيل» كما يقول الراغب فى مفرداته أنها فى الأصل تعنى الطريق السهل، و يرى بعض أنه ينحصر فى طريق الحقّ. و لكن مع الالتفات إلى أن هذه المفردة جاءت فى القرآن الكريم تارة بمعنى طريق الحقّ، و اخرى طريق الباطل، فإن مرادهم قد يكون إطلاقها على طريق

الحقّ مع القرائن.

و لا شكّ أن سلوك طريق الحقّ «سبيل اللّه» أى طريق الدين الإلهى مع احتوائه على مشاكل و مصاعب كثيرة إلّا أنه سهل يسير لتوافقه مع الفطرة و الروح الإنسانية للاشخاص المؤمنين، و لهذا السبب نجد المؤمنين يستقبلون تلك الصعوبات برحابة صدر حتّى لو ادّى بهم إلى القتل و الشهادة.

و عبارة الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ تدلّ بصراحة أن هذا الحكم الشرعى يختّص بمن شهروا السلاح ضد المسلمين، فلا تجوز مقاتلة العدو ما لم يشهر سيفا و لم يبدأ بقتال باستثناء موارد خاصّة سيأتى ذكرها فى آيات الجهاد.

و ذهب جمع من المفسرين إلى أن مفهوم الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ محدود بدائرة خاصّة، فى حين أن مفهوم الآية عام و واسع. و يشمل جميع الذين يقاتلون المسلمين بنحو من الأنحاء.

و يستفاد من الآية أيضا أن المدنيين- خاصّة النساء و الأطفال- لا يجوز أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰

يتعرّضوا لهجوم، فهم مصونون لأنّهم لا يقاتلون و لا يحملون السلاح.

ثمّ توصى الآية الشريفة بضرورة رعاية العدالة حتّى فى ميدان القتال و فى مقابل الأعداء، و تقول: وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أجل، فالحرب فى الإسلام للّه و فى سبيل اللّه، و لا يجوز أن يكون فى سبيل اللّه اعتداء و لا عدوان. لذلك يوصى الإسلام برعاية كثير من الأصول الخلقية فى الحرب، و هو ما تفتقر إليه حروب عصرنا أشدّ الافتقار. يوصى مثلا بعدم الاعتداء على المستسلمين و على من فقدوا القدرة على الحرب، أو ليست لديهم أصلا قدرة على الحرب كالشيوخ و النساء و الأطفال، و هكذا يجب عدم التعرّض للمزارع و البساتين، و عدم اللجوء إلى المواد السامة لتسميم مياه شرب العدوّ كالسائد اليوم فى الحروب الكيمياوية و الجرثوميّة.

الإمام علىّ عليه السّلام يقول لافراد جيشه- كما ورد فى نهج البلاغة- و ذلك قبل شروع القتال فى صفين:

«لا تقاتلوهم حتّى يبدؤوكم فإنكم بجهد اللّه على حجّة، و تركّكم إيّاهم حتّى يبدؤوكم حجّة اخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن اللّه فلا تقتلوا مدبرا و لا تصيبوا معورا و لا تجهزوا على جريح، و لا تهيجوا النساء بأذى و إن شتمن أعراضكم و سببن أمراءكم» [۱۴].

و الجدير بالذكر أن بعض المفسّرين ذهب طبقا لبعض الروايات أن هذه الآية ناسخة للآية التى تنهى عن القتال من قبيل كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ۱۵]. و ذهب آخرون إلى أنها منسوخة بالآية وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً[۱۶]. و لكن الصحيح أن هذه الآية لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱

ناسخة و لا منسوخة، لأن منع المسلمين من قتال الكفّار كان فى زمن لم يكن للمسلمين القوّة الكافية، و مع تغيّر الظروف صدر الأمر لهم بالدفاع عن أنفسهم، و كذلك قتال المشركين فهو فى الواقع استثناء من الآية، فعلى هذا يكون تغيير الحكم بسبب تغيير الظروف لا من قبيل النسخ و لا الاستثناء، و لكن القرائن تدلّ على أن النسخ فى الروايات و فى كلمات القدماء له مفهوم غير مفهومه فى العصر الحاضر، أى له معنى واسع يشمل هذه الموارد أيضا.

فى الآية التالية الّتى تعتبر مكملّة للأمر الصادر فى الآية السابقة تتحدّث هذه الآية بصراحة أكثر و تقول: إنّ هؤلاء المشركين هم الّذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم و صبّوا عليهم ألوان الأذى و العذاب، فيجب على المسلمين أن يقتلوهم أينما وجدوهم، و أنّ هذا الحكم هو بمثابة دفاع عادل و مقابلة بالمثل، لأنّهم قاتلوكم و أخرجوكم من مكّة وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ثمّ يضيف اللّه تعالى وَ الْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ

أمّا المراد من (الفتنة) ما هو؟ فهناك أبحاث عديدة بين المفسرين و أرباب اللّغة، فهذه المفردة فى الأصل من (فتن) على وزن متن، و يقول الراغب فى مفرداته أنّها تعنى وضع الذهب فى النار للكشف عن درجة جودته و أصالته، و قال البعض أنّ المعنى هو وضع

الذهب فى النار لتطهيره من الشوائب ۱۷]، و قد وردت مفردة الفتنة و مشتقاتها فى القرآن الكريم عشرات المرّات و بمعان مختلفة.

فتارة جاءت بمعنى الامتحان مثل أ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ ۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲

و تارة وردت بمعنى المكر و الخديعة فى قوله تعالى يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ ۱۹].

و تارة بمعنى البلاء و العذاب مثل قوله يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ۲۰].

و تارة وردت بمعنى الضّلال مثل قوله وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً[۲۱].

و تارة بمعنى الشرك و عبادة الأوثان أو سد طريق الإيمان أمام الناس كما فى الآية مورد البحث و بعض الآيات الواردة بعدها فيقول تعالى: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ

و لكنّ الظاهر أنّ جميع هذه المعانى المذكورة للفتنة تعود إلى أصل واحد (كما فى أغلب الألفاظ المشتركة)، لأنه مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ معنى الأصل هو وضع الذهب فى النار لتخليصه من الشوائب فلهذا استعملت فى كلّ مورد يكون فيه نوع من الشّدة، مثل الامتحان الّذى يقترن عادة بالشّدة و يتزامن مع المشكلات، و العذاب أيضا نوع آخر من الشّدة، و كذلك المكر و الخديعة التى تتّخذ عادة بسبب أنواع الضغوط و الشدائد، و كذلك الشرك و إيجاد المانع فى طريق ايمان الناس حيث يتضمّن كلّ ذلك نوع من الشّدة و الضغط.

و الخلاصة أنّ عبادة الأوثان و ما يتولّد منها من أنواع الفساد الفردى و الاجتماعى كانت سائدة فى أرض مكّة المكرّمة حيث لوّثت بذلك الحرم الإلهى الآمن، فكان فسادها أشد من القتل فلذلك تقول هذه الآية مورد البحث مخاطب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳

المسلمين: أنّه لا ينبغى لكم ترك قتال المشركين خوفا من سفك الدماء فإنّ عبادة الأوثان أشد من القتل.

و قد أورد بعض المفسّرين احتمالا آخر، و هو أن يكون المراد من الفتنة هنا الفساد الاجتماعى من قبيل تبعيد المؤمنين من أوطانهم حيث تكون هذه الأمور أحيانا أشد من القتل أو سببا فى قتل الأنفس و الأفراد فى المجتمع، فنقرأ فى الآية (۷۳) من سورة الأنفال قوله تعالى إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ أى إذا لم تقطعوا الرابطة مع الكفّار فسوف تقع فتنة كبيرة فى الأرض و فساد عظيم.

ثمّ تشير الآية إلى مسألة اخرى فى هذا الصدد فتقول: إنّ على المسلمين أن يحترموا المسجد الحرام دائما و أبدا، و لذلك لا ينبغى قتال الكفّار عند المسجد الحرام، إلّا أن يبدئوكم بالقتال وَ لا تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ حَتَّى يُقاتِلُوكُمْ فِيهِ

فَإِنْ قاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ لأنّهم عند ما كسروا حرمة هذا الحرم الإلهى الآمن فلا معنى للسكوت حينئذ و يجب مقابلتهم بشدّة لكى لا يسيئوا الاستفادة من قداسة الحرم و احترامه.

و لكن بما أنّ الإسلام فى منهجه التربوى للناس يقرن دائما الإنذار و البشارة معا، و الثواب و العقاب كذلك، لكى يؤثّر فى المسلمين تأثيرا سليما، فلذلك فسح المجال فى الآية التالية للعودة و التوبة فقال فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أجل فلو أنّهم تركوا الشرك و أطفؤوا نيران الفتنة و الفساد فسوف يكونون من إخوانكم، و حتّى بالنّسبة إلى الغرامة و التعوضيات الّتى تجب على سائر المجرمين بعد قيامهم للجريمة فإنّ هؤلاء المشركون معفون من ذلك و لا يشملهم هذا الحكم.

و ذهب البعض إلى أنّ جملة فَإِنِ انْتَهَوْا بمعنى ترك الشرك و الكفر (كما ذكرنا أعلاه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴

و ذهب البعض إلى أنّ المعنى هو ترك الحرب و القتال فى المسجد الحرام أو أطرافه.

و لكنّ الجمع بين هذين المعنيين ممكن أيضا.

الآية التالية تشير إلى هدف الجهاد فى الإسلام و تقول: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ

ثمّ تضيف: فإن ترك هؤلاء المشركون عقائدهم الباطلة و أعمالهم الفاسدة فلا تتعرّضوا لهم فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ

و حسب الظاهر ذكر فى هذه الآية ثلاثة أهداف للجهاد و هى:

۱- إزالة الفتنة.

۲- محو الشرك و عبادة الأوثان.

۳- التصدّى للظلم و العدوان.

و يحتمل أن يكون المراد من الفتنة هو الشرك أيضا و على هذا يكون الهدف الأوّل و الثانى واحدا، و هناك أيضا احتمال آخر و هو أنّ المراد من الظلم هنا هو الشرك أيضا كما ورد فى الآية (۱۶) من سورة لقمان إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

و على هذا الأساس فإنّ هذه الأهداف الثلاثة تعود إلى هدف واحد و هو التصدى للشرك و عبادة الأوثان و الّذى يمثّل المصدر الأساس لكلّ أنواع الفتن و المظالم و العدوان.

و ذهب البعض إلى أنّ الظلم فى هذه الآية بمعنى الابتداء بالحرب أو القتال فى الحرم الإلهى الآمن، و لكنّ الاحتمال الأوّل و هو أنّ المراد من الآية هو الأهداف الثلاثة المتقدّمة أقوى، فصحيح أنّ الشرك هو أحد مصاديق الفتنة، و لكنّ الفتنة لها مفهوم أوسع من الشرك، و صحيح أيضا أنّ الشرك أحد مصاديق الظلم، و لكنّ الظلم له مفهوم أوسع أيضا، فعند ما نرى تفسيره بالشرك أحيانا فهو لبيان المصداق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵

و على هذا الأساس لا يكون الجهاد فى الإسلام لغرض التسلّط على البلدان و الفتوحات، و ليس لغرض تحصيل الغنائم، و لا بهدف تملّك الأسواق للتّجارة أو السيطرة على ثروات و معادن البلدان الاخرى، أو من أجل غلبة العنصر القومى على آخر.

فالهدف هو أحد الثلاثة المتقدّمة: إزالة الفتن و الفوضى الّتى تؤدّى إلى سلب حريّة الناس و أمنهم، و كذلك محو آثار الشرك و عبادة الأوثان، و أيضا التصدّى للظّالمين و المعتدين و الدفاع عن المظلومين.

بحوث

۱- مسألة الجهاد فى الإسلام

نلاحظ فى الكثير من المذاهب الوضعيّة المنحرفة أنّه لا وجود للجهاد لديهم إطلاقا، فكلّ ما فيه يدور حول محور النصائح و المواعظ الأخلاقية، حتّى أنّ البعض عند ما يسمع بوجود مقالة الجهاد و استعمال القوّة كأحد الأركان المهمّة فى التعاليم الإسلاميّة يتعجّب كثيرا على اقتران الدين بالحرب.

و لكن مع ملاحظة أنّ الحكّام الطواغيت و الفراعنة و أمثالهم من النمروديّين و القارونيّين الّذين يعترضون دائما على دعوة الأنبياء الإصلاحيّة و يقفون بوجهها و لا يرضون إلّا بإزالة الدين الإلهى من الوجود يتّضح أنّ على المؤمنين و المتديّنين فى الوقت الّذى يعتمدون على العقل و المنطق و الأخلاق فى تفاعلهم الاجتماعى مع الآخرين عليهم أن يتصدّوا لهؤلاء الظالمين و الطّواغيت و يشقّوا طريقهم بالجهاد و تحطيم هذه الموانع و العوائق الّتى يقيمها حكّام الجور فى طريقهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶

و أساسا فإنّ الجهاد هو من علامات الحياة لكلّ موجود و يمثّل قانونا عامّا فى عالم الأحياء، فجميع الكائنات الحيّة أعم من الإنسان و الحيوان و النبات تجاهد عوامل الفناء من أجل بقائها، و سيأتى مزيد من التوضيح فى هذا المجال فى سورة النساء ذيل الآية ۹۵ و ۹۶.

و على كلّ حال فإنّ من افتخاراتنا نحن المسلمين أنّ ديننا يقرن المسائل الدينيّة بالحكومة و يعتمد على الجهاد كأحد أركان المنظومة العقائديّة لهذا الدين، غاية الأمر يجب ملاحظة أهداف هذا الجهاد الإسلامى، و هذا هو الّذى يفصل بيننا و بين الآخرين.

۲- أهداف الجهاد فى الإسلام

يصرّ البعض من المتغرّبين أنّ الجهاد الإسلامى منحصر فى الجهاد الدفاعى و يحاولون توجيه جميع غزوات النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو الحروب الّتى حدثت بعده فى هذه الدائرة، فى حين أنّه لا يوجد دليل على هذه المسألة، و لم تكن جميع غزوات رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم دفاعيّة، فمن الأفضل العودة إلى القرآن الكريم بدل هذه الاستنباطات الخاطئة لاستجلاء أهداف الجهاد من القرآن الكريم، تلك الأهداف المنطقيّة القابلة للعرض على الصّديق و العدو.

و كما تقدّم فى الآيات أعلاه أنّ الجهاد فى الإسلام يتعقّب عدّة أهداف مباحة:

الف: الجهاد من أجل إطفاء الفتن و بعبارة اخرى الجهاد الابتدائى من أجل التحرير، فنحن نعلم أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنزل على البشريّة شرائع و برامج لسعادة البشر و تحريرهم و تكاملهم و إيصالهم إلى السعادة و الرفاه، و أوجب على الأنبياء عليهم السّلام أن يبلّغوا هذه الشرائع و الإرشادات إلى الناس، فلو تصوّر أحد الأفراد أو طائفة من الناس أنّ إبلاغ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷

الشرائع للناس سوف يعيقه عن نيل منافعه الشخصيّة و سعى لإيجاد الموانع و وضع العصى فى عجلات الدعوة الإلهيّة، فللأنبياء الحقّ فى إزالة هذه الموانع بطريقة المسالمة أوّلا و إلّا فعليهم استخدام القوّة فى إزالة هذه الموانع عن طريق الدّعوة لنيل الحريّة فى التبليغ.

و بعبارة اخرى: أنّ الناس فى جميع المجتمعات البشريّة لهم الحقّ فى أن يسمعوا مقالة منادى الحقّ و هم أحرار فى قبول دعوة الأنبياء، فلو تصدّى فرد أو جماعة لسلب هذا الحقّ المشروع للناس و حرمانهم منه و منعوا صوت الحقّ من الوصول إلى الناس ليحرّرهم من قيود الأسر و العبوديّة الفكريّة و الاجتماعيّة، فلاتباع الدين الحقّ فى الاستفادة من جميع الوسائل لتهيئة هذه الحريّة، و من هنا كان (الجهاد الابتدائى) فى الإسلام و سائر الأديان السماويّة ضروريّا.

و كذلك إذا استخدم البعض القوّة و الإرهاب فى حمل جماعة من المؤمنين على ترك دينهم و العودة إلى الدين السابق لهم، فللمؤمنين الحقّ فى الاستفادة من جميع الوسائل لرفع هذا الإكراه و الإرهاب.

ب- الجهاد الدفاعى.

هل من الصحيح أن يواجه الإنسان هجوما و عدوانا عليه و لا يدافع عن نفسه؟ أو أن يقوم جيش معتدى بالهجوم على بعض الشعوب الاخرى و لا تقوم تلك الشعوب بالدفاع عن نفسها و عن بلدها بل تقف موقف المتفرّج؟

هنا نجد أنّ جميع القوانين السماويّة و البشريّة تبيح للفرد أو الجماعة الدّفاع عن النفس و الاستفادة ممّا وسعهم من قوّة فى هذا السبيل، و يسمّى مثل هذا الجهاد ب (الجهاد الدفاعى) و من ذلك غزوة الأحزاب و احد و مؤتة و تبوك و حنين و نظائرها من الحروب الإسلاميّة الّتى لها جنبة دفاعيّة.

و فى هذا الزمان نجد أنّ الكثير من أعداء الإسلام يعتدون على المسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸

و يشعلون نيران الحروب للسّيطرة على البلاد الإسلاميّة و نهب ثرواتها، فكيف يبيح الإسلام السكوت أمام هذا العدوان؟

ج- الجهاد لحماية المظلومين و نلاحظ فرعا آخر من فروع الجهاد فى الآيات القرآنية الكريمة، و هو الجهاد لحماية المظلومين، فتقرأ فى الآية (۷۵) من سورة النساء وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا

أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً.

و على هذا الأساس فالقرآن يطلب من المسلمين الجهاد فى سبيل اللّه و كذلك فى سبيل المستضعفين المظلومين، و أساسا إنّ هاتين الغايتين متحدتان، و مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم وجود قيد أو شرط فى الآية أعلاه نفهم من ذلك وجوب الدفاع عن جميع المظلومين و المستضعفين فى كلّ نقطة من العالم القريبة منها أو البعيدة، و فى الداخل أو الخارج.

و بعبارة أخرى: أنّ حماية المظلومين فى مقابل عدوان الظّالمين هو أصل فى الإسلام يجب مراعاته، حتّى لو أدّى الأمر إلى الجهاد و استخدام القوّة، فالإسلام لا يرضى للمسلمين الوقوف متفرّجين على ما يرد على المظلومين فى العالم، و هذا الأمر من الأوامر المهمّة فى الشريعة الإسلاميّة المقدّسة الّتى تحكى عن حقانيّة هذا الدّين.

د- الجهاد من أجل دحر الشرك و عبادة الأوثان الإسلام يدعو البشريّة إلى اعتناق الدّين الخاتم الأكمل و هو يحترم مع ذلك حريّة العقيدة، و بذلك يعطى أهل الكتاب الفرصة الكافية للتّفكير فى أمر اعتناق الرّسالة الخاتمة، فإن لم يقبلوا بذلك فإنّه يعاملهم معاملة الأقليّة المعاهدة (أهل الذّمة) و يتعايش معهم تعايشا سلميّا ضمن شروط خاصّة بسيطة و ميسورة، لكنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹

الشرك و الوثنيّة ليسا بدين و لا عقيدة و لا يستحقّان الاحترام، بل هما نوع من الخرافة و الحمق و الانحراف و نوع من المرض الفكرى و الأخلاقى الّذى ينبغى أن يستأصل مهما كلّف الثمن.

كلمة حريّة العقيدة و احترام أفكار الآخرين تصدق فى مواقع يكون لهذه العقيدة و الأفكار على أقلّ تقدير أساس من الصحّة، أما الانحراف و الخرافة و الضلال فليست بأشياء تستحق الاحترام، و لذلك يأمر الإسلام بضرورة اقتلاع جذور الوثنيّة من المجتمع و لو كلّف ذلك خوض الحرب، و ضرورة هدم آثار الشرك و الوثنيّة بالطرق السلميّة أوّلا، فإن تعذّرت الطرق السلميّة فبالقوّة.

أجل فالإسلام يرى ضرورة تطهير الأرض من أدران الشرك و الوثنيّة و يعد المسلمين بمستقبل مشرق للبشريّة فى العالم تحت ظل حكومة التوحيد و زوال كلّ أنواع الشرك و الوثنيّة.

و ممّا تقدّم من ذكر أهداف الجهاد يتّضح أنّ الإسلام أقام الجهاد على أسس منطقيّة و عقلية، فلم يجعله وسيلة للتّسلّط و السيطرة على البلدان الاخرى و غصب حقوق الآخرين و تحميل العقيدة و استعمار و استثمار الشعوب الاخرى، و لكنّنا نعلم أنّ أعداء الإسلام و خاصّة القائمون على الكنيسة و المستشرقين المغرضين سعوا كثيرا لتحريف الحقائق ضد مسألة الجهاد الإسلامى، و اتّهموا الإسلام باستعمال الشدّة و القوّة و السيف من أجل تحميل الإيمان به و تهجموا كثيرا على هذا القانون الإسلامى.

و الظّاهر أنّ خوفهم و هلعهم إنّما هو من تقدّم الإسلام المطرد فى العالم بسبب معارفه السّاميّة و برنامجه السّليم، و لهذا سعوا لإعطاء الإسلام صبغة موحشة كيما يتمكّنوا من الوقوف أمام انتشار الإسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰

۳- لماذا شرّع الجهاد فى المدينة

نعلم أنّ الجهاد وجب على المسلمين فى السّنة الثانية بعد الهجرة، و لم يكن قد شرّع قبلها، و السبب واضح فهو يعود من جهة إلى قلّة عدد المسلمين فى مكّة بحيث يكون الأمر بالكفاح المسلّح فى مثل هذه الحالة هو الانتحار بعينه، و من جهة اخرى كان العدو فى مكّة قويّا جدّا، فمكّة فى الواقع كانت مركز القوى المعادية للإسلام، و لم يكن بالإمكان حمل السّلاح فيها.

أمّا حين قدم النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة إزداد عدد المؤمنين و اتسع نطاق الدّعوة داخل المدينة و خارجها، و تأسّست الحكومة الإسلاميّة الصالحة، و تهيّأت وسائل الجهاد ضدّ العدو على صعيد العدّة و العدد، و بما أنّ المدينة المنوّرة كانت

بعيدة عن مكّة استطاع المسلمون فى حالة من الأمن و الطمأنينة أن يبنوا وجودهم و يعدّوا أنفسهم لمواجهة العدو و الدفاع عن رسالتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۴]

اشارة

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۹۴)

التّفسير

احترام الأشهر الحرم و المقابلة بالمثل:

هذه الآية الشريفة تكمّل البحث الوارد فى الآيات السّابقة عن الجهاد بشكل عام، فهى فى الواقع إجابة على من يتصوّر أنّه لا يمكن القتال فى الأشهر الحرم، فكيف أمر الإسلام بالقتال فيها.

و لتوضيح الأمر: كان المشركون على علم بأنّ الإسلام يحضر الحرب فى الأشهر الحرم (ذى القعدة و ذى الحجة و محرم و رجب) خاصّة فى حرم مكّة و المسجد الحرام، و بعبارة اخرى أنّ الإسلام أمضى هذه السنّة التى كانت موجودة من قبل، فكان نبى الإسلام ملتزم بهذا الحضر، لذلك أرادوا أن يشنّوا هجوما مباغتا على المسلمين فى هذه الأشهر الحرم متجاهلين حرمتها ضانّين أنّ المسلمين ممنوعون من المواجهة، و فى هذه الحالة يستطيعون أن يحقّقوا هدفهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲

الآية الكريمة تكشف مؤامرة المشركين و تحمّل المسلمين مسئوليّة مواجهة العدوان حتّى فى الأشهر الحرم فتقول الآية: الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ أى أنّ الأعداء لو كسروا حرمة و احترام هذه الأشهر الحرم و قاتلوكم فيها فلكم الحقّ أيضا فى المقابلة بالمثل، لأن وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ

(حرمات) جمع «حرمة» و تعنى الشىء الّذى يجب حفظه و احترامه، و قيل للحرم: حرم لأنّه مكان محترم و لا يجوز هتكه. و يقال الأعمال الممنوعة و القبيحة حرام لهذا السبب، و لهذا أيضا كانت بعض الأعمال محرّمة فى الشهر الحرام و الأرض الحرم.

و هذه العبارة وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ تتضمنّ جوابا رابعا لأولئك الّذين اعترضوا على النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم لإباحته الحرب فى الأشهر الحرم، أو أرض مكّة المكرّمة الحرم الإلهى الآمن، و تعنى أنّ احترام الأشهر الحرم ضرورى أمام العدو الّذى يراعى حرمة هذه الأشهر، أمّا العدو الّذى يهتك هذه الحرمة فلا تجب معه رعاية الاحترام و تجوز محاربته حتّى فى هذه الأشهر، و امر المسلمون أن يهبّوا للجهاد عند اشتعال نار الحرب كى لا تخامر أذهان المشركين فكرة انتهاك حرمة هذه الشّهور.

ثمّ تشرّع الآية حكما عامّا يشمل ما نحن فيه و تقول: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

فالإسلام- و خلافا للمسيحيّة الحاليّة الّتى تقول (إذا لطمك شخص على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر)[۲۲]- لا يقول بمثل هذا الحكم المنحرف الّذى يبعث على جرأة المعتدى و تطاول الظّالم، و حتّى المسيحيّون فى هذا الزّمان لا يلتزمون مطلقا بهذا الحكم أيضا، و

يردّون على كلّ عـدوان مهما كان قليلا بعـد و ان أشد، و هذا أيضا مخالف لدسـتور الإسـلام فى الرّد، فالإسـلام يقول: يجب التصدّى للظّالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳

و المعتـدى، و يعطى الحقّ للمظلوم و المعتدى عليه المقابلة بالمثل، فالاستسـلام فى منطق الإسـلام يعنى الموت، و المقاومة و التصدّى هى الحياة.

و الجدير بالذكر أنّ مفهوم الآية يشمل دائرة وسيعة و لا ينحصر بمسألة القصاص فى مقابل القتل أو الجنايات الاخرى، بل يشمل حتّى الأمور الماليّة القصاص فى مقابل القتل أو الجنايات الأخرى، بل يشمل حتّى الأمور الماليّة و سائر الحقوق الاخرى.

و هذا طبعا لا يتعارض مع مسألة العفو و الصفح عن الإخوان و الأصدقاء النادمين.

أحيانا يتصوّر بعض العوام أنّ معنى الآيـة هو أنّه لو قتل شـخص شـخصا آخر فإنّ معنى المقابلـة بالمثل تبيح لأب المقتول أن يقتل ابن القاتل، و إذا ضـرب أخاه فيجوز له أن يضرب أخا الضّارب، و لكن هذا اشتباه كبير، لأنّ القرآن يقول فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ لا الأفراد الأبرياء.

و أيضا لا ينبغى أن يتصوّر أنّ مفهوم الآية هو أنّه أن أقام شخص بإحراق بيت آخر فيجوز للمعتدى عليه أن يقوم بحرق بيت المعتدى، بل مفهومه أن يؤدّى المعتدى ما يعادل قيمة البيت المحترق إلى المعتدى عليه.

و عبارة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ تأكيد آخر على ضرورة عدم تجاوز الحدّ فى الدّفاع و المقابلة، لأنّ الإفراط فى المقابلة يبعد المواجهة عن إطار التقوى.

و قوله تعـالى وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ إشـارة إلى أنّ اللّه لا يهمل المتقى فى خضمّ المشـكلات، بل يعينه و يرعاه، لأنّ من كان مع شخص آخر فمفهومه أنّه يعينه فى مشكلاته و يحميه مقابل الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۱۹۵]

اشارة

وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَ أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۹۵)

التّفسير

الإنفاق و الخلاص من المازق:

هـذه الآيـة تكمّل ما مرّ من آيات الجهاد فكما أنّ الجهاد بحاجة إلى الرجال المخلصـين و المجرّبين كذلك بحاجة إلى المال و الثروة أى بحاجة إلى الاسـتعداد البدنى و المعنوى و المعدّات الحربيّة، صحيح أن العامل الحاسم فى تقرير مصير الحرب هو الرجال بالدّرجة الاولى، و لكنّ الجندى بحاجة إلى أدوات الحرب (أعمّ من السـلاح و الأدوات و وسائل النقل و الغذاء و الوسائل الصحيّة) فإنّه بدونها لا يمكنه أن يفعل شيئا.

من هنا أوجب الإسـلام تأمين وسائل الجهاد مع الأعداء، و من ذلك ما ورد فى الآية أعلاه حيث تأمر بصراحة وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵

و هـذا المعنى يتأكّـد خاصّـة فى عصـر نزول هـذه الآيـات حيث كـان المسـلمون فى شوق شديـد إلى الجهاد كما يحـدّثنا القرآن عن أولئك الّـذين أتوا النبى يطلبون منه السـلاح ليشاركوا فى ساحـة الجهاد و إذ لم يجدوا ذلك عادوا مهمومين محزونين تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ۲۳].

فعبارة وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ بالرّغم من أنّها واردة فى ترك الإنفاق فى الجهاد الإسـلامى، و لكنّ مفهومها واسع يشمل موارد اخرى كثيرة، منها أنّ الإنسان ليس له الحقّ فى اتّخاذ الطرق الخطرة للسّـفر (سواء من الناحيـة الأمنيّـة أو بسـبب العوامل الجويّـة أو غير ذلك) دون أن يتّخـذ لنفسه الاحتياطات اللّازمـة لـذلك، كما لا يجوز له تناول الغـذاء الّذى يحتمل قويّا أن يكون مسـموما و حتّى أن يرد ميـدان القتال و الجهاد دون تخطيط مدروس، ففى جميع هذه الموارد الإنسان مسـئول عن نفسه فى ما لو ألقى بها فى الخطر بدون عذر مقبول.

و تصوّر بعض الجهلاء من أنّ كـلّ ألوان الجهاد الابتـدائى هو إلقاء النفس فى التّهلكـة و حتّى أنهم أحيانا يعتبرون قيام سـيد الشـهداء الإمام الحسـين عليه السّـلام فى كربلاء مصداق لهذه الآية، و هذا ناشئ من الجهل المطبق و عدم درك مفهوم الآية الشريفة، لأنّ إلقاء النفس بالتّهلكـة يتعلّق بالموارد الّتى لا يكون فيها الهـدف أثمن من النفس و إلّا فلا بدّ من التضـحية بالنفس حفاظا على ذلك الهدف المقدّس كما صنع الإمام الحسين و جميع الشهداء فى سبيل اللّه كذلك.

فهل يتصوّر أحد أنّ الشّـخص الّذى يرى النبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فى خطر فيحميه بنفسه و يذبّ عنه معرّضا نفسه للخطر فداء لرسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم (كمـا صـنع على عليه السّـلام فى حرب احـد أو فى ليلـة المبيت) فهل يعنى هـذا إلقاء للنفس بالتّهلكة و إنّه صنع حراما؟ و هل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶

يعنى ذلك أن يقف موقف المتفرّج حتّى يقتل رسول اللّه و يقول أنّ إلقاء النفس فى التّهلكة حرام؟

و الحقّ أنّ مفهوم الآية واضح و التمسّك بها فى مثل هذه الموارد نوع من الجهل و الحمق.

أجـل، إذا لم يكن الهـدف مهمّـا و لا يسـتحق أن يضـحّى الإنسان بنفسه فى سبيله، أو أنّه يكون مهمّا و لكن بإمكانه تحقيقه بوسائل و طرق اخرى أفضل، ففى هذه الموارد لا ينبغى إلقاء النفس فى الخطر (كموارد التقيّة مثلا من هذا القبيل).

و فى آخر الآية أمر بالإحسان و يقول أَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

أمّـا مـا هو المراد بالإحسـان هنـا؟ فهنـاك عـدّة احتمالاـت فى كلمـات المفسّـرين، منهـا: أنّ المراد هو حسن الظن بـاللّه (فلا تظنّوا أنّ إنفاقكم هذا يؤدى إلى الاختلال فى معاشـكم)، و الآخر هو الاقتصاد و الاعتدال فى مسألة الإنفاق، و احتمال ثالث هو دمج الإنفاق مع حسن الخلق للمحتـاجين بحيث يتزامن مع البشاشـة و إظهـار المحبّـة و تجنّب أى لون من ألوان المنّـة و الأذى للشـخص المحتاج، و لا مانع من أن يكون المراد فى مفهوم الآية جميع هذه المعانى الثلاث.

بحوث

۱- الإنفاق مانع عن انهيار المجتمع

هناك ارتباط معنوى بين جملـة وَ أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ و لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ بملاحظـة أنّ عبارات الآيات القرآنية مترابطة و متلازمة، و الظّاهر أنّ الرّابطة بين هاتين العبارتين هو أنّكم لو لم تنفقوا فى سبيل اللّه و فى مسار الجهاد فقد ألقيتم أنفسكم فى التّهلكة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷

و یمکن أن یکون الارتباط أکثر من ذلک و هو أن نقول: إنّ هذه الآیة بالرّغم من أنّها وردت فی ذیل آیات الجهاد، و لکنّها تبیّن حقیقة کلیّة و اجتماعیّة، و هی أنّ الإنفاق بشکل عام سبب لنزاهة المجتمع من المفاسد المدمّرة، لأنه حینما یترک أفراد المجتمع الإنفاق و تتراکم الثروة فی أحد أقطاب المجتمع تنشأ طبقة محرومة بائسة، و لا یلبث أن یحدث انفجار عظیم فیه یحرق الأثریاء و ثروتهم و یتّضح من ذلک ارتباط الإنفاق بابعاد التهلکة.

و من هنا فالإنفاق یعود بالخیر علی الأثریاء قبل أن یصیب خیره المحرومین، لأنّ تعدیل الثروة یصون الثروة کما

قال الإمام علی علیه السّلام (حصّنوا أموالکم بالزّکاة)[۲۴].

و بتعبیر بعض المفسّرین أنّ الامتناع من الإنفاق فی سبیل اللّه یؤدّی إلی موت الرّوح الإنسانیّة فی الفرد بسبب البخل، و کذلک یؤدّی إلی موت المجتمع بسبب الضعف الاقتصادی و خاصّة فی النظام الإسلامی المبتنی علی أساس الإحسان و الخیر[۲۵].

۲- سوء الاستفادة من مضمون الآیة

تقدّم أنّ بعض أهل الدنیا من طلّاب العافیة تمسّکوا فی هذه الجملة من هذه الآیة وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ للفرار من الجهاد فی سبیل اللّه حتّی أنّهم و سموا ثورة الإمام الحسین علیه السّلام فی عاشوراء الّتی کانت سبب نجاة الإسلام و بقائه إمام الأعداء کبنی أمیّة أنّها مصداق لهذه الآیة، و غفلوا عن أنه لو کان الأمر کما یقولون لانسدّ باب الجهاد تماما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸

و أساسا هناک تباین بین مفهومی التهلکة و الشّهادة، فالتّهلکة تعنی الموت بدون دلیل موجّه، فی حین أنّ الشهادة تعنی تضحیة الفرد فی سبیل هدف مقدّس و نیل الحیاة الأبدیّة الخالدة.

و یجب الالتفات إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ نفس الإنسان لیست أثمن شیء فی وجوده، فهناک حقائق أثمن للنفس مثل الإیمان باللّه و الاعتقاد بالإسلام و حفظ القرآن و أهدافه المقدّسة، بل حفظ حیثیّة و عزّة المجتمع الإسلامی، فهذه أهداف أسمی من التّهلکة، و لم ینه عنها الشرع المقدّس إطلاقا. و قد ورد فی الحدیث أنّ مجموعة من المسلمین توجّهوا إلی القسطنطنیّة للجهاد، فهجم أحد المسلمین الشجعان علی جیش الرّوم و فی صفوفهم فقال الحاضرین (القی بیده إلی التّهلکة) فقال أبو أیّوب الأنصاری:

۳- ما هو المنظور من الإحسان

المراد من الإحسان عادة هو الإنفاق و بذل الخیر إلی الآخرین و لکن تارة یأتی بمعنی أوسع و یشمل بذلک کلّ عمل صالح بل حتّی الدوافع فی العلم الصالح أیضا

کما ورد فی الحدیث النبوی الشریف فی تفسیر الإحسان (أن تعبد اللّه کأنّک تراه فإن لم تکن تراه فإنّه یراک).

و من البدیهی أنّه لو کان إیمان الفرد بحیث کأنّه یری اللّه سبحانه تعالی و یعتقد بأنّه حاضر و ناظر فی کلّ الأحوال فسوف یهتم بالإتیان بالأعمال الصالحة و یتجنّب کلّ ذنب و معصیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹

الآیة [سورة البقرة (۲): آیة ۱۹۶]

اشارة

وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۹۶)

التّفسير

بعض أحكام الحجّ المهمّة:

لا يعلم بدقّة تاريخ نزول الآيات المتعلّقة بالحجّ فى القرآن الكريم، و لكن يرى بعض المفسّرين العظام أنّها نزلت فى حجّة الوداع ۲۶]، فى حين يرى بعضهم أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰

جملة فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ناظرة إلى حادثة (الحديبيّة) الواقعة فى السنّة السادسة للهجرة حيث منع المسلمون من زيارة بيت اللّه الحرام ۲۷].

ففى هذه الآية ذكرت أحكام كثيرة:

۱- فى مطلع الآية تأكيدا على أنّ أعمال العمرة و الحجّ ينبغى أن تكون للّه و طلب مرضاته فقط وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ من هنا لا ينبغى أن يشوب أعمال الحجّ نيّة اخرى غير الدافع الإلهى و كذلك الإتيان بالعمل العبادى هذا كاملا و تامّا بمقتضى جملة وَ أَتِمُّوا.

۲- ثمّ أنّ الآية تشير إلى الأشخاص الّذين لا يحالفهم التوفيق لأداء مناسك الحجّ و العمرة بعد لبس ثياب الإحرام بسبب المرض الشديد أو خوف العدو و أمثال ذلك، فتقول فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فمثل هذا الشخص عليه أن يذبح ما تيسر له من الهدى و يخرج بذلك من إحرامه ۲۸].

و على كلّ حال فإنّ الأشخاص الّذين منعهم مانع و لم يتمكّنوا من أداء مراسم الحجّ و العمرة فيمكنهم بالاستفادة من هذه المسألة أن يحلّوا من إحرامهم.

و نعلم أيضا أنّ الهدى يمكن أن يكون بعيرا أو بقرة أو خروفا، و هذا الأخير أقلّ الهدى مؤنة، و لهذا كانت جملة فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ تشير غالبا إلى الغنم.

۳- ثمّ أنّ الآية الشريفة تشير إلى أمر آخر من مناسك الحجّ فتقول: وَ لا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ

فهل أنّ هذا الأمر يتعلّق بالأشخاص المحصورين الممنوعين من أداء مراسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱

الحجّ، فهو بمثابة تكميل للأوامر السابقة، أو أنّه يشمل جميع الحجّاج؟ اختار بعض المفسّرين الرأى الأوّل و قالوا أنّ المراد من محل الهدى أى محل الأضحية هو الحرم.

و قال آخرون أنّ المراد هو المكان الّذى حصل فيه المانع و المزاحم و يستدلّ بفعل النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى واقعة الحديبيّة الّتى هى مكان خارج الحرم المكّى، حيث أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد منع المشركين له ذبح هديه فى ذلك المكان و أمر أصحابه أن يفعلوا ذلك أيضا.

يقول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى: (ذهب علمائنا إلى أنّ المحصور إذا كان بسبب المرض فيجب عليه ذبح الأضحية فى الحرم، و إذا كان بسبب منع الأعداء فيجب الذبح فى نفس ذلك المكان الّذى منع به).

و لكنّ ذهب مفسرون آخرون إلى أنّ هذه الجملة ناظرة إلى جميع الحجّاج و تقول: لا يحقّ لأحد التقصير (حلق الرأس و الخروج من الإحرام) إلّا أن يذبح هديه فى محلّه (ذبح الهدى فى الحجّ يكون فى منى و فى العمرة يكون فى مكّة) و على كلّ حال، فالمراد من بلوغ الهدى محلّه هو أن يصل الهدى إلى محل الذبح فيذبح، و هذا التعبير كناية عن الذبح.

و مع الأخذ بنظر الاعتبار عموميّة التعبير الوارد فى الآية الشريفة فالتفسير الثانى يكون أنسب ظاهرا بحيث يشمل المحصور و غير المحصور.

۴- ثمّ تقول الآية فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ

(نسك) فى الأصل جمع (نسيكة) بمعنى حيوان مذبوح، و هذه المفردة جاءت بمعنى العبادة أيضا[۲۹] و لهذا يقول الراغب فى المفردات بعد أن فسّر النسك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲

بالعبادة: هذا الاصطلاح يأتى فى أعمال الحجّ و (نسيكة) بمعنى (ذبيحة).

و يرى بعض المفسّرين أيضا أنّ الأصل فى هذه الكلمة هو سبائك الفضّة، و قيل للعبادة (نسك) بسبب أنّها تطهّر الإنسان و تخلّصه من الشوائب ۳۰].

و على أىّ حال فإنّ ظاهر الآية أنّ مثل هذا الشخص مخيّرا بين ثلاث امور (الصوم و الصدقة أو ذبح شاة). و الوارد فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ الصوم فى هذا المورد يجب أن يكون ثلاثة أيّام و الصّدقة على ستّة مساكين، و فى رواية اخرى على عشرة مساكين، و كلمة (نسك) تعنى شاة[۳۱].

۵- ثمّ تضيف الآية فَإِذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ و هذه إشارة إلى أنّه يجب الذبح فى حجّ التمتّع و يكون المكلّف فى هذا الحجّ قد أتى بالعمرة قبله، و لا فرق فى هذا الهدى بين أن يكون من الإبل أو من البقر أو من الضّأن دون أن يخرج من الإحرام.

و حول الأصل فى كلمة (الهدى) فهناك قولان حسب ما أورده المرحوم الطبرسى: الأوّل أنّه مأخوذ من (الهدية) و بما أنّ الأضحية هى فى الواقع هديّة إلى بيت اللّه الحرام فقد اطلق عليها هذه الكلمة، و الآخر أنها من مادّة (الهداية) لأن الحيوان المقرّر للذّبح يؤتى به مع الحاج إلى بيت اللّه الحرام، أو يكون هدايته إلى بيت اللّه.

و لكنّ ظاهر كلام الراغب فى المفردات أنّه مأخوذ من الهديّة فقط فيقول:

(هدى) جمع و مفرده (هديّة).

و قد أورد فى معجم مقاييس اللغة أنّ لهذه الكلمة أصلان: الهداية و الهديّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳

و لكنّ لا يبعد أن تعود كليهما إلى الهداية، لأنّ الهديّة تعنى الشىء الّذى يهدى إلى الشخص الآخر، أى يساق إليه هديّة (فتأمّل بدّقة).

۶- ثمّ أنّ الآية تبيّن حكم الأشخاص الغير قادرين على ذبح الهدى فى حجّ التمتع فتقول: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كامِلَةٌ.

فعلى هذا فلو لم يجد الإنسان أضحية أو أنّ وضعه المالى لا يطيق ذلك فيجب عليه جبران ذلك بصيام عشرة أيّام، يصوم ثلاثة أيّام منها (يوم السابع و الثامن و التاسع من ذى الحجّة) فى أيّام الحجّ- و هذه هى من الأيّام الّتى يجوز فيها الصوم فى السفر- و يأتى بصيام

سبعة أيّام بعد ذلك حين العودة إلى الوطن.

واضح أن مجموع ثلاثة أيّام فى الحج و سبعة بعد الرجوع يساوى عشرة، لكنّ القرآن عاد فأكّد بأنّها عشرة كاملة.

بعض المفسّرين قال فى تفسير هذه الجملة أن الواو تأتى للجمع و تأتى أحيانا للتخيير بمعنى (أو)، و من أجل رفع توهّم التخيير أكّدت الآية على رقم عشرة، و يحتمل أيضا أن التعبير بكلمة (كاملة) إشارة إلى أنّ صوم الأيّام العشرة يحلّ محل الهدى بشكل كامل، و لهذا ينبغى للحجاج أن يطمأنّوا لذلك و أنّ جميع ما يترتّب على الأضحية من ثواب و بركة سوف يكون من نصيبهم أيضا.

و قال بعضهم: إنّ هذا التعبير إشارة إلى نكتة لطيفة فى العدد (عشرة) لأنّه من جانب أكمل الأعداد، لأنّ الأعداد تتصاعد من واحد يتصل إلى عشرة بشكل تكاملى، ثمّ بعد ذلك تترتّب من عشرة و أحد الأعداد الاخرى لتكون أحد عشر و اثنى ۳۲] عشر ... حتّى تصل إلى عشرين أى ضعف العدد عشرة ثمّ ثلاثين و هكذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴

۷- ثمّ أنّ الآية الشريفة تتعرّض إلى بيان حكم آخر و تقول ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرام فعلى هذا لا يكون لأهل مكّة أو الساكنين فى أطرافها حجّ التمتّع، لأنّه يختصّ بالمسلمين خارج هذه المنطقة، فالمشهور بين الفقهاء أنّ كلّ شخص يبعد عن مكّة ۴۸ ميلا فإنّ وظيفته حجّ التمتّع، و أمّا إذا كان دون هذه المسافة فوظيفته حجّ القران أو الإفراد و الّذى تكون عمرته بعد الإتيان بمراسم الحجّ (و تفصيل هذا الموضوع و بيان مراتبه مذكور فى الكتب الفقهيّة).

و بعد بيان هذه الأحكام السبعة تأمر الآية فى ختامها بالتقوى و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ و لعلّ هذا التأكيد يعود إلى أنّ الحجّ عبادة إسلاميّة هامّة و لا ينبغى للمسلمين التّساهل فى أداء مناسكه و أنّ ذلك سيؤدّى إلى إضرار كثيرة، و أحيانا يسبّب فساد الحجّ و زوال بركاته المهمّة.

بحوث

۱- أهميّة الحجّ بين الواجبات الإسلاميّة

يعتبر الحجّ من أهم العبادات التى شرّعت فى الإسلام و لها آثار و بركات كثيرة جدّا، فهو مصدر عظمة الإسلام و قوّة الدّين و اتّحاد المسلمين، و الحجّ هو الشعيرة العباديّة التى ترعب الأعداء و تضخ فى كلّ عام دما جديدا فى شرايين المسلمين.

و الحجّ هو تلك العبادة الّتى أسماها أمير المؤمنين عليه السّلام ب (علم الإسلام و شعاره) و قال عنها فى وصيته فى الساعات الأخيرة من حياته

(اللّه اللّه فى بيت ربّكم لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا)

[۳۳] أى أنّ البلاء الإلهى سيشملكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵

دون إمهال. و قد فهم أعداء الإسلام أهميّة الحجّ أيضا إذ صرّح أحدهم:

(نحن لا نستطيع أن نحقّق نصرا على المسلمين ما دام الحجّ قائما بينهم)[۳۴].

و قال أحد العلماء (الويل للمسلمين إن لم يفهموا معنى الحجّ، و الويل لأعدائهم إذا عرفوا معناه).

و

فى الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى بيان توصفة الأحكام كما ورد فى نهج البلاغة الحكمة ۲۵۲ أنّه أشار عليه

السّلام إلی أهمیّة الحجّ الکبیرة و قال (فرض اللّه الإیمان تطهیرا من الشرک ... و الحجّ تقویة للدّین)

[۳۵].

و نختتم هذه الفقرة بحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام و سیأتی شرحه بالتفصیل فی ذیل الآیة ۲۶ إلی ۲۸ من سورة الحجّ و بیان أهمیّة و فلسفة و أسرار الحجّ هناک)

فقال علیه السّلام: (لا یزال الدّین قائما ما قامت الکعبة)

[۳۶].

۲- أقسام الحجّ و بیان أعمال حجّ التمتّع

لقد قسّم الفقهاء العظام و بإلهام من الآیات و الأحادیث الشریفة عن النبی و آله علیهم السّلام الحجّ إلی ثلاثة أقسام: حجّ التمتّع، حجّ القران، و حجّ الإفراد.

أمّا حجّ التمتّع فیختص بمن کان علی مسافة ۴۸ میلا فصاعدا من مکّة (۱۶ فرسخ و ما یعادل ۹۶ کیلومتر تقریبا، و أمّا حجّ القران و الإفراد فیتعلّقان بمن کان أدنی من هذه الفاصلة. ففی حجّ التمتّع یأتی الحاج بالعمرة أوّلا ثمّ یحلّ من إحرامه و بعد ذلک یأتی بمراسم الحجّ فی أیّامه المخصوصة، و لکن فی حجّ القران

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶

و الإفراد یبدأ أوّلا بأداء مراسم الحجّ ثمّ بعد الانتهاء منها یشرع بمناسک العمرة مع تفاوت أنّ الحاج فی حجّ القران یأتی و معه هدیه، أمّا فی حجّ الإفراد فلا هدی فیه و لکن بعقیدة أهل السّنة أنّ حجّ القران هو أن یقصد بالحجّ و العمرة بإحرام واحد.

أمّا أعمال حجّ التمتّع فکما یلی:

فی البدایة یحرم الحاج للحجّ من الأماکن الخاصّة به و تسمّی المیقات، أی أنّ الحاج یتعهد بالإحرام أن یترک و یتجنّب سلسلة من المحرّمات علی المحرم، و یرتدی ثوبی الإحرام غیر المخیطة، و یبدأ بالتلبیة و هو متّجه إلی بیت اللّه الحرام، ثمّ یشرع بالطّواف حول الکعبة سبعة مرّات، و بعد ذلک یصلّی رکعتین صلاة الطواف فی المحل المعروف بمقام إبراهیم، ثمّ یسعی بین الصفا و المروة سبعة مرّات، ثمّ بعد الانتهاء من السعی یقصّر، أی یقص مقدارا من شعره أو أظافره، و بذلک یخرج من الإحرام و یحلّ منه.

ثمّ یحرم مرّة اخری من مکّة لأداء مناسک الحجّ و یذهب مع الحجاج فی الیوم السابع من ذی الحجّة إلی «عرفات» و هی صحراء علی بعد ۴ فراسخ من مکّة، و یبقی فی ذلک الیوم من الظهر إلی غروب الشمس فی ذلک المکان حیث یشتغل بالعبادة و المناجاة و الدّعاء، ثمّ بعد غروب الشمس یتّجه إلی (مشعر الحرام) و یقع علی بعد فرسخین و نصف من مکّة تقریبا و یبقی هناک إلی الصباح، و حین طلوع الشمس یتوجّه إلی «منی» الواقعة علی مقربة من ذلک المکان، و فی ذلک الیوم الّذی هو یوم «عید الأضحی» یرمی الحاج (جمرة العقبة) بسبعة أحجار صغیرة (و جمرة العقبة علی شکل اسطوانة حجریّة خاصّة) ثمّ یذبح الهدی و یحلق رأسه، و بذلک یخرج من إحرامه.

ثمّ أنّه یعود إلی مکّة فی نفس ذلک الیوم أو فی الیوم القادم، و یطوف حول الکعبة و یؤدّی صلاة الطواف و السعی بین الصفا و المروة ثمّ طواف النساء و صلاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷

الطواف أیضا، و فی الیوم الحادی عشر و الثانی عشر یرمی فی منی الجمرات الثلاثة واحدة بعد الاخری بسبعة أحجار صغیرة، و یبقی فی لیلة الحادی عشر و الثانی عشر فی أرض منی، و بهذا الترتیب تکون مناسک الحجّ إحیاء لذکری تاریخیّة و عبارة عن کنایات و

إشارات لمسائل تتعلّق بتهذيب النفس و لها أغراض اجتماعيّة كثيرة، و سوف نستعرض كلّ واحدة منها فى الآيات المناسبة له.

۳- لماذا نسخ البعض حجّ التمتّع؟

إنّ ظاهر الآيـة محل البحث هو أنّ وظيفـة الأشـخاص البعيـدين عن مكّـة هى حـجّ التمتّع (الحجّ الّذى يبتدأ بالعمرة و بعد الانتهاء منها يخرج من الإـحرام ثمّ يجـدّد الإحرام للحـجّ و يأتى بمناسك الحـجّ) و ليس لـدينا دليل إطلاقا على نسـخ هـذه الآيـة، بل إنّ الروايات الكثيرة فى كتب الشيعة و أهل السنّة وردت فى هذا الصدد، و من جملة المحدّثين المعروفين من أهل السنّة (السنائى فى كتاب السنن) و (أحمد فى كتاب المسـند) و (ابن ماجة فى كتابه السـنن) و (البيهقى فى السـنن الكبرى) و (الترمذى فى صحيحه) و (مسلم أيضا فى كتابه المعروف بصـحيح مسـلم) فهناك وردت روايات كثيرة فى حـجّ التمتّع و أن هـذا الحكم لم ينسـخ و هو باق إلى يوم القيامـة. و الكثير من فقهاء أهل السـنّة أيضا ذهبوا إلى أنّ أفضل أنواع الحجّ هو حجّ التمتع بالرّغم من أنّهم أجازوا إلى جانبه حجّ القران و الإفراد (بذلك المعنى الّذى تقدّم آنفا من الفقهاء).

و لكنّ هناك حـديث معروف نقل عن عمر بن الخطاب حيث قال (متعتان كانتا على عهد رسول اللّه و أنا أنهى عنهما و يعاقب عليهما متعة النساء و متعة الحجّ).

يقول «الفخر الرازى» فى ذيل الآيـة مورد البحث بعـد نقل هـذا الحديث عن عمر: إنّ المراد من متعة الحجّ هو أن يجمع بين الإحرامين (إحرام الحجّ و إحرام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸

العمرة) ثمّ يفسخ نيّة الحجّ و يأتى بالعمرة المفردة و بعد ذلك يأتى بالحجّ ۳۷].

فمن البديهى أنّه لا يحق لأحد نسخ الحكم الشـرعى إلّا رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و أساسا أنّ هذا التعبير و هو أنّ رسول اللّه قـال كـذا و أنا أقول كـذا هو تعبير غير مقبول من أى شـخص، فهل يصـحّ إهمال أمر النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و طرحه و الالتزام بأوامر الآخرين؟

و على كلّ حال، فإنّ الكثير من علماء أهل السـنّة فى هذا الزمان تركوا الخبر المذكور، و ذهبوا إلى أنّ حجّ التمتع أفضل أنواع الحجّ و عملوا على وفقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۱۹۷ الى ۱۹۹]

اشارة

الْحَـجُّ أَشْـهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يـا أُولِي الْأَلْبـابِ (۱۹۷) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَـإِذا أَفَضْـتُمْ مِنْ عَرَفـاتٍ فَـاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْـعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (۱۹۸) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَ اسْـتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۹۹)

التّفسير

خير الزّاد و المتاع:

تواصل هذه الآيات الشريفة بيان أحكام الحجّ و زيارة بيت اللّه الحرام و تقرّر طائفة من التشريعات الجديدة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰

۱- تقول الآية الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ ۳۸].

و المراد بهذه الأشهر: هى شوال، ذى القعدة، ذى الحجّة (شهر ذى الحجّة بكامله أو العشرة الأوائل منه) و هذه الأشهر تسمّى (أشهر الحجّ) لأنّ قسما من أعمال الحجّ و العمرة لا يمكن الإتيان بها فى غير هذه الأشهر، و قسما آخر يجب الإتيان بها فى اليوم التاسع إلى الثانى عشر من شهر ذى الحجّة، و السبب فى أنّ القرآن الكريم لم يصرّح بأسماء هذه الأشهر لأنّها معلومة للجميع و قد أكّد عليها القرآن الكريم بهذه الآية.

ثمّ إنّ هذه الآية تستبطن نفيا لأحد التقاليد الخرافيّة فى الجاهليّة حيث كانوا يستبدلون هذه الأشهر بغيرها فى حالة حدوث حرب بينهم فيقدّموا و يؤخّروا منها كيف ما شاؤوا، فالقرآن يقول: «إنّ هذه الأشهر معلومة و معيّنة فلا يصحّ تقديمها و تأخيرها»[۳۹].

۲- ثمّ تأمر الآية الكريمة فيمن أحرم إلى الحجّ و شرع بأداء مناسك الحجّ و تقول: فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِ

(رفث) بالأصل بمعنى الكلام و الحديث المتضمّن ذكر بعض الأمور القبيحة أعمّ من الأمور الجنسيّة أو مقدّماتها، ثمّ بات كناية عن الجماع، و لكنّ البعض ذهبوا إلى أنّ مفردة (رفث) لا تطلق على هذا النوع من الكلام إلّا فى حضور النساء، فلو كان الحديث فى غياب النساء فلا يسمّى بالرّفث ۴۰].

و ذهب البعض إلى أنّ الأصل فى هذه الكلمة هو الميل العملى للنّساء من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱

المزاح و اللّمس و التماس البدنى الّذى ينتهى بالمقاربة الجنسيّة[۴۱].

(فسوق) بمعنى الذّنب و الخروج من طاعة اللّه، و (جدال) تأتى بمعنى المكالمة المقرونة بالنّزاع، و هى فى الأصل بمعنى شدّ الحبل و لفّه، و من هذا استعملت فى الجدال بين اثنين، لأنّ كلّ منهما يشدّ الكلام و يحاول إثبات صحّة رأيه و نظره.

و على كلّ حال، ورد هذا الأمر للحجّاج فى حرمة المقاربة مع الأزواج، و كذلك وجوب اجتناب الكذب و الفحش (مع أنّ هذا العمل حرام أيضا فى غير مواضع الإحرام و لكنّه ورد النهى عنه فى أعمال الحجّ بالخصوص ضمن المحرّمات الخمسة و العشرين على المحرم).

و كذلك من المحرّمات على المحرم فى الحجّ هو الجدال و القسم باللّه تعالى سواء كان على حقّ أم باطل، و هو قول (لا و اللّه، بلى و اللّه).

و هكذا ينبغى أن تكون أجواء الحجّ طاهرة من التمتّعات الجنسيّة و كذلك من الذنوب و الجدال العقيم و أمثال ذلك، لأنّها أجواء عباديّة تتطلّب الإخلاص و ترك اللّذائذ المادية و تقتبس روح الإنسان من ذلك المحيط الطّاهر قوّة جديدة تسوقها إلى عالم آخر بعيدا عن عالم المادّة، و فى نفس الوقت تقوّى الالفة و الاتحاد و الاتّفاق و الاخوّة بين المسلمين باجتناب كلّ ما ينافى هذه الأمور.

و طبعا لكلّ واحد من هذه الأحكام الشرعيّة شروح و شرائط مذكورة فى كتب مناسك الحجّ الفقهيّة.

۳- بعد ذلك تعقّب الآية و تبيّن المسائل المعنويّة للحجّ و ما يتعلّق بالإخلاص و تقول وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲

و هذا أوّل لطف إلهى يناله الصالحون، فالمرحلة الأولى من لذّة الإنسان المؤمن هى إحساسه بأنّ ما يعمله فى سبيل اللّه إنّما هو بعين اللّه، و يا لها لذّة.

و تضيف الآية: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى

هذه الآية أمرت بحمل الزاد. قيل: إن جماعة من أهل اليمن كانوا يحجّون دون أن يصحبوا معهم زادا للطريق، قائلين: نحن ضيوف اللّه و طعامنا عليه. و هذه الفقرة من الآية أمرت بحمل الزاد، لأن اللّه سبحانه هيّأ للجميع طعامهم بالطريق الطبيعية.

و الآية تشير فى الوقت نفسه إلى مسألة معنوية هى زاد التقوى، فهناك حاجة إلى زاد من نوع آخر هو «التقوى».

و العبارة تنطوى على توعية المسلمين بالنسبة لعطاء الحجّ المعنوى و تفتّح أبصارهم على ما فى ساحة الحجّ من معان عميقة تشدّ الإنسان بتاريخ الرسل و الأنبياء و بمشاهد تضحية إبراهيم بطل التوحيد، و بمظاهر عظمة اللّه سبحانه ممّا لا يوجد فى مكان آخر، و لا بدّ للحاج أن يستلهم من هذه الساحة زادا يعينه على مواصلة مسيرته نحو اللّه فيما بقى من عمره.

وَ اتَّقُونِ يا أُولِي الْأَلْبابِ ۴۲].

الحديث موجّه إلى أولى الألباب و العقول، و التركيز عليهم بانتهاج التقوى لأنهم هم القادرون على التزوّد كما ينبغى من العطاء التربوى لمناسك الحجّ، و الآخرون لا ينالون منها سوى المظاهر و القشور.

الآية التالية ترفع بعض الاشتباهات فى مسألة الحجّ و تقول لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳

لقد كان التعامل الاقتصادى بكافّة ألوانه محضورا فى موسم الحجّ عند الجاهليّين، و كانوا يعتقدون ببطلان الحجّ إذا اقترن بالنّشاط الاقتصادى، فالآية مورد البحث تعلن بطلان هذا الحكم الجاهلى و تؤكّد أنّه لا مانع من التعامل الاقتصادى و التّجارى فى موسم الحجّ، و تسمح بابتغاء فضل اللّه فى هذا الموسم عن طريق العمل و الكد.

و هذا النمط من التفكير كان سائدا فى العصر الجاهلى و نجده كذلك فى زماننا هذا و أنّ هذه العبادة العظيمة- يعنى الحجّ- يجب أن تكون خالصة من أيّة شوائب ماديّة، و لكن بما أنّ سائر العاملين فى هذا السبيل مضافا إلى الناس الّذين يقصدون بيت اللّه من بعيد الدّيار يمكنهم أن يحلّوا الكثير من مشاكلهم الاقتصاديّة فى سفر الحجّ هذا، و لهذا السبب أبطل القرآن الكريم هذا اللون من التفكير، و يحقّ لهؤلاء الأشخاص أن يأتوا بعبادة الحجّ و يؤدّوا مناسكه ضمن أداء خدماتهم الاخرى و لا يكونوا فى مضيقة من هذه الجهة، بل أنّ النصوص الإسلاميّة التى تتحدّث عن حكمة الحجّ تشير أيضا إلى الجوانب الاقتصادية إضافة إلى الجوانب الأخلاقية و السياسية و الثقافية، و توضّح أنّ سفر المسلمين من كلّ فجّ عميق إلى بيت اللّه الحرام اعقد مؤتمر الحجّ العظيم يستطيع أن يكون منطلقا لتحرّك اقتصادى عامّ فى المجتمعات الإسلامية. و ذلك يتحقّق باجتماع الأدمغة الاقتصادية الاسلامية المفكّرة قبل أداء المناسك أو بعده لوضع أسس اقتصاد سليم فى المجتمعات الإسلامية يقوم على أساس التعاون و التبادل الاقتصادى بين أبناء الأمّة الإسلامية، و الاستغناء عن الأجانب و الأعداء، و بلوغ المستوى الممكن اللائق من الاكتفاء الذاتى.

من هنا، فهذه المعاملات و المبادلات التجارية سبل لتقوية بنية المجتمع الإسلامى أمام أعداء الإسلام، ذلك لأنّ أىّ شعب من الشعوب لا يمكن أن ينال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴

استقلاله الكامل دون أن يقوم على أساس اقتصادى قوى، و لكن النشاط الاقتصادى فى موسم الحجّ ينبغى طبعا أن ينضوى تحت الأبعاد العبادية و الأخلاقية للحجّ، لا أن يقدّم و يهيمن عليها. و واضح أنّ الحجّاج لهم الوقت الكافى قبل أعمال الحجّ و بعده لمثل هذا النشاط.

يروى هشام بن الحكم أنّه سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام عن العلّة الّتى لأجلها كلّف اللّه العباد الحجّ و الطواف بالبيت، فقال «... فجعل فيه الاجتماع من الشرق و الغرب ليتعارفوا و لينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد و لينتفع بذلك المكارى و الجمّال ... و لو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم و ما فيها هلكوا و خربت البلاد و سقطت الجلب و الأرباح ...»

[۴۳] ثمّ تعطف الآية الشريفة على ما تقدّم من مناسك الحجّ و تقول فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرامِ وَ اذْكُرُوهُ

كَما هَداكُمْ وَ إِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ

ثمّ تقول الآية فى حديثها هذا: ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ فهذا المقطع يتضـمّن أمرا بالإفاضة أى بالاندفاع و الحركة من المشعر الحرام إلى أرض منى.

ففى نهاية الآية تعطى أمرا بالاستغفار و التوبة و تقول: وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ففى هـذا المقطع من الآيات إشارة إلى ثلاث مواقف من مواقف الحـجّ (عرفات) و هى صـحراء و تقع على بعد ۲۰ كيلومترا تقريبا من مكّة و يجب على الحجّاج أن يقفوا فى هذا المحل من ظهر يوم التاسع من ذى الحجّة إلى غروب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵

الشـمس فيشـتغلوا بالعبادة و الذكر، ثمّ الوقوف ب (المشـعر الحرام أو المزدلفة) حيث يبيتون هناك ليلة عيد الأضـحى و يبقون هناك إلى قبل طلوع الشـمس مشغولين بالدعاء و المناجاة مع اللّه تعالى، و الثالث أرض (منى) و هى محل ذبح الأضاحى و رمى الجمرات و حلّ الإحرام و أداء مناسك العيد.

بحوث

۱- أول موقف للحجيج

تقـدّم أنّ حجّاج بيت اللّه الحرام يتّجهون بعد أداء مناسك العمرة نحو أداء مناسك الحجّ، و أوّل موقف يقفون فيه هو فى «عرفات»، و هى صـحراء واسـعة تقع على بعد أربعة فراسخ من مكّة يقف فيها الحاج من ظهر يوم التاسع من ذى الحجّة حتّى غروب ذلك اليوم. و فى سبب تسمية هذه الأرض بهذا الاسم قيل: إنّ إبراهيم عليه السّلام قال حين أراه جبرائيل مناسك الحجّ: «عرفت، عرفت».

و قيل إن هـذه القصـة وقعت لآدم و حواء، و قيل أيضا أن آدم و حواء تعارفا فى هـذا المكان، و قيل أن حجاج بيت اللّه يتعارفون فيما بينهم فى هذا المكان، و تفسيرات أخرى ۴۴][۴۵].

و لا يبعـد أن تكون التسـمية إشارة إلى حقيقـة أخرى أيضا، و هى أن هـذه الأرض المشـرّفة التى تبـدأ منها أولى مراحل الحـجّ محيط مناسب جدّا لمعرفة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶

تعالى. و الحاجّ فى هذا الموقف يشعر حقّا بانشداد روحى و معنوى لا يمكن التعبير عنه بالكلمات.

الحجيج فى هذه الأرض القاحلة متجمّعو بشـكل واحد و بزىّ واحد، قد هربوا من بريق الحياة و زخرفها و صـخبها و ضجيجها و لا ذوا بهذه الأرض المشرّفة المفعمة بذكريات الرسالات السماوية، حيث يحمل نسيمها نداء جبرائيل و صوت الخليل و دعوة النبىّ الخاتم، و صحبه المجاهـدين. و تنطق أرضـها بصور الجهاد و التضـحية و الانقطاع إلى اللّه على مرّ التاريـخ. كأنّ هذه الأرض نافذة تشـرف على عالم ما وراء الطبيعـة، يرتوى فيها الإنسان من منهل العرفان، و ينساق مع تسبيـح الخليقة العام، بل يعود أيضا إلى ذاته التى انفصل عنها زمنـا طويلا- فيعرف نفسه، و يعرف أنّه ليس بـذلك الكـائن اللاـهث ليـل نهار وراء جمع الحطام و المتاع دون أن يرويه شـىء، بل إنّه جوهر آخر كان يجهله قبل الوقوف فى عرفات ... نعم إنّها «عرفات» و ما أجمل هذا الاسم! و ما أعمق مدلوله!

۲- المشعر الحرام- الموقف الثانى للحجيج

و بشأن تسمیة «المشعر الحرام» بهذا الاسم قیل: إنّه مرکز لشعائر الحجّ، و معلم من معالم هذه العبادة العظیمة.

و من المهمّ أن نفهم أنّ «المشعر» من مادة «الشعور»، ففی تلک اللیلة التاریخیة المثیرة «لیلة العاشر من ذی الحجّة» حیث حجّاج بیت اللّه الحرام قد أنهوا المرحلة الاولی من هذه الدورة التربویة فی عرفات و اندفعوا نحو المشعر الحرام لیقضوا لیلة یفترشون فیها الأرض و یلتحفون السماء، ضمن إطار أرض محدودة الأبعاد أشبه ما تکون- و هی تموج بآلاف الحجّاج- بأرض المحشر ...

فی مثل هذه الظروف الزمانیة و المکانیة ... و فی إطار الالتزام بالإحرام و واجباته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷

و محرّماته، تجیش فی النفس الإنسانیة «مشاعر» خاصّة تربط الإنسان بالملإ الأعلی و تحلق به فی أبعاد جدیدة سامیة ... و من هنا کانت تلک الأرض مشعرا.

۳- درس الوحدة و الاتحاد

جاء فی بعض الروایات الشریفة أن قبائل قریش کانت تری لنفسها مکانة دینیة خاصّة بین العرب، و کان أفرادها یسمّون أنفسهم «الحمس»[۴۶] و یرون أنّهم أبناء إبراهیم علیه السّلام و سدنة الکعبة، و لذلک کانوا یترفّعون علی بقیة القبائل العربیة.

و من هنا فإنهم ترکوا الوقوف فی عرفات لأنّها خارج الحرم المکّی، و ما کانوا یودّون أن یحترموا أرضا تقع خارج حرم مکّة، ظنّا منهم أنّ ذلک یقلّل من شأنهم بین قبائل العرب، مع علمهم بأنّ الوقوف فی عرفات من مناسک الحجّ الإبراهیمی ۴۷].

الآیة الکریمة تبطل کلّ هذه الأوهام و تأمر بوقوف الحجّاج جمیعا فی عرفات، ثمّ التحرک منها نحو المشعر الحرام، و من ثمّ الاتجاه إلی منی دون أن یکون لأحد امتیاز علی آخر ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ

الإفاضة التی تأمر بها الآیة هی الإفاضة من المشعر الحرام إلی منی، لأنّها جاءت بعد ذکر الإفاضة من عرفات إلی المشعر، و مسبوقة ب «ثمّ» التی تفید الترتّب الزمانی، و یکون مدلول الآیتین معا الأمر بالوقوف الجماعی بعرفات، ثمّ الإفاضة منها إلی المشعر الحرام، و من ثمّ إلی منی.

وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ

و الأمر بالاستغفار فی اختتام الآیة حثّ علی ترک تلک الأوهام و الأفکار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸

الجاهلیة، و الاتجاه نحو تعلّم دروس الحجّ فی المساواة، و إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

۴- ارتباط الآیات

قد یتساءل أحد عن الرّابطة بین قوله تعالی ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ و مسألة الوقوف بعرفات و الإفاضة منها إلی المشعر الحرام و ثمّ إلی منی الّتی وردت الآیة الشریفة منضمّة بعضها إلی بعض.

یمکن أن تکون الرّابطة هی الإشارة إلی هذه الحقیقة و هی أنّ السعی المادی و الاقتصادی إذا کان للّه و من أجل الحیاة الشریفة فیکون هذا نوع من العبادة حال مناسک الحجّ، أو أنّ حرکة و انتقال الحجّاج من مکّة إلی عرفات و منها إلی المواقف الاخری یستلزم عادة نفقات و خدمات کبیرة، فلو کان کلّ نوع من العلم و الکسب فی هذه الأیّام محرّم علی الحجّاج فمن الواضح أنّهم سیقعون فی حرج و مشقّة، فلهذا ذکرت الآیة الشریفة هذه العبارات منضمّة و متتالیة.

أو يقال إن المفهوم منها هو أنّ الآية تحذّر الحجّاج أن لا ينسيكم العمل و الكسب و سائر الفعاليّات الاقتصادية ذكر اللّه و التوجّه إليه و إدراك عظمته فى هذه المواقف الشريفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۰ الى ۲۰۲]

اشارة

فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ (۲۰۰) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (۲۰۱) أُولئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ (۲۰۲)

سبب النّزول

فى حديث الإمام الباقر عليه السّلام: إنّ الجاهليّين كانوا يعقدون الاجتماعات بعد موسم الحجّ يذكرون فيها مفاخرهم الموهومة الموروثة من آبائهم و يمجّدون أسلافهم.

و القرآن الكريم يؤكّد فى هذه الآيات أعلاه أنّ على المسلمين أن يذكروا اللّه تعالى و نعمه السّابغة بدل الخوض فى تلك الأباطيل و الأوهام و الافتخارات الوهميّة[۴۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰

و مثله ما أورده سائر المفسّرين عن ابن عبّاس و غيره أنّ أهل الجاهلية كانوا يعقدون مجالسا بعد الحجّ للتّفاخر بآبائهم و ذكر مفاخرهم أو أنّهم يجتمعون فى الأسواق كسوق (عكاظ، ذى المجاز، مجنّة) لم تكن هذه الأسواق مراكزا تجاريّة فحسب، بل أماكن لتلك المجالس الباطلة التى يجتمع فيها النّاس و يذكرون مفاخر أسلافهم ۴۹].

التّفسير

الحجّ رمز وحدة المسلمين:

هذه الآيات تواصل الأبحاث المتعلّقة بالحجّ فى الآيات السابقة، فالبرغم من أنّ أعراب الجاهلية ورثوا مناسك الحجّ بوسائط عديدة من إبراهيم الخليل عليه السّلام و لكنّهم خلطوا هذه العبادة العظيمة و البناءة و الّتى تعتبر ولادة ثانية لحجّاج بيت اللّه الحرام بالخرافات الكثيرة بحيث إنها خرجت من شكلها الأصلى و نسخت و تحوّلت إلى وسيلة للتفرقة و النّفاق.

الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً.

إنّ العزّة و العظمة يكملان بالارتباط فى اللّه تعالى لا بالارتباط الوهمى بالأسلاف، و ليس المراد من هذه العبارة أنّكم اذكروا أسلافكم و اذكروا اللّه كذلك، بل هو إشارة إلى هذه الحقيقة بأنّكم تذكرون أسلافكم من أجل بعض الخصال و المواهب الحميدة، فلما ذا لا تذكرون اللّه تعالى ربّ السموات و الأرض و الرازق و الواهب لجميع هذه النعم فى العالم و هو منبع و مصدر جميع الكمالات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱

و صفات الجلال و الجمال.

أمّا المراد من (ذکر اللّه) فی هـذه الآیـة فهناک أقوال کثیرة بین المفسّـرین، و لکنّ الظاهر أنّها تشـمل جمیع الأذکار الإلهیّـة بعـد أداء مناسـک الحـجّ، و فی الحقیقـة أنّه یجب شـکر اللّه تعالی علی جمیع نعمه و خاصّـة نعمـة الإیمان و الهدایـة إلی هـذه العبادة العظیمـة، فتکتمل الآثار التربویّة للحجّ بذکر اللّه.

بعد ذلک یوضّح القرآن طبیعة مجموعتین من الناس و طریقة تفکیرهم.

مجموعة لا تفکّر إلّا بمصالحها المادیّة و لا تتجّه فی الدعاء إلی اللّه إلّا من هذه المنطلقات المادیّة فتقول فَمِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ۵۰].

و المجموعة الثانیة تتحدّث عنهم الآیة بقولها وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ رَبَّنا آتِنا فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَ قِنا عَذابَ النَّارِ.

و هـذه الفقرات من الآیات محل البحث تشـیر إلی هاتین الطائفتین و أنّ الناس فی هـذه العبادة العظیمة علی نوعین، فبعض لا یفکر إلّا بالمنافع المادیّة الدنیویّة و لا یرید من اللّه سواها، فمن البدیهی أنّه یبقی له شیء فی الآخرة.

و لکنّ الطائفة الثانیة اتسعت آفاقهم الفکریّة فاتجّهوا إلی طلب السّعادة فی الدنیا باعتبارها مقدّمة لتکاملهم المعنوی و طلب السّعادة فی الآخرة، فهـذه الآیـة الکریمة توضّح فی الحقیقة منطق الإسـلام فی المسائل المادیّة و المعنویّة و تدین الغارقین فی المادیّات کما تدین المنعزلین عن الحیاة.

أمّا ما المراد من (الحسنة)؟ فهناک تفاسیر مختلفه لها،

فقد ورد فی الروایة عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الحسنة: (إنّها السّعة فی الرّزق و المعاش و حس الخلق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲

فی الدنیا و رضوان اللّه و الجنّة فی الآخرة)

[۵۱].

و لکنّ بعض المفسّرین ذهبوا إلی أنّها تتضمّن معنی العلم و العبادة فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، أو المال فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، أو الزوجة الصالحة فی الدنیا و الجنّة فی الآخرة، و

قد ورد عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم هذه المعانی (من أوتی قلبا شاکرا و لسانا ذاکرا و زوجة مؤمنة تعینه علی أمر دنیاه و أخراه فقد أوتی فی الدنیا حسنة و فی الآخرة حسنة و وقی عذاب النار)[۵۲].

و واضـح أنّ تفسـیر الحسـنة هـذا له مفهوم واسع بحیث یشـمل جمیع المواهب المادیّـة و المعنویّـة، و مـا ورد فی الروایـة أعلاه أو فی کلمات المفسّـرین فهو بیان لأبرز المصادیق لا حصـر الحسـنة بهـذه المصادیق، فما تصوّره بعض المفسّـرین من أنّ الحسـنة الواردة فی الآیة بصورة المفرد النکرة لا تشـمل علی کلّ خیر، و لهذا وقع الاختلاف فی مصداقها بین المفسّـرین ۵۳]، إنّما هو اشتباه محض، لأنّ المفرد النکرة تارة یأتی بمعنی الجنس و مورد الآیة ظاهرا من هذا القبیل، فالمؤمنون- کما ذهب إلیه بعض المفسّرین- یطلبون من اللّه تعالی أصل الحسنة بدون أن ینتخبوا لها مصداقا من المصادیق، بل یوکلون هذا الأمر إلی مشیئته و إرادته و فضله تعالی ۵۴].

و فی آخر آیـة إشارة إلی الطائفـة الثانیـة (الّذین طلبوا من اللّه الحسـنة فی الدنیا و الآخرة) فتقول أُولئِکَ لَهُمْ نَصِیبٌ مِمَّا کَسَبُوا وَ اللَّهُ سَرِیعُ الْحِسابِ

و فی الحقیقة هذه الآیة تقع فی النقطة المقابلة للجملة الأخیرة من الآیة السابقة وَ ما لَهُ فِی الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳

و احتمل البعض أنّها تتعلّق بكلا الطائفتين، فالطائفة الاولى يتمتّعون بالنعم و المواهب الدنيويّة، و الطائفة الثانية يتمتّعون بخير الدنيا و الآخرة كما ورد ما يشبه هذه الآيات فى سورة الإسراء الآية ۱۸ إلى ۲۰ حيث يقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً.

و لكنّ التفسير الأوّل منسجم مع الآيات مورد البحث أكثر.

عبارة (نصيب) مع أنّها جاءت بصورة نكرة، و لكنّ القرائن تدلّ على أنّ النكرة هنا لبيان العظمة، و التعبير بقوله مِمَّا كَسَبُوا ليست إشارة إلى قلّة النصيب و الثواب و الجزاء، لأنّه من الممكن أن تكون (من) ابتدائيّة لا تبعيضيّة.

أمّا التعبير بقوله (كسب) فى جملة (ممّا كسبوا) فتعنى- كما ذهب إليه كثير من المفسّرين- الدّعاء لطلب خير الدنيا و الآخرة، فاختيار هذا التعبير قد يكون إشارة إلى نكتة لطيفة و هو أنّ الدعاء بذاته يعتبر من أفضل العبادات و الأعمال، و من خلال التحقيق فى عشرات الآيات الواردة فى القرآن المجيد فى مادّة «كسب» و مشتقاتها يستفاد جيّدا أنّ هذه المفردة تستعمل أيضا لغير الأعمال الجسميّة أيضا، أى الأعمال القلبيّة و الروحيّة كما ورد فى الآية ۲۲۵ من سورة البقرة وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ

فلا عجب أن يكون الدّعاء إذا نوع من الكسب و الاكتساب و خاصّة إذا لم يكن الدعاء باللّسان فقط بل مقترن بجميع وجود الإنسان.

أمّا جملة وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ الواردة فى الفقرة الأخيرة من الآية فإنّها تشير إلى سرعة حساب اللّه تعالى لعباده، فإنّه يجازى بالثواب و العقاب نقدا و بدون تأخير،

فقد ورد فى الحديث الشريف (إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴

فى مقدار لمح البصر)

[۵۵].

و هذا لأنّ علم اللّه ليس كعلم المخلوقات المحدود حيث يشغلها موضوع عن موضوع آخر.

إضافة إلى ذلك أنّ محاسبة اللّه لا ينبغى أن تستلزم زمانا، لأنّ أعمالنا ذات آثار باقية فى جسم و روح الموجودات المحيطة بنا و فى الأرض و أمواج الهواء، فالإنسان يشبه من هذه الجهة السّيارات المجهّزة بقياس السرعة و المسافة حيث تقرأ فيها كلّ لحظة مقدار عملها و سيرها و لا يحتاج بعدها إلى كتاب لحساب المسافات الّتى طوتها السيّارة طيلة عمرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۰۳]

اشارة

وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۰۳)

التّفسير

آخر كلام عن الحجّ:

هـذه الآيـة فى الحقيقـة آخر آيـة وردت فى بيان مناسك الحـجّ و إبطال السّـنن الجاهليّـة فى المفاخرات الموهومة بالنسـبة للأسـلاف فتوصى المسلمين (بعد مراسم العيد) أن يذكروا اللّه تعالى وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ

و مع الأخـذ بنظر الاعتبار أن هـذا الأمر بقرينة الآيات السابقة ناضـرة إلى الأيّام الحادى عشـر و الثانى عشـر و الثالث عشـر الّتى تسـمّى بلسان الروايات (أيّام التشريق) و يتّضح من اسم هذه الأيّام أنّها فترة إشراق الرّوح الإنسانية فى ظل تلك المناسك العظيمة.

و فى الآية ۲۸ من سورة الحجّ ورد الأمر بذكر اللّه فى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ و هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶

وردت عبـارة فى أَيَّامٍ مَعْـدُوداتٍ فالمعروف هو أنّ الأيّام المعلومات تعنى العشـرة الأيّام من بدايـة ذى الحجّـة، و أما (أيّام معـدودات) فالمراد بها أيّام التشـريق المذكورة آنفا، و لكنّ بعض المفسّرين أورد احتمالات أخرى غير ذلك فى شرح الآية ۲۸ من سورة الحجّ، و سيأتى فى شرح الآية ۲۸ من سورة الحجّ ۵۶].

أمّا المراد من (أذكار)

فقد ورد فى الأحاديث الإسـلاميّة أنّها تعنى تلاوة التكبيرات التالية بعد خمسة عشر صلاة فى هذه الأيّام (ابتداء من صلاة الظهر من يوم العيد حتّى صـلاة الصـبح من اليوم الثالث العشر) و هى (اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر و للّه الحمد، اللّه أكبر على ما هدانا اللّه أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام).

ثمّ تشـير الآيـة إلى هـذا الحكم الشـرعى فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقى و هـذا التعبير بالحقيقة إشارة إلى نوع من التخيير فى أداء ذكر اللّه بين يومين أو ثلاثة أيّام.

و جملـة (لمن أتقى) ظاهرا قيـد للتعجيل فى اليومين، أى لا إثم على من تعجّل و اختار اليومين أو الثلاثـة، و هذا التعجيل يختص بمثل هؤلاء الأشخاص.

و جـاء فى روايـات أهل البيت عليهم السّـلام أنّ المراد من التقوى هنا هى تجنّب الصـيد، أى أنّ الأشـخاص حين الإحرام يجب عليهم تجنّب الصـيد أو جميع تروك الإحرام، فيمكنهم البقاء بعد عيد الأضحى يومين فى منى و لأداء مناسكهم و ذكر اللّه تعالى، أمّا من لم يتّق فيجب عليه البقاء ثلاثة أيّام هناك لأداء المراسم العباديّة و ذكر اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷

و ذهب البعض إلى أنّ جملـة (لا إثم عليه) إشـارة إلى نفى كلّ إثم و ذنب عن زوّار بيت اللّه الحرام، أى أنّ الحاج بعـد أداء مناسـكه عن ايمـان و إخلاص و وعى يغفر له ما تقـدّم من ذنبه و تزول رواسب المعاصـى و أدران الـذنوب من قلبه و نفسه، و يخرج من هـذه العبادة التربويّة خالصا طاهرا نقيّا.

فمع أنّ هذا المعنى صحيح بذاته، إلّا أنّ ظاهر الآية ينسجم مع المعنى الأوّل أكثر.

و فى نهايـة الآيـة نلاحـظ أمرا كليّا بـالتّقوى حيث تقـول الآيـة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فعلى أحـد هـذين التفسـيرين المـذكورين آنفـا يمكن أن تكون هـذه الجملـة إشارة إلى أنّ المناسك الروحانيّـة فى الحـجّ تطهّر الإنسان من الـذنوب السّابقـة كيوم ولدته امّه، و لكن عليكم تقوى اللّه و الحذر من الوقوع فى الذنب مرّة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۴ الى ۲۰۶]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ (۲۰۴) وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ (۲۰۵) وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ (۲۰۶)

سبب النّزول

ذكر فى سبب نزول هذه الآيات أمران:

۱- أنّ هذه الآيات نزلت فى (الأخنس) بن شريف) و كان رجلا و سيما عذب البيان يتظاهر بالإسلام و حبّ الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان كلّما جلس عند النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أقسم باللّه على إيمانه و حبّه للرّسول، و كان الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم يغدق عليه من لطفه و حبّه كما هو مأمور به، و لكنّ هذا الشخص كان منافقا فى الباطن و فى حادثة نزاع بينه و بين بعض المسلمين هجم عليهم و قتل أحشامهم و أباد زرعهم (و بهذا أظهر ما فى باطنه من النّفاق)[۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹

۲- و من المفسّرين من نقل عن ابن عباس أنّ الآية المذكورة نزلت فى سريّة (الرجيع) حيث بعث رسول اللّه مجموعة من الدعاة إلى القبائل المتوطّنة أطراف المدينة، فدبّرت لهم مؤامرة لئيمة استشهدوا فيها[۵۸].

و لكنّ سبب النّزول الأوّل أكثر انسجاما مع مضمون الآيات، و على أىّ حال فالدرس الّذى تقدّمه الآية عام و شامل.

التّفسير

مصير المفسدين فى الأرض:

الآية الاولى تشير إلى بعض المنافقين حيث تقول وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يُشْهِدُ اللَّهَ عَلى ما فِي قَلْبِهِ وَ هُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ

(ألد) تأتى بمعنى ذو العداوة الشديدة، و أصلها من (لديد) التى يراد بها طرفى الرقبة و كناية عن الشخص الّذى يغلب الأعداء من كلّ جانب، و (خصام) لها معنى مصدرى و هو الخصومة و العداوة.

ثمّ تضيف الآية التالية بعض العلامات الباطنيّة لعداوة مثل هذا الإنسان و هى:

وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ.

أجل، فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يفضح هؤلاء و يكشف سريرتهم، لأنّ هؤلاء لو كانوا صادقين فى إيمانهم و إظهارهم المحبّة لما أفسدوا فى الأرض مطلقا و لما اعتدوا على مزارع الناس و أغنامهم بدون رحمة أو شفقة، فبالرّغم من أنّ ظاهرهم المحبّة الخالصة إلّا أنّهم فى الباطن أشدّ الناس قساوة و وحشيّة.

و احتمل كثير من المفسّرين أنّ المراد بقوله (إذا تولّى) أى إذا حكم، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰

التولّى من الولاية بمعنى الحكومة، فيكون معنى الولاية حينئذ أنّ المنافقين إذا حكموا فى الأرض أهلكوا الحرث و النسل و أشاعوا الظلم بين عباد اللّه، و بسبب ظلمهم و جورهم تهلك الماشية و تتعرّض أموال و نفوس الناس للخطر[۵۹].

(حرث) بمعنى الزّراعة، (نسل) بمعنى الأولاد، و تطلق أيضا على أولاد الإنسان و غير الإنسان، فعلى هذا يكون إهلاك الحرث و النسل بمعنى إتلاف كلّ الموجودات الحيّة أعمّ من الأحياء النباتيّة و الحيوانيّة و الإنسانيّة.

و ذكر لمعنى الحرث و النسل تفاسير اخرى منها: أنّ المراد بالحرث هو النساء بقرينة الآية الشريفة نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ۶۰] و المراد بالنسل هم الأولاد، أو يكون المراد من الحرث هنا الدين و العقيدة و النسل الناس (و هذا التفسير هو الوارد فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام المذكور فى مجمع البيان).

و على كلّ حال فإنّ التعبير يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ النَّسْلَ كلام مختصر و جامع لكلّ المصاديق حيث يشمل الإفساد و التخريب بالنسبة للأموال و النفوس فى المجتمع البشرى.

و الآية الاخرى تضيف وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۶۱] فتشتعل فى قلبه نيران التعصّب و اللّجاج و تجرّه إلى المعصية و الإثم.

فمثل هذا الشخص لا يستمع إلى نصيحة النّاصحين و لا يهتم للإنذارات الإلهيّة، بل يستمر على عناده و ارتكابه للآثام و المنكرات مغرورا، فلا يكون جزاءه إلّا النار، و لذلك يقول فى نهاية الآية فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱

و فى الحقيقة أنّ هذه هى أحد الصّفات القبيحة و الذّميمة للمنافقين حيث أنّهم لا يستسلمون للحقّ بسبب التعصّب و التحجّر و قساوة القلب، و هذه الصفات الذّميمة تبلغ بصاحبه إلى أعلى درجات الإثم، فمن البديهى أنّ مثل هذه الأخشاب اليابسة المنحرفة لا تستقيم إلّا بنار جهنّم.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ اللّه عزّ و جلّ وصف هؤلاء الأشخاص بخمس صفات فى الآيات المذكورة آنفا، الاولى: أنّ كلامهم يخدع الإنسان، الثانية: أنّ قلوبهم ملوّثة و مظلمة، الثالثة: أنّهم ألدّ الأعداء، الرّابعة: أنّهم إذا سنحت الفرصة فلا يرحمون أحدا من الإنسان و الحيوان و الزرع، الخامسة: أنّهم و بسبب الغرور و التكبّر لا يقبلون ايّة نصيحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۰۷]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۲۰۷)

سبب النّزول

روى «الثعلبى» مفسّر أهل السنّة المعروف فى تفسيره أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا أراد الهجرة إلى المدينة خلّف على بن أبى طالب بمكة لقضاء ديونه و أداء الودائع التى كانت عنده و أمره ليلة خروجه من الدّار و قد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه و

قال له: اتّشح ببردى الحضرمى الأخضر و نم على فراشى و إنّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء اللّه تعالى. ففعل ذلك على ، فأوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل و ميكائيل إنّى آخيت بينكما و جعلت عمر أحدكما أطول من الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة فأوحى اللّه تعالى إليهما: أ فلا كنتما مثل على بن أبى طالب آخيت بينه و بين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه و يؤثره بالحياة انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه.

فنزلا فكان جبرئيل عند رأسه و ميكائيل عند رجليه و جبرئيل ينادى بخّ بخّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳

من مثلك يا على يباهى اللّه تبارك و تعالى بك الملائكة، فأنزل اللّه على رسوله و هو متوجّه إلى المدينة فى شأن على الآية.
و لهذا سمّيت هذه اللّيلة التاريخية بليلة المبيت، و يقول ابن عباس نزلت الآية فى على حين هرب رسول اللّه من المشركين إلى الغار مع أبى بكر و نام على على فراش النبى.
و يقول (أبو جعفر الإسكافى) كما جاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلّد (۳) الصفحة (۲۷۰) «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة»[۶۲].

التّفسير

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۷۳

التضحيّة الكبرى فى دولة الهجرة التاريخيّة:

بالرّغم من أنّ الآية محل البحث تتعلّق كما ورد فى سبب النزول بحادثة هجرة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تضحية الإمام على و مبيته على فراش النبى، و لكنّ مفهومها و محتواها الكلّى- كما فى سائر الآيات القرآنية- عامّ و شامل، و فى الحقيقة أنّها تقع فى النقطة المقابلة للآيات السابقة الّتى تتحدّث عن المنافقين.
تقول الآية وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ.
الطائفة السّابقة الّتى تحدّثنا عنها هى مجموعة من الأشخاص المعاندين و المغرورين و الأنانيّين الّذين يحاولون أن يحقّقوا لهم بين المجتمع عزّة و كرامة
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴
عن طريق النفاق و يتظاهرون بالإيمان بأقوالهم بينما أعمالهم ليس فيها سوى الإفساد فى الأرض و إهلاك الحرث و النسل.
أما هذه الطائفة الثّانية فتعاملهم مع اللّه وحده حيث يقدّمون أرواحهم رخيصة فى سبيله، و لا يبتغون سوى رضاه، و لا يطلبون عزّة و رفعة الّا باللّه، و بتضحيات هؤلاء يصلح أمر الدّين و الدنيا و يستقيم شأن الحقّ و الحقيقة و تصفو حياة الإنسان و تثمر شجرة الإسلام.
و من هنا يتّضح أنّ جملة وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ بمثابة النقطة المقابلة لما ورد فى الآية السابقة عن المنافقين المفسدين فى الأرض فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ و قد تكون إشارة إلى أن اللّه عزّ و جلّ فى الوقت الّذى هو رحيم و رؤوف بالعباد هو الّذى يشرى الأنفس بأغلى الأثمان و هو رضوان اللّه تعالى عن الإنسان.
و ممّا يستلفت النظر أنّ البائع هو الإنسان، و المشترى هو اللّه تعالى، و البضاعة هى النفس، و ثمنها هو رضوان اللّه تعالى، فى حين نرى فى موارد اخرى أنّ ثمن مثل هذه المعاملات هو الجنّة الخالدة و النجاة من النار، من قبيل قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ ۶۳].
و لعلّه لهذا السبب كانت (من) فى الآية مورد البحث تبعيضية (و من الناس)، يعنى أنّ بعض الناس يستطيعون أن يقوموا بمثل هذه الأعمال الخارقة بحيث لا يطلبون عوضا عن أرواحهم و أنفسهم سوى رضوان اللّه تعالى، و أمّا فى الآية (۱۱۱) من سورة التوبة التى

ذكرناها سابقا رأينا أنّ جميع المؤمنين قد دعوا إلى التعامل و التجارة مع اللّه تعالى فى مقابل الجنّة الخالدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵

و يحتمل أيضا فى تفسير جملة وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ و تناسبها مع بداية هذه الآية أنّ المراد هو بيان هذه الحقيقة أنّ وجود مثل هؤلاء الأفراد بين الناس لطف من اللّه سبحانه و رأفة بعباده، إذ لو لم يكن بين الناس مثل هؤلاء الأفراد المضحّين المتفانين مقابل تلك العناصر الخبيثة لانهدمت أركان الدّين و المجتمع، لكنّ اللّه سبحانه بفضله و منّه يدفع بهؤلاء الصّديقين الأولياء خطر أولئك الأعداء.

فعلى أىّ حال، فهذه الآية و مع الالتفات إلى سبب النزول المذكور آنفا تعدّ أعظم الفضائل لإمام على عليه السّلام الواردة فى اكثر المصادر الإسلامية، و كانت فى صدر الإسلام من الوضوح بين المسلمين بحيث دعت معاويه العدو اللّدود للإمام على عليه السّلام أن يرشى (سمرة بن جندب) بأربعمائة ألف درهم كى يروى حديثا مختلطا ينسب فيه فضيلة هذه الآية إلى عبد الرحمن ابن ملجم، و قد اختلق هذا المنافق الجانى هذه الفرية، و لكنّ أحدا لم يقبل منه حديثه المجعول ۶۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۰۸ الى ۲۰۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۰۸) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۰۹)

التّفسير

السّلام العالمى فى ظلّ الإسلام:

بعد الإشارة إلى الطائفتين (المؤمنين المخلصين و المنافقين المفسدين) فى الآيات السابقة تدعو هذه الآيات الكريمة كلّ المؤمنين إلى السّلم و الصلح و تقول:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.

(سلم) و (سلام) فى اللّغة بمعنى الصّلح و الهدوء و السكينة، و ذهب البعض إلى تفسيرها بمعنى الطّاعة، فتدعوا هذه الآية الكريمة جميع المؤمنين إلى الصلح و السّلام و التسليم إلى أوامر اللّه تعالى، و يستفاد من مفهوم هذه الآية أنّ السّلام لا يتحقّق إلّا فى ظلّ الإيمان، و أنّ المعايير و المفاهيم الأرضيّة و الماديّة غير قادرة على إطفاء نار الحروب نار الحروب فى الدنيا، لأنّ عالم المادّة و التعلّق به مصدر جميع الاضطرابات و النّزاعات دائما، فلو لا القوّة المعنويّة للايمان لكان الصّلح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷

مستحيلا، بل يمكن القول أنّ دعوة الآية العامّة لجميع المؤمنين بدون استثناء من حيث اللّغة و العنصر و الثروة و الإقليم و الطبقة الاجتماعيّة إلى الصّلح و السّلام يستفاد منها أنّ تشكيل الحكومة العالميّة الواحدة فى ظل الإيمان باللّه تعالى و العيش فى مجتمع يسوده الصّلح ممكن فى إطار الدولة العالميّة.

واضح أنّ الاطر الماديّة الأرضيّة (من اللّغة و العنصر و ...) هى عوامل تفرقة بين أفراد البشر و بحاجة إلى حلقة اتّصال محكمة تربط بين قلوب النّاس، و هذه الحلقة ليست سوى الإيمان باللّه تعالى الّذى يتجاوز كلّ الاختلافات، الإيمان باللّه و اتّباع أمره هو النقطة و

المحور لوحدة المجتمع الإنسانى و رمز ارتباط الأقوام و الشّعوب، و يمكن رؤية ذلك من خلال مناسك الحجّ الّذى يعتبر نموذجا بارزا إلى اتّحاد الأقوام البشريّة بمختلف ألوانها و قوميّتها و لغاتها و أقاليمها الجغرافيّة و أمثال ذلك حيث يشتركون فى المراسم العبادية الروحانيّة فى منتهى الصّلح و الصّفاء، و بمقايسة سريعة بين هذه المفاهيم و الأنظمة الحاكمة على الدول الفاقدة للإيمان باللّه تعالى و كيف أنّ الناس يفتقدون فيها إلى الأمان النفسى و المالى و يخافون على اعراضهم و نواميسهم يتّضح لنا التفاوت بين المجتمعات المؤمنة و غير المؤمنة من حيث الصّلح و الأمان و السّلام و الطمأنينة.

و يحتمل أيضا فى تفسير الآية أنّ بعض أهل الكتاب (اليهود و النصارى) عند ما يعتنقون الإسلام يبقون أوفياء لبعض عقائدهم و تقاليدهم السابقة، و لهذا تأمر الآية الشريفة أن يعتنقوا الإسلام بكافّة وجودهم و يخضعوا و يسلّموا لجميع أحكامه و تشريعاته ۶۵]. ثمّ تضيف الآية وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ و قد مرّ بنا فى تفسير الآية (۱۶۸) من هذه السورة الإشارة إلى أنّ كثير من الانحرافات و وساوس الشيطان تحدث بصورة تدريجيّة على شكل مراحل حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸

يسمّيها القرآن (خطوات الشيطان).

(خطوات) جمع «خطوة» و هنا تكرّرت هذه الحقيقة من أنّ الانحراف عن الصلح و العدالة، و التسليم لإرادة الأعداء و دوافع العداوة و الحرب و سفك الدماء يبدأ من مراحل بسيطة و ينتهى بمراتب حادّة و خطرة كما فى المثل العربى المعروف (إنّ بدو القتال اللّطام).

فتارة تصدر من الإنسان حركة بسيطة عن عداء و حقد و تؤدّى إلى الحرب و الدّمار، و لهذا تخاطب الآية المؤمنين أن يلتفتوا إلى نقطة البداية كى لا تؤدّى شرارات الشرّ الاولى الاشتعال لظى المعارك و الحروب.

و جدير بالذّكر أنّ هذا التعبير ورد فى القرآن الكريم خمس مرّات و فى غايات مختلفة.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ (عبد اللّه بن سلام) و أتباعه الذين كانوا من اليهود و أسلموا طلبوا الإذن من رسول اللّه بقراءة التوراة فى الصلاة و العمل ببعض أحكامها، فنزلت الآية الآنفة الذكر و نهت هؤلاء عن إتّباع خطوات الشيطان ۶۶].

و من شأن النزول هذا يتبيّن أنّ الشيطان ينفذ فى فكر الإنسان و قلبه خطوة خطوة، فيجب التصدّى للخطوات الاولى لكيلا تصل إلى مراحل خطرة.

و تتضمّن جملة إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ برهانا و دليلا حيّا حيث تقول إنّ عداء الشيطان للإنسان ليس بأمر خفى مستتر، فهو منذ بداية خلق آدم أقسم أن يبذل جهده لإغواء جميع البشر إلّا المخلصين الّذين لا ينالهم مكر الشيطان، فمع هذا الحال كيف يمكن تغافل و سوسة الشيطان.

الآية التالية إنذار لجميع المؤمنين حيث تقول فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْكُمُ الْبَيِّناتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فلو انحرفتم و سرتم مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۹

وساوس الشيطان على خلاف مسار الصلح و السلام فإنّكم لا تستطيعون بذلك الفرار من العدالة الإلهيّة.

المنهج بيّن و الطريق بيّن و الهدف بيّن، و معلوم من هنا لا عذر لمن يزل عن الطريق، فلو انحرفتم فأنتم المقصّرون، فاعلموا أنّ اللّه قادر حكيم لا يستطيع أحد أن يفرّ من عدالته.

(بيّنات) بمعنى الدلائل الواضحة، و لها مفهوم واسع يستوعب الدلائل العقليّة، و كذلك ما يتّضح للإنسان عن طريق الوحى أو المعجزات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۰]

اشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۲۱۰)

التّفسير

توقّع غير معقول:

قد يبدو للوهلة الاولى أنّ فى هذه الآية الكريمة نوعا من الإبهام و التعقيد، لكنّ ذلك يزول عند إمعان النظر بتعبيراتها.

الآية تخاطب الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول معقبّة على الآيات السابقة: أ ليست كلّ هذه الدلائل و الآيات و الأحكام الواضحة كافية لصدّ الإنسان عن الهلكة و انقاذه من براثين عدوّه المبين (الشيطان)، هل ينتظرون أن يأتى اللّه إليهم مع الملائكة فى وسط الغمامة و يطرح عليهم من الآيات و الدلائل أوضح ممّا سبق، و إنّ ذلك محال، و على فرض كونه غير محال فإنّه لا ضرورة لذلك: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَ الْمَلائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ[۶۷].

أمّا ما هو المراد من «قضى الأمر» الوارد فى الآية؟

ذهب المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان أنّ معناها انتهاء حساب البشر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۱

يوم القيامة و دخول أهل الجنّة إلى الجنّة و أهل النّار إلى النّار، و على هذا الأساس فالآية ناظرة إلى الآخرة فى حين أنّ ظاهر الآية يتعلّق بهذه الحياة الدنيا، و لهذا فليس من البعيد أن تكون هذه الآية إشارة إلى نزول العذاب الإلهى على الكفّار المعاندين، و قد ورد فى هذا المعنى فى كلام الطبرسى و غيره من المفسّرين بعنوان أحد الاحتمالات.

و يمكن أن يكون المعنى إشارة إلى انتهاء مأموريّة التبليغ و بيان الحقائق الواردة فى الآية السابقة بعنوان (بيّنات)، و بهذا يكون انتظار و توقع هؤلاء بلا معنى، فعلى فرض المحال إمكانيّة حضور اللّه تعالى و الملائكة أمامهم فلا حاجة إلى ذلك كما ذكرنا، لأنّ مستلزمات الهداية قد وضعت أمامهم بالقدر الكافى، و بناء على هذا التفسير لا يوجد فى الآية أى تقدير، و الألفاظ بعينها قد فسّرت، و بهذا يكون الاستفهام الوارد فى الآية استفهاما إنكاريّا.

و هناك من المفسّرين من لم ير الاستفهام فى الآية استنكاريّا، و اعتبره نوعا من التهديد للمذنبين و لأولئك السائرين على خطى الشيطان، سواء كان التهديد بعذاب الآخرة أو الدنيا، و لهذا فهم يقدّرون قبل كلمة «اللّه» كلمة (أمر) فيكون المعنى حينئذ: (أ يريد هؤلاء بأعمالهم هذه أن يؤتيهم أمر اللّه و ملائكته لمعاقبتهم و تعذيبهم و لينالوا عذاب الدنيا أو الآخرة و ينتهى أمرهم و أعمالهم).

و لكنّ التفسير المذكور أعلاه أنسب المعانى لهذه الآية ظاهرا و لا حاجة إلى التقدير.

و الخلاصة أنّ لهذه الآية ثلاثة تفاسير:

۱- أنّ المراد هو أنّ اللّه تعالى قد أتمّ حجّته بمقدار كاف، فلا ينبغى للمعاندين توقّع أن يأتيهم اللّه و الملائكة أمامهم و يبيّنوا لهم الحقائق، لأنّ هذا أمر محال و على فرض أنّه غير محال لا حاجة لذلك.

۲- المراد هو أنّ هؤلاء مع عنادهم و عدم إيمانهم هل ينتظرون الأمر الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۲

بإنزال العذاب و ملائكة العذاب عليهم فيهلكوا عن آخرهم.

۳- المراد أنّ هؤلاء بهذه الأعمال هل ينتظرون قيام السّاعة ليصدر الأمر إلى الملائكة بتعذيبهم و ينالوا جزاءهم العادل؟[۶۸] التعبير ب

(ظلل من الغمام) بناء على التفسير الثانى و الثالث الّذى ذهب إليه الكثير من المفسّرين إشارة إلى أنّ العذاب الإلهى يأتى فجأة كالسّحاب الّذى يظلّلهم و خاصّة أنّ الإنسان إذا رأى السّحاب يتوقّع أمطار الرّحمة، فعند ما يأتى العذاب بصورة الصاعقة و أمثال ذلك و ينزل عليهم فسيكون أقسى و أشدّ إيلاما (مع الالتفات إلى أنّ عذاب بعض الأقوام السّالفة نزل عليهم بصورة صاعقة من الغمام)[۶۹].

أمّا على أساس التفسير الأوّل فقد يكون إشارة إلى عقيدة الكفّار الخرافيّة حيث يظنّون أنّ اللّه تعالى ينزل أحيانا من السّماء و السّحاب تظلّله ۷۰].

و فى نهاية الآية تقول وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ الأمور المتعلّقة بإرسال الأنبياء و نزول الكتب السماويّة و تبيين حقائق يوم القيامة و الحساب و الجزاء و الثواب و العقاب و كلّها تعود إليه.

بحث

استحالة رؤية اللّه:

لا شكّ أنّ الرّؤية الحسيّة لا تكون إلّا للأجسام الّتى لها لون و مكان و تأخذ حيّز من الفراغ، فعلى هذا لا معنى لرؤية اللّه تعالى الّذى هو فوق الزمان و المكان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۳

إنّ الذات المقدّسة يستحيل رؤيتها بهذه العين لا فى الدّنيا و لا فى الآخرة، و الأدلّة العقليّة على هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّه لا حاجة لشرحها و بيانها، و لكن مع ذلك فإنّ طائفة من علماء أهل السّنة و مع الأسف يستندون على بعض الأحاديث الضعيفة و عدد من الآيات المتشابهة على إمكان رؤية اللّه تعالى يوم القيامة بهذه العين الماديّة، و إنّه سيكون له قالب جسمانى و لون و مكان، و بعضهم يرى أنّ الآية مورد البحث ناظرة إلى هذا المعنى، فلعلّهم لم يلتفتوا إلى مدى المفاسد و المشكلات المترتّبة على هذا القول.

و طبعا لا شكّ فى إمكانيّة رؤية اللّه تعالى بعين القلب، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم آخر، و من المسلّم أنّ ذاته المقدّسة فى يوم القيامة لها ظهور أقوى و أشد من ظهورها فى هذا العالم ممّا يستدعى أن تكون المشاهدة أقوى،

و فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب من سأله هل يمكن مشاهدة اللّه يوم القيامة؟ فقال: «... إنّ الأبصار لا تدرك إلّا ما له لون و كيفيّة و اللّه تعالى خالق الألوان و الكيفيّة»

[۷۱].

و قد أوردنا أبحاثا فى عدم إمكانيّة رؤية اللّه تعالى فى الدنيا و الآخرة فى ذيل الآيات المربوطة، منها فى ذيل آية (۱۰۳) من سورة الأنعام لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ و ذكرنا بحثا آخر أكثر تفصيلا فى المجلّد الرابع من (نفحات القرآن) فراجع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۱]

اشارة

سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۱۱)

التّفسير

تبديل نعمة اللّه بالعذاب الأليم:

تشير هذه الآية إلى أحد مصاديق الآيات السابقة، لأنّ الحديث فى الآيات السابقة كان يدور حول المؤمنين و الكافرين و المنافقين، و أنّ الكافرين كانوا يتجاهلون آيات اللّه و براهينه الواضحة و يتذرّعون بمختلف الحجج و المعاذير، و بنى إسرائيل مصداق واضح لهذا المعنى، و تقول الآية: سَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ كَمْ آتَيْناهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ.

و لكنّهم تجاهلوا و تغافلوا عن هذه الآيات و العلائم الواضحة و أنفقوا المواهب الإلهيّة و النعم الربانية فى أساليب مذمومة و منحرفة، ثمّ تقول الآية وَ مَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

و المراد من (تبديل النعمة) هو استخدام الإمكانات و الطّاقات و المصادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۵

الماديّة و المعنويّة الموهوبة على طريق تخريبى انحرافى و ممارسة الظلم و الطغيان، فقد وهب اللّه سبحانه و تعالى مواهب كثيرة لبنى إسرائيل من قبيل الأنبياء و القادة الشجعان و الإمكانات الماديّة الكثيرة، و لكنّهم لم ينتفعوا من أنبياءهم الإلهيّين، و لا استفادوا من المواهب الماديّة استفادة صحيحة، و بهذا ارتكبوا معصية تبديل النّعمة ممّا سبّب لهم أنواع العذاب الدنيوى، كالتيه فى الصحراء و كذلك العذاب الاخروى الأليم.

و عبارة (سل بنى إسرائيل) فى الحقيقة تستهدف كسب الاعتراف منهم بشأن النعم الإلهيّة، ثمّ التفكير بالسّبب الّذى أدّى بهم إلى الهاوية و التمزّق مع كلّ هذه الإمكانات ليكونوا عبرة للمسلمين و لكلّ من لا ينتفع بالمواهب الإلهيّة بصورة سليمة.

و لا تنحصر مسألة تبديل النّعمة و المصير المؤلم لها ببنى إسرائيل، بل أنّ جميع الأقوام و الشّعوب إذا ارتكبت مثل هذه الخطيئة سوف تبتلى بالعذاب الإلهى الشديد فى الدنيا و فى الآخرة.

فالعالم المتطوّر صناعيّا يعانى اليوم من هذه المأساة الكبرى، فمع و فور النعم و الطاقات لدى الإنسان المعاصر وفورا لم يسبق له مثيل فى التاريخ نجد صورا شتّى من تبديل النعم و تسخيرها بشكل فضيع فى طريق الإبادة و الفناء بسبب ابتعادهم عن التعاليم الإلهيّة للأنبياء، حيث حوّروا هذه النعم إلى أسلحة مدمّرة من أجلّ بسط سيطرتهم الظالمة و استعمارهم للبلدان الاخرى، و بذلك جعلوا من الدنيا مكانا غير آمن، و جعلوا الحياة الدنيا غير آمنة من كلّ ناحية.

(نعمة اللّه) فى هذه الآية قد تكون إشارة إلى الآيات الإلهيّة و تبديلها يعنى تحريفها، أو يكون المعنى أوسع و أشمل من ذلك حيث يستوعب كلّ الإمكانات و المواهب الإلهيّة، و المعنى الثانى أرجح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۲]

اشارة

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۲۱۲)

سبب النّزول

عن ابن عبّاس المفسّر المعروف قال: إنّها نزلت فى رؤساء قريش الّذين بسطت لهم الدنيا و كانوا يسخرون من قوم من المؤمنين الفقراء كعبد اللّه بن مسعود و عمّار و بلال و خباب و يقولون: لو كان محمّد نبيّا لاتّبعته أشرافنا، فنزلت الآية لتردّ عليهم.

التّفسير

الكافرون عبيد الدّنيا:

نزول الآية طبقا للرّواية المذكورة بشأن رؤساء قريش لا يمنع أن تكون مكمّلة لموضوع الآية السابقة بشأن اليهود و أن نستنتج منها قاعدة كليّة، تقول الآية زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَياةُ الدُّنْيا و لذلك أفقدهم الغرور و التكبر شعورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۷

وَ يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا فى حين أنّ المؤمنين و المتّقين فى أعلى عليّين فى الجنّة، و هؤلاء فى دركات الجحيم وَ الَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

لأنّ المقامات المعنويّة تتّخذ صور عينيّة فى ذلك العالم، و يكتسب المؤمنون درجات أسمى من هؤلاء، و كأنّ هؤلاء يسيرون فى أعماق الأرض بينما يحلّق الصالحون فى أعالى السّماء، و ليس ذلك بعجيب وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

و هذه فى الحقيقة بشارة للمؤمنين الفقراء و إنذار و تهديد للأغنياء و الأثرياء المغرورين، و هناك احتمال آخر أيضا و هو أنّ الجملة الأخيرة تشير إلى أنّ اللّه تعالى يرزق المؤمنين فى المستقبل بدون حساب، و ذلك بتقدّم الإسلام و اتّساعه حيث تحقّق هذا الوعد الإلهى.

و كون ذلك الرّزق الإلهى بدون حساب للمؤمنين إشارة إلى أنّ الثواب و المواهب الإلهيّة ليست بمقدار أعمالنا إطلاقا، بل هى مطابقة لكرمه و لطفه، و نعلم أنّ كرمه و لطفه ليست لهما حدود و نهاية.

ملاحظة

إنّ الحياة الماديّة فى منظار الكافرين- الّذين لا يتّعدى أفق تفكيرهم إطار العالم المادّى- جميلة و جذّابة و معيار تقويم كلّ شىء، و من هنا فإنّهم ينظرون بفكرهم الضيّق إلى الفقراء نظرة تحقير و استهانة و استهزاء، و لا يقيمون و زنا للقيم المعنويّة و الإنسانيّة.

و يبقى هنا سؤال عن معنى فعل المجهول (زيّن) فمن الّذى يزيّن الدنيا فى أنظار الكافرين؟ الجواب على هذا السؤال سيأتى إن شاء اللّه فى تفسير الآية (۱۴) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۳]

اشارة

كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۱۳)

التّفسير

طريق الوصول إلى الوحدة:

بعد بيان حال المؤمنين و المنافقين و الكفّار فى الآيات السّابقة شرع القرآن الكريم فى هذه الآية فى بحث اصولىّ كلّى و جامع بالنسبة لظهور الدّين و أهدافه و المراحل المختلفة الّتى مرّ بها.

فى البداية تقول الآية كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً[۷۲].

فتبدأ هذه الآية ببيان مراحل الحياة البشريّة و كيفيّة ظهور الدّين لإصلاح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۸۹

المجتمع بواسطة الأنبياء و ذلك على مراحل:

المرحلة الاولى: مرحلة حياة الإنسان الابتدائيّة حيث لم يكن للإنسان قد ألف الحياة الاجتماعية، و لم تبرز فى حياته التناقضات و الاختلافات، و كان يعبد اللّه تعالى استجابة لنداء الفطرة و يؤدّى له فرائضه البسيطة، و هذه المرحلة يحتمل أن تكون فى الفترة الفاصلة بين آدم و نوح عليهما السّلام.

المرحلة الثانية: و فيها اتّخذت حياة الإنسان شكلا اجتماعيّا، و لا بدّ أن يحدث ذلك لأنّه مفطور على التكامل، و هذا لا يتحقّق إلّا فى الحياة الاجتماعيّة.

المرحلة الثالثة: هى مرحلة التناقضات و الاصطدامات الحتميّة بين أفراد المجتمع البشرى بعد استحكام و ظهور الحياة الاجتماعيّة، و هذه الاختلافات سواء كانت من حيث الإيمان و العقيدة، أو من حيث العمل و تعيين حقوق الأفراد و الجماعات تحتّم وجود قوانين لرعاية و حمل هذه الاختلافات، و من هنا نشأت الحاجة الماسّة إلى تعاليم الأنبياء و هدايتهم.

المرحلة الرابعة: و تتميّز ببعث اللّه تعالى الأنبياء لإنقاذ الناس، حيث تقول الآية فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ

فمع الالتفات إلى تبشير الأنبياء و إنذارهم يتوجّه الإنسان إلى المبدأ و المعاد و يشعر أنّ وراءه جزاء على أعماله فيحس أنّ مصيره مرتبط مباشرة بتعاليم الأنبياء و ما ورد فى الكتب السّماويّة من الأحكام و القوانين الإلهيّة لحل التناقضات و النّزاعات المختلفة بين أفراد البشر، لذلك تقول الآية وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ

المرحلة الخامسة: هى التمسّك بتعاليم الأنبياء و ما ورد فى كتبهم السماويّة لإطفاء نار الخلافات و النزاعات المتنوعة (الاختلافات الفكريّة و العقائديّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۰

و الاجتماعيّة و الأخلاقيّة).

المرحلة السادسة: و استمر الوضع على هذا الحال حتّى نفذت فيهم الوساوس الشيطانيّة و تحرّكت فى أنفسهم الأهواء النفسانيّة، فأخذت طائفة منهم بتفسير تعليمات الأنبياء و الكتب السماويّة بشكل خاطئ و تطبيقها على مرادهم، و بذلك رفعوا علم الاختلاف مرّة ثانية. و لكن هذا الاختلاف يختلف عن الاختلاف السابق، لأنّ الأوّل كان ناشئا عن الجهل و عدم الاطّلاع حيث زال و انتهى ببعث الأنبياء و نزول الكتب السماويّة، فى حين أنّ منبع الاختلافات الثانية هو العناد و الانحراف عن الحقّ مع سبق الإصرار و العلم، و بكلمة: (البغى)، و بهذا تقول الآية بعد ذلك وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

المرحلة السابعة: الآية الكريمة بعد ذلك تقسّم الناس إلى قسمين، القسم الأوّل المؤمنون الّذين ينتهجون طريق الحقّ و الهداية و

یتغلّبون علی کلّ الاختلافات بالاستنارة بالکتب السماویّة و تعلیم الأنبیاء، فتقول الآیة: فَهَدَی اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ فی حین أنّ الفاسقین و المعاندین ماکثون فی الضلالة و الاختلاف.

و ختام الآیة تقول وَ اللَّهُ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ و هذه الفقرة إشارة إلی حقیقة ارتباط مشیئة اللّه تعالی بأعمال الأفراد، فجمیع الأفراد الرّاغبون فی الوصول إلی الحقیقة یهدیهم اللّه تعالی إلی صراط مستقیم و یزید فی وعیهم و هدایتهم و توفیقهم فی الخلاص من الاختلافات و المشاجرات الدنیویّة مع الکفّار و أهل الدنیا و یرزقهم السکینة و الاطمئنان، و یبیّن لهم طریق النجاة و الاستقامة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۱

بحوث

۱- الدین و المجتمع

یستفاد من الآیة أعلاه ضمنیا أنّ الدین و المجتمع البشری حقیقتان لا تقبلان الانفصال، فلا یمکن لمجتمع أن یحیی حیاة سلیمة دون دین و إیمان باللّه و بالآخرة، و لیس بمقدور القوانین الأرضیّة أن تحلّ الاختلافات و التناقضات الاجتماعیّة لعدم ارتباطها بدائرة إیمان الفرد و افتقارها التأثیر علی أعماق وجود الإنسان، فلا یمکنها حل الاختلافات و التناقضات فی حیاة البشر بشکل کامل، و هذه الحقیقة أثبتتها بوضوح أحداث عالمنا المعاصر، فالعالم المسمّی بالمتطوّر قد ارتکب من الجرائم البشعة ما لم نر له نظیرا حتّی فی المجتمعات المتخلّفة.

و بذلک یتّضح منطق الإسلام فی عدم فصل الدّین عن السّیاسة و أنه بمعنی تدبیر المجتمع الإسلامی.

۲- بدایة التشریع

و یتّضح من الآیة أیضا أنّ بدایة انبثاق الدین بمعناه الحقیقی کانت مقترنة مع ظهور المجتمع البشری بمعناه الحقیقی، من هنا نفهم سبب کون نوح أوّل أنبیاء اولوا العزم و أوّل أصحاب الشریعة و الرسالة لا آدم.

۳- الشرق الأوسط مهد الأدیان الکبری

و من الآیة محل البحث نفهم الجواب علی السؤال عن سبب ظهور الأدیان الإلهیّة الکبری فی منطقة الشرق الأوسط (الدین الإسلامی و المسیحی و الیهودی و دین إبراهیم و ...) لأنّ التاریخ یشهد علی أنّ مهد الحضارات البشریّة کانت فی هذه المنطقة من العالم و انتشرت منها إلی المناطق الاخری، و مع الالتفات إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۲

الرابطة الشدیدة بین الدین و الحضارة و حاجة المجتمعات المتحضّرة إلی الدین من أجل حل الاختلافات و التناقضات الهدّامة یتّضح أنّ الدین لا بدّ أن یتحقّق فی هذه المنطقة بالذّات.

و عند ما نری أنّ الإسلام انطلق من محیط جاهلی متخلّف کمجتمع مکّة و مدینة فی تلک الأیّام، فذلک بسبب أنّ هذه المنطقة تقع

على مفترق طرق عدّة حضارات عظيمة فى ذلك الزّمان، ففى الشمال الشرقى من جزيرة العرب كانت الحضارة الفارسيّة و بقيّة من حضارة بابل، و إلى الشمال كانت حضارة الرّوم، و فى الشّمال الغربى كانت حضارة مصر القديمة بينما كانت حضارة اليمن فى الجنوب.

و فى الحقيقة أنّ مركز ظهور الإسلام فى ذلك الزمان كان بمثابة مركز الدّائرة الّتى تحيط بها الحضارات المهمّة فى ذلك الزمان (فتأمّل بالدّقة).

۴- حلّ الاختلافات من أهم أهداف الدّين

هناك عدّة أهداف للأديان الإلهيّة، منها تهذيب النّفوس البشريّة و إيصالها إلى المقام القرب الإلهى، و لكن من أهمّ الأهداف أيضا هو رفع الاختلافات، لأنّ هناك بعض العوامل من قبيل القوميّة و الرّس و اللّغة و المناطق الجغرافية دائما تكون عوامل تفرقة بين المجتمعات البشريّة، و الأمر الّذى بإمكانه أن يوحّد هذه الحلقات المختلفة و يكون بمثابة حلقة اتّصال بين أفراد البشر من مختلف القوميّات و الألوان و اللّغات و المناطق الجغرافية هو الدّين الإلهى، حيث بإمكانه أن يهدم جميع هذه السدود، و يزيل تمام هذه الحدود، و يجمع البشريّة تحت راية واحدة بحيث نرى نموذجا من ذلك فى مناسك الحجّ العباديّة و السياسيّة.

و عند ما نرى أنّ بعض الأديان و المذاهب هى السبب فى الاختلاف و النّزاع بين طوائف البشر، لأنّها قد خالطتها الخرافات و اقترنت بالتّعصب الأعمى، و إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۳

فإنّ الأديان الإلهيّة لو لم تتعرّض للتحريف لكانت سببا للوحدة فى كلّ مكان.

۵- الدّليل على عصمة الأنبياء

يذكر (العلّامة الطباطبائى) فى الميزان بعد أن يقسّم عصمة الأنبياء إلى ثلاثة أقسام:

۱- العصمة من الخطأ عند نزول الوحى و استلامه، ۲- العصمة من الخطأ فى تبليغ الرسالة، ۳- العصمة من الذنب و ما يؤدّى إلى هتك حرمة العبوديّة للّه. يقول: إنّ الآية مورد البحث دليل على عصمة الأنبياء من الخطأ فى تلّقى الوحى و تبليغ الرّسالة، لأنّ الهدف من بعثتهم هو البشارة و الإنذار للنّاس و بيان العقيدة الحقّة فى الإعتقاد و العمل، و بذلك يمكنهم هداية النّاس عن هذا الطريق، و من الواضح أنّ هذا الهدف لا يتحقّق بدون العصمة فى تلقّى الوحى و تبليغ الرّسالة.

القسم الثالث من العصمة يمكن استفادته من هذه الآية أيضا، لأنّه لو صدر خطأ فى تبليغ الرّسالة لكان بنفسه عاملا على الاختلاف، و لو حصل تضاد بين أعمال و أقوال الأنبياء الإلهيّين بارتكابهم الذنب فيكون أيضا عاملا و سببا للاختلاف، و بهذا فإنّ الآية أعلاه يمكن أن تكون إشارة إلى عصمة الأنبياء فى جميع الأقسام الثلاثة المذكورة[۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۴]

اشارة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (۲۱۴)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآية نزلت عند ما حوصر المسلمون و اشتدّ الخوف و الفزع بهم فى غزوة الأحزاب، فجاءت الآية لتثبّت على قلوبهم و تعدهم بالنصر.

و قيل: إنّ عبد اللّه بن أبى قال للمسلمين عند فشلهم فى غزوة أحد: إلى متى تتعرّضون للقتل و لو كان محمّد نبيّا لما واجهتم الأسر و التقتيل، فنزلت الآية[۷۴].

التّفسير

الصعاب و المشاقّ سنّة إلهية:

يبدو من الآية الكريمة أنّ جماعة من المسلمين كانت ترى أنّ إظهار الإيمان باللّه وحده كاف لدخولهم الجنّة، و لذلك لم يوطنوا أنفسهم على تحمّل الصعاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۵

و المشاقّ ظانّين أنه سبحانه هو الكفيل بإصلاح أمورهم و دفع شرّ الأعداء عنهم.

الآية تردّ على هذا الفهم الخاطئ و تشير إلى سنّة إلهية دائمة فى الحياة، هى أنّ المؤمنين ينبغى أن يعدّوا أنفسهم لمواجهة المشاقّ و التحدّيات على طريق الإيمان ليكون ذلك اختبارا لصدق إيمانهم، و مثل هذا الاختبار قانون عامّ سرى على كلّ الأمم السابقة.

و يتحدّث القرآن الكريم عن بنى إسرائيل- مثلا- و ما واجهوه من مصاعب بعد خروجهم من مصر و نجاتهم من التسلّط الفرعونى، خاصّة حين حوصروا بين البحر و جيش فرعون، فقد مرّوا بلحظات عصيبة فقد فيها بعضهم نفسه، لكن لطف اللّه شملهم فى تلك اللحظات و نصرهم على أعدائهم.

و هذا الذى عرضه القرآن عن بنى إسرائيل عامّ لكلّ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ و هو سنّة إلهيّة تستهدف تكامل الجماعة المؤمنة و تربيتها. فكلّ الأمم ينبغى أن تمرّ فى أفران الأحداث القاسية لتخلص من الشوائب كما يخلص الحديد فى الفرن ليتحوّل إلى فولاذ أكثر مقاومة و أصلب عودا. ثمّ ليتبيّن من خلال هذا الاختبار من هو اللائق، و ليسقط غير اللائق و يخرج من الساحة الاجتماعية.

المسألة الأخرى التى ينبغى التأكيد عليها فى تفسير هذه الآية: أنّ الجماعة المؤمنة و على رأسها النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم ترفع صوتها حين تهجم عليها الشدائد بالقول مَتى نَصْرُ اللَّهِ !، و واضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضا على المشيئة الإلهية، بل هو نوع من الطلب و الدعاء.

فتقول الآية أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ ....

و بما أنّهم كانوا فى غاية الاستقامة و الصبر مقابل تلك الحوادث و المصائب، و كانوا فى غاية التوكّل و تفويض الأمر إلى اللّطف الإلهى، فلذلك تعقّب الآية أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ

(بأساء) من مادّة (بأس) و كما يقول صاحب معجم مقاييس اللّغة أنّها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۶

الأصل تعنى الشّدة و أمثالها، و تطلق على كلّ نوع من العذاب و المشّقة، و يطلق على الأشخاص الشّجعان الّذين يخوضون الحرب بضراوه و شدّة (بأيس) أو (ذو البأس).

و كلمة (ضرّاء) كما يقول الرّاغب فى مفرداته هى النقطة المقابلة للسرّاء، و هى ما يسرّ الإنسان و يجلب له النفع، فعلى هذا الأساس تعنى كلمة ضرّاء كلّ ضرر يصيب الإنسان، سواء فى المال أو العرض أو النفس و أمثال ذلك.

جملة مَتى نَصْرُ اللَّهِ قيلت من قبل النبى و المؤمنين حينما كانوا فى منتهى الشّدة و المحنة، و واضح أنّ هذا التعبير ليس اعتراضا على المشيئة الإلهيّة، بل هو نوع من الطلّب و الدعاء، و لذلك تبعته البشارة بالإمداد الإلهى.

و ما ذكره بعض المفسرين من احتمال أن تكون جملة (متى نصر اللّه) قيلت من طرف جماعة من المؤمنين، و جملة (ألا إنّ نصر اللّه قريب) قيلت من قبل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعيد جدّا.

و على ايّة حال، فإنّ الآية أعلاه تحكى أحد السنن الالهيّة فى الأقوام البشريّة جميعا، و تنذر المؤمنين فى جميع الأزمنة و الأعصار أنّهم ينبغى عليهم لنيل النّصر و التوفيق و المواهب الاخرويّة أن يتقبّلوا الصّعوبات و المشاكل و يبذلوا التضحيات فى هذا السبيل، و فى الحقيقة إنّ هذه المشاكل و الصّعوبات ما هى إلّا إمتحان و تربية للمؤمنين و لتمييز المؤمن الحقيقى عن المتظاهر بالإيمان.

و عبارة الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ تقول للمسلمين: أنّكم لستم الوحيدين فى هذا الطريق الّذين ابتليتم بالمصائب من قبل الأعداء، بل أنّ الأقوام السّالفة ابتلوا أيضا بهذه الشدائد و المصائب إلى درجة أنّهم مسّتهم البأساء و الضرّاء حتّى استغاثوا منها.

و أساسا فإنّ رمز التكامل للبشريّة أن يحاط الأفراد و المجتمعات فى دائرة البلاء و الشّدائد حتّى يكونوا كالفولاد الخالص و تتفتّح قابليّاتهم الداخليّة و ملكاتهم النفسانيّة و يشتد إيمانهم باللّه تعالى، و يتميّز كذلك المؤمنون و الصّابرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۷

عن الأشخاص الانتهازيّين، و نختتم هذا الكلام بالحديث النبوى الشريف:

يقول (الخبّاب ابن الأرت) الّذى كان من المجاهدين فى صدر الإسلام: قال قلنا يا رسول اللّه ألا تستنصر لنا ألا تدعو اللّه لنا.

فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه و يمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه و عظمه لا يصرفه ذلك عن دينه؛ ثمّ قال: و اللّه ليتمن هذا الأمر حتّى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا اللّه و الذئب على غنمه و كلّكم يستعجلون»[۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۵]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۲۱۵)

سبب النّزول

(عمرو بن الجموح) شيخ ثرىّ سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عمّا ينفق و لمن يعطى؟

فنزلت الآية[۷۶].

التّفسير

يتعرّض القرآن الكريم فى آيات عديدة إلى الإنفاق و البذل فى سبيل اللّه، و حثّ المسلمين بطرق عديدة على الإنفاق و الأخذ بيد الضعفاء، و هذه الآية تتناول مسألة الإنفاق من جانب آخر، فثمة سائل عن نوع المال الذى ينفقه، و لذلك جاء تعبير الآية بهذا الشكل يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۹۹

و فى الجواب بيّنت الآية نوع الإنفاق، ثمّ تطرّقت أيضا إلى الأشخاص المستحقّين للنفقة، و سبب نزول الآية كما مرّ يبيّن أنّ السؤال اتّجه إلى معرفة نوع الإنفاق و مستحقّيه.

بشأن المسألة الاولى: ذكرت الآية كلمة «خير» لتبيّن بشكل جامع شامل ما ينبغى أن ينفقه الإنسان، و هو كلّ عمل و رأسمال و موضوع يشتمل على الخير و الفائدة للناس، و بذلك يشمل كلّ رأسمال مادّى و معنوى مفيد.

و بالنسبة للمسألة الثانية:- أى موارد الإنفاق- فتذكر الآية أولا الأقربين و تخصّ الوالدين بالذكر، ثم اليتامى ثم المساكين، ثم أبناء السبيل، و من الواضح أنّ الإنفاق للأقربين- إضافة إلى ما يتركه من آثار تترتّب على كلّ إنفاق- يوطّد عرى القرابة بين الأفراد.

وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

لعلّ فى هذه العبارة من الآية إشارة إلى أنّه يحسن بالمنفقين أن لا يصرّوا على اطّلاع الناس على أعمالهم، و من الأفضل أن يسرّوا إنفاقهم تأكيدا لإخلاصهم فى العمل، لأنّ الذى يجازى على الإحسان عليم بكلّ شىء، و لا يضيع عنده سبحانه عمل عامل من البشر.

بحث

التجانس فى السؤال و الجواب:

ذهب البعض إلى أنّ مورد السؤال فى هذه الآية عن الأشياء التى يجب الإنفاق منها، و لكنّ الجواب كان عن مصارف هذه النفقات و الصّدقات، أى الأشخاص المستحقّين لها، و ذلك بسبب أنّ معرفة موارد الصّرف أهم و أولى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۰

و لكنّ هذا الفهم من الآية اشتباه محض، لأنّ القرآن الكريم أجاب عن سؤالهم و كذلك بيّن موارد الإنفاق، و هذا من فنون الفصاحة و البلاغة بحيث يجيب على السؤال و يضيف عليه بيان مسألة مهمّة ضروريّة.

و على أىّ حال فإنّ جملة ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ تبيّن أنّ الإنفاق أمر جميل و حسن فى كلّ موضوع و من كلّ شىء و يستوعب جميع الأمور الحسنة سواء كانت فى الأموال أو الخدمات أو الموضوعات الماديّة أو المعنويّة.

ثمّ أنّ كلمة (خير) ذكرت بصورة مطلقة أيضا، و تدلّ على أنّ المال و الثروة ليست شيئا مذموما بذاته، بل هى من أفضل وسائل الخير بشرط الاستفادة السليمة و الصحيحة منها.

و كذلك فإنّ التعبير بكلمة (خير) يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ الإنفاق يجب أن يكون خاليا من كلّ أذى و منّة بالنسبة إلى الأشخاص المعوزين حتّى يمكن أن يطلق عليه كلمة (خير) بشكل مطلق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۱۶]

اشارة

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۲۱۶)

التّفسير

التضحية بالنفس و المال:

الآيـة السابقـة تناولت مسألة الإنفاق بالأموال، و هذه الآية تدور حول التضـحية بالدم و النفس فى سبيل اللّه، فالآيتان يقترن موضوعهما فى ميدان التضحية و الفداء، فتقول الآية كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ وَ هُوَ كُرْهٌ لَكُمْ

التعبير بكلمة (كتب) إشارة إلى حتميّة هذا الأمر الإلهى و مقطوعيّته.

(كره) و إن كان مصـدرا، إلّا أنّه استعمل هنا باسم المفعول يعنى مكروه، فالمراد من هـذه الجملـة أنّ الحرب مع الأعداء فى سبيل اللّه أمر مكروه و شديد على الناس العاديّين، لأنّ الحرب تقترن بتلف الأموال و النفوس و أنواع المشـقّات و المصائب، و أمّا بالنّسبة لعشّاق الشّهادة فى سبيل الحقّ و من له قدم راسخ فى المعركة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۲

فالحرب مع أعـداء الحقّ بمثابـة الشـراب العـذب للعطشان، و لا شكّ فى أنّ حساب هؤلاء يختلف عن سائر الناس و خاصّـة فى بـداية الإسلام.

ثمّ تشـير هذه الآية الكريمة إلى مبدأ أساس حاكم فى القوانين التكوينيّة و التشـريعيّة الإلهيّة و تقول: وَ عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

و على العكس من تجنّب الحرب و طلب العافية و هو الأمر المحبوب لكم ظاهرا، إلّا أنّه وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ

ثمّ تضـيف الآيـة و فى الختـام وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فهنـا يؤكّـد الخـالق جـلّ و علا بشـكل حاسم أنّه لا ينبغى لأفراد البشـر أن يحكّموا أذواقهم و معـارفهم فى الأـمور المتعلّقـة بمصـيرهم، لأـنّ علمهم محـدود من كلّ جانب و معلوماتهم بالنّسـبة إلى مجهولاتهم كقطرة فى مقابل البحر، و كما أنّ الناس لم يدركوا شـيئا من أسرار الخلقة فى القوانين التكوينيّة الإلهيّة، فتارة يهملون شيئا و لا يعيرونه اهتماما فى حين أنّ أهميّته و فوائده فى تقدّم العلوم كبيرة، و هكذا بالنسبة إلى القوانين التشريعيّة فالإنسان لا يعلم بكثير من المصالح و المفاسد فيها، و قد يكره شيئا فى حين أنّ سعادته تكون فيه، أو أنّه يفرح لشىء و يطلبه فى حين أنّه يستبطن شقاوته.

فهؤلاـء النّاس لا يحقّ لهم مع الالتفات إلى علمهم المحـدود أن يتعرضوا على علم اللّه اللّامحـدود و يعترضوا على أحكامه الإلهيّـة، بل يجب أن يعلموا يقينا أنّ اللّه الرّحمن الرّحيم حينما يشرّع لهم الجهاد و الزكاة و الصوم و الحجّ فكلّ ذلك لما فيه خيرهم و صلاحهم.

ثمّ إنّ هذه الحقيقة تعمق فى الإنسان روح الانضباط و التسليم أمام القوانين الإلهيّة و تؤدى إلى توسعة آفاق إدراكه إلى أبعد من دائرة محيطه المحدود و تربطه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۳

بالعالم اللّامحدود يعنى علم اللّه تعالى.

بحوث

۱- لماذا كان الجهاد مكروها

و هنا يمكن أن يطرح هـذا السؤال و هو أنّ الجهاد الّذى هو أحد أركان الشّريعة المقدّسة و الأحكام الإلهيّة كيف أصبح مكروها فى طبع الإنسان مع أنّنا نعلم أنّ الأحكام الإلهيّة امور فطريّة و تتوافق مع الفطرة، فالمفروض على الأمور المتوافقة مع الفطرة أن تكون مقبولة و مطلوبة؟

فى الجواب عن هـذا السؤال يجب الالتفات إلى هـذه النقطة، و هى أنّ المسائل و الأمور الفطريّة تتناغم و توافق مع طبع الإنسان إذا اقترنت بالمعرفة، مثلا- الإنسان يطلب النّفع و يتجنّب الضرر بفطرته، و لكنّ هـذا يتحقّق فى موارد أن يعرف الإنسان مصاديق النفع و الضرر و يتجنب الضرر بالنّسبة له، فلو اشتبه عليه الأمر فى تشخيص المصداق و لم يميّز بين الموارد النافعة من الضّارة، فمن الواضح أنّ فطرته و نتيجة لهذا الاشتباه سوف تكره الأمر النافع، و العكس صحيح.

و فى مورد الجهاد نجد أنّ الأشخاص السطحيّين لا يرون فيه سوى الضرب و الجرح و المصائب، و لهذا قد يكون مكروها لديهم و أمّا بالنسبة إلى الأفراد الّذين ينظرون إلى أبعد من هذا المدى المحدود فإنهم يعلمون أنّ شرف الإنسان و عظمته و افتخاره و حريّته تكمن فى الإيثار و الجهاد، و بذلك يرحبون بالجهاد و يستقبلوه بفرح و شوق، كما هو الحال فى الأشخاص الّذين لا يعرفون آثار الأدوية المرّة و المنفرّة، فهم فى أوّل الأمر يظهرون عدم رغبتهم فيها، إلّا أنّهم بعد أن يروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۴

تأثيرها الإيجابى فى سلامتهم و نجاتهم من المرض، فحين ذاك يتقبّلوا الدّواء برحابة صدر.

۲- القانون الكلّى

ما ورد فى الآية الشريفة آنفا لا ينحصر بمسألة الجهاد و الحرب مع الأعداء، بل أن الآية تكشف عن قانون كلّى و عام، و هو أنّ الآية تجعل من جميع الشدائد و المصاعب فى سبيل اللّه سهلة و ميسورة و لذيذة للإنسان بمقتضى قوله تعالى وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فعلم اللّه تعالى و رحمته و لطفه لعباده يتجلّى فى كلّ أحكامه المقدّسة فيرى ما فيه نجاتهم و سعادتهم، و على هـذا الأساس يستقبل المؤمنون هذه الأوامر و الأحكام الإلهيّة فيعتبروها كالأدوية الشافية لهم و يطبّقونها بمنتهى الرضا و القبول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۵

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱۷ الى ۲۱۸]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۱۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۱۸)

سبب النّزول

قيل إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعث سرية[۷۷] من المسلمين و أمر عليهم عبد اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۶

ابن جحش الأسدى- و هو ابن عمّة النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم- و ذلك قبل بدر بشهرين، على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم النبىّ المدينة، فانطلقوا حتّى هبطوا نخلة- و هى أرض بين مكّة و الطائف- فوجدوا بها عمرو بن الحضرمىّ فى قافلة تجارة لقريش فى آخر يوم من جمادى الآخرة، و كانوا يرون أنه من جمادى و هو رجب- من الأشهر الحرم- فاختلف المسلمون أ يقتلون الحضرمىّ و يغنمون ماله، لعدم علمهم بحلول الشهر الحرام، أم يتركونه احتراما لحرمة شهر رجب، و انتهى بهم الأمر أن شدّوا على الحضرمىّ فقتلوه و غنموا ماله، فبلغ ذلك كفّار قريش فطفقوا يعيّرون المسلمين و يقولون إنّ محمّدا أحلّ سفك الدماء فى الأشهر الحرم، فنزلت الآية الاولى.

ثمّ نزلت الآية الثانية حين سأل عبد اللّه بن جحش و أصحابه عمّا إذا كانوا قد أدركوا أجر المجاهدين فى انطلاقتهم أو لا[۷۸]؟!

التّفسير

القتال فى الأشهر الحرم:

كما مرّ بنا فى سبب النّزول و يشير إلى ذلك السياق أيضا فإنّ الآية الاولى تتصدّى للجواب عن الأسئلة المرتبطة بالجهاد و الاستثنائات فى هذا الحكم الإلهى فتقول الآية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ ثمّ تعلن الآية حرمة القتال و أنّه من الكبائر قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبِيرٌ أى إثم كبير.

و بهذا يمضى القرآن الكريم بجديّة السنّة الحسنة الّتى كانت موجودة منذ قديم الأزمان بين العرب الجاهليّين بالنسبة إلى تحريم القتال فى الأشهر الحرم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۷

(رجب، ذى القعدة، ذى الحجّة، محرم).

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا القانون لا يخلوا من الاستثنائات، فلا ينبغى السّماح لبعض المجموعات الفاسدة لاستغلال هذا القانون فى إشاعة الظلم و الفساد، فعلى الرّغم من أنّ الجهاد حرام فى هذه الأشهر الحرم، و لكنّ الصد عن سبيل اللّه و الكفر به و هتك المسجد الحرام و إخراج الساكنين فيه و أمثال ذلك أعظم إثما و جرما عند اللّه وَ صَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ كُفْرٌ بِهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ إِخْراجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۷۹].

ثمّ تضيف الآية بأنّ إيجاد الفتنة و السعى فى إضلال الناس و حرفهم عن سبيل اللّه و دينه أعظم من القتل وَ الْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ لأنّ القتل ما هو إلّا جناية على جسم الإنسان، و الفتنة جناية على روح الإنسان و إيمانه ۸۰]، ثمّ إنّ الآية تحذّر المسلمين أن لا يقعوا تحت تأثير الإعلان الجاهلى للمشركين، لأنّهم لا يقنعون منكم إلّا بترككم لدينكم إن استطاعوا وَ لا يَزالُونَ يُقاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطاعُوا.

فينبغى على هذا الأساس أن تقفوا أمامهم بجزم و قوّة و لا تعتنوا بوسوساتهم و أراجيفهم حول الأشهر الحرم، ثمّ تنذر الآية المسلمين و تحذّرهم من الارتداد عن دين اللّه وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

فما أشدّ عقاب المرتد عن الإسلام، لأنّ ذلك يبطل كلّما قدّمه الفرد من عمل صالح و يستحق بذلك العذاب الإلهى الأبدى.

و من الواضح أنّ الأعمال الصّالحة لها آثار طيّبة فى الدنيا و الآخرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۸

و المرتدّون سوف يحرمون من هذه البركات بسبب ارتدادهم، مضافا إلى محو جميع معطيات الإيمان الدنيويّة للفرد حيث تنفصل عنه زوجته و تنتقل أمواله إلى ورثته فور ارتداده.

الآية التالية تشير إلى النقطة المقابلة لهذه الطائفة، و هم المؤمنون المجاهدون و تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أجل، فهذه الطائفة الّتى يتحلّى أفرادها بهذه الصّفات الثلاث المهمّة (الإيمان و الهجرة و الجهاد) قد يرتكبون خطأ بسبب جهلهم و عدم اطّلاعهم (كما صدر ذلك من عبد اللّه بن جحش الوارد فى سبب النزول) إلّا أنّ اللّه تعالى يغفر لهم زلّتهم بلطفه و رحمته ۸۱].

بحث

الإحباط و التكفير:

(حبط) فى الأصل كما يقول الراغب فى مفرداته بمعنى أنّ الحيوان قد يأكل كثيرا حتّى تنتفخ بطنه، و بما أنّ هذه الحالة تؤدّى إلى فساد الغذاء و عدم تأثيره الإيجابى فى الحيوان استعملت هذه الكلمة بمعنى البطلان و ذهاب الأثر، و لذلك ورد فى معجم مقاييس اللّغة أنّ معنى هذه الكلمة هو البطلان، و من ذلك ما ورد فى آية (۱۶) من سورة هود حيث أوردت هذه الكلمة مساوقة للبطلان أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۰۹

و أمّا (الإحباط) فكما يقول علماء العقائد و المتكلّمون أنّها تعنى إبطال ثواب الأعمال السابقة بسبب ارتكاب الذنوب اللّاحقة، و يقابله «التكفير» بمعنى زوال العقوبات و آثار الذنوب السابقة بسبب الأعمال الصالحة بعد ذلك.

و هناك بحث بين علماء العقائد فى صحّة الإحباط و التكفير بالنّسبة لثواب الأعمال الصالحة و عقوباتها و عقاب الأعمال الطالحة و المشهور بين المتكلّمين الإماميّة كما يقول العلّامة المجلسى هو بطلان الإحباط و التكفير، غاية الأمر إنهم يرون أنّ تحقق الثواب مشروط أن يستمر الإنسان على إيمانه فى الدنيا إلى النهاية، و العقاب مشروط كذلك بأن يرحل من هذه الدنيا بدون توبة، و لكنّ العلماء المعتزلة يعتقدون بصحّة الإحباط و التفكير بالنّظر إلى ظواهر بعض الآيات و الروايات ۸۲].

و يرى الخواجة نصر الدين الطوسى فى كتاب (تجريد العقائد) بطلان القول بالإحباط، و استدلّ على ذلك بالدليل العقلى و النقلى، أما الدليل العقلى فهو أنّ الإحباط نوع من الظلم (لأنّ الشخص الّذى قلّت حسناته و كثرت ذنوبه سيكون بعد الإحباط بمنزلة من لم يأت بعمل حسن إطلاقا و هذا نوع من الظلم بحقّه)، و أمّا الدليل النقلى فالقرآن يصرّح فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۸۳][۸۴].

بعض علماء المعتزلة مثل (أبو هاشم) ذهب إلى اقتران الإحباط و التكفير بشكل متوازن، بهذا المعنى أنّه جمع بين العقاب و الثواب فى ميزان واحد و بعد حدوث الكسر و الانكسار بينهما يتمّ الحصول على النتيجة النهاية.

و لكنّ الحقّ هو أنّ الإحباط و التكفير من الأمور الممكنة، و لا تستلزم الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۰

مطلقا، و تدل على ذلك الآيات و الرّوايات الصّريحة، و الظاهر أنّ ما ذهب إليه المنكرون هو نوع من الالتباس اللّفظى.

و توضيح ذلك: تارة يعمل الإنسان سنوات طويلة بمشّقة كبيرة و ينفق رأس مال كثير، و لكنّه قد يخسر كلّ تلك الأفعال بخطإ بسيط، فهذا يعنى أنّ حسناته السابقة قد أحبطت، و على العكس من ذلك فيما لو كان قد خسر كثيرا فى السابق لارتكابه بعض الأخطاء و الحماقات، و لكنّه يجبر ذلك بعمل عقلائىّ واحد، فهذا نوع من أنواع التكفير (التكفير نوع من أنواع التغطية و الجبران) و كذلك يصدق هذا الأصل فى المسائل المعنوية أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۱۹ الى ۲۲۰]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۱۹) فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۰)

سبب النّزول

قيل فى سبب نزول الآية الاولى أنّ جماعة سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن حكم الخمر الّذى يذهب بالعقل، و الميسر الّذى يبدّل المال، فنزلت الآية.

و عن سبب نزول الآية الثانية فقد ورد فى تفسير القمّى عن إمام الصادق عليه السّلام و فى مجمع البيان عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت الآية وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۸۵] و الآية إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۲

[۸۶] تخلّى الناس عن اليتامى، و عمد بعضهم على إخراج اليتيم من بيته، و أولئك الّذين احتفظوا بهم فى بيوتهم عزلوا طعامهم عن طعام اليتيم، و جعلوا لا يجالسونهم على مائدة واحدة و لا يستفيدون ممّا بقى من طعامهم، بل يحتفظون به له لوجبات اخرى، فإن فسد يلقونه، كلّ ذلك ليتخلّصوا من أكل مال اليتامى، و اشتدّ ذلك على اليتامى و على من يرعاهم، فجاءوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يخبرونه بذلك، فنزلت الآية.

التّفسير

الجواب على أربعة أسئلة:

الآية الاولى تجيب عن سؤالين حول الخمر و القمار يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ.

(الخمر) فى اللّغة بقول الرّاغب بمعنى الغطاء و كلّ ما يخفى شيئا وراءه هو (خمار) بالرّغم من أنّ الخمار يستعمل فى الاصطلاح لغطاء الرّأس بالنسبة للمرأة.

و فى معجم مقاييس اللّغة ورد أنّ الأصل فى كلمة (الخمر) هو الدلالة على التغطية و الاختلاط الخفى و قيل للخمر خمر، لأنّه سبب

السكر الّذى يغطى على عقل الإنسان و يسلبه قدرة التمييز بين الحسنة و القبيح.

أمّا فى الاصطلاح الشرعى فيأتى (الخمر) بمعنى كلّ مايع مسكر، سواء أخذ من العنب أو الزبيب أو التمر أو شىء آخر، بالرّغم من أنّ الوارد فى اللّغة أسماء مختلفة لكلّ واحد من أنواع المشروبات الكحوليّة.

(الميسر) من مادّة (اليسر) و إنّما سمّى بذلك لأنّ المقامر يستهدف الحصول على ثروة بيسر و دون عناء.

ثمّ تقول الآية فى الجواب قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۳

و مع الالتفات إلى أنّ المجتمع الجاهلى كان غارقا فى الخمر و القمار، و لذلك جاء الحكم بتحريمهما بشكل تدريجى و على مراحل، كما نرى من اللّين و المداراة و الأسلوب الهادىء فى لحن الآية إنّما هو بسبب ما ذكرناه.

فى هذه الآية وردت مقايسة بين منافع الخمر و الميسر و أضرارهما و أثبتت أنّ ضررهما و إثمهما أكثر من المنافع، و لا شكّ أنّ هناك منافع ماديّة للخمر و القمار أحيانا يحصل عليها الفرد عن طريق بيع الخمر أو مزاولة القمار، أى تلك المنفعة الخياليّة الّتى تحصل من السكر و تخدير العقل و الغفلة عن الهموم و الغموم و الأحزان، الّا أنّ هذه المنافع ضئيلة جدّا بالنسبة إلى الأضرار الأخلاقيّة و الاجتماعيّة و الصحيّة الكثيرة المترتّبة على هذين الفعلين.

و بناء على ذلك، فكلّ إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيرا من أجل نفع ضئيل.

(الإثم) كما ورد فى معجم مقاييس اللّغة أنّه فى الأصل بمعنى البطء و التأخّر، و بما أنّ الذنوب تؤخّر الإنسان عن نيل الدّرجات و الخيرات، و لذلك أطلقت هذه الكلمة عليها، بل أنّه ورد فى بعض الآيات القرآنية هذا المعنى بالذّات من كلمة الإثم مثل وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۸۷] أى أنّ الغرور و المقامات الموهومة تؤخّره عن الوصول إلى التّقوى.

و على كلّ حال، فالمراد من الإثم هو كلّ عمل و شىء يؤثّر تأثيرا سلبيّا فى روح و عقل الإنسان و يعيقه عن الوصول إلى الكمالات و الخيرات، فعلى هذا يكون وجود (الإثم الكبير) فى الخمر و القمار دليل على التأثير السلبى لهما فى وصول الإنسان إلى التقوى و الكمالات المعنويّة و الإنسانيّة الّتى سوف يأتى شرحها.

السؤال الثالث المذكور فى الآية محلّ البحث هو السؤال عن الإنفاق فتقول الآية وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۴

ورد فى تفسير «الدّر المنثور» فى شأن نزول هذه العبارة من الآية عن ابن عبّاس أنّ المسلمين سألوا الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم عند نزول آيات الحثّ على الإنفاق: ماذا ينفقون؟ أ ينفقون كلّ أموالهم أم بعضها؟ فنزلت الآية لتأمر برعاية (العفو)[۸۸].

و لكن ما المراد من «العفو» فى الآية؟

(العفو) فى الأصل- كما يقول الرّاغب فى المفردات- بمعنى القصد إلى أخذ شىء، أو بمعنى الشىء الّذى يؤخذ بسهولة، و بما أنّ هذا المعنى واسع جدّا و يطلق على مصاديق مختلفة منها: المغفرة و الصفح و إزالة الأثر الحد الوسط بين شيئين.

المقدار الإضافى لشىء. و أفضل جزء من الثروة. فالظاهر أنّ المعنى الأوّل و الثانى لا يتناسب مع مفهوم الآية، و المراد هو أحد المعانى الثلاثة المتأخّرة، يعنى رعاية الحد الوسط فى الإنفاق، أو إنفاق المقدار الزائد عن الحاجة، أو إنفاق القسم الجيّد للأموال و عدم بذل الحصّة الرخيصة و العديمة النفع من المال.

و هذا المعنى وارد أيضا فى الروايات الإسلاميّة فى تفسير هذه الآية،

و قد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: العفو الوسط

[۸۹] (أى أنّ المراد من العفو فى الآية أعلاه هو الحد الوسط).

و ورد فى تفسير على بن إبراهيم (لا إقتار و لا إسراف)

[۹۰].

و

فى مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السّلام (العفو ما فضل عن قوت السّنة)[۹۱].

و يحتمل أيضا أن يكون العفو فى الآية (و إن لم أجده فى كلمات المفسّرين) هو المعنى الأوّل، أى الصفح عن أخطاء الآخرين، و بذلك يكون معنى الآية الكريمة: أنفقوا الصفح و المغفرة فهو أفضل الإنفاق.

و لا يبعد هذا الاحتمال لو أخذنا بنظر الاعتبار أوضاع شبه جزيرة العربيّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۵

عامّة و خاصّة مكّة و المدينة محل نزول القرآن من حيث هيمنة روح التنافر و العداء و الحقد بين الناس، و خاصّة أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو النموذج الكامل لهذا المعنى، كما أعلن العفو العامّ عن مشركى مكّة الّذين هم أشدّ الناس عداوة للإسلام و المسلمين، و الجواب بهذا المعنى لا يتنافى مع سؤالهم بشأن الإنفاق المالى، لأنّهم قد يسألون عن موضوع كان ينبغى أن يسألوا عن أهم منه، و القرآن يستثمر فرصة سؤالهم المعبّر عن استعدادهم للسّماع و القبول ليجيبهم بما هو أهم و ألزم، و هذا من شؤون الفصاحة و البلاغة حيث يترك سؤالهم ليتناول موضوعا أهم. و لا يوجد تعارض بين هذه التفاسير، فيمكن أن تكون مرادة بأجمعها من مفهوم الآية.

و أخيرا يقول تعالى فى ختام الآية: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

و يذكر بدون فصل فى الآية التالية المحور الأصلى للتفكّر و يقول فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ.

أجل، يجب أن تكون جميع نشاطات الإنسان الماديّة و المعنوية فى الحياة مشفوعة بالفكر و التدبّر، و يتّضح من هذه العبارة أمران:

الأوّل: إنّ الإنسان إضافة إلى وجوب التسليم أمام أوامر اللّه يجب أن يطيع هذه الأوامر عن تفكّر و تعقّل لا عن اتّباع أعمى، و بعبارة اخرى على الإنسان المؤمن أن يعى أسرار الأحكام و روحها ليس فقط فى مجال تحريم الخمر و القمار، بل فى جميع المجالات و لو إجمالا.

و لا يعنى هذا الكلام أنّ إطاعة الأحكام الإلهيّة مشروطة بإدراك فلسفتها و حكمتها، بل المراد أنّ الإنسان يجب عليه بموازاة الطّاعة العمليّة أن يسعى إلى فهم أسرار و روح الأحكام الإلهيّة.

الثانى: إنّ على الإنسان أن لا يحصر تفكيره فى عالم المادّة وحده أو عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۶

المعنى وحده، بل عليه أن يفكّر فى الإثنين معا، لأنّ الدنيا و الآخرة مرتبطتان و كلّ خلل فى أحدهما يخلّ بالآخر، و أساسا لا يمكن أن يؤدى أحدهما إلى رسم صورة صحيحة عن الواقعيّات فى هذا العالم، لأنّ كلّا منهما هو قسم من هذا العالم، فالدنيا هى القسم الأصغر و الآخرة القسم الأعظم، فمن حصر فكره فى أحدهما فإنّه لا يمتلك تفكيرا سليما عن العالم.

ثمّ تذكر الآية السؤال الرابع و جوابه و تقول: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ ۹۲].

و على هذا الأساس فالقرآن يوصى المسلمين بعدم إهمال اليتامى، فإنّ الإعراض عن تحمّل مسئوليتهم و تركهم و شأنهم أمر مذموم، فالأفضل أن يتقبّلوا المسؤولية و يصلحوا أمر اليتامى و إن اختلطت معيشتهم بمعيشتكم فعاملوهم معاملة الأخ لأخيه، فلا حرج فى الاختلاط الأموال إذا كان الدافع هو الإصلاح.

ثمّ تضيف الآية وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ أجل، إنّ اللّه مطّلع على نيّاتكم و يعلم من يقصد السوء بالاستفادة من أموال اليتامى ليحيف عليهم و من هو مخلص لهم.

و الفقرة الأخيرة من الآية تؤكّد بأنّ اللّه تعالى قادر على أن يضيّق و يشدّد عليكم برعاية اليتامى مع فصل أموالهم عن أموالكم، لكنّ

اللّه لا يفعل ذلك أبدا، لأنّه عزيز و حكيم، و لا داعى لأن يضيّق على عباده وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۹۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۷

بحوث

۱- الترابط بين الأحكام الأربعة

رأينا أنّ الآيتين أعلاه ذكرتا أربعة مسائل عن الخمر و القمار و الإنفاق و الأيتام مع أجوبتها، و يمكن أن يكون ذكر هذه الأسئلة و الأجوبة الأربعة مع بعضها لأنّ الناس كانوا مبتلين بهذه المسائل واقعا، و لذلك كانوا يسألون الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم هذه الأسئلة تباعا (مع الالتفات إلى أنّ يسألونك فعل مضارع و يدلّ على الاستمرار).

و يحتمل أنّ هذه المسائل ترتبط مع بعضها باشتراكها فى الأمور الماليّة فالخمر و القمار هما سبب لتلف الأموال و الإنفاق على العكس من ذلك سبب لنماء الأموال، و أمّا مسئوليّة اليتامى فيمكن أن تكون مفيدة أو مخرّبة.

و الآخر أنّ: الإنفاق له جنبة عموميّة شاملة و جنبة اخرويّة، و الخمر و القمار لهما طابع شخصى و مادّى مخرّب و إصلاح أمر اليتامى له جنبتين عموميّة و خصوصيّة، و بهذا الترتيب يكون مصداق للتفكّر فى الدنيا و الآخرة، و من هنا يتّضح الارتباط الوثيق بين الخمر و القمار، لأنّ كلّا منهما يؤدّى إلى تلف الأموال و فساد المجتمع و انتشار الأمراض البدنيّة و الروحيّة.

۲- أضرار المشروبات الكحولية

ألف: أثر الكحول فى العمر ذكر أحد علماء الغرب المشهورين أنه لو كان عدد الوفيات بين الشباب المدمنين البالغة أعمارهم بين ۲۱ إلى ۲۳ سنة يصل إلى ۵۱ شابّا، فإنّ عدد الوفيات من غير المدمنين فى تلك الأعمار لا يبلغ ۱۰ أشخاص.

و قال عالم مشهور آخر: الشباب فى سنّ العشرين الذين يتوقّع أن تطول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۸

أعمارهم إلى خمسين عاما، لا يعمّرون بسبب معاقرة الخمرة أكثر من خمسة و ثلاثين عاما.

التجارب التى أجرتها شركات التأمين على الحياة أثبتت أنّ أعمار المدمنين على الكحول أقلّ من أعمار غيرهم بنسبة ۲۵- ۳۰ بالمائة.

و تذكر إحصائيات أخرى أنّ معدّل أعمار المدمنين على الكحول يبلغ حوالى ۳۵- ۵۰ سنة، بينما معدّل العمر الاعتيادى مع رعاية القواعد الصحية يبلغ ستين عاما فصاعدا.

ب: أثر الكحول على النسل ۳۵ بالمائة من عوارض الإدمان الحادّة تنتقل إلى الوليد إذا كان أبوه- حين انعقاد النطفة- سكرانا، و إن كان الوالدان سكرانين فتر تفع نسبة هذه العوارض إلى مائة فى المائة. و هذه إحصائيات تبيّن آثار الإدمان على الجنين:

الأطفال الذين ولدوا قبل موعد ولادتهم الطبيعى: من أبوين مدمنين ۴۵ بالمائة. و من أمّ مدمنة ۳۱ بالمائة. و من أب مدمن ۱۷ بالمائة.

الأطفال الذين ولدوا و هم لا يحملون مقوّمات استمرار الحياة: من أب مدمن ۶ بالمائة، و من أمّ مدمنة ۴۵ بالمائة.

الأطفال الذين لا يتمتّعون بطول طبيعى: من والدين مدمنين ۷۵ بالمائة، و من أمّ مدمنة ۴۵ بالمائة.

و أخيرا الأطفال الذين يفتقدون القوّة العقلية و الروحية الكافية: من أمّهات مدمنات ۷۵ بالمائة، و من آباء مدمنين ۷۵ بالمائة أيضا.

ج: أثر الكحول فى الأخلاق العاطفة العائلية فى الشخص المدمن تضعف، و يقلّ انشداده بزوجته و أبنائه، حتّى يحدث أن يقدم

المدمن علی قتل أبنائه بیده.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۱۹

د: أضرار الکحول الاجتماعیة حسب الاحصائیّة التی نشرها معهد الطب القانونی فی مدینة (نیون) عام ۱۹۶۱، کانت الجرائم الاجتماعیة للمدمنین علی النحو التالی:

القتلة: ۵۰ بالمائة، المعتدون بالضرب و الجرح بین المدمنین: ۸، ۷۷ بالمائة، السرقات بین المدمنین: ۵، ۸۸ بالمائة، الجرائم الجنسیة المرتبطة بالمدمنین:

۸، ۸۸ بالمائة. هذه الإحصائیات تشیر إلی أنّ الأکثریة الساحقة من الجرائم ترتکب فی حالة السکر.

ه: الأضرار الاقتصادیة للمشروبات الکحولیّة أحد علماء النفس المشهورین یقول: من المؤسف أنّ الحکومات تحسب ما تدر علیها المشروبات الکحولیة من ضرائب، و لا تحسب المیزانیة الضخمة التی تنفق لترمیم مفاسد هذه المشروبات. فلو حسبت الحکومات الأضرار الناتجة من المشروبات الکحولیة، مثل زیادة الأمراض الروحیة، و إهدار الوقت و الاصطدامات الناتجة عن السکر، و فساد الجیل، و انتشار روح التقاعس و التحلّل، و التخلّف الثقافی، و المشاکل التی تواجه رجال الشرطة و دور الحضانة المخصّصة لرعایة أبناء المخمورین، و ما تحتاجه جرائم المخمورین من مستشفیات و أجهزة قضائیّة و سجون، و غیرها من الخسائر و الأضرار الناتجة عن تعاطی الخمور، و قارنت هذه الخسائر بما تحصل علیه من ضرائب علی هذه المشروبات لوجدت أنّ الأرباح تکاد تکون تافهة أمام الخسائر، هذا إضافة إلی أنّ الخسائر المؤسفة الناتجة عن المشروبات الکحولیة لا یمکن حسابها بالدولار، لأنّ موت الأعزّاء و تشتّت العوائل و تبدّد الآمال و فقدان الأدمغة المفکّرة لا یمکن حسابه بالمال.

أضرار المشروبات الکحولیة فظیعة للغایة، حتّی أنّ أحد العلماء قال: لو أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۰

الحکومة ضمنت لی غلق حانات الخمور لضمنت لها غلق نصف المستشفیات و دور المجانین.

ممّا تقدّم یتّضح بجلاء معنی الآیة الکریمة بشأن الخمر، فلو کان فی الخمرة فائدة تجاریة، و لو کان السکران یحسب لحظات غفلته عن عمومه أثناء السکر فائدة له، فإنّ الأضرار التی تترتب علیها أکثر بکثیر و أوسع دائرة و أبعد مدی من فوائدها، حتّی لا یمکن المقارنة بین الاثنین.

۳- آثار القمار المشؤومة أضرار القمار لا تخفی علی أحد، و لمزید من التوضیح نذکر باختصار جانبا من المآسی المترتّبة علی هذه الظاهرة الخطرة:

الف: القمار أکبر عوامل الهیاج و الانفعال یجمع علماء النفس علی أنّ الهیاج هو النفسی هو العامل الأساسی فی کثیر من الأمراض، مثل: نقص الفیتامینات، و قرحة المعدة، و الجنون، و الأمراض العصبیة و النفسیة الخفیفة و الحادّة. و القمار أکبر عامل علی إثارة الهیاج، حتّی أنّ عالما أمریکیا یقول: فی أمریکا یموت ألفا شخص سنویا نتیجة هیاج القمار، و قلب لاعب البوکر «نوع من القمار» تزید عدد ضرباته علی مائة ضربة فی الدقیقة، و قد یؤدّی القمار إلی سکتة قلبیّة و دماغیّة أیضا، و من المؤکّد أنّه یدفع إلی شیخوخة مبکّرة.

إضافة إلی ما سبق فإنّ المقامر- کما یقول العلماء- یصاب بتوتّر روحی، بل أنّ جمیع أجهزة جسمه تصاب بحالة استثنائیّة، کأن یزداد ضربان القلب و تزداد نسبة السکّر فی الدم، و یختلّ ترشّح الغدد الداخلیة، و یشحب لون الوجه، و تقلّ الشهیة، و یمرّ المقامر بعد اللعب بفترة حرب أعصاب و حالة أزمة نفسیة، و قد یلجأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۱

إلی الخمور و المخدّرات لتهدئة أعصابه، فیزید فی الطین بلّة و تتضاعف بذلک أضرار القمار.

و يقول عـالم آخر: المقـامر إنسـان مريض يحتـاج إلى إشـراف مريض يحتـاج إلى إشـراف نفسـى مسـتمر، و يجب تفهيمه بـأنّ الفراغ الروحى هو الذى يدفعه لهذا العمل الشنيع، كى يتّجه لمعالجة نفسه.

ب: علاقة القمار بالجرائم إحدى مؤسسات الإحصاء الكبرى ذكرت: أنّ ۳۰ بالمائة من الجرائم ناتجة مباشـرة عن القمار، و ۷۰ بالمائة من الجرائم ناتجة بشكل غير مباشر عن القمار أيضا.

ج: الأضـرار الاقتصاديـة للقمار الملايين بل المليارات من ثروات الأفراد تبدّد سـنويات على هذا الطريق، إضافة إلى المقدار الهائل من الوقت و من الطاقات الإنسانية.

و جاء فى أحـد التقارير: فى مدينة «مونت مونت كارلو» حيث توجد أكبر دور القمار فى العالم، خسـر شـخص خلال مدّة ۱۹ ساعة من اللعب المسـتمر أربعـة ملايين دولار، و حين أغلقت دار القمار اتّجه مباشـرة إلى الغابـة، و انتحر بإطلاق رصاصة على رأسه، و يضـيف التقرير: أنّ غابات «مونت كارلو» تشهد باستمرار انتحار مثل هؤلاء الخاسرين.

د: الأضرار الاجتماعية للقمار القمار يصدّ أصحابه عن التفكير بالعمل الجادّ الإنتاجى المثمر فى الحقل الاقتصادى، و يشدّهم دائما إلى أمل الحصول على ثروة طائلـة بـدون عناء عن طريق القمار، و هـذا يؤدّى إلى إهـدار الطاقات الإنتاجيـة لهؤلاء المقامرين و بالتالى إلى ضعف الإنتاج على قدر نسبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۲

المقـامرون و عوائلهم يعيشون عـادة حيـاة طفيليـة فى الجـانب الاقتصـادى و لا ـ ينتجون، بـل يجنون ثمار الآخرين، و قـد يضـطرّون فى حالات الإفلاس إلى السرقة.

أضـرار القمار فادحة إلى درجة دفعت حتّى ببعض البلدان غير الإسـلامية إلى إعلان منعه، كما حدث فى بريطانيا عام ۱۸۵۳، و أمريكا عام ۱۸۵۵، و الاتحاد السوفيتى عام ۱۸۵۴، و المانيا عام ۱۸۷۳.

و لا ـ بأس أن نشـير فى الخاتمـة إلى إحصائيـة أجراها بعض المحقّقين تـذكر أنّ القمار وراء ۹۰ بالمائة من السـرقات، و ۱۰ بالمائة من المفاسـد الخلقية، و ۴۰ بالمائـة من الاعتـداءات بالضـرب و الجرح، و ۱۵ بالمائـة من الجرائم الجنسـية، و ۳۰ بالمائـة من الطلاـق، و ۵ بالمائة من عمليات الانتحار.

لو أردنـا أن نعرّف القمار تعريفا شاملا علينا أن نقول: إنّه إهـدار للمال و الشـرف، للحصول على أموال الآخرين بالخدعـة و التزوير، و للترويج عن النفس أحيانا، ثمّ عدم الحصول على كلا الهدفين.

استعرضـنا الأضـرار الفادحـة المترتّبـة على «الخمر و الميسـر»، و تلزم الإشارة إلى مسألة أخرى فى هذا المجال و هى سـبب إشارة الآية الكريمة إلى منافع الخمر و الميسر، عند ما تعرّضت إلى ذمّهما، بينما نعلم أن منافعهما تافهة بالنسبة إلى أضرارهما.

قد يكون السـبب هو أنّ سوق الخمرة و القمار كانت رائجة فى الجاهلية مثل عصرنا هذا، و لو لم تشر الآية إلى مسألة المنافع لظنّ ذووا الأفق الفكرى الضيّق أنّ القرآن تناول المسألة من جانب واحد.

أضف إلى ما سبق أن أفكار الإنسان تدور عادة حول محور المنفعة و الضرر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۳

و تجب الاستفادة من هذا المنطق لإنقاذ الفرد من المفاسد الأخلاقية الكبرى.

و الآية تجيب ضـمنيا على بعض أقوال الأطباء بشأن إمكان الاسـتفادة من المشروبات الكحولية لمعالجة قسم من الأمراض، و تؤكّد أنّ الأضـرار المترتّبة عليها أكبر بكثير من نفعها، أى إذا كان لها أثر إيجابى على الشـفاء من مرض معيّن، فإنّها منشأ لأمراض خطرة اخرى، و قد تكون هذه الحقيقة هى التى تشير إليها الروايات القائلة: إن اللّه لم يجعل الشفاء فى الخمر.

۴- الاعتـدال فى مسألـة الإنفـاق بـالرغم من أنّ الإنفـاق من أهم المسائل أكّـد عليها الإسـلام و القرآن الكريم إلّا أنّه لم يتركها بـدون

حساب لتؤدّى إلى الإفراط الشديد بحيث تشلّ حياة الإنسان، فالآية محل البحث ناظرة إلى هذا المعنى كما ذهب إليه بعض المفسّرون، و يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ بعض الأشخاص يتذرّعون باحتياجاتهم الشخصيّة للتخلّص من هذا الحكم الإسلامى المهم، فالقرآن الكريم يقول: أنّكم تتمتّعون فى الحياة بالكثير من الأمور الزّائدة عن الحاجة فعليكم بانتخاب مقدار منها و إنفاقه.

۵- التفكّر فى كلّ شىء جملة لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ عبارة عن درس مهم للمسلمين فى أنّهم لا- يخوضون فى جميع أمورهم الماديّة و المعنويّة بدون تفكّر و تدبّر حتّى تبين الآيات الإلهيّة إلى النّاس لبعث روح التفكّر و التدبّر فيهم، فما أسوأ حال الأشخاص الّذين لا يتفكّرون فى أمورهم و أعمالهم الدينيّة و لا فى أعمالهم الدنيويّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۱]

اشارة

وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۲۱)

سبب النّزول

نزلت فى «مرثد الغنوى» بعثه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مكّة ليخرج منها جماعة من المسلمين. و كان قويا شجاعا، فدعته امرأة يقال لها «عناق» إلى نفسها، فأبى و كانت صديقته فى الجاهلية، فقالت له: هل لك أن تتزوج بى؟ فقال: حتّى استأذن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فلمّا رجع استأذن فى التزويج بها، فنزلت الآية تنهى عن الزواج بالمشركات حتى يؤمنّ.

التّفسير

حرمة الزواج مع المشركين:

هذه الآية و طبقا لسبب النزول المذكور أعلاه بمثابة جواب عن سؤال آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۵

حول الزّواج مع المشركين فتقول وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ثمّ تضيف مقايسة وجدانيّة فتقول وَ لَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَ لَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

فصحيح أنّ نكاح الجوارى و خاصّة الجوارى اللّاتى ليس لهنّ مال و لا- جمال غير محبّب فى عرف النّاس و لا محمود لا سيّما إذا كانت هناك امرأة مشركة فى مقابل ذلك تتمتّع بجمال و ثروة ماديّة، و لكنّ قيمة الإيمان تجعل الكفّة تميل لصالح الجوارى، لأنّ الهدف من الزواج ليس هو اللّذة الجنسيّة فقط، فالمرأة شريكة عمر الإنسان و مربيّة لأطفاله و تشكّل قسما مهمّا من شخصيّته، فعلى هذا الأساس كيف يصحّ استقبال الشرك و عواقبه المشؤومة لاقترانه بجمال ظاهرى و مقدار من الأموال و الثروة.

ثمّ أنّ الآية الشّريفة تقرّر حكما آخر و تقول وَ لا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكُمْ

و بهذا الترتيب منع الإسلام من زواج المرأة المؤمنة مع الرجل المشرك كما منع نكاح الرجل المؤمن من المرأة المشركة حتّى أنّ

الآية رجّحت العبد المؤمن أيضا على الرجال المشركين من أصحاب النفوذ و الثروة و الجمال الظاهرى، لأنّ هذا المورد أهم بكثير من المورد الأوّل و أكثر خطورة، فتأثير الزوج على الزوجة أكثر عادة من تأثير الزوجة على زوجها.

و فى ختام الآية تذكر دليل هذا الحكم الإلهى لزيادة التفكّر و التدبّر فى الأحكام و تقول أُولئِكَ أى المشركين- يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَ الْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ثمّ تضيف الآية وَ يُبَيِّنُ آياتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

بحوث

۱- الحكمة فى تحريم نكاح المشركين

كما رأينا فى الآية مورد البحث أنّها تبيّن الغرض و الحكمة من هذا التحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۶

بجملة قصيرة، و لو أنّنا توغّلنا فى المراد منها يتّضح: أنّ الزّواج هو الدّعامة الأساسيّة لتكثير النسل و تربية أولاد و توسعة المجتمع و أنّ المحيط العائلى مؤثّر جدّا لتربية الأولاد، هذا من جهة.

و من جهة اخرى التأثير الحتمى للوراثة على أخلاق الأولاد و سلوكهم، فالطّفل يتربّى فى أحضان الاسرة منذ تولّده و ينمو و يترعرع تحت رعاية امّه و أبيه غالبا، و هذه المرحلة هى المرحلة الحسّاسة فى تكوين شخصيّة الطفل.

و من جهة ثالثة أنّ الشرك هو المصدر الأساس لأنواع الانحرافات، و فى الحقيقة هو النار المحرقة فى الدنيا و الآخرة، و لذلك فالقرآن الكريم لا يبيح للمسلمين أن يلقوا بأولادهم فى هذا النّار. مضافا إلى أنّ المشركين الّذين هم بالحقيقة أجانب عن الإسلام و المجتمع الإسلامى سوف ينفذون إلى مفاصل المجتمع الإسلامى و بيوت المسلمين من هذا الطريق، فيؤدّى ذلك إلى تنامى قدرة الأعداء فى الداخل و الفوضى السياسيّة و الاجتماعيّة فى أوساط المجتمع، و هذا الحال إنّما يكون فى ما لو أصرّ المشركون على شركهم، و لكنّ الباب مفتوح أمامهم فبإمكانهم اعتناق الإسلام و الانخراط فى صفوف المسلمين و بذلك يستطيعون الزواج من أكفّائهم المسلمين.

كلمة (النكاح) وردت فى اللّغة فتارة بمعنى المقاربة الجنسيّة، و اخرى بمعنى عقد الزّواج، و المراد هنا فى هذه الآية هو الثانى، أى عقد الزّواج بالرّغم من أنّ الرّاغب فى المفردات يقول: (النكاح) فى الأصل بمعنى العقد، ثمّ استعمل مجازا فى العمليّة الجنسيّة.

۲- حقيقة المشركين

مفردة (المشرك) تطلق غالبا فى القرآن الكريم على من يعبد الأوثان، و لكنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۷

بعض المفسرين ذهب إلى أنّ المشرك يشمل سائر الكفّار كاليهود و النّصارى و المجوس (و بشكل عام أهل الكتاب) أيضا، لأنّ كلّ واحدة من هذه الطوائف يعتقد بوجود شريك للبارى عزّ و جلّ، فالنّصارى يعتقدون بالتثليث، و المجوس يذهبون إلى الثنويّة و أنّ ربّ العالم هو مزدا و أهريمن، و اليهود يرون أنّ «عزير» ابن اللّه.

و لكن بالرّغم من أنّ هذه الإعتقادات الباطلة موجبة للشّرك إلّا أنّ الآيات الشريفة الّتى تتحدّث عن المشركين فى مقابل أهل الكتاب و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اليهود و النصارى و المجوس يرتكزون فى أساس ديانتهم على النبوّات الحقّة و الكتب السماويّة فيتّضح

أنّ منظور القرآن الكريم من المشرك هو عبّاد الوثن.

و قد ورد فى الحديث النبوى المعروف فى ضمن وصايا متعدّدة (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) و هو شاهد على هذا المدّعى، لأنّ من المسلّم أنّ أهل الكتاب لم يخرجوا من جزيرة العرب، بل بقوا هناك يعيشون جنبا إلى جنب مع المسلمين بعنوان أقلية دينيّة، و يلتزمون بما أمر به القرآن الكريم من أداء الجزية إلى المسلمين.

۳- هل نسخت هذه الآية؟

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ حكم الآية أعلاه قد نسخ و الناسخ له الآية الشريفة وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ ۹۴] حيث أجازت نكاح نساء أهل الكتاب.

و قد نشأ هذا التصور من الإعتقاد أنّ الآية مورد البحث قد حرّمت الزواج مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۸

جميع الكفّار، فعلى هذا تكون الآية (۵) من سورة المائدة الّتى أجازت الزواج من كفّار أهل الكتاب ناسخة لهذا الحكم (أو مخصّصة له) و لكن مع ملاحظة ما ذكرناه من تفسير الآية يتّضح أنّ نظر هذه الآية خاص بالزّواج من المشركين و عبّاد الأوثان لا كفّار أهل الكتاب كاليهود و النّصارى (و طبعا فى مورد الزواج من كفّار أهل الكتاب هناك قرائن فى الآية و ما ورد من الأحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد هو الزّواج الموقّت).

۴- تشكيل العائلة و الدّقّة فى الأمر

أشار بعض المفسّرين المعاصرين إلى نكتة ظريفة فى هذه الآية، و هى أنّ هذه الآية و (۲۱) آية اخرى تأتى بعدها تبيّن الأحكام المتعلّقة بتشكيل الاسرة فى أبعادها المختلفة، و فى هذه الآيات بيّن القرآن الكريم اثنى عشر حكما شرعيا:

۱- حكم الزواج مع المشركين. ۲- تحريم الاقتراب من الزوجة فى حال الحيض، ۳- حكم القسم بعنوان مقدّمة للإيلاء (المراد من الإيلاء هو أن يقسم الإنسان أن لا يجامع زوجته)، ۴- حكم الإيلاء و يتبعه حكم الطلاق، ۵- عدّة المرأة المطلّقة، ۶- عدد الطلقات، ۷- إبقاء الزّوجة بالمعروف أو تركها بالمعروف، ۸- حكم الرّضاع، ۹- عدّة المرأة المتوفّى زوجها (الأرملة)، ۱۰- خطبة المرأة قبل تمام عدّتها، ۱۱- مهر المرأة المطلّقة قبل الدّخول، ۱۲- حكم الهديّة للمرأة بعد وفاة زوجها أو طلاقها منه.

و هذه الأحكام مع مجمل الإرشادات الأخلاقيّة فى هذه الآيات تبيّن أنّ مسألة تشكيل الأسرة هو نوع من العبادة للّه تعالى و يجب أن يكون مقرونا بالتفكّر و التدبّر[۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۲۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۲ الى ۲۲۳]

اشارة

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (۲۲۲) نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ

مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۲۲۳)

سبب النّزول

للنساء عادة شهرية تستمر بين ثلاثة إلى عشرة أيام. و خلالها يخرج من رحم المرأة دم ذو أوصاف خاصّة مذكورة فى كتب الفقه. و المرأة فى هذه الحالة تكون حائضا، و موقف الديانتين اليهودية و النصرانية الحاليتين من المرأة الحائض متناقض يثير الاستغراب.

جمع من اليهود قالوا: إنّ معاشرة المرأة الحائض حرام حتّى المجالسة على مائدة الطعام أو فى غرفة واحدة. و يذهبون إلى حظر جلوس الرجل فى المكان الذى تجلس فيه الحائض، و إن فعل ذلك تنجّست ملابسه و عليه أن يغسلها، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۰

رقد معها على سرير واحد تنجّس بدنه و لباسه، فهم يعتبرون المرأة فى هذه الحالة موجودا مدنسا يلزم اجتنابه.

و مقابل هؤلاء يذهب النصارى إلى عدم التفريق بين حالة الحيض و الطهر فى المرأة، حتّى بالنسبة للجماع.

المشركون العرب، و خاصّة أهل المدينة منهم، كانوا متأثرين بالنظرة اليهودية، و يعاملون المرأة الحائض على أساسها، فينفصلون عنها خلال مدّة الحيض. و هذا الاختلاف فى المواقف و ما يصحبه من إفراط و تفريط دفع ببعض المسلمين لأن يسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن ذلك، فنزلت الآية.

التّفسير

أحكام النساء فى العادة الشهريّة:

فى الآية الأولى نلاحظ سؤال آخر عن العادة الشهريّة للنّساء، فتقول الآية:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً و تضيف بلا فاصلة فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ فِي الْمَحِيضِ وَ لا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ....

(المحيض) مصدر ميمى و يعنى العادة الشهريّة للنساء، و جاء فى معجم مقاييس اللّغة أنّ أصل هذه المفردة تعنى خروج سائل أحمر من شجرة تدعى «سمرة» (ثمّ استعملت للعادة الشهريّة للنساء) و لكن ورد فى تفسير «الفخر الرّازى» أنّ الحيض فى الأصل بمعنى السيل و لذلك يقال للسّيل عند حدوثه (حاض السّيل) و يقال للحوض هذه اللّفظة بسبب أنّ الماء يجرى إليه.

و لكن يستفاد من كلمات الرّاغب فى المفردات عكس هذا المطلب و أنّ هذه المفردة فى الأصل تعنى دم الحيض (ثمّ استعملت فى المعانى الاخرى).

فعلى كلّ حال فهذه العبارة تعنى دم الحيض الّذى عرّفه القرآن بأنّه أذى، و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۱

الحقيقة أنّ هذه العبارة تبيّن علّة اجتناب الجماع فى أيّام الحيض، فهو إضافة إلى ما فيه من اشمئزاز، ينطوى على أذى و ضرر ثبت لدى الطبّ الحديث، و من ذلك احتمال تسبيب عقم الرجل و المرأة، و إيجاد محيط مناسب لتكاثر جراثيم الأمراض الجنسية مثل السفلس و التهابات الأعضاء التناسلية للرجل و المرأة، و دخول مواد الحيض المليئة بمكروبات الجسم فى عضو الرجل، و غير ذلك من الأضرار المذكورة فى كتب الطب، لذلك ينصح الأطباء باجتناب الجماع فى هذه الحالة.

خروج دم الحيض يعود إلى احتقان الرحم و تسلّخ جداره، و مع هذا الاحتقان يحتقن المبيض أيضا، و دم الحيض فى البداية يكون متقطّعا باهت اللون ثمّ يزداد و يحمرّ و يعود فى الأخير إلى وضعه المتقطّع الباهت ۹۶].

الـدم الخارج فى أيّام العادة الشـهرية هو الـدم الـذى يتجمّع شـهريا فى العروق الداخلية للرحم من أجل تقديم الغذاء للجنين المحتمل. ذلك لأنّ مبيض المرأة يـدفع كلّ شـهر ببويضـة إلى الرحم، و فى نفس الوقت تمتلئ عروق الرحم بالـدم اسـتعداد لتغذيـة الجنين فإن انعقـد الجنين يسـتهلك الـدم لتغـذيته، و إلّا يخرج بشـكل دم حيض. من هنا نفهم جانبا آخر لحظر الجماع فى هـذه الفترة التى يكون الرحم خلالها غير مستعد استعداد طبيعيا لقبول نطفة الرجل، حيث يواجه أذى من جراء ذلك.

جملـة (يطهرن) بمعنى طهارة النساء من دم الحيض كما ذهب إليه كثير من المفسّـرين، و أمّا جملـة فَإِذا تَطَهَّرْنَ فقد ذهب الكثير منهم على أنّها تعنى الغسل من الحيض، فعلى هذا الأساس و طبقا للجملة الاولى تكون المقاربة الجنسيّة بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۲

انتهاء دم الحيض جائزة حتّى لو لم تغتسل، و أمّا الجملة الثانيّة فتعنى أنّها ما لم تغتسل فلا يجوز مقاربتها[۹۷].

و على هـذا فالآيـة لا تخلو من إبهام، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الجملـة الثانيـة تفسـير للجملـة الاولى و نتيجة لها (و لهذا اعطفت بفاء التفريع) فالظاهر أنّ (تطهّرن) أيضا بمعنى الطهارة من دم الحيض، و بذلك تجوز المقاربة الجنسـيّة بمجرّد الطّهارة من العادة الشـهريّة، و هذا هو ما ذهب إليه الفقهاء العظام فى الفقه و أفتوا بحليّة المقاربة الجنسـيّة بعد الطهارة من الحيض حتّى قبل الغسل، و لكن لا شكّ فى أنّ الأفضل أن تكون بعد الغسل.

الفقرة الثانيـة من الآيـة تقول فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ أى أن يكون الجماع من حيث أمر اللّه، و قـد تكون هـذه الفقرة تأكيـدا لما قبلها، أى آتوا نساءكم فى حالـة النقاء و الطّهر فقط لا فى غير هـذه الحالـة، و قد يكون مفهومها أوسع بخصوص أنّ الجماع بعد الطّهر يجب أن يكون فى إطار أوامر اللّه أيضا.

هـذا الأـمر الإلهى من الممكن أن يشـمل الأمر التكوينى و الأمر التشـريعى معا، فاللّه سـبحانه أودع فى الرّجل و المرأة الغريزة الجنسـيّة لبقاء نوع الإنسان، و هـذه الغريزة تدفع الإنسان للحصول على اللّذة الجنسـيّة، لكنّ هذه اللّذة مقدّمة لبقاء النوع فقط، و من هنا لا يجوز الحصول عليها بطرق منحرفة مثل الاستمناء و اللّواط و أمثالهما، لأنّ هذا الطريق نوع من الانحراف عن الأمر التكوينى.

و كـذلك يمكن أن يكون المراد هو الأـمر التشـريعى، يعنى أنّ الزوجـة بعـد طهارتهـا من العـادة الشـهريّة ينبغى عليهـا مراعـاة جهات الحلال و الحرام فى الحكم الشرعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۳

و ذهب البعض إلى أنّ مفهوم هـذه الجملـة هو حرمة المقاربة الجنسـيّة مع الزّوجة عن غير الطريق الطبيعى، و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآيات السابقة لم تتحدّث عن هذا الأمر يكون هذا التفسير غير مناسب للسّياق ۹۸].

الآية الثانية إشارة لطيفة إلى الغاية النهائيّة من العمليّة الجنسـيّة فتقول نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ فى هذه الآية الكريمة شبّهت النساء بالمزرعة، و قد يثقل هذا التشبيه على بعض، و يتساءل لماذا شبّه اللّه نصف النوع البشرى بهذا الشكل؟

و لو أمعنا النظر فى قوله سـبحانه لوجـدنا فيه إشارة رائعـة لبيان ضـرورة وجود المرأة فى المجتمع الإنسانى. فالمرأة بموجب هذا التعبير ليست وسيلة لإطفاء الشهوة، بل وسيلة لحفظ حياة النوع البشرى.

«الحرث» مصدر يدلّ على عمل الزراعة، و قد يدلّ على مكان الزراعة «المزرعة» و «أنّى» من أسـماء الشرط، و تكون غالبا زمانية. و قد تكون مكانية كما جاء فى قوله سبحانه: يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۹۹].

يستفاد من الآية الكريمة- على افتراض زمانية أنّى- الرخصة فى زمان الجماع، أى جوازه فى كلّ ساعات الليل و النهار، و على افتراض مكانية أنّى يستفاد من الآية الرخصة فى مكان الجماع و محلّه و كيفيته.

وَ قَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ هذا الأمر القرآنى يشـير إلى أنّ الهدف النهائى من الجماع ليس هو الاسـتمتاع باللذة الجنسـية، فالمؤمنون يجب أن يستثمروه على طريق تربية أبناء صالحين، و أن يقدّموا هذه الخدمة التربوية المقدّسة ذخيرة لاخراهم. و بذلك يؤكّد القرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۴

علی رعایة الدقّة فی انتخاب الزوجة کی تکون ثمرة الزواج إنجاب أبناء صالحین و تقدیم هذه الذخیرة الاجتماعیة الإنسانیة الکبری.

و فی حدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا عن ثلاث: صدقة جاریة، و علم ینتفع به، و ولد صالح یدعو له»

[۱۰۰].

و جاء فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «لیس یتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجراها فی حیاته فهی تجری بعد موته و سنّة هدی سنّها فهی تعمل بها بعد موته و ولد صالح یستغفر له»

[۱۰۱].

و وردت بهذه المضمون روایات عدیدة أیضا، و قد جاء فی بعضها ستّة موارد أوّلها الولد الصالح ۱۰۲].

و علی هذا الأساس یأتی الولد الصالح من حیث الأهمیّة إلی جانب الخدمات العلمیّة و تألیف الکتب المفیدة و تأسیس المراکز الخیریّة کالمسجد و المستشفی و المکتبة و أمثال ذلک.

و فی ختام هذه الآیة تأمر بالتقوی و تقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّکُمْ مُلاقُوهُ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِینَ

لمّا کانت المقاربة الجنسیّة تعتبر من المسائل المهمّة و من أشد الغرائز إلحاحا علی الإنسان، فإنّ اللّه تعالی یدعو فی هذا الآیة الإنسان إلی الدقّة فی أمر ممارسة هذه الغریزة و الحذر من الانحراف، و تنذر الجمیع بأنّهم ملاقوا ربّهم و لیس لهم طریق للنّجاة سوی الإیمان و التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۵

بحوث

۱- الحکم الإسلامی العادل فی مسألة الحیض

هناک الاعتقادات مختلفة فی الأقوام السّالفة حول العادة الشهریّة للنّساء، فالیهود یشدّدون أمرها و یعزلون المرأة فی هذه الأیّام کلیّا عن کلّ شیء: عن الأکل و الشرب عن المجالسة و المؤاکلة و المضاجعة، و قد وردت فی التوراة الحالیّة أوامر متشدّدة فی هذا الصّدد[۱۰۳].

و علی العکس من ذلک النّصاری حیث لا یلتزمون بأیّة محدودیّة فی هذه الأیّام، فلا فرق بین حالة الحیض و الطّهر لدی المرأة. المشرکون العرب لیس لدیهم حکما خاصّا فی هذا المجال، و لکنّ أهالی المدینة کانوا متأثّرین بآداب الیهود و عقائدهم فی معاشرتهم للنّساء أیّام الحیض فکانوا یتشدّدون مع المرأة فی هذه الأیّام، فی حین أنّ سائر العرب لم یکونوا کذلک، بل قد تکون المقاربة الجنسیّة محبّبة لدیهم فیها، و یعتقدون أنّه لو حصل من تلک المقاربة ولد فإنّه سوف یکون فتّاکا و متعطّشا للدّماء، و هذه من الصّفات المتمیّزة و المطلوبة لدی أعراب البادیة[۱۰۴].

۲- اقتران الطهارة بالتوبة

إنّ اقتران الطهارة و التوبة فی الآیات أعلاه یمکن أن یکون إشارة إلی أنّ الطّهارة تتعلّق بالطّهارة الظاهریّة و التوبة إشارة إلی الطّهارة

الباطنيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۱۳۶

و يحتمل أيضا أنّ الطهارة هنا عدم التلوّث بالذنب، يعنى أنّ اللّه تعالى يحب من لم يتلوّث بالذنب، و كذلك يحب من تاب بعد تلوّثه.

و يمكن أن تشير مسألة التوبة هنا إلى أنّ بعض الناس يصعب عليهم السيطرة على الغريزة الجنسيّة فيتلوّثون بالذّنب و الإثم خلافا لما أمر اللّه تعالى، ثمّ يعتريهم النّدم على عملهم و يتألمون من ذلك، فاللّه سبحانه و تعالى فتح لهم طريق التوبة كيلا يصيبهم اليأس من رحمة اللّه ۱۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۱۳۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۴ الى ۲۲۵]

اشارة

وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۴) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۲۵)

سبب النّزول

حدث خلاف بين صهر أحد الصحابة و ابنته، و هذا الصحابى هو «عبد اللّه بن رواحة» حيث أقسم أن لا يتدخّل فى الإصلاح بين الزّوجين، فنزلت الآية تنهى عن هذا اللّون من القسم و تلغى آثاره.

التّفسير

لا ينبغى القسم حتّى الإمكان:

كما قرأنا فى سبب النّزول أنّ الآيتين أعلاه ناظرتان إلى سوء الاستفادة من القسم، فكانت هذه مقدّمة إلى الأبحاث التالية فى الآيات الكريمة عن الإيلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۱۳۸

و القسم و ترك المقاربة الجنسيّة.

فى الآية الاولى يقول تعالى وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَ تَتَّقُوا وَ تُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۱۰۶].

(الأيمان) جمع (يمين) و (عرضة) بضم العين، تقال للبضاعة و أمثالها التى تعرض أمام الناس فى السوق. و قد تطلق العرضة على موانع الطريق لأنّها تعترض طريق الإنسان.

و ذهب البعض إلى أنّ المراد بها ما يشمل جميع الأعمال، فالآية تنهى عن القسم باللّه فى الأمور الصغيرة و الكبيرة و عن الاستخفاف باسمه سبحانه، و بهذا حذّرت الآية من القسم إلّا فى كبائر الأمور، و هذا ما أكّدت عليه الأحاديث الكثيرة،

و قد روى عن الصادق عليه السّلام (لا تحلفوا باللّه صادقين و لا كاذبين فإنّ اللّه سبحانه يقول: وَ لا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ [۱۰۷].

و هناك أحاديث متعدّدة وردت فى هذا المجال ۱۰۸].

و لو أخذنا سبب نزول الآية بنظر الإعتبار يكون مؤدّاها أنّ القسم ليس بعمل مطلوب فى الأعمال الصالحة، فكيف بالقسم بترك الأعمال الصالحة؟! و فى الآية التالية نلاحظ تكملة لهذا الموضوع و أنّ القسم لا ينبغى أن يكون مانعا من أعمال الخير فتقول: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ أى عن إرادة و إختيار.

فى هذه الآية يشير اللّه تعالى إلى نوعين من القسم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۳۹

الأوّل: القسم اللغو الذى لا أثر له، و لا يعبأ به، هذا النوع من القسم يتردّد على ألسن بعض الناس دون التفات، و يكرّرونه فى كلامهم عن عادة لهم، فيقولون: لا و اللّه ... بلى و اللّه ... على كلّ شىء، و إنّما سمّى لغوا لأنّه لا هدف له و لم يطلقه المتكلّم عن عزم و وعى، و كلّ عمل و كلام مثل هذا لغو.

من هنا فالقسم الصادر عن الإنسان حين الغضب لغو (إذا أخرجه الغضب تماما عن حالته الطبيعية). و حسب الآية أعلاه لا يؤاخذ الإنسان على مثل هذا القسم، و عليه أن لا يرتّب أثرا عليه، و يجب الالتفات إلى أنّ الإنسان يجب أن يتربّى على ترك مثل هذا القسم و على كلّ حال فإن العمل بهذا القسم غير واجب و لا كفّارة عليه، لأنه لم يكن عن عزم و إرادة.

النوع الثانى: القسم الصادر عن إرادة و عزم، أو بالتعبير القرآنى هو القسم الداخل فى إطار كسب القلب، و مثل هذا القسم معتبر، و يجب الالتزام به، و مخالفته ذنب موجب للكفّارة إلّا فى مواضع سنذكرها. و قد أشارت الآية (۸۹) من سورة المائدة إلى هذا النوع من القسم بقولها «ما عقدتم الايمان».

الأيمان غير المعتبرة:

الإسلام لا يحبّذ القسم كما أشرنا آنفا، لكنّه ليس بالعمل المحرّم، بل قد يكون مستحبّا أو واجبا تبعا لما تترتّب عليه من آثار.

و هناك أيمان لا قيمة لها و لا اعتبار فى نظر الإسلام، منها:

۱- القسم بغير اسم اللّه و حتّى القسم باسم النبى و أئمّة الهدى عليهم السّلام مثل هذا القسم غير المتضمّن اسم اللّه تعالى لا أثر له و لا يلزم العمل به و لا كفّارة على مخالفته.

۲- القسم على ارتكاب فعل محرّم أو مكروه أو ترك واجب أو مستحب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۰

حيث لا يترتّب عليه شىء. كأن يقسم شخص على عدم أداء دين، أو على قطع رحم، أو على فرار من جهاد، و أمثالها أو يترك إصلاح ذات البين مثلا كما نلاحظ ذلك لدى بعض الأشخاص الذين واجهوا بعض السلبيات من إصلاح ذات البين فأقسموا على ترك هذا العمل. فإن أقسم على شىء من ذلك فعليه أن لا يعتنى بقسمه و لا كفّارة عليه، و قيل إنّ هذا هو معنى قوله تعالى: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ

أمّا الأيمان- التى تحمل اسم اللّه- على أداء عمل صالح أو مباح على الأقل، فيجب الالتزام به، و إلّا وجبت على صاحبه الكفّارة، و كفّارته كما ذكرته الآية (۸۹) من سورة المائدة، إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۲۶ الى ۲۲۷]

اشارة

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲۶) وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۲۷)

التّفسير

القضاء على تقليد جاهلى:

القسم على ترك وطء الزوجة أو الإيلاء[۱۰۹] تقليد جاهلى كان شائعا بين العرب، و استمرّ معمولا به عند المسلمين الجدد قبل نزول حكم الطلاق.

كان الرجل فى الجاهلية- حين يغضب على زوجته- يقسم على عدم وطئها، فيشدّد عليها بهذه الطريقة الفضّة، لا هو يطلق سراحها بالطلاق لتتزوج من رجل آخر، و لا يعود إليها بعد هذا القسم ليصالحها و يعايشها. و طبعا لا يواجه الرجل غالبا صعوبة فى ذلك لأنه يتمتع بعدة زوجات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۲

الآية الكريمة وضعت لهذه القضية حدّا، فذكرت أنّ الرجل يستطيع خلال مدّة أقصاها أربعة أشهر أن يتّخذ قرارا بشأن زوجته: إمّا أن يعود عن قسمه و يعيش معها، أو يطلّقها و يخلّى سبيلها.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

و الغاية من الامهال أربعة أشهر هو إعطاء الفرصة للزوج ليفكر فى أمره مع زوجته و ينقذها من هذا الحال. ثمّ تضيف:

فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أى إن عادوا وجدوا اللّه غفورا رحيما، و العبارة تدلّ أيضا أنّ العودة عن هذا القسم ليس ذنبا، بالرغم من ترتب الكفّارة عليه.

وَ إِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أى فلا مانع من ذلك مع توفّر الشروط اللازمة.

و فيما لو أهمل الزوج كلا الطريقين و لم يختر أحدهما، فلم يرجع إلى الحياة الزوجية السليمة، و لم يطلّق. ففى هذه الصورة يتدخّل حاكم الشرع و يأمر بإلقاء الزوج فى السجن، و يشدد عليه حتّى يختار أحدهما، و ينقذ الزوجة من حالتها المعلّقة.

ينبغى التأكيد هنا على أنّ الإسلام، و إن لم يلغ حكم الإيلاء نهائيا، فقد أزال آثار هذه الظاهرة، لأنّه لم يسمح للرجل أن ينفصل عن زوجته بالإيلاء. و تعيينه مدّة للذين يؤلون من نسائهم لا- يعنى إلغاء حقّ من حقوق الزوجيّة، لأنّ حقّ المرأة على زوجها- فى إطار الوجوب الشرعى- الوطء كلّ أربعة أشهر، هذا طبعا فى حالة عدم انجرار المرأة إلى الذنب على أثر طول المدّة، و إلّا يجب أن تقلّل المدّة إلى مقدار تأمين الحاجة الجنسية و خاصّة بالنسبة للمرأة الشابّة التى يخشى انحرافها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۳

بحوث

۱- الإيلاء حكم استثنائى

تقدّم الحديث فى الآيات السّابقة عن القسم اللّغو، و قلنا أنّ كلّ قسم على فعل ما يخالف الشّريعة المقدّسة فهو من مصاديق اللّغو فى

القسم، فلا إشكال من نقضه، و على ذلك فالقسم على ترك الواجبات الزوجيّة لا أثر له إطلاقا، فى حين أنّ الإسلام قد جعل له كفّارة[۱۱۰] (و هى كفّارة نقض القسم و اليمين المذكورة فى الأبحاث السّابقة) و هذا فى الحقيقة عبارة عن عقوبة لبعض الرجال الّذين يتوسّلون بهذه الذريعة لتضييع حقوق الزّوجة حتّى لا يقوموا بتكرار هذا العمل مرّة اخرى.

۲- الإيلاء فى حكم الإسلام و الغرب

فى اوروبا نلاحظ وجود ما يشبه الإيلاء و يطلقون عليه الانفصال البدنى و توضيحه: أنه بما أن الطلاق كان محضورا فى الديانة المسيحية لذا قام الغربيّين بعد الثورة الفرنسيّة الكبرى باستخدام ظاهرة الانفصال الجسمى بين الزوجين باعتبارها إحدى سبل الطّلاق، و ذلك بأن يعيش الرجل فى مكان و المرأة فى مكان آخر عند عدم وجود الوفاق بينهما، و تبقى كلّ الحقوق الزوجيّة محفوظة سوى نفقة الرجل و تمكين المرأة، فالرجل لا يستطيع أن يتزوّج بامرأة اخرى و لا المرأة كذلك على أن لا تتجاوز مدّة الانفصال ثلاث سنوات يجب على الزوجين بعدها أن يعودا إلى حياتهم الزوجيّة[۱۱۱]، فالبرّغم من أنّ القانون الغربى سمح للزّوجين أن ينفصلا فى ثلاث سنين، إلّا أنّ الإسلام لم يسمح لهذا الانفصال أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۴

يستمر أكثر من أربعة أشهر و استمرار هذه المدّة جائز حتّى مع عدم القسم، و بعد هذه المدّة يجب على الرجل أن يعيّن أمره، فإذا أراد أن يماطل أكثر من هذه المدّة فإنّ الحكومة الإسلاميّة تستدعيه و ترغمه على اتّخاذ قراره النّهائى.

۳- الصّفات الإلهيّة فى ختام كلّ آية

ممّا يلفت النّظر أنّ الكثير من آيات القرآن تختتم أبحاثها بصفات اللّه تعالى و هذه الصفات لها ارتباط مباشر بمحتوى الآيات دائما، و من جملة هذه الآيات ما نحن فيه، فعند ما كان الحديث عن الإيلاء و التصميم على نقض هذا القسم الممنوع تذكر الآية بعدها جملة غَفُورٌ رَحِيمٌ و هى إشارة إلى أنّ هذا السلوك السليم سبب لغفران اللّه تعالى و شمول رحمته لهؤلاء الأشخاص، و عند ما كان الحديث يدور حول التصميم على الطّلاق كانت العبارة سَمِيعٌ عَلِيمٌ يعنى أنّ اللّه تعالى يسمع كلامكما و مطّلع على دوافع الطّلاق و الفرقة و سوف يجازيكم وفقا لهذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۸]

اشارة

وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۲۸)

التّفسير

حريم الزّواج أو العدّة:

كان الكلام فى الآيـة السّابقـة عن الطّلاق، و هنا تـذكر الآية بعض أحكام الطّلاق و ما يتعلّق به حيث ذكرت خمسة أحكام له فى هذه الآية.

فى البداية ذكرت الآية عدّة الطّلاق وَ الْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ.

(قروء) جمع (قرء) تطلق على الحيض و على النقـاء منه، و يمكن الاسـتفادة من كلاـ هـذين المعنيين مفهومـا كليّا يجمع بينهمـا، و هو الانتقال من حالة إلى حالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۶

اخرى و يرى «الرّاغـب» فى المفردات أنّ «القرء» فى الحقيقـة هى كلمـة يراد منهـا الانتقـال من حالـة الحيض إلى الطّهر، و بمـا أنّ كلا هـذين العنوانين مأخوذان فى معنى الكلمة، فتسـتعمل أحيانا بمعنى الحيض و اخرى بمعنى الطّهر، و يسـتفاد من بعض الرّوايات و كثير من كتب اللّغـة أنّ القرء تعنى الجمع بين الحـالتين، و بما أنّ حالـة الطّهر يجتمع فى المرأة مع وجود دم الحيض فى رحمها فتطلق هـذه المفردة على الطّهر و على كلّ حال فقـد ورد التّصـريح فى الروايات أنّ المقصود بالقروء الثلاثـة فى الآيـة أن تطهر المرأة ثلاث مرّات من دم الحيض ۱۱۲].

و بمـا أنّ الطّلاق يشترط فيه أن تكون المرأة فى حالـة الطّهر الّـذى لم يجامعها زوجها فيه فيحسب ذلك الطّهر مرّة واحـدة، و بعـد أن ترى المرأة دم الحيض مرّة و تطهر منه حينئـذ تتم عدّتها بمجرّد أن ينتهى الطّهر الثالث و تشـرع و لو للحظة فى العادة، فيجوز لها حينئذ الزّواج، و مضافا إلى الروايات فى هذا المجال يمكن استنباط هذه الحقيقة من نفس الآية مورد البحث لأنّ:

أوّلا: (قرء) تستبطن جمعان: قروء و أقراء، و ما كان جمعه قروء فهو طهر، و ما كان جمعه أقراء فهو بمعنى الحيض ۱۱۳].

ثانيا: القرء فى اللّغـة بمعنى الجمع، كما تقـدّم و هى أنسب لحالة الطّهر، لأنّ الدم يتجمّع فى هذه الحالة فى الرّحم بينما يخرج و يتفرّق عند العادة الشهريّة[۱۱۴].

الحكم الثـانى المسـتفاد من هـذه الآيـة هو قوله تعـالى وَ لاـ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مـا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحـامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

الإسلام قرّر أن تكون المرأة بنفسها هى المرجع فى معرفة بداية العدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۱۴۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۷

و نهايتها حيث إنّ المرأة نفسها أعلم بذلك من الآخرين، و

فى الرّوايـة عن الإمام الصّادق عليه السّـلام فى تفسـير الآيـة محلّ البحث قال: «قد فوّض اللّه إلى النّساء ثلاثة أشـياء: الحيض و الطّهر و الحمل»[۱۱۵].

و يمكن أن يسـتفاد من الآيـة هـذا المعنى أيضـا، لأـنّ الآيـة تقول وَ لا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَ و يخبرن بخلاف الواقع، و هذا يعنى أن كلامهنّ مقبول.

و جملة ما خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحامِهِنَ كما ذهب إليه جماعة من المفسّـرين يمكن أن يراد بها معنيان: (الجنين) و (العادة الشـهريّة) لأنّ كلا هذين المعنيين قد جعلهما اللّه فى أرحام النساء أى يجب على المرأة أن لا تكتم حملها و تدّعى العادة الشهريّة بهدف تقليل مدّة العدّة (لأـنّ عـدّة الحامـل وضع حملها) و هكـذا يجب عليها أن لا تخفى وضع حيضـها و تبيّن خلاف الواقع، و لا يبعـد اسـتفادة كلا هـذين المعنيين من العبارة أعلاه.

الحكم الثالث المستفاد من الآية هو أنّ للزّوج حقّ الرّجوع إلى زوجته فى عدّة الطّلاق الرّجعى، فتقول الآية: وَ بُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذلِكَ إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً[۱۱۶].

و بهذا يستطيع الزّوج استئناف علاقته الزوجية بدون تشريفات خاصّة إذا كانت المرأة فى عدّة الطّلاق الرّجعى، فإذا قصد الرّجوع يتحصّل بمجرّد كلمة أو عمل يصدر منه بهذا القصد، و جملة: إِنْ أَرادُوا إِصْلاحاً فى الحقيقة هى لبيان أنّ هدف الرّجوع يجب أن يكون بنيّة الإصلاح لا كما كان عليه الحال فى العصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۸

الجاهلى من أنّ الزّوج يستخدم هذا الحق لغرض الإضرار بالزّوجة حيث يتركها فى حالة معلّقة بين الزّواج و الطّلاق.

فهذا الحقّ يكون للزّوج فى حالة إذا كان نادما واقعا و أراد أن يستأنف علاقته الزّوجيّة بجديّة، و لم يكن هدفه الإضرار بالزّوجة.

ضمنا يستفاد ممّا ورد فى ذيل الآية من مسألة الرّجوع هو أنّ حكم العدّة و الاهتمام بحساب أيّامها يتعلّق بهذه الطائفة من النساء، و بعبارة اخرى أنّ الآية تتحدّث بشكل عام عن الطّلاق الرّجعى و لهذا فلا مانع من أن تكون بعض أقسام الطّلاق بدون عدّة أصلا.

ثمّ تبيّن الآية حكما رابعا و تقول: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

يقول الطبرسى فى مجمع البيان أنّه يستفاد من هذه العبارة العجيبة و الجامعة فوائد كثيرة جدّا[۱۱۷]، فهى قد جرّت البحث إلى مسائل أهم بكثير من الطّلاق و العدّة، و قرّرت مجموعة من الحقوق المتبادلة بين الرّجال و النساء فتقول: كما أنّ للرّجال حقوقا على النساء، فكذلك للنساء حقوق على الرّجال أيضا، فيجب عليهم مراعاتها، لأنّ الإسلام اهتمّ بالحقوق بصورة متعادلة و متقابلة و لم يتحيّز إلى أحد الطّرفين.

و كلمة (بالمعروف) التى تأتى بمعنى الأعمال الحسنة المعقولة و المنطقيّة تكرّرت فى هذه السلسلة من الآيات اثنا عشر مرّة (من الآية مورد البحث إلى الآية ۲۴۱) كيما تحذّر النساء و الرّجال من عاقبة سوء الاستفادة من حقوق الطّرف المقابل، و عليهم احترام هذه الحقوق و الاستفادة منها فى تحكيم العلاقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۴۹

الزوجيّة و تحصيل رضا اللّه تعالى.

جملة وَ لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ تكمّل القاعدة السابقة فى الحقوق المتقابلة بين الرّجل و المرأة، و فى الواقع أنّ مفهومها هو أنّ مسألة العدالة بين الرّجل و المرأة لا تكون بالضّرورة بمعنى التساوى فى الحقوق و أن يكونا فى عرض واحد، فهل يلزم أن يكون الجنسان، متساويين تماما فى الواجبات و الحقوق؟

لو أخذنا بنظر الإعتبار الاختلافات الكبيرة بين الجنسين على صعيد القوى الجسميّة و الروحيّة لا تّضح الجواب عن السؤال.

المرأة بطبيعة مسئوليتها الحسّاسة فى إنجاب الأبناء و تربيتهم تتمتّع بمقدار أوفر من العواطف و المشاعر و الإحساسات، فى حين أنّ الرجل و طبقا لهذا القانون انيطت به مسئولية الواجبات الاجتماعيّة التى تستلزم قوّة الفكر و الابتعاد عن العواطف و الأحاسيس الشخصيّة أكثر، و لو أردنا إقامة العدالة فيجب أن نضع الوظائف الاجتماعيّة التى تحتاج إلى تفكّر و تحمّل أكثر بعهدة الرّجال، و الوظائف و المسؤوليّات التى تحتاج إلى عواطف و إحساسات أكثر بعهدة النّساء، و لهذا السبب كانت إدارة الاسرة بعهدة الرّجل و مقام المعاونة بعهدة المرأة، و على أىّ حال فلا يكون هذا مانعا من تصدّى المرأة للمسؤوليّات الاجتماعيّة المتوائمة مع قدراتها الجسميّة و ملكاتها البيولوجيّة فتؤدّى تلك الوظائف و المسؤوليّات إلى جانب أداء وظيفة الامومة فى الاسرة.

و كذلك لا يكون هذا التفاوت مانعا من تفوّق بعض النّساء من الجهات المعنويّة و العلميّة و التقوائيّة على كثير من الرّجال.

فما نرى من إصرار بعض المثقّفين على مقولة التساوى بين الجنسين فى جميع الأمور هو إصرار لا تؤيّده الحقائق على أرض الواقع حيث ينكرون فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۰

دعواهم هـذه الثّوابت العلميّة فى هـذا المجال، فحتّى فى المجتمعات التى تنادى بالمساواة بين الجنسين فى مختلف المجالات نشاهد عملا ـ بونـا شاسعا مع نـداءاتهم، فمثلا ـ الإدارة السياسيّة و العسكريّة لجميع المجتمعات البشريّة هى فى عهـدة الرّجال (إلّا فى موارد استثنائيّة) حيث يرى هذا المعنى أيضا فى المجتمعات الغربيّة التى ترفع شعار المساواة دائما.

و على كلّ حال، فالحقوق التى يختّص بها الرّجال مثل حقّ الطّلاق أو الرّجوع فى العدّة أو القضاء (إلّا فى موارد خاصّة اعطى فيها حقّ الطّلاق للزّوجة أو حاكم الشرع) ترتكز على هذا الأساس و نتيجة مباشرة لهذه الحقائق العمليّة.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ جملـة: لِلرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ناظرة إلى مسألة الرّجوع فى عدّة الطّلاق فقط[۱۱۸]، و لكن من الواضح إنّ هـذا التفسير لا يتواءم و ظاهر الآيـة، لأنّ الآية ذكرت قبل ذلك قانونا كليّا حول حقوق المرأة و وجوب رعاية العدالة بجملة وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ثمّ أوردت العبارة مورد البحث بشكل قانون كلّى آخر بعد ذلك.

و أخيرا تقول الآية: وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ و هذا إشارة إلى ما يرد فى هذا المجال من إشكالات و تساؤلات و أنّ الحكمة الإلهيّة و التدبير الرّبانى يستوجبان أن يكون لكلّ شخص فى المجتمع وظائف و حقوق معيّنة من قبل قانون الخلقة و يتناسب مع قدراته و قابليّاته الجسميّة و الرّوحيّة، و بذلك فإنّ الحكمة الإلهيّة تستوجب أن تكون للمرأة فى مقابل الوظائف و المسؤوليّات الملقاة على عاتقها حقوقا مسلّمة كيما يكون هناك تعادل بين الوظيفة و الحقّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۱

بحوث

۱- العدّة وسيلة للعودة و الصّلح

أحيانا ينشأ فى مناخ الاسرة و بسبب عوامل مختلفة بعض الاختلافات الجزئيّة و تتهيّأ الأرضيّة النفسيّة لكلّ من الزّوجين بشكل يشتد فيه حس الانتقام و تنطفأ فيه أنوار العقل و الوجدان. و فى الغالب تكون حالات الفرقة و تشتّت العائلة ناشئة من هذه الموارد و الحالات، و لكن يشاهد فى كثير من الحالات أنّ كلّ من الزّوجة و الزّوج بعد حصول النّزاع و الفرقة بفترة قليلة من الزّمان يصيبهم النّدم و خاصّة بعد مشاهدة انهدام الاسرة و تلاشى المحيط العائلى الدّافئ لتصبّ حياتهم فى بحر المشاكل المختلفة.

و هنا تقول الآية مورد البحث: أنّ على النّساء العدّة و الصبر ريثما تهدأ تلك الأمواج النفسيّة و تنقشع سحب النّزاع و العداوة عن سماء الحياة المشتركة، و خاصّة إذا أخذنا بنظر الإعتبار حكم الإسلام فى وجوب بقاء المرأة و عدم خروجها من بيت زوجها طيلة مدّة العادة حيث يبعث ذلك على حسن التفكّر و إعادة النّظر فى قرار الطّلاق ممّا يؤثّر ذلك كثيرا فى رسم و صياغة علاقاتها مع زوجها، و لذلك نقرأ فى سورة الطّلاق آية (۱) لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَ ... لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً.

و فى الغالب نلحظ أنّه يكفى لاستعادة المناخ الملائم و الأجواء الدّافئة للاسرة قبل الطّلاق قليل من تقوية المحبّة و إعادة المياه إلى مجاريها.

۲- العدّة وسيلة لحفظ النّسل

إنّ إحدى الأغراض المهمّة للعدّة هو اتّضاح حالة المرأة بالنّسبة إلى الحمل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۲

فصحیح أنّ رؤیة المرأة لدم الحیض مرّة واحدة دلیل علی عدم الحمل، و لکن أحیانا تری المرأة دم العادة حین الحمل أیضا و فی بدایته، فمن أجل رعایة هذا الموضوع و الحکم بشکل کامل کان علی المرأة أن تصبر لتری العدّة ثلاث مرّات و تطهر منها حتّی تقطع تماما بعدم حملها من زوجها السّابق فیمکنها بعد ذلک الزّواج المجدّد، و طبعا هناک فوائد اخری للعدّة سنشیر إلیها فی مواردها.

۳- تلازم الحقّ و الوظیفة

هنا یشیر القرآن الکریم إلی أصل أساس، و هو أنّه کلّما کانت هناک وظیفة و مسئولیّة کان هناک حقّ إلی جانبها، یعنی أنّ الوظیفة و الحقّ لا ینفصلان أبدا، فمثلا أنّ علی الوالدین وظائف بالنّسبة للأولاد، و هذه الوظائف تسبّب إیجاد حقوق فی عهدة الأولاد، أو أنّ القاضی موظّف فی تحقیق العدالة فی المجتمع ما أمکنه ذلک، و فی مقابل هذه الوظیفة و المسؤولیّة له حقوق کثیرة فی عهدة الآخرین، و هکذا بالنّسبة إلی الأنبیاء علیهم السّلام و أقوامهم.

و فی الآیة مورد البحث إشارة إلی هذه الحقیقة حیث تقول أنّ النساء لهنّ من الحقوق بمقدار ما علیهنّ من الواجبات و الوظائف، و هذا التّساوی بین الحقوق و الواجبات یسهّل عملیّا إجراء العدالة فی حقّهن، و کذلک یثبت عکس هذا المطلب أیضا فمن جعل له حقّا ففی مقابله علیه واجبات و مسئولیّات لا بدّ من أدائها، و لذلک لا نجد أحدا له حقّ من الحقوق فی أحد الموارد و لیست فی ذمّته وظیفة و مسئولیّة.

۴- قصّة المرأة فی التّاریخ و حقوقها المهدورة

عانت المرأة خلال العصور التاریخیّة المختلفة ألوانا من الظلم و الاضطهاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۳

و التعسّف، و یشکّل هذا التاریخ المؤلم المرّ جزء هامّا من الدراسات الاجتماعیة بشکل عامّ یمکن تقسیم تاریخ حیاة المرأة إلی مرحلتین:

المرحلة الاولی: مرحلة ما قبل التاریخ، و لیس لنا معلومات صحیحة عن وضع المرأة فی هذه المرحلة، و من الممکن أن تکون قد تمتّعت آنذاک بحقوقها الإنسانیة الطبیعیّة.

و المرحلة الثانیة: مرحلة التاریخ، و المرأة کانت خلالها فی کثیر من المجتمعات شخصیّة غیر مستقلة فی جمیع الحقوق الاقتصادیة و السیاسیة و الاجتماعیة، و استمرّ هذا الوضع فی قسم من المجتمعات حتّی القرون الأخیرة.

هذا اللون من التفکیر بشأن المرأة مشهود حتّی فی القانون المدنیّ الفرنسیّ المشهور بتقدّمیته، علی سبیل المثال نشیر إلی بعض فقراته المتعلّقة بالشؤون المالیة للزوجین:

یستفاد من المادّتین ۲۱۵ و ۲۱۷ أنّ المرأة المتزوجة لا تستطیع بدون إذن زوجها و توقیعه أن تؤدّی أیّ عمل حقوقی، و تحتاج فی کلّ معاملة إلی إذن الزوج.

هذا إذا لم یرد الرجل أن یستغلّ قدرته و أن یمتنع عن الإذن دون مبرّر.

و حسب المادّة ۱۲۴۲ یحقّ للرجل أن یتصرّف لوحده بالثروة المشترکة بین المرأة و الرجل بأیّ شکل من الأشکال، و لا یلزمه استئذان المرأة بشرط أن یکون التّصرّف فی إطار الإدارة، و إلّا لزمت موافقة المرأة و توقیعها.

و أکثر من ذلک ورد فی المادة ۱۴۲۸.: إنّ حقّ إدارة جمیع الأموال الخاصّة بالمرأة موکول إلی الرجل- علی أنّ المعاملة الخارجة عن حدود الإدارة تتطلّب موافقة المرأة و توقیعها-.

و فی أرض الرسالة الإسلامیة- أی الحجاز- کانت المرأة تعامل معاملة الکائن غیر المستقل، و کانوا یستثمرونها بشکل فظیع قریب من حالة التوحّش.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۴

و بلغ وضع المرأة من الانحطاط بحیث إن صاحبها کان یستفید منها للارتزاق أحیانا، فیعرضها للإیجار.

ما کان یعانیه هؤلاء من فقر حضاری و فقر مادّی جعل منهم قساة لا یتورّعون عن ارتکاب جریمة «الوأد» بحقّ الأنثی.

۵- المرحلة الجدیدة فی حیاة المرأة

مع ظهور الإسلام و انتشار تعالیمه السامیة، دخلت حیاة المرأة مرحلة جدیدة بعیدة کلّ البعد عمّا سبقها. فی هذه المرحلة أصبحت المرأة مستقلّة و متمتّعة بکلّ حقوقها الفردیة و الاجتماعیة و الإنسانیة.

تقوم تعالیم الإسلام بشأن المرأة علی أساس الآیات التی ندرسها فی هذا المبحث حیث یقول تعالی: وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِی عَلَیْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ فالمرأة بموجب هذه الآیة تتمتّع بحقوق تعادل ما علیها من واجبات ثقیلة فی المجتمع.

الإسلام اعتبر الرجل کالمرأة کائنا ذا روح إنسانیّة کاملة، و ذا إرادة و إختیار، و یطوی طریقه علی طریق تکامله الذی هو هدف الخلقة، و لذلک خاطب الرجل و المرأة معا فی بیان واحد حین قال: یا أَیُّهَا النَّاسُ ... و یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا.

وضع لهما منهجا تربویا و أخلاقیا و علمیا و وعدهما معا بالسعادة الأبدیة الکاملة فی الآخرة، کما جاء فی قوله تعالی: وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِکَ یَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ[۱۱۹].

و أکّد أنّ الجنسین قادران علی انتهاج طریق الإسلام للوصول إلی الکمال المعنویّ و المادیّ و لبلوغ الحیاة الطیّبة المفعمة بالطمأنینة، نظیر ما جاء فی قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۵

تعالی: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَکَرٍ أَوْ أُنْثی وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْیِیَنَّهُ حَیاةً طَیِّبَةً وَ لَنَجْزِیَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما کانُوا یَعْمَلُونَ ۱۲۰].

الإسلام یری المرأة کالرجل إنسانا مستقلّا حرّا، و هذا المفهوم جاء فی مواضع عدیدة من القرآن الکریم، کقوله تعالی: کُلُّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ رَهِینَةٌ[۱۲۱]. و مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها[۱۲۲].

هذه الحریّة قرّرها الإسلام للمرأة و الرجل، و لذلک فهما متساویان أمام قوانین الجزاء: الزَّانِیَةُ وَ الزَّانِی فَاجْلِدُوا کُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ[۱۲۳].

لمّا کان الاستقلال یستلزم الإرادة و الإختیار، فقد قرّر الإسلام هذا الاستقلال فی جمیع الحقوق الاقتصادیة، و أباح للمرأة کلّ ألوان الممارسات المالیة، و جعلها مالکة عائدها و أموالها، یقول سبحانه فی سورة النساء: لِلرِّجالِ نَصِیبٌ مِمَّا اکْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِیبٌ مِمَّا اکْتَسَبْنَ ۱۲۴].

کلمة «اکتساب»- خلافا لکلمة «کسب»- لا تستعمل إلّا فیما یعود نتیجته علی الإنسان نفسه ۱۲۵].

و لو أضفنا إلی هذا المفهوم القاعدة العامّة القائلة: «الناس مسلّطون علی أموالهم» لفهمنا مدی الاحترام الذی أقرّه الإسلام للمرأة بمنحها الاستقلال الاقتصادی، و مدی التساوی الذی قرّره بین الجنسین فی هذا المجال.

فالمرأة- فی مفهوم الإسلام- رکن المجتمع الأساسی، و لا یجوز التعامل معها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۶

على أنّها موجود تابع عديم الإرادة يحتاج إلى قيّم.

۶- المفهوم الصحيح للمساواة

و هنا ينبغى الالتفات إلى مسألة الاختلافات الروحية و الجسمية بين المرأة و الرجل، و هى مسألة التفت إليها الإسلام بشكل خاصّ و أنكرها بعضهم منطلقين من تطرّف فى أحاسيسهم.

إن أنكرنا كلّ شىء فلا نستطيع أن ننكر الاختلافات الصارخة بين الجنسين فى الناحية الجسمية و الناحية الروحية، و هذه مسألة تناولتها تأليفات مستقلّة ملخّصها:

إنّ المرأة قاعدة انبثاق الإنسان، و فى أحضانها يتربّى الجيل و يترعرع، و هى لذلك خلقت لتكون مؤهلة جسميا لتربية الأجيال، كما أنّ لها من الناحية الروحية سهما أوفى من العواطف و المشاعر.

و هل يمكن مع هذا الاختلاف الكبير أن ندّعى تساوى الجنسين فى جميع الأعمال و اشتراكهما المتساوى فى كلّ الأمور؟! أ ليست العدالة أن يؤدّى كلّ كائن واجبه مستفيدا من مواهبه و كفاءاته الخاصّة؟! أ ليس خلافا للعدالة أن تقوم المرأة بأعمال لا تتناسب مع تكوينها الجسمى و الروحى؟! من هنا نرى الإسلام- مع تأكيده على العدالة- يجعل الرجل مقدّما فى بعض الأمور مثل الإشراف على الأسرة و ... و يدع للمرأة مكانه المساعد فيها.

العائلة و المجتمع يحتاج كلّ منهما إلى مدير، و مسألة الإدارة فى آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۷

مراحلها يجب أن تنتهى بشخص واحد، و إلّا ساد الهرج و المرج.

فهل من الأفضل أن يتولّى هذه المسؤولية المرأة أم الرجل؟ كلّ المحاسبات البعيدة عن التعصّب تقول: إنّ الوضع التكوينى للرجل يفرض أن تكون مسئولية إدارة الأسرة بيد الرجل، و المرأة تعاونه.

مع إصرار المصرّين و لجاج المتعصّبين على إنكار الواقع، فإنّ وضع الحياة الواقعية فى عالمنا المعاصر و حتّى فى البلدان التى منحت المرأة الحريّة و المساواة بالشكل الكامل- على زعمهم- يدلّ على أنّ المسألة على الصعيد العملى هى كما ذكرناه و إن كانت المزاعم خلاف ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۲۹]

اشارة

الطَّلاقُ مَرَّتانِ فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۲۹)

سبب النّزول

جاءت امرأة إلى إحدى زوجات النبيّ و شكت لها من زوجها الّذى يطلّقها مرارا ثمّ يعود إليها للإضرار بها، و كان للزّوج فى تقاليد الجهاليّة الحقّ فى أن يطلّق زوجته ألف مرّة ثمّ يعود إليها و هكذا فلم يكن للطّلاق حدّ حين ذاك، و حينما اطّلع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم على شكوى هذه الامرأة نزلت الآيات أعلاه و بيّنت حدّ الطّلاق ۱۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۵۹

التّفسير

إمّا الحياة الزوجيّة أو الطّلاق بالمعروف:

ذكرنا فى تفسير الآية السابقة إنّ الإسلام قرّر قانون (العدّة) و (الرّجوع) لإصلاح وضع الاسرة و منع تشتّتها و تمزّقها، لكنّ بعض المسلمين الجدد استغلّوا هذا القانون كما كانوا عليه فى الجاهليّة، و عمدوا إلى التضييق على الزّوجة بتطليقها المرّة بعد الاخرى و الرّجوع إليها قبل انتهاء العدّة، و بهذه الوسيلة ضيّقوا الخناق على النساء.

هذه الآية تحول بين هذا السّلوك المنحط و تقرّر أنّ الطّلاق و الرّجوع مشروعان لمرّتين، أمّا إذا تكرّر الطّلاق للمرّة الثالثة فلا رجوع، و الطّلاق الأخير هو الثالث، و المراد من عبارة (الطّلاق مرّتان) هو أنّ الطّلاق الّذى يمكن معه الرّجوع مرّتان و الطّلاق الثالث لا رجوع بعده، و تضيف الآية فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ

فعلى هذا يكون الطّلاق الثالث هو الأخير لا رجعة فيه، و بعبارة اخرى أنّ المحبّة و الحنان المتقابل بين الزّوجين يمكن إعادتهما فى المرّتين السابقتين و تعود المياه إلى مجاريها، و فى غير هذه الصّورة إذا تكرّر منه الطّلاق فى المرّة الثالثة فلا يحقّ له الرّجوع إلّا بشرائط معيّنة تأتى فى الآية التالية.

و يجب الالتفات إلى أنّ (إمساك) يعنى الحفظ و (تسريح) بمعنى إطلاق السّراح و مجىء جملة تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ بعد جملة الطَّلاقُ مَرَّتانِ إشارة إلى الطّلاق الثالث الّذى يفصل بين الزّوجين لا بدّ أن يكون مع مراعاة موازين الحقّ و الإنصاف و القيم الأخلاقيّة (جاء فى أحاديث متعدّدة أنّ المراد من قوله تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ هو الطّلاق الثالث)[۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۰

فعلى هذا يكون المراد من التسريح بإحسان أن يؤدّى للمرأة حقوقها بعد الانفصال النهائى، و لا يسعى الإضرار بها عملا و قولا بأن يعيبها فى غيابها أو يتّهمها بكلمات رخيصة و يسقط شخصيّتها و سمعتها أمام الناس، و بذلك يحرمها من إمكانيّة الزّواج المجدّد، فكما أنّ الصّلح و الرّجوع إلى الزّوجة يجب أن يكون بالمعروف و الإحسان و المودّة، فكذلك الانفصال النهائى يجب أن يكون مشفوعا بالإحسان أيضا، و لهذا تضيف الآية الشريفة وَ لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً.

فعلى هذا الأساس لا يستطيع الزّوج عند الانفصال النهائى أن يأخذ ما أعطاها من مهرها شيئا، و هذا المعنى أحد مصاديق التسريح بإحسان.

و قد ذكر هذا الحكم بالتفصيل فى سورة النّساء الآيات ۲۰ و ۲۱ حيث يأتى ذكره.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مفهوم هذه الجملة أوسع من (المهر) و قالوا أنّه يشمل كلّما أعطاه الزوج من الهدايا لزوجته أيضا[۱۲۸].

و ممّا يستجلب النظر فى مورد الرّجوع و الصّلح هو التعبير ب (المعروف) و لكن فى مورد الفرقة و الانفصال ورد التعبير (بإحسان) الّذى يفهم منه ما هو أعلى و أسمى من المعروف، و ذلك من أجل جبران ما يتخلّف من المرارة و الكآبة لدى المرأة بسبب الانفصال

و الطّلاق ۱۲۹].

و تستطرق الآية إلى ذكر مسألة (طلاق الخلع) و تقرّر أنّه فى حالة واحدة تجوز استعادة المهر و ذلك عند رغبة المرأة نفسها بالطّلاق ۱۳۰] حيث تقول الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۱

إِلَّا أَنْ يَخافا أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ ثمّ تضيف فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ

أى الفدية أو التعويض الّذى تدفعه المرأة للتخلّص من الرّابطة الزّوجية، هذه الحالة تختلف عن الاولى فى أنّ الطّالب للفرقة هى المرأة نفسها و يجب عليها دفع الغرامة و التعويض للرّجل الّذى يريد و يطلب بقاء العلقة الزوجيّة، و بذلك يتمكّن الزّوج بهذه الغرامة و الفدية أن يتزوّج مرّة اخرى و يختار له زوجة ثانية.

و الجدير بالذكر أنّ الضّمير فى جملة أَلَّا يُقِيما الوارد بصورة التثنية إشارة إلى الزّوجين، و لكنّ فى جملة فَإِنْ خِفْتُمْ ورد بصيغة الجمع للمخاطب، و هذا التفاوت يمكن أن يكون إشارة إلى لزوم نظارة حكّام الشرع على هذا اللّون من الطّلاق، أو إشارة إلى أنّ تشخيص عدم إمكانيّة استمرار الحياة الزوجيّة مع رعاية حدود الإلهيّة لا يمكن أن تكون بعهدة الزّوجين، لأنّه فى كثير من الحالات يظنّ الزوجين و لأسباب نفسيّة و حالات عصبيّة عدم إمكانيّة إدامة الحياة الزّوجيّة لأسباب تافهة، و لهذا يجب أن تطرح المسألة على العرف و من له علاقة بهذين الزّوجين يثبت بهذه الصورة جواز الطّلاق الخلعى.

و فى ختام الآية تشير إلى مجمل الأحكام الواردة فيها و تقول: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوها وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

مسائل مهمة

۱- لزوم تعدّد مجالس الطّلاق

يستفاد من جملة الطَّلاقُ مَرَّتانِ أنّ تعدّد الطّلاق لا يصحّ أن يكون فى مجلس واحد، بل يجب أن يقع الطّلاق فى مجالس متعدّدة، و خاصّة إذا عرفنا بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۲

الغاية هو إعطاء فرصة أكثر للرّجوع و احتمال عودة المؤدة بعد النّزاع الأوّل.

فإن لم يتحقق الصلح فى المرحلة الاولى فسيتحقّق فى الثانية و لكنّ وقوع عدّة طلقات مرّة واحدة يوصد هذا الباب كليّا و ينفصل الزّوجان بعد ذلك نهائيّا فلا أثر لتعدّد الطّلاق عملا.

و هذا الحكم المذكور آنفا مقبول لدى فقهاء الشيعة، و لكن هناك اختلاف بين أهل السّنة بالرّغم من أنّ أكثرهم يرى جواز تعدّد الطّلاق فى مجلس واحد.

أمّا كاتب تفسير المنار فينقل عن مسند أحمد بن حنبل و صحيح مسلم أنّ حكم ثلاث طلقات فى مجلس واحد لا يحسب إلّا طلاق واحد، و هذا ما كانت السّنة جارية عليه منذ حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حتّى سنتين من خلافة عمر حيث يتّفق على ذلك جميع الصّحابة، و لكنّ الخليفة الثانى بعد ذلك حكم بأنّ الطّلاق ثلاثا فى مجلس واحد صحيح و يقع ثلاثا.

۲- شيخ الأزهر يأخذ برأى الشيعة

مع حكم الخليفة الثانى بوقوع الطّلاقات الثلاثة فى مجلس واحد ذهب جماعة من أهل السّنة إلى عدم وقوعها، و منهم الشيخ الأزهر

الأكبر (الشيخ محمود شلتوت) حيث كتب فى مجلّة «رسالة الإسلام» و فى مقارنة بين آراء المذاهب الإسلاميّة و أخذ فى كثير من الأحايين بآراء الشيعة، لأنّها كما يقول أقوى دليلا و من ذلك مسألة تعدّد الطّلاق و أفتى رحمه اللّه بأنّ الطلاقات الثلاثة فى مجلس واحد هى بمثابة الطّلاق الواحد[۱۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۳

۳- الحدود الإلهيّة

فى هذه الآية و آيات كثيرة اخرى عبّرت عن القوانين الإلهيّة بكلمة (حد) و بهذا فإن المعصية و مخالفة هذه القوانين تعدّد تجاوزا للحد، و فى الواقع فأنّ بين الأعمال التى يؤدّيها الإنسان توجد مجموعة مناطق ممنوعة، أى يكون الدخول فيها خطرا و ترسم القوانين و الأحكام الإلهيّة حدود هذه المناطق الممنوعة كالعلامات المنصوبة على تلك المناطق، و لهذا نقرأ فى سورة البقرة النهى عن الاقتراب من هذه الحدود تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوها[۱۳۲] لأنّ الاقتراب منها يعرّض الإنسان إلى خطر السقوط فى الهاوية، و كذلك ورد النهى فى روايات أهل البيت عليهم السّلام عن مواضع الشبهة، لأنّه بحكم الاقتراب من شفا الهاوية الذى قد يستتبعه السقوط بأدنى غفلة (من حام حول الحمى أو شك أن يقع فيه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۰]

اشارة

فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ اللَّهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۲۳۰)

سبب النّزول

جاءت امرأة إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: كنت عند ابن عمّى (رفاعة) فطلّقنى ثلاثا، فتزوّجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، و لكنّه أيضا طلّقنى قبل أن يمسّنى، فهل لى أن أعود إلى زوجى الأول؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا، حتّى يذوق عسيلتك، و تذوقى عسيلته»

أى حتّى يتمّ النكاح مع الزوج الثانى ۱۳۳].

التّفسير

جاء فى الآية السابقة إجمالا أنّ للمرأة و للرجل بعد الطلاق الثانى أحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۵

أمرين: إمّا أن يتصالحا و يرجعا إلى الحياة الزوجية، و إمّا أن ينفصلا انفصالا نهائيا.

هذه الآية حكمها حكم الفقرة التابعة لمادّة قانونية.

فهذه الآية تقول إن حكم الانفصال حكم دائمى، إلّا إذا اتخذت المرأة زوجا آخر، و طلّقها بعد الدخول بها، فعندئذ لها أن ترجع إلى

زوجها الأوّل إذا رأيا أنهما قادران على أن يعيشا معا ضمن حدود اللّه.

و يستفاد من الرّوايات عن أئمّة الدّين أنّ لهذا الزّواج الثانى شرطين، أوّلا: أن يكون هذا الزّواج دائميّا، و الثانى: أن يتبع عقد الزّواج الاتّصال الجنسى، و يمكن استفادة هذين الشرطين من مفهوم الآية أيضا، أمّا الأوّل و هو أن يكون العقد دائميّا فلجملة فَإِنْ طَلَّقَها الشاهدة على هذا المعنى، لأنّ الطّلاق لا يكون إلّا فى العقد الدائمى، و أمّا الوطء فيمكن أن يستفاد من جملة حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ لأنّ المستعمل فى سيرة أدباء العرب أنّهم حينما يقولون (نكح فلانا فلانة) فيمكن أن يراد منه مجرّد العقد، أمّا لو قيل (نكح زوجته) فهذا يدلّ على الوطء (لأنّه حسب الفرض أنّها زوجته فعند ما يقال (نكح) فى مورد الزوجة فلا يعنى سوى العمليّة الجنسيّة)[۱۳۴] مضافا إلى أنّ المطلّق ينصرف إلى الفرد الغالب و الغالب فى عقد الزواج هو اقترانه بالوطئ، و مضافا إلى ما تقدّم فإنّ لهذا الحكم فلسفة خاصّة لا تتحقّق بمجرّد إجراء العقد كما سنشير إلى ذلك لا حقا.

بحث

المحلّل مانع من تكرّر الطّلاق:

المعمول بين الفقهاء أنّهم يطلقون على الزّوج الثانى فى هذه الموارد قسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۶

(المحلّل) لأنّه يؤدّى إلى أن تكون هذه المرأة حلال لزوجها السّابق (طبعا بعد الطّلاق و العدّة) و الظّاهر أنّ مراد الشارع المقدّس من ذلك هو منع تعدّد الطّلقات.

توضيح ذلك: كما أنّ الزّواج أمر ضرورىّ و حياتىّ بالنّسبة للإنسان، فكذلك الطّلاق تحت شرائط خاصّة يكون ضروريّا أيضا، و لذلك نجد أنّ الإسلام (و خلافا للمسيحيّة المحرّفة) يبيح الطّلاق، و لكن بما أنّه يؤدّى إلى تشتيت العائلة و إلى إنزال ضربات موجعة بالفرد و المجتمع، فقد وضعت شروط متنوعة للحيلولة دون وقوع الطّلاق قدر إمكان.

إنّ موضوع الزواج المجدّد أو «المحلّ» واحد من تلك الشروط، إذ أنّ زواج المرأة من رجل جديد بعد طلاقها من زوجها الأول ثلاثا يعتبر عائقا كبيرا بوجه استمرار الطلاق أو التمادى فيه. فالذى يريد أن يطلّق زوجته الطلاق الثالث، يشعر أنّه إن فعل ذلك فلن تعود إليه و تكون من نصيب غيره، و هذا الشعور يجرح كرامته، و لذلك فهو لن يقدم على هذا العمل عادة إلّا مضطرّا.

فى الحقيقة أنّ قضية «المحلّل» أو الأصحّ زواج المرأة برجل آخر زواجا دائميا يعتبر مانعا يقف بوجه الرجال من ذوى الأهواء المتقلّبة و المخادعين لكى لا يجعلوا من النساء ألا عيب بين أيديهم و غرضا لخدمة أهوائهم، و أن لا يمارسوا- بلا حدود- قانون الطلاق و العودة.

إنّ شروط هذا الزواج (كأن يكون دائميا) تدلّ على أنّ هذا الزواج ليس هدفه إيجاد وسيلة لإيصال الزوجة إلى زوجها الأول، لأنه يحتمل أن لا يطلقها الزوج الثانى، لذلك فلا يمكن استقلال هذا القانون و رفع العائق عن طريق زواج مؤقّت.

و مع الالتفات إلى ما ذكر أعلاه يمكن القول أنّ هدف الزّواج الثانى بعد ثلاث طلقات و السّماح لكلّ من الزوجين فى تشكيل حياة زوجيّة جديدة من أجل أن لا يصبح الزّواج هذا الرّباط المقدّس مدعاة للتّغالب وفق أهواء الزوج الأوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۷

و مشتهياته الشّيطانية، و فى نفس الوقت إذا طلّقها الزوج الثانى فإنّ طريق العودة و الرّجوع سيكون مفتوحا أمامهما فيجوز للزّوج الأوّل نكاحها من جديد، و لذلك اطلق على الزوج الثانى (المحلّل).

و من هنا يتّضح أنّ البحث يخص الزّواج الواقعى الجاد بالنّسبة إلى المحلّل، أمّا إذا قصد شخص منذ البداية أن يتوسّل بزواج مؤقّت، و اعتبر القضية مجرّد شكليّات يحلّها (المحلّل) فإنّ زواجا هذا شأنه لا يؤخذ به و يكون باطلا، كما أنّ المرأة لا تحلّ لزوجها الأوّل، و لعلّ الحديث المذكور

(لعن اللّه المحلّل و المحلّل له)

[۱۳۵] يشير إلى هذا النوع من المحلّلين، و هذا الأسلوب من الزّواج الظّاهرى و الشكلى.

و ذهب البعض إلى أنّ الزوج الثانى إذا قصد الزّواج الدائمى الجدّى، و لكن كانت نيّته أن يفتح طريق عودة المرأة و رجوعها إلى الزّوج الأوّل، فإن هذا الزّواج يعتبر باطلا أيضا، و ذهب البعض أيضا إلى أنّه فى هذه الحالة يقع الزّواج صحيحا رغم أن نيّته هى إرجاع المرأة إلى زوجها الأوّل، و لكنّه مكروها بشرط أن لا يذكر هذا المعنى كالجزء من شرائط العقد.

و من هنا يتضح أيضا الضجّة المفتعلة للمغرضين الّذين اتّخذوا من (المحلّل) ذريعة لشن حملاتهم الظّالمة على أحكام الإسلام و مقدّساته، فهذه الضجّة المفتعلة دليل على جهلهم و حقدهم على الإسلام، و إلّا فإنّ هذا الحكم الإلهى بالشّرائط المذكورة عامل على منع الطّلاق المتكرّر و الحدّ من التصرّفات الهوجاء لبعض الأزواج، و دافع على إصلاح الوضع العائلى و إصلاح الحياة الزوجيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۱]

اشارة

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۳۱)

التّفسير

تستمرّ هذه الآية فى تبيان الأحكام التى أقرّها الإسلام للطلاق، لكى لا تهمل حقوق المرأة و حرمتها.

تقول الآية: ما دامت العدّة لم تنته، و حتّى فى آخر يوم من أيامها، فإنّ للرجل أن يصالح زوجته و يعيدها إليه فى حياة زوجية حميمة: فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

و إذا لم تتحسّن الظروف بينهما فيطلق سراحها أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

و لكن كلّ رجوع أو تسريح يجب أن يكون فى جوّ من الإحسان و المعروف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۶۹

و أن لا يخالطه شىء من روح الانتقام. ثمّ تشير الآية إلى المفهوم المقابل لذلك و تقول:

وَ لا تُمْسِكُوهُنَّ ضِراراً لِتَعْتَدُوا وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ

هذه الجملة فى الحقيقة تفسير لكلمة «معروف» أى أنّ الرجوع يجب أن يكون على أساس من الصفا و الوئام، و ذلك لأن الجاهليّين كانوا يتّخذون من الطّلاق و الرجوع وسيلة للانتقام، و لهذا يقول القرآن بلهجة قاطعة: إنّ استرجاع الزوجة يجب أن لا يكون رغبة فى الإيذاء و الاعتداء، إذ أنّ ذلك- فضلا عن كونه ظلما للزوجة- ظلم لنفس الزوج أيضا.

و الآن علينا أن نعرف لماذا يكون ظلم الزوج زوجته ظلما لنفسه أيضا؟

أولا: إنّ الرجوع المبنى على غمط الحقوق لا يمكن أن يمنح الهدوء و الاستقرار.

ثانيا: الرجل و المرأة- بالنظرة القرآنيـة- جزءان من جسد واحد فى نظام الخلقة فكلّ غمط لحقوق المرأة هو ظلم و عدوان على الرجل نفسه.

ثالثا: إنّ من يستسيغ ظلم الآخرين يكون غرضا لنيل العقاب الإلهى، فيكون بذلك قد ظلم نفسه.

ثمّ يحذّر القرآن الجميع: وَ لا تَتَّخِذُوا آياتِ اللَّهِ هُزُواً هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى بعض التقاليد الجاهلية المترسّخة فى أفكار النـاس، ففى الروايـة أنّ بعض الرجـال فى العصـر الجـاهلى يقولون حين الطّلاق: أنّ هـدفنا من الطّلاق هو اللّعب و المزاح، و كـذلك الحال عند ما يعتقون عبدا أو يتزّوجون من امرأة.

فنزلت الآيـة أعلاه لتحذّرهم بأنّ كلّ من يطلّق زوجته أو يعتق عبده أو يتزوّج من امرأة أو يزوّجها من شـخص آخر، ثمّ يدّعى أنّه كان يمزح و يلعب فإنّه لا يقبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۰

منه، و يتحقّق ما أقدم عليه فى الواقع العملى بشكل جاد[۱۳۶].

و يحتمل أيضا أنّ الآيـة ناظرة إلى حال الأشـخاص الّذين يسـتغلّون الأحكام الشـرعيّة لتبرير مخالفاتهم و يتمسّـكون بالظّواهر من أجل بعض الحيـل الشـرعيّة، فالقرآن يعتبر هـذا العمل نوع من الاسـتهزاء بآيات اللّه، و من ذلك نفس مسألـة الزّواج و الطّلاق و الرّجوع فى زمان العدّة بنيّة الانتقام و إلحاق الضرّر بالمرأة و التّظاهر بأنّه يستفيد من حقّه القانونى.

فعلى هـذا لا- ينبغى الإغمـاض عن روح الأحكـام الإلهيّـة و التمسّـك فقط بالظّواهر الجامـدة لها، فلا ينبغى اتّخاذ آيات اللّه ملعبـة بيد هؤلاء، فإنّه يعتبر ذنب عظيم و يترتّب عليه عقوبة أليمة.

ثمّ تضـيف الآيـة وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَـةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ

هذه تحذيرات من أجل أن تعلموا: أوّلا: أنّ اللّه تعالى عدّ تلك التصـرّفات من خرافات و تقاليد الجاهليّة الشـنيعة بالنّسبة إلى الزّواج و الطّلاق و غير ذلك، فأنقذكم منها و أرشدكم إلى أحكام الإسـلام الحياتية، فينبغى أن تعرفوا قدر هذه النّعمة العظيمة و تؤدّوا حقّها، و ثانيـا: بالنسـبة إلى حقـوق المرأة ينبغى أن لا- تسـيئوا إليهـا بالاسـتفادة من موقعيّتكم، و يجب أن تعلموا أنّ اللّه تعـالى مطّلع حـتّى على نيّاتكم ۱۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۲]

اشارة

وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّسـاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا- تَعْضُـلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِـالْمَعْرُوفِ ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۲۳۲)

سبب النّزول

كان أحد أصـحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هو «معقل بن يسار» يعارض زواج أخته «جملاء» من زوجها الأوّل «عاصم بن عـدى» لأنّ عاصـما كان قـد طلّقها من قبل، و لكن بعـد انقضاء العدّة رغب الزوجان بالعودة بعقد نكاح جديد. فنزلت الآية و نهت

الأخ عن معارضة هذا الزواج.

و قيل إنّ الآية نزلت فى معارضة «جابر بن عبد اللّه» زواج ابنة عمّه من زوجها السابق ۱۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۲

و ربّما كان حقّ المنع هذا يعطى فى الجاهليّة للأقربين.

لا شكّ أنّ الأخ و ابن العمّ لا ولاية لهما- فى فقهنا- على الاخت و ابنة العم. إلّا أنّ هذه الآية تتحدّث عن حكم عام- كما سنرى- يشمل الأولياء و غير الأولياء، و تقول أنّه حتّى الأب و الأم و ابن العم، و كذلك الغرباء لا حقّ لهم فى الوقوف بوجه هذا الزواج.

التّفسير

ذكرنا فى البحوث السابقة كيف كانت النسوة يعشن فى أسر العادات الجاهلية، و كيف كن تحت سيطرة الرجال دون أن يعنى أحد برغبتهنّ و رأيهنّ.

و إختيار الزوج كان واحدا من قيود ذلك الأسر، إذ أنّ رغبة المرأة و إرادتها لم يكن لها أىّ تأثير فى الأمر، فحتّى من كانت تتزوج زواجا رسميا ثمّ تطلّق لم يكن لها حقّ الرجوع ثانية بمحض إرادتها، بل كان ذلك منوطا برغبة وليّها أو أوليائها، و كانت ثمّة حالات يرغب فيها الزوجان بالعودة إلى الحياة الزوجيّة بينهما، و لكن أولياء المرأة كانوا يحولون دون ذلك تبعا لمصالحهم أو لتخيّلاتهم و أوهامهم.

إلّا أنّ القرآن أدان هذه العادة، و رفض أن يكون للأولياء مثل هذا الحقّ، إذ أنّ الزوجين- و هما ركنا الزواج الأصليان، إذا توصّلا إلى اتفاق بالعودة بعد الانفصال- يستطيعان ذلك دون أن يكون لأحد حقّ الاعتراض عليهما. تقول الآية وَ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْواجَهُنَّ إِذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ هذا إذا كان المخاطب فى هذه الآية هم الأولياء من الرجال الأقارب، و لكن يحتمل أن يكون المخاطب هو الزوج الأوّل. بمعنى أنكم إذا طلقتم زوجاتكم فلا تمنعوهن من الزواج المجدّد مع رجال آخرين، حيث إن بعض الأشخاص المعاندين فى السابق و فى الحال الحاضر يشعرون بحساسية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۳

شديدة تجاه زواج زوجاتهم السابقة من آخرين، و ما ذلك سوى نزعة جاهلية فحسب ۱۳۹].

فى الآية السابقة «بلوغ الأجل» يعنى بلوغ أواخر أيام العدّة، و لكن فى هذه الآية المقصود هو انقضاء آخر يوم من العدّة، بقرينة الزواج المجدّد. فالغاية فى الآية السابقة جزء من المغيا و فى الآية محل البحث خارجة عن المغيا.

و يتبين من هذه الآية أنّ الثيّبات- أى اللّواتى سبق لهنّ الزواج ثمّ طلّقن أو مات أزواجهنّ- إذا شئن الزّواج ثانية فلا يلزمهنّ موافقة أوليائهنّ أبدا.

ثمّ تضيف الآية و تحذّر ثانية و تقول: ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ثمّ من أجل التأكيد أكثر تقول: ذلِكُمْ أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

يشير هذا المقطع من الآية إلى أنّ هذه الأحكام قد شرّعت لمصلحتكم غاية الأمر أنّ الأشخاص الّذين ينتفعون بها هم الّذين لهم أساس عقائدى من الإيمان باللّه و المعاد و لا يتبعون أهوائهم.

و بعبارة اخرى أنّ هذه الجملة تقول: أنّ نتيجة العلم بهذه الأحكام يصبّ فى مصلحتكم، لكنّكم قد لا تدركون الحكمة و الغاية منها لجهلكم و قلّة معارفكم، و اللّه هو العالم بكلّ الأسرار، و لذلك قرّر هذه الأحكام و شرّعها لما فيها من تزكيتكم و حفظ طهارتكم.

و الجدير بالذّكر أنّ الآية تشير إلى أنّ العمل بهذه الأحكام يستوجب:

(التزكية) و (الطهارة) فتقول أَزْكى لَكُمْ وَ أَطْهَرُ يعنى أنّ العمل بها يطهّر أفراد العائلة من مختلف الأدناس و الخبائث، و كذلك

يوجب لهم الخير و البركة و التكامل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۴

المعنوى، لأنّ «التّزكية» فى الأصل (الزّكاة) بمعنى النمو.

و ذكر بعض المفسّرين إنّ جملة أَزْكى لَكُمْ تشير إلى الثواب المترتّب على الأعمال، و جملة (أطهر) تشير إلى الطّهارة و النّقاء من الذّنوب. و من البديهى أنّ الزّوجين بالرّغم من كلّ تلك العلاقة الوطيدة و الحميمة التى تربط بينهما قد ينفصلا بسبب بعض الحوادث المؤسفة، و لكن بعد الانفصال و الفرقة و مشاهدة الآثار الوخيمة المترتّبة على هذه الفرقة يندمان و يصمّمان على العودة إلى الحياة المشتركة، و هنا لا ينبغى التشدّد و التعصّب لمنع عودتهما لأنّ ذلك يخلّد آثارا سلبيّة و خيمة فى روحيّة كلّ منهما، و قد يؤدّى إلى انحرافهما و تلوّثهما بالرّذيلة، و إن كان لهما أبناء كما هو الغالب فإنّ مصيرهم سوف يكون تعيسا جدّا، و مسئوليّة هذه العواقب الأليمة و الإفرازات المشؤومة تكون بعهدة من يمنع هذين الزّوجين من المصالحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۳۳]

اشارة

وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَها لا تُضارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ فَإِنْ أَرادا فِصالاً عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۳)

التّفسير

أحكام الرّضاع السّبعة:

هذه الآية فى الواقع استمرار للأبحاث المتعلّقة بمسائل الزّواج و الحياة الزّوجيّة، و تبحث مسألة مهمّة هى مسألة (الرّضاع)، و تذكر بعبارات مقتضبة و فى نفس الوقت ذات معنى عميق الجزئيات المتعلّقة بالرّضاع المختلفة، فهناك على العموم سبعة أحكام فى هذا الباب:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۶

۱- تقول الآية فى أوّلها وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ

(والدات) جمع (والدة) و هى فى اللّغة بمعنى الام، و لكنّ كلمة الام لها معنى أوسع و هى قد تطلق على الوالدة و على الجدّة أى والدة الوالدة، و قد تعنى أصل الشىء و أساسه.

و فى هذا المقطع من الآية نلاحظ أنّ حقّ الإرضاع خلال سنتى الرضاعة يعود للام، فهى التى لها أن ترضع مولودها خلال هذه المدّة و أن تعتنى به، و على الرغم من أنّ (الولاية) على الأطفال الصغار قد أعطيت للأب، و لكن لمّا كانت تغذية الوليد الجسمية و الروحية خلال هذه المدّة ترتبط ارتباطا لا ينفصم بلبن الأم و عواطفها، فقد أعطيت حقّ الاحتفاظ به، كما تجب مراعاة عواطف الأمومة، لأنّ الأم لا تستطيع فى هذه اللحظات الحسّاسة أن ترى حضنها خاليا من وليدها و أن لا تبالى به، و عليه فإنّ تخصيصها بحقّ الحضانة و

الرعايـة و الرضاعـة يعتبر حقـا ذا جـانبين، فهو يرعى حـال الطفـل كمـا يرعى حـال الأم، و التعبير ب «أولادهن» إشارة لطيفـة إلى هـذا المعنى. و بالرغم من أن الجملة مطلقة ظاهرا و تشـمل النساء المطلقات و غير المطلقات، و لكن الجملة اللاحقة توضح أن الآية تقصـد النساء المطلقات مع وجود هذا الحقّ لسائر الأمهات، و لكن فى صورة عدم وجود الطلاق فلا أثر عملى لهذا الحكم.

۲- ليس من الضرورى أن تكون مدّة رضاعة الطفل سنتين حتما، إنّما السنتان لمن يريد أن يقضى دورة رضاعة كاملة لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ و لكن للأم أن تقلل من هذه الفترة حسب مقتضيات صحّة الطفل و سلامته.

فى الروايـات الـتى وصـلتنا من أهـل البيت عليهم السّـلام أنّ دورة رضاعـة الطفـل الكاملـة سـنتان كاملتـان، و دورتهـا غير الكاملـة ۲۱ شهرا[۱۴۰]، و لعلّ هذا يأخذ أيضا بنظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۷

الاعتبار مفاد هـذه الآية مع الآية (۱۵) من سورة الأحقـاف التى تقول وَ حَمْلُهُ وَ فِصـالُهُ ثَلاثُونَ شَـهْراً. و لمّا كانت فترة الحمل ۹ أشهر، فتكون فترة الرضاعة الاعتيادية ۲۱ شهرا.

و لمّـا لم يكن فى آيـة سورة الأحقاف ما يفيـد الإلزام و الوجوب، فإنّ للوالـدات الحقّ فى تخفيض فترة ال ۲۱ شـهرا بما يتّفق و صحّة الوليد و سلامته.

۳- نفقـة الأـم فى الطعام و اللباس، حتّى عنـد الطلاق أثناء فترة الرضاعـة تكون على والـد الطفل، لكى تتمكن الأم من الانصـراف إلى العناية بطفلها و إرضاعه مرتاحة البال و بدون قلق.

وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

هنا تعبير «المولود له» بدلا من «الأب» يسـتلفت الانتباه، و لعلّه جاء لاستثارة عواطف الأبوة فيه فى سبيل حثّه على أداء واجبه. أى أنّه إذا كان قد وضع على عاتقه الإنفاق على الوليد و أمه خلال هذه الفترة، فذلك لأنّ الطفل ابنه و ثمرة فؤاده، و ليس غريبا عنه.

إنّ الإتيـان بقيـد «المعروف» يشـير إلى أنّ طعـام الأـم و لباسـها ينبغى أن يكونـا من اللائـق بهـا و المتعارف عليه، فلا يجوز التقتير و لا الإسراف.

و لرفع كلّ غموض محتمل تشـير الآيـة إلى أنّ على كلّ أب أن يؤدّى واجبه على قـدر طاقته لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْـعَها. و يرى البعض أن هذه الجملة بمثابة العلّة لأصل الحكم. و البعض الآخر بعنوان تفسير الحكم السابق (و النتيجة واحدة).

۴- لا ـ يحقّ لأىّ من الوالـدين أن يجعلا من مسـتقبل وليـدهما و مصـيره أمرا مرتبطا بما قـد يكون بينهما من اختلافات، فيكون من أثر ذلك أن تصاب نفسية الوليد بضربة لا يمكن تفادى آثارها.

لا تُضَارَّ والِدَةٌ بِوَلَدِها وَ لا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ

على الأب أن يحذر انتزاع الوليد من أحضان أمه خلال فترة الرضاعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۸

فيعتدى بذلك على حقّ الأم فى حضانة وليدها. كما أنّ على الأم التى أعطيت هذا الحقّ أن لا تسـتغله و أن لا تتذرّع بمختلف الأعذار الموهومة للتنصّل من إرضاع وليدها، أو أن تحرم الأب من رؤية طفله.

و ذكر احتمال آخر فى تفسـير الآيـة و هو أنّ المراد أنّ الأب ليس له أن يسـلب الزّوجـة حقّها فى المقاربة الجنسيّة بسـبب الخوف من الحمل و فى النتيجة الإضـرار بالمرضع، و لا الام بإمكانها منع زوجها من هذا الحقّ لهذا السـبب، و لكنّ التفسير الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية[۱۴۱].

التعبير ب (ولـدها) و (ولـده) من أجل تشويق الآباء و الأمّهات برعاية حال الأطفال الرّضع، مضافا إلى أنّه إشارة إلى أنّ الرّضـيع متعلّق لكليهما خلافا لما هو المرسوم من تقاليد الجاهليّة من أنّ الولد متعلّق بالأب خاصّة و ليس للام سهم من الحقّ فيه.

۵- ثمّ تبيّن الآية حكما آخر يتعلّق بما بعد وفاة الأب فتقول: وَ عَلَى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ

يعنى أنّ الورثة يجب عليهم تأمين احتياجات الام فى مرحلة الرّضاعة للطفل، و هناك احتمالات اخرى فى تفسير الآية الشريفة و لكنّها ضعيفة.

۶- و تتحدّث الآية أيضا عن مسألة فطام الطّفل عن الرّضاعة و تجعله بعهدة كلّ من الأبوين على الرّغم ممّا جاء فى الآيات السابقة من تحديد فترة الرّضاعة، إلّا أنّ للأبوين أن يفطما الطّفل وقت ما يشاءان حسب ما تقتضيه صحّة الطّفل و سلامته الجسميّة، و تقول الآية: فَإِنْ أَرادا فِصالًا عَنْ تَراضٍ مِنْهُما وَ تَشاوُرٍ فَلا جُناحَ عَلَيْهِما.

و فى الواقع أنّ الأب و الام يجب أن يراعيا مصالح الطّفل و يتشاوران فى ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۷۹

للوصول إلى التّوافق و التّراضى، فيضعان برنامج مدروس لفطام الطّفل من الرّضاع دون أن يحدث لهما مشاجرة فى هذه المسألة و التى قد تؤدّى إلى ضياع حقوق الطّفل.

۷- أحيانا تمتنع الام من حضانة الطّفل و حقّها فى إرضاعه و رعايته أو أنّه يوجد هناك مانع حقيقى لذلك، ففى هذه الصّورة يجب التفكير فى حلّ هذه المسألة و لهذا تقول الآية وَ إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ

و هناك عدّة تفاسير لجملة إِذا سَلَّمْتُمْ ما آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ فذهب بعض المفسّرين.

و أنّه لا مانع من اختيار مرضعة بدل الام بعد توافق الطرفين بشرط أنّ هذا الأمر لا يسبّب إهدار حقوق الام بالنسبة إلى المدّة الفائتة من الرّضاعة، بل يجب إعطاءها حقّها فى المدّة الفائتة التى أرضعت فيها الطّفل حسب ما تقتضيه الأعراف و العادات.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ العبارة ناظرة إلى حقّ المرضعة، فيجب أداء حقّها وفقا لمقتضيات العرف و العادة، و ذهب آخرون إلى أنّ المراد من هذه الجملة هو اتّفاق الأب و الأم فى مسألة انتخاب المرضعة فعلى هذا تكون تأكيدا للجملة السابقة، و لكنّ هذا التفسير ضعيف ظاهرا، و الصحيح هو التفسير الأوّل و الثانى، و قد اختار المرحوم (الطبرسى) التفسير الأوّل ۱۴۲].

و فى الختام تحذّر الآية الجميع و تقول وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

فلا ينبغى للاختلافات التى تحصل بين الزّوجين أن تؤدّى إلى إيقاد روح الانتقام فيهما حيث يعرّض مستقبلهما و مستقبل الطّفل إلى الخطر، فلا بدّ أن يعلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۰

الجميع بأنّ اللّه تعالى يراقب أعمالهم بدقّة.

هذه الأحكام المدروسة بدقّة و المشفوعة بالتّحذيرات تبيّن بوضوح درجة اهتمام الإسلام بحقوق الأطفال و كذلك الامّهات حيث يدعو إلى رعاية الحدّ الأكثر من العدالة فى هذا المجال.

أجل، فإنّ الإسلام- و على خلاف ما هو السائد فى العالم المادى المعاصر حيث تسحق فيه حقوق الطبقة الضعيفة- يهتم غاية الاهتمام بحفظ حقوقهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۴ الى ۲۳۵]

اشارة

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ

بِالْمَعْرُوفِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۳۴) وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۲۳۵)

التّفسير

خرافات تبعث على تعاسة المرأة:

إنّ واحدة من المشاكل الرئيسية فى حياة المرأة هى الزواج بعد موت زوجها.

و لمّا كان بناء الأرملة بزوج جديد بعد موت زوجها السابق مباشرة لا ينسجم مع ما تكنّه من حبّ و احترام لزوجها المتوفى، و لا مع الاطمئنان إلى عدم وجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۲

حمل فى رحمها منه، و قد يؤدّى إلى جرح مشاعر أهل زوجها الأول، فقد جاءت الآية تشترط للزواج الجديد أن يمرّ على موت زوجها السابق أربعة أشهر و عشرة أيّام.

إنّ احترام الحياة الزوجية بعد موت أحد الزوجين أمر فطرى، بحيث نجد فى مختلف القبائل تقاليدا و طقوسا خاصّة بهذا الموضوع على الرغم من أنّ بعض هذه العادات كانت تبلغ حدّ الإفراط الذى يقيّد المرأة بقيود ثقيلة تبلغ حدّ القضاء على حياتها احتراما لذكرى زوجها الراحل. كقيام بعض القبائل بحرق المرأة بعد موت زوجها، أو بدفنها حيّة معه فى قبره. و بعض آخر كانوا يحرمون المرأة من الزواج بعد زوجها مدى الحياة، و فى بعض القبائل كان على المرأة أن تقضى بعض الوقت بجانب قبر زوجها تحت خيمة سوداء قذرة و فى ملابس رثّة بعيدة عن كلّ نظافة أو زينة أو اغتسال ۱۴۳].

إلّا أنّ الآية المذكورة تلغى كلّ هذه الخرافات، و لكنّها تحافظ على احترام الحياة الزوجيّة بإقرار العدّة.

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ عَشْراً فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

و بما أنّ أولياء و أقرباء المرأة يتدخّلون أحيانا فى أمرها أو يأخذون بمصالحهم بنظر الإعتبار فى زواجها المجدّد تقول الآية فى ختامها: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ و سيجازى كلّ شخص بما عمله من أعمال سيئة أو حسنة.

و جملة فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ و التى تشير إلى أنّ المخاطب فيها هم الرّجال من أقرباء المرأة تدلّ على أنّهم كانوا يرون فى تحرّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۳

المرأة بعد وفاة زوجها عيبا و إثما، و يعتقدون بأنّ التضييق عليها و التشدّد فى أمرها من واجباتهم، فهذه الآية تأمر بصراحة بترك هذه الامرأة حرّة فى اختيارها و لا إثم عليكم من ذلك (و يستفاد ضمنا من هذه العبارة سقوط ولاية الأب و الجد أيضا عليها) و لكن فى نفس الوقت تتضمّن الآية تحذيرا للمرأة بأنّه لا ينبغى أن تسىء الاستفادة من هذه الحريّة، بل تتقدّم إلى اختيار الزوج الجديد بخطّوات مدروسة و أسلوب لائق (بالمعروف).

و حسب ما وصلنا من أئمّة المسلمين فإنّ على الأرامل فى هذه الفترة أن يحافظن على مظاهر الحزن، أى ليس لهنّ أن يتزيّنّ مطلقا، بل ينبغى التجرّد من كلّ زينة، و لا شكّ أنّ فلسفة المحافظة على هذه العدّة توجب ذلك أيضا.

لقد حرّر الإسلام المرأة من الخرافات الجاهليّة و اقتصر على هذه العدّة القصيرة بحيث ظنّ بعضهم أنّ لها أن تتزوّج حتّى خلال هذه الفترة، و من ذلك أنّ امرأة قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم تستجيزه أن تكتحل و هى فى العدّة فنهاها رسول اللّه و ذكّرها بما كان يفرض على المرأة فى الجاهليّة خلال سنة كاملة بعد الوفاة من حداد شديد و إرهاق فظيع مشيرا إلى سماحة الإسلام فى هذا الأمر[۱۴۴] و إنّه ممّا يلفت النّظر أنّ الأحكام الإسلاميّة بشأن العدّة تأمر المرأة بالتزام العدّة حتّى و إن لم يكن هناك أىّ احتمال بأن تكون حاملا، حيث إنّ عدّتها لا تبدأ بتاريخ موت زوجها، بل بتاريخ وصول خبر موت زوجها إليها و إن يكن بعد شهور، و هذا يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الهدف من هذا التشريع هو الحفاظ على احترام الحياة الزوجيّة و حرمتها إضافه إلى ما لهذا التشريع من أهميّة بالنّسبة لاحتمال حمل المرأة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۴

الآية الثانية تشير إلى أحد الأحكام المهمّة للنّساء فى العدّة (بمناسبة البحث عن عدّة الوفاة فى الآيات السّابقة) فتقول: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّساءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفاً.

فهذه الآية تبيح للرّجال أن يخطبوا النّساء اللّواتى فى عدّة الوفاة بالكناية أو الإضمار فى النّفس أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ و هذا الحكم فى الواقع من أجل الحفاظ على حريم الزّواج السّابق من جهة، و كذلك لا يحرم الأرملة من حقّها فى تعيين مصيرها من جهة اخرى، فهذا الحكم يراعى العدالة و كذلك حفظ احترام الطّرفين.

و من الطّبيعى أن تفكّر المرأة فى مصيرها بعد وفاة زوجها، و كذلك يفكّر بعض الرّجال بالزّواج بهنّ للشروط اليسيرة السهلة فى الزّواج بالأرامل، و لكن من جهة لا بدّ من حفظ حريم دائرة الزّوجيّة السّابقة كما ورد من الحكم آنفا يدلّ بوضوح على رعاية كلّ هذه المسائل المذكورة، و نفهم من عبارة وَ لكِنْ لا تُواعِدُوهُنَّ سِرًّا أنّه مضافا إلى النهى عن الخطبة العلنيّة فإنّه لا يجوز كذلك أن تصارحوهنّ بالخطبة سرّا أيضا إلّا إذا كان الكلام بهذا الشأن يتّفق مع الآداب الاجتماعيّة فى موضوع موت الزّوج، أى أن يكون الكلام بالكناية و بشكل مبطّن.

و عبارة (عرّضتم) من مادّة (التّعريض) و التى تعنى كما يقول الرّاغب فى المفردات: الحديث الّذى يحتمل معنيين الصدق و الكذب أو الظّاهر و الباطن.

و على قول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان أنّ التّعريض ضد التصريح، و هو فى الأصل من مادّة (عرض) الذى هو بمعنى جانب الشىء[۱۴۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۵

و يضرب أئمة الإسلام فى تفسير هذه الآية بشأن الخطبة الخفيّة أو القول المعروف كما يقول القرآن أمثلة عديدة، من ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام قال (يلقاها فيقول إنّى فيك راغب و إنّى للنّساء لمكرم فلا تسبقينى بنفسك)[۱۴۶].

و قد ورد هذا المضمون أو ما يماثله فى كلام كثير من الفقهاء و الجدير بالذّكر أنّ الآية أعلاه على الرّغم من أنّها وردت بعد الآية التى تذكر عدّة الوفاة، و لكنّ الفقهاء صرّحوا بأنّ الحكم أعلاه لا يختصّ بعدّة الوفاة بل يشمل غيرها أيضا.

يقول المرحوم الفقيه و المحدّث المعروف صاحب الحدائق: (و قد صرّح الأصحاب بأنّه لا يجوز التعريض بالخطبة لذات العدّة الرجعيّة لأنّها زوجة، فيجوز للمطلّقة ثلاثا من الزوج و غيره، و لا يجوز التصريح لها منه و لا من غيره، أمّا المطلّقة تسعا للعدّة ينكحها بينها رجلان فلا يجوز التعريض لها من الزوج و يجوز من غيره، و لا يجوز التصريح فى العدّة منه و لا من غيره.

أمّا العدّة البائنة فيجوز التعريض من الزوج و غيره و التصريح من الزوج دون غيره)[۱۴۷].

و إذا أردتم التفصيل راجعوا الكتب الفقهية بالأخص كتاب الحدائق فى استمرار هذا البحث.

ثمّ تضيف الآية وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتابُ أَجَلَهُ فمن المسلّم أنّ الشخص إذا عقد على المرأة فى عدّتها يقع العقد

باطلا، بل أنّه إذا أقدم على هذا العمل عالما بالحرمة فإنّ هذه المرأة ستحرم عليها أبدا.

و بعد ذلك تعقّب الآية: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۶

و بهذا لا بدّ أن تعلموا أنّ اللّه تعالى مطّلع على أعمالكم و نيّاتكم و فى نفس الوقت لا يؤاخذ المذنبين بسرعة.

جملة لا تَعْزِمُوا من مادّة (عزم) بمعنى قصد، فعند ما تقول الآية وَ لا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكاحِ فهو فى الواقع نهى مؤكّد عن الإقدام العملى على عقد الزّواج و يعنى التّحذير حتّى من نيّة و قصد هذا العمل فى زمان العدّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۷

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۶ الى ۲۳۷]

اشارة

لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (۲۳۶) وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۳۷)

التّفسير

كيفيّة أداء المهر:

فى هاتين الآيتين نلاحظ أحكام أخرى للطّلاق استمرارا للأبحاث السّابقة.

تقول الآية فى البداية لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَ ۱۴۸] أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۸

و هذا يعنى جواز طلاق النساء قبل المقاربة الجنسيّة و قبل تعيين المهر، و هذا فى صورة ما إذا علم الرّجل أو كلا الزّوجين بعد العقد و قبل المواقعة أنّهما لا يستطيعان استمرار الحياة الزّوجيّة هذه، فمن الأفضل أن يتفارقا فى هذا الوقت بالذّات، لأنّ الطّلاق فى المراحل اللّاحقة سيكون أصعب.

و على كلّ حال فهذا التعبير فى الآية جواب على من يتصوّر أنّ الطّلاق قبل المواقعة أو قبل تعيين المهر لا يقع صحيحا، فالقرآن يقول أنّ هذا الطّلاق صحيح و لا إثم عليه (و قد يمنع من كثير من المفاسد).

و ذهب البعض أن (جناح) فى هذه الآية بمعنى (المهر) الّذى يثقل على الزّوج، يعنى أنّ الرّجل حين الطّلاق و قبل المقاربة الزوجيّة و تعيين المهر ليس مكلّفا بدفع أى شىء بعنوان المهر إلى المرأة، و بالرّغم من أنّ بعض المفسّرين ۱۴۹] أورد كلاما طويلا حول هذا التفسير، و لكن استعمال كلمة «جناح» بمعنى المهر يعتبر غريبا و غير مأنوس.

و احتمل آخرون أنّ معنى الجملة أعلاه هو جواز طلاق المرأة قبل المقاربة الجنسيّة فى جميع الأحوال (سواء كانت فى العادة الشهريّة أو لم تكن) و الحال أنّ الطّلاق بعد المواقعة الجنسيّة يجب أن يكون فى الزّمان الطّهر الّذى لم يواقعها فيه حتما[۱۵۰]، و لكن هذا التفسير بعيد جدّا لأنّه لا ينسجم مع جملة أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً.

ثمّ تبيّن الآية حكما آخرا فى هذا المجال و تقول: وَ مَتِّعُوهُنَ أى يجب أن تمنح المرأة هديّة تناسب شؤونها فيما لو جرى الطّلاق قبل

المضاجعة و قبل تعيين المهر، و لكن يجب أن يؤخذ بنظر الإعتبار قدرة الزّوج الماليّة فى هذه الهديّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۸۹

و لذلك تعقّب الآية الشريفة بالقول عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ

(الموسع) بمعنى المقتدر و الثّرى و (المقتر) بمعنى الفقير (من مادّة قتر و كذلك وردت بمعنى البخل أيضا) كقوله تعالى وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً[۱۵۱].

و جملة مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ يمكن أن تشير إلى جميع ما ذكرناه، أى أنّ الهديّة لا بدّ أن تكون بشكل لائق و بعيدة عن الإسراف و البخل. و مناسبة لحال المهدى و المهدى إليه.

و لمّا كان لهذه الهديّة أثر كبير للقضاء على روح الانتقام و فى الحيلولة دون إصابة المرأة بعقد نفسيّة بسبب فسخ عقد الزّواج، فإنّ الآية تعتبر هذا العمل من باب الإحسان حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ۱۵۲] أى أن يكون ممزوجا بروح الإحسان و اللّطف، و لا حاجة إلى القول بأنّ تعبير (المحسنين) لم يأت ليشير إلى أنّ الحكم المذكور ليس إلزاميّا، بل جاء لإثارة المشاعر و العواطف الخيّرة فى الناس للقيام بهذا الواجب الإلزامى.

الملاحظة الاخرى فى هذه الآية هى أنّ القرآن يعبّر عن الهدية الّتى يجب أن يعطيها الرجل للمرأة باسم (متاع) فالمتاع فى اللّغة هو كلّ ما يستمتع به المرء و ينتفع به، و يطلق غالبا على غير النقود، لأنّ الأموال لا يمكن التمتّع بها مباشرة، بل لا بدّ أوّلا من تبديلها إلى متاع، و لهذا كان تعبير القرآن عن الهديّة بالمتاع.

و لهذا العمل أثر نفسى خاص، فكثيرا ما يحدث أن تكون الهدية من المأكل أو الملبس و نظائرهما مهما كانت زهيدة الثمن أثر بالغ فى نفوس المهدى إليهم لا يبلغه أبدا أثر الهديّة النقديّة، لذلك نجد أنّ الروايات الواصلة إلينا عن أئمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۰

الأطهار عليهم السّلام تذكر هذه الهدايا بصورة مأكل أو ملبس أو أرض زراعيّة.

كذلك يتّضح من هذه الآية أنّ تعيين المهر قبل إجراء العقد فى النكاح الدائم ليس ضروريّا إذ يمكن للطرفين أن يتّفقا على ذلك بعد[۱۵۳] إذ كما تفيد الآية أيضا أنّه إذا حصل الطّلاق قبل تعيين المهر و قبل المضاجعة فلا يجب المهر، بل يستعاض عنه بالهديّة المذكورة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الزّمان و المكان مؤثّران فى مقدار الهديّة المناسبة.

و تتحدّث الآية التالية عن حالة الطّلاق الّذى لم يسبقه المضاجعة و لكن بعد تعيين المهر فتبيّن أنّ الحكم فى هذا اللّون من الطّلاق الّذى يكون قبل المضاجعة و بعد تعيين المهر يوجب على الزّوج دفع نصف المهر المعيّن وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ

و هذا هو حكم القانونى لهذه المسألة، فيجب دفع نصف المهر إلى المرأة بدون أيّة نقيصة، و لكن الآية تتناول الجوانب الأخلاقيّة و العاطفيّة و تقول: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ

و المراد من ضمير (يعفون) هم الأزواج، أمّا فى قوله أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ هو ولىّ الصغير أو السفيه، و من الواضح أنّ الولىّ ليس له الحقّ من أن يعفو أو يتنازل عن حقّ الصغير إلّا إذا تضمّن مصلحة الصغير.

فعلى هذا يكون حكم دفع نصف المهر بغض النظر عن مسألة العفو و التنازل عن الحقّ، و ممّا تقدّم يتّضح أن من له العفو هو الولى للصّغير أو السفيه لأنّه هو الّذى بيده أمر زواج المولّى عليه، و لكن بعض المفسّرين تصوّروا أنّ المراد هو الزّوج، بمعنى أنّ الزوج متى ما دفع تمام المهر قبلا (كما هو المتعارف عند الكثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۱

العرب) فله الحقّ فى أن يسترجع نصف المهر إلّا أن يعفو و يتنازل عنه.

أمّا مع الملاحظة الدقيقة فى مضمون الآية يتبيّن أنّ التفسير الأوّل هو الصحيح، و أنّ المخاطب فى هذه الآية هم الأزواج حيث تقول: وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَ فى حين أنّ الضمير فى جملة أَوْ يَعْفُوَا الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكاحِ جاء حكاية عن الغائب و لا يتناسب ذلك مع عوده إلى الأزواج.

أجل، فإنّ الآية فى الجملة التالية تقول وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

فمن الواضح أنّ المخاطب فى هذه الجملة هم الأزواج، فتكون النتيجة أنّ الحديث فى الجملة السّابقة كان عن عفو الأولياء، و فى هذه الجملة تتحدّث الآية عن عفو الأزواج، و جملة وَ لا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ خطاب لعموم المسلمين أن لا ينسوا المثل الإنسانية فى العفو و الصفح و الإيثار فى جميع الموارد.

و هذا ما ورد فى الروايات الّتى وصلتنا من الأئمّة المعصومين عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية، و كذلك نرى أنّ المفسّرين الشّيعة قد اختاروا هذا الرّأى بالتّوجه إلى مضمون الآية و الرّوايات الشريفة، فذهبوا إلى أنّ المقصود فى هذه العبارة هم أولياء الزّوجة.

و من الطبيعى أن تطرأ ظروف تجعل الاضطرار إلى أخذ نصف المهر حتّى قبل الدّخول أمرا قد يثير مشاعر الرّجل و أقرباءه و يجرح عواطفهم و قد ينزعون إلى الانتقام، و يحتمل أن تتعرّض سمعة المرأة و كرامتها إلى الخطر، فهنا قد يرى الأب أنّ من مصلحة ابنته أن يتنازل عن حقّها.

جملة وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى تبيّن جانبا آخر من واجبات الزّوج الإنسانيّة، و هو أن يظهر الزّوج التنازل و الكرم فلا يسترجع شيئا من المهر إن كان قد دفعه، و إن لم يكن دفعه بعد فمن الأفضل دفعه كاملا متنازلا عن النصف الّذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۲

هو من حقّه، و ذلك لأنّ المرأة الّتى تنفصل عن زوجها بعد العقد تواجه صدمة نفسيّة شديدة، و لا شكّ أنّ تنازل الرجل عن حقّه من المهر لها يكون بمثابة البلسم لجرحها.

و نلاحظ تأكيدا فى سياق الآية الشريفة على أصل (المعروف) و (الإحسان) فحتّى بالنّسبة إلى الطّلاق و الانفصال لا ينبغى أن يكون مقترنا بروح الانتقام و العداوة، بل ينبغى أن يتم على أساس السماحة و الإحسان بين الرّجل و المرأة، لأنّ الزوجين إذا لم يتمكنّا من العيش سويّة و فضّلا الإفتراق بدلائل مختلفة، فلا دليل حينئذ لوجود العداوة و البغضاء بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۳

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۳۸ الى ۲۳۹]

اشارة

حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ (۲۳۸) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالاً أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (۲۳۹)

سبب النّزول

تذرّع جمع من المنافقين بحرارة الجو لإلقاء التفرقة فى صفوف المسلمين، فلم يكونوا يشتركون فى صلاة الجماعة، فتبعهم آخرون و أخذوا يتخلّفون عن صلاة الجماعة، فقلّ بذلك عدة المصلّين، فتألّم النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لذلك كثيرا حتّى أنّه هدّدهم بعقاب أليم، و

فی حدیث عن زید بن ثابت قال: إنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یؤدّی صلاة الظهر جماعة و الحرّ علی أشدّه ممّا کان یثقل علی أصحابه کثیرا بحیث أنّ صلاة الجماعة أحیانا لم تتجاوز صفا واحدا أو صفّین، فهنا هدّد النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم هؤلاء المنافقین و من لم یشترک صلاة الجماعة بإحراق منازلهم، فنزلت الآیة أعلاه و بیّنت أهمیّة صلاة الظهر جماعة بصورة مؤکّدة[۱۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۴

و هذا التأکید یدلّ علی أنّ مسألة عدم المشارکة فی صلاة الجماعة لم تکن بسبب حرارة الجو فقط، بل أنّ جماعة أرادوا تضعیف الإسلام بهذه الذّریعة و إیجاد الفرقة فی صفوف المسلمین بحیث دعی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أن یتّخذ مثل ذلک الموقف الحازم من هؤلاء.

التّفسیر

أهمیّة الصّلاة و خاصّة الوسطی:

بما أن الصلاة أفضل وسیلة مؤثرة تربط بین الإنسان و خالقه، و إذا أقیمت علی وجهها الصحیح ملأت القلب بحبّ اللّه و استطاع الإنسان بتأثیر أنوارها أن یتجنّب الذنوب و التلوّث بالمعصیة، لذلک ورد التأکید فی آیات القرآن الکریم علیها، و من ذلک ما ورد فی الآیة محل البحث حیث تقول: حافِظُوا عَلَی الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ

فلا ینبغی للمسلمین أن یترکوا هذا الأمر المهم بحجّة البرد و الحرّ و مشکلات الحیاة و دوافع الزوجة و الأولاد و الأموال.

أمّا ما هو المراد بقوله الصَّلاةِ الْوُسْطی ذکر المفسّرون معان مختلفة للمراد من الصلاة الوسطی، و ذکر صاحب تفسیر مجمع البیان ستّة أقوال، و الفخر الرّازی ذکر فی تفسیره سبعة أقوال، و بلغ بها القرطبی فی تفسیره إلی عشرة أقوال، أمّا تفسیر روح المعانی فذکر لها ثلاثة عشر قولا.

فالبعض یری أنّها صلاة الظهر، و آخر صلاة العصر، و بعض صلاة المغرب، و بعض صلاة العشاء، و بعض صلاة الصبح، و بعض صلاة الجمعة، و بعض صلاة اللّیل أو خصوص صلاة الوتر، و ذکروا لکلّ واحد من هذه الأقوال أدلّة و توجیهات مختلفة، و لکنّ القرائن المختلفة المتوفّرة تثبت أنّها صلاة الظهر، لأنّها فضلا عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۵

کونها تقع فی وسط النّهار، فإنّ سبب نزول هذه الآیة یدلّ علی أنّ المقصود بالصّلاة الوسطی هو صلاة الظهر التی کان الناس یتخلّفون عنها لحرارة الجو، کما أنّ هناک روایات کثیرة تصرّح بأنّ الصلاة الوسطی هی صلاة الظّهر[۱۵۵]. و التأکید علی هذه الصّلاة کان بسبب حرارة الجو فی الصّیف، أو بسبب انشغال الناس فی امور الدنیا و الکسب فلذلک کانوا لا یعیرون لها أهمیّة، فنزلت الآیة آنفة الذکر تبیّن أهمیّة صلاة الوسطی و لزوم المحافظة علیها[۱۵۶].

(قانتین) من مادّة (قنوت) و تأتی بمعنیین.

۱- الطاعة و الإتّباع.

۲- الخضوع و الخشوع و التّواضع.

و لا یبعد أن یکون المعنیان مرادین فی هذه الآیة، کما ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِینَ قال: «إقبال الرّجل علی صلاته و محافظته علی وقتها حتّی لا یلهیه عنها و لا یشغله شیء».

و فی روایة اخری قال:

و فی الآیة الثانیة تؤکّد علی أنّ المسلم لا ینبغی له ترک الصلاة حتّی فی أصعب الظروف و الشّرائط کما فی میدان القتال، غایة الأمر أنّ الکثیر من شرائط الصّلاة فی هذا الحال تکون غیر لازمة کالاتّجاه نحو القبلة و أداء الرّکوع و السّجود بالشکل الطبیعی، و لذا تقول الآیة فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُکْباناً.

سواء کان الخوف فی حال الحرب أو من خطر آخر، فإنّ الصّلاة یجب أداءها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۶

بالإیماء و الإشارة للرّکوع و السّجود، سواء کنتم مشاة أو راکبین.

فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْکُرُوا اللَّهَ کَما عَلَّمَکُمْ ما لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ ففی هذه الصّورة، أی فی حالة الأمان یجب علیکم أداء الصّلاة بالصّورة الطبیعیّة مع جمیع آدابها و شرائطها.

و من الواضح أنّ أداء الشکر لهذا التعلیم الإلهی للصّلاة فی حالة الأمن و الخوف هو العمل علی وفق هذه التعلیمات.

(رجال) جمع (راجل) و (رکبان) جمع (راکب) و المقصود هو أنّکم إذا خفتم العدو فی میدان القتال لکم أن تؤدّوا الصلاة راجلین أو راکبین فی حالة الحرکة.

و

قد ورد عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه فی بعض الحروب أمر المقاتلین أن یصلّوا بالتّسبیح و التکبیر و قول (لا إله إلّا اللّه)[۱۵۷]،

و کذلک نقرأ

فی حدیث آخر: إنّ النبی صلّی یوم الأحزاب إیماء

[۱۵۸].

و کذلک ورد عن الإمام الکاظم علیه السّلام جواز أداء الصلاة فی حالة الخوف إلی غیر جهة القبلة و یومی للرّکوع و السجود فی حال القیام ۱۵۹].

فهذه الصلاة هی صلاة الخوف التی شرحها الفقهاء فی کتبهم شرحا مفصّلا، و علیه فالآیة توضّح أنّ إقامة الصلاة و الارتباط بین العبد و خالقه یجب أن یتحقّق فی جمیع الظروف و الحالات، و بهذا تتحصّل نقطة ارتکاز للإنسان و اعتماده علی اللّه، فتکون مبعث الأمل و الرّجاء فی الحیاة و تعینه فی التغلّب علی جمیع المصاعب و المشکلات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۷

بحث

دور الصلاة فی تقویة المعنویّات:

قد یحسب البعض أنّ هذا الإصرار و التوکید علی الصلاة ضرب من التعسیر، و لربّما منع ذلک الإنسان من القیام بواجبه الخطیر فی الدّفاع عن نفسه فی مثل ظروف القتال الصّعبة.

فی حین أنّ هذا الکلام اشتباه کبیر، فالإنسان فی مثل هذه الحالات أحوج إلی تقویة معنویّته من أی شیء آخر، لأنّه إذا ضعفت معنویّته و استولی علیه الخوف و الفزع فإنّ هزیمته تکاد تکون حتمیّة، فأیّ عمل أفضل من الصّلاة و الاتّصال باللّه القادر علی کلّ شیء و بیده کلّ شیء من أجل تقویّة معنویّات المجاهدین أو من یواجه الخطر.

لو تركنا الشواهد الكثيرة فى جهاد المجاهدين المسلمين فى صدر الإسلام فإنّنا نقرأ عن حرب الصهاينة الرّابعة مع العرب فى شهر رمضان عام ۱۳۹۳ ه. ق أنّ توجّه الجنود المسلمين إلى الصّلاة و المبادئ الإسلام كان له أثر فعّال فى تقوية عزائمهم و فى التالى انتصارهم على عدوّهم. و على أى حال فإنّ أهميّة الصلاة و تأثيرها الإيجابى فى الحياة أكبر من أن يستوعبها هذا المختصر، فلا شكّ فى أنّ الصّلاة إذا روعيت معها آدابه الخاصّة و حضور القلب فيها فإنّ لها تأثيرا إيجابيّا عظيما فى حياة الفرد و المجتمع، و بإمكانها أن تحل الكثير من المشاكل و تطهّر المجتمع من الكثير من المفاسد، و تكون للإنسان فى الأزمات و الشدائد خير معين و صديق ۱۶۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۸

الآية [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۰ الى ۲۴۲]

اشارة

وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۴۰) وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (۲۴۱) كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲۴۲)

التّفسير

قسم آخر من أحكام الطّلاق:

تعود هذه الآيات لتذكر بعض مسائل الزواج و الطّلاق و الأمور المتعلّقة بها، و فى البداية تتحدّث عن الأزواج الّذين يتوسّدون فراش الاحتضار و لهم زوجات فتقول: وَ الَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَ يَذَرُونَ أَزْواجاً وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْراجٍ

أى أنّ الأشخاص من المسلمين إذا حانت ساعة و فاتهم و بقيت زوجاتهم على قيد الحياة فينبغى أن يوصوا بأزواجهم فى النفقة و السكن فى ذلك البيت لمدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۱۹۹

سنة كاملة، و هذا طبعا فى صورة ما إذا بقيت الزوجة فى بيت زوجها و لم تخرج خارج البيت، و لهذا تضيف الآية: فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ كأن يخترن زوجا جديدا، فلا مانع من ذلك و لا إثم عليكم، و لكن يسقط حقّها فى النفقة و السكنى.

و فى ختام الآية تشير إلى أنّه لا ينبغى التخوّف من عاقبة خروج النسوة، فتقول بأنّ اللّه قادر على فتح أبواب اخرى أمامهنّ بعد وفاة الأزواج فلو حدثت مشكلة فى البيت و لحقت بها مصيبة فإنّ ذلك سيكون لحكمة حتما لأنّ اللّه تعالى عزيز حكيم وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فلو أغلق بابا بحكمته فسوف يفتح اخرى بلطفه، فلا محلّ للقلق و التخوّف، و يعلم من ذلك أنّ جملة يُتَوَفَّوْنَ هنا لا تعنى الموت، بل تعنى المشرف على الموت بقرينة ذكر الوصيّة.

و قوله فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِي ما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ تدلّ على وجوب دفع ورثة الزّوج نفقة الزوجة لمدّة سنة كاملة، و فيما إذا لم ترض هذه المرأة بالبقاء فى بيت الزوج و الاستفادة من النفقة، فلا مانع من ذلك، و لا مانع كذلك من أن تختار زوجا آخر أيضا، و لكنّ بعض المفسّرين ذكر تفسيرا آخر لهذه العبارة و هو أنّها إذا صبرت فى بيت زوجها مدّة سنة كاملة ثمّ خرجت من البيت فتزوّجت فلا مانع من ذلك.

و طبقا للتفسير الثانى يجب على المرأة العدّة لمدّة سنة كاملة، و لكن على التفسير الأوّل لا يلزم ذلك. و بعبارة أخرى أنّ دوام العدّة لمدّة سنة كاملة على التفسير الأوّل يعتبر حقّ للمرأة، و لكنّه على التفسير الثانى حكم و إلزام، و لكنّ ظاهر الآية ينسجم أكثر مع التفسير الأوّل، لأنّ ظاهر الجملة الأخيرة هو أنّه استثناء من الحكم السابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۰

مسألة: هل نسخت هذه الآية؟

يعتقد الكثير من المفسّرين أنّ هذه الآية قد نسخت بالآية ۲۳۴ من هذه السورة التى سبق بيانها و فيها ورد أنّ عدّة الوفاة أربعة أشهر و عشرة أيّام، و على الرغم من أنّ تلك الآية تأتى قبل هذه الآية من حيث الترتيب و لكننا نعلم أنّ الآيات فى السورة لم ترتّب بحسب نزولها، بل قد نجد آيات متأخّرة فى النّزول وضعت متقدّمة فى الترتيب، و قد جرى ذلك للتّناسب بين الآيات و لأمر من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يرى هؤلاء المفسّرين أيضا أنّ حقّ النفقة لمدّة سنة كاملة كان قبل نزول آيات الإرث، و لكن بعد أن قرّرت آيات الإرث للزّوجين مقدارا من الإرث زال هذا الحقّ عنها، فعلى هذا فإنّ الآية محل البحث منسوخة من جهتين (من جهة مقدار زمان العدّة و من جهة النفقة).

و ذكر المرحوم (الطبرسى) فى «مجمع البيان» أنّ جميع العلماء اتّفقوا أنّ هذه الآية منسوخة. ثمّ يذكر حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ الرجل فى العصر الجاهلى إذا مات كانت زوجته تتمتّع بالنفقة لمدّة سنة كاملة ثمّ أنّها تخرج من بيت زوجها بدون ميراث، و بعد ذلك نزلت الآيات المتعلّقة بإرث الزّوجة و نسخت هذه الآية بتعيين الربع أو الثمن من الميراث لها.

و على هذا يجب أن تحسب نفقة المرأة فى مدّة العدّة من حصّتها من الإرث، و كذلك ورد عن الإمام الصادق أيضا أنّ الآية التى تقرّر العدّة أربعة أشهر و عشرة أيّام و كذلك آية الإرث قد نسختا هذه الآية[۱۶۱].

و على كلّ حال، يستفاد من كلمات العلماء أنّ عدّة الوفاة كانت فى زمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۱

الجاهليّة سنة كاملة تمرّ خلالها الارملة بكثير من التقاليد و العادات الخرافيّة الشّاقة، فجاء الإسلام و ألغى تلك العادات و أبقى مدّة العدّة سنة فى بداية الأمر، ثمّ جعلها أربعة أشهر و عشرة أيّام، كما منع المرأة فقط من الزّينة خلال هذه المدّة.

و يستفاد من كلام «الفخر الرازى» هو أن الآية أعلاه نسخت بآيات الإرث و عدّة أربعة أشهر و عشرة أيّام ۱۶۲].

و لكن لو لا إجماع العلماء و الروايات المتعدّدة فى هذا المجال لأمكن القول بعدم وجود التعارض بين هذه الآيات، فإنّ الحكم بأربعة أشهر و عشرة أيّام للعدّة هو حكم إلهى، و أمّا المحافظة على العدّة لمدّة سنة كاملة و البقاء فى بيت الزوج و الاستفادة من النفقة فإنّه حقّ لها، أى أنّه قد اعطى الحقّ للمرأة أن تبقى فى بيت زوجها المتوفّى سنة كاملة إن أرادت ذلك و تستفيد من النفقة طبقا لوصيّة زوجها فى جميع هذه المدّة، و إن رفضت ذلك و لم ترغب فى البقاء، فيجوز لها الخروج من البيت بعد أربعة أشهر و عشرة أيّام، و يمكنها كذلك اختيار زوج آخر، و حينئذ سوف تقطع عنها بطبيعة الحال النفقة من مال زوجها السابق.

و لكن مع ملاحظة الروايات المتعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام و شهرة حكم النسخ أو اتفاق العلماء على ذلك، فلا يمكن قبول مثل هذا التفسير رغم أنّه موافق لظواهر الآيات الشريفة.

فى الآية الثانية يبيّن القرآن الكريم حكما آخر من أحكام الطّلاق و يقول:

وَ لِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ أى أنّ المتقين يجب عليهم تقديم هديّة لائقة للنساء المطلّقات.

و بالرّغم من أنّ ظاهر الآيـة يشـمل جميع النساء المطلّقات، و لكن بقرينة الآية ۲۳۶ السابقـة نفهم أنّ هذا الحكم يختص بمورد النسوة التى لم يقرّر لهنّ مهر بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۲

وقوع الطّلاـق قبـل الوطء، و فى الحقيقـة فـإنّ هـذه الجملـة تأكيـد للحكم المـذكور كيلا يتعرّض للإهمال، و يحتمل أيضا أنّ الحكم المذكور يشمل جميع النسّاء المطلّقات، غاية الأمر أنّ المورد أعلاه من الموارد الوجوبيّة و الموارد الاخرى لها جنبة استحبابيّة.

و على كلّ حال فإنّ هذا الحكم هو أحد الأحكام الإنسانيّة و الأخلاقيّة فى الإسلام و التى لها أثر إيجابى على إزالة الرسوبات المتخلّفة من عملية الطّلاق و منع حالة العداوة و الانتقام و الكراهيّة الناشئة منه.

و ذكر البعض أن دفع هديـة لائقـة للنساء المطلّقات أمر واجب و هو غير المهر، و لكنّ الظاهر بين علماء الشـيعة كما يسـتفاد من عبارة المرحوم الطبرسـى فى مجمع البيان أنّه لا قائل بهـذا القول (و يصـرّح المرحوم صاحب الجواهر أيضا أنّ الهديّـة المذكورة لا تجب إلّا فى ذلك المورد الخاص و أنّ هذه المسألة إجماعيّة)[۱۶۳].

و قد احتمل البعض أنّ المراد من المتاع هنا النفقة و هو احتمال بعيد جدّا.

و على كلّ حال أنّ هذه الهديّة و طبق الرّوايات الواردة من الأئمّة المعصومين تعطى إلى المرأة بعد تمام العدّة و الإفتراق الكامل لا فى عدّة الطّلاق الرّجعى، و بعبارة أخرى أنّ هذه الهديّة ليست وسيلة للعودة، بل للوداع النهائى ۱۶۴].

و فى آخر آيـة من الآيـات مورد البحث و التى هى آخر آيـة من الآيـات المتعلّقـة بالطّلاـق تقول: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و من البـديهى أنّ المراد من التفكّر و التعقّل هو ما يتعقّبه التحرّك نحو العمل، و إلّا فإنّ التفكّر و التعقّل لوحـده فى الأحكام و الآيات لا يثمر نتيجة، و يتبيّن من دراسة الآيات و الأحاديث الإسلاميّة أن لفظة «العقل» تستعمل غالبا عند إيراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۳

التعبير عن امتزاج الإـدراك و الفهم مع العواطف و الأحاسـيس ثمّ يسـتتبع ذلك العمل. فعنـد ما يتحـدّث القرآن فى مواضع كثيرة عن معرفة اللّه مثلا يشير إلى نماذج من نظام هذا الكون العجيب، ثمّ يقول إننا نبين هذه الآيات لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و هـذا لا يعنى أنّ القصـد هو ملء الأدمغة ببعض المعلومات عن نظام الطبيعة، إذ أنّ العلوم الطبيعية إذا لم تبعث فى القلب و العواطف حركـة نحو معرفـة اللّه و حبّه و الانشـداد به فلاـ ارتبـاط لهـا بقضايـا التوحيـد. و هكـذا المعارف العلميـة لا تكون تعقّلا إلّا إذا اقترنت بالعمل.

صاحب تفسير الميزان ۱۶۵] يؤيّـد هـذا الاتجاه فى فهم معنى التعقّل، و يرى أنّه الـذى يـدفع الإنسان بعد الفهم و الإدراك إلى مرحلة العمل، و الدليل على ذلك قوله تعالى: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ[۱۶۶].

و قوله سـبحانه أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها[۱۶۷] فالتعقّل الـذى يتحدّث عنه المجرمون يوم القيامة هو ذلك الـذى يرافقه العمل، و هكـذا التعقّل الناتـج عن السـير فى الأرض و التفكير فى خلق اللّه إنّما هو المعرفـة التى تحمل الإنسان على تغيّر مسير حياته و الاتجاه إلى الصراط المستقيم.

و بعبارة اخرى أنّ التفكّر و التعقّل و التـدبّر إذا كان متعمّقا و متجذّرا فى روح الإنسان فلا يمكن أن يكون عديم الآثار فى دائرة الواقع العملى، فكيف يمكن أن يقطع الإنسان و يعتقـد جازما بمسـموميّة الغـذاء ثمّ يتناوله؟! أو يعتقـد جزما بتأثير الدّواء الفلانى على معالجة أحد الأمراض الخطرة التى يعانى منها ثمّ لا يتناوله!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۴۳]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۲۴۳)

سبب النّزول

انتشر مرض الطاعون فى إحدى مدن الشام و أخذ يحصد الناس بسرعة عجيبة، فهجر المدينة جمع من الناس أملا فى النجاة من مخالب الموت. و إذ نجوا من الموت فعلا بهروبهم من ذلك الجو المبوء، شعروا فى أنفسهم بشىء من القدرة و الاستقلالية، و حسبوا أنّ نجاتهم مدينة لعوامل طبيعية غافلين عن إرادة اللّه و مشيئته، فأماتهم اللّه فى تلك الصحراء بالمرض نفسه.

قيل: إنّ نزول المرض بأهل هذه المدينة كان عقابا لهم، لأنّ زعيمهم و قائدهم طلب منهم أن يستعدّوا للحرب و أن يخرجوا من المدينة. و لكنّهم رفضوا الخروج للحرب بحجّة أنّ مرض الطاعون متفشّى فى ميادينها، فابتلاهم اللّه بما كانوا يخشونه و يفرّون منه، فانتشر بينهم مرض الطاعون، فهجروا بيوتهم و هربوا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۵

المرض إلى خارج المدينة حيث انشب المرض مخالبه فيهم و ماتوا. و مضى زمان على هذا حتّى مرّ يوما «حزقيل»[۱۶۸] أحد أنبياء بنى إسرائيل بذلك المكان و دعا اللّه أن يحييهم، فاستجاب اللّه دعاءه و أحياهم.

التّفسير

كيف ماتوا و كيف عادوا إلى الحياة؟!

هذه الآية كما مرّ فى سبب نزولها تشير إشارة عابرة و لكنّها معبّرة إلى قصّة أحد الأقوام السّالفة التى انتشر بين أفرادها مرض خطير و موحش بحيث هرب الآلاف منهم من ذلك المكان فتقول الآية: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ

من الأساليب الشايعة فى الأدب العربى استعمال تعبير ألم تر فيما يطلب الفات النظر إليه، و بالرّغم من أنّ المخاطب هو رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّ الكلام موجّه بطبيعة الحال إلى جميع الناس.

و رغم أنّ الآية أعلاه لا تشير إلى عدد خاص و اكتفت بكلمة أُلُوفٌ و لكنّ الوارد فى الروايات أنّ عددهم كان عشرة آلاف، و ذكرت روايات اخرى أنّهم كانوا سبعين ألف أو ثمانين ألف ۱۶۹].

ثمّ أنّ الآية أشارت إلى عاقبتهم فقالت: فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ لتكون قصّة موتهم و حياتهم مرّة اخرى عبرة للآخرين. و من الواضح أنّ المراد من مُوتُوا ليس هو الأمر اللفظى بل هو أمر اللّه التكوينى الحاكم على كلّ حىّ فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۶

عالم الوجود، أى أنّ اللّه تعالى أوجد أسباب هلاكهم فماتوا جميعا فى وقت قصير، و هذه أشبه بالأمر الذى أورد فى الآية ۸۲ من سورة يس إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۱۷۰].

و جملة ثُمَّ أَحْياهُمْ إشارة إلى عودتهم إلى الحياة بعد موتهم استجابة لدعاء (حزقيل النبى) كما ذكرنا فى سبب نزول الآية، و لمّا كانت عودتهم إلى الحياة مرّة اخرى من النعم الإلهيّة البيّنة (نعمة لهم و نعمة لبقيّة الناس للعبرة) ففى ختام الآية تقول إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ

عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ فليست نعمة اللّه و ألطافه و عنايته تنحصر بهؤلاء، بل لجميع الناس.

بحوث

هنا ينبغى أن نشير إلى بعض النقاط:

۱- هل هذه الحادثة التاريخيّة حقيقيّة، أم مجرّد تمثيل؟

هـذه الحكايـة التى ذكرناهـا، أ هى حـدث تـاريخى واقعى أشـار إليه القرآن إشـارة عـابرة، ثمّ شـرحته الروايـات و الأحـاديث، أم أنّها أقصوصة لتجسيد الحقائق العقلية و بيانها بلغة حسّية؟

لمّا كان لهـذه الحكاية جوانب غير عادية بحيث صـعب هضـمها على بعض المفسّـرين، فإنّهم أنكروا كونها حقيقة واقعة، و قالوا إنّ ما جاء فى الآية إنّما هو من باب ضـرب المثل بقوم يضـعفون عن الجهاد ضدّ العدوّ فيهزمون ثمّ يعتبرون بما جرى فيستيقظون و يستأنفون الجهاد و محاربة العدوّ و ينتصرون.

و بموجب هذا التفسير يكون معنى «موتوا» الهزيمة فى الحرب بسبب الضعف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۷

و التهاون. و «أحياهم» إشارة إلى الوعى و اليقظة و من ثمّ النصر.

هذا التفسير يرى أنّ الروايات التى تعتبر هذه الحادثة واقعة تاريخية روايات مجعولة و إسرائيلية.

و على الرغم من أن مسألـة «الهزيمـة» بعـد التهاون و «الانتصار» بعـد اليقظة مسألة هامّة و رائعة، و لكن لا يمكن إنكار كون ظاهر الآية يدلّ على بيان حادثة تاريخية بعينها، و ليست تمثيلا.

إنّ الآيـة تتحـدّث عن قوم من الماضـين ماتوا على أثر هروبهم من حـدث مروّع ثمّ أحياهم اللّه. فإذا كانت غرابـة الحادثة و بعدها عن المألوف هو السبب فى تأويلها ذاك التأويل، فهذا إذا ما ينبغى أن نفعله بشأن جميع معاجز الأنبياء.

و لو أنّ أمثـال هـذه التأويلات و التوجيهات و جـدت طريقها إلى القرآن لأمكن إنكار معاجز الأنبياء، فضـلا عن إنكار معظم قصـص القرآن التاريخية و اعتبارها من قبيل القصـص الرمزى التمثيلى، كأن نعتبر قصّة هابيل و قابيل قصّة موضوعة لتمثّل الصراع بين العدالة و طلب الحقّ من جهة، و القسوة و الظلم من جهة اخرى، و بهذا تفقد قصص القرآن قيمتها التاريخية.

و فضـلا عن ذلك فإننا لا نسـتطيع أن نتجاهل الروايات الواردة فى تفسـير هـذه الآيـة، لأنّ بعضـها قد ورد فى الكتب الموثوق بها و لا يمكن أن تكون من الإسرائيليات المجعولة.

۲- درس للعبرة هدف الآية فى الواقع كما ورد فى سـبب النزول هو إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل الّذين كانوا يتذرّعون تهرّبا من الجهاد بمختلف المعاذير، فابتلاهم اللّه بمرض الطّاعون حيث فتك بهم سريعا و أفناهم و أبادهم إلى درجة أنّه لا يستطيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۸

أى عـدوّ شـرس أن يصـنع ذلك فى ميـدان القتال، فبهـذا تقول الآيـة لهم أنّه لا تتصوّروا أنّ التهرّب من المسؤوليّة و التوسّل بالأعذار الواهية يجعلكم فى مأمن من الخطر، فأنتم أعجز من أن تقفوا أمام قدرة اللّه تعالى، فإنّه تعالى قادر على أن يبتليكم بعدوّ صـغير لا يرى بالعين و هو مكروب الطّاعون أو الوباء و أمثال ذلك فيختطف أرواحكم فيذركم كعصف مأكول.

۳- مسألة الرّجعة النقطة الاخرى التى لا بدّ من الالتفات إليها هنا هى مسألة إمكان الرّجعة التى تستفاد من الآية بوضوح.

و توضـيح ذلـك: أنّ التاريـخ يحـدّثنا عن بعض الأقوام من السالفين ماتوا ثمّ أعيـدوا إلى هـذه الـدنيا، كما فى حادثـة طائفـة من بنى

إسرائيل الّذين توجّهوا مع النبى موسى عليه السّلام إلى جبل طور الواردة فى آية ۵۵ و ۵۶ من سورة البقرة و قصّة «عزير» أو إرميا الواردة فى الآية ۲۵۹ من هذه السورة، و كذلك الحادثة المذكورة فى هذه الآية مورد البحث.

فلا مانع أن تتكرّر هذه الحادثة مرّة اخرى فى المستقبل.

العالم الشيعى المعروف ب «الصدوق» رحمه اللّه استدلّ بهذه الآية على القول بالرّجعة و قال: (إنّ من معتقداتنا الرّجعة) أى رجوع طائفة من الناس الّذين ماتوا فى الأزمنة الغابرة إلى هذه الدّنيا مرّة اخرى، و يمكن كذلك أن تكون هذه الآية دليلا على المعاد و إحياء الموتى يوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۰۹

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۴ الى ۲۴۵]

اشارة

وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۴۴) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۴۵)

سبب النّزول

قيل فى سبب نزول الآية الثانية

أنّ رسول اللّه قال: من تصدّق بصدقة فله مثلاها فى الجنّة. سوف ينال ضعفه فى الجنّة فقال (أبو الدحداح الأنصارى): يا رسول اللّه إنّ لى حديقتين إن تصدقت بأحدهما فإن لى مثليها فى الجنّة، قال: نعم.

قال: و ام الدحداح معى، قال: نعم. قال: و الصبية معى. قال: نعم. فتصدّق بأفضل حديقتيه فدفعها إلى رسول اللّه. فنزلت الآية فضاعف اللّه له صدقته الفى الف و ذلك قوله أضعاف كثيرة.

فرجع أبو الدحداح فوجد أم الدحداح و الصبية فى الحديقة التى جعلها صدقة، فقام على باب الحديقة و تحرج أن يدخلها فنادى يا أمّ الدحداح، قالت:

لبيك يا أبا الدحداح، قال: إنى قد جعلت حديقتى هذه صدقة و اشتريت مثليها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۰

الجنّة و ام الدحداح معى و الصبية معى. قالت: باركك اللّه لك فيما شريت و فيما اشتريت، فخرجوا منها و اسلموا الحديقة إلى النبى فقال النبى: كم نخلة متدلّ عذوقها لأبى الدحداح فى الجنة[۱۷۱].

التّفسير

الجهاد بالنّفس و المال:

هذه الآيات تشرع فى حديثها عن الجهاد و تعقّب بذكر قصّة فى هذا الصدّد عن الأقوام السّالفة، مع الالتفات إلى الأحداث التى مرّت على جماعة من بنى إسرائيل الّذين تهرّبوا من الجهاد بحجّة الإصابة بمرض الطّاعون و أخيرا ماتوا بهذا المرض، يتّضح الارتباط بين

هذه الآيات و الآيات السّابقة.

فى البداية تقول الآية وَ قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يسمع أحاديثكم و يعلم نياتكم و دوافعكم النفسية فى الجهاد.

ثمّ يضيف القرآن فى الآية التالية: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً أى ينفق من الأموال التى رزقه اللّه تعالى إيّاه فى طريق الجهاد و حماية المستضعفين و المعوزين.

فعلى هذا يكون إقراض اللّه تعالى بمعنى (الإنفاق فى سبيل اللّه)، و كما ذكر بعض المفسّرين أنّها تعنى المصارف التى ينفقها الإنسان فى طريق الجهاد، لأنّ تأمين احتياجات الجهاد فى ذلك الوقت كان فى عهدة المسلمين المجاهدين، فى حين أنّ البعض يرى بأنّ الآية تشمل كلّ أنواع الإنفاق ۱۷۲].

و لكنّ التفسير الثانى أقرب و أكثر انسجاما مع ظاهر الآية، و خاصّة أنّه شامل للمعنى الأوّل أيضا، و أساسا فإنّ الإنفاق فى سبيل اللّه و مساعدة الفقراء و المساكين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۱

و حماية المحرومين يعطى ثمرة الجهاد أيضا، لأنّ كلّا منها يبعث على استقلال المجتمع الإسلامى و عزّته.

(أضعاف) جمع (ضعف) على وزن «علم». و الضّعف هو أنّ تضيف إلى المقدار مثله أو أمثاله، و قد ورد هنا الجمع مؤكّدا بالكثرة (كثيرة) كما أنّ كلمة (يضاعف) فيها تأكيد على هذا المعنى أكثر من كلمة (يضعّف)[۱۷۳]، و كلّ ذلك يدلّ على أنّ اللّه تعالى يعطى كلّ من ينفق فى سبيله الكثير الكثير كالبذرة التى تبذر فى أرض صالحة و تسقى فينمّيها و يعيدها إلى صاحبها أضعافا كثيرة كما سيأتى فى الآية (۲۶۱).

و فى ختام الآية يقول: وَ اللَّهُ يَقْبِضُ وَ يَبْصُطُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و تشير الآية إلى أنّه لا تتصوروا إن الإنفاق و البذل سوف يؤدى إلى قلّة أموالكم، لأنّ سعة و ضيق أرزاقكم بيد اللّه فهو القادر على أن يعوض ما أنفقتموه أضعافا مضاعفا، بملاحظة الارتباط الوثيق لأفراد المجتمع، فإن نفس تلك الأموال التى أنفقتموها سوف تعود إليكم فى الواقع.

هذا من البعد الدنيوى، و أمّا البعد الأخروى للإنفاق فلا تنسوا أن جميع المخلوقات سوف تعود إلى اللّه عزّ و جلّ و سوف يثيبكم حينذاك و يجزل لكم العطاء.

بحث

لماذا ورد التعبير بالقرض؟

لقد ورد التعبير بالقرض فى مورد الإنفاق فى عدّة آيات قرآنية، و هذا من جهة يحكى عظيم لطف اللّه بالنسبة لعباده، و أهمية مسائلة الإنفاق من جهة أخرى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۲

فالبرغم من أن المالك الحقيقى لجميع عالم الوجود هو اللّه تعالى و أن الناس يمثلون و كلاء عن اللّه فى التصرف فى جزء صغير من هذا العالم كما ورد فى الآية (۷) من سورة الحديد آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ

و لكن مع ذلك يعود سبحانه إلى العبد ليستقرض منه و أيضا استقراض بربح وفير جدّا (فانظر إلى كرم اللّه و لطفه).

يقول الإمام على عليه السّلام فى نهج البلاغة: «و استقرضكم و له خزائن السموات و الأرض و هو الغنى الحميد و إنّما أراد أن يبلوكم أيّكم أحسن عملا»

[۱۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۳

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۴۶ الى ۲۵۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۲۴۶) وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۴۷) وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۴۸) فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۲۴۹) وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۲۵۰)

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ (۲۵۱) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۵۲)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۴

حادثة ذات عبرة:

من الضرورى و قبل الشروع فى تفسير هذه الآيات الشريفة التعرض لجانب من تاريخ بنى إسرائيل المنظور فى هذه الآيات.

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوى بقيادة موسى عليه السّلام الحكيمة حتى بلغوا القوّة و العظمة.

لقد أنعم اللّه على اليهود ببركة نبيّهم الكثير من النعم بما فيها «صندوق العهد»[۱۷۵] الذى حمله اليهود أمام الجند فأضفى عليهم الطمأنينة و المعنوية العالية، و ظلّت هذه الروحية فيهم بعد رحيل موسى عليه السّلام مدّة من الزمن، إلّا أنّ تلك النعم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۵

و الانتصارات أثارت فى اليهود الغرور شيئا فشيئا، و أخذوا بمخالفة القوانين، و أخيرا اندحروا على أيدى الفلسطينيين و خسروا قوّتهم و نفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فكان أن تشتّتوا و ضعفوا و لم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم حتّى أمام أتفه أعدائهم، بحيث إنّ هؤلاء الأعداء طردوا الكثيرين منهم من أرضهم و أسروا أبناءهم.

استمرّت حالهم على هذا سنوات طوالا، إلى أن أرسل إليهم اللّه نبيّا اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم و هدايتهم، فتجمّع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعا بالظلم و كانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، و طلبوا منه أن يختار لهم قائدا و أميرا لكى يتوحّدوا تحت لوائه، و يحاربوا العدوّ متّحدين يدا و رأيا، لاستعادة عزّتهم الضائعة.

اشموئيل الذى كان يعرف ضعفهم و تهاونهم و هبوط معنويّاتهم قال لهم:

أخشى إن اخترت لكم قائدا أن تخذلوه عند ما يدعوكم إلى الجهاد و محاربة العدو.

فقالوا: كيف يمكن أن نعصى أوامر أميرنا و نرفض القيام بواجبنا، مع أنّ العدوّ قد شرّدنا من أوطاننا و استولى على أرضنا و أسر أبناءنا!! فرأى اشموئيل أنّ هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم و ها هم قد اتجهوا للمعالجة، و لعلّهم أدركوا سبب تخلّفهم، فتوجّه إلى اللّه يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكا عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إنى لا أعرف طالوت و لم أره حتّى الآن. فجاءه الوحى:

سنرسله إليك فأعطه قيادة الجيش و لواء الجهاد.

من هو طالوت؟

كان طالوت رجلا طويل القامة، ضخما، حسن التركيب، متين الأعصاب قويّها، ذكيا، عالما، مدبّرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۶

و يقول بعض: إنّ اختيار اسم «طالوت» له كان لطوله، و لكنّه مع كلّ ذلك لم يكن معروفا، حيث كان يعيش مع أبيه فى قرية على أحد الأنهر، و يرعى ماشية أبيه و يشتغل بالزراعة.

أضاع يوما بعض ماشيته فى الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيّام حتّى اقتربا من مدينة صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبىّ اشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما له من اتصال بالوحى و حصانة فى الرأى على ضالّتنا. و التقيا باشموئيل عند دخولهما المدينة.

ما أن تبادل اشموئيل و طالوت النظرات حتّى تعارف قلباهما، و عرف اشموئيل طالوت و أدرك أنّ هذا الشاب هو الذى أرسله اللّه ليقود الجماعة. و عند ما انتهى طالوت من قصّته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أمّا ماشيتك الضائعة فهى الآن على طريق القرية تتّجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها. و لكنى أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنّ اللّه قد أختارك لنجاة بنى إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر فى البداية، و لكنّه قبل المهمّة مسرورا فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار اللّه طالوت لقيادتكم، فعليكم جميعا أن تطيعوه، و أن تتهيّأوا للجهاد و محاربة الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ قائدهم يجب أن تتوفّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه و ثروته، ممّا لم يجدوا منها شيئا فى طالوت، فانتابتهم حيرة شديدة لهذا الإختيار، فطالوت لم يكن من أسرة لاوى التى ظهر منها الأنبياء، و لا كان من أسرتى يوسف أو يهودا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، و نحن أحقّ منه بالحكم! فقال اشموئيل- الذى رآهم على خطأ كبير-: إنّ اللّه هو الذى اختاره أميرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۷

عليكم، و القيادة تحتاج إلى كفاءة جسمية و روحية و هى متوفّرة فى طالوت، و هو يفوقكم فيها. إلّا أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، و طلبوا دليلا على أنّ هذا الإختيار إنّما كان من اللّه سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت- صندوق العهد- الذى هو أثر مهمّ من آثار أنبياء بنى إسرائيل، و كان مدعاة لثقتكم و طمئنانكم فى الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكة. و لم يمض وقت طويل حتّى ظهر الصندوق، و على أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قيادة طالوت لهم.

طالوت فى الحكم

اشارة

تسلّم طالوت قيادة الجيش، و خلال فتره قصيرة أثبت لياقته و جدارته للاضطلاع بمهامّ إدارة الملك و قيادة الجيش، ثمّ طلب من بنى إسرائيل أن يعدّوا العدّة لمحاربة عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب. قال لهم مؤكّدا إنّه لا يريد أن يسير معه للقتال إلّا الّذين ينحصر كلّ تفكيرهم فى الجهاد، أمّا الّذين لهم عمارة لم تتم، أو معاملة لم تكمل، و أمثالهم، فليس لهم الاشتراك فى الجهاد. و سرعان ما اجتمع حوله جمع تظهر عليه الكثرة و القوّة، و تحرّكوا صوب العدو.

و فى المسيرة الطويلة و تحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فأراد طالوت- بأمر من اللّه- أن يختبرهم و يصفيهم، فقال لهم: سوف نصل قريبا إلى نهر فى مسيرتنا، و أنّ اللّه يريد أن يمتحنكم به، فمن شرب منكم منه و ارتوى فليس منّى، و من لا يشرب إلّا قليلا- منه فهو منّى. و لكنّهم ما أن وقعت أنظارهم على النهر حتّى فرحوا و هرعوا إليه و شربوا منه حتّى ارتووا، إلّا نفر قليل منهم ظلّوا على العهد.

أدرك طالوت أنّ أكثرية جيشه يتألّف من أناس ضعفاء الإرادة و عديمى العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلّى عن تلك الأكثرية و اتّجه مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۸

النفر المؤمن القليل خارجا من المدينة إلى ميادين الجهاد.

إلّا أنّ هذا الجيش الصغير انتابه القلق من قلّته، فقالوا لطالوت: إننا لا طاقة لنا بمقابلة جيش قوىّ كثير العدد. غير أنّ الذين كان لهم إيمان راسخ بيوم القيامة، و كانت محبّة اللّه قد ملأت قلوبهم، لم يرهبوا كثرة العدوّ و قلّة عددهم، فخاطبوا طالوت بكلّ شجاعة قائلين: قرّر ما تراه صالحا، فنحن معك حيثما ذهبت، و لسوف نجالدهم بهذا العدد القليل بحول اللّه و قوّته، و لطالما انتصر جيش صغير بعون اللّه على جيش كبير، و اللّه مع الصابرين.

فاستعدّ طالوت بجماعته القليلة المؤمنة للحرب، و دعوا اللّه أن يمنحهم الصبر و الثبات، و عند التقاء الجيشين خرج جالوت من بين صفوف عسكره و طلب المبارزة بصوت قوى أثار الرعب فى القلوب، فلم يجرأ أحد على منازلته، فى تلك اللحظة خرج شاب اسمه داود من بين جنود طالوت، و لعلّه لصغر سنّه، لم يكن قد خاض حربا من قبل، بل كان قد جاء إلى ميدان المعركة بأمر من أبيه ليكون بصحبة اخوته فى صفوف جيش طالوت. و لكنّه كان سريع الحركة خفيفها، و بالمقلاع الذى كان بيده رمى جالوت بحجرين- بمهارة شديدة- فأصابا جبهته و رأسه، فسقط على الأرض ميّتا وسط تعجّب جيشه و دهشتهم. و على أثر ذلك استولى الرعب و الهلع على جيش جالوت، و لم يلبثوا حتّى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت و انتصر بنو إسرائيل ۱۷۶].

التّفسير

نعود إلى تفسير الآيات محلّ البحث فى أوّل آية يخاطب اللّه تعالى نبيّه الكريم و يقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنا مَلِكاً نُقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۱۹

(الملأ) هم الجماعة يجتمعون على رأى فيملئون العيون رواء و منظرا و النفوس بهاء و جلالا و لذلك يقال لأشراف كلّ قوم (الملأ) لأنّهم بما لهم من مقام و منزلة يملأون العين.

هذه الآية- كما قلنا- تشير إلى جماعة كبيرة من بنى إسرائيل طلبوا بصوت واحد من نبيّهم أن يختار لهم أميرا و قائدا ليحاربوا بقيادته

(جالوت) الّذى كان يهدّد مجتمعهم و دينهم و اقتصادهم بالخطر.

و على الرّغم من أنّ الجماعة المذكورة كانت تريد أن تدفع العدو المعتدى الذى أخرجهم من أرضهم و يعيدوا ما أخذ منهم، فقد وصفت تلك الحرب بأنّها فى سبيل اللّه، و بهذا يتبيّن أنّ ما يساعد على تحرّر النّاس و خلاصهم من الأسر و رفع الظّلم و العدوان يعتبر فى سبيل اللّه.

و قد ذكر البعض أنّ اسم ذلك النبى هو (شمعون) و ذكر آخرون بأنّه (إشموئيل) و بعض (يوشع) و لكنّ المشهور بين المفسّرين أنّه (إشموئيل) أى إسماعيل بلغة العرب، و بهذا وردت رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أيضا[۱۷۷].

و لمّا كان نبيّهم يعرف فيهم الضعف و الخوف قال لهم: يمكن أن يصدر إليكم الأمر للجهاد فلا تطيعون قالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتالُ أَلَّا تُقاتِلُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۲۱۹

لكنّهم قالوا: كيف يمكن أن نتملّص من محاربة العدو الذى أجلانا عن أوطاننا و فرّق بيننا و بين أبنائنا قالُوا وَ ما لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيارِنا وَ أَبْنائِنا و بذلك أعلنوا و و تمسّكهم بالعهد.

و مع ذلك فإنّ هذا الجمع من بنى إسرائيل لم يمنعهم اسم اللّه و لا ـ أمره و لا ـ الحفاظ على استقلالهم و الدفاع عن وجودهم و لا تحرير أبناءهم من نقض العهد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۰

و لذلك يقول القرآن مباشرة بعد ذلك: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

و ذكر بعض المفسّرين أنّ عدّة من بقى مع طالوت (۳۱۳ نفر) بعدد جيش الإسلام يوم بدر[۱۷۸].

و على كلّ حال فإنّ نبيّهم أجابهم على طلبهم التزاما منه بواجبه و جعل عليهم طالوت ملكا بأمر من اللّه تعالى وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طالُوتَ مَلِكاً.

و يتّضح من هذه الآية أنّ اللّه هو الذى اختار طالوت ليكون ملكا على بنى إسرائيل و قائدا لعسكرهم، و لعلّ استعمال كلمة (قد بعث) يشير إلى ما ذكرنا فى القصّة من الحوادث غير المتوقّعة الذى جاءت بطالوت إلى مدينة ذلك النبى و الحضور فى مجلسه، فكذلك يظهر من كلمة (ملكا) أنّ طالوت لم يكن قائدا للجيش فحسب، بل كان ملكا على ذلك المجتمع ۱۷۹].

و من هنا بدأت المخالفات و الاعتراضات و قال بعضهم: قالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ

و هذا هو أوّل اعترضا و نقض فى العهد من قبل بنى إسرائيل لنبيّهم مع أنّه قد صرّح لهم أنّ اللّه هو اختار طالوت، و فى الواقع أنّهم اعترضوا على اللّه تعالى بقولهم: (إنّنا أجدر من طالوت بالحكم لأنّ الحكم لا بدّ فيه من شرطين لا يتوفّران فى طالوت و هما: الحسب و النسب من جهة، و المال و الثروة من جهة اخرى، و قد ذكرنا فى القصّة أنّ طالوت كان من قبيلة مغمورة من قبائل بنى إسرائيل، و من حيث الثروة لم يكن سوى مزارع فقير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۱

غير أنّ القرآن الكريم يشير إلى الجواب القاطع على هذا الاعتراض إذ يقول:

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ

فأفهمهم بذلك أنّ اختيار اللّه طالوت ملكا و قائدا لما يتمتّع به من علم و حكمة و عقل، و من الناحية البدنيّة فهو قوى و مقتدر.

و هذا يعنى أوّلا، أنّ هذا الإختيار هو إختيار اللّه تعالى.

و ثانيا: إنّكم على خطأ كبير فى تشخيص شرائط القيادة، لأنّ النسب الرّفيع و الثروة الكبيرة ليستا امتيازين للقائد إطلاقا، لأنّهما من الامتيازات الاعتبارية الخارجيّة، أمّا العلم و المعرفة و كذلك القوّة الجسميّة فهما امتيازان واقعيّان ذاتيان حيث يلعبان دورا مهمّا فى شخصيّة القائد.

إنّ قائد العالم يعرف طريق سعادة المجتمع و يرسم الخطط للوصول إليه بعلمه و حنكته، و كذلك يرسم الأسلوب الصحيح فى مواجهة الأعداء، ثمّ يقوم بقوّته الجسمانيّة بتمثيل هذا المخطّط على أرض الواقع.

كلمة (بسطة) إشارة إلى اتساع وجود الإنسان فى أنوار العلم و القوّة، أى أنّ الإنسان بالعلم و الحكمة و القوّة الجسميّة الكافية يزداد سعة فى وجوده، و هنا نلحظ أنّ البسطة فى العلم تقدّمت على القوّة الجسميّة، لأنّ الشرط الأوّل هو العلم و المعرفة.

و يستفاد ضمنا من هذا التعبير أنّ مقام الإمامة و القيادة من الأحكام الإلهيّة و أنّ اللّه تعالى هو الذى يشخّص اللّائق لها، فلو رأى اللّياقة الكافية فى أولاد الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم لجعل الإمامة عندهم، و لو توفّرت عند أشخاص آخرين لجعلها فيهم، و هذا هو ما يعتقد به علماء الشيعة و يدافعون عنه.

ثمّ تضيف الآية وَ اللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى شرط ثالث للقائد، و هو توفير اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۲

تعالى الإمكانيّات و آليات القيادة و وسائل الحكم، لأنّه من الممكن أن يكون قائدا كاملا من حيث العلم و القوّة و لكنّه محاط بظروف لا تمنحه أىّ استعداد للوصل إلى أهدافه المقدّسة، و لا شكّ أنّ قائدا مع هذه الظّروف لا يمكن أن ينتصر و ينجح فى قيادته، و لذلك يقول القرآن هنا أنّ اللّه تعالى يمنح الحكومة الإلهيّة لمن يشاء، أى أنّه يهيّا الظروف اللازمة لنجاحه.

الآية التالية تبيّن أنّ بنى إسرائيل لم يكونوا قد اطمأنوا كلّ الاطمئنان إلى أنّ طالوت مبعوث من اللّه تعالى لقيادتهم على الرّغم من أن نبيّهم صرّح ذلك لهم، و لهذا طلبوا منه الدّليل، فكان جوابه أنّ الدليل سيكون مجيء التابوت أو صندوق العهد إليهم وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ

فما هو تابوت بنى إسرائيل أو صندوق العهد؟ و من الذى صنعه؟ و ما هى محتوياته؟ فإنّ فى تفاسيرنا و أحاديثنا، و كذلك فى العهد القديم- التوراة- كلاما كثيرا عنه. إلّا أنّ أوضحها هو ما جاءنا فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام و أقوال بعض المفسّرين من أمثال ابن عبّاس، حيث قالوا إنّ التابوت هو الصندوق الذى وضعت فيه أمّ موسى ابنها موسى و ألقته فى اليمّ، و بعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر و أتوا به إليه و أخرجوا موسى منه، ظلّ الصندوق فى بيت فرعون ثمّ وقع بأيدى بنى إسرائيل، فكانوا يحترمونه و يتبرّكون به.

موسى عليه السّلام وضع فيه الألواح المقدّسة- التى تحمل على ظهرها أحكام اللّه- و درعه و أشياء أخرى تخصّه و أودع كلّ ذلك فى أواخر عمره لدى وصيّه يوشع ابن نون.

و بهذا ازدادت أهميّة هذا الصندوق عند بنى إسرائيل فكانوا يحملونه معهم كلّما نشبت حرب بينهم و بين الأعداء، ليصعّد معنوياتهم، لذلك قيل: إنّ بنى إسرائيل كانوا أعزّة كرماء ما دام ذلك الصندوق بمحتوياته المقدّسة بينهم، و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۳

بعد هبوط التزاماتهم الدينية و غلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق. و اشموئيل- كما تذكر الآية- و عدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلا على صدق قوله.

فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ

هذه الفقرة من الآية تبيّن أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوى على أشياء تضفى السكينة على بنى إسرائيل و ترفع معنوياتهم فى

الحوادث المختلفة فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

ثمّ إنّ محتويات الصندوق كانت تضمّ آثارا ممّا خلف آل موسى و آل هارون أضيفت إلى ما كان فيه من قبل، و ممّا يجدر ذكره هو أنّ «السكينة» بمعنى الهدوء، و يقصد بها هنا هدوء النفس و القلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود إليكم لتستعيدوا الهدوء الذى فقدتموه. و فى الحقيقة أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنوى و التاريخىّ كان أكثر من مجرّد لواء لبنى إسرائيل و شعار لهم. كان يمثّل رمز استقلالهم و وجودهم و برؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة. لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم.

تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ.

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟ فى هذا أيضا للمفسّرين كلام كثير أوضحها قولهم: جاء فى التاريخ أنّه عند ما وقع صندوق العهد بين عبدة الأصنام فى فلسطين و أخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم: ما هذه المصائب إلّا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إبعاده عن مدينتهم و ديارهم، و لمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمّة اضطّروا إلى ربط الصندوق ببقرتين و أطلقوهما فى الصحراء. و اتّفق هذا فى الوقت الذى تمّ فيه نصب طالوت ملكا على بنى إسرائيل. و أمر اللّه الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۴

مدينة اشموئيل. و عند ما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من اللّه على اختيار طالوت ملكا عليهم.

و عليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بنى إسرائيل.

فى الحقيقة أنّ للملائكة معنى واسعا فى القرآن و الروايات، يشمل فضلا عن الكائنات الروحية العاقلة، مجموعة من القوى الغامضة الموجودة فى هذا العالم.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّه بالرّغم من ثبوت مسألة القيادة الإلهيّة لطالوت بالأدلّة و المعاجز الإلهيّة، فهناك بعض الأفراد لضعف إيمانهم لم يسلّموا إلى هذا الحقّ، و قد ظهرت هذه الحقيقة على أعمالهم العباديّة و من ذلك تشير الجملة الأخيرة فى هذه الآية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

ثمّ أنّ بنى إسرائيل رضخوا لقيادة طالوت فصنع منهم جيوشا كثيرة و ساروا إلى القتال، و هنا تعرّض بنى إسرائيل لاختبار عجيب، و من الأفضل أن نجمع تلك الأحداث و مجريات الأمور من القرآن نفسه حيث يقول: فَلَمَّا فَصَلَ طالُوتُ بِالْجُنُودِ قالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۱۸۰].

و يتّضح فى هذه الموارد الامتحان الكبير الذى تعرّض له بنو إسرائيل و هو المقاومة الشديدة للعطش، و كان هذا الامتحان ضروريّا لجيش طالوت و خاصّة مع السّوابق السيّئة لهذا الجيش فى بعض الحروب السابقة، لأنّ الانتصار يتوقّف على مقدار الانضباط و قدرة الإيمان و الاستقامة فى مقابل الأعداء و الطّاعة لأوامر القيادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۵

و طالوت الذى كان يتّجه بجنوده للجهاد، كان لا بدّ له أن يعلم إلى أىّ مدى يمكن الاعتماد على طاعة هؤلاء الجنود، و على الأخصّ أولئك الذين ارتضوه و استسلموا له على مضض متردّدين، و لكنّهم فى الباطن كانت تراودهم الشكوك بالنّسبة لإمرته، لذلك يؤمر طالوت أمرا إلهيّا باختبارهم، فيخبرهم أنّهم سوف يصلون عمّا قريب إلى نهر، فعليهم أن يقاوموا عطشهم، و ألّا يشربوا إلّا قليلا، و بذلك يستطيع أن يعرف إن كان هؤلاء الذين يريدون أن يواجهوا سيوف الأعداء البتّارة يتحمّلون سويعات من العطش أم لا.

و شرب الأكثرية كما قلنا فى سرد الحكاية، و كما جاء بايجاز فى الآية.

و هكذا جرت التصفية الثانية فى جيش طالوت. و كانت التصفية الأولى عند ما نادى المنادى للاستعداد للحرب و طلب الجميع

بالاشتراك فى الجهاد إلّا الذين كانت لهم التزامات تجارية أو عمرانية أو نظائرها.

فَلَمَّا جاوَزَهُ هُوَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قالُوا لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ

تفيد هذه الآية أنّ تلك القلّة التى نجحت فى الامتحان هى وحدها التى تحرّكت معه، و لكن عند ما خطر لهؤلاء القلّة أنهم مقدمون على مواجهة جيش جرّار و قوى، ارتفعت أصواتهم بالتباكى على قلّة عددهم، و هكذا بدأت المرحلة الثالثة فى التصفية.

قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ۱۸۱].

«الفئة» أصلا من «الفىء» بمعنى الرجوع، و يقصد بها الجماعة الملتحمة التى يرجع بعضهم إلى بعض ليعضده. تقول الآية: إنّ الذين كانوا يؤمنون بيوم القيامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۶

إيمانا راسخا قالوا للآخرين: ينبغى ألّا تلتفتوا إلى (الكم) بل إلى (الكيف) إذ كثيرا ما يحدث أنّ الجماعة الصغيرة المتحلّية بالإيمان و العزم و التصميم تغلب الجماعة الكبيرة بإذن اللّه.

ينبغى أن ننتبه إلى أنّ «يظنّون» هنا تعنى يعلمون، أى أنّهم على يقين من قيام يوم القيامة، و لا يعنى الظنّ هنا الاحتمال، و ظنّ هذه تعنى اليقين فى كثير من الحالات، حتّى لو اعتبرناها بمعنى الاحتمال، فإنّها هنا تناسب المقام أيضا، إذ فى هذه الحالة يكون المعنى أنّ مجرّد احتمال قيام يوم القيامة يكفى، فكيف باليقين به حيث يحمل الإنسان على اتّخاذ قرار بالنسبة للأهداف الربّانية. إنّ من يحتمل النجاح فى حياته- فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السياسة- يمضى فى مسيرته بكلّ عزم و تصميم.

أمّا لماذا يطلق على يوم القيامة يوم لقاء اللّه، فذلك ما أوضحناه فى الجزء الأول من هذا التفسير.

فى الآية التالية يذكر القرآن الكريم موضوع المواجهة الحاسمة بين الجيشين و يقول: وَ لَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَ جُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

(برزوا) من مادّة (بروز) بمعنى الظّهور، فعند ما يستعد المحارب للقتال و يتّجه إلى الميدان يقال أنّه برز للقتال، و إذا طلب القتال من الأعداء يقال أنّه طلب مبارزا.

تقول هذه الآية أنّه عند ما وصل طالوت و جنوده إلى حيث ظهر لهم جالوت و جيشه القوى و وقفوا فى صفوف أمامه رفعوا أيديهم بالدّعاء، و طلبوا من اللّه العلىّ القدير ثلاثة امور، الأوّل: الصّبر و الاستقامة إلى آخر حد، و لذا جاءت الجملة تقول: أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً.

و (الإفراغ) تعنى فى الأصل صبّ السائل بحيث يخلو الإناء ممّا فيه تماما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۷

و مجىء (صبر) بصيغة النكرة يؤكّد هذا المعنى بشكل أكبر.

الاعتماد على ربوبيّة الخالق جلّ و علا بقولهم (ربّنا) و كذلك عبارة (إفراغ) مضافا إلى كلمة (على) التى تبيّن أنّ النزول من الأعلى، و كذلك عبارة (صبرا) فى صيغة النكرة كلّ هذه المفردات تدلّ على نكات عميقة لمفهوم هذا الدعاء و أنّه دعاء عميق المغزى و بعيد الأفق.

الثانى: أنّهم طلبوا من اللّه تعالى أن يثبّت أقدامهم وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا حتّى لا يرجّح الفرار على القرار، و الواقع أنّ الدعاء الأوّل اتّخذ سمة الطلب النفسى و الباطنى، و هذا الدعاء له جنبة ظاهريّة و خارجيّة، و من المسلّم أنّ ثبات القدم هو من نتائج روح الاستقامة و الصبر.

الثالث: من الأمور التى طلبها جيش طالوت هو وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و هو فى الواقع الهدف الأصلى من الجهاد و ينفّذ النتيجة النهائيّة للصبر و الاستقامة و ثبات الأقدام.

و من المسلّم أنّ اللّه تعالى سوف لا يترك عبادة هؤلاء لوحدهم أمام الأعداء مع قلّة عددهم و كثرة جيش العدو، و لذلك تقول الآية التالية: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ

و كـان داوود فى ذلك الوقت شابّا صـغير السن و شـجاعا فى جيش طالوت. و لا تبيّن الآيـة كيفيّة قتل ذلك الملك الجبّار بيـد داود الشاب اليافع، و لكن كما تقدّم فى شـرح هذه القصّة أنّ داود كان ماهرا فى قذف الحجارة بالقلّاب حيث وضع فى قلّابه حجرا أو اثنين و رمـاه بقوّة و بمهـارة نحو جـالوت، فأصـاب الحجر جبهته بشـدّة فصـرعه فى الوقت، فتسـرب الخوف إلى جميع أفراد جيشه، فانهزموا بسـرعة أمـام جيش طـالوت، و كـأنّ اللّه تعـالى أراد أن يظهر قـدرته فى هـذا المورد و أنّ الملـك العظيم و الجيش الجرّار لا يسـتطيع الوقوف أمام شاب مراهق مسلّح بسلاح ابتدائى لا قيمة له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۸

تضـيف الآية: وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ الضّـمير فى هاتين الجملتين يعود على داود الفاتح فى هذه الحرب، و على الرّغم من أنّ الآيـة لا تقول أنّ داود هـذا هو داود النبى والـد سـليمان عليهما السّـلام و لكنّ جملة وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ تـدلّ على أنّه وصل إلى مقام النبوّة، لأنّ هذا ممّا يوصف به الأنبياء عادة، ففى الآية ۲۰ من سورة ص نقرأ عن داود وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ كما أنّ الأحاديث الواردة فى ذيل هذه الآية تشير إلى أنّه كان داود النبى نفسه.

و هـذه العبارة يمكن أن تكون إشارة إلى العلم الإدارى و تـدبير البلاد و صـنع الدّروع و وسائل الحرب و أمثال ذلك حيث كان داود عليه السّـلام يحتاج إليها فى حكومته العظيمـة، لأنّ اللّه تعالى لا يعطى منصـبا و مقاما لأحد العباد إلّا و يؤتيه أيضا الاسـتعداد الكامل و القابليّة اللّازمة لذلك.

و فى ختام الآية إشارة إلى قانون كلّى فتقول: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَ لكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ فاللّه سبحانه و تعالى رحيم بالعباد و لذلك يمنع من تشرّى الفساد و سرايته إلى المجتمع البشرى قاطبة.

و صـحيح أنّ سنّة اللّه تعالى فى هذه الدنيا تقوم على أصل الحريّة و الإرادة و الإختيار و أنّ الإنسان حرّ فى اختيار طريق الخير أو الشر، و لكن عنـد مـا يتعرّض العالم إلى الفساد و الانـدثار بسـبب طغيان الطواغيت، فإنّ اللّه تعالى يبعث من عباده المخلصـين من يقف أمام هذا الطغيان و يكسـر شوكتهم، و هذه من ألطاف اللّه تعالى على عباده. و شبيه هذا المعنى ورد فى آية ۴۰ من سورة الحج وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ ....

و هذه الآيات فى الحقيقة بشارة للمؤمنين الّذين يقفون فى مواقع إماميّة من مواجهة الطّواغيت و الجبابرة فينتظرون نصرة اللّه لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۲۹

و يرد هنا سؤال، و هو أنّ هـذه الآيـة هل تشـير إلى مسألـة تنازع البقاء التى تعتبر أحد الأركان الأربعة لفرضـية دارون فى مسألة تكامل الأنواع؟ تقول الفرضـيّة أنّ الحرب و النّزاع ضرورىّ بين البشر، و إلّا فالسّكون و الفساد سيعم الجميع، فتعود الأجيال البشريّة إلى حالتها الأولى، فالتّنازع و الصّراع الدائمى يؤدّى إلى بقاء الأقوى و زوال الضعفاء و انقراضهم، و هكذا يتمّ البقاء للأصلح بزعمهم.

الجواب:

إنّ هـذا التفسـير يصح فيما إذا قطعنا صـله هذه الآية لما قبلها تماما، و كذلك الآية المشابهة لها فى سورة الحجّ و لكنّنا إذا أخذنا بنظر الإعتبار هذه الآيات رأيناها تدور حوّل محاربة الظّالمين و الطّغاة، فلو لا منع اللّه تبارك و تعالى لملؤوا الأرض ظلما و جورا، فعلى هذا لا تكون الحرب أصلا كليّا مقدّسا فى حياة البشريّة.

ثمّ أنّ ما يقال عن قانون (تنازع البقاء) المبنى على المبادئ الأربعة لنظريّة دارون فى (تطوّر الأنواع) ليست قانونا علميّا مسلّما، به بل هو فرضـيّة أبطلهـا العلمـاء، و حتّى الّـذين كـانوا يؤيّـدون نظريّـة تكامل الأنواع لم يعـدّ أيّا منهم يعوّل عليها و يعتبرون تطوّر الأحياء نتيجة الطفرة[۱۸۲].

و إذا ما تجاوزنا عن كلّ ذلك و اعتبرنا فرضـيّة تنازع البقاء مبدء علميّا فإنّه يمكن أن يكون كذلك فيما يتعلّق بالحيوان دون الإنسان، لأنّ حياة الإنسان لا يمكن أن تتطوّر وفق هذا المبدأ أبدا، لأنّ تكامل الإنسان يتحقّق فى ضوء التّعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

و يبدو أنّ تعميم فرضيّة تنازع البقاء على عالم الإنسان انّما هو ضرب من الفكر الاستعمارى الّذى يؤكّده بعض علماء الاجتماع فى الدول الرأسمالية لتسويغ حروب حكوماتهم الدمويّة البغيضة و إطفاء الطّابع العلمى على سلوكياتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۰

و جعل الحرب و النزاع ناموسا طبيعيا لتطوّر المجتمعات الإنسانية و تقدّمها، أمّا الأشخاص الّذين وقعوا دون وعى تحت تأثير أفكار هؤلاء اللّاإنسانيّة و راحوا يطبّقون هذه الآية عليها فهم بعيدون عن تعاليم القرآن، لأنّ القرآن يقول بكلّ صراحة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً[۱۸۳].

و من العجب أنّ بعض المفسّرين المسلمين مثل صاحب المنار و كذلك (المرائى) فى تفسيره وقعوا تحت تأثير هذه الفرضيّة إلى الحدّ الذى اعتبروها أحد السنن الإلهيّة، ففسّروا بها الآية محلّ البحث و تصوّروا أنّ هذه الفرضيّة من إبداعات القرآن لا من ابتكارات و اكتشافات دارون، و لكن كما قلنا أنّ الآية المذكورة ليست ناظرة إلى هذه الفرضيّة، و لا أنّ هذه الفرضيّة لها أساس علمى متين، بل أنّ الأصل الحاكم على الروابط بين البشر هو التعاون على البقاء لا تنازع البقاء.

و آخر آية فى هذا البحث تقول: تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

تشير هذه الآية إلى القصص الكثيرة التى وردت فى القرآن بشأن بنى إسرائيل و أنّ كلّا منها دليلا على قدرة اللّه و عظمته و منزّهة عن كلّ خرافة و أسطورة (بالحقّ) حيث نزلت على نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت إحدى دلائل صدق نبوّته و أقواله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۱

الجزء الثالث من القرآن الكريم من الآية ۲۵۳ من سورة البقرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۳]

اشارة

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (۲۵۳)

التّفسير

دور الأنبياء فى حياة البشر:

هذه الآية تشير إلى درجات الأنبياء و مراتبهم و جانبا من دورهم فى حياة المجتمعات البشرية، تقول الآية: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ

«تلك» اسم إشارة للبعيد. و الإشارة إلى البعيد- كما نعلم- تستعمل أحيانا لإضفاء الاحترام و التبجيل على مقام الشخص أو الشىء المشار إليه، هنا أيضا أشير إلى الرسل باسم الإشارة «تلك» لتبيان مقام الأنبياء الرفيع.

و اختلف المفسّرون فى المقصود بالرسل هنا، هل هم جميع الرسل و الأنبياء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۴

أم هم الرسل الذين وردت أسماؤهم أو ذكرت حكاياتهم فى ما سبق من آيات هذه السورة فقط، مثل إبراهيم، موسى، عيسى، داود، اشموئيل؟ أم هم جميع الرسل الذين ذكرهم القرآن حتّى نزول هذه الآية؟

و لكن يبدو أنّ المقصود هم الأنبياء و المرسلون جميعا، لأنّ كلمة «الرسل» جمع حلّى بالألف و اللام الدالّتين على الاستغراق، فتشمل الرسل كافّة.

فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ

يتّضح جليّا من هذه الآية أنّ الأنبياء- و إن كانوا من حيث النبوّة و الرسالة متماثلين- هم من حيث المركز و المقام ليسوا متساوين لاختلاف مهمّاتهم، و كذلك مقدار تضحياتهم كانت مختلفة أيضا.

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ

هذه إشارة إلى بعض فضائل الأنبياء، و واضح أنّ المقصود بالآية موسى عليه السّلام المعروف باسم «كليم اللّه»، كما أنّ الآية ۱۶۳ من سورة النساء تقول عنه وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً.

أمّا القول بأنّ المقصود هو نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّ التكليم المنظور هنا هو التكليم الذى كان فى ليله المعراج مع الرسول، أو أنّ المراد هو الوحى الإلهى الذى ورد فى آية ۵۱ من سورة الشورى وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ...

حيث اطلق عليه عنوان التكلّم، فإنّه بعيد جدّا، لأنّ الوحى كان شاملا لجميع الأنبياء، فلا يتلائم مع كلمة «منهم» لأنّ (من) تعبضيّة.

ثمّ تضيف الآية وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ و مع الالتفات إلّا أنّ الآية أشارت إلى التفاضل بين الأنبياء بالدّرجات و المراتب، فيمكن أن يكون المراد فى هذا التكرار إشارة إلى أنبياء معيّنين و على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۵

رأسهم نبىّ الإسلام الكريم لأنّ دينه آخر الأديان و أكملها، فمن تكون رسالته الإبلاغ أكمل الأديان لا بدّ أن يكون هو نفسه أرفع المرسلين، خاصّة و أنّ القرآن يقول فيه فى الآية ۴۱ من سورة النّساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً[۱۸۴].

و الشاهد الآخر على هذا الموضوع، و هو أنّ الآية السابقة تشير إلى فضيلة موسى عليه السّلام، و الآية التالية تبيّن فضيلة عيسى عليه السّلام، فالمقام يتطلّب الإشارة إلى فضيلة رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ كلّ واحد من هؤلاء الأنبياء الثلاثة كان صاحب أحد الأديان الثلاثة العظيمة فى العالم. فإذا كان اسم نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاء بين اسميهما، فلا عجب فى ذلك، أو ليس دينه الحدّ الوسط بين دينيهما و أنّ كلّ شىء قد جاء فيه بصورة معتدلة و متعادلة؟ ألا يقول القرآن: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً[۱۸۵]! و مع ذلك، فإنّ العبارات المتقدّمة فى هذه الآية تدلّ على أنّ المقصود من رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ هم بعض الأنبياء السابقين، مثل إبراهيم إذ يقول سبحانه فى الآية التالية: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ أى لو شاء اللّه ما أخذت امم هؤلاء الأنبياء تتقاتل فيما بينها بعد رحيل أنبيائها.

وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

أى أنّنا وهبنا عيسى عليه السّلام براهين واضحة مثل شفاء المرضى المزمنين و إحياء الموتى و المعارف الدينيّة السامية.

أمّا المراد من (روح القدس) هل هو جبرئيل حامل الوحى الإلهى، أو قوى اخرى غامضة موجودة بصورة متفاوتة لدى أولياء اللّه؟ تقدّم البحث مشروحا فى الآية ۸۷ من سورة البقرة، و عند ما تؤكّد هذه الآية على أنّ عيسى عليه السّلام كان مؤيّدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۶

بروح القدس فلأنّه كان يتمتّع بسهم أوفر من سائر الأنبياء من هذه الرّوح المقدّسة.

و تشير الآية كذلك إلى وضع الأمم و الأقوام السالفة بعد الأنبياء و الاختلافات التى جرت بينهم فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ

مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فمقام الأنبياء و عظمتهم لن يمنعا من حصول الاختلافات و الاقتتال و الحرب بين أتباعهم لأنّها سنّة إلهيّة أن جعل اللّه الإنسان حرّا و لكنّه أساء الاستفادة من هذه الحريّة وَ لكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَ مِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.

و من الواضح أنّ هذا الاختلاف بين الناس ناشئ من اتّباع الأهواء و الشّهوات و إلّا فليس هناك أىّ صراع و اختلاف بين الأنبياء الإلهيّين حيث كانوا يتّبعون هدفا واحدا.

ثمّ تؤكّد الآية أنّ اللّه تعالى قادر على منع الاختلافات بين النّاس بالإرادة التكوينيّة و بالجبر، و لكنّه يفعل ما يريد وفق الحكمة المنسجمة مع تكامل الإنسان و لذلك تركه مختارا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَ لكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ.

و لا شكّ فى أنّ بعض الناس أساء استخدام هذه الحريّة، و لكنّ وجود الحريّة فى المجموع يعتبر ضروريّا لتكامل الإنسان، لأنّ التكامل الإجبارى لا يعدّ تكاملا.

و ضمنا يستفاد من هذه الآية الّتى تعرّضت إلى مسألة الجبر مرّة اخرى بطلان الإعتقاد بالجبر، حيث تثبت أنّ اللّه تعالى ترك الإنسان حرّا فبعض آمن و بعض كفر.

مسألة: هل الأديان تسبّب الاختلافات؟

يتّهم بعض الكتّاب الغربيين الأديان على أنّها هى سبب التفرقة و النزاع بين أفراد البشر، و هى السبب فى إراقة الكثير من الدماء، فالتاريخ شهد الكثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۷

الحروب الدينية، و هكذا سعوا إلى إدانة الأديان و اعتبارها من الأسباب المثيرة للحروب و المخاصمات.

و إزاء هذا القول لا بدّ من الانتباه إلى ما يلى:

أولا: أنّ الاختلافات- كما جاء فى الآية المذكورة- لا تنشأ فى الحقيقة بين الأتباع الصادقين لدين من الأديان، بل هى بين أتباع الدين و مخالفيه. و إذا ما شاهدنا صراعا بين أتباع مختلف الأديان فإنّ ذلك لم يكن بسبب التعاليم الدينية، بل بسبب تحريف التعاليم و الأديان و بالتعصّب المقيت و مزج الأديان السماوية بالخرافات.

ثانيا: إنّ الدين- أو تأثيره- قد انحسر اليوم عن قسم من المجتمعات البشرية، و مع ذلك نرى أنّ الحروب قد ازدادت قسوة و اتساعا و انتشرت فى مختلف أرجاء العالم. فهل أن الدين هو السبب، أم أنّ روح الطغيان فى مجموعة من البشر هى السبب الحقيقى لهذه الحروب، و لكنّها تظهر اليوم بلبوس الدين، و فى يوم آخر بلبوس المذاهب الاقتصادية و السياسية، و فى أيّام اخرى بقوالب و مسمّيات أخرى؟! و عليه فالدين لا ذنب له فى هذا، إنّما الطغاة هم الذين يشعلون نيران الحروب بحجج متنوّعة.

ثالثا: إنّ الأديان السماوية- و على الأخصّ الإسلام- التى تكافح العنصرية و القومية، كانت سببا فى إلغاء الحدود العنصرية و الجغرافية و القبلية، فقضت بذلك على الحروب التى كانت تثار باسم هذه العوامل. و عليه فإن الكثير من الحروب فى التاريخ قد خمدت نيرانها بفضل الدين. كما أنّ روح السلام و الصداقة و الأخلاق و العواطف الإنسانية التى ترفع لواءها جميع الأديان السماوية، كان لها أثر عميق فى تخفيض الخصومات و المشاكسات بين مختلف الأقوام.

رابعا: أنّ من رسالات الأديان السماوية تحرير الطبقات المحرومة المعذّبة، و كانت هذه الرسالة هى سبب الحروب التى شنّها الأنبياء و أتباعهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۸

الظالمين و المستغلّين، من أمثال فرعون و النمرود. إنّ هذه الحروب التى تعتبر جهادا فى سبيل تحرير الإنسان، ليست عيوبا تلصق

بالأديان، بل هى من مظاهر فخرها و اعتزازها و قوّتها. إنّ حروب رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع المشركين من العرب و المرابين فى مكّة من جهة، و مع قيصر و كسرى من جهة أخرى، كانت كلّها من هذا القبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۳۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۵۴)

التّفسير

الإنفاق من أهمّ أسباب النجاة يوم القيامة:

بعد أن تحدّثت الآيات السّابقة عن الأمم الماضية و جهاد حكوماتها الإلهيّة و الاختلافات الّتى حدثت بعد الأنبياء عليهم السّلام تخاطب هذه الآية المسلمين و تشير إلى أحد الواجبات المهمّة عليهم الّتى تسبّب فى تقوية بنيتهم الدّفاعيّة و توحّد كلمتهم فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ

جملة مِمَّا رَزَقْناكُمْ لها مفهوم واسع حيث يشمل الإنفاق الواجب و المستحب، و كذلك الإنفاق المعنوى كالتعليم و أمثال ذلك، و لكن مع الالتفات إلى التهديد الوارد فى ذيل الآية لا يبعد أن يكون المراد به الإنفاق الواجب يعنى الزكاة و أمثالها، مضافا إلى أنّ الإنفاق الواجب هو الّذى يعزّز بيت المال و يقوّم كيان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۰

الحكومة، و بهذه المناسبة يشير تعبير (ممّا) أنّ هذا الإنفاق يكون بجزء من المال الّذى يملكه الشخص لا كلّه.

و قد رجّح المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان شموليّة الآية للإنفاق الواجب و المستحب، و ذهب إلى أنّ ذيل الآية لا يعتبر تهديدا، بل هو إخبار عن الحوادث المخوفة يوم القيامة[۱۸۶].

و لكن مع ملاحظة آخر جملة فى هذه الآية الّتى تقول إنّ الكافرين هم الظالمون يتضح أنّ ترك الإنفاق نوع من الكفر و الظلم، و هذا لا يكون إلّا فى الإنفاق الواجب.

ثمّ تضيف الآية مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ[۱۸۷].

عليكم أن تنفقوا ما دمتم اليوم قادرين على ذلك، لأنّ العالم الآخر الذى هو محلّ حصاد ما زرعتموه فى الدنيا لن يتسنى لكم فيه أن تفعلوا شيئا، فلا معاملات و لا صفقات تجارية تستطيعون بها أن تشتروا السعادة و الخلاص من العقاب، و لا هذه الصداقات الماديّة التى تكسبونها فى الدنيا بأموالكم تنفعكم فى شىء هناك، لأنّ أصدقاءكم أنفسهم يعانون نتائج أعمالهم و لا يدفعون من أنفسهم للآخرين، و لا تنفعكم شفاعة، لأنكم بتخلّفكم حتّى عن الإنفاق الواجب لم تفعلوا ما هو جدير بأن يشفع لكم. و عليه فإنّ جميع أبواب النجاة مسدودة بوجوهكم.

وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ لأنهم بتركهم الإنفاق و الزكاة يظلمون أنفسهم و يظلمون الناس.

و يريد القرآن فى هذه الآية أن يوضّح ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۱

أولا: إنّ الكافرين يظلمون أنفسهم، فبتركهم الإنفاق الواجب و سائر التكاليف الدينية و الإنسانية حرموا أنفسهم من أعظم السعادات، و أنّ أعمالهم هذه هى التى تثقل كواهلهم فى العالم الآخر، لذلك فإنّ اللّه لم يظلمهم أبدا.

ثانيا: يظلم الكافرون أفراد مجتمعهم أيضا، لأنّ الكفر منبع القسوة و تحجّر القلب و التمسّك بالمادة و عبادة الدنيا، و هذه كلّها من مصادر الظلم، لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الكفر فى الآية يعنى التمرّد و العصيان و التخلّف عن إطاعة أمر اللّه لورود الكلمة بعد الأمر بالإنفاق. و استعمال الكفر بهذا المعنى شائع فى القرآن و غيره من النصوص الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۵]

اشارة

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۲۵۵)

آية الكرسى من أهم آيات القرآن:

يكفى لبيان أهميّة و فضيلة هذه الآية

قول الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما سأله (أبى بن كعب): أى آية من آيات كتاب اللّه أفضل؟ فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: اللّه لا إله إلّا هو الحىّ القيّوم.

قال: فضرب يده فى صدرى ثمّ قال: ليهنك العلم، و الذى نفس محمّد بيده إن لهذه الآية لسانا و شفتين يقدس الملك للّه عن ساق العرض.

و فى حديث آخر عن علىّ عليه السّلام عن رسول اللّه قال: سيّد القرآن البقرة و سيّد البقرة آية الكرسى، يا على إنّ فيها لخمسين كلمة فى كلّ كلمة خمسون بركة،

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: من قرأ آية الكرسى مرة صرف اللّه عنه ألف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۳

مكروه من مكاره الدنيا و ألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر و أيسر مكروه الآخرة عذاب القبر. و عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: إن لكلّ شىء ذروة و ذروة القرآن آية الكرسى ۱۸۸].

و الروايات الواردة فى كتب العلماء الشيعة و السنّة فى فضيلة هذه الآيات الشريفة كثيرة جدّا و نختتم كلامنا هذا

بروايتين عن رسول اللّه قال أعطيت آية الكرسى من كنز تحت العرض و لم يؤتها نبىّ كان قبلى

[۱۸۹].

و

فى حديث آخر أنّ أخوين جاء إلى رسول اللّه فقالا نريد الشام فى التّجارة فعلمنا ما نقول؟ فقال: نعم، إذا آويتما إلى منزل، فصليا العشاء الآخرة، فإذا وضع أحدكما جنبه على فراشه بعد الصلاة، فليسبّح تسبيح فاطمة، ثمّ ليقرأ آية الكرسى فإنه محفوظ من كلا شىء

حتّى يصبح. و جاء فى ذيل الحديث أن لصوصا تبعوهما و سعوا فى سرقة ما معهما إلّا أنهم لم يفلحوا فى ذلك ۱۹۰].
و من المعلوم أنّ كلّ هـذه الأهميّة و الفضـيلة لآية الكرسـى إنّما هى للمحتوى العميق و المغزى المهم لها و الّذى سوف نلحظه ضـمن تفسيرها.

التّفسير

مجموعة من صفات الجمال و الجلال:

تبدأ الآية بذكر الذّات المقدّسة و مسألة التوحيد فى الأسماء الحسنى و الصّفات العليا للّه عزّ و جلّ فتقول: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.
(اللّه) يعنى الذّات الواحدة الجامعة لصفات الكمال، إنّه خالق عالم الوجود،
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۴
لذا ليس فى عالم الوجود معبود جدير بالعبادة غيره.
و بعبـارة لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يبيّن القرآن وحدانيـة خالق الوجود التى هى أساس الإسـلام، و لكن هـذه الحقيقـة- كما قلنا- موجودة فى لفظة «اللّه».
لذلك فإنّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تأكيد لتلك الحقيقة نفسها.
«الحى» من كانت فيه حياة، و هـذه الصـفة المشبّهة، كمثيلاتها تـدلّ على الـدوام و الاسـتمرار. و حياة اللّه حياة حقيقية، لأنّ حياته عين ذاته، و ليس عارضة عليه مأخوذة من غيره. فى الآية ۵۸ من سورة الفرقان يقول: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ
هـذا من جهة، و من جهة أخرى تكون الحياة الكاملة حياة لا يعتريها الموت، و عليه فإنّ الحياة الحقيقية هى حياته الباقية من الأزل إلى الأبـد، أمّـا حيـاة الإنسـان التى يخالطهـا الموت فى هـذه الـدنيا فلا يمكن أن تكون حياة حقيقيـة، لـذلك نقرأ فى الآيـة ۶۴ من سـورة العنكبوت: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ و على ذلك فإنّ الحياة الحقيقية هى التى تختصّ باللّه.

و لكن ما مفهوم «اللّه حىّ»؟

فى التعبير السائـد نقول للكائن أنّه حىّ إذا كان يتّصف بالنموّ و التغذيـة و التكاثر و الجذب و الدفع، و قد يتّصف بالحسّ و الحركة. و لكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ بعضا من السذّج قد يحسـبون حياة اللّه شبيهة بهذه، مع علمنا بأنّه لا يتّصف بأيّة واحدة من هذه الصفات.
هذا هو القياس الذى يوقع الإنسان فى أخطاء فى حقل معرفة اللّه، حين يقيس صفات اللّه بصفاته.
«الحياة» بمعناها الواسع الحقيقى هى العلم و القدرة، و عليه فإنّ من يملك العلم و القدرة اللامتناهيتين يملك الحياة الكاملة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۵
حياة اللّه هى مجموعـة علمه و قـدرته، و فى الواقع بالعلم و القـدرة يمكن التمييز بين الحىّ و غير الحىّ. أمّا النموّ و الحركة و التغذية و التكاثر فهى صـفات كائنات ناقصـة و محـدودة، فهى تكمل نقصـها بالتغذيـة و التكاثر و الحركـة، أمّا الـذى لا نقص فيه فلا يمكن أن يتّصف بمثل هذه الصفات.
«القيوم» صـيغة مبالغـة من القيام. لـذلك فالكلمـة تـدلّ على الموجود الـذى قيامه بـذاته، و قيام كلّ الكائنات بوجوده، و بعبارة أخرى: جميع كائنات العالم تستند إليه.

بـديهىّ أنّ القيام كما هو الشائع فى الكلام اليومى هو الوقوف و بالهيئـة المعروفـة، و لكن بما أنّ هذا المعنى لا يتّفق مع اللّه المنزّه عن الصـفات الجسـمية، لـذلك فالمقصود به هو القيام بالخلق و التـدبير و التعهّـد، فإنّه هو الـذى خلق المخلوقات كلّها و تعهّـد بتدبيرها و تربيتها و إدامتها، و لن يغفل عنها لحظة واحدة، فهو قائم دائما و أبدا و باستمرار دون توقّف.

و يتّضـح من هـذا أنّ «قيّوم» هى فى الواقع أسـاس كـلّ صـفات الفعل- و هى الصـفات التى تبيّن علاقـة اللّه بالموجودات مثل الخالق، الرزاق، الهادى، المحيى، و أمثالها-.

فالقيام بالخلق و تـدبير أمور العالم يشـمل كلّ هذه الأمور، فهو الذى يرزق، و هو الذى يحيى، و هو الذى يميت، و هو الذى يهدى. و عليه فإنّ صفات الخالق و الرازق و الهادى و المحيى و أمثالها تتجمّع كلّها فى «القيّوم».

و من هنا يتّضـح أن تحديـد البعض لمفهوم هـذه الجملة بالقيام بأمر الخلقة أو القيام بأمر الرّزق و أمثال ذلك، هو فى الواقع إشارة إلى أحـد مصاديق القيام، فى حين أنّه مفهومه واسع و يشـمل كلّ ذلك، لأنّ مفهومه كما قلنا يعطى معنى القائم بالذّات و غيره متقوّم به و محتاج له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۶

و فى الحقيقـة أنّ (الحىّ) يشـمل جميع الصّـفات الإلهيّـة كـالعلم و القـدرة و السّـميع و البصـير و أمثال ذلك، و (القيّوم) تتحـدّث عن احتياج جميع المخلوقات إليه، و لذا قيل أنّ الاسم الأعظم الإلهى هو مجموع هاتين الصّفتين.

ثمّ تضيف الآية لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لا نَوْمٌ

(سـنة) من مادّة (و سن) و تعنى كما يقول كثير من المفسّـرين أنّها الإغفاءة و الاستخراء الّذى يكون فى بداية النوم، و بعبارة اخرى أنّه النّوم الخفيف، و (نوم) يعنى الحالة الّتى تركد فيها بعض حواس الإنسان المهمّة، و فى الواقع أنّ (سـنة) عبارة عن النوم العارض للعين، و لكن عند ما يتوغّل كثيرا فى الإنسان و يتعمّق و يعرض على العقل فيقال له (نوم) و جملة لا تَأْخُذُهُ سِـنَةٌ وَ لا نَوْمٌ هى فى الواقع تأكيد لصـفة القيّوم التى يوصف بها اللّه، لأنّ القيام الكامل و المطلق بتدبير عالم الوجود يتطلّب عدم إغفال ذلك حتّى للحظة واحدة. أى إنّ اللّه لا يغفل طرفة عين عن حكمه المطلق على عالم الوجود و إدارته.

لـذلك فكلّ صـفة لا تتفق مع قيّوميـة اللّه تنتفى من ساحة قدس اللّه تلقائيا، بل انّ ذاته منزّهة حتّى عن أتفه عامل يمكن أن يؤدّى إلى أىّ تهاون فى عمله، مثل «السنّة».

أمّـا سـبب تقـديم «السـنة» على «النوم» فى الآيـة مع أنّ القوىّ يـذكر عادة قبل الضـعيف، فيعود إلى التتالى الطبيعى فى عمليـة النوم، إذ تنتاب المرء «السنة» أوّلا ثمّ تزداد عمقا حتّى تورده فى النوم العميق.

و تشـير هذه الآية إلى حقيقة اسـتمرار فيض اللطف الإلهى و ديمومته و عدم انقطاعه عن وجوده لحظة واحدة، فهو ليس كعبادة الذين يغفلون عن الآخرين بسبب النوم أو أىّ عامل آخر.

يلاحظ أنّ تعبير لا تَأْخُذُهُ تعبير رائع يؤدّى الغرض بدقّة، و هو يصوّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۷

استيلاء النوم على الإنسان تصويرا مجسّـدا، و كأنّ النوم كائن قوىّ ذو مخالب تمسك بالإنسان بقوّة و تأسـره، إنّ ضـعف أقوى الناس أمام سلطان النوم أمر لا اختلاف فيه.

مالكية اللّه المطلقة

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

لا يكون هناك قيام بشؤون العالم بغير ملكية السماوات و الأرض و ما فيها، لذلك فهذه الآية- بعد ذكر قيّومية اللّه- تشير إلى حقيقة كون العالم كلّه ملك خاصّ للّه، و أنّ كلّ تصرّف يحدث فيه فبأمر منه.

و عليه، فإنّ الإنسان ليس المالك الحقيقى لما عنده و لما يقع تحت تصرّفه، بل أنّه يتصرّف فيه لمدّة محدودة و وفق شروط معيّنة قرّرها المالك الحقيقى، لذلك فعلى هؤلاء المالكين المؤقّتين أن يلتزموا تمام الالتزام بالشروط التى وصفها المالك الحقيقى، و إلّا فإنّ مالكيّتهم المؤقّتة هذه تصبح باطلة و تصرّفهم غير جائز.

الشروط المطلوبة للتصرّف بملك اللّه هى التى وردت فى الشرع و أبغت للناس.

من الواضح أنّ التقيّد بهذا يعتبر فى الواقع عاملا مهمّا من عوامل التربية، إذا اعتقد الإنسان أنّه ليس المالك الحقيقى لما يملك و إنما هو يتصرّف به لفترة قصيرة من الزمن، فسيمتنع- دون شكّ- عن الاعتداء على حقوق الآخرين و عن الحرص و الطمع و الاحتكار و البخل و أمثالها ممّا يتولّد فى الإنسان نتيجة التصاقه بالدنيا، فيكون ذلك مدعاة لتربيته تربية تجعله قانعا بحقوقه المشروعة[۱۹۱].

مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ و هذا فى الواقع ردّ على ادّعاء المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۸

الذين يقولون إننا نعبد الأوثان لتكون شفعاءنا عند اللّه كما ورد فى الآية ۳ من سورة الزمر ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى ۱۹۲].

و هذه الآية من نوع الاستفهام الاستنكارى، أى ما من أحد يتقدّم بشفاعة إليه بإذنه. هذه الآية تكمل فى الواقع معنى قيّومية اللّه و مالكيّته المطلقة لجميع ما فى عالم الوجود. أى أننا إذا رأينا أحدا يشفع عند اللّه، فليس معنى ذلك أنّه يملك شيئا و أنّ له تأثيرا مستقلّا، بل أنّ مقامه فى الشفاعة هبة من اللّه. و لمّا كانت شفاعته بإذن اللّه، فإنّ هذا بذاته دليل آخر على قيّومية اللّه و مالكيّته.

بحث

الشفاعة ليست محسوبية:

«الشفاعة»[۱۹۳] هى العون الذى يقدّمه قوىّ لضعيف لكى يساعده على اجتياز مراحل تكامله بسهولة و نجاح.

إلّا أنّ الكلمة تستعمل عادة فى التوسّط لغفران الذنوب. غير أنّ مفهوم الشفاعة أوسع من ذلك و تشمل جميع العوامل و الدوافع و الأسباب فى عالم الوجود، على سبيل المثال التربة و الماء و الهواء و أشعة الشمس هى العوامل الأربعة التى تشفع لبذرة النبات و تعينها على الوصول إلى مرحلة النضج لتصبح شجرة أو نبتة متكاملة. و لو نظرنا إلى الشفاعة فى الآية الكريمة بهذا المعنى الواسع أدركنا أنّ وجود العوامل و الأسباب المختلفة لا يحدّد مالكيّة اللّه المطلقة و لا يقلّل منها، لأنّ تأثير هذه العوامل كافّة لا يكون إلّا بإذن اللّه و أمره، و هذا أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۴۹

دليل على قيّوميته و مالكيّته.

بيد أنّ بعضهم يظنّ أنّ الشفاعة فى المفاهيم الدينية تشبه التوصيات و المحسوبيات و المنسوبيات، و أنّ مفهومها العام هو السماح للإنسان أن يرتكب ما يشاء من المعاصى، ثمّ يتوسّل بالشفاعة لغفران ذنوبه كلّها بيسر و سهولة!! و لكن الأمر ليس كذلك، فلا المعترضون أدركوا شيئا من منطق الدين فى موضوع الشفاعة، و لا العاصون المتجرّئون على حدود اللّه فهموا ذلك. فالشفاعة التى يقوم بها بعض عباد اللّه المقرّبين يمكن اعتبارها- كما قلنا- شفاعة تكوينية تتحقّق بوساطة عوامل طبيعية، كما تتحقّق فى بذرة النبات. و كما أنّ البذرة لا تنمو إن لم تكن فيها عوامل الحياة حتّى لو سطعت عليها الشمس و هبّت عليها الرياح و هطل عليها المطر الهتون

سنوات طويلة، كذلك شفاعة أولياء اللّه لغير المؤهّلين، لن يكون لها أىّ أثر، أو قل إنهم لا يمكن أن يشفعوا لأمثال هؤلاء.

الشفاعة تستلزم نوعا من العلاقة المعنوية بين الشفيع و المشفوع له. لذلك فإنّ على من يرجو الشفاعة أن يقيم فى هذه الدنيا علائق روحية مع من يتوقّع شفاعته.

و هذه العلائق ستكون- فى الواقع- وسيلة من وسائل تربية المشفوع له بحيث إنّها تقرّبه من مدرسة أفكار الشفيع و أعماله، و هذا ما سيوصله إلى أن يكون مؤهّلا لنيل تلك الشفاعة.

و بناء على ذلك، فالشفاعة عامل تربوى، و ليست نوعا من المحسوبية و المنسوبية، و لا ذريعة للتنصّل عن المسؤولية.

و من هذا يتّضح أنّ الشفاعة لا تغيّر إرادة اللّه بشأن العصاة المذنبين، بل أنّ العاصى و المذنب- بارتباطه الروحى بشفيعه- يحظى بتربية تؤهّله لنيل عفو اللّه تعالى ۱۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۰

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ

بعد الإشارة إلى الشفاعة فى الآية السابقة، و إلى أنّ هذه الشفاعة لا تكون إلّا بإذن اللّه، تأتى هذه الجملة لبيان سبب ذلك فتقول إنّ اللّه عالم بماضى الشفعاء و مستقبلهم، و بما خفى عليهم أيضا. لذلك فهم غير قادرين على أن يبيّنوا عن المشفوع لهم أمورا جديدة تحمل اللّه على إعادة النظر فى أمرهم بسببها و تغيير حكمه فيهم.

و ذلك لأنّ الشفيع- فى الشفاعات العادية- يؤثّر فى المتشفّع عنده بطريقين اثنين: فهو إمّا أن يعمد إلى ذكر صفات و مؤهّلات المشفوع له التى تدعو إلى إعادة النظر فى أمره. أو أن يبيّن للمتشفّع عنده العلاقة التى تربط المشفوع بالشفيع ممّا يستدعى تغيير الحكم إكراما للشفيع.

بديهىّ أنّ كلا هذين الاسلوبين يعتمدان على كون الشفيع يعلم أشياء عن المشفوع له لا يعلمها المتشفّع عنده. أمّا إذا كان المتشفّع عنده محيطا إحاطة كاملة بكلّ شىء ممّا يتعلّق بكلّ شخص، فلا يكون لأحد أن يشفع لأحد عنده، و ذلك لأنّ المتشفّع عنده أعلم بمن يستحقّ الشفاعة فيجيز للشفيع أن يشفع له.

كلّ ذلك فى صورة أن يكون ضمير ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ يعود على الشفعاء أو المشفوع لهم، و لكن يحتمل أيضا أن يعود الضمير لجميع الموجودات العاقلة فى السّموات و الأرض الواردة فى جملة لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و تعتبر تأكيدا لقدرة اللّه الكاملة على جميع المخلوقات و عجز الكائنات أيضا و حاجتها إليه، لأنّ من ليس له علم بماضيه و مستقبله و غير مطّلع على غيب السّموات و الأرض فإنّ قدرته محدوده جدّا، بخلاف من هو عالم و مطّلع على جميع الأشياء، و فى جميع الأزمنة و الأعصار، فى الماضى و الحاضر فإنّ قدرته غير محدودة، و لهذا السبب فكلّ عمل حتّى الشفاعة يحتاج إلى إذنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۱

و بهذا الترتيب يمكن الجمع بين كلا المعنيين.

أمّا المراد من جملة ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ فإنّ للمفسّرين احتمالات متعدّدة، فبعض ذهب إلى أنّ المراد من ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ امور الدّنيا التى تكون أمام الإنسان و بين يديه، و جملة وَ ما خَلْفَهُمْ يراد بها امور الآخرة التى تقع خلف الإنسان، و ذهب بعض آخر إلى عكس هذا التفسير.

و بعض ثالث ذهب إلى أنّها إشارة إلى أجر الإنسان أو أعماله الخيّرة أو الشّريرة أو الأمور التى يعلمها و الّتى لا يعلمها.

و لكن بمراجعة آيات القرآن الكريم يستفاد أنّ هذين التعبيرين استعملا فى بعض الموارد للمكان كالآية ۱۷ من سورة الأعراف حيث تحدّثت عن قول الشيطان لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ

و تارة تأتى بمعنى القبل و البعد الزمانى كالآية ۷۱ من سورة آل عمران حيث تقول وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ فمن

الواضح أنّ الآية هنا ناظرة إلى الزّمان.

أمّا فى الآية التى نحن بصددها فالتعبير قد يجمع بين المكان و الزمان، أى أنّ اللّه يعلم ما كان فى الماضى أو يكون فى المستقبل و ما هو أمام أنظارهم بحيث إنّهم يعلمونه، و ما هو خلفهم و محجوب عنهم و لا يعلمون عنه شيئا، و على هذا فأنّ اللّه محيط بكل أبعاد الزمان و المكان فكل عمل حتّى الشفاعة يجب أن تكون بإذنه.

و فى ثامن صفة مقدّسة تقول الآية وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ[۱۹۵].

هذه الفقرة أيضا توكيد لما سبق من سعة علمه اللامحدود و أنّ علم الكائنات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۲

إنّما هو قبس من علمه تعالى، فلذلك يكون علم الشفعاء محدودا بإزاء علمه تعالى، فلا حظّ لهم من العلم إلّا بمقدار ما يريد اللّه تعالى لهم.

و من هذه الفقرة من الآية يستفاد أمرين:

الأول: أنّه لا أحد يعلم شيئا بذاته، فجميع العلوم و المعارف البشريّة إنّما هى من اللّه تعالى، فهو الذى يزيح الستار عن حقائق الخلقة و اسرار الطبيعة و يضع معلومات جديدة فى متناول البشر فيوسّع من أفق معرفتهم.

و الآخر: هو أنّ اللّه تعالى قد يضع بعض العلوم الغيبيّة فى متناول من يشاء من عباده فيطلعهم على ما يشاء من أسرار الغيب، و هذا رد على من يعتقد أنّ علم الغيب غير متاح للبشر، و هو تفسير أيضا للآيات التى تنفى علم الغيب عن البشر (و سيأتى أن شاء اللّه مزيد من الشرح لهذا الموضوع فى مكانه عند تفسير الآيات الخاصّة بالغيب كالآية ۲۶ من سورة الجن).

و جملة لا يُحِيطُونَ إشارة لطيفة إلى حقيقة العلم و أنّه نوع من الإحاطة.

و فى تاسع و عاشر صفة إلهيّة تقول الآية: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما.

و فى الصفة الحادية عشر و الثانية عشر تقول الآية: وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

بحوث

الأوّل: المراد من العرش و الكرسىّ

(الكرسى) من «كرس» بوزن إرث، و معناه أصل الشىء و أساسه، كما يطلق على كلّ شىء متجمّع و مترابط، و لهذا يطلق على المقعد الواطئ المتعارف عليه للجلوس، و يقابله «العرش» الذى يعنى السقف، أو الشىء ذا السقف، أو الكرسى ذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۳

القوائم المرتفعة. و لمّا كان الأستاذ أو المعلّم يجلس أحيانا على كرسى أثناء التدريس، فقد انتقل اسم «الكرسى» ليدلّ على العلم، و قد يستعمل رمزا للسلطة و السيطرة أو يكون كناية عن الحكومة و الحكم.

فى هذه الآية نقرأ عن كرسىّ اللّه أنّه يسع السماوات و الأرض. و عليه فيمكن أن يكون للكرسىّ عدّة معان:

۱- منطقة نفوذ الحكم: أى أنّ حكم اللّه نافذ فى السماوات و الأرض و أنّ منطقه نفوذه تشمل كلّ مكان، أى أنّه يشمل عالم المادّة برمّته، بما فيه من أرض و نجوم و مجرّات و سدم.

و على هذا يكون «العرش» مرحلة أرفع و أعظم من عالمنا المادّى هذا، لأنّ العرش- كما قلنا- يعنى السقف أو المسقّف أو مقعدا أعلى من الكرسى. و بهذا يشمل العرش عالم الأرواح و الملائكة و ما وراء الطبيعة، و هذا يكون بالطبع إذا وضع الكرسى فى قبال

العرش بحيث يعنى الأوّل «عالم المادّة و الطبيعة» و يعنى الثانى «عالم ما وراء الطبيعة».

و للعرش معان أخرى كما سيأتى فى تفسير الآية ۵۳ من سورة الأعراف، خاصّة إذا لم يذكر فى قبال الكرسى، و عندئذ يمكن أن يكون بمعنى عالم الوجود كلّه.

۲- منطقة نفوذ العلم: أى أنّ علم اللّه يحيط جميع السماوات و الأرض و أنّ ما من شىء يخرج عن منطقة نفوذ علمه، لأنّ الكرسى- كما قلنا- قد يكون كناية عن العلم. و هناك أحاديث كثيرة تعتمد هذا المعنى، من ذلك ما رواه حفص بن غياث

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه سأله عن معنى وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قال:

هو العلم ۱۹۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۴

۳- شىء أوسع من السماوات و الأرض كلّها بحيث إنّه يحيط بها من كلّ جانب. و على هذا يكون معنى الآية: كرسىّ اللّه يضمّ جميع السماوات و الأرض و يحيط بها.

و قد نقل هذا التفسير عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «الكرسىّ محيط بالسماوات و الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى»

[۱۹۷].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّ الكرسى أوسع بكثير من السماوات و الأرض.

فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «ما السماوات و الأرض عند الكرسى إلّا كحلقة خاتم فى فلاة، و ما الكرسى عند العرش إلّا كحلقة فى فلاة»

[۱۹۸].

المعنيان الأول و الثانى مفهومان، أمّا المعنى الثالث فأمر لم يتوصّل العلم البشرى بعد لمعرفته و كشف الستار عنه، فالعالم الذى يضمّ فى زاوية منه السماوات و الأرض لم يثبت وجوده بالطرق العلمية حتّى الآن، كما أنّه ليس هناك أىّ دليل على عدم وجوده، فالعلماء يعترفون جميعا بأن اتّساع السماء و الأرض يزداد بمرور الأيّام و بتقدّم وسائل المعرفة العلمية، و ما من أحد يستطيع أن يزعم أنّ سعة عالم الوجود هو ما يعرفه العلم اليوم، و لا يستبعد أن تكون هناك عوالم أخرى لا تعدّ و لا تحصى خارجة عن نطاق وسائل الأبصار عندنا اليوم.

نضيف هنا أنّ التفاسير الثلاثة المذكورة لا يتعارض بعضها مع بعض، و أنّ عبارة وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ يمكن أن تشير إلى حكومة اللّه المطلقة و نفوذ قدرته فى السماوات و الأرض، كما تشير فى الوقت نفسه إلى علمه النافذ، و كذلك إلى عالم أوسع بكثير من عالمنا هذا. و هذه الآية تكمل الآيات السابقة من سعة علم اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۵

بعبارة موجزة أنّ عرش حكومة اللّه و قدرته يهيمن على السماوات و الأرض جميعا، و أنّ كرسىّ علمه يحيط بكلّ هذه العوالم، و ما من شىء يخرج عن نطاق حكمه و نفوذ علمه.

قوله: وَ لا يَؤُدُهُ حِفْظُهُما. «يؤوده» من «أود»- على وزن قول- بمعنى الثقل و المشقة، أى أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس فيه أىّ ثقل أو مشقّة على اللّه، فهو ليس مثل مخلوقاته التى يتعبها الحفاظ على الأشياء و يوهنها، ذلك لأنّ المخلوقات ضعيفة محدودة القدرة، و قدرته غير محدودة، و من لا حدود لقدرته لا يكون للثقل و الخفّة و الصعب و السهل مفهوم عنده. فهذه مفاهيم تصدق عند من تكون قدراتهم محدودة.

ممّا تقدّم يتّضح أنّ الضمير فى «يؤوده» يعود على اللّه، و يؤكّد هذا ما سبق من آيات و الآية التالية، فضمائرها كلّها تعود على اللّه، و عليه فإنّ احتمال عود هذا الضمير إلى «الكرسى»- باعتبار أنّ حفظ السماوات و الأرض ليس ثقيلا على الكرسى- ضعيف جدا.

قوله: وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ توكيد لما سبق. أى أنّ اللّه الذى هو أرفع و أعلى من كلّ شبيه و شريك، و منزّه عن كلّ نقص و عيب، و هو العظيم اللامحدود، لا يصعب عليه أى عمل و لا يتعبه حفظ عالم الوجود و تدبيره، و لا يغفل عنه أبدا، و علمه محيط بكلّ شىء.

الثّانى: هل أنّ آية الكرسىّ هى هذه الآية فحسب؟

و قد يرد سؤال و هو: هل أنّ آيه الكرسىّ هى التى تبدأ من قوله اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و تنتهى بقوله وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ أو أنّ الآيتين التاليتين لهذه الآية جزء من آية الكرسىّ، فعلى هذا لو ورد الأمر بقراءة آية الكرسىّ فى صلاة (ليلة الدفن) مثلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۶

فلا بدّ من قراءة الثلاث آيات هذه.

هناك قرائن تشير إلى أنّ آية الكرسىّ هى الآية المذكورة آنفا:

۱- إنّ جميع الروايات التى أوردت فضيلة هذه الآية و عبّرت عنها بآية الكرسى تدلّ على أنّها آية واحدة لا أكثر.

۲- أنّ كلمة (الكرسىّ) وردت فى الآية الاولى فقط، فلذلك فأنّ تسميتها بآية الكرسىّ متعلّق بهذه الآية.

۳- ورد فى بعض الأحاديث تصريح بهذا المعنى، فالحديث الذى ذكره الشيخ- فى أماليه-

عن أمير المؤمنين عليه السّلام حيث قال عليه السّلام ضمن بيان فضيلة آية الكرسىّ أنّه بدأها من اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إلى قوله وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

۴- ذكر صاحب مجمع البيان نقلا عن مستدرك سفينة البحار أنّ (و آية الكرسىّ معروفة و هى إلى قوله و هو العلىّ العظيم)[۱۹۹].

۵- و نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليهما السّلام عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ أربع آيات من أول البقرة و آية الكرسى و آيتين بعدها، و ثلاث آيات من آخرها لم ير فى نفسه و ماله شيئا يكرهه و لا يقربه شيطان، و لا ينسى القرآن»[۲۰۰].

و من هذا التعبير يستفاد أيضا أنّ آية الكرسىّ آية واحدة.

۶- ورد فى بعض الروايات أنّ آية الكرسىّ خمسون كلمة، و فى كلّ كلمة خمسون بركة[۲۰۱]، و عند ما يعدّ كلمات هذه الآية إلى قوله وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تكون خمسين كلمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۷

أجل يستفاد من بعض الروايات الأمر بقراءة هذه الثلاث آيات إلى قوله:

هُمْ فِيها خالِدُونَ دون أن تكون معنونة بعنوان آية الكرسىّ.

و على كلّ حال أنّ المستفاد من القرائن أعلاه هو أنّ آية الكرسىّ آية واحدة لا أكثر.

الثّالث: الدليل على أهميّة آية الكرسىّ.

إنّ اهميّة آية الكرسىّ الكبيرة تكمن فى تضمّنها لمجموعة من المعارف الإسلامية و الصفات الإلهيّة أعم من صفات الذات و الفعل خاصّة مسألة التوحيد فى أبعادها المختلفة، و هذه الصفات البالغة إثنا عشر صفة و كلّ واحدة منها يمكن أن تكون ناظرة إلى أحد المسائل التربويّة للإنسان تستحق التأمّل و التدبّر، و كما يقول أبو الفتوح الرازى أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات تنفى أحد المذاهب الباطلة (و على هذا يمكن إصلاح و تقويم اثنا عشر فكرة باطلة و خاطئة بواسطة هذه الآية)[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۶]

اشارة

لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لا انْفِصامَ لَها وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۵۶)

سبب النّزول

يقول الطبرسى فى مجمع البيان فى سبب نزول هذه الآية: كان لرجل من المدينة اسمه «ابو الحصين» ولدان دعاهما إلى اعتناق المسيحية بعض التجّار الذين كانوا يفدون على المدينة، فتأثّر هذان بما سمعا و اعتنقا المسيحية، و رحلا مع أولئك التجّار إلى الشام عند عودتهم. فأزعج ذلك أبو الحصين، و أقبل يخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بما حدث، و طلب منه أن يعمل على الاعادة ولديه إلى الإسلام، و سأله إن كان يجوز إجبارهما على الرجوع إلى الإسلام، فنزلت الآية المذكورة و بيّنت أن لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ

و جاء فى تفسير المنار أنّ أبو الحصين كان يريد إكراه ولديه على الرجوع إلى أحضان الإسلام، فجاءا مع أبيهما لعرض الأمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۵۹

أبو الحصين: كيف أجيز لنفسى أن أنظر إلى ولدىّ يدخلان النار دون أن أفعل شيئا؟

فنزلت الآية.

التّفسير

الدين ليس إجباريّا:

إنّ آية الكرسىّ فى الواقع هى مجموعة من توحيد اللّه تعالى و صفاته الجمالية و الجلالية التى تشكّل أساس الدين، و بما أنّها قابلة للاستدلال العقلى فى جميع المراحل و ليست هناك حاجة للإجبار و الإكراه تقول هذه الآية: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ

(الرشد) لغويا تعنى الهداية للوصول إلى الحقيقة، بعكس (الغىّ) التى تعنى الانحراف عن الحقيقة و الابتعاد عن الواقع.

و لمّا كان الدين يهتّم بروح الإنسان و فكره و مبنىّ على أساس من الإيمان و اليقين، فليس له إلّا طريق المنطق و الاستدلال و جملة: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ فى الواقع إشارة إلى هذا المعنى، مضافا إلى أنّ المستفاد من شأن نزول هذه الآية و أنّ بعض الجهلاء طلبوا من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقوم بتغيير عقائد الناس بالإكراه و الجبر فجاءت الآية جوابا لهؤلاء و أنّ الدين ليس من الأمور التى تفرض بالإكراه و الإجبار و خاصّة مع كلّ تلك الدلائل الواضحة و المعجزات البيّنة التى أوضحت طريق الحقّ من طريق الباطل، فلا حاجة لأمثال هذه الأمور.

و هذه الآية ردّ حاسم على الذين يتهمّون الإسلام بأنّه توسّل إحيانا بالقوّة و بحدّ السيف و القدرة العسكرية فى تقدّمه و انتشاره، و عند ما نرى أنّ الإسلام لم يسوّغ التوسل بالقوّة و الإكراه فى حمل الوالد لولده على تغيير عقيدته الدينيّة فإنّ واجب الآخرين بهذا الشأن يكون واضحا، إذ لو كان حمل الناس على تغيير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۰

أديانهم بالقوّة و الإكراه جائزا فى الإسلام، لكان الأولى أن يجيز للأب ذلك لحمل ابنه على تغيير دينه، فى حين أنّه لم يعطه مثل هذا الحقّ.

و من هنا يتّضح أنّ هذه الآية لا تنحصر بأهل الكتاب فقط كما ظنّ ذلك بعض المفسّرين، و كذلك لم يمسخ حكم هذه الآية كما ذهب إلى ذلك آخرون، بل أنّه حكم سار و عام و مطابق للمنطق و العقل.

ثمّ أنّ الآية الشريفة تقول كنتيجة لما تقدّم فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَا انْفِصامَ لَها.

(الطاغوت) صيغة مبالغة من طغيان، بمعنى الاعتداء و تجاوز الحدود، و يطلق على كلّ ما يتجاوز الحدّ. لذلك فالطاغوت هو الشيطان و الصنم و المعتدى و الحاكم الجبّار و المتكبّر، و كلّ معبود غير اللّه، و كلّ طريق لا ينتهى إلى اللّه. و هذه الكلمة تعنى المفرد و تعنى الجمع.

أمّا المقصود بالطاغوت، فالكلام كثير بين المفسّرين. قال بعض إنّه الصنم، و قال بعض إنّه الشيطان، أو الكهنة، أو السحرة، و لكن الظاهر أنّ المقصود هو كلّ أولئك، بل قد تكون أشمل من كلّ ذلك، و تعنى كلّ متعدّ للحدود، و كلّ مذهب منحرف ضال.

إنّ الآية فى الحقيقة تأييد للآيات السابقة التى قالت أن لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ و ذلك لأنّ الدين يدعو إلى اللّه منبع الخير و البركة و كلّ سعادة، بينما يدعو الآخرون إلى الخراب و الانحراف و الفساد. على كلّ حال، إنّ التمسّك بالإيمان باللّه هو التمسّك بعروة النجاة الوثقى التى لا تنفصم.

وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

الإشارة فى نهاية الآية إلى الحقيقة القائلة إنّ الكفر و الإيمان ليسا من الأمور الظاهرية، لأنّ اللّه عالم بما يقوله الناس علانية- و فى الخفاء- و كذلك هو عالم بما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۱

يكنّه الناس فى ضمائرهم و قلوبهم.

و فى هذه الجملة ترغيب للمؤمنين الصادقين، و ترهيب للمنافقين.

بحث

الدين لا يفرض:

لا يمكن للإسلام و لا للأديان الحقّة الاخرى أن تفرض فرضا على الناس لسببين:

۱- بعد كلّ تلك الأدلّة و البراهين الواضحة و الاستدلالات المنطقية و المعجزات الجلية لم تكن ثمة حاجة لذلك. إنّما يستخدم القوّة من أعوزه المنطق و الحجّة. و الدين الإلهى ذو منطق متين و حجّة قويّة.

۲- أنّ الدين القائم على أساس مجموعة من العقائد القلبية لا يمكن أن يفرض بالإكراه. إن عوامل القوّة و السيف و القدرة العسكرية يمكنها أن تؤثّر فى الأجسام، لا فى الأفكار و المعتقدات.

يتّضح ممّا تقدّم الردّ على الإعلام الصليبى- المسموم ضدّ الإسلام- القائل «إنّ الإسلام انتشر بالسيف»، إذ لا قول أبلغ و لا أفصح من لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ الذى أعلنه القرآن.

هؤلاء الحاقدون يتناسون هذا الإعلان القرآنى الصريح، و يحاولون من خلال تحريف مفهوم الجهاد و أحداث الحروب الإسلامية أن يثبتوا مقولتهم، بينما يتّضح بجلاء لكلّ منصف أنّ الحروب التى خاضها الإسلام كانت إمّا دفاعية، و إمّا تحريرية، و لم يكن هدف هذه الحروب السيطرة و التوسّع، بل الدفاع عن النفس، أو إنقاذ الفئة المستضعفة الرازحة تحت سيطرة طواغيت الأرض و تحريرها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۲

ربقة العبودية لتستنشق عبير الحرية و تختار بنفسها الطريق الذى ترتئيه.

و الشاهد الحىّ على هذا هو ما تكرّر حدوثه فى التاريخ الإسلامى، فقد كان المسلمون إذا افتتحوا بلدا تركوا أتباع الأديان الأخرى أحرارا كالمسلمين.

أمّا الضريبة الصغيرة التى كانوا يتقاضونها منهم باسم الجزية، فقد كانت ثمنا للحفاظ على أمنهم، و لتغطية ما تتطلّبه هذه المحافظة من نفقات، و بذلك كانت أرواحهم و أموالهم و أعراضهم مصونة فى حمى الإسلام. كما أنّه كانوا أحرارا فى أداء طقوسهم الدينية الخاصّة بهم.

جميع الذين يطالعون التاريخ الإسلامى يعرفون هذه الحقيقة، بل إن المسيحيين الذين كتبوا فى الإسلام يعترفون بهذا أيضا. يقول مؤلّف «حضارة الإسلام او العرب»: «كان تعامل المسلمين مع الجماعات الأخرى من التساهل بحيث إنّ رؤساء تلك الجماعات كان مسموحا لهم بإنشاء مجالسهم الدينية الخاصّة».

و قد جاء فى بعض كتب التاريخ أنّ جمعا من المسيحيين الذين كانوا قد زاروا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم للتحقيق و الاستفسار أقاموا قدّاسا فى مسجد النبى فى المدينة بكلّ حرّية.

إنّ الإسلام- من حيث المبدأ- توسّل بالقوّة العسكرية لثلاثة امور:

۱- لمحو آثار الشرك و عبادة الأصنام، لأنّ الإسلام لا يعتبر عبادة الأصنام دينا من الأديان، بل يراها انحرافا و مرضا و خرافة، و يعتقد أنّه لا يجوز مطلقا أنّ يسمح لجمع من الناس أن يسيروا فى طريق الضلال و الخرافة، بل يجب إيقافهم عند حدّهم. لذلك دعا الإسلام عبدة الأصنام إلى التوحيد، و إذا قاوموه توسّل بالقوّة و حطّم الأصنام و هدّم معابدها، و حال دون بروز أى مظهر من مظاهر عبادة الأصنام، لكى يقضى تماما على منشأ هذا المرض الروحى و الفكرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۳

و هذا يتبيّن من آيات القتال مع المشركين، مثل الآية ۱۹۳ من سورة البقرة:

وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ. و ليس هناك أىّ تعارض بين الآية التى نحن بصددها و هذه الآية، و لا نسخ فى هذا المجال.

۲- لمقابلة المتآمرين للقضاء على الإسلام، عندئذ كانت الأوامر تصدر بالجهاد الدفاعى و بالتوسّل بالقوّة العسكرية. و لعلّ معظم الحروب الإسلامية على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانت من هذا القبيل، مثل حرب أحد و الأحزاب و حنين و مؤتة و تبوك.

۳- للحصول على حريّة الدعوة و التبليغ. حيث إنّ لكل دين الحقّ فى أن يكون حرّا فى الإعلان عن نفسه بصورة منطقية، فإذا منعه أحد من ذلك فله أن ينتزع حقّه هذا بقوّة السلاح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۴

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۷]

اشارة

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۵۷)

التّفسير

نور الإيمان و ظلمات الكفر:

بعد أن أشير فى الآيات السابقة إلى مسألة الإيمان و الكفر و اتضاح الحقّ من الباطل و الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف توضّح هذه الآية الكريمة استكمالا للموضوع أنّ لكل من المؤمن و الكافر قائدا و هاديا فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا فهم يسيرون فى ظلّ هذه الولاية من الظلمات إلى النور يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

كلمة (ولىّ) فى الأصل بمعنى القرب و عدم الانفصال و لهذا يقال للقائد و المربّى (ولى)- و سيأتى شرحها فى تفسير آية إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ ...[۲۰۳]-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۵

تطلق أيضا على الصديق و الرفيق الحميم، إلّا أنّه من الواضح أنّ الآية مورد البحث تعنى فى هذه الكلمة المعنى الأوّل، و لذلك تقول اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ....

و يمكن أن يقال أنّ هداية المؤمنين من الظلمات إلى النور هو تحصيل للحاصل، و لكن مع الالتفات إلى مراتب الهداية و الإيمان يتّضح أنّ المؤمنين فى مسيرهم نحو الكمال المطلق بحاجة شديدة إلى الهداية الإلهيّة فى كلّ مرحلة و فى كلّ قدم و كلّ عمل، و ذلك مثل قولنا فى الصلاة كلّ يوم: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

ثمّ تضيف الآية إنّ أولياء الكفّار هم الطاغوت (الأوثان و الشيطان و الحاكم الجائر و أمثال ذلك) فهؤلاء يسوقونهم من النور إلى الظلمات وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ و لهذا السبب أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

ملاحظات

۱- إنّ تشبيه الإيمان و الكفر بالنور و الظلمة تشبيه بليغ رائع، فالنور هو منبع الحياة و مصدر البركات و الرشد و النمّو التكامل و التحرّك و منطلق الاطمئنان و العرفة و الهداية، بينما الظلام رمز السكون و الموت و النوم و الجهل و الضلال و الخوف، و هكذا الإيمان و الكفر.

۲- النقطة الثانية هى أنّ «الظلام» فى هذه الآية و فى آيات اخرى جاء بصيغة الجمع (ظلمات)، و النور جاء بصيغة المفرد، و هذا يشير إلى أنّ مسيرة الحقّ ليس فيها تفرّق و تشتّت، بل هى مسيرة واحدة فهى كالخط المستقيم بين نقطتين حيث إنّه واحد دائما غير متعدّد، أمّا الباطل و الكفر فهما مصدر جميع أنواع الاختلاف و التشتّت، حتّى أنّ أهل الباطل غير منسجمين فى باطلهم، و ليس لهم هدف واحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۶

كما هو الحال فى الخطوط المائلة و المنحرفة بين نقطتين حيث يكون عددها على طرفى الخط المستقيم غير محدود و لا معدود.

و أحتمل البعض أنّ المراد من ذلك أن صفوف الباطل بالنسبة لأهل الحقّ كثيرة.

۳- يمكن أن يقال أنّ الكفّار ليس لهم نور فيخرجوا منه، و لكن مع الالتفات إلى أنّ نور الإيمان موجود فى فطرتهم دائما فينطبق عليه هذا التعبير انطباقا كاملا.

۴- من الواضح أنّ اللّه تعالى لا يجبر المؤمنين للخروج من الظلمات إلى النور (ظلمات المعصية و الجهل و الصفات الذميمة و البعد عن الحقّ) و لا يكره الكفّار على خروجهم من نور التوحيد الفطرى، بل أنّ أعمال هؤلاء هى التى توجب هذا المصير و تثمر هذه العاقبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۷

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ قالَ أَنَا أُحْيِى وَ أُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۲۵۸)

التّفسير

محاجة إبراهيم مع طاغوت زمانه:

تعقيبا على الآية السابقة التى تناولت هداية المؤمنين بواسطة نور الولاية و الهداية الإلهيّة، و ضلال الكافرين لاتّباعهم الطاغوت، يذكر اللّه تعالى فى هذه الآية: عدّة شواهد لذلك، و أحدها ما ورد فى الآية أعلاه و هى تتحدّث عن الحوار الذى دار بين إبراهيم عليه السّلام و أحد الجبّارين فى زمانه و يدعى (نمرود) فتقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِى رَبِّهِ

و تعقّب الآية بجملة أخرى تشير فيها إلى الدافع الأساس لها و تقول: إنّ ذلك الجبّار تملّكه الغرور و الكبر و أسكره الملك أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۸

و ما أكثر الأشخاص الذين نجدهم فى الحالات الطبيعيّة أفراد معتدلين و مؤمنين، و لكن عند ما يصلون إلى مقام أو ينالون ثروة فأنّهم ينسون كلّ شىء و يسحقون كلّ المقدّسات.

و تضيف الآية أنّ ذلك الجبّار سأل إبراهيم عن ربّه: من هو الإله الذى تدعونى إليه؟ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ

الواقع أنّ أعظم قضيّة فى العالم هى قضيّة الخلقة، يعنى قانون الحياة و الموت الذى هو أوضح آية على علم اللّه و قدرته.

و لكن نمرود الجبّار اتّخذ طريق المجادلة و السفسطة و تزييف الحقائق لإغفال الناس و الملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة و الموت بيدى قالَ أَنَا أُحْيِى وَ أُمِيتُ

و من أجل إثبات هذه الدعوى الكاذبة استخدم حيلة كما ورد فى الرواية المعروفة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما و أمر بقتل الآخر، ثمّ قال لإبراهيم و الحضّار: أرأيتم كيف أحيى و أميت.

و لكنّ إبراهيم قدّم دليلا آخر لإحباط هذه الحيلة و كشف زيف المدّعى بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال النّاس فقال: قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ و هنا ألقم هذا المعاند حجرا فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ

و بهذا أسقط فى يدى العدوّ المغرور، و عجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم الحىّ، و هذا أفضل طريق لاسكات كلّ عدوّ عنيد. بالرغم من أنّ مسألة الحياة و الموت أهم من قضيّة حركة الشمس و شروقها و غروبها من حيث كونها برهانا على علم اللّه و قدرته، و لهذا السبب أورده إبراهيم دليلا أوّل، و لو كان فى ذلك المجلس عقلاء و متفكّرون لاكتفوا بهذا الدليل و اقتنعوا به، إذ أنّ كلّ شخص يعرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۶۹

أنّ مسألة اطلاق سراح سجين و قتل آخر لا علاقة له بقضيّة الإحياء و الإماتة الطبيعيتين أبدا، و لكن قد يكون هذا الدليل غير كاف لأمثال هؤلاء السذّج، و يحتمل وقوعهم تحت تأثير سفسطة ذلك الجبّار المكّار، فلهذا قدّم إبراهيم عليه السّلام دليله الآخر و هو مسألة طلوع و غروب الشمس لكى يتضح الحق للجميع ۲۰۴].

و ما أحسن ما صنع إبراهيم عليه السّلام من تقديمه مسألة الحياة و الموت كدليل على المطلوب حتّى يدّعى ذلك الجبّار مشاركة اللّه تعالى فى تدبير العالم، ثمّ طرح مسألة طلوع و غروب الشمس بعد ذلك ليتّضح زيف دعواه و يحجم عن دعوى المشاركة.

و يتّضح ضمنا من جملة وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أنّ الهداية و الضلالة بالرغم من أنّهما من أفعال اللّه تعالى، إلّا أنّ مقدّماتهما بيد العباد، فارتكاب الآثام من قبيل الظلم و الجور و المعاصى المختلفة تشكّل على القلب و البصيرة حجب مظلمة تمنع من أدراك الحقائق على حقيقتها.

ملاحظات

۱- القرآن لا يذكر اسم هذا الشخص الذى حاجّ إبراهيم، و يشير إليه بقوله:

أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ أى أنّه لغروره بحكمه قام بمحاجة إبراهيم.

صاحب تفسير الدرّ المنثور نقل عن أمير المؤمنين على عليه السّلام رواية تذكر أنّه «النمرود بن كنعان» و كتب التاريخ تذكر هذا الاسم أيضا.

۲- على الرغم من عدم تعرّض القرآن لذكر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۰

على أنّه وقع بعد قيام إبراهيم بتحطيم الأصنام و نجاته من النار، إذ من الواضح أنّه قبل إلقائه فى النار لم تكن لتجرى أمثال هذه المجادلات، لأنّ عبدة الأصنام ما كانوا يسمحون له بالكلام و هم يعتبرونه مجرما ينبغى أن ينال بأسرع وقت جزاءه على فعلته الشنيعة بتحطيم آلهتهم المقدّسة! إنّهم سألوه عن سبب فعلته ثمّ أصدروا أمرهم بإحراقه و هم غاضبون، و لكن عند ما خرج من النار سليما على تلك الصورة العجيبة استطاع أن يصل إلى نمرود و أن يحاوره.

۳- يتبيّن جليّا من الآية أنّ نمرود لم يكن فى الواقع يبحث عن الحقيقة، بل كان يريد أن يظهر باطله بمظهر الحق. و لعلّ استعمال الفعل «حاجّ» قصد به هذا المعنى، لأنّه يستعمل عادة فى مثل هذه الحالات.

۴- يستدلّ من الآية بصورة واضحة أنّ جبّار ذلك الزمان كان يدعى الألوهيّة، لا ليعبدوه فحسب، بل ليؤمنوا به خالقا لهذا العالم أيضا، أى أنّه كان يرى نفسه معبودا و خالقا.

و ليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، ففى الوقت الذى يسجد فيه الناس لأصنام من الحجر و الخشب، و فضلا عن عبادتها يعتبرونها مؤثرة فى إدارة العالم و تساهم فيها، فإنّ الفرصة مناسبة لجبّار مخادع أن يستغفل الناس و يستغلّ سذاجتهم و يدعوهم إليه و يظهر

نفسه بمظهر صنم يعبدونه و يعتبرونه خالقا.

۵- تاريخ عبادة الأصنام يصعب لنا بيان تاريخ لعبادة الأصنام و تعيين مبدأ له، فمنذ أقدم الأزمنة التى كانت عبادة الأصنام سائدة بين البشر الذين كانت أفكارهم منحطّة و على مستوى واطئ.

الواقع أنّ عبادة الأصنام نوع من التحريف فى العقيدة الفطرية الطبيعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۱

المودعة فى الإنسان المتمثّلة فى عبادة اللّه. و لمّا كانت هذه الفطرة موجودة فى الإنسان دائما، فإنّ تحريفها كان أيضا موجودا بين المجموعات البشرية المنحطّة دائما. لذلك يمكن القول أنّ تاريخ عبادة الأصنام يكاد يوازى تاريخ ظهور الإنسان على الأرض، و ذلك لأن الإنسان بمقتضى فطرته و خلقه يتوجّه إلى قوّة فوق الطبيعة. إنّ طبيعته هذه كانت تؤيّدها أدلّة واضحة من نظام الوجود تقضى بوجود مبدأ عالم قادر، و كان الإنسان يدرك هذا بقدر ما عن طريقين- فطرته و عقله- و الإحساس بالجوع فى الأطفال مثلا إذا لم يوجّه فى الوقت المناسب إلى الغذاء السليم فإنّ الطفل قد يمدّ يده إلى أشياء كالطين و التراب، و يتعود على ذلك بالتدريج فيفقد صحّته من جراء ذلك. كذلك الإنسان الذى يبحث عن اللّه بفطرته و عقله إذا لم يوجّه الوجهة الصحيحة يمدّ نظره إلى مختلف الآلهة و الأصنام المصطنعة، فينحنى و يسجد لها و يسبغ عليها كلّ صفات الألوهيّة.

و لا حاجة إلى القول بأنّ قصيرى النظر و السفهاء يسعون إلى أن يجسّموا كلّ شىء فى قالب حسّى، لأنّ فكرهم لا يفارق منطقة المحسوسات أبدا، لذلك كان يصعب عليهم عبادة إله غير منظور و مرئى، و رغبوا فى صبّ آلهتهم فى قالب حسّى. إنّ هذا الجهل إذا امتزج بفطرة عبادة اللّه يظهر فى صورة عباده الأصنام و الآلهة المجسّدة.

و قيل من جهة اخرى: إنّ الأقوام السالفة كانت تقدّس أنبياءها و شخصيّاتها الدينية، فإذا توفى هؤلاء أقامت لهم التماثيل لإحياء ذكراهم مدفوعين بروح تقديس الأبطال، و الغلوّ التى نجدها فى ضعفاء العقول، و من ثمّ تقديس تماثيلهم إلى حدّ التأليه، و كان هذا سببا آخر من أسباب عبادة الأصنام.

و من الأسباب الأخرى لعبادة الأصنام هو أنّ عددا من الموجودات الطبيعية التى هى مصدر خير و بركة للإنسان كالقمر و الشمس و النار و الماء و غيرها قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۲

أثارت اهتمام الإنسان بها، فراح يحنى رأسه أمامها تعظيما لها و اعترافا منه بجميلها دون أن يوسع أفق تفكيره ليرى المبدأ الأوّل فى خلق العالم وراء تلك الموجودات، فاتّخذ هذا التقدير و الاحترام بمرور الزمان صورة عبادة لهذه الموجودات.

إنّ منشأ كلّ أنواع عبادة الأصنام شىء واحد، و هو الانحطاط الفكرى و الجهل و عدم وجود الهادى المخلّص إلى طريق اللّه، الأمر الذى يمكن الوقاية منه باتّباع تعاليم الأنبياء و تربيتهم و إرشاداتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۵۹]

اشارة

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِىَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِى هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۵۹)

التّفسير

قصة «عزير» العجيبة:

جاءت هـذه الآيـة معطوفـة على الآيـة السابقـة و تقصّ حكايـة أحـد الأنبياء القـدامى، و هى من الشواهد الحيّة على مسألة البعث. و قد دارت الآيات السابقـة- التى استعرضت الحوار بين إبراهيم عليه السّلام و النمرود- حول التوحيـد و معرفة اللّه. أمّا هذه الآية و الآيات التالية فتدور حول المعاد و الحياة بعد الموت. نبدأ بشرح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۴

الحكاية بصورة مجملة ثمّ نباشر بالتفسير.

الآيـة تشير إلى حكايـة رجل سافر على حماره و معه طعام و شـراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت و تحوّلت إلى انقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة. و إذ رأى هذا المشهد المروع قال: كيف يقدر اللّه على إحياء هؤلاء الأموات؟

لم يكن تسـاؤله بـالطبع من بـاب الشـكّ و الإنكار، بل كان من باب التعجّب، إذ أنّ القرائن الأخرى فى الآيـة تـدلّ على أنّه كان أحد الأنبياء، و قد تحدّث إليه اللّه، كما أنّ الأحاديث تؤيّد هذا كما سيأتى.

عنـد ذلـك أماته اللّه مـدة مائـة سـنة، ثمّ أحياه مرّة اخرى و سأله: كم تظنّ أنّك بقيت فى هـذه الصـحراء؟ فقال و هو يحسب أنّه بقى سويعات: يوما أو أقل، فخاطبه اللّه بقوله: بل بقيت هنا مائة سـنة، انظر كيف أنّ طعامك و شـرابك طوال هذه المدّة لم يصـبه أى تغيّر بإذن اللّه. و لكن لكى تؤمن بأنك قد أمضـيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذى تلاشى و لم يبق منه شىء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك و شـرابك، ثمّ انظر كيف إنّنا نجمع أعضاءه و نحييه مرّة اخرى. فعند ما رأى كلّ هذه الأمور أمامه قال: أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، أى: إننى الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسّمة أمامى.

و من هـذا النبىّ الـذى تحـدّثت عنه هـذه الآيـة؟ ثمّـة أقوال عديـدة، قـال بعض: إنّه «ارميا». و قال آخرون: إنّه «الخضـر». إلّا أنّ أشـهر الأقوال: إنّه «العزير» و يؤيّده حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام ۲۰۵].

و اختلفت الأقوال أيضا بشأن القرية المذكورة، قال بعض: إنّها «بيت المقدس» التى دمّرها نبوخذ نصّر، و هو احتمال بعيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۵

نعود إلى تفسير الآية: أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها.

هذه الآية- كما قلنا- تكملة للآية السابقة التى دارت حول التوحيد. هذه الآية و الآيات التالية تجسّد مسألة المعاد.

«عروش» جمع عرش، و هنا تعنى السـقف. و «خاويـة» فى الأصل بمعنى خالية، و لكنّها هنا كناية عن الخراب و الدمار، فالبيوت العامرة تكون عادة مسكونة، أمّا الدور الخالية فإمّا أن تكون قد تهدّمت من قبل، أو أنّها تهدّمت بسبب خلوّها من الساكنين، و عليه فإنّ قوله وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها تعنى أنّ دور تلك القرية كانت كلّها خربة، فقد هوت سـقوفها ثمّ انهارت الجدران عليها، و هذا هو الخراب التام إذ أنّ الانهدام يكون عادة بسقوط السقف أوّلا، و تبقى الجدران قائمة بعض الوقت، ثمّ تنهار فوق السقف.

قالَ أَنَّى يُحْيِي هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها.

الظاهر أنّ أحدا لم يكن مع النبىّ فى هذه الواقعة، فهو بهذا يخاطب نفسه.

و بديهىّ أنّ القرية هنا تعنى أهل القرية، و هذا يعنى أنّه كان يرى عظام أهل القرية بعينيه، فأشار إليها و هو ينطق بتساؤله.

فَأَماتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ

يرى أكثر المفسّـرين أنّ هـذه الآيـة تعنى أنّ اللّه قد أمات النبىّ المذكور مدّة مائة سـنة ثمّ أحياه بعد ذلك، و هذا ما يسـتفاد من كلمة

«أماته». إلّا أنّ صاحب تفسير المنار يحتمل أن يكون ذلك إشارة إلى نوع من النوم الطويل المعروف عند بعض الحيوانات المسمّى بالسبات. حيث يغطّ الكائن الحى فى نوم عميق و طويل دون أن تتوقف فيه الحياة، كالذى حدث مثلا عند أصحاب الكهف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۶

و إذا كان النوم لبضع سنوات ممكنا، فهو على رأى صاحب المنار ممكن أيضا لمائة عام و إن لم يكن اعتياديا. و يلزم فى قبول الخوارق أن تكون ممكنة لا محاله عقلا[۲۰۶].

و لكن ليس فى هذه الآية ما يدلّ على صحّة هذا القول، بل إن ظاهر الآية يدلّ على أنّ النبىّ قد فارق الحياة، و بعد مائة سنة استأنف الحياة مرّة أخرى. و لا ـ شكّ أنّ موتا و حياة كهذين هما من خوارق العادات، و إن لم يكن مستحيلا. و على كلّ حال فإنّ الحوادث الخارقة للعادة فى القرآن ليست منحصرة بهذه الحادثة بحيث نعمد إلى تأويلها.

نعم نستطيع فى هذا المجال ذكر مسألة النوم الطويل الطبيعى أو السبات الشتوى لبعض الحيوانات التى تنام خلال أشهر الشتاء و تستيقظ عند انخفاض حدّة البرد، أو مسألة انجماد بعض الحيوانات انجمادا طبيعيا، أو تجميد بعض الأحياء على يد البشر لمدة طويلة دون أن تموت، كلّ ذلك لتقريب فكرة الإماتة و الإحياء مدّة عام إلى الأذهان، و يكون ذكر هذه المسائل بهدف الخروج بالنتيجة التالية:

إنّ اللّه القادر على الإبقاء الأحياء مئات السنين فى نوم طويل أو حالة انجماد، ثمّ إيقاظها و إعادتها إلى حالتها الأولى لهو قادر على إحياء الموتى.

إننا بقبولنا أصل المعاد و إحياء الموتى فى البعث و كذلك بقبول خوارق العادات و المعجزات على أيدى الأنبياء ليس ثمّة ما يدعونا إلى محاولة تفسير جميع آيات القرآن بسلسلة من المسائل العادية و الطبيعية مخالفين بذلك ظاهر الآيات، فهذا ليس صحيحا و لا لزوم له.

و كما قال بعض المفسّرين: كأننا نسينا أننا هنا أموات فى البداية و قد أحيانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۷

اللّه تعالى، فما المانع أن تتكرر ظاهرة الموت و الحياة هذه.

قالَ كَمْ لَبِثْتَ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

يسأل اللّه نبيّه فى هذه الآية عن المدّة التى قضاها فى النوم، فيتردّد فى الجواب بين قضائه يوما كاملا أو جزءا من اليوم. و يستفاد من هذا التردّد أنّ الساعة التى أماته اللّه فيها تختلف عن الساعة التى أحياه فيها من ساعات النهار، كأن تكون إماتته قد حدثت مثلا قبل الظهر، و أعيد إلى الحياة بعد الظهر. لذلك انتابه الشكّ إن كان قد نام يوما كاملا بليله و ناره، أم أنّه لم ينم سوى بضع ساعات من النهار. و لهذا بعد أن قال إنّه قضى يوما، راوده الشكّ فقال أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

و لكنّه ما لبث أن سمع اللّه يقول له: بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عامٍ

ثمّ أن اللّه تعالى أمر نبيه بأن ينظر إلى طعامه الذى كان معه من جهة، و ينظر إلى مركوبه من جهة اخرى ليطمئن إلى واقعية الأمر فالأول بقى سالما تماما. أمّا الثانى فتلاشى و أصبح رميما. ليعلم قدرة اللّه على حفظ الأشياء القابلة للفساد خلال هذه الأعوام، و يدرك من جهة اخرى مرور الزمان على وفاته:

فَانْظُرْ إِلى طَعامِكَ وَ شَرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ

«لم يتسنّه» من مادّة «سنة» أى لم يمض عليه مدّة سنة، لعدم تعفّنه و تفسّخه.

و على ذلك يكون معنى الآية: لاحظ طعامك و شرابك تجده كأنّه لم تمض عليه سنة و لا مدّة زمنية، فلم يتغير، أى أنّ اللّه القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ و الفساد كالطعام و الشراب، قادر أيضا على إحياء الموتى بيسر. فإبقاء الطعام و الشراب نوع من إدامة

الحياة لهذه المواد السريعة التفسّخ، و عملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتى ۲۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۸

إلّا أنّ الآية لم تشر إلى ماهيّة طعام النبىّ و شرابه. يقول بعض: إنّ طعامه كان فاكهة التين و كان شرابه عصير بعض الفواكه، و كلاهما يسرع إليه الفساد و التفسّخ كما هو معلوم، لذلك فإنّ بقاءهما هذه المدّة الطويلة دون تلف أمر مهم.

وَ انْظُرْ إِلى حِمارِكَ

لم يذكر القرآن عن حماره شيئا فى الآيات السابقة، إلّا أنّ الآيات التالية تشير إلى أنّ حماره قد تلاشى تماما بمضىّ الزمان، و لو لا ذلك لما كان هناك ما يشير إلى انقضاء مائة سنة، و هذا أمر عجيب أيضا، لأنّ حيوانا معروفا بطول العمر يتلاشى على هذه الصورة، بينما الذى يطرأ عليه التفسّخ السريع كالفاكهة و عصيرها لم يتغيّر لا فى الرائحة و لا فى الطعم، و هذا منتهى تجلّى قدرة اللّه.

وَ لِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ

أى أنّ حكايتك هذه ليست آية لك وحدك، بل هى كذلك للناس جميعا.

وَ انْظُرْ إِلَى الْعِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لَحْماً.

«النشوز» هو الارتفاع و البروز، و يعنى هنا رفع العظام من مكانها و تركيبها مرّة اخرى. فمعنى الآية يكون: انظر إلى هذه العظام النخرة كيف نرفعها من مواضعها و نربط بعض ببعض ثمّ نغطّيها باللحم و نحييها. واضح أنّ العظام المقصودة هى عظام حماره المتلاشى، لا عظام أهل القرية لما فى ذلك من انسجام مع الآيات السابقة.

و احتمل بعض المفسّرين أن المراد من العظام هى عظام نفس ذلك النبى، و هذا بعيد جدّا، لأنّ الحديث كان بعد إحيائه، و كذلك احتمل الآخرون هى عظام الحمار أو عظام الموتى الذين تعجب من احيائهم ۲۰۸]، و هذا أيضا بعيد لأن الكلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۷۹

قبل هذه الجملة كان يدور حول الحمار و الراكب لا أهل القرية.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

عند ما اتّضحت كلّ هذه المسائل للنبىّ المذكور قال إنّه يعلم أنّ اللّه قادر على كلّ شىء. لاحظ أنّه لم يقل: الآن علمت كقول زليخا بشأن يوسف الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ۲۰۹] بل قال «أعلم» أى أننى أعترف و معرفتى بهذا الأمر بعلمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۰]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَ اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۶۰)

التّفسير

تجلّى آخر للمعاد فى هذه الدنيا:

يذكر القرآن الكريم حول مسألة المعاد بعد قصة عزير قصة اخرى عن إبراهيم عليه السّلام ليكتمل البحث، و يذكر معظم المفسّرين و

المؤرخين فى تفسير هذه الآية الحكاية التالية:

مرّ إبراهيم عليه السّلام يوما على ساحل البحر فرأى جيفة مرميّة على الساحل نصفها فى الماء و نصفها على الأرض تأكل منها الطيور و الحيوانات البرّ و البحر من الجانبين و تتنازع أحيانا فيما بينها على الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السّلام هذا المشهد خطرت فى ذهنه مسألة يودّ الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، و هى كيفيّة عودة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۱

الأموات إلى الحياة مرّة اخرى، ففكّر و تأمّل فى نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان و أصبح طعاما لحيوانات كثيرة، و كان بالتالى جزء من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث و يعود ذلك الجسد الإنسانى نفسه إلى الحياة؟

فخاطب إبراهيم عليه السّلام ربّه و قال: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى

فأجابه اللّه تعالى: أو لم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السّلام: بلى و لكن ليطمئّن قلبى.

فأمره اللّه أن يأخذ أربعة طيور و يذبحها و يخلط لحمها، ثمّ يقسّمها عدّة أقسام و يضع على كلّ جبل قسما منها، ثمّ يدعو الطيور إليه، و عندئذ سوف يرى مشهد يوم البعث، فامتثل إبراهيم للأمر و استولت عليه الدهشة لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع و تأتيه من مختلف النقاط و قد عادت إليها الحياة.

و ثمّة تفسير آخر للآية نقله الفخر الرازى عن أحد المفسّرين يدعى (أبو مسلم) يخالف آراء بقيّة المفسّرين و لكنّنا نذكره هنا لئنّ مفسّرا معاصرا و هو صاحب المنار قد اختار هذا الرأى.

يقول هذا المفسّر: ليس فى هذه الآية ما يدلّ على أنّ إبراهيم عليه السّلام ذبح الطيور و بعد ذلك عادت إلى الحياة من جديد بأمر اللّه تعالى، بل أنّ الآية فى صدد بيان مثال لتوضيح مسألة المعاد، يعنى أنّك يا إبراهيم خذ أربعة من الطير فضمّها إليك حتّى تستأنس بك بحيث تعجيب دعوتك إذا دعوتها، فإنّ الطيور من أشدّ الحيوانات استعدادا لذلك، ثمّ اجعل كلّ واحدة منهنّ على جبل ثمّ ادعها، فإنّها تسرع إليك، و هذه المسألة اليسيرة بالنسبة لك تماثل فى سهولتها و يسرها مسألة إحياء الأموات و جمع إجزائها المتناثرة بالنسبة إلى اللّه تعالى.

فعلى هذا يكون أمر اللّه تعالى لإبراهيم عليه السّلام فى الطيور الأربعة لا يعنى أن يقدم إبراهيم على هذا العمل حتما، بل أنّه مجرّد بيان مثال و تشبيه كأن يقول شخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۲

لآخر لبيان سهولة الأمر عليه: اشرب هذا القدح من الماء حتّى أنهى هذا العمل و يريد بذلك بيان سهولته، لا أنّ الآخر يجب عليه أن يشرب الماء.

و أستدلّ أنصار النظريّة الثانية بكلمة فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ و قالوا إنّ هذه الجملة إذا كانت متعدّية بحرف (إلى) فتكون بمعنى الأنس و الميل، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة أنّه (خذ هذه الطيور و آنسهن بك) مضافا إلى أنّ الضمائر فى (صرهنّ) و (منهنّ) و (ادعهنّ) كلّها تعود إلى الطيور، و هذا لا يكون سليما إلّا إذا أخذنا بالتفسير الثانى، لأنّه على التفسير الأوّل تعود بعض هذه الضمائر على نفس الطيور و تعود البعض الآخر على أجزائها، و هذا غير مستساغ فى الاستعمال.

الجواب على هذه الاستدلالات سيأتى ضمن تفسيرنا للآية الشريفة و لكن ما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الآية تبيّن بوضوح هذه الحقيقة، و هى أنّ إبراهيم عليه السّلام طلب من اللّه تعالى المشاهدة الحسيّة للمعاد و البعث لكى يطمئنّ قلبه، و لا شكّ أنّ ضرب المثل و التشبيه لا يجسّد مشهدا و لا يكون مدعاة لتطمين الخاطر، و فى الحقيقة أنّ إبراهيم كان مؤمنا عقلا و منطقا بالمعاد، و لكنّه كان يريد أن يدرك ذلك عن طريق الحس أيضا.

و الآن نبدأ بتفسير الآية ليتّضح لنا أىّ التفسيرين أقرب و أنسب:

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى

سبق أن قلنا إنّ هذه الآية تكملة للآية السابقة فى موضوع البعث، يفيد تعبير أَرِنِي كَيْفَ ... أنّه طلب الرؤية و الشهود عيانا لكيفيّة حصول البعث لا البعث نفسه.

قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

كان من الممكن أن يتصور بعضهم أنّ طلب إبراهيم عليه السّلام هذا إنّما يدلّ على تزلزل إيمان إبراهيم عليه السّلام، و لإزالة هذا التوهّم أوحى إليه السؤال: «أو لم تؤمن؟»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۳

لكى يأتى جوابه موضحا الأمر، و مزيلا كلّ التباس قد يقع فيه البعض فى تلك الحادثة، لذلك أجاب إبراهيم عليه السّلام بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

يفهم من هذه الآية أيضا على أنّ الاستدلالات العملية و المنطقية قد تؤدّى إلى اليقين و لكنها لا تؤدّى إلى اطمئنان القلب، إنّها ترضى العقل لا القلب و لا العواطف. إنّ ما يستطيع أن يرضى الطرفين هو الشهود العينى و المشاهد الحسيّة.

هذا موضوع مهمّ سوف نزيده إيضاحا فى موضعه.

التعبير بالاطمئنان القلبى يدلّ على أن الفكر قبل وصوله إلى مرحلة الشهود يكون دائما فى حالة حركة و تقلّب و لكن إذا وصل مرحلة الشهود يسكن و يهدأ.

قالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً.

«صرهنّ» من «الصور» أى التقطيع، أو الميل، أو النداء، و معنى التقطيع أنسب.

أى خذ أربعة من الطير و اذبحهنّ و قطّعهنّ و اخلطهنّ.

لقد كان المقصود أن يشاهد إبراهيم عليه السّلام نموذجا من البعث و عودة الأموات إلى الحياة بعد أن تلاشت أجسادها. و هذا لا يأتلف مع أملهنّ و لا مع صح بهنّ و على الأخصّ ما يأتى بعد ذلك ثُمَّ اجْعَلْ عَلى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً و هذا دليل على أنّ الطيور قد قطّعت أوّلا و صارت أجزاء. و لعلّ الذين قالوا إنّ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ تعنى استمالتهنّ و ايناسهنّ قد غفلوا عن لفظة «جزءا» هذه، و كذلك الهدف من هذا العمل.

و بذلك قام إبراهيم بهذا العمل و عند ما دعاهنّ تجمّعت أجزائهنّ المتناثرة و تركبت من جديد و عادت إلى الحياة، و هذا الأمر أوضح لإبراهيم عليه السّلام أنّ المعاد يوم القيامة سيكون كذلك على شكل واسع و بمقياس كبير جدّا.

و يرى بعضهم أنّ كلمة (سعيًا) تعنى أنّ الطيور بعد أن عادت إليهنّ الحياة لم يطرن، بل مشين مشيا إلى إبراهيم عليه السّلام لئنّ السعى هو المشى السريع، و ينقل عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۴

الخليل ابن أحمد الأديب المعروف أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يمشى عند ما جاءت إليه الطيور، أى أنّ (سعيا) حال من إبراهيم لا من الطيور[۲۱۰]، و لكن بالرغم من كلّ ذلك فالقرائن تشير إلى أنّ (سعيا) كناية عن الطيران السريع.

بحوث

۱- الحادثة الخارقة للعادة

لا ـ شکّ فی أنّ هـذه الحادثـة التی حـدثت للطیور کانت أمرا خارقا للعادة تماما کما فی وقوع البعث یوم القیامـة، و نعلم أنّ اللّه تعالی حاکم علی قوانین الطبیعة و لیس محکوما لها، فعلی هذا لا یکون من العسیر حدوث مثل هذه القضایا بأمره، و کما أشرنا سابقا إلی أنّ إصـرار بعض المفسّرین المثقفین علی الأعراض عن التفسیر المشهور. و القول بأنّ المراد هو تدجین و تأهیل هذه الطیور حتّی تستأنس به ثمّ یدعوها إلیه فتسـتجیب، ضـعیف جدّا و کلام لا یستند علی أساس منطقی و لا یتناسب مع مسألة المعاد و لا مع قصّة إبراهیم علیه السّلام و رؤیته للجیفة علی ساحل البحر ثمّ طلبه رؤیة مشهد البعث و المعاد.

و الجـدیر بالذکر أنّ (الفخر الرازی) قال بأنّ جمیع المفسّـرین اتّفقوا علی ما ذکر من التفسـیر المشـهور إلّا أبو مسـلم حیث أنکر ذلک ۲۱۱].

۲- أربع طیور مختلفة

لا شکّ أنّ الطیور الأربعة کانت من أربعة أنواع مختلفة، و إلّا فإنّ هدف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۵

إبراهیم علیه السّـلام من عودة کـلّ جزء إلی أصـله لا ـ یتحقق. و فی بعض الروایـات أنّ هـذه الطیور کانت طاووسا و دیکا و حمامـة و غرابا، فکان الاختلاف بینها کبیرا، و یری بعض أنّها مظهر للصـفات و الخصال المختلفـة فی البشـر. فالطاوس یمثّل العجب و الخیلاء و التکبّر، و الدیک یمثّل الرغبات الجنسیة الشدیدة، و الحمامة تمثّل اللهو و اللعب، و الغراب یمثّل الآمال و المطامح البعیدة.

۳- عدد الجبال

لم یرد فی القرآن ذکر عدد الجبال التی وضع علیها إبراهیم أجزاء الطیور، و لکن الأحادیث التی وصـلتنا عن أهل البیت علیهم السّـلام تقول أنّها عشـرة. و لهذا ورد فی الروایات: إنّ من یوصـی بإنفاق جزء من أمواله فی أمر من الأمور دون تعیین النسبة فإن صرف عشرة بالمائة یکفی ۲۱۲].

۴- متی وقعت هذه الحادثة؟

هل وقعت عند ما کان إبراهیم فی بابل، أم بعد نزوله بالشام؟ یظهر أنّ ذلک قد حدث فی الشام، لأنّ منطقة بابل خالیة من الجبال.

۵- المعاد الجسمانی

معظم الآیات الواردة فی القرآن المجیـد بشأن البعث تشـرح و توضـح المعاد الجسـمانی. إنّ العلیم بالمفاهیم القرآنیـة الخاصّـة بالمعاد یعلم أنّ ما یذکره القرآن هو المعاد الجسمانی فقط، أی عند ما یبعث الناس یکون البعث للجسم و الروح معا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۶

لذلک فالقرآن یعبّر عن ذلک بأنّه إحیاء الموتی، و لو کان البعث یقتصر علی الروح لما کان للإحیاء أی مفهوم.

و هذه الآیة تشرح بکلّ وضوح کیفیّة تجمّع أجزاء الجسد المتناثرة، و هو ما رآه إبراهیم علیه السّلام بعینیه.

۶- شبهة الأكل و المأكول

ما ذكرناه من الدافع الذى دفع بإبراهيم عليه السّلام إلى طلب مشاهدة إحياء الموتى و حكاية الجيفة التى كان يأكل منها حيوانات البرّ و البحر، نفهم أنّ اهتمام إبراهيم عليه السّلام كان منصبّا على أن يعرف كيف يمكن إرجاع جسد ميّت إلى حالته الأولى بعد أن أكلته الحيوانات و أصبح جزءا من أجساد تلك الحيوانات؟ و هذا ما يطلق عليه فى علم العقائد اسم «شبهة الآكل و المأكول».

لتوضيح ذلك نقول: إنّ اللّه سبحانه يعيد الإنسان فى يوم القيامة بهذا الجسد المادّى. و بعبارة أخرى يعود جسم الإنسان و تعود روحه أيضا.

فى هذه الحالة يبرز تساؤل يقول: إذا استحال جسد الإنسان إلى تراب، و امتصّته جذور الأشجار و النباتات و أصبح ثمرا أكله إنسان آخر و غدا جزءا من جسده. أو إذا افترضنا مثلا سنوات قحط شديدة أكل فيها إنسان لحم إنسان، فإلى أىّ جسد ستعود هذه الأجزاء المأكولة؟ فإذا غدت جزء من الجسد الأوّل أصبح الجسد الثانى ناقصا، و إن بقيت جزء من الجسد الثانى نقص الأول أو انعدم.

الجواب:

هذا الاعتراض القديم أجاب عليه الفلاسفة و علماء العقائد إجابات مختلفة لا نرى ضرورة لدرجها جميعا هنا. و هناك آخرون لم يستطيعوا أن يعثروا على جواب مقنع، فراحوا يؤوّلون الآيات المرتبطة بالمعاد الجسمانى و عمدوا إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۷

اعتبار شخصية الإنسان منحصرة بالروح و الخصائص الروحية، مع أنّ شخصية الإنسان لا تنحصر بالروح فقط، و لا الآيات الخاصّة بالمعاد الجسمانى غامضة بحيث يمكن تأويلها، بل هى صريحة صراحة قاطعة كما قلنا.

و هناك غيرهم قالوا بنوع من المعاد الجسمانى الذى لا يختلف كثيرا عن المعاد الروحانى، إلّا أننا نجد أمامنا طريقا أكثر وضوحا بالاعتماد على النصوص القرآنية و يتّفق مع ما توصّل إليه العلم الحديث، و يحتاج توضيحه إلى عدّة مقدّمات.

۱- إنّنا نعلم أنّ أجزاء جسد الإنسان تتبدّل مرّات عديدة من الطفولة إلى الموت، حتّى خلايا الدماغ التى لا تتغيّر من حيث العدد، تتغيّر من حيث الأجزاء، فهى من جهة تتغذّى و من جهة اخرى تتجزّأ، و هذا نفسه يؤدّى إلى تبديلها الكامل على مدى الزمن، بحيث إنّه بعد مرور عشر سنوات لا تبقى أيّة ذرّة من ذرّات الجسم القديمة.

و لكن الذرّات السابقة عند ما تكون على أعتاب الهلاك تنقل جميع خواصّها و آثارها إلى الخلايا الجديدة، لذلك فإنّ مميّزات الإنسان الجسمية كالطول و الشكل و الهيئة و غيرها من الكيفيات الجسمانية تبقى ثابتة على مرور الزمان، و هذا لا يكون إلّا بانتقال هذه الصفات إلى الخلايا الجديدة، (لاحظ هذا بدقّة).

و عليه فإنّ الأجزاء الأخيرة من كلّ إنسان، عند ما تتبدّل بعد الموت إلى تراب، تكون حاوية على مجموعة من الصفات التى اكتسبتها على امتداد العمر، فهى تاريخ ينطق بمسيرة جسم الإنسان على امتداد العمر كلّه.

۲- صحيح أنّ الروح هى الأساس الذى تبنى عليه شخصية الإنسان، و لكن ينبغى أن نعرف أنّ الروح تتكامل و تتربّى بالجسم، و هما يتبادلان التأثير. لذلك فكما أنّ جسدين لا يتشابهان من جميع الجهات، كذلك لا تتشابه روحان من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۸

جميع الجهات أيضا.

و لهذا السبب فإنّ الروح لا تستطيع أن تتفاعل تفاعلا كاملا إلّا مع الجسد الذى تربّت و تكاملت معه. لذلك ففى البعث لا بدّ من حضور الجسد السابق نفسه لكى تستطيع الروح الاندماج به و تستأنف نشاطها فى عالم أسمى، و لتجنى ثمار أعمالها.

۳- تتمثّل فى كلّ ذرّة من ذرّات الجسم جميع صفاته، أى أنّنا لو أمكننا أن نربّى كلّ خليّة من خلايا جسم الإنسان لتصبح إنسانا كاملا، فإنّ ذلك الإنسان سوف يحمل جميع صفات الإنسان الذى أخذ منه هذا الجزء، (لاحظ بدقّة).

هل أن الإنسان كان فى اليوم الأوّل أكثر من خلية واحدة؟ خلية النطفة التى كانت تحمل جميع الصفات، ثمّ راحت كلّ خلية تنشطر إلى خليتين على التوالى حتى اكتملت جميع خلايا الجسم، و عليه فإنّ كلّ خلية فى جسم الإنسان هى جزء من الخلية الأولى بحيث لو أنّها تربّت لاستحالت إلى إنسان شبيه بالأوّل يحمل صفاته من جميع الجهات.

و الآن مع أخذ هذه المقدّمات الثلاث بنظر الإعتبار نباشر بالإجابة على الاعتراض المذكور.

فى القرآن آيات تقول بوضوح: إنّ الذرّات الموجودة فى جسم الإنسان عند الموت هى التى تعود إلى ذلك الجسد يوم القيامة[۲۱۳].

فإذا كان شخص آخر قد طعم من لحمه فإنّ الأجزاء التى طعمها تنفصل عنه و تعود إلى الجسم الأصلى، كلّ ما فى الأمر أنّ جسم الشخص الآخر يصبح ناقصا، و لكن ينبغى أن نقول إنّه لا ينقص، بل يصغر، لأنّ أجزاء الجسم المأكول تكون قد انتشرت فى كلّ أجزاء جسم الآكل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۸۹

و لذلك فإنّ جسم الآكل حين تسترجع منه الأجزاء ينحف و يصغر بنسبة ما يؤخذ منه. فالذى يزن ستين كيلو غراما، مثلا، حين يؤخذ منه أربعون كيلو غراما لتعطى للشخص الأوّل يصغر بحيث لا يزيد على وزن طفل.

و هل يسبّب هذا مشكلة؟ كلّا طبعا، لأنّ هذا الجسد الصغير يكون حاويا على جميع صفات الشخص دون زيادة و لا نقصان، و عند البعث يكون كالطفل الذى يولد صغيرا ثمّ ينمو و يكبر و يحشر بهيئة إنسان كامل. و ليس فى هذا النوع من النموّ عند البعث أىّ إشكال عقلى أو نقلى.

هل هذا النموّ عند البعث فورىّ أم تدريجىّ؟ هذا ما لا نعلمه، و لكن الذى نعلمه هو أنّه سواء أ كان هذا أم ذاك، فلا يثير أيّة مشكلة، و المسألة محلولة فى كلتا الحالتين.

و يبقى سؤال واحد، و هو: إذا كان كلّ جسد الشخص الآكل مكوّنا من أجزاء جسد الشخص المأكول، فما العمل؟

الجواب بسيط، لأنّ حالة كهذه مستحيلة الوجود، فقضية الآكل و المأكول تقتضى أن يكون هناك أوّلا جسد معيّن، ثمّ يتغذّى على جسد آخر و ينمو، و على هذا فلا يمكن أن تكون جميع أجزاء جسم الآكل متكونة من أجزاء جسم المأكول، إذ ينبغى أن نفترض أوّلا وجود جسم سابق حتى يمكن أن يتغذّى على جسم آخر، و عليه فإنّ جسم الثانى سوف يكون جزء من جسم الأوّل لا كلّه، فتأمّل.

يتّضح من هذا الشرح أنّ مسألة المعاد الجسمانى لجسم الإنسان نفسه ليس فيه أىّ إشكال، و لا حاجة إلى تأويل الآيات الصريحة فى إثبات هذا الموضوع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۰

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۱]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۱)

التّفسير

الإنفاق و ترشيد الشخصيّة:

تعتبر مسألـة الإنفـاق إحـدى أهمّ المسائـل التى أكـدّ عليها الإسـلام و القرآن الكريم، و الآيـة أعلاه هى أوّل آيـة فى مجموعـة الآيات الكريمـة من سورة البقرة التى تتحـدّث عن الإنفاق، و لعلّ ذكرها بعد الآيات المتعلّقة بالمعاد من جهة أنّ أحد الأسـباب المهمّة للنجاة فى الآخرة هو الإنفاق فى سبيل اللّه. و ذهب البعض إلى أنّ الآيات لها ارتباط بآيات الجهاد المـذكورة قبل آيات المعاد و التوحيد فى هذه السورة.

تقول الآيـة الشـريفة: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ فيكون المجموع المتحصّل من حبّة واحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۱

سبعمائة حبّة، و تضيف الآية بأنّ ثواب هؤلاء لا ينحصر بذلك وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ.

و ذلـك باختلاـف النيّات و مقـدار الإخلاص فى العمل و فى كفيّته و كميّته. و لا عجب فى هـذا الثواب الجزيل لأنّ رحمـة اللّه تعالى واسعة و قدرته شاملة و هو مطّلع على كلّ شىء وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

و يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الإنفاق فى الآية أعلاه هو الإنفاق للجهاد فى سبيل اللّه فقط لأنّ هذه الآية فى الواقع تأكيد لما مرّ فى الآيات التى تحـدّثت عن قصة عزير و إبراهيم و طالوت، و لكنّ الإنصاف أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك و مجرّد ارتباطها بالآيات السابقة لا يمكن أن يكون دليلا على تخصـيص هذه الآية و الآيات التالية لأنّ عبارة فِي سَبِيلِ اللَّهِ لها مدلول واسع يشمل كلّ مصارف الخير، مضافا إلى أنّ الآيات التاليـة أيضا ورد فيها بحث الإنفاق بسورة مسـتقلّة، و قـد أشـير كـذلك فى الروايات الإسـلامية إلى عموم معنى الإنفاق فى هذه الآية[۲۱۴].

و الجـدير بالـذكر أنّ هذه الآية تشبّه الأشـخاص الذين ينفقون فى سبيل اللّه بالبذرة المباركة التى تزرع فى أرض خصـبة فى حين أنّ التشبيه عادة يجب أن يكون بين الإنفاق نفسه و البذرة أى أعمالهم لا أنفسهم، و لذلك ذهب الكثير من المفسّرين أنّ فى الآية حذف مثل كلمة (صدقات) قبل كلمة (الذين ينفقون) أو كلمة (زارع) قبل كلمة الحبّة و أمثال ذلك.

و لكن ليس هناك أى دليل على وجود الحذف و التقدير فى هذه الآية، بل إنّ تشبيه المنفقين بحبّات كثيرة البركة تشبيه رائع و عميق و كأنّ القرآن يريد أن يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۲۹۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۲

إنّ عمل كلّ إنسان انعكاس لوجوده، و كلّما اتّسع العمل اتّسع فى الواقع وجود ذلك الإنسان.

و بعبارة اخرى: أنّ القرآن لا يفصل عمل الإنسان عن وجوده، بل يرى أنّهما مظهران مختلفان لحقيقـة واحـدة، و وجهان لعملة واحدة، لذلك فإنّ آية قابلة للتفسـير من دون أن نفترض فيها حذفا و تقديرا، فالآية إشارة إلى حقيقة أنّ شخصـية الإنسان الصالح تنمو و تكبر معنويّا بأعمـاله الصالحـة، فمثل هؤلاء المنفقين كمثل البـذور الكثيرة الثمر التى تمـدّ جـذورها و أغصانها إلى جميع الجهات و تفيض ببركتها على كلّ الأرجاء.

و الخلاصة أنّه فى كلّ مورد للتشبيه مضافا إلى وجود أداة التشبيه لا بدّ من وجود ثلاثة امور اخرى:

المشبّه، و المشبّه به، و وجه التشبيه، ففى هذا المورد المشبّه هو الإنسان المنفق، و المشبّه به هو البذور الكثيرة البركة، و وجه التشبيه هو

النموّ و الرشد، و نحن نعتقد أنّ الإنسان المنفق ينمو و يرشد معنويّا و اجتماعيّا من خلال عمله ذاك و لا يحتاج إلى أىّ تقدير حينئذ.
و شبيه هذا المعنى ورد كذلك فى الآية ۲۶۵ من هذه السورة، و هناك بحث بين المفسّرين فى التعبير بقوله أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ حيث أشارت الآيـة إلى أنّ حبّـة واحـدة تصـير سـبعمائة حبّـة أو أكثر، و أنّ هذا التشبيه لا وجود خارجى له فهو تشبيه فرضـى (لأنّ حبّـة الحنطـة لا تبلغ فى موسم الحصاد سـبعمائة حبّـة أبـدا) و أو أنّ المقصود هو نوع خاصّ من الحبوب (كالدخن) التى تعطى هـذا القدر من الناتج، و يلفت النظر أنّ الصـحف كتبت أخيرا أنّ بعض مزارع القمح أنتجت فى السـنوات الممطرة سـنابل طويلة يحمل بعضها نحوا من اربعمائة آلاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۳

حبّة، و هذا يدلّ على أنّ تشبيه القرآن واقعى و حقيقى.

جملة (يضاعف) من مادّة (ضعف) و يعنى مقدار المرتين أو المرّات و بالنظر إلى ما ذكرنا آنفا من وجود حبوب تعطى عدّة آلاف من المحصول نعرف بأنّ هذا التشبيه هو تشبيه واقعىّ أيضا.

بحث

الإنفاق و مشكلة الفوارق الطبقيّة:

من المشـكلات الاجتماعية الكبرى التى يعانى منها الإنسان دوما و لا زال يعانى رغم كلّ ما حقّقه البشـر من تقدّم صناعى و مادّى هى مشكلة التباين الطبقى المتمثّلة بالفقر المدقع فى جانب، و تراكم الثروة فى جانب آخر.

إنّك لترى بعضـهم يكتنز من الثروة بحيث إنّه لا يسـتطيع أن يحصـيها، و ترى بعضـهم من الفقر فى عذاب ممض بحيث لا يسـتطيع أن يجد حتّى الضرورىّ اللازم لحياته كالحدّ الأدنى من الغذاء و الملبس و المأوى.

لا شكّ أنّ المجتمع الذى يقوم قسم من بنيانه على الغنى الفاحش، و القسم الأعظم على الفقر المدقع و الجوع القاتل، لا دوام له، و لن يصـل إلى السـعادة الحقيقـة أبـدا، إنّ مجتمعا كهـذا يسوده حتما الهلع و الاضـطراب و القلق و الخوف و سوء الظن، و من ثمّ العـداء و الصراع.

هـذا التباين الطبقى الـذى كان موجودا فى القديم قد تفشّـى فينا اليوم- مع الأسف- بأكثر و أخطر ممّا سـبق، ذلك لأنك تجد أبواب التعاون الإنسانى الحقيقى قد أغلقت بوجوه الناس، و فتحت بمكانها أبواب الربا الفاحش الذى هو من أهمّ أسـباب اتساع الهوة الطبقية بين الناس، و لا أدلّ على ذلك من ظهور الشيوعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۴

و أمثالها، و إراقـة الـدماء فى أنواع الحروب المروعـة التى انـدلعت فى قرننا الأخير و ما زالت مندلعة هنا و هناك فى أنحاء مختلفة من العالم، و معظمها ذات منشأ اقتصادى و ردّ فعل لحرمان أكثرية شعوب العالم.

و قـد سـعى العلماء و المذاهب الاقتصادية فى العالم للبحث عن علاج، و اختار كلّ طريقا، فالشـيوعية اختارت إلغاء الملكية الفردية، و الرأسمالية اختارت طريق استيفاء الضرائب الثقيلة و إنشاء المؤسّسات الخيرية العامّة (و هى شكلية أكثر من كونها حلّا لمشكلة الطبقية)، ظانّين أنّهم بـذلك يكافحون هـذه المشـكلة، لكن أيّا من هؤلاء لم يسـتطع فى الحقيقـة أن يخطو خطوة فعّالة فى هذا السبيل، و ذلك لأنّ حلّ هذه المشكلة غير ممكن ضمن الروح الماديّة التى تسيطر على العالم.

بالتـدقيق فى آيات القرآن الكريم يتّضح أنّ واحدا من الأهداف التى يسـعى لها الإسـلام هو إزالة هذه الفوارق غير العادلة الناشـئة من

الظلم الاجتماعى بين الطبقتين الغنية و الفقيرة، و رفع مستوى معيشة الذين لا يستطيعون رفع حاجاتهم الحياتية و لا توفير حدّ أدنى من متطلّباتهم اليومية دون مساعدة الآخرين.

و للوصول إلى هذا الهدف وضع الإسلام برنامجا واسعا يتمثّل بتحريم الربا مطلقا، و بوجوب دفع الضرائب الإسلامية كالزكاة و الخمس، و الحثّ على الإنفاق، و قرض الحسنة، و المساعدات المالية المختلفة، و أهمّ من هذا كلّه هو إحياء روح الأخوّة الإنسانية فى الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۲]

اشارة

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۶۲)

التّفسير

الإنفاق المقبول:

الآية السابقة بيّنت أهميّة الإنفاق فى سبيل اللّه بشكل عام، و لكن فى هذه الآية بيّنت بعض شرائط هذا الإنفاق (و يستفاد ضمنا من عبارات هذه الآية أنّ الإنفاق هنا لا يختصّ بالإنفاق فى الجهاد).

تقول الآية الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا ... وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ۲۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۶

يستفاد بوضوح من هذه الآية أنّ الإنفاق فى سبيل اللّه لا يكون مقبولا عند اللّه تعالى إذا تبعته المنّة و ما يوجب الأذى و الألم للمعوزين و المحتاجين، و عليه فإنّ من ينفق ماله فى سبيل اللّه و لكنّه يمنّ به على من ينفق عليه، أو ينفقه بشكل يوجب الأذى للآخرين فإنّه فى الحقيقة يحبط ثوابه و أجره بعمله هذا.

إنّ ما يثير الاهتمام أكثر فى هذه الآية هو أنّ القرآن لا يعتبر رأسمال الإنسان فى الحياة مقتصرا على رأس المال المادّى، بل يحسب حساب رؤوس الأموال المعنوية و الاجتماعية أيضا.

إنّ من يعطى شيئا لأحد و يمنّ عليه به أو يقوم بما يثير الألم فى نفس المعطى له و يجرح عواطفه فإنّه لا يكون قد أعطاه شيئا فى الواقع، لأنّه إذا كان قد أعطاه رأسمال، فإنّه قد أخذ منه رأسمال أيضا، بل لعلّ المنّة التى يمنّ بها عليه و نظرة التحقير التى ينظر بها إليه ذات أضرار باهضة يفوق ثمنها ما أنفقه من مال إذا لم ينل أمثال هؤلاء الأشخاص أىّ ثواب على إنفاقهم هذا فهو أمر طبيعى و عادل.

و قد يصحّ القول إنّ هؤلاء فى كثير من الأحوال هم المدينون لا الدائنون لأنّ كرامة الإنسان أغلى بكثير من أىّ مال و ثروة.

و لاحظ فى الآية إنّ كلمتى المنّ و الأذى مسبوقتان ب (ثمّ) التى تفيد التراخى، أى وجود فتره زمنية بين فعلين. فيكون معنى الآية: إنّ الذين ينفقون، و بعد ذلك لا يمنّون على أحد و لا يؤذون أحدا يكون ثوابهم محفوظا عند اللّه.

و يعنى هذا ضرورة الابتعاد عن المنّ و الأذى لا فى حالة الإنفاق فحسب، بل عليه أن لا يمنّ عليه فى أوقات تالية عن طريق تذكير المنفق عليه بالإنفاق، و هذا دليل على الدقّة المتناهية التى يبتغيها الإسلام من الخدمات الإسلامية الخالصة.

لا ـ بدّ من القول إنّ المنّ و الأذى اللذين يحبطان قبول الإنفاق لا ـ يختصّان بالإنفاق على الفقراء فقط، بل تجنّبهما لازم فى جميع الأعمال العامّة و الاجتماعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۷

كالجهاد فى سبيل اللّه و الأعمال ذات المنفعة العامّة التى تتطلّب بذل المال.

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

تطمئن هذه الآية المنفقين أنّ أجرهم محفوظ عند اللّه لكى يواصلوا هذا الطريق بثقة و يقين. فما كان عند اللّه باق و لا ينقص منه شىء، بل أنّ عبارة (ربّهم) قد تشير إلى أن اللّه تعالى سيزيد فى أجرهم و ثوابهم.

وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

سبق أن قلنا إنّ الخوف يكون من المستقبل، و الحزن على ما مضى. و عليه فإنّ المنفقين بعلمهم أنّ جزاءهم محفوظ عند اللّه لن ينتابهم الخوف من يوم البعث الآتى، و لا هم يحسّون بالحزن على ما أنفقوه فى سبيل اللّه.

و ذهب البعض إلى أنّه لا خوف من الفقر و الحقد و البخل و الغبن و أمثال ذلك و لا حزن على ما أنفقوا فى سبيل اللّه.

و فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أسدى إلى مؤمن معروفا ثمّ آذاه بالكلام أو منّ عليه فقد أبطل صدقته»

[۲۱۶] فالشخص الذى ينفق فى سبيل اللّه و لم يرتكب مثل هذه الأعمال بعد ذلك لا يخشى بطلان إنفاقه، و المفاهيم الإسلامية تؤكّد دقّة الشريعة المقدّسة فى هذا المجال بحيث أنّ بعض العلماء الأقدمون قالوا: (إنّك إذا تصدّقت على شخص و تعلم أنّك إذا سلّمت عليه سيصعب عليه ذلك فيتذكر صدقتك عليه فلا تسلّم عليه)[۲۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۳]

اشارة

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (۲۶۳)

التّفسير

الكلمة الطيبة أفضل من الصدقة مع المنّة:

هذه الآية تكمّل ما بحثته الآية السابقة فى مجال ترك المنّة و الأذى عند الإنفاق و التصدّق فتقول: إنّ الكلمة الطيّبة للسائلين و المحتاجين و الصفح عن أذاهم أفضل من الصدقة التى يتبعها الأذى قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً

و يجب أن يكون معلوما أنّ ما تنفقوه فى سبيل اللّه فهو فى الواقع ذخيرة لكم لإنقاذكم و نجاتكم لأنّ اللّه تعالى غير محتاج إليكم و إلى أموالكم و حليم فى مقابل جهالاتكم وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ

بحوث

۱- تبيّن هذه الآية منطق الإسلام فى قيمة الأشخاص الاجتماعيّة و كرامتهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۲۹۹

و ترى أن أعمال الـذين يسـعون فى حفظ رؤوس الأموال الإنسانيـة، و يعاملون المحتاجين باللطف و يقـدّمون لهم التوجيه اللازم، و لا يفشون أسـرارهم، أفضـل و أرفع من إنفـاق أولئـك الأنـانيّين ذوى النظرة الضـيّقة الـذين إذا قـدّموا عونا صـغيرا يتبعونه تجريـح الناس المحترمين و تحطيم شخصـيّاتهم. فى الحقيقـة إنّ أمثال هؤلاء الأشـخاص ضـررهم أكثر من نفعهم، فهم إذا أعطوا ثروة عرضوا ثروات للإبادة و الضياع.

يتّضح ممّا قلناه إنّ لتعبير قَوْلٌ مَعْرُوفٌ مفهوما واسعا يشمل كلّ أنواع القول الطيّب و التسلية و التعزية و الإرشاد.

و ذهب بعضهم إلى أن المراد هو الأمر بالمعروف ۲۱۸] و لكن هذا المعنى لا يتناسب مع الآية ظاهرا.

«المغفرة» بمعنى العفو بإزاء خشونـة المحتاجين، أولئك الذين طفح كيل صبرهم بسـبب تراكم الابتلاءات عليهم، فتزلّ ألسـنتهم أحيانا بـالخشن من القول ممّا لا يودونه قلبيا. هؤلاء بعنفهم هـذا إنّما يريـدون أن ينتقموا من المجتمع الـذى ظلمهم و غمط حقوقهم، فأقلّ ما يمكن للاشـخاص الأثرياء فى مقابل حرمان هؤلاء المحرومين هو أن يتحمّلوا منهم انـدفاعاتهم اللفظية التى هى شـرر النار التى تسـتعر فى قلوبهم فتنطلق على ألسنتهم.

لا شكّ أنّ تحمّل عنفهم و خشونتهم و العفو عنها يخفّف عنهم ضغط عقدهم النفسية، و بهذا تتّضح أكثر أهميّة هذه الأوامر الإلهيّة.

يرى بعض أنّ «المغفرة» يقصد بها هنا المعنى الأصلى، و هو الستر و الإخفاء.

أى ستر أسـرار المحتاجين الـذين لهم كرامتهم مثل غيرهم. غير أنّ هـذا التفسـير لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّنا إذا فسّـرنا المغفرة بمعناها الأوسع فهى تشمل العفو كما تشمل الستر و الإخفاء أيضا.

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا سأل السائل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۰

فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ منها، ثمّ ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببـذل يسـير أو ردّ جميل، فإنّه قـد يأتيكم من ليس بإنس و لا جان ينظرونكم كيف صنيعكم فيما خوّلكم اللّه تعالى»

[۲۱۹].

فى هذا الحديث يبيّن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم جانبا من آداب الإنفاق.

۲- إن العبارات القصـيرة التى تأتى فى ختام الآيات عادة و تورد بعض صفات اللّه تعالى ترتبط حتما بمضمون الآية نفسها. و على هذا فمن الممكن أن يكون المقصود من وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ هو: أنّ الإنسـان ظـالم بالطبع، و لـذلك فإنّه إذا نال منصـبا و حصل ثروة حسـب نفسه غنيا و لم يعـد بحاجـة إلى الآخرين، و قـد تحـدو به هـذه الحالـة إلى اسـتعمال الخشونـة و التهجّم ضدّ المحرومين و المحتاجين. لـذلك يقول القرآن إنّ الغنىّ بـذاته هو اللّه، فاللّه هو وحـده الغنىّ الـذى لا يحتاج شـيئا، أمّا إحساس البشـر بأنّه غنىّ فسـراب خادع لا ينبغى أن يؤدى إلى الطغيان و التعالى على الفقراء. ثمّ إنّ اللّه حليم بالنسبة للذين لا يشكرون، فعلى المؤمنين أن يكونوا كذلك أيضا. و قـد تكون الآيـة إشارة إلى أنّ اللّه غنىّ عن إنفاقكم. و أنّ ما تنفقونه إنّما هو لخيركم أنفسـكم، فلا تمنّوا على أحد. ثمّ إنّ اللّه حليم باتجاه خشونتكم و لا يتعجّل معاقبتكم لعلّكم تستيقظون و تصلحون أنفسكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۱

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۶۴ الى ۲۶۵]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لاـ تُبْطِلُوا صَـدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِى يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَـفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصـابَهُ وابِـلٌ فَتَرَكَهُ صَـلْداً لاـ يَقْـدِرُونَ عَلى شَـىْءٍ مِمَّا كَسَـبُوا وَ اللَّهُ لا يَهْـدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۲۶۴) وَ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغـاءَ مَرْضـاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتـاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِـعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِـبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲۶۵)

التّفسير

دوافع الإنفاق و نتائجه:

فى هاتين الآيتين نهى للمؤمنين عن المنّ و الأذى عند إنفاقهم فى سبيل اللّه، لأنّ ذلك يحبط أعمالهم. ثمّ يضرب القرآن مثلا للإنفاق المقترن بالمنّ و الأذى، و مثلا آخر للإنفاق المنطلق من الإخلاص و العواطف الإنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۲

يقول تعالى فى المثال الأوّل: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ ....

تصوّر قطعة حجر صـلد تغطّيه طبقه خفيفة من التراب، و قد وضعت فى هذا التراب بذور سليمة، ثمّ عرّض الجميع للهواء الطلق و أشعة الشمس، فإذا سقط المطر المبارك على هذا التراب لا يفعل شيئا سوى اكتساح التراب و البذور و بعثرتها، ليظهر سطح الحجر بخشونته و صلابته التى لا تنفذ فيها الجذور، و هذا ليس لأنّ أشعة الشمس و الهواء الطلق و المطر كان لها تأثير سىء، بل لأنّ البذر لم يزرع فى المكـان المنـاسب، ظـاهر حسن و بـاطن خشن لاـ يسـمح بـالنفوذ إليه. قشـرة خارجيـة من التربـة لا تعين على نموّ النبات الـذى يتطلّب الوصول إلى الأعماق لتتغذّى الجذور.

و يشبّه القرآن الإنفاق الـذى يصاحبه الرياء و المنّة و الأذى بتلك الطبقة الخفيفة من التربة التى تغطّى الصـخرة الصـلدة و التى لا نفع فيها، بل أنّها بمظهرها تخـدع الزارع و تـذهب بأتعابه أدراج الرياح. هـذا هو المثل الذى ضـربه القرآن فى الآية الاولى للإنفاق المرائى الذى يتبعه المنّ و الأذى ۲۲۰].

و فى نهايـة الآيـة يقول تعـالى: وَ اللَّهُ لاـ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكـافِرِينَ و هو إشـارة إلى أنّ اللّه تعالى سوف يسـلبهم التوفيق و الهدايـة، لأنّهم أقـدموا على الرياء و المنّة و الأذى باقـدامهم، و اختاروا طريق الكفر باختيارهم، و مثل هـذا الشـخص لا يليق بالهداية، و بذلك وضـع القرآن الكريم الإنفاق مع الرياء و المنّة و الأذى فى عرض واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۳

مثال رائع آخر

فى الآية التالية نقرأ مثالا جميلا آخر يقع فى النقطة المقابلة لهذه الطائفة من المنفقين، و هؤلاء هم الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه بدافع من الإيمان و الإخلاص فتقول الآية: وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ

تصوّر هذه الآية مزرعة خضـراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة تستقبل لنسيم الطلق و أشعة الشمس الوافرة و المطر الكثير النافع، و إذا لم يهطـل المطر ينزل الطـلّ و هو المطر الخفيف و ذرّات الهبـاب ليحافـظ على طراوة المزرعـة و لطافتها، فتكون النتيجـة أنّ مزرعة

كهذه تعطى ضعف ما تعطى المزارع الاخرى، فهذه الأرض فضلا عن كونها خصبة بحيث يكفيها الطلّ و المطر الخفيف ناهيك عن المطر الغزير لأيناع حاصلها، و فضلا عن كونها تستفيد كثيرا من الهواء الطلق و أشعّة الشمس و تلفت الأنظار لجمالها، فإنّها لوقوعها على مرتفع تكون فى مأمن من السيول.

فالآية الشريفة تريد أن تقول: إنّ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه لتمكّن الإيمان و اليقين فى قلوبهم و أرواحهم هم أشبه بتلك المزرعة ذات الحاصل الوافر المفيد و الثمين.

و فى ختام الآية تقول: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فهو سبحانه يعلم ما إذا كان الدافع على هذا الإنفاق إلهيّا مقترنا بالمحبّة و الاحترام، أو للرياء المشفوع بالمنّة و الأذى.

بحوث

۱- إنّ عبارة لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى تفيد بأنّ بعض الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۴

يمكن أن تبدّد نتائج بعض الأعمال الحسنة، و هذا هو الإحباط الذى مرّ شرحه فى ذيل الآية ۲۱۷ من هذه السورة.

۲- إنّ تشبيه العمل مع الرياء بالصخرة التى خطّتها قشرة ناعمة من التراب تشبيه دقيق جدّا لأنّ المرائى له باطن خشن و مجدب فيحاول تغطيته بمظهر حسن و جميل، و هو حبّ الخير و الإحسان للنّاس، فأعماله غير متجذّرة فى وجوده و روحه و ليس لها أساس عاطفىّ ثابت فما أسرع ما ينقشع هذا الحجاب بسبب الأحداث و الوقائع فى الحياة فيظهر باطنهم بذلك.

۳- جملة ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ تبيّن دوافع الإنفاق الإلهى السليم، و هما دافعان: ابتغاء مرضاة اللّه، و تقوية روح الإيمان و الاطمئنان فى القلب.

هذه الآية تقول إنّ المنفقين الحقيقيّين هم الذين يكون دافعهم رضا اللّه و تربية الفضائل الإنسانية و تثبيتها فى قلوبهم، و إزالة الاضطراب و القلق اللذين يحصلان فى نفس المرء بإزاء مسئوليته نحو المحرومين. و عليه فإنّ «من» فى الآية تعنى «فى» أى فى نفوسهم.

۴- و جملة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ المذكورة فى آخر الآية الثانية تحذير إلى جميع الذين يريدون القيام بعمل صالح كى يأخذوا حذرهم لئلّا يخالط عملهم و نيّتهم و أسلوب عملهم أى تلوّث، لأنّ اللّه يراقب أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۶]

اشارة

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (۲۶۶)

التّفسير

مثال آخر للإنفاق الملوث بالرياء و المنّة:

هنا يضرب القرآن مثلا آخر يبيّن حاجة الإنسان الشديدة إلى الأعمال الصالحات يوم القيامة، و كيف أنّ الرياء و المنّ و الأذى تؤثّر على الأعمال الصالحات فتزيل بركتها.

يتجسّد هذا التمثيل فى صاحب مزرعة مخضرة ذات أشجار متنوّعة كالنخيل و الأعناب، و تجرى فيها المياه بحيث لا تتطلّب السقى، لكن السنون نالت من صاحبها و تحلّق حوله أبناؤه الضعفاء، و ليس ثمّة ما يقيم أودهم سوى هذه المزرعة، فإذا جفّت فلن يقدر هو و لا أبناؤه على إحيائها، و فجأة تهبّ عاصفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۶

محرقة فتحرقها و تبيدها. فى هذه الحالة ترى كيف يكون حال هذا العجوز الهرم الذى لا يقوى على الارتزاق و تأمين معيشته و معيشة أبنائه الضعفاء؟ و ما أعظم أحزانه و حسراته!.

أَ يَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ ...).

إنّ حال أولئك الذين يعملون عملا صالحا ثمّ يحبطونه بالرياء و المنّ و الأذى أشبه بحال من تعب و عانى كثيرا حتّى إذا حان وقت اقتطاف النتيجة ذهب كلّ شيء و لم يبق سوى الحسرات و الآهات. و تضيف الآية:

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

لمّا كان منشأ كلّ تعاسة و شقاء- و على الأخصّ كلّ عمل أحمق كالمنّ على الناس- هو عدم أعمال العقل و التفكير فى الأمور، فإنّ اللّه فى ختام الآية يحثّ الناس على التعمّق فى التفكير فى آياته كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ

بحوث

۱- هذه الأمثلة بالتوالى كلّ واحدة منها تدلّ على الأمور الزراعية اللطيفة، لأن هذه الآيات لم تنزل على أهل المدينة الذين كانوا زرّاعا فحسب، بل أنها نزلت على جميع الناس، على أية حال كانت الزراعة تشكل جانبا من حياتهم.

۲- يستفاد من وَ أَصابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ إنّ الإنفاق فى سبيل اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۷

و مدّ يد العون للمحتاجين أشبه بالبستان اليانع الذى ينتفع بثمره صاحبه و أبناؤه أيضا. و لكن الرياء و المنّ و الأذى لا تحرم صاحبه وحده من ثمرات عمله، بل أنّ ذلك يحرم حتّى أبناءه و الأجيال التالية من بركات تلك الأعمال الصالحات. و هذا دليل على أنّ الأجيال القادمة تشارك الأجيال السابقة فى الانتفاع بثمرات العلم الطيّب.

و هو كذلك أيضا على الصعيد الاجتماعى، إذ أنّ المحبوبيّة و الثقة التى ينالها الآباء نتيجة لأعمالهم الصالحة بين الناس، و تكون خير رأسمال لأبنائهم من بعدهم.

۳- عبارة إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ قد تكون إشارة إلى رياح السموم التى تحرق الزرع و تجفّف المياه، أو الرياح التى تكتسب الحراة من المرور على الحرائق فتكتسح معها النيران المحرقة و تحملها إلى مناطق اخرى، أو قد تكون إشارة إلى العواصف التى تصاحبها الصواعق فتصيب الأرض و تحيلها إلى رماد، إنّها على كلّ حال إشارة إلى إبادة سريعة[۲۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۸

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۷]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَـبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْـتُمْ بِآخِـذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۲۶۷)

سبب النّزول

عن الصـادق عليه السّـلام أنّهـا نزلت فى أقوام لهم ربـا فى الجاهليـة، و كـانوا يتصـدّقون منه، فنهاهم اللّه عن ذلك و أمر بالصدقـة من الطيّب الحلال.

عن على عليه السّلام أنّها نزلت فى قوم كانوا يأتون بالحشف (و هو أردأ التمر) فيدخلونه فى الصدقة[۲۲۲].

و ليس بين الروايتين أى تعارض، و لعلّ الآية نزلت فى كلتا الفئتين، فالشأن الأوّل يخص الطهارة المعنوية، و يخص الثانى طيب الظاهر المادّى.

و لكن ينبغى الإشارة إلى أنّ المرابين فى الجاهلية امتنعوا عن تعاطى الربا بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۰۹

نزول الآية ۲۷۵ من سـورة البقرة و لم تحرم عليهم أموالهم السابقـة، أى أنّ الآيـة لم يكن لهـا أثر رجعى، و لكن من الواضـح أنّ هـذا المال و إن يكن حلالا، فهو يختلف عن الأموال الأخرى، فكان فى الحقيقة أشبه بتحصيل أموال عن طرق مكروهة.

التّفسير

الأموال التى يمكن إنفاقها:

شرحت الآيات السابقة ثمار الإنفاق و صـفات المنفقين و الأعمال التى قد تبطل أعمال الإنفاق الإنسانية فى سبيل اللّه. و هذه الآية تبيّن نوعيّة الأموال التى يمكن أن تنفق فى سبيل اللّه.

فى بداية الآية يأمر اللّه المؤمنين أن ينفقوا من (طيبات) أموالهم. و «الطيب» فى اللغة هو الطاهر النقى من الناحية المعنوية و المادّية، أى الأموال الجيدة النافعة و التى لا شبهة فيها من حيث حلّيتها. و يؤيّد عمومية الآية الروايتان المذكورتان فى سبب النزول.

كما أنّ جملـة لَسْـتُمْ بِآخِـذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ أى أنكم أنفسـكم لا تأخـذون غير الطيّب من المال إلّا إذا أغمضـتم أعينكم كارهين، دليـل على أنّ المقصود ليس الطهـارة الظاهريّـة فقـط، لأنّ المؤمنين لا يقبلون مالا تافهـا ملوّثا فى ظاهره، كما لا يقبلون مالا مشـبوها مكروها إلّا بالإكراه و التغاضى.

وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

كانت عبارة ما كَسَبْتُمْ إشارة إلى الـدخل التجارى، و هذه العبارة إشارة إلى الدخل الزراعى و عائدات المناجم، فهو يشـمل كلّ أنواع الدخل، لأنّ أصل دخل الإنسان ينبع من الأرض و مصادرها المتنوّعة، بما فيها الصناعة و التجارة و تربية المواشى و غير ذلك.

تقول هذه الآية: إننا وضعنا مصادر الثروة هذه تحت تصرّفكم، لذلك ينبغى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۰

أن لا تمتنعوا عن إنفاق خير ما عندكم فى سبيل اللّه.

وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۲۲۳].

اعتاد معظم الناس أن ينفقوا من فضول أموالهم التى لا قيمـة لها أو الساقطـة التى لم تعـد تنفعهم فى شـىء. إنّ هذا النوع من الإنفاق لا هو يربّى روح المنفق، و لا هو يرتق فتقا لمحتاج، بل لعلّه إهانـة له و تحقير. فجاءت هـذه الآيـة تنهى بصـراحة عن هـذا و تقول للناس: كيف تنفقون مثل هذا المال الذى لا تقبلونه أنتم إذا عرض عليكم إلّا إذا اضـطررتم إلى قبوله؟ أ ترون إخوانكم المسلمين، بل أ ترون اللّه الذى فى سبيله تنفقون أقلّ شأنا منكم؟

الآيـة تشـير فى الواقع إلى فكرة عميقـة و هى أنّ للإنفاق فى سبيل اللّه طرفين، فالمحتاجون فى طرف، و اللّه فى طرف آخر. فإذا اختير المال المنفق من زهيـد الأشـياء ففى ذلك إهانـة لمقام اللّه العزيز الـذى لم يجـده المنفق جـديرا بطيّبات ما عنـده كما هو إهانة للذين يحتاجونه، و هم ربما يكونون من ذوى الدرجات الإيمانية السامية، و عندئذ يسبّب لهم هذا المال الردىء الألم و العذاب النفسى.

التعبير بكلمـة (الطيّبات) يشـمل الطيّب الظاهرى الـذى يسـتحقّ الإنفاق و المصـرف، و كذلك الطيّب المعنوى، أى الطاهر من الأموال المشتبه و الحرام لأنّ المؤمنين لا يرغبون فى تناول مثل هذه الأموال.

و جملـة إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ تشـمل الجميع، فما ذهب إليه بعض المفسّـرين من حصـرها بأحد هذين المعنيين بعيد عن الصواب، و نظير هذه الآية ما جاء فى سورة آل عمران الآية ۹۲ حيث يقول: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ و طبعا هذه الآية ناظرة أكثر إلى الآثار المعنويّة للإنفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۱

و فى ختـام الآيـة يقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيـدٌ أى لاـ تنسوا أنّ اللّه لاـ حاجـة به لإنفـاقكم فهو غنىّ من كـلّ جهـة، بـل أنّ جميع المواهب و النعم تحت أمره و فى دائرة قدرته، و لذلك فهو حميد و مستحق للثناء و الحمد، لأنّه وضع كلّ هذه النعم بين أيديكم.

و احتمل البعض أنّ كلمـة (حميـد) تأتى هنا بمعنى اسم الفاعل (حامـد) لا بمعنى محمود، أى أنّه على الرغم من غناه عن إنفاقكم فإنّه يحمدكم على ما تنفقون.

ملاحظة

لا شكّ أنّ الإنفاق فى سبيل اللّه هو من أجل نيل القرب من ساحته المقدّسـة، و عند ما يريد الناس التقرّب إلى السـلاطين و أصـحاب النفوذ فإنّهم يقدّمون إليهم هدايا من أفضل أموالهم و أحسن ثرواتهم، فى حين أنّ هؤلاء السلاطين أناس مثلهم فكيف يتقرّب الإنسان إلى ربّه و خالقه و ربّ السـموات و الأرض لتقديم بعض أمواله الدنيئة كهديّة؟! فما نرى فى الأحكام الشـرعيّة من وجوب كون الزكاة و حتّى الهـدى فى الحـجّ من المرغوب و الجيّد يدخل فى دائرة هذا الإعتبار. و على كلّ حال يجب الالتزام و نشـر هذه الثقافة القرآنية بين صفوف المسلمين فى إنفاقهم الجيّد من الأموال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۸]

اشارة

الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۲۶۸)

التّفسير

مكافحة موانع الإنفاق:

تشير الآيـة هنا و تعقيبا على آيات الإنفاق إلى أحـد الموانع المهمّة للإنفاق، و هو الوساوس الشـيطانيّة التى تخوّف الإنسان من الفقر و العوز و خاصّة إذا أراد التصدّق بالأموال الطيّبة و المرغوبة، و ما اكثر ما منعت الوساوس الشـيطانيّة من الإنفاق المسـتحبّ فى سبيل اللّه و حتّى من الإنفاق الواجب كالزكاة و الخمس أيضا.

فتقول الآيـة فى هـذا الصدد الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ و يقول لكم: لا تنسوا مسـتقبل أطفالكم و تدبّروا فى غدكم، و أمثال هذه الوساوس المظلّة، و مضافا إلى ذلك يدعوكم إلى الإثم و ارتكاب المعصية وَ يَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاءِ.

(الفحشاء) تعنى كلّ عمل قبيح و شـنيع، و يكون المراد به فى سياق معنى الآية البخل و ترك الإنفاق فى كثير من الموارد حيث يكون نوع من المعصية و الإثم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۳

(رغم أنّ مفرده الفحشاء تعنى عادة الأعمال المنافية للعفّة و لكنّنا نعلم أنّ هذا المعنى لا يناسب السياق).

حتّى أنّ بعض المفسّرين صرّح بأنّ العرب يسمّون الشخص البخيل (فاحش)[۲۲۴].

و يحتمـل أيضـا أنّ الفحشـاء هنـا بمعنى إختيار الأموال الرديئـة و غير القابلـة للمصـرف و التصـدّق بها، و قيل أيضا: أنّ المراد بها كلّ معصية، لأنّ الشيطان يحمل الإنسان من خلال تخويفه من الفقر على اكتساب الأموال من الطرق غير المشروعة.

و التعبير عن وسوسـة الشـيطان بالأـمر وَ يَأْمُرُكُمْ إشـارة لنفس الوسوسـة أيضـا، و أساسـا فكلّ فكرة سـلبيّة و ضـيّقة و مانعـة للخير فإنّ مصدرها هو التسـليم مقابل وساوس الشـيطان، و فى المقابل فإنّ كلّ فكرة إيجابيّة و بنّاءة و ذات بعد عقلى فإنّ مصدرها هو الإلهامات الإلهيّة و الفطرة السليمة.

و لتوضـيح هـذا المعنى ينبغى أن نقول: إنّ النظرة الاولى إلى الإنفاق و بـذل المال توحى أنّه يؤدى إلى نقص المال، و هذه هى النظرة الشـيطانية الضـيّقة، و لكنّنـا بتـدقيق النظر نـدرك أن الإنفـاق هو ضـمان بقاء المجتمع، و تحكيم العـدل الاجتماعى، و تقليل الفواصـل الطبقية، و التقدّم العام.

و بديهىّ أنّ تقدّم المجتمع يعنى أنّ الأفراد الذين يعيشون فيه يكونون فى رخاء و رفاه، و هذه هى النظرة الواقعية الإلهيّة.

يريد القرآن بهذا أن يعلم الناس أنّ الإنفاق و إن بدأ فى الظاهر أنّه أخذ، و لكنّه فى الواقع عطاء لرؤوس أموالهم مادّيا و معنويا.

فى عالمنا اليوم حيث نشاهد نتائج الاختلافات الطبقية و المآسى الناتجة عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۴

الظلم و احتكار الثروة، نستطيع أن نفهم معنى هذه الآية بوضوح.

كمـا أنّ الآيـة تفيـد أيضـا أنّ هنـاك نوعـا من الارتبـاط بين ترك الإنفاق و الفحشاء. فإذا كانت الفحشاء تعنى البخل، فتكون علاقتها بترك الإنفـاق هو أنّ هـذا الترك يكرّس صـفة البخـل الذميمـة فى الإنسـان شـيئا فشـيئا. و إذا كـانت تعنى الإثم مطلقا أو الفحشاء فى الأـمور الجنسـية فـإن علامـة ذلـك بترك الإنفاق لا تخفى، إذ أنّ منشأ كثير من المعاصـى و الانحرافات الجنسـية هو الفقر و الحاجـة. يضاف إلى ذلك أن للإنفاق آثارا و نتائج معنوية مباركة لا يمكن إنكارها.

وَ اللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَ فَضْلًا.

جاء فى تفسـير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السّـلام: أنّ فى الإنفاق شـيئين من اللّه و شـيئين من الشيطان، فاللذان من اللّه هما غفران الذنوب و السعة فى المال، و اللذان من الشيطان هما الفقر و الأمر بالفحشاء».

و عليه فإنّ المقصود بالمغفرة هو غفران الذنوب، و المقصود بالفضل هو ازدياد رؤوس الأموال بالإنفاق، كما رواه ابن عبّاس.

و

قد جاء عن الإمام على أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «إذا أملقتم فتاجروا اللّه بالصدقة»[۲۲۵].

وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

فى هذا إشارة إلى أنّ للّه قدرة واسعة و علما غير محدود، فهو قادر على أن يفى بما يعد، و لا شكّ أنّ المرء يطمئّن إلى هذا الوعد، لا كالوعد الذى يعده الشيطان المخادع الضعيف الذى يجرّ المرء إلى العصيان، فالشيطان ضعيف و جاهل بالمستقبل، و لذلك ليس وعده سوى الضلال و التحريض على الإثم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۵

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۶۹]

اشارة

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۶۹)

التّفسير

أفضل النعم الإلهيّة:

مع الالتفات إلى ما تقدّم فى الآية السابقة التى تحدّثت عن تخويف الشيطان من الفقر و وعد الرحمن بالمغفرة و الفضل الإلهى، ففى هذه الآية مورد البحث دار الحديث عن الحكمة و المعرفة و العلم لأنّ الحكمة فقط هى التى يمكنّها التفريق و التمييز بين هذين الدافعين الرحمانى و الشيطانى و تدعوا الإنسان إلى ساحل المغفرة و الرحمة الإلهيّة و ترك الوساوس الشيطانيّة و عدم الاعتناء بالتخويف من الفقر.

و بعبارة اخرى، أنّنا نلاحظ فى بعض الأشخاص نوع من العلم و المعرفة بسبب الطهارة القلبيّة و رياضة النفس حيث تترتّب عليها آثار و فوائد جمّة، منها أن يدرك الشخص فوائد الإنفاق و دوره المهم و الحيوى فى المجتمع و يميّز بينه و بين ما تدعوه إليه وساوس الشيطان فتقول الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۶

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ.

و قد ذكر لكلمة (الحكمة) معان كثيرة منها (المعرفة و العلم بأسرار العالم) و منها (العلم بحقائق القرآن) و (الوصول إلى الحقّ بالقول و العمل) و (معرفة اللّه تعالى) و (أنّها النور الإلهى الذى يميّز بين وساوس الشيطان و إلهامات الرحمان).

و الظاهر هو أنّ الحكمة تأتى بالمعنى الواسع حيث تشمل جميع هذه الأمور بما فيها النبوّة التى هى نوع من العلم و الاطّلاع و الإدراك، فهى فى الأصل أخذت من مادة (حكم)- على وزن حرف- بمعنى المنع، و بما أنّ العلم و المعرفة و التدبير تمنع الإنسان من ارتباك الأعمال الممنوعة و المحرّمة، فلذا يقال عنها أنّها حكمة.

بديهىّ أنّ القصد من مَنْ يَشاءُ ليس إسباغ الحكمة على كلّ من هبّ و دبّ بغير حساب، بل أنّ مشيئة اللّه هى دائما منبعثة عن حكمة، أى أنّه يمنحها لمن يستحقّها، و يرويه من سلسبيل هذه العين الزلال.

وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

رغم أنّ واهب الحكمة هو اللّه فإنّ اسمه لم يرد فى هذه الآية و إنما بنى الفعل للمجهول وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ.

و لعلّ المقصود هو أنّ الحكمة أمر حسن بذاته بصرف النظر عن مصدرها و منشئها.

من الملاحظة أنّ الآية تقول: إذا نزلت الحكمة بساحة أحد فقد نزلت بساحته البركة و الخير الكثير لا الخير المطلق، لأنّ السعادة و الخير المطلق ليسا فى العلم وحده، بل العلم أهمّ عامل لهما.

وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

«التذكّر» هو حفظ العلوم و العارف فى داخل الروح. و الألباب جمع لب و هو قلب كلّ شيء و مركزه، و لهذا قيل العقل اللب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۷

تقول هذه الفقرة من الآية إنّ أصحاب العقول هم الذين يحفظون هذه الحقائق و يتذكّرونها. رغم أنّ جميع الناس ذو عقل- عدا المجانين- فلا يوصفون جميعا بأولى الألباب، بل هؤلاء هم الذين يستخدمون عقولهم فيشقّون طريقهم على ضوء نورها الساطع.

و نختم هذا البحث بكلام لأحد علماء الإسلام (و يحتمل أنّه مقتبس من كلام الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم) حيث يقول: قد يريد اللّه تعالى أحيانا تعذيب أمّة على الأرض و لكنّه يرى معلّما يعلّم الأولاد الحكمة فيرفع عن تلك الأمّة العذاب بسبب ذلك [۲۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۸

الآيتان [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۰ الى ۲۷۱]

اشارة

وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۲۷۰) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۷۱)

التّفسير

كيفيّة الإنفاق:

تحدّثت الآيات السابقة عن الإنفاق و بذل المال فى سبيل اللّه، و أن ينفق الشخص ذلك المال من الطيّب دون الخبيث، و أن يكون مشفوعا بالمحبّة و الإخلاص و حسن الخلق، أمّا فى هاتين الآيتين أعلاه فيدور الحديث عن كيفيّة الإنفاق و علم اللّه تعالى بذلك.

فيقول اللّه تعالى فى الآية الاولى: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ

تقول الآية: إنّ كلّ ما تنفقونه فى سبيل اللّه سواء كان قليلا أو كثيرا، جيّدا أم رديئا، من حلال اكتسب أم من حرام، مخلصا كان فى نيّته أم مرائيا، اتّبعه المن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۱۹

و الأذى أم لم يتبعه، أ كان الإنفاق ممّا أوجب اللّه تعالى عليه أم ممّا أوجبه الإنسان على نفسه بنذر و شبهه، فإنّ اللّه تعالى يعلم تفاصيله و يثيب عليه أو يعاقب.

و فى ختام الآية تقول: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (الظالمين) هنا إشارة إلى المحتكرين و البخلاء و المرائين و الّذين ينفقون بالمنّ و

الأذى، فإنّ اللّه تعالى لا ينصرهم، و سوف لا ينفعهم ما أنفقوا لا فى الدنيا و لا فى الآخرة.

أو أنّ المراد هم الأشخاص الّذين امتنعوا من الإنفاق إلى المحرومين و المعوزين، فإنّهم بذلك قد ظلموهم و ظلموا كذلك أنفسهم و مجتمعهم.

أو أنّهم الأشخاص الّذين لا ينفقون فى موارد الإنفاق، لأنّ مفهوم الظلم واسع يشمل كلّ عمل يأتى به الإنسان فى غير مورده، و بما أنّه لا منافاة بين هذه المعانى الثلاثة لذلك يمكن أن تدخل هذه المعانى فى مفهوم الآية بأجمعها.

أجل فهؤلاء ليس لهم ناصر فى الدنيا و لا شفيع فى الآخرة، و هذه النتيجة من الخصائص المترتّبة على الظلم و الجور بأىّ صورة كان.

و يستفاد من هذه الآية ضمنا مشروعيّة النذر و وجوب العمل بمؤدّاه، و هو من الأمور التى كانت موجودة قبل الإسلام و قد أمضاها الإسلام و أيدّها.

فى الآية الثانية إشارة إلى كيفيّة الإنفاق من حيث السرّ و العلن فتقول: إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

و سوف يعفو اللّه عنكم بذلك وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

بحوث

۱- لا شكّ أنّ لكلّ من الإنفاق العلنى و الإنفاق الخفىّ فى سبيل اللّه آثارا نافعة، فإذا كان الإنفاق واجبا فالإعلان عنه يشجع الآخرين على القيام بمثله، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۰

يرفع عن المنفق تهمة إهماله لواجبه.

أمّا إذا كان الإنفاق مستحبّا، فإنّه يكون فى الواقع أشبه بالدعاية و الإعلان العملى لحثّ الناس على فعل الخير، و مساعدة المحتاجين، و القيام بالأعمال الخيرية الاجتماعية العامّة.

أمّا الإنفاق الخفىّ البعيد عن الأنظار فلا شكّ أنّه أبعد عن الرياء و حبّ الظهور و خلوص النيّة فيه أكثر، خاصّة و أن مدّ يد العون إلى المحتاجين فى الخفاء يحفظ لهم ماء وجههم و كرامتهم، و لذلك تثنى الآية على كلا الأسلوبين.

و ذهب بعض المفسرين إلى أنّ الإخفاء يقتصر على الإنفاق المستحب، و أمّا الإنفاق الواجب كالزكاة و غيره فيفضّل فى حالة الجهر، و ليست هذه بقاعدة عامّة، بل تختلف باختلاف حالات الإنفاق.

ففى الحالات التى يكون فيها الجانب التشجيعى أكثر و لا يصادر فيها الإخلاص فالإظهار أولى، و فى الحالات التى يكون فيها المحتاجون من ذوى العزّة و الكرامة فإن حفظ ماء وجوههم يقتضى إخفاء الإنفاق، كما أنّه إذا خشى الرياء و عدم الإخلاص فالإخفاء أولى.

و قد جاء فى بعض الأحاديث أنّ الإنفاق الواجب يفضّل فيه الإظهار، و المستحبّ يفضّل فيه الإخفاء.

و

قد نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: الزكاة المفروضة تخرج علانية و تدفع علانية، و غير الزكاة إن دفعه سرّا فهو أفضل [۲۲۷].

إلّا أنّ هذه الأحاديث لا تتعارض مع ما قلناه آنفا، لأنّ أداء الواجب يكون أقلّ امتزاجا بالرياء، فهو واجب لا بدّ أن يؤدّيه كلّ مسلم فى محيط الاسلامى كالضريبة اللازمة التى يدفعها الجميع، و عليه فإنّ إظهار الإنفاق أفضل، أمّا الإنفاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۱

المستحبّ فليس إلزاميا لذلك، فإنّ إظهار إنفاقه قد يشوبه شيء من الرياء و عدم خلوص النيّة، فيكون الأجدر إخفاؤه.

۲- قوله: وَ يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ يوضّح أن للإنفاق فى سبيل اللّه أثرا فى غفران الذنوب، فالتكفير عن السيئات- أى تطغية الذنوب- كناية عن ذلك.

بديهىّ أنّ هذا لا يعنى أنّ إنفاق بعض المال يذهب بكلّ ذنوب الإنسان، و لذلك لا بدّ من ملاحظة استعمال «من» التبعيضية، أى أنّ الغفران يشمل قسما من ذنوب الإنسان، و أنّ هذا القسم يتناسب مع مقدار الإنفاق و ميزان الإخلاص.

هنالك أحاديث كثيرة بشأن غفران الذنوب بالإنفاق وردت عن أهل البيت عليهم السّلام و فى كتب أهل السنّة.

من ذلك:

«صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ و تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار»[۲۲۸].

كما

جاء أيضا: «سبعة يظلّهم اللّه فى ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العدل، و الشابّ الذى نشأ فى عبادة اللّه تعالى، و رجل قلبه يتعلّق بالمساجد حتّى يعود إليها، و رجلان تحابّا فى اللّه و اجتمعا عليه و افترقا عليه، و رجل دعته امرأة ذات منصب و جمال فقال إنّى أخاف اللّه تعالى، و رجل تصدّق فأخفاه حتّى لم تعلم يمينه ما تنفق شماله، و رجل ذكر اللّه خاليا ففاضت عيناه»[۲۲۹].

۳- يستفاد من جملة وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. هو أنّ اللّه عالم بما تنفقون سواء أ كان علانية أم سرّا، كما أنّه عالم بنيّاتكم و أغراضكم من إعلان إنفاقكم و من إخفائه. على كلّ حال أنّ الذى له تأثير فى الإنفاق هو النيّة الطاهرة و الخلوص فى العمل للّه وحده، لأنّه هو الذى يجزى أعمال العبد، و هو عالم بما يخفى و يعلن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۲

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۲]

اشارة

لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۲۷۲)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان عن ابن عبّاس أنّ المسلمين لم يرضوا بالإنفاق على غير المسلمين، فنزلت هذه الآية تجيز لهم ذلك عند الضرورة.

و هناك سبب نزول آخر لهذه الآية قريب من سبب النزول السابق. فقد جاء أنّ امرأة مسلمة تدعى «أسماء» كانت فى رحلة عمرة القضاء مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فجاءتها أمّها و جدّتها تطلبان بعض العون منها، و لكن لمّا كانتا من المشركين و عبدة الأصنام، فقد امتنعت أسماء عن مدّيد المساعدة إليهما، و قالت: لا بدّ أن استجيز رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك لأنكما لستما على دينى. و أقبلت إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم تستجيزه، فنزلت الآية المذكورة.

التّفسير

الإنفاق على غير المسلمين:

تحدّثت الآيات السابقة عن مسألة الإنفاق فى سبيل اللّه بشكل عام، و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۳

فى هـذه الآيـة الحـديث عن جواز الإنفـاق على غير المسـلمين، بمعنى أنّه لا ـ ينبغى ترك الإنفاق على المساكين و المحتاجين من غير المسلمين حتّى تشتدّ بهم الأزمة و الحاجة فيعتنقوا الإسلام بسبب ذلك.

تقول الآية لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ فلا يصحّ أن تجبرهم على الإيمان، و ترك الإنفاق عليهم نوع من الإجبار على دخولهم إلى الإسـلام، و هـذا الأسـلوب مرفوض، و رغم أنّ المخـاطب فى هـذه الآيـة الشـريفة هو النـبى الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم إلّا أنّه فى الواقع يستوعب كلّ المسلمين.

ثمّ تضيف الآية وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ و من تكون له اللياقة للهداية.

فبعد هذا التذكّر تستمر الآية فى بحث فوائد الإنفاق فى سبيل اللّه فتقول:

وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ

هـذا فى صورة ما إذا قلنا أنّ جملـة وَ ما تُنْفِقُونَ قـد أخذت هنا بمعنى النهى، فيكون معناها أنّ إنفاقكم لا ينفعكم شـيئا إلّا إذا كان فى سبيل اللّه تعالى.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة خبريّة، أى أنكم أيّها المسلمون لا تنفقون شيئا إلّا فى سبيل اللّه تعالى و كسب رضاه.

و فى آخر عبـارة من هـذه الآيـة الكريمـة نلاحظ تأكيـدا أكثر على مقـدار الإنفاق و كيفيّته حيث تقول الآيـة وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ

يعنى أنّكم لا ـ ينبغى أن تتصوروا أنّ إنفاقكم سـيعود عليكم بربـح قليل، بل أنّ جميع ما أنفقتم و تنفقون سـيعود إليكم كاملا، و ذلك فى اليوم الذى تحتاجون إليه بشدّة، فعلى هذا لا تتردّدوا فى الإنفاق أبدا.

و يسـتفاد من ظاهر هـذه الجملـة أنّ نفس المال المنفق سـيعود على صاحبه (لاثوابه) فيمكن أن تكون الآيـة دليلا على تجسّم الأعمال الذى سيأتى بحثه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۴

مفصّلا فى الآيات اللاحقة[۲۳۰].

بحوث

۱- الآيـة أعلاه تقول أنّ نعم اللّه و آلاـءه فى هـذا العالم كما أنّها تشـمل الجميع بغضّ النظر عن العقيـدة و الـدين، كـذلك ينبغى أن يشمل إنفاق المؤمنين المستحبّ رفع حاجات الناس غير المسلمين أيضا إذا اقتضت الضرورة.

و من الواضح أنّ الإنفاق على غير المسـلمين يجب أن يكون ذا طابع إنسانى ففى هذه الصورة يكون جائزا، لا ما إذا كان موجبا لتقوية الكفر و دعم خطط الأعداء المشؤومة.

۲- للهدايـة أنواع مختلفة: من الواضح أنّ المقصود من عدم وجوب هداية الناس على الرسول صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم لا يعنى أنّه غير مكلّف بإرشاد الناس و هـدايتهم لأنّ الإرشاد و الدعوة من أهم جوانب مسـئوليات النبى، و إنّما المقصود أنّه غير مكلّف بممارسـة الضغط و عوامل الإكراه لحمل الناس على اعتناق الإسلام.

و هل أنّ المقصود من هذه الهداية هو الهداية التكوينيّة أو التشريعيّة؟ لأن الهداية لها عدّة أنواع:

أ- الهدايـة التكوينيـة: و تعنى أنّ اللّه تعـالى خلق مجموعـة من عوامل التقـدّم و التكامل فى مختلف كائنات هـذا العالم، يشـمل ذلك الإنسان و جميع الكائنات الحيّة، بل حتّى الجمادات، و هذه العوامل تدفع الموجودات نحو تكاملها.

إنّ نموّ الجنين فى رحم أمّه و رشده، و نموّ البذرة فى الباطن الأرض و رشدها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۵

و حركـة السـيارات و المنظومات الشمسـية فى مـداراتها، و أمثال ذلك نماذج مختلفـة من الهدايـة التكوينيـة. و هـذا النوع من الهداية خاصّ باللّه تعالى، و وسائلها عوامل و أسباب طبيعيـة و ما وراء الطبيعيـة. يقول القرآن المجيـد: الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ۲۳۱].

ب- الهدايـة التوفيقيـة: و تعنى هدايـة الناس عن طرق التعليم و التربية، و القوانين، و الحكومات العادلة، و الموعظة و النصـيحة. و هذه الهداية يقوم بها الأنبياء و الأئمّة و الصالحون و المربّون المخلصون. و قد أشار القرآن إلى هذا بقوله:

ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۲۳۲].

ج- الهداية التوفيقية: و هى الهداية إلى تهيئة الوسائل و وضـعها فى متناول الأفراد لكى يستفيدوا منها حسبما يشاءون فى مظان التقدّم، كبناء المـدارس و المساجـد و معاهـد التربيـة، و إعداد الكتب و وضع الخطط و تدريب المربّين و المعلّمين المؤهّلين، و هذا النوع من الهداية يقع بين الهدايتين التكوينية و التشريعية. يقول القرآن: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۲۳۳].

د- الهدايـة نحو النعمـة و المثوبـة: و هـذه تعنى هدايـة الأفراد اللائقين للانتفاع بنتائـج أعمالهم الصالحـة فى العالم الآخر، و هى هداية تختصّ بالمؤمنين الصالحين. يقول القرآن: سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ ۲۳۴].

هذه الآية جاءت بعد ذكر تضحية الشهداء فى سبيل اللّه. واضح أنّ هذا النوع من الهداية ترتبط بتمتّع هؤلاء بثمار أعمالهم فى الآخرة.

الواقع أنّ هذه الأنواع الأربعة من الهداية تشكّل مراحل مختلفة متوالية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۶

لحقيقـة واحـدة. ففى البداية تكون الهداية التكوينية التى يهدى بها اللّه مخلوقاته و منها الإنسان الذى أودع فيه العقل و الفكر و القوى الأخرى.

يلى تلك الهداية هداية الأنبياء و الرسل الذين يهدون الناس إلى طريق الحقّ.

و الهداية هنا بمعنى الإرشاد و التبليغ.

ثمّ تأتى مرحلة العمل فيشمل اللّه مخلوقاته بتوفيقه فتتمهّد لهم سبل و طرائق تسير عليها نحو التكامل. و هذه هى هداية التوفيق.

و فى العالم الآخر ينالون جزاء أعمالهم الصالحات.

هدايـة الإرشاد و الـدعوة التى تشـكّل واحـدا من أنواع الهدايـة الأربعـة هى من واجبات الأنبياء و الأئمّة، و قسم منها ممّا يتناول تمهيد الطرق، يدخل معظمه ضمن واجبات الحكومات الإلهية للأنبياء و الأئمّة، و الباقى يختصّ باللّه تعالى.

و عليه حيثما نجد فى القرآن سلب الهداية عن أنبياء، فذلك لا يخصّ النوعين الأوّلين.

وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ.

و هى هداية لا تأتى ارتباطا بدون حكمة و لا حساب، أى أنّه لا يمكن أن يهدى بهذا و يحرم ذاك بغير سبب، فعلى الإنسان أن يكون جدير بالهداية لكى ينالها و يستفيد منها.

نسـتخلص من هـذه الآيـة حقيقـة أخرى، و هى أنّه يخـاطب نـبيّه قائلاـ: إذا ظهر بين المسـلمين- بعـد كـلّ ذلـك التحـذير من الإنفـاق المصـحوب بالريـاء و المنّ و الأـذى- أفراد مـا يزالون يلوّثون إنفـاقهم بهـذه الأمور، فلا يسؤك ذلك، إنّ واجبك هو بيان الأحكام و تهيئة المناخ الاجتماعى السليم، و ليس من واجبك أبدا أن تجبرهم على تجنّب هذه الأمور، و هذا التفسير لا يتنافى مع التفسير السابق،

فكلاهما محتملان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۷

۳- أثر الإنفاق فى حياة المنفق:

نلاحظ فى جملة وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ أنّ فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم، و بهذا تدفعهم نحو هذا العمل الإنسانى، و طبيعى أنّ الإنسان يزداد حماسا لممارسة علمه حين يعلم أنّ منافع هذا العمل تعود إليه.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ المنافع التى تعود على المنفق من إنفاقه هى ما يناله من ثواب فى الآخرة، هذا بالطبع صحيح، و لكن لا ينبغى أن يتصوّر أنّ نتائج الإنفاق أخروية فحسب، بل أنّ له منافع فى هذه الدنيا أيضا مادّية و معنوية.

ففائدته المعنوية هى أنّ روح البذل و الإنسانية و التضحية و الأخوّة تتربّى فى المنفق. و هذه فى الواقع وسيلة مؤثّرة فى تكامل شخصية الإنسان و تربيته.

أمّا فائدته المادّية فإنّ وجود أناس معدمين فقراء فى مجتمع ما يكون سببا فى أزمات اجتماعية خطرة قد تبتلع مبدأ الملكية نفسه فى ثورتها، فلا تبقى و لا تذر.

الإنفاق يقلّل من الفواصل الطبقيّة و يزل هذا الخطر الذى يهدّد الأفراد الأثرياء فى المجتمع، فالإنفاق يطفئ ليهب غضب الطبقات المحرومة و يقضى على روح الانتقام فى نفوسهم.

من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهميّة الاجتماعية و السلامة الاقتصادية و الجوانب المختلفة الماديّة و المعنوية.

۴- ما معنى وَجْهِ اللَّهِ

«وجه» بالإضافة إلى معناها المعروف قد تستعمل بمعنى ذات، و عندئذ وَجْهِ اللَّهِ تعنى ذات اللّه التى يجب أن يتوجّه إليها المنفقون فى إنفاقهم، و عليه فإنّ ورود كلمة «وجه» فى هذه الآية و فى غيرها إنّما يقصد به التوكيد، فمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۸

الواضح أنّ قولنا «لوجه اللّه» أو «لذات اللّه» أكثر تأكيدا من قولنا «للّه». فيكون المعنى أنّ الإنفاق للّه حتما لا لغير اللّه.

ثمّ إنّ الوجه أشرف جزء من أجزاء الجسم الظاهرة، ففيه أهمّ أعضاء الإنسان كالبصر و السمع و النطق. و لهذا حيثما استعملت كلمة «الوجه» كان القصد إيصال معانى الشرف و الأهميّة، و استعمالها هنا استعمال كناية يفهم منه الاحترام و الأهميّة، و إلّا فإنّ اللّه منزّه عن الصورة الجسدية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۲۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۳]

اشارة

لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۲۷۳)

سبب النّزول

نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: إنّ هذه الآية نزلت فى أصحاب «الصفّة».

و هم جمع نحو أربعمائة شخص من مسلمى مكّة و أطراف المدينة ممّن لم يكن لهم مأوى يأوون إليه فى المدينة، و لا قريب يؤويهم

فى منزله، فاتّخذوا من مسجد النبىّ منزلا معلنين استعدادهم للذهاب إلى ميادين الجهاد دائما، و لكن بما أنّ بقاءهم فى المسجد لم يكن ينسجم مع شؤونه فقد أمروا بالانتقال إلى «صفّة» دكّة عريضة كانت خارج المسجد. و نزلت الآية تحثّ المسلمين أن يغدقوا مساعداتهم على إخوتهم هؤلاء فأعانوهم ۲۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۰

صرّح بعض المفسّرين: «لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين، تركوا وراءهم أموالهم و أهليهم؛ و أقاموا فى المدينة و وقفوا أنفسهم على الجهاد فى سبيل اللّه، و حراسة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كأهل الصفة الذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يخلص إليها من دونهم عدو ...»[۲۳۶]

التّفسير

خير مواضع الإنفاق:

يبيّن اللّه فى هذه الآية أفضل مواضع الإنفاق، و هى التى تتّصف بالصفات التالية:

۱- لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أى الذين شغلتهم الأعمال الهامّة كالجهاد و محاربة العدو، و تعليم فنون الحرب، و تحصيل العلوم الأخرى، عن العمل فى سبيل الحصول على لقمة العيش كأصحاب الصفّة الذين كانوا خير مصداق لهذا الوصف ۲۳۷].

ثمّ للتأكيد تضيف الآية: لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ أى الذين لا يقدرون على الترحال لكسب العيش بالسفر إلى القرى و المدن الاخرى حيث تتوفر نعم اللّه تعالى. و عليه فإنّ القادرين على كسب معيشتهم يجب أن يتحمّلوا عناء السفر فى سبيل ذلك و أن لا يستفيدوا من ثمار أتعاب الآخرين إلّا إذا كانوا منشغلين بعمل أهمّ من كسب العيش كالجهاد فى سبيل اللّه.

۲- الذين يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ هؤلاء الذين لا يعرف الآخرون شيئا عن بواطن أمورهم، و لكنهم- لما فيهم من عفّة النفس و الكرامة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۱

يظنّون أنهم من الأغنياء.

و لكن هذا لا يعنى أنهم غير معروفين. لذا تضيف الآية تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ

السيماء: العلامة[۲۳۸]. فهؤلاء و إن لم يفصحوا بشىء عن حالهم، فإنّ على وجوههم علامات تنطق بما يعانون يدركها العارفون، فلون و جناتهم ينبئ عمّا خفى من أسرارهم.

۳- و الثالث من صفات هؤلاء أنهم لا يصرّون فى الطلب و السؤال: لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً[۲۳۹] أى أنّهم لا يشبهون الفقراء الشحّاذين الذين يلحّون فى الطلب من الناس، فهم يمتنعون عن السؤال فضلا عن الإلحاف، فالإلحاح فى السؤال شيمة ذوى الحاجات العاديّين، و هؤلاء ليسوا عاديّين. و قول القرآن إنّهم لا يلحفون فى السؤال لا يعنى أنّهم يسألون بدون إلحاف، بل يعنى أنّهم ليسوا من الفقراء العاديّين حتّى يسألوا، و لذلك لا تتعارض هذه الفقرة من الآية مع قوله تعالى: تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لأنّهم لا يعرفون بالسؤال.

ثمّة احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّهم إذا اضطرّتهم الحالة إلى إظهار عوزهم فإنّهم لا يلحفون فى السؤال أبدا، بل يكشفون عن حاجتهم بأسلوب مؤدّب أمام إخوانهم المسلمين.

وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

فى هذه الآية حثّ على الإنفاق، و على الأخصّ الإنفاق على ذوى النفوس العزيزة الأبية، لأنّ المنفقين إذا علموا أنّ اللّه عالم بما

ينفقون حتّى و إن كان سرّا و أنّه سوف يثيبهم على ذلك، فستزداد رغبتهم فى هذا العمل الكبير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۲

بحث

الاستجداء بدون حاجة حرام:

إنّ أحد الذنوب الكبيرة هو السؤال و الاستجداء و الطلب من الناس من دون حاجة، لذلك و قد ورد فى روايات متعدّدة النهى عن هذا العمل بشدّة،

ففى الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «لا تحل الصدقة لغنى».

و ورد فى حديث آخر عنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من سأل و عنده ما يغنيه فإنّما يستكثر من جمرة جهنّم»

[۲۴۰] و كذلك

ورد فى الأحاديث الشريفة «أنّه لا تقبل شهادة من يسأل الناس بكفّه»[۲۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۷۴]

اشارة

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۷۴)

سبب النّزول

ورد فى أحاديث كثيرة أنّ هذه الآية الشريفة نزلت فى علىّ عليه السّلام لأنّه كان لديه أربعة دراهم فأنفق منها درهما فى الليل و آخر فى النهار و ثالث علانيّة و رابع ۲۴۲] خفية، فنزلت هذه الآية، و لكن من الواضح أنّ نزول الآية فى مورد خاصّ لا يحدّد مفهوم تلك الآية و لا ينفى شموليّة الحكم لغيره من الموارد.

التّفسير

الإنفاق محمود بكلّ أشكاله:

فى هذه الآية يدور الحديث أيضا عن مسألة اخرى ممّا يرتبط بالإنفاق فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۴

سبيل اللّه و هى الكيفيّات المتنوّعة و المختلفة للإنفاق فتقول الآية: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ سِرًّا وَ عَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و من الواضح أنّ انتخاب أحد هذه الطرق المختلفة يتمّ مع رعاية الشرائط الأفضل للإنفاق، يعنى أنّ المنفق يجب عليه مراعاة الجوانب

الأخلاقية و الاجتماعية فى إنفاقه اللّيلى أو النهارى العلنى أو السرّى، فحين لا يكون ثمّة مبرّر لإظهار الإنفاق على المحتاجين فينبغى أن يكون فى الخفاء لحفظ كرامة المحتاجين و تركيزا لإخلاص النيّة.

و إذا تطلّبت المصلحة إعلان الإنفاق كتعظيم الشعائر الدينيّة و الترغيب و الحثّ على الإنفاق دون أن يؤدّى ذلك إلى هتك حرمة أحد من المسلمين، فليعلن عنه (كالإنفاق فى الجهاد و المراكز الخيريّة و أمثال ذلك).

و لا يبعد أن يكون تقديم اللّيل على النهار و السرّ على العلانية فى الآية مورد البحث إشارة إلى أنّ صدقة السرّ أفضل إلّا أن يكون هناك موجب لإظهاره رغم أنّه لا ينبغى نسيان الإنفاق على كلّ حال.

و من المسلّم أنّ الشىء الذى يكون عند اللّه (و خاصّة بالنظر إلى صفة الربوبيّة الناظرة إلى التكامل و النمو) لا يكون شيئا قليلا و غير ذا قيمة، بل يكون متناسبا مع ألطاف اللّه تعالى و عناياته التى تتضمّن بركات الدنيا و كذلك حسنات الآخرة و القرب إلى اللّه تعالى.

ثمّ تضيف الآية وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

إنّ الإنسان يعلم أنّه لكى يدبّر أموره المعاشية و الحياتية يحتاج إلى المال و الثروة، فإذا فقد ثروته ينتابه الحزن على ذلك، و يشتدّ به الخوف على مستقبله، لأنّه لا يعلم ما ينتظره فى مقبلات الأيام. هذه الحالة غالبا ما تمنع الإنسان من الإنفاق، إلّا الذين يؤمنون من جهة بوعود اللّه و يعرفون من جهة اخرى آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۵

الإنفاق الاجتماعية. فهؤلاء لا ينتابهم الخوف و القلق من الإنفاق فى سبيل اللّه على مستقبلهم و لا يحزنون على نقص أموالهم بالإنفاق، لأنّهم يعلمون أنّهم بإزاء ما أنفقوه سوف ينالون أضعافه من فضل اللّه و بركات إنفاقهم الفردية و الاجتماعية و الأخلاقية فى الدنيا و الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۵ الى ۲۷۷]

اشارة

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۷۵) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِى الصَّدَقاتِ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (۲۷۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۲۷۷)

التّفسير

الربا فى القرآن:

فى الآيات التى مضت كان الكلام على الإنفاق و بذل المال لمساعدة المحتاجين و فى سبيل رفاه المجتمع. و فى هذه الآيات يدور الكلام على الربا الذى يقف فى الجهة المضادّة للإنفاق، و الواقع هو أنّ هذه الآيات تكمل هدف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۷

الآيات السابقة، لأنّ تعاطى الربا يزيد من الفواصل الطبقية و يركّز الثروة فى أيدى فئة قليلة، و يسبّب فقر الأكثرية، و الإنفاق سبب

طهارة القلوب و النفوس و استقرار المجتمع، و الربا سبب البخل و الحقد و الكراهية و الدنس.

هذه الآيات شديدة و صريحة فى منع الربا، و لكن يبدو منها أنّ موضوع الربا قد سبق التطرّق إليه. فإذا لا حظنا تاريخ نزول هذه الآيات تتّضح لنا صحّة ذلك، فبحسب ترتيب نزول القرآن، السورة التى ورد فيها ذكر الربا لأول مرّة هى سورة الروم، و هى السورة الثلاثون التى نزلت فى مكّة، و لا نجد فى غيرها من السور المكّية إشارة إلى الربا.

لكن الحديث عن الربا فى السورة المكّية جاء على شكل نصيحة أخلاقية وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِى أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ [۲۴۳].

أى أنّ قصيرى النظر قد يرون أنّ الثروة تزداد بالربا، و لكنّه لا يزداد عند اللّه.

ثمّ بعد الهجرة، تناول القرآن الربا فى ثلاث سور أخرى من السور التى نزلت فى المدينة و هى بالترتيب: سورة البقرة، و سورة آل عمران، و سورة النساء. و على الرغم من أنّ سورة البقرة قد نزلت قبل سورة آل عمران، فلا يستبعد أن تكون الآية ۱۳۰ من سورة آل عمران- و هى التى تحرّم الربا تحريما صريحا- قد نزلت قبل سورة البقرة و الآيات المذكورة أعلاه.

على كلّ حال، هذه الآية و سائر الآيات التى تخصّ الربا نزلت فى وقت كان فيه تعاطى الربا قد راج بشدّة فى مكّة و المدينة و الجزيرة العربية حتّى غدا عاملا مهمّا من عوامل الحياة الطبقية، و سببا من أهمّ أسباب ضعف الطبقة الكادحة و طغيان الأرستقراطية، لذلك فإنّ الحرب التى أعلنها القرآن على الربا تعتبر من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۸

أهمّ الحروب الاجتماعية التى خاضها الإسلام.

يقول تعالى:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَما يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ۲۴۴] الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِ

فالآية تشبّه المرابى بالمصروع أو المجنون الذى لا يستطيع الاحتفاظ بتوازنه عند السير، فيتخبّط فى خطواته.

و لعلّ المقصود هو وصف طريقة «سير المرابين الاجتماعى» فى الدنيا على اعتبار أنّهم أشبه بالمجانين فى أعمالهم، فهم يفتقرون إلى التفكير الاجتماعى السليم، بل أنّهم لا يشخّصون حتّى منافعهم الخاصّة، و أنّ مشاعر المواساة و العواطف الإنسانية و أمثالها لا مفهوم لها فى عقولهم إذ أنّ عبادة المال تسيطر على عقولهم إلى درجة أنّها تعميهم عن إدراك ما ستؤدّى إليه أعمالهم الجشعة الاستغلالية من غرس روح الحقد فى قلوب الطبقات المحرومة الكادحة و ما سيعقب ذلك من ثورات و انفجارات اجتماعية تعرض أساس الملكية للخطر، و فى مثل هذا المجتمع سينعدم الأمن و الاستقرار، و ستصادر الراحة من جميع الناس بمن فيهم هذا المرابى، و لذلك فإنّه يجنى على نفسه أيضا بعمله الجنونى هذا.

و لكن بما أنّ وضع الإنسان فى العالم الآخر تجسيد لأعماله فى هذا العالم فيحتمل أن تكون الآية إشارة إلى المعنيين. أى أنّ الذين يقومون فى الدنيا قياما غير معتقّل و غير متوازن يخالطه اكتناز جنونى للثروة سيحشرون يوم القيامة كالمجانين.

الطريف الروايات و الأحاديث تشير إلى كلا المفهومين. ففى حديث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۳۹

الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «آكل الربا لا يخرج من الدنيا حتّى يتخبّطه الشيطان» [۲۴۵].

و

فى رواية أخرى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشأن تجسيد حال المرابين الذين لا يهمّهم غير مصالحهم الخاصّة، و ما ستجرّه عليهم أموالهم المحرّمة قال: «لمّا أسرى بى إلى السماء رأيت قوما يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه،

فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل! قال: هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذى يتخبّطه الشيطان من المس»[۲۴۶].

الحديث الأوّل يبيّن اضطراب الإنسان فى هذه الدنيا، و يعكس الحديث الثانى حال المرابين فى مشهد يوم القيامة، و كلاهما يرتبطان بحقيقة واحدة، فكما أنّ الإنسان المبطان الأكول يسمن بإفراط و بغير حساب، كذلك المرابون الذين يسمنون بالمال الحرام لهم حياة اقتصادية مريضة تكون وبالا عليهم.

سؤال: هل الجنون و الصرع اللذين أشارت إليهما الآية المذكورة من عمل الشيطان، مع أنّنا نعلم أنّ الصرع و الجنون من الأمراض النفسية التى لها أسباب معروفة فى الغالب؟

الجواب: يرى بعضهم أنّ تعبير «مسّ الشيطان» كناية عن الأمراض النفسية و الجنون، و هو تعبير كان شائعا عند العرب، و لا يعنى أنّ للشيطان تأثيرا فعليا فى روح الإنسان.

و لكن مع ذلك لا يستبعد أن يكون لبعض الأعمال الشيطانية التى يرتكبها الإنسان دون تروّ أثر يؤدّى إلى نوع من الجنون الشيطانى، أى يكون للشيطان على إثر هذه الأعمال فاعلية فى الشخص يسبّب اختلال تعادله النفسى. ثمّ إنّ الأعمال الشيطانية الخاطئة إذا تكرّرت و تراكمت يكون أثرها الطبيعى هو أن يفقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۰

الإنسان قدرته على تمييز من السقيم من السليم و الصالح من الطالح و التفكير المنطقى من المعوج.

منطق المرابين:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا.

هذه الآية تبيّن منطق المرابين فهم يقولون: ما الفرق بين التجارة و الربا؟

و يقصدون أنّ كليهما يمثّلان معاملة تبادل بتراضى الطرفين و اختيارهما.

يقول القرآن جوابا على ذلك: وَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَ حَرَّمَ الرِّبا و لم يزد فى ذلك شرحا و تفصيلا، ربما لوضوح الاختلاف:

فأوّلا: فى صفقة البيع و الشراء يكون كلا الطرفين متساويين بإزاء الربح و الخسارة، فقد يربح كلاهما، و قد يخسر كلاهما، و مرّة يربح هذا و يخسر ذاك، و مرّة يخسر هذا و يربح ذاك، بينما فى المعاملة الربوية لا يتحمّل المرابى أيّة خسارة، فكلّ الخسائر المحتملة يتحمّل ثقلها الطرف الآخر، و لذلك نرى المؤسّسات الربوية تتوسّع يوما فيوما، و يكبر رأس مالها بقدر اضمحلال و تلاشى الطبقات الضعيفة.

و ثانيا: فى التجارة و البيع و الشراء يسير الطرفان فى «الإنتاج و الاستهلاك»، بينما المرابى لا يخطو أيّة خطوة إيجابية فى هذا المجال.

و ثالثا: بشيوع الربا تجرى رؤوس الأموال مجرى غير سليم و تتزعزع قواعد الإقتصاد الذى هو أساس المجتمع، بينما التجارة السليمة تجرى فيها رؤوس الأموال فى تداول سليم.

و رابعا: الربا يتسبّب فى المخاصمات و المنازعات الطبقية، بينما التجارة السليمة لا تجرّ المجتمع إلى المشاحنات و الصراع الطبقى.

فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۱

تقول الآية إنّ من بلغته نصيحة اللّه بتحريم الربا و اتّعظ فله الأرباح التى أخذها من قبل «أى أنّ القانون ليس رجعيا» لأنّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل و الاضطرابات فى حياة الناس، و لذلك فإنّ القوانين تنفّذ عادة من تاريخ سنّها.

و هذا لا يعنى بالطبع أنّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية، بل المقصود إباحة ما جنوه من

أرباح قبل نزول الآية.

ثمّ يقول وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ أى أنّ النظر إلى أعمال هؤلاء يوم القيامة يعود إلى اللّه، و إن كان ظاهر الآية يدلّ على أنّ مستقبل هؤلاء من حيث معاقبتهم أو العفو عنهم غير واضح، و لكن بالتوجّه إلى الآية السابقة نفهم أنّ القصد هو العفو. و يظهر من هذا أنّ إثم الربا من الكبر بحيث إنّ حكم العفو عن الذين كانوا يتعاطونه قبل نزول الآية لا يذكر صراحة.

وردت احتمالات اخرى فى معنى هذه الجملة، أعرضنا عن ذكرها كونها خلاف الظاهر[۲۴۷].

وَ مَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

أى أنّ من يواصل تعاطى الربا على الرغم من كلّ تلك التحذيرات، فعليه أن ينتظر عذابا أليما فى النار دائما.

إنّ العذاب الخالد لا يكون نصيب من آمن باللّه. لكن الآية تعد المصرّين على الربا بالخلود فى النار، ذلك لأنّهم بإصرارهم هذا يحاربون قوانين اللّه، و يلجّون فى ارتكاب الإثم، و هذا دليل على عدم صحّة إيمانهم، و بالتالى فهم يستحقّون الخلود فى النار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۲

كما يمكن القول إنّ خلود العذاب هنا كما فى الآية ۹۳ من سورة النساء، يعنى العذاب المديد الطويل الأمد لا الأبدىّ الدائم.

ثمّ أن الآية التالية تبيّن الفرق بين الربا و الصدقة و تقول:

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ

ثمّ يضيف: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ يعنى الذين تركوا ما فى الصدقات من منافع طيبة و التمسوا طريق الربا الذى يوصلهم إلى نار جهنم.

«المحق» النقصان التدريجى. و «الربا» هو النموّ التدريجى. فالمرابى بما لديه من رأسمال و ثروة يستحوذ على أتعاب الطبقة الكادحة، و قد يؤدّى عمله هذا إلى القضاء عليهم، أو يبذر على الأقل بذور العداء و الحقد فى قلوبهم بحيث يصبحون بالتدريج متعطّشين إلى شرب دماء المرابين و يهدّدون أموالهم و أرواحهم. فالقرآن يقول إنّ اللّه يسوق رؤوس الأموال الربوية إلى الفناء.

إنّ هذا الفناء التدريجى الذى يحيق بالفرد المرابى يحيق بالمجتمع المرابى أيضا.

و بالمقابل، فالأشخاص الذين يتقدّمون إلى المجتمع بقلوب مليئة بالعواطف الإنسانية و ينفقون من رؤوس أموالهم و ثرواتهم يقضون بها حاجات المحتاجين من الناس يحظون بمحبّة الناس و عواطفهم عموما، و أموال هؤلاء فضلا عن عدم تعرّضها لأىّ خطر تنمو بالتعاون العامّ نموّا طبيعيا. و هذا ما يعنيه القرآن بقوله:

وَ يُرْبِي الصَّدَقاتِ

و هذا الحكم يجرى فى الفرد كما يجرى فى المجتمع. فالمجتمع الذى يعنى بالحاجات العامّة تتحرّك فيه الطاقات الفكرية و الجسمية للطبقة الكادحة التى تؤلّف أكثرية المجتمع و تبدأ العمل، و على أثر ذلك يظهر إلى حيّز الوجود ذلك النظام الاقتصادى القائم على التكافل و تبادل المنافع العامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۳

وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ

«الكفّار» من الكفور، بوزن فجور، و هو المغرق فى نكران الجميل و الكفر بالنعمة، و «الأثيم» هو الموغل فى ارتكاب الآثام.

هذه الفقرة من الآية تشير إلى أنّ المرابين بتركهم الإنفاق و الإقراض و البذل فى سبيل رفع الحاجات العامّة يكفرون بما أغدق اللّه عليهم من النعم، بل أكثر من ذلك يسخّرون هذه النعم على طريق الإثم و الظلم و الفساد، و من الطبيعى أنّ اللّه لا يحبّ أمثال هؤلاء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم اللّه هناك أناس من المؤمنين تركوا حبّ الذات، و أحيوا عواطفهم الفطرية، و ارتبطوا باللّه

بإقامة الصلاة، و أسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، و بذلك يحولون دون تراكم الثروة و ظهور الاختلاف الطبقى المؤدّى إلى الكثير من الجرائم. هؤلاء ثوابهم محفوظ عند اللّه و يرون نتائج أعمالهم فى الدنيا و الآخرة.

ثمّ إنّ هؤلاء لا يعرفون القلق و الحزن، و لا يهدّدهم الخطر الذى يتوجّه إلى المرابين من قبل ضحاياهم فى المجتمع.

و أخيرا فإنّهم يعيشون فى اطمئنان تام وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة البقرة (۲): الآيات ۲۷۸ الى ۲۸۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۷۸) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ (۲۷۹) وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۸۰) وَ اتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۸۱)

سبب النّزول

جاء فى تفسير على بن إبراهيم ۲۴۸] أنّه بعد نزول آيات الربا جاء «خالد بن الوليد» إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: كانت لأبى معاملات ربوية مع بنى ثقيف، فمات و لم يتسلّم دينه، و قد أوصانى أن أقبض بعض الفوائد التى لم تدفع بعد. فهل يجوز لى ذلك؟ فنزلت الآيات المذكورة تنهى الناس عن ذلك نهيا شديدا.

و فى رواية أخرى أنّه بعد نزول هذه الآية قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا كلّ ربا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۵

من ربا الجاهلية موضوع، و أول ربا أضعه ربا العبّاس بن عبد المطّلب»

[۲۴۹].

يتضح من هذا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى حملته لإلغاء الديون الربوية فى الجاهلية قد بدأ بأقربائه أوّلا. و إذا كان بينهم أشخاص أثرياء مثل العبّاس ممّن كانوا مثل غيرهم يتعاطون الربا فى الجاهليّة، فقد ألغى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم- أوّلا- ربا هؤلاء.

و جاء فى الروايات أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد نزول هذه الآيات امر أمير مكّة بأنه لو استمر آل المغيرة الذين كانوا معروفين بالربا فى عملهم فليقاتلهم ۲۵۰].

التّفسير

اشارة

فى الآية الأولى يخاطب اللّه المؤمنين و يأمرهم بالتقوى ثمّ يأمرهم أن يتنازعوا عمّا بقى لهم فى ذمّة الناس من فوائد ربوية.

يلاحظ أنّ الآية بدأت بذكر الإيمان باللّه و اختتمت بذكره، ممّا يدلّ بوضوح على عدم انسجام الربا مع الإيمان باللّه.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ

تتغيّر فى هـذه الآية لهجة السياق القرآنى، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح و تعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكلّ شدة، و تنذرهم بلهجة صارمة أنّهم إذا واصلوا عملهم الربوى و لم يستسلموا لأوامر اللّه فى الحقّ و العدل و استمرّوا فى امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا يسع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أن يتوسّل بالقوّة لإيقافهم عند حدّهم و إخضاعهم للحق، و هذا بمثابة إعلان الحرب عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۶

و هى الحرب التى تنطلق من قانون: فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ ۲۵۱].

لذلك عند ما سمع الإمام الصادق عليه السّلام أنّ مرابيا يتعاطى الربا بكلّ صراحة و يستهزئ بحرمته هدّده بالقتل.

و يستفاد من هـذا الحديث أن حكم القتل إنّما هو لمنكر تحريم الربا. فَأْذَنُوا من مادة «اذن» و كلما كانت متعدية بالأمر بالمعنى هو السماح و إذا تعدت بالياء فتعنى العلم فعلى هذا يكون قوله فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ۲۵۲] يعنى أعلموا أنّ اللّه و رسوله سيحاربوكم و هذا فى الحقيقة بمثابة إعلان الحرب على هـذه الفئة، فعلى هذا ليس من الصحيح ما ذهب إليه البعض فى معنى هذه الآية بأنه «اسمحوا بإعلان الحرب من اللّه».

عن أبى بكير قال: بلغ أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام عن رجل أنّه كان يأكل الربا و يسمّيه اللبأ.

فقال: لئن أمكننى اللّه منه لأضربنّ عنقه ۲۵۳].

يتّضح من هذا أنّ هذا الحكم يخصّ الذين ينكرون تحريم الربا فى الإسلام.

على كلّ حال يستفاد من هذه الآية أنّ للحكومة الإسلامية أن تتوسّل بالقوّة لمكافحة الربا[۲۵۴].

وَ إِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ

أمّا إذا تبتم و رجعتم عن غيّكم و تركتم تعاطى الربا فلكم أن تتسلّموا من الناس المدينين لكم رؤوس أموالكم فقط «بغير ربح». و هذا قانون عادل تماما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۷

لأنّه يحول دون أن تظلموا الناس و دون أن يصيبكم ظلم.

إنّ تعبير لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ و إن كان قد جاء بشأن المرابين، و لكنّه فى الحقيقة شعار إسلامى واسع و عميق، يعنى أنّ المسلمين بقدر ما يجب عليهم تجنّب الظلم، يجب عليهم كذلك أن لا يستسلموا للظلم. و فى الحقيقة لو قلّ الذين يتحمّلون الظلم لقلّ الظالمون أيضا، و لو أنّ المسلمين أعدّوا العدّة الكافية للدفاع عن حقوقهم لما تمكّن أحد أن يعتدى على تلك الحقوق و يظلمهم. فقبل أن نقول الظالم: لا تظلم، علينا أن نقول المظلوم: لا تستسلم للظلم.

وَ إِنْ كانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ[۲۵۵].

استكمالا لبيان حقّ الدائن فى الحصول على رأسماله «بدون ربح» تبيّن الآية هنا حقّا من حقوق المدين إذا كان عاجزا عن الدفع، ففضلا عن عدم جواز الضغط عليه و فرض فائدة جديدة عليه كما كانت الحال فى الجاهلية، فهو حقيق بأن يمهل مزيدا من الوقت لتسديد أصل الدين عند القدرة و الاستطاعة.

إنّ القوانين الإسلامية التى جاءت لتوضيح مفهوم هـذه الآية تمنع الدائن من استيلاء على دار المدين و أمتعته الضرورية اللازمة لقاء دينه، إنّما للدائن أن يأخذ الزائد على ذلك. و هذا قانون صريح و إنسانى يحمى حقوق الطبقات الفقيرة فى المجتمع.

وَ أَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ و هـذه فى الواقع خطوة أبعد من المسائل الحقوقية. أى أنّها مسألة أخلاقية و إنسانية تكمل

البحث الحقوقى المتقدّم.

تقول الآية للدائنين أن الأفضل من كلّ ما سبق بشأن المدين العاجز عن الدفع هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۸

ان يخطو الدائن خطوة إنسانية كبيرة فيتنازل للمدين عمّا بقى له بذمّته، فهذا خير عمل إنسانى يقوم به، و كلّ من يدرك منافع هذا الأمر يؤمن بهذه الحقيقة.

من المألوف فى القرآن أنّه بعد بيان تفاصيل الأحكام و جزئيّات الشريعة الإسلامية يطرح تذكيرا عامّا شاملا يؤكّد به ما سبق قوله، لكى تنفذ الأحكام السابقة نفوذا جيّدا فى العقل و النفس.

لذلك فإنّه فى هذه الآية يذكّر الناس بيوم القيامة و يوم الحساب و الجزاء، و يحذّرهم من اليوم الذى ينتظرهم حيث يوضع أمام كلّ امرئ جميع أعماله دون زيادة و لا نقصان، و كلّ ما حفظ فى ملفّ عالم الوجود يسلّم إليه دفعة واحدة، عندئذ تهوله النتائج التى تنتظره. و لكن ذلك حصيلة ما زرعه بنفسه و ما ظلمه فيه أحد، إنّما هو نفسه ظلم نفسه وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

جدير بالذكر أنّ هذه الآية من الأدلّة الأخرى على تجسّد أعمال الإنسان فى العالم الآخر.

و مما يلفت النظر أنّ تفسير «الدرّ المنثور» ينقل بطرق عديدة أنّ هذه الآية هى آخر آية نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا يستبعد هذا إذا أخذنا مضمونها بنظر الاعتبار.

و هذا لا يتناقض مع كون سورة البقرة ليست آخر سورة نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ بعض الآيات كما نعلم كانت توضع فى سورة سابقة عليها أو لا حقة لها، و ذلك بأمر النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه.

أضرار الربا

۱- الربا يخلّ بالتوازن الاقتصادى فى المجتمع، و يؤدى إلى تراكم الثروة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۴۹

لدى فئة قليلة، لأنّ هذه الفئة هى وحدها التى تستفيد من الأرباح بينما لا يجنى الآخرون سوى الخسائر و الأضرار و الضغوط.

الربا يشكّل اليوم أهم عوامل اتّساع الهوة المستمر بين الدول الغنية و الدول الفقيرة، و ما يعقب ذلك من حروب دموية طاحنة.

۲- الربا لون من ألوان التبادل الاقتصادى غير السليم، يضعف العلائق العاطفية، و يغرس روح الحقد فى القلوب، ذلك لأنّ الربا يقوم فى الواقع على أساس أنّ المرابى لا ينظر إلّا إلى أرباحه، و لا يهمّه الضرر الذى يصيب المدّين.

هنا يبدأ المدين بالاعتقاد بأنّ المرابى يتّخذ من أمواله وسيلة لتدمير حياة الآخرين.

۳- صحيح أنّ دافع الربا يرضخ لعمله هذا نتيجة حاجة قد ألجأته إلى ذلك.

و لكنّه لن ينسى هذا الظلم أبدا، و قد يصل به الأمر إلى الإحساس بأصابع المرابى تشدّد من ضغطها على عنقه و تكاد تخنقه. و فى هذه الحالة تبدأ كلّ جوارح المدين المسكين ترسل اللعنات على المرابى، و يتعطّش لشرب دمه. إنّه يرى بأمّ عينيه كيف أنّ حاصل شقاءة و تعبه و ثمن حياته يدخل إلى جيب هذا المرابى، فى مثل هذه الحالة الهائجة ترتكب عشرات الجرائم المرعبة، فقد يقدم المدين على الانتحار، و قد تدفعه حالته اليائسة إلى أن يقتل المرابى شرّ قتلة، و قد ينفجر الشعب المضطهد انفجارا عامّا فى ثورة عارمة.

إنّ انفصام علائق التعاون بين الدول المرابية و الدول التى تستقرض منها بالربا واضح للعيان أيضا. إنّ الدول التى تجد ثرواتها تصبّ فى خزائن دولة أخرى باسم الربا تنظر دون شكّ بعين البغض و الحقد إلى الدولة المرابية، و فى الوقت الذى هى تستقرض منها

لحاجتها الماسة فإنّها تتحيّن الفرصة للإعراب عن نقمتها و كرهها بشتّى الوسائل و الطرق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۰

و هـذا هو الـذى يحـدونا إلى القول بـأنّ للربا أثرا أخلاقيا سـيئا جـدّا فى نفسـيّة المـدين و يثير فى قلبه الكره و الضـغينة، و يفصم عرى التعاون الاجتماعى بين الأفراد و الملل.

۴- فى الأحاديث الإسـلامية إشارة إلى آثار الربا الأخلاقية السيئة وردت فى جملة قصيرة و لكنها عميقة المعنى. جاء فى كتاب «وسائل الشيعة» عن علّة تحريم الربا

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّما حرّم اللّه عزّ و جلّ الربا لكى لا يمتنع الناس عن اصطناع المعروف»

[۲۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَـدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى فَاكْتُبُوهُ وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَـدْلِ وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَ لْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَـيْئاً فَإِنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَـفِيهاً أَوْ ضَـعِيفاً أَوْ لا يَسْـتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَـدْلِ وَ اسْتَشْـهِدُوا شَـهِيدَيْنِ مِنْ رِجـالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَـداءِ أَنْ تَضِـلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا وَ لا تَسْـئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِـرَةً تُـدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها وَ أَشْـهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۲۸۲)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۲

التّفسير

تدوين الأوراق التجارية:

بعـد أن شنّ القرآن على الربا و الاحتكار و البخل حربا شـعواء، وضع تعليمات دقيقـة لتنظيم الروابط التجاريـة و الاقتصادية، لكى تنمو رؤوس الأموال نموّا طبيعيا دون أن تعتريها عوائق أو تنتابها خلافات و منازعات.

تضع هذه الآية التى هى أطول آيات القرآن تسعة عشر بندا من التعليمات التى تنظّم الشؤون المالية، نذكرها على التوالى:[۲۵۷] ۱- إذا أقرض شـخص شـخصا أو عقـد صـفقة، بحيث كـان أحـدهما مـدينا، فلكى لاـ يقع أىّ سوء تفاهم و اختلاف فى المسـتقبل، يجب أن يكتب بينهما العقد بتفاصيله يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ

من الجدير بالذكر أنّه يسـتعمل كلمة «دين» هنا و لا يسـتعمل كلمة «قرض»، و ذلك لأنّ القرض هو تبادل شيئين متشابهين كالنقود أو البضاعة التى يقترضـها المقترض و يسـتفيد منها، ثمّ يعيد نقودا أو بضاعة إلى المقرض مثلا بمثل. أمّا «الدين» فأوسع معنى، فهو يشمل كلّ تعامل، مثل المصالحـة و الإيجار و الشـراء و البيع و أمثالها، بحيث إنّ أحـد الطرفين يصـبح مـدينا للطرف الآخر. و عليه فهذه الآية تشمل جميع المعاملات التى فيها دين يبقى فى ذمّة المدين، بما فى ذلك القرض.

۲- لكى يطمئن الطرفان على صحّة العقد و يأمنا احتمال تدخّل أحدهما فيه، فيجب أن يكون الكاتب شخصا ثالثا وَ لْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ

على الرغم من أنّ ظاهر الآية يدلّ على وجوب كتابة العقد، يتبيّن من الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۳

التالية فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ أنّ لزوم الكتابة يتحقّق إذا لم يطمئن الطرفان أحدهما إلى الآخر و احتمل حصول خلافات فيما بعد.

۳- على كاتب العقد أن يقف إلى جانب الحقّ، و أن يكتب الحقيقة الواقعة بِالْعَدْلِ

۴- يجب على كاتب العقد، الذى و هبه اللّه علما بأحكام كتابة العقود و شروط التعامل، أن لا يمتنع عن كتابة العقد، بل عليه أن يساعد طرفى المعاملة فى هذا الأمر الاجتماعى وَ لا يَأْبَ كاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ

إنّ تعبير كَما عَلَّمَهُ اللَّهُ حسب التفسير المذكور للتوكيد و لزيادة الترغيب.

و يمكن القول إنّه يشير إلى أمر آخر، و هو ضرورة التزامه الأمانة، و أن يكتب العقد، كما علّمه اللّه، كتابة متقنة.

بديهىّ أنّ قبول الدعوة إلى تنظيم العقود ليست واجبا عينيا، كما يتّضح من قوله سبحانه وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً.

۵- على أحد الطرفين أن يملى تفاصيل العقد على الكاتب. و لكن أىّ الطرفين؟ تقول الآية: المدين الذى عليه الحق: وَ لْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ

من المتّفق عليه أنّ التوقيع المهمّ فى العقد هو توقيع المدين، و لذلك فإنّ العقد الذى يكتب بإملائه يعتبر مستمسكا لا يمكنه إنكاره ۲۵۸].

۶- على المدين عند الإملاء أن يضع اللّه نصب عينيه، فلا يترك شيئا إلّا قاله ليكتبه الكاتب وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً.

۷- إذا كان المدين واحدا ممّن تنطبق عليه صفة «السفيه»، و هو الخفيف العقل الذى يعجز عن إدارة أمواله و لا يميّز بين ضرره و منفعته، أو «الضعيف» القاصر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۴

فكره و الضعيف فى عقله المجنون، أو «الأبكم و الأصم» الذى لا يقدر على النطق، فإنّ لوليّه أن يملى العقد فيكتب الكاتب بموجب إملائه فَإِنْ كانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ

۸- على «الولى» فى الإملاء و الاعتراف بالدّين، أن يلتزم العدل و أن يحافظ على مصلحة موكّله، و أن يتجنّب الابتعاد عن الحقّ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ

۹- بالإضافة إلى كتابة العقد، على الطرفين أن يستشهدا بشاهدين وَ اسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ ۲۵۹].

۱۰ و ۱۱- يجب أن يكون الشاهدان بالغين و مسلمين و هذا يستفاد من عبارة مِنْ رِجالِكُمْ أى ممّن هم على دينكم.

۱۲- يجوز اختيار شاهدتين من النساء و شاهد من الرجال فَإِنْ لَمْ يَكُونا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَ امْرَأَتانِ

۱۳- لا بدّ أن يكون الشاهدان موضع ثقة مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَداءِ. يتبيّن من هذه الآية أنّ الشهود يجب أن يكونوا ممّن يطمأنّ إليهم من جميع الوجوه، و هذه هى «العدالة» التى وردت فى الأخبار أيضا.

۱۴- و إذا كان الشاهدان من الرجال، فلكلّ منهما أن يشهد منفردا. أمّا إذا كانوا رجلا واحدا و امرأتين، فعلى المرأتين أن تدليا بشهادتهما معا لكى تذكّر إحداهما الاخرى إذا نسيت شيئا أو أخطأت فيه.

أمّا سبب اعتبار شهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحد، فهو لأنّ المرأة كائن عاطفى و قد تقع تحت مؤثّرات خارجية، لذلك فوجود امرأة أخرى معها يحول بينها و بين التأثير العاطفى و غيره: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۳۵۵

۱۵- و يجب على الشهود إذا دعوا إلى الشهادة أن يحضروا من غير تأخير و لا عذر كما قال: وَ لا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذا ما دُعُوا.

و هذا من أهم الأحكام الإسلامية و لا يقوم القسط و العدل إلّا به.

۱۶- تجب كتابة الدين سواء أ كان الدين صغيرا أو كبيرا، لأنّ الإسلام يريد أن لا يقع أىّ نزاع فى الشؤون التجارية، حتّى فى العقود الصغيرة التى قد تجرّ إلى مشاكل كبيرة وَ لا تَسْئَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلى أَجَلِهِ ۲۶۰] و السأم هو الملل من أمر لكثرة لبثه.

و تشير الآية هنا إلى فلسفة هذه الأحكام، فتقول إنّ الدقّة فى تنظيم العقود و المستندات تضمن من جهة تحقيق العدالة، كما أنّها تطمئن الشهود من جهة أخرى عند أداء الشهادة، و تحول من جهة ثالثة دون ظهور سوء الظنّ بين أفراد المجتمع ذلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنى أَلَّا تَرْتابُوا.

۱۷- إذا كان التعاقد نقدا فلا ضرورة للكتابة إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَلَّا تَكْتُبُوها.

«التجارة الحاضرة» تعنى التعامل النقدى، و «تديرونها» تعنى الجارية فى التداول لتوضيح معنى التجارة الحاضرة. و تعبير فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ يعنى: ليس هناك ما يمنع من كتابة العقود النقدية أيضا، و هو خير، لأنّه يزيل كلّ خطأ أو اعتراض محتملين فيما بعد.

۱۸- فى المعاملات النقدية و إن لم تحتج إلى كتابة عقد، لا بدّ من شهود:

وَ أَشْهِدُوا إِذا تَبايَعْتُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۳۵۶

۱۹- و آخر حكم تذكرة الآية هو أنّه ينبغى ألّا يصيب كاتب العقد و لا الشهود أىّ ضرر بسبب تأييدهم الحقّ و العدالة: وَ لا يُضَارَّ كاتِبٌ وَ لا شَهِيدٌ.

و الفعل «يضارّ» يعنى- كما فسّرناه- أن لا يصيب الكتاب و الشهود ضرر، أى أنّه مجهول. و لا حاجة إلى تفسيره بأنّه يعنى أن لا يصدر من الكاتب و الشهود ضرر فى الكتابة و الشهادة، بعبارة أخرى لا حاجة إلى اعتباره فعلا معلوما، لأنّ هذا التأكيد ورد فى فقرة سابقة من الآية.

ثمّ تقول الآية إنّه إذا آذى أحد شاهدا أو كاتبا لقوله الحق فهو إثم و فسوق يخرج المرء من مسيرة العبادة للّه: وَ إِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ

و فى الختام، و بعد كلّ تلك الأحكام، تدعو الآية الناس إلى التقوى و امتثال أمر اللّه: وَ اتَّقُوا اللَّهَ ثمّ تقول إنّ اللّه يعلّمكم كلّ ما تحتاجونه فى حياتكم الماديّة و المعنوية: وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ و هو يعلم كلّ مصالح الناس و مفاسدهم و يقرّر ما هو الصالح لهم: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

بحوث

۱- إنّ الأحكام الدقيقة المذكورة فى هذه الآية لتنظيم الأسناد و المعاملات و ذكر الجزئيّات أيضا فى جميع المراحل فى أطول آية من القرآن الكريم يبيّن الاهتمام الكبير الذى يليه القرآن الكريم بالنسبة للأمور الاقتصادية بين المسلمين و تنظيمها، و خاصّة مع الالتفات إلى أنّ هذا الكتاب قد نزل فى مجتمع متخلّف إلى درجة أنّ القراءة و الكتابة كانتا سلعة نادرة جدّا، و حتّى أنّ النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هو صاحب القرآن لم يكن قد درس شيئا و لم يذهب إلى مدرسة أو مكتب، و هذا بنفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۳۵۷

دليل على عظمة القرآن من جهة، و أهميّة النظام الاقتصادى للمسلمين من جهة اخرى.

يقول (على بن إبراهيم) فى تفسيره المعروف: جاء فى الخبر أنّ فى سورة البقرة خمسمائة حكم إسلامى و فى هذه الآية ورد خمسة

عشر حكما[۲۶۱].

و كما رأينا أنّ عدد أحكام هذه الآية يصل إلى تسعة عشر حكما، بل أنّنا إذا أخذنا بنظر الاعتبار الأحكام الضمنيّة لها فسيكون عدد الأحكام أكثر إلى حدّ أنّ الفاضل المقداد استفاد منها فى كتابه (كنز العرفان) واحدا و عشرين حكما بالإضافة إلى الفروع المتعدّدة الاخرى، فعلى هذا يكون قوله بأنّ عدد أحكام هذه الآية خمسة عشر حكما إنّما هو بسبب إدغام بعض أحكام هذه الآية بالبعض الآخر.

۲- إنّ جملة وَ اتَّقُوا اللَّهَ و جملة وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ رغم أنّها ذكرتا فى الآية بصوره مستقلّة و قد عطفت إحداهما على الاخرى، و لكنّ اقترانهما معا إشارة إلى الارتباط الوثيق بينهما، و مفهوم ذلك هو أنّ التقوى و الورع و خشية اللّه لها أثر عميق فى معرفة الإنسان و زيادة علمه و اطّلاعه.

أجل عند ما يتطّهر قلب الإنسان من الشوائب بوسيلة التقوى فسيغدوا كالمرآة الصافية تعكس الحقائق الإلهيّة، و هذا المعنى لا شكّ فيه و لا إشكال من جانبه المنطقى، لأنّ الصفات الخبيثة و الأعمال الذميمة تشكّل حجبا على فكر الإنسان و لا تدعه يرى وجه الحقيقة كما هى عليه، و عند ما يقوم الإنسان بإزاحة هذه الحجب بوسيلة التقوى فإنّ وجه الحقّ سيظهر و يتجلّى.

و لكنّ بعض الصوفيّين الجهلاء أساؤوا الاستفادة من هذا المعنى و جعلوه دليلا على ترك تحصيل العلوم الرسميّة فى حين أنّ هذا الكلام يخالف الكثير من آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۸

القرآن و الروايات الإسلامية الشريفة.

و الحقّ أنّ بعض العلوم يجب اكتسابها عن طريق العلم و التعلّم بالشكل السائد و المتعارف، و قسم آخر من العلوم الإلهيّة لا تتحصّل للإنسان إلّا بوسيلة تزكية القلب و تصفية الباطن بماء المعرفة و التقوى، و هذا هو النور الذى ورد فى الروايات أنّ اللّه يقذفه فى قلب من يليق بهذه الكرامة

«العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۳۵۹

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۵۹

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۳]

اشارة

وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸۳)

التّفسير

هذه الآية تكمل البحث فى الآية السابقة و تشتمل على احكام اخرى:

۱- عند التعامل إذا لم يكن هناك من يكتب لكم عقودكم، كأن يقع ذلك فى سفر، عندئذ على المدين أن يضع شيئا عند الدائن باسم الرهن لكى يطمئن الدائن وَ إِنْ كُنْتُمْ عَلى سَفَرٍ وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ.

قد يبدو من ظاهر الآية لأول وهلة أنّ تشريع «قانون الرهن» يختصّ بالسفر، و لكن بالنظر إلى الجملة التالية و هى وَ لَمْ تَجِدُوا كاتِباً يتبيّن أنّ القصد هو بيان نموذج لحاله لا- يمكن الوصول فيها إلى كاتب، و عليه فللطرفين أن يكتفيا بالرهن حتّى فى موطنهما. و كذلك وردت الأحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام. و فى المصادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۰

الشيعية و السنّيّة أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم رهن درعه فى المدينة عند شخص غير مسلم و اقترض منه مبلغا من المال [۲۶۲].

۲- يجب أن يبقى الرهن عند الدائن حتّى يطمئن فَرِهانٌ مَقْبُوضَةٌ.

جاء فى تفسير العيّاشى أنّ الإمام الصادق عليه السّلام قال: «لا رهن إلّا مقبوضة»[۲۶۳].

۳- جميع هذه الأحكام- من كتابة العقد، و استشهاد الشهود، و أخذ الرهن- تكون فى حالة عدم وجود ثقة تامّة بين الجانبين، و إلّا فلا حاجة إلى كتابة عقد، و على المدين أن يحترم ثقة الدائن به، فيسدّد دينه فى الوقت المعيّن، و أن لا ينسى تقوى اللّه فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ وَ لْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ

۴- على الذين لهم علم بما للآخرين من حقوق فى المعاملات أو فى غيرها، إذا دعوا للإدلاء بشهادتهم أن لا يكتموها، لأنّ كتمان الشهادة من الذنوب الكبيرة وَ لا تَكْتُمُوا الشَّهادَةَ وَ مَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ

طبيعىّ أنّ الشهادة تجب علينا إذا لم يستطع الآخرون إثبات الحقّ بشهادتهم، أمّا إذا ثبت الحقّ فيسقط وجوب الإدلاء بالشهادة عن الآخرين، أى أنّ أداء الشهادة واجب كفائى.

و بما أنّ كتمان الشهادة و الامتناع عن الإدلاء بها يكون من أعمال القلب، فقد نسب هذا الإثم إلى القلب ۲۶۴]، فقال: فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ و مرّة اخرى يؤكّد فى ختام الآية ضرورة ملاحظة الأمانة و حقوق الآخرين: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۱

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۴]

اشارة

لِلَّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۸۴)

التّفسير

مالك كلّ شيء:

هذه فى الحقيقة تكملة للجملة الأخيرة فى الآية السابقة و تقول: لِلَّهِ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ و لهذا السبب فهو يعلم جميع أفعال الإنسان الظاهريّة منها و الباطنيّة وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ

يعنى لا- ينبغى لكم أن تتصوروا أعمالكم الباطنيّة مثل كتمان الشهادة و الذنوب القلبيّة الاخرى سوف تخفى على اللّه تعالى الحاكم على الكون بأجمعه و المالك للسموات و الأرض، فإنّه لا يخفى عليه شيء، فلا عجب إذا قيل أنّ اللّه تعالى يحاسبكم على ذنوبكم القلبيّة و يجازيكم عليها فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ.

و يحتمل أيضا أنّ الآية أعلاه تشير إلى جميع الأحكام المذكورة فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۲

السابقة من قبيل الإنفاق الخالص و الإنفاق المشوب بالرياء أو المنّة و الأذى و كذلك الصلاة و الصوم و سائر الأحكام الشرعيّة و العقائد القلبيّة.

فى ختام الآية تقول: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فهو عالم بكل شىء يجرى فى هذا العالم، و قادر أيضا على تشخيص اللّياقات و الملكات، و قادر أيضا على مجازات المتخلّفين.

ملاحظتان

۱- قد يتصوّر أنّ هذه الآية مخالفة للأحاديث الكثيرة التى تؤكّد على النيّة المجرّدة، و لكنّ الجواب واضح، حيث إنّ تلك الأحاديث تتعلق بالذنوب التى لها تطبيقات خارجيّة و عمليّة بحيث تكون النيّة مقدّمة لها من قبيل الظلم و الكذب و غصب حقوق الآخرين و أمثال ذلك، لا من قبيل الذنوب التى لها جنبة نفسيّة ذاتا و تعتبر من الأعمال القلبيّة مثل (الشرك و الرياء و كتمان الشهادة).

و هناك تفسير آخر لهذه الآية، و هو أنّه يمكن أن يكون لعمل واحد صور مختلفة، مثلا الإنفاق تارة يكون فى سبيل اللّه، و اخرى يكون للرياء و طلب الشهرة، فالآية تقول: أنّكم إذا أعلنتم نيّتكم أو أخفيتموها فإنّ اللّه تعالى أعلم بها و سيجازيكم عليها، فهى فى الحقيقة إشارة إلى مضمون

الحديث الشريف «لا عمل إلّا بنيّة»

[۲۶۵].

۲- من الواضح أنّ قوله تعالى فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ أنّ إرادته لا تكون بدون دليل، بل أنّ عفوه أيضا يرتكز على دليل و مبرّر، و هو لياقة الشخص للعفو الإلهى، و هكذا فى عقابه و عدم عفوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۳

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۵]

اشارة

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۲۸۵)

التّفسير

علائم الإيمان و طريقه:

لقد شرعت سورة البقرة ببيان بعض المعارف الإسلامية و الاعتقادات الحقّة و اختتمت بهذه المواضيع أيضا كما فى الآية أعلاه و الآية التى بعدها، و بهذا تكون بدايتها و نهايتها متوافقة و منسجمة.

و قد ذكر بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية أنّه حين نزلت الآية السابقة و أنّ اللّه تعالى يعلم ما فى أنفسكم و يحاسبكم بما

أظهرتم و أخفيتم فى قلوبكم، خاف بعض الصحابة و قالوا: ليس أحد منّا إلّا و فى قلبه خطرات و وساوس شيطانيّة، فعرضوا الأمر على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت الآية أعلاه، و بيّنت طريق الحقّ و الإيمان، و منهج التضرّع و المناجاة و التسليم لأوامر اللّه تعالى ۲۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۴

فى البداية تقول آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ فهذا المعنى و هذه الخصيصة تعتبر من امتيازات الأنبياء الإلهيين جميعا بأنّهم مؤمنون بما جاءوا به إيمانا قاطعا، فلا شكّ و لا شبهة فى قلوبهم عن معتقداتهم، فقد آمنوا بها قبل الآخرين و استقاموا و صبروا عليها قبل الآخرين.

و نقرأ فى الآية ۱۵۸ من سورة الأعراف أنّ هذه الخصيصة تعتبر من صفات الرسول الأكرم و من امتيازاته حيث تقول: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ

ثمّ تضيف الآية الكريمة: وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۲۶۷] و هذه الجملة الأخيرة من كلام المؤمنين أنفسهم، حيث يؤمنون بجميع الأنبياء و المرسلين و شرائعهم بخلاف البعض من الناس الذين تقول عنهم الآية ۱۵۰ من سورة النساء وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ ۲۶۸].

المؤمنون لا يرون تفاوتا بين رسل اللّه من جهة أنّهم مرسلون من قبل اللّه تعالى، و يحترمونهم و يقدّسونهم جميعا. و معلوم أنّ هذا الموضوع لا ينافى مقولة نسخ الشرائع السابقة بواسطة الشريعة البعديّة، لأنّه كما سبقت الإشارة إليه أنّ تعليمات الأنبياء و شرائعهم من قبيل المراحل الدراسيّة المختلفة من الابتدائية و المتوسطة و الاعدادية و الجامعة، فبالرغم من أنّها تشترك جميعا فى الأصول و المبادئ الأساسيّة، إلّا أنّها تختلف فى السطوح و التطبيقات المختلفة، فعند ما يرتقى الإنسان إلى مرحلة أسمى فإنّه يترك البرامج المعدّة للمرحلة السابقة و يأخذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۵

بالبرامج المعدّة لهذه المرحلة، و مع ذلك يبقى احترامه و تقديسه للمرحلة السابقة فى محلّه.

ثمّ تضيف الآية أنّ المؤمنين مضافا إلى إيمانهم الراسخ و الجامع فإنّهم فى مقام العمل أيضا كذلك وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

(سمعنا) وردت فى بعض الموارد بمعنى فهمنا و صدّقنا من قبيل هذه الآية، أى أنّنا قبلنا دعوة أنبيائك بجميع وجودنا و على استعداد تام للإطاعة و الإتّباع.

و لكن يا إلهنا و ربّنا نحن بشر و قد تتسلط علينا الغرائز و الأهواء و تجرّنا إلى المعصية أحيانا، و لهذا ننتظر عفوك و نتوقع منك المغفرة لأنّ مصيرنا إليك ۲۶۹].

و بهذا يتناغم الإيمان بالمبدأ و المعاد مع الالتزام العملى بجميع الأحكام الشرعيّة و الدساتير الإلهيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۶

الآية [سورة البقرة (۲): آية ۲۸۶]

اشارة

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا رَبَّنا وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ وَ اعْفُ عَنَّا وَ اغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۲۸۶)

التّفسير

عدّة حاجات مهمّة:

كما تقدّم فى تفسير الآية السابقة أنّ هاتين الآيتين تتعلّقان بالأشخاص الّذين استوحشوا من تعبير الآية السابقة فى أنّ اللّه تعالى مطّلع على نيّاتهم و سيحاسبهم و يجازيهم عليها فقالوا: لا أحد منّا يصفو قلبه عن الوسوسة و الخاطرات القلبيّة.

فالآية الحاضرة تقول: لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

(الوسع) لغة تعنى القدرة و الإستيعاب، و عليه فإنّ الآية تؤيّد الحقيقة المنطقيّة القائلة أنّ التكاليف و الفرائض الإلهيّة لا تتجاوز طاقة الأفراد و ميزان تحملّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۷

إطلاقا، لذلك يمكن القول بأنّ كلّ الأحكام يمكن تقييدها و تفسيرها بهذه الآية حيث تتحدّد فى إطار قدرة الإنسان، و من البديهى أنّ المشرّع الحكيم و العادل لا يمكن أن يضع قانونا على نحو آخر.

كما أنّ الآية تؤكّد أنّ الأحكام الشرعيّة لا تنفصل أبدا عن أحكام العقل و الحكمة، بل هى متواكبة معها فى كلّ المراحل.

ثمّ تضيف الآية لَها ما كَسَبَتْ وَ عَلَيْها مَا اكْتَسَبَتْ

أجل فإنّ كلّ شخص يحصد ما جنته يداه حسنا كان أم سيئا، و سيواجه فى هذا العالم أو فى العالم الآخر نتائج و عواقب هذه الأعمال، فالآية تنبّه الناس إلى مسئولياتهم و عواقب أعمالهم، أو تفنّد الأساطير التى تبرئ بعض الناس من عواقب أعمالهم، أو تجعلهم مسئولين عن أعمال الآخرين دون دليل.

و تجدر الإشارة إلى أنّ الآية تطلق على الأعمال الصالحة اسم «الكسب» و على الأعمال السيّئة اسم «الاكتساب». و لعلّ السبب هو أنّ «الكسب» يستعمل بالنسبة إلى الأمور التى يحقّقها المرء برغبة داخلية و بلا تكليف و هى تناسب فطرته، بينما «الاكتساب» هو النقطة المقابلة للكسب، أى الأعمال التى تنافى الفطرة و طبيعة الإنسان. يفهم من هذا أنّ الأعمال الصالحة مطابقة لمسيرة الفطرة و طبيعة الإنسان، بينما أعمال الشرّ تخالف الفطرة و الطبيعة.

أمّا الراغب الإصفهانى فى «مفرداته» فيرى رأيا غير هذا و جدير بالملاحظة يقول: الكسب ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلاب نفع و تحصيل حظّ ككسب المال، و يقال فيما أخذه لنفسه و لغيره (كأعمال الخير التى لا تقتصر فائدتها على الفاعل وحده، بل قد تعمّ الأقارب و غيرهم) فى حين أنّ الاكتساب لا يقال إلّا فيما تعود نتائجه على الفاعل نفسه، و هو الذنب. هذه الاختلافات فى المعنى تصلح طبعا عند ما تستعمل الواحدة فى قبال الاخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۸

رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا.

لمّا كان المؤمنون يعرفون أنّ مصيرهم يتحدّد بما كسبت أيديهم من أعمال صالحة أو سيئة بموجب قانون «لها ما كسبت و عليها ما اكتسبت» لذلك يتضرّعون و يخاطبون اللّه بلفظ «الرب» الذى يوحى بمعانى اللطف فى النشأة و التربية قائلين: إذا كنّا قد أذنبنا بسبب النسيان أو الخطأ، فاغفر لنا ذنوبنا برحمتك الواسعة و جنّبنا العقاب.

العقاب على النسيان و الخطأ:

لماذا الدعاء لأن يغفر اللّه الذنوب المرتكبة نسيانا أو خطأ؟

فهل اللّه يعاقب على مثل هذه الذنوب؟

فى الجواب لا ـ بدّ من القول بأنّ النسيان يكون أحيانا من باب التماهل و التساهل من جانب الإنسان نفسه. بديهىّ أنّ هذا النوع من النسيان لا يضع المسؤولية عن الإنسان، كما جاء فى القرآن.

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا[۲۷۰] و عليه فإنّ النسيان الناشئ عن التساهل يوجب العقاب.

ثمّ لا بدّ من ملاحظة أنّ هناك فرقا بين النسيان و الخطأ. فالخطأ يقال عادة فى الأمور التى تقع لغفلة من الإنسان و عدم انتباه منه، كأن يطلق رصاصة ليصيد صيدا فتصيب رصاصته إنسانا فتجرحه. أمّا النسيان فهو أن يتّجه الإنسان للقيام بعمل ما و لكنّه ينسى كيف يقوم بذلك، كأن يعاقب المرء إنسانا برئيا ظنّا منه أنّه المذنب، لنسيانه مميّزات المذنب الحقيقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۶۹

رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا.

«الإصر» عقد الشىء و حبسه. و تطلق على الحمل الثقيل الذى يمنع المرء من الحركة. و كذلك العهد المؤكّد الذى يقيّد الإنسان. و لهذا تطلق هذه الكلمة على العقاب أيضا.

و فى هذا المقطع من الآية يطلب المؤمنون من اللّه تعالى طلبين: الأوّل أن يرفع عنهم الفروض الثقيلة التى قد تمنع الإنسان من إطاعة اللّه، و هذا هو ما

ورد على لسان النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشأن التعاليم الإسلامية، إذ قال «بعثت بالشريعة السهلة السمحة»

[۲۷۱].

هنا قد يسأل سائل: إذا كانت السهولة و السماحة فى الدين جيّدة، فلما ذا لم يكن للأقوام السابقة مثلها؟

فى الجواب نقول: تفيد آيات فى القرآن أنّ التكاليف الشاقّة لم تكن موجودة فى أصل شرائع الأديان السابقة، بل فرضت كعقوبات على أثر عصيان تلك الأقوام و عدم إطاعتها، كحرمان بنى إسرائيل من أكل بعض اللحوم المحلّلة بسبب عصيانهم المتكرّر[۲۷۲].

و فى الطلب الثانى يريدون منه أن يعفيهم من الامتحانات الصعبة و العقوبات التى لا تطاق وَ لا تُحَمِّلْنا ما لا طاقَةَ لَنا بِهِ و نرى فى الفقرة السابقة صيغة لا تَحْمِلْ و هنا نرى عبارة لا تَحْمِلْ فالأولى تستعمل عادة فى الأمور الصعبة، و الثانية فيما لا يطاق.

فاعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا.

«عفا» بمعنى أزال آثار الشىء، و أكثر استعمالها مع الذنب بمعنى محو آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۰

الإثم، و تشمل الآثار الطبيعية و الآثار الجزائية و العقوبات.

أمّا «الغفران» فتعنى أن يصون اللّه العبد من أن يمسّه العذاب عقوبة على ذنبه.

و عليه، فإنّ استعمال الكلمتين يفيد أنّ المؤمنين طلبوا من اللّه أن يزيل الآثار التكوينية و الطبيعية لزللهم عن أرواحهم و نفوسهم، لكى لا تصيبهم عواقبها السيّئة.

كما أنّهم طلبوا منه أن لا يقعوا تحت طائلة عقابها. و فى المرحلة الثالثة يطلبون «رحمته الواسعة» التى تشمل كلّ شىء.

أَنْتَ مَوْلانا فَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

و فى آخر دعواهم يخاطبون اللّه على أنّه مولاهم الذى يتعهّدهم بالرعاية و التربية و يطلبون منه أنّ يمنحهم الفوز و الإنتصار على الأعداء.

فى هاتين الآيتين خلاصة لسورة البقرة كلّها، و هما تهديانا إلى روح التسليم أمام ربّ العالمين، و تشيران إلى أن المؤمنين إذا أرادوا

من اللّه أن یغفر لهم زلّاتهم و أن ینصرهم علی الأعداء کافّة، فلا بدّ لهم أن ینفذوا برنامج «سمعنا و أطعنا» أن یقولوا: إنّنا سمعنا دعوات الداعین و قبلناها بکلّ جوارحنا و إنّنا متّبعوها، و لن ندخّر وسعا فی حثّ السیر علی هذا السبیل. و عندئذ لهم أن یطلبوا الإنتصار علی الموانع و الأعداء.

إنّ تکرار کلمة «ربّ» أی الذی یلطف بعباده و یربّیهم یکمل هذه الحقیقة.

و لهذا حثّنا أئمة الدین فی أحادیثهم علی قراءة هاتین الآیتین، و بیّنوا ما فیهما من أبواب الثواب. فإذا تناغم اللسان و القلب فی تلاوتهما و لم تکن التلاوة مجرّد ألفاظ تجری علی اللسان، تغدو حینئذ برنامجا حیاتیا، فإنّ تلاوتهما تربط بین القلب و خالق الکون، و تضفی الصفاء علی الروح و تکون عاملا علی التحرّک و النشاط.

یستفاد جیّدا من هذه الآیة أنّ (التکلیف بما لا یطاق) لا یوجد فی الشریعة المقدّسة، لا فی الإسلام و لا فی الأدیان الاخری، و الأصل هو حریّة الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۱

و إرادته لأنّ الآیة تقول: أنّ کلّ إنسان یلاقی جزاء أعماله الحسنة و السیئة، فما عمله من حسنات فسیعود إلیه، و ما ارتکبه من سیئات فعلیه، و من هذا المنطلق یکون طلب العفو و المغفرة و الصفح.

و هذا المعنی یتطابق تماما مع منطق العقل و مسألة الحسن و القبح، لأنّ اللّه تعالی حکیم و لا یمکن أن یکلّف العباد بما لا طاقة لهم به، و هذا بنفسه دلیل علی نفی مسألة الجبر، فکیف یحتمل أنّ اللّه تعالی یجبر العباد علی ارتکاب الذنب و الإثم و فی نفس الوقت ینهاهم عنه؟! و لکنّ التکالیف الشاقّة و الصعبة لیست بالأمر المحال کما قرأنا عن تکالیف بنی إسرائیل الشاقّة، و هذه التکالیف أیضا ناشئة من أعمالهم و عبارة عن عقوبة لما ارتکبوه من آثام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۳

سورة آل عمران

اشارة

مدنیة و عدد آیاتها مائتین آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۵

آل عمران

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ورد فی الحدیث الشریف عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من قرأ سورة آل عمران أعطی بکلّ آیة منها أمانا علی جسر جهنم»

[۲۷۳].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «من قرأ البقرة و آل عمران جاء یوم القیامة یظلّانه علی رأسه مثل الغمامتین»

[۲۷۴].

محتوی السورة:

ذهب بعض المفسّرين المعروفين أنّ هذه السورة نزلت بين السنة الثانية و الثالثة للهجرة أى بين غزوة بدر و احد فهى تعكس فى طيّاتها فترة من أشد الفترات حساسيّة فى صدر الإسلام ۲۷۵].

و على كلّ حال، فإنّ المحاور الأصلية فى أبحاث هذه السورة عبارة عن:

۱- إنّ قسما مهمّا من هذه السورة يرتبط بمسألة التوحيد و صفات اللّه و المعاد و المعارف الإسلامية الاخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۶

۲- و قسم آخر منها يتعلّق بمسألة الجهاد و أحكامه المهمّة و الدقيقة، و كذلك الدروس المستفادة من غزوتى بدر و أحد، و بيان الإمداد الإلهى للمؤمنين، و الحياة الخالدة الأخرويّة للشهداء فى سبيل اللّه.

۳- و فى قسم من هذه السورة يدور الحديث حول سلسلة من الأحكام الإسلامية فى ضرورة وحدة صفوف المسلمين و فريضة الحجّ و بيت اللّه الحرام و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و التولّى و التبرّى و مسألة الأمانة و الإنفاق فى سبيل اللّه و ترك الكذب و ضرورة الاستقامة و الصبر فى مقابل الأعداء و المشكلات و الامتحانات الإلهيّة المختلفة و ذكر اللّه على كلّ حال.

۴- و تطرّقت هذه السورة إلى تكملة للأبحاث التى تتحدّث عن تاريخ الأنبياء عليهم السّلام و منهم آدم و نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و سائر الأنبياء و قصّة مريم و كرامتها و منزلتها عند اللّه، و كذلك المؤامرات التى كان يحوكها أتباع الديانة اليهوديّة و المسيحيّة ضدّ الإسلام و المسلمين.

إنّ مواضيع هذه السورة منسجمة و متناغمة بشكل كأنّها نزلت فى وقت واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ ثمانين آية و نيفا من هذه السورة قد نزلت فى وفد مسيحيّى نجران ۲۷۶] الذى قدم المدينة للتحقيق فى أمر الإسلام.

كان الوفد يتألّف من ستّين شخصا، فيهم أربعة عشر شخصا من أشراف نجران و شخصيّاتها. ثلاثة من هؤلاء الأربعة عشر كانت لهم صفة الرئاسة، و إليهم يرجع المسيحيّون لحلّ مشاكلهم. أحدهم يدعى «عاقب» و يسمّى «عبد المسيح» أيضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۸

كان زعيم قومه المطاع بينهم. و الثانى يدعى «السيّد» و يسمّونه «أيهم» أيضا، و هو المسؤول عن تنظيم برنامج الرحلة و معتمد المسيحيّين. و الثالث «أبو حارثة» و كان عالما و صاحب نفوذ، و بنيت كنائس عديدة باسمه. و حفظ عن ظهر قلب جميع كتب المسيحيّين الدينية.

دخل هؤلاء المدينة و هم بملابس قبيلة بنى كعب، و جاؤوا إلى مسجد النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم. كان النبىّ صلى اللّه عليه و

آله و سلّم قد انتهى من صلاة العصر مع المسلمين. و أثار هؤلاء انتباه المسلمين بملابسهم اللامعة الملوّنة الزاهية حتّى قال بعض صحابة النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ما رأينا مبعوثين بهذا الجمال! و عند ما وصلوا إلى المسجد كان موعد صلاتهم قد أزف، فقرعوا نواقيسهم بحسب طقوسهم و اتّجهوا نحو الشرق و شرعوا يصلّون، فحاول بعض أصحاب النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يمنعهم، إلّا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم طلب من الصحابة أن يتركوهم و شأنهم.

و بعد الصلاة أقبل «عاقب» و «السيّد» على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بدءا يحادثانه، فدعاهم الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الدخول فى الإسلام و الاستسلام للّه.

قالا: قد أسلمنا قبلك.

قال: كذبتما يمنعكما من الإسلام دعاؤكما للّه ولدا، و عبادتكما الصليب، و أكلكما الخنزير.

قالا: إن لم يكن عيسى ولدا للّه فمن أبوه؟ و خاصموه جميعا فى عيسى.

فقال لهم النبيّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولدا إلّا و يشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت، و أن عيسى يأتى عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّم على كلّ شيء و يحفظه و يرزقه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۷۹

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أنّ اللّه لا يخفى عليه شيء فى الأرض و لا فى السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك إلّا ما علّم؟

قالوا: لا.

قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء و ربّنا لا يأكل و لا يشرب و لا يحدث.

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته أمّه كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثمّ غذّى كما يغذّى الصبيّ، ثمّ كان يطعم و يشرب و يحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟ فسكتوا فأنزل اللّه فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع و ثمانين آية[۲۷۷].

التّفسير

تفسير الحروف المقطّعة بالعقول الإلكترونية:

فیما یتعلّق بالحروف المقطّعة فی القرآن، سبق الحدیث عنها فی بدایة سورة البقرة، فلا موجب لتکرار ذلک. و ما ینبغی عرضه هنا هو النظریة المثیرة التی تقدّم بها مؤخّرا عالم مصری نورد هنا خلاصة لها لأهمیّتها، لا شکّ أنّ الحکم علی صحتها أو بطلانها یستلزم بحوثا دقیقة یقع عبؤها علی الأجیال القادمة. إنّما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۰

نوردها کنظریة لا غیر[۲۷۸].

مجلة «آخر ساعة» المصریة المعروفة نشرت تقریرا عن تحقیقات عجیبة قام بها عالم مصری مسلم بخصوص تفسیر بعض آیات القرآن المجید بوساطة العقول الإلکترونیة أثارت إعجاب الناس فی مختلف أنحاء العالم.

تلک التحقیقات التی أجراها الدکتور «رشاد خلیفة» العالم الکیمیاویّ المصری خلال ثلاث سنوات متواصلة، أثبتت أنّ هذا الکتاب السماویّ العظیم لیس من نتاج عقل بشری، و أنّ الإنسان غیر قادر علی الإتیان بمثله.

أجری الدکتور رشاد تحقیقاته فی مدینة «سانت لویس» بمقاطعة «میسوری» الأمریکیة و استخدم فی تحقیقاته العقول الإلکترونیة لفترات طویلة مع أنّ أجرتها فی کلّ دقیقة ۱۰ دولارات تبرّع بها المسلمون المقیمون هناک.

کان کلّ جهد الأستاذ المذکور ینصبّ علی معرفة معانی الحروف المقطّعة فی القرآن، مثل «ق، الم، یس». لقد استطاع بحسابات معقّدة أن یثبت وجود علاقة قویة بین هذین الحروف و السورة التی تقطع فی صدرها (فتأمّل).

لقد استعان بالعقل الإلکترونی لإجراء تلک الحسابات الخاصّة لمعرفة أعداد حروف السور و نسبة وجود کلّ حرف منها، لا لتفسیر القرآن.

و لولا هذه الأجهزة ما استطاع أحد أن یجری تلک الحسابات علی الورق.

و الآن نوجز الاکتشافات الذی توصّل إلیه العالم المصری: یقول الدکتور رشاد: نعلم أنّ القرآن یضمّ ۱۱۴ سورة، منها ۸۶ سورة نزلت فی مکّة و ۲۸ سورة فی المدینة، و من بین مجموع سور القرآن ۲۹ سورة تبدأ بحروف مقطعة.

من الجدیر بالذکر أنّ مجموع هذه الحروف یبلغ نصف حروف الهجاء العربیة، و هی (أ- ح- ر- س- ص- ط- ع- ق- ک- ل- م- ن- ه- ی) و قد یصفونها بالحروف النیّرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۱

یقول الدکتور: منذ سنوات و أنا أحبّ أن أعرف معنی هذه الحروف التی تبدو فی الظاهر أنّها مقطّعة و تتصدّر بعض السور. و علی الرغم من رجوعی إلی تفاسیر مشاهیر المفسّرین فلم أعثر لدیهم علی جواب مقنع، فاستنعت باللّه و اتّکلت علیه و بدأت بحثی:

خطر لی مرّة أنّه ربما تکون هناک علاقة بین هذه الحروف و حروف کلّ سورة تتصدّرها. غیر أنّ دراسة الحروف النیّرة الأربعة عشر کلّها ضمن حروف سور القرآن المائة و أربعة عشر و استخراج نسبة کلّ حرف و الحسابات الکثیرة الأخری لم تکن من الأمور التی یمکن إجراؤها دون الاستعانة بالعقول الإلکترونیة. لذلک شرعت أوّلا بتعیین تلک الحروف منفردة فی جمیع سور القرآن، ثمّ تعیین مجموع حروف کلّ سورة، و أعطیتها جمیعا إلی العقل الإلکترونی مع رقم کلّ سورة (لغرض القیام بالحسابات المعقّدة المطلوبة فیما بعد). لقد استغرق هذا العمل مع مقدّماته سنتین من الزمان.

ثمّ عملت علی العقل الإلکترونی لإجراء تلک الحسابات مدّة سنة کاملة.

کانت النتائج لامعة جدّا، و کشف الستار لأوّل مرّة فی تاریخ الإسلام عن حقائق مذهلة أکّدت إعجاز القرآن (إضافة إلی أمور أخری) من الناحیة الریاضیة و نسبة حروف القرآن.

لقد أوضحت لنا حسابات العقل الإلکترونی نسبة وجود کلّ من الحروف الأربعة عشر فی کلّ سورة من سور القرآن المائة و أربعة عشر.

فمثلا بالحسابات و جدنا أن نسبة حرف القاف، و هو أحد الحروف النورانیة فی القرآن فی سورة «الفلق» تحوز أعلی نسبة (۷۰۰/ ۶٪) و تحوز المرتبة الأولی بین سور القرآن، طبعا باستثناء سورة «ق». بعدها تأتی سورة «القیامة» التی یبلغ فیها عدد حروف القاف بالنسبة إلی حروف السورة (۹۰۷/ ۳٪)، ثمّ تأتی سورة «و الشمس» و نسبتها (۹۰۶/ ۳٪).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۲

و نلاحظ من ذلک أنّ الفرق بین سورة «القیامة» و سورة «و الشمس» یبلغ (۱۰۰/ ۰٪).

و هکذا استخرجنا هذه النسبة فی ۱۱۴ سورة لهذا الحرف و لسائر الحروف النورانیة الأخری، و بذلک ظهرت نسبة مجموعة حروف کلّ سورة إلی کلّ حرف من الحروف النورانیة.

و فیما یلی النتائج المثیرة التی توصّل إلیها التحقیق:

۱- نسبة حرف «ق» فی سورة «ق» أکثر من نسبتها فی أیة سورة أخری بدون استثناء. أی أنّ الآیات التی نزلت طوال ۲۳ سنة- و هی فترة نزول القرآن، فی ۱۱۳ سورة استعملت فیها القاف بنسبة أقل، إنّه مثیر و مدهش أن یکون إنسان قادر علی مراقبة تعداد کلّ حرف من الحروف التی یستعملها علی مدی ۲۳ سنة، و فی الوقت نفسه یعرب بکلّ طلاقة و بدون أی تکلّف عمّا یرید بیانه. لا شکّ أنّ أمرا کهذا خارج عن نطاق قدرة الإنسان، بل أنّ مجرّد حساب ذلک یتعذّر علی أعظم العقول الریاضیة بدون الالتجاء إلی العقل الإلکترونی.

و هذا کلّه یدلّ علی أنّ سور القرآن و آیاته لیست وحدها الموضوعة وفق حساب معیّن، بل حتّی حروفه موضوعة بحساب و نظام خاصّ لا یقدر علیه سوی اللّه تعالی.

کذلک دلّت الحسابات علی أنّ حرف «ص» فی سورة «ص» له هذه الخاصیّة نفسها، أی نسبة وجوده فی هذه السورة أکثر من نسبة وجوده فی أیة سورة أخری من سورة القرآن.

کما أنّ حرف «ن» فی سورة «ن و القلم» یمتاز بنسبة أعلی من وجوده فی أیة سورة أخری.

الاستثناء الوحید هو سورة «الحجر» التی فیها نسبة الحرف «ن» أکثر من سورة «ن و القلم». و لکن ما یلفت هو أنّ سورة «الحجر» تبدأ بالحروف «الر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۳

و سنجد أنّ السور التی تبدأ بحروف «الر» یجب أن تعتبر بحکم السورة الواحدة.

فإذا فعلنا ذلک نصل إلی النتیجة المطلوبة أی أنّ عدد حرف «ن» فی هذه السور سوف یکون أقلّ مما فی سورة «ن و القلم».

۲- حروف «المص» فی بدایة سورة الأعراف إذا حسبنا حروف الألف و المیم و الصاد فی هذه السورة نجدها أکثر ممّا هی فی أیة سورة أخری.

کذلک «المر» فی بدایة سورة «الرعد». و «کهیعص» فی بدایة سورة «مریم»، إذا حسبت الأحرف الخمس کان عددها فی هذه السورة أکثر ممّا هی فی السور الأخری.

و هنا تواجهنا ظاهرة جدیدة، فالحرف الواحد لیس هو وحده الذی یرد بحساب فی السور، بل أنّ مجموعات الأحرف أیضا تأتی هکذا بشکل مدهش.

۳- کان الکلام حتّی الآن یدور علی الحروف التی تتصدّر سورة واحدة من سورة القرآن، أمّا الحروف التی تتصدّر سورا متکرّرة، مثل «الر، ألم» فإنّها تتّخذ شکلا آخر، فالحسابات الإلکترونیة تقول إنّ مجموع هذه الحروف الثلاث، مثلا «أل م» إذا حسبت فی مجموع السور التی تتصدّرها، و تستخرج نسبتها إلی مجموع حروف هذه السور، نجد أنّ هذه النسبة أکبر من نسبة وجودها فی السور الأخری من القرآن.

هنا أیضا تتّخذ المسألة شکلا مثیرا و هو أنّ حروف کلّ سورة من سور القرآن لیست هی وحدها التی تقع تحت الضبط و الحساب. بل أنّ مجموع حروف السور المتشابهة تقع تحت حساب متشابه أیضا.

و بهذه المناسبة یتّضح أیضا لماذا تبدأ عدّة سور مختلفة بالحروف «الم» أو «الر» و هذا لم یکن من باب المصادفة و الاتّفاق.

یقوم الدکتور رشاد بحسابات أعقد علی السور التی تتصدّرها «حم» لا نتطرّق إلیها اختصارا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۴

و یصل الأستاذ المذکور من خلال دراساته هذه إلی حقائق و استنتاجات أخری أیضا نوردها للقرّاء الکرام:

۱- لا بدّ من الإبقاء علی إملاء القرآن الأصلی

یقول الدکتور: إنّ هذه الحسابات تصحّ فی حالة الإبقاء علی الإملاء الأصلی فی کتابة القرآن، مثل: اسحق و زکوة و صلوة، فلا نکتبها إسحاق و زکاة و صلاة، و إلّا فإنّ الحسابات تختل.

۲- دلیل علی عدم تحریف القرآن

هذه التحقیقات تدلّ علی أنّ أیّ تحریف- و لو فی کلمة واحدة- لم یطرأ علی القرآن من حیث الزیادة و النقصان، و إلّا لما ظهرت هذه الحسابات علی هذه الصورة.

۳- إشارات عمیقة المعنی

فی کثیر من السور التی تبدأ بالحروف المقطّعة نلاحظ أنّه بعد الحروف تأتی الإشارة إلی صدق القرآن و عظمته، مثل: الم* ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ ۲۷۹]، و هذه فی نفسه إشارة ظریفة إلی علاقة هذه الحروف بإعجاز القرآن.

نتیجة البحث

نستنتج من هذا البحث أنّ حروف القرآن الکریم الذی نزل علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی مدی ۲۳ سنة تنتظم فی حساب دقیق، فکلّ حرف من حروف الهجاء له مع مجموع حروف کلّ سورة نسبة ریاضیة دقیقة بحیث إنّ الحفاظ علی هذا التنظیم و الحساب یتعذّر علی البشر بدون العقول الإلکترونیة.

لا شکّ أنّ التحقیقات التی أجرها العالم المذکور ما زالت فی بدایة الطریق و لا تخلو من النقائص. فیجب أن تتظافر جهود الآخرین للتغلّب علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۵

فی الآیة الثانیة یقول تعالی: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَیُّ الْقَیُّومُ

سبق أن شرحنا هذه الآیة فی سورة البقرة فی الآیة ۲۵۵.

الآیة التی تلیها تخاطب نبی الإسلام و تقول: إنّ اللّه تعالی قد أنزل علیک القرآن الذی فیه دلائل الحقّ و الحقیقة، و هو یتطابق تماما

مع ما جاء به الأنبياء و الكتب السابقة (التوراة و الإنجيل) التى بشّرت ۲۸۰] به و قد أنزلها اللّه تعالى أيضا لهداية البشر: نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ ثمّ تضيف الآية وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ

و بعد إتمام الحجّة بنزول الآيات الكريمة من اللّه تعالى و شهادة الفطرة و العقل على صدق دعوة الأنبياء، فلا سبيل للمخالفين سوى العقوبة، و لذلك تقول الآية محلّ البحث بعد ذكر حقّانيّة الرسول الأكرم و القرآن المجيد: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ.

و من أجل أن لا يتوهّم أحد أو يشك فى قدرة اللّه تعالى على تنفيذ تهديداته تضيف الآية وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ ۲۸۱].

(عزيز) فى اللّغة بمعنى كلّ شىء صعب و غير قابل للنفوذ، و لذلك يقال للأرض الصعبة العبور (عزاز) و كذلك يطلق على كلّ أمر يصعب الحصول عليه لقلّته و ندرته (عزيز) و كذلك تطلق هذه الكلمة على الشخص القوىّ و المقتدر الذى يصعب التغلّب عليه أو يستحيل التغلّب عليه، و كلّما أطلقت كلمة (عزيز) على اللّه تعالى يراد بها هذا المعنى، أى أنّه لا أحد يقدر على التغلّب عليه، و أنّ كلّ المخلوقات خاضعة لمشيئته و إرادته.

و فى الجملة الآنفة الذكر و لكى يعرف الكفّار أنّ هذا التهديد جادّ تماما تذكّرهم الآية بأنّ اللّه عزيز، أى أنّه قاهر و ما من أحد يستطيع أن يقف بوجه تنفيذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۶

تهديداته و أنّه فى الوقت الذى يكون فيه غفورا رحيما يكون شديد العقاب بالنسبة لمن لا يستحقّون هذه الرحمة.

كلمة (الانتقام) تستعمل غالبا فى مفهومنا الحالى فى لجوء شخص لا يستطيع أن يتسامح مع الآخرين و يغفر لهم أخطاءهم إلى عمل مقابل قد يكون عنيفا لا يأخذ حتّى مصلحته الخاصّة بنظر الإعتبار، و بديهىّ أنّ هذه الصفة مذمومة، إذ أنّ على الإنسان فى كثير من الحالات أن يعفو و يغفر بدلا من الانتقام، و لكنّ (الانتقام) فى اللّغة ليس بهذا المعنى بل يعنى إنزال العقاب بالمجرم، و لا شكّ أنّ معاقبة المجرمين العصاة فضلا عن كونها من الأمور الحسنة فإنّه لا يجوز التهاون فيها و إهمالها لأنّ ذلك يجانب العدالة و الحكمة.

هنا لا بدّ من ملاحظة ما يلى:

۱- أصل (الحقّ) المطابقة و الموافقة، لذلك يقال لما يطابق الواقع «الحق». كما أنّ وصف اللّه بالحقّ ناشئ من كون ذاته القدسية أعظم واقع غير قابل للإنكار.

و بعبارة أخرى «الحق» هو الموضوع الثابت المكين الذى لا باطل فيه.

و الباء فى «الحق» فى هذه الآية للمصاحبة، أى يا أيّها النبىّ لقد أنزل عليك اللّه القرآن مصحوبا بدلائل الحقّ.

۲- «التوراة» لفظة عبرية تعنى «الشريعة و القانون»، و أطلقت على الكتاب الذى أنزل اللّه على موسى بن عمران عليه السّلام. و قد تطلق أيضا على مجموعة كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسة.

إنّ مجموعة كتب العهد القديم تتألّف من التوراة و عدد من الكتب الأخرى.

و التوراة تتألّف من خمسة أقسام، كلّ قسم يسمّى «سفرا» و هى: «سفر التكوين» و «سفر الخروج» و «سفر لاوى» و «سفر الاعداد» و «سفر التثنية». هذه الأقسام من العهد القديم تشرح تكوين العالم و الإنسان و المخلوقات و بعضا من سير الأنبياء السابقين و موسى بن عمران و بنى إسرائيل و الأحكام.

أمّا الكتب الأخرى فهى ما كتبه المؤرّخون بعد موسى عليه السّلام فى شرح أحوال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۷

الأنبياء و الملوك و الأقوام التى جاءت بعد موسى بن عمران عليه السّلام.

بديهىّ أنّ هذه الكتب- عدا الأسفار الخمسة- ليست كتبا سماوية و اليهود أنفسهم لا يدّعون ذلك. و حتّى «زبور» داود الذى يطلقون

عليه اسم «المزامير» هو شرح مناجاة داود و مواعظه.

أمّا أسفار التوراة الخمسة ففيها دلائل تشير إلى أنّها ليست من الكتب السماوية، بل هى كتب تاريخية دوّنت بعد موسى بن عمران عليه السّلام، إذ فيها بيان موت موسى عليه السّلام و مراسيم دفنه، و بعض الحوادث التى وقعت بعده، على الأخصّ الفصل الأخير من سفر التثنية الذى يثبت أنّ هذا الكتاب قد كتب بعد موت موسى عليه السّلام.

يضاف إلى ذلك أنّ فى هذه الكتب الكثير من الخرافات و هى تنسب أمورا فاضحة للأنبياء، و بعض الأقوال الصبيانية، ممّا يؤكدّ زيف هذه الكتب. و الشواهد التاريخية تؤكّد أنّ التوراة الأصلية قد ضاعت، و أنّ أتباع موسى هم الذين كتبوا هذه الكتب بعده ۲۸۲].

۳- «الإنجيل» كلمة يونانية بمعنى «البشارة» أو «التعليم الجديد» و تطلق على الكتاب الذى نزل على عيسى بن مريم عليه السّلام. و من الجدير بالتنويه أنّ القرآن كلّما أورد اسم كتاب عيسى عليه السّلام «الإنجيل» جاء به مفردا و على أنّه قد نزل من اللّه.

و عليه فإنّ الأناجيل المتداولة بين أيدى المسيحيّين، و حتّى الأشهر منها، و هى الأناجيل الأربعة «لوقا، و مرقس، و متّى، و يوحنا» ليست من الوحى الإلهى، و هذا ما لا ينكره المسيحيّون أنفسهم، إذ يقولون إنّ هذه الأناجيل قد كتبت بأيدى تلامذة السيّد المسيح عليه السّلام بعده بمدّة طويلة. و لكنّهم يزعمون أن أولئك التلامذة قد كتبوها بإلهام من اللّه.

هنا يحسن بنا أن نتعرّف- و لو بإيجاز- على «العهد الجديد» و الأناجيل و كتّابها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۸

إنّ أهم كتاب دينى عند المسيحيّين و الذى يعتمدونه على أنّه كتاب سماوى هو المجموعة التى يطلق عليها اسم «العهد الجديد».

«العهد الجديد» الذى يبلغ نحو ثلث «العهد القديم» يتألّف من ۲۷ كتابا و رسالة تشمل موضوعات عامّة متناثرة و مختلفة، على النحو التالى:

۱- إنجيل متّى ۲۸۳]: و هو الإنجيل الذى كتبه «متّى» أحد حواريّى المسيح عليه السّلام الاثنى عشر فى سنة ۳۸ ميلادية، و بعض يقول فى سنة ۵۰ أو ۶۰ ميلادية[۲۸۴].

۲- إنجيل مرقس ۲۸۵]: بحسب ما جاء فى كتاب «القاموس المقدّس» صفحة ۷۹۲، لم يكن مرقس من الحواريّين، و لكنّه كتب إنجيله بإشراف «بطرس». قتل مرقس سنة ۶۸ م.

۳- إنجيل لوقا: كان «لوقا» رفيق سفر «بولس» الرسول. كان «بولس» على عهد المسيح يهوديا متعصّبا، و لكنه اعتنق المسيحية بعده. يقال إنّه توفى فى سنة ۷۰ م، و حسبما يقول مؤلّف «القاموس المقدّس» ص ۷۷۲: «إنّ تاريخ كتابة إنجيل لوقا يعود إلى حوالى سنة ۶۳ م».

۴- إنجيل يوحنا: «يوحنا» كان من تلامذة المسيح عليه السّلام و من أصحاب «بولس». يقول صاحب القاموس المذكور، اعتمادا على عدد من المحقّقين: إنّه ألف فى أواخر القرن الأول الميلادى ۲۸۶].

يتّضح من محتويات هذه الأناجيل، التى تشرح عموما حكاية صلب المسيح و ما جرى بعد ذلك، أنّ جميع هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح بسنوات و ليست كتبا سماوية نزلت على المسيح عليه السّلام.

۵- أعمال الرسل: «أعمال الحواريّين و دعاة الصدر الأوّل».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۸۹

۶- رسائل بولس الأربعة عشرة إلى جهات مختلفة.

۷- رسالة يعقوب: «الرسالة العشرون من الرسائل السبع و العشرين فى العهد الجديد».

۸- رسالتا بطرس: «الرسالتا ۲۱ و ۲۲ من العهد الجديد».

۹- رسائل يوحنا: «الرسائل ۲۳ و ۲۴ و ۲۵ من العهد الجديد».

۱۰- رسالة يهودا: «الرسالة ۲۶ من العهد الجديد».

۱۱- مكاشفة يوحنا: «القسم الأخير من العهد الجديد».

استنادا إلى المؤرّخين المسيحيّين و حسبما ورد فى هذه الأناجيل و الكتب و الرسائل فى العهد الجديد، فإنّ أيّا منها ليس كتابا سماويا، بل هى كتب كتبت بعد المسيح عليه السّلام، و نستنتج من ذلك أنّ الإنجيل الأصلى السماوى الذى نزل على المسيح عليه السّلام قد فقد و ليس له وجود الآن. إنّما تلامذة المسيح أدرجوا بعضا منه فى أناجيلهم و مزجوه- مع الأسف- بالخرافات.

أمّا القول بأنّ على المسلمين أن لا يشكّوا فى صحّة الأناجيل و التوراة الموجودة- على اعتبار أنّ القرآن قد صدقّها و شهد لها- فإنّه قول مردود، و قد أجبنا عليه فى المجلّد الأوّل عند تفسير الآية: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ

۴- بعد ذكر التوراة و الإنجيل، يشار إلى نزول القرآن، و لكنّه سمّى الفرقان، لأنّ لفظة «الفرقان» تستعمل فى التفريق بين الحقّ و الباطل و كلّ ما يميّز الحقّ عن الباطل يقال له «الفرقان». و لذلك يسمّى القرآن حرب بدر «يوم الفرقان»[۲۸۷]، ففى ذلك اليوم انتصر فريق صغير مفتقر لكلّ أنواع المعدّات الحربيّة على جيش كبير مسلّح و متفوّق تفوّقا كبيرا. و كذلك يطلق على معجزات موسى عليه السّلام العشر اسم «الفرقان» أيضا[۲۸۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۰

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (۵) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶)

التّفسير

علم اللّه و قدرته المطلقة:

هاتان الآيتان تكمّلان الآيات السابقة التى قرأنا فيها أنّ اللّه تعالى حىّ و قيّوم و هو مدبّر الكون بأجمعه و سيعاقب الكافرين المعاندين (حتّى لو لم يظهروا كفرهم و عنادهم) و من البديهى أنّ هذه الإحاطة و القدرة لتدبير العالم بحاجة إلى علم غير محدود و قدرة مطلقة، و لهذا أشارت الآية الأولى إلى علم اللّه تعالى، و فى الآية الثانية إلى قدرته المطلقة.

فى البداية تقول الآية الشريفة إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ.

فكيف يمكن أن يختفى عن أنظاره شىء من الأشياء فى حين أنّه حاضر و ناظر فى كلّ مكان، فلا يخلو منه مكان، و بما أنّ وجوده غير محدود، فلا يخلو منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۱

مكان معين، و لهذا فهو أقرب إلينا من كلّ شىء حتّى من أنفسنا، و فى نفس الوقت الذى يتنزّه فيه اللّه تعالى عن المكان و المحل، فإنّه محيط بكل شىء، و هذه الإحاطة و الحضور الإلهى بالنسبة لجميع المخلوقات بمعنى (العلم الحضورى) لا- (العلم الحصولى)[۲۸۹].

ثمّ تبيّن الآية التالية واحدة من علم و قدرة اللّه تعالى الرائعة، بل هى فى الحقيقة إحدى روائع عالم الخلقة و مظهر بارز لعلم اللّه و قدرته المطلقة حيث تقول الآية هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ ثمّ تضيف لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

إنّه لأمر عجيب و محيّر حقّا أن يصوّر اللّه الإنسان و هو فى رحم أمّه صورا جميلة و متنوّعة فى أشكالها و مواهبها و صفاتها و غرائزها. و هـذه الآيـة تؤكّد أنّ المعبود الحقيقى ليس سوى اللّه القادر الحكيم الذى يستحقّ العبادة، فلما ذا إذن يختارون مخلوقات كالمسيح عليه السّلام و يعبدونها، و لعلّ هذه العبارة إشارة إلى سبب النزول المتقدّم فى بداية السورة من أنّ المسيحيّين أنفسهم يوافقون على أنّ المسيح كان جنينا فى بطن أمّه مريم، ثمّ تولّد منها، إذن فهو مخلوق و ليس بخالق فكيف يكون معبودا؟!

بحوث

۱- مراحل تطوّر الجنين من روائع الخلق

إنّ عظمة مفهوم هذه الآية تجلّت اليوم أكثر من ذى قبل نتيجة للتقدّم الكبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۲

فى علم الأجنّة. فهـذا الجنين يبدأ بخلية، لا شـكل لها و لا هيكل و لا أعضاء و لا أجهزة. و لكنّها تتّخذ أشـكالا مختلفة كلّ يوم و هى فى الرحم، و كأنّ هناك فريقا من الرسّامين المهرة يحيطون بها و يشـتغلون عليها- ليل نهار و بسـرعة عجيبـة- ليصـنعوا من هـذه الذرّة الصـغيرة و فى وقت قصـير إنسانـا سويّا فى الظـاهر، و فى جوفه أجهزة دقيقـة رقيقـة متعقّـدة و محيّرة. لو أنّ فيلمـا صوّر مراحـل تطوّر الجنين- و قد صوّر فعلا- و شاهده الإنسان يمرّ من أمام عينيه لأدرك بأجلى صورة عظمة الخلق و قدرة الخالق.

و العجيب فى الأمر أنّ كلّ هذا الرسم يتمّ على الماء الذى يضرب به المثل فى عدم احتفاظه بما يرسم عليه.

من الجدير بالذكر أنّه عند ما يتمّ اللقاح و يخلق الجنين للمرّة الأولى يسـرع بالانقسام التصادى على هيئة ثمرة التوت التى تكون حبّاتها متلاصـقة، و يطلق عليه اسم «مرولا». و فى غضون هذا التقدّم تخلق «المشيمة» و تتكامل، و تتّصل من جهة قلب الأم بوساطة شريانين و وريد واحد، و من الجهة الأخرى تتّصل بسرّة الجنين الذى يتغذّى على الدم القادم إلى المشيمة.

و بالتدريـج و على أثر التغذيـة و التطور و اتجاه الخلايا نحو الخارج يتجوّف باطن «المولا»، و عندئذ يطلق عليه اسم «البلاسـتولا»، و لا تلبث هذه حتى يتكاثر عدد خلاياها، مؤلّفة كيسا ذا جدارين، ثمّ يحدث فيه انخفاض يقسم الجنين إلى قسمى الصدر و البطن.

إلى هنا تكون جميع الخلايا متشابهـة و لا اختلاف بينها فى الظاهر. و لكن بعـد هـذه المرحلـة يبدأ الجنين بالتصوّر، و تتشـكّل أجزاؤه بأشـكال مختلفـة بحسب وظيفتها المسـتقبلية، و تتكون الأنسـجة و الأجهزة، و تقوم كلّ مجموعة من الخلايا ببناء أحد أجهزة الجسم و صياغته، كالجهاز العصبى و جهاز الدورة الدموية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۳

و جهـاز الهضم، و غيرهـا من الأـجهزة، حتّى يصـبح الجنين بعـد هـذه المراحـل من التطوّر فى مخبئه الخفى فى رحم أمّه إنسانـا كامل الصورة. و سوف ندرج- بمشيئة اللّه- شرحا كاملا لتطوّر الجنين و مراحل تكامله فى تفسير الآية ۱۲ من سورة «المؤمنون».

۲- (أرحـام) جمع (رحم) يعنى فى الأصـل محل نموّ الجنين فى بطن الأمّ، ثمّ أطلق على جميع الأقرباء الـذين يشتركون فى أمّ واحـدة المتولّـدون من أمّ واحـدة، و بما أنّ حالة من المحبّة و العطف و الحنان ترتبط بين هؤلاء الأفراد أطلقت هذه المفردة على كلّ عطف و حنان (رحمـة)، و يرى البعض أنّ المفهوم من هـذه الكلمـة بالعكس، أى أنّ المفهوم الأصـلى لها هو رقّة القلب و العطف و المحبّة، و لكن بما أنّ الأقرباء و الأرحام يشتركون فى هذه الصفة فيما بينهم أطلق على المكان الذى تولّدوا منه كلمة (رحم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۴

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷]

اشارة

هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ زَیْغٌ فَیَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِیلِهِ وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ (۷)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر «نور الثقلین»[۲۹۰] نقلا عن کتاب «معانی الأخبار» حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام ما مضمونه: أنّ نفرا من الیهود و معهم «حی بن أخطب» و أخوه، جاؤوا إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و احتجّوا بالحروف المقطّعة «الم» و قالوا: بموجب حساب الحروف الأبجدیة، فإنّ الألف فی الحساب الأبجدی تساوی الواحد، و اللام تساوی ۳۰، و المیم تساوی ۴۰، و بهذه فإنّ فترة بقاء أمّتک لا تزید علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۵

إحدی و سبعین سنة! و من أجل أن یلجمهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تساءل و قال ما معناه:

لماذا حسبتم «ألم» وحدها؟ أ لم تروا أنّ فی القرآن «المص» و «الر» و نظائرها من الحروف المقطّعة، فإذا کانت هذه الحروف تدلّ علی مدّة بقاء أمّتی، فلما ذا لا تحسبونها کلّها؟ (مع أنّ القصد من هذه الحروف أمر آخر) و عندئذ نزلت هذه الآیة.

فی تفسیر «فی ظلال القرآن» سبب نزول آخر ینسجم من حیث النتیجة مع سبب النزول المذکور، و هو أنّ جمعا من نصاری نجران جاؤوا إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم متذرّعین بقول القرآن «کلمة اللّه و روحه» بشأن المسیح علیه السّلام فی محاولة منهم لاستغلالها بخصوص مسألة «التثلیث» و «ألوهیّة» المسیح، متجاهلین کلّ الآیات الأخری الصریحة فی عدم وجود شریک أو شبیه للّه إطلاقا، فنزلت الآیة المذکورة تردّ علیهم.

التّفسیر

المحکم و المتشابه فی القرآن:

تقدّم فی الآیات السابقة الحدیث عن نزول القرآن بعنوان أحد الدلائل الواضحة و المعجزات البیّنة لنبوّة الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم، ففی هذه الآیة تذکر أحد مختصّات القرآن و کیفیّة بیان هذا الکتاب السماوی العظیم للمواضیع و المطالب فیقول فی البدایة: هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ عَلَیْکَ الْکِتابَ مِنْهُ آیاتٌ مُحْکَماتٌ

أی آیات صریحة و واضحة و التی تعتبر الأساس و الأصل لهذا الکتاب السماوی هُنَّ أُمُّ الْکِتابِ ثمّ أنّ هناک آیات أخری غامضة بسبب علوّ مفاهیمها و عمق معارفها أو لجهات اخری وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ

هذه الآیات المتشابهة إنّما ذکرت لاختبار العلماء الحقیقیّین و تمیزهم عن الأشخاص المعاندین اللجوجین الذین یطلبون الفتنة، فلذلک تضیف الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۶

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ فيفسّرون هذه الآيات المتشابه وفقا لأهوائهم كيما يضلّوا الناس و يسبّهوا عليهم فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ۲۹۱] فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

ثمّ تضيف الآية: أنّ هؤلاء أى الراسخون فى العلم بسبب دركهم الصحيح لمعنى المحكمات و المتشابهات يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا أجل وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

بحوث

اشارة

فى هذه الآية مباحث مهمّة ينبغى بحثها بشكل مستقل كلّ على حدة:

۱- ما المقصود بالآيات المحكمة و المتشابهة؟

«المحكم» من «الإحكام» و هو المنع. و لهذا يقال للمواضيع الثابتة القويّة «محكمة» أى أنّها تمنع عن نفسها عوامل الزوال. كما أنّ كلّ قول واضح و صريح لا يعتوره أىّ احتمال للخلاف يقال له «قول محكم».

و عليه فإنّ الآيات المحكمات هى الآيات ذات المفاهيم الواضحة التى لا مجال للجدل و الخلاف بشأنها، كآية: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[۲۹۲] و لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[۲۹۳] و اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ[۲۹۴] و لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۲۹۵] و آلاف أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۷

مثلها ممّا تتعلّق بالعقائد و الأحكام و المواعظ و التواريخ، فهى كلّها من «المحكمات».

هذه الآيات المحكمات تسمّى فى القرآن «أمّ الكتاب» أى هى الأصل و المرجع و المفسّرة و الموضّحة للآيات الأخرى.

و «المتشابه» هو ما تتشابه أجزاؤه المختلفة. و لذلك فالجمل و الكلمات التى تكون معانيها معقّدة و تنطوى على احتمالات مختلفة، توصف بأنّها «متشابهة».

و هذا هو المقصود من وصف بعض آيات القرآن بأنها «متشابهات»، أى الآيات التى تبدو معانيها لأوّل وهلة معقّدة و ذات احتمالات متعدّدة، و لكنّها تتّضح معانيها بعرضها على الآيات المحكمات.

و على الرغم من أنّ المفسّرين أوردوا احتمالات متعدّدة فى تفسير «المحكم» و «المتشابه»[۲۹۶]، و لكن الذى قلناه يناسب المعنى الأصلى لهذين المصطلحين كما يتّفق مع سبب نزول الآية، و كذلك مع الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآية، و مع الآية نفسها، لأنّنا نقرأ بعد ذلك أن المغرضين يتّخذون من الآيات المتشابهات وسيلة لإثارة الفتنة. و هم بالطبع يبحثون لهذا الغرض عن الآيات التى لها تفسيرات متعدّدة. و هذا نفسه يدلّ على أن معنى «المتشابه» هو ما قلناه.

و يمكن إدراج بعض الآيات التى تخصّ صفات اللّه و المعاد كنماذج من الآيات المتشابهات، مثل يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۲۹۷] بشأن قدرة اللّه، وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۲۹۸] بشأن علم اللّه، و وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ[۲۹۹] بشأن طريقة حساب الأعمال.

بديهىّ أنّ اللّه لا يد له «بمعنى العضو» و لا أذن «بالمعنى نفسه» و لا ميزان مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۸

موازيننا يزن بها الأعمال. هذه كنايات عن مفاهيم كلّية لقدرة اللّه و علمه و ميزانه.

و لا ـ بدّ من الإشارة إلى أنّ كلمتى «المحكم و المتشابه» قد وردتا فى القرآن بمعنى آخر. ففى أوّل سورة هود نقرأ: كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ فهنا أشير إلى أنّ جميع آيات القرآن محكمات، و القصد هو قوّة الترابط و التماسك بينها. و فى الآية ۲۳ من سورة الزمر نقرأ: كِتاباً مُتَشابِهاً أى الكتاب الذى كلّ آياته متشابهات، و هى هنا بمعنى التماثل من حيث صحّتها و حقيقتها.

يتّضح ممّا قلنا بشأن المحكم و المتشابه أنّ الإنسان الواقعىّ الباحث عن الحقيقة لا بدّ له لفهم كلام اللّه أن يضع الآيات جنبا إلى جنب ثمّ يستخرج منها الحقيقة. فإذا لاحظ فى ظاهر بعض الآيات إبهاما و تعقيدا، فعليه أن يرجع إلى آيات أخر لرفع ذلك الإبهام و التعقيد ليصل إلى كنهها.

تعتبر الآيات المحكمات فى الواقع أشبه بالشارع الرئيسى، و المتشابهات أشبه بالشوارع الفرعية، لا شكّ أنّ المرء إذا تاه فى شارع فرعى سعى للوصول إلى الشارع الرئيسى ليتبيّن طريقه الصحيح فيسلكه.

إنّ التعبير عن المحكمات بأم الكتاب يؤيّد هذه الحقيقة أيضا، إذ أنّ لفظة «أم» فى اللغة تعنى الأصل و الأساس، و إطلاق الكلمة على «الأم» أى الوالدة لأنّها أصل الأسرة و العائلة و الملجأ الذى يفزع إليه أبناؤها لحلّ مشاكلهم. و على هذا فالمحكمات هى الأساس و الجذر و الأم بالنسبة للآيات الأخرى.

۲- لماذا تشابهت بعض آيات القرآن؟

إنّ القرآن جاء نورا لهداية عموم الناس، فما سبب احتوائه على آيات متشابهات فيها إبهام و تعقيد بحيث يستغلّها المفسدون لاثارة الفتنة؟ هذا موضوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۳۹۹

مهمّ جدير بالبحث و التدقيق. و على العموم يمكن أن تكون النقاط التالية هى السرّ فى وجود المتشابهات فى القرآن:

أوّلا: إنّ الألفاظ و الكلمات التى يستعملها الإنسان للحوار هى لرفع حاجته اليومية فى التفاهم. و لكن ما إن نخرج عن نطاق حياتنا الماديّة و حدودها، كأن نتحدّث عن الخالق الذى لا يحدّه أىّ لون من الحدود، نجد بوضوح أنّ ألفاظنا تلك لا تستوعب هذه المعانى، فنضطر إلى استخدام ألفاظ أخرى و إن تكن قاصرة لا تفى بالغرض تماما من مختلف الجهات. و هذا القصور فى الألفاظ هو منشأ الكثير من متشابهات القرآن. إنّ آيات مثل يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۳۰۰] أو الرَّحْمـنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ۳۰۱] أو إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ[۳۰۲] التى سوف يأتى تفسيرها فى موضعه، تعتبر من هذه النماذج. و هناك أيضا تعبيرات مثل «سميع» و «بصير»، و لكن بالرجوع إلى الآيات المحكمات يمكن تفسيرها بوضوح.

ثانيا: كثير من الحقائق تختصّ بالعالم الآخر، أو بعالم ما وراء الطبيعة ممّا هو بعيد عن أفق تفكيرنا، و إنّنا- بحكم وجودنا ضمن حدود سجن الزمان و المكان، غير قادرين على إدراك كنهها العميق. قصور أفق تفكيرنا من جهة، و سمّو تلك المعانى من جهة أخرى، سبب آخر من أسباب التشابه فى بعض الآيات، كالتى تتعلّق بيوم القيامة مثلا.

و هذا أشبه بالذى يريد أن يشرح لجنين فى بطن أمّه مسائل هذا العالم الذى لم يره بعد، فهو إذا لم يقل شيئا يكون مقصّرا، و إذا قال كان لا بدّ له أن يتحدّث بأسلوب يتناسب مع إدراكه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۰

ثالثا: من أسرار وجود المتشابهات فى القرآن إثارة الحركة فى الأفكار و العقول و إيجاد نهضة فكرية بين الناس. و هذا أشبه بالمسائل الفكرية المعقّدة التى يعالجها العلماء لتقوية أفكارهم و لتعميق دقّتهم فى المسائل.

رابعا: النقطة الأخرى التى ترد بشأن وجود المتشابهات فى القرآن، و تؤيّدها أخبار أهل البيت عليهم السّلام، هى أنّ وجود هذه الآيات فى القرآن يصعّد حاجة الناس إلى القادة الإلهيّين و النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأوصياء، فتكون سببا يدعو الناس إلى البحث عن هؤلاء و اعتراف بقيادتهم عمليا و الاستفادة من علومهم الاخرى أيضا. و هذا أشبه ببعض الكتب المدرسية التى أنيط فيها شرح بعض المواضيع إلى المدرّس نفسه، لكى لا تنقطع علاقة التلاميذ بأستاذهم، و لكى يستمرّوا- بسبب حاجتهم هذه- فى التزوّد منه على مختلف الأصعدة.

و هذا أيضا مصداق وصيّة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين

قال: «إنّى تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و أهل بيتى و أنهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض»

[۳۰۳].

۳- ما التأويل؟

الكلام كثير بشأن معنى «التأويل»، و الأقرب إلى الحقيقة هو أنّ «التأويل» من «الأول» أى الرجوع إلى الأصل، و هو إيصال العمل أو الكلام إلى الهدف النهائى المراد منه. فإذا أقدم أحد على عمل و لم يكن هدفه من هذا العلم واضحا، ثمّ يتوضّح ذلك فى النهاية، فهذا هو التأويل، كالذى نقرأه فى حكاية موسى عليه السّلام مع الحكيم الذى كان يقوم بأعمال غامضة الأهداف «مثل تحطيم السفينة» فكان هذا مدعاة لانزعاج موسى، و لكن عند ما شرح له الحكيم فى نهاية المطاف و عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۱

الفراق أهداف تلك الأعمال، و أنّه قصد إلى تخليص السفينة من الوقوع فى يد سلطان غاصب و ظالم، ختم شرحه بقوله: ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً[۳۰۴].

كذلك إذا رأى الإنسان رؤيا لا تتّضح له نتيجتها، ثمّ تبيّن له تعبيرها بمراجعة شخص أو مشاهدة واقعة، فذلك هو تأويل الرؤيا، مثل يوسف عليه السّلام الذى قال حين تحقّقت رؤياه الشهيرة عمليا، أو بعبارة اخرى حين وصلت مرحلتها النهائية هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ ۳۰۵].

و هكذا إذا صدر عن الإنسان كلام فيه مفاهيم و أسرار خاصّة تشكّل الهدف النهائى لذلك الكلام، فذلك هو التأويل.

هذا هو معنى التأويل فى الآية. أى أنّ فى القرآن آيات ذات أسرار و معان عميقة غير أنّ ذوى الأفكار المنحرفة و المقاصد الفاسدة يضعون من عندهم تفسيرا لا أساس له من الصحّة و يستندون إليه لخداع أنفسهم أو غيرهم.

و عليه، فإنّ المقصود من ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ هو أنّ هؤلاء يريدون أن يؤولوا الآيات بصورة تخالف حقيقتها، أى ابتغاء تأويله على خلاف الحقّ.

و كما قرأنا فى سبب نزول هذه الآية أنّ بعض اليهود أوّلوا تلك الحروف المقطّعة فى القرآن تأويلا لا يتّفق مع الحقيقة، فقالوا إنّها تحدّد عمر الإسلام. و هكذا المسيحيّون أساؤوا تأويل «روح منه» ليثبتوا ألوهيّة المسيح عليه السّلام. هذه كلّها من قبيل «التأويل بخلاف الحقّ»، و إرجاعها إلى مقاصد بعيدة عن الحقيقة.

۴- من هم الراسخون فى العلم؟

هذا التعبير القرآنى ورد فى موضعين. هذا أحدهما هنا و الآخر فى سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۲

النساء، إذ یقول: لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ ۳۰۶].

و بحسب المعنی اللغوی لهذه الکلمة، فإنّها تعنی الذین لهم قدم ثابتة فی العلم و المعرفة.

طبیعی أن یکون معنی الکلمة واسعا یضمّ جمیع العلماء و المفکّرین، إلّا أن بین هؤلاء أفرادا متمیّزین لهم مکانتهم الخاصّة، و یأتون علی رأس مصادیق الراسخین فی العلم و تنصرف إلیهم الأذهان عند استعمال هذه الکلمة قبل غیرهم.

و هذا هو الذی تقول به بعض الأحادیث التی تفسّر الراسخین فی العلم بأنّهم النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة الهدی علیهم السّلام، فقد سبق أن قلنا إنّ لکلمات القرآن و مفاهیمه معانی واسعة، و من مصادیقها البارزة الشخصیّات النموذجیة السامیة التی تذکر أحیانا وحدها فی تفسیر تلک الکلمات و المفاهیم.

عن برید بن معاویة قال: قلت لأبی جعفر «الباقر» علیه السّلام: قول اللّه وَ ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ قال: «یعنی تأویل القرآن کلّه، إلّا اللّه و الراسخون فی العلم، فرسول اللّه أفضل الراسخین، و قد علّمه جمیع ما أنزل علیه من التنزیل و التأویل، و ما کان اللّه منزلا علیه شیئا لم یعلّمه تأویله و أوصیاؤه من بعده یعلمونه کلّه»[۳۰۷].

و هناک أحادیث کثیرة أخری فی أصول الکافی ۳۰۸] و سائر کتب الحدیث بهذا الشأن، جمعها صاحبا تفسیر «نور الثقلین» و تفسیر «البرهان» فی ذیل هذه الآیة.

و کما قلنا فإنّ تفسیر الراسخین بالعلم بأنّهم النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة الهدی علیهم السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۳

لا یتعارض مع المفهوم الواسع الذی یشمله هذا التعبیر، فقد نقل عن ابن عبّاس أنّه قال «أنا أیضا من الراسخین فی العلم» إلّا أنّ کلّ امرئ یتعرّف علی أسرار تأویل آیات القرآن بقدر سعته العلمیة، فالذین یصدرون فی علمهم عن علم اللّه اللامتناهی لا شکّ أعلم بأسرار تأویل القرآن، و الآخرون یعلمون جزءا من تلک الأسرار.

۵- الراسخون فی العلم یعرفون معنی المتشابهات

ثمّة نقاش هامّ یدور بین المفسّرین و العلماء حول ما إذا کانت عبارة الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ بدایة جملة مستقلّة، أم أنّها معطوفة علی إِلَّا اللَّهُ و بعبارة أخری: هل أنّ معنی الآیة و أنّه ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ أم أنّه ما یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا؟

إنّ لکلّ فریق من مؤیّدی هذین الاتجاهین أدلّته و براهینه و شواهده. أمّا القرائن الموجودة فی الآیة و الأحادیث المشهورة المنسجمة معها فتقول إنّ وَ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ معطوفة علی «اللّه»، و ذلک:

أوّلا: یستبعد کثیرا أن تکون فی القرآن آیات لا یعلم أسرارها إلّا اللّه وحده.

ألم تنزل هذه الآیات لهدایة البشر و تربیتهم؟ فکیف یمکن أن لا یعلم بمعانیها و تأویلها حتّی النبیّ الذی نزلت علیه؟ هذا أشبه بمن یؤلّف کتابا لا یفهم معانی بعض أجزائه سواه! و ثانیا: کما یقول المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان»: لم یسبق أن رأینا بین علماء الإسلام و المفسّرین من یمتنع عن تفسیر آیة بحجّة أنّها من الآیات التی لا یعرف معناها سوی اللّه، بل کانوا جمیعا یجدّون و یجتهدون لکشف أسرار القرآن و معانیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۴

و ثالثا: إذا کان القصد هو أنّ الراسخین فی العلم یسلّمون لما لا یعرفونه، لکان الأولی أن یقال: و الراسخون فی الإیمان یقولون آمنّا

به. لأنّ الرسوخ فى العلم يتناسب مع العلم بتأويل القرآن، و لا يتناسب مع عدم العلم به و التسليم له.

و رابعا: أنّ الأحاديث الكثيرة التى تفسّر هذه الآية تؤكّد كلّها أنّ الراسخين فى العلم يعلمون تأويله، و عليه فيجب أن تكون معطوفة على «اللّه». الشىء الوحيد الباقى هو إنّ خطبة «الأشباح» للإمام على عليه السّلام فى نهج البلاغة يستفاد منها أنّ الراسخين فى العلم لا يعلمون تأويل الآيات و يعترفون بعجزهم.

«و أعلم أنّ الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب، الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب الحجوب»

[۳۰۹].

و لكن فضلا عن كون هذه العبارة تناقض بعض الأحاديث المنقولة عنه عليه السّلام التى قال فيها: إنّ الراسخين فى العلم معطوفة على «اللّه» و إنّهم عالمون بتأويل القرآن، فإنّها لا تنسجم أيضا مع الأدلّة التى سبق ذكرها[۳۱۰]. و عليه فيلزم تفسير هذه الجملة من خطبه «الأشباح» بما يتّفق و الأساتيد الأخرى التى بين أيدينا.

۶- نتيجة الكلام فى تفسير الآية

من كلّ ما مرّ قوله تفسيرا لهذه الآية نستنتج أنّ آيات القرآن قسمان: قسم معانيها واضحة جدّا بحيث لا يمكن إنكارها و لا إساءة تأويلها و تفسيرها، و هذه هى الآيات «المحكمات». و قسم آخر مواضيعها رفيعة المستوى، أو أنّها تدور حول عوالم بعيدة عن متناول أيدينا، كعلم الغيب، و عالم يوم القيامة، و صفات اللّه، بحيث إنّ معرفة معانيها النهائية و إدراك كنه أسرارها يستلزم مستوى عاليا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۵

العلم، و هذه هى الآيات «المتشابهات».

المنحرفون و الشواذ من الناس يسعون لاستخدام إبهام هذه الآيات لتفسيرها بحسب أهوائهم و بخلاف الحقّ، لكى يثيروا الفتنة بين الناس و يضلّوهم عن الطريق المستقيم. بيد أنّ اللّه و الراسخين فى العلم يعرفون أسرار هذه الآيات و يشرحونها للناس، فهم بعلمهم الواسع يفهمون المتشابهات كما يفهمون المحكمات، و لذلك فإنّهم يسلّمون بها قائلين إنّها جميعا من عند اللّه: يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا.

و على هذا يكون الرسوخ فى العلم سببا فى أن يزداد الإنسان معرفة بأسرار القرآن. و لا شكّ أنّ الذين رسخوا فى العلم أكثر من غيرهم- كالنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة الهدى- يعلمون جميع أسرار القرآن، بينما الآخرون يعلمون منها كلّ بقدر سعة علمه. و هذه الحقيقة هى التى تدفع الناس، و حتّى العلماء منهم، للبحث عن المعلّمين الإلهيّين ليتعلّموا منهم أسرار القرآن.

۷- وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ

تشير هذه الجملة فى ختام الآية إلى أنّ هذه الحقائق يعرفها المفكّرون وحدهم، فهم الذين يدركون لماذا ينبغى أن يكون فى القرآن «محكمات» و «متشابهات»، و هم الذين يعلمون أنّه يجب وضع المتشابهات إلى جانب المحكمات لكشفها. لذلك فقد نقل

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنه قال: «من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم»

[۳۱۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸ الى ۹]

اشارة

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۸) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (۹)

التّفسير

النجاة من الزيغ:

بالنظر لاحتمال أن تكون الآيات المتشابهات و أسرارها موضع زلل الناس، فإنّ الراسخين فى العلم المؤمنين يلجأون إلى ربّهم إضافة إلى استعمال رأسمالهم العلمى فى إدراك حقيقة الآيات. و هذا ما تبيّنه هاتان الآيتان على لسان الراسخين فى العلم، و تقولان إنّ الراسخين فى العلم و المفكّرين من ذوى البصيرة لا يفتأون يراقبون أرواحهم و قلوبهم لئلّا ينحرفوا نحو الطرق الملتوية، فيطلبون لذلك العون من اللّه. فالغرور العلمى يخرج بعض العلماء عن مسيرهم إلى متاهات الضلال، لأنّهم يلتفتون إلى عظمة الخلق و الخالق و تفاهة ما عندهم من علم، فيحرمون من هداية اللّه. أمّا العلماء المؤمنون فيقولون: رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۷

و ليس أشدّ تأثيرا فى السيطرة على الميول و الأفكار من الاعتقاد بيوم القيامة و المعاد. إنّ الراسخين فى العلم يصحّحون أفكارهم عن طريق الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و يحولون دون التأثّر بالميول و الأحاسيس المتطرّفة التى تؤدّى إلى الزلل، و نتيجة لذلك يستقيمون على الصراط المستقيم بأفكار سليمة و دون عائق.

نعم هؤلاء هم القادرون على الاستفادة من آيات اللّه كلّ الاستفادة.

فى الحقيقة تشير الآية الأولى إلى إيمان هؤلاء الكامل «بالمبدأ»، و تشير الآية الثانية إلى إيمانهم الراسخ «بالمعاد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰ الى ۱۱]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (۱۰) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۱)

التّفسير

بعد بيان مواقف الكفّار و المنافقين و المؤمنين من الآيات «المحكمات» و «المتشابهات» فى الآيات السابقة، تقول هذه الآية: إذا كان الكفّار المعاندون يحسبون أنّهم بثرواتهم و أبنائهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم فى الآخرة فهم على خطأ كبير، فهذه الوسائل قد يكون لها تأثيرها المؤقت فى هذه الدنيا، و لكنّها عند اللّه لن يكون لها أىّ تأثير، لا فى هذه الدنيا و لا فى الآخرة. لذلك ينبغى ألّا

يغترّ الإنسان بهذه الأمور فتحمله على ارتكاب الإثم، و إلّا فإنّه يصلى نارا سيكون هو حطبها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۰۹

وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ[۳۱۲] يفيد هذا التعبير أنّ نار الجحيم مستعرة بوجود المذنبين، و هؤلاء المذنبون هم الذين يديمون أوارها و لهيبها. نعم ثمّة آيات تقول إنّ الحجارة أيضا تكون وقود نار جهنم بالإضافة إلى المذنبين. و لكن- كما قلنا فى تفسير الآية ۲۴ من سورة البقرة فى الجزء الأول- يمكن أن تكون هذه الحجارة هى الأصنام التى كانوا ينحتونها من الحجر. و عليه فإنّ نار جهنّم تستعر بأعمال المذنبين و بمعبوداتهم الباطلة.

ثمّ تشير الآية إلى نموذج من الأمم السالفة التى كانت قد أوتيت الثروة الإنسانية و المادية الكثيرة، و لم تستطيع هذه الثروة أن تكون مانع من هلاكهم.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ

«الدأب» إدامة السير، و العادة المستمرّة دائما على حالة واحدة. فهذه الآية تشبّه حال الكفّار المعاصرين لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بما كان آل فرعون قد اعتادوا عليه- و كذلك الأقوام السابقة- من تكذيب آيات اللّه، فأخذهم اللّه بذنبهم و أنزل بهم عقابه الصارم فى هذه الدنيا.

هذا فى الواقع إنذار للكافرين المعاندين على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكى يعتبروا بمصير الفراعنة و الأقوام السالفة، و يصحّحوا أعمالهم.

صحيح أنّ اللّه «أرحم الراحمين» و لكنه فى المواضع و من أجل تربية عبيده «شديد العقاب» أيضا، و لا ينبغى أن يغترّ العبيد برحمة مولاهم الواسعة أبدا.

يستفاد أيضا من «الدأب» أنّ هذه الاتّجاه الخطأ- أى العناد إزاء الحقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۰

و تكذيب آيات اللّه- أصبح عادة ثابتة فيهم، و لهذا يهدّدهم بعذاب شديد، و ذلك لأنّه ما دام الإثم لم يصبح عادة و نهجا فى الحياة فإنّ الرجوع عنه ميسور و عقابه خفيف، و لكنّه إذا نفذ إلى داخل أعماق الإنسان فالرجوع عنه متعذّر، و العقاب عليه شديد. فخير للكافرين أن ينتهزوا الفرصة قبل فوات الأوان و يرجعوا عن طريق الضلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۱

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲]

اشارة

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۲)

سبب النّزول

بعد حرب بدر و انتصار المسلمين قال فريق من اليهود: إنّ النبىّ الأمىّ الذى بشرنا به موسى، و نجده فى كتابنا بنعته و صفته، و أنّه لا تردّ له راية، ثمّ قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتّى تنظروا إلى واقعة اخرى.

فلمّا كان يوم احد، و نكبّ أصحاب رسول اللّه، شكّوا و قالوا: لا و اللّه ما هو به، فغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا. و قد كان بينهم و بين رسول اللّه عهد إلى مدّة لم تنقض، فنقضوا ذلك العهد قبل أجله، و انطلق كعب بن الأشرف إلى مكّة فى ستين راكبا، فوافقوهم و

اجمعوا أمرهم على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لتكونن كلمتنا واحدة، ثمّ رجعوا إلى المدينة. عندئذ نزلت الآية المذكورة تقول لهم إنّ الحساب قريب و أنكم جميعا ستكونون عمّا قريب من المغلوبين ۳۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۲

التّفسير

مع ما تقدّم فى سبب النزول يتضح أن الكفّار المغرورين بأموالهم و أولادهم، و عددهم و عدّتهم يتوقعون هزيمة الإسلام، و لكن القرآن الكريم يصرح فى هذه الآية بأنهم سيغلبون، و يخاطب النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يخبرهم بذلك و أن عاقبتهم فى الدنيا و الآخرة ليست سوى الهزيمة و الذلّ و العذاب الأليم: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ[۳۱۴].

تنبّؤ صريح هناك أخبار غيبية كثيرة فى القرآن الكريم تعتبر من أدلة عظيمته و إعجازه.

و الآية أعلاه واحدة من هذه الأخبار الغيبية.

و فى هذه الآية يبشّر اللّه نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالانتصار على جميع الأعداء، و ينذر الكافرين بأنّهم فضلا عن اندحارهم فى هذه الدنيا، فإنّ لهم فى الآخرة شرّ مصير.

إذا لا حظنا سبب نزول الآية، و كونها نزلت بعد فشل المسلمين فى أحد، و ظهور ضعفهم الظاهرى، و ازدياد قوّة الأعداء باتّحادهم و تكاتفهم فإنّ هذا التنبّؤ الصريح و على الأخصّ عن المستقبل القريب: سَتُغْلَبُونَ يكون أمرا مثيرا للانتباه. و من هنا يمكن اعتبار هذه الآية من آيات إعجاز القرآن، لوجود هذا التنبّؤ عن المستقبل فيه، فى الوقت الذى لا تشير فيه الظواهر إلى احتمال انتصار المسلمين على الكفّار و اليهود.

و لم تمض فترة طويلة حتّى تحقّقت نبوءة الآية و هزم يهود المدينة «بنو قريضة، و بنو النضير»، و فى خيبر- أهم معقل من معاقلهم- اندحروا و تلاشت قواهم. كما هزم المشركون فى فتح مكّة هزيمة نكراء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۳]

اشارة

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (۱۳)

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن حرب «بدر». يقول المفسّرون إنّ عدد المسلمين يوم بدر كان ۳۱۳ شخصا، منهم ۷۷ من المهاجرين و ۲۳۶ من الأنصار. كان لواء المهاجرين بيد علىّ عليه السّلام، و كان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار. و كانت عدّتهم لا تتجاوز ۷۰ بعيرا، و فرسين، و ستة دروع، و ثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، فى وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح و مائة فرس. و مع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ۲۲ شهيدا «۱۴ من المهاجرين و ۸ من الأنصار»، فى مقابل ۷۰ قتيلا و ۷۰ أسيرا من الأعداء، و عادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر. و هذه الآية تحكى جانبا من معركة بدر[۳۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۴

التّفسير

معركة بدر و التأييد الإلهى:

تعقيبا على الآيات السابقة التى حذّر القرآن فيها الكافرين من الاغترار بالمال و الأبناء و الأتباع، جاءت هذه الآية شاهدا حيّا على هذا الأمر، فتدعوهم إلى الاعتبار بما جرى فى معركة بدر التاريخية.

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا.

كيف لا تكون لهم عبرة، و هم يرون أنّ جيشا صغيرا لا يملك شيئا من العدّة، سوى الإيمان الراسخ، ينتصر على جيش يفوقه أضعافا فى العدد و العدّة. فلو كان المال و العدد- بغير إيمان- قادرين على شىء لظهر مفعولهما فى معركة بدر، و لكن النتيجة كانت معكوسة.

يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ

تقول الآية: إنّ الكفّار كانوا يرون جند المسلمين ضعف عددهم. أى أنّهم إذا كانوا ۳۱۳ شخصا كان الكفّار يرونهم أكثر من ۶۰۰ شخص ۳۱۶]. ليزيد من خوفهم، و كان هذا أحد أسباب هزيمة الكفّار.

و هذا- فضلا عن كونه إمدادا غيبيا من اللّه انتصر به المسلمون، لأنّ اللّه يمدّ عباده المجاهدين المؤمنين بمختلف السبل- كان أمرا طبيعيا من حيث جانبه الظاهرى، و ذلك لأنّ الضربات الشديدة التى أنزلها المسلمون- بقوة إيمانهم و تربيتهم الإسلامية- على الأعداء، أثارت فيهم الرعب و الهلع فظنّوا أنّ هناك قوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۵

أخرى التحقت بالمسلمين، و لذلك ظنّوا أنّ المسلمين يحاربون بضعف قوّتهم الأولى و يسيطرون على ميدان الحرب سيطرة تامّة، مع أنهم قبل الدخول لم يكن يخطر لهم ذلك أبدا، بل كانوا يرون المسلمين أقلّ ممّا كانوا عليه. فى الآية ۴۴ من سورة الأنفال إشارة إلى ذلك أيضا وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا.

تذكّروا يوم لقائكم بهم فى ميدان الحرب، فقد أظهرناكم فى أعينهم قلّة لكى لا يتجنّبوا حربا ستؤدّى إلى هزيمتهم- كما أظهرناهم فى أعينكم قلّة لكى لا تضعف معنوياتكم فى حرب مصيرية-. و ما أن بدأ الحرب حتّى تبدّلت المشاهد، و ظهر المسلمون فى أعين الأعداء بأعداد مضاعفة، فكان هذا واحدا من أسباب هزيمتهم.

و جاء فى بعض الروايات أن أحد المسلمين قال: قبل نشوب القتال فى بدر قلت لرفيق لى: ألّا تظن أن عدد الكفّار سبعون نفرا؟ فقال: إنى احسبهم مائة نفر، و لكن عند ما انتصرنا فى الحرب و أسرنا منهم عددا غفيرا سمعنا أن عددهم ألف نفر[۳۱۷].

وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ.

تشير الآية إلى حقيقة أنّ اللّه ينصر من يشاء. لقد سبق أن قلنا إنّ مشيئة اللّه و إرادته لا تكون بغير حساب، بل هى تكون بموجب حكمته و فى حدود لياقة الأفراد، أى أنّ اللّه يؤيّد الذين يستحقّون ذلك.

جدير بالذكر أنّ النصر الإلهى للمسلمين فى الحادثة التاريخية كان ذا جانبين، فقد كان «نصرا عسكريا» و «نصرا منطقيا». فمن الناحية العسكرية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۶

انتصر جيش صغير مفتقر إلى المعّدات الحربية على جيش يبلغ أضعافه عددا و إمكانات. و من الناحية المنطقية: فإنّ اللّه كان قد أخبر المسلمين صراحة بهذا النصر قبل بدء الحرب.

إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ.

فى ختام الآية يؤكّد سبحانه أنّ الذين وهبوا البصيرة بحيث يرون الحقائق كما هى، يعتبرون بهذا الانتصار الذى أحرزه أناس مؤمنون، و يدركون أنّ أساس هذا الانتصار هو الإيمان ... الإيمان وحده ۳۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۷

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۴]

اشارة

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (۱۴)

التّفسير

جاذبية المتاع الدنيوى:

تعقيبا على الآيات السابقة التى اعتبرت الإيمان رأس المال الحقيقى للإنسان- لا المال و البنين و الأنصار- تشير هذه الآية إلى حقيقة أنّ الزوجة و الأبناء و الأموال إنّما هى ثروات تنفع فى الحياة المادّية هذه، و لكنّها لا يمكن أن تشكّل هدف الإنسان الأصيل. صحيح أنّه بغير هذه الوسائل لا يمكن السير فى طريق السعادة و التكامل المعنوى، إلّا أنّ الاستفادة منها فى هذا السبيل شىء و حبّها و عبادتها- بغير أن تكون مجرّد وسيلة يستفاد منها- شىء آخر.

فى هذه الآية بضع نقاط ينبغى الالتفات إليها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۸

۱- من الذى جعل المادّيات زينة؟

فى تعبير زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ ...[۳۱۹] جاء الفعل مبنيّا للمجهول، أى أنّ الفاعل المجهول قد زيّن للناس حبّ الزوجة و الأولاد و الأموال. فى هذه الحالة يخطر للمرء هذا السؤال: ترى من هو الذى زيّن هذه الأمور للناس؟

بعض المفسّرين يرون أنّ هذه المشتهيات من عمل الشيطان الذى يزيّنها فى أعين الناس، و يستدلّون على ذلك بالآية ۲۴ من سورة النمل: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ و أمثالها. إلّا أنّ هذا الاستدلال لا يبدو صحيحا، لأنّ الكلام فى الآية التى نبحث فيها لا تتكلّم عن «الأعمال»، بل عن الأموال و النساء و الأبناء.

إنّ التفسير الذى يبدو صحيحا هو أنّ اللّه هو الذى زيّن للناس ذلك عن طريق الخلق و الفطرة و الطبيعة الإنسانية.

إنّ اللّه هو الذى جعل حبّ الأبناء و الثروة فى جبلّة الإنسان لكى يختبره و يسير به فى طريق التربية و التكامل، كما يقول القرآن إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۳۲۰].

ممّا يثير الالتفات فى الآيـة أنّ الزوجة أو المرأة قد وردت أوّلا، و هذا هو ما يقول به علماء النفس اليوم، بأنّ الغريزة الجنسـية من أقوى الغرائز فى الإنسان، كما أنّ التاريخ المعاصر و القديم يؤيّد أنّ كثيرا من الحوادث الاجتماعية ناشئة عن طغيان هذه الغريزة.

و ينبغى القول أيضا إنّ هـذه الآيـة و الآيات المشابهـة لا تـذمّ العلائق المعتدلـة مع المرأة و الأولاد و المال، لأنّ التقـدّم نحو الأهـداف المعنوية غير ممكن بدون الوسائل المادّية، و هى لا تتعارض مع نواميس الخلق الطبيعية. إنّما المذموم هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۱۹

الإفراط فى هذه العلائق، و بعبارة أخرى: المذموم هو عبادة هذه الأمور.

۲- ما هى «القناطير المقنطرة» و «الخيل المسوّمة»؟

«قناطير» جمع قنطار، و هو الشىء المحكم، ثمّ أطلق على المال الكثير.

و إطلاـق «القنطرة» على الجسـر، و «القنطر» على الشـخص الـذكى إنّمـا هو لإحكام البناء أو الفكر. و «المقنطرة» اسم مفعول يـدلّ على الكثرة و المضاعفة، و ذكرهما متتاليين يعنى التوكيد، كقولنا «آلاف مؤلّفة» و نقصد به الكثرة الكاثرة.

هناك من حـدّد وزن القنطار بأنّه يساوى سـبعين ألف دينار ذهبا، و قال بعض إنّه مائة ألف دينار، و قال آخرون إنّه يساوى اثنى عشـر ألف درهم، و يقول بعض إنّ القنطار كيس مملوء ذهبا أو فضة.

و

فى رواية عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السّلام أنّ القنطار مقدار من الذهب الذى يملأ جلد بقرة.

إلّا أنّ كلّ هذه تشير إلى المال الوفير.

«الخيل» اسم جمع للفرس، و تطلق على الفرسان أيضا. و المقصود فى الآية هو المعنى الأول طبعا.

و «المسوّمة» بمعنى المعلّمة أى ذات العلامة، فقد تعلّم الخيل لإبراز جمال هيكلها و رشاقتها، أو لمعرفة أنّها مدرّبة و معدّة للركوب فى ميادين القتال.

و عليه، فإنّ الآية تعدّد سـتة من ثروات الحياة و هى: المرأة، و الولد، و المال، و الخيول الأصـيلة، و المواشـى و الإبل، و الزراعة، و هى أركان الحياة المادّية.

۳- ما هو المراد ب مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا؟

«المتاع» هو الانتفاع بالشـىء بعض الوقت. و الحياة الدنيا هى الحياة الواطئة الحقيرة. فيكون معنى الآية: إذا عشق أحد هذه الأشياء الستة و حدها باعتبارها الهدف النهائى للحياة، و لم يستفد منها كسلّم للصعود فى مسيرة حياته، يكون قد اختار لنفسه حياة منحطّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۰

و فى الحقيقـة أنّ تعبير «الحياة الـدنيا» إشارة إلى سـير الحياة التكاملى، إذ أنّ هـذه الحياة الـدنيا تعتبر المرحلـة الأولى فى ذلك السـير. لذلك تشير الآية فى النهاية إلى الحياة السامية التى تنتظر الإنسان فتقول: وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

۴- كما تقدّم فى تفسـير الآية، فقد اشارت الآية إلى النساء من بين النعم المادّية و قدّمتها على الجميع، لأنّها بالقياس الى النعم الاخرى أقوى تأثيرا و اشدّ جاذبية لأهل الدنيا و قد تدعوهم إلى ارتكاب أعظم الجنايات فى هذا السبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۱

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۱۵) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (۱۶) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (۱۷)

التّفسير

اشارة

هذه الآية توضّح الخطّ البيانى الصاعد لتكامل الحياة الإنسانية الذى أشير إليه فى الآية السابقة. تقول الآية: هل أخبركم بحياة أرفع و أسمى من هذه الحياة المادّية المحدودة فى الدنيا، تلك الحياة فيها كلّ ما فى هذه الحياة من النعم لكنّها صورتها الكاملة الخالية من أىّ نقص و عيب خاصة بالمتقين.

بساتينها، لا كبساتين الدنيا، لا ينقطع الماء عن الجريان بجوار أشجارها:

تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۲

و نعمها دائمة أبدية، لا كنعم الدنيا السريعة الزوال: خالِدِينَ فِيها.

نساؤها خلافا لكثير من غوانى هذه الدنيا، ليس فى أجسامهنّ و لا أرواحهنّ نقطة ظلام و خبث: وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ.

كلّ هذا بانتظار المتّقين. و أسمى من ذلك كلّه، النعم المعنوية التى تفوق كلّ تصوّر و هى رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ

نلاحظ أنّ الآية تبدأ بجملة: «أ أنبؤكم» الاستفهامية الموجّهة إلى الفطرة الإنسانية الواعية لكى تكون أنفذ فى السامع و أعمق، ثمّ إنّ الاستفهام ينصّ على «الإنباء» التى تستعمل للأداء بخبر مهمّ جدير بالاستيعاب.

و تخبر الآية المؤمنين أنّهم إذا امتنعوا عن اللذائذ غير المشروعة و الأهواء الطاغية الممزوجة بالمعصية، فإنّهم سيفوزون فى الآخرة بلذائذ مشابهة و لكن بمستوى أرفع و خالية من كلّ نقص و عيب. إلّا أنّ هذا لا يعنى حرمان النفس من لذائذ الحياة الدنيا التى لهم أن يتمتّعوا بها بصورة مشروعة.

هل فى الجنّة لذائذ مادّية أيضا؟

يظنّ بعضهم أنّ اللذائذ المادّية مقتصرة على الحياة الدنيا، و أنّ الحياة الأخرى خالية منها، و أنّ جميع ما جاء فى القرآن عن الجنّات و الفواكه و المياه الجارية و الأزواج الطاهرة إنّما هى كناية عن مقامات و نعم معنوية من باب «كلّم الناس على قدر عقولهم».

و لكنّا ينبغى أن نقول: إنّنا بعد أن قبلنا بالمعاد الجسمانى استنادا إلى الكثير من آيات القرآن الصريحة، فلا بدّ من وجود نعم تناسب الجسم و الروح و بمستوى أرفع و أعلى. و فى هذه الآية إشارة إلى كليهما: ما يناسب المعاد الجسمانى، و ما يناسب المعاد الروحى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۳

فى الواقع، إنّ الـذين يعتبرون نعم الآخرة المادّيـة كنايـة عن نعم معنوية، إنّما يؤوّلون ظاهر آيات القرآن دون سـبب، كما أنّهم ينسون المعاد الجسمانى و ما يقتضيه.

و لعلّ جملـة وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ التى جاءت فى آخر الآيـة إشارة إلى هـذه الحقيقـة، أى أنّه يعلم ما يحتاجه الجسم و الروح فى العالم الآخر، و ما هى متطلّبات كلّ منهما و هو يضمن إشباع هذه الحاجات على أحسن وجه.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا ....

فى هذه الآية و الآية التى بعدها نتعرّف على المتّقين الذين كانوا فى الآية السابقة مشـمولين بنعم اللّه العظيمة فى العالم الآخر، فتعددان ستّ صفات من صفاتهم الممتازة.

۱- إنّهم يتوجّهون إلى اللّه بكـلّ جوارحهم، و الإيمـان يضـىء قلوبهم، و لـذلك يحسّون بمسؤوليـة كبيرة فى كلّ أعمالهم، و يخشون عقاب أعمالهم خشية شديدة، فيطلبون مغفرته و النجاة من النار: فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ.

۲- مثـابرون صـابرون ذوو همّـة، و مقـاومون عنـد مـواجهتهم الحـوادث فى مسـيرة إطـاعتهم للّه و تجنّبهم المعاصـى، و عنـد ابتلائـهم بالشدائد الفردية و الاجتماعية الصَّابِرِينَ

۳- صادقون و مستقيمون، و ما يعتقدون به فى الباطن يعملون به فى الظاهر، و يتجنّبون النفاق و الكذب و الخيانة و التلوّث وَ الصَّادِقِينَ

۴- فى طريق العبودية للّه خاضعون و متواضعون و مواظبون على ذلك وَ الْقانِتِينَ ۳۲۱].

۵- لا ـ ينفقون من أموالهم فحسب، بل ينفقون من جميع ما لـديهم من النعم المادّيـة و المعنويـة فى سبيل اللّه، فيعالجون بـذلك أدواء المجتمع وَ الْمُنْفِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۴

۶- فى أواخر الليل و عند السـحر، أى عند ما يسود الهدوء و الصـفاء و حين يغط الغافلون فى نوم عميق و تهدأ ضوضاء العالم المادّى، يقوم ذوو القلوب الحيّة اليقظـة، و يـذكرون اللّه و يطلبون المغفرة منه و هم ذائبون فى نور اللّه و جلاله، و تلهج كلّ ذرّة من وجودهم بتوحيده سبحانه وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ.

بحوث

۱- فى تفسير هذه الآية،

روى عن الصادق عليه السّلام أنه قال: «من قال فى آخر صلاة الوتر فى السحر «استغفر اللّه و أتوب إليه» سبعين مرّة، و دوام على ذلك سنة كتبه اللّه من المستغفرين بالأسحار»[۳۲۲].

۲- «السحر» فى أصل اللغة هو «التغطية و الإخفاء». و لمّا كانت ساعات الليل الأخيرة تغطّى كلّ شىء بستار خاصّ، فقد سمّيت بالسحر.

و «السحر»- بكسر السين- من المادّة نفسها، لأنّ الساحر يقوم بأعمال تخفى أسرارها على الآخرين.

و قد يطلق العرب اسم «السحر»- بوزن البشر- على الرئة لاختفاء ما فيها.

لما ذا يشار إلى السـحر من بين جميع ساعات الليل و النهار، مع أنّ الاسـتغفار و ذكر اللّه مطلوبان فى كلّ وقت؟ السـبب هو ما تتميّز به ساعـات السـحر من هـدوء و سـكون و ابتعـاد عن الأعمـال المادّيـة، و للنشاط الـذى يشـعر به المرء بعـد استراحته و نومه، فيكون أكثر اسـتعدادا للتوجّه إلى اللّه. و هـذا ما يسـهل دركه بالتجربة، حتّى أنّ بعض العلماء يسـتثمرون وقت السـحر لحلّ المسائل العلمية، إذا أنّ سراج الفكر و روح الإنسان أكثر تلألؤا و سـطوعا فى ذلك الوقت من أىّ وقت آخر. و لمّا كانت روح العبادة و الاسـتغفار هى التوجّه و حضور القلب، فإنّ العبادة و الاستغفار فى هذا الوقت أسمى من أىّ وقت آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸]

اشارة

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸)

التّفسير

الجميع يشهد بالوحدانية:

تعقيبا على البحث فى الآيات السابقة حول المؤمنين الحقيقيين، تشير هذه الآية إلى بعض أدلّة التوحيد و معرفة اللّه فتقول بأن اللّه تعالى يشهد بوحدانيته (من خلال إيجاد النظام الكونى العجيب)، كما تشهد الملائكة، و يشهد بعد ذلك العلماء و الذين ينظرون إلى حقائق العالم بنور العلم و المعرفة شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ

بحوث

۱- كيف يشهد اللّه على وحدانيّته؟

المقصود من شهادة اللّه هنا هو الشهادة العملية و العقلية، لا الشهادة اللفظية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۶

أى أنّ اللّه بخلقه عالم المخلوقات الذى يسوده نظام موحّد، و تتشابه قوانينه فى كلّ مكان، و تجرى وفق برنامج واحد، لتكوّن «وحدة واحدة» و «نظاما واحدا»، قد أظهر عمليا أنّ الخالق و المعبود فى العالم ليس أكثر من واحد، و أنّ كلّ شىء ينطلق من ينبوع واحد. و عليه فإنّ خلق هذا النظام الواحد شهادة و دليل على وحدانيّته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۴۲۶

ّا شهادة الملائكة و العلماء، فهى شهادة لفظية، فهم بالتعبير اللفظى الذى يناسبهم يعترفون بهذه الحقيقة. إنّ هذا اللون من التفكيك فى الآيات القرآنية كثير فى الآية إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي ۳۲۳]، لا شكّ أنّ صلاة اللّه على النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير صلاة الملائكة عليه، فصلاة اللّه هى إرسال الرحمة، و صلاة الملائكة هى طلب الرحمة.

بديهىّ أنّ لشهادة الملائكة و العلماء جانبها العملى أيضا، ذلك لأنّهم لا يعبدون سواه، و لا يخضعون لمعبود غيره.

۲- ما القيام بالقسط؟

إنّ عبارة قائِماً بِالْقِسْطِ حال من فاعل «شهد» و هو «اللّه». أى أنّ اللّه يشهد بوحدانيّته فى حالة كونه قائما بالعدالة فى عالم الوجود. و هذا فى الحقيقة دليل على شهادته، لأنّ العدالة هى إختيار الطريق الوسط و المستقيم، بمعزل عن كلّ إفراط و تفريط و انحراف. و نعلم

أنّ الطريق الوسط المستقيم لا بدّ أن يكون طريقا واحدا، كما نقرأ فى الآية ۱۵۳ من سورة الأنعام وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

تقول هذه الآية إنّ طريق اللّه واحد، بينما طرق المنحرفين و البعيدين عن اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۷

متعدّدة و متناثرة، و ذلك لورود الصراط المستقيم بصيغة المفرد، و سبل المنحرفين بصيغة الجمع.

النتيجة هى أن «العدالة» تصاحب «النظام الواحد»، و النظام الواحد دليل على «المبدأ الواحد». و بناء على ذلك فإنّ العدالة بمعناها الحقيقى فى عالم الخلق دليل على وحدانية الخالق، فتأمّل.

۳- أهمية العلماء

العلماء فى هذه الآية وضعوا إلى جانب الملائكة، و هذا بذاته تمييز للعلماء على غيرهم. كما يستفاد من الآية أنّ العلماء إنّما امتازوا على غيرهم لأنّهم بعلمهم توصّلوا إلى معرفة الحقائق، و على رأسها معرفة وحدانية اللّه.

من الواضح أنّ الآية تشمل جميع العلماء، أمّا قول بعض المفسّرين بأنّ أُولُوا الْعِلْمِ هم الأئمّة الأطهار عليهم السّلام فلأنّ الأئمّة من اظهر مصاديق ذلك.

ينقل المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان» ضمن تفسير هذه الآية،

عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ساعة من عالم يتّكئ على فراشه ينظر فى علمه خير من عبادة العابد سبعين عاما».

يتكرّر تعبير لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فى نهاية الآية، و لعلّ التكرار إشارة إلى أنّه ما جاءت فى البداية شهادة اللّه و الملائكة و العلماء، كذلك على من يسمع هذه الشهادات أن يردّدها هو أيضا معهم، و يشهد على وحدانية المعبود.

و لمّا كان قوله لا إِلهَ إِلَّا هُوَ تعظيما و إظهارا لوحدانيّته، فقد اختتم بالصفتين «العزيز» و «الحكيم» لأنّ القيام بالقسط يتطلّب القدرة و الحكمة، و أنّ اللّه القادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۸

على كلّ شىء، و العليم بكلّ شىء هو وحده القادر على إجراء العدالة فى عالم الوجود.

هذه الآية من الآيات التى كانت موضع اهتمام رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم دائما و كان يردّدها فى مواضع مختلفة.

و روى عن الزبير بن العوام قال: قلت لأدنونّ هذه العشية من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هى عشية عرفة، حتّى أسمع ما يقول ...، فسمعته يقول: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الآية، فما زال يرددها حتّى رفع ۳۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۲۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹]

اشارة

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۹)

التّفسير

روح الدين التسليم للحقّ:

«الدين» فى الأصل بمعنى الجزاء و الثواب، و يطلق على «الطاعة» و الانقياد للأوامر، و «الدين» فى الاصطلاح: مجموعة العقائد و القواعد و الآداب التى يستطيع الإنسان بها بلوغ السعادة فى الدنيا، و أن يخطو فى المسير الصحيح من حيث التربية و الأخلاق الفردية و الجماعية.

«الإسلام» يعنى التسليم، و هو هنا التسليم للّه. و على ذلك، فإنّ معنى إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ إنّ الدين الحقيقى عند اللّه هو التسليم لأوامره و للحقيقة.

فى الواقع لم تكن روح الدين فى كلّ الأزمنة سوى الخضوع و التسليم للحقيقة.

و إنّما أطلق اسم «الإسلام» على الدين الذى جاء به الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه أرفع الأديان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۰

و قد أوضح الإمام على عليه السّلام هذا المعنى فى بيان عميق فقال: «لأنسبنّ الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلى: الإسلام هو التسليم، و التسليم هو اليقين، و اليقين هو التصديق، و التصديق هو الإقرار، و الإقرار هو الأداء، و الأداء هو العمل»

[۳۲۵].

فالإمام فى كلمته هذه يضع للاسم ستّ مراحل، أولاها التسليم أمام الحقيقة، ثمّ يقول إنّ التسليم بغير يقين غير ممكن (إذ أنّ التسليم بغير يقين يعنى الاستسلام الأعمى، لا التسليم الواعى). ثمّ يقول إنّ اليقين هو التصديق (أى أنّ العلم وحده لا يكفى، بل لا بدّ من الاعتقاد و التصديق القلبيّين) و التصديق هو الإقرار (أى لا يكفى أن يكون الإيمان قلبيّا فحسب، بل يجب إظهاره بشجاعة و قوّة)، ثمّ يقول إنّ الإقرار هو الأداء (أى أنّ الإقرار لا يكون بمجرّد القول باللسان، بل هو التزام بالمسؤولية). و أخيرا يقول إنّ الأداء هو العمل (أى إطاعة أوامر اللّه و تنفيذ البرامج الإلهية) لأنّ الالتزام و تحمّل المسؤولية لا يعنيان سوى العمل. أمّا الذين يسخّرون كلّ قواهم و طاقاتهم فى عقد الجلسات تلو الجلسات و تقديم الاقتراحات و ما إلى ذلك من الأمور التى لا تتطلّب سوى الكلام فلا هم تحمّلوا التزاما و لا مسئولية، و لا هم وعوا روح الإسلام حقّا.

هذا أجلى تفسير للإسلام من جميع جوانبه، ثمّ إنّ الآية تذكر علّة الاختلاف الدينى على الرغم من الوحدة الحقيقية للدين الإلهى و تقول:

وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

فعلى هذا إن الاختلاف ظهر أوّلا بعد العلم و الاطلاع على الحقائق. و ثانيا كانت الدوافع لذلك هى الظلم و الطغيان و الحسد. فاليهود اختلفوا فى خليفة موسى ابن عمران عليه السّلام و اقتتلوا بينهم، و المسيحيون اختلفوا فى أمر التوحيد حيث خلطوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۱

بالشرك و التثليث، و قد اختلف كلّ منهما فى أمر الإسلام و دلائل صدق النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الواردة فى كتبهم، فقبل بعضهم و أنكر آخرون.

و الخلاصة إنّ لكلّ دين سماوى دلائله الواضحة التى لا تترك إبهاما أمام الباحث عن الحقيقة. فالنبىّ الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم مثلا- بالإضافة إلى أنّ المعجزات و الدلائل الواضحة فى نصوص دينه تؤكّد صدقه- وردت أوصافه و علاماته فى الكتب السماوية السابقة التى بقى قسم منها فى أيدى اليهود و النصارى، و لذلك بشّر علماؤهم بظهوره قبل ظهوره، و لكنّهم بعد أن بعث

رأوا مصالحهم فى خطر، فأنكروا كلّ ذلك، يحدوهم الظلم و الحسد و الطغيان.

وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

هذا بيان لمصير أمثال هؤلاء الذين لا يعترفون بآيات اللّه. إنّهم سوف يتلقّون نتائج عملهم هذا، فاللّه سريع فى تدقيق حساباتهم ۳۲۶].

المراد من «آيات اللّه» فى هذه الآية ما يشمل جميع آياته و براهينه و كتبه السماوية، و لعلّها تشمل أيضا الآيات التكوينية فى عالم الوجود، و ما ذكره بعض المفسرين من أنها تعنى آيات التوراة و الإنجيل خاصة، لا دليل عليه.

ملاحظة

منشأ الاختلافات الدينية

ممّا يلفت النظر فى هذه الآية هو أنّ سبب الاختلافات الدينية ليس الجهل و عدم المعرفة دائما، بل هو على الأكثر الظلم و الطغيان و الانحراف عن الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۲

و اتّباع و جهات النظر الخاصّة، فلو تخلّى الناس- و على الأخصّ العلماء منهم- عن التعصّب، و الحقد، و ضيق النظر، و المصالح الخاصّة، و تجاوز الحدود، و الاعتداء على الحقوق، و تعمّقوا فى دراسة أحكام اللّه بنظرة واقعية و بروح من العدالة، فسيرون محجّة الحقّ منيرة و سيستطيعون حلّ الاختلافات بسرعة.

و هذه الآية فى الواقع ردّ دامغ على الذين يقولون: «إنّ الدين هو سبب الخلافات إراقة الدماء بين البشر على امتداد التاريخ».

هؤلاء يخلطون بين «الدين» و «التعصّب الدينى» و الانحرافات الفكرية.

فنحن إذا درسنا تعاليم الأديان السماوية نجد أنّها جميعا تسعى لتحقيق هدف واحد، و كلّها جاءت من أجل سعادة الإنسان، و إن كان قد تكاملت تدريجيا على مرور الزمن.

الأديان السماوية أشبه فى الواقع بقطرات المطر النازلة من السماء حيث تكمن فيها الحياة، و لكنّها إذا نزلت على الأراضى السبخة، كالأرض المالحة، اكتسبت صبغة هذه الأرض. فهذه الاختلافات ليست من قطرات المطر، بل هى من تلك الأراضى. و لكن من حيث مبدأ التكامل، فإنّ اللّه آخر تلك الأديان يكون أكملها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۰]

اشارة

فَإِنْ حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۲۰)

التّفسير

«المحاجّة» أن يسعى كلّ واحد فى ردّ الآخر عن حجّته و محجّته دفاعا عن عقيدته.

من الطبيعىّ أن يقوم اتباع كلّ دين بالدفاع عن دينهم، و يرون أنّ الحقّ بجانبهم. لذلك يخاطب القرآن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: قد يحاورك أهل الكتاب (اليهود و النصارى ...) فيقولون إنّهم قد أسلموا بمعنى أنّهم قد استسلموا للحق، و ربّما هم يصرّون على ذلك، كما فعل مسيحيّو نجران مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فالآية لا تطلب من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتجنّب محاورتهم و محاججتهم، بل تأمره أن يسلك سبيلا آخر، و ذلك عند ما يبلغ الحوار منتهاه، فعليه لكى يهديهم و يقطع الجدل و الخصام أن يقول لهم: إنّنى و أتباعى قد أسلمنا للّه و اتّبعنا الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۴

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ

ثمّ يسأل أهل الكتاب و المشركين إن كانوا هم أيضا قد أسلموا للّه و اتّبعوا الحقّ فعليهم أن يخضعوا للمنطق وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا فإذا لم يستسلموا للحقيقة المعروضة أمامهم، فإنّهم لا يكونون قد أسلموا للّه. عندئذ لا تمضى فى مجادلتهم، لأنّ الكلام فى هذه الحالة لا تأثير له، و ما عليك إلّا أن تبلّغ الرسالة لا غير وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ

و من الواضح أن المراد ليس هو التسليم اللسانى و الادعائى، بل التسليم الحقيقى و العملى فى مقابل الحق، فلو أنهم خضعوا حقيقة للكلام الحق، فلا بدّ أن يؤمنوا بدعوتك القائمة على المنطق و الدليل الواضح، و إلّا فإنهم غير مستسلمين للحق.

و الخلاصة: إن وظيفتك هى إبلاغ الرسالة المشفوعة بالدليل و البرهان، فلو كانت لديهم روحية البحث عن الحقيقة فسوف يؤمنون حتما، و إلّا فإنك قد أديت واجبك تجاههم.

و فى الختام يقول: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ فهو سبحانه يعلم المدّعى من الصادق و كذلك أغراض و دوافع المتحاجّين، و يرى أعمالهم الحسنة و القبيحة و يجازى كلّ شخص بعمله.

بحوث

۱- يستفاد من الآية ضمنيّا لزوم تجنّب مجادلة المعاندين الذين لا يخضعون للمنطق السليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۵

۲- المقصود بالأميّين فى هذه الآية هم المشركون، و السبب فى وصف المشركين بالأميّين فى قبال أهل الكتاب- اليهود و النصارى- هو أنّ المشركين لا يملكون كتابا سماويا حتى يكون حافزا لهم على تعلّم القراءة و الكتابة.

۳- يتّضح من هذه الآية بكلّ جلاء أنّ أسلوب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن أسلوب فرض الفكرة و العقيدة، بل كان أسلوبه السعى إلى توضيح الحقائق أمام الناس، ثمّ يتركهم و شأنهم لكى يتّخذوا قرارهم فى اتّباع الحقّ بأنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۲۱) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۲۲)

التّفسير

علامات الطغيان:

تعقيبا للآية السابقة التى تضمّنت أنّ اليهود و النصارى و المشركين كانوا يجادلون رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يستسلمون للحق، ففى الآية الاولى إشارة إلى بعض علامات هذا الأمر حيث تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ ....

و تشير هذه الآية فى البداية إلى ثلاث ذنوب كبيرة و هى الكفر بآيات اللّه و قتل الأنبياء بغير الحق و قتل الّذين يدعون إلى العدالة و يدافعون عن أهداف الأنبياء، و كلّ واحد من هذه الذنوب يكفى لوحده لجعل الإنسان معاندا و متصلّبا بكفره و عدم تسليمه للحق، بل يسعى لخنق كلّ صوت يدعو إلى الحقّ.

التعبير ب يَكْفُرُونَ و يَقْتُلُونَ جاء بصيغة الفعل المضارع و هو إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۷

أنّ كفرهم و قتلهم الأنبياء و الآمرين بالقسط كان من جملة برنامجهم فى الحياة فيرتكبون هذه الأعمال بصورة دائمة و مستمرّة (لأنّ الفعل المضارع يدلّ على الاستمراريّة).

و بطبيعة الحال إنّ هذه الأعمال كانت تصدر عادة من اليهود حيث نلحظ استمرارهم بهذه الأعمال فى زماننا الحاضر بشكل آخر، و لكنّ هذه لا يمنع من عموميّة مفهوم الآية أيضا.

ثمّ أنّ الآية تشير إلى ثلاثة عقوبات مترتّبة على ارتكاب هذه الذنوب، ففى البداية تشير الآية فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

ثمّ تقول: أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فلو فرض أنّهم عملوا بعض الأعمال الصالحة فإنّها ستمحى و تزول بسبب الذنوب الكبيرة التى يرتكبونها.

و الثالث أنّ الآية تقول: وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ فلا أحد يحميهم من العقوبات الإلهيّة التى تنتظرهم و لا أحد يشفع لهم فى ذلك اليوم.

و سبق و أن قلنا فى تفسير الآية ۶۱ من سورة البقرة أنّ هذه الآية تشير إلى تاريخ اليهود المضطرب، فهم فضلا عن إنكارهم آيات اللّه تجرّؤا على قتل الأنبياء، كما كانوا يقتلون أتباع الأنبياء من المجاهدين، و لكنّ هذا العمل لا يختصّ بهم وحدهم، بل يصحّ بالنسبة إلى جميع الأقوام التى فعلت و تفعل فعلهم.

بحوث

۱- وضعت الآية الداعين إلى العدالة و الآمرين بالمعروف فى مصافّ الأنبياء. و ترى الكفر بآيات اللّه، و قتل الأنبياء، و قتل هؤلاء، على مستوى واحد، و هذا منتهى اهتمام الإسلام بنشر العدالة فى المجتمع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۸

و يتبيّن من الآية الثانية شدّة العقوبات التى ستنزل بالذين يقتلون أمثال هؤلاء الرجال الصالحين. و قد سبق أن قلنا إنّ «الحبط» لا يشمل جميع الذنوب، بل للذنوب الكبيرة التى تذهب بآثار الأعمال الصالحة[۳۲۷] و أخيرا عدم قبول أيّة شفاعة بحقّهم، كدليل على عظم ذنوبهم.

۲- المقصود من بِغَيْرِ حَقٍ ليس إمكان جواز قتلهم بحق، بل المقصود هو القول بأنّ قتل الأنبياء كان دائما ظلما و بغير حقّ. فعبارة «بغير حقّ» قيد توضيحىّ للتوكيد.

۳- يستفاد من عبارة فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ أنّها تشمل الكفّار المعاصرين للنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا، مع أنّا نعلم أنّ هؤلاء لم يقتلوا أحدا من الأنبياء. و قد أشرنا من قبل إلى السبب و قلنا إذا رضى أحد بفعال قوم و سلوكهم و أفكارهم، فإنّه يكون شريكا

لهم فى أعمالهم الخيّرة و السيّئة. و لمّا كانت هذه الجماعة المعاصرة للنبىّ من الكفّار- و خاصّة اليهود- تؤيّد أعمال أسلافهم و جرائمهم، فهم يشاركونهم فيما ينتظرهم من العقاب أيضا.

۴- «البشارة» هى إخبار الرجل خبرا سارّا يبسط أسارير وجهه. و استعمال هذه الكلمة فى الإخبار بالعذاب فى هذه الآية و فى غيرها إنّما هو نوع من التهديد و الاستهزاء بأفكار المذنبين. و هذا أشبه بما هو متداول بيننا اليوم، إذ نقول- مستهزئين- لمن أساء الفعل: حسنا، سوف نكافؤك على ذلك.

۵-

ورد فى حديث عن أبى عبيدة الجراح أنّه قال سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن أىّ الناس أشدّ عذابا فى الآخرة؟ فقال: رجل قتل نبيا أو رجلا أمر بالمعروف أو نهى عن منكر ثمّ قرأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۳۹

وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ثمّ قال: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا من أول النهار فى ساعة واحدة، فقام مائة رجل و اثنا عشر رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار فى ذلك اليوم، و هو الذى ذكره اللّه تعالى:

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ ۳۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۰

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۴) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۵)

سبب النّزول

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن ابن عبّاس أنّه حدث على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن ارتكب يهودى الزنا مع امرأة محصنة، على الرغم من أنّ ما جاء فى التوراة يقضى بالرجم على أمثال هؤلاء، فإنّهما لم ينالا عقابا لأنّهما كانا من الأشراف، و اتّفقا على الرجوع إلى رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليكون هو الحكم، آملين أن ينالا عقابا أخف.

غير أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيّد العقاب المعيّن لهما، فاعترض بعض كبار اليهود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۱

على حكم الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أنكروا أن يكون فى اليهود مثل هذا العقاب.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم «بينى و بينكم التوراة» فوافقوا، و استدعوا «ابن صوريا» أحد علمائهم، من فدك إلى المدينة، و عند وصوله عرفه النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سأله: أ أنت ابن صوريا؟ قال: نعم. فقال: أ أنت أعلم علماء اليهود؟ قال: هكذا يحسبوننى، فأمر رسول اللّه أن يفتحوا أمامه التوراة حيث ذكر الرجم ليقرأه، و لكنّه لمّا كان مطّلعا على تفاصيل الحادث قرأ

جانبا من التوراة، و عند ما وصل إلى عبارة الرجم وضع يده عليها و تخطّاها و لم يقرأها و قرأ ما بعدها. فأدرك «عبد اللّه بن سلام»- الذى كان من علماء اليهود ثمّ أسلم- مكر ابن صوريا و قام إليه و رفع يده عن الآية و قرأ ما كان قد أخفاه بيده، قائلا: تقول التوراة: على اليهود، إذا ثبت زنا المحصن بالمحصنة رجما. فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينفّذ العقاب بحقّهما بموجب شريعتهم. فغضب بعض اليهود، فنزلت هذه الآية بحقّهم ۳۲۹].

التّفسير

اشارة

هذه الآيات تصرّح ببعض تحريفات أهل الكتاب الذين كانوا يتوسّلون بالتبريرات و الأسباب الواهية لتفادى إجراء حدود اللّه، مع أنّ كتابهم كان صريحا فى بيان حكم اللّه بغير إبهام، و قد دعوا للخضوع للحكم الموجود فى كتابهم أ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

و لكن عصيانهم كان ظاهرا و مصحوبا بالإعراض و الطغيان و اتّخاذ موقف المعارض لأحكام اللّه: ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۲

يمكن الاستنتاج من أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ أنّ ما كان بين أيدى اليهود و النصارى من التوراة و الإنجيل لم يكن كاملا، بل كان قسم منهما بين أيديهم، بينما كان القسم الأعظم من هذين الكتابين السماويّين قد ضاع أو حرّف.

هذه الآية تؤيّدها آيات أخرى فى القرآن، كما أنّ هناك شواهد و دلائل تاريخية تؤكّد ما ذهبنا إليه.

و فى الآية الثانية شرح سبب عصيانهم و تمرّدهم، و هو أنّهم كانوا يحملون فكرة خاطئة عن كونهم من عنصر ممتاز، و هم اليوم أيضا يحملون هذه الفكرة الباطلة الواضحة فى كتاباتهم الدالّة على الاستعلاء العنصرى.

كانوا يظنّون أنّ لهم علاقة خاصّة باللّه سبحانه، حتّى أنّهم سمّوا أنفسهم «أبناء اللّه» كما ينقل القرآن ذلك على لسان اليهود و النصارى فى الآية ۱۸ من سورة المائدة قولهم: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ و بناء على ذلك كانوا يرون لأنفسهم حصانة تجاه العقوبات الربّانية، و كانوا ينسبون ذلك إلى اللّه نفسه. لذلك كانوا يعتقدون أنّهم لن يعاقبوا على ذنوبهم يوم القيامة إلّا لأيّام معدودات: قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ

و لعلّ القصد من «الأيام المعدودات» هى الأربعون يوما التى عبدوا فيها العجل فى غياب موسى عليه السّلام، و كان هذا ذنبا لم يكونوا هم أنفسهم قادرين على إنكاره.

أو لعلّها أيّام قليلة من أعمارهم ارتكبوا فيها ذنوبا كبيرة غير قابلة للإنكار، و لم يستطيعوا حتّى على إخفائها.

هذه الامتيازات الكاذبة المصطنعة، التى أسبغوها على أنفسهم و نسبوها إلى اللّه، صارت شيئا فشيئا جزءا من معتقداتهم بحيث إنّهم اغترّوا بها و راحوا يخالفون أحكام اللّه و يخرقون قوانينه مجترئين عليها جرأة لا مزيد عليها وَ غَرَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۳

فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و تدحض الآية الثالثة كلّ هذه الخيالات الباطلة و تقول: لا شكّ أنّ هؤلاء سوف يلاقون يوما يجتمع فيه البشر أمام محكمة العدل الإلهى فيتسلّم كلّ فرد قائمة أعماله، و يحصدون ناتج ما زرعوه، و مهما يكن عقابهم فهم لا يظلمون لأنّ ذلك هو حاصل أعمالهم فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

يتّضح من ما كَسَبَتْ أنّ عقاب المرء و ثوابه يوم القيامة و فوزه و خذلانه فى العالم الآخر إنّما يرتبط بأعماله هو، و لا يؤثّر فيه شىء آخر. هذه حقيقة أشير إليها فى كثير من الآيات الكريمة.

سؤالان

۱- أ يمكن للإنسان أن يختلق كذبا أو افتراء و ينسبه إلى اللّه، ثمّ يتأثّر به هو و يعتوره الغرور إلى تلك الدرجة التى أشار إيها القرآن فى الآيات السابقة بالنسبة لليهود؟

ليس من العسير الردّ على هذا السؤال، و ذلك لأنّ قضية خداع النفس من القضايا التى يعترف بها علم النفس المعاصر. إنّ العقل الإنسانى يسعى أحيانا إلى استغفال الضمير بأنّ يغيّر وجه الحقيقة فى عين ضميره. كثيرا ما نشاهد أناسا ملوّثين بالذنوب الكبيرة، كالقتل و السرقة و أمثالها، على الرغم من إدراكهم تماما قبح تلك الأعمال يسعون لإظهار ضحاياهم بأنّهم كانوا يستحقّون ما أصابهم لكى يسبغوا هدوءا كاذبا على ضمائرهم، و كثيرا ما نرى المدمنين على المخدّرات يبرّرون فعالهم بأنّهم يستهدفون الفرار من مصائب الدنيا و مشاكلها.

ثمّ إنّ هذه الأكاذيب و الافتراءات عن تفوّقهم العنصرى التى حاكتها الأجيال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۴

السابقة من أهل الكتاب وصلت بالتدريج إلى الأجيال التالية التى لم تكن تعرف الكثير عن هذا الموضوع- و لم تعن بالبحث عن الحقيقة- بصورة عقائد مسلّم بها.

۲- يمكن أن يقال إنّ الاعتقاد «بالعذاب لأيام معدودات» منتشر بيننا نحن المسلمين أيضا، لأنّنا نعتقد أنّ المسلمين لا يخلّدون فى العذاب الإلهى، إذ أنّ إيمانهم سوف ينجيهم أخيرا من العذاب.

و لكن ينبغى التوكيد هنا أنّنا لا يمكن أن نعتقد بأنّ المسلم المذنب و الملوّث بأنواع الآثام يعذّب بضعة أيّام فقط، بل أنّنا نعتقد أنّ عذاب هؤلاء يطول لسنوات و سنوات لا يعرف مداها إلّا اللّه، إلّا أنّ عذابهم لا يكون أبديا خالدا. و إذا وجد حقّا بين المسلمين من يحسبون أنّهم بالاحتماء بالإسلام و الإيمان و النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الأطهار يجوز لهم أن يرتكبوا ما يشاءون من الذنوب، ثمّ لا يصيبهم من العقاب سوى بضعة أيّام من العذاب، فإنّهم على خطأ كبير و يجهلون تعاليم الإسلام و روح تشريعاته.

ثمّ إنّنا لا نعترف بأىّ امتياز خاصّ للمسلمين، بل نعتقد أنّ كلّ أمّة اتّبعت نبيّها فى زمانها ثمّ أذنبت مشمولة بهذا القانون أيضا، بغضّ النظر عن عنصرها. أمّا اليهود فيخصّون أنفسهم بهذا الامتياز دون غيرهم بزعم تفوّقهم العنصرى. و قد ردّ عليهم القرآن زعمهم الكاذب هذا فى الآية ۱۸ من سورة المائدة: بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۵

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشارة

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۶) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۲۷)

سبب النّزول

یذکر المفسّر المعروف «الطبرسی» فی «مجمع البیان» سببین لنزول هاتین الآیتین یتناولان حقیقة واحدة.

۱- عند ما فتحت مکّة، بشّر رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم المسلمین بأنّ دولة الفرس و دولة الروم سرعان ما ستنضویان تحت لواء الإسلام. غیر أنّ المنافقین الذین لم تکن قلوبهم قد استنارت بنور الإیمان و لم یدرکوا روح الإسلام، اعتبروا ذلک مبالغة، و قالوا بدهشة: لم یقنع محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلم بالمدینة و مکّة، و هو یطمع الآن بفتح فارس و الروم، فنزلت الآیة المذکورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۶

۲- کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمون مشغولون بحفر الخندق فی أطراف المدینة، و انتظم المسلمون فی جماعات یحفرون بسرعة و جدّ لکی ینجزوا هذا الحصن الدفاعی قبل وصول جیش الأعداء. و فجأة ظهرت صخرة کبیرة بیضاء صلدة وسط الخندق عجز المسلمون عن کسرها أو تحریکها. فجاء «سلمان» إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یعرض علیه الأمر. فنزل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الخندق و تناول المعول من سلمان و أنزل ضربة شدیدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح المعول من سلمان و أنزل ضربة شدیدة بالصخرة، فانبعث منها الشرر، فصاح النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم مکبّرا تکبیرة الإنتصار، فردّد المسلمون التکبیر و راح صوتهم یدوّی فی کلّ مکان. و مرّة أخری أنزل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم معوله علی الصخرة، فانبعث الشرر و کسرت قطعة منها، و ارتفع صوت تکبیر الإنتصار من النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بعده. و للمرّة الثالثة ارتفع معول النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین بعده. و للمرّة الثالثة ارتفع معول النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلم و نزل علی الصخرة، و للمرّة الثالثة انبعث الشرر من الضربة و أضاء ما حولها، و تحطّمت الصخرة، و ارتفع صوت التکبیر بین جنبات الخندق.

فقال سلمان: بأبی أنت و أمّی یا رسول اللّه، لقد رأیت شیئا ما رأیت منک قط.

فالتفت رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی القوم و قال: رأیتم ما یقول سلمان؟ قالوا: نعم یا رسول اللّه. قال: ضربت ضربتی الأولی فبرق الذی رأیتم أضاءت لی منها قصور الحیرة و مدائن کسری کأنّها أنیاب الکلاب، فأخبرنی جبرئیل أنّ أمّتی ظاهرة علیها، ثمّ ضربت ضربتی الثانیة فبرق الذی رأیتم أضاءت لی منها قصور الحمر من أرض الروم کأنّها أنیاب الکلاب، و أخبرنی جبرئیل أنّ أمّتی ظاهرة علیها، ثمّ ضربت ضربتی الثالثة فبرق الذی رأیتم أضاءت لی قصور صنعاء کأنّها أنیاب الکلاب، و أخبرنی جبرئیل أن أمّتی ظاهرة علیها. فابشروا، فاستبشر المسلمون و حمدوا اللّه. أمّا المنافقون فقد عبسوا و قالوا بلهجة المعترض: أمل باطل و وعد مستحیل! هؤلاء یحفرون الخنادق خوفا علی أرواحهم من جیش صغیر یخشون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۷

مواجهته، ثمّ یحلمون فتح أعظم دول العالم. و عندئذ نزلت الآیات المذکورة.

التّفسیر

بیده کلّ شیء:

دار الکلام فی الآیات السابقة حول المشرکین و أهل الکتاب الذین کانوا یخصّون أنفسهم بالعزة و بالملک، و کیف أنّهم کانوا یرون أنفسهم فی غنی عن الإسلام. فنزلت هاتان الآیتان تفنّدان مزاعمهم الباطلة یقول تعالی: قُلِ اللَّهُمَّ مالِکَ الْمُلْکِ تُؤْتِی الْمُلْکَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْکَ مِمَّنْ تَشاءُ.

إنّ المالك الحقيقى للأشياء هو خالقها. و هو الذى يعطى لمن يشاء الملك و السلطان، أو يسلبهما ممّن يشاء، فهو الذى يعز، و هو الذى يذل، و هو القادر على كلّ هذه الأمور، وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لا حاجة للقول بأنّ مشيئة اللّه فى هذه الآيات لا تعنى أنّه يعطى بدون حساب و لا موجب، أو يأخذ بدون حساب و لا موجب، بل أنّ مشيئته مبنيّة على الحكمة و النظام و مصلحة عالم الخلق و عالم الإنسانية عموما. و بناء على ذلك فإنّ أى عمل يقوم به إنّما هو خير عمل و أصحّه.

بِيَدِكَ الْخَيْرُ.

«خير» صيغة تفضيل يقصد بها تفضيل شيء على شيء، و الكلمة تطلق أيضا على كلّ شيء حسن. بدون مفهوم التفضيل، و الظاهر من الآية مورد البحث أنها جاءت بالمعنى الثانى هذا، أى إن مصدر كلّ خير بيده و منه سبحانه.

و عبارة بِيَدِكَ الْخَيْرُ تحصر كلّ الخير بيد اللّه من جهتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۸

۱- الألف و اللام فى «الخير» هما للاستغراق.

۲- أنّ تقديم الخبر «بيدك» و تأخير المبتدأ «الخير» دليل على الحصر كما هو معلوم. فيكون المعنى: «كلّ الخير بيدك و حدك لا بيد غيرك».

كذلك يستفاد من «بيدك الخير» أنّ اللّه هو منبع كلّ خير و سعادة فإذا أعزّ أحدا أو أذلّه، أو أعطى السلطنة و الحكم لأحد الناس أو سلبها منه فذلك قائم على العدل، و لا شرّ فيه. فالخير للأشرار أن يكونوا فى السجن، و الخير للأخيار أن يكونوا أحرارا.

و بعبارة اخرى: أنه لا وجود للشر فى العالم، و نحن الذين نقلب الخيرات إلى شرور، فعند ما تحصر الآية الخير بيده تعالى و لا تتحدث عن الشر إنّما هو بسبب ان الشر لا يصدر من ذاته المقدسة إطلاقا.

إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية جاءت دليلا على الآية السابقة. أى ما دام اللّه ذا قدرة مطلقة، فليس ثمّة ما يمنع أن يكون كلّ خير خاضعا لمشيئته.

الحكومات الصالحة و غير الصالحة:

يطرح هنا سؤال هام يقول: قد يستنتج بعضهم من هذه الآية أنّ من يصل إلى مركز الحكم، أو يسقط منه، فذلك بمشيئة اللّه. و من هنا فلا بدّ من قبول حكومات الجبّارين و الظالمين فى التاريخ مثل حكومات جنكيزخان و هتلر و غيرهما. بل أنّنا نقرأ فى التاريخ أنّ «يزيد بن معاوية»- تبريرا لحكمه الشائن الظالم- استشهد بهذه الآية[۳۳۰]. لذلك نرى فى كتب التفسير توضيحات مختلفة بشأن هذه الشبهة. من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۴۹

ذلك أنّ الآية تختصّ بالحكومات الإلهيّة، أو أنّها تقتصر على حكومة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم التى أنهت حكم جبّارى قريش.

و لكن الآية تطرح فى الواقع مفهوما عامّا يقضى أنّ جميع الحكومات الصالحة و غير الصالحة مؤطّرة بقانون مشيئة اللّه، و لكن ينبغى أن نعلم أنّ اللّه قد أوجد مجموعة من الأسباب للتقدّم و النجاح فى العالم، و أنّ الاستفادة من تلك الأسباب هى نفسها مشيئة اللّه. و عليه فإنّ مشيئة اللّه هى الآثار المخلوقة فى تلك الأسباب و العوامل. فإذا قام ظلمة و طغاة- مثل جنكيز و يزيد و فرعون- باستغلال أسباب النجاح، و خضعت لهم شعوب ضعيفة و جبانة، و تحمّلت حكمهم الشائن، فذلك من نتائج أعمال تلك الشعوب و قد قيل: كيفما كنتم يولّى عليكم.

و لكن إذا كانت هذه الشعوب واعية، و انتزعت تلك الأسباب و العوامل من أيدى الجبابرة و أعطتها بيد الصلحاء، و أقامت حكومات

عادلة، فإن ذلك أيضا نتيجة لأعمالها و لطريقة استفادتها من تلك العوامل و الأسباب الإلهيّة.

فى الواقع، أنّ الآية دعوة للأفراد و المجتمعات إلى اليقظة الدائمة و الوعى و استفادة من عوامل النجاح و النصر، لكى يشغلوا المواقع الحسّاسة قبل أن يستولى عليها أناس غير صالحين.

خلاصة القول: إنّ مشيئة اللّه هى نفسها عالم الأسباب، إنّما الاختلاف فى كيفية استفادتنا من عالم الأسباب هذا.

فى الآية التالية و لتأكيد حاكمية اللّه المطلقة على جميع الكائنات تضيف الآية:

۱- تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ ....

و بهذا تذكر الآية بعض المصاديق البارزة على قدرة اللّه تعالى، و منها مسألة التغيير التدريجى للّيل و النهار، بمعنى أن الليل يقصر مدّته فى نصف من السنة، و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۰

ما عبّر عنه بدخوله فى النهار، بينما يطول الليل و يقصر النهار فى النصف الثانى من السنة، و هو دخول و ولوج النهار فى الليل. و كذلك إخراج الموجودات الحية من الميّتة و بالعكس، و كذلك الرزق الكثير الذى يكون من نصيب بعض الأشخاص دون بعض، كلّها من علائم قدرته المطلقة.

بحوث

«الولوج» بمعنى الدخول. و القصد من الآية هو هذا التغيير التدريجى الذى نراه بين الليل و النهار طوال السنة. هذا التغيير ناشئ عن انحراف محور الأرض عن مدارها بنحو ۲۳ درجة و اختلاف زاوية سقوط أشعّة الشمس عليها. لذلك نرى الشتاء فى النصف الشمالى من خطّ الإستواء تطول أيّامه تدريجيا، و تقصر لياليه تدريجيا، حتّى أوائل الصيف، حيث ينعكس التغيير فتقصر أيّامه و تطول لياليه حتّى أوائل الشتاء. أمّا فى جنوب خطّ الإستواء فالتناظر يكون معكوسا.

و بناء على ذلك فإنّ اللّه يدخل الليل فى النهار، و يدخل النهار فى الليل، دائما، أى أنّه ينقص هذا ليزيد ذاك و بالعكس.

قد يقول قائل إنّ الليل و النهار فى خطّ الإستواء الحقيقى و فى نقطتى القطبين فى الشمال و الجنوب متساويان و ليس ثمّة أىّ تغيير فيهما، فالليل و النهار فى خطّ الإستواء متساويان و يمتدّ كلّ منهما اثنتى عشرة ساعة على امتداد السنة، و فى القطبين يمتدّ الليل ستة أشهر و مثله النهار، لذلك فإنّ الآية ليست عامّة.

فى الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ خطّ الإستواء الحقيقى خطّ و همى، و الناس عادة يعيشون على طرفى الخط. كذلك الحال فى القطبين فهما نقطتان وهميّتان، و سكّان القطبين- إن كان فيهما سكّان- يعيشون فى مناطق أوسع طبعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۱

من نقطة القطب الحقيقة، و عليه فالاختلاف موجود فى كلّ الحالات.

و قد يكون للآية معنى آخر بالإضافة إلى ما ذكر، و هو أنّ الليل و النهار لا يحدثان فجأة فى الكرة الأرضية بسبب وجود طبقات «الجو» حولها. فالنهار يبدأ بالتدريج من الفجر و ينتشر، و يبدأ الليل من حمرة الأفق الغربى و الغسق، ثمّ ينتشر الظلام حتّى يعمّ جميع الأرجاء.

إنّ للتدرّج فى تغيير الليل و النهار- بأىّ معنى كان- آثارا مفيدة فى حياة الإنسان و الكائنات الأخرى على الأرض. لأنّ نموّ النباتات و كثير من الحيوانات يتمّ فى إطار نور الشمس و حرارتها التدريجيّة. فمن بداية الربيع حيث يزداد بالتدريج نور الشمس و حراراتها، تطوى النباتات و كثير من الحيوانات كلّ يوم مرحلة جديدة من تكاملها. و لمّا كانت هذه الموجودات تحتاج بمرور الأيّام إلى مزيد من النور و الحرارة، فإنّ حاجتها هذه تلبى عن طريق التغييرات التدريجيّة للّيل و النهار، لتصل إلى نقطة تكاملها النهائيّة.

فلو كان الليل و النهار كما هو دائما، لاختلّ نموّ كثير من النباتات و الحيوانات، و لاختفت الفصول الأربعة التى تنشأ من اختلاف الليل و النهار و من مقدار زاوية سقوط نور الشمس، و لخسر الإنسان فوائد ذلك.

كذلك هى الحال إذا أخذنا بنظر الإعتبار المعنى الثانى فى تفسير الآية أى أنّ حلول الليل و النهار تدريجى، لا فجائى، و أنّ هناك فترة بين الطلوعين تفصل بينهما، فمن ذلك يتّضح أنّ هذا التدرّج فى حلول الليل و النهار نعمة كبرى لسكنة الأرض، لأنّهم يتعرّفون بالتدرج على الظلام أو الضياء، و بذلك تتطابق قواهم الجسمية و حياتهم الاجتماعية مع هذا التغيير، و إلّا حدثت حتما مشاكل لهم.

۲- وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ

إنّ معنى خروج «الحىّ» من «الميّت» هو ظهور الحياة من كائنات عديمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۲

الحياة. فنحن نعلم أنّه فى اليوم الذى استعدّت فيه الأرض لاستقبال الحياة، ظهرت كائنات حيّة من كائنات عديمة الحياة. أضف إلى ذلك أنّ مواد لا حياة فيها تصبح باستمرار أجزاء من خلايانا الحيّة و خلايا جميع الكائنات الحيّة فى العالم، و تتبدّل إلى مواد حيّة.

أمّا خروج «الميّت» من «الحىّ» فهو دائم الحدوث أمام أنظارنا.

إنّ الآية- فى الواقع- إشارة إلى قانون التبادل الدائم بين الحياة و الموت، و هو أعمّ القوانين التى تحكمنا و أعقدها، كما أنّه أروعها فى الوقت نفسه.

لهذه الآية تفسير آخر أيضا- لا- يتعارض مع التفسير السابق- و هو مسألة الحياة و الموت المعنويّين. فنحن كثيرا ما نرى أنّ بعض المؤمنين- و هم الاحياء الحقيقيّون- يخرجون من بعض الكافرين- و هم الأموات الحقيقيّون-. و قد يحدث العكس، حين يخرج الكفار من المؤمن.

إنّ القرآن يعبّر عن الحياة و الموت المعنويّين بالإيمان الكفر فى كثير من آياته.

و بموجب هذا التفسير يكون القرآن قد ألغى قانون الوراثة الذى يعتبره بعض العلماء من قوانين الطبيعة الثابتة. فالإنسان يتميّز بحريّة الارادة و ليس مثل الكائنات غير الحيّة فى الطبيعة التى تقع تحت تأثير مختلف العوامل وقوعا إجباريا. و هذا بذاته مظهر من مظاهر قدرة اللّه التى تغسل آثار الكفر فى نفوس أبناء الكافرين- أولئك الذين يريدون حقّا أن يكونوا مؤمنين- و يغسل آثار الإيمان من أبناء المؤمنين- الذين يريدون حقّا أن يكونوا كافرين-. و هذا الاستقلال فى الإرادة، القادر على الإنتصار، حتّى فى ظروف غير مؤاتية، من مظاهر قدرة اللّه أيضا.

هذا المعنى يرد

فى حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما جاء فى تفسير «الدرّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۳

المنثور» عن سلمان الفارسى أنّه قال: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فسّر الآية يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ... فقال: أى أنّه يخرج المؤمن من صلب الكافر، و الكافر من صلب المؤمن.

۳- وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

هذه الآية تعتبر من باب ذكر «العام» بعد «الخاص»، إذ الآيات السابقة قد ذكرت نماذج من الرزق الإلهى، أمّا هنا فالآية تشير إلى جميع النعم على وجه العموم، أى أنّ العزّة و الحكم و الحياة و الموت ليست هى وحدها بيد اللّه، بل بيده كلّ أنواع الرزق و النعم أيضا.

و تعبير بِغَيْرِ حِسابٍ يشير إلى أنّ بحر النعم الإلهية من السعة و الكبير بحيث إنّه مهما اعطى منه فلن ينقص منه شىء و لا- حاجة به لضبط الحسابات. فالتسجيل فى دفاتر الحساب من عادة ذوى الثروات الصغيرة المحدودة التى يخشى عليها من النفاذ و النقصان. فهؤلاء هم الذين يحسبون حسابهم قبل أن يهبوا لأحد شيئا، لئلّا تتبدّدا ثرواتهم. أمّا اللّه فلا يخشى النقص فيما عنده، و لا أحد يحاسبه،

و لا حاجه له بالحساب.

يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية لا تتعارض مع الآيات التى تبيّن التقدير الإلهى و تطرح موضوع لياقة الأفراد و قابليّتهم و مسألة التدبير فى الخلقة.

۴- ليس فى الأمر إجبار و هنا يطرح سؤال آخر و هو: إنّنا نعلم أنّ الإنسان حرّ فى كسب رزقه بغير إجبار، و ذلك بموجب قانون الخلق و حكم العقل و دعوة الأنبياء، فكيف تقول هذه الآية أنّ كلّ هذه الأمور بيد اللّه؟

فى الجواب نقول: إن المصدر الأوّل لعالم الخلق و جميع العطايا و الإمكانات الموجودة عند الناس هو اللّه، فهو الذى وضع جميع الوسائل فى متناول الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۴

لبلوغ العزّة و السعادة. و هو الذى وضع فى الكون تلك القوانين التى إذا لم يلتزمها الناس انحدروا إلى الذلّ و التعاسة. و على هذا الأساس يمكن إرجاع كلّ تلك الأمور إليه، و ليس فى ذلك أىّ تعارض مع حرّية إرادة البشر، لأنّ الإنسان هو الذى يتصرّف بهذه القوانين و المواهب و القوى و الطاقات تصرّفا صحيحا أو خاطئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۸]

اشارة

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۲۸)

التّفسير

العلاقة مع الأجنبى:

ذكرت الآيات السابقة أن العزّة و الذلّة و جميع الخيرات بيد اللّه تعالى. و بهذه المناسبة فإنّ هذه الآية تحذّر المؤمنين من مصادقة الكافرين و تنهاهم بشدّة من موالاة الكفّار، لأنّه إذا كانت هذه الصداقة و الولاء من أجل العزّة و القدرة و الثروة.

فإنها جميعا بيد اللّه عزّ و جلّ. و لذلك تقول الآية:

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ و لو ارتكب أحد المؤمنين ذلك فإنه يقطع ارتباطه مع اللّه تماما وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ و قد نزلت هذه الآية فى وقت كانت هناك روابط بين المسلمين و المشركين مع اليهود و النصارى.

و هذه الآية درس سياسىّ و اجتماعىّ مهمّ للمسلمين، فتحذّرهم من اتّخاذ الأجنبىّ صديقا أو حاميا أو عونا و رفيقا، فى أىّ عمل من أعمالهم، و من الانخداع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۶

بكلامه المعسول و عروضه الجذّابة و تظاهره بالمحبّة الحميمة، لأنّ التاريخ قد أثبت بأنّ أقسى الضربات التى تلقّاها المؤمنون جاءت من هذا الطريق.

لو أنّنا طالعنا تاريخ الاستعمار للاحظنا أنّ المستعمرين جاؤوا دائما فى لبوس الصداقة و الترحّم و حبّ الإعمار و البناء فتغلغلوا بين

طبقات المجتمع.

إنّ كلمة «استعمار» التى تعنى الإعمار و البناء دليل على هذا الخداع، فهم بعد أن يتمكّنوا من إنشاب مخالبهم فى جذور المجتمع المستعمر، يبدأون بامتصاص دمائه بكلّ قسوة و بغير رحمة.

مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ إشارة إلى أنّ الناس فى حياتهم الاجتماعية لا بدّ لهم من اتّخاذ الأولياء و الأصدقاء، فعلى المؤمنين أن يختاروا أولياءهم من بين المؤمنين، لا من بين الكافرين.

فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ.

تقول الآية: إن الذين يعقدون أواصر صداقتهم و ولاءهم مع أعداء اللّه، ليسوا من اللّه فى أىّ شىء من الأشياء، أى أنّهم يكونون قد تخلّوا عن إطاعة أوامر اللّه و قطعوا علاقتهم بالجماعة المؤمنة الموحّدة، و انقطعت ارتباطاتهم من جميع الجهات.

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً.

هذا استثناء من الحكم المذكور، و هو أنّه إذا اقتضت الظروف- التقية- فللمسلمين أن يظهروا الصداقة لغير المؤمنين الذين يخشون منهم على حياتهم.

و لكن الآية تعود فى الختام لتؤكّد الحكم الأوّل فتقول: يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ فاللّه ينذر الناس أوّلا بغضب منه و بعقاب شديد، ثمّ إنّ مرجع الناس جميعا إلى اللّه. و إن تولّوا أعداء اللّه نالوا عاجلا نتيجة أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۷

بحوث

۱- التقية أو الدرع الواقى

صحيح أنّ الإنسان قد يضحّى حتّى بحياته من أجل هدف كبير و لصيانة الشرف و نصرة الحقّ و قمع الباطل، و لكن هل يجيز عاقل لنفسه أن تتعرّض للخطر دون أن يكون أمامه هدف هام؟

الإسلام يجيز الإنسان صراحة أن يمتنع عن إعلان الحقّ مؤقّتا و أن يؤدّى واجبه فى الخفاء حين يعرضه ذلك لخطر فى النفس و المال و العرض و حين لا يكون للإعلان نتيجه مهمّة و فائدة كبيرة. كما جاء فى هذه الآية، و كما جاء فى الآية ۱۰۶ من سورة النحل حيث يقول: إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ

إن كتب التاريخ و الحديث الإسلامى ما زالت تحفظ حكاية «عمّار» و أبيه و أمّه إذ وقعوا فى قبضة عبدة الأصنام الذين راحوا يعذّبونهم لكى يرتدّوا عن الإسلام. فرفض والدا عمّار ذلك فقتلهما المشركون. غير أنّ عمّارا قال بلسانه ما أرادوا أن يقوله، ثمّ هرع باكيا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم خوفا من اللّه،

فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن عادوا لك فعد لهم»

أى إذا قبضوا عليك مرّة أخرى و طلبوا منك أن تقول شيئا فقله، و بهذا هدأ روعه و زال عنه خوفه.

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حكم التقية يختلف باختلاف الظروف، فهى قد تكون واجبة، و قد تكون حراما، و قد تكون مباحة.

تجب التقية حيثما تتعرّض حياة الإنسان للخطر دونما فائدة تذكر. أمّا إذا كانت التقية سببا فى ترويج الباطل و ضلالة الناس و إسناد الظالم فهى هنا حرام.

و هذا جواب لجميع الاعتراضات التى ترد بهذا الشأن. لو أنّ المعترضين دقّقوا فى البحث لأدركوا أنّ الشيعة ليسوا منفردين بهذا

الاعتقاد، بل أنّ التقية فى موضعها حكم عقلى قاطع و يتّفق مع الفطرة الإنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۸

فجميع عقلاء العالم- حين يرون أنفسهم أمام طريقين: إمّا الإعلان عن عقيدتهم و المخاطرة بالنفس و المال و الكرامة، أو إخفاء معتقداتهم- يمعنون النظر فى الظروف القائمة. فإن كان الإعلان عن العقيدة يستحقّ كلّ هذه التضحية بالنفس و المال و الكرامة اعتبروا إعلانها عملا صحيحا، و إن لم يكن للإعلان نتيجة تذكر تركوا ذلك.

۲- التقية أو تغيير أسلوب النضال:

فى تاريخ النضالات الدينية و الاجتماعية و السياسية حالات إذا أراد فيها المدافعون عن الحقّ أن يناضلوا علانية، فإنّهم يتعرّضون للإبادة هم و مبادؤهم أو يواجهون الخطر على الأقلّ، مثل الحالة التى مرّ بها شيعة على عليه السّلام على عهد بنى أميّة. فى مثل هذه الحالة يكون الطريق الصحيح و المعقول هو أن لا يبدّدوا قواهم، و أن يواصلوا نضالهم غير المباشر فى الخفاء. التقية فى مثل هذه الحالات أشبه بتغيير أسلوب النضال الذى يجنّبهم الفناء و يحقّق لهم النصر فى الكفاح. إنّ الذين يرفضون التقية كلّية و يفتون ببطلانها لا ندرى ما الذى يقترحونه فى مثل هذه الحالات؟ أ يرون الفناء خيرا، أم استمرار النضال بشكل صحيح و منطقى؟

هذا الطريق الثانى هو التقية، و أمّا الطريق الأوّل فليس بمقدور أحد أن يجيزه.

و يتضح ممّا تقدّم أن التقية هى أصل قرآنى مسلّم، و لكنّها تكون مشروعة فى موارد معينة و وفق ضوابط خاصّة. و ما نرى من بعض الجهلاء أنّهم تصوّروا أن التقية من اختلاقات أتباع أهل البيت عليهم السّلام فهو دليل على عدم اطلاعهم على القرآن بصورة كافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۵۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۹]

اشارة

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۹)

التّفسير

العالم بأسراركم:

نهت الآية السابقة عن الصداقة و التعاون مع الكافرين و الاعتماد عليهم نهيا شديدا، و استثنت من ذلك حالة «التقية».

إلّا أنّ بعضهم قد يتّخذ من «التقية» فى غير محلّها ذريعة لمدّ يد الصداقة إلى الكفّار أو الخضوع لولايتهم و سيطرتهم. و بعبارة اخرى أنّهم قد يستغلّون «التقية» و يتّخذونها مبرّرا لعقد أواصر العلاقات مع أعداء الإسلام. فهذه الآية تحذّر أمثال هؤلاء و تأمرهم أن يضعوا نصب أعينهم علم اللّه المحيط بأسرار القلوب و العالم بما ظهر و ما خفى و تقول قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ و لا يقتصر علم اللّه الواسع على ذلك بل: وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۰

فى الواقع أنّ هذه الآية لكى تنبّه الناس إلى إحاطة اللّه بأسرارهم الخفية، تشير إلى أنّ معرفة اللّه بأسرارهم إنّما هى جانب صغير من

مـدى علمه اللامحـدود الذى يسع السـماوات و الأرض. و هو إضافة إلى علمه الواسع قادر على معاقبة المذنبين: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۱

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۳۰]

اشارة

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (۳۰)

التّفسير

حضور الأعمال يوم القيامة:

تشير هـذه الآيـة إلى حضور الأعمال الصالحة و السيئة يوم القيامة، فيرى كلّ امرئ ما عمل من خير و ما عمل من شرّ حاضـرا أمامه. فالـذين يشاهدون أعمالهم الصالحة يفرحون و يستبشـرون، و الذين يشاهدون أعمالهم السيّئة يسـتولى عليهم الرعب و يتمنّون لو أنّهم استطاعوا أن يبتعدوا عنها تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً فالآية لم تقل أنه يتمنّى فناء عمله و سيئاته، لأنه يعلم أن كلّ شىء فى العالم لا يفنى فلذلك يتمنّى أن يبتعد عنه كثيرا.

«الأمـد» فى اللغة الزمان المحـدود، و «الأبد» اللامحدود، و الأمد يقصد من اسـتعماله غالبا انتهاء الزمان، و إن اسـتعمل أحيانا أيضا فى مطلق الزمان المحدود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۲

بنـاء على ذلـك، فإنّ المـذنبين- كما تقول الآيـة- يتمنّون أنّ يمتـدّ الفاصل الزمانى بينهم و بين ذنوبهم طويلا، و هو تعبير عن ذروة ما يشـعرون به من تعاسة جرّاء أعمالهم السيّئة، لأنّ طلب البعد الزمانى أبلغ فى التعبير عن هذا الاستيلاء من طلب البعد المكانى، فاحتمال الحضور موجود فى الفاصل المكانى، بينما ينتفى هذا الاحتمال تماما فى الفاصل الزمانى.

فإذا عاش أحـد- مثلا- فى فترة الحرب العالميـة، شـمله القلق و الاضـطراب و إن ابتعـد مكانيا عن منطقة الحرب، لكن الشـخص الذى يعيش فى فترة زمنية بعيدة عن الحرب لا يشعر بذلك القلق.

هـذا مـع أن بعض المفسّـرين احتملوا أن يكون للفظـة «الأمـد» معنى البعـد المكـانى أيضـا (كمـا ورد فى مجمع البيـان نقلاـ عن بعض المفسّرين)، غير أن هذا لم يرد فى اللغة على الظاهر.

وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ.

فى الجزء الأوّل من هذه العبارة يحذّر اللّه الناس من عصيان أوامره، و فى الجزء الثانى يذكّرهم برأفته. و يبدو أنّ هذين الجزءين هما- على عادة القرآن- مزيج من الوعد و الوعيد. و من المحتمل أن يكون الجزء الثانى وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ توكيدا للجزء الأوّل وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ و هـذا أشـبه بمن يقول لك: إنّى أحـذّرك من هـذا العمل الخطر، و إنّ تحذيرى إيّاك دليل على رأفتى بك، إذ لو لا حبّى لك لما حذّرتك.

القرآن و تجسيد الأعمال و حضورها

هذه الآية تبيّن بكل وضوح تجسّد الأعمال و حضورها يوم القيامة. كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۳

«تجد» من الوجود ضدّ العدم. و لفظتا «خير» و «سوء» وردتا نكرتين لتفيدا العموم.

أى أنّ الإنسان يجد أعماله الحسنة و القبيحة يوم القيامة مهما تكن قليلة.

بعضهم أوّل هذه الآية و أشباهها و قال إنّ القصد من حضور الأعمال هو حضور ثوابها أو عقابها، أو حضور سجلّ الأعمال الذى دوّنت فيه الأعمال كلّها.

و لكن من الجلى أنّ ذلك لا ينسجم و ظاهر الآية، لأنّ الآية تقول بوضوح إنّ الإنسان يوم القيامة «يجد» عمله. و تقول: إنّ المسىء يودّ لو أنّ بينه و بين «عمله» القبيح فواصل مديدة. فهنا «العمل» نفسه هو الذى يدور حوله الكلام. لا سجلّ الأعمال، و لا الثواب و العقاب.

كذلك نقرأ فى الآية أنّ المسىء يودّ لو بعد عنه عمله، و لكنّه لا يتمنّى زوال عمله إطلاقا. و هذا يعنى أنّ زوال الأعمال غير ممكن، و لذلك فهو لا يتمنّاه.

هناك آيات كثيرة أخرى تؤيّد هذا الأمر، كالآية ۴۹ من سورة الكهف.

وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً و الآيتان ۷ و ۸ من سورة الزلزال فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

سبق أن قلنا إنّ بعض المفسّرين يرون أنّ لفظ «الجزاء» مقدّر و هذا خلاف ظاهر الآية.

يستفاد من بعض الآيات أنّ الدنيا مزرعة الآخرة، و أنّ عمل الإنسان أشبه بالحبّ الذى يزرع فى التربة، فتنمو تلك الحبّة، ثمّ يحصد الإنسان معها حبّا كثيرا.

كذلك هى أعمال الإنسان التى تجرى عليها تبدّلات و تغيّرات تناسب يوم القيامة، ثمّ تعود إلى الإنسان نفسه، كما جاء فى الآية ۲۰ من سورة الشورى: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ

و يستفاد من آيات أخرى أنّ الأعمال الصالحة فى هذه الدنيا تأتى فى الآخرة بصورة نور و ضياء، فيطلبه المنافقون من المؤمنين: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۴

فيقال لهم: ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً[۳۳۱].

هذه الآيات و غيرها العشرات تدلّ على أننا يوم القيامة نجد العمل عينه بشكل أكمل، و هذا هو تجسيد الأعمال الذى يقول به علماء الإسلام.

هناك روايات كثيرة أيضا عن أئمّة الإسلام تؤكّد هذا المعنى، من ذلك:

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لمن طلب أن يعظه: «لا بدّ لك يا قيس من قرين يدفن معك و هو حىّ، و تدفن معه و أنت ميّت، فإن كان كريما أكرمك، و إن كان لعينا أسلمك، لا يحشر إلّا معك و لا تحشر إلّا معه، و لا تسأل إلّا عنه، و لا تبعث إلّا معه، فلا تجعله إلّا صالحا، فإنّه إن كان صالحا لم تستأنس إلّا به، و إن كان فاحشا لا تستوحش إلّا منه، و هو عملك»

[۳۳۲].

و لإلقاء الضوء على هذا البحث لا بدّ من معرفة كيفية الإثابة و العقاب على الأعمال.

رأی العلماء فی الثواب و العقاب

للعلماء آراء مختلفة فی الثواب و العقاب:

۱- یعتقد البعض أن جزاء الأعمال الاخروی أمر اعتباری، مثل المکافأة و العقوبة فی هذه الدنیا، أی کما أنّ هناک فی هذه الدنیا عقابا علی کلّ عمل سیّء أقرّه القانون الوضعی، کذلک وضع اللّه لکلّ عمل ثوابا أو عقابا معیّنین. و هذه هی نظرة الأجر المعیّن و الجزاء القانونی.

۲- ثمّة آخرون یعتقدون أنّ النفس البشریة تخلق الثواب و العقاب، فالنفس تخلق ذلک فی العالم الآخر دون إختیار، أی أنّ الأعمال الحسنة و الأعمال السیّئة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۵

فی هذا العالم تخلق فی النفس صفات حسنة أو سیّئة، و هذه الصفات تصبح جزءا متمکّنا من ذات الإنسان، و تبدأ هذه بإیجاد صورة تناسبها من السعادة أو العذاب.

فذو الباطن الحسن فی هذا العالم یتعامل مع مجموعة من الأفکار و التصوّرات الحسنة، و الأشرار و الخبثاء مشغولون بأفکارهم الباطلة و تصوّراتهم الدنیئة فی نومهم و یقظتهم.

و فی یوم القیامة تقوم هذه الصفات نفسها بخلق السکینة و العذاب أو الشقاء و السعادة. و بعبارة أخری أنّ ما نقرأه عن نعم الجنّة و عذاب جهنّم لیس سوی ما تخلقه هذه الصفات الحسنة أو السیّئة فی الإنسان.

۳- فریق ثالث من کبار علماء الإسلام اتّخذوا سبیلا آخر دعموه بکثیر من الآیات و الأحادیث. یقول هؤلاء: إنّ لکلّ عمل من أعمالنا- حسنا کان أم سیّئا- صورة دنیویة هی التی نراها، و صورة أخرویة کامنة فی باطن ذلک العمل. و فی یوم القیامة، و بعد أن تکون قد طرأت علیه تحوّلات کثیرة، یفقد صورته الدنیویة و یظهر بصورته الأخرویة فیبعث علی راحة فاعله و سکینته، أو شقائه و عذابه.

هذه النظرة، من بین النظرات الأخری، تتّفق مع کثیر من آیات القرآن، و بناء علی ذلک، فإنّ أعمال الإنسان- و هی مظاهر مختلفة من الطاقة- لا تفنی بموجب قانون بقاء «المادة/ الطاقة» و تبقی أبدا فی هذه الدنیا، علی الرغم من أنّ الناظر السطحی یظنّها قد تلاشت.

إنّ بقاء هذه الأعمال بقاء أبدیا یتیح من جهة أن یراها الإنسان عند محاسبته یوم القیامة و لا یبقی له مجال للإنکار، کما یتیح للإنسان من جهة أخری أن یعیش یوم القیامة بین أعماله، فیشقی أو یسعد. و علی الرغم من أنّ علم الإنسان لم یبلغ بعد مرحلة اکتشاف الماضی، إلّا للحظات قلیلة سابقة[۳۳۳]، فممّا لا شکّ فیه أنّه لو تمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۶

صنع جهاز أدقّ و أکمل، أو لو کانت لنا «رؤیة» و «إدراک» أکمل لاستطعنا أن نری و ندرک کلّ ما حدث فی الماضی. (لیس هناک ما یمنع أن یکون جانب من الثواب و العقاب ذا طابع توافقی).

العلم و تجسید الأعمال

لإثبات إمکان تجسید الأعمال الماضیة، یمکن الاستناد إلی مبادئ الفیزیاء الثابتة الیوم، فقوانین الفیزیاء تقول إنّ المادة تتحوّل إلی طاقة، و ذلک لأنّ «المادّة» و «الطاقة» مظهران لحقیقة واحدة، کما تقول أحدث النظریات بهذا الخصوص، و أنّ المادّة طاقة متراکمة مضغوطة تتحوّل إلی طاقة فی ظروف معیّنة. و قد تکون الطاقة الکامنة فی غرام واحد من المادّة تعادل فی قوة انفجارها أکثر من

ثلاثين ألف طن من الديناميت.

ملخّص القول: إنّ المادّة و الطاقة مظهران لحقيقة واحدة، و بالنظر لعدم فناء الطاقة و المادّة، فليس هناك ما يحول دون تراكم الطاقات المنتشرة مرّة أخرى و تتّخذ صورة مادّة أو جسم، فإذا كانت نتيجة الأعمال صالحة ظهرت بصورة نعم مادّية جميلة، و إذا كانت شرّا و سيّئة فإنّها تتجسّد فى وسائل عذاب و عقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۱) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (۳۲)

سبب النّزول

لهاتين الآيتين روايتان فى سبب نزولهما: إحداهما فى تفسير «مجمع البيان» و الأخرى فى تفسير «المنار».

الأولى تقول: ادّعى جمع من الحاضرين فى مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّهم يحبّون اللّه، مع أنّ العمل بتعاليم اللّه كان أقلّ ظهورا فى أعمالهم. فنزلت هاتان الآيتان بشأنهم.

و تقول الأخرى: حضر فريق من مسيحيّى نجران مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و زعموا فى حديثهم أنّ مبالغتهم فى تقديس المسيح عليه السّلام إنّما ينطلق من حبّهم للّه.

فنزلت الآيتان تردّان عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۸

التّفسير

الحب الحقيقى:

تقول الآية الأولى إنّ الحبّ ليس بالعلاقة القلبية فحسب، بل يجب أن تظهر آثاره فى عمل الإنسان. إنّ من يدّعى حبّ اللّه، فعليه أوّلا اتّباع رسوله: إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

فى الواقع أنّ من آثار الحبّ الطبيعية انجذاب المحبّ نحو المحبوب و الاستجابة له. صحيح أنّ هناك حبّا ضعيفا لا تتجاوز أشعّته جدران القلب، إلّا أنّ هذا من التفاهة بحيث لا يمكن اعتباره حبّا. لا شكّ أنّ للحبّ الحقيقى آثارا عملية تربط المحبّ بالحبيب و تدفعه للسعى فى تحقيق طلباته.

و الدليل على ذلك واضح، فحبّ المرء شيئا لا بدّ أن يكون بسبب عثوره على أحد الكمالات فيه. لا يمكن أنّ يحبّ الإنسان مخلوقا ليس فيه شيء من قوّة الجذب، و عليه فإنّ حبّ الإنسان للّه ناشئ من كونه منبع جميع الكمالات و أصلها. إنّ محبوبا هذا شأنه لا بدّ أن تكون أوامره كاملة أيضا، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصى أوامر الحبيب و تعاليمه، فإن عصى فذلك دليل على

أنّ حبّه غير حقيقى.

هذه الآية لا تقتصر فى ردّها على مسيحيّى نجران و الذين ادّعوا حبّ اللّه على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هذا الردّ أصيل و عامّ فى منطق الإسلام موجّه إلى جميع العصور و القرون. إنّ الذين لا- يفتأون- ليل نهار- يتحدّثون عن حبّهم للّه و لأئمّة الإسلام و للمجاهدين فى سبيل اللّه و للصالحين و الأخيار، و لكنّهم لا يشبهون أولئك فى العمل، هم كاذبون.

أولئك الغارقون فى الذنوب من قمة الرأس حتّى أخمص القدم، و مع ذلك فهم يرون أن قلوبهم مليئة بحبّ اللّه و رسوله و أمير المؤمنين و الأئمّة العظام، أو الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۶۹

يعتقدون أنّ الإيمان و الحبّ و المحبّة قلبية فحسب، هم غرباء على منطق الإسلام تماما.

جاء فى «معانى الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «ما أحبّ اللّه من عصاه».

ثمّ قرأ الأبيات:

تعصى الإله و أنت تظهر حبّهذا لعمرك فى الفعال بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعتهإنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

تقول هذه الآية: إذا كنتم تحبّون اللّه، و بدت آثار ذلك فى أعمالكم و حياتكم، فإنّ اللّه سيحبّكم أيضا، و سوف تظهر آثار حبّه أنه سيغفر لكم ذنوبكم، و يشملكم برحمته.

و الدليل على هذا الحبّ المتقابل من قبل اللّه واضح أيضا، لأنّه سبحانه موجود كامل و لا متناه من كلّ الجهات، و سيرتبط- على أثر السنخية- بكل موجود يقطع خطوات على طريق التكامل برباط الحبّ.

يتبيّن من هذه الآية أن ليس هناك حبّ من طرف واحد، لأنّ الحبّ يدفع المحبّ إلى أن يحقّق عمليا رغبات حبيبه. و فى هذه الحالة لا يمكن للمحبوب إلّا أن يرتبط بالمحبّ.

قد يسأل سائل: إذا كان المحبّ دائم الإطاعة لأوامر المحبوب، فلا يبقى له ذنب فيغفر له، و لذلك فإن جملة وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ليست ذات موضوع.

فى الجواب نقول: أوّلا يمكن أن تعنى هذه الجملة غفران الذنوب السابقة.

و ثانيا أنّ المحبّ لا يستمرّ فى عصيان المحبوب، و لكن قد يزلّ أحيانا بسبب طغيان الشهوات، و هذا هو الذى يغفره اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۰

الدين و الحبّ

جاء فى كثير من الأحاديث أنّ أئمّة الإسلام كانوا يقولون: ما الدين إلّا الحب. و من ذلك ما

جاء فى «الخصال» و «الكافى» عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «و هل الدين إلّا الحبّ؟» ثمّ تلا هذه الآية إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى

هذه الأحاديث تريد أن تبيّن أنّ حقيقة الدين و روحه هى الإيمان باللّه و حبّه، ذلك الإيمان و العشق اللذين يعمّ نورهما كلّ الوجود الإنسانى و يضيئانه، و تتأثر بهما الأعضاء و الجوارح، و يظهر أثرهما فى اتّباع أوامر اللّه.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

هذه الآیة تتابع حدیث الآیة السابقة، و تقول: ما دمتم تدّعون الحبّ للّه، إذا اتّبعوا أمر اللّه و رسوله، و إن لم تفعلوا فلستم تحبّون اللّه، و اللّه لا یحبّ هؤلاء فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْکافِرِینَ

و یستفاد من أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ أنّ إطاعة اللّه و إطاعة رسوله لا تنفصلان، و أنّ إطاعة الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم هی إطاعة اللّه، و إطاعة اللّه هی إطاعة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، لذلک فالآیة السابقة تحدّثت عن إطاعة الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقط، و هنا دار الکلام علی إطاعتهما کلیهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۱

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۳۳ الی ۳۴]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفی آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِیمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَی الْعالَمِینَ (۳۳) ذُرِّیَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ (۳۴)

التّفسیر

اشارة

فی مبتدأ هذه الآیة یشرع القرآن بسرد حکایة مریم و أجدادها و مقامهم، فهم النموذج الکامل لحب اللّه الحقیقی و ظهور آثار هذا الحب فی مقام العمل و الذی أشارت إلیه الآیات السابقة.

«اصطفی» من الصفو، و هو خلوص الشیء من الشوائب، و منه «الصفا» للحجارة الصافیة. و علیه فالاصطفاء هو تناول صفو الشیء.

تقول الآیة: إنّ اللّه اختار آدم و نوحا و آل إبراهیم و آل عمران من بین الناس جمیعا. هذا الاختیار قد یکون «تکوینیا» و قد یکون «تشریعیا» أی أنّ اللّه قد خلق هؤلاء منذ البدء خلقا متمیّزا، و إن لم یکن فی هذا الامتیاز ما یجبرهم علی إختیار طریق الحقّ، بل أنّهم بملء اختیارهم و حرّیة إرادتهم اختاروه. غیر أنّ ذلک التمیّز أعدّهم للقیام بهدایة البشر ثمّ علی أثر إطاعتهم أوامر اللّه، و التقوی و السعی فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۲

سبیل هدایة الناس نالوا نوعا من التمیّز الاکتسابی، الذی امتزج بتمیّزهم الذاتی، فکانوا من المصطفین.

ذُرِّیَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ۳۳۴].

تشیر هذه الآیة إلی أنّ هؤلاء المصطفین کانوا- من حیث الإسلام و الطهارة و التقوی و الجهاد فی سبیل هدایة البشر- متشابهین، بمثل تشابه نسخ عدّة من کتاب واحد، یقتبس کلّ من الآخر: بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ

وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ

فی النهایة تشیر الآیة إلی حقیقة أنّ اللّه کان یراقب مساعیهم و نشاطهم، و یسمع أقوالهم، و یعلم أعمالهم. و فی هذا إشارة أیضا إلی مسئولیات المصطفین الثقیلة نحو اللّه و مخلوقات اللّه.

فی هذه الآیة إشارة إلی جمیع الأنبیاء من أولی العزم، فبعد نوح الذی صرّح باسمه، یأتی آل إبراهیم الذین یضمّون نوحا نفسه و موسی و عیسی و نبیّ الإسلام.

و ذکر آل عمران تکرار للإشارة إلی السیّدة مریم و المسیح، بالنظر لکون هذه الآیة مقدّمة لبیان حالهما.

۱- امتیاز الأنبیاء:

هنا یبرز هذا السؤال: علی الرغم من أنّ هذا التمیّز لم یجبر الأنبیاء علی السیر فی طریق الحقّ، و أنّه لا یتعارض مع حریّة الإرادة و الإختیار، و لکن ألا یعتبر نوعا من التفضیل؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۳

فی الجواب نقول: إنّ خلقا مصحوبا بنظام سلیم یستتبع بالضرورة مثل هذا التفاضل، فتأمّل جسم الإنسان- مثلا- مخلوق منظّم، و للحفاظ علی هذا التنظیم لا بدّ من الاعتراف بالتفاضل بین عضو و عضو، إذ لو کانت جمیع الخلایا فی جسم الإنسان تشبه فی لطافتها خلایا شبکیة العین، أو تشبه فی صلابتها و قوّتها خلایا عظام الساق، أو تشبه خلایا الدماغ فی حساسیّتها، أو تشبه خلایا القلب فی حرکتها، لا ختلّ حتما نظام الجسم. ذا لا بدّ من جود خلایا مثل خلایا الدماغ لکی تتولّی إدارة سائر أعضاء الجسم و عضلاته، و خلایا العظام المتینة لتحفظ استقامة الجسم و خلایا الأعصاب الحسّاسة للتسلّم أبسط الإیعازات، و الخلایا المتحرّکة لتخلق الحرکة فی الجسم.

ما من أحد یستطیع أن یقول لماذا لیس الجسم کلّه دماغا؟ أو فی النباتات، لماذا لا تکون الخلایا کلّها بلطافة خلایا أوراق الورد؟ إنّ حالة کهذه ستهدم بناء النبات و تعرضه للفناء.

النقطة المهمّة هی أنّ هذا التمیّز الذاتیّ الضروری لإیجاد بناء منظّم لیس بسیطا، بل هو مصحوب بمسؤولیة عظیمة، هذا «الامتیاز» و هذه المسؤولیة الثقیلة نفسها تحفظ توازن کفّتی میزان الخلق. أی أن نسبة تمیّز الأنبیاء علی سائر البشر تتناسب مع أهمیّة المسؤولیة التی یضطلعون بها. کما أنّ الاختلاف فی تمیّز الآخرین یتناسب مع مسئولیاتهم.

فضلا عن ذلک فإنّ التمیّز الذاتی لا یکفی للاقتراب من اللّه، بل لا بدّ معه من التمیّز المکتسب.

فی الآیة بعض النقاط ینبغی ذکرها:

۱- لیست الآیة بصدد ذکر جمیع الذین اصطفاهم اللّه، بل تعدّد بعضا منهم، فإذا لم یکن بعض الأنبیاء من بین هؤلاء، فلا یعنی ذلک أنهم لیسوا مصطفین. ثمّ إنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۴

«آل إبراهیم» یشمل موسی بن عمران و نبیّ الإسلام و المصطفین من أهل أیضا لأنّهم جمعا من «آل إبراهیم».

۲- یری «الراغب» فی کتابه «المفردات» إنّ «الآل» من «الأهل»، و لکنّه خصّ بالإضافة إلی أقرباء العظماء من الناس و الأشراف و دون الأزمنة و الأمکنة.

و لکن «الأهل» یضاف إلی الکلّ، کالزمان و المکان و غیر ذلک، فیقال: أهل المدینة الفلانیة، و لکن لا یقال: آل المدینة الفلانیة.

۳- غنّی عن القول أنّ اصطفاء آل إبراهیم و آل عمران لا یعنی اصطفاء جمیع أبناء إبراهیم و عمران، إذ یحتمل أن یکون بینهم حتّی من الکفّار، إنّما المقصود هو «بعض» من آل إبراهیم و آل عمران.

۴- «عمران» فی هذه الآیة هو أبو مریم، لا أبو موسی، إذ کلّما ورد فی القرآن اسم عمران کان المعنی به هو أبو مریم، کما یستدلّ علی ذلک أیضا من الآیات التالیة التی تخصّ شرح حال مریم.

۵- فی الأحادیث العدیدة عن أهل البیت علیهم السّلام اعتبرت هذه الآیة دلیلا علی عصمة الأنبیاء و الأئمّة، و ذلک لأنّ اللّه لا یمکن أن یصطفی المذنبین الملوّثین بالشرک و الکفر و الفسق. بل لا بدّ أن یقع إختیاره علی المطهّرین المعصومین.

(یستدلّ کذلک من الآیة أنّ هناک مراتب للعصمة).

۶- یستدلّ بعض الکتّاب المحدثین بهذه الآیة علی نظریة النشوء و الارتقاء، معتقدین أنّ الآیة تدلّ علی أنّ «آدم» لم یکن هو الإنسان الأوّل، بل کان هناک أناس کثیرون فاصطفی اللّه من بینهم آدم الذی خلّف نسلا متمیّزا من أبنائه، و أنّ تعبیر عَلَی الْعالَمِینَ دلیل علی ذلک. یقول هؤلاء: کان فی عصر آدم مجتمع إنسانی، و لذلک فلیس ثمّة ما یمنع من أن یکون الإنسان الأوّل- الذی وجد قبل ذلک بملایین السنین- قد نشأ و تطوّر من حیوانات أخری متطوّرة، و یکون «آدم»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۵

وحده الذی اصطفاه اللّه.

و لکن فی مقابل هذا الرأی یمکن القول أن لیس هناک أیّ دلیل علی أنّ «عالمین» هم أناس عاصروا آدم، بل قد یکون القصد هو مجموع المجتمعات البشریة علی امتداد التاریخ. و علی هذا یکون معنی الآیة: إنّ اللّه اصطفی من بین جمیع المجتمعات البشریة علی امتداد التاریخ أفراد کان أوّلهم آدم، فنوحا، فآل إبراهیم، فآل عمران. و بما أنّ کلّ واحد من هؤلاء کان یعیش فی عصر غیر عصر الآخر نفهم من ذلک أنّ القصد من «عالمین» هو البشر عموما علی اختلاف عصورهم و أزمانهم. لذلک لیس ثمّة ما یدعونا إلی الاعتقاد بأنّ آدم کان یعاصره أناس آخرون فاصطفاه اللّه من بینهم، فتأمّل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۶

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۳۵ الی ۳۶]

اشارة

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّی نَذَرْتُ لَکَ ما فِی بَطْنِی مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّی إِنَّکَ أَنْتَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۵) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّی وَضَعْتُها أُنْثی وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَیْسَ الذَّکَرُ کَالْأُنْثی وَ إِنِّی سَمَّیْتُها مَرْیَمَ وَ إِنِّی أُعِیذُها بِکَ وَ ذُرِّیَّتَها مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ (۳۶)

التّفسیر

کیفیة ولادة مریم:

تعقیبا علی ما جاء فی الآیة السابقة من إشارة إلی آل عمران، تشرع هاتان الآیتان بالکلام علی مریم بنت عمران و کیفیة ولادتها و تربیتها و ما جری لهذه السیّدة العظیمة.

جاء فی التواریخ و الأخبار الإسلامیة و أقوال المفسّرین أنّ «حنة» و «أشیاع» کانتا أختین، تزوّجت الأولی «عمران»[۳۳۵] أحد زعماء بنی إسرائیل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۷

و تزوّجت الأخری «زکریّا» النبیّ.

مضت سنوات علی زواج «حنة» بغیر أن ترزق مولودا. و فی أحد الأیّام بینما هی جالسة تحت شجرة، رأت طائرا یطعم فراخه. فأشعل هذا المشهد نار حبّ الأمومة فی قلبها، فتوجّهت إلی اللّه بمجامع قلبها طالبة منه أن یرزقها مولودا، فاستجاب اللّه دعاءها الخالص، و لم تمض مدّة طویلة حتّی حملت.

ورد فی الأحادیث أنّ اللّه قد أوحی إلی «عمران» أنّه سیهبه ولدا مبارکا یشفی المرضی المیؤوس من شفائهم، و یحیی الموتی بإذن اللّه، و سوف یرسله نبیّا إلی بنی إسرائیل. فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلک. لذلک عند ما حملت ظنّت أنّ ما تحمله فی بطنها هو

الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما فى بطنها أم الابن الموعود «مريم» فنذرت ما فى بطنها للخدمة فى بيت اللّه «بيت المقدس». و لكنّها إذ رأتها أنثى ارتبكت و لم تدر ما تعمل، إذ أنّ الخدمة فى بيت اللّه كانت مقصورة على الذكور، و لم يسبق أن خدمت فيه أنثى.

و الآن نباشر بالتفسير من خلاله نتعرّف على تتمّة الأحداث:

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ....

هذه إشارة إلى النذر الذى نذرته امرأة عمران و هى حامل بأنّها تهب ابنها خادما فى بيت المقدس، لأنّها كانت تظنّه ذكرا بموجب البشارة التى أتاها بها زوجها، و لذلك قالت «محرّرا» و لم تقل «محرّرة» و دعت اللّه أن يتقبل نذرها:

فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«المحرر» من التحرير، و كانت تطلق فى ذلك الزمان على الأبناء المعيّنين للخدمة فى المعبد ليتولّوا تنظيفه و خدماته، و ليؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. و لذلك سمّى الواحد منهم «المحرّر»، إذ هو محرّر من خدمة الأبوين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۸

و كان ذلك مدعاة لافتخارهم.

قيل إنّ الصبيان القادرين على هذه الخدمة كانوا يقومون بها بإشراف الأبوين إلى سنّ البلوغ، و من ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شاؤوا بقوا، و إن شاؤوا تركوا الخدمة.

و يرى البعض أن إقدام امرأة عمران على النذر دليل على أن عمران توفى أيّام حمل زوجته، و إلّا كان من البعيد أن تستقل الام بهذا النذر.

فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُها أُنْثى

هذه الآية تشرح حال أم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أنثى، و راحت تخاطب اللّه قائلة: إنّها أنثى، و أنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأنثى فى تحقيق النذر، فالأنثى لا تستطيع أن تؤدّى واجبها فى الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية و لا يمكنها دخول المسجد، مضافا إلى أن قواها البدنية ضعيفة، و كذلك المسائل المربوطة بالحجاب و الحمل و غير ذلك. وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى

و يظهر من القرائن فى الآية و الأحاديث الواردة فى التفاسير أنّ هذا القول وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى قول أمّ مريم، لا قول اللّه كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين. و لكن كان ينبغى أن تقول «و ليست الأنثى كالذكر» باعتبارها قد ولدت أنثى لا ذكرا. لذلك يمكن أن يكون فى الجملة تقديم و تأخير، كما نلاحظه فى كلام العرب و غير العرب. و لعلّ ما انتهابها من الكدر و الحزن لوضعها أنثى جعلها تنطق بهذا الشكل، إذ كانت شديدة الاعتقاد بأنّ ما ستلده ذكر و أنّها ستفى بنذرها فى جعله خادما فى بيت المقدس. و هذا الاعتقاد و التوقّع جعلاها تقدّم الذكر على الأنثى، على الرغم من أنّ أصول تركيب الجمل و جنس المولود يقتضيان تقديم الأنثى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۷۹

و الجملة المعترضة وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ من قول اللّه. أى لم يكن يلزم أن تقول إنّها ولدت أنثى، لأنّ اللّه كان أعلم منها بمولودها منذ انعقاد نطفته و تعاقب مراحل تصوّره فى الرحم.

وَ إِنِّى سَمَّيْتُها مَرْيَمَ ....

يتّضح من هذه الجملة أنّ أم مريم هى التى سمّتها بهذا الاسم عند ولادتها. و «مريم» بلغتها تعنى «العابدة». و فى هذا يظهر منتهى اشتياق هذه الأمّ الطاهرة لوقف وليدها على خدمة اللّه. لذلك طلبت من اللّه- بعد أن سمّتها- أن يحفظها و نسلها من وسوسة الشياطين، و أن يرعاهم بحمايته و لطفه وَ إِنِّى أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۳۷]

اشارة

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۷)

التّفسير

تواصل هـذه الآيـة سـرد حكايـة مريم. لقـد أشـرنا من قبل أنّ أمّ مريم لم تكن تصـدّق إمكان قبول الأنثى خادمة فى بيت اللّه، لذلك كانت تتمنّى أن تلـد مولودا ذكرا، إذ لم يسبق أن اختيرت أنثى لهـذا العمل. و لكن الآيـة تقول إنّ اللّه قد قبل قيام هذه الأنثى الطاهرة بهذه الخدمة الروحية و المعنوية، لأوّل مرّة.

يقول بعض المفسّـرين: إنّ دليل قبولها لهذه الخدمة أنّها لم تكن ترى العادة الشهرية أثناء خدمتها فى بيت المقدس لكى لا تضطرّ إلى ترك الخدمة، أو أن حضور طعامها من الجنّة إلى محرابها دليل على قبولها. و قد يكون قبول النذر و قبول مريم قد أبلغ للأمّ عن طريق الإلهام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۱

و كلمـة «أنبتها» إشارة إلى تكامل مريم أخلاقيا و روحيا. كما أنّه يتضـمّن نكتة لطيفة هى أنّ عمل اللّه هو «الإنبات» و الإنماء. أى كما أنّ بـذور النباتـات تنطوى على اسـتعدادات كامنـة تظهر و تنمو عنـد مـا يتعهّـدها المزارع، كـذلك توجـد فى الإنسـان كـلّ أنـواع الاسـتعدادات الساميـة الإنسانيـة التى تنمو و تتكامل بسـرعة إن خضـعت لمنهـج المربّين الإلهيّين و لمزارعى بسـتان الإنسانيـة الكبير، و يتحقّق الإنبات بمعناه الحقيقى.

وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا.

«الكفالـة» ضمّ شـىء إلى آخر. لـذلك يطلق على من يلتزم رعايـة شؤون أحـد الأطفال اسم «الكافل» أو «الكفيل»، أى أنّه يضمّ الطفل إليه. إذا اسـتعملت الكلمـة ثلاثية مجرّدة كانت فعلا لازما، و تتعدّى بنقلها إلى باب الثلاثى المزيد «كفّل» أى انتخاب الكفيل لشـخص آخر.

فى هذه الآية يقول القرآن: اختار اللّه زكريّا كى يتكفّل مريم، إذ أنّ أباها عمران قد ودّع الحياة قبل ولادتها، فجاءت بها أمّها إلى بيت المقدس و قدّمتها لعلماء اليهود و قالت: هذه البنت هديّة لبيت المقدس، فليتعهّدها أحدكم، فكثر الكلام بين علماء اليهود، و كان كلّ منهم يريد أن يحظى بهذا الفخر، و فى احتفال خاص- سيأتى شرحه فى تفسير الآية ۴۴ من هذه السورة- اختير زكريّا ليكفلها.

و كلّما شبّت و تقدّم بها العمر ظهرت آثار العظمة و الجلال عليها أكثر إلى حدّ يقول القرآن عنها:

كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً.

«المحراب» هو الموضع الذى يخصّـص فى المعبد لإمام المعبد أو لأفراد من النخبة. و ذكروا فى سـبب تسميته بهذا الاسم أوجه كثيرة، أوجهها ثلاثة: أحدها: إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۲

المحراب من «الحرب» سمّى بذلك لأنّه موضع محاربة الشيطان و الأهواء.

و الآخر: إنّ المحراب صـدر المجلس، ثمّ أطلـق أيضـا على صـدر المعبـد. (كـان بنـاء المحراب عنـد اليهود يختلف عن بنـائه عنـدنا،

فأولئک کانوا یبنون المحراب مرتفعا عن سطح الأرض بعدّة درجات بین حائطین مرتفعین یحفظانه، بحیث کانت تصعب رؤیة من بداخل المحراب من الخارج).

و الثالث: انه یطلق علی کلّ المعبد، و هو المکان الذی یخصّص للعبادة و مجاهدة النفس و الشیطان.

کبرت مریم تحت رعایة زکریّا، و کانت غارقة فی العبادة و التعبّد. بحیث إنّها- کما یقول ابن عبّاس- عند ما بلغت التاسعة من عمرها کانت تصوم النهار و تقوم اللیل بالعبادة، و کانت علی درجة کبیرة من التقوی و معرفة اللّه حتّی أنّها فاقت الأحبار و العلماء فی زمانها[۳۳۶]. و عند ما کان زکریّا یزورها فی المحراب یجد عندها طعاما خاصّا، فیأخذه العجب من ذلک. سألها یوما: یا مَرْیَمُ أَنَّی لَکِ هذا.

فقالت: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ یَرْزُقُ مَنْ یَشاءُ بِغَیْرِ حِسابٍ

الآیة لا تذکر شیئا عن ماهیّة هذا الطعام و من أین جاء، لکنّ بعض الأحادیث الواردة فی تفسیر العیّاشی و غیره من کتب الشیعة و السنّة تفید أنّه کان فاکهة من الجنّة فی غیر فصلها تحضر بأمر اللّه إلی المحراب. و لیس ما یدعو إلی العجب فی أن یستضیف اللّه عبدا تقیّا.

کما أنّ اعتبار «الرزق» طعاما من الجنّة یتبیّن من القرائن التی نراها فی ثنایا الآیة. فأوّلا- کلمة «رزقا» النکرة دلیل علی أنّ زکریّا لم یعرف نوع هذا الرزق.

و ثانیا جواب مریم التی قالت «من عند اللّه» دلیل آخر. و ثالثا انفعال زکریّا و طلبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۳

ولدا من اللّه- کما نقرأ فی الآیة التالیة- دلیل ثالث علی ذلک.

بید أنّ بعض المفسّرین- مثل صاحب المنار- یرون أنّ «رزقا» تعنی هذا الطعام الدنیویّ المألوف. یقول ابن جریر: إنّ قحطا أصاب بنی إسرائیل یومئذ، و لم یعد زکریّا قادرا علی سدّ جوعة مریم. لذلک اقترعوا فکانت من نصیب رجل نجّار، فأخذ هذا یقتطع من کسبه الطیّب الحلال لیهیّئ الطعام لها، فکان هذا هو الطعام الذی یراه زکریّا فی محرابها و یعجب من وجوده فی تلک الظروف الصعبة و کان جواب مریم یعنی أنّ اللّه قد سخّر لی مؤمنا فأحبّ القیام بهذه الخدمة الشاقّة.

و لکن- کما قلنا- هذا التفسیر لا یتّسق مع القرائن الموجودة فی الآیة، و لا مع الأحادیث الواردة فی تفسیرها، و منها ما

ورد فی تفسیر العیّاشی عن الإمام الباقر علیه السّلام ما ملخّصه أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم دخل یوما علی ابنته فاطمة علیها السّلام و هو یعلم أنّها لم تکن تملک طعاما یذکر منذ أیّام، فوجد عندها طعاما وافرا خاصّا، فسألها عنه، فقالت: هو من عند اللّه إنّ اللّه یرزق من یشاء بغیر حساب. فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعلیّ علیه السّلام: ألا أحدّثک بمثلک و مثلها؟ قال: بلی، قال: مثل زکریّا إذ دخل علی مریم المحراب فوجد عندها رزقا، قال: یا مریم أنّی لک هذا؟ قالت: هو من عند اللّه، إنّ اللّه یرزق من یشاء بغیر حساب ...[۳۳۷].

و فیما یتعلّق بعبارة «بغیر حساب» فقد شرحنا ذلک فی تفسیر الآیة ۲۰۲ من سورة البقرة، و الآیة ۲۷ من هذه السورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۴

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۳۸ الی ۴۰]

اشارة

هُنالِکَ دَعا زَکَرِیَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّةً طَیِّبَةً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعاءِ (۳۸) فَنادَتْهُ الْمَلائِکَةُ وَ هُوَ قائِمٌ یُصَلِّی فِی الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ یُبَشِّرُکَ بِیَحْیی مُصَدِّقاً بِکَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَیِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِیًّا مِنَ الصَّالِحِینَ (۳۹) قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ

وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (۴۰)

التّفسير

قلنا إنّ زوجة زكريّا و أمّ مريم كانتا أختين، و كانتا عاقرين، و عند ما رزقت أمّ مريم بلطف من اللّه هذه الذرّية الصالحة، و رأى زكريّا خصائصها العجيبة، تمنّى أن يرزق هو أيضا ذرّية صالحة و طاهرة و تقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة اللّه و توحيده. و على الرغم من كبر سن زكريّا و زوجته، و بعدهما من الناحية الطبيعيّة عن أن يرزقا طفلا، فإنّ حبّ اللّه و مشاهدة الفواكه الطرية فى غير وقتها فى محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملا بإمكان حصوله فى فصل شيخوخته على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۵

ثمرة الأبوّة، لذلك راح يتضرّع إلى اللّه قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ.

لم يمض وقت طويل حتّى أجاب اللّه دعاء زكريّا.

فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ

و فيما كان يعبد اللّه فى محرابه، نادته ملائكة اللّه و قالت له إنّ اللّه يبشّرك بمولود اسمه يحيى بل أنهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتّى ذكروا للمولود خمس صفات:

أوّلا: سوف يؤمن بالمسيح و يشدّ أزره بهذا الإيمان: مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ و «كلمة اللّه» هنا و فى مواضع أخرى من القرآن سيرد شرحها- تعنى المسيح عليه السّلام- و قد جاء فى التاريخ أنّ يحيى كان يكبر عيسى ستة أشهر، و كان أول من آمن به. و إذا كان قد اشتهر بين الناس بالطهر و الزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، فى توجيههم و حثّهم على الإيمان به.

و ثانيا: سيكون من حيث العلم و العمل قائدا للناس وَ سَيِّداً، كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة و عن التلوّث بحبّ الدنيا.

وَ حَصُوراً.

«الحصور» من الحصر، أى الذى يضع نفسه موضع المحاصرة، أو الذى يمتنع عن الزواج، و إلى هذا ذهب بعض المفسّرين، كما أشير إليه فى بعض الأحاديث.

و الرابعة و الخامسة من مميّزاته أيضا أنّه سيكون «نبيا» (و جاءت هذه الكلمة بصيغة النكرة لدلالة على العظمة) و أنّه من الصالحين.

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحا و سرورا، و لم يمتلك نفسه فى إخفاء تعجّبه من ذلك، فقال رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۶

فأجابه اللّه تعالى قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذى يشير إلى نفوذ إرادته تعالى و مشيئته، قنع بذلك.

بحوث

۱- هل العزوبة فضيلة؟

هنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول: إذا كان «الحصر» هو العزوف عن الزواج، فهل هذا محمدة يمتاز بها الإنسان، بحيث يوصف بها يحيى؟

فی الجواب نقول: لیس هناک ما یدلّ علی أنّ «الحصر» المذکور فی الآیة یقصد به العزوف عن الزواج، فالحدیث المنقول بهذا الخصوص لیس موثوقا به من حیث أسانیده. فلا یستبعد أن یکون المعنی هو العزوف عن الشهوات و الأهواء و حبّ الدنیا، و فی صفات الزاهدین.

ثانیا: من المحتمل أن یکون یحیی- مثل عیسی- قد عاش فی ظروف خاصّة اضطرّته إلی الترحال من أجل تبلیغ رسالته، فاضطرّ إلی حیاة العزوبة. و هذا لا یمکن أن یکون قانونا عامّا للناس. فإذا مدحه اللّه لهذه الصفة فذلک لأنّه تحت ضغط ظروفه عزف عن الزواج، و لکنّه استطاع فی الوقت نفسه أن یحصن نفسه من الزلل و أن یحافظ علی طهارته من التلوّث. إنّ قانون الزواج قانون فطری، فلا یمکن فی أیّ دین أن یشرع قانون ضدّه. و علیه فالعزوبة لیست صفة محمودة، لا فی الإسلام و لا فی الأدیان الاخری.

۲- یحیی و عیسی

«یحیی» من الحیاة و تعنی البقاء حیّا، و قد اختیرت هذه الکلمة اسما لهذا النبیّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۷

العظیم، و المقصود بالحیاة هنا هی الحیاة المادّیة و الحیاة المعنویة فی نور الإیمان و مقام النبوّة و الارتباط باللّه. هذا الاسم قد اختاره اللّه له قبل أن یولد، کما جاء فی الآیة ۷ من سورة مریم یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا و من هذا یتبیّن أیضا أنّ أحدا لم یسبق أن سمّی بهذا الاسم.

قلنا فیما سبق أنّ زکریّا طلب من ربّه الذرّیة بعد أن شاهد ما نالته مریم من عطاء معنوی سریع. و علی أثر ذلک وهب اللّه له ولدا شبیها بعیسی بن مریم فی کثیر من الصفات: فی النبوّة و هما صغیران، و فی معنی اسمیهما (عیسی و یحیی کلاهما بمعنی البقاء حیّا)، و فی تحیة و سلام اللّه علیهما فی المراحل الثلاث: الولادة، و الموت، و الحشر و جهات اخری.

۳- فی هذه الآیة یصف زکریّا شیخوخته بقوله وَ قَدْ بَلَغَنِیَ الْکِبَرُ و لکنه فی الآیة ۹ من سورة مریم یقول وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا. فالعبارة الأولی تعنی أنّ الکبر قد وصلنی و الثانیة تعنی أنّی وصلت الکبر، و لعلّ هذا الاختلاف فی التعبیر یعود إلی أنّ الإنسان- کلّما تقدّم نحو الکبر- یتقدّم الکبر و الموت نحوه أیضا. کما

قال علیّ علیه السّلام «إذا کنت فی إدبار و الموت فی إقبال فما أسرع الملتقی»

[۳۳۸].

۴- «الغلام» الفتی الذی طرّ شاربه. و «عاقر» من «عقر» بمعنی الأصل و الأساس. أو بمعنی الحبس. و وصف المرأة التی لا تلد بأنّها عاقر یعنی أنّها وصلت إلی عقرها و انتهت، أو أنّها حبست عن الولادة.

و قد یسأل سائل: لماذا استولی العجب علی زکریّا مع أنّه عالم بقدرة اللّه التی لا تنتهی؟

یتّضح الجواب بالرجوع إلی الآیات الأخری. کان یرید أن یعرف کیف یمکن لامرأة عاقر- خلفت وراءها سنوات عدیدة بعد سنة الیأس- أن تحمل و تلد؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۸

ما الذی یتغیّر فیها؟ أ ترجع إلیها العادة الشهریة کسائر النساء المتوسّطات العمر؟

أم أنّها ستحمل بصورة اخری؟

ثمّ إنّ الإیمان بقدرة اللّه غیر «الشهود و المشاهدة». زکریّا کان یرید أن یبلغ إیمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهیم الذی کان مؤمنا بالمعاد، و لکنّه طلب المشاهدة.

كـان يريـد أن يصـل إلى هـذه المرحلـة من الإيمـان. و أنّه لأمر طبيعيّ أن يفكّر الإنسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانين الطبيعيـة فى كيفيّة حصول ذلك، و يودّ لو أنّه رأى دليلا حسّيا على ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۸۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۱]

اشارة

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۴۱)

التّفسير

هنا يطلب زكريّا من اللّه إمارة على بشارته بمجيء يحيى. إنّ إظهار دهشته- كما قلنا- و كذلك طلب علامة من اللّه، لا يعنيان أبدا أنّه لا يثق بوعد اللّه، خاصّة و أنّ ذلك الوعد قد توكّد بقوله: كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ. إنّما كان يريد زكريّا أن يتحوّل إيمانه بهذا إيمانا شهوديا. كان يريد أن يمتلئ قلبه بالاطمئنان، كما كان إبراهيم يبحث عن اطمئنان القلب و الهدوء الناشئين عن الشهود الحسّى.

قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً.

«الرمز» إشـارة بالشـفة، و الصوت الخفى. ثمّ اتّسع المعنى فى الحوار العـادى، فـأطلق على كـلّ كلام و إشارة غير صـريحة إلى أمر من الأمور.

أجـاب اللّه طلب زكريّا هـذا أيضـا، و عيّن له علامـة، و هى أنّ لسانه كفّ عن الكلام مـدّة ثلاثـة أيّام بغير أىّ نقص طبيعى، فلم يكن قادرا على المحادثة العادية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۰

و لكن لسانه كان ينطلق إذا ما شـرع يسبّح اللّه و يـذكره. هـذه الحالـة العجيبة كانت علامة على قدرة اللّه على كلّ شـىء. فاللّه القادر على فـكّ لجـام اللسـان عنـد المباشـرة بـذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولـدا مؤمنا هو مظهر ذكر اللّه. و هكـذا تتّضح العلاقة بين هذه العلامة و ما كان يريده زكريّا.

هذا المضمون يرد فى الآيات الأولى من سورة مريم أيضا.

و فى الوقت نفسه يمكن أن تحمل هـذه العلامـة معنى آخر فى طيّاتها، و هو أنّ إلحاح زكريّا على طلب العلامة و الآية- و إن لم يكن أمرا محرّما و لا مكروها- كان من نوع «ترك الأولى». لذلك قرّر له علامة، إضافة إلى ما فيها من بيان لقدرة اللّه، طافحة بالإشارة إلى تركه للأولى.

يتبادر هنا للذهن سؤال: أ يتّسق بكم نبىّ مع مقام النبوّة و واجب الدعوة و التبليغ؟

ليس من الصـعب الإجابة على هذا السؤال، إذ أنّ هذه الحالة لا تتّسق مع مقام النبوّة عند استمرارها مدّة طويلة. أمّا حدوثها لفترة قصيرة يسـتطيع النبىّ خلالها اعتزال الناس و التوجّه إلى عبادة اللّه، فلا مانع فيه، كما أنّه خلال هـذه المـدّة يسـتطيع أن يخاطب الناس بالإيماء فى الأمور الضـرورية، أو بتلاوة آيات اللّه، التى تعتبر ذكرا للّه، و تبليغا للرسالـة الإلهيـة. و هـذا ما قام به فعلا، إذ كان يـدعو الناس إلى ذكر اللّه بالإشارة.

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ.

«العشـى» تطلق عـادة على أوائل ساعات الليل، كما يقال «الإبكار» للساعات الأولى من النهار. و قيل إنّ «العشـى» هو من زوال الشـمس

حتّى غروبها، و «الإبكار» من طلوع الفجر حتّى الظهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۱

و الراغب الاصفهانى يقول فى «المفردات»: إنّ «العشى» من زوال الشمس حتّى الصباح، و «الإبكار» أوائل النهار.

و فى الآيـة يأمر اللّه زكريّا بالتسبيـح. إنّ هـذا التسبيح و الذكر على لسان لا ينطق موقتا دليل على قدرة اللّه على فتح المغلق، و كذلك هو أداء لفريضة الشكر للّه الذى أنعم عليه بهذه النعمة الكبرى.

من الآيـات الأولى لسورة مريم يستفاد أنّ زكريّا لم ينفّذ هـذا البرنامـج وحـده، بل طلب من الناس إيماء أن يسبّحوا اللّه صـباح مساء شكرا على ما أنعم عليهم من موهبة ترتبط بمصير مجتمعهم و من قائد كفوء مثل يحيى. و أضحت هذه الأيام أيّام شكر و تسبيح عام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۲

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۲ الى ۴۳]

اشارة

وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ (۴۲) يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (۴۳)

التّفسير

الانتخاب الإلهى لمريم:

بعد الإشارات العابرة إلى مريم فى الآيات السابقة التى دارت حول عمران و زوجته، هذه الآية تتحدّث بالتفصيل عن مريم.

تقول الآية إنّ الملائكة كانوا يكلّمون مريم: وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ ....

مـا أعظم هـذا الافتخـار بأن يتحـدّث الإنسان مع الملائكـة و يحـدثونه. و خاصـة إذا كانت المحادثـة بالبشارة من اللّه تعالى باختياره و تفضـيله. كما فى مورد مريم بنت عمران. فقـد بشـرتها الملائكـة بأنّ اللّه تعالى قد اختارها من بين جميع نساء العالم و طهّرها و فضـلها بسبب تقواها و إيمانها و عبادتها.

و الجدير بالذكر أن كلمة «اصطفاك» تكررت مرتين فى هذه الآية، ففى المرّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۳

الاولى كانت لبيان الاصطفاء المطلق، و فى الثانية إشارة إلى افضليّتها على سائر نساء العالم المعاصرة لها.

هذا يعنى أن مريم كانت أعظم نساء زمانها، و هو لا يتعارض مع كون سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السّلام سيّدة نساء العالمين، فقد جاء فى أحاديث متعدّدة عن رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الإمام الصادق عليه السّـلام قولهما: «أمّا مريم فكانت سـيّدة نساء زمانها. أمّا فاطمة فهى سيّدة نساء العالمين من الأوّلين و الآخرين»

[۳۳۹].

كما أنّ كلمـة «العالمين» لا تتعارض مع هـذا الكلام أيضا، فقـد وردت هـذه الكلمـة فى القرآن و فى الكلام العام بمعنى الناس الـذين يعيشون فى عصـر واحد، كما جاء بشأن بنى إسرائيل وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ ۳۴۰]. فلا شكّ أنّ تفضيل مؤمنى بنى إسرائيل كان على أهل زمانهم.

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ

هـذه الآيـة تكملـة لكلام الملائكـة مع مريم. فبعـد أن بشّـرها بأنّ اللّه قـد اصـطفاها، قالوا لها: الآن اشـكرى اللّه بالركوع و السـجود و الخضوع له اعترافا بهذه النعمة العظمى.

نلاحظ هنا أنّ الملائكة يصدرون إلى مريم ثلاثة أوامر:

الأول: القنوت أمام اللّه. و الكلمة- كما سبق أن قلنا- تعنى الخضوع و دوام الطاعة.

الثانى: السجود، الذى هو أيضا دليل الخضوع الكامل أمام اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۴

و الثالث: الركوع، و هو أيضا خضوع و تواضع.

أمّا القول: وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ فقد يكون إشارة إلى صلاة الجماعة، أو طلب التحاقها بجموع المصلّين الراكعين أمام اللّه. أى اركعى مع عباد اللّه المخلصين الذين يركعون للّه.

فى هذه الآية، الإشارة إلى السـجود تسـبق الإشارة إلى الركوع، و ليس معنى هذا أنّ سجودهم قبل ركوعهم فى صلاتهم، بل المقصود هو أداء العبـادتين دون أن يكون القصـد ذكر ترتيبهمـا، كمـا لو كنّا نطلب من أحـدهم أن يصـلّى، و أن يتوضّأ، و أن يتطهّر، إذ يكون قصدنا أن يقوم بكلّ هذه الأمور. إنّ العطف بالواو لا يقتضـى الترتيب. ثمّ إنّ الركوع و السـجود أصلا بمعنى التواضع و الخضوع، و ما حركتا الركوع و السجود المألوفان سوى بعض مصاديق ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۴۴]

اشارة

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۴۴)

التّفسير

كفالة مريم:

هـذه الآيـة تشـير إلى جـانب آخر من قصـة مريم و تقول بـأن ما تقـدّم من قصـة مريم و زكريّا إنّما هو من أخبار الغيب ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ لأنّ هـذه القصـة بشـكلها الصـحيح و الخالى من شوائب الخرافة لا توجد فى أىّ من الكتب السابقة. مضافا إلى أن سند هذه القصة هو وحى السماء.

ثمّ تضـيف الآيـة: وَ مـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مـا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ أى أنـك لم تكن حاضـرا حينذاك. بل جاءك الخبر عن طريق الوحى.

سبق أن قلنا إن أمّ مريم بعـد أن وضـعتها لفّتها فى قطعـة قماش و أتت بها إلى المعبد و خاطبت علماء بنى إسـرائيل و أشـرافهم بقولها: هذه المولودة قد نذرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۶

لخدمة بيت اللّه، فليتعهّد أحدكم بتربيتها. و لمّا كانت مريم من أسـرة معروفة «آل عمران»، أخذ علماء بنى إسـرائيل يتنافسون فى الفوز

بتعهّد تربيتها. و أخيرا اتّفقوا على إجراء القرعة بينهم، فجاءوا إلى شاطئ نهر و أحضروا معهم أقلامهم و عصيّهم التى كانوا يقترعون بها. كتب كلّ واحد منهم اسمه على قلم من الأقلام، و ألقوها فى الماء، فكلّ قلم غطس فى الماء خسر صاحبه، و الرابح يكون من يطفو قلمه على الماء: غطس القلم الذى كتب عليه اسم زكريا، ثمّ عاد و طفا على سطحه، و بذلك أصبحت مريم فى كفالته، و قد كان فى الحقيقة أجدرهم بذلك، فهو نبى و زوج خالة مريم.

الاقتراع الحلّ الأخير:

يستفاد من هذه الآية و الآيات الأخرى الخاصّة بيونس فى سورة الصافّات أنّ من الممكن اللجوء إلى القرعة لحلّ النزاع و الخصام الذى يصل إلى طريق مسدود بحيث لا يكون هناك أىّ حلّ مقبول من أطراف النزاع. هذه الآية بالإضافة إلى الأحاديث الواردة عن أئمّة الإسلام كانت سببا فى اعتبار القرعة قاعدة فقهية يجرى بحثها فى الكتب الإسلامية. و لكن شرط الالتجاء إلى القرعة هو الوصول إلى طريق مسدود تماما، كما قلنا: لذلك إذا كان من الممكن العثور على طريق لحلّ مشكلة ما فلا يجوز اللجوء إلى القرعة.

ليس للاقتراع طريقة خاصّة فى الإسلام، فيجوز اتّخاذ العصى، أو الحصى، أو الورق و غير ذلك وسيلة له، على أن لا يكون فيه أىّ تواطؤ.

من الواضح أنّ الإسلام لا يجيز الربح و الخسارة عن طريق القرعة، لأنّ الربح و الخسارة ليسا من المشاكل التى يستعصى حلّها ليلجأ فيها إلى القرعة. لذلك فالربح الناشئ عن القرعة غير مشروع فى الإسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۷

لا بدّ من الإشارة أيضا إلى أنّ القرعة لا تقتصر على حلّ المنازعات و الاختلافات بين الناس، بل يمكن بها حلّ المشاكل المستعصية الأخرى أيضا.

فمثلا كما جاء فى الأحاديث: وطأ شخص شاة، ثمّ أطلقها بين الغنم بحيث لا يمكن التعرّف عليها، فيجب عندئذ إخراج واحدة منها بطريق القرعة و الامتناع عن أكل لحمها، و ذلك لأنّ الامتناع عن أكل لحمها جميعا يشكل ضررا كبيرا، كما أنّ أكل لحومها جميعا غير جائز. فهنا تحلّ القرعة المشكلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۸

الآية [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۵ الى ۴۶]

اشارة

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۵) وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (۴۶)

التّفسير

هذه الآية تبيّن حادث ولادة المسيح الذى يبدأ بتقديم الملائكة البشارة لمريم بأمر من اللّه قائلين لها إنّ اللّه سوف يهب لك ولدا اسمه المسيح عيسى بن مريم، و سيكون له مقام مرموق فى الدنيا و الآخرة، و هو مقرّب عند اللّه.

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

و لا بدّ من الإشارة هنا إلی بضع مسائل:

۱- فی هذه الآیة و فی آیتین أخریین یوصف المسیح بأنّه «الکلمة» و هو تعبیر موجود فی کتب العهد الجدید أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۴۹۹

کلام المفسّرین کثیر فی بیان سبب إطلاق هذه الکلمة علی المسیح. إلّا أنّ أقربها إلی الذهن هو ولادة المسیح الخارقة للعادة و التی تقع ضمن: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۳۴۱].

أو لأنّ البشارة بولادته قد جاءت فی کلمة إلی أمّه.

کما أنّ لفظة «الکلمة» وردت فی القرآن بمعنی «المخلوق»: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً[۳۴۲].

ففی هذه الآیة «کلمات ربی» هی مخلوقات اللّه. و لمّا کان المسیح أحد مخلوقات اللّه العظیمة فقد سمّی بالکلمة، و هذا یتضمّن أیضا ردّا علی الذین یقولون بالوهیّة المسیح علیه السّلام.

۲- «المسیح» بمعنی الماسح أو الممسوح. و إطلاقها علی عیسی إما لأنّه کان یمسح بیده علی المرضی المیؤوس منهم فیشفیهم بإذن اللّه، إذ کانت هذه الموهبة قد خصّصت له منذ البدایة، و لذلک أطلق اللّه علیه اسم المسیح قبل ولادته.

أو لأنّ اللّه قد مسح عند الدنس و الإثم و طهّره.

۳- یصرّح القرآن فی هذه الآیة بأنّ عیسی هو ابن مریم، و هو تصریح یدحض مفتریات المفترین عن الوهیّة المسیح. إذ أنّ من یولد من امرأة و تطرأ علیه جمیع التحوّلات التی تطرأ علی الجنین البشری و الکائن المادّی لا یمکن أن یکون إلها، ذلک الإله المنزّه عن کلّ أنواع التغیّرات و التحوّلات.

تشیر الآیة التی بعدها إلی إحدی فضائل و معاجز عیسی علیه السّلام و هی تکلّمه فی المهد وَ یُکَلِّمُ النَّاسَ فِی الْمَهْدِ وَ کَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِینَ فقد جاء فی سورة مریم أنّه لدفع التهمة عن أمّه تکلّم فی المهد کلاما فصیحا أعرب فیه عن عبودّیته للّه، و عن کونه نبیّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۰

و لمّا لم یکن من الممکن أن یولد نبیّ فی رحم غیر طاهرة، فإنّه یؤکد بهذا الإعجاز طهارة أمّه.

«المهد» هو کلّ مکان یعدّ لنوم المولود حدیثا، سواء أ کان متحرّکا أم ثابتا و الظاهر من آیات سورة مریم أنه علیه السّلام تکلّم منذ بدایة تولده ممّا یستحیل علی کلّ طفل أن یقوم به فی هذا العمر عادة، و بهذا کان کلامه فی المهد معجزة کبیرة. و لکن الکلام فی مرحلة الکهولة[۳۴۳]. امر عادی. و لعلّ ذکره فی الآیة أعلاه مقارنا للحدیث فی المهد إشارة أن کلامه فی المهد مثل کلامه فی الکهولة و الکمال لم یجانب الصواب و الحقّ و الحکم.

و تشیر الآیة کذلک إلی أنّ المسیح لا ینطق إلّا بالحقّ منذ ولادته حتّی کهولته، و أنّه یواصل الدعوة إلی اللّه و إرشاد الناس و لا یفتر عن ذلک لحظة واحدة.

و لعلّ إیراد هذا التعبیر عن المسیح ضرب من التّنبؤ بعودة المسیح إلی الدنیا، إذ أنّنا نعلم من کتب التاریخ أنّ عیسی علیه السّلام قد رفع من بین الناس إلی السماء و هو فی الثالثة و الثلاثین من عمره. و هذا یتّفق مع کثیر من الأحادیث الواردة عن عودة المسیح فی عهد الإمام المهدی علیه السّلام و یعیش معه بین الناس و یؤیّده.

و بعد ذکر مناقب المسیح المختلفة یضیف إلیها وَ مِنَ الصَّالِحِینَ و من هذا یتّضح أنّ الصلاح من أعظم دواعی الفخر و الاعتزاز، و تنضمّ تحت لوائه القیم الإنسانیة الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۱

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۴۷]

اشارة

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۷)

التّفسير

إنّنا نعلم أنّ هـذه الـدنيا هى دنيا العلل و الأسـباب، و أنّ اللّه قد دبّر أمر الخلق بحيث إنّ خلق كلّ كائن يتمّ ضـمن سلسـلة من العوامل. فلكى يولـد إنسـان قرّر اللّه أن يكـون ذلـك عن طريق الاتّصـال الجنسـى، و نفوذ الحيمن فى البويضـة. لـذلك حقّ لمريم أن تصـيبها الدهشة و أن تتقدّم بسؤالها: كيف يمكن أن تحمل و تلد و يكون لها ولد بغير أن يكون لها أىّ اتّصال جنسـى مع أىّ بشر؟ قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ.

فجاءتهـا الملائكـة بـأمر ربّها تخبرها بأنّ اللّه يخلق ما يشاء و كيفما يشاء، فنظام الطبيعـة هـذا من خلق اللّه و هو يأتمر بأمره، و اللّه قادر على تغيير هذا النظام وقتما يشاء، فيخلق وفق أسباب و عوامل أخرى غير عادية ما يشاء: كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۵۰۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۲

ثمّ لتوكيد هذا الأمر و إنهائه يقول إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

إنّ تعبير «كن فيكون» إشارة إلى سرعة الخلق.

بـديهىّ أن لفظـة «كن» تشـير فى الحقيقـة إلى إرادة اللّه الحاسـمة التى لا ـ يعتورها الأخـذ و الرد. أى أنّه ما إن يشاء أمرا و يصـدر أمره بالخلق حتّى تتحقّق مشيئته فى عالم الوجود.

من الجدير بالالتفات أنّه بشأن خلق عيسـى قال: «يخلق» و لكنّه بشأن خلق يحيى قبل بضع آيات قال: «يفعل». و لعلّ هذا الاختلاف فى التعبير ناشئ من اختلاف طريقة خلق هذين النبيّين، فأحدهما خلق بطريقة طبيعية، و الآخر خلق بطريقة خارقة للطبيعة. و هناك ملاحظة اخرى و هى أنّ هـذه الآيـات تـذكر فى بـدايتها محادثـة الملائكـة مع مريم. و هنا محادثتها مع اللّه عزّ و جلّ، و كأنها بلغ بها الوجـد و الجذبة الإلهيّة أن زالت الوسائط و اتّصـلت مع مبدأ العزة، فأخذت تحدثه و تسـمع منه مباشـرة. (و طبعا لا إشكال فى تكلّم غير الأنبياء مع اللّه تعالى إذا لم يكن بصورة الوحى).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۳

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۴۸ الى ۴۹]

اشارة

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَـةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۴۸) وَ رَسُولاً إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَـدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۴۹)

التّفسير

بقية امتيازات المسيح عليه السّلام:

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أربع صفات للمسيح عليه السّلام (وجيها فى الدنيا و الآخرة و من المقربين و يكلم الناس فى المهد، و من الصالحين) شرعت هاتان الآيتان بذكر صفتين أخريين من صفات هذا النبى العظيم، فالأولى تقول:

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ ففى البداية تشير إلى تعليمه الحكمة و العلم بشكل عام، ثمّ تبيّن مصداقين من مصاديق الكتاب و الحكمة، و هما التوراة و الإنجيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۴

إنّ الذين يختارهم اللّه لقيادة الناس و هدايتهم، لا بدّ أن يكونوا فى أعلى درجة من العلم و المعرفة و أن يقدّموا أسمى التعاليم و القوانين البنّاءة، ثمّ بعد ذلك عليهم أن يظهروا أدلّة واضحة على علاقتهم باللّه، لتوكيد مهمّتهم. و بهذين الوسيلتين تكتمل عملية هداية الناس، و فى الآيات أعلاه تمت الإشارة إلى هذين الأمرين. ففى الأولى كان الكلام عن علم المسيح و كتبه السماوية. و فى الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة. ثمّ تبيّن الهدف من كلّ ذلك و هو هداية بنى إسرائيل المنحرفين وَ رَسُولًا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ من الجدير بالذكر أنّ الآية تفيد أنّ رسالة عيسى كانت موجّهة إلى بنى إسرائيل فقط. و هذا لا يتنافى مع كونه من أولى العزم، لأنّ أولى العزم هم الأنبياء الذين جاؤوا بدين جديد، حتّى و إن لم يكن عالميّ الرسالة. و قد جاء فى تفسير «نور الثقلين» حديث عن اقتصار رسالة عيسى على بنى إسرائيل ۳۴۴].

إلّا أنّ بعض المفسّرين يرون احتمال عالمية رسالة المسيح، و أنّها لم تكن محصورة ببنى إسرائيل، على الرغم من أنّ بنى إسرائيل كانوا على رأس الذين أرسل إليهم لهدايتهم. يورد المرحوم العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» أخبارا عن أولى العزم من الأنبياء تؤيّد أنّها كانت رسالات عالمية[۳۴۵].

ثمّ تضيف الآية أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ و ليست آية واحدة، بل آيات عديدة (لأنّ التنوين جاء هنا لبيان عظمة هذه الآية، لا لبيان وحدتها».

و لمّا كانت دعوة الأنبياء فى الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ هذه الآية- عند بيان معجزات السيّد المسيح عليه السّلام- تبدأ بذكر بثّ الحياة فى الأموات بإذن اللّه، و تقول على لسان المسيح عليه السّلام أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۵

إنّ قضية إحياء الموتى التدريجى بإذن اللّه ليست عويصة، لأنّنا نعلم أنّ جميع الكائنات الحيّة مخلوقة من التراب و الماء، إلّا أنّ المعجزة فى أن هذا الخلق الذى تحقّق على امتداد سنوات طويلة. فما الذى يمنع من أن يكثّف اللّه تلك العوامل و الأسباب بحيث تتمّ مراحل الخلق بسرعة فائقة، و يتحوّل الطين إلى كائن حى؟

بديهىّ أنّ تحقّق هذا الأمر فى ذلك المحيط، و فى أى محيط آخر، سند حىّ؟

و دليل واضح على علاقة صاحب المعجزة بعالم ما وراء الطبيعة، و على قدرة اللّه اللامتناهية.

ثمّ تشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التى لا علاج لها، و تقول على لسانه: وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ ۳۴۶] وَ أُحْيِ الْمَوْتى بِإِذْنِ اللَّهِ لا شكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال و خاصّة لدى علماء الطبّ فى ذلك الزمان كان من المعجزات التى لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك تشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكلّ امرئ فى حياته بعض الأسرار التى لا يعرف الآخرون شيئا عنها. فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعنى أنّه يستقى معلوماته من مصدر غيبى: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ و

أخيرا يقول إنّ هذه كلّها دلائل صادقة للذين يؤمنون منكم: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

بحوث

۱- أ كانت معجزات المسيح عجيبة؟

يصرّ بعض المفسّرين- مثل صاحب المنار- على تأويل المعجزات التى ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال. من ذلك قولهم إنّ المسيح اكتفى بمجرّد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۶

الادّعاء بأنّه يفعل كذا و كذا بإذن اللّه، و لكنّه لم يفعل منها شيئا أبدا! فإذا كان هذا الرأى قابلا للنقاش هنا، فإنّ ما جاء فى الآية ۱۱۰ من سورة المائدة لا مجال فيه لأىّ نقاش: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ... لأنّ الآية تقول صراحة إنّ واحدة من نعم اللّه عليك أنّك كنت تصنع من الطين طيرا حيّا بإذن اللّه.

إنّ الإصرار على أمثال هذه التأويلات لا موجب له أبدا. لأنّه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإنّ القرآن يصرّح بها فى كثير من المواضع، فإذا استطعنا- فرضا- أن نؤوّل المعجزات فكيف بسائر المعجزات التى لا يمكن تأويلها؟

ثمّ إنّنا إذا كنا نقول إنّ اللّه هو الذى يحكم قوانين الطبيعة، و ليست هى التى تحكمه، فما الذى يمنع هذه القوانين لطبيعية أن تتغيّر بأمر منه فى ظروف استثنائية فتظهر حوادث بطرق غير طبيعية.

أمّا إذا تصوّر هؤلاء أن ذلك يتعارض مع وحدة أفعال اللّه و خالقيّته و كونه لا شريك له، فإنّ القرآن قد أجاب على هذا. فوقوع هذه الحوادث أينما وقعت مشروط بأمر اللّه، أى أنّ أحدا بقواه الخاصّة غير قادر على القيام بأمثال هذه الأعمال إلّا إذا شاء، و بإمداد من قدرته اللامتناهية و هذا هو التوحيد عينه، لا الشرك.

۲- الولاية التكوينية

تفيد هذه الآية و آيات أخرى سوف نتطرّق إليها- إن شاء اللّه- أنّ رسل اللّه و أولياءه يستطيعون بإذن منه و بأمره- إذا اقتضى الأمر- أن يتدخّلوا فى عالم الخلق و التكوين، و أن يحدثوا ما يعتبر خارقا للقوانين الطبيعية. فاستعمال أفعال مثل «أبرئ» و «أحيى الموتى» و بضمير المتكلّم تدلّ على أنّ هذه الأفعال من عمل الأنبياء أنفسهم، و أنّ القول بأنّ هذه الأفعال كانت تقع بسبب دعائهم فقط هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۷

قول لا يقوم عليه دليل، بل أنّ ظاهر الآيات يدلّ على أنّهم كانوا يتصرفون بعالم التكوين و يقومون بتلك الأفعال.

و لكن لكى لا يتصوّر أحد أنّ الأنبياء و الأولياء كان لهم استقلال فى العمل، و أنّهم أقاموا جهازا للخلق فى مقابل جهاز خلق اللّه، و كذلك لكى لا يكون هناك أىّ احتمال للشرك و للعبادة المزدوجة، تكرّر قول «بإذن اللّه»، (تكرّر فى هذه الآية مرّتين، و فى الآية ۱۱۰ من سورة المائدة أربع مرّات).

و ما الولاية التكوينيّة إلّا القول بأنّ الأنبياء و الأئمّة يستطيعون- إذا لزم الأمر- أن يتصرّفوا فى عالم الخلق بإذن اللّه. و هذا مقام أرفع من مقام الولاية التشريعية، أى إدارة الناس و حكمهم و نشر قوانين الشريعة بينهم و دعوتهم إلى اللّه و هدايتهم إلى الصراط المستقيم.

و بذلك يتضح جواب الذين ينكرون ولاية أهل اللّه التكوينية يعتبرونها ضربا من الشرك. فما من أحد يقول بأنّ للأنبياء و الأئمّة

جهازا للخلق مستقلا فى قبال اللّه. إنّما هم يفعلون ما يفعلون بإذن اللّه و بأمر منه. غير أنّ منكرى الولاية التكوينية يقولون إنّ مهمّة الأنبياء تنحصر فى الدعوة إلى اللّه و إبلاغ رسالته و أحكامه، و قد يتوسّلون أحيانا بالدعاء إلى اللّه فى بعض الأمور التكوينية، و أنّ هذا هو كلّ ما يقدرون عليه، مع أنّ هذه الآية و الآيات الأخرى تفيد غير ذلك.

كما يستنتج من هذه الآية أنّ كثيرا من معجزاتهم- على الأقل- قد فعلوها بأنفسهم، و إن كان ذلك بإذن اللّه و بعون من القدرة الإلهية. فى الواقع يمكن القول بأنّ المعجزة من عمل الأنبياء- لأنّهم هم الذين يقومون بها- كما هى من عمل اللّه لأنّها تتمّ بإذنه و بالاستعانة بقدرته.

۳- الجدير بالالتفات هنا إن تكرار القول «بإذن اللّه» و الاعتماد على مشيئته فى هذه الآية من أجل أن لا يبقى عذر لمدعى الوهية المسيح، و لكيلا يعتبره الناس ربّا، أما عدم تكرارها فى الأخبار بالغيب لوضوح الأمر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۰ الى ۵۱]

اشارة

وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۵۰) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۵۱)

التّفسير

هذه الآية جاءت على لسان المسيح عليه السّلام و لبيان بعض اهداف النبوّة حيث يقول: جئت أؤكّد لكم التوراة و أثبت أصولها و مبادئها وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ كما جئت لأرفع الحظر الذى فرض عليكم، بالنسبة لبعض الأشياء، فى دين موسى بسبب عصيانكم- مثل منع لحم الأباعر، و بعض شحوم الحيوانات، و بعض الطيور، و الأسماك- وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

و سوف نجد فى تفسير الآية ۱۶۰ من سورة النساء أنّه بسبب عناد بعض جماعات اليهود و طغيانهم حرّم اللّه عليهم بعض الطيّبات من النعم: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

إلّا أنّ هذه المحظورات أحلّت لهم مرّة أخرى ببركة ظهور المسيح عليه السّلام هذا النبىّ العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۰۹

ثمّ مرّة أخرى تتكرّر الجملة التى قرأنا على لسان المسيح فى الآية السابقة:

وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

و فى الآية الثانية تؤكد على لسان السيد المسيح عليه السّلام عبودية المسيح لرفع كلّ إبهام و ريب قد ينشأ من كيفية ولادته التى قد يتشبث بها البعض لإثبات ألوهيته و تقول: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ يتّضح من هذه الآية و من آيات أخرى أنّ السيّد المسيح، لكى يزيل كلّ إبهام و خطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة، و لكى لا يتّخذونها ذريعة لتأليهه، كثيرا ما يكرّر القول إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ و إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا[۳۴۷]، بخلاف ما نراه فى الأناجيل المحرّفة الموجودة التى تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» فى كلامه عن اللّه. إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلا من ذلك: إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ و هذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح فى محاربة من يدّعى بالوهيّته. بل لكى يكون التوكيد على ذلك أقوى يقول للناس فَاعْبُدُوهُ أى اعبدوا اللّه و لا تعبدونى.

و لـذلك نجـد أنه لم يكن أحد من الناس يتجرأ فى حياة السـيّد المسـيح عليه السّـلام أن يدعى ألوهيته أو أنه أحد الإلهة، و حتّى بعد عروجه بقرنين من الزمان لم تخالط تعليماته فى التوحيـد شوائب الشـرك، إلّا أن التثليث باعتراف أرباب الكنيسة ظهر فى القرن الثالث للميلاد (و سيأتى تفصيل ذلك فى ذيل الآية ۱۷۱ من سورة النساء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۰

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۲ الى ۵۴]

اشارة

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۵۲) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۵۳) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (۵۴)

التّفسير

استقامة الحواريين:

كـان اليهـود ينتظرون مجىء المسـيح بموجب مـا بشّـرهم به موسـى، قبـل أن يولـد. و لكنّه عنـد مـا ظهر، و تعرّضت مصالـح جمع من الظـالمين و المنحرفين من بنى إسـرائيل للخطر، لم يبـق معه إلّـا نفر قليـل، بينمـا تركه الـذين احتملوا أن يؤدّى قبولهم دعوة المسـيح و التقيّد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم.

بعـد أن أعلن عيسـى دعوته و أثبتها بالأدلّة الكافية، أدرك أنّ جمعا من بنى إسـرائيل يصـرّون على المعارضة و العصـيان و لا يتركون المعاندة و الانحراف فَلَمَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۱

أَحَسَ ۳۴۸] عِيسـى مِنْهُمُ الْكُفْرَ، فنادى فى أصـحابه و قالَ مَنْ أَنْصارِى إِلَى اللَّهِ فاسـتجاب لندائه نفر قليل. كانوا أطهارا سمّاهم القرآن ب «الحواريّين». لبّوا نداء المسيح و لم يبخلوا بشىء فى سبيل نشر أهدافه المقدّسة.

أعلن الحواريون استعدادهم لتقديم كلّ عون للمسيح، و قالوا: نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

لاحـظ أنّ الحواريين لم يقولوا: نحن أنصـارك بل لكى يعربوا عن منتهى إيمانهم بالتوحيـد و ليؤكّـدوا إخلاصـهم، و لكن لا يشمّ من كلامهم أىّ رائحـة للشـرك، قالوا: نحن أنصار اللّه، ننصـر دينه، و نريـدك شاهـدا على هـذه الحقيقة، لعلّهم قد شـمّوا منذ ذلك اليوم رائحة الانحراف فى المسـتقبل و أنّ هناك من يسـتدعى الوهيّة عيسـى من بعده، فسعوا ألّا يكون فى كلامهم ما يمكن أن يتذرّعوا به.

ضمنا نلاحظ أن الحواريين عبّروا فى كلامهم عن كونهم مسلمين، و هذا يدلّ على أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء عليهم السّلام.

و هنا ميّز المسـيح عليه السّـلام أتباعه المخلصين من الأعداء و المنافقين كيما يضع لدعوته برنامجا دقيقا و خطة مدروسة كما صنع نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك فى بيعة العقبة.

و بعـد أن قبـل الحواريّون دعوة المسـيح إلى التعـاون معه و اتّخـاذه شاهـدا عليهم فى إيمـانهم، اتّجهوا إلى اللّه يعرضون عليه إيمـانهم قائلين: رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ

و لكن لمّا كانت دعوى الإيمان لا تكفى وحـدها، فقد اتّبعوها ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر اللّه و اتّباع رسوله المسـيح، و قالوا مؤكّدين: وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۲

عند ما یتغلغل الإیمان فی روح الإنسان لا بدّ أن ینعکس ذلک علی عمله، فبدون العمل یکون ادّعاؤه الإیمان تقوّلا، لا إیمانا حقیقیا.

بعد ذلک طلبوا من اللّه قائلین فَاکْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِینَ و الشاهدون هم أولئک الذین لهم صفة قیادة الأمم، و یوم القیامة یشهدون علی أعمال الناس الحسنة و السیّئة.

و بعد أن انتهی الحواریّون من شرح إیمانهم، أشاروا إلی خطط الیهود الشیطانیة، و قالوا: إنّ هؤلاء- لکی یقضوا علی المسیح، و علی دعوته، و یصدّوا انتشار دینه- وضعوا الخطط الماکرة. إلّا أن ما رسمه اللّه من مکر فاق مکرهم و کان أشدّ تأثیرا وَ مَکَرُوا وَ مَکَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَیْرُ الْماکِرِینَ

بحوث

۱- من هم الحواریون؟

«حواریّون» جمع حوری من مادة «حور» بمعنی الغسل و التبییض، و قد تطلق علی الشیء الأبیض. لذلک یطلق العرب علی الطعام الأبیض «الحواری».

و «حور» جمع حوراء و هی البیضاء البشرة.

أمّا سبب تسمیة تلامذة المسیح بالحواریّین فقد ذکرت له احتمالات کثیرة، و لکن الأقرب إلی الذهن، و هو الوارد فی أحادیث أئمّة الدین، هو لأنّهم فضلا عن طهارة قلوبهم و صفاء أرواحهم، کانوا دائبی السعی فی تطهیر الناس و تنویر أفکارهم و غسلهم من أدران الذنوب.

و هذا ما أکّده حدیث عن الإمام الرضا علیه السّلام فی «عیون أخبار الرضا» ...؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۳

۲- الحواریّون فی القرآن و الإنجیل

تکلّم القرآن علی الحواریّین فی سورة الصف، الآیة ۱۴، مشیرا إلی إیمانهم.

و لکن یتبیّن ممّا نقرأه فی الإنجیل بشأن الحواریّین أنّهم جمیعا ارتکبوا بعض الزلل بالنسبة للمسیح.

أمّا أسماؤهم کما جاءت فی إنجیل متّی و لوقا، الباب السادس، فهی:

۱- بطرس، ۲- اندریاس، ۳- یعقوب، ۴- یوحنّا، ۵- فیلوبس، ۶- برتولولما، ۷- توما، ۸- متّی، ۹- یعقوب بن حلفا، ۱۰- شمعون «الغیور»، ۱۱- یهوذا أخو یعقوب، ۱۲- یهوذا الاسخریوطی الذی خان المسیح.

یذکر المفسّر المعروف المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان» أنّ الحواریّین کانوا یرافقون المسیح فی رحلاته. کلّما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء و الطعام مهیّأ أمامهم بأمر اللّه، فکانوا یرون فی ذلک فخرا لهم أیّ فخر، و سألوا المسیح: أهناک من هو أفضل منّا؟ فقال: نعم، أفضل منکم من یعمل بیده و یأکل من کسبه.

و علی أثر ذلک اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، و انشغلوا بذلک؛ فکان ذلک درسا عملیا للناس بأنّ العمل لیس عیبا أو عارا.

۳- ما المراد بالمكر الإلهى

فى القرآن آيات مشابهة لهذه ينسب فيها المكر إلى اللّه ۳۴۹]. كلمة «المكر» بالمصطلح المعاصر تختلف كثيرا عن معناها اللغوى. فالمكر بالمعنى المعاصر هو وضع الخطط الشيطانية الضارّة. و لكن معناها بلغة العرب هو البحث عن العلاج لأمر مّا، و قد يكون حسنا أو سيّئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۴

فى كتاب «المفردات» للراغب نقرأ: المكر: صرف الغير عمّا يقصد- خيرا كان أم شرّا-.

و فى القرآن وردت كلمة «المكر» مقرونة بكلمة «الخير»، إذ يقول وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ كما وردت مع «السيّئ»: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۳۵۰].

و عليه يكون المقصود من الآية هو أنّ أعداء المسيح وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه هذه الدعوة الإلهيّة. و لكن اللّه لكى يحفظ حياة نبيّه و يصون الدعوة مكر أيضا فأحبط كلّ ما مكروه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۵

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۵۵]

اشارة

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۵۵)

التّفسير

قلنا إنّ اليهود- بالتعاون مع بعض المسيحيّين الخونة- قرّروا قتل السيّد المسيح، فأحبط اللّه مكرهم، و نجى نبيّه منهم. فى هذه الآية يذكر اللّه نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلا: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَ

من المعروف عند المفسّرين، بالاستناد إلى الآية ۱۵۷ من سورة النساء، أنّ السيّد المسيح لم يقتل، و أنّ اللّه رفعه إلى السماء. غير أنّ المسيحيّين يقولون إنّه قتل و دفن، ثمّ قام من بين الأموات و بقى لفترة قصيرة على الأرض ثمّ صعد إلى السماء[۳۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۶

و لكن الذى لا بدّ من قوله الآن هو أنّ هذه الآية ليس فيها دليل على موت عيسى، على الرغم من أنّ بعضهم تصوّر أنّ كلمة «متوفّيك» من «الوفاة».

و على ذلك فإنّهم يرون أنّ هذا الموضوع يتعارض مع الرأى السائد بين المسلمين، و الذى تؤيّده الأحاديث، من أنّ عيسى لم يمت و أنّه حى. و لكن الأمر ليس كذلك.

«الفوت» هو بعد الشىء عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه. و «الوافى» الذى بلغ التمام، و وفى بعهده إذا أتمّه و لم ينقضه. و إذا استوفى أحد دينه من المدين قيل «توفّى دينه».

و فى القرآن وردت «توفّى» كرارا: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ[۳۵۲]. فهنا عبّر عن النوم بكلمة «يتوفّاكم». هذا المعنى نفسه يرد فى الآية ۴۲ من سورة الزمر، كما ترد كلمة «توفّى» فى آيات أخرى بمعنى الأخذ.

صحيح أنّ «توفّى» قد تأتى أحيانا بمعنى الموت، و لكنّها حتّى فى تلك المواضع لا تعنى الموت حقّا، بل بمعنى قبض الروح. و الواقع أنّ مادّة «فوت» و مادّة «و فى» منفصلتان تماما.

ممّا تقدّم يكون تفسير الآية واضحا.

يقول اللّه: يا عيسى إنّنى سوف استوفيك و أرفعك إلىّ. و هذا يعنى حياة عيسى، لا موته (و طبعا إذا كانت كلمة «توفى» بمعنى قبض الروح فقط. فإن لازم ذلك هو الموت).

ثمّ تضيف الآية وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۷

هذا جانب آخر من خطاب اللّه إلى المسيح. و القصد من التطهير هنا هو إنقاذه من الكفّار الخبثاء البعيدين عن الحقّ و الحقيقة الذين كانوا يوجّهون إليه التهم الباطلة، و يحوكون حوله المؤامرات ساعين إلى تلويث سمعته، فنصر اللّه دينه، و طهّره من تلك التهم، بمثل ما نقرأه عن نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى أوّل سورة الفتح إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ. أى أنّنا هيّأنا لك نصرا واضحا كى يغفر لك اللّه ذنوبك السابقة و اللاحقة (و يطهّرك من التهم التى ألصقوها بك على شكل ذنوب).

كما يحتمل أن يعنى التطهير إخراج المسيح من ذلك المحيط الملوّث. و هذا يناسب الآية السابقة.

وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.

و هذه بشارة يبشّر بها اللّه المسيح و أتباعه لتشجيعهم على المضىّ فى الطريق الذى اختاروه. و الواقع أنّ هذه واحدة من آيات الإعجاز و من تنبّؤات القرآن الغيبية التى تقول إنّ أتباع المسيح سوف يسيطرون دائما على اليهود الذين عادوا المسيح.

و ها نحن اليوم نرى هذه الحقيقة رأى العين، فاليهود الصهاينة،- بغير الاستناد إلى المسيحيّين- غير قادرين على إدامة حياتهم السياسية و الاجتماعية يوما واحدا. بديهىّ أنّ «الكافرين» هنا هم اليهود الذين كفروا بالمسيح.

و فى ختام الآية يقول تعالى: ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ و يعنى أن ما تقدّم من الانتصارات و البشائر يتعلق بالحياة الدنيا، أمّا المحكمة النهائية و نيل الجزاء الكامل فسيكون فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۸

ملاحظة

هل الديانتان اليهودية و المسيحيّة باقيتان؟

هنا يتبادر سؤال إلى الذهن، و هو أنّ اليهود و النصارى- بموجب هذه الآية- سيبقون فى الدنيا حتّى يوم القيامة، و أنّ أتّباع هاتين الديانتين سيبقون أيضا، مع أنّ الأخبار الخاصّة بظهور المهدى عليه السّلام تبيّن أنّه يخضع جميع الأديان و يحكم العالم كلّه.

يتّضح جواب هذا السؤال بالتدقيق فى الأحاديث. فنحن نقرأ فى الأحاديث عن المهدى عليه السّلام أنّه لا يبقى بيت فى البدو و لا فى الحضر إلّا و يدخله التوحيد، أى أنّ الإسلام سيكون الدين الرسمى فى العالم كلّه، و تكون الحكومة حكومة إسلامية، و لا يحكم العالم سوى القوانين الإسلامية. و لكن هذا لا يمنع من وجود أقلّية من اليهود و النصارى تعيش تحت ظلّ حكومة المهدىّ عليه السّلام وفق شروط «أهل الذمّة».

إنّنا نعلم أنّ حكومة المهدىّ عليه السّلام لا تجبر الناس على اعتناق الإسلام، بل تتقدّم بالمنطق. أمّا التوسّل بالقوّة العسكرية فلبسط

العدالـة، و للإطاحـة بالحكومـات الظالمـة، و لاـنضواء العـالم تحت لواء الإسـلام، لا لإجبار الناس على قبول الإسـلام، و إلّا فلن يكون هناك أى معنى لحرية الإرادة و الإختيار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۱۹

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

اشارة

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۵۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۵۷) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (۵۸)

التّفسير

عاقبة أنصار و أعداء المسيح عليه السّلام:

الآية الاولى و الثانية تتابعان الخطاب للسيد المسيح و حال أتباعه و أعدائه، بينما الآية الثالثة فتخاطب نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعد ذكر رجوع الناس إلى اللّه و محاكمتهم- فى الآية السابقة- يأتى فى هذه الآية ذكر نتيجة تلك المحاكمة. فالكافرون و المعارضون للحقّ و العدالة سيلاقون فى الآخرة من العذاب الأليم مثل ما يلاقون فى الدنيا، و لن يكون لأىّ منهم حام و لا نصير، فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۰

الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ

و من الإشارة فى هذه الآية إلى عذاب الدنيا نفهم أنّ الكافرين- و هم هنا اليهود- لا ينجون من العذاب. و هذا ما يؤكّده تاريخ اليهود، و من ذلك تفوّق الآخرين عليهم كما جاء فى الآيات السابقة.

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى الفئة الثانية و قال وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ثمّ يؤكد القول: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

تقديم مصير الكافرين على المؤمنين من أجل أن الكافرين بنبوّة المسيح عليه السّلام كانوا يشكلون الأغلبية.

و الملفت للنظر أن الآية الاولى اكتفت بذكر الكفر فقط. أمّا الآية الثانية فقرنت الإيمان بالعمل الصالح، و هذا إشارة إلى أن الكفر لوحده يكون سببا للعذاب الإلهى. و لكن الإيمان لوحده لا يكفى للنجاة، بل لا بدّ و أن يقترن بالعمل الصالح.

و جملة وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ لعلّها ناظرة إلى أن جميع معانى الكفر و الأعمال السيّئة داخلة فى مفهوم الظلم بمعناه الواسع. و من الواضح أن اللّه لا يحب الظالمين و لا يقدم على ظلم عباده بل يوفيهم أجورهم بالكامل.

و بعد ذكر تاريخ المسيح و بعض ما جرى له، يتّجه الخطاب إلى رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: كلّ هذا الذى سردناه عليكم دلائل صدق لدعوتك و رسالتك، و كان تذكيرا حكيما جاء بصورة آيات قرآنية نزلت عليك، تبيّن الحقائق فى بيان محكم و خال من كلّ هزل و باطل و خرافة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۱

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۵۹ الى ۶۰]

اشارة

إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۵۹) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۶۰)

سبب النّزول

قلنا فى بداية هذه السورة أنّ الكثير من آياتها كانت ردّا على محاورات مسيحيّى نجران الذين جاؤوا فى وفد مؤلّف من ۶۰ شخصا و فيهم عدد من زعمائهم بقصد التحاور مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

من بين المواضيع التى طرحت فى ذلك الاجتماع مسألة الوهيّة المسيح التى رفضها رسول اللّه و استدلّ بأنّ المسيح ولد و عاش كبقية الناس و لا يمكن أن يكون إلها، لكنّهم استدلّوا على الوهيّته بولادته من غير أب، فنزلت الآية ردّا عليهم، و لمّا رفضوا ذلك دعاهم إلى المباهلة، و سوف يأتى ذكرها قريبا إن شاء اللّه.

التّفسير

نفى الوهية المسيح:

الآية الأولى تورد استدلالا قصيرا و واضحا فى الردّ على مسيحيّى نجران

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۲

بشأن الوهية المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلا على أنّه ابن اللّه أو أنّه اللّه بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب و لا أم. و عليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعى التعجّب، لأنّ اللّه قادر على كلّ شىء، و لأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئا يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسى من أمّ و بغير أب، ليست مستحيلة.

و أساسا، فإن الميسور و المعسور يتحقّقان بالنسبة لمن كانت قدرته محدودة كما فى المخلوقات، أمّا من كانت قدرته مطلقة فلا مفهوم للصعب و السهل بالنسبة له. فخلق ورقة واحدة تتساوى بالنسبة له مع خلق غابة من آلاف الكيلومترات، و خلق ذرة واحدة كخلق المنظومة الشمسية لديه.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

هذه الآية تؤكّد الموضوع و تقول: إنّ ما أنزلنا عليك بشأن المسيح أمر حقيقى من اللّه و لا يعتوره الشكّ، فلا تتردّد فى قبوله.

فى تفسير الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ للمفسّرين رأيان: الرأى الأول يقول: إنّ الجملة مبتدأ و خبر، و بذلك يكون المعنى: الحقّ دائما من ربّك، و ذلك لأنّ الحقّ هو الحقيقة، و الحقيقة هو الوجود، و كلّ وجود ناشئ من وجوده. لذلك فكلّ باطل عدم، و العدم غريب على ذاته.

الرأى الثانى يقول: إنّ الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقديره «تلك الأخبار».

أى تلك الأخبار التى أنزلناها عليك حقائق من اللّه. و كلّ من التفسيرين ينسجم مع الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۱]

اشارة

فَمَنْ حَاجَّکَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَکُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَکُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَکُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْکاذِبِينَ (۶۱)

سبب النّزول

قيل نزلت الآيات فى وفد نجران العاقب و السيد و من معهما قالوا لرسول اللّه:

هل رأيت ولدا من غير ذكر فنزلت: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ... الآيات فقرأها عليهم، فلمّا دعاهم رسول اللّه إلى المباهلة[۳۵۳] استنظروه إلى صبيحة غد من يومهم ذلك، فلمّا رجعوا إلى رجالهم قال لهم الأسقف: انظروا محمّد فى غد فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۴

غدا بولده و أهله فاحذروا مباهلته، و إن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شىء.

فلمّا كان الغد جاء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم آخذا بيدى على بن أبى طالب عليه السّلام و الحسن عليه السّلام و الحسين عليه السّلام بين يديه يمشيان و فاطمة عليها السّلام تمشى خلفه، و خرج النصارى يتقدمهم أسقفهم. فلمّا رأى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد أقبل بمن معه فسأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمّه و زوج ابنته و أحب الخلق إليه، و هذان ابنا بنته من على و هذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه و أقربهم إلى قلبه، و تقدّم رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فجثا على ركبتيه.

قال أبو حارثة الأسقف جثا و اللّه كما جثا الأنبياء للمباهلة.

فرجع و لم يقدم على المباهلة، فقال السيد: أذن يا أبا حارثة للمباهلة! فقال:

لا- إنّى لأرى رجلا جريئا على المباهلة و أنا أخاف أن يكون صادقا و لئن كان صادقا لم يحل و اللّه علينا حول و فى الدنيا نصرانى يطعم الماء.

فقال الأسقف: يا أبا القاسم! إنا لا نباهلك و لكن نصالحك فصالحنا على ما ينهض به، فصالحهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم على الفى حلة من حلل الاواقى قسمة كلّ حلة أربعون درهما فما زاد أو نقص فعلى حساب ذلك أو على عارية ثلاثين درعا و ثلاثين رمى و ثلاثين فرسا إن كان باليمن كيد، و رسول اللّه ضامن حتّى يؤديها و كتب لهم بذلك كتابا.

و روى أن الأسقف قال لهم: إنّى لأرى وجوها لو سألوا اللّه أن يزيل جبلا من مكانه لازاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصرانى إلى يوم القيامة[۳۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۵

التّفسير

فَمَنْ حَاجَّکَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ ....

بعد الآيات التى استدلّ فيها على بطلان القول بالوهية عيسى بن مريم، يأمر اللّه نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم و المعرفة. و أمره ان يقول لهم: إنّى سأدعو أبنائى، و أنتم ادعوا أبناءكم، و أدعو نسائى، و أنتم ادعوا نساءكم، و أدعو نفسى، و تدعون أنتم أنفسكم، و عندئذ ندعو اللّه أن ينزل لعنته على الكاذب منّا فَمَنْ حَاجَّکَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ

أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ

و لا حاجة للقول بأنّ القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس للّعن، ثمّ ليتفرّقوا كلّ إلى سبيله، لأنّ عملا كهذا لن يكون له أىّ تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء و اللعن أثر مشهود عيانا فيحيق بالكاذب عذاب فورى.

و بعبارة أخرى: فإنّ المباهلة- و إن لم يكن فى الآية ما يشير إلى تأثيرها- كانت بمثابة «السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق و الاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجى».

بحوث

۱- المباهلة دليل قاطع على أحقية نبى الإسلام:

لعلّ قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أسلوبا يبيّن صدق النبىّ و إيمانه بشكل قاطع. إذ يكف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۶

بعلاقته باللّه أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه ان يتقدّموا معه إلى اللّه يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، و أن يروا سرعة ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟ لا شكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدّا، لأنّ المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه و لم يظهر أىّ أثر لعقاب اللّه على معارضيه، فلن تكون النتيجة سوى فضيحة المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل و مدارك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئنا إلى أنّ النتيجة فى صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المباهلة تعتبر واحدا من الأدلّة على صدق دعوته و إيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التى كانت ستكشف عنها المباهلة.

تقول الروايات الإسلامية: عند عرض هذا الاقتراح للمباهلة، طلب ممثّلو مسيحيّى نجران من رسول اللّه أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأى مع شيوخهم.

فكان لهم ما أرادوا. و كانت نتيجة مشاورتهم- التى تعتمد على ناحية نفسية- هى أنّهم أمروا رجالهم بالدخول فى المباهلة دون خوف إذا رأوا محمّدا قد حضر فى أكثير من الناس و وسط جلبة و ضوضاء، إذ أنّ هذا يعنى أنّه بهذا يريد بثّ الرعب و الخوف فى النفوس و ليس فى أمره حقيقة. أمّا إذا رأوه قادما فى بضعة أنفار من أهله و صغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبىّ اللّه حقّا، و ليتجنّبوا مباهلته.

و قد حضر المسيحيّون إلى المكان المعيّن، ثمّ رأوا أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أقبل يحمل الحسين على يد و يمسك الحسن باليد الأخرى و من خلفه على و فاطمة، و هو يطلب منهم أن يؤمّنوا على دعائه عند المباهلة. و إذ رأى المسيحيّون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، و رفضوا الدخول فى المباهلة، و قبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّة.

۲- أحد أدلة عظمة أهل البيت:

يصرّح المفسّرون من الشيعة و السنّة أنّ آية المباهلة قد نزلت بحقّ أهل بيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۷

النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ الذين اصطحبهم النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم معه للمباهلة بهم هم: الحسن و الحسين و

فاطمة و علی علیهم السّلام. و علیه، فإنّ «أبناءنا» الواردة فی الآیة ینحصر مفهومها فی الحسن و الحسین علیهم السّلام، و مفهوم «نساءنا» ینحصر فی فاطمة علیها السّلام، و مفهوم «أنفسنا» ینحصر فی علی علیه السّلام. و هناک أحادیث کثیرة بهذا الخصوص.

حاول بعض أهل السنّة أن ینکر وجود أحادیث فی هذا الموضوع، فصاحب تفسیر المنار یقول فی تفسیر الآیة:

الروایات متّفقة علی أنّ النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم اختار للمباهلة علیّا و فاطمة و ولدیهما و یحملون کلمة «نساءنا» علی فاطمة و کلمة «أنفسنا» علی علیّ فقط، و مصادر هذه الروایات شیعیة، و مقصدهم منها معروف، و قد اجتهدوا فی ترویجها ما استطاعوا حتّی راجت علی کثیر من أهل السنّة. و لکن بالرجوع إلی مصادر أهل السنّة الأصلیة یتّضح أنّ الکثیر من تلک الطرق لا تنتهی بالشیعة و بکتب الشیعة، و إنکار هذه الأحادیث الواردة بطریق أهل السنّة، یسقط سائر أحادیثهم و کتبهم من الإعتبار.

لکی نلقی الضوء علی هذه الحقیقة، نورد هنا بعضا من روایاتهم و مصادرها:

القاضی نور اللّه الشوشتری فی المجلّد الثالث من کتابه النفیس «إحقاق الحقّ»، الطبعة الجدیدة، ص ۴۶، یتحدّث عن اتّفاق المفسّرین فی أنّ «أبناءنا» فی هذه الآیة إشارة إلی الحسن و الحسین، و «نساءنا» إشارة إلی فاطمة، و «أنفسنا» إشارة إلی علیّ علیه السّلام.

ثمّ یشیر فی هامش الکتاب إلی نحو ستّین من کبار أهل السنّة من الذین قالوا إنّ آیة المباهلة نزلت فی أهل البیت، و یذکر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصیل فی الصفحات ۴۶- ۷۶.

و من المشاهیر الذین نقل عنهم هذا التصریح:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۸

۱- مسلم بن الحجاج النیسابوری، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التی یعتمدها أهل السنّة. المجلّد ۷ ص ۱۲۰ (طبعة محمّد علی صبیح- مصر).

۲- أحمد بن حنبل فی کتابه «المسند» ج ۱ ص ۱۸۵ (طبعة مصر).

۳- الطبری فی تفسیره المعروف: ج ۳ ص ۱۹۲ (المطبعة المیمنیة- مصر).

۴- الحاکم فی کتابه «المستدرک» ج ۳ ص ۱۵۰ (طبعة حیدرآباد الدکن).

۵- الحافظ أبو نعیم الأصفهانی فی کتابه «دلائل النبوة» ص ۲۹۷ (طبعة حیدرآباد).

۶- الواحدیّ النیسابوری فی کتابه «أسباب النزول» ص ۷۴ (المطبعة الهندیة- مصر).

۷- الفخر الرازی فی تفسیره المعروف، ج ۸ ص ۸۵ (المطبعة البهیة- مصر).

۸- ابن الأثیر فی کتابه «جامع الأصول» ج ۹ ص ۴۷۰ (مطبعة السنّة المحمدیة- مصر).

۹- ابن الجوزی فی کتابه «تذکرة الخواص» ص ۱۷ (طبعة النجف).

۱۰- القاضی البیضاوی فی تفسیره ج ۲ ص ۲۲ (مطبعة مصطفی محمّد- مصر).

۱۱- الآلوسی فی تفسیره «روح المعانی» ج ۳ ص ۱۶۷ (المطبعة المنیریة- مصر).

۱۲- الطنطاوی فی تفسیره المعروف «الجواهر» ج ۲ ص ۱۲۰ (مطبعة مصطفی البابی الحلبی- مصر).

۱۳- الزمخشری فی تفسیره «الکشّاف» ج ۱ ص ۱۹۳ (مطبعة مصطفی محمّد).

۱۴- الحافظ أحمد بن حجر العسقلانی فی کتابه «الإصابة» ج ۲ ص ۵۰۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۲۹

(مطبعة مصطفی محمّد).

۱۵- ابن الصبّاغ فی کتابه «الفصول المهمّة» ص ۱۰۸ (طبعة النجف).

۱۶- العلّامة القرطبی فی کتابه «الجامع لأحکام القرآن» ج ۳ ص ۱۰۴ (طبعة مصر سنة ۱۹۳۶).

جاء فی کتاب «غایة المرام» عن صحیح مسلم فی باب (فضائل علی بن أبی طالب) أنّ معاویة قال یوما لسعد بن أبی وقاص: لم لا تسبّ أبا تراب (علی علیه السّلام)!؟ فقال: «ترکت سبّه منذ أن تذکرت الأشیاء الثلاثة التی قالها رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حقّ علی علیه السّلام (و أحدها) عند ما نزلت آیة المباهلة لم یدع النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم سوی فاطمة و الحسن و الحسین و علی، و قال: اللهمّ هؤلاء أهلی.

صاحب «الکشّاف» و هو من کبار علماء أهل السنّة، یذهب إلی أنّ هذه الآیة أقوی دلیل علی فضیلة أهل الکساء.

یتّفق المفسّرون و المحدّثون و المؤرّخون الشیعة أیضا أنّ هذه الآیة قد نزلت فی أهل البیت، و قد أورد صاحب تفسیر «نور الثقلین» روایات کثیرة بهذا الشأن.

من ذلک أیضا ما جاء فی کتاب «عیون أخبار الرضا» عن المجلس الذی عقده المأمون فی قصره للبحث العلمی. و

جاء فیه عن الإمام الرضا علیه السّلام قوله: ... میّز اللّه الطاهرین من خلقه، فأمر نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالمباهلة بهم فی آیة الابتهال. فقال عزّ و جلّ: یا محمّد (فمنّ حاجّک فیه ...» الآیة. فأبرز النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم علیّا و الحسن و الحسین و فاطمة صلوات اللّه علیهم ....

و

قال علیه السّلام: فهذه خصوصیة لا یتقدّمهم فیها أحد، و فضل لا یلحقهم فیه بشر، و شرف لا یسبقهم إلیه خلق ۳۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۰

کذلک وردت روایات بهذا المضمون فی تفسیر البرهان و بحار الأنوار و تفسیر العیّاشی، و کلّها تقول إنّ الآیة قد نزلت فی أهل البیت.

۳- اعتراض و جوابه:

هنا اعتراض مشهور أورده الفخر الرازی و آخرون علی نزول هذه الآیة فی أهل البیت. یقول هؤلاء: کیف یمکن أن نعتبر أنّ القصد من «أبناءنا» هو الحسن و الحسین علیهما السّلام مع أنّ «أبناء» جمع و لا تطلق علی الاثنین؟ و کذلک «نساءنا» جمع، فکیف تطلق علی سیّدة الإسلام فاطمة علیها السّلام وحدها؟ و إذا کان القصد من «أنفسنا» علیّا علیه السّلام وحده فلما ذا جاء بصیغة الجمع؟

الجواب أوّلا: کما سبق أن شرحنا بإسهاب، أنّ هناک أحادیث کثیرة فی کثیر من المصادر الإسلامیة الموثوق بها- شیعیة و سنّیة- تؤکّد نزول هذه الآیة فی أهل البیت، و هی کلّها تقول إنّ النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدع للمباهلة غیر علی و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام، هذا بذاته قرینة واضحة لتفسیر الآیة، إذ أنّ من القرائن التی تساعد علی تفسیر القرآن هی السنّة و ما ثبت من أسباب النزول.

و علیه، فإنّ الاعتراض المذکور لیس موجّها للشیعة فقط، بل أنّ علی جمیع علماء الإسلام أن یجیبوا علیه، بموجب ما ذکرناه آنفا.

ثانیا: إطلاق صیغة الجمع علی المفرد أو المثنی لیس أمرا جدیدا فهو کثیر الورود فی القرآن و فی غیر القرآن من الأدب العربی، و حتی غیر العربی.

من ذلک مثلا أنّه عند وضع قانون، أو إعداد اتّفاقیة، تستعمل صیغة الجمع علی وجه العموم. فمثلا، قد یقال فی اتّفاقیة: إنّ المسؤولین عند تنفیذها هم الموقّعون علیها و أبناؤهم. فی الوقت الذی یمکن أن یکون لأحد الأطراف ولد واحد أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۱

اثنین. فلا یکون فی هذا أیّ تعارض مع تنظیم الاتّفاقیة بصیغة الجمع. و ذلک لأنّ هناک مرحلتین، مرحلة «الاتفاق» و مرحلة «التنفیذ».

ففى المرحلة الأولى قد تأتى الألفاظ بصيغة الجمع لكى تنطبق على جميع الحالات. و لكن فى مرحلة التنفيذ قد تنحصر الحالة فى فرد واحد، و هذا لا يتنافى مع عمومية المسألة.

و بعبارة أخرى: كان على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بموجب اتفاقه مع مسيحيّى نجران، أن يدعو للمباهلة جميع أبنائه و خاصّة نسائه و جميع من كانوا بمثابة نفسه. إلّا أنّ مصداق الاتّفاق لم ينطبق إلّا على ابنين و امرأة و رجل (فتأمّل!).

فى القرآن مواضع متعدّدة ترد فيها العبارة بصيغة الجمع، إلّا أنّ مصداقها لا ينطبق إلّا على فرد واحد. فمثلا نقرأ: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ۳۵۶] المقصود من «الناس» فى هذه الآية هو «نعيم بن مسعود» حسب قول فريق من المفسّرين، لأنّ هذا كان قد أخذ أموالا من أبى سفيان فى مقابل إخافة المسلمين من قوّة المشركين.

و أيضا نقرأ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ[۳۵۷]. فهنا المقصود ب «الذين» فى هذه الآية، على رأى كثير من المفسّرين، هو «حى بن أخطب» أو «فنحاص».

و قد يطلق الجمع على المفرد للتكريم، كما جاء عن إبراهيم: إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ ۳۵۸]. فهنا أطلقت كلمة «أمّة» و هى اسم جمع، على مفرد.

۴- كما أنّ آية المباهلة تفيد بأنّ أبناء البنت يعتبرون أبناء أبيها أيضا، بخلاف ما كان سائدا فى الجاهلية فى اعتبار أبناء الابن فقط هم أبناء الجد، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۲

كانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا و بناتنابنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

هذا اللون من التفكير كان من بقايا التقاليد الجاهلية الخاطئة التى لم تكن ترى المرأة عضوا من أعضاء المجتمع، بل كانت تنظر إليها على أنّها و وعاء لنموّ الأبناء فقط، و ترى أنّ النسب يلحق بالآباء لا غير. يقول شاعرهم:

و إنّما أمّهات الناس أوعيةمستودعات و للأنساب آباء

غير أنّ الإسلام قضى على هذا اللون من التفكير، و ساوى بين أبناء الابن و أبناء البنت.

نقرأ فى الآية ۸۴ و ۸۵ من سورة الأنعام بشأن أبناء إبراهيم: مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

فالمسيح عيسى بن مريم عدّ هنا من أبناء إبراهيم مع أنّه كان ابنا من جهة البنت.

الأحاديث و الروايات الواردة عن طريق الشيعة و السنّة بشأن الحسن و الحسين عليهما السّلام تشير إلى كلّ منهما ب «ابن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم» كرارا.

و فى الآيات التى تحرّم الزواج ببعض النساء نقرأ: وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ يتّفق علماء الإسلام على أن الرجل يحرم عليه الزواج من زوجة ابنه و زوجة حفيده سواء أ كان من جهة الابن أم البنت، باعتبار شمولهم بالآية المذكورة.

۵- هل المباهلة تشريع عام؟

لا شكّ أنّ هذه الآية ليست دعوة عامّة للمسلمين للمباهلة، إذ أنّ الخطاب موجّه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم وحده. و لكن هذا لا يمنع من أن تكون المباهلة مع المعارضين حكما عامّا، و أنّ الأتقياء من المؤمنين الذين يخشون اللّه، لهم أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۳

يطلبوا من الذين لم ينفع فيهم المنطق و الاستدلال التقدّم للمباهلة.

و تظهر عمومية هذا الحكم فى بعض الروايات الإسلامية، فقد جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ۱ ص ۳۵۱

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: إذا كان كذلك (أى إذا لم يقبل المعاند الحقّ) فادعهم إلى المباهلة ... أصلح نفسك ثلاثا ... و أبرز أنت و هو إلى الجبان (الصحراء) فشبّك أصابعك من يدك اليمنى فى أصابعه، ثمّ أنصفه و ابدأ بنفسك و قل: اللهمّ ربّ السماوات السبع و ربّ الأرضين السبع عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم إن كان (فلانا) جحد حقّا و ادّعى باطلا فأنزل عليه حسبانا (بلاء) من السماء و عذابا أليما. ثمّ ردّد الدعوة عليه ... فإنّك لا تلبث أن ترى ذلك فيه.

و يتّضح أيضا من هذه الآية أنّه- خلافا للحملات التى يشنّها الزاعمون أنّ الإسلام دين الرجال و ليس للمرأة فيه أىّ حساب- قد ساهمت المرأة المسلمة مع الرجل خلال اللحظات الحسّاسة فى تحقيق الأهداف الإسلامية و وقفت معه ضدّ الأعداء. إنّ الصفحات المشرقة التى تمثّل سيرة سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السّلام و ابنتها السيّدة زينب الكبرى و غيرهما من نساء الإسلام اللآتى سرن على طريقهما دليل على هذه الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۴

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۶۲ الى ۶۳]

اشارة

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۲) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (۶۳)

التّفسير

تقول الآية- بعد شرح حياة المسيح عليه السّلام-: إنّ ما قصصناه عليك من قصة عيسى حقيقة أنزلها اللّه عليك. و عليه، فإنّ المزاعم الباطلة القائلة بالوهية المسيح، أو اعتباره ابن اللّه، أو بعكس ذلك اعتباره لقيطا، كلّها خرافات باطلة إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ

ثمّ تضيف للتوكيد: إنّ الذى يليق للعبادة هو اللّه وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وحده، و أن اتّخاذ معبود آخر دونه عمل بعيد عن الحقّ و الحقيقة وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فهو قادر على أن يخلق ولدا بدون أب، و ذلك على اللّه يسير.

«القصص» مفرد، تعنى القصّة، و هى فى الأصل من «القص» بمعنى تعقّب الأثر. فى موضع آخر من القرآن قالت أمّ موسى لابنتها «قصّيه» أى عقّبيه و ابحثى عنه وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۳۵۹] و قولهم لثأر الدم «القصاص» لأنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۵

تتبع لحقوق أصحاب الدم.

و «القصّة» تعنى بتاريخ القدامى و البحث فى سير حياتهم و من ذلك يعلم أن المشار إليه فى (هذا) هو قصة حياه المسيح لا القرآن الكريم و لا قصص الأنبياء.

الآية الثانية تهدد من لم يستسلم هؤلاء للحقّ بعد الاستدلالات المنطقية فى القرآن بشأن المسيح عليه السّلام، و كذلك إذا لم يخضعوا للمباهلة و استمرّوا فى عنادهم و تعصّبهم، لأن ذلك دليل على أنّهم ليسوا طلّاب حقّ، بل هم مقيّدون بأغلال تعصّبهم المجحف، و أهوائهم الجامحة، و تقاليدهم المتحجّرة، و بذلك يكونون من المفسدين فى المجتمع: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

لأن هدفهم تخدير الناس و إفساد العقائد السليمة لأفراد المجتمع، و من المعلوم أن اللّه تعالى يعرف هؤلاء، و يعلم بنياتهم و سيجازيهم فى الوقت المناسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۶

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۴]

اشارة

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (۶۴)

التّفسير

الدعوة إلى الاتّحاد:

بدأ القرآن فى الآيات السابقة بدعوة المسيحيّين إلى الاستدلال المنطقى، و إذ رفضوا، دعاهم إلى المباهلة، فكان لهذا أثره فى نفوسهم، فرفضوها و لكنّهم رضخوا لشروط اعتبارهم ذمّيين. فانتهز القرآن هذه الفرصة من استعدادهم النفسى، و عاد إلى طريقة الاستدلال.

غير أنّ الاستدلال هذه المرّة يختلف عن الاستدلال السابق اختلافا كبيرا.

فى الآيات السابقة كانت الدعوة إلى الإسلام (بكلّ تفاصيله). و لكنّ الدعوة هذه المرّة تتّجه إلى النقاط المشتركة بين الإسلام و أهل الكتاب. و بهذا يعلّمنا القرآن درسا، مفاده: أنّكم إذا لم توفّقوا فى حمل الآخرين على التعاون معكم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۷

جميع أهدافكم، فلا ينبغى أن يقعد بكم اليأس عن العمل، بل اسعوا لإقناعهم بالتعاون معكم فى تحقيق الأهداف المشتركة بينكم، كقاعدة للانطلاق إلى تحقيق سائر أهدافكم المقدّسة قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً.

هذه الآية تعتبر نداء «الوحدة و الاتّحاد» إلى أهل الكتاب، فهى تقول لهم:

إنّكم تزعمون- بل تعتقدون- أنّ التثليث (أى الاعتقاد بالآلهة الثلاثة) لا ينافى التوحيد، لذلك تقولون بالوحدة فى التثليث. و هكذا اليهود يدعون التوحيد و هم يتكلّمون بكلام فيه شرك و يعتبرون «العزير» ابن اللّه.

يقول لهم القرآن: إنّكم جميعا ترون التوحيد مشتركا، فتعالوا نضع يدا بيد لنحيى هذا المبدأ المشترك بدون لفّ أو دوران، و نتجنّب كلّ تفسير يؤدّى إلى الشرك و الابتعاد عن التوحيد.

و الملفت للنظر أن الآية الشريفة تؤكّد موضوع التوحيد فى ثلاث تعابير مختلفة، فأوّلا ذكرت أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ و فى الجملة الثانية وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً و فى المرّة الثالثة قالت وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

و لعلّ فى هذه الجملة الأخيرة إشارة إلى أحد موضوعين:

«الأوّل»: أنّه لا يجوز تأليه المسيح، و هو بشر مثلنا و من أبناء نوعنا.

«و الثانى»: أنّه لا يجوز الاعتراف بالعلماء المنحرفين الذين يستغلّون مكانتهم و يغيّرون حلال اللّه و حرامه كيفما يحلو لهم، و لا يجوز اتّباع هؤلاء.

و يتّضح ممّا سبق من الآيات القرآنية أنّه كان هناك بين علماء أهل الكتاب جماعات يحرّفون أحكام اللّه بحسب «مصالحهم» أو «تعصّبهم». إنّ الإسلام يرى أنّ من يتّبع أمثال هؤلاء دون قيد أو شرط و هو يعلم بهم، إنّما هو يعبدهم بالمعنى الواسع لكلمة العبادة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۸

إنّ سبب هذا الحکم واضح، فإن حقّ وضع القوانین و التشریعات یعود إلی اللّه، فإذا قرّر أحد هذا الحقّ لغیر اللّه فقد أشرک.

یقول المفسّرون فی ذیل تفسیر هذه الآیة إنّ «عدی بن حاتم» الذی کان نصرانیا ثمّ أسلم، عند ما سمع هذه الآیة، فهم من کلمة «أرباب» أنّ القرآن یقول إنّ أهل الکتاب یعبدون بعض علمائهم. فقال للنبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم: ما کنّا نعبدهم یا رسول اللّه.

فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: أما کانوا یحلّون لکم و یحرّمون فتأخذون بقولهم؟

فقال: نعم.

فقال النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم: هو ذاک ۳۶۰].

فی الواقع یعتبر الإسلام الرقّ و الاستعمار الفکری نوعا من العبودیة و العبادة لغیر اللّه، و هو کما یحارب الشرک و عبادة الأصنام، یحارب کذلک الاستعمار الفکری الذی هو أشبه بعبادة الأصنام.

و لا بدّ من الإشارة إلی أنّ «أرباب» جمع، لذلک لا یمکن أن نقول إنّ المقصود هو النهی عن عبادة عیسی وحده. و لعلّ النهی یشمل عبادة عیسی و عبادة العلماء المنحرفین.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

لو أنّهم- بعد دعوتهم دعوة منطقیة إلی نقطة التوحید المشترکة- أصرّوا علی الاعتراض، فلا بدّ أن یقال لهم: اشهدوا أنّنا قد أسلمنا للحق، و لم تسلموا، و بعبارة اخری: فاعلموا من یطلب الحق، و من یتعصّب و یعاند. ثمّ قولوا لهم اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ فلا تأثیر لعنادکم و عصیانکم و ابتعادکم عن الحقّ فی أنفسنا، و إنّا ما زلنا علی طریقنا- طریق الإسلام- سائرون، لا نعبد إلّا اللّه، و لا نلتزم إلّا شریعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۳۹

الإسلام، و لا وجود لعبادة البشر بیننا.

بحث

رسائل النبیّ إلی رؤساء العالم:

یقول التاریخ: عند ما استقرّ الإسلام نسبیّا فی الحجاز، أرسل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم رسائل إلی عدد من کبار رؤساء العالم فی ذلک العصر. فی بعض هذه الرسائل استند إلی هذه الآیة الداعیة إلی التوحید- المبدأ المشترک بین الأدیان السماویة-.

و لأهمیّة الموضوع ندرج بعضا من تلک الرسائل:

۱- رسالة إلی المقوقس ۳۶۱]

«بسم اللّه الرحمن الرحیم، من محمّد بن عبد اللّه إلی المقوقس عظیم القبط، سلام علی من اتّبع الهدی. أمّا بعد فإنّی أدعوک بدعایة الإسلام، أسلم تسلم، یؤتک اللّه أجرک مرّتین، فإن تولّیت فإنّما علیک إثم القبط[۳۶۲]. یا أهل الکتاب تعالوا إلی کلمة سواء بیننا و بینکم أن لا نعبد إلّا اللّه و لا نشرک به شیئا و لا یتّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون» [۳۶۳].

حمل «حاطب بن أبی بلتعة» رسالة النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المقوقس حاکم مصر، فوجده قد رحل إلی الإسکندریة،

فرکب إلیه، و سلّمه الرسالة، ثمّ قال لحاطب:

ما منعه إن کان نبیّا أن یدعو علی من خالفه و أخرجه من بلده إلی غیرها أن یسلّط علیهم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۰

فقال له حاطب: أ لست تشهد أنّ عیسی بن مریم رسول اللّه؟ فماله حیث أخذه قومه، فأرادوا أن یقتلوه، أن لا یکون دعا علیهم، أن یهلکهم اللّه تعالی، حتّی رفعه اللّه إلیه؟

قال: أحسنت أنت حکیم من عند حکیم.

ثمّ قال له حاطب: إنّه کان قبلک من یزعم أنّه الربّ الأعلی- یعنی فرعون- فأخذه اللّه نکال الآخرة و الأولی فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغیرک، و لا یعتبر غیرک بک.

إنّ هذا النبیّ دعا الناس، فکان أشدّهم علیه قریش، و أعداهم له الیهود، و أقربهم منه النصاری، و لعمری، ما بشارة موسی بعیسی علیهما الصلاة و السلام، إلّا کبشارة عیسی بمحمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و ما دعاؤنا إیّاک إلی القرآن، إلّا کدعائک أهل التوراة إلی الإنجیل، و کلّ نبیّ أدرک قوما فهم أمته، فالحقّ علیهم أن یطیعوه، فأنت ممّن أدرک هذا النبیّ، و لسنا ننهاک عن دین المسیح بل نأمرک به.

بقی حاطب بن أبی بلتعة أیّاما ینتظر جواب المقوقس علی رسالة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بعدها استدعاه المقوقس إلی قصره و استزاده معرفة بالإسلام و قال له:

إلی ما یدعو محمّد؟

قال حاطب: إلی أن نعبد اللّه وحده، و یأمر بالصلاة، خمس صلوات فی الیوم و اللیلة، و یأمر بصیام رمضان، و حجّ البیت، و الوفاء بالعهد، و ینهی عن أکل المیتة، و الدم ... ثمّ شرح له بعض جوانب حیاة النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

فقال المقوقس: هذه صفته، و کنت أعلم أنّ نبیّا قد بقی، و کنت أظنّ أنّ مخرجه بالشام، و هناک کانت تخرج الأنبیاء من قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب.

ثمّ دعا کاتبه الذی یکتب له بالعربیة فکتب إلی النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم:

«بسم اللّه الرحمن الرحیم، لمحمّد بن عبد اللّه من المقوقس عظیم القبط، سلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۱

علیک. أمّا بعد، فقد قرأت کتابک، و فهمت ما ذکرت فیه و ما تدعو إلیه، و قد علمت أنّ نبیّا قد بقی، و قد کنت أظنّ أنّه یخرج بالشام و قد أکرمت رسولک ...» ثمّ عدّد له الهدایا التی بعثها إلیه و ختم رسالته بعبارة «و السلام علیک»[۳۶۴].

تقول کتب التاریخ إنّ المقوقس أرسل نحو أحد عشر نوعا من الهدایا و بینها طبیب أرسله لمعالجة مرضی المسلمین.

فقبل رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم الهدایا، لکنّه أرجع الطبیب قائلا: «إنّا قوم لا نأکل حتّی نجوع، و إذا أکلنا لا نشبع»

مشیرا بذلک إلی أنّ هذه القاعدة فی تناول الطعام کافیة لحفظ صحّة المسلمین (و لعلّه- إضافة إلی هذه القاعدة الصحّیة العظیمة- لم یکن یأمن جانب الطبیب الذی کان مسیحیا و ربما کان الطبیب متعصّبا أیضا، فلم یشأ أن یترک أرواح المسلمین بین یدیه).

إن إکرام المقوقس سفیر النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و الهدایا التی أرسلها إلیه، و تقدیم اسم محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی اسمه، تدلّ کلّها علی أنّه کان قد قبل دعوة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم فی قرارة نفسه، أو أنّه- علی الأقل- مال إلی الإسلام. و لکنّه لکیّ لا یهتزّ مرکزه امتنع عن إظهار ذلک علنا.

۲- رسالة إلی قیصر الروم

«بسم اللّه الرحمن الرحیم. من محمّد بن عبد اللّه إلی هرقل عظیم الروم، سلام علی من اتّبع الهدی. أمّا بعد، فإنّی أدعوک بدعایة الإسلام. أسلم تسلم یؤتک اللّه أجرک مرّتین فإن تولّیت فإنّما علیک إثم الأریسیّین ۳۶۵]. یا اهل الکتاب تعالوا إلی کلمة سواء بیننا و بینکم ألّا نعبد إلّا اللّه و لا نشرک به شیئا و لا یتخذّ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون».

کان حامل رسالة رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی القیصر رجل اسمه «دحیة الکلبی».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۲

و تهیّأ السفیر للانطلاق نحو أرض الروم. و لکنّه قبل أن یصل القسطنطنیة، عاصمة القیصر، علم أنّ القیصر قد یمّم شطر بیت المقدس للزیارة. فاتّصل بحاکم «بصری» الحارث بن أبی شمر و کشف له عن مهمّته. و یبدو أنّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أجاز دفع الرسالة إلی حاکم (بصری) لیوصلها هذا إلی القیصر.

بعد أن اطّلع الحاکم علی الأمر، استدعی عدی بن حاتم و کلّفه أن یسافر مع دحیة إلی بیت المقدس لیوصل الرسالة إلی القیصر. التقی السفیر قیصر فی حمص.

و کانت الحاشیة قبل ذلک قد أفهموا دحیة أنّ علیه أن یسجد أمام القیصر، و أن لا یرفع رأسه أبدا حتّی یأذن له. فقال دحیة: لا أفعل هذا أبدا، و لا أسجد لغیر اللّه.

فأعجبوا بمنطقه المتین. و قال له أحد رجال البلاط: إذا لک أن تضع الرسالة تجاه منبر قیصر و تنصرف، إنّ أحدا غیر القیصر لا یمسّها. فشکره دحیة علی ذلک، و ترک الرسالة فی ذلک المکان، و انصرف.

فتح قیصر الرسالة، و جلب انتباهه افتتاحها باسم اللّه، و قال: أنا لم أر رسالة مثل هذه غیر رسالة سلیمان. ثمّ طلب مترجمه لیقرأ له الرسالة و یترجمها. احتمل قیصر أن یکون کاتب الرسالة هو النبیّ الموعود فی التوراة و الإنجیل. فعزم علی معرفة دقائق حیاة هذا النبیّ. فأمر بالبحث فی الشام لعلّهم یعثرون علی من یعرف شیئا عن محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم. و اتّفق أن کان أبو سفیان و جمع من قریش قد قدموا إلی الشام- التی کانت الجناح الشرقی للروم- للتجارة، فاتّصل بهم رجال القیصر و أخذوهم إلی بیت المقدس، فسألهم القیصر: أیّکم أقرب نسبا من هذا الرجل الذی یزعم أنّه نبیّ؟ فقال أبو سفیان: أنا.

ثمّ قال القیصر للقریشیین- علی طریق ترجمانه-: إنی سائل (أبا سفیان) عن هذا الرجل الذی یزعم أنّه نبیّ. فإن کذبنی فکذّبوه. فقال أبو سفیان: و ایم اللّه لولا مخافة أن یؤثّر علیّ الکذب لکذبت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۳

۱- ثمّ قال لترجمانه: سله کیف حسبه فیکم؟

أبو سفیان: هو فینا ذو حسب.

۲- القیصر: هل کان من آبائه ملک؟

أبو سفیان: لا.

۳- القیصر: هل کنتم تتّهمونه بالکذب قبل أن یقول ما قال؟

أبو سفیان: لا.

۴- القیصر: من یتّبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفیان: بل ضعفاؤهم.

۵- القیصر: أ یزیدون أم ینقصون؟

أبو سفیان: بل یزیدون.

۶- القیصر: هل یرتدّ أحد منهم عن دینه بعد أن یدخل فیه سخطة له؟

أبو سفیان: لا.

ثمّ استمرّ الحوار بین الاثنین عن موقف قریش من النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم و عن سجایاه ثمّ قال القیصر:

إن یکن ما تقول حقّا فإنّه نبیّ، و قد کنت أعلم أنّه خارج، و لم أکن أظنّه منکم، و لو أعلم أنّی أخلص إلیه لأحببت لقاءه، و لو کنت عنده لغسلت قدمیه- حسب تقالید الاحترام یومئذ- و لیبلغن ملکه ما تحت قدمیّ، ثمّ دعا بکتاب رسول اللّه فقرأه و دعا دحیة و احترمه و کتب جواب الرسالة و ضمّنها بهدیة و أرسلها الی الرسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أظهر فی جواب الرسالة ولاءه و محبته إلی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۴

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۶۵ الی ۶۸]

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْراهِیمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِیلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۵) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِیما لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِیما لَیْسَ لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۶۶) ما کانَ إِبْراهِیمُ یَهُودِیًّا وَ لا نَصْرانِیًّا وَ لکِنْ کانَ حَنِیفاً مُسْلِماً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۶۷) إِنَّ أَوْلَی النَّاسِ بِإِبْراهِیمَ لَلَّذِینَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِیُّ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِیُّ الْمُؤْمِنِینَ (۶۸)

سبب النّزول

ورد فی الروایات الشریفة أن علماء الیهود و نصاری نجران جاءوا إلی النبیّ الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و أخذوا یجادلونه فی إبراهیم، فقالت الیهود: أنه کان یهودیا، و قالت النصاری: أنه کان نصرانیا (و هکذا کلّ یدعی إبراهیم لنفسه لتکون له الغلبة و الافتخار علی خصمه. لأن إبراهیم علیه السّلام کان نبیا عظیما لدی جمیع الأدیان و المذاهب) فنزلت الآیات أعلاه لتبیّن کذب هذه الادّعاءات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۵

التّفسیر

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِی إِبْراهِیمَ ....

هذه الآیة تردّ علی مزاعم الیهود النصاری، و تقول: إنّ جدلکم بشأن إبراهیم النبیّ المجاهد فی سبیل اللّه جدل عقیم، لأنّه کان قبل موسی و المسیح بسنوات کثیرة، و التوراة و الإنجیل نزلا بعده بسنوات کثیرة وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِیلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أ یعقل أن یدین نبیّ سابق بدین لاحق؟ أ فَلا تَعْقِلُونَ

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِیما لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِیما لَیْسَ لَکُمْ بِهِ عِلْمٌ

هنا یوبّخهم اللّه قائلا إنّکم قد بحثتم فیما یتعلّق بدینکم الذی تعرفونه (و شاهدتم کیف أنّکم حتّی فی بحث ما تعرفونه قد وقعتم فی أخطاء کبیرة و کم بعدتم عن الحقیقة، فقد کان علمکم، فی الواقع، جهلا مرکّبا)، فکیف تریدون أن تجادلوا فی أمر لا علم لکم به،

ثمّ تدّعون ما لا يتّفق مع أىّ تاريخ؟

و فى نهاية الآية يقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ توكيدا للموضوع السابق، و تمهيدا لبحث الآية التالية.

أجل، إنه يعلم متى بعث إبراهيم عليه السّلام بالرسالة لا أنتم الذين جئتم بعد ذلك بزمن طويل و تحكمون فى هذه المسألة بدون دليل.

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا.

و هذا ردّ صريح على هذه المزاعم يقول إنّ إبراهيم لم يكن من اليهود و لا من المسيحيّين، و إنّما كان موحّدا طاهرا مخلصا أسلم للّه و لم يشرك به أبدا.

«الحنيف» من الحنف، و هو الميل من شىء إلى شىء، و هو فى لغة القرآن ميل عن الضلال إلى الاستقامة.

يصف القرآن إبراهيم أنّه كان حنيفا لأنّه شقّ حجب التعصّب و التقليد الأعمى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۶

و فى عصر كان غارقا فى عبادة الأصنام، نبذ هو عبادة الأصنام و لم يطأ طىء لها رأسا.

إلّا أنّ العرب الذين كانوا يعبدون الأصنام فى العصر الجاهلى كانوا يعتبرون أنفسهم حنفاء على دين إبراهيم. و قد شاع هذا شيوعا حدا بأهل الكتاب إلى أن يطلقوا عليهم اسم «الحنفاء». و بهذا اتّخذت لفظة «الحنيف» معنى معاكسا تماما لمعناها الأصلى، غدت ترادف عبادة الأصنام. لذلك فإنّ القرآن بعد أن وصف إبراهيم بأنّه كان حَنِيفاً أضاف مُسْلِماً ثمّ أردف ذلك بقوله وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ لإبعاد احتمال آخر.

كيف كان إبراهيم مسلما؟

قد يسأل سائل: إذا لم نكن نعتبر إبراهيم من أتباع موسى و لا من أتباع عيسى فنحن بطريق أولى لا نستطيع أن نعتبره مسلما أيضا، لأنّه كان قبل كلّ هذه الأديان.

فكيف يصفه القرآن بأنّه كان مسلما؟

جواب هذا السؤال هو أنّ «الإسلام» فى القرآن لا يعنى إتّباع رسول الإسلام فقط، بل الكلمة بالمعنى الأوسع تعنى التسليم المطلق لأمر اللّه لتوحيد الكامل الخالص من كلّ شرك و و ثنوية، و كان إبراهيم حامل لواء ذلك الإسلام.

و ممّا تقدّم يتّضح أن إبراهيم عليه السّلام لم يكن تابعا لهذه الأديان. و لكن يبقى شىء واحد، و هو من هم الذين يحقّ لهم ادعاء العلاقة و الارتباط بالدين الإبراهيمى و بعبارة اخرى كيف يمكننا اتباع هذا النبى العظيم الذى يفتخر باتّباعه جميع أتباع الأديان السماوية؟

آخر آية من الآيات مورد البحث توضح هذا المطلب و تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۷

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ...

لوضع حدّ لجدل أهل الكتاب حول إبراهيم، نبىّ اللّه العظيم، الذى كانت كلّ جهة تدّعى أنّه منها، و كانوا يستندون غالبا إلى قرابتهم منه، أو اشتراكهم معه فى العنصر، أعاد القرآن مبدأ رئيسا إلى الأذهان و هو أنّ الارتباط بالأنبياء و الولاء لهم إنّما يكون عن طريق الإيمان و اتّباعهم فقط. و بناء على ذلك، فإنّ أقرب الناس لإبراهيم هم الذين يتّبعون مدرسته و يلتزمون أهدافه، سواء بالنسبة للذين عاصروه لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ أو الذين بقوا بعده أوفياء لمدرسته و أهدافه، مثل نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أتباعه وَ هذَا النَّبِيُّ وَ

الَّذِينَ آمَنُوا.

و السبب واضح، فاحترام الأنبياء إنّما هو لمدرستهم، لا لعنصرهم و قبيلتهم و نسبهم. و عليه، إذا كان أهل الكتاب بعقائدهم المشركة قد انحرفوا عن أهم مبدأ من مبادئ دعوة إبراهيم، فقد بقى رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمون- بالاستناد إلى هذا المبدأ نفسه و تعميمه على جميع أصول الإسلام و فروعه- من أوفى الأوفياء له، فلا بدّ أن نعترف بأنّ هؤلاء هم الأقربون إلى إبراهيم، لا أولئك.

و فى ختام الآية يبشر اللّه تعالى الذين يتبعون رسالة الأنبياء حقيقة و يقول:

وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ملاحظة

الارتباط الدينى أوثق الروابط:

ترى هذه الآية أنّ الرابط الوحيد الذى يربط الناس بالأنبياء هو اتّباع مدرستهم و أهدافهم، ليس غير.

لذلك نجد أنّ النصوص المروية عن أئمة الإسلام تؤكّد هذا الموضوع بصراحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۸

تامّة. من ذلك أنّه جاء فى تفسير مجمع البيان و نور الثقلين، نقلا

عن الإمام علىّ عليه السّلام أنّه قال: «إنّ أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاؤوا به- ثمّ تلا الآية المذكورة ثمّ قال:- إنّ ولىّ محمّد من أطاع اللّه و إن بعدت لحمته، و إنّ عدوّ محمّد من عصى اللّه و إن قربت قرابته».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۴۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۶۹]

اشارة

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۶۹)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين إنّ فريقا من اليهود سعوا أن يستميلوا إلى اليهودية بعض الشخصيات الإسلامية المجاهدة، «معاذ» و «عمّار» و غيرهما مستعينين بالوساوس الشيطانية و غير ذلك. فنزلت هذه الآية تنذر المسلمين ممّا يبيت لهم اليهود.

التّفسير

وَدَّتْ طائِفَةٌ[۳۶۶] مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ۳۶۷].

سعى أعداء الإسلام، و على الأخصّ اليهود، كما جاء فى سبب النزول أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۰

يباعدوا بين المسلمين و الإسلام، و لم يتوانوا فى سبيل ذلك فى بذل كلّ جهد، حتّى أنّهم طمعوا فى إغراء أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم المقرّبين لعلّهم يستطيعون صرفهم عن الإسلام. و لا شكّ أنّهم لو نجحوا فى التأثير على عدد منهم، أو حتّى على فرد واحد منهم، لكان ذلك ضربة شديدة على الإسلام تمهّد الطريق لتضليل الآخرين أيضا.

هذه الآية تكشف خطّة الأعداء، و تنذرهم بالكفّ عن محاولاتهم العقيمة استنادا إلى التربية التى نشأ عليها هذا الفريق من المسلمين فى مدرسة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بحيث لا يمكن أن يكون هناك أىّ احتمال لارتدادهم. إنّ هؤلاء قد اعتنقوا الإسلام بكلّ وجودهم، و لذلك فإنّهم يعشقون هذه المدرسة الإنسانية بمجامع قلوبهم و يؤمنون بها. و بناء على ذلك لا سبيل للأعداء إلى تضليلهم، بل أنّهم إنّما يضلّون أنفسهم.

وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ و ذلك لأنّهم بإلقاء الشبهات حول الإسلام و على رسول الإسلام و اتّهامهما بشتّى التهم، إنّما يربّون فى أنفسهم روح سوء الظن. و بعبارة أوضح: إن العيّاب الذى يتصيّد الهفوات يعمى عن رؤية نقاط القوّة، أو بسبب تعصّبه و عناده يرى النقاط المضيئة الإيجابية نقاطا مظلمة سلبية، و كلّما ازداد إصرارا على هذا، إزداد بعدا عن الحقّ.

و لعلّ تعبير وَ ما يَشْعُرُونَ إشارة إلى هذه الحالة النفسية، و هى أنّ الإنسان يقع دون و عى منه تحت تأثير أقواله هو أيضا، و فى الوقت الذى يحاول فيه بالسفسطة و الكذب و الافتراء أن يضلّ الآخرين، لا يكون هو نفسه بمنأى عن التأثير بأكاذيبه، فتروح هذه الاختلافات تؤثّر بالتدريج فى روحه و تتمكّن فيه بعد فترة وجيزة بصورة عقيدة راسخة، فيصدّقها و يضلّ نفسه بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۱

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۰ الى ۷۱]

اشارة

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (۷۰) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۷۱)

التّفسير

كتمان الحقّ لما ذا؟

تعقيبا للحديث عن الأعمال التخريبية لأهل الكتاب الواردة فى الآية السابقة، توجّه هاتان الآيتان الخطاب لأهل الكتاب و تلومهم على كتمانهم للحقائق و عدم التسليم لها. فتقول:

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۳۶۸].

السؤال هنا أيضا موجه إلى أهل الكتاب عمّا يدعوهم إلى العناد و اللجاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۲

و الإصرار عليهما بعد أن قرءوا علامات نبى الإسلام فى التوراة و الإنجيل و يعلمون ما فيهما، فلما ذا ينكرونها؟

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ

مرّة اخرى يستنكر القرآن قيامهم بالخلط بين الحقّ و الباطل، و إخفاءهم الحقّ مع علمهم به، فهم على علمهم بالأمارات الواردة فى التوراة و الإنجيل عن رسول الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم يخفونها.

إنّه يوبّخهم أوّلا على انحرافهم عن طريق الحقّ مع علمهم به، ثمّ يوبّخهم فى الآية الثانية على تضليلهم الآخرين ۳۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۲ الى ۷۴]

اشارة

وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۷۲) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۷۳) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۷۴)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين القدامى إنّ اثنى عشر من يهود خيبر و غيرهما وضعوا خطّة ذكيّة لزعزعة إيمان بعض المؤمنين، فتعاهدوا فيما بينهم أن يصبحوا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتظاهروا باعتناق الإسلام، ثمّ عند المساء يرتدّون عن إسلامهم، فإذا سئلوا لماذا فعلوا هذا، يقولون: لقد راقبنا أخلاق محمّد عن قرب، ثمّ عند ما رجعنا إلى كتبنا و إلى أحبارنا رأينا أنّ ما رأيناه من صفاته و سلوكه لا يتّفق مع ما هو موجود فى كتبنا، لذلك ارتددنا. إنّ هذا سيحمل بعضهم على القول بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۴

هؤلاء قد رجعوا إلى كتبهم السماوية التى هم أعلم منّا بها، إذا لا بدّ أن يكون ما يقولونه صحيحا. و بهذا تتزعزع عقيدتهم.

هناك سبب نزول آخر، إلّا أنّ ما ذكرناه أقرب إلى معنى الآية.

التّفسير

مؤامرة خطيرة:

تكشف هذه الآية عن خطّة هدّامة أخرى من خطط اليهود، و تقول إنّ هؤلاء لكى يزلزلوا بنية الإيمان الإسلامى توسّلوا بكلّ وسيلة ممكنة. من ذلك أنّ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ اتّفقوا أن يؤمنوا بما أنزل على المسلمين فى أوّل النهار و يرتدّوا عنه فى آخره آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ

لعلّ المقصود من أوّل النهار و آخره قصر المدة بين إيمانهم و ارتدادهم، سواء أ كان ذلك فى أوّل النهار حقّا أم فى أىّ وقت آخر. إنّما قصر هذه المدّة يوحى إلى الآخرين أن يظنّوا أنّ هؤلاء كانوا يرون الإسلام شيئا عظيما قبل الدخول فيه، و لكنّهم بعد أن أسلموا وجدوه شيئا آخر قد خيّب آمالهم، فارتدّوا عنه.

لا شكّ أن مثل هذه المؤامرة كانت ستؤثّر فى نفوس ضعفاء الإيمان، خاصّة و أنّ أولئك اليهود كانوا من الأحبار العلماء، و كان الجميع يعرفون عنهم أنّهم عالمون بالكتب السماوية و بعلائم خاتم الأنبياء. فإيمانهم ثمّ كفرهم كان قادرا على أن يزلزل إيمان المسلمين الجديد. لذلك كانوا يعتمدون كثيرا على خطّتهم الماهرة هذه، و قوله: لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ دليل على أملهم هذا.

و كانت خطّتهم تقتضى أن يكون إيمانهم بالإسلام ظاهريا، و أن يبقى ارتباطهم باتّباع دينهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۵

وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ

و يستفاد من بعض التفاسير أنّ يهود خيبر أوصوا يهود المدينة بذلك لئلّا يقع القريبون من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم تحت تأثيره فيؤمنوا به حقّا، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ النبوّة يجب أن تكون فى العنصر اليهودى، فإذا ظهر نبىّ فلا بدّ أن يكون يهوديا.

يرى بعض المفسّرين أنّ جملة لا تُؤْمِنُوا من الإيمان الذى يعنى «الوثوق و الاطمئنان» كما هو أصل الكلمة اللغوى. و بناء على ذلك يكون المعنى: هذه المؤامرة يجب أن تبقى مكتومة و سرّية، و أن لا يعلم بها أحد من غير اليهود، حتّى المشركين، لئلّا تنكشف و تحبط، ففضح اللّه هذه المؤامرة فى هذه الآيات و فضحهم، ليكون ذلك درس عبرة للمؤمنين، و درس هداية للمعاندين.

قُلْ إِنَّ الْهُدى هُدَى اللَّهِ

هذه جملة معترضة جاءت ضمن كلام على لسان اليهود فى ما قبلها و ما بعدها من الآيات.

فى هذه الآية التى تقع بين كلام اليهود، يردّ اللّه عليهم ردّا قصيرا و لكنه عميق المعنى. فأوّلا: الهداية مصدرها اللّه، و لا تختصّ بعنصر أو قوم بذاته، فلا ضرورة فى أن يجىء النبىّ من اليهود فقط. و ثانيا: إنّ الذين شملهم اللّه بهدايته الواسعة لا تزعزعهم هذه المؤامرات و لا تؤثّر فيهم هذه الخطط.

أَنْ يُؤْتى أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ۳۷۰].

هذه الآية استمرار لأقوال اليهود، بتقدير عبارة و لا تصدقوا قبلها.

و على ذلك يصبح معنى الآية هكذا: «لا تصدّقوا أن ينال أحد ما نلتم من الفخر و ما نزل عليكم من الكتب السماوية، و كذلك لا تصدّقوا أن يستطيع أحد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۶

يجادلكم يوم القيامة أمام اللّه و يدينكم، لأنكم خير عنصر و قوم فى العالم، و أنتم أصحاب النبوّة و العقل و العلم و المنطق و الاستدلال!».

بهذا المنطق الواهى كان اليهود يسعون لنيل ميزة يتميّزون بها، من حيث علاقتهم باللّه، و من حيث العلم و المنطق و الاستدلال، على الأقوام الأخرى. لذلك يردّهم اللّه فى الآية التالية بقوله:

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

أى: قل لهم إنّ المواهب و النعم، سواء أ كانت النبوّة و الاستدلالات العقلية المنطقية، أم المفاخر الأخرى، هى جميعا من اللّه، يسبغها على من يشاء من المؤهّلين اللائقين الجديرين بها. إنّ أحدا لم يأخذ عليه عهدا و وعدا، و لا لأحد قرابة معه. إنّ جوده و عفوه واسعان، و هو عليم بمن يستحقّهما.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۳۷۱].

هذا توكيد لما سبق أيضا: إنّ اللّه يخصّ من عباده من يراه جديرا برحمته- بما فى ذلك مقام النبوّة و القيادة- دون أن يستطيع أحد تحديده فهو صاحب الأفضال و النعم العظيمة.

و يستفاد ضمنا من هذه الآية الكريمة أن الفضل الإلهى إذا شمل بعض الناس دون بعض، فليس ذلك المحدودية الفضل الإلهى، بل بسبب تفاوت القابليات فيهم.

خطط قديمة

تعتبر هذه الآيات، فى الواقع، من آيات إعجاز القرآن، لأنّها تكشف أسرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۷

اليهود و أعداء الإسلام و تفضح خططهم لزعزعة مسلمى الصدر الأوّل، فتيقّظ المسلمون ببركتها، و وعوا وساوس الأعداء المغرية. و لكنّنا لو دقّقنا النظر لأدركنا أنّ تلك الخطط تجرى فى عصرنا الحاضر أيضا بطرق مختلفة. إنّ وسائل إعلام الأعداء القوية المتطوّرة مستخدمة الآن للغرض نفسه، فهم يحاولون هدم أركان العقيدة الإسلامية فى عقول المسلمين، و بخاصة الجيل الشاب. و هم فى هذا السبيل لا- يتورّعون عن كلّ فرية، و يلجأون إلى كلّ السبل و يتلبّسون بلبوس العالم و المستشرق و المؤرّخ و عالم الطبيعيات و الصحفى، بل حتّى الممثّل السينمائى.

إنّهم يصرّحون أنّ هدفهم ليس التبشير بالمسيحية و حمل المسلمين على اعتناقها، و لا اعتناق اليهودية، بل هدفهم هو هدم أسس المعتقدات الإسلامية فى أفكار الشباب، و جعلهم غير مهتمّين بدينهم و تراثهم. إنّ القرآن اليوم يحذّر المسلمين من هذه الخطط كما حذّرهم فى القديم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۵ الى ۷۶]

اشارة

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷۶)

سبب النّزول

نزلت هذه الآية بشأن يهوديّين أحدهما أمين و صادق، و الآخر و خائن منحط.

الأوّل هو «عبد اللّه بن سلام» الذى أودع عنده رجل ۱۲۰۰ أوقية[۳۷۲] من الذهب أمانة. ثمّ عند ما استعادها ردّها إليه. و اللّه يثنى عليه فى هذه الآية لأمانته.

و اليهودىّ الثانى هو «فنحاص بن عازورا» ائتمنه رجل من قريش بدينار، فخانه فيه. و اللّه يذمّه فى هذه الآية لخيانته الأمانة.

و قيل إنّ القسم الأوّل من الآية يقصد جمعا من النصارى، و أمّا الذين خانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۵۹

الأمانة فهم جمع من اليهود. و قد تشير الآية إلى الحالتين، إذ أنّنا نعلم أنّ الآيات- و إن كان لبعضها سبب نزول خاص- لها طابع عامّ و سبب النزول لا يخصّصها.

التّفسير

ترسم الآية ملامح أخرى لأهل الكتاب. كان جمع من اليهود يعتقدون أنّهم لا يكونون مسئولين عن حفظ أمانات الناس، بل لهم الحقّ فى تملّك أماناتهم! كانوا يقولون: إنّنا أهل الكتاب، و أن النبىّ و الكتاب السماوى نزلا بين ظهرانينا، لذلك فأموال الآخرين غير محترمة عندنا. لقد تغلغلت فيهم هذه الفكرة بحيث غدت عقيدة دينية راسخة. و هذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

قال اليهود: إنّ لنا حقّ التصرّف بأموال العرب و اغتصابها لأنّهم مشركون و لا يتّبعون دين موسى.

و قيل أيضا إن اليهود كانت لهم مع العرب اتفاقات اقتصادية و تجارية و عند ما أسلم العرب، امتنع اليهود عن ردّ حقوقهم، قائلين: إنكم عند عقد الاتفاق لم تكونوا من مخالفينا. أما و قد أتخذتم دينا جديدا فقد سقط حقّكم.

من الجدير بالذكر أنّ هذه الآية تعلن أنّ أهل الكتاب لم يكونوا جميعا ينهجون هذا الطراز من التفكير غير الإنسانى، بل كان فيهم جماعة ترى أنّ من واجبها أن تؤدّى حقّ الآخرين. و لذلك فإنّ القرآن لم يدنهم جميعا و لم يلق تبعة أخطاء بعضهم على الجميع، و لذلك يقول وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ[۳۷۳] يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً.

إنّ تعبير إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً أى واقفا و مسيطرا، يشير إلى مبدأ أصيل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۰

نفسيّة اليهود، فكثير منهم لا يجدون أنفسهم ملزمين بردّ حقّ إلّا بالقوّة. ليس أمام المسلمين لاسترجاع حقوقهم منهم سوى هذا السبيل، سبيل السعى للحصول على القوّة التى تجعلهم يردّون حقوقهم.

إنّ الحوادث التى جرت فى الشرق الأوسط خلال السنوات الأخيرة أثبتت بما لا يدع مجالا للشكّ أنّ القرارات الدولية و الرأى العام العالمى، و قضايا الحقّ و العدالة و أمثالها، لا قيمة لها فى نظر الصهاينة و لا معنى، و ما من شىء يحملهم على الخضوع للحقّ سوى القوّة. و هذه من المسائل التى تنبّأ بها القرآن.

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

هذه الآية تبيّن منطقهم فى أكل أموال الناس، و هو قولهم بأنّ «لأهل الكتاب» أفضلية على «الأميّين» أى على المشركين و العرب الذين كانوا أمّيّين غالبا أو أن المقصود كلّ من ليس له نصيب من قراءة التوراة و الإنجيل، لذلك يحقّ لهم أن يستولوا على أموال الآخرين، و ليس لأحد الحقّ أن يؤاخذهم على ذلك، حتّى أنّهم ينسبون إلى اللّه تقرير التفوّق الكاذب.

لا شكّ أنّ هذا المنطق كان أخطر بكثير من مجرّد خيانة الأمانة، لأنّهم كانوا يرون هذا حقّا من حقوقهم، فيشير القرآن إلى هذا قائلا:

وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

هؤلاء يعلمون أنّه ليس فى كتبهم السماوية أىّ شىء من هذا القبيل بحيث يجيز لهم خيانة الناس فى أموالهم، و لكنّهم لتسويغ أعمالهم القبيحة راحوا يختلقون الأكاذيب و ينسبونها إلى اللّه.

الآية التالية تنفى مقولة اليهود لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ التى قرّروا فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۱

لأنفسهم حرّية العمل، فاستندوا إلى هذا الزعم المزيّف للاعتداء على حقوق الآخرين بدون حقّ. حيث يتلاعبون بمصائر شعوب العالم، و لا يتورّعون عن ارتكاب كلّ اعتداء على حقوق الإنسان، و يرون القوانين مجرّد العوبة بيدهم لتحقيق مصالحهم، فتقول: بَلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

تقرر هذه الآية أنّ مقياس الشخصية و القيمة الإنسانية و محبّة اللّه يتمثّل فى الوفاء بالعهد و فى عدم خيانة الأمانة خاصّة، و فى التقوى بشكل عامّ، أجل، إن اللّه يحب هؤلاء، لا الخوانة الكذابين الذين يبيحون لأنفسهم غصب حقوق الآخرين و يتجرءون كذلك على نسبتها إلى اللّه تعالى.

بحث

۱- اعتراض:

قد يقول قائل إنّ الإسلام قرّر أيضا مثل هذا الحكم بالنسبة لأموال الأجانب، إذ أنّه يجيز الاستيلاء على أموالهم.

الجواب:

إنّ اتّهام الإسلام بهذا افتراء لا شكّ فيه، إذ أنّ من أحكام الإسلام القاطعة الواردة فى كثير من الأحاديث، هو «ليس من الجائز خيانة الأمانة سواء أ كانت الأمانة تخصّ مسلما أم غير مسلم، و حتّى المشرك و عابد الأصنام».

فى حديث معروف عن الإمام السجاد عليه السّلام قال: «عليكم بأداء الأمانة، فوالذى بعث محمّدا بالحقّ نبيا لو أنّ قاتل أبى الحسين بن على بن أبى طالب ائتمننى على السيف الذى قتله به لأدّيته إليه»[۳۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۲

و فى رواية اخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لم يبعث نبيّا قط إلّا بصدق الحديث و أداء الأمانة مؤدّاه إلى البرّ و الفاجر»

[۳۷۵].

بناء على ذلك فإنّ ما جاء فى هذه الآية عن اليهود و خيانتهم الأمانة و منطقهم فى تسويغ تلك الخيانة لم يسمح به الإسلام بأىّ شكل من الأشكال، فالمسلمون مكلّفون أن لا يخونوا الأمانة فى جميع الأحوال.

۲- كلمة «بلى» تستعمل فى اللغة العربية ردّا على النفى أو جوابا على استفهام مقترن بالنفى، كقوله تعالى: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى ۳۷۶] و نِعْمَ جوابا للاستفهام المثبت، مثل فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ ۳۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۷)

سبب النّزول

جمع من أحبار اليهود و علمائهم مثل «أبى رافع» و «حى بن أخطب» و «كعب بن أشرف» حين لاحظوا أنّ مراكزهم الاجتماعية بين اليهود معرّضة للخطر، عمدوا إلى العلامات الموجودة فى التوراة بشأن خاتم الأنبياء و التى كانوا هم أنفسهم قد دوّنوها بأيديهم فى نسخ التوراة، فحرّفوها و أقسموا على أنّ تلك الكتابات المحرّفة من اللّه. لذلك نزلت هذه الآية و فيها إنذار شديد لهم.

و هناك مفسّرون آخرون ذهبوا إلى أنّ هذه الآية نزلت فى «أشعث بن قيس» الذى كان يريد استملاك أرض لغيره عن طريق الكذب و التزوير. و عند ما تهيّأ لأداء اليمين لتوثيق ادّعائه نزلت الآية، فاستولى الخوف على أشعث و اعترف بالحقّ و أعاد الأرض لصاحبها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۴

التّفسير

المحرفون للحقائق:

تشير الآية إلى جانب آخر من آثام اليهود و أهل الكتاب. و لكونها وردت بصيغة عامّة، فإنّها تشمل كلّ من تنطبق عليه هذه الصفات.
تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أى الذين يجعلون عهودهم مع اللّه و القسم باسمه المقدّس موضع بيع و شراء لقاء مبالغ مادّية، سيكون جزاءهم خمس عقوبات:
أحدها: أنّهم سوف يحرمون من نعم اللّه التى لا نهاية لها فى الآخرة أُولئِكَ لا خَلاقَ ۳۷۸] لَهُمْ
ثمّ إنّ اللّه يوم القيامة يكلّم المؤمنين و لكنّه لا يكلّم أمثال هؤلاء وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ
كما إنّ اللّه سوف لا ينظر إليهم بنظر الرحمة و اللطف يوم القيامة وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ. و من ذلك يعلم أن اللّه تعالى فى ذلك اليوم يتكلم مع عباده المؤمنين (سواء مباشرة أو بتوسط الملائكة) ممّا يجلب لهم السرور و الفرح و يكون دليلا على عنايته بهم و رعايته لهم، و كذلك النظر إليهم، فهو إشارة إلى العناية الخاصّة بهم، و ليس المقصود انظر الجسمانى كما توهم بعض الجهلاء.
أمّا الأشخاص الذين باعوا آيات اللّه بثمن مادى فلا يشملهم اللّه تعالى بعنايته، و لا بمحادثته.
و لا يطهّرهم من ذنوبهم وَ لا يُزَكِّيهِمْ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۵
و أخيرا سيعذّبهم عذابا شديدا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ
و ليس المقصود من «الثمن القليل» أن الإنسان إذا باع العهد الإلهى بثمن كثير فيجوز له ذلك، بل المقصود أى ثمن مادّى يعطى مقابل ارتكاب هذه الذنوب الكبيرة، حتّى و إن كان هذا الثمن يتمثّل فى رئاسات كبيرة و واسعة، فهى مع ذلك قليلة.
بديهىّ أنّ كلام اللّه ليس نطق اللسان، لأنّ اللّه منزّه عن التجسّد، إنّما الكلام عن طريق الإلهام القلبى، أو عن طريق إحداث أمواج صوتية فى الفضاء، كالكلام الذى سمعه موسى عليه السّلام من شجرة الطور.

ملاحظة

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه العواقب الخمس المترتّبة على «نقض العهد» و «الأيمان الكاذبة» المذكورة فى هذه الآية ربّما تكون إشارة إلى مراحل «القرب و البعد» من اللّه.
إنّ من يقترب من اللّه و يدنو من ساحة قربه تشمله مجموعة من النعم الإلهيّة المعنوية، فإذا ازداد اقترابا كلّمه اللّه، و إن دنا أكثر نظر إليه اللّه نظرة الرحمة، و إن اقترب أكثر طهّره اللّه من آثار ذنوبه، و أخيرا ينجو من العذاب الأليم و تغمره نعم اللّه، أمّا الذين يسيرون فى طريق نقض العهود و استغلال اسم اللّه بشكل غير مشروع، فيحرمون من كلّ تلك النعم و يتراجعون مرحلة بعد مرحلة. فى تفسير الآية ۱۷۴ من سورة البقرة، المشابهة لهذه الآية، شرح أوفى للموضوع.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۶

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۷۸]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ

يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۸)

التّفسير

هـذه الآيـة التى تؤكّـد مـا بحثته الآيات السابقـة بشأن خيانـة بعض علماء أهل الكتاب و تقول: إنّ فريقا من هؤلاء يلوون ألسـنتهم عند تلاوتهم الكتاب. و هذا كناية عن تحريفهم كلام اللّه. و «يلون» من مادة (ليّ) على وزن حيّ، و هو الإمالة، و هو تعبير بليغ عن تحريف كلام اللّه، و كـأنهم حين تلاـوتهم للتوراة و عنـد مـا يصـلون إلى الآيـات التى فيهـا صـفات رسول اللّه و البشارة بظهوره يغيّرون لحن كلامهم.

و تضـيف: إنّهم فى تحريفهم هـذا من المهـارة بحيث إنّكم تحسـبون مـا يقرءونه آيـات أنزلهـا اللّه، و هـو ليس كـذلك لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ

و لكنّهم لا يقنعون بذلك، بل يشهدون علانية بأنّه من كتاب اللّه، و هو ليس كذلك وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۷

مرّة أخرى يقول القرآن: إنّهم فى عملهم هـذا ليسوا ضـحية خطأ، بل هم يكـذبون على اللّه بوعى و بتقصّـد، و ينسـبون إليه هـذه التهم الكبيرة و هم عالمون بما يفعلون وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۷۹ الى ۸۰]

اشارة

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (۷۹) وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۸۰)

سبب النّزول

فى سبب نزول هذه الآية روايتان:

الأولى- أنّ رجلا قال: يا رسول اللّه نحن نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، ألا نسجد لك؟

قال: لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون اللّه، و لكن أكرموا نبيّكم و اعرفوا الحقّ لأهله، فأنزل اللّه الآية.

الثانية- أنّ أبا رافع من اليهود و معه رئيس وفد نجران قالا للنبىّ: أ تريد أن نعبدك و نتّخذك إلها؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۶۹

(و لعلّهم ظنّوا أن مخالفة الرسول صـلى اللّه عليه و آله و سلّم لالوهية المسيح عليه السّلام لأنه ليس له نصيب من ذلك، فلو أنهم رفعوا منزلته إلى مسـتوى الإله كما هو الحال بالنسبة إلى المسيح عليه السّلام لترك الخلاف معهم، و لعلّ هذا الاقتراح يستبطن مؤامرة دبّرت لتلويث سمعة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و دفع الأنظار عنه) و لكن

النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم قال: معاذ اللّه أن أعبـد غير اللّه أو آمر بعبادة غير اللّه، ما بذلك بعثنى، و لا بذلك أمرنى، فأنزل اللّه الآية.

التّفسير

الدعوة إلى عبادة غير اللّه مستحيلة:

سبق أن قلنا إنّ واحدة من عادات أهل الكتاب القبيحة- اليهود و النصارى- كانت تزييف الحقائق. من ذلك قولهم بألوهية عيسى، زاعمين أنّه هو الذى أمرهم بذلك، و كان هذا ما يريد بعضهم أن يحقّقه بشأن رسول الإسلام أيضا، للأسباب التى ذكرناها فى نزول الآية.

إنّ الآية ردّ حاسم على جميع الذين كانوا يقترحون عبادة الأنبياء. تقول الآية: ليس لكم أن تعبدوا نبىّ الإسلام و لا أىّ نبى آخر و لا الملائكة. و يخطئ من يقول إنّ عيسى قد دعاهم إلى عبادته.

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ

الآية تنفى نفيا مطلقا هذا الأمر. أى أنّ الذين أرسلهم اللّه و أتاهم العلم و الحكمة لا يمكن- فى أيّة مرحلة من المراحل- أن يتعدّوا حدود العبودية للّه. بل إنّ رسل اللّه هم أسرع خضوعا له من سائر الناس، لذلك فهم لا يمكن أن يخرجوا عن طريق العبودية و التوحيد و يجرّوا الناس إلى هوة الشرك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۰

وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۵۷۰

الربّانى» هو الذى أحكم ارتباطه باللّه. و لمّا كانت الكلمة مشتقّة من «ربّ» فهى تطلق أيضا على من يقوم بتربية الآخرين و تدبير أمورهم و إصلاحهم.

و على هذا يكون المراد من هذه الآية: إنّ هذا العمل (دعوة الأنبياء الناس إلى عبادتهم) لا يليق بهم، إنّ ما يليق بهم هو أن يجعلوا الناس علماء إلهيّين فى ضوء تعليم آيات اللّه و تدريس حقائق الدين، و يصيّروا منهم أفرادا لا يعبدون غير اللّه و لا يدعون إلّا إلى العلم و المعرفة.

يتّضح من ذلك أنّ هدف الأنبياء لم يكن تربية الناس فحسب، بل استهدفوا أكثر من ذلك تربية المعلّمين و المرّبين و قادة الجماعة، أى تربية أفراد يستطيع كلّ منهم أن يضىء بعلمه و إيمانه و معرفته محيطا واسعا من حوله.

تبدأ الآية بذكر «التعليم» أوّلا ثمّ «التدريس». تختلف الكلمتان من حيث اتّساع المعنى، فالتعليم أوسع و يشمل كلّ أنواع التعليم، بالقول و بالعمل، للمتعلّمين و للأمّيّين. أمّا التدريس فيكون من خلال الكتابة و النظر إلى الكتاب، فهو أخصّ و التعليم أعمّ.

وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً.

هذه تكلمة لما بحث فى الآية السابقة، فكما أنّ الأنبياء لا يدعون الناس إلى عبادتهم، فإنّهم كذلك لا يدعونهم إلى عبادة الملائكة و سائر الأنبياء. و فى هذا جواب لمشركى العرب الذين كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هم بنات اللّه، و بذلك يسبغون عليهم نوعا من الالوهية، و مع ذلك كانوا يعتبرون أنفسهم من أتباع دين إبراهيم. كذلك هو جواب للصابئة الذين يقولون إنّهم أتباع «يحيى»، و كانوا يرفعون مقام الملائكة إلى حدّ عبادتهم. و هو أيضا ردّ على اليهود الذين قالوا إنّ «عزيرا»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۱

ابن اللّه، أو النصارى الذين قالوا إن «المسيح» ابن اللّه، و أضفوا عليه طابعا من الربوبية، فالآية تردّ هؤلاء جميعا و تقول إنّه لا يليق

بالأنبياء أن يدعو الناس إلى عبادة غير اللّه.

و فى الختام تقول الآية أ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أ يمكن أن يدعوكم النبىّ إلى الكفر بعد أن اخترتم الإسلام دينا؟

واضح أنّ «الإسلام» هنا يقصد به معناه الأوسع، كما هى الحال فى مواضع كثيرة من القرآن، و هو التسليم لأمر اللّه و الإيمان و التوحيد. أى كيف يمكن لنبىّ أن يدعو الناس أوّلا إلى الإيمان و التوحيد، ثمّ يدلّهم على طريق الشرك؟ أو كيف يمكن لنبىّ أن يهدم ما بناه الأنبياء فى دعوتهم الناس إلى الإسلام. فيدعوهم إلى الكفر و الشرك؟

تنوّه الآية ضمنيّا بعصمة الأنبياء و عدم انحرافهم عن مسير إطاعة اللّه ۳۷۹].

ملاحظة

منع عبادة البشر:

تدين هذه الآيات بصراحة كلّ عبادة، و خاصّة عبادة البشر، سوى عبادة اللّه، و تربّى فى الإنسان روح الحرّية و استقلال الشخصية، تلك الروح التى لا يكون بدونها جديرا بحمل اسم إنسان.

نعرف من خلال التاريخ العديد من الأشخاص الذين كانوا، قبل الوصول إلى السلطة، يتميّزون بالبراءة و يدعون الناس إلى الحقّ و العدالة و الحرّية و الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۲

و لكنّهم ما أن صعدوا عروش السلطة و الهيمنة على المجتمع غيّروا سيرتهم شيئا فشيئا و انحازوا إلى فكرة عبادة الشخصية و دعوا الناس إلى عبادتهم.

فى الواقع، أنّ من أساليب تمييز «دعاة الحقّ» عن «دعاة الباطل» هو هذا.

فدعاة الحقّ- و على رأسهم الأنبياء و الأئمّة- كانوا و هم فى قمّة السلطة، كما كانوا قبل أن تكون لهم أيّة سلطة، يدعون إلى الأهداف الدينية المقدّسة و الإنسانية و التوحيد و الحرّية. أمّا دعاة الباطل، فإنّ أوّل ما يبادرون إليه عند وصولهم السلطة هو الدعوة لأنفسهم و حثّ الناس على نوع من عبادتهم، نتيجة تملّق الناس الضعفاء المحيطين بهم، و كذلك نتيجة ضيق أفقهم و غرورهم.

هناك حديث عن الإمام على عليه السّلام تظهر من خلاله شخصيّته الكبيرة الفذّة، و يعتبر دليلا و شاهدا على هذا البحث.

عند وصول الإمام عليه السّلام إلى أرض الأنبار- إحدى مدن العراق الحدودية- خرّ جمع من الدهّاقين ساجدين أمامه، بحسب التقاليد التى اعتادوا عليها، فغضب الإمام من فعلتهم هذه و صرخ فيهم:

«ما هذا الذى صنعتموه؟ فقالوا: خلق منّا نعظّم به أمراءنا. فقال: و اللّه ما ينتفع بهذا أمراؤكم، و أنّكم لتشقّون على أنفسكم فى دنياكم و تشقّون به فى آخرتكم، و ما أخسر المشقّة وراءها العقاب، و أربح الدعة معها الأمان من النار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۳

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۱ الى ۸۲]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۸۱) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۸۲)

التّفسير

الميثاق المقدس:

بعد أن أشارت الآيات السابقة الى وجود علائم لنبىّ الإسلام فى كتب الأنبياء السابقين، أشارت هذه الآية إلى مبدأ عام، و هو أنّ الأنبياء السابقين و أتباعهم قد أبرموا مع اللّه ميثاقا بالتسليم للأنبياء الذين يأتون بعدهم، و بالإضافة إلى الإيمان بهم، لا يبخلون عليهم بشىء فى مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. تقول الآية:

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ....

فى الواقع، مثلما أنّ الأنبياء و الأمم التالية تحترم الأنبياء السابقين و دياناتهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۴

فإنّ الأنبياء السابقين و الأمم السابقة كانوا يحترمون الأنبياء الذين يأتون بعدهم.

و فى القرآن إشارات كثيرة على وحدة الهدف عند أنبياء اللّه. و هذه الآية نموذج حىّ على ذلك.

و «الميثاق» من «الوثوق»، أى ما يدعو إلى الاطمئنان به و الاعتماد عليه. و «الميثاق» هو الاتّفاق المؤكّد. و أخذ الميثاق من الأنبياء مصحوب بأخذ الميثاق من أتباعهم أيضا. كان موضوع هذا الميثاق هو أنّه إذا جاء نبىّ تنسجم دعوته مع دعوتهم (و هذا ما يثبت صدق دعوته) فيجب الإيمان به و نصرته.

ثمّ لتوكيد هذا الموضوع جاءت الآية:

قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِى ۳۸۰].

هل اعترفتم بهذا الميثاق و قبلتم عهدى و أخذتم من أتباعكم عهدا بهذا الموضوع؟

و جوابا على ذلك قالُوا أَقْرَرْنا.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر المهمّ و تثبيته يقول اللّه: كونوا شهداء على هذا الأمر و أنا شاهد عليكم و على أتباعكم قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

و فى الآية الأخيرة يذم و يهدد القرآن الكريم ناقضى العهود و يقول:

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

فلو أن أحدا بعد كلّ هذا التأكيد على أخذ المواثيق و العهود المؤكّدة- أعرض عن الإيمان بنبىّ كنبىّ الإسلام الذى بشرت به الكتب القديمة و ذكرت علائمه، فهو فاسق و خارج على أمر اللّه تعالى. و نعلم أن اللّه لا يهدى الفاسقين المعاندين، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۵

مرّ فى الآية ۸۰ من سورة التوبة: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ و من لا يكون له نصيب من الهداية الإلهيّة، فإن مصيره إلى النار.

هنا ثلاث نقاط لا بدّ أن ننتبه لها:

۱- هل هذه الآية مقصورة على بشارة الأنبياء السابقين و ميثاقهم بالنسبة لنبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أم أنّها تشمل كلّ نبىّ يبعث بعد نبىّ قبله؟

يظهر من الآية أنّها تعبّر عن مسألة عامّة، و إن كان خاتم الأنبياء مصداقها البارز. كما أنّ هذا المعنى الواسع يتّسق مع روح مفاهيم القرآن. لذلك إذا ما رأينا فى بعض الأخبار أنّ المقصود هو نبىّ الإسلام الكريم، فما ذلك إلّا من قبيل تفسير الآية و تطبيقها على

أجلی مصادیقها، و لیس لأنّ المعنی جاء علی سبیل الحصر.

ینقل الفخر الرازی فی تفسیره عن الإمام علی علیه السّلام قال: «إنّ اللّه تعالی ما بعث آدم علیه السّلام و من بعده من الأنبیاء علیهم الصلاة و السلام إلّا أخذ علیهم العهد لئن بعث محمّد علیه الصلاة و السلام و هو حی، لیؤمننّ به و لینصرنّه»[۳۸۱].

۲- بعد أخذ مضمون الآیة بنظر الإعتبار، یبرز هذا السؤال: أ یمکن أن یظهر نبیّ من أولی العزم فی زمان نبیّ آخر من أولی العزم حتّی یتبعه؟

یمکن القول فی جواب هذا السؤال: إنّ المیثاق لم یؤخذ من الأنبیاء وحدهم، بل و من أتباعهم أیضا، کما قلنا فی تفسیر الآیة، و الواقع أنّ القصد من أخذ المیثاق من الأنبیاء و أخذه من أممهم و الأجیال التی تولد بعدهم و تدرک عصر النبیّ التالی. کما أنّ الأنبیاء أنفسهم یؤمنون أیضا إذا أدرکوا- فرضا- عهد الأنبیاء التالین. أی أنّ أنبیاء اللّه لا ینفصلون إطلاقا فی أهدافهم و فی دعوتهم و لا صراع أو خلاف بینهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۶

۳- و القول الأخیر بشأن هذه الآیة هو أنّها و إن تکن بخصوص الأنبیاء، فهی تصدق طبعا بحقّ خلفائهم أیضا، إذ أنّ خلفائهم الصادقین لا ینفکّون عنهم، و هم جمیعا یسعون لتحقیق هدف واحد. و لذلک کان الأنبیاء یعیّنون خلفائهم، و یبشّرون الناس بهم و یدعونهم إلی الإیمان بهم و شدّ أزرهم.

و لئن وجدنا بعض الروایات الواردة فی تفاسیرنا لهذه الآیة و کتب أحادیثنا بشأن نزول عبارة «و لتنصرنّه» فی علی علیه السّلام و أنها تشمل قضیة الولایة، إنّما هو إشارة إلی هذا المعنی.

و لا بدّ أن نشیر إلی أنّ هذه الآیة- من حیث ترکیبها النحوی- کانت موضع بحث بین المفسّرین و رجال الأدب ۳۸۲].

۴- التعصّب المقیت یحدّثنا التاریخ أنّ أتباع دین من الأدیان لا یتخلّون بسهولة عن دینهم و لا یستسلمون للأنبیاء الجدد المبعوثین من قبل اللّه، بل یتمسّکون بدینهم القدیم تمسّکا جافّا جامدا، و یدافعون عنه کأنّه جزء من وجودهم، و یرون ترکه إبادة لقومیّتهم.

لذلک یشقّ علیهم القبول بالدین الجدید. إنّ منشأ الکثیر من الحروب الدینیة التی وقعت علی امتداد التاریخ- و هی من أفظع حوادث التاریخ- هو هذا التعصّب الجاف و الجمود علی الأدیان القدیمة.

غیر أنّ قانون الارتقاء و التکامل یقول: هذه الأدیان یجب أن تأتی الواحد تلو الآخر، و تتقدّم بالبشریة فی سیرها نحو معرفة اللّه و الحقّ و العدالة و الإیمان و الأخلاق و الإنسانیة و الفضیلة، حتّی تصل إلی الدین النهائی، خاتم الأدیان،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۷

کالطفل الذی یتدرّج فی مراحل الدراسة و یطویها الواحدة بعد الأخری حتّی یتخرّج من الکلیّة و الجامعة.

فإذا أحبّ التلامیذ جوّ مدرستهم الابتدائیة ذلک الحبّ الذی یربطهم بمدرستهم إلی درجة أنّهم یرفضون الانتقال إلی المدرسة الثانویة، فبدیهیّ أنّ لا یکون نصیب هؤلاء سوی التخلّف عن رکب السائرین نحو التقدّم و الارتقاء.

إنّ إصرار الآیة علی أخذ المیثاق و العهد المؤکّد من الأنبیاء و الأمم الماضیة نحو الأنبیاء التالین لهم قد یکون من أجل اجتناب أمثال هذا التعصّب و الجمود و العناد.

و لکنّ الذی یؤسف له أنّنا- بعد کلّ هذا التأکید- ما زلنا نری أتباع الأدیان القدیمة لا یسلّمون بسهولة أمام الحقائق الجدیدة. سوف نشرح إن شاء اللّه فی تفسیر الآیة ۴۰ من سورة الأحزاب کیف یکون الإسلام آخر الأدیان و خاتمها و لماذا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۸

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۸۳ الی ۸۵]

اشارة

أ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۸۳) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى وَ عِيسى وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۸۴) وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (۸۵)

التّفسير

الإسلام أفضل الأديان الإلهيّة:

مرّت بنا حتّى الآن بحوث مسهبة فى الآيات السابقة عن الأديان الماضية.

و ابتداء من هذه الآية يدور البحث حول الإسلام و فيها إلفات لأنظار أهل الكتاب و أتباع الأديان السابقة إلى الإسلام.

تبدأ الآية بالتساؤل: أ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ أ يريد هؤلاء دينا غير دين اللّه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۷۹

و ما دين اللّه سوى التسليم للشرائع الإلهية، هى كلّها قد جمعت بصورتها الكاملة الشاملة فى دين نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم. فإذا كان هؤلاء يبحثون عن الدين الحقيقى فعليهم أن يسلموا.

وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

يبدأ القرآن بتفسير الإسلام بمعناه الأوسع، فيقول: كلّ من فى السماوات و الأرض، أو جميع الكائنات فى السماوات و الأرض، مسلمون خاضعون لأوامره طَوْعاً وَ كَرْهاً. هذا الاستسلام و الخضوع يكون «طوعا» أو اختياريا أحيانا، إزاء «القوانين التشريعية»، و يكون «كرها» أو إجباريا أحيانا أخرى، إزاء «القوانين التكوينية».

و لتوضيح ذلك نقول: إنّ للّه نوعين من الأمر فى عالم الوجود. فبعض أوامره يكون بشكل (قوانين طبيعية و ما وراء طبيعية) تحكم على مختلف كائنات هذا العالم، فهى خاضعة لها خضوع إكراه و ليس لها أن تخالفها لحظة واحدة، فإن فعلت- فرضا- يكتب لها الفناء و الزوال. هذا نوع من «الإسلام و التسليم» أمام أمر اللّه.

و بناء على هذا فإنّ أشعة الشمس التى تسطع على البحار، و بخار الماء الذى يتصاعد منها، و قطع السحاب التى تتواصل، و قطرات المطر التى تنزل من السماء و النباتات التى تنمو بها، و الزهور التى تتفتح لها، جميعها مسلّمة، لأنّ كلّا منها قد أسلم للقوانين التى فرضها عليها قانون الخليقة.

و النوع الآخر من أوامر اللّه هى «الأوامر التشريعية» و هى القوانين التى ترد فى الشرائع السماوية و تعاليم الأنبياء. إنّ التسليم أمامها تسليم «طوعى» أو اختيارى. فالمؤمنون الذين يسلمون لها إنّما هم وحدهم المسلمون. إنّ مخالفة هذه القوانين و الشرائع لا تقلّ- على كلّ حال- عن مخالفة القوانين التكوينية، لأنّ مخالفتها تبعث على الانحطاط و التخلّف و العدم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۰

و لمّا كانت «أسلم» مستعملة فى هذه الآية بالمعنى الأوسع للإسلام، أى المعنى الذى يشمل النوعين من أوامر اللّه، لذلك فهى تقول إنّ فريقا يسلم طوعا- كالمؤمنين- و فريقا يسلم كرها- كالكافرين- أمام القوانين التكوينية. و هكذا نجد أنّ الكافرين الذين يمتنعون عن التسليم أمام بعض أوامر اللّه مجبرين على التسليم أمام بعض آخر من أوامر اللّه. فلما ذا إذا لا يسلمون لجميع قوانين اللّه و دين الحقّ؟

هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآية ذكره كثير من المفسّرين، و إن لم يتعارض مع ما قلناه آنفا، و هو: أنّ المؤمنين و هم فى حال من الرفاه و الهدوء يسيرون نحو اللّه بملء اختيارهم. أمّا غير المؤمنين فلا يسيرون نحو اللّه إلّا عند ما تحيق بهم البلايا و المشكلات التى لا تطاق، فيدعونه و يتوسّلون إليه، فمع أنّهم فى الظروف العادية يشركون به، فإنّهم فى الشدائد و الملمّات لا يتوجّهون إلّا إليه.

و يتضح ممّا تقدّم أن «من» فى جملة مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تشمل الموجودات العاقلة و غير العاقلة، فبالرغم من كونها تستعمل عادة للعقلاء، إلّا أنها قد تكون عامّة للتغليب. و «طوعا» إشارة إلى الموجودات العاقلة المؤمنة، و «كرها» إشارة إلى الكفّار و غير العقلاء.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا ....

فى هذه الآية يأمر اللّه النبىّ و المسلمين بأنّهم، فضلا عن إيمانهم بما أنزل على رسول الإسلام، عليهم أن يظهروا إيمانهم بكلّ الآيات و التعليمات التى نزلت على الأنبياء السابقين، و أن يقولوا: إنّنا لا نفرّق بينهم من حيث صدقهم و علاقتهم باللّه.

إنّنا نعترف بالجميع، فهم جميعا كانوا قادة إلهيّين، و هم جميعا بعثوا لهداية الناس.

إنّا نسلم بأمر اللّه من جميع النواحى، و بذلك نقطع أيدى المفرّقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۱

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

«يبتغ» من «الابتغاء» بمعنى الطلب و السعى، و يكون فى الأمور المحمودة و فى الأمور المذمومة. هنا يختتم البحث المذكور باستنتاج نتيجة كلّيّة، و هى أنّ الدين الحقيقى هو الإسلام، أى التسليم لأمر اللّه بمعناه العام، و أمّا بمفهومه الخاصّ فهو الانتقال إلى الدين الإسلامى الذى هو أكمل الأديان، فتقول الآية: أنّه لا يقبل من أحد سوى الإسلام مع الأخذ بنظر الإعتبار احترام سائر الشرايع الإلهيّة المقدسة. فكما أن طلّاب الجامعة فى نفس الوقت الذى يحترمون فيه الكتب الدراسية للمراحل السابقة من الابتدائية و المتوسطة و الإعدادية، فإنه لا يقبل منهم سوى دراسة الكتب و الدروس المقررة للمرحلة النهائية، فكذلك الإسلام. و أمّا الذين يتّخذون غير هذه الحقيقة دينا، فلن يقبل منهم هذا أبدا، و لهم على ذلك عقاب شديد وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ ذلك لأنّه تاجر بثروة وجوده مقابل بضع خرافات و تقاليد بالية، و عصبيّات جاهلية و عنصرية، و لا شكّ أنّه هو الخاسر فى هذه الصفقة. و إذا ما خسر الإنسان ثروة وجوده، وجد نتيجة ذلك حرمانا و عذابا و عقابا يوم القيامة.

و ذكر بعض المفسّرين أن هذه الآية نزلت فى اثنى عشر من المنافقين الذين أظهروا الإيمان، ثمّ ارتدوا، و خرجوا من المدينة إلى مكّة، فنزلت الآية و أنذرتهم بأنه من اعتنق غير الإسلام فهو من الخاسرين.

و فى الدرّ المنثور فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً الآية

أخرج أحمد و الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة فتقول: يا ربّ أنا الصلاة فيقول: إنّك على خير، و تجىء الصدقة فتقول يا ربّ أنا الصدقة فيقول: إنّك على خير، ثمّ يجىء الصيام فيقول: أنا الصيام فيقول: إنّك على خير، ثمّ تجىء الأعمال كلّ ذلك يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۲

اللّه: إنّك على خير، ثمّ يجىء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام و أنا الإسلام فيقول اللّه: إنّك على خير، بك اليوم آخذ، و بك أعطى. قال اللّه فى كتابه: وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ ۳۸۳].

فيما يتعلّق باختلاف «الإسلام» عن «الايمان» سوف يأتى شرحه فى تفسير الآية ۱۴ من سورة الحجرات إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۸۶ الى ۸۹]

اشارة

كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۸۶) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۸۷) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۸) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۸۹)

سبب النّزول

كان «الحارث بن سويد» من الأنصار، ارتكب قتل شخص برىء اسمه «المجذر بن زياد»، فارتدّ عن الإسلام خوفا من العقاب، و فرّ من المدينة إلى مكّة. و لكنّه فى مكّة ندم على فعلته، و راح يفكّر فيما يصنعه. و أخيرا استقرّ رأيه على أن يبعث بأحد أقاربه فى المدينة يسأل رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم عمّا إذا كان له سبيل للرجوع. فنزلت هذه الآيات، تعلن قبول توبته بشروط خاصّة. فمثل الحارث بن سويد بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و جدّد إسلامه، و ظلّ ملتزما وفيّا لإسلامه حتّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۴

آخر رمق فيه. غير أنّ أحد عشر شخصا ممّن ارتدّوا عن الإسلام معه بقوا مرتدّين ۳۸۴].

فى تفسير الدرّ المنثور و فى تفاسير أخرى، سبب نزول للآيات المذكورة لا يختلف كثيرا عمّا أوردناه.

التّفسير

اشارة

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أن الدين الوحيد المقبول عند اللّه هو الإسلام، و فى هذه الآيات يدور الحديث حول من قبلوا الإسلام ثمّ رفضوه و تركوه، و يسمى مثل هذا الشخص «مرتد» تقول الآية:

كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ

فالآية تقول: إنّ اللّه لا يعين أمثال هؤلاء الأشخاص على الاهتداء، لماذا؟

لأن هؤلاء قد عرفوا النبىّ بدلائل واضحة و قبلوا رسالته، فبعدولهم عن الإسلام أصبحوا من الظالمين و الشخص الذى يظلم عن علم و اطلاع مسبق غير لائق للهداية الإلهيّة: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

المراد من «البينات» فى هذه الآية القرآن الكريم و سائر معاجز النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و المراد من «الظالم» هو من يظلم نفسه بالمرتبة الأولى. و يرتد عن الإسلام و فى المرتبة الثانية يكون سببا فى إضلال الآخرين. ثمّ تضيف الآية:

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

عقاب أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعدلون عن الحقّ بعد معرفتهم له، كما هو مبيّن فى الآية، أن تلعنهم الملائكة و أن يلعنهم الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۵

«اللعن» فى الأصل الطرد و الإبعاد على سبيل السخط، من هنا فلعن اللّه هو إبعاد الشخص عن رحمته، أمّا لعن الملائكة و الناس فقد يكون السخط و الطرد المعنوى، و قد يكون الطلب من اللّه تعالى بابعادهم عن رحمته. هؤلاء الأشخاص يكونون فى الواقع غارقين فى الفساد و الإثم إلى درجة أنّهم يصبحون مورد استنكار كلّ عاقل هادف فى العالم، من البشر كان أم من الملائكة.

خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ

تضيف الآية هنا أنّهم فضلا عن كونهم موضع لعن عام، فإنّهم سيبقون فى هذا اللعن إلى الأبد، فهم فى الواقع كالشيطان الخالد فى اللعن الأبدى.

و لا شكّ أنّ نتيجة ذلك هو أن يكونوا فى عذاب شديد و دائم بغير تخفيف و لا إمهال.

و فى آخر آية تفتح طريق العودة أمام هؤلاء الأفراد، و تدعوهم للتوبة، لأن هدف القرآن هو الإصلاح و التربية، و من أهم الطرق لذلك هو فتح باب العودة للمذنبين و الملوثين كيما تتاح لهم الفرصة لجبران ما فرط منهم، فتقول:

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إنّ هذه الآية مثل الكثير من آيات القرآن، و بعد الإشارة إلى التوبة- تشير إلى التكفير عن الذنوب السابقة و بجملة «و أصلحوا» تبيّن أنّ التوبة لا تعنى مجرّد الندم على ما مضى و العزم على تجنّب ارتكاب الذنوب فى المستقبل، بل شرط قبولها هو أن يمحو التائب بأعماله الصالحة فى المستقبل جميع أعماله القبيحة الماضية.

لذلك نجد فى كثير من الآيات انّ التوبة يرافقها العمل الصالح، مثل: إِلَّا مَنْ تابَ (وَ آمَنَ) وَ عَمِلَ صالِحاً[۳۸۵] و إلّا فإنّ التوبة لن تكون كاملة. فهؤلاء إن فعلوا ذلك نالوا رحمة اللّه و مغفرته فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۶

بل إنه يستفاد من هذه الآية أن الذنب عبارة عن نقص فى الإيمان، و أنه بعد التوبة يقوم الشخص التائب بتجديد الإيمان ليتطهر من هذا النقص.

هل تقبل توبة المرتد؟

يبدو من الآية أعلاه و من سبب نزولها أن قبول توبة المرتد (و هو الذى أسلم ثمّ عاد عن إسلامه) يرتبط بنوع الارتداد. فثمّة «المرتدّ الفطرى» و هو المرتد الذى ولد من أبوين مسلمين، أو انعقدت نطفته حين كان أبواه مسلمين، ثمّ قبل الإسلام و عاد عنه بعد ذلك. و هناك «المرتدّ الملّى» و هو الذى لم يولد من أبوين مسلمين.

توبة المرتدّ الملّى تقبل، و عقوبته فى الواقع خفيفة لأنّه ليس مسلما بالمولد، لكن حكم المرتدّ الفطرى أشد. هذا المرتدّ- و إن قبلت توبته لدى اللّه سبحانه- يحكم بالإعدام إن ثبت ارتداده. و توزّع أمواله على ورثته المسلمين، و تنفصل عنه زوجته، و لا تحول توبته دون إنزال هذه العقوبة بحقّه.

لكن هذه الشدّة تخصّ- كما قلنا- المرتدّ الفطرى، و بشرط أن يكون رجلا.

قد تعجّب بعضهم لهذا التشدّد، و ربّما اعتبر نوعا من الفظاظة القاسية البعيدة عن الرحمة، الأمر الذى لا يتّسق مع روح الإسلام.

غير أنّ لهذا الحكم فلسفة أساسا، و هى حفظة الجبهة الداخلية فى بلاد الإسلام ضدّ نفوذ المنافقين و الأجانب، و للحيلولة دون تفكّكها و اضمحلالها إنّ الارتداد ضرب من التمرّد على نظام البلد الإسلامى، و حكمه الإعدام فى أنظمة الكثير من قوانين العالم اليوم. إذ لو أجيز لمن يشاء أن يعتنق الإسلام متى شاء و أن يرتدّ عنه متى شاء، لتحطّمت الجبهة الداخلية سريعا، و لانفتحت أبواب البلد أمام الأعداء و عملائهم، و لساد المجتمع الإسلامى الهرج و المرج. و بناء على ذلك فإنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۷

الحكم حكم سياسى فى الواقع، و لا بدّ منه لحماية الحكومة الإسلامية و المجتمع الإسلامى و للضرب على أيدى العملاء و الأجانب.

أضف إلى ذلك أنّ من يتقبّل الإسلام بعد التحقّق و التدقيق، ثمّ يتركه ليعتنق دينا آخر، لا يمتلك دوافع سليمة و منطقية، و هو بذلك

يستحقّ أشدّ العقوبات. أمّا تخفيف هذا الحكم بالنسبة للمرأة، فلأنّ جميع العقوبات تخفّف بشأنها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۸

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۰ الى ۹۱]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (۹۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۹۱)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين أن الآية الأولى نزلت فى أهل الكتاب الذين آمنوا بالنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل بعثته، و لكنّهم بعد البعثة كفروا به. و ذهب آخرون إلى أنها نزلت فى الحارث بن سويد و أحد عشر آخرين الذين ارتدّوا عن الإسلام لأسباب. ثمّ تاب و عاد إلى الإسلام. أمّا الآخرون فقد رفضوا دعوته للعودة، و قالوا: سنبقى فى مكّة و نواصل مناوءة محمّد انتظارات لهزيمته. فإذا تحقّق ذلك فخير، و إلّا فإنّ باب التوبة مفتوح، نتوب وقتما نشاء و نرجع إلى محمّد، و سوف يقبل توبتنا! و عند ما فتح رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم مكة اسلم بعضهم و قبلت توبتهم، و أمّا من أصرّ على البقاء على الكفر فقد نزلت الآية الثانية بشأنهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۸۹

التّفسير

التوبة الباطلة:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ

كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول الذين يندمون حقّا على انحرافهم عن طريق الحقّ فيتوبون توبة صادقة. فى هذه الآية يدور الكلام على الذين لن تقبل توبتهم، و هم الذين آمنوا أوّلا، ثمّ ارتدّوا و كفروا، و أصرّوا على كفرهم، و رفضوا الانصياع لأوامر اللّه، حتّى إذا اشتدّ عليهم الأمر اضطرّوا إلى العودة للإسلام. إنّ اللّه لن يقبل توبة هؤلاء، لأنّهم لن يتّخذوا باختيارهم خطوة فى سبيل اللّه، بل هم مجبرون على إظهار الندم و التوبة بعد رؤيتهم انتصار المسلمين. لذلك فتوبتهم ظاهرية و لن تقبل.

و ثمّة احتمال آخر فى تفسير هذه الآية هو: أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص عند ما يرون أنفسهم على أعتاب الموت و نهاية العمر قد يندمون و يتوبون حقّا. غير أنّ توبتهم لن تقبل، لأنّ وقت التوبة يكون قد انتهى، كما سيأتى شرحه. و هذا نظير قوله تعالى فى الآية ۱۸ من سورة النساء: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ

و قيل: من المحتمل أن يكون معنى الآية: إنّ التوبة عن الذنوب العادية فى حال الكفر لن تقبل. أى إذا أصرّ أحدهم على المضى فى طريق الكفر، ثمّ تاب عن ذنوب معيّنة كالظلم و الغيبة و أمثالهما، فإنّ توبته هذه لا طائل وراءها و لن تقبل، و ذلك لأنّ غسل التلوّث الظاهر عن الروح و النفس، مع بقاء التلوّث الأعمق فى الباطن، لا فائدة منه.

لا بدّ أن نضيف هنا أنّ التفاسير المذكورة آنفا لا تعارض بينها، و قد تشملها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۰

الآية جميعا، و إن يكن التفسير الأوّل أقرب إلى الآيات السابقة و إلى سبب نزول هذه الآية.

و فى الآية الثانية يقول تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى بِهِ

تخصّ الآية أولئك الذين يقضون أعمارهم كافرين فى هذه الدنيا، ثمّ يموتون و هم على تلك الحال. يقول القرآن، بعد أن اتّضح لهؤلاء طريق الحقّ، يسيرون فى طريق الطغيان و العصيان، و هم فى الحقيقة ليسوا مسلمين، و لن يقبل منهم كلّ ما ينفقونه، و ليس أمامهم أىّ طريق للخلاص، حتّى و إن أنفقوا ملء الأرض ذهبا فى سبيل اللّه.

من الواضح أنّ القصد من القول بإنفاق هذا القدر الكبير من الذهب إنّما هو إشارة إلى بطلان إنفاقهم مهما كثر، لأنّه مقرون بتلوّث القلب و الروح بالعداء للّه، و إلّا فمن الواضح أنّ ملء الأرض ذهبا يوم القيامة لا يختلف عن ملئها ترابا. إنّما قصد الآية هو الكناية عن أهميّة الموضوع.

أمّا بشأن مكان هذا الإنفاق، أفى الدنيا أم فى الآخرة؟ فقد ذكر المفسّرون لذلك احتمالين إثنين، و لكن ظاهر الآية يدلّ على العالم الآخر، أى كانوا كافرين وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ، فلو كانوا يملكون ملء الأرض ذهبا، و ظنّوا أنّهم بالاستفادة من هذا المال، كما هى الحال فى الدنيا، يستطيعون أن يدرءوا العقاب عن أنفسهم، فهم على خطأ فاحش، إذ أنّ هذه الغرامة المالية و الفدية ليست قادرة على التأثير فى ما سيواجههم من عقاب. و فى الواقع فان مضمون هذه الآية يشبه قوله تعالى فى الآية ۱۵ من سورة الحديد: فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۱

و فى الختام يشير إلى نكتة اخرى فى المقام و يقول: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ

لا شكّ فى أنّهم سينالون عقابا شديدا مؤلما، و لن يكون باستطاعة أحد أن ينتصر أو يشفع لهم. لأن الشفاعة لها شرائط، و أهمها الإيمان باللّه، و لهذا السبب فلو أن جميع الشفعاء اجتمعوا لإنقاذ أحد الكفّار من عذاب النار لم تقبل شفاعتهم.

و أساسا، بما أن الشفاعة بإذن اللّه، فإن الشفعاء لا يشفعون أبدا لمثل هؤلاء الأفراد غير اللائقين للشفاعة، لأن الشفاعة تحتاج إلى قابلية المحل، و الإذن الإلهى لا يشمل الأفراد غير اللائقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۲

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۹۲]

اشارة

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (۹۲)

التّفسير

من علائم الإيمان:

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

و لفظة «البر» فى أصلها اللغوى تعنى «السعة» و لهذا يقال للصحراء «البر» بفتح الباء، و لهذه الجهة أيضا يقال للأعمال الصالحة ذات

الآثار الواسعة التی تعم الآخرین و تشملهم «البر» بکسر الباء، و الفرق بین البر و الخیر من حیث اللغة هو أن البر یراد منه النفع الواصل إلی الآخرین مع القصد إلی ذلک، بینما یطلق الخیر علی ما وصل نفعه إلی الآخرین حتّی لو وقع عن سهو غیر قصد.

ماذا یعنی «البر» فی الآیة؟

لقد ذهب المفسّرون فی تفسیر «البر» فی هذه الآیة إلی مذاهب شتی.

فمنهم من قال: إن المراد به هو «الجنة»، و منهم من قال أن المراد هو «الطاعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۳

و التقوی» و منهم من فسّره بأن معناه «الأجر الجمیل».

غیر أن المستفاد من موارد استعمال هذه اللفظة فی آیات الکتاب العزیز نفسه هو: أن لکلمة «البر» معنی واسعا یشمل کلّ أنواع الخیر إیمانا کان أو أعمالا صالحة، کما أن المستفاد من الآیة ۱۷۷ من سورة البقرة هو اعتبار «الإیمان باللّه و الیوم الآخر، و الأنبیاء، و إعانة المحتاجین، و الصلاة، و الصیام، و الوفاء، و الاستقامة فی البأساء و الضراء» جمیعها من شعب البر و مصادیقه.

و علی هذا فإن للوصول إلی مراتب الأبرار الحقیقیین شروطا عدیدة، منها:

لإنفاق ممّا یحبه الإنسان من الأموال، لأن الحبّ الواقعی للّه، و التعلّق بالقیم الأخلاقیة و الإنسانیة إنما یتضح و یثبت إذا انتهی المرء إلی مفترق طریقین، و واجه خیارین لا ثالث لهما، و یقع فی أحد الجانبین الثروة، أو المنصب، و المکانة المحببة لدیه، و فی الجانب الآخر رضا اللّه و الحقیقة و العواطف الإنسانیة و فعل الخیر، و یتعین علیه أن یختار أحدهما و یضحی بالآخر، و یتغاضی عنه.

فإذا غض نظره عن الأول لحساب الثانی أثبت صدق نیته، و برهن علی حبه، و علی واقعیته فی ولائه و انتمائه.

و إذا اقتصر- فی هذا السبیل- علی إنفاق الحقیر القلیل، و بذل ما لا یحبه و یهواه، فإنه یکون بذلک قد برهن علی قصوره فی الإیمان و المحبة، و التعلّق المعنوی عن تلک المرتبة السامیة، و أنه لیس إلّا بنفس الدرجة التی أظهرها فی سلوکه و عطائه لا أکثر، و هذا هو المقیاس الطبیعی و المنطقی لتقییم الشخصیة، و معرفة مستوی الإیمان لدی الإنسان، و مدی تجذره فی ضمیره.

تأثیر القرآن فی قلوب المسلمین:

لقد کان لآیات الکتاب العزیز تأثیر بالغ و نفوذ سریع فی أفئدة المسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۴

الأوائل، فما إن سمعوا آیات جدیدة النزول، إلّا و ظهر هذا التأثیر علی سلوکهم و مواقفهم و تصرفاتهم، و نذکر من باب المثال ما نقرأه فی کتب التفسیر و التاریخ الإسلامی ممّا ورد فی مجال هذه الآیة بالذات.

۱-

کان «أبو طلحة» أکثر أنصاری المدینة نخلا، و کان أحب أمواله إلیه بیرحاء، و کانت مستقبلة المسجد، و کان رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم یدخلها و یشرب من ماء فیها طیب، فلما أنزلت لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ قام أبو طلحة فقال: یا رسول اللّه إن اللّه یقول: لن تنالوا البر حتّی تنفقوا ممّا تحبون و أن أحب أموالی إلی بیرحاء، و أنها صدقة للّه أرجو برها و ذخرها عند اللّه، فضعها یا رسول اللّه حیث أراک اللّه. قال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: بخ بخ ذلک مال رابح لک و قد سمعت ما قلت و إنی أری أن تجعلها فی الأقربین. قال أبو طلحة: افعل یا رسول اللّه، فقسمها أبو طلحة فی أقاربه و بنی عمه ۳۸۶].

۲- أضاف أبو ذر الغفاری ضیفا، فقال للضیف: إنی مشغول، و أن لی إبلا فاخرج و آتنی بخیرها، فذهب فجاء بناقة مهزولة، فقال أبو ذر: خنتنی بهذه، فقال:

وجدت خیر الإبل فحلها فذکرت یوم حاجتکم إلیه، فقال أبو ذر: إن یوم حاجتی إلیه لیوم أوضع فی حفرتی، مع أن اللّه یقول:

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۳۸۷].

۳- کان لزبیدة زوجة هارون الرشید مصحف ثمین جدّا، قد زینت غلافه بأغلی أنواع المجوهرات و الأحجار الکریمة و کانت تحبه حبا شدیدا و تعتز به أکبر اعتزاز، و فیما هی تتلو القرآن فی ذلک المصحف ذات یوم و إذا بها مرت علی قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۵

تعالی: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّی تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ فتأملت فیه، و غاصت فی معناه و تأثرت بندائه فقالت فی نفسها: «إنه لیس هناک ما هو أحب إلی من هذا المصحف المزین الثمین فلأنفقه فی سبیل اللّه»، فأرسلت إلی باعة الجواهر و باعت جواهره و أحجاره الکریمة علیهم ثمّ هیأت بثمنها آبارا و قنوات من الماء فی صحراء الحجاز لیشرب منه سکان الصحراء و ینتفع به المسافرون، و یقال أن بقایا هذه الآبار لا تزال باقیة و تدعی ۳۸۸] باسمها عند الناس.

و حتّی یطمئن المنفقون إلی أن أی شیء ممّا ینفقونه لن یعزب عن اللّه سبحانه و لن یضیع، عقب اللّه علی حثه للناس علی الإنفاق ممّا یحبون بقوله: وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَیْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِیمٌ إنه یعلم بما تنفقونه صغیرا أم کبیرا، تحبونه أو لا تحبونه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۶

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۹۳ الی ۹۵]

اشارة

کُلُّ الطَّعامِ کانَ حِلاًّ لِبَنِی إِسْرائِیلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِیلُ عَلی نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۹۳) فَمَنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ الْکَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹۴) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِیمَ حَنِیفاً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۹۵)

سبب النّزول

المستفاد من الروایات الواردة حول هذه الآیات و ما ینقله المفسّرون هو: أن الیهود طرحوا إشکالین آخرین علی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم ضمن جدالهم له، أحدهما:

تحلیله لحوم الإبل و ألبانها، و قد کانت حراما فی دین إبراهیم علیه السّلام و کانوا یقولون:

کلّ شیء نحرمه فهو کان محرما علی نوح و إبراهیم، فکیف تحلله و أنت تدعی متابعة إبراهیم و إنک علی ملته و دینه؟

و الآخر: صلاته باتجاه الکعبة فکانوا یقولون: کیف تدعی یا محمّد الاقتداء بملّة إبراهیم علیه السّلام و النبیین العظام، و قد کان جمیع الأنبیاء من ولد إسحاق یولون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۷

وجوههم شطر «بیت المقدس» و یصلون باتجاهه و أنت تصلی شطر الکعبة و تعرض عن «بیت المقدس»؟

فجاءت الآیات الثلاثة تردّ علی إنکارهم للأمر الأول و تفند زعمهم، بینما تکفلت الآیات القادمة الردّ علی اعتراضهم الأخیر.

التّفسير

اشارة

صرحت الآيـة الأـولى من هـذه الآيـات الثلاث بتفنيـد كلّ المزاعم اليهوديـة حول تحريم بعض أنواع الطعام الطيب (مثل لحوم الإبل و ألبانها) وردت على هذه الكذبة بقولها: كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ ۳۸۹] عَلى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ.

أما لماذا حرّم يعقوب على نفسه بعض الأطعمـة؟ و ما هو نوع الأطعمـة التى حرمها على نفسه فلم يرد فى الآيـة أى توضـيح بشأنها، بيد أن المسـتفاد من الروايـات الإسـلامية هو أن يعقوب كـان- كمـا قيل- كلّما أكل من لحم الإبل أخـذه وجع العرق الـذى يقال له عرق النساء[۳۹۰] فعزم إن شـفاه اللّه على أن يحرم لحم الإبل على نفسه، فاقتدى به أتباعه فى هذا، حتّى اشتبه الأمر على من أتوا من خلفهم فيمـا بعـد فتصور بعض أنه تحريم إلهى، فـاعتبروا ذلك حكما و نسـبوه إلى اللّه، و ادعوا بأنه حرم عليهم لحم الإبل، فنزلت الآيـة تفند هذا الزعم ببيان علّة الالتباس، و تصرّح بأن نسبه هذا التحريم إلى اللّه سبحانه محض اختلاق.

و على هذا فقد كان كلّ الطعام حلالا، و لم يكن شىء من الطيبات منه حراما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۸

على بنى إسـرائيل قبـل نزول التوراة، كما يفيـد قوله سـبحانه مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ و إن كان قـد حرمت- بعـد نزول التوراة و مجىء موسى بن عمران- بعض الأطعمة الطيبة، على اليهود لظلمهم و عصيانهم، تنكيلا بهم، و جزاء لظلمهم.

و تأكيـدا لهـذه الحقيقـة أمر اللّه نبيه فى هـذه الآيـة أن يطلب من اليهود بأن يأتوا بالتوراة الموجودة عنـدهم و يقرءوها ليتبين كذب ما ادعوه، و صدق ما أخبر به اللّه حول حلية الطعام الطيب كله إذ قال: قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و لكنّهم أعرضوا عن تلبية هذا الطلب لعلمهم بخلو التوراة عن التحريم الذى أدعوه.

و الآن بعـد أن تبين كـذبهم و افتراؤهم على اللّه لعـدم اسـتجابتهم لطلب النبى بإحضار التوراة، فإن عليهم أن يعرفوا بأن كلّ من افترى على اللّه الكذب اسـتحق وصف الظلم، لأنه بهذا الافتراء ظلم نفسه بتعريضـها للعذاب الإلهى، و ظلم غيره بتحريفه و إضلاله بما افترى، و هذا هو ما يعنيه قوله سبحانه فى ختام هذه الآية فَمَنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

التوراة الرائجة و تحريم بعض اللحوم:

نقرأ فى الفصل الحادى عشـر من سـفر اللاوليين ضـمن اسـتعراض مفصل للحوم المحرّمة و المحلّلة: «كل ما شق ظلفا و قسمه ظلفين و يجتر من البهائم فإياه تأكلون. إلّا هذه فلا تأكلوها ممّا يجتر و ممّا يشق الظلف. الجمل لأنه يجتر لكنّه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم».

من هـذه العبـارات نفهم أن اليهود كانوا يحرمون الإبل و كل ما شق ظلفا من البهائم، و لكن ذلك لا يـدلّ على أنها كانت محرمـة فى شريعة نوح و إبراهيم أيضا، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۵۹۹

يمكن أن يكون هذا التحريم مختصا باليهود عقابا لهم و تنكيلا.

فـإذا لم يكن لليهـود حجّة على زعمهم، و إذا تـبين لهم صـدق الرسـول الكريم فى دعوته، و اتضـح لهم أنّه على ملّة إبراهيم، و دينه الحنيف حقّا يوجب عليهم أن يتبعوه قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اتبعوا ملّة إبراهيم الذى كان حنيفا مسـتقيما لا يميل إلى شـىء من الأديان الباطلة، و الأهواء الفاسدة، بل يسـير فى الطريق المسـتقيم، فلم يكن فى دينه أى حكم منحرف

مائل عن الحق و حتّى فى الأطعمة الطيبة الطاهرة لم يكن يحرم شيئا بدون مبرر أو سبب وجيه للتحريم ... إنه لم يكن مشركا، فادعاء مشركى العرب بأنهم على ملته محض اختلاق، فأين الوثنية و أين التوحيد؟ و أين عبادة الأصنام، و أين تحطيم الأصنام؟

و الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يكرر هذا الوصف وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى شأن إبراهيم و يؤكد عليه فى مواطن كثيرة، و ما ذلك إلّا لأن العرب الجاهليين الوثنيين كانوا- كما ألمحنا- ينسبون ديانتهم و عقائدهم الوثنية إلى الخليل عليه السّلام، و يدعون بأنهم على دينه و ملته، و كانوا يصرون على هذا إلى درجة أن الآخرين سموهم بالحنفاء (أى أتباع إبراهيم) و لذلك كرر القرآن نفى الشرك عن الخليل و صرح مرارا و تكرارا بأنه عليه السّلام كان حنيفا، و لم يكن من المشركين أبدا[۳۹۱] ابطالا لذلك الادعاء السخيف، و تنزيها لساحة هذا النبى العظيم من تلك الوصمة المقيتة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۰

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۹۶ الى ۹۷]

اشارة

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (۹۶) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۹۷)

أول بيت وضع للناس:

لقد أنكرت اليهود على النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمرين كما أسلفنا. و قد رد القرآن على الأمر الأول فى الآيات الثلاث المتقدمة، و ها هو يرد على الأمر الثانى، و هو:

إنكارهم على النبى اتخاذه الكعبة قبلة، و تفضيله لها على «بيت المقدس» بينما كانوا يفضلونه على الكعبة.

يقول سبحانه: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً فلا عجب إذن أن تكون الكعبة قبلة للمسلمين، فهى أول مركز للتوحيد، و أقدم معبد بنى على الأرض ليعبد فيه اللّه سبحانه و يوحد، بل لم يسبقه أى معبد آخر قبله، إنه أول بيت وضع للناس و لأجل خير المجتمع الإنسانى فى نقطة من الأرض محفوفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۱

بالبركات، غنية بالخيرات، وضع ليكون مجتمع الناس، و ملتقاهم.

إن المصادر الإسلامية و التاريخية تحدثنا بأن الكعبة تأسست على يدى «آدم» عليه السّلام ثمّ تهدمت بسبب الطوفان الذى وقع فى عهد النبى «نوح» ثمّ جدد بناءها النبى العظيم «إبراهيم الخليل» عليه السّلام فهى إذن عريقة عراقة التاريخ البشرى ۳۹۲].

و لا شكّ أن إختيار أعرق بيت أسس للتوحيد من أجل أن يكون قبلة للمسلمين، أولى و أفضل من إختيار أية نقطة أخرى و أى مكان آخر.

هذا و ممّا يجدر الانتباه إليه هو أن «الكعبة» و التى تسمى فى تسمية أخرى ب «بيت اللّه» وصفت فى هذه الآية بأنها «بيت للناس»، و هذا التعبير يكشف عن حقيقة هامة و هى: أن كلّ ما يكون باسم اللّه و يكون له، يجب أن يكون فى خدمة الناس من عباده، و أن كلّ ما يكون لخدمة الناس و خير العباد فهو للّه سبحانه.

كما تتضح- ضمن ما نستفيده من هذه الآية- قيمة الأسبقية فى مجال العلاقات بين الخلق و الخالق، و لذلك نجد القرآن يشير- فى هذه الآية- إلى أسبقية الكعبة على جميع الأماكن الأخرى، و إلى تاريخها الطويل الضارب فى أعماق الزمن، معتبرا ذلك أول و أهم

ما تتسم به الکعبة من الفضائل و المزایا، و من هنا یتضح أیضا علّة ما للحجر الأسود من الحرمة، و یتبین جواب ما یحوم حوله من سؤال مفاده: ما قیمة قطعة من الحجر و لماذا یندفع و یتدافع لاستلامه ملایین الناس کلّ عام، و یتسابقون- فی عناء بالغ- إلیه حتّی أن استلامه یعد من المستحبات المؤکّدة فی مناسک الحجّ و برامجه؟

إن تاریخ هذا الحجر یکشف عن میزه خاصة فی هذا الحجر لا نجدها فی أی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۲

حجر آخر غیره فی هذا العالم، و هی أن هذا الحجر أسبق شیء استخدم کمادة إنشائیة فی أقدم بیت شید لعبادة اللّه، و تقدیسه، و توحیده، فإننا نعلم بأن جمیع المعابد حتّی الکعبة قد فقدت موادها الإنشائیة فی کلّ عملیة انهدام و تجدید، عدا هذه القطعة من الصخر التی بقیت منذ آلاف السنین، و استخدمت فی بناء هذه البنیة المعظمة علی طول التاریخ منذ تأسیسها و إلی الآن. و لا شکّ أن لهذه الاستمراریة، و تلک الأسبقیة فی طریق اللّه و فی خدمة الناس قیمة و أهمیة من شأنها أن تکسب الأشیاء و الأشخاص میزة لا یمکن تجاهلها.

کلّ هذا مضافا إلی أن هذه الصخرة لیست إلّا تاریخ صامت لأجیال کثیرة من المؤمنین فی الأعصر المختلفة، فهی تحیی ذکری استلام الأنبیاء العظام و عباد اللّه البررة لها، و عبادتهم، و تضرعهم إلی اللّه فی جوارها عبر آلاف السنین و مئات من القرون و الأحقاب.

علی أن ثمّة أمرا آخر ینبغی الانتباه إلیه و هو: أن الآیة المبحوثة هنا تصرح بأن الکعبة هی أول بیت وضع للناس، و من المعلوم أنه وضع لغرض العبادة فهو أول بیت وضع للعبادة إذن، و هو أمر لا یمنع من أن یکون قد شیدت فی الأرض قبل الکعبة بیوت للسکن.

و هذا التعبیر رد واضح علی کلّ أولئک ۳۹۳] الذین یدعون أن النبی إبراهیم علیه السّلام هو أول من أسس الکعبة المشرفة، و یعتبرون بناءها علی یدی آدم علیه السّلام من قبیل الأساطیر، فی حین أن من المسلم وجود بیوت للعبادة فی العالم قبل إبراهیم علیه السّلام کان یتعبد فیها من سبقه من الأنبیاء مثل نوح علیه السّلام فکیف تکون الکعبة التی هی أول بیت وضع للعبادة فی العالم قد أسست علی یدی إبراهیم علیه السّلام؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۳

ما هو المراد من «بکّة»؟

«بکة» مأخوذة أصلا من «البک» و هو الزحم، و بکه أی زحمه، و تباک الناس أی ازدحموا، و إنما یقال للکعبة أو الأرض التی علیها تلک البنیة المعظمة بکة لازدحام الناس هناک، و لا یستبعد أن هذه التسمیة أطلقت علیها بعد أن اتخذت صفة المعبد رسمیا لا قبل ذلک.

و

فی روایة عن أبی عبد اللّه (الصادق) علیه السّلام قال: «موضع البیت بکة، و القریة مکة».

و قد احتمل بعض المفسّرین أیضا أن تکون «بکة» هی «مکة» أبدل میمها باء، نظیر «لازب» و «لازم» اللتین تعنیان شیئا واحدا فی لغة العرب.

و قد ذکر فی علة تسمیة «الکعبة» و موضعها ببکة وجه آخر أیضا هو أنها سمیت «بکة» لأنها تبک أعناق الجبابرة، و تحطم غرورهم و نخوتهم، لأن البک هو دق العنق، فعند الکعبة تتساقط و تزول کلّ الفوارق المصطنعة، و یعود المتکبرون و المغرورون کبقیة الناس، علیهم أن یخضعوا للّه، و یتضرعوا إلیه شأنهم شأن الآخرین، و بهذا یتحطم غرورهم.

بحث تاریخی

توسيع المسجد الحرام:

منذ العهد النبوى أخذ عدد المسلمين فى الإزدياد، و على أثر ذلك كان يتزايد عدد الحجاج و الوافدين إلى البيت الحرام، و لهذا كان المسجد الحرام يتعرض للتوسعة المستمرة على أيدى الخلفاء فى العصور المختلفة،

فقد جاء فى تفسير العيّاشى أن أبا جعفر (المنصور) طلب أن يشترى من أهل مكة بيوتهم ليزيدها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۴

المسجد، فأبوا فأرغبهم، فامتنعوا فضاق بذلك، فأتى أبا عبد اللّه (الصادق) عليه السّلام فقال له: إنى سألت هؤلاء شيئا من منازلهم، و أفنيتهم لنزيد فى المسجد، و قد منعونى ذلك فقد غمنى غما شديدا، فقال أبو عبد اللّه عليه السّلام: أ يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهرة؟ فقال: و بما أحتج عليهم؟ فقال: بكتاب اللّه، فقال: فى أى موضع؟ فقال:

قول اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ قد أخبرك اللّه أن أول بيت وضع للناس هو الذى ببكة، فإن كانوا هم تولوا قبل البيت فلهم أفنيتهم، و إن كان البيت قبلهم فله فناؤه، فدعاهم أبو جعفر (المنصور) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له أصنع ما أحببت.

و

قد جاء فى ذلك التفسير أيضا أن المهدى (العباسى) لما بنى فى المسجد الحرام بقيت دار احتج إليها فى تربيع المسجد، فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكلّ قال له: إنه لا ينبغى أن يدخل شيئا فى المسجد الحرام غصبا، فقال له على بن يقطين: يا أمير المؤمنين لو أنك كتبت إلى موسى بن جعفر عليه السّلام لأخبرك بوجه الأمر فى ذلك، فكتب إلى و إلى المدينة أن يسئل موسى بن جعفر عليه السّلام عن دار أردنا أن ندخلها فى المسجد الحرام فامتنع علينا صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال: ذلك لأبى الحسن عليه السّلام: فقال أبو الحسن عليه السّلام: و لا بدّ من الجواب فى هذا؟ فقال له: الأمر لا بدّ منه، فقال له: اكتب «بسم اللّه الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هى النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها، و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها» فلما أتى الكتاب إلى المهدى أخذ الكتاب فقبله (لفرحه الشديد)، ثمّ أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن عليه السّلام فسألوه أن يكتب لهم إلى المهدى كتابا فى ثمن دورهم فكتب إليه أن ارضخ لهم شيئا فأرضاهم.

إن فى هاتين الروايتين استدلالا لطيفا يتفق تماما مع المقاييس و الموازين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۵

القانونية المعمول بها أيضا، فإن الاستدلال يقول؛ ان لمعبد تقصده الجماهير كالكعبة، قد بنى يوم بنى على أرض لا أحد فيها، الحق و الأولوية فى تلك الأرض بقدر حاجته و حيث إن الحاجة يوم أسس لم تكن تدعو إلى أكثر من تلك المساحة التى أقيم عليها أول مرّة كان للناس أن يسكنوا فى حريم الكعبة، أما الآن و قد اشتدت الحاجة إلى مساحة أوسع كما كانت عليه لتسع الحجيج، فإن للكعبة الحقّ فى أن تستخدم أولويتها بالأرض.

مزايا الكعبة و فضائلها:

لقد ذكرت فى هاتين الآيتين- مضافا إلى الميزتين اللتين مرّ شرحهما- أربع مزايا اخرى هى:

۱- مباركا:

«المبارك» يعنى كثير الخير و البركة، و إنما كانت الكعبة المعظمة مباركة لأنها تعتبر بحق واحدة من أكثر نقاط الأرض بركة و خيرا،

سواء الخير المادى، أو المعنوى.

و أما البركات المعنوية التى تتحلى بها هذه الأرض و هذه المنطقة من اجتماع الحجيج فيها، و ما ينجم عن ذلك من حركة و تفاعل و وحدة، و ما يصحبه من جاذبية ربانية تحيى الأنفس و القلوب و خاصة فى موسم الحج فمما لا يخفى على أحد.

و لو أن المسلمين لم يقصروا اهتمامهم- فى موسم الحج- على الجانب الصورى لهذه الفريضة بل أحيوا روحها، و التفتوا إلى فلسفتها، لاتضحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۶

- حينذاك- البركات المعنوية، و تجلت للعيان أكثر فأكثر.

هذا من الناحية المعنوية.

و أما من الناحية المادية فإن هذه المدينة رغم أنها أقيمت فى أرض قاحلة لا ماء فيها و لا عشب، و لا صلاحية فيها للزراعة و الرعى بقيت على طول التاريخ واحدة من أكثر المدن عمرانا و حركة، و كانت دائما من المناطق المؤهلة- خير تأهيل- للحياة، بل و للتجارة أيضا.

۲- هدى للعالمين:

أجل، إن الكعبة هدى للعالمين فهى تجتذب الملايين من الناس الذين يقطعون إليها البحار و الوهاد، و يقصدونها من كلّ فج عميق ليجتمعوا فى هذا الملتقى العبادى العظيم و هم بذلك يقيمون هذه الفريضة فريضة الحجّ التى لم تزل تؤدى بجلال عظيم منذ عهد الخليل عليه السّلام.

و لقد كانت هذه البنية معظمة أبدا حتّى من قبل العرب الجاهليين، فهم كانوا يحجون إليها و إن مزجوا مناسك الحجّ ببعض خرافاتهم و عقائدهم الباطلة، إلّا أنهم ظلوا أوفياء لهذه المناسك على أنها دين إبراهيم، و قد كان لهذه المناسك و المراسم الناقصة، و الخليطة أحيانا بالخرافات الجاهلية، أثرها فى سلوكهم، حيث كانوا يرتدعون بسببها عن بعض المفاسد بعض الوقت، و هكذا كانت الكعبة سببا للهداية حتّى للوثنيين ...

إن لهذا البيت من الجواذب المعنوية ما لا يستطيع أى أحد أن يقاومها و يصمد أمام تأثيرها الأخّاذ.

۳- فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ

إن فى هذا البيت معالم واضحة و علائم ساطعة لعبادة اللّه و توحيده، و فى تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۷

النقطة المباركة من الآثار المعنوية ما يبهر العيون و يأخذ بمجامع القلوب. و إن بقاء هذه الآثار و المعالم رغم كيد الكائدين و إفساد المفسدين الذين كانوا يسعون إلى إزالتها و محوها لمن تلك الآيات التى يتحدث عنها القرآن فى هذا الكلام العلوى.

فها هى آثار جليلة من إبراهيم عليه السّلام لا تزال باقية عند هذا البيت مثل: زمزم و الصفا و المروة، و الركن ۳۹۴]، و الحطيم ۳۹۵]، و الحجر الأسود، و حجر إسماعيل ۳۹۶] الذى يعتبر كلّ واحد منها تجسيدا حيّا لتاريخ طويل، و ذكريات عظيمة خالدة.

و لقد خصّ «مقام إبراهيم» بالذكر من بين كلّ هذه الآثار و الآيات لأنه المحل الذى كان قد وقف فيه الخليل عليه السّلام لبناء الكعبة، أو لإتيان مناسك الحجّ، أو لإطلاق الدعوة العامّة التى وجهها إلى البشرية كافة، و الأذان بهم ليحجوا هذا البيت، و يلتقوا فى هذا الملتقى العبادى التوحيدى العظيم.

و على كلّ حال فإن هذا المقام لمن أهم الآيات التى مر ذكرها، و أنها لمن أوضح الدلائل و أقوى البراهين على ما شهدته هذه النقطة من العالم من التضحيات و الذكريات، و الاجتماعات و الحوادث، البالغة الأهمية.

يبقى أن نعرف أن ثمة خلافا بين المفسّرين فى أن المراد بمقام إبراهيم هل هو خصوص النقطة التى توجد فيها الصخرة التى لا تزال

تحمل أثر قدمه الشريف، أو أنه الحرم المكى، أو أنّه جميع المواقف التى ترتبط بمناسك الحجّ، و لكن فى الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب الكافى ۳۹۷] إشارة إلى الاحتمال الأول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۸

۴- و من دخله كان آمنا:

لقد طلب إبراهيم عليه السّلام من ربه بعد الانتهاء من بناء الكعبة، أن يجعل بلد مكة آمنا إذ قال رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً[۳۹۸]، فاستجاب اللّه له، و جعل مكة بلدا آمنا، ففيه أمن للنفوس و الأرواح، و فيه أمن للجموع البشرية التى تفد إليه و تستلهم المعنويات السامية منه، و فيه أمن من جهة القوانين الدينية، فإن الأمن فى هذا البلد قد بلغ من الاهتمام به و احترامه أن منع فيه القتال منعا باتا، و أكيدا.

و قد جعلت الكعبة بالذات مأمنا و ملجأ فى الإسلام لا يجوز التعرض لمن لجأ إليها أبدا، و هو أمر يشمل الحيوانات أيضا إذ يجب أن تكون فى أمان من الأذى و المزاحمة إذا هى التجأت إلى هذه النقطة من الأرض.

فإذا التجأ إنسان إلى الكعبة لم يجز التعرض له حتّى لو كان قاتلا جانيا، بيد أنّه حتّى لا تستغل حرمة هذا البيت و قدسيتها الخاصّة، و حتّى لا تضيع حقوق المظلومين سمح الإسلام بالتضييق فى المطعم و المشرب على الجناة أو القتلة اللاجئين إليه ليضطروا إلى مغادرته ثمّ ينالوا جزاءهم العادل.

و بعد أن استعرض القرآن الكريم فضائل هذا البيت و عدد مزاياه، أمر الناس بأن يحجوا إليه- دون استثناء- و عبر عن ذلك بلفظ مشعر بأن مثل هذا الحجّ هو فى الحقيقة دين للّه على الناس، فيتوجب عليهم أن يؤدوه و يفرغوا ذممهم منه إذ قال وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ

و تعنى لفظة «الحجّ» أصلا القصد، و لهذا سميت الجادة بالمحجة (على وزن مودة) لأنها توصل سالكها إلى المقصد، كما أن لهذا السبب نفسه سمى الدليل ب «الحجة» لأنه يوضح المقصود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۰۹

أما وجه تسمية هذه الزيارة و هذه المناسك الخاصة بالحجّ فلأن قاصد الحجّ إنّما يخرج و هو «يقصد زيارة بيت اللّه» و لهذا أضيفت لفظة الحجّ إلى البيت فقال تعالى حِجُّ الْبَيْتِ

ثم إننا قد أشرنا سابقا إلى أن مراسم الحج هذه قد سنت و أسست منذ عهد إبراهيم عليه السّلام ثمّ استمرت حتّى العهد الجاهلى حيث كان العرب الجاهليون يمارسونها و يؤدونها، و لكنها شرعت فى الإسلام فى صورة أكمل، و كيفية خالية عن الخرافات التى لصقت بها من العهد الجاهلى ۳۹۹] و لكن المستفاد من الخطبة القاصعة فى نهج البلاغة و بعض الأحاديث و الروايات أن فريضة الحج شرعت أول مرّة فى زمن آدم عليه السّلام إلّا أن اتخاذها الصفة الرسمية يرتبط- فى الأغلب- بزمن الخليل عليه السّلام.

إن الحجّ يجب على كلّ إنسان مستطيع، فى العمر مرّة واحدة، و لا يستفاد من الآية المبحوثة هنا أكثر من ذلك، لأن الحكم فيها مطلق، و هو يحصل بالامتثال مرّة واحدة.

إن الشرط الوحيد الذى ذكرته الآية الحاضرة لوجوب الحجّ و استقراره هو «الاستطاعة» المعبر عنها بقوله سبحانه مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

نعم، قد فسرت الاستطاعة فى الأحاديث الإسلامية و الكتب الفقهية ب «الزاد و الراحلة (أى الإمكانية المالية لنفقات سفر الحجّ ذهابا و إيابا) و القدرة الجسدية و التمكن من الإنفاق على نفسه و عائلته بعد العودة من الحجّ» و الحقّ أن جميع هذه الأمور موجودة فى الآية، إذ لفظة «استطاع» التى تعنى القدرة و الإمكانية تشمل كلّ هذه المعانى و الجهات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۰

ثمّ إنه يستفاد من هذه الآية أن هذا القانون- مثل بقية القوانين الإسلامية- لا يختصّ بالمسلمين، فعلى الجميع أن يقوموا بفريضة الحجّ

مسلمین و غیر مسلمین، و تؤید ذلک القاعدة المعروفة: «الکفّار مکلفون بالفروع کما أنهم مکلفون بالأصول». و إن کانت صحّة هذه المناسک و أمثالها من العبادات مشروطة بقبولهم للإسلام و اعتناقهم إیاه، ثمّ أدائها بعد ذلک، و لکن لا بدّ أن یعلم بأن عدم قبولهم للإسلام لا یسقط عنهم التکلیف، و لا یحررهم من هذه المسؤولیة.

و ما قلناه فی هذه الآیة فی هذا المجال جار فی أمثالها أیضا.

هذا و قد بحثنا باسهاب حول أهمیة الحجّ و فلسفته و آثاره الفردیة و الاجتماعیة عند الحدیث عن الآیات ۱۹۶ إلی ۲۰۳ من سورة البقرة.

أهمیة الحجّ

و للتأکید علی أهمیة الحجّ قال سبحانه فی ذیل الآیة الحاضرة وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ أی أن الذین یتجاهلون هذا النداء، و یتنکرون لهذه الفریضة، و یخالفونها لا یضرون بذلک إلّا أنفسهم لأن اللّه غنی عن العالمین، فلا یصیبه شیء بسبب اعراضهم و نکرانهم و ترکهم لهذه الفریضة.

إن لفظة «کفر» تعنی فی الأصل الستر و الإخفاء و أما فی المصطلح الدینی فتعطی معنی أوسع، فهی تعنی کلّ مخالفة للحقّ و کل جحد و عصیان سواء فی الأصول و الإعتقاد، أو فی الفروع و العمل، فلا تدلّ کثرة استعمالها فی الجحود الاعتقادی علی انحصار معناه فی ذلک، و لهذا استعملت فی «ترک الحجّ».

و لذلک فسّر الکفر فی هذه الآیة عن الإمام الصادق علیه السّلام بترک الحجّ ۴۰۰].

و بعبارة اخری أن للکفر و الابتعاد عن الحق- تماما مثل الإیمان و التقرب إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۱

الحقّ- مراحل و درجات، و لکلّ واحدة من هذه المراحل و الدرجات أحکام خاصة بها، و فی ضوء هذه الحقیقة یتضح الحال بالنسبة لجمیع الموارد التی استعملت فیها لفظة الکفر و الإیمان فی الکتاب العزیز.

فإذا وجدنا القرآن یستعمل وصف الکفر فی شأن آکل الربا (کما فی الآیة ۲۷۵ من سورة البقرة) و کذا فی شأن السحرة (کما فی الآیة ۱۰۲ من نفس السورة) و یعبر عنهما بالکافر، کان المراد هو ما ذکرناه، أی أن الربا و السحر ابتعاد عن الحقّ فی مرحلة العمل.

و علی کلّ حال فإنه یستفاد من هذه الآیة أمران:

الأوّل: الأهمیة الفائقة لفریضة الحجّ، إلی درجة ان القرآن عبر عن ترکها بالکفر. و یؤید ذلک ما

رواه الصدوق فی کتاب «من لا یحضره الفقیه» من أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «یا علی إن تارک الحجّ و هو مستطیع کافر یقول اللّه تبارک و تعالی: وَ لِلَّهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ یا علی؛ من سوف الحجّ حتّی یموت بعثه اللّه یوم القیامة یهودیا، أو نصرانیا»[۴۰۱].

الثانی: إن هذه الفریضة الإلهیة المهمة- مثل بقیة الفرائض و الأحکام الدینیة الأخری- شرعت لصلاح الناس، و فرضت لفرض تربیتهم، و إصلاح أمرهم و بالهم أنفسهم فلا یعود شیء منها إلی اللّه سبحانه أبدا، فهو الغنی عنهم جمیعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۲

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۹۸ الی ۱۰۱]

اشارة

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ (۹۸) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۹) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (۱۰۰) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۰۱)

سبب النّزول

يستفاد من مؤلفات الشيعة و السنّة و ما ذكروه فى سبب نزول هذه الآية أن «شأس بن قيس» و كان شيخا من اليهود (قد أسن)، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، مرّ ذات يوم على نفر من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم من الأوس و الخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم و جماعتهم و صلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۳

الجاهلية فقال: قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد، لا و اللّه ما لنا معهم- إذا اجتمع ملؤهم بها- من قرار، فأمر شابا من يهود كان معه، فقال: اعتمد إليهم فاجلس معهم، ثمّ أذكر يوم «بعاث» و ما كان قبله، و أنشدهم بعض ما كانوا ما يتقاولون فيه من الأشعار.

و كان يوم «بعاث» يوما اقتتلت فيه الأوس و الخزرج، و كان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، و كان يرأس الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلى أبو أسيد بن حضير، و يرأس الخزرج يومئذ عمرو النعمان البياضى، فقتلا جميعا.

ففعل ذلك الشاب ما أراده «شأس» فتكلّم القوم عند ذلك، و تنازعوا و تفاخروا حتّى تواثب رجلان من الحيين، و تقاولا، و راح أحدهما يهدد الآخر، و كادت نيران الاقتتال تتأجج بينهم من جديد.

فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتّى جاءهم، و قال: «يا معشر المسلمين اللّه اللّه، أ بدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم بعد أن هداكم اللّه للإسلام، و أكرمكم به، و قطع به عنكم أمر الجاهلية، و استنقذكم به من الكفر، و ألف به بين قلوبكم»؟

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان و كيد من عدوهم، فبكوا و عانق الرجال من الأوس و الخزرج بعضهم بعضا ثمّ انصرفوا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم سامعين مطيعين قد أطفأ اللّه عنهم كيد عدو اللّه «شأس بن قيس»، فأنزل اللّه تعالى هذه الآيات الأربع، الأوليان فى شأس بن قيس و ما صنع. و الآخريان لانذار المسلمين و تحذيرهم.

التّفسير

مفرقو الصفوف و مثيرو الخلاف:

بعد أن فعل بعض العناصر اليهودية الحاقدة فعلتها و كادت أن تشعل نيران العداوة بين المسلمين نزل- كما عرفت فى سبب النزول- قوله تعالى: قُلْ يا أَهْلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۴

الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما تَعْمَلُونَ و المخاطب فى هذه الآية هم أهل الكتاب و يقصد منهم هنا اليهود، فاللّه سبحانه يأمر نبيه فى هذه الآية أن يسألهم معاتبا عن علّة كفرهم بآيات اللّه فى حين أن اللّه يعلم بأعمالهم.

و المراد من آيات اللّه المذكورة فى هذا المقام إما الآيات الواردة فى التوراة حول الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم و علائم نبوته، أو مجموعة الآيات و المعجزات التى نزلت على نبى الإسلام، و تحققت على يديه، و كشفت عن حقانيته، و صدق دعوته، و صحّة نبوته.

ثمّ جاءت الآية الثانية تلومهم قائلة قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ، تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ أى قل يا رسول اللّه لهم لائما و منددا: إذا كنتم غير مستعدين للقبول بالحقّ، فلما ذا تصرون على صرف الآخرين عنه، و صدهم عن سبيل اللّه، و إظهار هذا الطريق المستقيم فى صورة السبيل الأعوج بما تدخلون من الشبه على الناس، فى حين ينبغى- بل يتعين- أن تكونوا أول جماعة تبادر إلى تلبية هذا النداء الإلهى، لما وجدتموه من البشائر بظهور هذا النبى فى كتبكم و تشهدون عليه.

فإذا كان الأمر كذلك فلم هذه الوساوس و المحاولات لإلقاء الفرقة و إضلال الناس، و إزاحتهم عن سمت الحقّ، و صدهم عن السبيل الإلهى القويم؟ و لم تحملون أثقالا إلى أثقالكم، و تتحملون إلى إثم الضلال جريمة الإضلال؟، لماذا؟

هل تتصورون أن كلّ ما تفعلونه سيخفى علينا؟ كلّا ... وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ إنه تهديد بعد تنديد، و إنه إنذار بعد لوم شديد.

و لعلّ وصفه سبحانه بعدم الغفلة فى هذا المقام لأجل أن اليهود كانوا- لإنجاح محاولاتهم- يتكتمون و يتسترون، و يعمدون إلى حبك المؤامرات فى الخفاء، لينجحوا فى التأثير على المغفلين و البسطاء بنحو أفضل، و ليجنوا المزيد من الثمار،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۵

و لهذا قال لهم سبحانه إذا كان بعض الناس ينخدعون بوساوسكم و مؤامراتكم لغفلتهم فإن اللّه يعلم بأسراركم، و خفايا أعمالكم، و ما هو بغافل عمّا تعملون، فعلمه محيط بكم، و عقابه الأليم ينتظركم.

و بعد أن ينتهى هذا التقريع و التنديد، و الإنذار و التهديد لمشعلى الفتن، الصادين عن سبيل اللّه القويم، المستفيدين من غفلة بعض المسلمين يتوجه سبحانه بالخطاب إلى هؤلاء المخدوعين من المسلمين، يحذرهم من مغبة الانخداع بوساوس الأعداء، و الوقوع تحت تأثيرهم، و السماح لعناصرهم بالتسلل إلى جماعتهم، و ترتيب الأثر على تحريكاتهم و تسويلاتهم، و أن نتيجة كلّ ذلك هو الابتعاد عن الإيمان، و الوقوع فى أحضان الكفر، إذ يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ

أجل إن نتيجة الانصياع لمقاصد هؤلاء الأعداء هو الرجوع إلى الكفر لأن العدو يسعى فى المرحلة الاولى إلى أن يشعل بينكم نيران العداوة و الاقتتال، و لكنه لن يكتفى بهذا القدر منكم، بل سيستمر فى وساوسه الخبيثة حتّى يخرجكم عن الإسلام مرّة واحدة، و يعيدكم إلى الكفر تارة اخرى.

من هذا البيان اتضح أن المراد من الرجوع إلى الكفر- فى الآية- هو «الكفر الحقيقى، و الانفصال الكامل عن الإسلام» كما و يمكن أن يكون المراد من ذلك هى تلك العداوات الجاهلية التى تعتبر- فى حدّ ذاتها- شعبة من شعب الكفر، و علامة من علائمة، و أثرا من آثاره، لأن الإيمان لا يصدر منه إلّا المحبة و المودة و التآلف، و أما الكفر فلا يصدر منه إلّا التقاتل و العداوة و التنافر.

ثمّ يتساءل- فى عجب و استغراب- وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ أى كيف يمكن أن تسلكوا سبيل الكفر، و ترجعوا كفّارا و النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بين ظهرانيكم، و آيات اللّه البينات تقرأ على أسماعكم، و تشع أنوار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۶

الوحى على قلوبكم و تهطل عليكم أمطاره المحيية؟

إن هذه العبارة ما هى- فى الحقيقة- إلّا الإشارة إلى أنه لا عجب إذا ضل الآخرون و انحرفوا، و لكن العجب ممّن لا يزمون الرسول و يرونه فيما بينهم، و لهم مع عالم الوحى اتصال دائم ... و مع آياته صحبة دائمة، إن العجب إنما هو- فى الحقيقة- من هؤلاء كيف يضلون و كيف ينحرفون؟

إنه حقّا يدعو إلى الدهشة و الاستغراب و يبعث على العجب أن يضل مثل هؤلاء الذين يعيشون فى بحبوحة النور، و لا شك أنهم أنفسهم يتحملون إثم هذا الضلال- إن ضلوا- لأنهم لم يضلوا إلّا عن بيّنة، و لم ينحرفوا إلّا بعد بصيرة ... و لا شكّ أن عذابهم سيكون شديدا جدّا لذلك.

ثمّ فى ختام هذه الآيات يوصى القرآن الكريم المسلمين- إن أرادوا الخلاص من وساوس الأعداء، و أرادوا الاهتداء إلى الصراط المستقيم- أن يعتصموا باللّه و يلوذوا بلطفه و يتمسكوا بهداياته و آياته، و يقول لهم بصراحة تامة وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

هذا و من النقاط المهمة التى تلفت النظر فى هذه الآيات هو أن الخطاب الإلهى فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات موجهة إلى اليهود بالواسطة، لأن اللّه سبحانه يأمر نبيه الكريم أن يبلغ هذه المواضيع لليهود عن لسانه فيقول تعالى له قُلْ و لكنه عند ما يوجه الخطاب إلى المسلمين فى الآيتين الأخريين يخاطبهم بصورة مباشرة و دون واسطة فلا يشرع خطابه لهم بلفظه قُلْ و هذا يكشف عن منتهى عناية اللّه و لطفه بالمؤمنين، و أنهم- دون غيرهم- لائقون بأن يخاطبهم اللّه مباشرة، و أن يوجه إليهم الكلام دون أن يوسط بينه و بينهم أحدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۲ الى ۱۰۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۲) وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰۳)

سبب النّزول

كانت بين «الأوس» و «الخزرج» القبيلتين الكبيرتين القاطنتين فى يثرب حروب طويلة دامية و منازعات استمرت ما يقرب من مائة عام، و كانت المعارك و المناوشات تنشب بينهم بين فترة و اخرى و تكلف الجانبين خسائر جسمية فى الأموال و الأرواح.

كلّ ذلك كان أيّام الجاهلية قبل بزوغ الإسلام و طلوع شمسه على تلك الربوع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۸

و قد كان ممّا وفق له الرسول و نجح فيه أكبر نجاح- بعد هجرته إلى المدينة (يثرب)- هو تمكنه من وضع حد لتلك المعارك و المناوشات و تلك المذابح و المجازر، و إقرار الإخاء مكان العداء و إحلال السلام محل الحروب، و تشكيل جبهة متحدة متراصة الصفوف، قوية البنيان و الأركان فى المدينة المنورة.

و لكن حيث أن جذور النزاع كانت قوية و عديدة جدا، كان ذلك الاتحاد يتعرض أحيانا لبعض الهزات بسبب بعض الاختلافات المنسية التى كانت تطفو على السطح أحيانا فتشتعل نيران النزاع بعد غياب، و لكن سرعان ما كانت تختفى مرّة اخرى بفضل تعليمات النبى العظيم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حكمته، و تدبيره.

و قد لاحظنا فى الآيات السابقة نموذجا من تلك الاختلافات المتجددة التى كانت تبرز على أثر التحريكات التى كان يقوم بها الأعداء الأذكياء، و لكن هذه الآيات تشير إلى نوع آخر من الاختلافات التى كان يسببها الأصدقاء الجاهلون، و العصبيات العمياء و الحمقاء.

يقال: افتخر رجلان من الأوس و الخزرج هما «ثعلبة بن غنم» و «أسعد بن زرارة» فقال ثعلبة: منا خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، و منا حنظلة غسيل الملائكة و منا عاصم بن ثابت بن أفلح حمى الدين، و منا سعد بن معاذ الذى رضى اللّه بحكمه فى بنى قريظة، و قال أسعد منا أربعة أحكموا القرآن: أبى بن كعب و معاذ بن جبل و زيد بن ثابت و أبو زيد و منا سعد بن عبادة خطيب الأنصار و رئيسهم: فجرى الحديث بينهما فغضبا و تفاخرا و ناديا فجاء الأوس إلى الأوسى، و الخزرج إلى الخزرجى و معهم السلاح، فبلغ ذلك النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فركب حمارا و أتاهم، فأنزل اللّه هذه الآيات فقرأها عليهم فاصطلحوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۱۹

التّفسير

الدعوة إلى التقوى:

فى الآية الأولى من هاتين الآيتين دعوة إلى التقوى لتكون التقوى مقدمة للاتحاد و التآخى.

و فى الحقيقة أن الدعوة إلى الاتحاد دون أن تستعين هذه الدعوة و تنبع من الجذور الخلقية و الاعتقادية، دعوة قليلة الأثر، إن لم تكن عديمة الأثر بالمرّة، و لهذا يركز الاهتمام فى هذه الآية على معالجة جذور الاختلاف، و إضعاف العوامل المسببة للتنازع فى ضوء الإيمان و التقوى، و لهذا توجه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين فقال يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ

يبقى أن نعرف أنه قد وقع كلام كثير بين المفسّرين حول المراد من قوله تعالى حَقَّ تُقاتِهِ و لكن ممّا لا شكّ فيه أن «حق التقوى» يعد من أسمى درجات التقوى و أفضلها لأنه يشمل اجتناب كلّ إثم و معصية، و كلّ تجاوز و عدوان، و انحراف عن الحقّ.

و لذا

نقل عن الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما فى تفسير الدرّ المنثور، و عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام كما فى تفسير العيّاشى و معانى الأخبار- فى تفسير قوله: حَقَّ تُقاتِهِ أنهما قالا: «أن يطاع فلا يعصى، و يذكر فلا ينسى (و يشكر فلا يكفر)».

و من البديهى أن القيام بهذا الأمر كغيره من الأوامر الإلهية، يرتبط بمدى قدرة الإنسان و استطاعته و لهذا لا تنافى بين هذه الآية التى تطلب حقّ التقوى و أسمى درجاته و الآية ۱۶ من سورة التغابن التى تقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ فالكلام حول المنافاة بين الآيتين و ادعاء نسخ إحداهما بالأخرى ممّا لا أساس له مطلقا، و لا داعى له أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۰

على أنه ليس من شكّ فى أن الآية الثانية تعتبر تخصيصا- فى الحقيقة- لمفاد الآية الأولى و تقييدا بالاستطاعة و القدرة، و حيث أن لفظة النسخ كانت- عند القدماء- تطلق على التخصيص، لذلك من الممكن أن يكون المراد من قول القائل بأن الآية الثانية ناسخة للأولى هو كونها مخصصة للأولى لا غير.

ثمّ إنه بعد أن أوصى جميع المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى انتهت الآية بما يعتبر تحذيرا- فى حقيقته- للأوس و الخزرج و غيرهم من المسلمين فى العالم، تحذيرا مفاده: أن مجرد اعتناق الإسلام و الانضمام إلى هذا الدين لا يكفى، إنما المهم أن يحافظ المرء على إسلامه و إيمانه و اعتقاده إلى اللحظة الأخيرة من عمره و حياته، فلا يبدد هذا الإيمان بإشعال الفتن و إثارة نيران البغضاء أو بالانسياق وراء العصبيات الجاهلية الحمقاء، و الضغائن المندثرة فتكون عاقبته الخسران، و ضياع كلّ شىء و لهذا قال سبحانه وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

الدعوة إلى الاتحاد

بعد أن أوصت الآية السابقة كلّ المؤمنين بملازمة أعلى درجات التقوى و مهدت بذلك النفوس و هيأتها، جاءت «الآية الثانية» تدعوهم بصراحة إلى مسألة الاتحاد، و الوقوف فى وجه كلّ ممارسات التجزئة و إيجاد الفرقة، فقال سبحانه فى هذه الآية وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا.

و لكن ما المقصود من «حبل اللّه» فى هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات مختلفة، فمنهم من قال بأنه القرآن، و منهم من قال: بأنه الإسلام، و منهم من قال بأنهم الأئمّة المعصومون من آل الرسول و أهل بيته المطهرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۱

و قد وردت كلّ هذه المعانى فى روايات منقولة عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام.

ففى تفسير «الدرّ المنثور» عن النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فى كتاب «معانى الأخبار» عن الإمام السجّاد أنهما قالا: «كتاب اللّه حبل ممدود من السماء».

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «آل محمّد عليهم السّلام هم حبل اللّه الذى أمرنا بالاعتصام به فقال: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا.

و لكنه ليس هناك- فى الحقيقة- أى اختلاف و تضارب بين تلك الأقوال و الأحاديث لأن المراد من الحبل الإلهى هو كلّ وسيلة للارتباط باللّه تعالى سواء كانت هذه الوسيلة هى الإسلام، أم القرآن الكريم، أم النبى و أهل بيته الطاهرين.

و بعبارة اخرى فإن كلّ ما قيل يدخل بأجمعه فى مفهوم ما يحقق «الارتباط باللّه» سبحانه- الواسع- و الذى يستفاد من معنى حبل اللّه.

التعبير ب «حبل اللّه» لماذا؟

إن النقطة الجديرة بالاهتمام فى هذه الآية هو التعبير عن هذه الأمور بحبل اللّه، فهو إشارة إلى حقيقة لطيفة و هامة، و هى أن الإنسان سيبقى فى حضيض الجهل، و الغفلة، و فى قاع الغرائز الجامحة إذا لم تتوفر له شروط الهداية، و لم يتهيأ له الهادى و المربى الصالح فلا بدّ للخروج من هذا القاع، و الارتفاع من هذا الحضيض من حبل متين يتمسك به ليخرجه من بئر المادية و الجهل و الغفلة، و ينقذه من أسر الطبيعة، و هذا الحبل ليس إلّا حبل اللّه المتين، و هو الارتباط باللّه عن طريق الأخذ بتعاليم القرآن الكريم و القادة الهداة الحقيقيين، التى ترتفع بالناس من حضيض الحضيض إلى أعلى الذرى فى سماء التكامل المادى و المعنوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۲

أعداء الأمس و إخوان اليوم:

ثمّ إن القرآن بعد كلّ هذا يعطى مثالا حيّا من واقع الأمة الإسلامية لأثر الارتباط باللّه و هو يذكر- فى نفس الوقت- بنعمة الاتحاد و الأخوة- تلك النعمة الكبرى- و يدعو المسلمين إلى مراجعة الماضى المؤسف، و مقارنة ذلك الاختلاف و التمزق بهذه الوحدة القوية الصلبة و يقول: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً.

و الملفت للنظر هو تكرار كلمة نعمة فى هذه الآية مرتين و هو إشعار بأهمية الوحدة هذه الموهبة الإلهية التى لا تحقّق إلّا فى ظل

التعاليم الإسلامية و الاعتصام بحبل اللّه.

و النقطة الأخرى الجديرة بالاهتمام أيضا هى أن اللّه نسب تأليف قلوب المؤمنين إلى نفسه فقال فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ أى أن اللّه ألف بين قلوبكم، و بهذا التعبير يشير القرآن الكريم إلى معجزة اجتماعية عظيمة للإسلام، لأننا لو لاحظنا ما كان عليه العرب و المجتمع الجاهلى من عداوات و اختلافات و ما كان يكمن فى القلوب من أحقاد طويلة عميقة و ما تراكم فيها من ضغائن مستحكمة، و كيف أن أقل شرارة صغيرة أو مسألة جزئية كانت تكفى لتفجير الحروب، و اندلاع القتال فى ذلك المجتمع المشحون بالأحقاد، و خاصة بالنظر إلى تفشى الأمية و الجهل الملازم عادة للإصابة باللجاج و العناد و العصبية، فإن أفرادا من هذا النوع من الصعب أن يتناسوا أبسط أمورهم فكيف بالأحداث الدامية الكبرى؟ و من هنا تتجلى أهمية المعجزة الاجتماعية التى حققها الإسلام حيث و حد الصفوف، و ألف بين القلوب، و أنسى الأحقاد، تلك المعجزة التى أثبتت أن تحقيق مثل هذه الوحدة و تأليف تلك القلوب المتنافرة المتباغضة، و إيجاد أمة واحدة متآخية من ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۳

الشعب الممزق الجاهل ما كان ليتيسر فى سنوات قليلة بالطرق و الوسائل العادية.

اعتراف العلماء و المؤرخين:

و قد كانت أهمية هذا الموضوع (أى وحدة القبائل العربية المتباغضة بفضل الإسلام) إلى درجة أنها لم تخف على العلماء و المؤرخين، حتّى غير المسلمين منهم، فقد اتفق الجميع فى الإعجاب بهذه المسألة، و إظهارها فى كتاباتهم، و ها نحن نذكر نماذج من ذلك:

يقول «جان ديون پورت» العالم الإنجليزى المشهور: «لقد حول محمّد العربى البسيط، القبائل المتفرقة و الجائعة، الفقيرة فى بلدة إلى مجتمع متماسك منظم، امتازت، فيما بعد- بين جميع شعوب الأرض بصفات و أخلاق عظيمة و جديدة، و استطاع فى أقل من ثلاثين عاما و بهذا الطريق أن يتغلب على الامبراطورية الرومانية، و يقضى على ملوك إيران، و يستولى على سوريا و بلاد ما بين النهرين، و تمتد فتوحاته إلى المحيط الأطلسى و شواطئ بحر الخزر و حتى نهر سيحان (فى جنوب شرقى آسيا الوسطى)[۴۰۲].

و يقول توماس كارليل: «لقد أخرج اللّه العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور و أحيى به منها أمة خاملة لا يسمع لها صوت و لا يحس فيها حركة حتّى صار الخمول شهرة، و الغموض نباهة، و الضعة رفعة، و الضعف قوّة، و الشرارة حريقا، و شمل نوره الأنحاء، و عم ضوؤه الأرجاء و ما هو إلّا قرن بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح له قدم فى الهند، و أخرى فى الأندلس، و عم نوره و نبله و هداه نصف المعمورة»[۴۰۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۴

و يقول الدكتور «غوستاف لوبون»: معترفا بهذه الحقيقة: «... و إلى زمان وقوع هذه الحادثة المدهشة (يعنى الإسلام) الذى أبرز العربى فجأة فى لباس الفاتحين، و صانعى الفكر و الثقافة لم يكن يعد أن جزء من أرض الحجاز من التاريخ الحضارى و لا أنه كان يتراءى فيها للناظر أى شىء أو علامة للعلم و المعرفة، أو الدين»[۴۰۴].

و يكتب «نهرو» العالم و السياسى الهندى الراحل فى هذا الصدد قائلا:

«إن قصة انتشار العرب فى آسيا و أوروبا و أفريقيا و الحضارة الراقية و المدنية الزاهرة التى قدموها للعالم أعجوبة من أعجوبات التاريخ، و لقد كان محمّد واثقا بنفسه و رسالته، و قد هيأ بهذه الثقة و هذا الإيمان لأمته أسباب القوّة و العزّة و المنعة»[۴۰۵].

لقد كان وضع العرب سيئا إلى أبعد الحدود حتّى أن القرآن يصف تلك الحالة بأنهم كانوا على حافة الانهيار و السقوط إذ يقول: وَ

كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها.

و تعنى «شـفا» فى اللغة حافة الهاوية و طرف الحفرة أو الخندق و ما شابه ذلك، و من ذلك «الشـفة»، كما و تسـتعمل لفظة «شـفا» هذه فى البرء من المرض، لأن الإنسان بسببه يكون على حافة السلامة و العافية.

و يريد سـبحانه من قوله هذا: أنكم كنتم على حافة السقوط و الانهيار فى الهاوية، و أن سقوطكم كان محتملا فى كلّ آن و متوقعا فى كلّ لحظة، لتصـبحوا بعد السـقوط رمادا، و خبرا بعد أثر، و لكن اللّه نجاكم من ذلك السقوط المرتقب، و أبدلكم بعد الخوف أمنا، و بدل الانهيار اعتلاء و مجدا، و هداكم إلى حيث الأمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۵

و الأمان فى رحاب الأخوة و المحبة.

و النار فى هذه الآية: هل هى نار الجحيم، أو نيران هذه الدنيا؟ فيها خلاف بين المفسّرين، و لكن النظر فى مجموع الآية يهدى إلى أن النار كناية عن نيران الحروب و المنازعات التى كانت تتأجج كلّ لحظة بين العرب فى العهد الجاهلى بحجج واهية، و لأسباب طفيفة.

فـإن القرآن يصور بهـذه العبارة الوضع الجاهلى المتأزم و يصور أخطار الحروب المـدمرة التى كانت تتهـدد حياة الناس فى كلّ لحظة بالفنـاء و الـدمار و الانهيـار، و مـا من به اللّه سـبحانه عليهم من النجاة و الخلاص من ذلك الوضع فى ظل الإسـلام و بفضل تعاليمه، و الذى بسببه تخلّص المسلمون أيضا من نار جهنم، و عذابه الأليم.

و لمزيـد من التأكيد على ضـرورة الاعتصام بحبل اللّه مع الإعتبار بالماضـى و الحاضـر، يختم سـبحانه الآية بقوله كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

إذن فالهدف الأساسـى هو خلاصـكم و نجاتكم و هدايتكم إلى سـبل الأمن و السـلام، و حيث إن فى ذلك مصلحتكم فإن عليكم أن تعيروا ما بيناه لكم مزيدا من الاهتمام، و مزيدا من العناية.

دور الاتحاد فى بقاء الأمم

رغم كلّ ما قيل عن أهميـة الاتحاد و آثاره العظيمـة فى التقـدّم الاجتماعى عنـد الشـعوب و الأمم فإن من الممكن القول و الادعاء بأن الآثار الواقعية لهذه المسألة لا تزال مجهولة، و غير معروفة كما ينبغى.

إن العـالم يشـهد اليوم سـدودا كـثيرة و كبيرة أقيمت فى مختلف المنـاطق، و قـد أصـبحت منشـأ لإنتـاج أضـخم القوى الصـناعية، فقد استطاعت هذه السدود بفضل ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۶

أنتجت من طاقات و حفظت من مياه كانت تذهب قبل ذلك هدرا، أن تغطى مساحات كبيرة شاسعة بالرى و الإضاءة.

فلو أننـا فكرنـا قليلاـ لوجـدنا أن هـذه القوّة العظيمـة لم تنشأ إلّا من تجمع القوى الصـغيرة، الجزئيـة- أى تجمع قطرات المطر، و حبات الغيث الحقيرة- و من هنا تدرك أهمية اجتماع القوى البشرية و تلاحم الطاقات الإنسانية، و تجمعها، و ما يرافقها من جهود جماعية.

و لقـد عبرت النصوص و الأحاديث المأثورة عن النبى الكريم و أهل بيته الطاهرين- عليهم صـلوات اللّه أجمعين- عن أهمية الاتحاد و الاجتماع بعبارات متنوعة مختلفة.

فتارة

يقول النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» و شبك بين أصابعه ۴۰۶].

و اخرى

يقول صلى اللّه عليه و آله و سلّم «المؤمنون كالنفس الواحدة»[۴۰۷].

و ثالثة

يقول صلى اللّه عليه و آله و سلّم «مثل المؤمنين فى توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر و الحمى»[۴۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۴ الى ۱۰۵]

اشارة

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۴) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۵)

التّفسير

الدعوة إلى الحقّ و مكافحة الفساد:

بعد الآيات السابقة التى حثت على الأخوة و الاتحاد جاءت الإشارة- فى الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين- إلى مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» اللذين هما- فى الحقيقة- بمثابة غطاء وقائى اجتماعى لحماية الجماعة و صيانتها، إذ تقول وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

لأن فقدان «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» يفسح المجال للعوامل المعادية للوحدة الاجتماعية بأن تنخرها من الداخل، و تأتى على كلّ جذورها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۸

كما تفعل الأرضة، و أن تمزق وحدة الأمة و تفرق جمعها، و لهذا فلا بدّ من مراقبة مستمرة و رعاية دائمة لهذه الوحدة، و لا يتم ذلك إلّا بالأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

و هذه الآية تتضمن دستورا أكيدا للأمة الإسلامية بأن تقوم بهاتين الفريضتين دائما، و أن تكون أمة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر أبدا لأن فلاحها رهن بذلك:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

يبقى أن نعرف أن «الأمة» مأخوذة لغة من «الأم» و هو كلّ ما انضم إليه الأشياء الأخرى، أو كلّ شىء ضم إليه سائر ما يليه، و الأمة كلّ جماعة يجمعهم أمر جامع إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد لهذا لا تطلق لفظة الأمة على الأفراد المتفرقين، و الأشخاص الذين لا يربطهم رباط واحد.

سؤال

و هنا يطرح سؤال و هو: أن الظاهر من جملة «منكم أمة» هو جماعة من المسلمين لا كافة المسلمين، و بهذا لا يكون الأمر بالمعروف و

النهى عن المنكر واجبا عامّا، بل وظيفة دينية تختص بفريق من المسلمين، و إن كان انتخاب هذا الفريق الخاصّ من مسئولية المسلمين جميعا.

و بعبارة أخرى أن جملة «منكم أمة» ظاهرة فى أن هذين الأمرين، واجبان كفائيان لا عينيان.

فى حين أن آيات أخرى تفيد بأنهما عامان غير خاصين بجماعة دون اخرى، كما فى آية لا حقة و هى قوله سبحانه كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

أو ما جاء فى سورة «العصر»:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۲۹

الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و التواصى بالحقّ، و التواصى بالصبر فى هذه الآيات و ما شابهها عامة غير خاصّة.

و الجواب:

إن الإمعان فى مجموعة هذه الآيات يوضح لنا الجواب، فإنه يستفاد منها أن «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر» مرحلتين: «المرحلة الفردية» التى يجب على كلّ واحد القيام بها بمفرده، إذ يجب عليه أن يراقب تصرفات الآخرين، و «المرحلة الجماعية» و هى التى تعتبر من مسئولية الأمة بما هى أمة، حيث يجب عليها أن تقوم بمعالجة كلّ الاعوجاجات و الانحرافات الاجتماعية، و تضع حدّا لها، بالتعاون بين أفرادها و أعضائها كافة.

و يعتبر القسم الأول من وظيفة الأفراد، فردا فردا، و حيث إن إمكانات الفرد و قدراته محدودة، و لذلك فإن إطار هذا القسم يتحدد بمقدار هذه الإمكانات.

و أمّا القسم الثانى فإنه يعتبر واجبا كفائيا، و حيث إنه من واجب الأمة بما هى أمة فإن حدوده يتسع و لهذا يكون من واجبات الحكومة الإسلامية، و شؤونها بطبيعة الحال.

إن وجود هذين النوعين من مكافحة الفساد، و الدعوة إلى الحقّ يعتبران- بحقّ- من أهم التعاليم التى تتوج القوانين الإسلامية، كما و يكشف عن سياسة تقسيم الواجبات و الوظائف و توزيع الأدوار فى الدولة الإسلامية، و عن لزوم تأسيس «فريق المراقبة» للنظارة على الأوضاع الاجتماعية و المؤسسات المختلفة فى النظام الإسلامى.

و قد جرت العادة فيما سبق بوجود أجهزة خاصّة تقوم بمهمة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فى المستوى الاجتماعى فى البلاد الإسلامية، و قد كانت تسمى هذه الأجهزة تارة باسم «دائرة الحسبة» و يسمى موظفوها بالمحتسبين، و تارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۰

باسم الآمرين بالمعروف،. و قد كانت هذه الأجهزة بسبب موظفيها تقوم بمكافحة كلّ فساد فى المجتمع، أو كل فساد و ظلم فى أجهزة الدولة، إلى جانب ما تقوم به من تشجيع الناس على الخير و الحثّ على المعروف.

و مع وجود مثل هذه الجماعة بما لها من القوة الواسعة لا يوجد أى تناف بين شمول فريضة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر عليها و على الفرد بما له من القدرة المحدودة. إذ يكون الأمر و النهى الواسعان من واجب الدولة الإسلامية لا الفرد.

و حيث إن هذا البحث يعتبر من أهم الأبحاث القرآنية و قد أشارت إليه آيات كثيرة فى الكتاب العزيز لذلك يلزم أن نذكر أمورا فى هذا المجال:

۱- ما هو «المعروف» و ما هو «المنكر»؟

«المعروف» هو کلّ ما یعرف و هو مشتق من عرف، و «المنکر» کلّ ما ینکر و هو مشتق من الإنکار، و بهذا النحو و صفت الأعمال الصالحة بأنها امور معروفة، و الأعمال السیّئة و القبیحة امور منکرة، لأن الفطرة الإنسانیة الطاهرة تعرف القسم الأول و تنکر القسم الثانی.

۲- هل الأمر بالمعروف واجب عقلی أو تعبدی؟

یعتقد جماعة من علماء المسلمین أن وجوب هاتین الفریضتین لم یثبت إلّا بالدلیل النقلی، و أن العقل لا یحکم بوجوب النهی عن منکر لا یتعدی ضرره إلی غیر فاعله.

و لکن نظرا إلی العلاقات الاجتماعیة، و ما للمنکر من الآثار السیئة التی لا تنحصر فی نقطة وقوعها، بل تتعداها إلی العلاقات الاجتماعیة إذ یمکن سرایة شرارته إلی کلّ نواحی المجتمع تتضح الأهمیة العقلیة لهاتین الوظیفتین.

و بعبارة أخری: لیس هناک فی المجتمع ما یکون «ضررا فردیا» ینحصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۱

نطاقه علی الفرد خاصة، بل کلّ ضرر فردی یمکن أن ینقلب إلی «ضرر اجتماعی» و لهذا یؤکد العقل و المنطق السلیم لأفراد المجتمع بأن لا یألوا جهدا فی الإبقاء علی سلامة البیئة الاجتماعیة و طهارتها من کلّ دنس.

و قد أشیر إلی هذا فی بعض الأحادیث.

فعن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال: «مثل القائم علی حدود اللّه و المرهن فیها کمثل قوم استهمّوا علی سفینة فی البحر فأصاب بعضهم أعلاها و أصاب بعضهم أسفلها ... فقال الذین فی أسفلها: إننا ننقبها من أسفلها فتستقی، فإن أخذوا علی أیدهم فمنعوهم نجوا جمیعا، و إن ترکوهم غرقوا جمیعا»[۴۰۹].

و لقد جسد النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم- بهذا المثال الرائع- موضوعیة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و منطقیة هاتین الفریضتین بغض النظر عن أمر الشارع بهما، و بذلک قرر حقّ الفرد فی النظارة علی المجتمع علی أساس أنه حقّ طبیعی ناشئ من اتحاد المصائر فی المجتمع، و ارتباط بعضها ببعض.

۳- أهمیة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر هناک علاوة علی الآیات القرآنیة الکثیرة، أحادیث مستفیضة فی المصادر الإسلامیة المعتبرة تتحدث عن أهمیة هاتین الفریضتین الاجتماعیتین الکبیرتین، قد أشیر فیها إلی العواقب الخطیرة المترتبة علی تجاهل و ترک هاتین الوظیفتین فی المجتمع، نذکر من باب المثال طائفة منها:

۱-

عن الإمام الباقر علیه السّلام قال: «إن الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر فریضة عظیمة بها تقام الفرائض، و تأمن المذاهب، و تحل المکاسب، و ترد المظالم، و تعمر الأرض و ینتصف من الأعداء، و یستقیم الأمر»[۴۱۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۲

۲-

قال النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أمر بالمعروف و نهی عن المنکر فهو خلیفة اللّه فی أرضه، و خلیفة رسول اللّه و خلیفة کتابه»[۴۱۱].

۳-

جاء رجل إلی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و هو علی المنبر فقال: یا رسول اللّه من خیر الناس؟

قال: «آمرهم بالمعروف، و أنهاهم عن المنکر و أتقاهم للّه و أرضاهم»[۴۱۲].

۴-

فی حدیث عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «لتأمرون بالمعروف، و تنهون عن المنکر، أو لیسلطن اللّه علیکم سلطانا ظالما لا یجل کبیرکم و لا یرحم صغیرکم، و تدعو خیارکم فلا یستجاب لهم، و تستنصرون فلا تنصرون، و تستغیثون فلا تغاثون، و تستغفرون فلا تغفرون»[۴۱۳].

هذه الأمور کلّها هی الآثار الطبیعیة لموقف المجتمع الذی یعطل هاتین الوظیفتین الاجتماعیتین العظیمتین، لأن ترک النظارة العامّة علی ما یجری فی المجتمع یلازم خروج الأمور من قبضة الصالحین، و الإفساح للأشرار بأن یتسلموا أزمة الأمور و مقدرات المجتمع و یحکموا فیه بأهوائهم، فیقع ما یقع من المآسی و تصاب الجماعة بما ذکره الحدیث المتقدم من التبعات و المفاسد.

و ما ذکر فی الحدیث من عدم قبول توبتهم أیضا لأنه لا معنی لقبول التوبة مع استمرارهم علی السکوت اللهم إلّا أن یعیدوا النظر فی سلوکهم.

۵-

عن علی علیه السّلام: «و ما أعمال البر کلّها و الجهاد فی سبیل اللّه عند الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر إلّا کنفثة فی بحر لجیّ»[۴۱۴].

کل هذه التأکیدات هی لکون هاتین الوظیفتین العظیمتین خیر ضمان لإجراء و تنفیذ بقیة الوظائف الفردیة و الاجتماعیة، و لأنهما بمثابة الروح لها، فبترکهما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۳

تندرس کلّ الأحکام و القیم الأخلاقیة و تفقد قیمتها و تختفی من حیاة المجتمع.

۴- هل الأمر بالمعروف یوجب سلب الحریات؟

فی الإجابة علی هذا السؤال لا بدّ من القول بأن النمط الجماعی للحیاة و إن کان- بلا ریب- ینطوی علی فوائد کثیرة لأفراد البشر، بل إن هذه المزایا هی التی دفعت الإنسان لیختار الحیاة الاجتماعیة، إلّا أنه ینطوی فی مقابل ذلک علی بعض التقییدات لحریات الأفراد، و لکن بما أن ضرر هذه التقییدات الجزئیة ضئیل تجاه الفوائد الجمة التی تنطوی علیها الحیاة الاجتماعیة اختار الإنسان النمط الاجتماعی منذ الأیّام الأولی من حیاته علی هذا الکوکب متحملا کلّ التقییدات.

و حیث إن مصائر الأفراد ترتبط ببعضها فی الحیاة الاجتماعیة، و یؤثر بعضها فی بعض بمعنی أن الجمیع فی الحیاة الاجتماعیة یشترکون فی مصیر واحد، لذلک کان حقّ النظارة علی تصرفات الآخرین و سلوکهم حقّا طبیعیا تقتضیه الحیاة الجماعیة، کما جاء ذلک فی الحدیث الرائع الذی نقلناه آنفا عن الرسول الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا المجال.

و علی هذا فإن الأمر بالمعروف لا ینافی الحریات الفردیة فحسب، بل هو وظیفة کلّ فرد تجاه الفرد الآخر، لأن من شأنه الإبقاء علی سلامة الآخرین و استقامة أمورهم، و من ثمّ سلامة الفرد نفسه و استقامة أمره.

۵- ألا یلازم الأمر بالمعروف الفوضی الاجتماعیة؟

هناک سؤال آخر یطرح نفسه فی هذا المجال و هو إذا سمحنا للناس بأن یتدخلوا فی شؤون الآخرین و تکون لهم النظارة علی أعمالهم و تصرفاتهم، فإن ذلک یوجب وقوع الفوضی فی المجتمع، إذ تحصل بسببه المصادمات بین الأفراد، و لأنه یخالف مبدأ توزیع الواجبات و المسؤولیات فی الحیاة الاجتماعیة فما هو الجواب؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۴

فی الإجابة علی هذا السؤال لا بدّ من القول: بأن الأبحاث السابقة قد أوضحت أن لوظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر مرحلتین: المرحلة الأولی: و هی المرحلة العمومیة، و هی ذات إطار محدود لا یتجاوز التذکیر، و العظة، و الاعتراض، و النقد و ما شابه ذلک، و لا شکّ أن المجتمع إذا أراد أن یکون حیّا لا بدّ أن یشعر أفراده جمیعا بمثل هذه المسؤولیة تجاه المفاسد، و بمثل هذا الشعور تجاه

المنكرات.

و أمّا المرحلة الثانية التى تختص بجماعة معيّنة و خاصة، و تكون من شؤون الحكومة الإسلامية فهى أوسع إطارا، و أكبر مسئولية، و أكثر قوة، بمعنى أن الأمر إذا تطلب استخدام القوة، و حتى إجراء القصاص و إجراء الحدود كان من صلاحيات هذه الجماعة أن تقوم به تحت نظر الحاكم الشرعى، و مسئولى الحكومة الإسلامية، و هذا القسم هو الذى يقع بسببه الهرج و المرج لو أنيط إلى كلّ من هب و دب، دون القسم الأول الذى لا يتجاوز النصح و التذكير، و الاعتراض و الإعراض.

إذن فبملاحظة المراحل المختلفة فى هذه الوظيفة الدينية، و ما لكلّ واحدة منها من الحدود و الأبعاد، فإن القيام بهذه الوظيفة لا يستوجب الهرج و المرج فى المجتمع، بل يخرج المجتمع من صورة الجماعة الميتة الخامدة، إلى صورة المجتمع الحى النابض، و الجماعة المتحركة الصاعدة.

۶- الأمر بالمعروف غير العنف فى ختام هذا البحث لا بدّ من التذكير بهذه الحقيقة و هى أنّه لا بدّ فى القيام بهذه الفريضة الإلهية السامية و الدعوة إلى الحقّ و مكافحة الفساد من حسن النية، و سلامة الهدف، و الشعور بالمسؤولية، كما يجب أن يتم بالطرق السلمية، و من هنا لا يمكن اعتباره عملا خشنا ملازما للعنف إلّا فى بعض الموارد الضرورية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۵

بيد أن البعض- مع الأسف- يستخدم العنف و الخشونة لدى القيام بهذا الواجب المقدس فى غير الموارد الضرورية التى تستدعى مثل ذلك، و ربما توسل بالسب و الشتم، و لهذا نرى أن مثل هذه الممارسات لا تترك أثرا ايجابيا، بل تعطى فى الأغلب نتائجها العكسية، و ثمارها السلبية، فى حين ترينا سيرة الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السّلام غير ذلك، فهم كانوا يستعملون- فى هذه الوظيفة المقدسة- منتهى اللطف و المحبة، و غاية الأدب و الاتزان، و لهذا كانوا يؤثرون غاية التأثير، و يتركون أفضل النتائج حتّى أنهم كانوا يطوعون بذلك النهج أعتى الأفراد، و أكثرهم عنادا و جفافا-.

جاء فى تفسير «المنار» فى معرض الحديث عن هذه الآية: أن غلاما شابا أتى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: أ تأذن لى فى الزنا؟

فصاح الناس به فقال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: قربوه ادن، فدنا حتّى جلس بين يديه فقال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أ تحبّه لأمّك؟

قال لا، جعلنى اللّه فداءك.

قال: كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أ تحبه لابنتك؟

قال: لا، جعلنى اللّه فداءك.

قال: كذلك لا يحبونه لبناتهم، أ تحبه لأختك؟

قال: لا، جعلنى اللّه فداءك.

فوضع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يده- على صدره و قال:

«اللهم طهر قلبه، و اغفر ذنبه، و حصن فرجه».

فلم يكن شىء أبغض إليه من الزنا[۴۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۶

و كان هذا هو الأثر الطبيعى للأسلوب اللين فى النهى عن المنكر.

الفرقة بعد الاتحاد من شيم النصارى و اليهود:

تقتضى أهمية الوحدة أن يركز القرآن الكريم و يؤكد عليها مرّة بعد أخرى، و لذا يذكر بأهمية الاتحاد، و يحذر من تبعات الفرقة و النفاق و آثارها المشؤومة، بقوله وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ

إن هذه الآية تحذر المسلمين من أن يتبعوا- كالأقوام السابقة مثل اليهود و النصارى- سبيل الفرقة و الاختلاف بعد أن جاءتهم البينات و توحدت صفوفهم عليها، فيكسبوا بذلك العذاب الأليم.

إنه فى الحقيقة يدعو المسلمين إلى أن يعتبروا بالماضى، و يتأملوا فى حياة السابقين، و ما آلوا إليه من المصير المؤلم، بسبب الاختلاف و التشتت.

إنها لفتة تاريخية من شأنها أن توقفنا على ما ينتظر كلّ أمة من سوء العواقب إذا هى سلكت سبيل النفاق، و تفرقت بعد ما توحدت، و تشتّتت بعد ما تجمعت.

إن إصرار القرآن الكريم فى هذه الآيات على اجتناب الفرقة و النفاق إنما هو تلميح إلى أن هذا الأمر سيقع فى المجتمع الإسلامى مستقبلا، لأن القرآن لم يحذّر من شىء أو يصر على شىء إلّا و كان ذلك إشارة على وقوعه فى المستقبل.

و لقد تنبأ الرسول الأكرم بهذه الحقيقة و أخبر المسلمين عنها، بصراحة إذ قال:

«إن أمة موسى افترقت بعده على إحدى و سبعين فرقة، و افترقت أمة عيسى بعده على اثنتين و سبعين فرقة، و أن أمتى ستفترق بعدى على ثلاث و سبعين فرقة»[۴۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۷

و الظاهر أن عدد (۷۰) إشارة إلى الكثرة فهو عدد تكثيرى، لا عدد إحصائى، فالرواية تعنى ان فرقة واحدة فقط بين اليهود و النصارى هى المحقّة الناجية، و فرقا كثيرة فى النار، و هكذا الحال فى المسلمين و ربّما يزداد عدد اختلافات المسلمين على ذلك.

و لذا أشار القرآن الكريم بما أخبر الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا إلى ما يقع بين المسلمين بعد وفاته من الاختلاف و الفرقة، و الخروج عن الطريق المستقيم الذى لا يكون إلّا طريقا واحدا، و الانحراف عن جادة الحقّ فى العقائد الدينية، بل و يذهب المسلمون- فى هذا الاختلاف- إلى حد تكفير بعضهم بعضا، و شهر السيوف، و التلاعن و التشاتم، و هدر النفوس، و استحلال الدماء و الأموال، بل و يبلغ الاختلاف بينهم أن يلجأ بعض المسلمين إلى الكفّار، و إلى مقاتلة الأخ أخاه.

و بهذا تتبدل الوحدة التى كانت من أسباب تفوق المسلمين السابقين و نجاحهم إلى النفاق و الاختلاف و التشرذم و التمزق، و تنقل حياتهم السعيدة إلى حياة شقية، و تحلّ الذلة محل العزّة، و الضعف مكان القوة و تتبدد العظمة السامية، و ينتهى المجد العظيم.

أجل إن الذين يسلكون سبيل الاختلاف بعد الوحدة، و الفرقة بعد الاتحاد سيكون لهم عذاب أليم.

أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

إنّه ليس من شكّ فى أن نتيجة الاختلاف و الفرقة لن تكون سوى الذلة و الانكسار، فذلك هو سر سقوط الأمم و ذلتها، إنه الاختلاف و التشتت، و النفاق و التدابر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۸

إن المجتمع الذى تحطمت وحدته بسبب الفرقة، و تفتت تماسكه بسبب الاختلاف، سيتعرض- لا محالة- لغزو الطامعين، و ستكون حياته عرضة لأطماع المستعمرين، بل و مسرحا لتجاوزاتهم، و ما أشد هذا العذاب، و ما أقسى هذه العاقبة؟ أجل تلك هى عاقبة النفاق و الاختلاف فى الدنيا.

و أما عذاب الآخرة فهو- كما وصفه اللّه تعالى فى القرآن الكريم- أشد و أخرى. فذلك هو ما ينتظر المفرّقين المختلفين، و ذلك هو ما يجب أن يتوقعه كلّ من حبذ النفاق على الاتفاق، و التدابر على التآلف، و التشتت على الاجتماع ...

خزى فى الدنيا، و عذاب أخزى فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۳۹

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۷]

اشارة

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۱۰۶) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۰۷)

التّفسير

الوجوه المبيضة و الوجوه المسودة:

فى تعقيب التحذيرات القوية التى تضمنتها الآيات السابقة بشأن التفرقة و النفاق و العودة إلى عادات الكفر و نعرات الجاهلية، جاءت الآيتان الحاضرتان تشيران إلى النتائج النهائية لهذا الارتداد المشؤوم إلى خلق الجاهلية و عاداتها، و تصرحان بأن الكفر و النفاق و التنازع و العودة إلى الجاهلية توجب سواد الوجه، فيما يوجب الثبات على طريق الإيمان و الاتحاد، و المحبة و التآلف، بياض الوجوه، فتقول يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ ففى يوم القيامة تجد بعض الناس وجوههم مظلمة سوداء، و البعض الآخر وجوههم نقية بيضاء و نورانية فَأَمَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۰

الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ فلما ذا اخترتم طريق النفاق و الفرقة و الجاهلية على الاتحاد فى ظلّ الإسلام، فذوقوا جزاءكم العادل، و أما المؤمنون فغارقون فى رحمة اللّه وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

إن هاتين الآيتين تصرحان بأن المنافقين و المتفرقين بعد ما جاءتهم البينات هم المسودة وجوههم الذائقون للعذاب الأليم بسبب كفرهم، و أما المؤمنون المتآلفون المتحابون المتحدون فهم فى رحمة اللّه و رضوانه مبيضة وجوههم.

و لقد قلنا مرارا أن ما يلاقيه الإنسان من الأوضاع و الحالات، و من الثواب و العقاب فى الحياة الآخرة ليس فى الحقيقة سوى أفكاره و أعماله و تصرفاته المجسمة التى قام بها فى هذه الحياة الدنيا، فهما و جهان لعملة واحدة، إنه تجسم صادق و دقيق لما كان ينويه أو يعمله هنا ليس إلّا.

و بعبارة أخرى: أن لكل ما يفعله الإنسان فى هذه الحياة آثارا واسعة تبقى فى روحه، و قد لا تدرك فى هذه الحياة، و لكنها تتجلّى- بعد سلسلة من التحولات- فى الآخرة، فتظهر بحقائقها الواقعية، و حيث إن جانب الروح يكون أقوى فى الآخرة، إذ تشتد حاكميتها و سيادتها على الجانب الآخر من الكيان البشرى من هنا يكون لتلك الآثار انعكاساتها حتّى على الجسد، فتبدو الآثار المعنوية للأعمال محسوسة كما يكون الجسد محسوسا لكلّ أحد.

فكما ان الإيمان و الاتحاد يوجبان الرفعة و بياض الوجوه فى هذا العالم، و يوجب العكس العكس، أى أن الكفر و الاختلاف يوجبان للأمة الكافرة المتفرقة سواد الوجه و الذلة، فإن هذا البياض و السواد (المجازيين) فى الدنيا يظهران فى الآخرة بصورة حقيقية حيث يحشر المؤمنون المتحدون المتآلفون بيض الوجوه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۱

بینما یحشر الکافرون المتفرقون المتخاصمون سود الوجوه.

و تلک حقیقة أشارت إلیها آیات اخری فی القرآن الکریم فی شأن من یتمادی فی المعصیة و یأتی بالذنب تلو الذنب، و الإثم بعد الإثم إذ یقول سبحانه: کَأَنَّما أُغْشِیَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّیْلِ مُظْلِماً[۴۱۷].

و یقول فی شأن الذین یفترون علی اللّه الکذب وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ تَرَی الَّذِینَ کَذَبُوا عَلَی اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ[۴۱۸].

و کلّ هذه الأمور هی المردودات و الآثار الطبیعیة لما یأتیه الإنسان فی عالم الدنیا من الأعمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۲

الآیتان [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۰۸ الی ۱۰۹]

اشارة

تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ (۱۰۸) وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۱۰۹)

التّفسیر

هذه الآیة إشارة إلی ما تعرضت الآیات السابقة له حول الإیمان و الکفر، و الاتحاد، و الاختلاف، و الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و آثارها و عواقبها، إذ تقول: تِلْکَ آیاتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَیْکَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ فکلّ هذه الآیات تحذیرات عن تلک العواقب السیئة التی تترتب علی أفعال الناس أنفسهم وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعالَمِینَ و إنما هی آثار سیئة یجنیها الناس بأیدیهم.

و یدلّ علی ذلک أن اللّه لا یحتاج إلی ظلم أحد، کیف و هو القوی المالک لکلّ شیء و إنما یحتاج إلی الظلم الضعیف، و إلی هذا یشیر قوله سبحانه وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۶۴۲

لآیة- فی الحقیقة- تشتمل علی دلیلین علی عدم صدور الظلم منه سبحانه:

الأوّل: إن اللّه مالک الوجود کلّه فله ما فی السماوات و ما فی الأرض، فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۳

معنی للظلم و لا موجب له عنده، و إنما یظلم الآخرین و یعتدی علیهم من یفقد شیئا، و إلی هذا یشیر المقطع الأول من الآیة و هو قوله تعالی: وَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ

الثانی: إن الظلم یمکن صدوره ممّن تقع الأمور دون إرادته و رضاه، أما من ترجع إلیه الأمور جمیعا، و لیس لأحد أن یعمل شیئا بدون إذنه فلا یمکن صدور الظلم منه، و إلی هذا یشیر قوله سبحانه: وَ إِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۴

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۱۰]

اشارة

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (۱۱۰)

التّفسير

مكافحة الفساد و الدعوة إلى الحقّ أيضا:

فى هذه الآية تطرح مرّة أخرى مسألة «الأمر بالمعروف» و «النهى عن المنكر»، و تعتبر الآية الحاضرة هاتين المسألتين واجبين عموميين كما مرّ فى تفسير الآية (۱۰۴)، بينما تبين الآية السابقة مرحلة خاصّة، و هى مرحلة الوجوب الكفائى أى الخاصّ بجماعة معينة، كما مرّ تفصيله.

فالآية السابقة تشير إلى القسم الخاصّ، و هذه الآية تشير إلى القسم العام من هاتين الفريضتين.

و الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يصف المسلمين- فى هذه الآية- بأنهم خير أمة هيئت و عبئت لخدمة المجتمع الإنسانى، و الدليل على أن هذه الأمة خير أمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۵

رشحت لهذه المهمة الكبرى هو «قيامها بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و إيمانها باللّه» و هذا يفيد أن إصلاح المجتمع البشرى لا يمكن بدون الإيمان باللّه و الدعوة إلى الحقّ، و مكافحة الفساد، كما و يستفاد من ذلك أن هاتين الوظيفتين مع ما هما عليه من السعة فى الإسلام ممّا تفرد بهما هذا الدين من دون بقية الشرائع السابقة.

أما لماذا يجب أن تكون هذه الأمة خير الأمم، فسببه واضح كذلك. لأنها تختص بآخر الأديان الإلهية و الشرائع السماوية، و لا شكّ أن هذا يقتضى أن يكون أكمل الشرائع و أتمها فى سلم الأديان.

وقفتان عند هذه الآية:

ثمّ إنه يتعين علينا أن ننتبه إلى نقطتين أخريين فى هذه الآية و هما:

الأولى: التعبير بلفظ الماضى «كنتم» يعنى أنكم كنتم كذلك فى السابق، و مفهوم هذا التعبير و إن كان موضع احتمالات كثيرة بين المفسّرين، إلّا أن ما يترجح عند النظر هو أن التعبير بالمضى إنما هو لأجل التأكيد، و التلويح بأن الشىء محقّق الوقوع، و لذلك نظائر كثيرة فى الكتاب العزيز حيث عبّر عن القضايا المحقّقة الوقوع بصيغة الفعل الماضى، لإفادة أن ذلك ممّا يقع حتما حتّى أنه نزل منزلة الماضى الذى قد تحقّق فعلا.

الثانية: أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر قدّما- فى هذه الآية- على الإيمان باللّه، و ذلك خير شاهد على أهمية هاتين الفريضتين الإلهيتين- و خطورتهما- مضافا إلى أن القيام بهذين الواجبين المقدسين ممّا يوجب انتشار الإيمان، و اتساع رقعته، و تعميق جذوره فى النفوس، و تنفيذ كلّ القوانين الفردية و الاجتماعية، و لا ريب أن ما يضمن تنفيذ القانون و تطبيقه مقدّم على نفس القانون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۶

بل إن تعطيل هذين الواجبين يوجب ضعف العقائد فى القلوب، و انهيار قواعد الإيمان فى النفوس، و لهذا كلّه كان طبيعيا أن يقدّما على الإيمان.

من هـذا البيـان يتضـح أن المسـلمين «خير أمـة» مـا داموا يـدعون إلى الخير و يـأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، فإذا نسوا هاتين الفريضتين و أهملوهما لم يعودوا خير أمة، كما لم يعودوا فى خدمة المجتمع البشرى أبدا.

على أن المخاطب فى هـذه الآيـة هم عموم المسـلمين فى جميع العصور كما هو الحال فى كلّ الخطابات القرآنيـة، فما احتمله البعض من أنه خاص بالمهاجرين أو المسلمين الأوائل لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه.

ثم إن الآية تشير إلى أن دينا بمثل هذا الوضوح، و تشريعا بمثل هذه العظمة، و تعاليم تنطوى على مثل هذه الفوائد التى لا تنكر، ينبغى أن يؤمن به أهـل الكتاب من اليهود و النصارى لأن فى ذلك صـلاحهم، و خيرهم إذ يقول سـبحانه: وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ

و لكن- و للأسف- لم يؤمن به إلّا قلّة ممّن نبـذ التعصب الأعمى، و اعتنق الإسـلام برغبـة صادقـة، و اسـتقبل هذا الدين برحابة صدر، فيمـا أعرض الأـكثرون منهم، و فضـلوا البقـاء على مـا هم عليه من الكفر و العصبيـة على إتباع هـذا الأمر الإلهى، متجاهلين حتّى تلك البشائر التى نطقت بها كتبهم حول هـذا الـدين و إلى هـذا يشـير سـبحانه بقوله مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِـقُونَ الخارجون عن هذا الأمر الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

اشارة

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۱۱) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُـرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۱۱۲)

سبب النّزول

عنـد ما أقدم بعض ذوى الضـمائر المستيقظة من كبار اليهود مثل عبد اللّه ابن سـلام على ترك دينهم و اعتناق الإسـلام عمد جمع من رؤوس اليهود إليهم و أنّبوهم لإسلامهم، بل و هددوهم لتركهم دين الآباء، و اعتناق الإسلام، فنزلت هذه الآيات لتثبيتهم، و تبشيرهم و تبشير المسلمين بالظفر.

التّفسير

اشارة

تبشر الآية الأولى المسلمين الذين يواجهون ضغوطا شديدة و تهديدات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۸

أحيانا من جانب قومهم الكافرين بسـبب اعتناق الإسـلام، تبشـرهم و تعدهم بأنهم منصورون، و أن أهل الكتاب لا يقدرون عليهم و لا تنـالهم من جهتهم مضـرة، و أن مـا سـيلحقهم من الأـذى من جـانبهم لن يكون إلّا طفيفا و عابرا: لَنْ يَضُـرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ

يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

إن هاتين الآيتين تحتويان- فى الحقيقة- على عدّة أخبار غيبية، و بشائر مهمة للمسلمين قد تحقق جميعها فى زمن النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حياته الشريفة و هى:

۱- إن أهل الكتاب لا يقدرون على إلحاق أى ضرر مهم بالمسلمين، و أن ما يلحقونه بهم لن يكون إلّا أضرارا بسيطة، و عابرة لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً

۲- إنهم لن يثبتوا- فى القتال- أمام المسلمين، بل ينهزمون و يكون الظفر للمسلمين، و لا يجدون ناصرا و لا معينا: وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

۳- إنهم لن يستطيعوا الوقوف على أقدامهم و لن يتمكنوا من العيش مستقلين، بل سيبقون أذلاء دائما، إلّا أن يعيدوا النظر فى سلوكهم، و يسلكوا طريق اللّه، أو أن يعتمدوا على الآخرين و يستعينوا بقوتهم إلى حين: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ

و لم يمض على هذه الوعود الإلهية و البشائر المساوية زمن حتّى تحققت برمّتها فى حياة الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و خاصّة بالنسبة إلى اليهود القاطنين فى الحجاز (بنى قريظة، و بنى النضير، و بنى قينقاع، و يهود خيبر و بنى المصطلق) الذين آل أمرهم إلى الهزيمة فى جميع ميادين القتال و الاندحار أمام القوى الإسلامية بعد أن اقترفوا سلسلة من التحرشات و المؤامرات ضد الإسلام و المسلمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۴۹

اليهود و المصير الخطير:

إن الآيات المذكورة و إن لم تصرح باسم اليهود و لكن بقرينة القرائن الموجودة فى هذه الآية و الآيات السابقة و كذا بقرينة الآية ۶۱ من سورة البقرة و نظائرها ممّا صرّح فيه باسم اليهود يستفاد أن قوله تعالى: ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ يرتبط باليهود، و يعنيهم.

ففى هذا المقطع من الآية يقول سبحانه: أن أمام اليهود طريقين يستطيعون بهما أن يتخلصوا من لباس الذلة:

إما أن يعودوا إلى اللّه، و يعقدوا حبلهم بحبله، و إما أن يتمسكوا بحبل من الناس، و يعتمدوا على هذا و ذاك، و يعيشوا ذيولا و أتباعا للآخرين.

و تعنى لفظة «ثقفوا» المأخوذة من «ثقف» على وزن «سقف». الحذق فى إدراك الشىء، و الظفر به بمهارة.

و يقصد القرآن من ذلك: أن اليهود أينما وجدوا فإنهم يوجدون و قد ختموا بخاتم الذلة على جباههم مهما حاولوا إخفاء ذلك- و كان ذلك هى الصفة البارزة لهم بسبب مواقفهم المشينة من تعاليم السماء، و رسالات الأنبياء العظام، إلّا إذا عادوا إلى منهج السماء، أو استعانوا بهذا أو ذاك من الناس لتخليصهم من هذا الذل.

و إنقاذهم من هذا الهوان.

و أما التعبير بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ و إن ذهب المفسّرون فيه إلى احتمالات عديدة، بيد أن ما قد ذكر قريبا يمكن أن يقال بأنه أنسب إلى الآية من بقية الاحتمالات، لأنه عند ما يوضع «حبل اللّه» فى قبال «حبل من الناس» يتبين أن هناك معنى متقابلا متفاوتا لهما لا أن الأول بمعنى الإيمان باللّه، و الثانى بمعنى العهد المعطى لهم من جانب المسلمين على وجه الأمان و الذمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۰

و على هـذا تكون خلاصة المفهوم من هذه الآية هى: إن على اليهود أن يعيدوا النظر فى برنامج حياتهم، و يعودوا إلى اللّه، و يمسحوا عن أدمغتهم كلّ الأفكار الشيطانية، و كلّ النوايا الشريرة، و يطرحوا النفاق و البغضاء للمسلمين جانبا، أو أن يستمروا فى حياتهم النكدة المزيجة بالنفاق، مستعينين بهذا أو ذاك. فأما الإيمان باللّه و الدخول تحت مظلته و فى حصنه الحصين، و أما الاعتماد على معونة الناس الواهية. و الاستمرار فى الحياة التعسة.

اليهود و المسكنة الدائمة:

لقد كان أمام اليهود طريقان: إما أن يعودوا إلى منهج اللّه، و إما أن يبقوا على سلوكهم فيعيشوا أذلاء ما داموا، و لكنهم اختاروا الثانى و لهذا لزمتهم الذلة وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ.

و لفظة «باءوا» تعنى فى الأصل المراجعة و اتخاذ السكنى، و قد استخدمت هنا للكناية عن الاستحقاق فيكون المعنى: أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى استحقوا الجزاء الإلهى، و اختاروا غضب اللّه كما يختار الإنسان مسكنا و منزلا للإقامة.

و أمّا لفظة «مسكنة» فتعنى الذلة و الانقطاع الشديد الذى لا تكون معه حيلة أبدا، و هى مأخوذة من السكون أصلا، لأن المساكين لشدة ما بهم من الفقر و الضعف لا يقدرون على أية حركة، بل هم سكون و جمود.

ثمّ إنه لا بدّ من الالتفات إلى أن المسكين لا يعنى المحتاج و المعدم من الناحية المالية خاصّة، بل يشمل هذا الوصف كلّ من عدم الحيلة و القدرة على جميع الأصعدة، فيدخل فيه كلّ ضعف و عجز و افتقار شديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۱

و يرى البعض أن الفرق بين الذلة و المسكنة هو أن الذلة ما كان مفروضا على الإنسان من غيره، بينما تكون المسكنة ناشئة من عقدة الحقارة و ازدراء الذات، أى أن المسكين هو من يستهين بشخصيته و مواهبه و ذاته، فتكون المسكنة نابعة من داخله، بينما تكون الذلة مفروضة من الخارج.

و على هذا الأساس يكون مفاد قوله تعالى وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ هو: أن اليهود بسبب إقامتهم على المعاصى و تماديهم فى الذنوب أصيبوا بأمرين: أولا: طردوا من جانب المجتمع و حل عليهم غضب اللّه سبحانه، و ثانيا: إن هذه الحالة «أى الذلة» أصبحت تدريجا صفة ذاتية لازمة لهم حتّى أنهم رغم كلّ ما يملكون من امكانيات و قدرات مالية و سياسية، يشعرون بحقارة ذاتية، و صغار باطنى، و لهذا لا نجد أى استثناء فى ذيل هذه الجملة من الآية.

و هذا هو ما يشير إليه قوله سبحانه إذ يقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ* وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ و بذلك يشير سبحانه إلى علة هذا المصير الأسود الذى يلازم اليهود، و لا يفارقهم.

إنهم لم يصابوا بما أصيبوا به من ذلة و مسكنة، و حقارة و صغار لأسباب قومية عنصرية أو ما شابه ذلك، بل لما كانوا يرتكبونه من الأعمال فهم:

أولا: كانوا ينكرون آيات اللّه و يكذبون بها.

ثانيا: يصرون على قتل الأنبياء الهداة الذين ما كانوا يريدون سوى إنقاذ الناس من الجهل و الخرافة، و تخليصهم من الشقاء و العناء.

ثالثا: إنهم كانوا يرتكبون كلّ فعل قبيح، و يقترفون كلّ جريمة نكراء، و يمارسون كلّ ظلم فظيع، و تجاوز على حقوق الآخرين، و لا شكّ أن أى قوم يرتكبون مثل هذه الأمور يصابون بمثل ما أصيب به اليهود، و يستحقون ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۲

استحقوه من العذاب الأليم و المصير الأسود.

مصير اليهود المظلم:

إن التاريخ اليهودى الزاخر بالأحداث و الوقائع يؤيد ما ذكرته الآيات السابقة تأييدا كاملا، كما أن وضعهم الحاضر هو الآخر خير دليل على هذه الحقيقة، أى أن الذلة اللازمة لليهود و الصغار الملتصق بهم أينما حلوا و نزلوا، ليس حكما تشريعيا كما قال بعض المفسّرين، بل هو قضاء تكوينى، و هو حكم التاريخ الصارم الذى يقضى بأن يلازم الذلة، و يصاب بالصغار كلّ قوم يتمادون فى الطغيان، و يغرقون فى الآثام، و يتجاوزون على حقوق الآخرين و حدودهم، و يسعون فى إبادة القادة المصلحين و الهداة المنقذين، إلّا أن يعيد هؤلاء القوم النظر فى سلوكهم، و يغيروا منهجهم و طريقتهم، و يرجعوا و يعودوا إلى اللّه، أو يربطوا مصيرهم بالآخرين ليعيشوا بعض الأيام فى ظل هذا أو ذاك كما هى حال الصهيونية اليوم.

فإن الصهيونية التى تعادى المسلمين اليوم و تحارب الإسلام نجدها لا تستطيع الوقوف أمام الأخطار التى تهددها إلّا بالاعتماد على الآخرين، و حمايتهم رغم كلّ ما تملك من الثروات و القدرات الذاتية، و كلّ هذا يؤكد و يؤيد ما ذكرته هذه الآيات و ما يستفاد منها من الحقائق، و لا شكّ أن هذا الوضع سيستمر بالنسبة إلى اليهود إلّا إذا تخلوا عن سلوكهم العدوانى و أعادوا الحقوق إلى أهلها، و عاشوا إلى جانب الآخرين على أساس من الوفاق لا الغصب و العدوان و الاحتلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۵]

اشارة

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (۱۱۳) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۴) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۱۱۵)

سبب النّزول

يقال: لما أسلم «عبد اللّه بن سلام» و هو من علماء اليهود و جماعة منهم، انزعجت اليهود، و بخاصة أحبارهم من هذا الحادث، و صاروا بصدد اتهامهم بالخيانة، و عيبهم بالشر فقال أحبارهم: «ما آمن بمحمّد إلّا شرارنا» و هم بذلك يهدفون إلى إسقاطهم من أعين اليهود حتّى لا يقتدى بهم الآخرون. فنزلت الآيات أعلاه للدفاع عن هذه الفئة المؤمنة.

التّفسير

الإسلام و خصيصة البحث عن الحقّ:

بعد كلّ ذلك الذم لليهود، الذى تضمنته الآيات السابقة بسبب مواقفهم المشينة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۴

و أفعالهم الذميمة نجد القرآن- كما هو شأنه دائما- يراعى جانب العدل و الإنصاف، فيحترم كلّ من تنزه عن ذلك السلوك الذميم

الـذى سـار عليه اليهود، و يعلن بصـراحة أنه لا يعمم ذلك الحكم، و إنه لا يمكن النظر إلى الجميع بنظرة واحـدة دون التفريق بين من أقام على تلك الفعال، و بين من غادرها و طلب الحقّ، و لهذا يقول:

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ ۴۱۹].

أجـل ليس أهـل الكتاب سواء، فهناك جماعـة تطيع اللّه و تخافه، و تؤمن به و تهابه، و تؤمن بالآخرة و تعمل لها، و تقوم بواجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و بهذا يتورع القرآن الكريم عن إدانة العنصـر اليهودى كافة، بل يركز على أفعالهم و أعمالهم و ممارساتهم، و يحترم و يمدح كلّ من انفصل عن أكثريتهم الفاسدة، و خضع للحقّ و الإيمان، و هذا هو أسلوب الإسلام الذى لا يعادى أحدا على أساس اللون و العنصر، بل إنما يعاديه على أساس اعتقادى محض، و يكافحه إذا كانت أعماله لا تنطبق مع الحقّ و العدل و الخير، لا غير.

ثمّ إنه يسـتفاد من بعض الأحاديث أن الممدوحين فى هذه الآية لم ينحصـروا فى «عبد اللّه بن سـلام» و جماعته الذين أسلموا معه، بل شمل هذا المدح (۴۰) من نصارى نجران و (۳۲) من نصارى الحبشة و (۸) أشخاص من أهل الروم كانوا قد أسلموا قبل ذلك، و يدل على ذلك أن الآية استخدمت لفظة «أهل الكتاب» و هو كما نعرف تعبير يعم اليهود و غيرهم.

ثمّ إنّه سـبحانه قال: وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ معقبا بـذلك على العبارات السابقـة و مكملا للآيـة، و يعنى بقوله أن هؤلاء الذين أسلموا و اتخذوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۵

مواقعهم فى صـفوف المتقين لن يضـيع اللّه لهم عملاـ و إن كـانوا قـد ارتكبوا فى سـابق حـالهم ما ارتكبوه من الآثام، و ما اقترفوه من المعاصى، ذلك لأنهم قد أعادوا النظر فى سلوكهم و أصلحوا مسارهم، و غيروا موقفهم.

و المراد من كلمـة «الكفر» هنـا هو مـا يقابـل الشـكر، لأـن الشـكر يعنى أصـلا الاعتراف بالنعمـة و الجميل، و الكفر يعنى إنكار ذلك، فيكون المراد فى هذه الآية هو أن اللّه لن ينكر أعمالهم الصالحة، و لن يتنكر لها.

كيف وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ و كـأن هـذه العبـارة التى يختم بها سـبحانه الآيـة الحاضـرة تشـير إلى حقيقـة من الحقائق الهامـة و هى: أن المتقين و إن كـانوا قلـة قليلـة فى الأـغلب، و خاصـة فى جماعـة اليهود الـذين عاصـروا النـبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث كـان المسـلمون المهتدون منهم قلة ضـعيفة، و من شأن ذلك أن لا تلفت كميتهم النظر، و لكنهم مع ذلك يعلمهم اللّه بعلمه الذى لا يعزب عنه شـىء، فلاـ موجب للقلق، و لا داعى للاضـطراب ما دام سـبحانه يعلم بالمتقين على قلتهم، و يعلم بأعمالهم، فلا يضـيعها أبـدا قليلة كانت أو كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۱۶) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۷)

التّفسير

اشارة

فى مقابل العناصر التى تبحث عن الحقّ، و تؤمن به من الذين وصفتهم الآية السابقة، هناك عناصر كافرة ظالمة و صفهم اللّه سبحانه فى هاتين الآيتين بقوله:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً لأنه لا ينفع فى الآخرة سوى العمل الصالح و الإيمان الخالص لا الامتيازات المادية، فى هذه الحياة: يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۴۲۰].

يبقى أن نعرف لما ذا أشير فى هذه الآية إلى الثروة و الأولاد من بين بقية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۷

الإمكانات؟ وجه ذلك أن أهم الإمكانات المادية تنحصر فى أمرين:

الأول: الطاقة البشرية و قد ذكرت الأولاد كأفضل نموذج لها.

الثانى: الثروة الاقتصادية.

و أما بقية الإمكانات المادية الاخرى فتتفرع من هاتين.

إن القرآن ينادى بصراحة بأن الامتيازات المالية و القدرة البشرية الجماعية لا تعد امتيازا فى ميزان اللّه، و أن الاعتماد عليها وحدها هو الخطأ الجسيم إلّا إذا قرنت بالإيمان و العمل الصالح، و استخدمت فى سبيلهما، و إلّا فستؤول بأصحابها إلى الجحيم و عذابها الخالد.

أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و لما كان الكلام عن الثروة و المال كان لا بدّ من الإشارة إلى مسألة الإنفاق فيقول سبحانه: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ

و «الصرّ» مأخوذ من «الإصرار» لغة، و تعنى الشد بقوّة و شدّة، و المراد بها هنا هى الريح الشديدة سواء كانت مصحوبة بالبرد القارص، أو الحر اللافح.

إنفاق الكفّار:

و فى هذه الآية إشارة إلى كيفية إنفاق الكفّار و بذلهم المصحوب بالرياء، ضمن إعطاء مثل رائع يجسد مصير هذا الإنفاق و البذل، و يصوره فى أبلغ تصوير.

القرآن يمثل إنفاق الكفّار بالريح الشديدة الباردة أو اللافحة جدّا التى إذا هبت على الزرع لا تبقى منه شيئا و لا تذر، بل تترك الزرع حطاما و الأرض بلاقع.

إنه لا شكّ أن النسائم الخفيفة تنعش الزرع و تحيى الطبيعة، فنسائم الربيع تفتح الأزهار، و تصب فى عروق الأشجار و النباتات روحا جديدة و حياة و نشاطا، و تساعد على لقاحها، و كذلك يكون الإنفاق الصحيح و البذل الذى ينبع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۸

من الإخلاص و الإيمان. إنه يعالج مشاكل المجتمع كما يكون له أثر حسن و عميق فى نفس الباذل المنفق، لأنه يرسخ فيها السجايا الإنسانية و يعمق مشاعر العطف و اللطف و الرفق و الحبّ بما يستشعره من آثار إيجابية لإنفاقه، و بما يسببه الإنفاق فى رفع الآلام الاجتماعية، و توفير السعادة للآخرين.

أما إذا تبدلت هذه النسائم الرقيقة إلى رياح عاصفة لافحة، أو زوبعة شديدة البرودة، فسوف تؤدى إلى إحراق جميع النباتات و الأزهار أو تجميدها.

و هذا هو حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه لا ينفق ماله بدافع صحيح، بل ينفقه رياء و سمعة و أهواء و أهداف شريرة، و بذلك يكون كالريح العاتية، اللافحة أو الباردة، تأتى على كلّ ما أنفقه كما تأتى على الزرع، فتصيبه بالجفاف و الفناء، و الدمار و الهلاك.

إن مثل هذا الإنفاق لا يعالج أية مشكلة اجتماعية (لأنه صرف للمال فى غير محله فى الأغلب) كما لا ينطوى على أى أثر أخلاقى و نفسى للمنفق الباذل.

و الذى يلفت النظر أن القرآن الكريم يقول فى هذه الآية حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و هو يشير إلى أن هؤلاء المزارعين تعرضوا لما تعرضوا له لأنهم تساهلوا فى إختيار مكان الزرع و زمانه، و لأنهم زرعوا فى أرض معرضة للرياح الشديدة، أو أنهم اختاروا للزرع وقتا يكثر فيه هبوب رياح السموم، و بهذا ظلموا أنفسهم، و كذلك حال غير المؤمن فى إنفاقه، فإنه ظلم نفسه بإنفاقه غير الصحيح و غير المناسب من حيث الزمان و المكان و الهدف، و بهذا عرض أمواله و ثرواته للرياح.

من كلّ ما أشرنا إليه، و بملاحظة القرائن الموجودة فى الآية تبين أن هذا التمثيل لإنفاق الكفّار بالزرع الذى أهلكته الرياح العاصفة تمثيل به من ناحيتين:

الأولى: تشبيه لإنفاق الكافر بالزرع فى غير محله و موسمه المناسب.

الثانية: تشبيه لنواياه و أهدافه من الإنفاق بالرياح العاصفة الباردة أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۵۹

السموم، و لهذا فإن المقام لا يخلو عن تقدير شىء محذوف و أن معنى قوله: مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ أن مثل نوايا الكافر فى الإنفاق مثل الرياح الباردة أو السموم التى تهب على الزرع فتفنيه.

قال جماعة من المفسّرين: إن هذه الآية إشارة إلى الأموال التى يستخدمها الكفّار للإيقاع بالإسلام و صد حركته، و التى يحركون بها الأعداء ضد النبى الكريم صلى اللّه عليه و آله و سلّم. أو الأموال التى يعطيها اليهود لأحبارهم ليحرفوا آيات اللّه عن مواضعها و يزيدوا أو ينقصوا فى الكتب السماوية.

و لكن من الواضح جدّا أن هذه الآية تنطوى على معنى واسع يشمل هذا الرأى و غيره.

ثمّ إنه سبحانه يعقب على ما قال بشأن إنفاق الكفّار الذى لا يعود عليهم إلّا بالوبال و الويل بقوله: وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

أجل، إن العمل الفاسد لا يجر على صاحبه إلّا النتيجة الفاسدة، فما يحصده الكفّار من إنفاقهم من الوبال و البطلان، إنما هو بسبب نواياهم الباطلة الفاسدة من هذا الإنفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۰

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۱۸ الى ۱۲۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۱۱۸) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۱۹) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۱۲۰)

سبب النّزول

عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت عند ما أقدم بعض المسلمين- بسبب ما كان بينهم و بين اليهود من الصداقة أو القرابة أو الجوار أو الحلف أو الرضاع- على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۱

ذكر أسرار المسلمين عندهم، و بهذا كان اليهود الذين يتظاهرون بالمودة للمسلمين- و هم ألدّ أعداء الإسلام فى باطنهم- يطلعون على أسرار المسلمين، فنزلت هذه الآيات تحذر أولئك الرجال من المسلمين من مغبة هذه الصداقات و العلاقات، و توصيهم بأن لا يتخذوا اليهود بطانة يسرون إليهم بأسرارهم، لأنهم لا يتورعون عن استخدام كلّ وسيلة ممكنة- حتّى هذه الأسرار- لإلحاق الأذى و الضرر بكم، لأنهم يهمهم- دائما- أن تكونوا فى نصب و تعب و محن و مشاكل، و عناء و شقاء.

التّفسير

لا تتخذوا الأعداء بطانة:

هذه الآية التى جاءت بعد الآيات السابقة التى تعرضت لمسألة العلاقات بين المسلمين و الكفّار، تشير إلى قضايا حساسة بالغة الأهمية، و تحذر المؤمنين- ضمن تمثيل لطيف- بان لا يتخذوا من الذين يفارقونهم فى الدين و المسلك أصدقاء يسرون إليهم و يخبرونهم بأسرارهم، و أن لا يطلعوا الأجانب على ما تحتفظ به صدورهم و ما خفى من نواياهم و أفكارهم الخاصّة بهم، قال سبحانه:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً[۴۲۱] مِنْ دُونِكُمْ ....

و هذا يعنى أن الكفّار لا يصلحون لمواصلة المسلمين و مصادقتهم، كما لا يصلحون بأن يكونوا أصحاب سر لهم، و ذلك لأنهم لا يتورعون عن الكيد و الإيقاع بهم ما استطاعوا: لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا[۴۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۲

فليست الصداقات و العلاقات بقادرة على أن تمنع أولئك الكفّار- بسبب ما يفارقون به المسلمين فى العقيدة و المسلك- من إضمار الشر للمسلمين، و تمنى الشقاء و العناء لهم وَدُّوا ما عَنِتُّمْ أى أحبوا فى ضمائرهم و دخائل نفوسهم لو أصابكم العنت و العناء.

إنهم- لإخفاء ما يضمرونه تجاهكم- يحاولون دائما أن يراقبوا تصرفاتهم، و أحاديثهم كيلا يظهر ما يبطنونه من شر و بغض لكم، بيد أن آثار ذلك العداء و البغض تظهر أحيانا فى أحاديثهم و كلماتهم، عند ما تقفز منهم كلمة أو أخرى تكشف عن الحقد الدفين و الحنق المستكن فى صدورهم: قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ

و تلك حقيقة من حقائق النفس يذكرها الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى إحدى كلماته إذ

يقول: «ما أضمر أحد شيئا إلّا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه»[۴۲۳].

إنه لا بدّ أن يرشح شىء إلى الخارج إذا ما امتلأ الداخل، كما يطفح الكيل فتنفضح السرائر، و تبدو الدخائل.

و قد أوضح اللّه سبحانه فى هذه الآية إحدى سبل التعرف على بواطن الأعداء و دخائل نفوسهم، ثمّ إنّه سبحانه يقول: وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ أى أن ما يبدو من أفواههم ما هى إلّا شرارة تحكى عن تلك النار القوية الكامنة فى صدورهم.

ثمّ إنه تعالى يضيف قائلا: قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ أى أن ما ذكرناه من الوسيلة للتعرف على العدو أمر فى غاية الأهمية لو كنتم تتدبرون فيه، فهو يوقفكم على وسيلة جدا فعالة لمعرفة ما يكنه الآخرون و يضمرونه تجاهكم، و هو أمر فى غاية الخطورة بالنسبة لأمنكم و حياتكم و برامجكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۳

البغض فى مقابل الحبّ:

يحسب بعض المسلمين أن فى مقدورهم أن يكسبوا حبّ الأعداء و الأجانب إذا أعطوهم حبهم و ودهم، و هو خطأ فظيع، و تصور باطل، يقول سبحانه: ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ

إنه سبحانه يخاطب هذا الفريق من المسلمين و يقول لهم: إنكم تحبون من يفارقكم فى الدين لما بينكم من الصداقة أو القرابة أو الجوار، و تظهرون لهم المودة و المحبة، و الحال أنهم لا يحبونكم أبدا، و تؤمنون بكتبهم و كتابكم المنزل من السماء- على السواء- فى حين أنهم لا يؤمنون بكتابكم و لا يعترفون بأنه منزل من السماء.

إن هذا الفريق من أهل الكتاب ينافقون و يخادعون وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ.

و لا شكّ أن هذا الغيظ لن يضر المسلمين فى الواقع، إذن فقل لهم يا رسول اللّه:

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ و استمروا على هذا الحنق فإنه لن يفارقكم حتّى تموتوا.

هذه هى حقيقة الكفّار التى غفلتم عنها، و لم يغفل عنها سبحانه: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

ثمّ إنّ اللّه يذكر علامة اخرى من علائم العداوة الكامنة فى صدور الكفّار إذ يقول إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها.

و لكن هل تضر هذه العداوة و ما يلحقها من ممارسات و محاولات شريرة بالمسلمين؟

هذا ما يجيب عنه ذيل الآية الحاضرة حيث يقول سبحانه: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

و على هذا يستفاد من ذيل هذه الآية أن أمن المسلمين، و سلامة حوزتهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۴

كيد الأعداء، يتوقف على استقامة المسلمين و حذرهم و تقواهم، ففى مثل هذه الحالة فقط يمكنهم أن يضمنوا أمنهم و سلامتهم من كيد الكائدين.

تحذير إلى المسلمين:

حذر اللّه سبحانه المسلمين فى هذه الآية من أن يتخذوا أعداءهم بطانة يسرون إليهم بأسرارهم و أمورهم و هو تحذير عام لا يختص بزمان دون زمان، و لا بمكان دون مكان، و لا بطائفة من المسلمين دون طائفة.

فلا بدّ أن يحذر المسلمون من هذا العمل فى جميع الأزمنة و الأمكنة، حفاظا على أمن المسلمين و كيانهم.

و لكننا مع الأسف نجد الكثيرين من أتباع القرآن قد غفلوا عن هذا التحذير الإلهى المهم، فتعرضوا لتبعات هذا العمل و آثاره السلبية.

فها نحن نجد أعداء كثيرين يحيطون بالمسلمين من كلّ جانب، يتظاهرون بمحبة المسلمين و صداقتهم، و ربّما أعلنوا تأييدهم فى بعض الأمور، و لكنهم بما يظهرون- فى بعض الأحيان- من مواقف عدائية يكشفون عن كذبهم، و مع ذلك ينخدع المسلمون بما يتظاهر هؤلاء الأعداء به من صداقة وحب و تأييد، و يعتمدون عليهم أكثر ممّا يعتمدون على إخوانهم من المسلمين المشاركين لهم فى العقيدة و المصير. فى حين أن الأعداء و الأجانب لا يريدون للأمة الإسلامية إلّا الشقاء و التأخر، و إلّا الهلاك و الدمار، و لا يألون جهدا فى إثارة المشاكل فى وجه المسلمين و إيجاد الصعوبات فى حياتهم.

و لا نذهب بعيدا، فإن الأعوام الأخيرة شهدت حربين بين المسلمين و أعدائهم الصهاينة، ففى الحرب الاولى (حرب حزيران) تحمل

المسلمون هزيمة ساحقة و نكسة قاطمة، فى حين أنهم فى حربهم الثانية (حرب رمضان) استطاعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۵

تحقيق انتصارات باهرة على الأعداء و تغيّرت الخارطة السياسية لصالحهم.

و تمكنوا من دفن اسطورة الجيش الإسرائيلى و الرعب و الخوف فى صحراء «سيناء» و هضبة «الجولان» منذ الأيّام الاولى للحرب، و ذاق المسلمون أخيرا طعم النصر لأول مرّة فى العقود الأخيرة.

ماذا حصل فى هذه المدّة القصيرة التى شهدت هذا التحول الكبير؟ الجواب بحاجة إلى بحث طويل، و لكن من المتيقّن أن أحد الأسباب المؤثرة فى تلك الهزيمة و هذا النصر هو أن الأجانب و الذين كانوا يظهرون الود و الصداقة للمسلمين كانوا على علم بأمر الحرب و تفاصيلها. و لكن فى الحرب الثانية لم يطلع على أسرار الحرب سوى اثنان أو ثلاثة من رؤساء البلدان الإسلامية، و هذا هو أحد عوامل النصر، و شاهد حيّ على عظمة هذا الدستور السماوى و القرآنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۲۱ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۲۱) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۲۲)

التّفسير

اشارة

من هنا تبدأ الآيات التى نزلت حول واحدة من أهم الأحداث الإسلامية ألا و هى معركة «أحد» لأن القرائن التى توجد فى الآيتين الحاضرتين يستفاد منها أن هاتين الآيتين نزلتا بعد معركة أحد، و تشير إلى بعض وقائعها المرعبة، و على هذا أكثر المفسّرين.

فى البدء تشير الآية الأولى إلى خروج النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من المدينة لاختيار المحل الذى يعسكر فيه عند «أحد» و تقول وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ

أى و اذكر عند ما خرجت غدوة من المدينة تهيئ للمؤمنين مواطن للقتال لغزوة «أحد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۷

و لقد كانت بين المسلمين فى ذلك اليوم آراء مختلفة و كثيرة- كما ستعرفها قريبا- حول الموطن الذى ينبغى أن يعسكر فيه المسلمون، بل و كيفية مقابلة الأعداء القادمين، و أنه يتعيّن عليهم أن يتحصنوا بالمدينة، أم يخرجوا إليهم و يحاربوهم خارجها.

و لقد كان هناك خلاف شديد فى الرأى بين المسلمين فى هذه الأمور، فاختار النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد المشاورة رأى الأغلبية، و التى كانت تتألف- فى الأكثر من الشباب المتحمسين، و هو الخروج من المدينة و مقاتلة العدو خارجها، بعد الاستقرار عند جبل «أحد».

و من الطبيعى أن يكون هناك بين المسلمين من كان يخفى أشياء و أمورا يحجم عن الإفصاح بها لعلل خاصة، و من الممكن أن تكون عبارة وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ناظرة إلى هذه الأمور المكنونة، فهو سبحانه سميع لما يقولون، عليم بما يضمرون.

ثمّ إنّ الآيـة الثانية تشير إلى زاوية أخرى من هذا الحدث إذ تقول: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَـلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و الطائفتان كما يذكر المؤرخون هما «بنو سلمة» من الأوس و «بنو حارثة» من الخزرج.

فقد صممت هاتان الطائفتان على التساهل فى أمر هذه المعركة و الرجوع إلى المدينة، و همتا بذلك.

و قـد كان سـبب هـذا الموقف المتخاذل هو أنهما كانتا ممّن يؤيـد فكرة البقاء فى المدينة و مقاتلة الأعداء داخلها بدل الخروج منها و القتال خارجها، و قد خالف النبى هذا الرأى، مضافا إلى أن «عبد اللّه بن أبى سلول» الذى التحق بالمسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۸

على رأس ثلاثمائـة من اليهود عاد هو و جماعته إلى المدينـة، لأن النبى عارض بقاءهم فى عسـكر المسـلمين، و قد تسـبب هذا فى أن تتراجع الطائفتان المذكورتان عن الخروج مع النبى و تعزما على العودة إلى المدينة من منتصف الطريق.

و لكن يستفاد من ذيل الآية أن هاتين الطائفتين عدلتا عن هذا القرار، و استمرتا فى التعاون مع بقية المسلمين، و لهذا قال سبحانه وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ يعنى أن اللّه ناصرهما فليس لهما أن تفشلا إذا كانتا تتوكلان على اللّه بالإضافة إلى تأييده سبحانه للمؤمنين.

ثمّ لا بـدّ من التنبيه إلى نقطـة هامـة و هى أن ذكر هذه المقاطع من غزوة «أحد» بعد الآيات السابقة التى تحدثت عن لزوم عدم الوثوق بالكفّار، إشارة إلى نموذج واحد من هذه الحقيقة، لأن النبى- كما أسلفنا و كما سيأتى تفصيله- لم يسمح ببقاء اليهود- الذين تظاهروا بمساعـدة المسـلمين- فى المعسـكر الإسـلامى، لأـنهم كـانوا أجـانب على كـلّ حـال، و لاـ يمكن السـماح لهم بأن يبقوا بين صـفوف المسلمين فيطلعوا على أسرارهم فى تلك اللحظات الخطيرة، و أن يكونوا موضع اعتماد المسلمين فى تلك المرحلة الحساسة.

غزوة أحد

سبب هذه الغزوة:

هنا لا بدّ من الإشارة- قبل أى شىء- إلى مجموعة الحوادث التى وقعت فى هذه الغزوة، فإنه يستفاد من الروايات و النصوص التاريخية الإسـلامية، أن قريشـا لما رجعت من بـدر إلى مكـة و قـد أصابهم ما أصابهم من القتل و الأسـر، لأنه قتل منهم سـبعون شـخصا و أسـر سبعون شخصا، و قال أبو سفيان يا معشر قريش لا تدعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۶۹

نساءكم يبكين على قتلاكم فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن و العداوة لمحمّد صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و أخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

و هكذا ألبت قريش الناس على المسلمين و حركتهم لمقاتلتهم و سرت نداءات «الانتقام الانتقام» فى كلّ نواحى مكّة.

و فى السـنة الثالثـة للهجرة عزمت قريش على غزو النبى، و خرجوا من مكّـة فى ثلاـث آلاـف فـارس و ألفى راجـل، مجهزين بكـلّ ما يحتاجه القتال الحاسم، و أخرجوا معهم النساء و الأطفال و الأصنام، ليثبتوا فى ساحات القتال.

العباس يرفع تقريرا إلى النبى:

لم يكن العباس عمّ النبى قد أسلم إلى تلك الساعة، بل كان باقيا على دين قريش، و لكنه كان يحب ابن أخيه غاية الحب، و لهذا فإنه عنـد ما عرف بتعبئة قريش و عزمهم الأكيد على غزو المدينة و مقاتلة النبى، بادر إلى إخبار النبى، محمّلا غفاريا (من بنى غفار) رسالة

عاجلة یذکر فیها الموقف فی مکّة و عزم قریش. و کان الغفاری یسرع نحو المدینة، حتّی أبلغ النبی رسالة عمه العباس، و لما عرف صلی اللّه علیه و آله و سلم بالخبر التقی سعد بن أبی و أخبره بما ذکره له عمه، و طلب منه أن یکتم ذلک بعض الوقت.

النبی یشاور المسلمین

عمد النبی- بعد أن بلغته رسالة عمه العباس- إلی بعث رجلین من المسلمین إلی طرق مکّة و المدینة للتجسس علی قریش، و تحصیل المعلومات الممکنة عن تحرکاتها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۰

و لم یمض وقت طویل حتّی عاد الرجلان و أخبرا النبی بما حصلا علیه حول قوات قریش و أن هذه القوات الکبیرة یقودها أبو سفیان.

و بعد أیّام استدعی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم جمیع أصحابه و أهل المدینة لدراسة الموقف، و ما یمکن أو یجب اتخاذه للدفاع، و بحث معهم فی أمر البقاء فی المدینة و محاربة الأعداء الغزاة فی داخلها، أو الخروج منها و مقاتلتهم خارجها. فاقترح جماعة قائلین «لا نخرج من المدینة حتّی نقاتل فی أزقتها فیقاتل الرجل الضعیف و المرأة و العبد و الأمة علی أفواه السکک و علی السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا و نحن فی حصوننا و دروبنا و ما خرجنا إلی عدو لنا قط إلّا کان الظفر لهم علینا، و کان هذا هو ما قاله «عبد اللّه بن أبی».

و قد کان النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یمیل إلی هذا الرأی نظرا لوضع المدینة یومذاک، فهو کان صلی اللّه علیه و آله و سلّم یرغب فی البقاء فی المدینة و مقاتلة العدو فی داخلها، إلّا أن فریقا من الشباب الأحداث الذین رغبوا فی الشهادة و أحبوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأی الذی کان علیه الأکابر من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: اخرج بنا إلی عدونا، و قام سعد بن معاذ و غیره من الأوس فقالوا: یا رسول اللّه ما طمع فینا أحد من العرب و نحن مشرکون نعبد الأصنام فکیف یطمعون فینا و أنت فینا، لا حتی نخرج إلیهم فنقاتلهم فمن قتل منا کان شهیدا، و من نجا منا کان قد جاهد فی سبیل اللّه، و قال مثلها الآخرون.

و هکذا تزایدت الطلبات بالخروج من المدینة و مقابلة العدو خارجها حتّی أصبح المقترحون بالبقاء أقلیة.

فوافقهم النبی- رغم أنه کان یمل إلی البقاء فی المدینة- احتراما لمشورتهم، ثمّ خرج مع أحد أصحابه لیرتب مواضع استقرار المقاتلین المسلمین خارج المدینة و اختار الشعب من «أحد» لاستقرار الجیش الإسلامی باعتباره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۱

أفضل مکان من الناحیة العسکریة و الدفاعیة.

المسلمون یتهیئون للدفاع:

لقد استشار النبی أصحابه فی هذه المسألة یوم الجمعة، و لذلک فإنه بعد انتهاء المشاورة قام یخطب لصلاة الجمعة و قال بعد حمد اللّه و الثناء علیه:

«انظروا ما أمرتکم به فاتبعوه، امضوا علی اسم اللّه فلکم النصر ما صبرتم».

ثمّ تولی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بنفسه قیادة المقاتلین و قد أمر بأن تعقد ثلاث ألویة، دفع واحد منها للمهاجرین، و اثنین منها للأنصار، ثمّ إن النبی قطع المسافة بین المدینة و «أحد» مشیا علی الأقدام، و کان یستعرض جیشه طوال الطریق، و یرتب صفوفهم، یقول المؤرخ المعروف الحلبی فی سیرته:

و

سار إلی أن وصل «رأس الثنیة» و عندها وجد کتیبة کبیرة فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبد اللّه بن أبی

الیهودی فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: أسلموا؟ فقیل: لا، فقال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «انا لا تنتصر بأهل الکفر علی أهل الشرک» فردهم، و رجع عبد اللّه بن أبی الیهودی و من معه من أهل النفاق و هم ثلاثة مائة رجل ۴۲۴].

و لکن المفسّرین کتبوا أن «عبد اللّه بن أبی» رجع من أثناء الطریق مع جماعة من أعوانه، یبلغون ثلاثمائة رجل، لأنه لم یؤخذ برأیه فی الشوری.

و علی أی حال فإن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن أجری التصفیة اللازمة فی صفوف جیشه و استغنی عن بعض أهل الریب و الشکّ و النفاق استقر عند الشعب من «أحد» فی عدوة الوادی إلی الجبل و جعل «أحدا» خلف ظهره و استقبل المدینة.

و بعد أن صلّی بالمسلمین الصبح صف صفوفهم و تعبأ للقتال.

فأمّر علی الرمّاة «عبد اللّه بن جبیر» و الرماة خمسون رجلا جعلهم صلی اللّه علیه و آله و سلّم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۲

الجبل خلف المسلمین و أوعز إلیهم قائلا:

«إن رأیتمونا قد هزمناهم حتّی أدخلناهم مکّة فلا تبرحوا من هذا المکان، و إن رأیتموهم قد هزمونا حتّی أدخلونا المدینة فلا تبرحوا و ألزموا مراکزکم».

و من جانب آخر، وضع أبو سفیان «خالد بن الولید» فی مأتی فارس کمینا یتحینون الفرصة للتسلل من ذلک الشعب و مباغتة المسلمین من ورائهم و قالوا:

«إذا رأیتمونا قد اختلطنا فاخرجوا علیهم من هذا الشعب حتّی تکونوا وراءهم».

بدء القتال:

ثمّ اصطف الجیشان للحرب، و راح کلّ واحد منهما یشجع رجاله علی القتال بشکل من الأشکال و یحرضهم علی الجلاد بما لدیه من وسیلة.

و قد کان أبو سفیان یحرض رجاله باسم الأصنام و یغریهم بالنساء الجمیلات.

و أمّا النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقد کان یحث المسلمین علی الصمود و الاستقامة، مذکرا إیاهم بالنصر الإلهی و التأییدات الربانیة.

ها هی تکبیرات المسلمین و نداءات «اللّه أکبر، اللّه أکبر» تدوی فی جنبات ذلک المکان، و تملأ شعاب «أحد» و سهولها، بینما تحرض هند و النسوة اللاتی معها من نساء قریش و بناتها الرجال و یضربن بالدفوف و یقرأن الأشعار المثیرة.

و بدأ القتال و حمل المسلمون علی المشرکین حملة شدیدة هزمتهم شر هزیمة، و ألجأتهم إلی الفرار و راح المسلمون یتعقبونهم و یلاحقون فلو لهم.

و لما علم «خالد» بهزیمة المشرکین و أراد أن یتسلل من خلف الجبل لیهجم علی المسلمین من الخلف شقه الرماة بنبالهم، و حالوا بینه و بین نیته.

هذه الهزیمة القبیحة التی لحقت بالمشرکین دفعت ببعض المسلمین الجدیدی العهد بالإسلام إلی التفکر فی جمع الغنائم و الانصراف عن الحرب، بظن أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۳

المشرکین هزموا هزیمة کاملة، حتّی أن بعض الرماة ترکوا مواقعهم فی الجبل متجاهلین تذکیر قائدهم «عبد اللّه بن جبیر» إیاهم بما أوصاهم به النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و لم یبق معه إلّا قلیل ظلوا یحافظون علی تلک الثغرة الخطرة فی الجبل محافظة علی

المسلمين.

فتنبه «خالد بن الوليد» إلى قلة الرماة فى ذلك المكان، فكر راجعا بالخيل (و عددهم مائتا رجل كانوا معه فى الكمين) فحملوا على «عبد اللّه بن جبير» و من بقى معه من الرماة و قتلوهم بأجمعهم، ثمّ هجموا على المسلمين من خلفهم.

و فجأة وجد المسلمون أنفسهم و قد أحاط بهم العدو بسيوفهم، و داخلهم الرعب، فاختل نظامهم، و أكثر المشركون من قتل المسلمين فاستشهد- فى هذه الكرة- «حمزة» سيد الشهداء و طائفة من أصحاب النبى الشجعان، و فر بعضهم خوفا، و لم يبق حول النبى سوى نفر قليل جدا يدافعون عنه و يردون عنه عادية الأعداء، و كان أكثرهم دفاعا عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ورد الهجمات العدو، و فداء بنفسه هو «الإمام على بن أبى طالب» عليه السّلام الذى كان يذب عن النبى الطاهر ببسالة منقطعة النظير، حتّى أنه تكسر سيفه فأعطاه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم سيفه المسمى بذى الفقار، ثمّ تترس النبى بمكان، و بقى على عليه السّلام يدفع عنه حتّى لحقه- حسب ما ذكره المؤرخون- ما يزيد عن ستين جراحة فى رأسه و وجهه، و يديه و كلّ جسمه المبارك، و

فى هذه اللحظة قال جبرائيل «إن هذه لهى المواساة يا محمّد» فقال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم «إنه منى و أنا منه» فقال جبرائيل: «و أنا منكما».

قال الإمام الصادق عليه السّلام: نظر رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى جبرائيل بين السماء و الأرض و هو يقول: «لا سيف إلّا ذو الفقار و لا فتى إلّا على»[۴۲۵].

و فى هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۴

من الصائح: قتل محمّد؟

يذهب بعض المؤرخين إلى أن «ابن قمئة» الذى قتل الجندى الإسلامى البطل «مصعب بن عمير» و هو يظن أنه النبى، هو الذى صاح «و اللات و العزى: لقد قتل محمّد».

و سواء كانت هذه الشائعة من جانب المسلمين، أو العدو فإنها- و لا ريب- كانت فى صالح الإسلام و المسلمين لأنها جعلت العدو يترك ساحة القتال و يتجه إلى مكّة بظنّه أن النبى قد قتل و انتهى الأمر، و لو لا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتّى يأتى على آخرهم لما كانوا يحملونه من غيظ و حنق على النبى، بل و لما كانوا يتركون ساحة القتال حتّى يقتلوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنهم لم يجيئوا إلى «أحد» إلّا لهذه الغاية.

لم يرد ذلك الجيش الذى كان قوامه ما يقارب خمسة آلاف- و بعد تلك الانتصارات- أن يبقى و لو لحظة واحدة فى ساحة القتال، و لذلك غادرها فى نفس الليلة إلى مكّة، و قبل أن يندلع لسان الصباح.

إلّا أن شائعة مقتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أوجدت زلزالا كبيرا فى نفوس بعض المسلمين، و لذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

و أما من بقى من المسلمين فى الساحة فقد عمدوا- بهدف الحفاظ على البقية من التفرق و إزالة الخوف و الرعب عنهم- إلى أخذ النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الشعب من «أحد» ليطلع المسلمون على وجوده الشريف و يطمئّنوا إلى حياته، و هكذا كان، فإنهم لما عرفوا رسول اللّه عاد الفارون و آب المنهزمون و اجتمعوا حول الرسول و لا مهم النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على فرارهم فى تلك الساعة الخطيرة، فقالوا يا رسول اللّه أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين.

و هكذا لحقت بالمسلمين- فى معركة أحد- خسائر كبيرة فى الأموال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۵

و النفوس، فقد قتل منهم فى هذه الموقعة اثنان و سبعون من المسلمين فى ميدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة، و لكنهم أخذوا من هذه الهزيمة و النكسة درسا كبيرا ضمن انتصاراتهم فى المعارك القادمة، و سوف نعرض بتفصيل عند دراسة الآيات القادمة لآثار هذه الحادثة الكبرى بإذن اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۶

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲۳) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (۱۲۴) بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (۱۲۵) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱۲۶) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (۱۲۷)

التّفسير

المرحلة الخطيرة من الحرب:

بعد انتهاء معركة «أحد» عاد المشركون المنتصرون إلى مكّة بسرعة، و لكنّهم بدا لهم فى أثناء الطريق أن لا يتركوا هذا الإنتصار دون أن يكملوه و يجعلوه ساحقا، أليس من الأحسن أن يعودوا إلى المدينة، و ينهبوها و يلحقوا بالمسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۷

مزيدا من الضربات القاضية و أن يقتلوا محمّدا صلى اللّه عليه و آله و سلّم إذا كان لا يزال حيّا ليتخلصوا من الإسلام و المسلمين و يطمئن بالهم من ناحيتهم بالمرّة.

لهذا صدر قرار بالعودة إلى المدينة، و لا ريب أنه كان أخطر مراحل معركة «أحد» بالنظر إلى ما كان قد لحق بالمسلمين من القتل و الجراحة و الخسائر، الذى كان قد سلب منهم كلّ طاقة للدخول فى معركة جديدة أو لاستئناف القتال، فيما كان العدو فى ذروة القوّة و الروحية العسكرية التى كانت تمكن العدو من تحقيق انتصارات جديدة، و إحراز النتيجة لصالحه، فنهاية هذه العودة و نتيجتها كانت معروفة سلفا.

و قد بلغ خبر العودة هذه إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لو لا شهامته البالغة، و قدرته المكتسبة من الوحى على الأخذ بزمام المبادرة لانتهى تاريخ الإسلام و حياته عند تلك النقطة.

فى هذه المرحلة الحساسة بالذات نزلت الآيات الحاضرة لتقوى روحية المسلمين و تصعد من معنوياتهم، و فى أعقاب ذلك صدر أمر من النبى إلى المسلمين بالتهيؤ لمقابلة المشركين، فاستعد جميع المسلمين حتّى المجروحين (و منهم الإمام على عليه السّلام الذى كان يحمل فى جسمه أكثر من ستين جراحة) لمقابلة المشركين، و خرجوا بأجمعهم من المدينة لذلك.

فبلغ هذا الخبر مسامع زعماء قريش فأرعبتهم هذه المعنوية العالية التى يتمتع بها المسلمون و ظنوا أن عناصر جديدة التحقت بالمسلمين و إن هذا يمكن أن يغير نتائج المواجهة الجديدة لصالح المسلمين، و لذلك فكروا فى العدول عن قرارهم بمهاجمة المدينة، حفاظا على قواهم، و هكذا قفلوا راجعين إلى مكة بسرعة، و انتهت القضية عند هذا الحدّ.

و إليك شرحا للآيات التى نزلت لتقوّى روحية المسلمين، و تجبر ما نزل بهم من هزيمة فى هذه المعركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۸

فقد بدأت هذه الآيات بتذكير المسلمين بما تحقق لهم من نصر ساحق بتأييد اللّه لهم فى «بدر»[۴۲۶] إذ قال سبحانه وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ و قد كان الهدف من هذا التذكير هو شد عزائم المسلمين و زرع الثقة فى نفوسهم و الاطمئنان إلى قدراتهم، و الأمل بالمستقبل، فقد نصرهم اللّه و هم على درجة كبيرة من الضعف، و قلة العدد و ضآلة العدة (حيث كان عددهم ۳۱۳ مع امكانيات بسيطة قليلة، و كان عدد المشركين يفوق ألف مقاتل مع امكانيات كبيرة).

فإذا كان الأمر كذلك فليتقوا اللّه، و ليجتنبوا مخالفة أوامر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليكونوا بذلك قد أدوا شكر المواهب الإلهية فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

ثمّ تتعرض الآية اللاحقة لذكر بعض التفاصيل حول ما جرى فى «بدر» إذ قالت: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ أى اذكروا و اذكر أيّها النبى يوم كنت تقول للمسلمين الضعفاء آنذاك اخرجوا و سيمدكم اللّه بالملائكة ألا يكفيكم ذلك لتحقيق النصر الساحق على جحافل المشركين المدججين بالسلاح؟

نعم أيها المسلمون لقد تحقّق لكم ذلك فى «بدر» نتيجة صبركم و استقامتكم، و اليوم يتحقّق لكم ذلك أيضا إذا أطعتم أوامر النبى، و سرتم وفق تعليماته و صبرتم:

بَلى إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ [۴۲۷] هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

على أن نزول الملائكة هذا لن يكون هو العامل الأساسى لتحقيق هذا الإنتصار لكم بل النصر من عند اللّه، و ليس نزول الملائكة إلّا لتطمئن قلوبكم وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۷۹

فهو العالم بسبل النصر و مفاتيح الظفر، و هو القادر على تحقيقه.

ثمّ إنه سبحانه عقب هذه الآيات بقوله: لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ

و هذه الآية و إن ذهب المفسّرون فى تفسيرها مذاهب مختلفة، إلّا أنها- فى ضوء ما ذكرناه فى تفسير الآيات السابقة بمعونة الآيات نفسها و بمعونة الشواهد التاريخية- واضحة المراد بيّنة المقصود كذلك. فهى تقصد أن تأييد اللّه للمسلمين بإنزال الملائكة عليهم إنما هو لأجل القضاء على جانب من قوّة العدو العسكرية، و إلحاق الذلة بهم.

يبقى أن نعرف أن «طرف» الشىء يعنى جانبه و قطعة منه. و أمّا «يكبتهم» فيعنى الرد بعنف و إذلال.

ثمّ إن هاهنا أسئلة تطرح نفسها حول كيفية نصرة الملائكة للمسلمين و مساعدتهم على تحقيق الإنتصار فسنجيب عليها- بإذن اللّه- لدى تفسير الآيات ۷- ۱۲ من سورة الأنفال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲۸]

اشارة

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (۱۲۸)

التّفسير

اشارة

وقع بين المفسّرين فى تفسير هذه الآية كلام كثير، إلّا أن ما هو مسلّم تقريبا هو أن الآية الحاضرة نزلت بعد «معركة أحد» و هى ترتبط بأحداث تلك المعركة، و الآيات السابقة تؤيد هذه الحقيقة أيضا.

ثمّ إنّ هناك معنيين يلفتان النظر من بين المعانى المذكورة فى تفسير هذه الآية و هما:

أولا: إن هذه الآية تشكل جملة مستقلة، و على هذا تكون جملة أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ بمعنى «إلّا أن يتوب عليهم» و يكون معنى مجموع الآية كالتالى: ليس لك حول مصيرهم شىء، فإنهم قد استحقوا العذاب بما فعلوه، بل ذلك إلى اللّه، يعفو عنهم إن شاء أو يأخذهم بظلمهم، و المراد بالضمير «هم» إمّا الكفّار الذين ألحقوا بالمسلمين ضربات مؤلمة، حتّى أنهم كسروا رباعية النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و شجوا جبينه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۱

المبارك، و أما المسلمين الذين فروا من ساحة المعركة، ثمّ ندموا على ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها و اعتذروا للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه العفو.

فالآية تقول: إن العفو عنهم، أو معاقبتهم على ما فعلوا، أمر يعود إلى اللّه تعالى، و أن النبى لن يفعل شيئا بدون إذنه سبحانه.

و هناك تفسير آخر، و هو أن يعتبر قوله لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ جملة اعتراضية، و تكون جملة أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ جملة معطوفة على أَوْ يَكْبِتَهُمْ و تعتبر هذه الآية متصلة بالآية السابقة.

و على هذا يكون المراد من مجموع الآيتين، السابقة و الحاضرة هو: إن اللّه سيمكنكم من وسائل النصر و يصيب الكفّار بإحدى امور أربعة: إما أن يقطع طرفا من جيش المشركين، أو يردهم على أعقابهم خائبين مخزيين، أو يتوب عليهم إذا أصلحوا، أو يعذبهم بظلمهم، و على كلّ حال فإنه سيعامل كلّ طائفة وفق ما تقتضيه الحكمة و العدالة، و ليس لك أن تتخذ أى موقف من عندك إذ كلّ ذلك إلى اللّه تعالى.

و لقد نقلت فى سبب نزول هذه الآية روايات عديدة منها أنه لما كان من المشركين يوم «أحد» ما كان من كسر رباعية الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و شجه حتّى جرى الدم على وجهه الشريف، و لحق بالمسلمين ما لحق من الخسائر فى الأرواح و الإصابات فى الأبدان قلق النبى على مصير أولئك القوم، و فكر فى نفسه، كيف يمكن أن تهتدى تلك الجماعة المتمادية فى غيها و عنادها و

قال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم و هو يدعوهم إلى ربهم»؟

فنزلت الآية و أخبره تعالى فيها أنه ليس إليه إلّا ما امر به من تبليغ الرسالة و دعائهم إلى الهدى، فهو ليس مسئولا عن هدايتهم إن لم يهتدوا و لم يستجيبوا لندائه.

تصحيح خطأ:

لا بدّ هنا من الانتباه إلى نقطتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۲

۱- إن المفسّر المعروف صاحب تفسير «المنار» يعتقد أن هذه الآية تعلم المسلمين درسا كبيرا فى مجال الاستفادة من الوسائل و الأسباب الطبيعية للنصر، و إن وعد اللّه لهم بإنزال النصر عليهم، ليس بمعنى أن للمسلمين أن يتجاهلوا الوسائل الحربية، و التخطيط العسكرى، و ما شاكل ذلك من الأسباب المادية اللازمة للقتال و لتحقيق الإنتصار، و انتظار أن يدعو لهم النبى لينزل عليهم النصر

الالهى، دون الأخذ بالأسباب القتالية المتعارفة، و لهذا جاءت الآية تخاطب النبى قائلة لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ بمعنى أن أمر النصر لم يوكل إليك، بل هو إلى اللّه، و قد جعل اللّه لتحقيقه سننا و نواميس يجب أن يستخدمها الناس حتّى يتحقّق لهم النصر و الغلبة (و بالتالى فإن دعاء النبى و إن كان مؤثرا و مفيدا، إلّا أن له موارد استثنائية خاصّة).

و هذا الكلام و إن كان منطقيا فى حد ذاته، إلّا أنه لا يلائم ما جاء فى ذيل الآية إذ يقول سبحانه: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، أَوْ يُعَذِّبَهُمْ و لهذا لا يمكن تفسير الآية بما قاله هذا الكاتب.

۲- إن هذه الآية و إن كانت تنفى أن يكون للنبى الحقّ فى أن يغفر للكفار و المشركين أو يعذبهم، إلّا أنها لا تتعارض مع ما يستفاد من الآيات الاخرى من تأثير دعائه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و عفوه و شفاعته، لأن المقصود فى الآية الحاضرة هو نفى أن يكون للنبى كلّ ذلك على نحو الاستقلال، و على هذا لا ينافى أن يكون له كلّ ذلك (من العفو أو المجازاة) بإذن اللّه سبحانه.

فله بالتالى أن يعفو- بإذن اللّه- لمن أراد، أو يجازى حيث تصح المجازاة، كما أن له أن يهيئ عوامل النصر و أسباب الظفر، بل و له- بإذن اللّه- أن يحيى الموتى كما كان يفعل المسيح عليه السّلام بإذنه سبحانه.

إن الذين تمسكوا بقوله تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لنفى و إنكار قدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۳

الرسول على هذا الأمر نسوا- فى الحقيقة- الآيات القرآنية الأخرى فى هذا المجال.

فالقرآن الكريم يقول فى سورة النساء الآية ۶۴ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً.

فاستغفار النبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم عد- طبق هذه الآية- من العوامل المؤثرة لمغفرة الذنوب، و سوف نوضح هذه الحقيقة فى أبحاثنا القادمة عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۴

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۲۹]

اشارة

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲۹)

التّفسير

هذه الآية- فى الحقيقة- تأكيد لمفاد الآية السابقة، فيكون المعنى هو: أن العفو أو المجازاة ليس بيد النبى، بل هو اللّه الذى بيده كلّ ما فى السماوات و كلّ ما فى الأرض، فهو الحاكم المطلق لأنه هو الخالق، فله الملك و له التدبير، و على هذا الأساس فإن له أن يغفر لمن يشاء من المذنبين، أو يعذّب، حسب ما تقتضيه الحكمة، لأن مشيئته تطابق الحكمة: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ.

ثمّ إنه سبحانه يختم الآية بقوله: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تنبيها إلى أنه و إن كان شديد العذاب، إلّا أن رحمته سبقت غضبه، فهو غفور رحيم قبل أن يكون شديد العقاب و العذاب.

و هنا يحسن بنا أن نشير إلى ما ذكره أحد كبار العلماء المفسّرين الإسلاميين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۵

و هو العلّامـة الطبرسـی من سؤال و جواب حول هـذه الآیـة، لکونه علی اختصاره فی غایـة الأهمیـة من الناحیة الاعتقادیة، فقد ذکر فی ذیل هذه الآیة أنه: سئل بعض العلماء: کیف یعذب اللّه عباده بذنوبهم مع سعة رحمته؟

فقال: «رحمته لا تغلب حکمته، إذ لا تکون رحمته برقة القلب کما تکون الرحمة منا».

بمعنی أن الرحمـة الإلهیـة لاـ تکون علی أسـاس عـاطفی کما هو الحال فینا، بل إن رحمته ممتزجـة دائما مع حکمته، و حکمته توجب عقوبة المذنبین (إلّا فی موارد خاصّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۶

الآیات [سورة آل‌عمران (۳): الآیات ۱۳۰ الی ۱۳۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَأْکُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۱۳۰) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِی أُعِدَّتْ لِلْکافِرِینَ (۱۳۱) وَ أَطِیعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۳۲)

التّفسیر

حول الارتباط بین الآیات القرآنیة:

الآیات السابقة- کما عرفت- تحدثت حول معرکة «أحد» و حوادثها و وقائعها، و الدروس و العبر المختلفة التی تعلمها منها المسلمون، غیر أن هـذه الآیـات الثلاـث، و الآیـات الست اللاحقـة بها تحتوی علی سلسـلة من البرامـج الاقتصادیـة، و الاجتماعیـة، و التربویـة، ثمّ یستأنف القرآن بعد هذه الآیات التسع، حدیثه حول معرکة «أحد» و وقائعها.

و یمکن أن یکون هـذا النوع من الحدیث و البیان مبعث اسـتغراب و دهشة للبعض، إلّا أن الانتباه إلی مبدء أساسـی یوضح حقیقة هذا الأمر، و یکشف الغطاء عن سر هذا الأسلوب. و ذلک المبدأ هو:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۷

إن القرآن لیس کتابا کبقیـة الکتب ذات النمط الکلاسـیکی الذی یعتمد نظام الفصول و الأبواب الخاصة، بل هو کتاب نزل «نجوما» و بصورة تدریجیـة طوال ثلاثـة و عشـرین عاما، و ذلک طبقا للاحتیاجات التربویـة المختلفـة، و فی أماکن و أزمنـة مختلفة، فیوم حدثت معرکـة أحـد و وقائعها نزلت الآیات التی تتحـدث عمّا یرتبط بهذه المعرکة من برامج و قضایا حربیة، و یوم کانت الحاجة تتطلب بیان بعض البرامـج و التعـالیم الاقتصادیـة کـالموقف مـن الربـا، أو بعض المسائـل الحقوقیـة کأحکـام الزوجیـة أو بعض القضایـا التربویـة و الأخلاقیة کالتوبة کانت تنزل الآیات التی تتناول هذه الأمور.

فیستنتج من هذا أنه قد لا یوجد أی ارتباط خاص بین بعض الآیات و بین ما قبلها أو ما بعدها، و لیس من الضروری أن نبحث عن مثل هذا الارتباط- کما یحاول بعض المفسّـرین ذلک- أو أن نتکلف افتعال ذلک بین قضایا لم یرد اللّه سـبحانه الاتصال و الارتباط بینها، لأـن مثـل هـذا العمـل لاـ یتفـق مع روح القرآن و کیفیـة نزوله فی الحوادث المختلفـة، و المناسـبات المتنوعـة و حسب الاحتیاجـات و الظروف المنفصلة.

علی أنه لاـ ریب فی أن جمیع السور و الآیات القرآنیـة مرتبطـة و مترابطـة- علی وجه- و هو أن جمیعها تؤلف برنامجا کاملا و منهاجا متکاملا مترابطا لصـنع الإنسان و صیاغته، و تربیته بأفضل تربیة و صیاغة و أسماها، کما أنها بمجموعها نزلت لإیجاد مجتمع فاضل، واع

متقدم فى جميع الأبعاد و الجوانب المادية و المعنوية.

و بما قلناه يعلل عدم ارتباط الآيات التسع التى أشرنا إليها مع ما تقدمها أو يلحقها من الآيات فى هذه السورة المباركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۸

تحريم الرّبا فى مراحل:

كلنا يعرف أن أسلوب القرآن فى مكافحة الانحرافات الاجتماعية المتجذرة فى حياة الناس يعتمد معالجة الأمور خطوة فخطوة، فهو أولا- يهيئ الأرضية المناسبة، و يطلع الرأى العام على مفاسد ما يطلب محاربته و مكافحته، ثمّ بعد أن تتهيأ النفوس لتقبل التحريم النهائى يعلن عن التحريم فى صيغته القانونية النهائية (و يتبع هذا الأسلوب خاصة إذا كان ذلك الأمر الفاسد ممّا استشرى فى المجتمع، و كانت رقعة انتشاره واسعة).

كما أننا نعلم أيضا أن المجتمع العربى فى العهد الجاهلى كان مصابا- بشدة- بداء الربا، حيث كانت الساحة العربية (و خاصة مكة) مسرحا للمرابين. و قد كان هذا الأمر مبعثا للكثير من المآسى الاجتماعية، و لهذا استخدم القرآن فى تحريم هذه الفعلة النكراء أسلوب المراحل، فحرم الربا فى مراحل أربع:

۱- يكتفى فى الآية ۳۹ من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقى حول الربا إذ قال سبحانه و تعالى: وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

بهذا يكشف عن خطأ الذين يتصورون أن الربا يزيد من ثروتهم، فى حين أن إعطاء الزكاة و الإنفاق فى سبيل اللّه هو الذى يضاعف الثروة.

۲- يشير- ضمن انتقاد عادات اليهود و تقاليدهم الخاطئة الفاسدة- إلى الربا كعادة سيئة من تلك العادات، إذ يقول فى الآية ۱۶۱ من سورة النساء: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ

۳- يذكر فى الآية الحاضرة- كما سيأتى تفسيرها المفصل- حكم التحريم بصراحة، و لكنه يشير إلى نوع واحد من أنواع الربا، و هو النوع الشديد و الفاحش منه فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۸۹

۴- و أخيرا أعلن فى الآيات ۲۷۵ إلى ۲۷۹ من سورة البقرة عن المنع الشامل و الشديد عن جميع أنواع الربا، و اعتباره بمنزلة إعلان الحرب على اللّه سبحانه.

التحريم فى الآية الحاضرة:

قلنا إن الآية الحاضرة إشارة إلى الربا الفاحش معبرة عن ذلك بقوله أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و المراد من «الربا الفاحش» هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعدية، بمعنى أن تضم الزيادة المفروضة أولا على رأس المال ثمّ يصبح المجموع موردا للربا، بمعنى أن الزيادة ثانيا تقاس بمجموع المبلغ (الذى هو عبارة عن رأس المال و الزيادة المفروضة فى المرة الأولى) ثمّ تضم الزيادة المفروضة ثانيا إلى ذلك المبلغ، و تفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع ۴۲۸].

و هكذا يصبح مجموع رأس المال و الزيادة فى كلّ مرّة رأس مال جديد تضاف عليه زيادة جديدة بالنسبة، و بهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلى المدفوع إلى المديون حتّى يستغرق كلّ ماله.

و لهذا قال القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً.

و يستفاد من الأخبار و الروايات أن الرجل- فى الجاهلية- إذا كان يتخلف عن أداء دينه عند الموعد المقرر طلب من الدائن أن يضيف الزيادة على المبلغ ثمّ يؤخره إلى أجل آخر، و هكذا حتّى يستغرق بالشىء الطفيف مال المديون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۰

و هذا هو السائد بعينه فى عصرنا الحاضر و يفعله المرابون الكبار دون رحمة.

و لا شكّ أن مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الارتداع عنه الّا بتقوى اللّه، و لهذا عقب سبحانه نهيه عن مثل هذا الربا الظالم بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و لكن هل يكفى الأمر بتقوى اللّه و الترغيب فى الفلاح فى صورة ترك الربا؟

أم لا بدّ من التلويح بالعذاب الأخروى للمرابين؟ و لهذا قال سبحانه فى الآية الثانية وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذى مرّ فى الآية السابقة.

و يوحى التعبير ب «الكافرين» أن أخذ الربا لا يتفق أساسا مع روح الإيمان، و لهذا ينتظر المرابين ما ينتظر الكافرين من النار و العذاب.

كما يستفاد من ذلك أن النار أعدت أساسا للكافرين، و ينال العصاة و المذنبون من هذه النار بقدر شباهتهم بالكفار، و تعاونهم معهم.

ثم إنه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشىء من التشجيع و الترغيب للمطيعين و الممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۱

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۳ الى ۱۳۶]

اشارة

وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۳) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳۴) وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۳۵) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۱۳۶)

التّفسير

السباق فى مضمار السعادة:

بعد أن هددت الآيات السابقة العصاة و توعدتهم بالعذاب و الجحيم، و بشرت الأبرار المطيعين بالرحمة الإلهية و شوقتهم إليها جاءت الآية الأولى من هذه الآيات تشبه سعى المطيعين و اجتهادهم بالسباق، و المسابقة المعنوية التى تهدف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۲

الوصول إلى الرحمة الإلهية، و النعم و العطايا الربانية الخالدة وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

وَ سارِعُوا تعنى تسابق اثنين أو أكثر للوصول إلى هدف معين فيحاول كلّ واحد- باستخدام المزيد من السرعة- أن يسبق صاحبه و منافسه و هو أمر مندوب فى الأعمال و الأخلاق الصالحة، و مقبوح مذموم فى الأفعال السيئة و الأخلاق القبيحة.

إن القرآن الكريم يستفيد هنا- فى الحقيقة- من نقطة نفسية هى أن الإنسان لا يؤدى عمله بسرعة فائقة إذا كان بمفرده، و كان العمل من النوع الروتينى، أما إذا اتخذ العمل طابع المسابقة و التنافس الذى يستعقب جائزة قيمة و مكافأة ثمينة نجده يستخدم كلّ طاقاته، و يزيد من سرعته لبلوغ ذلك الهدف، و نيل تلك الجائزة.

ثمّ إذا كان الهدف المجعول فى هذه الآية هو «المغفرة» فى الدرجة الأولى فلأن الوصول إلى أى مقام معنوى لا يتأتى بدون المغفرة و التطهر من أدران الذنوب، فلا بدّ إذن من تطهير النفس من الذنوب أولا، ثمّ الدخول فى رحاب القرب الإلهى، و نيل الزلفى لديه.

هذا هو الهدف أول.

و أما الهدف الثانى لهذا السباق المعنوى العظيم فهو «الجنة» التى يصرح القرآن الكريم أن سعتها سعة السماوات و الأرض وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ

ثمّ إن هناك تفاوتا قليلا بين هذه الآية و بين الآية ۲۱ من سورة الحديد سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

ففى هذه الآية ذكرت لفظة «المسابقة» مكان «المسارعة» كما ذكرت السماء بصورة المفرد المصدّر بألف و لام الجنس الذى يفيد العموم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۳

كما استعمل هنا كاف التشبيه فيكون معنى هذه الآية هو أن سعة الجنة مثل سعة السماء و الأرض، و معنى الآية المبحوثة هنا هو أن سعة الجنة هى سعة السماوات و الأرض فيكون المعنيان سواء.

ثم إنه سبحانه يختم الآية الحاضرة بقوله أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ فهذه الجنة العظيمة الموصوفة بتلك السعة قد هيئت للذين يتقون اللّه و يخشونه و يجتنبون معاصيه و يمتثلون أوامره.

و ينبغى أن نعلم أن المراد بالعرض هنا ليس هو الطول و العرض الهندسى بل المراد- كما عليه اهل اللغة- هو السعة.

و هنا سؤالان:

أولا: هل الجنة و النار مخلوقتان و موجودتان بالفعل، أم أنهما توجدان فيما بعد على أثر أعمال الناس؟

ثانيا: إذا كانت الجنة و النار موجودتين فعلا فأين تقعان، و قد قال سبحانه بأن عرض الجنة عرض السماوات و الأرض.

هل الجنة و النار موجودتان الآن؟

يعتقد أكثر العلماء المسلمين أن للجنة و النار وجودا خارجيا و فعليا، و أن ظواهر الآيات القرآنية تؤيد هذه النظرية نذكر من باب النموذج ما يلى:

۱- ذكرت فى الآية الحاضرة و آيات قرآنية اخرى لفظة «أعدت» و ما شابه ذلك من مادة هذه اللفظة، و قد استعملت تارة بشأن الجنة و تارة بشأن النار[۴۲۹].

فيستفاد من هذه الآيات أن الجنة و النار معدتان فعلا، و إن كانتا تتوسعان فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۴

بعد على أثر أعمال الناس. (تأمل).

۲- نقرأ فی الآیات ۱۳ و ۱۴ و ۱۵ المرتبطة بالمعراج فی سورة «و النجم» قوله سبحانه: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى و هذا یشهد مرّة أخری بأن الجنة موجودة فعلا.

۳- یقول سبحانه فی سورة «التکاثر» الآیة ۵ و ۶ و ۷ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ

أی لو کان لدیکم علم یقینی لشاهدتم الجحیم، بل لرأیتموها رأی العین.

ثمّ إن هناک روایات ترتبط بالمعراج، و روایات أخری تحمل شواهد علی هذه المسألة[۴۳۰].

أین تقع الجنة و النار؟

إذا ثبت أن الجنة و النار موجودتان بالفعل یطرح سؤال آخر هو: أین تقعان إذن؟

و یمکن الإجابة علی هذا السؤال علی نحوین:

الأول: إن الجنة و النار تقعان فی باطن هذا العالم و لا غرابة فی هذا، فإننا نری السماء و الأرض و الکواکب بأعیننا، و لکننا لا نری العوالم التی توجد فی باطن هذا العالم، و لو أننا ملکنا وسیلة اخری للإدراک و العلم لأدرکنا تلک العوالم أیضا، و لو قفنا علی موجودات اخری لا تخضع أمواجها لرؤیة البصر، و لا تدخل ضمن نطاق حواسنا الفعلیة.

و الآیة المنقولة عن سورة «التکاثر» و هی قوله سبحانه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۵

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ هی الاخری شاهدة علی هذه الحقیقة و مؤیدة لهذا الرأی.

کما و یستفاد من بعض الأحادیث أیضا أنه کان بین الأتقیاء و الأولیاء من قد زودوا ببصیرة ثاقبة، و رؤیة نفاذة استطاعوا بها أن یشاهدوا الجنة و النار مشاهدة حقیقة.

و یمکن التمثیل لهذا الموضوع بالمثال الآتی:

لنفترض أن هناک فی مکان ما من الأرض جهازا قویا للإرسال الإذاعی یبث فی العالم- و بمعونة الأقمار الفضائیة و الأمواج الصوتیة- تلاوات شیقة لآیات القرآن الکریم. بینما یقوم جهاز قوی إذاعی آخر ببث أصوات مزعجة و صاخبة بنفس القوّة.

لا شکّ أننا لا نملک القدرة علی إدراک هذین النوعین من البث بحواسنا العادیة، و لا أن نعلم بوجودهما إلّا إذا استعنا بجهاز استقبال فإننا حینما ندیر المؤشر علی الموج المختص بکل واحد من هذین البثین نستطیع فورا أن نلتقط ما بثته کلّ واحدة من تینک الإذاعتین و نستطیع أن نمیز بینهما بجلاء، و دون عناء.

و هذا المثال و إن لم یکن کاملا من جمیع الجهات إلّا أنه یصور لنا حقیقة هامة، و هی أنه قد توجد الجنة و النار فی باطن هذا العالم غیر أننا لا نملک إدراکها بحواسنا، بینما یدرکها من یملک الحاسة النفاذة المناسبة.

الثانی: إن عالم الآخرة و الجنة و النار عالم محیط بهذا الکون، و بعبارة اخری:

إن کوننا هذا یقع فی دائرة ذلک العالم، تماما کما یقع عالم الجنین ضمن عالم الدنیا، إذ کلنا یعلم أن عالم الجنین عالم مستقل له قوانینه و أوضاعه و لکنه مع ذلک غیر منفصل عن هذا العالم الذی نحن فیه، بل یقطع فی ضمنه و فی محیطه و نطاقه، و هکذا الحال فی عالم الدنیا بالنسبة إلی عالم الآخرة.

و إذا وجدنا القرآن یقول: بأن سعة الجنة سعة السماوات و الأرض فإنما هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۶

لأجل أن الإنسان لا یعرف شیئا أوسع من السماوات و الأرض لیقیس به سعة الجنة، و لهذا یصور القرآن عظمة الجنة و سعتها و

عرضـها بأنها كعرض السـماوات و الأرض، و لم يكن بـد من هذا، فكما لو أننا أردنا أن نصور للجنين- فيما لو عقل- حجم الدنيا التى سينزل إليها، لم يكن لنا مناص من التحدث إليه بالمنطق الذى يدركه و هو فى ذلك المحيط.

ثمّ إنه تبين من ما مرّ الجواب على السؤال الآخر، و هو إذا كانت الجنة عرضها السماوات و الأرض فأين تكون النار؟

لأنه حسب الجواب الأول يتضـح أن النار هى الأخرى تقع فى باطن هذا العالم، و لا ينافى وجودها فيه وجود الجنة فيه أيضا (كما تبين من مثال جهازى الإرسال).

و أما حسب الجواب الثانى (و هو كون عالم الجنـة و النار محيطا بهـذا العالم الذى نعيش فيه) فيكون الجواب على هذا السؤال أوضـح لأنه يمكن أن تكون النار محيطة بهذا العالم، و تكون الجنة محيطة بها فتكون النتيجة أن تكون الجنة أوسع من النار.

سيماء المتقين:

لما صـرّح فى الآية السابقة بأن الجنة أعدت للمتقين، تعرضت الآية التالية لذكر مواصفات المتقين فذكرت خمسا من صفاتهم الإنسانية السامية هى:

۱- إنّهم ينفقون أموالهم فى جميع الأحوال، فى الشدّة و الرخاء، فى السرّاء و الضرّاء الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ.

و هم بهذا العمل يثبتون روح التعاطف مع الآخرين، و حب الخير الذى تغلغل فى نفوسهم، و لهذا فهم يقدمون على هذا العمل الصالح و الخطوة الإنسانية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۷

فى جميع الظروف و الأحوال.

و لا شكّ أن الإنفاق فى حال الرخاء فقط لا يـدلّ على التغلغل الكامل للصـفات الإنسانيـة فى أعماق الروح و إنما يدلّ على ذلك إذا أقدم الإنسان على الإنفاق و البذل فى مختلف الظروف و فى جميع الأحوال، فإن ذلك ممّا يدلّ على تجذر تلك الصفة فى النفوس.

يمكن أن يقال: و كيف يمكن للإنسان أن ينفق عند ما يكون فقيرا؟

و الجواب واضح تمام الوضوح:

أولا: لأن الفقراء يمكنهم إنفاق ما يستطيعون عليه، فليس للإنفاق حدّ معين لا فى القلة و لا فى الكثرة.

و ثانيـا: لأـن الإنفاق لا ينحصـر فى بـذل المال و الثروة فحسب، إذ للإنسان أن ينفق من كلّ ما وهبه اللّه، ثروة كان أو علما أو جاها أو غير ذلك من المواهب الإلهية الاخرى.

و بهذا يريد اللّه سـبحانه أن يركز روح التضـحية و العطاء، و البذل و السخاء حتّى فى نفوس الفقراء و المقلين حتّى يبقوا- بذلك- فى منأى عن الرذائل الأخلاقية التى تنشأ من «البخل».

إن الـذين يستصـغرون الإنفاقـات القليلـة فى سبيـل اللّه و يحتقرونها إنما يـذهبون هـذا المـذهب، لأنهم حسـبوا لكلّ واحـد منها حسابا مستقلا و خاصا، و لو أنهم ضموا هذه الإنفاقات الجزئية بعضها إلى بعض، و درسوها مجتمعة لتغيرت نظرتهم هذه.

فلو أن كـلّ واحـد من أهـل قطر من الأقطـار- فقراء و أغنياء- قـدم مبلغا صـغيرا لمساعـدة الآخرين من عباد اللّه، و لتقـدم الأهـداف و المشاريع الاجتماعية، لاستطاعوا أن يقوموا بأعمال ضخمة و كبيرة، مضافا إلى ما يجنونه من هذا العمل من آثار معنوية لا ترتبط بحجم الإنفاق، و تعود إلى المنفق فى كلّ حال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۸

و الملفت للنظر هو أن أول صـفة ذكرت للمتقين هنا هو «الإنفاق» لأن هـذه الآيات تذكر- فى الحقيقة- ما يقابل الصـفات التى ذكرت

للمرابين و المستغلّين فى الآيات السابقة. هذا مضافا إلى أن غض النظر عن المال و الثروة فى السرّاء و الضراء من أبرز علائم التقوى.

۲- أنهم قادرون على السيطرة على غضبهم: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ.

و لفظة «الكظم» تعنى فى اللغة شد رأس القربة عند ملئها، فيقول كظمت القربة إذا ملأتها ماء ثمّ شددت رأسها، و قد استعملت كناية عمن يمتلئ غضبا و لكنه لا ينتقم.

و أما لفظة «الغيظ» فتكون بمعنى شدّة الغضب و التوتر و الهيجان الروحى الشديد الحاصل للإنسان عند ما يرى ما يكره.

و حالات الغيظ و الغضب من أخطر الحالات التى تعرى الإنسان، و لو تركت و شأنها دون كبح لتحولت إلى نوع من الجنون الذى يفقد الإنسان معه السيطرة على أعصابه و تصرفاته و ردود فعله.

و لهذا فإن أكثر ما يقترفه الإنسان من جرائم و أخطاء و أخطرها على حياته هى التى تحصل فى هذه الحالة، و لهذا تجعل الآية «كظم الغيظ» و «كبح جماح الغضب» الصفة البارزة الثانية من صفات المتقين.

قال النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «من كظم غيظا و هو قادر على إنفاذه ملأه اللّه أمنا و إيمانا».

و هذا الحديث يفيد أن كظم الغيظ له أثر كبير فى تكامل الإنسان معنويا، و فى تقوية روح الإيمان لديه.

۳- أنهم يصلحون عمن ظلمهم وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ

إن كظم الغيظ أمر حسن جدا، إلّا أنه غير كاف لوحده، إذ من الممكن أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۶۹۹

لا يقلع ذلك جذور العداء من قلب المرء، فلا بدّ للتخلص من هذه الجذور و الرواسب أن يقرن «كظم الغيظ» بخطوة أخرى و هى «العفو و الصفح» و لهذا أردفت صفة «الكظم للغيظ» التى هى بدورها من أنبل الصفات بمسألة العفو.

ثمّ إنّ المراد هو العفو و الصفح عن من يستحقون العفو، لا الأعداء المجرمون الذين يحملهم العفو و الصفح على مزيد من الإجرام، و ينتهى بهم إلى الجرأة أكثر.

۴- أنهم محسنون: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

و هنا إشارة إلى مرحلة أعلى من «العفو و الصفح» و بهذا يرتقى المتقون من درجة إلى أعلى فى سلّم التكامل المعنوى.

و هذه السلسلة التكاملية هى أن لا يكتفى الإنسان تجاه الإساءة إليه بكظم الغيظ بل يعفو و يصفح عن المسىء ليغسل بذلك آثار العداء عن قلبه، بل يعمد إلى القضاء على جذور العداء فى فؤاد خصمه المسىء إليه أيضا، و ذلك بالإحسان إليه، و بذلك يكسب وده و حبه، و يمنع من تكرار الإساءة إليه فى مستقبل الزمان.

و خلاصة القول أن القرآن يأمر المسلم بأن يكظم غيظه أولا ثمّ يطهر قلبه بالعفو عنه، ثمّ يطهر فؤاد خصمه من كلّ رواسب الضغينة و بقايا العداء بالإحسان إليه.

إنه تدرج عظيم من صفة إنسانية خيّرة إلى صفة إنسانية أعلى هى قمة الخلق و ذروة الكمال المعنوى.

و لقد روى فى المصادر الشيعية و السنية فى ذيل هذه الآية أن جارية لعلى بن الحسين جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة، فسقط الإبريق من يدها فشجه، فرفع رأسه إليها فقالت له الجارية: إن اللّه تعالى يقول: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ فقال لها: قد كظمت غيظى. قالت: وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ قال: «قد عفوت و قد عفى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۰

عنك» قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: اذهبى فأنت حرة لوجه اللّه ۴۳۱].

إن هذا الحديث شاهد حى بأن كلّ مرحلة متأخرة من تلك المراحل أفضل من المرحلة المتقدمة.

۵- إنهم لا يصرون على ذنب: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً، أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

و «الفاحشة» مشتقة أصلا من الفحش، و هو كلّ ما اشتد قبحه من الذنوب، و لا يختص بالزنا خاصة، لأن الفحش- فى الأصل- يعنى «تجاوز الحدّ» الذى يشمل كلّ ذنب.

هذا و فى الآية أعلاه إشارة إلى إحدى صفات المتقين، فالمتقون مضافا إلى الاتصاف بما ذكر من الصفات الإيجابية، إذا اقترفوا ذنبا، ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا.

يستفاد من هذه الآية أن الإنسان لا يذنب ما دام يتذكر اللّه، فهو إنما يذنب إذا نسى اللّه تماما و اعترته الغفلة، و لكن لا يلبث هذا النسيان و هذه الغفلة- لدى المتقين- حتّى تزول عنهم سريعا و يذكرون اللّه، فيتداركون ما فات منهم، و يصلحون ما أفسدوه.

إن المتقين يحسون إحساسا عميقا بأنه لا ملجأ لهم إلّا اللّه، فلا بدّ أن يطلبوا منه المغفرة لذنوبهم دون سواه وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

و ينبغى أن نعلم أن القرآن ذكر مضافا إلى «الفاحشة» «ظلم النفس» أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و يمكن أن يكون الفرق بين هذين هو أن الفاحشة إشارة إلى الذنوب الكبيرة، و «ظلم النفس» إشارة إلى الذنوب الصغيرة.

ثمّ إنه سبحانه تأكيدا لهذه الصفة قال: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۱

و قد نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «الإصرار: أن يذنب الذنب فلا يستغفر اللّه، و لا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار»[۴۳۲].

و

فى أمالى الصدوق بإسناده إلى الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: «لما نزلت هذه الآية إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه فقالوا يا سيدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين.

فقال: أنا لها بكذا و كذا.

قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك.

فقال: لست لها.

فقال: الوساوس الخناس أنا لها.

قال: بماذا؟ قال: أعدهم و امنيهم حتّى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة»[۴۳۳].

و من الواضح أن النسيان ناشئ من التساهل، و الوساوس الشيطانية، و إنما يبتلى بها من سلم نفسه لها، و خضع لتأثيرها، و تعاون مع الوسواس الخناس و استجاب له.

و لكن اليقظين المؤمنين تجدهم فى أعلى درجة من مراقبة النفس، فكلّما صدرت منهم خطيئة أو بدر ذنب، بادروا- فى أقرب فرصة- إلى غسل ما ران على قلوبهم و نفوسهم من درن المعصية، و أغلقوا منافذ أفئدتهم على جنود الشيطان الذين لا يستطيعون النفوذ إلى القلوب من الأبواب المؤصدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۲

هذه هى أبرز صفات المتقين و أقوى المعالم فى سلوكهم و خلقهم، قد تعرضت لذكرها الآيات السابقة.

و الآن جاء الدور ليذكر القرآن الكريم ما ينتظر هذا الفريق من الثواب و الجزاء اللائق.

و كان ذلك إذ قال سبحانه: أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ* وَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها.

لقد ذكر فى هذه الآية جزاء المتقين الذين تعرضت الآيات السابقة لذكر أوصافهم و أبرز صفاتهم، و هذا الجزاء عبارة عن: مغفرة ربانية، و جنات خالدات تجرى من تحتها الأنهار بدون انقطاع أبدا.

و الحقيقة أن الإشارة هنا كانت إلى المواهب المعنوية (و هى المغفرة و الطهارة الروحية و التكامل المعنوى) أولا، ثمّ إلى المواهب المادية.

ثمّ إنه سبحانه يعقب ما قال عن الجزاء بقوله: وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ أى ما أروع هذا الجزاء الذى يعطى للعالمين لا للكسالى، الذين يتهربون من مسئولياتهم، و يتملصون من التزاماتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۳

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۸]

اشارة

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۳۷) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۱۳۸)

التّفسير

النظر فى تاريخ الماضين و آثارهم:

يعتبر القرآن الكريم ربط الماضى بالحاضر و الحاضر بالماضى أمرا ضروريا لفهم الحقائق، لأن الارتباط بين هذين الزمانين (الماضى و الحاضر) يكشف عن مسئولية الأجيال القادمة، و يوقفها على واجبها، و لهذا قال سبحانه: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

و هذا يعنى أن للّه فى الأمم سننا لا تختص بهم، بل هى قوانين و سنن عامة فى الحياة تجرى على الحاضرين كما جرت على الماضين سواء بسواء، و هى سنن للتقدّم و البقاء و سنن للتدهور و الاندحار، التقدّم للمؤمنين المجاهدين المتحدين الواعين، و التدهور و الاندحار للأمم المتفرقة المتشتتة الكافرة الغارقة فى الذنوب و الآثام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۴

أجل إن للتاريخ أهمية حيوية لكلّ أمة من الأمم، لأن التاريخ يعكس الخصوصيات الأخلاقية و الأعمال الصالحة و غير الصالحة، و الأفكار التى كانت سائدة فى الأجيال السابقة، كما يكشف عن علل سقوط المجتمعات أو سعادتها، و نجاحها و فشلها فى العصور الغابرة المختلفة.

و بكلمة واحدة: إن التاريخ مرآة الحياة الروحية و المعنوية للمجتمعات البشرية و هو لذلك خير مرشد محذر للأجيال القادمة.

و لهذا نجد القرآن الكريم يدعو المسلمين إلى السير فى الأرض و النظر بإمعان و تدبر فى آثار الأمم و الشعوب التى سادت ثمّ بادت إذ يقول: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ* فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

إن آثار الماضين خير عبرة للقادمين، و بالنظر فيها و الإعتبار بها يمكن للناس أن يعرفوا المسير الصحيح للسلوك و الحياة.

السياحة و السير فى الأرض:

إن الآثار المتبقیـة فی مختلف بلـدان العالم من الأمم و العهود السابقـة ما هی- فی الحقیقـة- إلّا و ثائق التاریـخ الحیة و الناطقة. بل هی قادرة علی أن تعطینا من الحقائق و الأسرار أکثر ممّا یعطینا التاریخ المدون.

إن الآثار الباقیة من العصور السالفة بما فیها من أشـکال و صور و نقوش و کیفیات تدلنا علی ما کانت تتمتع به الأمم البائدة من روح و فکر، و ثقافات و مبادئ، و عظمة أو صغار، فی حین لا یجسّد التاریخ المدون سوی الحوادث الواقعة و سوی صور خاویة عنها.

أجـل، إن خرائب قصور الطغـاة و بقایـا آثار عظیمـة مثل الأهرام، و برج بابل، و قصور کسـری، و آثار الحضارة المنـدثرة لقوم سـبأ، و مئات من نظائرها الاخری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۵

من هذه الآثار المنتشرة فی شتی أنحاء هذا الکوکب تنطوی- رغم صمتها- علی ألف حدیث و حدیث، و ألف کلمة و کلمة.

و لهذا عمد کبار الشـعراء إلی الاسـتلهام من هذه الأطلال و الآثار و اسـتوحوا منها الدروس و العبر و العظات، و نقلوا إلی الآخرین عبر قصائدهم ما کان یجیش فی صدورهم، و ینقدح فی نفوسـهم من المشاعر و الأحاسیس المختلفة، تجاه ما تحکیه هذه الأطلال و الآثار من معانی و تعطیه من دلالات.

و لقد لخص أحد الأدباء هذه الحقیقة فی بیت شعری إذ قال:

ان آثارنا تدل علینافانظروا بعدنا إلی الآثار

إن مطالعـة سـطر واحد من هذه التواریخ الحیة الناطقة تعادل- فی الحقیقة- مطالعة کتاب ضـخم فی مجال التاریخ، و أن ما تبعثه تلک المطالعة فی النفس و الروح البشریة لا یقاس به شیء مهما عظم.

ذلـک لأننـا عنـد مـا نقف أمـام آثار الماضـین تتمثل أمامنا تلک الآثار و کأنها قـد اسـتعادت حیاتها، و دب فیها الروح، و کأن العظام النخرة قـد خرجت من تحت الأرض حیـة، و کأن کلّ شـیء قـد عاد إلی سـیرته الأولی، و کأن جمیع الأشـیاء تنطق و تتحـدث، ثمّ إذا أعـدنا النظر وجـدناها صامتـة میتـة منسـیة، و هـذه المقایسـة بین هـاتین الحـالتین ترینا غباء أولئک المسـتبدون الـذین یرتکبون آلاف الجرائم، و أفظع الجنایات للوصول إلی الشهوات العابرة، و اللذائذ الخاطفة.

و لهذا یحث القرآن المسـلمین علی السـیر فی الأرض، و النظر إلی آثار الماضین المدفونة تحت التراب أو الباقیة علی ظهر الأرض بأم أعینهم، و أن یتخذوا من کلّ ذلک العظة و العبرة و ما أکثر العبر.

أجل، إن الإسـلام یقر مسألة السـیاحة و السـیر فی الأرض، و یولیها أهمیة کبری، لکن لا کما یرید السـیاح و طلاب اللذة و الهوی، بل الدراسة آثار الأمم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۶

الماضـیة و التدبر فیها، و الإعتبار بها، و الوقوف علی آثار العظمة الإلهیة فی شتی نقاط العالم و هذا هو ما یسـمیه القرآن الکریم بالسیر فی الأرض، و الذی تأمر به الآیات العدیدة و من ذلک:

۱- قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِینَ ۴۳۴].

۲- أَ فَلَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَتَکُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ یَعْقِلُونَ بِها[۴۳۵] و آیات اخری ...

۳- قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۴۳۶].

إن هـذه الآیـة تقول بأن السـیر فی الأرض و النظر فی آثار الماضـیین یفتح العقول و العیون، و ینیر القلوب و الأفئدة، و یخلص الإنسان من الجمود و الرکود.

و قد أشار الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام إلی هذه الحقیقة فی کلمات و خطب عدیدة منها

قوله: «فاعتبروا بما أصاب الأمم المسـتکبرین من قبلکم من بأس اللّه وصولاته، و وقائعه و مثلاته و اتعظوا بمثاوی خـدودهم، و مصارع

جنوبهم و استعيذوا باللّه من لواقح الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدهر ...

و احذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال، و ذميم الأعمال، فتذكروا فى الخير و الشرّ أحوالهم، و احذروا أن تكونوا أمثالهم فإذا تفكرتم فى تفاوت حاليهم فالزموا كلّ أمر لزمت العزة به شأنهم و زاحت الأعداء له عنهم، و مدت العافية به عليهم، و انقادت النعمة له معهم، و وصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة و اللزوم للألفة و التحاض عليها، و التواصى بها، و اجتنبوا كلّ أمر كسر فقرتهم و أوهن منّتهم، من تضاغن القلوب، و تشاحن الصدور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۷

و تدابر النفوس، و تخاذل الأيدى ...»[۴۳۷].

و لكن هذا التعليم الإسلامى الحى قد نسى- مع الأسف- كبقية التعاليم الإسلامية و لم يلتفت إليه المسلمون، بل إنّ بعض العلماء و المفكرين الإسلاميين حصروا الزمان و المكان فى فكرهم، فعاشوا فى عالم غير عالم الحياة هذا، و بقوا فى معزل عن التحولات الاجتماعية، و أشغلوا أنفسهم بأمور حقيرة و قضايا جزئية قليله الأثر بالقياس إلى الأعمال الجوهرية و القضايا الأساسية.

ففى عالم نجد فيه البابوات و القساوسة المسيحيين الذين طال ما حبسوا أنفسهم بين جدران الكنائس قد خرجوا من تلك العزلة الطويلة و الانقطاع عن الحياة الاجتماعية إلى العالم الخارجى و راحوا يسيحون فى الأرض، و يقيمون الجسور و العلاقات مع الأمم و الشعوب ليزدادوا خبرة بالعصر، و يقفوا على متطلباته و مستجداته و متغيراته الكثيرة، أ فلا يجدر بالمسلمين أن يعملوا بهذا التعليم الإسلامى الصريح، و يخرجوا من النطاق الفكرى الضيق الذى هم فيه حتّى يتحقق التحول المطلوب فى حياة الأمة الإسلامية، و تحل الحركة الصاعدة محل الجمود و التقهقر، و التقدّم المطرد مكان التخلّف و التراجع.

و لما كان التعليم الإلهى العظيم- رغم كونه موجها إلى عامة المخاطبين- لا ينتفع به و لا يستلهمه إلّا المتقون قال سبحانه تعقيبا على الآية السابقة هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

أجل، إن المتقين الهادفين هم الذين يتعظون بهذه الأمور لأنهم يبحثون عن كلّ ما يعمق روح التقوى فى نفوسهم، و يزيد بصيرتهم بالحقّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۸

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۳۹ الى ۱۴۳]

اشارة

وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳۹) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۱۴۰) وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكافِرِينَ (۱۴۱) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (۱۴۲) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۱۴۳)

سبب النّزول

لقد وردت فى سبب نزول هذه الآيات روايات مختلفة، و لكن يستفاد من مجموعها أن هذه الآيات تتبع الآيات السابقة التى كانت تدور حول غزوة «أحد».

و فى الحقيقة تعتبر هذه الآيات تحليلا و دراسة لنتائج غزوة «أحد» و أسبابها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۰۹

لكونها تمثل دروسا كبيرة للمسلمين، و هى فى نفس الوقت تسلية للمؤمنين و تقوية لقلوبهم و تثبيت لأفئدتهم، لأن هذه الغزوة- كما أسلفنا- انتهت بسبب تجاهل بعض الرماة لأوامر النبى المشدّدة بالبقاء فى الثغرة، بنكسة المسلمين، و استشهاد ثلة كبيرة من أعيانهم و أبطال الإسلام البارزين، و من جملتهم «حمزة» عم النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقد حضر النبى مع جماعة من أصحابه فى تلك الليلة، عند القتلى، و جلس عند كلّ واحد من الشهداء كرامة له و بكى عنده و استغفر له، ثمّ دفن جميع الشهداء عند «أحد» فى جو من الحزن العميق، فكان المسلمون بحاجة- فى هذه اللحظات- إلى ما يمسح عنهم كآبة العزيمة و مرارة الانكسار، و يقوى قلوبهم و يفيدهم درسا فى نفس الوقت من نتائج النكسة و عبرها- فنزلت الآيات المذكورة هنا.

التّفسير

دراسة نتائج غزوة أحد:

فى الآية الأولى من هذه الآيات حذر المسلمون من أن يعتريهم اليأس و الفتور بسبب النكسة فى معركة واحدة، و أن يتملكهم الحزن و ييأسوا من النصر النهائى، قال سبحانه: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

أجل، لا يحسن بهم أن يشعروا بالوهن أو يتملكهم الحزن لما حدث، فالرجال الواعون هم الذين يستفيدون الدروس من الهزائم كما يستفيدونها من الانتصارات و هم الذين يتعرفون فى ضوء النكسات على نقاط الضعف فى أنفسهم أو مخططاتهم، و يقفون على مصدر الخطأ و الهزيمة، و يسعون لتحقيق النصر النهائى بالقضاء على تلك الثغرات و النواقص و الوهن المذكور فى الآية، هو- كما فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۰

اللغة- كلّ ضعف يصيب الجسم أو الروح أو يصيب الإرادة و الإيمان.

على أن عبارة وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ عبارة غنية بالمعانى حرية بالنظر و التأمل. إذ هى تعنى أن هزيمتكم إنما كانت بسبب فقدانكم لروح الإيمان و آثارها، فلو أنكم لم تتجاهلوا أوامر اللّه سبحانه لم يصبكم ما أصابكم، و لم يلحقكم ما لحقكم، و لكن لا تحزنوا مع ذلك، فإنكم إذا ثبتم على طريق الإيمان كان النصر النهائى حليفكم، و الهزيمة فى معركة واحدة لا تعنى الهزيمة النهائية.

ثمّ إنه سبحانه يقول: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ و بذلك يعطى للمسلمين درسا آخر للوصول إلى النصر النهائى.

و «القرح» جرح يصيب البدن بسبب اصطدامه بشىء خارجى.

فيكون معنى الآية أن عزيمتكم لا ينبغى أن تكون أقل من عزيمة الأعداء، فهم رغم ما لحقهم من خسائر فادحة فى الأرواح و الأموال- فى بدر- حيث قتل منهم سبعون، و جرح و أسر كثير، فإنهم لم يقعدوا عن منابذتكم و مقاتلتكم، و لم يصرفهم ذلك عن الخروج إلى محاربتكم، بل تلافوا فى هذه المعركة ما فاتهم، و تداركوا هزيمتهم، فإذا أصبتم فى هذه المعركة بهزيمة شديدة فإن عليكم أن لا تقعدوا حتّى تتلافوا ما فاتكم ف إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ فلما ذا الوهن و لماذا الحزن إذن؟

و يذهب بعض المفسّرين إلى أن الآية تشير إلى الجراح التى لحقت بالكفّار فى أحد، و لكن هذا لا يستقيم لأن الجراح التى لحقت بالكفّار فى أحد لم تكن مثل الجراح التى لحقت بالمسلمين، هذا أولا، و كذلك لا يتناسب مع الجملة اللاحقة التى سيأتى تفسيرها فيما بعد ثانيا، ألا و هى قوله سبحانه: وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ.

ففى هذا القسم يشير سبحانه إلى واحدة من السنن الإلهية و هى أنه قد تحدث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۱

فى حياة البشر حوادث حلوة أو مرّة و لكنها غير باقية و لا ثابتة مطلقا، فالانتصارات و الهزائم، و الغالبية و المغلوبية، و القوّة و الضعف كلّ ذلك يتغير و يتحول، و كلّ ذلك يزول و يتبدل، فلا ثبات و لا دوام لشىء منها، فيجب أن لا يتصور أحد أن الهزيمة فى معركة واحدة و ما يتبعها من الآثار امور دائمة ثابتة باقية، بل لا بدّ من الانتفاع بسنة التحول، و ذلك بتقييم أسباب الهزيمة و عواملها و تلافيها، و تحويل الهزيمة إلى انتصار، فالحياة صعود و نزول، و أحداثها فى تحول مستمر، و تبدل دائم و لا ـ ثبات لشىء من أوضاعها و أحوالها. وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ ۴۳۸] نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ لتتضح سنة التكامل من خلال ذلك.

ثمّ إنه سبحانه يشير إلى نتيجة هذه الحوادث المؤلمة فيقول: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أى أن ذلك إنما هو لأجل أن يتميز المؤمنون حقّا عن أدعياء الإيمان.

و بعبارة أخرى: إذا لم تحدث الحوادث المؤلمة فى حياة أمة من الأمم و تاريخها لم تتميز الصفوف و لم يتبين الخبيث و الطيب، لأن الانتصارات وحدها تخدع و تغرى، و تصيب المنتصرين بالغفلة بينما تشكل الهزائم عامل يقظة للمستعدين المتهيئين، و توجب ظهور القيم، و تعرف بها حقائق الرجال.

ثمّ إنه فى قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ يشير إلى إحدى نتائج هذه الهزيمة المؤلمة، بأن هذه النتيجة كانت هى تقديمكم بعض الشهداء فى هذه المعركة، فيجب أن تعلموا أن هذا الدين لم يصل إليكم بالهيّن، فلا يفلت منكم كذلك فى المستقبل.

إن الأمة التى لا تضحى فى سبيل أهدافها المقدسة لا تعير تلك الأهداف أهميتها، و لا تعطيها قيمتها اللائقة، أما إذا ضحت فى سبيل أهدافها فإنها هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۲

و أجيالها القادمة كذلك ستعطى لتلك الأهداف الأهمية و القيمة اللازمة و ستنظر إليها بعين الاحترام و الإكبار.

و يمكن أن يكون المراد من «الشهداء» هنا هم الذين يشهدون، فيكون معنى قوله وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ أى أن يتخذ منكم بوقوع هذه الحادثة فى حياتكم- شهودا- لتعرفوا كيف أن عدم الانضباط و عدم التقييد بالأوامر يؤدى إلى الهزيمة، و ينتهى إلى النكسة المؤلمة.

و إن هؤلاء الشهود سيعلمون الأجيال اللاحقة دروس الإنتصار و الهزيمة حتّى لا يكرروا الأخطاء، و لا تقع حوادث مشابهة.

ثمّ إنه تعالى يختم هذا الاستعراض للسنن و الدروس و النتائج بقوله: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ فهو لا ينصرهم و لا يدافع عنهم، و لا يمكّنهم من المؤمنين الصالحين العاملين بتعاليم السماء الآخذين بسنن اللّه فى الكون و الحياة.

الحوادث المرة ميدان تربية:

أجل، إن لمعركة «أحد» و ما لحق بالمسلمين فيها من هزيمة نتائج و آثارا، و من نتائجها و آثارها الطبيعية أنها كشفت عن نقاط الضعف فى الجماعة و الثغرات الموجودة فى كيانها، و هى وسيلة فعالة و مفيدة لغسل تلك العيوب و التخلّص من تلك النواقص و الثغرات، و لهذا قال سبحانه: وَ لِيُمَحِّصَ ۴۳۹] اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا أى أن اللّه أراد- فى هذه الواقعة- أن يتخلص المؤمنون من العيوب و يريهم ما هم مبتلون به من نقاط الضعف. إذ يجب لتحقيق الانتصارات فى المستقبل أن يمتحنوا فى بوتقة الاختبار، و يزنوا فيها أنفسهم كما-

قال الإمام على عليه السّلام: «فى تقلب الأحوال علم جواهر الرجال».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۳

و لهذا قد يكون لبعض الهزائم و النكسات من الأثر فى صياغة المجتمعات الإنسانية و تربيتها ما يفوق أثر الانتصارات الظاهرية.

و الجدير بالذكر أن مؤلف تفسير المنار نقل عن استاذه مفتى مصر الأكبر الشيخ محمد عبده أنه رأى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام فقال له: «رأيت النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليلة الخميس الماضية (غرة ذى القعدة سنة ۱۳۲۰) فى الرؤيا منصرفا مع أصحابه من أحد و هو يقول: «لو خيّرت بين النصر و الهزيمة لاخترت الهزيمة» أى لما فى الهزيمة من التأديب الإلهى للمؤمنين و تعليمهم أن يأخذوا بالاحتياط و لا يغتروا بشىء يشغلهم عن الاستعداد و تسديد النظر[۴۴۰].

و أما نتيجة هذه التربية و الصياغة التى يتلقاها المؤمنون فى خضم المحن و المصائب و اتون الحوادث المرة فهو حصول القدرة الكافية لدحر الشرك و الكفر دحرا ساحقا و كاملا. و إلى هذا أشار بقوله: وَ يَمْحَقَ ۴۴۱] الْكافِرِينَ

فإن المؤمنين بعد أن تخلصوا- فى دوامة الحوادث- من الشوائب يحصلون على القدرة الكافية للقضاء التدريجى على الشرك و الكفر، و تطهير مجتمعهم من هذه الأقذار و الشوائب، و هذا يعنى أنه لا بدّ أولا من تطهير النفس ثمّ تطهير الغير.

أى التطهر ثمّ التطهير.

و فى الحقيقة كما أن القمر- مع ما هو عليه من النور و البهاء الخاصين به- يفقد نوره شيئا فشيئا أمام وهج الشمس و بياض النهار حتّى يغيب فى ظلمة المحاق فلا يعود يرى إلّا عند ما تنسحب الشمس من الأفق، كذلك يأفل نجم الشرك و أهله و تتضاءل قوة الكفر و أشياعه كلّما ازداد صفاء المسلمين المؤمنين، و خلصوا من رواسب الضعف و الاعوجاج و الانحراف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۴

فهناك علاقة متقابلة بين تمحيص المؤمنين و ارتقائهم فى مدارج الخلوص و الطهر، و مراتب الصفاء و التقوى، و بين انزياح الكفر و الشرك و اندثار معالمها و آثارهما عن ساحة الحياة الاجتماعية.

هذه هى الحقيقة الكبرى و الخالدة التى يلخصها القرآن فى هاتين الجملتين اللتين تشكل الأولى منها المقدمة و الثانية النتيجة.

ثمّ إنه يفيدنا القرآن درسا من واقعة «أحد» فى تصحيح خطأ فكرى وقع فيه المسلمون فيقول: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ أى هل تظنون أنكم تنالون أوج السعادة المعنوية بمجرد اختياركم لاسم المسلم، أو بمجرد أنكم حملتم العقيدة الإسلامية فى الفكر دون أن تطبقوا ما يتبعها من التعاليم؟

لو كان الأمر كذلك لكان هينا جدا، و لكن ليس كذلك حتما، فإنه ما لم تطبق التعاليم التى تتبع تلك المعتقدات، فى واقع الحياة العملية لم ينل أحد من تلك السعادة العظمى شيئا.

و هنا بالذات يجب أن تتميز الصفوف، و يعرف المجاهدون الصابرون عن غيرهم.

مزاعم جوفاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۲ ؛ ص۷۱۴

إنه كان هناك جماعة من المسلمين- بعد معركة «بدر» و استشهاد فريق من أبطال الإسلام- يتمنون الموت فى أحاديثهم و مجالسهم و يقولون: ليتنا نلنا الشهادة فى «بدر»، و من الطبيعى أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين فى تمنيهم و البعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنية، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، و لكن لم يلبث هذا الوضع طويلا، فسرعان ما وقعت معركة أحد الرهيبة المؤلمة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۵

فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة و بسالة و صدق و كرعوا كؤوس الشهادة، و حققوا أمانيهم، و لكن الذين كانوا يتمنونها كذبا و

تظاهرا ما إن رأوا علائم الهزيمة التى لحقت بالجيش الإسلامى فى تلك الواقعة حتّى فروا خوفا و جبنا، و ظنا بنفوسهم و أرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبخهم و تعاتبهم إذ تقول: وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ فلما ذا فررتم و هربتم من الشىء الذى كنتم تتمنونه طويلا و كيف يفر المرء من محبوبه، و هو يراه و ينظر إليه؟

دراسة سريعة لعلل الهزيمة فى «أحد»:

لقد مررنا فى الآيات السابقة فى هذا المقطع من الحديث على عبارات تكشف كلّ واحدة منها القناع عن واحدة من أسرار الهزيمة التى وقعت فى معركة أحد، و ها نحن نشير إلى أهم و أبرز هذه العوامل التى تعاضدت فأدت إلى هذه النكسة المرة، و الحاوية لكثير من العبر فى نفس الوقت، و هذه العوامل هى:

۱- الخطأ فى المحاسبة عند بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام فى فهم مفاهيمه و تعاليمه، حيث إنهم تصوروا أن إظهار الإيمان وحده يكفى لتحقيق الإنتصار، و إن اللّه- لذلك سينزل عليهم نصره، و يمدهم بالقوى الغيبية فى جميع الميادين، و لهذا تناسوا و تجاهلوا السنن الإلهية فى مجال الأسباب الطبيعية للانتصار من إختيار الخطة الصحيحة، و الإعداد القوى اللازمة، و اليقظة القتالية.

۲- عدم الانضباط العسكرى و مخالفة أوامر النبى القائد المشددة للرماة بالبقاء فى الثغر من الجبل، و الذب عن ظهور المسلمين و قد كان هذا هو العامل الحقيقى المؤثر للهزيمة.

۳- حب الدنيا و الحرص على الحطام الذى دفع بعض المسلمين الحديثى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۶

العهد بالإسلام إلى الانصراف إلى جمع الغنائم، و ترك ملاحقة العدو، و وضع الأسلحة حتّى لا- يتأخروا عن الآخرين فى حيازة الغنائم، و كان هذا هو العامل الثالث لتلك النكسة الدامية التى علمتهم أن الجهاد فى سبيل اللّه يستدعى نسيان جميع هذه الأمور و التوجه بالكامل إلى الهدف.

۴- الغرور الناشئ عن الإنتصار الساحق و اللامع فى معركة بدر إلى درجة أنه أنسى بعض المسلمين قوة العدو، و جعلهم يحتقرون تجهيزاته و طاقاته، و يستصغرون شأنه.

هذه هى بعض نقاط الضعف التى ينبغى أن تزول فى مياه هذه النكسة المؤلمة الساخنة، و تتبخر فى أتونها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۷

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۵]

اشارة

وَ ما مُحَمَّدٌ إِلاَّ- رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ- بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلاً وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (۱۴۵)

سبب النّزول

إن الآية الأولى من هاتين الآيتين ناظرة أيضا إلى حادثة أخرى من حوادث معركة «أحد» و هى الصيحة التى ارتفعت فجأة فى ذروة

القتال بين المسلمين و الوثنيين أن محمّدا قد قتل.

و لقد قارنت هذه الصيحة نفس اللحظة التى رمى فيها «عمرو بن قمئة الحارثى» النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بحجر فكسر به رباعيته و شجه فى وجهه، فسأل الدم، و غطى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۸

وجهه الشريف ۴۴۲] فقد كان العدو يريد فى هذه اللحظة أن يقضى على رسول اللّه، و لكن «مصعب بن عمير» و هو من حملة الرايات فى الجيش الإسلامى ذب عنه حتّى قتل دون النبى، فتوهم العدو أن النبى قد قتل، و لهذا صاح: إلّا أن محمّدا قد قتل، ليخبر الناس بذلك الأمر.

و قد كان لانتشار هذا الخبر أثره الإيجابى فى معنويات الوثنيين بقدر ما ترك من الأثر السيء فى نفوس المسلمين حيث تزعزعت روحيتهم و زلزلوا زلزالا شديدا، فاضطرب جمع كبير منهم كانوا يشكلون أغلبية الجيش الإسلامى، و أسرعوا فى الخروج من ميدان القتال، بل و فكر بعضهم أن يرتد عن الإسلام بمقتل النبى و يطلب الأمان من أقطاب المشركين، بينما كان هناك أقلية من المسلمين مثل الإمام على عليه السّلام و أبو دجانة و طلحة و آخرون، يصرون على الثبات و المقاومة و يدعون الناس إليه.

فقد جاء أنس بن النضر إلى ذلك الفريق الذى كان يفكر فى الفرار و قال لهم:

«يا قوم إن كان قد قتل محمّد فربّ محمّد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و موتوا على ما مات عليه» ثمّ شد بسيفه و حمل على الكفّار و قاتل حتّى قتل، ثمّ لم يمض وقت طويل حتّى تبين أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على قيد الحياة، و تبين على أثره خطأ ذلك الخبر أو كذبه، فنزلت الآية الأولى- من الآيتين الحاضرتين- توبخ الذين لاذوا بالفرار بشدة.

التّفسير

لا لعبادة الشخصية و تقديس الفرد:

تعلّم الآية الأولى من هاتين الآيتين حقيقة أخرى للمسلمين استلهاما من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۱۹

أحداث معركة «أحد» إذ تقول: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ و هذه الحقيقة هى أن الإسلام ليس دين عبادة الشخصية حتّى إذا قتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و نال الشهادة فى هذه المعركة- افتراضا- ينتهى كلّ شيء و يسقط واجب الجهاد و النضال عن كاهل المسلمين، بل إن هذا الواجب مستمر، و عليهم أن يواصلوه لأن الإسلام لا ينتهى بموت النبى أو استشهاده، و هو الدين الحقّ الذى أنزل ليبقى خالدا إلى الأبد.

إن عبادة الشخصية و تقديس الفرد من أخطر ما يصيب أية حركة جهادية و يهددها بالسقوط و الانتهاء، فإن ارتباط الحركة أو الدين بشخص معين حتّى لو كان ذلك هو النبى الخاتم صلى اللّه عليه و آله و سلّم معناه توقف كلّ الفعاليات و كلّ تقدّم بفقدانه و غيابه عن الساحة، و هذا النوع من الارتباط هو أحد علائم النقص فى الرشد الاجتماعى.

إنّ تركيز النبى و إصراره على مكافحة تقديس الفرد و عبادة الشخصية آية اخرى من آيات صدقه، و دليلا آخر يدل على حقانيته، لأن قيامه و دعوته لو كان لنفسه و بهدف تحقيق مصالحه الشخصية للزم أن يعمق فى الأذهان و القلوب هذه الفكرة، و يزيد من توجيه الأنظار إلى نفسه و أن جميع الأشياء فى هذا الدين مرتبطة بشخصه بحيث إذا غاب عنهم ذهب و انتهى كلّ شيء، و لكن القادة الصادقين كالنبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يفعلون مثل هذا أبدا، و لا يشجعون على مثل هذه الأفكار، بل يكافحونها بقوة،

و يقولون: إن أهدافنا أعلى من أشخاصنا و هى لا تنتهى بموتنا و بغيابنا، و لهذا يقول القرآن الكريم: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ و هو بذلك يستنكر ما دار فى خلد البعض أو قد يدور من أن كلّ شىء فى هذا الدين ينتهى بغياب النبى- القائد- صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۰

و الجدير بالذكر أن القرآن استخدم للتعبير عن الردة إلى الجاهلية كلمة انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ و «الأعقاب» جمع عقب (وزان خشن) بمعنى مؤخرة القدم، فهو تعبير موح يصور التراجع إلى الوراء و الارتداد الواقعى، و هو أكثر إيحاء و أقوى تصويرا من لفظة الردة و الرجوع و العودة، لأنه بمعنى السير القهقرى.

ثمّ إنه سبحانه يقول: وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً يعنى أن العودة إلى الكفر و الوثنية تضرّكم أنتم دون اللّه سبحانه، لأن أمثال هذا التراجع لا يعنى سوى توقفكم فى طريق الخير و السعى نحو السعادة الكاملة، بل فقدان كلّ ما حصلتموه من العزّة و الكرامة و المجد بسرعة.

ثمّ إنه لما كان هناك- فى معركة أحد- أقلية استمرت على جهادها رغم الصعوبات، و انتشار الخبر المفجع عن مقتل الرسول، كان من الطبيعى أن ينال صمودهم هذا و ثباتهم التقدير اللائق، و لهذا قال سبحانه: وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ و بذلك مدح القرآن الكريم استقامتهم و صمودهم، و وصفهم بالشاكرين لأنهم أحسنوا الاستفادة و الانتفاع بالنعم فى سبيل اللّه، و هذا أفضل مصاديق الشكر.

إن الدرس الذى تعطيه هذه الآية فى مكافحة عبادة الشخصية و تقديس الفرد هو أبلغ و أفضل درس لجميع المسلمين فى جميع العصور و الأزمنة، فعليهم جميعا أن يتعلموا من القرآن أن لا يربطوا القضايا الإستراتيجية و الأهداف العليا و المصيرية بالأشخاص، بل لا بدّ أن يلتفوا حول الأسس و المبادئ الخالدة التى لا تفنى و لا تتغير، و لا تتأثر بتغير الأشخاص أو غيابهم عن الساحة بسبب الموت أو القتل حتّى لو كان ذلك هو النبىّ الأكرم، لكيلا تتوقف عجلة المسيرة عن الحركة، و لا يتعطل دولاب العمل عن الدوران، بل إن ذلك هو رمز الخلود فى أى مبدأ و حركة أساسا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۱

و على هذا الأساس فإن جميع البرامج و التشكيلات المرتبطة بالأشخاص و القائمة بوجودهم الشخصى هى فى الحقيقة برامج و تشكيلات غير سليمة و لا طبيعية، و هى معرضة للزوال و الفناء فى أية لحظة.

و ممّا يؤسف له أن يكون أغلب التشكيلات الإسلامية اليوم من هذا القبيل، أى أنها قائمة بالأشخاص، و لذلك فهى سرعان ما تزول و تتهاوى و تتلاشى عند ما يغيب الأشخاص بذواتهم عن الساحة.

إن على المسلمين أن يستلهموا من هذه الآية فيقيموا مؤسساتهم المتنوعة المختلفة بنحو يستفاد فيها من مواهب الأشخاص اللائقين الموهوبين دون أن يكون مصيرها مرتبطا بمصيرهم حتّى لا تندثر بتغيرهم أو غيابهم.

ثمّ إن جماعة كثيرة من المسلمين ارعبوا و زلزلوا لشائعة مقتل النبى فى أحد- كما أسلفنا- إلى درجة أنهم تركوا ساحة المعركة، و فروا بأنفسهم من الموت و حتّى أن بعضهم فكر فى الردة عن الإسلام فكان قوله سبحانه: وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتاباً مُؤَجَّلًا و هو يكرر توبيخهم، و تنبيههم إلى أن الموت بيد اللّه، و الفرار لا ينفع فى الخلاص من الأجل الإلهى، فإذا صحّ أن النبى قتل فى المعركة و نال الشهادة لم يكن ذلك إلّا تحقيقا لسنة إلهية، فلما ذا خاف المسلمون و كفوا عن القتال؟؟

و من ناحية أخرى أن الفرار من المعركة لا يدفع الأجل كما أن مواصلة القتال و البقاء فى المعركة لا يقرب هو الآخر أجلا، فالفرار من ميدان الجهاد حفاظا على النفس لغو لا فائدة فيه.

و هناك بحث حول معنى الأجل، و أن منه حتميا، و منه معلقا، و الفرق بين النوعين سنوافيك به فى تفسير الآية الثانية من سورة الأنعام بإذن اللّه تعالى.

و بعد عرض هذه الحقائق يعقب سبحانه على ما قال بقوله: وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۲

الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها* وَ مَنْ يُرِدْ ثَوابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْها أى أن ما عمله الإنسان لا يضيع أبدا، فإن كان هدفه دنيويا ماديا كما كان عليه بعض المقاتلين فى «أحد» فإنه سيحصل على ما يسعى إليه و يناله.

و أما إذا كان هـدفه أسـمى من ذلك، و صب جهوده فى سبيل الحصول على الحياة الخالـدة و الفضائل الإنسانية بلغ إلى هدفه حتما و أوتى ثواب الآخرة الذى هو أعظم من كلّ ثواب و أسـمى من كلّ نتيجة، فلما ذا إذن لا يصرف الإنسان جهوده، و يوظف ما أوتى من طاقات معنوية و مادية فى الطريق الثانى و هو الطريق الخالد السامى؟

و تأكيدا لهذه الحقيقة قال سبحانه: مرة أخرى وَ سَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ

و الجدير بالتأمل أن الفعل فى هذه العبارة جاء فى الآية السابقة، بصيغة الغائب سَيَجْزِى و جاء هنا فى صورة المتكلم «سـنجزى» و هذا يفيـد غايـة التأكيـد للوعـد الإلـهى بإعطاء الثواب لهم، فهو تـدرج من الوعـد العادى إلى الوعـد المؤكـد، فكأنّ اللّه يريـد أن يقول- و ببساطة- أنا ضامن لجزائهم و ثوابهم.

ثمّ إنه

جاء فى تفسير «مجمع البيان» فى ذيل هـذه الآية عن الإمام الباقر عليه السّـلام أنه قال: إنه أصاب عليا عليه السّـلام يوم «أحد» إحدى و ستون جراحـة، و أن النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أمر أم سـليم و أم عطيـة أن تـداوياه، فقالتا إنا لا نعالج منه مكانا إلّا انفتق مكان آخر، و قـد خفنا عليه، فـدخل رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المسـلمون يعودونه و هو قرحـة واحدة فجعل يمسـحه بيده، و يقول: «إن رجلا لقى هذا فى اللّه فقد أبلى و أعذر» و كان القرح الذى يمسحه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يلتئم،

و

قال على عليه السّلام: «الحمد للّه إذ لم أفر و لم أوّل الدبر»

فشكر اللّه له ذلك فى موضعين من القرآن و هو قوله تعالى: وَ سَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ و قوله تعالى: وَ سَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۳

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۸]

اشارة

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (۱۴۶) وَ ما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۱۴۷) فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۴۸)

التّفسير

المجاهدون السابقون:

بعد استعراض حوادث معركة «أحد» فى الآيات السابقة، جاءت الآيات الحاضـرة لتحث المسلمين على التضحية و الثبات و تشجعهم و تثبتهم بذكر تضـحيات من سـبقوهم من أصـحاب الرسل الماضـين و أتباعهم المؤمنين الصادقين الأبطال، و توبخ ضـمنا أولئك الذين

فروا فى «أحد» و حدثوا أنفسهم بما حدثوا إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۴

يقول سبحانه: فى الآيـة الأولى من هذه الآيات: وَ كَأَيِّنْ ۴۴۳] مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ ۴۴۴] كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فأنصار الأنبياء إذا واجهوا المصاعب و الجراحات و الشدائد فى قتالهم الأعداء لم يشعروا بالضعف و الهوان أبدا، و لم يخضعوا للعدو أو يستسلموا له، و من البديهى أن اللّه تعالى يحب مثل هؤلاء الأشخاص الذين يثبتون و يصبرون فى القتال وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

فهؤلاء عند ما كانوا يواجهون المشاكل بسبب بعض الأخطاء أو العثرات و عدم الانضباط لم يفكروا فى الاستسلام للأمر الواقع، أو يحدثوا أنفسهم بالفرار أو الارتداد عن الدين و العقيدة بل كانوا يتضرعون إلى اللّه يطلبون منه الصبر و الثبات، و العون و المدد و يقولون رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا* وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

إنهم بمثل هذا التفكر الصحيح و العمل الصالح كانوا يحصلون على ثوابهم دون تأخير، و هو ثواب مزدوج، أما فى الدنيا فالنصر و الفتح، و أما فى الآخرة فما أعد اللّه للمؤمنين المجاهدين الصادقين: فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَ حُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ.

ثمّ إنه سبحانه يعد هؤلاء- فى نهاية هذه الآية- من المحسنين إذ يقول:

وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

و بهذا النحو يبين القرآن درسا حيا للمسلمين الحديثى العهد بالإسلام، من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۵

حياة الأمم السابقة و سلوكهم مع أنبيائهم، و كيفية تعاملهم مع المشكلات الطارئة، و كيفية التغلب عليها، و هو درس من شأنه أن يربيهم و يعدّهم للحوادث المستقبلة، و المعارك القادمة.

وقفات اخرى عند هذه الآيات

ثمّ إن هناك فى هذه الآيات نقاطا هامة أخرى جديرة بالتوجه و الالتفات نشير إليها فيما يلى:

۱- الصبر- كما أشرنا إليه سابقا- يعنى الثبات و الصمود، و لهذا جاء فى هذه الآية فى مقابل «الضعف و الاستكانة» كما و يدل على ذلك كون الصابرين فى رديف المحسنين إذ قال فى الآية الأولى: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ و قال فى الآية الثالثة وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ و هو إشعار بأن الإحسان لا يمكن إلّا بالثبات و الصمود و الصبر، لأن المحسن تواجهه آلاف المشاكل، فإذا لم يكن مزودا بالصمود و الصبر و الثبات و الاستقامة لم يمكنه الاستمرار فى عمله، بل سرعان ما يتركه فى خضم المشكلات.

۲- إن المجاهدين الحقيقيين هم الذين لا ينسبون الهزيمة إلى غيرهم، أو يسندونها إلى عوامل و أسباب خيالية و وهمية، بل يبحثون عنها فى نفوسهم و ذواتهم، و يحاولون- بصدق- التخلص منها من خلال تصحيح الأخطاء، و ترميم الثغرات، بل لا يتلفظون بكلمة الهزيمة، إنما يعبرون عنها بالإسراف، و الإفراط غير المبرر، تماما على العكس منا اليوم حيث نسعى غالبا لأن نتجاهل هزائمنا بالمرة، و أن ننسبها إلى عوامل خارجية لا تمت إلى ذواتنا بصلة، و لا ترتبط بسلوكنا و أفكارنا، و لهذا فإننا لا نفكر فى إصلاح الأخطاء، و إزالة نقاط ضعفنا.

۳- لقد عبرت الآية الثالثة عن الجزاء الدنيوى بثواب الدنيا، و لكنها عبرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۶

عن الجزاء الأخروى بحسن ثواب الآخرة، و هذه إشارة إلى أن ثواب الآخرة يختلف عن ثواب الدنيا اختلافا كليا، لأن ثواب الدنيا

مهما يكن فهو ممزوج بالفناء و العدم، و يقترن ببعض المنغصات و المكروهات الذى هو من طبيعة الحياة الدنيا، فى حين أن ثواب الآخرة حسن كلّه، إنه خير خالص لا فناء فيه و لا عناء، و لا انقطاع فيه و لا انتهاء، و لا كدورات فيه و لا منغصات، و لا متاعب و لا مزعجات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۷

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۴۹ الى ۱۵۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۱۴۹) بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (۱۵۰) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (۱۵۱)

التّفسير

تحذيرات مكررة:

هذه الآيات- كسابقاتها- نزلت بعد معركة «أحد» و بهدف تقويم و تحليل الحوادث التى وقعت أو لا بست تلكم المعركة، و يشهد بهذا وضع هذه الآيات و الآيات السابقة.

إن ما يبدو للنظر هو أن أعداء الإسلام أخذوا- بعد معركة أحد- يسعون فى إلقاء الفرقة فى صفوف المسلمين ببث سلسلة من الدعايات المسمومة، و المغلفة أحيانا بلباس النصيحة، و التحرّق على ما آل إليه المسلمون، و كانوا بالاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۸

الأوضاع النفسية المتردية التى كان يمر بها جماعة من المسلمين، يحاولون زرع بذور النفور من الإسلام بينهم.

و لا يستبعد أن يكون اليهود و النصارى قد ساعدوا المنافقين فى هذه الخطة الحاقدة، كما حدث فى المعركة نفسها حيث كان لهم حظ فى الترويج للشائعة التى أطلقت حول مقتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهدف إضعاف معنويات المقاتلين المسلمين.

الآية الأولى من هذه الآيات تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ فهى تحذر المسلمين من إطاعة الكفّار و تقول: إن إطاعة الكفّار تعنى العودة إلى الجاهلية بعد تلك الرحلة العظيمة فى طريق التكامل المعنوى و المادى فى ظل التعاليم الإسلامية.

إن إطاعة الكفّار فى وساوسهم و تلقيناتهم، و الإصغاء إلى دعاياتهم تعنى العودة إلى النقطة الأولى ألا و هى الكفر و الفساد و السقوط فى حضيض الانحطاط، و فى هذه الصورة يكونون قد ارتكبوا إثما كبيرا ستلازمهم تبعاته، و آثاره الشريرة، فأية خسارة أكبر من أن يستبدل الإنسان الإيمان بالكفر، و النور بالظلام، و الهدى بالضلال و السعادة بالشقاء؟! ثمّ إنه سبحانه يؤكد بأن لهم خير ناصر و ولى و هو اللّه: بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

إنه الناصر الذى لا يغلب، بل لا تساوى قدرته أية قدرة، فى حين ينهزم غيره من الموالى، و يندحر غيره من الأسياد.

ثمّ إنه سبحانه يشير إلى نموذج من نماذج التأييد الإلهى للمسلمين فى أحرج الظروف، و أحلك المراحل إذ يقول: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

ففى هذا المنقطع من الآية يشير إلى نجاة المسلمين بعد معركة أحد، و خلاصهم بأعجوبة، و هو بذلك- كما أسلفنا- يشير إلى واحد

من موارد حماية اللّه للمسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۲۹

و غضبه على الكفّار، و يطمئن المسلمين إلى المستقبل و يزيد من ثقتهم بأنفسهم، و يؤمّلهم فى التأييدات الإلهية القادمة.

فالوثنيون المكيون- كما سبق أن قلنا فى قصة معركة أحد- مع أنهم أحرزوا فى تلك المعركة انتصارا ملفتا للنظر، و استطاعوا أن يبددوا الجيش الإسلامى و لو ظاهرا، رأوا أن يعودوا إلى ساحة المعركة، و يأتوا على البقية الباقية من القوّة الإسلامية، بل و لم يترددوا مطلقا فى إغارة على المدينة المنورة، و القضاء على شخص النبى الكريم صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان قد بلغهم عدم صحة الخبر بمقتله فى تلك المعركة.

إلّا أن اللّه سبحانه قد ألقى فى قلوبهم رعبا عجيبا، و خوفا بالغا صرفهم عن نيتهم تلك.

على أن هذا لخوف الذى لم يكن له ما يبره أبدا سوى أنه من خواص الكفر و الوثنية و الإعتقاد بالخرافة قد شمل وجودهم كلّه حتّى أنهم- كما نقرأ ذلك فى الأحاديث- كانوا عند عودتهم من «أحد» و اقترابهم من مكة أشبه ما يكونون بجيش منهزم مندحر، رغم ما قد حققوه من انتصار شبه ساحق.

و هذا هو ما تلخصه الآية إذ تقول: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ أى أننا كما ألقينا الرعب فى قلوب الكفّار فى أعقاب معركة «أحد» و رأيتم نموذجا منه بأم أعينكم، سنلقى مثله فى قلوب الذين كفروا فيما بعد، و لهذا ينبغى أن تطمئنوا إلى المستقبل، و لا تأخذكم فى اللّه لومة لائم، و لا تهزكم و لا تزعزعكم شماتة شامت و وسوسة موسوس.

و الجدير بالذكر أن الآية تعلل نشأة هذا الرعب الواقع فى قلوب الكفّار كالتالى: بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً.

لقد كانوا قوما أهل خرافة، لا يتبعون دليلا، و لا يلتمسون برهانا، و لهذا كثيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۰

ما كانت المحقرات من الأشياء تعظم فى عيونهم و أفكارهم، فيتخذون الحجر و المدر و الخشب معبودات و آلهة لهم، يضعفون أمام الحوادث ضعفا عجيبا و يستكينون لها استكانة مذلة لأنهم سرعان ما يخطئون فى حساباتهم و تقديراتهم، فإذا ما حدث حادث طفيف- فى حياتهم- كما لو سمعوا مثلا- بأن المسلمين المهزومين عادوا مع جراحاتهم و جرحاهم إلى ساحة المعركة لملاحقة الأعداء، عظم ذلك فى عيونهم و كبر فى نظرهم، و حسبوا له أعظم حساب، و خافوا من ذلك أشد الخوف، و هى بعينها الحالة التى يعانى منها المستكبرون فى عالمنا الراهن و عصرنا الحاضر، حيث إننا نشاهد كيف يخافون من أصغر حادث، فيتصورون الذرة جبلا و الحبة قبة، و ذلك لأنهم لا يركنون إلى ركن وثيق، و لم يختاروا لأنفسهم كهفا حصينا، من إيمان صحيح و عقيدة مستقيمة.

لقد ظلم هؤلاء الكافرون أنفسهم و ظلموا مجتمعاتهم ف: مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ و ما أسوأه من مثوى و مآل.

الإنتصار بسبب خوف العدو:

تفيد روايات كثيرة أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يمتاز فى جملة ما يمتاز به أنه كان ينتصر على أعدائه بسبب خوفهم و إلقاء الرعب فى قلوبهم ۴۴۵].

إن هذا الموضوع يشير- فى نفس الوقت- إلى أحد عوامل الإنتصار فى المعارك و الحروب و خاصة فى مثل هذا اليوم الذى تعتبر فيه معنويات المقاتلين من أهم الأمور العسكرية، و من أهم القضايا فى شؤون التكتيك الحربى.

و لهذا فإن لمعنوية المقاتلين المرتفعة من التأثير فى تحقيق النصر ما ليس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۱

للسلاح من حيث الكمية و الكيفية.

من هنا بالغ الإسلام فى رفع معنويات المقاتلين، فمضى يقوى فيهم روح الإيمان و الحبّ للجهاد، و الاعتزاز بالشهادة، و الاتكال على اللّه القادر المنان و بهذا بلغ بالمجاهدين المسلمين أعلى قمم الاستقامة و الثبات، و الشجاعة و البسالة فى حين كان المشركون و عبدة الأوثان، الذين لم يكونوا يعتقدون إلّا بأصنام صم بكم لا تضر و لا تنفع، و لا يؤمنون بمعاد و قيامة و حياة بعد الموت، كانوا يعانون من نفسية ضعيفة منهزمة مهزوزة، فكان هذا التفاوت بين النفسيتين هو أحد العوامل المؤثرة لانتصار المسلمين عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۲

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۲ الى ۱۵۴]

اشارة

وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (۱۵۲) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ فَأَثابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۵۳) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۵۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۳

التّفسير

الهزيمة بعد الإنتصار:

قاتل المسلمون فى المرحلة الأولى من معركة «أحد» بشجاعة خاصّة، و وقفوا وقفة رجل واحد فأحرزوا انتصارا سريعا، و بددوا جيش العدو فى أقرب وقت، فدب السرور و الفرح فى المعسكر الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه كما أسلفنا، إلّا أنّ تجاهل فريق من الرماة لأوامر الرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم المشددة بالبقاء عند ثغر الجبل و المحافظة عليه سبّب فى أن تنقلب الآية.

فقد أقدم ذلك الفريق من الرماة الذين كلّفهم النبى القائد صلى اللّه عليه و آله و سلّم بحراسة الثغر الموجود فى جبل «عينين» بقيادة «عبد اللّه بن جبير» على ترك موقعهم المهم جدا عند ما عرفوا بهزيمة قريش، و اشتغال المسلمين بجمع الغنائم، و فسح هذا الأمر المجال لكمين من قريش فى أن يهاجموا المسلمين من الخلف فيتحمل الجيش الإسلامى ضربة نكراء.

و عند ما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا اللّه سبحانه بالفتح و النصر، فلما ذا هزمنا فى هذه المعركة؟

فكانت الآيات الحاضرة جوابا على هذا السؤال، و توضيحا للعلل الحقيقية التى سببت تلك الهزيمة، و إليك فيما يلى تفسير جزئيات هذه الآيات و تفاصيلها:

قال سبحانه: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ۴۴۶] بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا[۴۴۷] فَشِلْتُمْ

ففى هذه العبارة يشير القرآن الكريم بل و يصرح بأن اللّه قد صدق وعده و أنزل النصر على المسلمين فى بداية تلك المعركة، فقتلوا العدو، و فرقوا جمعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۴

و مزقوا شملهم ما داموا كانوا يتبعون تعاليم النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتقيدون بأوامره، و ما داموا كانوا يتحلون بالثبات و الاستقامة، فلم تلحق بهم الهزيمة إلّا عند ما وهنوا و تجاهلوا أوامر القيادة النبوية الدقيقة. و هذا يعنى أن عليهم أن لا يتوهموا بأن الوعد بالتأييد و النصر مطلق لا قيد له و لا شرط، بل كل الوعود الإلهية بالنصر مقيدة باتباع تعاليم اللّه بحذافيرها، و التمسك بأهدافها.

أما متى وعد اللّه المسلمين بالنصر فى هذه المعركة، فهناك احتمالان:

الأوّل: أن يكون المراد هو تلك الوعود العامة التى يعد اللّه بها المؤمنين دائما حيث يخبرهم بأنّه سبحانه ينصرهم على الكافرين و الأعداء.

الآخر: ان النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد وعد المسلمين بصراحة قبل أن يخوضوا معركة «أحد» بأنهم منتصرون فى تلك المعركة، و وعد النبى هو الوعد الإلهى بلا ريب.

ثمّ إنه سبحانه يقول: بعد بيان هذه الحقيقة حول النصر الإلهى وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ

و من هذه العبارة التى هى إشارة إلى ما طرأ على وضع الرماة فى جبل «عينين» يستفاد بوضوح بأن الرماة الذين كلفوا بحراسة الثغر قد اختلفوا فيما بينهم فى ترك ذلك الثغر و مغادرة ذلك الموقع فى الجبل فعصى فريق كبير منهم، (و هذا قد يستفاد من لفظة عصيتم التى تفيد أن الأغلبية و الأكثرية من الرماة قد عصت و تجاهلت تأكيدات النبى بالبقاء هناك).

و لهذا يقول القرآن الكريم بأنّكم عصيتم من بعد ما أراكم النصر الساحق الذى كنتم تحبون، أى أنّكم بذلتم غاية الجهد لتحقيق النصر، و لكنكم وهنتم فى حفظه، و تلك حقيقة ثابتة أبدا أن الحفاظ على الانتصارات أصعب بكثير من تحقيقها.

أجل لقد اختلفتم فيما بينكم و تنازعتم فى تلك اللحظات الحساسة البالغة الأهمية مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۵

ففى الوقت الذى كان البعض (و هم الأغلب كما قلنا) يفكرون فى الغنائم و قد سال لعابهم لها حتّى أنهم تركوا موقعهم الخطير فى الجبل، بينما بقيت جماعة أخرى قليلة مثل «عبد اللّه بن جبير» و بعض الرماة ثابتين فى مكانهم يذبون عنه الأعداء و يطلبون الآخرة و الثواب الإلهى العظيم.

و هنا تغير مجرى الأمور، و انعكست القضية فبدل اللّه الإنتصار إلى الهزيمة ليمتحنكم و ينبّهكم، و يربّيكم: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ

ثمّ إن سبحانه غفر لكم كلّ ما صدر و بدر عنكم من عصيان و تجاهل لأوامر الرسول و ما ترتب على ذلك من التبعات فى حين كنتم تستحقون العقاب، و ما ذلك إلّا لأن اللّه لا يضن بنعمة على المؤمنين، و لا يبخل عليهم بموهبة وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ، وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أجل، إنه تعالى يحب المؤمنين، و لا يتركهم و شأنهم و لا يكلهم إلى أنفسهم إلّا فى بعض الأحيان ليتنبهوا، و يثوبوا إلى رشدهم فيزدادوا التصاقا بالشريعة، و اهتماما بالمسؤوليات، و يقظة و إحساسا.

ثمّ إنه سبحانه يذكر المسلمين بموقفهم فى نهاية معركة «أحد» فيقول: إِذْ تُصْعِدُونَ ۴۴۸] وَ لا تَلْوُونَ عَلى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْراكُمْ ۴۴۹] أى تذكروا إذ فررتم من المعركة، و رحتم تلوذون بالجبل أو تنتشرون فى السهل، تاركين رسول اللّه وحده بين المهاجمين المباغتين من المشركين و هو يدعوكم من ورائكم و يناديكم قائلا: «إليّ عباد اللّه- إليّ عباد اللّه فإنى رسول اللّه» و أنتم لا تلتفتون إلى الوراء أبدا، و لا تلبون نداء النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۶

و فى ذلك الوقت أخذت الهموم و الأحزان تترى عليكم فَأَثابَكَمْ غَمًّا بِغَمٍ لما أصابكم من النكسة و لفقدان مجموعة كبيرة من خيار فرسانكم و جنودكم و لما أصاب جماعة منكم من الجراحات و الإصابات و لما بلغكم من شائعة قتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لقد كان كلّ ذلك من نتائج مخالفتكم لأوامر القيادة النبوية، و تجاهلكم لتأكيداتها بالمحافظة على المواقع المناطة لكم.

و لقد كان هجوم تلك الغموم عليكم من أجل أن لا تحزنوا على ما فاتكم من غنائم الحرب، و ما أصابكم من الجراحات فى ساحة المعركة فى سبيل تحقيق الإنتصار لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا ما أَصابَكُمْ

وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ فهو يعرف جيدا من ثبت منكم و أطاع، و كان مجاهدا واقعيا، و من هرب و عصى، و على ذلك فليس لأحد أن يخدع نفسه، فيدعى خلاف ما صدر منه فى تلك الحادثة، فإذا كنتم من الفريق الأول بحق و صدق فاشكروه سبحانه، و إن لم تكونوا كذلك فتوبوا إليه و استغفروه من ذنوبكم.

وساوس الجاهلية:

اتسمت الليلة التى تلت معركة «أحد» بالقلق و الاضطراب الشديدين، فقد كان المسلمون يتوقعون أن يعود جنود قريش الفاتحون المنتصرون إلى المدينة مرة أخرى لاجتياح البقية الباقية من القوّة الإسلامية، و القضاء على من تبقى من المقاتلين المسلمين، و لعلّ بعض الأخبار كان قد نمّ إلى المسلمين عن اعتزام المشركين و نيتهم فى العودة إلى ساحة القتال.

و لا شكّ أنهم لو عادوا لكان المسلمون يواجهون أحلك الظروف فى تلك الموقعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۷

بيد أنه كان هناك بين المسلمين ثلة من المجاهدين الصادقين الذين ندموا على الفرار من الميدان فى «أحد» فتابوا إلى اللّه، و اطمأنوا إلى وعود النبى الكريم حول المستقبل، قد أخذهم نوم مريح، و غلبهم نعاس هانئ و لذيذ و هم فى عدة الحرب، فى الوقت الذى كان فيه المنافقون و ضعاف الإيمان، و الجبناء يعانون من كابوس الأوهام و الوساوس طوال الليل، و لم يذوقوا لذة النوم، فكانوا- من حيث لا يشعرون و لا يقصدون- يحرسون المؤمنين الحقيقين الذين كانوا يستريحون فى تلك النومة الطارئة اللذيذة. و إلى هذا كلّه يشير الكتاب العزيز فى الآية الحاضرة إذ يقول: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً[۴۵۰] نُعاساً يَغْشى طائِفَةً مِنْكُمْ، وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ أجل، إن المنافقين و الجبناء و ضعاف النفوس و الإيمان لم يزرهم النوم و لا حتى النعاس فى تلك الليلة خوفا على نفوسهم، و على أرواحهم، و جريا وراء الوساوس الشيطانية، و المخاوف التى هى من طبيعة و لوازم النفاق و ضعف اليقين و وهن الإيمان، فيما ان المؤمنون الصادقون يستريحون فى ذلك النعاس اللذيذ، و تلك النومة الطارئة الهانئة، و هذا هو أحد آثار الإيمان و ثماره المهمة البارزة، فإن المؤمن يحظى بالراحة و الطمأنينة حتّى فى هذه الدنيا، على العكس من غير المؤمنين من الكفار أو المنافقين أو ضعاف الإيمان، فإنهم محرومون من الطمأنينة و الراحة اللذيذة تلك.

ثمّ إن القرآن الكريم يعمد إلى بيان و استعراض طبيعة ما كان يدور بين أولئك المنافقين و ضعاف الإيمان من أحاديث و حوار، و ما كان يدور فى خلدهم من ظنون و أفكار، إذ يقول: يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ.

إنّهم كانوا يظنون باللّه ما كانوا يظنونه به أيام كانوا يعيشون فى الجاهلية، و قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۸

أن تبزغ عليهم شمس الإسلام، فقد كانوا يتصورون أن اللّه سيكذبهم وعده، و يظنون أن وعود النبى غير محققة و لا صادقة، و كان يقول بعضهم للآخر: هَلْ لَنا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ أى هل سيصيبنا النصر و نحن فى هذه الحالة من السقوط و الهزيمة، و المحنة و البلية؟

إنهم كانوا يستبعدون أن ينزل عليهم نصر من اللّه بعد ما لقوا، أو كانوا يرون ذلك محالا.

و لكن القرآن يجيبهم قائلا- قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ أى كيف تستبعدون ذلك أو ترونه محالا- و الأمر كلّه بيد اللّه، و هو قادر أن ينزل عليكم النصر متى وجدكم أهلا لذلك.

على أنهم لم يظهروا كلّ ما كان يدور فى خلدهم من ظنون و أوهام و هواجس خوفا من أن يعدوا فى صفوف الكفار: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ما لا يُبْدُونَ لَكَ

و كأنهم كانوا يتصورون أن الهزيمة فى «أحد» من العلائم الدالة على بطلان الإسلام، و لذا كانوا يقولون: لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا أى لو كنا على حق لكسبنا المعركة، و لم نخسر كلّ هذه الأرواح و النفوس.

و لكن اللّه تعالى أجابهم و هو يشير فى هذه الإجابة إلى مطلبين.

الأول: إن عليكم أن لا- تتوهموا بأن الفرار من ساحة المعركة، و تجنب الصعاب يمكنه أن ينقذكم من الموت الذى هو قدر لكلّ إنسان و لهذا يقول سبحانه:

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ فإن الذين جاء أجلهم، و حان حين موتهم لا بدّ أن يموتوا و لا محالة هم مقتولون حتّى لو كانوا فى مضاجعهم.

و فى الأساس فإن كلّ أمة استحقت الهزيمة لوهن أكثريتها، لا بدّ أن تذوق الموت، و لا محالة يصيبها القتل، فالأجدر بها أن تموت فى ساحات المعارك، و تحت ضربات السيوف، و هى تسطر ملاحم البطولة، و تخط أسطر البسالة، لا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۳۹

تموت خانعة، أو تقتل ذليلة على فراشها، و ما أروع ما قاله الإمام على إذ قال عليه السّلام:

«لألف ضربة بالسيف أحب إلىّ من ميتة على فراش».

و الثانى: إن هذه الحوادث لا- بدّ أن تقع حتّى يبدى كلّ واحد مكنون صدره، و مكتوم قلبه، فتتشخص الصفوف، و تتميز جواهر الرجال، هذا مضافا إلى أن هذه الحوادث سبب لتربية الأشخاص شيئا فشيئا، و لتخليص نياتهم، و تقوية إيمانهم، و تطهير قلوبهم وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ

ثمّ يقول سبحانه: فى ختام هذه الآية وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ و لذلك فهو لا ينظر إلى أعمال الناس بل يمتحن قلوبهم، ليطهرها من كلّ ما تعلق بالنفوس و الأفئدة من شوائب الشرك و النفاق، و الشك و التردد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۵۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۵۵)

التّفسير

الذنب ينتج ذنبا آخر:

هذه الآية ناظرة أيضا إلى وقائع معركة «أحد»، و تقرر حقيقة أخرى للمسلمين، و هى أن الذنوب و الانحرافات التى تصدر من الإنسان

بسبب من وساوس الشيطان، تفرز آثاما و ذنوبا اخرى بسبب وجود القابلية الحاصلة فى النفس الإنسانية نتيجة الذنوب السابقة، و التى تمهد لذنوب مماثلة و آثام أخرى و إلّا فإن القلوب و النفوس التى خلت و طهرت من آثار الذنوب السالفة لا تؤثر فيها الوساوس الشيطان، و لا تتأثر بها، و لهذا قال سبحانه:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطانُ بِبَعْضِ ما كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۱

و هكذا يعلمهم القرآن أن عليهم أن يضاعفوا الجهد فى تربية نفوسهم و تطهير قلوبهم لتحقيق الإنتصار فى المستقبل.

و يمكن أن يكون المقصود من الذنب الذى كسبوا هو حب الدنيا و جمع الغنائم، و مخالفة الرسول، و تجاهل أوامره فى بحبوحة المعركة، أو ذنوب أخرى كانوا قد اقترفوها قبل معركة «أحد» أضعفت من طاقاتهم الإيمانية، و أضرت بالجانب المعنوى فيهم.

و قد نقل العلّامة الطبرسى عن أبى القاسم البلخى أنه لم يبق مع النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يوم «أحد» إلّا ثلاث عشرة نفسا (فيكون عددهم مع النبى ۱۴) خمسة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار و قد اختلف فى الجميع إلّا فى على و طلحة فإنهما ثبتا و لم يفرا باتفاق الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۲

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۶ الى ۱۵۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۵۶) وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۱۵۷) وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (۱۵۸)

التّفسير

استغلال المنافقين:

كانت حادثة «أحد» تحظى بأهمية كبيرة من وجهة نظر المسلمين و ذلك من جهتين:

أولا: لأنها كانت تعتبر خير مرآة تعكس حقيقة المسلمين فى تلك المرحلة، و تساعدهم على رؤية نقاط ضعفهم، فإصلاحها و إزالتها، و لهذا السبب ركز القرآن على أحداث هذه الواقعة و ملابساتها و قضاياها ذلك التركيز الكبير و أولاها ذلكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۳

الاهتمام البالغ، فنحن نرى كيف نستفيد منها دروسا و عبرا كثيرة و كبيرة، فى الآيات القادمة كما فى الآيات السابقة.

و من جهة أخرى هيأت أحداث هذه الواقعة أرضية و فرصة مناسبة للمنافقين بأن يقوموا بمحاولاتهم التشويشية، و من أجل هذا نزلت آيات عديدة لإبطال مفعول هذه المحاولات و تفشيل هذه المساعى الماكرة، من جملتها الآيات المذكورة أعلاه.

فهذه الآيات تتوجه بالخطاب أولا إلى المؤمنين بهدف تحطيم جهود المنافقين و محاولاتهم التخريبية، و تحذير المسلمين منهم فتقول:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ إِذا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ، أَوْ كانُوا غُزًّى لَوْ كانُوا عِنْدَنا ما ماتُوا وَ ما قُتِلُوا.

هذه الكلمات و إن كانوا يطلقونها فى ستار من التعاطف و تحت قناع الإشفاق، إلّا أنهم لم يكونوا- فى الحقيقة- يقصدون منها إلّا

تسميم روحية المسلمين، و إضعاف معنوياتهم، و زعزعة إيمانهم، فينبغى ألا تقعوا تحت تأثيرها، و تكرروا نظائرها من العبارات.

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ

أنكم أيها المؤمنون إذا وقعتم تحت تأثير هذه الكلمات المضلة الغاوية، و كررتم نظائرها ستضعف روحيتكم أيضا، و ستمتنعون أيضا عن الخروج إلى ميادين الجهاد و السفر و الرحيل من أجل اللّه و فى سبيله، و حينئذ سيتحقق للمنافقين ما يصبون إليه، و لكن لا تفعلوا ذلك، و تقدموا إلى سوح الجهاد و ميادين القتال بمعنوية عالية، و عزم أكيد و دون تردد و لا كلل، ليجعل اللّه ذلك حسرة فى قلوب المنافقين المخذلين، أبدا.

ثمّ إن القرآن الكريم يرّد على خبث المنافقين و تسويلاتهم و تشويشاتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۴

بثالث أجوبة منطقية هى:

۱- إن الموت و الحياة بيد اللّه على كلّ حال، و أن الخروج و الحضور فى ميدان القتال لا يغير من هذا الواقع شيئا، و أن اللّه يعلم بأعمال عباده جميعها:

وَ اللَّهُ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

۲- ثمّ إنكم حتّى إذا متم أو قتلتم، و بلغكم الموت المعجل- كما يحسب المنافقون- فإنكم لم تخسروا شيئا، لأن رحمة اللّه و غفرانه أعظم و أعلى من كلّ ما تجمعه أيديكم أو يجمعه المنافقون مع الاستمرار فى الحياة من الأموال و الثروات وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

و أساسا لا تصحّ المقارنة بين هذين الأمرين فأين الثرى من الثرايا، و لكنه أمر لا مفر منه عند مخاطبة تلك العقول المنحطة التى تفضل أياما معدودة من الحياة الفانية و جفنة من الثروة الزائلة على عزة الجهاد و فخر الشهادة.

إنه ليس من سبيل أمام هؤلاء إلّا أن يقال لهم: إن ما يحصل عليه المؤمنون عن طريق الشهادة أو الموت فى سبيل اللّه، أفضل من كلّ ما يجمعه الكفّار من طريق حياتهم الموبوءة، المزيجة بالشهوات الرخيصة و عبادة المال و الدنيا.

۳- و بغضّ النظر عن كلّ ذلك فإن الموت لا يعنى الفناء و العدم حتّى يخشى منه هذه الخشية و يخاف منه هذا الخوف، و يستوحش منه هذا الاستيحاش، إنه نقلة من حياة إلى حياة أوسع و أعلى و أجل و أفضل، حياة مزيجة بالخلود موصوفة بالبقاء وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ

إن الجدير بالملاحظة فى هذه الآيات هو جعل الموت فى أثناء السفر، فى مصاف الشهادة فى سبيل اللّه، لأن المراد بالسفر هنا هى تلك الأسفار التى يقوم بها الإنسان فى سبيل اللّه و لأجل اللّه كالسفر و شد الرحال إلى ميادين القتال أو للعمل التبليغى، و ذلك لأن الأسفار فى تلك العصور كانت محفوفة بالمشاكل، و مقترنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۵

بالمصاعب و المتاعب، و كانت تلازم فى الأغلب الأمراض التى تؤدى فى أكثر الأحيان إلى الموت، و لذلك لم يكن ذلك الموت بأقل فضلا من القتل و الشهادة فى ميادين الجهاد و سوح النضال.

و أما ما احتمله بعض المفسّرين من أن الأسفار المذكورة فى هذه الآية هى الأسفار التجارية فهو بعيد جدا عن معنى الآية، لأن الكفّار لم يتأسفوا قط لهذا الأمر بل كان هذا هو نفسه وسيلة من وسائل الحصول على الثروة و تكريسها، هذا مضافا إلى أن هذا الموضوع لم يكن له أى تأثير فى إضعاف روحية المسلمين بعد معركة أحد، كما و ان عدم تنسيق المسلمين مع الكفّار فى هذا المورد لم يوجد و لم يسبب أية حسرة للكفّار، و لهذا فإن الظاهر هو أن المراد من الموت فى أثناء السفر فى هذه الآية هو الموت فى السفر الذى يكون بهدف الجهاد فى سبيل اللّه، أو لغرض القيام بغير ذلك من البرامج الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۷۴۶

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشارة

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (۱۵۹) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۶۰)

التّفسير

الأمر بالعفو العام:

هذه الآية و إن كانت تتضمن سلسلة من التعاليم الكلية الموجهة إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تشتمل من حيث المحتوى على برامج كلية و أساسية، و لكنها من حيث النزول ترتبط بواقعة «أحد» لأنه بعد رجوع المسلمين من «أحد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أظهروا له الندامة من فعلتهم و موقفهم، و طلبوا منه العفو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۷۴۷

فأصدر اللّه سبحانه إلى نبيه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمره بأن يعفو عنهم، و يتجاوز عن سيئهم و يستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب.

إذ قال تعالى: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ و لقد أشير فى هذه الآية- قبل أى شىء- إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، ألا و هى اللين مع الناس و الرحمة بهم، و خلوه من الفظاظة و الخشونة.

«الفظّ»- فى اللغة- هو الغليظ الجافى الخشن الكلام، و «غليظ القلب» هو قاسى الفؤاد الذى لا تلمس منه رحمة، و لا يحس منه لين.

و هاتان الكلمتان و ان كانتا بمعنى واحد هو الخشونة، إلّا أن الغالب استعمال الأولى فى الخشونة الكلامية، و استعمال الثانية فى الخشونة العملية و السلوكية، و بهذا يشير سبحانه إلى ما كان يتحلى به الرسول الأعظم من لين و لطف تجاه المذنبين و الجاهلين.

ثمّ إنه سبحانه يأمر نبيه بأن يعفو عنهم إذ يقول: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ

و هذا الكلام يعنى أنه سبحانه يطلب منه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتنازل عن حقه لهم إذ تفرقوا عنه فى أحلك الظروف، و سببوا له تلك المصائب و المتاعب فى تلك المعركة، و أنه يشفع لهم لدى نبيه بأن يتجاوز عنهم، و أن يشفع هو بدوره لهم عند اللّه و يطلب المغفرة لهم منه سبحانه.

و بتعبير آخر أنه سبحانه يطلب من نبيه أن يعفو عنهم فيما بينه و بينهم، و أما ما بين اللّه و بينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. و قد فعل الرسول الكريم ما أمره به ربه و عفى عنهم جميعا.

و من الواضح أن هذا المقام كان من الموارد التى تتطلب حتما العفو و المغفرة، و اللطف و اللين، و لو أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فعل غير ذلك لكان يؤدى ذلك إلى انفضاض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲، ص: ۷۴۸

الناس من حوله، و تفرقهم عنه، إذ أن الجماعة رغم أنها أصيبت بالهزيمة النكراء، و تحملت ما تحملت من القتلى و الجرحى، و كانوا هم السبب فى ذلك، إلّا أنهم أحوج ما يكونون إلى العطف و اللطف و إلى اللين و العفو، و إلى البلاسم التى تبل جراحاتهم، و إلى المراهم التى تهدئ خواطرهم، حتّى يتهيئوا بعد شفائها و استعادة معنوياتهم إلى مواجهة أحداث المستقبل، و تحمل المسؤوليات القادمة.

إن فى هذه الآية إشارة صريحة إلى إحدى أهم الصفات التى يجب توفرها فى أية قيادة، ألا- و هى العفو و اللين تجاه المتخلفين التائبين، و العصاة النادمين، و المتمردين العائدين، و من البديهى أن الذى يتصدى للقيادة لو خلى عن هذه الخصلة الهامة، و افتقر إلى روح السماحة، و افتقد صفة اللين، و عامل من حوله بالخشونة و العنف و الفظاظة فسرعان ما يواجه الهزيمة، و سرعان ما تصاب مشاريعه و برامجه بنكسات ماحقة، تبدد جهوده، و تذرى مساعيه أدراج الرياح، إذ يتفرق الناس من حوله، فلا يمكنه القيام بمهام القيادة و مسئولياتها الجسمية، و لهذا قال الإمام أمير المؤمنين مشيرا إلى هذه الخصلة القيادية الحساسة «آلة الرياسة سعة الصدر».

الأمر بالمشاورة:

بعد إصدار الأمر بالعفو العام يأمر اللّه نبيه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يشاور المسلمين فى الأمر و يقف على و جهات نظرهم، و ذلك إحياء لشخصيتهم، و لبث الروح الجديدة فى كيانهم الفكرى و الروحى اللذين أصابهما الفتور بعد الذى حدث.

على أن هذا الأمر للنبى بمشاورة المسلمين إنما هو لأجل أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كما أسلفنا- قد استشار المسلمين قبل الدخول فى معركة «أحد» فى كيفية مواجهة العدو و استقر رأى الأغلبية منهم على التعسكر عند جبل «أحد» فكان ما كان من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۴۹

المكروه و وقع ما وقع من البلاء، و هنا كان كثيرون يتصورون بأن على النبى أن لا يشاور بعد ذلك أحدا، و أن عليه أن يتصرف كما يرى هو، و لكن القرآن الكريم جاء يرد على هذا التصور، و يجيب على هذا النوع من التفكير و يأمر النبى بأن يعيد المشاورة إذ يقول: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ لأن المشاورة و إن لم تنفع فى بعض المواضع، فإنها نافعة على العموم، بل إن نتائجها المفيدة الكثيرة لو قيست إلى بعض النتائج السلبية و غير المفيدة تبدو أكثر أضعافا كما و أن أثرها فى صياغة الأفراد و الجماعات و إنماء شخصيتهم من الأهمية بحيث يغطى على نقاط ضعفها، بل هو أبرز آثارها و أهم فوائدها الذى لا يمكن و لا يجوز التغاضى عنه.

و الآن نرى فى أى المواضيع كان يشاور الرسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه؟

صحيح أن كلمة «الأمر» فى قوله تعالى وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ذات مفهوم واسع يشمل جميع الأمور، و لكن من المسلم أيضا أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يشاور الناس فى الأحكام الإلهية مطلقا، بل كان فى هذا المجال يتبع الوحى فقط.

و على هذا الأساس كانت المشاورة فى كيفية تنفيذ التعاليم و الأحكام الإلهية على أرض الواقع.

و بعبارة أخرى: إن النبى لم يشاور أحدا فى التقنين، بل كان يشاور فى كيفية التطبيق و يطلب وجهة نظر المسلمين فى ذلك.

و لهذا عند ما كان يقترح النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا- أحيانا- بادره المسلمون بهذا السؤال: هل هذا حكم إلهى لا يجوز إبداء الرأى فيه، أو أنه يرتبط بكيفية التطبيق و التنفيذ؟ فإذا كان من النوع الثانى، أدلى الناس فيه بآرائهم، و أما إذا كان من النوع الأول لم يكن منهم تجاهه سوى التسليم و التفويض.

ففى يوم بدر جاء النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أدنى ماء من بدر فنزل عنده، فقال «الحباب ابن المنذر»: يا رسول اللّه أ رأيت هذا المنزل، أ منزلا أنزله اللّه ليس لنا أن نتقدمه و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۰

نتأخر عنه أم هو الرأی و الحرب و المکیدة؟ فقال: «بل هو الرأی و الحرب و المکیدة» فقال: یا رسول اللّه لیس هذا بمنزل، فانهض بالناس حتّی نأتی أدنی ماء من القوم فننزله ثمّ نغور ما وراءه إلی آخر ما قال ... فقال له النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «لقد أشرت بالرأی» و عمل برأیه ۴۵۱].

أهمیة المشاورة فی نظر الإسلام:

لقد حظیت مسألة المشاورة بأهمیة خاصة فی نظر الإسلام، فالنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم رغم أنه کان یملک- بغض النظر عن الوحی الإلهی- قدرة فکریة کبیرة تؤهله لتسییر الأمور و تصریفها دون حاجة إلی مشاورة أحد، إلّا أنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کیما یشعر المسلمین بأهمیة المشاورة و فوائدها حتّی یتخذوها رکنا أساسیا فی برامجهم و حتّی ینمی فیهم قواهم العقلیة و الفکریة نجده یشاور أصحابه فی أمور المسلمین العامة التی تتعلق بتنفیذ القوانین و الأحکام الإلهیة (لا أصل الأحکام و التشریعات التی مدارها الوحی) و یقیم لآراء مشیریه أهمیة خاصة و یعطیها قیمتها اللائقة بها، حتّی أنه کان- أحیانا- ینصرف عن الأخذ برأی نفسه احتراما لهم و لآرائهم کما فعل ذلک فی «أحد»، و یمکن القول بأن هذا الأمر بالذات کان أحد العوامل المؤثرة وراء نجاح الرسول الأکرم فی تحقیق أهدافه الإسلامیة العلیا.

و الحقّ أن أیة أمة أقامت إدارة شؤونها علی أساس من الشوری و المشاورة، قل خطأها، و ندر عثارها، علی العکس من الأفراد الذین یعانون من استبداد الرأی، و یرون أنفسهم فی غنی عن نصح الناصحین و رأی الآخرین فإنهم إلی العثار أقرب، و من الصواب و الرشد أبعد، مهما تمتعوا بسدید الرأی، و قوی التفکیر، هذا مضافا إلی أن الاستبداد فی الرأی یقضی علی الشخصیة فی الجمهور،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۱

و یوقف حرکة الفکر و تقدمه، و یمیت المواهب المستعدة بل یأتی علیها، و بهذا الطریق تهدر أعظم طاقات الأمة الإنسانیة.

و مضافا أیضا إلی أن الذی یشاور الآخرین فی أموره و أعماله إذا حقق نجاحا قل أن یتعرض لحسد الحاسدین، لأن الآخرین یرون أنفسهم شرکاء فی تحقیق ذلک الإنتصار و النجاح، و لیس من المتعارف أن یحسد الإنسان نفسه علی نجاح حققه، أو انتصار أحرزه.

و أما إذا أصابته نکسة لم تلمه ألسن الناس، و لم یتعرض لسهام نقدهم و اعتراضهم، لأن الإنسان لا یعترض علی عمل نفسه، و لا ینقد فعل ذاته، بل سیشاطرونه الألم، و یتعاطفون معه، و یشارکونه فی التبعات.

کلّ ذلک لأنهم شارکوه فی الرأی و شاطروه فی التخطیط، و لم یکن متفردا فی العمل، و لا مستبدا فی الرأی.

ثمّ إن هناک فائده أخری للمشاورة و هی أن المشاورة خیر محک لمعرفة الآخرین، و التعرف علی ما یکنونه للمستشیر من حب أو کراهیة، و ولاء أو عداء، و لا ریب فی أن هذه المعرفة ممّا یمهد سبیل النجاح، و لعلّ استشارات النبی الأکرم- مع ما کان یتمتع به من قوة فکریة و عقلیة جبارة- کانت لهذه الأسباب مجتمعة.

لقد ورد حث شدید و تأکید لیس فوقه تأکید علی سنة المشاورة، و فی الأحادیث و الأخبار الإسلامیة ففی حدیث منقول

عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنه قال: «ما شقی عبد قط بمشورة و لا سعد باستغناء رأی»[۴۵۲].

کما و نقرأ

فی کلمات الإمام علی علیه السّلام قوله: «من استبد برأیه هلک، و من شاور الرجال شارکها فی عقولها»[۴۵۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۲

و

نقل عن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا أنه قال: «إذا کان امراؤکم خیارکم، و أغنیاؤکم سمحاؤکم و أمرکم شوری بینکم

فظهر الأرض خير لكم من بطنها، و إذا كان أمراؤكم شراركم، و أغنياؤكم بخلاؤكم، و لم يكن أمركم شورى بينكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها»[۴۵۴].

مع من تشاور؟

من المسلم أن للمشورة أهلا، فلا يصح أن يستشار كلّ من هب و دب، فرب مشيرين يعانون من نقاط ضعف، توجب مشورتهم فساد الأمر، و ضياع الجهود، و فشل العمل، و التأخر و السقوط.

فعن على عليه السّلام أنه قال فى هذا الصدد «لا تدخلن فى مشورتك»:

۱- بخيلا يعدل بك عن الفضل و يعدك بالفقر.

۲- و لا جبانا يضعفك عن الأمور.

۳- و لا حريصا يزين لك الشره بالجور[۴۵۵].

وظيفة المشير:

كما تأكد الحث فى الإسلام على المشاورة فقد أكدت النصوص على المشيرين أيضا بأن لا يألوا جهدا فى النصح، و لا يدخروا فى هذا السبيل خيرا، و تعتبر خيانة المشير للمستشير من الذنوب الكبيرة، بل و تذهب أبعد من ذلك حيث لا تفرق فى هذا الحكم بين المسلم و الكافر، يعنى أنه لا يحق لمن تكفل تقديم النصح و المشورة أن يخون من استشاره، فلا يدله على ما هو الصحيح فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۳

نظره، مسلما كان ذلك المستشير أو كافرا.

فى رسالة الحقوق عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليهما السّلام أنه قال: «و حق المستشير إن علمت له رأيا أشرت عليه، و إن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم، و حق المشير عليك أن لا تتهمه فى لا يوافقك من رأيه»[۴۵۶].

شورى عمر بن الخطاب

عند ما بلغ جماعة من علماء أهل السنة و مفسريهم إلى هذه الآية (آية الشورى) أشاروا إلى شورى عمر السداسية لاختيار الخليفة الثالث، و حاولوا عبر بيان مفصل تطبيق مفاد هذه الآية و روايات المشاورة على تلك العملية و الفكرة.

و الكلام المفصل حول هذه المسألة و إن كان من مهمة الكتب الاعتقادية، إلّا أنه لا بدّ من الإشارة هنا إلى بعض النقاط بصورة مختصرة و سريعة:

أولا: إن انتخاب الخليفة للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يجب أن يكون فقط من جانب اللّه، لأن الخليفة يجب أن يتمتع على غرار النبى- بصفات و مؤهلات كالعصمة و ما شاكل ذلك و هى أمور لا يمكن الوقوف و الاطلاع عليها إلّا من قبل اللّه سبحانه.

و بتعبير آخر: كما أن تعيين النبى لا يمكن أن يكون بالمشاورة و الشورى فكذلك انتخاب الإمام لا يمكن أن يكون بالشورى.

ثانيا: إن الشورى السداسية المذكورة لم تنطبق بالمرة على معايير الشورى و موازين المشاورة، لأن الشورى التى ذهب إليها عمر إن كان المراد منها مشاورة المسلمين عامة، فما ذا يعنى تخصيصها بستة أنفار؟

و إن كـان الهـدف منهـا مشـاورة العقلاء و المفكرين و أهل الرأى من الأمـة فهم لا ينحصـرون فى هؤلاء السـتة، إذ هناك شخصـيات ناضجة أمثال سلمان الذى كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۴

مسـتشارا شخصـيا للنبى الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و مثـل أبى ذر و المقـداد و ابن عبـاس، و غيرهم ممن قـد نحوا عن هـذه الشورى.

و على هذا الأساس فإن حصـر هذه الشورى بالأنفار الستة المعينين يجعل هذا الاجتماع و الشورى أقرب إلى التحزب السياسى منه إلى التجمع الشوروى.

و أمّا إذا كان المراد من حصـر المشـيرين فى هؤلاء السـتة هو جعلها فى أصحاب الكلمة و النفوذ حتّى تنفذ قراراتهم و لا يخالفها أحد من الأمة، و لا يتمرد عليها أحد من الناس فإنه لم يكن موقفا صائبا أيضا، لأن ثمة شخصـيات من أصـحاب الكلمة و النفوذ أمثال سـعد بن عبادة الذى كان يرأس فى حينه الأنصار بدون منازع، و أبى ذر الغفارى أكبر شخصـية مسموعة الكلمة فى قبيلة «غفار»، قد أقصيت من حلبة الشورى؟

ثالثا: نحن نعلم أنه قد اشترط فى هذه الشورى شـروط صـعبة و قاسية إلى درجة أنه هدد المخالفون و المعارضون بالموت، فى حين لا يوجد لمثل هذه الشروط فى سنة الشورى التى سنها الإسلام أى مكان، و لا أى أثر، فكيف تنطبق على هذه الشورى؟

مرحلة القرار الأخير!

بقـدر ما يجب على المستشـير أن يتخذ جانب الرفق و اللين فى المشورة مع مسـتشاريه، يجب عليه أن يكون حاسـما و حازما فى اتخاذ القرار الأخير.

و على هذا يجب التخلص من أى تردد، أو اسـتماع إلى الآراء المتشـتتة بعد استكمال مراحل المشاورة و اتضاح نتيجتها، و يجب اتخاذ القرار الأخير بصرامة و حسم، و هذا هو ما يعبر عنه بالعزم فى قوله سبحانه فى هذا السياق إذ يقول:

فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۵

إن الجـدير بالتأمـل هو أن مسألـة المشـاورة ذكرت فى الآيـة الحاضـرة بصـيغة الجمع «و شاورهم» و لكن اتخاذ القرار الأخير جعل من وظيفة الرسول الكريم خاصة إذا جاء بصيغة المفرد «عزمت».

إن الاختلاف فى التعبير إشارة إلى نكتـة مهمـة و هى أن تقليب وجوه الأمر، و دراسـة القضـية الاجتماعيـة من جميع جوانبها و أطرافها يجب أن تتم بصورة جماعيـة، و أما عنـد ما يتم التصـديق على شـىء فإن إجراءه و إبرازه فى صورة القرار القطعى يجب أن يوكل إلى إرادة واحـدة، و إلّا وقع الهرج و المرج، و دبت الفوضـى فى الأمة لأن التنفيذ بوساطة قادة متعددين من دون الانطلاق من قيادة واحدة متمركزة سـيواجه الاختلاـف، و يؤول إلى النكسـة و الهزيمـة، و لهـذا تتم المشاورات فى عالمنا الراهن بصورة جماعيـة، و لكن إجراء نتائجها تناط إلى الدول و الأجهزه التى تدار و تعمل تحت إشراف شخص واحد، و فرد معنى لا متعددين.

و الموضوع المهم الآخر الـذى تشـير إليه الجملة السابقة فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ هو أن اتخاذ القرار الأخير يجب أن يقترن بالتوكل على اللّه، بمعنى أن عليكم أن تسـتمدوا العون من اللّه القادر المطلق و لا تنسوه فى الوقت الذى تهيئون فيه الأسـباب العادية و الوسائل المادية للأمر.

على أن التوكل لا يعنى بالمرة أن يتجاهل الإنسان الأسباب المادية و الوسائل العادية للنصر و التى جعلها اللّه سبحانه فى عالم المادة، و

مكن الإنسان الأخذ بها،

فقد روى فى حديث أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال لأعرابى حضر عند النبى و قد ترك ناقته سادرة فى الصحراء دون أن يعقلها حتّى لا تفر أو تضل، ظنا بأن هذا من التوكل على اللّه «أعقلها و توكل».

أجل ليس المراد من التوكل هو هذا المفهوم الخاطئ، بل المراد منه هو أن لا ينحصر الإنسان فى حصار هذا العالم المادى، و فى حدود قدرته الضيقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۶

فلا ينطلق قدما إلى الأمام، بل يعلّق أمله- إلى جانب الأخذ بالأسباب- على عناية اللّه و حمايته و لطفه و منّه.

و لا ريب أن مثل هذه الالتفاتة تهب للإنسان استقرار نفسيا عاليا، و طاقة روحية فعالة، و معنوية تتضائل أمامها كلّ الصعاب و المشاق، و تتحطم عندها كلّ أمواج المشكلات العاتية، أو تنزاح أمامها كلّ الأهوال (و سوف نشرح بإسهاب إن شاء اللّه مسألة التوكل و كيفية العلاقة بينها و بين الاستفادة من وسائل العالم المادى فى ذيل قوله تعالى وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً[۴۵۷].

ثمّ إنه سبحانه و تعالى يأمر المؤمنين فى ختام الآية أن يتوكلوا على اللّه فحسب لأنه تعالى يحب المتوكلين إذ يقول: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

هذا و يستفاد من هذه الآية أن التوكل يجب أن يكون بعد التشاور، و بعد الأخذ و الاستفادة من جميع الإمكانيات المتاحة للإنسان حتما.

نتيجة التوكل و ثمرته:

بعد أن يحث البارى سبحانه و تعالى عباده على أن يتوكلوا عليه، يبين فى هذه الآية- التى هى مكملة للآية السابقة- نتيجة التوكل و ثمرته و فائدته العظمى فيقول: إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ و هو بهذا يشير إلى أن قدرة اللّه فوق كلّ القدرات، فإذا أراد بعبد خيرا و أراد نصره و تأييده و الدفاع عنه لم يكن فى مقدور أية قوة فى الأرض- مهما عظمت- أن تتغلب عليه، فمن كان- هكذا- منبع كلّ الانتصارات، وجب التوكل عليه، و استمداد العون منه.

فهذه الآية تتضمن ترغيبا للمؤمنين بأن يتكلوا على اللّه و قدرته التى لا تقهر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۷

مضافا إلى تهيئة كلّ الوسائل الظاهرية، و الأسباب العادية.

و الكلام فى الآية السابقة موجه إلى شخص النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر له فى الحقيقة و لكنه فى هذه الآية موجه إلى جميع المؤمنين و كأنها تقول لهم: إن عليهم أن يتوكلوا على اللّه كما يفعل النبى، و لهذا يختم هذه الآية بقوله: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و لا يخفى أن تأييد اللّه للمؤمنين أو عدم تأييده ليس من غير حساب، فهو يتم بناء على أهليتهم لذلك.

فمن أعرض عن تعاليم اللّه، و غفل عن تحصيل المقومات المادية و المعنوية و تقاعس عن إعداد القوى العادية اللازمة لم يشمله التأييد الإلهى مطلقا، على العكس من الذين استعدوا لمواجهة الأعداء بصفوف متراصة و نيات خالصة و عزائم راسخة، مهيئين كلّ الوسائل اللازمة للمواجهة، فإن تأييد اللّه سيشمل هؤلاء، و ستكون يد اللّه معهم حتّى تحقيق الإنتصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۸

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۱]

اشارة

وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۶۱)

التّفسير

الخيانة ممنوعة مطلقا:

بالنظر إلى الآية السابقة التى نزلت بعد الآيات المتعلقة بوقعة «أحد» و بالنظر إلى رواية نقلها جمع من مفسرى الصدر الأول، تعتبر هذه الآية ردا على بعض التعللات الواهية التى تمسك بها بعض المقاتلين، و توضيح ذلك هو: إن بعض الرماة عند ما أرادوا ترك مواقعهم الحساسة فى الجبل لغرض جمع الغنائم، أمرهم قائدهم بالبقاء فيها، لأن الرسول لن يحرمهم من الغنائم، و لكن تلك الجماعة الطامعة فى حطام الدنيا اعتذرت لذلك بعذر يخفى حقيقتهم الواقعية، إذ قالوا:

نخشى أن يتجاهلنا النبى عند تقسيم الغنائم فلا يقسم لنا، قالوا هذا و أقبلوا على جمع الغنائم تاركين مواقعهم التى كلفهم الرسول بحراستها فوقع ما وقع من عظائم الأمور و جلائل المصائب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۵۹

فجاء القرآن يرد على زعمهم و تصورهم هذا فقال: وَ ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَ ۴۵۸] أى أنكم تصورهم و ظننتم أن النبى يخونكم، و الحال أنه ليس لنبى أن يغل و يخون أحدا.

إن اللّه سبحانه ينزه فى هذه الآية جميع الأنبياء و الرسل من الخيانة، و يقول إن هذا الأمر لا يصلح- أساسا- للأنبياء، و لا يتناسب أساسا مع مقامهم العظيم.

يعنى أن الخيانة لا تتناسب مع النبوة، فإذا كان النبى خائنا لم يمكن الوثوق به فى أداء الرسالة و تبليغ الأحكام الإلهية.

و غير خفى أن هذه الآية تنفى عن الأنبياء مطلق الخيانة سواء الخيانة فى قسمة الغنائم أو حفظ أمانات الناس و ودائعهم، أو أخذ الوحى و تبليغه للعباد.

و من العجيب أن يثق أحد بأمانة النبى فى الحفاظ على وحى اللّه، و تبليغه و أدائه، ثمّ يحتمل- و العياذ باللّه- أن يخون النبى فى غنائم الحرب، أو يقضى بما ليس بحق، و يحكم بما ليس بعدل، و يحرم أهلها منها من غير سبب.

إن من الوضوح بمكان أن الخيانة محظورة على كلّ أحد، نبيا كان أو غير نبى، و لكن حيث إن الكلام هنا يدور حول اعتذار تلك الجماعة المتمردة و تصوراتهم الخاطئة حول النبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لذلك تتحدث الآية عن الأنبياء أولا، ثمّ تقول:

وَ مَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِما غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى أن كلّ من يخون سيأتى يوم القيامة و هو يحمل على كتفه وثيقة خيانته، أو يصحبه معه إلى المحشر، و هكذا يفتضح أمام الجميع، و تنكشف أوراقه و تعرف خيانته.

قال بعض المفسّرين أن المراد من حمل الخيانة على الظهر أو استصحاب ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۰

غلّ يوم القيامة ليس هو أنّه يحمل كلّ ذلك حملا أو يستصحبه استصحابا حقيقيا معه يوم القيامة، بل المراد هو أنه يتحمل مسئولية ذلك، و لكن بالنظر إلى مسألة «تجسم الأعمال» فى يوم القيامة لا يبقى أى مبرر و لا أى داع لهذا التفسير، بل- و كما يدلّ عليه ظاهر الآية و يشهد به- يأتى الخائن و هو يحمل عين ما غل كوثيقة حية تشهد على خيانته و غلوله، أو يستصحبها معه.

ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ يعنى أن الناس يجدون عين أعمالهم هناك، و لهذا فهم لا يظلمون لأنه يصل إلى كلّ أحد نفس ما كسبه خيرا كان أو شرا.

و لقد أثّرت الآية السابقة، و الأحاديث التى صدرت عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هى تذم الخيانة و الغلول فى نفوس المسلمين و خلقهم تأثيرا عجيبا حتّى أنهم- نتيجة لهذه التربية- لم يصدر عنهم أقل خيانة و لا أدنى غلول فى غنائم الحرب أو الأموال العامة، إلى درجة أنهم كانوا يأتون بالغنائم الغالية الثمن الصغيرة الحجم التى كان من السهل إخفاؤها إلى النبى، أو القادة من بعده دون أى تصرف فيها، الأمر الذى يدعو إلى الدهشة و الإكبار و العجب.

فقد كان هؤلاء نفس أولئك العرب القساة، الجفاة، المغيرون، السلابون قطاع الطرق فى الجاهلية، و قد أصبحوا الآن- فى ظل التربية الإسلامية- فى قمة الصلاح و الأمانة، و فى ذروة الاستقامة و الطهر، و التقى و كأنهم يرون مشاهد القيامة بأم أعينهم، كيف يقدم الخائنون فى الأموال و الأمانات إلى المحشر و هم يحملون على أكتافهم و ظهورهم ما غلوه و خانوه.

أجل لقد كان هذا الإيمان يحذرهم من الخيانة، بل يصرفهم حتّى عن التفكير فيها.

كتب الطبرى فى تاريخه أنه لما هبط المسلمون بالمدائن، و جمعوا الأقباض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۱

(الغنائم) أقبل رجل بحق معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط ما يعد له ما عندنا و لا يقاربه فقالوا: هل أخذت منه شيئا؟ فقال:

«أما و اللّه لو لا- اللّه ما آتيتكم به فعرفوا أن للرجل شأنا، فقالوا من أنت؟ فقال: و اللّه لا أخبركم لتحمدونى، و لا غيركم ليقرظونى و لكنى أحمد اللّه و أرضى بثوابه»[۴۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۲

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۲ الى ۱۶۳]

اشارة

أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶۲) هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۶۳)

التّفسير

المتخلفون عن الجهاد:

تضمنت الآيات السابقة الحديث عن شتى جوانب معركة «أحد» و ملابساتها و نتائجها، و قد جاء الآن دور المنافقين و ضعاف الإيمان من المسلمين الذين تقاعسوا عن الحضور فى «أحد» تبعا للمنافقين، لأننا نقرأ فى الأحاديث أن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما أمر بالتحرك إلى «أحد» تخلف جماعة من المنافقين عن التوجه إلى الميدان بحجة أنه لن يقع قتال، و تبعهم فى ذلك بعض المسلمين من ضعاف الإيمان، فنزل قوله تعالى أَ فَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللَّهِ و لبى نداء النبى و اتبع أمره بالخروج كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

ثمّ يقول تعالى: هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ أى أن لكل واحد منهم درجة بنفسه و مكانة عند اللّه، و هو إشارة إلى أنه لا يختلف المنافقون عن المجاهدين فقط، بل إن لكلّ فرد من أفراد هذين الطائفتين درجة خاصة تناسب مدى تضحيته و تفانيه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۳

فی سبیل اللّه أو مدی نفاقه و عدائه للّه تعالی، و تبدأ هذه الدرجات من الصفر و تستمر إلی خارج حدود التصوّر.

هذا و قد نقل فی روایة عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنه قال: «الدرجة ما بین السماء و الأرض»[۴۶۰].

و

جاء فی حدیث آخر «إن أهل الجنة لیرون أهل علیین کما یری النجم فی أفق السماء»[۴۶۱]

بید أننا یجب أن نعلم أن «الدرجة» تطلق عادة علی تلک الوسیلة التی یرتقی بها الإنسان و یصعد إلی مکان مرتفع، فی حین أن الدرجات التی یستخدمها الإنسان للنزول من مکان مرتفع إلی مکان منخفض تسمی «درکا» و لهذا جاء فی شأن الأنبیاء علیهم السّلام فی سورة البقرة الآیة ۲۵۳ وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ و جاء فی حقّ المنافقین فی سورة النساء الآیة ۱۴۵ إِنَّ الْمُنافِقِینَ فِی الدَّرْکِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ و لکن حیث کان البحث فی الآیة الحاضرة حول کلا الفریقین غلب جانب المؤمنین، فکان التعبیر بالدرجة دون غیرها إذ قیل هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ

ثمّ یقول سبحانه فی ختام هذه الآیة وَ اللَّهُ بَصِیرٌ بِما یَعْمَلُونَ أی أنه سبحانه عالم بأعمالهم جمیعا فهم یعلم جیدا من یستحق أیة درجة من الدرجات، بحیث تلیق بنیته و إیمانه و علمه.

مع أسلوب تربوی قرآنی مؤثر

هناک الکثیر من الحقائق المتعلقة و المرتبطة بالقضایا الدینیة أو الخلقیة أو الاجتماعیة، یطرحها القرآن الکریم فی قالب التساؤل و الاستفهام تارکا للسامع- و بعد أن یضعه أمام کلا جانبی القضیة- أن یختار هو بمعونة من فکره، و انطلاقا من تحلیله و تقویمه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۴

إن لهذا الأسلوب- الذی لا بدّ أن نسمیه بالأسلوب التربوی غیر المباشر- أثرا بالغا فی تحقیق الأهداف المرجوة من البرامج التربویة و تأثیرها فیمن یراد توجیههم و تربیتهم، و ذلک لأن الإنسان- فی الأغلب- یهتم أکثر بما توصل إلیه بنفسه من النتائج و الأفکار و الآراء و ما انتهی إلیه بفکره من التفاسیر و التحالیل فی القضایا المختلفة، فإذا طرحت علیه قضیة بصورة قطعیة و صبغة جازمة، قاومها أحیانا، و لعله ینظر إلیها کما ینظر إلی أیة فکرة غریبة.

و لکن عند ما یطرح علیه الأمر فی صورة التساؤل الذین یطلب منه الجواب علیه حسب قناعته الشخصیة ثمّ یسمع ذلک الجواب من أعماق ضمیره و فؤاده، فإنه لا یسعه حینئذ أن یقاوم هذا الجواب و یعادیه، بل ینظر إلیه نظر العارف به، و لن تعود لدیه- حینئذ- تلک الفکرة الغریبة البعیدة، بل تکون الفکرة القریبة إلی قلبه، المأنوسة إلی فؤاده.

إن هذا الأسلوب من التوجیه و الإرشاد مؤثر غایة لتأثیر خاصة مع المعاندین، و کذا الأطفال و الناشئین.

و لقد استفاد القرآن الکریم من هذا الأسلوب التربوی الرائع المؤثر فی مواضع عدیدة نذکر منها بعض النماذج:

۱- هَلْ یَسْتَوِی الَّذِینَ یَعْلَمُونَ وَ الَّذِینَ لا یَعْلَمُونَ ۴۶۲].

۲- قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَ فَلا تَتَفَکَّرُونَ ۴۶۳].

۳- قُلْ هَلْ یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِی الظُّلُماتُ وَ النُّورُ[۴۶۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۵

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۶۴]

اشارة

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۶۴)

التّفسير

النعمة الإلهية الكبرى:

فى هذه الآية يدور الحديث حول أكبر النعم الإلهية، ألا و هى نعمة «بعثة الرسول الأكرم و النبى الخاتم» صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو فى الحقيقة إجابة قوية على التساؤل الذى خالج بعض الأذهان من الحديثى العهد بالإسلام بعد «معركة أحد» و هو:

لماذا لحق بنا ما لحق، و لماذا أصبنا بما أصبنا به؟ فيجيبهم القرآن الكريم بقوله:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ أى إذا كنتم قد تحملتم كلّ هذه الخسائر، و أصبتم بكلّ هذه المصائب، فإن عليكم أن لا تنسوا أن اللّه قد أنعم عليكم بأكبر نعمة، ألا و هى بعثه نبى يقوم بهدايتكم و تربيتكم، و ينقذكم من الضلالات و ينجيكم من المتاهات، فمهما تحملتم فى سبيل الحفاظ على هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۶

النعمة العظمى و الموهبة الكبرى، و مهما كلفكم ذلك من ثمن، فهو ضئيل إلى جانبها، و حقير بالنسبة إليها.

و الجدير بالاهتمام- فى المقام- هو أن هذه النعمة قد شرع ذكرها بكلمة «منّ» التى قد لا تبدو جميلة و لا مستحسنة فى بادئ الأمر، و لكننا عند ما نراجع مادة هذه اللفظة و أصلها اللغوى يتضح لنا الأمر غاية الوضوح، و توضيحه هو: ان المن- كما قال الراغب فى مفرداته: هو ما يوزن به، و لذلك أطلق على النعمة الثقيلة: المنة، و يقال ذلك إذا كان ذلك بالفعل، فيقال: من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة الجميلة الثمينة و هو حسن لا بأس فيه، أما إذا عظّم أحد- فى القول و الادعاء- ما قام به من حقير الخدمات و الأفعال و الصنائع فهو فى غاية القبح.

و على هذا فإن المن المستقبح هو الذى يكون استعظاما للصنائع و النعم فى القول، أما المنة المستحسنة فهى بذل النعم الكبرى و الصنائع العظيمة.

أما تخصيص المؤمنين بالذكر فى هذه الآية فى حين أن الهدف من بعثة النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو هداية عموم البشر، فلأن المؤمنين هم الذين يستفيدون- بالنتيجة و المآل- من هذه النعمة العظمى فهم الذين يستأثرون بآثارها عملا دون غيرهم.

ثمّ إن اللّه سبحانه يقول: مِنْ أَنْفُسِهِمْ أن إحدى مميزات هذا النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو أنه من نفس الجنس و النوع البشرى، لا من جنس الملائكة و ما شابهها، و ذلك لكى يدرك كلّ احتياجات البشر بصورة دقيقة، و لا يكون غريبا عنها، غير عارف بها، و حتّى يلمس آلام الإنسان و آماله، و مشكلاته و مصائبه، و متطلبات الحياة و مسائلها، ثمّ يقوم بما يجب أن يقوم به من التربية و التوجيه على ضوء هذه المعرفة.

هذا مضافا إلى أن القسط الأكبر من برامج الأنبياء التربوية يتكون من تبليغهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۷

العملى بمعنى أن أعمالهم تعتبر أفضل مثل، و خير وسيلة تربوية للآخرين، لأن التبليغ بلسان العمل أشد تأثيرا، و أقوى أثرا من التبليغ بأية وسيلة أخرى، و هذا إنما يمكن إذا كان المبلّغ من نوع البشر و جنسه بخصائصه، و مواصفاته الجسمية، و بذات غرائزه و بنائه

الروحى.

فإذا كان الأنبياء من جنس الملائكة- مثلا- كان للبشر الذين أرسل الأنبياء إليهم أن يقولوا: إذا كان الأنبياء لا يعصون أبدا، فلأجل أنهم من الملائكة ليست فى طبائعهم الشهوات و الغرائز، و لا الغضب و لا الحاجة.

و هكذا كانت رسالة الأنبياء و مهمتهم تتعطل و تفقد تأثيرها، و لا تحقق أغراضها.

و لهذا اختير الأنبياء من جنس البشر و من فصيلة الإنسان بغرائزه، و احتياجاته، ليمكنهم أن يكونوا أسوة لغيرهم من البشر، و قدوة لسواهم من بنى الإنسان.

ثمّ إن اللّه سبحانه يقول واصفا مهمات هذا النبى العظيم: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ أى أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقوم بثلاثة أمور فى حقّهم:

۱- تلاوة آيات اللّه على مسامعهم، و إيقافهم على هذه الآيات و الكلمات الإلهية.

۲- تعليمهم بمعنى إدخال هذه الحقائق فى أعماق ضمائرهم و قلوبهم.

۳- تزكية نفوسهم، و تنمية قابلياتهم الخلقية، و مواهبهم الإنسانية.

و لكن حيث إن الهدف الأصلى هو «التربية» لذلك قدمت على «التعليم» مع أن الحال- من حيث الترتيب الطبيعى- تقتضى تقديم التعليم على التربية.

إن الذين يبتعدون عن الحقائق الإنسانية بالمرة، ليس من السهل إخضاعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۸

للتربية، فلا بدّ أولا من إسماعهم آيات اللّه مدة من الزمن حتّى تذهب عنهم الوحشة التى وقعوا فريسة لها من قبل، ليتسنى حينئذ إدخالهم فى مرحلة التعليم، ثمّ يمكن اقتطاف ثمار التربية بعد ذلك.

ثمّ إن هناك احتمالا آخر فى تفسير الآية و هو أن المقصود من التزكية هو التنقية من رواسب الجاهلية و الشرك، و من بقايا العقائد الباطلة و الأفكار الخرافية، و الأخلاق الحيوانية القبيحة لأن الضمير الإنسانى ما دام لم يطهر من الأدران و الرواسب لم يمكن إعداده و تهيئته لتعليم الكتاب الإلهى، و الحكمة و العلم الواقعيين، تماما مثل اللوحة التى لا تقبل الألوان و النقوش الجميلة ما لم تنظف من النقوش القبيحة أولا.

و لهذا السبب قدمت التزكية فى الآية الحاضرة على تعليم الكتاب و الحكمة التى يراد بها معارف الإسلام العالمية، و مفاهيمه السامية.

متى تعرف قيمة البعثة النبوية؟

إن أهمية هذه النعمة العظمى (البعثة النبوية) إنما تتضح تمام الوضوح و تتجلى تمام الجلاء عند ما يقاس الوضع الذى آلوا إليه بالوضع الذى كانوا عليه، و ملاحظة مدى التفاوت بينهما و هذا هو ما يعنيه قوله: وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و كأن القرآن يخاطبهم قائلا: ارجعوا إلى الوراء و انظروا إلى ما كنتم عليه من سوء الحال قبل الإسلام، كيف كنتم، و كيف صرتم؟؟

إن الجدير بالتأمل هو وصف القرآن الكريم للعهد الجاهلى بقوله: ضَلالٍ مُبِينٍ لأن للضلال أنواعا و أصنافا: فمن الضلال ما لا يمكن معه للإنسان أن يميز بين الحق و الباطل، و الخطأ و الصواب بسهولة، و من الضلال ما يكون بحيث لو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۶۹

رجع الإنسان إلى نفسه أدنى رجوع، و تمتع بأقل قدر من الإدراك و الشعور اهتدى إلى الصواب و أدرك الخطأ فورا.

و لقد كان الناس و خاصة سكان الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية المباركة، و مجيء الرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم

بالإسلام فى ضلال مبين، فقد كان الشقاء و الجهل، و غير ذلك من حالات الانحطاط و السقوط و الفساد سائدا فى كلّ أرجاء المعمورة فى ذلك العصر، و هو أمر لم يكن خافيا على أحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۰

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۵]

اشارة

أ وَ لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۶۵)

التّفسير

دراسة أخرى لمعركة أحد:

هذه الآية تتضمن دراسة أخرى و تقييما آخر لمعركة أحد و توضيح ذلك: إن بعض المسلمين كانوا يعانون من حزن عميق و قلق بالغ لنتائج أحد، و كانوا لا يكتمون حزنهم و قلقهم هذا بل طالما كرروه و أظهروه على ألسنتهم، فذكرهم اللّه- فى هذه الآية- بثلاث نقاط هى:

۱- يجب أن لا تقلقوا لنتائج معركة معيّنة، بل عليكم أن تحاسبوا كلّ قضايا المجابهة مع العدو، و تزنوا المسألة من جميع أطرافها فلو أنه أصابتكم على أيدى أعدائكم فى هذه المعركة مصيبة فإنكم قد أصبتم أعداءكم ضعفها فى معركة اخرى (معركة بدر) لأنهم قتلوا من المسلمين فى معركة «أحد» سبعين و لم يأسروا أحدا بينما قتل المسلمون من المشركين فى معركة «بدر» سبعين و أسروا سبعين أ وَ لَمَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۱

أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها.

و عبارة قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها هى فى الحقيقة بمثابة إجابة مقدمة على سؤال.

۲- أنتم تقولون. هذه المصيبة كيف أصابتنا؟ قُلْتُمْ أَنَّى هذا و لكن «قل» أيها النبى: هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ أى هو نابع من مواقفكم فى تلك المعركة، فابحثوا عن أسباب الهزيمة فى أنفسكم.

فأنتم الذين خالفتم أمر الرسول، و تركتم الجبل ذلك الموقع الخطير.

و أنتم الذين لم تحسموا المعركة، و لم تذهبوا إلى نهايتها، بل انصرفتم إلى جمع الغنائم بعد انتصار محدود.

و أنتم الذين تركتم ساحة المعركة و فررتم و لم تصمدوا عند ما باغتكم العدو من الخلف، و من ناحية الجبل الذى تركتم حراسته.

فكلّ هذه العيوب و الذنوب، و كلّ هذا الوهن هو الذى سبب تلك الهزيمة النكراء، و أدى إلى قتل تلك المجموعة الكبيرة من المسلمين.

۳- يجب أن لا تقلقوا للمستقبل لأن اللّه قادر على كلّ شىء، فإذا أصلحتم أنفسكم، و أزلتم النواقص، و تخلصتم ممّا تعانون منه من نقاط الضعف شملكم تأييده، و أنزل عليكم نصره إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۲

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۶ الى ۱۶۷]

اشارة

وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۶۶) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتالاً لاتَّبَعْناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ (۱۶۷)

التّفسير

لا بد أن تتميز الصفوف:

تنوه الآيتان الحاضرتان بحقيقة هامة هى أن أية مصيبة (كتلك التى وقعت فى أحد) مضافا إلى أنها لم تكن دون سبب و علة، فإنها خير وسيلة لتمييز صفوف المجاهدين الحقيقيين عن المنافقين أو ضعفاء الإيمان، و لذلك جاء فى القسم الأول من الآية الأولى وَ ما أَصابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ أى أن ما أصابكم يوم تقاتل المسلمون و المشركون فهو بإذن اللّه و مشيئته و إرادته لأن لكلّ ظاهرة فى عالم الكون المخلوق للّه سبحانه سببا خاصّا و علّة معيّنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۳

و أساسا أن هذا العالم عالم مقنن يجرى وفق قانون الأسباب و المسببات، و هذه حقيقة ثابتة لا تتغير.

و على هذا الأساس إذا وهنت جماعة فى الحرب، و تعلقت بالدنيا و حطامها، و الثروة و جواذبها، و تجاهلت أوامر قائدها المحنك الرؤوف كانت محكومة بالهزيمة و الفشل، و هذا هو المقصود من إذن اللّه، فإذن اللّه و مشيئته هى تلك القوانين التى أرساها فى عالم الكون و دنيا البشر.

ثمّ يقول سبحانه فى المقطع التالى من الآية: وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا.

إنه إشارة إلى أثر آخر من آثار هذه الحرب و هو تمييز المؤمنين عن المنافقين، و فرز أقوياء الإيمان عن ضعفاء الإيمان.

و على العموم فقد تميز المسلمون- فى معركة أحد- فى طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: و هم قلة، قد ثبتوا أمام العدو فى تلك الموقعة حتّى آخر لحظه، حتّى قضى بعض و جرح بعض و تحمل أشد الآلام.

الطائفة الثانية: هم الذين زلزلوا، و وقعوا فريسة الاضطراب و لم يمكنهم الثبات حتّى آخر لحظة، ففروا من الميدان.

الطائفة الثالثة: و هم جماعة المنافقين الذين رجعوا من منتصف الطريق و أحجموا عن المشاركة و الإسهام فى القتال بحجج و أعذار واهية، و عادوا إلى المدينة، و هم عبد اللّه بن أبى سلول، و ثلاثمائة شخص من أعوانه و أنصاره و جماعته.

فلو لم تقع حادثة أحد لما تميزت هذه الصفوف مطلقا، و لما اتضح الأمر بمثل هذا الاتضاح أبدا، و لما تبين كلّ شخص بقسماته الحقيقية، و ملامحه الواقعية و صفاته الخاصة به، و بالتالى كان يمكن أن يتصور الجميع- فى مقام الادعاء- أنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۴

مؤمنون واقعيون، و أنهم الأمثلة الكاملة للصالحين.

و فى الحقيقة- تتضمن الآية الإشارة إلى أمرين:

الأول: العلة الفاعلية للهزيمة.

الثانى: العلة الغائية (و النتيجة النهائية) لها.

على أنّ هناك نقطة يلزم التنويه بها و هى أن الآية الحاضرة تقول: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نافَقُوا و لم تقل «ليعلم المنافقين».

و بتعبير آخر: جاء ذكر النفاق بصيغة الفعل، و لم يأت بصورة «الوصف» و هو- لعلّه- لأجل أن النفاق لم يكن قد حصل فى الجميع فى شكل الصفة الثابتة اللازمة و لهذا نقرأ فى التاريخ أن بعضهم قد وفق للتوبة و هدى إليها فيما بعد، و التحق بصف المؤمنين الصادقين، ثمّ إن القرآن الكريم يستعرض حوارا قد وقع بين بعض المسلمين، و المنافقين قبل المعركة بالشكل التالى: وَ قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا فإن بعض المسلمين «و هو عبد اللّه بن عمر بن حزام على ما نقل عن ابن عباس) عند ما رأى انسحاب عبد اللّه بن أبى سلول و انفصالهم عن الجيش الإسلامى، و اعتزامهم العودة إلى المدينة قال: تعالوا قاتلوا فى سبيل اللّه أو ادفعوا عن حريمكم و أنفسكم إن لم تقاتلوا فى سبيل اللّه.

و لكنهم تعللوا، و اعتذروا بأعذار واهية إذ قالوا: لَوْ نَعْلَمُ قِتالًا لَاتَّبَعْناكُمْ أى إننا نظن أن الأمر ينتهى بلا قتال فلا حاجة لوجودنا معكم.

و بناء على تفسير آخر قال المنافقون: لو أننا كنا نعتبر هذا قتالا معقولا لتعاونا معكم و لاتبعناكم، و لكننا لا نعتبر هذا قتالا بل نوعا من الانتحار و المغامرة الانتحارية لعدم التكافؤ بين قوى الكفر و قوى الإسلام، الأمر الذى يعنى أن قتالهم أمر غير عقلائى، خاصة أن الجيش الإسلامى قد استقر فى مكان غير مناسب و نقطة غير مؤاتية و لا ملائمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۵

و على كلّ حال فإن هذه كانت مجرد اعتذارات و تعللات، لأن الحرب كانت حتمية الوقوع، و لأن المسلمين انتصروا فى بداية المعركة، و أما ما لحق بهم من الهزيمة و الانكسار فلم يكن إلّا بسبب أخطاء و مخالفات ارتكبوها هم أنفسهم بحيث لولاها لما وقعت بهم هزيمة، و لذا يقول اللّه سبحانه: هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمانِ (أى أنهم يكذبون)، هذا مضافا إلى أنه يستفاد من هذه الجملة (أى أقرب) أن للإيمان و الكفر درجات ترتبط باعتقاد الإنسان و أسلوب عمله و سلوكه.

ثمّ علل سبحانه ما ذكره عنهم بقوله: يَقُولُونَ بِأَفْواهِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ أى أنهم يظهرون خلاف ما يضمرون، و يبدون من القول خلاف ما يكتمون من الاعتقاد و النية، فإنهم لإصرارهم على اقتراحهم بالقتال داخل أسوار المدينة، أو رهبة من ضربات العدو، أو لعدم حبهم للإسلام أحجموا عن الإسهام فى تلك المعركة، و امتنعوا عن المضى إلى أحد فى صحبة المسلمين، وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يَكْتُمُونَ فإن اللّه يعلم جيدا ما يخفونه و يضمرونه من النوايا، و سيكشف عن نواياهم للمسلمين فى هذه الدنيا، كما سيعاقبهم و يحاسبهم على مواقفهم و نواياهم الشريرة فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۶

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۶۸]

اشارة

الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۶۸)

التّفسير

مزاعم المنافقين الباطلة:

لم يكتف المنافقون بانصرافهم عن الإسهام مع المؤمنين فى القتال، و السعى فى إضعاف الروح المعنوية للآخرين، بل عمدوا إلى لوم المقاتلين المجاهدين بعد عودتهم من المعركة، و بعد ما لحق بهم ما لحق قائلين لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا.

فيرد عليهم القرآن الكريم فى الآيـة الحاضـرة قائلا الَّذِينَ قالُوا لِإِخْوانِهِمْ وَ قَعَدُوا لَوْ أَطاعُونا ما قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

يعنى أنكم بكلامكم هذا تريدون الادعاء بأنكم مطلعون على عالم الغيب.

و إنكم عـارفون بالمسـتقبل و حوادثه، فإذا كنتم صادقين فى ذلك فادفعوا عن أنفسـكم الموت، لأنكم- طبقا لهـذا الادعاء- ينبغى أن تعرفوا علة موتكم، و تقدرون على تجنبها، و تحاشيها، و إبطال مفعولها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۷

افرضوا أنكم لم تقتلوا فى ساحات الجهاد و الشـرف، فهل يمكنكم أن تضـمنوا لأنفسـكم سنا طويلا، و عمرا خالدا؟؟ هل يمكنكم أن تمنعوا الموت عن أنفسكم أبدا و دائما؟؟

فإذا لم يمكنكم تحاشـى الموت- هـذه النهايـة المحتّمة لكل نفس- فلما ذا تموتون فى الفراش بذل و هوان، و لا تختارون الشـهادة و الموت بشرف و عز فى ساحات الجهاد ضد أعداء اللّه و أعداء الرسالة؟؟

ثمّ إن الآية الحاضرة تتضمن نقطة أخرى يجب الانتباه إليها و هى:

لقـد عبّر القرآن عن المؤمنين فى هـذه الآية بأنهم إخوان للمنافقين فى حين لم يكن المؤمنون إخوانا للمنافقين إطلاقا، فما هذه الأنواع من الملامة و التوبيخ للمنافقين؟ فيكون المعنى هو: إنكم أيها المنافقون كنتم تعتبرون المؤمنين إخوانا لكم فكيف تركتم نصـرتهم فى هذه اللحظات الخطيرة؟ و لهذا أردف سبحانه هذه الكلمة لِإِخْوانِهِمْ بكلمة «الذين قعدوا» أى تقاعسوا عن المشاركة فى المعركة.

فهل يصحّ أن يدعى الإنسان إخوته لآخر ثمّ يخذله حين يحتاج إلى نصره و تأييده و يقعد عنه حين يحتاج إلى حمايته؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۸

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۶۹ الى ۱۷۱]

اشارة

وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (۱۶۹) فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۷۰) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۷۱)

التّفسير

الحياة الخالدة:

يرى بعض المفسـرين أن الآيـات الحاضـرة نزلت فى شـهداء «أحـد» و يرى آخرون أنهـا نزلت فى شـهداء «بـدر»، و لكن الحقّ هو أن ارتبـاط هـذه الآيـات بمـا قبلها من الآيات يكشف عن أنها نزلت فى أعقاب حادثـة «أحـد»، و إن كان محتواها، و مضـمونها يعم حتّى شهداء «بدر» الذين كانوا ۱۴ شهيدا و لهذا روى عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام أنه قال: إنها تتناول قتلى بدر و أحد معا[۴۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۷۹

و قد

روى ابن مسـعود عن النبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال اطلع إليهم (أى أرواح شهداء أحد و هى فى الجنة) ربهم اطلاعة فقال:

هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أى شيء نشتهى و نحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أين يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتّى نقتل فى سبيلك مرّة أخرى فقال تعالى: قد سبق منى أنهم لا يرجعون قالوا: فتقرئ نبينا السلام و تبلغهم ما نحن فيه من كرامة فلا يحزنوا «فنزلت هذه الآيات»[۴۶۶].

و على كلّ حال فإن الذى يبدو للنظر هو أن بعض ضعاف الإيمان كانوا- فى مجالسهم و ندواتهم بعد حادثة أحد- يظهرون الأسف على شهداء أحد، و كيف أنهم ماتوا و فنوا، و خاصة عند ما كانت تتجدد عليهم النعمة فيتأسفون لغياب أولئك القتلى فى تلك المواقع، و كانوا يحدثون أنفسهم قائلين كيف ننعم بهذه النعم و المواهب و إخواننا و أبناءنا رهن القبور لا يصيبهم ما أصابنا من الخير، و لا يمكنهم أن يحظوا بما حظينا به من النعيم؟؟.

و قد كانت هذه الكلمات- مضافا إلى بطلانها و مخالفتها للواقع- تسبب إضعاف الروح المعنوية لدى ذوى الشهداء.

فجاءت الآيات الحاضرة لتفند كلّ هذه التصورات، و تذكر بمكانة الشهداء السامية، و مقامهم الرفيع و تقول: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً.

و الخطاب- هنا- متوجه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم خاصة حتّى يحسب الآخرون حسابهم.

ثمّ يقول سبحانه معقبا على العبارة السابقة بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

و المقصود من الحياة فى الآية هى «الحياة البرزخية» فى عالم ما بعد الموت، لا الحياة الجسمانية و المادية، و إن لم تختص الحياة البرزخية بالشهداء فللكثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۰

من الناس حياة برزخية أيضا[۴۶۷] و لكن حيث أن حياة الشهداء من النمط الرفيع جدا، و من النحو المقرون بأنواع النعم المعنوية، هذا مضافا إلى أنها هى محط البحث و الحديث فى هذا السياق القرآنى لذلك خصوا بالذكر و خصت حياتهم بالإشارة فى هذه الآية، دون سواهم و دون غيرها أيضا.

إن حياتهم البرزخية محفوفة بالنعم و المواهب المعنوية العظيمة و كأن حياة الآخرين من البرزخيين بما فيها لا تكاد تكون شيئا يذكر بالنسبة إليها.

ثمّ إن الآية التالية تشير إلى بعض مزايا حياة الشهداء البرزخية، و ما يكتنفها و يلازمها من عظيم البركات من خلال الإشارة إلى عظيم ابتهاجهم بما أوتوا هناك فتقول: فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ إن السبب الآخر لابتهاجهم و مسرتهم هو ما يجدونه و يلقونه من عظيم الثواب و رفيع الدرجات الذى ينتظر إخوانهم المجاهدين الذين لم ينالوا شرف الشهادة فى المعركة إذ يقول القرآن: وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ

ثمّ يردف هذا بقوله: أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ يعنى أن الشهداء يحسون هناك و فى ضوء ما يرونه أن إخوانهم المجاهدين لن يكون عليهم أى خوف ممّا تركوه فى الدنيا، و لا أى حزن من الآخرة و وقائعها الرهيبة.

على أنه من الممكن أن يكون لهذه العبارة تفسير آخر هو أن الشهداء بالإضافة إلى سرورهم و فرحهم لما يشاهدونه من الدرجات و المراتب الرفيعة لإخوانهم الذين لم ينالوا شرف الشهادة و لم يلحقوا بهم، لا يشعرون هم أنفسهم بأى خوف من المستقبل و لا أى حزن من الماضى ۴۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۱

ثمّ إنه سبحانه يقول: يَسْتَبْشِرُونَ ۴۶۹] بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ

و هذه الآية- فى الحقيقة- مزيد تأكيد و توضيح حول البشائر التى يتلقاها الشهداء بعد قتلهم و استشهادهم.، فهم فرحون و مسرورون من ناحيتين:

الأولى: من جهة النعم و المواهب الإلهية التى يتلقونها، لا بها فقط بل لما يتلقونه من الفضل الإلهى الذى هو التصعيد المتزايد المستمر للنعم الذى يشمل الشهداء أيضا.

و الثانية: من جهة أنهم يرون أن اللّه سبحانه و تعالى لا يضيع أجر المؤمنين ...

لا أجر الشهداء الذين نالوا شرف الشهادة، و لا أجر المجاهدين الصادقين الذين لم ينالوا ذلك الشرف رغم اشتراكهم فى المعركة: وَ أَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ أجل، إنهم يرون بأم أعينهم ما كانوا يوعدون به و يسمعون بآذانهم.

إنها فرحة مضاعفة.

شهادة على بقاء الروح تعد الآيات الحاضرة من جملة الآيات القرآنية ذات الدلالة الصريحة على بقاء الروح.

فهذه الآيات تتحدث عن حياة الشهداء بعد الموت و القتل. و ما يحتمله البعض من أن المراد بهذه الحياة هو معنى مجازى، و أن المقصود هو بقاء اسمهم، و خلود آثارهم، و أعمالهم و جهودهم بعيد جدا عن معنى الآية، و غير منسجم بالمرّة مع أى واحد من العبارات الواردة فى الآيات الحاضرة، سواء تلك التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۲

تصرح بأن الشهداء يرزقون، أو التى تتحدث عن سرورهم من نواح مختلفة، هذا مضافا إلى أن الآيات الحاضرة دليل بيّن و برهان واضح على مسألة «البرزخ» و النعم البرزخية التى سيأتى الحديث عنها و شرحها عند تفسير قوله سبحانه:

وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۴۷۰] إن شاء اللّه.

أجر الشهداء

لقد قيل عن الشهداء و مكانتهم و أهمية مقامهم الكثير الكثير، فكلّ الأمم، و كلّ الشعوب تحترم شهداءها و تقيم لهم وزنا خاصّا و لكن ما يوليه الإسلام للشهداء فى سبيل اللّه من الاحترام و ما يعطيهم من المقام لا مثيل له أصلا، و هذه حقيقة لا مبالغة فيها، فإن الحديث التالى نموذج واضح من هذا الاحترام العظيم، الذى يوليه الإسلام الحنيف للذين استشهدوا فى سبيل اللّه، و فى ظل هذه التعاليم استطاعت تلك الجماعة المحدودة المختلفة أن تكتسب تلكم القوّة العظيمة الهائلة التى استطاعت بها أن تركع أمامها أعظم الإمبراطوريات، بل و تدحر أعظم العروش.

و إليك هذا الحديث:

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام عن الحسين بن على عليهما السّلام قال: بينما أمير المؤمنين يخطب و يحضهم على الجهاد إذ قام إليه شاب فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنى عن فضل الغزاة فى سبيل اللّه فقال: كنت رديف رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم على ناقته العضباء و نحن منقلبون عن غزوة ذات السلاسل فسألته عمّا سألتنى عنه فقال:

الغزاة إذا هموا بالغزو كتب اللّه لهم براءة من النار.

فإذا تجهزوا لغزوهم باهى اللّه بهم الملائكة.

فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان و البيوت، و يخرجون من الذنوب ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۲، ص: ۷۸۳

و يكتب له (أى لكلّ شهيد و غاز) كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون اللّه ...

و إذا ضاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب اللّه إياهم.

فإذا برزوا لعدوهم و أشرعت الأسنة و فوقت السهام، و تقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتها يدعون اللّه بالنصرة و التثبيت فينادى مناد: «الجنة تحت ظلال السيوف» فتكون الطعنة و الضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد فى اليوم الصائف.

و إذا زال الشهيد من فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث اللّه إليه زوجته من الحور العين فتبشره بما أعد اللّه له من الكرامة. فإذا وصل إلى الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيب الذى خرج من البدن الطيب، أبشر فإن لك ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر و يقول اللّه: أنا خليفته فى أهله من أرضاهم فقد أرضانى و من أسخطهم فقد أسخطنى ۴۷۱].

---

[۱] (۱)- اقتباس من تفسير فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۵۲

[۲] (۱)- جمله« تدلوا» عطف على تأكلوا، فعلى هذا يكون مفهومها« لا تدلوا».

[۳] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۵۲.

[۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۵] (۲)- وسائل الشيعة: ج ۱۲ باب ۵ من أبواب ما يكتسب به ح ۲

[۶] (۳)- بحار الأنوار: ج ۱۰۱ ص ۲۷۴ و ج ۱۱ باب الرشا فى الحكم.

[۷] (۱)- تفسير البيضاوى: ذيل الآية المذكورة.

[۸] (۲)- مجمع البيان، المجلد الأوّل، ص ۲۸۴ فى تفسير الآية.

[۹] (۱)- مجمع البيان: فى تفسير الآية.

[۱۰] (۲)- و ذهب البعض إلى وجود حذف فى الجملة و تقديره: لكن البر من اتقى ذلك.

[۱۱] (۱)- بحثنا فى هذا الموضوع ذيل الآية(۱۲) من سورة الاسراء، و كذلك ذيل الآية(۵) من سورة يونس.

[۱۲] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلد ۵، ص ۱۲۷.

[۱۳] (۲)- مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۸۴(ذيل الآية مورد البحث) و ورد مثلها فى تفاسير اخرى.

[۱۴] (۱)- نهج البلاغة- الكتب و الرسائل- رقم ۱۴.

[۱۵] (۲)- سورة النساء، ۷۷.

[۱۶] (۳)- التوبة، ۳۶.

[۱۷] (۱)- روح المعانى، المجلد الثانى، ص ۶۵.

[۱۸] (۲)- العنكبوت: ۲.

[۱۹] (۱)- الأعراف: ۲۷.

[۲۰] (۲)- الذاريات: ۱۳، ۱۴.

[۲۱] (۳)- المائدة: ۴۱.

[۲۲] (۱)- إنجيل متّى- الباب ۵- الرقم ۳۹.

[۲۳] (۱)- التوبة: ۹۲.

[۲۴] (۱)- نهج البلاغة، الحكمة ۱۴۶.

[۲۵] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۷۶.

[۲۶] (۱)- المیزان، المجلد ۲، ص ۷۵(ذیل الآیة مورد البحث).

[۲۷] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۷۷.

[۲۸] (۲)- ذکر احتمالان فی تفسیر الآیة، أحدهما أن« ما» فی« ما استیسر» مبتدأ، و خبرها محذوف بتقدیر« علیکم» فتکون الجملة« فعلیکم ما استیسر من الهدی» و الثانی أن« ما» مفعول لفعل مقدّر تقدیره:« فاهدوا ما استیسر من الهدی».

[۲۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۰.

[۳۰] (۱)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۵۲.

[۳۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۱(و مثل هذا المعنی ورد فی تفسیر القرطبی عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حول الصوم و إطعام المسکین ذیل هذه الآیة).

[۳۲] (۱)-« عشرون» و« عشرین» و إن کان علی شکل الجمع، و لکن یطلق الجمع أحیانا علی الاثنین و ما علا.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الکتاب ۴۷، وصیة الإمام لابنیه الحسن و الحسین.

[۳۴] (۱)- شبهات حول الإسلام.

[۳۵] (۲)- فی بعض النسخ(تقربة للدین)- متن ابن أبی الحدید- و مفهومها أنه سبب وحدة الامّة الإسلامیة و تقریب الصفوف.

[۳۶] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸، ص ۱۴، باب عدم جواز تعطیل الکعبة عن الحج، ح ۵.

[۳۷] (۱)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۵۳.

[۳۸] (۱)- بما أن الحج لیس هو الأشهر نفسها، لذا ذهب المفسرون إلی وجود تقدیر و هو:« أشهر الحج أشهر معلومات»، و ذهب بعض إلی عدم وجود تقدیر، و احتملوا أن الجملة کنایة عن شدة ارتباط الحج بهذه الأشهر الخاصّة و کأنه هو هی.

[۳۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۳- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۶۰.

[۴۰] (۳)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۶۴.

[۴۱] (۱)- التحقیق فی کلمات القرآن الکریم.

[۴۲] (۱)-« الباب» جمع« لب»، و یقال للعقل الخالص« لب» أیضا.

[۴۳] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۸، کتاب الحجّ باب ۱ من أبواب وجوب الحجّ، ح ۱۸.

[۴۴] (۱)- ذکر الفخر الرازی هنا ثمانیة أقوال فی معنی« عرفات»(ج ۵، ص ۱۷۳- ۱۷۴).

[۴۵] (۲)- هناک بحث بین المفسرین فی أن« عرفات» مفرد أو جمع ل« عرفة». و قیل أن« عرفة» اسم زمان للأعمال فی یوم التاسع من ذی الحجة و« عرفات» اسم ذلک المکان(روح المعانی، ج ۲، ص ۸۷).

[۴۶] (۱)- الحمس: هم الأفراد المتمسّکون بالدین.

[۴۷] (۲)- سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۱۱ و ۲۱۲.

[۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۷.

[۴۹] (۱)- روح المعانی، ج ۲، ص ۸۹- و القرطبی، ج ۲، ص ۸۰۳- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۸۳- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۸۹- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۲۰۳.

[۵۰] (۱)-« خلاق» کما یقول الراغب تعنی الفضائل الأخلاقیة التی یکتسبها، و هنا علی قول الطبرسی أنها تعنی النصیب(الذی هو نتیجة الفضائل الأخلاقیة).

[۵۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۷.

[۵۲] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۸.

[۵۳] (۳)- التفسیر الکبیر، ج ۵، ص ۱۸۹.

[۵۴] (۴)- فی ظلال القرآن، ج ۱، ص ۲۹۰.

[۵۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۲۹۸، ذیل الآیة.

[۵۶] (۱)- بالرغم من أن« أیام» جمع« یوم» و هو مذکر، إلّا أنه وصف ب« معلومات» و« معدودات» بصیغة المؤنث، و قیل أن ذلک لأن الأیّام مرکبة من ساعات، و لعلّه إشارة إلی أنکم ینبغی أن تذکروا اللّه طیلة ساعات هذه الأیّام.

[۵۷] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی و غیره من التفاسیر.

[۵۸] (۱)- تفسیر أبو الفتوح، ج ۲، ص ۱۴۰، قلمّا روی هذا السبب النّزول.

[۵۹] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲، ص ۹۶- و کذلک أشیر إلی هذا البحث فی ذیل هذه الآیة فی تفسیر مجمع البیان و أبو الفتوح الرازی، و لکن هذا الرأی لا یناسب سبب النّزول، و إن کان مفهوم الآیة واسعا.

[۶۰] (۲)- البقرة، ۲۳۳.

[۶۱] (۳)- العزة فی مقابل الذلّة فی الأصل. و لکن هنا ورد بمعنی الغرور و النخوة،(روح المعانی) و الراغب یری أنها بمعنی عدم المغلوبیة فی الأصل، و مجازا تأتی بمعنی الغرور.

[۶۲] (۱)- ذکر صاحب الغدیر: ج ۲ ص ۴۴ و ۵۵ أنّ لیلة المبیت رواها الغزالی فی إحیاء العلوم: ج ۳ ص ۲۳۸، و الصفوی فی نزهة المجالس: ج ۲ ص ۲۰۹، و ابن الصبّاغ المالکی فی الفصول المهمّة، و السبط ابن الجوزی الحنفی فی تذکرة الخواص: ص ۲۱، و مسند أحمد: ج ۱ ص ۴۸ و تاریخ الطبری: ج ۲ ص ۹۹- ۱۰۱، و ابن هشام فی السیرة: ج ۲ ص ۲۹۱، و الحلبی فی السیرة: ج ۲ ص ۲۹، و تاریخ الیعقوبی: ج ۲ ص ۲۹.

[۶۳] (۱)- التوبة: ۱۱۱.

[۶۴] (۱)- نقل قصّة هذه المعاملة« ابن أبی الحدید» فی شرح« نهج البلاغة» ج ۴، ص ۷۳.

[۶۵] (۱)- تفسیر الکبیر، المجلد الخامس، ص ۲۰۷- روح المعانی، ج ۲، ص ۹۷، و لکن نظر أن« کافة» تشمل جمیع المؤمنین و لیس کافة تشریعات الإسلام(فی الحقیقة حال ل« الذین آمنوا» لا السلم) و التفسیر الأوّل أصح فی النظر.

[۶۶] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد الثانی، ص ۸۳۲.

[۶۷] (۱)-« ظلل» جمع« ظلة» یقال لکلّ شیء یصنع ظلا، و« غمام» بمعنی السحاب.

[۶۸] (۱)- لم یذکر التقدیر فی التفسیر الأوّل و یجب أخذه بنظر الاعتبار فی التفسیر الثانی و الثالث فی کلمة« امر» قبل لفظ الجلالة« اللّه».

[۶۹] (۲)- راجع الآیة(۱۸۹) من سورة الشعراء.

[۷۰] (۳)- المصدر السابق.

[۷۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۳.

[۷۲] (۱)-« امّة» بمعنی الجماعة التی ترتبط بنوع من الرابطة الموحدة لأفرادها سواء کانت وحدة دینیة أو زمانیة أو مکانیة.

[۷۳] (۱)- اقتباس من تفسیر المیزان، ج ۲، ص ۱۳۴، فی ذیل الآیة(۲۱۳) من سورة البقرة.

[۷۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۰۸.

[۷۵] (۱)- الدر المنثور: ج ۱ ص ۲۴۳، تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۲۰.

[۷۶] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۰۹، کذلک تفسیر روح المعانی: ج ۲ ص ۹۱، و التفسیر الکبیر: ج ص ۲۳۲.

[۷۷] (۱)- السریة: هی الحرب الإسلامیة التی لم یشترک فیها رسول اللّه(ص)، و قیل إنّها مجموعة من الجیش تتکون من ۵ إلی ۳۰۰

رجل. و السریة من« السری» أی الشیء النفیس، و إنّما سمّیت بذلک لأن أفرادها ممتازون.

و قال المطرزی: السریة من« السری» و هو المشی لیلا، لأنّ هذه المجموعة کانت تستتر باللیل فی حرکتها، و ذهب إلی ذلک أیضا ابن حجر فی الملتقطات.

[۷۸] (۱)- سیرة ابن هشام: ج ۲ ص ۲۵۲.

[۷۹] (۱)-« صدّ» مبتدأ،« کفر» و« إخراج أهله» معطوف علیه، و« اکبر» خبرها و هو ما ذهب إلیه الطبرسی فی« مجمع البیان» و القرطبی فی تفسیر« الجامع».

[۸۰] (۲)- قدمنا بحثا مفصلا عن معنی« الفتنة» فی ذیل الآیة(۱۹۱) من هذه السورة المبحوثة.

[۸۱] (۱)- أشرنا إلی معنی« المرتد الفطری و الحلی» فی ذیل الآیة(۱۰۶) من سورة النحل، و سیأتی الکلام عنه فی ذیل الآیة(۸۹) من سورة آل عمران من هذا المجلد.

[۸۲] (۱)- بحار الأنوار: ج ۵ ص ۳۳۲.

[۸۳] (۲)- الزلزلة: ۷ و ۸.

[۸۴] (۳)- تجرید العقائد: ص ۳۲۷.

[۸۵] (۱)- الإسراء: ۳۴.

[۸۶] (۱)- النساء: ۱۰.

[۸۷] (۱)- البقرة: ۲۰۶.

[۸۸] (۱)- الدر المنثور: ج ۱ ص ۲۵۳.

[۸۹] (۲، ۳)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۱۰.

[۹۰] (۲، ۳)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۱۰.

[۹۱] (۴)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۱۶.

[۹۲] (۱)- جملة شرطیة، فیها محذوف و تقدیره« لا بأس به» أو« فلکم ذلک».

[۹۳] (۲)-« اعنتکم» من مادة« عنت» و فی الأصل بمعنی الوقوع فی أمر مخوف، و علی قول مقاییس اللغة أنه یعنی کلّ أمر شاق. و عبارة« فإخوانکم» بمثابة الدلیل علی ذلک.

[۹۴] (۱)- المائدة: ۵.

[۹۵] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن: ج ۱ ص ۳۴۴- ۳۴۶.

[۹۶] (۱)- مقتبس من إعجاز القرآن: ص ۵۵- ۵۶.

[۹۷] (۱)- الجملة الثانیة مفهوم الشرط، و الأول مفهوم الغایة.

[۹۸] (۱)- تأتی کلمة« حیث» بعنوان اسم مکان و اسم زمان، و لکن هنا تشیر إلی زمن جواز المقاربة الجنسیة أی زمن الطهر.

[۹۹] (۲)- آل عمران: ۳۷.

[۱۰۰] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۲۱.

[۱۰۱] (۲)- بحار الأنوار: ج ۱ ص ۲۹۴ ح ۴.

[۱۰۲] (۳)- المصدر نفسه ص ۲۹۳ ح ۱.

[۱۰۳] (۱)- ورد فی باب ۱۵ من سفر اللاویین من التوراة:« و إذا حاضت المرأة فسبعة أیّام تکون فی طمثها، و کلّ من یلمسها یکون نجسا إلی المساء، کل ما تنام علیه فی أثناء حیضها أو تجلس علیه یکون نجسا، و کلّ من یلمس فراشها یغسل ثیابه و یستحم بماء و

یکون نجسا إلی المساء ...» و أحکام اخری من هذا القبیل.

[۱۰۴] (۲)- مقتبس من تفسیر المیزان: ج ۲ ص ۲۰۸ ذیل الآیة مورد البحث، کتاب أنیس الأعلام: ج ۲ ص ۱۰۶ و ۱۰۷، و کذلک شرح المبسوطی مع ذکر المصادر.

[۱۰۵] (۱)- تحدّثنا تفصیلا عن حقیقة« التوبة» و شرائطها فی المجلد الثالث فی ذیل الآیة(۱۷) من سورة النساء، و فی المجلد ۱۴ ذیل الآیة(۵) من سورة النور.

[۱۰۶] (۱)- طبقا لهذا التفسیر« لا» مقدرة و فی الأصل« لئلا تبرو» و هذا المعنی مطابق تماما لشأن النزول و یحتمل أیضا أن« عرضة» بمعنی المانع یعنی لا تجعلوا القسم باللّه مانعا لأداء الأعمال الصالحة و الإصلاح بین الناس« بتقدیر: لا تجعلوا اللّه بسبب ایمانکم حاجزا أن تبروا و تتقوا» و لکنّ التوجیه الأوّل أنسب.

[۱۰۷] (۲)- الکافی حسب نقل تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۱۸ ح ۸۳۳، وسائل الشیعة: ج ۱۶ ص ۱۱۶ ح ۵.

[۱۰۸] (۳)- راجع نفس المصدر: ح ۸۳۲ و ۸۳۴، وسائل الشیعة: ج ۱۶ ص ۱۱۵ و ما بعد.

[۱۰۹] (۱)- کلمة« إیلاء» من مادة« الو» بمعنی القدرة و العزم، و بما أن القسم نموذج من هذا المعنی و لذا اطلق علی الطلاق.

[۱۱۰] (۱)- إذا جامع الرجل قبل الأربعة أشهر فإن الکفّارة واجبة علیه إجماعا و إذا جامع بعد الأربعة أشهر فإن هذا الحکم مشهور بین الفقهاء، رغم أن البعض أنکروا الکفّارة فی هذه الصورة.

[۱۱۱] (۲)- حقوق المرأة فی الإسلام و أوروبا.

[۱۱۲] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۳۰ و ۲۳۱.

[۱۱۳] (۲)- راجع قاموس اللّغة.

[۱۱۴] (۳)- لسان العرب: مادة« قرء».

[۱۱۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۲۶ فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۱۶] (۲)-« بعولة» جمع« بعل» بمعنی الزوج و یقول الراغب فی مفرداته بأن البعض یری إطلاقها علی الزوج و الزوجة.(تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۹۳) و قیل أن هذه المفردة تعطی معنی العلو و الأفضلیة.

[۱۱۷] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۲۷.

[۱۱۸] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن: ج ۱ ص ۳۶۰.

[۱۱۹] (۱)- غافر: ۴۰.

[۱۲۰] (۱)- النحل: ۹۵.

[۱۲۱] (۲)- المدّثر: ۲۸.

[۱۲۲] (۳)- فصّلت: ۴۶.

[۱۲۳] (۴)- النور: ۲.

[۱۲۴] (۵)- النساء: ۳۲.

[۱۲۵] (۶)- راجع مفردات الراغب، هذا طبعا حین تتقابل کلمتی: کسب و اکتساب.

[۱۲۶] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۲۹. و ورد هذا السبب فی تفسیر الکبیر، و القرطبی و روح المعانی أیضا فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۲۷] (۱)- تفسیر العیاشی: ج ۱ ص ۱۱۶.

[۱۲۸] (۱)- تفسیر الکبیر: ج ۹ ص ۹۹.

[۱۲۹] (۲)- المیزان: ج ۲ ص ۲۳۴ ذیل الآیة.

[۱۳۰] (۳)- و هو الطلاق الخلعی المشروح فی کتب الفقه.

[۱۳۱] (۱)- رسالة الإسلام: العدد الأول السنة ۱۱ ص ۱۰۸، نقلا عن هامش کنز العرفان: ج ۲ ص ۲۷۱.

[۱۳۲] (۱)- البقرة: ۱۸۷.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۰، مع التلخیص من سبب النّزول الوارد فی تفسیر روح المعانی، و القرطبی، و المراغی.

[۱۳۴] (۱)- تفسیر التکبیر: ج ۶ ص ۱۰۴.

[۱۳۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۳۳۱، و نقل هذا الحدیث تفسیر القرطبی و المنار و المراغی فی ذیل الآیة المبحوثة أیضا.

[۱۳۶] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۹۶۴، و مثله فی تفسیر المراغی: ج ۲ ص ۱۷۹.

[۱۳۷] (۲)- فعلی هـذا تکون جملـة« و ما نزل علیکم من الکتاب و الحکمة» عطف« نعمة اللّه» أو من قبیل عطف الخاصّ علی العامّ و فی هـذه الصورة یکون مفهوم« نعمـة اللّه» واسـعا حیث یشـمل جمیع النعم الإلهیّـة التی منها نعمـة المحبّـة و الألفـة التی جعلها اللّه بین الزوجین.

[۱۳۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۲. و نقل أکثر المفسّرین مثل: القرطبی، تفسیر الکبیر، روح المعانی، فی ظلال القرآن أحد سبب نزول أو کلاهما فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۳۹] (۱)- رجح البعض التفسیر الثانی لأن المخاطب فی الآیات السابقة هو الأزواج و لکنه یشکل بأن تعبیر« أزواجهن» یکون تعبیرا مجازیا بالنسبة إلی الأزواج مضافا إلی انه لا ینسجم مع شأن النّزول.

[۱۴۰] (۱)- وسائل الشیعة: ج ۱۵ ص ۱۷۷(باب أقلّ مـدّة الرضاع و أکثره) ج ۲ و ۵، و ورد فی بعض هـذه الروایات إذا نقص عن(۲۱) شهرا کان ظلما للرضیع.

[۱۴۱] (۱)- علی التفسیر الأوّل فعل« لا تضار» فعل معلوم، و علی التفسیر الثانی فعل مجهول و إن کان تلفظ الاثنین واحدا، تأمل جیدا.

[۱۴۲] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۳۶.

[۱۴۳] (۱)- الإسلام و عقائد الإنسان: ص ۶۱۷.

[۱۴۴] (۱)- المنار: ج ۲ ص ۴۲۲.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲، ص ۳۳۸.

[۱۴۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۳۲ ح ۹۰۵.

[۱۴۷] (۲)- الحدائق: ج ۲۴ ص ۹۰.

[۱۴۸] (۱)-« مس» فی اللغة بمعنی الملامسة، و هنا کنایة عن الجماع و« فریضة» بمعنی الواجب، و هنا جاءت بمعنی المهر.

[۱۴۹] (۱)- تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۱۳۷.

[۱۵۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۱] (۱)- الاسراء: ۱۰۰.

[۱۵۲] (۲)-« حقّا» یمکن أن تکون صـفة ل« متاعا»، أو حال أو مفعول مطلق لفعل محـذوف-« متاعا» مفعول مطلق أیضا عن جملة« و متعوهن».

[۱۵۳] (۱)- لا شکّ أنّ المهر لا یسـقط إن لم یـذکر فی العقد الدائم بل یعبر(مهر المثل) أی المهر الذی یعادل مهور نساء مماثلات إلّا إذا حصل الطلاق قبل الدخول عندئذ یتوجب تقدیم هدیّة کما ذکرنا.

[۱۵۴] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۲- و بنفس المضمون فی تفسیر« الدّر المنثور» فی ذیل الآیة المبحوثة حسب نقل المیزان.

[۱۵۵] (۱)- انظر الکتب الفقهیة للاستزادة.

[۱۵۶] (۲)- المشهور بین فقهاء الشیعة أن المراد منها« صلاة الظهر» بل ادعی الإجماع علی ذلک و من عدّة روایات معتبرة وردت فی کتاب وسائل الشیعة: ج ۳ ص ۱۴ الباب ۵ أو هناک قول شاذ و ضعیف بأن المراد منها صلاة العصر« و ذهب أغلب فقهاء أهل السنّة إلی هذا الرأی» و استدلوا علی ذلک بعدّة روایات ضعیفة السند و قد اعرض الأصحاب عنها(لمزید الإیضاح راجع الکتب الفقهیة).

[۱۵۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین.

[۱۵۸] (۲)- مجمع البیان، فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۵۹] (۳)- وسائل الشیعة: ج ۵، ص ۴۸۳ الباب ۳، الحدیث ۳ مع التلخیص و نقل الحدیث بالمعنی، و وردت أحادیث اخری بهذا المضمون فی هذا الباب.

[۱۶۰] (۱)- للاستزادة و معرفة فوائد الصلاة تراجع الآیة(۴۵) من سورة العنکبوت من هذا التفسیر.

[۱۶۱] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۵ ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۶۲] (۱)- الفخر الرازی: ج ۶ ص ۱۵۸.

[۱۶۳] (۱)- جواهر الکلام: ج ۳۱ ص ۵۸.

[۱۶۴] (۲)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۴۰ ح ۹۵۶ و ۹۵۷.

[۱۶۵] (۱)- المیزان: ج ۲ ص ۲۵۰- ۲۴۹.

[۱۶۶] (۲)- الملک: ۱۰.

[۱۶۷] (۳)- الحج: ۴۶.

[۱۶۸] (۱)- فی بعض الروایات أنّ حزقیل هو النبیّ الثالث بعد موسی علیه السّلام فی بنی إسرائیل.

[۱۶۹] (۲)- راجع التفاسیر: مجمع البیان، القرطبی، روح البیان، فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۷۰] (۱)- یس: ۸۲.

[۱۷۱] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۴۹.

[۱۷۲] (۲)- راجع تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۱۶۶.

[۱۷۳] (۱)- قال الراغب فی المفردات، فی مادة« ضعف»: قال البعض: ضاعفت أبلغ من ضعّفته.

[۱۷۴] (۱)- نهج البلاغة القسم الأخیر من الخطبة ۱۸۳.

[۱۷۵] (۱)- سوف نتطرّق قریبا إلی تاریخ هذا الصندوق و محتویاته.

[۱۷۶] (۱)- عن مجمع البیان و الدر المنثور و قصص القرآن باختصار.

[۱۷۷] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۳۵۰.

[۱۷۸] (۱)- روح المعانی و تفسیر الکبیر فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۷۹] (۲)- اعتبر صاحب« الکشّاف» طالوت اسما أعجمیا مثل: جالوت و داود، و قال الآخرون: إنّه اسم عربی مأخوذ من مادة« طول» و إشارة إلی طول قامة.(تفسیر الکبیر: ج ۶ ص ۱۷۲).

[۱۸۰] (۱)- جنود جمع جند فی الأصل بمعنی الأرض الکثیرة الأحجار و المتراکمة الصخور ثمّ أطلقت علی کلّ شیء متراکم و عادة تأتی بمعنی الجیش الکبیر، و عبارة« لم یطعمه» جاءت بدل کلمة لم یشربه و هی إشارة إلی أن الجنود لا ینبغی لهم أن یشربوا منه

بمقدار کف واحدة بل لا یذوقونه أیضا.

[۱۸۱] (۱)-« فئة» من« فیء» فی الأصل بمعنی الرجوع و بما أن کلّ جماعة تتعاضد فیما بینها و تعود أحدها علی الاخری بالعون و المساعدة أطلقت کلمة« فئة».

[۱۸۲] (۱)- لمزید من الاطلاع راجع الکتاب« الفرضیة الأخیرة فی التکامل».

[۱۸۳] (۱)- البقرة: ۲۰۸.

[۱۸۴] (۱)- النساء: ۴۱.

[۱۸۵] (۲)- البقرة: ۱۴۳.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ج ۲ ص ۳۶۰.

[۱۸۷] (۲)-« خلّة» مأخوذة من مادة« خلل» بمعنی الفاصلة بین شیئین و بما أن المحبّة و الصداقة تحل فی وجود الإنسان و روحه و تملأ الفواصل لذا أطلقت هذه المفردة علی الصداقة العمیقة.

[۱۸۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۲۶۰.

[۱۸۹] (۲)- تفسیر البرهان: ج ۲ ص ۲۴۵، بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۴، ج ۷(باب فضائل سورة یذکر فیها البقرة و آیة الکرسی) و لأجل الاطلاع أکثر راجع بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۲- ۲۷۲.

[۱۹۰] (۳)- بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۶ باب فضائل سورة البقرة ح ۱۱(بتلخیص).

[۱۹۱] (۱)- شرحنا معنی الأحلام فی سورة یوسف شرحا وافیا.

[۱۹۲] (۱)- وردت« ما» فی جملة(ما فی السموات و ما فی الأرض) للموجودات غیر العاقلة، و مع أن الموجودات العاقلة أیضا مملوکة للّه سبحانه جاءت« ما» للتغلیب لأن الغلبة الأکثریة للموجودات غیر العاقلة.

[۱۹۳] (۲)- تحدّثنا عن الشفاعة فی المجلد الأول الآیة(۴۸) من سورة البقرة بصورة مفصلة.

[۱۹۴] (۱)- فی المجلّد الأول من هذا التفسیر بحث واف تحت عنوان« القرآن و الشفاعة». راجع ص ۱۶۳ منه.

[۱۹۵] (۱)- ذهب أکثر المفسّرین إلی ان کلمة« علم» هنا بمعنی المعلوم. و هذا ما یتناسب مع معنی الآیة و من هنا تبعیضیة. مجمع البیان، تفسیر الکبیر، روح البیان، و القرطبی فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۹۶] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۵۹ ح ۱۰۳۹.

[۱۹۷] (۱)- المصدر السابق: ص ۲۶۰ ح ۱۰۴۲.

[۱۹۸] (۲)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۶۲.

[۱۹۹] (۱)- مستدرک سفینة البحار: ج ۹ ص ۹۷.

[۲۰۰] (۲)- بحار الأنوار: ج ۸۹ ص ۲۶۵.

[۲۰۱] (۳)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۶۱.

[۲۰۲] (۱)- تفسیر ابو الفتوح الرازی: ج ۲ ص ۳۲۷.

[۲۰۳] (۱)- المائدة: ۵۵.

[۲۰۴] (۱)- إن الاستدلال الثانی یبدأ بإلغاء و قد یکون إشارة إلی أن الاستدلال الثانی لا یعنی صرف النظر عن الاستدلال الأوّل بل تضاف إلیه.

[۲۰۵] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۷۰.

[۲۰۶] (۱)- تفسیر المنار و المراغی فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۰۷] (۱)- الضمیر فی« لم یتسنّه» مفرد و عائده مثّنی: الطعام و الشراب، و إنّما أفرد لقصد الجنس، فکلاهما من جنس واحد.

[۲۰۸] (۱)- الکشّاف: ج ۱ ص ۳۰۷.

[۲۰۹] (۱)- یوسف: ۵۱.

[۲۱۰] (۱)- البحر المحیط: ج ۲ ص ۳۰۰ ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۱۱] (۲)- تفسیر الکبیر: ج ۷ ص ۴۱.

[۲۱۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۷۸.

[۲۱۳] (۱)- انظر الآیات التی تشیر إلی أنّ اللّه یبعث من فی القبور.

[۲۱۴] (۱)-« الطبرسی» فی مجمع البیان بعد أن یذکر المفهوم الآیة معنا واسعا یقول: و هو المروی عن أبی عبد اللّه علیه السّلام.

[۲۱۵] (۱)-« منّ» بمعنی حجر المیزان المعروف ثمّ أطلقت علی النعم المهمّة التی یلاحظ فیها الجانب العملی« و منن اللّه تعالی من هذا القبیل» و إن کان الملحوظ فیها الجانب اللفظی کانت قبیحة جدّا و فی الآیة أعلاه وردت بهذا المعنی الثانی.

[۲۱۶] (۱)- تفسیر البرهان: ج ۱ ص ۲۵۳ ح ۱.

[۲۱۷] (۲)- تفسیر أبو الفتوح الرازی: ج ۲ ص ۳۶۴.

[۲۱۸] (۱)- ذکره فی تفسیر« البحر المحیط»: ج ۲ ص ۳۰۷ بعنوان: قیل.

[۲۱۹] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۷۵، نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۸۳.

[۲۲۰] (۱)- صفوان: جمع مفرده صفوانة، و تعنی الصخرة الصافیة. و الوبل: هو المطر الشدید الکبیر و الصلد:

بمعنی الحجر الأملس. و ضعفین: تثنیة الضعف و لکنه لا یعنی أربع مرّات بل مرّتین مثل زوجین التی تعنی طرفین، تأمّل بدقّة.

[۲۲۱] (۱)-« الإعصار» ریح تثیر الغبار، و هی تهبّ من اتجاهین مختلفین، بحیث إنّها تتجه من الأرض عمودیا إلی السماء.

[۲۲۲] (۱)- تفسیر مجمع البیان للطبرسی.

[۲۲۳] (۱)-« یتمم» فی الأصل بمعنی القصد أی شیء و جاءت هنا بهذا المعنی و أطلقت هذه الکلمة علی التیمم لأن الإنسان یقصد الاستفادة من التراب الطاهر کما یقول القرآن\:i فَتَیَمَّمُوا صَعِیداً طَیِّباً\E(النساء: ۴۳).

[۲۲۴] (۱)- تفسیر روح البیان: ج ۱ ص ۴۳۱ ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۲۵] (۱)- نهج البلاغة: الکلمات القصار: رقم ۲۵۸.

[۲۲۶] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۱۱۳۸.

[۲۲۷] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۸۴ نقلا عن علی بن إبراهیم: ج ۱ ص ۹۳.

[۲۲۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۸۵.

[۲۲۹] (۲)- المصدر السابق.

[۲۳۰] (۱)- سوف تأتی هذه المسألة مفصلا فی ذیل الآیة(۳۰) من سورة آل عمران و فی هذا المجلد بالذات.

[۲۳۱] (۱)- طه: ۵۰.

[۲۳۲] (۲)- البقرة: ۲.

[۲۳۳] (۳)- العنکبوت: ۶۹.

[۲۳۴] (۴)- محمّد: ۵.

[۲۳۵] (۱)- مجمع البیان، أبو الفتوح الرازی، البحر المحیط، القرطبی، روح المعانی، و تفاسیر اخری و مع تفاوت فی العبارات.

[۲۳۶] (۱)- فی ظلال القرآن: ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۳۷] (۲)-« حصر» بمعنی الحبس و المنع و التضییق و جاءت هنا بمعنی جمیع الأمور التی تمنع الإنسان من تأمین معاشه.

[۲۳۸] (۱)- قیل أنها من مادة« وسم»، و قیل أنها من مادة« سوم».

[۲۳۹] (۲)-« الحاف» من مادة« لحاف» بمعنی الغطاء المعروف، و اطلق علی الإصرار فی السؤال لأنّه یغطی قلب الشخص المقابل.

[۲۴۰] (۱)- تفسیر المراغی: ج ۳ ص ۵۰.

[۲۴۱] (۲)- وسائل الشیعة: ج ۸ ص ۲۸۱ کتاب الشهادات ب ۳۵.

[۲۴۲] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۹۰ و ۲۹۱. ورد مضمون هذا الحدیث فی کتب تفسیر أهل السنّة أیضا، و ینقله صاحب(الدر المنثور) عن ابن عساکر و الطبرانی و أبی حاتم و ابن جریر و غیرهم. و یری البعض أن علماء الشیعة بالاتفاق و أکثر علماء السنّة ذهبوا إلی أنّ هذه الآیة نزلت فی علی بن أبی طالب علیه السّلام و فی علماء السنّة، الواحدی، ثعلبی، الخوارزمی، السدّی، العکبی، الزمخشری، الکافی، القشیری، الحاوردی، ابن المغازلی، ابن أبی الحدید، و غیرهم، و راجع تفسیر البرهان.

[۲۴۳] (۱)- الروم: ۳۹.

[۲۴۴] (۱)-« یتخبّطه» من مادة« الخبط» هو فقدان توازن الجسم عند المشی أو القیام.

[۲۴۵] (۱)- تفسیر العیاشی: ج ۱ ص ۱۵۲ ح ۵۰۳.

[۲۴۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۲۹۱ ح ۱۱۵۷.

[۲۴۷] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۱۶۹، هنا ذکر أربع تفاسیر، و فی مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث و ذکرت احتمالات عدیدة اخری أیضا.

[۲۴۸] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم: ج ۱ ص ۹۳.

[۲۴۹] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۳۹۲، و الدر المنثور: ج ۲ ص ۱۰۹ مع تفاوت یسیر.

[۲۵۰] (۲)- الدر المنثور: ج ۲ ص ۱۰۸- ۱۰۷.

[۲۵۱] (۱)- الحجرات: ۹.

[۲۵۲] (۲، ۳)- وسائل الشیعة: ج ۱۲ ص ۴۳۹ باب ثبوت القتل و الکفر باستحلال الربا ح ۱.

[۲۵۳] (۲، ۳)- وسائل الشیعة: ج ۱۲ ص ۴۳۹ باب ثبوت القتل و الکفر باستحلال الربا ح ۱.

[۲۵۴] (۴)- فسّر« فأذنوا» ب« فاعلموا» غالبا من قبل المفسّرین أمثال: الطبری فی مجمع البیان، أبو الفتوح الرازی، الفخر الرازی، الآلوسی فی روح المعانی، العلّامة الطباطبائی فی المیزان ... و غیرهم.

[۲۵۵] (۱)- یحتمل أن تکون(کان) فی الجملة أعلاه تامّة حیث لا تحتاج إلی خبر أو ناقصة و یکون التقدیر« إن کان هناک ذو عسرة».

[۲۵۶] (۱)- وسائل الشیعة: ج ۱۲، أبواب الربا، الباب ۱، ص ۴۲۲.

[۲۵۷] (۱)- و طبعا یستفاد من بعض الأحکام ضمنا« و لیس بالدلالة المطابقیة» أنه لو أضیفت تلک الأحکام إلی الأحکام التسعة عشر المذکورة لبلغت أکثر من واحد و عشرین حکما.

[۲۵۸] (۱)-« و لیملل» من مادة« ملة» بمعنی الدین و الأحکام الإلهیة و قال بعض أنها من مادة« ملال» و بما أن فی الملاء هناک تکرار مملل أطلقت هذه الکلمة علیه(تارة بصورة إملاء و اخری بصورة املال).

[۲۵۹] (۱)- قال بعض ان التفاوت بین« شاهد» و« شهید» هو أن الشاهد یقال لمن حضر الواقعة حتّی یمکنه أن یشهد علیها و الشهید هو الذی یؤدی الشهادة.

[۲۶۰] (۱)- تقدیم« الصغیر» علی« الکبیر» من أجل أن الناس عادة یهملون المعاملات الصغیرة أو لا یلتزمون بکتابتها و هذا یؤدی إلی

التنازع أو أنه یحتمل أن الناس یظنون أن کتابة المعاملات الصغیرة دلیل علی البخل، و لذلک تعرض القرآن لنفیه.

[۲۶۱] (۱)- تفسیر القمی: ج ۱ ص ۹۴.

[۲۶۲] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی: ج ۲ ص ۴۲۰، و تفسیر المراغی ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۶۳] (۲)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۰۱.

[۲۶۴] (۳)- لتوضیح معنی القلب انظر الجزء الأوّل ص ۷۲.(المراد من القلب فی القرآن هو الروح و العقل).

[۲۶۵] (۱)- وسائل الشیعة: ج ۱ ص ۳۳.

[۲۶۶] (۱)- اقتباس من(البحر المحیط): ج ۲ ص ۳۶۳.

[۲۶۷] (۱)- جملة« و المؤمنون» یمکن أن تکون جملة مستأنفة کما ذکر فی التفسیر أعلاه و یمکن أن تکون معطوفة علی(الرسول) و لا یختلف المعنی کثیرا و إن کان المعنی الأول أنسب.

[۲۶۸] (۲)- النساء: ۱۵۰.

[۲۶۹] (۱)- ذهب کثیر من المفسّرین إلی أن فی الجملة الأخیرة فعل محذوف و تقدیره(نسألک) أو(نرید غفرانک).

[۲۷۰] (۱)- السجدة: ۱۴.

[۲۷۱] (۱)- بحار الأنوار: ج ۶۵ ص ۳۱۹ ط بیروت، و ورد مثله فی فروع الکافی: ج ۵ ص ۴۹۴ باب کراهة الرهبانیة.

[۲۷۲] (۲)- الأنعام: ۱۴۶، النساء: ۱۶۰.

[۲۷۳] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۴۰۵.

[۲۷۴] (۲)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۰۹.

[۲۷۵] (۳)- تشیر الآیة(۱۳) إلی« غزوة بدر» و من آیة(۱۲۱) إلی(۱۲۸) تشیر إلی غزوة بدر و احد، ثمّ تعقب فی الآیات(۱۳۹) إلی(۱۴۴) إلی نفس المسألة و کذلک الآیات الاخری.

[۲۷۶] (۱)-« نجران» منطقة فی جبال الیمن الشمالیة علی بعد نحو عشرة منازل من صنعاء، و تسکنها قبائل همدان التی کان لها فی الجاهلیة صنم باسم« یعوق». و یقول یاقوت الحموی فی معجم البلدان: نجران اسم لعدد من المواضع.

[۲۷۷] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۲۷۸] (۱)- مع الأسف أن هذا العالم الذی یعیش فی أمریکا، وقع تحت تأثیر المحیط الفاسد هناک و قد أنکر بصراحة بعض المسائل و الأحکام الإسلامیة المسلمة ما دعا ادعاءات باطلة.

[۲۷۹] (۱)- البقرة: ۲.

[۲۸۰] (۱)- انظر الجزء الأول ص ۱۴۶ فی تفسیر الآیة ۴۰ من سورة البقرة، شرح(مصدّقا لما بین یدیه).

[۲۸۱] (۲)- ذکر بعض المفسّرین أن« ذو» لها معنا أقوی من« صاحب» و لذلک لا نجد فی صفات اللّه أنها تذکر معنی کلمة صاحب بل تذکر دائما مع کلمة« ذو» البحر المحیط: ج ۲ ص ۳۷۹.

[۲۸۲] (۱)- انظر« الهدی إلی دین المصطفی» و« الرحلة المدرسیة».

[۲۸۳] (۱)- متّی: علی وزن حتّی، بمعنی عطاء اللّه.

[۲۸۴] (۲)- کتاب القاموس المقدّس: ص ۷۸۲.

[۲۸۵] (۳)- مرقس: علی وزن قنفذ، و قیل علی وزن أسهم، جمع سهم.

[۲۸۶] (۴)- القاموس المقدّس: ص ۹۶۶.

[۲۸۷] (۱)- الأنفال: ۴۱.

[۲۸۸] (۲)- البقرة: ۵۳.

[۲۸۹] (۱)- العلم الحضوری: یعنی أن یکون المعلوم ذاته حاضرا عند العلم. أمّا فی العلم الحصولی فإنّ الحاضر عند العالم هو صورة المعلوم و رسمه، فمثلا أنّ علمی بنفسی علم حضوری لأنّ نفسی ذاتها حاضرة فی نفسی، أمّا بالنسبة للموجودات الأخری فعلمنا بها حصولی، لأنّ صورتها فقط هی الحاضرة فی أذهاننا.

[۲۹۰] (۱)- ج ۱ ص ۳۱۳.

[۲۹۱] (۱)-« زیغ» فی الأصل. بمعنی الانحراف عن الخط المستقیم و التمایل إلی جهة، و الزیغ فی القلب بمعنی الانحراف العقائدی عن صراط المستقیم.

[۲۹۲] (۲)- سورة الإخلاص: ۱.

[۲۹۳] (۳)- الشوری: ۱۱.

[۲۹۴] (۴)- الزمر: ۲۶.

[۲۹۵] (۵)- النساء: ۱۱.

[۲۹۶] (۱)- ذکر« الطبرسی» فی مجمع البیان خمسة تفاسیر لذلک، و ذکر« الفخر الرازی» أربعة أقوال و« العلّامة» فی المیزان ستة عشر قولا و فی« البحر المحیط» عشرین قولا تقریبا عن تفسیرها.

[۲۹۷] (۲)- الفتح: ۱۰۰.

[۲۹۸] (۳)- البقرة: ۲۲۴.

[۲۹۹] (۴)- الأنبیاء: ۴۷.

[۳۰۰] (۱)- الفتح: ۱۰.

[۳۰۱] (۲)- طه: ۵.

[۳۰۲] (۳)- القیامة: ۳.

[۳۰۳] (۱)- مستدرک الحاکم: ج ۳ ص ۱۴۸.

[۳۰۴] (۱)- سورة الکهف: ۸۲.

[۳۰۵] (۲)- سورة یوسف: ۱۰۰.

[۳۰۶] (۱)- النساء: ۱۶۲.

[۳۰۷] (۲)- تفسیر العیّاشی: ج ۱ ص ۱۶۴.

[۳۰۸] (۳)- اصول الکافی: ج ۱ ص ۲۱۳.

[۳۰۹] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة ۹۱.

[۳۱۰] (۲)- انظر تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۱۵.

[۳۱۱] (۱)- تفسیر الصافی فی تفسیر الآیة.

[۳۱۲] (۱)- سبق أن قلنا إنّ« الوقود» هو ما تشتعل به النار کالحطب، لا ما تشتعل به النار کالکبریت.

[۳۱۳] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ ص ۴۱۳.

[۳۱۴] (۱)-« مهاد» بمعنی المکان المهیأ، کما یقول الراغب، و هی فی الأصل من مادة(مهد) و هو محل استراحة الطفل.

[۳۱۵] (۱)- ما ذکر أعلاه ورد فی مجمع البیان و لکن ورد فی« الکامل» لابن الأثیر: ج ۳ ص ۱۳۶ أنه« و کان جمیع من قتل من المسلمین ببدر أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرین و ثمانیة من الأنصار».

[۳۱۶] (۱)- هـذا التفسـیر یعتمـد علی إرجاع الضـمیر فی« یرون» إلی الکفّار، و الضـمیر« هم» إلی المسـلمین. و هـذا أوضح التفاسـیر العدیدة للآیة.

و سنشرح معرکة بدر شرحا وافیا عند تفسیر الآیات ۴۱- ۴۵ من سورة الأنفال.

[۳۱۷] (۱)- تفسیر القرطبی: ج ۲ ص ۱۲۶۸.

[۳۱۸] (۱)-« عبرة» فی الأصـل من مادة« عبور» بمعنی الانتقال من مرحلـة إلی اخری أو من مکان إلی آخر و یقال لـدمع العین« عبرة» علی وزن« حسـرة» لأـنه یعبر من العین، و یقـال للکلمات التی تمر من خلال اللسان و الاذن« عبارات» أیضا و کـذلک یقال للحوادث« عبرة» لأجل أن الإنسان عند ما یراها یعلم بمخلفاتها من الحقائق.

[۳۱۹] (۱)- الشهوات: جمع شهوة، أی حبّ شیء من الأشیاء حبّا شدیدا، و لکنها فی هذه الآیة بمعنی المشتهیات.

[۳۲۰] (۲)- الکهف: ۷.

[۳۲۱] (۱)-« قانتین» من مادة« قنوت» بمعنی الخضوع امام اللّه و أیضا بمعنی المداومة علی الطاعة و العبودیة.

[۳۲۲] (۱)- تفسیر البرهان: ج ۱ ص ۲۷۳.

[۳۲۳] (۱)- الأحزاب: ۵۶.

[۳۲۴] (۱)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۲۱.

[۳۲۵] (۱)- نهج البلاغة: قصار الکلمات، ۱۲۰، اصول الکافی: ج ۲ ص ۴۵ مع تفاوت یسیر.

[۳۲۶] (۱)- انظر تفسیر الآیة ۲۰۲ من سورة البقرة بشأن معنی« سریع الحساب».

[۳۲۷] (۱)- انظر تفسیر الآیة ۲۱۷ من سورة البقرة بخصوص« حبط».

[۳۲۸] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ج ۲ ص ۴۲۳.

[۳۲۹] (۱)- فی التوراة الموجودة حالیّا، فی سـفر اللاویّین فی الفصل العشـرین، الجملة العاشـرة نقرأ ما یلی:« إذا زنا أحد بامرأة غیره، أی بـامرأة جـاره(مثلاـ) یجب قتـل الزانی و الزانیـة». علی الرغم من أنّ الرجم نفسه لم یرد، فقـد ورد العقـاب بـالموت، و ربمـا یکون التصریح بالرجم قد ورد فی النسخة التی کانت موجودة علی عهد رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلم.

[۳۳۰] (۱)- إرشاد المفید: نقلا عن تفسیر المیزان.

[۳۳۱] (۱)- الحدید: ۱۳.

[۳۳۲] (۲)- البحار: طبعة کمبانی: ج ۳ ص ۲۵۷.

[۳۳۳] (۱)- اکتشـف العلمـاء جهـاز تصویر یعمـل بالأشـعة مـا تحت الحمراء تسـتطیع أن تصوّر حـدثا لم یمض علیه أکـثر من بضـع لحظـات، إنّ الجهـاز یعمـل وفق نظـام حراری یجتـذب الأمواج الصادرة عن الأجسام، و یحوّلها بوساطـة جهاز یـدعی« ثرموجرام» إلی سالب و موجب، ثمّ یصوّرها بالأسود و الأبیض- کما ذکرت وسائل الإعلام- و بهـذا یمکن- أن نعرف کیفیـة وقوع جریمـة و تصویر أعمال المجرمین السابقة ثمّ عرضها علیهم و کشف کذبهم.

[۳۳۴] (۱)-« الذریـة» أصـلها الصـغار من الأولاد. و قد یشـمل الأبناء الصـغار و الکبار أیضا بلا واسـطة أو مع الواسـطة، و الکلمة من(الذرء)، بمعنی الخلق و الإیجاد.

[۳۳۵] (۱)- تفیـد بعض الأحادیث أنّ« عمران» کان نبیّا و یوحی إلیه. و عمران هـذا غیر عمران والد موسـی، إذ بینهما ۱۸۰۰ سنة من الزمان.(مجمع البیان- و تفسیر المراغی، ذیل الآیة مورد البحث).

[۳۳۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۳۶.

[۳۳۷] (۱)- تفسیر العیّاشی: ج ۱ ص ۱۷۲.

[۳۳۸] (۱)- نهج البلاغة: الکلمات القصار: ۲۸.

[۳۳۹] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۳۶، و البحار: ج ۱۰ ص ۲۴.

[۳۴۰] (۲)- البقرة: ۴۷.

[۳۴۱] (۱)- یس: ۸۲.

[۳۴۲] (۲)- الکهف: ۱۰۹.

[۳۴۳] (۱)-« الکهولة» هی متوسط العمر، و قیل إنّها الفترة ما بین السنة الرابعة و الثلاثین حتّی الحادیة و الخمسین، و ما قبلها« شاب» و ما بعدها« شیخ».

[۳۴۴] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۴۳.

[۳۴۵] (۲)- بحار الأنوار: ج ۱۱ ص ۳۲ الطبعة الجدیدة.

[۳۴۶] (۱)-« أکمه» قیل أنه یعنی أعمی، و ذهب بعض إلی أنه العشو اللیلی، و لکن اغلب المفسّرین و أرباب اللغة ذهبوا إلی أنه یعنی الأعمی منذ الولادة. و بعض ذهب إلی أکثر من ذلک بأن المراد هو عدم وجود أصل العین.

[۳۴۷] (۱)- مریم: ۳۰.

[۳۴۸] (۱)- التعبیر ب« أحسّ» مع أن الکفر أمر باطنی لا یدرک بالحواس قد یکون أن إصرارهم علی الکفر بلغ مرتبة من الشدّة و کأنه أصبح محسوسا(المیزان- ذیل الآیة مورد البحث).

[۳۴۹] (۱)- انظر الآیة ۳۰ من سورة الأنفال، أو الآیة ۵۰ من سورة النمل و غیرهما.

[۳۵۰] (۱)- فاطر: ۴۳.

[۳۵۱] (۱)- إنجیل مرقس الباب ۶- إنجیل متی الباب ۲۸- إنجیل لوقا الباب ۲۴- إنجیل یوحنا الباب ۳۱.

[۳۵۲] (۱)- الأنعام: ۶۰.

[۳۵۳] (۱)-« مباهلة» فی الأصل من مادة« بهل»(علی وزن اهل) بمعنی اطلاق و فک القید عن الشیء و بذلک یقال للحیوان الطلق حیث لا توضع محالبها فی کیس کی یستطیع ولیدها أن یرضع بسهولة یقال له:« باهل»، و« ابتهال» فی الدعاء بمعنی التضرع و تفویض الأمر إلی اللّه.

و إذا فسّروها بمعنی الهلاک و اللعن و البعد عن اللّه کذلک بسبب ترک العبد طلقا و حرا فی کلّ شیء تترتب علیه هذه النتائج، هذا معنی« المباهلة» لغة.

امّا مفهوما ما هو المعروف نزول هذه الآیة، بمعنی الملاعنة بین الشخصین، و لذا یجتمع أفراد للحوار حول مسألة دینیة مهمّة فی مکان واحد و یتضرعون اللّه أن یفضح الکاذب و یعاقبه.

[۳۵۴] (۱)- مجمع البیان، ورد سبب نزول هذه الآیات فی تفاسیر اخری مع تفاوت یسیر مثل: تفسیر أبو الفتوح الرازی و تفسیر الکبیر و غیرها، و ادّعی الفخر الرازی أن هذه الروایات متفق علیها عند علماء التفسیر و الحدیث.

[۳۵۵] (۱)- نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۴۹، البرهان: ج ۱ ص ۲۹۰، تفسیر العیّاشی: ج ۱ ص ۱۷۷، البحار: ج ۲۰ ص ۵۲ و ج ۶ ص ۶۵۲ الطبعة الجدیدة.

[۳۵۶] (۱)- آل عمران: ۱۷۳.

[۳۵۷] (۲)- آل عمران: ۱۸۱.

[۳۵۸] (۳)- النحل: ۱۲۰.

[۳۵۹] (۱)- القصص: ۱۱.

[۳۶۰] (۱)- مجمع البیان: ذیل الآیة المذکورة. تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۳۵۲.

[۳۶۱] (۱)- المقوقس: حاکم مصر من قبل هرقل ملک الروم، و کان نصرانیا.

[۳۶۲] (۲)- الأقباط: أقوام کانت تقطن مصر.

[۳۶۳] (۳)- مکاتیب الرسول: ج ۱ ص ۹۷.

[۳۶۴] (۱)- مکاتیب الرسول: ج ۱ ص ۱۰۰.

[۳۶۵] (۲)- الأریسیون: هم العنصر الرومی و العمال.

[۳۶۶] (۱)-« طائفة» من مادة الطواف. بمعنی الحرکة حول الشیء. و بما أن الناس کانوا فی السابق یسافرون بشکل جماعات لاحراز الأمان أطلقت هذه الکلمة علیها، ثمّ استعملت فی کل فئة و جماعة.

[۳۶۷] (۲)-« لو» فی جملة(لو یضلّونکم) بمعنی(أن) المصدریة، و بما أن(لو) تعطی معنی التمنی جاءت فی هذه الجملة بدل(أن) لیکون التعبیر أبلغ.

[۳۶۸] (۱)- جملة« تشهدون» تعنی العلم و المعرفة وفقا للتفسیر أعلاه، کما ورد فی مجمع البیان و غیره- و هذا العلم ناشئ من اطلاعهم علی أوصاف النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم الواردة فی التوراة و الإنجیل، و لکن البعض یری أن المراد بالعلم هنا هو کفایة المعجزات لإثبات نبوة نبی الإسلام. و ذهب آخرون إلی أن المراد تنکرون بها فی الظاهر، و لکن فی جلساتکم الخاصّة تشهدون بصدق دعوة نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و حقانیته.

[۳۶۹] (۱)- فی تفسیر الآیة ۴۲ من سورة البقرة المشابهة لهذه الآیة تحدّثنا عن هذا الموضوع- انظر الجزء الأوّل-.

[۳۷۰] (۱)- جملة« و لا تؤمنوا» تعنی انکم لا تصدقوا ان ینزل کتاب سماوی علی احد کما نزل علیکم.

[۳۷۱] (۱)-« فضل» بمعنی کلّ شیء زاد عن المقدار اللازم من المواهب و النعم، و هو معنی إیجابی و ممدوح. و لکن تارة یستبطن معنی مذموما و سلبیا، و ذلک عند ما یأتی بمعنی الخروج عن حدّ الاعتدال. و المیل إلی الإفراط، و یأتی غالبا بصیغة(فضول) جمع(فضل) کما فی قولهم(فضول الکلام).

[۳۷۲] (۱)- الأوقیة تساوی ۱/ ۱۲ من الرطل و یساوی ۷ مثاقیل، جمعها: أواق.

[۳۷۳] (۱)- بشأن معنی قنطار انظر تفسیر الآیة ۱۴ من هذه السورة.

[۳۷۴] (۱)- أمالی الصدوق: ص ۱۴۹.

[۳۷۵] (۱)- مشکاة الأنوار: عن سفینة البحار.

[۳۷۶] (۲)- الأعراف: ۱۷۲.

[۳۷۷] (۳)- الأعراف: ۴۴.

[۳۷۸] (۱)-« خلاق» من مادة« خلق» بمعنی النصیب و الفائدة. و ذلک لأن الإنسان یحصل علیها بواسطة أخلاقه(و هو إشارة إلی أنهم یفتقدون الأخلاق الحمیدة التی تؤهلهم للانتفاع فی ذلک الیوم).

[۳۷۹] (۱)- فی القراءة المعروفة التی اعتمدتها طبعة القرآن السائده، تأتی« و لا یأمرکم» فی حالة نصب- بفتح الراء- و هی معطوفة علی« أی یؤتیه اللّه» فی الآیة السابقة. و« لا» توکید ل« ما» النافیة فی الآیة السابقة. و علیه تکون الآیة بهذا المعنی: و ما کان لبشر أن یأمرکم أن تتّخذوا الملائکة و النبیّین أربابا.

[۳۸۰] (۱)- الإصر: العهد المؤکّد الذی یستوجب نقضه العقاب الشدید.

[۳۸۱] (۱)- التفسیر الکبیر: ج ۸ ص ۱۲۳.

[۳۸۲] (۱)- فی« لما آتیتکم» یعتبر بعضهم« ما» موصولة و مبتدأ، و اللام موطئة للقسم، و جملة« لتؤمننّ به» خبر.

و قال فریق آخر« ما» شرطیة زمانیة و جزاؤها« لتؤمننّ به و لتنصرنّه». و هذا الاحتمال الثانی أقرب إلی معنی الآیة.

[۳۸۳] (۱)- تفسیر الدر المنثور: ج ۲ ص ۴۸، نقلا عن معجم الأوسط: ج ۸ ص ۲۹۶ حدیث ۷۶۰۷.

[۳۸۴] (۱)- مجمع البیان: ج ۱ و ۲ ص ۴۷۱.

[۳۸۵] (۱)- طه: ۸۲.

[۳۸۶] (۱)- مجمع البیان و صحیح مسلم و البخاری کتاب التفسیر باب ما جاء فی سورة آل عمران، و یرحاء موضع کان لأبی طلحة بالمدینة.

[۳۸۷] (۲)- مجمع البیان: ج ۲ ص ۴۷۴.

[۳۸۸] (۱)- راجع تفسیر أبی الفتوح الرازی ج ۳ ص ۱۵۷ فی تفسیر الآیة.

[۳۸۹] (۱)- إسرائیل هو الاسم الآخر لیعقوب.

[۳۹۰] (۲)- عرق النساء ألم عصبی یمتد علی مسار العصب الورکی من الالیة إلی معصم القدم و یشتد هذا الألم جدا إذا ما ثنیت الساق الممتدة عند مفصل الحوض(الموسوعة العربیة المیسرة).

[۳۹۱] (۱)- جملة« و ما کان من المشرکین» جاءت فی آل عمران ۶۷- ۹۵ و الأنعام ۱۶۱ و النحل ۱۲۴ و البقرة ۱۳۵.

[۳۹۲] (۱)- للوقوف علی معلومات أکثر حول مصادر و نصوص هذا الموضوع من الآیات و الأحادیث راجع الجزء الأول من هذا التفسیر فی ذیل الآیة ۱۲۷ من سورة البقرة.

[۳۹۳] (۱)- أمثال رشید رضا مؤالف المنار.

[۳۹۴] (۱)- کل زاویة من زوایا الکعبة- الأربعة یسمی رکنا.

[۳۹۵] (۲)- یقع الحطیم بین الحجر الأسود و باب الکعبة المعظمة، و إنما سمی بالحطیم إما لکثرة ازدحام الناس و الطائفین فیها، و هو موضع توبة آدم، و إما لکونه موضع غفران الذنوب، و غفرانها بمنزلة تحطیمها.

[۳۹۶] (۳)- حجر إسماعیل هو محل بنی فیه جدار هلالی الشکل عند الضلع الشمالی الغربی من الکعبة.

[۳۹۷] (۴)- راجع کتاب فروع الکافی کتاب الحجّ باب حد موضع الطواف.

[۳۹۸] (۱)- إبراهیم: ۳۵.

[۳۹۹] (۱)- یستفاد من بعض الروایات أن تشریع هذه الفریضة فی الإسلام کان فی السنة العاشرة من الهجرة و أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أمر جماعة- فی تلک السنة- أن یؤذنوا فی الناس بالحجّ، و یهیئوا الناس لأداء هذه الفریضة، و إن کان النبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم و جماعة من صحبه قد سبق لهم أن أتوا بالعمرة قبل ذلک أیضا.

[۴۰۰] (۱)- التهذیب بناء علی نقل تفسیر الصافی فی ذیل هذه الآیة.

[۴۰۱] (۱)- من لا یحضره الفقیه: ج ۴ ص ۳۶۸ باب النوادر.

[۴۰۲] (۱)- من کتاب عذر تقصیر به پیشگاه محمّد و قرآن(بالفارسیة) ص ۷۷.

[۴۰۳] (۲)- الإسلام و العلم الحدیث ص ۳۳، و المخططات الاستعماریة لمکافحة الإسلام للصواف ص ۳۸.

[۴۰۴] (۱)- حضارة العرب لغوستاف لوبون.

[۴۰۵] (۲)- لمحات من تاریخ العالم ص ۲۳- ۲۴.

[۴۰۶] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی ج ۲ ص ۴۵۰ نقلا عن البخاری کتاب المظالم باب ۵.

[۴۰۷] (۲)- المصدر السابق.

[۴۰۸] (۳)- المصدر السابق.

[۴۰۹] (۱)- راجع سنن الترمذی: ج ۴ کتاب الفتن الباب ۱۲ و مسند أحمد: ج ۴ ص ۲۶۸.

[۴۱۰] (۲)- وسائل الشیعة: ج ۱۱ کتاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر ص ۳۹۵.

[۴۱۱] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۲] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۳] (۱، ۲، ۳)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۱۴] (۴)- نهج البلاغة قصار الکلم، الکلمة رقم ۳۷۴.

[۴۱۵] (۱)- المنار: ج ۴ ص ۳۳- ۳۴.

[۴۱۶] (۱)- نقلت هذه الروایة بطرق مختلفة عن الشیعة و السنة و أما کتب الشیعة التی نقلت هذه الروایة فهی: الخصال، و معانی الأخبار، و الإحتجاج، و أمالی الصدوق، و أصل سلیم بن قیس، و تفسیر العیاشی، و أما الکتب السنیة فهی الدرّ المنثور، و جامع الأصول، و الملل و النحل.

[۴۱۷] (۱)- یونس: ۲۷.

[۴۱۸] (۲)- الزمر: ۶۰.

[۴۱۹] (۱)- الآناء جمع أنا(علی وزن وفا) و أنا(علی وزن غنا) بمعنی الأوقات.

[۴۲۰] (۱)- الشعراء: ۸۸ و ۸۹.

[۴۲۱] (۱)-« البطانة» مأخوذة من بطانة الثوب، و هی الوجه الذی یلی البدن لقربه منه، و نقیضها« الظهارة» و البطانة فی المقام کنایة عن خاصة الرجل الذین یستبطنون أمره و یطلعون علی أسراره.

[۴۲۲] (۲)-« الخبال» فی الأصل بمعنی ذهاب شیء، و هی تطلق فی الأغلب علی الأضرار التی تؤثر علی عقل الإنسان و تلحق به الضرر.

[۴۲۳] (۱)- نهج البلاغة- الحکمة ۲۶.

[۴۲۴] (۱)- السیرة الحلبیة المجلد الثانی الصفحة ۲۳۳.

[۴۲۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان المجلد الأول الصفحة ۴۹۷.

[۴۲۶] (۱)-« بدر» سمیت بدر لأن الماء کان لرجل من جهینة اسمه بدر(مجمع البحرین).

و بدر من حیث اللغة یعنی الممتلی الکامل. و لهذا سمی القمر إذا امتلأ: بدرا.

[۴۲۷] (۲)-« الفور» السرعة التی تقلب المعادلات کما یفور القدر و تتقلب محتویاتها بسرعة.

[۴۲۸] (۱)- فإذا کان أصل المبلغ المدفوع إلی المدیون أول مرّة هو(۱۰۰) و الزیادة المفروضة(۱۰) فإذا تخلف عن الأداء ضمت الزیادة(۱۰) إلی المبلغ(۱۰۰) فیکون رأس المال(۱۱۰) و أضیفت إلی المجموع زیادة بنسبة(۱۱٪) فإذا تخلف عن الأداء ثانیا، ضمت الزیادة(۱۱) إلی(۱۱۰) فکان المجموع(۱۲۱) و هکذا فصاعدا.

[۴۲۹] (۱)- راجع الآیات التالیة: التوبة: ۸۹، التوبة: ۱۰۰، الفتح: ۶، البقرة: ۲۴، آل عمران: ۱۳۱، آل عمران: ۱۳۳، الحدید: ۲۱.

[۴۳۰] (۱)- لا بد من الانتباه إلی أن الجنة المبحوث عنها هنا و التی ترتبط بالعالم الآخر هی غیر الجنة التی أسکن آدم و حواء فیها و کانت قبل خلقهما.

[۴۳۱] (۱)- راجع تفسیر الدر المنثور، و نور الثقلین فی ذیل هذه الآیة.

[۴۳۲] (۱، ۲)- تفسیر العیاشی فی ذیل الآیة.

[۴۳۳] (۱، ۲)- تفسیر العیاشی فی ذیل الآیة.

[۴۳۴] (۱)- النمل: ۷۱.

[۴۳۵] (۲)- الحج: ۴۶.

[۴۳۶] (۳)- العنکبوت: ۲۰.

[۴۳۷] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة ۱۹۲.

[۴۳۸] (۱)-« الأیام» جمع یوم یعبر به عن وقت طلوع الشمس إلی غروبها، و قد یطلق علی فترات الانتصارات الکبری فی حیاة الشعوب، و« نداولها» من المداولة بمعنی إذا صار الشیء من بعض القوم إلی البعض الآخر.

[۴۳۹] (۱)-« التمحیص» و المحص أصله: تخلیص الشیء ممّا فیه من عیب.

[۴۴۰] (۱)- المنار: ج ۴ ص ۴۶.

[۴۴۱] (۲)- المحق: النقصان و منه المحاق لآخر الشهر إذا انمحق الهلال و امتحق و قل ضیاؤه.

[۴۴۲] (۱)- و لقد جاء فی بعض کتب التاریخ أن هذه الإصابات لحقت بالنبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من جراء هجمات أفراد عدیدین من العدو.

[۴۴۳] (۱)-« کأیّن» أی ما أکثر، و یقال أنها اسم مرکب- أصلا- من کاف التشبیه و أی الاستفهامیة فظهرتا فی صورة الکلمة الواحدة التی فقد عندها معنیا الجزئین، و اکتسبت معنی جدیدا هو« ما أکثر».

[۴۴۴] (۲)-« ربیون» جمع« ربی» وزان« علی» یطلق علی من اشتد ارتباطه باللّه عزّ و جلّ، و یکون مؤمنا عالما، صامدا مخلصا.

[۴۴۵] (۱)- راجع کتاب الخصال و تفسیر مجمع البیان.

[۴۴۶] (۱)-« الحس» القتل علی وجه الاستئصال، و سمی القتل حسا لأنه یبطل الحس.

[۴۴۷] (۲)-« إذا» لیست هنا شرطیة، بل بمعنی« حین».

[۴۴۸] (۱)-« تصعدون» من الإصعاد و هو- کما فی المفردات للراغب- الأبعاد و المشی فی الأرض سواء کان ذلک فی صعود أو حدور فی حین أن الصعود یعنی الذهاب فی المکان العالی، و لعلّ استعمال الإصعاد فی الآیة بدل الصعود لأن جماعة من الفارین صعدوا الجبل، و جماعة آخرین انتشروا فی الصحراء.

[۴۴۹] (۲)-« أخراکم» بمعنی« ورائکم».

[۴۵۰] (۱)- الامنة أی الأمن و النعاس هو النوم الخفیف.

[۴۵۱] (۱)- تفسیر المنار: ج ۴ ص ۲۰۰.

[۴۵۲] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی.

[۴۵۳] (۲)- نهج البلاغة- الحکمة ۱۶۱.

[۴۵۴] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی.

[۴۵۵] (۲)- نهج البلاغة کتابه علیه السّلام و عهده لمالک الأشتر.

[۴۵۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱ ص ۴۰۵.

[۴۵۷] (۱)- الطلاق: ۳.

[۴۵۸] (۱)- الغلول: تعنی الخیانة، و أصله تدرع الشیء و توسطه و منه الغلل للماء الجاری بین الشجر، و هو الماء الذی یتسلل و یتسرب فیما بین الشجر و یدخل فیه، و یطلق الغلیل علی ما یقاسیه الإنسان فی داخله من العطش و من شدة الوجد و الغیظ، لهذا السبب.

[۴۵۹] (۱)- تاریخ الطبری: ج ۳ ص ۱۲۸.

[۴۶۰] (۱)- نور الثقلين: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۴۶۱] (۲)- تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية.

[۴۶۲] (۱)- الزمر: ۹.

[۴۶۳] (۲)- الأنعام: ۵۰.

[۴۶۴] (۳)- الرعد: ۱۶.

[۴۶۵] (۱)- تفسير العياشى حسبما نقله تفسير نور الثقلين: ج ۱ ص ۴۰۶.

[۴۶۶] (۱)- الدر المنثور: ج ۲ ص ۹۵- ۹۶.

[۴۶۷] (۱)- ينقسم أصحاب الحياة البرزخية- حسبما يذهب إليه بعض المحققين- إلى نوعين الصالحون جدا، و الطالحون جدا.

[۴۶۸] (۲)- الضمائر فى« لا خوف عليهم و لا هم يحزنون» حسب التفسير الأول تعود إلى المجاهدين الباقين على قيد الحياة الذين لم يلحقوا بالشهداء، و على التفسير الثانى تعود إلى الشهداء أنفسهم.

[۴۶۹] (۱)- الاستبشار يعنى الابتهاج و السرور الحاصل بسبب تلقى بشارة أو مشاهدة نعمة للنفس أو للغير من الأحبة.

و ليست بمعنى التبشير و الإبشار.

[۴۷۰] (۱)- المؤمنون: ۱۰۰.

[۴۷۱] (۱)- هذه قبسات من الرواية التى نقلها المفسر الإسلامى الكبير العلّامة الطبرسى رحمه اللّه فى تفسيره(مجمع البيان) عند تفسير هذه الآيات.

الجزء الثالث

[تتمة سورة آل عمران

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴]

اشارة

الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۷۲) الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (۱۷۳) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (۱۷۴)

التفسير

غزوة حمراء الأسد:

قلنا أن جيش أبى سفيان المنتصر أسرع بعد انتصاره فى معركة «أحد» على الجيش الإسلامى يغذ السير فى طريق العودة إلى مكّة حتى إذا بلغ أرض «الروحاء» ندم على فعله، و عزم على العودة إلى المدينة للإجهاز على ما تبقى من فلول المسلمين، و استئصال جذور الإسلام حتى لا تبقى له و لهم باقية.

و لما بلغ هذا الخبر إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر مقاتلى أحد أن يستعدوا للخروج إلى معركة اخرى مع المشركين، و

خص بأمره هذا الجرحى و المصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد شهد أحدا: شهدت أحدا و أخ لى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶

فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالخروج فى طلب العدو قلنا:

لا تفوتنا غزوة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فو اللّه ما لنا دابة نركبها و ما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كنت أيسر جرحا من أخى، فكنت إذا غلب حملته عقبة و مشى عقبة حتى انتهينا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى «حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان و أدرك صمود المسلمين، و الذى تجلّى فى اشتراك الجرحى و المصابين خاف و أرعب، و لعله ظن أنه أدركت المسلمين قوّة جديدة من المقاتلين و أتاهم المدد.

هذا و قد حدثت فى هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، و ألقت مزيدا من الوهن فى عزائمهم، و هى أنه: مرّ برسول اللّه «معبد الخزاعى» و هو يومئذ مشرك، فلما شاهد النّبى و ما عليه هو و أصحابه من الحالة تحركت عواطفه و جاشت، فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا محمّد و اللّه لقد عزّ علينا ما أصابك فى قومك و أصحابك، و لوددنا أن اللّه كان أعفاك فيهم، ثمّ خرج من عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى لقى أبا سفيان و من معه بالرّوحاء و قد أجمعوا الرّجعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلمّا رأى أبو سفيان معبدا قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقا، و قد اجتمع عليه من كان تخلف عنه فى يومكم، و ندموا على صنيعهم، و فيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال معبد: «فأنا و اللّه ما أراك ترتحل حتى ترى نواصى الخيل».

قال أبو سفيان: فو اللّه لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا و اللّه أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان و من معه و قفل راجعا و منسحبا إلى مكّة بسرعة، و حتى يتوقف المسلمون عن طلبه و ملاحقته و يجد فرصة كافية للانسحاب قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷

لجماعة من بنى عبد قيس كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح:

«أخبروا محمّدا إنا قد أجمعنا الكرّة عليه و على أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثمّ انصرف إلى مكّة.

و لما مرّت هذه الجماعة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو بحمراء الأسد أخبره بقول أبى سفيان،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «حسبنا اللّه و نعم الوكيل»

و بقى هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيّام، فلم ير لهم أثرا فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة. و الآيات الحاضرة تشير إلى هذه الحادثة و ملابساتها[۱] يقول سبحانه: الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

و يتبيّن من تخصيص جماعة معينة بالأجر العظيم فى هذه الآية أنه كان هناك بينهم من لم يملك الإخلاص الكامل، كما يمكن أن يكون التعبير ب «منهم» إشارة إلى أن بعض المقاتلين فى أحد امتنعوا ببعض الحجج عن تلبية نداء الرّسول و الإسهام فى هذه الحركة.

ثمّ أنّ القرآن الكريم يبيّن إحدى العلائم الحيّة لاستقامتهم و ثباتهم إذ يقول:

الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ

و المعنيون بالناس فى قوله: قالَ لَهُمُ النَّاسُ هم ركب عبد القيس، أو نعيم بن مسعود الذى جاء بهذا الخبر على رواية اخرى.

ثمّ بعد ذكر هذه الاستقامة الواضحة و هذا الإيمان البارز يذكر القرآن الكريم نتيجة عملهم إذ يقول: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ و أية نعمة و أى فضل أعظم و أعلى من أن ينهزم الأعداء الخطرون أمامهم من دون أى صدام أو لقاء و يعود هؤلاء المقاتلون إلى المدينة سالمين.

يبقى أن نعرف أن الفرق بين النعمة و الفضل، يمكن أن يكون بأن النعمة هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸

الأجر بقدر الاستحقاق و الفضل هو النفع الزائد على قدر الاستحقاق.

و تأكيدا لهذا الأمر يقول القرآن: لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ مضافا إلى أنّهم اتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ أنه فضل عظيم ينتظر المؤمنين الحقيقيين، و المجاهدين الصادقين.

التّربية الإلهية و عطاؤها السّريع:

إنّ مقارنة معنوية المسلمين فى معركة «بدر» بمعنويتهم فى حادثة «حمراء الأسد» التى مرّ تفصيلها، أمر يدعو إلى الإعجاب لدى المرء، إذ كيف استطاعت جماعة منكسرة لا تملك المعنوية العالية، و لا العدد البشرى الكافى، مع ما يحمل أفرادها من الجراحات الثقيلة و الإصابات الفادحة أن تغير ملامحها فى مدّة قد لا تزيد على يوم و ليلة، فتستعد و على درجة عالية من العزم و الإرادة لطلب العدو و ملاحقته، و مواجهته مرة اخرى إلى درجة أن القرآن الكريم يقول عنهم: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ثمّ استقاموا و صمدوا.

هذا هو أثر الإيمان بالهدف، فكلّما ازدادت مصائب الإنسان المؤمن و ازدادت مشكلاته ازدادت استقامته، و تضاعف ثباته، و شحذت عزيمته، و فى الحقيقة تهيأت كل قواه المعنوية و المادية و تعبأت لمواجهة الخطر.

إن هذا التغير العجيب، و هذا التحول السريع و العظيم فى مثل هذه المدّة القصيرة يوقف الإنسان على مدى سرعة تأثير التربية القرآنية و عمقها، و مدى فاعلية البيان النبوى الأخّاذ الذى يكاد يكون معجزة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۵]

اشارة

إِنَّما ذلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أَوْلِياءَهُ فَلا تَخافُوهُمْ وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۵)

التّفسير

هذه الآية تعقيب على الآيات التى نزلت حول غزوة «حمراء الأسد»، و لفظة «ذلكم» إشارة إلى الذين كانوا يخوفون المسلمين من قوّة قريش، و بأس جيشهم لإضعاف معنويات المسلمين.

و على هذا الأساس يكون معنى هذه الآية هو: إن عمل نعيم بن مسعود، أو ركب عبد القيس من عمل الشيطان لكى يخوفوا به أولياء الشيطان، يعنى أن هذه الوساوس إنما تؤثر فى أتباع الشيطان و أوليائه خاصّة، و أمّا المؤمنون الثابتون فلا تزل أقدامهم لهذه الوساوس مطلقا، و لن يرعبوا و لن يخافوا أبدا، و على هذا الأساس فأنتم لستم من أولياء الشيطان، فلا تخافوا هذه الوساوس، و يجب أن لا

تزلزلكم أو تزعزع إيمانكم.

إنّ التّعبير عن نعيم بن مسعود أو ركب عبد القيس و وصفهم ب «الشّيطان» إمّا لكون عملهم ذلك من عمل الشيطان و مستلهم منه و مأخوذ من وحيه، لأن القرآن يسمّى كل عمل قبيح و فعل مخالف للدين عمل شيطانى، لأنه يتم بوسوسته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰

و يصدر عن وحيه إلى أتباعه.

و إمّا أن المقصود من الشّيطان هم نفس هؤلاء الأشخاص، فيكون «هذا المورد» من الموارد التى يطلق فيها اسم «الشّيطان» على المصداق الإنسانى له، لأن للشيطان معنى وسيعا يشمل كل غاو مضل، إنسانا كان أم غير إنسان كما نقرأ فى سورة الأنعام الآية (۱۱۲)، وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ

ثمّ أنّه سبحانه يقول فى ختام الآية: وَ خافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعنى أن الإيمان باللّه و الخوف من غيره لا يجتمعان، و هذا كقوله سبحانه فى موضع آخر:

فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً[۲].

و على هذا الإساس فإن وجد فى أحد الخوف من غير اللّه كان ذلك دليلا على نقصان إيمانه و تأثيره بالوساوس الشيطانية لأنّنا نعلم أنّه لا ملجأ و لا مؤثر بالذات فى هذا الكون العريض سوى اللّه الذى ليس لأحد قدرة فى مقابل قدرته.

و أساسا لو أن المؤمنين قارنوا وليهم (و هو اللّه سبحانه) بولى المشركين و المنافقين (الذى هو الشيطان) لعلموا أنّهم لا يملكون تجاه اللّه أية قدرة، و لهذا لا يخافونهم قيد شعرة.

و خلاصة هذا الكلام و نتيجته هى أنّ الإيمان أينما كان، كانت معه الشجاعة و الشهامة، فهما توأمان لا يفترقان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۷۶ الى ۱۷۷]

اشارة

وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۷۶) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۷۷)

التّفسير

تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الخطاب فى قوله تعالى: وَ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ موجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فاللّه تعالى يسلى نبيّه فى أعقاب أحداث «أحد» المؤلمة قائلا له: أيّها الرّسول لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ و كأنّهم يتسابقون إليه إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً بل يضرّون بذلك أنفسهم، و أساسا فالمتضرر و المنتفع إنّما هى الموجودات التى لا تملك من عند أنفسها شيئا حتى وجودها، أمّا اللّه الأزلى الأبدى سبحانه فهو الغنى المطلق، فما الذى يعود به كفر الناس أو إيمانهم عليه سبحانه، و أى أثر يمكن أن يكون لجهودهم و محاولاتهم بالنّسبة إليه تعالى؟

إنّهم هم المنتفعون بإيمانهم إذ يتكاملون بهذا الإيمان، و هم المتضررون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲

بالكفر أيضا، إذ يؤدى هذا الكفر إلى سقوطهم و انحطاطهم.

هـذا مضافا إلى أن اللّه سوف لن ينسى مواقفهم المشينة و لن تفوته مخالفاتهم، و سيصيبهم جزاء ما يعملونه يوم القيامة: يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

و فى الحقيقة فإن الآية تقول: إذا كان هؤلاء يتسابقون فى الكفر فليس ذلك لأنّ اللّه لا يقدر على كبح جماحهم، بل لأنّ اللّه أراد أن يكونوا أحرارا فى اتّخاذ المواقف و سلوك الطريق الذى يريدون، و لا شك أنّ نتيجة ذلك هو الحرمان الكامل من المواهب الرّبانيّة فى العالم الآخر.

و على هذا فالآية لا تنفى الجبر فحسب، بل هى من الأدلة و البراهين السّاطعة على حرية الإرادة الإنسانية.

ثمّ يقرّر القرآن هـذه الحقائق فى الآيـة الثانيـة بشـكل أكثر تفصـيلا إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يعنى ليس الّذين يتسابقون فى طريق الكفر و يسارعون إليه هم وحدهم على هـذا الحال، بل كل الّذين يسلكون طريق الكفر بشكل من الأشكال و يشترون الكفر بالإيمان، كل هؤلاء لن يضرّوا اللّه شيئا، و إنّما يضرّون أنفسهم.

و يختم سبحانه الآيـة بقوله: وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ هـذا التفاوت فى التعبير فى خاتمـة هـذه الآية و الآية التى قبلها حيث قال هناك: وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ و قال هنا وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ إنّما هو لأجل إن الذين جاء ذكرهم فى الآية السابقة أسرع فى المبادرة و التوجه نحو الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۷۸]

اشارة

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۷۸)

التّفسير

المثقلون بأوزارهم:

بعد تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات السّابقة و تطمينه تجاه ما يقوم به أعداء الرسالة و الحق من محاولات عدائية لا تحصى، توجه سبحانه إلى الأعداء فى هذه الآية بالخطاب، و أخذ يحدّثهم عن المصير المشؤوم الذى ينتظرهم، (و هذه الآية ترتبط- فى الحقيقة- بأحداث معركة «أحد» فهى مكملة للأبحاث التى مرّت حول هذه الواقعة، لأن الحديث و الخطاب تارة كان موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخرى موجها إلى المؤمنين، و ها هو هنا موجه إلى الكفار و المشركين).

إنّ الآية الحاضرة التى يقول فيها سبحانه: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي ۳] لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ تحذّر المشركين بأن عليهم أن لا يعتبروا ما أتيح لهم من إمكانات فى العدّة و العدد، و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴

يكسبونه من انتصارات فى بعض الأحيان، و ما يمتلكونه من حرّية التصرف، دليلا على صلاحهم، أو علامة على رضا اللّه عنهم.

و توضيح ذلك: إنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ اللّه سبحانه ينبّه العصاة الذين لم يتوغّلوا فى الخطيئة و لم يغرقوا فى الآثام غرقا، فهو سبحانه ينبّههم بالنذر تارة، و بما يتناسب مع أعمالهم من البلاء و الجزاء تارة أخرى، فيعيدهم بذلك إلى جادة الحق و

الصواب. و هؤلاء هم الـذين لم يفقدوا بالمرّة قابلية الهداية، فيشـملهم اللطف الإلهى، فتكون المحن و البلايا نعمة بالنسـبة إليهم، لأنها تكون بمثابة جرس إنذار لهم تنبّههم من غفلتهم، و تنتشـلهم من غفوتهم كما يقول اللّه سبحانه: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۴].

و لكن الـذين تمـادوا فى الـذنوب و غرقوا فيها، و بلغ طغيانهم نهايته فإنّ اللّه يخـذلهم، و يكلهم إلى نفوسـهم، أىّ أنّه يملى لهم لتثقل ظهورهم بأوزارهم، و يستحقوا الحدّ الأكثر من العقوبة و العذاب المهين.

هؤلاء هم الـذين نسـفوا كـلّ الجسور، و قطعوا كـلّ علاقـاتهم مع اللّه، و لم يـتركوا لأنفسـهم طريق لا العودة إلى ربّهم، و هتكوا كل الحجب، و فقدوا كل قابلية للهداية الإلهية، و كل أهلية للّطف الرّبانى.

إن الآيـة الحاضـرة تؤكـد هذا المفهوم و هذا الموضوع إذ تقول: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ

و لقـد اسـتدلت بطلـة الإسـلام زينب الكبرى بنت الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام بهـذه الآية فى خطابها المدوى و الساخن أمام طاغية الشام «يزيد بن معاوية» الذى كان من أظهر مصاديق العصاة و المجرمين الذين قطعوا جميع جسور العودة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵

على أنفسهم بما ارتكبوه من فظيع الفعال، و ما اقترفوه من شنيع الأعمال إذ قالت:

«أ ظننت يا يزيـد ... أنّ بنا على اللّه هوانا، و بك عليه كرامة، و أنّ ذلك لعظم خطرك عنده؟ فشـمخت بأنفك، و نظرت فى عطفك، جذلان مسـرورا، حين رأيت الدنيا لك مسـتوثقة و الأمور متّسـقة، و حين صـفا لك ملكنا و سلطاننا، فمهلا مهلا أنسيت قول اللّه عزّ و جلّ: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ .

جواب على سؤال:

إنّ الآية الحاضرة تجيب ضمنا على سؤال يخالج أذهان كثير من الناس و هو: لما ذا يرفل بعض العصاة و المجرمين فى مثل هذا النعيم، و لا يلقون جزاءهم العادل على إجرامهم؟

فإنّ القرآن الكريم يردّ على هذا التساؤل الشّائع قائلا: إنّ هؤلاء فقدوا كل قابلية للتغيير و الإصلاح، و هم بالتالى من الّذين تقتضى سنّة الخلق و مبـدأ حرّيـة الإنسان و اختياره أن يتركوا لشأنهم، و يوكّلوا إلى أنفسـهم ليصـلوا إلى مرحلة السـقوط الكامل، و يسـتحقوا الحدّ الأكثر من العذاب و العقوبة.

هـذا مضافـا إلى مـا يسـتفاد من بعض الآيات القرآنيـة من أنّه سـبحانه قـد يمـدّ البعض بالنعم الوافرة و هو بـذلك يسـتدرجهم، أى أنّه يأخذهم فجأة و هم فى ذروة التنعم، و يسـلبهم كلّ شـىء و هم فى أوج اللّذة و التمتع، ليكونوا بذلك أشقى من كلّ شقى، و يواجهوا فى هذه الدنيا أكبر قدر ممكن من العذاب، لأن فقدان هذا النعيم أشدّ وقعا على النفس، و أكثر مرارة كما نقرأ فى الكتاب العزيز: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ ۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶

و مثـل هؤلاء- فى الحقيقـة- مثـل الـذى يتسـلق شـجرة، فـإنّه كلّمـا إزداد رقيـا ازداد فرحا فى نفسه، حتى إذا بلغ قمتها فاجأته عاصـفة شديدة، فهوى على أثرها من ذلك المترفع الشاهق إلى الأرض فتحطمت عظامه، فتبدل فرحه البالغ إلى حزن شديد.

لفتة أدبية:

یتبیّن ممّا قلناه فی تفسیر هذه الآیة أن «اللام» فی قوله سبحانه: لِیَزْدادُوا إِثْماً «لام العاقبة» و لیست «لام الغایة».

و توضیح ذلک: إنّ العرب قد تستعمل اللام لبیان أن ما بعد اللام مراد للإنسان و مطلوب له کقوله: لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَی النُّورِ[۶].

و من البدیهی أن هدایة الناس و خروجهم من الظّلمات إلی النّور مراد له سبحانه.

و قد تستعمل العرب «اللام» لا لبیان أن هذا هو مراد و مطلوب للشخص، بل لبیان أن هذا نتیجة عمل المرء و مآل موقفه کقوله تعالی: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً[۷] و لا شک أنّهم إنما أخذوه لیکون لهم سرورا و قرّة عین. و لا یختص هذا الأمر باللغة العربیة و آدابها، بل هو مشهور فی غیره من اللغات و الآداب.

و من هنا یتضح الجواب علی تساؤل آخر یطرح نفسه هنا و هو: لما ذا قال سبحانه: لِیَزْدادُوا إِثْماً الذی معناه- بحسب الظاهر- أی نرید أن یزدادوا إثما.

لأن هذا الإشکال و التساؤل إنّما یکون واردا إذا کانت اللام هنا لام الإرادة و الغایة المبینة للعلّة و الهدف، لا «لام العاقبة» لیکون معنی قوله لِیَزْدادُوا إِثْماً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷

هو: لتکون عاقبة أمرهم ازدیادهم الإثم.

و علی هذا یکون معنی الآیة: نحن نمهلهم لتکون عاقبة أمرهم ازدیاد ذنوبهم و أوزارهم من الإثم، فالآیة لا تدلّ علی الجبر مطلقا، بل هی خیر دلیل علی حریة الإنسان و اختیاره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸

الآیة [سورة آل‌عمران (۳): آیة ۱۷۹]

اشارة

ما کانَ اللَّهُ لِیَذَرَ الْمُؤْمِنِینَ عَلی ما أَنْتُمْ عَلَیْهِ حَتَّی یَمِیزَ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُطْلِعَکُمْ عَلَی الْغَیْبِ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَجْتَبِی مِنْ رُسُلِهِ مَنْ یَشاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَکُمْ أَجْرٌ عَظِیمٌ (۱۷۹)

التّفسیر

المسلمون فی بوتقة الاختبار و الفرز:

لم تکن قضیة «المنافقین» مطروحة بقوّة قبل حادثة معرکة «أحد» و لهذا لم یکن المسلمون یعرفون عدوا لهم غیر الکفار، و لکن الهزیمة التی أفرزتها «أحد» و ما دبّ فی المسلمین علی أثرها من الضعف المؤقت مهّد الأرضیة لنشاط المنافقین المندسّین فی صفوف المسلمین، و علی أثر ذلک عرف المسلمون و أدرکوا بأنّ لهم عدوا آخر أخطر یجب أن یراقبوا تحرکاته و نشاطاته و هو «المنافقون»، و کان هذا إحدی أهم معطیات حادثة «أحد» و نتائجها الإیجابیة.

و الآیة الحاضرة التی هی آخر الآیات التی تتحدث- هنا- عن معرکة «أحد» و أحداثها، تبیّن و تستعرض هذه الحقیقة فی صورة قانون عام إذ تقول: ما کانَ اللَّهُ لِیَذَرَ الْمُؤْمِنِینَ عَلی ما أَنْتُمْ عَلَیْهِ حَتَّی یَمِیزَ الْخَبِیثَ مِنَ الطَّیِّبِ فلا بدّ أن تتمیز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹

الصفوف، و تتمّ عملية الفرز بين الطيب الطاهر، و الخبيث الرجس. و هذا قانون عام و سنة إلهية خالدة و شاملة، فليس كلّ من يدعى الإيمان، و يجد مكانا فى صفوف المسلمين يترك لشأنه، بل ستبلى سرائره، و تنكشف حقيقته فى الآخرة بعد الاختبارات الإلهية المتتابعة له.

و هنا يمكن أن يطرح سؤال (و هو السؤال الذى كان مطروحا بين المسلمين آنذاك أيضا حسب بعض الأحاديث و الرّوايات) و هو: إذا كان اللّه عالما بسريرة كل إنسان و أسراره فلما ذا لا يخبر بها الناس- عن طريق العلم بالغيب- و يعرفهم بالمؤمن و المنافق؟

إنّ المقطع الثّانى من الآية و هو قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ يجيب على هذا السؤال. أى أن اللّه سبحانه لن يوقفكم على الأسرار، لأن الوقوف على الأسرار- على عكس ما يظن كثيرون لا يحلّ مشكلة، و لا يفكّ عقدة، بل سيؤدى إلى الهرج و المرج و الفوضى، و إلى تمزق العلاقات الاجتماعية و انهيارها، و انطفاء شعلة الأمل فى النفوس و تبدده، و توقف الناس عن الحركة و النشاط و الفعالية.

و الأهم من كلّ ذلك هو أنّه لا بدّ أن تتضح قيمة الأشخاص من خلال المواقف العملية و السلوكية، و ليس عن أى طريق آخر، و مسألة الاختبار الإلهى لا تعنى سوى هذا الأمر، و لهذا فإن الطريق الوحيد لمعرفة الأشخاص و تقويمهم هو أعمالهم فقط[۸].

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يستثنى الأنبياء من هذا الحكم إذ يقول: وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ أى أنّه يختار فى كل عصر من بين أنبيائه من يطلعهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰

شىء من تلك الغيوب و يوقفهم على بعض الأسرار بحكم احتياج القيادة الرسالية إلى ذلك، و تبقى الأعمال- مع ذلك كلّه- هى الملاك الوحيد و المعيار الخالد و المسار الأبدى لمعرفة الأشخاص و تمييزهم و تصنيفهم.

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الأنبياء- بحسب ذواتهم- لا يعرفون شيئا من الغيب، كما و يستفاد منها أنّ ما يعلمونه منه إنما هو بتعليم اللّه لهم و اطلاعهم على شىء من الغيوب، و على هذا الأساس يكون الأنبياء ممن يطلعون على الغيب، كما أن مقدار علمهم بالغيب يتوقف على المشيئة الإلهية.

و من الواضح و المعلوم أنّ المراد من المشيئة الإلهية فى هذه الآية- كغيرها من الآيات- هو «الإرادة المقرونة بالحكمة» أى أنّ اللّه سبحانه يطلع على الغيب كلّ من يراه صالحا لذلك، و تقتضى حكمته سبحانه ذلك.

ثمّ أنّه تعالى يذكرهم- فى ختام الآية- بأن عليهم- و هو الآن فى بوتقة الحياة، بوتقة الامتحان الكبير، بوتقة التمييز بين الصالح و الطالح، و الطيب و الخبيث، و المؤمن و المنافق- عليهم أن يجتهدوا لينجحوا فى هذا الامتحان و يخرجوا مرفوعى الرؤوس من هذا الاختبار العظيم، إذ يقول: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ

ثمّ أن الملاحظة الملفتة للنظر و الجديرة بالتأمل فى هذه الآية التعبير عن المؤمن بالطيب، و من المعلوم أن الطيب هو الباقى على أصل خلقته الذى لم تشبه الشّوائب، و لم يدخل فى حقيقة الغرائب. و لم تلوثه الكدورات، فالماء الطاهر الطيب، و الثوب الطيب الطاهر و ما شابه ذلك هو الذى لم تلوثه الكدورات، و يستفاد من هذا أن الإيمان هو فطرة الإنسان الأصلية، و هو جبلته الأولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۰]

اشارة

وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۸۰)

التّفسير

طوق الأسر الثّقيل:

تبيّن الآيـة الحاضـرة مصـير البخلاء فى يوم القيامـة، أولئك الذين يبذلون غاية الجهد فى جمع الثّروة ثمّ يمتنعون عن الإنفاق فى سبيل اللّه، و لصالح عباده.

و الآيـة هـذه و إن لم تتعرض صـراحة لـذكر الزكـاة و غيرهـا من الحقوق و الفرائض الماليـة، إلّا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، و كـذا أقوال المفسـرين خصـصت هذه الآية و ما وعد به فيها من الوعيد بمانعى الزكاة، و يؤيده التشديد المشـهود فى الآية، فإن أمثال هذا التشديد و التغليظ لا يتناسب مع الإنفاق المندوب المستحب.

تقول الآية أوّلا: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ثمّ تصف مصير هؤلاء فى يوم القيامة هكذا: سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى ستكون تلك الأموال التى بخلوا بها طوقا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲

أعناقهم فى ذلك اليوم الرهيب.

و من هـذه الجملـة يسـتفاد أن الأـموال التى لم يـدفع صاحبها الحقوق الواجبـة فيها، و لم ينتفع بها المجتمع، بل صـرفت فقط فى سبيل الأهواء الشخصـية، و ربّما صـرفت فى ذلك السبيل بشـكل جنونى، أو كـدست دون أى مبرر و لم يسـتفد منها أحد سـيكون مصـيرها مصير أعمال الإنسان، أى أنّها- طبقا لقانون تجسم الأعمال البشرية- ستتجسم يوم القيامة و تتمثل فى شكل عذاب مؤلم يؤذى صاحبها و يخزيه.

إنّ تجسّم مثـل هـذه الأـموال التى تطوق بها أعناق ذويها إشارة إلى الحقيقـة التاليـة، و هى أن كل إنسان يتحمل ثقل مسـئوليتها كاملا دون أن يكون هو قد انتفع بها.

إنّ الأـموال الوفيرة التى تجمع بشـكل جنونى و تكنز و لا تصـرف فى خدمـة المجتمع لا تكون سوى أغلال و سـجون لأصـحابها، لأن للاسـتفادة- كما نعلم- من الأموال و الثروة الشخصـية حـدودا، فإذا تجاوزها الإنسان عادت عليه نوعا من الأسـر الثقيل، و الوزر الضّار، اللّهم إلّا أن يستفيد من آثارها المعنوية و ذلك حينما يوظفها فى الأعمال الإيجابية الصالحة.

ثمّ إن هـذه الأموال لا تشـكل طوقا ثقيلا فى أعناق أصـحابها فى الآخرة فحسب، بل تكون كـذلك فى هذه الدنيا أيضا، غاية الأمر أن هذا المعنى يكون أكثر ظهورا فى الآخرة، بينما يكون فى شىء من الخفاء فى هذه الحياة، فأية حماقة- ترى- أكبر من أن يتحمل المرء مسـئولية جمع الثّروة مضافـة إلى مسـئولية الحفـاظ عليهـا و حسابهـا و الـدّفاع عنها و ما يلازم ذلك من مشاق تثقل كاهله، فى حين لا ينتفع بها هو أبدا، و هل الأموال حينئذ إلّا طوق أسر ثقيل لا غير؟

ففى تفسير العياشى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنه قال: «الذى يمنع الزكاة يحول اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳

ماله يوم القيامة شجاعا[۹] من نار ... ثمّ يقال له: ألزمه كما لزمك فى الدنيا».

و الملفت للنظر التعبير عن المال فى هذه الآية بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الذى يفهم منه أن المالك الحقيقى لهذه الأموال و مصادرها هو

اللّه سبحانه، و إن ما أعطاه لأىّ واحد من الناس فإنّما هو من فضله، و لهذا ينبغى أن لا يبخل، أن ينفق من تلك الأموال فى سبيل صاحبها الحقيقى.

ثمّ إنّ بعض المفسرين يرى أن مفهوم هذه العبارة يعم جميع المواهب الإلهية و منها العلم، و لكن هذا الاحتمال لا ينطبق مع ظاهر التعبيرات الواردة فى الآية.

ثمّ إنّ الآية تشير إلى نقطة أخرى إذ تقول: وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يعنى أن الأموال سواء أنفقت فى سبيل اللّه أو لم تنفق فإنّها ستفصل فى النهاية عن أصحابها، و يرث اللّه الأرض و السماء و ما فيهما، فالأجدر بهم- و الحال هذه- أن ينتفعوا من آثارها المعنوية، لا أن يتحملوا وزرها و عناءها، و حسرتها و تبعتها.

ثمّ تختم الآية بقوله تعالى: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ أى أنّه عليم بأعمالكم، يعلم إذا بخلتم، كما يعلم إذا أنفقتم ما أوتيتموه من المال فى السبيل الصالح العام و خدمة المجتمع الإنسانى، و يجازى كلا على عمله بما يليق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۱ الى ۱۸۲]

اشارة

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ سَنَكْتُبُ ما قالُوا وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ نَقُولُ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۱۸۱) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۱۸۲)

سبب النّزول

هذه الآية نزلت ردّا على مقالة اليهود و توبيخا لهم.

فعن ابن عباس أنّه قال: كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كتابا إلى يهود «بنى قينقاع» دعاهم فيه لإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و أن يقرضوا للّه «و المراد منه الإنفاق فى سبيل اللّه و إنما عبر عنه بالإقراض لتحريك المشاعر و إثارتها لدى الناس قدرا أكبر) فدخل رسول النّبى إلى بيت المدارس (حيث يتلقى اليهود دروسا فى دينهم) و سلم كتاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى «فنحاص» و هو من كبار أحبار اليهود فلمّا قرأه قال مستهزءا: لو كان ما تقولونه حقا فإن اللّه إذن لفقير و نحن أغنياء، و لو كان غنيا لما استقرض منّا (و هو يشير إلى قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵

حَسَناً[۱۰] هذا مضافا إلى أن «محمّدا» يعتقد أنّ اللّه نهاكم عن أكل الرّبا، و هو يعدكم أن يضاعف لكم إذا أنفقتم أضعافا مضاعفة، و هو يشير إلى قوله تعالى:

يُرْبِى الصَّدَقاتِ ۱۱].

و لكنّ «فنحاص» أنكر أنّه قال شيئا من هذه فى ما بعد فنزلت الآيتان المذكورتان أعلاه ۱۲].

التّفسير

تقول الآية الأولى لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ.

أى لو أنّ هؤلاء استطاعوا أن يخفوا عن الناس مقالتهم هذه فإن اللّه قد سمعها و يسمعها حرفا بحرف فلا مجال لإنكارها، فهو يسمع و يدرك حتى ما عجزت أسماع الناس عن سماعها من الأصوات الخفية جدا أو الأصوات العالية جدا:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ.

إذن فلا فائدة و لا جدوى فى الإنكار، ثمّ يقول سبحانه: سَنَكْتُبُ ما قالُوا أى أن ما قالوه لم نسمعه فحسب، بل سنكتبه جميعه.

و من البديهى أن المراد من الكتابة ليس هو ما تعارف بيننا من الكتابة و التدوين، بل المراد هو حفظ آثار العمل التى تبقى خالدة فى العالم حسب قانون بقاء «الطاقة- المادة».

بل و حتى كتابة الملائكة الموكّلين من قبل اللّه بالبشر لضبط تصرفاتهم، هو الآخر نوع من حفظ العمل الذى هو مرتبة أعلى من الكتابة المتعارفة.

ثمّ يقول: وَ قَتْلَهُمُ الْأَنْبِياءَ أى أنّنا لا نكتفى بكتابة مقالاتهم الكافرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶

الباطلة فحسب، بل سنكتب موقفهم المشين جدا و هو قتلهم للأنبياء.

يعنى أن مجابهة اليهود، و مناهضتهم للأنبياء ليس بأمر جديد، فليست هذه هى المرّة الأولى التى تستهزء يهود برسول من الرسل، فإن لهم فى هذا المجال باعا طويلا فى التاريخ، و صفحة مليئة بنظائر هذه الجرائم و المخازى، فإن جماعة بلغت فى الدناءة و الشراسة و القحة و الجرأة أن قتلت جماعة من رسل اللّه و أنبيائه، فلا مجال للاستغراب من تفوهها بمثل هذه الكلمات الكافرة.

و يمكن أن يقال فى هذا المقام: إن قتل الأنبياء مسألة لم ترتبط باليهود فى عصر الرسالة المحمّدية، فلما ذا حمل وزرها عليهم؟ و لكننا نقول- كما أسلفنا أيضا- أنّ هذه النسبة إنّما صحّت لأنّهم كانوا راضين بما فعله و ارتكبه أسلافهم من اليهود، و لهذا أشركوا فى إثمهم و وزرهم و فى مسئوليتهم عن ذلك العمل الشنيع.

و أمّا تسجيل و كتابة أعمالهم فلم يكن أمرا اعتباطيا غير هادف، بل كان لأجل أن نعرضها عليهم يوم القيامة، و نقول لهم: ها هى نتيجة أعمالكم قد تجسدت فى صورة عذاب محرق و نقول: ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

إنّ هذا العذاب الأليم الذى تذوقونه ليس سوى نتيجة أعمالكم، فأنتم- أنفسكم- قد ظلمتم أنفسكم ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ۱۳] وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

بل لو أنكم و أمثالكم من المجرمين لم تنالوا جزاء أعمالكم و لم تروها بأمّ أعينكم، و وقفتم فى عداد الصالحين لكان ذلك غاية فى الظلم، و لو أنّ اللّه سبحانه لم يفعل ذلك لكان ظلاما للناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷

و

لقد نقل عن الإمام على عليه السّلام فى نهج البلاغة أنّه قال: «و أيم اللّه ما كان قوم قط فى غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها لأن اللّه ليس بظلام للعبيد».

إنّ هذه الآية تعدّ من الآيات التى تفنّد- من جهة- مقولة الجبريين، و- تعمم- من جهة اخرى- أصل- العدالة و تسحبه على كل الأفعال الإلهية، فتكون جميعا مطابقة للعدالة.

و توضيح ذلك: إنّ الآية الحاضرة تصرّح بأنّ كلّ جزاء- من ثواب أو عقاب- ينال الناس من جانب اللّه سبحانه فإنّما هو جزاء أعمالهم التى ارتكبوها بمحض إرادتهم و اختيارهم ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

و تصرّح من جانب آخر بأن اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ و إنّ قانونه فى الجزاء يدور على محور العدل المطلق، و هذا هو نفس ما تعتقد به العدلية (و هم القائلون بالعدل الإلهى، و هم الشيعة و طائفة من أهل السنة المسمّون بالمعتزلة).

غير أنّ هناك فى الطرف الآخر جماعة من أهل السنة «و هم الذين يسمّون بالأشاعرة» لهم اعتقاد غريب فى هذا المجال فهم يقولون: إنّه تعالى هو المالك فى خلقه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد، فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنّة لم يكن حيفا، و لو أدخلهم النّار لم يكن جورا ... فلا يتصوّر منه ظلم، و لا ينسب إليه جور[۱۴].

و الآية الحاضرة تفند هذا النوع من الآراء و المقالات تفنيدا باتا و مطلقا و تقول بصراحة لا غبش فيها و لا غموض: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸

على أنّ لفظة «ظلام» صيغة مبالغة، و تعنى من يظلم كثيرا، و لعل اختيار هذه الصيغة فى هذا المكان مع أنّ اللّه سبحانه لا يظلم حتى إذا كان الظلم صغيرا، لأجل أنّه إذا أجبر الناس على الكفر و المعصية، و خلق فيهم دواعى العمل القبيح و دوافعه، ثمّ عاقبهم على ما فعلوه بإجباره و إكراهه لم يكن بذلك قد ارتكب ظلما صغيرا فحسب، بل كان «ظلاما».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۳ الى ۱۸۴]

اشارة

الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۸۳) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ (۱۸۴)

سبب النّزول

حضر جماعة من أقطاب اليهود عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: يا محمّد إنّ اللّه عهد إلينا فى التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أنّ اللّه بعثك إلينا فجئنا به نصدقك، فأنزل اللّه هاتين الآيتين.

التّفسير

مغالطات اليهود و تعللاتهم:

كانت اليهود تتحجج و تجادل كثيرا بهدف التملص من الانضواء تحت راية الإسلام.

و من مغالطاتهم ما جاء ذكره فى هذه الآية الحاضرة التى تقول: الَّذِينَ قالُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰

إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنا بِقُرْبانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ.

قال المفسرون: إن اليهود كانت تزعم أنّه يجب أن يكون للأنبياء خصوص هذه المعجزة، و هى أن يقربوا قربانا فتنزل النّار من السماء و تأكل قربانهم، ففى ذلك دلالة على صدق المقرب (أى صاحب القربان).

و لو أن اليهود كانوا صادقين فى هذا الطلب، و كانوا يريدون- حقّا- مثل هذا الأمر من باب إظهار الإعجاز، و ليس من باب العناد و اللجاجة و المغالطة لكان من الممكن إعذارهم، و لكن تاريخهم الغابر، و كذا مواقفهم المشينة مع نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم تثبت الحقيقة التالية، و هى أنّهم لم يكونوا أبدا طلاب حقّ و بغاة علم، بل كانوا يأتون كل يوم بمغالطة و اقتراح جديد لمواجهة الجو الضاغط عليهم، و ما كان يخلقه القرآن من وضع محرج لهم بفضل ما كان يقيمه من براهين ساطعة و قوية، و ذلك فرارا من قبول الإسلام، و الانضواء تحت رايته، و حتى لو أنّهم حصلوا على مقترحاتهم فإنّهم كانوا يمتنعون عن الإيمان، بدليل أنهم كانوا قد قرءوا فى كتبهم كل علائم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنهم مع ذلك أبوا إلّا رفض الحقّ، و عدم الإذعان له.

يقول القرآن فى مقام الردّ عليهم: قُلْ قَدْ جاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّناتِ وَ بِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و فى ذلك إشارة إلى زكريا و يحيى و طائفة من الأنبياء الذين قتلوا على أيدى بنى إسرائيل.

هذا و يذهب بعض متأخرى المفسرين (مثل كاتب تفسير المنار) إلى احتمال آخر حول مسألة القربان خلاصته: إن مقصودهم لم يكن إن على النّبى أن يذبح قربانا و تنزل من السماء نار بطريقة إعجازية و تحرق ذلك القربان، بل كان مرادهم هو أنّه كان فى تعاليم دينهم نوع من هذا القربان الذى يذبح بطريقة خاصّة و فى مراسيم معينة، ثمّ يحرق بالنّار و هو ما جاء شرحه فى الفصل الأوّل من سفر «اللاويين» من التوراة (العهد القديم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱

إنّهم كانوا يقولون: إنّ اللّه عهد إلينا أن يبقى مثل هذا التعليم، و مثل هذا القربان فى كل دين سماوى، و حيث إنّنا لا نجد مثل هذا الأمر فى التعاليم الإسلامية لذلك فإننا لا نؤمن لك.

و لكن هذا الاحتمال بعيد عن تفسير الآية جدا لأنّه:

أوّلا: إنّ هذه الجملة قد عطفت فى الآية الحاضرة على «البيّنات» و يظهر من ذلك أن مرادهم كان عملا إعجازيا، و هو لا ينطبق مع هذا الاحتمال.

و ثانيا: إنّ ذبح حيوان ثمّ حرقه بالنار عمل خرافى و لا يمكن أن يكون من تعاليم الأنبياء و شرائعهم السماوية.

ثمّ يعقب سبحانه على الآية السابقة بقوله: فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

و فى هذه الآية يسلى اللّه سبحانه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول: إن كذبتك هذه الجماعة فلا تقلق لذلك و لا تحزن، فذلك هو دأبهم مع أنبياء سبقوك حيث كذبوهم، و عارضوا دعوتهم بصلابة و عناد.

و لم يكن هؤلاء الأنبياء غير مزودين بما يبرهن على صدقهم، بل جاؤُ بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتابِ الْمُنِيرِ.

و هنا لا بدّ من الانتباه إلى أن «زبر» و هو جمع (زبور) يعنى كتابا أحكمت كتابة مواضيعه، لأن الزبر أصلا من الكتابة، لا مطلق الكتابة، بل الكتابة المتقنة المحكمة.

و أمّا الفرق بين «الزبر» و «الكتاب المنير» مع أنّهما من جنس واحد هو الكتاب، فيمكن أن يكون بسبب أن الاوّل إشارة إلى كتب الأنبياء قبل موسى عليه السّلام، و الثّانى إشارة إلى التوراة و الإنجيل، لأنّ القرآن الكريم عبر عنهما فى سورة المائدة الآية ۴۴، و ۴۶ بالنّور إذ قال: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ ...

وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من «الزّبور» هو تلك الكتب السماوية التى تحتوى على المواعظ و الزواجر خاصّة (كما كان عليه الزبور المنسوب إلى داود الذى هو الآن بين الأيدى و الذى يحتوى بأسره على المواعظ و الزواجر) و لكن «الكتاب المنير» أو الكتاب السماوى فيطلق على ما يحتوى على التشريعات و القوانين و الأحكام الفردية و الاجتماعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۵]

اشارة

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (۱۸۵)

التّفسير

الموت و قانونه العام:

تعقيبا على البحث حول عناد المعارضين و غير المؤمنين تشير هذه الآية إلى قانون «الموت» العام و إلى مصير الناس فى يوم القيامة، ليكون ذلك تسلية للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و تحذيرا- كذلك- للمعارضين العصاة.

فهذه الآية تشير- أوّلا- إلى قانون عام يشمل جميع الأحياء فى هذا الكون و تقول: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ

و الناس، و إن كان أكثرهم يحب أن ينسى مسألة الفناء و يتجاهل الموت، و لكن هذا الأمر حقيقة واقعة إن حاولنا تناسيها و التغافل عنها، فهى لا تنسانا، و لا تتغافل عنّا.

إنّ لهذه الحياة نهاية لا محالة، و لا بدّ أن يأتى ذلك اليوم الذى يزور فيه الموت كل أحد، و لا يكون أمامه- حينئذ- إلّا أن يفارق هذه الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴

إن المراد من «النفس» فى هذه الآية هو مجموعة الجسم و الروح، و إن كانت النفس فى القرآن تطلق أحيانا على خصوص «الرّوح» أيضا.

و التعبير بالتذوق إشارة إلى الإحساس الكامل، لأن المرء قد يرى الطعام بعينيه أو يلمسه بيده، و لكن كل هذه لا يكون- و الأحرى لا يحقق الإحساس الكامل بالشىء، نعم إلّا أن يتذوق الطعام بحاسة الذوق فحينئذ يتحقق الإحساس الكامل، و كأن الموت- فى نظام الخلقة- نوع من الغذاء للإنسان و الأحياء.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك وَ إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أى أنّه ستكون بعد هذه الحياة مرحلة أخرى هى مرحلة الثواب و العقاب، و بالتالى الجزاء على الأعمال، فهنا عمل و لا حساب و هناك حساب و لا عمل.

و عبارة «توفون» التى تعنى إعطاء الجزاء بالكامل تكشف عن إعطاء الإنسان أجر عمله- يوم القيامة- وافيا و بدون نقيصة، و لهذا لا مانع من أن يشهد الإنسان- فى عالم البرزخ المتوسط بين الدنيا و الآخرة- بعض نتائج عمله، و ينال قسطا من الثواب أو العقاب، لأن هذا الجزاء البرزخى لا يشكل الجزاء الكامل.

ثمّ قال سبحانه: فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ.

و كلمة «زحزح» تعنى محاولة الإنسان لإخراج نفسه من تحت تأثير شىء، و تخليصها من جاذبيته تدريجا.

و أمّا كلمة «فاز» فتعنى فى أصل اللغة «النجاة» من الهلكة، و نيل المحبوب و المطلوب.

و الجملة بمجموعها تعنى أنّ الذين استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من جاذبية النّار و دخلوا الجنّة فقد نجوا من الهلكة، و لقوا ما يحبونه، و كأن النّار تحاول بكلّ طاقتها أن تجذب الأدميين نحو نفسها .. حقّا أنّ هناك عوامل عديدة تحاول أن تجذب الإنسان إلى نفسها، و هى على درجة كبيرة من الجاذبية.

أليس للشهوات العابرة، و اللذات الجنسية الغير المشروعة، و المناصب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵

و الثروات الغير المباحة مثل هذه الجاذبية القوية؟؟

كما أنّه يستفاد من هذا التعبير أن الناس ما لم يسعوا و يجتهدوا لتخليص أنفسهم و تحريرها من جاذبية هذه العوامل المغرية الخداعة فإنّها ستجذبهم نحو نفسها تدريجا، و سيقعون فى أسرها فى نهاية المطاف.

أمّا إذا حاولوا من خلال تربية أنفسهم و ترويضها، و تمرينها على مقاومة هذه الجواذب و المغريات و كبح جماحها، و بلغوا بها إلى مرتبة «النفس المطمئنة» كانوا من النّاجين الواقعيين، الذين يشعرون بالأمن و الطمأنينة.

ثمّ يقول سبحانه فى نهاية هذه الآية: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ.

و هذه الجملة تكمل البحث السابق و كأنها تقول: إنّ هذه الحياة مجرّد لهو و متاع تخدع الإنسان من بعيد، فإذا بلغ إليها الإنسان و نال منها و لمسها عن كثب وجدها- على الأغلب- فراغا فى فراغ و خواء فى خواء، و ما متاع الغرور إلّا هذا.

هذا مضافا إلى أن اللذائذ المادية تبدو من بعيد و كأنها خالصة من كل شائبة، و خالية من كل ما يكدرها، حتى إذا اقترب إليها الإنسان وجدها ممزوجة بكل ألوان العناء و العذاب، و هذا جانب آخر من خداع الحياة المادية.

كما أنّ الإنسان ينسى- فى أكثر الأحيان- طبيعته الفانية، و لكنه سرعان ما ينتبه إلى أنّها سريعة الزوال، قابلة للفناء.

إنّ هذه التعابير قد تكررت فى القرآن و الأحاديث كثيرا، و الهدف منها جميعا شىء واحد هو أن لا يجعل الإنسان هذه الحياة المادية و لذاتها العابرة الفانية الزّائلة هدفه الأخير، و مقصده الوحيد النّهائى الذى تكون نتيجته الغرق و الارتطام فى شتى ألوان الجريمة و المعصية، و الابتعاد عن الحقيقة و عن التكامل الإنسانى، و أمّا الانتفاع بالحياة المادية و مواهبها كوسيلة للوصول إلى التكامل الإنسانى و المعنوى فليس غير مذموم فقط، بل هو ضرورى و واجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۶]

اشارة

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۸۶)

سبب النّزول

عند ما هاجر المسلمون من مكّة إلى المدينة و ابتعدوا عن دورهم و ديارهم، راحت أيدى المشركين تطال أموالهم و تمتدّ إلى ممتلكاتهم، و تنالها بالتصرف و السيطرة عليها، و إيذاء كلّ من وقعت عليه أيديهم و الإيقاع فيه بالجهاء و الاستهزاء.

و عند ما جاؤوا إلى المدينة، واجهوا أذى اليهود القاطنين فى المدينة، خاصّة «كعب بن الأشرف» الذى كان شاعرا سليط اللسان، فقد كان كعب هذا يهجو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين و يحرض المشركين عليهم حتى أنّه كان يشبب بنساء المسلمين و يصف محاسنهن و يتغزل بهن.

و قد بلغت وقاحته مبلغا دفعت بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يأمر بقتله، فقتل على أيدى المسلمين غيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷

و الآيـة الحاضـرة- حسب بعض الأحاديث المنقولة عن المفسـرين- تشـير إلى هذه الأمور و تحث المسـلمين على مواصـلة الصـمود و المقاومة.

التّفسير

لا تتبعكم المقاومة:

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ أجل إنّ هذه الحياة- أساسا- ساحة اختبار و دار إمتحان، فلا بدّ أن يتهيأ الإنسان لمواجهة كل الحوادث و المفاجئات الصعبة العسيرة، و هـذا فى الحقيقـة تنبيه و تحـذير لجميع المسـلمين بـأن لا يظنوا بأن الحوادث العسـيرة فى حياتهم قد انتهت، أو أنّهم قد تخلصوا من أذى الأعداء، و سـلاطة لسانهم بمجرد قتلهم لكعب بن الأشرف الشاعر السليط اللسان الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه، و شعره.

و لهذا قال سبحانه: وَ لَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً.

إنّ مسألـة التعرض الأذى المشـركين اللسانى و سـبهم و شـتمهم و هجائهم و إن كانت من إحدى الابتلاءات التى جاء ذكرها فى مطلع الآية، و لكنه ذكر هنا بخصوصه للأهمية الفائقة، لأن مثل هذا قلّما يتحمله الشـرفاء من الناس لعظيم أثره فى أرواحهم و نفوسهم، و من قديم قال الشاعر:

جراحات السنان لها التيامو لا يلتام ما جرح اللسان

ثمّ أنّه سبحانه عقب على هذا الإنذار و التنبيه بقوله: وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

و بهذا يبيّن القرآن وظيفة المسـلمين و واجبهم فى أمثال هذه الحوادث الصعبة و الظروف العسيرة، و يدعوهم إلى الصبر و الاستقامة و الصمود و التزام التقوى فى مثل هذه الحوادث معلنا بأن هذه الأمور من الأمور الواضحة النتائج،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸

و لذلك يتعين على كل عاقل أن يتخذ موقفه منها.

و العزم فى اللغـة هو «القرار المحكم» و ربّما يطلق على مطلق الأمور المحكمة، و على هذا فإن «عزم الأمور» يعنى الأعمال البينة الرشـد التى يجب على كل إنسان عاقل العزم عليها أو بمعنى كل أمر محكم يطمأن إليه.

و اقتران الصبر بالتقوى فى هـذه الآيـة لعله إشارة إلى أن بعض الأشـخاص قـد يصبرون و لكنهم مع ذلك يظهرون الشـكوى، و يبدون التبرم بما لقوا، و لكن المؤمنين الصادقين هم الذين يمزجون الصبر بالتقوى دائما و أبدا و يتجنبون مثل ذلك السلوك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۸۷]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ (۱۸۷)

التّفسير

بعد ذكر جملة من أعمال أهل الكتاب المشينة و مخالفاتهم تشير الآية الحاضرة إلى واحدة أخرى من تلك الأعمال و المخالفات، ألا و هو كتمان الحقائق فتقول: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ أى اذكروا إذ أخذ اللّه مثل هذا الميثاق منكم.

و الملفت للنظر أن عبارة «لتبيّننه» جاءت مع لام القسم، و نون التأكيد الثقيلة، و ذلك نهاية فى التأكيد.

ثمّ أردفها- مع ذلك- بقوله: «و لا تكتمونه» الذى هو أمر صريح بعدم الكتمان و الإخفاء.

و من كل هذه التعابير يتضح أو يستفاد أن اللّه سبحانه قد أخذ بوساطة الأنبياء السابقين آكد المواثيق و العهود من أهل الكتاب لإظهار الحقائق، و بيانها، و لكنّهم رغم كل ذلك- خانوا تلك العهود و تجاهلوا تلك المواثيق، و أخفوا ما أرادوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰

إخفائه من حقائق الكتب السماوية، و لهذا قال سبحانه عنهم فَنَبَذُوهُ وَراءَ ظُهُورِهِمْ أنّها كناية رائعة عن عدم العمل بالواجب و تناسيه، لأن الإنسان إذا عزم على العمل بشىء و أراد جعله ملاكا له، فإن يجعله قدامه، و ينظر إليه مرة بعد اخرى، و لكنه إذا لم يرد العمل به و أراد تناسيه بالمرة أزاحه من وجهه، و ألقاه خلف ظهره.

ثمّ أنّه سبحانه أشار إلى حرص اليهود و جشعهم و حبّهم المفرط للدنيا إذ يقول: وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَبِئْسَ ما يَشْتَرُونَ

إن حبّهم الشديد للدنيا الذى بلغ حد العبادة، و انحطاطهم الفكرى آل بهم إلى أن يكتموا الحقائق لقاء مكاسب مادية، و لكن الآية تقول: أنهم لم يشتروا بذلك و لم يكسبوا إلّا ثمنا قليلا، و بئس ما يشترون.

و لو أنهم قد حصلوا لقاء كتمان الحقائق- هذه الجريمة الكبرى- على ثروة عظيمة و طائلة لكان ثمّة مجال لأن يقال: إنّ عظمة المال و الثروة قد أعمت أبصارهم و أسماعهم، و لكن الذى يدعو إلى الدهشة و العجب أنّهم باعوا كلّ ذلك لقاء ثمن بخس و متاع قليل، (طبعا المقصود هنا هو علماؤهم الدنيئو الهمة).

العلماء و الوظيفة الكبرى:

إن الآية الحاضرة و إن كانت قد وردت بحق أهل الكتاب (من اليهود و النصارى) إلّا أنّها فى الحقيقة تحذير و إنذار لكل علماء الدين و رجاله بأن عليهم أن يجتهدوا فى تبليغ الحقائق و بيان الأحكام الإلهية، و توضيحها و إظهارها بجلاء، و إن ذلك ممّا كتبه اللّه عليهم، و أخذ منهم ميثاقا مؤكدا و غليظا.

إنّ كلمة «لتبيّننه» و ما اشتقت منه فى أصل اللغة فى هذه الآية تكشف عن أنّ المقصود ليس هو فقط تلاوة آيات اللّه أو نشر ما احتوت عليه الكتب السماوية من كلمات و عبارات، بل المقصود هو عرض ما فيها من الحقائق على الناس،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱

و جعلها فى متناول الجميع بوضوح و دون غبش ليقف عليها الناس أجمعون من دون إبهام، و يتذوقونها بأرواحهم و أفئدتهم دون أيّة حجب و سدود.

فالذين يتقاعسون أو يقصرون فى عرض الحقائق الإلهية و بيانها و توضيحها للمسلمين لا شك تشملهم هذه الآية، و ينالهم نفس المصير الذى ذكره اللّه فيها لعلماء اليهود و أحبارهم.

فقد روى عن النّبى الأكرم- صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أنّه قال: «من كتم علما عن أهله ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

و عن الحسن بن عمار قال: أتيت الزهرى بعد أن ترك الحديث فألفيته على بابه فقلت: إن رأيت أن تحدّثنى فقال: أو ما علمت أنّى تركت الحديث، فقلت: إمّا أن تحدّثنى و إمّا أن أحدثك؟ فقال: حدّثنى فقلت:

حدّثنى الحكم بن عيينة عن نجم الجزار قال: سمعت على بن أبى طالب عليه السّلام يقول: «ما أخذ اللّه على أهل الجهل أن يتعلموا

حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا».

قال: فأطرق برأسه مليا بعد أن سمع قولى ثمّ قال: اسمع لأحدثك، فحدثنى أربعين حديثا.[۱۵] هذا و للتعرف- بصورة أكبر- على خيانات أحبار اليهود و علماء النصارى، راجع الآيات (۷۹ و ۱۷۴) من سورة البقرة، و الآيات (۷۱ إلى ۷۷) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲

الآيتان [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۸۸ الى ۱۸۹]

اشارة

لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۸۸) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۸۹)

سبب النّزول

ذكر المحدّثون و المفسرون أسبابا عديدة لنزول هذه الآية، منها أن اليهود كانوا يفرحون لما يقومون به من تحريف لآيات الكتب السماوية و كتمان حقائقها ظنا منهم بأنّهم يحصلون من وراء ذلك على نتيجة، و فى الوقت نفسه كانوا يحبّون أن ينسبهم الناس إلى العلم، و يعتبرونهم من حماة الدين فنزلت هذه الآية ترد على تصورهم الخاطئ هذا.

و قال آخرون أنّها نزلت فى شأن المنافقين، لأنهم كانوا يجمعون و يتفقون على التخلف عن الجهاد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا نشبت حرب من الحروب الإسلامية، متذرّعين لذلك بمختلف المعاذير و الحجج، فإذا عاد المجاهدون من القتال اعتذروا و حلفوا لهم بأنّهم كانوا يودّوا المشاركة لو لا بعض الأعذار، و أحبوا بالتالى أن يقبل منهم العذر و يحمدوا بما ليسوا عليه من الإيمان و بما لم يفعلوه من أفعال المجاهدين الصادقين. فنزلت هذه الآية ترد على هذا التوقع غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳

المبرر و غير الوجيه ۱۶].

التّفسير

المعجبون بأنفسهم:

المرتكبون لقبائح الفعال على نوعين: طائفة تستحى من أفعالها فور انتباهها إلى قبح ما فعلت، و هى لم تفعل ما فعلت من القبيح إلّا لطغيان غرائزها، و هيجان شهواتها، و هذه الطّائفة سهلة النّجاة جدا، لأنها تندم بعد كل قبيح ترتكبه، و تتعرض لوخز ضميرها و عتب وجدانها باستمرار.

بيد أنّ هناك طائفة اخرى ليست فقط لا تشعر بالندم و الحياء ممّا ارتكبت من الإثم، بل هى على درجة من الغرور و الإعجاب بالنفس بحيث تفرح بما فعلت، بل تتبجح به و تتفاخر، بل و فوق ذلك تريد أن يمدحها الناس على ما لم تفعله أبدا من صالح الأعمال و حسن الفعال.

إنّ الآية الحاضرة تقول عن هؤلاء: لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا وَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ

الْعَذابِ أى لا تحسبن أن هؤلاء يعذرون على موقفهم هذا و ينجون من العذاب، إنّما النجاة لمن يستحون- على الأقل- من أعمالهم القبيحة، و يندمون على أنّهم لم يفعلوا شيئا من الأعمال الصالحة.

إنّ هؤلاء المعجبين بأنفسهم ليسوا فقط ضلّوا طريق النجاة و حرّموا من الخلاص، بل وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ينتظرهم.

و يمكن أن نستفيد من هذه الآية أن ابتهاج الإنسان بما وفق لفعله و إتيانه من صالح الإعمال ليس مذموما (إذا كان ذلك لا يتجاوز حد الاعتدال، و لم يكن سببا للغرور و العجب)، و هكذا الحال فى رغبة الإنسان فى التشجيع و الإجلال على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴

الأفعال الحسنة إذا كان- كذلك- فى حدود الاعتدال، و لم يكن الإتيان بتلك الأعمال الصالحة بدافع الحصول على ذلك، لأن كل ذلك من غريزة الإنسان و مقتضى فطرته. و لكن أولياء اللّه و من هم فى المستويات العليا من الإيمان بعيدون حتى من مثل هذا الابتهاج المباح و حبّ التقدير الغير المذموم.

إنّهم يرون أعمالهم دائما دون المستوى المطلوب، و يشعرون أبدا بالتقصير تجاه ربّهم العظيم، و بالتفريط فى جنبه سبحانه و تعالى.

على أنّه ينبغى أن لا نتصور أنّ الآية الحاضرة- مورد البحث- تختص بأهل النفاق فى صدر الإسلام أو من شاكلهم- فى كل عصر و زمان- و فى جميع الظروف و المجتمعات المختلفة، ممن يفرحون و يبتهجون بأعمالهم القبيحة أو يحركون الآخرين ليحمدوهم على ما لم يفعلوه بالقلم أو اللسان.

إنّ مثل هؤلاء مضافا إلى العذاب الأليم فى الآخرة، سيصيبهم- فى هذه الحياة- غضب الناس و سخطهم، و سيؤول أمرهم إلى الانفصال عن الآخرين و إلى غير ذلك من العواقب السيئة.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول فى آية لاحقة: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا الكلام يتضمن بشرى للمؤمنين، و تهديدا للكافرين، فهى تقول: إنّه لا داعى لأن يسلك المؤمنون لإحراز التقدم طرقا و سبلا منحرفة، و أن يحمدوا على ما لم يفعلوه، ذلك لأنّهم يقدرون أن يواصلوا تقدمهم، و يحرزوا النجاحات بالاستفادة من السبل المشروعة و الصحيحة و فى ظل قدرة اللّه خالق السماوات و الأرضين، كما أنّه على المنافقين و العصاة أن لا يتصوروا أنّهم قادرون على إحراز شىء أو على الخلاص و النجاة من عقاب خالق الكون و ربّ السماوات و الأرضين بسلوك هذه السبل المنحرفة و استخدام هذه الأساليب غير المشروعة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۹۰ الى ۱۹۴]

اشارة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ (۱۹۰) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ (۱۹۱) رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۱۹۲) رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ (۱۹۳) رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ (۱۹۴)

التّفسير

أهمية هذه الآيات:

لا شك أنّ جميع الآيات القرآنيـة تتمتّع بأهميـة كبرى لأنّها جميعا كلام اللّه، و آياته التى نزلت لتربية الإنسان و نجاته و خلاصه، و إلّا أنّ هنـاك من الآيـات مـا تحظى و تتميز على سواهـا ببريق خاص، و من هـذا الصـنف ما نقرؤه الآن من الآيات الخمسـة التى تعـد من القمم القرآنية العظيمة التأثير، و التى امتزجت فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶

مجموعـة من معـارف الـدين بلحن لطيف و سـاحر من المناجـاة و الـدعاء، فإذا هى نعمـة سـماوية تدغـدغ المشاعر، و تثير الشـعور، و تحرك ما غفا من العقل و الضمير.

و لهذا أولتها الأحاديث و الأخبار المروية أهمية خاصّة و مكانة سامية بين غيرها من الآيات.

عن «عطاء بن رباح» قال: قلت لعائشـة: أخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قالت: و أى شأن لم يكن عجبا، أنّه أتانى ليلة فدخل معى فى لحافى ثمّ قال: ذرينى أتعبد لربّى، فقام فتوضأ ثمّ قام يصـلى، فبكى حتى سالت دموعه على صدره فركع فبكى، ثمّ سـجد فبكى، ثمّ رفع رأسه فبكى فلم يزل كـذلك حتى جاء بلال فأذنه بالصـلاة، فقلت: يا رسول اللّه ما يبكيك و قد غفر اللّه لـك مـا تقـدم من ذنبـك و مـا تـأخر؟ قـال: أ فلا أكون عبـدا شـكورا، و لم لا أفعل و قـد أنزل علىّ هـذه الليلـة: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ إلى قوله- سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ ثمّ قال: «ويل لمن قرأها و لم يتفكر فيها»[۱۷]

و العبارة الأخيرة التى تأمر الجميع- بتأكيد كبير- بأن يفكروا فى هذه الآيات، و قد رويت فى روايت عديدة بعبارات مختلفة.

و

فى روايـة عن أمير المـؤمنين عليه السّـلام أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كـان إذا قـام الصـلاة الليـل يسوك، ثمّ ينظر إلى السماء ثمّ يقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ... إلى قوله تعالى: فَقِنا عَذابَ النَّارِ[۱۸].

و ورد عن الأئمّة من أهل البيت عليه السّلام الأمر بقراءة هذه الآيات الخمس وقت القيام بالليل للصلاة[۱۹].

و

عن نوف البكالى قال: بت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السّلام فكان يصلى الليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷

كلّه، و يخرج ساعة بعد ساعة فينظر إلى السـماء و يتلو القرآن- و يردد هذه الآيات- فمرّ بى بعد هدوء الليل، فقال: يا نوف أ راقد أنت أم رامق؟.

قلت: بل رامق ببصرى يا أمير المؤمنين.

قال: «يا نوف طوبى للزاهدين فى الدنيا الراغبين فى الآخرة، أولئك الذين اتخذوا الأرض بساطا، و ترابها فراشا، و ماءها طيبا، و القرآن دثارا، و الدعاء شعارا ...»[۲۰].

التّفسير

أوضح السّبل لمعرفة اللّه:

آيـات القرآن الكريم ليست للقراءة و التلاـوة فقـط، بـل نزلت لكى يفهم النـاس مقاصـدها و يـدركوا معانيها، و ما التّلاوة و القراءة إلّا

مقدمة لتحقيق هذا الهدف، أى التفكر و التدبر و الفهم، و لهذا جاء القرآن فى الآية الأولى من الآيات الحاضرة يشير إلى عظمة خلق السماوات و الأرض، و يقول: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ ۲۱].

و بهذا يحثّ الناس على التفكر فى هذا الخلق البديع و العظيم، ليصيب كلّ واحد منهم- بقدر استعداده، و قدرته على الإستيعاب- من هذا البحر العظيم الذى لا يدرك له ساحل و لا قعر، و يرتوى من منهل أسرار الخلق العذب.

حقّا أنّ هذا الكون العظيم بما فيه من نظام متقن و بديع، و نقوش رائعة، و لوحات خلابة كتاب بالغ العظمة، كتاب فى كلّ حرف من حروفه، و كل سطر من أسطره دليل ساطع على وجود اللّه الخالق المبدع و وحدانيته، و تفرّده ۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸

إنّ هذا النقش الساحر الآسر للقلوب، المبثوث فى كل ناحية من نواحى هذا الكون العريض يشدّ إلى نفسه فؤاد كلّ لبيب و عقله شدّا- يجعله يتذكر خالقه، فى جميع الحالات، قائما أو قاعدا، و حين يكون فى فراشه نائما على جنبه، و لهذا يقول سبحانه: الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِهِمْ أى أنّهم مستغرقون كامل الاستغراق فى التفكير الحيوى حول هذا الكون الرائع و نظامه البديع و مبدعه، و مبديه.

و لقد أشير- فى هذه الآية- إلى الذكر أوّلا، ثمّ إلى الفكر ثانيا، و يعنى ذلك أن ذكر اللّه وحده لا يكفى، إنّ الذكر إنّما يعطى ثماره القيّمة إذا كان مقترنا بالفكر، كما أنّ التفكر فى خلق السماء و الأرض هو الآخر لا يجدى و لا يوصل إلى النتيجة المتوخاة ما لم تقترن عملية التفكر بعملية التذكر، و بالتالى لا يقرن الفكر بالذكر.

فما أكثر العلماء الذين يقفون- فى تحقيقاتهم الفلكية و الفضائية- على مظاهر رائعة من النظام الكونى البديع، و لكنّهم حيث لا يتذكرون اللّه و لا ينظرون إلى كل هذه المظاهر بمنظار الموحد الفاحص، بل ينظرون إليها من الزاوية العلمية المجردة البحتة، فإنّهم لا يقطفون من هذه التحقيقات ما يترتب عليها من النتائج التربوية و الآثار الإنسانية، و مثلهم فى ذلك مثل من يأكل طعاما ليقوى به جسمه فلا يكون لما يأكله أى أثر فى تقوية فكره و روحه.

إنّ التفكير فى أسرار الخليقة، و فى نظام السماء و الأرض يعطى للإنسان وعيا خاصّا و يترك فى عقله آثارا عظيمة، و أوّل تلك الآثار هو الانتباه إلى هدفية الخلق و عدم العبثية فيه، فالإنسان الذى يلمس الهدفية فى أصغر أشياء هذا الكون كيف يمكنه أن يصدق بأنّ الكون العظيم بأسره مخلوق من دون هدف، و مصنوع من دون غاية؟

لو أنّنا نظرنا فى تركيبة نبتة معينة للاحظنا أهدافا واضحة فيها، و هكذا نلاحظ مثل تلك الأهداف فى قلب الإنسان و ما فيه من حفر، و صمامات، و أبواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹

و بطون، فكلّ شىء فيه مخلوق لغاية، و مجعول لهدف، و كذا الحال فى طبقات العين، بل و حتى الأجفان، و الأظافر، كل واحد منها يؤدى دورا، و يحقق غاية، فهل يمكن أن يكون لهذه الأجزاء الصغيرة جدا بالنسبة للكون العظيم أهداف واضحة و غايات ملحوظة، و لا يكون لمجموعه المتمثل فى الظاهرة الكونية الهائلة العظيمة أى هدف مطلقا؟ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.

إنّ العقلاء لا يمكنهم و هم يواجهون هذه الحقيقة الساطعة إلّا أن يقولوا بخشوع هذه الجملة: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ أى ربّنا إنّك لم تخلق هذا العالم العظيم، و هذا الكون الذى لا يعرف له حدّ، و هذا النظام المتقن البديع الّا على أساس الحكمة و المصلحة، و لهدف صحيح، فكل هذا آية وحدانيتك، و كل هذا ينزّهك عن اللغو و العبث.

إن أصحاب العقول السليمة الواعية بعد أن يعترفوا بالهدفية فى الخليقة يتذكرون أنفسهم فورا، و كيف يعقل أن يكونوا- و هم ثمرة هذا الموجود نفسه و هذا الكون بالذات- قد خلقوا سدى، أو جاؤوا إلى هذه الحياة عبثا، و أنّه ليس هناك من هدف سوى تربيتهم و تكاملهم!! إنّهم لم يأتوا إلى هذه الحياة لأجل أن يعيشوا فيها أيّاما سرعان ما تفنى و تنقضى، فذلك أمر لا يستحق كلّ هذا العناء و

التعب كما لا يليق بمكانة الإنسان و لا يتناسب مع حكمة اللّه العليا، بل هناك دار اخرى تنتظرهم حيث يجدون فيها جزاء أعمالهم، أن خيرا فخير، و إن شرّا فشر، و فى هذه اللحظة ينتبهون إلى مسئولياتهم، و يسألون اللّه التوفيق للقيام بها حتى يتجنبوا عقابه، و لهذا يقول: فَقِنا عَذابَ النَّارِ ثمّ يقول: رَبَّنا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ....

و يستفاد من هذه العبارات أنّ العقلاء يخافون من الخزى قبل أن يخافوا من نار جهنم، و هذا هو حال كل من يمتلك شخصية، فإنّه مستعد لأن يتحمل كلّ شيء من الأذى و المحن شريطة أن يحافظ على شخصيته، و لهذا فإن أشدّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰

عقوبات الآخرة على هؤلاء هو الخزى فى محضر اللّه و عند عباده.

على أن النقطة الجديرة بالاهتمام التى تنطوى عليها جملة وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ هى أن العقلاء بعد التعرف على الأهداف التربوية المطلوبة للإنسان يقفون على هذه الحقيقة و هى أن الوسيلة الوحيدة لنجاح الإنسان و نجاته هى أعماله و ممارساته، و لهذا لا يمكن أن يكون للظالمين أى أنصار، لأنّهم فقدوا النصير الأصلى و هو العمل الصالح، و التركير على لفظة «الظلم» إمّا لأجل خطورة هذه المعصية من بين المعاصى الاخرى، و إمّا لأن جميع الذنوب ترجع إلى ظلم الإنسان لنفسه.

على أنّه ليست ثمّة أيّة منافاة بين هذه الآية و مسألة الشفاعة (بمعناها الصحيح) لأنّ الشفاعة (كما قلنا سابقا فى بحث الشفاعة) تحتاج إلى قابلية و أهلية خاصّة فى المشفوع له، و هذه الأهلية و الصلاحية لشمول الشفاعة تحصل فى ضوء بعض الأعمال الصالحة الخيرة.

ثمّ إنّ أصحاب العقول و ذوى الألباب بعد التعرف على هدف الكون و الغاية من الخلق ينتبهون إلى هذه النقطة، و هى أنّ هذا الطريق الوعر يجب أن لا يسلكه أحد بدون قيادة الهداة الإلهيين، و لهذا فهم يترصّدون نداء من يدعوهم إلى الإيمان بصدق و إخلاص و يستجيبون لأوّل دعوة يسمعونها منه و يسرعون إليه، و يعتنقونها بعد أن يحققوا فيها، و يتأكدوا من صدقها و صحّتها و يؤمنون بها بكلّ وجودهم، و لهذا يقولون فى محضر ربّهم:

رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ.

أى ربّنا الآن و قد أمنا بكل وجودنا و إرادتنا، و لكننا يحيط بنا طوفان الغرائز المختلفة من كلّ جانب، فربّما ننزلق و ربّما نزلّ و نرتكب معصية، ربّنا فاغفر لنا زلتنا، و استر عثرتنا، و توفّنا مع الأبرار الصالحين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱

لقد اتصل هؤلاء بالمجتمع الإنسانى اتصالا عجيبا، و تركوا التفرد و الأنانية إلى درجة أنّهم يطلبون من اللّه فى دعواتهم أن لا يجعلهم مع الأبرار و الصالحين فى حياتهم فحسب، بل يجعل مماتهم- سواء أ كان مماتا طبيعيا أو بالشهادة فى سبيل اللّه- كممات الأبرار الصالحين أيضا، أو يحشرهم معهم، لأن الموت مع الأشرار موتة مضاعفة، و عناء مضاعف.

و هنا يطرح سؤال و هو: ما ذا يعنى الستر على السيئات بعد طلب غفرانها؟

و الجواب هو: مع ملاحظة بقية الآيات القرآنية تتضح حقيقة الإجابة على هذا السؤال، فإن الآية ۳۱ من سورة النساء تقول: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ فيستفاد من ذلك أنّ السيئات تطلق على المعاصى الصغيرة، و لهذا فإنّ العقلاء ذوى الألباب يطلبون من اللّه فى أدعيتهم و ضراعاتهم أن يغفر لهم ذنوبهم الكبيرة، و يستر- عقب ذلك- على ذنوبهم الصغيرة، و يمحو آثارها من الوجود.

ثمّ أن هؤلاء العقلاء يطلبون من ربّهم فى نهاية المطاف، و بعد أن يسلكوا طريق الإيمان و التوحيد و إجابة دعوة الأنبياء و القيام بالواجبات الموجهة إليهم، أن يؤتيهم وعدهم على لسان الرسل فيقولون: رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ أى ربّنا لقد وفينا بالتزاماتنا، فأتنا ما وعدتنا عن طريق أنبيائك و رسلك و لا تفضحنا و لا تلحق بنا الخزى يوم القيامة: وَ لا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ.

إنّ التركيز على «الخزى» يؤكّد مرّة أخرى هذه الحقيقة الهامّة، و هى أن هؤلاء بسبب ما يرون لشخصيتهم من أهمية و احترام يعتبرون «الخزى» من أشد ما يلحق بالإنسان من الأذى، و لهذا يركزون عليه دون سواه من ألوان العقوبات.

و

فى مستدرك الوسائل نقلا عن أبى الفتوح الرّازى فى تفسيره، أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: من كان له إلى اللّه حاجة فليقل خمس مرات ربّنا يعطى حاجته، و مصداق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲

ذلك فى كلام اللّه فى قوله تعالى: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا إلى آخر الآيات فيها ربّنا خمس مرّات ثمّ قال تعالى: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ۲۳].

و من الواضح الذى لا يخفى أن التأثير الواقعى و العميق لهذه الآيات، إنما يتحقق إذا وافق اللسان فى ما يقوله القلب و العمل، و أن يحل مضمون هذه الآيات الذى يكشف عن طريقة تفكير اولى الألباب و شدّة حبّهم للّه، و إحساسهم بالمسؤوليات الملقاة على عواتقهم، و القيام بواجباتهم، فى فؤاد قارئها و قلبه، فيحصل له نفس ذلك الخضوع و الخشوع الحاصل لأولى الألباب عند مناجاتهم للّه، و تضرعهم إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹۵]

اشارة

فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِى سَبِيلِى وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ (۱۹۵)

سبب النّزول

هذه الآية تعقيب على الآيات السابقة حول أولى الألباب و العقول النّيرة و نتيجة أعمالهم، و الشروع بفاء التفريع- فى هذه الآية- أوضح دليل على هذا الارتباط، و مع ذلك ذكرت أسباب نزول متعددة لها فى الأحاديث و أقوال المفسرين، لكنها لا تنافى- فى حقيقتها- الارتباط الذى ذكرناه لهذه الآية مع الآيات السابقة.

و من جملة ذلك ما نقل عن أمّ سلمة (و هى إحدى زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أنّها قالت للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رسول اللّه ما بال الرجال يذكرون فى الهجرة دون النساء؟

فأنزل اللّه هذه الآية.

كما نقل أيضا أنّ عليّا عليه السّلام لما هاجر بالفواطم (و هن فاطمة بنت أسد، و فاطمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴

بنت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فاطمة بنت الزبير) من مكّة إلى المدينة، و لحقت به أم أيمن- و هى إحدى زوجات النّبى المؤمنات- فى أثناء الطريق نزلت الآية الحاضرة[۲۴].

و المسألة كما قلناه، فإن الأسباب المذكورة لنزول الآية لا تنافى الارتباط الذى أشرنا إليه بين هذه الآية. و الآيات السابقة، كما أنه لا

تنافى أيضا بين هذين السببين المذكورين للآية أيضا.

التّفسير

النّتيجة الطّيبة لموقف أولى الألباب:

فى الآيات الخمس الآنفة استعرض القرآن الكريم موجزا من إيمان أولى الألباب و العقول النّيرة، و برامجهم العملية، و طلباتهم و أدعيتهم، و فى هذه الآية يقول سبحانه: فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ و التعبير بلفظة «ربّهم» حكاية عن غاية اللّطف، و منتهى الرحمة الإلهية بالنسبة إليهم: ثمّ يضيف قائلا: أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ دفعا للاشتباه و التوهم الذى قد يسبق إلى الذهن بأنه لا ارتباط بين الفوز و النجاة، و بين أعمال الإنسان و مواقفه، ففى هذه العبارة إشارة واضحة إلى أصل «العمل» و إشارة أيضا إلى عامله، حتى يتبيّن أن الملاك و المحور الأصلى لقبول الدعاء و استجابته هو الأعمال الصالحة الناشئة من الإيمان، و أنّ الأدعية التى تستجاب فورا هى تلك التى يدعمها العمل الصالح.

ثمّ أنّه سبحانه يقول: مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ و هذا لأجل أن لا يتصور أحد أنّ هذا الوعد الإلهى يختص بطائفة معينة كالذكور دون الإناث مثلا، فلا فرق فى هذا الأمر بين أن يكون العامل ذكرا أو يكون أنثى، لأنّ الجميع يعودون فى أصل الخلقة إلى مصدر واحد بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى تولد بعضكم من بعض، النساء من الرجال، و الرجال من النساء، فلا تفاوت فى هذه المسألة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵

إذن بين الذكر أو الأنثى، فلما ذا يكون تفاوت فى الجزاء و الثواب؟

و يمكن أن تكون عبارة بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ إشارة إلى أنّكم جميعا أتباع دين واحد، و رواد منهج واحد و أنصار حقيقة واحدة، فلا معنى لأن يفرق اللّه سبحانه بين جماعة و اخرى و يميز بين طائفة و طائفة، و جنس و آخر.

ثمّ أنّه سبحانه يستنتج من ذلك إذ يقول: فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ أى أنّ اللّه سبحانه كتب على نفسه أن يغفر لهؤلاء ذنوبهم، جاعلا من هذه المشاق و المتاعب التى نالتهم كفارة لذنوبهم، ليطهروا من أدرانها تطهيرا.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ مضافا إلى غفران ذنوبهم و التكفير عنهم.

و هذا هو الثواب الإلهى لهم على ما قاموا به من تضحية و فداء ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ ... إنّ لهم أفضل الأجر عند اللّه و أحسنه، و قوله:

وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ إشارة إلى أنّ الأجر الإلهى و المثوبات الإلهية ليست قابلة للوصف للناس بشكل كامل فى هذه الحياة، بل يكفى أن يعلموا بأنّه أفضل و أعلى من أى ثواب.

هذا و يستفاد- جيدا- من هذه الآية أن الإنسان لا بدّ أن يتطهّر من أدران الذنوب فى ظل العمل الصالح أوّلا، ثمّ يدخل فى رحاب القرب الرّبانى و النعيم الإلهى، لأنّه سبحانه قال أوّلا: لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ثمّ قال: لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ

و بعبارة اخرى: أنّ الجنّة مقام المتطهرين، و لا طريق لمن لم يتطهر إليها.

القيّمة المعنويّة للرّجل و المرأة:

إن الآية الحاضرة- كبقية الآيات القرآنية الاخرى- تساوى بين الرجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶

و المرأة عند اللّه، و فى مسألة الوصول إلى الدرجات المعنوية، و لا تفرق بينهما بسبب اختلافهما فى الجنس، و لا تعتبر الفروق العضوية و ما يلحقها من الفروق فى المسؤوليات الاجتماعية دليلا على اختلافهما فى إمكانية الحصول على درجات التكامل الإنسانى و بلوغهما للمقامات المعنوية الرفيعة، بل تعتبرهما فى مستوى واحد- من هذه الجهة- و لذلك ذكرتهما معا.

إن اختلافهما فى التكاليف و توزيع المسؤوليات يشبه إلى حد كبير الاختلاف الذى تقتضيه مسألة النظام و الانضباط حيث يختار شخص كرئيس، و آخر كمعاون و مساعد، فإنّه ينبغى أن يكون الرئيس أكثر حنكة و أوسع علما، و أكثر تجربة فى مجال عمله، و لكن هذا التفاوت و الاختلاف فى مراتب المسؤولية و سلم الوظائف لا يكون دليلا مطلقا على أن شخصية الرئيس و قيمته الوجودية أكثر من شخصية معاونيه و مساعديه، و قيمتهم الوجودية.

إنّ القرآن الكريم يقول بصراحة: وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ ۲۵].

و يقول فى آية اخرى: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ۲۶].

هذه الآيات و غيرها من الآيات القرآنية الاخرى نزلت فى عصر كان المجتمع البشرى فيه يشك فى إنسانية جنس المرأة أساسا، بل و يعتقد أنها كائن ملعون، و أنها منبع كل إثم و انحراف و موت و فساد.

لقد كان الكثير من الشعوب الماضية تذهب فى نظرتها السلبية تجاه المرأة إلى درجة أنها تعتقد أحيانا إنّ عبادة المرأة و ما تقدمه فى سبيل اللّه لا تقبل، و كان الكثير من اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة كائن نجس و شرير و أنّها من عمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷

الشّيطان، و كان الرّوم و بعض اليونانيين يعتقدون أنّ المرأة ليست ذات روح إنسانية أساسا، و أن الرجل وحده هو الذى يحمل بين جنبيه مثل هذه الروح دون غيره.

و الملفت للنظر أن العلماء المسيحيين فى أسبانيا كانوا يبحثون- حتى إلى الآونة الأخيرة- فى أن المرأة هل تملك- مثل الرجل- روحا إنسانية أم لا؟ و أن روحها هل تخلد بعد الموت أم لا؟

و قد توصلوا- بعد مداولات طويلة- إلى أن للمرأة روحا برزخية، و هى نوع متوسط بين الروح الإنسانية و الروح الحيوانية، و أنه ليس هناك روح خالدة- بين أرواح النساء- إلّا روح مريم ۲۷].

من هنا يتضح مدى ابتعاد بعض المغفلين عن الحقيقة حيث يتهمون الإسلام أنّه دين الرجال دون النساء.

إنّ بعض الاختلاف فى نوع المسؤوليات الاجتماعية الذى يقتضيه اختلافات فى التركيب العضوى و العاطفى لدى الرجل و المرأة لا يضرّ بالمرأة و قيمتها المعنوية أساسا، و لهذا لا يختلف الرجل و المرأة من هذه الجهة، فأبواب السعادة و التكامل الإنسانى مفتوحة فى وجهيهما كليهما على السواء كما ذكرنا ذلك عند البحث فى قوله تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸

الآيات [سورة آل‌عمران (۳): الآيات ۱۹۶ الى ۱۹۸]

اشارة

لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (۱۹۶) مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۹۷) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ (۱۹۸)

سبب النّزول

كان أكثر مشركى مكّة أهل تجارة، و قد كانوا يحصلون من هذا الطريق على ثروة ضخمة، يتنعمون بها، و هكذا كان يهود المدينة أهل تجارة، و كانوا يعودون من رحلاتهم التّجارية على الأغلب موفورين، فى حين كان المسلمون بسبب أوضاعهم الخاصّة، لا سيما بسبب الهجرة، و الحصار الذى كان مشركو مكّة قد فرضوه عليهم، يعانون من وضع اقتصادى صعب جدا، و بكلمة واحدة كانوا يعيشون فى عسرة شديدة.

فكانت مقارنة هاتين الحالتين تطرح على البعض السّؤال التالى: كيف يتنعّم أعداء اللّه فى العيش الرخى، بينما يقاسى المؤمنون ألم الجوع و الفقر المدقع؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹

فنزلت الآيات الحاضرة تجيب على هذا التساؤل ۲۸].

التّفسير

سؤال مزعج:

السّؤال الذى مرّ ذكره فى سبب نزول هذه الآيات و الذى كان يطرحه بعض المسلمين فى عصر النّبى يعتبر سؤالا عاما يطرح نفسه على الناس فى كل زمان و مكان.

فإنّهم يرون كيف يتنعم العصاة و الطّغاة، و الفراعنة و الفسّاق، و يرفلون فى النعيم، و يعيشون الحياة الرفاهية، و الرخاء العريض، و يقيسونه- غالبا- بحياة الشدّة و العسرة التى يعيشها جماعة من المؤمنين، و يقولون متسائلين: كيف ينعم أولئك العصاة- مع ما هم عليه من الإثم و الفساد و الجريمة- بمثل تلك الحياة الرخية، بينما يعيش هؤلاء- مع ما هم عليه من الإيمان و التقوى و الصلاح- فى مثل هذه الشدّة و العسرة، و ربّما أدى هذا الأمر ببعض ضعفاء الإيمان إلى الشك و التّردد.

و لو أنّنا درسنا هذا السؤال بصورة دقيقة و جيدة، و حللنا عوامل الأمر و أسبابه فى كلا الجانبين، لظهرت أجوبة كثيرة على هذا التساؤل، و قد أشارت هذه الآيات إلى بعضها، و يمكننا الوقوف على بعضها الآخر بشىء من التأمل و الفحص.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات: لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ و المخاطب فى هذه الآية و إن كان شخص النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلا أنه من الواضح البيّن أن المراد هو عموم المسلمين.

ثمّ تقول: مَتاعٌ قَلِيلٌ أى أنّ هذه النّجاحات المادية التى يحرزها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰

المشركون، و هذه الثروات الهائلة التى يحصلون عليها من كل سبيل ليست سوى متاع قليل، و لذّة عابرة.

ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ فالملذات المادية تستعقب عواقب سيئة، فإنّ مسئولية هذه الأموال و الثروات ستجرّهم إلى مصير مشؤوم، ذلك هو الجحيم الذى ستكون محطتهم الأخيرة و مآلهم و بئس المآل.

إنّ هذه الآية تشير- فى الحقيقة- إلى نقطتين:

الأولى: إنّ أكثر مظاهر تفوّق هؤلاء العصاة الطّغاة الظالمين محدودة الأبعاد، كما أنّ متاعب أكثر المؤمنين و مشاكلهم و محنهم كذلك مؤقتة، و محدودة أيضا.

و أفضل شاهد على هذا الموضوع هو ما نلاحظه فى حياة المسلمين و حياة أعدائهم و مناوئيهم فى صدر الإسلام.

فحيث أنّ الحكومة الإسلامية كانت آنذاك فى بداية أمرها كنبتة شابّة لا تمتلك كل عناصر القوّة و المنعة لم تكن تملك القدرة الكاملة على الدفاع عن حوزتها و كيانها أمام هجوم أعدائها الألداء الذين كانوا يهاجمونها بشراسة و دونما رحمة، و خاصّة أنّ هجرة المسلمين الذين كانوا جماعة قليلة فى مكّة جعلتهم فى وضع حرج جدّا إلى درجة أنّهم فقدوا كل شىء فى الهجرة، و لا يختص مثل هذا الوضع بهم، بل يتعرض لمثل هذه المعاناة و مثل هذا الوضع كل من يناصر ثورة تغييرية، و نهضة معنوية و روحية جذرية فى مجتمع فاسد يراد تغييره بها.

و لكننا نعلم أنّ هذا الوضع لم يدم طويلا، فما لثبت الحكومة الإسلامية إلّا أن ترسخت جذورها و قويت دعائمها، و اشتدّ أمرها، و قويت شوكتها، و انحدرت الأموال إلى مركز الإسلام من كل صوب و حدب، فانعكس الوضع تماما، إذ عاد المترفون الكافرون و الأعداء المتنعمون الذين كانوا يرفلون فى النعيم و الخير مساكين و فقدوا كل ذلك النعيم، و هذا هو ما يعنيه قوله سبحانه: مَتاعٌ قَلِيلٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱

الثّانية: إن النّجاحات المادية التى يحرزها بعض العصاة و الفاسقين إنّما هى لكونهم لا يتقيدون فى جمع الثّروة بأى قيد أو شرط، فهم يجمعون المال من كل سبيل، سواء كان مشروعا أم غير مشروع، حراما كان أم حلالا، بل إنّهم يجوزون لأنفسهم اكتناز الثروة حتى على حساب الضعفاء و الفقراء و امتصاص دمائهم، فى حين يتقيد المؤمنون بمبادئ الحق و العدالة فى هذا المجال، فلا يسوغون لأنفسهم بأن يكتسبوا المال من أى طريق كان، و أى سبيل اتفق، و لهذا لا يمكن (أو لا تصح) المقارنة و المقايسة بين هؤلاء و هؤلاء.

هؤلاء يشعرون بالمسؤولية الثّقيلة، و أولئك لا يشعرون بأية مسئولية، و لا يعترفون بأى ضابطة، و حيث إن الحياة الحاضرة حياة الإرادة البشرية الحرّة، و عالم الإختيار الحر، كان طبيعيا أن يترك اللّه سبحانه كلتا الطائفتين أحرارا ليتصرفوا كيف شاؤوا، و لينتهوا فى المآل إلى نتائج أعمالهم التى اكتسبوها بأيديهم، و هو ما يقصده و يعنيه سبحانه، بقوله فى ختام هذه الآية: ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ.

معرفة نقاط الضّعف و القوّة معا:

ثمّ أن هناك سببا آخر لتقدم و نجاح بعض الكفار و الفاسقين، و تأخر بعض المؤمنين هو أن الطائفة الأولى رغم خلوهم من عنصر الإيمان يتحلون- أحيانا- ببعض نقاط القوّة التى يحققون فى ظلّها ما يحققون من المكاسب، و يحرزون ما يحرزون من النجاحات، فيما تعانى الطائفة الثانية من نقاط ضعف توجب تأخرهم و انحطاطهم.

فنحن نعرف أشخاصا- رغم انقطاعهم عن اللّه- يتسمون بالجدّية الكبيرة فى أعمالهم، و يتحلّون بالاستقامة و العزم، و التنسيق و التعاون فيما بينهم، و المعرفة بقضايا العصر و متطلباته، و مقتضياته و مستجداته، و من الطبيعى أن يحقق هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲

مكاسب كبيرة و يحرزوا انتصارات و نجاحات فى حياتهم المادية، و ما هم فى هذا الأمر- فى الحقيقة- إلّا مطبقون لتعاليم الدين و برامجه من دون إسنادها إلى الدين و إعطائها صفته و صبغته.

و فى المقابل، هناك أشخاص متدينون أوفياء للعقائد الدينية، لكنهم بسبب غفلتهم عن تعاليم الدين الحيوية يعانون من الجبن و الإحجام، و يفتقرون إلى الشهامة و الاستقامة و يفقدون عنصر الثبات و الاستمرار و الاتحاد و التعاون، و طبيعى أن يصاب هذا الصنف من الناس بإخفاقات متلاحقة و هزائم متتابعة، و لكن هذه الهزائم و الإخفاقات ليست أبدا بسبب إيمانهم باللّه، بل هى بسبب ما بهم

من نقاط الضعف، و ما بأنفسهم من عوامل الهزيمة، و موجبات السقوط و الإخفاق.

إنّهم يتصورون (و بالأحرى يظنون) بأنهم سيتنصرون بمجرد الصلاة و الصوم فى جميع المجالات، و ينجحون فى جميع المواقف، فى حين جاء الدين بسلسلة من البرامج و المناهج العملية الحيوية للتقدم و النجاح فى الحياة، يستلزم تجاهلها الفشل و السقوط و الهزيمة.

إنّ لكلّ شىء سببا، و لكل نجاح مفتاحه الخاص، و وسيلته الخاصّة، و قد أتى الدّين بكل ذلك، و بيّنه فى تعاليمه و توصياته، فلا يمكن أن يتحقق نجاح بغيره هذه التعاليم و بغير هذه الوسائل.

و خلاصة القول: إنه لدى كل طائفة من هاتين الطائفتين نقاط ضعف، و نقاط قوّة، و لكل واحدة منها آثارها و نتائجها الطبيعية، غاية ما فى الأمر أنه قد تلتبس هذه الآثار و تشتبه على المرء عند التقييم و المحاسبة.

مثلا: هناك كافر يتمتع لسعيه و جهاده و استمراره فى أعماله بالحياة و يحقق فى هذا المجال النجاح تلو النجاح، و لكنّه إذ يفتقد عنصر الإيمان باللّه فإنّه يفتقر إلى نعمة الطمأنينة النفسية و فضيلة المشاعر الطاهرة، و الأهداف الإنسانية العالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳

يبقى أن نعرف أن ما ذكرناه من العوامل الثلاث لتقدم الكفار و نجاحهم، و تأخر بعض المؤمنين و فشلهم لا تصدق فى مكان واحد، بل لكل واحد منها مورده و مجاله الخاص.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد أن بيّن مصير الكفار فى الآية السابقة، بيّن هنا- فى الآية التى تلت تلك الآية- مصير المؤمنين، إذ قال: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أى إن الذين اتبعوا موازين الحق و العدل فى الوصول إلى المكاسب المادية، أو أنّهم بسبب إيمانهم تعرضوا للحصار الاقتصادى و الاجتماعى و لكنهم مع ذلك بقوا ملتزمين بالتقوى، فإنّه تعالى سيعوضهم عن كل ذلك بجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ.

و «النّزل» فى اللغة هو ما يعدّ للضيف من الكرامة و البر، و قال البعض: أنّه أول ما يقدم إلى الضّيف النازل من شراب أو فاكهة.

و على هذا يكون معنى الآية أن الجنات المذكورة مع كل ما فيها من المواهب المادية هى أوّل ما يقدّم يوم القيامة إلى المؤمنين المتقين، و أمّا الضيافة المهمّة و العليا فهى النعم و المواهب المعنوية التى عبر عنها سبحانه بقوله: وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۱۹۹]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۹۹)

سبب النّزول

هذه الآية- حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين- نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب الذين تركوا العصبية العمياء، و التحقوا بصفوف المسلمين، و كانوا يشكلون عددا معتدّا به من النصارى و اليهود.

و لكنّها حسب اعتقاد بعض المفسّرين أنّها نزلت فى النّجاشى ملك الحبشة العادل، و إن كان مفهومها أوسع من ذلك المورد.

ففى السنة التاسعة للهجرة و فى شهر رجب بالذات توفى النجاشى، فبلغ خبر وفاته إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإلهام إلهى فى اليوم الذى مات فيه و

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «اخرجوا فصلّوا على أخ لكم مات بغير أرضكم»

، قالوا: و من؟ قال: النجاشى، فخرج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى البقيع و كشف له من المدينة إلى أرض الحبشة فأبصر سرير النجاشى، و صلى عليه، فقال بعض المنافقين: انظروا إلى هذا يصلّى على علج نصرانى حبشى لم يره قطّ و ليس على دينه، فأنزل اللّه هذه الآية ردّا على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵

مقالتهم ۲۹].

هذا و يستفاد من هذه الرواية أن النجاشى اعتنق الإسلام بالكامل و إن لم يظهر ذلك.

التّفسير

أهل الكتاب ليسوا سواء:

قلنا- فى ما سبق- ان القرآن الكريم إذا تطرق إلى أمور حول إتباع الشرائع الاخرى لم ينظر إلى الجميع نظرة سواء، و لم يحسب لهم حسابا واحدا، و لم تتسم أبحاثه حولهم بصفة قومية أو حزبية علائية، بل ينطلق فى أحكامه من أسس اعتقادية و مبدئية، و لهذا ينتقد أعمالهم، و ممارساتهم و لا يتناول بسوء قومياتهم أو أجناسهم، و لهذا لا ينسى فضل تلك القلّة المؤمنة الصالحة منهم و التى تميزت عن الأكثرية الساحقة بصلاحها و حسن عملها، و لا يتجاهل قيمتها و مكانتها.

و المقام الذى نحن فيه هو أحد تلك الموارد التى جاء فيها الكلام عن هذه القلة المؤمنة الصالحة التى استجابت لدعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خضعت للحق.

فالآية الحاضرة بعد أن و بّخت كثيرا من أهل الكتاب على كتمانهم لآيات اللّه، و طغيانهم و تمردهم فى الآيات السابقة ذكرت هذه القلّة المؤمنة، و بينت خمسا من صفاتها الممتازة هى:

۱- يُؤْمِنُ بِاللَّهِ (أى أنهم يؤمنون باللّه عن طواعية و صدق).

۲- وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ (أى يؤمنون بالقرآن).

۳- وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ أى إيمانهم بنبىّ الإسلام نابع فى الحقيقة من إيمانهم بكتبهم السّماوية الواقعية التى بشّرت بهذا النّبى و دعت إلى الإيمان به إذا ظهر، فهم فى الحقيقة يؤمنون بكتبهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶

۴- خاشِعِينَ لِلَّهِ أى أنّهم مسلمون لأمر اللّه و خاضعون لإرادته، و هذا التسليم و الخضوع هو السبب الحقيقى لإيمانهم، و هو الذى فرّق بينهم و بين العصبيات الحمقاء، و حرّرهم من التعنت و الاستكبار تجاه منطق الحقّ.

۵- لا يَشْتَرُونَ بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا أى أنّهم ليسوا مثل بعض أحبار اليهود الذين يحرفون آيات اللّه حفاظا على مراكزهم و إبقاء على حاكميتهم على أقوامهم و جماعاتهم، وصولا إلى بعض المكاسب المادية.

و الإشارة إلى «الثّمن القليل» فى الآية للتلويح بما كان عليه أولئك الأحبار المحرفون للكلم من تفاهة الهمّة، و ضعف الطموح، و قصر النظر، و حقارة النفس.

هذا مضافا إلى أن كل أجر دون الأجر الإلهى حقير، و كل مكسب يحصل عليه الإنسان عوضا عن آيات اللّه فهو مكسب تافه و رخيص.

و سيكون لهذه الطائفة من أهل الكتاب بسبب هذه الصفات الإنسانية العالية هذا الموقف الواضح الحى، أجرهم عند ربّهم أُولئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و التعبير هنا بلفظة «ربّهم» إشارة إلى غاية لطفه سبحانه و منتهى رحمته بهم، كما أنه إشارة أيضا إلى أن اللّه هو الذى يهديهم فى هذه المسيرة الخيرة، و هو يتكفل بمساعدتهم، و يعينهم فى هذا الطريق.

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ فلا يتأخر عن إعطاء الصالحين المؤمنين أجرهم، كما لا يبطئ عن مجازاة المنحرفين و الظالمين.

و هذه العبارة بشارة إلى الصالحين المؤمنين، كما هى أيضا تحذير و تهديد للعصاة و المذنبين ۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷

الآية [سورة آل‌عمران (۳): آية ۲۰۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۲۰۰)

التّفسير

هذه الآية هى آخر الآيات من سورة آل عمران، و تحتوى على برنامج يتكون من أربع نقاط لعامّة المسلمين، و هى لذلك تبدأ بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

۱- «اصبروا»: إن أوّل مادة فى هذا البرنامج الذى يكفل عزّة المسلمين و انتصارهم هو الاستقامة و الثبات، و الصبر فى وجه الحوادث الذى هو- فى الحقيقة- أصل كلّ نجاح مادى، و علّة كل انتصار معنوى، و هو الأمر الذى يستحق حديثا مفصلا لما له من أثر جدّ مهم فى الانتصارات و النجاحات الفردية و الاجتماعية، و هو الذى

قال عنه الأمام على عليه السّلام فى حكمه و كلماته القصار: «إن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد».

۲- «و صابروا» و هى من المصابرة (من باب المفاعلة) بمعنى الصبر و الاستقامة و الثبات فى مقابل صبر الآخرين و ثباتهم و استقامتهم.

و على هذا فإن القرآن يوصى المؤمنين أوّلا بالصبر و الاستقامة (التى تشمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸

كل ألوان الجهاد، كجهاد النفس، و الاستقامة فى مواجهة مشاكل الحياة)، ثمّ يوصى ثانيا بالصبر و الثبات و الاستقامة أمام الأعداء، و هذا بنفسه يفيد أن الأمّة ما لم تتغلب و تنتصر فى جهادها مع النفس، و فى إصلاح ما بها من نقاط الضعف الداخلية يستحيل انتصارها على الأعداء، و هذا يعنى أن أكثر هزائمها أمام أعدائها إنّما هى بسبب ما لحق بها من هزائم فى جبهة الجهاد مع النفس و ما أصابها من إخفاقات فى إصلاح نقاط الضعف التى تعانى منها.

كما و أنّه يستفاد من هذا التعليم «صابروا» أن على المسلمين أن يضاعفوا من صبرهم و من ثباتهم كلما ضاعف العدو من صبره و ثباته و مقاومته و عناده.

۳- «و رابطوا» و هذه العبارة مشتقة من مادة «الرباط» و تعنى ربط شىء فى مكان (كربط الخيل فى مكان)، و لهذا يقال لمنزل المسافرين «الرباط»، و يقال أيضا ربط على قلبه بمعنى أنّه أعطاه السكينة، و ملأه بالطمأنينة و كأن قلبه انشد إلى مكان، و ارتكز على ركن وثيق، و «المرابطة» بمعنى مراقبة الثغور و حراستها لأن فيها يربط الجنود أفراسهم.

و هذه العبارة أمر صريح إلى المسلمين بأن يكونوا على استعداد دائم لمواجهة الأعداء، و أن يكونوا فى حالة تحفز و تيقظ و مراقبة

مستمرة لثغور البلاد الإسلامیة و حدودها حتی لا یفاجئوا بهجمات العدوّ المباغتة، کما أنّه حثّ علی التأهب الکامل لمواجهة الشیطان، و الأهواء الجامحة حتی لا تباغتهم و تأخذهم علی حین غرّة و غفلة، و لهذا جاء فی بعض الأحادیث عن الإمام علی علیه السّلام تفسیر المرابطة بانتظار الصلاة بعد الصلاة، لأن من حافظ علی یقظة روحه و ضمیره بهذه العبادات المستمرة المتلاحقة، کان کالجندی المتأهب لمواجهة الأعداء علی الدّوام.

و خلاصة القول: إن للمرابطة معنی وسیعا یشمل کل ألوان الدفاع عن النفس و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹

ثمّ إنّ هناک فی الفقه الإسلامی بابا خاصّا- فی کتاب الجهاد- تحت عنوان «المرابطة» بمعنی الاستعداد و التأهب الکامل فی الثغور لحراستها و حمایتها و حفظها أمام حملات الأعداء الاحتمالیة، و قد ذکرت لها أحکام خاصّة یقف علیها کل من راجع الکتب الفقهیة.

هذا و قد أطلق علی العلماء- کما فی بعض الأحادیث- صفة المرابط،

فعن الإمام الصادق علیه السّلام: «علماء شیعتنا مرابطون فی الثغر الذی یلی إبلیس و عفاریته، و یمنعونهم عن الخروج علی ضعفاء شیعتنا و عن أن یتسلط علیهم إبلیس ...»[۳۱].

و تعتبر نهایة هذا الحدیث العلماء أعلی مکانة من الجنود و القادة الذین یحرسون الثغور و یذبون عنها أعداء الإسلام. و ما ذلک إلّا أن العلماء حماة الدین و حرّاسه و الأمناء المدافعون عن القیم الإسلامیة، و الجنود حماة الثغور الجغرافیة، و من الثابت المسلم به أن الثغور الفکریة و الثقافیة لأمّة من الأمم لو تعرضت لکید الأعداء، و لم تستطع الذّب عنها بنجاح، فإنّها سرعان ما تصیبها الهزائم العسکریة و السیاسیة أیضا.

۴- وَ اتَّقُوا اللَّهَ و هذا بالتالی آخر التعالیم و الأوامر فی هذا البرنامج، و هو بمثابة المظلة الواقیة لما سبقها من التعالیم أنّه حثّ علی التقوی، و لا بدّ للاستقامة و المصابرة و المرابطة من أن تمتزج بعنصر التقوی، و لا یشوبها شیء من أنانیة أو ریاء أو أغراض شخصیة.

لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و هکذا تختم الآیة هذا البرنامج بذکر النّتیجة التی تنتظر کلّ من یطبق هذا البرنامج، إنه الفلاح و النجاح الذی یمکنکم الوصول إلیه عبر الأخذ بهذه التعالیم و الأوامر، و إلّا فلن تحصلوا علی شیء من النجاح و الإنتصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰

سؤال:

هناک سؤال یطرح نفسه و هو: لما ذا تبدأ بعض العبارات و الجمل القرآنیة بلفظة «لعل» مثل قوله تعالی لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ و لَعَلَّکُمْ تَتَّقُونَ و لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ و هی کما نعلم تفید التّردید الذی لا یلیق باللّه سبحانه العالم بکل شیء.

و قد صارت هذه المسألة ذریعة بأیدی بعض أعداء الإسلام الذین انطلقوا یقولون: إن الإسلام لا یعطی وعودا قطعیة بالثواب، فوعوده مرددة غیر مجزوم بها، لأنها تبدأ- فی أغلبها- بلعلّ.

الجواب:

من حسن الاتفاق أن هذا النمط من التعبیر یشکّل جانبا من عظمة هذا الکتاب العزیز، و واقعیته فی النظرة إلی الأمور و فی بیانها، ذلک لأن القرآن استخدم هذه اللفظة فی کل مقام یتوقف الاستنتاج فیه علی شرائط و مقدمات قد أشار إلیها و لوح بها إجمالا بلفظة «لعل».

فالسکوت عند الاستماع إلی القرآن و الانتباه و التوجه إلی ألفاظ الآیات القرآنیة مثلا لا یکفی- بمجرده- لإحراز الرحمة الإلهیة، بل لا بدّ من فهم الآیات و درک معانیها، و مقاصدها، و تطبیق توصیاتها، و تعالیمها و أوامرها و نواهیها، و لهذا یعلق سبحانه شمول

الرحمة بقوله: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۳۲].

و على هذا الأساس لو كان القرآن يقول أنكم سترحمون حتما كان بعيدا عن الواقعية، لأنّ لتحقق هذا الموضوع كما قلنا شرائط أخرى أيضا، فيكون التعبير الجازم تجاهلا لهذه الشرائط، و لكنّه إذا قال «لعلّكم» فإنّه يكون قد أخذ تلك الشرائط بنظر الإعتبار و حسب لها حسابها.

بيد أن عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة جرّ البعض إلى الاعتراض على مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنية إلى درجة أن بعض علمائنا- أيضا- ذهب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۱

القول بأن «لعل» ليست مستعملة فى مثل هذه الموارد فى معناها الحقيقى، و هذا كما ترى خلاف للظاهر دونما دليل.

و فى المقام نجد الآية الحاضرة مع أنها أشارت إلى أربع نقاط من أهم التعاليم الإسلامية، و لكن حتى لا يغفل المسلمون عن بقية البرامج و التعاليم الإسلامية البناءة استخدمت كلمة «لعل» للإيذان بأن هناك أيضا من الظروف و الشرائط ما له دخل فى تحقق هذه الرحمة ينبغى أن تؤخذ بعين الإعتبار.

و على كلّ حال لو أن المسلمين اليوم جعلوا الآية الحاضرة شعارهم و منهجهم فى حياتهم اليومية و طبقوا مفادها لانحل الكثير من مشاكلهم التى يعانون منها الآن بشدّة.

إن الضربات الموجعة التى يتلقاها الإسلام و المسلمون اليوم ليست- فى الحقيقة- إلّا بسبب تجاهل هذه التوصيات الإسلامية الأربع أو تناسيها كلّها أو بعضها.

و لو أنّ المسلمين أعادوا إلى نفوسهم روح الثبات و الاستقامة، و لو أنّهم ضاعفوا جهودهم فى مقابل مضاعفة الأعداء لجهودهم، و لو أنّهم- حسب ما فى هذه الآية- شددوا من مراقبتهم للثغور الجغرافية و الفكرية و الاعتقادية و حافظوا على حالة الاستعداد و التأهب الدائمة لمواجهة أى خطر داهم، أو أى عدوّ مباغت، و لو أنّهم- فوق كل هذا- تسلحوا بسلاح التقوى و الورع، أفرادا و جماعات، و طهروا بيئاتهم من أدران الفساد لضمنوا النصر و الظفر.

رباه، وفقنا جميعا للأخذ بتعاليم كتابك السماوى العزيز فى حياتنا، وجد علينا برحمتك الواسعة، و منّ علينا بلطفك، آمين يا أرحم الراحمين و يا ربّ العالمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۳

سورة النّساء

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها مائة و ستّ و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۵

سورة النّساء قبل الخوض فى تفسير آيات هذه السورة يلزم أن نذكر للقارىء الكريم بعدّة نقاط هى:

۱- موضع نزول هذه السورة

كل آيات هذه السورة (باستثناء الآية ۵۸ حسب نقل بعض المفسرين) نزلت فى المدينة المنورة، و تقع من حيث ترتيب النّزول بعد سورة الممتحنة، لأنّ التّرتيب الفعلى للسّور القرآنية- كما نعلم- لا يطابق ترتيبها فى النزول، بمعنى أن كثيرا من السّور التى نزلت فى

مكّة تقع فى الترتيب الحاضر فى آخر القرآن الكريم، و كثيرا من السّور التى نزلت فى المدينة تقع فى أوائل القرآن.

على أنّنا قد نوهنا فى بداية المجلد الأوّل من هذه المجموعة التّفسيرية، بأنّ ثمّة دلائل تؤكد أن جمع السّور القرآنية على الشكل الفعلى قد تمّ فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، و على هذا الأساس يكون النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر بأن ترتب السّور على النحو الموجود الآن (بأن يكون أوّلها الحمد و آخرها النّاس) لأسباب مختلفة منها أهمية المواضيع التى تضمنتها السور، و الترتيب الطبيعى لهذه السور بدون أن يكون قد تغيّر من هذا الترتيب أو زيد أو نقص فى الحروف و الآيات و السور.

إنّ هذه السّورة تعتبر من حيث عدد الكلمات و الأحرف- أطول السور بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۶

سورة البقرة، و تحتوى على (۱۷۶) آية، و تسمّى بسورة النساء نظرا لتضمنها أبحاثا كثيرة و حديثا مفصلا حول أحكام «المرأة» و حقوقها.

۲- محتويات هذه السورة:

هذه السّورة- كما قلنا- نزلت فى المدينة، بمعنى أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان مقبلا على تأسيس حكومة إسلامية و تكوين مجتمع إنسانى قويم، نزلت هذه السورة و هى تحمل جملة من القوانين التى لها أثر كبير فى إصلاح المجتمع، و إيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية.

و من ناحية أخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهلية و انحرافاتها و رواسبها، لذلك يتعين قبل أى شىء تطهير عقولهم، و تزكية أرواحهم و نفوسهم من تلك الرّواسب، و إحلال القوانين و البرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع محل تلك العادات و التقاليد الجاهلية الفاسدة.

و على العموم فإن المواضيع المختلفة التى تحدثت عنها هذه السّورة هى عبارة عن:

۱- الدّعوة إلى الإيمان و العدالة، و قطع العلاقات الودّية بالأعداء الألداء، و الخصوم المعاندين.

۲- ذكر بعض قصص الأمم الماضية لأجل التعرف على عواقب المجتمعات غير الصالحة.

۳- العناية بالمحتاجين إلى الحماية مثل الأيتام، و بيان التعاليم اللازمة لصيانة حقوقهم.

۴- قانون الإرث و التوارث بنحو طبيعى و عادل فى قبال الكيفية القبيحة التى كان عليها وضع التوريث فى ذلك الزمان، حيث كان يحرم الضعفاء بحجج واهية، و أعذار غير وجيهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۷

۵- القوانين المتعلقة بالزّواج و البرامج التى تصون العفاف العام.

۶- القوانين العامّة لحفظ الأموال العامّة.

۷- حفظ و تحسين حالة الوحدة الأساسية للمجتمع، أى العائلة.

۸- الحقوق و الواجبات الفردية المتقابلة فى المجتمع.

۹- التعريف بأعداء المجتمع الإسلامى و تحذير المسلمين منهم.

۱۰- الحكومة الإسلامية و وجوب طاعة قائد هذه الحكومة.

۱۱- حثّ المسلمين على مجابهة الأعداء و جهادهم.

۱۲- الكشف عن الأعداء و الخصوم الذين قد يتوسلون بالعمل السرى.

۱۳- أهمية الهجرة و وجوبها عند مواجهة مجتمع فاسد غير قابل للتأثير فيه و تغييره.

۱۴- البحث مجددا عن الإرث و نظام التوريث، و ضرورة تقسيم الثروات المكدسة بين الوارثين.

۳- فضل تلاوة هذه السّورة

عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما فى رواية أنّه قال: «من قرأها (أى سورة النساء) فكأنّما تصدق على كلّ مؤمن ورث ميراثا، و أعطى من الأجر كمن اشترى محرّرا»[۳۳].

و من البيّن أنّ المقصود فى هذه الرواية و أمثالها ليس هو القراءة المجردة، بل تلك القراءة التى تكون مقدمة للفهم و الإدراك الذى هو بدوره مقدمة لتطبيق تعاليم هذه السّورة فى الحياة الفردية و الاجتماعية.

و من المسلم أن المسلمين لو استلهموا من مفاهيم هذه السورة فى حياتهم لنالوا كل هذا الأجر مضافا إلى النتائج الدنيوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَ نِساءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَساءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (۱)

التّفسير

مكافحة التّمييزات و الاستثناءات:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۷۸

يا أَيُّهَا النَّاسُ الخطاب فى الآية الأولى من هذه السّورة موجه إلى كافة أفراد البشر، لأنّ محتويات هذه السورة- هى فى الحقيقة- نفس الأمور التى يحتاج إليها كل أفراد البشر فى حياتهم.

ثمّ إنّ الآية تدعو إلى التقوى باعتبارها أساسا لأىّ برنامج إصلاحى للمجتمع، فأداء الحقوق و التقسيم العادل للثروة، و حماية الأيتام، و رعاية الحقوق العائلية، و ما شابه ذلك كلها من الأمور التى لا تتحقق بدون التقوى، و لهذا تفتتح هذه السورة- التى تحتوى على جميع هذه الأمور- بالدعوة إلى التزام التقوى:

اتَّقُوا رَبَّكُمُ

و للتعريف باللّه الذى يراقب كلّ أعمال الإنسان و تصرفاته أشير فى الآية إلى واحدة من صفاته التى تعتبر أساسا للوحدة الاجتماعية فى عالم البشر: الَّذِى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۹

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ.

و علی هـذا الأسـاس لا مبرر للتمییز العنصـری، و اللغوی، و المحلی، و العشائری و ما شابه ذلک ممّا یسـبب فی عالمنا الرّاهن آلافا من المشاکل فی المجتمعات. و لا مجال لهـذه الأمور و ما یترتب علیها من الأمجاد الکاذبـة و التفوق الموهوم فی المجتمع الإسـلامی، لأنّ کافة البشر علی اختلاف ألوانهم، و لغاتهم، و أقطارهم یرجعون إلی أب واحد و أمّ واحدة.

و تتّضـح أهمیـة مکافحـة هـذا الأمر- أکثر فأکثر- إذا لاحظنا أنّ ذلک قـد تمّ فی زمن کان یعانی بقایا و رواسب نظام قبلی و عشائری ظالم، و نعنی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

هذا و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی موارد أخری من القرآن الکریم أیضا، و سنشیر إلی کل ذلک فی موضعه.

و الآن یجب أن نری من هو المقصود من «نفس واحدة»؟

هل المراد من «نفس واحدة» هو شخص معین، أو أنه واحد نوعی (أی جنس المذکر)؟

لا شک أنّ ظاهر هذا التعبیر هو الشـخص المعین، و الواحد الشخصـی، و هو إشارة إلی أوّل إنسان قد سمّاه القرآن الکریم ب «آدم» و یعتبره أبا البشر.

کما و قد عبر عن البشر ببنی آدم فی آیات کثیرة من القرآن الکریم.

فاحتمال أن یکون المراد من نفس واحدة هو الواحد النوعی بعید عن ظاهر الآیة جدّا.

ثمّ أنّ قوله تعالی: وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها قـد فهم منها بعض المفسـرین أن «حواء» قد خلقت من جسم آدم و استشـهدوا لذلک بروایات و أحادیث غیر معتبرة تقول: إنّ حواء خلقت من أضلاع آدم (و هو أمر قد صرّح به فی سفر التکوین من التوراة أیضا).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۰

لکن مع ملاحظـة سائر الآیات القرآنیـة یرتفع کلّ إبهام حول تفسـیر هـذه الآیة، و یتضح أن المراد منها هو أن اللّه سـبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أی جنس البشـر) ففی الآیة (۲۱) من سورة الروم نقرأ وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها کما نقرأ: فی الآیة (۷۲) من سورة النّحل وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً.

و من الواضح أنّ معنی قوله تعالی: خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً هو أنّه خلقهم من جنسکم لا أنّه خلقهن من أعضاء جسمکم.

و وفقا لروایـة منقولـة عن الإمام محمّـد الباقر علیه السّـلام کما فی تفسـیر العیاشـی- أنه کذّب بشدّة فکرة خلق حواء من ضـلع آدم، و صرح علیه السّلام- بأنه خلقت من فضل الطینة التی خلق منها آدم.

کیف کان زواج أبناء آدم؟:

قال سـبحانه: وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا کَثِیراً وَ نِساءً هـذه العبارة یسـتفاد منها أنّ انتشار نسل آدم، و تکاثره قد تمّ عن طریق آدم و حواء فقط، أی بدون أن یکون الموجود ثالث أی دخالة فی ذلک.

و بعبارة أخری أنّ النسل البشری الموجود إنّما ینتهی إلی آدم و زوجته من غیر أن یشارکهما فی ذلک غیرهما من ذکر أو أنثی.

و هـذا یسـتلزم أن یکون أبناء آدم (أخوة و أخوات) قد تزاوجوا فیما بینهم، لأنه إذا تمّ تکثیر النسل البشـری عن طریق تزوجهم بغیرهم لم یصدق و لم یصح قوله: «منهما».

و قـد ورد هـذا الموضوع فی أحـادیث متعـددة أیضـا، و لاـ داعی للتعجب و الاسـتغراب إذ طبقـا للاسـتدلال الـذی جاء فی طائفـة من الأحادیث المنقولة عن أهل البیت علیهم السّلام إنّ هذا النوع من الزواج کان مباحا حیث لم یرد بعد حکم بحرمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۱

«تزوج الأخ بأخته».

و من البديهى أن حرمة شىء تتوقف على تحريم اللّه سبحانه له، فما الذى يمنع من أن توجب الضرورات الملحة و المصالح المعينة أن يبيح شيئا فى زمان، و يحرمه بعد ذلك فى زمن آخر.

غير أنّه قد صرّح فى أحاديث أخرى بأن أبناء آدم لم يتزوجوا بأخواتهم، و تحمل بشدّة على من يرى هذا الرأى و يذهب هذا المذهب.

و لو كان علينا عند تعارض الأحاديث أن نرجح ما وافق منها ظاهر القرآن لوجب أن نختار الطائفة الأولى، لأنّها توافق ظاهر الآية الحاضرة كما عرفت قبل هذا.

ثمّ أنّ هاهنا احتمالا آخر يقول: إن أبناء آدم تزوجوا بمن تبقى من البشر الذين سبقوا آدم و نسله، لأن آدم- حسب بعض الروايات- لم يكن أوّل إنسان سكن الأرض.

و قد كشفت الدراسات و التحقيقات العلمية اليوم أن النوع الإنسانى كان يعيش فى الأرض منذ عهد ضارب فى القدم، فى حين لم يمر على تاريخ ظهور «آدم» فى الأرض زمن طويل، فلا بدّ إذن من القبول النظرية التى تقول: بأنّه كان يعيش فى الأرض قبل آدم بشر آخرون قارن غياب آخر بقاياهم ظهور آدمنا، فما المانع من أن يكون «أبناء آدم» قد تزوجوا ببقايا النوع البشرى السابق الذى كان فى أواخر انقراضه؟

و لكن هذا الاحتمال هو أيضا لا يتوافق و ظاهر الآية الحاضرة (و هذا البحث يحتاج إلى توسع أكثر لا يسعه هذا المجال).

الدّعوة إلى العناية بالرّحم:

بعد ذكر ما بين أبناء النوع الإنسانى من وشيجة القربى قال سبحانه: وَ اتَّقُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۲

اللَّهَ الَّذِى تَسائَلُونَ ۳۴] بِهِ وَ الْأَرْحامَ

إنّ أهمية التقوى، و دورها فى بناء قاعدة المجتمع الصالح سببت فى أن تذكر مجددا فى نهاية الآية الحاضرة، و أن يدعو سبحانه الناس إلى التزام التقوى، غاية الأمر أنّه تعالى أضاف إليها جملة أخرى إذ قال: اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسائَلُونَ بِهِ أى اتقوا اللّه الذى هو عندكم عظيم، و تذكرون اسمه عند ما تطلبون حقوقكم و حوائجكم فيما بينكم.

ثمّ أنّه يقول: «و الأرحام» و هو عطف على «اللّه»، و لهذا كانت القراءة المعروفة هى نصب «و الأرحام» فيكون معناها: و اتقوا الأرحام، و لا تقطعوا صلاتكم بهم.

إنّ ذكر هذا الموضوع هنا يدل أوّلا على الأهمية الفائقة التى يعطيها القرآن الكريم لمسألة الرحم و وشيجة القربى إلى درجة أنّه يذكر اسم الأرحام بعد ذكر اسم اللّه سبحانه، و هو إشارة- ثانيا- إلى الأمر الذى ذكر فى مطلع الآية، و هو أنكم جميعا من أب واحد و أمّ واحدة، و هذا يعنى- فى الحقيقة- أنّ جميع أبناء آدم أقرباء و أرحام، و هذا الارتباط و الترابط يستوجب أن يتحاب الجميع و يتوادوا دون تفريق أو تمييز بين عنصر و آخر، و قبيلة و أخرى، تماما كما يتحاب أفراد القبيلة الواحدة.

ثمّ يختم الآية بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً.

و الرقيب أصله من الترقب، و هو الانتظار من مكان مرتفع، ثمّ استعمل بمعنى الحافظ و الحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب و النظارة.

و ارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون الرقيب يرقب على مكان مرتفع، و يمارس النظارة من ذلك الموقع، و قد يكون من الناحية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۳

المعنوية.

يقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً أى أنّه يحصى عليكم نياتكم و أعمالكم، و يعلم بها و يراها جميعا، كما أنه هو الذى يحفظكم أمام الحوادث (و التعبير ب «كان» المفيد للماضى، إنّما هو للتأكيد).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲]

اشارة

وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَ لا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً (۲)

سبب النّزول

روى أنّ رجلا- من بنى غطفان كان معه مالا- كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه، فخاصمه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت: وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ ... فلما سمع الغطفانى ذلك ارتدع و قال: أعوذ باللّه من الحوب الكبير[۳۵].

التّفسير

لا ... للخيانة فى أموال اليتامى:

كثيرا ما يحدث فى المجتمعات البشرية أن يفقد أطفال صغار ءاباءهم بسبب الحوادث و النكبات و الكوارث، فتلك حالة كثيرا ما تقع، فإن المجتمعات المريضة التى تعانى من صراعات و حروب و نزاعات داخلية مستمرة مثل المجتمع الجاهلى العربى يقع فيها هذا الأمر بنسبة أكبر، و لذلك يكثر فيها عدد الأيتام، و هو ما يجب أن تهتمّ به الحكومة الإسلامية، بل و يهتمّ به كل المسلمين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۵

فيتكفّلوا أمر اليتامى و شؤونهم.

و فى هذه الآية ثلاثة تعاليم بشأن أموال اليتامى.

۱- وَ آتُوا الْيَتامى أَمْوالَهُمْ أى يجب أن تعطوا اليتامى عند رشدهم أموالهم المودعة عندكم، و يكون تصرفكم فى هذه الأموال على نحو تصرف الأمين و النّاظر و الوكيل لا على نحو تصرّف المالك.

۲- وَ لا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ أى لا تأخذوا أموالهم الطّيبة و ثرواتهم الجيدة و تضعوا بدلها من أموالكم الخبيثة و المغشوشة و هذا التعليم- فى الحقيقة- يهدف إلى المنع ممّا قد يرتكبه بعض القيمين على أموال اليتامى من أخذ الجيد من مال اليتيم و الرفيع منه و جعل الخسيس و الردىء مكانه، بحجّة أن هذا التبديل يضمن مصلحة اليتيم، أو لأنّه لا تفاوت بين ماله و البديل، أو لأن بقاء مال اليتيم يؤول إلى التلف و الضياع و غير ذلك من الحجج و المعاذير.

۳- وَ لا- تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ يعنى لا- تخلطوا أموال اليتامى مع أموالكم بحيث تكون نتيجتها تملك الجميع، أو أنّ المراد لا تخلطوا الجيد من أموالهم بالردى من أموالكم بحيث تكون نتيجتها الإضرار باليتامى و ضياع حقوقهم، و لفظة «إلى» فى العبارة بمعنى

(مع) فى الحقيقة.

ما ذا يعنى الحوب؟:

ثمّ إنّه سبحانه، لبيان أهمية هذا الموضوع و التأكيد عليه يختم الآية بقوله:
إِنَّهُ كانَ حُوباً كَبِيراً.
يقول الرّاغب فى مفرداته: «الحوبة حقيقتها هى الحاجة التى تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم» و حيث أن العدوان على أموال اليتامى ينشأ- فى الأغلب- من الحاجة، أو بحجّة الحاجة استعمل القرآن الكريم مكان لفظة الإثم فى هذه الآية لفظة «الحوب» للإشارة إلى هذه الحقيقة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۶
إنّ ملاحظة الآيات القرآنية المختلفة- فى هذا المجال- تكشف عن أن الإسلام يولى هذا الموضوع أهمية كبرى، و يهدد الخائنين فى أموال اليتامى بالعقوبات الشديدة، و يدعو القيمين على اليتامى بكلمات صريحة و جازمة إلى مراقبة أموالهم و المحافظة عليها مراقبة شديدة، و محافظة بالغة، و سيأتى تفصيل كلّ هذا فى نفس هذه السورة فى الآيات القادمة، و فى ذيل الآيات (۱۵۲) من سورة الأنعام، و (۳۴) من سورة الإسراء.
إنّ اللهجة القوية التى اتسمت بها هذه الآيات قد تركت من التأثير البالغ فى نفوس المسلمين بحيث خافوا أن يخالطوا اليتامى و أن يشتركوا معهم فى الطعام، و لهذا كانوا يهيئون طعاما خاصّا لأنفسهم و لأولادهم، و طعاما مستقلا لليتامى و لا يخالطون طعام اليتامى بطعامهم خشية الإجحاف بهم، و قد شقّ هذا على الجميع- اليتامى و الأولياء- و لهذا أمرهم سبحانه فى الآية (۲۲۰) من سورة البقرة قائلا وَ إِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ أى إن كان فى مخالطتهم لطعام اليتيم بطعامهم خير و مصلحة لليتيم فلا بأس ۳۶].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳]

اشارة

وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا (۳)

سبب النّزول

لقد نقل لهذه الآية سبب نزول خاص، فقد كان المتعارف فى العهد الجاهلى قبل الإسلام أن يتكفل أغلب الناس فى الحجاز أمر اليتيمات، ثمّ يتزوجون بهنّ، ثمّ يمتلكون أموالهنّ، و ربما ينكحوهنّ بدون صداق أو بصداق أقل من شأنهنّ، بل و ربّما يتركوهنّ لأدنى سبب أو كراهية بكل سهولة، و بالتالى لم يكونوا يعطونهنّ ما يليق بهنّ- كزوجات- بل و حتى كبقية النساء العاديات- من الاحترام و المكانة، فنزلت هذه الآية توصى أولياء اليتيمات إذا أرادوا الزواج بهنّ أن يلاحظوا جانب العدل معهن، و إلّا فليختاروا الأزواج من غيرهنّ ۳۷].
يقول سبحانه فى هذه الآية: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ و قد جاء هذا

الكلام بعد ما جاء فى الآية السابقة من الحث على حفظ أموال اليتامى من التلف و عدم التفريط فيها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۸

فجاءت هذه الآية لتنوه بحق آخر من حقوقهم، و هو هذه المرّة يتعلق باليتيمات خاصّة.

التّفسير

اشارة

بملاحظة ما ذكرناه فى سبب النزول يتّضح تفسير هذه الآية و المراد منها، كما يتّضح الجواب أيضا على السؤال المطروح هنا، و هو: لما ذا تبتدئ الآية بذكر اليتامى، و تنتهى بمسألة الزواج، و يرتفع ما قد يتوهم من المنافاة بين تلك البداية، و هذه النهاية، فالبداية و النهاية كلتاهما تتعلقان بمسألة الزواج، غاية ما فى الباب أنّ الآية تقول: إذا لم يمكنكم الزواج باليتيمات و معاشرتهنّ على أساس من العدل و القسط فالأفضل أن تتركوا الزواج بهنّ، و تتزوجوا بغيرهنّ من النساء تجنبا لظلم اليتيمات و الإجحاف بحقوقهنّ، و الجور عليهنّ.

فالذى يستفاد من ذات الآية- و إن اختلفت و جهات نظر المفسرين و كثرت أقوالهم و تعددت فى المراد منها- هو ما ذكرناه فى سبب النزول، و هو أن الخطاب موجه إلى أولياء اليتيمات اللاتى جاء الحثّ فى الآية السابقة على حفظ أموالهنّ ضمن اليتامى.

فهذه الآية تعليم آخر و وصية أخرى بهم، و لكنّها هذه المرّة تتعلق بمسألة الزواج باليتيمات، و إن على أوليائهنّ أن يعاملوهنّ فى مسألة الزواج على أساس من العدل و القسط كما يعاملونهنّ فى مسألة المال، فعليهم أن يراعوا فى أمر الزواج مصلحة اليتيمة، و إلّا فمن الأحسن أن يدعوا الزواج بهنّ، و يختاروا الأزواج من غيرهنّ من النساء.

هذا و ممّا يؤيد و يوضح هذا التّفسير ما جاء فى الآية (۱۲۷) من نفس هذه السّورة[۳۸] حيث حثّ سبحانه على التزام العدل فى الزواج باليتيمات، و سيأتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۸۹

تفصيل ذلك فى محله.

كما أن ثمّة أحاديث نقلت فى الكتب المختلفة تشهد بهذا الاتجاه، و تؤيد هذا التّفسير[۳۹] و ما نقل عن الإمام على عليه السّلام من الأخبار بسقوط أو حذف شىء كثير من القرآن بين مطلع هذه الآية، و نهايتها غير معتبر من حيث السند أصلا، فهذه الأحاديث و ما يشابهها من الأحاديث التى تدل على حذف شىء من الآيات القرآنية و إسقاطها أو وقوع التحريف فيه إمّا أنّها من موضوعات أعداء الإسلام و خصومه و المنافقين بغية الحط من اعتبار القرآن و أهميته و مكانته، و إمّا لأنّها ناشئة من عجز البعض عن التوفيق بين صدر الآية و ذيلها و فهم الارتباط الطبيعى بينهما، و لهذا توهّموا بأنّ هناك حذفا و إسقاطا و قد تطور هذا الوهم حتى اتّخذ صورة الحديث المروى و الخبر المنقول، فى حين يتّضح الارتباط الوثيق بين هذه الجمل و العبارات بالتأمل و التدبر و الإمعان.

«مثنى» و «ثلاث» و «رباع»:

و تعنى «مثنى» فى اللّغة اثنتين اثنتين، و «ثلاث» ثلاثا ثلاثا، و «رباع» أربعا أربعا، و حيث أنّ الخطاب فى هذه الآية موجّه إلى المسلمين كافة، كان المعنى: إن عليكم أن تنصرفوا عن الزواج باليتيمات تجنبا من الجور عليهنّ، و أن تتزوجوا بالنساء اللاتى لا تسمح مكانتهنّ

الاجتماعيـة و العائليـة بأن تجوروا عليهنّ، و تظلموهنّ، و يجوز لكم أن تتزوجوا منهنّ باثنتين أو ثلاث أو أربع، غايـة ما فى الأمر حيث أنّ الخطـاب هنـا موجّه إلى عامّـة المسـلمين، و كـافتهم عبر بـالمثنى، و الثلاث، و الرّباع إذ لا شك فى أن تعـدد الزوجات- بالشـروط الخاصّة- لا يشمل أكثر من أربع نساء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۰

و لا ـ بـدّ من التنبيه إلى أن «الواو» هنـا أتت بمعنى «أو»، فليس معنى هـذه الجملـة هو أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بـاثنتين و ثلاث و أربع ليكون المجموع تسع زوجات، لأن المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر ذلك بصراحة فيقول: و انكحوا تسعا لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة.

هذا مضافا إلى أنّ حرمة الزّواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامى، و أحكامه القطعية المسلمة.

و على كلّ حال فإنّ الآية الحاضرة دليل صريح على جواز تعدد الزوجات.

طبعا بشروطها التى سنذكرها قريبا.

ثمّ أنّه سبحانه عقب على ذلـك بقوله: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أى التزوج بـأكثر من زوجـة إنّما يجوز إذا أمكن مراعاة العـدالة الكاملة بينهنّ، أمّا إذا خفتم أن لا تعدلوا بينهن، فاكتفوا بالزوجة الواحدة لكى لا تجوروا على أحد.

ثمّ يقول: أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ أى يجوز أن تقتصـروا على الإماء اللاتى تملكونهنّ بـدل الزوجة الثانية لأنهنّ أخف شـروطا (و إن كن يجب أن يحظين و يتمتعن بما لهنّ من الحقوق أيضا).

و يقول: ذلِكَ أَدْنى أَلَّا تَعُولُوا أى أن هـذا العمل (و هو الاقتصار على زوجـة واحـدة أو الاقتصار على الإماء و عدم التزوج بزوجة حرّة ثانية) أحرى بأن يمنع من الظلم و الجور، و يحفظكم من العدوان على الآخرين (و سيكون لنا حديث مفصل عن الرّق فى الإسلام عند تفسير الآيات المناسبة إن شاء اللّه).

ما هو المقصود من العدل بين الزوجات؟:

قبل الخوض فى بيان فلسفة تعدد الأزواج فى الشريعة الإسلامية يجب أن يتّضح أوّلا المراد من العدل بين الأزواج الذى هو من شروط جواز التعدد، فما هو المقصود من العدل هنا يا ترى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۱

أ هى العدالـة فى الجوانب الماديـة كالمضاجعـة و توفير وسائـل العيش و تحقيق الرّفـاه و المتطلبـات المعيشـية؟ أم أنّ المراد أيضـا هو العدالة فى نطاق القلب و العواطف و الأحاسيس الإنسانية؟ و بعبارة صريحة: العدالة فى الحبّ و الرغبة، مضافا إلى العدالة فى الجوانب المادية؟

لا شكّ أنّ مراعاة العدالة فى الميل القلبى، و الحبّ، و الرغبة شىء خارج عن نطاق القدرة البشرية.

فمن ذا يستطيع أن يضبط حبّه من جميع الجوانب، و يعطيه الحجم الذى يريد، و الحال أنّ موجباته و عوامله خارجة عن نطاق قدرته، و إطار إرادته؟

و لهـذا لم يوجب سبحانه مراعاة مثل هـذه العدالة حيث قال سبحانه فى الآية ۱۲۹ من نفس هـذه السّورة- النساء: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ أى لا يمكنكم مهما أردتم أن تعدلوا بين الأزواج فى الميل القلبى، و الحبّ و المودّة.

إذن فلا ـ ضير فى الحبّ و الميل القلبى الـذى لا يوجب تفضيل بعض الأزواج فى المواقف العمليـة، و على هـذا الأساس فإن ما يجب على الرجـل مراعـاته هو العدالـة بين أزواجه فى الجوانب العمليـة الخارجيـة أى فى نوع التعامـل العملى خاصّـة إذ يستحيل مثـل هـذه

المراعاة فى المجال العاطفى.

من هـذا الكلام يتّضـح بجلاء إن الـذين أرادوا من ضمّ قوله تعالى: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً إلى قوله تعالى فى الآية (۱۲۹): وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ أن يستنتجوا حرمة تعدد الأزواج مطلقا بحجّة استحالة مراعاة العدالة بينهن قد وقعوا فى خطأ كبير، لأن العدالـة المستحيلة مراعاتها- كما أسلفنا- هى العدالـة فى المجال العاطفى،- و ليس هـذا من شـرائط جواز التعـدد فى الأزواج، بل إن من شرائط جوازه هو مراعاة العدالة فى المجال العملى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۲

و يشهد بذلك ما جاء فى ذيل الآية (۱۲۹) من نفس هذه السّورة حيث يقول سبحانه: فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ أى أنّكم إذ لا- تقـدرون على مراعـاة المسـاواة الكاملـة فى محبّـة الزوجـات و ودّهنّ، فلا- أقـل أن لا تميلوا فى حبّ بعض الأزواج ميلا شديـدا يحملكم على أن تذروا التى لا تميلون إليها، فلا هى ذات زوج و لا أيم.

و خلاصـة القول و نتيجته، هى أن الذين أمسـكوا بقسم من هذه الآية، و نسوا القسم الآخر و تورطوا فى رفض تعدد الزوجات فى خطأ يدهش كل محقق، و يستغرب منه كل باحث.

أضف إلى ذلك أن مسألـة جواز تعـدد الأزواج بشـرائطها على درجـة من الثبوت و الوضوح فى الفقه الإسـلامى و مصادره الشـيعية و السـنية بحيث لا يبقى مجال للجـدل، و لا محل للنقاش، بل هو من ضـروريات الفقه الإسـلامى و مسـلماته، و بديهياته. و لنعطف عنان البحث الآن إلى معرفة فلسفة هذا القانون الإسلامى.

تعدد الزّوجات ضرورة اجتماعية:

لقد أجازت الآية الحاضـرة تعدد الزوجات (و لكن بشرائط ثقيلة و فى حدود معينة) و قد أثارت هذه الإباحة جماعة، فانطلقوا يوجهون إليها الاعتراضات و الإشكالات، و تعرض هذا القانون الإسلامى لهجمة كبيرة من المعارضين الذين تسرعوا فى إصدار الحكم عن هذا القانون الإسلامى متأثرين بالأحاسيس، و دون أن يتناولوه بالدرس و التمحيص، و التأمل و التحقيق. و كان الغربيون أكثر هذه الجماعة معارضـة لهـذا القـانون و هجوما عليه، متسائلين كيف يجوز للإسـلام أن يسـمح للرجال أن يقيموا لأنفسـهم حريما و يتخـذوا زوجات متعددة على نحو ما كان شائعا فى الجاهلية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۳

كلّا، إنّ الإسـلام لم يسمح لأحد بأن يقيم حريما بالمعنى الذى تصورتم، و لا أنّه أباح تعدد الزوجات دون قيد أو شرط، و دون حدّ أو قانون.

و لتوضيح هذه الحقائق نقول: إن دراسة البيئات المختلفة قبل الإسلام تكشف لنا أنّ تعدد الزوجات دونما عدد معين كان أمرا عاديا و شائعا، لدرجـة أنّ بعض الوثنيين أسـلموا و تحت الرجل منهم عشـر زوجات أو أقل، من هنا لم تكن مسألـة تعـدد الزّوجات ممّا أبـدعه الإسـلام، نعم إنّ ما فعله الإسلام هو وضع هذا الأمر فى إطار الحاجة و الضرورة الحيوية الإنسانية، و تقييده بطائفة من القيود و الشروط الثقيلة.

إنّ قوانين الإسـلام و تشـريعاته تـدور على محور الحاجات الإنسانيـة، و تقوم على أساس مراعاة الضـرورات الحيويـة فى دنيا البشـر، لا الدعايـة الظاهرة و لا المشاعر الموجهة توجيها غير صـحيح، و مسألة تعدد الزوجات من هذا القبيل أيضا، فقد لوحظت هى الاخرى من هـذه الزاويـة، لأنّه لا- أحـد يمكنه أن ينكر أنّ الرجـال أكـثر تعرضـا من النسـاء لخطر الفنـاء و الموت بسـبب كـثرة مـا يحيـط بهم من الحوادث، المختلفة.

فالرجال یشکلون القسم الأکبر من ضحایا الحروب، و المعارک.

کما أنّه لا یمکن إنکار أنّ أعمار الرجال من الناحیة الجنسیة أطول من أعمار النساء فی هذا المجال، فالنساء یفقدون القدرة الجنسیة (و القدرة علی الإنجاب) فی سن معین من العمر قریب، فی حین یبقی الرجال متحفظین بهذه الطاقة و القدرة مدّة أطول بکثیر.

کما أنّ النساء- فی فترة العادة الشهریة و شیء من فترة الحمل- یعانین من موانع جنسیة بصورة عملیة فی حین لا یعانی الرجل من أی مانع جنسی من هذا النوع.

هذا کلّه مضافا إلی أن هناک نساء یفقدون أزواجهنّ لبعض الأسباب، فلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۴

یتیسر لهن أن یجلبن اهتمام نظر الرجال إلی أنفسهن کزوجة أولی، فإذا لم یسمح بتعدد الزوجات، وجب أن تبقی تلک النسوة بلا أزواج، کما نقرأ ذلک فی الصحف المختلفة حیث یشکو هذا النوع من النساء الأرامل من صعوبات الحیاة و مشکلات العیش بسبب تحدید مسألة تعدد الأزواج أو إلغائها بالمرّة، و حیث یعتبرن المنع من التعدد نوعا من القوانین الظالمة الجائرة و المعادیة لهنّ.

بالنظر إلی هذه الحقائق، و عند ما یضطرب التوازن بین عدد النساء و الرجال نجد أنفسنا مضطرین لأن نختار أحد طرق ثلاث هی:

۱- أن یقنع کل رجل بزوجة واحدة فقط فی جمیع الحالات و الموارد، و یبقی العدد الإضافی من النساء بلا- أزواج إلی آخر أعمارهن، و یکبتن حاجاتهنّ الفطریة و یقمعن غرائزهنّ الباطنیة الملتهبة.

۲- أن یتزوج الرجل بامرأة واحدة بصورة مشروعة ثمّ یترک حرّا لإقامة علاقات جنسیة مع من شاء و أراد من النساء اللائی فقدن أزواجهن لسبب و آخر علی غرار اتّخاذ الأخدان و العشیقات.

۳- أن یسمح لمن یقدر أن یتزوج بأکثر من واحدة و لا یقع فی أیة مشکلة من الناحیة «الجسمیة» و «المالیة» و «الخلقیة» من جراء هذا الأمر، کما و یمکنه أن یقیم علاقات عادلة بین الزوجات المتعددة و أولادهن، أن یسمح لهم بأن یتزوجوا بأکثر من واحدة (علی أن لا یتجاوز عدد الأزواج أربعا)، و هذه هی ثلاث خیارات و طرق لا رابع لها.

و إذا أردنا اختیار الطریق الأوّل یلزم أن نعادی الفطرة و الغریزة البشریة، و نحارب جمیع الحاجات الروحیة و الجسمیة لدی البشر، و نتجاهل مشاعر هذه الطّائفة من هذه النّسوة، هذه الحرب و المعرکة التی لن یکون فیها أی انتصار، و حتی لو نجح هذا الطرح و کتب له التوفیق، فإن ما فیها من الجوانب اللاإنسانیة أظهر من أن تخفی علی أحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۵

و بعبارة أخری أن تعدد الزوجات فی الموارد الضروریة یجب أن لا ینظر إلیه أو یدرس من منظار الزوجة الأولی، بل یجب أن یدرس من منظار الزوجة الثانیة أیضا.

إنّ الذین یعالجون هذه المسألة و ینظرون إلی خصوص مشاکل الزوجة الأولی فی صورة تعدد الزوجات هم أشبه بمن یطالع مسألة ذات زوایا ثلاث من زاویة واحدة، لأن مسألة تعدد الزوجات ذات ثلاث زوایا، فهی یجب أن تطالع من ناحیة الرجل، و من ناحیة الزوجة الأولی، و من ناحیة الزوجة الثانیة أیضا، و یجب أن یکون الحکم بعد ملاحظة کل هذه الزوایا فی المسألة، و یتمّ علی أساس مراعاة مصلحة المجموع فی هذا الصعید.

و إذا اخترنا الطریق الثانی وجب أن نعترف بالفحشاء و البغاء بصورة قانونیة، هذا مضافا إلی أن النساء العشیقات اللائی یجعلن أنفسهنّ فی متناول هؤلاء الرجال لإرواء حاجتهم الجنسیة یفتقدن کل ضمانة و کل مستقبل، و یعنی ذلک سحق شخصیتهنّ سحقا کاملا- فی الحقیقة- إذ یصبحن حینئذ مجرد متاع یقتنی عند الحاجة و یترک عند ارتفاعها دون التزام و مسئولیة، و لا شک أن هذه الأمور ممّا لا یسمح به أی عاقل مطلقا.

و علی هذا الأساس لا یبقی إلّا الطریق الثالث، و هو الطریق الذی یلبی الحاجات الفطریة و الغریزیة للنساء، کما أنه یجنب هذه الطائفة

من النساء و یحفظهنّ من عواقب الفحشاء و الانزلاق إلی الفساد، و بالتالی ینقذ المجتمع من مستنقع الآثام و الذنوب.

علی أن من الواجب أن نلتفت إلی أنّ السماح بتعدد الزوجات مع أنّه ضرورة اجتماعیة فی بعض الموارد و مع أنّه من أحکام الإسلام القطعیة، إلّا أن توفیر شرائطه یختلف اختلافا کبیرا عن الأزمنة الماضیة، لأن الحیاة کانت فی العصور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۶

السابقة ذات نمط بسیط و مواصفات سهلة، و لهذا کانت رعایة المساواة و العدالة بین الزوجات المتعددات أمرا ممکنا و میسرا لأکثر الناس، فی حین یجب علی الذین یریدون الأخذ بهذا القانون الإسلامی فی هذا العصر أن یراعوا مسألة العدالة من جمیع الجوانب، و أن یقدموا علی هذا الأمر إذا کانوا قادرین علی الوفاء بجمیع شروطه.

و بالجملة یجب أن لا یقدم أحد علی هذا العمل بدافع الهوی و الهوس.

هذا و الملفت للنظر هنا هو أن الذین یعارضون مبدأ تعدد الزوجات (کالغربیین) قد واجهوا طوال تأریخهم ظروفا ألجأتهم إلی هذا المبدأ بصورة واضحة.

ففی الحرب العالمیة الثانیة برزت حاجة شدیدة فی البلاد التی تعرضت لویلات الحرب هذه و بالأخص ألمانیا، إلی هذا الموضوع مما دفع بطائفة من المفکرین فی سیاق البحث عن حلّ لهذه المشکلة إلی إعادة النظر فی مسألة المنع عن تعدد الزوجات، إلی درجة أنّهم طلبوا من الجامع «الأزهر» بالقاهرة البرنامج الإسلامی حول تعدد الزوجات للدراسة، و لکنهم اضطروا- و تحت ضغوط شدیدة من جانب الکنائس- إلی التوقف عن المضی فی دراسة هذا البرنامج، و کانت النّتیجة هو تفشی الفحشاء و الفساد الجنسی الشدیدین فی جمیع البلاد التی تعرضت للحرب و ویلاتها.

هذا بغض النظر عن أنّه لا یمکن إنکار ما یحس به طائفة من الرجال من المیل إلی اتّخاذ زوجات متعددة، فإن کان هذا المیل و الرغبة ناشئین من الهوی و الهوس لم یکن جدیرا بالنظر، أمّا إذا کانا ناشئین عن عقم الزوجة عن إنجاب الأولاد من جانب، و رغبة الرجل الشدیدة فی الحصول علی أبناء له- کما هو الحال فی کثیر من الموارد- من جانب آخر، فهو میل و رغبة منطقیان و جدیران

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۷

بالاهتمام و الرعایة.

کما أنّه لو کانت الرغبة فی تعدد الزوجات ناشئة من المیل الجنسی الشدید لدی الرجل و عدم قدرة الزوجة الأولی علی تلبیة هذا المیل کما ینبغی، و لهذا یری الرجل نفسه مضطرا إلی اتخاذ زوجة ثانیة حتی لا یقدم علی إشباع هذه الحاجة من طریق غیر مشروع لإمکان إشباعه من طریق مشروع، و فی هذه الصورة أیضا لا یمکن إنکار منطقیة هذا المیل لدی الرجل، و لهذا تکون إقامة العلاقات مع النساء المتعددات أمرا رائجا عملیا حتی فی البلاد التی تحظر تعدد الزوجات، فیعقد الرجل الواحد علاقات غیر مشروعة مع نساء عدیدات.

إن المؤرخ الفرنسی المعروف «غوستاف لوبون» یعتبر قانون تعدد الزوجات الذی یقرّه الإسلام ضمن حدود و شروط خاصّة- من مزایا هذا الدین، و یکتب عند المقارنة بینه و بین طریقة العلاقات الجنسیة الحرّة غیر المشروعة الرائجة فی الغرب قائلا: «و فی الغرب حیث الجو و الطبیعة لا یساعدان علی تعدد الزوجات، و برغم أنّ القوانین الغربیة تمنع التعدد، و لکن الغربیین قلما تقیدوا بهذه القوانین و خرقوها بعلاقاتهم السرّیة الآثمة.

و لا أری سببا لجعل مبدأ تعدد الزوجات الشرعی عند الشرقیین أدنی مرتبة من مبدأ تعدد الزوجات السری عند الأوروبیین، بل أری ما یجعله أسنی منه»[۴۰] طبعا لا- یمکننا إنکار أنّ هناک بعض أدعیاء الإسلام ممن یستخدمون هذا القانون الإسلامی من دون مراعاة الروح الإسلامیة فیه فیتخذون حریما کلّه فساد و فجور و یتعدون علی حقوق أزواجهم، بید أنّ هذا لیس هو عیب فی هذا القانون الإسلامی و لا یجوز اعتبار أعمالهم القبیحة و أفعالهم الرخیصة هذه من الإسلام، فهی لیست من أحکام الإسلام فی شیء. تری أی

حكم أو قانون جيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۸

من الأحكام و القوانين لم يستغله النفعيون و المصلحيون استغلالا سيئا؟

سؤال

ثمّ إنّ هاهنا من يسأل أنّه قد تتوفر الشرائط و الكيفيات المذكورة أعلاه بالنسبة إلى امرأة أو نساء، فهل يجوز أن نسمح لها أن تختار لنفسها زوجين كما نسمح للرجال ذلك؟

الجواب

إنّ الجواب على هذا السؤال ليس صعبا كما يمكن أن يتصور، و ذلك:

أوّلا: إنّ الرغبة الجنسية لدى الرجال (على خلاف ما هو شائع بين السواد من الناس) أقوى و أشدّ بأضعاف من النساء، و أن المرض النفسى الذى تصرّح به أكثر الكتب النفسية و الطبية هو «البرود الجنسى» لدى المرأة فى حين أن الأمر فى الرجال هو العكس، و لا يقتصر هذا الأمر على البشر، ففى عالم الحيوانات كذلك نجد ذكورها أسبق إلى إظهار الميول الجنسية من إناثها.

ثانيا: إنّ تعدد الزوجات للرجال لا ينطوى على أية مشاكل اجتماعية و حقوقية، فى حين أنّ السماح بتعدد الأزواج للنساء (أى لو أنّنا سمحنا لامرأة أن تتزوج برجلين) يسبب مشاكل كثيرة أبسطها هو ضياع النسب، إذ لا يعرف فى هذه الصورة إلى من ينتسب الولد، و لا شك أن مثل هذا الولد المجهول الأب لن يحظى باهتمام أى واحد من الرجال، بل و يعتقد بعض العلماء أن الولد المجهول الأب قلّما يحظى حتى بحبّ الأمّ و اهتمامها به، و بهذه الصورة يصاب الولد الناشئ من مثل المرأة ذات الزوجين بحرمان مطلق من الناحية العاطفية، كما أنّه يكون- بطبيعة الحال- مجهول الحال من الناحية الحقوقية أيضا.

و لعلّه لا يحتاج إلى التذكير بأن التوسل بوسائل منع الحمل للحيلولة دون انعقاد النطفة، و حصول ولد لا يورث الاطمئنان مطلقا، و لا يكون دليلا قاطعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۹۹

على عدم حمل الزوجة بولد، لأن ثمّة كثيرا من النساء يستخدمن هذه الوسائل، أو يخطئن فى استخدامها فيلدن و ينجبن أولادا، و لهذا لا يمكن لأية امرأة أن تسمح لنفسها بأن تتزوج بأكثر من رجل اعتمادا على هذه الوسائل.

لهذه الأسباب لا يمكن أن يكون السماح للمرأة بتعدد الأزواج أمرا منطقيا، فى حين أنّه بالنسبة للرجال- ضمن الشروط المذكورة سابقا- أمر منطقى، و عملى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴]

اشارة

وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (۴)

التّفسير

اشارة

«النّحلة» فى اللغة تعنى الدّين، كما أنّها بمعنى العطية أيضا، يقول الرّاغب الأصفهانى فى مفرداته: «و اشتقاقه فيما أرى أنه من النحل نظرا منه إلى فعله فكان نحلته أعطيته النحل».

و «صدقاتهن» جمع الصداق و هى بمعنى المهر ...

و الآية الحاضرة التى جاءت بعد البحث المطروح فى الآية السابقة حول انتخاب الزّوجة تتضمن إشارة إلى إحدى حقوق النساء المسلّمة، و تؤكّد قائلة:

وَ آتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً أى أعطوا المهر للزوجة كمّلا- و اهتموا بذلك كما تهتمون بما عليكم من ديون فتؤدونها كاملة دون نقص (و فى هذه الصورة نكون قد أخذنا لفظة النّحلة بمعنى الدّين).

و أمّا إذا أخذنا لفظة النّحلة بمعنى العطية و الهبة فيكون تفسير الآية المذكورة بالنحو التالى: «أعطوا النساء كامل مهرهنّ الذى هو عطية من اللّه لهنّ لأجل أن يكون للنساء حقوق أكثر فى المجتمع و ينجبر بهذا الأمر ما فيهنّ من ضعف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۱

جسمى نسبى».

ثمّ بعد أن يأمر اللّه سبحانه- بصراحة- فى مطلع الآية بأن تعطى للنساء مهورهن كاملة و دون نقصان حفظا لحقوقهنّ، يعمد فى ذيل هذه الآية إلى بيان ما من شأنه احترام مشاعر كلا الطرفين، و من شأنه تقوية أواصر الودّ و المحبّة و العلاقة القلبية، و كسب العواطف إذ يقول: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً أى لو تنازلت الزوجة عن شىء من المهر و وهبته للزوج عن طيب نفسها جاز للزوج أكل الموهوب له، و إنّما أقرّ الإسلام هذا المبدأ لكيلا- تكون البيئه العائلية و الحياة الزوجية ميدانا لسلسلة من القوانين و المقررات الجافة، بل يكون مسرحا للتلاقى العاطفى الإنسانى، و تسود فى هذه الحياة المحبّة جنبا إلى جنب مع المقررات و الأحكام الحقوقية المذكورة.

الصّداق دعامة اجتماعية للمرأة:

لمّا كانت المرأة- فى العصر الجاهلى- لم تحظ بأية قيمة أو مكانة كان الرجل إذا تزوج امرأة ترك أمر صداقها- الذى هو حقها المسلّم- إلى أوليائها، فكان أولياؤها يأخذون صداقها، و يعتبرونه حقّا مسلّما لهم لا لها، و ربّما جعلوا التزوج بامرأة صداقا لامرأة أخرى، مثل أن يزوج الرجل أخته بشخص على أن يزوج ذلك الشخص أخته بذلك الرجل، و كان هذا هو صداق الزوجتين.

و لقد أبطل الإسلام كل هذه التقاليد و الأعراف الظالمة، و اعتبر الصداق حقّا مسلّما خاصا بالمرأة، و أوصى الرجال مرّات عديدة و فى آيات الكتاب العزيز برعاية هذا الحق للمرأة.

على أنه ليس للصداق حدّ معين فى الإسلام، فهو أمر يتبع اتفاق الزوجين، و إن تأكد فى روايات كثيرة على التخفيف فى المهور، و لكن هذا لا يكون حكما إلزاميا، بل هو أمر مستحب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۲

و هاهنا ينطرح هذا السؤال، و هو إذا كان الرجل و المرأة يستفيدان من الزواج بشكل متساو، و كانت رابطة الزوجية قائمة على أساس

مصالح الطرفين فلما ذا يجب على الرجل أن يدفع مبلغا- قليلا أو كثيرا- إلى المرأة بعنوان الصداق و المهر؟ ثمّ ألا ينطوى هذا الأمر على إساءة إلى شخصية المرأة، ألا يسبغ هذا الأمر صبغة البيع و الشراء على مشروع الزواج؟

إنّ هذه الأمور هى التى تدفع بالبعض إلى أن يعارضوا بشدّة مبدأ المهر و مسألة الصداق، و يقوى هذا الاتجاه لدى المتغربين خاصّة ما يجدونه من عدم الأخذ بهذا المبدأ فى الزيجات الغربية، فى حين أن حذف الصداق و المهر من مشروع الزواج ليس من شأنه رفع شخصية المرأة فقط، بل يعرض وضعها للخطر.

و توضيح ذلك هو، أنّه صحيح أنّ المرأة و الرجل يستفيدان من مشروع الزواج، و إقامة الحياة الزوجية على قدم المساواة، و لكن لا يمكن إنكار أنّ الأكثر تضررا لدى افتراق الزوج عن زوجته هى المرأة، و ذلك:

أوّلا: إنّ الرجل- بحكم قابلياته الجسدية الخاصّة- يمتلك- عادة- سلطانا و نفوذا و فرصا أكثر فى المجتمع، و هذه هى حقيقة ساطعة مهما حاول البعض إنكارها عند الحديث حول المرأة، و لكن الوضع الاجتماعى و حياة البشر- حتى فى المجتمعات الغربية و الأوروبية التى تحظى فيها النساء بما يسمّى بالحرّية الكاملة ترينا بوضوح- و كما هو مشهود للجميع- إنّ الفرص و أزمة الأعمال المربحة جدّا هى فى الأغلب فى أيدى الرجال.

هذا مضافا إلى أنّ أمام الرجال إمكانيات أكثر لاختيار الزوجات، و إقامة حياة عائلية جديدة بينما لا تتوفر مثل هذه الإمكانيات للمرأة، فإن النساء الثيبات- خاصّة تلك التى يصبن بهذه الحالة بعد مضى شطر من أعمارهنّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۳

و فقدان شبابهنّ و جمالهنّ- يمتلكن فرصا أقل للحصول على أزواج لهنّ.

بملاحظة هذه النقاط يتضح أنّ الإمكانات التى تخسرها المرأة بالزواج أكثر من الإمكانات التى يفقدها الرجل بذلك، و يكون الصداق و المهر- فى الحقيقة- بمثابة التعويض عن الخسارة التى تلحق بالمرأة، و وسيلة لضمان حياتها المستقبلية، هذا مضافا إلى أنّ المهر و الصداق خير وسيلة رادعة تردع الرجل عن التفكير فى الطلاق و الإفتراق.

صحيح أنّ المهر- فى نظر القوانين الإسلامية يتعلق بذمّة الرجل من لحظة انعقاد الرابطة الزوجية و قيامها بين الرجل و المرأة، و يحق للمرأة المطالبة به فورا، و لكن حيث أن الغالب هو أن يتخذ الصداق صفة الدّين المتعلق فى الذمّة يكون لذلك بمثابة توفير للمرأة تستفيد منه فى مستقبلها، كما يعتبر خير دعامة لحفظ حقوقها، إلى جانب أنه يساعد على حفظ الرابطة الزوجية من التبعثر و التمزق (طبعا هناك استثناءات لهذا الموضوع، و لكن ما ذكرناه صادق فى أغلب الموارد).

و أمّا تفسير البعض لمسألة المهر بنحو خاطئ، و اعتبار الصداق أنّه من قبيل ثمن المرأة فلا يرتبط بالقوانين الإسلامية، لأن الإسلام لا يعطى للصداق الذى يقدمه الرجل إلى المرأة صفة الثمن كما لا يعطى المرأة صفة البضاعة القابلة للبيع و الشراء، و أفضل دليل على ذلك هو صيغة عقد الزواج الذى يعتبر فيه الرجل و المرأة كركنين أساسيين فى الرابطة الزوجية، فى حين يقع الصداق و المهر على هامش هذا العقد، و يعتبر أمرا إضافيا، بدليل صحّة العقد إذا لم يرد فى صيغة البيع و الشراء و غير ذلك من المعاملات المالية إذ بدونه تبطل هذه المعاملات (طبعا لا بدّ من الانتباه إلى أن على الزوج- إذا لم يذكر الصداق ضمن عقد الزواج- أن يدفع إلى المرأة مهر المثل فى صورة الدخول بها).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۴

من كلّ ما قيل نستنتج أنّ المهر بمثابة جبران للخسارة اللاحقة بالمرأة، و بمثابة الدعامة القوية التى تساعد على احترام حقوق المرأة، لا أنّه ثمن المرأة، و لعل التعبير بالنّحلة التى هى بمعنى العطية فى الآية إشارة إلى هذه النقطة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۵

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِياماً وَ ارْزُقُوهُمْ فِيها وَ اكْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۵) وَ ابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (۶)

التّفسير

اشارة

الآيات الحاضرة تكملة للأبحاث المرتبطة باليتامى، التى مرّت فى الآيات السّابقة.

يقول اللّه سبحانه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ بل انتظروا رشدهم، و نضجهم فى المسائل الاقتصادية لكى لا تتعرض أموالكم للتلف و الفناء.

من هو السّفيه؟:

قال الرّاغب فى المفردات: «السّفه خفّة فى البدن (يحصل بسببها عدم التعادل فى المشى) و منه قيل زمام سفيه أى كثير الاضطراب، و استعمل فى خفّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۶

النفس لنقصان العقل فى الأمور الدّنيوية، و الأخروية».

و لكنّ من الواضح أنّ المراد من السّفه فى الآية الحاضرة هو عدم الرشد اللازم فى الأمور الاقتصادية بحيث لا يستطيع الشخص من تدبير شؤونه الاقتصادية و إصلاح ماله على الوجه الصحيح، و لا يتمكن من ضمان منافعه فى المبادلات و المعاملات المالية، أى أنّه عرضة للغبن و الضرّر، و يدل على هذا المعنى ما جاء فى الآية الثانية إذ يقول سبحانه: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ

و على هذا الأساس فإنّ الآية الحاضرة و إن كانت تبحث حول اليتامى، لكنّها تتضمّن حكما كليا و قانونا عامّا لجميع الموارد، و هو أنّه لا يجوز لأحد مطلقا أن يعطى أموال من يتولى أمره، أو ترتبط به حياته بنوع من الارتباط، إليه إذا كان سفيها غير رشيد، و لا فرق فى هذا الحكم بين الأموال الخاصّة و الأموال العامّة (و هى أموال الحكومة الإسلامية) و يشهد على هذا الموضوع- مضافا إلى سعة مفهوم الآية- و خاصّة كلمة «السّفيه» روايات منقولة عن أئمّة الدين فى هذا الصدد.

ففى رواية عن الإمام الصّادق عليه السّلام نقرأ أنّ شخصا يدعى إبراهيم بن عبد الحميد يقول: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَكُمُ قال:

«كلّ من يشرب المسكر فهو سفيه ۴۱] فلا تعطوهم أموالكم».

و فى رواية أخرى نجد النهى عن اختيار شارب الخمر لجعله أمينا على الأموال.

و خلاصة القول أنّنا نجد توصيف شارب الخمر بالسفه فى أحاديث كثيرة و موارد متعددة، و هذا التعبير إنّما هو لأن شارب الخمر فقد رأس ماله المادى و رأس ماله المعنوى، و أى سفيه أشدّ من أن يعطى الإنسان ماله، و عقله أيضا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۷

و یبتاع الجنون ... و یضحی فی هذا السبیل بکل طاقاته البدنیة و الروحیة، و یتسبب فی أضرار اجتماعیة کثیرة و کبیرة.

ثمّ أنّنا نلاحظ أن روایة أخری تصف کلّ من لا یوثق به بالسفیه، و تنهی من تسلیم الأموال الخاصّة و العامّة إلیه، فعن یونس بن یعقوب قال: سألت أبا عبد اللّه علیه السّلام عن قوله: وَ لا تُؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوالَکُمُ قال: «من لا تثق به ۴۲]».

و من هذه الرّوایات یتبیّن أنّ للفظة السفیه معنی واسعا، و أن النهی یشمل تسلیم الأموال الخاصّة و العامّة إلیهم، غایة ما فی الأمر أن هذا النهی یکون فی بعض الموارد نهی تحریم، و فی بعض الموارد الاخری التی لا تشتد فیها درجة السفه یکون نهی کراهة.

و هنا ینطرح سؤال و هو، إذا کانت هذه الآیة فی مورد أموال الیتامی فلما ذا قال تعالی: أَمْوالَکُمُ و لم یقل «أموالهم»؟

یمکن أن تکون النکتة و السرّ فی هذا التعبیر هو بیان مسألة اجتماعیة و اقتصادیة مهمّة فی المقام و هی أن الإسلام یعتبر الأفراد فی المجتمع بمثابة فرد واحد بحیث لا یمکن أن تنفصل مصالح فرد عن مصالح الآخرین، و هکذا تکون خسارة فرد عین خسارة الآخرین، و لهذا السبب أتی القرآن فی هذا المقام بضمیر المخاطب بدل ضمیر الغائب إذ قال: «أموالکم» و لم یقل «أموالهم»، یعنی أنّ هذه الأموال- فی الحقیقة- لیست مرتبطة بالیتامی فقط، بل هی مرتبطة بکم أیضا، فإذا لحق بها ضرّر، یکون ذلک الضرّر قد لحق بکم بصورة غیر مباشرة أیضا، و لهذا یجب أن تحرصوا فی حفظها کل الحرص.

ثمّ إنّ هناک تفسیرا آخر لهذا التعبیر و هو أن المقصود من «أموالکم»، هو أموال نفس الأولیاء لا أموال الیتامی، فیکون المعنی إذا أردتم مساعدة الأیتام الذین لم یرشدوا ربّما أعطیتهم شیئا من أموالکم- تحت تأثیر العاطفة و الإشفاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۸

- إلیهم، و اخترتموهم لبعض الأعمال التی لا یقدرون علیها فلا تفعلوا ذلک، بل علیکم أن تعملوا شیئا آخر مکان هذا العمل الغیر العقلائی، و هو أن تقوموا بالإنفاق علی مأکلهم و ملبسهم و مسکنهم حتی یبلغوا سن الرشد، فإذا بلغوا هذه المرتبة، و حصلت لدیهم البصیرة الکافیة أعطوهم ما شئتم، و انتخبوهم لما تریدون من الأعمال.

و هذا فی الواقع درس اجتماعی کبیر یعلمه القرآن لنا حیث ینهانا عن تشغیل من لا یقدر علی بعض الأعمال فیها، و ذلک بدافع مساعدتهم و تحت تأثیر الإشفاق و العاطفة، لأن هذه الأعمال و إن کانت تنطوی علی بعض الأرباح القلیلة، و لکنّها من الممکن أن تجرّ علی المجتمع أضرارا و ویلات کبیرة، فلا بدّ إذن من إدارة أمور هذه الطائفة من المجتمع عن طریق تقدیم المساعدات الغیر المعوضة إلیهم أو تشغیلهم فی أمور سهلة و صغیرة.

من هنا یتّضح أنّ بعض قاصری النظر یختارون الضعفاء و القصر لبعض المسؤولیات التبلیغیة و الدینیة إرفاقا بهم و إشفاقا علیهم و هذا لا شک من أضرّ الأعمال، و أکثرها بعدا عن العقل و المنطق الصحیح.

أموالکم قوام لکم:

ثمّ أنّ القرآن الکریم یصف الأموال المذکورة فی مطلع الآیة الحاضرة بقوله:

الَّتِی جَعَلَ اللَّهُ لَکُمْ قِیاماً هو تعبیر جمیل و رائع جدا عن الأموال و الثّروات، فهی قوام الحیاة الناس و المجتمع، و بدونها لا یمکن للمجتمع الوقوف علی قدمیه، فلا یصحّ إعطاؤها إلی السفهاء و المسرفین الذین لا یعرفون إصلاحها، بل ربّما أفسدوها و أتلفوها و ألحقوا بسبب ذلک أضرارا کبیرة بالمجتمع.

و من هذا التعبیر نعرف جیدا ما یولیه الإسلام من الاهتمام بالأمور و الشؤون الاقتصادیة و المالیة، و علی العکس نقرأ فی الإنجیل الحاضر: «فقال یسوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۰۹

لتلامیذه: الحق أقول لکم أنّه یعسر أن یدخل غنی إلی ملکوت السماوات»[۴۳] فی حین یری الإسلام أنّ الأمّة الفقیرة لا تستطیع أبدا الوقوف علی قدمیها. و أنّه لعجیب أن نری تلک الطائفة بلغت إلی ما بلغت من المراتب فی عالمنا الراهن فی حقول التقدم الاقتصادی مع ما هم علیه من التعالیم الخاطئة، فی حین نعانی من هذا الوضع المأسوی مع ما نملک من التعالیم الحیویة العظیمة.

غیر أنّه لا داعی للعجب، فهم ترکوا تلک الخرافات و الأضالیل- فی الحقیقة- فوصلوا إلی ما وصلوا، بینما ترکنا نحن هذه التعالیم الراقیة فوقعنا فی هذه الحیرة، و التخلف.

تعلیمان فی شأن الیتامی:

ثمّ أن اللّه سبحانه یأمر- فی شأن الیتامی- بأمرین مهمین هما:

أوّلا: رزق الیتامی و إکسائهم من أموالهم حتی یبلغوا سن الرشد إذ یقول:

وَ ارْزُقُوهُمْ فِیها وَ اکْسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً.

و الجدیر بالنظر هو أنّ اللّه تعالی عبّر فی هذه الآیة بلفظة «فیها» أی فی أموال الیتامی لا «منها» أی من أموالهم إذ المفهوم من هذا التعبیر هو أن تدبیر شؤون الیتامی و الإنفاق علیهم یجب أن یتمّ من أرباح أموالهم، إذ لو قال سبحانه:

و ارزقوهم منها لفهم من ذلک أنّ علی الولی أن یقتطع من أصل أموالهم شیئا فشیئا، و هذا یعنی أن یفقد الیتامی شیئا کبیرا من أموالهم حینما یبلغون و یصلون إلی سن الرشد، و لکن القرآن الکریم باستبداله لفظة «منها» بلفظة «فیها» یکون قد أوصی أولیاء الیتامی بأن یحرصوا کلّ الحرص علی أموال الیتامی، و یحاولوا الإنفاق من أرباح رؤوس أموالهم و ذلک باسترباح هذه الأموال و استثمارها و لو بقدر نفقات الیتامی کیما تبقی هذه الأموال علی حالها حین بلوغهم سن الرشد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۰

ثانیا: مخاطبة الیتامی و التکلم معهم بقول طیب و رقیق إذ قال سبحانه:

وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً کیما یزیلوا بمثل هذا القول المعروف ما یشعر به الیتامی من نقصان روحی و عقد نفسیة، کما یساعدوا بذلک علی ترشیدهم و بلوغهم حدّ الرشد العقلی، حتی یتمتعوا عند البلوغ بالرشد العقلی اللازم، و بهذا الطریق یکون بناء شخصیة الیتیم و ترشیده عقلیا من وظائف الأولیاء و مسئولیاتهم أیضا.

تعلیم آخر فی شأن الیتامی و أموالهم:

هاهنا تعلیم آخر فی شأن الیتامی و أموالهم، إذ یقول سبحانه: وَ ابْتَلُوا الْیَتامی حَتَّی إِذا بَلَغُوا النِّکاحَ فإذا بلغوا سن الرشد الذی آنستم فیه قدرتهم علی إدارة أموالهم و التصرف فیها بنحو معقول فأعطوهم أموالهم: فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوالَهُمْ و ها هنا نقاط لا بدّ من الالتفات إلیها.

۱- إنّه یستفاد من التعبیر ب «حتی» أنّه یجب اختبار الیتامی قبل بلوغ سنّ النکاح، و أن یتمّ هذا الأمر بصورة مستمرة و متکررة حتی یعرف بلوغهم حدّ النکاح و یتبیّن أنّهم بلغوا الحدّ اللازم من الرشد العقلی اللازم لإدارة الأمور المالیة علی الوجه الصحیح.

کما أنّه یستفاد- ضمنا- أنّ المراد من الاختبار و الابتلاء هو التربیة التدریجیة و المستمرة للیتامی، و هذا یعنی أن لا تترکوا الیتامی و تهملوهم حتی یبلغوا سن الرشد ثمّ تعمدوا إلی إعطائهم أموالهم، بل لا بدّ أن تهیئوهم- قبل البلوغ- للحیاة المستقلة و ذلک بالبرامج

التربوية العملية.

و أمّا أنّه كيف يمكن اختبار اليتيم فطريقه هو أن يعطى مقدارا من المال، فيتّجر به و يشترى و يبيع مع نظارة الولى بنحو لا يسلب اليتيم استقلاله فإذا تبيّن أنّه قادر على الاتجار و التعامل كما ينبغى و من دون أن يغبن، وجب تسليم أمواله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۱

إليه و إلّا فلا بدّ أن تستمر تربيته و إعداده حتى يبلغ تلك الدرجة التى يستطيع فيها أن يستقل بإدارة شؤونه و تدبير معيشته، و أخذ زمام حياته المستقبلية بيده.

۲- إنّ التعبير بجملة إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ إشارة إلى أن الرشد المطلوب هو أن يبلغ اليتيم إلى درجة القدرة على الزواج، و واضح أن الذى يقدر على الزواج لا بدّ أنّه يقدر على تشكيل عائلة، و لا شك أنّ الإنسان بدون امتلاكه لرأس مال لا يتوصل إلى أهدافه، و لهذا فإن بداية الحياة العائلية تتزامن مع بداية الحياة الاقتصادية المستقلة.

و بعبارة أخرى أنّ الثروة لا- تعطى إليهم إلّا عند ما يصلون إلى البلوغ الجسمى، فيحتاجون إلى المال بشدّة و يصلون إلى البلوغ الفكرى، و يتمكنون من المحافظة على أموالهم فى وقت واحد.

۳- إنّ التعبير بجملة آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً إشارة إلى أنّه يجب أن يتأكد من رشدهم، لأنّ الإيناس بمعنى المشاهدة و الرؤية و هذه المادة مشتقة من مادة «الإنسان» الذى فى معانيه ناظر العين و عدستها التى بها تبصر (و الرؤية إنّما تتمّ بالاستعانة من إنسان العين- فى الحقيقة- و لهذا عبر عن المشاهدة بالإيناس).

ثمّ أنّه سبحانه قال: وَ لا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَ بِداراً أَنْ يَكْبَرُوا و هو تأكيد آخر للأولياء بأن لا يسلموا الأموال إلى اليتامى قبل أن يكبروا بأن يحافظوا على أموال اليتامى و لا يتلفوها أبدا.

ثمّ أنه تعالى يردف هذا التأكيد بقوله: وَ مَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَ مَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ و بهذا أذن اللّه تعالى للأولياء بأن يأخذوا لأنفسهم من أموال اليتامى لقاء ما يتحملون من أتعاب فى حفظها، و حراستها، على أن يراعوا جانب العدل و الإنصاف فيما يأخذونه بعنوان الأجرة، هذا إذا كان الولى فقيرا، أما إذا كان غنيّا فلا يأخذ من مال اليتيم شيئا أبدا.

و قد وردت فى هذا الصدد كذلك روايات توضح و تبيّن ما أشير إليه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۲

مضمون الآية.

و من هذه الأحاديث ما

روى عن الإمام الصّادق عليه السّلام إذ قال: «فذلك رجل يحبس نفسه عن المعيشة، فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم فإن كان المال قليلا (و لا يستغرق ذلك وقتا كبيرا) طبعا فلا يأكل منه شيئا».[۴۴]

ثمّ يقول سبحانه: فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ لكى لا- يبقى أى مجال للاتهام و التنازع، و هذا هو آخر حكم فى شأن الأولياء و اليتامى جاء ذكره فى هذه الآية.

و اعلموا أنّ الحسيب الواقعى هو اللّه تعالى، و الأهم من ذلك هو أن حسابكم جميعا عنده لا يخفى عليه شىء أبدا و لا يفوته صغير و لا كبير فإذا بدرت منكم خيانة خفيت على الشهود فإنّه سبحانه سيحصيها عليكم، و سوف يحاسبكم عليها و يؤاخذكم بها: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷]

اشارة

لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۷)

سبب النّزول

كانت العرب فى الجاهلية تورث الذكور دون الإناث، و كانوا يعتقدون أنّه لا يرث من لا يطاعن بالرماح و لا يقدر على حمل السلاح، و لا يذود عن الحريم و المال، و لهذا كانوا يحرمون النساء و الأطفال عن الإرث، و يورثون الرجال الأباعد، و لو كان من الورثة من هو أقرب منهم.

حتى إذا مات أنصارى يدعى «أوس بن ثابت» و قد ترك صغارا من بنات و أولاد، فاقتسم أبناء عمومته «خالد» و «عرفجة» أمواله بينهم و لم يورثوا زوجته و أولاده الصغار من تركته أبدا، فشكت زوجته إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم يكن فى ذلك حكم إلى ذلك الحين، فنزلت هذه الآية فاستدعى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذينك الشخصين، و أمرهما بأن لا يتصرفا فى أموال الأنصارى، و أن يتركا تلك الأموال إلى ورثة الميت من الطبقة الأولى و هم زوجته و أولاده، بانتظار أن تنزل آيات أخرى توضح كيفية تقسيمها بين هؤلاء الورثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۴

التّفسير

خطوة أخرى لحفظ حقوق المرأة:

هذه الآية- فى الحقيقة- خطوة أخرى على طريق مكافحة العادات و الأعراف الخاطئة التى تؤدى إلى حرمان الأطفال و النساء من حقوقهم المسلّمة الطبيعية، و على هذا الأساس تكون هذه الآية مكملة للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة، لأن العرب الجاهليين كانوا- حسب تقاليدهم و أعرافهم الظالمة- يمنعون النساء و الصغار من حق الإرث، و لا يسهمون لهم من المواريث، فأبطلت هذه الآية هذا التقليد الخاطئ الظالم إذ قال سبحانه: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ، وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ.

ثمّ قال سبحانه فى ختام هذه الآية بغية التأكيد على الموضوع نَصِيباً مَفْرُوضاً حتى يقطع الطريق على كل تشكيك أو ترديد فى هذا المجال.

ثمّ أنّ الآية الحاضرة- كما هو ملاحظ- تذكر حكما عامّا، و شاملا لجميع الموارد، و لهذا فإن ما يتصوره البعض من أنّ الأنبياء لا يورثون، أى أنّهم إذا تركوا شيئا من ثروة و مال لم يرثهم أقرباؤهم، خلاف الآية (طبعا المقصود من الأموال التى يتركها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى تلك الأموال الخاصّة به، و أمّا الأموال المتعلقة ببيت المال الذى هو من حق المسلمين عامّة، فالحكم الإسلامى فيها هو صرفها فى مواردها.

كما أنّه يتبيّن من إطلاق الآية الحاضرة و الآيات الاخرى التى تأتى فى ما بعد حول الإرث أنّ القول بالتعصيب (و هو إعطاء شىء من التركة إلى عصبة الميت و هم من ينتسبون إليه من طرف الأب، و ذلك فى بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنة) يخالف هو أيضا ما جاء به القرآن الكريم من تعاليم فى مجال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۵

الإرث، لأن ذلك يستلزم حرمان النساء من الميراث فى بعض الموارد، و هـذا ضـرب من التمييز الجاهلى الذى رفضه الإسـلام و أبطله بالآية الحاضرة و الآيات المشابهة لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸]

اشارة

وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً (۸)

التّفسير

حكم أخلاقى:

نزلت الآية الحاضرة بعد قانون تقسيم الإرث حتما إذ تقول: وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ و على هذا الأساس يتضـمّن محتوى هذه الآية حكما أخلاقيا اسـتحبابيا فى شأن طبقات محجوبة عن الإرث بسبب وجود طبقات أقرب منها إلى المورث، فالآيـة تقول: إذا حضـر مجلس تقسـيم الإرث جماعـة من الأقرباء من الطبقـة الثانيـة و الثالثـة، و كذا بعض اليتامى و المساكين فارزقوهم من الإرث، و بهـذا تكونون قـد منعتم من تحرك شـعور الحسـد و البغضاء لـدى من يمكن أن يثور لـديهم ذلك الشعور بسبب حرمانهم من الإرث، و لا شك أنّ هذا العمل من شأنه أن يقوى أواصر القرابة الإنسانية بينكم.

إنّ كلمتى «اليتامى» و «المساكين» و إن ذكرتا بنحو مطلق فى هـذه الآية، غير أن الظاهر هو أنّ المراد منهما هم اليتامى و المساكين من قربى الميت، لأنّ الأقرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۷

يحجب- فى قانون الإرث- الأبعد من الإرث، و على هذا فلو حضر أحد من هذه الطبقات قسمة الميراث فإنّه ينبغى أن يعطى الورثة له شيئا من الميراث هدية (يتوقف مقدارها على إرادة الوراث على أن يكون ذلك من مال الورثة الكبار دون الصغار).

هذا و يحتمل جماعة من المفسـرين أن يكون المراد من اليتامى و المساكين فى هذه الآية هو مطلق اليتامى و المساكين سواء كانوا من قرابة الميت أم لا، و لكن هذا الاحتمال يبدو بعيدا فى النظر، لأن الأجانب ليس لهم طريق إلى المجالس العائلية غالبا.

كما أنّه يعتقـد بعض المفسّـرين أن الآيـة تتضـمن حكما وجوبيا لا اسـتحبابيا، بيـد أن هذا الأمر فيها على نحو الوجوب، وجب تعيين و تحديد ما يلزم إعطاؤه لهاتين الطائفتين، فى حين ترك الأمر فيه إلى إرادة الورثة.

ثمّ أنّه سـبحانه يختم هـذه الآية بدسـتور أخلاقى إذ يقول: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفاً يعنى أنّه مضافا إلى تقديم مساعدة مادية إلى هؤلاء أشفعوا ذلك بموقف أخلاقى و استفيدوا من المعين الإنسانى لكسب مودّتهم، و حتى لا يبقى فى قلوبهم أى شعور عدائى تجاهكم، و هـذا الدسـتور علامـة أخرى و دليـل آخر على أن الأـمر بإعطاء شـىء من الميراث إلى اليتامى و المساكين إنما هو على نحو النـدب لا الوجوب.

من كل ما ذكرناه اتّضح أنّه لا مبرر أبدا لأن يقال أن الحكم المذكور فى هذه الآية منسوخ بالآيات التى تعين السهام فى الإرث، لعدم وجود أية منافاة و تعارض بين هذه الآية و تلك الآيات المحددة للأسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹]

اشارة

وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (۹)

التّفسير

دعوة إلى العطف على اليتامى:

يشير القرآن الكريم- بهدف إثارة مشاعر العطف و الإشفاق لدى الناس بالنسبة إلى اليتامى- إلى حقيقة يغفل عنها الناس أحيانا، و تلك الحقيقة هى: إن على الإنسان أن يعامل يتامى الآخرين كما يحبّ أن يعامل الناس يتاماه.

تصوروا مشهد أطفال فقدوا آباءهم و أمهاتهم يعيشون تحت كفالة شخص قاسى القلب خائن لا يرعى مشاعرهم، كما لا يراعى جانب العدالة فى حقّهم.

أجل تصوروا هذا المشهد المؤلم، كم يؤلمكم و يحزنكم ذلك؟ هل تحبّون مثل ذلك لأبنائكم الصغار من بعدكم؟ كلا حتما، فكما تحبّون ورثتكم فأحبّوا ورثة غيركم و يتاماهم، و أحزنوا لما يحزنهم.

و على هذا يكون مفهوم قوله سبحانه: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ هو أنّ الذين يخافون على مستقبل أولادهم الصغار عليهم أن يخافوا مغبة الخيانة فى شؤون اليتامى و يخافوا مغبة إيذائهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۱۹

و أساسا: إنّ القضايا الاجتماعية تنتقل فى شكل سنة من السنن- من اليوم إلى الغد، و من الغد إلى المستقبل البعيد، فالذين يروّجون فى المجامع سنة ظالمة مثل إيذاء اليتامى فإن ذلك سيكون سببا لسريان هذه السنة على أولادهم و أبنائهم أيضا، و على هذا لا يكون مثل هذا الشخص قد أذى يتامى الآخرين و ورثتهم فقط، بل فتح باب الظلم على أولاده و يتاماه أيضا.

لهذا وجب أن يتجنب أولياء اليتامى مخالفة الأحكام الإلهية، و يتقوا اللّه فى اليتامى و يقولوا لهم قولا عدلا موافقا للشرع و الحق، قولا ممزوجا بالعواطف الإنسانية و المشاعر الأخوية، لكى يندمل بذلك ما فى قلوب أولئك من الجراح، و ينجبر ما فى أفئدتهم من الكسر، و إلى هذا يشير قوله سبحانه: فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً.

إنّ هذا التعليم الإسلامى الرفيع المذكور فى العبارة السابقة إشارة إلى ناحية نفسية فى مجال تربية اليتامى- جديرة بالاهتمام و الرعاية، و هى: إنّ حاجة الطفل اليتيم لا تنحصر فى الطعام و الكساء، بل مراعاة مشاعرهم و أحاسيسهم القلبية هو الأهم، و هو ذو تأثير كبير جدّا فى بناء مستقبلهم، لأن الطفل اليتيم إنسان كغيره، يجب أن يحصل على غذائه اللازم من الناحية العاطفية، فيجب أن يحظى بالحنو و الرعاية كما يحظى بذلك أى طفل آخر فى حضن أبيه و أمّه. أنه ليس «حمل» يخرج مع القطيع للرعى عند الصباح، و يعود عند الغروب، بل هو إنسان يجب- مضافا إلى الرعاية الجسدية- أن يحظى بالرعاية الروحية، و العناية العاطفية، و إلّا نشأ قاسيا مهزوما، عديم الشخصية، بل و حاقدا خطيرا.

إيضاح ضرورى:

عن عبـد الأعلى مولى آل سام قال قال أبو عبد اللّه عليه السّلام مبتدءا: «من ظلم سلّط اللّه عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه، قال (أى الراوى) فذكرت فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۰

نفسى فقلت: يظلم (و) هو يتسلط على عقبه و عقب عقبه؟ فقال لى قبل أن أتكلم: إن اللّه يقول: وَ لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ .

إنّ السؤال الذى خالج ذهن الراوى يخالج نفسه أذهان كثيرين، فيتساءلون:

كيف يحمل البارئ تعالى جزاء شخص على شخص آخر، بل و ما ذا فعل أبناء العاصى حتى يبتلوا بمن يظلمهم، و يتحملوا وزر ما جناه والدهم؟

إنّ جواب هذا السؤال يتضح من الإيضاح الذى ذكر فى الحديث السابق و هو أن ما يرتكبه الأشخاص فى المجتمع من أعمال تتخذ شكل السنة شيئا فشيئا، و ينتقل إلى الأجيال اللاحقة، و على هذا الأساس فإن الذين يظلمون اليتامى فى المجتمع، و يرسون قواعد هذا السلوك الظالم سيصاب أبناؤهم بلهيب هذه البدعة يوما ما أيضا، و يعدّ هذا فى الحقيقة أحد الآثار الوضعية التكوينية لمثل هذا العمل، و أمّا نسبته إلى اللّه فهى لأجل أن جميع الآثار التكوينية و كل خواص العلّة و المعلول منسوبة إلى اللّه و مستندة إليه تعالى، و لا يظلم ربّك أحدا أبدا.

و خلاصة القول: إذا ساد الظلم فى المجتمع فإنّه سوف يسرى و يصيب الظالم و أولاده أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً (۱۰)

التّفسير

الوجه الحقيقى لأفعال البشر:

لقد ذكرنا فى مطلع هذه السّورة أن آيات هذه السورة نزلت لبناء مجتمع صالح و سليم، و لهذا تسعى آياتها فى تطهير المجتمع من الرواسب الجاهلية و ما تبقّى فى نفوس بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام من العادات السيئة أوّلا، لتتهيأ الأرضية لإقامة ذلك المجتمع الصالح المنشود.

و أية عادة ترى أقبح من أكل أموال اليتامى؟ و لهذا ابتدأت هذه السورة بعبارات شديدة النكير على من يتصرف فى أموال اليتامى تصرفا غير مشروع، و غير صحيح، و الآية الحاضرة هى أوضح هذه العبارات.

تقول هذه الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً.

و لقد ورد نظير هذه العبارة فى موضع آخر من القرآن الكريم و ذلك فى شأن الذين يكتمون الحق، و يحرفون الكلم عن مواضعها لتحقيق بعض المكاسب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۲

المادية الشخصية إذ يقول سبحانه عنهم: إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ، وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ ما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ[۴۵].

ثمّ أنّه سبحانه يقول فى بيان نتيجة أكل أموال اليتامى: وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً.

و «يصلى» من «الصلى» بمعنى الدخول فى النار و الاحتراق بلهيبها، و أمّا «السعير» فبمعنى النار المشتعلة.

و يقصد القرآن من هذه الجملة إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى مضافا إلى أنّهم يأكلون النار- فى الحقيقة- فى هذه الدنيا سيدخلون عمّا قريب نارا مشتعلة الأوار و حارقة اللهب فى الدار الآخرة.

و يستفاد من هذه الآية أن لأعمالنا مضافا إلى وجهها الظاهرى وجها واقعيا أيضا، وجها مستورا عنّا فى هذه الدنيا، لا نراه بعيوننا هنا، و لكنّه يظهر فى العالم الآخر، و هذا الأمر هو ما يشكل مسألة تجسم الأعمال المطروحة فى المعتقدات الإسلامية.

إنّ القرآن يصرح فى هذه الآية بأنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما و جورا، و إن كان الوجه الظاهرى لفعلهم هذا هو الأكل من الأطعمة اللذيذة الملونة، و لكن الوجه الواقعى لهذه الأغذية هو النار المحرقة الملتهبة، و هذا الوجه هو الذى يظهر و يتجلّى على حقيقته فى عالم الآخرة.

إنّ بين الوجه الواقعى للعمل و الكيفية الظاهرية للعمل تناسبا و تشابها دائما، فكما أن أكل مال اليتيم و غصب حقوقه يحرق فؤاد اليتيم، و يؤذى روحه، فكذا يكون الوجه الواقعى للعمل نارا محرقة.

إنّ الانتباه إلى هذا الأمر (أى الوجه الحقيقى الواقعى لكل عمل) خير رادع للذين يؤمنون بهذه الحقائق، كيما لا يرتكبوا المعاصى و لا يقترفوا الذنوب، فهل يوجد ثمّة من يحب أن يأخذ بيديه قبسات من النار، و يضعها فى فمه و يبتلعها؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۳

إنّه من غير الممكن- و الحال هذه- أن يقدم المؤمنون على أكل مال اليتيم ظلما، و لو أنّنا وجدنا ثمّة من لا يقدم على هذا الفعل، بل و لا يفكر فى المعصية أبدا (كالأولياء)، فلأنهم يرون- بفضل ما لديهم من الإيمان و العلم، و ما حصلوا عليه من تربية خلقية- حقائق الأفعال البشرية و وجوهها الواقعية، فلا يفكرون فى اقتراف هذه الأعمال السيئة، فضلا عن الهمّ باقترافها.

إنّ الطفل الجاهل هو الذى يمكن أن يسحره و يجذبه جمال الجذوات المتقدمة و ألسنة اللهب المندفعة منها فيمد يده إليها، و لكن الإنسان العاقل الذى جرب حرارة النار و ذاق ألمها، كيف يمكن أن يفكر يوما بذلك.

هذا و لقد وردت أحاديث كثيرة تنهى بشدّة عن أكل مال اليتيم و العدوان على حقوقه، و تؤكد على أنّها كبيرة موبقة، بل و تعتبر أبسط الأعمال من هذا النوع مشمولا لهذا الحكم الصارم و موضوعا لهذه العقوبة القاسية.

ففى حديث عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر عليه السّلام لما سئل فى كم يجب لأكل مال اليتيم من النار؟ قال: فى درهمين ۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۴

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱) وَ لَكُمْ نِصْفُ

ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (۱۲)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۵

سبب النّزول

لمّا مات «عبد الرحمن بن ثابت الأنصارى» «أخو حسان بن ثابت» الشاعر المعروف فى صدر الإسلام و قد خلف امرأة و خمسة أخوان، اقتسم إخوانه ميراثه بينهم و لم يعطوا زوجته شيئا ممّا تركه من المال، فشكت ذلك إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنزلت الآيات الحاضرة التى تبيّن و تحدد سهم الأزواج من الإرث بنحو دقيق.

كما

نقل عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنّه قال: مرضت فعادنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأغمى علىّ، فطلب النّبى ماء و توضأ لبعضه و صب بعضه الآخر على فأفقت فقلت: يا رسول اللّه كيف أصنع فى مالى (أى كيف يجب أن يكون أمره من بعد وفاتى) فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يقل شيئا، فنزلت آية المواريث تبيّن نظام الإرث و تحدد أسهم الورثة.

الإرث حق طبيعى:

قبل أن نعمد إلى تفسير الآيات الحاضرة لا بدّ أن نشير إلى عدّة نقاط.

أوّلا: قد يتصور كثيرون أنّ من الأفضل أن تعود أموال الشخص بعد وفاته إلى الملكية العامّة، و أن تضاف إلى بيت مال المسلمين، و لكن الإمعان فى هذا العمل يكشف لنا عن كونه خلاف العدل، لأن مسألة الإرث و التوارث مسألة طبيعية منطقية جدا، فكما أن الآباء و الأمهات ينقلون قسما من صفاتهم الجسمية و الروحية إلى أبنائهم- حسب قانون الوراثة الطبيعى- فلما ذا يستثنى من ذلك أموالهم فلا تنتقل إلى أبنائهم؟

هذا مضافا إلى أنّ الأموال المشروعة هى نتاج جهود الإنسان المضنية، و مساعيه و أتعابه فهى فى الحقيقة طاقاته المتجسدة فى صورة المال و هيئة الثروة، و لهذا لا بدّ من الاعتراف بأن كل شخص هو المالك الطبيعى لحاصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۶

جهوده و ثمرة أتعابه، و هذا هو حكم فطرى.

و على هذا، فعند ما يمتنع أن يتصرف الشخص فى أمواله بعد وفاته و يحال بينه و بين ثروته بسبب الموت، تصبح هذه الأموال من حق أقرب الناس إليه، و الذين يعتبرون- فى الحقيقة- بشخصيتهم و وجودهم امتدادا لشخصيته و وجوده.

على هذا الأساس نجد الكثيرين لا يتركون الكد و العمل، و الكسب و التجارة حتى آخر لحظة من حياتهم رغم ما يملكون من ثراء طائل، و ذلك لبغية أن يوفروا لأبنائهم مستقبلا زاهرا و يقيموا لهم حياة سعيدة بعدهم، و هذا يعنى أن الإرث و قانون التوريث قادر على إعطاء العجلة الاقتصادية دفعة قوية و يزيد من حركتها و دورانها و نشاطها، و أمّا إذا عرف الشخص أنّ أمواله بعد موته، و امتناع تصرفه فى تلك الأموال بسبب الوفاة تعود إلى الملكية العامة، فإنّه قد يفقد قسطا كبيرا من نشاطه الاقتصادى، و يصاب بالفتور و الكسل.

و یشهد بهذا الأمر ما وقع فی فرنسا قبل حین، عند ما أقدم مجلس النواب الفرنسی- کما قیل- علی إلغاء قانون الإرث قبل مدّة و أقرّ بدل ذلک إلحاق أموال الأشخاص بعد موتهم إلی خزانة الدولة، و صیرورتها أموالا عامّة، فتؤخذ من قبل الدولة و تصرف فی المصارف العامّة بحیث لا یحصل ورثة المیت علی أی شیء من التركة، فكان لهذا القانون أثر سیء و ظاهر علی الحركة الاقتصادیة، فقد لوحظ اختلال كبیر فی أوضاع التصدیر و الاستیراد، كما خف النشاط الاقتصادی هناك بشكل ملحوظ، فأقلق ذلك بال الحكومة، و كان السبب الوحید وراء هذه الحالة هو «إلغاء قانون الإرث» ممّا دفع بالدولة إلی إعادة النظر فی هذا القرار.

و علی هذا لا یمكن إنكار أن قانون الإرث و مبدأ التوریث مضافا إلی كونه قانونا طبیعیا فطریا، له أثر قوی و عمیق فی تنشیط الحركة الاقتصادیة.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۷

الإرث فی الأمم السابقة:

لما كان لقانون الإرث جذورا فطریة فإنّه شوهد وجود الإرث و التوریث فی الشعوب و الأمم السابقة فی أشكال و صور مختلفة.

أمّا بین الیهود- و إن ادعی البعض عدم وجود مبدأ التوارث عندهم- و لكننا حینما نراجع التوراة نجدها تذكر هذا القانون فی سفر الأعداد بصورة صریحة إذ یقول:

و تكلم بنی إسرائیل قائلا: أیّما رجل مات و لیس له ابن تنقلون ملكه إلی ابنته، و إن لم تكن له ابنة تعطوا ملكه لإخوته، و إن لم یكن له أخوة تعطوا ملكه لإخوة أبیه، و إن لم یكن لأبیه أخوة تعطوا ملكه لنسیبه الأقرب إلیه من عشیرته فیرثه فصارت لبنی إسرائیل فریضة قضاء كما أمر الرّب موسی ۴۷] یدور لدی بنی إسرائیل.

و یستفاد من هذه العبارات أنّ مبدأ التوارث كان علی محور النسب فقط، و لهذا لم یرد ذكر عن سهم الزوجة فی المیراث.

و أمّا فی الدین النصرانی فالمفروض أن یكون مبدأ الإرث المذكور فی التوراة معتبرا أیضا، و ذلك لما نقل عن المسیح علیه السّلام من أنّه قال: «أنا لم أبعث لأغیر من أحكام التوراة شیئا» و لهذا لا نجد فی كتابات الفتاوی الدینیة أی كلام حول الإرث، نعم ورد فی هذه الكتب بعض مشتقات الإرث فی بعض الموارد، و لكنها تعنی جمیعا الإرث المعنوی الأخروی.

هذا و قد كان التوارث لدی العرب الجاهلیین یتحقق بإحدی هذه الطرق الثلاث:

۱- بالنسب، و كان المقصود منه عندهم هم الأبناء الذكور و الرجال خاصّة، فلا یرث الصغار و النساء أبدا.

الامثل فی تفسیر كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۸

۲- بالتبنی، و هو من طرده أهله من الأبناء، فتكفله و تبناه شخص آخر أو عائلة أخری، و فی هذه الصورة یتحقق التوارث بین المتبنی و المتبنی له.

۳- بالعهد، یعنی إذا تعاهد شخصان أن یدافع كل واحد منهما عن الآخر طیلة حیاتهما و یرث أحدهما الآخر بعد وفاته، فإنّه یقع التوارث بینهما بعد وفاة أحدهما.

و قد حرّر الإسلام قانون الإرث الطبیعی الفطری مما علق به من الخرافات، و لحق به من رواسب التمییز العنصری الظالم الذی كان یفرق بین الرجل و المرأة حینا، و بین الكبار و الأطفال حینا آخر، و جعل ملاك التوارث فی ثلاثة أمور لم تكن معروفة إلی ذلك الحین:

۱- النّسب و ذلك بمفهومه الوسیع، و هم كل علاقة تنشأ بین الأشخاص بسبب الولادة فی مختلف المستویات من دون فرق بین الرجال و النساء و الصغار و الكبار.

۲- السبب و هی العلاقات الناشئة بین الأفراد بسبب المصاهرة و التزاوج.

۳- الولاء و هى العلاقات الناشئة بين شخصين من غير طريق القرابة (السبب و النسب) مثل ولاء العتق، يعنى إذا أعتق رجل عبده، ثمّ مات العبد و خلف من بعده مالا و لم يترك أحدا ممن يرثونه بالسبب أو النسب، ورثه المعتق، و فى هذا حيث على التحرير و الإعتاق، و كذلك ولاء ضمان الجريرة، و هو أن يركن شخص إلى آخر- لا سبب بينهما و لا نسب- و يتعاهدان أن يضمن كل منهما جناية الآخر و يدافع كل منهما عن الآخر، و يكون إرث كل منهما للآخر، و «ولاء الإمامة» يعنى إذا مات أحد و لم يترك من يرثونه ممن ذكر ورثه الإمام عليه السّلام، أى أن أمواله تنتقل إلى بيت المال الإسلامى، و تصرف فى شؤون المسلمين العامّة.

هذا، و لكل واحدة من هذه الطبقات أحكام و شرائط خاصّة مذكورة فى الكتب الفقهية المفصلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۲۹

التّفسير

اشارة

قال اللّه تعالى فى الآية الأولى من هذه الآيات يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و هو بذلك يشير إلى حكم الطبقة الأولى من الورثة (و هم الأولاد و الآباء و الأمهات)، و من البديهى أنّه لا رابطة أقوى و أقرب من رابطة الأبوة و البنوة و لهذا قدموا على بقية الورثة من الطبقات الاخرى.

ثمّ إنّ من الجدير بالاهتمام من ناحية التركيب اللفظى جعل الأنثى هى الملاك و الأصل فى تعيين سهم الرجل، أى أن سهمها من الإرث هو الأصل، و إرث الذكر هو الفرع الذى يعرف بالقياس على نصيب الأنثى من الإرث إذ يقول سبحانه: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و هذا نوع التأكيد على توريث النساء و مكافحة للعادة الجاهلية المعتدية القاضية بحرمانهن من الإرث و الميراث، حرمانا كاملا.

و أمّا فلسفة هذا التفاوت بين سهم الأنثى و الذكر فذلك ما سنتعرض له عمّا قريب إن شاء اللّه.

ثمّ يقول سبحانه و تعالى: فَإِنْ كُنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثا ما تَرَكَ أى لو زادت بنات الميت على اثنتين فلهن الثلثان أى قسم الثلثان بينهن.

ثمّ قال وَ إِنْ كانَتْ واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ أى لو كانت البنت واحدة ورثت النصف من التركة.

و هاهنا سؤال:

القرآن يقول فى هذا المجال «فوق اثنتين» أى لو كانت بنات الميت أكثر من بنتين استحققن ثلثى التركة يقسّم بينهن، و هذا يعنى أن القرآن ذكر حكم البنت الواحدة، و حكم البنات فوق اثنتين، و سكت عن حكم «البنتين»، فلما ذا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۰

الجواب:

بملاحظة المقطع الأوّل من الآية الحاضرة يتضح جواب هذا السؤال، و نعنى قوله تعالى: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و لو إجمالا، لأن ورثة الميت إن انحصروا فى ابن واحد و بنت واحدة كان للابن الثلثان و للبنت الثلث، فإذا كانتا بنتين كان لهما الثلثان حسب هذه العبارة.

و خلاصـة القول: أنّه إذا قال للـذكر مثل حظ الأنثيين و كان أوّل العـدد ذكرا و أنثى و للذكر الثلثان و للأنثى الثلث، علم من ذلك أن للبنتين الثلثين، و لعل لوضوح هـذا الأمر لم تتعرض الآيـة لبيانه (أى لذكر سـهم الأختين) و اكتفت بذكر سـهم البنات المتعددات فوق اثنتين، و هو الثلثان.

على أن هـذا المطلب يتّضـح أيضا بمراجعـة الآيـة الأخيرة من سورة النساء، لأنّها جعلت نصـيب الأخت الواحـدة النصف (مثل نصـيب البنت الواحدة) ثمّ تقول:

فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ فمن هذا يتضح أن سهم البنتين هو الثلثان أيضا.

هذا مضافا إلى ورود مثل هذا التعبير فى الأدب العربى، إذ يقول العرب أحيانا «فوق اثنتين» و يكون مرادهم هم «اثنتان فما فوق».

و بغض النظر عن كل ما قيل أنّ الحكم المذكور من الأحكام القطعية المسـلمة من وجهة نظر الفقه الإسـلامى و الأحاديث الشـريفة، و الرجوع إلى السنة المطهرة (أى الأحاديث) كفيل برفع أى إبهام فى الجملة المذكورة إن كان.

لما ذا يرث الرّجل ضعف المرأة؟:

مع أنّ ما يرثه الرجل هو ضـعف ما ترثه المرأة، إلّا أنّه بالإمعان و التأمل يتّضح أنّ المرأة ترث- فى الحقيقة- ضـعف ما يرثه الرجل إذا لا حظنا القضية من جانب آخر، و هذا إنّما هو لأجل ما يوليه الإسلام من حماية لحقوق المرأة.

توضيح ذلك: إن هناك وظائف أنيطت بالرجل (و بالأحرى كلّف بأدائها تجاه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۱

المرأة) تقتضى صرف و إنفاق نصف ما يحصل عليه الرجل على المرأة، فى حين لا يجب على المرأة أى شىء من هذا القبيل.

إنّ على الرجـل (الزوج) أن يتكفـل نفقـات زوجته حسب حاجتهـا من المسـكن و الملبس و المأكل و المشـرب و غير ذلك من لوازم الحيـاة كمـا أن عليه أن ينفق على أولاـده الصـغار أيضـا، فى حين أعفيت المرأة من الإنفـاق حـتى على نفسـها، و على هـذا يكون فى إمكـان المرأة تـدخر كـل ما تحصـله عن طريق الإرث، و تكون نتيجـة ذلك أن الرجل يصـرف و ينفق نصف مـدخوله على المرأة، و نصفه فقط على نفسه، فى حين يبقى سهم المرأة من الإرث باقيا على حاله.

و لمزيـد من التوضـيح نلفت نظر القـارئ الكريم إلى المثـال التـالى: لنفـترض أنّ مجموع الـثروات الموجودة فى العـالم و الـتى تقسـم تـدريجا- عن طريق الإـرث- بين الـذكور و الإناث هو (۳۰) ميليـارد دينـار، و الآـن فلنحاسب مجموع ما يحصل عليه الرجال و نقيسـه بمجموع ما تحصل عليه النساء عن طريق الإرث.

فلنفترض أن عدد الرجال و النساء متساو فتكون حصة الرجال هو (۲۰) ميليارداً، و حصة النساء هى (۱۰) ميلياردات.

و حيث أن النسـاء يتزوجن- غالبـا- فـإن الإنفاق عليهنّ يكون من واجب الرجال، و هـذا يعنى أن تحتفظ النساء ب (۱۰) ميلياردات (و هو سهمهنّ من الإرث)، و يشاركن الرجال فى العشرين ميلياردا، لأن على الرجال أن يصرفوا من سهمهم على زوجاتهم و أطفالهم.

و على هـذا يصـرف الرجال (۱۰) ميليـاردات على النسـاء (و هو نصف سـهمهم من الإـرث) فيكون مجموع مـا تحصـل عليه النسـاء و يملكنه هو (۲۰) ميليـاردا و هو ثلثا الثروة العالميـة فى حين لا يعود من الثروة العالميـة على الرجال إلّا (۱۰) ميلياردات، أى ثلث الثروة العالمية (و هو المقدار الذى يصرفه الرجال على أنفسهم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۲

و تكون النتيجة أنّ سـهم المرأة التى تصـرفه و تسـتفيد منه و تتملكه واقعا هو ضعف سهم الرجل، و هذا التفاوت إنّما لكونهنّ أضعف من الرجال على كسب الثروة و تحصيلها (بالجهد و العمل)، و هذا- فى حقيقته- حماية منطقية و عادلة قام بها الإسلام للمرأة، و هكذا

يتبيّن أنّ سهمها الحقيقى أكثر- فى النظام الإسلامى- و إن كان فى الظاهر هو النصف.

و من حسن الصدف أنّنا نقف على هذه النقطة إذا راجعنا التراث الإسلامى حيث أنّ هذا السؤال نفسه قد طرح منذ بداية الإسلام و خالج بعض الأذهان، فكان الناس يسألون أئمّة الدين عن سرّ ذلك بين حين و آخر، و كانوا يحصلون على إجابات متشابهة فى مضمونها- على الأغلب- و هو أن اللّه إذ كلف الرجال بالإنفاق على النساء و أمهارهنّ، جعل سهمهم أكثر من سهمهنّ.

إن أبا الحسن الرضا عليه السّلام كتب إليه فى ما كتب من جواب مسائله علّة إعطاء النساء نصف ما يعطى الرجال من الميراث: لأن المرأة إذا تزوجت أخذت، و الرجل يعطى، فلذلك و فرّ على الرجال، و علة أخرى فى إعطاء الذكر مثل ما يعطى الأنثى لأن الأنثى من عيال الذكر إن احتاجت، و عليه أن يعولها و عليه نفقتها، و ليس على المرأة أن تعول الرجل و لا تؤخذ بنفقته إن احتاج فوفرّ على الرجال لذلك ۴۸].

إرث الأب و الأمّ:

و أمّا ميراث الآباء و الأمهات الذين هم من الطبقة الأولى، و فى مصاف الأبناء أيضا، فإن له كما ذكرت الآية الحاضرة (أى الآية الأولى من هذه المجموعة) ثلاث حالات هى:

الحالة الأولى: إنّ الشخص المتوفى إن كان له ولد أو أولاد، ورث كل من الأب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۳

و الأمّ السدس: وَ لِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كانَ لَهُ وَلَدٌ.

الحالة الثّانية: إن لم يكن للمتوفى ولد، و انحصر ورثته فى الأب و الأمّ، ورثت الأمّ ثلث ما ترك، يقول سبحانه: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَ وَرِثَهُ أَبَواهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ و إذا كنّا لا نجد هنا أى ذكر عن سهم الأب فلان سهمه واضح و بيّن و هو الثلثان، هذا مضافا إلى أنّه قد يخلف الميت زوجة فينقص فى هذه الصورة من سهم الأب دون سهم الأم، و بذلك يكون سهم الأب متغيّرا فى الحالة الثانية.

الحالة الثالثة: إذا ترك الميت أبا و أمّا و أخوة من أبويه أو من أبيه فقط، و لم يترك أولادا، ففى مثل هذه الحالة ينزل سهم الأم إلى السدس، و ذلك لأن الأخوة يحجبون الأم عن إرث المقدار الزائد عن السدس و إن كانوا لا يرثون، و لهذا يسمى أخوة الميت بالحاجب، و هذا ما يعنيه قول اللّه سبحانه: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ

و فلسفة هذا الحكم واضحة، إذ وجود أخوة للميت يثقل كاهل الأب، لأن على الأب الإنفاق على أخوة الميت حتى يكبروا، بل عليه أيضا أن ينفق عليهم بعد أن يكبروا، و لهذا يوجب وجود أخوة للميت من الأبوين أو من الأب خاصّة تدنى سهم الأمّ، و لا يوجب تدنى سهم الأب، و لا يحجبونها عن إرث ما زاد على السدس إذا كانوا من ناحية الأمّ خاصّة، إذ لا يجب لهم على والد الميت شىء من النفقات. كما هو واضح.

سؤال:

و يرد هنا سؤال، و هو أن القرآن استعمل فى المقام صيغة الجمع إذ قال: فَإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ و نحن نعلم أن أقل الجمع هو ثلاثة، فى حين يذهب جميع الفقهاء إلى أن الأخوين يحجبان أيضا، فكيف التوفيق بينهما؟

الجواب:

إنّ الجواب يتّضح من مراجعة الآيات القرآنية الاخرى، و إذ لا يلزم أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۴

المراد كلّما استعملت صيغة الجمع، الثلاثة فما فوق، بل استعملت أحيانا على شخصين فقط كما فى الآية (۷۸) من سورة الأنبياء وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ

و الآية ترتبط بقضاء داود و سليمان، و قد استخدم القرآن الكريم ضمير الجمع فى شأنهما، فقال «لحكمهم».

و من هنا يتّضح أنّه قد تستعمل صيغة الجمع فى شخصين أيضا، و لكن هذا يحتاج طبعا إلى قرينة و شاهد، و الشاهد فى المقام هو ورود الدليل من أئمّة الدين على ذلك، و إجماع المسلمين، إذ أجمع فقهاء المسلمين سنة و شيعة (إلّا ابن عباس) إن الحكم المذكور فى الآية يشمل الأخوين أيضا.

الإرث بعد الوصية و الدّين:

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ فلا بدّ من تنفيذ ما أوصى به الميت من تركته، أو أداء ما عليه من دين أوّلا، ثمّ تقسيم البقية بين الورثة.

(و قد ذكرنا فى باب الوصية أنّ لكل أحد أن يوصى بأمور فى مجال الثلث الخاص به فقط، فلا يصح أن يوصى بما زاد عن ذلك إلّا أن يأذن الورثة بذلك).

ثمّ قال سبحانه: آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً و هذه العبارة تفيد أن قانون الإرث المذكور قد أرسى على أساس متين من المصالح الواقعية، و أن تشخيص هذه المصالح بيد اللّه، لأن الإنسان يعجز عن تشخيص مصالحه و مفاسده جميعا، فمن الممكن أن يظن البعض أنّ الآباء و الأمهات أكثر نفعا لهم، و لذلك فهم أولى بالإرث من الأبناء و إن عليه أن يقدمهم عليهم، و من الممكن أن يظن آخرون العكس، و لو كان أمر الإرث و قسمته متروكا إلى الناس لذهبوا فى ذلك ألف مذهب، و لآل الأمر إلى الهرج و المرج و الفوضى، و انتهى إلى الاختلاف و التشاجر، و لكن اللّه الذى يعلم بحقائق الأمور كما هى أقام قانون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۵

الإرث على نظام ثابت يكفل خير البشرية و يتضمّن صلاحها ...

و لأجل أن يتأكد كل ما ذكر من الأمور، و يتخذ صفة القانون الذى لا يحتمل الترديد، و لا يكون فيه للناس أى مجال نقاش، يقول سبحانه: فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً و بذلك يقطع الطريق على أى نقاش فى مجال القوانين المتعلقة بالأسهم فى الإرث.

سهم الأزواج بعضهم من بعض:

فى الآية السابقة أشير إلى سهم الأولاد و الآباء و الأمهات، و فى الآية التى تليها يقول اللّه سبحانه: وَ لَكُمْ نِصْفُ ما تَرَكَ أَزْواجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ و يشير سبحانه إلى كيفية إرث الزوجين بعضهما من بعض، فإن الزوج يرث نصف ما تتركه الزوجة هذا إذا لم يكن للزوجة ولد، فإن كان لها ولد أو أولاد (و لو من زوج آخر) ورث الزوج ربع ما تتركه فقط، و إلى هذا يشير تعالى فى نفس الآية: فَإِنْ كانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

على أن هذا التقسيم يجب أن يتمّ بعد تنفيذ وصايا المتوفاة، أو تسديد ما عليها من ديون كما يقول سبحانه: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِها

أَوْ دَيْنٍ

و أمّا إرث الزوجة مما يتركه الزوج، فإذا كان للزوج أولاد (و إن كانوا من زوجة أخرى) ورثت الزوجة الثمن لقوله سبحانه: فَإِنْ كانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

و يكون لها الربع إن لم يكن للزوج الميت ولد لقوله سبحانه: وَ لَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ.

على أنّ هذا التقسيم يجب أن يتمّ أيضا من بعد تنفيذ وصايا الميت أو تسديد ديونه من أصل التركة: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِها أَوْ دَيْنٍ

و الملفت للنظر فى المقام هو انخفاض سهام الأزواج إلى النصف إذا كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۶

للميت ولد، و ذلك رعاية لحال الأولاد.

و أمّا العلّة لكون سهم الأزواج ضعف سهم الزوجات فهى ما ذكرناه فى البحث السابق حول علّة الفرق بين سهم الذكر و الأنثى.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة مهمة يجب التنبيه إليها أيضا، و هى أنّ السهم المعين للنساء (سواء الربع أو الثمن) خاص بمن ترك زوجة واحدة فقط (فإنّها ترث كل الربع أو كل الثمن) و أمّا إذا ترك الميت زوجات متعددة قسم ذلك السهم (الربع أو الثمن) بينهن بالتساوى، و هذا هو ما يدل عليه ظاهر الآية مورد البحث أيضا.

إرث أخوة الميت و أخواته:

ثمّ أنّه سبحانه بعد أن يذكر سهم الأزواج بعضهم من بعض، يعمد إلى ذكر أسهم أخوة الميت و أخواته فيقول: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً ....

و فى هذه العبارة نواجه مصطلحا جديدا ورد فى موضعين من القرآن فقط، أحدهما، فى الآية المبحوثة هنا، و الثانى، فى آخر آية من سورة النساء و هى كلمة «كلالة».

إنّ ما يستفاد من كتب اللغة هو اشتقاق كلالة من الكلال، و هو ذهاب القوّة، فقد جاء فى صحاح اللغة: الكلالة فى الأصل مصدر بمعنى الكلال و هو ذهاب القوّة.

و لكنّها استعملت فى ما بعد فى أخوة الميت و أخواته الذين يرثونه، و لعل التشابه بين المعنى الأوّل و الثّانى هو أن الأخوة و الأخوات يعتبرون من الطبقة الثانية فى طبقات الإرث، و هم لا يرثون إلّا مع عدم وجود الأب و الأمّ و الأولاد للميت و مثل هذا الفاقد للأب و الأم و الأبناء لا بدّ أن يعانى من الضعف الشديد، و ذهاب القوّة، و لهذا قيل له كلالة، قال الراغب فى كتابه المفردات: «الكلالة اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۷

و

روى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن الكلالة، فقال: من مات و ليس له ولد و لا والد، فجعله اسما للميت، كلا القولين صحيح فإن الكلالة مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا.

و أمّا تعبير القرآن الكريم عن أخوة الميت و أخواته بالكلالة فلعله لأنّ على أمثال هؤلاء ممن عدموا الآباء و الأمهات و الأولاد أن يعلموا أن أموالهم ستقع من بعدهم فى أيدى من يمثلون ضعفه، و يدلون على ذهاب قوتهم، و لذلك ينبغى لهم أن يصرفوها فى مواضع أكثر ضرورة و لزوما، و ينفقونها فى سبيل المحتاجين و فى حفظ المصالح العامّة.

عودة إلى تفسير الآية:

يقول اللّه سبحانه تعالى: وَ إِنْ كانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ أى إن مات رجل و لم يترك إلّا أخا أو أختا، أو ماتت امرأة و لم تترك سوى أخ أو أخت، يورث كل منهما السدس من التركة، هذا إذا كان الوارث أخا واحدا و أختا واحدة.

أمّا إذا كانوا أكثر من واحد ورث الجميع ثلثا واحدا، أى قسم مجموع الثلث بينهم: فَإِنْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ ثمّ أضاف القرآن: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصى بِها أَوْ دَيْنٍ أى تكون قسمة الميراث هكذا بعد أن ينفذ الورثة من التركة ما أوصى به المتوفى، أو يسددوا ما عليه من ديون، ثمّ قال: غَيْرَ مُضَارٍّ أى فيما إذا لم يكن ما أوصى الميت بصرفه من الميراث و كذا الدين مضرّا بالورثة، أى أن لا يكون أكثر من الثلث، لأن تجاوز الوصية أو الدين عن حد الثلث إضرار، كما أنّه يتوقف إمضاء الزائد على الثلث على إذن الورثة و رضاهم بذلك، أو أن يخبر الميت عن ديون كذبا، ليحرم ورثته عن الإرث و يضرّ بهم، كما نصت على ذلك روايات كثيرة مروية عن رسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۸

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الطاهرين عليهم السّلام.

ثمّ أنّه سبحانه للتأكيد على هذا الحكم يقول: وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ أى أنّ هذا المطلب وصية من اللّه يجب أن تحترموها، لأنّه العالم بمصلحتكم و خيركم، فهو أمركم بهذا عن حكمة، كما أنّه تعالى عالم بنيات الأوصياء، هذا مع أنّه تعالى حليم لا يعاقب العصاة فورا، و لا يأخذهم بظلمهم بسرعة.

بحوث أخرى عند هذه الآية:

هذا و تجب و الإشارة- هنا- إلى عدّة أمور:

۱- إنّ ما ورد فى الآية السابقة حول إرث الأخوة و الأخوات و إن كان فى ظاهره مطلقا يشمل الأخوة و الأخوات من الأبوين أو من الأب وحده أو من الأم وحدها، إلّا أنّه بملاحظة آخر آية من سورة النساء (التى يأتى تفسيرها قريبا) يتّضح أنّ المراد- هنا- هو الأخوة و الأخوات من جانب الأم فقط (أى الذين ينتسبون إلى الميت من جانب الأم فقط)، فى حين أنّ المقصود فى الآية الأخيرة من السورة هو الأخوة و الأخوات من جانب الأبوين أو من جانب الأب خاصّة (سنتعرض لذكر الأدلة على هذا الأمر عند تفسير الآية الأخيرة من هذه السورة إن شاء اللّه).

و على هذا الأساس فإن الآيتين و إن كانتا حول إرث «الكلالة» (أى أخوة الميت و أخواته) و يبدو للنظر تعارض الآيتين، إلّا أن التدبر و الإمعان فى مضمون الآيتين يكشف لنا أنّ كل واحدة منهما تقصد طائفة خاصّة من أخوة الميت و أخواته، و أنّه لا تعارض بين مفاد الآيتين أبدا.

۲- من الواضح أن هذه الطبقة لا ترث إلا عند فقدان الطبقة الأولى (و هو الأب و الأم، و الأولاد) مطلقا، و يدل على ذلك قوله تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۳۹

بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ ۴۹] كما تدل عليه روايات متظافرة وردت فى هذا الصعيد تعين طبقات الإرث، و ترجح بعضها على البعض الآخر.

۳- إنّ لفظة فَهُمْ شُرَكاءُ فِي الثُّلُثِ تفيد أن أخوة الميت و أخواته أى «الكلالة» إن كانوا أكثر من أخ و أخت يقتسمون الثلث فيما بينهم بالتساوى، من دون فرق بين الذكور و الإناث، لأنّ المفهوم من «الشركاء فى الثلث» هو تساوى الأسهم.

۴- يستفاد من الآية المبحوثة أنّه لا يحق للإنسان أن يعترف بديون- كذبا- ليضرّ بالورثة و يضيع حقوقهم و يحرمهم من إرثه، أنّه يجب عليه فقط أن يعترف- فى آخر فرصة من حياته- بما عليه من الديون واقعا، كما له أن يوصى بوصايا عادلة عبّر عنها فى الروايات بأن تكون فى حد «الثلث» و إطاره.

فقد وردت فى روايات الأئمّة عليهم السّلام- فى هذا الصعيد- عبارات شديدة النكير على من يوصى بوصايا مضرّة بالورثة منها قولهم: «إنّ الضرار فى الوصية من الكبائر»[۵۰].

إنّ الإسلام الحنيف بسنّه لهذا القانون يكون قد حفظ للميت نفسه شيئا من الحق فى مسألة، إذ يهيئ له إمكانية الاستفادة و الانتفاع بمقدار الثلث، كما حفظ حقوق الورثة أيضا حتى لا ينشأ فى أفئدتهم أية ضغينة، و حتى لا تتزعزع وشائج المودّة و روابط القربى التى يجب أن تستمر بعد وفاة المورث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۳) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَ لَهُ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۴)

التّفسير

اشارة

«الحدود» جمع حدّ، و يعنى فى أصل اللّغة لمنع، ثمّ اطلق على كلّ حائل و حاجز بين شيئين يفصل بينهما و يميز، فحدّ البيت و البستان و الدّولة يراد منه الموضع الذى يفصل هذه النقطة عن غيرها من النقاط الاخرى.

هذا و لقد بدأت الآية الأولى من هاتين الآيتين بالإشارة إلى قوانين الإرث التى مرّت فى الآيات السابقة بلفظة «تلك» إذ قال سبحانه: تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ أى تلك حدود اللّه التى لا يجوز تجاوزها و تجاهلها لأحد، فإن من تعدى هذه الحدود كان عاصيا مذنبا.

و قد وردت هذه العبارة تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فى مواضع عديدة من القرآن الكريم، و قد جاءت دائما بعد ذكر سلسلة من الأحكام و القوانين و المقررات الاجتماعية، ففى الآية ۱۸۷ من سورة البقرة مثلا تأتى هذه العبارة بعد الإعلان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۱

عن حرمة اللقاء الجنسى بين الزوجين حال الاعتكاف، و بعد ذكر سلسلة من الأحكام المتعلقة بالصوم، كما جاءت فى الآيات (۲۲۹ و ۲۳۰) من سورة البقرة، و الآية (۱۰) من سورة الطلاق بعد بيان قسم من أحكام الطلاق، و فى الآية (۴) من سورة المجادلة بعد بيان كفارة «الظهار».

و فى جميع هذه الموارد أحكام و قوانين منع من تجاوزها، و لهذا وصفت بكونها «حدود اللّه»[۵۱].

ثمّ بعد الإشارة إلى هذا القسم من حدود اللّه يقول سبحانه: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها،

و هو بذلك يشير إلى النّتيجة الأخروية للالتزام بحدود اللّه و احترامها، ثمّ يصف هذه النتيجة الأخروية بقوله: وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ثمّ يذكر سبحانه ما يقابل هذا المصير فى صورة المعصية، و تجاوز الحدود الإلهية إذ يقول: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها.

على أنّنا نعلم أن معصية اللّه (مهما كانت كبيرة) لا توجب الخلود و العذاب الأبدى فى النار، و على هذا الأساس يكون المقصود فى الآية الحاضرة هم الذين يتعدون حدود اللّه عن تمرد و طغيان و عداء و إنكار لآيات اللّه، و فى الحقيقة الذين لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر، و لا يستبعد هذا المعنى إذا لا حظنا أن «حدود» جمع، و هو مشعر بأن يكون التعدى شاملا لجميع الحدود و الأحكام الإلهية، لأن الذى يتجاهل كل القوانين الإلهية لا يؤمن باللّه عادة، و إلّا فإنّه يحترم و لو بعضها- على الأقل.

إنّ الملفت للنظر فى الآية السابقة أنّ اللّه تعالى عبّر عن أهل الجنّة بصيغة الجمع حيث قال تعالى: خالِدِينَ فِيها بينما عبر عن أهل النّار بصيغة المفرد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۲

حيث قال خالِداً فِيها.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير- فى الآيتين المتلاحقتين- شاهد واضح على أن لأهل الجنّة اجتماعات (أو بعبارة أخرى أنّ هناك حالة اجتماعية بين أهل الجنّة و نزلائها) و تلك هى فى حد ذاتها نعمة من نعم الجنّة، ينعم بها ساكنوها و أصحابها، بينما يكون الوضع بالنسبة إلى أهل النار مختلفا عن هذا، فكل واحد من أهل النار مشغول بنفسه- لما فيه من العذاب- بحيث لا يلتفت إلى غيره، و لا يفكر فيه، بل هو مهتم بنفسه، يعمل لوحده، و هذه هى حالة المستبدين المتفردين بالرأى و الموقف، و الجماعات المتحدة و المجتمعة فى المقابل، فى هذه الدنيا أيضا، فالفريق الأول يمثل أهل جهنم، بينما يمثل الفريق الثانى أهل الجنّة.

ميزات قانون الإرث الإسلامى:

فى قانون الإرث عموما، و فى نظام الإرث الإسلامى خاصّة مزايا نشير إلى قسم منها فى ما يلى:

۱- فى نظام الإرث الإسلامى، و فى ضوء ما أقرّ من الطبقات للورثة لا يحرم أى واحد من أقرباء المتوفى من الإرث، فليس فى الإسلام ما كان متعارفا (أو لا- يزال) عند العرب الجاهليين، أو فى بعض المجتمعات البشرية من حرمان النساء و الأطفال من الإرث لعدم قدرتهم على حمل السلاح و المشاركة فى الحروب و ما شاكل ذلك، بل يشمل نظام الإرث الإسلامى كل من يمتّ إلى المتوفى بوشيجة القربى.

۲- يلبى هذا النظام الحاجات الإنسانية الفطرية و المشروعة، لأنّ كل إنسان من أبناء البشر يجب أن يرى حصيلة جهوده و ثمرة أتعابه و نتاج كدّه و كدحه بيد من يعتبره امتدادا لوجوده و شخصيته، و لهذا يكون سهم الأبناء- حسب هذا النظام- أكثر من سهام غيرهم، فى حين تكون سهام الآباء و الأمهات و غيرهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۳

الأقرباء و أنصبتهم بدورها سهاما و أنصبة محترمة و جديرة بالاهتمام أيضا.

۳- إنّ هذا القانون يشجع الأشخاص على السعى و العمل و بذل المزيد من الفعالية فى سبيل تحصيل الثروة، و تشغيل عجلة الإقتصاد. و ذلك لأنّ الإنسان إذا عرف أنّ نتاج كده و كدحه و حصيلة جهوده و أتعابه طوال حياته ستنتقل إلى من يحبّهم و يودّهم، فإنّه يتشجع على المزيد من العمل و النشاط مهما كان عمره و سنه، و مهما كانت ظروفه و ملابساته، و بهذا لا يحدث أى ركود فى فعاليته و نشاطه مطلقا.

و قد أشرنا فی ما مضی- کیف أنّ إلغاء قانون الإرث و التوارث فی بعض البلاد، و تأمیم أموال الموتی، و حیازتها من قبل الدولة أدی إلی آثار سیئة فی المجال الاقتصادی، و ظهر فی صورة رکود اقتصادی مخیف دفع بالدولة إلی إعادة النظر فی إلغاء قانون الإرث و حذفه.

۴- إنّ قانون الإرث الإسلامی یمنع من تراکم الثّروة، لأنّ هذا النظام یقضی بتقسیم الثّروة- بعد کلّ جیل- بین الأفراد المتعددین بصورة عادلة، و هذا ممّا یساعد علی تفتیت الثروة، کما یساعد علی التوزیع العادل لها.

هذا و الجدیر بالاهتمام أنّ هذا التقسیم لا یعانی ممّا تعانی منه بعض الأشکال السائدة فی عالمنا الراهن لتقسیم الثروة، و التی ترافق غالبا سلسلة من المضاعفات و الآلام الاجتماعیة السیئة، فهو نظام فرید من نوعه یشمل الجمیع برحمته، و لا یتسبب فی انزعاج أی شخص أو جهة.

۵- إنّ الأسهم و الأنصبة فی قانون الإرث الإسلامی لم تنظم علی أساس الارتباط و الانتساب إلی المتوفی برابطة النسب خاصّة، بل علی أساس الحاجات الواقعیة عند الورثة، فإذا رأینا الذکور من أولاد المیت یرثون ضعف ما ترثه الإناث، أو یرث الأب- فی بعض الموارد- أکثر من الأمّ، فهو لأجل أنّ الرجال یتحملون مسئولیة مالیة أکبر فی النظام الإسلامی، و لأنّ علیهم أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۴

یتحملوا الإنفاق علی زوجاتهم و عوائلهم، و لهذا لا بدّ أن یسهم لهم- فی الإرث- أکثر من الإناث.

ما هو العول، و ما هو التعصیب؟:

فی کتاب الإرث نقف علی بحثین أحدهما تحت عنوان «العول»، و الآخر تحت عنوان «التعصیب» و هما حالتان تعرضان لمسألة الإرث عند ما تکون الأسهم المذکورة فی الآیات المتقدمة أقل من التركة أحیانا، أو أکثر أحیانا أخری.

و للمثال نقول: إذا ترک المیت أختین من جانب الأب و الأمّ، و زوجا، ورثت الأختان ثلثی المال و ورث الزوج النصف، فیکون المجموع ۶/ ۷ أی بزیادة ۶/ ۱ علی مجموع المال، و هنا یطرح السؤال التالی و هو: ننقص هذا السدس الزائد ۶/ ۱ من جمیع الورثة- حسب سهامهم- و بصورة عادلة، أم یجب أن تنقص من نصیب أشخاص معینین خاصّة؟

المعروف عن علماء السنة أنّهم یذهبون إلی إدخال النقص علی جمیع الورثة، و سمّی الفقهاء هذا القسم عولا، لأن العول یعنی فی اللغة الارتفاع و الزیادة.

ففی المثال الحاضر یقول فقهاء السنة: إنّ السدس الزائد یجب أن یقسم علی الجمیع، و أن ننقص من جمیع الورثة من کل واحد حسب سهمه ۵۲]، و هکذا یکون العمل فی الموارد الاخری، و فی الحقیقة ینزل الورثة- هنا- منزلة الغرماء الذین لا تفی أموال المفلس بتسدید دیونهم جمیعا و بصورة کاملة، فهنا یدخل النقص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۵

علی جمیع الغرماء بنسب متناسبة مع مقادیر دیونهم.

و لکن فقهاء الشیعة یذهبون فی هذا المجال مذهبا آخر، فهم یدخلون النقص علی أشخاص معنیین، لا علی جمیع الورثة.

فهم فی المثال الحاضر، مثلا یدخلون النقص علی الأختین، و یقولون کما جاء فی حدیث شریف: «إن الذی أحصی رمل عالج- أی المتراکم من الرمل الداخل بعضه فی بعض- لیعلم أن السهام لا تعول» أی لا تتعدی الأسهم و لا تؤول إلی الکسر، فلا بدّ أن یکون سبحانه قد وضع لمثل هذه الحالة قانونا، و ذلک هو أن بین الورثة الذین ذکرهم القرآن الکریم من له سهم ثابت من حیث الأقل أو الأکثر کالزوج و الزوجة و الأب و الأمّ، و من لیس سهم کذلک کالأختین و البنتین، و من هنا نفهم أن النقص یجب أن یدخل دائما

على من ليس له سهم محدد فى جانب القلّة أو الكثرة (أى الذى ليس له حدّ أقل أو حدّ أكثر معين) أى الذى يكون عرضة للتغير و الاضطراب، و لهذا لا يدخل النقص المذكور على سهم الزوج، فهو يرث سهمه من التركة و هو النصف بلا نقصان بسبب العول، و إنّما يدخل النقص على سهم الأختين فقط (فلا حظ ذلك بدقّة).

و قد يكون مجموع الأسهم أقلّ من مجموع المال- فيفضل شيء من المال بعد أخذ كل واحد من أفراد الطبقة الوارثة فرضه.

فمثلا إذا توفى رجلا و خلف بنتا واحدة و أمّا، فإن سهم الأم هو ۶/ ۱ و سهم البنت هو ۶/ ۳ فيكون مجموع الأسهم هو ۶/ ۴ أى يفصل ۶/ ۲ من المال، فى هذه الصورة يذهب علماء السنة و فقهاؤهم إلى إعطاء هذا الفاضل من التركة إلى عصبة الميت ۵۳] و هم رجال الطبقة الثانية من الإرث (كالأخوة) و يسمى هذا القسم بالتعصيب.

و لكن فقهاء الشيعة يذهبون إلى أنّ ذلك الفاضل يجب أن يقسّم بين الوارثين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۶

المذكورين أى بنسبة ۱ و ۳، لأنه مع وجود الطبقة السابقة لا تصل النوبة إلى الطبقة اللاحقة، هذا مضافا إلى أن إعطاء الفاضل من التركة إلى رجال الطبقة اللاحقة يشبه ما كان سائدا فى العهد الجاهلى حيث تحرم النساء من الإرث.

هذا و البحث الراهن من الأبحاث العلمية المعقدة، و قد أعطينا هنا خلاصة موضحة منه تبعا للحاجة، و أما التفصيل فموكول إلى محله فى الكتب الفقهية المفصّلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۷

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (۱۵) وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً (۱۶)

التّفسير

اشارة

تعنى لفظة «الفاحشة» حسب اللّغة: العمل أو القول القبيح جدّا- كما أسلفنا- و يستعمل فى الزنا لقبحه الشديد، و قد وردت هذه اللفظة فى (۱۳) موردا من القرآن الكريم، و قد استعملت تارة فى «الزّنا» و أخرى فى «اللواط» و تارة فى الأفعال الشديدة القبح على العموم.

و الآية الأولى- من هاتين الآيتين- تشير كما فهم أكثر المفسرين- إلى جزاء المرأة المحصنة التى تزنى. فتقول: وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ

و ما يدل على أنّ الآية المبحوثة تعنى زنا المحصنة- مضافا إلى القرينة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۸

المذكورة فى الآية اللاحقة- التعبير ب «من نسائكم» أى زوجاتكم، لأنّ التعبير بهذه اللفظة عن الزوجات قد تكرر فى مواضع عديدة من القرآن الكريم، و على هذا يكون جزاء المحصنة التى ترتكب الزنا فى هذه الآية هو الحبس الأبدى.

و لكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا فإذن لا بدّ أن يستمر هذا الحبس فى حقهنّ إلى الأبد حتى يأتى

أجلهنّ، أو يعين لهنّ قانون جديد من جانب اللّه سبحانه.

و يستفاد من هذه العبارة أنّ هذا الحكم (أى الحبس الأبدى للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، و لهذا ذكر من بداية الأمر أنّه سوف ينزل فى حقهنّ قانون جديد، و حكم آخر فى المستقبل (و بعد أن تتهيأ الظروف و الأفكار لمثل ذلك) حينئذ سيتخلص النساء اللاتى شملهنّ ذلك الحكم (أى الحكم بالحبس أبدا) من ذلك السجن إذا كن على قيد الحياة طبعا، و لا يشملهنّ حكم جزائى آخر، و ليس الخلاص من السجن إلّا بسبب إلغاء الحكم السابق، و أما عدم شمول الحكم الجديد لهنّ فلئن الحكم الجزائى لا يشمل الموارد التى سبقت مجيئه، و بهذا يكون الحكم و القانون الذى سيصدر فى ما بعد- مهما كان- سببا لنجاة هذه السجينات، على أنّ هذا الحكم الجديد يشمل حتما كل الذين سيرتكبون هذا المنكر فى ما بعد. (فلا حظ بدقّة هذه النقطة).

و أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من قوله تعالى: أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا هو أنّ اللّه سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات فى ما بعد، يجعل و بذلك سيكون للسجينات سبيلا إلى النجاة و الخلاص من عقوبة السجن، فهو احتمال مردود، لأنّ لفظة «لهنّ سبيلا» لا تتلاءم أبدا مع مسألة الأعدام، فعبارة «لهنّ» تعنى ما يكون نافع لهنّ و ليس الاعدام سبيلا لنجاتهنّ، و الحكم الذى قرّره اللّه فى الإسلام للمحصنات الزانيات فى ما بعد هو الرجم (و قد ورد هذا الحكم فى لسان السنة النبوية الشريفة أى الأحاديث قطعا، و إن لم ترد فى القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۴۹

أية إشارة إليها).

من كلّ ما قلناه اتّضح أنّ الآية الحاضرة لم تنسخ قط، لأنّ النسخ إنّما يكون فى الأحكام التى تردّ مطلقة من أوّل الأمر لا التى تذكر مؤقتة و محدودة كذلك، و الحكم المذكور فى الآية الحاضرة (أى الحبس الأبدى) من القسم الثّانى، أى أنّه حكم مؤقت محدود، و ما نجده فى بعض الرّوايات من التصريح بأنّ الآية الحاضرة قد نسخت بالأحكام التى وردت فى عقوبة مرتكبى الفاحشة، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنّ النسخ فى لسان الروايات و الأخبار يطلق على كل تقييد و تخصيص (فلا حظ ذلك بدقّة و عناية).

ثمّ لا بدّ من الالتفات إلى ناحية مهمّة، و هى أن الحكم بحبس هذا النوع من النساء فى «البيوت» من صالحهن من بعض الجهات، لأنّه أفضل- بكثير- من سجنهن فى السجون العامّة المتعارفة، هذا مضافا إلى أن التجربة قد دلّت أن للسجون و المتعقلات العامّة أثرا سيئا و عميقا فى إفساد المجتمع، إذ أنّ هذه المراكز تتحول- شيئا فشيئا- إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمة و الفساد بسبب أن المجرمين سيتبادلون فيها- من خلال المعاشرة و اللقاء و فى سعة من الوقت و فراغ من الشغل- تجاربهم فى الجريمة.

ثمّ أنّ اللّه سبحانه يذكر بعد ذلك حكم الزنا عن إحصان إذ يقول: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَ أَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً و يقصد أنّ الرجل غير المحصن أو المرأة غير المحصنة إن أتيا بفاحشة الزنا فجزاؤهما أن يؤذيا».

و الآية و إن كانت لا تذكر قيد «عدم الإحصان»، صراحة، إلّا أنّها حيث جاءت بعد ذكر حكم المحصنة و ذكر عقوبتها التى تختلف عن هذه العقوبة التى هى أخف من العقوبة المذكورة فى الآية السابقة، أستفيد منها إنها واردة فى حق الزنا عن غير إحصان، و إنها بالتالى عقوبة الزانى غير المحصن و الزانية غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۰

المحصنة اللذين لا يدخلان فى عنوان الآية السابقة، و بالتالى حيث أن الآية السابقة اختصّت- بالقرينة التى ذكرت- بالزانية المحصنة استنتجنا أنّ هذه الآية تبيّن حكم الزنا عن غير إحصان.

كما أنّ هناك نقطة واضحة أيضا، و هى أنّ الحكم المذكور فى هذه الآية (أى الإيذاء) عقوبة كلية، يمكن أن تكون الآية الثانية من سورة النور التى تذكر أن حدّ الزنا هو (۱۰۰) جلدة لكل واحد من الزانى و الزانية تفسيرا و توضيحا لهذه الآية و تعيينا للحكم الوارد فيها، و لهذا لا يكون هذا الحكم منسوخا أيضا.

ففى تفسير العياشى روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعنى البكر إذا أتت الفاحشة التى أتتها هذه الثيب فآذوهما».

و على هذا يكون المراد من «اللذان»- و إن كان للإشارة إلى مثنى مذكر- هو الرجل و المرأة أى من باب التغلب.

هذا و قد احتمل جماعة من المفسرين أن يكون الحكم الوارد فى هذه الآية واردا فى مجال «اللواط» و اعتبروا الحكم فى الآية السابقة واردا فى مجال «المساحقة»، و لكن رجوع الضمير فى «يأتيانها» إلى «الفاحشة» فى الآية السابقة يفيد أن العمل المستلزم لهذا الحكم الصارم فى هذه الآية هو من نوع العمل المذكور فى الآية السابقة لا من نوع آخر، و لهذا فإن اعتبار أنّ هذه الآية واردة فى شأن اللوط، و الآية السابقة واردة فى شأن المساحقة خلاف الظاهر، (و إن كان كلا العملين اللواط و المساحقة يشتركان فى عنوان كلى، و هو الميل إلى الجنس الموافق) و على هذا تكون كلتا الآيتين واردتين فى حدّ الزنا و حكمه.

هذا مضافا إلى أننا نعلم أنّ عقوبة «اللواط» فى الإسلام هو القتل و الإعدام و ليست الإيذاء و الجلد، و ليس ثمّة أى دليل على انتساخ الحكم المذكور فى الآية الحاضرة.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه بعد ذكر هذا الحكم يشير إلى مسألة التوبة و العفو عن مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۱

هؤلاء العصاة، فيقول: فَإِنْ تابا، وَ أَصْلَحا، فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً.

و هذا التعليم هو فى الحقيقة يفتح طريق العودة و يرسم خط الرجعة لمثل هؤلاء العصاة، فإن على المجتمع الإسلامى أن يحتضن هؤلاء إذا تابوا و رجعوا إلى الطهر و الصواب و أصلحوا، و لن يطردوا من المجتمع بعد هذا بحجّة الفساد و الانحراف.

هذا و يستفاد من هذا الحكم أيضا- أنّه يجب أن لا يعير العصاة الذين رجعوا إلى جادة الصواب و تابوا و أصلحوا على أفعالهم القبيحة السابقة، و أن لا يلاموا على ذنوبهم الغابرة، فإذا كان الحكم الشرعى و العقوبة الإلهية يسقطان بسبب التوبة و الإنابة، فإنّ من الأولى أن يغض الناس الطرف عن سوابقهم، و هذا بنفسه جار فى من نفذ فيه الحدّ الشرعى ثمّ تاب بعد ذلك، فإنّه يجب أن تشمله مغفرة المسلمين و عفوهم.

العقوبات الإسلامية السهل الممتنع:

قد يتساءل البعض أحيانا: لما ذا قرر الإسلام عقوبات صارمة، و أحكاما جزائية قاسية و ثقيلة؟ فمثلا: لما ذا حكم بالحبس الأبدى أوّلا على الزانية عن إحصان، ثمّ قرّر الحكم القتل و الإعدام فى شأنهما فى ما بعد، أ لم يكن من الأفضل أن يتّخذ الإسلام موقفا أكثر تسامحا و لينا تجاه هذه الأفعال، لتتعادل الجريمة و العقوبة و لا يرجح أحدهما على الآخر؟

غير أنّ العقوبات الإسلامية و إن كانت تبدو فى الظاهر صعبة و قاسية و ثقيلة، إلّا أنّ إثبات الجريمة فى الإسلام فى المقام ليس سهلا، أيضا فقد عين الإسلام و حدد لإثبات الجريمة شروطا لا تثبت- فى الأغلب- إلّا إذا وقعت الجريمة علنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۲

فمثلا: تصعيد عدد الشهود فى الزنا إلى الأربعة- كما فى الآية الحاضرة- من الأمور الصعبة جدّا بحيث لا يثبت بها إلّا من كان مجرما جسورا جدّا، و لا شك أن مثل هؤلاء لا بدّ أن ينالوا عقابا ثقيلا و قاسيا ليعتبر بهم الآخرون، فتطهر بذلك البيئة الاجتماعية من لوث الفساد و الانحراف و التورط فى الجريمة، كما أن المواصفات و الشروط المعتبرة فى الشهود مثل رؤية العملية الجنسية بعينها، و عدم الاكتفاء بالقرائن، و مثل الاتحاد فى الشهادة و ما شاكل ذلك تجعل إثبات الجريمة أصعب جدّا.

و بهذا الطريق جعل الإسلام احتمال التعرض لمثل هذه العقوبة القاسية الثقيلة نصيب عينى هذا النوع من المجرمين، و هو احتمال مهما

كان ضعيفا من شأنه أن يؤثر فى ردع الأشخاص، و كبح جماحهم، و أمّا الدقّة فى كيفية إثبات هذه الجريمة، و التشدد فى الشرائط التى اعتبرها فى الشهادة و الشهود فهو لأجل أن لا تتسع دائرة هذه الأعمال الخشنة، و لا يقتصر استعمال العقوبات الخشنة فيها على أقل الموارد، و فى الحقيقة أراد الإسلام أن يحافظ على الأثر التهديدى لهذا القانون الجزائى من دون أن يعرض أفرادا كثيرين لعقوبة الإعدام من جانب آخر.

و نتيجة ذلك هى أنّ هذا الأسلوب الإسلامى فى تعيين العقوبة و طريق إثبات الجريمة من أكثر الأساليب تأثيرا و نجاحا فى خلاص المجتمع من التورط فى الآثام و المعاصى فى حين لا يتعرض لمثل هذه العقوبة أفراد كثيرون، و بهذا نصف هذا الأسلوب بالأسلوب «السهل الممتنع».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۳

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَ لا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۸)

التّفسير

شرائط قبول التوبة:

فى الآية السابقة بيّن اللّه تعالى بصراحة مسألة سقوط العقوبة عن مرتكبى الفاحشة و معصية الزّنا إذا تابوا و أصلحوا، ثمّ عقب ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً مشيرا بذلك إلى قبول التوبة من جانب اللّه أيضا.

و فى هذه الآية يشير سبحانه إلى شرائط قبول التوبة إذ يقول: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ.

و هنا يجب أن نرى ما ذا تعنى «الجهالة» هل هى الجهل و عدم المعرفة بالمعصية، أم هى عدم المعرفة بالآثار السيئة و العواقب المؤلمة للذنوب و المعاصى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۴

إنّ كلمة الجهل و ما يشتق منها و إن كانت لها معان مختلفة، و لكن يستفاد من القرائن أنّ المراد منها فى الآية المبحوثة هنا هو طغيان الغرائز، و سيطرة الأهواء الجامحة و غلبتها على صوت العقل و الإيمان، و فى هذه الصورة و إن لم يفقد المرء العلم بالمعصية، إلّا أنّه حينما يقع تحت تأثير الغرائز الجامحة، ينتفى دور العلم و يفقد مفعوله و أثره، و فقدان العلم لأثره مساو للجهل عملا.

و أمّا إذا لم يكن الذنب عن جهل و غفلة، بل كان عن إنكار لحكم اللّه سبحانه و عناد و عداء، فإن ارتكاب مثل هذا الذنب ينبئ عن الكفر، و لهذا لا تقبل التوبة منه، إلّا أن يتخلّى عن عناده و عدائه و إنكاره و تمرده.

و

فى الحقيقة إنّ هذه الآية تبيّن نفس الحقيقة التى يذكرها الإمام السجاد عليه السّلام فى دعاء أبى حمزة ببيان أوضح إذ يقول: «إلهى لم أعصك حين عصيتك و أنا بربوبيتك جاحد و لا بأمرك مستخف، و لا لعقوبتك متعرض، و لا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة

عرضت و سولت لى نفسى و غلبنى هواى».

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يشير إلى شرط آخر من شروط قبول التوبة إذ يقول: ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

هـذا و قـد وقع كلام بين المفسّـرين فى المراد من «قريب» فقد ذهب كثيرون إلى أنّ معناه التوبة قبل أن تظهر آثار الموت و طلائعه، و يستشـهدون لهـذا الرأى بقوله تعـالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ الـذى جاء فى مطلع الآية اللاحقة، و يشير إلى أن التوبة لا تقبل إذ ظهرت علامات الموت.

و لعل استعمال لفظة «قريب» إنّما هو لأجل أن نهاية الحياة الدنيوية مهما بعدت فهى قريبة.

و لكن بعض المفسـرين ذهب إلى تفسـير لفظة «من قريب» بالزمان القريب من وقت حصول المعصية، فيكون المعنى أن يتوبوا فورا، و يندموا على ما فعلوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۵

بسرعة، و يتوبوا إلى اللّه، لأنّ التوبة الكاملة هى التى تغسل آثار الجريمة و تزيل رواسبها من الجسم و الروح بشكل مطلق حتى لا يبقى أى أثر منه فى القلب، و لا يمكن هذا إلّا إذا تاب الإنسان و ندم قبل أن تتجذر المعصـية فى كيانها، و تتعمق آثارها فى وجوده فتكون له طبيعة ثانية، إذ فى غير هذه الصورة ستبقى آثار المعصـية فى زوايا الروح الإنسانية، و تعشعش فى خلايا قلبه، فالتوبة الكاملة- إذن- هى التى تتحقق عقيب وقوع الذنب فى أقرب وقت، و لفظة «قريب» أنسب مع هذا المعنى من حيث اللغة و الفهم العرفى.

صحيح أنّ التوبة التى تقع بعد زمن طويل من ارتكاب المعصية تقبل أيضا، إلّا أنّها ليست التوبة الكاملة، و لعل التعبير بجملة «على اللّه» (أى على اللّه قبولها) كـذلك إشارة إلى هـذا المعنى، لأن مثل هذا التعبير لم يرد فى غير هذا المورد من القرآن الكريم، و مفهومه هو أن قبول التوبة القريبة من زمن المعصـية حق من حقوق العباد، فى حين ان قبول التوبة البعيدة عن زمن المعصـية تفضل من اللّه و ليس حقا.

ثمّ أنّه سـبحانه- بعـد ذكر شـرائط التوبـة- يقول: فَأُولئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً مشـيرا بذلك إلى نتيجة التوبة التى توفرت فيها الشروط المذكورة.

ثمّ يقول تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ ... و هو إشارة إلى من لا تقبل توبته.

و علّة عدم قبول هذا النوع من التوبة واضـحة، لأن الإنسان عند الاحتضار فى رحاب الموت تنكشف له الأسـتار، فيرى ما لم يكن يراه من قبل، فهو يرى بعد انكشاف الغطاء عن عينيه بعض الحقائق المتعلقة بالعالم الآخر، و يشاهد بعينيه نتائج أعماله التى ارتكبها فى هذه الدنيا، و تتخذ القضايا التى كان يسمع بها صفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۶

محسوسـة، و فى هذه الحالة من الطبيعى أن يندم كل مجرم على جرمه و أفعاله السـيئة، و يفرّ منها فرار الذى يرى اقتراب ألسـنة اللهب من جسمه.

و من المسـلم أن التكليف الإلهى و الإختيار الربانى للبشـر لا يقوم على أساس هذا النوع من المشاهدات و المكاشـفات، بل يقوم على أساس الإيمان بالغيب، و المشاهدة بعينى العقل و القلب.

و لهـذا نقرأ فى الكتاب العزيز أنّ أبواب التوبـة كانت تغلق فى وجه بعض الأقوام العاصـية عنـد ظهور طلائع العـذاب الدنيوى و النقمة العاجلة، و للمثال نقرأ قول اللّه سبحانه عن فرعون إذ يقول: حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۵۴].

كما يستفاد من بعض الآيات القرآنية (مثل الآية ۱۲ من سورة السجدة) إنّ العصاة يندمون عند ما يشاهدون العذاب الإلهى فى الآخرة،

و لكن لات حين منـدم، فلا فائـدة لندمهم فى ذلك الوقت، إن هؤلاء أشـبه ما يكونون بالمجرمين الذين إذا شاهدوا أعواد المشـنقة و أحسوا بالحبل على رقابهم نـدموا على جرائمهم و أفعالهم القبيحـة، فمن الواضـح أنّ مثل هـذه التوبـة و هـذا الندم لا يعد فضـيلة، و لا مفخرة و لا تكاملا، و لهذا لا يكون أى تأثير.

على أنّ هـذه الآيـة لا ـ تنـافى الروايـات التى نصت على إمكـان قبول التوبـة حتى عنـد اللحظـة الأـخيرة من الحياة، لأن المراد فى هـذه الروايات هى اللحظات التى لم تظهر فيها بعد ملامح الموت و آثاره و طلائعه، و بعبارة أخرى لم تحصل لدى الشـخص العين البرزخية التى يقف بها على حقائق العالم الآخر.

هذا عن الطائفة الأولى الذين لا تقبل توبتهم، و هم من يتوبون عند ما تظهر أمام عيونهم ملامح الموت و تبدو عليهم آثاره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۱۵۷

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۷

و أمّا الطائفة الثّانية الذين لا تقبل توبتهم فهم الذين يموتون كفارا، إذ يقول سبحانه: وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ.

و لقد ذكر اللّه سبحانه بهذه الحقيقة فى آيات أخرى فى القرآن الكريم ۵۵].

و هنا يطرح سؤال و هو: متى لا تقبل توبة الذين يموتون كفارا؟

احتمل البعض أن لا تقبل توبتهم فى العالم الآخر، و احتمل آخرون أن يكون المراد من التوبـة- فى هـذا المقام- ليس هو توبـة العباد، بل توبة اللّه، يعنى عود اللّه على العبد و عفوه و رحمته له.

و لكن الظاهر هو أنّ الآيـة تهدف أمرا آخر و تقول: إن الذين يتوبون من ذنوبهم حال العافية و الإيمان و لكنهم يموتون و هم كفار لا تقبل توبتهم و لا يكون لها أى أثر.

و توضـيح ذلـك: إنّنـا نعلم إن من شـرائط قبول الأعمـال «الموافاة على الإيمان» بمعنى أن يموت الإنسان مؤمنا، فالـذين يموتون و هم كفار تحبط أعمالهم السابقة حتى الصالحة منها حسب صريح الآيات القرآنية[۵۶]. و تنتفى فائدة توبتهم من ذنوبهم حتى إذا تابوا حال الإيمان فى هذه الصورة أيضا.

و خلاصة القول إنّ قبول التوبة مشروط بأمرين.

الأوّل: أنّ تتحقق التوبة قبل أن يرى الشخص علائم الموت.

و الثّانى: أن يموت و هو مؤمن.

ثمّ أنّه يسـتفاد من هـذه الآيـة أيضـا إن على الإنسان أن لا يؤخر توبته، إذ يمكن أن يأتيه أجله على حين غفلـة، فتغلق فى وجهه أبواب التوبة و لا يتمكن منها حينئذ.

و الملفت للنظر أن تأخير التوبة الذى يعبر عنه بالتسويف قد أردف فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۸

الحاضرة بالموت حال الكفر، و هذا يكشف عن أهمية التسويف و خطورته البالغة فى نظر القرآن.

ثمّ يقول سـبحانه فى ختـام الآيـة: أُولئِكَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَـذاباً أَلِيماً، و لا حاجـة إلى التـذكير بأنّ للتوبـة مضافا إلى ما قيل شـرائط اخرى مذكورة فى آيات مشابهة من الكتاب العزيز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۵۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (۱۹)

سبب النّزول

روى فى مجمع البيان عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام: «نزلت فى الرجل يحبس المرأة- من دون أن يعاملوها كالزّوجة- عنده لا حاجة له إليها ينتظر موتها حتى يرثها»، أى فيأخذ أموالها من بعد وفاتها.

و روى عن ابن عباس أنّ الآية الحاضرة نزلت فى الذين أمهروا نساءهم بمهور كبيرة ثمّ يحبسونهن من دون حاجة إليهن، و لا يطلقونهن لغلاء المهر و ثقله، و يؤذونهن حتى يقبلن بالطلاق بعد أن يتنازلن عن تلك المهور.

و قد روى جماعة من المفسرين سببا آخر لنزول هذه الآية لا يناسب هذه الآية، بل يناسب الآية (۲۲) من هذه السورة، و سنذكر ذلك الرأى عند تفسير تلك الآية بإذن اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۰

التّفسير

الدفاع عن حقوق المرأة أيضا:

قلنا فى مطلع تفسير هذه السورة أنّ آيات هذه السورة تهدف إلى مكافحة الكثير من الأعمال الظالمة و الممارسات المجحفة التى كانت رائجة فى العهد الجاهلى، و فى هذه الآية بالذات أشير إلى بعض هذه العادات الجاهلية المقيتة و حذر اللّه سبحانه فيها المسلمين من التورط بها، و تلك هى:

۱- لا تحبسوا النساء لترثوا أموالهنّ، فلقد كانت إحدى العادات الظالمة فى الجاهلية- كما ذكرنا فى سبب نزول الآية- أنّ الرجل كان يتزوج بالنساء الغنيات ذوات الشرف و المقام اللاتى لم يكن يحظين بالجمال، ثمّ كانوا يذرونهن هكذا فلا يطلقونهنّ، و لا يعاملونهنّ كالزوجات، بانتظار أن يمتن فيرثوا أموالهن، فقالت الآية الحاضرة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً و بهذا استنكر الإسلام هذه العادة السيئة.

۲- لا تضغطوا على أزواجكم ليهبنّ لكم مهورهنّ، فقد كان من عادات الجاهليين المقيتة أيضا أنّهم كانوا يضغطون على الزوجات بشتى الوسائل و الطرق ليتخلين عن مهورهنّ، و يقبلن بالطلاق، و كانت هذه العادة تتبع إذا كان المهر ثقيلا باهظا، فمنعت الآية الحاضرة من هذا العمل بقولها: وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَ أى من المهر.

و لكن ثمّة استثناء لهذا الحكم قد أشير إليه فى قوله تعالى فى نفس الآية:

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ و الفاحشة هى أن ترتكب الزوجة الزنا و تخون بذلك زوجها، ففى هذه الحالة يجوز للرجل أن يضغط على زوجته لتتنازل عن مهرها، و تهبه له و يطلقها عند ذلك، و هذا هو فى الحقيقة نوع من العقوبة، و أشبه ما يكون بالغرامة فى قبال ما ترتكبه هذه الطائفة من النساء.

هذا و المقصود من الفاحشة المبينة فى الآية هل هو خصوص الزنا، أو كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۱

سلوك ناشز مع الزوج؟ فيه كلام بين المفسرين إلّا أنّه

روى فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام التصريح بأنه كل معصية من الزوجة[۵۷]

(طبعا يستثنى من ذلك المعاصى الطفيفة لعدم دخولها فى مفهوم الفاحشة التى تشير إلى أهمية المعصية و خطرها، و الذى يتأكد بكلمة «مبينة»).

۳- عاشروهن بالمعاشرة الحسنة، و هذا هو الشىء الذى يوصى به سبحانه الأزواج فى هذه الآية بقوله: وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ أى عاشروهن بالعشرة الإنسانية التى تليق بالزوجة و المرأة، ثمّ عقب على ذلك بقوله: فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً.

فحتى إذا لم تكونوا على رضا كامل من الزوجات، و كرهتموهنّ لبعض الأسباب فلا تبادروا إلى الانفصال عنهن و الطلاق، بل عليكم بمداراتهنّ ما استطعتم، إذ يجوز أن تكونوا قد وقعتم فى شأنهنّ فى الخطأ و أن يكون اللّه قد جعل فيما كرهتموه خيرا كثيرا، و لهذا ينبغى أن لا تتركوا معاشرتهنّ بالمعروف و المعاشرة الحسنة ما لم يبلغ السيل الزبى، و لم تصل الأمور إلى الحدّ الذى لا يطاق، خاصّة و إن أكثر ما يقع بين الأزواج من سوء الظن لا يستند إلى مبرر صحيح، و أكثر ما يصدرونه من أحكام لا يقوم على أسس واقعية إلى درجة أنّهم قد يرون الأمر الحسن سيئا و الأمر السىء حسنا فى حين ينكشف الأمر على حقيقة بعد مضى حين من الزمن، و شىء من المداراة.

ثمّ إنّه لا بدّ من التذكير بأن للخير الكثير فى الآية الذى يبشر به الأزواج الذين يدارون زوجاتهن مفهوما واسعا، و من مصاديقه الواضحة الأولاد الصالحون و الأبناء الكرام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۲

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشارة

وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۲۰) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۲۱)

سبب النّزول

كان التقليد المتبع قبل الإسلام أنه إذا أراد الرجل أن يطلق زوجته، و يتزوج بأخرى أن يتّهم الزوجة الأولى بالزنا و الخيانة الزوجية فرارا من دفع مهرها، أو يعمد إلى معاملتها بقسوة حتى ترد مهرها الذى قد أخذته من قبل إلى الرجل، ليستطيع أن يعطى ذلك المبلغ للزوجة الجديدة التى يبغى الزواج بها، و يمهرها به.

فنزلت هذه الآيات تستنكر هذا العمل القبيح الظالم بشدّة، و تشجبه و تقبحه و تدعو إلى إنصاف الأزواج و عدم ظلمهنّ فى مهورهنّ.

التّفسير

نزلت الآيتان الحاضرتان لتحميا قسما آخر من حقوق المرأة، فقد جاءت الآية الأولى تقول: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ مَكانَ زَوْجٍ وَ

آتَيْتُمْ إِحْداهُنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۳

قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً فهى تخبر المسلمين- إذا عزموا على تطليق الزوجة و اختيار زوجة أخرى- أنّه لا يحق لهم أبدا أن يبخسوا من صداق الزوجة الأولى شيئا أو يستردوا شيئا من الصداق إذا كانوا قد سلموه إلى الزوجة مهما كان مقداره كثيرا و ثقيلا، و الذى عبّر عنه فى الآية بالقنطار، و القنطار- كما سبق يعنى المال الكثير و قد جاء فى المفردات للراغب: أنّ القنطار جمع القنطرة، و القنطرة من المال ما فيه عبور الحياة تشبيها بالقنطرة[۵۸].

لأن المفروض أن تطليق الزوجة الأولى- هنا- يتمّ لأجل مصلحة الزوج، و ليس لأجل انحراف الزوجة عن جادة العفاف و الطهر، و لهذا لا معنى لأن تهمل حقوقها القطعية.

ثمّ إنّ الآية تشير فى مقطعها الأخير إلى الأسلوب السائد فى العهد الجاهلى حيث كان الرجل يتّهم زوجته بالخيانة الزوجية لحبس الصداق عنها، إذ تقول فى استفهام إنكارى: أَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً أى هل تأخذون صداق الزوجة عن طريق بهتهنّ، و اتهامهنّ بالفاحشة، و هو إثم واضح و معصية بيّنة، و هذا يعنى أن أصل حبس الصداق عن الزوجة ظلم و معصية، و التوسل لذلك بمثل هذه الوسيلة الأثيمة معصية اخرى واضحة، و ظلم آخر بيّن.

ثمّ أضاف سبحانه- فى الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين- و ضمن استفهام إنكارى بهدف تحريك العواطف الإنسانية لدى الرجال بأنّه كيف يحق لكم ذلك، و قد عشتم مع الزوجة الأولى زمنا طويلا، و كانت لكم معهنّ حياة مشتركة، و اختليتم بهن و استمتع كل واحد منكما بالآخر كما لو كنتما روحا واحدة فى جسمين، أ فبعد ما كانت بينكما هذه العلاقة الزوجية الحميمة يحق لكم- أيّها الأزواج- أن تبخسوا حق الزوجة الأولى؟ و قد لخصّ سبحانه كل هذه بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۴

وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَ قَدْ أَفْضى ۵۹] بَعْضُكُمْ إِلى بَعْضٍ أ فيصح أن تفعلوا ذلك و كأنّكما غريبان لا رباط بينكما و لا علاقة؟

و هذا يشبه قولنا لمن عاشا صديقين حميمين زمنا طويلا ثمّ تنازعا: كيف تتنازعان و قد كنتما صديقين حميمين سنوات طويلة و أعواما عديدة؟

و فى الحقيقة أن ارتكاب مثل هذا الفعل فى حق الزوجة شريكة الحياة ما هو إلّا ظلم للنفس.

ثمّ أنّه سبحانه تعالى: وَ أَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً أى كيف تبخسون الزوجة حقّها فى الصداق و قد أخذت منكم- لدى عقد الزواج بينكما- ميثاقا غليظا و عهدا موثقا بأن تؤدوا إليهنّ حقوقهنّ كاملة، فكيف تتنكرون لهذا الميثاق المقدس و هذا العهد المأخوذ منكم لها حالة العقد؟

ثمّ يجب أن نعرف أنّ الآية الحاضرة و إن وردت فى مقام تطليق الزوجة الأولى لغرض إحلال زوجة أخرى مكانها إلّا أنّها لا تختصّ بهذا المورد خاصّة، بل تعمّ كل موارد الطلاق الذى يتمّ باقتراح من جانب الزوج و لا تكون لدى الزوجة رغبة فى الإفتراق، فإنّه يجب على الزوج فى هذه الحالة أن يعطى الصداق بكامله إلى الزوجة إذا أراد أن يطلقها، و أن لا يسترد شيئا من الصداق إذا كان قد أعطاه إياها، سواء قصد أن يتزوج بامرأة أخرى أو لا.

و على هذا تكون عبارة: وَ إِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدالَ زَوْجٍ ناظرة فى الحقيقة إلى ما كان سائدا فى العهد الجاهلى، و ليس له أى دخل فى أصل الحكم، فهو ليس قيدا.

على أنّه ينبغى التنبيه أيضا إلى أن لفظة «استبدال» تعنى طلب البديل، و لهذا يكون قد أخذ فيها قيد الإرادة، فإذا قرنت بكلمة «أردتم» فإنما ذلك لأجل التنبيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۵

إلى نقطة فى المقام، و هى أنكم- عند تهيئة المقدمات و العزم على استبدال زوجة اخرى- يجب أن لا تبدأوا من المقدمات الغير المشروعة الظالمة، فتضيعوا مهر زوجتكم إذا أردتم زوجة أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۲]

اشارة

وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ مَقْتاً وَ ساءَ سَبِيلًا (۲۲)

سبب النّزول

كانت العادة فى الجاهلية أنّه إذا مات رجل و خلف زوجة و أولادا، و كان الأولاد من زوجة أخرى ورثوا زوجة أبيهم كما يرثون أمواله، أى أنّه كان يحق لهم أن يتزوجوا بها أو يزوجوها لأحد، و أن يتصرفوا فيها كما يتصرفون فى المتاع و المال، و قد حدث مثل هذا- بعد ظهور الإسلام- لأحد المسلمين، فقد مات أحد الأنصار يدعى «أبو قيس» و خلف زوجة و ولدا من زوجة أخرى، فاقترح الولد عليها الزواج بها، فقالت تلك المرأة له: إنى أعتبرك مثل ابنى و أنت من صالحى قومك، و لكن

آتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاستأمره و استوضحه الحكم، فأتته فأخبرته. فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ارجعى إلى بيتك» فأنزل اللّه هذه الآية

تنهى عن هذا النوع من النكاح بشدّة.

التّفسير

هذه الآية- كما ذكرنا فى شأن النّزول- تبطل عادة سيئة من العادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۷

الجاهلية المقيتة فتقول: وَ لا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ أى لا تنكحوا زوجة أبيكم.

و لكن حيث أنّ القانون لا يشمل ما سبق من الحالات الواقعة قبل نزول القانون عقب سبحانه على ذلك النّهى بقوله: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ ثمّ أنّه سبحانه لتأكيد هذا النهى يستخدم ثلاث عبارات شديدة حول هذا النوع من الزواج و النكاح إذ يقول أوّلا: إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً ثمّ يضيف قائلا:

وَ مَقْتاً أى عملا منفرا لا تقبله العقول، و لا تستسيغه الطباع البشرية السليمة، بل تمقته و تكرهه، ثمّ يختم ذلك بقوله: وَ ساءَ سَبِيلًا أى أنّها عادة خبيثة و سلوك شائن.

حتى أنّنا لنقرأ فى التاريخ أنّ الناس فى الجاهلية كانوا يكرهون هذا النوع من النكاح و يصفونه بالمقت، و يسمّون ما ينتج منه من ولد بالمقيت، أى الأولاد المبغوضين.

و من الواضح أنّ هذا الحكم إنّما هو لمصالح مختلفة و حكم متنوعة فى المقام، فإن الزواج بامرأة الأب هو من ناحية يشبه الزواج بالأمّ، لأن امرأة الأب فى حكم الأمّ الثانية، و من ناحية أخرى اعتداء على حريم الأب و هتك له، و تجاهل لاحترامه.

مضافا إلى أنّ هذا العمل يزرع عند أبناء الأب الميت بذور النفاق بسبب النزاع على نكاح زوجته، و بسبب الاختلاف الواقع بينهم فى

هذا الأمر (أى فى من يتزوج بها).

بـل إنّ هـذا النوع من النكـاح يوجب الاختلاف و التنافس البغيض بين الأب و الولـد، لأنّ هناك تنافسا و حسـدا بين الزوجـة الأولى و الزوجة الثّانية غالبا، فإذا تحقق هذا النكاح (أى نكاح زوجة الأب من جانب الولد) فى حياة الوالد (أى بعد طلاقها من الأب طبعا) كان السبب فى الحسد واضحا، لأنّ امرأة الأب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۸

ستحظى بهـذا الزواج منزلـة أرفع، ممّـا يؤدى إلى تأجـج نيران الحسـد لـدى الزوجـة الاـخرى أكثر، و أمّا إذا تحقق بعـد وفاته فإنّه من الممكن أن يوجد لدى الابن نوعا من الحسد بالنسبة لأبيه.

هـذا و ليس من المسـتبعد أن تكون التعابير الثلاثـة الواردة فى ذم هـذا النوع من النكاح إشارات إلى هذه الحكم الثلاث لتحريم نكاح امرأة الأب على وجه الترتيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۶۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۳]

اشارة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهـاتُكُمْ وَ بَنـاتُكُمْ وَ أَخَـواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاـتُكُمْ وَ بَنـاتُ الْأَخِ وَ بَنـاتُ الْأُخْتِ وَ أُمَّهـاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَـةِ وَ أُمَّهـاتُ نِسـائِكُمْ وَ رَبائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلائِلُ أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلاَّ ما قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۳)

التّفسير

تحريم الزّواج بالمحارم:

فى هـذه الآيـة أشار سـبحانه إلى النساء اللاتى يحرم نكاحهنّ و الزواج بهنّ، و يمكن أن تنشأ هذه الحرمة من ثلاث طرق أو أسـباب و هى:

۱- الولادة التى يعبّر عنها بالارتباط النّسبى.

۲- الزّواج الذى يعبّر عنه بالارتباط السّببى.

۳- الرّضاع الذى يعبّر عنه بالارتباط الرّضاعى.

و قد أشار فى البداية إلى النساء المحرمات بواسطة النّسب و هنّ سبع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۰

طوائف إذ يقول حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُمْ وَ بَناتُكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خالاتُكُمْ وَ بَناتُ الْأَخِ وَ بَناتُ الْأُخْتِ

و يجب التّنبيه إلى أنّ المراد من «الأـمّ» ليس هى التى يتولـد منهـا الإنسـان دونما واسـطة فقط، بل يشـمل الجـدّة من ناحيـة الأب و من ناحيـة الأمّ و إن علون، كما أنّ المراد من البنت ليس هو البنت بلا واسـطة، بل تشـمل بنت البنت و بنت الابن و أولادهما و إن نزلن، و هكذا الحال فى الطوائف الخمس الاخرى.

و من الواضح جدّا أنّ الإنسان يبغض النكاح و الزواج بهذه الطوائف من النسوة، و لهذا تحرمه جميع الشعوب و الجماعات (إلّا من شذ

و هو قليل)، و حتى المجوس الـذين كانوا يجوزون هذا النوع من النكاح فى مصادرهم الأصـلية ينكرونه و يشـجبونه اليوم، و إن حاول البعض أن يردّ هذه المبغوضـية إلى العادة و التقليد القديم، و لكن عمومية هذا القانون و شـيوعه لدى جميع أفراد البشر و طوائفه و فى جميع القرون و الأعصار تحكى- عادة- عن فطرية هذا القانون، لأن التقليد و العادة لا يمكن أن يكون أمرا عامّا و دائميا.

هـذا مضافا إلى أنّ هناك حقيقة ثابتة اليوم، و هى أنّ الزواج بين الأشـخاص ذوى الفئة المشابهة من الدم ينطوى على أخطار كثيرة، و يؤدى إلى انبعـاث أمراض خفيـة و موروثـة، و تشـددها و تجـددها (لأنّ هـذا النوع من الزواج يولـد هـذه الأمراض، بل يساعـدها على التشـدد و التجـدد و الانتقال) إلى درجة أنّ البعض لا يسـتحسن حتى الزواج بالأقرباء البعيدين (فضـلا عن المحارم المذكورة هنا) مثل الزواج الواقع بين أبناء و بنات العمومة[۶۰] و يرون أنّه يؤدى هو الآخر أيضا إلى أخطار تصاعد الأمراض الوارثية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۱

إلّا أنّ هذا النوع من الزواج إذا لم يسبب أية مشكلة لدى الأقرباء البعيدين (كما هو الغالب) فإنّه لا شك يسبب مضاعفات خطيرة لدى الأقرباء القريبين الذين تشتدّ عندهم ظاهرة وحدة الدم و تشابهه.

هذا مضافا إلى ضـعف الرغبة الجنسية و التجاذب الجنسى لدى المحارم عادة، لأنّ المحارم- فى الأغلب- يكبرون معا، و يشبّون معا، و لهذا لا ينطوى الزواج فيما بينهم على عنصـر المفاجأة و صـفة العلاقة الجديدة، لأنّهم تعودوا على التعامل فيما بينهم، فلا يكون أحدهم جديـدا على الآخر، بل العلاقـة لـديهم علاقـة عاديـة و رتيبـة، و لا يمكن أن يكون بعض الموارد النادرة مقياسا لانتزاع القوانين الكلية العامّة أو سـببا لنقض مضاداتها، و نحن نعلم أن التجاذب الجنسى شرط أساسى لدوام العلاقة الزوجية و استمرار الرابطة العائلية، و لهذا إذا تمّ التزاوج بين المحارم فإن الرابطة الزوجية الناشئة من هذا الزواج ستكون رابطة ضعيفة مهزوزة و قصيرة العمر.

وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَواتُكُمْ مِنَ الرَّضاعَةِ يشـير اللّه سـبحانه فى هذه الآية إلى المحارم الرّضاعية و القرآن و إن اقتصـر فى هـذا المقام على الإشارة إلى طائفتين من المحارم الرضاعيـة، و هى الأم الرضاعيـة و الأخت الرضاعيـة فقط، إلّا أنّ المحارم الرضاعية- كما يسـتفاد من روايات عديـدة- لا تنحصـر فى من ذكر فى هـذه الآية، بل تحرم بالرّضاعة كل من يحرمن من النساء بسـبب «النسب» كما يصرّح بذلك الحديث المشهور

المروى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «يحرم من الرّضاع ما يحرم من النّسب»[۶۱].

على أن بيـان مقـدار الرّضـاع الموجب للحرمـة و الشـروط و الكيفيـة المعتبرة فيه، و غير ذلـك من التفاصـيل و الخصوصـيات متروك للكتب الفقهية.

و فلسفة حرمة الزواج بالمحارم الرضاعية هى، أن نشوء و نبات لحم المرتضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۲

و عظمه من لبن امرأة معينـة تجعله بمثابـة ابنهـا الحقيقى، فـالمرأة التى ترضع طفلا مقـدارا معينا من اللبن ينشأ و ينبت معه و منه للطفل لحم و عظم، فإنّ هـذا النوع من الرضاع يجعل الطفل شبيها بأبنائها و أولادها لصـيرورته جزء من بدنها كما هم جزء من بدنها، فإذا هم جميعا (أى الأخوة الرضاعيون و الأخوة النسبيون كأنّهم اخوة بالنسب.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يشير- فى المرحلة الأخيرة- إلى الطائفة الثالثة من النسوة اللاتى يحرم الزواج بهنّ و يذكرهنّ ضمن عدّة عناوين:

۱- وَ أُمَّهـاتُ نِسـائِكُمْ يعنى أن المرأة بمجرّد أن تتزوج برجـل و يجرى عقـد النكاح بينهما تحرم أمها و أم أمها و إن علون على ذلك الرجل.

۲- وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَ يعنى أنّ مجرّد العقـد على امرأة لا يوجب حرمة نكاح بناتها من زوج آخر على زوجها الثّانى، بل يشترط أن يدخل بها أيضا مضافا على العقد عليها.

إنّ وجود هـذا القيـد فى هذا المورد دَخَلْتُمْ بِهِنَ يؤيد كون حكم أمّ الزوجة الذى مرّ فى الجملة السابقة وَ أُمَّهاتُ نِسائِكُمْ غير مشـروط

بهذا الشرط، و بعبارة أخرى إن هذا القيد هنا يؤيد و يؤكّد إطلاق الحكم هناك، فتكون النتيجة أن بمجرّد العقد على امرأة تحرم أمّ تلك المرأة على الرجل و إن لم يدخل بتلك المرأة، لخلو ذلك الحكم من القيد المشروط هنا فى مورد الرّبيبة.

ثمّ أنّ قيد فِي حُجُورِكُمْ و إن كان ظاهره يفهم منه أنّ بنت الزوجة من زوج آخر إذا لم ترب فى حجر الزوج الثانى لا تحرم عليه، و لكن هذا القيد بدلالة الروايات، و قطعية هذا الحكم- ليس قيدا احترازيا- بل هو فى الحقيقة إشارة إلى نكتة التحريم- لأن أمثال هذه الفتيات اللاتى تقدم أمّهاتها على زواج آخر، هنّ فى الأغلب فى سنين متدنية من العمر، و لذلك غالبا ما يتلقين نشأتهنّ و تربيتهنّ فى حجر الزوج الجديد مثل بناته، فالآية تقول إن بنات نسائكم من غيركم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۳

كبناتكم أنفسكم، فهل يتزوج أحد بابنة نفسه؟ و اختيار وصف الربائب التى هى جمع الرّبيبة (لتربية الزوج الثانى إيّاها فهى مربوبته) إنّما هو لأجل هذا.

ثمّ يضيف سبحانه لتأكيد هذا المطلب عقيب هذا القسم قائلا: فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أى إذا لم تدخلوا بامّ الرّبيبة جاز لكم نكاح بناتهنّ.

۳- وَ حَلائِلُ ۶۲] أَبْنائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُمْ و المراد من حلائل الأبناء زوجاتهم، و أمّا التعبير ب «من أصلابكم» فهو فى الحقيقة لأجل أن هذه الآية تبطل عادة من العادات الخاطئة فى الجاهلية، حيث كان المتعارف فى ذلك العهد أن يتبنى الرجل شخصا ثمّ يعطى للشخص المتبنى كل أحكام الولد الحقيقى، و لهذا كانوا لا يتزوجون بزوجات هذا النوع من الأبناء كما لا يتزوجون بزوجة الولد الحقيقى تماما، و التبنى و الأحكام المرتبة عليها لا أساس لها فى نظر الإسلام.

۴- وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ يعنى أنّه يحرم الجمع بين الأختين فى العقد، و على هذا يجوز الزواج بالأختين فى وقتين مختلفين و بعد الانفصال عن الأخت السابقة.

و حيث أنّ الزواج بأختين فى وقت واحد كان عادة جارية فى الجاهلية، و كان ثمّة من ارتكبوا هذا العمل فإن القرآن عقب على النهى المذكور بقوله: إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ يعنى إنّ هذا الحكم كالأحكام الاخرى لا يشمل الحالات السابقة، فلا يؤاخذهم اللّه على هذا الفعل و إن كان يجب عليهم أن يختاروا إحدى الأختين، و يفارقوا الاخرى، بعد نزول هذا الحكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۴

يبقى أن نعرف أنّ سرّ تحريم هذا النمط من الزواج (أى التزوج بأختين فى وقت واحد) فى الإسلام لعلّه أن بين الأختين بحكم ما بينهما من نسب و رابطة طبيعية- علاقة حبّ و مودّة، فإذا أصبحتا متنافستين فى ظل الانتماء إلى زوج واحد لم يمكنهما الحفاظ على تلك المودّة و المحبّة و العلاقة الودية بطبيعة الحال، و بهذه الصورة يحدث هناك تضاد عاطفى فى وجود كل من الأختين يضرّ بحياتهما، لأن كلّ واحدة منهما ستعانى حينئذ و بصورة دائمية من صراع حالتين نفسيتين متضادتين هما دافع الحب، و غريزة التنافس، و هو صراع نفسى مقيت ينطوى على مضاعفات خطيرة لا تحمد عقباها.

ثمّ إن بعض المفسّرين احتمل أن تعود جملة إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إلى كل المحارم من النسوة اللاتى مرّ ذكرهنّ فى مطلع الآية فيكون المعنى: إذا كان قد أقدم أحد فى الجاهلية على التزوج بإحدى النساء المحرم عليه نكاحهنّ لم يشمله حكم تحريم الزواج بهنّ هذا، و كان ما نتج من ذلك الزواج الذى حرم فى ما بعد من الأولاد شرعيين، و إن وجب عليهم بعد نزول هذه الآية أن يتخلوا عن تلكم النساء، و يفارقوهنّ.

و تناسب خاتمة هذه الآية أعنى قوله سبحانه و تعالى: إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً هذا المعنى الأخير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۴]

اشارة

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۲۴)

التّفسير

اشارة

هذه الآية تواصل البحث السابق حول النساء اللاتى يحرم نكاحهنّ و الزواج بهنّ و تضيف قائلة:

وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ النِّساءِ أى و يحرم الزواج بالنساء، اللاتى لهنّ أزواج.

و المحصنات جمع المحصنة و هى مشتقة من «الحصن»، و قد أطلقت على المرأة ذات الزوج لأنّها بالزواج برجل تكون قد أحصنت فرجها من الفجور، و كذا أطلقت على النساء العفيفات النقيات الجيب، أو اللاتى يعشن فى كنف رجل و تحت كفالته و بذلك يحفظن أنفسهنّ و يحصنها من الفجور و الزنا.

و قد تطلق هذه اللفظة على الحرائر مقابل الإماء، لأن حريتهنّ تكون بمثابة حصن يحفظهنّ من أن يتجاوز حدوده أحد دون إذنهنّ، إلّا أنّه من الواضح أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۶

المراد بها فى الآية الحاضرة هو ذوات الأزواج.

إن هذا الحكم لا يختص بالنساء المحصنات المسلمات، بل يشمل المحصنات حتى غير المسلمات، أى أنّه يحرم الزواج بهنّ مهما كان دينهنّ.

نعم يستثنى من هذا الحكم فقط النساء المحصنات الكتابيات اللاتى أسرّهنّ المسلمون فى الحروب، فقد اعتبر الإسلام أسرهنّ بمثابة الطلاق من أزواجهنّ، و أذن أن يتزوج بهنّ المسلمون بعد انقضاء عدتهنّ ۶۳] أو يتعامل معهنّ كالإماء كما قال سبحانه: إِلَّا ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ

و لكن هذا الاستثناء (استثناء منقطع يعنى أن هذه النساء المحصنات اللاتى وقعن أسيرات فى أيدى المسلمين لا يعتبرن محصنات لأن علاقتهنّ بأزواجهنّ قد انقطعت بمجرد وقوعهنّ أسيرات، تماما كما تنقطع علاقة النساء غير المسلمات بأزواجهن باعتناقهنّ الإسلام فى صورة استمرار الزوج السابق على كفره، فيكن فى مصاف النساء المجردات من الأزواج (أى غير المحصنات).

و من هنا يتّضح أنّ الإسلام لا يسمح مطلقا بأن يتزوج المسلمون بالنساء المحصنات حتى الكتابيات و غيرهنّ من أهل الديانات الاخرى، و لهذا قرّر لهنّ العدّة، و منع من الزواج بهنّ فى تلك الفترة.

و فلسفة هذا الحكم تتمثل فى أن هذا النوع من النساء إمّا يجب أن تعاد إلى دار الكفر، أو يبقين هكذا بدون زوج بين المسلمين، أو تقطع علاقتهنّ بالزوج السابق، و يتزوجن من جديد بزوج آخر، و حيث أن الصورة الأولى تخالف الأسس التربوية الإسلامية، كما أن الصورة الثانية عملية ظالمة، و لهذا لا تبقى إلّا صورة واحدة و هى الصورة الثالثة.

و يظهر من بعض الروايات التى ينتهى إسنادها إلى أبى سعيد الخدرى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۷

الآية نزلت فى سبايا غزوة أوطاس ۶۴] و أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سمح للمسلمين بأن يتزوجوا بهن بعد التأكد من كونهنّ غير حبالى أو يعاملن كما تعامل الأمة، و هو يؤيد الصورة الثالثة التى أشرنا إليها فى ما سبق.

ثمّ أن اللّه سبحانه أكّد هذه الأحكام الواردة فى شأن المحارم من النساء و من شابههنّ حيث قال: كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ و على هذا لا يمكن تغيير هذه الأحكام أو العدول عنها أبدا.

ثمّ إنّه يشير سبحانه إلى حلّية الزواج بغير هذه الطوائف من المذكورات فى هذه الآية و الآيات السابقة إذ يقول: وَ أُحِلَّ لَكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ أى أنّه يجوز لكم أن تتزوجوا بغير هذه الطوائف من النساء شريطة أن يتمّ ذلك وفق القوانين الإسلامية و أن يرافق مبادئ الفقه و الطهر و يبتعد عن جادة الفجور و الفسق.

و على هذا يكون معنى «محصنين» فى الآية و الذى هو إشارة إلى حال الرجال هو «عفيفين»، و عبارة «غير مسافحين» تأكيد لهذا الوصف، لأن السفاح (الذى هو وزن كتاب) يعنى الزنا و أصله من السفح و هو صب الماء أو الأعمال العابثة و الأفعال الطائشة و حيث أنّ القرآن يستخدم- فى مثل هذه الموارد- الكنايات يكون المراد من السفاح الزنا و اللقاء الجنسى الغير المشروع.

و جملة أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوالِكُمْ إشارة إلى أنّ العلاقة الزوجية إمّا يجب أن تتمّ من خلال الزواج مع دفع صداق و مهر، أو من خلال تملك أمة فى لقاء دفع قيمتها[۶۵].

كما أن عبارة «غير مسافحين» فى الآية الحاضرة لعلها إشارة إلى حقيقة أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۸

الهدف من الزواج يجب أن لا يكون فقط إطفاء الشهوة، و تلبية الرغبة الجنسية، بل الزواج قضية حيوية هامّة تهدف غاية جد سامية يجب أن تكون الغريزة الجنسية فى خدمتها أيضا، ألا و هو بقاء النوع البشرى، و حفظه من التلوث و الانحراف.

الزّواج المؤقت فى الإسلام:

يقول سبحانه: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً أى أنّه يجب عليهم دفع أجور النساء اللاتى تستمتعون بهنّ، و هذا القسم من الآية إشارة إلى مسألة الزواج المؤقت أو ما يسمّى بالمتعة، و يستفاد منها أن أصل تشريع الزواج المؤقت كان قطعيا و مسلما عند المسلمين قبل نزول هذه الآية، و لهذا يوصى المسلمون فى هذه الآية بدفع أجورهنّ.

و حيث أن البحث فى هذه المسألة من الأبحاث التّفسيرية و الفقهية و الاجتماعية المهمة جدا يجب دراستها من عدّة جهات هى:

۱- القرائن الموجودة فى هذه الآية التى تؤكد دلالتها على الزواج المؤقت.

۲- إن الزواج المؤقت كان فى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم ينسخ.

۳- الحاجة بل و الضرورة الاجتماعية إلى هذا النوع من الزواج.

۴- الإجابة على بعض الإشكالات.

و أمّا بالنسبة إلى النقطة الأولى فلا بدّ من الالتفات إلى أمور:

أوّلا: إنّ كلمة المتعة التى اشتق منها لفظة «استمتعتم» تعنى الزواج المؤقت، و بعبارة أخرى المتعة حقيقة شرعية فى هذا النوع من الزواج، و يدل على ذلك أن هذه الكلمة استعملت فى هذا المعنى نفسه فى روايات النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلمات الصحابة مرارا و تكرارا[۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۷۹

ثانيا: إنّ هذه اللفظة إذا لم تكن بالمعنى المذكور يجب أن تفسّر حتما بمعناها اللغوى و هو «الانتفاع» فيكون معنى هذا المقطع من

الآيـة هكـذا: «إذا انتفعتم بالنساء الـدائمات فادفعوا إليهنّ أجورهنّ» فى حين أننا نعلم إن دفع الصـداق و المهر غير مقيـد و لا مشـروط بالانتفـاع بالزوجـات الـدائمات بـل يجب دفع تمام المهر- بناء على ما هو المشـهور[۶۷] بين الفقهـاء- أو نصـفه على الأقـل إلى المرأة بمجرد العقد للزواج الدائم عليها.

ثالثـا: إنّ كبـار «الصـحابة» و «التابعين»[۶۸] مثـل ابـن عبـاس العـالم (المفسّـر الإسـلامى الكـبير) و أبى بـن كعب، و جـابر بن عبـد اللّه الأنصـارى، و عمران بن الحصـين، و سـعيد بن جبير، و مجاهـد، و قتـادة و السـدى، و جماعـة كبيرة من مفسّـرى أهـل السـنة، و جميع مفسّـرى أهل البيت، فهموا من الآية الحاضـرة حكم الزواج المؤقت إلى درجة أن الفخر الرازى- رغم ما عهد عنه من التشكيك الكثير فى القضايا المرتبطة بالشيعة و عقائدهم قال بعد بحث مفصل: و الذى يجب أن يعتمد عليه فى هذا الباب أن نقول أنّها منسوخة و على هـذا التقدير فلو كانت هذه الآية دالة على أنها مشـروعة لم يكن ذلك قادحا فى غرضـنا، و هذا هو الجواب أيضا عن تمسـكهم بقراءة أبى و ابن عبـاس فـإن تلـك القراءة بتقـدير ثبوتها لا تـدل إلّا على أن المتعـة كانت مشـروعة، و نحن لا ننازع فيه، إنّما الـذى نقوله أن النسخ طرأ عليه ۶۹].

رابعـا: اتفق أئمّـة أهـل الـبيت عليهم السّـلام و هم أعلم النـاس بأسـرار الوحى، على تفسـير الآيـة المـذكورة بهـذا المعنى (أى بـالزواج المؤقت) و قد وردت فى هذا الصعيد روايات كثيرة منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۰

ما

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «المتعة نزل بها القرآن و جرت بها السنّة من رسول اللّه»[۷۰].

و

عن الإمام الباقر عليه السّـلام أنّه قال فى جواب سؤال أبى بصـير حول المتعة: نزلت فى القرآن فَمَا اسْـتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً[۷۱].

و

عن الإمام الباقر عليه السّـلام أيضا أنّه قال: فى جواب عبـد اللّه بن عمير الليثى الـذى سأل عن المتعـة: «أحلّها اللّه فى كتابه و على لسان نبيّه فهى حلال إلى يوم القيامة»[۷۲].

هل نسخ هذا الحكم؟:

لقد اتفق عامّة علماء المسـلمين، بل قامت ضرورة الدين على أنّ الزواج المؤقت (المتعة) كان أمرا مشروعا فى صدر الإسلام (و الكلام حول دلالة الآية الحاضـرة على مشـروعية المتعة لا ينافى قطعية وجود أصل الحكم لأنّ المخالفين يرون ثبوت مشروعية هذا الحكم فى السـنة النبويـة)، بل كان المسـلمون فى صـدر الإسـلام يعملوا بهذا الحكم، و العبارة المعروفة المروية عن عمر: «متعتان كانتا على عهد رسول اللّه و أنا محرمهما و معاقب عليهما، متعـة النساء و متعة الحج»[۷۳] دليل واضح على وجود هذا الحكم فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، غاية ما فى الأمر أن من خالف هذا الحكم ادعى أنّه قد نسخ فى ما بعد، و حرم هذا النوع من الزواج.

و لكن الملفت للنظر هو أنّ الروايات الناسخة لهذا الحكم التى ادعوها مضطربة اضطرابا كبيرا، فبعضها يقول: إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه هو الذى نسخ هذا الحكم، و على هذا يكون الناسخ لهذا الحكم القرآنى هو السنة النبوية، و بعضها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۱

يقول: إنّ ناسخه هو آية الطلاق إذ يقول سبحانه: إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ فى حين أنّ هذه الآية لا ترتبط بالمسألة المطروحة

فى هـذا البحث لأنّ هـذه الآيـة تبحث فى الطلاق، فى حين أن الزواج المؤقت (أو المتعة) لا طلاق فيه، و الإفتراق بين الطرفين فى هذا الزواج يتمّ بانتهاء المدّة المقررة.

إنّ القدر المتيقن فى المقام هو أن أصل مشروعية هذا النوع من الزواج فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر قطعى و مفروغ عنه، و ليس ثمّـة أى دليل يمكن الاطمئنان إليه و يثبت نسخ هذا الحكم، و لهذا فلا بدّ من أن نحكم ببقاء هذا الحكم، بناء على ما هو مقرر و ثابت فى علم الأصول.

و العبارة المشهورة المروية عن «عمر» خير شاهد على هذه الحقيقة، و هى أنّ هذا الحكم لم ينسخ فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ... و إلخ.

ثمّ إن من البديهى أنّه لا يحق لأحد إلّا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينسخ الأحكام، فهو وحده يحق له- و بأمر من اللّه سبحانه و إذنه- أن ينسخ بعض الأحكام، و قد سد باب نسخ الأحكام بعد وفاة النّبى تماما، و إلّا لاستطاع كل واحد أن ينسخ شيئا من الأحكام الإلهيـة حسب اجتهـاده و مزاجه، و حينئـذ لا يبقى شـىء من الشـريعة الخالـدة الأبديـة، و هـذا مضافا إلى أنّ الاجتهاد فى مقابل النص النّبوى لا ينطوى على أية قيمة أبدا.

و الملفت للنظر أننا نقرأ فى صـحيح الترمـذى الـذى هو من صـحاح أهل السـنة المعروفة، و كذا عن الدارقطنى ۷۴] أن رجلاـ من أهل الشـام سأل «عبـد اللّه بن عمر» عن التمتع بالعمرة إلى الحـج، فقال ابن عمر: حسن جميل، قال: فإن أباك كان ينهى عنها، فقال: ويلك فإن كان أبى نهى عنها و قد فعله رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمر به أ فبقول أبى آخذ، أم بأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قم عنّى ۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۲

و قد ورد نظير هذا الحديث و بنفس الصورة التى قرأتها حول زواج المتعة عن «عبد اللّه بن عمر» فى صحيح الترمذى ۷۶].

و جاء فى كتاب «المحاضـرات» للراغب أنّ رجلا من المسـلمين كان يفعلها (أى المتعـة) فقيل له: عمّن أخـذت حلّها؟ فقال: عن عمر، فقـالوا: كيف ذلـك و عمر هو الـذى نهى عنهـا و عـاقب على فعلهـا؟ فقـال: لقوله: متعتان كانتا على عهـد رسول اللّه، و أنا أحرمهما و أعاقب عليهما متعـة الحج و متعة النساء، فأنا أقبل روايته فى شـرعيتها على عهد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و ما أقبل نهيه من قبل نفسه ۷۷].

ثمّ إن هناك مطلبا آخر لا بدّ أن نذكر به هنا و هو أن الذين ادعوا نسخ هذا الحكم (أى انتساخه) قد واجهوا مشكلات عديدة.

أوّلا: أنّه صـرّح فى روايات عديدة فى مصادر أهل السنة بأنّ هذا الحكم لم ينسخ فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أبدا، بل نهى عنه فى عهـد عمر، و على هـذا يجب على مـدعى النسـخ أن يجيبوا على هـذه الروايات البالغـة- عددا- عشـرين روايـة، جمعها العلّامة الأمينى رحمه اللّه مفصلة فى الجزء السادس من «الغدير» و ها نحن نشير إلى نموذجين منها.

۱- روى فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنّه كان يقول: كنا نستمتع بالقبضة من التمر و الدقيق الأيّام على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبى بكر حتى- ثمّ- نهى عنه عمر فى شأن عمرو بن حريث ۷۸].

۲- و فى حديث آخر فى كتاب «الموطأ» لمالك و «السنن الكبرى» للبيهقى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۳

روى عن «عروة بن زبير» إنّ خولـة بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطـاب رضـى اللّه عنه فقـالت: إنّ ربيعـة بن أميّـة اسـتمتع بـامرأة مولـدة فحملـت منـه فخرج عمر رضـى اللّـه عنه يجرّ رداءه فزعـا فقـال: هـذه المتعـة لـو كنت تقـدمت فيه لرجمته، (أى أمنع منهـا من الآن)[۷۹].

و فى كتاب «بدايـة المجتهـد» تأليف «ابن رشد الأندلسـى» نقرأ أيضا أنّ جابر بن عبد اللّه الأنصارى كان يقول: تمتعنا على عهد رسول

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبى بكر و نصفا من خلافة عمر ثمّ نهى عنها عمر الناس ۸۰].

و المشكلة الاخرى هى أنّ الروايات التى تتحدث عن نسخ حكم المتعة فى عهد رسول اللّه مضطربة و متناقضة جدّا، فبعضها يقول نسخ فى خيبر و بعضها يقول: نسخ يوم فتح مكّة، و بعض يقول: فى معركة تبوك و آخر يقول: يوم أوطاس و ما شابه ذلك، و من هنا يتبيّن إن هذه الأحاديث المشيرة إلى النسخ موضوعة برمتها لما فيها من التناقض البيّن و التضارب الواضح.

من كل ما قلناه اتّضح أنّ ما كتبه صاحب تفسير المنار حيث قال: «و قد كنّا قلنا فى (محاورات المصلح و المقلد) التى نشرت فى المجلدين الثالث و الرابع:

من المنار أن عمر نهى عن المتعة اجتهادا منه وافقه عليه الصحابة ثمّ تبيّن لنا أنّ ذلك خطأ فنستغفر اللّه منه»[۸۱].

إنّه حديث العصبية لأنّ هناك فى مقابل الرّوايات المتضاربة المتناقضة التى تتحدث عن انتساخ حكم المتعة فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم روايات تصرّح باستمرار المسلمين على ممارسة هذا الأمر (أى المتعة) إلى عهد عمر، و على هذا ليس المقام مقام الاعتذار و لا الاستغفار، فالشواهد التى ذكرناها سابقا تشهد بأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۴

كلامه الأوّل مقترن بالحقيقة و ليس كلامه الثّانى كذلك.

و لا يخفى أنّه لا «عمر» و لا أى شخصية أخرى حتى أئمّة أهل البيت عليهم السّلام و هم خلفاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقادرين على نسخ أحكام ثبتت فى عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل لا معنى للنسخ- أساسا- بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انسداد باب الوحى و انقطاعه، و حملهم كلام «عمر» على الاجتهاد مثير للعجب، لأنّه من «الاجتهاد» فى مقابل «النص».

و أعجب من ذلك أن جماعة من فقهاء السنة اعتبروا الآيات المرتبطة بأحكام الزواج مثل الآية (۶) من سورة المؤمنين ناسخة لآية المتعة، و كأنّهم تصوروا أن زواج المتعة ليس زواجا أصلا، فى حين أنّه أحد أقسام الزواج.

الزّواج المؤقت ضرورة اجتماعية:

إنّه قانون عام إن الغريزة البشرية الطبيعية إذا لم تلّب بصورة صحيحة سلك الإنسان لإشباعها و تلبيتها طريقا منحرفا، لأن من الحقائق المسلمة غير القابلة للإنكار أن الغرائز الطبيعية لا يمكن أن يقضى عليها بالمرّة و حتى أننا إذا استطعنا أن نقضى عليها- افتراضا- لم يكن هذا العمل عملا صحيحا، لأنّه حرب على قانون من قوانين الخلقة.

و على هذا فإنّ الطريق الصحيح هو أن نشبع هذه الحاجة، و نلبى هذه الغريزة بطريقة معقولة، و أن نستفيد منها فى سبيل البناء.

على أننا لا يمكننا أن ننكر أنّ الغريزة الجنسية هى إحدى أقوى الغرائز الإنسانية إلى درجة أن بعض المحللين النفسانيين اعتبرها الغريزة الإنسانية الأصلية التى إليها ترجع بقية الغرائز الاخرى.

فإذا كان الأمر كذلك ينطرح سؤال فى المقام و هو أنّه قد يكون هناك من لا يمكنه- و فى كثير من الظروف و الأحوال- أن يتزوج بالزواج الدائم فى سن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۵

خاص، أو يكون هناك من المتزوجين من سافر فى رحلة طويلة و مهمّة بعيدة عن الأهل فيواجه مشكلة الحاجة الجنسية الشديدة التى تتطلب منه التلبية و الإرضاء.

خاصّة و إنّ هذه المسألة قد اتّخذت فى عصرنا الحاضر الذى أصبح فيه الزواج- بسبب طول مدّة الدراسة و بعد زمن التخرج و بعض

المسائل الاجتماعیة المعقدة التی قلّما یستطیع معها الشباب أن یتزوجوا فی سن مبکرة، أی فی السن التی تعتبر فترة الفوران الجنسی لدی کل شاب- اتّخذت صفة أکثر عنفا و ضراوة، ترى ما الذی یجب عمله فی هذه الحالة؟

هل یجب حثّ الناس على أن یقمعوا هذه الغریزة (کما یفعل الرهبان و الراهبات)؟

أو أنّه یجب أن یفسح لهم المجال لأن یتحرروا جنسیا فیفعلوا ما شاؤوا أن یفعلوا، فتتکرر الصورة المقرفة؟

أو أن نسلک طریقا ثالثة تخلو عن مشاکل الزواج الدائم، کما و تخلو عن مفاسد التحرر الجنسی أیضا؟

و خلاصة القول إن الزواج الدائم لم یکن لا فی السابق و لا فی الحاضر بقادر على أن یلبی کل الاحتیاجات الجنسیة، و لا أن یحقق رغبات جمیع الفئات و الطبقات فی الناس، فنحن لذلک أمام خیارین لا ثالث لهما و هما: إمّا أن نسمح بالفحشاء و البغاء و نعترف به (کما هو الحال فی المجتمعات المادیة الیوم حیث سمحوا بالبغاء بصورة قانونیة) أو أن نعالج المسألة عن طریق الزواج المؤقت (المتعة) فما هو یا ترى جواب الذین یعارضون فکرة البغاء، و فکرة المتعة، على هذا السؤال الملح؟

إنّ أطروحة الزواج المؤقت (المتعة) لیست مقیدة بشرائط النکاح الدائم لکی یقال بأنّها لا تنسجم و لا تتلاءم مع عدم القدرة المالیة، أو لا تتلاءم مع ظروف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۶

الدراسة، کما لا تنطوی على إضرار الفحشاء و البغاء و مفاسده و ویلاته.

مؤاخذات على الزواج المؤقت:

نعم هناک مؤاخذات تؤخذ على الزواج المؤقت لا بدّ أن نذکرها هنا، و نجیب علیها باختصار.

۱- ربّما یقال: ما الفرق بین «الزواج المؤقت» و «الزنا»، ألیس کلاهما بیع للجسد لقاء دفع مبلغ معین، و فی الحقیقة لیس وصف الزواج المؤقت سوى ستار على وجه الفحشاء و الزنا، نعم غایة الفرق بین الأمرین هو إجراء ما یسمّى بالصیغة، و هی لیست سوى عبارة بسیطة.

و الجواب هو: إن الذین یرددون هذا الکلام کأنّهم لم یطّلعوا أصلا على مفهوم الزواج المؤقت و حقیقته، لأنّ الزواج المؤقت لیس عبارة عن مجرّد کلمتین تقال و ینتهی کل شیء، بل ثمّة مقررات نظیر ما فی الزواج الدائم، یعنی أن المرأة المتمتع بها تکون- طوال المدّة المضروبة فی الزواج المؤقت خاصّة بالرجل المتمتع، ثمّ عند ما تنتهی المدّة المذکورة یجب على المرأة أن تعتد، یعنی أن تمتنع من الزواج مطلقا برجل آخر لمدّة خمسة و أربعین یوما على الأقل، حتى یتبیّن أنّها حملت من الرجل الأوّل أو لا، على أنّها یجب أن تعتد حتى إذا توسلت بوسائل لمنع الحمل أیضا و إذا حملت من ذلک الرجل و أتت بولید وجب أن یتکفله ذلک الرجل کما یتکفل أمر ولده من الزواج الدائم و یجری علیه من الأحکام کل ما یجری على الولد الناشئ من الزواج الدائم، فی حین أن الزنا و البغاء لا ینطوی على أی شیء من هذه الشروط و الحدود، فهل یمکن أن نقیس هذا الزواج بالبغاء؟

نعم إنّ بین الزواج المؤقت و الزواج الدائم بعض الفروق من حیث التوارث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۷

بین الزوجتین ۸۲] و النفقة و بعض الأحکام، و لکن هذه الفروق لا تسبب فی أن یجعل «الزواج المؤقت» فی ردیف البغاء، خلاصة القول: إنّ المتعة نوع من الزواج بمقررات الزواج و النکاح.

۲- إنّ «الزواج المؤقت» یتیح لبعض الأشخاص من طلاب الهوى أن یسیء استعمال هذا القانون، و أن یرتکبوا کل فاحشة تحت هذا الستار لدرجة أن ذوی الشخصیات من الناس لا تقبل بمثل هذا الزواج، بل و تأنف منه کما أن ذوات الشخصیة من النساء یأبین ذلک أیضا.

و الجواب هو: و أى قانون فى عالمنا الراهن لم يسأ استعماله؟ و هل يجوز أن نمنع من الأخذ بقانون تقتضيه الفطرة البشرية و تمليه الحاجة الاجتماعية الملحة بحجّة أن هناك من يسيء استعماله، أم أن علينا أن نمنع من سوء استخدام القانون الصحيح؟

لو أنّ البعض استغل موسم الحج لبيع المخدرات على الحجيج- افتراضا- فهل يجب أن نمنع من هذا التصرف الشائن، أم نمنع من اشتراك الناس فى هذا المؤتمر الإسلامى العظيم؟

و هكذا الأمر فى المقام، و إذا لا حظنا بعض الناس من ذوى الشخصيات يكره الأخذ بهذا القانون الإسلامى (أى الزواج المؤقت) لم يكشف ذلك عن عيب فى القانون، بل يكشف عن عيب فى العاملين به، أو بتعبير أصح: يكشف عن عيب فى الذين يسيئون استخدام القانون.

فلو أنّ الزواج المؤقت اتّخذ فى المجتمع المعاصر صورته الصحيحة، و قامت الحكومة الإسلامية بتطبيقه على النحو الصحيح، و ضمن ضوابطه و مقرراته الخاصّة به، أمكن المنع من سوء استخدام المستغلين لهذا القانون، كما لم يعد ذوو الشخصيات يكرهون هذا القانون و يرفضونه عند وجود ضرورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۸

اجتماعية أيضا.

۳- يقولون: إنّ «الزواج المؤقت» يسبب فى أن يحصل فى المجتمع أطفال بلا أسر، تماما كما يحصل من البغاء من الأولاد الغير الشرعيين.

و الجواب هو: إنّ الإجابة على هذه المؤاخذة تتّضح تماما ممّا قلناه، لأنّ الأولاد غير الشرعيين غير مرتبطين بآبائهم و لا أمهاتهم من الناحية القانونية، فى حين إن الأولاد الناتجين من الزواج المؤقت لا يختلفون فى أى شيء عن الأولاد الناشئين من الزواج الدائم حتى فى الميراث و سائر الحقوق الاجتماعية، و هذا الاعتراض نشأ من عدم الانتباه إلى هذه الحقيقة الساطعة فى صعيد الزواج المؤقت.

«راسل» و الزواج المؤقت:

فى خاتمة هذا البحث من المفيد الإشارة إلى موضوع هام ذكره فى هذا المجال العالم الإنجليزى المعروف «برتراندراسل» فى كتابه: «الزواج و الأخلاق» تحت عنوان «زواج اختيارى».

لقد كتب راسل بعد أن ذكر اقتراحا لأحد قضاة محاكم الشباب يدعى «بن بن‌بى‌ليندسى» فى مجال «الزواج الودّى أو الزواج الاختيارى» قائلا: وفق هذا الاقتراح يجب أن يكون الشباب قادرين على أن يدخلوا فى نوع جديد من الزواج يختلف عن الزواج المتعارف (الدائم) من ثلاث نواح:

أوّلا: أن لا يقصد الطرفان الحصول على أبناء، و لهذا يجب أن يتعرفوا على أفضل السبل لمنع الحمل.

و ثانيا: أن يتمّ الإفتراق بين الطرفين بأبسط الطرق و أسهلها.

و ثالثا: أن لا تستحق المرأة أى نفقة من الرجل بعد وقوع الإفتراق و الطلاق بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۸۹

ثمّ إنّ راسل بعد أن يذكر خلاصة ما اقترحه «ليندسى» يقول: و إنّى لأتصور أن مثل هذا الأمر لو اعترف به القانون لأقبل جمهور كبير من الشباب و خاصّة الطلبة الجامعيين على الزواج المؤقت و لدخلوا فى حياة مشتركة مؤقتة، حياة تتمتع بالحرية، و خالصة من كثير من التبعات و العواقب السيئة للعلاقات الجنسية الطائشة، الراهنة»[۸۳].

إنّ هذا الطرح- كما تلاحظ أيّها القارئ الكريم- حول الزواج المؤقت يشابه إلى حدّ كبير قانون الزواج المؤقت الإسلامى، غاية ما

هنالك إنّ الشروط التى قرّرها الإسلام فى صعيد «الزواج المؤقت» أوضح و أكمل من نواحى كثيرة ممّا اعتبر فى ذلك الطرح (الذى اقترحه ليندسى)، هذا مضافا إلى أن المنع من تكون الولد فى الزواج المؤقت الإسلامى غير محضور و إنّ الانفصال سهل، كما أنّه لا تجب النفقة فى هذا الزواج على الرجل.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه قال:- بعد ذكر وجوب دفع المهر- وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيما تَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ و هو بذلك يشير إلى أنّه لا مانع من التغيير فى مقدار الصداق إذا تراضى طرفا العقد، و على هذا الأساس يكون الصداق نوعا من الدين الذى يخضع للتغيير من زيادة أو نقصان إذا تراضيا. (و لا فرق فى هذا الأمر بين العقد المؤقت و العقد الدائم و إن كانت الآية الحاضرة- كما شرحنا ذلك سلفا- تدور حول الزواج المؤقت).

ثمّ إنّ هناك احتمالا آخر فى تفسير الآية أيضا و هو أنّه لا مانع من أن يقدم الطرفان- بعد انعقاد الزواج المؤقت على تمديد مدّة هذا الزواج و كذا التغيير فى مقدار المهر برضا الطرفين، و هذا يعنى أن مدّة الزواج المؤقت قابلة للتمديد حتى عند إشرافها على الانتهاء (أى قبيل انتهائها) بأن يتفق الزوجات أن يضيفا على المدّة المتفق عليها فى مطلع هذا الزواج، مدّة أخرى معينة لقاء إضافة مقدار معين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۰

من المال إلى الصداق المتفق عليه أوّلا (و قد أشير فى روايات أهل البيت عليهم السّلام إلى هذا التّفسير أيضا).

ثمّ أنّه سبحانه قال: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً يريد بذلك أن الأحكام المذكورة فى هذه الآية تتضمّن خير البشرية و صلاحها و سعادتها لأنّ اللّه عليم بمصالحهم، حكيم فى ما يقرره لهم من القوانين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۲۵]

اشارة

وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَناتٍ غَيْرَ مُسافِحاتٍ وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۵)

التّفسير

التّزوج بالإماء:

تعقيبا على الأبحاث السابقة المتعلقة بالزواج نزلت هذه الآية تبيّن شروط التزويج بالإماء، فتقول أولا: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا[۸۴] أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَناتِ الْمُؤْمِناتِ فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ فَتَياتِكُمُ الْمُؤْمِناتِ أى من لم يجد قدرة مالية على أن يتزوج بالحرائر من النساء المؤمنات، و ليس لديه ما يقدر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۲

مهرهنّ و نفقتهنّ، فإن له أن يتزوج ممّا ملكت أيمانكم من الإماء، فإن مهورهنّ أقل، و مؤونتهنّ أخفّ عادة.

على أنّ المراد من الأمة هنا هى أمة الغير، إذ لا يجوز لصاحب الأمة أن يتزوج بأمته و يتعامل معها كما يتعامل مع زوجته بشروط مذكورة فى الكتب الفقهية.

كما أن التعبير ب «المؤمنات» فى الآية يستفاد منه أنّه يجب أن تكون «الأمة» التى يراد نكاحها مسلمة حتى يجوز التزوج بها، و على هذا لا يصح التزوج بالإماء الكتابيات.

ثمّ إنّ الملفت للنظر فى المقام هو أنّ القرآن عبر عن الإماء بالفتيات جمع فتاة، هو مشعر عادة بالاحترام الخاص الذى يولى للنساء، و هى تستخدم غالبا فى الشّابات من الإناث.

ثمّ إن اللّه سبحانه عقّب على هذا الحكم بقوله: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِكُمْ و يريد بذلك أنكم لستم مكلّفين- فى تشخيص إيمان الإماء- إلّا بالظاهر، و أمّا الباطن فاللّه هو الذى يعلم ذلك، فهو وحده العالم بالسرائر، و المطلع على الضمائر.

و حيث إن البعض كان يكره التزوج بالإماء و يستنكف من نكاحهنّ قال تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ أى أنّكم جميعا من أب واحد، و أمّ واحدة، فإذن يجب أن لا تستنكفوا من التزوج بالإماء اللاتى لا يختلفن من الناحية الإنسانية عنكم، و اللائى يشبهنّ غيرهنّ من ناحية القيمة المعنوية، فقيمتهنّ تدور مدار التقوى و الإيمان لا غير.

و خلاصة القول إنّ الإماء من جنسكم، و كلّكم كأعضاء جسم واحد.

نعم لا بدّ أن يكون التزوج بالإماء بعد إذن أهلهنّ و إلّا كان باطلا، و إلى هذا أشار سبحانه بقوله: فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَ و التعبير عن المالك بالأهل إنّما هو للإشارة إلى أنّه لا يجوز التعامل مع الإماء على أنهنّ متاع أو بضاعة، بل يجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۳

أن يكون التعامل معهنّ على أنهنّ من أعضاء العائلة، فلا بدّ أن يكون تعاملا إنسانيا كاملا.

ثمّ إنّه سبحانه قال: وَ آتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ و من هذه الجملة يستفاد أن الصّداق الذى يعطى نهنّ يجب أن يكون متناسبا مع شأنهن و مكانتهن، و أن يعطى المهر لهنّ، يعنى أن الامة تكون هى المالكة للصداق، و إن ذهب بعض المفسرين إلى أن فى الآية حذفا، أى أن الأصل هو (و آتوا مالكهنّ أجورهنّ) غير أن التّفسير لا يوافق ظاهر الآية، و إن كانت تؤيده بعض الروايات و الأخبار.

هذا و يستفاد أيضا من ظاهر الآية أنه يمكن للعبيد و الإماء أن يملكوا ما يحصلون عليه بالطرق المشروعة.

كما يستفاد من التعبير ب «المعروف» أنّه لا يجوز أن تظلم الإماء فى تعيين مقدار المهر، بل هو حقهنّ الطبيعى الحقيقى الذى يجب أن يعطى إليهنّ بالقدر المتعارف.

ثمّ إن اللّه سبحانه ذكر شرطا آخر من شروط هذا الزواج، و هو أن يختار الرجل للزواج العفائف الطاهرات من الإماء اللائى لم يرتكبن البغاء إذ قال:

مُحْصَناتٍ سواء بصورة علنية غَيْرَ مُسافِحاتٍ أو بصورة خفية وَ لا مُتَّخِذاتِ أَخْدانٍ ۸۵] أى أصدقاء و أخلاء فى السرّ.

و يمكن أن يرد هنا سؤال هو أنّ النهى عن الزنا بلفظة غَيْرَ مُسافِحاتٍ تكفى و تغنى عن النهى عن اتّخاذ الأخدان، فلما ذا الوصف الثانى أيضا؟

و يجاب على هذا: بأن البعض- فى عهد الجاهلية- كان يرى أنّ المذموم فقط هو الزنا العلنى و السفاح الظاهر، و أمّا اتّخاذ الأخلاء و الرفاق أو الرفيقات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۴

السرّ فلا بأس به، و بهذا يتّضح سبب ذكر القرآن و تصريحه بكلا النوعين.

ثمّ إن اللّه سبحانه قال: فَإِذا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما عَلَى الْمُحْصَناتِ مِنَ الْعَذابِ

و تتضمن الآية بحثا حول عقوبة الإماء إذا خرجن عن جادة العفة و الطهر، و ذلك بعد أن ذكر قبل هذا بعض أحكام الزواج بالإماء، و بعض الأحكام حول حقوقهنّ.

و الحكم المذكور فى هذا المجال هو أن الإماء إذا زنين فجزاؤهنّ نصف جزاء الحرائر إذا زنين، أى خمسون جلدة.

ثمّ إنّ هاهنا نقطة جديرة بالانتباه هى أنّ القرآن الكريم يقول فى هذا المقام فَإِذا أُحْصِنَ فيكون معناه أنّ الجزاء المذكور إنّما يترتب على زنا الأمة إذا أحصنت، فما ذا يعنى ذلك؟

لقد احتمل المفسّرون هنا احتمالات عديدة، فبعضهم ذهب إلى أنّ المراد هو الأمة ذات بعل (و ذلك حسب الاصطلاح الفقهى المعروف و الآية السابقة).

و ذهب آخرون إلى أنّ المراد هى الأمة المسلمة، بيد أن تكرار لفظة المحصنة مرتين فى الآية يقضى بأن يكون المعنى واحدا فى المقامين، هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن جزاء النساء المحصنات هو الرجم لا الجلد، فيتّضح أنّ التّفسير الأوّل و هو تفسير المحصنة بالأمة ذات بعل غير مقبول، كما أنّ التّفسير الثّانى و هو كون المراد من المحصنة هو المسلمة ليس له ما يدل عليه.

فالحقّ هو أنّ مجىء لفظة الْمُحْصَناتِ فى القرآن الكريم بمعنى المرأة العفيفة الطاهرة- على الأغلب- يجعل من القريب إلى النظر أن تكون لفظة المحصنة هنا فى الآية الحاضرة مشيرة إلى هذا المعنى نفسه، فيكون المراد أنّ الإماء اللاتى كن يرتكبن الفاحشة بضغط و إجبار من أوليائهنّ لا يجرى عليهنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۵

الحكم المذكور (أى الجلد)، أمّا الإماء اللاتى لم يتعرضن للضغط و الإجبار، و يمكنهنّ أن يعشن عفيفات نقيات، فإنهنّ إذا أتين بالفاحشة عوقبن كما تعاقب الحرائر و إن كانت عقوبة هذا النوع من الإماء على النصف من حدّ الحرائر فى الزنا.

ثمّ قال سبحانه معقبا على الحكم السابق: ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ و «العنت» (على وزن سند) يقال فى الأصل للعظم المجبور- بعد الكسر- إذا أصابه ألم و كسر آخر فهضّه قد أعنته، لأن هذا النوع من الكسر مؤلم جدّا، و لهذا يستعمل فى المشاكل الباهظة و الأعمال المؤلمة.

و يقصد الكتاب العزيز من العبارة الحاضرة أنّ الزواج بالإماء إنّما يجوز لمن يعانى من ضغط شديد بسبب شدّة غلبة الغريزة الجنسية عليه و لم يكن قادرا على التزوج بالحرائر من النساء، و على هذا الأساس لا يجوز الزواج بالإماء لغير هذه الطائفة.

و يمكن أن تكون فلسفة هذا الحكم فى أنّ الإماء خاصّة فى تلك العهود لم يحظين بتربية جيدة، و لهذا كن يعانين من نواقص خلقية و نفسية و عاطفية، و من الطبيعى أن يتّخذ الأطفال المتولدون من هذا الزواج صفة الأمهات و يكتسبوا خصوصياتهنّ الخلقية، و لهذا السبب طرح الإسلام طريقة دقيقة لتحرير العبيد تدريجا حتى لا يبتلوا بهذا المصير السىء، و فى نفس الوقت فسح للأرقاء أنفسهم أن يتزوجوا فيما بينهم.

نعم، هذا الموضوع لا يتنافى مع وضع بعض الإماء اللائى حظين بوضع استثنائى و خاص من الناحية الخلقية و التربوية، فالحكم المذكور أعلاه يرتبط بأغلبية الإماء، و كون بعض أمهات الأئمّة، من أهل البيت النبوى عليهم السّلام من الإماء هو من هذه الجهة، و لكن لا بدّ من الانتباه إلى أنّ ما قيل فى مجال الإماء من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۶

«المنع فى غير الضرورة» هو الزواج بهنّ، لا نكاحهنّ بسبب الملك، فإنّه لا مانع منه حتى فى غير الضرورة.

ثمّ عقب سبحانه على ذلك بقوله: وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ أى إن صبركم عن التزوج بالإماء ما استطعتم و ما لم تقعوا فى الزنا خير لكم و من مصلحتكم:

وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى يغفر اللّه لكم ما تقدم منكم بجهل أو غفلة فهو رحيم بكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۶) وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً (۲۷) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً (۲۸)

التّفسير

هذه القيود لما ذا؟:

بعد أن بيّن اللّه سبحانه فى الآيات السابقة ما هناك من شروط و قيود و أحكام مختلفة فى مجال الزواج، يمكن أن ينقدح سؤال فى ذهن البعض و هو: ما المقصود من كلّ هذه القيود و لما ذا الحدود القانونية؟ أ لم يكن من الأفضل أن تترك للأفراد الحرية الكاملة فى هذه المسائل، ليتاح لهم أن يستفيدوا من هذا الأمر و ليتعرفوا فى هذا المجال كما يفعل عبدة الدنيا حيث يتوسلون بكل وسيلة فى طريق اللّذة؟

إنّ الآيات الحاضرة هى فى الحقيقة إجابة على هذه التساؤلات إذ يقول سبحانه: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ أى أنّ اللّه يبيّن لكم الحقائق بواسطة هذه القوانين و يهديكم إلى ما فيه مصالحكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۸

مع العلم بأن هذه الأحكام لا تختص بكم، فقد سار عليها من سبقكم من أهل الحق من الأمم الصالحة، هذا مضافا إلى أنّ اللّه تعالى يريد أن يغفر لكم و يعيد عليكم نعمه التى قطعت عنكم بسبب انحرافكم عن جادة الحقّ، و كل هذا إنّما يكون إذا عدتم عن طريق الانحراف الذى سلكتموه فى عهد الجاهلية و قبل الإسلام.

وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ يعلم بأسرار الأحكام، و يشرعها لكم عن حكمة.

ثمّ إن اللّه سبحانه أكّد ما مرّ بقوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً أى أنّ اللّه يريد بتشريع هذه الأحكام لكم أن يعيد عليكم نعمه التى قطعت و منعت عنكم بسبب ذنوبكم، و ارتكابكم للشّهوات، و لكن الذين يريدون الانسياق وراء الشّهوات الغارقين فى الآثام و الذنوب يريدون لكم أن تنحرفوا عن طريق السعادة، إنّهم يريدون أن تسايروهم فى اتّباع الشّهوات و أن تنغمسوا فى الآثار انغماسا كاملا، فهل ترون- و الحال هذه- إنّ هذه القيود و الحدود الكفيلة بضمان سعادتكم و خيركم و مصلحتكم أفضل لكم، أو الحرية المنفلتة المقرونة بالانحطاط الخلقى، و الفساد و السقوط؟

إنّ هذه الآيات فى الحقيقة تجيب على تساؤل أولئك الأفراد الذين يعيشون فى عصرنا الحاضر أيضا و الذين يعترضون على القيود و الحدود المفروضة فى مجال القضايا الجنسية، و تقول لهم: إنّ الحريات المطلقة المنفلتة ليست أكثر من سراب، و هى لا تنتج سوى الانحراف الكبير عن مسير السعادة و التكامل الإنسانى، و كما توجب التورط فى المتاهات و المجاهل، و تستلزم العواقب الشريرة التى يتجسد بعضها فى ما نراه بأم أعيننا من تبعثر العوائل، و وقوع أنواع الجريمة الجنسية البشعة، و ظهور الأمراض التناسلية و الآلام الروحية و النفسية المقيتة، و نشوء الأولاد غير الشرعيين حيث يكثر فيهم المجرمون القساة الجناة.

ثمّ إنّه سبحانه يقول بعد كل هذا: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۱۹۹

ضَعِيفاً و هذه الآية إشارة إلى أنّ النقطة التالية و هى أنّ الحكم السابق فى مجال حرية التزوج بالإماء بشروط معينة ما هو- فى الحقيقة- إلّا تخفيف و توسعة، ذلك لأنّ الإنسان خلق ضعيفا، فلا بدّ و هو يواجه طوفان الغرائز المتنوعة الجامحة التى تحاصره و تهجم عليه من

كل صوب و حدب أن تطرح عليه طرق و وسائل مشروعة لإرضاء غرائزه، ليتمكن من حفظ نفسه من الانحراف و السقوط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۲۹ الى ۳۰]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَـكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (۲۹) وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰)

التّفسير

سلامة المجتمع ترتبط بسلامة الإقتصاد:

الآيـة الأولى من هاتين الآيتين تشـكل- فى الحقيقـة- القاعـدة الأساسـية للقوانين الإسـلامية فى مجال المسائل المتعلقـة «بالمعاملات و المبادلات المالية» و لهذا يستدلّ بها فقهاء الإسلام فى جميع أبواب المعاملات و المبادلات المالية.

إنّ هـذه الآيـة تخاطب المؤمنين بقولها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ و هذا يعنى أنّ أى تصـرف فى أموال الغير بـدون حق أو بدون أى مبرر منطقى و معقول، ممنوع و محرم من وجهة نظر الإسـلام، فقد أدرج الإسـلام كل هذه الأمور تحت عنوان «الباطل» الذى له مفهوم واسع و كبير.

و الباطل كما نعلم يقابل «الحقّ» و هو شامل لكل ما ليس بحقّ و كلّ ما لا هدف له و لا أساس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۱

و فى آيات أخرى من القرآن الكريم أكّد هذا المعنى بعبارات شبيهة بالعبارة المذكورة فى الآية الحاضـرة، فعند ما يشنع على اليهود و يـذكر أعمـالهم القبيحـة يقول: وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ۸۶] و يقـول فى الآيـة (۱۸۸) من سـورة البقرة لا- تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ كمقدمة للنهى عن جر الناس إلى المحاكم و أكل أموالهم بحجج واهية غير منطقية.

و على هـذا الأسـاس ينـدرج تحت هـذا العنوان الكلى كل لون من ألوان العـدوان، و الغش، و جميع المعاملات الرّبويـة، و المعاملات المجهولـة الخصوصـيات تمامـا، و تعـاطى البضـائع التى لا- فائـدة فيها بحكم العقلاء، و التجارة بأدوات اللهو و الفساد و المعصـية و ما شاكل ذلك.

و تفسـير بعض الروايـات كلمـة «الباطـل» بالقمـار و الرّبـا و مـا شابه ذلك إنّما هو فى الحقيقـة من باب ذكر المصاديق الواضـحة لهـذا المفهوم، و ليس من باب الحصر و القصر.

و لعلّنا لا نحتاج إلى التـذكير بأنّ التعبير ب «الأكل» كناية عن كل تصـرف، سواء تمّ بصورة الأكل المتعارف أو اللبس، أو السـكنى أو غير ذلك، تعبير رائج فى اللغة العربية و غير العربية، غير غريب على الاستعمال.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول معقبا على العبارات السابقة: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ

و هذه العبارة اسـتثناء من القانون الكلى، و هو بحسب الاصـطلاح «اسـتثناء منقطع»[۸۷] و هو يعنى إن مـا جـاء فى هـذا العبارة لم يكن مشمولا للحكم السابق من الأساس، بل قد ذكر تأكيدا و تذكيرا، فهو فى حدّ ذاته قانون كلى، و ضابطة عامّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۲

برأسها، لأنّه يقول: إلّا أن يكون التصرف فى أموال الآخرين بسبب التجارة الحاصلة فى ما بينكم، و التى تكون عن رضا الطرفين.

فبناء على هذا تكون جميع أنواع المعاملات المالية و التبادل التجارى الرائج بين الناس- فى ما إذا تمّ برضا الطرفين و كان له وجه معقول- أمرا جائزا من وجهة نظر الإسلام (إلّا الموارد التى ورد فيها نهى صريح لمصالح خاصّة).

ثمّ أنّه تعالى ينهى فى ذيل هذه الآية عن قتل الإنسان لنفسه إذ يقول: وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ و ظاهر هذه الجملة بقرينة قوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً النهى عن الانتحار، يعنى أنّ اللّه الرحيم كما لا يرضى بأن تقتلوا أحدا، كذلك لا يسمح لكم و لا يرضى بأن تقتلوا أنفسكم بأيديكم، و قد فسّرت الآية الحاضرة فى روايات أهل البيت عليهم السّلام بالانتحار أيضا[۸۸].

و هنا يطرح سؤال و هو: أى ارتباط بين مسألة قتل الإنسان لنفسه، و «التصرف الباطل فى أموال الناس»؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضح تماما، و فى الحقيقة يشير القرآن بذكر هذين الحكمين بصورة متتالية إلى نكتة اجتماعية مهمّة، و هى أنّ العلاقات الاقتصادية فى المجتمع إذا لم تكن قائمة على أساس صحيح، و لم يتقدم الإقتصاد الاجتماعى فى الطريق السليم، و وقع الظلم و التصرف العدوانى فى أموال الغير أصيب المجتمع بنوع من الانتحار، و آل الأمر إلى تصاعد حالات الانتحار الفردى مضافا إلى الانتحار الجماعى الذى هو من آثار الانتحار الفردى ضمنا.

إنّ الحوادث و الثورات التى تقع فى المجتمعات العالمية المعاصرة خير شاهد و أفضل دليل على هذه الحقيقة، و حيث أنّ اللّه لطيف بعباده رحيم بخلقه فقد أنذرهم و حذرهم من مغبة الأمر، و حثّهم على تجنب المبادلات الاقتصادية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۳

المالية الغير الصحيحة، و أخطرهم بأن الإقتصاد المريض يؤدى بالمجتمع إلى السقوط و الانهيار، و الفناء و الاندحار.

كما حذر قائلا: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ۸۹] ناراً أى أن من يعصى هذه الأحكام و يتجاهل هذا التحذير، و يأكل أموال الآخرين بالباطل و دون استحقاق، أو ينتحر بيديه لم يصبه العذاب الأليم فى الدنيا فحسب، بل ستصيبه نار الغضب الإلهى، و هذا أمر هين على اللّه: وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۱]

اشارة

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً (۳۱)

التّفسير

المعاصى الكبيرة و الصّغيرة:

هذه الآية تقول بصراحة: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً.

و من هذا التعبير يستفاد أنّ المعاصى و الذنوب على قسمين:

القسم الأوّل: هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالمعصية الكبيرة.

و القسم الثّانى و هو ما يسمّيه القرآن الكريم بالسّيئة.

و قد عبّر فى الآية (۳۲) من سورة النجم «باللمم»[۹۰] بدلا عن السيئة، و فى الآية (۴۹) من سورة الكهف ذلك لفظة «الصّغيرة» فى

مقابل الکبیرة عند ما یقول:

لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها.

و من التعابیر المذکورة یثبت- بوضوح- أنّ الذنوب و المعاصی علی صنفین محددین، یعبر عنهما تارة بالکبیرة و الصغیرة، و تارة أخری بالکبیرة و السیئة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۵

و ثالثة بالکبیرة و «اللمم».

و الآن یجب أن نعرف ما هو الملاک و الضابطة فی تحدید الصّغیرة و الکبیرة.

یذهب البعض إلی أنّ هذین الوصفین من الأمور النسبیة، تکون کل معصیة بالنسبة إلی ما هو أکبر منها صغیرة، و بالنسبة إلی ما هو أصغر منها کبیرة[۹۱].

و لکن من الواضح أنّ هذا المعنی لا ینجسم مع ظاهر الآیة الحاضرة، لأنّ الآیة الحاضرة تقسم الذنوب إلی صنفین مستقلین، و تعتبرهما نوعین متقابلین، و تعتبر الاجتناب عن صنف موجبا للعفو و التکفیر عن الصنف الآخر.

و لکننا إذا راجعنا المعنی اللغوی للکبیرة وجدنا أنّ الکبیرة هی کل معصیة بالغة الأهمیّة من وجهة نظر الإسلام، و یمکن أن تکون علامة تلک الأهمیة أن القرآن لم یکتف بالنهی عنها فقط، بل أردف ذلک بالتهدید بعذاب جهنم، مثل قتل النفس و الزنا و أکل الربا و أمثال ذلک، و لهذا

جاء فی روایات أهل البیت علیهم السّلام: «الکبائر التی أوجب اللّه عز و جل علیها النار»،

و قد روی مضمون هذا الحدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام، و الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام [۹۲].

و علی هذا الأساس تسهل معرفة المعاصی الکبیرة إذا أخذنا بنظر الإعتبار الضابطة المذکورة، و ما قد ذکر فی بعض الروایات من أنّ عدد الکبائر سبع و فی بعضها عشرون و فی بعضها سبعون لا ینافی ما ذکرناه قبل قلیل، إذ أنّ بعض هذه الروایات یشیر- فی الحقیقة- إلی المعاصی الکبیرة من الدرجة الأولی، و بعضها الآخر یشیر إلی المعاصی الکبیرة من الدرجة الثّانیة، و بعضها الثالث یشیر إلی جمیع الذّنوب الکبیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۶

إشکال:

یمکن أن یقال أنّ هذه الآیة تشجع الناس علی ارتکاب المعاصی و الذنوب الصغیرة إذا، کأنّها تقول: لا بأس بارتکاب المعاصی الصغیرة شریطة ترک الکبائر من الذنوب.

الجواب:

إنّ الجواب علی هذا الإشکال یتّضح من التعبیر المذکور فی الآیة الحاضرة، إذ یقول القرآن الکریم: نُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ یعنی إنّ الاجتناب عن الذنوب الکبار، خصوصا مع توفر أرضیة ارتکابها، یوجد حالة من التقوی الروحیة لدی الإنسان یمکنها أن تطهره من آثار الذنوب و المعاصی الصغیرة.

و فى الحقيقة أنّ الآية الحاضرة تشبه الآية (۱۱۴) من سورة هود التى تقول:

إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ فهى إشارة إلى أحد الآثار الواقعية للأعمال الصالحة و هو يشبه ما إذا قلن، إذا اجتنب الإنسان المواد السّامة الخطيرة و توفرت له صحة جيدة و مناعة قوية أمكنه أن يتخلص من الآثار السيئة لبعض الأطعمة غير المناسبة لسلامة مزاجه، و بسبب مناعته الجسمية.

و بتعبير آخر إنّ التكفير عن الذنوب الصغيرة و غفرانها يعد نوعا من «الأجر المعنوى» لتاركى المعاصى و الذنوب الكبيرة، و لهذا- فى الحقيقة- أثر تشجيعى قوى على ترك الكبائر، محفز على اجتنابها.

متى تنقلب الصّغيرة إلى كبيرة؟:

إلّا أنّ هاهنا نقطة مهمّة لا بدّ من الالتفات إليها، و هى أنّ المعاصى الصغيرة تبقى صغيرة ما لم تتكرر، هذا مضافا إلى كونها لا تصدر عن استكبار أو غرور و طغيان، لأنّ الصغائر- كما يستفاد من الكتاب العزيز و الأحاديث الشريفة- تتبدل إلى الكبيرة فى عدّة موارد هى:

۱- إذا «تكررت الصغيرة»،

قال الإمام الصّادق عليه السّلام: «لا صغيرة مع الإصرار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۷

۲- إذا استصغر صاحب المعصية معصيته و استحقرها،

فقد جاء فى نهج البلاغة: «أشدّ الذّنوب ما استهان به صاحبه».

۳- إذا ارتكبها مرتكبها عن عناد و استكبار و طغيان و تمرد على أوامر اللّه تعالى، و هذا هو ما يستفاد من آيات قرآنية متنوعة إجمالا، من ذلك قوله تعالى:

فَأَمَّا مَنْ طَغى وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى ۹۳].

۴- إن صدرت المعصية ممن لهم مكانة اجتماعية خاصّة بين الناس و ممن لا تحسب معصيتهم كمعصية الآخرين، فقد جاء فى القرآن الكريم حول نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سورة الأحزاب الآية (۳۰): يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ و

قد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: (من سن سنّة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئا).

۵- أن يفرح مرتكب المعصية بما اقترفه من المعصية، و يفتخر بذلك كما

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أذنب ذنبا و هو ضاحك دخل النّار و هو باك».

۶- أن يعتبر تأخير العذاب العاجل عنه على المعصية دليلا على رضاه تعالى، و يرى العبد نفسه محصنا من العقوبة آمنا من العذاب، أو يرى لنفسه مكانة عند اللّه لا يعاقبه اللّه على معصية لأجلها، كما جاء فى سورة المجادلة الآية (۸) حاكيا عن لسان بعض العصاة المغرورين الذين يقولون فى أنفسهم: لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ ثمّ يرد عليهم القرآن الكريم قائلا: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ ۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۲]

اشارة

وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۳۲)

سبب النّزول

قال المفسّر الشّهير الطّبرسی رحمه اللّه فی «مجمع البیان»: قیل أن أم سلمة (و هی من أزواج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) قالت: یا رسول اللّه یغزو الرجال و لا تغزو النساء، و إنّما لنا نصف المیراث؟ فلیتنا رجال و نغزو و نبلغ ما یبلغ الرجال، فنزلت الآیة تجیب علی جمیع هذه التساؤلات.

و نقرأ فی تفسیر المنار: إنّ جماعة من الرجال المسلمین قالوا: نرجو أن نفضل علی النساء بحسناتنا فی الآخرة کما فضلنا علیهنّ فی المیراث فیکون أجرنا علی الضعف من أجر النساء، و قالت جماعة من النساء المسلمات: إنا نرجو أن یکون الوزر علینا نصف ما علی الرجال فی الآخرة کما لنا المیراث علی النصف من نصیبهم فی الدنیا، فنزلت الآیة.

و قد ذکر سبب النّزول هذا بعینه فی تفسیر «فی ظلال القرآن» و تفسیر «روح المعانی» مع فارق بسیط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۰۹

التّفسیر

اشارة

لقد أوجب التفاوت فی سهم الرجال و النساء من الإرث- کما قرأت فی سبب النزول- تساؤلا لدی البعض، و یبدو أنّهم لم یلتفتوا إلی أنّ هذا التفاوت إنّما هو لأجل أن النفقة بکاملها علی الرجل، و لیس علی النساء شیء من نفقات العائلة، بل نفقة المرأة هی الاخری مفروضة علی الرجل، و لهذا یکون ما تصیبه المرأة ضعف ما یصیبه الرجل من الثروة، و لهذا قال اللّه تعالی فی هذه الآیة: وَ لا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لأنّ لکل نوع من أنواع هذا التفصیل و التفاوت أسرار خفیّة عنکم غیر ظاهرة لکم، سواء کان التفاوت من جهة الخلقة و الجنسیة و بقیة الصفات الجسمیة و الروحیة التی تشکل أساس النظام الاجتماعی فیکم، أو التفاوت من الناحیة الحقوقیة بسبب اختلاف الموقع و المکانة کالتفاوت فی سهم الإرث، إنّ جمیع أنواع هذا التفاوت قائم علی أساس العدل و القانون الإلهی الحکیم، و لو کانت مصلحتکم فی غیر ذلک لسنّه و بیّنه لکم.

و علی هذا فإن تمنّی تغییر هذا الوضع نوع من المخالفة للمشیئة الرّبانیة التی هی عین الحق و العدالة.

علی أنّه یجب أن لا نتصور خطأ أنّ الآیة الحاضرة تشیر إلی التفاوت المصطنع الذی برز نتیجة الاستعمار و الاستغلال الطبقی، بل تشیر إلی الفروق الطبیعیة الواقعیة، لأنّ الفروق المصطنعة لا هی من المشیئة الإلهیة فی شیء، و لا أن تمنی تغییرها مرفوض و غیر صحیح، بل هی فروق ظالمة و غیر منطقیة یجب السعی فی رفعها و إزالتها و تفنیدها، فللمثال: لا یمکن للنساء أن یتمنین أن یکنّ رجالا، کما لا یمکن للرجال أن یتمنوا أن یکونوا نساء، لأنّ وجود هذین الجنسین أمر ضروری للنظام الاجتماعی الإنسانی، و لکن هذا التفاوت الجنسی یجب أن لا یتّخذ ذریعة، لأن یسحق أحد الجنسین حقوق الجنس الآخر، و من هنا فإنّ الذین اتّخذوا هذه الآیة ذریعة لإثبات التمییز الاجتماعی الظالم أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۰

یتصوروها حجّة علی هذا التمییز قد أخطئوا خطأ کبیرا.

و لذا عقب اللّه سبحانه على الجملة السابقة فورا بقوله: لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَ لِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ أى لكلّ من الرجال و النساء نصيب من سعيه و جهده و مكانته سواء كانت مكانة طبيعية (كالتفاوت و الفرق بين جنسى الرجل و المرأة) أو غير طبيعية ناشئة عن التفاوت بسبب الجهود الاختيارية.

إنّ الجدير بالالتفات هنا هو: إنّ لكلمة «الاكتساب» التى هى بمعنى التحصيل مفهوما واسعا يشمل الجهود الاختيارية، كما يشمل ما يحصل عليه الإنسان بواسطة بنيانه الطبيعى.

ثمّ يقول: وَ سْئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ أى بدل أن تتمنوا هذا التفصيل و التفاوت اطلبوا من فضل اللّه و اسألوا من لطفه و كرمه أن يتفضل عليكم من نعمه المتنوعة و توفيقاته و مثوباته الطيبة، لتكونوا- بنتيجة ذلك- سعداء رجالا و نساء، و من أى عنصر كنتم، و على كل حال اطلبوا و اسألوا ما هو خيركم و سعادتكم واقعا، و لا تتمنوا ما هو خيال أو ما تتخيلونه (و لعلّ التعبير بلفظة «من فضله» إشارة إلى المعنى الأخير).

على أنّه من الواضح جدّا أن طلب الفضل و العناية الرّبانية ليس بمعنى أن لا يسعى الإنسان فى الأخذ بأسباب كلّ شىء و عوامله، بل لا بدّ من البحث عن فضل اللّه و رحمته من خلال الأسباب التى قرّرها و أرساها فى الكون.

إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً أى يعلم ما يحتاج إليه نظام المجتمع و ما يلزمه من الفروق سواء من الناحية الطبيعية أو الحقوقية، و لهذا لا وجود للظلم و الحيف و لا لأى شىء من التفاوت الظالم و التمييز غير العادل فى أفعاله، كما أنّه تعالى خبير بما فى بواطن الناس من الأسرار و الخفايا و النوايا و يعلم من الذى يتمنى الأمانى الخاطئة فى قلبه، و من يتمنى الأمانى الإيجابية الصحيحة البناءة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۱

التفاوت الطبيعى بين النّاس لما ذا؟:

إنّ ثمّة كثيرين يطرحون على أنفسهم السّؤال التالى: لما ذا خلق البعض بمواهب و قابليات أكثر، و آخرون بمواهب و قابليات أقل، و البعض متحلين بالجمال، و آخرون خلو منه، أو بجمال قليل، و البعض بامتيازات جسمية عالية و قوية متفوقة، و آخرون عاديين، هل يتلاءم هذا التفاوت مع العدل الإلهى؟؟.

فى الإجابة على هذه التساؤلات لا بدّ من الالتفات إلى النقاط التالية:

۱- إنّ بعض الفروق الجسمية و الروحية بين الناس ناشئة عن الاختلافات الطبقية و المظالم الاجتماعية، أو التفريط الفردى الذى لا علاقة له بنظام الخلق و جهاز الإيجاد أبدا، فمثلا كثير من أبناء الأغنياء أقوى من أبناء الفقراء و أكثر جمالا و تقدما من ناحية المواهب و القابليات بسبب أن الفريق الأوّل (أولاد الأغنياء) يحظى بإمكانيات أكبر من حيث الغذاء و الجوانب الصحية، فى حين يعانى الفريق الثانى من حرمان و نقصان من هذه الجهة. أو أن هناك من يخسر الكثير من طاقاته الجسمية و الروحية بسبب التوانى، و البطالة، و التفريط و التقصير.

إنّنا يجب أن نعتبر هذه الفروق و هذا التفاوت تفاوتا و مصطنعا و مزيفا، و غير مبرر، و يتحقق القضاء عليها من خلال القضاء على النظام الطبقى، و تعميم العدالة الاجتماعية فى الحياة البشرية، و القرآن الكريم و الإسلام لا يقرّ أى شىء من هذه الفروق، و أى لون من ألوان هذا التفاوت و التمييز أبدا.

۲- إنّ القسم الآخر من الفروق و ألوان التفاوت أمر طبيعى، و شىء لازم من لوازم الجبلة البشرية، بل و ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، يعنى أنّ مجتمعا من المجتمعات حتى إذا كان يحظى بالعدالة الاجتماعية الكاملة لا يمكن أن يكون جميع أفراده متساوين و على نمط واحد و صورة واحدة مثل منتجات معمل. بل لا بدّ أن يكون هناك بعض التفاوت، و لكن يجب أن نعلم أنّ المواهب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۲

الإلهية و القابليات الجسمية و الروحية قد قسمت- فى الأغلب- تقسيما يصيب فيه كل واحد قسطا من تلك المواهب و القابليات. لا أن يحظى بعض بجميع المواهب، و يحرم آخرون من أى شىء منها، و بمعنى أنّه قل أن يوجد هناك من تجتمع فيه كل المواهب جملة واحدة، بل هناك من يحظى بالمقدرة البدنية الكافية، و آخر يحظى بموهبة رياضية جيدة، و من يحظى بذوق شعرى رفيع، و آخر يحظى برغبة كبيرة فى التجارة، و من يتمتع بذكاء وافر فى مجال الزراعة، و آخر بمواهب و قابليات خاصّة أخرى.

المهم أن يكتشف المجتمع أو الأفراد أنفسهم تلك المواهب و القابليات، و أن يقوموا بتربيتها و تنميته فى بيئة سليمة، حتى يتمكن كل إنسان إظهار ما ينطوى عليه من نقطة ضعف و يستفيد منها.

۳- يجب أن نذكر القارئ أيضا بأنّ المجتمع مثل الجسد الإنسانى بحاجة إلى الأنسجة و العضلات و الخلايا المختلفة، يعنى كما أنّ البدن لو تألف جميعه من خلايا دقيقة و رقيقة مثل خلايا العين و المخ لم يدم طويلا، و لو تألف جميعه من خلايا غليظة و خشنة لا تعرف انعطافا مثل خلايا العظام، فقدت القدرة الكافية على القيام بوظائفها، بل لا بدّ أن تكون الخلايا المكونة للجسم متنوعة، ليصلح بعضها للقيام بوظيفة التفكير، و بعضها للمشاهدة و النظر، و آخر على الاستماع و رابع على التحدث، هكذا لا بدّ لوجود «المجتمع الكامل» من وجود عناصر ذات مواهب و قابليات و أذواق، و تراكيب مختلفة متنوعة، بدنية و فكرية، لكن لا يعنى هذا أن يعانى بعض أعضاء الجسد الاجتماعى من حرمان، أو تستصغر خدماته أو يستحقر دوره، تماما كما تستفيد كل خلايا البدن الواحد رغم ما بينها من تفاوت و فروق من الغذاء و الهواء و غيرها من الحاجات بالمقدار اللازم لكل واحد.

و بعبارة أخرى: إنّ الفروق و أشكال التفاوت فى البينة الروحية و الجسمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۳

فى الجوانب الطبيعة (التى لا هى ظالمة و لا هى مفروضة) إنّما هى فى الحقيقة مقتضى «الحكمة الرّبانية»، و العدل لا يمكنه بحال أن ينفصل عن الحكمة.

فعلى سبيل المثال إذا كانت خلايا الجسم البشرى مخلوقة فى شكل واحد كان ذلك بعيدا عن الحكمة كما أنّه خال عن العدل الذى يعنى وضع كل شىء فى محله و موضعه المناسب، و كذلك إذا تشابه الناس فى يوم من الأيّام فى التفكير أو تشابهوا فى القابلية و الموهبة لتهافت بنيان المجتمع برمته فى ذلك اليوم.

إذن فما ورد فى هذه الآية فى مجال التفصيل و التفاوت فى جبلة الرجل و المرأة و خلقتهما إنّما هو فى الواقع إشارة إلى هذا الموضوع، لأنّه من البديهى إذا كان البشر جميعا رجالا، أو كانوا جميعا نساء لانقرض النوع البشرى عاجلا، هذا مضافا إلى انتفاء قسم من ملاذ البشر المشروعة.

فإذا اعترض جماعة قائلين لما ذا خلق البشر صنفين رجالا و نساء، و زعموا بأنّ هذا الأمر لا يتلاءم مع العدالة الإلهية. لم يكن هذا الاعتراض منطقيا، لأنهم لم يلتفتوا إلى حكمة هذا التفاوت، و لم يتدبروا فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۳]

اشارة

وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۳۳)

التّفسير

يعود القرآن مرّة أخرى إلى مسألة الإرث إذ يقول: وَ لِكُلٍّ جَعَلْنا مَوالِيَ ۹۵] مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَ الْأَقْرَبُونَ أى لكل رجل أو امرأة جعلنا ورثة يرثون ممّا ترك الوالدان و الأقربون الذى يجب أن يقسّم بينهم طبق برنامج خاص.

إنّ هـذه العبـارة هى- فى الحقيقـة- خلاصـة أحكـام الإرث التى مرّ ذكرها فى الآيات السابقـة فى مجال الأقرباء، و هى مقدمـة لحكم سيأتى بيانه فى ما بعد.

ثمّ إنّ اللّه تعالى يضيف قائلا: وَ الَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ أى ادفعوا إلى الذين عقدتم معهم عقدا نصيبهم من الإرث.

و التعبير عن الميثاق بعقد اليمين (و هو العقد باليد اليمنى) لأجل أنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۵

غالبا ما يستفيد من يده اليمنى للقيام بأعماله، كما أنّ الميثاق يشبه نوعا من العقد (فى مقابل الحل).

و الآن لننظر من هم الذين عقد معهم الميثاق، الذين لا بدّ أن يعطوا نصيبهم من الإرث؟

يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد هو الزوج و الزوجة لأنّهما عقدا فى ما بينهما رابطة الزوجية.

و لكن هـذا الاحتمال يبـدو مستبعدا، لأنّ التعبير عن الزواج بعقـد اليمين و نظيره فى القرآن الكريم قليل جـدا، هذا مضافا إلى أنّه يعد تكرارا للمواضيع السابقة.

إنّ ما هو أقرب إلى مفهوم الآيـة هو عقـد «ضـمان الجريرة» الـذى كان رائجا قبل الإسـلام، و قد عدله الإسـلام بعد أن أقرّه لما فيه من ناحية إيجابية و هو: «أن يتعاقد شخصان فيما بينهما على أن يتعاونا فيما بينهما بشكل أخوى أن يعين أحدهما الآخر عند المشكلات، و إذا مات أحـدهما قبل الآخر ورثه الباقى» و لقـد أقر الإسـلام هذا النوع من التعاقد الأخوى الودى، و لكنّه أكد على أنّ التوارث بسـبب هـذا الميثاق إنّما يمكن إذا لم يكن هناك ورثـة من طبقات الأقرباء، يعنى إذا لم يبق أحـد من الأقرباء ورث ضامن الجريرة الذى وقع بينه و بين الآخر مثل هذا العقد (لمعرفة التفاصيل أكثر راجع بحث الإرث فى الكتب الفقهية)[۹۶].

ثمّ ختم سـبحانه الآية بقوله: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً أى إذا قصـرتم فى إعطاء نصـيب الورثة و لم تعطوهم حقوقهم كاملة، علم اللّه بذلك و لم يخف عليه ما فعلتم، لأنّه على كل شىء شهيد و بكل شىء عليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۴]

اشارة

الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ بِما حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً (۳۴)

التّفسير

القوامة فى النّظام العائلى:

قال اللّه تعالى فى مطلع هـذه الآيـة الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ و لا بـدّ لتوضـيح هذه العبارة من الالتفات إلى أنّ العائلة وحدة اجتماعية صغيرة، و هى كالاجتماع الكبير لا بـدّ لها من قائد و قائم بأمورها، لأن القيادة و القوامة الجماعية التى يشترك فيها الرجل و المرأة معا،

لا معنى لها و لا مفهوم، فلا بدّ أن يستقل الرجل أو المرأة بالقوامة، و يكون «رئيسا» للعائلة، بينما يكون الآخر بمثابة «المعاون» له الذى يعمل تحت إشراف الرئيس.

إنّ القرآن يصرّح- هنا- بأنّ مقام القوامة و القيادة للعائلة لا بدّ أن يعطى للرجل (و يجب أن لا يساء فهم هذا الكلام، فليس المقصود من هذا التعبير هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۷

الاستبداد و الإجحاف و العدوان، بل المقصود هو أن تكون القيادة واحدة و منظمة تتحمل مسئولياتها مع أخذ مبدأ الشورى و التشاور بنظر الإعتبار).

إنّ هذه المسألة تبدو واضحة فى هذا العصر أكثر من أى وقت مضى، و هى أن أية هيئة حتى المؤلفة من شخصين مكلفة بالقيام بأمر لا بدّ أن يتولى أحدهما زعامة تلك الهيئة فيكون رئيسها، بينما يقوم الآخر بمساعدته فيكون بمثابة (المعاون أو العضو)، و إلّا سادت الفوضى أعمال تلك الهيئة و اختلت نشاطاتها و أخفقت فى تحقيق أهدافها المنشودة، و هكذا الحال بالنسبة إلى العائلة، فلا بدّ من إسناد إدارة العائلة إلى الرجل.

و إنّما تعطى هذه المكانة للرجل لكونه يتمتع بخصوصيات معينة مثل القدرة على ترجيح جانب العقل على جانب العاطفة و المشاعر، (على العكس من المرأة التى تتمتع بطاقة فياضة و طاغية من الأحاسيس و العواطف) و مثل امتلاك بنية داخلية و قوة بدنية أكبر ليستطيع بالأولى أن يفكر و يخطط جيدا، و يستطيع بالثانية أن يدافع عن العائلة و يذّب عنها.

هذا مضافا إلى أنّه يستحق- لقاء ما يتحمله من الإنفاق على الأولاد و الزوجة، و لقاء ما تعهده من القيام بكل التكاليف اللازمة من مهر و نفقة و إدارة مادية لائقة للعائلة- أن تناط إليه وظيفة القوامة و الرئاسة فى النظام العائلى.

نعم يمكن أن يكون هناك بعض النسوة ممن يتفوقن على أزواجهنّ فى بعض الجهات، إلّا أن القوانين- كما أسلفنا مرارا- تسن بملاحظة النوع و مراعاة الأغلبية لا بملاحظة الأفراد، فردا فردا، و لا شك أنّ الحالة الغالبة فى الرجال أنّهم يتفوقون على النساء فى القابلية على القيام بهذه المهمّة، و إن كانت النسوة يمكنهنّ أن يتعهدن القيام بوظائف أخرى لا يشك فى أهميتها.

إنّ جملة بِما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ بِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ إشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۸

أيضا إلى هذه الحقيقة، لأنّ القسم الأوّل من هذه الفقرة يقول: إن هذه القوامة إنّما هو لأجل التفاوت الذى أوجده اللّه بين أفراد البشر من ناحية الخلق لمصلحة تقتضيها حياة النوع البشرى، بينما يقول فى القسم الثانى منها: و أيضا لأجل أن الرجال كلفوا بالقيام بتعهدات مالية تجاه الزوجات و الأولاد فى مجال الإنفاق و البذل.

و لكن غير خفى أن إناطة مثل هذه الوظيفة و المكانة إلى الرجل لا تدل على أفضلية شخصية الرّجل من الناحية البشرية، و لا يبرر تميزه فى العالم الآخر (أى يوم القيامة) لأنّ التميز و الأفضلية فى عالم الآخرة يدور مدار التقوى فقط، كما أنّ شخصية المعاونة الإنسانية قد تترجح فى بعض الجهات المختلفة على شخصية الرئيس، و لكن الرئيس يتفوق على معاونه فى الإرادة التى أنيطت إليه، فيكون أليق من المعاون فى هذا المجال.

ثمّ إنّه سبحانه يضيف قائلا: فَالصَّالِحاتُ قانِتاتٌ حافِظاتٌ لِلْغَيْبِ و هذا يعنى أن النساء بالنسبة إلى الوظائف المناطة إليهنّ فى مجال العائلة على صنفين:

الطّائفة الأولى: و هنّ «الصالحات» أى غير المنحرفات «القانتات» أى الخاضعات تجاه الوظائف العائلية «الحافظات للغيب» اللاتى يحفظن حقوق الأزواج و شؤونهم لا فى حضورهم فحسب، بل يحفظنهم فى غيبتهم، يعنى أنهنّ لا يرتكبن أية خيانة سواء فى مجال المال، أو فى المجال الجنسى، أو فى مجال حفظ مكانة الزوج و شأنه الاجتماعى، و أسرار العائلة فى غيبته، و يقمن بمسئولياتهنّ تجاه

الحقوق التى فرضها اللّه عليهنّ و التى عبّر عنها فى الآية بقوله:

بِما حَفِظَ اللَّهُ خير قيام.

و من الطبيعى أن يكون الرجال مكلفين باحترام أمثال هذه النسوة، و حفظ حقوقهنّ، و عدم إضاعتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۱۹

النّساء المقصرات النّاشزات

الطّائفة الثّانية: هنّ النسوة اللاتى يتخلفن عن القيام بوظائفهنّ و واجباتهنّ، و تبدو عليهنّ علائم النشوز و أماراته فإن على الرجال تجاه هذه الطائفة من النساء واجبات لا بدّ من القيام بها مرحلة فمرحلة، و على كل حال يجب أن يراعوا جانب العدل و لا يخرجوا عن حدوده و إطار، و هذه الوظائف هى بالترتيب:

۱- المواعظة

إنّ المرحلة الأولى التى على الرجال أن يسلكوها تجاه النساء اللاتى تبدو عليهنّ علائم التمرد و النشوز و العداوة، تتمثل فى وعظهن كما قال سبحانه فى الآية الحاضرة: وَ اللَّاتِي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَ ۹۷]. و على هذا فإن النساء اللاتى يتجاوزن حدود النظام العائلى و حريمه لا بدّ قبل أى شىء أن يذكرن- من خلال الوعظ و الإرشاد- بمسئولياتهنّ و واجباتهنّ و نتائج العصيان و النشوز.

۲- الهجر فى المضاجع

و تأتى هذه المرحلة إذا لم ينفع الوعظ و لم تنجع النصيحة وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضاجِعِ و بهذا الموقف و الهجر و عدم المبالاة بالزوجة أظهروا عدم الرضا من الزوجة، لعل هذا الموقف الخفيف يؤثر فى أنفسهنّ.

۳- الضرب:

و أمّا إذا تجاوزن فى عصيانهنّ، و التمرد على واجباتهنّ و مسئولياتهنّ الحدّ، و مضين فى طريق العناد و اللجاج دون أن يرتد عن بالأساليب السابقة، فلا النصيحة تفيد، و لا العظة تنفع، و لا الهجر ينجح، و لم يبق من سبيل إلّا استخدام العنف، فحينئذ يأتى دور الضرب ف اضْرِبُوهُنَ لدفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ الزوجية لانحصار الوسيلة فى هذه الحالة فى استخدام شىء من العنف، و لهذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۰

سمح الإسلام فى مثل هذه الصورة بالضغط عليهنّ و دفعهنّ إلى القيام بواجباتهنّ من خلال التنبيه الجسدى.

اشكال:

يمكن أن يعترض معترض فى هذا المقام قائلا: كيف سمح الإسلام للرجال بأن يتوسلوا بأسلوب التنبيه الجسدى المتمثل بالضرب؟

الجواب:

إنّ الجواب على هذا الاعتراض يبدو غير صعب بملاحظة معنى الآية و الروايات الواردة لبيان مفادها و ما جاء فى توضيحها فى الكتب الفقهية، و أيضا بملاحظة ما يعطيه علماء النفس اليوم من توضيحات علمية فى هذا المجال، و نلخص بعض هذه الأمور فى نقاط:

أوّلا: إنّ الآية تسمح بممارسة التنبيه الجسدى فى حق من لا يحترم وظائفة و واجباته، الذى لا تنفع معه أية وسيلة أخرى، و من حسن الصدف أن هذا الأسلوب ليس بأمر جديد خاص بالإسلام فى حياة البشر، فجميع القوانين العالمية تتوسل بالأساليب العنيفة فى حق من لا- تنجح معه الوسائل و الطرق السلمية لدفعه إلى تحمل مسئولياته و القيام بواجباته، فإن هذه القوانين ربّما لا تقتصر على وسيلة الضرب، بل تتجاوز ذلك- فى بعض الموارد الخاصّة- إلى ممارسة عقوبات أشد تبلغ حدّ الإعدام و القتل.

ثانيا: إنّ التّنبيه الجسدى المسموح به هنا يجب أن يكون خفيفا، و أن يكون الضرب ضربا غير مبرح، أى لا يبلغ الكسر و الجرح، بل و لا الضرب البالغ حد السواد كما هو مقرر فى الكتب الفقهية.

ثالثا: إنّ علماء التحليل النفسى- اليوم- يرون أن بعض النساء يعانين من حالة نفسية هى «المازوخية» التى تقتضى أن ترتاح المرأة لضربها و أن هذه الحالة قد تشتد فى المرأة إلى درجة تحس باللّذة و السكون و الرضا إذا ضربت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۱

ضربا طفيفا.

و على هذا يمكن أن تكون هذه الوسيلة ناظرة إلى مثل هؤلاء الأفراد الذين يكون التنبيه الجسدى الخفيف بمثابة علاج نفسى لهم.

و من المسلم أنّ أحد هذه الأساليب لو أثر فى المرأة الناشزة و دفعها إلى الطاعة، و عادت المرأة إلى القيام بوظائفها الزوجية لم يحق للرجل أن يتعلل على المرأة، و يعمد إلى إيذائها، و مضايقتها حتى تعود إلى جادة الصواب و استقامت فى سلوكها و لهذا عقب سبحانه على ذكر المراحل السابقة بقوله: فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا.

و لو قيل: إن مثل هذا الطغيان و العصيان و التمرد على الواجبات الزوجية و العائلية قد يقع من قبل الرجال أيضا، فهل تشمل هذه المراحل الرجال أيضا؟

أى أ يمكن ممارسة هذه الأمور ضد الرجل كذلك، أم لا؟

نقول فى الإجابة على ذلك: نعم إنّ الرجال العصاة يعاقبون حتى بالعقوبة الجسدية أيضا- كما تعاقب النساء العاصيات الناشزات- غاية ما هنالك أن هذه العقوبات حيث لا تتيسر للنساء، فإن الحاكم الشرعى مكلف بأن يذكر الرجال المتخلفين بواجباتهم وظائفهم بالطرق المختلفة و حتى بالتعزير (الذى هو نوع من العقوبة الجسدية).

و قصّة الرجل الذى أجحف فى حق زوجته و رفض الخضوع للحق، فعمد الإمام على عليه السّلام إلى تهديده بالسيف و حمله على الخضوع، معروفة.

ثمّ أنّ اللّه سبحانه ذكّر الرجال مرّة أخرى فى ختام الآية بأن لا- يسيئوا استخدام مكانتهم كقيمين على العائلة فيجحفوا فى حق أزواجهم، و أن يفكروا فى قدرة اللّه التى هى فوق كل قدرة إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيًّا كَبِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۵]

اشارة

وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً (۳۵)

التّفسير

محكمة الصّلح العائلية:

فى هذه الآية إشارة إلى مسألة ظهور الخلاف و النزاع بين الزوجين، فهى تقول: وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقاقَ بَيْنِهِما فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها ليتفاوضا و يقربا من أوجه النظر لدى الزوجين، ثمّ يقول تعالى: إِنْ يُرِيدا إِصْلاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُما أى ينبغى أن يدخل الحكمان المندوبان عن الزوجين فى التفاوض بنيّة صالحة و رغبة صادقة فى الإصلاح، فإنّهما إن كانا كذلك أعانهما اللّه و وفق بين الزوجين بسببهما.

و من أجل تحذير (الحكمين) و حثّهما على استخدام حسن النّية، يقول سبحانه فى ختام هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً خَبِيراً.

إنّ محكمة الصلح العائلية التى أشارت إليها الآية الحاضرة، هى إحدى مبتكرات الإسلام العظيمة، فإن هذه المحكمة تمتاز بميزات تفتقر إليها المحاكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۳

الاخرى، من جملتها.

۱- إن البيئة العائلية بيئة عاطفية، و لذلك فإن المقياس الذى يجب أن يتبع فى هذه البيئة، يختلف عن المقاييس المتبعة فى البيئات الاخرى، يعنى كما أنّه لا يمكن العمل فى «المحاكم الجنائية» بمقياس المحبّة و العاطفة، فإنّه لا يمكن- فى البيئة العائلية- العمل بمقياس القوانين الجافة. الضوابط الصارمة الخالية عن روح العاطفة، فهنا يجب حل الخلافات العائلية بالطرق العاطفية حدّ الإمكان، و لهذا يأمر القرآن الكريم أن يكون الحكمان فى هذه المحكمة ممن تربطهم بالزوجين رابطة النسب و القرابة ليمكنهما تحريك المشاعر و العواطف باتجاه الإصلاح بين الزوجين، و من الطبيعى أن تكون هذه الميزة هى ميزة هذا النوع من المحاكم خاصّة دون بقية المحاكم الاخرى.

۲- إنّ المدعى و المدعى عليه فى المحاكم العادية القضائية مضطرين- تحت طائلة الدفاع عن النفس- أن يكشفا عن كل ما لديهما من الأسرار، و من المسلم أنّ الزوجين لو كشفا عن الأسرار الزوجية أمام الأجانب و الغرباء لجرح كل منهما مشاعر الطرف الآخر، بحيث لو اضطر الزوجان أن يعودا- بحكم المحكمة- إلى البيت لما عادا إلى ما كانا عليه من الصفاء و المحبة السالفة، بل لبقيا يعيشان بقية حياتهما كشخصين غريبين مجبرين على القيام بوظائف معينة، و لقد دلّت التجربة و أثبتت أنّ الزوجين اللذين يضطران إلى التحاكم إلى مثل هذه المحاكم لحل ما بينهما من الخلاف لم يعودا ذينك الزوجين السابقين.

بينما لا تطرح أمثال هذه الأمور فى محاكم الصلح العائلية للاستحياء من الحضور، أو إذا اتفق أن طرحت هذه الأمور فإنّها تطرح فى جو عائلى، و أمام الأقرباء فإنّها لن تنطوى على ذلك الأثر السيء الذى أشرنا إليه.

۳- إنّ الحكمين فى المحاكم العادية المتعارفة لا يشعران عادة بالمسؤولية الكاملة فى قضايا الخلاف و المنازعات، و لا تهمهما كيفية انتهاء القضية المرفوعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۴

إلى المحكمة، هل يعود الزوجان إلى البيت على وفاق، أو ينفصلا مع طلاق؟

فى حين أنّ الأمر فى محكمة الصلح العائلية على العكس من ذلك تماما، فإن الحكمين فى هذه المحكمة حيث يرتبطان بالزوجين

برابطـة القرابـة، فإن لافتراق أو صـلح الزوجين أثرا كبيرا فی حياة الحكمين من الناحيـة العاطفيـة، و من ناحيـة المسؤوليات الناشـئة عن ذلك، و لهذا فإنّهما يسـعيان- جهد إمكانهما- أن يتحقق الصـلح و السلام و الوفاق و الوئام بين الزوجين اللذين يمثلانهما، و أن يعيدا المياه إلى مجاريها كما يقول المثل.

۴- مضافا إلى كلّ ذلك فإن مثل هـذا المحكمـة لا تعانی من أية مشـكلات، و لا تحتاج إلى أية ميزانيات باهظة، و لا تعانی من تلك الخسارة و الضـياع الذی تعانی منه المحاكم العادية، فهی تسـتطيع أن تقوم بأهدافها و تحقق أغراضـها من دون أية تشريفات و فی أقل مدّة من الزمن.

و لا يخفی أنّه يجب أن يختار الحكمان من بين الأشخاص المحنّكين المطلعين المعروفين، فی عائلتی الزوجين بالفهم و حسن التدبير. مع هذه المميزات التی عددناها يتبيّن أنّ هذه المحكمة تحظی بفرصة للإصلاح بين الزوجين.

إنّ مسألة الحكمين و ما يشترط فيهما من الشـروط، و مدی صلاحيتهما و ما يحكمان به فی مجال الزوجين، قد ذكر فی الكتب الفقهية بالتفصيل، منها أن يكون الحكمان بالغين عاقلين عادلين بصيرين بعملهما.

و أمّـا مـدی نفوذ حكمهمـا فی حق الزوجين، فقـد ذهب بعض الفقهـاء إلى نفوذ كل ما يصـدر أنّه من حكم فی هـذا المجال، و ظاهر التعبير به «حكم» فی الآيـة الحاضـرة يفيـد هـذا المعنی أيضـا، لأـن مفهوم الحكميـة و القضـاء هو نفوذ الحكم مهما كان، و لكن أكثر الفقهاء يرون نفوذ ما يراه الحكمان فی مورد التوفيق بين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۵

الزوجين و رفع الاختلاف و النزاع بينهما، بل يرون نفوذ ما يشترطه الحكمان على الزوجين، و أمّا حكمهما فی مجال الطلاق و الإفتراق بين الزوجين فغير نافذ لوحده، و ذيل الآية الذی يشـير إلى مسألة الإصـلاح أكثر ملاءمة مع هذا الرأی، و للتوسع فی هذا المجال يجب مراجعة الكتب الفقهية.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۳۶]

اشارة

وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ بِذِی الْقُرْبی وَ الْيَتامی وَ الْمَساكِينِ وَ الْجارِ ذِی الْقُرْبی وَ الْجارِ الْجُنُبِ وَ الصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتالاً فَخُوراً (۳۶)

التّفسير

اشارة

الآيـة الحاضـرة تبيّن سلسـلة من الحقوق الإسـلامية بما فيها الحقوق الإلهيـة، و حقوق العباد، و آداب العشـرة مع الناس، و يسـتفاد منها عشرة تعاليم:

۱- و اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا

إنّ الآية تدعو الناس قبل أى شىء إلى عبادة اللّه و الخضوع له وحده، و ترك الشرك و الوثنية التى هى أساس كل البرامج و المناهج الإسلامية.

إنّ الدّعوة إلى التوحيد و عبادة اللّه وحده تطهر الروح، و تخلص النية، و تقوى الإرادة، و تشدد من عزيمة الإنسان على الإتيان بأى برنامج مفيد.

و حيث أنّ الآية الحاضرة تبيّن سلسلة من الحقوق الإسلامية لذلك فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۷

أشارت إلى حقّ اللّه على الناس قبل أى شىء و قبل أى حقّ و قالت: وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

۲- و بالوالدين إحسانا

ثمّ إنّها تشير إلى حقّ الوالدين و توصى بالإحسان إليهما و لا شك أنّ حقّ الوالدين من القضايا التى يهتمّ بها القرآن الكريم كثيرا، و قلّما حظى موضوع بمثل هذا الاهتمام و العناية، فقد جاءت التوصية بالوالدين بعد الدعوة إلى التوحيد فى العبادة فى أربعة مواضع فى القرآن الكريم ۹۸].

من هذه التعابير المتكررة يستفاد أن ثمّة ارتباطا بين هاتين المسألتين، و القضية فى الحقيقة كالتالى: حيث إن أكبر نعمة هى نعمة الوجود و الحياة و هى مأخوذة من جانب اللّه سبحانه فى الدرجة الأولى، فيما ترتبط بالوالدين فى الدرجة الثانية، لأنّ الولد جزء من وجود الوالدين، لذلك كان ترك حقوق الوالدين و تجاهلها، فى مصاف الشرك باللّه سبحانه.

هذا و لنا أبحاث مفصلة حول حقوق الوالدين فى ذيل الآيات المناسبة فى سورة الإسراء و لقمان بإذن اللّه تعالى.

۳- و بذى القربى

ثمّ أنّها توصى بالإحسان إلى كلّ الأقرباء، و هذا الموضوع من المسائل التى يهتم بها القرآن الكريم اهتماما بالغا تارة تحت عنوان «صلة الرحم» و أخرى بعنوان «الإحسان إلى القربى» و قد أراد الإسلام بهذا- فى الحقيقة- أن يقوى من أواصر العلاقة الواسعة بين جميع أفراد البشر مضافا إلى إيجاد أواصر و علاقات أقوى و أمتن منها فى الوحدات الاجتماعية التى هى أكثر انسجاما مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۸

«العشيرة» و «العائلة» ليستطيعوا التعاون فى ما بينهم عند ظهور المشاكل و الحوادث، و التعاون على الدفاع عن حقوقهم.

۴- و اليتامى

ثمّ أشارت إلى حقوق «اليتامى» و أوصت المؤمنين ببرهم و الإحسان إليهم، لأنّه يوجد فى كل مجتمع أطفال أيتام على أثر الحوادث المختلفة، لا- يهدد تناسيهم و إهمالهم وضعهم الخاص فقط، بل الوضع الاجتماعى بصورة عامّة، لأنّ الأطفال اليتامى لو تركوا دون ولاية أو حماية و لم ينالوا حاجتهم من المحبّة و اللطف يتحولون إلى أفراد منفلتين فاسدين، بل أشخاص خطرين جناة.

و على هذا يكون الإحسان إلى اليتامى إحسانا إلى الفرد و إلى المجتمع معا.

۵- و المساکین

ثمّ یذکّر سبحانه- فی هذه الآیة- بحقوق الفقراء و المساکین، لأنّه قد یوجد حتی فی المجتمع السلیم الذی یسوده العدل من یعانی من نواقص و عاهات تعوقه عن الحرکة و النشاط و الفعالیة، و لا شک أنّ تناسی هؤلاء أمر یخالف کل الأسس و القیم الإنسانیة، فلا بدّ من تقدیم العون إلیهم، و معالجة حرمانهم.

و أمّا إذا کان الفقر و الحرمان الذی یعانی منه الأفراد الأصحاء ناشئین عن الانحراف عن مبادئ و أسس العدالة الاجتماعیة فإنّه لا بدّ من مکافحتهما أیضا.

۶- و الجار ذی القربی

ثمّ یوصی بالجیران من ذوی القربی، و هناک احتمالات متعددة حول المراد من «الجار ذی القربی» أبداها المفسرون، فبعضهم قال: معناه الجار القریب فی النسب، غیر أن هذا التّفسیر یبدو بعیدا بملاحظة العبارات السابقة التی أشارت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۲۹

إلی حقوق الأقرباء فی هذه الآیة، فلا بدّ أن یکون المراد هو القرب المکانی لا القرب النسبی، لأن الجیران الأقربین مکانا یستحقون احتراما و حقوقا أکثر من غیرهم، أو أن یکون المراد الجیران الأقربین إلی الإنسان من الناحیة الدینیة و الاعتقادیة.

۷- و الجار الجنب

ثمّ إنها توصی بالجیران البعیدین، و المراد- کما أسلفنا- هو البعد المکانی، لأنّ کل أربعین دارا من بین یدیه و خلفه و عن یمینه و شماله تعتبر من الجیران، کما تصرح بعض الروایات ۹۹]، و هذا یستوعب فی المدن الصغیرة کل المدینة تقریبا (لأنّنا لو فرضنا دار کل شخص مرکز دائرة یقع فی امتداد شعاعها من کل صوب أربعون بیتا لاتّضحت من خلال محاسبة بسیطة مساحة هذه الدائرة التی یکون مجموع البیوت الواقعة فیها ما یقرب من خمسة آلاف بیت، و من المسلم أن المدن الصغیرة قلّما تتشکل من أکثر من هذا العدد من المنازل و البیوت.

و الجدیر بالتأمل أنّ القرآن یصرّح- فی هذه الآیة- مضافا إلی ذکر الجیران القربین- بحقّ الجیران البعیدین، لأنّ لفظة الجار لها فی العادة مفهوم محدود و ضیق و تشمل الجیران القریبین فقط، و لهذا لم یکن بدّا فی نظر الإسلام أن یذکر بالجیران البعیدین أیضا.

کما یمکن أن یکون المراد من الجیران البعیدین الجیران غیر المسلمین، لأنّ حقّ الجوار غیر منحصر فی نظر الإسلام بالجیران المسلمین، فهو یعمّ المسلمین و غیر المسلمین (اللّهم إلّا الذین یحاربون المسلمین و یعادونهم).

إنّ لحقّ الجوار فی الإسلام أهمیّة بالغة إلی درجة أنّنا نقرأ

فی وصایا الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام المعروفة: «ما زال (رسول اللّه) یوصی بهم حتی ظننا أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۰

سیورثهم»[۱۰۰]

(و قد ورد هذا الحدیث فی مصادر أهل السنة أیضا فقد روی فی تفسیر المنار و تفسیر القرطبی من البخاری مثل هذا المضمون عن

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا).

و

روی فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال ذات یوم «و اللّه لا یؤمن و اللّه لا یؤمن و اللّه لا یؤمن، فقیل: یا رسول اللّه و من؟ قال: الذی لا یأمن جاره بوائقه»[۱۰۱].

کما نقرأ فی حدیث آخر أیضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص ۲۳۰

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلیحسن إلی جاره»[۱۰۲].

و

روی عن الإمام الصّادق جعفر بن محمّد علیهما السّلام أنّه قال: «حسن الجوار یعمر الدّیار و یزید فی الأعمار»[۱۰۳].

فی عالمنا المادی حیث لا یعرف الجار عن جاره شیئا، بل و ربّما لا یتعرف علی اسم صاحبه بعد عشرین سنة من الجیرة و الجوار یتألّق هذا التعلیم الإسلامی فی حق الجار بشکل خاص، فإنّ الإسلام یقیم للعلاقات العاطفیة و التعاون الإنسانی وزنا خاصّا، و یولیها اهتماما کبیرا، فی حین تؤول هذه العلاقات و العواطف فی الحیاة الصناعیة المادیة إلی الزوال یوما بعد یوم، و تعطی مکانها إلی القسوة و الجفاء و الخشونة.

۸- و الصّاحب بالجنب

ثمّ أوصت بالرّفیق و الصّاحب، غیر أنّه لا بدّ من الانتباه إلی أنّ ل «الصاحب بالجنب» معنی أوسع من الرفیق و الصدیق المتعارف، و فی الحقیقة تشمل کل من رافق أو صاحب الإنسان مرافقة ما سواء کان صدیقا دائمیا أو صدیقا مؤقتا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۱

(کالذی یرافق الإنسان فی السفر بعض الوقت) و تفسیر لفظة «لصاحب بالجنب» فی بعض الروایات بالرفیق مثل «رفیقک فی السفر» أو الذی یقصد الإنسان رجاء نفعه مثل: (المنقطع إلیک یرجو نفعک» لیس المراد هو اختصاص هذا العنوان بهم، بل هو نوع من التوسعة فی مفهوم هذه اللفظة بحیث تشمل هذه الموارد أیضا، و بهذا الطریق تکون هذه الآیة أمرا کلیا و جامعا بحسن معاشرة کل من یرتبط بالمرء، سواء کان صدیقا واقعیا، أو زمیلا، أو رفیق سفر، أو مراجعا، أو تلمیذا، أو مشاورا، أو خادما.

و قد فسرت لفظة الصاحب بالجنب فی بعض الروایات بالزّوجة، و قد روی صاحب تفسیر المنار، و تفسیر روح المعانی و القرطبی فی ذیل هذه الآیة هذا المعنی عن علی علیه السّلام، و لکن لا یبعد أن یکون هذا من باب بیان أحد المصادیق أیضا.

۹- و ابن السبیل

و أمّا الصنف الآخر الذی أوصت بهم الآیة هنا فهم الذین تحدث لهم حاجة السفر و بلاد الغربة، فابن السبیل هو الذی ینقطع فی السفر و إن کان یمکن أن یکون متمکّنا ذا مال فی بلده، و التعبیر عن هذا الشخص بابن السبیل (أی ابن الطریق) إنّما هو لأجل أنّنا لا نعرفهم أصلا حتی ننسبهم إلی عائلة أو قبیلة أو شخص، بل لا بدّ أن نحمیهم بمجرّد أنّهم مسافرون انقطعوا فی السفر، و برزت لدیهم حاجة إلی المساعدة و العون.

۱۰- و ما ملکت أیمانکم

و فی نهایـة المطاف توصـی هـذه الآیـة بالإحسان إلی العبیـد و الأرقاء، و بهذا تکون الآیة- فی الحقیقة- قد بدأت بحق اللّه، و ختمت بحقوق العبید، لعدم انفصال هذه الحقوق بعضها عن بعض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۲

علی أنّ هذه الآیة لیست هی الآیة الوحیدة التی توصی بالعبید، بل لقد بحثت هذه المسألة فی آیات مختلفة أخری أیضا.

هـذا مضافـا إلی أنّ الإسـلام قـد نظم برنامجـا دقیقـا لتحریر العبیـد تـدریجا، و الـذی یؤول فی النتیجـة إلی تحریرهم المطلق، و سوف نتحدّث حول هذه المسألة فی ذیل الآیات المناسبة إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ إنّه سبحانه یقول فی ختام هذه الآیة إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ مَنْ کانَ مُخْتالًا فَخُوراً و هو بذلک یحذر کل من یتمرّد و یعصـی أوامر اللّه، و یتقاعس عن القیام بحقوق أقربائه و والدیه و الیتامی و المساکین و ابن السبیل و الأصدقاء و الأصحاب بدافع التکبر بأنّه سیکون معرضا لسخط اللّه، و سیحرم من عنایته سبحانه، و لا ریب أنّ من حرم من اللطف الإلهی و العنایة الرّبانیة حرم من کل خیر و سعادة.

و تؤید هذا المعنی روایات و أخبار قد رویت فی ذیل هذه الآیة منها ما

عن أصـحاب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم حیث قال: کنت عنـد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فقرأ هذه الآیة إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ فذکر الکبر فعظمه، فبکی ذلک الصـحابی فقال له رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ما یبکیک؟ فقال یا رسول اللّه: إنّی لأحب الجمال حتی أنّه لیعجبنی أن یحسن شراک نعلی قال: «فأنت من أهل الجنّة، أنّه لیس بالکبر أن تحسن راحلتک و رحلک، و لکن الکبر من سفه الحقّ و غمص الناس»[۱۰۴].

و الخلاصة أنّ ما یسـتفاد من العبارة الاخیرة أنّ مصدر الشـرک و هضم حقوق الآخرین هو الانانیة و التکبر غالبا، و لا یتسـنی للشخص أداء تلک الحقوق، و خاصّة حقوق الأیتام و المساکین و الأرقاء إلّا من تحلّی بروح التواضع و نکران الذات ۱۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۳

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۳۷ الی ۳۹]

اشارة

الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ یَکْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ عَذاباً مُهِیناً (۳۷) وَ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا یُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْیَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ یَکُنِ الشَّیْطانُ لَهُ قَرِیناً فَساءَ قَرِیناً (۳۸) وَ ما ذا عَلَیْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَ کانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِیماً (۳۹)

التّفسیر

الإنفاق ریاء و الإنفاق قربة:

الآیـة الأولی من هـذه الآیات الثلاث- هی فی الحقیقـة- تعقیب علی الآیات السابقـة و إشارة إلی المتکبرین إذ تقول: الَّذِینَ یَبْخَلُونَ وَ یَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ هـذا مضافـا إلی أنّهم یسـعون دائما أن یخفوا عن الآخرین ما تفضل اللّه علیهم به من الخیر کیلا یتوقع المجتمع

منهم شيئا وَ يَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ يقول عن نهاية هذا الفرق من الناس و عاقبة أمرهم: وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً و لعل السرّ فى استخدام هذا التعبير فى حق هذه الطائفة هو أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۴

«البخل» ينبع فى الغالب من الكفر، لأنّ البخلاء لا يمتلكون الإيمان الكامل بالمواهب الربانية المطلقة و الوعود الإلهية العظيمة للمحسنين. إنّهم يتصورون أنّ مساعدة الآخرين و تقديم العون إليهم يجرّ إليهم التعاسة و الشقاء.

و أمّا الحديث عن الخزى فى عذاب هؤلاء، فلأن الجزاء المناسب للتكبر و الاستكبار هو العذب المهين.

ثمّ إنّه لا بدّ من الالتفات إلى أنّ البخل لا يختص بالأمور المالية، بل يشمل كل نوع من أنواع الموهبة الإلهية، فثمّة كثيرون لا يعانون من صفة البخل الذميمة فى المجال المالى، و لكنّهم يبخلون عن بذل العلم أو الجاه أو الأمور الاخرى من هذا القبيل.

ثمّ إن اللّه سبحانه يذكر صفة أخرى من صفات المتكبرين إذ يقول: وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ إنّهم ينفقون أموالهم لا فى سبيل اللّه و كسب رضاه، بل مراءاة الناس لكسب السمعة و جلب الشهرة و الجاه، و بالتالى ليس هدفهم من الإنفاق هو خدمة الناس و كسب رضا اللّه سبحانه، و لهذا فإنّهم لا يتقيدون فى من ينفقون عليه بملاك الاستحقاق، بل يفكرون دائما فى أنّه كيف يمكنهم أن يستفيدوا من إنفاقاتهم و يحققوا ما يطمحون إليه من أغراض شخصية، و أهداف خاصّة، كتقوية نفوذهم و تكريس موقعهم فى المجتمع مثلا لأنهم لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، و لهذا السبب يفتقر إنفاقهم إلى الدافع المعنوى الذى ينبغى توفره فى الإنفاق، بل دافعهم هو الوصول إلى الشّهرة و الشّخصية الكاذبة المزيفة من هذا السبيل، و هذا هو أيضا من آثار التكبر و نتائج الأنانية.

إنّ هؤلاء اختاروا الشّيطان رفيقا و قرينا لهم: مَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً إنّه لن يكون له مصير أفضل من مصير الشّيطان، لأنّ منطقهم هو منطق الشيطان، و سلوكهم سلوكه سواء بسواء، إنّه هو الذى يقول لهم: إنّ الإنفاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۵

بإخلاص يوجب الفقر الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ[۱۰۶] و لهذا فإمّا أن يبخلوا و يمتنعوا عن الإنفاق و البذل (كما أشير إلى هذا فى الآية السابقة) أو أنّهم ينفقون إذا ضمن هذا الإنفاق مصالحهم الشخصية و عاد عليهم بفوائد شخصية (كما أشير إلى ذلك فى الآية الحاضرة).

من هذه الآية يستفاد مدى ما للقرين السيء من الأثر فى مصير الإنسان، ذلك الأثر الذى ربّما يبلغ فى آخر المطاف إلى السقوط الكامل.

كما يستفاد أنّ علاقة «المتكبرين» ب «الشيطان و الأعمال الشيطانية» علاقة مستمرة و دائمة لا مؤقتة و لا مرحلية، ذلك لأنّهم اختاروا الشيطان قرينا و رفيقا لأنفسهم.

و هنا يقول سبحانه و كأنّه يتأسف على أحوال هذه الطائفة من الناس وَ ما ذا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ... أى شيء عليهم لو تركوا هذا السلوك و عادوا إلى جادة الصواب و أنفقوا ممّا رزقهم اللّه من الخير و النعمة فى سبيل اللّه، بإخلاص لا رياء، و كسبوا بذلك رضا اللّه، و تعرضوا للطفه و عنايته، و أحرزوا سعادة الدنيا و الآخرة؟

فلما ذا لا يفكر هؤلاء و لا يعيدون النظر فى سلوكهم؟ و لما ذا ترى يتركون طريق اللّه الأنفع و الأفضل و يختارون طريقا أخرى لا تنتج سوى الشقاء، و لا تنتهى بهم إلّا إلى الضرر و الخسران؟

و على كل حال فإنّ اللّه يعلم بأعمالهم و نواياهم و يجزيهم بما عملوا: وَ كانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً.

و الجدير بالانتباه أنّ الإنفاق فى الآية السابقة التى كان الحديث فيها حول الإنفاق مراءاة نسب إلى الأموال يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ و فى هذه

الآية نسب إلى مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ و هذا التفاوت و الاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۶

ثلاث نقاط:

أوّلا: إنّه فى الإنفاق رياء لا تلحظ حلّية المال و حرمته، فى حين تلحظ فى الإنفاق للّه حلّية المال و أن يكون مصداق مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

ثانيا: إنّه فى الإنفاق رياء حيث أنّهم يحسبون أنّ المال الذى ينفقونه خاص بهم، لذلك فهم لا يمتنعون عن الكبر و المنّ، فى حين أنّ المنفقين للّه حيث يعتقدون بأنّ اللّه هو الذى رزقهم ما يملكون من المال، و أنّه لا مجال للمنّ إذا هم أنفقوا شيئا من ذلك، و لذلك يمتنعون من الكبر و السنّ.

ثالثا: إنّ الإنفاق رياء ينحصر غالبا فى المال، لأنّ أمثال هؤلاء محرمون من أى رأسمال معنوى لينفقوا منه، و لكن الإنفاق لوجه اللّه تتسع دائرته فتشمل كل المواهب الإلهية من المال، و العلم و الجاه، و المكانة الاجتماعية و ما شابه ذلك من الأمور المادية و المعنوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۰]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً (۴۰)

التّفسير

ما هى «الذّرة»؟:

«الذّرة» فى الأصل هى النملة الصغيرة التى لا ترى، و قال البعض: هى من أجزاء الهباء و الغبار فى الكوّة التى تظهر عند دخول شعاع الشمس خلالها، و قيل أيضا أنّه الغبار الدقيق المتطاير من يدى الإنسان إذا جعلهما على التراب و ما شابهه ثمّ نفخهما.

و لكنّها أطلقت تدريجا على كل شىء صغير جدّا، و تطلق الآن و يراد منها ما يتكون من الإلكترون و البروتون أيضا. لأنّها إذا كانت تطلق سابقا على أجزاء الغبار، فلأن تلك الأجزاء كانت أصغر أجراء الجسم، و لكن حيث ثبت اليوم أنّ أصغر أجزاء «الجسم المركب» هو «المولوكول» أو الجزئية، و أصغر أجزاء «الجسم البسيط» هو «الذّرات»، اختيرت لفظة «الذّرة» فى الاصطلاح العلمى على تلك الجزئيات التى لا ترى بالعين المجرّدة، بل لا يمكن أن ترى حتى بأقوى الميكروسكوبات الإلكترونية، و إنّما يحسّ بوجودها من خلال القوانين و المعادلات العلمية و التصوير بآلات مزودة بأدقّ الأجهزة و أقواها، و حيث أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۸

«مثقال» يعنى الثقل، فإنّ التعبير بمثقال ذرة يعنى جسما فى غاية الدقة و الصغر.

إنّ الآية الحاضرة تقول: إنّ اللّه لا يظلم قط زنة ذرة، بل يضاعف الحسنة إذا قام بها أحد، و يعطى من لدنه على ذلك أجرا عظيما: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَ إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَ يُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً.

إنّ هذه الآية- فى الحقيقة- تقول للكافرين الذين يبخلون و الذين مرّ الحديث عن أحوالهم فى الآيات السابقة: إنّ العقوبات التى تصيبكم ما هى فى الحقيقة إلّا جزاء ما قمتم به من الأعمال، و أنّه لا يصيبكم أى ظلم من جانب اللّه، بل لو أنّكم تركتم الكفر و البخل و سلكتم طريق اللّه لنلتم المثوبات العظيمة المضاعفة.

ثمّ أنّه لا بـدّ من الانتباه إلى أن لفظـة «ضـعف» و «المضاعف» تعنى فى اللغة العربية ما يعادل الشـىء أو يربو عليه مرّات عديدة، و على هـذا الأساس لا تنافى هذه الآية الآيات الاخرى التى تقول: إن أجر الإنفاق قد يصل إلى عشـرة أضـعاف، و قد يصل إلى سـبعمائة مرّة ....

و على أى حـال فإنّها تحكى عن لطف اللّه بالنسـبة إلى عباده، حيث لا يعاقبهم على سـيئاتهم و ذنوبهم بأكثر ممّا عملوا، بينما يضاعف الأجر بمرات كثيرة إذا أتوا بحسنة واحدة.

يبقى أن نعرف لما ذا لا يظلم اللّه سـبحانه؟ فإنّ السبب فيه واضح، لأن الظلم عادة- إمّا ناشئ عن الجهل، و إمّا ناشئ عن الحاجة، و إمّا ناشئ عن نقص نفسى.

و من كان عالما بكل شـىء، و كان غنيّا عن كل شـىء، و لم يكن يعانى من أى نقص، لا يمكن صدور الظلم منه، فهو لا يظلم أساسا، لا- أنّه تعـالى لا- يقـدر على الظلم، و لا أن الظلم غير متصوّر فى حقّه (كما تـذهب إليه طائفـة من الأشاعرة)، بل مع قـدرته تعالى على الظلم- لا يظلم أبـدا لحكمته و علمه، فهو يضع كل شـىء فى عالم الوجود موضـعه، و يعامل كل أحـد حسب عمله، و طبقا لسـلوكه و سيرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۳۹

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً (۴۱) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً (۴۲)

التّفسير

شهود يوم القيامة:

تعقيبا على الآيات السابقـة التى كانت تـدور حول العقوبات و المثوبات المعـدّة للعصاة و المطيعين. جاءت هـذه الآية تشـير إلى مسألة الشـهود فى يوم القيامـة فتقول: فَكَيْفَ إِذا جِئْنـا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَـهِيداً و هكـذا يكون نبى كل أمّـة شـهيدا عليها، مضافا إلى شـهادة أعضاء الإنسان و جوارحه، و شـهادة الأرض التى عليها عاش، و شـهادة ملائكة اللّه على أعماله و تصرفاته، و يكون نبىّ الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و هو آخر أنبياء اللّه و رسـله و أعظمهم، شاهدا على أمّته أيضا، فكيف يستطيع العصاة مع هذه الشهود إنكار حقيقة من الحقائق، و تخليص أنفسهم من نتائج أعمالهم.

ثمّ إنّ نظير هذا المضـمون قد جاء أيضا فى عدّة آيات قرآنية أخرى، منها الآية (۱۴۳) من سورة البقرة، و الآية (۸۹) من سورة النحل، و الآية (۷۸) من سورة الحج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۰

و الآن يطرح هذا السؤال، و هو: كيف تتمّ شهادة الأنبياء على أعمال أممهم، و كيف تكون؟

إذا كانت كلمـة «هؤلاء» إشارة إلى المسـلمين كما جاء فى تفسـير مجمع البيان، فإن الجواب على هـذا السؤال يكون واضـحا، لأنّ كل نبىّ مـا دام موجودا بين ظهرانى أمّته فهو شاهـد على أعمالهم، و بعـده يكون أوصـياؤه و خلفاؤه المعصومون هم الشـهداء على أعمال

تلك الأمّة، و لهذا جاء فى حق المسيح عليه السّلام أنّه يقول فى يوم القيامة فى جواب سؤال اللّه سبحانه إيّاه: ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ، وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[۱۰۷].

و لكن بعض المفسرين احتمل أن تكون لفظة «هؤلاء» إشارة إلى شهود الأمم السابقة، يعنى أنّنا نجعلك أيّها النّبى شهيدا على شهداء الأمم من الأنبياء، و قد أشير فى بعض الروايات إلى هذا التّفسير[۱۰۸] و على هذا يكون معنى الآية هكذا: إنّ كل نبىّ شاهد على أعمال أمّته جميعها فى حياته و بعد مماته عن طريق المشاهدة الباطنية و الروحانية، و هكذا الحال بالنسبة إلى رسول الإسلام، فإنّ روحه الطاهرة ناظرة- عن هذا الطريق أيضا- على أعمال أمّته و جميع الأمم السابقة، و بهذا الطريق يمكنه أن تشهد على أفعالهم و أعمالهم، بل و حتى الصلحاء من الأمّة و الأبرار الأتقياء منها يمكنهم الاطلاع و الحصول على مثل هذه المعرفة، فيكون المفهوم من كل ذلك وجود روح النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من بدء الخلق، لأنّ معنى الشّهود هو العلم المقترن بالحضور، و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ما نقل عن السيد المسيح، لأنّ الآية المذكورة تقول: إنّ المسيح لم يكن شاهدا على أمّته جمعاء، بل كان شاهدا عليها ما دام فى الحياة (فتأمل).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۱

أمّا إذا أخذنا الشهادة بمعنى الشهادة العملية، يعنى أن تكون أعمال «فرد نموذجى» مقياسا و معيارا لأعمال الآخرين كان التّفسير حينئذ خاليا عن أى إشكال، لأنّ كل نبىّ بما له من صفات متميزة و خصال ممتازة يعدّ خير معيار لأمّته، إذ يمكن معرفة الصالحين و الطالحين بمشابهتهم أو عدم مشابهتهم له، و حيث إن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أعظم الأنبياء و الرسل الإلهيين كانت صفاته و أعماله معيارا لشخصية كل الأنبياء و الرسل.

نعم لا يبقى هنا إلّا سؤال واحد هو: هل جاءت الشهادة بهذا المعنى، أم لا؟

بيد أنّه مع الانتباه إلى أنّ أعمال الرجال النموذجيين و تصرفاتهم و أفكارهم تشهد عمليا على أنّه من الممكن أن يرقى إنسان ما إلى هذه الدرجة، و يطوى هذه المقامات و المراحل المعنوية لم يبد مثل هذا المعنى بعيدا فى النظر.

عندئذ يندم الكفار الذين عارضوا الرّسول و عصوه، أى عند ما رأوا بأمّ أعينهم تلك المحكمة الإلهية العادلة، و واجهوا الشهود الذين لا يمكن إنكار شهاداتهم، إنهم يندمون ندما بالغا لدرجة أنّهم يتمنون لو أنّهم كانوا ترابا أو سووا بالأرض كما يقول القرآن الكريم فى الآية الثانية من الآيتين الحاضرتين إذ يقول سبحانه: يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ عَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

و قد ورد مثل هذا التعبير فى آخر سورة النبأ إذ يقول تعالى: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً.

و لكن لفظة لَوْ تُسَوَّى تشير إلى مطلب آخر أيضا، و هو: إنّ الكفار مضافا إلى أنّهم يتمنون أن يصيروا ترابا، يحبّون أن تضيع معالم قبورهم فى الأرض أيضا و تسوى بالأرض حتى ينسوا بالمرّة، و لا يبقى لهم ذكر و لا خبر و لا أثر.

إنّهم فى هذه الحالة لا يمكنهم أن ينكروا أية حقيقة واقعة و لا أن يكتموا شيئا: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً لأنّه لا سبيل إلى الإنكار أو الكتمان مع كل تلكم الشهود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۲

نعم، لا ينافى هذا الكلام ما جاء فى الآيات الأخر التى تقول: هناك من الكفار من يكتم الحقائق يوم القيامة أيضا و يكذبون ۱۰۹] لأنّ كذبهم و كتمانهم واقع قبل إقامة الشهود و قيام الشهادة، و أمّا بعد ذلك فلا مجال لأى كتمان، و لا سبيل إلى أى إنكار، بل لا بدّ من الاعتراف بجميع الحقائق.

و

قد روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى بعض خطبه أنّه قال عن يوم القيامة «ختم على الأفواه فلا تكلم و تكلمت الأيدى و شهدت

الأرجل و نطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون اللّه حديثا».[۱۱۰]

هذا و يحتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً أنّهم يتمنون لو أنّهم لم يكتموا فى الدنيا أية حقيقة، خصوصا فى ما يتعلق برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا تكون هذه العبارة عطفا على جملة لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

و لكن هـذا التّفسير لا ينجسم مع ظاهر «لا يكتمون» الذى هو فعل مضارع، و لو كان المراد ما ذكره هذا الفريق من المفسرين لوجب أن يقول: «لم يكتموا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَ لا جُنُباً إِلاَّ عابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً (۴۳)

التّفسير

بعض الأحكام الفقهية:

تستفاد من الآية الحاضرة عدّة أحكام إسلامية هى:

۱- حرمة الصّلاة فى حال السكر، أى لا يجوز للسكارى أن يقربوا الصّلاة لبطلان صلاتهم فى حالة السكر، و فلسفة ذلك واضحة، فإن الصلاة حديث العبد إلى ربّه و مناجاته و دعاؤه، و لا بدّ أن يتمّ كل هذا فى حالة الوعى الكامل، و السكارى أبعد ما يكونون عن هذه الحالة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ

و هنا يمكن أن يطرح أحد سؤالا هو: أليس مفهوم الآية هو المنع من شرب المسكرات إذا بقى أثرها و سكرها إلى وقت الصلاة، و هو ينطوى على دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۴

جوازه فى سائر الحالات؟

و الإجابة على هذا السؤال تأتى- بإذن اللّه- مفصّلة عند تفسير الآية (۹۰) من سورة المائدة، إلّا أن الجواب الإجمالى هو: إنّ الإسلام استخدم لتطبيق الكثير من أحكامه أسلوب «التغيير التدريجى» فمثلا مسألة تحريم تعاطى الخمور هذه طبقها الإسلام فى مراحل، فهو أوّلا- أعطاه صفة المشروب الغير المحبّذ فى قبال «الرزق الحسن» (كما فى الآية (۶۷) من سورة النحل «و رزقا حسنا») ثمّ منع من الاقتراب إلى الصلاة إذا كان السكر الناشئ منها لا يزال باقيا (كما فى الآية الحاضرة) ثمّ قارن بين منافعه و مضاره و رجحان مضاره و مساوئه، كما فى سورة البقرة الآية (۲۱۹)، و فى المرحلة الأخيرة نهى عن الخمر بصورة قاطعة و صريحة، كما فى سورة المائدة الآية (۹۰).

و أساسا ليس هناك من سبيل لتطهير المجتمع من جذور مفسدة اجتماعية أو خلقية متجذرة فى أعماق المجتمع و اقتلاعها من الجذور أفضل من هذا الأسلوب، و أجدى من هذا الطريق، و هو أن يهيأ الأفراد تدريجا، ثمّ يتمّ الإعلان عن الحكم النهائى.

كما أنّه لا بـدّ من الالتفات إلى نقطة مهمّة، هى أنّ الآية الحاضـرة لا تجيز بأى وجه من الوجوه شـرب الخمر، بل هى تتحدث فقط عن مسألة الاقتراب إلى الصـلاة فى حال السـكر، بينما التزمت الصمت بالنسبة إلى حكم شرب الخمر فى غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحلة النهائية للحكم.

هـذا مع الالتفات إلى أنّ أوقات الصـلوات الخمس خاصّـة فى ذلك الزمان الذى كانت العادة فيه إقامة الصـلوات الخمس فى أوقاتها، بحكم أنّها كانت متقاربة كان الإتيان بالصـلاة فى حال الوعى يقتضى أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات فى الفترات الواقعة بين أوقات الفرائض انصرافا كليا، لأنّ السكر كان يستمر غالبا إلى حين حلول وقت الفريضة و على هذا كان الحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۵

المذكور فى الآية الحاضرة أشبه بالحكم النهائى و التحريم الأبدى المطلق.

كما أنّ هناك موضوعا لا بدّ من التذكير به، و هو أنّ الآية الحاضـرة فسّـرت فى روايات عديدة فى كتب الشـيعة و السـنة بسـكر النوم، يعنى لا تقربوا الصلاة ما لم تطردوا النوم عن عيونكم كاملة لتعلموا ما تقولون.

و لكن يبدو للنظر أن هذا التّفسير مستفاد من مفهوم: حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ و إن لم يدخل فى مصداق «السكارى»[۱۱۱].

و بعبـارة أخرى، يسـتفاد من جملـة: حَتَّى تَعْلَمُوا مـا تَقُولُونَ المنع عن الصـلاة فى كل حالـة لا يتمتع فيها الإنسان بالوعى الكامل، سواء كان بسبب حالة السكر، أو بسبب ما تبقى من النوم.

كما أنّه يستفاد من هذه الجملة أيضا أنّ الأفضل عدم إقامة الصلاة عند الكسل أو قلّة التوجه، لأنّ الحالة السابقة توجد فى هذه الصورة بشـكل ضـعيف، و لعلّه لهذا السبب جاء فى ما روى عن الإمام الباقر عليه السّلام من أنّه قال: «لا تقم إلى الصلاة متكاسلا، و لا متناعسا و لا متثاقلا و قد نهى اللّه عزّ و جلّ المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة و هم سكارى ...»[۱۱۲].

۲- بطلاـن الصـلاة فى حال الجنابـة الـذى أشـير إليه بعبارة وَ لا جُنُباً ثمّ اسـتثنى سـبحانه من هـذا الحكم بقوله: إِلَّا عابِرِى سَبِيلٍ أى إذا فقدتم الماء فى السفر جاز لكم أن تقيموا الصلاة (شريطة أن تتيمموا كما يجىء فى ذيل الآية).

غير أن هناك تفسـيرا آخر جاء لهـذه الآيـة فى الروايات و الأخبار[۱۱۳]، هو أنّ المقصود من الصـلاة فى الآيـة هو محل الصـلاة- أى المسجد- أى لا تدخلوا المساجد و أنتم على جنابة، ثمّ استثنى العبور فى المسجد بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۶

إِلَّا عابِرِى سَبِيلٍ يعنى يجوز لكم العبور فى المسجد و أنتم على جنابة و إن لم يجز لكم المكث و اللبث فيه.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ جماعة من المسلمين، و صحابة النّبى كانوا قد بنوا بيوتهم حول المسجد النّبوى بحيث تفتح أبوابها فى المسجد، فسمح لهم بأن يعبروا من المسجد و هم على جنابة دون أن يتوقفوا فيه.

و لكن لا بدّ أن ننتبه إلى أن هذا التّفسـير يسـتلزم أن تكون لفظة الصـلاة فى الآية الحاضـرة قد أتت بمعنيين: أحدهما الصلاة نفسها، و الآخر محل الصـلاة، لوجود بيان حكمين مختلفين فى الآيـة: أحدهما المنع و النهى عن الاقتراب إلى الصـلاة فى حالة السـكر، و الآخر الاجتناب عن دخول المساجـد فى حالـة الجنابـة (طبعا لا مانع و لا ضـير فى اسـتعمال لفظـة واحدة فى معنيين أو أكثر كما قلنا فى علم الأصول، و لكنّه خلاف الظاهر، و هو لا يجوز بدون قرينة، نعم يمكن أن تكون الروايات المذكورة قرينة على ذلك).

۳- جواز الصلاة، أو عبور المسجد بعد الاغتسال، هو المبين بقوله: حَتَّى تَغْتَسِلُوا.

۴- التيمم لذوى الأعذار، ثمّ تشير الآية إلى حكم التيمم لذوى الأعذار فتقول:

وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضـى أَوْ عَلى سَـفَرٍ و فى هـذه العبارة من الآية قد اجتمعت- فى الحقيقة- كل موارد التيمم، فالمورد الأوّل هو ما إذا كان فى استعمال الماء ضرر على البدن، و المورد الآخر هو ما إذا تعذر على الإنسان الحصول على الماء (أم لم يمكن استعماله) و بقوله: أَوْ جاءَ أَحَـدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْـتُمُ النِّساءَ إشارة إلى علل الاحتياج إلى التيمم و أسـبابه، و معناه إذا أحـدثتم حدثا أو جامعتم النساء

فَلَمْ تَجِدُوا ماءً أى لم تقدروا على تحصيل الماء أو استعماله فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً.

ثمّ أنّه سبحانه يبيّن طريقة التيمم بقوله: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۷

ثمّ أنّه فى ختام الآية يشير إلى حقيقة أنّ الحكم المذكور ضرب من التخفيف عنكم، لأنّ اللّه كثير الصفح كثير الستر لذنوب عبادة إِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا غَفُوراً.

بحوث عند الآية:

اشارة

هنا لا بدّ من التنبيه إلى نقاط عديدة:

۱- إنّ عبارة فَلَمْ تَجِدُوا ماءً المبدوة بفاء التفريع ترتبط بعبارة أَوْ عَلى سَفَرٍ يعنى أنّكم إذا كنتم فى سفر و لم تجدوا ماء للوضوء أو الغسل، فتحتاجون إلى التيمم، لأنّ الإنسان قلما تتفق له هذه الحالة و هو فى البلد، و من هنا يتبيّن بطلان ما قاله بعض المفسّرين- مثل صاحب المنار- من أن مجرّد السفر وحده كاف للتكليف بالتيمم بدل الوضوء حتى لو كان الشخص المسافر واجدا للماء، فإنّ فاء التفريع فى قوله فَلَمْ تَجِدُوا يبطل هذا الكلام، لأنّ المفهوم منه هو أنّ السفر قد يوجب أحيانا عدم التمكن من الماء، و هنا لا مناص من التيمم، لا أنّ السفر بوحده يسوغ التيمم، و العجب أنّ الكاتب المذكور تحامل على فقهاء الإسلام فى هذا المجال من دون مبرر لهذا التحامل.

۲- إنّ كلمة (أو) فى قوله تعالى: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ هى بمعنى (الواو) لأن مجرّد المرض أو السفر لا يوجب التيمم، بل يجب التيمم إذا تحققت موجبات التيمم أو الغسل فى هذا الحال.

۳- إنّ «العفة فى البيان» المعهودة من القرآن دفعت بالقرآن فى هذه الآية- كما فى الآيات الكثيرة الاخرى- إلى أن يعبّر عن قضاء الحاجة بعبارة تفهم المراد من جانب، و لا تكون غريبة و غير مناسبة من جانب آخر إذ يقول: أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۸

و توضيح ذلك أنّ «الغائط»- خلاف ما يفهم منه هذا اليوم- يعنى فى أصل اللغة المنخفض من الأرض الذى كان يقصده الإنسان و سكان الصحارى و المسافرون فى تلك العهود لقضاء الحاجة فيه ليسترهم عن أعين الناظرين، و على هذا يكون معنى هذه الجملة هو: إذا عاد أحدكم من المكان المنخفض من الأرض الذى هو فى جملته كناية عن قضاء الحاجة.

و الملفت للنظر أن القرآن استعمل لفظة «أحد منكم» بدل ضمير الجمع المخاطب المصدر بالفعل أى «جئتم» ليحافظ على خصيصة «عفة البيان» التى تجلى بها القرآن الكريم أكثر فأكثر.

و هكذا الحال عند ما يتحدّث عن الجماع فإنّ القرآن يشير إلى هذا الموضوع بعبارة أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ و لفظة اللمس كناية جميلة عن المقاربة الجنسية.

۴- سنتحدث بتفصيل حول بقية خصوصيات التيمم عند تفسير قوله تعالى:

صَعِيداً طَيِّباً فى ذيل الآية (۶) من سورة المائدة إن شاء اللّه.

فلسفة التيمم:

يتساءل كثيرون: ما الفائـدة من ضـرب اليـدين بالتراب و مسـح الجبين و ظهر اليـدين بهما خاصّة أنّنا نعلم أن كثيرا من الأتربة ملوثة، و ناقلة للميكروبات و الجراثيم؟

فى جواب هذه الأسئلة نشير إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: الفائـدة الخلقيـة، فإن التيمم إحـدى العبادات، و تتجلى فيها روح العبادة بكل معنى الكلمـة، لأن الإنسان يمس جبهته التى هى أشرف الأعضاء فى بدنه بيديه المتربتين ليظهر بذلك خضوعه للّه و تواضعه فى حضرته و لسان حاله يقول:

يا ربّى إنّ جبهتى و كذا يداى خاضعات أمامك إلى أبعد حدود الخضوع و التواضع، ثمّ يتوجه عقيب هذا العمل إلى القيام بالصلاة و سائر العبادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۴۹

المشـروطة بالغسل و الوضوء، و بهذا الطريق يزرع التيمم فى نفس الإنسان روح الخضوع للّه، و ينمى فيه صـفة التواضع فى حضرة ذى الجلال، و يدرّبه على العبودية له سبحانه، و الشكر لأنعمه تعالى.

الثّانية: الفائدة الصحية، فقد ثبت اليوم بأنّ التراب بحكم احتوائه على كميات كبيرة من البكتريا تزيل التلوثات، إن البكتريات الموجودة فى التراب و التى تعمل على تحليل الموارد العضوية و إبادة كل أنواع العفونة، توجد- فى الأغلب- بوفرة فى سطح الأرض، و الأعماق القريبة التى يمكن لها الانتفاع بنور الشـمس و الهواء بصورة أكثر، و لهذا عند ما تدفن جثث الأموات من البشر أو الحيوان فى الأرض، و كذا ما يشابهها من المواد العضوية، نجدها تتحلل فى مدّة قصـيرة تقريبا و تتلاشـى بؤر التعفن على أثر هجوم البكتريات عليها، و من المسلّم أنّ هذه الخاصّية لو لم تكن فى التربة لتحولت الكرة الأرضية فى مدّة قصيرة إلى بؤرة عفونة قاتلة.

إنّ للتربة خاصّية تشبه مواد «الأنتوبيوتيك» التى لها أثر فعال جدّا فى قتل و إبادة الميكروبات.

و على هـذا لا يكون التراب عاريا عن التلوث فقط، بل هو مطهر فعال للتلوثات، و يمكنه- من هـذه الجهـة- أن يحل محل الماء بفارق واحد، هو أن الماء يحلل الميكروبات، و يذهب بها معه، فى حين أن مفعول التراب يقتصر على قتل الميكروبات فقط.

و لكن يجب الانتبـاه إلى أنّ الـتراب الـذى يسـتعمل فى الـتيمم يجب أن يكون طـاهرا نظيفـا، كمـا أشـار اليه القرآن الكريم فى تعبيره الجميل إذا يقول: طَيِّباً.

و الجدير بالانتباه أنّ التعبير ب «الصـعيد» المشـتق من «الصعود» يشير إلى أن أفضل أنواع التربة الذى ينبغى أن تختاره للتيمم هو التربية الموجودة فى سطح الأرض، يعنى تلك التربة التى هى عرضة لأشعة الشمس و المليئة بالهواء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۰

و البكتريـا المبيـدة للميكروبـات، فـإذا كـانت تلـك التربـة المسـتعملة فى التيمم طيبـة و طاهرة أيضا كان التيمم بها ينطوى على الآثار المذكورة من دون أن يكون فيه أى ضـرر أو أية مضاعفات. (و سنتحدث فى هذا المجال أيضا عند تفسير المقطع الأخير من الآية (۶) فى سورة المائدة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۱

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۴ الى ۴۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (۴۴) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ وَ كَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفى بِاللَّهِ نَصِيراً (۴۵)

التّفسير

فى هذه الآيات يخاطب اللّه سبحانه نبيّه الكريم بعبارة حاكية عن التعجب و الاستغراب قائلا: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ أى عجيب أمر هؤلاء الذين أتوا نصيبا من الكتاب السماوى، و لكنهم بدل أن يقوموا بهداية الآخرين و إرشادهم فى ضوء ما أوتوا من الهدى، فإنّهم يشترون الضلالة لأنفسهم و يريدون أن تضلوا أنتم أيضا.

و بهذا الطريق فإنّ ما نزل لهدايتهم و هداية الآخرين تحول إلى وسيلة لضلالهم و إضلال الآخرين بسوء نيّتهم، لأنّهم لم يكونوا أبدا بصدد الحقيقة، بل كانوا ينظرون إلى كل شىء بمنظار النفاق و الحسد و المادية السوداء.

ثمّ يقول سبحانه: إنّ هؤلاء و إن تظاهروا بمظهر الأصدقاء لكم إلّا أنّهم أعداؤكم الحقيقيون وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدائِكُمْ

و أية عداوة أشدّ و أكثر من أن يكرهوا هدايتكم و يخالفوا سعادتكم، تارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۲

باللسان و تارة عن طريق إظهار النصح، و ثالثة عن طريق الذم، و يجتهدون فى تحقيق أهدافهم المشؤومة فى كل ظرف و زمان بنحو خاص، و شكل معين.

و لكن لا تخافوا عداوتهم أبدا و لا تستوحشوا لمواقفهم المعادية فلستم وحدكم فى الميدان، فكفاكم أنّ اللّه قائدكم و وليكم و ناصركم: وَ كَفى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفى بِاللَّهِ نَصِيراً.

لأنّه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا، فإذا تجاهلتم أحاديثهم و وساوسهم لم يبق أى مجال للخوف و القلق.

ثمّ إنّه يستفاد من عبارة: أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ أنّ ما كان عندهم من الكتاب لم يكن كل ما فى الكتاب السماوى «التوراة» بل كان بعضه و قسما منه، و هذا يتفق مع حقائق التاريخ المسلمة أيضا، تلك الحقائق التى تؤكد ضياع أو تحريف أقسام من التوراة الحقيقية مع مضى الزمن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۶]

اشارة

مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا وَ عَصَيْنا وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَ راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۴۶)

التّفسير

جانب آخر من أعمال اليهود:

تعقيبا على الآيات السابقة تشرح هذه الآية صفات جماعة من أعداء الإسلام، و تشير إلى جانب من أعمالهم و مواقفهم.

فتقول أوّلا: إنّ أحد أعمال هذه الجماعة هو تحريف الحقائق، و تغيير حقيقة الأوامر الإلهية: مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ أى أنّ جماعة من اليهود يحرفون الكلمات عن مواضعها.

و هذا التحريف قد يكون له جانب لفظى، و قد يكون له جانب معنوى و عملى.

أمّا العبارات اللاحقة فتفيد أن المراد من التحريف فى المقام هو التحريف اللفظى و تغيير العبارة، لأنّه تعالى يقول بعد هذه الجملة: وَ يَقُولُونَ سَمِعْنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۴

وَ عَصَيْنا يعنى بدل أن يقولوا «سمعنا و أطعنا» يقولون «سمعنا و عصينا» و هذا يشبه تماما كلام من يقول مستهزء: «منك الأمر و منّا عدم السماع»، هذا و العبارات الاخرى فى هذه الآية خير شاهد على هذا القول.

ثمّ يشير إلى قسم آخر من أحاديثهم العدائية المزيجة بروح التحدى و الصلافة حيث يقول: إنّهم يقولون: وَ اسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ و بهذا الطريق يتوسل هذا الفريق للحفاظ على جماعة من المغفلين،- مضافا إلى سلاح تحريف الحقائق و الخيانة فى إبلاغ الكتب السماوية التى كانت تشكل الوسيلة الحقيقية لنجاة ذلك الفريق و شعبهم من مخالب الطغاة الظلمة مثل فرعون- يتوسلون بسلاح الاستهزاء و السخرية الذى هو سلاح الأنانيين و المغرورين و وسيلة العتاة و المعاندين، و ربّما استخدموا مضافا إلى كل ذلك عبارات كان المسلمون المخلصون يرددونها أمام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع تغييرات فى معانيها تكميلا لاستهزائهم و سخريتهم، مثل جملة «راعنا» التى معناها «تفقدنا و أمهلنا» و كان المسلمون الصادقون فى صدر الإسلام و مطلع الدّعوة المحمّدية يرددونها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليتمكنوا من سماع صوت النّبى و كلامه بنحو أفضل، و لكن هذا الفريق من اليهود كانوا يتوسلون بهذه الجملة لإيذاء النّبى و يسيئون استخدامها و يكررونها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هم يقصدون منها معناها العبرى الذى هو «سمعنا غير مسمع» أو «أسمعنا لا سمعت» أو معناه العربى الآخر، و هو ما يرجع إلى الرعونة[۱۱۴] الذى يعنى الحمق، قصدا منهم إلى أن عمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان- و العياذ باللّه- خداع الناس و استغلال سذاجتهم.

و قد كان هذا كله بهدف إزاحة الحقائق عن محورها الأصلى بألسنتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۵

و الطعن فى الدين الحق، و الشريعة الحقة: لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ

(و اللى على وزن الحى بمعنى الفتل، مثل فتل الحبل و ما شابهه، و يأتى أيضا بمعنى التغيير و التحريف).

وَ لَوْ أَنَّهُمْ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اسْمَعْ وَ انْظُرْنا لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَقْوَمَ أى أنّهم إن سلكوا الطريق المستقيم و تركوا كل ذلك اللجاج و العناد، و معاداة الحق، و سوء الأدب، و الجرأة و القحة و قالوا: سمعنا كلام اللّه و أطعنا، فاستمع إلى كلامنا و أمهلنا لكى ندرك الحقائق إدراكا كاملا، لكان ذلك من مصلحتهم، و كان فى ذلك منفعتهم، و أكثر انسجاما و توافقا مع العدل و المنطق و العدل و الأدب.

وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أى أنّهم لن يتخلوا عن هذا السلوك الشائن بسرعة، كيف؟ و قد ابتعدوا عن رحمة اللّه بسبب ما هم عليه من كفر و تمرد و طغيان، و ماتت أفئدتهم و تحجرت بحيث صار من المتعذر أن تخضع للحق، و أن تحيا من رقدتها بهذه السرعة، اللّهم إلّا بعضهم ممن يمتلك فؤادا طاهرا و عقلا يقظا، فهؤلاء هم المستعدون للقبول بالحقائق، و الاستماع إلى نداء الحق و الإيمان به.

و قد اعتبر جماعة هذه الجملة من مغيبات القرآن و إخباراته الغيبية، لأنّه- كما يخبر القرآن الكريم فى هذه الآية- لم يؤمن من اليهود طوال التاريخ الإسلامى و لم يذعن للحق إلّا جماعة قليله، و أمّا غيرهم- و هم الأكثرية الساحقة- فقد بقوا- و إلى الآن- على عدائهم الشديد، و خصومتهم للإسلام، و لم يزالوا يكيدون له المكائد، و يحيكون ضده المؤامرات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۷]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۴۷)

التّفسير

مصير المعاندين:

تعقيبا على البحث السابق فى الآية المتقدمة حول أهل الكتاب، وجه الخطاب فى هذه الآية إليهم أنفسهم، إذ قال سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ آمِنُوا بِما نَزَّلْنا مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ أى آمنوا بالقرآن الكريم الذى تجدونه موافقا لما جاء فى كتبكم من العلامات و البشائر، و لا شك أنّكم أولى من غيركم- و لديكم مثل هذه الأدلة و العلائم- بالإيمان بهذا الدين الطاهر.

ثمّ إن اللّه سبحانه يهددهم بأنّ عليهم أن يخضعوا للحقّ و يذعنوا له قبل أن يصابوا بإحدى عقوبتين، الأولى: أن تنمحى صورهم كاملة، و أن تذهب عنهم جوارحهم و أعضاؤهم التى يرون و يسمعون و يدركون بها الحق، كلّها ثمّ تقلب وجوههم إلى خلف كما يقول سبحانه: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ ۱۱۵] وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلى أَدْبارِها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۷

. و لعلّنا لسنا بحاجة إلى أن نذكر بأنّ المراد من هذه العبارة هو تعطل عقولهم و حواسهم من حيث عدم رؤية حقائق الحياة و إدراكها، و الانحراف عن الصراط المستقيم كما جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام من أنّ المراد: «نطمسها عن الهدى فنردّها على أدبارها فى ضلالتها ذمّا لها بأنّها لا تفلح أبدا»[۱۱۶].

توضيح ذلك أنّ أهل الكتاب، و بخاصّة اليهود منهم، عند ما أعرضوا عن الإذعان بالحق رغم كل تلك العلائم و البراهين، و عاندوا تعنتا و استكبارا و أظهروا مواقفهم المعاندة فى أكثر من ساحة، صار العناد و الزور طبيعتهم الثانية شيئا فشيئا، و كأن أفكارهم قد مسخت و كأن عيونهم قد عميت و آذانهم قد صمت، و مثل هؤلاء من الطبيعى أن يتقهقروا فى طريق الحياة بدل أن يتقدموا، و أن يرتدوا على الأدبار بدل أن يتحركوا إلى الأمام، و هذا هو جزاء كل من ينكر الحق عنادا و عتوا، و هذا فى الحقيقة يشبه ما أشرنا اليه فى مطلع سورة البقرة الآية (۶).

و على هذا، فإن المراد من «الطمس و عفو الأثر و الرّد على العقب» فى الآية الحاضرة هو المحو الفكرى و الروحى، و التأخر المعنوى.

و أمّا العقوبة الثانية التى هددهم اللّه بها فهى اللعن و الطرد من رحمته تعالى إذ قال: أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ ۱۱۷].

و هنا يطرح سؤال و هو: ما الفرق بين هذين التهديدين، حتى يفصل بينهما ب «أو»؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۸

ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ التهديد الأوّل ينطوى على جانب معنوى، و التهديد الثّانى ينطوى على جانب ظاهرى و مسخ جسمى، و ذلك بقرينة أن اللّه قال فى هذه الآية: كَما لَعَنَّا أَصْحابَ السَّبْتِ و نحن نعلم أن أصحاب السبت- كما يتّضح من مراجعة الأعراف- قد مسخوا مسخا ظاهريا و جسديا.

و ذهب آخرون إلى أن هذا اللعن و الطرد من رحمة اللّه ينطوى أيضا على جانب معنوى بفارق واحد، هو أنّ التهديد الأوّل إشارة إلى الانحراف و الضلال و التقهقر الذى أصابهم، و التهديد الثّانى إشارة إلى معنى الهلاك و الفناء (الذى هو أحد معانى اللعن).

خلاصة القول: إنّ أهل الكتاب بإصرارهم على مخالفة الحق يسقطون و يتقهقرون أو يهلكون.

ثمّ إنّ هنا سؤالا آخر هو: هل تحقق التهديد فى شأن هؤلاء، أم لا؟

لا ـ شك أنّ التهديد الأوّل قد تحقق فى شأن كثير منهم، و أمّا التهديد الثّانى فقد تحقق فى بعضهم، و لقد هلك كثير منهم فى الحروب الإسلامية، و ذهبت شوكتهم و قدرتهم. و إنّ تأريخ العالم ليشهد كيف تعرضوا بعد ذلك لكثير من الضغوطات فى البلاد المختلفة، و فقدوا الكثير من أفرادهم و عناصرهم، و خسروا الكثير من طاقاتهم، و لا ـ يزالون إلى الآن يعيشون فى ظروف صعبة و أحوال قاسية.

ثمّ إنّ اللّه يختم هذه الآية بقوله: وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ليؤكّد هذه التهديدات، فإنّه لا توجد قوّة فى الأرض تستطيع أن تقف فى وجه إرادة اللّه و مشيئته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۵۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۴۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً (۴۸)

التّفسير

أرجى آيات القرآن:

الآية الحاضرة تعلن بصراحة أنّ جميع الذنوب و المعاصى قابلة للمغفرة و العفو، إلا «الشرك» فإنّه لا يغفر أبدا، إلّا أن يكف المشرك عن شركه و يتوب و يصير موحدا، و بعبارة أخرى: ليس هناك أى ذنب قادر بوحده على إزالة الإيمان، كما ليس هناك أى عمل صالح قادر على خلاص الإنسان إذا كان مقرونا بالشرك إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

إنّ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة إنّما هو من جهة أن اليهود و النصارى كانوا بشكل من الاشكال مشركين، كل طائفة بشكل معين، و القرآن ينذرهم- بهذه الآية- بأن يتركوا هذه العقيدة الفاسدة التى لا يشملها العفو و الغفران، ثمّ يبيّن فى خاتمة الآية دليل هذا الأمر إذ يقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً[۱۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۰

و هذه الآية من الآيات التى تطمئن الموحدين إلى رحمة اللّه و لطفه، لأنّ فى هذه الآية قد بيّن سبحانه إمكان العفو عن جميع المعاصى و الذنوب غير الشرك، فهى كما جاء

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أرجى آيات القرآن الكريم إذ قال: «ما فى القرآن آية أرجى عندى من هذه الآية».

و هذه الآية- كما قال ابن عباس «ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء، خير لهذه الأمّة ممّا طلعت عليه الشمس و غربت و عدّ منها هذه الآية»[۱۱۹].

لأنّ هناك كثيرين يرتكبون المعاصى العظيمة ثمّ يقنطون من رحمة اللّه و غفرانه إلى الأبد، فيتسبب قنوطهم فى أن يسيروا بقية عمرهم فى طريق المعصية و الخطأ بنفس القوّة و الإصرار، و لكن الأمل فى عفو اللّه و غفرانه خير وسيلة رادعة بالنسبة إلى هؤلاء، و خير مانع من تماديهم فى المعصية و الطغيان، و على هذا الأساس فإنّ هذه الآية تهدف- فى الحقيقة- إلى مسألة تربوية.

فإذا رأينا عصاة مجرمين (كما يقول بعض المفسّرين، و يعلم ذلك من الروايات المذكورة فى ذيل هذه الآية) أمثال «وحشى» غلام

هند و قاتل بطل الإسلام حمزة بن عبد المطلب عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمن مع نزول هذه الآية، و ينتهى عن جرائمه و شقاوته، فإن من الطبيعى أن يوجد ذلك مثل هذا الأمل لدى العصاة الآخرين، فلا ييأسوا من رحمة اللّه و غفرانه، و لا يتورطوا فى المزيد من الذنوب و المعاصى.

و يمكن أن يقال: إنّ هذه الآية من شأنها أن تشجع الناس فى الوقت ذاته على الذنب و تغريهم بالمعصية، لما فيها من الوعد بالعفو عن «جميع الذنوب ما عدا الشرك».

و لكن لا شك أنّ المراد من الوعد بالعفو و المغفرة ليس هو الوعد المطلق من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۱

كل قيد و شرط، بل يشمل الأشخاص الذين يظهرون من أنفسهم نوعا من اللياقة و الصلاح لمثل هذا العفو و الغفران، و كما أشرنا إلى ذلك فى ما سبق، فإن مشيئة اللّه- فى هذه الآية و الآيات المشابهة لها- بمعنى الحكمة الإلهية، لأن مشيئته تعالى لا تنفصل عن حكمته أبدا، و من البديهى و المسلم أن حكمته لا تقتضى أن ينال أحد العفو الإلهى من دون قابلية و صلاح لذلك.

و على هذا الأساس فإن الجوانب و الأبعاد التربوية البناءة فى هذه الآية تفوق- بمراتب كثيرة- إمكان سوء استخدام الوعد الموجود فيها.

أسباب مغفرة الذنوب:

ثمّ إنّ النقطة الجديرة بالانتباه إنّ هذه الآية لا ترتبط بمسألة التوبة، لأنّ التوبة و العودة عن الذنب تغسل جميع الذنوب و المعاصى حتى الشرك، بل المراد هو إمكان شمول العفو الإلهى لمن لم يوفق للتوبة، يعنى الذين يموتون قبل الندم من ذنوبهم، و بعد الندم و قبل جبران ما بدر منهم من الأعمال الطالحة بالأعمال الصالحة.

و توضيح ذلك: أنّه يستفاد من آيات عديدة فى القرآن الكريم أن وسائل التوصل إلى العفو و المغفرة الإلهية متعددة، و يمكن تلخيصها فى خمسة أمور:

۱- التوبة و العودة إلى اللّه تعالى، المقرونة بالندم على الذنوب السابقة، و العزم على الاجتناب عن الذنب و المعصية فى المستقبل، و جبران و تلافى الأعمال الطالحة السالفة بالأعمال الصالحة (و الآيات الدّالة على هذا المعنى كثيرة) و من جملتها قوله سبحانه: وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ ۱۲۰].

۲- الأعمال الصّالحة المهمّة جدّا و التى تسبب العفو عن الأعمال القبيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۲

كما يقول سبحانه: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ۱۲۱].

۳- الشّفاعة التى مرّ شرحها فى المجلد الأول عند تفسير الآية (۴۸) من سورة البقرة.

۴- الاجتناب عن المعاصى الكبيرة الذى يوجب العفو عن المعاصى الصغيرة كما مرّ شرحها عند تفسير الآيتين (۳۱ و ۳۲) من هذه السورة.

۵- العفو الإلهى الذى يشمل الأشخاص اللائقين له، كما مرّ بحثه فى تفسير هذه الآية.

هذا و نكرر تذكيرنا بأن العفو الإلهى مشروط و مقيد بالمشيئة الإلهية، و لا يكون قضية مطلقة دون أى قيد أو شرط، بل تشمل هذه المشيئة و الإرادة خصوص الأشخاص الذين يثبتون بصورة عملية لياقتهم و صلاحيتهم لهذه الهبة الإلهية بنحو من الأنحاء.

و من هنا يتّضح لما ذا لا يكون الشرك ممّا يشمله العفو و الغفران الإلهى، فالسبب فى ذلك هو: إنّ المشرك قد قطع صلته باللّه

بصورة كاملة، و ارتكب ما يخالف كل الشرائع و الأديان و القوانين الطبيعية و النّواميس الكونية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۳

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۴۹ الى ۵۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۴۹) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً (۵۰)

سبب النّزول

روى فى كثير من التفاسير فى ذيل هذه الآية أنّ اليهود و النصارى كانوا يرون لأنفسهم أمورا و امتيازات، فهم- كما نرى ذلك فى آيات القرآن الكريم عند الحكاية عنهم- كانوا يقولون: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ و ربّما قالوا: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى (الآية (۱۸) من سورة المائدة، و الآية (۱۱۱) من سورة البقرة) فنزلت هذه الآيات تبطل هذه التصورات و المزاعم.

التّفسير

تزكية النفس ۱۲۲]:

قال تعالى فى الآية الأولى من الآيتين الحاضرتين: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۴

و فى هذه إشارة إلى إحدى الصفات الذميمة التى قد يبتلى بها كثير من الأفراد و الشعوب، إنّها صفة مدح الذات و تزكية النفس، و ادعاء الفضيلة لها.

ثمّ يقول سبحانه: بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ فهو وحده الذى يمدح الأشخاص و يزكيهم طبقا لما يتوفر عندهم من مؤهلات و خصال حسنة دون زيادة أو نقصان، و على أساس من الحكمة و المشيئة البالغة، و ليس اعتباطا أو عبثا. و لذلك فهو لا يظلم أحدا مقدار فتيل: وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۱۲۳].

و فى الحقيقة أنّ الفضيلة هى ما يعتبرها اللّه سبحانه فضيلة لا ما يدعيه الإشخاص لأنفسهم انطلاقا من أنانيتهم، فيظلمون بذلك أنفسهم و غيرهم.

إن هذا الخطاب و إن كان موجها إلى اليهود و النصارى الذين يدعون لأنفسهم بعض الفضائل دونما دليل، و يعتبرون أنفسهم شعوبا مختارة فيقولون أحيانا: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً[۱۲۴] و يقولون تارة أخرى: نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ ۱۲۵] إلا- أنّ مفهومه لا يختص بقوم دون قوم، و جماعة دون جماعة، بل يشمل كل الأشخاص أو الأمم المصابة بمثل هذا المرض الوبى، و هذه الصفة الذميمة.

إنّ القرآن يخاطب جميع المسلمين فى (سورة النجم- الآية ۳۲) فيقول:

فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى

إنّ مصدر هذا العمل هو الإعجاب بالنفس و الغرور، و العجب الذى يتجلى شيئا فشيئا فى صورة امتداح الذات و تزكية النفس، بينما ينتهى فى نهاية المطاف إلى التكبر و الاستعلاء على الآخرين.

إنّ هذه العادة الفاسدة- مع الأسف- من العادات الشائعة بين كثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۵

الشعوب و الفئات و الأشخاص، و هى مصدر الكثير من المآسى الاجتماعية و الحروب و حالات الاستعلاء و الاستعمار.

إنّ التاريخ يرينا كيف أن بعض الأمم فى العالم كانت تزعم تفوقها على الشعوب و الأمم الاخرى تحت وطأة هذا الشعور و الإحساس الكاذب، و لهذا كانت تمنح لنفسها الحق فى أن تستعبد الآخرين، و تتخذهم لأنفسها خولا و عبيدا.

لقد كان العرب الجاهليون مع كل التخلف و الانحطاط و الفقر الشامل الذى كانوا يعانون منه، يرون أنفسهم «العنصر الأعلى» بل و كانت هذه الحالة سائدة حتى بين قبائلهم حيث كان بعض القبائل يرى نفسه الأفضل و الأعلى.

و لقد تسبب الإحساس بالتفوق لدى العنصر الألمانى و الإسرائيلى فى وقوع الحروب العالمية أو الحروب المحلية.

و لقد كان اليهود و النصارى فى صدر الإسلام يعانون- أيضا- من هذا الإحساس و الشعور الخاطئ و هذا الوهم، و لهذا كانوا يستثقلون الخضوع أمام حقائق الإسلام، و لهذا السبب شدد القرآن الكريم النكير- فى الآية اللاحقة الثانية- على هذا التصور و شجب هذا الوهم، و هم التفوق العنصرى، و يعتبره نوعا من الكذب على اللّه و الافتراء عليه سبحانه، و معصية كبرى و ذنبا بيّنا إذ يقول سبحانه: انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، وَ كَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً أى أنظر كيف أن هذه الجماعة بافتعالها لهذه الفضائل و ادعائها لنفسها من ناحية، و نسبتها إلى اللّه من ناحية أخرى، تكذب على اللّه، و لو لم يكن لهذه الجماعة أى ذنب إلّا هذا لكفى فى عقوبتهم.

يقول الإمام على عليه السّلام فى حديثه المعروف ل «همام» الذى يذكر فيه صفات المتقين: «لا يرضون من أعمالهم القليل، و لا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۶

أعمالهم مشفقون إذا زكى أحد منهم خاف ممّا يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسى من غيرى و ربّى أعلم بى من نفسى، اللّهم لا تؤاخذنى بما يقولون، و اجعلنى أفضل ما يظنون، و اغفر لى ما لا يعلمون».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۷

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵۱ الى ۵۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (۵۱) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً (۵۲)

سبب النّزول

قال كثير من المفسّرين- فى شأن نزول الآيتين الحاضرتين: أنّه بعد معركة «أحد» توجه أحد أقطاب اليهود و هو «كعب بن الأشرف» مع سبعين شخصا من اليهود إلى مكّة للتحالف مع مشركى مكّة ضد رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض ما كان بينهم و بين رسول اللّه من الحلف.

فنزل كعب على أبى سفيان فأحسن مثواه و نزلت اليهود فى دور قريش، فقال أهل مكّة: أنكم أهل كتاب و محمّد صاحب كتاب، فلا

نأمن أن یکون هذا مکر منکم، فإن أردت أن نخرج معک فاسجد لهذین الصنمین (و أشاروا إلیها) و آمن بهما، ففعل.

ثمّ اقترح کعب بن الأشرف علی أهل مکّة قائلا: یا أهل مکّة لیجیء منکم ثلاثون و منّا ثلاثون فنلصق أکبادنا بالکعبة، فنعاهد ربّ هذا البیت لنجهدن علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۸

قتال محمّد، ففعلوا ذلک.

فلمّا فرغوا قال أبو سفیان لکعب: إنّک امرؤ تقرأ الکتاب و تعلم، و نحن أمیون لا نعلم، فأینا أهدی طریقا و أقرب إلی الحقّ، نحن أم محمّد؟

قال کعب: اعرضوا علیّ دینکم، فقال أبو سفیان: نحن ننحر للحجیج الکوماء (و هی الناقة العظیمة السنام) و نسقیهم الماء، و نقری الضیف، و نفک العانی، و نصل الرحم، و نعمّر بیت ربّنا، و نطوف به، و نحن أهل الحرم، و محمّد فارق دین آبائه، و قاطع الرحم، و فارق الحرم، و دیننا القدیم، و دین محمّد الحدیث.

فقال کعب: أنتم و اللّه أهدی سبیلا ممّا علیه محمّد.

فأنزل اللّه تعالی الآیات الحاضرة إجابة لهم وردا علیهم:

التّفسیر

المداهنون:

إن الآیة الأولی من الآیتین الحاضرتین تعکس- بملاحظة- ما ذکر فی سبب النزول قریبا- صفة أخری من صفات الیهود الذمیمة، و هی أنّهم لأجل الوصول إلی أهدافهم کانوا یداهنون کل جماعة من الجماعات، حتی أنّهم لکی یستقطبوا المشرکین سجدوا لأصنامهم، و تجاهلوا کل ما قرءوه فی کتبهم، أو عملوا به حول صفات رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عظمة الإسلام، بل و ذهبوا- بغیة إرضاء المشرکین- إلی ترجیح عقیدة الوثنیین بما فیها من خرافات و تفاهات و فضائح علی الإسلام الحنیف، مع أنّ الیهود کانوا من أهل الکتاب، و کانت المشترکات بینهم و بین الإسلام تفوق بدرجات کبیرة ما یجمعهم مع الوثنیین، و لهذا یقول سبحانه فی هذه الآیة مستغربا: أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ أُوتُوا نَصِیباً مِنَ الْکِتابِ یُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ و هی الأصنام؟

و لکنّهم لا یقتنعون بهذا، و لا یقفون عند هذا الحدّ، بل: وَ یَقُولُونَ لِلَّذِینَ کَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدی مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا سَبِیلًا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۶۹

الجبت و الطّاغوت:

استعملت لفظة «الجبت» فی هذه الآیة من القرآن الکریم خاصّة، و هو اسم جامد لا تعریف له فی اللغة العربیة، و یقال أنّه یعنی «السّحر» أو «السّاحر» أو «الشّیطان» بلغة أهل الحبشة، ثمّ دخل فی اللغة العربیة و استعمل بهذا المعنی، أو بمعنی الصنم أو أی معبود غیر اللّه فی هذه اللغة، و یقال: أنه فی الأصل «جبس» ثمّ أبدل «س» إلی «ت».

و أمّا لفظة «الطّاغوت» فقد استعملت فی ثمانیة موارد من القرآن الکریم، و هی- کما قلنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر لدی الحدیث عن الآیة (۲۵۶) من سورة البقرة- صیغة مبالغة[۱۲۶] من مادة الطغیان، بمعنی التعدی و تجاوز الحدّ، و یطلق علی کل شیء

موجب لتجاوز الحدّ (و منها الأصنام) و لهذا یسمی الشیطان، و الصنم و الحاکم الجبار المتکبر، و کل معبود سوی اللّه، و کل مسیرة تنتهی إلی غیر الحق، طاغوتا.

هذا هو المعنی الکلی لهاتین اللفظتین.

أمّا المراد منهما فی الآیة المبحوثة الآن، فذهب المفسرون فیه مذاهب شتی.

فقال البعض بأنّهما اسمان لصنمین سجد لهم الیهود فی القصّة السابقة.

و قال آخرون: الجبت هنا هو الصنم، و الطّاغوت هم عبدة الأصنام، أو حماتها الذین کانوا یمثلون تراجمة الأصنام الذین کانوا یتکلمون بالتکذیب عنها لیخدعوا الناس ۱۲۷]، و هذا المعنی أوفق لما جاء فی سبب النزول و تفسیر الآیة، لأنّ الیهود سجدوا للأصنام کما خضعوا أمام عبدتها الوثنیین أیضا.

ثمّ إنّه سبحانه بیّن- فی الآیة الثانیة- مصیر أمثال هؤلاء المداهنین قائلا:

أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ یَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِیراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۰

إنّ الیهود- کما تقول هذه الآیة- لم یحصلوا من مداهنتهم الفاضحة علی نتیجة، بل انهزموا فی النهایة، و تحققت نبوءة القرآن الکریم فی شأنهم.

إن الآیات الحاضرة و إن کانت قد نزلت فی شأن جماعة خاصّة، و لکنها لا تختص بهم حتما، بل تشمل کل الأشخاص المداهنین المصلحیین (الانتهازیین) الذین یضحّون بشخصیتهم و مکانتهم، بل و إیمانهم و معتقداتهم فی سبیل الوصول إلی مآربهم السافلة و أغراضهم الدنیئة.

فإنّ هؤلاء أبعد ما یکونون عن رحمة اللّه فی الدنیا و الآخرة، و غالبا ما یؤول أمرهم إلی الهزیمة و الفشل.

إنّ الجدیر بالانتباه هو أنّ هذه الحالة أو الصفة الذمیمة المذکورة لا تزال باقیة علی قوّتها عند هؤلاء القوم، فإنا نجد کیف أنهم لا یمتنعون عن أی مداهنة مهما کانت الشروط للوصول إلی أهدافهم، و لهذا ظلوا یعانون من هزائمهم المنکرة طول تاریخهم الماضی و الحاضر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۵۳ الی ۵۵]

اشارة

أَمْ لَهُمْ نَصِیبٌ مِنَ الْمُلْکِ فَإِذاً لا یُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِیراً (۵۳) أَمْ یَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلی ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَیْنا آلَ إِبْراهِیمَ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ وَ آتَیْناهُمْ مُلْکاً عَظِیماً (۵۴) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ کَفی بِجَهَنَّمَ سَعِیراً (۵۵)

التّفسیر

اشارة

فی تفسیر الآیتین السابقتین قلنا أنّ الیهود عمدوا- لإرضاء الوثنیین فی مکّة و استقطابهم- إلی الشهادة بأنّ وثنیة قریش أفضل من توحید المسلمین، بل و عمدوا عملیا إلی السجود أمام الأصنام، و فی هذه الآیات یبیّن سبحانه أن حکمهم هذا لا قیمة له لوجهین.

۱- إنّ اليهود ليس لهم- من جهة المكانة الاجتماعية- تلك القيمة التى نؤهلهم للقضاء بين الناس و الحكم فى أمورهم، و لم يفوض الناس إليهم حق الحكم و القضاء بينهم أبدا ليكون لهم مثل هذا العمل: أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ

هذا مضافا إلى أنّهم لا يمتلكون أية قابلية و أهلية للحكومة المادية و المعنوية على الناس، لأن روح الاستئثار قد استحكم فى كيانهم بقوّة إلى درجة أنّهم إذا حصلوا على مثل هذه المكانة لم يعطوا لأحد حقّه، بل خصّوا كل شىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۲

بأنفسهم دون غيرهم فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً[۱۲۸].

فبالنظر إلى أنّ هذه الأحكام التى يطلقها اليهود صادرة عن مثل هذه النفسية المريضة التى تسعى دائما إلى الاستئثار بكل شىء لأنفسهم أو لغيرهم ممن يعملون لصالحهم، على المسلمين أن لا يتأثروا بأمثال هذه الأحاديث و الأحكام و أن لا يقلقوا لها.

۲- إنّ هذه الأحكام الباطلة ناشئة من حسدهم البغيض للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته المكرمين، و لهذا تفقد أية قيمة، إنّهم إذ خسروا مقام النبوة و الحكومة بظلمهم و كفرهم، لذلك لا يحبّون أن يناط هذا المقام الإلهى إلى أى أحد من الناس، و لذا يحسدون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته الذين شملتهم هذه الموهبة الإلهية و أعطوا ذلك المقام الكريم و ذلك المنصب الجليل، و لأجل هذا يحاولون بإطلاق تلك الأحكام الباطلة و تلك المزاعم السخيفة أن يخففوا من لهيب الحسد فى كيانهم: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ثمّ أن اللّه سبحانه يقول معقبا على هذا: و لما ذا تتعجبون من إعطائنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بنى هاشم ذلك المنصب الجليل و ذلك المقام الرفيع، و قد أعطاكم اللّه سبحانه و أعطى ال إبراهيم الكتاب السماوى و العلم و الحكمة و الملك العريض (مثل ملك موسى و سليمان و داود) و لكنّكم- مع الأسف- أسأتم خلافتهم ففقدتم تلكم النعم المادية و المعنوية القيمة بسبب قسوتكم و شروركم: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً.

و المراد من الناس فى قوله: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ كما أسلفنا- هم رسول اللّه و أهل بيته عليهم السّلام، لإطلاق لفظة الناس على جماعة من الناس، و أمّا إطلاقها على شخص واحد (هو النّبى خاصّة) فلا يصح ما لم تكن هناك قرينة على إرادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۳

الواحد فقط[۱۲۹].

هذا مضافا إلى أنّ كلمة آل إبراهيم قرينة أخرى على أنّ المراد من «الناس» هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام، لأنّه يستفاد- من قرينة المقابلة- أنّنا إذا أعطينا لبنى هاشم مثل هذا المقام و مثل هذه المكانة- فلا داعى للعجب- فقد أعطينا لآل إبراهيم أيضا تلك المقامات المعنوية و المادية بسبب أهليتهم و قابليتهم.

و قد جاء التصريح فى روايات متعددة وردت فى مصادر الشيعة و السنة بأنّ المراد من «الناس» هم أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فقد روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى ذيل هذه الآية أنّه قال فى تفسير الآية:

«جعل منهم الرسل و الأنبياء و الأئمّة فكيف يقرّون فى آل إبراهيم و ينكرونه فى آل محمّد»[۱۳۰]؟

و

فى رواية أخرى عن الإمام الصّادق عليه السّلام يجيب الإمام على من يسأل عن المحسودين فى هذه الآية قائلا: «نحن محسودون»[۱۳۱].

و

روى فى الدّر المنثور عن ابن منذر و الطبرانى عن ابن عباس أنّه قال فى هذه الآية: «نحن الناس دون الناس».

ثمّ قال القرآن الکریم فی الآیة اللاحقة: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَ کَفی بِجَهَنَّمَ سَعِیراً. أی أنّ من الناس آنذاک من آمن بالکتاب الذی نزل علی آل إبراهیم، و منهم من لم یکتف بعدم الإیمان بذلک الکتاب، بل صدّ الآخرین عن الإیمان و حال دون انتشاره، أولئک کفاهم نار جهنم المشتعلة عذابا و عقوبة.

و سینتهی إلی نفس هذا المصیر کل من کفر بالقرآن الکریم الذی نزل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۴

دور الحسد فی الجرائم:

«الحسد» یعنی تمنی زوال النعمة عن الآخرین سواء وصلت تلک النعمة إلی الحسود، أم لم تصل إلیه، و علی هذا الأساس تنصب جهود الحسود علی فناء ما لدی الآخرین و زواله عنهم أم تمنی ذلک، لا أن تنتقل تلک النعمة إلیه.

إن الحسد منشأ للکثیر من المآسی و المتاعب الاجتماعیة، من ذلک.

۱- إنّ الحاسد یصرف کل أو جلّ طاقاته البدنیة و الفکریة- التی یجب أن تصرف فی ترشید الأهداف الاجتماعیة- فی طریق الهدم و التحطیم لما هو قائم، و لهذا فهو یبدد طاقاته الشخصیة و الطاقات الاجتماعیة معا.

۲- إنّ الحسد هو الدافع لکثیر من الجرائم فی هذا العالم، فلو أنّنا درسنا العلل الأصلیة وراء جرائم القتل و السرقة و العدوان و ما شابه ذلک لرأینا- بوضوح- أنّ أکثر هذه العلل تنشأ من الحسد، و لعلّه لهذا السبب شبّه الحسد بشرارة من النار یمکنها أن تهدد کیان الحاسد أو المجتمع الذی یعیش فی وسطه بالخطر، و تعرضه للضرر.

یقول أحد العلماء: إنّ الحسد من أخطر الصفات، و یجب أن یعتبر من أعدی أعداء السعادة، فیجب أن یجتهد الإنسان لدفعه و التخلص منه.

إنّ المجتمعات التی تتألف من الحاسدین الضیقی النظرة مجتمعات متأخرة متخلفة، و الحساد- فی الأغلب- عناصر قلقة و أفراد مرضی یعانون من متاعب و آلام جسدیة و عصبیة، و ذلک قد أصبح من المسلم الیوم أن أکثر الأمراض و الآلام الجسدیة تنشأ من علل نفسیة، فإنّنا نلاحظ الآن بحوثا مفصلة فی الطب حول الأمراض التی تختص بمثل هذه.

هذا و الجدیر بالذکر ورود التأکید علی هذه المسألة فی أحادیث أئمّة الدین وقادة الإسلام،

ففی روایة عن الإمام علی علیه السّلام نقرأ قوله: «صحة الجسد من قلّة الحسد»

و

«العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۵

بل و وردت روایات تصرح بأن الحسد یضرّ بالحاسد قبل أن یضرّ بالمحسود، بل و یؤدی إلی القتل و الموت تدریجا.

۴- إنّ الحسد یعدّ- من الناحیة المعنویة- من علائم ضعف الشخصیة و عقدة الحقارة، و من دلائل الجهل و قصر النظر و قلّة الإیمان، لأنّ الحاسد- فی الحقیقة- یری نفسه أعجز و أقل من أن یبلغ ما بلغه المحسود من المکانة أو أعلی من ذلک، و لهذا یسعی الحاسد إلی أن یرجع المحسود إلی الوراء، هذا مضافا إلی أنّه بعمله یعترض علی حکمة اللّه سبحانه واهب جمیع النعم و جمیع المواهب، و علی إعطائه سبحانه النعم إلی من تفضل بها علیه من الناس، و لهذا

جاء فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق علیه السّلام «الحسد أصله من عمی القلب و الجحود لفضل اللّه تعالی، و هما جناحان للکفر، و بالحسد وقع ابن آدم فی حسرة الأبد، و هلک مهلکا لا ینجو منه أبدا»[۱۳۲].

فهذا هو القرآن الكريم يصرّح بأنّ أوّل جريمة قتل ارتكبت فى الأرض كان منشؤها الحسد[۱۳۳].

و

جاء فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»[۱۳۴]

و ذلك لأنّ الحاسد يزداد سوء ظنه باللّه و بحكمته و عدالته شيئا فشيئا، و هذا الأمر يؤدى به إلى الخروج عن جادة الإيمان.

إنّ آثار الحسد و أضراره المادية و المعنوية و تبعاته الفردية و الاجتماعية كثيرة جدّا، و ما ذكرناه إنّما هو فى الحقيقة جدول سريع عن بعض هذه الآثار و المضار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۶

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً (۵۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (۵۷)

التّفسير

تعقيبا على الآيات السابقة شرحت هاتان الآيتان مصير المؤمنين و الكافرين.

فالآية الأولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ ۱۳۵] ناراً كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً.

و علّة تبديل الجلود- على الظاهر- هى أنّه عند ما تنضج الجلود يخف الإحساس بالألم لدى الإنسان، و لكى لا تتخفف عقوبتها و عذابها و ليحس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۷

الإنسان بالألم إحساسا كاملا، تبدل الجلود، و تأتى مكان الجلود الناضجة جلود جديدة، و ما هذا إلّا نتيجة الإصرار على تجاهل الأوامر الإلهية، و مخالفة الحق و العدل، و الإعراض عن طاعة اللّه.

ثمّ يقول سبحانه فى ختام الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَزِيزاً حَكِيماً أى أنّه قادر بعزّته أن يوقع هذه العقوبات بالعصاة، و أنّه لا يفعل ذلك اعتباطا، بل عن حكمة و على أساس الجزاء على المعصية.

ثمّ يقول سبحانه فى الآية الثانية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا[۱۳۶].

أى أنّنا نعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنّ ندخلهم جنّات تجرى من تحت أشجارها الأنهار و السواقى يعيشون فيها حياة خالدة، هذا مضافا إلى ما يعطون من أزواج مطهّرات يستريحون إليهن، و يجدون فى كنفهن لذة الروح و الجسد، و ينعمون تحت ظلال خالدة بدل الظلال الزائلة، لا تؤذيهم الرياح اللافحة كما لا يؤذيهم الزمهرير أبدا.

بحث عن الآية:

اشارة

من الأمور الجدیرة بالاهتمام و المستفادة من المقایسة بین هاتین الآیتین هو عموم الرحمة الإلهیة و سبق رحمته علی غضبه، لأنّ فی الآیة الأولی ذکرت عقوبة الکفار مبدوءة بکلمة «سوف» فی حین بدأ الوعد الإلهی للمؤمنین ب «السین» «سندخلهم»، و من المعلوم استعمال سوف فی اللغة العربیة فی المستقبل البعید، و استعمال السین فی المستقبل القریب، مع أننا نری أنّ کلتا الآیتین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۸

ترتبطان بالعالم الآخر، و جزاء المؤمنین و عقوبة الکافرین فی ذلک العالم- من الناحیة الفاصلة الزمانیة- بالنسبة إلینا سواء.

فیکون الاختلاف و التفاوت بین التعبیرین للإشارة إلی سرعة وسعة الرحمة الإلهیة، و بعد و محدودیة الغضب الإلهی، و هو یشابه نفس العبارة التی نرددها فی الأدعیة و هی: «یا من سبقت رحمته غضبه».

سؤال:

من الممکن أن یعترض معترض هنا قائلا بأنّ الآیة الحاضرة تقول: إنّنا کلّما نضجت جلود العصاة الکفرة بدّلناهم جلودا غیرها لیذوقوا العقوبة الإلهیة، فی حین أنّ الجلود العاصیة هی الجلود الأصلیة، فیکون تعذیب الجلود الجدیدة مخالفا للعدل الإلهی، فکیف ذلک؟

جواب:

لقد طرح هذا السؤال بعینه من قبل ابن أبی العوجاء الرجل المادی المعروف علی الإمام الصّادق علیه السّلام حیث قال بعد تلاوة هذه الآیة «و ما ذنب الغیر»؟ یعنی ما ذنب الجلود الجدیدة؟ فردّ الإمام علی هذا السؤال بجواب مختصر فی غایة العمق حیث

قال: «هی هی و هی غیرها»

یعنی أنّ الجلود الجدیدة هی نفس الجلود السابقة فی حین أنّها غیرها.

فقال ابن أبی العوجاء الذی کان یعلم أنّ فی هذه العبارة القصیرة سرّا: مثل لی فی ذلک شیئا من أمر الدنیا.

فقال الإمام علیه السّلام: «أ رأیت لو أنّ رجلا أخذ لبنة فکسرها، ثمّ ردها فی ملبنها، فهی هی، و هی غیرها»[۱۳۷].

و یستفاد من هذه الرّوایة أن الجلود الجدیدة تتألف من نفس عناصر الجلود القدیمة، أی أن العناصر هی ذات العناصر و إن اختلف التر کیب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۷۹

ثمّ إنّه لا بدّ الالتفات إلی أن الثواب و العقاب یرتبطان- فی الحقیقة- بروح الإنسان و قوّة إدراکه، و الجسم- دائما- وسیلة لانتقال الثواب و العذاب إلی روح الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۰

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۵۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً (۵۸)

سبب النّزول

و روى فى تفسير مجمع البيان و تفاسير إسلامية أخرى إنّ هذه الآية نزلت عند ما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكّة المكرمة منتصرا فاتحا، فاستحضر عثمان بن طلحة و كان سادن الكعبة فطلب منه مفتاح الكعبة المعظمة، ليطهرها من الأصنام و الأوثان الموضوعة فيها، فلمّا فرغ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من ذلك سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين منصب السقاية و منصب السدانة الذى له فى العرب شان و شاو مجيد (و الظاهر أنّ العباس أراد أن يستفيد من نفوذ و مكانة ابن أخيه الاجتماعية و السياسية لمصلحته الشخصية)، و لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فعل خلاف ذلك، فإنّه بعد ما طهر الكعبة من الأصنام و الأوثان، أمر عليا عليه السّلام أن يردّ المفتاح إلى «عثمان بن طلحة» ففعل ذلك و هو يتلو الآية الحاضرة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها ...[۱۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۱

التّفسير

قانونان إسلاميان مهمان:

الآية الحاضرة و إنّ نزلت- كالكثير من الآيات- فى مورد خاص، إلّا أن من البديهى أنّها تتضمّن حكما عامّا و شاملا للجميع، فهى تقول بصراحة: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها.

و من الواضح أنّ للأمانة معنى وسيعا يشمل كلّ شىء مادى و معنوى، و يجب على كل مسلم- بصريح هذه الآية- أن لا يخون أحدا فى أية أمانة دون استثناء، سواء كان صاحب الأمانة مسلما أو غير مسلم، و هذا هو فى الواقع إحدى المواد فى «الميثاق الاسلامى لحقوق الإنسان» التى يتساوى تجاهها كل أفراد البشر.

و الجدير بالذكر أنّ الأمانة المذكورة فى سبب النزول لم تكن مجرد أمانة مادية، و من جانب آخر كان صاحبها المؤدى إليه تلك الأمانة مشركا.

ثمّ إنّه سبحانه يشير- فى القسم الثّانى من الآية- إلى قانون مهم آخر، و هو مسألة «العدالة فى الحكومة» فيقول: وَ إِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ أى إنّ اللّه يوصيكم أيضا أن تلتزموا جانب العدالة فى القضاء و الحكم بين الناس، فتحكموا بعدل.

ثمّ قال سبحانه تأكيدا لهذين التعليمين: إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ

ثمّ يقول مؤكدا ذلك أيضا: إِنَّ اللَّهَ كانَ سَمِيعاً بَصِيراً فهو يراقب أعمالكم و هو يسمع أحاديثكم و يرى أفعالكم.

إنّ هذا القانون هو الآخر قانون كلّى و عام، و يشمل كل نوع من القضاء و الحكومة، سواء فى الأمور الكبيرة و الأمور الصغيرة، إلى درجة أنّنا نقرأ فى الأحاديث الإسلامية

أنّ صبين ترافعا إلى الإمام الحسن بن على فى خط كتباه و حكماه فى ذلك ليحكم أىّ الخطين أجود، فبصر به علىّ عليه السّلام فقال: «يا بنى انظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۲

کیف تحکم فإن هذا حکم و اللّه سائلک عنه یوم القیامة»[۱۳۹].

إنّ هـذین القانونین المهمّین (حفظ الأمانـة، و العدالة فی الحکم و الحکومة) یمثلان قاعدة المجتمع الإنسانی السـلیم، و لا یسـتقیم أمر مجتمع، سواء کان ماديا أو إلهیا من دون تنفیذ و إجراء هذین الأصلین.

فالأصـل الأوّل یقول: إنّ الأـموال و الثروات و المناصب و المسؤولیات و المهام و الرساميل الإنسانیـة و الثقافات و التراث و المخلفات التاریخیة، کلها أمانات إلهیة سلمت بأیدی أشخاص مختلفین فی المجتمع، و الجمیع مکلّفون أن یحفظوا هذه الأمانات، و یجتهدوا فی تسلیمها إلی أصحابها الأصلیین، و لا یخونوا فیها أبدا.

و من جهـة أخری حیث إنّ الاجتماعـات تلازم التصادمات و الاحتکاکات فی المصالـح و المنافع، و لهـذا یتطلب الحل و الفصل علی أساس من الحکومة العادلة و القضاء العادل حتی یزول و ینمحی کل أنواع التمییز الظالم من الحیاة الاجتماعیة.

و کمـا أسـلفنا فإنّ الأمانـة لا تنحصـر فی الأموال التی یودعها الناس- بعضـهم عنـد بعض- بل العلماء فی المجتمع هم أیضا مسـتأمنون یجب علیهم أن لاـ یکتموا الحقـائق، بـل حتی أبنـاء الإنسـان و أولاده أمانات إلهیـة لـدی الآباء و الأمهات فلا یفرطوا فی تربیتهم، و لا یقصـروا فی تـأدیبهم و تعلیمهم، و إلّا کان ذلک خیانـة فی الأمانـة الإلهیـة التی أمر اللّه بأدائها، بل و فوق ذلک کلّه الوجود الإنسانی، فهو و جمیع الطاقات المودوعة فیه «أمانات اللّه» التی یجب علی الإنسان أن یجتهد فی المحافظة علیها، کما علیه أن یحافظ علی صـحّة جسـمه و سـلامة روحه، و یحافـظ علی طاقـة الشـباب الفیاضـة، و فکره، و لاـ یفرط فیها، و لهـذا لا یجوز له أن ینتحر أو یلحق الضـرر بنفسه، حتی أنّه یستفاد من بعض الأحادیث و النصوص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۳

الإسلامیة إنّ علوم الإمامة و أسرارها و ودائعها التی یسلمها کل إمام إلی الإمام الذی بعده داخلة فی هذه الآیة أیضا[۱۴۰].

و الجـدیر بالـذکر، إنّ مسألـة «أداء الأمانـة» قـدمت فی هـذه الآیة علی مسألة «العدالة» و لعلّ ذلک لأجل أنّ مسألة العدل فی القضاء و الحکم مترتبـة دائما علی الخیانـة، لأنّ الأصل هو أن أمناء بالأصالة، فإذا انحرف شـخص أو أشـخاص عن هذا الأصل وصل الدور إلی العدالة لتوفّقهم علی مسئولیاتهم و تعرفهم بوظائفهم.

أهمیّة الأمانة و العدل فی الإسلام:

لقـد ورد تأکیـد کبیر علی هـذه المسألـة فی المصادر الإسـلامیة إلی درجـة أنّنا قلّما نجد مثله فی مورد غیره من الأحکام و المسائل، و الأحادیث القصیرة التالیة توضیح هذه الحقیقة:

۱-

عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «لا تنظروا إلی طول رکوع الرجل و سجوده فإن ذلک شیء اعتاده فلو ترکه استوحش، و لکن انظروا إلی صدق حدیثه و أداء أمانته»[۱۴۱].

۲-

جـاء فی حـدیث آخر عن الإمـام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «إن علیّا إنّما بلغ ما بلغ به عنـد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم بصدق الحدیث و أداء الأمانة»[۱۴۲].

۳-

روی فی حـدیث آخر عن الإمـام الصّادق علیه السّلام أیضـا قـال لأحـد أصـحابه: «أعلم أن ضارب علی بالسـیف و قاتله لو ائتمننی و

استنصحنی و استشارنی ثمّ قبلت ذلک منه لأدیت إلیه الأمانة»[۱۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۴

۴- و

فی روایات مرویة فی مصادر الشیعة و السنة عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نلاحظ هذا الحدیث السّاطع: «آیة المنافق ثلاث: إذا حدّث کذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان»[۱۴۴].

۵-

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السّلام: «سوی بین أخصمین فی لحظک و لفظک»[۱۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۵

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۵۹]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِی شَیْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَی اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ کُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ ذلِکَ خَیْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِیلًا (۵۹)

التّفسیر

اشارة

هذه الآیة و بعض الآیات اللاحقة تبحث عن واحدة من أهم المسائل الإسلامیة، ألا و هی مسألة القیادة، و تعیین القادة و المراجع الحقیقیین للمسلمین فی مختلف المسائل الدینیة و الاجتماعیة.

فهی تأمر المؤمنین- أوّلا- بأن یطیعوا اللّه، و من البدیهی أنّه یجب أن تنتهی جمیع الطاعات- عند الفرد المؤمن- إلی طاعة اللّه سبحانه، و کل قیادة و ولایة یجب أن تنبع من ولایة اللّه سبحانه و ذاته المقدسة تعالی و تکون حسب أمره و مشیئته، لأنّه الحاکم و المالک التکوینی لهذا العالم، و کلّ حاکمیة و مالکیة یجب أن تکون بإذنه و بأمره: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ

و فی المرحلة الثّانیة تأمر باتّباع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إطاعته، و هو النّبی المعصوم الذی لا ینطق عن الهوی و لا ینطلق من الهوس، و النّبی الذی هو خلیفة اللّه بین الناس، و کلامه کلام اللّه، و قد أعطی هذا المقام من جانب اللّه سبحانه، و لهذا تکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۶

إطاعة اللّه ممّا تقتضیه خالقیته و حاکمیة ذاته المقدسة، و لکن إطاعة النّبی و اتّباع أمره ناشئ من أمر اللّه. و بعبارة أخری فإنّ اللّه واجب الإطاعة بالذات و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم واجب الإطاعة بالعرض، و لعل تکرار «أطیعوا» فی هذه الآیة للإشارة إلی مثل هذا الفرق بین الطاعتین وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ

و فی المرحلة الثانیة یأمر سبحانه بإطاعة أولی الأمر القائمین من صلب المجتمع الإسلامی، و الذین یحفظون للناس أمر دینهم و دنیاهم.

من هم أولوا الأمر؟

ثمّة كلام كثير بين المفسّرين فى المقصود من أولى الأمر فى هذه الآية، و يمكن تلخيص أوجه النظر فى هذا المجال فى ما يلى:

۱- ذهب جماعة من مفسّرى أهل السنّة إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأمراء و الحكام فى كل زمان و مكان، و لم يستثن من هؤلاء أحدا، فتكون نتيجة هذا الرأى هى: إنّ على المسلمين أن يطيعوا كل حكومة و سلطة مهما كان شكلها حتى إذا كانت حكومة المغول، و دولتهم الجائرة.

۲- ذهب البعض من المفسّرين- مثل صاحب تفسير المنار و صاحب تفسير فى ظلال القرآن و آخرون- إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» ممثلو كافة طبقات الأمة، من الحكام و القادة و العلماء و أصحاب المناصب فى شتى مجالات حياة الناس، و لكن لا تجب طاعة هؤلاء بشكل مطلق و بدون قيد أو شرط، بل هى مشروطة بأن لا تكون على خلاف الأحكام و المقررات الإسلامية.

۳- ذهبت جماعة أخرى إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم القادة المعنويون و الفكريون، أى العلماء و المفكرون العدول العارفون بمحتويات الكتاب و السنة معرفة كاملة.

۴- و ذهب بعض مفسّرى أهل السنة إلى أنّ المراد من هذه الكلمة هم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۷

«الخلفاء الأربعة» الذين شغلوا دست الخلافة بعد رسول اللّه خاصّة و لا تشمل غيرهم، و على هذا لا يكون لأولى الأمر أى وجود خارجى فى الأعصر الاخرى.

۵- يفسر بعض المفسّرين «أولى الأمر» بصحابة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۶- هناك احتمال آخر يقول- فى تفسير أولى الأمر- إنّ المراد منه هم القادة العسكريون المسلمون، و أمراء الجيش و السرايا.

۷- ذهب كلّ مفسّرى الشيعة بالاتفاق إلى أنّ المراد من «أولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السّلام الذين أنيطت إليهم قيادة الأمة الإسلامية المادية و المعنوية فى جميع حقول الحياة من جانب اللّه سبحانه و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا تشمل غيرهم، اللّهم إلّا الذى يتقلد منصبا من قبلهم، و يتولى أمرا فى إدارة المجتمع الإسلامى من جانبهم- فإنّه يجب طاعته أيضا إذا توفرت فيه شروط معينة، و لا تجب طاعته لكونه من أولى الأمر، بل لكونه نائبا لأولى الأمر و وكيلا من قبلهم.

و الآن لنستعرض التفاسير المذكورة أعلاه باختصار:

لا شك أنّ التّفسير الأوّل لا يناسب مفهوم الآية و روح التعاليم الإسلامية بحال، إذ لا يمكن أن تقترن طاعة كل حكومة- مهما كانت طبيعتها- و من دون قيد أو شرط بإطاعته اللّه و النّبى، و لهذا تصدى كبار علماء السنة لنفى هذا الرأى و التّفسير مضافا إلى علماء الشيعة.

و كذا التّفسير الثّانى: فإنّه لا يناسب إطلاق الآية الشريفة، لأنّ الآية توجب إطاعة أولى الأمر من دون قيد أو شرط.

و هكذا التّفسير الثّالث، يعنى تفسير «أولى الأمر» بالعلماء و العدول و العارفين بالكتاب و السنة، فهو لا يناسب إطلاق الآية، لأنّ لإطاعة العلماء و إتباعهم شروطا من جملتها أن لا يكون كلامهم على خلاف الكتاب و السنة، و على هذا لو ارتكبوا خطأ (لكونهم عرضة للخطأ و غير معصومين) أو انحرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۸

عن جادة الحقّ لأى سبب آخر لم تجب طاعتهم، فى حين توجب الآية الحاضرة إطاعة أولى الأمر بنحو مطلق كإطاعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، هذا مضافا إلى أنّ إطاعة العلماء إنّما هى فى الأحكام التى يستفيدونها من الكتاب و السنة، و على هذا لا تكون إطاعتهم شيئا غير إطاعة اللّه و إطاعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلا حاجة إلى ذكرها بصورة مستقلة.

و أمّا التّفسير الرّابع (و هو حصر عنوان أولى الأمر بالخلفاء الأربعة الأوائل) فمؤداه عدم وجود مصداق لأولى الأمر بين المسلمين فى

هذا الزمان هذا مضافا إلی عدم وجود دلیل علی مثل هذا التخصیص.

و التّفسیر الخامس و السّادس: یعنیان تخصیص هذا العنوان بالصحابة أو القادة العسکریین المسلمین، و یرد علیها نفس الإشکال الوارد علی التّفسیر الرّابع، یعنی أنّه لا یوجد أی دلیل علی مثل هذا التخصیص أیضا.

و قد أراد جماعة من مفسّری السنة مثل «محمّد عبده» العالم المصری المعروف- تبعا لبعض ما قاله المفسّر المعروف الفخر الرازی- أن یقبل بالاحتمال الثّانی (القاضی بأنّ أولی الأمر هم ممثلو مختلف طبقات المجتمع الإسلامی من العلماء و الحکام و غیر هؤلاء من طبقات و فئات المجتمع الإسلامی) مشروطا ببعض الشروط و مقیدا ببعض القیود، مثل أن یکونوا مسلمین (کما یستفاد من کلمة «منکم» فی الآیة) و أن لا یکون حکمهم علی خلاف الکتاب و السنة، و أن یحکموا عن اختیار لا جبر و لا قهر، و أن یحکموا وفق مصالح المسلمین، و أن یتحدثوا فی مسائل یحقّ لهم التدخل فیها (لا مثل العبادات التی لها قوانین و أحکام ثابتة فی الإسلام) و أن لا یکون قد ورد فی الحکم الذی أصدروه نص خاص من الشرع، و أن یکونوا- فوق کل هذا- متفقین فی الرأی و الحکم.

و حیث إنّ هؤلاء یعتقدون أن مجموع الأمّة أو مجموع ممثلیها لا تخطأ و لا تجتمع علی خطأ،- و بعبارة أخری- أن مجموع الأمّة معصومة (أو أنّ الأمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۸۹

بوصفها معصومة) تکون نتیجة هذه الشروط وجوب إطاعة مثل هذا الحکم بشکل مطلق و من دون قید أو شرط تماما مثل إطاعة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (و مؤدی هذا الکلام هو حجّیّة الإجماع). و لکن ترد علی هذا التّفسیر أیضا إشکالات و اعتراضات عدیدة و هی:

أوّلا: إنّ الاتفاق فی الرأی فی المسائل الاجتماعیة قلّما یتفق و قلّما یتحقق، و علی هذا فإن هذا الرأی یستلزم وجود حالة من الفوضی و الانتظام فی أغلب شؤون المسلمین و بصورة دائمة.

و أمّا إذا أراد هؤلاء قبول رأی الأکثریة فیرد علیه: إنّ الأکثریة لا تکون معصومة أبدا، و لهذا لا تجب إطاعتها بنحو مطلق.

ثانیا: لقد ثبت فی علم الأصول، أنّه لیس هناک أی دلیل علی عصمة مجموع الأمّة من دون وجود الإمام المعصوم بینهم.

ثالثا: إنّ أحد الشرائط التی یذکرها أنصار هذا التّفسیر هو أن لا یکون حکم هؤلاء «أی أولوا الأمر» علی خلاف الکتاب و السنة، فیجب حینئذ أن نری من الذی یشخّص أن هذا الحکم مخالف للکتاب و السنة أو لا، لا شک أن ذلک من مسئولیة المجتهدین و الفقهاء العارفین بالکتاب و السنة، و یعنی هذا إنّ إطاعة أولی الأمر لا یجوز بدون إجازة المجتهدین و العلماء، بل تلزم أن تکون إطاعة العلماء أعلی من إطاعة أولی الأمر، و هذا لا یناسب و لا یوافق ظاهر الآیة الشریفة.

صحیح أن هؤلاء اعتبروا العلماء جزء من أولی الأمر «و لکن الحقیقة أن العلماء و المجتهدین- وفق هذا التّفسیر- اعترف بهم علی أنّهم المراقبون و المراجع العلیا من بقیة ممثلی مختلف فئات الأمّة، لا أنّهم فی مستوی بقیة الممثلین المذکورین، لأنّ علی العلماء و الفقهاء أن یشرفوا علی أعمال الآخرین و یشخصوا موافقتها للکتاب و السنة، و بهذا یکون العلماء مراجع علیا لهم، و هذا لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۰

یناسب التّفسیر المذکور و لا یوافقه.

و علی هذا الأساس یواجه التّفسیر الحاضر (أی الثّانی) إشکالات و مآخذ من وجهات عدیدة.

فیبقی تفسیر واحد سلیما من جمیع الاعتراضات السابقة و هو التّفسیر السّابع: (و هو تفسیر أولی الأمر بالأئمّة المعصومین علیهم السّلام لموافقة هذا التّفسیر لإطلاق وجوب الإطاعة المستفاد من الآیة المبحوثة هنا، لأن مقام «العصمة» یحفظ الإمام من کلّ معصیة و یصونه عن کل خطأ، و بهذا الطریق یکون أمره- مثل أمر الرّسول- واجب الإطاعة من دون قید أو شرط، و ینبغی أن یوضع فی مستوی إطاعته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل و إلی درجة أنها تعطف علی إطاعة الرّسول من دون تکرار «أطیعوا».

و الجدیر بالانتباه إلی أنّ بعض العلماء المعروفین من أهل السنة، و منهم المفسر المعروف الفخر الرازی اعترف بهذه الحقیقة فی مطلع حدیثه عند تفسیر هذه الآیة حیث قال: «إنّ اللّه تعالی أمر بطاعة أولی الأمر علی سبیل الجزم فی هذه الآیة، و من أمر اللّه بإطاعته علی سبیل الجزم و القطع لا- بدّ أن یکون معصوما عن الخطأ، إذ لو لم یکن معصوما عن الخطأ کان بتقدیر إقدامه علی الخطأ قد أمر اللّه بمتابعته، فیکون ذلک أمرا بفعل ذلک الخطأ، و الخطأ لکونه خطأ منهیّ عنه، فهذا یفضی إلی اجتماع الأمر و النهی فی الفعل الواحد، فثبت أن اللّه تعالی أمر بطاعة أولی الأمر علی سبیل الجزم، و ثبت إن کل من أمر اللّه بطاعته علی سبیل الجزم وجب أن یکون معصوما عن الخطأ».

و أضاف قائلا: «ذلک المعصوم إمّا مجموع الأمّة أو بعض الأمّة، و لا یجوز أن یکون بعض الأمّة لأن إیجاب طاعتهم قطعا مشروط بکوننا عارفین بهم، و نحن عاجزون عن الوصول إلیهم، و إذا کان الأمر کذلک علمنا أنّ المعصوم الذی أمر اللّه المؤمنین بطاعته لیس بعضا من أبعاض الأمّة، و لمّا بطل هذا وجب أن یکون ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۱

المعصوم الذی هو المراد بقوله: «و أولی الأمر» هم أهل الحل و العقد و من الأمّة (أی الأمّة کلها و ذلک یوجب القطع بأن إجماع الأمّة حجّة)[۱۴۶].

و هکذا نری الفخر الرازی مع ما نعهد منه من کثیرة الإشکال فی مختلف المسائل العلمیة، قد قبل دلالة هذه الآیة علی أنّ أولی الأمر یجب أن یکونوا معصومین، غایة ما فی الأمر حیث أنّه لم یکن عارفا بمذهب أهل البیت النبوی علیهم السّلام و أئمّة هذا المذهب تجاهل احتمال أن یکون «أولی الأمر» أشخاصا معنیین من الامة، فاضطر إلی تفسیر «أولی الأمر» بمجموع الامّة (أو ممثلی عموم فئات الامّة)، فی حین أن هذا الاحتمال لا یمکن القبول به، لأن أولی الأمر- کما قلنا فی ما سبق- یجب أن یکونوا قادة المجتمع الإسلامی، و تتمّ الحکومة الإسلامیة و الحکم بین المسلمین بهم، و نعلم أنه لا یمکن لا فی الحکومة الجماعیة (المتألفة من مجموعة الأمّة) بل و لا- من ممثلی فئاتها أن یتحقق اجتماع و اتفاق فی الرأی مطلقا، لأنّ الحصول علی إجماع من جانب الامّة جمیعا أو من جانب ممثلیها فی مختلف المسائل الاجتماعیة و السیاسیة و الثقافیة و الخلقیة و الاقتصادیة، لا یتیسر و لا یتحقق فی الأغلب، کما أنّ إتّباع الأکثریة- کذلک- لا یعد اتّباعا لأولی الأمر، و لهذا یلزم من کلام الرازی و من تبعه من العلماء المعاصرین أن تتعطل مسألة إطاعة «أولی الأمر»، أو تصیر مسألة نادرة و استثنائیة جدا ....

و من کل ما قلناه نستنتج أنّ الآیة الشریفة تثبت قیادة و ولایة الأئمّة المعصومین الذین یشکلون نخبة من الامّة الإسلامیة (تأمل).

أجوبة علی أسئلة:

ثمّ إنّ هناک اعتراضات و مآخذ علی هذا التّفسیر (السّابع) یجدر طرحها هنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۲

بتجرّد و موضوعیة:

۱- إذا کان المراد من «أولی الأمر» هم الأئمّة المعصومون، فإنّ ذلک لا یناسب مع کلمة «أولی» التی هی بصیغة الجمع، لأنّ الإمام المعصوم فی کل عصر، شخص واحد لا أکثر.

و الجواب علی هذا السؤال: أنّ الإمام المعصوم و إن کان فی کل عصر شخصا واحدا لا أکثر، إلّا أنّ الأئمة المتعددین فی الأعصر المختلفة یشکلون جماعة، و نحن نعلم أنّ الآیة لا تحدد وظیفة الناس فی عصر واحد.

۲- إنّ أولی الأمر- بهذا المعنی- لم یکونوا فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فکیف أمر القرآن الکریم بإطاعتهم؟

إنّ الجواب على هـذا السؤال يتّضـح أيضـا من الكلاـم السابق، لأنّ الآيـة لا تنحصـر (أو لا تعنى) زمانا خاصا، بل توضـح و تبيّن وظيفة المسلمين و واجبهم فى جميع العصور و القرون.

و بعبارة أخرى، يمكن أن نقول أن أولى الأمر فى زمان النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان شـخص النّبى بالذات، لأن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كان له منصـبان منصب «الرسالة» الذى أشـير إليه فى الآية المذكورة تحت عنوان أَطِيعُوا الرَّسُولَ و الآخر منصب «قيادة الأمّة الإسلامية» الذى ذكره القرآن الكريم تحت عنوان أُولِي الْأَمْرِ.

و على هـذا يكون القائـد و ولى الأـمر المعصوم فى عهـد النّبى هو النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فهو مضافا إلى ما له من منصـب الرسالـة و إبلاـغ الأحكام الإسـلامية، له منصب قيادة الأمّـة و ولايـة أمرها، و لعل عـدم تكرار جملـة (و أطيعوا» بين (الرّسول» و «أولى الأمر» لا يخلو عن الإشارة إلى هذه النقطة.

و بعبارة أخرى إن منصب «الرسالة» و منصب «أولى الأمر» منصـبان مختلفان اجتمعا فى شـخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن المنصب الثّانى فقط يتوفر فى كل إمام على حدة، فللإمام منصب اولى الأمر فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۳

۳- إذا كـان المقصود من «أولى الأمر» هم الأئمّـة المعصومون، فلما ذا أشار سـبحانه فى ذيل الآيـة إلى مسألـة التنازع و الاختلاف بين المسـلمين إذ قال: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَـيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا فإنّنا لا نشاهـد هنـا أى حـديث عن «أولى الأـمر» بـل أشـير إلى اللّه تعـالى (كتـاب اللّه- القرآن) و النّبى (السـنة) كمرجع يجب أن يرجع إليه المسلمون عند الاختلاف و التنازع.

فى الإجابة على هذا الإشكال يجب أن نقول:

أوّلا: إنّ هذا الإشكال لا يختص بالتّفسير الشّيعى لهذه الآية، بل يردّ على بقية التفاسير أيضا، إذا أمعنا النظر قليلا.

و ثانيـا: لاـ شـك أنّ المراد من الاختلاـف و التنـازع فى العبـارة الحاضـرة هو الاختلاف و التنازع فى الأحكام، لا فى المسائل المتعلقة بجزئيات الحكومـة و القيادة الإسـلامية، لأنّه فى هـذه المسائل يجب إطاعـة أولى الأمر (كما صـرّح بـذلك فى الجملة الأولى من الآية المبحوثة هنا).

و على هذا فالمراد من الاختلاف هو الاختلاف فى الأحكام و القوانين الكلية الإسـلامية التى يعود أمر تشـريعها إلى اللّه سـبحانه و نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّنا نعلم أنّ الإمام مجرّد منفذ للأحكام الإلهية و ليس مشرعا، و لا ناسخا لشىء من تلك الأحكام، و إنّما عليه فقط أن يطبق الأحكام و الأوامر الإلهية و السـنة النّبوية فى حياة الأمة، و لهذا جاء فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام إنّهم قالوا: «إذا بلغكم عنّا ما يخالف كتاب اللّه و سـنة نبيّه فاضـربوه عرض الحائط و لا تقبلوه» أى يسـتحيل أن نقول ما يخالف كتاب اللّه و سـنة نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و على هذا فإنّ أوّل مرجع يرجع إليه المسـلمون لحل خلافاتهم فى الأحكام الإسـلامية هو اللّه سـبحانه و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يوحى إليه، و إذا ما بيّن الأئمّة المعصومون أحكاما، فإنّ تلك الأحكام ليست سوى اقتباس من كتاب اللّه، أو هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۴

من العلوم التى وصـلت إليهم من النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و بهذا تتّضح علّة عدم ذكر أولى الأمر إلى جانب المرجع فى حلّ الاختلاف فى الأحكام المذكورة فى هذا الجزء من الآية[۱۴۷].

شهادة الأحاديث:

هذا و قد وردت فی المصادر الإسلامیة أیضا أحادیث تؤید تفسیر «أولی الأمر» بأئمّة أهل البیت علیهم السّلام منها:

۱- ما کتبه المفسّر الإسلامی المعروف أبو حیان الأندلسی المغربی (المتوفی عام ۷۵۶) فی تفسیره البحر المحیط: من أنّ هذه الآیة نزلت فی حقّ علی علیه السّلام و أهل بیته ۱۴۸].

۲- روی العالم السنی أبو بکر بن مؤمن الشیرازی فی رسالة الإعتقاد (حسب نقل الکاشی فی المناقب) عن ابن عباس أنّ الآیة الحاضرة نزلت فی علی علیه السّلام عند ما خلفه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المدینة (فی غزوة تبوک)

فقال علی علیه السّلام: یا رسول اللّه تخلفنی مع النساء و الصبیان؟ فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«أما ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی حین قال أخلفنی فی قومی و أصلح فقال عز و جل: وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ ۱۴۹].

۳- و

روی الشیخ سلیمان الحنفی القندوزی و هو من أعلام أهل السنة المشهورین فی کتابه «ینابیع المودة» من کتاب «المناقب» عن «سلیم بن قیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۵

الهلالی» قال سمعت علیا صلوات اللّه علیه یقول: أتاه رجل فقال أرنی أدنی ما یکون به العبد مؤمنا، و أدنی ما یکون به العبد کافرا، و أدنی ما یکون به العبد ضالا فقال: قد سألت فافهم الجواب ... و أمّا أدنی ما یکون العبد به ضالا أن لا یعرف حجة اللّه تبارک و تعالی و شاهده علی عباده الذی أمر اللّه عزّ و جلّ عباده بطاعته و فرض ولایته. قلت: یا أمیر المؤمنین. صفهم لی. قال: الذین قرنهم اللّه تعالی:

بنفسه و بنبیّه فقال: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِی الْأَمْرِ مِنْکُمْ

فقلت له: جعلنی اللّه فداک أوضح لی؟ فقال: الذین قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مواضع و فی آخر خطبة یوم قبضه اللّه عز و جل إلیه: «إنّی ترکت فیکم أمرین لن تضلوا بعدی إن تمسکتم بهما: کتاب اللّه عز و جل و عترتی أهل بیتی»[۱۵۰].

۴- و کذلک کتب نفس العالم فی کتاب «ینابیع المودة»: و فی المناقب فی تفسیر مجاهد: إنّ هذه الآیة نزلت فی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام ۱۵۱].

۵- رویت أحادیث کثیرة فی مصادر الشیعة مثل کتاب الکافی و تفسیر العیاشی و کتب الصدوق و مصنفاته و غیرها تشهد جمیعها بأنّ المراد من «أولی الأمر» هم الأئمّة المعصومون، حتی أن بعضها ذکرت أسماء الأئمّة علیهم السّلام واحدا واحدا[۱۵۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۶

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۶۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ یَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ یُرِیدُونَ أَنْ یَتَحاکَمُوا إِلَی الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ یَکْفُرُوا بِهِ وَ یُرِیدُ الشَّیْطانُ أَنْ یُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِیداً (۶۰)

سبب النّزول

کان بین رجل من الیهود و رجل من المسلمین المنافقین خصومة و اختلاف، فعزما علی أن یحتکما إلی شخص، و حیث کان الیهودی

يعرف بعدل النّبى و حياده و لأنّه علم أنّه لا يأخذ الرّشوة و لا يجور فى الحكم قال: أحاكم إلى محمّد، و لكن المنافق قال: لا، بل بينى و بينك كعب بن الأشرف، (لأنّه يأخذ الرّشوة و هو من أقطاب اليهود)، و بذلك رفض التحاكم إلى رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآية توبّخ أمثال هذا الشخص، و تشجب بشدّة موقفهم المشين هذا[۱۵۳].

و قد ذكر بعض المفسرين أسبابا أخرى لنزول هذه الآية تشهد بأنّ بعض المسلمين الحديثى العهد بالإسلام كانوا- على عادتهم فى الجاهلية- يحتكمون- فى مطلع الإسلام- إلى علماء اليهود أو الكهنة، فنزلت الآية الحاضرة تنهى عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۷

هذه العادة المقيتة بشدّة[۱۵۴].

التّفسير

حكومة الطّاغوت:

الآية الحاضرة- هى فى الواقع- مكملة للآية السابقة، لأنّ الآية السابقة كانت تدعو المؤمنين إلى طاعة اللّه و الرّسول و أولى الأمر، و التحاكم إلى الكتاب و السنة، و هذه الآية تنهى عن التحاكم إلى الطاغوت و اتّباع أمره و حكمه.

و الطّاغوت- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- مشتقّة من الطغيان، و هذه الكلمة مع جميع مشتقاتها تعنى التجاوز و التعدى و كسر الحدود و تجاهل القيود، أو كل شىء يكون وسيلة للطغيان أو التمرّد.

و على هذا الأساس يكون كل من يحكم بالباطل طاغوتا، لأنّه تجاوز حدود اللّه و تعدى على قوانين الحقّ و العدل،

ففى الحديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «الطّاغوت كلّ من يتحاكم إليه ممن يحكم بغير الحقّ».

و الآية الحاضرة تنهى المسلمين عن أن يترافعوا فى الحكم و القضاء إلى مثل هؤلاء الحكام و تقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ

ثمّ يضيف القرآن قائلا: وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً أى أنّ التحاكم إلى الطاغوت فخّ الشيطان ليضل المؤمنين عن الصراط المستقيم.

و غير خفى أن الآية الحاضرة- شأنها شأن سائر الآيات القرآنية الاخرى- تتضمّن حكما عاما، و تبيّن قانونا خالدا لجميع المسلمين فى جميع العصور و الدهور. و تحذرهم من مراجعة الطواغيت، و طلب الحكم منهم، و إنّ ذلك لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۸

يناسب الإيمان باللّه و الكتب السماوية، هذا مضافا إلى كونه يضل الإنسان عن طريق الحقّ، و يلقيه فى مجاهيل الباطل بعيدا عن الحق.

إنّ مفاسد و تبعات مثل هذه الأقضية و الأحكام، و أثرها فى تحطيم كيان المجتمع البشرى و تخريب علاقاته و روابطه و أسسه ممّا لا يخفى على أحد، فهى أحد العوامل المؤثرة فى انحطاط المجتمعات و تأخرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۲۹۹

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً (۶۱) فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً (۶۲) أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً (۶۳)

التّفسير

نتائج حكم الطّاغوت:

فى أعقاب النهى الشديد عن التحاكم إلى الطاغوت و حكام الجور الذى مرّ فى الآية السابقة جاءت هذه الآيات الثلاث تدرس نتائج أمثال هذه الأحكام و الأقضية، و ما يتمسك به المنافقون لتبرير تحاكمهم إلى الطّواغيت و حكام الجور و الباطل.

ففى الآية الأولى يقول سبحانه: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً.

و فى الحقيقة يقول القرآن فى هذه الآية: إنّ التحاكم إلى الطاغوت ليس خطأ عابرا يمكن أن يعالج ببعض التذكير، بل إنّ الإصرار على هذا العمل يكشف عن ضعف إيمانهم و روح النفاق فيهم، و إلّا لوجب أن ينتبهوا و يثوبوا إلى رشدهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۰

دعوة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم و يعترفوا بخطئهم: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً.

ثمّ فى الآية الثّانية يبيّن هذه الحقيقة، و هى أن هؤلاء المنافقين عند ما يتورطون فى مصيبة كنتيجة لمواقفهم و أعمالهم، و يواجهون طريقا مسدودة يعودون إليك عن اضطرار و يأس: فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاؤُكَ ....

و يحلفون فى هذه الحالة أنّ هدفهم من التحاكم إلى الآخرين لم يكن إلّا الإحسان و التوصل إلى الوفاق بين طرفى الدّعوى: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا إِحْساناً وَ تَوْفِيقاً.

و هنا لا بدّ من الإشارة إلى نقطتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳؛ ص۳۰۰

ولى: أن نرى ما هو المقصود من المصيبة التى تصيبهم؟

لا- يبعد أن تكون المصيبة هى ما ينشأ من مضاعفات و مآسى و ويلات من حكم الطواغيت، لأنّه لا شك فى أن الحكم الصادر من الأشخاص غير الصالحين و الظالمين و إن كان ينطوى على منفعة آنية لأحد جانبى الدعوى، و لكن لا يمضى زمان إلّا و يوجب هذا الحكم ظهور الفساد و انتشار الظلم و الجور، و سيادة الهرج و المرج و تبعثر الكيان الاجتماعى، و لهذا فإنّه سرعان ما تواجه هؤلاء المتحاكمين إلى الطواغيت تبعات و مفاسد عملهم هذا، و سرعان ما يندمون على فعلهم هذا.

هذا و يحتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من «المصيبة» هو الفضيحة التى تلحق بالمنافقين، أو المصائب التى تصيبهم بأمر اللّه سبحانه (كالمآسى و المحن الغير المتوقعة).

النّقطة الثّانية: إنّ مقصود المنافقين من «الإحسان» هل هو الإحسان إلى طرفى الدعوى، أو إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ يمكن أن يكون مرادهم كلا الأمرين، فهم تذرعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۱

بحجج مضحكة لتحاكمهم إلى الطاغوت و الرجوع إلى الأجانب، من جملتها أنّهم كانوا يقولون: إنّ التحاكم إلى الرّسول صلّى اللّه

عليه و آله و سلّم لا يناسب شأنه و لا يليق بمقامه، لأنّ الغالب أن يحصل شجار و صياح فى محضر القضاة و من جانب المتداعيين، و ذلك أمر لا يناسب شأن النّبى و لا يليق بمكانته و محضره.

هذا مضافا إلى أنّ القضاء ينتهى دائما إلى الإضرار بأحد الطرفين، و لذلك فهو يثير حفيظته و عداوته ضد القاضى و الحاكم، و كأنّهم بأمثال هذه الحجج الواهية و الأعذار الموهونة، كانوا يحاولون تبرئة أنفسهم و تبرير مواقفهم الباطلة، و ادعاء أنّ تحاكمهم إلى غير النّبى كان بهدف التخفيف عن النّبى.

و ربّما اعتذروا لذلك قائلين: إنّ هدفنا لم يكن ماديا فى الأساس، بل كان التوصل إلى وفاق بين المتداعيين.

و لكن كشف سبحانه فى الآية الثّالثة النقاب عن وجههم، و أبطل هذه التبريرات الكاذبة و قال: أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ

و لكنّه سبحانه يأمر نبيّه مع ذلك أن ينصرف عن مجازاتهم و عقوبتهم فيقول:

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

و لقد كان رسول اللّه يدارى المنافقين ما أمكنه لأجل تظاهرهم بالإسلام، لأنّه كان مأمورا بالتعامل معهم على حسب ظواهرهم، فلم يكن يجازيهم إلّا فى بعض الموارد الاستثنائية، لأنّهم كانوا بين صفوف المسلمين- فى الظاهر- فكانت مجازاتهم يمكن أن تحمل على أنها نشأت من أغراض شخصية.

ثمّ إنّه سبحانه يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعظهم، و أن ينفذ إلى قلوبهم بالقول البالغ، و العظة المؤثرة، يذكرهم بنتائج أعمالهم: وَ عِظْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً (۶۴)

التّفسير

فى الآيات السابقة شجب القرآن الكريم التحاكم إلى حكّام الجور، و فى هذه الآية يقول سبحانه مؤكدا:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ أى أنّنا بعثنا الأنبياء ليطاعوا بإذن اللّه و أمره و لا يخالفهم أحد، لأنّهم كانوا رسل اللّه و سفراءه كما كانوا رؤساء الحكومة الإلهية أيضا، و على هذا يجب على الناس أن يطيعوهم من جهة بيان أحكام اللّه و من جهة طريقة تطبيقها، و لا يكتفوا بمجرّد ادعاء الإيمان.

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الهدف من إرسال الرسل و بعث الأنبياء هو إطاعة جميع الناس لهم، فإذا أساء بعض الناس استخدام حريتهم و لم يطيعوا الأنبياء كان اللوم متوجها إلى أنفسهم لا إلى أحد. و بهذا تنفى الآية الحاضرة عقيدة الجبريين الذين يقولون: الناس صنفان: صنف كلّف بالطاعة من البدء، و صنف كلّف بالمعصية من البدء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۳

كما أنّه يستفاد من عبارة بِإِذْنِ اللَّهِ أن كل ما عند الأنبياء من اللّه، أو بعبارة أخرى: إن وجوب طاعتهم ليس بالذات، بل هى- أيضا- بأمر اللّه و من ناحيته.

ثمّ إنّه سبحانه يترك باب التوبة و الإنابة- عقيب تلك الآية- مفتوحا على العصاة و المذنبين، و على الذين يراجعون الطواغيت و يتحاكمون إليهم أو يرتكبون معصية بنحو من الأنحاء، و يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً.

و الجدير بالتأمل و الانتباه إنّ القرآن يقول بدل: عصوا أمر اللّه و تحاكموا إلى الطاغوت: إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ و هو إشارة إلى أنّ فائدة الطاعة لأمر اللّه و أمر الرّسول تعود إليكم أنفسكم، و إن مخالفة ذلك نوع من الظلم توقعونه على أنفسكم، لأنّها تحطم حياتكم المادية، و توجب تخلفكم و انحطاطكم من الناحية المعنوية.

إنّ هذه الآية تجيب ضمنا على كل الذين يعتبرون التوسل برسول اللّه أو بالإمام نوعا من الشرك، لأنّ الآية تصرح بأن التوسل بالنّبى و الاستشفاع به إلى اللّه، و طلب الاستغفار منه لمغفرة المعاصى، مؤثر و موجب لقبول التوبة و شمول الرحمة الإلهية.

فلو كانت وساطة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعاؤه للعصاة المتوسلين به، و الاستشفاع به و طلب الاستغفار منه شركا، فكيف يمكن أن يأمر القرآن العصاة و المذنبين بمثل هذا الأمر؟

نعم، غاية ما فى الباب أنّ على العصاة و المذنبين أنفسهم أن يتوبوا هم و يرجعوا عن طريق الخطأ، ثمّ يستفيدوا- لقبول توبتهم- من استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و من البديهى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس من شأنه أن يغفر الذنوب، بل شأنه فى المقام أن يطلب من اللّه المغفرة خاصّة، و هذه الآية إجابة مفحمة للذين ينكرون مشروعية أو فائدة هذه الوساطات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۴

هذا و المفلت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يقل: استغفر لهم يا رسول اللّه، بل قال: وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ و هذا التعبير- لعلّه- إشارة إلى أن يستفيد النّبى من مقامه و مكانته و يستغفر للعصاة التائبين.

إنّ هذا الموضوع (أى تأثير استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمؤمنين) ورد فى آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا مثل الآية (۱۹) من سورة محمّد و الآية (۵) من سورة المنافقون و الآية (۱۱۴) من سورة التوبة التى تشير إلى استغفار إبراهيم لأبيه (عمّه)، و الآيات الاخرى التى تنهى عن الاستغفار للمشركين، و مفهومها جواز الاستغفار للمؤمنين، كما يستفاد من بعض الروايات إن الملائكة تستغفر لجماعة من المؤمنين المذنبين عند اللّه (سورة غافر الآية ۷۷، و سورة الشورى الآية ۵).

و خلاصة القول، إنّ هناك آيات كثيرة تكشف عن هذه الحقيقة و هى إنّ الأنبياء، أو الملائكة، أو المؤمنين الصادقين الطيبين بامكانهم أن يستغفروا لبعض العصاة، و إن استغفارهم مؤثر عند اللّه، و هذا هو أحد معانى شفاعة النّبى أو الملائكة أو المؤمنين الطيبين للعصاة و الخاطئين، و لكن الشّفاعة كما قلنا تحتاج إلى أرضية و صلاحية و أهلية فى العصاة أنفسهم.

و العجيب أنّه يستفاد من بعض ما قاله جماعة من المفسّرين أنّهم أرادوا اعتبار استغفار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- فى الآية الحاضرة- مرتبطا بالتجاوزات الواقعة فى شؤون النّبى خاصّة لا مطلق المعاصى و الذنوب، و كأنّهم أرادوا أن يقولوا: لو أنّ أحدا ظلم النّبى أو أساء إليه وجب استحلاله و استرضاؤه ليغفر اللّه تلك الإساءة و يتوب على ذلك التجاوز.

و لكن من الواضح البيّن أن إرجاع التحاكم إلى غير النّبى ليس ظلما شخصيا يهدف به شخص النّبى، بل هى مخالفة لمنصبه الإلهى الخاص (أو بعبارة أخرى) إنّها مخالفة للأمر الإلهى، و حتى إذا كان ذلك ظلما شخصيا موجها إلى شخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۵

النّبى- افتراضا- فإن القرآن لم يقصده و لم يركز عليه، بل ركز القرآن على هذا الموضوع و هو أن ذلك التحاكم مخالفة لأمر اللّه و تجاهل لإرادته.

هذا مضافا إلى أنّنا لو ظلمنا أحدا كفانا رضاه، فما الحاجة إلى طلب استغفاره، و دعائه للمسىء؟ بل و فوق ذلك كلّه، لو أننا فسّرنا

الآيـة بمثل هـذا التّفسـير- فرضا- فما الـذى نقوله فى تلك المجموعة الكبيرة من الآيات التى تشـير إلى اسـتغفار الأنبياء، و الملائكة و المؤمنين للعصاة و الخاطئين؟

فهل المقام فيها مقام الحقوق الشخصية أيضا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۶۵]

اشارة

فَلا وَ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (۶۵)

سبب النّزول

وقع خصـام بين الزّبير بن العوام- و هو من المهـاجرين- و بين رجـل من الأنصـار على سـقى نخيلهمـا التى كانت متقاربـة فى المكان، فترافعا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و حيث أن نخيل الزبير كانت أعلى مكانا من نخيل الأنصارى،

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للزبير: «اسق ثمّ أرسل إلى جارک»

(و قـد كـانت هـذه هى العـادة فى البساتين المتجاورة آنـذاک) فغضب الأنصارى من حكم النّبى العادل هـذا، و قال: يا رسول اللّه لئن كان ابن عمتک؟ فتلون وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انزعاجا من موقف الأنصارى و كلامه، فنزلت الآية الحاضرة تحذر المسلمين من مثل هذه المواقف.

و قـد ذكرت فى بعض التفاسـير أسـباب أخرى لنزول الآيـة تشابه- إلى درجـة كبيرة- ما ذكر فى سـبب النزول المتقـدم (راجع تفسـير التّبيان و الطّبرسى، و المنار).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۷

التّفسير

التّسليم أمام الحق:

الآية، و إن ذكر لها سبب نزولها خاص- و لكننا أسلفنا غير مرّة أن أسباب النزول الخاصّة لا تنافى عمومية مفهوم الآيات، و لهذا يمكن اعتبار هذه الآية تكميلا لما جاء من البحث فى الآيات السابقة.

و لقـد أقسم اللّه- فى هـذه الآيـة- بـأنّ الأفراد لا يمكن أن يمتلكوا إيمانا واقعيا إلّا إذا تحاكموا إلى النّبى و قضائه، و لم يتحاكموا إلى غيره فَلا وَ رَبِّکَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوکَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثمّ يقـول سـبحانه: يجب عليهم، أن يتحـاكموا إليـک فقـط، و مضافـا إلى ذلـک ليرضـوا بمـا تحكمه، سواء كـان فى صـالحهم أو فى ضررهم و لا يشعروا بأى حرج فى نفوسهم فضلا عن أن لا يعترضوا، و بالتالى ليسلموا تسليما.

ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً:

و الانزعـاج النفسـى البـاطنى من الأحكـام التى ربّمـا تكون فى ضـرر الإنسـان، و إن كان فى الأغلب أمرا غير اختيارى، إلّا أنّه على أثر

التربيـة الخلقيـة المسـتمرة يمكن أن تحصل لـدى الإنسان روح التسـليم أمام الحق، و الخضوع للعدالة، خاصّة بملاحظة المكانة لواقعية النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلا ينزعج من أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل و لا من أحكام العلماء الذين يخلفونه، و على كل فإن المسلمين الواقعيين مكلفون دائما بتنمية روح الخضوع للحق، و التسليم أمام العدل فى نفوسهم.

إن الآية الحاضرة تبيّن علائم الإيمان الواقعى الراسخ فى ثلاث مراحل:

۱- أن يتحاكموا إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم- و حكمه النابع من الحكم الإلهى- فى ما اختلفوا فيه، كبيرا كان أم صغيرا، لا إلى الطواغيت و حكام الجور و الباطل.

۲- أن لا- يشـعروا بـأى انزعاج أو حرج فى نفوسـهم تجاه أحكام الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أقضـيته العادلـة التى هى- فى الحقيقة- نفس الأوامر الإلهية، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۸

يسيئوا الظن بهذه الأحكام.

۳- أن يطبقوا تلك الأحكام- فى مرحلة تنفيذها- تطبيقا كاملا و يسلموا أمام الحق تسليما مطلقا.

و من الواضح أنّ القبول بأى دين و أحكامه فى ما إذا كانت فى مصـلحة الإنسان و كانت مناسبة لمنافعه و تطلعاته، لا يمكن أن يكون دليلا- على إيمـانه بـذلك الـدين، بـل يثبت ذلك إذا كانت تلك الأحكام فى الاتجاه المتعاكس لمنافعه و تطلعاته ظاهرا، و إن كانت مطابقة للحق و العدل فى الواقع، فإذا قبل بمثل هذه الأحكام و سلم لها تسليما كاملا كان ذلك دليلا على إيمانه و رسوخ اعتقاده.

فقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «لو أن قوما عبدوا اللّه وحده لا شريك له و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و حجوا البيت و صاموا شـهر رمضان ثمّ قالوا لشـىء صنعه اللّه و صنع رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم صنع هكذا و كذا، و لو صنع خلاـف الـذى صـنع، أو وجـدوا ذلـك فى قلوبهم لكانوا بـذلك مشـركين، ثمّ تلا هـذه الآيـة (الحاضـرة) ثمّ قال عليه السّـلام: عليكم بالتسليم»[۱۵۵].

ثمّ أنّه يستفاد من الآية الحاضرة مطلبان مهمّان- ضمنا:

۱- إنّ الآية إحدى الأدلة على عصـمة النّبى الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الأمر بالتسليم المطلق أمام جميع أحكامه و أوامره قولا و عملا، بل و التسـليم القلبى و الخضوع الباطنى له أيضا دليل واضح على أنّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لا يخطئ فى أحكامه و أقضيته و تعليماته، و لا يتعمد قول ما يخالف الحق فهو معصوم عن الخطأ، كما هو معصوم عن الذنب أيضا.

۲- إنّ الآية الحاضـرة تبطل كلّ اجتهاد فى مقابل النص الوارد عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و تنفى شرعية كل رأى شخصى فى الموارد التى وصلت إلينا فيها أحكام صريحة من جانب اللّه تعالى و نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۰۹

و على هـذا الإسـاس فـإن ما نراه فى التاريـخ الإسـلامى من اجتهاد بعض الأشـخاص فى مقابل الأحكام الإلهيـة و النصوص النبويـة، و قولهم: قال النّبى كذا و نقول كذا، فليس أمامنا حياله إلّا أن نذعن بأنّهم عملوا على خلاف صريح هذه الآية، و خالفوا نصها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۶۶ الى ۶۸]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنـا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَـكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيـارِكُمْ مـا فَعَلُوهُ إِلاَّـ قَلِيـلٌ مِنْهُمْ وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ

أَشَدَّ تَثْبِيتاً (۶۶) وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (۶۷) وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۶۸)

التّفسير

تكميلا للبحث السابق حول أولئك الذين يشعرون بضيق و حرج تجاه أحكام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقضيته العادلة بعض الأحيان- يشير القرآن هنا إلى بعض التكاليف و الفرائض الثقيلة فى الأمم السالفة فيقول: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

أى أنّنا لم نكلّفهم بأية فريضة شاقة لا تتحمل، و لو أنّنا كنّا نكلّفهم بمثل ما كلّفنا به الأمم السابقة (مثل اليهود الذين أمروا بأن يقتل بعضهم البعض الآخر كفارة لما ارتكبوه من عبادة العجل، أو يخرجوا من وطنهم المحبب إليهم لذلك) كيف كانوا يتحملونه؟ إنّهم لم يتحملوا حكما بسيطا أصدره النّبى فى أمر سقى نخلات، و لم يسلموا لهذا القضاء العادل، فكيف ترى يمكنهم أن يقوموا بالمهمات العظيمة و المسؤوليات الجسيمة و يمروا بالاختبارات الصعبة بنجاح، فلو أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۱

أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم (أى يقتل بعضهم بعضا) أو يخرجوا من وطنهم المحبب عندهم لما فعله إلّا قليل منهم.

إنّ مسألة «الاستعداد للقتل» تشبه- حسب قول بعض المفسّرين- مسألة «الخروج عن الوطن» من جهات عديدة، لأنّ البدن وطن الروح الإنسانية تماما كما أنّ الوطن مثل الجسم الإنسانى، فكما أنّ التغاضى عن ترك وطن الجسم أمر صعب، كذلك التغاضى عن الوطن الذى هو مسقط رأس الإنسان و محل ولادته و نشأته.

ثمّ إنّ اللّه سبحانه يقول: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى لو أنّهم قبلوا نصائح النّبى و مواعظه لكان ذلك من مصلحتهم، و لكان سببا لتقوية أسس الإيمان عندهم.

و الملفت للنظر أنّ القرآن يعبّر- فى هذه الآية- عن الأحكام و الأوامر الإلهية بالموعظة، و هو إشارة إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست أمورا تصب فى مصلحة المشرّع (أى اللّه) أو تجر له نفعا، بل هى- فى الحقيقة- نصائح و مواعظ نافعة لكم، و لهذا يقول و دون تأخير: وَ لَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى تقوية لإيمانهم و ترسيخا لجذورها فى نفوسهم.

و لا بدّ أيضا أن ننتبه إلى هذه النقطة، و هى أنّ اللّه سبحانه يقول فى ختام هذه الآية وَ أَشَدَّ تَثْبِيتاً أى كلّما اجتهد الإنسان فى السير فى سبيل طاعة اللّه و تنفيذ أوامره ازدادت استقامته و ازداد ثباته، و هذا يعنى أن إطاعة الأوامر الإلهية نوع من الرياضة الروحية التى تحصل للإنسان من تكرارها قوة و ثبات أكبر و استحكام أكثر، على غرار ما يحصل للجسم نتيجة تكرار الرياضات الجسمية و التمارين الرياضية البدنية، فيصل الإنسان- نتيجة ذلك- إلى مرحلة لا يمكن لأية قدرة أن تغلب قدرته أو تخدعه أو تزعزعه.

ثمّ إنّه سبحانه يبيّن- فى الآية الثّانية- الفائدة الثّالثة من فوائد التسليم لأوامر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۲

اللّه و طاعته إذ يقول: وَ إِذاً لَآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً أى إذا لأعطيناهم- مضافا إلى ما ذكرناه- أجرا من عندنا عظيما، لا يعرف منتهاه و لا يدرك مداه.

ثمّ فى آخر آية من هذه الآيات يشير سبحانه إلى رابع نتيجة إذ يقول:

وَ لَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً.

و من الواضح البيّن أنّ المراد من هذه «الهداية» ليس هو الإرشاد إلى أصل الدين، بل المراد الطاف جديدة يمن بها اللّه سبحانه على مثل هؤلاء العباد الصالحين بعنوان الثواب و الهداية الثانوية، فهو يشبه ما أشير إليه فى الآية (۱۷) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً

و

قد روى أنّه عند ما نزل قوله: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ...

قال رجل من المسلمين: و اللّه لو أمرنا لفعلنا فالحمد للّه الذى عافانا.

فلما بلغ هذا الكلام إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال:

«إنّ من أمتى لرجالا الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى»[۱۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۳

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشارة

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً (۶۹) ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ عَلِيماً (۷۰)

سبب النّزول

كان أحد الصّحابة يدعى «ثوبان» شديد الحبّ لرسول اللّه قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم و قد تغير لونه و نحل جسمه

فقال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا ثوبان ما غير لونك؟

فقال: يا رسول اللّه ما من مرض و لا وجع غير أنى إذا لم أراك اشتقت إليك حتى ألقاك، ثمّ ذكرت الآخرة فأخاف أنّى لا أراك، و إنّى إن أدخلت الجنّة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك، و إن لم أدخل الجنّة فذاك حتى لا أراك أبدا.

فنزلت الآيتان الحاضرتان تبشران أمثال هذا بأنّ المطيعين سيكونون مع النّبيين و من اختارهم اللّه و أنعم عليهم فى الجنّة.

ثمّ

أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «و الذى نفسى بيده لا يؤمنن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه و أبويه و أهله و ولده و الناس أجمعين»

أى يكون مسلما لتعاليمى و أوامرى، تسليما كاملا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۴

التّفسير

رفقاء الجنّة:

فى هذه الآية يبيّن القرآن ميزة أخرى من ميزات من يطيع أوامر اللّه تعالى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و فى الحقيقة مكملة للميزات التى جاء ذكرها فى الآيات السابقة، و هى صحبة الذين أتمّ اللّه نعمه عليهم و مرافقتهم: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ....

و كما أسلفنا فى سورة الحمد فإنّ الذين أنعم اللّه عليهم هم الذين ساروا فى الطريق المستقيم و لم يرتكبوا أى خطأ، و لم يكن فيهم

أى انحراف.

ثمّ يشير- لدى توضيح هذه الجملة، و تحديد من أنعم اللّه عليهم- إلى أربع طوائف يشكلون فى الحقيقة الأركان الأربعة لهذا الموضوع و هم:

۱- الأنبياء: أى رسل اللّه تعالى الذين كانوا طليعة السائرين فى سبيل هداية الناس و دعوتهم إلى الصراط المستقيم مِنَ النَّبِيِّينَ

۲- الصّادقون: و هم الذين يصدقون فى القول و يصدقون إيمانهم بالعمل الصالح، و يثبتون أنّهم ليسوا مجرّد أدعياء الإيمان، بل مؤمنون بصدق بأوامر اللّه و تعاليمه وَ الصِّدِّيقِينَ

و من هذا التعبير يتّضح أنّه ليس بعد مقام النبوة أعلى من مقام الصدق، و الصدق هذا لا ينحصر فى الصدق فى القول فقط، بل هو الصدق فى الفعل و العمل ... الصدق فى الممارسات و المواقف، و هو لذلك يشمل الأمانة و الإخلاص أيضا، لأن الأمانة هى الصدق فى العمل كما أن الصدق أمانة فى القول، و فى المقام ليس هناك صفة بعد الكفر أقبح من الكذب و النفاق و الخيانة فى القول و العمل (و يجب الانتباه- هنا- إلى أن الصدّيق صيغة مبالغة و هى بمعنى الصادق كله، ظاهرا و باطنا).

و قد فسّر «الصدّيق» فى بعض الروايات و الأخبار بعلى عليه السّلام و الأئمّة من أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۵

البيت النّبوى عليهم السّلام، و هذا التّفسير كما قلنا فى ما سبق من باب بيان المصداق الأكمل و الأوضح لهذه الآيات، فلا تفيد الحصر و القصر.

۳- الشّهداء: الذين قتلوا فى سبيل اللّه و فى سبيل العقيدة الإلهية الطاهرة، أو الذين يشهدون على الناس و أعمالهم فى الآخرة وَ الشُّهَداءِ[۱۵۷].

۴- الصّالحون: و هم الذين بلغوا بأعمالهم الصالحة و المفيدة و باتّباع الأنبياء و أوامرهم إلى مراتب عالية و مقامات رفيعة وَ الصَّالِحِينَ

و لهذا فسّر «الصّالحون» فى رواياتنا و أحاديثنا، بالصفوة المختارة من أصحاب الأئمّة عليهم السّلام و هذا هو أيضا من باب بيان أظهر المصاديق و أوضحها كما أسلفنا فى تفسير الصديقين.

و النقطة الجديرة بالتذكير هنا هى أن ذكر هذه المراحل الأربع يمكن أن يكون إشارة إلى أنّه لا بدّ لبناء المجتمع الإنسانى الصالح و السليم من: أن يبدأ الأنبياء- و هم القادة و الهداة بحق الهداية، ثمّ يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول و العمل، و هم الصادقون الذين يصدق عملهم قولهم و فعلهم دعواهم فينشروا الحقائق فى كل مكان، ثمّ بعد مرحلة البناء الفكرى و الاعتقادى هذه، يقوم جماعة فى وجه العناصر الفاسدة و من يريدون الوقوف فى طريق الحقّ، فيضحون بأنفسهم و يقدمون أجسادهم و حياتهم قرابين للحقّ و العدل، فيكون حاصل هذه الجهود و المساعى ظهور الصّالحين و استقرار المجتمع الطاهر السليم.

و من الواضح البيّن أنّ على الصالحين أيضا أن يقوموا بهذه الواجبات الثلاث أى عليهم أن يقودوا، و يبلغوا، و يضحوا لكى يبقوا على جذوة الحق متقدة، و على مشعل العدل مضيئا للأجيال اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۶

كما أنّه يستفاد من الآيات الحاضرة ضمنا هذه الحقيقة، و هى أنّ مسألة مرافقة الصالحين و صحبة الرفقاء الطيبين لها من الأهمية بحيث تعتبر فى الآخرة الجزء المكمل للنعم الإلهية الكبرى التى يمنّ اللّه بها على المطيعين فى الجنّة، فهم علاوة على كل ما يحصلون عليه من نعم و ميزات سيحظون بمرافقة رفقاء كالأنبياء و الصّديقين و الشّهداء و الصّالحين.

و لعلنا فى غنى عن التذكير بأن معاشرة المطيعين لهذه الطوائف الأربع ليس معناه أنّهم فى منزلتهم و رتبتهم، و إنّهم فى درجتهم من جميع الجهات، بل يعنى أن لكل واحد منهم- مع معاشرة بعضهم لبعض- سهما خاصا (يتناسب و مقامه) من المواهب و الألطاف الإلهية، فهم كأشجار بستان واحد و وروده و أعشابه، فهى مع كونها مجتمعة متجاوزة و مع أنّها تستفيد برمتها من ضوء الشمس و

المطر، و لكنها ليست متساوية فى حجم الاستفادة من تلك العناصر، كما أنّها ليست متساوية فى القيمة.

ثمّ يبيّن سبحانه فى الآية اللاحقة أهمية هذا الامتياز الكبير (أى مرافقة تلك الصفوة المختارة) إنّ هذه الهبة من جانب اللّه، و هو عليم بأحوال عباده و نواياهم و مؤهلاتهم: ذلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ، وَ كَفى بِاللَّهِ عَلِيماً، فلا يخطئ فى الإثابة و الجزاء حيث أن «ذلك» إشارة إلى البعيد لهذا يوحى فى هذه الموارد إلى أهمية المقام و علوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً (۷۱)

التّفسير

الحذر الدّائم:

«الحذر» يعنى اليقظة و التأهب و الترقب لخطر محتمل، كما يعنى أحيانا الوسيلة التى يستعان بها لدفع الخطر.

أمّا كلمة «ثبات» فتفيد معنى المجموعات المتفرقة، و مفردها «ثبة» من مادة «ثبى» أى جمع.

و القرآن يخاطب عامّة المسلمين فى الآية المذكورة أعلاه، و يقدم لهم اثنتين من التعاليم اللازمة لصيانة وجود المسلمين و المجتمع الإسلامى تجاه كل خطر يهدد هذا الوجود.

ففى البداية تأمر الآية المؤمنين بالتمسك باليقظة و البقاء فى حالة التأهب من أجل مواجهة العدو، و تحذرهم من الغفلة عن هذا الأمر: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ....

ثمّ تأمر الآية بالاستفادة من الأساليب و التكتيكات المختلفة فى مواجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۸

العدو، من ذلك الزحف على شكل مجموعات إن تطلب الأمر مثل هذا الأسلوب، أو على شكل جيش موحّد مترابط إن استدعت المواجهة هجوما شاملا منسجما، و فى كلتا الحالتين لا بدّ من المواجهة الجماعية فَانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً.

ذهب بعض المفسّرين إلى أن معنى «الحذر» فى الآية هو «السلاح» لا غير، بينما للحذر معنى واسع لا يقتصر على السلاح، ثمّ أن الآية (۱۰۲) من هذه السورة تدل بوضوح على أنّ الحذر غير السلاح حيث يقول تعالى: ... أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ ... و جواز وضع السلاح (فى الصلاة) مع أخذ الحذر يدل على أنّ الحذر لا يعنى السلاح بالذات.

الآية الكريمة هذه تشتمل على أمر عام مطلق لجميع المسلمين فى كلّ العصور و الأزمنة، و يدعو هذا الأمر المسلمين إلى الالتزام باليقظة و الاستعداد الدائم لمواجهة أى طارىء من جانب الأعداء و لحماية أمن الأمّة، و ذلك عن طريق التحلّى بالاستعداد المادى و المعنوى الدائمين.

و كلمة «الحذر» أيضا تستوعب بمعانيها الواسعة- كل أنواع الوسائل المادية و المعنوية الدفاعية التى يتحتم على المسلمين اتباعها، من ذلك التعرف على قدرة العدو من حيث العدّة و العدد، و أساليبه الحربية، و الإستراتيجية، و مدى فاعلية أسلحته، و كيفية مواجهتها و الاحتماء من خطرها و خطر العدوّ نفسه، و بذلك يكون المسلمون قد أوفوا من حيث العمل بما يتطلبه منهم أمر «الحذر» من الاستعداد

و التأهب و اليقظة لمواجهة أى خطر طارىء.

و يشتمل أمر «الحذر» أيضا على الاستعداد النفسى و الثقافى و الاقتصادى، لتعبئة كافة الإمكانيات البشرية، و الاستفادة من أقوى أنواع الأسلحة و أكثرها تطورا فى الوقت المطلوب، و كذلك الإلمام بصور استخدام هذا السلاح و أساليبه، فإذا كان المسلمون يلتزمون بهذا الأمر و يطبقونه على حياتهم لاستطاعوا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۱۹

يجنّبوا أنفسهم و أمّتهم الفشل و التقهقر و الهزيمة على مدى تاريخهم الملىء بالأحداث.

و الشىء الآخر الذى يفهم من هذه الآية الكريمة، هو اختلاف أساليب مواجهة العدو بحسب ما تقتضيه الضرورة، و يعينه الظرف، و يحدد موقع العدو- فلو كان هذا الموقع يتطلب مقابلة العدو بجماعات منفصلة، لوجب استخدام هذا الأسلوب مع كل ما يحتاج إليه من عدد و عدّة و غير ذلك، و قد يكون موقع العدو بصورة تقتضى مواجهة العدو فى هجوم عام ضمن مجموعة واحدة متماسكة، و عند هذا يجب أن يعدّ المسلمون العدّة اللازمة و العدد الكافى لمثل هذا الهجوم الشامل.

و من هنا يتّضح أنّ إصرار البعض على أن يكون للمسلمين أسلوب كفاحى واحد دون اختلاف فى التكتيك لا يقوم على منطق و لا تدعمه التجارب، إضافة إلى أنّه يتنافى مع روح التعاليم الإسلامية.

لعل الآية- أعلاه- تشير أيضا إلى أنّ المسألة الهامّة هى تحقيق الأهداف الواقعية سواء تطلب الأمر أن يسلك الجميع أسلوبا واحدا، أو أن ينهجوا أساليب متنوعة.

و يفهم من كلمة «جميعا» أنّها تعنى أنّ المسلمين كافّة مكلّفون بالمشاركة فى أمر مواجهة العدو، و لا يختص هذا الحكم بطائفة معينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۷۲ الى ۷۳]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً (۷۲) وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً (۷۳)

التّفسير

بعد صدور الأمر العام إلى المسلمين بالجهاد و الاستعداد لمقابلة العدوّ فى الآية السابقة تبيّن هاتان الآيتان موقف المنافقين من الجهاد، و تفضح تذبذبهم، فهم يصرّون على الامتناع عن المشاركة فى صفوف المجاهدين فى سبيل اللّه ...

وَ إِنَّ مِنْكُمْ ۱۵۸] لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَ ۱۵۹] ....

و حين يعود المجاهدون من ميدان القتال أو حين تصل أنباء معاركهم، فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۱

كان قد أصابهم مكروه فى قتالهم يتحدث المنافقون بابتهاج بأنّ اللّه قد أنعم عليهم نعمة كبيرة إذ لم يشاركوا المجاهدين فى ذلك القتال، و يفرحون لعدم حضورهم فى مشاهد الحرب الرهيبة فَإِنْ أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيداً ....

و حين تصل الأخبار بانتصار المسلمين المجاهدين و نيلهم المغانم، يتبدل موقف هؤلاء المنافقين فتبدو الحسرة عليهم و يظهر الندم على وجوههم، و يشرعون- و كأنّهم غرباء لا- تربطهم بالمسلمين أية رابطة- بترديد عبارات التأسف: وَ لَئِنْ أَصابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ

لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يا لَيْتَنِى كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً.

فى الآية إشارة إلى المفهوم المادى للنصر فى نظر المنافقين، فالذى يرى الشهادة و القتل فى سبيل اللّه مصيبة و بلاء، و يخال النجاة من القتل أو الشهادة فى هذه السبيل نعمة إلهية، لا ينظر إلى النصر و الفوز إلّا من خلال منظار كسب الغنائم و المتاع المادى لا غير.

هؤلاء المتلونون الموجودون- مع الأسف- فى كل المجتمعات، سرعان ما يغيرون أقنعتهم تجاه ما يواجهه المؤمنون من نصر أو هزيمة، هؤلاء لا يشاركون المؤمنين فى معاناتهم و لا يساعدونهم فى الملمات، لكنّهم يتوقعون أن يكون لهم فى الانتصارات السّهم الأوفى، و أن يحصلوا على ما يحصل عليه المجاهدون المؤمنون من امتيازات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۴]

اشارة

فَلْيُقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۷۴)

التّفسير

إعداد المؤمنين للجهاد:

بعد أن أوضحت الآية السابقة إحجام المنافقين عن مشاركة المجاهدين فى القتال تتوجه الآية (۷۴) و التى تليها- بلغة مشجعة مشوقة- إلى المؤمنين فتدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه، و نزول هذه الآيات حين كان الإسلام مهددا من قبل مختلف الأعداء- سواء من الداخل أو الخارج- يدل على أهميتها فى تربية الروح الجهادية لدى المسلمين.

و توضح الآية فى بدايتها أنّ أعباء الجهاد يجب أن تكون على عاتق أولئك النفر الذين باعوا حياتهم الدنيوية المادية الزائلة، مقابل فوزهم بالحياة الأخروية الخالدة: فَلْيُقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ ... أى أن المجاهدون الحقيقيون هم وحدهم المستعدون للدخول فى هذه الصفقة، بعد أن انكشفت لهم دناءة الحياة المادية (و هو ما يفهم من لفظ الدنيا)، فهؤلاء أدركوا أن هذه الحياة لا قيمة لها تجاه الحياة الأبدية الخالدة، أمّا الذين يرون الأصالة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۳

الحياة المادية الدنيئة، و يعتبرونها أرفع و أكبر من الأهداف الإلهية المقدسة و الأهداف الإنسانية السامية، فلا يمكن أن يكونوا أبدا مجاهدين صالحين.

و تستمر الآية مبينة أنّ مصير المجاهدين الحقيقيين الذين باعوا الحياة الدنيا بالآخرة واضح لا يخرج عن حالتين: إمّا النصر على الأعداء، أو الشهادة فى سبيل اللّه، و هم فى كلتا الحالتين ينالون الأجر و الثواب العظيم من اللّه تعالى ... وَ مَنْ يُقاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً و بديهى أن جنودا كهؤلاء لا يفهمون معنى الهزيمة، فهم يرون النصر إلى جانبهم فى الحالتين:

سواء تغلّبوا على العدو، أو نالوا الشهادة فى سبيل اللّه، و مثل هذه المعنويات كفيلة بأن تمهد الطريق للانتصار على العدو، و يعتبر التاريخ خير شاهد على أنّ هذه المعنويات هى العامل فى انتصار المسلمين على أعداء فأقوهم عددا و عدّة.

و يؤكّد هذا الأمر حتى المفكرون من غير المسلمين ممن كتبوا عن انتصارات المسلمين السريعة التى حققوها فى عصر الرّسول صلّى

اللّه عليه و آله و سلّم و فى العصور التالية، فهؤلاء المفكرون يرون أن منطق الفوز بإحدى الحسنيين أحد العوامل الحاسمة فى تقدم المسلمين.

يقول مؤرخ غربى مشهور فى كتاب له فى هذا المجال: إنّ المسلمين لم يكونوا ليخافوا الموت فى سبيل دينهم الجديد، لما وعدوا به من هبات إلهية فى الآخرة، و أنّهم لم يعتقدوا بأصالة خلود هذه الحياة الدنيا، و لذلك فهم قد تنازلوا عن هذه الحياة فى سبيل العقيدة و الهدف ۱۶۰].

و الجدير ذكره هنا هو أنّ هذه الآية- و آيات أخرى من القرآن الكريم- اعتبرت الجهاد أمرا مقدسا إذا كان فى سبيل اللّه، و من أجل إنقاذ البشر، و إحياء مبادئ الحق و العدالة و الطهارة و التقوى، على عكس الحروب التى تشن بهدف التوسع و بدافع من التعصب و التوحش و الاستعمار و الاستغلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۵]

اشارة

وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (۷۵)

التّفسير

الاستعانة بالعواطف و المشاعر الإنسانية:

كانت الآية السابقة تطالب المؤمنين بالجهاد معتمدة على إيمانهم باللّه و اليوم الآخر، و قد اعتمدت أيضا قضية الربح و الخسارة فى سياق دعوتها إلى الجهاد، أمّا هذه الآية فتستند فى دعوتها الجهادية إلى العواطف و المشاعر الإنسانية و تستثيرها فى هذا الاتجاه- فهى تخاطب مشاعر المؤمنين و عواطفهم بعرض ما يتحمله الرجال و النساء و الأطفال المضطهدون من عذاب و ظلم بين مخالب الطغاة الجبارين، و تطالب المؤمنين- مستثيرة عواطفهم فى هذا الاتجاه- عن طريق عرض المشاهد المأساوية التى يعانى منها المستضعفون و تدعوهم إلى الجهاد فى سبيل اللّه من أجل إنقاذ هؤلاء المظلومين فتقول الآية: وَ ما لَكُمْ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۵

تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ ۱۶۱] مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ ....

و لأجل إثارة المشاعر أكثر، تنبّه الآية المؤمنين بأنّ المستضعفين المذكورين لكثرة معاناتهم من البطش و الإرهاب و الاضطهاد قد انقطع أملهم فى النجاة و يئسوا من كل عون خارجى، فأخذوا يدعون اللّه لإخراجهم من ذلك المحيط الرهيب المشحون بأنواع البطش و الرعب و الظلم الفاحش: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُها و يطلب المستضعفون من اللّه- أيضا- أن يرسل لهم من يتولى الدفاع عنهم و ينجيهم من الظالمين بقولهم:

وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً.

الآية- فى الواقع- نشير إلى أنّ اللّه قد استجاب دعاء المستضعفين، فهذه الرسالة الإنسانية الكبرى قد أوكلت إليكم أنتم أيّها المسلمون المخاطبون، فقد أصبحتم أنتم «الولى» المرتقب و أنتم «النصير» من قبل اللّه تعالى لإنقاذ المستضعفين، من هنا عليكم أن تنهضوا بهذه

المسؤولية و تستثمروا هذه المكانة الكبرى المناطة إليكم و لا تضيعوها.

و الآية هذه يستفاد منها أيضا عدّة أمور، هى:

۱- إنّ الجهاد فى سبيل اللّه و كما أشير إليه من قبل- ليس من أجل انتزاع الأموال و السلطة و الثروات من أيدى الآخرين، كما أنّه لا يستهدف إيجاد أسواق لاستهلاك البضائع أو لفرض عقائد خاصّة بالقوّة، بل أنه يستهدف نشر الفضيلة و الإيمان و الدفاع عن المظلومين و المضطهدين من النساء و الرجال و الولدان، و من هذا المنطلق يتّضح أنّ للجهاد هدفين شاملين جامعين أشارت الآية إليهما، أحدهما «ربّانى»، و آخر «إنسانى» يكمل أحدهما الآخر، و لا ينفصلان، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۶

كلاهما يعودان إلى حقيقة واحدة.

۲- إنّ الإسلام يرى أن المحيط السالم الذى يمكن للإنسان أن يعيش فيه، هو ذلك المحيط الذى يوفّر الحرية للإنسان، و يضمن له العمل بما يعتقد دون مانع أو أذى، و يرى الإسلام- أيضا- أنّ المحيط الذى يسوده الكبت و الإرهاب و القمع، و لا يستطيع المسلم فيه إظهار عقيدته أو إعلان إسلامه، فهو محيط لا يجدر بالإنسان المسلم أن يبقى فيه، لذلك فإن الآية تنقل عن المؤمنين دعاءهم إلى اللّه لكى يخلصهم من مثل هذا الجو الملىء بالقمع و الإرهاب.

و على الرغم من أن مكّة كانت ملجأ و ملاذا للمهاجرين، فإنّ تفشى الظلم فيها جعل المؤمنين يدعون اللّه لإنقاذهم من ظلم أهل هذه المدينة، و ييسر لهم سبيلا إلى الخروج منها.

۳- و فى نهاية الآية نرى أنّ المؤمنين الذين يعانون من محيطهم الظالم، يسألون اللّه أن يبعث لهم من يتولى شؤونهم، و أن يمدهم- أيضا- بمن ينصرهم على الظالمين و يخلصهم من مخالبهم، و يفهم من هذه الآية أهمية القيادة الصالحة، و أهمية قدرة هذه القيادة فى إنقاذ المظلومين و ضرورة امتلاكها من العدد و العدّة ما يمكنها من القيام بمسؤوليتها الخطيرة هذه.

بذلك نستنتج من الآية العناصر التى يجب أن تتوفر فى كل قيادة إسلامية، و هى كما يلى:

أ- أن تكون القيادة صالحة (بما فى كلمة الصلاح من شمولية) ب- أن تكون قوية مقتدرة (أن تملك العدد و العدّة الكافيين، بالإضافة إلى الخطط العسكرية التى تضمن نجاح استخدام القوّة الموجودة).

۴- تبيّن الآية أنّ المؤمنين يطلبون حاجاتهم من اللّه العلى القدير وحده، و لا يلجئون إلى غيره فى حوائجهم، حتى أنّهم يسألون اللّه أن يمدهم بمن يتولى الدفاع عنهم و ينصرهم على الظالمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۶]

اشارة

الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً (۷۶)

التّفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة قضية الجهاد، و أبرزت عناصره و المخاطبين به و دوافعه، و فى هذه الآية نلاحظ أنّها تحث المجاهدين على القتال، و تبيّن أهدافهم، مؤكّدة أنّهم يقاتلون فى سبيل اللّه و لمصلحة عباد اللّه، و أن الكافرين يقاتلون فى سبيل الطاغوت المتجبر: الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ أى أنّ الحياة فى كل الأحوال لا تخلو من

الكفاح و الصراع، غير أن جمعا يقاتلون فى طريق الحق، و جمعا يقاتلون فى طريق الشيطان و الباطل.

لذلك تطلب الآية من أنصار الحق أن ينبروا لقتال أنصار الشيطان دونما رهبة و خوف: فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ

كما توضح هذه الآية حقيقة مهمّة، هى أنّ الطاغوت و القوى المتجبرة- مهما امتلكت من قوة ظاهرية- ضعيفة فى نفسها و جبانة فى باطنها، و بهذا تطمئن الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۸

المؤمنين كى لا يخافوا من هؤلاء الطواغيت مهما أوتوا من عدّة أو عدد، لأنّهم خالون من الهدف فارغون من الإيمان، و لذلك كانت خططهم كلها ضعيفة خاوية كقدرتهم و لأنّهم لا يعتمدون على منشأ القدرة الأزلية الأبدية الذى هو اللّه العزيز القدير، بل يعتمدون على قدرة الشيطان الضعيفة الجوفاء: إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً.

أما سبب قوة المؤمنين من أنصار الحق فيعود إلى أنهم يسيرون فى طريق أهداف و حقائق تنسجم مع قانون الخليقة و الوجود، و تتمتع بالصفة الأزلية الأبدية، فهم يجاهدون فى سبيل تحرير الإنسان و محو آثار الظلم و العدوان بينما الطاغوت و أنصاره يقاتلون من أجل منافعهم الشخصية أو يعملون فى خدمة الطواغيت و المستكبرين من أجل استغلال البشر إرضاء لشهواتهم الفانية الزائلة، الأمر الذى يدفع فى النهاية بالمجتمع إلى الانحطاط و الزّوال، لأنّ عمل الطواغيت يتناقض و سرّ الوجود و يتعارض مع قوانين الفطرة و الطبيعة، هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن المؤمنين باعتمادهم على القوى الروحية يتمتعون بثقة عالية بالنفس و بهدوء باطنى يمهّد لهم سبيل النصر و الفوز على العدو، بل و يهبهم القوّة و القدرة على الاندفاع لمواجهة الأعداء، بينما العدو و الكافر لا يعتمد على أساس قوى أبدا.

و تجدر الملاحظة هنا أنّ الآية قرنت الطاغوت بالشيطان، و هذا يدل على أن القوى الطاغوتية المتجبرة إنّما تستمد القوة و العون من منبع ضعيف يتمثل فى القوى الشيطانية و الجوفاء.

هذا المضمون تذكره- أيضا- الآية (۲۷) من سورة الأعراف: إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۲۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۷۷]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۷)

سبب النّزول

روى جمع من المفسّرين كالشّيخ الطوسى فى التبيان، و القرطبى و صاحب المنار عن ابن عباس أنّ نفرا من المسلمين كانوا أثناء وجودهم فى مكّة قبل الهجرة يعانون من ضغط المشركين و أذائهم، فجاءوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يسمح لهم بقتال الأعداء فأجابهم النّبى فى حينه أنّه لم يؤمر بالجهاد.

و مضت أيّام على طلب هؤلاء، حتى هاجر المسلمون إلى المدينة و تهيأت هناك ظروف و شروط الجهاد المسلح، و أمر اللّه المسلمين بالجهاد، فأخذ بعض من أولئك النفر الذين كانوا يصرّون على النّبى للسماح لهم بالجهاد و قتال الأعداء فى مكّة يظهرون

الكسل و التهاون فى تنفيذ الأمر الإلهى، و لم يبدوا أى حماس أو رغبة فى الجهاد، كما كانوا يظهرون ذلك فى مكّة، فنزلت هذه الآية و هى تحثّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۰

المسلمين على الجهاد و تؤنب المتهاونين و المتقاعسين عن هذا الواجب الحسّاس.

و قد تطرقت الآية الكريمة إلى عدد من الحقائق فى هذا الصدد.

التّفسير

قوم بضاعتهم الكلام دون العمل:

تتحدث الآية بلغة التعجب من أمر نفر أظهروا رغبة شديدة فى الجهاد خلال ظرف غير مناسب، و أصرّوا على السماح لهم بذلك، و قد صدرت الأوامر لهم- حينئذ- بالصبر و الاحتمال، و دعوا إلى إقامة الصلاة، و أداء الزكاة، و بعد أن سنحت الفرصة و آتت الظروف للجهاد بصورة كاملة و أمروا به، استولى على هؤلاء النفر الخوف و الرعب، و انبروا يعترضون على الأمر الإلهى و يتهاونون فى أدائه.

تقول الآية: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ... فكان هؤلاء فى اعتراضهم على أمر الجهاد يقولون صراحة: لما ذا أسرع اللّه فى إنزال أمر الجهاد؟ و يتمنون لو أخر اللّه هذا الأمر و لو قليلا! أو يطلبون أن يناط أمر الجهاد للأجيال القادمة[۱۶۲] وَ قالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتالَ لَوْ لا أَخَّرْتَنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ....

و القرآن الكريم يردّ على هؤلاء أوّلا من خلال عبارة: يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً أى أن هؤلاء بدل أن يخافوا اللّه القادر القهار، أخذتهم الرّجفة و استولى عليهم الرعب من إنسان ضعيف عاجز، بل أصبح خوفهم من هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۱

الإنسان أكبر من خشيتهم اللّه العلى القدير.

ثمّ يواجه القرآن هؤلاء بهذه الحقيقة: لو أنّهم استطاعوا بعد تركهم الجهاد أن يوفّروا لأنفسهم- فرضا- حياة قصيرة رغيدة هانئة، فإنّهم سيخسرون هذه الحياة لأنّها زائلة لا محالة، بينما الحياة الأبدية التى وعد اللّه بها عباده المؤمنين المجاهدين الذين يخشونه و لا يخشون سواه، هى خير من تلك الحياة الزائلة، و إن المتقين سيلقون فيها ثوابهم كاملا غير منقوص دون أن يصيبهم أى ظلم، قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى وَ لا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۱۶۳].

من الضرورى الالتفات إلى عدة نقاط فى تفسير هذه الآية، و هى:

۱- لما ذا أمرت أولئك النفر بإقامة الصلاة و أداء الزكاة دون غيرهما من الفرائض الكثيرة الاخرى؟

و الجواب على هذا السؤال يتلخص فى أنّ الصلاة هى سر الاتصال باللّه سبحانه عزّ و جل، و الزكاة تعتبر مفتاحا لباب الاتصال بعباد اللّه، و على هذا الأساس فقد صدرت الأوامر للمسلمين بأن يعدّوا أنفسهم و أرواحهم و مجتمعهم للجهاد فى سبيل اللّه، عن طريقة إقامة الصلة الوثيقة بينهم و بين اللّه و عباده، و بعبارة أخرى أن يسعوا إلى بناء أنفسهم و إعدادها، و بديهى أن أى جهاد يحتاج بالضرورة إلى إعداد النفس و الروح، و إلى توثيق عرى التلاحم الاجتماعى، و بدون ذلك لا يمكن إحراز أى انتصار.

و الإنسان يقوى صلته باللّه من خلال الصلاة و يربّى بها روحه و معنوياته، فيكون بذلك مستعدا لتقديم أغلى التضحيات بما فى ذلك التضحية بالنفس، كما أنّ الزكاة هى الوسيلة الوحيدة لرأب كل صدع اجتماعى، بالإضافة إلى كونها دعما اقتصاديا فى سبيل إعداد

ذوی الخبرة و التجربة و العدة الحربیة، و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۲

یحتاجه المسلمون فی قتال الأعداء لیکونوا علی استعداد لمواجهة العدو إذا صدر الأمر إلیهم بذلک.

۲- المعروف أنّ حکم الزکاة ورد فی آیات نزلت فی المدینة (أی أنّها آیات مدنیة) و لم یکلف المسلمون بأداء الزکاة فی مکّة- فکیف إذن یمکن القول إن هذه الآیة تتحدث عن وضع المسلمین فی مکّة؟

یجیب علی هذا السؤال الشیخ الطوسی رحمه اللّه فی تفسیر «التّبیان» فیقول: إنّ المقصود بالزکاة الواردة فی هذه الآیة هو الزکاة المستحبة التی کانت معروفة فی مکّة، أی أنّ القرآن المجید کان یحثّ المسلمین حتی فی مکّة علی تقدیم المساعدات المالیة إلی مستحقیها و لدعم اقتصاد المجتمع الإسلامی الجدید فی مکّة.

۳- و تشیر هذه الآیة الکریمة إلی حقیقة مهمة، هی أنّ المسلمین فی مکّة کان لهم منهج، ثمّ أصبح لهم فی المدینة منهج آخر، ففی مکّة انشغل المسلمون ببناء شخصیتهم الإسلامیة بعد أن تحرروا من أدران الجاهلیة، فکان سعی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّة منصبا علی تربیة هؤلاء الذین نبذوا عبادة الأصنام لیجعل منهم أناسا یسترخصون النفس و النفیس فی مواجهة ما یعترض سبیل المسلمین من تحدیات، فما أحرزه المسلمون من انتصارات باهرة فی المدینة المنورة، کان حصیلة عملیة بناء الشخصیة الإسلامیة، هذه العملیة التی تعهدت بها رسالة الإسلام فی مکّة.

لقد تعلم المسلمون الکثیر فی مکّة و مارسوا تجارب جمّة و اکتسبوا استعدادا روحیا و معنویا عظیما خلال العهد المکی، و دلیل هذا الأمر هو نزول قرابة التسعین سورة- من مجموع سور القرآن الکریم البالغة مائة و أربع و عشرة سورة- فی مکّة، و قد تناولت هذه السور فی الغالب الجوانب العقائدیة التربویة الخاصّة بإعداد الشخصیة الإسلامیة- أمّا فی المدینة فقد انصرف المسلمون إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۳

تشکیل الحکومة الإسلامیة و إقامة أسس المجتمع الإسلامی السلیم.

و یدل هذه- أیضا- علی عدم نزول حکم الجهاد و الزکاة الواجبین فی العصر المکی لأنّ الجهاد من واجبات الحکومة الإسلامیة مثل تشکیل بیت المال فإنّه من شؤون الحکومة الإسلامیة أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۴

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۷۸ الی ۷۹]

اشارة

أَیْنَما تَکُونُوا یُدْرِکْکُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ کُنْتُمْ فِی بُرُوجٍ مُشَیَّدَةٍ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً (۷۸) ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ وَ أَرْسَلْناکَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۷۹)

التّفسیر

اشارة

نستنتج من الآیات السابقة و اللاحقة أنّ هاتین الآیتین تقصدان مجموعة من المنافقین تسللوا إلی صفوف المسلمین، و قد قرأنا فی

الآيات السابقة أن هؤلاء قد أبدوا الخوف و القلق من المشاركة فى مسئولية الجهاد، و قد ظهر عليهم الضجر و الاستياء حين نزول حكم الجهاد، فردّ عليهم القرآن الكريم و أنبّهم لموقفهم هذا بقوله: قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى ۱۶۴] موضحا أن الحياة بكل زخارفها سرعان ما تزول، و إنّ ما يناله المؤمنون الذين يخشون اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۵

و لا يعصونه من الخير و الثواب هو خير من كل ما فى هذه الدنيا من خيرات.

و فى هذا المقطع القرآنى ردّ آخر على أولئك المنافقين، حيث بيّن أن الموت آتيهم يوما لا محالة، حتى إذا تحصنوا فى قلاع عالية و منيعة بحسب ظنّهم، و ما دام الموت يدرك الإنسان بهذه الصورة أليس من الخير له أن يموت على طريق مثمر و صحيح كالجهاد؟! و ممّا يلفت الانتباه أنّ القرآن الكريم يطلق فى مواقع متعددة اسم «اليقين» على الموت، كما فى الآية (۹۹) من سورة الحجر، و الآية (۴۸) من سورة المدثر- و معنى هذه العبارة القرآنية هو أن الإنسان مهما كانت عقيدته- يؤمن بوجود الموت إيمانا لا يخامره فيه شك مطلقا، و مهما أنكر المرء من حقائق لا يستطيع إنكار الموت الذى يشهده بأم عينه أو يسمع عنه كل يوم، و الإنسان الذى يحب الحياة و يخال أن الموت هو الفناء الذى لا حياة بعده أبدا يخاف من ذكر الموت و يفر من مظاهره.

الآيتان الأخيرتان تؤكدان حقيقة عدم جدوى الفرار من الموت، فهو يدرك الإنسان يوما ما لا محالة، و هو حقيقة قطعية يقينية فى عالم الوجود.

و عبارة يُدْرِكْكُمُ الواردة فى الآية الأولى تعنى الملاحقة، و اللاحق هو الموت الذى يدرك الإنسان، و توحى بأنّ الفرار لا ينقذ الإنسان من هذا المصير الحتمى.

و تؤكد الحقيقة المذكورة الآية الثّامنة من سورة الجمعة إذ تقول: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ

إذن ليس من العقل و المنطق أن يدرك الإنسان هذه الحقيقة و يفر بعد ذلك من ميدان الجهاد، و يحرم نفسه أشرف ميتة و هى الشهادة فى سبيل اللّه، فيموت على فراشه فلو عاش الإنسان بعد فراره من الجهاد أيّاما أو شهورا أو سنوات لتكرر ما فعل و لتكررت أمامه المشاهد الماضية، فهل من العقل أن يحرم الإنسان نفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۶

لأجل هذه المتكررات من الثواب الأبدى الذى يناله المجاهد فى سبيل اللّه؟! و هنا أمر ثان يجب الانتباه له فى الآية الأولى من هاتين الآيتين، و هو عبارة بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ[۱۶۵] التى تؤكد أنّ الموت لا تحول دونه القلاع و الحصون المنيعة العالية، و السرّ فى هذا الأمر هو أنّ الموت الطبيعى لا- يداهم الإنسان من خارج وجوده- خلافا لما يتصورون- و لا يحتاج إلى اجتياز القلاع و الحصون، بل يأتى من داخل وجود الإنسان حيث تقف أجهزة الإنسان عن العمل بعد نفاذ قدرتها المحدودة على البقاء.

نعم، الموت غير الطبيعى يأتى الإنسان طبعا من خارج وجوده، و بذلك قد تنفع القلاع و الحصون فى تأخير هذا النوع من الموت عنه.

و لكن ما ذا ستكون النهاية و النتيجة؟ هل بمقدور القلاع و الحصون أن تحول دون وصول الموت الطبيعى الذى سيدرك الإنسان- دون شك- فى يوم من الأيّام؟!

من أين تأتى الانتصارات و الهزائم؟

يشير القرآن فى هاتين الآيتين إلى و هم آخر من أوهام المنافقين، حين يوضح أن هؤلاء إذا أحرزوا نصرا أو غنموا خيرا قالوا: إنّ اللّه هو الذى أنعم عليهم بذلك، و زعموا أنّهم أهل لهذه النعمة: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أمّا إذا منى هؤلاء بهزيمة أو لحقهم أذى فى ميدان القتال، ألقوا اللوم على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و افتروا عليه بقولهم إنّ ما

نالهم من سوء هو من عنده، متهمین خططه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۷

العسکریة بالضعف، من ذلک ما حدث فی غزوة أحد، تقول الآیة: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِکَ ....

و یحتمل بعض المفسّرین أن تکون هذه الآیة قد نزلت بشأن الیهود، و یرون أنّ المقصود بالحسنة و السیئة- هنا- هو ما کان یحدث من وقائع سارة و ضارة، حیث کان الیهود حین بعثة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ینسبون کلّ حدث سار و نافع إلی اللّه، و یعزون حدوث الوقائع الضّارة إلی وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین ظهرانیهم، بینما اتصال الآیة بالآیات السابقة و التالیة- التی یدور الحدیث فیها عن المنافقین- یدل علی أنّ المقصود فی هذه الآیة الأخیرة هم المنافقون.

و مهما یکن من أمر، فإنّ القرآن الکریم یردّ علی هؤلاء مؤکدا إنّ الإنسان المسلم الموحد الذی یؤمن صادقا باللّه و یعبده و لا یعبد سواه، إنّما یعتقد بأنّ کل الوقائع و الأحداث و الانتصارات و الهزائم هی بید اللّه العلیم الحکیم، فاللّه هو الذی یهب الإنسان ما یستحقه و یعطیه بحسب قیمته الوجودیة، و فی هذا المجال تقول الآیة: قُلْ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

و الآیة- هذه- تحمل فی آخرها تقریعا و تأنیبا للمنافقین الذین لا یتفکرون و لا یمعنون فی حقائق الحیاة المختلفة، حیث تقول: فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا یَکادُونَ یَفْقَهُونَ حَدِیثاً.

و بعد هذا- فی الآیة التالیة- یصرّح القرآن بأنّ کل ما یصیب الإنسان من خیرات و فوائد و کل ما یواجهه الکائن البشری من سرور و انتصار هو من عند اللّه، و إن ما یحصل للإنسان من سوء و ضرر و هزیمة أو خسارة فهو بسبب الإنسان نفسه تقول الآیة: ما أَصابَکَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَکَ مِنْ سَیِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِکَ ... و تردّ الآیة فی آخرها علی أولئک الذین کانوا یرون وجود النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سببا لوقوع الحوادث المؤسفة فیما بینهم فتقول: وَ أَرْسَلْناکَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۸

جواب علی سؤال مهم:

السّؤال المهم الذی یتبادر إلی الذهن حین قراءة هاتین الآیتین الأخیرتین هو: لما ذا نسب الخیر و الشر فی الآیة الأولی کلّه للّه؟ و لما ذا حصرت الآیة التالیة الخیر- وحده- للّه، و نسبت الشرّ إلی الإنسان؟

حین نمعن النظر فی الآیتین تواجهنا عدّة أمور، یمکن لکل منها أن یکون هو الجواب علی هذا السؤال.

۱- لو أجرینا تحلیلا علی عناصر تکوین الشر لرأینا أنّ لها اتجاهین:

أحدهما إیجابی و الآخر سلبی، و الاتجاه الأخیر هو الذی یجسد شکل الشر أو السیئة و یبرزه علی صورة «خسارة نسبیة» فالإنسان الذی یقدم علی قتل نظیره بسلاح نارى أو سلاح بارد یکون قد ارتکب بالطبع عملا شریرا و سیئا، فما هی إذن عوامل حدوث هذا العمل الشریر؟

إنّها تتکون من: أوّلا- قدرة الإنسان و عقله و قدرة السلاح و القدرة علی الرمی و التهدیف الصحیحین و اختیار المکان و الزمان المناسبین، و هذه تشکل عناصر الاتجاه الإیجابی للقضیة، لأنّ کل عنصر منها یستطیع فی حدّ ذاته أن یستخدم کعامل لفعل حسن إذا استغل الاستغلال الحکیم، أمّا الاتجاه السلبی فهو فی استغلال کل من هذه العناصر فی غیر محله، فبدلا من أن یستخدم السلاح لدرء خطر حیوان مفترس أو للتصدی لقاتل و مجرم خطیر، یستخدم فی قتل إنسان بریء، فیجسد بذلک فعل الشر، و إلّا فإنّ قدرة الإنسان و عقله و قدرته علی الرمی و التهدیف، و أصل السلاح و کل هذه العناصر، یمکن أن یستفاد منها فی مجال الخیر.

و حین تنسب الآیة الأولی الخیر و الشرّ کلّه للّه، فإن ذلک معناه أنّ مصادر القوّة جمیعها بید اللّه العلیم القدیر حتی تلک القوّة التی

یساء استخدامها، و من هذا المنطلق تنسب الخیر و الشرّ للّه، لأنّه هو واهب القوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۳۹

و الآیة الثّانیة: تنسب «السیئات» إلی الناس انطلاقا من مفهوم «الجوانب السلبیة» للقضیة و من الإساءة فی استخدام المواهب الإلهیة.

تماما مثل والد وهب ابنه مالا لیبنی به دارا جدیدة، لکن هذا الولد بدلا من أن یستخدم هذا المال فی بناء البیت المطلوب، اشتری مخدرات ضارة أو صرفه فی مجالات الفساد و الفحشاء، لا شک أنّ الوالد هو مصدر هذا المال، لکن أحدا لا ینسب تصرف الابن لوالده، لأنه أعطاه للولد لغرض خیری حسن، لکن الولد أساء استغلال المال، فهو فاعل الشرّ، و لیس لوالده دخل فی فعلته هذه.

۲- و یمکن القول- أیضا- بأنّ الآیة الکریمة إنّما تشیر إلی موضوع «الأمر بین الأمرین».

و هذه قضیة بحثت فی مسألة الجبر و التفویض، و خلاصة القول فیها أنّ جمیع وقائع العالم خیرا کانت أم شرّا- هی من جانب واحد تتصل باللّه سبحانه القدیر لأنّه هو الذی وهب الإنسان القدرة و القوّة و حریة الانتخاب و الإختیار، و علی هذا الأساس فإنّ کل ما یختاره الإنسان و یفعله بإرادته و حریته لا یخرج عن إرادة اللّه، لکن هذا الفعل ینسب للإنسان لأنّه صادر عن وجوده، و إرادته هی التی تحدد اتجاه الفعل.

و من هنا فإنّنا مسئولون عن أعمالنا، و استناد أعمالنا إلی اللّه- بالشکل الذی أوضحناه- لا یسلب عنّا المسؤولیة و لا یؤدی إلی الإعتقاد بالجبر.

و علی هذا الأساس حین تنسب «الحسنات» و «السیئات» إلی اللّه سبحانه و تعالی، فلفاعلیة اللّه فی کل شیء، و حین تنسب السیئة إلی الإنسان فلإرادته و حریته فی الإختیار.

و حصیلة هذا البحث إنّ الآیتین معا تثبتان قضیة الأمر «الأمر بین الأمرین» (تأمل بدقّة)! ۳- هناک تفسیر ثالث للآیتین ورد فیما أثر عن أهل البیت علیهم السّلام، و هو أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۰

المقصود من عبارة السّیئات جزاء الأعمال السیئة و عقوبة المعاصی التی ینزلها اللّه بالعاصین، و لما کانت العقوبة هی نتیجة لأفعال العاصین من العباد، لذلک تنسب أحیانا إلی العباد أنفسهم و أحیانا أخری إلی اللّه، و کلا النسبتین صحیحتان، إذ یمکن القول فی قضیة إنّ القاضی هو الذی قطع ید السارق، کما یجوز أن یقال إنّ السارق هو السبب فی قطع یده لارتکابه السرقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۱

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۸۰ الی ۸۱]

اشارة

مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَ مَنْ تَوَلَّی فَما أَرْسَلْناکَ عَلَیْهِمْ حَفِیظاً (۸۰) وَ یَقُولُونَ طاعَةٌ فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِکَ بَیَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَیْرَ الَّذِی تَقُولُ وَ اللَّهُ یَکْتُبُ ما یُبَیِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَکَّلْ عَلَی اللَّهِ وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا (۸۱)

التّفسیر

سنّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمنزلة الوحی:

توضح الآیة الأولی موضع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من الناس و حسناتهم و سیئاتهم و تؤکد أوّلا بأن إطاعة النّبی صلّی اللّه

عليه و آله و سلّم هى فى الحقيقة طاعة للّه: و مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ... أى لا انفصال بين طاعة اللّه و طاعة الرّسول، و ذلك لأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يخطو أية خطوة خلافا لإرادة اللّه ... كل ما يصدر منه من فعل و قول و تقرير إنّما يطابق إرادة اللّه سبحانه و تعالى و مشيئته.

ثمّ تبيّن إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس مسئولا عن الذين يتجاهلون و يخالفون أوامره، كما أنه ليس مكلّفا بإرغام هؤلاء على ترك العصيان، بل إن مسئولية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الدعوة للرسالة الإلهية التى بعث بها، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و إرشاد الضالين و الغافلين تقول الآية: وَ مَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۲

و تجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة «حفيظ» صفة مشبهة باسم الفاعل، و تدل على ثبات و استمرار الصفة فى الموصوف، بخلاف اسم الفاعل «حافظ»، فعبارة «حفيظ» تعنى الذى يراقب و يحافظ بصورة دائمة مستمرة، و يستدل من الآية على أن واجب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو قيادة الناس و هدايتهم و إرشادهم، و دعوتهم إلى اتّباع الحقّ و اجتناب الباطل، و مكافحة الفساد، و حين يصر البعض على اتّباع طريق الباطل و الانحراف عن جادة الحقّ، فلا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسئول عن هذه الانحرافات، و لا المطلوب منه أن يراقب هؤلاء المنحرفين فى كل صغيرة و كبيرة، كما ليس المطلوب منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستخدم القوة لإرغام المنحرفين على العدول عن انحرافهم، و لا يمكنه بالوسائل العادية القيام بمثل هذه الأعمال.

و على هذا الأساس، فإنّ الآية قد تكون- أيضا- إشارة إلى غزوات كغزوة أحد حيث كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلّفا- فقط- بتجنيد الإمكانيات المتوفرة من الناحية العسكرية فى إعداد خطة للدفاع عن المسلمين حيال هجمات الأعداء، و بديهى أن تكون إطاعة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الأمر إطاعة للّه، و لو افترضنا أنّ أفرادا عصوا الرّسول فى هذا المجال و أدى عصيانهم إلى تراجع المسلمين، فالعاصون- وحدهم- هم المسؤولون عن ذلك، و ليس الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الأمر المهم الآخر فى هذه الآية هو أنّها واحدة من أكثر آيات القرآن دلالة على حجّيّة السنّة النّبوية الشّريفة، فهى حكم بوجوب الإذعان للأحاديث الصحيحة المروية عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و استنادا إلى هذه الآية لا يجوز لأحد القول بقبول القرآن وحده و عدم قبول أحاديث و سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الآية صريحة بأن إطاعة أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أحاديثه المروية عنه بطرق صحيحة، هى بمثابة إطاعة اللّه.

و من المنطلق نفسه تثبت حقيقة أخرى، هى ضرورة إطاعة أئمة أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هى ما أكد عليها حديث «الثقلين» الوارد فى المصادر الإسلامية السنية و الشيعية، و فيه بيّن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- صراحة- حجية أحاديث أئمة أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۳

البيت عليهم السّلام، و منه نستنتج أنّ إطاعة أوامرهم هى إطاعة للرسول و بالنتيجة إطاعة للّه تعالى، و لما كانت أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السّلام بمثابة أحاديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلا يستطيع أحد أن يقول: إنّى أقبل القرآن و أرفض أحاديث أهل البيت عليهم السّلام، فذلك نقض للآية المذكورة أعلاه و للآيات المشابهة.

و لذلك نقرأ فى الأحاديث التى أوردها صاحب تفسير البرهان فى تفسير هذه الآية ما يؤكّد هذه الحقيقة:

إنّ اللّه وهب نبيّه حقّ الأمر و النهى فى الآية المذكورة، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدوره وهب هذا الحق لعلى بن أبى طالب عليه السّلام و سائر الأئمّة عليهم السّلام من بعده، و الناس ملزمون بإطاعة أوامر هذه النخبة الطاهرة عليهم السّلام، لأن أوامر و نواهى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل بيته الكرام هى أوامر و نواهى اللّه، و طاعتهم طاعة للّه، و هم لا يأتون بشىء من عند أنفسهم و كل ما جاؤوا به للمسلمين هو من عند اللّه.[۱۶۶] أمّا الآية الثّانية ففيها إشارة إلى وضع نفر من المنافقين أو المتذبذبين من ضعاف الإيمان، الذين يتظاهرون حين يحضرون عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين بأنّهم مع الجماعة، و يظهرون

الطاعة للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليدفعوا بذلك الضرر عن أنفسهم و ليحموا مصالحهم الخاصّة، بدعوى الإخلاص و الطاعة للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ يَقُولُونَ طاعَةٌ.

و بعد أن ينصرف الناس من عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يختلى هؤلاء بأنفسهم يتجاهلون عهودهم فى إطاعة النّبى و يتآمرون فى ندواتهم الخاصّة- السرية الليلية- على أقوال النّبى: فَإِذا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ....

نعرف من هذه الآية أنّ المنافقين فى زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا لا يألون جهدا فى التآمر على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانوا يخططون فى اجتماعاتهم السرّية للوقوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۴

بوجه الدعوة.

و لكن اللّه يأمر نبيّه بأن لا يلتفت إلى مكائد هؤلاء، و أن لا يخافهم و لا يخشى خططهم و أن يتجنب الاعتماد عليهم فى مشاريعه، بل يتوكل على اللّه الذى هو خير ناصر و معين: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۲]

اشارة

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (۸۲)

التّفسير

خلوّ القرآن من الاختلاف دليل حى على إعجازه:

هذه الآية تخاطب المنافقين و سائر الذين يرتابون من حقيقة القرآن المجيد، و تطلب منهم- بصيغة السؤال- أن يحققوا فى خصائص القرآن ليعرفوا بأنفسهم أنّ القرآن وحى منزل، و لو لم يكن كذلك لكثر فيه التناقض و الاختلاف، و إذا تحقق لديهم عدم وجود الاختلاف، فعليهم أن يذعنوا أنّه وحى من اللّه تعالى.

و التّدبر من مادة «دبر» و هو مؤخر الشىء و عاقبته «و التدبر» المطلوب فى هذه الآية هو البحث عن نتائج آثار الشىء، و الفرق بين التدبر و التفكر هو أنّ الأخير يعنى التحقيق فى علل و خصائص الموجود، أمّا التدبر فهو التحقيق فى نتائجه و آثاره.

و نستدل من هذه الآية على عدّة أمور:

۱- إنّ الناس مكلّفون بالبحث و التحقيق فى أصول الدين و المسائل المشابهة لها، مثل صدق دعوى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و حقانية القرآن، و أن يتجنّبوا التقليد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۶

و المحاكاة فى مثل هذه الحالات.

۲- إنّ القرآن- خلافا لما يظن البعض- قابل للفهم و الإدراك للجميع، و لو كان على غير هذه الصورة لما أمر اللّه بالتدبر فيه.

۳- أحد الأدلة التى تثبت أنّ القرآن حقّ، و أنّه منزل من اللّه الحكيم العليم خلوه المطلق من كل تناقض أو اختلاف.

و لتوضيح هذه الحقيقة نقول:

الجوانب الروحيـة للإنسان تتغير باسـتمرار، «قانون التكامل»- فى الظروف العاديـة الخالية من الأوضاع الاسـتثنائية- يسـتوعب الإنسان و جوانبه الروحية و أفكاره، و بمرور الأيّام يتغير بموجب هذا القانون كلام الإنسان و فكره و أحاديثه.

لو أمعنا النظر فيما يكتبه الكتاب، لما وجدنا مؤلفات الكاتب الواحد على نمط واحد، بل أن بداية كل كتاب تختلف أيضا عن نهايته.

هـذا التغيير يزداد سـرعة حين يعيش الإنسان فى خضم أحـداث كبرى كالتى تصاحب إرساء قواعـد ثورة فكرية و اجتماعية و عقائدية شاملـة، الشـخص الـذى يعيش مثل هـذه التحولات الاجتماعيـة الكبرى لا يسـتطيع أن يسـيطر على وحـدة كلامه، و لا يمكنه أن يوجد انسجاما كاملا فى أقواله، خاصّة إذا كان هذا الشخص غير متعلم، و كان ناشئا فى بيئة اجتماعية متخلفة.

و القرآن كتـاب نزل خلال مـدّة (۲۳) عامـا بحسب مـا يحتـاجه النـاس من تربيـة و توجيه فى الظروف المختلفـة، و موضوعات القرآن متنوعـة، فهو لاـ يشـبه كتابـا عاديا متخصـصا فى بحث اجتماعى أو سياسـى أو فلسـفى أو حقوقى أو تاريخى، بل هو يتحـدث تارة عن التوحيـد و أسـرار الخليقـة، و تـارة يطرح القوانين و الأحكـام و الآداب و السـنن، و تارة يقص علينا أخبار الأمم السابقـة، و تارة يتناول المواعظ و النصائح و العبادات و ارتباط العبد بخالقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۷

و كما يقول (غوستاف لوبون): القرآن- كتاب المسلمين السماوى- لا يقتصر على التعاليم الدينية، بل يتناول- أيضا- الأحكام السياسية و الاجتماعية للمسلمين.

مثل هـذا الكتاب- بهذه الخصائص- لا يمكن أن يكون- عادة- خاليا من التناقض و التضاد و الاختلاف و التأرجح، أمّا حين نرى هذا الكتاب- مع كل ذلك- متناسقا متوازنا فى آياته خاليا من كل تضاد و اختلاف نستطيع أن نفهم- بوضوح- أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر بشرى، بل هو من قبل اللّه تعالى، كما تذكر الآية الكريمة أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۳]

اشارة

وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا (۸۳)

التّفسير

نشر الإشاعات:

تشـير هـذه الآيـة إلى حركـة منحرفـة أخرى من حركات المنافقين أو ضـعاف الإيمان، تتمثل فى سـعيهم إلى تلقف أى نبأ عن انتصار المسـلمين أو هزيمتهم، و بثّه بين الناس فى كل مكان، دون التحقيق و التـدقيق فى أصل هـذا النبأ أو التأكـد من مصدره، و كان الكثير من هذه الأنباء لا يتعدى إشاعة عمد أعداء المسـلمين إلى بثّها لتحقيق أهدافهم الدنيئة و ليسـيئوا إلى معنويات المسلمين و يضروا بهم، وَ إِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ ....

بينما كان من واجب هؤلاء أن يوصـلوا هـذه الأخبار إلى قادتهم كى يسـتفيدوا من معلومات هؤلاء القادة و فكرهم و لكى يتجنبوا دفع المسـلمين إلى حالـة من الغرور حيال انتصارات خياليـة وهميـة، أو إلى إضـعاف معنوياتهم بإشاعـة أنباء عن هزيمـة لا حقيقة لها، وَ لَوْ

رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۴۹

يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ....

«يستنبطونه» من مادة «نبط» التى تعنى أوّل ما يستخرج من ماء البئر أو الينبوع، و الاستنباط استخراج الحقيقة من الأدلة و الشواهد و الوثائق، سواء كانت العملية فى الفقه أو الفلسفة أو السياسة أو سائر العلوم.

أُولِي الْأَمْرِ فى الآية هم المحيطون بالأمور القادرون على أن يوضحوا للناس ما كان حقيقيا منها و ما كان إشاعة فارغة. و هم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفاؤه من أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بالدّرجة الأولى.

و يأتى من بعدهم العلماء المتخصصون فى هذه المسائل.

روى عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام فى تفسير أُولِي الْأَمْرِ فى هذه الآية قال: «هم الأئمّة»

كما فى تفسير نور الثقلين، و هناك روايات أخرى أيضا فى هذا المجال بنفس المضمون.

و لعل هناك من يعترض على هذه الرّوايات قائلا: إنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام لم يكونوا موجودين فى زمن نزول هذه الآية، و لم يتعين أحد منهم فى ذلك الوقت بمنصب الإمامة أو الولاية، فكيف يمكن القول بأنّهم هم المعنيون بهذه الآية؟

و الجواب على هذا الاعتراض: هو أنّ هذه الآية مثل سائر الآيات القرآنية الاخرى لا تقتصر على زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقط، بل تحمل حكما عاما يشمل كل الأزمنة و القرون التالية لمواجهة الإشاعات التى يبثّها الأعداء أو البسطاء من المسلمين بين الأمّة.

أضرار اختلاق الإشاعة و نشرها:

لقد ابتليت المجتمعات البشرية و عانت الكثير من المصائب و النكبات الرهيبة، بسبب بروز ظاهرة اختلاق الإشاعة و نشرها بين الأفراد حيث كانت تؤثر تأثيرا سلبيا كبيرا على معنويات أفراد المجتمع، و تضعف فيهم الروح الاجتماعية و روح التفاهم و التعاون بين أبناء المجتمع الواحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۰

و تبدأ الإشاعة بأن يختلق منافق كذبة، ثمّ ينشرها بين أفراد مغرضين أو بسطاء، ليقوموا بدورهم بالترويج لها بين أبناء المجتمع دون التحقيق فيها، بل يهولونها و يفرعونها ممّا يؤدى إلى استنزاف مقدار كبير من طاقات الناس و أفكارهم و أوقاتهم، و إلى إثارة القلق و الاضطراب بينهم، و كثيرا ما تؤدى الإشاعة إلى زعزعة الثقة بين أفراد المجتمع، و تؤدى إلى خلق حالة من اللامبالاة و التردد فى أداء المسؤوليات.

و مع أنّ بعض المجتمعات التى تعانى من الكبت و الإرهاب تعمد إلى الإشاعة كأسلوب من الكفاح السلبى، انتقاما من الحكومات الطاغية الجائرة، فالإشاعة بحدّ ذاتها تعتبر خطرا كبيرا على المجتمعات السليمة، فإذا اتجهت الإشاعة إلى الأفراد الكفوئين من المفكرين و الخبراء و العاملين فى المرافق الهامّة للمجتمع، فإنّها ستؤدى إلى حالة من البرود فى نشاطات هؤلاء، و قد تصادر مكانتهم الاجتماعية، و تحرم المجتمع من خدماتهم.

من هنا كافح الإسلام بشدة «اختلاق الإشاعات» و الافتراء و الكذب و التهمة، مثل ما حارب نشر الإشاعات كما فى هذه الآية.

و تؤكد الآية فى ختامها على أنّ اللّه قد صان المسلمين بفضله و لطفه و كرمه من آثار إشاعات المنافقين و المغرضين و ضعاف الإيمان، و أنقذهم من نتائجها و عواقبها الوخيمة، و لو لا الإنقاذ الإلهى ما نجى من الانزلاق فى خط الشيطان إلّا قليلا: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا أى أنّ النّبى و أصحاب الرأى و العلماء المدققين هم وحدهم القادرون على أن يكونوا مصونين من وساوس الشائعات و مشيعيها، أمّا أكثرية المجتمع فلا بدّ لها من القيادة السليمة لتسلم من عواقب اختلاق الشائعات و نشرها[۱۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۴]

اشارة

فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا (۸۴)

سبب النّزول

ورد فى بعض التفاسير مثل «مجمع البيان» و «القرطبى» و «روح المعانى» فى سبب نزول هذه الآية أنّه حين عاد أبو سفيان و معه جيش قريش منتصرين فى واقعة أحد توعدوا المسلمين بالمواجهة مرّة أخرى فى موسم «بدر الصغرى» أى وقت إقامة السوق التّجارية فى شهر ذى القعدة الحرام فى منطقة بدر، و حين حان موعد المواجهة دعا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين للاستعداد و التوجه إلى المنطقة المذكورة، إلّا أنّ نفرا من المسلمين- الذين كانوا إلى ذلك الحين ما زالوا يعانون من مرارة الهزيمة فى واقعة أحد- رفضوا التحرك مع النّبى، فنزلت هذه الآية، فجدد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدّعوة إلى المسلمين بالتحرك، فما تبعه غير سبعين رجلا منهم الذين حضروا موقع المواجهة، و لكن أبا سفيان الذى كان قد تملكه الرعب من مواجهة المسلمين جبن و لم يحضر إلى المكان الموعود و عاد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه سالما إلى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۲

التّفسير

كل انسان مسئول عمّا كلّف به:

بعد ما تقدم من الآيات الكريمة حول الجهاد، تأتى هذه الآية لتعطى أمرا جديدا و خطيرا إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّه مكلّف بمواجهة الأعداء و جهادهم حتى لو بقى وحيدا و لم يرافقه أحد من المسلمين إلى ميدان القتال. لأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسئول عن أداء واجبه هو، و ليس عليه مسئولية بالنسبة للآخرين سوى التشويق و التحريض و الدعوة الى الجهاد: فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ

الآية تشتمل على حكم اجتماعى مهم يخصّ القادة، و يدعوهم إلى التزام الرأى الحازم و العمل الجاد فى طريقهم و مسيرتهم نحو الهدف المقدس الذى يعملون و يدعون من أجله، حتى لو لم يجدوا من يستجيب لدعوتهم، لأنّ استمرار الدعوة غير مشروط باستجابة الآخرين لها، و أى قائد لا يتوفر فيه هذا الحزم فهو بلا ريب عاجز عن النهوض بمهام القيادة، فلا يستطيع أن يواصل الطريق نحو تحقيق الأهداف المرجوة خاصّة القادة الإلهيون الذين يعتمدون على اللّه ... مصدر كل قدرة و قوّة فى عالم الوجود، و هو سبحانه أقوى من كل ما يدبّره الأعداء من دسائس و مكائد بوجه الدّعوة، لذلك تقول الآية: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ اللَّهُ أَشَدُّ

بَأْساً[۱۶۸] وَ أَشَدُّ تَنْكِيلًا[۱۶۹].

معنى كلمتى «عسى» و «لعل» فى كلام اللّه:

فى كلمة «عسى» طمع و ترج، و فى كلمة «لعل» طمع و إشفاق، هنا يتبادر إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۳

الذهن سؤال هو: لو كان التمنى و الترجى جائزين بالنسبة للإنسان لعدم علمه بالغيب و لمحدودية قدرته و عجزه عن فعل و إنجاز كل ما يريد، فكيف يجوز استخدامهما من قبل اللّه العالم بالغيب و الشهادة و القادر على كل شىء؟! و الطمع و الترجى يكونان فى جاهل عاجز و اللّه منزّه عن ذلك؟

ذهب كثير من العلماء إلى تأويل معنى كلمتى «عسى» و «لعل» الواردتين فى كلام اللّه فقالوا: بأنّهما إذا وردتا فى كلامه سبحانه عزّ و جل فإنّهما تفقدان معانيهما الحقيقية الأصلية و تكتسبان معانى جديدة، و قالوا: إن كلمة «عسى» إذا أتت فى كلام اللّه جاءت بمعنى «الوعد» و إن كلمة «لعل» تأتى فى كلامه- عزّ من قائل- بمعنى «الطلب».

و الحق أنّ هاتين الكلمتين لا يتغير معناهما إذا وردتا فى كلام اللّه، و لا يستلزمان الجهل أو العجز، لكن استخدامهما يأتى فى مواضع يكون الوصول فيها إلى الهدف بحاجة إلى مقدمات عديدة، فإن لم تتوفر إحدى هذه المقدمات أو بعضها لم يمكن القطع بتحقق ذلك الهدف، بل تأتى مسألة تحقق الهدف على شكل احتمال، و يكون الحكم فى هذا المجال احتماليا.

على سبيل المثال يقول القرآن الكريم: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۱۷۰] و لا يعنى هنا أنّ رحمة اللّه تشمل كل من يستمع أو ينصت إلى القرآن أثناء قراءته، بل أنّ الاستماع و الإنصات يكونان مقدمة من مقدمات نيل رحمة اللّه، و هناك مقدمات أخرى مثل فهم القرآن و تدبر آياته و العمل بأحكامه.

و يتّضح من هذا أنّ تحقيق مقدمة واحدة لا يكفى لحصول النتيجة المطلوبة و لا يمكن الجزم أو القطع بحتمية تحقق النتيجة، بل كل ما يمكن الحكم به هو احتمال حدوثها، و الحقيقة إن مثل هذه الكلمات حين تأتى فى كلام اللّه، يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۴

الهدف منها تنبيه السامع إلى وجود مقدمات و شروط أخرى يجب تحقيقها للوصول إلى الهدف بالإضافة إلى الشرط أو المقدمة المذكورة المصرح بها فى الكلام.

و قد تبيّن لنا أنّ نيل رحمة اللّه لا يتحقق فقط بالاستماع و الإنصات إلى القرآن فقط، بل يجب لنيل هذه الرحمة توفير المقدمات الاخرى لذلك.

من هنا فإنّ هذه الآية التى نبحث فيها تقول إن قدرة الكفار و قوتهم لا- تزول و لا- تضمحل بمجرّد دعوة المؤمنين إلى الجهاد و ترغيبهم فيه، بل يجب هنا- أيضا- أن يسعى المؤمنون لتوفير المقدمات الاخرى للقضاء على قدرة الكفار، منها إعداد وسائل القتال و الالتزام بالخطة التى يضعها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و السير عليها من أجل الوصول إلى الهدف النهائى.

و هكذا يتبيّن لنا أنّ لا- ضرورة لصرف كلمتى «عسى» و «لعل» و أشباههما عن معانيها الحقيقية متى ما وردت فى كلام اللّه تعالى ۱۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۵]

اشارة

مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (۸۵)

التّفسير

عواقب التّحريض على الخير أو الشرّ:

لقد أشير فى الآية السابقة إلى أنّ كل إنسان مسئول عن عمله و عمّا هو مكلّف بأدائه، و لا يسأل أى إنسان عن أفعال الآخرين.

أمّا هذه الآية فقد جاءت لكى تسدّ الطريق أمام كل فهم خاطئ للآية السابقة، فبيّنت أنّ الإنسان إذا حرّض الغير على فعل الخير أو فعل الشر فينال نصيبا من ذلك الخير أو الشر:

مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْها وَ مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها ....

و هـذا بحـدّ ذاته- حثّ على دعوة الآخرين إلى فعل الخير و التزام جانب الحق، و نهى الغير عن فعل الشـر، كما تبيّن هـذه الآية اهتمام القرآن بنشـر الروح الاجتماعية لدى المسلمين، و دعوتهم إلى نبذ الأنانية أو الانطوائية، و إلى عدم تجاهل الآخرين، و ذلك من خلال التواصى بالخير و الحق و التحذير من الشرّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۶

و الباطل.

و كلمة «الشّـفاعة» الواردة فى الآية من «الشّفع» و هو ضم الشىء إلى مثله، و قد يكون هذا الضم أحيانا فى عمل الإرشاد و الهداية، أى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و تكون الشفاعة السيئة أمرا بالمنكر و نهيا عن المعروف.

و إذا حصـلت الشـفاعة للعاصـين لإنقاذهم من نتائـج أعمالهم السـيئة، فهى بمعنى الإغاثة للعاصـين اللائقين للشـفاعة، بعبارة أخرى قد تحصل الشـفاعة قبل القيام بممارسـة الـذنب، و فتعنى الإرشاد و النصح، كما تحصل بعد ارتكاب الذنب أو الخطأ، و تعنى- هنا- إنقاذ المذنب أو الخاطئ من عواقب و نتائج جريرته، و كلا الحالتين يصدق عليهما معنى ضم شىء إلى آخر.

و مع أنّ مفهوم الآية عام شامل لكل دعوة إلى الخير أو الشـر، و لكن ورود الآية ضـمن آيات الدعوة إلى الجهاد يجعل معنى الشـفاعة الحسـنة دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم المسـلمين إلى الجهـاد، و حثّهم عليه، و يجعـل معنى الشـفاعة السـيئة دعوة المنـافقين المسلمين إلى ترك الجهاد و عدم المشاركة فيه، و الآية تؤكد بأن كلا الشفيعين ينال نصيبا من شفاعته.

ثمّ إن ورود كلمة الشـفاعة هنا ضمن الحديث عن القيادة (القيادة إلى الحسنات أو إلى السيئات) قد يكون إشارة إلى أن حديث القائد (قائـد خير كـان أم قائـد شـرّ) لا يـدخل قلوب الآخرين إلّا إذا ألغوا كل امتياز يفرقهم عن هؤلاء الآخرين، فلا بـدّ لهم أن يكونوا قرناء للناس و منضمّين إليهم كى تكون لهم الكلمة النافذة، و هذه مسألة هامة فى تحقيق الأهداف الاجتماعية.

و مـا ورد عبـارة «أخـوهم» أو «أخـاهم» فى الحـديث عن الأنبيـاء و الرسـل، ضـمن آيـات سـور الشـعراء و الأعراف و هود و النمـل و العنكبوت، إلّا للإشارة إلى هذه المسألة.

و الشىء الآخر الذى تجدر الإشارة إليه هنا، هو أنّ القرآن أتى بعبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۷

«نصـيب» لدى الحديث عن الشـفاعة الحسـنة، بينما استخدم عبارة «كفل» حين تحدث عن الشفاعة السيئة، و الفرق بين التعبيرين هو أنّ الأولى تسـتخدم حين يكون الحديث عن حصّة من الربح و الفائدة و الخير، أمّا الثّانية فتستخدم إذا كان الكلام عن الخسارة و الضرر و

الشرّ، فالنصيب تعبير عن نصيب الخير، و الكفل تعبير عن حصّة الشرّ[۱۷۲].

و هذه الآية، تبيّن نظرة إسلامية أصيلة إلى المسائل الاجتماعية، و تصرّح أنّ الناس شركاء فى مصائر ما يقوم به قسم منهم من أعمال عن طريق الشفاعة و التشجيع و التوجيه، من هنا فكل كلام أو عمل- بل كل سكوت- يؤدى إلى تشجيع الآخرين على الخير، فإنّ المشجع يناله سهم من نتائج ذلك العمل دون أن ينقص شيء من سهم الفاعل الأصلى.

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو دل على خير أو أشار به، فهو شريك، و من أمر بسوء أو دل عليه أو أشار به، فهو شريك».

و يبيّن هذا الحديث الشريف ثلاث مراحل لدعوة الأشخاص إلى الخير أو إلى الشر.

المرحلة الأولى: الأمر، و هى الأقوى.

و الثّانية: الدلالة و هى الوسطى.

و الثّالثة: الإشارة و هى المرحلة الضّعيفة.

و على هذا الأساس فإن حثّ الآخرين أو تحريضهم على ممارسة فعل معين، سيجعل للمحرض نصيبا من نتيجة هذا الفعل يتناسب و مدى قوّة التحريض وفق المراحل الثلاث المذكورة.

و بناء على هذه النظرة الإسلامية، فإن مرتكبى الذنب ليسوا هم وحدهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۸

مذنبين، بل يشترك فى الذنب معهم كل الذين شجعوا المرتكبين على ذنبهم، عن طريق وسائل الإعلام المختلفة أو إعداد الأجواء المساعدة، بل حتى عن طريق إطلاق كلمة صغيرة مشجعة، و هكذا الذين يقومون بمثل هذه الأعمال على طريق الخيرات ينالون سهمهم من نتائجها.

و يستشف من الأحاديث المروية فى تفسير هذه الآية أنّ الشفاعة بكلا جانبيها تطلق- أيضا- على الدعاء بالخير أو بالشر للآخرين، و إنّ الدعاء للآخرين أو عليهم يعتبر نوعا من الشفاعة لدى اللّه تعالى.

نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب أستجيب له و قال له الملك: فلك مثلاه، فذلك النصيب»[۱۷۳].

و لا ينافى هذا التّفسير ما تطرقنا إليه سابقا، بل يعتبر توسعا فى معانى الشفاعة، فكل إنسان يقدم مساعدة لنظيره الإنسان، سواء كانت عن طريق الدعوة إلى فعل الخيرات أو الدعاء له أو عن أى طريق آخر، فسينال نصيبا من ثمار هذه المساعدة.

و بهذا الأسلوب من المشاطرة الفعلية الخيرة يخلق الإسلام لدى الإنسان روحا اجتماعية تخرجه من أنانيته و انطوائيته و تجعله يعتقد أن لن يصيبه ضرر إذا سعى فى حاجة أخيه الإنسان أو ساعد على تحقيق مصالح غيره، بل سيناله الخير، و سيكون شريكا لأخيه فيما سعى إلى تحقيقه له من مصالح و منافع.

و الآية- هذه- تؤكد أيضا حقيقة ثابتة أخرى، و هى أنّ اللّه قادر على مراقبة الإنسان و تدوين ما يقوم به من أعمال، ثمّ محاسبته عليها، و اثابته على خيرها، و معاقبته على شرها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً.

و عبارة «مقيت» مشتقة من «القوت» و هو الغذاء الذى يساعد جسم الإنسان على البقاء و على هذا يكون «مقيت» اسم فاعل من باب افعال، و تعنى هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۵۹

الشخص الذى يعطى الآخرين قوتهم و غذاءهم، و هو بهذه الوسيلة يكون حافظا لحياتهم و لهذا تأتى كلمة «مقيت» بمعنى «حافظ» و الحافظ يمتلك القدرة على الحفظ، و من هنا تكون كلمة «مقيت» بمعنى «المقتدر» أيضا، كما أن المقتدر يمتلك حساب من يعملون

ضمن قدرته فتكون عندئذ كلمة «المقيت» بمعنى «الحسيب» أيضا، و قد يكون معنى الكلمة فى الآية شاملا لكل هذه المعانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۶]

اشارة

وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (۸۶)

التّفسير

دعوة إلى مقابلة الودّ بالودّ:

رغم أنّ بعض المفسّرين يرون أنّ العلاقة بين هذه الآية و الآيات السابقة ناشئة عن كون الآيات تلك تناولت موضوع الجهاد و الحرب، و الآية الأخيرة تدعو المسلمين إلى أن يواجهوا كل بادرة سليمة من قبل العدو بموقف يناسبها، و لكن هذه الصلة لا تمنع أن تكون الآية الأخيرة حكما عاما يشمل كل أقسام تبادل المشاعر الخيرة النّبيلة بين مختلف الأطراف و الأفراد، و هذه الآية تأمر المسلمين بمقابلة مشاعر الحبّ بما هو أحسن منها، أو على الأقل بما يساويها أو يكون مثلها، فتقول الآية: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها.

و «التّحية» مشتقة من «الحياة» و تعنى الدعاء لدوام حياة الآخرين، سواء كانت التحية بصيغة «السّلام عليكم» أو «حياك اللّه» أو ما شاكلهما من صيغ التحية و السلام، و مهما تنوعت صيغ التحية بين مختلف الأقوام تكون صيغة «السلام» المصداق الأوضح من كل تلك الأنواع، و لكن بعض الروايات و التفاسير تفيد أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۱

مفهوم التحية يشمل- أيضا- التعامل الودى العملى بين الناس.

فى تفسير على بن إبراهيم عن الباقر و الصّادق عليهما السّلام أن: «المراد بالتّحية فى الآية السلام و غيره من البر».

و فى «المناقب» أنّ جارية أهدت إلى الإمام الحسن عليه السّلام باقة من الورد فأعتقها، و حين سئل عن ذلك استشهد بقوله تعالى: وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها.

و هكذا يتّضح لنا أنّ الآية هى حكم عام يشمل الردّ على كل أنواع مشاعر الودّ و المحبّة سواء كانت بالقول أو بالعمل- و تبيّن الآية فى آخرها أنّ اللّه يعلم كل شىء، حتى أنواع التحية و السلام و الردّ المناسب لها، و أنّه لا يخفى عليه شىء أبدا، حيث تقول: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً.

السّلام، تحية الإسلام الكبرى:

لا يخفى أنّ لكل جماعة إنسانية تقاليد خاصّة فى التحية لدى التلاقى فيما بينهم، بها يتبادلون مشاعر الحبّ و الصفاء، و المودة، و التحية كما هى صيغة لفظية يمكن أن تكون- أيضا- حركة عملية يستدل منها على مشاعر الحبّ و الودّ المتبادلة.

و قد جاء الإسلام بكلمة «السّلام» مصطلحا للتحية بين المسلمين، و الآية موضوع البحث مع كونها عامة شاملة لأنواع التحية، لكن

المصداق الأوضح و الأظهر لها يتجسد فى كلمة «السّلام».

و بناء على ذلك فإنّ المسلمين مكلّفون بردّ السّلام بأحسن منه، أو على الأقل بما يماثله.

و فى آية أخرى إشارة واضحة إلى أنّ السّلام هو التحية حيث تقول: فَإِذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۲

دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۱۷۴] و يمكن الاستدلال من هذه الآية على أن عبارة (السلام عليكم» هى فى الأصل «سلام اللّه عليكم» أى ليهبك اللّه السلامة و الأمن، و هكذا يتّضح لنا أنّ السلام يعتبر دلالة على الحبّ و الود المتبادل، كما هو دلالة على نبذ الحرب و النزاع و الخصام.

و قد دلت آيات قرآنية أخرى على أنّ السّلام هو تحية أهل الجنّة، حيث يقول سبحانه: أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً[۱۷۵].

و يقول تعالى: تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ...[۱۷۶].

كما أنّ آيات قرآنية أخرى دلت على أنّ السلام أو أى صيغة أخرى تعادله، كان سائدا بين الأقوام التى سبقت الإسلام، و هذا هو ما تشير إليه الآية (۲۵) من سورة الذاريات فى قصة إبراهيم مع الملائكة حيث تقول: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

و الشعر الجاهلى فيه دلائل تثبت أن السلام كان- أيضا- تحية أهل الجاهلية[۱۷۷].

إنّ تحية الإسلام تبرز أهميتها و قيمتها العظيمة، لدى مقارنتها بما لها من نظائر لدى الأمم و الأقوام الاخرى.

النصوص الإسلامية تؤكد كثيرا على السّلام و التّحية، حيث

يروى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من بدأ بالكلام قبل السّلام فلا تجيبوه»[۱۷۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۳

كما

يروى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ اللّه يقول: «البخيل من يبخل بالسّلام»[۱۷۹]

و عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّ اللّه يحبّ إفشاء السلام»[۱۸۰].

و قد ورد فى الروايات و الأحاديث آداب كثيرة للتحية و السلام، منها أنّ السلام يجب أن يشيع بين جميع أبناء المجتمع و أن لا ينحصر فى إطار الأصدقاء و الأقارب،

فقد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سئل: أى العمل خير: فأجاب صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«تطعم الطّعام و تقرأ السّلام على من عرفت و من لم تعرف»[۱۸۱].

كما ورد فى الأحاديث أن من آداب التحية أن يسلم الراكب على الراجل، و الراكب على دابة غالية الثمن يسلم على من يركب دابة أقل ثمنا، و قد يكون الأمر حثّا على التزام التواضع، و نهيا عن التكبر أو محاربة له، فالتكبر غالبا ما يستولى على أهل المال و الجاه و هذا عكس ما نشاهده فى عصرنا حيث يتحتم على الطبقات الدانية من المجتمع أن تبادر الطبقات العليا بالسّلام، و بذلك يضفون على هذا الأمر طابعا استعباديا وثنيا، بينما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أوّل من يبادر الآخرين بالسلام، و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يبتدئ بالسلام حتى على الصبية الصغار، و بديهى أنّ هذا الأمر لا ينافى ما ورد فى الروايات من حثّ صغار السن على مبادرة كبارهم بالسلام و التحية و الاحترام، لأنّ هذا السلوك يعتبر نوعا من الآداب الإنسانية الحميدة، و لا ارتباط له بالتمييز الطبقى.

و من جانب آخر نجد روايات تأمر بعدم السّلام على المرابين و الفاسقين و أمثالهم، و يعتبر هذا الأمر سلاحا لمحاربة الفساد و الربا، أمّا إذا كان السلام يؤدى إلى التأثير على المفسد و المنحرف، و يجعله يرتد عن غيه و يترك الفساد و الانحراف، فلا مانع منه و لا بأس به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۴

و لا يفوتنا هنا أن نوضح أنّ المراد من رد التحية بالأحسن هو أن نعقب السلام بعبارات مثل «و رحمة اللّه» أو «و رحمة اللّه و بركاته».

ورد فى تفسير «الدّر المنثور» أنّ شخصا أتى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: السّلام عليكم. فإجابة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و عليك السّلام و رحمة اللّه. ثمّ جاءه آخر و قال:

السّلام عليكم و رحمة اللّه.

فأجابه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عليك السّلام و رحمة اللّه و بركاته. فجاءه ثالث و قال:

السّلام عليك و رحمة اللّه و بركاته. فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و عليك»- و عند ما سئل عن علّة هذا الجواب القصير، قال: إنّ القرآن يقول: إذا حيّيتم بتحية فحيوا بأحسن منها، و لكنك لم تبق شيئا»[۱۸۲].

و فى الحقيقة أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد ردّ التحية بأحسن منها فى الموردين السابقين، أمّا فى المورد الثّالث ردّها بالمساوى كلمة «و عليك» تعنى أنّ كل ما قلته لى مردود عليك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۷]

اشارة

اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (۸۷)

التّفسير

جاءت هذه الآية مكملة لما سبقتها و مقدمة لما تليها من آيات، فالآية السابقة بعد أن أمرت بردّ التحية قالت: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً.

و الآية موضوع البحث تشير إلى قضية غيبية مهمّة هى قضية يوم البعث و الحساب، حيث محكمة العدل الإلهية العامّة للبشر أجمعين، و تقرنها بمسألة التوحيد الذى هو ركن آخر من أركان الإيمان اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ

و عبارة لَيَجْمَعَنَّكُمْ تدلّ على الشمولية لكل البشر من أوّلهم حتى آخرهم، حيث سيجمعون «كلّهم» فى يوم واحد هو يوم الحشر و القيامة.

و فى موضع آخر من القرآن (الآيتان ۹۳ و ۹۴ من سورة مريم) أشير أيضا إلى هذه الحقيقة ... حقيقة بعث جميع عباد اللّه- من سكن منهم على هذه الكرة الأرضية أو على كرات أخرى- فى يوم واحد.

و عبارة لا رَيْبَ فِيهِ الواردة فى الآية و فى آيات أخرى، إنّما هى إشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۶

إلى الأدلة القطعية البديهية على وقوع يوم القيامة، مثل دليل «قانون التكامل» و «حكمة الخلق» و «قانون العدل الإلهى»، المذكورة بالتفصيل فى مبحث المعاد.

و تؤكد الآية فى نهايتها على حقيقة أنّ اللّه هو أصدق الصادقين: مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً من هنا لا يجوز أن يساور أحد الشك فيما يعد به اللّه من بعث و نشور و غيره من الوعود، فالكذب لا يصدر إلّا عن جهل أو ضعف و حاجة، و اللّه أعلم العالمين، و إليه سبحانه يحتاج العباد دون أن يحتاج هو إلى أحد مطلقا، فهو منزّه عن صفات الجهل و الضعف و العجز، و لذلك فهو أصدق الصادقين، بل

إن الكذب بالنسبة إلى اللّه تعالى لا مفهوم له إطلاقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۸]

اشارة

فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۸۸)

سبب النّزول

نقل جمع من المفسّرين عن ابن عباس أن نفرا من أهل مكّة من الذين كانوا قد أظهروا الإسلام امتنعوا عن ترك مجاورة و مداهنة المنافقين، و أحجموا لذلك عن الهجرة إلى المدينة، و كان هؤلاء فى الحقيقة يساندون و يدعمون عبدة الأوثان المشركين، إلّا أنّهم اضطروا فى النهاية إلى الخروج من مكّة (و ساروا مع المسلمين حتى وصلوا إلى مشارف المدينة، و لعلّهم فعلوا ذلك لدرء الفضيحة عن أنفسهم أو بهدف التجسس على المسلمين المهاجرين) و كانوا يظهرون الفرح لانطواء حيلتهم على المسلمين، كما حسبوا أن دخولهم إلى المدينة سوف لا- تعترضه أى مشاكل من قبل الآخرين- لكن المسلمين انتبهوا الى حقيقة هؤلاء، غير أنّهم انقسموا إلى فئتين، فئة منهم رأت ضرورة طرد أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا فى الحقيقة يدافعون عن المشركين أعداء الإسلام، و الفئة الثانية من المسلمين الذين كانوا لسذاجتهم يرون ظاهر الأمور دون باطنها، و خالفوا طرد المنافقين و اعترضوا بزعمهم أنّه لا يمكن محاربة أو طرد من يشهد للّه بالوحدانية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۸

و لمحمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنّبوة، و قالوا: أنّه لا يمكن استباحة دماء هؤلاء لمجرّد عدم هجرتهم مع المسلمين: فنزلت هذه الآية الكريمة و هى تلوم الفئة الأخيرة على خطئها، و ترشدها إلى طريق الحقّ الصواب ۱۸۳].

التّفسير

استنادا إلى سبب النزول الذى ذكرناه، تتّضح لنا الصّلة الوثيقة بين هذه الآية و الآيات التى تليها، و كذلك الآيات السابقة التى تناولت مواضيع و قضايا عن المنافقين.

فهذه الآية تخاطب فى البداية المسلمين و تلومهم على انقسامهم إلى فئتين، كل فئة تحكم بما يحلو لها بشأن المنافقين، حيث تقول: فَما لَكُمْ فِي الْمُنافِقِينَ فِئَتَيْنِ ...[۱۸۴] و تنهى المسلمين عن الاختلاف فى أمر نفر أبوا أن يهاجروا معهم، و تعاونوا مع المشركين، و أحجموا عن مشاركة المجاهدين، فظهر بذلك نفاقهم، و دلت على ذلك أعمالهم، فلا يجوز للمسلمين أنّ ينخدعوا بتظاهر هؤلاء بالتوحيد و الإيمان، كما لا يجوز لهم أن يشفعوا فى هؤلاء، و قد أكّدت الآية السابقة أن: مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها.

و تبيّن الآية بعد ذلك: إنّ اللّه قد سلب من هؤلاء المنافقين كل فرصة للنجاح، و حرمهم من لطفه و عنايته بسبب ما اقترفوه و إنّ اللّه قد قلب تصورات هؤلاء بصورة تامّة فأصبحوا كمن يقف على رأسه بدل رجليه: ... وَ اللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا ...[۱۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۶۹

و تدل عبارة «بما كسبوا» على أنّ كل ارتداد أو خروج عن جادة الحقّ و طريق الهداية و السعادة و النجاة، إنّما يتمّ بعمل الإنسان و

فعله، و حين ينسب الإضلال إلى اللّه سبحانه عزّ و جلّ، فذلك معناه أنّ اللّه القدير الحكيم يجازى كل إنسان بما كسبت يداه و يثيبه بقدر ما يستحق من ثواب.

و فى الختام تخاطب الآية أولئك البسطاء من المسلمين الذين انقسموا على أنفسهم و أصبحوا يدافعون لسذاجتهم عن المنافقين، فتؤكد لهم أنّ هداية من حرمه اللّه من لطفه و رحمته بسبب أفعاله الخبيثة الشنيعة أمر لا يمكن تحقيقه، لأنّ اللّه قد كتب على هؤلاء المنافقين ما يستحقونه من عذاب و ضلال و حرمان من الهداية و النجاة أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا.

إذ أنّ عمل كل شخص لا ـ ينفصل عنه ... و هذه سنة إلهية ... فكيف يؤمل فى هداية أفراد امتلأت أفكارهم و قلوبهم بالنفاق، و اتجهت أعمالهم إلى حماية أعداء اللّه؟! إنّه أمل لا يقوم على دليل ۱۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۸۹]

اشارة

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فَلا ـ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۸۹)

التّفسير

اشارة

لقد تحدثت الآية السابقة عن المنافقين الذين كانوا يحظون بحماية نفر من المسلمين البسطاء و شفاعتهم، و أوضحت أنّ هؤلاء المنافقين غرباء عن الإسلام، و هذه الآية تبيّن أنّ المنافقين لفرط انحرافهم و ضلالتهم يعجبهم أن يجروا المسلمين إلى الكفر كى لا يظلوا وحدهم كافرين: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً.

و لهذا السبب فإنّ المنافقين أسوأ من الكفار، لأنّ الكافر لا يحاول سلب معتقدات الآخرين، و المنافقون يفعلون هذا الشىء و يسعون دائما لإفساد المعتقدات، و هم بطبعهم هذا لا يليقون بصحبة المسلمين أبدا، تقول الآية الكريمة: فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِياءَ ... إلّا إذا غيروا ما فى أنفسهم من شرّ، و تخلوا عن كفرهم و نفاقهم و أعمالهم التخريبية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۱

و لكى يثبتوا حصول هذا التغيير، و يثبتوا صدقهم فيه، عليهم أن يبادروا إلى الهجرة من مركز الكفر و النفاق إلى دار الإسلام (أى يهاجروا من مكّة إلى المدينة) فتقول الآية: حَتَّى يُهاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ... أمّا إذا رفضوا الهجرة فليعلم المسلمون بأن هؤلاء لا يرضون لأنفسهم الخروج من حالة الكفر و النفاق، و إن تظاهرهم بالإسلام ليس إلّا من أجل تمرير مصالحهم و أهدافهم الدنيئة و من أجل أن يسهل عليهم التآمر و التجسس على المسلمين.

و فى هذه الحالة يستطيع المسلمون أن يأسروهم حيثما وجدوهم، و أن يقتلوهم إذا استلزم الأمر، تقول الآية الكريمة: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

و تكرر هذه الآية التأكيد على المسلمين أن يتجنّبوا مصاحبة هؤلاء المنافقين و أمثالهم فتقول: لا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

و القرآن فى هـذا الحكم يؤكّـد حقيقـة مصـيرية للمجتمع، هى أنّ حياة أى مجتمع تمرّ بمرحلـة إصـلاحية لا يمكن أن تسـتمر بصورة سليمـة مـا لم يتخلص من جراثيم الفسـاد المتمثلـة بهؤلاء المنافقين أو الأعـداء الـذين يتظاهرون بالإخلاص، و هم فى الحقيقـة عناصـر مخربة هدامة تعمل فى التآمر و التجسس على المجتمع و مصالحه العامّة.

و الطريف هنـا أنّ الإسـلام- مع اهتمامه برعايـة أهل الكتاب من اليهود و النصارى و غيرهم و منعه الظلم و العـدوان عنهم- نراه يشـدد كثيرا فى التحذير من خطر المنافقين، و يرى ضـرورة التعامل معهم بعنف و قسوة، و رغم تظاهرهم بالإسلام يصرح القرآن بأسرهم، بل حتى بقتلهم إن استلزم الأمر.

و ما هذا التشديد إلّا لأنّ هؤلاء يستطيعون ضرب الإسلام تحت ستار الإسلام، و هذا ما يعجز عن أدائه أى عدو آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۲

سؤال:

قـد يرى البعض أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كـان يتحاشـى قتل المنافقين كى لا يتهمه الأعـداء بأنّه يقتل أصـحابه، أو أنّه لم يقتلهم حتى لا يستغل الآخرون هذا الأمر فيقتلون كل من يعادونه بدعوى أنّه منافق، فكيف يتلاءم هذا الموقف مع الآية الشريفة.

الجواب:

الحقيقة أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم اتّبع هذا الأسلوب مع منافقى المدينة الذين لم يظهروا العداء الصريح له أو للإسلام، بينما اتّبع مع منافقى مكّة الذين جهروا بعدائهم للمسلمين و ساعدوا الكفار عليهم أسلوبا غير هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۰]

اشارة

إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (۹۰)

سبب النّزول

وردت روايات عديدة تفيد أنّ إثنتين من القبائل العربية فى زمن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و هما قبيلتا «بنى ضـمرة» و «أشجع» كانت إحـداهما و هى قبيلة بنى ضـمرة قد عقدت مع النّبى اتفاقا بترك النزاع، و كانت القبيلة الثانية حليفة للقبيلة الأولى دون أن تعقد مثل هـذا الاتفاق مع النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و تقول الروايات إن بعض المسـلمين أخـذوا يشـككون فى وفاء «بنى ضـمرة» للمسلمين، و اقترحوا على النّبى أن يهاجم هذه القبيلة قبل أن تبادر هى بالهجوم على المسلمين،

فرد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا:

«كلّا، فإنّهم أبر العرب بالوالدين، و أوصلهم للرّحم، و أوفاهم بالعهد».

و بعد فترة علم المسلمون أنّ قبيلة «أشجع» و على رأسها «مسعود بن رجيلة» قد وصلت حتى مشارف المدينة، و هى فى سبعمائة رجل، فبعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وفدا للتعرف على سبب مجيئهم إلى ذلك المكان، فأجابت هذه القبيلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۴

بأنّها جاءت لكى تعقد اتفاقا مع المسلمين مماثلا لاتفاق «بنى ضمرة» معهم، و ما أن علم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الأمر حتى أمر أصحابه بأن يأخذوا مقدارا من التمر هدية لهذه القبيلة، ثمّ التقى بهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبروه بأنّهم لعجزهم عن موازرة المسلمين فى قتال الأعداء، و لعدم رغبتهم فى المشاركة فى قتال ضد المسلمين، لما تربطهم بهم من صلة الجوار، لذلك يرومون عقد اتفاق أو ميثاق مع المسلمين بتحريم العدوان بينهما، فنزلت الآية المذكورة بهذا الشأن و هى تبيّن للمسلمين ما يجب عليهم أن يفعلوه فى مثل هذه الحالة.

و يقول مفسرون آخرون إنّ قسما من هذه الآية قد نزل فى شأن قبيلة «بنى مدلج» التى جاءت إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخبرته أنّها تريد الاتفاق معه على عدم اللجوء إلى العدوان فيما بينهما، و ذلك لرغبتها فى البقاء على الحياد تجاه المسلمين و دعوتهم.

التّفسير

التّرحيب باقتراح السّلم:

بعد أن أمر القرآن الكريم المسلمين فى الآيات السابقة باستخدام العنف مع المنافقين الذين يتعاونون مع أعداء الإسلام، تستثنى هذه الآية من الحكم المذكور طائفتين:

۱- من كانت لهم عهود و مواثيق مع حلفائكم إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ

۲- من كانت ظروفهم لا تسمح لهم بمحاربة المسلمين، كما أنّ قدرتهم ليست على مستوى التعاون مع المسلمين لمحاربة قبيلتهم أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقاتِلُوكُمْ أَوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ

و من الواضح أنّ أفراد الطائفة الأولى يجب أن يكونوا مستثنين من هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۵

القانون احتراما للعقود و العهود، و أمّا المجموعة الثانية- و إن لم تكن معذورة، بل عليها أن تستجيب للحق بعد معرفته- فقد أعلنت حيادها، و لذلك فمجابهتها يتعارض مع مبادئ العدالة و المروءة.

و لكى لا يستولى الغرور على المسلمين إزاء كل هذه الانتصارات الباهرة، و كى لا يعتبروا ذلك نتيجة قدرتهم العسكرية و ابتكارهم، و لا تستفز مشاعرهم تجاه هذه المجموعات المحايدة تقول الآية: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ

و هذا تذكير للمسلمين بعدم نسيان اللّه فى كل انتصار، و أن يتجنّبوا الغرور و العجب حيال ما لديهم من قوّة، و أن لا يعتبروا العفو عن الضعفاء خسارة أو ضررا لأنفسهم.

و تكرر الآية فى ختامها التأكيد بأنّ اللّه لا يسمح للمسلمين بالمساس بقوم عرضوا عليهم الصلح و تجنبوا قتالهم، و إن المسلمين مكلفون بأن يقبلوا دعوة الصلح هذه، و يصافحوا اليد التى امتدت إليهم و هى تريد الصلح و السلام فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ أَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا.

يلفت النظر أنّ القرآن فى هذا الموضع و مواضع أخرى يذكر مقترح السلام بعبارة «إلقاء السلام» و قد يكون ذلك إشارة إلى التباعد

بين الجانبين المتنازعين قبل الصلح، حتى أنّ أحد الجانبين يطرح اقتراحه باحتياط و عن بعد ليلقيه على الجانب الآخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۱]

اشارة

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً (۹۱)

سبب النّزول

لقد ذكروا أسبابا مختلفة لنزول هذه الآية، و أشهرها هو أنّ نفرا من أهل مكّة كانوا حين يحضرون عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتظاهرون بالإسلام كذبا و خداعا، و ما أن يرجعوا إلى قريش يعودون لعبادة الأصنام، و قد انتخب هؤلاء هذا النوع من السلوك درءا لخطر المسلمين و خطر قريش عن أنفسهم، بالإضافة إلى سعيهم لإمرار مصالحهم لدى الطرفين، فنزلت هذه الآية و أمرت المسلمين بالتعامل مع هؤلاء بعنف و شدّة.

التّفسير

عقاب ذى الوجهين:

إنّ هذه الآية تصور لنا طائفة من الناس نقيض تلك الطائفة التى تحدثت عنها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۷

الآية السابقة و أمرت بقبول الصلح منها، و الطائفة تتشكل من أفراد نفعيين انتهازيين، همّهم الوحيد تحقيق مصالحهم و التحرك بحرية تامّة لدى المسلمين، و قريش عن طريق الرياء و الخيانة و الخداع، و التظاهر بتأييد و اتباع الجانبين و التعاون معهما، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَ يَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ....

و هؤلاء حين تسنح لهم الفرصة ينقلبون على أعقابهم و ينغمسون فى الفتنة و الشرك نكسا على رؤوسهم كُلَّما رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيها ....

و عمل هؤلاء و سلوكهم على عكس سلوك الطائفة السابقة التى أرادت أن تبقى على الحياد فقد تجنبت الفئة السابقة إيذاء المسلمين، أمّا هذه الأخيرة فقد انطوت سريرتها على إيذاء المسلمين و الوقوف ضدهم.

و قد اشترط القرآن الكريم على هذه الطائفة ثلاثة شروط من أجل أن تبقى فى مأمن من انتقام المسلمين، و هذه الشروط هى: اعتزال المسلمين، أو مصالحتهم، أو الكف عن إيذائهم حيث تقول الآية الكريمة: فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَ يَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ ....

و إذا رفضت هذه الطائفة الشروط المذكورة و أصرت على العصيان و التمرد، فالمسلمون مكلّفون عند ذلك بإلقاء القبض على أفرادها و قتلهم أينما وجدوا، كما تقول الآية: فَخُذُوهُمْ وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

و لما كانت الحجّة قد تمّت على هؤلاء، تقول الآية فى الخاتمة: أُولئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطاناً مُبِيناً.

و قد يكون هذا التسلط فى مجال الكلام و المنطق إذا تغلب منطق المسلمين على منطق المشركين و الكافرين، و قد يكون سلطانا ماديا ظاهريا عليهم لأنّ الآية نزلت فى وقت كان المسلمون يتمتعون فيه بقدر كاف من القوّة.

و تشير عبارة «ثقفتموهم» الواردة فى الآية إلى احتياج المسلمين إلى الدقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۸

و المهارة فى التعرف على هذه الفئة المنافقة الخطيرة، لما لها من قابلية عجيبة على التلون و الخداع و الانفلات من العقاب، فعبارة «ثقفتموهم» مشتقة من المصدر «ثقافة» الذى يعنى الحصول على شىء باستخدام الدقّة و المهارة، بينما الفعل «وجد» يعنى الحصول على الشىء بصورة مطلقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۷۹

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۲]

اشارة

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۹۲)

سبب النّزول

ذكروا أنّ مشركا من أهل مكّة و هو «الحارث بن زيد» كان يعذب أحد المسلمين- و لفترة طويلة- بالتعاون مع أبى جهل، و كان اسم هذا المسلم «عياش بن أبى ربيعة» و لم يكن تعذيبه بسبب جرم اقترفه، بل كان يعذب لمجرّد أنّه آمن بالإسلام، و بعد هجرة المسلمين إلى المدينة هاجر «عياش» إليها، فصادف يوما «الحارث بن زيد» فى إحدى طرقات المدينة فقتله ظنّا منه أنّه ما زال عدوا للمسلمين، و لم يكن على علم بأن الحارث كان قد تاب و أسلم، فعلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الحادث، فنزلت الآية الشّريفة و هى تبيّن حكم مثل هذا القتل الناتج عن الخطأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۰

التّفسير

أحكام القتل النّاتج عن الخطأ:

لقد أطلقت الآية السابقة أيدى المسلمين فى المنافقين الذين كانوا يشكلون خطرا كبيرا على الإسلام، و سمحت لهم حتى بقتل أمثال هؤلاء المنافقين، و لكن تفاديا لاستغلال هذا الحكم استغلالا سيئا، و لسد الطريق أمام الأغراض الشخصية التى قد تدفع صاحبها إلى قتل إنسان بتهمة أنّه منافق، و أمام أى تساهل فى سفك دماء الأبرياء، بيّنت هذه الآية و التى تليها أحكام قتل الخطأ و قتل العمد، لكى يكون المسلمون على غاية الدقّة و الحذر فى مسألة الدّماء التى تحظى باهتمام بالغ فى الإسلام، تقول الآية الكريمة: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً.

هـذه الآيـة تقرر فى الواقع حقيقـة من الحقـائق، فالمؤمن لا يسـمح لنفسه إطلاقا أن يسـفك دما بريئا، لأنّ المشاعر الإيمانيـة تجعل من الجماعـة المؤمنـة أعضاء جسـد واحـد، و هل يقـدم عضو فى جسـد على قطع عضو آخر إلّا خطأ! من هـذه الحقيقـة يتّضح أنّ مرتكب جريمة القتل متهم أوّلا فى إيمانه.

و عبارة «إلّا خطأ» لا تعنى السـماح بارتكاب قتل الخطأ! لأنّ مثل هذا القتل لا يكون عن قرار مسبق، و لا يكون مرتكبه حين الارتكاب على علم بخطئه أنّها- إذن- تقرير لحقيقة عدم ارتكاب المؤمن مثل هذه الجريمة إلّا عن خطأ.

ثمّ تبيّن الآية الكريمة غرامة قتل الخطأ، و تقسمها إلى ثلاثة أنواع:

فالنّوع الأوّل: هو أن يحرر القاتل عبـدا مسـلما، و يـدفع الديـة عن دم القتيل إلى أهله إذا كان القتيل ينتمى إلى عائلة مسـلمة وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَ دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ فإذا وهب أهل القتيل الدية و تصدقوا بها له فلبس على القاتل أن يدفع شيئا: إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا ....

و النّوع الثّانى: من غرامة قتل الخطأ يكون فى حالة ما إذا كان القتيل مسلما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۱

و لكن من عائلـة معاديـة للإسـلام و يجب فى هـذه الحالـة عتق عبـد مسـلم و لا تدفع الدية إلى أهل القتيل، لأنّ الإسـلام يرفض تعزيز الحالـة الماليـة لأعدائه، بالإضافة إلى ذلك فإنّ الإسـلام قد قطع الصـلة بين هذا الفرد و عائلته المعادية للإسـلام، فلا معنى إذن لجبران الخسارة.

أما النّوع الثّالث: من غرامة القتل الناتج عن الخطأ، فيكون فى حالة كون القتيل من عائلة غير مسـلمة لكن بينها و بين المسـلمين عهدا و ميثاقا، فى مثل هـذه الحالـة أمر بـدفع ديـة القتيل إلى أهله، كما أمر- أيضا- بتحرير عبد من العبيد المسـلمين احتراما للعهود و المواثيق تقول الآية: وَ إِنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلى أَهْلِهِ وَ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۳۸۱

اختلف المفسّرون فى قتيل الحالة الثالثة، هل يجب أن يكون من المسلمين، أم أن الحكم يشمل غيرهم من الكفار الذميين؟

و ظاهر الآية و الروايات التى وردت فى تفسيرها تدل على أنّ المقصود فيها هو القتيل «المسلم».

كمـا اختلف المفسّـرون فى جواز دفع الديـة إلى أهـل القتيـل غير المسـلمين، حيث أنّ الديـة تعتبر جزءا من الإـرث، و الكـافر لا يرث المسـلم، و لكن ظـاهر الآيـة يـدل على وجوب دفع الديـة إلى أهـل مثـل هـذا القتيـل، و ذلـك تأكيـدا من الإسـلام لاحترامه للعهود و المواثيق.

و ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ الدية تدفع فى هذه الحالة إلى المسلمين من ورثة القتيل دون الكافرين منهم معتمدين على أنّ الكافر لا يرث المسلم و أنّ الدية هى جزء من الإرث، و قد وردت إشارات إلى هذا المعنى فى بعض الروايات أيضا.

بينما ظاهر الآية يدل على أن الورثة ليسوا من المسلمين، و ذلك حين تقول:

مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ ... لأن العهود و المواثيق كانت فى ذلك الزمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۲

بين المسـلمين و بين غيرهم، و لم تكن بين المسـلمين أنفسـهم- حينـذاك- عهود أو مواثيق، (و هنا يجب الإمعان و التـدقيق كثيرا من الأمر).

و تسـتطرد الآيـة فى بيـان الحكم فتتطرق إلى أولئـك النفر من المسـلمين الـذين يرتكبون القتل عن خطأ، و لا يسـعهم- لفقرهم- دفع المال ديـة عن القتيل، كما لا يسـعهم شـراء عبـد لتحرير رقبته غرامة عن ارتكابهم للقتل الخطأ، و تبيّن حكم هؤلاء، و تعلن أنهم يجب

أن یصوموا شهرین متتابعین غرامة عن القتل الخطأ الذی ارتکبوه، بدلا من الدیة و تحریر الرقبة، و قد اعتبرت ذلک نوعا من تخفیف الجزاء علی الذین لا یطیقون الغرامة المالیة و توبة منهم إلی اللّه، علما أنّ جمیع أنواع الغرامات التی ذکرت فی الآیة عن القتل الخطأ، إنما هی توبة و کفارة للذنب المرتکب فی هذا المجال، و اللّه یعلم بخفایا الأمور و قد أحاط علمه بکل شیء حیث تقول الآیة: تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَکِیماً.

لقد وردت فی الآیة- موضوع البحث- أمور عدیدة یجدر الانتباه إلیها و هی:

۱- ذکرت الآیة ثلاثة أنواع من التعویض عند حصول قتل عن خطأ، و کل نوع فی حدّ ذاته تعویض عن الخسارة الناجمة عن هذا القتل.

فتحریر رقبة عبد مسلم یعتبر تعویضا عن خسارة اجتماعیة ناتجة عن القتل الواقع علی إنسان مسلم، إذ بعد أن خسر المجتمع فردا نافعا من أفراده بسبب وقوع القتل علیه، حصل علی تعویض مماثل و ذلک بدخول إنسان نافع آخر بین أفراده عن طریق التحریر.

و أمّا التعویض المادی «الدیة» فهو مقابل الخسارة المادیة اللاحقة بأهل القتیل نتیجة فقدهم إیاه، و الحقیقة أن الدیة لیست ثمنا لدم القتیل المسلم البریء، لأن دمه لا تعادله قیمة، بل هی- و کما أسلفنا- نوع من التعویض عن خسارة مادیة لاحقة بذوی القتیل بسبب فقدانه.

و أمّا الخیار الثّالث الوارد فی حالة تعذر تقدیم التعویض المادی، فیتمثل فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۳

صیام شهرین متتابعین یقوم به القاتل، فهو تعویض أخلاقی و معنوی لخسارة معنویة لحقت بالقاتل نفسه بسبب ارتکابه لحادث قتل، فالکفارة تتحقق فی الدرجة الأولی فی تحریر رقبة مؤمنة، فإن عجز القاتل فصیام شهرین متتابعین- و یجب الانتباه هنا إلی أن تحریر العبید یعتبر بحدّ ذاته عبادة، لما له من أثر معنوی علی العبد الذی یتحرر من قیود الرق.

۲- ورود عبارة إِلَّا أَنْ یَصَّدَّقُوا بالنسبة إلی أهل القتیل الذین هم من المسلمین، أی أن یتنازلوا عن «دیة» قتیلهم، حیث لم ترد هذه العبارة بالنسبة لغیر المسلمین- و سبب ذلک واضح، و هو لأن الأرضیة للصفح و العفو متوفرة لدی المسلمین حیال أمثالهم، بینما لا تتوفر مثل هذه الأرضیة لدی غیر المسلمین تجاه المسلمین، کما أن المسلم یجب أن لا یقبل معروفا أو منّة من غیر المسلم فی هذه الحالات.

۳- و ممّا یجلب الانتباه أنّ الحالة الثالثة الواردة فی آیة موضوع البحث، قد قدمت کفارة الدیة علی کفارة التحریر، و هذه الحالة تتناول مسألة القتل الخطأ الواقع علی شخص لا ینتمی أهله إلی الإسلام، بینما الحالة الأولی- التی کان القتیل فیها من عائلة إسلامیة- تقدمت فیها کفارة التحریر علی کفارة الدیة.

و یمکن الاستنتاج من هذا التقدیم و التأخیر أن مسألة دفع الدیة فی موعد متأخر بالنسبة للمسلمین فیما بینهم، لا تترک أثرا سلبیا علیهم- فی الغالب- بینما لو کان أهل القتیل من غیر المسلمین لوجب التعجیل فی دفع الدیة- أوّلا- اتقاء للفتنة، و لکی لا یفسّر أهل القتیل و قومه مسألة القتل الحاصلة بأنّها نقض للعهد من جانب المسلمین.

۴- لم تحدد الآیة الکریمة مقدار الدیة أو مبلغها فی أی من الحالات الثلاثة المذکورة، و یستنتج من هذا أن مسألة التحدید هذه إنّما أوکلت إلی السنة التی عینت بالفعل مقدارها الکامل بألف مثقال من الذهب، أو بمائة بعیر، أو مائتین من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۴

البقر، و یمکن أن یکون ثمن هذه الأنواع مالا إذا حصل اتفاق بین طرفی القضیة، (و بدیهی أن تخصیص الذهب أو نوع من أنواع الماشیة دیة عن القتل، إنما هو سنة إسلامیة تستند مبرراتها علی الأمور الطبیعیة لا الوضعیة المتغیرة بتغیر الزمان).

۵- قد یرد هذا الوهم لدی البعض بأنّ القتل الواقع خطأ، یجب أن لا یکون بإزائه غرامة أو عقوبة، لأن القاتل لم یرتکب جریمة عن

عمد أو سبق إصرار و إن الخطأ لا عقوبة أو غرامة مالية عليه.

و جواب هذا- أو توضيحه- هو أن القتل، دون سواه من الجرائم، تدخل فيه قضية بالغة الأهمية و هى قضية الدم المراق فيها و الحياة الإنسانية التى تسلب عضو من أعضاء المجتمع ... و لكى يبيّن الإسلام اهتمامه الكبير بحياة الأفراد، و يدفع معتنقيه إلى التزام الحيطة و الحذر الدقيقين لعدم التورط فى ارتكاب مثل هذه الأخطاء، شدد فى مسألة الغرامة و العقوبة حرصا منه على حياة أفراد المجتمع، و لكى لا يصبح الخطأ عذرا يتوسل به من شاء فى إهدار دماء الأبرياء من الناس.

و العبارة الأخيرة من الآية الكريمة التى هى تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ ... قد تكون إشارة إلى أنّ وقوع الخطأ يكون غالبا بسبب التهاون و قلة الحذر، و ان الخطأ إذا كان كبيرا كالقتل- يجب التعويض عنه أوّلا و إرضاء أهل القتيل لكى تشمل القاتل أو الخاطئ بعد ذلك التوبة الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۳]

اشارة

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ لَعَنَهُ وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً (۹۳)

سبب النّزول

ذكروا أنّ «المقيس بن صبابة الكنانى» كان قد وجد قاتل أخيه «هشام» فى محلة بنى النجار، و أخبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الأمر، فبعثه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع «قيس بن هلال المهرى» إلى زعماء بنى النجار يأمرهم أن يسلموا قاتل «هشام» إلى أخيه «المقيس» و إن لم يكن لهم علم به أو بمكانه فليدفعوا إلى «المقيس» دية أخيه القتيل، فدفع بنو النجار الدية لعدم علمهم بمكان القاتل، فأخذ «المقيس» الدية و توجه إلى المدينة مع «قيس بن هلال المهرى» إلّا أنه فى الطريق راودته نعرة من نعرات الجاهلية، فظن أنه قد جلب على نفسه العار بقبوله المال بدل دم أخيه، فعمد إلى قتل رفيق سفره، أى قيس بن هلال الذى كان من قبيلة بنى النجار، انتقاما لدم أخيه على حسب ظنّه، ثمّ هرب «المقيس» إلى مكّة و ارتد عن إسلامه، فاستباح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دم هذا القاتل، أى «المقيس» لخيانته، و قد نزلت هذه الآية فى هذه المناسبة و هى تبيّن عقوبة مرتكب القتل العمد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۶

التّفسير

عقوبة القتل العمد:

لقد بيّنت الآية السابقة عقوبة- أو غرامة- القتل الناتج عن الخطأ، و جاءت الآية الأخيرة عقوبة القتل عن عمد و سبق إصرار، فى حالة إذا كان القتيل من المؤمنين، و بما أن جريمة قتل الإنسان من أعظم و أكبر الجرائم و أخطر الذنوب، و ان التهاون فى مكافحة مثل هذه الجريمة يهدد أمن المجتمع و سلامة أفراده، الأمن الذى يعتبر من أهم متطلبات المجتمع السليم، لذلك فإنّ القرآن الكريم قد تناول هذه القضية فى آيات مختلفة بأهمية بالغة، حتى أنّه اعتبر قتل النفس الواحدة قتلا للناس جميعا، إلّا أن يكون القتل عقابا لقتل مثله أو عقابا لجريمة الإفساد فى الأرض حيث يقول القرآن فى هذا المجال: مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ

النَّاسَ جَمِيعاً[۱۸۷].

و قد قررت الآية- موضوع البحث- أربع عقوبات أخروية لمرتكب القتل العمد، و عقوبة أخرى دنيوية هى القصاص، و العقوبات الأخروية هى:

۱- الخلود و البقاء الأبدى فى نار جهنم، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها.

۲- احاطة غضب اللّه و سخطه بالقاتل: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ ....

۳- الحرمان من رحمة اللّه: وَ لَعَنَهُ

۴- العذاب العظيم الذى ينتظره يوم القيامة: وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً و الملاحظ هنا أن العقاب الأخروى الذى خصصه اللّه للقاتل فى حالة العمد، هو أشدّ أنواع العذاب و العقاب بحيث لم يذكر القرآن عقابا أشدّ منه فى مجال آخر أو لذنب آخر.

أمّا العقاب الدنيوى الذى وردت تفاصيله فى الآية (۱۷۹) من سورة البقرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۷

فهو القصاص، و قد تطرقنا إليه لدى تفسير هذه الآية فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا.

جريمة القتل العمد و العقاب الأبدى:

يرد سؤال فى هذا المجال، و هو أن الخلود فى العذاب قد ورد بالنسبة إلى من يموت كافرا، بينما قد يكون مرتكب جريمة القتل العمد مؤمنا، كما يحتمل أن يندم على ما ارتكبه من إثم و يتوب عن ذلك فى الدنيا، و يسعى إلى تعويض و تلافى ما حصل بسبب جريمته، فكيف إذن يستحق مثل هذا الإنسان عذابا أبديا و عقابا يخلد فيه؟

إنّ جواب هذا السؤال يشتمل على ثلاث حالات هى:

۱- قد يكون المراد بقتل المؤمن- الوارد فى الآية موضوع البحث- هو القتل بسبب إيمان الشخص، أى استباحة دم المؤمن، و واضح من هذا إنّ الذى يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل كهذه إنما هو كافر عديم الإيمان، و إلا كيف يمكن لمؤمن أن يستبيح دم أخيه المؤمن، و بناء على هذا يستحق القاتل الخلود فى النار و يستحق العذاب و العقاب المؤبد، و قد نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام حديث بهذا الفحوى ۱۸۸].

۲- كما يحتمل أن يموت مرتكب جريمة القتل العمد مسلوب الإيمان بسبب تعمده قتل إنسان مؤمن برىء، فلا يحظى بفرصة للتوبة عن جريمته، فينال فى الآخرة العذاب العظيم المؤبد.

۳- و يمكن أيضا- أن يكون المراد بعبارة «الخلود» الواردة فى الآية هو العذاب الذى يستمر لآماد طويلة و ليس العذاب المؤبد.

و يمكن أن يطرح سؤال آخر- فى هذا المجال- و هو هل أنّ جريمة القتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۸

العمد قابلة للتوبة؟! لقد ردّ جمع من المفسّرين بالنفى صريحا على هذا السؤال، و قالوا: أن هذه الجريمة التى ورد ذكرها فى الآية موضوع البحث غير قابلة للتوبة مطلقا، حيث أشارت الروايات الواردة فى هذا الأمر إلى ذلك، فقد صرحت الروايات بأنّ لا توبة لقاتل المؤمن عمدا.

و لكن الذى نستنتجه من روح التعاليم الإسلامية، و روايات الأئمّة عليهم السّلام، و غيرهم من علماء الدين الكبار، و كذلك من فلسفة التوبة القائمة على أساس التربية و الوقاية من الوقوع فى الذنوب و الخطايا فى مستقبل الفرد المسلم ...

المستخلص من ذلك كله هو أنه لا يوجد ذنب غير قابل للتوبة، لكن التوبة من بعض الذنوب تكون مقيدة بشروط قاسية جدا يصعب بل يستحيل أحيانا على الفرد تحقيقها.

و الدليل على هذا الأمر هو قول القرآن الكريم: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ[۱۸۹].

و قد قلنا فى تفسير هذه الآية: إنّها وردت فى شأن العفو عن الذنوب بواسطة الشفاعة و ما شاكل ذلك، و لكن المعروف أنّه حتى الشرك- ذاته- يعتبر من الجرائم و الذنوب القابلة للتوبة، إذا تخلى الإنسان عنه و عاد فآمن باللّه الواحد الأحد و أسلم وجهه للّه، كما حصل للجاهليين الذين تخلوا عن شركهم و قبلوا الإسلام و تابوا إلى اللّه فعفا عنهم و غفر لهم ذنوبهم السابقة.

و يتبيّن من هذا العرض الموجز أنّ كل الذنوب- حتى الشرك- قابلة للتوبة، و تؤكد على ذلك الآيتان (۵۳ و ۵۴) من سورة الزمر حيث يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ

و قد ذكر بعض المفسّرين أن الآيات التى تتحدث عن غفران جميع الذنوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۸۹

هى آيات عامّة قابلة للتخصيص- و لكن لا يمكن الحكم بصحة هذا القول، لأنه يتناقض و منطق هذه الآية التى اعتبرت التوبة نعمة و منة من اللّه على المذنبين، و أكدت ذلك بالقرائن، لذلك لا يمكن تخصيص هذه الآيات، فهى- كما فى الاصطلاح- تأبى التخصيص.

إضافة إلى ذلك كلّه فقد يحتمل أن يلجأ مرتكب القتل العمد إلى التوبة، و يخلص الطاعة للّه فى بقية عمره، و يتجنب ارتكاب الذنوب و لا يعصى اللّه بعد ذلك، و لا يعمد إلى ارتكاب جريمة قتل مشابهة، فهل يصح أن ييأس التائب- فى مثل هذه الحالة- من رحمة اللّه و عفوه و مغفرته؟ و هل يجوز القول بأن هذا الشخص مع توبته و ندمه و سيبقى مشمولا بعذاب اللّه المؤبد؟ إن القول برفض توبة إنسان كهذا يكون مخالفا لروح التعاليم الدينية السامية التى جاء بها الأنبياء لتربية البشر و هدايتهم فى جميع مراحل التاريخ.

و الذى نلاحظه فى تاريخنا الإسلامى، هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد عفا عن أخطر المجرمين من أمثال «وحشى» الذى قتل «حمزة بن عبد المطلب» عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قبل النّبى توبته، و كذلك لا يمكن القول بأن ارتكاب جريمة القتل فى حال الشرك يختلف عنه فى حال الإيمان، بحيث يقال باحتمال التغاضى و العفو عن الجريمة فى الحالة الأولى، و عدم احتماله فى حالة الإيمان، و قد سبق أن علمنا أن ليس هناك ذنب أعظم من الشرك باللّه، و عرفنا أنّ هذا الذنب- أيضا- قابل للتوبة و ان اللّه يعفو عن المشرك إذا تاب عن شركه و اعتنق الإسلام ... فكيف- و الحالة هذه- يمكن القول بأنّ جريمة القتل العمد- التى لم يذكر القرآن أنّها أعظم الجرائم ليست قابلة للتوبة أو العفو؟

إنّ قولنا بأنّ جريمة قتل العمد قابلة للتوبة و العفو لا يقلل من عظم خطورة هذه الجريمة، و قبول التوبة فى هذا المجال لا يعنى أنّ التوبة متيسرة بسيطة فى مثل هذه الحالة، بل أنّها من أصعب الأمور، و هى إن أريد تحقيقها- تحتاج إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۰

بذل و تضحيات كبيرة للتعويض عما خلفته الجريمة من آثار خطيرة و سيئة على المجتمع، و التعويض فى هذا المجال ليس بالأمر اليسير[۱۹۰] و لكننا أردنا من ذلك أن نبين أن باب التوبة ليست مغلقة على من تاب و آمن و عمل صالحا ثمّ اهتدى، حتى لو كان قد ارتكب فى وقت من الأوقات جريمة كالقتل المتعمد.

ما هى أنواع القتل؟

لقد قسم الفقهاء القتل إلى ثلاثة أنواع: كما ورد فى كتب القصاص و الديات، و قد استندوا فى هذا التقسيم على ما استلهموه من الآيات القرآنية و الروايات و الأحاديث الواردة فى هذا المجال ... و هذه الأنواع هى:

۱- القتل العمد.

۲- القتل شبه العمد.

۳- القتل الخطأ.

و القتل العمد هو الذى يحصل باستخدام وسائل القتل مع وجود سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، مثل أن يعمد إنسان إلى قتل إنسان آخر مستخدما فى ذلك وسائل كالسكين أو العصى أو الحجارة أو غير ذلك من الوسائل القاتلة.

أمّا القتل شبه العمد فهو الذى يكون مسبوقا بإصرار القاتل على إيذاء القتيل دون استهداف قتله، فيؤدى الإيذاء إلى القتل، كأن يضرب شخص شخصا آخر، دون أن يقصد قتله، فيؤدى الضرب إلى قتل المضروب.

و القتل الخطأ هو القتل الذى يحصل دون أن يكون لدى القاتل سبق إصرار على ارتكاب هذه الجريمة، و لم يكن يهدف إلى إيذاء القتيل، و يحدث هذا- مثلا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۱

لدى محاولة إنسان اصطياد بعض الحيوانات بنوع من أنواع السلاح، فبدل أن يقع السلاح فى الحيوان يقع سهوا على إنسان آخر فيقتله.

و قد وردت الأحكام المختلفة لهذه الأنواع الثلاثة من القتل فى الكتب الفقهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۹۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۹۴)

سبب النّزول

لقد ذكرت الرّوايات و التفاسير الإسلامية أسباب عدة لنزول هذه الآية، و كلها تتشابه مع بعضها الآخر، و من ذلك أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين عاد من واقعة خيبر بعث أسامة بن زيد مع جمع من المسلمين إلى يهود كانوا يسكنون فى قرية فدك، من أجل دعوتهم إلى الإسلام أو الإذعان لشروط الذمّة، مرداس اليهودى، و هو أحد الذين عرفوا بقدوم جيش الإسلام و كان قد أخذ أمواله و أولاده و لجأ بهم إلى أحد الجبال، هبّ لاستقبال المسلمين و هو يشهد بوحدانية اللّه و رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد ظن أسامة بن زيد أن هذا اليهودى يتظاهر بالإسلام خوفا على نفسه و حفظا لماله و أنه لا يبطن الإسلام فى الحقيقة فعمد أسامة إلى قتل هذا اليهودى و استولى على أغنامه، و ما أن وصل نبأ هذه الواقعة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تأثر تأثرا شديدا منها و قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما معناه إن أسامة لم يكن ليعرف ما فى نفس هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۳

الإنسان فلعله كان قد أسلم حقيقة.

عند ذلك نزلت الآية المذكورة فحذرت المسلمين من أن تكون الغنائم الحربية أو أمثالها سببا فى رفض إسلام من يظهر الإسلام،

مؤكدة ضرورة قبول إسلام مثل هذا الإنسان.

التّفسير

اشارة

بعد أن وردت التأكيدات اللازمة- فى الآيات السابقة- فيما يخص حماية أرواح الأبرياء، ورد فى هذه الآية أمر احترازى يدعو إلى حماية أرواح الأبرياء الذين قد يعرضون إلى الاتهام من قبل الآخرين، إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً ....

تأمر هذه الآية المسلمين أن يستقبلوا- بكل رحابة صدر- أولئك الذين يظهرون الإسلام و أن يتجنبوا إساءة الظن بإيمان أو إسلام هؤلاء، و تؤكد الآية بعد ذلك محذرة و ناهية عن أن تكون نعم الدنيا الزائلة سببا فى اتهام أفراد أظهروا الإسلام، أو قتلهم على أنّهم من الأعداء و الاستيلاء على أموالهم، إذ تقول الآية:

... تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا ...[۱۹۱]. و تؤكّد على أنّ النعم الخالدة القيمة هى عند اللّه بقوله: ... فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ.

و تشير الآية أيضا إلى حروب الجاهلية التى كانت تنشب بدوافع مادية مثل السلب و النهب فتقول: ... كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ...[۱۹۲] و تضيف- مخاطبة المسلمين- أنّهم فى ظل الإسلام و لطف اللّه و كرمه و فضله قد نجوا من ذلك الوضع السيء مؤكّدة أنّ شكر هذه النعمة الكبيرة يستلزم منهم التحقق و التثبيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۴

من الأمور، إذ تقول الآية: ... فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

الجهاد الإسلامى نفى من البعد المادى:

توضح الآية السالفة هذه الحقيقة بصورة جلية، و هى أنّ أى مسلم يجب أن لا يتقدم إلى ساحة الجهاد بأهداف مادية، و لذلك عليه أن يقبل- منذ الوهلة الأولى- من العدو إظهاره للإيمان و يلبى نداءه للصلح و السلام، حتى لو حرم المسلم بقبوله إيمان العدو الكثير من الغنائم المادية، و السبب فى ذلك أن هدف الجهاد فى الإسلام ليس التوسع و لا الاستيلاء على الغنائم المادية، بل الهدف من الجهاد الإسلامى هو تحرير البشر من قيود العبودية لغير اللّه، سواء كان هذا الغير هم الطغاة الجبابرة، أو كانت العبودية للمال و للثروة و الجاه، و يجب على كل مسلم أن يسعى إلى هذه الحقيقة كلما برقت له بارقة أمل صوبها.

و تذكّر الآية الكريمة المسلمين بعهدهم فى الجاهلية، حيث كانوا يحملون الأفكار المادية الدنيئة قبل إسلامهم، فكانوا يتسببون فى إراقة سيول من الدماء لأسباب مادية محضة، و قد نجوا اليوم بفضل إسلامهم و إيمانهم من تلك الحروب و تغير أسلوب حياتهم.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى، و هى أنّ المسلمين ساعة إظهارهم الإسلام لم يكن أحد ليعرف حقيقة هذا الإظهار أو حقيقة ما ينويه المظهر للإسلام، و تؤكد لهم ضرورة أن يطبقوا ما كانوا هم عليه عند إسلامهم على من يظهر الإسلام أمامهم من الأعداء.

سؤال:

قد يطرأ على الذهن سؤال، و هو لو أنّ الإسلام قبل دعوى كل من يتظاهر بالإسلام منذ الوهلة الأولى دون التحقيق من حقيقة هذه الدعوى، لأصبح ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۵

سببا فى إيجاد أرضية النفاق و ظهور المنافقين فى المحيط الإسلامى، و بهذا الأسلوب يمكن للكثير من الأعداء إساءة استغلال هذه الظاهرة و التستر فى ظل الإسلام، و من خلال ذلك القيام بأعمال عدائية ضد الإسلام؟

الجواب:

من الممكن القول أن ليس هناك قانون فى العالم لا يمكن إساءة استغلاله أبدا، بل المهم فى القانون هو أن يحوى فى أغلب جوانبه النفع للعموم، لو رفضنا- منذ الوهلة الأولى- إسلام من يظهر الإسلام من الأعداء و غيرهم لمجرّد عدم معرفتنا بسريرة هذا الذى يظهر الإسلام، لأدى رفضنا فى كثير من الحالات إلى مفاسد لا تحمد عقباها، بل ستكون أكثر ضررا على الإسلام، إذ أنّها تعنى سحق المبادئ و العواطف الإنسانية، و يكون- هذا الرفض- عند ذلك وسيلة بيد كل من يضمر العداء لصاحبه ليتهمه بأنّ إظهاره للإسلام لم يكن إظهارا حقيقيا مخلصا أو مطابقا لما فى سريرته، و بهذه الصورة من الممكن أن تراق دماء كثيرة لأناس أبرياء.

و فوق كل ذلك فإنّ الكثيرين لدى بدء كل دعوة ممن تكون توجهاتهم لهذه الدّعوة بسيطة و شكيلة و ظاهرية، و لكنهم بمرور الزمان و اتصالهم الدائم بتلك الدّعوة- تتجذر فى نفوسهم مبادئ الدعوة و تتأصل و تتعزز، لذلك لا يمكن القبول برفض مثل هؤلاء الضعيفى الصلة بالدّعوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۶

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۹۵ الى ۹۶]

اشارة

لا يَسْتَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً (۹۵) دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۹۶)

التّفسير

اشارة

تناولت الآيات السابقة الحديث عن الجهاد، و الآيتان الأخيرتان تبيّنان التمايز بين المجاهدين و غيرهم من القاعدين، فتؤكد عدم التساوى بين من يبذل المال و النفس رخيصين فى سبيل الهدف الإلهى السامى، و بين من يقعده عن هذا البذل سبب آخر غير المرض الذى يحول دونه و دون المشاركة فى الجهاد، لا يَسْتَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَ الْمُجاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و واضح من هذه الآية أنّ المقصود بالقاعدين فيها هم أولئك المؤمنون بالإسلام الذين لم يشاركوا فى الجهاد فى سبيله بسبب

افتقارهم إلی العزم الکافی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۷

لـذلک، و تبیّن هنا- أیضا- أنّ الجهاد المقصود لم یکن واجبا عینیا، فلو کان واجبا عینیا لما تحدث القرآن عن هؤلاء التارکین للجهاد بمثل هذه اللهجة المرنة و لم یکن لیوعدهم بالثواب.

و علی هـذا الأساس فإنّ فضل المجاهـدین علی القاعـدین لا یمکن إنکاره حتی لو کان الجهاد لیس واجبا عینیا، و لا تشـمل الآیة بأی حـال من الأـحوال أولئـک الـذین أحجموا عن المشارکـة فی الجهـاد نفاقـا، و عـدوانا و یجب الانتبـاه- أیضـا- إلی أنّ عبارة غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ لها مفهوم واسع یشمل کل أولئک الذین یعانون من نقص العضو أو المرض أو الضعف الشدید، مما یحرمهم من المشارکة فی الجهاد، فهؤلاء مستثنون من ذلک.

و تکرر الآیة من جدید مسألة التفاضل بشکل أوضح و أکثر صراحة، و تؤکد فی نهایة المقارنة، أنّ اللّه وهب المجاهدین أجرا عظیما، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً[۱۹۳].

و لکن- کما أسـلفنا- لما کان فی الجانب المقابل لهؤلاء المجاهدین یقف أولئک الذین لم یکن الجهاد بالنسبة لهم واجبا عینیا أو لم یشـارکوا فی الجهـاد بسـبب مرض أو عجز أو علـة أخری أعجزتهم عن هـذه المشارکـة، فـذلک و لأجل أن لا یغفل ما لهؤلاء من نیّة صالحـة و إیمانه و أعمال صالحـة أخری فقـد وعدوا خیرا حیث تقول الآیة الکریمة: ... وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى إلّا أنّه من البدیهی أن هناک فرقا شاسعا بین الخیر الذی وعد به المجاهدون، و بین ذلک الذی یصیب القاعدین من العاجزین عن المشارکة فی الجهاد.

و تبیّن الآیة القرآنیة فی هذا المجال: أنّ لکل عمل صالح نصیب محفوظ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۸

الثواب لا یغفل و لا ینسـی، خاصّـة و هی تتحـدث عن قاعـدین أحبّوا المشارکـة فی الجهاد و کانوا یرونه سامیا مقـدسا، و بما أن عدم کون هـذا الجهاد واجبا عینیا قـد حال دون تحقق هذا الهدف السامی المقدس فإن أولئک الذین قعدوا عن المشارکة فیه سـینالون من الثـواب علی قـدر رغبتهم فی المشارکـة، أمّـا أولئـک الـذین عجزوا عن المشارکـة بسـبب عاهـة أو مرض إلّـا أنّهم کـانوا یرغبون فی الاشتراک فی الجهاد برغبـة جامحة، بل کانوا یعشـقون الجهاد، لذلک فإنّ لهم- أیضا- سـهم و نصـیب لا ینکر من ثواب المجاهدین، کما

جاء فی حدیث مروی عن الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یخاطب فیه جند الإسلام فیقول: «لقد خلفتم فی المدینة أقواما ما سرتم مسـیرا و لا قطعتم وادیا إلّا کانوا معکم، و هم الذین صـحت نیاتهم و نصـحت جیوبهم و هوت أفئدتهم للجهاد و قد منعهم عن المسیر ضرر أو غیره».[۱۹۴]

و بما أنّ أهمیـة الجهاد فی الإسـلام بالغة جدا، لذلک تتطرق الآیة مرّة أخری للمجاهدین و تؤکد بأن لهم أجرا عظیما یفوق کثیرا أجر القاعدین عن الجهاد عن عجز، ... وَ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً.

و تشرح الآیة التالیة- و هی الآیة (۹۶) من سورة النساء- نوع هذا الأجر العظیم فقول أنّه: دَرَجاتٍ مِنْهُ وَ مَغْفِرَةً وَ رَحْمَةً فلو أنّ أفرادا من بین المجاهـدین تورطوا فی زلـة أثناء أدائهم لواجبهم فنـدموا علی تلک الزّلـة، فقد وعدهم اللّه بالمغفرة و العفو، حیث یقول فی نهایة الآیة: ... وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

نکات مهمة حول المجاهدین:

۱- لقد کررت الآیة (۹۵) عبارة المجاهدین ثلاث مرات:

فى المرّة الأولى ذكر المجاهدون مع الهدف و الوسيلة الخاصّة بالجهاد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۳۹۹

الْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و فى الثّانية: ذكر اسم المجاهدين مقرونا بوسيلة الجهاد، و لم يذكر شىء عن الهدف: الْمُجاهِدُونَ (فِي سَبِيلِ اللَّهِ) بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ ....

و أمّا فى المرحلة الأخيرة فقد جاءت الآية باسم المجاهدين فقط، حيث يدل ذلك بوضح على الأسلوب البلاغى الرفيع فى الكلام القرآنى، حيث يتعرف السامع شيئا فشيئا بواسطته على الموضوع و تخف قيوده و صفاته لديه، و تصل درجة التعرف إلى مرحلة يفهم السامع بها كل شىء من خلال إشارة واحدة.

۲- لقد ذكرت الآية فى البداية تفوق المجاهدين على القاعدين بعبارة مفردة و هى «درجة» بينما فى الآية التالية جاءت هذه العبارة بصيغة الجمع «درجات» و جلّى أن لا تناقض بين هاتين العبارتين، لأن القصد من العبارة الأولى تبيان تفوق المجاهدين على غيرهم، و لكن العبارة الثانية تشرح هذا التفوق حين تقترن بذكر عبارات «المغفرة» و «الرحمة»، و بعبارة أخرى فإن الفرق بين هاتين العبارتين «درجة» و «درجات» هو الفرق بين المجمل و المفصل.

كما يمكن الاستفادة من عبارة «درجات» على أنّها تعنى أن المجاهدين ليسوا كلّهم فى درجة أو مستوى واحد، بل تختلف درجاتهم باختلاف درجة إخلاصهم و تفانيهم و تحملهم للمشاق، و تختلف بذلك منزلتهم المعنوية، لأنّه من البديهى أن الذين يجاهدون الأعداء فى صف واحد ليسوا جميعا بمستوى جهادى واحد، كلها تختلف درجات الإخلاص لدى كل واحد منهم بالقياس إلى أمثالهم، و لذلك فإنّ لكل واحد منهم ثوابا خاصا به يتناسب مع عمله الجهادى و نيّته فى هذا العمل.

الأهمية بالبالغة للجهاد:

إنّ الجهاد قانون عام فى عالم الخليقة، فإنّ كل مخلوق سواء كان من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۰

النباتات أو الحيوانات يسعى لإزالة ما يعترض طريقه من موانع بواسطة الجهاد، لكى يستطيع كل واحد منهم بلوغ الكمال المطلوب فى التكوين.

و على سبيل المثال فجذر النبات الذى ينشط للحصول على الغذاء و الطاقة بصورة دائمة، لو ترك نشاطه، هذا و كف عن السعى لاستحال عليه إدامة حياته.

و لذلك فإن هذا الجذر حين يعترض طريقه مانع فى عمق الأرض يحال تخطيه بثقبه، و العجيب هنا أنّ الجذور الرقيقة تعمل فى مثل هذه الحالة كالمسمار الفولاذى فى ثقب الموانع التى تعترضها، فلو عجزت فى هذا المجال لحرفت طريقها و اجتازت المانع عن طريق الالتفات حوله.

و فى داخل وجود الإنسان أيضا و حتى فى ساعات النوم هناك صراع غريب و مستمر ما دام الإنسان حيا، و هو الصراع بين كريات الدم البيضاء و الأجسام المعادية المهاجمة، فلو أن هذا الصراع توقف لساعة واحدة و تخلت الكريات البيض عن الدفاع، لتسلطت الجراثيم و المكروبات المتنوعة على كافة أجهزة جسم الإنسان و لعرضت حياته إلى الخطر.

إنّ ما هو موجود فى أوساط المجتمعات و القوميّات و الشعوب فى العالم من كفاح من أجل البقاء، هو عين ذلك الكفاح و الجهاد الذى لمسناه فى النبات و فى جسم الإنسان.

و علی هـذا الأساس فإن کل من یواصل «الجهاد» و «المراقبة» تکون الحیاة من نصـیبه و هو منتصـر دائما- أما الذین تلهیهم عن الجهاد الأهواء و الملـذات و الشـهوات و الأنانیـة و حبّ الذات فلن ینالهم غیر الفناء و الدمار عاجلا أو آجلا، و سـیحل محلهم أناس یمتازون بالحیویة و النشاط و الکفاح الدؤوب.

و هذا هو الشیء الذی یؤکّد علیه

رسول اللّه محمد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ یقول: «فمن ترک الجهاد ألبسه اللّه ذلا و فقرا فی معیشته، و محقا فی دینه، إنّ اللّه أعزّ أمّتی بسنابک خیلها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۱

و مراکز رماحها»[۱۹۵].

و

یقول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مناسبة أخری: «اغزوا تورثوا أبناءکم مجدا»[۱۹۶].

أمّا

أمیر المؤمنین علی بن أبی طـالب علیه السّـلام فهو یقول فی مسـتهل خطبته عن الجهاد «... فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنـة، فتحه اللّه لخاصّـة أولیائه، و هو لباس التقوی، و درع اللّه الحصـینة، و جنّته الوثیقـة، فمن ترکه رغبـة عنه ألبسه اللّه ثواب الـذّل و شـملة البلاء، و دیث بالصغار و القماء ...»[۱۹۷].

و یجب الالتفات إلی أنّ الجهاد لا یقتصـر معناه علی الحرب أو القتال المسـلح، بل هو أیضا کل سـعی حثیث و جهـد جهیـد یبذل من أجل التقـدم نحو تحقیق الأهـداف المقدسة- الإلهیة- و من هذا المنطلق فإنّه بالإضافة إلی الحروب الدفاعیة أو الهجومیة- أحیانا- فإنّ الکفاح العلمی و المنطقی و الاقتصادی و الثقافی و السیاسی یعتبر نوعا من الجهاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۲

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۹۷ الی ۹۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِیمَ کُنْتُمْ قالُوا کُنَّا مُسْتَضْعَفِینَ فِی الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَکُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِیها فَأُولئِکَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۹۷) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا یَسْتَطِیعُونَ حِیلَةً وَ لا یَهْتَدُونَ سَبِیلًا (۹۸) فَأُولئِکَ عَسَی اللَّهُ أَنْ یَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ کانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً (۹۹)

سبب النّزول

لقـد أنـذر رؤساء قریش قبل بـدء غزوة بـدر جمیع الأفراد من أهالی مکّـة الـذین یسـتطیعون حمل السـلاح، أنّ علیهم أن یتأهبوا لقتال المسـلمین، محذرین بأن من یخالف هذا الأمر سـتهدم داره و تصادر أمواله، و قد أدی هذا التهدید بنفر من الذین کانوا قد أسلموا فی الظـاهر، و لکنّهم کـانوا قـد رفضوا الهجرة لشـدة حبهم لموطنهم و لأـموالهم ... أدی بهؤلاـء إلی أن یرغموا علی مشارکـة الوثنیین فی التحرک إلی ساحة الحرب، و راودهم الشک فی انتصار المسلمین لقلّة عددهم، فکان أن قتلوا و هم إلی جانب المشرکین.

فنزلت الآیات المذکورة و حدثت عن المصیر الأسود الذی لاقاه هؤلاء بسبب إصرارهم علی البقاء فی موطن الشرک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۳

التّفسير

اشارة

تعقيبا للبحوث الخاصّة بالجهاد، تشير الآيات الثلاث الأخيرة إلى المصير الأسود الذى كان من نصيب أولئك الذين ادعوا الإسلام و لكنهم رفضوا أن يطبقوا خطة الإسلام فى الهجرة، فانحرفوا إلى مزالق رهيبة، فكانت نتيجة انحرافهم أن أصابهم القتل و هم فى صفوف المشركين.

فالقرآن الكريم يذكر كيف أنّ الملائكة لدى قبضهم لأرواح هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم، يسألونهم عن حالهم فى الدنيا و أنّهم لو كانوا حقا من المسلمين، فلما ذا اشتركوا فى صفوف المشركين لقتال المسلمين إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ... فيجيب هؤلاء بأنّهم تعرضوا فى مواطنهم للضغط و أن ذلك أعجزهم عن تنفيذ الأمر الإلهى قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ لكن عذرهم هذا لم يقبل منهم، إذ يرد الملائكة عليهم قائلين: لما ذا لم تتركوا موطن الشرك و تنجوا بأنفسكم من الظلم، و الكبت عن طريق الهجرة إلى أرض غير أرضكم من أرض اللّه الواسعة، قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها.

و فى النهاية تشير الآية إلى مصير هؤلاء فتقول بأنّ الذين امتنعوا عن الهجرة لأسباب واهية أو لمصالحهم الشخصية، و قرروا البقاء فى محيط ملوث و فضلوا الكبت و القمع على الهجرة فإن مكان هؤلاء سيكون فى جهنم، و إن نهايتهم و عاقبتهم هناك ستكون سيئة لا محالة: فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً.

أمّا الآية الاخرى من الآيات الثلاث المذكورة، فهى تستثنى المستضعفين و العاجزين الحقيقيين لا المزيفين، فتقول: إنّ أولئك الرجال و النساء و الأطفال الذين لم يجدوا لأنفسهم مخرجا للهجرة، و لم يتمكنوا من إيجاد وسيلة للنجاة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۴

محيطهم الملوث، فهم مستثنون من حكم العذاب، لأنّ هؤلاء معذورون فى الحقيقة، و إنّ اللّه لا يكلف نفسا ما لا تطيق، إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا.

و الآية الأخيرة من الآيات الثلاث المذكورة تبيّن احتمال أن يشمل اللّه بعفوه هؤلاء، إذ تقول: فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً.

و قد يرد هنا سؤال و هو: لو أن هؤلاء الأشخاص كانوا فى الحقيقة معذورين، فلما ذا لا تعدهم الآية بعفو إلهى حتمى، بل تبين احتمال أن يشملهم هذا العفو إذ تأتى الآية بعبارة «عسى» لتأكيد احتمالية الأمر؟

و جواب هذا السؤال هو نفس الجواب الذى ذكرناه فى ذيل الآية (۸۴) من سورة النساء و الذى بيّنا من خلاله أن القصد من استخدام مثل هذه العبارات هو أن الحكم الوارد فى الآية مقيد بشروط خاصّة يجب الالتفات إليها، و هنا يكون الشرط هو أن يتبادر هؤلاء المستضعفون حقيقة إلى الهجرة- دون تردد- حتى ما سنحت لهم فرصة ذلك دون أن يقصروا فى هذا الأمر فعند ذلك يشملهم العفو الإلهى.

نقاط يجب الالتفات إليها:

۱- استقلال الرّوح

إن الإتیان بکلمـة توفی فی الآیـة الشـریفة المارة الذکر بدلا من ذکر کلمة «الموت» إنّما هو فی الحقیقة إشارة إلی أنّ الموت لیس هو الفناء التام، بل هو حالـة تتلقی فیها الملائکـة روح الإنسان، أی أن الملائکة یقبضون من الإنسان روحه التی هی جوهر وجوده، فتؤخذ هـذه الروح إلی العـالم الآخر، و إنّ الإتیان بمثل هـذه العبارة بصورة متکررة فی القرآن الکریم، یعتبر من أوضـح الأدلـة القرآنیـة علی قضیة وجود الروح و بقائها بعد الموت، حیث سنتطرق إلی ذلک لدی تفسیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۵

الآیة الخاصّة بالروح.

و إن هذا هو جواب أولئک الذین یزعمون أنّ القرآن لم یشر مطلقا إلی قضیة الروح ۱۹۸].

۲- ملک الموت أم ملائکة الموت

لـدی البحث فی موارد متعـددة من القرآن الکریم (أی حوالی ۱۲ موردا) و التی وردت فیهـا عبارة «توفی» و هی تتحـدث عن الموت، نسـتنتج أن قبض الأرواح یقوم به ملائکـة متعـددون و لیس ملکا واحدا، و هؤلاء الملائکة هم المکلّفون بنقل أرواح بنی آدم من هذه الـدنیا إلی العالم الآخر، ففی الآیـة المارة الـذکر ورد اسم الملائکة بصـیغة الجمع، و هذا هو أحد الأدلة علی أن قبض الأرواح یقوم به ملائکة متعددون فنحن.

نقرأ فی الآیة (۶۱) من سورة الأنعام قوله تعالی: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا ....

و هناک من الآیات ما ینسب قبض الروح إلی ملک الموت ۱۹۹]، و هذا الملک هو کبیر ملائکة قبض الروح الذی ذکر فی الأحادیث باسم «عزرائیل».

و یتّضح لنا ممّا سبق جواب من یسأل عن کیفیة قیام ملک واحد بقبض أرواح أناس عدیدین فی آن واحد و فی مناطق مختلفة.

و مع ذلـک فإننـا لو افترضـنا أنّ هنـاک ملـک واحـد فقط لقبض الأرواح لا العدیـد من الملائکـة، فعنـد هـذا الفرض لا یرد أیضا أی معضـل، و السـبب هو أنّ التجرّد الوجودی لهـذا الملـک یقتضـی أن تکون دائرة عمله و نفوذه وسـیعة مترامیـة الأطراف بشـکل خارق للعادة، لأن أی وجود مجرّد عن المادة یمکن أن تکون إحاطته واسعة بما یخص عالم المادة- و

قد نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۶

النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین سأل ملک الموت عن کیفیة إحاطته بما فی العالم، أجابه هذا الملک: «ما الدنیا عندی کلها فیما سخرها اللّه لی و مکننی علیها إلّا کالدرهم فی کف الرجل یقلبه کیف یشاء»[۲۰۰].

و لکننـا نری فی بعض الآیـات أن قبض الروح ینسـب إلی اللّه عزّ و جـلّ: اللَّهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِهـا[۲۰۱]، و هـذا لا یتناقض مع الآیات السابقة، لأن فی کثیر من الحالات حین یتمّ عمل بوسیلة معینة، ینسب فعل هذا العمل تارة للوسیلة ذاتها، و أخری للذی أوجد و صنع هذه الوسیلة، و کلا النسبتین صحیحتان.

و الطریف أنّ القرآن قد نسب فعل الکثیر من أحداث العالم إلی الملائکة الذین هم مکلفون من قبل اللّه سبحانه و تعالی، و نحن نعلم أن لعبارة «ملائکة» أو «ملک» معانی واسعة تدور بین معنی «الموجودات المجرّدة العاقلة» إلی معنی «الطاقات و القوی الطبیعیة».

۳- من هو المستضعف؟

لدی البحث فی الآیات القرآنیة و الأحادیث و الروایات یسـتنتج أن المستضـعف هو ذلک الشـخص الذی یعانی من ضـعف فکری أو

بـدنى أو اقتصـادى يمنعه من التعرف على الحق و الباطـل، أو أنه ذلـك الـذى يسـتطيع التعرف على العقيـدة الصادقـة الحقـة، إلّا أنّه و لمعاناته من عجز جسـمانى أو مالى أو قيود يفرضـها عليه المحيط الذى يعيش فيه، يعجز عن أداء واجباته التى كلّف بها بصورة كاملة، كما يعجز عن القيام بالهجرة.

و

عن أمير المـؤمنين على بن أبى طـالب عليه السّـلام أنّه قـال: «و لاـ يقع اسم الاستضـعاف على من بلغته الحجـة فسـمعتها أذنه و وعـاها قلبه»[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۷

و

عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام أنه حين سئل: أى قوم يقال لهم المستضعفون؟ فأجاب عليه السّلام كتابة: «الضعيف من لم ترفع له حجة، و لم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بضعيف»[۲۰۳].

و واضـح من الروايات المذكورة أنّ المستضـعف هو ذلك الذى يعانى من ضـعف فكرى عقائدى، إلّا أنّ الآية موضوع البحث و الآية (۷۵) من نفس هذه السورة التى سـبق و أن تحدثنا فيها تدلان على أنّ المستضعف هو ذلك الذى استضعف عمليا، فهو يعرف الحق و يميزه، و لكن الكبت الذى يعانى منه فى المحيط الذى يعيش فيه لا يسمح له بالعمل بالحق الذى عرفه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۰]

اشارة

وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۰)

التّفسير

الهجرة حكم اسلامى بنّاء:

بعد أنّ بحثت الآيات السابقة حول الأفراد الذين يقعون فريسة الذّل و المسـكنة بسبب عدم إيفائهم بواجب الهجرة، تشرح الآية الأخيرة بشكل صريح و حاسم أهمية الهجرة فى قسمين:

فى القسم الأوّل: تشـير هذه الآية إلى نعم و بركات الهجرة فى الحياة الدنيا، فتقول إن الذى يهاجر فى سبيل اللّه إلى أى نقطة من نقاط هذه الأرض الواسـعة، سـيجد الكثير من النقاط الآمنة الواسـعة ليسـتقر فيها، و يعمل هناك بالحقّ و يرغم أنف المعارضين وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً ....

و يجب الالتفات إلى أن عبارة «مراغم» مشـتقة من المصـدر «رغام» على وزن «كلام» و الـذى يعنى التراب، و الإرغام معناه التمريغ فى التراب و الإذلال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۰۹

و «مراغم» صيغة لاسم المفعول و اسم مكان أيضا.

و قد وردت فى الآية هذه بمعنى اسم مكان كذلك، أى أنّها المكان الذى يمكن فيه تحقيق الحق و تطبيقه و العمل به، كما يمكن فيه إدانة المعارضين للحق و تمريغ أنفهم بالتراب.

بعد ذلك تشير الآية فى القسم الثانى منها إلى الجانب المعنوى الأخروى للهجرة: وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً، و على هذا الأساس فإن المهاجرين فى كل الأحوال سينالهم نصر كبير، سواء وصلوا إلى المكان الذى يستهدفونه ليتمتعوا فيه بحرية العمل بواجباتهم، أو لم يصلوا إليه فيفقدوا حياتهم فى هذا الطريق، و فى هذا المجال و على الرغم من بداهة حقيقة تلقى الصالحين أجرهم من اللّه سبحانه و تعالى، إلّا أنّ الآية موضوع البحث قد صرحت بهذا الأمر بقولها:

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ... و هذا يوضح مدى عظمة و أهمية الثواب و الأجر الذى يناله المهاجرون.

الإسلام و الهجرة:

إنّ الإسلام- استنادا إلى هذه الآية و آيات كثيرة أخرى- يأمر المسلمين بكل صراحة بالهجرة من المحيط الذى يعانون فيه- لأسباب خاصّة- من عدم التمكن من أداء واجباتهم إلى محيط و منطقة آمنة، و سبب هذا الأمر واضح، لأنّ الإسلام لا يحدّ بمكان و لا يقيد بمحيط معين خاص، و لهذا فإن التمسك المفرط بالمحيط و محل التولد و العلاقات المختلفة الاخرى لا تقف فى نظر الإسلام حائلا دون هجرة المسلمين.

و لذلك نرى انفصام كل هذه العلاقات فى الصدر الأوّل للإسلام و من أجل حماية الإسلام و تقدمه، و فى هذا المجال يقول أحد المؤرخين الغربيين: إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۰

القبيلة و العائلة هما الشجرة الوحيدة التى تنبت فى الصحراء، و لن يستطيع أحد الحياة دون اللجوء إليها، إلّا أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد قلع هذه الشجرة التى نمت بلحم و دم عائلته، و فعل ذلك من أجل ربه و خالقه (فقد فصم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم علاقته بقريش فى سبيل الإسلام)[۲۰۴].

علاوة على ما ذكر فإن من بين جميع الموجودات الحيّة، حين تتعرض حياة أى واحدا أو مجموعة منها إلى الخطر، نراها تضطر إلى ترك مكان تواجدها و الهجرة منه إلى مأوى و ملجأ أمن آخر، و الكثير من أبناء البشر الأقدمين عمدوا إلى الهجرة من مكان ولادتهم- بسبب تغير الظروف الجغرافية فيه- إلى نقاط أخرى من العالم من أجل مواصلة الحياة، و ليس البشر وحدهم الذين مارسوا الهجرة، بل هناك من بين الحيوانات أنواع كثيرة عرفت بالحيوانات المهاجرة، مثل الطيور التى تضطر أحيانا إلى الدوران حول الأرض تقريبا من أجل إيجاد مأوى تواصل فيه حياتها، و بعض هذه الطيور تهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى، و أحيانا تقطع مسافة حوالى (۱۸) ألف كيلومتر للوصول الى المكان الذى تريد العيش فيه.

و هذه الشواهد هى خير دليل على أنّ الهجرة هى إحدى القوانين الخالدة للحياة، فهل يصح أن يكون الإنسان أقل حظا من الحيوان فى هذا المجال؟

و حين تتعرض، حياته المعنوية، و كيانه و أهدافه المقدسة التى هى أثمن و أغلى من حياته المادية إلى الخطر، فهل يستطيع هذا الإنسان البقاء فى مكان الخطر متشبثا بالأرض و المولد و غير ذلك متحملا ألوان الذل و الإهانة و الحرمان و سلب الحريات، و الأهم من ذلك كلّه زوال أهدافه التى يعيش من أجلها؟! أو أن عليه أن يختار قانون الطبيعة فى الهجرة، و يترك ذلك المكان، و يختار مكانا آخر يتيسر فيه المجال لنموه المادى و المعنوى؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۱

الطریف فی هذا الأمر أنّ الهجرة- أی تلک الهجرة التی کانت لأجل حفظ النفس و حمایة الشریعة الإسلامیة- تعتبر مبدأ- أو بدایة- التاریخ الإسلامی، و هی بذلک تعد البنیة الأساسیة لکل الأحداث السیاسیة و الاعلامیة و الاجتماعیة للمسلمین.

فلننظر لما ذا انتخبت هجرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مبدأ- أو بدایة- للتاریخ الإسلامی؟

إنّ هذا الموضوع جدیر بالملاحظة، لأنّنا نعلم أن أی مجموعة بشریة صغرت أو کبرت، تتخذ لنفسها مبدأ أو بدایة تاریخیة تحسب منه تاریخها، فالمسیحیون مثلا اتّخذوا بدایة تاریخهم السنة التی ولد فیها عیسی علیه السّلام، أمّا المسلمون فمع وجود أحداث مهمة کثیرة وقعت لهم قبل الهجرة، مثل یوم ولادة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یوم البعثة المحمّدیة الشریفة، و فتح مکّة، و وفاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لکنهم لم یتخذوا أی واحد من الأحداث مبدأ أو بدایة لتاریخهم، بل اعتبروا حادثة الهجرة وحدها بدایة للتاریخ الإسلامی.

إنّ التاریخ یقول أنّ المسلمین بدأوا یفکرون بتعیین بدایة تاریخهم الذی له أهمیة عامّة و شاملة فی زمن الخلیفة الثانی الذی توسعت فی عهده رقعة البلاد الإسلامیة- و أنّ المسلمین بعد البحث الکثیر فی هذا الأمر، اختاروا رأی علی بن أبی طالب علیه السّلام باتّخاذ حادثة الهجرة النبویة الشریفة مبدأ و بدایة للتاریخ الإسلامی ۲۰۵].

و الحقیقة أنّ هذا الإختیار کان هو المتعیّن، لأنّ الهجرة کانت أهم و المع حدث أو برنامج حصل للإسلام، و کانت الهجرة مبدأ فصل جدید مهم فی التاریخ الإسلامی، فالمسلمون حین وجودهم فی مکّة کانوا یمارسون تعلم شؤونهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۲

الحیاتیة وفق دینهم الجدید (الإسلام) و لم تکن لدیهم فی هذه الحالة- علی ما یبدو- أی قدرة سیاسیة و اجتماعیة، و لکنهم بعد الهجرة شکلوا مباشرة الدولة الإسلامیة التی تقدمت بسرعة فائقة- فی کل المجالات- و لو أنّ المسلمین لم یذعنوا لأمر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی اختیار الهجرة و فضلوا البقاء فی مکّة، لما تیسر عند ذلک للإسلام أن یمتد خارج حدود مکّة، بل حتی کان من الممکن أن یقبر الإسلام فی مکّة و یمحی أثره.

و یتّضح لنا أنّ الهجرة لم تکن حکما خاصا بزمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل أنّها تجب علی المسلمین متی ما تعرضوا لظروف مشابهة لتلک الظروف التی اضطرت النّبی و أصحابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی ترک مکّة و الهجرة إلی المدینة.

و القرآن یعتبر الهجرة فی الأساس جوهرا لوجود الحریة و الرفاه، و قد أشارت الآیة- موضوع البحث- إلی هذا الأمر، کما أن الآیة (۴۱) من سورة النحل تشیر من جانب آخر إلی هذه الحقیقة، إذ تقول: وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً.

و تجدر الإشارة- أیضا- إلی هذه النقطة، و هی أنّ الهجرة فی نظر الإسلام لا تقتصر علی الهجرة المکانیة و الخارجیة، بل یلزم قبل ذلک أن تتحقق لدی الفرد المسلم هجرة باطنیة فی نفسه، یترک بها کل ما ینافی الأصالة و الکرامة الإنسانیة، لکی یتیسر له بهذا السبیل إلی الهجرة المکانیة- إذن فالهجرة الباطنیة ضروریة قبل أن یبدأ الإنسان المسلم هجرته الخارجیة- و إذا لم یکن هذا الإنسان بحاجة إلی الهجرة الخارجیة، یکون قد نال درجة المهاجرین بهجرته الباطنیة.

و الإساس فی الهجرة هو الفرار من «الظلمات» إلی «النور» و من الکفر إلی الإیمان، و من الخطأ و العصیان إلی إطاعة حکم اللّه، لذلک نجد فی الحدیث ما یدل علی أنّ المهاجرین الذین هاجروا بأجسامهم دون أن تتحقق الهجرة فی بواطنهم و أرواحهم، لیسوا فی درجة المهاجرین، و علی عکس هؤلاء فإنّ من تتحقق لدیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۳

الهجرة الباطنیة الروحیة و لم یتمکن أو لم یحتج إلی الهجرة الخارجیة فهو فی عداد المهاجرین حقا.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قوله: «و يقول الرجل هاجرت، و لم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات و لم يأتوا بها».

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من فر بدينه من أرض إلى أرض و إن كان شبرا من الأرض، استوجب الجنّة و كان رفيق محمّد و إبراهيم عليهما السّلام»[۲۰۶].

لأنّ هذين النّبيين هما قادة و أئمّة مهاجرى العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۱]

اشارة

وَ إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكافِرِينَ كانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً (۱۰۱)

التّفسير

صلاة المسافر:

بعد الآيات التى تحدثت سابقا عن الجهاد و الهجرة، تتطرق الآية (۱۰۱) من سورة النساء- التى هى موضوع بحثنا الآن- إلى صلاة المسافر، فتبيّن أن لا مانع للمسلم من أن يقصر صلاته لدى السّفر إذا خاف من خطر الكافرين الذين هم الأعداء البارزون للمسلمين، و قد عبّرت هذه الآية عن السّفر بالضرب فى الأرض، لأنّ المسافر يضرب الأرض برجليه لدى السّفر[۲۰۷].

و يرد هنا سؤال: و هو أن الآية هذه قد جعلت الخوف من العدو شرطا لقصر الصّلاة، بينما نقرأ فى البحوث الفقهية أنّ حكم صلاة القصر يعتبر حكما عاما يشمل جميع أنواع السّفر، سواء كان فيه الخوف من الأعداء أو كان سفرا آمنا لا خوف فيه، و قد وردت روايات عديدة عن طرق الشيعة و السنة فى مجال صلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۵

القصر تؤيد كلّها شمولية حكم صلاة القصر لكل أنواع السّفر المباح ۲۰۸].

و فى جواب هذا السؤال يجب القول: بأنّ تقييد حكم القصر فى صلاة بالخوف قد يكون سببه واحدا من الموارد التالية:

أ- إنّ القيد جاء بسبب وضع المسلمين فى بداية العصر الإسلامى، و يصطلح على هذا القيد ب «القيد الغالب» أى أنّ أغلب أسفار المسلمين فى ذلك الزمن كانت مشوبة بالخوف، و جاء فى علم الأصول أنّ القيود الغالبة لا مفهوم لها مستدلا بآية وَ رَبائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ ۲۰۹] أى بنات نسائكم اللواتى تربونهنّ و هنّ من أزواج سابقين و هنّ حرام عليكم.

حيث نواجه فى هذه الآية نفس مسألة «القيد الغالب» لأن بنات الزوجة يعتبرن محارم للزوج- سواء تربين فى حجره أم لم يتربين لديه- و لكن بما أنّ أغلب النساء المطلقات اللواتى يتزوجن مرّة أخرى هنّ نساء شابات لداهنّ أطفال صغار تتمّ تربيتهم فى حجر الزوج الجديد، لذلك جاءت الآية بقيد «حجوركم».

ب- و یعتقد بعض المفسّرین أنّ صلاة القصر شرعت فی البدایة لزمن الخوف- کما جاء فی الآیة موضوع البحث- و إنّ هذا الحکم قد توسع فیما بعد فشمل جمیع الحالات.

ج- و یحتمل أیضا أن یکون فی هذا القید جانب توکیدی، أی أن صلاة القصر لازمة للمسافر أینما کان، و لکن فی حالة الخوف من العدو تکون هذه الصّلاة مؤکدة أکثر.

و علی أی حال، فلیس هناک من شک أنّ صلاة القصر للمسافر- مع الأخذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۶

بنظر الاعتبار الرّوایات المفسّرة لهذه الآیة- لا تقتصر علی حالة الخوف، و لهذا السبب فإن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی أسفاره حتی فی موسم الحج (فی أرض منی) یقصر صلاته.

سؤال:

و هنا یرد سؤال آخر، و هو أنّ الآیة قد أتت بعبارة وَ لا جُناحَ عَلَیْکُمْ و لیس فی هذه العبارة دلالة الحتمیة فی الحکم، أی لا تحتم علی المسافر أن یقصر صلاته، فکیف یمکن القول أنّ صلاة القصر واجب عینی للمسافر و لیس واجبا تخییریا؟

الجواب:

لقد وجّه هذان السؤالان إلی أئمّة الإسلام، فأشاروا لدی الإجابة علیهما إلی نقطتین مهمتین:

النّقطة الأولی: هی أنّ عبارة «لا جناح»، أی لا ذنب علیکم، قد استخدمت فی بعض الموارد فی القرآن الکریم للدلالة علی الوجوب، فمثلا- فی آیة: إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَیْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا- جُناحَ عَلَیْهِ أَنْ یَطَّوَّفَ بِهِما[۲۱۰] فی حین أن جمیع المسلمین یعرفون أنّ السعی بین الصفا و المروة واجب سواء فی الحج أو العمرة.

و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام و المسلمون یؤدون السعی بعنوان الواجب ...

و قد نقل عن الإمام الباقر علیه السّلام حدیث بهذا المضمون ۲۱۱].

و بعبارة أخری فإنّ عبارة «لا جناح»- فی الآیة موضوع البحث و کذلک فی آیة الحج- جاءت لنفی التحریم، و السبب هو أنّ بعض المسلمین فی بدء الإسلام، و لوجود أصنام علی جبلی الصفا و المروة، کانوا یظنون أنّ السعی بینهما من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۷

عادات و تقالید الوثنیین، فی حین أنّه لم یکن کذلک، فجاءت عبارة- «لا جناح» فی الآیة المذکورة لرفع الوهم الحاصل.

و کذلک فی حالة المسافر، من الممکن أن یتوهّم البعض أنّ قصر الصّلاة فی السّفر قد یعتبر نوعا من المعصیة، فجاء القرآن الکریم فی الآیة بعبارة «لا جناح» لرفع هذا الوهم أیضا.

و النّقطة الثّانیة: هی أنّ بعض الرّوایات قد أشارت إلی أنّ قصر الصّلاة فی السّفر نوع من التسهیل الإلهی، و تقتضی الأدب أن لا یرد هذا التسهیل و لا یتجاهل.

و فی روایات أهل السنّة

نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی موضوع قصر الصّلاة: «صدقة تصدق اللّه بها علیکم فاقبلوا صدقته»[۲۱۲].

کما ورد مثل هذا الحدیث فی مصادر الشّیعة حیث

ينقل الإمام الصّادق عليه السّلام عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله بأن: الإفطار فى السّفر و قصر الصّلاة فيه هديتان إلهيتان فمن انصرف عنهما أصبح رادّا لهدية اللّه ۲۱۳].

أمّا النّقطة الثّالثة: التى يجب الانتباه لها فهى أنّ بعض المسلمين قد تصوروا أن الآية (۱۰۱) من سورة النساء تبيّن حكم صلاة الخائف (أثناء الحروب و أمثال ذلك) و يستدلون لذلك بعبارة إِنْ خِفْتُمْ الواردة فى الآية، و لكن جملة إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فيها مفهوم عام يشمل كل أنواع السّفر سواء كان من الأسفار الاعتيادية أو كان سفرا من أجل الجهاد، و الذى تناولته الآية التالية بصورة مستقلة.

إذن فعبارة إِنْ خِفْتُمْ و كما أسلفنا- تعتبر نوعا من القيود أو الشروط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۸

الغالبة، حيث أنّ أغلب أسفار المسلمين فى ذلك الزمان كانت مشوبة بالخوف و الخطر- لذلك فلا دلالة على اقتصار الآية على الصّلاة فى حالة الخوف، بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الخوف من هجوم العدو موجود أثناء الحروب و ليس فى محلّه أن يقال لمن فى ساحة الحرب إِنْ خِفْتُمْ من هجوم العدو، و هذا دليل آخر على أنّ الآية تشير إلى جميع أنواع السّفر التى يحتمل أن يوجد فيها بعض الأخطار على المسافر.

كما يجب التنبيه إلى أنّ شروط صلاة المسافر لم ترد فى القرآن، كما لم ترد شروط و أوصاف بقية الأحكام الإسلامية فيه أيضا، بل أشارت إلى ذلك السنّة الشريفة.

و من هذه الشروط أنّ صلاة القصر لا تجب فى الأسفار التى لا تبلغ المسافة فيها ثمانية فراسخ، لأنّ المسافر فى تلك الأيّام كان يقطع فى اليوم الواحد مسافة الثمانية فراسخ بصورة اعتيادية.

و الشرط الآخر هو أنّ المسافر الذى يتّخذ من السّفر حرفة لنفسه أو جزءا من برنامج حياته اليومية مستثنى من القصر فى الصّلاة، لأنّ السّفر بالنسبة إلى أمثال هؤلاء أمر اعتيادى، و ليس أمرا استثنائيا.

كما أنّ من يسافر من أجل ارتكاب معصية، لا يكون مشمولا لحكم صلاة المسافر، أى لا يجوز له القصر فى الصّلاة، و السبب هو أن حكم القصر يعتبر نوعا من التسهيل الإلهى، و لا يمكن أن يشمل هذا التسهيل من يسير فى طريق معصية اللّه.

كما أنّ أى مسافر لم يصل إلى حدّ الترخيص (أى إلى النقطة التى لا يمكن سماع صوت أذان المدينة فيها، أو لا يمكن مشاهدة أسوار المدينة عندها) لا يمكنه أن يقصر صلاته، لأنّه فى هذه الحالة لا يعد خارجا عن حدود المدينة و لا يعتبر فى عداد المسافرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۱۹

و بالإضافة إلى ما ذكر هناك أحكام أخرى ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل، و قد ذكرت الأحاديث التى وردت فى هذا الأمر كتب الحديث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۰

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۲]

اشارة

وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۱۰۲)

سبب النّزول

نزل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع عدد من المسلمين أرض الحديبية- و هم فى طريقهم إلى مكّة- فسمعت قريش بذلك فبعثت بخالد بن الوليد على رأس زمرة من مائتى شخص لاعتراض طريق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين الذين معه و منعهم من الوصول إلى مكّة، فاستقرّ خالد و الذين رافقوه فى الجبال القريبة من مكة.

و لما كان موعد صلاة الظهر، أذن بلال، فصلّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالمسلمين جماعة، فشاهد خالد بن الوليد صلاة المسلمين ففكر فى خطّة للهجوم على المسلمين، و أخبر جماعته أن يغتنموا فرصة أداء المسلمين لصلاة العصر التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۱

يعتبرونها أعزّ عليهم من أعينهم، فيباغتونهم بهجوم خاطف و هم فى الصّلاة و يقضون عليهم.

و فى هذه الأثناء نزلت الآية بحكم صلاة الخوف التى تصون المسلمين من كل هجوم خاطف.

و هذه الآية إحدى معاجز القرآن الكريم حيث أخبرت عن وقوع هجوم قبل قيام العدو بتنفيذه و بذلك أفشلت خطة العدو، و يقال بأنّ خالدا أعلن إسلامه حال مشاهدته لذلك المشهد بعينه.

التّفسير

اشارة

بعد آيات الجهاد السابقة تبيّن هذه الآية للمسلمين طريقة صلاة الخوف التى تؤدى فى ساحة الحرب، فتخاطب الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: وَ إِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ ... فإذا سجدت جماعة و انقضت الركعة الأولى من الصّلاة، على النّبى أن يقف فى مكانه فتؤدى الجماعة- سريعا- الركعة الثّانية و تعود إلى ساحة القتال لمواجهة العدو.

و تأتى بعد ذلك الجماعة الثّانية التى لم تصل بعد، و تأخذ مكان الجماعة الأولى فتصلّى مع النّبى: فَإِذا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرائِكُمْ وَ لْتَأْتِ طائِفَةٌ أُخْرى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ ... و على الجماعة الثّانية أن لا تضع أرضا لامة حربها، بل تحتفظ بها معها: وَ لْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَسْلِحَتَهُمْ ....

و تشير الآية إلى أنّ أداء الصّلاة بهذا الأسلوب من أجل أن يبقى المسلمون فى مأمن من أى هجوم مباغت قد يقوم به العدو عليهم، لأنّه يتحين الفرص دائما لتنفيذ هذا الهجوم، و يتمنى لو تخلى المسلمون و غفلوا عن أسلحتهم و أمتعتهم ليشنّ عليهم حملته الغادرة: وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَ أَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۲

و لما كان حمل السلاح و الوسائل الدفاعية الأخرى صعبا أثناء أداء الصّلاة فى بعض الأحيان مثل أن يكون بعض المسلمين يعانون من ضعف بدنى أو مرضى أو جراحات تحملوها من ساحة القتال، فيشق عليهم بذلك حمل السلاح أو وسائل الدفاع الأخرى، لذلك تأمر الآية فى الختام قائلة: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ

و هذا مشروط بأن يحتفظ المسلمون بما يقيهم من وسائل الدفاع كالدروع، و أمثالها حتى فى حالة وجود العذر كالضعف أو المرض، و ذلك لحماية أنفسهم إذا باغتهم العدو بهجومه إلى أن تصلهم الإمدادات حيث تقول الآية: وَ خُذُوا حِذْرَكُمْ ....

و هنا عدّة ملاحظات جديرة بالانتباه، هى:

۱- واضح أنّ الهدف من وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين المسلمين فى حال إقامة صلاة الخوف، لا يعنى أنّ هذه الصّلاة لا تقام إلّا بوجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل القصد و الهدف هنا فى الآية هو أن يكون للمقاتلين و المجاهدين إمام أو قائد يتقدمهم و يؤمهم فى صلاة الجماعة أثناء الحرب، و من هذا المنطلق نرى الإمام على و الإمام الحسين عليهما السّلام قد أقاما صلاة الخوف، كما أنّ العديد من قادة الجيوش الإسلامية كحذيفة قد قاموا بهذه العبادة الإسلامية فى ساعات الضرورة[۲۱۴].

۲- و الآية تأمر المجموعة الأولى بأن تحتفظ بسلاحها أثناء أداء صلاة الخوف، لكنها تقول للمجموعة الثّانية أن لا تلقى أرضا بوسائلها الدفاعية كالدروع و الأسلحة الأخرى.

و من المحتمل أن يكون الفرق بين هاتين المجموعتين هو أنّ العدو قد لا يكون على علم بعد بخطة المسلمين أثناء أداء المجموعة الأولى لصلاتها، و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۳

هذه الحالة يكون احتمال هجوم العدو على المسلمين ضعيفا، أمّا بالنسبة للمجموعة الثانية- حين- ينتبه العدو لمراسم الصّلاة فيكون هجومه على المسلمين أكثر احتمالا.

۳- إنّ القصد من الاحتفاظ بالمتاع المطلوب من المسلمين فى الآية- موضوع البحث- هو أن يراقب المسلمون وسائلهم الأخرى الحربية و الشخصية و الغذائية و الحيوانات التى جلبوها لتكون غذاء لهم، بالإضافة إلى الدفاع عن أنفسهم.

۴- من الواضح أنّ أداء الصّلاة جماعة ليست واجبة فى الإسلام، لكنّها من المستحبات المؤكدة كثيرا، و هذه الآية تعتبر أحد الأدلة الحية على التأكيد بالنسبة لأهمية مراسيم صلاة الجماعة فى الإسلام، بحيث إنّ هذه الصّلاة- صلاة الجماعة- تقام حتى فى ساحة الحرب بالاستفادة من أسلوب و طريقة صلاة الخوف، و يستدل من هذا الموضوع على أهمية الصّلاة نفسها بالإضافة إلى أهمية إقامتها جماعة.

و من الطبيعى أن يكون لصلاة الجماعة تأثير نفسى و معنوى على المقاتلين من زاوية التنسيق فى الهدف، كما أنّ لها تأثير على العدو- أيضا- حين يرى أنّ المسلمين حتى و هم فى ساحة القتال يهتمون بواجباتهم الدينية.

كيفية صلاة الخوف:

لا يبدو فى الآية- موضوع البحث- التوضيح اللازم لكيفية أداء صلاة الخوف. و هذا هو أسلوب القرآن إذ يبيّن كليات الحكم، و يترك شرح الأحكام إلى السنّة الشريفة.

و طريقة أداء صلاة الخوف- كما توضحها السنّة- هى أن تتحول الصّلاة الرباعية إلى صلاة ثنائية، أى تحويل صلاة الظهر أو العصر مثلا التى هى أربع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۴

ركعات فى كل منهما إلى صلاة بركعتين، فتصلى المجموعة الأولى ركعة واحدة مع الإمام، ثمّ يتوقف الإمام بعد أداء الركعة الأولى فتؤدى المجموعة الأولى الركعة الثانية فرادى، ثمّ تعود إلى جبهة القتال، فتأتى المجموعة الثانية لتأخذ مكان المجموعة الأولى خلف الإمام، فتؤدى الركعة الأولى جماعة مع الإمام و تؤدى الركعة الثّانية فرادى (و قد وردت طرق أخرى لأداء صلاة الخوف، و لكن أشهرها الطريقة التى تحدثنا عنها هنا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۳]

اشارة

فَإِذا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وَ قُعُوداً وَ عَلى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً (۱۰۳)

التّفسير

أهمية فريضة الصّلاة:

بعد أن ذكرت الآية السابقة صلاة الخوف، و أكدت ضرورة إقامتها حتى فى جبهات الحرب، تحث الآية (۱۰۳) المسلمين على أن لا ينسوا ذكر اللّه بعد أداء الصّلاة، و ليذكروا اللّه حين قيامهم و قعودهم و أثناء نومهم على جنوبهم و ليسألوه العون و النصر، و القصد من ذكر اللّه فى حالة القيام و القعود و النوم على الجنبين، يحتمل أن يكون فى فترات الاستراحة التى تسنح للمسلمين و هم فى ساحة الحرب، كما يحتمل أن تكون فى الحالات المختلفة للقتال، أى أثناء وقوف المقاتل أو جلوسه أو استلقائه على أحد جنبيه و هو يقاتل بأحد أنواع الأسلحة الحربية كالقوس و السهم مثلا.[۲۱۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۶

إنّ هذه الآية تشير فى الحقيقة إلى أمر إسلامى مهم، يدل على أنّ أداء الصّلاة فى أوقات معينة ليس معناه أن ينسى الإنسان ذكر اللّه فى الحالات الأخرى، فالصّلاة أمر انضباطى يحيى و يجدد روح التوجه إلى اللّه لدى الفرد، فيستطيع فى أوقات أخرى غير وقت الصّلاة أن يحتفظ بذكر اللّه فى ذهنه، سواء كان فى ساحة القتال أو فى مكان آخر.

و قد فسّرت هذه الآية فى روايات عديدة على أنّها تبيّن كيفية أداء الصّلاة بالنسبة للمرضى، أى أنّهم إذا استطاعوا فليؤدوا الصّلاة قياما، و إن لم يقدروا على ذلك فقعودا، و إذا عجزوا عن القعود فعلى أحد جنبيهم.

و هذا التّفسير فى الحقيقة نوع من التعميم و التوسع فى معنى الآية، و لو أنّها لا تخص هذا المجال ۲۱۶].

و تؤكد هذه الآية أنّ حكم صلاة الخوف هم حكم استثنائى طارىء، و على المسلمين إذا ارتفعت عنهم حالة الخوف أن يؤدوا صلاتهم بالطريقة المعتادة فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ ....

و توضح الآية فى النهاية سر التأكيد على الصّلاة بقولها إن الصّلاة فريضة ثابتة للمؤمنين و أنّها غير قابلة للتغيير: ... إِنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً.

إنّ عبارة «موقوت» من المصدر «وقت»، و على هذا الأساس فإن الآية تبيّن أنّه حتى فى ساحة الحرب يجب على المسلمين أداء هذه الفريضة الإسلامية، لأنّ للصّلاة أوقات محددة لا يمكن تخطيها[۲۱۷].

و لكن الروايات العديدة التى وردت فى شرح هذه الآية تبيّن أنّ عبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۷

«موقوتا» تعنى «ثابتا» و «واجبا» ممّا لا ينافى مفهوم الآية أيضا، و النتيجة هى أنّهما قريبين من المعنى الأوّل.

سؤال:

يقول البعض: إنّهم لا ينكرون فلسفة و اهمية الصّلاة و آثارها التربوية، و لكنهم يسألون عن ضرورة إقامتها فى أوقات محددة، و يرون أن الأحسن أن يترك الناس أحرارا لكى يؤدى كل منهم الصّلاة متى ما سنحت له الفرصة أو متى ما وجد استعدادا روحيا لأداء هذه الفريضة؟

الجواب:

إنّ التّجربة قد أثبت أنّ القضايا التربوية لو لم تخضع لشروط و قيود معينة، فإن العديد من الناس سيتجاهلون و يتركون هذه القضايا، و سيؤدى هذا التجاهل إلى أن تتزلزل أركانها، لذلك فإن القضايا التربوية يجب أن تخضع لقيود خاصّة و يخصص لأدائها أوقات محددة، و أن لا يسمح لأحد بتخطى هذه القيود أو تجاهل تلك الأوقات، خاصّة و إنّ أداء فريضة كالصّلاة و فى وقت معين و بصورة جماعية يظهر عظمتها و هيبتها و تأثيرها القوى الذى لا يمكن لأحد نكرانه، و الصّلاة فى الحقيقة من أهم العوامل فى تربية الإنسان و تكوين شخصيته الإنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۸

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۰۴]

اشارة

وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۰۴)

سبب النّزول

قرع السّلاح بسلاح يشابهه:

روى عن ابن عباس و مفسّرين آخرين أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بعد الأحداث الأليمة لواقعة أحد- صعد إلى جبل أحد و كان على الجبل أبو سفيان، فخاطب النّبى بلهجة الفاتح بقوله: «يا محمّد يوم بيوم بدر!» و عنى أبو سفيان بذلك أن انتصارهم فى أحد كان مقابل هزيمتهم فى واقعة بدر.

فطلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسلمين أن يردوا عليه فورا، و لعل النّبى أراد أن يثبت لأبى سفيان إنّ من تربوا فى ظل الرسالة الإسلامية يتمتعون بكامل الوعى، فرد المسلمون على أبى سفيان: هيهات أن يستوى الوضع بين المؤمنين و المشركين، فشهداء المؤمنين فى الجنّة و قتلى المشركين فى النّار.

فأجاب أبو سفيان- صارخا و مفتخرا- بالعبارة التالية:

«لنا العزّى و لا عزّى لكم» فردّ عليه المسلمون:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۲۹

«اللّه مولانا و لا مولى لكم» و لما عجز أبو سفيان عن الردّ على هذا الجواب و الشعار الإسلامى الحى تخلى عن صنمه «العزى» و عرج

على صنم آخر هو «هبل» متوسلا إليه بقوله: «أعل هبل، أعل هبل» فردّ عليه المسلمون بجواب قوى علّمهم إياه نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو:

«اللّه أعلى و أجل».

فما أعيت أبا سفيان الحيلة و لم تجده شعاراته الوثنية نفعا قال صارخا:

«موعدنا فى أرض بدر الصغرى».

عاد المسلمون من ساحة القتال مثخنين بالجراح، و حين كان يعتصرهم الألم من أحداث أحد، نزلت الآية المذكورة أعلاه محذرة المسلمين من الغفلة عن المشركين مطالبة إياهم بملاحقة قوى الشرك دون كلل أو ملل، و أن لا يتأثروا بحوادث مؤلمة كحادثة أحد، فهب المسلمون و هم فى تلك الحالة لملاحقة العدو، فما أن سمع المشركون بعزم المسلمين حتى أسرعوا الخطى مبتعدين عن المدينة و عادوا إلى مكّة[۲۱۸].

إنّ سبب النّزول هذا يعلّمنا أنّ المسلمين يجب أن لا يغيب عن بالهم أنواع التكتيك الذى يستخدمه العدو، و أن يواجهوا كل أسلوب حربى يتبعه العدو، سواء الأسلوب القتالى أو النفسى بأسلوب إسلامى أقوى، و أعنف من أسلوب العدو، و أن يواجهوا منطق الأعداء بمنطق أقوى و أشد، و يقابلوا سلاحهم بسلاح أمضى، و حتى شعارات الأعداء يجب أن تقابل بشعارات إسلامية ضاربة، و بغير ذلك فإنّ الرياح ستجرى بما يشتهيه الأعداء.

و من هذا المنطلق، فإنّنا نحن المسلمين- بدلا من أن نجلس و نذرف الدموع على ما مر و يمر علينا من أحداث مؤلمة مريرة، و ما تشهده مجتمعاتنا من مفاسد رهيبة تحيط بهذه المجتمعات من كل جانب، علينا أن نبادر بصورة فعالة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۰

العمل، فنواجه العدوان المكتوب بكتابات تدحضه و تقمعه، و نواجه الإعلام الضال المسموم المضلل بأسلوب إعلامى يحبطه و يقضى على أمره، و نقابل مراكز اللهو الخليع ببناء مراكز للهو البرىء السليم لشبابنا و أبنائنا، و نقرع الأفكار و الأطروحات و المذاهب السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية بالفكر الإسلامى الجامع بأسلوب عصرى يفهمه الجميع.

و إذا استطعنا أن نواجه أعداءنا بهذه الصورة فقد أفلحنا فى الحفاظ على كياننا الإسلامى، و فى أن نبرز للعالم بشكل مجتمع تقدمى أصيل.

التّفسير

أعقبت الآية- موضوع البحث هذه- الآيات السابقة التى تحدثت عن الجهاد و الهجرة و استهدفت إحياء روح التضحية و الفداء لدى المسلمين بقولها:

وَ لا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ و هذا تأكيد على ضرورة أن لا يواجه المسلمون عدوهم اللدود بأسلوب دفاعى، بل عليهم أن يقابلوا هذا العدو بروح هجومية دائما، لأنّ هذا الأسلوب الأخير له أثر قامع للعدو و مؤكد على معنوياته.

و قد جرّب المسلمون هذا الأمر فى مواجهتهم للعدو بعد واقعة أحد التى هزموا فيها، فارغموا العدو على الفرار مع أنّه كان لم يزل يتلذذ بطعم الإنتصار الذى أحرزه فى أحد. إذ لما علم المشركون بقدوم المسلمين خافوا من العودة إلى ساحة القتال، و أسرعوا مبتعدين عن المدينة.

بعد ذلك تأتى الآية باستدلال حى و واضح للحكم الذى جاءت به، فتسأل المسلمين لما ذا الوهن؟ فأنتم حين يصيبكم ضرر فى ساحة الجهاد فإنّ عدوكم سيصيبه هو الآخر سهم من هذا الضرر، مع فارق هو أنّ المسلمين يأملون أن يعينهم اللّه و يشملهم برحمته الواسعة،

بينما الكافرون لا- يرجون و لا- يتوقعون ذلك، حيث تقول الآية: إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَ تَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۱

و فى الختام- و من أجل إعادة التأكيد- تطلب الآية من المسلمين أن لا- ينسوا علم اللّه بجميع الأمور، فهو يعلم معاناة المسلمين و مشاكلهم و آلامهم و مساعيهم و جهودهم، و يعلم أنّهم أحيانا يصابون بالتهاون و الفتور، فتقول الآية:

وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً و سيرى المسلمون نتيجة كل الحالات تلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۲

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۶]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (۱۰۵) وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۰۶)

سبب النّزول

لقد نقلوا واقعة مفصلة عن سبب نزول الآيتين المذكورتين، خلاصتها أنّ فى قبيلة بنى الأبيرق المعروفة نسبيا كان ثلاثة أشقاء هم «بشر» و «بشير» و «مبشر» سطا أحدهم و هو «بشير» على دار أحد المسلمين و يدعى «رفاعة» فسرق سيفه و درعه و كمية من الغذاء، و كان ابن أخيه و يدعى «قتادة» من مجاهدى بدر فأخبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالواقعة.

و لكن الأشقاء الثّلاثة اتهموا شخصا من المسلمين اسمه «لبيد» الذى كان يسكن فى دار واحد معهم، فتألم لبيد ألما شديدا من هذه التهمة الباطلة و استل سيفه و توجه إلى الأشقاء الثلاثة صارخا فى وجوههم قائلا: «ا تتهموننى أنا بالسّرقة و أنتم أجدر بهذا العمل؟ فأنتم هم أولئك المنافقون الذين كنتم تهجون النّبى و تنسبون أبيات الهجو إلى قريش، فأمّا أن تثبتوا ما تنسبونه لى من تهمة، أو أن أهوى بسيفى على رؤسكم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۳

فلمّا رأى أخوة السارق ذلك حاولوا استرضاء «لبيد» و لكنّهم لمّا علموا أنّ القضية قد وصلت إلى أسماع النّبى بواسطة «قتادة» لجؤوا إلى أحد متكلمى قبيلتهم فطلبوا منه أن يذهب مع جمع من الناس إلى النّبى و يتظاهر بأنّ الحق إلى جانبهم ليبرئ السارق و يتهم «قتادة» بتلفيق التهمة على شقيقهم، و قد قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استنادا إلى واجب العمل بظاهر الأمور- شهادة تلك المجموعة و أنّب «قتادة» على عمله.

و قد تألم «قتادة» الذى كان يعرف نفسه برئيا ... تألم من هذه الواقعة و عاد إلى عمّه و أخبره بالحادث مظهرا أسفه الكبير لما حصل، فخفف عليه عمّه و قال «لا- تحزن يا قتادة إن اللّه فى عوننا» فنزلت الآيتان المذكورتان لتعلنا براءة الرجل، و تؤنبا مرتكبى الخيانة الحقيقيين.

و نقلوا- أيضا- واقعة أخرى فى سبب نزول الآيتين، و هى أن درعا لأحد الأنصار كانت قد سرقت فى إحدى الحروب، و كان الشك يدور على شخص من قبيلة «الأبيرق» فى سرقة ذلك الدرع، و لما علم السارق بأنّ الشكوك بدأت تدور حوله رمى بالدرع فى دار أحد اليهود، و طلب من قبيلته أن يشهدوا ببراءته أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يستدلوا بذلك على وجود الدرع فى دار

اليهودى، و لمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأمر بتلك الصورة برأ هذا السارق بحسب ظاهر الشهادة التى جاءت لصالحه و أدين الرجل اليهودى بسرقة الدرع، فنزلت الآيتان المذكورتان لتوضحا الحقيقة.

التّفسير

منع الدّفاع عن الخائنين:

يعرف اللّه سبحانه و تعالى- فى بداية الآية (۱۰۵) من سورة النساء- نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ الهدف من إنزال الكتاب السماوى هو تحقيق مبادئ الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۴

و العدالة بين الناس، إذ تقول الآية: إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ ....

ثمّ يحذّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حماية الخائنين أبدا بقوله: وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً.

و مع أنّ الآية خطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن ممّا لا شك فيه هو أنّ هذا الحكم حكم عام لجميع القضاة و المحكمين، و بهذا الدليل فإنّ مثل هذا الخطاب ليس المفهوم منه أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تبدر منه مثل هذه الأعمال، لأن الحكم المذكور يشمل جميع الأفراد.

أمّا الآية الأخرى فهى تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطلب المغفرة من اللّه سبحانه و تعالى، إذ تقول: وَ اسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً.

و حول سبب الاستغفار المطلوب فى هذه الآية توجد احتمالات عديدة، هى:

الأوّل: إنّ الاستغفار هو لترك الأولى الذى حصل بسبب الاستعجال فى الحكم فى القضية التى نزلت بسببها الآيتان، أى مع أنّ ذلك القدر من الاعتراف، و شهادة الطرفين كان كافيا لإصدار الحكم من قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه كان الأحرى أن يجرى تحقيق أكثر فى ذلك المجال.

و الثّانى: هو أنّ النّبى قد حكم فى تلك القضية وفقا لقوانين القضاء الإسلامى، و بما أنّ الأدلة التى جاء بها الخائنون كانت بحسب الظاهر أقوى، لذلك أعطى الحق لهم، و بعد انكشاف الحقيقة و وصول الحق إلى صاحبه يأتى الأمر بطلب المغفرة من اللّه، ليس لذنب مرتكب، بل لتعرض حق فرد مسلم إلى خطر الزوال بسبب خيانة البعض من الأشخاص (أى أن الاستغفار بحسب الاصطلاح- لأجل الحكم الحقيقى لا الحكم الظاهرى).

و قد احتمل البعض أن يكون الاستغفار مطلوبا من طرفى الدعوى اللذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۵

ظهر منهما الخلاف فى عرض و متابعة دعواهما.

و

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّما أنا بشر، و إنّكم تختصمون إلىّ و لعل بعضكم يكون الحن بحجته من بعض، فأقضى بنحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنّما أقطع له قطعة من نار»[۲۱۹].

يتبيّن لنا من هذا الحديث أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلّف بالحكم وفقا لظاهر القضية و استنادا إلى أدلة طرفى الدعوى، و بديهى أن الحق فى مثل هذه الحالة يصل إلى صاحبه، و يحتمل أحيانا أن لا ينطبق ظاهر الدليل و شهادة الشهود مع الحقيقة، فيجب

الانتباه هنا إلى أنّ حكم الحاكم لا يغير من الحقيقة شيئا فلا يصبح الحق باطلا و لا الباطل حقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۶

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۰۷ الى ۱۰۹]

اشارة

وَ لا تُجادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّاناً أَثِيماً (۱۰۷) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (۱۰۸) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۱۰۹)

التّفسير

بعد الآيات التى جاءت بتحريم الدّفاع عن الخائنين، تستطرد الآيات الثلاث الأخيرة فى التشديد على حرمة الدفاع عن الخائنين، بالأخص أولئك الذين يخونون أنفسهم.

و يجب الانتباه هنا إلى أن الآية (۱۰۷) تشير إلى الذين يخونون أنفسهم، بينما الذى عرفنا من سبب نزول الآيات السابقة، هو أنّها نزلت فى شأن الذين يخونون الغير، و فى هذا إشارة إلى ذلك المعنى الدقيق الذى ينبه إليه القرآن فى العديد من الآيات، و هو أن أى عمل يصدر عن الإنسان يتأثر بنتيجته- سواء كانت حسنة أو سيئة- الإنسان ذاته قبل غيره، كما جاء فى الآية (۷) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۷

الإسراء، إذ تقول إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

أو أنّ الآية المذكورة تشير إلى موضوع آخر أكّد عليه القرآن أيضا، و هو أن جميع أفراد البشر هم جميعا كأعضاء جسد واحد، فإذا أضر أحدهم بغيره فكأنما أضرّ بنفسه، أى يكون بالضبط كالذى يصنع نفسه بنفسه.

و الأمر الآخر فى الآية أنّها لا تخص الذين يرتكبون الخيانة لمرّة واحدة ثمّ يندمون على ما فعلوا، حيث لا ضرورة لاستعمال العنف و الشدة مع هؤلاء، بل هم بحاجة إلى الرأفة أكثر، و الشدّة يجب أن تطبق على أولئك الذين يحترفون الخيانة و تكون جزءا من حياتهم.

و يدل على هذه القرينة الواردة فى الآية من خلال عبارة يَخْتانُونَ التى هى فعل مضارع يدل على الاستمرارية، بالإضافة إلى القرينة الأخرى التى تفهم من عبارتى خَوَّاناً أى كثير الخيانة و أَثِيماً أى كثير الذّنب، و الكلمة الأخيرة جاءت لتأكيد عبارة «خوان» فى الآية، كما أنّ الآية السابقة جاءت بكلمة «خائن» التى هى اسم فاعل و التى لها معنى وصفى يدل على تكرار الفعل.

لقد تعرض الخائنون فى الآية الأخرى إلى التوبيخ، حيث قالت أن هؤلاء يستحيون أن تظهر بواطن أعمالهم و سرائرهم و تنكشف إلى الناس، لكنهم لا يستحيون لذلك من اللّه سبحانه و تعالى، إذ تقول الآية: يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَ لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ ... فلا يتورع هؤلاء من تدبير الخطط الخيانية فى ظلام الليل، و التحدث بما لا يرضى اللّه الذى يراهم و يراقب أعمالهم، أينما كانوا: وَ هُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ما لا يَرْضى مِنَ الْقَوْلِ وَ كانَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطاً.

بعد ذلك تتوجه الآية (۱۰۹) من سورة النساء بالحديث عن شخص السارق الذى تمّ الدفاع عنه، و تقول بأنّه على فرض أن يتمّ الدفاع عن هؤلاء فى الدنيا فمن يستطيع الدفاع عنهم يوم القيامة، أن من يقدر أن يكون لهؤلاء وكيلا ليرتب أعمالهم و يحل مشاكلهم؟! حيث تقول الآية: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ جادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۸

الْحَياةِ الدُّنْيا فَمَنْ يُجادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. و لذلك فإنّ الدفاع عن هؤلاء الخونة فى الدنيا ليس له أثر إلا القليل، لأنّهم سوف لا يجدون أبدا من يدافع عنهم أمام اللّه فى الحياة الآخرة الخالدة.

و الحقيقة هى أنّ الآيات الثلاث الأخيرة تحمل فى البداية إرشادات إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إلى كل قاض يريد أن يحكم بالحق، بأن ينتبهوا حتى يفوتوا الفرصة على أولئك الذين يريدون انتهاك حقوق الآخرين، عبّر وسائل مصطنعة و شهود مزورين.

بعد ذلك تحذر الآية الخائنين و من يدافع عنهم، بأن ينتظروا عواقب سيئة لأعمالهم فى هذه الدنيا و فى الآخرة أيضا.

و فى تلك الآيات سر من أسرار البلاغة القرآنية، حيث أنّها أحاطت جميع جوانب القضية و أعطت الإرشادات و التحذيرات اللازمة فى كل مورد، مع أنّ موضوع القضية يبدو موضوعا صغيرا بحسب الظاهر، إذ يدور حول درع مسروقة أو مواد غذائية أو يهودى من أعداء الإسلام.

و قد تناولت الآية- أيضا- الإشارة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يعتبر إنسانا معصوما عن الخطأ، كما أشارت إلى الأفراد الذين يحترفون الخيانة، أو الذين يدافعون عن الخائنين اندفاعا وراء عصبيات قبلية، إشارات تتناسب و منزلة الأشخاص المشار إليهم فى الآيات المذكورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۳۹

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۲]

اشارة

وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۱۰) وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۱۱۲)

التّفسير

اشارة

لقد بيّنت هذه الآيات الثلاث، ثلاثة أحكام كلية بعد أن تطرقت الآيات السابقة إلى مسائل خاصّة بالخيانة و التهمة.

۱- لقد وردت فى الآية (۱۱۰) من الآيات الثلاث أعلاه الإشارة أوّلا إلى هذه الحقيقة و هى أن باب التوبة مفتوح أمام المسيئين على كل حال، فإذا ارتكب أحد ظلما بحقّ نفسه أو غيره، و ندم حقيقة على فعلته، أو استغفر اللّه لذنبه، و كفّر عن خطيئته فيجد اللّه غفورا رحيما، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً.

۲- يجب الانتباه إلى أنّ الآية الأولى تشير إلى نوعين من الذنوب، حيث جاءت فيها كلمة «سوء» و كلمة «الظلم» للنفس، و لدى النظر إلى قرينة المقابلة، و كذلك الأصل اللغوى لعبارة «سوء» التى تعنى هنا الإضرار بالغير، يفهم من الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۰

أنّ أى نوع من الذنوب- سواء كانت من نوع الإضرار بالغير، أو الإضرار بالنفس قابلة للغفران إذا تاب فاعلها توبة حقيقية و سعى إلى التكفير عنها.

و يفهم- أيضا- من العبارة القرآنية: يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً إنّ التوبة الحقيقية لها من الأثر بحيث يجد الإنسان التائب نتيجتها فى باطن

نفسه، فمن ناحية فإنّ تأنيب الضمير الذى يخلقه ارتكاب الذّنب يزول عن المذنب التائب نظرا للغفران الذى يناله من اللّه الغفور، و من جانب آخر يحسّ الإنسان التائب بالقرب إلى اللّه بسبب رحمته سبحانه و تعالى بعد أن كان يحس بالبعد عنه بسبب الذنب الذى ارتكبه.

۳- إنّ الآية الثانية من الآيات الثلاث الأخيرة، تحكى نفس الحقيقة التى وردت بصورة إجمالية فى الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ أى ذنب يقترفه الإنسان ستكون نتيجته فى النهاية على المذنب نفسه، و يكون قد أضرّ بنفسه بذنبه، إذ تقول الآية: وَ مَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ ....

و فى آخر الآية تأكيد على أنّ اللّه عالم بأعمال العباد، و هو حكيم يجازى كل إنسان بما يستحقه: وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

و بالصورة المارة الذكر فإنّ الذنوب مهما اختلفت فى الظاهر، فإنّ اضرارها ستلحق أحيانا بالغير و تلحق أحيانا أخرى بمرتكبها، و لكن بالتحليل النهائى، فإنّ الذنب تعود نتيجته كلها إلى الإنسان المذنب نفسه، و إن الآثار السيئة للذنب تظهر قبل كل شىء فى روح و نفس الشخص المذنب.

۴- أمّا الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، فهى تشير إلى خطورة خطيئة اتهام الناس الأبرياء، إذ تقول: وَ مَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً.

و قد قسمت هذه الآية الذنب الذى يرتكبه شخص و ينسبها زورا إلى غيره، إلى قسمين: سمت الأوّل بالخطيئة، و الثّانى بالإثم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۱

و قد قال المفسّرون الكثير فى شأن الفرق بين هذين النوعين من الذنب، و أقرب الأقوال إلى الذهن هو أنّ الخطيئة مشتقة من الخطأ، و الذى يعنى فى الأصل: الزلل أو الذنب الذى يصدر دون قصد من صاحبه، و يكون أحيانا مشمولا بالكفارة و الغرامة لكن معنى الخطيئة قد توسع تدريجيا، و أخذ يشمل كل ذنب سواء المتعمد أو غير المقصود، حيث أنّ روح الإنسان لا تحتمل الذنب- أ كان عمدا أو عن غير عمد- و حين يصدر الذنب من الإنسان إنّما هو فى الحقيقة نوع من الزلل و الخطأ الذى لا يناسب مقامه كإنسان.

و النتيجة من هذا القول أنّ الخطيئة لها معنى واسع يشمل الذنب المتعمد و الذنب الصادر عن غير عمد، أمّا كلمة «إثم» فتطلق عادة على الذنوب الصادرة عن عمد، و تعنى- فى الأصل- ذلك الشىء الذى يمنع الإنسان من عمل معين، و لما كانت الذنوب تحول دون وصول الخيرات إلى الإنسان فقد سميت «إثما».

و تجدر الإشارة إلى أنّ الآية استخدمت كناية جميلة بالنسبة للتهمة، و هى أنّها جعلت الذنب فى هذا المجال كالسهم، و جعلت نسبته إلى الغير زورا بمثابة رمى السهم صوب الهدف، و هذه إشارة إلى أنّه فى حين أن تصويب السهم نحو إنسان آخر قد يؤدى إلى القضاء عليه، فإنّ رمى الإنسان البرىء بذنب لم يقترفه يكون بمثابة رمية بسهم يقضى على سمعته التى هى بمنزلة دمه.

و بديهى أنّ وزر و عاقبة هذا العمل تكونان فى النهاية- و إلى الأبد- على عاتق الشخص الذى ينسب التهمة زورا إلى غيره، و أن عبارة «احتمل» الواردة فى الآية تعنى أخذ على عاتقه إنّما جاءت للدلالة على ثقل و بقاء هذه المسؤولية!

جريمة البهتان:

إنّ اتهام إنسان برىء يعتبر من أقبح الأعمال التى أدانها الإسلام بعنف، و إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۲

الآية المذكورة أخيرا التى وردت بهذا الشأن- بالإضافة إلى الروايات الإسلامية العديدة التى إلى جانبها- توضح رأى الإسلام الصريح عن هذا العمل.

ينقل الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام عن أحد الحكماء أنّه قال: «أن البهتان على البرىء أثقل من جبال راسيات»[۲۲۰]

و

نقل عنه عليه السّلام قوله: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان فى قلبه كما ينماث الملح فى الماء»

أى أن الإيمان يذوب و يزول من قلب المؤمن بسبب اتهامه لأخيه المؤمن، كما يذوب الملح فى الماء و يزول عن النظر[۲۲۱].

فالتهمة و البهتان- فى الحقيقة- هما أقبح أنواع الكذب، لأنّهما بالإضافة إلى احتوائهما لمفاسد الكذب، فإنّهما أيضا يحملان أضرار الغيبة، و هما كذلك من أسوأ أنواع الظلم و الجور و لهذا السبب

يقول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الخصوص: «من بهت مؤمنا أو مؤمنة أو قال فيهما ما ليس فيهما أقامه اللّه تعالى يوم القيامة على تل من نار حتى يخرج ممّا قاله»[۲۲۲].

و حقيقة الأمر أن إشاعة مثل هذا العمل الجبان- فى أى محيط إنسانى كان- يؤدى فى النهاية إلى انهيار نظام العدالة الاجتماعية، و اختلاط الحق بالباطل، و تورط البرىء و تبرئة المذنب، و زوال الثقة من بين الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۳]

اشارة

وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (۱۱۳)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآية الكريمة إشارة أخرى إلى حادثة «بنى الأبيرق» التى تحدثنا عنها لدى تطرقنا إلى سبب النّزول فى آيات سابقة، و هذه تؤكد أن اللّه قد صان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بفضله و رحمته- سبحانه و تعالى- من كيد بعض المنافقين الذين كانوا يأتمرون به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليحرفوه عن طريق الحق و العدل، فكانت رحمة اللّه أقرب إلى نبيّه فصانته من كيد المنافقين، حيث تقول الآية: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ رَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ

لقد سعى أولئك المنافقون- من خلال اتهامهم لشخص برىء و جرّ النّبى و توريطه فى هذه الحادثة- إلى إلحاق ضربة بشخصية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الاجتماعية و المعنوية أوّلا، و تحقيق مآربهم الدنيئة بحق إنسان مسلم برىء ثانيا، و لكنّ اللّه العزيز العليم كان لهم بالمرصاد، فصان نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من تلك المؤامرة و أحبط عمل المنافقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۴

و يذكر بعض المفسّرين سببا آخر لنزول هذه الآية و هو أنّ جماعة من قبيلة «بنى ثقيف» وردوا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكروا له أنّهم مستعدون لمبايعته بشرطين:

الأوّل هو أن يرغم أفراد هذه القبيلة على كسر أصنامهم بأيديهم، و الثّانى أن يسمح النّبى لهم بأن يواصلوا عبادة صنمهم (العزى) لسنة واحدة أخرى! فنزل أمر اللّه على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يبدى أية مرونة أمام هؤلاء، حيث نزلت الآية المذكورة و

أعلنت بأن فضل اللّه و رحمته قد شملت النّبى و صانته من تلك الوساوس.

بعد ذلك تذكر الآية أن هؤلاء القوم إنّما يرمون بأنفسهم فى الضلالة و لا يضرّون بعملهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شيئا، إذ تقول ... وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ....

و أخيرا توضح الآية سبب عصمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الخطأ و الزلل و الذنب، فتذكر أنّ اللّه أنزل على نبيّه الكتاب و الحكمة و علمه ما لم يكن يعلم من قبل:

وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ... ثمّ تردف الآية ذلك بجملة: وَ كانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً.

مصدر عصمة الأنبياء!:

إنّ هذه الآية الأخيرة من الآيات التى تشير إلى عصمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ارتكاب الخطأ و السهو و الذنب، فتقول بأنّ العون الإلهى الذى شمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى صانه من الخطأ و الضلالة التى كان يريد المنافقون أن يوقعوه فيهما، و لكنّهم و بفضل هذه المعونة الإلهية عجزوا عن تحقيق مآربهم، و لم يلحق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أى ضرر نتيجة كيد المنافقين.

و هكذا فقد عصم اللّه نبيّه و صانه من كل خطأ أو سهو أو ذنب، كى يستطيع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصبح قدوة و أسوة للامّة الإسلامية و نبراسا لها فى فعل الخيرات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۵

و الحسنات، و قد صانه اللّه العزيز القدير من عواقب كل خطأ يحتمل أن يقع فيه أى زعيم، لكى يبعد الأمّة الإسلامية عن الحيرة فى قضية إطاعة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليجنبها التناقض بين فعلى الطاعة و عدمها، نعم لقد عصم اللّه نبيّه محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من كل خطأ، لكى يضمن له ثقة المسلمين الكاملة به، حيث تعتبر هذه الثقة من أولويات شروط الزعامة الإلهية.

و قد ورد فى آخر الآية دليل من الأدلة الأساسية لقضية العصمة بشكل مجمل، و هذا الدليل هو قوله تعالى أنّه علم نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من العلوم و المعارف التى يكون النّبى فى ظلها مصونا من الوقوع فى أى خطأ أو زلل، و لأنّ العلم و المعرفة تكون نتيجتهما فى المرحلة النهائية حفظ الإنسان من ارتكاب الخطأ.

فالطبيب- مثلا- لا يقدم أبدا على شرب ماء ملوث بأنواع الجراثيم الفتاكة، بعد أن أجرى عليه الفحوصات المختبرية و اكتشف تلوثه بتلك الجراثيم الخطيرة.

نستنتج من هذا المثل أنّ علم الطب الذى تعلمه هذا الطبيب، هو السبب فى حفظه و منعه من شرب الماء الملوث بالجراثيم القاتلة، فقد وفّر هذا العلم العصمة و المصونة للطبيب حيال ارتكاب مثل هذا الخطأ، لكن الإنسان الذى يجهل خطورة ذلك الماء يحتمل كثيرا أن يقدم على شربه.

و هكذا يتبيّن أنّ مصدر الكثير من الأخطاء هو الجهل بمقدمات العمل أو مستلزماته أو عواقبه، لذلك فإنّ من يحاط عن طريق الوحى الإلهى إحاطة كاملة بالقضايا المختلفة و مقدماتها و مستلزماتها و عواقبها لن يقع فى خطأ، و لن يرتكب أى زلل أبدا، و لن يضل الطريق، و لن يمارس ذنبا مطلقا.

و يجب أن لا نقع فى الوهم هنا، فإنّ هذا العلم الذى بحوزة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جانب اللّه سبحانه و تعالى ليس عملا مفروضا و لا يحمل طابع القسر و الإجبار، أى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس مجبورا أبدا على أن يعمل بعلمه، بل أنّه يمارس عمله بكامل اختياره، فكما أنّ الطبيب الذى ذكرناه فى مثلنا السابق مع علمه بحالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۶

الماء الملوث فإنّه ليس مرغما على عدم شرب هذا الماء، بل هو بإرادته المطلقة يمتنع عن شربه.

و إذا تساءل أحد: لما ذا شمل اللّه نبيّه وحده بهذا الفضل الإلهى، و لم يشمل الآخرين؟

كان الجواب: إنّ ذلك قد حدث للمسؤولية العظيمة و الخطيرة التى تتضمنها القيادة التى أنيطت بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حمل أعبائها الثقيلة على عاتقه، و لأن الآخرين لا يحملون مثل هذه الأعباء الثقيلة، لذلك فإن اللّه اللطيف الخبير يهب لعبده من القدرة و الطاقة بمقدار ما يضع على عاتق هذا العبد من مسئوليات، و لن يكلف اللّه نفسا إلّا وسعها فيجب التعمق فى هذا الأمر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۴]

اشارة

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۱۴)

التّفسير

النجوى أو الهمس:

لقد أشارت الآيات السابقة إلى اجتماعات سرية شيطانية كان يعقدها بعض المنافقين أو أشباههم، و قد تطرقت الآية الأخيرة إلى هذا الأمر بشىء من التفصيل، و كلمة «النجوى» لا تعنى الهمس فقط، بل تطلق على كل اجتماع سرى أيضا، لأنّها مشتقة من المادة «نجوه» على وزن «دفعه» أى بمعنى الأرض المرتفعة، و بما أنّ الأرض المرتفعة تكون شبه معزولة عن الأراضى التى حولها، و أن الجلسات السرية و الهمس يتمّان بمعزل عن الأفراد الذين يكونون فى الأراضى المحيطة بها سمّيت هذه الأخيرة بالنجوى.

و يرى بعضهم أنّ كلمة «النجوى» مشتقة من مادة «النجاة» أى التحرر، و بمعنى أن البقعة المرتفعة تكون بمنأى و منجى عن خطر السيل، و إن الاجتماع السرى أو الهمس يكونان بمنجى من معرفة الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۸

و الآية هنا تذكر أنّ أغلب الاجتماعات السرّية التى يعقدها أولئك تهدف إلى غايات شيطانية شريرة لا خير فيها و لا فائدة، إذ تقول: لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ

و لكى لا يحصل و هم من أن كل نجوى أو همس أو اجتماع سرى يعتبر عملا مذموما أو حراما جاءت الآية بأمثال كمقدمة لبيان قانون كلى، و أوضحت الموارد التى تجوز فيها النجوى، مثل أن يوصى الإنسان بصدقة أو بمعونة للآخرين أو بالقيام بعمل صالح أو أن يصلح بين الناس، فتقول الآية فى هذا المجال: إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ

فإذا كان هذا النوع من النجوى أو الهمس أو الاجتماعات السرّية لا يشوبه الرياء و التظاهر، بل كان مخصصا لنيل مرضاة اللّه، فإنّ اللّه سيخصص لمثل هذه الأعمال ثوابا و أجرا عظيما، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

و قد عرف القرآن النجوى و الهمس و الاجتماعات السرّية- من حيث المبدأ- بأنّها من الأعمال الشّيطانية، فى قوله تعالى: إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ ...[۲۲۳] و السبب هو أنّ هذه الأعمال غالبا ما تحدث لأغراض سيئة، و حيث أنّ عمل الخير و الشىء النافع و الإيجابى لا

یحتاج فی العادة إلی أن یکون- أو یبقی- سرّیا أو مکتوما عن الناس، و لـذلک فلا حاجـة بالتحدث عن مثل هذه الأعمال بالهمس و النجوی، أو فی اجتماعات سرّیة.

و لمّـا کـان من المحتمـل أن تطرأ ظروف اسـتثنائیة تجـبر الإنسـان علی الاسـتفادة من أسـلوب النجـوی فی أعمـال الخیر، لـذلک ورد الاستثناء بصورة مکررة فی القرآن، کما فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۴۹

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا تَناجَیْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِیَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوی ...[۲۲۴].

و النجوی إذا حصـلت ابتـداء فی جمع من النـاس، أثـارت لـدیهم سوء الظّن حیالهـا، حتی أنّ سوء الظن قـد یبـدر من الأصـدقاء حیال النجوی التی تحصل بینهم، و علی هذا الأساس فإنّ الأفضل أن لا یبادر الإنسان إلی النجوی إلّا إذا اقتضت الضـرورة ذلک، و هذه هی فلسفة هذا الحکم الوارد فی القرآن.

و بدیهی أنّ سـمعة الإنسان تسـتلزم- أحیانا- اتباع أسلوب النجوی، و من جملة هذه الموارد تأتی مسألة الصدقات أو المعونات المالیة، التی أجاز القرآن استخدام النجوی بشأنها لحفظ ماء الوجه و سمعة الأشخاص الذین یتلقون هذه المعونات.

و المجـال الآـخر للنجوی هو عنـد الأـمر بـالمعروف، حیث أنّ هـذا الأمر لو تمّ أحیانا بصورة علنیـة لأصـبح سـببا فی فضـیحة أو خجل الشـخص المخاطب بالمعروف بین الناس الحاضـرین، و قد یصبح سببا فی أن یمتنع عن قبول ذلک و یقاوم هذا الأمر الذی عبّرت عنه الآیة بالمعروف.

و الحالة الأخری التی یجوز فیها النجوی هی فی مجال الإصـلاح بین الناس، الذی یقتضی أن یکون سریا أحیانا لضمان تحقیقه، إذ من الممکن لو أنّ الأمر تمّ بصورة علنیة لحال دون حدوث الإصـلاح، لذلک یجب أن یتمّ الإصـلاح بالتحدث إلی کل طرف من أطراف النزاع بصورة خفیة، أی بطریق النجوی.

إذن فالنجوی جائزة و قد تکون ضروریة فی الحالات الثلاث التی مر الحدیث عنها، و کذلک فی حالات مشابهة.

و الملفت للنظر فی الحالاـت الثلاـث المـذکورة أعلاـه هو أنّهـا تأتی کلها ضـمن معنی «الصدقـة» و ذلک لأنّ من یأمر بالمعروف إنّما یدفع زکاة علمه، و من یسعی فی إصلاح ذات البین یدفع بذلک زکاة قدرته و منزلته المؤثرة فی الناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۰

و

قـد نقـل عن علی بن أبی طـالب أمیر المؤمنین علیه السّـلام قوله: «إنّ اللّه فرض علیکم زکاة جاهکم کما فرض علیکم زکاة ما ملکت أیدیکم»[۲۲۵].

و

نقل عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله لأبی أیوب: «أ لا أدلک علی صدقة یحبّها اللّه و رسوله تصلح بین الناس إذا تفاسدوا و تقرب بینهم إذا تباعدوا»[۲۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۱

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۱۵]

اشارة

وَ مَنْ یُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدی وَ یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً (۱۱۵)

سبب النّزول

لقد قلنا فى سبب نزول الآية السابقة: إنّ بشير بن الأبيرق كان قد سرق من أحد المسلمين، و أتهم إنسانا بريئا بهذه السرقة، و استطاع بالأجواء المزيفة التى اختلقها أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبرئ نفسه، و لكن حين نزلت تلك الآيات افتضح أمره، فبدلا من أن يختار طريق التوبة بعد فضيحته، سار فى طريق الكفر و ارتد عن الإسلام بصورة علنية رسمية.

فنزلت الآية الأخيرة متضمنة إشارة إلى هذا الموضوع، بالإضافة إلى بيانها لحكم إسلامى عام و كلى.

التّفسير

اشارة

حين يرتكب الإنسان خطأ و يدرك هذا الخطأ، فليس أمامه سوى طريقين:

أحدهما: طريق العودة و التوبة التى أشارت الآيات السابقة إلى أثرها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۲

غسل الذنوب عن الإنسان.

و الطّريق الثّانى: هو أن يسلك الإنسان سبيل العناد، و قد أشارت الآية الأخيرة إلى الآثار و العواقب السيئة لهذا الطريق، حيث أعلنت أنّ من يواجه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعناد و المخالفة بعد وضوح الحق له، و يسير فى طريق غير طريق المؤمنين فإنّ اللّه سوف لن يهديه إلى غير هذا الطريق، و سيرسله اللّه فى يوم القيامة إلى جهنم، و ما أسوأ هذا المكان الذى ينتظره! فتقول الآية: وَ مَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً.

و يجب الانتباه إلى أنّ عبارة يُشاقِقِ مأخوذة من مادة «شقاق» بمعنى المخالفة الصريحة المقرونة بالحقد و الضغينة و تؤكّد جملة مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى هذا المعنى أيضا، و فى الحقيقة فإنّ من يكون هذا شأنه فلن يلقى مصيرا خيرا ممّا ذكرته الآية له، مصير ينطوى على نهاية مشؤومة له فى هذه الدنيا و عاقبة سيئة أليمة فى الدار الآخرة، فهو فى الدنيا- كما تقول الآية- يستمر منجرفا فى الطريق الأعوج الذى اختاره، فتتوسع بذلك زاوية انحرافه عن جادة الحق و الصواب، و هذا الطريق هو الذى اختاره لنفسه و البناء الذى وضع أساسه بيده، و لهذا لم يكن قد وقع عليهم أى ظلم من الخارج.

و أمّا بالنسبة لقول الآية: نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى فهو إشارة إلى حرمان هؤلاء من التوفيق المعنوى، لتمييز الحقّ، و مواصلتهم السير فى طريق الضلالة، و قد بيّنا تفاصيل هذا الموضوع لدى الحديث عن تفسير الهداية و الضلالة فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

و حين تقول الآية: نُصْلِهِ جَهَنَّمَ فهى تشير إلى مصير هؤلاء يوم القيامة.

و هناك تفسير آخر حول جملة نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى و هو أن هؤلاء و أمثالهم، يوكل أمرهم إلى الآلهة المصطنعة التى انتخبوها لأنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۳

حجية الإجماع:

يعتبر الإجماع أحد الأدلة الفقهية الأربعة، و هو بمعنى اتفاق علماء و مفكرى الإسلام حول مسألة فقهية. و ذكروا فى علم أصول الفقه أدلة مختلفة لإثبات حجية الإجماع، و من ضمنها الآية الأخيرة التى مرّ البحث فى تفسيرها، إذ يعتبرها البعض دليلا على حجية الإجماع

لأنّها تقول أنّ من يختار طريقا غير طريق المؤمنين سيكون له مصير مشؤوم أسود فى الدنيا و الآخرة.

و بناء على هذه الآية، فإنّ أى طريق يختاره المؤمنون- فى أى مسألة كانت- يجب على الجميع السير فى هذا الطريق.

و الحقيقة أنّ هذه الآية لا صلة لها بمسألة حجية الإجماع، لا من قريب و لا من بعيد (و طبيعى إنّنا نقبل حجّية الإجماع الذى يكشف لنا عن قول المعصوم، و لكننا نعتبر حجية السنة و قول المعصوم دليلا لحجية هذا الإجماع، و ليس الآية المذكورة).

و السبب فى عدم قبولنا دلالة هذه الآية على حجية الإجماع، هو أنّها تعين أوّلا: عقوبات للأشخاص الذين يخالفون النّبى صراحة و عن علم و إدراك، و يختارون طريقا غير طريق المؤمنين، فهذان العنصران يشكّلان باتحادهما العلّة لذلك المصير المشؤوم، مع التأكيد بأن هذا المصير إنّما يتحقق لدى اختيار الشخص للعنصرين المذكورين عن علم و دراية. و ليس لهذا الموضوع أية صلة بمسألة حجية الإجماع، و لا يدل بوحده على هذه الحجية.

و الأمر الثّانى: هو أنّ المقصود بعبارة سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ الواردة فى الآية، هو طريق التوحيد و الخضوع للّه وحده، و هو مبدأ الإسلام، و ليس معناه الفتاوى الفقهية أو الأحكام الفرعية، و هذه الحقيقة يثبتها ظاهر الآية بالإضافة إلى ما قيل فى سبب نزولها.

و الحقيقة هى أنّ السير فى طريق غير طريق المؤمنين لا يتجاوز عن كونه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۴

مخالفة للنّبى، و كلا العنصرين يعودان إلى موضوع واحد.

و ينقل أنّه حين كان أمير المؤمنين على عليه السّلام فى الكوفة، جاءه جمع من الناس و طلبوا منه أن يعين لهم إماما لصلاة الجماعة (لكى يصلوا خلفه صلاة التراويح جماعة، حيث كان عمر بن الخطاب فى زمانه قد أمر بأن تصلّى هذه الصّلاة جماعة) و ما كان من الإمام غير أن يمتنع عمّا طلبوا منه، و نهى عن إقامة جماعة كتلك (لأن الجماعة لم تشرع فى النوافل) لكن هذه الجماعة التى سمعت الحكم الصريح الحازم من الإمام على عليه السّلام أصرّت على عنادها، و أخذت بالصراخ و العويل، داعية الناس إلى الإحتجاج على حكم الإمام.

فجاءت جماعة أخرى إلى الإمام على عليه السّلام و أخبرته بما أخذ يفعله أولئك القوم و بعصيانهم لأمره، فطلب أن يتركوا و شأنهم ليختاروا من شاؤوا ليصلّى بهم تلك الجماعة غير الشرعية[۲۲۷] ثمّ تلى الإمام هذه الآية الأخيرة، و فى هذا الخبر دليل آخر على التّفسير الذى تحدثنا عنه بالنسبة لهذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۱۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً (۱۱۶)

التّفسير

الشّرك ذنب لا يغتفر:

تشير هذه الآية مرة أخرى إلى خطورة جريمة الشرك الذى يعتبر ذنبا لا يغتفر و لا يتصور وجود ذنب أعظم منه، و يأتى هذا البحث بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المنافقين و المرتدين الذين ينساقون بعد إسلامهم إلى الكفر.

و لقـد مرّ ما يشابه مضـمون هذه الآية، فى نفس سورة النساء فى الآية (۴۸) و ما إعادة تكرار مثل هـذه المسائل التربويـة إلا دليل على بلاغة القرآن، لأنّ المسائل الأساسية تستلزم التكرار فى فواصل مختلفة بغية ترسيخها فى الأذهان و النفوس.

و الحقيقـة أنّ الذنوب تشـبه سائر الأمراض، فما دام المرض لم يهاجم موقعا مهما فى جسم الإنسان و لم يشل أحد هذه المواقع، كانت القـدرة الدفاعية للجسم تحمل معها الشـفاء و التحسن، و لكن لو هاجم المرض مركزا حساسا فى جسم الإنسان- مثل الدماغ- و أوجد نتيجة لذلك شللا فى الجسم، فإنّ أبواب الأمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۶

بالشفاء و التحسن قد تغلق فى مثل هذه الحالة التى تنذر بقدوم الموت المحتم.

و الشـرك كهذا المرض الأخير يشل مركزا حساسا فى روح الإنسان، و ينشـر الظلمة فى نفسه، و إذا استمر الشرك فلا أمل يرتجى فى نجاة الإنسان، بينما لو بقيت حقيقة التوحيد و عبادة الواحد الأحد التى هى ينبوع كل فضيلة و حركة ...

لو بقيت هـذه الحقيقـة حيـة فلا يعدم الإنسان الآمل فى غفران ذنوبه الأخرى، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

و قد قلنا: بأنّ هذه الآية قد تكررت مرّتين فى هذه السورة، و ما ذلك إلّا لتزيل آثار الشرك و الوثنية- و إلى الأبد- من نفوس أولئك الناس الذين ظل الشرك يعشش فى أعماق نفوسهم لآماد طويلة، و لتظهر آثار التوحيد المعنوية و المادية على وجوه هؤلاء.

و لكن تتمة الآيتين تختلف فى إحداهما عن الأخرى اختلافا طفيفا، حيث تقول الآية الأخيرة: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً بينما الآية السابقة تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً.

و فى الحقيقـة فإنّ الآيـة السابقـة تشـير إلى الفساد العظيم الـذى ينطوى عليه الشـرك فيما يخص الجانب الإلهى، و معرفة اللّه، أمّا الآية الأـخيرة فقـد بيّنت الأضـرار التى يلحقهـا الشـرك بنفس الإنسـان و التى لاـ يمكن تلافيها، فهناك تبحث الآيـة فى الجانب العلمى من القضية، و هنا تتناول الآية الأخيرة الجانب العملى منها و نتائجها الخارجية.

و يتّضـح من هـذا أنّ الآيتين تعتبر إحداهما بالنسـبة للأخرى بمثابة اللازم و الملزوم بحسب الاصـطلاح (و قد اشـتمل الجزء الثّالث من نفس هذا التّفسير على توضيحات أكثر حول هذه الآية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۷

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۱۷ الى ۱۲۱]

اشارة

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً (۱۱۷) لَعَنَهُ اللَّهُ وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (۱۱۸) وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً (۱۱۹) يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲۰) أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً (۱۲۱)

التّفسير

مكائد الشّيطان:

إنّ الآية الأولى- من مجموع الآيات الخمس الأخيرة- تشـرح أوضاع المشركين الذين أشارت إليهم الآية السابقة لهذه الأخيرة، و هذه

الآية إنّما تبيّن سبب ضلال المشركين، فتذكر أنّهم يعانون من ضيق شديد فى أفق تفكيرهم، إذ يتركون عبادة اللّه خالق و منشئ عالم الوجود الوسيع، و يخضعون أمام المخلوقات التى لا تملك أقل أثر إيجابى فى الوجود، بل هى- أحيانا مضللة كالشّيطان: إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِناثاً وَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطاناً مَرِيداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۴۵۸

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۸

و ممّا يلفت النظر أن هذه الآية تحصر أصنام المشركين بنوعين من المخلوقات هما «إناث» و «شيطان مريد».

و كلمة «إناث» مشتقة من المصدر «أنث» على وزن «أدب» و تعنى المخلوق الرقيق اللطيف و المرن، و لهذا السبب فإنّ العرب تقول: «أنث الحديد» إذا لانّ فى النار، و قد سمى جنس المرأة ب «الإناث» لأنّها أكثر رقّة و لطفا و لينا من الرجل.

لكن بعض المفسّرين يرى هنا- أنّ القرآن يشير فى هذه الآية إلى أصنام كانت معروفة لدى قبائل العرب حيث انتخبت كل قبيلة صنما من هذه الأصنام و وضعت له اسما مؤنثا. فالصنم «اللات» سمّى هكذا ليكون مؤنثا لكلمة لفظ الجلالة «اللّه»، أمّا الصنم «عزى» فهو مؤنث كلمة «أعز» و كذلك أصنام أخرى مثل «مناة» و «نائله» و أمثالها.

بينما يرى بعض آخر من كبار المفسّرين أنّ القصد من كلمة «إناث» الواردة فى الآية ليس المعنى المعروف بالمؤنث، بل أنّ القصد منها هو الجذر اللغوى الذى اشتقت منه هذه اللفظة، أى أنّ المشركين يعبدون مخلوقات ضعيفة و مطاوعة بين يدى الإنسان، و أن وجود هذه المخلوقات بكاملها قابل للتأثر و الانحناء أمام الأحداث، و بعبارة أوضح: أنّها موجودات لا تملك الإرادة و الإختيار و لا تنفع و لا تضرّ شيئا أبدا.

أمّا كلمة «مريد» و هى من حيث الجذر اللغوى مأخوذة من مادة «مرد» بمعنى سقوط أوراق و أغصان الشجر، و لهذا سمّى الشاب اليافع الذى لم ينبت الشعر فى وجهه بالأمرد، و على هذا فإنّ الشيطان المريد يعنى ذلك الشيطان الذى سقطت منه جميع صفات الفضيلة، و لم يبق فى وجوده شىء من مصادر القوّة.

أو قد تكون هذه الكلمة مأخوذة من الأصل «مرود» بمعنى الطغيان و الجبروت، أى أن معبود هؤلاء الوثنيين هو شيطان متكبر متجبر.

و الحقيقة أنّ القرآن قسم أصنام هؤلاء المشركين إلى نوعين: بعضها ضعيف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۵۹

الإرادة مطلقا، و البعض الآخر طاغ متكبر متجبر، لكى يبيّن أن الذى يسلم قياده و يخضع لمثل هذه الأصنام إنّما يعيش فى ضلال واضح مبين.

بعد ذلك كله تشير الآية إلى صفات الشيطان و أهدافه و عدائه الخاص لأبناء آدم و تتناول بالشرح بعضا من خططه الدنيئة، و قبل كل شىء تؤكد أن اللّه قد أبعد الشيطان عن رحمته لَعَنَهُ اللَّهُ

و فى الحقيقة فإنّ أساس شقاء و تعاسة الشيطان هو البعد عن رحمة اللّه، التى أصابته بسبب غروره و تكبره المفرطين، و بديهى أنّ من يكون بعيدا عن رحمة اللّه كالشيطان، يكون خاويا من كل خير أو حسن، و لا يمكنه أن يترك خيرا أو حسنا فى حياة غيره، و فاقد الشىء لا يعطيه، فهو لن يكون غير نافع فحسب، بل سيكون ضارا أيضا.

ثمّ تذكر الآية التالية أنّ الشيطان قد أقسم على أن ينفذ بعضا من خططه:

أوّلها: أن يأخذ من عباد اللّه نصيبا معينا، حيث تقول الآية حاكية قول الشيطان: وَ قالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً فالشيطان يعلم بعجزه عن إغواء جميع عباد اللّه، لأنّ من يستسلم لإرادة الشيطان و يخضع له هم فقط أولئك المنجرفون وراء الأهواء و النزوات، و الذين لا إيمان لهم، أو ضعاف الإيمان.

و الثّانية: خطط الشيطان تلخصها الآية بعبارة: وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ

و الثّالثة: اشغلهم بالامنيات العريضة و طول الأمل وَ لَأُمَنِّيَنَّهُمْ ۲۲۸].

أمّا الخطّة الرّابعة: ففيها يدعو الشيطان اتباعه إلى القيام بأعمال خرافية، مثل قطع أو خرق أذان الحيوانات كما جاء فى الآية: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذانَ الْأَنْعامِ و هذه إشارة لواحد من أقبح الأعمال التى كان يرتكبها الجاهليون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۰

المشركون، حيث كانوا يقطعون أو يخرقون أذان بعض المواشى، و كانوا يحرمون على أنفسهم ركوبها بل يحرمون أى نوع من أنواع الانتفاع بهذه الحيوانات.

و خامس: الخطط التى أقسم الشيطان أن ينفذها ضد الإنسان، هى ما ورد على لسانه فى الآية إذ تقول: وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ... و هذه الجملة تشير إلى أنّ اللّه قد أوجد فى فطرة الإنسان منذ خلقة إياه- النزعة إلى التوحيد و عبادة الواحد الأحد، بالإضافة إلى بقية الصفات و الخصال الحميدة الأخرى، و لكن وساوس الشيطان و الانجراف وراء الأهواء و النزوات تبعد الإنسان عن الطريق المستقيم الصحيح، و تحرفه إلى الطرق المعوجة الشاذة.

و الشاهد على و القول أيضا الآية (۳۰) من سورة الرّوم، إذ تقول: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

و نقل عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه فسّره بأنّ القصد من التغيير المذكور فى هذه الآية من سورة النساء هو تغيير فطرة الإنسان و حرفها عن التوحيد و عن أمر اللّه ۲۲۹].

و هذا الضرر الذى لا يمكن التعويض عنه، يلحقه الشيطان بأساس سعادة الإنسان، لأنّه يعكس له الحقائق و الوقائع و يستبدلها بمجموعة من الأوهام و الخرافات و الوساوس التى تؤدى إلى تغيير السعادة بالشقاء للناس، و قد أكّدت الآية فى آخرها مبدأ كليا، و هو أنّ أى إنسان يعبد الشيطان و يجعله لنفسه وليا من دون اللّه، فقد ارتكب إثما و ذنبا واضحا إذ تقول الآية: وَ مَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْراناً مُبِيناً.

و الآية التى تلت هذه الآية جاءت ببعض النقاط بمثابة الدليل على ما جاءت به الآية السابقة حيث ذكرت أنّ الشيطان يستمر فى إعطائه الوعود الكاذبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۱

لأولئك و يمنيهم الأمنيات الطوال العراض، و لكنه لا يفعل شيئا بالنسبة لهؤلاء غير الإغواء و الخداع: يَعِدُهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً[۲۳۰].

و بيّنت آخر آية من الآيات الخمس الأخيرة مصير اتباع الشيطان، بأنّهم ستكون نتيجتهم السكنى فى جهنم التى لا يجدون منها مفرا أبدا، فتقول الآية:

أُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ لا يَجِدُونَ عَنْها مَحِيصاً[۲۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۲]

اشارة

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا

(۱۲۲)

التّفسير

لقد بيّنت الآيات السابقة أنّ الذين يتخذون الشيطان وليا لهم، إنّما ينالهم ضرر واضح و مبين، و أنّ الشيطان يعدهم زيفا و خداعا و يلهيهم بالأمنيات الواهية الخيالية الطويلة العريضة، و إن وعد الشيطان مكر و خداع لا غير.

أمّا فى هذه الآية الأخيرة- التى هى موضوع بحثنا الآن- فقد بيّنت مقابل أولئك فى النهاية أعمال المؤمنين و الثواب الذى سينالونه يوم القيامة، من جنّات و بساتين و أنهار تجرى فيها، حيث تقول الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

و إنّ هذه النعمة العظيمة دائمة أبدا، و ليست كنعم الدنيا الزائلة، فالمؤمنون فى الجنّة يتمتعون بما أوتوه من خير دائما أبدا، تؤكّد هذه بعبارة خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

و إنّ هذا الوعد وعد صادق و ليس كوعود الشيطان الزّائفة، حيث تقول الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۳

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا.

و بديهى أنّ أى فرد لا- يستطيع- أبدا- أن يكون أصدق قولا- من اللّه العزيز القدير فى وعوده و فى كلامه، كما تقول الآية: وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا و طبيعى أنّ عدم الوفاء بالوعد ناتج إمّا عن العجز و إمّا الجهل و الحاجة، و اللّه سبحانه و تعالى منزه عن هذه الصفات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۴

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۴]

اشارة

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا- أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا- يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا- نَصِيراً (۱۲۳) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً (۱۲۴)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان- و تفاسير أخرى- أنّ المسلمين و أهل الكتاب كانوا يتفاخرون بعضهم على بعض، فكان أهل الكتاب يتباهون بكون نبيّهم قد بعث قبل نبىّ الإسلام و إن كتابهم أسبق من كتاب المسلمين، بينما كان المسلمون يفتخرون على أهل الكتاب بأنّ نبيّهم هو خاتم الأنبياء و أن كتابه هو آخر الكتب السماوية و أكملها.

و فى رواية أخرى، نقل أنّ اليهود كانوا يدعون أنّهم هم الشعب المختار، و أنّ نار جهنم لا تمسّهم إلّا لأيّام معدودات، كما ورد فى سورة البقرة- الآية (۸۰) وَ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً ... و أن المسلمين كانوا يقولون، ردّا على كلام اليهود هذا: بأنّهم خير الأمم لأنّ اللّه قال فى شأنهم: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۵

أَخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۲۳۲] و لـذلك نزلت الآيـة الأخيرة هـذه و دحضت كل تلك الدعاوى و حددت قيمة كل شـخص بما يقوم به من أعمال.

التّفسير

امتيازات حقيقية و أخرى زائفة:

لقد بيّنت هذه الآية واحدا من أهم أعمدة أو أركان الإسـلام، هو أنّ القيمة الوجودية لأى إنسان و ما يناله من ثواب أو عقاب، لا تمت بصـلة إلى دعاوى و أمنيات هـذا الإنسان مطلقا، بل أن تلك القيمـة ترتبط بشـكل وثيق بعمل الإنسان و إيمانه و أنّ هـذا مبدأ ثابت، و سنّة غير قابلـة للتغيير، و قانون تتساوى الأمم جميعها أمامه، و لذلك تقول الآية فى بدايتها: لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ ... و تستطرد فتقول: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

و كـذلك الـذين يعلمون الخير، و يتمتعون بالإيمـان، سواء أ كانوا من الرجال أو النساء- فإنّهم يـدخلون الجنّـة و لا يصـيبهم أقل ظلم أبدا، حيث تقول الآية: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً[۲۳۳].

و بهـذه الصورة يعمـد القرآن إلى نبـذ كل العصبيات بكل بساطـة، معتبرا الاعتبارات و الارتباطات المصـطنعة الخياليـة و الاجتماعيـة و العرقية و أمثالها خاوية من كل قيمة إذا قيست برسالة دينية، و يعتبر الإيمان بمبادئ الرسالة و العمل بأحكامها هو الأساس.

و فى تفسير الآية الأولى من الآيتين الأخيرتين حديث نقلته مصادر الشيعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۶

و السـنّة، مفاده أنّ المسـلمين حين نزلت هـذه الآية اسـتولى عليهم الرعب و أخذوا يبكون خوفا، لمعرفتهم بأنّ الإنسان معرض للخطأ و يحتمـل كثيرا صـدور ذنوب منه، فلو فرض عـدم وجود عفو أو غفران و أن يؤاخـذ كـل إنسـان بجريرته، فـإنّ الأـمر سـيكون فى غـاية الصعوبة، لذلك لجؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فذكروا له أن هذه الآية قد أفقدتهم كل أمل، فأقسم النّبى لهم باللّه أنّه ما جاءت به الآية هو الصـحيح، و لكنه بشّـرهم بأنّها سـتكون خير محفز لهم للتقرب إلى اللّه و القيام بالأعمال الصالحة، و إنّ ما سيصيبهم من محن و مصائب و آلام حتى لو كانت من وخز شوكة سيكون كفارة لذنوبهم ۲۳۴].

سؤال:

من الممكن أن يسـتدل البعض من الجملة القرآنية التالية: وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً على أنّ قضية الشفاعة و نظائرها قد ألغيت بهذه الآية بصورة تامّة، فيعتبرونها دليلا لإلغاء الشفاعة بصورة مطلقة.

الجواب:

لقد أشـرنا سابقا إلى أن الشـفاعة لا تعنى أنّ الشفعاء من أمثال الأنبياء و الأئمة و الصالحين لهم جهاز أو تنظيم مستقل يقابل قدرة اللّه، بل الصـحيح هو أنّ الشـفعاء لا يشفعون لأحد إلّا بإذن اللّه، و على هذا الأساس فإنّ مثل هذه الشفاعة ستعود فى النهاية إلى اللّه و تعتبر فرعا من ولاية و نصرة و عون اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۷

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۶]

اشارة

وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا (۱۲۵) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (۱۲۶)

التّفسير

لقد تحدثت الآيات السابقة عن أثر الإيمان و العمل، كما بيّنت أن اتّباع أى مذهب أو شريعة غير شرع اللّه لا يغنى عن الإنسان شيئا، و الآية الحاضرة تداركت كل و هم قد يطرأ على الذهن من سياق الآيات السابقة، فأوضحت أفضلية شريعة الإسلام و تفوقها على سائر الشرائع الموجودة، حيث قالت وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً.

و مع أنّ هذه الآية قد جاءت بصيغة الاستفهام، إلّا أنّها تهدف إلى كسب الاعتراف من السامع بالحقيقة التى أوضحتها.

لقد بيّنت الآية- موضوع البحث- أمورا ثلاثة تكون مقياسا للتفاضل بين الشرائع و بيانا لخيرها:

۱- الاستسلام و الخضوع المطلق للّه العزيز القدير، حيث تقول الآية: أَسْلَمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۸

وَجْهَهُ لِلَّهِ ۲۳۵].

۲- فعل الخير، كما تقول الآية: وَ هُوَ مُحْسِنٌ و المقصود بفعل الخير- هنا- كل خير يفعله الإنسان بقلبه أو لسانه أو عمله، و فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكره صاحب تفسير الثقلين فى تفسيره للآية- هذه- و هو جواب لمن سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحديد معنى الإحسان، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

فالإحسان فى هذه الآية هو كل عمل ينجزه الإنسان و يقصد به التعبد للّه و التقرب إليه، و أن يكون الإنسان لدى إنجازه لهذا العمل قد جعل اللّه نصب عينيه، و كأنّه يراه، فإن كان هو يعجز عن رؤية اللّه فإن اللّه يراه و يشهد على أعماله.

۳- إتّباع شريعة إبراهيم النقية الخالصة، كما فى الآية: وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً[۲۳۶].

و دليل الاعتماد على شريعة إبراهيم ما ذكرته الآية نفسها فى آخرها: إذ تقول: وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا.

ما هو معنى الخليل؟

إنّ كلمة «خليل» قد تكون مشتقة من المصدر «خلّة» على وزن «حجّة» الذى يعنى الصداقة، و قد يكون اشتقاقها من المصدر «خلة» على وزن «ضربة» بمعنى الحاجة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۶۹

و قد اختلف المفسّرون فى أى المعنيين أقرب إلى مفهوم الآية موضوع البحث.

فرأى البعض منهم أنّ المعنى الثّانى أقرب لحقيقة هذه الآية، لأنّ إبراهيم عليه السّلام كان يؤمن بأنّه محتاج إلى اللّه فى كل شؤونه بدون استثناء، و لكن مفسّرين آخرين يرون أنّه ما دامت الآية تتحدث عن منزلة وهبها اللّه لنبيه إبراهيم فالمقصود بكلمة «الخليل»

الواردة هو «الصديق» لأننا لو قلنا أنّ اللّه قد انتخب إبراهيم صديقا له، يكون أقرب كثيرا إلى الذهن من قولنا أن اللّه انتخب إبراهيم ليكون محتاجا إليه. لأنّ الحاجة إلى اللّه لا تقتصر على إبراهيم وحده، بل يشاركه و يساويه فيها جميع المخلوقات، فالكل محتاجون إلى اللّه دون استثناء، و كان تقول الآية (۱۵) من سورة فاطر: يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ و هذا على عكس الصداقة و الخلّة مع اللّه التى لا يتساوى فيها كل المخلوقات.

و فى رواية عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «أنّه (اللّه) إنّما اتّخذ إبراهيم خليلا لطاعته و مسارعته إلى رضاه لا لحاجة منه سبحانه إلى خلته» و تدل هذه الرواية[۲۳۷] أيضا بأن عبارة «خليل» الواردة فى الآية المذكورة إنّما تعنى الصديق و لا تعنى غيره.

و على هذا الأساس لنرى ما الذى امتاز به إبراهيم لينال هذه المنزلة العظيمة من اللّه، لقد ذكرت الروايات الواردة فى هذا المجال عللا مختلفة تكون بمجملها دليلا لهذا الانتخاب، و من هذه الروايات

قول الإمام الصّادق عليه السّلام «إنّما اتّخذ اللّه إبراهيم خليلا لأنّه لم يرد أحدا و لم يسأل أحدا غير اللّه»[۲۳۸].

و تفيد روايات أخرى أن إبراهيم قد حاز هذه الدرجة لكثرة سجوده للّه، و إطعامه للجياع و إقامة صلاة الليل، أو لسعيه فى طريق مرضاة اللّه و طاعته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۰

بعد ذلك تتحدث الآية التالية بملكية اللّه و المطلقة و إحاطته بجميع الأشياء، حيث تقول: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً و هذه إشارة إلى أنّ اللّه حين انتخب إبراهيم خليلا له، ليس من أجل الحاجة إلى إبراهيم فاللّه منزّه عن الاحتياج لأحد، بل أن هذا الإختيار قد تمّ لما لإبراهيم من صفات و خصال و سجايا طيبة بارزة لم توجد فى غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۱

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۷]

اشارة

وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً (۱۲۷)

التّفسير

عود على حقوق المرأة:

تجيب الآية الأخيرة هذه على أسئلة وردت حول النساء من قبل المسلمين (و بالأخص حول اليتامى منهنّ) فتخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن له أنّ اللّه هو الذى يفتى فى الأسئلة التى وجهت إليك يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول الأحكام الخاصّة بحقوق النساء، فتقول: وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ ....

و تضيف الآية إنّ ما ورد فى القرآن الكريم حول الفتيات اليتامى اللواتى كنتم تتصرفون فى أموالهنّ، و لم تكونوا لتتزوجوا بهنّ، و لم تدفعوا أموالهنّ إليهنّ لكى يتزوجن من آخرين، فإنّه يجيب على قسم آخر من اسئلتكم و يبيّن لكم قبح ما كنتم تعلمون من ظلم بحق هؤلاء النسوة، وَ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ فِي يَتامَى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۲

النِّساءِ اللَّاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وَ تَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ...[۲۳۹].

ثمّ توصى الآية الكريمة بالأولاد الذكور الصغار الذين كانوا يحرمون من الإرث وفق التقاليد الجاهلية، فتؤكد ضرورة رعاية حقوقهم، حيث تقول:

وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدانِ

كما تعود الآية فتكرر التأكيد على حقوق اليتامى، فتذكر أن اللّه يوصيكم فى أن تراعوا العدالة فى تعاملكم مع اليتامى: وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بِالْقِسْطِ ....

و فى الختام تجلب الآية الانتباه إلى أن أى عمل خير يصدر منكم و بالأخص إذا كان فى حق اليتامى و المستضعفين- فإنّه لا يخفى على اللّه- و إنّكم ستنالون أجر ذلك فى النهاية، حيث تقول الآية: وَ ما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِهِ عَلِيماً.

هذا و يجب الالتفات إلى أنّ عبارة يَسْتَفْتُونَكَ مشتقة من المصدر «فتوى» أو «فتيا» و معناها الإجابة على كل سؤال معضل، و لما كانت هذه الكلمة تعود فى الأصل إلى كلمة «فتى» أى الشاب اليافع، فمن الممكن أن الفتوى كانت تستخدم للتعبير عن الإجابة على الأسئلة المستحدثة، و بعد ذلك أصبحت تطلق بصورة شاملة على كل أنواع الأجوبة الخاصّة بالمسائل المنتخبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۲۸]

اشارة

وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۲۸)

سبب النّزول

لقد ورد فى الكثير من كتب التّفسير و الحديث، فى سبب نزول هذه الآية، أنّه كان فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شخص يدعى «رافع بن خديج» و كانت له زوجتان، إحداهما كبيرة السن عجوز، و الأخرى شابة، فطلق «رافع» زوجته العجوز (اثر خلافات بينهما) لكنه- قبل أى تنتهى عدّتها- عرض عليها الصلح مشترطا عليها أن لا تضجر إذا قدم عليها زوجته الشابة، أو أن تصبر حتى تنتهى عدتها فيتم الفصل و الفراق بينهما، فقلبت زوجته العجوز الشرط أو الاقتراح الأوّل، فاصطلحا، فنزلت هذه الآية الكريمة مبيّنة حكم هذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۴

التّفسير

الصّلح خير:

لقد قلنا سابقا- فى هامش الآيتين (۳۴ و ۳۵) من نفس سورة النساء- إنّ كلمة «نشوز» مشتقة من المصدر «نشز» بمعنى «الأرض المرتفعة» و حين تستخدم هذه العابرة فى شأن الرجل و المرأة تعنى ذلك «التكبر» و «الطغيان».

و قد بيّنت الآيات السابقة حكم نشوز المرأة، و فى هذه الآية إشارة لنشوز الرجل فالآية تتحدث عن المرأة إذا أحست من زوجها التكبر و الإعراض عنها، و تبيّن أن لا مانع من أن تتنازل عن بعض حقوقها، و تتصالح مع زوجها، من أجل حماية العلاقة الزوجية من التصدع، فتقول: وَ إِنِ امْرَأَةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِها نُشُوزاً أَوْ إِعْراضاً فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يُصْلِحا بَيْنَهُما صُلْحاً.

و لمّا كانت المرأة تتنازل عن بعض حقوقها طوعا و عن طيب خاطر و من غير إكراه فلا ذنب فى هذا العمل، حيث عبّرت الآية عن ذلك بعبارة «فلا جناح» أى لا ذنب، للدلالة على الحقيقة المذكورة.

و عند النظر إلى سبب نزول الآية، نستخلص منها مسألتين فقهيتين:

الأولى: إنّ حكما مثل تقسيم أيّام الأسبوع بين الزوجات، له طابع الحق أكثر من طابع الحكم، و لذلك فبإمكان المرأة التخلى عن هذا الحق بشكل تام إذا شاءت أو بصورة جزئية.

و المسألة الثّانية: إنّ التراضى و التصالح لا يشترط أن يكون بالمال، بل يصح أن يكون بالتنازل عن حق من الحقوق.

بعد ذلك تؤكد الآية على أنّ الصلح خير و أحسن، حيث تقول: وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ و هذه الجملة الصغيرة مع أنّها جاءت فى مجال الخلافات العائلية، لكنها تبيّن قانونا كليا عاما شاملا، و تؤكد أنّ الصلح هو المبدأ الأوّل فى كل المجالات، و أنّ الخلاف و النزاع و الصراع و الفراق ليس له وجود فى الطبع و الفطرة الإنسانية السليمة، و لذلك فلا تسوغ هذه الفطرة التوسل بالنزاع و ما يجرى مجراه إلّا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۵

الحالات الاستثنائية الطارئة.

و هذا الأمر على عكس ما يصوّره الماديون من أنّ الصراع من أجل البقاء هو الأصل فى حياة الموجودات الحيّة، و يزعمون أن التكامل يحصل من خلال هذا الصراع.

و قد كان هذا النوع من التفكير سببا فى بروز الكثير من النزاعات الدّموية و الحروب فى القرون الأخيرة، لكن الإنسان لا يقاس بالحيوانات الأخرى المفترسة بسبب ما يملكه من عقل و إحساس، و إنّ تكامله يتمّ فى ظل التعاون و ليس فى ظل النزاع، و من حيث المبدأ فإن الصراع من أجل البقاء حتى فى الحيوانات لا يعتبر مبدأ مقبولا للتكامل ۲۴۰].

و تشير الآية بعد ذلك مباشرة إلى أنّ الإنسان بسبب غريزة حبّ الذات التى يمتلكها تحيط به أمواج البخل، بحيث أنّ كل إنسان يسعى إلى نيل حقوقه دون التنازل عن أقل شىء منها، و هذا هو سبب و منبع النزاع و الصراع، تقول الآية:

وَ أُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَ

و لذلك فلو أحسّ كلّ من الزوجين بأنّ البخل هو منبع الكثير من الخلاف و أدركوا حقيقة البخل و أنّه من الصفات القبيحة، وسعوا لإصلاح ذات بينهم و أبدوا العفو و الصفح، فسوف لا يؤدى هذا إلى زوال الخلاف و النزاع العائلى فحسب، بل سيؤدى أيضا إلى إنهاء الكثير من الصراعات الاجتماعية.

و لكى لا يسىء الرجال استغلال هذا الحكم الوارد فى الآية، وجه الخطاب إليهم فى نهايتها و دعوا إلى فعل الخير و التزام التقوى، و نبهوا إلى أنّ اللّه يراقب أعمالهم دائما فليحذروا الانحراف عن جادة الحق و الصواب، تقول الآية فى هذا المجال: وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۶

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۲۹ الى ۱۳۰]

اشارة

وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۱۲۹) وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً (۱۳۰)

التّفسير

العدالة شرط فی تعدد الزّوجات:

نستنتج من الجملة التی وردت فی نهایة الآیة السابقة- التی تمّ البحث عنها و التی دعت الرجال إلی فعل الخیر و التزام التقوی- إنّها تعتبر نوعا من التهدید للأزواج من الرجال، بأن یراقبوا حالهم و لا ینحرفوا قید شعرة عن جادة الحق و العدالة لدی التعامل مع زوجاتهم.

و قد یرد اعتراض و هو: إنّ تحقیق العدالة فی مجال الحبّ و العلاقات القلبیة أمر بعید المنال، فکیف یمکن إذن و الحالة هذه اتباع العدل مع الزوجات؟

و ردا علی الاعتراض المذکور توضح الآیة (۱۲۹) من سورة النساء، بأنّ تحقیق العدالة فی مجال الحبّ بین الزوجات أمر غیر ممکن، مهما بذل الإنسان من سعی فی هذا المجال فتقول الآیة: وَ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَ لَوْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۷

حَرَصْتُمْ و یتبیّن من عبارة وَ لَوْ حَرَصْتُمْ هذه وجود أشخاص بین المسلمین کانوا یسعون کثیرا لتحقیق تلک العدالة المطلوبة، و لعل سعیهم ذلک کان من أجل الحکم المطلق الذی طالب المسلمین باتّباع العدل من زوجاتهم و الذی ورد فی الآیة الثّالثة من سورة النساء، التی تقول: ... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَواحِدَةً.

بدیهی أنّ أی حکم سماوی لا یمکن أن ینزل علی خلاف فطرة البشر، کما لا یمکن أن یکون تکلیفا بما لا یطاق، و لمّا کانت العلاقات القلبیة تنتج عن عوامل یکون بعضها خارجا عن إرادة الإنسان، لم یحکم اللّه بتحقیق العدالة فی مجال الحبّ القلبی بین الزوجات، أمّا فیما یخص الأعمال و أسلوب التعامل و رعایة الحقوق بین الأزواج ممّا یمکن للإنسان تحقیقه، فقد تمّ التأکید علی تحقیق العدالة فیه.

و لکی لا یسیء الرجال استغلال هذا الحکم، طالبت الآیة الرجال بأن لا یظهروا المیل الکامل لإحدی الزوجات إذا تعسر علیهم تحقیق المساواة فی حبّهم لهنّ جمیعا، کی لا یضیع حق الأخریات و لا یحرن فی أمرهنّ ما ذا یفعلن! حیث تقول الآیة: فَلا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالْمُعَلَّقَةِ ....

و تحذر الآیة فی آخرها أولئک الذین یجحفون فی حقّ زوجاتهم، و تطالبهم بأن یتبعوا طریق الإصلاح و التقوی، و یعرضوا عمّا فات فی الماضی، کی یشملهم اللّه برحمته و عفوه، فتقول الآیة: وَ إِنْ تُصْلِحُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ....

لقد وردت روایات اشتملت علی مواضیع تخص مسألة تحقیق العدالة بین الزّوجات، و تبیّن عظمة هذا الحکم و القانون الإسلامی.

من هذه الروایات ما

روی عن علی بن أبی طالب أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه کان له امرأتان، فکان إذا کان یوم واحدة لا یتوضأ فی بیت الاخری»[۲۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۸

و

روی عن جعفر بن محمّد عن أبیه عن ءابائه علیهم السّلام «أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یقسم بین نسائه فی مرضه،

فيطاف به بينهن».[۲۴۲]

و كـان معـاذ بن جبـل له امرأتـان ماتتـا فى الطاعون أقرع بينهما أيّهما تـدفن قبل الاخرى؟[۲۴۳] أى أيّهما يقـدم أوّلا فى الـدفن لكى يتجنب ما من شأنه أن يخدش العدل المفروض اتباعه بين الزوجات.

جواب على سؤال ضرورى:

كنّا قد نوّهنا- فى هامش الآية (۳) من نفس هذه السورة- بأنّ بعضا ممن ليس لهم علم استنتجوا- من ضم تلك الآية إلى هذه الآية- أن تعدد الزوجات مشروط بتحقيق العدالة بينهنّ، و أنّه لمّا كان تحقيق العدالة أمرا غير ممكن، فلذلك قالوا بأنّ الإسلام قد منع تعدد الزوجات.

و يفهم من الروايات الإسلامية أنّ أوّل من طرح هذا الرأى هو «ابن أبى العوجاء» و كان من أصحاب المذهب المادى، و من المعاصرين للإمام الصّادق عليه السّلام، و جاء طرحه لرأيه هذا فى نقاش له مع المفكر الإسلامى المجاهد «هشام بن الحكم» فلما أعيى «هشاما» الجواب توجه من بلدته الكوفة إلى المدينة المنورة «لمعرفة الجواب» فقدم على الإمام الصّادق عليه السّلام فتعجب الإمام من مقدمه قبل حلول موسم الحج أم العمرة، و لكن هشاما أخبر الإمام بسؤال ابن أبى العوجاء، فكان جواب الإمام الصّادق عليه السّلام على السؤال هو أنّ المقصود بالعدالة الواردة فى الآية الثّالثة من سورة النساء، هى العدالة فى النفقة (و ضرورة رعاية الحقوق الزوجية و أسلوب التعامل مع الزوجة) أمّا العدالة الواردة فى الآية (۱۲۹) من نفس السورة (و التى اعتبر تحقيقها أمرا مستحيلا) فالمقصود بها العدالة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۷۹

الميول القلبية، (و على هذا الأساس فإن تعدد الزوجات ليس ممنوعا و لا مستحيلا إذا روعيت فيه الشروط الإسلامية)، فلما رجع هشام بالجواب إلى ابن أبى العوجاء حلف هذا الأخير أن هذا الجواب ليس من عندك.

و معلوم أنّ تفسيرنا لكلمتى العدالة- الواردتين فى الآية الثّالثة و الآية (۱۲۹) من سورة النساء- بمعنين يختلف أحدهما عن الآخر، إنّما هو للقرينة الواضحة الواردة مع كل من الآيتين المذكورتين، لأنّ الآية الأخيرة تأمر الإنسان أن لا يميل ميلا شديدا لإحدى زوجاته و يترك الأخريات فى الحيرة من شأنهنّ، و لهذا فهى تدل على جواز تعدد الزوجات مع اشتراط أن لا يحصل إجحاف بحق إحداهنّ لحساب الأخرى، مع الإذعان باستحالة تحقق المساواة فى الحب القلبى لكلا الزوجتين، أمّا فى الآية الثّالثة من سورة النساء فقد ورد التصريح فى أوّلها بجواز تعدد الزوجات.

أمّا الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهى تشير إلى هذه الحقيقة، و هى أنّه لو استحال مواصلة الحياة الزوجية للطرفين- الزوج و الزوجة- و استحال الإصلاح بينهما، فإنّهما- و الحالة هذه- غير مرغمين على الاستمرار فى مثل هذه الحياة المرّة الكريهة، بل يستطيعان أن ينفصلا عن بعضهما و عليهما اتخاذ موقف شجاع و حاسم فى هذا المجال دون خوف أو رهبة من المستقبل، لأنّهما لو انفصلا فى مثل تلك الحالة فإن اللّه العليم الحكيم سيغنيهما من فضله و رحمته، فلا يعدمان الأمل فى حياة مستقبلية أفضل، فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال:

وَ إِنْ يَتَفَرَّقا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَ كانَ اللَّهُ واسِعاً حَكِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۰

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۴]

اشارة

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً (۱۳۱) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۳۲) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً (۱۳۳) مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۱۳۴)

التّفسير

لقد أوضحت الآية السابقة أن إذا اقتضت الضرورة لزوجين أن ينفصلا عن بعضهما دون أن يجدا حلا بديلا عن الانفصال فلا مانع من ذلك، و ليس عليهما أن يخافا من حياة المستقبل، لأن اللّه سيشملهما بكرمه و فضله، و يزيل احتياجاتهما برحمته و بركته.

أمّا فى الآية- موضوع البحث- فإنّ اللّه يؤكّد قدرته على إزالة و رفع تلك الاحتياجات، لأنّه مالك ما فى السموات و ما فى الأرض وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و إنّ من يملك ملكا لا نهاية له كهذا الملك، و يملك قدرة لا نفاذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۱

لها أبدا، لن يكون عاجزا- مطلقا- عن رفع احتياجات خلقه و عباده.

و لكى تؤكّد الآية ضرورة التقوى فى هذا المجال و فى أى مجال آخر، تشير الآية إلى أنّ اليهود و النصارى و كل من كان له كتاب سماوى قبل المسلمين قد طلب منهم جميعا كما طلب منكم مراعاة التقوى وَ لَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ إِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ....

بعد ذلك تتوجه الآية إلى مخاطبة المسلمين، فتؤكد لهم أن الالتزام بحكم التقوى سيجلب النفع لهم، و أن ليس للّه بتقواهم حاجة، كما تؤكد أنّهم إذا عصوا و بغوا، فإنّ ذلك لا يضرّ اللّه أبدا، لأنّ اللّه هو مالك ما فى السّموات و ما فى الأرض، فهو غير محتاج إلى أحد أبدا، و من حقّه أن يشكره عباده دائما و أبدا، وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً.

الغنى و عدم الحاجة هما من صفات اللّه سبحانه و تعالى- حقيقة- لأنّه عزّ و جلّ غنى بالذات، و ارتفاع حاجات غيره و زوالها إنّما يتمّ بعونه و مدده، و كل المخلوقات محتاجة إليه احتياجا ذاتيا، لذلك فهو يستحق- لذاته- أن يشكره عباده و مخلوقاته، كما أنّ كمالاته التى تجعله أهلا للشكر ليست خارجة عن ذاته، بل هى كلّها فى ذاته، و هو ليس كالمخلوقات التى تمتلك صفاتا كمالية عرضية خارجية مكتسبة من الغير.

و فى الآية التالية جرى التأكيد- و للمرة الثّالثة- على أنّ كل ما فى السموات و ما فى الأرض هو ملك للّه، و إنّ اللّه هو الحافظ و المدبر و المدير لكل الموجودات وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

و قد يرد سؤال- هنا- عن سبب تكرار موضوع واحد لثلاث مرات و فى فواصل متقاربة جدّا، و هل أن هذا التكرار من أجل التأكيد على الأمر الوارد فى هذا الموضوع، أم هناك سرّ آخر؟

و بالإمعان فى مضمون الآيات يظهر لنا أن الموضوع المتكرر ينطوى فى كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۲

مرّة على أمر خاص:

ففى المرّة الأولى حيث تحمل الآية وعدا لزوجين بأنّهما إذا انفصلا فإن اللّه سيغنيهما و لأجل إثبات قدرة اللّه على ذلك، يذكر اللّه ملكيته لما فى السموات و ما فى الأرض.

أمّا فى المرّة الثّانيـة فإنّ الآيـة توصـى بالتقوى، و لكى لا يحصل و هم بأن إطاعة هذا الأمر ينطوى على نفع أو فائدة للّه، أو أن مخالفته ينطوى على الضرر له، فقد تكررت الجملة للتأكيد على عدم حاجة اللّه لشىء، و هو مالك ما فى السموات و ما فى الأرض.

و هذا الكلام يشبه فى الحقيقة ما قاله أمير المؤمنين على عليه السّلام فى مستهل خطبة الهمّام الواردة

فى كتاب نهج البلاغة حيث قال عليه السّلام: «بأنّ اللّه سبحانه و تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيّا عن طاعتهم آمنا عن معصيتهم لأنه لا تضرّه معصية من عصاه و لا تنفعه طاعة من أطاعه»[۲۴۴].

و يذكر اللّه ملكيته لما فى السموات و ما فى الأرض للمرّة الثّالثة كمقدمة للموضوع الذى يلى فى الآية (۱۳۳)، ثمّ يبيّن- عز من قائل- أنّه لا يأبه فى أن يزيل قوما عن الوجود، ليأتى مكانهم بقوم آخرين أكثر استعدادا و عزما و أكثر دأبا فى طاعة اللّه و عبادته، و اللّه قادر على هذا الأمر إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَ يَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى ذلِكَ قَدِيراً.

و فى تفسير «التبيان» و تفسير «مجمع البيان» نقلا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه حين نزلت هذه الآية ربت على كتف سلمان الفارسى و قال بأن المعنى بالآخرين فى الآية هم قوم من العجم من بلاد فارس.

و هذا الكلام- فى الحقيقة- تنبؤ بالخدمات الكبيرة التى قدمها المسلمون الإيرانيون إلى الإسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۳

و الآية الأخيرة من الآيات الأربع الماضية، ورد الحديث فيها عن أناس يزعمون أنّهم مسلمون، و يشاركون فى ميادين الجهاد، و يطبقون أحكام الإسلام، دون أن يكون لهم هدف إلهى، بل يهدفون لنيل مكاسب مادية مثل غنائم الحرب فتنبه الآية إلى أنّ الذين يطلبون الأجر الدنيوى يتوهمون فى طلبهم هذا، لأنّ اللّه عنده ثواب الدنيا و الآخرة معا مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ.

فلما ذا لا يطلب- و لا يرجوا- هؤلاء، الثوابين معا؟! و اللّه يعلم بنوايا الجميع، و يسمع كل صوت، و يرى كل مشهد، و يعرف أعمال المنافقين و أشباههم، وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

و تكرر هذه الآية الأخيرة حقيقة أنّ الإسلام لا ينظر فقط إلى الجوانب المعنوية و الأخروية، بل أن ينشد لأتباعه السعادتين المادية و المعنوية معا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۳۵]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا وَ إِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۳۵)

التّفسير

العدالة الاجتماعية:

على غرار الأحكام التى وردت فى الآيات السابقة حول تطبيق العدالة مع الأيتام و الزوجات تذكر الآية الأخيرة- موضوع البحث- مبدأ أساسيا و قانونا كليا فى مجال تطبيق العدالة فى جميع الشؤون و الموارد بدون استثناء، و تأمر جميع المؤمنين بإقامة العدالة يا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ....

و يجب الانتباه إلى أنّ كلمة «قوامين» هى جمع لكلمة «قوّام» و هى صيغة مبالغة من «قائم» و تعنى «كثير القيام» أى أن على المؤمنين أن يقوموا بالعدل فى كل الأحوال و الأعمال و فى كل العصور و الدهور، لكى يصبح العدل جزءا من طبعهم و أخلاقهم، و يصبح الانحراف عن العدل مخالفا و مناقضا لطبعهم و روحهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۵

و الإتيان بكلمة «القيام» فى هذا المكان، يحتمل أن يكون بسبب أنّ الإنسان حين يريد القيام بأى عمل، يجب عليه أن يقوم على رجليه بصورة عامّة و يتابع ذلك العمل، و على هذا الأساس فإن التعبير هنا بالقيام كناية عن العزم و الإرادة الرّاسخة و الإجراء لإنجاز العمل، حتى لو كان هذا العمل من باب حكم القاضى الذى لا يحتاج إلى القيام لدى ممارسة عمله.

و يمكن أن يكون التعبير بالقيام جاء لسبب آخر، و هو أنّ كلمة «القائم» تطلق عادة على شىء يقف بصورة عمودية على الأرض دون أن يكون فيه انحراف إلى اليمين أو الشمال، و على هذا فإن المعنى المراد منه فى الآية يكون تأكيدا لضرورة تحقيق العدالة دون أقل انحراف إلى أى جهة كانت.

و لتأكيد الموضوع جاءت الآية بكلمة «الشهادة» فشددت على ضرورة التخلى عن كل الملاحظات و المجاملات أثناء أداء الشهادة، و أن يكون هدف الشهادة بالحق هو كسب مرضاة اللّه فقط، حتى لو أصبحت النتيجة فى ضرر الشاهد أو أبيه أو أمه أو أقاربه شُهَداءَ لِلَّهِ وَ لَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ ....

و قد شاع هذا الأمر فى كل المجتمعات، و بالأخص المجتمعات الجاهلية، حيث كانت الشهادة تقاس بمقدار الحبّ و الكراهية و نوع القرابة بين الأشخاص و الشاهد، دون أن يكون للحق و العدل أثر فيما يفعلون.

و قد نقل عن ابن عباس حديث يفيد أنّ المسلمين الجدد كانوا بعد وصولهم إلى المدينة يتجنبون الإدلاء بالشهادة لاعتبارات القرابة و النسب، إذا كانت الشهادة تؤدى إلى الإضرار بمصالح اقربائهم، فنزلت الآية المذكورة محذرة لمثل هؤلاء[۲۴۵].

و لكن- و كما تشير الآية الكريمة- فإنّ هذا العمل لا يتناسب و روح الإيمان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۶

لأنّ المؤمن الحقيقى هو ذلك الشخص الذى لا يعير اهتماما للاعتبارات فى مجال الحق و العدل، و يتغاضى عن مصلحته و مصلحة أقاربه من أجل تطبيق الحق و العدل.

و تفيد هذه الآية أنّ للأقارب الحق فى الإدلاء بالشهادة لصالح- أو ضد- بعضهما البعض، شرط الحفاظ على مبدأ العدالة (إلّا إذا كانت القرائن تشير إلى وجود انحياز أو تعصب فى الموضوع).

و تشير الآية بعد ذلك عوامل الانحراف عن مبدأ العدالة، فتبيّن أنّ ثروة الأغنياء يجب أن لا تحول دون الإدلاء بالشهادة العادلة، كما أنّ العواطف و المشاعر التى تتحرك لدى الإنسان من أجل الفقراء، يجب أن تكون سببا فى الامتناع عن الأدلاء بالشهادة العادلة حتى و لو كانت نتيجتها لغير صالح الفقراء، لأنّ اللّه أعلم من غيره بحال هؤلاء الذين تكون نتيجة الشهادة العادلة ضدهم، فلا يستطيع صاحب الجاه و السلطان أن يضرّ بشاهد عادل يتمتع بحماية اللّه، و لا الفقير سيبيت جوعانا بسبب تحقيق العدالة، تقول الآية فى هذا المجال: إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلى بِهِما.

و للتأكيد أكثر تحكم الآية بتجنّب اتّباع الهوى، لكى لا يبقى مانع أمام سير العدالة و تحقيقها إذ تقول الآية: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا[۲۴۶].

و يتّضح من هذه الجملة- بجلاء- أن مصدر الظلم و الجور كلّه، هو اتّباع الهوى، فالمجتمع الذى لا تسوده الأهواء يكون بمأمن من الظلم و الجور.

و لأهمیـة موضوع تحقیق العدالة، یؤکّد القرآن هذا الحکم مرّة أخری، فیبیّن أنّ اللّه ناظر و عالم بأعمال العباد- فهو یشـهد و یری کل من یحاول منع صاحب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۷

الحق عن حقّه، أو تحریـف الحق، أو الاـعراض عن الحق بعـد وضوحه، فتقول الآیـة: وَ إِنْ تَلْوُوا[۲۴۷] أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ کـانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیراً.

و جملـة إِنْ تَلْوُوا تشـیر- فی الواقع- إلی تحریف الحق و تغییره، بینما تشـیر جملـة «تعرضوا» إلی الامتناع عن الحکم بالحق، و هـذا هو ذات الشیء المنقول عن الإمام الباقر علیه السّلام ۲۴۸].

و الطریف أن الآیـة اختتمت بکلمـة خَبِیراً و لم تختتم بکلمـة «علیمـا» لأـنّ کلمـة «خبیر» تطلق بحسب العادة علی من یکون مطلعا علی جزئیات و دقائق موضوع معین، و فی هذا دلالة علی أن اللّه یعلم حتی أدنی انحراف یقوم به الإنسان عن مسیر الحق و العدل بأی عذر أو وسیلة کان، و هو یعلم کل موطن یتعمد فیه إظهار الباطل حقا، و یجازی علی هذا العمل.

و تثبت الآیـة اهتمام الإسـلام المفرط بقضـیة العدالـة الاجتماعیـة، و إن مواطن التأکیـد المتکررة فی هذه الآیة تبیّن مدی هذا الاهتمام الذی یولیه الإسـلام لمثل هذه القضیة الإنسانیة الاجتماعیة الحساسة، و ممّا یؤسف له کثیرا أن نری الفارق الکبیر بین عمل المسلمین و هذا الحکم الإسلامی السامی، و إن هذا هو سرّ تخلف المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۸

الآیة [سورة النساء (۴): آیة ۱۳۶]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ وَ الْکِتابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ یَکْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِکَتِهِ وَ کُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِیداً (۱۳۶)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ هذه الآیة نزلت فی شأن جمع من کبار شخصـیات أهل الکتاب- مثل عبد اللّه بن سـلام و أسد بن کعب و أخیه أسـید بن کعب و نفر آخر من هؤلاء- و السـبب هو أنّهم قدموا منذ البدایة علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا له: إنّهم قد آمنوا به و بکتابه السـماوی و بموسـی و التوراة و العزیز، و لم یؤمنوا ببقیـة الأنبیاء، فنزلت هـذه الآیة و أعلمتهم ضـرورة الإیمان بجمیع الأنبیاء و الکتب السماویة[۲۴۹].

التّفسیر

یتبیّن من سبب النّزول أنّ الکلام فی الآیة موجه إلی جمع من مؤمنی أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۸۹

الکتاب الـذین قبلوا الإسـلام، و لکنهم لعصبیات خاصّـة أبوا أن یؤمنوا بما جاء قبل الإسـلام من أنبیاء و کتب سـماویة غیر الدین الذی کانوا علیه، فجاءت الآیة توصـیهم بضرورة الإیمان و الإقرار و الاعتراف بجمیع الأنبیاء و المرسلین و الکتب السماویة، لأنّ هؤلاء جمیعا

يسيرون نحو هدف واحد، و هم مبعوثون من مبدأ واحد (علما بأن لكل واحد منهم مرتبة خاصّة به، فكل واحد منهم جاء ليكمل ما أتى به النّبى أو الرّسول الذى سبقه من شريعة و دين).

و لذلك فلا معنى لقبول البعض و إنكار البعض الآخر من هؤلاء الأنبياء و الرسل، فالحقيقة الواحدة لا يمكن التفريق بين أجزائها، و أنّ العصبيات ليس بإمكانها الوقوف أمام الحقائق، لذلك تقول الآية الكريمة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلى رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ....

و بعض النظر عن سبب النّزول المذكور، فإنّنا لدى تفسيرنا لهذه الآية نحتمل أن يكون الخطاب موجها فيها لعامّة المؤمنين، أولئك الذين اعتنقوا الإسلام إلّا أنّه لم يتغلغل بعد فى أعماق قلوبهم، و لهذا السبب يطلب منهم أن يكونوا مؤمنين من أعماقهم.

كما يوجد احتمال آخر، و هو أنّ الكلام فى هذه الآية موجه لجميع المؤمنين الذين آمنوا بصورة إجمالية باللّه و الأنبياء، إلّا أنّهم ما زالوا لم يتعرفوا على جزئيات و تفاصيل العقائد الإسلامية.

و من هذا المنطلق يبيّن القرآن أنّ المؤمنين الحقيقيين يجب أن يعتقدوا بجميع الأنبياء و الكتب السماوية السابقة و ملائكة اللّه، لأن عدم الإيمان بالمذكورين يعطى مفهوم إنكار حكمة اللّه، فهل يمكن أن يترك اللّه الحكيم الملل السابقة بدون قائد أو زعيم يرشدهم فى حياتهم؟! و هل أنّ الملائكة المعنيين بالآية هم ملائكة الوحى- فقط- الذين يعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۰

الإيمان بهم جزءا لا يتجزأ من الإيمان الضرورى بالأنبياء و الكتب السماوية، أو أنّهم جميع الملائكة؟ فكما أن بعض الملائكة مكلّفون بأمر الوحى و التشريع، يلتزم جمع آخر منهم بتدبير و إرادة عالم الكون و الخليقة؛ و إن الإيمان بهم فى الحقيقة جزء من الإيمان باللّه سبحانه و تعالى و قد بيّنت الآية- فى آخرها- مصير الذين يجهلون هذه الحقائق، حيث قالت: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً.

و فى هذه الآية اعتبر الإيمان واجبا و ضروريا بخمسة مبادئ، فبالإضافة إلى ضرورة الإيمان بالمبدأ و المعاد، فإن الإيمان لازم و ضرورى بالنسبة إلى الكتب السماوية و الأنبياء و الملائكة.

إنّ عبارة «ضلال بعيد» عبارة دقيقة، و تعنى أنّ الذين لا يؤمنون بالمبادئ الخمسة المارة الذكر، قد انجرفوا خارج الصراط أو الطريق المبدئى، و أن عودتهم إلى هذا الطريق لا تتحقق بسهولة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۱

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۳۷ الى ۱۳۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (۱۳۷) بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۳۸) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً (۱۳۹)

التّفسير

مصير المنافقين المعاندين:

تماشيا مع البحث الذى ورد فى الآية السابقة و الذى تناول وضع الكفار و ضلالهم البعيد، تشير هذه الآيات الأخيرة إلى وضع مجموعة

من الكفار الـذين يتلوّنون فى كل يوم تلون الحرباء، فهم فى يوم إلى جانب المؤمنين، و فى يوم آخر إلى جانب الكفار، ثمّ إلى جانب المؤمنين، و فى النهايـة إلى جانب الكفار المعاندين، حتى يموتوا على هذه الحالة! فالآية الأولى من الآيات الثلاثة الأخيرة تتحدث عن مصير أفراد كهؤلاء، فتؤكـد بأنّ اللّه لن يغفر لهم أبدا، و لن يرشدهم إلى طريق الصواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۲

إنّ هـذا السـلوك الحربائى فى التلون المتوالى، إمّا أن يكون نابعا من الجهل و عـدم إدراك الأسـس الإسـلامية، و إمّا أن يكون خطّة نفّذها المنافقون و الكفار المتطرفون من أهل الكتاب لزعزعة إيمان المسـلمين الحقيقيين، و قد سبق شرح هذا الموضوع فى الآية (۷۲) من سورة آل عمران.

و لاـ تـدل الآيـة- موضوع البحث- على عـدم قبول توبـة أمثال هؤلاء، و لكنها تتناول أفرادا يموتون و هم فى كفر شديـد، فإنّ هؤلاء- نتيجة لأعمالهم- لا يستحقون العفو و الهداية إلّا إذا غيروا اسلوبهم ذلك.

ثمّ تؤكّد الآية التالية نوع العذاب الذى يستحقه هؤلاء فتقول: بَشِّرِ الْمُنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

و اسـتخدام عبارة (بشـر) فى الآيـة إنّما جاء من باب التهكم و الاسـتهزاء بالأفكار الخاويـة الواهيـة التى يحملها هؤلاء المنافقون، أو أنّ العبارة مشـتقة من المصـدر «بشـر» بمعنى الوجه، و فى هذه الحالة تحتمل معانى واسـعة فتشـمل كل خبر يؤثر فى سـحنة الإنسان، سواء كان الخبر مفرحا أو محزنا.

و قد أشارت الآية الأخيرة إلى المنافقين بأنّهم يتخذون الكفار أصدقاء و أحباء لهم بدلا من المؤمنين، بقولها: الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

ثمّ يأتى التساؤل فى الآية عن هدف هؤلاء المنافقين من صحبة الكافرين، و هل أنّهم يريدون حقّا أن يكتسبوا الشرف و الفخر عبر هذه الصحبة؟ تقول الآية:

أَ يَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ بينما العزة و الشـرف كلها للّه فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً لأنّها تنبع من العلم و القدرة، و أن الكفار لا يمتلكون من القوّة و العلم شيئا، و لذلك فإنّ علمهم لا شىء أيضا، و لا يستطيعون إنجاز شىء لكى يصبحوا مصدرا للعزّة و الشرف.

إنّ هذه الآية- فى الحقيقة- تحذير للمسلمين بأن لا يلتمسوا الفخر و العزّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۳

فى شؤونهم الاقتصادية و السياسـية و الاجتماعية و الثقافية عن طريق إنشاء علاقات الود و الصداقة مع أعداء الإسـلام، بل إنّ عليهم أن يعتمدوا فى ذلك على الذات الإلهية الطاهرة التى هى مصدر للعزة و الشـرف كله، و أعداء الإسلام لا عزّة لديهم لكى يهبوها لأحد، و حتى لو امتلكوهـا لمـا أمكن الركون إليهم و الاعتمـاد عليهم، لأـنّهم متى مـا اقتضت مصـالحهم الشخصـية تخلوا عن أقرب حلفائهم و ركضوا وراء مصـالحهم، و كـأنّهم لم يكونوا ليعرفوا هؤلاـء الحلفـاء مسـبقا، و التاريـخ المعاصـر خير دليـل على هـذا السـلوك النفعى الانتهازى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۴

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۰]

اشارة

وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَـمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْـتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً

مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (۱۴۰)

سبب النّزول

نقل عن ابن عباس أنّ نفرا من المنافقين كانوا يحضرون اجتماعات لعلماء اليهود، حيث كانوا يستهزئون بآيات القرآن فى تلك الاجتماعات، فنزلت هذه الآية و أوضحت النهاية المشؤومة لهذه اللقاءات.

التّفسير

النّهى عن المشاركة فى مجالس يعصى اللّه فيها:

لقد ورد فى الآية (۶۸) من سورة الانعام أمر صريح إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أن يعرض عن أناس يستهزئون بآيات القرآن و يتكلمون بما لا يليق، و طبيعى أنّ هذا الحكم لا ينحصر بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، وحده بل يعتبر حكما و أمرا عاما يجب على جميع المسلمين اتّباعه، و قد جاء هذا الحكم على شكل خطاب موجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۵

و فلسفته جلية واضحة، لأنّه يكون بمثابة كفاح سلبى ضد مثل تلك الأعمال.

و الآية هذه تكرر الحكم المذكور مرّة أخرى، و تحذر المسلمين مذكرة إياهم بحكم سابق فى القرآن نهى فيه المسلمون عن المشاركة فى مجالس يستهزأ فيها و يكفر بالقرآن الكريم، حتى يكفّ أهل هذه المجالس عن الاستهزاء و يدخلوا فى حديث آخر، تقول الآية: وَ قَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتابِ أَنْ إِذا سَمِعْتُمْ آياتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِها وَ يُسْتَهْزَأُ بِها فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

بعد ذلك تبيّن الآية لنا نتيجة هذا العمل، و تؤكد أن من يشارك فى مجالس الاستهزاء بالقرآن فهو مثل بقية المشاركين و سيكون مصيره نفس مصير أولئك المستهزئين، تقول الآية: إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ

ثمّ تكرر الآية التأكيد على أنّ المشاركة فى المجالس المذكورة تدل على الروحية النفاقية التى يحملها المشاركون، و إن اللّه يجمع المنافقين و الكافرين فى جهنم حيث العذاب الأليم، تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ جامِعُ الْمُنافِقِينَ وَ الْكافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً.

إنّ الآية تخبرنا عن عدة أمور:

۱- إنّ المشاركة فى مجالس المعصية تكون بمثابة المشاركة فى ارتكاب المعصية، حتى لو بقى المشارك ساكتا أو ساكنا و لم يشارك فى الاستهزاء بنفسه، لأنّ السكوت فى مثل هذه الأحوال دليلا على رضا صاحبه بالذنب المرتكب.

۲- لو تعذر النهى عن المنكر بالشكل الإيجابى له، فلا بدّ أن يتحقق النهى و لو بالصورة السلبية، مثل أن يبتعد الإنسان عن مجالس المعصية و يتجنب الحضور فيها.

۳- إنّ الذين يشجعون أهل المعاصى بسكوتهم و حضورهم فى مجالس المعصية، إنّما يجازون و يعاقبون بمثل عقاب العاصين أنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۶

۴- لا ضير من مجالسة الكفار إن لم يدخلوا فى حديث فيه استهزاء و كفر بالآيات الإلهية و لم تكن هذه المجالسة تحمل خطرا آخر، و يدل على إباحة المشاركة فى مجالس الكفار التى لا يعصون فيها اللّه قوله تعالى فى الآية: حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

۵- إنّ المجاملة و المداهنة مع العاصين المذنبين، إنّما تدل على وجود روح النفاق لدى الشخص المجامل، و ذلك لأن المسلم الحقيقى الواقعى لا يمكنه أن يشارك فى مجلس يعصى فيه اللّه و يستهزأ بآياته الكريمة و أحكامه السامية، دون أن يبدى اعتراضا على هذه المعاصى، أو- على الأقل- أن عدم رضاه عليها بترك هذا المجلس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۱]

اشارة

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (۱۴۱)

التّفسير

صفات المنافقين:

تبيّن هذه الآية- و آيات أخرى تالية- قسما آخر من صفات المنافقين و أفكارهم المضطربة، فتؤكد أنّ المنافقين يسعون دائما لاستغلال أى حدث لصالحهم، فلو انتصر المسلمون حاول المنافقون أن يحشروا أنفسهم بين صفوف المؤمنين، زاعمين بأنّهم شاركوا المؤمنين فى تحقيق النصر و أدعوا بأنّهم قدموا دعما مؤثرا للمؤمنين فى هذا المجال، مطالبين بعد ذلك بمشاركة المؤمنين فى الثمار المعنوية و المادية للنصر حيث تقول الآية فى حقهم: الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ....

و هؤلاء المنافقون ينقلبون على أعقابهم حين يكون النصر الظاهرى من نصيب أعداء الإسلام فيتقربون إلى هؤلاء الأعداء، و يعلنون لهم الرضى و الموافقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۸

بقولهم أنّهم هم الذين شجعوهم على قتال المسلمين و عدم الاستسلام لهم، و يدعون بأنّهم شركاء فى النصر الذى حققه أعداء الإسلام تقول الآية: وَ إِنْ كانَ لِلْكافِرِينَ نَصِيبٌ قالُوا أَ لَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَ نَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ....[۲۵۰] و على هذا المنوال تحاول هذه الفئة المنافقة أن تستغل الفرصة لدى انتصار المسلمين ليكون لهم نصيب من هذا النصر و سهم من الغنائم، و لإظهار المنّة على المسلمين، و فى حالة انكسار المسلمين تظهر هذه الفئة الرضى و الفرح لدى الكفار، و تدفعهم إلى الإصرار على كفرهم و تتجسس لصالحهم، و تهيئ لهم أسباب الفوز المادى، فهم تارة رفاق الطريق مع الكفار، و تارة شركاؤهم فى الجريمة، و هكذا يمضون حياتهم بالتلون و النفاق و اللعب على الحبال المختلفة.

و لكن القرآن الكريم يوضح بعبارة واحدة مصير هؤلاء و نهايتهم السوداء، و يبيّن أنّهم- لا محالة- سيلاقون ذلك اليوم الذى تكشف فيه الحجب عن جرائمهم و يرفع النقاب عن وجوههم الكريهة، و عند ذلك- أى فى ذلك اليوم، و هو يوم القيامة- سيحكم اللّه بينهم و هو أحكم الحاكمين، فتقول الآية فى هذا المجال: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

و لكى يطمئن القرآن المؤمنين الحقيقيين من خطر هؤلاء، تؤكد هذه الآية- فى آخرها- بأنّ اللّه لن يجعل للكافرين مجالا للانتصار أو

التسلط على المسلمين، و ذلك حيث تقول الآية: وَ لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا.

و هنا يرد هذا السؤال، و هو: هل أنّ العبارة الأخيرة تفيد عدم انتصار الكفار على المؤمنين من حيث المنطق، أو أنّها تشمل عدم انتصار الكفار من الناحية العسكرية أيضا؟

و لما كانت كلمة «سبيل» نكرة جاءت فى سياق النفى و تؤدى معنى عاما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۴۹۹

لـذلك يفهم من الآيـة أن الكافرين بالإضافـة إلى عدم انتصارهم من حيث المنطق على المؤمنين، فهم لن ينتصـروا و لن يتسـلطوا على المؤمنين فى أى من النواحى العسكرية و السياسية و الثقافية و الاقتصادية، بل و لا فى أى مجال آخر.

و ما نشاهـده من انتصار للكافرين على المسـلمين فى الميادين المختلفة، إنّما هو بسـبب أنّ المسـلمين المغلوبين لم يكونوا ليمثلوا- فى الحقيقـة- المسـلمين، المؤمنين الحقيقيين، بـل هم مسـلمون نسوا آدابهم و تقاليـدهم الإيمانيـة، و تخلوا عن مسـئولياتهم و تكاليفهم و واجبـاتهم الدينيـة بصورة تامّـة، فلاـ كلاـم عن الاتحـاد و التضـامن و الأـخوة الإسـلامية بينهم، و لاـ هم يقومون بواجب الجهـاد بمعناه الحقيقى، كما لم يبادروا إلى اكتساب العلم الذى أوجبه الإسـلام و جعله فريضة على كل مسلم و مسلمة و دعا إلى تحصيله و طلبه من يوم الولادة حتى ساعة الوفاة، حيث

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أطلب العلم من المهد إلى اللّحد».

و لما أصبحوا هكذا فقد استحقوا أن يكونوا مغلوبين للكفار.

و قد اسـتدل جمع من الفقهاء بهذه الآية على أنّ الكفار لا يمكن أن يتسـلطوا على المسلمين المؤمنين من الناحية الحقوقية و الحكمية، و نظرا للعمومية الملحوظة فى الآية، لا يستبعد أن تشمل الآية هذا الأمر أيضا.

و ممّا يلفت النظر فى هذه الآية هو التعبير عن انتصار المؤمنين بكلمة «الفتح» بينما عبّرت الآية عن انتصار الكفار بكلمة «النصيب» و هو إشارة إلى أن انتصار الكفار إنّما هو نصيب محدود و زائل، و أنّ الفتح و النصر النهائى هو للمؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۲ الى ۱۴۳]

اشارة

إِنَّ الْمُنـافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلًا (۱۴۲) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (۱۴۳)

التّفسير

لقـد وردت فى هذه الآية خمس صـفات للمنافقين، فى عبارة قصـيرة، و هى:- ۱- إنّ هؤلاء- لأجل تحقيق أهدافهم الدنيئة- يتوسـلون بالخدعـة و الحيلـة، حتى أنّهم يريـدون على حسب ظنهم أن يخـدعوا اللّه تعـالى أيضا، و لكنهم يقعون فى نفس الوقت و من حيث لا يشـعرون فى حبال خـدعتهم و مكرهم، إذ هم- لأجل اكتساب ثروات ماديـة تافهـة- يخسـرون الثروات الكبيرة الكامنـة فى وجودهم، تقول الآية فى هذا المجال: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَ هُوَ خادِعُهُمْ ....

و يستفاد التّفسير المذكور أعلاه بالواو الحالية الواردة مع عبارة: وَ هُوَ خادِعُهُمْ

هناك قصّة مشهورة مفادها أن أحد الأكابر كان ينصح أهل الحرف من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۱

مواطنيه، بأن ينتبهوا لكى لا يخدعهم المسافرون الغرباء، فقال أحدهم: كيف يمكن للغرباء البسطاء الذين لا يعرفون شيئا عن وضع المدينة و أهلها، أن يخدعوا أهل الحرف فيها نحن بمقدورنا خداع أولئك الغرباء، فأجابهم بأن قصده من الانخداع بالغرباء هو هذا المعنى، أى أن تنالوا من هؤلاء ثروة تافهة بالخداع، و تفقدوا بذلك ثروة الإيمان العظيمة! ۲- إنّ المنافقين بعيدون عن رحمة اللّه، و لذلك فهم لا يتلذذون بعبادة اللّه و التقرب إليه، و يدل على ذلك أنّهم حين يريدون أداء الصّلاة يقومون إليها و هم كسالى خائر و القوى، تقول الآية فى هذا الأمر: وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى ....

۳- و لما كان المنافقون لا يؤمنون باللّه و بوعوده، فهم حين يقومون بأداء عبادة معينة، إنّما يفعلون ذلك رياء و نفاقا و ليس من أجل مرضاة اللّه، تقول الآية:

يُراؤُنَ النَّاسَ ....

۴- و لو نطقت ألسن هؤلاء المنافقين بشىء من ذكر اللّه، فإنّ هذا الذكر لا يتجاوز حدود الألسن، لأنّه ليس من قلوبهم، و لا هو نابع من وعيهم و يقظتهم، و حتى لو حصل هذا الأمر فهو نادر و قليل، تقول الآية: وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا.

۵- إنّ المنافقين يعيشون فى حيرة دائمة و دون أى هدف أو خطّة لطريقة الحياة معينة، و لهذا فهم يعيشون حالة من التردد و التذبذب، فلا هم مع المؤمنين حقّا و لا هم يقفون إلى جانب الكفار ظاهرا، و فى هذا تقول الآية الكريمة:

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَ لا إِلى هؤُلاءِ ....

و يحسن هنا الالتفات إلى أنّ كلمة «مذبذب» اسم مفعول من الأصل «ذبذب» و هى تعنى فى الأصل صوتا خاصا يسمع لدى تحريك شىء معلق إثر تصادمه بأمواج الهواء، و قد أطلقت كلمة «مذبذب» على الإنسان الحائر الذى يفتقر إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۲

الهدف أو إلى أى خطّة و طريقة للحياة.

هذا واحد من أدق التعابير التى أطلقها القرآن الكريم على المنافقين، كما هى إشارة إلى إمكانية معرفة المنافقين عن طريق هذا التذبذب الظاهر فى حركتهم و نطقهم، كما يمكن أن يفهم من هذا التعبير أن المنافقين هم كشىء معلق يتحرك بدون أى هدف و ليس لحركته أى اتجاه معين، بل يحركه الهواء من أى صوب كان اتجاهه و يأخذه معه إلى الجهة التى يتحرك فيها.

و تبين الآية فى الختام مصير هؤلاء المنافقين، و توضح أنّهم أناس قد سلب اللّه عنهم حمايته نتيجة لأعمالهم و تركهم يتيهون فى الطريق المنحرف الذى سلكوه بأنفسهم، فهم لن يهتدوا أبدا إلى طريق النجاة، لأنّ اللّه كتب عليهم التيه و الضلالة عقابا لهم على أعمالهم.

تقول الآية الكريمة فى ذلك: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا، (و قد شرحنا معنى الإضلال، و بيّنا كيف أنّه لا يتنافى مع حرية الإرادة و الانتخاب، و ذلك فى الجزء الأوّل من هذا التّفسير فى هامش الآية (۲۶) من سورة البقرة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۳

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً (۱۴۴) إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (۱۴۵) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولئِكَ مَعَ

الْمُؤْمِنِينَ وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً (۱۴۶)

التّفسير

لقد أشارت الآيات السابقة إلى قسم من صفات المنافقين، و الآيات التالية- هذه- تحذر المؤمنين و تأمرهم أن لا يعتمدوا على المنافقين و الكفار بدل الاعتماد على المؤمنين، و أن لا- يطلبوا النصرة منهم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

و تبيّن أنّ الاعتماد على الكفار يعتبر جريمة و خرقا صارخا للقانون الإلهى و شركا باللّه، و نظرا لقانون العدل الإلهى فإن هذه الجريمة تستحق عقابا شديدا، حيث تؤكد الآية: أ تُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً[۲۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۴

و فى الآية الثانية من الآيات الأخيرة بيان لأحوال المنافقين، الذين اتخذهم بعض الغافلين من المؤمنين أصدقاء لأنفسهم، حيث توضح الآية أنّ المنافقين يستقرون فى القيامة فى أحط و أسفل دركة من دركات جهنم، و لن يستطيع أحد أن ينصرهم أو ينقذهم من هذا المصير أبدا، تقول الآية: إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً.[۲۵۲] و يتبيّن من هذه الآية أن النفاق فى نظر الإسلام أشد أنواع الكفر، و إن المنافقين أبعد الخلق من اللّه، و لهذا السبب فإن مستقرهم و مكانهم النهائى فى أحط نقطة من نقاط جهنم، و هم يستحقون هذا العقاب، لأنّ ما يلحق البشرية من ويلات من جانب هؤلاء هو أشد خطرا من كل الأخطار، فإنّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة و بمطلق الحرية على المؤمنين العزل و يطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، و بديهى أن يكون حال اعداء- كهؤلاء- يظهرون بلباس الأصدقاء، أشدّ خطرا من الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحة، و فى الواقع فإنّ النّفاق هو أسلوب و سلوك كل فرد ابتر و منحط و مشبوه و جبان و ملوث بكل الخبائث و من لا شخصية له.

و قد أوضحت الآية الثّالثة من الآيات الأخيرة، أنّ المجال مفتوح حتى لأكثر الناس تلوثا للتوبة من أعمالهم و إصلاح شأنهم، و السعى للتعويض بالخير عن ماضيهم المشين، و العودة إلى رحمة اللّه و التمسك بحبله و الإخلاص للّه بالإيمان به تقول الآية: إِلَّا الَّذِينَ تابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ اعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَ أَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۵

فالتائبون هؤلاء سيكونون أهلا للنجاة فى النهاية و يستحقون صحبة المؤمنين، تقول الآية: فَأُولئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ....

و إنّ اللّه سيهب ثوابا و أجرا عظيما لكل المؤمنين وَ سَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية تبيّن أن هؤلاء التائبين مع المؤمنين، و ذلك للتدليل على أن منزلة المؤمنين الثابتين أكبر و أعظم من منزلة هؤلاء، فالمؤمنون الراسخون فى إيمانهم هم الأصل، و هؤلاء هم الفروع، و ما يظهر عليهم من نور و صفاء إنّما هو بسبب وجودهم فى ظل المؤمنين الراسخين.

و هناك أمر ثان يجب الانتباه إليه فى هذه الآية، و هو أنّها بيّنت مسير المنافقين بصورة واضحة و صريحة، إذ عينت لهم أحط نقطة من الجحيم مكانا و مستقرا، بينما شخصت للمؤمنين الأجر و الثواب العظيم الذى لا حدّ له و لا حصر، بل هو منوط بعظمة اللّه و لطفه جلت عظمته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۶

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۴۷]

اشارة

ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً (۱۴۷)

التّفسير

العقاب الإلهى ليس دافعه الانتقام:

لقد أظهرت و بيّنت الآيات السابقة صورا من عقاب الكافرين و المنافقين، و الآية الأخيرة- التى هى موضوع بحثنا الآن- تشير إلى حقيقة ثابتة و هى أنّ العقاب الإلهى الموجه للبشر العاصين ليس بدافع الانتقام و لا هو بدافع التظاهر بالقوّة، كما أنّه ليس تعويضا عن الخسائر الناجمة عن تلك المعاصى، فهذه الأمور إنّما تحصل ممن فى طبيعته النقص و الحاجة، و اللّه سبحانه و تعالى منزّه من كل نقص و لا يحتاج أبدا إلى شىء.

إذن فالعقاب الذى يلحق الإنسان لما يرتكبه من معاص، إنما هو انعكاس للنتائج السيئة التى ترتبت على تلك المعاصى- سواء كانت فعلية أو فكرية- و لذلك يقول اللّه تعالى عزّ من قائل فى هذه الآية: ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ

و بالنظر إلى أنّ حقيقة الشكر هى أن يستغل الإنسان النعم التى وهبها اللّه له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۷

فى الجهات المخصصة لها فى الطبيعة و الخلق، يتّضح لنا أنّ القصد من الآية إنّما هو: إنّ من يؤمن و يعمل الخير و يستغل الهبات الإلهية فى المجالات التى خصصت لها من حيث الخلق- دون إساءة هذا الاستغلال- فلا شك أنّ هذا الإنسان المؤمن لا يصيبه أى عقاب من اللّه، و لتأكيد هذا الأمر تضيف الآية مبيّنة أنّ اللّه عالم بأعمال و نوايا عباده، و هو يشكر و يثيب كل من يفعل الخير من العباد لوجه اللّه. فتقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ شاكِراً عَلِيماً.

و قد قدمت هذه الآية مسألة الشكر على الإيمان لأجل بيان هذه الحقيقة، و هى أنّ الإنسان ما لم يدرك نعم اللّه و هباته العظيمة و يشكره على هذه النعم فلن يستطيع التوصل إلى معرفة اللّه و الايمان به، لأن أنعمه سبحانه و تعالى إنّما هى وسائل لمعرفته.

و قد ورد فى كتب العقيدة الإسلامية فى بحث «وجوب معرفة اللّه» عن جمع من الباحثين أنّهم استدلوا على معرفة اللّه بوجوب شكر النعم و جعلوا من الوجوب الفطرى لشكر المنعم دليلا على لزوم معرفته (فدقق).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۸

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹]

اشارة

لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً (۱۴۸) إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً (۱۴۹)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآية إشارتان إلى التكاليف الأخلاقية الإسلامية:

الأولى: تبيّن أنّ اللّه لا يحبّ التجاهر بالكلام البذىء، و لا يرضى بما يصدر من كلام عن عيوب الناس و فضائح أعمالهم، فتقول الآية: لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ ....

إن عدم الرضى من نشر فضائح أعمال الناس، نابع من حقيقة أنّ اللّه هو ستار العيوب، فلا يجب أن يقوم عباده بكشف سيئات الآخرين من أمثالهم أو الإساءة إلى سمعتهم، و ممّا لا يخفى على أحد هو أنّ لكل إنسان نقاط ضعف خفية، و لو انكشفت هذه العيوب لساد المجتمع جو من سوء الظن بين أفراده، فيصعب عندئذ قيام التعاون بين هؤلاء الأفراد، لذلك منع الإسلام و حرّم التحدث عن نقائص أو فضائح أعمال الآخرين دون وجود هدف سليم، لتبقى الأواصر الاجتماعية قوية مستحكمة، و رعاية للجوانب الإنسانية الأخرى فى هذا المجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۰۹

و تجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «سوء» تشمل كل أنواع القبح و الفضيحة، و المقصود من عبارة «الجهر ... من القول» هو كل حالة من الكشف و الفضح اللفظى، سواء كان بصورة شكوى، أو على شكل حكاية أو لعن أو ذم أو غيبة.

و قد استدل بهذه الآية- أيضا على تحريم الغيبة، إلّا أن مفهومها لا ينحصر بهذه الصفة الأخيرة، بل يشمل كل أنواع الكلام البذىء و المذموم.

إلّا أنّ الآية الكريمة لم تحرم القول بالسوء تحريما مطلقا، فقد استثنت حالة يمكن فيها أن يصار إلى الكشف و الفضح، و هذه الحالة هى إذا وقع الإنسان مظلوما حين قالت الآية: إِلَّا مَنْ ظُلِمَ و بهذا الدليل يستطيع المظلوم- فى مقام الدفاع عن نفسه- أن يكشف فضائح الظالم، سواء عن طريق الشكوى أو فضح مساوئ الظالم أو توجيه النقد له، أو استغابته، و لا يسكت على الظلم حتى استعادة حقوقه من الظالم.

و حقيقة هذا الاستثناء هى أنّ اللّه أراد به أن يسلب من الظالمين فرصة إساءة استغلال حكم المنع و التحريم، و لكى لا يكون هذا الحكم سببا فى سكوت المظلوم عن المطالبة بحقه من الظالم.

واضح من الآية بأنّ عملية الكشف و الفضح يجب أن تنحصر فى إطار بيان مساوئ الظالم لدى الدفاع عن المظلومين أو لدى دفاع المظلوم عن نفسه.

و لكى تسد الآية الطريق على كل انتهازى كاذب يريد إساءة استغلال هذا الحكم بدعوى وقوع الظلم عليه أكّدت على أنّ اللّه يراقب أعمال البشر و يعلم و يسمع بكل ما يصدر عنهم من أفعال حيث تقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً.

و فى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى النقطة المواجهة لهذا الحكم، حيث يبيح التحدث عن محاسن الأفراد أو كتمانها (على عكس المساوئ التى يجب أن تكتم إلّا فى حالة استثنائية) كما تبيح- أو بالأحرى تحثّ- الفرد على إصدار العفو على من ارتكب السوء بحقّه، لأنّ العفو عند المقدرة من صفات اللّه العزيز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۰

القدير الذى يعفو عن عباده مع امتلاكه القدرة على الانتقام بأى صورة شاء، فتقول الآية فى هذا المجال: إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ عَفُوًّا قَدِيراً.

العفو عن المعتدى و أثره على نزعة العدوان:

سؤال يطرأ هنا على الذهن و هو: ألا يعتبر العفو عن الظالم المعتدى تأييدا لظلمه و تشجيعا لنزعة العدوان لديه؟ ألا يؤدى العفو إلى

ظهور حالة سلبية من اللامبالاة لدى المظلومين.

و الجواب هو: أنّ العفو لا صلة له بمسألة تحقيق العدل و مكافحة الظالم، و الدليل على ذلك ما نقرؤه فى الأحكام الإسلامية من نهى عن ارتكاب الظلم و أمر بعدم الخضوع له، كما فى الآية لا تَظْلِمُونَ وَ لا تُظْلَمُونَ ۲۵۳] و قول أمير المؤمنين على عليه السّلام «كونا للظالم خصما و للمظلوم عونا»[۲۵۴] و قوله تعالى: فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ ۲۵۵].

كما نقرأ من جانب آخر الأمر بالعفو و الصفح كما فى قوله تعالى: وَ أَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوى ۲۵۶] و قوله: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ [۲۵۷] من الممكن أن يتبادر إلى ذهن بعض البسطاء أن هناك تناقضا بين هذين الحكمين، و لدى الإمعان فيما ورد فى المصادر الإسلامية فى هذا المجال، يتّضح أنّ العفو و الصفح يجب أن يكون فى موضع بحيث لا يساء استغلاله، و إنّ الدعوة إلى مكافحة الظلم و قمع الظالم يكون له مجال آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۱

و يجدر توضيح أنّ العفو و الصفح يكونان لدى تملك القدرة و عند الإنتصار على العدو و هزيمته النهائية، أى فى حال لا يحتمل فيها حصول أى خطر جديد من جانب العدو، و يكون العفو و الصفح عنه سببا لإصلاحه و استقامته و دفعه إلى إعادة النظر فى سلوكه، و التاريخ الإسلامى فيه أمثلة كثيرة فى هذا المجال، و

الحديث المشهور القائل «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه»[۲۵۸]

خير دليل على هذا القول.

أمّا فى حالة وجود خطر من جانب العدو، و احتمال أن يؤدى العفو عنه إلى تجريه و تماديه أكثر فى عدوانه، أو إذا اعتبر العفو استسلاما للظلم و خضوعا أمامه و رضى به، فإنّ الإسلام لا يجيز مطلقا مثل هذا العفو، و كما أنّ أئمّة الإسلام لم ينتخبوا طريق العفو فى مثل هذه المجالات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۲

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (۱۵۰) أُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (۱۵۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۵۲)

التّفسير

لا تمييز بين الأنبياء:

تحدثت الآيات الأخيرة عن مواقف طائفة من الكافرين، و مواقف أخرى لطائفة من المؤمنين، كما ذكرت هذه الآيات نهاية كل من الطائفتين، و هى بهذا تأتى مكملة للآيات السابقة التى تحدثت بشأن المنافقين.

و تشير الآية الأولى إلى طائفة فرقوا بين الأنبياء، فاعتبروا بعضهم على حق و البعض الآخر على باطل، فتؤكد أنّ هذا النفر من الناس كفار حقيقيون.

و الواقع أنّ هـذه الآية توضح موقف اليهود و النصارى، فاليهود كانوا يرفضون الإيمان بالنّبى عيسـى نبى النصارى، و اليهود و النصارى معا كانوا يرفضون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۳

الإذعان لنبوة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حين أنّ كتابيهم السماويين قد أثبتا نبوة هؤلاء الأنبياء.

و هذا التمييز بين الحقائق الثابتة و قبول بعضـها و رفض البعض الآخر، سـببه أنّ هؤلاء كانوا يتبعون أهواءهم و نزواتهم و يسـيرون وراء عصبياتهم الجاهلية، و ينبع أحيانا من حسد هؤلاء و نظرتهم الضيقة.

و هـذا دليـل عـدم إيمـان هؤلاـء بالأنبياء و باللّه، لأنّ الإيمان ليس هو قبول ما طابق هوى النفس أو رفض ما يخالف الأهواء و الميول، فهـذه الحالـة ما هى إلّا نوع من عبادة الهوى و لا صـلة لها بالإيمان، فالإيمان الحقيقى هو ذلك الذى يدفع الإنسان إلى قبول الحقيقة- سواء طـابقت هواه و ميوله أو خالفتهمـا- و لـذلك فـإنّ القرآن الكريم اعتبر الـذين يزعمون أنّهم يؤمنون بـاللّه و ببعض الأنبيـاء كفارا حقيقيين، و على هذا الأساس فإن ما يتظاهرون به من إيمان لا حقيقة و لا قيمة له مطلقا، لأنّه لا ينبع من روح طلب الحقيقة.

و القرآن الكريم يهـدد هؤلاـء- و أمثالهم- بأنّهم يلقون الـذل و الهوان، حيث تقول الآيـة: وَ أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً و قـد يكون وصف العـذاب فى هـذه الآيـة ب «المهين» سـببه أنّ هؤلاء بقبولهم بعض الأنبياء و رفضـهم الإيمان بالبعض الآخر منهم، إنّما يوجّهون الإهانة بحق عدد من الأنبياء، لذلك يجب أن ينال هؤلاء عذابا مهينا يتناسب و اهانتهم تلك.

التّناسب بين الذّنب و العقاب:

و يجدر هنا توضـيح أنّ العذاب قد يكون أليما أحيانا، مثل: الجلد و التعذيب الجسدى، و قد يكون مهينا كرش الشـخص بالقاذورات، أو يكون العذاب عظيما كأن يكون العقاب أمام أعين الناس، و قد يكون أثره عميقا فى نفس الإنسان يسـتمر معه لمدّة طويلة و يسمى هذا بالعذاب الشديد، و ما إلى ذلك من أنواع العذاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۴

و واضـح أنّ وصف العـذاب بواحـد من الصـفات يتنـاسب مع نوع الـذنب، و لـذلك فقـد ورد فى كثير من الآيات القرآنيـة أنّ عقاب الظالمين هو العذاب الأليم، لأنّه يتناسب و ألم الظلم الذى يمارسه الظالم على المظلوم، و هكذا بالنسـبة للأنواع الأخرى من العذاب، و قد قصدنا بهذا الشـرح تقريب مسألة العذاب إلى الأذهان، علما بأنّ العذاب الأخروى شـىء لا يمكن مقارنته بما هو موجود من عذاب فى حياتنا الدنيوية هذه.

و قـد تطرقت الآيـة الأـخيرة إلى موقف المؤمنين الـذين آمنوا بـاللّه و بجميع أنبيـائه و رسـله و لم يفرقوا بين أى من الأنبيـاء و الرسل و أخلصـوا للحق، و كـافحوا كـل أنواع العصبيـات الباطلـة، و بيّنت أنّ اللّه سـيوفّى هؤلاـء المؤمنين أجرهم و ثوابهم فى القريب العاجـل، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ....

و بديهى أنّ الإيمان بجميع الأنبياء و الرسل لا يتنافى و مسألة تفضيل بعضهم على البعض الآخر، لأنّ مسألة التفاضل هذه ترتبط ارتباطا وثيقا بأهمية و عظم المسؤولية التى تحمّلها كل منهم، و طبيعى أنّ المسؤوليات المناطة بالأنبياء عليهم السّلام تتفاوت من حيث الأهمية و الخطورة بالنسـبة لكـل منهم، و قـد ثبت هـذا الأـمر بالـدليل القطعى و المهم هنـا أن لاـ يحصل تمايز أو تفريق فى الإيمان بالأنبياء و الإقرار بنبوّتهم.

و قـد أكـدت الآيـة فى الختام أنّ اللّه سـيغفر للمؤمنين الـذين ارتكبوا اخطاء بالانجرار وراء العصبيات و ممارسـة التفرقة بين الأنبياء إن أخلص هؤلاء المؤمنون فى إيمانهم و عادوا إلى اللّه، أى تابوا إليه من اخطائهم السابقة، حيث تقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و يجب الانتباه هنا إلى أنّ الآيات الأخيرة ذكرت الذين يعمدون إلى التفرقة بين الأنبياء بأنّهم كفار حقيقيون، بينما لم تذكر الذين يؤمنون بجميع الأنبياء بأنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۵

مؤمنون حقا و حقيقة، بل وصفتهم بالمؤمنين فقط، و قد يكون هذا التفاوت فى الوصف هو لبيان أنّ المؤمنين حقّا هم أولئك الذين استقرّ الإيمان فى قلوبهم و ظهرت آثاره على أعمالهم، و كما

يقول الخبر المأثور بأنّ «الإيمان ما وقر فى القلب و صدقه العمل».

و يدلّ على هذا الأمر آيات وردت فى بداية سورة الأنفال التى ذكرت المؤمنين بأوصاف عديدة: أوّلها الإيمان باللّه، و يلى ذلك إقامة الصّلاة و إيتاء الزكاة و التوكل على اللّه و الاعتماد عليه، ثمّ يأتى التأكيد بعد سرد هذه الصفات فى قول اللّه تعالى فى الآية المذكورة: أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۶

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۴]

اشارة

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً (۱۵۳) وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۱۵۴)

سبب النّزول

جاء فى تفاسير «التبيان» و «مجمع البيان» و «روح المعانى» حول سبب نزول هاتين الآيتين، أنّ عددا من اليهود جاءوا إلى النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: لو كنت حقّا نبيّا مرسلا من قبل اللّه فأرنا كتابك السماوى كلّه دفعة واحدة، كما جاء موسى بالتوراة كلّها دفعة واحدة، فنزلت الآيتان جوابا لهؤلاء اليهود.

التّفسير

هدف اليهود من اختلاق الأعذار:

تشير الآية الأولى إلى طلب أهل الكتاب «اليهود» من النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن ينزل عليهم كتابا من السماء كاملا و فى دفعة واحدة، فتقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۷

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ ....

و لا شك أنّ هؤلاء لم يكونوا صادقين فى نواياهم مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الهدف من نزول الكتاب السماوى هو الإرشاد و الهداية و التربية، و قد يتحقق هذا الهدف أحيانا عن طريق نزول كتاب كامل من السماء دفعة واحدة، و أحيانا أخرى يتحقق

الهدف عن طريق نزول الكتاب السماوى على دفعات و بصورة تدريجية.

و بناء على هذا فقد كان الأجدر باليهود أن يطالبوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدليل و يسألوه عن تعاليم سامية قيمة، لا أن يحددوا له طريقة لنزول الكتب السماوية و يطالبوه بأن ينزل عليهم كتابا الطريقة التى عينوها.

و لهذا السبب فضح اللّه نواياهم السيئة بعد طلبهم هذا، و أوضح للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هذا العمل هو ديدن اليهود، و أنّهم معروفون بصلفهم و عنادهم و اختلافهم الأعذار مع نبيّهم الكبير موسى بن عمران عليه السّلام، فقد طلب هؤلاء من نبيّهم ما هو أكبر و أعجب إذ سألوه أن يريهم اللّه جهارا و علنا! تقول الآية: فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ....

و ما مصدر هذا الطلب العجيب الغريب البعيد عن المنطق غير الصلف و العناد، فهم بطلبهم هذا قد تبنّوا عقيدة المشركين الوثنيين فى تجسيد اللّه و تحديده، و قد أدى عنادهم هذا إلى نزول عذاب اللّه عليهم، صاعقة من السماء أحاطت بهم لما ارتكبوه من ظلم كبير، تقول الآية: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

ثمّ تشير الآية إلى عمل قبيح آخر ارتكبه اليهود، و ذلك حين لجئوا إلى عبادة العجل بعد أن شاهدوا بأعينهم المعجزات الكثيرة و الدلائل الواضحة، فتقول: ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ ....

و مع كل هذا الصلف و العناد و الشرك، يريهم اللّه لطفه و رحمته و يغفر لهم لعلهم يرتدعوا عن غيّهم، و يهب لنبيّهم موسى عليه السّلام ملكا بارزا و سلطانا مبينا، و يفضح السامرى صاحب العجل و يخمد فتنته و فى هذا تقول الآية: فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَ آتَيْنا مُوسى سُلْطاناً مُبِيناً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۸

لكن اليهود بسبب ما انطوت عليه سريرتهم من شرّ- لم يستيقظوا من غفلتهم، و لم يخرجوا من ضلالتهم، و لم يتخلوا عن صلفهم و غرورهم، فرفع اللّه جبل الطور لينزله على رؤوسهم، حتى أخذ منهم العهد و الميثاق و أمرهم أن يدخلوا خاضعين خاشعين- من باب بيت المقدس- دليلا على توبتهم و ندمهم، و أكّد عليهم أن يكفوا عن أى عمل فى أيّام السبت، و أن لا يسلكوا سبيل العدوان، و أن لا يأكلوا السمك الذى حرم صيده عليهم فى ذلك اليوم، و فوق كل ذلك أخذ اللّه منهم ميثاقا غليظا مؤكّدا، و لكنّهم لم يثبتوا- مطلقا- وفاءهم لأى من هذه المواثيق و العهود[۲۵۹] يقول القرآن الكريم فى هذا المجال: وَ رَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ وَ قُلْنا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً.

فهل يصح أن تكون هذه المجموعة مع ما تمتلكه من سوابق سيئة و تاريخ أسود صادقة مع النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما طلبته منه و إن كان هؤلاء صادقين، لما ذا إذن لم يلتزموا بما نزل عليهم صريحا فى كتابهم السماوى و حول العلامات الخاصّة بخاتم النّبيين؟ و لما ذا أصروا على تجاهل كل ما أتى به النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من براهين و أدلة واضحة بيّنة؟

و هنا تجدر الإشارة إلى أمرين، و هما:

أوّلا: لو اعترض معترض فقال: إن تلك الأعمال كانت خاصّة باليهود السابقين، فما صلتها باليهود فى زمن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

فنقول: إنّ اليهود فى زمن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يبدوا اعتراضا و استنكارا- أبدا- لأعمال أسلافهم السابقين، بل كانوا يظهرون الرضى عن تلك الأعمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۱۹

أمّا الأمر الثّانى: فيخصّ مسألة نزول التوراة دفعة واحدة، حيث قلنا فى سبب نزول الآيتين الأخيرتين: «إنّ اليهود كانوا يزعمون نزول هذا الكتاب السماوى دفعة واحدة، فى حين أنّ هذا الأمر لا يعتبر من الأمور المؤكّدة، و لعل الشىء الذى أدى إلى حصول هذا الوهم هو الوصايا العشرة» التى نزلت فى ألواح دفعة واحدة على النّبى موسى عليه السّلام، بينما لا يوجد لدينا دليل على نزول بقية أحكام

التوراة دفعة واحدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۰

الآيات [سورة النساء (۴): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۸]

اشارة

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵۵) وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً (۱۵۶) وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً (۱۵۷) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۵۸)

التّفسير

نماذج أخرى من ممارسات اليهود العدوانية:

تشير هذه الآيات إلى نماذج أخرى من انتهاكات بنى إسرائيل و ممارساتهم العدوانية التى واجهوا بها أنبياء اللّه.

فالآية الأولى تشير إلى قيام اليهود بنقض العهود، و إلى ارتداد بعضهم و كفرهم بآيات اللّه و قتلهم للأنبياء، بحيث استوجبوا غضب اللّه و الحرمان من رحمته و حرمانهم من قسم من نعم اللّه الطاهرة.

فقد أنكر هؤلاء آيات اللّه و كفروا بها بعد نقضهم للعهد و اتّبعوا بذلك سبيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۱

الضلال و لم يكتفوا بهذا الحدّ، بل تمادوا فى غيّهم، فارتكبت أياديهم الآثمة جريمة كبرى، إذ عمدوا إلى قتل الهداة و القادة إلى طريق الحق من أنبياء اللّه، إيغالا منهم فى اتباع طريق الباطل و الابتعاد عن طريق الحق.

لقد كان هؤلاء اليهود بدرجة من العناد و الصلف و الوقاحة، بحيث كانوا يواجهون كلام الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، و وصل بهم الأمر إلى أن يقولوا بكل صراحة أنّ قلوبهم تغطيها حجب عن سماع و قبول قول الأنبياء! تقول الآية الأولى من الآيات الأربع الأخيرة: فَبِما نَقْضِهِمْ ۲۶۰] مِيثاقَهُمْ وَ كُفْرِهِمْ بِآياتِ اللَّهِ وَ قَتْلِهِمُ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ قَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ ....

و هنا يؤكّد القرآن الكريم أنّ قلوب هؤلاء مختومة حقا، بحيث لا ينفذ إليها أى حقّ، و سبب ذلك هو كفرهم و انعدام الإيمان لديهم، فهم لا يؤمنون لعنادهم و صلفهم إلّا القليل منهم.

و قد تجاوز هؤلاء المجرمون الحدّ، فالصقوا بمريم العذراء الطاهرة تهمة شنيعة و بهتانا عظيما، هى أمّ لأحد أنبياء اللّه الكبار، و ذلك لأنّها حملت به بإذن اللّه دون أن يمسها رجل، تقول الآية فى هذا المجال: وَ بِكُفْرِهِمْ وَ قَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتاناً عَظِيماً.

و قد تباهى هؤلاء الجناة و افتخروا بقتلهم الأنبياء، و زعموا أنّهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول اللّه، تقول الآية: وَ قَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ... و لعل هؤلاء كانوا يأتون بعبارة «رسول اللّه» استهزاء و نكاية، و قد كذبوا بدعواهم هذه فى قتل المسيح، فهم لم يقتلوه و لم يصلبوه، بل صلبوا شخصا شبيها بعيسى المسيح عليه السّلام، و إلى هذه الواقعة تشير الآية بقولها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۲

وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ...

و أكّدت الآية أنّ الذين اختلفوا فى أمر المسيح عليه السّلام كانوا- هم أنفسهم- فى شك من أمرهم، فلم يكن أحدهم يؤمن و يعتقد بما يقول، بل كانوا يتبعون الأوهام و الظن، تقول الآية: وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ ....

و قد بحث المفسّرون حول موضوع الخلاف الوارد فى هذه الآية، فاحتمل بعضهم أن يكون الخلاف حول منزلة و مقام المسيح عليه السّلام حيث اعتبره جمع من المسيحيين ابنا للّه، و رفض البعض الآخر- كاليهود- كونه نبيّا، و إن كل هؤلاء كانوا على خطأ من أمرهم.

و قد يكون المقصود بالخلاف هو موضوع كيفية قتل المسيح عليه السّلام حيث قال البعض بأنّه قتل، و قال آخرون بأنّه لم يقتل، و لم يكن أى من هاتين الطائفتين ليثق بقول نفسه.

أو لعل الذين ادعوا قتل المسيح وقعوا فى شك من هذا الأمر لعدم معرفتهم بالمسيح عليه السّلام، فاختلفوا فى الذى قتلوه هل كان هو المسيح، أو هو شخص غيره ...؟! و يأتى القرآن ليؤكّد هنا بأن هؤلاء لم يقتلوا المسيح أبدا، بل رفعه اللّه إليه، و اللّه هو القادر على كل شىء، و هو الحكيم لدى فعل أى شىء، تقول الآية: وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

اسطورة الصّليب؟

يؤكّد القرآن الكريم فى الآية المارة الذكر على أنّ المسيح عليه السّلام لم يقتل و لم يصلب، بل اشتبه الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، و هم لم يقتلوه أبدا! أمّا الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم فى متناول أيدينا فهى كلها تقول بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۳

المسيح عليه السّلام قد صلب و قتل على هذه الصورة، و قد جاء هذا القول فى الفصول الأخيرة من هذه الأناجيل الأربعة «متى- لوقا- مرقس- يوحنا» و بصورة تفصيلية.

و المسيحيون اليوم يعتقدون بهذا الأمر بصورة عامّة، و مسألة الصلب أو قتل المسيح عليه السّلام تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسية للديانة المسيحية، و نحن نعلم أنّ المسيحيين اليوم لا يعتبرون المسيح عليه السّلام مجرّد نبى أرسل لهداية و إرشاد البشرية، بل يعتقدون بأنّه «ابن اللّه» من أركان الثالوث المقدس لديهم، و يزعمون بأنّ هدف مجىء المسيح إلى هذا العالم ليكون قربانا يفتدى بنفسه مقابل الخطايا و الآثام التى يرتكبها البشر.

فيقولون: إنّه جاء ليضحى بنفسه من أجل ذنوبهم و خطاياهم، و قد صلب و قتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، و لينقذ البشرية من العقاب، و لذلك فهم يعتقدون بأنّ طريق الخلاص و النجاة من العذاب و العقاب هو الإيمان بهذا الموضوع.

و من هذا المنطلق فهم- أحيانا- يدعون المسيحية بدين «الإنقاذ» أو دين «الفداء» و يسمّون المسيح عليه السّلام ب «المنقذ» أو «المخلص» أو «الفادى».

و اعتمادهم المفرط على الصليب و اتخاذه شعارا لأنفسهم إنّما يرتكز على قضية القتل و الصلب هذه.

كانت تلك نبذة عن عقيدة المسيحيين حول مصير المسيح عليه السّلام.

أمّا المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان و زيف هذه العقيدة، و السبب هو أنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السّلام، كان نبيّا كسائر أنبياء اللّه أوّلا، و لم يكن هو اللّه و لا ابن اللّه، لأن اللّه واحد أحد فرد صمد لا شبيه و لا مثيل و لا زوج له و لا ولد.

و ثانيا: إنّ مسألة الفداء و التضحية من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسألة بعيدة عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤاخذ بجريرته و عمله، و إنّ طريق النجاة و الخلاص يكون فى الإيمان و العمل الصالح فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۴

و ثالثا: إنّ عقیدة الفداء من أجل الخطایا تعتبر خیر مشجع علی الفساد و ممارسة الذنوب، و تؤدی بالبشریة إلی التلوث و الهلاک.

و حین تلاحظ أن القرآن یؤکّد علی قضیة عدم صلب المسیح علیه السّلام مع أنّ هذه القضیة تظهر للعیان و کأنّها مسألة اعتیادیة بسیطة، من أجل دحض عقیدة الفداء الخرافیة بشدّة، لمنع المسیحیین من الإیغال فی هذا الإعتقاد الفاسد، و لکی یؤمنوا بأنّ طریق الخلاص و النجاة إنّما هو فی أعمالهم هم أنفسهم و لیس فی ظل الصلیب.

رابعا: هناک قرائن موجودة تثبت وهن و ضعف قضیة الإعتقاد بصلب المسیح علیه السّلام هی:

۱- المعروف أنّ الأناجیل الأربعة المتداولة فی الوقت الحاضر، و التی تشهد بصلب المسیح علیه السّلام- کانت قد دوّنت بعده بسنین طویلة، و قد دوّنها حواریوه أو التالون من أنصاره علیه السّلام- و هذه حقیقة یعترف بها حتی المؤرخون المسیحیون.

کما نعرف أیضا أنّ حواری المسیح علیه السّلام قد هربوا حین هجم الأعداء علیه، و الأناجیل نفسها تشهد بهذا الأمر[۲۶۱] و علی هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواریین قد تلقفوا مسألة صلب عیسی المسیح علیه السّلام من أفواه الناس الآخرین، و لم یکونوا حاضرین أثناء تنفیذ عملیة الصلب، و قد أدت التطورات التی حصلت آنذاک إلی تهیئة الأجواء المساعدة للاشتباه بشخص آخر و صلبه بدل المسیح علیه السّلام، و سنوضح هذا الأمر فیما یلی من حدیثنا.

۲- إنّ العامل الآخر الذی یجعل من الاشتباه بشخص آخر بدل المسیح علیه السّلام أمرا محتملا هو أنّ المجموعة التی کلّفت بالقبض علی عیسی المسیح علیه السّلام و التی ذهبت إلی بستان «جستیمانی» هذه المجموعة کانت تتشکل من أفراد الجیش الرومی الذین کانوا منهمکین فی أمور عسکریة، فهم لم یکونوا یعرفون الیهود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۵

و لغتهم و تقالیدهم، کما لم یمیزوا بین حواری المسیح علیه السّلام و بین المسیح نفسه.

۳- تذکر الأناجیل أن الهجوم علی مقر عیسی المسیح علیه السّلام قد تمّ لیلا و بدیهی أنّ ظلام اللیل یعتبر خیر ستار للشخص المطلوب لیتخفی به و یهرب، و لیقع شخص آخر فی أیدی المهاجمین.

۴- یستنتج من نصوص جمیع الأناجیل أنّ المقبوض علیه قد اختار الصمت أمام «بیلاطیس» الحاکم الرومی لبیت المقدس- آنذاک- و لم یتفوه إلّا بالقلیل دفاعا عن نفسه و یستبعد کثیرا أن یقع عیسی المسیح علیه السّلام فی خطر کهذا و لا یدافع عن نفسه بما یستحقه الدفاع عن النفس، و هو المعروف بالفصاحة و البلاغة و الشجاعة و الشهامة.

أ لا یحتمل فی هذا المجال أن یکون شخص آخر- ک «یهوذا الأسخربوطی» الذی خان و وشی بعیسی المسیح علیه السّلام و کان یشبهه کثیرا- قد وقع هو بدل المسیح فی الأسر و أنّه لهول الموقف قد استولی علیه الخوف و الرعب، فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادین بشیء.

نقرأ فی الأناجیل أنّ «یهوذا الأسخربوطی» لم یظهر بعد حادثة الصّلب أبدا، و أنّه- کما تقول هذه الأناجیل- قد قتل نفسه و انتحر[۲۶۲].

۵- لقد بیّنا أنّ حواری المسیح علیه السّلام- و کما ذکرت الأناجیل- قد هربوا حین أحسوا بالخطر یحدق بهم، کما هرب و اختفی الأنصار الآخرون، و أخذوا یراقبون الأوضاع عن بعد، بحیث أصبح الشخص المقبوض علیه وحیدا بین الجنود الرومان، و لم یکن أی من أصحابه قریبا منه، و لذلک لا یستبعد و لا یبدو غریبا أن یقع خطأ أو سهو فی تشخیص هویة الشخص المقبوض علیه.

۶- و نقرأ فی الأناجیل- أیضا- أنّ الشخص المصلوب قد اشتکی من ربه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۶

(و لیس لربّه) لأنّه- بحسب قوله- قد جفاه و ترکه بأیدی الأعداء لیقتلوه ۲۶۳]! فلو صدقنا مقولة أنّ المسیح جاء لهذه الدنیا لیصلب و لینقذ بصلبه البشریة من عواقب خطایاهم و آثامهم، فلا یلیق لمن یحمل هدفا ساما کهذا الهدف أن یصدر منه هذا الکلام، و هذا

دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح نفسه، بل كان إنسانا ضعيفا و جبانا، و عاجزا، و مثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر منه كلام كالذى سبق، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح عليه السّلام ۲۶۴].

۷- لقد نفت بعض الأناجيل الموجودة مثل إنجيل «برنابا» قضية صلب المسيح عليه السّلام (و هذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعة التى يقبلها المسيحيون) كما أنّ بعضا من الطوائف المسيحية أبدت شكوكها حول قضية الصلب ۲۶۵] و قد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، فادعوا بأن التاريخ قد ذكر شخصين باسم «عيسى» أحدهما عيسى المصلوب و الآخر هو عيسى غير المصلوب و بينهما فاصل زمنى يقدر بخمسمائة عام ۲۶۶].

كانت تلك مجموعة من القرائن المؤيدة لقول القرآن الكريم فى قضية الشبه الحاصل فى قتل أو صلب المسيح عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۷

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۵۹]

اشارة

وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً (۱۵۹)

التّفسير

اشارة

هنالك احتمالان فى تفسير هذه الآية، و كل واحد منهما جدير بالملاحظة من جوانب متعددة:

۱- إنّ الآية تؤكّد أنّ أى إنسان يمكن أن لا يعتبر من أهل الكتاب ما لم يؤمن قبل موته بالمسيح عليه السّلام حيث تقول: وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ... و أن هذا الأمر يتمّ حين يشرف الإنسان على الموت و تضعف صلته بهذه الدنيا، و تقوى هذه الصلة بعالم ما بعد الموت، و ترفع عن عينيه الحجب فيرى بعد ذلك الكثير من الحقائق و يدركها، و فى هذه اللحظة يرى المسيح بعين بصيرته و يؤمن به، فالذين أنكروا نبوته يؤمنون به، و الذين وصفوه بالألوهية يدركون فى تلك اللحظة خطأهم و انحرافهم.

و بديهى أنّ مثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه، كما أنّ فرعون و الأقوام الأخرى و أقوام استولى عليهم العذاب، فقالوا: آمنا فلم ينفعهم إيمانهم أبدا، فالأجدر بالإنسان أن يؤمن قبل أن تدركه لحظة العذاب عند الموت، حين لا ينفع الإيمان صاحبه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۸

و تجدر الإشارة- هنا- إلى أنّ الضمير فى عبارة «قبل موته» يعود لأهل الكتاب بناء على التّفسير الذى ذكرناه.

۲- قد يكون المقصود فى الآية هو أنّ جميع أهل الكتاب يؤمنون بعيسى المسيح قبل موته، فاليهود يؤمنون بنبوته و المسيحيون يتخلون عن الإعتقاد بربوبية المسيح عليه السّلام، و يحدث هذا- طبقا للروايات الإسلامية- حين ينزل المسيح عليه السّلام من السماء لدى ظهور المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه، و واضح أن عيسى المسيح سيعلن فى مثل هذا اليوم انضواءه تحت راية الإسلام، لأن الشريعة السماوية التى جاء بها إنّما نزلت قبل الإسلام، و لذلك فهى منسوخة به.

و بناء على هذا التّفسير فإن الضمير فى عبارة «قبل موته» يعود إلى عيسى المسيح عليه السّلام.

و

قد نقل عن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «كيف بكم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم»[۲۶۷]

و طبیعی أنّ هذا التّفسیر یشمل الیهود و المسیحیین الموجودین فی زمن ظهور المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف، و نزول عیسی المسیح علیه السّلام من السماء.

و جاء فی تفسیر «علی بن إبراهیم» نقلا عن «شهر بن حوشب» إنّ الحجاج ذکر یوما أن هناک آیة فی القرآن قد أتبعته کثیرا و هو حائر فی معناها، فسأله «شهر» عن الآیة، فقال الحجاج: إنّها آیة وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْکِتابِ ... و ذکر أنّه قتل یهودا و مسیحیین و لم یشاهد فیهم أثرا لمثل هذا الإیمان.

فأجابه «شهر» بأنّ تفسیره للآیة لم یکن تفسیرا صحیحا، فاستغرب الحجاج و سأل عن التّفسیر الصحیح للآیة.

فأجاب «شهر» بأنّ تفسیر الآیة هو أن المسیح ینزل من السماء قبل نهایة العالم، فلا یبقی یهودی أو غیر یهودی إلّا و یؤمن بالمسیح قبل موته، و أن المسیح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۲۹

سیقیم الصّلاة خلف المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف.

فلما سمع الحجاج هذا الکلام قال ل «شهر» ویلک من أین جئت بهذا التّفسیر؟ فأجابه «شهر» بأنّه قد سمعه من محمّد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب علیهم السّلام.

و عند ذلک قال الحجاج: «و اللّه جئت بها من عین صافیة»[۲۶۸].

و تقول الآیة فی الختام: وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ یَکُونُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً أی شهادة المسیح علیه السّلام علی قومه بأنّه قد بلّغهم رسالة اللّه و لم یدعهم لاتّخاذه إلها من دون اللّه، بل دعاهم إلی الإقرار بربوبیة اللّه الواحد القهار.

سؤال:

و قد یعترض البعض بأنّ المسیح علیه السّلام- کما جاء فی الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة- إنّما یقصر شهادته علی الزمن الذی کان هو موجودا فیه بین قومه و یتنصل عن الشهادة بالنسبة للأزمنة التی جاءت بعده، و ذلک بدلالة الآیة التی جاءت علی لسانه و هی تقول: وَ کُنْتُ عَلَیْهِمْ شَهِیداً ما دُمْتُ فِیهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّیْتَنِی کُنْتَ أَنْتَ الرَّقِیبَ عَلَیْهِمْ وَ أَنْتَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیدٌ لکن الآیة التی هی موضوع بحثنا الآن تدل علی أنّ المسیح علیه السّلام یشهد علی الجمیع یوم القیامة، سواء أولئک الذین کانوا فی عصره و زمانه أو الذین لم یکونوا فی ذلک الزمان.

الجواب:

و الجواب علی هذا الاعتراض هو أنّنا لو أمعنا النظر فی مضمون الآیتین المذکورتین، لرأینا أنّهما تدلان علی أنّ الآیة الأخیرة التی هی موضوع البحث- تتحدث عن الشهادة حول تبلیغ الرسالة و نفی الألوهیة عن المسیح علیه السّلام بینما الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة تشهد علی أعمال أولئک القوم.

فالآیة الأخیرة تذکر أنّ عیسی المسیح علیه السّلام سیشهد علی جمیع الذین نسبوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۰

له الألوهیة، سواء من کانوا فی زمانه أو من جاءوا بعد ذلک الزمان، و أن المسیح علیه السّلام یؤکّد أنّه لم یدع هؤلاء القوم إلی مثل هذا الأمر أبدا، بینما الآیة (۱۱۷) من سورة المائدة تذکر علی لسان المسیح علیه السّلام أنّه علاوة علی الدعوة لرسالته بالأسلوب

الصحیح، فهو قد حال طیلة فترة بقائه بین قومه- دون انحرافهم، إلّا أنّهم انحرفوا بعده و نسبوا له الألوهیة فی زمن لم یکن هو موجودا بینهم، لیشهد علی أعمالهم و لیحول دون انحرافهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۰ الی ۱۶۲]

اشارة

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً (۱۶۰) وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً (۱۶۱) لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ الْمُقِیمِینَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أُولئِکَ سَنُؤْتِیهِمْ أَجْراً عَظِیماً (۱۶۲)

التّفسیر

مصیر الصالحین و الطالحین من الیهود:

لقد أشارت الآیات السابقة إلی نماذج من انتهاکات الیهود، أما الآیات الأخیرة فإنما ذکرت نماذج أخری من تلک الانتهاکات، و بیّنت العقوبات التی استحقها الیهود بسبب تمردهم و عصیانهم، و العذاب الذی لا قوه و سیلاقوه نتیجة لذلک فی الدنیا و الآخرة.

فالآیة الأولی من الآیات الأخیرة تبیّن أنّ اللّه قد حرم بعضا من الأشیاء الطاهرة علی الیهود بسبب ممارستهم الظلم و الجور، و تصدیهم للسائرین فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۲

طریق اللّه، حیث تقول الآیة: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِینَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَیْهِمْ طَیِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ کَثِیراً کما عاقبهم اللّه بالحرمان من تلک الطیبات لتعاملهم بالربا علی الرغم من منعهم من ممارسة المعاملات الربویة و لاستیلائهم علی أموال الآخرین بطرق غیر مشروعة، فتقول الآیة فی هذا المجال: وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَکْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ ....

و تؤکّد الآیة أنّ عذاب الیهود لمعاصیهم تلک لا یقتصر علی العقاب الدنیوی، بل سیذیقهم اللّه- أیضا- عقاب و عذاب الآخرة الألیم الذی یشمل الکافرین من الیهود، تقول الآیة الکریمة: وَ أَعْتَدْنا لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِیماً.

و تجدر الإشارة- هنا إلی عدة أمور، و هی:

۱- إنّ المقصود بالطیبات المحرمة علی الیهود هی تلک التی ذکرتها الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام، و التی شملت بعض الحیوانات و شحوم حیوانات أخری کالبقر و الأغنام التی أحبّها الیهود، و لم یکن هذا التحریم تحریما تکوینیا، بل کان تحریما تشریعیا قانونیا، أی أن الیهود منعوا من استعمال هذه النعم مع أنّها کانت متیسرة فی أیدیهم.

و قد جاء ذکر بعض هذا التحریم فی التوراة المتداولة بید الیهود حالیا، فی «سفر الآویین» فی الفصل الحادی عشر، و لکن لم تشر التوراة الحالیة إلی الطابع العقابی لهذا التحریم ۲۶۹].

۲- أمّا هل أنّ هذا التحریم یتمیز بطابع شمولی، أی هل یشمل غیر الظالمین من الیهود، أم یخص الظالمین وحدهم؟ فإنّ ظاهر الآیة المذکورة أعلاه و الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام، یدلان علی أنّ التحریم له طابع عام بدلالة عبارة «لهم» علی عکس العقاب الأخروی الذی تخصصه الآیة لِلْکافِرِینَ مِنْهُمْ و علی هذا الأساس فإن هذا التحریم له طابع عقابی بالنسبة للظالمین من الیهود، کما یحمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۳

طابع الاختبار و الامتحان بالنسبة لأخیارهم الذین یشکلون الأقلیة فیهم.

و قد ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ هذا التحریم یشمل الظالمین من الیهود فقط، کما تدل بعض الروایات علی هذا الرأی- أیضا- فقد جاء فی تفسیر البرهان فی تفسیر الآیة (۱۴۶) من سورة الأنعام،

نقلا عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إنّ زعماء بنی إسرائیل کانوا قد حرموا علی فقراء طائفتهم أکل لحوم الطیور و شحوم الحیوانات، و لهذا السبب حرم اللّه علی هؤلاء الظالمین مثل هذه الطیبات عقابا لهم علی ظلمهم و جورهم ۲۷۰]».

۳- و تدل هذه الآیة- أیضا- علی أنّ تشریع تحریم «الربا» لم یقتصر علی الإسلام وحده، بل کان محرما لدی الأقوام و الدیانات السابقة، و التوراة المتداولة حالیا و المحرفة إنّما تحرم علی الیهود أخذ الربا من أبناء عقیدتهم فقط، و لا تعتبر أخذه من أبناء الدیانات الأخری حراما علیهم ۲۷۱].

و قد أشارت الآیة الثّالثة من الآیات الأخیرة إلی حقیقة مهمّة اعتمدها القرآن الکریم مرارا فی آیات متعددة، و هی أنّ ذمّ الیهود و انتقادهم فی القرآن لا یقومان علی أساس عنصری أو طائفی علی الإطلاق، لأنّ الإسلام لم یذم أبناء أی طائفة أو عنصر لانتمائهم الطائفی أو العرقی، بل وجه الذم و الانتقاد للمنحرفین و الضالمین منهم فقط، لذلک استثنت هذه الآیة المؤمنین الأتقیاء من الیهود و مدحتهم و بشرتهم بنیل أجر عظیم، حیث تقول الآیة الکریمة: لکِنِ الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ یُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَیْکَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ وَ الْمُقِیمِینَ الصَّلاةَ وَ الْمُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْیَوْمِ الْآخِرِ أُولئِکَ سَنُؤْتِیهِمْ أَجْراً عَظِیماً[۲۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۴

و قد آمن جمع من کبار الطائفة الیهودیة بالإسلام حین بعث النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و حین شاهدوا علی یدیه الکریمتین دلائل أحقّیة الإسلام، و دافع هؤلاء بأرواحهم و أموالهم عن الإسلام، و کانوا موضع احترام و تقدیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۵

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۳ الی ۱۶۶]

اشارة

إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً (۱۶۳) وَ رُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً (۱۶۴) رُسُلاً مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلَّا یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ کانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً (۱۶۵) لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِکَةُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً (۱۶۶)

التّفسیر

لقد تناولت الآیات السابقة مسألة التمییز الذی مارسه الیهود بشأن الأنبیاء، حیث کانوا یؤمنون و یصدقون ببعض أنبیاء اللّه تعالی و یکفرون بالبعض الآخر منهم.

أمّا الآیات أعلاه فهی ترد علی الیهود، و تؤکّد أنّ اللّه أوحی إلی نبیّه محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما أنزل الوحی علی أنبیائه نوح و النّبیین الذین جاؤوا من بعد نوح، و کما أوحی إلی إبراهیم و إسماعیل و إسحاق و یعقوب علیهم السّلام و أنزل الوحی علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۶

الأنبیاء من أبناء یعقوب، و علی عیسی و أیوب و یونس و هارون و سلیمان علیهم السّلام، و کما أنزل اللّه علی داود علیه السّلام کتاب الزّبور، حیث تقول الآیة: إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً.

و هذه الآیة تردّ علی الیهود مؤکّدة علی أنّ شرائع الأنبیاء العظام مستقاة کلها من ینبوع الوحی الإلهی، و إنّهم جمیعا یسیرون فی طریق واحد، و لذلک لا تجوز التفرقة بینهم.

و قد تکون هذه الآیة خطابا للمشرکین و الکفار من عرب الجاهلیة، الذین کانوا یظهرون الدهشة و العجب من نزول الوحی علی نبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فهی تردّ علی هؤلاء مؤکّدة أن لا عجب فی نزول الوحی علی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قد نزل قبل ذلک علی الأنبیاء السابقین.

ثمّ تبیّن الآیة أنّ الوحی لم یقتصر نزوله علی هؤلاء الأنبیاء، بل نزل علی أنبیاء آخرین حکی اللّه قصصهم للنّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قبل، و أنبیاء لم یحک اللّه قصصهم، و کل هؤلاء الأنبیاء أرسلهم اللّه إلی خلقه، و أنزل علیهم الوحی من عنده، تقول الآیة: وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ ....

و تبیّن هذه الآیة فی آخرها قضیة مهمّة جدّا، و هی أنّ اللّه قد کلم موسی بدل أن ینزل علیه الوحی، فتقول: وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً ....

و علی هذا الأساس فإنّ صلة الوحی ظلت باقیة بین البشر، و لم یکن من عدل اللّه أن یترک البشر دون مرشد أو قائد، أو أن یترکهم دون أن یعین لهم واجباتهم و تکالیفهم، و هو الذی بعث الأنبیاء و الرسل للبشر مبشرین و منذرین، لکی یبشروا الناس برحمته و ثوابه، و ینذرونهم من عذابه و عقابه لکی یتمّ الحجة علیهم فلا یبقی لهم عذر أو حجّة، تقول الآیة: رُسُلًا مُبَشِّرِینَ وَ مُنْذِرِینَ لِئَلَّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۷

یَکُونَ لِلنَّاسِ عَلَی اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

فقد أحکم اللّه العزیز القدیر خطّة إرسال الأنبیاء و نفذها بکل دقة، و بهذا تؤکد الآیة وَ کانَ اللَّهُ عَزِیزاً حَکِیماً فحکمته توجب تحقیق هذا العمل، و قدرته تمهد السبیل إلی تنفیذه، و علی عکس ذلک فإن إهمال هذا الأمر المهم، إمّا أن یدل علی الافتقار إلی الحکمة و المعرفة، أو أنّه دلالة علی العجز، و اللّه منزّه عن کل هذه العیوب.

أمّا الآیة الأخری فهی تطمئن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و توضح له أن المهم هو أنّ اللّه قد شهد بما أنزل علیه من کتاب، و لیس المهم أن یؤمن نفر من هؤلاء بهذا الکتاب أو یکفروا به- فتؤکد الآیة فی هذا المجال- لکِنِ اللَّهُ یَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَیْکَ

و لم یکن اختیار اللّه لمحمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لمنصب النّبوة أمرا عبثا- و العیاذ باللّه- بل کان هذا الإختیار نابعا من علم اللّه بما کان یتمتع به النّبی من لیاقة و کفاءة لهذا المنصب العظیم، و لنزول آیات اللّه علیه- حیث تقول الآیة: أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ

و یمکن- أیضا- أن تشمل هذه الآیة معنی آخر، و هو أن ما نزل علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من آیات إنّما ینبع من بحر علم اللّه اللامتناهی، و إن محتوی هذه الآیات یعتبر دلیلا واضحا علی أنّها نابعة من علم اللّه- و علی هذا الأساس فإن الشاهد علی صدق ادعاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو الآیات القرآنیة، و لا یحتاج إلی دلیل آخر لإثبات دعوته، فلو لم یکن محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتلقی الوحی من قبل اللّه سبحانه و تعالی لما أمکنه أبدا- و هو المعروف بالأمی- أن یأتی بکتاب کالقرآن یشتمل علی أرفع و أسمی التعالیم و الفلسفات و القوانین و المبادئ الأخلاقیة و البرامج الاجتماعیة.

و القرآن الکریم یؤکّد أن لیس اللّه وحده الذی یشهد بأن دعوة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی الحق، بل یشهد معه ملائکته بأحقّیة هذه الدعوة، مع أن شهادة اللّه کافیة وحدها فی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: وَ الْمَلائِکَةُ یَشْهَدُونَ وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۸

و یجب- هنا- الانتباه إلی عدّة أمور، و هی:

۱- إنّ بعض المفسّرین فهموا من عبارة إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا ... إنّها تهدف إلی بیان حقیقة من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هی أنّ جمیع الخصائص التی وردت فی الشرائع السماویة التی نزلت علی الأنبیاء قبله، جاءت مجتمعة فی الشریعة التی أنزلها اللّه علیه، و إنّ کل خصلة اتصف بها عباد اللّه الصالحون هی موجودة فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد أشارت بعض الروایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام إلی هذا الموضوع أیضا فکان ما استلهمه المفسّرون من هذه الآیة نابعا أو مستندا علی تلک الروایات ۲۷۳].

۲- نقرأ فی الآیات الأخیرة أنّ الزّبور من الکتب السماویة أنزله اللّه علی داود- و لا یتنافی هذا مع ما ورد من أنّ الأنبیاء أولی العزم الذین نزلت علیهم کتب من اللّه هم خمسة أنبیاء فقط، حیث إن الآیات القرآنیة و الروایات الإسلامیة توضح أن الکتب السماویة التی نزلت علی الأنبیاء کانت علی نوعین، هما:

النّوع الأوّل: الکتب التی اشتملت علی الأحکام التشریعیة، حیث أن کل کتاب من هذه الکتب قد أعلن عن شریعة جدیدة، و أن هذه الکتب السماویة هی خمسة فقط نزلت علی خمسة أنبیاء هم «اولوا العزم».

النّوع الثّانی: الکتب التی لم تحتو علی أحکام جدیدة، بل کان فیها الحکم و النصائح و الإرشادات و الوصایا و أنواع الدعاء، و کتاب «الزّبور» الذی نزل علی داود علیه السّلام من هذا النّوع الثّانی من الکتب السماویة- و «مزامیر داود» أو «زبور داود» الذی ورد اسمه فی «العهد القدیم» دلیل علی هذا الأمر الذی أثبتناه، مع العلم أنّ کتاب «العهد القدیم» لم یسلم من التحریف، کما لم تسلم کتب العهد الجدید و القدیم الأخری من التحریف أیضا، إلّا أنّ ما یمکن قوله هو أنّ هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۳۹

الکتب قد احتفظت نوعا ما بشکلها القدیم.

و کتاب «مزامیر داود» یشتمل علی مائة و خمسین فصلا، یسمی کل فصل منه «مزمورا» و هو من أوّله إلی آخره یشتمل علی صنوف النصح و الإرشاد و الدعاء و المناجاة.

و

نقل عن أبی ذر رضی اللّه عنه أنّه سأل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن عدد الأنبیاء فأجابه النّبی: بأن عددهم یبلغ مائة و أربعا و عشرین ألفا، فسأل أبو ذر رضی اللّه عنه عن عدد الرسل من بین هؤلاء الأنبیاء- فأجابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: بأن عددهم هو ثلاثمائة و ثلاثة عشر رسولا- و الباقون کلهم أنبیاء ... فسأل أبو ذر مرة أخری عن عدد الکتب السماویة التی نزلت علی أولئک الأنبیاء و الرسل، فأجابه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: بأنّها مائة و أربع کتب، نزل عشرة منها علی آدم، و نزل خمسون منها علی شیث، و ثلاثون علی إدریس، و عشرة کتب علی إبراهیم، حیث یصبح مجموع هذه الکتب مائة کتاب، و الأربعة الأخری هی التوراة، و الإنجیل و الزبور و القرآن ۲۷۴].

۳- إنّ عبارة «أسباط» هی صیغة للجمع و مفردها «سبط» و معناها طوائف بنی إسرائیل، و لکن المقصود منها فی الآیة هم الأنبیاء الذین بعثوا من هذه الطوائف ۲۷۵].

۴- لقد کان نزول الوحی علی الأنبیاء یتمّ بصور مختلفة، فمرّة ینزل بالوحی ملک من الملائکة المکلفین به و أحیانا یلقی الوحی علی النّبی بواسطة الإلهام القلبی، و أخری ینزل بصورة صوت یسمعه النّبی، أی أن اللّه یخلق الأمواج الصوتیة فی الفضاء أو الأجسام فیسمعها أنبیاؤه و بهذه الواسطة کان یتمّ التخاطب بینهم و بین اللّه سبحانه و تعالی.

و من الذین حظوا بمزیة التخاطب مع اللّه النّبی موسی بن عمران علیه السّلام، فکان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۵۳۹

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۰

یسمع الصوت، أحیانا من شجرة وادی الأیمن، و أحیانا فی جبل طور، و لذلک لقب هذا النّبی بلقب «کلیم اللّه»، و لعل مجیء اسم النّبی موسی علیه السّلام فی الآیات الأخیرة بصورة منفصلة کان من أجل بیان هذه الخصیصة التی امتاز بها موسی علیه السّلام علی غیره من أنبیاء اللّه علیهم السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۱

الآیات [سورة النساء (۴): الآیات ۱۶۷ الی ۱۶۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِیداً (۱۶۷) إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً (۱۶۸) إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ خالِدِینَ فِیها أَبَداً وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً (۱۶۹)

التّفسیر

جری البحث فی الآیات السابقة حول المؤمنین و غیر المؤمنین، أمّا الآیات الثلاثة الأخیرة فهی تشیر إلی مجموعة اختارت أقبح أنواع الکفر، فهؤلاء- بالإضافة- إلی انحرافهم و ضلالهم سعوا إلی تحریف و إضلال الآخرین، و قد ظلموا أنفسهم بفعلهم هذا و ظلموا الآخرین معهم لأنهم لم یسیروا فی طریق الحق و لم یسمحوا للآخرین- أیضا- باتّباع هذا السبیل، و الآیة الکریمة تصف هؤلاء بأنّهم فی ضلال بعید و ذلک بقولها: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالًا بَعِیداً.

فلما ذا- یا تری- استحق هؤلاء الإبعاد عن طریق الحق؟ إنّهم استحقوا ذلک لدعوتهم الآخرین إلی طریق الضلال، حیث من المستبعد جدّا أن یتخلوا عن طریق هم یدعون الآخرین لاتّباعه- فقط خلط هؤلاء کفرهم بالعناد، و وضعوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۲

أقدامهم فی طریق الضلال و الانحراف، و ابتعدوا بذلک کثیرا عن طریق الحق و الصواب.

أمّا الآیة الأخری فتشیر إلی الذین کفروا و ظلموا، إذ ظلموا الحق أوّلا لعدم التزامهم بالصواب، کما ظلموا أنفسهم بذلک- أیضا- إذ حرموها من السعادة و سقطوا فی هوة الضلالة، و ظلموا الآخرین حین منعوهم من التوجه إلی طریق الحق و الصواب، فهؤلاء لن یشملهم أبدا عفو اللّه، و إن اللّه لا یهدیهم أبدا إلّا إلی طریق جهنم، تقول الآیة: إِنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ ظَلَمُوا لَمْ یَکُنِ اللَّهُ لِیَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِیَهْدِیَهُمْ طَرِیقاً إِلَّا طَرِیقَ جَهَنَّمَ ....

فهؤلاء باقون و خالدون فی جهنم دائما و أبدا، کما تقول الآیة: خالِدِینَ فِیها أَبَداً ....

و علی هؤلاء أن یعلموا أنّ وعد اللّه حق، و أن تهدیده یتحقق لا محالة، فلیس ذلک علی اللّه بالأمر الصعب تقول الآیة: وَ کانَ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیراً.

و نشاهد فی الآیتین المذکورتین تأکیدا من طراز خاص حول هذا النوع من الکفار و العقوبات التی ینالونها- فمن جهة یوصف انحرافهم بالضلال البعید، و من جهة ثانیة تؤکد الآیة باستخدام عبارة لَمْ یَکُنِ اللَّهُ ... أنّ العفو عن هؤلاء الکفار لا یلیق بمنزلة اللّه سبحانه و تعالی، و من جانب آخر فقد جاء التأکید علی خلود هؤلاء فی النار و التشدید علی أنّه خلود أبدی، لأنّ هؤلاء و أمثالهم

بالإضافة إلى خروجهم عن جادة الحق و انحرافهم، سعوا إلى إبعاد و حرف الآخرين عن هذا السبيل، و بذلك تحملوا مسئولية و إثما عظيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۳

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۰]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۱۷۰)

التّفسير

لقد أوضحت الآيات السابقة نهاية و عاقبة الناس الذين انعدم لديهم عنصر الإيمان، أمّا الآية الأخيرة فهى تدعو إلى الإيمان و تبيّن نتيجة هذا الإيمان، و تستخدم فى ترغيب الناس إلى هذا الهدف السامى عبارات و اصطلاحات تثير عند الأفراد الرغبة و الاندفاع نحو الإيمان.

و هذه الآية تشير فى البداية إلى أنّ النّبى المرسل هو ذلك الذى كان ينتظر الناس ظهوره، و الذى أشارت إليه الكتب السماوية السابقة، و هو يحمل إليهم شريعة الحق و العدالة فتقول الآية فى هذا المجال: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الرَّسُولُ ۲۷۶] بِالْحَقِ ۲۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۴

ثمّ تردف الآية بأن هذا النّبى قد جاء إلى الناس من اللّه الذى تعهد تربية الخلق أجمعين، و ذلك من خلال العبارة القرآنية الواردة فى هذه الآية، و هى عبارة: مِنْ رَبِّكُمْ

و بعد ذلك تؤكّد الآية- على أنّ إيمان الأفراد إنّما تعود فائدته و يعود نفعه عليهم أنفسهم، أى أن الإنسان إذا آمن إنما يخدم نفسه بهذا الإيمان قبل أن يخدم به غيره تقول الآية: فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ

كما تؤكّد الآية فى النهاية على أن من يتخذ الكفر سبيلا لنفسه فلن يضرّ اللّه بعمله هذا أبدا، لأن اللّه يملك كل ما فى السماوات و ما فى الأرض، فهو بهذا لا يحتاج إلى أى شىء من الآخرين، تقول الآية فى هذا الصدد: وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و تبيّن الآية فى النهاية أنّ أحكام اللّه و أوامره كلّها لمصلحة البشر، لأنّها نابعة من حكمة اللّه و علمه و هى قائمة على أساس تحقيق مصالح الناس، و منافعهم الخيّرة، فتقول الآية: وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

و من المنطلق نفسه فإنّ ما أرسله اللّه من شرائع لتنظيم الحياة الاجتماعية للبشر بواسطة الأنبياء عليهم السّلام، لم يكن- مطلقا- لحاجة اللّه إلى ذلك، بل إنّه نابع من علمه و حكمته، فهل يحق للبشر بعد هذا البيان أن يتركوا طريق الإيمان و يتبعوا سبيل الكفر؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۵

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۱]

اشارة

يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ

رُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ سُبْحانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۱۷۱)

التّفسير

اسطورة التثليث الوهمية:

تتطرق هـذه الآية و الآية التى تليها إلى واحد من أهم انحرافات الطائفة المسيحية، و هذا الانحراف هو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أى وجود آلهة ثلاثة و يأتى التطرق إلى هذا البحث فى سياق البحوث القرآنية التى وردت فى الآيات السابقة عن أهل الكتاب و الكفار.

فهـذه الآيـة تحـذر فى البداية أهل الكتاب من المغالاة و التطرف فى دينهم، و تدعوهم أن لا يقولوا على اللّه غير الحق، حيث تقول: يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَ لا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ....

لقد كانت قضية الغلو فى حق القادة السابقين إحدى أخطر منابع الانحراف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۶

فى الأديـان السـماوية، فالإنسـان بمـا أنّه يميـل إلى ذاته ينـدفع بهـذا الميـل إلى إظهـار زعمائه و قادته بصورة أكبر ممّا هم عليه، لكى يضفى على نفسه الأهمية و العظمة من خلال هؤلاء القادة، و قد يدفع الإنسان التصور الواهى بأن الإيمان هو المبالغة و الغلو فى احترام و تعظيم القادة- إلى الوقوع فى متاهات هذا النوع من الانحراف الرهيب.

و الغلو فى أصله ينطوى على عيب كبير يفسد العنصر الأساسى للدين- الذى هو عبادة اللّه و توحيده- و لهذا السبب فقد عامل الإسلام الغلاة أو المغالين بعنف و شدّة، إذ عرفت كتب الفقه و العقائد هذه الفئة من الناس بأنّهم أشد كفرا من الآخرين.

بعـد ذلك تشـير الآيـة الكريمـة إلى عدّة نقاط، يعتبر كل واحد منها فى حدّ ذاته دليلا على بطلان قضـية التثليث، و عدم صـحة الوهية المسيح عليه السّلام، و هذه النقاط هى:

۱- لقد حصـرت الآية بنوة السـيد المسـيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ و إشارة البنوة- هذه الواردة فى ستة عشر مكانا من القرآن الكريم- إنّما تؤكّد أنّ المسيح عليه السّلام هو إنسان كسائر الناس، خلق فى بطن امّه، و مرّ بدور الجنين فى ذلك الرحم، و فتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السّلام كما يولد أفراد البشر من بطون أمهاتهم و مرّ بفترة الرضاعة و تربى فى حجر امّه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صـفات البشر فكيف يمكن- و حالة المسيح عليه السّلام هذه- أن يكون إلها أزليا أبديا، و هو فى وجوده محكوم بـالظواهر و القوانين الماديـة الطبيعيـة و يتـأثر بالتحولات الجاريـة فى عالم الوجود؟! و عبارة الحصـر التى هى «إنّما» الواردة فى الآية تحصر بنوة المسيح عليه السّلام بمريم عليها السّلام و تؤكّد على أنّه و إن لم يكن له والد، فليس معنى ذلك أن أباه هو اللّه، بل هو فقط ابن مريم عليها السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۷

۲- تؤكّد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السّلام هو رسول اللّه و مبعوث إلى البشر من قبله سبحانه و تعالى، و إن هذه المنزلة- أى منزلة النّبوة- لا تتناسب و مقام الألوهية.

و الجـدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسـيح عليه السّـلام الوارد قسم منه فى الأناجيل المتداولة فى الوقت الحاضـر، إنّما يؤكّد نبوته و بعثته لهداية الناس، و ليس فيه دلالة على ادعائه الألوهية و الربوبية.

۳- تبيّن الآية أن عيسى المسيح عليه السّلام هو كلمة اللّه التى ألقاها إلى مريم عليها السّلام حيث تقول: وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ

و قد وردت عبارة: «کلمة» فی وصف المسیح فی عدد من الآیات القرآنیة، و هذه إشارة إلی کون المسیح مخلوقا بشریا، إذ أن الکلمات مخلوقة من قبل اللّه، کما أنّ الموجودات فی الکون من مخلوقاته عزّ و جلّ، فکما أن الکلمات تبیّن مکنونات أنفسنا- نحن البشر- و تدل علی صفاتنا و أخلاقیاتنا، فإنّ مخلوقات الکون تحکی صفات خالقها و جماله و تدل علی جلاله و عظمته.

و علی هذا الأساس فقد وردت عبارة «کلمة» فی عدد من العبارات القرآنیة، لتشمل جمیع مخلوقات اللّه، کما فی الآیة (۱۰۹) من سورة الکهف و الآیة (۲۹) من سورة لقمان، و بدیهی أنّ الکلمات الإلهیة تتفاوت بعضها مع البعض فی المنزلة و الأهمیة و عیسی علیه السّلام یعتبر إحدی کلمات اللّه البارزة الأهمیة، لکونه ولد من غیر أب، إضافة إلی کونه یتمتع بمقام الرسالة الإلهیة.

۴- تشیر الآیة إلی أنّ عیسی المسیح علیه السّلام هو روح مخلوقة من قبل اللّه، حیث تقول وَ رُوحٌ مِنْهُ و هذه العبارة التی وردت فی شأن خلق آدم- أو بعبارة أخری خلق البشر أجمعین- فی القرآن الکریم، إنما تدل علی عظمة تلک الروح التی خلقها اللّه تعالی و أودعها فی أفراد البشر بصورة عامّة، و فی المسیح علیه السّلام و سائر الأنبیاء بصورة خاصّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۸

و علی الرغم من أنّ البعض أساء الاستفادة من هذه العبارة و فسّرها بأنّ المسیح علیه السّلام هو جزء من اللّه سبحانه و تعالی، مستندا إلی عبارة «منه» و لکن الواضح فی مثل هذه الحالات أن کلمة «من» لیست للتبعیض، بل تدل علی مصدر و منشأ و أصل وجود الشیء.

و هناک طرفة تاریخیة تذکر أنّه کان لهارون الرشید طبیب نصرانی، دخل یوما فی نقاش مع «علی بن الحسین الواقدی» و هو أحد المفکرین الإسلامیین فی ذلک العصر، فقال له هذا الطبیب: «توجد فی کتابکم السماوی آیة تبیّن أنّ المسیح علیه السّلام هو جزء من اللّه ...» و تلا هذا النصرانی الآیة موضوع البحث، فرد علیه «الواقدی» مباشرة تالیا هذه الآیة: وَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ جَمِیعاً مِنْهُ ...[۲۷۸]، و أضاف مبیّنا أنّ کلمة «من» لو کانت تفید التبعیض، لاقتضی ذلک أن تکون جمیع موجودات السماء و الأرض- بناء علی هذه الآیة- جزءا من اللّه، فلما سمع الطبیب النصرانی کلام الواقدی أسلم فی الحال، و سر إسلامه هارون الرشید فکافأ الواقدی بجائزة مناسبة[۲۷۹].

إنّ ما یثیر العجب- إضافة إلی ما ذکر- هو أنّ المسیحیین یرون ولادة المسیح من أمّ دون أب دلیلا علی ألوهیته، و هم ینسون فی هذا المجال أن آدم علیه السّلام کان قد ولد من غیر أب، و لا أم، و لم یر أحد هذه الخصیصة الموجودة فی آدم دلیلا علی ربوبیته.

بعد ذلک تؤکّد الآیة علی ضرورة الإیمان باللّه الواحد الأحد و بأنبیائه، و نبذ عقیدة التثلیث، مبشرة المؤمنین بأنّهم إن نبذوا هذه العقیدة فسیکون ذلک خیرا لهم حیث قالت الآیة: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَیْراً لَکُمْ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۴۹

و تعید الآیة التأکید علی وحدانیة اللّه قائلة: إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ ... و هی تخاطب المسیحیین لأنّهم حین یدعون التثلیث یقبلون- أیضا- بوحدانیة اللّه، فلو کان للّه ولد لوجب أن یکون شبیهه، و هذه حالة تناقض أساس الوحدانیة.

فکیف- إذن- یمکن أن یکون للّه ولد، و هو منزّه من نقص الحاجة إلی زوجة أو ولد، کما هو منزّه من نقائص التجسیم و أعراضه؟ تقول الآیة: سُبْحانَهُ أَنْ یَکُونَ لَهُ وَلَدٌ ... و اللّه هو مالک کل ما فی السموات و ما فی الأرض و الموجودات کلها مخلوقاته و هو خالقها جمیعا، و المسیح علیه السّلام- أیضا- واحد من خلق اللّه، فکیف یمکن الادعاء بهذا الاستثناء فیه؟ و هل یمکن المملوک و المخلوق أن یکون ابنا للمالک و الخالق؟! حیث تؤکد الآیة: لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ ... و اللّه هو المدبر و الحافظ و الرازق و الراعی لمخلوقاته، تقول الآیة: وَ کَفی بِاللَّهِ وَکِیلًا.

و الحقیقة هی أنّ اللّه الأزلی الأبدی الذی یرعی جمیع الموجودات منذ الأزل إلی الأبد لا یحتاج مطلقا إلی ولد، فهل هو کسائر الناس لکی یحتاج إلی ولد یخلفه من بعد الموت؟

عقيدة التثليث أكبر خرافة مسيحية:

ليس فى الانحرافات التى تورط بها العالم المسيحى أكبر من انحراف عقيدة التثليث، لأنّ المسيحيين يعتقدون صراحة بالثالوث الإلهى، و هم فى نفس الوقت يصرحون بأن اللّه واحد! أى أنّهم يرون الحقيقة فى التثليث و التوحيد فى أن واحد.

و قد خلقت هذه القضية- التى لها حدان متناقضان- مشكلة كبيرة للمفكرين و الباحثين المسيحيين.

فلو كان المسيحيون مستعدين لقبول مسألة التوحيد بأنّها «مجازية» و قبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۰

مسألة التثليث بأنّها مسألة حقيقية أو قبول العكس، لأمكن تبرير هذا الأمر، و لكنهم يرون الحقيقة فى الجمع بين هذين المتناقضين، فيقولون أن الثلاثة واحد كما يقولون أن الواحد ثلاثة فى نفس الوقت.

و ما يلاحظ من ادعاء فى الكتابات التبشيرية الأخيرة للمسيحيين، و التى توزع للناس الجهلاء، من أن التثليث شىء مجازى، إنّما هو كلام مشوب بالرياء و لا يتلاءم مطلقا مع المصادر الأساسية للمسيحية، كما لا يتفق مع الآراء و المعتقدات الحقيقية للمفكرين المسيحيين.

و يواجه المسيحيون- هنا- قضية لا تتفق مع العقل فالمعادلة التى افترضوا فيها أن ۱ ۳ لا يقبلها حتى الأطفال الذين هم فى مرحلة الدراسة الابتدائية.

و لهذا السبب ادعوا أنّ هذه القضية لا تقاس بمقياس العقل، و طلبوا الإذعان بها عبر ما سمّوه بالرؤية التعبدية القلبية.

و كان هذا التناقض منشأ للتباعد الحاصل لديهم بين الدين و العقل، و سببا لجر الدين إلى متاهات خطيرة، الأمر الذى اضطرهم إلى القول بأن الدين ليس له صلة بالعقل، أو ليس فيه الطابع العقلانى، و أنّه ذو طابع تعبدى محض.

و هذا هو أساس التناقض بين الدين و العلم فى منطق المسيحية، فالعلم يحكم بأنّ الثلاثة لا تساوى الواحد، و المسيحية المعاصرة تصر على أنّهما متساويان! و يجب الالتفات- هنا- إلى عدّة نقاط حول هذا الإعتقاد المسيحى:

۱- لم يشر أى من الأناجيل المتداولة فى الوقت الحاضر إلى مسألة التثليث لذلك يعتقد الباحثون المسيحيون أنّ مصدر التثليث فى الأناجيل خفى و غير بارز، و فى هذا المجال يقول الباحث الأمريكى المستر هاكس: «إنّ قضية التثليث تعتبر فى العهدين القديم و الجديد خفية و غير واضحة، (القاموس المقدس، ص ۳۴۵، طبعة بيروت).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۱

و ذكر المؤرّخون أنّ قضية التثليث قد برزت بعد القرن الثّالث الميلادى لدى المسيحيين و إن منشأ هذه البدعة كان الغلو من جانب، و اختلاط المسيحيين بالأقوام الأخرى من جانب آخر.

و يرى البعض احتمال أن يكون مصدر التثليث عند المسيحيين واردا من عقيدة الثالوث الهندى، أى عبادة الهنود للآلهة الثلاثة[۲۸۰].

۲- إنّ قضية التثليث القائلة بأن الثلاثة واحد تعتبر أمرا غير معقول أبدا، و يرفضها العقل بالبداهة، و الشىء الذى نعرفه هو أن الدين لا يمكنه أن يكون منفصلا عن العقل و العلم، فالعلم الحقيقى و الدين الواقعى كلاهما متفقان و متناسقان دائما- و لا يمكن القول بأن الدين أمر تعبدى محض- لأننا لو أزحنا العقل جانبا عند قبول مبادئ الدين و أذعنا للعبادة العمياء الصماء، فلا يبقى لدينا ما نميز به بين الأديان المختلفة.

و فى هذه الحالة، أى دليل يوجب على الإنسان أن يعبد اللّه و لا يعبد الأصنام؟ و أى دليل يدعو المسيحيين إلى التبشير لدينهم لا للأديان الأخرى؟

و من هذا المنطلق فإن الخصائص التى يراها المسيحيون لدينهم و يصرّون على دعوة الناس للقبول بها، هى بحدّ ذاتها دليل على أن

الدین یجب أن یعرف بمنطق العقل، و هذا یناقض دعواهم حول قضیة التثلیث التی یرون فیها انفصال الدین عن العقل.

و لیس هناک کلام یستطیع تحطیم الدین أشد و أقبح من أن یقال: إن الدین لا یمتلک طابعا عقلانیا و منطقیا، و أنّه ذو طابع تعبدی محض! ۳- إنّ الأدلة العدیدة التی یستشهد بها- فی مجال إثبات التوحید، و وحدانیة الذات الإلهیة- ترفض کل أنواع التثنیة أو التثلیث- فاللّه سبحانه و تعالی هو وجود مطلق لا یحد بالجهات، و هو أزلی أبدی لا حدود لعلمه و لقدرته و لقوته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۲

و بدیهی أنّه لا یمکن تصور التثنیة فی اللامتناهی، لأنّ فرض وجود لا متناهیین یجعل من هذین الإثنین متناهیین و محدودین، لأن وجود الأوّل یفتقر إلی قدرة و قوة و وجود الثّانی کما أن وجود الثّانی یفتقر إلی وجود و خصائص الأوّل، و علی هذا الأساس فإن کلا الوجودین محدودان.

و بعبارة أخری: إنّنا لو افترضنا وجود لا متناهیین من جمیع الجهات، فلا بدّ حین یصل اللامتناهی الأوّل إلی تخوم اللامتناهی الثّانی ینتهی إلی هذا الحد کما أن اللامتناهی الثّانی حین یصل إلی حد اللامتناهی الأوّل ینتهی هو أیضا، و علی هذا الأساس فإن کلیهما یکونان محدودین و لا تنطبق صفة اللامتناهی علی أی منهما، بل هما متناهیان محدودان، و النتیجة هی أن ذات اللّه- الذی هو وجود لا متناه- لا یمکن أن تقبل التعدد أبدا.

و هکذا فإنّنا لو اعتقدنا بأن الذات الإلهیة تتکون من الأقانیم الثلاثة، لا یستلزم أن یکون کل من هذه الأقانیم محدودا، و لا تصح فیه صفة اللامحدود و اللامتناهی، و کذلک فإن أی مرکب فی تکوینه یکون محتاجا إلی أجزائه التی تکونه، فوجود المرکب یکون معلولا لوجود أجزائه.

و إذا افتراضنا الترکیب فی ذات اللّه لزم أن تکون هذه الذات محتاجه أو معلولة لعلّة سابقة فی حین إنّنا نعرف أنّ اللّه غیر محتاج، و هو العلّة الأولی لعالم الوجود، و علّة العلل کلها منذ الأزل و إلی الأبد.

۴- بالإضافة إلی کل ما ذکر، کیف یمکن للذات الإلهیة أن تتجسد فی هیکل إنسانی لتصبح محتاجة إلی الجسم و المکان و الغذاء و اللباس و أمثالها؟

إنّ فرض الحدود للّه الأزلی الأبدی، أو تجسیده فی هیکل إنسان و وضعه جنینا فی رحم أمّ، یعتبر من أقبح التهم التی تلصق بذات اللّه المقدسة المنزهة عن کل النقائص، کما أنّ افتراض وجود الابن للّه- و هو یستلزم عوارض التجسیم المختلفة- إنما هو افتراض غیر منطقی و بعید عن العقل بعدا مطلقا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۳

بدلیل أنّ أی إنسان لم ینشأ فی محیط مسیحی و لم یتربّ منذ طفولته علی هذه التعلیمات الوهمیة الخاطئة عند ما یسمع هذه التعابیر المنافیة للفطرة الإنسانیة و المخالفة لما یحکم به العقل البشری، یشعر بالسخط و الاشمئزاز، و إذا کان المسیحیون أنفسهم لا یرون بأسا فی کلمات مثل «اللّه الأب» و «اللّه الابن» فما ذلک إلّا لأنّهم جبلوا علی هذه التعالیم الخاطئة منذ نعومة أظفارهم.

۵- لوحظ فی السنین الأخیرة أنّ جماعة من المبشرین المسیحیین یلجؤون إلی أمثلة سفسطائیة من أجل خداع الجهلاء من الناس فی قبول قضیة التثلیث.

من هذه الأمثلة قولهم أن اجتماع التوحید و التثلیث معا یمکن تشبیهه بقرص الشمس و النور و الحرارة النابعتین من هذا القرص، حیث أنّها ثلاثة أشیاء فی شیء واحد.

أو تشبیههم ذلک بانعکاس صورة إنسان فی ثلاث مرایا فی آن واحد، فهذا الإنسان مع کونه واحدا إلّا أنّه یظهر و کأنّه ثلاثة فی المرایا الثلاث.

کما یشبهون التثلیث بالمثلث الذی له ثلاث زوایا من الخارج، و یقولون بأنّ هذه الزوایا لو مدت من الدخل لوصلت کلها إلی نقطة

واحدة؟! لكننا بالتعمق قليلا فى هذه الأمثلة يتبيّن لنا أن لا صلة لها بموضوع بحثنا الحاضر، فقرص الشمس شيء و نورها شيء آخر و النور الذى يتكون من الأشعة فوق الحمراء يختلف عن الحرارة التى تتكون من الأشعة دون الحمراء، و هذه الأشياء الثلاثة تختلف الواحدة منها عن الأخرى من حيث النظرة العلمية، و هى ليست بمجموعها شيئا واحدا من خلال هذه النظرة.

و إذا صح القول بأنّ هذه الأشياء الثلاثة شيء واحد، إنّما يكون ذلك من باب التسامح أو التعبير المجازى ليس إلّا.

و الأوضح من ذلك مثال الجسم و المرايا الثلاث، فالصورة الموجودة فى المرايا عن الجسم ليست إلّا انعكاسا للنور، و بديهى أنّ انعكاس النّور عن جسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۴

معين غير ذات الجسم، و على هذا الأساس فليس هناك أى اتحاد حقيقى أو ذاتى بين الجسم و صورته المنعكسة فى المرآة، و هذه قضية يدركها حتى الدارس المبتدى لعلم الفيزياء.

أمّا فى مثال المثلث فالأمر واضح كما فى المثالين السابقين، حيث أن زوايا المثلث المتعددة لا علاقة لها بالبداهة بالامتداد الداخلى الحاصل للزوايا، و الذى يوصلها جميعا إلى نقطة واحدة.

و الذى يثير العجب- أكثر من ذلك- هو محاولة بعض المسيحيين المستشرقين مطابقة قضية «التوحيد فى التثليث» مع نظرية «وحدة الوجود» التى يقول بها الصوفيون ۲۸۱] و الأمر الواضح من غير دليل- فى هذا المجال- هو إنّما لو قبلنا بالنظرية الخاطئة و المنحرفة القائلة بوحدة الوجود، لاقتضى ذلك منّا أن نذعن بأن كل موجودات العالم أو الكون هى جزء من ذات اللّه سبحانه و تعالى، بل الإذعان بأنّها هى عين ذاته.

عند ذلك لا يبقى معنى للتثليث، بل تصبح جميع الموجودات- صغيرها و كبيرها- جزءا أو مظهر اللّه سبحانه، و على هذا الأساس فلا يمكن تطابق نظرية التثليث المسيحية بالنظرية الصوفية القائلة بوحدة الوجود بأى شكل من الأشكال، علما بأن النظرية الصوفية هذه قد دحضت و بان بطلانها.

۶- يقول بعض المسيحيين- أحيانا- إنّها حين يسمّون المسيح عليه السّلام ب «ابن اللّه» إنّما يفعلون ذلك كما يفعل المسلمون فى تسمية سبط الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الحسين بن على بن أبى طالب عليه السّلام ب «ثار اللّه و ابن ثاره» أو كالتسمية التى وردت فى بعض الروايات لعلى بن أبى طالب عليه السّلام حيث سمى فيها ب «يد اللّه»، و هؤلاء المسيحيون يفسرون كلمة «ثار» بأنّها تعنى الدم، أى أنّ العبارة الواردة فى الحسين الشهيد عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۵

تعنى «دم اللّه و ابن دمه».

إنّ هذا الأمر هو عين الخطأ:

أوّلا: لأنّ العرب لم تطلق كلمة الثأر أبدا لتعنى بها الدم، بل اعتبرت الثأر دائما ثمنا للدم، و لذلك فإن معنى العبارة أن اللّه هو الذى يأخذ ثمن دم الحسين الشهيد، و أن هذا الأمر منوط به سبحانه و تعالى، أى أنّ الحسين عليه السّلام لم يكن ملكا أو تابعا لعشيرة أو قبيلة معينة لتطالب بدمه، بل هو يخص العالم و البشرية جمعاء و يكون تابعا لعالم الوجود و ذات اللّه المقدسة، و لذلك فإن اللّه هو الذى يطالب و يأخذ ثمن دم هذا الشهيد- كما أن الحسين هو ابن على بن أبى طالب عليه السّلام الذى استشهد فى سبيل اللّه، و اللّه هو الذى يطالب و يأخذ ثمن دمه أيضا.

و ثانيا: حين يعبّر فى بعض الأحيان عن بعض أولياء اللّه بعبارة «يد اللّه» فإن هذا التعبير- حتما- من باب التشبيه و الكناية و المجاز ليس إلّا.

فهل يجيز أى مسيحى لنفسه أن يقال فى عبارة «ابن اللّه» الواردة عندهم فى حق المسيح عليه السّلام أنّها ضرب من المجاز و الكناية؟

بدیهی أنّه لا یقبل ذلک، لأنّ المصادر المسیحیة الأصلیة اعتبرت صفة البنوة للّه سبحانه منحصرة بالمسیح علیه السّلام وحده و لیس فی غیره، و اعتبروا تلک الصفة حقیقیة لا مجازیة، و ما بادر إلیه بعض المسیحیین من الادعاء بأن هذه الصفة هی من باب الکنایة أو المجاز، إنّما هو من أجل خداع البسطاء من الناس.

و لإیضاح هذا الأمر نحیل القاری إلی کتاب «القاموس المقدس» فی مادة «اللّه» حیث یقول هذا الکتاب بأنّ عبارة «ابن اللّه» هی واحدة من القاب منجی و مخلص وفادی المسیحیین، و أن هذا اللقب لا یطلق علی أی شخص آخر إلّا إذا وجدت قرائن تبیّن بأنّ المقصود هو لیس الابن الحقیقی للّه ۲۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۶

الآیتان [سورة النساء (۴): الآیات ۱۷۲ الی ۱۷۳]

اشارة

لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ یَسْتَنْکِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ یَسْتَکْبِرْ فَسَیَحْشُرُهُمْ إِلَیْهِ جَمِیعاً (۱۷۲) فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَیُوَفِّیهِمْ أُجُورَهُمْ وَ یَزِیدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِینَ اسْتَنْکَفُوا وَ اسْتَکْبَرُوا فَیُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِیماً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً (۱۷۳)

سبب النّزول

روی جمع من المفسّرین أنّ هذه الآیة نزلت بشأن طائفة من مسیحیی نجران، حین زاروا النّبی محمّدا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استفسروا منه عن سبب اعتراضه علی نبیّهم المسیح علیه السّلام، فسألهم النّبی علیه السّلام عن أی اعتراض هم یتحدثون؟ فقالوا للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّک تقول بأنّ المسیح هو عبد اللّه و رسوله ...» فنزلت الآیتان جوابا علی قولهم هذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۷

التّفسیر

المسیح هو عبد اللّه:

علی الرغم من أنّ هاتین الآیتین لهما سبب نزول خاص بهما، إلّا أنّهما جاءتا فی سیاق الآیات السابقة التی تحدثت فی نفی الألوهیة عن المسیح علیه السّلام و علاقتهما بالآیات السابقة فی دحض قضیة التثلیث واضحة و جلیة.

فی البدایة تشیر الآیة الأولی إلی دلیل آخر لدحض دعوی ألوهیة المسیح، فتقول مخاطبة المسیحیین: کیف تعتقدون بألوهیة عیسی علیه السّلام فی حین أنّ المسیح لم یستنکف عن عبادة اللّه و الخضوع بالعبودیة له سبحانه، کما لم یستنکف الملائکة المقرّبون من هذه العبادة؟ حیث قالت الآیة: لَنْ یَسْتَنْکِفَ الْمَسِیحُ أَنْ یَکُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِکَةُ الْمُقَرَّبُونَ

و بدیهی أنّ من یکون عبدا لا یمکن أن یصبح معبودا فی آن واحد، فهل یمکن أن یعبد فرد نفسه؟ أو هل یکون العابد و المعبود و الرّب فردا واحدا؟

و فی هذا المجال ینقل بعض المفسّرین حادثة طریفة تحکی أن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام لکی یدین و یفند عقیدة

التثليث المنحرفة قال لكبير المسيحيين فى ذلك الحين- و كان يلقب ب «الجاثليق»- بأنّ المسيح عليه السّلام كان حسنا فى كل شىء لو لا وجود عيب واحد فيه، و هو قلة عبادته للّه، فغضب الجاثليق و قال للإمام الرضا عليه السّلام: ما أعظم هذا الخطأ الذى وقعت فيه، إنّ عيسى المسيح كان من أكثر أهل زمانه عبادة، فسأله الإمام عليه السّلام على الفور: و من كان يعبده المسيح؟! فها أنت قد أقررت بنفسك أنّ المسيح كان عبدا و مخلوقا للّه و أنّه كان يعبد اللّه و لم يكن معبودا و لا ربّا؟ فسكت الجاثليق و لم يحر جوابا.[۲۸۳] بعد ذلك تشير الآية إلى أن الذين يمتنعون عن عبادة اللّه و الخضوع له بالعبودية، يكون امتناعهم هذا ناشئا عن التكبر و الأنانية و إنّ اللّه سيحضر هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۸

الناس فى يوم القيامة و يجازى كل واحد منهم بالعقاب الذى يناسبه، فتقول الآية:

وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً.

و إنّ اللّه العزيز القدير سيكافئ فى يوم القيامة أولئك الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قاموا بالأعمال الخيرة، و يعطيهم ثوابهم كاملا غير منقوص و يجزل لهم الثواب و النعم، أمّا الذين تكبروا و امتنعوا عن عبادة اللّه، فإنهم سينالون منه عذابا أليما شديدا، و لن يجدوا فى يوم القيامة لأنفسهم وليا أو حاميا من دون اللّه، حيث تقول الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ أَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَ اسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

فى هذه الآية نقطتان يجب الانتباه إليهما، و هما:

۱- إنّ كلمة «استنكاف» تأتى بمعنى الامتناع أو الاستياء الشديد من شىء، و لها معان واسعة، و تحدد معناها- هنا- بما أتى بعدها من قرينة فى عبارة اسْتَكْبَرُوا لإنّ الامتناع عن عبادة اللّه و رفض الخضوع له بالعبودية إمّا ناشئ عن الجهل أو الغفلة. و أحيانا أخرى ينشأ هذا الامتناع عن التكبر و الأنانية و الغرور، و مع أن الامتناعين يعتبران ذنبا، إلّا أن الامتناع الأخير يفوق الأوّل قبحا بمراتب كبيرة.

۲- إنّ الآية جاءت بعبارة توضح عدم استنكاف الملائكة المقرّبين عن عبادة اللّه، و ذلك ردّا على المسيحيين الذين يثلثون الآلهة (الأب و لابن و روح القدس) و لتدحض عن هذا الطريق فرضية وجود المعبود الثّالث الذى ادعاه المسيحيون و مثلوه فى أحد الملائكة المسمى ب «روح القدس» و لتثبت التوحيد و وحدانية ذات اللّه سبحانه و تعالى.

و قد تكون هذه الآية إشارة إلى الشرك الذى وقع فيه الوثنيون العرب، و الشرك الذى تورط به المسيحيون حيث أنّ مشركى الجاهلية كانوا يعتبرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۵۹

الملائكة أبناء اللّه سبحانه، أو يعدونهم جزءا منه، فجاءت هذه الآية لترد عليهم و تدحض أقوالهم هذه.

و عند التعمق فى هذين الأمرين يتبيّن لنا- بجلاء- أنّ الآية لم تأت لبيان التفاضل بين الملائكة و الأنبياء، بل جاءت فقط لدحض عقيدة «الأقنوم الثّالث» أو دحض عقيدة المشركين العرب فى الملائكة، و ليس فيها أى دلالة على مسألة التفاضل بين المسيح عليه السّلام و بين الملائكة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۰

الآيتان [سورة النساء (۴): الآيات ۱۷۴ الى ۱۷۵]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً (۱۷۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ

فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۱۷۵)

التّفسير

النّور المبين:

بعد أن تناولت الآيات السابقة بعضا من انحرافات أهل الكتاب بالنسبة لمبدأ التوحيد و مبادئ و تعاليم الأنبياء، جاءت الآيتان الأخيرتان لتختما القول فى بيان سبيل النّجاة و الخلاص من تلك الانحرافات.

لقد توجه الخطاب أوّلا إلى عامّة الناس، مبينا أنّ اللّه قد بعث من جانبه نبيّا يحمل معه الدلائل و البراهين الواضحة، و بعث معه النور المبين المتجسد فى القرآن الكريم الذى يهدى الناس إلى طريق السعادة الأبدية، حيث تقول الآية الأولى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً.

و يعتقد بعض العلماء أنّ كلمة «برهان» المشتقة من المصدر «بره» على وزن «فرح» تعنى الابيضاض- و لمّا كانت الأدلة الواضحة تجلى للمسامع وجه الحق و تجعله واضحا مشرقا أبيض لذلك سميت ب «البرهان».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۱

و المقصود بالبرهان الوارد فى الآية موضوع البحث- و كما يقول جمع من المفسّرين و تؤكّد ذلك القرائن- هو شخص نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ المقصود بالنور هو القرآن المجيد الذى عبّرت عنه آيات أخرى بالنور أيضا.

و قد فسّرت الأحاديث المتعددة المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام- و التى أوردتها تفاسير «نور الثقلين» و «على بن إبراهيم» و «مجمع البيان»- أن «البرهان» هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و «النّور» هو على بن أبى طالب عليه السّلام.

و لا يتنافى هذا التّفسير مع ذلك الذى أوردناه قبله، حيث يمكن أن يقصد بعبارة «النور» معان عديدة لتشمل «القرآن» و «أمير المؤمنين على عليه السّلام» الذى يعتبر حافظا و مفسّرا للقرآن و مدافعا عنه.

و توضح الآية الثانية عاقبة اتّباع هذا البرهان و هذا النور، فتؤكّد على أنّ الذين آمنوا باللّه و تمسكوا بهذا الكتاب السماوى، سيدخلهم اللّه عاجلا فى رحمته الواسعة، و يجزل لهم الثواب من فضله و رحمته، و يهديهم إلى الطريق المستقيم. تقول الآية: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً[۲۸۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۲

الآية [سورة النساء (۴): آية ۱۷۶]

اشارة

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالاً وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۷۶)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسرين عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قوله بأنّه كان يعانى من مرض شديد، فعاده النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضأ عنده و رشّ عليه من ماء وضوئه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فذكر جابر- و هو يفكر فى الموت- للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ ورثته هن أخواته فقط، و استفسر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن كيفية تقسيم الإرث بينهنّ، فنزلت هذه الآية و التى تسمّى- أيضا- ب «آية الفرائض» و بيّنت طريقة تقسيم الإرث بينهنّ (و قد وردت الرّواية المذكورة أعلاه بفارق طفيف فى تفاسير «مجمع البيان» و «التبيان» و «المنار» و «الدر المنثور» و غيرها من التفاسير ...).

و يعتقد البعض أن هذه الآية هى آخر آية من آيات الأحكام نزولا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۳

التّفسير

تبيّن الآية الواردة أعلاه كمية الإرث للأخوة و الأخوات، و قد بيّنا فى أوائل سورة النساء- فى تفسير الآية الثانية عشر منها- إنّ القرآن اشتمل على آيتين توضحان مسألة الإرث للأخوة و الأخوات و إن إحدى هاتين الآيتين هى الآية الثانية عشرة من سورة النساء، و الثانية هى الآية الأخيرة موضوع بحثنا هذا و هى آخر آية من سورة النساء.

و على الرغم ممّا ورد من اختلاف فى الآيتين فيما يخص مقدار الإرث، إلّا أنّ كل آية من هاتين الآيتين تتناول نوعا من الأخوة و الأخوات كما أوضحنا فى بداية السورة.

فالآية الأولى تخصّ الأخوة و الأخوات غير الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحدة و آباء متعددين.

أمّا الآية الثانية أى الأخيرة، فهى تتناول الإرث بالنسبة للأخوة الأشقاء، أى الذين هم من أمّ واحدة و أب واحد، أو من أمهات متعددات و أب واحد.

و الدليل على قولنا هذا، أن من ينتسب إلى شخص المتوفى بالواسطة يتعين إرثه بمقدار ما يرثه الواسطة من شخص المتوفى.

فالأخوة و الأخوات غير الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحدة و آباء متعددين- يرثون بمقدار حصّة أمّهم من الإرث و التى هى الثلث.

أمّا الأخوة و الأخوات الأشقاء- أى الذين هم من أمّ واحدة و أب واحد، أو من أب واحد و أمهات متعددات- فهم يرثون بمقدار حصّة والدهم من الإرث التى هى الثلثان.

و لمّا كانت الآية الثانية عشرة من سورة النساء تتحدث عن حصّة الثلث من الإرث للأخوة و الأخوات، و تتناول الآية الأخيرة حصّة الثلثين، لذلك يتّضح أنّ الآية السابقة تخص الأخوة و الأخوات غير الأشقاء الذين يرتبطون بشخص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۴

المتوفى عن طريق أمهم، و أنّ الآية الأخيرة تخصّ الأخوة و الأخوات الأشقاء الذين يرتبطون بشخص المتوفى عن طريق الأب أو عن طريق الأب و الأمّ معا.

و الروايات الواردة عن الأئمّة عليهم السّلام فى هذا المجال تؤكّد هذه الحقيقة أيضا.

و على أى حال فإن كانت حصّة الأخ أو الأخت هى الثلث أو الثلثان، فإنّ الباقى من الإرث يوزع بناء على القانون الإسلامى بين الباقين من الورثة، و هكذا و بعد أن توضح لنا عدم وجود أى تناقض بين الآيتين، نتطرق الآن إلى تفسير الأحكام الواردة فى الآية الأخيرة.

و تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الآية جاءت لتفصل إرث الكلالة أى إرث الأخوة و الأخوات ۲۸۶] فتقول الآية: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ... أى يسألونك فخبرهم بأنّ اللّه هو الذى يعين حكم «الكلالة» (أى الأخوة و الأخوات).

بعد ذلك تشير الآية إلى عدد من الأحكام، و هى:

۱- إذا مات رجل و لم يكن له ولد و كانت له أخت واحدة، فإنّ هذه الأخت ترث نصف ميراثه تقول الآية الكريمة: إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ

لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَ لَهُ أُخْتٌ فَلَها نِصْفُ ما تَرَكَ ....

۲- و إذا ماتت امرأة و لم يكن لها ولد، و كان لها أخ واحد- شقيق من أبيها وحده أو من أبيها و أمها معا- فإنّ أخاها الوحيد يرثها، تقول الآية: وَ هُوَ يَرِثُها إِنْ لَمْ يَكُنْ لَها وَلَدٌ ....

۳- و إذا مات شخص و كانت له أختان فقط، فإنّهما ترثان ثلثى ما تركه من الميراث، تقول الآية الكريمة: فَإِنْ كانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثانِ مِمَّا تَرَكَ ....

۴- و إذا كان ورثة الشخص المتوفى عددا من الأخوة و الأخوات أكثر من اثنين، فإن ميراثه يقسم جميعه بينهم، بحيث تكون حصّة الأخ من الميراث ضعف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۵

حصّة الأخت الواحدة منه. تقول الآية الكريمة: وَ إِنْ كانُوا إِخْوَةً رِجالًا وَ نِساءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ....

و فى الختام تؤكد الآية أنّ اللّه يبيّن للناس هذه الحقائق لكى يصونهم من الانحراف و الضلالة، و يدلهم على طريق الصواب و السعادة (و حقيق أن يكون الطريق الذى يرسمه اللّه للناس و يهديهم إليه هو الطريق الصحيح) و اللّه هو العالم العارف بكل شىء، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۲۸۷].

و الجدير بالذكر هنا أنّ الآية- موضوع البحث- إنّما تبيّن إرث الأخوة و الأخوات فى حالة عدم وجود ولد الشخص المتوفى، و لم تتطرق الآية إلى وجود الأب و الأم للشخص المتوفى، و لكن بناء على الآيات الواردة فى بداية سورة النساء- فإن الأب و الأمّ يأتون فى مصاف الأبناء فى الطبقة الأولى من الوارثين، و لذلك يتوضح أن المقصود من الآية الأخيرة هى حالة عدم وجود أبناء و عدم وجود أبوين للشخص المتوفى.

انتهى تفسير سورة النساء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۷

سورة المائدة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها مائة و عشرون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۶۹

محتويات سورة المائدة

إنّ هذه السورة من السور المدنية، و تشتمل على مائة و عشرين آية، و قيل أنّها نزلت بعد سورة الفتح، و تدل روايات على أنّها نزلت كلّها فى فترة حجّة الوداع بين مكة و المدينة[۲۸۸].

و تشتمل هذه السورة على مجموعة من المعارف و العقائد الإسلامية بالإضافة إلى سلسلة من الأحكام و الواجبات الدينية.

و قد وردت فى القسم الأوّل منها الإشارة إلى قضية الخلاف بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قضايا أخرى مثل: عقيدة التثليث المسيحية، و مواضيع خاصّة بيوم القيامة و الحشر و استجواب الأنبياء حول أممهم.

أمّا القسم الثّانى فقد اشتمل على قضية الوفاء بالعهود و المواثيق، و قضايا العدالة الاجتماعية، و الشهادة العادلة، و تحريم قتل النفس (من خلال ذكر قضية ابنى آدم، و قتل قابيل لأخيه هابيل) بالإضافة إلى بيان أقسام من الأغذية المحرمة و المحللة، و أقسام من أحكام

الوضوء و التيمم.

أمّا وجه تسمية السورة ب «سورة المائدة» فهو لورود قصّة نزول المائدة السماوية على حوارى المسيح عليه السّلام فى الآية (۱۱۴) منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ (۱)

التّفسير

الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق:

تدل الروايات الإسلامية و أقوال المفسّرين على أنّ هذه السورة هى آخر سورة أو من السور الأخيرة التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و

قد ورد فى تفسير العياشى نقلا عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام قال: «نزلت المائدة قبل أن يقبض النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشهرين أو ثلاثة»[۲۸۹].

و ما ورد بشأن هذه السورة من أنّها من السور الناسخة و ليست المنسوخة يعتبر إشارة إلى المعنى المذكور أعلاه.

و لا يتنافى هذا الكلام مع ذلك الذى ورد فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۱

فى هامش الآية (۲۸۱) من سورة البقرة- حيث قلنا هناك بأنّ هذه الآية هى آخر آية نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ كلامنا الحالى هو عن آخر سورة نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلامنا السابق كان عن آية واحدة.

لقد تمّ التأكيد فى هذه السورة- لما تمتاز به من موقع خاص- على مجموعة من المفاهيم الإسلامية، و على آخر البرامج و المشاريع الدينية، و قضية قيادة الأمّة و خلافة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد يكون هذا هو السبب فى استهلال سورة المائدة بقضية الإلزام بالوفاء بالعهد و الميثاق، حيث تقول الآية فى أوّل جملة لها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ... و ذلك لكى تلزم المؤمنين بالوفاء بعهودهم التى عقدوها فى الماضى مع اللّه أو تلك التى أشارت إليها هذه السورة.

و يأتى هذا التأكيد على غرار ما يفعله المسافر فى اللحظات الأخيرة، من الوداع مع أهله و أقاربه و أنصاره حيث يؤكّد عليهم أن لا ينسوا وصاياه و نصائحه، و أن يوفوا بالعهود و المواثيق التى عقدوها معه.

و يجب الالتفات إلى أنّ كلمة «عقود» هى صيغة جمع من «عقد» التى تعنى فى الأصل شد أطراف شىء معين ببعضها شدا محكما، و من هنا يسمّى شد طرفى الحبل أو شد حبلين ببعضهما «عقدا».

بعد ذلك تنتقل الآية من هذا المعنى المحسوس إلى المفهوم المعنوى فتسمّى كلّ عهد أو ميثاق عقدا، لكن بعض المفسّرين- قالوا بأنّ كلمة «عقد» مفهوم أضيق من العهد، لأن كلمة العقد تطلق على العهود المحكمة إحكاما كافيا، و لا تطلق على كل العهود، و إذا وردت فى بعض الروايات أو فى عبارات المفسّرين كلمتا العقد و العهد للدلالة على معنى واحد فذلك لا ينافى ما قلناه، لأنّ المقصود

فى هذه الروايات أو العبارات هو التّفسير الإجمالى لهاتين الكلمتين لا بيان جزئياتهما.

و نظرا لأنّ كلمة العقود هى صيغة جمع دخلت عليها الألف و اللام للدلالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۲

على الاستغراق، و الجملة التى وردت فيها هذه الكلمة جملة مطلقة أيضا إطلاقا تاما، لذلك فإن الآية- موضوع البحث- تعتبر دليلا على وجوب الوفاء بجميع العهود التى تعقد بين أفراد البشر بعضهم مع البعض الآخر، أو تلك العهود التى تعقد مع اللّه سبحانه و تعالى عقدا محكما.

و بذلك تشمل هذه الآية جميع العهود و المواثيق الإلهية و الإنسانية و الاتفاقيات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و التجارية، و عقود الزواج، و أمثال ذلك، و لها مفهوم واسع يطوى بين جنبيه جميع جوانب حياة الإنسان العقائدية و العملية، و يشمل العهود الفطرية و التوحيدية و حتى العهود التى يعقدها الناس فيما بينهم على مختلف قضايا الحياة.

و جاء فى تفسير «روح المعانى» عن «الراغب الأصفهانى» أنّ العقد- نظرا لطرفيه ينقسم إلى ثلاثة أنواع، فأحيانا يكون عقدا بين العبد و ربّه، و طورا بين الفرد و نفسه، و حينا بين الفرد و نظائره من سائر أفراد البشر[۲۹۰].

و طبيعى أن لكل من هذه الأنواع الثلاثة من العقود طرفين، و غاية الأمر أنّ الإنسان حين يتعاقد مع نفسه يفترض هذه النفس بمثابة الشخص الثّانى، أو الطرف الآخر من العقد.

و على أى حال، فإنّ مفهوم هذه الآية- لسعته- يشمل حتى تلك العقود و العهود التى يقيمها المسلمون مع غير المسلمين.

و هناك عدّة أمور فى هذه الآية يجب الانتباه إليها و هى:

۱- تعتبر هذه الآية من الآيات التى تستدل بها جميع كتب الفقه، فى البحوث الخاصّة بالحقوق الإسلامية و تستخلص منها قاعدة فقهية مهمة هى «أصالة اللزوم فى العقود» أى أنّ كل عقد أو عهد يقام بين اثنين حول أشياء أو أعمال يكون لازم التنفيذ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۳

و يعتقد جمع من الباحثين أنّ أنواع المعاملات و الشركات و الاتفاقيات الموجودة فى عصرنا الحاضر، و التى لم يكن لها وجود فى السابق، أو التى ستوجد بين العقلاء فى المستقبل، و التى تقوم على أسس و مقاييس صحيحة- تدخل ضمن هذه القاعدة، حيث تؤكّد هذه الآية صحتها جميعا (و طبيعى أن الضوابط الكلية التى أقرّها الإسلام للعقود و العهود يجب أن تراعى فى هذا المجال).

و الاستدلال بهذه الآية كقاعدة فقهية ليس معناه أنّها لا تشمل العهود الإلهية المعقودة بين البشر و بين اللّه تعالى، أو القضايا الخاصّة بالقيادة و الزعامة الإسلامية التى أخذ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العهد و الميثاق فيها من الأمّة، بل إنّ للآية مفهوما واسعا يشمل جميع هذه الأمور.

و تجدر الإشارة هنا إلى أن حقيقة العهد و الميثاق ذات طرفين، و لزوم الوفاء بالعهد يبقى ساريا ما دام لم يقم أحد من المتعاقدين بنقض العهد، و لو نقض أحد الطرفين العقد لم يكن الطرف الثّانى عند ذلك ملزما بالوفاء بالعهد إذ يخرج العهد بهذا النقض من حقيقة العهد و الميثاق.

۲- إنّ قضية الوفاء بالعهد و الميثاق التى تطرحها الآية- موضوع البحث- تعتبر واحدا من أهم مستلزمات الحياة الاجتماعية، إذ بدونها لا يتمّ أى نوع من التعاون و التكافل الاجتماعى، و إذا فقد نوع البشر هذه الخصلة فقدوا بذلك حياتهم الاجتماعية و آثارها أيضا.

و لهذا تؤكد مصادر التشريع الإسلامى بشكل لا مثيل له- على قضية الوفاء بالعهود التى قد تكون من القضايا النوادر التى تمتاز بهذا النوع من السعة و الشمولية، لأنّ الوفاء لو انعدم بين أبناء المجتمع الواحد لظهرت الفوضى و عم الاضطراب فيه و زالت الثقة العامّة، و زوال الثقة يعتبر من أكبر و أخطر الكوارث.

و

قد ورد فى نهج البلاغة من قول الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام لمالك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۴

الأشتر رضى اللّه عنه ما يلى: «فإنّه ليس من فرائض اللّه شىء للناس أشدّ عليه اجتماعا- مع تفرق أهوائهم و تشتت آرائهم- من تعظيم الوفاء بالعهود، و قد لزم ذلك المشركون فيما بينهم- دون المسلمين- لما استوبلوا من عواقب الغدر»[۲۹۱].

و جملة

«لما استوبلوا من عواقب الغدر»

معناها: لما نالهم من وبال من عواقب الغدر.

و

ينقل عن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لا يقبل إلّا العمل الصالح، و لا يقبل اللّه إلّا الوفاء بالشروط و العهود»[۲۹۲].

و

نقل عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا دين لمن لا عهد له»[۲۹۳].

و التأكيدات الشديدة هذه كلها تدل على أنّ موضوع الوفاء بالعهد لا فرق فى الالتزام به بين إنسان و إنسان آخر- سواء كان مسلما أو غير مسلم- و هو- كما يصطلح عليه- يعتبر من حقوق الإنسان بصورة عامّة، و ليس- فقط- من حقوق أنصار الدين الواحد.

و

فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «ثلاث لم يجعل اللّه عزّ و جلّ لأحد فيهنّ رخصة: أداء الأمانة إلى البر و الفاجر، و الوفاء بالعهد للبر و الفاجر، و بر الوالدين برين كانا أو فاجرين!»[۲۹۴].

نقل عن الإمام على عليه السّلام بأن العهد حتى لو كان بالإشارة يجب الوفاء به، و ذلك فى قوله: «إذا أومى أحد من المسلمين أو أشار إلى أحد من المشركين، فنزل على ذلك فهو فى أمان»[۲۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۵

و بعد أن تطرقت الآية إلى حكم الوفاء بالعهد و الميثاق- سواء كان إلهيا أو إنسانيا محضا- أردفت ببيان مجموعة أخرى من الأحكام الإسلامية، كان الأوّل منها حلية لحوم بعض الحيوانات، فبيّنت أن المواشى و أجنتها تحل لحومهما على المسلمين، حيث تقول الآية: أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ و كلمة «الأنعام» صيغة جمع من «نعم» و تعنى الإبل و البقر و الأغنام ۲۹۶].

أمّا كلمة «بهيمة» فهى مشتقة من المصدر «بهمة» على وزن «تهمة» و تعنى فى الأصل الحجر الصلب، و يقال لكل ما يعسر دركه «مبهما» و جميع الحيوانات التى لا تمتلك القدرة على النطق تسمى «بهيمة» لأنّ أصواتها تكون مبهمة للبشر، و قد جرت العادة على إطلاق كلمة «بهيمة» على المواشى من الحيوانات فقط، فأصبحت لا تشمل الحيوانات الوحشية و الطيور.

و من جانب آخر فإن جنين المواشى يطلق عليه اسم «بهيمة» لأنّه يكون مبهما نوعا ما.

و على الإساس المذكور فإنّ حكم حلية بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ يشمل إمّا جميع المواشى ما عدا التى استثنتها الآية فيما بعد، أو تكون الجملة بمعنى أجنة الحيوانات من ذوات اللحم الحلال (تلك الأجنة التى اكتمل نموها و هى فى بطن أمّها، و كسى جلدها بالشعر أو الصوف)[۲۹۷].

و لما كان حكم حلية حيوانات كالإبل و البقر و الأغنام قد تبيّن للناس قبل هذه الآية، لذلك من المحتمل أن تكون الآية- موضوع البحث- إشارة إلى حلية أجنة هذه الحيوانات.

و الظاهر من الآية أنّها تشمل معنى واسعا، أى تبيّن حلية هذه الحيوانات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۶

بالإضافة إلى حلية لحوم أجنتها أيضا، و مع أنّ هذا الحكم كان قد توضح فى السابق إلّا أنّه جاء مكررا فى هذه الآية كمقدمة للاستثناءات الواردة فيها.

و يتبيّن لنا ممّا تقدم أن علاقة الجملة الأخيرة و حكمها بالأصل الكلى- الذى هو لزوم الوفاء بالعهد- هى التأكيد على كون الأحكام الإلهية نوعا من العهد بين اللّه و عباده- حيث تعتبر حلية لحوم بعض الحيوانات و حرمة لحوم البعض الآخر منها قسما من تلك الأحكام.

و فى الختام تبيّن الآية موردين تستثنيهما من حكم حلية لحوم المواشى، و أحد هذين الموردين هو اللحوم التى سيتم بيان حرمتها فيما بعد، حيث تقول الآية: إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ و المورد الثّانى هو أن يكون الإنسان فى حالة إحرام للحج أو العمرة، حيث يحرم عليه الصيد فى هذه الحالة، فتقول الآية: غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ ۲۹۸].

و فى آخر الآية يأتى التأكيد على أنّ اللّه إذا أراد شيئا أو حكما انجزه أو أصدره، لأنه عالم بكل شىء، و هو مالك الأشياء كلها، و إذا رأى أن صدور حكم تكون فيه مصلحة عباده و تقتضى الحكمة صدوره، أصدر هذا الحكم و شرعه، حيث تقول الآية فى هذا المجال: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ ما يُرِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۷

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لا الْهَدْيَ وَ لا الْقَلائِدَ وَ لا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲)

التّفسير

ثمانية احكام فى آية واحدة:

لقد بيّنت هذه الآية عددا من الأحكام الإلهية الإسلامية المهمة، و هى من الأحكام الأواخر التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلها أو أغلبها تتعلق بحج بيت اللّه، و هى على الوجه التالى:

۱- الطلب من المؤمنين بعدم انتهاك شعائر اللّه، و نهيهم عن المساس بحرمة هذه الشعائر المقدسة، كما تقول الآية الكريمة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ ... و اختلف المفسّرون حول المراد بكلمة «الشعائر» الواردة هنا، و بالنظر إلى الأجزاء الأخرى من هذه الآية، و إلى السنة التى نزلت فيها و هى السنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۸

العاشرة للهجرة التى أدى فيها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آخر حجّة إلى مكّة المكرمة هى حجّة الوداع، يتّضح أنّ المراد بهذه الكلمة مناسك الحج التى كلف المسلمون باحترامها كلّها، و يؤكّد هذا الرأى مجىء كلمة «الشّعائر» فى القرآن الكريم مقترنة بالحديث عن مناسك الحج دائما[۲۹۹].

۲- دعت الآیة إلی احترام الأشهر الحرم و هی شهور من السنة القمریة، کما نهت عن الدخول فی حرب فی هذه الشهور، حیث قالت: وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ ....

۳- حرمت الآیة المساس بالقرابین المخصصة للذبح فی شعائر الحج، سواء ما کان منها ذا علامة و هو المسمّی ب «الهدی»[۳۰۰] أو تلک الخالیة من العلامات و التی تسمّی ب «القلائد»[۳۰۱] أی نهت عن ذبحها و أکل لحومها حتی تصل إلی محل القربان للحج و تذبح فیه، فقالت الآیة: وَ لَا الْهَدْیَ وَ لَا الْقَلائِدَ ....

۴- أوجبت الآیة توفیر الحریة التامّة لحجاج بیت اللّه الحرام أثناء موسم الحج، الذی تزول خلاله کل الفوارق القبلیة و العرقیة و اللغویة و الطبقیة، و نهت عن مضایقة المتوجهین إلی زیارة بیت اللّه الحرام ابتغاء لمرضاته، أو حتی الذین توجهوا إلی هذه الزیارة و هم یحملون معهم أهدافا أخری کالتجارة و الکسب الحلال لا فرق فیهم بین صدیق أو غریم، فما داموا کلهم مسلمین و قصدهم زیارة بیت اللّه، فهم یتمتعون بالحصانة کما تقول الآیة الکریمة: وَ لَا آمِّینَ الْبَیْتَ الْحَرامَ یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْواناً ....

یعتقد بعض المفسّرین و الفقهاء أنّ الجملة القرآنیة المذکورة أعلاه ذات معنی عام و تشمل غیر المسلمین، أی المشرکین أیضا إن هم جاءوا لزیارة بیت اللّه الحرام یجب أن یتعرضوا للمضایقة من قبل المسلمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۷۹

و لکن نظرا لنزول آیة تحریم دخول المشرکین إلی المسجد الحرام فی سورة التوبة التی نزلت فی العام التاسع للهجرة، و نزول سورة المائدة فی أواخر عمر النّبی الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أی فی العام العاشر للهجرة و هی سورة لم یطرأ النسخ علی أیّ من الأحکام الواردة فیها- بحسب روایات الطائفتین الشیعة و السنة- لذلک یستبعد أن یکون هذا التّفسیر صحیحا، و الحق أن الحکم المذکور خاص بالمسلمین وحدهم.

۵- لقد خصصت هذه الآیة حکم حرمة الصید بوقت الإحرام فقط، و أعلنت أنّ الخروج من حالة الإحرام إیذان بجواز الصید للمسلمین- حیث تقول الآیة الکریمة: وَ إِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا.

۶- منعت هذه الآیة الکریمة المسلمین من مضایقة أولئک النفر من المسلمین الذین کانوا قبل إسلامهم یضایقون المسلمین الأوائل فی زیارة بیت اللّه الحرام و یمنعونهم من أداء مناسک الحج، و کان هذا فی واقعة الحدیبیة، فمنع المسلمون من تجدید الأحقاد و مضایقة أولئک النفر فی زمن الحج بعد أن أسلموا و قبلوا الإسلام لهم دینا، تقول الآیة الکریمة: وَ لا یَجْرِمَنَّکُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوکُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ أَنْ تَعْتَدُوا[۳۰۲].

و مع أنّ هذا الحکم قد نزل فی مجال زیارة بیت اللّه الحرام، لکنه- فی الحقیقة- یعد حکما عاما، و قانونا کلیا یدعو المسلمین إلی نبذ «الحقد» و عدم إحیاء الأحداث السابقة فی أذهانهم بهدف الانتقام من مسببیها.

و لمّا کانت خصلة الحقد إحدی عناصر ظهور و بروز النفاق و الفرقة لدی المجتمعات یتّضح لنا- منذ ذلک- جلیا أهمیة هذا الحکم الإسلامی فی التصدی و الوقوف بوجه استعار نار النفاق بین المسلمین و بالأخص فی زمن کان نبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۰

الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوشک علی وداع المسلمین و الرحیل عنهم.

۷- تؤکّد الآیة- جریا علی سیاق البحث الذی تناولته و بهدف إکماله- علی أنّ المسلمین بدلا من أن یتحدوا للانتقام من خصومهم السابقین الذین أسلموا- و أصبحوا بحکم إسلامهم أصدقاء- علیهم جمیعا أن یتحدوا فی سبیل فعل الخیرات و التزام التقوی، و أن لا یتعاونوا- فی سبیل الشر و العدوان تقول الآیة:

وَ تَعاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوی وَ لا تَعاوَنُوا عَلَی الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ ....

۸- و لکی تعزز الآیة الأحکام السابقة و تؤکّدها تدعو المسلمین فی الختام إلی اتّباع التقوی و تجنّب معصیة اللّه، محذره من عذاب

اللّه الشديد، فتقول:

وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

التعاون فى أعمال الخير:

إنّ الدعوة إلى التعاون التى تؤكّد عليها الآية الكريمة تعتبر مبدأ إسلاميا عاما، تدخل فى إطاره جميع المجالات الاجتماعية و الأخلاقية و السياسية و الحقوقية و غيرها و قد أوجبت هذه الدعوة على المسلمين التعاون فى أعمال الخير، كما منعتهم و نهتهم عن التعاون فى أعمال الشرّ و الإثم اللّذين يدخل إطارهما الظلم و الاستبداد و الجور بكل أصنافها.

و يأتى هذا المبدأ الإسلامى تماما على نقيض مبدأ ساد فى العصر الجاهلى، و ما زال يطبق حتى فى عصرنا الحاضر، و هو المبدأ القائل: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»، و كان فى العصر الجاهلى إذا غزت جماعة من إحدى القبائل جماعة من قبيلة أخرى، هب أفراد القبيلة الغازية لموازرة الغازين بغض النظر عمّا إذا كان الغزو لغرض عادل أو ظالم، و نرى فى وقتنا الحاضر- أيضا- آثار هذا المبدأ الجاهلى فى العلاقات الدولية، و بالذات لدى الدول المتحالفة حين تهب فى الغالب لحماية بعضها البعض، و التضامن و التعاون معا حيال القضايا الدولية دون رعاية لمبدأ العدالة و دون تمييز بين الظالم و المظلوم: لقد ألغى الإسلام هذا المبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۱

الجاهلى، و دعى المسلمين إلى التعاون فى أعمال الخير و المشاريع النافعة و البناءة فقط، و نهى عن التعاون فى الظلم و العدوان.

و الطريق فى هذا المجال هو مجيء كلمتى «البر» و «التقوى» معا و على التوالى فى الآية، حيث أنّ الكلمة الأولى تحمل طابعا إيجابيا و تشير الى الأعمال النافعة، و الثانية لها طابع النهى و المنع و تشير إلى الامتناع عن الأعمال المنكرة- و على هذا الأساس- أيضا- فإن التعاون و التآزر يجب أن يتمّ سواء فى الدّعوة إلى عمل الخير، أو فى مكافحة الأعمال المنكرة.

و قد استخدم الفقه الإسلامى هذا القانون فى القضايا الحقوقية، حيث حرّم قسما من المعاملات و العقود التجارية التى فيها طابع الإعانة على المعاصى أو المنكرات، كبيع الأعناب إلى مصانع الخمور أو بيع السلاح إلى أعداء الإسلام و أعداء الحق و العدالة، أو تأجير محل للاكتساب لتمارس فيه المعاملات غير الشرعية و الأعمال المنكرة (و بديهى أن لهذه الأحكام شروطا تناولتها كتب الفقه الإسلامى بالتوضيح).

إنّ إحياء هذا المبدأ لدى المجتمعات الإسلامية، و تعاون المسلمين فى أعمال الخير و المشاريع النافعة البناءة دون الاهتمام بالعلاقات الشخصية و العرقية و النسبية، و الامتناع عن تقديم أى نوع من التعاون إلى الأفراد الذين يمارسون الظلم و العدوان، بغض النظر عن تبعية أو انتمائية الفئة الظالمة، كل ذلك من شأنه أن يزيل الكثير من النواقص الاجتماعية.

أمّا فى العلاقات الدولية، فلو امتنعت دول العالم عن التعاون مع كل دولة معتدية- أيّا كانت- لقضى بذلك على جذور العدوان و الاستعمار و الاستغلال فى العالم، و لكن حين ينقلب الوضع فتتعاون الدول مع المعتدين و الظالمين بحجّة أنّ مصالحهم الدولية تقتضى ذلك، فلا يمكن توقع الخير أبدا من وضع كالذى يسود العالم اليوم.

لقد تناولت الأحاديث و الروايات الإسلامية هذه القضية بتأكيد كبير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۲

و نورد- هنا- بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر.

۱-

نقل عن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال قوله: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة و أعوان الظلمة و

أشباه الظلمة حتى من برىء لهم قلما و لاق لهم دواة؟

قال: فيجتمعون فى تابوت من حديد ثمّ يرمى بهم فى جهنّم»[۳۰۳].

۲-

نقل عن صفوان الجمال، و هو أحد أنصار الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام، بأنّه تشرف بلقاء الإمام عليه السّلام فقال له الكاظم عليه السّلام: يا صفوان كل شىء منك حسن جميل ما خلا شيئا واحدا.

قلت: جعلت فداك، أى شىء؟

قال: اكراؤك جمالك من هذا الرجل، يعنى هارون.

قال: و اللّه ما أكريته أشرا و لا بطرا و لا للصيد و لا للهو و لكنّى أكريته لهذا الطريق- يعنى طريق مكّة- و لا أتولّاه بنفسى، و لكن أبعث معه غلمانى.

فقال لى: يا صفوان، أيقع كراؤك عليهم؟

قلت: نعم.

قال: من أحب بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النار ... إلى آخر الحديث ۳۰۴].

و

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاطب به عليّا عليه السّلام قائلا: «يا على كفر باللّه العلى العظيم من هذه الأمّة عشرة ... و بائع السلاح لأهل الحرب»[۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳]

اشارة

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمَوْقُوذَةُ وَ الْمُتَرَدِّيَةُ وَ النَّطِيحَةُ وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَ أَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلامِ ذلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳)

التّفسير

اشارة

لقد تمّت الإشارة فى بداية السورة إلى الحلال من لحوم المواشى، و ورد- أيضا- أنّ هناك استثناءات تحرم فيها لحوم المواشى، حيث ذكرتها الآية الأخيرة- موضوع البحث- فى أحد عشر موردا تكرر ذكر بعضها فى آيات قرآنية أخرى على سبيل التأكيد.

و المحرمات التى وردت فى هذه الآية، بحسب الترتيب الذى جاءت عليه كما يلى:

أوّلا: الميتة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۴

ثانيا: الدم.

ثالثا: لحم الخنزير.

رابعا: الحيوانات التى تذبح باسم الأصنام، أو باسم غير اسم اللّه، كما كان يفعل الجاهليّون، و قد تحدثنا عن هذه اللحوم الأربعة المحرمة فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

خامسا: الحيوانات المخنوقة، سواء كان الخنق بسبب الفخ الذى تقع فيه أو بواسطة الإنسان أو بنفسها، و كان الجاهليون يخنقون الحيوانات أحيانا للانتفاع بلحومها و قد أشارت الآية إلى هذا النوع باسم «المنخنقة».

و ورد فى بعض الروايات أنّ المجوس كان من عادتهم أن يخنقوا الحيوانات التى يريدون أكلها، و لهذا يمكن أن تشملهم الآية أيضا[۳۰۶].

سادسا: الحيوانات التى تموت نتيجة تعرضها للضرب و التعذيب، أو التى تموت عن مرض و سمّيت فى الآية ب «الموقوذة»[۳۰۷].

و نقل القرطبى فى تفسيره أن عرب الجاهلية اعتادوا على ضرب بعض الحيوانات حتى الموت إكراما لأصنامهم و تقربا لها.

سابعا: الحيوان الذى يموت نتيجة السقوط من مكان مرتفع، و قد سمى هذا النوع فى الآية ب «المتردية».

ثامنا: الحيوان الذى يموت جراء نطحه من قبل حيوان آخر، و قد سمت الآية هذا النوع من الحيوانات ب «النطيحة».

تاسعا: الحيوان الذى يقتل نتيجة هجوم حيوان متوحش عليه، و سمى هذا النوع فى الآية ب «ما أكل السبع».

و قد يكون جزءا من فلسفة تحريم هذه الأنواع من الحيوانات، هو عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۵

نزفها المقدار الكافى من الدم لدى الموت أو القتل، لأنّه ما لم تقطع عروق رقابها لا تنزف الدم بمقدار كاف، و لما كان الدم محيطا مناسبا جدا لنمو مختلف أنواع الجراثيم، و بما أنّه يتفسخ حين يموت الحيوان قبل الأجزاء الأخرى من الجسد، لذلك يتسمم لحم الحيوان و لا يمكن أن يعد هذا اللحم من اللحوم السليمة، و غالبا ما يحصل هذا التسمم عند ما يموت الحيوان على أثر مرض أو من جراء التعذيب أو نتيجة تعرضه لملاحقة حيوان متوحش آخر.

من جانب آخر فإنّ الشرط المعنوى للذبح لا يتحقق فى أى نوع من تلك الحيوانات، أى شرط ذكر اسم اللّه و توجيه الحيوان صوب القبلة لدى الذبح.

لقد ذكرت الآية شرطا واحدا لو تحقق لأصبحت لحوم الحيوانات المذكورة حلالا، و هذا الشرط هو أن يذبح الحيوان قبل موته وفق الآداب و التقاليد الإسلامية، ليخرج الدم منه بالقدر الكافى فيحل بذلك لحمه، و لذلك جاءت عبارة إِلَّا ما ذَكَّيْتُمْ بعد موارد التحريم مباشرة.

و يرى بعض المفسّرين أن هذا الاستثناء يخص القسم الأخير فقط، أى ذلك الذى جاء تحت عنوان: وَ ما أَكَلَ السَّبُعُ لكن أغلب المفسّرين يرون أنّ الاستثناء يشمل جميع الأنواع المذكورة، و النظرية الأخيرة أقرب للحقيقة من غيرها.

و هنا قد يسأل البعض: لما ذا لم تدخل جميع أنواع الحيوانات المحرمة فى الآية فى إطار «الميتة» التى ذكرت كأوّل نوع من المحرمات الأحد عشر فى الآية، أ ليست الميتة فى مفهومها تعنى كل الأنواع المذكورة؟

و الجواب هو: إنّ الميتة لها معان واسعة من حيث مفهوم الفقهى الشرعى، فكل حيوان لم يذبح وفق الطريقة الشرعية يدخل فى إطار مفهوم الميتة، أمّا المعنى اللغوى للميتة فيشمل- فقط- الحيوان الذى يموت بصورة طبيعية. و لهذا السبب فإن الأنواع المذكورة فى الآية- غير الميتة- لا تدخل من الناحية اللغوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۶

ضمن مفهوم الميتة، و هى محتاجة إلى البيان و التوضيح.

عاشرا: كان الوثنيون فى العصر الجاهلى ينصبون صخورا حول الكعبة ليست على أشكال أو هيئات معينة، و كانوا يسمون هذه الصخور ب «النصب» حيث كانوا يذبحون قرابينهم أمامها و يمسحون الصخور تلك بدم القربان.

و الفرق بين النصب و الأصنام هو أنّ النصب ليست لها أشكال و صور بخلاف الأصنام، و قد حرم الإسلام لحوم القرابين التى كانت تذبح على تلك النصب، فجاء حكم التحريم فى الآية بقوله تعالى: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ

و واضح أنّ تحريم هذا النوع من اللحوم إنّما يحمل طابعا معنويا و ليس ماديا. و فى الحقيقة فإن هذا النوع يعتبر من تلك القرابين التى تدخل ضمن مدلول العبارة القرآنية: وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ و قد ذكر تشخيصا فى الآية بسبب رواجه لدى عرب الجاهلية.

أحد عشر: و هناك نوع آخر من اللحوم المحرمة، و هو اللحوم التى تذبح و توزع بطريقة القمار، و توضيح ذلك هو أنّ عشرة من الأشخاص يتراهنون فيما بينهم فيشترون حيوانا و يذبحونه، ثمّ يأتون بعشرة سهام كتب على سبعة منها عبارة «فائز»، و على الثلاثة الأخرى كتبت عبارة «خاسر»، فتوضع فى كيس و تسحب واحدة واحدة باسم كل من الأشخاص العشرة على طريقة الاقتراع، فالأشخاص الذين تخرج النبال السبعة الفائزة بأسمائهم يأخذون قسما من اللحم دون أن يدفعوا ثمنا لما أخذوه من اللحم، أمّا الأشخاص الثلاثة الآخرون الذين تخرج النبال الخاسرة بأسمائهم فيتحملون ثمن الحيوان بالتساوى، فيدفع كلّ واحد منهم ثلث قيمة الحيوان دون أن يناله شىء من لحمه.

و قد سمى الجاهليون هذه النبال ب «الأزلام» و هى صيغة جمع من «زلم» و قد حرم الإسلام هذا النوع من اللحوم، لا بمعنى وجود تأصل الحرمة فى اللحم، بل لأنّ الحيوان كان يذبح فى عمل هو أشبه بالقمار، و يجب القول هنا أن تحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۷

القمار و أمثاله لا ينحصر فى اللحوم فقط، بل إن القمار محرم فى كل شىء و بأىّ صورة كان.

و لكى تؤكّد الآية موضوع التحريم و تشدد على حرمة تلك الأنواع من اللحوم تقول فى الختام: ذلِكُمْ فِسْقٌ [۳۰۸]

الاعتدال فى تناول اللحوم:

إنّ الذى نستنتجه من البحث المار الذكر و من المصادر الإسلامية الأخرى، هو أنّ الإسلام اتبع فى قضية تناول اللحوم أسلوبا معتدلا تمام الاعتدال جريا على طريقته الخاصّة فى أحكامه الأخرى.

و يختلف أسلوبه هذا اختلافا كبيرا مع ما سار عليه الجاهليون فى أكل لحم النصب و الميتة و الدم و أشباه ذلك، و ما يسير عليه الكثير من الغربيين فى الوقت الحاضر فى أكل حتى الديدان و السلاحف و الضفادع و غيرها.

و يختلف مع الطريقة التى سار عليها الهنود فى تحريم كل أنواع اللحوم على أنفسهم.

فقد أباح الإسلام لحوم الحيوانات التى تتغذى على الأشياء الطاهرة التى لا تعافها النفس البشرية، و ألغى الأساليب التى فيها طابع الإفراط أو التفريط.

و قد عيّن الإسلام شروطا أبان من خلالها أنواع اللحوم التى يحلّ للإنسان الاستفادة منها، و هى:- ۱- لحوم الحيوانات التى تقتات على الأعشاب، أمّا الحيوانات التى تقتات على اللحوم فهى غالبا ما تأكل لحوم حيوانات ميتة أو موبوءة، و بذلك قد تكون سببا فى نقل أنواع الأمراض لدى تناول لحومها، بينما الحيوانات التى تأكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۸

العشب يكون غذاؤها سليما و خاليا من الأمراض.

و قد تقدم أيضا فى تفسير الآية (۷۲) من سورة البقرة بأنّ الحيوانات تورث صفاتها عن طريق لحومها أيضا، فمن يأكل لحم حيوان

متوحش يرث صفات الوحش كالقسوة و العنف، و بناء على هذا الدليل- أيضا- حرمت لحوم الحيوانات الجلّالة، و هى التى تأكل فضلات غيرها من الحيوانات.

۲- أن لا تكون الحيوانات التى ينتفع من لحمها كريهة للنفس الإنسانية.

۳- أن لا يترك لحم الحيوان أثرا سيئا أو ضارا على جسم أو نفس الإنسان.

۴- لقد حرمت الحيوانات التى تذبح فى طريق الشرك فى سبيل الأصنام، و أمثال ذلك لما فيها من نجاسة معنوية.

۵- لقد بيّن الإسلام أحكاما خاصّة لطريقة ذبح الحيوانات لكل واحد منها- بدوره- الأثر الصحى و الأخلاقى على الإنسان.

بعد أنّ بيّنت الآية الأحكام التى مرّ ذكرها أوردت جملتين تحتويان معنى عميقا: الأولى منهما تقول: الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ

و الثّانية هى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً.

متى أكمل اللّه الدين للمسلمين:

إنّ أهمّ بحث تطرحه هاتان الفقرتان القرآنيتان يتركز فى كنهه و حقيقته كلمة «اليوم» الواردة فيهما.

فأىّ يوم يا ترى هو ذلك «اليوم» الذى اجتمعت فيه هذه الأحداث الأربعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۸۹

المصيرية، و هى يأس الكفار، و إكمال الدين، و إتمام النعمة، و قبول اللّه لدين الإسلام دينا ختاميا لكل البشرية؟

لقد قال المفسّرون الكثير فى هذا المجال، و ممّا لا شك فيه و لا ريب أن يوما عظيما فى تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كهذا اليوم- لا يمكن أن يكون يوما عاديا كسائر الأيّام، و لو قلنا بأنّه يوم عادى لما بقى مبرر لإضفاء مثل هذه الأهمية العظيمة عليه كما ورد فى الآية.

و قيل أنّ بعضا من اليهود و النصارى قالوا فى شأن هذا اليوم بأنّه لو كان قد ورد فى كتبهم مثله لاتّخذوه عيدا لأنفسهم و لاهتموا به اهتماما عظيما[۳۰۹].

و لنبحث الآن فى القرائن و الدلائل و فى تاريخ نزول هذه الآية و تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الروايات المختلفة المستفادة من مصادر إسلامية عديدة، لنرى أى يوم هو هذا اليوم العظيم؟

ترى هل هو اليوم الذى أنزل فيه اللّه الأحكام المذكورة فى نفس الآية و الخاصّة بالحلال و الحرام من اللحوم؟

بديهى أنّه ليس ذلك لأنّ نزول هذه الأحكام لا يوجب إعطاء تلك الأهمية العظيمة، و لا يمكن أن يكون سببا لإكمال الدين، لأنّها لم تكن آخر الأحكام التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الدليل على هذا القول ما نراه من أحكام تلت الأحكام السابقة فى نزولها، كما لا يمكن القول بأن الأحكام المذكورة هى السبب فى يأس الكفار، بل إنّ ما يثير اليأس لدى الكفار هو إيجاد دعامة راسخة قوية لمستقبل الإسلام، و بعبارة أخرى فإنّ نزول أحكام الحلال و الحرام من اللحوم لا يترك أثرا فى نفوس الكفار، فما ذا يضيرهم لو كان بعض اللحوم حلالا و بعضها الآخر حراما؟! فهل المراد من ذلك «اليوم» هو يوم عرفة من حجّة الوداع، آخر حجّة قام بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۰

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (كما احتمله بعض المفسّرين)؟

و جواب هذا السؤال هو النفى أيضا، لأنّ الدلائل المذكورة لا تتطابق مع هذا التّفسير، حيث لم تقع أىّ حادثة مهمّة فى مثل ذلك

اليوم لتكون سببا ليأس الكفار و لو كان المراد هو حشود المسلمين الذين شاركوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى يوم عرفة، فقد كانت هذه الحشود تحيط بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة قبل هذا اليوم أيضا، و لو كان المقصود هو نزول الأحكام المذكورة فى ذلك اليوم، فلم تكن الأحكام تلك شيئا مهمّا مخيفا بالنسبة للكفار.

ثمّ هل المقصود بذلك «اليوم» هو يوم فتح مكة (كما احتمله البعض)؟ و من المعلوم أنّ سورة المائدة نزلت بعد فترة طويلة من فتح مكة! أو أنّ المراد هو يوم نزول آيات سورة البراءة، و لكنها نزلت قبل فترة طويلة من سورة المائدة.

و الأعجب من كل ما ذكر هو قول البعض بأن هذا اليوم هو يوم ظهور الإسلام و بعثة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أن هذين الحدثين لا علاقة زمنية بينهما و بين يوم نزول هذه الآية مطلقا و بينهما فارق زمنى بعيد جدّا.

و هكذا يتّضح لنا أنّ أيّا من الاحتمالات الستة المذكورة لا تتلاءم مع محتوى الآية موضوع البحث.

و يبقى لدينا احتمال أخير ذكره جميع مفسّرى الشيعة فى تفاسيرهم و أيدوه كما دعمته روايات كثيرة، و هذا الاحتمال يتناسب تماما مع محتوى الآية حيث يعتبر «يوم غدير خم» أى اليوم الذى نصب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا أمير المؤمنين عليه السّلام بصورة رسمية و علنية خليفة له، حيث غشى الكفار فى هذا اليوم سيل من اليأس، و قد كانوا يتوهمون أن دين الإسلام سينتهى بوفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن الأوضاع ستعود إلى سابق عهد الجاهلية، لكنّهم حين شاهدوا أنّ النّبى أوصى بالخلافة بعده لرجل كان فريدا بين المسلمين فى علمه و تقواه و قوته و عدالته، و هو على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۱

بن أبى طالب عليه السّلام، و رأوا النّبى و هو يأخذ البيعة لعلى عليه السّلام أحاط بهم اليأس من كل جانب، و فقدوا الأمل فيما توقعوه من شر لمستقبل الإسلام و أدركوا أن هذا الدين باق راسخ.

ففى يوم غدير خم أصبح الدين كاملا، إذ لو لم يتمّ تعيين خليفة للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لو لم يتمّ تعيين وضع مستقبل الأمّة الإسلامية، لم تكن لتكتمل الشريعة بدون ذلك و لم يكن ليكتمل الدين.

نعم فى يوم غدير خم أكمل اللّه و أتمّ نعمته بتعيين على عليه السّلام، هذا الشخصية اللائقة الكفؤ، قائدا و زعيما للأمة بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى هذا اليوم- أيضا- رضى اللّه بالإسلام دينا، بل خاتما للأديان، بعد أن اكتملت مشاريع هذا الدين، و اجتمعت فيه الجهات الأربع.

و فيما يلى قرائن أخرى إضافة إلى ما ذكر فى دعم و تأييد هذا التّفسير:

أ- لقد ذكرت تفاسير «الرازى» و «روح المعانى» و «المنار» فى تفسير هذه الآية أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعش أكثر من واحد و ثمانين يوما بعد نزول هذه الآية، و هذا أمر يثير الانتباه فى حد ذاته، إذ حين نرى أنّ وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت فى اليوم الثّانى عشر من ربيع الأوّل (بحسب الروايات الواردة فى مصادر جمهور السنّة، و حتى فى بعض روايات الشيعة، كالتى ذكرها الكلينى فى كتابه المعروف بالكافى) نستنتج أن نزول الآية كان بالضبط فى يوم الثامن عشر من ذى الحجّة الحرام، و هو يوم غدير خم ۳۱۰].

ب- ذكرت روايات كثيرة- نقلتها مصادر السنّة و الشيعة- أنّ هذه الآية الكريمة نزلت فى يوم غدير خم، و بعد أن أبلغ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين بولاية على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۲

بن أبى طالب عليه السّلام، و من هذه الروايات:

۱- ما نقله العالم السنّى المشهور «ابن جرير الطبرى» فى كتاب «الولاية» عن «زيد بن أرقم» الصحابى المعروف، أنّ هذه الآية نزلت فى يوم غدير خم بشأن على بن أبى طالب عليه السّلام.

۲- و نقل الحافظ «أبو نعیم الأصفهانی» فی کتاب «ما نزل من القرآن بحق علی علیه السّلام» عن «أبی سعید الخدری» و هو صحابی معروف- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أعطی فی «یوم غدیر خم» علیا منصب الولایة ... و إنّ الناس فی ذلک الیوم لم یکادوا لیتفرقوا حتی نزلت آیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فی تلک اللحظة «اللّه أکبر علی إکمال الدین و إتمام النعمة و رضی الرب برسالتی و بالولایة لعلی علیه السّلام من بعدی» ثمّ

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من کنت مولاه فعلی مولاه، اللّهم و ال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره و اخذل من خذله».

۳- و روی «الخطیب البغدادی» فی «تاریخه» عن «أبی هریرة» عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ آیة الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... نزلت عقیب حادثة «غدیر خم» و العهد بالولایة لعلی علیه السّلام و قول عمر بن الخطاب: «بخ بخ لک یا ابن أبی طالب، أصبحت مولای و مولی کل مسلم»[۳۱۱].

و جاء فی کتاب «الغدیر» إضافة إلی الروایات الثلاث المذکورة، ثلاث عشرة روایة أخری فی هذا المجال.

ورود فی کتاب «إحقاق الحق» نقلا عن الجزء الثّانی من تفسیر «ابن کثیر» من الصفحة ۱۴ و عن کتاب «مقتل الخوارزمی» فی الصفحة ۴۷

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ هذه الآیة نزلت فی واقعة غدیر خم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۳

و نری فی تفسیر «البرهان» و تفسیر «نور الثقلین» عشر روایات من طرق مختلفة حول نزول الآیة فی حق علی علیه السّلام أو فی یوم غدیر خم، و نقل کل هذه الروایات یحتاج إلی رسالة منفردة[۳۱۲].

و قد ذکر العلّامة السید عبد الحسین شرف الدین فی کتابه «المراجعات» أن الروایات الصحیحة المنقولة عن الإمامین الباقر و الصّادق علیهما السّلام تقول بنزول هذه الآیة فی «یوم غدیر خم» و إنّ جمهور السنّة أیضا قد نقلوا ستة أحادیث بأسانید مختلفة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تصرح کلها بنزول الآیة فی واقعة غدیر خم ۳۱۳].

یتّضح ممّا تقدم أنّ الروایات و الأخبار التی أکّدت نزول الآیة- موضوع البحث- فی واقعة غدیر خم لیست من نوع أخبار الآحاد لکی یمکن تجاهلها، عن طریق اعتبار الضعف فی بعض أسانیدها، بل هی أخبار إن لم تکن فی حکم المتواتر فهی علی أقل تقدیر من الأخبار المستفیضة التی تناقلتها المصادر الإسلامیة المشهورة.

و مع ذلک فإنّنا نری بعضا من العلماء المتعصبین من أهل السنّة کالآلوسی فی تفسیر «روح المعانی» الذی تجاهل الأخبار الواردة فی هذا المجال لمجرّد ضعف سند واحد منها، و قد وصم هؤلاء هذه الروایة بأنّها موضوعة أو غیر صحیحة، لأنّها لم تکن لتلائم أذواقهم الشخصیة، و قد مرّ بعضهم فی تفسیره لهذه الآیة مرور الکرام و لم یلمح إلیها بشیء، کما فی تفسیر المنار، و لعل صاحب المنار وجد نفسه فی مأزق حیال هذه الروایات فهو إن وصمها بالضعف خالف بذلک منطق العدل و الإنصاف، و إن قبلها عمل شیئا خلافا لمیله و ذوقه.

و قد وردت فی الآیة (۵۵) من سورة النور نقطة مهمّة جدیرة بالانتباه- فالآیة تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۴

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَما اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ... و اللّه سبحانه و تعالی یقطع فی هذه الآیة وعدا علی نفسه بأن یرسخ دعائم الدین، الذی ارتضاه للمؤمنین فی الأرض.

و لمّا کان نزول سورة النور قبل نزول سورة المائدة، و نظرا إلی جملة رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً الواردة فی الآیة الأخیرة- موضوع

البحث- و التی نزلت فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام، لذلک کله نستنتج أنّ حکم الإسلام یتعزز و یترسخ فی الأرض إذا اقترن بالولایة، لأن الإسلام هو الدین الذی ارتضاه اللّه و وعد بترسیخ دعائمه و تعزیزه، و بعبارة أوضح أن الإسلام إذا أرید له أن یعم العالم کله یجب عدم فصله عن ولایة أهل البیت علیهم السّلام.

أمّا الأمر الثّانی الذی نستنتجه من ضمن الآیة الواردة فی سورة النور إلی الآیة التی هی موضوع بحثنا الآن، فهو أن الآیة الأولی قد أعطت للمؤمنین و عودا ثلاثة:

أوّلها: الخلافة علی الأرض.

و الثّانی: تحقق الأمن و الاستقرار لکی تکون العبادة للّه وحده.

و الثّالث: استقرار الدین الذی یرضاه اللّه فی الأرض.

و لقد تحققت هذه الوعود الثلاثة فی «یوم غدیر خم» بنزول آیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ ... فمثال الإنسان المؤمن الصالح هو علی علیه السّلام الذی نصب وصیّا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و دلت عبارة الْیَوْمَ یَئِسَ الَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ دِینِکُمْ ... علی أن الأمن قد تحقق بصورة نسبیة لدی المؤمنین، کما بیّنت عبارة: وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً إنّ اللّه قد اختار الدین الذی یرتضیه، و أقرّه بین عباده المسلمین.

و هذا التّفسیر لا ینافی الروایة التی تصرح بأنّ آیة سورة النور قد نزلت فی شأن المهدی المنتظر عجل اللّه تعالی فرجه الشریف، و ذلک لأنّ عبارة آمَنُوا مِنْکُمْ لها معنی واسع تحقق واحد من مصادیقه فی «یوم غدیر خم» و سیتحقق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۵

علی مدی أوسع و أعم فی زمن ظهور المهدی عجل اللّه تعالی فرجه الشریف (و علی أساس هذا التّفسیر فإنّ کلمة الأرض فی الآیة الأخیرة لیست بمعنی کل الکرة الأرضیة، بل لها مفهوم واسع یمکن أن یشمل مساحة من الأرض أو الکرة الأرضیة بکاملها).

و یدل علی هذا الأمر المواضع التی وردت فیها کلمة «الأرض» فی القرآن الکریم، حیث وردت أحیانا لتعنی جزءا من الأرض، و أخری لتعنی الأرض کلها، (فأمعنوا النظر و دققوا فی هذا الأمر).

سؤال یفرض نفسه:

و أخیرا بقی سؤال ملح و هو:

أوّلا: إن الأدلة المذکورة فی الآیة- موضوع البحث- و الأدلة التی ستأتی فی تفسیر الآیة (۶۷) من سورة المائدة و التی تقول: یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ ... لو کانت کلها تخص واقعة واحدة، فلما ذا فصل القرآن بین هاتین الآیتین و لم تأتیا متعاقبین فی مکان واحد؟

و ثانیا: لا یوجد ترابط موضوعی بین ذلک الجزء من الآیة الذی یتحدث عن واقعة «غدیر خم» و بین الجزء الآخر منها الذی یتحدث عن الحلال و الحرام من اللحوم، فما هو سبب هذه المفارقة الظاهرة؟[۳۱۴]

الجواب:

أوّلا- نحن نعلم أنّ الآیات القرآنیة- و کذلک سور القرآن الکریم- لم تجمع کلها مرتبة بحسب نزولها الزمنی، بل نشاهد کثیرا من السور التی نزلت فی المدینة فیها آیات مکیة أی نزلت فی مکة، کما نلاحظ آیات مدنیة بین السور المکیة أیضا.

و بناء على هذه الحقيقة، فلا عجب- إذن- من وجود هذا الفاصل فى القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۶

بين الآيتين المذكورتين (و يجب الاعتراف بأن ترتيب الآيات القرآنية بالصورة التى هى عليها الآن قد حصل بأمر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه) فلو كانت الآيات القرآنية مرتبة بحسب زمن نزولها لأصبح الاعتراض واردا فى هذا المجال.

ثانيا: هناك احتمال بأن يكون سبب حشر موضوع واقعة «غدير خم» فى آية تشمل على موضوع لا صلة لها به مطلقا، مثل موضوع أحكام الحلال و الحرام من اللحوم، إنما هو لصيانة الموضوع الأوّل من أن تصل إليه يد التحريف أو الحذف أو التغيير.

إنّ الأحداث التى وقعت فى اللحظات الأخيرة من عمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الاعتراض الصريح الذى واجهه طلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكتابة وصيته، إلى حدّ وصفوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لدى طلبه هذا الأمر بأنّه يهجر (و العياذ باللّه) و قد وردت تفاصيل هذه الوقائع فى الكتب الإسلامية المعروفة، سواء عن طريق جمهور السنّة أو الشيعة، و هى تدل بوضوح على الحساسية المفرطة التى كانت لدى نفر من الناس تجاه قضية الخلافة بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث لم يتركوا وسيلة إلّا استخدموها لإنكار هذا الأمر[۳۱۵].

فلا يستبعد- و الحالة هذه- أن تتخذ اجراءات وقائية لحماية الأدلة و الوثائق الخاصّة بالخلافة من أجل إيصالها إلى الأجيال المتعاقبة دون أن تمسّها يد التحريف أو الحذف، و من هذه الإجراءات حشر موضوع الخلافة- المهم جدّا- فى القرآن بين آيات الأحكام الشرعية الفرعية لإبعاد عيون و أيدى المعارضين و العابثين عنها.

إضافة إلى ذلك- و كما أسلفنا فى حديثنا- فإنّ الوثائق الخاصّة بنزول آية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۷

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ... الواردة فى واقعة «غدير خم» حول قضية الخلافة بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تقتصر كتب الشيعة وحدهم على ذكرها، بل تناقلها- أيضا- الكثير من كتب السنّة من طرق متعددة عن ثلاثة من الصحابة المعروفين.

لقد أعادت الآية- فى نهايتها- الكرة فى التحدث عن اللحوم المحرمة فبيّنت حكم الاضطرار فى حالة المعاناة من الجوع إذ أجازت تناول اللحم المحرم بشرط أن لا يكون هدف الشخص ارتكاب المعصية من تناول ذلك، مشيرة إلى غفران اللّه و رحمته فى عدم إلجاء عباده عند الاضطرار إلى تحمل المعاناة و المشقة، و عدم معاقبتهم فى مثل هذه الحالات. قالت الآية الكريمة:

فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و المراد بالمخمصة هنا الجوع الشديد الذى يؤدى إلى انخماص البطن، سواء كان بسبب حالة المجاعة العامّة، أو كان ناتجا عن الحرمان الخاص.

أمّا عبارة غَيْرَ مُتَجانِفٍ لِإِثْمٍ فمعناها غير مائل إلى ارتكاب الذنب، و قد يكون الإتيان بها تأكيدا لمفهوم الاضطرار، أو أنّ الهدف منها هو المنع من الإفراط فى أكل اللحم الحرام أثناء الضرورة، توهما من الشخص بأن ذلك حلال فى مثل هذه الحالة، و منعا من أن يحاول الشخص بنفسه إعداد مقدمات الاضطرار أو أن يحصل الاضطرار أثناء قيام الشخص بسفر من أجل ارتكاب الحرام فيه.

هذه المعانى كلها يحتمل ورودها ضمن العبارة الأخيرة الماضية «و لأجل الاطلاع على توضيحات أكثر فى هذا المجال، راجع الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۸

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴)

سبب النّزول

ذكر المفسرون أسبابا عديدة لنزول هذه الآية، و أكثر هذه الأسباب ملاءمة مع فحوى الآية هو: أنّ «زيد الخير» و «عدى بن حاتم» اللذين كانا من الصحابة المقرّبين، قدما على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أخبراه بأنّ قومهما يصيدون بواسطة كلاب و صقور الصيد، و إنّ هذه الكلاب تصيد لهم الحيوانات الوحشية من ذوات اللحم الحلال، و تأتى بالحيوان المصيد حيا فى بعض الأحيان فيذبح، و أحيانا أخرى تأتى به و قد قتلته قبل وصولها إلى أصحابها دون أن يتاح لهم ذبحه، و سألا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن حكم الصيد و المقتول بواسطة كلاب الصيد و هل يعتبر ميتة و حراما أم لا؟ ... فنزلت الآية هذه و أجابت على سؤالهما.[۳۱۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۵۹۹

التّفسير

الحلال من الصيد:

أعقبت الآية الأخيرة آيتين سبق و أن تناولتا أحكاما عن الحلال و الحرام عن اللحوم، و قد بيّنت هذه الآية نوعا آخر من اللحوم أو الحيوانات التى يحل للإنسان تناولها، و جاءت على صيغة جواب لسؤال ذكرته الآية نفسها بقولها:

يَسْئَلُونَكَ ما ذا أُحِلَّ لَهُمْ ....

فتأمر الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أوّلا- بأن يخبرهم إنّ كل ما كان طيبا و طاهرا فهو حلال لهم، حيث تقول: قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ ... دالة على أنّ كل ما حرمه الإسلام يعتبر من الخبائث غير الطاهرة، و إن القوانين الإلهية لا- تحرم- مطلقا- الموجودات الطاهرة التى خلقها اللّه لينتفع بها البشر، و إن الجهاز التشريعى يعمل دائما بتنسيق تام مع الجهاز التكوينى و فى كل مكان.

ثمّ تبيّن الآية أنواع الصيد الحلال، فتشير إلى الصيد الذى تجلبه أو تصيده الحيوانات المدربة على الصيد، فتؤكد بأنّه حلال، بقولها: وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۳۱۷].

و عبارة جوارح مشتقة من المصدر «جرح» الذى يعنى أحيانا «الكسب» و تارة يعنى «الجرح» الذى يصاب به البدن، و لذلك يطلق على الحيوانات المدرّبة على الصيد، سواء كانت من الطيور أو من غيرها، اسم «جارحة» و جمعها «جوارح» أى الحيوان الذى يجرح صيده، أو بالمعنى الآخر الحيوان الذى يكسب لصاحبه، و أمّا إطلاق لفظة «الجوارح» على أعضاء الجسم فلأن الإنسان يستطيع بواسطتها إنجاز الأعمال أو الاكتساب.

و جملة وَ ما عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوارِحِ تشمل كل الحيوانات المدرّبة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۰

الصيد، و لكن كلمة «مكلبين» التى تعنى تدريب الكلاب للقيام بأعمال الصيد، و المشتقة من مادة «كلب» أى الكلب، تقيد هذه الجملة و تخصصها بكلاب الصيد، و لذلك فإنّها لا تشمل الصيد بحيوانات غير هذه الكلاب مثل الصقور المدرّبة على الصيد.

و لذلك ذهب فقهاء الشيعة إلى تخصيص الصيد الحلال بما يصاد من قبل كلاب الصيد، لكن جمعا من علماء السنّة و مفسّريهم ذهبوا إلى جواز الكل و أعطوا تفسيرا واسعا لعبارة «مكلبين» و لم يخصصوا ذلك بكلاب الصيد فقط.

إلّا أنّنا نرى أنّ المصدر الأساس لهذه الكلمة المشتقة إنما يدل على أنّها مخصصة بكلاب الصيد فقط، و بديهى أنّ الصيد الذى تجلبه حيوانات مدرّبة أخرى، يعتبر حلالا فى حالة جلبه حيّا و ذبحه وفق الطريقة الشرعية.

أمّا عبارة تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فإنّها تشير إلى عدّة أمور هى ۱- إنّ تدريب مثل هذه الحيوانات يجب أن يستمر، فلو نسيت ما تعلمته و قتلت حيوانا كما تفعله بعض الكلاب السائبة، فلا يعتبر عند ذلك ما قتلته صيدا، و لا يحل لحم هذا الحيوان المقتول فى مثل هذه الحالة، و الدليل على هذا القول هو كون فعل «تعلمونهن» فعلا مضارعا، و الفعل المضارع يدل على الحال و الاستقبال.

۲- يجب أن يتمّ تدريب هذه الكلاب وفق الأصول الصحيحة التى تتلاءم مع مفهوم العبارة القرآنية مِمَّا عَلَّمَكُمُ ....

إنّ العلوم كلها- سواء كانت بسيطة أم معقدة- مصدرها هو اللّه، و إنّ الإنسان لا يملك بنفسه شيئا ما لم يعلمه اللّه.

إضافة إلى ما ذكر فإنّ كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث تأتمر بأمر صاحبها، أى تتحرك بأمره و تعود إليه بأمره أيضا.

و بديهى أنّ الحيوان الذى تصيده كلاب الصيد، يجب أن يذبح وفق الطريقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۱

الشرعية إن جلب حيّا، و إن مات الحيوان قبل دركه فلحمه حلال و إن لم يذبح.

و أخيرا أشارت الآية الكريمة إلى شرطين آخرين من شروط تحليل مثل هذا النوع من الصيد.

أوّلهما: أن لا يأكل كلب الصيد من صيده شيئا، حيث قالت الآية: فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ....

و على هذا الأساس فإن الكلاب لو أكلت من الصيد شيئا قبل إيصاله إلى صاحبها، و تركت قسما آخر منه، فلا يحل لحم مثل هذا الصيد و يدخل ضمن حكم ما أَكَلَ السَّبُعُ الذى ورد فى الآية السابقة، و مثل هذا الكلب الذى يأكل الصيد لا يعتبر فى الحقيقة كلبا مدربا، كما لا يعتبر ما تركه من الصيد مصداقا لعبارة مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ لأنّه فى هذه الحالة يكون (أى الكلب) قد صاد لنفسه (لكن بعض الفقهاء لم يروا فى هذا الموضوع شرطا، مستندين إلى روايات وردت فى مصادر الحديث و ذكرتها كتب الفقه بالتفصيل).

و مجمل القول هو أن كلاب الصيد يجب أن تدرب بحيث لا تأكل من الصيد الذى تمسكه.

و الأمر الثّانى: هو ضرورة ذكر اسم اللّه على الصيد بعد أن يتركه الكلب، حيث قالت الآية: وَ اذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ....

و لكى تضمن الآية رعاية الأحكام الإلهية- هذه- كلها، أكّدت فى الختام قائلة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ داعية إلى الخوف من اللّه العزيز القدير، و من حسابه السريع ۳۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۲

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵]

اشارة

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (۵)

التّفسير

حكم طعام أهل الكتاب و حكم الزّواج بهم:

تناولت هـذه الآيـة، التى جاءت مكملـة للآيات السابقـة، نوعا آخر من الغذاء الحلال، فبيّنت أنّ كل غذاء طاهر حلال، و إن غذاء أهل الكتـاب حلاـل للمسـلمين، و غـذاء المسـلمين حلاـل لأهـل الكتـاب، و حيث قالت الآيـة: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ وَ طَعامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ....

و تشتمل هذه الآية الكريمة على أمور نجلب الالتفات إليها، و هى:

۱- إنّ المراد بكلمة «اليوم» الواردة فى هذه الآية هو يوم «عرفة» بناء على ما اعتقده بعض المفسّرين، و قد ذهب مفسـرون آخرون إلى أنّ المراد هو اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۳

الذى تلا فتح خيبر- و لا يبعد- أن يكون هو نفس «يوم غدير خم» الذى تحقق فيه النصر الكامل للمسلمين على الكفار (و سنتاول هذا الموضوع بالشرح قريبا).

۲- لقـد تنـاولت هـذه الآيـة قضـية تحليل الطيبات مع أنّها كانت حلالا قبل نزول الآيـة و الهـدف من ذلك هو أن تكون هـذه القضـية مقدمة لبيان حكم «طعام أهل الكتاب».

۳- ما هو المقصود ب «طعام أهل الكتاب» الذى اعتبرته الآية حلالا على المسلمين؟

يعتقد أغلب مفسّرى علماء السنة أن «طعام أهل الكتاب» يشمل كل أنواع الطعام، سواء كان من لحوم الحيوانات المذبوحة بأيدى أهل الكتـاب أنفسـهم أو غير ذلـك من الطعـام، بينمـا تعتقـد الأغلبيـة الساحقـة من مفسّرى الشـيعة و فقهـائهم أنّ المقصود من «طعام أهل الكتـاب» هو غير اللحوم المذبوحـة بأيـدى أهـل الكتـاب، إلّـا أن هنـاك القليل من علماء الشـيعة- أيضا- ممن يقولون بصـحة النظرية الأولى التى اتبعها أهل السنة.

و تؤكد رأى غالبية الشيعة- فى هذا المجال- الروايات العديدة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

فقـد جاء فى تفسـير على بن إبراهيم عن الإمام الصّادق عليه السّـلام أنّه قال فى هذه الآية: «عنى بطعامهم ها هنا الحبوب و الفاكهة غير الذبائح التى يذبحون، فإنه لا يذكرون اسم اللّه عليها».

و وردت روايـات عديـدة أخرى فى هـذا المجال فى الجزء السادس عشـر من كتاب وسائل الشـيعة فى الباب ۵۱ من أبواب الأطعمـة و الأشربة، فى الصفحة ۳۷۱.

و بالإمعان فى الآيات السابقة يتبيّن أن التّفسـير الثّانى ذهبت إليه الأكثرية من مفسّرى الشيعة و فقهائهم (تفسير الطعام بغير الذبيحة) هو أقرب إلى الحقيقة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۴

التّفسير الأوّل.

و ذلك- كما أوضـح الإمام الصّادق عليه السّـلام فى الروايـة التى أوردناها أعلاه- لأنّ أهل الكتاب لا يراعون الشـروط الإسـلامية فى ذبـائحهم، فهم لاـ يـذكرون اسم اللّه على الذبيحـة، و لاـ يوجهونهـا صوب القبلـة أثنـاء ذبحهـا، كمـا أنّهم لا يلتزمون برعايـة الشـروط الأخرى- فهل يعقل أن تحرم الآية السابقة- و بصورة صريحة- لحم الحيوان المذبوح بهذه الطريقة، و تأتى آية أخرى بضدها لتحلله؟!

و ترد على الذهن فى هذا المجال أسئلة نلخصها فيما يلى:

۱- لو كـان المقصود بالطعـام سـائر الأغذيـة مـا عـدا لحوم ذبائـح أهل الكتاب، فإنّ هـذه الأغذيـة كانت حلالا من قبل، و لا فرق بين وجودها فى أيدى أهل الكتاب أو غيرهم، فهل كان شـراء الحبوب و الغلات من أهل الكتاب قبل نزول هذه الآية شـيئا مخالفا للشـرع، فى حين أن المسـلمين كانوا دائما يتعاطون مع أهل الكتاب شـراء و بيع هذه الأشـياء؟! إذا توجهنا إلى نقطة أساسـية فى الآية الكريمة، يتوضح لنا بجلاء جواب هذا السؤال، فالآية الأخيرة- هذه- نزلت فى زمن كان للإسـلام فيه السـلطة الكاملة على شـبه الجزيرة العربية و

قد أثبت الإسلام وجوده فی کل الساحات و المیادین علی طول هذه الجزیرة و عرضها، بحیث أنّ أعداء الإسلام قد تملکهم الیأس التام لعجزهم عن دحر المسلمین، و لذلک اقتضت الضرورة- فی مثل هذا الظرف المناسب للمسلمین- أن ترفع القیود و الحدود التی کانت مفروضة قبل هذا فی مجال مخالطة المسلمین لغیرهم، حیث کانت هذه القیود تحول دون تزاور المسلمین مع الغیر.

لذلک نزلت هذه الآیة الکریمة و أعلنت تخفیف قیود التعامل و المعاشرة مع أهل الکتاب، بعد أن ترسخت قواعد و أساس الحکومة الإسلامیة، و لم یعد هناک ما یخشی منه من جانب غیر المسلمین، فسمحت الآیة بالتزاور بین المسلمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۵

و غیرهم، و أحلت طعام بعضهم لبعض کما أحلت التزواج فیها بینهم (و لکن علی أساس الشروط التی سنبیّنها).

جدیر بالقول أنّ الذین لا یرون طهارة أهل الکتاب یشترطون أن یکون طعامهم خالیا من الرطوبة أو البلل، و إذا کان الطعام رطبا یشترط أن لا تکون أیادی أهل الکتاب قد مسته لکی یستطیع المسلمین تناول هذا الطعام، کما یری هؤلاء عدم جواز تناول طعام أهل الکتاب إن لم تتوفر الشروط المذکورة فیه.

إلّا أنّ مجموعة أخری من العلماء الذین یرون طهارة أهل الکتاب، لا یجدون بأسا فی تناول الطعام مع أهل الکتاب و الحلول ضیفا علیهم، شرط أن لا یکون طعامهم من لحوم ذبائحهم و أن یحصل الیقین من براءته من نجاسة عرضیة (کأن یکون قد تنجس باختلاطه أو ملامسته للخمرة أو الجعة «ماء العشیر»).

و خلاصة القول: إنّ الآیة- موضوع البحث- جاءت لترفع الحدود و القیود السابقة الخاصّة بمعاشرة أهل الکتاب، و الدلیل علی ذلک هو إشارة الآیة لإباحة طعام المسلمین لأهل الکتاب، أی السماح للمسلمین باستضافتهم، کما تتطرق الآیة بعد ذلک مباشرة إلی حکم التزاوج بین المسلمین و أهل الکتاب (أی الزواج بنساء أهل الکتاب).

و بدیهی أنّ النظام الذی یمتلک السیطرة الکاملة علی أوضاع المجتمع، هو وحده القادر علی إصدار مثل هذا الحکم لمصلحة أتباعه دون أن یساوره أی قلق بسبب الأعداء، و قد ظهرت هذه الحالة فی الحقیقة فی یوم غدیر خم، أو فی یوم عرفة فی حجّة الوداع کما اعتقده البعض، أو بعد فتح خیبر، مع أن یوم غدیر خم هو الأقرب إلی هذا الموضوع.

أورد صاحب تفسیر المنار فی کتابه اعتراضا آخر فی تفسیر هذه الآیة، حیث یقول بأنّ کلمة «طعام» وردت فی کثیر من آیات القرآن بمعنی کل أنواع الطعام، و هی تشمل اللحوم أیضا، فکیف یمکن تقیید الآیة بالحبوب و الفواکه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۶

و أمثالها؟، ثمّ یقول بأنّه طرح هذا الاعتراض فی مجلس کان یضم جمعا من الشیعة فلم یجب أحد علیه.

و باعتقادنا نحن أنّ جواب اعتراض صاحب کتاب المنار واضح، فنحن لا ننکر أنّ لفظة «طعام» تحمل مفهوما واسعا، إلّا أنّ ما ورد فی الآیات السابقة، کبیان أنواع اللحوم المحرمة- و بالأخص لحوم الحیوانات التی لم یذکر اسم اللّه علیها لدی ذبحها- إنّما یخصص هذا المفهوم الواسع و یحدد کلمة «طعام» فی الآیة بغیر اللحوم، و لا ینکر أحد أن کل عام أو مطلق قابل للتخصیص و التقیید، کما نعلم أنّ أهل الکتاب لا یلتزمون بذکر اسم اللّه علی ذبائحهم، ناهیک علی أنّهم لا یراعون- أیضا- الشروط الواردة فی السنّة فی مجال الذبح.

و جاء فی کتاب «کنز العرفان» حول تفسیر هذه الآیة اعتراض آخر خلاصته أن کلمة «طیبات» لها مفهوم واسع، و هی «عامّة» بحسب الاصطلاح، بینما جملة وَ طَعامُ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ خاصّة، و طبیعی أنّ ذکر الخاص بعد العام یجب أن یکون لسبب، و لکن السبب فی هذا المجال غیر واضح، ثمّ یرجو صاحب الکتاب من اللّه أن یحل له هذه المعضلة العلمیة[۳۱۹].

إنّ جواب هذا الاعتراض یتّضح أیضا ممّا قلناه سابقا بأنّ الآیة إنّما جاءت بعبارة أُحِلَّ لَکُمُ الطَّیِّباتُ کمقدمة من أجل بیان رفع القیود فی التقارب مع أهل الکتاب، فالحقیقة أنّ الآیة تقول بأنّ کل شیء طیب هو حلال للمسلمین، و بناء علی هذا فإن طعام أهل الکتاب (إذ کان طیبا و طاهرا) هو حلال أیضا للمسلمین- و أن الحدود و القیود التی کانت تقف حائلا دون تقارب المسلمین مع أهل الکتاب

قد رفعت أو خففت فى هذا اليوم بعد الانتصارات التى أحرزها المسلمون فيه، (فليمعن النظر فى هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۷

حكم الزّواج بغير المسلمات:

بعد أن بيّنت هذه الآية حلية طعام أهل الكتاب تحدثت عن الزواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، فقالت بأنّ المسلمين يستطيعون الزّواج بالنساء المحصنات من المسلمات و من أهل الكتاب، شرط أن يدفعوا لهن مهورهن، حيث تقول الآية: وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْمُحْصَناتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ... على أن يكون التواصل بوسيلة الزّواج المشروع و ليس عن طريق الزنا الصريح، و لا عن طريق المعاشرة الخفية، حيث تقول الآية: مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ۳۲۰].

و هذا الجزء من الآية الكريمة يقلل فى الحقيقة الحدود التى كانت مفروضة على الزواج بين المسلمين و غيرهم، و يبيّن جواز زواج المسلم بالمرأة الكتابية ضمن شروط خاصّة.

و قد اختلف فقهاء المسلمين فى أنّ جواز الزواج بالمرأة الكتابية هل ينحصر بالنوع المؤقت من الزّواج، أو يشمل النوعين: الدائم و المؤقت؟

لا- يرى علماء السنّة فرقا بين نوعى الزواج فى هذا المجال، و يعتقدون بأنّ الآية عامّية، بينما يعتقد جمع من علماء الشيعة أنّ الآية مقتصرة على الزواج المؤقت، و تؤيّد روايات وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام هذا الرأى أيضا.

و القرائن الموجودة فى الآية يمكن أن تكون دليلا على هذا القول.

و أوّل هذه القرائن هو قوله تعالى: إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ و لو أن لفظة «الأجر» تطلق على المهر فى نوعى الزواج الدائم و المؤقت، إلّا أنّها غالبا ما ترد لبيان المهر فى الزواج المؤقت، أى أنّها تناسب هذا الأخير أكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۸

أمّا القرينة الثّانية فهى قوله تعالى: غَيْرَ مُسافِحِينَ وَ لا مُتَّخِذِي أَخْدانٍ ...

فهى تتلاءم أكثر مع الزواج المؤقت، لأنّ الزواج الدائم ليس فيه شبه الزنا أو الصداقة السرية لكى ينهى عنه، بينما يشتبه بعض السذج من الناس- أحيانا- فى الزواج المؤقت فيخلطون بينه و بين الزنا و الصداقة السرية غير المشروعة مع المرأة.

أضف إلى ذلك كلّه ورد هذه التعابير فى الآية (۲۵) من سورة النساء، و كما نعلم فإنّ تلك الآية نزلت فى شأن الزواج المؤقت.

مع ذلك كلّه فإنّ هناك العديد من الفقهاء ممن يجيزون الزواج بالكتابيات بصورة مطلقة، و لا يرون القرائن المذكورة كافية لتخصيص الآية، كما يستدلون فى هذا المجال ببعض الروايات «للاطلاع على تفاصيل أكثر فى المجال يجدر الرجوع إلى كتب الفقه».

و لا يخفى علينا ما شاع فى عالم اليوم من تقاليد الجاهلية بصورة مختلفة، و من ذلك انتخاب الرجل أو المرأة خليلا من الجنس الآخر و بصورة علنية، و قد تمادى إنسان عالم اليوم أكثر من نظيره الجاهلى فى التحلل و الخلاعة و المجون الجنسى، ففى حين كان الإنسان الجاهلى ينتخب الأخلاء سرّا و فى الخفاء، أصبح إنسان اليوم لا يرى بأسا من إعلان هذا الأمر و التباهى به بكل صلف و وقاحة، و يعتبر هذا التقليد المشين نوعا صريحا و مفضوحا من الفحشاء و هدية مشؤومة انتقلت من الغرب إلى الشرق و أصبحت مصدرا للكثير من النكبات و الكوارث.

و لا يفوتنا أن نوضح هذه النقطة و هى أن الآية أجازت تناول طعام أهل الكتاب كما أجازت إطعامهم وفق الشروط التى ذكرت، بينما

فى قضية الزواج أجازت فقط الزواج بنساء أهل الكتاب، و لم تجز للنساء المسلمات الزواج بالرجال من أهل الكتاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۰۹

و فلسفة هذا الأمر جلية واضحة لا تحتاج إلى الشرح و التفصيل، لأنّ النساء بما يمتلكنه من عواطف و مشاعر رقيقة يكن أكثر عرضة لاكتساب أفكار أزواجهنّ، من الرجال.

و لكى تسد الآية طريق إساءة استغلال موضوع التقارب و المعاشرة مع أهل الكتاب و الزواج من المرأة الكتابية على البعض من ضعاف النفوس، و تحول دون الانحراف إلى هذا الأمر بعلم أو بدون علم، حذرت المسلمين فى جزئها الأخير فقالت: وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ

و هذه إشارة إلى أنّ التسهيلات الواردة فى الآية بالإضافة إلى كونها تؤدى إلى السعة و رفع الحرج عن حياة المسلمين، يجب أن تكون- أيضا- سببا لتغلغل الإسلام إلى نفوس الأجانب، لا أن يقع المسلمون تحت نفوذ و تأثير الغير فيتركوا دينهم، و حيث سيؤدى بهم هذا الأمر إلى نيل العقاب الإلهى الصارم الشديد.

و هناك احتمال آخر فى تفسير هذا الجزء من الآية نظرا لبعض الروايات الواردة و سبب النّزول المذكور، و هو أن نفرا من المسلمين أعلنوا- بعد نزول هذه الآية و حكم حلية طعام أهل الكتاب و الزواج بالكتابيات- استياءهم من تطبيق هذه الأحكام، فحذرتهم الآية من الاعتراض على حكم اللّه و من الكفر بهذه الحكم، و أنذرتهم بأنّ أعمالهم ستذهب هباء و ستكون عاقبتهم الخسران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضى أَوْ عَلى سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۶)

التّفسير

تطهير الجسم و الرّوح:

لقد تناولت الآيات السابقة بحوثا متعددة عن الطيبات الجسمانية و النعم المادية، أمّا الآية الأخيرة فهى تتحدث عن الطيبات الروحية و ما يكون سببا لطهارة الرّوح و النفس الإنسانية، فقد بيّنت هذه الآية أحكاما مثل الوضوء و الغسل و التيمم، التى تكون سببا فى صفاء و طهارة الروح الإنسانية- فخاطبت المؤمنين فى البداية موضحة أحكام الوضوء بقولها: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۱

قُمْتُمْ ۳۲۱] إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ

لم توضّح الآية مناطق الوجه التى يجب غسلها فى الوضوء، لكن الروايات التى وردت عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام قد بيّنت بصورة مفصلة طريقة الوضوء التى كانت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعمل بها.

۱- إنّ حدود الوجه طولا من منابت الشعر على الجبهة حتى منتهى الذقن، و عرضا ما يقع من الوجه بين الأصبع الوسطى و الإبهام- و

هذا هو ما یسمّی و یفهم من الوجه عرفا، لأنّ الوجه هو ذلک الجزء من الجسم الذی یواجه الإنسان لدی التلاقی مع نظیره.

۲- لقد ذکرت الآیة حدود ما یجب غسله من الیدین فی الوضوء، فأشارت إلی أنّ الغسل یکون حتی المرفقین- و قد جاء التصریح بالمرفقین فی الآیة لکی لا یتوهم بأنّ الغسل المطلوب هو للرسغین کما هو العادة فی غسل الأیدی.

و یتبیّن من هذا التوضیح أنّ کلمة «إلی» الواردة فی الآیة هی لمجرّد بیان حد الغسل و لیست لبیان أسلوبه کما التبس علی البعض، حیث ظنوا أنّ المقصود فی الآیة هو غسل الیدین ابتداء من أطراف الأصابع حتی المرفقین (و راج هذا الأسلوب لدی جماعات من أهل السنة).

و لتوضیح هذا الأمر نقول: أنّه حین یطلب إنسان من صباغ أن یصبغ جدار غرفة من حد ارضیتها لغایة متر واحد، فالمفهوم من ذلک أنّه لا یطلب أن یبدأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۲

الصباغ عمله من تحت إلی فوق، بل إنّ ذکر هذه الحدود هو فقط لبیان المساحة المراد صبغها لا أکثر و لا أقل، و علی هذا الأساس فإن الآیة أرادت من ذکر حدود الید بیان المقدار الذی یجب غسله منها لا أسلوب و کیفیة الغسل.

و قد شرحت الروایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام أسلوب الغسل وفق سنّة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو غسل الیدین من المرفق حتی أطراف الأصابع.

و یجب الانتباه إلی أنّ المرفق- أیضا- یجب غسله أثناء الوضوء، لأن الغایة فی مثل هذه الحالات تدخل ضمن المغیّی، أی أن الحدّ یدخل فی حکم المحدود[۳۲۲].

۳- إنّ حرف (ب) الوارد مع عبارة «برؤوسکم» فی الآیة یعنی التبعیض، کما صرّحت به بعض الروایات و أیده البعض من علماء اللغة، و المراد بذلک بعض من الرأس، أی مسح بعض من الرأس حیث أکدت روایات الشیعة أنّ هذا البعض هو ربع الرأس من مقدمته، فیجب مسح جزء من هذا الربع حتی لو کان قلیلا بالید، بینما الرائج بین البعض من طوائف السنّة فی مسح کل الرأس و حتی الأذنین لا یتلاءم مع ما یفهم من هذه الآیة الکریمة.

۴- إنّ اقتران عبارة «أرجلکم» بعبارة «رؤوسکم» دلیل علی أنّ الأرجل یجب أن تمسح هی- أیضا- لا أن تغسل، و ما فتح اللام فی «أرجلکم» إلّا لأنّها معطوفة محلا علی «رؤوسکم» و لیست معطوفة علی «وجوهکم»[۳۲۳].

۵- تعنی کلمة «کعب» فی اللغة النتوء الظاهر خلف الرجل، کما تعنی- أیضا-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۳

المفصل الذی یربط مشط الرجل بالساق ۳۲۴].

بعد ذلک کله بیّنت الآیة حکم الغسل عن جنابة حیث قالت: وَ إِنْ کُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ... و الواضح أنّ المراد من جملة «فاطّهروا» هو غسل جمیع الجسم، لأنّه لو کان المراد جزءا خاصا منه لاقتضی ذکر ذلک الجزء، و علی هذا الأساس فإنّ العبارة المذکورة تعنی جمیع الجسم- و قد جاء حکم مشابه لهذا الحکم فی الآیة (۴۳) من سورة النساء حیث تقول: حَتَّی تَغْتَسِلُوا.

إنّ کلمة «جنبا»- و کما أوضحنا سابقا فی الجزء الثّالث من تفسیرنا هذا، لدی تفسیر الآیة (۴۳) من سورة النساء- مصدر، و قد وردت بمعنی اسم الفاعل، و تعنی فی الأصل «المتباعد» أو «البعید» لأنّ الجذر الأصلی هو «جنابة» بمعنی «بعد»، و سبب إطلاق هذا اللفظ علی الإنسان المجنب لأن هذا الإنسان یجب علیه أن یبتعد عن الصلاة و التوقف فی المساجد و أمثالها.

و تطلق هذه الکلمة «جنب» علی المفرد و الجمع و المذکر و المؤنث، و إطلاق «جار الجنب» علی البعید هو لنفس المناسبة.

و یمکن أن یستدل من الآیة التی تدعو المجنب إلی الاغتسال قبل الصّلاة علی أن غسل الجنابة یجزئ، و ینوب عن الوضوء أیضا.

و من ثمّ بادرت الآیة إلی بیان حکم التیمم حیث قالت: وَ إِنْ کُنْتُمْ مَرْضی أَوْ عَلی سَفَرٍ أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ

فَلَمْ تَجِدُوا ماءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۶۱۴

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۴

و هنا يجب الالتفات إلى أن جملتى أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغائِطِ و أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ هما- كما أشرنا سابقا- معطوفتان على بداية الآية، أى على جملة: إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فالآية أشارت فى البداية حقيقة إلى قضية النوم، و تطرقت فى آخرها إلى نوعين آخرين من موجبات الوضوء و الغسل.

أمّا لو عطفنا الجملتين على جملة عَلى سَفَرٍ فسنواجه مشكلتين فى هذه الآية و هما أوّلا: إنّ عودة الإنسان بعد التخلى لا يمكن أن تكون كحالة المرض أو السّفر فلا تناظر بين تلك و هاتين الحالتين، لذلك ترانا مضطرين إلى أن نأخذ حرف «أو» الوارد فى الآية بمعنى الواو العاطفة (و أكّد هذا الأمر جمع من المفسّرين) و هذا خلاف لظاهر الآية.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ ذكر التغوط بصورة خاصّة من بين كل موجبات الوضوء سيبقى بدون مبرر، لكننا لو فسّرنا الآية بالصورة التى قلناها سابقا فلا يبقى بعد ذلك مبرر لهذين الاعتراضين الأخيرين، (و مع أنّنا اعتبرنا فى تفسير الآية (۴۳) من سورة النساء)، و جريا على ما فعله الكثير من المفسّرين، اعتبرنا كلمة «أو» بمعنى الواو العاطفة، إلّا أنّ الذى ذكرناه مؤخرا- هنا- يعتبر أقرب إلى القبول من ذلك.

أمّا الموضوع الآخر فهو تكرار موضوع الجنابة مرّتين فى هذه الآية، و يحتمل أن يكون هدف هذا التكرار هو التأكيد على هذه القضية، أو قد تكون كلمة «جنبا» الواردة بمعنى الجنابة التى تحدث أثناء النوم أو بسبب الاحتلام، بينما المراد من جملة أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ هو الجنابة الحاصلة نتيجة المقاربة الجنسية بين الرجل و المرأة، و إذا فسّرنا كلمة «قمتم» الواردة فى الآية بالقيام من النوم (كما ورد فى روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّلام و أيضا اشتملت الآية على قرينة بهذا الخصوص) يكون تفسيرنا هذا تأييدا للمعنى الذى أوردناه بخصوص تكرار موضوع الجنابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۵

لقد بيّنت الآية- بعد ذلك- أسلوب التيمم بصورة إجمالية فقالت: فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ مِنْهُ ... و الواضح هنا هو أنّ المراد ليس حمل شىء من التراب و مسح الوجه و اليدين به، بل أنّ المقصود هو ضرب الكفين على تراب طاهر ثمّ مسح الوجه و اليدين بهما، لكن بعض الفقهاء استدلوا بعبارة «منه» الموجودة فى الآية و قالوا بضرورة أن يلاصق الكفين شىء و لو قليل من التراب ۳۲۵].

بقيت مسألة أخيرة فى هذا المجال، و هى مسألة معنى كلمتى صَعِيداً طَيِّباً فقد ذهب الكثير من علماء اللغة إلى أنّ لكلمة «صعيد» معنيين هما التراب أوّلا، أو كل شىء يغطى سطح البسيطة أى الكرة الأرضية ثانيا، سواء كان ترابا أو صخرا أو حصى أو حجرا أو غير ذلك من الأشياء، و قد أدى هذا إلى حصول اختلاف فى آراء الفقهاء حول الشىء الذى يجوز التيمم به، هل هو التراب وحده أو أنّ الحجر و الرمل و أمثالهما- أيضا- يجوز التيمم بهما؟

و حين نرجع إلى الأصل اللغوى لكلمة «صعيد» الذى يدل على «الصعود و الارتفاع» فإن المعنى الثّانى لهذه الكلمة يبدو أقرب إلى الذهن.

و تطلق كلمة «طيب» على الأشياء التى تلائم الطبع و الذوق الإنسانى، و قد أطلق القرآن الكريم هذه الكلمة فى موارد كثيرة مثل: «البلد الطيب» و «مساكن طيبة» و «ريح طيبة» و «حياة طيبة» و غيرها ... و كذلك فإنّ كل شىء طاهر يعتبر طيبا، لأنّ طبع الإنسان ينفر من الأشياء النجسة المدنّسة، و من هذا نستدل على أنّ تراب التيمم يجب أن يكون ترابا طاهرا أيضا.

و قد أكّدت الروايات الواردة إلينا عن أئمّة الإسلام عليهم السّلام على هذا الموضوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۶

بصورة متکررة، و نقرأ واحدة من هذه الروایات و هی تقول:

«نهی أمیر المؤمنین أن یتیمم الرجل بتراب من أثر الطریق»[۳۲۶].

و الجدیر بالنظر أنّ عبارة «التیمم» الواردة فی القرآن و الحدیث بمعنی التکلیف الشرعی الذی مضی الحدیث عنه، جاءت فی اللغة بمعنی «القصد» و القرآن الکریم یقرر أنّ الإنسان لدی قصد التیمم علیه أن یختار قطعة طاهرة من الأرض من بین القطعات المختلفة للتیمم منها. قطعة ینطبق علیها مفهوم «الصعید» معرضة للأمطار و الشمس و الریاح، و بدیهی أن تکون قبل اتخاذهما للتیمم مثل هذه القطعة من الأرض التی لم تتعرض لوطء الأقدام، فیها الصفات التی تستوعبها کلمة «طیب» و عندئذ فإن هذه القطعة من الأرض- بالإضافة إلی کونها لا تضرّ بالصحّة- تکون أیضا- و کما أسلفنا لدی تفسیرنا للآیة (۴۳) من سورة النساء- ذات أثر أیضا فی قتل الجراثیم و المیکروبات، کما یؤکّده العلماء من ذوی الإختصاص فی هذا المجال.

فلسفة الوضوء و التیمم:

لقد تناولنا فلسفة التیمم بالبحث بصورة وافیة فی الآیة (۴۳) من سورة النساء، أمّا بالنسبة لفلسفة الوضوء فالشیء الذی لا یختلف علیه اثنان، هو أنّ للوضوء فائدتین واضحتین:

إحداهما صحیة و الأخری أخلاقیة معنویة، فغسل الوجه و الیدین فی الیوم خمس مرّات أو علی الأقل ثلاث مرات، لا یخفی أثره فی نظافة الإنسان و صحته، أمّا الفائدة الأخلاقیة المعنویة فهی فی الأثر التربوی الذی یخلفه قصد التقرّب إلی اللّه فی نفس الإنسان حین یعقد النیّة للوضوء بالأخصّ حین ندرک أنّ المفهوم النفسی للنیة یعنی أن حرکة الإنسان أثناء الوضوء و التی تبدأ من الرأس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۷

و تنتهی بالقدمین- هی خطوات فی طاعة اللّه.

و نقرأ

فی روایة عن الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السّلام قوله: «إنّما أمر بالوضوء و بدئ به لأن یکون العبد طاهرا إذا قام بین یدی الجبار عند مناجاته إیّاه، مطیعا له فیما أمره نقیا من الأدناس و النجاسة، مع ما فیه من ذهاب الکسل، و طرد النعاس، و تزکیة الفؤاد للقیام بین یدی الجبار»[۳۲۷].

و تتوضح فلسفة الوضوء أکثر فی الحدیث عن فلسفة الغسل، و الذی سنتناوله فیما یلی:

فلسفة الغسل:

قد یسأل البعض لما ذا أمر الإسلام بغسل کامل الجسم لدی حصول «الجنابة» فی حین أن عضوا معینا واحدا یتلوث أو یتسخ فی هذه الحالة؟

فهل هناک فرق بین البول الخارج من ذلک العضو، و بین «المنی» الخارج منه أثناء الجنابة بحیث یجزی غسل العضو وحده فی حالة التبول، بینما یجب غسل الجسم کله بعد خروج المنی من العضو؟

لهذا السّؤال جوابان، مجمل و مفصل، و هما کما یلی: فالجواب المجمل یتلخص فی أن خروج المنی من الإنسان لا ینحصر أثره فی العضو الذی یخرج منه، أی أنّه لیس کالبول و الفضلات الأخری.

و الـدلیل علی هـذا القول هو تـأثر الجسم کله أثنـاء خروج المنی من العضو بحیث تطرأ علی خلایا الجسم کلها حالـة من الاسترخاء و الخمول، و هـذه الحالـة هی الـدلیل علی تـأثیر الجنابـة علی أجزاء الجسم کلهـا، و قـد أظهرت بحوث العلمـاء المتخصصـین- فی هـذا المجال- أن هناک سلسلتین عصبیتین نباتیتین فی جسم الإنسان، هما السلسلة السمبثاویة (الأعصاب المحرکة) و السلسلة شبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۸

السـمبثاویة (الاعصاب الکابحـة) تمتـدان فی کافة أجزاء الجسم و أجهزته الداخلیة، و تتولی السلسـلة السـمبثاویة تحفیر أجهزة الجسـم علی العمل و تسـریع عملها، بینما السلسـلة شـبه السـمبثاویة تعمل عکس الأولی، فتحـدّ عمل أجهزة الجسم و تبطئها فالأولی تلعب دور جهاز دفع البنزین فی السـیارة من أجل تحریکها و الأخری یکون دورها دور الکابـح فیها لإیقافها عن الحرکـة، و بالتوازن الحاصل فی عمل هاتین السلسلتین العصبیتین تعمل جمع أجهزة جسم الإنسان بصورة متوازنة أیضا.

و قـد تحـدث فی جسم الإنسان- أحیانا- فعالیات تعیق اسـتمرار هـذا التوازن فیطغی عمل أحـد السلسـلتین العصبیتین علی عمل الجملة الأخری، و من هـذه الفعالیات وصول الإنسان إلی الذروة فی اللذة الجنسـیة، أی ما یسـمی بحالة «الأورکازم» التی تقترن بخروج المنی من عضو الإنسان، و فی هـذه الحالة یطغی عمل السلسـلة العصبیة شـبه السـمبثاویة الکابح علی عمل السلسـلة العصبیة الأخری التی هی السـمبثاویة الدافعـة فیختل التوازن بصورة سـلبیة فی جسم الإنسان، و قـد ثبت بالتجربـة أن الشـیء الذی یمکنه إعادة التوازن بین عمل تلک السلسـلتین العصبیتین، هو وصول الماء إلی جسم الإنسان، و لما کانت حالـة «الأورکازم» التی یصل إلیها الإنسان لـدی «الجنابـة» تؤثر بصورة محسوسة علی أجهزة جسم الإنسان و تخل بتوازن السلسلتین العصبیتین المذکورتین، لذلک أمر الإسلام بأن یباشر الإنسان غسل کل جسـمه بعـد کل مقاربـة جنسـیة، أو لـدی خروج «المنی» منه، حیث یعود بهذا الغسل التوازن بین عمل السلسـلتین العصبیتین السمبثاویة و شبه السمبثاویة فی کل أجزاء الجسم، فتعود لها حالتها الطبیعیة فی الحرکة و الحیاة[۳۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۱۹

و بـدیهی أنّ فائـدة الغسل لا تنحصـر فی الـذی تحـدثنا عنه قبل قلیل، بل أنّ الغسل یعتبر أیضا نوعا من العبادة التی لها آثار أخلاقیة لا تنکره، و لهذا السـبب یبطل الغسل إن لم یکن مقترنا بنیّة الطاعة و التقرب إلی اللّه سبحانه، لأنّ الحقیقة هی أنّ الجسم و الروح کلیهما یتأثران أثناء خروج «المنی» من الإنسان أو لـدی حصول المقاربـة الجنسـیة- فالروح تجر بذلک وراء الشـهوات المادیة و یدفع الجسـم إلی حالة الخمول و الرکود.

و غسل الجنابة یعتبر غسـلا للجسم بما یشمله من عملیة إیصال الماء إلی جمیع أجزائه، و یعتبر غسلا للروح بما یحتویه من نیة الطاعة و التقرب إلی اللّه، أی أنّ لهـذا الغسل أثرین مادی و روحی، یـدفع الأثر المادی منه الجسم إلی اسـتعادة حالـة النشاط و الفعالیة، و یدفع الأثر الروحی الإنسان للتوجه إلی اللّه و إلی المعنویات.

أضف إلی ذلک کلّه أنّ وجوب غسل الجنابة فی الإسـلام هو أیضا من أجل إبقاء جسم الإنسان المسـلم طاهرا، کما هو رعایة للجانب الصـحی فی حیاة الإنسان، و قـد یوجـد الکثیر من الناس ممن لا یعتنون بنظافـة أجسامهم لکن هـذا الأمر و الواجب الإسـلامی یجبرهم علی غسـل أجسـامهم بین فترة و أخری و لا یقتصـر التهاون فی غسل الجسم علی إنسان العهود القدیمـة، بل حتی فی عصـرنا الحاضـر هناک الکثیر ممن لا یعتنون بغسل أجسامهم، بل یتهاونون فی هـذا الأمر الحیاتی المهم (و طبیعی أن حکم غسل الجنابـة حکم عام، و قانون کلی یشمل حتی الشخص الذی غسل جسمه قبل حصول الجنابة بقلیل).

إنّ الجوانب الثلاثـة المـذکورة فیمـا سـبق- توضـح بمجموعها سـبب وجوب الغسل لـدی خروج المنی من الإنسان سواء کان فی أثناء النوم أو الیقظة و کذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۰

بعد المقاربة الجنسیة (حتی لو لم تؤد إلی خروج المنی).

و قد أوضحت الآية- فى آخرها- أنّ الأوامر الإلهية ليس فيها ما يحرج الإنسان أو يوجد العسر له، بل إنها أوامر شرعت لتحقق فوائد و منافع معينة للناس، فقالت الآية ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

و تؤكد هذه العبارات القرآنية الأخيرة أنّ جميع الأحكام و الأوامر الشرعية الإلهية و الضوابط الإسلامية هى فى الحقيقة لمصلحة الناس و لحماية منافعهم، و ليس فيها أى هدف آخر، و إنّ اللّه يريد بالأحكام الأخيرة الواردة فى الآية- موضوع البحث- أن يحقق للإنسان طهارته الجسمانية و الروحية معا.

و يجب هنا الانتباه إلى أن جملة ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ مع أنّها وردت فى أواخر الآيات التى اشتملت على أحكام الغسل و الوضوء و التيمم، إلّا أنّها تبيّن قانونا عامّا معناه أنّ أحكام اللّه ليست تكاليف شاقّة أبدا، و لو كان فى أى حكم شرعى العسر و الحرج لأى فرد لسقط التكليف عن هذا الفرد بناء على الاستثناء الوارد فى الجملة القرآنية الأخيرة من الآية موضوع البحث، و لهذا لو كان الصوم يشكل مشقة و عناء على أى فرد بسبب مرض أو شيخوخة أمّا ما شابه ذلك، لسقط أداؤه عن هذا الفرد و ارتفع التكليف عنه، بناء على هذا الدليل نفسه.

و لا يخفى- أيضا- أنّ هناك من الأحكام الإلهية ما يظهر فيها الصعوبة و المشقة بذاتها مثل حكم الجهاد، إلّا أنّه و لدى مقارنة المصالح التى تتحقق بالجهاد مع الصعوبات و المشاق التى فيه، تترجح كفة المصالح و أهميتها فلا تكون المشاق أمامها شيئا يذكر، و قد سمى القانون الذى أثبتته الجملة القرآنية الأخيرة بقانون «لا حرج» و هو مبدأ أساسى يستخدمه الفقهاء فى أبواب مختلفة و يستنبطون منه أحكاما كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۱

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۷]

اشارة

وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ مِيثاقَهُ الَّذِى واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷)

التّفسير

العهود الرّبانية:

تناولت الآية السابقة مجموعة من الأحكام الإسلامية بالإضافة إلى موضوع إكمال النعمة الإلهية على المسلمين، و جاءت الآية الأخيرة لتكمل السياق الموضوعى لما سبق من آيات، فاستقطبت انتباه المسلمين إلى أهمية و عظمة النعم الإلهية التى أعظمها و أهمها نعمة الإيمان و الهداية و الإسلام، تقول الآية: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ... و مع أن كلمة «نعمة» جاءت بصيغة المفرد فى هذه الآية، إلّا أنّها وردت اسم جنس لتفيد العموم، حيث عنى بالنعمة جميع النعم، كما يحتمل أيضا أن يكون المراد نعمة الإسلام بصورة خاصّة، و التى أشارت إليها الآية السابقة بصورة إجمالية حيث قالت: وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ...

فأى نعمة أعظم من أن ينال الإنسان- فى ظل الإسلام- كل الهبات الإلهية و المفاخر و الإمكانيات الدنيوية، بعد أن كان الناس يعانون فى الجاهلية من التشتت و الجهل و الضلال و يسود بينهم قانون الغاب، و كان الفساد و الظلم يعم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۲

مجتمعهم آنذاك، و قد تحولوا بفضل الإسلام إلى مجتمع يسوده الاتحاد و التماسك و العلم، و يرفل بالنعم و الإمكانيات المادية و

المعنوية الزّاخرة.

بعد هذا تعيد الآية إلى الأذهان ذلك العهد الذى بين البشر و بين اللّه، فتقول وَ مِيثاقَهُ الَّذِى واثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنا وَ أَطَعْنا ....

هناك احتمالان حول المعنى المراد بلفظة «العهد» الواردة فى الآية و موضوعه.

الاحتمال الأوّل: أن يكون هو ذلك العهد الذى عقده المسلمون فى بداية ظهور الإسلام فى واقعة «الحديبية» أو واقعة «حجة الوداع» أو «العقبة» مع اللّه، أو بصورة عامّة هو العقد الذى عقده جميع المسلمين بصورة ضمنية مع اللّه بمجرّد قبولهم الإسلام.

و الاحتمال الثّانى: هو أن يكون العهد المقصود فى الآية الكريمة الأخيرة هو ذلك العهد المعقود بين كل فرد إنسانى- بحكم فطرته و خلقه- و بين اللّه، و الذى يقال عنه بأنّه تم فى «عالم الذر»[۳۲۹].

و بيان ذلك هو أنّ اللّه حين خلق الإنسان أودع فيه استعدادات و مواهب كثيرة، و منها نعمة العلم التى بها يتتبع أسرار الخليقة، و تتحقق لديه معرفة الحق، و كذلك نعم كالعقل و الذكاء و الإدراك ليعرف الإنسان بها أنبياء اللّه و يلتزم بأوامرهم، و اللّه سبحانه حين أودع هذه النعم لدى الإنسان أخذ منه عهدا بأنّ يستغلها خير استغلال، و أن لا يهملها أو يسىء استعمالها، فردّ الإنسان بلسان الحال و الاستعداد «سمعنا و أطعنا».

و يعتبر هذا العهد أوسع و أحكم و أعم عهد أخذه اللّه من عباده البشر، و هذا هو العهد الذى يشير إليه الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام فى خطبته الأولى الواردة

فى كتاب «نهج البلاغة» بقوله: «ليستأدوهم ميثاق فطرته»

أى ليطلب منهم أداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۳

الميثاق الفطرى الذى أخذه منهم و الوفاء به.

و بديهى أنّ يشمل هذا العهد الواسع جميع المسائل و الأحكام الدينية.

و لا مانع مطلقا من أن تكون فى هذه الآية إشارة إلى جميع العهود و المواثيق التكوينية و التشريعية التى أخذها اللّه أو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسلمين بمقتضى فطرتهم فى مراحل مختلفة، و هنا يتوضح لنا الحديث القائل بأنّ المراد من الميثاق هو العهد الذى أخذه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسلمين فى حجّة الوداع بخصوص ولاية على بن أبى طالب عليه السّلام ۳۳۰] و يتفق هذا التّفسير مع ما ورد أعلاه.

و قد أكّدنا مرارا أنّ التفاسير التى ترد على الآيات القرآنية، ما هى إلّا إشارة لواحد من المصاديق الجلية المعنية فى كل آية، و لا تعنى مطلقا انحصار المعنى بالتّفسير الوارد.

و تجدر الإشارة- أيضا- إلى أنّ كلمة «ميثاق» مشتقّة من المصدر «وثاقة» أو «وثوق» و تعنى الشدّ المحكم بالحبل و أمثاله، كما يطلق على كل عمل يؤدى إلى راحة البال و اطمئنان الخاطر، حيث أنّ العهد يكون بمثابة عقدة تربط شخصين أو جماعتين أحدهما بالآخر، و لذلك سمّى «ميثاقا».

و فى النهاية تؤكّد الآية على ضرورة التزام التقوى، محذرة أنّ اللّه محيط بأسرار البشر، و عالم بما يختلج فى صدورهم، بقولها: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و تدل عبارة بِذاتِ الصُّدُورِ على أنّ اللّه عالم بأدقّ أسرار البشر المكنونة فى أعماق نفوسهم و التى لا يمكن لأىّ مخلوق معرفتها غير صاحب السرّ و خالقه، أى اللّه العالم بذات الصدور.

و قد شرحنا فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا سبب نسبة العواطف و المشاعر و النوايا و العزائم إلى القلب أو إلى مكنونات الصدور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۴

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۸) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۰)

التّفسير

دعوة مؤكّدة إلى العدالة:

إنّ الآية الأولى من الآيات الثلاث أعلاه تدعو إلى تحقيق العدالة، و هى شبيهة بتلك الدعوة الواردة فى الآية (۱۳۵) من سورة النساء، التى مضى ذكرها مع اختلاف طفيف.

فتخاطب هذه الآية أوّلا المؤمنين قائلة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ.

ثمّ تشير إلى أحد أسباب الانحراف عن العدلة، و تحذّر المسلمين من هذا الانحراف مؤكّدة أنّ الأحقاد و العداوات القبلية و الثارات الشخصية، يجب أن لا تحول دون تحقيق العدل، و يجب أن لا تكون سببا للاعتداء على حقوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۵

الآخرين، لأنّ العدالة أرفع و أسمى من كل شىء، فتقول الآية الكريمة: وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلَّا تَعْدِلُوا ... و تكرر الآية التأكيد لبيان ما للعدل من أهمية قصوى فتقول اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى

و بما أنّ العدالة تعتبر أهم أركان التقوى، تؤكّد الآية مرّة ثالثة قائلة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

و الفرق بين فحوى هذه الآية و الآية المشابهة لها الواردة فى سورة النساء، يتحدد من عدّة جهات:

أوّلا: إنّ الآية الواردة فى سورة النساء دعت إلى إقامة العدل و الشهادة للّه، أمّا الآية الأخيرة فقد دعت إلى القيام للّه و الشهادة بالحق و العدل، و لعل وجود هذا الفارق لأنّ الآية الواردة فى سورة النساء استهدفت بيان ضرورة أن تكون الشهادة للّه، لا لأقارب و ذوى الشاهد، بينما الآية الأخيرة و لكونها تتحدث عن الأعداء أوردت تعابير مثل الشهادة بالعدل و القسط أى تجنب الشهادة بالظلم و الجور.

ثانيا: أشارت الآية الواردة فى سورة النساء إلى واحد من عوامل الانحراف عن العدالة، بينما الآية الأخيرة أشارت إلى عامل آخر فى نفس المجال، فهناك ذكرت الآية عامل الحب المفرط الذى لا يستند على تبرير أو دليل، بينما ذكرت الآية الأخيرة الحقد المفرط الذى لا مبرر له.

و لكن الآيتين كليهما تتلاقيان فى عامل إتّباع الأهواء و النزوات التى تتحدث عنها الآية الأولى فى جملة: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا ... لأنّ الهوى مصدر كلّ ظلم و جور ينشأ من الاندفاع الأعمى وراء الأهواء و المصالح الشخصية، لا من دافع الحب أو الكراهية، و على هذا الأساس فإنّ المصدر الحقيقى للانحراف عن العدل هو نفس إتّباع الهوى، و

قد جاء فى كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۶

و الإمام علی بن أبی طالب علیه السّلام قولهما: «امّا إتّباع الهوی فیصدّ عن الحق»[۳۳۱].

العدل رکن إسلامی مهم:

قلما نجد قضیة أعطی الإسلام لها أهمیة قصوی کقضیة العدل، فهی و قضیة التوحید سیان فی تشعب جذورهما إلی جمیع الأصول و الفروع الإسلامیة، و بعبارة أخری: کما أنّ جمیع القضایا العقائدیة و العملیة و الاجتماعیة و الفردیة و الأخلاقیة و القانونیة لا تنفصل مطلقا عن حقیقة التوحید، فکذلک لا تنفصل کل هذه القضایا و لا تخلو أبدا من روح العدل.

و لیس من العجیب و الحالة هذه أن یکون العدل واحدا من أصول العقیدة و الدین، و أساسا من أسس الفکر الإسلامی، و هو مع کونه صفة من صفات اللّه سبحانه و یدخل ضمن مبادئ المعرفة الإلهیة، إلّا أنّه یشتمل علی معان واسعة فی خصائصه و مزایاه، و لذلک کان ما أولته البحوث الاجتماعیة فی الإسلام من الاهتمام بالعدل و الاعتماد علیه یفوق ما حظیت به المبادئ الإسلامیة الأخری من ذلک.

و یکفی إیراد عدد من الأحادیث و الرّوایات نماذج لدرک أهمیة هذه الحقیقة:

۱-

روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إیّاکم و الظلم فإنّ الظلم عند اللّه هو الظلمات یوم القیامة»[۳۳۲].

و بدیهی أن کل ما هو موجود من خیر و برکة و نعم هو من النور و فی النور،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۷

و إنّ الظلام هو مصدر کل عدم وفاقة.

۲- و

قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا: «بالعدل قامت السموات و الأرض»[۳۳۳].

و یعتبر هذا القول من أوضح التعابیر التی قیلت فی شأن العدل، و معناه أنّ حیاة البشر المحدودة فی الکرة الأرضیة لیست وحدها التی یکون قوامها العدل، بل إنّ حیاة و وجود الکون بأکمله، و السماوات و الأرضین کلها قائمة بالعدل، و فی ظل حالة من توازن القوی الفاعلة فیها، و وجود و استقرار کل شیء فی محله منها، بحیث لو أنّها انحرفت عن هذا التوازن لحظة واحدة أو بمقدار قید أنملة لحکمت علی نفسها بالفناء و الزوال.

و یؤید هذا القول حدیث آخر هو: «الملک یبقی مع الکفر و لا یبقی مع الظلم» لأنّ للظلم أثرا سریعا فی هذه الحیاة الدنیویة و من نتائجه الحروب و الاضطرابات و القلاقل و الفوضی السیاسیة و الاجتماعیة و الأخلاقیة و الأزمات الاقتصادیة التی تعمّ العالم الیوم، و هذا ما یثبت الحقیقة المذکورة بصورة جیدة.

و یجب الانتباه جیدا إلی أنّ اهتمام الإسلام لم ینصب فی مجرد العدالة، بل إنّه أولی أهمیة أکبر لتحقیق العدالة، و طبیعی أنّ محض تلاوة هذه الآیات فی المجالس أو من علی المنابر، و کتابتها فی الکتب، لا یجدی نفعا فی استعادة العدالة المفقودة، و علاج التمییز الطبقی و العنصری، و الفساد و الاجتماعی فی المجتمع الإسلامی، بل إنّ عظمة هذه الآیات و الأحکام تتجلّی فی یوم تطبق فیه العدالة فی صمیم حیاة المسلمین.

بعد التأکید الشدید الذی حملته الآیة الکریمة حول قضیة العدالة و ضرورة تطبیقها بادرت الآیة التالیة و تمشیا مع الأسلوب القرآنی، فأعادت إلی الأذهان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۸

ما أعده اللّه للمؤمنين العاملين بالخير من غفرانه و نعمه العظيمة، حيث تقول الآية:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ

كما ذكرت الآية فى المقابل جزاء الكافرين الذين يكذبون بآيات اللّه، فقالت: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ و ممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت المغفرة و الأجر العظيم فى إطار «وعد اللّه» بينما ذكرت عقاب جهنم بأنّه نتيجة للكفر و للتكذيب بآيات اللّه، و ما هذا إلّا إشارة إلى فضل اللّه و رحمته لعباده فيما يخص نعم و هبات الآخرة التى لا يمكن لأعمال الإنسان مهما كبرت و عظمت أن تباريها أو تعادلها مطلقا، كما أنّها إشارة- أيضا- إلى أنّ عقاب الآخرة ليس فيه طابع انتقامى أبدا، بل هو نتيجة عادلة لما ارتكبه الإنسان من أعمال سيئة فى حياته.

أمّا فيما يخص معنى عبارة «أصحاب الجحيم»[۳۳۴] فهى مع ما فى كلمة «أصحاب» من معنى الملازمة، أى أن الكافرين و المكذبين بآيات اللّه يلازمون جهنم، لكن هذه الآية لوحدها لا يمكن أن تكون دليلا على مسألة «الخلود» فى نار جهنم، كما جاء توضيح ذلك فى تفسيرى «التبيان» و «مجمع البيان» و تفسير «الفخر الرّازى»، لأنّ الملازمة ربما تكون دائمة، و قد تستمر لفترة طويلة ثمّ تنقطع، بدلالة التعبير القرآنى الوارد فى شأن ركاب سفينة نوح النّبى عليه السّلام حيث وردت فيهم عبارة «أصحاب السفينة» و هم لم يكونوا ملازمين لتلك السفينة ملازمة دائمة.

و مع انتفاء الشك حول خلود الكفار فى نار جهنم، فالآية الكريمة- موضوع البحث- لم تتحدث بشىء عن هذا «الخلود» بل يستنتج هذا من آيات قرآنية أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۲۹

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱)

التّفسير

لقد ذكرت الآيات السابقة بعضا من النعم الإلهية، و جاءت الآية الأخيرة تخاطب المسلمين و تذكر لهم أنواعا من النعم التى أنعم اللّه بها عليهم، لكى يؤدوا شكرها عن طريق طاعة اللّه و السعى لتحقيق مبادئ العدالة، فتقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ....

و قد دأب القرآن الكريم فى كثير من آياته على تذكير المسلمين بالنعم المختلفة التى أنعم اللّه بها عليهم، و ذلك من أجل تعزيز دافع الإيمان لديهم، و لاستثارة و تحفيز دافع الشكر و الصمود فيهم ليقفوا بوجه المشاكل، و الآية الأخيرة من سنخ تلك الآيات.

و اختلف المفسّرون حول الواقعة التى تشير إليها الآية موضوع البحث، فبعضهم قال: بأنّها إشارة إلى إنقاذ المسلمين من قبيلة «بنى النضير» اليهودية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۰

تواطأت على قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فى المدينة.

و ذهب البعض الآخر من المفسّرين على أنّها إشارة إلى واقعة «بطن النخل» التى حصلت فى العام السادس من الهجرة النبوية فى واقعة

«الحديبية» حيث قرر المشركون هناك فى ذلك الحين- بزعامة (خالد بن الوليد)- الهجوم على المسلمين أثناء أدائهم لصلاة العصر، فعلم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه المؤامرة فصلّى صلاة الخوف القصيرة، ممّا أدى إلى إحباط المؤامرة.

و قد ذكر مفسّرون آخرون وقائع أخرى من حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين المليئة بالحوادث، و قالوا بأنّ هذه الآية إشارة لتلك الوقائع.

و يرى مفسّرون آخرون أن هذه الآية إشارة إلى كل الوقائع و الأحداث التى حصلت طيلة التاريخ الإسلامى حتى ذلك الوقت.

و لو تغاضينا عن كلمة «قوم» الواردة فى هذه الآية بصيغة النكرة التى تدل على وحدة المجموعة المعينة، فإنّ هذا التّفسير يمكن اعتباره من أحسن التفاسير فى هذا المجال.

و الآية على كل حال تلفت انتباه المسلمين إلى الأخطار التى تعرضوا لها، و كان يحتمل أن تدفع بالوجود الإسلامى إلى الفناء و الزوال و إلى الأبد، و لكن فضل اللّه و نعمته شملتهم و أنقذت الإسلام و المسلمين من تلك الأخطار.

كما تحذر الآية المسلمين و تنبههم إلى ضرورة التزام التقوى و الاعتماد على اللّه كدليل على شكر ذلك الفضل و تلك النعمة، و ليعلموا بأنّهم بتقواهم سيضمنون لأنفسهم الدعم و السند و الحماية من اللّه فى حياتهم الدنيوية هذه، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و واضح أنّ التوكل على اللّه ليس معناه التخلى عن المسؤوليات أو الاستسلام لحوادث الزمان، بل يعنى أنّ الإنسان حين يستخدم طاقاته و الإمكانيات المتوفرة لديه، يجب عليه أن ينتبه فى نفس الوقت إلى أنّ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۱

الطاقات و الإمكانيات ليست من عنده بل أن مصدرها و منشأها هو اللّه تعالى، و إذا حصل هذا التوجه فإن من شأنه أن يقضى على دافع الغرور و الأنانية عند الإنسان أوّلا، و من ثمّ لا يدع إلى نفسه طريقا للخوف و القلق و اليأس حيال الأحداث و المشاكل مهما كبرت و عظمت، لأنّه يعلم بأنّ سنده و حاميه هو اللّه الذى فاقت قدرته كل القدرات.

إضافة إلى ما ذكر، فإنّ تقديم الأمر بالتقوى على قضية التوكل يستشف منه أنّ حماية اللّه و رعايته تشمل حال المتقين.

و يجب الانتباه إلى أنّ عبارة «التقوى» المشتقة من المصدر «وقاية» معناها حماية النفس و إبعادها عن عناصر السوء و الفساد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۲

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۲]

اشارة

وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲)

التّفسير

لقد أشارت هذه الآية أوّلا إلى قضية الوفاء بالعهد، و قد تكررت هذه الإشارة فى مناسبات مختلفة فى آيات قرآنية عديدة، و ربّما كانت إحدى فلسفات هذا التأكيد المتكرر على أهمية الوفاء بالعهد و ذم نقضه، هى إعطاء أهمية قصوى لقضية ميثاق الغدير الذى سيرد فى الآية (۶۷) من هذه السورة.

و الآیـة فی بدایتها تشـیر إلی العهد الذی أخذه اللّه من بنی إسـرائیل علی أن یعملوا بأحکامه، و إرسالة إلیهم بعد هذا العهد اثنی عشـر زعیما و قائدا لیکون کل واحد منهم زعیما لطائفة واحدة من طوائف بنی إسـرائیل الاثنتی عشر- حیث تقول الآیة الکریمة: وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِیثاقَ بَنِی إِسْرائِیلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَیْ عَشَرَ نَقِیباً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۳

و الأصل فی کلمة «نقیب» إنّها تعنی الثقب الکبیر الواسع، و تطلق بالأخص علی الطرق المحفورة تحت الأرض، و سبب استخدام کلمة نقیب للدلالـة علی الزعامـة، لأنّ زعیم کل جماعة یکون علیما بأسـرار قومه، و کأنّه قد صـنع ثقبا کبیرا یطلع من خلاله علی أسـرارهم، کما تطلق کلمـة نقیب أحیانا علی الشـخص الـذی یکون بمثابـة المعرف للجماعـة، و حین تطلق کلمة «مناقب» علی الفضائل و المآثر، یکون ذلک لأنّ الفضائل لا تعرف إلّا عن طریق البحث و التنقیب فی آثار الشخص.

و ذهب بعض المفسّـرین إلی أنّ کلمـة «نقیب» الواردة فی الآیة موضوع البحث إنما تعنی- فقط- العارف بالأسـرار، لکننا نسـتبعد هذا الأمر اسـتنادا لما یدلنا علیه التاریخ و الحدیث و هو أن نقباء بنی إسرائیل هم زعماء الطوائف الإسرائیلیة، جاء فی تفسیر «روح المعانی» عن ابن عباس قوله:

«إنّهم کانوا وزراء ثمّ صاروا أنبیاء بعد ذلک». أی أنّهم کانوا وزراء للنّبی موسی علیه السّلام ثمّ نالوا منزلة النّبوة بعده ۳۳۵].

و نقرأ فی أحوال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه حین قـدم أهل المدینـة فی لیلة العقبة لدعوته صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم إلی منطقـة العقبـة، أمر الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أهل المدینـة لینتخبوا من بینهم اثنی عشـر نقیبا علی عدد نقباء بنی إسـرائیل، و بدیهی أنّ مهمّة هؤلاء کانت زعامة قومهم و لیس فقط إخبار النّبی بتقاریر عن أوضاعهم ۳۳۶].

لقد وردت روایات عدیدة من طرق السـنة، و هی تلفت الانتباه- لما فیها من إشارة إلی خلفاء النّبی الأئمّة الإثنی عشـر علیهم السّـلام و بیان أن عددهم یساوی عدد نقباء بنی إسرائیل- ننقل هنا قسما من هذه الروایات:

۱- ینقل «أحمد بن حنبل»- و هو أحد أئمّة السنّة الأربعة، عن «مسروق» أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۴

سأل عبد اللّه بن مسعود: کم عدد الذین سیحکمون هذه الأمّة؟ فرد ابن مسعود قائلا:

«لقد سألنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «اثنی عشر کعدّة نقباء بنی إسرائیل»[۳۳۷].

۲- و

جاء فی تاریخ «ابن عساکر» نقلا عن ابن مسـعود، أنّهم سألوا النّبی عن عدد الخلفاء الذین سیحکمون هذه الأمّة، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ عدّة الخلفاء بعدی عدة نقباء موسی»[۳۳۸]

۳- و ورد فی «منتخب کنز العمال» عن جابر بن سمرة قوله «سیحکم هذه الأمّة اثنا عشر خلیفة بعدد نقباء بنی إسرائیل»[۳۳۹].

و جاء مثل هذا الحدیث أیضا فی کتاب (ینابیع المودة) فی الصفحة ۴۴۵ و کذلک فی کتاب (البدایة و النهایة)، ج ۶ فی الصفحة ۲۴۷ أیضا.

و تشیر الآیة بعد ذلک إلی وعد اللّه لبنی إسرائیل حیث تقول: وَ قالَ اللَّهُ إِنِّی مَعَکُمْ

و إنّ هذا الوعد سیتحقق إذا التزم بنو إسرائیل بالشروط التالیة:

۱- أن یلتزموا بإقامة الصّلاة کما تقول الآیة: لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ.

۲- و أن یدفعوا زکاة أموالهم: وَ آتَیْتُمُ الزَّکاةَ.

۳- أن یؤمنوا بالرسل الذین بعثهم اللّه و یحترموا و ینصروا هؤلاء الرسل، حیث تقول الآیة وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِی وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ ۳۴۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۵

۴- و بالإضافة إلى الشروط الثلاثة المذكورة أعلاه، أن لا يمتنع بنو إسرائيل عن القيام ببعض أعمال الإنفاق المستحب التى تعتبر نوعا من معاملات القرض الحسن مع اللّه سبحانه و تعالى حيث تقول الآية: وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً.

ثمّ أردفت الآية الكريمة ببيان نتائج الوفاء بالشروط المذكورة بقوله تعالى:

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

كما بيّنت الآية مصير الذين يكفرون و لا يلتزمون بما أمر اللّه حيث تقول:

فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ

لقد أوضحنا فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا لما ذا اصطلح القرآن المجيد على الإنفاق، أنّه قرض للّه سبحانه؟

و يبقى فى هذا المجال- أيضا- سؤال أخير و هو لما ذا تقدمت مسألتا الصّلاة و الزكاة على الإيمان بموسى عليه السّلام، فى حين أنّ الإيمان يجب أن يسبق العمل؟

و يجيب بعض المفسّرين على هذا السؤال بقولهم: إن المراد بعبارة «الرسل» الواردة فى الآية هم الأنبياء الذين جاءوا بعد النّبى موسى عليه السّلام و ليس موسى نفسه، لذلك فإن الأمر الوارد هنا بخصوص الإيمان بالرسل يحمل على أنّه أمرّ لمّا يستقبل من الزمان، فلا يتعارض لذلك وروده بعد الأمر بالصّلاة و الزكاة، كما يحتمل- أيضا- أن يكون المراد بعبارة «الرسل» هم «نقباء» بنى إسرائيل حيث أخذ اللّه الميثاق من بنى إسرائيل بأن يكونوا أولياء معهم، (و نقرأ فى تفسير «مجمع البيان» أنّ بعضا من المفسّرين القدماء، احتملوا أن يكون نقباء بنى إسرائيل رسلا من قبل اللّه، و يؤيد هذا الاحتمال الرأى الأخير الذى ذهبنا إليه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۳]

اشارة

فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (۱۳)

التّفسير

اشارة

إنّ هذه الآية الكريمة جاءت تشير إلى نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه عليهم و الذى ذكرته الآية السابقة.

كما ذكرت هذه الآية نتائج و عواقب هذا النقض حيث تقول: فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً[۳۴۱].

و الحقيقة هى أن هؤلاء عوقبوا بهذين الجزاءين بسبب نقضهم لميثاقهم، فقد حرموا من رحمة اللّه، و تحجرت أفكارهم و قلوبهم فلم تعد تبدى أى مرونة أمام الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۷

و تشرح الآية آثار هذا التحجّر فتقول: يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ ...

و وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ....

و لا يستبعد أن تكون علامات و آثار نبىّ الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التى أشير إليها فى آيات قرآنية أخرى، جزءا

من الأمور التى نسيها بنو إسرائيل- كما يحتمل أن تكون هذه الجملة القرآنية إشارة إلى ما حرفه أو نسيه جمع من علماء اليهود أثناء تدوينهم للتوراة من جديد بعد أن فقدت التوراة الأصلية، و إنّ ما وصل إلى هؤلاء من كتاب موسى الحقيقى كان جزءا من ذلك الكتاب و قد اختلط بالكثير من الخرافات، و قد نسى هؤلاء حتى هذا الجزء الباقى من كتاب موسى عليه السّلام.

ثمّ تتطرق الآية إلى ظاهرة خبيثة طالما برزت لدى اليهود- بصورة عامّة- إلّا ما ندر منهم، و هى الخيانة التى كانت تتكشف للمسلمين بين فترة و أخرى، تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: وَ لا تَزالُ تَطَّلِعُ عَلى خائِنَةٍ[۳۴۲] مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ....

و فى الختام تطلب الآية من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعفو عن هؤلاء و يصفح عنهم، مؤكّدة أنّ اللّه يحب المحسنين، و ذلك فى قوله تعالى: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

و لنرى هل أنّ المراد فى الآية أن يعفو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الأخطاء السابقة للأقلية الصالحة من اليهود، أم أنّ المراد هو العفو عن الأغلبية الطالحة منهم؟

إنّ ظاهر الآية يدعم و يؤيّد الاحتمال الثّانى، لأنّ الأقلية الصالحة لم ترتكب ذنبا أو خيانة لكى يطلب من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العفو عنهم- و الظن الغالب هو أنّ العفو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۸

و الصفح المطلوبان فى الآية يشملان- فقط- تلك الحالات التى كان اليهود يوجهون فيها أذاهم و تحرشاتهم و استفزازاتهم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا يشملان أخطاء اليهود و جرائمهم بحق الأهداف و المبادئ الإسلامية، حيث لا معنى للعفو فى هذا المجال.

الممارسات التّحريفية لليهود:

إنّ ما يستشف من مجموع الآيات الواردة فى القرآن الكريم بخصوص الممارسات التحريفية لليهود، هو أنّهم كانوا يمارسون أنواع التحريف فى الكتب السماوية الخاصّة بهم.

و كان تحريفهم يتخذ أحيانا طابعا معنويا، أى أنّهم كانوا يفسّرون العبارات الواردة فى تلك الكتب بشكل يناقض المعنى الحقيقى لها، فهم كانوا يحفظون الألفاظ كما هى لكنهم كانوا يغيرون معانيها و هو (التحريف المعنوى)، و كانوا- أيضا- يقومون بتحريف الألفاظ فى بعض الأحيان، فهم بدل أن يقولوا «سمعنا و أطعنا» كانوا يقولون «سمعنا و عصينا» كما كانوا أحيانا يخفون بعض الآيات الإلهية، فما كان يطابق أهواءهم أظهروه، و أخفوا الآيات التى لم تكن لتتلاءم مع ميولهم و رغباتهم و هو «التحريف اللفظى»، و قد وصلت بهم الوقاحة إلى حد أنّهم مع موجود الكتاب السماوى بين أيديهم كانوا يخادعون الناس بوضع أيديهم على الحقائق الواردة فيها، لكى لا يستطيع الناظر قراءتها.

و ستأتى تفاصيل هذا الموضوع لدى تفسير الآية (۴۱) من نفس هذه السورة فى قصّة «ابن صوريا».

هل يجعل اللّه قلب الإنسان قاسيا؟

نقرأ فى الآية- موضوع البحث- إنّ اللّه ينسب لنفسه فعل جعل القسوة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۳۹

قلوب مجموعة من اليهود! و الذى نعرفه هو أنّ هذه القسوة ما هى إلّا نتيجة لارتكاب الذنوب و الانحرافات، فكيف إذن ينسب اللّه

فعل جعل القسوة فى قلوب أولئك اليهود إلى نفسه؟ و لو كان هذا الفعل من اللّه، فكيف يكون أولئك الأشخاص مسئولين عن أعمالهم، ألا يعتبر هذا نوعا من الجبر؟

ولدى الإمعان بدقة فى الآيات القرآنية المختلفة، و منها الآية موضوع البحث، يتبيّن لنا أنّ الأشخاص إنما يحرمون- بسبب اخطائهم و ذنوبهم- من لطف اللّه و رحمته و هدايته، و أن أعمالهم هذه فى الحقيقة مصدر لمجموعة من الانحرافات الفكرية و الأخلاقية، بحيث يستحيل على الإنسان- أحيانا- أن يجنب نفسه عواقبها و نتائجها.

و بما أنّ العلل- أو الأسباب- تعطى آثارها بإذن اللّه، لذلك نسب مثل هذه الآثار فى القرآن الكريم إلى اللّه، ففى الآية موضوع البحث نقرأ أنّ اليهود- نتيجة لنقضهم الميثاق- جعل الله قلوبهم قاسية. كما نقرأ فى الآية (۲۷) من سورة إبراهيم قوله تعالى وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و فى الآية (۷۷) من سورة التوبة نقرأ قوله سبحانه: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ

و واضح أنّ هذه الآثار السيئة تنبع من عمل الإنسان نفسه، و لا تناقض فى هذا الأمر حرية الإرادة و الإختيار، لأنّ مقدمات تلك الآثار تكون من عمل الإنسان و تصدر عنه بعلمه و اختياره، و لأنّ آثار عمله هى النتيجة الحتمية للعمل نفسه، و على سبيل المثال لو أنّ إنسانا تناول شيئا من المشروبات الكحولية، و حصلت لديه حالة من السكر، فقام على أثر هذه الحالة بارتكاب جريمة معينة، فهو و إن كان لا يمتلك إرادته فى حالة السكر، إلّا أنّه قبل ذلك أقدم على شرب الخمرة مختارا و مدركا لما يفعل، و بذلك هيّأ بنفسه مقدمات العمل الجنائى، و هو يعمل احتمال صدور هذا العمل منه فى حالة السكر، و لذلك فهو مسئول عن هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۰

العمل، فلو قيل فى مثل هذه الحالة: إنّ شخصا قد شرب الخمرة فسلبنا منه عقله، فتورط نتيجة عمله فى ارتكاب جريمة، فهل فى هذا القول أى تناقض أو هل يستشف منه مفهوم الجبر؟

و خلاصة القول فإنّ كل أنواع الهداية و الضلال و أمثالها التى تنسب فى القرآن الكريم إلى اللّه سبحانه، إنّما تحصل بشكل حتمى كنتيجة للمقدمات و الأعمال التى تصدر من الإنسان نفسه، و على أثرها يستحق إمّا الهداية أو الضلال، و فى غير ذلك فإنّ العدل و الحكمة الإلهيين، لا يسمحان مطلقا أن يساق إنسان إلى طريق الهداية دون أى مبرر، أو أن يساق آخر إلى طريق الضلال دون وجود سبب لذلك ۳۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۱

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۴]

اشارة

وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۴)

التّفسير

العداء الأبدى:

لقد تناولت الآية السابقة ظاهرة نقض بنى إسرائيل للعهد الذى أخذه اللّه منهم، أمّا الآية الأخيرة- هذه- فهى تتحدث عن نقض العهد

عند النصارى الذين نسوا قسما من أوامر اللّه التى كلّفوا بها- فتقول الآية فى هذا المجال: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى أَخَذْنا مِيثاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فهذه الآية تدل بوضوح على أنّ النصارى- أيضا- كانوا قد عقدوا مع اللّه عهدا على أن لا ينحرفوا عن حقيقة التوحيد، و أن لا ـ ينسوا أوامر و أحكام اللّه، و أن لا ـ يكتموا علائم خاتم النّبيين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لكنّهم تورطوا بنفس ما تورط به اليهود مع فارق واحد، و هو أنّ القرآن الكريم يصرّح بالنسبة لليهود بأنّ القليل منهم كانوا من الصالحين، بينما يذكر القرآن بأنّ مجموعة من النصارى اختارت طريق الانحراف، حيث يفهم من هذه التعبير أنّ المنحرفين من اليهود كانوا أكثر من المنحرفين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۲

النصارى.

إنّ تاريخ تدوين الأناجيل المتداولة يدل على أنّها كتبت بعد المسيح عليه السّلام بسنين طويلة و بأيدى بعض المسيحيين، و هذا هو دليل وجود الكثير من التناقض الصريح فيها، و يدلنا هذا- أيضا- على أنّ كتبة الأناجيل قد نسوا- بصورة تامّة- أجزاء غير قليلة من الإنجيل الأصلى، و وجود خرافات فى الأناجيل المتداولة من قبيل قصة صنع المسيح عليه السّلام للخمرة[۳۴۴] الأمر الذى يرفضه العقل و يتنافى حتى مع بعض آيات التوراة و الإنجيل المتداولين، و كذلك قصّة مريم المجدلية[۳۴۵] و غيرها من القصص، كلها دليل على ذلك التناقض.

أمّا كلمة «نصارى» التى وردت فى الآية فهى صيغة جمع نصرانى، فقد وردت تفاسير مختلفة حولها، و منها أن المسيح قد تربى فى صباه ببلدة الناصرة، و قيل- أيضا- أنّ هذه الكلمة هى نسبة إلى نصران، و هى قرية يوليها المسيحيون احتراما خاصا، و يحتمل- أيضا- أن يكون وجه التسمية ناشئا عن قول المسيح عليه السّلام كما تحكية الآية عنه إذ تقول: كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ ۳۴۶] فسمّى المسيحيون لذلك بالنصارى.

و لما كان جمع من النصارى يقولون ما لا يفعلون، و يزعمون أنّهم من أنصار المسيح عليه السّلام يقول القرآن فى هذه الآية: وَ مِنَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ... و هم لم يكونوا صادقين فى دعواهم هذه، لذلك تستطرد الآية الكريمة فتبيّن نتيجة هذا الادعاء الكاذب، و هو انتشار عداء أبدى فيما بينهم حتى يوم القيامة، كما تقول الآية: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۳

كما ذكرت الآية نوعا آخر من الجزاء و العقاب لهذه الطائفة النصرانية، و هو أنّهم سوف يعلمون نتيجة أعمالهم و سيرونها بأعينهم حيث تقول الآية: سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ

و تجدر الإشارة هنا إلى عدّة أمور، هى:

۱- إنّ عبارة «أغرينا» مشتقة من المصدر «إغراء» و تعنى الصاق شىء بشىء آخر، كما تعنى الترغيب أو حمل الشخص على القيام بعمل معين، بحيث يدفع الشخص إلى الارتباط بأهداف معينة.

و على هذا الأساس يكون مفهوم الآية- موضوع البحث- هو أن نقض النصارى لعهدهم و ارتكابهم المعاصى أديا إلى أن تنتشر العداوة فيما بينهم و يعمهم النفاق و الخلاف، (و المعلوم أن آثار الأسباب التكوينية و الطبيعية تنسب إلى اللّه) و ما نراه اليوم من صراعات كثيرة بين الدول المسيحية، كانت فى يوم ما سببا لاندلاع الحربين العالميتين، و هى كذلك سبب للتكتلات المقترنة بالعداله و البغضاء المستمرة فيما بينهم، أضف إلى ذلك الخلافات المذهبية الكثيرة التى تسود بين الطوائف المسيحية التى ما زالت سببا لاستمرار الصراع و الاقتتال فيما بينهم.

و قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المراد من استمرار العداوة، هو العداوة و البغضاء الموجودة بين اليهود و النصارى و استمرارها حتى فناء العالم، و لكن الملاحظ من ظاهر الآية هو استمرار العداوة بين المسيحيين أنفسهم ۳۴۷].

و غنى عن البيان أنّ مثل هذه العاقبة لا تقتصر على المسيحيين وحدهم، فلو أن المسلمين ساروا فى نفس هذا الطريق فإن مصيرهم

سيكون مشابها لمصير المسيحيين أيضا.

۲- إنّ كلمة «العداوة» مشتقة من المصدر «عدو» و هى بمعنى التجاوز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۴

و الانتهاك، أمّا كلمة «البغضاء» المشتقة من المصدر «بغض» فهى تعنى النفور و الاستياء الشديد من شىء معين، و يحتمل أن يكون الفرق بين الكلمتين المذكورتين هو أنّ لكلمة «بغض» طابع وجدانى أكثر ممّا هو عملى، كما فى كلمة «العداوة» التى لها طابع عملى، و قد يكون لكلمة «بعض» أو «بغضاء» مفهوم أشمل يستوعب العملى منه و القلبى الوجدانى.

۳- يستدل من الآية هذه على أنّ النصارى كطائفة دينية (أو اليهود و النصارى معا) سيكون لهم وجود فى هذه الدنيا حتى يوم القيامة، و قد يقول معترض فى هذا المجال: أنّ الأخبار الإسلامية تفيد بأن دينا واحدا سيعم العالم كله بعد ظهور المهدى (عج) و لن تكون هناك أديان أخرى غير هذا الدين الذى هو الإسلام الحنيف، فكيف إذن يمكن الجمع و التوفيق و رفع هذا التناقض الظاهر؟

و الجواب هو أنّه يحتمل أن يبقى من المسيحية و اليهودية حتى بعد ظهور المهدى (عج) شىء ضئيل على شكل أقلية ضعيفة جدا، لأن ما نعلمه هو بقاء حرّية الإرادة للبشر حتى فى عصر المهدى (عج) و إنّ الدين الإسلامى فى ذلك العصر لا يأخذ طابعا إجباريا، مع أن الأغلبية العظمى من البشر ستتبع طريق الحق و تميل إليه، و الأهم من هذا كله فإن الحكم فى الأرض سيكون للإسلام وحده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۵

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (۱۵) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۶)

التّفسير

بعد أنّ تحدثت الآيات السابقة عن نقض اليهود و النصارى لميثاقهم، جاءت الآية الأخيرة لتخاطب أهل الكتاب بصورة عامّة و تدعوهم إلى الإسلام الذى طهر الديانتين اليهودية و المسيحية من الخرافات التى لصقت بهما، و الذى يهديهم إلى الصراط السّوى المستقيم، و الذى ليس فيه أى انحراف أو اعوجاج.

و تبيّن الآية- فى البداية- أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المبعوث إليهم جاء ليظهر الكثير من الحقائق الخاصّة بالكتب السماوية التى أخفوها هم (أهل الكتاب) و كتموها عن الناس، و إن هذا الرّسول يتغاضى عن كثير من تلك الحقائق التى انتفت الحاجة إليها و زال تأثيرها بزوال العصور التى نزلت لها، فتقول الآية فى هذا المجال: يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۶

الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ....

و تدلّ هذه الجملة القرآنية على أنّ أهل الكتاب كانوا قد أخفوا و كتموا الكثير من الحقائق، لكن نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أظهر من تلك الحقائق ما يفى منها بحاجة البشرية فى عصر الإسلام، مثل بيان حقيقة التوحيد و طهارة الأنبياء و تنزههّم عمّا نسب إليهم فى التوراة و الإنجيل المزورين، كما بيّن تحريم الربا، و الخمرة و أمثالهما، بينما بقيت حقائق تخص الأمم السابقة و الأزمنة

الغابرة ممّا لا أثر لذكرها فى تربية الأجيال الإسلامية، فلم يتمّ التطرق إليها.

و تشير الآية الكريمة- أيضا- إلى أهمية و عظمة القرآن المجيد و آثاره العميقة فى هداية و إرشاد و تربية البشرية، فتقول: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ النور الذى يهدى به اللّه كل من يبتغى كسب مرضاته إلى سبل السلام، كما تقول الآية الأخرى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ... و ينقذهم من أنواع الظلمات (كظلمة الشرك و ظلمة الجهل و ظلمة التفرقة و النفاق و غيرها ...) و يهديهم إلى نور التوحيد و العلم و الاتحاد، حيث تقول الآية:

وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ....

و إضافة إلى ذلك كلّه يرشدهم إلى الطريق المستقيم الذى لا اعوجاج و لا انحراف فى جانبيه العقائدى و العملى أبدا، كما تقول الآية: وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

لقد اختلف المفسّرون فى المعنى المراد من كلمة «النّور» الواردة فى الآية، فذهب البعض منهم إلى أنّها تعنى شخص النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال مفسّرون آخرون: إنّ المعنى بالنور هو القرآن المجيد.

و حين نلاحظ آيات قرآنية عديدة تشبه القرآن بالنور، يتبيّن لنا أنّ كلمة «النور» الواردة فى الآية- موضوع البحث- إنّما تعنى القرآن، و على هذا الأساس فإنّ عطف عبارة «كتاب مبين» على كلمة (النور» يعتبر من قبيل عطف التوضيح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۷

كما نقرأ فى الآية (۵۷) من سورة الأعراف: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و فى الآية (۸) من سورة التغابن نقرأ ما يلى: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا ... و آيات عديدة أخرى تشير إلى نفس المعنى، بينما لا نجد فى القرآن آية أطلقت فيها كلمة النور على شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و إضافة إلى ما ذكر فإنّ الضمير المفرد الوارد فى عبارة «به» الواردة فى الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، يؤكّد هذا الموضوع أيضا، و هو أن النور و الكتاب المبين هما إشارتان لحقيقة واحدة.

و مع إنّنا نجد روايات عديدة تفسّر كلمة «النّور» على أنّها إشارة إلى الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين عليه السّلام أو الأئمّة الإثنى عشر عليهم السّلام جميعهم، لكن الواضح هو أنّ هذا التّفسير يعتبر من باب بيان بواطن الآيات، لأنّنا كما نعلم أنّ للآيات القرآنية- بالإضافة إلى معانيها الظاهرية- معان باطنية يعبّر عنها ب «بواطن القرآن» أو «بطون القرآن»، و دليل قولنا هذا أنّ الأئمّة عليهم السّلام لم يكن لهم وجود فى زمن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكى يدعو القرآن أهل الكتاب للإيمان بهم.

أمّا الأمر الثّانى الوارد فى الآية الثانية من الآيتين الأخيرتين، فهو أنّ القرآن يبشر أولئك الذين يسعون لكسب مرضاة اللّه بأنّهم سيحظون فى ظل القرآن بنعم عظيمة ثلاثة هى:

أوّلا: الهداية إلى سبل السلامة التى تشمل سلامة الفرد و المجتمع، و الروح و الجسد و العائلة، و السلامة الأخلاقية، و كل هذه الأمور تدخل فى الجانب العملى من العقيدة.

و ثانيا: نعمة النجاة من ظلمات الكفر و الإلحاد.

و ثالثا: الهداية إلى النور، و فى هذا دلالة على الطابع العقائدى، و يتمّ كل ذلك من خلال أقصر و أقرب الطرق و هو الذى أشارت إليه الآية ب الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۸

و بديهى أن هذه النعم لا يحظى بها إلّا من أسلم وجهه للّه، و خضع للحق بالعبودية و الطاعة، و كان مصداقا للعبارة القرآنية القائلة: مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ بينما لا يحضى المنافقون و المعاندون و أعداء الحق بأىّ فائدة مطلقا، كما تشير إلى ذلك آيات قرآنية عديدة.

و بديهى- أيضا- أنّ كل هذه النتائج و الآثار، إنّما تحصل بمشيئة اللّه و إرادته وحده دون سواه، كما تشير عبارة «بإذنه» الواردة فى

الآية الأخيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۴۹

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۷]

اشارة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷)

التّفسير

كيف يمكن للمسيح أن يكون هو اللّه؟!

جاءت هذه الآية الكريمة لتكمل بحثا تطرقت إليه آيات سابقة، فحملت بعنف على دعوى ربوبية المسيح عليه السّلام، و بيّنت أنّ هذه الدعوى ما هى إلّا الكفر الصريح، حيث قالت: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ....

و لكى يتّضح لنا مفهوم هذه الجملة، يجب أن نعرف أنّ للمسيحيين عدّة دعاوى باطلة بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى.

فهم أوّلا: يعتقدون بالآلهة الثلاث (أى الثالوث) و قد أشارت الآية (۱۷۱) من سورة النساء إلى هذا الأمر حيث قالت: لا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۰

إِلهٌ واحِدٌ ...[۳۴۸].

و ثانيا: إنّهم يقولون: إنّ خالق الكون و الوجود هو واحد من هؤلاء الآلهة الثلاث و يسمونه بالإله الأب ۳۴۹] و القرآن الكريم يبطل هذا الإعتقاد- أيضا- فى الآية (۷۳) من سورة المائدة حيث يقول: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ ... و سيأتى بإذن اللّه تفسير هذه الآية قريبا فى نفس هذا الجزء.

و ثالثا: إنّ المسيحيين يقولون: إنّ الآلهة الثلاث مع تعددهم الحقيقى هم واحد، حيث يعبرون عن ذلك أحيانا ب «الوحدة فى التثليث»، و هذا الأمر أشارت إليه الآية الأخيرة حيث قالت حكاية عن دعوى المسيحيين: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... و قالوا: إنّ المسيح ابن مريم هو اللّه! و إن هذين الإثنين يشكلان مع روح القدس حقيقة واحدة فى ذوات ثلاثة متعددة! و قد ورد كل جانب من جوانب عقيدة التثليث، الذى يعتبر من أكبر انحرافات المسيحيين فى واحدة من الآيات القرآنية، و نفى نفيا شديدا (راجع تفسير الآية ۱۷۱- من سورة النساء من تفسيرنا هذا و فيه التوضيح اللازم فى بيان بطلان عقيدة التثليث).

و يتبيّن- ممّا سلف- أنّ بعض المفسّرين مثل «الفخر الرازى» قد توهّموا فى قولهم بعدم وجود أحد من النصارى ممن يصرح باعتقاده فى اتحاد المسيح باللّه، و ذلك لعدم إلمام هؤلاء المفسّرين بالكتب المسيحية، مع أنّ المصادر المسيحية المتداولة تصرح بقضية «الوحدة فى التثليث» و من المحتمل أن مثل هذه الكتب لم تكن متداولة فى زمن الرازى، أو أنّها لم تصل إليه و إلى أمثاله الذين شاركوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۱

فى هذا الرأى.

بعد ذلك و لكى تبطل الآية الكريمة عقيدة ألوهية المسيح عليه السّلام تقول: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ... و هذه إشارة إلى أنّ المسيح عليه السّلام إنّما هو بشر كأمه و كسائر أفراد البشر، و على هذا الأساس فهو يعتبر- لكونه مخلوقا- فى مصاف المخلوقات الأخرى يشاركها فى الفناء و العدم، و من حاله كهذا كيف يمكنه أن يكون إلها أزليا أبديا؟! و بتعبير آخر: لو كان المسيح عليه السّلام إلها لاستحال على خالق الكون أن يهلكه، و تكون نتيجة ذلك أن تتحدد قدرة هذا الخالق، و من كانت قدرته محدودة لا يمكن أن يكون إلها، لأنّ قدرة اللّه كذاته لا تحدّها حدود مطلقا (تدبّر جيدا).

إنّ ذكر عبارة «المسيح بن مريم» بصورة متكررة فى الآية، قد يكون إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى اعتراف المسيحيين ببنوّة المسيح عليه السّلام لمريم، أى أنّه ولد من أم و أنّه كان جنينا فى بطن أمّه قبل أن يولد، و حين ولد طفلا احتاج إلى النموّ ليصبح كبيرا، فهل يمكن أن يستقر الإله فى محيط صغير كرحم الأمّ، و يتعرض لجميع تحولات الوجود و الولادة و يحتاج للأمّ حين كان جنيا و حين الرضاعة؟! و الجدير بالانتباه أنّ الآية الأخيرة تذكر بالإضافة إلى اسم المسيح عليه السّلام اسم أمّه و تذكرها بكلمة «أمه» و بهذه الصورة تميز الآية أمّ المسيح عليه السّلام عن سائر أفراد البشر، و يحتمل أن يكون هذا التعبير بسبب أنّ المسيحيين أثناء ممارستهم للعبادة، يعبدون أمّ المسيح أيضا، و الكنائس الموجودة اليوم تشتمل على تماثيل لأم المسيح، حيث يقف المسيحيون أمامها تعظيما و تعبدا.

و إلى هذا الأمر تشير الآية (۱۱۶) من سورة المائدة فتقول: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... و هذا الخطاب حكاية عمّا يحصل من حوار فى يوم القيامة.

و فى الختام ترد الآية الكريمة على أقوال أولئك الذين اعتبروا ولادة المسيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۲

من غير أب دليلا على ألوهيته فتقول: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فاللّه قادر على أن يخلق إنسانا من غير أب و من غير أم كما خلق آدم عليه السّلام، و هو قادر أيضا على أن يخلق إنسانا من غير أب كما خلق عيسى المسيح عليه السّلام، و قدرة اللّه هذه كقدرته فى خلق البشر من آبائهم و أمّهاتهم، و هذا التنوع فى الخلق دليل على قدرته، و ليس دليلا على أى شيء آخر سوى هذه القدرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۸]

اشارة

وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۸)

التّفسير

استكمالا للبحوث السابقة التى تناولت بعض انحرافات اليهود و النصارى، تشير الآية الأخيرة إلى أحد الدعاوى الباطلة التى تمسك بها هؤلاء، فتقول:

وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ

و لم يكن هذا الامتياز الوهمى الذى ادعاه اليهود و النصارى لأنفسهم هو الوحيد من نوعه، إذ أن القرآن الكريم قد أشار فى آيات

عديدة إلى أمثال هذه الادعاء.

ففى الآية (۱۱۱) من سورة البقرة، أشار القرآن إلى ادعائهم الذى زعموا فيه أن أحدا غيرهم لا يدخل الجنّة، و زعموا أن الجنّة هى حكر على اليهود و النصارى، و قد فند القرآن هذه الادعاء.

كما جاء الآية (۸۰) من سورة البقرة ادعاء آخر لليهود، و هو زعمهم أن نار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۴

جهنم لن تمسهم إلا فى أيّام معدودة، و قد وبخهم القرآن على زعمهم هذا.

و فى الآية الأخيرة يشير القرآن الكرم إلى ادعائهم البنوة للّه، و زعمهم أنّهم أحباء للّه، و لا شك أن هؤلاء لم يعرّفوا أنفسهم كأبناء حقيقيين للّه، بل إنّ المسيحيين وحدهم يدّعون أن المسيح هو الابن الحقيقى للّه، و قد صرحوا بهذا الأمر[۳۵۰] و أنّهم حين اختاروا لأنفسهم صفة البنوة للّه و أدعوا بأنّهم اللّه إنما ليظهروا بأن لهم علاقة خاصّة باللّه سبحانه، و كأنّهم أرادوا كل من ينتمى إليهم انتماء قوميا أو عقائديا يصبح من أبناء اللّه و أحبائه حتى لو لم يقم بأى عمل صالح.[۳۵۱] و واضح لدينا أنّ القرآن الكريم حارب كل هذه الامتيازات و الدعاوى الوهمية، فهو لا يرى للإنسان امتيازا إلّا بالإيمان و العمل الصالح و التقوى، و لذلك تقول الآية الأخيرة فى تفنيد و إبطال الادعاء الأخير: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ فهؤلاء- بحسب اعترافهم أنفسهم- يشملهم العذاب الإلهى حيث قالوا بأن العذاب يمسّهم لأيّام معدودة، فكيف يتلاءم ذلك الادعاء و هذا الاعتراف؟ و كيف يمكن أن يشمل عذاب اللّه أبناءه و أحباءه؟! و من هنا يثبت أن لا أساس و لا صحة لهذا الادعاء، و قد شهد تاريخ هؤلاء على أنّهم حتى فى هذه الدنيا ابتلوا بسلسلة من العقوبات الإلهية، و يعتبر هذا دليلا آخر على زيف و بطلان دعواهم تلك.

و لكى تؤكد الآية الكريمة زيف و بطلان الدعوى المذكورة استطردت تقول:

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ... و القانون الإلهى عام، فإن اللّه يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ ....

و بالإضافة إلى ذلك فإنّ كل البشر هم من خلق اللّه، و هم عباده و أرقاؤه، و على هذا الأساس ليس من المنطق إطلاق اسم «ابن اللّه» على أى منهم، حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۵

تقول الآية: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما ....

و فى النهاية تعود المخلوقات كلها إلى اللّه، حيث تؤكد الآية هنا بقولها:

وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

و قد يسأل البعض: أين و متى ادعى اليهود و النصارى أنّهم أبناء اللّه حتى لو كان معنى البنوة فى هذه الآية هو معنى مجازى و غير حقيقى).

الجواب هو أنّ الأناجيل المتداولة قد ذكرت هذه العبارة، و يلاحظ ذلك فيها بصورة متكررة، من ذلك ما جاء فى إنجيل يوحنا فى الإصحاح ۸- الآية ۴۱ و ما بعدها، حيث نقرأ على لسان عيسى فى خطابه لليهود قوله: «إنّكم تمارسون أعمال أبيكم، فقال له اليهود: نحن لم نولد من الزنا و إن أبانا واحد و هو اللّه! فقال لهم عيسى: لو كان أبوكم هو اللّه لكنتم احببتمونى ...».

و قد ورد فى الروايات الإسلامية- أيضا- فى حديث عن ابن عباس مضمونه أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا جمعا من اليهود إلى دين الإسلام و حذّرهم من عذاب اللّه، فقال له اليهود: كيف تخوفنا من عذاب اللّه و نحن أبناؤه و أحباؤه ۳۵۲]! و ورد فى تفسير مجمع البيان، فى تفسير الآية موضوع البحث، حديث على غرار الحديث المذكور أعلاه، مضمونه أنّ جمعا من اليهود حين هددهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعذاب اللّه قالوا: لا- تهددنا فنحن أبناء اللّه و أحباؤه، و هو إن غضب علينا يكون غضبة كغضب الإنسان على ولده، و هو غضب سريع الزوال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۶

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۱۹]

اشارة

یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِیرٍ وَ لا نَذِیرٍ فَقَدْ جاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ وَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۱۹)

التّفسیر

اشارة

تکرر هذه الآیة الخطاب إلی أهل الکتاب من الیهود و النصاری، فتبیّن لهم أنّ النّبی المرسل إلیهم مرسل من عند اللّه، أرسله فی عصر ظلت البشریة قبله فترة دون أن یکون لها نبیّ، فبیّن لهم هذا النّبی الحقائق، لکی لا یقولوا بعد هذا إنّ اللّه لم یرسل إلیهم من یهدیهم إلی الصراط السوی و یبشرهم بلطف اللّه و رحمته و یحذرهم من الانحراف و الاعوجاج، و ینذرهم بعذاب اللّه، حیث تقول الآیة: یا أَهْلَ الْکِتابِ قَدْ جاءَکُمْ رَسُولُنا یُبَیِّنُ لَکُمْ عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا ما جاءَنا مِنْ بَشِیرٍ وَ لا نَذِیرٍ ....

نعم، فالبشیر و النذیر هو نبیّ الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی یبشر المؤمنین الذین یعملون الصالحات برحمة اللّه و ثوابه، و ینذر الذین کفروا و العاصین بعذاب اللّه و عقابه، و قد جاء لیبشر و لینذر أهل الکتاب و البشریة جمعاء، حیث تؤکّد الآیة هذا بقوله تعالی: فَقَدْ جاءَکُمْ بَشِیرٌ وَ نَذِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۷

أمّا کلمة «فترة» الواردة فی الآیة فهی تعنی فی الأصل الهدوء و السکینة کما تطلق علی الفاصلة الزمنیة بین حرکتین أو جهدین أو نهضتین أو ثورتین.

و قد شهدت الفاصلة الزمنیة بین موسی علیه السّلام و عیسی علیه السّلام عددا من الأنبیاء و الرسل، بینما لم یکن الأمر کذلک فی الفاصلة الزمنیة بین عیسی علیه السّلام و النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لذلک أطلق القرآن الکریم علی هذه الفاصلة الأخیرة اصطلاح فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ و المعروف أن هذه الفترة دامت ستمائة عام تقریبا[۳۵۳].

أمّا ما جاء فی القرآن- فی سورة یس الآیة ۱۴- و ما ذکره المفسّرون، فیدلان علی أنّ ثلاثة من الرسل- علی الأقل- قد بعثوا فی الفاصلة الزمنیة بین النّبی عیسی علیه السّلام و نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و قد ذکر البعض أنّ أربعة من الرسل بعثوا فی تلک المدة، و علی أی حال لا بدّ أن تکون هناک فترة خلت من الرسل بین وفاة أولئک الرسل و النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لذلک عبّر القرآن عن تلک الفترة الخالیة من الرسل بقوله: عَلی فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ

سؤال:

و قد یعترض البعض بأنّه کیف یمکن القول بوجود مثل تلک الفترة مع أنّ الإعتقاد السائد لدینا یقضی بأن المجتمع البشری لا یمکن أن یخلو و لو للحظة من رسول أو إمام معین من قبل اللّه سبحانه و تعالی؟

الجواب:

إنّ القرآن الكريم حين يقول: عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ إنّما ينفى وجود الرسل فى تلك المدّة، و لا يتنافى هذا الأمر مع القول بوجود أوصياء للرسل فى ذلك الوقت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۸

و بعبارة أخرى، فإنّ الرسل هم أشخاص كانوا يمارسون الدعوة على نطاق واسع، و كانوا يبشرون و ينذرون الناس، و يثيرون الحركة و النشاط فى المجتمعات، و يوقظونها من سباتها بهدف إيصال ندائهم الى الجميع، بينما لم يكن جميع أوصياء الرسل ليحملوا مثل تلك المهمّة، بل يحتمل- أيضا- إنهم لظروف و عوامل اجتماعية خاصّة، كانوا يعيشون بين الناس أحيانا متخفين متنكرين.

و

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه الواردة فى كتاب «نهج البلاغة» فى هذا المجال ما يلى: «اللّهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم للّه بحجة إمّا ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا لئلا تبطل حجج اللّه و بيناته، يحفظ اللّه بهم حججه و بيّناته حتى يودعوها نظراءهم و يزرعوها فى قلوب أشباههم»[۳۵۴].

و واضح أن المجتمع البشرى لو خلى من الرسل الثوريين و الدعاة العالمين، لعمت هذه المجتمع الخرافات و الوساوس الشيطانية و الانحرافات و الجهل بالتعاليم الإلهية، و تكون مثل هذه الحالة خير حجة بأيدى أولئك الذين يريدون الفرار و التخلى عن المسؤوليات، لذلك فإن اللّه يبطل هذه الحجة عن طريق الرجال الرساليين المرتبطين به و الموجودين دائما بين أبناء البشر.

و فى الختام تؤكد الآية على شمولية قدرة اللّه عزّ و جلّ فتقول: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و هذا بيان بأنّ إرسال الأنبياء و الرسل و تعيين أوصيائهم أمر يسير بالنسبة لقدرة اللّه العزيز المطلقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۵۹

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۲۰ الى ۲۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۲۰) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۲۱) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴)

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۰

التّفسير

بنو إسرائيل و الأرض المقدسة:

جاءت هذه الآيات لتثير لدى اليهود دافع التوجه إلى الحق و السعى لمعرفته أوّلا، و إيقاظ ضمائرهم حيال الأخطاء و الآثام التى ارتكبوها ثانيا، و لكى تحفزهم إلى السعى لتلافى اخطائهم و التعويض عنها، و يذكرهم القرآن فى الآية الأولى بما قاله النّبى موسى عليه السّلام لأصحابه حيث تقول: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ....

و لا يخفى أنّ عبارة (نعمة اللّه) تشمل جميع الأنعم الإلهية، لكن الآية استطردت فبيّنت ثلاثا من أهم هذه النعم، أوّلها نعمة ظهور أنبياء و قادة كثيرين بين اليهود، و التى تعتبر أكبر نعمة وهبها اللّه لهم، فتقول الآية: إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ ... و قد نقل أنّ فى زمن موسى بن عمران وحده كان يوجد بين اليهود سبعون نبيّا، و إنّ السبعين رجلا الذين ذهبوا مع موسى عليه السّلام إلى جبل «الطور» كانوا كلهم بمنزلة الأنبياء.

و فى ظل هذه النعمة (نعمة وجود الأنبياء) نجى اليهود من هاوية الشرك و الوثنية و عبادة العجل و تخلصوا من مختلف أنواع الخرافات و الأوهام و القبائح و الخبائث، لذلك أصبحت هذه النعمة أكبر النعم المعنوية التى أنعم اللّه بها على بنى إسرائيل.

بعد هذا تشير الآية إلى أكبر نعمة مادية وهبها اللّه لليهود فتقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً ... و تعتبر هذه النعمة- أيضا- مقدمة للنعم المعنوية، فقد عانى بنو إسرائيل لسنين طويلة من ذل العبودية فى ظل الحكم الفرعونى، فلم يكونوا ليمتلكوا فى تلك الفترة أى نوع من حرية الإرادة، بل كانوا يعاملون معاملة البهائم المكبلة فى القيود، و قد أنقذهم اللّه من كل تلك القيود ببركة النّبى موسى بن عمران عليه السّلام و ملكهم مصائرهم و مقدراتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۱

و قد ظن البعض أنّ المراد من كلمة «الملوك» الواردة فى الآية هم المملوك و السلاطين الذين ظهروا من سلالة بنى إسرائيل، فى حين أنّ المعروف هو أنّ بنى إسرائيل لم يحكموا إلّا فترة قصيرة، فلم يحظ منهم إلّا القليل بمنزلة الملوكية، بينما الآية- موضوع البحث- تقول: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً و هذه إشارة إلى تمتع جميع بنى إسرائيل بهذه المنزلة، و يتبيّن من هذا أنّ المراد بكلمة «ملوك» الواردة فى الآية أن بنى إسرائيل قد تملكوا مصائرهم و مقدارتهم بعد أن كانوا مكبلين بقيود العبودية فى ظل الحكم الفرعونى.

إضافة إلى ذلك فإنّ كلمة «ملك» فى اللغة لها معان عديدة منها «السلطان» و منها «المالك لزمان الأمور» و منها- أيضا- المالك لرقبة شىء معين ۳۵۵].

و

نقل فى تفسير «الدر المنثور» عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديثا جاء فيه: «كانت بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم و دابة و امرأة كتب ملكا ...».

و تشير هذه الآية فى اخرها إلى أنّ اللّه قد وهب بنى إسرائيل فى ذلك الزمان نعما لم ينعم بها على أحد من أفراد البشر فى ذلك الحين فتقول: وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ و كانت هذه النعم و الوافرة كثيرة الأنواع، فمنها نجاة بنى إسرائيل من مخالب الفراعنة الطغاة، و انفلاق البحر لهم، و نزول غذاء خاص عليهم مثل «المن و السلوى»، و قد أوردنا تفاصيل ذلك فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا، لدى تفسير الآية (۵۷) من سورة البقرة.

و الآية التالية تبيّن واقعة دخول بنى إسرائيل إلى الأرض المقدسة نقلا عن لسان نبيّهم موسى عليه السّلام فتقول: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ

و قد اختلف المفسّرون حول المراد بعبارة (الأرض المقدسة) الواردة فى الآية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۲

و حول موقعها الجغرافى من العالم.

فيرى البعض أنّها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، و آخرون يرون أنّها «أرض الشام» و فئة ثالثة ترى أنّها «الأردن و فلسطين» و جماعة أخرى تقول أنّها أرض «الطور».

و لكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكورة كل أرض الشام التى تشمل جميع الاحتمالات الواردة، لأنّ هذه الأرض- كما يشهد التاريخ- تعتبر مهدا للأنبياء، و مهبطا للوحى، و محلا لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزا للتوحيد و عبادة اللّه الواحد الأحد، و نشر تعاليم الأنبياء ... لهذه الأسباب كلها سمّيت ب «الأرض المقدسة» مع أنّ هذا الاسم يطلق عن منطقة «بيت المقدس» بصورة خاصّة أحيانا (و قد بينا هذا الأمر فى الجزء الأوّل من كتابنا هذا).

و يستدل من جملة كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ... إنّ اللّه قد قرر أن يعيش بنو إسرائيل فى الأرض المقدسة بالرغد و الرخاء و الرفاه (شريطة أن يحموا هذا الأرض من دنس الشرك و الوثنية) و أن لا ينحرفوا (عن تعاليم الأنبياء) إن لم يلتزموا بهذا الأمر سيحيط بهم من قبل اللّه عذاب أليم شديد.

و على هذا الأساس لا- يوجد أىّ تناقض بين فشل جيل من بنى إسرائيل الذين خوطبوا بهذه الآية فى دخول الأرض المقدسة، و ابتلائهم بالتيه و الضياع لمدة أربعين عاما فى الصحارى و القفار، حتى نجح الجيل التالى من بعدهم بدخول تلك الأرض، لا يوجد أىّ تناقض بين ما ذكر و بين جملة كتب الله عليكم ... لأنّ هذا التقدير الإلهى و القرار الربانى إنّما قيد بشروط لم ينفذها ذلك الجيل الأوّل من بنى إسرائيل، و توضح هذا الأمر الآيات التالية.

و قد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السّلام للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الانتصارات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۳

ظل الصدف و المعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد فى هذا المجال، و ردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السّلام بقولهم كما تنقله الآية: قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ ۳۵۶] وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ

و يدل جواب بنى إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذى خلفه الحكم الفرعونى على نفوس هؤلاء فإنّ فى كلمة «لن» التى تفيد التأييد دلالة على الخوف و الرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الامتناع عن الدخول فى أى صراع من أجل تحرير الأرض المقدسة و تطهيرها.

و كان على بنى إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم و تضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسة أو أبيدوا فيها بمعجزة على خلاف السنة الإلهية الطبيعية، فإن بنى إسرائيل بدخولهم إليها- فى مثل هذه الحالة دون أى عناء أو مشقة- كانوا سيواجهون العجز فى إدارة تلك الأرض الواسعة الغنية، و لم يكونوا ليبدوا أىّ اهتمام بالحفاظ على شىء حصلوا عليه دون جهد أو معاناة، فلا يظهر لديهم و الحالة هذه أى استعداد أو كفاءة لعمل ذلك.

أمّا المراد من عبارة قَوْماً جَبَّارِينَ فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة»[۳۵۷] الذين كانوا يمتلكون أجساما ضخمة، و كانت لهم أطوال خارقة، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغة فى طول أجسام هؤلاء و صنعوا الأساطير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۴

الخرافية من ذلك، و كتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا- يسندها أىّ دليل علمى، و بالأخص فيما كتبوه عن المدعو ب «عوج» فى التواريخ المصطنعة المشوبة بالخرافات و الأساطير.

و يبدو أن مثل هذه الخرافات التى تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلامية، و إنّما هى من صنع بنى إسرائيل، و التى تسمّى عادة ب «الإسرائيليات» و الدليل على هذا القول هو ما ورد نصا فى التوراة المتداولة من أساطير خرافية تشبه أساطير العمالقة، نقرأ فى سفر

الأعداد فى أواخر الفصل الثّالث عشر «إن الأرض التى ذهب بنو إسرائيل إليها لاستقصاء أخبارها هى أرض تبيد ساكنيها و إن جميع من فها هم أناس طوال و فيهم العمالقة من أبناء «عناق» بشكل كان بنو إسرائيل الذين ذهبوا للتجسس هناك أشبة بالجراد قياسا بأحجام العمالقة الموجودين فى تلك الأرض!».

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم اللّه عليهما بالإيمان و التقوى و الورع و شملهما بنعمه الكبيرة، فجمعا صفات الشجاعة و الشهامة و المقاومة مع الدرك الاجتماعى و العسكرى ممّا دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النّبى موسى عليه السّلام فواجها بنى إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، و حين تدخلون عليهم سيواجهون الإمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، تقول الآية الكريمة فى هذا المجال: قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ

و تؤكد الآية- بعد ذلك على ضرورة الاعتماد على اللّه فى كل خطوة من الخطوات، و الاستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و ما ذكره أغلب المفسّرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و «كالب بن يوحنا» و هما من النقباء الإثنى عشر فى بنى إسرائيل، كما ورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۵

سابقا[۳۵۸].

مع كل الاحتمالات العديدة الواردة فى تفسير جملة مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ إلّا أنّ الواضح من ظاهر هذه الجملة، هو أنّ الرجلين المذكورين فى الآية هما من جماعة تخاف اللّه و تخشاه وحده دون غيره، و يؤيد هذا التّفسير ما جاء فى جملة أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ... فأى نعمة أكبر و أرفع من أن يخاف الإنسان من اللّه وحده و لا يخشى أحدا سواه.

و قد يسأل سائل فى هذا المجال عن مصدر علم هذين الرجلين، و كيف أنّهما علما أن بنى إسرائيل ستكون لهم الغلبة إن هم دخلوا المدينة- أو الأرض المقدسة- فى هجوم مباغت؟

و جوابه: لعل علم هذين الرجلين بتلك الغلبة كان نابعا من ثقتهما بأقوال النّبى موسى عليه السّلام أو أنّهما اعتمدا على قاعدة كلية فى الحروب، مفادها أن الجماعة المهاجمة إن استطاعت الوصول إلى مقر و مركز العدو- أى تمكنت من محاربة العدو فى داره- فإنها سننتصر عليه ۳۵۹] عادة.

و المستهدفون فى تلك الحرب هم قوم المعالقة، و هم بسبب ما كانوا عليه من طول خارق، كان أسهل عليهم أن يحاربوا فى بر أو فضاء مفتوح بدل الحرب فى مدينة، فيها- بحسب العادة- الأزقة و الطرق الملتوية (بغضّ النظر عن الجوانب الأسطورية التى تتحدث عن الطول الخارق لهؤلاء العمالقة)، أضف إلى ذلك كله أنّ العمالقة- كما نقل- كانوا على رغم قاماتهم الطويلة أناسا جبناء رعاديد، يرهبهم كل هجوم مباغت، و كل هذه الأسباب أصبحت دليلا قويا لدى الرجلين المذكورين ليقولا بحتمية انتصار بنى إسرائيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۶

و الذى حصل حقيقة هو أنّ بنى إسرائيل لم يقتنعوا بأى من الاقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف و الجبن المتأصلين فى نفوسهم خاطبوا موسى عليه السّلام و أخبروه صراحة بأنّهم لن يدخلوا تلك الأرض ما دام العمالقة موجودين فيها، و طالبوا موسى أن يذهب هو و ربه لمحاربة العمالقة و سألوه أن يخبرهم عن انتصاره حيث هم قاعدون، و فى هذا المجال تقول الآية الكريمة: قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ

و تبيّن هذه الآية مدى الوقاحة التى وصل إليها بنو إسرائيل فى مخاطبة نبيّهم موسى عليه السّلام، فهم بقولهم «لن» و «أبدا» أكدوا رفضهم القاطع للدخول إلى الأرض المقدسة، كما أنّهم استخفوا بموسى عليه السّلام و دعوته و استهزءوا بهما، بقولهم: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ... كما أنّهم- أيضا- لم يعيروا التفاتا لاقتراح الرجلين المؤمنين المذكورين فى الآية، و لم يبدوا حيال

ذلك أى جواب.

و الطريف فى الأمر أن التوراة المتداولة قد أوردت أجزاء مهمّة من هذه القصة، فى الباب الرابع عشر من سفر الأعداد، حيث جاء فيها أن جميع بنى إسرائيل لاموا موسى و هارون أخاه و قالوا جميعا: ليتنا متنا جميعا فى أرض مصر أو فى الفلاة، فلما ذا جاء بنا الرّب إلى هذه الأرض لكى نقتل بحدّ السيف، و تسبى عيالنا و أطفالنا بعدنا ... فحار موسى و أخاه هارون أمام القوم، ما ذا يفعلان؟ أمّا يوشع بن نون و كاليب بن يفنة، اللذان كانا من مجموعة الرجال الذين ذهبوا للتجسس على تلك الأرض فقد شقا جيبهما ...

ثمّ نقرأ فى الآية التالية أنّ موسى أصابه اليأس و القنوط من القوم، و رفع يديه للدعاء مناجيا ربّه قائلا: إنّه لا يملك حرية التصرف إلّا على نفسه و أخيه، و طلب من اللّه أن يفصل بينهما و بين القوم الفاسقين العصاة، لكى يلقى هؤلاء جزاء أعمالهم و يبادروا إلى إصلاح أنفسهم، حيث تقول الآية الكريمة فى هذا المجال:

قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۷

و بديهى إنّ رفض بنى إسرائيل القاطع لأمر نبيهم كان بمثابة الكفر، و ما استخدام القرآن لعبارة «الفاسق» بحق هؤلاء إلا لأن كلمة «الفسق» لها معان واسعة، و تشمل كل خروج و انحراف عن سنة العبودية للّه، و لذلك نقرأ فى القرآن الكريم- حين التحدث عن انحراف الشيطان- قول اللّه تعالى: فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ...[۳۶۰].

و تجدر هنا الإشارة إلى أنّ جملة: مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ ... الواردة فى الآيات السابقة تدل على وجود قلة من اليهود كانت تخشى اللّه، و منهم الرجلان المذكوران فى إحدى الآيات الأخيرة و هما «يوشع» و «كاليب» بينما نلاحظ أن موسى عليه السّلام لا يذكر هنا غير نفسه و أخيه، و لا يذكر و لو حتى بالتلميح أحدا من تلك القلّة، و قد يكون السبب هو أن هارون لكونه الوصى لأخيه موسى عليه السّلام و لكونه أبرز شخصية فى بنى إسرائيل من بعد موسى عليه السّلام ... لذلك ذكر اسمه دون غيره.

و كانت نتيجة صلف و عناد بنى إسرائيل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب اللّه دعاء نبيه موسى عليه السّلام، فحرم عليهم دخول الأرض المقدسة، المليئة بالخيرات مدّة أربعين عاما، و فى هذا المجال تقول الآية القرآنية الكريمة: قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ....

و زادهم عذابا إذ كتب عليهم التيه و الضياع فى البرارى و القفار طيلة تلك الفترة، حيث تقول الآية فى ذلك: يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ... و قد سميت الصحراء التى تاه فيها بنو إسرائيل باسم «التيه» أيضا، و كانت جزءا من صحراء سيناء، كما ذكرنا فى الجزء الأوّل من تفسيرنا هذا.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ ما نال بنى إسرائيل من عذاب فى تلك المدة، كان مناسبا لما فعلوه، و تطلب من موسى عليه السّلام أن لا يحزن على المصير الذى لا قوه حيث تقول الآية الكريمة: فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۸

و ربما كان سبب ورود الجملة الأخيرة، هو أنّ موسى عليه السّلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذى كتبه اللّه على بنى إسرائيل، فطلب من اللّه العفو لقومه- كما ورد فى التوراة المتداولة- فأجابه برد سريع أوضح له أن بنى إسرائيل يستحقون ذلك العذاب، و هم لا يستحقون العفو الإلهى لأنّهم أناس فاسقون و عصاة، متكبرون، و من كان هذا شأنه سيلاقى- حتما- مثل هذا المصير.

و يجب الانتباه إلى أنّ حرمان بنى إسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسة، لم يكن له طابع للانتقام (كما أن جميع العقوبات الإلهية ليس فيها طابع انتقامى، بل هى إما أن تكون لأجل تقويم شخصية الفرد، أو تكون نتيجة لأخطائه و معاصيه.

و قد اشتمل هذا الحرمان على فلسفة خاصّة، حيث تحرر بنو إسرائيل بعد معاناة طويلة قاسوها فى ظل الكبت و القمع الفرعونى اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس و الذل و الضعة و النقص، لذلك فهم لم يبدوا استعدادا لتطهير أنفسهم و أرواحهم فى تلك الفترة بعد التحرر و فى ظل قيادة و زعامة نبيّهم موسى عليه السّلام كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزة المعنوية التى كان من شأنها

أن تهيء لهم حياة جديدة مقرونة بالفخر و العز و السؤدد، و جوابهم لموسى عليه السّلام- الذى اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحررى فى الأرض المقدسة- خير دليل على هذه الحقيقة.

لذلك كان من الضرورى أن يعانى بنو إسرائيل من التيه و الضياع فى الصحراء، ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجى و ليحل محله جيل جديد فى محيط الصحراء، محيط الحرية و فى أحضان التعاليم الإلهية، و قد صقلت نفوسهم حياة الصحراء القاسية الضارية، و وهبت لأرواحهم و أنفسهم القوة و القدرة، و أعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقيموا حكومة الحق فى تلك الأرض المقدسة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۶۹

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۲۷) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۲۸) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۲۹)

التّفسير

أوّل حادثة قتل على الأرض:

لقد تناولت هذه الآيات الثلاث الأخيرة قصّة ولدى آدم عليه السّلام و كيف قتل أحدهما أخاه الآخر، و لعل وجه الصلة بين هذه الآيات و الآيات التى سبقتها فى شأن بنى إسرائيل، هو غريزة «الحسد» التى كانت دائما أساسا للكثير من مخالفات و انتهاكات بنى إسرائيل حيث يحذرهم اللّه فى هذه الآيات من مغبة و عاقبة الحسد الوخيمة القاتلة، التى تؤدى أحيانا إلى أن يعمد أخ إلى قتل أخيه!

و الآية تقول فى هذا المجال لنبىّ اللّه أن يتلو على قومه قصّة ولدى آدم: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۰

و لعل استخدام كلمة «بالحق» فى هذه الآية جاء للإشارة إلى أن القصّة المذكورة قد أضيفت لها خرافات مختلفة، و لبيان أنّ القرآن الكريم جاء بالقصة الحقيقية التى حصلت بين ولدى آدم عليه السّلام.

و لا شك أنّ كلمة «آدم» الواردة فى الآية، تشير إلى أبى البشرية الحاضرة، و إنّ ما ذهب إليه البعض مع أنّها إشارة إلى شخص من بنى إسرائيل اسمه «آدم» لا أساس له من الواقع، لأنّ هذه الكلمة استخدمت مرارا فى القرآن للدلالة على اسم أبى البشرية، فلو صحّ الافتراض الأخير لوجب أن تشتمل الآية- أو الآيات- التى بعدها على قرينة تصرف الاسم عن مسماه الحقيقى الأوّل، و لا يمكن لآية مِنْ أَجْلِ ذلِكَ ... التى سيأتى تفسيرها قريبا، أن تكون قرينة على الافتراض المذكور كما سيأتى تفصيله.

و تواصل الآية سرد القصّة فتقول: إِذْ قَرَّبا قُرْباناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ ....

و قد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ- الذى لم يتقبل اللّه القربان منه- أخاه بالقتل و يقسم أنّه قاتله لا محالة، كما جاء فى قوله تعالى فى الآية: قالَ لَأَقْتُلَنَّكَ أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيرا إلى أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة فى عمله، و أنّه ليس لأخيه أى ذنب فى رفض القربان، مؤكدا أنّ اللّه يقبل أعمال المتقين فقط حيث تقول الآية: قالَ إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ

و أكـد له أنّه لو نفـذ تهديـده و عمـد إلى قتله، فـإنه- أى الأخ الـذى تقبل اللّه منه القربان- لن يمـد يـده لقتل أخيه، فهو يخاف اللّه و يخشاه، و لن يرتكب أو يلوث يـده بمثل هـذا الإثم حيث تقول الآيـة: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ

و أضاف هذا الأخ الصالح- مخاطبا أخاه الذى أراد أن يقتله- أنّه لا يريد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۱

يتحمل آثام الآخرين، قائلا له: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ[۳۶۱] بِإِثْمِي وَ إِثْمِكَ (أى لأنّك إن نفذت تهديدك فستتحمل ذنوبى السابقة أيضا، لأنّك سلبت منى حق الحياة و عليك التعويض عن ذلك، و لما كنت لا تمتلك عملا صالحا لتعوض به، فما عليك إلّا أن تتحمل إثمى أيضا، و بديهى أنك لو قبلت هذه المسؤولية الخطيرة فستكون حتما من أهل النار، لأنّ النار هى جزاء الظالمين) كما تقول الآية: فَتَكُونَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ

نقاط مهمّة يجب الانتباه لها:

۱- إن القرآن الكريم لم يـذكر فى هـذه الآيـة- و لا فى آيات أخرى- أى اسم لأبناء آدم عليه السّلام: لكن الروايات الإسـلامية تـدل على أن ولـدى آدم المـذكورين فى هـذه الآيـة كان اسم أحـدهما «هابيل» و الآخر «قابيل» و قـد ورد فى سـفر التكوين من التوراة فى الباب الرابع أنّ ولدى آدم المذكورين اسمهما «قائن» و «هابيل».

و قـد ذكر المفسّر المعروف «أبو الفتوح الرازى» أن هـذين الاسـمين قد وردا بألفاظ مختلفة، فالاسم الأوّل جاء فيه «هابيل» و «هابل» و «هـابن»، «أمـا الاسـم الثّانى فجـاء فيه «قابيـل» و «قـايين» و «قابـل» و «قـابن» أو «قبن»، و على أى صورة كـان الاسـم فإنّ الاختلاف بين الروايات الإسلامية و نص التوراة بخصوص اسم «قابيل» نابع عن الاختلاف اللغوى، و لا يشكل أمرا مهما فى هذا المجال.

و الغريب فى الأمر أنّ أحـد الكتاب المسيحيين قد أورد الاختلاف المذكور دليلا اعترض به على القرآن، فقال: إنّ القرآن أورد لفظة «قابيل» بـدل «قائن»! و الجواب هو أنّ مثل هذا الاختلاف اللغوى أمر شائع و بالأخص فى مجال الأسـماء- فمثلا كلمة «إبراهيم» الواردة فى القرآن قد وردت فى التوراة على شكل «أبراهام»، كما أنّ القرآن الكريم لم يأت مطلقا باسم «هابيل» و «قابيل»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۲

و قد ورد هذان الاسمان فى الروايات الإسلامية فقط[۳۶۲].

۲- إنّ المعروف عن «القربان» هو أنّه كل شـىء يحصل به التقرب إلى اللّه، لكن القرآن الكريم لم يـذكر شـيئا عن ماهية القربان الذى قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسـلامية- و التوراة فى سـفر التكوين، الباب الرابع- أن «هابيل» كان يمتلك ماشية فاختار أفضل أغنامه و منتوجاتها للقربان المذكور، و أن «قابيل» الذى كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

۳- لم يرد فى القرآن أى توضـيح عن الأسلوب الذى عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما و رفض قربان الآخر عند اللّه- و الذى ورد فى هـذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسـلامية من أنّ هـذين الشخصـين كانا قـد وضـعا قربانهما على قمـة جبل، فنزلت صاعقة فأحرقت قربان هابيل دلالة على قبوله، و بقى قربان قابيل على حاله لم يمسه شىء، و كانت لهذه العلامة سابقة معروفة أيضا.

لكن بعض المفسّرين يعتقدون أنّ قبول و رفض القربانين إنّما أعلنا عن طريق الوحى لآدم عليه السّلام، و ما كان سبب ذلك غير أنّ هابيل كان إنسانا ذا سريرة نقية يحبّ التضحية و العفو فى سبيل اللّه فتقبل اللّه لذلك قربانه، بينما كان قابيل رجلا ملوث القلب حسودا معاندا فرفض اللّه قربانه، و الآيات التالية توضح حقيقة ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير و شر.

۴- يستنتج من هـذه الآيات- بصورة جليـة- أنّ مصـدر أولى النزاعات و الجرائم فى العالم الإنسانى هو «الحسد» و يدلنا هذا الموضوع

علی خطورة هذه الرذیلة الأخلاقیة و أثرها العجیب فی الأحداث الاجتماعیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۳

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۳۰ الی ۳۱]

اشارة

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ (۳۰) فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ قالَ یا وَیْلَتی أَ عَجَزْتُ أَنْ أَکُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِیَ سَوْأَةَ أَخِی فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِینَ (۳۱)

التّفسیر

التّستر علی الجریمة:

تواصل هاتان الآیتان بقیة الواقعة التی حصلت بین ابنی آدم علیه السّلام، فتبیّن الآیة الأولی منهما أن نفسی قابیل هی التی دفعته إلی قتل أخیه فقتله، حیث تقول:

فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِیهِ

و نظرا لأنّ کلمة «طوع» تأتی فی الأصل من «الطاعة» لذلک یستدل من هذه العبارة علی أن قلب «قابیل» بعد أن تقبل اللّه قربان أخیه هابیل أخذت تعصف به الأحاسیس و المشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فیه نار الحسد و کانت تدفعه إلی الانتقام من أخیه «هابیل» و من جانب آخر کانت عواطفه الإنسانیة و شعوره الفطری یقبح الذنب و الظلم و الجور و قتل النفس، یحولان دون قیامه بارتکاب الجریمة، لکن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رویدا رویدا علی مشاعره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۴

الرادعة فطوعت ضمیره الحی و کبلته بقیودها و أعدته لتقل أخیه، و تدل عبارة «طوعت» مع قصرها علی جمیع المعانی التی ذکرناها لأنّ عملیة التطویع کما نعلم لا تتمّ فی لحظة واحدة، بل تحصل بشکل تدریجی و عبر صراعات مختلفة.

و تشیر الآیة- فی آخرها- إلی نتیجة عمل «قابیل» فتقول فَأَصْبَحَ مِنَ الْخاسِرِینَ فأین ضرر أکبر من أن یشتری الإنسان لنفسه عذابا سیلازمه إلی یوم القیامة، و یشمل عذاب الضمیر و عقاب اللّه و العار و الأبدی.

و قد حاول البعض الاستدلال من کلمة «أصبح» علی أن جریمة القتل قد وقعت لیلا، فی حین أنّ کلمة «أصبح» من حیث معناها اللغوی لا تنحصر فی زمن معین لیلا مکان أم نهارا، بل تدل علی حدوث شیء ما، کما جاء فی الآیة (۱۰۳) من سورة آل عمران فی قوله تعالی: ... فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ....

و تفید بعض الروایات المنقولة عن الإمام الصّادق علیه السّلام أن قابیل حین قتل أخاه ترک جثته فی العراء حائرا لا یدری ما یفعل بها، فلم یمض وقت حتی حملت الوحوش المفترسة علی جثة «هابیل» فاضطر «قابیل» (ربّما نتیجة لضغط وجدانی شدید) إلی حمل جثة أخیه مدة من الزمن لإنقاذها من فتک الوحوش، لکن الطیور الجارحة أحاطت به و هی تنتظر أن یضعها علی الأرض للهجوم علیها ثانیة و فی تلک الأثناء بعث اللّه غرابا (کما تصرّح الآیة) فأخذ یحفر الأرض و یزیح التراب لیدفن جسد غراب میت آخر، أو لیخفی جزءا من طعامه- کما هی عادة الغربان- و لیدل بذلک «قابیل» کیف یدفن جثة أخیه، حیث تقول الآیة الکریمة، فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً یَبْحَثُ فِی الْأَرْضِ لِیُرِیَهُ کَیْفَ یُوارِی سَوْأَةَ أَخِیهِ ۳۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۵

و لا غرابـة فى أن يتعلم إنسان شـيئا من طير من الطيور، فالتاريخ و التجربة يدلان على أنّ للكثير من الحيوانات مجموعة من المعلومات الغريزيـة تعلمها منها البشـر على طول التاريخ، مكملا بذلك معلوماته و معارفه، و حتى بعض الكتب الطبيّة تذكر أنّ الإنسان مدين فى جزء من معلوماته الطيبة للحيوانات! ثمّ تشير الآية الكريمة إلى أنّ قابيل استاء من غفلته و جهله، فأخذ يؤنب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية:

قالَ يا وَيْلَتى أَ عَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذَا الْغُرابِ فَأُوارِيَ سَوْأَةَ أَخِي ....

و كانت العاقبة أن ندم قابيل على فعلته الشنيعة كما تقول الآية: فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ

فهل كان نـدمه على جريمته، خوفا من افتضاح أمره أمام أبويه؟ أو ربّما أخوته الآخرين الّـذين كانوا سـيلومونه على فعلته؟ أم أنّ ندمه كان إشفاقا على نفسه، لأنه حمل جسد أخيه القتيل لفترة دون أن يعلم ما ذا يفعل به أو كيف يدفنه؟

أم كان سبب الندم هو ما يشعر به الإنسان- عادة- من قلق و استياء بعد ارتكاب كل عمل قبيح؟

مهمـا كانت أسـباب النـدم و دوافعه لـدى «قابيل» فـذلك لا يعنى أنّه تاب من فعلته و جريمته التى ارتكبها، فالتوبـة معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوف من اللّه و اسـتقباحا للذنب، و لم يشر القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبة عن «قابيل»، و قد تكون الآية التالية إشارة إلى عدم صدور التوبة عنه.

ورد فى حـديث عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قوله: «لا تقتـل نفس ظلمـا إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنّه كان أوّل من سن القتل»[۳۶۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۶

و يستدل من هذا الحديث أيضا على أنّ من سنّ سنّة سيئة، سيبقى يتحمل وزرها ما دامت باقية فى الدنيا.

ممّا لا ريب فيه أنّ قصّة ولدى آدم عليه السّلام قصّة حقيقية، يثبتها ظاهر الآيات القرآنية الأخيرة و الروايات الإسـلامية، كما أنّ عبارة «بالحق» الواردة فى هـذه القصّة القرآنيـة تعتبر شاهـدا على هـذا الأمر، و على هذا الأساس فإنّ الأقوال التى افترضت لهذه القصّة طابعا رمزيا من قبيل التشبيه أو الكناية أو القصّة المفترضة لا أساس لها مطلقا.

و لا مانع من أن تكون هـذه القصّة الحقيقية مثالا من الصـراع الدائم الذى يطغى على المجتمعات البشـرية، حيث يقف فى أحد جانبيه أنـاس جبلوا على الطهارة و الصـفاء و الإيمان و العمل الصالـح المقبول عنـد اللّه، و فى الجانب الآخر يقف أفراد تـدنسوا بالانحراف و جبلوا على الحقد و الحسد و الضغينة و البغضاء و العمل الشرير.

و كم هو العدد الكبير من أولئك الإبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوة الشـهادة على أيدى هؤلاء الأشـرار الذين سـيدركون- فى النهاية- فظاعـة الأعمال الآثمة التى ارتكبوها، و سيسـعون إلى إخفائها و التستر عليها، فتظهر لهم فى مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبيهة بالغراب- المـذكور فى الآيـة القرآنيـة الأخيرة- فتحثّهم و تدفعهم إلى إخفاء جرائمهم، لكنّهم سوف لا يجنون فى النهاية غير الخيبة و الخسران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۷

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳۲]

اشارة

مِنْ أَجْلِ ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا

النَّاسَ جَمِيعاً وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (۳۲)

التّفسير

وحدة الإنسانية و كرامتها:

إنّ هذه الآية تقوم باستخلاص نتيجة إنسانية كلية بعد الآيات التى تطرقت إلى قصّة ولدى آدم عليه السّلام.

ففى البداية تشير الآية إلى حقيقة اجتماعية تربوية مهمّة، و هى أن قتل أىّ إنسان، إن لم يكن قصاصا لقتل إنسان آخر، أو لم يكن بسبب جريمة الإفساد فى الأرض، فهو بمثابة قتل الجنس البشرى بأجمعه، كما أنّ إنقاذ أىّ إنسان من الموت، يعد بمثابة إنقاذ الإنسانية كلّها من الفناء، حيث تقول الآية الكريمة: مِنْ أَجْلِ ۳۶۵] ذلِكَ كَتَبْنا عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۸

و يرد هنا سؤال و هو: كيف يكون قتل إنسان واحد مساويا لقتل الناس جميعا، و كيف يكون إنقاذ إنسان من الموت بمثابة إنقاذ الإنسانية جمعاء من الفناء؟

و لقد وردت أجوبة عديدة من قبل المفسّرين على هذا السّؤال ... جاء فى تفسير «التبيان» ستة أجوبة عليه، و فى «مجمع البيان» خمسة أجوبة، و فى «كنز العرفان» أربعة أجوبة، و لكن بعضا من هذه الأجوبة يبتعد كثيرا عن معنى هذه الآية.

و كما قلنا فى بداية تفسير هذه الآية، فإنّها تتحدث عن حقيقة اجتماعية تربوية، لأنّه: أوّلا: إن من يقتل إنسانا بريئا و يلطخ يده بدم برىء يكون- فى الحقيقة- مستعدا لقتل أناس آخرين يساوونه فى الإنسانيه و البراءة، فهو- فى الحقيقة- إنسان قاتل، و ضحيته إنسان آخر برىء، و معلوم أنّه لا فرق بين الأبرياء من الناس من هذه الزاوية.

كما أنّ أى إنسان يقوم- بدافع حب النوع الإنسانى- بإنقاذ إنسان آخر من الموت، يكون مستعدا للقيام بعملية الإنقاذ الإنسانية هذه بشأن أىّ إنسان آخر، فهذا الإنسان المنقذ يحبّ إنقاذ الناس الأبرياء، لذلك لا فرق لديه بين إنسان برىء و آخر مثله.

و نظرا لكلمة «فكأنّما» التى يستخدمها القرآن فى هذا المجال، فإننا نستدل بأن موت و حياة إنسان واحد، مع أنّه لا يساوى موت و حياة المجتمع، إلّا أنّه يكون شبيها بذلك.

و ثانيا: إنّ المجتمع يشكل فى الحقيقة كيانا واحدا، و أعضاؤه أشبه بأعضاء الجسد الواحد، و أنّ أى ضرر يصيب أحد أعضائه يكون أثره واضحا- بصورة أو بأخرى- فى سائر الأعضاء، و لأنّ المجتمع البشرى يتشكل من الأفراد، لذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۷۹

فإن فقدان أى فرد منهم يعتبر خسارة للجميع الإنسانى الكبير، لأنّ هذا الفقدان يترك أثرا بمقدار ما كان لصاحبه من أثر فى المجتمع، لذلك يشمل الضرر جميع أفراد المجتمع.

و من جانب آخر فإن إحياء فرد من أفراد المجتمع، يكون- لنفس السبب الذى ذكرناه- بمثابة إحياء و إنقاذ جميع أفراد المجتمع، لأنّ لكل إنسان أثر بمقدار وجوده فى بناء المجتمع الإنسانى و فى مجال رفع احتياجاته، فيكون هذا الأثر قليلا بالنسبة للبعض و كثيرا بالنسبة للبعض الآخر.

و حين نقرأ فى الروايات أنّ جزاء و عقاب قاتل النفس المحرمة، يكون كجزاء قاتل جميع أفراد البشر، إنّما ذلك إشارة لهذا المعنى الذى ذكرناه، و لا يعنى أنّ الناس متساوون مع بعضهم فى كل الجهات، و لذلك نقرأ فى تفسير هذه الروايات- أيضا- أن عقاب

القاتل يتناسب مع عدد الأفراد الذين قتلهم تناسبا طريدا قلة و زيادة.

و تبيّن هـذه الآيـة بجلاء أهميـة حياة و موت الإنسان فى نظر القرآن الكريم، و تتجلى عظمـة هـذه الآيـة أكثر حين نعلم أنّها نزلت فى محيط لم يكن يعير أى أهمية لدماء أفراد الإنسانية.

و تلفت الانتباه فى هـذا المجال روايات عديدة ذكرت أنّ هذه الآية مع أنّها تتحدث- أو يشير ظاهرها- إلى الحياة و الموت الماديين، إلّا أنّ الأهمّ من ذلك هو الموت و الحياة المعنويين، أى إضلال الفرد أو إنقاذ من الضلال،

و قد سأل شـخص الإمام الصّادق عليه السّلام عن تفسير هذه الآية فأجابه عليه السّلام قائلا: «من حرق أو غرق- ثمّ سكت عليه السّلام- ثمّ قال: تأويلها الأعظم أنّ دعاها فاستجابت له».

و فحوى قول الإمام الصّادق عليه السّلام فى هذه الرواية هو الإنقاذ من الحريق أو الغرق ثمّ يستطرد الإمام عليه السّلام- بعد سكوت- فيبيّن أن التأويل الأعظم لهذه الآية هو دعوة الغير إلى طريق الحق و الخير أو الباطل و الشر، و تحقق القبول من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۰

الجانب الآخر المخاطب بهذه الدّعوة[۳۶۶].

و السوال الآخر الـذى يمكن أن يرد فى هذا المجال أيضا، هو عن سبب ورود اسم بنى إسـرائيل بالذات فى هذه الآية، مع أنّها تشـمل حكما لا يخص هذه الطائفة؟

و يمكن القول فى الجواب بأن سبب الإتيان باسم بنى إسـرائيل فى هـذه الآية هو أن هذه الطائفة قد شاعت بينها حوادث القتل و إراقة الدماء، و بالأخص ما كان منها ناشئا عن الحسد و حبّ الذات و الأنانية و حبّ التسلط، و ما زال الذين يتعرضون للقتل على أيدى هذه الطائفة- فى الوقت الحاضـر- هم الأبرياء من الناس غالبا، و لهذا السبب ورد هذا الحكم الإلهى- لأوّل مرّة- فى سيرة بنى إسـرائيل! و تشير الآية فى آخرها- إلى انتهاكات بنى إسرائيل، فتؤكّد أن هذه الطائفة على الرغم من ظهور الأنبياء بينهم يحملون الدلائل الواضحة لإرشادهم، إلّا أنّ الكثير منهم قد نقضوا و انتهكوا القوانين الإلهية، و اتبعوا سبيل الإسراف فى حياتهم، حيث تقول الآية: وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُنا بِالْبَيِّناتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ

و يجدر الانتباه إلى أنّ كلمة «إسـراف» لها معان واسـعة، تشمل كل تجاوز أو تعد عن الحدود، و لو أنّها تستخدم فى الغالب فى مجال الهبات و النفقات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۱

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴)

سبب النّزول

ورد فى سبب نزول هاتين الآيتين الكريمتين، أنّ جماعة من المشركين قدموا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعلنوا إسلامهم لكنّهم- لعدم تعودهم على طقس و مناخ المدينة- أصيبوا ببعض الأمراض، فنصحهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذهبوا إلى

منطقة ذات مناخ جید من الصحراء خارج المدینة، کانت مرتعا لإبل الزکاة، و أجاز لهم الانتفاع بلبن تلک الإبل بما یکفیهم، ففعلوا و تعافوا ممّا کانوا یعانون منه من الأمراض، لکنّهم بدل أن یقدموا الشکر علی صنیع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معهم، و عمدوا إلی قتل الرعاة المسلمین و التمثیل بهم و سمل عیونهم، و نهبوا إبل الزکاة و ارتدوا عن الإسلام إلی الشرک، فأمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بإلقاء القبض علیهم و القصاص منهم بمثل ما ارتکبوه بحق أولئک الرعاة الأبریاء، و جزاء لهم علی جرائمهم فسملت عیونهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۲

و قطعت أوصالهم و قتلوا، لکی یصبحوا عبرة لغیرهم فلا تسول لأحد نفسه أن یرتکب مثل هذه الجرائم الوحشیة البشعة، و قد نزلت الآیتان الأخیرتان و هما تبیّنان حکم الإسلام فی هذه الجماعة[۳۶۷].

جزاء مرتکب العدوان:

تکمل الآیة الأولی- من الآیتین الأخیرتین- البحث الذی تناولته الآیات السابقة حول قتل النفس، و تبیّن جزاء و عقاب من یشهر السلاح بوجه المسلمین، و ینهب أموالهم عن طریق التهدید بالقتل أو بارتکاب القتل، فتقول: إِنَّما جَزاءُ الَّذِینَ یُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ یَسْعَوْنَ فِی الْأَرْضِ فَساداً أَنْ یُقَتَّلُوا أَوْ یُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ یُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ

و معنی قطع الأیدی و الأرجل من خلاف هو أن تقطع الید الیمنی و الرجل الیسری.

و یجدر الانتباه هنا إلی عدّة أمور، و هی:

۱- إنّ المراد جملة الَّذِینَ یُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ الواردة فی الآیة- کما تشیر إلیه أحادیث أهل البیت و یدل علیه سبب نزول الآیة- هو ارتکاب العدوان ضد أرواح أو أموال الناس باستخدام السلاح و التهدید به، سواء کان هذا العدوان من قبل قطاع الطرق خارج المدن أو داخلها، و علی هذا الأساس فإن الآیة تشمل أیضا الأشرار الذین یعتقدون علی أرواح الناس و أموالهم و نوامیسهم.

و الذی یلفت الانتباه فی هذه الآیة هو أنّها اعتبرت العدوان الممارس ضد البشر بمثابة إعلان الحرب و ممارسة العدوان ضد اللّه و رسوله، و هذه النقطة تبیّن بل تثبت مدی اهتمام الإسلام العظیم بحقوق البشر و رعایة أمنهم و سلامتهم.

۲- المراد بقطع الید أو الرجل- المذکور فی الآیة، و کما أشارت إلیه کتب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۳

الفقه- هو القطع بنفس المقدار الذی ینفذ بحق السارق لدی قطع یده، أی مجرّد قطع أربعة من أصابع الید أو الرجل ۳۶۸].

۳- هل أنّ العقوبات الأربع المذکورة فی الآیة لها طابع تخییری؟ أی هل أن الحکومة الإسلامیة مخیرة فی استخدام أی منهما بحق الفرد الذی تراه یستحق ذلک، أم أن العقوبة یجب أن تتناسب و نوع الجریمة التی ارتکبها الفرد؟ أی إذ ارتکب الفرد المحارب جریمة قتل ضد أفراد أبریاء تطبق بحقّه عقوبة الإعدام، و إن ارتکب سرقة عن طریق التهدید بالسلاح تنفذ فیه عقوبة قطع أصابع الید أو الرجل، و إذا ارتکب الجریمتین معا یکون عقابه الإعدام و الصلب علی الأعواد لفترة معینة لکی یعتبر به الناس، و إذا شهر الفرد المحارب السلاح علی الناس دون أن یراق أیّ دم أو تتم سرقة شیء یکون عقابه النفی إلی بلد آخر؟

لا شک أنّ الاحتمال الثّانی- و هو تطبیق العقوبة المتناسبة مع الجریمة أقرب إلی الحقیقة، و قد أید هذا المعنی ما ورد فی أحادیث عن أئمّة أهل البیت علیهم السّلام أیضا[۳۶۹].

و بالرغم من أنّ بعض الأحادیث أشارت إلی أنّ الحکومة الإسلامیة مخیرة فی انتخاب أی من العقوبات الأربع الواردة، لکننا- نظرا للأحادیث التی أشرنا إلیها قبل قلیل- نری أنّ المراد من التخییر لا یعنی أن تنتخب الحکومة الإسلامیة واحدا من العقوبات المذکورة انتخابا اعتباطیا دون أن تأخذ نوع الجریمة بنظر الإعتبار، حیث من المستبعد کثیرا أن تکون عقوبتا الإعدام و الصلب متساویتین مع

عقوبة النفى، أو أن تكونا بمنزلة واحدة! و يلاحظ هذا الأمر أيضا فى الكثير من القوانين الوضعية المعاصرة بصورة واضحة، حيث تعين عقوبات مختلفة لنوع واحد من الجرائم، و على سبيل المثال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۴

نرى أن بعض الجرائم تتراوح عقوبتها بين ۳ سنين إلى ۱۰ سنين من السجن، و القاضى يتعامل فى هذا المجال وفق ما يراه مناسبا لواقع الحال، و ليس وفق ما يشتهيه هو، فتارة يكون المناسب فى الجريمة أن تطبق العقوبة المشددة، و أخرى يتناسب معها تخفيف العقوبة، نظرا للظروف المحيطة و الملابسات الواردة فى حالة ارتكاب الجريمة.

و هذا القانون الإسلامى الذى جاء بحق المحاربين، يتفاوت فيه أسلوب العقاب و نوعه مع اختلاف الجريمة التى يرتكبها الفرد المحارب أو الجماعة المحاربة.

و غنى عن القول أنّ العقوبات المشددة التى جاء بها الإسلام لقطاع الطريق تتوضح فلسفتها فى الأهمية القصوى التى أعارها هذا الدين للدماء البريئة، لكى يحول دون اعتداء الأفراد الأشقياء الأشرار القتلة على أرواح و أموال و أعراض الناس الأبرياء[۳۷۰].

و فى الختام تشير الآية إلى أن هذه العقوبات هى لفضح المجرمين فى الدنيا، و سوف لا يتوقف الأمر على هذه العقوبات، بل سينالون يوم القيامة عقابا أشد و أقسى حيث تقول الآية: ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

و يستدل من هذه الجملة القرآنية على أن العقوبات الإسلامية الدنيوية التى تنفذ فى المجرمين لن تكون حائلا دون نيلهم لعقاب الآخرة، و لكن طريق العودة و التوبة لا يغلق حتى بوجه مجرمين خطيرين كالذين ذكرتهم الآية إن هم عادوا إلى رشدهم و بادروا إلى إصلاح أنفسهم، و لكى يبقى مجال التعويض عن الأخطاء مفتوحا تقول الآية الثانية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۵

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و الذى يظهر من هذه الآية هو أنّ العقاب و الحدّ الشرعى يرفعان عن أولئك المجرمين فى حالة انصرافهم طوعا عن ارتكاب الجريمة و ندمهم قبل أن يلقى القبض عليهم فقط.

و بديهى أنّ توبة هؤلاء لا تسقط العقاب عنهم إن كانوا قد ارتكبوا جريمة قتل أو سرقة، إلّا فى حالة ارتكاب جريمة التهديد بالسلاح فإن العقوبة تسقط إن هم تابوا و ندموا قبل إلقاء القبض عليهم.

و بعبارة أخرى فإنّ التوبة فى مثل هذه الجرائم لها تأثير فى ما يخص اللّه فقط، أمّا حق الناس فلا يسقط بالتوبة ما لم يرض صاحب الحق.

و هكذا فإنّ عقاب المحارب يكون أشدّ و أقسى من عقاب السارق أو القاتل العادى، فهو إن تاب نجا من العقوبة التى تشمله لكونه محاربا، لكنه لا يتخلص من عقوبة السرقة و القتل العاديين.

و قد يطرأ هنا سؤال و هو كيف يمكن إثبات التوبة ما دامت هى عملية قلبية باطنية؟

و الجواب هو: أن طرق إثبات التوبة فى هذا المجال كثيرة وافرة، و أحدها:

أن يشهد عادلان على أنّهما سمعا توبة المجرم فى مكان ما، و أنّه تاب دون أن يرغمه أحد على التوبة، و الآخر: أنّ يغير المجرم أسلوب حياته بشكل تظهر عليه آثار التوبة بجلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۳۵]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵)

التّفسير

حقيقة التوسل إلى اللّه:

توجه هذه الآية الخطاب إلى الأفراد المؤمنين، تتضمن تكاليف ثلاثة يؤدى الالتزام بها و تطبيقها إلى نيل الفلاح، و هذه التكاليف هى:

۱- إتّباع الحيطة و التقوى، كما تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ....

۲- إختيار وسيلة للتقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى، حيث تقول الآية:

وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ....

۳- الجهاد فى سبيل اللّه، إذ تقول الآية: وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ....

و ستكون نتيجة الالتزام بهذه التكاليف الإلهية و تطبيقها نيل الفلاح، بشرط تحقق الإسلام و الإيمان فتقول الآية الكريمة فى هذا المجال: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

إنّ أهم موضوع سنتناوله بالبحث فى هذه الآية، هو الدعوة الموجهة للإنسان المؤمن لاختيار طريقة تؤدى إلى التقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۷

فكلمة «الوسيلة» فى الأصل بمعنى نشدان التقرب أو طلب الشىء الذى يؤدى إلى التقرب للغير عن ميل و رغبة، و على هذا الأساس فإن كلمة «الوسيلة» الواردة فى هذه الآية لها معان كثيرة واسعة، فهى تشمل كل عمل أو شىء يؤدى إلى التقرب إلى اللّه سبحانه و تعالى، و أهم الوسائل فى هذا المجال هى الإيمان باللّه و بنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الجهاد فى سبيل اللّه، و العبادات كالصّلاة و الزكاة و الصوم، و الحج إلى بيت اللّه الحرام و صلة الرحم و الإنفاق فى سبيل اللّه سرّا و علانية و كذلك الأعمال الصالحة- كما يقول الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى خطبة له وردت فى «نهج البلاغة» منها: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلين إلى اللّه سبحانه و تعالى الإيمان به و برسوله و الجهاد فى سبيله فإنّه ذروة الإسلام و كلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، و إقامة الصّلاة فإنّها الملّة[۳۷۱]، و إيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، و صوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب، و حج البيت و اعتماره فإنهما ينفيان الفقر، و يرحضان ۳۷۲] الذنب، و صلة الرحم فإنها مثراة[۳۷۳] فى المال و منساة[۳۷۴] فى الأجل و صدقة السرّ فإنّها تكفر الخطيئة، و صدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة السوء، و صنائع المعروف فإنّها تقى مصارع الهوان ...»[۳۷۵].

كما أن شفاعة الأنبياء و الأئمّة و الأولياء الصالحين تقرّب- أيضا- إلى اللّه وفق ما نصر عليه القرآن الكريم، و هى داخلة فى المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة»- و كذلك إتّباع النّبى و الإمام و السير على نهجهما، كل ذلك يوجب التقرب إلى الساحة الإلهية المقدسة. و حتى عند ما نقسم على اللّه بمقام الأنبياء و الأئمّة و الصالحين فأنّه يدلّ على حبّنا لهم و الاهتمام بالدين الذى دعوا إليه، هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۸

القسم يعتبر- أيضا- واحدا من المعانى الداخلة فى المفهوم الواسع لكلمة «الوسيلة».

و الذين خصصوا هذه الآية و قيدوها ببعض هذه المفاهيم لا يمتلكون فى الحقيقة أى دليل على هذا التخصيص، لأنّ كلمة «الوسيلة» تطلق فى اللغة على كل شىء يؤدى إلى التقرب.

و الجدير بالذكر هنا هو أنّ المراد من التوسل لا- يعنى- أبدا- طلب شىء من شخص النّبى أو الإمام، بل معناه أن يبادر الإنسان

المؤمن- عن طریق الأعمال الصالحة و السیر علی نهج النّبی و الإمام- بطلب الشفاعة منهم إلی اللّه، أو أن یقسم بجاههم و بدینهم (و هذا یعتبر نوعا من الاحترام لمنزلتهم و هو نوع من العبادة) و یطلب من اللّه بذلک حاجته، و لیس فی هذا المعنی أیّ أثر للشرک، کما لا یخالف الآیات القرآنیة الأخری، و لا یخرج عن عموم الآیة الأخیرة موضوع البحث «فتدبّر».

التوسل فی القرآن:

هناک آیات قرآنیة أخری تدل بوضوح علی أنّ التوسل بمقام إنسان صالح عند اللّه، و طلب شیء من اللّه عن طریق التوسل بجاه هذا الإنسان عند اللّه، لا یعتبر أمرا محظورا و لا ینافی التوحید.

فنحن نقرأ فی الآیة (۶۴) من سورة النساء قوله تعالی: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِیماً.

کما نقرأ فی الآیة (۹۷) من سورة یوسف، إنّ أخوة یوسف طلبوا من أبیهم أن یستغفر لهم اللّه، فقبل یعقوب هذا الطلب و نفذه.

و الآیة (۱۱۴) من سورة التوبة تشیر إلی موضوع استغفار إبراهیم لأبیه، و هذا دلیل علی تأثیر دعاء الأنبیاء فی حق الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۸۹

و قد ورد هذا الموضوع فی آیات قرآنیة أخری أیضا.

التّوسل فی الرّوایات الإسلامیة:

إنّ الروایات العدیدة التی وردت عن طرق الشیعة و السنة تفید بوضوح أنّ التوسل بالمعنی الذی عرضناه لا ریب و لا شبهة فیه، بل أنّه یعد عملا جیدا أیضا، و هذه الرّوایات کثیرة و قد نقلتها کتب عدیدة، و نحن نورد بعضا منها مما ورد فی مصادر جمهور السنّة علی سبیل المثال لا الحصر.

۱- جاء فی کتاب «وفاء الوفا» لمؤلّفه العالم السنّی المشهور «السمهودی» إن طلب العون و الشفاعة من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو التوسل إلی اللّه بجاه النّبی و شخصه جائز قبل أن یولد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بعد ولادته و وفاته و فی عالم البرزخ و فی یوم القیامة، ثمّ ینقل «السمهودی» فی هذا المجال عن عمر بن الخطاب الروایة المعروفة التی تتحدث عن توسل آدم علیه السّلام إلی اللّه بنبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذلک لعلم آدم بأنّ هذا النّبی سیأتی إلی الوجود فی المستقبل، و لعلمه بالمنزلة العظیمة التی یحظی بها عند اللّه، فیقول آدم: «ربّ إنّی أسألک بحق محمّد لما غفرت لی»[۳۷۶].

ثمّ ینقل «السمهودی» حدیثا آخر عن جماعة من رواة الحدیث کالنسائی و الترمذی، و هما عالمان مشهوران من أهل السنّة، کدلیل علی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته و خلاصة هذا الحدیث إنّ رجلا بصیرا طلب من النّبی أن یدعو له بشفاء مریضه، فأمره النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتلاوة هذا الدعاء:

«اللّهم إنّی أسألک و أتوجه إلیک بنبیّک محمّد نبیّ الرّحمة یا محمّد إنّی توجهت بک إلی ربّی فی حاجتی لتقضی لی، اللّهم شفعه فیّ»[۳۷۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۰

و بعد هذا الحدیث ینقل «السمهودی» حدیثا ثالثا فی جواز التوسل بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد وفاته، فیذکر أن صاحب حاجة جاء فی زمن عثمان إلی قبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فجلس بجوار القبر و دعا اللّه بهذا الدعاء: «اللّهم إنّی أسألک و

أتوجه إليك بنبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبى الرحمة، يا محمّد إنّى أتوجه بك إلى ربّك أن تقضى حاجتى».

ثمّ يضيف «السمهودى» إنّه لم تمض فترة حتى قضيت حاجة الرجل ۳۷۸].

۲- أمّا صاحب كتاب «التوصل إلى حقيقة التوسل» الذى يعارض بشدة موضوع التوسل فهو ينقل (۲۶) حديثا من كتب و مصادر مختلفة ينعكس منها جواز التوسل، و مع أنّه سعى فى أن يطعن بإسناد تلك الأحاديث، إلّا أنّ الواضح هو أنّه متى ما كانت الروايات كثيرة- فى موضوع معين لدرجة التواتر- لا يبقى عند ذلك مجال للطعن، و التجريح فى سند الحديث، و الروايات التى وردت فى المصادر الإسلامية بشأن التوسل قد تجاوزت حدّ التواتر لكثرتها.

و من هذه الأحاديث التى رواها صاحب الكتاب المذكور، الحديث التالى:

نقل «ابن حجر المكى» صاحب كتاب «الصواعق» عن الإمام «الشافعى»، و هو أحد أئمّة السنّة الأربعة المشهورين، أنّه كان يتوسل إلى أهل بيت النّبى و يقول:

آل النّبى ذريعتىو هم إليه وسيلتى

أرجو بهم أعطى غدابيد اليمين صحيفتى ۳۷۹]

و ينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضا عن (البيهقى) أن الجفاف أصاب المسلمين فى أحد الأعوام من عهد الخليفة الثّانى، فذهب بلال و معه عدد من الصحابة إلى قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: «يا رسول اللّه استسق لأمتك ... فإنّهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۳ ؛ ص۶۹۱

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۱

قد هلكوا ...»[۳۸۰].

و نقل أيضا عن «ابن حجر» من كتاب «الخيارات الحسان» أنّ الإمام الشافعى كان أثناء وجوده فى بغداد يزور أبا حنيفة و يتوسل إليه فى حوائجه ۳۸۱].

و من صحيح «الدارمى» ينقل صاحب كتاب «التوصل ...» أيضا، أن بعض الصحابة فى المدينة اشتكوا إلى عائشة ما يعانونه من الجفاف الشديد الذى أصاب البلدة فى أحد الأعوام، فأشارت عليهم أن يفتحوا فجوة فى سقف المسجد على قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى ينزل اللّه المطر ببركة قبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ففعلوا ذلك و نزل مطر غزير! و نقل «الآلوسى» فى تفسيره الكثير من الأحاديث و الروايات الشبيهة بالأحاديث المارة الذكر، و لكنّه بعد إجراء تحليل و نقاش طويل حولها حتى أنّه تشدد فى نقدها اضطر إلى الإذعان بها، فذكر أنّه بعد البحث الذى أجراه لا يرى مانعا من التوسل إلى اللّه بمقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء فى حياته أو بعد وفاته، ثمّ أطال البحث فى هذا المجال، و قال بأنّ التوسل إلى اللّه بمقام غير النّبى لا مانع فيه- أيضا- شريطة أن يكون المتوسل به صاحب منزلة عند اللّه ۳۸۲].

أما مصادر الشيعة فقد تناولت هذا الموضوع بشكل واضح، لا نرى معه أى حاجة إلى نقل الأحاديث الواردة بهذا الصدد.

ملاحظات ضرورية:

نرى من الضرورى- هنا- الإشارة إلى عدّة أمور:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۲

۱- لقد أسلفنا القول بأنّ التوسل ليس معناه طلب الحاجة من النّبى أو الإمام، بل المراد منه جعل النّبى أو الإمام شفيعا إلى اللّه فى قضاء

الحاجة، و هذا الأمر- فى الحقيقة- توجه إلى اللّه، لأن احترام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو من أجل أنّه رسول اللّه و السائر على هـداه، و العجب هنا أن يـدعى البعض أن هـذا التوسل نوع من الشـرك، فى حين أنّ المعروف عن الشـرك هو القول بوجود من يشارك اللّه سبحانه فى صفاته و أعماله، و التوسل الذى تحدثنا عنه لا صلة له مطلقا و لا تشابه مع الشرك.

۲- يصرّ البعض وجود الفرق بين حياة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام و بين وفاتهم، و كما رأيت فإنّ الكثير من الأحاديث السالفة كان يخص ما بعد وفاة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بالإضافة إلى ذلك فإن الفرد المسلم يعتقد بأن للنّبى و الصالحين بعـد وفاتهم حياة برزخيـة أوسع من الحياة الـدنيا، و قـد صـرّح القرآن فى هـذا المجال بخصوص حياة الشـهداء، حيث أكّد أنّهم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربّهم ۳۸۳] ....

۳- و أصـرّ آخرون على أنّ هناك فرقا بين طلب الدعاء من النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و بين القسم على اللّه بجاه النّبى، فهؤلاء يجيزون طلب الدعاء و لا يجيزون ما سواه، فى حين لا يوجد بين هذين الأمرين أى فرق منطقى.

۴- يسـعى البعض من كتـاب و علماء السـنة و بالأخص «الوهابيون» منهم، و بعناد خاص، إلى الادعاء بضـعف جميع الأحاديث الواردة فى موضوع التوسل، أو تجاهلها بشتى الحجج الواهية.

و هؤلاء يبحثون هـذا الموضوع بأسـلوب خاص يظهر من خلاله لكل ناظر محايـد أنّهم اختاروا فى البدايـة هـذا الإعتقاد لأنفسـهم، ثمّ يحاولون- بعـد ذلك- فرضه على الرّوايات الإسـلامية و يعمـدون بشـكل من الأشـكال إلى إزاحـة كل من يخالف معتقـدهم هذا عن طريقهم، و هذا الأسلوب المشوب بالعصبية و مجافاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۳

المنطق لا يقبل به أى باحث منصف مطلقا.

۵- لقد بيّنا أنّ أحاديث التوسل قد وصـلت بكثرتها إلى حد التواتر، أى أنّها لوفرتها تغنى الباحث عن التحقيق فى أسانيدها، إضافة إلى ذلك فإنّ من بين هذه الأحاديث الكثير من الروايات و الأحاديث الصـحيحة، فلا يبقى بذلك لمن يريد الاعتراض على بعض الأسانيد أى مجال.

۶- و يتبيّن ممّـا قلناه سابقا أن لا تناقض بين الروايات التى وردت فى تفسـير الآيـة الأخيرة تلك التى تقول بأن النّبى دعا الناس إلى أن يطلبوا له الوسيلة من اللّه، أو ما

جاء عن الإمام على عليه السّلام فى كتاب «الكافى» من أنّه قال: بأنّ (الوسيلة) هى أرفع و أسمى منزلة فى الجنّة

فلا ينافى ما ذكرناه نحن فى تفسـير الآيـة، لأنّ الوسـيلة- كما أوضـحنا- تشـمل كل أنواع التقرب إلى اللّه، و إن تقرب النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى اللّه، و كذلك ما قيل عن أرفع منزلة فى الجنّة، هما من مصاديق الوسيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۴

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۷)

التّفسير

تعقيبا على الآيـة السابقـة التى كلّفت المؤمنين بـالتقوى و الجهاد و إعـداد الوسـيلة، جاءت الآيتان الأخيرتان و هما تشـيران إلى مصـير الكافرين، و تؤكّدان أنّهم مهما بذلوا- حتى لو كان كل ما فى الأرض أو ضـعفه- فى سبيل انتقاذ أنفسـهم من عذاب يوم القيامة، فلن يقبـل منهم ذلك- و أنّهم سـينالون العـذاب الشديـد، فتقول الآيـة الكريمـة فى هـذا المجال: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و قد وردت بنفس المضمون آية أخرى و هى الآية (۴۷) من سورة الرعد.

و يبيّن هـذا الأسـلوب القرآنى أقصـى درجـات التأكيـد فيما يخص العقوبات الإلهيـة التى لا يمكن- مطلقا- التخلص منها بأى ثروة أو قدرة مهما بلغت، و حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۵

لو شـملت جميع ما فى الأرض أو ضـعف ذلك، و إن طريق الخلاص الوحيـد يمكن- فقط- فى اتّباع التقوى و الجهاد فى سبيل اللّه و القيام بالأعمال الصالحة.

بعد ذلك تشـير الآية التالية إلى اسـتمرار عذاب اللّه، و توضح أنّ الكافرين مهما سعوا للخروج من نار جهنم فلن يقدروا على ذلك، و إنّ عذابهم ثابت و باق لا يتغير، كما تقول الآية: يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَ ما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ

و سـنوافيكم بتفاصـيل أكثر عن العقوبة الدائمة الأبدية، و عن خلود الكفار فى نار جهنم، لدى تفسير الآية (۱۰۸) من سورة هود، بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۶

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَـةُ فَـاقْطَعُوا أَيْـدِيَهُما جَزاءً بِمـا كَسَـبا نَكالاً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْـدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْـلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُـوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْـكُ السَّمـاواتِ وَ الْـأَرْضِ يُعَـذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

التّفسير

عقوبة السّرقة:

لقـد بيّنت آيـات سابقـة عقـاب و حكم «المحـارب» الـذى يتعرض لأـرواح و أموال و نواميس الناس عن طريق التهديـد بالسـلاح، أمّا الآيـات الثلاـث الأخيرة فهى تبيّن حكم السارق و السارقـة أى الفرد الـذى يسـرق خلسـة أموال و ممتلكات الناس، فتقول الآيـة أوّلا: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما ....

و قـد قـدمت هذه الآية الرجل السارق على المرأة السارقة، بينما الآية التى ذكرت حد و عقوبة الزنا قد قدمت المرأة الزانية على الرجل الزانى، و لعل هذا التفاوت ناشئ عن حقيقة أن السرقة غالبا ما تصدر عن الرجال، بينما النساء الخليعات المستهترات يشكلن فى الغالب العامل و العنصر المحفز للزنا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۷

بعد ذلك تبيّن الآية أنّ العقوبة المذكورة هى جزاء من اللّه لجريمة السرقة المرتكبة من قبل الرجل أو المرأة، حيث تقول: جَزاءً بِما كَسَبا نَكالًا مِنَ اللَّهِ ....

و الحقيقة هى أنّ هذه الجملة القرآنية تشير.

أوّلا: إلى أنّ العقوبة المذكورة نتيجة لعمل الشخص السارق أو السارقة و أنّها شىء اكتسبه هو أو هى لنفسها.

و ثانيا: إلى أنّ الهدف من تنفيذ هذه العقوبة هو وقاية المجتمع و تحقيق الحق و العدل فيه لأنّ كلمة «نكال» تعنى العقوبة التى تنفذ لتحقيق الوقاية و ترك المعصية، و هذه الكلمة تعنى فى الأصل «اللجام» و تطلق أيضا على كل عمل يحول دون حصول الانحراف.

و لكى لا يتوهم الناس وجود الإجحاف فى هذه العقوبة، تؤكّد الآية- فى آخرها- على أن اللّه عزيز، أى قادر على كل شىء، فلا حاجة له للانتقام من الأفراد، و هو حكيم- أيضا- و لا يمكن أن يعاقب الأفراد دون وجود مبرر أو حساب لذلك، حيث تقول الآية: وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

أمّا الآية الثانية فهى تفتح لمن ارتكب هذه المعصية باب العودة و التوبة، فتقول: فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و السؤال الوارد هنا هو: هل أنّ التوبة وحدها تكفى لغفران الذنب فقط، أم أنّها تسقط عنه حد أو عقوبة السرقة أيضا؟

إنّ المعروف لدى فقهاء الشيعة أنّ مرتكب السرقة إن تاب قبل أن تثبت سرقته فى محكمة إسلامية يسقط عنه حدّ السرقة أيضا، أمّا إذا شهد عادلان على سرقته فإن التوبة لا تسقط عنه الحدّ.

و الحقيقة هى أنّ التوبة- فى هذه الحالة التى تطرقت لها الآية- هى تلك التى تتمّ قبل ثبوت الجرم فى المحكمة، و لو لا ذلك لتظاهر كل سارق بالتوبة لدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۸

ثبوت الجرم عليه، بغية إنقاذ نفسه من الحدّ أو العقوبة، فلا يبقى- و الحالة هذه- مبرر لإجراء الحدّ عليه بعد التوبة! و بعبارة أخرى: إنّ التوبة الاختيارية هى تلك التى تتمّ قبل أن يثبت الجرم فى المحكمة بينما التوبة الاضطرارية هى التوبة التى تصدر من الإنسان العاصى لدى مشاهدته العذاب الإلهى، أو لدى بلوغه حالة الاحتضار، و مثل هذه التوبة لا قيمة لها مطلقا.

ثمّ توجه الآية الأخرى الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و يجدر الانتباه هنا إلى عدّة نقاط، و هى:

أ- شروط معاقبة السارق:

لقد بيّن القرآن الكريم فى الآيات الأخيرة التى تطرقت لحكم السرقة أساس للقضية، على عادته بالنسبة لسائر الأحكام، و قد ترك التفصيل فى ذلك إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الذى يستدل من مجموع الروايات الإسلامية هو أن تنفيذ هذا الحد الإسلامى (أى قطع اليد) مقيد بشروط كثيرة، لا يجوز- بدون تحققها- المباشرة بإجراء الحدّ، و من هذه الشروط.

۱- أن يكون الحدّ الأدنى لثمن الشىء المسروق مبلغ ربع دينار[۳۸۴].

۲- أن تتمّ السرقة من مكان محفوظ، أى أن تكون من دار أو محل للكسب أو من جيوب و مخابئ داخلية.

۳- أن لا تكون السرقة فى زمن الجفاف أو المجاعة التى يعانى الناس فيها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۶۹۹

من الجوع لعدم حصولهم على المواد الغذائية.

۴- أن يكون السارق- أثناء ارتكابه لجريمة السرقة- بالغا عاقلا حر الإرادة.

۵- لا يطبق حدّ السرقة فی حالة سرقة الأب من مال ولده، أو الشريك من مال شريكه المخصوص بالشركة.

۶- و قد استثنيت الفاكهة المسروقة من البساتين من حدّ السرقة.

۷- كما استثنيت من ذلك حالة اشتباه السارق بين ماله و مال غيره.

و هناك شروط أخرى تطرقت إليها كتب الفقه فی باب السرقة.

و يجب هنا التأكيد على أنّ السرقة حرام سواء تحققت الشروط المذكورة أعلاه فيها أو لم تتحقق، و أما هذه الشروط فهی مختصة بموضوع الحدّ و العقوبة الخاصّة بالسرقة.

و السّرقة بأی شكل حصلت، و مهما كان مبلغ و ثمن الشیء المسروق، حرام فی الإسلام.

ب- المقدار الذی يجب قطعه من يد السّارق:

لقد اشتهر لدى فقهاء الشيعة- استنادا على روايات أهل البيت عليهم السّلام- أنّ حدّ السرقة يتحقق بقطع أربع من أصابع يد السارق اليمنى فقط دون زيادة، بينما قال فقهاء السنّة بأكثر من ذلك.

ج- حدّ السرقة و أقاويل اعداء الإسلام:

كثيرا ما كرر أعداء الإسلام أو حتى بعض المسلمين من الذين يجهلون أسرار التشريع الإسلامی، أنّ هذه العقوبة الإسلامية تتسم بالعنف الشديد، و أنّها لو نفذت فی عصرنا الحاضر للزم أن تقطع أيدی الكثير من الناس، و إن هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۰

سيؤدی بالإضافة إلى حرمان أفراد من أحد أعضاء جسمهم الحساسة سيؤدی إلى فضيحة الفرد طيلة حياته بسبب الأثر البارز الذی يخلفه حد السرقة مدى العمر.

و للردّ على هذا الاعتراض يجب الانتباه إلى الحقيقة التالية:

أوّلا: لقد بيّنا فيما سبق أن حكم السرقة- وفق الشروط التی ذكرناها- لا يشمل كل سارق، فهذا الحكم يشمل فقط تلك المجموعة من السراق الذين يشكلون خطرا على المجتمع.

ثانيا: إنّ احتمال تنفيذ عقوبة السرقة يقل نظرا للشروط الخاصّة التی يجب توفرها حتى تثبت الجريمة على المتهم بالسرقة.

ثانيا: إنّ أكثر الاعتراضات التی يوردها الأفراد الذين يجهلون أو الذين لا يعرفون الكثير عن القوانين الإسلامية، منشؤها النظرة الآحادية الجانب التی يرون و يبحثون بها الحكم الإسلامی بعيدا عن الأحكام الأخرى، أی أنّهم يفترضون هذا الحكم فی مجتمع بعيد كل البعد عن الإسلام.

فلو علمنا أنّ الإسلام ليس حكما واحدا فقط، بل يشتمل على مجموعة كبيرة من الأحكام لو طبقت فی مجتمع معين لأدت إلى تحقيق العدالة الاجتماعية و مكافحة الفقر و الجهل، و لأدت إلى تحقيق التعليم و التربية الصحيحين، و لنشرت الوعی و الورع و التقوى بين الناس، و بهذا يتّضح لنا ندرة احتمال بروز حوادث تحتاج إلى تطبيق هذا الحكم أو العقوبة الإسلامية.

و یجب أن لا یجرنا هذا القول إلی الوهم بأنّ هذا الحکم الإسلامی لا یجب تطبیقه فی المجتمعات المعاصرة، بل المراد من قولنا هذا هو أن تؤخذ کل الشروط المذکورة بنظر الإعتبار أثناء إصدار الحکم فی هذا المجال.

و خلاصة القول: إنّ الحکومة الإسلامیة مکلّفة بأن توفر لکل أفراد الأمّة احتیاجاتها الأولیة و أن توفر لهم التعلیم اللازم، و تربی فیهم الملکات و الخصال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۱

الفاضلة الخیرة، و تحسن إعدادهم من الناحیة الأخلاقیة، و طبیعی أنّه إذا حصل هذا الأمر فلا یظهر فی محیط کهذا إلّا القلیل النادر ممن یرتکبون مخالفة أو جریمة.

رابعا: إنّ ما نلاحظه الیوم من ارتفاع فی عدد السرقات ناجم عن عدم تطبیق هذا الحکم الإسلامی، بینما یندر فی البیئات التی تطبق هذا الحکم بروز مثل هذه الحوادث، فهی تتمتع بوضع أمنی جید فیما یخص حمایة أموال الناس، فزوار بیت اللّه الحرام کثیرا ما ترکوا حقائبهم فی الأزقة و الطرقات دون عین تحرسها فلم یجرأ أحد علی مد یده إلیها الی أن یأتی موظفو ادارة المفقودات و یحملوها الی الادارة حتی یأتی صاحبها و یستردها بعد ذکر العلامات الخاصّة، و أغلب المحلات تفتقد إلی الأبواب و الأوصدة الکافیة، و فی هذا الحال لا تمتد ید سارق نحوها. أو یکونوا فقدوا شیئا ثمّ راجعوا لذلک إدارة المفقودات فوجده عندها.

و الأمر الملفت للنظر هو أن هذا الحکم الإسلامی و علی الرغم من تطبیقه لعدّة قرون، حیث کان المسلمون و منذ عصر صدر الإسلام یعیشون آمنین مطمئنین فی ظله، فهو لم ینفذ طیلة تلک الفترة إلّا بحق عدد قلیل من الأفراد.

فهل یعتبر قطع عدد من الأیدی الآثمة لکی ینعم المجتمع لقرون عدیدة بالأمن ثمنا غالیا لهذا الأمن؟!

د- اعتراضات أخری:

یقول البعض: إنّ تنفیذ حدّ أو عقوبة السرقة فی سارق من أجل ربع دینار یعتبر منافیا للاحترام الفائق الذی یفرضه الإسلام لحیاة الإنسان المسلم و حمایتها من کل خطر، بحیث أنّ الإسلام فرض دیة باهظة مقابل قطع أربعة أصابع من ید أی إنسان، و قد ذکرت بعض کتب التاریخ بأن هذا السؤال وجهه البعض إلی العالم الإسلامی الکبیر الشریف المرتضی علم الهدی قبل حوالی ألف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۳، ص: ۷۰۲

سنة، و جاء السؤال فی البیت التالی:-

ید بخمس مئین عسجد ودیتما بالها قطعت فی ربع دینار؟[۳۸۵]

فأجاب السّید المرتضی رحمة اللّه ببیت آخر هو:

عزّ الأمانة أغلاها و أرخصهاذل الخیانة فافهم حکمة الباری ۳۸۶]

---

[۱] (۱)- نور الثقلین و مجمع البیان، و تفسیر المنار و کتب اخری.

[۲] (۱)- الجن: ۱۳.

[۳] (۱)- نملی مشتقة من الإملاء، و تغنی المساعدة و الإعانة و تستعمل فی أکثر الموارد فی إطالة المدّة و الإمهال الذی هو نوع من

المساعدة، و قد جاءت فی الآیة الحاضرة بالمعنی الثانی.

[۴] (۱)- الروم، ۴۱.

[۵] (۱)- الأنعام، ۴۴.

[۶] (۱)- إبراهیم، ۱.

[۷] (۲)- القصص، ۸.

[۸] (۱)- لقد مرّ طرح هذا السؤال بالتفصیل عند تفسیر قوله تعالی\i:وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَ الْجُوعِ\ ...E و أجبنا هناک بأن الامتحان الإلهی- هو فی الحقیقة- نوع من التربیة العملیة للبشر، و لا یعنی الاستخبار و الاستعلام، و لمزید الاطلاع راجع ذلک البحث.

[۹] (۱)- الشّجاع العظیم الخلقة من الحیات.

[۱۰] (۱)- الحدید، ۱۱.

[۱۱] (۲)- البقرة، ۲۷۶.

[۱۲] (۳)- أسباب النزول للواقدی، ص ۹۹ و تفسیر روح البیان فی تفسیر هذه الآیة.

[۱۳] (۱)- إنّما أضیف أعمال الإنسان إلی یده و إن کانت الذنوب تکتسب بجمیع الجوارح لأن أکثر ما یکسبه الإنسان إنما یکسبه بیده، و لأن العادة قد جرت بإضافة الأعمال التی یقوم بها الإنسان إلی الید و إن اکتسبها بجارحة أخری.

[۱۴] (۱)- الملل و النحل للشهرستانی، طبعة بیروت، ج ۱، ص ۱۰۱، تحقیق محمّد سید کیلانی.

[۱۵] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، و تفسیر مجمع البیان عند تفسیر هذه الآیة، و متن الحدیث العلوی منقول عن نهج البلاغة.

[۱۶] (۱)- أسباب النزول للواقدی فی تفسیر هذه الآیة و تفسیر المنار و تفسیر مجمع البیان.

[۱۷] (۱)- تفسیر الدر المنثور، ج ۲، ص ۱۱۱، و تفسیر أبی الفتوح الرازی فی ذیل هذه الآیات.

[۱۸] (۲)- تفسیر نور الثقلین و مجمع البیان.

[۱۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰] (۱)- سفینة البحار، مادة نوف، ج ۲، ص ۶۲۲.

[۲۱] (۲)- التعبیر بأولی الألباب- فی هذه الآیة و آیات عدیدة اخری فی الکتاب العزیز- إشارة لطیفة إلی أرباب العقول، لأن اللب من کلّ شیء خیره خالصه، و لا شک أنّ العقل هو خیر ما فی الإنسان، و هو عصارة وجوده الإنسانی.

[۲۲] (۳)- لقد بحثنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی معنی اختلاف اللیل و النهار و أسرارهما عند تفسیر الآیة ۱۶۴ من سورة البقرة فراجع.

[۲۳] (۱)- مستدرک الوسائل، ج ۱، ص ۳۶۹.

[۲۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۲، ص ۵۵۹، و المیزان، ج ۴، ص ۹۵- ۹۶.

[۲۵] (۱)- غافر، ۴۰.

[۲۶] (۲)- النحل، ۹۷.

[۲۷] (۱)- راجع کتاب و ستر مارک، و کتاب« حقوق المرأة فی الإسلام» و الکتب الباحثة فی مذاهب البشر و عقائدهم.

[۲۸] (۱)- تفسیر مجمع البیان و المنار و المیزان.

[۲۹] (۱)- أسباب النزول للواقدی.

[۳۰] (۱)- للوقوف علی تفصیل أکثر حول معنی هذه العبارة راجع، الآیة ۲۰۲ من سورة البقرة.

[۳۱] (۱)- الإحتجاج للطبرسی، الفصل الأول.

[۳۲] (۱)- الأعراف، ۲۰۴.

[۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۱.

[۳۴] (۱)- تساءلون: من مادة تسائل، و تسائل باللّه من قولهم أسألک باللّه أن تفعل کذا. و هذا یدل علی تعظیم الناس للّه تعالی.

[۳۵] (۱) الدّر المنثور، ج ۲، ص ۱۱۷.

[۳۶] (۱)- و للتوسع و التفصیل الأکثر راجع ما ذکرناه فی تفسیر هذه الآیة فی سورة البقرة فی الجزء الثانی من هذا التّفسیر.

[۳۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۵ و ۶.

[۳۸] (۱)- و هو قوله تعالی\:i وَ یَسْتَفْتُونَکَ فِی النِّساءِ قُلِ اللَّهُ یُفْتِیکُمْ فِیهِنَّ وَ ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فِی الْکِتابِ فِی یَتامَی النِّساءِ\ ...E.

[۳۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۳۸ و تفسیر المنار فی تفسیر هذه الآیة.

[۴۰] (۱)- حضارة العرب، ص ۳۹۸.

[۴۱] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، فی ذیل هذه الآیة.

[۴۲] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ذیل الآیة المبحوثة و هکذا فی تفسیر نور الثقلین.

[۴۳] (۱)- إنجیل متی الإصحاح، ۱۹- ۲۳.

[۴۴] (۱)- البرهان، ج ۱، ص ۳۴۴، الحدیث ۹.

[۴۵] (۱)- البقرة، ۱۷۴.

[۴۶] (۱)- تفسیر البرهان عند تفسیر الآیة.

[۴۷] (۱)- سفر الأعداد الإصحاح السابع و العشرون: ۸- ۱۱.

[۴۸] (۱)- البرهان، ج ۱، ص ۳۴۷.

[۴۹] (۱)- الأنفال، ۷۵.

[۵۰] (۲)- مجمع البیان.

[۵۱] (۱)- لقد مرّ حول« حدود اللّه» و تفسیره بحث أکثر تفصیلا فی المجلد الثانی من هذا التّفسیر.

[۵۲] (۱)- فتکون طریقة الحساب هنا هی أنّنا یجب أن ننقص ۶/ ۱ من سهم الأختین الذی هو ۶/ ۴ و سهم الزوج الذی هو ۶/ ۳ بمقدار أسهمهم أی نقسم ۶/ ۱ علی ۷ أقسام فننقص من سهم الأختین بمقدار ۴، و من الزوج بمقدار ۳، و ذلک طبقا لقانون« الإسهام بالنسبة» المذکورة فی الریاضیات فتکون النتیجة أنه ینقص من سهم الأختین بمقدار ۴۲/ ۴ و من سهم الزوج بمقدار ۴۲/ ۳.

[۵۳] (۱)- العصبة هم الرجال الذین ینتسبون إلی المیت بلا واسطة کالأخوة.

[۵۴] (۱)- یونس، ۹۰- ۹۱.

[۵۵] (۱)- آل عمران- ۹۱، البقرة، ۱۶۱، البقرة، ۲۱۷، محمّد- ۳۴.

[۵۶] (۲)- البقرة، ۲۱۷.

[۵۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۵۷.

[۵۸] (۱)- و لمزید التوضیح راجع الجزء الثانی من تفسیرنا هذا عند تفسیر الآیة(۱۵) من سورة آل عمران.

[۵۹] (۱)- الإفضاء أصله من الفضاء، و هو السعة، و بذلک یکون معنی الإفضاء إیجاد السعة، لأن الإنسان بسبب الاتصال و التعایش مع شخص آخر یکون و کأنه وسع دائرة وجوده، و لهذا استعمل الإفضاء بمعنی الملامسة و الاتصال.

[۶۰] (۱)- طبعا إنّ الإسلام لم یحرّم التزاوج بین أبناء و بنات العمومة، لأنّ هذا النوع من التزاوج لیس مثل الزواج بالمحارم فی الخطورة، و احتمال ظهور مثل هذه الحوادث الخطیرة فی هذا النوع من الزواج أقل، و قد لا حظنا بأنفسنا موارد و نماذج عدیدة من

نتائج هذا النوع من الزواج حیث یکون الأولاد- فی هذه الحالة- أکثر سلامة و أفضل فکرا و موهبة من غیرهم.

[۶۱] (۱)- من لا یحضره الفقیه، ج ۲، ص ۱۵۵، و غیره.

[۶۲] (۱)- الحلائل جمع الحلیلة، و هی من مادة حل، و هی بمعنی المحللة، أی المرأة التی تحل للإنسان، أو من مادة حلول معنی المرأة التی تسکن مع الرجل فی مکان واحد و تکون بینهما علاقة جنسیة، لأن کل واحد منهما یحل مع الآخر فی الفراش.

[۶۳] (۱)- مقدار عدتهن حیضة واحدة أو وضع حملهن إذا کن حبالی.

[۶۴] (۱)- أوطاس منطقة وقعت فیها إحدی المعارک الإسلامیة و هو واد فی دیار بنی هوازن.

[۶۵] (۲)- لقد بحثنا بالتفصیل عن برنامج الإسلام حول تحریر العبید و ما هناک من تخطیط دقیق فی النظام الإسلامی فی هذا المجال عند تفسیر الآیات المناسبة فی سورة« محمّد» صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۶۶] (۱)- راجع کتاب کنز العرفان و تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین و البرهان، و الغدیر، ج ۶.

[۶۷] (۱)- المشهور أو الأشهر وجوب تمام المهر بمجرد عقد الزواج الدائم و إن کان الطلاق قبل الدخول یوجب إعادة نصفه إلی الزوج.

[۶۸] (۲)- التابعون هم الذین جاؤوا بعد الصحابة و لم یدرکوا عهد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۶۹] (۳)- التّفسیر الکبیر، ج ۱۰، ص ۵۳.

[۷۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۶۷، و تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۶۰.

[۷۱] (۲)- المصدر السابق.

[۷۲] (۳)- تفسیر البرهان ذیل الآیة(و قد ورد هذا الحدیث و الحدیثان السابقان علیه فی کتاب الکافی).

[۷۳] (۴)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۱۵۸، و لقد روی الحدیث المذکور عن تفسیر القرطبی و الطبری بعبارات تشابه العبارة أعلاه، کما أن هذا الحدیث جاء فی السنن الکبری للبیهقی، ج ۷، کتاب النکاح.

[۷۴] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۲، ص ۷۶۲، ذیل الآیة(۱۹۵) البقرة.

[۷۵] (۲)- المراد من متعة الحج التی حرّمها عمر هو لو أننا صرفنا النظر عن حج التمتع، فإن حج التمتع عبارة عن الأمر التالی: إن یحرم الشخص أوّلا، ثمّ بعد الإتیان بمناسک« العمرة» یخرج من إحرامه(فیحلّ له کل شیء حتی الجماع) ثمّ یحرم من جدید لیؤدی مناسک الحج من تاسع ذی الحجّة، و قد کان الناس فی الجاهلیة یبطلون هذا العمل و یستغربون ممن یدخل مکّة أیام الحج ثمّ یأتی بالعمرة و یخرج من إحرامه قبل أن یأتی بالحج، و لکن الإسلام أباح هذا و قد صرّح بهذا الأمر فی الآیة(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۷۶] (۱)- شرح اللمعة الدمشقیة، ج ۲، کتاب النکاح.

[۷۷] (۲)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۱۵۹ الهامش.

[۷۸] (۳)- الغدیر، ج ۶، ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

[۷۹] (۱)- الغدیر، ج ۱، ص ۲۰۵ و ۲۰۶.

[۸۰] (۲)- بدایة المجتهد کتاب النکاح.

[۸۱] (۳)- تفسیر المنار، ج ۵، ص ۱۶.

[۸۲] (۱)- طبعا لیس هناک أی فرق بین أولاد الزواج المؤقت و أبناء الزواج الدائم من هذه النواحی.

[۸۳] (۱)- من کتاب(زناشوئی و أحلاق)، ص ۱۸۹- ۱۹۰.

[۸۴] (۱)-« الطول» علی وزن« نوع» مأخوذ من الطول(علی وزن النور) بمعنی القدرة و الإمکانیة المالیة و ما شابه ذلک.

[۸۵] (۱)- الأخدان جمع« خدن» و هی بمعنی الرفیق و الخل فی الأصل، و لکنها تستعمل عادة فی الأشخاص الذین یقیمون علاقات

جنسیة غیر مشروعة مع الجنس الآخر، و لا بدّ أن نعرف أن القرآن أطلق لفظة الخدن علی المرأة کما أطلقها علی الرجل.

[۸۶] (۱)- النساء، ۱۶۱.

[۸۷] (۲)- الاستثناء المنقطع یأتی- غالبا- لتأکید عمومیة الحکم العام، و هو أمر صادق فی المقام، هذا مضافا إلی أنه یکشف عن هذه الحقیقة، و هی أن تحریم التصرفات الباطلة لا یقفل علیکم أبواب الرزق و الحیاة، بل فی إمکانکم أن تحققوا أهدافکم عن طریق التجارة المشروعة و الکسب المباح شرعا.

[۸۸] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة، و تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۷۲.

[۸۹] (۱)-« الصلی» یعنی فی الأصل الاقتراب إلی النار، و یطلق علی التدفؤ و الاحتراق و الاکتواء بالنار أیضا، و قد استعملت فی الآیة الحاضرة فی معنی الاحتراق بالنار احتراقا.

[۹۰] (۱)-« اللمم»(علی وزن القسم) تعنی الأعمال الصغیرة غیر الهامة.

[۹۱] (۱)- و قد نسب العلّامة الطبرسی رحمه اللّه فی مجمع البیان هذا الإعتقاد إلی علماء الشیعة فی حین أنّ الأمر لیس کذلک، فلکثیر من علماء الشیعة رأی آخر سنأتی علی ذکره بالتفصیل.

[۹۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۷۳.

[۹۳] (۱)- النازعات، ۳۷- ۳۹.

[۹۴] (۲)- المحجة البیضاء، ج ۷، ص ۶۱.

[۹۵] (۱)-« الموالی» جمع مولی، و هی فی الأصل من مادة الولایة بمعنی الاتصال و الارتباط، و تطلق علی جمیع الأفراد الذین یرتبط بعضهم ببعض بنوع من الارتباط، غایة ما هناک أنّها تکون فی بعض الموارد بمعنی ارتباط الولی، مع أتباعه، و أمّا فی الآیة الحاضرة فتکون بمعنی الورثة.

[۹۶] (۱)- صورة عقد ضمان الجریرة هکذا« عاقدتک علی أن تنصرنی و أنصرک و تعقل عنی و أعقل عنک و ترثنی و أرثک» فیقول الآخر:« قبلت».

[۹۷] (۱)-« النشوز» من نشز(علی وزن نذر) یعنی الأرض المرتفعة، و یکنی به هنا عن الطغیان و الترفع.

[۹۸] (۱)- سورة البقرة، الآیة ۸۳، سورة الأنعام، الآیة ۱۵۱، سورة الإسراء، الآیة ۲۳ مضافا إلی الآیة الحاضرة.

[۹۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۰.

[۱۰۰] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۱۷۵۴.

[۱۰۱] (۲)- تفسیر المنار، ج ۵، ص ۱۹۲، طبعة بیروت.

[۱۰۲] (۳)- تفسیر الصافی، ص ۱۳۰.

[۱۰۳] (۴)- تفسیر الصافی، ص ۱۲۰.

[۱۰۴] (۱)- غمص الناس: احتقرهم و استصغرهم و لم یرهم شیئا. انظر لسان العرب(غمص).

[۱۰۵] (۲)-« مختال» من مادة« خیال» حیث یری الشخص نفسه بسبب بعض المتخیلات عظیما و کبیرا، و سمی الخیل خیلا لأن مشیته تشبه مشیة المتکبر،« فخور» من مادة« فخر» و الفرق بینها و بین الأولی ان المختال اشارة إلی تخیلات الکبر فی مجالها الذهنی و الاخری یراد بها الأعمال الصادرة عن کبر فی المجال الخارجی.

[۱۰۶] (۱)- البقرة، ۲۶۸.

[۱۰۷] (۱)- المائدة، ۱۱۷.

[۱۰۸] (۲)- راجع تفسیر نور الثقلین و البرهان فی ذیل الآیة.

[۱۰۹] (۱)- مثل الآیة(۲۲) و(۲۳) من سورة الأنعام، و الآیة(۱۸) من سورة المجادلة.

[۱۱۰] (۲)- تفسیر نور الثّقلین، ج ۱، ص ۴۸۲- ۴۸۳، نقلا عن تفسیر العیاشی.

[۱۱۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۳، و تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۱۱۷۱.

[۱۱۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۸۳، و قد جاء نظیر هذا المضمون فی صحیح البخاری أیضا.

[۱۱۳] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۴۸۶.

[۱۱۴] (۱)- راعنا إذا أخذت مشتقة من مادة الرعی تکون بمعنی فعل الطلب من المراعاة و المراقبة، و بمعنی أمهلنا، و إذا أخذت مشتقة من الرعونة تکون بمعنی« أخدعنا و اجعلنا حمقاء عندک»، یقولون ذلک علی سبیل الاستهزاء و السب، و لا بدّ من الالتفات إلی أن راعنا علی الوجه الأوّل تکون بدون تشدید النون، و علی الوجه الثانی بتشدید النون، و یستفاد من جملة من الروایات أن الیهود کانوا یتعمدون تشدید النون فی راعنا و مد آخرها.

[۱۱۵] (۱)- الطمس هو إزالة الأثر بالمحو، مثل أن نهدم بیتا ثم نزیل أثره بالمرة- و لکنه یطلق- کنایة- علی ما فقد أثره و خاصیته.

[۱۱۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۲، ص ۵۵، فی ذیل الآیة الحاضرة.

[۱۱۷] (۲)- أصحاب السبت هم الذین ستأتی قصّتهم فی سورة الأعراف عند تفسیر الآیات(۱۶۳- ۱۶۶) و هم جماعة من الیهود کانوا قد کلفوا بتعطیل العمل و الکسب فی یوم السبت، و لکنّهم اشتغلوا بالصید فی ذلک الیوم بالرغم من نهی نبیّهم، فتجاوزوا فی الطغیان الحدّ، فابتلاهم اللّه بأشد العقوبات.

[۱۱۸] (۱)- الافتراء، مشتقة من مادة فری علی وزن(فرد) بمعنی القطع، و حیث أنّ قطع بعض أجزاء الشیء السالم یفسد ذلک الشیء و یخربه استعمل فی کل مخالفة، و من جملة ذلک الشرک و الکذب و التهمة.

[۱۱۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۵۷.

[۱۲۰] (۱)- الشوری، ۲۵.

[۱۲۱] (۱)- هود، ۱۱۴.

[۱۲۲] (۱)- یزکون من مادة« تزکیة» بمعنی تطهیر، و تأتی أحیانا بمعنی التربیة و التنمیة، ففی الحقیقة إذا کانت التزکیة مقترنة بالعمل فإنها تعتبر امرا محمودا، و إلا لو کانت مجرد ادعاء و کلام فارغ فهی مذمومة.

[۱۲۳] (۱)- القتیل فی اللغة بمعنی الخیط الدقیق الموجود بین شقی نواة التمر، و یأتی کنایة عن الأشیاء الصغیرة و الدقیقة جدا، و أصله من مادة« فتل» بمعنی البرم.

[۱۲۴] (۲)- البقرة، ۸۰.

[۱۲۵] (۳)- المائدة، ۱۸.

[۱۲۶] (۱)- تفسیر المنار، ج ۳، ص ۳۵، و ذهب البعض إلی أنه مصدر استعمل بالمعنی الوصفی و صیغة المبالغة.

[۱۲۷] (۲)- تفسیر التبیان، و تفسیر روح المعانی.

[۱۲۸] (۱)-« النقیر» مشتقة من مادة النقر(وزن فقر) الدق فی شیء بحیث یوجد فیه ثقبا و اشتق منه المنقار، و قال بعض:

النقیر و قبّة صغیرة جدّا فی ظهر النّواة و یضرب به المثل فی الشیء الطفیف.

[۱۲۹] (۱)- الناس اسم جمع و یؤید ذلک ضمیر الجمع الراجع إلیه فی الآیة.

[۱۳۰] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۷۶، و قد جاء فی تفسیر روح المعانی حدیث مشابه لهذا الحدیث فی المضمون(روح المعانی، ج ۵، ص ۵۲).

[۱۳۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۳۲] (۱)- مستدرک الوسائل، ج ۲، ص ۳۲۷.

[۱۳۳] (۲)- المائدة، ۲۷.

[۱۳۴] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۱۳۵] (۱)-« نصلیهم» من مادة« الصلی» بمعنی الإلقاء فی النار، و الاشتواء بالنّار، أو التدفؤ بالنار، و« نضجت» من مادة« نضج» بمعنی أدرکت شیها، و صارت مشویة.

[۱۳۶] (۱)-« الظلیل» من مادة« الظل» بمعنی الفیء، و استعمل هنا للتأکید، لأن معناه الظل المظلل أو الظل الظلیل و هو کنایة عن غایة الراحة و الدعة و الرفاه.

[۱۳۷] (۱)- مجالس، للشّیخ الطّوسی رحمه اللّه، و الإحتجاج، للطّبرسی رحمه اللّه.

[۱۳۸] (۱)- ذهب بعض المفسرین إلی أن الآیة الحاضرة قبل فتح مکّة، و أنّ ما ذکر فی سبب النزول لیس بصحیح، و لکن ما ذکر فی سبب النزول صح أم لا، فإنّه لا یؤثر فی القانون المهم المستفاد من الآیة.

[۱۳۹] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۶۴.

[۱۴۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۱۴۱] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۱۴۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۴۳] (۴)- المصدر السابق.

[۱۴۴] (۱)- صحیح الترمذی و النسائی بناء علی نقل المنار و قد ورد نفس هذا المضمون فی سفینة البحار أیضا.

[۱۴۵] (۲)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۶۴.

[۱۴۶] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۱۰، ص ۱۴۴، طبعة مصر، عام ۱۳۵۷.

[۱۴۷] (۱)- و إذا رأیناه سبحانه یرجع الأمّة فی حلّ بعض اختلافاتها إلی أولی الأمر فی الآیة(۸۳) من هذه السورة فالمراد منه لیس هو الاختلاف فی الأحکام و القوانین الإسلامیة الکلیة، بل هو- کما سیأتی فی تفسیر هذه الآیة- الاختلاف فی المسائل المتعلقة بطریقة تطبیق الأحکام الإسلامیة، و سیأتی شرح مفصل فی هذا المجال عند تفسیر الآیة بإذن اللّه.

[۱۴۸] (۲)- البحر المحیط، ج ۳، طبعة مصر، ص ۴۲۵.

[۱۴۹] (۳)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۲۵.

[۱۵۰] (۱)- ینابیع المودة طبعة النجف الأشرف(الطبعة السابعة ص ۱۳۶- ۱۳۷).

[۱۵۱] (۲)- ینابیع المودة النجف، ص ۱۳۴.

[۱۵۲] (۳)- راجع تفسیر البرهان، ج ۱، تفسیر الآیة.

[۱۵۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، نقل هذا السبب عن أکثر المفسرین.

[۱۵۴] (۱)- تفسیر المنار، ج ۵، ص ۲۲۲.

[۱۵۵] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۳۸۹.

[۱۵۶] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۲، ص ۴۲۸.

[۱۵۷] (۱)- الشهید فی أصل اللغة هو من یشهد، غایة ما هناک أن الإنسان قد یشهد علی حق بکلامه، و قد یشهد بعمله و قتله فی سبیل أهدافه الطاهرة.

[۱۵۸] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ الآیة أعلاه تخاطب المؤمنین، لکنّها تتطرق إلی المنافقین أیضا، کما أنّ عبارة« منکم» جعلت

المنافقین جزءا من المؤمنین، و ما ذلک إلّا لأنّ المنافقین کانوا دائما متغلغلین بین المؤمنین، و من هنا فهم یحسبون علی الظاهر جزءا منهم.

[۱۵۹] (۲)-« لیبطئن» من« البطء» فی الحرکة، و هو فعل لازم و متعد کما ذکر علماء اللغة، أی أنّهم یبطؤون فی حرکتهم و یدعون الآخرین إلی البطء، و لعل استعمال الفعل فی باب التفعیل هنا یعنی أنّه متعد فقط، أی أنّهم یدفعون أنفسهم إلی البطء تارة، و یدفعون الآخرین إلی ذلک تارة أخری.

[۱۶۰] (۱)- راجع غوستاف لوبون، تاریخ الحضارة الإسلامیة و العربیة.

[۱۶۱] (۱)- إنّ الفرق بین المستضعف و الضعیف واضح و جلی، فالضعیف هو من کان معدوم القدرة و القوّة، و المستضعف هو من أصابه الضعف بسبب ظلم و جور الآخرین، سواء کان الاستضعاف فکریا أم ثقافیا أم کان أخلاقیا أو اقتصادیا أم سیاسیا أم اجتماعیا، فالعبارة هنا جامعة شاملة تستوعب جمیع أنواع الاستضعاف.

[۱۶۲] (۱)- تدل بعض الأحادیث أنّ هذا النفر من المسلمین کان قد سمع بحدیث نهضة المهدی المنتظر، فکان البعض منهم یترقب أن یؤخر الجهاد إلی زمن المهدی علیه السّلام، تفسیر نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۱۸.

[۱۶۳] (۱)- الفتیل یعنی الشعیرة الرفیعة جدا الموجودة بین فلقتی نواة التّمر، و قد تطرفنا إلی شرح ذلک فی الآیة(۴۹) من سورة النساء و فی هذا المجلد من تفسیرنا هذا.

[۱۶۴] (۱)- الآیة ۷۷ من نفس السورة.

[۱۶۵] (۱)-« مشیدة» فی الأصل من مادة« شید» علی وزن فیل، بمعنی الجص و المواد الاخری التی تستخدم لتقویة البنیان، و بما أن أکثر المواد استعمالا فی البناء فی تلک الازمنة هو الجص فان هذه الکلمة تطلق علیه عادة، فیکون معنی« بروج مشیدة» هو القلاع الرصینة و المتینة، و قد تستعمل و یراد بها المرتفعة و العالیة. و ذلک أیضا لنفس السبب لأنّه من دون استخدام الجص لم یکن بالإمکان بناء تلک الابنیة المرتفعة.

[۱۶۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۹۶.

[۱۶۷] (۱)- یتبیّن ممّا قلناه أن عبارة« إلّا قلیلا» هی استثناء من ضمیر« اتبعتم» و لا یوجد فی الآیة تقدیم أو تأخیر(تأمل بدقّة).

[۱۶۸] (۱)- البأس و البأساء بمعنی الشدّة و القهر و الغلبة.

[۱۶۹] (۲)- التنکیل من نکل فی الشیء، أی ضعف و عجز، و النکل: قید الدابة و حدیدة اللجام لکونهما مانعین، و التنکیل: أداء عمل یردع مشاهده عن الذنب و هو العقاب الذی ینزل بالظالمین فیردعهم و یردع من یتعض بمصیرهم.

[۱۷۰] (۱)- الآیة ۲۰۴ من سورة الأعراف.

[۱۷۱] (۱)- یذکر الراغب فی« المفردات» احتمالا آخر فی تفسیر« عسی» و« لعل» هو أنّ اللّه تعالی إذا ذکر ذلک یذکره لیکون الإنسان منه راجیا، لا لأن یکون اللّه هو الذی یرجو. أی انه یقول للإنسان کن أنت راجیا لا انا الذی أرجو.

[۱۷۲] (۱)- الکفل هو عجز الحیوان و مؤخرته التی یصعب رکوبها و یشق، من هنا فکل ذنب و حصة ردیئة کفل، و الکفالة کل عمل ینطوی علی تعب و عناء.

[۱۷۳] (۱)- تفسیر الصافی، فی تفسیر الآیة الکریمة.

[۱۷۴] (۱)- النّور، ۶۱.

[۱۷۵] (۲)- الفرقان، ۷۵.

[۱۷۶] (۳)- إبراهیم، ۲۳.

[۱۷۷] (۴)- روی أن« نوبة» و هو من شعراء الجاهلیة قال:

و لو أن ليلى الأخيلية سلمت‌على و دونى جندل و صفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقاإليها صدى من جانب القبر صائح [۱۷۸] (۵)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۷۹] (۱)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۸۰] (۲)- أصول الكافى، الجزء الثانى، باب التسليم.

[۱۸۱] (۳)- تفسير فى ظلال القرآن، فى هامش الآية.

[۱۸۲] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۲، ص ۸.

[۱۸۳] (۱)- ذكرت أسباب أخرى لنزول هذه الآية و الآيات التى تليها، و قيل أنّها نزلت فى واقعة أحد بينما الآيات التالية تتحدث عن الهجرة و لا تنسجم مع هذا القول، بل تنسجم مع سبب النزول الذى ذكرناه أعلاه.

[۱۸۴] (۲)- فى هـذه الجملـة، جملـة أخرى محذوفـة تتضح لدى الإمعان فى الأجزاء الاخرى من الآية و التقدير:« فما لكم تفرقتم فى المنافقين فئتين ...».

[۱۸۵] (۳)-« أركسهم»: من ركس و هو قلب الشىء على رأسه، و تأتى أيضا بمعنى ردّ أوّل الشىء إلى آخره.

[۱۸۶] (۱)- فى المجلد الأول من هذا التّفسير بحث عن الهداية و الضلالة، فراجعه.

[۱۸۷] (۱)- الآية ۳۲ من سورة المائدة.

[۱۸۸] (۱)-

\i\ فقد ورد فى كتاب الكافى و تفسير العياشى فى تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السّلام E قوله:« إن من قتل مؤمنا على دينه فذلك المتعمد الذى قال اللّه تعالى فى كتابه عنه\i:« وَ أَعَدَّ لَهُ عَذاباً عَظِيماً»\E.\E

[۱۸۹] (۱)- النساء، ۴۷.

[۱۹۰] (۱)- إنّ الآيات التى وردت فى بيان خطورة قتل الأبرياء لها أثر يهز الإنسان من الأعماق، و

\i\ فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال\E:« لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل امرئ مسلم»\E

و

\i\ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا\E:« لو أن رجلا قتل بالمشرق و آخر رضى بالمغرب لاشرك فى دمه»\E

من تفسير المنار، الجزء الخامس، ص ۳۶۱.

[۱۹۱] (۱)- العرض كلمـة على وزن(مرض) و تعنى كـل شـىء زائل لا دوام له، و على هـذا الأساس فإن« عرض الحياة الـدنيا» معناه رؤوس الأموال الدنيوية التى يكون مصير جميعها إلى الزوال و الفناء لا محالة.

[۱۹۲] (۲)- و قـد ورد فى تفسـير هـذه الآيـة احتمال آخر، هو أنّها تخاطب المسـلمين بأنهم كان لهم نفس الحالة عند إسـلامهم، أى أنّهم أقروا بالإسلام بألسنتهم و قبل منهم إسلامهم، و فى حين لم يكن أحد غير اللّه يعلم بما يخفونه فى سرائرهم.

[۱۹۳] (۱)- لقـد وردت عبارة« درجـة» فى الآيـة على صـيغة النكرة، و تؤكد كتب الأدب بأن النكرة فى مثل هذه الحالات تأتى لبيان العظمـة و الأهمية- أى أن درجة المجاهدين من السـمو و الرفعة بحيث لا يمكن للبشـر معرفتها بصورة كاملة- و هذا شبيه بالعبارة التى تطلق لبيان القيمة العظيمة لشىء يجهل قيمته البشر.

[۱۹۴] (۱)- تفسير الصافى، هامش الآية المذكورة.

[۱۹۵] (۱)- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ۱، ص ۲ و ۱۶.

[۱۹۶] (۲)- الوسائل، كتاب الجهاد، ج ۱، ص ۲ و ۱۶.

[۱۹۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۱۹۸] (۱)- لمعرفة معنی« توفی» من الناحیة اللغویة یرجی مراجعة الجزء الثانی من تفسیرنا هذا.

[۱۹۹] (۲)- سورة السجدة.

[۲۰۰] (۱)- تفسیر البرهان، الجزء الثانی، ص ۳۹۱، هامش الآیة الأولی من سورة الإسراء.

[۲۰۱] (۲)- من سورة الزمر الآیة ۴۲.

[۲۰۲] (۳)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۳۶.

[۲۰۳] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۳۹.

[۲۰۴] (۱)- محمّد خاتم الأنبیاء، الجزء الأول.

[۲۰۵] (۱)- تاریخ الطبری، الجزء الثانی، ص ۱۱۲، و یجب التنبیه إلی وجود رسائل من أیّام الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، مذیلة بالتاریخ الهجری. راجع کتاب(مکاتیب الرّسول) للأحمدی.

[۲۰۶] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۵۴۱.

[۲۰۷] (۱)- مفردات الراغب، مادة« ضرب».

[۲۰۸] (۱)- للاطلاع أکثر راجع الجزء الخامس من کتاب وسائل الشیعة، و کتاب سنن البیهقی، الجزء الثّالث، ص ۱۳۴ و غیرهما من الکتب.

[۲۰۹] (۲)- النساء، ۲۳.

[۲۱۰] (۱)- من سورة البقرة، الآیة ۱۵۸.

[۲۱۱] (۲)- نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۴۲.

[۲۱۲] (۱)- جاء هذا الحدیث فی سنن البیهقی، الجزء الثّالث، ص ۱۳۴ نقلا عن صحیح مسلم، کما ورد فی کتب التفاسیر و الفقه أیضا.

[۲۱۳] (۲)- وسائل الشیعة الجزء الخامس، ص ۵۴۰.

[۲۱۴] (۱)- کنز العرفان، الجزء الأوّل، ص ۱۹۱.

[۲۱۵] (۱)-« قیام» تارة یأتی بمعناه المصدری،(و یعنی به حالة القیام، و تارة یأتی للجمع أی« قائمین»- و« قعود» کذلک أیضا، فیأتی بمعنی حالة القعود و الجلوس، و یأتی بمعنی« قاعدین» للجمع. و فی الآیة أعلاه یحتمل کلا الأمرین.

[۲۱۶] (۱)- للاطلاع أکثر عن الأحادیث التی وردت فی هذا المجال راجع کتاب نور الثقلین الجزء الأوّل، ص ۵۴۵.

[۲۱۷] (۲)- و یؤید کتاب کنز العرفان، فی الجزء الأوّل، ص ۵۹، هذا المعنی، کما جاء فی تفسیر التبیان و فی مجمع البیان أیضا ذکر هذا الأمر.

[۲۱۸] (۱)- تفسیر التبیان الجزء الثّالث، ص ۳۱۴، تفسیر مجمع البیان، الجزء الثّالث، ص ۱۰۵.

[۲۱۹] (۱)- تفسیر المنار، الجزء الخامس، ص ۳۹۴، نقلا عن صحیحی مسلم و البخاری.

[۲۲۰] (۱)- سفینة البحار، الجزء الأوّل، فی مادة بهت.

[۲۲۱] (۲)- أصول الکافی، الجزء الثّانی، ص ۲۶۹، باب التهمة و سوء الظن.

[۲۲۲] (۳)- سفینة البحار، الجزء الأوّل، ص ۱۱۱.

[۲۲۳] (۱)- المجادلة، ۱۰.

[۲۲۴] (۱)- المجادلة، ۹.

[۲۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۵۰، و فی کتب أخری للتفسیر.

[۲۲۶] (۲)- تفسیر القرطبی، الجزء الثّالث ص ۱۹۵۵ فی شرح الآیة.

[۲۲۷] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۵۱.

[۲۲۸] (۱)- إنّ عبارة« و لامنّیّنهم» تعود إلی المصدر« منی» علی وزن« منع» و تعنی قیاس الشیء أو تقییمه، و لکنّها ترد فی أغلب الأحیان لتعنی القیاس و التقییم و الآمال الوهمیة و الخیالیة أمّا النطفة التی تسمّی ب« منی» فمعناها أن قیاس ترکیب أولی الموجودات الحسیة قد تمّ فیها.

[۲۲۹] (۱)- تفسیر التبیان، الجزء الثّالث، ص ۳۳۴.

[۲۳۰] (۱)- الغرور یعنی فی الأصل الأثر الواضح للشیء، و لکنه یطلق فی الغالب علی الآثار التی لها ظاهر خادع و باطن کریه، و یطلق علی کل شیء یخدع الإنسان مثل المال و الجاه و السلطان التی تبعد الإنسان عن الحق و عن جادة الصواب علی أنّه مادة للغرور.

[۲۳۱] (۲)- المحیص مشتق من المصدر« حیص» و یعنی العدول و الانصراف عن الشیء، و علی هذا الأساس فإن المحیص هو وسیلة الانصراف و الفرار.

[۲۳۲] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۲۳۳] (۲)- لقد أوضحنا المراد من عبارة« نقیر» فی تفسیر الایة ۵۳ من نفس هذه السورة.

[۲۳۴] (۱)- نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۵۳.

[۲۳۵] (۱)- الوجه فی اللغة هو مقدمة الرأس، أو ذلک الجزء من البدن الذی یشمل الجبهة و العینین و الأنف و الفم و الجبین، و لما کان الوجه بمثابة مرآة لروح الإنسان و قلبه، و فیه الحواس التی تربط باطن الإنسان بالعالم الخارجی، لذلک جاء فی الآیة التعبیر عنه بذات الإنسان و نفسه.

[۲۳۶] (۲)- إنّ عبارة« ملّة» الواردة فی الآیة أعلاه تعنی« الشریعة أو الدین» و الفرق بین الملّة و الدین أن الأولی لا تنسب إلی اللّه، أی لا یقال« ملّة اللّه» و یمکن أن تضاف إلی النّبی بینما کلمة الدین أو الشریعة یمکن أی یضافا إلی لفظ الجلالة فیقال:« دین اللّه» أو« شریعة اللّه» کما یمکن إضافتهما إلی النّبی أیضا، و عبارة« حنیف» تعنی الشخص الذی یترک الأدیان الباطلة و یتبع دین الحق.

[۲۳۷] (۱)- مجمع البیان فی هامش الآیة الشریفة.

[۲۳۸] (۲)- عیون أخبار الرضا، و تفسیر الصافی فی هامش الآیة المذکورة و فی تفسیر البرهان الجزء الأوّل، ص ۴۱۷.

[۲۳۹] (۱)- بناء علی التّفسیر الذی أوردناه بشأن الآیة أعلاه یتبیّن لنا أنّ عبارة« ما یتلی» مبتدأ و خبرها جملة« یفتیکم فیهنّ» التی حذفت للقرینة الموجودة فی القسم السابق من الآیة. کما أنّ عبارة« ترغبون» هنا تعنی عدم المیل و الرغبة، حیث تشیر القرائن إلی تقدیر« عن» بعد عبارة« ترغبون» فی هذه الآیة و الفرق بین« رغب عنه» و« رغب فیه» واضح.

[۲۴۰] (۱)- من أجل معرفة تفاصیل أکثر حول هذا الموضوع راجع الجزء الثّانی من هذا التّفسیر فی فصل« الصراع من أجل البقاء».

[۲۴۱] (۱)- تفسیر التبیان، الجزء الثّالث، ص ۳۵۰.

[۲۴۲] (۱)- المصدر السابق.

[۲۴۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳.

[۲۴۵] (۱)- تفسیر المنار، الجزء الخامس، ص ۴۵۵.

[۲۴۶] (۱)- یمکن أن تکون عبارة« تعدلوا» اشتقاقا إمّا من مادة« العدالة» أو من مادة« العدول» فإن کانت من مادة« العدالة» یکون معنی الجملة القرآنیة هکذا: فلا تتبعوا الهوی لأن تعدلوا أی لکی تستطیعوا تحقیق العدل، و أما إذا کانت من مادة« العدول» یکون المعنی هکذا: فلا تتبعوا الهوی فی أن تعدلوا أی لا تتبعوا الهوی فی سبیل الانحراف عن الحق.

[۲۴۷] (۱)- إن عبارة« تلووا» مشتقة من المصدر« لى» على وزن« طى» و تعنى المنع و الإعاقة و قد وردت فى الأصل بمعنى اللى و البرم.

[۲۴۸] (۲)- تفسير التبيان، الجزء الخامس، ص ۳۵۶.

[۲۴۹] (۱)- تفسير مجمع البيان و المنار.

[۲۵۰] (۱)- إن عبارة« استحوذ» مشتقة من« حوذ» و هى تعنى هنا دفع أو ساق إلى القيام بأمر معين.

[۲۵۱] (۱)- إنّ كلمة« سلطان» مشتقة من مادة أو مصدر« سلاطة» على وزن« مقالة» و هى تعنى القوة و القدرة على التغلب على الآخرين، و فى كلمة« سلطان» معنى لاسم المصدر حيث تطلق على كل أنواع التسلط، و لهذا السبب تطلق كلمة« سلطان» أيضا على« السبب» الذى يسلط الإنسان على الآخرين من أمثاله، كما تطلق على أصحاب القدرة و النفوذ، و لكنها فى الآية المذكورة أعلاه إنما تعنى الحجة و الدليل.

[۲۵۲] (۱)- إنّ كلمة« درك» تعنى أحط نقطة فى أعماق البحر، و يسمى آخر حبل متصل بالحبال التى توصل الإنسان إلى قعر البحر، ب« الدرك» أيضا، و يظهر أن هذه المعانى مأخوذة من معنى« درك الشىء» أى الوصول إليه- كما تسمّى السلالم التى توصل الإنسان إلى موضع سفلى كالسرداب و البئر ب« الدرك» و هذه العبارة تقابل السلالم التى يتسلق بها الإنسان إلى أعلى حيث تسمّى بالدرجات.

[۲۵۳] (۱)- البقرة، ۲۷۹.

[۲۵۴] (۲)- نهج البلاغة، الوصية رقم ۴۸.

[۲۵۵] (۳)- الحجرات، ۹.

[۲۵۶] (۴)- البقرة، ۲۳۷.

[۲۵۷] (۵)- النور، ۲۲.

[۲۵۸] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة العاشرة.

[۲۵۹] (۱)- للاطلاع أكثر على قضية جبل الطّور، و هل أنّ رفعه فوق رؤوس اليهود كان نتيجة زلزلة، أم هناك عامل آخر و كذلك فيما يتعلق بعجل السامرى، و مساوئ اليهود، راجع الجزء الأوّل من هذا التّفسير فى البحث الخاص بهذه المواضيع.

[۲۶۰] (۱)- إن عبارة« فبما نقضهم» من ناحية الإعراب جار و مجرور، و يجب أن يكون لها عامل محذوف قد يكون تقديره« لعناهم» أو جملة« حرمنا عليهم» الواردة فى الآية(۱۶۰) التالية، و على هذا الأساس فإن ما ورد فى هذا الإطار يكون بمثابة جملة معترضة، تضفى فى مثل هذه الحالة جمالا أكثر على الكلام القرآنى البليغ.

[۲۶۱] (۱)- لقد ترك الحواريون المسيح عليه السّلام فى ذلك الوقت و هربوا كلهم ...(من إنجيل متى، الإصحاح ۲۶ الجملة ۵۷).

[۲۶۲] (۱)- إنجيل متى، الإصحاح ۳۷، الجملة ۶.

[۲۶۳] (۱)- إنجيل متى- الإصحاح ۲۷، الجملتان ۴۶ و ۴۷.

[۲۶۴] (۲)- لقد اقتبسنا عددا من القرائن المذكورة أعلاه من كتاب« بطل الصليب».

[۲۶۵] (۳)- تفسير المنار، الجزء السابع، ص ۳۴.

[۲۶۶] (۴)- الميزان، الجزء الثّالث، ص ۳۴۵.

[۲۶۷] (۱)- مسند أحمد، و صحيح البخارى، و صحيح مسلم، و سنن البيهقى، كما جاء فى تفسير الميزان.

[۲۶۸] (۱)- تفسير البرهان، الجزء الأوّل، ص ۴۲۶.

[۲۶۹] (۱)- راجع الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا.

[۲۷۰] (۱)- تفسیر البرهان، الجزء الأوّل، ص ۵۵۹.

[۲۷۱] (۲)- التوراة، سفر التثنیة، الفصل ۲۳، الجملتان ۱۹ و ۲۰.

[۲۷۲] (۳)- لقد شرحنا بنوع من التفصیل، معنی عبارة« الراسخون فی العلم» و ذلک فی الجزء الثّانی من تفسیرنا هذا.

[۲۷۳] (۱)- راجع تفاسیر الصافی، ص ۱۳۹، و البرهان الجزء الأوّل، ص ۴۲۷، و نور الثقلین، الجزء الأوّل، ص ۵۷۳.

[۲۷۴] (۱)- مجمع البیان، الجزء الأوّل، ص ۴۷۶.

[۲۷۵] (۲)- لقد ورد ذکر الأسباط بالتفصیل فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا.

[۲۷۶] (۱)- یبدو من سیاق الآیة أنّ حرفی« ال» الداخلة علی کلمة« رسول» هما« ال» العهدیة، و فیها إشارة إلی النّبی الذی کانوا ینتظرون قدومه، و لم یقتصر هذا الانتظار علی الیهود و النصاری وحدهم، بل أنّ المشرکین- أیضا- کانوا یتوقعون- لما سمعوه من أهل الکتاب- ظهور النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۲۷۷] (۲)- لقد فسّرت بعض الروایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام کلمة« الحق» الواردة فی الآیة إشارة إلی ولایة علی بن أبی طالب علیه السّلام، و قد بیّنا سابقا إن مثل هذه التفاسیر واضحة فی بیان المصادیق، و هی لا تدل علی الحصر.

[۲۷۸] (۱)- الجاثیة، ۱۳.

[۲۷۹] (۲)- تفسیر المنار، الجزء السادس، ص ۸۴.

[۲۸۰] (۱)- انظر دائرة المعارف للقرن العشرین(لفرید وجدی) فی مادة(ثالوث) ...

[۲۸۱] (۱)- المراد بوحدة الوجود عند الصوفیة، هی وحدة الموجود، و یستدلون بها علی أن الوجود لیس أکثر من واحد یظهر فی صور مختلفة، و إن هذا الواحد هو اللّه.

[۲۸۲] (۱)- القاموس المقدس، طبعة بیروت، ص ۳۴۵.

[۲۸۳] (۱)- مناقب ابن شهر آشوب، ج ۴، ص ۳۵۲.

[۲۸۴] (۱)- راجع تفسیر سورة الحمد فی تفسیرنا هذا الجزء الأوّل للاطلاع علی تفسیر عبارة« الصراط المستقیم».

[۲۸۵] (۱)- تفسیر الصافی فی هامش الآیة.

[۲۸۶] (۱)- لمعرفة معنی« الکلالة» و سبب إطلاقها علی الأخوة و الأخوات، راجع تفسیر الآیة الثانیة عشرة من سورة النساء.

[۲۸۷] (۱)- و جملة« أن تضلوا» بمعنی« أن لا تضلوا» حیث تکون کلمة« لا» مقدرة، و القرآن و کلام العرب الفصحاء ملیئان بمثل هذه التعابیر البلیغة.

[۲۸۸] (۱)- تفسیر المنار- الجزء السادس، ص ۱۱۶، و یجب الانتباه إلی أنّ المقصود بالسورة المدنیة، هو نزولها بعد هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة إلی المدینة، حتی لو لم تکن السورة قد نزلت فی المدینة نفسها.

[۲۸۹] (۱)- تفسیر البرهان- الجزء الأوّل، ص ۴۳۰، یجب الانتباه إلی أن ورد أحکام الوضوء و التیمم و أمثالهما فی هذه السورة، لا ینافی کونها آخر سورة من سور القرآن، لأنّ أغلب هذه الأحکام لها طابع تکراری، أی أنّها وردت بصورة مکررة للتأکید علیها، لذلک تری بعضا من هذه الأحکام قد وردت فی سورة النساء أیضا.

[۲۹۰] (۱)- تفسیر« روح المعانی» الآیة موضوع البحث.

[۲۹۱] (۱)- نهج البلاغة، رسائل الإمام علی علیه السّلام، الرسالة ۵۳.

[۲۹۲] (۲)- سفینة البحار، الجزء الثّانی، ص ۲۹۴.

[۲۹۳] (۳)- البحار، الجزء السادس عشر، ص ۱۴۴.

[۲۹۴] (۴)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۶۲.

[۲۹۵] (۵)- مستدرک الوسائل، ج ۲، ص ۲۵۰.

[۲۹۶] (۱)- إذا جاءت کلمة« نعم» مفردة فهی تعنی الإبل، و إذا جاءت جمعا فتعنی الأنواع الثلاثة، مفردات الراغب مادة(نعم).

[۲۹۷] (۲)- لو قلنا: إنّ کلمة« بهیمة» تعنی الحیوانات وحدها دون الأجنة، لکانت إضافة کلمة« بهیمة» إلی کلمة« أنعام» إضافة بیانیة، أمّا إذا قلنا: إنها تعنی الأجنة أیضا، تکون هذه الإضافة« لامیة».

[۲۹۸] (۱)- طبیعی أن جملة« إلا ما یتلی علیکم» هی جملة استثنائیة، و إن جملة« غیر محلی الصید» هی حال من ضمیر« کم» و تکون نتیجة للاستثناء بحسب المعنی.

[۲۹۹] (۱)- سورة البقرة، الآیة ۱۵۸ و سورة الحج، الآیتان ۳۲ و ۳۶.

[۳۰۰] (۲)- الهدی جمع« هدیة» و هو یعنی هنا المواشی التی تهدی لتکون قرابین إلی بیت اللّه الحرام.

[۳۰۱] (۳)- القلائد جمع« قلادة» و هی الشیء الذی یوضع حول رقبة الإنسان أو الحیوان، و تعنی هنا المواشی التی تعلم بالقلائد لذبحها فی مراسم الحج.

[۳۰۲] (۱)- تفید أقوال أهل اللغة و التّفسیر أنّ کلمة« جرم» تعنی فی الأصل قطع الثمار أو قطفها من الأغصان قبل الأوان، و تطلق- أیضا علی کل عمل مکروه، کما تطلق علی الآخرین بالقیام بعمل غیر محبوب- و هنا فإن عبارة« لا یجر منکم» تعنی لا یحملنکم علی القیام بعمل غیر صائب.

[۳۰۳] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۱۳۱.

[۳۰۴] (۲)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۱۳۱- ۱۳۲.

[۳۰۵] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۷۱.

[۳۰۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۶، ص ۱۷۳.

[۳۰۷] (۲)- الموقوذة المضروبة بعنف حتی الموت.

[۳۰۸] (۱)- بالرغم من أنّ« ذلکم»، اشارة لمفرد، إلّا أنّه لمّا کان یحتوی علی ضمیر الجمع، و قد فرض المجموع بمثابة الشیء الواحد، فلا اشکال فی هذا الاستعمال.

[۳۰۹] (۱)- تفسیر المنار، ج ۶، ص ۱۵۵.

[۳۱۰] (۱)- إنّ هذا الحساب یکون صحیحا إذا لم ندخل یوم وفاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یوم غدیر خم فی الحساب، و أن یکون فی ثلاثة أشهر متتالیات مشهرات عدد أیّام کل منهما(۲۹) یوما، و نظرا لأن أی حدث تاریخی لم یحصل قبل و بعد یوم غدیر خم، فمن المرجح أن یکون المراد بالیوم المذکور فی الآیة هو یوم غدیر خم.

[۳۱۱] (۱)- لقد أورد العلّامة الأمینی رحمه اللّه هذه الروایات الثلاثة بتفاصیلها فی الجزء الأوّل من کتابه« الغدیر» فی الصفحات ۲۳۰ و ۲۳۱ و ۲۳۲ کما ورد فی کتاب« إحقاق الحق» فی الجزء السادس و الصفحة ۳۵۳ أن نزول الآیة کان فی حادثة غدیر خم نقلا عن أبی هریرة من طریقین، کما نقلها عن أبی سعید الخدری من عدة طرق.

[۳۱۲] (۱)- راجع تفسیر الآیة فی الجزء الأول من تفسیر البرهان و الجزء الأول من تفسیر« نور الثقلین».

[۳۱۳] (۲)- راجع کتاب« المراجعات» الطبعة الرابعة، ص ۳۸.

[۳۱۴] (۱)- لقد أورد هذا الاعتراض تلمیحا صاحب تفسیر« المنار» لدی الحدیث عن هذه الآیة، ج ۶، ص ۲۶۶.

[۳۱۵] (۱)- نقل هذه الواقعة واحد من أشهر کتب السنّة و هو کتاب« صحیح البخاری» و فی عدّة أبواب منها باب« کتاب المرضی» فی الجزء الرابع، و باب« کتاب العلم» فی الجزء الأوّل، ص ۲۲ و فی باب« جوائز وفد» من کتاب الجهاد، ص ۱۱۸، ج ۲ کما وردت فی کتاب« صحیح مسلم» فی آخر الوصایا بالإضافة إلی کتب أخری ذکرها المرحوم السید عبد الحسین شرف الدین رحمه اللّه فی

کتابه« المراجعات» تحت عنوان« رزیة یوم الخمیس».

[۳۱۶] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۳، تفسر الآیة موضوع البحث.

[۳۱۷] (۱)- هناک محذوف مقدر فی بدایة هذه الجملة القرآنیة، حیث إن الأصل یفترض أن یکون« و صید ما علمتم» و ذلک استدلالا بالقرینة الواردة فی جملة\i فَکُلُوا مِمَّا أَمْسَکْنَ عَلَیْکُمْ\ ...E(فلیلاحظ ذلک).

[۳۱۸] (۱)- لقد شرحنا معنی جملة« سریع الحساب» فی الجزء الثّانی من تفسیرنا هذا.

[۳۱۹] (۱)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۳۱۲.

[۳۲۰] (۱)- لقد أوضحنا فی هذا الجزء من تفسیرنا هذا فی تفسیر الآیة(۲۵) من سورة النساء، أنّ کلمة« أخذان» جمع« خدن» و هی تعنی فی الأصل الصدیق، و عادة ما تطلق علی الصداقة السریة غیر الشرعیة مع الجنس الآخر.

[۳۲۱] (۱)- وردت روایات عدیدة عن أئمّة أهل البیت علیهم السّلام تؤکّد أنّ المراد بجملة« قمتم» هو القیام من النوم، حیث لدی الإمعان فی محتویات الآیة یتأکد لنا هذا الأمر أیضا، لأن الجمل التالیة التی تبین فیها الآیة حکم التیمم قد وردت فیها عبارة\i أَوْ جاءَ أَحَدٌ مِنْکُمْ مِنَ الْغائِطِ\E، فلو کانت الآیة تبیّن فی بدایتها حکم جمیع من لیسوا علی وضوء، فإن عطف الجملة الأخیرة- و بالأخص- بحرف« أو» لا یتلاءم و ظاهر هذه الآیة، لأنّ المقصود فیها یدخل ضمن عنوان من هو لیس علی وضوء أیضا. أمّا إذا کان الآیة فی بدایتها تتکلم بصورة خاصة عن الذین یقومون من النوم، أی أنها تبیّن فقط ما أصطلح علیه ب« حدث النوم» فإن الجملة المذکورة تصبح مفهومة بشکل تام.

[۳۲۲] (۱)- لقد ذکر« سیبویه» الذی هو من مشاهیر علماء اللغة العربیة أنّه متی ما کان الشیء الوارد بعد(إلی) و الشیء الوارد قبلها من جنس واحد، و یدخل هذا(المابعد) فی الحکم- أمّا لو کانا من جنسین مختلفین فیعتبر خارجا عن الحکم- فلو قیل: أمسک إلی آخر ساعة من النهار، یکون المفهوم من هذه الجملة أن الإمساک یشمل الساعة الأخیرة أیضا، بینما لو قیل: أمسک إلی أول اللیل فإن أوّل اللیل لا یدخل ضمن حکم الإمساک(المنار، ج ۶، ص ۲۲۳).

[۳۲۳] (۲)- لیس هناک من شک بأنّ عبارة« وجوهکم» تفصلها مسافة کبیرة نسبیا عن عبارة« أرجلکم» لذلک یستبعد أن تکون الأخیرة معطوفة علی« وجوهکم»، إضافة إلی ذلک فإنّ الکثیر من القراء قد قرءوا عبارة« أرجلکم» بکسر اللام.

[۳۲۴] (۱)- لقد ذکر القاموس ثلاثة معان للکعب و هی: النتوء الظاهر خلف الرجل، و المفصل، و النتوئین البارزین علی جانبی الرجل- و قد بینت السنة الشریفة أن المراد فی الآیة لیس النتوآت المذکورات و لکن العلماء اختلفوا فی هل أن المراد هو النتوء البارز خلف الرجل أو هو المفصل؟- و علی أی حال- فإن الاحتیاط یوجب أن یکون المسح حتی المفصل.

[۳۲۵] (۱)- لقد أوضحنا فی تفسیر الآیة(۴۳) من سورة النساء، بصورة مفصلة، أحکام التیمم و فلسفتها الإسلامیة و کیف أن التیمم لا یعتبر مغایرا للوقایة الصحیّة، بل فیه جانب وقائی صحی أیضا، و کذلک حول معنی« غائط» و قضایا أخری فلیراجع ....

[۳۲۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۲، ص ۹۶۹.

[۳۲۷] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۲۵۷.

[۳۲۸] (۱)- و نقرأ فی روایة عن الإمام الثامن علی بن موسی الرضا علیه السّلام قوله:« إنّ الجنابة خارجة من کل جسده فلذلک وجب علیه تطهیر جسده کله» و فی هذه الروایة إشارة للبحث الذی تناولناه أعلاه- من وسائل الشیعة، ج ۱، ص ۴۶۶.

[۳۲۹] (۱)- سیرد شرح مفصل عن« عالم الذر» و سبب تسمیته بهذا الاسم فی تفسیر الآیة(۱۷۲) من سورة الأعراف، بإذن اللّه.

[۳۳۰] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۴۵۴.

[۳۳۱] (۱)- ورد هذا الحدیث نقلا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتاب سفینة البحار فی مادة(هوی)، و ورد فی کتاب نهج البلاغة فی الخطبة ۴۲ نقلا عن علی بن أبی طالب علیه السّلام.

[۳۳۲] (۲)- سفینة البحار، مادة(ظلم).

[۳۳۳] (۱)- تفسیر الصافی، فی تفسیر الآیة ۷ من سورة الرحمن.

[۳۳۴] (۱)- إنّ کلمة جحیم تعنی النار الشدیدة الالتهاب، و قد أطلقت فی القرآن علی نار جهنم کما فی هذه الآیة، و علی نار الدنیا کالنار التی سعروها لحرق النّبی إبراهیم علیه السّلام الآیة(۹۷) من سورة الصافات.

[۳۳۵] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۶، ص ۷۸.

[۳۳۶] (۲)- سفینة البحار، فی مادة« نقیب».

[۳۳۷] (۱)- مسند أحمد، ص ۳۹۸، طبعة مصر، سنة ۱۳۱۳.

[۳۳۸] (۲)- کتاب فیض القدیر فی شرح الجامع الصغیر، ج ۲، ص ۴۵۹.

[۳۳۹] (۳)- منتخب کنز العمال فی حاشیة مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۱۲.

[۳۴۰] (۴)- إنّ عبارة« عزرتموهم» مشتقة من مادة« تعزیر» أی المنع أو العون، أمّا حین تسمی بعض العقوبات الإسلامیة بالتعزیر فذلک لأنّ هذه العقوبات تکون فی الحقیقة عونا للمذنب لکی یرتدع عن مواصلة الذنب، و هذا دلیل علی أنّ العقوبات الإسلامیة لا تتسم بطابع الانتقام بل تحمل طابعا تربویا لذلک سمّیت بالتعزیر.

[۳۴۱] (۱)- إنّ کلمة« لعن» تعنی فی اللغة« الطرد و الإبعاد» و حین ینسب اللعن إلی اللّه فإنه یعنی الحرمان من رحمته، أمّا کلمة« قاسیة» فهی فی الأصل مشتقة من المصدر« قساوة» و تطلق علی الأخص علی الحجر الصلد، و لذلک أطلقت علی الذین لا یبدون أی مرونة من جانبهم أمام الحقائق التی تتکشف لهم.

[۳۴۲] (۱)- إنّ کلمة« خائنة» مع کونها اسما للفاعل، فهی فی هذه الآیة تکون بمعنی المصدر و تطابق کلمة الخیانة ... و قد جرت عادة العرب علی استخدام مثل هذه الاستعمالات فی أشعارهم حیث جاؤوا باسم الفاعل و عنوا به المصدر فی کلمات مثل« العافیة» و الخاطیة» و قد احتملوا أیضا أنّ تکون کلمة« خائنة» صفة للطائفة.

[۳۴۳] (۱)- لقد وردت تفاصیل أخری فی هذا المجال- أیضا- فی الجزء الأوّل من تفسیرنا هذا.

[۳۴۴] (۱)- إنجیل یوحنا، الإصحاح ۲، الآیات ۲- ۱۲.

[۳۴۵] (۲)- إنجیل لوقا، الإصحاح ۷، الآیات ۳۶- ۴۷.

[۳۴۶] (۳)- یوسف، ۱۴.

[۳۴۷] (۱)- و علی هذا الأساس فإن الضمیر فی کلمة« بینهم» تعود إلی کلمة« النصاری» المذکورة فی بدایة الآیة.

[۳۴۸] (۱)- لقد مضی تفسیر هذه الآیة فی بدایة هذا الجزء من تفسیرنا.

[۳۴۹] (۲)- نقرأ فی المصادر المسیحیة أنّ« الإله الأب» هو خالق جمیع الکائنات(قاموس الکتاب المقدس، الصفحة ۳۴۵) کما نقرأ أنّ الرّب هو الموجود بنفسه، و إن هذا هو اسم خالق جمیع المخلوقات و حاکم کلّ الکائنات، و إنّه هو الروح اللامتناهیة الأزلیة الأبدیة ...(قاموس الکتاب المقدس، ص ۳۴۴).

[۳۵۰] (۱)- تقول المصادر المسیحیة بأنّ عبارة« ابن اللّه» هی فقط من ألقاب منقذ المسیحیین وفادیهم، و إنّ هذا اللقب لا یطلق علی أحد غیره إلّا إذا دلت القرینة علی أنّ المراد لیس البنوة الحقیقة للّه(قاموس الکتاب المقدس، ص ۳۴۵).

[۳۵۱] (۲)- ظهرت فی الآونة الأخیرة لدینا مجموعة تبشر للمسیحیة و تسمّی نفسها جماعة« ابن اللّه».

[۳۵۲] (۱)- تفسیر الرازی، ج ۱۱، ص ۱۹۲.

[۳۵۳] (۱)- و یری البعض أنّ هذه الفترة تبلغ أکثر من ستمائة عام، و آخرون یرون أنّها أقل من هذه المدّة و استنادا علی قول البعض فإنّ الفاصلة الزمنیة بین ولادة المسیح علیه السّلام و هجرة نبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وفق التاریخ المیلادی تبلغ

۶۲۱ عاما و ۹۵ یوما(تفسیر ابن الفتوح الرازی، ج ۴، هامش الصفحة ۱۵۴).

[۳۵۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۱۴۷.

[۳۵۵] (۱)- نقرأ فی کتب أن الملک هو« من کان له الملک، و الملک هو ما یملکه الإنسان و یتصرف به- أو- العظمة و السلطة».

[۳۵۶] (۱)- یجب الانتباه إلی أنّ کلمة« جبار» مأخوذة أو مشتقة من الأصل(جبر) أی إصلاح الشیء بالقسر و الإرغام، و لذلک سمّی إصلاح العظم المکسور(تجبیرا) فهذه الکلمة تطلق من جهة علی کل نوع من التجبیر و الإصلاح، و من جهة أخری تطلق علی کل أنواع التسلط القسری، و حین تطلق کلمة(جبار) علی اللّه سبحانه و تعالی فذلک إمّا لتسلطه علی کل شیء، أو لأنّه هو المصلح لکل موجود محتاج إلی الإصلاح.

[۳۵۷] (۲)- العمالقة قوم من العنصر السامی یعیشون فی شمال شبه جزیرة العرب بالقرب من صحراء سیناء، و قد هاجموا معصر و استولوا علیها لفترات طویلة و دامت حکومتهم حوالی ۵۰۰ عام منذ عام ۲۲۱۳ قبل المیلاد حتی عام ۱۷۰۳ قبل المیلاد.

عن دائرة المعارف لفرید وجدی، ج ۶۰، ص ۲۳۲(الطبعة الثّالثة).

[۳۵۸] (۱)- الباب الأوّل من سفر التثنیة فی التوراة المتداولیة، فیه إشارة إلی أنّ اسمی هذین الرجلین هما« یوشع» و« کالیب».

[۳۵۹] (۲)- و قد أشار الإمام علی بن أبی طالب فی إحدی خطبه الواردة فی کتاب نهج البلاغة التی هذه الحقیقة بقوله علیه السّلام:

(فو اللّه ما غزی قوم فی عقر دارهم إلا ذلوا)(الخطبة ۲۷).

[۳۶۰] (۱)- الکهف، ۵۰.

[۳۶۱] (۱)- إن کلمة« تبوء» مشتقة من المصدر« بواء» أی« العودة».

[۳۶۲] (۱)- و قد کتب العلّامة الفقید الشّیخ« محمّد جواد البلاغی» رسالة فی هذا المجال سماها ب« الأکاذیب الأعاجیب» جمع فیها أکاذیب من نمط الکذبة التی جاء ذکرها أعلاه.

[۳۶۳] (۱)- جاء فی مجمع البیان أنّ کلمة« یبحث» معناها فی الأصل هو البحث عن شیء فی التراب ثمّ استعملت فی مختلف أنواع البحوث، أمّا کلمة« سوأة» فهی تعنی کل شیء یستاء الإنسان من رؤیته، و لذلک تطلق أحیانا علی جسد المیت، و علی عورة الإنسان، و یجب الانتباه هنا إلی أنّ الفاعل فی جملة« لیریه» قد یکون هو اللّه، أی أنّ اللّه أراد أن یری« قابیل» کیف یدفن أخاه، و ذلک احتراما ل« هابیل» و یحتمل أن یکون الغراب هو الفاعل فی الجملة المذکورة.

[۳۶۴] (۱)- مسند أحمد بن حنبل کما جاء فی تفسیر« فی ضلال القرآن»، ج ۲، ص ۷۰۳، فی تفسیر الآیة.

[۳۶۵] (۱)- إن کلمة« أجل» التی هی علی وزن« نخل» تعنی فی الأصل الجریمة، و قد شاع استعمالها فیما بعد فی کل عمل له عاقبة سیئة، ثم استعملت لکل عمل ذی عاقبة، و هی الآیة تستخدم للتعلیل أو بیان علة الشیء.

[۳۶۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲۰ و قد وردت فی هذا المجال روایات أخری بنفس المضمون.

[۳۶۷] (۱)- تفسیر المنار، الجزء السادس، ص ۳۵۳، و تفسیر القرطبی، ج ۳، ص ۲۱۴۵.

[۳۶۸] (۱)- کنز العرفان فی فقه القرآن، ج ۲، ص ۳۵۲.

[۳۶۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۲۲.

[۳۷۰] (۱)- إن الأحکام التی تطرقنا إلیها جاءت علی شکل بحث تفسیری ملخص، و تفاصیل هذه الأحکام و شروطها موجود فی کتب الفقه.

[۳۷۱] (۱)- الملة شریعة الإسلام.

[۳۷۲] (۲)- یرحضان یطهران أو یغسلان.

[۳۷۳] (۳)- مثراة مکثرة.

[۳۷۴] (۴)- منساة مطيلة.

[۳۷۵] (۵)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۱۰.

[۳۷۶] (۱)- وفاء الوفاء، ج ۳، ص ۱۳۷۱، فى كتاب« التوصل إلى حقيقة التوسل» نقل الحديث المذكور أعلاه كواحد من دلائل النبوة، ص ۲۱۵.

[۳۷۷] (۲)- كتاب(وفاء الوفاء)، ص ۱۳۷۲.

[۳۷۸] (۱)- وفاء الوفاء، ص ۱۳۷۳.

[۳۷۹] (۲)- كتاب« التوصل ...»، ص ۳۲۹.

[۳۸۰] (۱)- كتاب التوصل ....، ص ۲۵۳.

[۳۸۱] (۲)- كتاب التوصل ....، ص ۳۳۱.

[۳۸۲] (۳)- روح المعانى،(ج ۴- ۶)، ص ۱۱۴- ۱۱۵.

[۳۸۳] (۱)- آل عمران، ۱۶۹.

[۳۸۴] (۱)- الدينار الوارد فى هذا الحكم يبلغ مثقالا شرعيا من الذهب المسكوك و يعادل ثمانية عشر حبة أى ثلاثة أرباع المثقال المتعارف.

[۳۸۵] (۱)- يجب الانتباه إلى أن الخمسمائة دينار إنّما تدفع دية قطع خمسة أصابع، و قد أسلفنا أن المذهب الشيعى يرى عقوبة السارق فى قطع أربعة أصابع من اليد.

[۳۸۶] (۲)- ذكر هذه الحادثة(الآلوسى» فى تفسيره، ج ۳، ص ۶، لكنّه ذكر اسم(علم الدين السخاوى) بدل اسم(علم الهدى).

الجزء الرابع

[تتمة سورة المائدة]

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۴۱) سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جاؤُكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۴۲)

سبب النّزول

وردت روايات عديدة فى سبب نزول الآيتين الأخيرتين أوضحها ما نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام فى هذا المجال، و خلاصة ذلك أنّ أحد وجهاء اليهود فى منطقة خيبر كان متزوجا، فارتكب عملا غير شرعى و مخالفا للعفة مع امرأة

متزوجة من عائلة خيبرية مشهورة، فاغتم اليهود كيف ينفذون حكم التّوراة (الرجم) فى وجيههم ذلك و فى شريكته فى الذنب، فأخذوا يبحثون عن حل لهذه المعضلة لينقذوهما من العقوبة المذكورة، و فى نفس الوقت ليظهروا التزامهم بالأحكام الإلهية، و دفعهم هذا الأمر إلى الاستعانة بأبناء طائفتهم الموجودين فى المدينة المنورة، و طلبوا منهم أن يسألوا عن حكم هذه الحادثة من النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (حتى إذا كان الحكم بسيطا و خفيفا أخذوا به، و إذا كان شديدا تجاهلوه و تناسوه، و لعلهم أرادوا بسؤالهم ذلك أن يلفتوا انتباه نبىّ الإسلام إلى أنفسهم و ليظهروا أنفسهم بأنّهم أصدقاء للمسلمين).

و لهذا الغرض توجه عدد من وجهاء يهود المدينة للقاء النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسألهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كانوا سيقبلون بكل حكم يصدره، فأجابوه بأنّهم قدموا إليه لهذا السبب! فنزل فى تلك الأثناء حكم رجم مرتكب الزنا مع المرأة المحصنة، لكن اليهود لم يبدوا استعدادا لقبول هذا الحكم، بدعوى أنّ ديانتهم تخلو من مثله، فرد عليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هذا الحكم هو نفس ذلك الذى هو عندهم فى التّوراة، و سألهم إن كانوا يقبلون بحضور أحد علمائهم ليتلو عليهم حكم التّوراة فى تلك القضية ليأخذوا به، فوافقوا على ذلك، فسألهم النّبى عن رأيهم فى العالم اليهودى (ابن صوريا) الذى كان يقطن منطقة (فدك) فأجابوه بأنّه خير من يعرف التّوراة من اليهود.

فبعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذا العالم، فلمّا قدم عنده أقسم عليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه الواحد الأحد الذى أنزل التّوراة على موسى و فلق البحر لإنقاذ بنى إسرائيل و أغرق عدوّهم فرعون و أنزل عليهم نعمه فى صحراء سيناء، أن يصدق القول إن كان حكم الرجم قد نزل فى التّوراة فى مثل تلك الواقعة أم لم ينزل؟ فأجاب العالم اليهودى (ابن صوريا) بأنّه مرغم بسبب القسم الذى أقسمه عليه النّبى أن يقول الحقيقة و يعترف بوجود حكم الرجم فى التّوراة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶

فسأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اليهود عن سبب احجامهم عن تطبيق الحكم المذكور، فأجاب (ابن صوريا) بأنّهم كانوا يطبقون هذا الحكم بحقّ العامّة من أبناء طائفتهم و يصونون الأثرياء و الوجهاء منهم من تنفيذ هذا الحكم بحقّهم، فأدى هذا التهاون إلى انتشار الخطيئة المذكورة بين أثرياء اليهود حتى بادر إلى ارتكابها ابن عم لأحد رؤساء الطائفة، فلم يطبق بحقه الحكم الشرعى بحسب العادة المتبعة لديهم، و صادف فى نفس ذلك الوقت أن ارتكب نفس الخطيئة أحد عامّة الناس من أبناء الطائفة، فأرادوا تطبيق حكم الرجم بحقّه لكن أقاربه اعترضوا على ذلك، و قالوا:

إذا كان لا بدّ من تنفيذ هذا الحكم فيجب أن ينفذ بحق الاثنين (الوجيه اليهودى و الشخص الآخر العادى)، فعمد عند ذلك علماء الطائفة إلى سنّ حكم أخف من الرجم و هو أن يجلد الزناة ۴۰ جلدة و تسود وجوههم و يركبوا دابة و يطاف بهم فى أزقة و أسواق المنطقة! فأمر النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على الفور أن يرجم ذلك الرجل الوجيه و المرأة الثرية أمام المسجد[۱] و أشهد اللّه فى ذلك الحين بأنّه هو أول شخص يحيى حكم اللّه بعد أن أماته اليهود.

فى تلك الأثناء نزلت الآيتان الأخيرتان و تحدّثنا عن القضية المذكورة بالإيجاز.

التّفسير

التّحكيم بين الأنصار و الأعداء:

تدلّ هاتان الآيتان و الآيات التى تليهما، على أنّ للقاضى المسلم الحق- فى ظل شروطه خاصّة- فى الحكم فى جرائم الطوائف الأخرى من غير المسلمين،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷

و سیأتی شرح هذا الموضوع فی تفسیر نفس هذه الآیات.

لقد بدأت الآیة الاولی- من الآیتین الأخیرتین- الخطاب بعبارة یا أَیُّهَا الرَّسُولُ و قد وردت هذه العبارة فی مکانین من القرآن: أوّلهما فی الآیة موضوع البحث، و الثّانی فی الآیة (۶۷) من نفس هذه السورة و التی تتعرض لقضیة الولایة و الخلافة. و ربّما جاء استخدام هذا التعبیر من أجل إثارة أکثر لدافع الشعور بالمسؤولیة لدی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تعزیز ارادته، و مخاطبته بأنّه هو رسول اللّه، و علیه أن یستقیم و یصمد فی إبلاغ الحکم المکلّف به.

بعد ذلک تطمئن الآیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- کتمهید لبیان الحکم التالی- فتقول: لا یَحْزُنْکَ الَّذِینَ یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ مِنَ الَّذِینَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ

و یری البعض أن عبارة یُسارِعُونَ فِی الْکُفْرِ تختلف عن عبارة «یسارعون إلی الکفر» و ذلک لأنّ العبارة الاولی تقال بشأن أفراد کافرین غارقین فی کفرهم، و یتسابقون فیما بینهم للوصول إلی آخر مرحلة من الکفر، أمّا العبارة الثّانیة فتقال فی من یعیشون خارج حدود الکفر لکنّهم یتسابقون للوصول إلیه ۲].

و بعد أن تذکر الآیة تجاوزات المنافقین و الأعداء الداخلیین، تتناول وضع الأعداء الخارجیین و الیهود الذین کانوا سببا لحزن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول الآیة: وَ مِنَ الَّذِینَ هادُوا ...

ثمّ تشیر الآیة إلی قسم من تصرفات هؤلاء المشوبة بالنفاق و الریاء، و فتؤکّد أنّهم إنّما یستمعون کلام النّبی لا لأجل أطاعته، بل لکی یجعلوا من ذلک وسیلة لتکذیب النّبی و الافتراء علیه حیث تقول الآیة: سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ

و لهذه الجملة القرآنیة تفسیر آخر، هو أنّ هؤلاء الیهود یستمعون کثیرا إلی أکاذیب قادتهم و زعمائهم، لکنّهم لا یبدون استعدادا لاستماع قول الحق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸

و الإذعان له ۳].

ثمّ تفضح الآیة الصفة الثالثة للیهود، فتبیّن أنّهم یتجسّسون علی المسلمین لمصلحة قوم آخرین ممّن لا یحضرون الاجتماعات الإسلامیة التی تعقد فی مجلس النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول الآیة: سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِینَ لَمْ یَأْتُوکَ ....

و فی تفسیر آخر لهذه الجملة قیل أن هؤلاء الیهود کانوا یستمعون إلی أوامر جماعتهم- فقط- و قد کلّفهم قومهم بأن یقبلوا ما وافق أهواءهم من أقوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أن یخالفوا أو یرفضوا ما کان عکس ذلک من أقواله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و بناء علی هذا السلوک فإنّ ما کان یظهر من طاعة هؤلاء لبعض أقوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکن فی الحقیقة إلّا طاعة منهم لأقوال کبارهم و وجهائهم الذین أمروهم باتباع هذا الأسلوب، و لذلک أشارت الآیة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یحزن لمخالفات هؤلاء، فهم لم یحضروا عنده أبدا من أجل الاستماع إلی الحقّ و اتّباعه! ثمّ تذکر الآیة انحرافا آخر لهؤلاء الیهود، فتشیر إلی تحریفهم لکلام اللّه سبحانه و تعالی من خلال تحریف الألفاظ أو تحریف المعانی الواردة فی هذا الکلام، فهم إن وجدوا فی کلام اللّه حکما یخالف مصالحهم أوّلوه أو رفضوه جملة و تفصیلا، کما تقول الآیة: یُحَرِّفُونَ الْکَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَواضِعِهِ ...[۴].

و الأعجب من ذلک أنّ هؤلاء قبل أن یحضروا مجلس النّبی کانوا یقررون کما یأمرهم کبارهم أنّهم إن تلقوا من محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حکما موافقا لمیولهم و أهوائهم قبلوا به، و إن کان مخالفا لهوی أنفسهم ردوه و ابتعدوا عنه، تقول الآیة الکریمة: یَقُولُونَ إِنْ أُوتِیتُمْ هذا فَخُذُوهُ وَ إِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ....

فهؤلاء قد غرقوا فی الضلال و تحجرت عقولهم لغایة أنّهم کانوا یرفضون کل شیء یخالف ما عندهم من أحکام محرفة، دون أن یبذلوا جهدا أو عناء فی التفکیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹

لمعرفة الحقیقة، و قد أبعدتهم هذه الحالة عن طریق الرشاد و أخرجتهم من جادة الصواب، بحیث لم یبق أمل فی هدایتهم، فاستحقوا بذلک عذاب اللّه، و لم تعد تنفع فیهم شفاعة الشافعین، و فی هذا المجال تقول الآیة الکریمة: وَ مَنْ یُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِکَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَیْئاً و قد تدنست قلوب هؤلاء إلی درجة لم تعد قابلة للتطهیر، و حرمهم اللّه لذلک طهارة القلوب، فتقول الآیة: أُولئِکَ الَّذِینَ لَمْ یُرِدِ اللَّهُ أَنْ یُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ... و عمل اللّه مقرون بالحکمة دائما، لأن من یقضی عمرا فی الانحراف و یمارس النفاق و الکذب و یخالف الحق و یرفض الحقیقة، و یحرف قوانین اللّه لن یبقی له مجال للتوبة و العودة إلی الحق، حیث تقول الآیة الکریمة فی هذا المجال: لَهُمْ فِی الدُّنْیا خِزْیٌ وَ لَهُمْ فِی الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِیمٌ

أمّا الآیة الثّانیة فتؤکّد- مرّة أخری- علی أن هؤلاء لدیهم آذان صاغیة لاستماع حدیث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا لإطاعته بل لتکذیبه، أو کما یقول تفسیر آخر فإنّ هؤلاء آذانهم صاغیة لاستماع أکاذیب کبارهم، فتقول الآیة: سَمَّاعُونَ لِلْکَذِبِ .. و قد تکررت هذه الجملة فی آیتین متتالیتین تأکیدا و اثباتا لوجود هذه الصفة الشنیعة فی هؤلاء.

کما أضافت الآیة صفة شنیعة أخری اتصف بها الیهود، و هی تعودهم و ادمانهم علی أکل الأموال المحرمة و الباطلة من الرّبا و الرّشوة و غیر ذلک، حیث تقول الآیة: أَکَّالُونَ لِلسُّحْتِ ..[۵].

ثمّ تخیر الآیة النّبی بین أن یحکم بینهم أو أن یتجنبهم و یترکهم، حیث تقول الآیة: فَإِنْ جاؤُکَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ... و لا یعنی التخییر أن یستخدم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم میله و رغبته فی اختیار أحد الأمرین المذکورین، بل إن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰

المراد من ذلک هو أن یراعی النّبی الظروف و الملابسات المحیطة بکل حالة، فإن رأی الوضع یقتضی الحکم بینهم حکم، و إن رأی خلاف ذلک ترکهم و أعرض عنهم.

و لکی تعزز الآیة الاطمئنان فی نفس النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إن هو ارتأی الإعراض عن هؤلاء لمصلحة أکّدت قائلة: وَ إِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ یَضُرُّوکَ شَیْئاً ....

کما أکّدت ضرورة اتباع العدل و تطبیقه إذا کانت الحالة تقتضی أن یحکم النّبی بین هؤلاء فقالت الآیة: وَ إِنْ حَکَمْتَ فَاحْکُمْ بَیْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ

و قد اختلف المفسّرون فی قضیة تخییر النظام الإسلامی بین الحکم فی غیر المسلمین بأحکام الإسلام أو الإعراض عنهم، و هل أن هذا التخییر باق علی قوته أو أنّه أصبح منسوخا؟

و یری البعض أنّ الناس فی ظل الحکم الإسلامی مشمولون من الناحیتین الحقوقیة و الجزائیة بالقوانین الإسلامیة، سواء کانوا مسلمین أم غیر مسلمین. و بناء علی هذا الرأی فإن حکم التأخیر إمّا أن یکون منسوخا و إمّا أنّه یخص غیر الکفار الذمیین، أی یخص أولئک الکفار الذین لا یعیشون فی ظل حکم اسلامی، بل یرتبطون بالمسلمین باتفاقیات أو مواثیق، أو یکون بینهم علاقات ود و تزاور.

و یعتقد مفسّرون آخرون أنّ الحاکم المسلم یکون مخیرا- حتی فی الوقت الحاضر لدی التعامل مع غیر المسلمین، فهو إمّا أن یطبق فیهم الأحکام الإسلامیة إذا اقتضت الضرورة و المصلحة ذلک، و إمّا أن یعرض عنهم و یحیلهم إلی قوانینهم الخاصّة بهم، بحسب ظروف و ملابسات کل حالة «للاطلاع أکثر علی تفاصیل هذا الحکم تراجع کتب الفقه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۴۳]

اشارة

وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۳)

التّفسير

تتابع هذه الآية موضوع الحكم بين اليهود تطرقت إليه الآيتان السابقتان، اللتان بيّنتا أنّ اليهود كانوا يأتون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطلبون منه الحكم فيهم، و قد أظهرت هذه الآية الأخيرة الاستغراب من حالة اليهود الذين كانوا مع وجود التّوراة بينهم، و احتوائها على حكم اللّه، يأتون إلى النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يطلبون منه الحكم فيهم بالرغم من وجود التّوراة عندهم، فتقول: وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ ....

و يجب الانتباه إلى أنّ المقصود من الحكم فى الآية هو حكم الرجم للزانى المحصن من الرجال و النساء و الذى ورد فى التّوراة أيضا، فى سفر التثنية الفصل الثّانى و العشرين.

و العجيب فى أمر هؤلاء اليهود أنّهم مع وجود التّوراة بينهم و عدم اعترافهم بنسخها من قبل القرآن و رفضهم للشريعة الإسلامية، كانوا حين يرون حكما فى التّوراة لا يوافق ميولهم و أهوائهم يتركون ذلك الحكم و يبحثون عن حكم آخر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲

مصادر لم يقرّوا و لم يعترفوا بها.

و الأعجب من ذلك أنّهم حين كانوا يطلبون التحكيم من نبى الإسلام بينهم، كانوا لا يقبلون بحكمه إذا كان مطابقا لحكم التّوراة لكنه لم يوافق ميولهم و رغباتهم حيث تقول الآية: ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ و ما ذلك إلّا لأن هؤلاء لم يكونوا بمؤمنين فى الحقيقة، و لو كانوا مؤمنين لما استهزءوا هكذا بأحكام اللّه، حيث تؤكّد الآية قائلة: وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

و قد يرد اعتراض فى هذا المجال و هو: إن الآية الشريفة تقرّ بوجود حكم اللّه فى التّوراة و نحن نعلم عن طريق القرآن و الرّوايات الإسلامية، بأن التّوراة قد أصابها التحريف قبل ظهور نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

إنّ جوابنا على هذا الاعتراض هو أننا أوّلا: لا نقول بأن التحريف قد أصاب التّوراة كلّها، بل نقر بوجود أحكام فى التّوراة تطابق الحقيقة و الواقع، و حكم الرجم- الذى هو موضوع بحثنا الآن- من الأحكام التى لم تصبها يد التحريف فى التّوراة.

ثانيا: إنّ التّوراة مهما كان حالها لا يعتبرها اليهود كتابا محرفا، و لذلك فإن الغرابة هنا تكمن فى رفض اليهود العمل بحكم اللّه مع وجوده فى توراتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۴]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (۴۴)

التّفسير

إنّ هذه الآية و الآية التى تليها تكملان البحث أو الموضوع الوارد فى الآيات السابقة، و تبيّن هذه الآية أهمية الكتاب السماوى الذى

نزل على النّبى موسى عليه السّلام أى التّوراة، حيث تشير إلى أنّ اللّه أنزل هذا الكتاب و فيه الهداية و النّور اللذان يرشدان إلى الحق، و أن النّور و الضياء الذى فيه هو لإزاحة ظلمات الجهل من العقول فتقول الآية: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ ...

و لذلك فإنّ الأنبياء الذين أطاعوا أمر اللّه، و الذين تولوا مهامهم بعد نزول التّوراة كانوا يحكمون بين اليهود بأحكام هذا الكتاب، تقول الآية الكريمة: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴

كما أنّ علماء اليهود و وجاءهم و مفكريهم المؤمنين الأتقياء، كانوا يحكمون وفق هذا الكتاب السماوى الذى وصل أمانة بأيديهم و كانوا شهودا عليه، حيث تقول الآية: وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ[۶].

ثمّ توجه الآية الخطاب إلى أولئك العلماء و المفكرين من اليهود الذين كانوا يعيشون فى ذلك العصر، فتطلب منهم أن لا يخافوا الناس لدى بيان أحكام اللّه، بل عليهم أن يخافوا اللّه، فلا تسول لهم أنفسهم مخالفة أوامره أو كتمان الحق، و إن فعلوا ذلك فسيلقون الجزاء و العقاب، فتقول الآية هنا: فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ

ثمّ تحذر الآية من الاستهانة و الاستخفاف بآيات اللّه، فتقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا ....

و حقيقة كتمان الحق و أحكام اللّه نابعة إمّا عن الخوف من الناس، و إمّا بدافع المصلحة الشخصية، و أيّا كان السبب فهو دليل على ضعف الإيمان و انحطاط الشخصية، و قد أشير فى الجمل القرآنية أعلاه إلى هذين السببين.

و تصدر الآية حكما صارما و حازما على مثل هؤلاء الأفراد الذين يحكمون خلافا لما أنزل اللّه فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ

و واضح أنّ عدم الحكم بما أنزل اللّه يشمل السكوت و الابتعاد عن حكم اللّه الذى يؤدى بالناس إلى الضلال، كما يشمل التحدث بخلاف حكم اللّه.

و واضح- أيضا- أنّ للكفر مراتب و درجات مختلفة، تبدأ من إنكار أساس وجود اللّه و يشمل عصيان أوامره، لأنّ الإيمان الكامل يدعو و يحثّ الإنسان على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵

العمل وفق أوامر اللّه، و من لا عمل له ليس له ايمان كامل.

و تبيّن هذه الآية- أيضا- المسؤولية الكبرى التى يتحملها علماء و مفكر و أكل أمّة حيال العواصف الاجتماعية، و الأحداث التى تقع فى بيئاتهم، و تدعو بأسلوب حازم لمكافحة الانحرافات و عدم الخوف من أى بشر- كائنا من كان- لدى تطبيق أحكام اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۵]

اشارة

وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۴۵)

التّفسير

القصاص و العفو:

تشرح هـذه الآيـة الكريمة قسـما آخر من الأحكام الجنائية و الحدود الإلهية التى وردت فى التّوراة، فتشـير إلى ما ورد فى هذا الكتاب السـماوى من أحكـام و قوانين تخص القصـاص، و تبيّن أن من يقتـل إنسانا بريئا فإنّ لأولياء القتيل حق القصاص من القاتل بقتله نفسـا بنفس. حيث تقول الآية فى هذا المجال: وَ كَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ

كما بيّنت أن من يصـيب عين انسان آخر و يتلفها، يسـتطيع هذا الإنسان المتضـرر فى عينه أن يقتص من الفاعل و يتلف عينه، إذ تقول الآية فى هذا المجال:

وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ .....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷

و كذلك الحال بالنسبة للأنف و الأذن و السن و الجروح الأخرى، وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصاصٌ ...

و على هـذا الأسـاس فـإنّ حكم القصـاص يطبق بشـكل عادل على المجرم الـذى يرتكب أحـد الجرائم المـذكورة، دون الالتفات إلى عنصـره أو قوميته أو طبقته الاجتماعيـة أو طـائفته، و لاـ مجـال أبـدا لاسـتخدام التمايز القومى أو الطبقى أو الطائفى لتأخير تطبيق حكم القصاص على الجانى.

و بديهى أنّ تطبيق حكم القصاص على المعتدى شأنه شأن الأحكام الإسلامية الأخرى، مقيد بشروط و حدود ذكرتها كتب الفقه، و لا يختص هـذا الكلام و لا ينحصـر ببنى إسـرائيل وحـدهم، لأنّ الإسـلام- أيضا- جاء بنظيره كما ورد فى آية القصاص فى سورة البقرة- الآية (۱۷۸).

و قد أنهت هذه الآية التمايز غير العادل الذى كان يمارس فى ذلك الوقت حيث ذكرت بعض التفاسـير أنّ تمايزا غريبا كان يسود بين طائفتين من اليهود، هما بنو النضـير و بنو قريظـة الـذين كانوا يقطنون المدينـة المنورة فى ذلك العصـر، لدرجـة أنّه إذا قتل أحـد أفراد طائفـة بنى النضـير فردا آخر من طائفـة بنى قريظـة فالقاتـل لا ينال القصاص، بينما فى حالـة حصول العكس فإن القاتل الـذى كان من طائفة بنى قريظة كان ينال القصاص إن هو قتل واحدا من أفراد طائفة بنى النضير.

و لمّا امتد نور الإسـلام إلى المدينة سأل بنو قريظة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن هذا الأمر، فأكّد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا فرق فى الـدماء بين دم و دم ... فاعترضت قبيلة بنى النضـير على حكم النّبى محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و ادعت أنّ حكمه حطّ من شأنهم، فنزلت الآية الأخيرة و بيّنت أنّ هذا الحكم غير مختص بالإسـلام، بل حتى الديانة اليهودية أوصت بتطبيق قانون القصاص بصورة عادلة[۷].

و لكى لا يحصل و هم أنّ القصاص أو المقابلة بالمثل أمر الزامى لا يمكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸

الحيدة عنه، اسـتدركت الآية بعد ذكر حكم القصاص فبيّنت أن الذى يتنازل عن حقه فى هذا الأمر و يعفو و يصـفح عن الجانى، يعتبر عفوه كفارة له عن ذنوبه بمقدار ما يكون للعفو من أهمية فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ...[۸].

و يجب الانتباه إلى أنّ الضمير الوارد فى كلمة (به) يعود على القصاص، و كانت الآية جعلت التصدق بالقصاص عطية أو منحة للجانى و اسـتخدام عبارة «التصـدق» و الوعـد الذى قطعه اللّه للمتصدق، يعتبران عاملا محفزا على العفو و الصـفح، لأنّ القصاص لا يمكنه أن يعيد للإنسان ما فقده مطلقا، بل يهبه نوعا من الهدوء و الاسـتقرار النفسـى المؤقت، بينما العفو الذى وعد به اللّه للمتصدق، بإمكانه أن يعوضه عمـا فقـده بصورة أخرى، و بـذلك يزيـل عن قلبه و نفسه بقايـا الألم و الاضـطراب، و يعتبر هـذا الوعـد خير محفز لمثل هؤلاء الأشخاص.

و

قـد ورد عن الحلبى قال سألت أبا عبد اللّه- الإمام الصادق- عليه السّـلام عن قوله اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ ... قال: «يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما عفى»[۹].

و تعتبر هـذه الجملـة القرآنيـة فى الحقيقة خير جواب مفحم للذين يزعمون أن القصاص ليس بقانون عادل، و يدعون أنّه يشـجع روح الانتقام و المثلة.

و الـذى يفهم من الصـياغة العامّـة للآيـة هو أنّ جواز القصاص إنّما هو لإخافـة و إرعاب الجناة و بالنتيجة لضـمان الأمن لأرواح الناس الأبرياء، كما أنّ الآيـة فتحت باب العفو و التوبـة، و بذلك أراد الإسـلام أن يحول دون ارتكاب مثل هذه الجرائم باسـتخدام الروادع و الحوافز كالخوف و الأمل، كما استهدف الإسلام من ذلك- أيضا- الحيلولة دون الانتقام للدم بالدم بقدر الإمكان- إذا استحق الأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹

ذلك.

و فى الختام تؤكّد الآية قائلة: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أى ظلم أكبر من الانجرار وراء العاطفة الكاذبة، و ترك القاتل دون أن ينال قصاصه العادل بحجّة لا ضـرورة فى غسل الدم بالدم، و فسـح المجال للقتلـة للتمادى بارتكاب جرائم قتل أخرى، و بالنهاية الإساءة عبر هذا التغاضـى إلى أفراد أبرياء، و ممارسة الظلم بحقّهم نتيجة لذلك.

و يجب الانتبـاه إلى أنّ التّوراة المتداولـة حاليـا قـد اشـتملت على هـذا الحكم أيضـا، و ذلـك فى الفصل الواحـد و العشـرين من سـفر الخروج، حيث جاء فيها أنّ النفس بالنفس و العين بالعين و السن بالسن و اليد باليد و الرجل بالرجل و الحرق بالحرق و الجرح بالجرح و الصفعة بالصفعة (سفر الخروج، الجمل ۲۳ و ۲۴ و ۲۵).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۶]

اشارة

وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَـدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۴۶)

التّفسير

بعد الآيات التى تحدثت عن التّوراة جاءت هذه الآية، و هى تشير إلى حال الإنجيل و تؤكّد بعثة و نبوة المسيح عليه السّلام بعد الأنبياء الـذين سـبقوه، و تطابق الـدلائل التى جاء بها مع تلك التى وردت فى التّوراة، حيث تقول الآيـة: وَ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِعِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ ... و لهذه الجملة القرآنية تفسـير آخر و هو أنّ عيسى المسيح عليه السّلام قد أقرّ بحقيقة كلّ ما نزل فى التّوراة على النّبى موسى عليه السّلام كاقرار جميع الأنبياء عليهم السّلام بنبوة من سبقوهم من الأنبياء، و بعدالة ما جاؤوا به من أحكام.

ثمّ تشـير الآيـة الكريمـة إلى إنزال الإنجيل على المسـيح عليه السّـلام و فيه الهداية و النّور فتقول: وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدىً وَ نُورٌ و قد أطلق اسم النّور فى القرآن المجيد على التّوراة و الإنجيل و القرآن نفسه، حيث نقرأ بشأن التّوراة قوله تعالى: إِنَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱

أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ[۱۰].

و أمّا الإنجيل فقد أطلقت عليه الآية الأخيرة اسم النّور.

و القرآن- أيضا- حيث نقرأ قوله تعالى: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ۱۱].

فكما أنّ النّور يعتبر- فى الحقيقة- ضرورة حتمية لجميع الموجودات من أجل أن تواصل حياتها، كذلك تكون الأديان الإلهية و الشرائع و الكتب السماوية ضرورة حتمية لنضوج و تكامل بنى الإنسان.

و قد ثبت من حيث المبدأ أنّ مصدر كل الطاقات و القوى و الحركات و كل أنواع الجمال هو النّور، فكذلك الحال فى تعليمات الأنبياء و ارشاداتهم، فلولاها لساد الظلام كل القيم الإنسانية سواء الفردية منها أو الاجتماعية، و هذا ما نلاحظه فى المجتمعات المادية بكل وضوح.

لقد كرر القرآن الكريم فى مجالات متعددة أنّ التّوراة و الإنجيل هما كتابان سماويان، و مع أن هذين الكتابين- دون شك- منزلان فى الأصل من قبل اللّه سبحانه و تعالى، لكنّهما- بالتأكيد- قد تعرضا بعد حياة الأنبياء إلى التحريف، فحذفت منهما حقائق و أضيفت إليهما خرافات، و أدى ذلك إلى أن يفقدا قيمتهما الحقيقية، أو أنّ الكتب الأصلية تعرضت للنسيان و التجاهل و حلت محلها كتب أخرى حوت على بعض الحقائق من الكتب الأصلية[۱۲].

و على هذا الأساس فإنّ كلمة النّور التى أطلقت فى القرآن الكريم على هذين الكتابين، إنما عنت التّوراة و الإنجيل الأصليين الحقيقيين.

بعد ذلك تكرر الآية التأكيد على أن عيسى عليه السّلام لم يكن وحده الذى أيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲

و صدق التّوراة، بل أن الإنجيل- الكتاب السماوى الذى نزل عليه- هو الآخر شهد بصدق التّوراة حيث تقول الآية: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْراةِ ....

و فى الختام تؤكّد الآية أنّ هذا الكتاب السماوى قد حوى سبل الرشاد و الهداية و المواعظ للناس المتقين، حيث تقول: وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

و تشبه هذه العبارة، عبارة أخرى وردت فى بداية سورة البقرة، حين كان الحديث يدور عن القرآن الكريم، حيث جاء قوله تعالى: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

إن هذه الصفة لا- تنحصر بالقرآن وحده، بل أن كل الكتب السماوية تحتوى على سبل الهداية للناس المؤمنين المتقين، و المراد بالمتقين هم أولئك الذين يبحثون عن الحق و الحقيقة و المستعدون لقبول الحق، و بديهى أن الذين يغلقون أبواب قلوبهم إصرارا و عنادا بوجه الحق، لن ينتفعوا بأى حقيقة أبدا.

و الملفت للنظر فى هذه الآية أيضا، أنّها ذكرت أوّلا أنّ الإنجيل (فيه هدى) ثمّ كررت الآية كلمة (هدى) بصورة مطلقة، و قد يكون المراد من هذا الاختلاف فى التعبير هو بيان أنّ الإنجيل و الكتب السماوية الأخرى تشتمل على دلائل الهداية للناس- جميعا- بصورة عامّة، و لكنّها بصورة خاصّة- تكون باعثا لهداية و تربية و تكامل الأتقياء من النّاس الذى يتفكرون فيها بعمق و تدبر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۷]

اشارة

وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴۷)

التّفسير

الامتناع عن الحكم بالقانون الإلهى:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى نزول الإنجيل، أكّدت الآية الأخيرة أنّ حكم اللّه يقضى أن يطبق أهل الإنجيل ما أنزله اللّه فى هذا الكتاب من أحكام، فتقول الآية: وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ....

و بديهى أنّ القرآن لا يأمر بهذه الآية المسيحيين أن يواصلوا العمل بأحكام الإنجيل فى عصر الإسلام، و لو كان كذلك لناقض هذا الكلام الآيات القرآنية الأخرى، بل لناقض أصل وجود القرآن الذى أعلن الدين الجديد و نسخ الدين القديم، لذلك فالمراد هو أنّ المسيحيين تلقوا الأوامر من اللّه بعد نزول الإنجيل بأن يعملوا بأحكام هذا الكتاب و أن يحكموها فى جميع قضاياهم ۱۳].

و تؤكّد هذه الآية- فى النهاية- فسق الذين يمتنعون عن الحكم بما أنزل اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴

من أحكام و قوانين فتقول: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و يلفت النظر اطلاق كلمة «الكافر» مرّة و «الظّالم» أخرى و «الفاسق» ثالثة، فى الآيات الأخيرة على الذين يمتنعون عن تطبيق أحكام اللّه، و لعل هذا التنوع فى اطلاق صفات مختلفة إنّما هو لبيان أنّ لكل حكم جوانب ثلاثة:

أحدها: ينتهى بالمشرع الذى هو اللّه.

و الثّانى: يمس المنفذين للحكم (الحاكم أو القاضى).

الثّالث: يرتبط بالفرد أو الأفراد الذين يطبق عليهم الحكم.

أى أنّ كل صفة من الصفات الثلاث المذكورة قد تكون إشارة إلى واحد من الجوانب الثلاثة، لأنّ الذى لا يحكم بما أنزل اللّه يكون قد تجاوز القانون الإلهى و تجاهله، فيكون قد كفر بغفلته هذه، و من جانب آخر ارتكب الظلم و الجور بابتعاده عن حكم اللّه- على انسان برىء مظلوم، و ثالثا: يكون قد خرج عن حدود واجباته و مسئوليته، فيصبح بذلك من الفاسقين (لأنّ «الفسق» كما أوضحنا، يعنى الخروج عن حدود العبودية و الواجب).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۴۸]

اشارة

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸)

التّفسير

تشير هذه الآية إلى موقع القرآن بعد أن ذكرت الآيات السابقة الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء السابقين.

و كلمة «مهيمن» تطلق فى الأصل على كل شىء يحفظ و يراقب أو يؤتمن على شىء آخر و يصونه، و لمّا كان القرآن الكريم يشرف

فى الحفاظ على الكتب السماوية السابقة و صيانتها من التحريف اشرافا كاملا، و يكمل تلك الكتب، لذلك أطلق عليه لفظ «المهيمن» حيث تقول الآية: وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶

لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ ....

فالقرآن بالإضافة إلى تصديقه الكتب السماوية السابقة، اشتمل- أيضا- على دلائل تتطابق، مع ما ورد فى تلك الكتب، فكان بذلك حافظا و صائنا لها.

إنّ الكتب السماوية جاءت كلها متناسقة فى المبادئ و الهدف الواحد الذى تبنى تربية الإنسان و السمو به إلى مراتب الكمال المعنوى و المادى، على الرغم من الفوارق الموجودة بين هذه الكتب و التى تنبع من مقتضى التكامل التدريجى للإنسان، حيث أن كل شرعة جديدة ترتقى بالإنسان إلى مرحلة أسمى من مراحل الرقى و الكمال الإنسانى، و تشتمل على خطط و برامج أكثر شمولا و تطورا، و الإتيان بعبارة: مُهَيْمِناً عَلَيْهِ بعد جملة مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يدل على هذه الحقيقة، أى أنّ القرآن فى الوقت الذى يصدّق الكتب السابقة، يأتى فى نفس الوقت ببرامج و خطط أكثر شمولا للحياة.

ثمّ تؤكّد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انطلاقا من الحقيقة المذكورة- ضرورة الحكم بتعاليم و قوانين القرآن بين الناس، حيث تقول فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ ....

و قد اقترنت هذه الجملة بالفاء التفريعية، فتدلّ على شمولية أحكام الإسلام بالنسبة لأحكام الشرائع السماوية الأخرى، و لا تعارض هنا بين هذا الأمر و بين ما سبق من أمر فى أية سابقة و التى خيرت النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين الحكم بين اليهود أو تركهم لحالهم، لأنّ هذه الآية ترشد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إن هو أراد أن يحكم بين أهل الكتاب- إلى أنّ عليه أن يحكم بتعاليم و قوانين القرآن بينهم.

ثمّ تؤكّد عليه أن يبتعد عن أهواء و ميول أهل الكتاب، الذين يريدون أن يطوعوا الأحكام الإلهية لميولهم و رغباتهم، و أن ينفذ ما نزل عليه بالحق، حيث تقول الآية: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ....

و لأجل إكمال البحث تشير الآية إلى أن كل ملّة قد أفردت لها شرعة و نظام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷

للحياة يهديها إلى السبيل الواضح، حيث تقول: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً ....

و كلمة «شرع» أو «الشريعة» تعنى الطريق الذى يؤدى إلى الماء و ينتهى به، و اطلاق كلمة «الشريعة» على الدين لأن الدين ينتهى بحقائق و تعاليم هدفها تطهير النفس الإنسانية و ضمان الحياة السليمة للبشرية، أمّا كلمة «النهج» أو «المنهاج» فتطلقان على الطريق الواضح.

نقل (الراغب) فى كتابه (المفردات) عن ابن عباس قوله بأنّ الفرق بين كلمتى «الشرعة» و «المنهاج» هو أنّ الاولى تطلق على كل ما ورد فى القرآن، و أن المنهاج يطلق على ما ورد فى سنّة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و هذا الفرق مع كونه جميلا، إلّا أنّنا لا نملك دليلا جازما لتأييده)[۱۴].

ثمّ تبيّن الآية أنّ اللّه لو أراد أن يجعل من جميع أبناء البشر أمّة واحدة، تتبع دينا و شرعة واحدة لقدر على ذلك، لكن هذا الأمر يتنافى مع قانون التكامل التدريجى، و حركة مراحل التربية المختلفة، فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ ....

و جملة لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ .. إشارة إلى ما قلناه سابقا من أنّ اللّه قد أودع لدى أفراد البشر استعدادات و كفاءات تنمو فى ظل الاختبارات و فى ضوء تعاليم الأنبياء، فعند ما يطوى بنو الإنسان مرحلة معينة، يجعلهم اللّه فى مرحلة أسمى و حين تنتهى مرحلة تربوية

یأتی اللّه بمرحلة تربویة أخری علی ید نبی آخر، کما یحصل بالضبط للمراحل التعلیمیة التی یمرّ بها الشاب فی مدرسته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸

بعد ذلک تخاطب الآیة- فی الختام- جمیع الأقوام و الملل، و تدعوهم إلی التسابق فی فعل الخیرات بدل تبذیر الطاقات فی الاختلاف و التناحر، حیث تقول: فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ مؤکدة أنّ الجمیع یکون مرجعهم و عودتهم إلی اللّه الذی یخبرهم فی یوم القیامة بما کانوا فیه یختلفون: إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً فَیُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۴۹ الی ۵۰]

اشارة

وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما یُرِیدُ اللَّهُ أَنْ یُصِیبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ (۴۹) أَ فَحُکْمَ الْجاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ (۵۰)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیة عن ابن عباس قوله: أنّ رهطا من وجهاء الیهود تآمروا و اتفقوا علی الذهاب إلی النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بغیة حرفه عن الإسلام، فذهبوا إلیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ذکروا له أنّهم قوم من مفکری و علماء الیهود، و أنّهم إن اتبعوه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اقتدی بهم بالتأکید بقیة الیهود، و زعموا أنّ بینهم و بین جماعة أخری نزاع (فی قضیة قتل أو أمر آخر) و طلبوا من النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یحکم فی النزاع المزعوم لمصلحتهم، و وعدوه أنّه إن استجاب لأمرهم یؤمنوا به، فامتنع النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن إصدار حکم غیر عادل، فنزلت الآیة المذکورة[۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰

التّفسیر

اشارة

تکرر هذه الآیة تأکید الباری عزّ و جلّ علی نبیّه محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أن یحکم بین أهل الکتاب طبقا لأحکام اللّه، و أن لا یستسلم لأهوائهم و نزواتهم، فتقول: وَ أَنِ احْکُمْ بَیْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ ....

و التکرار للأمر هنا إمّا أن یکون بسبب المواضیع التی اشتملت علیها الآیة، و إمّا لأنّ موضوع الحکم فی هذه الآیة یختلف عن موضوع الحکم فی الآیات السابقة، حیث کان موضوع الحکم فی الآیات السابقة هو الزنا مع المحصنة، و موضوع الحکم فی هذه الآیة هو القتل أو شیء آخر.

ثمّ تحذر الآیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مؤامرة هؤلاء الذین أرادوا عدول النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن شرعة الحقّ و العدل، و طالبته بأن یراقب تحرکاتهم، حیث تقول: وَ احْذَرْهُمْ أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیْکَ ....

و أکّدت هذه الآیة استمرارا لخطابها لنبی الإسلام محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ هؤلاء الکتابیین إن لم یذعنوا لحکمه العادل

فإنّ ذلك يكون دلالة على أن ذنوبهم و آثامهم قد طوقتهم فحرمتهم من التوفيق، و أنّ اللّه يريد أن يعاقبهم و يعذبهم بسبب بعض ذنوبهم، حيث تقول الآية: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ....

و سبب ذكر «بعض الذنوب» لا كلّها، قد يكون لأنّ عقاب كل الذنوب لا يتم فى الحياة الدنيا بل يذوق و بال بعضها، و الباقى منها يوكّل أمرها إلى العالم الثّانى، أى بعد الموت.

و لم تصرّح هذه الآية بنوع الذنوب التى طوقت و أحاطت بهؤلاء، و يحتمل أن تكون إشارة إلى المصير الذى أحاط بيهود المدينة، بسبب الخيانات المتوالية التى مارسوها، ممّا اضطرهم إلى ترك بيوتهم و مغادرة المدينة المنورة، أو أن يكون فشل هؤلاء و حرمانهم من التوفيق نوعا من العقاب لهم على ذنوبهم السابقة، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱

الحرمان من التوفيق يعتبر- بحد ذاته- نوعا من العقاب، أى أن الذنوب المتتالية و العناد و الإصرار على الذنب، جزاؤهما الحرمان من الأحكام العادلة، و التورط بالضّلال و الحيرة متاهات الحياة.

و تشير الآية فى النهاية إلى أنّ إصرار هؤلاء القوم من أهل الكتاب على باطلهم يجب أن لا يكون باعثا للقلق عند النّبى، لأنّ الكثير من الناس منحرفون عن طريق الحق، أى أنّهم فاسقون، حيث تقول الآية: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفاسِقُونَ

سؤال:

يمكن أن يعترض البعض بأنّ هذه الآية توحى باحتمال صدور الانحراف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و العياذ باللّه، و أن اللّه يحذره من ذلك، فهل أنّ هذا الأمر يتلائم و منزلة العصمة التى يتمتع بها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟

الجواب:

إنّ العصمة لا تعنى مطلقا استحالة صدور الخطأ من المعصوم، و لو كان كذلك لما بقيت لهم مكرمة أو فضل، و معنى العصمة هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهم السّلام مع وجود احتمال صدور الذنب أو الخطأ منهم إلّا أنّهم لا يرتكبون الذنب أبدا و إن كان عدم ارتكاب الذنب من قبل المعصوم ناشئ عن التنبيه و التحذير و التذكير الإلهى للمعصوم، أى أن التنبيه الإلهى يعتبر جزءا من عامل العصمة لدى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى يحول دون ارتكاب الخطأ، و سنبادر إلى توضيح موضوع العصمة لدى الأنبياء- بتفصيل أكثر- عند تفسير آية التطهير (الآية ۳۳ من سورة الأحزاب بإذن اللّه).

أمّا الآية الأخرى فتساءلت بصيغة استفهام استنكارى، هل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم اتباع الكتب السماوية يتوقعون أن تحكم بينهم (الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بأحكام الجاهلية التى فيها أنواع التمايز المقيت؟ حيث تقول الآية: أَ فَحُكْمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲

الْجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ....

لكنّ أهل الإيمان لا يرون أى حكم أرفع و أفضل من حكم اللّه، حيث تتابع الآية قولها: وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

و لقد بيّنا- عند تفسير الآيات السابقة- أن نوعا من التمايز الغريب كان يسود الأوساط اليهودية بحيث لو أن فردا من يهود بنى قريظة قتل فردا من يهود بنى النضير لتعرض للقصاص، بينما لو حصل العكس لم يكن ليطبق حكم القصاص فى القاتل، و قد شمل هذا التمايز المقيت- أيضا- حكم الغرامة و الدية عند هؤلاء، فكانوا يأخذون ضعف الدية من جماعة، و لا يأخذونها من جماعة أخرى، أو

يأخذون أقل من الحدّ المقرر، و لذلك استنكر القرآن هذا النوع من التمايز و اعتبره من أحكام الجاهلية، فى حين أنّ الأحكام الإلهية تشمل البشر أجمعين و تطبق دون أى تمايز.

و

جاء فى كتاب «الكافى» عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «الحكم حكمان: حكم اللّه، و حكم الجاهلية، فمن أخطأ حكم اللّه حكم بحكم الجاهلية»[۱۶].

و هكذا يتّضح أنّ أى مسلم يتبع الأحكام الوضعية و لا يلتزم بالأحكام و القوانين الإلهية السماوية إنّما يسير فى الحقيقة فى طريق الجاهلية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۵۱ الى ۵۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۱) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ (۵۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسّرين أنّ (عبادة بن صامت الخزرجى) قدم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد غزوة بدر و ذكر له أن له حلفاء من اليهود ذوى عدة و عدد، و أكّد للنبى أنّه يريد البراءة من صداقتهم و من عهده معهم ما داموا يهددون المسلمين بالحرب، و قال بأنّه يريد أن يكون حليفا للّه و لنبيه دون سواهما، أمّا عبد اللّه بن أبى فرفض التنصل من عهده مع اليهود، و اعتذر بأنّه يخشى المشاكل و ادعى أنّه يحتاج إلى اليهود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴

و أظهر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خشيته على عبادة و عبد اللّه من صداقة اليهود مشيرا إلى أنّ خطر صداقة اليهود على عبد اللّه أكبر من خطرها على عبادة بن صامت، فقال عبد اللّه بأنّه ما دام الأمر كذلك فإنّه سيتخلى عن صداقته و عهده مع اليهود، فنزلت الآيات الأخيرة و هى تحذر المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى.

التّفسير

اشارة

لقد حذرت الآيات الثلاث الأخيرة المسلمين- بشدّة- من الدخول فى أحلاف مع اليهود و النصارى، فالآية الاولى منها تمنع المسلمين من التحالف مع اليهود و النصارى أو الاعتماد عليهم (أى أنّ الإيمان باللّه يوجب عدم التحالف مع هؤلاء إن كان ذلك لأغراض و

مصالح مادية) حيث تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى أَوْلِياءَ ....

و كلمة «أولياء» صيغة جمع من «ولى» و هى مشتقة من مصدر «الولاية» و هى بمعنى التقارب الوثيق بين شيئين، و قد وردت بمعنى «الصداقة» و «التحالف» و «الإشراف».

لكن بالنظر إلى سبب النّزول و القرائن الأخرى الموجودة، فإنّ المراد ليس منع المسلمين من اقامة أى علاقات تجارية و اجتماعية مع اليهود و النصارى، بل المقصود هو منع المسلمين من التحالف مع هؤلاء أو الاعتماد عليهم فى مواجهة الأعداء.

و كانت قضية التحالف رائجة فى ذلك العصر بين العرب، و كان يطلق على ذلك «الولاء».

و الملفت للنظر فى هذه الآية أنّها لم تعتمد تسمية «أهل الكتاب» لدى تحدثها عن اتباع الديانتين السماويتين المعروفتين، بل استخدمت كلمتى «اليهود و النّصارى» و ربّما يكون هذا إشارة إلى أنّ اليهود و النصارى لو كانوا يعملون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵

بكتابيهم السماويين، لكان اتباع هذين الدينين خير حليفين للمسلمين، لكنّهم اتّحدوا معا- لا بأمر من كتابيهم- بل لأغراض سياسية و تكتلات عنصرية و أمثال ذلك.

بعد ذلك تبيّن الآية سبب هذا النهى فى جملة قصيرة، و تقول بأن هاتين الطائفتين إنّما هما أصدقاء و حلفاء أشباههما من اليهود و النصارى حيث تقول:

بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ أى أنّهما يهتمان بمصالحهما و مصالح أصدقائهما فقط، و لا يعيران اهتماما لمصالح المسلمين، و لذلك فإن أى مسلم يقيم صداقة أو حلفا مع هؤلاء فإنّه سيصبح من حيث التقسيم الاجتماعى و الدينى جزءا منهم، حيث تؤكّد الآية فى هذا المجال بقولها: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ

و بديهى أنّ اللّه لا يهدى الأفراد الظالمين الذين يرتكبون الخيانة بحق أنفسهم و إخوانهم و أخواتهم المسلمين و المسلمات، و يعتمدون على أعداء الإسلام تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

و تشير الآية التّالية إلى الأعذار التى كان يتشبث بها أفراد ذوى نفوس مريضة لتبرير علاقاتهم اللاشرعية مع الغرباء، و اعتمادهم عليهم و تحالفهم معهم، مبررين ذلك بخوفهم من الوقوع فى مشاكل إن أصبحت القدرة يوما فى يد حلفائهم الغرباء، فتقول الآية: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ[۱۷].

و يذكر القرآن الكريم هؤلاء الضعفاء ذوى النفوس المريضة ردا على تعللهم فى التخلى عن حلفهم مع الغرباء، فيبيّن لهم أنّهم حين يحتملون أن يمسك اليهود و النصارى يوما بزمام القدرة و السلطة يجب أن يحتملوا- أيضا- أن ينصر اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶

المسلمين فتقع القدرة بأيديهم، حيث يندم هؤلاء على ما أضمروه فى أنفسهم، كما تقول الآية: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ

و يشتمل هذا الجواب القرآنى- فى الحقيقة على جانبين:

أوّلهما: أنّ أفكارا كهذه إنما تخرج من قلوب مريضة لأفراد تزلزل ايمانهم و أصبحوا يسيئون الظن باللّه، و لو لم يكونوا كذلك لما سمحوا لهذه الأفكار بأن تداخل نفوسهم.

أمّا الجانب الثّانى فى هذا الجواب فهو مواجهتهم بنفس الحجة التى أوردوها لتعللهم ذلك، إذ أنّ احتمالهم لوقوع السلطة بيد اليهود و النصارى يقابله- بالضرورة- احتمال آخر و هو انتصار المسلمين و استلامهم لمقاليد الأمور، و بهذا لا يكون هناك أى مجال لتشبث هؤلاء بحلفهم مع أولئك أو الاعتماد عليهم.

و على أساس هذا التّفسير فإنّ كلمة (عسى) التى لها مفهوم الاحتمال و الأمل، تبقى فى هذه الآية محتفظة بمعناها الأصلى لكن بعض

المفسّرين قالوا بأنّها تعنى هنا الوعد الجازم من قبل اللّه للمسلمين، و هذا ما لا يتلائم و ظاهر كلمة (عسى) البتة.

أمّا المراد من جملة أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ التى جاءت بعد كلمة (الفتح) فى هذه الآية فيحتمل أنّها تعنى أنّ المسلمين- فى المستقبل- إمّا أن يتغلبوا و ينتصروا على أعدائهم عن طريق الحرب أو بدونها كأن تتوسع قدرتهم إلى درجة يضطر بعدها الأعداء إلى الخضوع و الاستسلام للمسلمين دون الحاجة إلى الدخول فى حرب.

و بتعبير آخر: كلمة (الفتح) تشير إلى الإنتصار العسكرى للمسلمين، و أنّ جملة أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ إشارة إلى الانتصارات الاجتماعية و الاقتصادية و ما شابه ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷

إنّ بيان هذا الاحتمال من قبل اللّه سبحانه و تعالى، مع كونه- عزّ و جلّ- عالما بجميع ما سيحصل فى المستقبل، يدل على أنّ الآية تشير إلى الانتصارات العسكرية و الاجتماعية و الاقتصادية التى سيحرمها المسلمون فى المستقبل.

و تشير الآية فى الختام إلى مصير عمل المنافقين، و تبيّن أنّه حين يتحقق الفتح للمسلمين المؤمنين و تنكشف حقيقة عمل المنافقين يقول المؤمنون- بدهشة-: هل أنّ هؤلاء المنافقين هم أولئك الذين كانوا يتشدقون بتلك الدعاوى و يجلفون بالايمان المغلظة بأنّهم معنا، فكيف وصل الأمر بهم إلى هذا الحدّ؟ حيث تقول الآية: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ..[۱۸].

إنّ هؤلاء لنفاقهم هذا ذهبت أعمالهم أدراج الرياح، لأنّها لم تكن نابعة من نيّة خالصة صادقة، و لهذا فقد أصبحوا من الخاسرين- سواء فى هذه الدنيا أو الآخرة معا- حيث تؤكّد الآية هذا الأمر بقولها: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ

و الجملة الأخيرة تشبه- فى الحقيقة- جوابا لسؤال مقدر، و كأن شخصا يسأل: ماذا سيكون مصير هؤلاء؟

فيجاب بأنّ أعمالهم أدراج الرياح، و ستطوقهم الخسارة من كل جانب، أى أنّ هؤلاء- حتى لو كانت لهم أعمال صدرت عنهم بإخلاص و نية صادقة- فهم لا يحصلون على أى نتيجة حسنة من تلك الأعمال الصالحة لانحرافهم صوب النفاق و الشّرك بعد ذلك: و قد شرحنا هذا الأمر فى الجزء الثّانى من تفسيرنا هذا عند تفسير الآية (۲۱۷) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸

الاعتماد على الغرباء:

على الرّغم من أنّ الواقعة- التى ذكرت سببا لنزول الآيات الأخيرة- تحدثت عن شخصين هما «عبادة بن الصامت» و «عبد اللّه بن أبى» إلّا أنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذين الشخصين لا يشار إليهما باعتبارهما شخصيتين تاريختين- فحسب- بل لأنّهما يمثلان مذهبين فكريين و اجتماعيين. يدعو أحدهما إلى التخلى عن التعاون و التحالف مع الغرباء، و عدم تسليم زمام المسلمين بأيديهم، و عدم الثقة بتعاونهم.

و المذهب الآخر يرى أنّ كل انسان أو شعب فى هذه الدنيا المليئة بالمشاكل و الأهوال يحتاج إلى من يتكئ و يعتمد عليه، و أن الحاجة تدعو أحيانا إلى انتخاب الدّعم و السند من بين الغرباء بحجة أن الصداقة معهم لا تخلو من قيمة و فائدة، و لا بدّ أن تظهر ثمارها فى يوم من الأيّام.

و قد دحض القرآن الكريم رأى المذهب الثّانى بشدّة، و حذر المسلمين بصراحة من مغبة الوقوع و التورط فى نتائج مثل هذا النوع من التفكير، لكن البعض من المسلمين- و مع الأسف- قد نسوا و تجاهلوا هذا الأمر القرآنى العظيم، فانتخبوا من بين الغرباء و الأجانب من يعتمدون عليهم، و قد أثبت التّأريخ أن كثيرا من النكبات التى أصابت المسلمين تنبع من هذا الاتجاه الخاطئ! و بلاد الأندلس تعتبر

دلیلا حیّا و بارزا علی هـذا الأمر، و تظهر کیف أن المسـلمین بالاعتماد علی قواهم الذاتیة- اسـتطاعوا أن یبنوا أکثر الحضارات ازدهارا فی الأندلس- أسبانیا الیوم- لکنّهم نتیجة لاعتمادهم علی قوی غریبة أجنبیة فقدوا تلک المکتسبات العظیمة بکل سهولة.

و الإمبراطوریة العثمانیة التی سرعان ما ذابت کذوبان الجلید فی الصیف، تعتبر دلیلا آخر علی هذه الدعوی.

کما أنّ التّأریخ المعاصر یشهد علی ما أصاب المسلمین من خسائر و مصائب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹

کبیرة بسبب انحرافهم عن رسالتهم و اعتمادهم فی کثیر من الأمور علی الأجانب الغرباء، و العجب کل العجب من أن هـذا السبات ما زال یلف العالم الإسلامی، و لم توقظه بعد الکوارث و النکبات التی أصابته بسبب اعتماده علی القوی الأجنبیة.

علی أی حـال فـإن الأجنبی أجنبی، و مهما اشترک معنا فی المصالـح و تعاون معنا فی مجالات محـدودة فهو فی النهایـة یعتزل عنّا فی اللحظات الحساسة، و کثیرا ما تنالنا منه- أیضا- ضربات مؤثرة.

و مـا علی المسـلمین الیوم إلّـا أن ینتبهوا أکثر من أی وقت مضـی إلی هـذا النـداء القرآنی و لاـ یعتمـدوا علی أحـد سوی اللّه و قواهم الذاتیة التی وهبها اللّه لهم.

لقد اهتمّ نبیّ الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم کثیرا بهذا الأمر، حتی أنّه رفض مساعدة الیهود فی واقعة «أحد» حین أعلن ثلاثمائة منهم اسـتعدادهم للوقوف بجانب المسـلمین ضد المشـرکین، فأعادهم النّبی إلی حیث کانوا و لما یصـلوا إلی منتصف الطریق، و امتنع عن قبول عرضـهم فی حین أن مثل هذا العدد من الناس کان یمکن له أن یلعب دورا مؤثرا فی واقعة أحد، فلما ذا رفضـهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟

لقـد رفضـهم لأنّه لم یسـتبعد منهم أن یخـذلوه و یخـذلوا المسـلمین فی أحرج اللحظات و أکثرها خطورة أثناء الحرب، و یتحولوا إلی التعاون مع العدوّ و یقضوا علی ما تبقی من جیش المسلمین فی ذلک الوقت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۵۴]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ أَعِزَّةٍ عَلَی الْکافِرِینَ یُجاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ لا یَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ (۵۴)

التّفسیر

بعـد الانتهـاء من موضوع المنـافقین، یـأتی الکلاـم- فی هـذه الآیـة الکریمـة- عن المرتـدین الـذین تنبّأ القرآن بارتـدادهم عن الـدین الإسلامی الحنیف، و هذه الآیة أتت بقانون عام یحمل إنذارا لجمیع المسلمین، فأکّدت أنّ من یرتد عن دینه فهو لن یضر اللّه بارتداده هذا أبدا، و لن یضـر الدین و لا المجتمع الإسلامی أو تقدمه السریع، لأنّ اللّه کفیل بإرسال من لدیهم الاستعداد فی حمایة هذا الدین، حیث تقول الآیة الکریمة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ ....

ثمّ تتطرق الآیة إلی صفات هؤلاء الحماة الذین یتحملون مسئولیة الدفاع العظیمة، و تبیّنها علی الوجه التّالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱

۱- إنّهم یحبّون اللّه و لا یفکرون بغیر رضاه، فاللّه یحبّهم و هم یحبّونه، کما تقول الآیة: یُحِبُّهُمْ وَ یُحِبُّونَهُ

۲- و ۳- يبدون التواضع و الخضوع و الرأفة أمام المؤمنين، بينما هم أشداء أقوياء أمام الأعداء الظالمين- حيث تقول الآية: أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ....

۴- إنّ شغلهم الشاغل هو الجهاد فى سبيل اللّه، إذ تقول الآية: يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

۵- و آخر صفة تذكرها الآية لهؤلاء العظام، هى أنّهم لا يخافون لوم اللائمين فى طريقهم لتنفيذ أوامر اللّه و الدفاع عن الحق، حيث تقول الآية: وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ... فهؤلاء بالإضافة إلى امتلاكهم القدرة الجسمانية، يمتلكون الجرأة و الشّجاعة لمواجهة التقاليد الخاطئة، و الوقوف بوجه الأغلبية المنحرفة التى اعتمدت على كثرتها فى الاستهزاء بالمؤمنين.

و هناك الكثير من الأفراد المعروفين بصفاتهم الطيبة، لكنّهم يبدون الكثير من التحفظ أمام الفوضى السائدة فى المجتمع و هجوم الأفكار الخاطئة لدى سواد الناس أو من الأغلبية المنحرفة، و يتملكهم الخوف و الجبن، و سرعان ما يتركون الساحة و يخلونها للمنحرفين، فى حين أنّ القائد المصلح و من معه من الأفراد بحاجة إلى الجرأة و الشهامة لتطبيق أفكارهم و اصلاحاتهم. و على عكس هؤلاء فالذين لا يمتلكون هذه الصفات الروحية الرفيعة، يقفون سدّا و حائلا دون حصول الإصلاحات المطلوبة.

و تؤكّد الآية فى الختام- على أنّ اكتساب أو نيل مثل هذه الامتيازات السامية (بالإضافة إلى الحاجة لسعى الإنسان نفسه) مرهون بفضل اللّه الذى يهبها لمن يشاء، و لمن يراه كفؤا لها من عباده، حيث تقول الآية فى هذا المجال: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲

و فى النهاية تبيّن الآية أنّ مجال فضل اللّه و كرمه واسع، و هو يعرف الأفكاء و المؤهلين من عباده، و كما تقول الآية: وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ لقد نقلت الرّوايات الإسلامية التى أوردها المفسّرون أقوالا كثيرة حول هوية الأشخاص المعنيين بهذه الآية، فمن هم أنصار الإسلام هؤلاء الذين مدحهم اللّه بهذه الصفات؟

فى الكثير من الرّوايات الواردة عن طرق الشيعة و السنة نقرأ أن هذه الآية نزلت فى حقّ (على بن أبى طالب عليه السّلام) و قتاله للناكثين و القاسطين و المارقين (مثيرى حرب الجمل، و جيش معاوية، و الخوارج)، و ممّا يدل على ذلك قول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين رأى عجز قادة جيش الإسلام عن فتح حصن خيبر، حيث وجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم الخطاب فى إحدى الليالى و فى مقر جيش الإسلام قائلا:

لأعطين الراية غدا رجلا يحبّ اللّه و رسوله و يحبّه اللّه و رسوله، كرارا غير فرار، لا يرجع حتى يفتح اللّه على يده»[۱۹].

و نقرأ فى رواية أخرى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سئل عن هذه الآية فوضع صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يده الشريفة على كتف «سلمان» و قال ما مضمونه: «هذا و أنصاره و بنى قومه ...» و بذلك تنبّأ النّبى عن إسلام الإيرانيين و جهودهم و مساعيهم المثمرة فى خدمة هذا الدين فى المجالات المختلفة، ثمّ

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لو كان الدين (و فى رواية أخرى- لو كان العلم-) معلقا بالثريا لتناوله رجال من أبناء فارس»[۲۰].

و ذكرت روايات أخرى أن هذه الآية نزلت فى شأن أنصار المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف الذين سيواجهون الارتداد و المرتدين بكل قوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳

و حزم، و يملؤون العالم قسطا و عدلا و إيمانا.

و ممّا لا شك فيه أنّه لا تناقض بين هذه الرّوايات الواردة فى تفسير الآية الأخيرة، لأنّ الآية- جريا على أسلوب القرآن الكريم- تبيّن مفهوما كليا عاما، بحيث تعتبر «على بن أبى طالب عليه السّلام» أو «سلمان الفارسى» مصداقين مهمين ضمن هذا المفهوم الذى يشمل أفرادا آخرين يسيرون على نفس النهج، حتى لو لم تتطرق الرّوايات إلى أسمائهم.

إنّ الأمر الذى يثير الأسف فى هذا المجال، هو تدخل العصبيات الطائفية و القومية فى تفسير هذه الآية، و التى أدخلت أفرادا لا يمتلكون أى كفاءة و لا يتمتعون بأى من الصفات المذكورة ضمن مصاديق هذه الآية و اعتبرتهم ممّن نزلت الآية فى شأنهم، و من هؤلاء الأفراد «أبو موسى الأشعرى» الذى ارتكب تلك الحماقة التّأريخية المعروفة التى دفعت بالإسلام نحو هاوية السقوط، و وضعت أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى أحرج موقف ۲۱].

و الغريب فى هذا الأمر هو انتقال آثار التطرف الذى نلاحظه فى الكتب العلمية- بشكل رهيب- إلى سواد الناس، بل إلى متعلميهم، و كأن هناك يدا خفية تسعى الى تشتيت صفوف المسلمين، و تحول دون اتحاد كلمتهم، و قد سرى هذا التطرف ليشمل تاريخ ما قبل الإسلام، بحيث نرى هؤلاء المتطرفين و قد سمّوا شارعا فخما يقع بجوار بيت اللّه الحرام باسم «أبى سفيان» و هذا الشارع هو أكبر و أفخم بكثير من شارع «إبراهيم الخليل عليه السّلام» مؤسس الكعبة الشريفة.

و أخذ أمثال هؤلاء المتطرفين يصمون كثيرا من المسلمين و بكل بساطة بالشرك، لا لشىء إلّا لأنّ تحرك هؤلاء المسلمين لا يتفق مع أهوائهم و طريقتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴

الخاصة، و كأن الإسلام ينحصر فى هذه الطريقة، أو كأنّهم- وحدهم- سدنة القرآن و حفظته دون غيرهم، أو كأنّهم هم المكلفون- دون غيرهم- ببيان من هو المسلم و من هو الكافر، فيشيرون بكلمة واحدة إلى هذا بأنّه مشرك و إلى ذاك بأنّه مسلم، وفق ما تشتهيه أهواؤهم و رغباتهم.

فى حين أنّنا نقرأ فى الرّوايات الواردة فى تفسير الآيات الأخيرة، أنّ الإسلام حين يصبح غريبا بين أهله يبرز أشخاص كسلمان الفارسى لإعادة مجد الإسلام و عظمته، و هذه بشارة وردت على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقوم سلمان.

و المثير للدهشة و الحيرة أن كلمة التوحيد التى هى رمز لوحدة المسلمين، أصبحت اليوم تستخدم من قبل جهات معلومة للتفريق بين المسلمين و اتهامهم بالشرك و الوثنية، و قد خاطب أحد العلماء هؤلاء المتطرفين بقوله: إنّكم قد وصلت بكم الحالة إلى درجة أن إسرائيل إذا تسلطت على جماعة منكم فرحت جماعة أخرى بهذا التسلط، و إذا ضربت إسرائيل الجماعة الأخرى فرحت الجماعة الاولى بهذا العمل، أو ليس هذا هو ما يبتغيه و يهدف إليه أعداء الإسلام؟

و من الإنصاف القول بأن اللقاءات المتكررة التى حصلت بيننا و بين عدد من علماء هؤلاء المتعصبين المتطرفين، كشفت القناع عن أنّ الواعين منهم كثيرا ما لا- يرضون بهذا الوضع، و قد التقيت بأحد علماء اليمن فى المسجد الحرام فقال أمام جمع من كبار مدرسى الحرم المكى: إنّ اتهام أهل القبلة بالشرك يعتبر ذنبا كبيرا، استقبحه السلف الصالح كثيرا، و قد صدر هذا القول منه حين كان الحديث يدور حول مسألة حدود الشرك، و قد أعرب هذا العالم عن استيائه لما يقوم به بعض الجهلاء من اتهام الناس بالشرك مشيرا إلى أن هؤلاء يتحملون بعملهم هذا مسئولية عظيمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۵]

اشارة

إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (۵۵)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان- و تفاسير و كتب أخرى- نقلا عن عبد اللّه بن عباس قوله: أنّه كان فى أحد الأيّام جالسا إلى جوار بئر زمزم، و يروى للناس أحاديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقرب إليهم- فجأة- رجل كان يرتدى عمامة، و يضع على وجهه نقابا، و كان كلما تلا ابن عباس حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلا هو حديثا عن النّبى مستهلا قوله بعبارة: «قال رسول اللّه ...» فأقسم عليه ابن عباس أن يعرف نفسه، فرفع هذا الشخص النقاب عن وجهه و صاح أيّها الناس من عرفنى فقد عرفنى و لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى، سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهاتين و إلّا صمتا، و رأيته بهاتين و إلّا فعميتا،

يقول: «على قائد البررة، و قاتل الكفرة منصور من نصره، مخذول من خذله».

و

أضاف أبو ذر: أمّا إنّى صليت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما من الأيّام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال: اللّهم أشهد بأنّى سألت فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلم يعطنى أحد شيئا، و كان على عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶

راكعا فأومى إليه بخنصره اليمنى و كان يختتم فيها فاقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره و ذلك بعين النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلمّا فرغ من صلاته رفع رأسه إلى السماء و قال: «اللّهم موسى سألك فقال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي فأنزلت عليه قرآنا ناطقا: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما ... اللّهم و أنا محمّد نبيّك و صفيك اللّهمّ فاشرح لى صدرى و يسّر لى أمرى و اجعل لى وزيرا عليّا أشدد به ظهرى».

قال أبو ذر رحمه اللّه: فما استتم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلامه حتى نزل جبرائيل من عند اللّه عزّ و جلّ فقال عليه السّلام: يا محمّد اقرأ، قال: و ما اقرأ؟ قال: اقرأ: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ ۲۲].

و طبيعى أنّ سبب النّزول هذا قد نقل عن طرق مختلفة (كما سيأتى تفصيله) بحيث تختلف الرّوايات أحيانا بعضها عن البعض الآخر فى جزئيات و خصوصيات الموضوع، لكنها جميعا متفقة من حيث الأساس و المبدأ.

التّفسير

اشارة

ابتدأت هذه الآية بكلمة «إنّما» التى تفيد الحصر، و بذلك حصرت ولاية أمر المسلمين فى ثلاث هم: اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الذين آمنوا و أقاموا الصّلاة و أدوا الزّكاة و هم فى حالة الركوع فى الصّلاة كما تقول الآية: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ

و لا شك أنّ الرّكوع المقصود فى هذه الآية هو ركوع الصّلاة و لا يعنى الخضوع، لأنّ الشارع المقدس اصطلح فى القرآن على كلمة الرّكوع للدلالة على الركن الرّابع للصلاة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷

و بالإضافة إلى الرّوايات الواردة فى شأن نزول الآية، و التى تتحدث عن تصدق على بن أبى طالب عليه السّلام بخاتمه فى الصّلاة- و سنتطرق إليها بالتفصيل- فإنّ جملة يُقِيمُونَ الصَّلاةَ تعتبر دليلا على هذا الأمر، و ليس فى القرآن أثر عن ضرورة أداء الزّكاة مقرونة بالخضوع، بل ورد التأكيد على دفع الزّكاة بنيّة خالصة و بدون منة.

كما لا شك فى أنّ كلمة «الولى» الواردة فى هذه الآية، لا تعنى الناصر و المحب، لأنّ الولاية التى هى بمعنى الحب أو النصرة لا تنحصر فى من يؤدون الصّلاة و يؤتون الزّكاة و هم راكعون، بل تشمل كل المسلمين الذين يجب أن يتحابوا فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض، حتى أولئك الذين لا زكاة عليهم، أو لا يمتلكون- أساسا- شيئا ليؤدوا زكاته، فكيف يدفعون الزّكاة و هم فى حالة الركوع؟! هؤلاء كلهم يجب أن يكونوا أحباء فيما بينهم و ينصر بعضهم البعض الآخر.

و من هنا يتّضح لنا أنّ المراد من كلمة «ولى» فى هذه الآية، هو ولاية الأمر و الإشراف و حق التصرف و الزعامة المادية و المعنوية، خاصّة و قد جاءت مقترنة مع ولاية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ولاية اللّه حيث جاءت الولايات الثلاث فى جملة واحدة.

و بهذه الصورة فإن الآية تعتبر نصّا قرآنيا يدل على ولاية و إمامة على بن أبى طالب عليه السّلام للمسلمين.

شهادة الأحاديث و المفسّرين و المؤرخين:

لقد قلنا أنّ الكثير من الكتب الإسلامية و مصادر أهل السنّة تشتمل على العديد من الرّوايات القائلة بنزول هذه الآية فى شأن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، و قد ذكرت بعض هذه الرّوايات قضية تصدق الإمام على عليه السّلام بخاتمه على السائل و هو فى حالة الركوع، كما لم تذكر روايات أخرى مسألة التصدق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸

هذه، بل اكتفت بتأييد نزول هذه الآية فى حق على عليه السّلام.

و قد نقل هذه الرّوايات كل من ابن عباس، و عمار بن ياسر، و عبد اللّه بن سلام، و سلمة بن كهيل، و أنس بن مالك، و عتبة بن حكيم، و عبد اللّه بن أبى، و عبد اللّه بن غالب، و جابر بن عبد اللّه الأنصارى، و أبى ذر الغفارى ۲۳].

و بالإضافة إلى الرواة العشرة المذكورين، فقد نقلت كتب الجمهور (أهل السنة) هذه الرواية عن على بن أبى طالب عليه السّلام نفسه ۲۴].

و الطّريف أنّ كتاب (غاية المرام)، قد نقل ۲۴ حديثا عن طرق أهل السنة و ۱۹ حديثا عن طرق الشّيعة[۲۵].

و قد تجاوز عدد الكتب التى أوردت هذه الرّوايات الثلاثين كتابا، كلها من تأليف علماء أهل السنة، منهم: محب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى ص ۸۸، و العلامة القاضى الشوكانى فى تفسير فتح القدير ج ۲، ص ۵۰، و من هذه المصادر المعتمدة أيضا: جامع الأصول، ج ۹، ص ۴۷۸، و فى أسباب النّزول للواحدى ص ۱۴۸، و فى لباب النقول للسيوطى ص ۹۰، و فى تذكرة سبط ابن الجوزى ص ۱۸، و فى نور الأبصار للشبلنجى ص ۱۰۵، و فى تفسير الطبرى ص ۱۶۵، و فى كتاب الكافى الشافى لابن حجر العسقلانى ص ۵۶، و فى مفاتيح الغيب للرازى ج ۳، ص ۴۳۱، و فى تفسير الدرّ المنثور ج ۲، ص ۳۹۳، و فى كتاب كنز العمال ج ۶، ص ۳۹۱، و فى مسند ابن مردويه و مسند ابن الشيخ، بالاضافة إلى صحيح النسائى، و كتاب الجمع بين الصحاح الستة، و كتب عديدة أخرى نقلت حديث الولاية[۲۶].

اذن كيف يمكن- و الحالة هذه- انكار هذه الأحاديث و المصادر التى نقلتها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹

فى حين أنّها اكتفت فى مجال أسباب نزول آيات أخرى بحديث واحد أو حديثين؟! لعل التطرف الطائفى هو سبب تجاهل كل هذه

الأحادیث و الشهادات التی أدلی بها العلماء فی مجال سبب نزول هذه الآیة.

فلو أمکن التغاضی عن کل الرّوایات التی وردت فی تفسیر هذه الآیة، و هی روایات کثیرة للزم أن لا نعتمد علی أی روایة فی تفسیر النصوص القرآنیة، لأنّنا قلما نجد أسبابا لنزول آیة أو آیات قرآنیة جاءت مدعومة بهذا العدد الکبیر من الرّوایات، کما ورد فی هذه الآیة الکریمة.

إنّ هذه القضیة کانت بدرجة من الوضوح بحیث أنّ حسان بن ثابت الشاعر المعروف الذی عاصر و اصطحب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- جاء بمضمون آیة الولایة فی قالب شعری من نظمه الذی قاله فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام حیث یقول:

فأنت الذی أعطیت إذ کنت راکعازکاة فدتک النفس یا خیر راکع

فأنزل فیک اللّه خیر ولایةو بیّنها فی محکمات الشرائع

و قد وردت هذه الأشعار باختلافات طفیفة فی کتب کثیرة، منها کتاب تفسیر (روح المعانی) للآلوسی، و کتاب (کفایة الطالب) للکنجی الشافعی، و کتب کثیرة أخری.

الرّد علی اعتراضات ثمانیة:

لقد أصرت جماعة من المتطرفین من أهل السنّة علی تکرار الاعتراضات حول نزول هذه الآیة فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام، و کذلک علی تفسیر (الولایة) الواردة فی الآیة الکریمة بمعنی الإشراف و التصرف و الإمامة، و فیما یلی نعرض أهم هذه الاعتراضات للبحث و النقد، و هی:

۱- قالوا: أنّ عبارة «الذین» المقترنة بکلمة «آمنوا» الواردة فی الآیة: لا یمکن أن تطبق علی المفرد، و ذلک ضمن اعتراضهم علی الرّوایات التی تقول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰

بنزول هذه الآیة فی حق علی بن أبی طالب علیه السّلام و قالوا: أنّ الآیة أشارت بصیغة الجمع قائلة الَّذِینَ یُقِیمُونَ الصَّلاةَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ هُمْ راکِعُونَ فکیف یمکن أن تکون هذه الآیة فی حق شخص واحد کعلی علیه السّلام؟

الجواب:

لقد زخرت کتب الأدب العربی بجمل تمّ التعبیر فیها عن المفرد بصیغة الجمع، و قد اشتمل القرآن الکریم علی مثل هذه الجمل، کما فی آیة المباهلة، حیث وردت کلمة «نساءنا» بصیغة الجمع مع أنّ الرّوایات التی ذکرت سبب نزول هذه الآیة أکّدت أن المراد من هذه الکلمة هی فاطمة الزهراء علیها السّلام وحدها، و کذلک فی کلمة (أنفسنا) فی نفس الآیة و هی صیغة جمع، فی حین لم یحضر من الرجال فی واقعة المباهلة مع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غیر علی علیه السّلام.

و کذلک نقرأ فی الآیة (۱۷۲) من سورة آل عمران فی واقعة أحد قوله تعالی:

الَّذِینَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَکُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِیماناً ....

و قد بیّنا فی الجزء الثّالث من تفسیرنا هذا عند تفسیر هذه الآیة، أن بعض المفسّرین ذکروا أنّها نزلت بشأن (نعیم بن مسعود) الذی لم یکن إلّا واحدا.

و نقرأ فی الآیة (۵۲) من هذه السّورة- أیضا- قوله تعالی: ... یَقُولُونَ نَخْشی أَنْ تُصِیبَنا دائِرَةٌ ... فی حین أن هذا الجزء من الآیة نزل فی شخص واحد، کما جاء فی سبب النّزول، و هو (عبد اللّه بن أبی) و قد مضی تفسیر ذلک.

و کذلک فی الآیة الاولی من سورة الممتحنة، و الآیة الثامنة من سورة (المنافقون) و الآیتین (۲۱۵ و ۲۷۴) من سورة البقرة، نقرأ فیها

کلها عبارات جاءت بصیغة الجمع، بینما الذی ذکر فی أسباب نزول هذه الآیات هو أنّ المراد فی کل منها شخص واحد.

و التعبیر بصیغة الجمع عن شخص واحد فی القرآن الکریم إمّا أن یکون بسبب أهمیة موقع هذا الشخص و لتوضیح دوره الفعال، أو لأجل عرض الحکم القرآنی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱

بصیغة کلیة عامّة حتی إذا کان مصداقه منحصرا فی شخص واحد، و قد ورد فی کثیر من آی القرآن ضمیر الجمع للدلالة علی اللّه الواحد الأحد، و ذلک تعظیما له جلّ شأنه.

و بدیهی أنّ استخدام صیغة الجمع للدلالة علی الواحد یعتبر خلافا للظاهر، و لا یجوز بدون قرینة و لکن مع وجود الرّوایات الکثیرة الواردة فی شأن نزول الآیة تکون لدینا قرینة واضحة علی هذا التّفسیر و قد اکتفی فی موارد أخری بأقل من هذه القرینة؟! ۲- و قال الفخر الرّازی و متطرفون آخرون: أنّ علیّا علیه السّلام بما عرف عنه من خشوع و خضوع إلی اللّه، بالأخص فی حالة الصّلاة (إلی درجة، أنّهم استلوا أثناء صلاته سهما کان مغروزا فی رجله، دون أن یحس بالألم کما فی (الروایة المعروفة) فکیف یمکن القول بأنّه سمع أثناء صلاته کلام السائل و التفت إلیه؟! الجواب:

إنّ الذین جاؤوا بهذا الاعتراض قد غفلوا عن أن سماع صوت السائل و السعی لمساعدته لا یعتبر دلیلا علی الانصراف و التوجه إلی النفس، بل هو عین التوجه إلی اللّه، و علی علیه السّلام کان أثناء صلاته یتجرد عن ذاته و ینصرف بکله إلی اللّه، و معروف أن التنصل عن خلق اللّه یعتبر تنصلا أیضا عن اللّه، و بعبارة أوضح: أن أداء الزّکاة أثناء الصّلاة یعد عبادة ضمن عبادة أخری، و لیس معناه القیام مباح ضمن العبادة، بعبارة ثالثة: إنّ ما یلائم روح العبادة هو الانشغال و الانصراف أثناءها إلی الأمور الخاصّة بالحیاة و الشخصیة، بینما التوجه إلی ما فیه رضی اللّه تعالی یتلائم بصورة تامّة مع روح العبادة و یؤکّدها.

و من الضروری أن تؤکّد هنا أن الذوبان فی التوجه إلی اللّه، لیس معناه أن یفقد الإنسان الإحساس بنفسه، و لا أن یکون بدون إرادة، بل الإنسان بإرادته یصرف عن نفسه التفکیر فی أی شیء لا صلة له باللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲

و الطّریف فی الأمر أنّ الفخر الرازی قد أوصله تطرّفه إلی الحدّ الذی اعتبر فیه ایماءة الإمام علی علیه السّلام إلی السائل بأصبعه- لکی یأخذ الخاتم- مصداقا للفعل الکثیر المنافی للصلاة، فی حین أن هناک أفعالا یمکن القیام بها أثناء الصّلاة أکثر بکثیر من تلک الإیماءة التی قام بها الإمام علیه السّلام، و فی نفس الوقت لا تضر و لا تمس الصّلاة بشیء، و من هذه الأفعال قتل الحشرات الضارة کالحیة و العقرب، و رفع الطفل من محله و وضعه فیه، و إرضاع الطفل الرضیع، و کل هذه الأفعال لا تعتبر من الفعل الکثیر فی نظر الفقهاء، فکیف یمکن القول بأن تلک الإیماءة تعتبر من الفعل الکثیر؟! و قد لا یکون هذا الخطأ غریبا عن عالم استولی علیه التطرف!

۳- أمّا الاعتراض الآخر فی هذا المجال، فهو أنّ کلمة (ولی) الواردة فی الآیة تعنی الصدیق و الناصر و أمثالهما، و لیست بمعنی المتصرف أو المشرف أو ولی الأمر.

الجواب: لقد بیّنا فی تفسیر هذه الآیة أن کلمة (ولی)- الواردة فیها- لا یمکن أن تکون بمعنی الصدیق أو الناصر، لأنّ هاتین الصفتین قد ثبتت شمولیتهما لکل المسلمین المؤمنین، و لیستا منحصرتین بالمؤمنین المذکورین فی الآیة و الذین یقیمون الصّلاة و یؤتون الزّکاة أثناء الرکوع، و بعبارة أخری: إنّ الصداقة و النصرة حکمان عامان، بینما الآیة- موضوع البحث- تهدف إلی بیان حکم خاص بشخص واحد.

۴- و قالوا- أیضا- أنّ علیّا علیه السّلام لم یکن یمتلک شیئا من حطام الدنیا حتی تجب علیه الزّکاة، و لو قلنا بأنّ المراد فی الآیة هو الصداقة المستحبة فهی لا تسمی زکاة؟! الجواب:

أوّلا: إنّ التّأریخ لیشهد علی امتلاک علی علیه السّلام المال الوفیر الذی حصل علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳

من کدّ یمینه و عرق جبینه و تصدق به فی سبیل اللّه، و قد نقلوا فی هذا المجال أنّ علیّا علیه السّلام أعتق و حرر ألف رقبة من الرقیق، کان قد اشتراهم من ماله الخاص الذی کان حصیلة کدّه و معاناته، أضف إلی ذلک فقد کان علیه السّلام یحصل- أیضا- علی حصته من غنائم الحرب، و علی هذا الأساس فقد کان علی علیه السّلام یمتلک ذخیرة بسیطة من المال، أو من نخلات التمر ممّا یتعین فیهما الزّکاة.

و نحن نعلم- أیضا- ان الفوریة الواجبة فی أداء الزّکاة هی «فوریة عرفیة» لا تتنافی مع أداء الصّلاة، أی لا فرق فی أداء الزّکاة سواء کان وقت الأداء قبل وقت الصّلاة أو أثناءها.

ثانیا: لقد أطلق القرآن الکریم فی کثیر من الحالات کلمة الزّکاة علی الصدقة المستحبة، و بالأخص فی السور المکیة، حیث وردت هذه الکلمة للدلالة علی الصدقة المستحبة، لأنّ وجوب الزّکاة کان قد شرع بعد هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینة، کما فی (الآیة ۳ من سورة النمل، و الآیة ۳۹ من سورة الروم، و الآیة ۴ من سورة لقمان، و الآیة ۷ من سورة فصلت و غیرها).

۵- و یقولون: إنّهم حتی لو أذعنوا بأن علیا علیه السّلام هو الخلیفة بعد النّبی مباشرة، فهذا لا یعنی أن یکون علی علیه السّلام ولیا فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ ولایته فی زمن النّبی لم تکن ولایة فعلیة، بل کانت ولایة بالقوة، و أن ظاهر الآیة- موضوع البحث- یدل علی الولایة الفعلیة.

الجواب:

نلاحظ کثیرا فی کلامنا الیومی- و کذلک فی النصوص الأدبیة- اطلاق اسم معین أو صفة خاصّة علی أفراد لا یتمتعون بمزایاها الفعلیة، بل یمتلکون المزیة أو المزایا بالقوة، و هذا مثل أن یوصی انسان فی حیاته و یعین لنفسه وصیا و قیما علی أطفاله فیکون الشخص الثّانی فور اقرار الوصیة من قبل الشخص الأوّل وصیا و قیما، و یدعی بهذین العنوانین حتی لو کان الإنسان الموصی باقیا علی قید

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴

الحیاة.

و نحن نقرأ فی الرّوایات التی نقلت فی أسانید الشّیعة و السنّة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بحقّ علی علیه السّلام أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا علیا: وصیه و خلیفته، فی حین أن هذین العنوانین لم یکونا لیتحققا فی زمن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و القرآن المجید- أیضا- یشتمل علی مثل هذه التعابیر، و من ذلک ما ورد عن (زکریا) الذی توسل إلی اللّه بقوله: .. فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ ..[۲۷] و المعروف أنّ المراد- هنا- من کلمة (ولی) المشرف الذی یتولی شؤون الإشراف بعد الموت کما یعیّن الکثیر من الناس فی حیاتهم من یقوم مقامهم بعد الموت، و یسمّی الشخص المعین منذ لحظة تعیینه بالنائب أو الخلیفة مع کون هذه الصفات بالقوة، و لیست بالفعل.

۶- و احتجّوا- أیضا- بقولهم: لماذا لم یعتمد علی علیه السّلام علی هذا الدلیل الواضح للدفاع عن حقّه؟

الجواب:

لقد لاحظنا- من خلال البحث الذی تناول الرّوایات فی سبب نزول هذه الآیة- أن هذا الحدیث قد نقل فی کتب عدیدة عن الإمام علی علیه السّلام نفسه، و من ذلک ما جاء فی مسند «ابن مردویه» و «ابن الشّیخ» و «کنز العمال» و هذا بذاته دلیل علی استدلال الامام علی علیه السّلام بهذه الآیة الشریفة.

و نقل فی کتاب (الغدیر) القیم عن کتاب (سلیم بن قیس الهلالی) حدیث مفصل مفاده أنّ علیّا علیه السّلام حین کان منشغلا بحرب

صفين، تحدث فى ميدان الحرب امام جمع من الناس مستدلا بدلائل عديدة فى إثبات حقّه، و كان من جملة ما استدل به الإمام عليه السّلام هذه الآية الكريمة[۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵

و جاء فى كتاب (غاية المرام) نقلا عن أبى ذر رضى اللّه عنه أنّ عليّا عليه السّلام استدل فى يوم الشورى بهذه الآية[۲۹].

۷- و قد ادعوا- أيضا- أنّ هذا التّفسير الذى أوردناه موضوع البحث لا يتناسب أو لا يتلاءم مع الآيات الواردة قبل و بعد هذه الآية، لأن تلك الآيات جاءت فيها كلمة «الولاية» بمعنى الصداقة.

الجواب:

لقد قلنا مرارا- أنّ الآيات القرآنية بسبب نزولها بصورة تدريجية، و بحسب الوقائع المختلفة تكون دائما ذات صلة بالأحداث التى نزلت الآيات فى شأنها، أى أنّ الآيات الواردة فى سورة واحدة أو الآيات المتعاقبة، ليست دائما ذات مفهوم مترابط، كما لا تشير دائما إلى معنى واحد، و لذلك يحصل كثيرا أن تروى لآيتين متعاقبتين حادثتان مختلفتان أو سببان للنزول، و تكون النتيجة أن ينفصل مسير و اتجاه كل آية- لصلتها بحادثة خاصّة- عن مسير الآية التّالية لها لاختلاف الحادثة التى نزلت بشأنها، و بما أنّ آية إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ... بدلالة سبب نزولها جاءت فى شأن تصدق الإمام على عليه السّلام أثناء الركوع، أمّا الآيات السابقة و اللاحقة لها- كما رأينا و سنرى- فقد نزلت فى أحداث أخرى، لذلك لا يمكن الاعتماد- هنا كثيرا على مسألة ترابط المفاهيم فى الآيات.

و هناك نوع من التناسب بين الآية- موضوع البحث- و الآيات السابقة و اللاحقة لها، لأنّ الآيات الأخرى تضمنت الحديث عن الولاية بمعنى النصرة و الإعانة، بينما الآية- موضوع البحث- تحدثت عن الولاية بمعنى القيادة و التصرف، و بديهى أنّ القائد و الزعيم و المتصرف فى أمور جماعة معينة، يكون فى نفس الوقت حاميا و ناصرا و صديقا و محبا لجماعته، أى أن مسألة النصرة و الحماية تعتبر من مستلزمات و شؤون الولاية المطلقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶

۸- و أخيرا قالوا: من أين أتى على عليه السّلام بذلك الخاتم النفيس؟

و سألوا أيضا: ألا يعتبر ارتداء خاتم بتلك القيمة العالية نوعا من الإسراف؟

ألا تعتبر هذه الأمور دليلا على عدم صحة التّفسير المذكور.

الجواب:

إنّ المبالغات الواردة بشأن قيمة الخاتم الذى تصدق به على عليه السّلام أثناء الركوع لا أساس لها مطلقا، و لا يقوم عليها أى دليل مقبول- و ما جاء فى قيمة ذلك الخاتم من أنّه كان يعادل خراج الشام مبالغة أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة، و قد جاء ذلك فى رواية ضعيفة[۳۰] و لعل هذه الرواية وضعت لتشويه حقيقة القضية الأصلية و إظهارها بمظهر الأمر التافه، و قد خلت الرّوايات الصحيحة- التى وردت حول سبب نزول هذه الآية- من أى أثر لمثل هذه الأسطورة.

و على هذا الإساس لم يتمكن أحد من تهميش هذه الواقعة التّأريخية التى أشارت إليها الآية الكريمة- بمثل هذه الحكاية التافهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۵۶]

اشارة

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (۵۶)

التّفسير

جاءت هـذه الآيـة مكملـة لمضـمون الآيـة السابقـة، و هى تؤكّـد و تتابع الهدف المقصود فى تلك الآية، و تعلن للمسـلمين أنّ النصـر سيكون حليف أولئك الذين يقبلون القيادة المتمثلة فى اللّه و رسوله و الذين آمنوا، الذين أشارت إليهم الآية السابقة.

و تصف الآيـة الـذين قبلوا بهـذه القيـادة بأنّهم من حزب اللّه المنصورون دائما، حيث تقول وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و تشـتمل هذه الآية- أيضا- على قرينة أخرى تؤكّد المعنى المذكور فى تفسير الآية السابقة لكلمة (الولاية) و هو الإشراف و التصرف و الزعامـة، لأنّ عبارة (حزب اللّه) و التأكيـد على أنّ الغلبـة تكون لهـذا الحزب- فى الآية- لهما صـلة بالحكومة الإسـلامية، و لا علاقة لهما بقضـية الصداقـة التى هى أمر بسـيط و عادى، و هـذا يؤكّـد بنفسه أنّ الولايـة- الواردة فى الآيـة- تعنى الأشـرف و الحكم القيادة بالإسلام و المسلمين، لأنّ معنى الحزب يتضمن التنظيم و التضامن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸

و الاجتماع لتحقيق أهداف مشتركة.

و يجب الانتبـاه إلى نقطـة مهمّـة و هى أنّ المراد بعبـارة الَّذِينَ آمَنُـوا الـواردة فى هـذه الآيـة ليسـوا جميـع الأفـراد المؤمنين، بـل ذلك الشخص الذى ذكر فى الآية السابقة و أشير إليه بأوصاف معينة.

أمّا قضـية الغلبة أو الإنتصار كفلته الآية لحزب اللّه فهل هو الإنتصار المعنوى وحده، أم يشـمل الإنتصار على كل الأصـعدة و فى جميع المجالات المادية و المعنوية؟

لا شك أنّ الإطلاق فى الآيـة الكريمة يدل على الإنتصار الشامل فى جميع الجبهات، و بديهى أنّ أى جماعة تنضوى تحت لواء حزب اللّه، أى تتحلى بالإيمان القوى و تلتزم التقوى و تـدأب على العمل الصالـح و تسـعى إلى الاتحاد و التكافل و التضامن و تتمتع بالوعى الكافى، فهى لا شك ستنال النصر فى كل المجالات و على جميع الأصعدة، و العجز الذى نشهده اليوم بين المسلمين عن نيل مثل هذا الإنتصار إنّما هو بسـبب افتقارهم- فى الغالب- إلى الصفات التى ذكرناها أعلاه، و التى هى صفات الأفراد المنضوين تحت لواء حزب اللّه، و لـذلك فهم بـدلا من أن يسـتخدموا قـواهم و طاقـاتهم فى طرد الأعـداء و حـل مشـاكلهم الاجتماعيـة يصـرفون هـذه القوى فى إضعاف بعضهم البعض.

و قد ذكرت الآية (۲۲) من سورة المجادلة- أيضا- قسما من صفات حزب اللّه، سنأتى على شرحها بإذن اللّه عند تفسير هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۵۷ الى ۵۸]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِـذُوا الَّذِينَ اتَّخَـذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۵۷) وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۵۸)

سبب النّزول

جـاء فى تفاسـير (مجمـع البيـان) و (أبـو الفتوح الرازى) و (الفخر الرازى) أن اثنين من المشـركين يـدعيان (رفاعـة) و (سويـد) تظـاهرا

بإعلان الإسلام ثمّ انضما إلى المنافقين، و كان لبعض المسلمين صحبة مع هذين الشخصين و يظهرون لهما التودد، فنزلت الآيتان الأخيرتان و نهت هؤلاء المسلمين من عملهما ذلك (و يتّضح هنا أنّه حين تتحدث هاتان الآيتان عن الولاية فالمقصود هو الصّحبة و الصداقة و المودّة لأنّ سبب نزولهما يختلف عن سبب نزول الآيتين السابقتين، و لا يمكن اعتبار إحداهما قرينة للأخرى).

أمّا بخصوص سبب نزول الآية الثّانية من الآيتين الأخيرتين، فنقل أنّ جماعة من اليهود و بعضا من النصارى حين كانوا يسمعون صوت الأذان، أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰

حينما يرون المسلمين و هم يقيمون الصّلاة يبادرون إلى الاستهزاء بهم، لذلك حذر القرآن المجيد المسلمين عن التودد إلى هؤلاء و أمثالهم.

التّفسير

اشارة

يحذر القرآن فى الآية المؤمنين من اتّخاذ أصدقاء لهم من بين المنافقين و الأعداء، إلّا أنّه لأجل استثارة عواطف المؤمنين و استقطاب انتباههم إلى فلسفة هذا الحكم خاطبهم بهذا الأسلوب، كما تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَ لَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِياءَ و لتأكيد التحذير تقول الآية فى الختام: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ بمعنى أنّ التودد مع الأعداء و المنافقين لا يتناسب و التقوى و الإيمان أبدا.

«الهزو» هو الكلام المصحوب بحركات تصور السخرية، و يستخدم للاستخفاف و الاستهانة بشىء أو شخص معين، و فسّر «الراغب» فى كتابه (المفردات) الهزو بأنّه يقال لفعل المزاح و الاستخفاف الذى يصدر بشأن شخص فى غيابه، كما يطلق فى حالات نادرة على المزاح أو الاستخفاف الذى يحصل بشخص معين فى حضوره.

أمّا «اللعب» فهو الذى يصدر عبثا و بدون هدف صحيح، أو خاليا من أى هدف و سمّيت بعض أفعال الصبيان لعبا لنفس السبب.

و الآية الثّانية من الآيتين الأخيرتين تتابع البحث فى النهى عن التودد إلى المنافقين و جماعة من أهل الكتاب الذين كانوا يستهزئون بأحكام الإسلام، و تشير إلى واحد من ممارساتهم الاستهزائية دليلا و شاهدا على هذا الأمر، فتقول:

إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ...[۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۱

بعد ذلك تبيّن الآية الكريمة دوافع هذا الاستهزاء، فتذكر أنّ هذه الجماعة إنّما تفعل ذلك لجهلها و ابتعادها عن الحقائق، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

الأذان شعار اسلامى كبير:

إنّ لكل أمّة- فى أى عصر أو زمان كانت- شعار خاص بها تنادى به أفرادها و تستحث به همهم للقيام بواجباتهم الفردية و الاجتماعية، و يشاهد هذا الأمر فى عالمنا الحاضر بصورة أوسع.

فالمسيحيون ينادون قومهم و يدعونهم لحضور الصّلاة فى الكنائس بدق الناقوس و هذه هى طريقتهم و شعارهم سابقا و حاضرا.

و الإسلام جاء بالأذان شعارا لدعوة المسلمين، حيث يعتبر هذا الشعار أكثر تأثيرا و جاذبية فى نفوس الناس قياسا بشعارات الديانات و الأمم الأخرى، فقد ذكر صاحب تفسير (المنار) أنّ بعض المسيحيين المتطرفين حين يستمعون إلى أذان المسلمين لا يجدون بدأ من يعترفوا بتأثيره المعنوى العظيم فى نفوس سامعيه، و ينقل صاحب المنار- أيضا- أنّ بعضهم فى إحدى مدن مصر شاهد جماعة من النصارى كانوا قد اجتمعوا أثناء أذان المسلمين للاستماع إلى هذا اللحن السماوى.

فأى شعار أقرب إلى الذوق و آنس إلى الأسماع من شعار يبدأ بذكر اسم اللّه و يشهد بتوحيده و وحدانيته و بنبوة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يدعو إلى الفلاح و العمل الصالح، و ينتهى- كذلك- بذكر اللّه!! فبدايته اسم «اللّه» و ختامه اسم (اللّه) فى جمل موزونة متناغمة، ذات عبارات قصيرة واضحة المعنى و ذات محتوى تربوى بنّاء.

و لذلك أكّدت الرّوايات الإسلامية كثيرا على ضرورة أداء الأذان، فقد ورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۲

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديث معروف فى هذا المجال، أنّه قال: المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة[۳۲]

و هذا العلو هو نفس علو منزلة القيادة التى تدعو الناس إلى اللّه و إلى عبادة كالصّلاة.

إنّ صوت الأذان الذى ينطلق فى أوقات الصّلاة من مآذن المدن الإسلامية بمثابة نداء الحرية و النسيم الذى يهب الحياة لروح الاستقلال و المجد، و يدغدغ أذان المسلمين الأبرار و يثير الرعب و الخوف فى نفوس الأعداء الحاقدين، و يعتبر رمزا من رموز بقاء الإسلام، و الدليل على هذا الأمر اعتراف أحد رجالات انجلترا المعروفين الذى قال أمام جمع من المسيحيين: ما دام اسم النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يرفع على المآذن، و ما دامت الكعبة باقية و ما دام القرآن يهدى و يوجه المسلمين، فلا يمكن أن تترسخ قواعد سياسة الإنجليز فى الأراضى الإسلامية[۳۳].

و بالرّغم من ذلك فانّ بعض المسلمين البؤساء أزاحوا مؤخرا هذا الشعار الإسلامى العظيم- الذى هو سند و مستمسك حىّ على صمود و مقاومة دينهم و ثقافتهم على مر العصور- من إذاعاتهم و وضعوا مكانه برامج رخيصة، نسأل اللّه أن يهدى هؤلاء للعودة إلى صفوف المسلمين.

و من الطبيعى أنّ الأذان- لفحواه و محتواه الجميل البديع- يحتاج أدائه إلى صوت مقبول، لكى لا يشوّه الأداء غير المستساغ هذا المحتوى الجميل الجذاب.

نزول الأذان وحيا على النّبى:

وردت فى بعض الرّوايات المنقولة من طرق أهل السنة قصص غريبة حول تشريع الأذان لا تتناسب و لا تتلاءم مع المنطق الإسلامى، و ممّا نقلوا فى هذا الباب أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن سأله أصحابه عن إيجاد طريقة لمعرفة أوقات الصّلاة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۳

استشار الصحابة، فقدم كل منهم اقتراحا، و من ذلك رفع علم خاص فى أوقات الصّلاة أو إشعال نار، أو دق ناقوس، لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يوافق على أى من هذه الاقتراحات، ثمّ أن عبد اللّه بن زيد و عمر بن الخطاب- رأيا فى المنام- شخصا يأمرهما بأداء الأذان لإعلان وقت الصّلاة، و علمهما كيفية هذا الأذان، فقبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك ۳۴].

إنّ هذه الرواية المختلقة تعتبر اهانة لمنزلة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الرفيعة، حيث تدّعى أن النّبى- بدلا من أن يعتمد على الوحى- استند على حلم رآه أفراد من أصحابه فى تشريع الأذان.

و الصحيح فى هذا الباب ما

ورد فی روایـات أهل البیت علیهم السّـلام من أن الأذان نزل وحیا علی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، یحـدثنا الإمام الصّادق علیه السّـلام أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم کان واضـعا رأسه فی حجر علی علیه السّلام حین نزل جبرائیل بالأذان و الإقامة، فعلّمهما للنبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ رفع النّبی رأسه و سأل علیّا إن کان قد سمع صوت أذان جبرائیل، فردّ علی علیه السّلام بالإیجاب، فسأله النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم مرّة ثانیـة إن کان قد حفظ ذلک، فردّ علی علیه السّـلام بالإیجاب أیضا- ثمّ طلب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم من علی علیه السّلام أن ینادی بلالا- الذی کان یتمتع بصوت جید- و یعلمه الأذان و الإقامة، فاستدعی علی علیه السّلام بلالا و علمه الأذان و الإقامة[۳۵].

و للاستزادة من التفاصیل فی هذا الباب یمکن مراجعة کتاب (النص و الاجتهاد) للسید عبد الحسین شرف الدین- ص ۱۲۸.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۴

الآیتان [سورة المائدة (۵): الآیات ۵۹ الی ۶۰]

اشارة

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنَّ أَکْثَرَکُمْ فاسِـقُونَ (۵۹) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُکُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِـکَ مَثُوبَـةً عِنْـدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَیْهِ وَ جَعَـلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنـازِیرَ وَ عَبَـدَ الطَّاغُوتَ أُولئِکَ شَـرٌّ مَکاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِیلِ (۶۰)

سبب النّزول

اشارة

نقـل عن عبـد اللّه بن عبـاس أنّ جماعـة من الیهود جـاؤوا إلی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و طلبوا منه أن یشـرح لهم معتقـداته، فأخبرهم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه یؤمن باللّه الواحد الأحد، و یؤمن بأنّ کل ما نزل علی إبراهیم و إسـماعیل و إسـحاق و یعقوب و موسـی و عیسی و جمیع الأنبیاء هو الحقّ، و أنّه لا یفرق بین أنبیاء اللّه، فأجابوه بأنّهم لا یعرفون عیسی و لا یؤمنون بنبوّته، ثمّ قالوا للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّهم لا یعرفون دینا أسوأ من دینه! فنزلت هاتان الآیتان ردّا علی هؤلاء الحاقدین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۵

التّفسیر

فی هـذه الآیـة یـأمر اللّه نبیّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یسـأل أهل الکتاب عن سـبب اعتراضـهم و انتقادهم للمسـلمین، و هل أنّ الإیمان باللّه الواحد الأحد و الإعتقاد بما أنزل علی نبی الإسلام و الأنبیاء الذین سبقوه یجابه بالاعتراض و الانتقاد، حیث تقول الآیة:

قُلْ یا أَهْلَ الْکِتابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ ...[۳۶].

و تشـیر هذه الآیة- أیضا- إلی جانب آخر من جوانب صـلف و وقاحة الیهود و تطرفهم غیر المبرر، و نظرتهم الضـیقة الآحادیة الجانب التی دفعت بهم إلی الاستهانة بکل شخص و دین غیر أنفسهم و دینهم، و هم لتطرفهم ذلک کانوا یرون الحقّ باطلا و الباطل حقّا.

و تأتی فی آخر الآیـة عبارة تبیّن علّـة الجملـة السابقة، حیث تبیّن أن اعتراض الیهود و انتقادهم للمسـلمین الذین آمنوا باللّه و بکتبه، ما

هو إلّا لأنّ أكثر اليهود من الفاسقين الذين انغمسوا فى الذنوب، و لذلك فهم- لانحرافهم و تلوثهم بالآثام- يعيبون على كل انسان ظاهر اتباعه للصواب و سيره فى طريق الحقّ حيث تؤكّد الآية: وَ أَنَّ أَكْثَرَكُمْ فاسِقُونَ

و بديهى أنّ المقاييس فى محيط موبوء بالفساد و الفسق، تنقلب- أحيانا- بحيث يصبح الحقّ باطلا و الباطل حقا، و يصبح العمل الصالح و الإعتقاد النزيه شيئا قبيحا مثيرا للاعتراض و الانتقاد، بينما يعتبر كل عمل قبيح شيئا جميلا جديرا بالاستحسان و المديح، و هذه هى طبيعة المسخ الفكرى الناتج عن الانغماس فى الخطايا و الذنوب إلى درجة الإدمان.

و تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الآية تنتقد جميع أهل الكتاب، و واضح أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۶

عزلت حساب الأقلية الصالحة بدقة عن الأكثرية الآثمة باستخدام كلمة (أكثركم) فى العبارة الأخيرة منها.

الآية الثّانية تقارن المعتقدات المحرفة و أعمال أهل الكتاب و العقوبات التى تشملهم بوضع المؤمنين الأبرار من المسلمين لكى يتبيّن أى الفريقين يستحق النقد و التقريع، و هذا بذاته جواب منطقى للفت انتباه المعاندين و المتطرفين فى عصبيتهم.

و فى هذه المقارنة تطلب الآية من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يسأل هؤلاء: هل أنّ الإيمان باللّه الواحد و بكتبه التى أنزلها على أنبيائه أجدر بالنقد و الاعتراض، أم الأعمال الخاطئة التى تصدر من أناس شملهم عقاب اللّه؟

فتخاطب الآية النّبى بأن يسأل هؤلاء: إن كانوا يريدون التعرف على أناس لهم عند اللّه أشد العقاب جزاء ما اقترفوه من أعمال، حيث تقول: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ...[۳۷].

و لا شك أنّ الإيمان باللّه و كتبه ليس بالأمر غير المحمود، و أن المقارنة الجارية فى هذه الآية بين الإيمان و بين أعمال و أفكار أهل الكتاب، هى من باب الكناية، كما ينتقد انسان فاسد إنسانا تقيا فيسأل الإنسان التقى ردا على هذا الفاسد: أيّهما أسوأ الأتقياء أم الفاسدون.

بعد هذا تبادر الآية إلى شرح الموضوع، فتبيّن أنّ أولئك الذين شملتهم لعنة اللّه فمسخهم قرودا و خنازير، و الذين يعبدون الطاغوت و الأصنام، إنّما يعيشون فى هذه الدنيا و فى الآخرة وضعا أسوأ من هذا الوضع، لأنّهم ابتعدوا كثيرا عن طريق الحقّ و عن جادة الصواب، تقول الآية الكريمة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۷

مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنازِيرَ وَ عَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ ۳۸].

و سنتطرق إلى معنى المسخ الذى يتغير بموجبه شكل الإنسان، و هل أنّ هذا التغير فى الشكل يشمل صورته الجسمية، أم المراد التغير الفكرى و الأخلاقى؟

و ذلك عند تفسير الآية (۱۶۳) من سورة الأعراف، و بصورة مفصلة بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۸

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشارة

وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما كانُوا يَكْتُمُونَ (۶۱) وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۲) لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ (۶۳)

التّفسير

الآيـة الاـولى من هـذه آيات الثلاث- و اسـتكمالا للبحث الـذى تناولته الآيات السابقـة حول المنافقين- تكشف عن ظاهرة الازدواجية النفاقيـة عنـد هؤلاـء، و تنبّه المسـلمين إلى أنّ المنـافقين حين يأتونهم يتظاهرون بالإيمان و قلبهم يغمره الكفر، و يخرجون من عنـدهم المسـلمين و لاـ يزال الكفر يملأـ قلوبهم، حيث لاـ يترك منطق المسـلمين و اسـتدلالهم و كلاـمهم فى نفوس هؤلاـء المنـافقين أى أثر يذكر، تقول الآية الكريمة:

وَ إِذا جاؤُكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ... و لذلك يجب على المسـلمين أن لا ينخدعوا بهؤلاء الذين يتظاهرون بالحقّ و الإيمان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۹

و يبدون القبول لأقوال المسلمين رياء و كذبا.

و تؤكّد الآية أنّ المنافقين مهما تستروا على نفاقهم، فإنّ اللّه يعلم ما يكتمون.

ثمّ تبيّن الآيـة الأـخرى علائم من نوع آخر للمنافقين، فتشـير إلى أنّ كثيرا من هؤلاء فى انتهاجهم طريق العصـيان و الظلم و أكل المال الحرام، يتسابقون بعضهم مع بعضهم الآخر تقول الآية: وَ تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يُسارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ ...[۳۹] أى أن هؤلاء يسـرعون الخطى فى طريق المعاصـى و الظلم، و كأنّهم يسعون إلى أهداف تصنع لهم الفخر و المجد، و يتسابقون فيما بينهم فى هذا الطريق دون خجل أو حياء.

و تجدر الإشارة- هنا- إلى أنّ كلمة «إثم» قد وردت بمعنى (الكفر) كما وردت لتعنى جميع أنواع الذنوب أيضا، و بما أنّها اقترنت فى هـذه الآيـة بكلمـة (العدوان) قال بعض المفسّـرين: أنّها تعنى الذنوب التى تضـرّ صاحبها فقط، على عكس العدوان الذى يتعدى طوره صاحبه إلى الآخرين، كما يحتمل أن يكون مجيء كلمـة (العـدوان) بعـد كلمـة (الإثم) فى هـذه الآية، من باب ما يصـطلح عليه بذكر العام قبل الخاص، و أن مجيء كلمة «السحت» بعدهما هو من قبيل ذكر الأخص.

و عليه فـالقرآن قـد ذم المنـافقين، أوّلاـ لكـل ذنب اقترفوه، ثمّ خصـص ذنبين كبيرين لمـا فيهما من خطر- و هما الظلم و أكل الأموال المحرمة، سواء كانت ربا أم رشوة أم غير ذلك.

و خلاصة القول أن القرآن الكريم قد ذم هذه الجماعة من المنافقين من أهل الكتاب، لوقاحتهم و صـلفهم و تعنتهم فى ارتكاب أنواع الآثام و بالأخص الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۰

و أكل المال الحرام، و لكى يؤكّد القرآن قبح هذه الأعمال، قالت الآية: لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ....

و تدل عبارة كانُوا يَعْمَلُونَ على أنّ هذه الذنوب لم تكن تصدر عن هؤلاء صدفة، بل كانوا يمارسونها دائما مع سبق إصرار.

بعـد ذلـك تحمـل الآيـة الثالثـة على علمائهم الـذين أيّـدوا قومهم على ارتكاب المعاصـى بسـكوتهم، فتقول: لَوْ لا يَنْهاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكْلِهِمُ السُّحْتَ ....

و قد أشـرنا سابقا إلى أنّ كلمة (ربّانيون) هى صـيغة جمع لكلمة (ربّانى) المشتقة من كلمة (رب) و تعنى العالم أو المفكر الذى يدعو الناس إلى اللّه، لكنّها قد أطلقت فى كثير من الحالات على علماء المسيحيين، أى رجال الدين المسيحى.

أمّا كلمـة (أحبار) فهى صـيغة جمع لكلمـة (حبر) و هى تعنى العلماء الـذين يخلفون أثارا حسـنة فى المجتمع، لكنّها أطلقت فى موارد كثيرة على رجال الدين اليهود.

أمّا خلو هذه الآية من كلمة (العدوان) التى وردت فى الآية قبلها، فقد استدل بعضهم من ذلك على أن كلمة (الإثم) الواردة هنا تشمل

جميع المعانى التى تدخل فى إطار هذه الكلمة و من ضمنها (العدوان).

لقد وردت فى هذه الآية عبارة قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ التى تختلف عمّا ورد فى الآية السابقة، و لعل هذه إشارة إلى أن العلماء مكلفون بردع الناس عن النطق بما يشوبه الذنب من قول، كما هم مكلّفون بمنع الناس عن ارتكاب العمل السىء، و لربّما تكون كلمة (قول) الواردة هنا بمعنى (العقيدة) أى أن العلماء الذين يهدفون إلى إصلاح أى مجتمع فاسد، عليهم أوّلا أن يصلحوا أو يغيروا المعتقدات الفاسدة التى تشيع فى هذا المجتمع، فما لم يحصل التغيير الفكرى لا- يمكن توقع حصول اصلاحات جذرية فى الجوانب العملية، و بهذه الصورة تبيّن الآية للعلماء أنّ الثورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۱

الفكرية هى الأساس و المنطلق لكل إصلاح يراد تحقيقه فى كل مجتمع فاسد.

و فى الختام، يمارس القرآن الكريم نفس أسلوب الذم الذى اتّبعه مع أهل المعاصى الحقيقيين، فيذم العلماء الساكتين الصامتين التاركين للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و يقبح صمتهم هذا، كما تقول الآية: لَبِئْسَ ما كانُوا يَصْنَعُونَ

و هكذا تبيّن أنّ مصير الذين يتخلون عن مسئولية الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر العظيمة و خاصة إن كانوا من العلماء يكون كمصير أصحاب المعاصى، و هؤلاء فى الحقيقة شركاء فى الذنب مع العاصين.

و نقل عن ابن عباس المفسّر المعروف قوله: بأنّ هذه الآية أعنف آية و بخت العلماء المتجاهلين لمسؤولياتهم الصامتين عن المعاصى.

و بديهى أنّ هذا الحكم لا ينحصر فى علماء اليهود و النصارى، بل يشمل كل العلماء مهما كانت دياناتهم إن هم سكتوا و صمتوا أمام تلوث مجتمعاتهم بالذنوب و تسابق الناس فى الظلم و الفساد، ذلك لأنّ حكم اللّه واحد بالنسبة لجميع البشر.

و ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه، أنّ سبب هلاك الأقوام السابقة هو ارتكابهم للمعاصى و سكوت علمائهم عليهم و امتناعهم عن النهى عن المنكر فكان ينزل عليهم- لهذا السبب- البلاء و العذاب من اللّه، و أن على الناس أن يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر لكى لا يتورطوا بمصير أولئك الأقوام ۴۰].

كما ورد بنفس هذا المضمون

كلام للإمام على عليه السّلام فى (نهج البلاغة) فى آخر خطبته القاصعة (الخطبة ۱۹۲) قوله عليه السّلام: «فإنّ اللّه سبحانه لم يلعن القرن الماضى بين أيديكم إلّا لتركهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فلعن السفهاء لركوب المعاصى و الحلماء لترك التناهى ...».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۲

و يلفت الانتباه هنا أيضا أنّ الآية السابقة حين كانت تتحدث عن سواد الناس جاءت بعبارة (يعملون) بينما حين صار الحديث فى هذه الآية عن العلماء جاءت بعبارة (يصنعون) و الصنع هو كل عمل استخدمت فيه الدقة و المهارة، بينما العمل يطلق على جميع الأفعال حتى لو كانت خالية من الدقة، هكذا فإن هذه العبارة (يصنعون) تتضمن بحدّ ذاتها ذما أكبر، و ذلك لأنّ سواد الناس إن ارتكبوا ذنبا يكون ارتكابهم هذا- غالبا- بسبب جهلهم، بينما العالم الذى لا يؤدى واجبه فهو يرتكب إثما عن دراية و علم و تفكير، و لهذا يكون عقابه أشد و أعنف من عقاب الجاهل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶۴]

اشارة

وَ قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۶۴)

التّفسير

تبرز هـذه الآيـة واحـدا من المصاديق الواضـحة للأقوال الباطلة التى كان اليهود يتفوهون بها، و قد تطرقت الآية السابقة إليها- أيضا- و لكن على نحو كلى.

و يتحدث لنا التّأريخ عن فترة من الوقت كان اليهود فيها قد وصلوا إلى ذروة السلطة و القدرة، و كانوا يمارسون الحكم على قسم مهم من المعمورة، و يمكن الاستشهاد بحكم سليمان و داود كمثال على حكم الدولة اليهودية، و قد استمر حكم اليهود بعدهما بين رقى و انحطاط حتى ظهر الإسـلام، فكان إيذانا بأفول الدولة اليهودية، و بالأخص فى الحجاز، إذ أدى قتال النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ليهود بنى النضير و بنى قريظة و يهود خيبر إلى إضعاف سلطتهم بصورة نهائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۴

و فى ذلك الوضع كان البعض من اليهود حين يتذكرون سـلطتهم القوية السابقة، كانوا يقولون اسـتهزاء و سخرية- إنّ يد اللّه أصبحت مقيـدة بالسـلاسل (و العياذ باللّه) و أنّه لم يعد يعطف على اليهود! و يقال: أنّ المتفوه بهذا الكلام كان الفخاس بن عازوراء رئيس قبيلة بنى القينقاع، أو النباش بن قيس كما ذكر بعض المفسّرين.

و بما أنّ سائر أبناء الطائفة اليهودية أظهروا الرضـى عن أقوال كبار قومهم هؤلاء، لذلك جاء القرآن لينسب هذه الأقوال إلى جميعهم، كما تقول الآية: قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ....

و يجب الانتباه إلى أنّ كلمـة (اليـد) تطلق فى اللغـة العربية على معان كثيرة و منها (اليد العضوية) كما أن معانيها (النعمة) و (القدرة) و (السلطة) و (الحكم)، و بديهى أنّ المعنى الشائع لها هو اليد العضوية.

و لما كان الإنسان ينجز أغلب أعماله المهمّة بيده، فقد أطلقت من باب الكناية على معان أخرى.

و تفيـدنا الكثير من الرّوايـات الواردة عن أهل البيت عليهم السّـلام أنّ هـذه الآيـة تشـير إلى ما كان اليهود يعتقـدون به حول القضاء و القدر و المصير و الإرادة، حيث كانوا يذهبون إلى أنّ اللّه قد عين كل شىء منذ بدء الخليقة، و أنّ كل ما يجب أن يحصل قد حصل، و أنّ اللّه لا يستطيع من الناحية العملية إيجاد تغيير فى ذلك ۴۱].

و بـديهى أنّ تتمـة الآيـة التى تتضـمن عبارة بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ كما سـيأتى شـرحه- تؤيـد المعنى الأوّل، كما يمكن أن يقترن المعنى الثّانى بالمعنى الأوّل فى مسـير واحد، لأنّ اليهود حين أفل نجم سـلطانهم، كانوا يعتقدون أن هذا الأفول هو مصـيرهم المقدر، و أنّ يد اللّه مقيدة لا تستطيع فعل شىء أمام هذا المصير.

و اللّه تعالى يرد على هؤلاء توبيخا و ذما لهم و لمعتقدهم هذا بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۵

غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِما قالُوا ... ثمّ لكى يبطل هـذه العقيـدة الفاسدة يقول سـبحانه و تعالى بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشاءُ ... فلا إجبار فى عمل اللّه كما أنّه ليس محكوما بالجبر الطبيعى و لا الجبر التّأريخى، بل أنّ إرادته فوق كل شىء و تعمل فى كل شىء.

و الملفت للنظر هنا أنّ اليهود ذكروا اليد بصـيغة المفرد كما جاء فى الآية موضوع البحث، لكن اللّه تعالى من خلال رده عليهم قد ثنّى كلمـة اليـد فقال: بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ و هذا بالإضافة إلى كونه تأكيدا للموضوع، هو كناية لطيفة تظهر عظمة جود اللّه و عفوه، و ذلك لأنّ الكرماء جـدّا يهبون ما يشاءون للغير بيـدين مبسوطتين، أضف إلى ذلك أنّ ذكر اليـدين كنايـة عن القدرة الكاملة، أو ربّما يكون

إشارة إلى النعم المادية و المعنوية، أو الدنيوية و الأخروية.

ثمّ تشير الآية إلى أنّ آيات اللّه التى تفضح أقوال و معتقدات هؤلاء تجعلهم يوغلون أكثر فى صلفهم و عنادهم و يتمادون فى طغيانهم و كفرهم بدلا من تأثيرها الايجابى فى ردعهم عن السير فى نهجهم الخاطئ حيث تقول الآية الكريمة:

وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً ....

بعد ذلك تؤكّد الآية على أن صلف هؤلاء و طغيانهم و كفرهم سيجر عليهم الوبال، فينالهم من اللّه عذاب شديد فى هذه الدنيا، من خلال تفشى العداء و الحقد فيما بينهم حتى يوم القيامة، فتقول الآية الكريمة: وَ أَلْقَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ ....

و قد اختلف المفسّرون فى معنى عبارة الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ الواردة فى هذه الآية، لكنّنا لو تغاضينا عن الوضع الاستثنائى غير الدائم الذى يتمتع به اليهود فى الوقت الحاضر، و نظرنا إلى تاريخ حياتهم المقترن بالتشتت و التشرد، لثبت لدينا أنّ هناك عامل واحد لهذا الوضع التّأريخى الخاص لهؤلاء، و هو انعدام الاتحاد و الإخلاص فيما بينهم على الصعيد العالمى، فلو كان هؤلاء يتمتعون بالوحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۶

و الصدق فيما بينهم، لما عانوا طيلة تاريخ حياتهم من ذلك التشرد و الضياع و التشتت و التعاسة.

و قد شرحنا قضية العداوة و البغضاء الدائمة بين أهل الكتاب بشىء من التفصيل عند تفسير الآية (۱۴) من نفس هذه السورة.

و تشير الآية- فى الختام- إلى المساعى و الجهود التى كان يبذلها اليهود لتأجيج نيران الحروب، و عناية اللّه و لطفه بالمسلمين فى انقاذهم من تلك النيران المدمرة الماحقة، فتقول كُلَّما أَوْقَدُوا ناراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ....

و تعتبر هذه الظاهرة إحدى معاجز حياة النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ اليهود كانوا الأقوى بين أهل الحجاز و الأعرف بمسائل الحرب، بالإضافة إلى ما كانوا يمتلكون من قلاع حصينة و خنادق منيعة، ناهيك عن قدرتهم المالية الكبيرة التى كانت لهم عونا فى كل صراع بحيث أن قريشا كانوا يستمدون العون منهم، و كان الأوس، و الخزرج يسعى كل منهما إلى التحالف معهم و كسب صداقتهم و نيل العون منهم فى المجال العسكرى، لكنّهم فقدوا فجأة قدرتهم المتفوقة- هذه- و طويت صفحة جبروتهم دفعة واحدة، بشكل لم يكن متوقعا لديهم، فاضطر يهود بنى النضير و بنى قريظة و بنى القينقاع إلى ترك ديارهم، كما استسلم نزلاء قلاع خيبر الحصينة و سكان فدك من اليهود خاضعين للمسلمين، و حتى أولئك الذين كانوا يقطنون فى فيافى الحجاز منهم اضطروا إلى الخضوع أمام عظمة الإسلام، فهم بالإضافة إلى عجزهم عن نصرة المشركين اضطروا إلى ترك ميدان النزال و الصراع.

ثمّ تبيّن الآية- أيضا- أنّ هؤلاء لا يكفون عن نثر بذور الفتنة و الفساد فى الأرض فتقول: وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً ... و تؤكّد أيضا قائلة: وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

و يستدلّ من هذا على أن أسلوب المواجهة القرآنى لليهود لم يكن يتركز على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۷

أساس عنصرى مطلقا، بل أن المعيار الذى استخدمه القرآن فى توجيه النقد إليهم، هو معيار الأعمال التى يمكن أن تصدر من أى جنس و عنصر أو طائفة، و سنلاحظ فى الآيات القادمة أنّ القرآن على الرغم من كل ما صدر من هؤلاء، قد ترك باب التوبة مفتوحا أمامهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۸

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۵ الى ۶۶]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۶۵) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ (۶۶)

التّفسير

بعد أن وجهت الآيات السابقة النقد لنهج و أسلوب أهل الكتاب، جاءت هاتان الآيتان وفقا لما تقتضيه مبادئ التربية الإنسانية لتفتحا باب العودة و التوبة أمام المنحرفين من أهل الكتاب، لكى يعودوا إلى الطريق القويم، و لتريهم الدرب الحقيقى الذى يجب أن يسيروا فيه، و لتثمن دور تلك الأقلية من أهل الكتاب التى عاشت فى ذلك العصر لكنّها لم تواكب الأكثرية فى أخطائها، فتقول الآية الاولى فى البدء: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

بل ذهبت إلى أبعد من هذا فوعدتهم بالجنّة و نعيمها، إذ قالت: وَ لَأَدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ و هذه إشارة إلى النعم المعنوية الأخروية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۷۹

ثمّ تشير الآية الثّانية إلى الأثر العميق الذى يتركه الإيمان و التقوى- فى الحياة الدنيوية للإنسان، فتؤكّد أنّ أهل الكتاب لو طبقوا التّوراة و الإنجيل و جعلوهما منهاجا لحياتهم و عملوا لكل ما نزل عليهم من ربّهم، سواء فى الكتب السماوية السابقة أو فى القرآن، دون تمييز أو تطرف لغمرتهم النعم الإلهية من السماء و الأرض، فتقول الآية: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ...

و بديهى أنّ المراد من اقامة التّوراة و الإنجيل هو اتّباعهم لما بقى من التّوراة و الإنجيل الحقيقيين فى أيديهم فى ذلك العصر، و لا يعنى اتّباع ما حرّف منهما و الذى يمكن معرفته من خلال القرائن.

و المراد بجملة ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ هو كل الكتب السماوية و الأحكام الإلهية، لأنّ هذه الجملة يفهم منها الإطلاق، و هى فى الحقيقة إشارة إلى النهى عن خلط العصبيات القومية بالوسائل الدينية الإلهية، فليس المهم كون هذا الكتاب عربيا أو ذلك الكتاب يهوديا، بل المهم هو الأحكام الإلهية الواردة فيهما و فى كل الكتب السماوية، أى أنّ القرآن أراد أن يطفئ- ما أمكنه ذلك- نار العصبية القومية عند هؤلاء، و يمهد السبيل إلى التغلغل فى أعماق نفوسهم و قلوبهم، لذلك فالضمائر الواردة فى هذه الآية تعود إلى أهل الكتاب و هى: (إليهم، من ربّهم، من فوقهم، و من تحت أرجلهم) و ما ذلك إلّا لكى يترك هؤلاء عنادهم و صلفهم، و لكى لا يتصوروا أنّ الخضوع و الاستسلام أمام القرآن يعنى استسلام اليهود للعرب، بل هو استسلام و خضوع لربّهم العظيم.

و لا شك أنّ المراد باقامة التّوراة و الإنجيل هو العمل بالمبادئ السماوية الواردة فيهما، لأنّ جميع المبادئ و التعاليم كما أسلفنا سابقا- التى جاء بها الأنبياء أينما كانوا- واحدة لا فرق بينها غير الفرق بين الكامل و الأكمل، و لا يتنافى هذا مع النسخ الذى ورد فى بعض الأحكام الواردة فى الشريعة اللاحقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۰

لأحكام وردت فى شريعة سابقة.

و مجمل القول هو أن الآية الأخيرة تؤكّد مرّة أخرى هذا المبدأ الأساسى القائل بأن اتباع التعاليم السماوية التى جاء بها الأنبياء، ليس لأعمار الحياة الآخرة التى تأتى بعد الموت فحسب، بل أنّ لها- أيضا- انعكاسات واسعة على الحياة الدنيوية المادية للإنسان، فهى تقوى الجماعات و تعزز صفوفها و تكثف طاقاتها، و تغدق عليها النعيم و تضاعف امكانياتها و تضمن لها الحياة السعيدة المقترنة بالأمن و الاستقرار.

و لو ألقينا نظرة على الثروات الطائلة و الطاقات البشرية الهائلة التى تهدر اليوم فى عالم الإنسان نتيجة للانحراف عن هذه التعاليم، و فى صنع و تكديس أسلحة فتّاكة، و فى صراعات لا مبرر لها و مساع هدامة لرأينا أن ذلك كله دليل حىّ على هذه الحقيقة، حيث أنّ

الثروات التى تستخدم لإشاعة الدمار فى هذا العالم- إذا أمعنا النظر جيدا- إن لم تكن أكثر حجما من الثروات التى تنفق فى سبيل البناء، فهى ليست بأقلّ منها.

إنّ العقول المفكرة التى تسعى و تعمل جاهدة- اليوم- لإكمال و توسيع انتاج الأسلحة الحربية، و لتوسيع بقعة النزاعات الاستعمارية، إنّما تشكل جزءا مهما من الطاقات البشرية الخلاقة التى طالما احتاجها المجتمع البشرى لرفع احتياجاته، و كم سيصبح وجه الدنيا جميلا و جذابا لو كانت كل هذه الطاقات تستغل فى سبيل الإعمار؟

و جدير بالانتباه هنا- أيضا- إلى أن عبارتى مِنْ فَوْقِهِمْ و مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ الواردتان فى الآية الأخيرة، معناهما أن نعم السماء و الأرض ستغمر هؤلاء المؤمنين، كما يحتمل أن تكونا كناية عن النعم بصورة عامّة كما ورد فى الآثار الأدبية العربية و غيرها قولهم: (إنّ فلانا غرق فى النعمة من قمة رأسه حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۱

أخمص قدمه).

كما أنّ هذه الآية تعد جوابا على أحد أقوال اليهود الذى ورد ذكره فى الآيات السابقة، حيث تؤكّد أنّ سبب انقطاع نعم اللّه عنهم، ليس هو ما زعموه من أن ذات اللّه المقدسة المنزهة قد شابها البخل (و العياذ باللّه) أو أن يده أصبحت مغلولة، بل لأنّ أعمالهم الخبيثة قد انعكست آثارها فى حياتهم المادية و المعنوية فسودتهما، فإن لم يتوبوا لن ينقذهم اللّه من آثار هذه الأعمال.

و فى الختام تشير الآية الكريمة إلى الأقلية الصالحة من أهل الكتاب الذين اختاروا طريق الاعتدال فى حياتهم خلافا لنهج الأغلبية المنحرفة، فعزل اللّه حسابهم عن حساب هذه الأكثرية الضالة، حيث تقول الآية: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ

و قد وردت عبارات مشابهة عن الأقلية الصالحة من أهل الكتاب، فى الآيتين (۱۵۹ و ۱۸۱) من سورة الأعراف، و الآية (۷۵) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۲

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۶۷]

اشارة

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۶۷)

التّفسير

اختيار الخليفة مرحلة انتهاء الرسالة:

إنّ لهذه الآية نفسا خاصا يميزها عمّا قبلها و عمّا بعدها من آيات، إنّها تتوجه بالخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده و تبيّن له واجبة، فهى تبدأ بمخاطبة الرّسول:

يا أَيُّهَا الرَّسُولُ و تأمره بكل جلاء و وضوح أن بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۴۲].

ثمّ لكى يكون التوكيد أشد و أقوى- تحذره و تقول: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ

ثمّ تطمئن الآية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و كأن أمرا يقلقه- و تطلب منه أن يهدئ من روعه و أن لا يخشى الناس: فيقول

له: وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

و فى ختام الآية إنذار و تهديد بمعاقبة الذين ينكرون هذه الرسالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۳

الخاصّة و يكفرون بها عنادا، فتقول: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ

أسلوب هذه الآية، و لحنها الخاص، و تكرر توكيداتها، و كذلك ابتداؤها بمخاطبة الرّسول يا أَيُّهَا الرَّسُولُ التى لم ترد فى القرآن الكريم سوى مرّتين، و تهديده بأنّ عدم تبليغ هذه الرسالة الخاصّة إنّما هو تقصير- و هذا لم يرد إلّا فى هذه الآية وحدها- كل ذلك يدل على أنّ الكلام يدور حول أمر مهم جدا بحيث أن عدم تبليغه يعتبر عدم تبليغ للرسالة كلها.

لقد كان لهذا الأمر معارضون أشداء إلى درجة أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قلقا لخشيته من أنّ تلك المعارضة قد تثير بعض المشاكل بوجه الإسلام و المسلمين، و لهذا يطمئنه اللّه تعالى من هذه الناحية.

هنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى- مع الأخذ بنظر الإعتبار تأريخ نزول هذه الآية- و هو قطعا فى أواخر حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ترى ما هذا الموضوع المهم الذى يأمر اللّه رسوله- مؤكّدا- أن يبلّغه للناس؟

هل هو ممّا يخص التوحيد و الشرك و تحطيم الأصنام، و هو ما تمّ حله للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و للمسلمين قبل ذلك بسنوات؟

أم هو ممّا يتعلق بالأحكام و القوانين الإسلامية، مع أنّ أهمها كان قد سبق نزوله حتى ذلك الوقت؟

أم هو الوقوف بوجه أهل الكتاب من اليهود و النصارى، مع أنّنا نعرف أنّ هذا لم يعد مشكلة بعد الانتهاء من حوادث بنى النضير و بنى قريظة و بنى قينقاع و خيبر و فدك و نجران؟

أم كان أمرا من الأمور التى لها صلة بشأن المنافقين، مع أنّ هؤلاء قد طردوا من المجتمع الإسلامى بعد فتح مكّة، و امتداد نفوذ المسلمين و سيطرتهم على أرجاء الجزيرة العربية كافة، فتحطمت قوتهم، و لم يبق عندهم إلّا ما كانوا يخفونه مقهورين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۴

فما هذه المسألة المهمّة- يا ترى- التى برزت فى الشهور الأخيرة من حياة رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحيث تنزل هذه الآية و فيها كل ذلك التوكيد؟

ليس ثمّة شك أنّ قلق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن لخوف على شخصه و حياته، و إنّما كان لما يحتمله من مخالفات المنافقين و قيامهم بوضع العراقيل فى طريق المسلمين.

هل هناك مسألة تستطيع أن تحمل كل هذه الصفات غير مسألة استخلاف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعيين مصير مستقبل الإسلام؟! سوف نرجع إلى مختلف الرّوايات الواردة فى الكثير من كتب السنة و الشيعة بشأن هذه الآية، لكى نتبيّن إن كانت تنفعنا فى إثبات الاحتمال الذى أوردناه آنفا، ثمّ نتناول بالبحث الاعتراضات و الانتقادات التى أوردها بعض المفسّرين من السنة حول هذا التّفسير.

نزول آية التبليغ:

على الرغم من أنّ الأحكام المتسرعة، و التعصبات المذهبية قد حالت- مع الأسف- دون وضع الحقائق الخاصّة بهذه الآية فى متناول أيدى جميع المسلمين بغير تغطية أو تمويه، إلّا أن هناك مختلف الكتب التى كتبها علماء من أهل السنة فى التّفسير و الحديث و التّأريخ، أوردوا فيها روايات كثيرة تقول جميعها بصراحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۸۴

ّ الآیة المذکورة قد نزلت فی علی علیه السّلام.

هذا الرّوایات ذکرها الکثیرون من الصحابة، منهم «زید بن أرقم» و «أبو سعید الخدری» و «ابن عباس» و «جابر بن عبد اللّه الأنصاری» و «أبو هریرة» و «البراء بن عازب» و «حذیفة» و «عامر بن لیلی بن ضمرة» و «ابن مسعود» و قالوا:

إنّها نزلت فی علی علیه السّلام و بشأن یوم الغدیر.

بعض هذه الأحادیث نقل بطریق واحد مثل روایة زید بن أرقم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۵

و بعضها نقل بأحد عشر طریقا، مثل روایة أبی سعید الخدری و روایة ابن عباس.

و بعضها نقل بثلاثة طرق، مثل روایة البراء بن عازب، أمّا العلماء الذین أوردوا هذه الرّوایات فی کتبهم فهم کثیرون، من بینهم:

الحافظ أبو نعیم الأصفهانی فی کتابه «ما نزل من القرآن فی علی» (نقلا عن «الخصائص» الصفحة ۲۹).

و أبو الحسن الواحدی النیسابوری فی «أسباب النّزول» الصفحة ۱۵۰.

و الحافظ أبو سعید السجستانی فی کتابه «الولایة» (نقلا عن کتاب «الطرائف»).

و ابن عساکر الشافعی (انظر «الدر المنثور» المجلد ۳ من الصفحة ۲۹۸).

و الفخر الرازی فی «تفسیر الکبیر» المجلد ۳ الصفحة ۶۳۶.

و أبو إسحاق الحموینی فی «فرائد السمطین».

و ابن الصباغ المالکی فی «الفصول المهمّة» الصفحة ۲۷.

و جلال الدین السیوطی فی «الدر المنثور» المجلد ۳ الصفحة ۲۹۸.

و القاضی الشوکانی فی «فتح القدیر» المجلد ۳ الصفحة ۵۷.

و شهاب الدین الآلوسی الشافعی فی «روح المعانی» المجلد ۶ الصفحة ۱۷۲.

و الشیخ سلیمان القندوزی الحنفی فی «ینابیع المودة» الصفحة ۱۲۰.

و بدر الدین الحنفی فی «عمدة القارئ فی شرح صحیح البخاری» المجلد ۸، الصفحة ۵۸۴.

و الشیخ محمّد عبده المصری فی تفسیر «المنار» المجلد ۶ الصفحة ۴۶۳.

و الحافظ ابن مردویه (المتوفی سنة ۴۱۶) (عن السیوطی فی «الدر المنثور»).

و جماعة کثیرون غیرهم أشاروا إلی سبب نزول هذه الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۶

و نحن لا نعنی- طبعا- أنّ العلماء و المفسّرین الذین مرّ ذکرهم قد قبلوا نزول الآیة فی علی علیه السّلام، بل نقصد أنّهم ذکروا- فقط- الرّوایات الخاصّة بذلک فی کتبهم، و لکنّهم بعد أن نقلوا تلک الرّوایات المعروفة، امتنعوا عن قبولها، إمّا خوفا من الظروف التی کانت تحیط بهم، و إمّا لأنّ التسرع فی الحکم وقف حائلا دون إصدار حکم سلیم فی أمثال هذه الأمور، بل لقد سعوا- قدر إمکانهم- أن یعتموا الرؤیة الصحیحة لها و یظهروها بشکل هامشی.

فهذا الرازی- مثلا- و هو المعروف بتعصبه المذهبی فی مسائل خاصّة، أدرج سبب نزول هذه الآیة کاحتمال عاشر بعد إیراده تسعة احتمالات أخری کلها واهیة و ضعیفة و لا قیمة لها.

و لیس هذا بمستغرب من الرازی، فهذا شأنه فی کل المواضیع. لکنّنا نتعجب من کتّاب مثقفین أمثال سید قطب، فی تفسیره «فی ظلال

القرآن» و محمّد رشيد رضا فى تفسيره «المنار»، الذين أهملوا- كليا- الإشارة إلى سبب نزول هذه الآية المذكور فى أمهات المصادر الإسلامية، أو ضعّفوا أهميته بحيث أصبح بتصويرهم لا يستلفت نظرا.

هل كانت الظروف المحيطة بهؤلاء لا تسمح لهم بذكر الحقيقة؟ أم أنّ حجب التعصب أكثف من أن تخترقها أشعة التنوير؟! لا ندرى!! و هناك آخرون اعتبروا نزول الآية فى على عليه السّلام أمرا مسلّما به، و لكنّهم ترددوا فى الإقرار بأنّها تدل على الولاية و الخلافة. و سنردّ- إن شاء اللّه- على إشكالات هؤلاء.

على كل حال، إنّ الرّوايات المنقولة فى كتب أهل السنّة المعروفة- دع عنك كتب الشيعة- فى هذا الموضوع من الكثرة بحيث لا يمكن إنكارها أو تجاوزها بسهولة.

لسنا ندرى لماذا يكتفى فى أسباب نزول سائر الآيات بحديث واحد أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۷

حديثين إثنين فقط، و لا تكون كل هذه الرّوايات الواردة بشأن نزول هذه الآية كافية؟! أفى هذه الآية من الخصوصية ما ليس فى الآيات الأخرى؟

ترى هل هناك دليل منطقى يسوّغ كل هذا التصلّب؟

ثمّة موضوع آخر لا بدّ من الإشارة إليه، هو أنّ الرّوايات التى ذكرناها فيما سبق تتعلق كلها بنزول هذه الآية فى على عليه السّلام، أى الرّوايات الخاصّة بسبب نزول هذه الآية فقط، أم الرّوايات الواردة عن حادثة غدير خم و خطبة الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إعلانه وصاية على عليه السّلام و ولايته، فإنّها أكثر بكثير من تلك، حتى أنّ العلّامة الأمينى رحمه اللّه ينقل فى كتابه «الغدير» حديث الغدير عن ۱۱۰ من صحابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع اسنادها، و عن ۸۴ من التابعين، و عن ۳۶۰ من العلماء و الأدباء المسلمين المعروفين بما لا يدع مجالا للشك فى أنّ حديث الغدير واحد من أوثق الأحاديث المتواترة، و لئن شك أحد فى تواتر هذه الرّوايات فإنّه لا يمكنه أن يقبل أى حديث متواتر آخر.

و لمّا كانت دراسة كل هذه الرّوايات الخاصّة بشأن نزول هذه الآية، و كذلك البحث فى الرّوايات الخاصّة بحادث الغدير، يتطلب تأليف كتاب ضخم يخرجنا عن طريقتنا فى التّفسير، فإنّنا نكتفى بهذا القدر، و نحيل طالب الاستزادة حول هذا الموضوع الى الكتب التّالية: «الدر المنثور» للسيوطى، و «الغدير» للعلّامة الأمينى، و «إحقاق الحقّ» للقاضى نور الدين التسترى، و «المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين، و «دلائل الصدق» للشيخ محمّد حسن المظفر.

حادثة الغدير بايجاز:

على الرغم من أنّ الرّوايات التى تذكر هذه الحادثة كثيرة و هى تصف واقعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۸

بعينها، فإنّ الرّوايات التى عبّرت عنها متنوعة، فبعض هذه الرّوايات مسهب مطوّل، و بعضها الآخر موجز مكثف، و بعضها يتناول جانبا معينا من الحادثة، و من مجموع تلك الرّوايات و من التّأريخ الإسلامى و من ملاحظة القرائن و الظروف المحيطة بوقوعها و بمكانها يتبيّن ما يلى:

أنّه فى السنة الأخيرة من حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أدّى المسلمون مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حجّة الوداع فى عظمة و جلال، و كان لهذه الحجة أثر كبير فى النفوس، و بعد انتهائها أحاطت بالقلوب هالة من السموّ الروحى، و تشرّبت فى الأعماق لذّة هذه العبادة الكبرى.

و كـانت الجموع الغفيرة[۴۳] من المسـلمين المشاركين فى تلك الحجّـة يكادون يطيرون فرحا لهذه السـعادة الكبرى التى شـرفهم اللّه بها.

لم يكن أهل المدينـة وحـدهم قد رافقوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى هذه الحجة، بل التحق بركبه مسـلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة فى هذه الحجّة.

كانت الشـمس ترسل أشـعتها اللافحـة المحرقـة على الوديان و السـهول لكن لـذّة هـذا السـفر الروحى يسّـرت كل شـىء. اقترب وقت الظهيرة، و اقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، و ظهرت من بعيد أرض «غدير خم» القاحلة الجافة المحرقة.

كانت المنطقة، فى الحقيقة تقع على مفترق طرق أربع حيث كان على الحجيج أن يتفرقوا إلى الوجهة التى يقصدونها فطريق يتجه إلى المدينة نحو الشمال، و آخر يوصل إلى العراق شرقا، و طريق الغرب يتجه إلى مصر، و طريق الجنوب يصل إلى اليمن. هاهنا كان لا بدّ أن يتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحلة و آخر ذكرياتها. و كان على المسـلمين أن يتلقوا آخر تكليف لهم، أو المرحلة النهائية من المهمات الناجحة التى اضطلع بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قبل أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۸۹

يتفرقوا إلى حال سبيلهم.

كان يوم الخميس من السـنة العاشـرة للهجرة، و قد مضت ثمانية أيّام على عيد الأضـحى، و إذا برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصـدّر أمره للحجيـج بـالتوقف، فراح المسـلمون يتنـادون الـذين فى مقدمـة الركب أن يعودوا، و انتظروا حتى يلتحق بهم من كان فى المؤخرة أيضا. كان الشـمس قد تخطت نقطة الزوال، و صـعد مؤذن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ينادى فى الناس لصلاة الظهر، و أخذ الناس يستعدون- مسرعين- لأداء الصّلاة.

كانت الرياح لافحـة محرقـة، حتى اضـطر بعضـهم إلى أن يضع قسـما من عباءته تحت قـدميه و قسـما منها فوق رأسه كى يتقى حرارة الحصى و أشعة الشمس.

ما كان فى تلك الصـحراء ما يسـتظل به، و لا ما تستريح إليه العين من خضـرة الأعشاب، اللّهم إلّا بضع شجيرات عجاف عارية تصارع حرارة الجو صراعا مريرا.

كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات و نشر رداءه عليها ليستظل به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الرياح الساخنة كانت تعصف بتلك المظلة فتنشر تحتها حرارة الشمس الحارقة.

انتهت صلاة الظهر. و هرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيرة التى كانوا يحملونها معهم يلوذون بها من حر الهاجرة. إلّا أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدوا لسماع رسالة إلهية، جديدة فى خطبته، و كان الذين يقفون على مسافة من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستطيعون رؤيته، لذلك

صنعوا له منبرا من أحداج الإبل ارتقاه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

«الحمد للّه و نستعينه و نؤمن به، و نتول عليه، و نعوذ به من شرور أنفسنا، و من سيئات أعمالنا الذى لا هادى لمن ضلّ، و لا مضلّ لمن هدى، و أشهد أن لا إله إلّا اللّه، و أنّ محمّدا عبده و رسوله.

أمّا بعد: أيّها الناس قد نبّأنى اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبىّ إلّا مثل نصف عمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۰

الذى قبله، و إنّى أوشك أن أدعى فأجيب، و إنى مسئول و أنتم مسئولون، فما ذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك بلّغت و نصحت و جهدت فجزاك اللّه خيرا.

قال: ألسـتم تشـهدون أن لا إله إلّا اللّه، و أن محمّـدا عبـده و رسوله، و أن جنّته حقّ، و ناره حقّ، و أن الموت حقّ، و أن الساعة آتية لا

ریب فیها، و أنّ اللّه یبعث من فی القبور؟

قالوا: بلی نشهد بذلک.

قال: اللّهم اشهد، ثمّ قال:

أیّها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

ثمّ ساد الجوّ صمت عمیق، و لم یسمع فیه سوی أزیز الریاح .. قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «... فانظروا کیف تخلفونی فی الثقلین».

فنادی مناد: و ما الثقلان، یا رسول اللّه؟

قال: الثقل الأکبر کتاب اللّه طرفٌ بید اللّه عزّ و جلّ، و طرف بأیدیکم فتمسکوا به لا تضلّوا، و الآخر الأصغر عترتی، و إنّ اللطیف الخبیر نبّأنی أنّهما لن یتفرّقا حتی یردا علیّ الحوض، فسألت ذلک لهما ربّی، فلا تقدّموهما فتهلکوا، و لا تقصروا عنهما فتهلکوا.

ثمّ أخذ بید علی فرفعها حتی رؤی بیاض آباطهما، و عرفه القوم أجمعون، فقال:

أیّها النّاس: من أولی الناس بالمؤمنین من أنفسهم؟

قالوا: اللّه و رسوله أعلم.

قال: إنّ اللّه مولای، و أنا مولی المؤمنین، و أنا أولی بهم من أنفسهم فمن کنت مولاه فعلیّ مولاه، «یقولها ثلاث مرات»، و فی لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: «أربع مرات». ثمّ قال: «اللّهم و ال من والاه، و عاد من عاداه، و أحبّ من أحبّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۱

و أبغض من أبغضه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله، و أدر الحقّ معه حیث دار، ألا فلیبلغ الشاهد الغائب».

ثمّ لم یتفرقوا حتی نزل أمین وحی اللّه بقوله: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ، وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی ... الآیة. فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«اللّه أکبر علی إکمال الدین، و إتمام النعمة، و رضی الرّب برسالتی و الولایة لعلی من بعدی».

ثمّ طفق القوم یهنئون أمیر المؤمنین علیه السّلام و ممن هنّأه أبو بکر و عمر کلّ یقول: بخّ بخّ لک یا ابن أبی طالب، أصبحت و أمسیت مولای و مولی کل مؤمن و مؤمنة.

و قال ابن عباس: وجبت و اللّه فی أعناق القوم.

و انبری حسان بن ثابت، شاعر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یستأذنه فی تخلید ذکری هذه الحادثة فی شعره، فقال:

یناديهم یوم الغدیر نبیّهمبخم و أسمع بالرّسول مناديا

فقال: فمن مولاکم و نبیّکم؟فقالوا، و لم یبدوا هناک التعامیا

إلهک مولانا و أنت نبیّناو لم تلق منا فی الولایة عاصیا

فقال له: قم یا علیّ فإنّنیرضیتک من بعدی إماما و هادیا

فمن کنت مولاه فهذا ولیهفکونوا له أتباع صدق و والیا

هناک دعا: اللّهم وال ولیهو کن للذی عادی علیا معادیا[۴۴]

محاورات و شبهات:

اشارة

ليس ثمّة شك فى أنّ هذه الآية، لو لم تكن قد نزلت فى خلافة على عليه السّلام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۲

لأكتفى فيها- كما قلنا- بأقل ممّا ورد فيها من روايات و من قرائن موجودة فى الآية نفسها، فكثير من كبار المفسّرين المسلمين يكتفون فى تفسير سائر الآيات القرآنية حتى بعشر الرّوايات الموجودة بشأن هذه الآية، أو أقل من ذلك. و لكن ممّا يؤسف له أنّ حجاب التعصب قد حال دون قبول كثير من الحقائق.

إنّ الذين يحملون لواء المخالفة تجاه تفسير هذه الآية و الرّوايات الكثيرة الواردة بشأن نزولها، و الرّوايات المتواترة بخصوص أصل حادثة الغدير، ينقسمون إلى قسمين:

قسم حمل منذ البداية روح العناد و التعنت، و حمل بشدّة على الشيعة بالإهانة و السب و الشتم.

و آخرون حافظوا- إلى حد ما- على الروح العلمية فى البحث و التحقيق، و تابعوا القضية عن طريق الاستدلال، و لذلك فهم يعترفون بجانب من الحقائق، و لكنّهم بعد إيرادهم بعض الإشكالات- التى ربّما كانت نتيجة لظروفهم الفكرية الخاصّة يتركون الوقوف عند الآية و الرّوايات المرتبطة بها.

و النموذج البارز الذى يمثل القسم الأوّل هو ابن تيمية فى كتابه «منهاج السنة» حيث يبدو فيه كمن يغمض عينيه فى رابعة النهار و يضع أصابعه فى أذنيه بشدّة، ثمّ ينادى: أين الشمس؟ فلا هو مستعد أن يفتح طرفا من عينه ليرى بعض الحقائق، و لا هو يرضى برفع أصابعه عن أذنيه كى يستمع الى ضجيج المحدثين و المفسّرين المسلمين، بل يستمر فى سبه و شتمه و إهاناته.

إنّ دافع هؤلاء هو الجهل و عدم الاطلاع و التعصب المقرون بالعناد، ممّا دفع بهم إلى إنكار البديهيات و الواضحات التى لا تخفى على أحد.

لذلك فنحن لا نجشم أنفسنا عناء نقل أقوالهم، و لا نحمل القراء عناء سماع إجاباتهم، فما ذا يمكن أن يقال لمن ينبرى بكل وقاحة لتجاهل هذا الحشد الكبير من كبار علماء الإسلام و المفسّرين- و معظمهم من أهل السنة- من الذين أعلنوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۳

أن تلك الآية قد نزلت بشأن على عليه السّلام فيدعى- متعاميا عن الحقّ- أن أحدا من العلماء لم يقل شيئا كهذا فى كتابه!! و ما قيمة قوله هذا ليستحق البحث فيه؟! من الجدير بالذكر أنّ ابن تيمية، فى محاولته تبرئة نفسه قبال كل هذه الكتب المعتبرة التى تقول بنزول هذه الآية بحق على عليه السّلام، يلجأ إلى تعبير مضحك، و يكتفى بقوله: «إن العلماء الذين يعرفون ما يقولون لا يرون أن هذه الآية قد نزلت فى على»!! فالظاهر «أنّ العلماء الذين يعرفون ما يقولون» هم أولئك الذين يضمون أصواتهم إلى أصوات ابن تيمية و عناده المفرط. أمّا من لا يضمّ صوته إليه فإنّه عالم لا يدرك ما يقول. و هذا منطق من ألقى العناد و حبّ الذات على عقله ظلالا مشؤومة، فلندع هؤلاء.

أمّا الشبهات التى أوردها القسم الثّانى من العلماء، فمنها ما يجدر بالبحث، و سوف نتناولها فيما يلى:

۱- هل معنى «المولى» هو «الأولى بالتصرف»؟

إنّ أهم اعتراض يورد على حادثة الغدير هو أنّ من معانى «مولى» الصديق و النصير و المحب، و من الممكن أن تكون الكلمة هنا بهذا المعنى أيضا.

ليس رد هذا الاعتراض بصعب، لأنّ كل ناظر منصف يدرك أن تذكير الناس بمحبّة على عليه السّلام لا يقتضى كل تلك المقدمات، لا إلقاء خطبة فى تلك الصحراء القاحلة و تحت ذلك الحر المحرق، و إيقاف تلك الجموع و انتزاع الاعترافات المتوالية منهم. إنّ حب المسلم لأخيه المسلم من المفاهيم الإسلامية الواضحة التى تقررت منذ بداية الدعوة.

ثمّ إنّ هذا الأمر لم یکن من الأمور التی لم یبلغها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی ذلک الوقت، بل ثبّته و أعلنه مرارا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۴

کما إنّه لم یکن من الأمور التی تثیر قلق رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تخوفه حتی یطمئنه اللّه تعالی بشأنه.

و لا کان أمرا علی هذا القدر من الأهمیة بحیث تتخذ الآیة هذا الأسلوب الشدید فی مخاطبة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ

کل هذه تدل علی أنّ الأمر کان أکثر من مجرّد محبّة عادیة تلک المحبّة التی کانت من أولیات الأخوة الإسلامیة منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامیة.

ثمّ، إذا کان القصد هو تبیان مثل هذه المحبة العادیة، فلما ذا یعمد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی استخلاص الاعترافات من الحاضرین قبل بیان قصده، فیسألهم:

«أ لست أولی بکم من أنفسکم»[۴۵]

؟ أ یتناسب هذا مع بیان محبّة عادیة؟

ثمّ إنّ المحبّة العادیة لا تستدعی من الناس، و حتی من عمر نفسه، أن یهنئ علیا علیه السّلام بقوله:

«أصبحت مولای و مولی کل مؤمن و مؤمنة»[۴۶].

حبّ المسلم واجب، و علیّ کسائر المسلمین، و یجب حبّه، و لیس فی ذلک شیء جدید یستوجب التهنئة فی ذلک الیوم و فی آخر سنة من حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ثمّ إنّ هناک ارتباطا بین حدیث «الثقلین»[۴۷] و عبارات وداع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و موالاة علی علیه السّلام، و إلّا فإنّ حبّ علی علیه السّلام حبّا عادیا لا یستدعی أن یجعله رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی مصافّ القرآن! أ فلا یری المنصف المحاید فی التعبیر الوارد فی حدیث الثقلین أنّ المسألة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۵

تتعلق بالقیادة، لأنّ القرآن هو القائد الأوّل للمسلمین بعد رحیل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أهل البیت علیهم السّلام هو القائد الثّانی؟

۲- ترابط الآیات

قد یقال أحیانا إنّ الآیات السابقة و اللاحقة علی هذه الآیة تخص أهل الکتاب و مخالفاتهم. و هذا ما یقول به صاحب تفسیر «المنار» فی المجلد ۶ صفحة ۴۶۶ و یصر علی ذلک.

و لکن لا ضیر فی ذلک- کما قلنا فی تفسیر الآیة نفسها- لأنّ اختلاف لحن الآیة یختلف عن مواضیع الآیات التی قبلها و بعدها. و ثانیا سبق أن قلنا مرارا أن القرآن لیس کتابا أکادیمیا یلتزم فی مواضیعه أسلوب التبویب و التقسیم إلی فصول و فقرات معینة، بل إنّ آیاته نزلت بحسب الحاجات و الحوادث و الوقائع المختلفة الطارئة.

لذلک نلاحظ أنّ القرآن فی الوقت الذی یتکلم عن إحدی الغزوات، ینتقل إلی ذکر حکم من الأحکام الفرعیة- مثلا- و فی الوقت الذی یتحدث عن الیهود و النصاری، یخاطب المسلمین و یذکرهم بأحد القوانین الإسلامیة السابقة. (راجع بحثنا فی بدایة تفسیر هذه الآیة لزیادة التوضیح).

من العجیب أنّ بعض المتعصبین یصرّون علی القول بأنّ هذه الآیة قد نزلت فی أوائل البعثة، مع أن سورة المائدة نزلت فی أواخر عمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. فإذا قالوا: إن هذه الآیة وحدها نزلت فی مکّة فی أوائل البعثة، ثمّ أدخلت فی هذه الآیة

للتناسب نقول: إن هذا على عكس ما تبحثون عنه تماما، لأننا نعرف أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أوائل البعثة لم يصطدم باليهود و لا بالنصارى. و عليه فإن ارتباط هذه الآية ينقطع بما قبلها و ما بعدها من آيات (تأمل بدقّة).

هذه كلها أدلة على أن هذه الآية قد تعرضت إلى هبوب عواصف التعصب،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۶

فأحاطت بها بعض علامات الاستفهام ممّا لا يعتور آيات مشابهة أخرى أبدا. أمّا هذه الآية فكل يحاول من جهة أن يتشبث بما حرفها عن مسيرها.

۳- أتذكر الصّحاح كلّها هذا الحديث؟

يقول بعضهم: كيف يمكن قبول هذا الحديث مع أنّه لم يرد فى صحيحى مسلم و البخارى؟

و هذا من عجائب القول أيضا: فهناك:

أوّلا: كثير من الأحاديث المعتبرة التى قبل بها أهل السنّة مع أنّها ليست فى صحيحى مسلم و البخارى، فهذا الحديث ليس الأوّل من نوعه فى هذه الحالة.

ثانيا: هل أنّ هذين الصحيحين هما الكتابان الوحيدان الموثقان عندهم، مع أنّ هذا الحديث قد ورد فى سائر الكتب الأخرى المعتبرة عندهم، و حتى فى بعض الصحاح الستة (و هى التى يعتمدها أهل السنة)، مثل «سنن ابن ماجة»[۴۸] و «مسند أحمد»[۴۹]. و هناك علماء مثل «الحاكم النيسابورى» و «الذهبى» و «ابن حجر» اعترفوا بصحة الكثير من طرق هذا الحديث، على الرغم ممّا عرف عنهم من التعصب.

لذلك فلا يستبعد أن يقع البخارى و مسلم تحت ضغط السياسة الذى ساد زمانهما، فلم يستطيعا، أو لم يشاءا أن يقولا ما لا يتلاءم و رغبة سلطات زمانهما فى كتابيهما.

۴- لم لم يستدل على و أهل البيت عليهم السّلام بهذا الحديث؟

يقول بعض: لو كان حديث الغدير- على عظمته- صحيحا فلما ذا لم يستدل به

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۷

على عليه السّلام و أهل البيت عليهم السّلام و أصحابهم و محبّوهم عند اقتضاء الضرورة؟ ألم يكن من الخير لو أنّهم استندوا إلى مثل هذا السند المهم لإثبات حق على عليه السّلام؟

هذا أيضا قول آخر ينبع من عدم الإحاطة بالمصادر الإسلامية فى حقل الحديث و التّفسير و التّأريخ، إذ أنّ كثيرا من كتب علماء السنة قد ذكرت أن عليّا عليه السّلام و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام و أتباعهم قد استدلوا فعلا بحديث الغدير.

فهذا الخطيب الخوارزمى الحنفى

فى «المناقب» يروى عن عامر بن واثلة، قال: كنت على الباب يوم الشورى مع على عليه السّلام فى البيت و سمعته يقول: «لأحتجنّ عليكم بما لا يستطيع عربيكم و لا عجميكم تغيير ذلك» ثمّ قال: «أنشدكم اللّه أيّها النفر جميعا أ فيكم أحد وحّد اللّه قبلى؟» قالوا: لا (ثمّ استمر فى تعديد مناقبه و فضائله) ... إلى أن قال: «فانشدكم باللّه هل فيكم أحد قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، ليبلّغ الشاهد الغائب، غيرى؟».

قالوا: اللهم لا ...» الحديث ۵۰].

هذه الرواية يذكرها الحموينى فى «فرائد السمطين» فى الباب ۵۸، و ابن حاتم فى «الدر النظيم» و الدار قطنى، و ابن عقدة، و ابن أبى

الحدید فی شرح نهج البلاغة.

کذلک نقرأ فی «فرائد السمطین» فی الباب ۵۸ أن علیا علیه السّلام استشهد بحدیث الغدیر أمام جمع من الناس فی المسجد علی عهد عثمان، و فی الکوفة أیضا استند إلی هذا الحدیث لتفنید رأی الذین أنکروا خلافته بعد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة.

یقول صاحب کتاب «الغدیر»: إنّ أربعة من الصحابة و أربعة عشر من التابعین قد رووا هذا الحدیث حسب ما نقلته مصادر أهل السنة المعروفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۸

و کما یقول الحاکم النیسابوری- فی الصفحة ۳۷۱ من المجلد الثّالث- من «المستدرک» فإنّ علیا علیه السّلام قد استشهد بهذا الحدیث یوم حرب الجمل أمام طلحة.

کذلک فی حرب صفین- کما یقول سلیم بن قیس الهلالی- إنّ علیا کان فی عسکره و أمام جمع من المهاجرین و الأنصار و القادمین من أطراف البلاد، فاستشهد بهذا الحدیث فقام إثنا عشر من الذین أدرکوا بدرا مع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أکّدوا أنّهم سمعوا الحدیث من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و بعد علی علیه السّلام استند إلی هذا الحدیث سیدة الإسلام فاطمة الزّهراء علیها السّلام و الإمامان الحسن و الحسین علیهما السّلام و عبد اللّه بن جعفر، و عمّار بن یاسر، و قیس بن سعد، و عمر بن عبد العزیز، و المأمون الخلیفة العباسی.

بل أنّ عمرو بن العاص فی رسالة له إلی معاویة أراد أن یثبت لمعاویة فیها أنّه علی علم تام بالحقائق الخاصّة بمکانة کل من علی علیه السّلام و معاویة بالنسبة للخلافة، فاستشهد صراحة بحدیث الغدیر، و قد نقله الخطیب الخوارزمی الحنفی فی کتابه «المناقب» صفحة ۱۲۴ (علی الذین یرغبون فی المزید من التوضیح بشأن استدلال علی علیه السّلام و أهل البیت و بعض الصحابة و غیر الصحابة بحدیث الغدیر، أن یرجعوا إلی الصفحات ۱۵۹- ۲۱۳، من المجلد الأوّل من کتاب «الغدیر» فقد أورد العلّامة الأمینی رحمه اللّه أسماء ۲۲ من الصحابة، و غیر الصحابة ممن استدلوا بهذا الحدیث).

۵- مفهوم الجملة الأخیرة من الآیة

یقولون: لو کانت الآیة تخص تنصیب علی علیه السّلام فی الخلافة و الولایة و ترتبط بحدیث غدیر خم، فما علاقة کلّ هذا بما جاء فی آخر الآیة: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْکافِرِینَ

للردّ علی هذا الاعتراض یکفی أن نعرف أنّ لفظة «الکفر» فی اللغة و فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۹۹

القرآن تعنی الإنکار و المخالفة و الترک. فمرّة یقصد بها إنکار اللّه و نبوة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و مرّة یراد بها إنکار بعض الأحکام أو مخالفتها، ففی الآیة (۹۷) من سورة آل عمران فیما یرتبط بالحج نقرأ: وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ عَنِ الْعالَمِینَ و الآیة (۱۰۲) من سورة البقرة تصف السحرة و الذین تلوثوا بالسحر بأنّهم کفّار:

وَ ما یُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّی یَقُولا إِنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَکْفُرْ، و فی الآیة (۲۲) من سورة إبراهیم نری أنّ الشیطان یندد یوم القیامة بأولئک الذین أطاعوه و اتبعوه و یقول لهم: إنکم بعد إطاعتکم أوامر اللّه قد جعلتمونی شریکا له، و إنی الیوم أکفر بعملکم ذاک: إِنِّی کَفَرْتُ بِما أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ و علیه، فلا عجب أن یطلق القرآن صفة الکفر علی الذین یخالفون مسألة الولایة و الخلافة.

۶- هل یمکن وجود ولیّین فی وقت واحد؟

من الذرائع الأخری التی تذرعوا بها للنکوص عن هذه الحدیث المتواتر و الآیة المذکورة، هی أنّه إذا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و

آله و سلّم قد نصب عليا عليه السّلام يوم الغدير للخلافة و الولاية، فإن ذلك يعنى وجود وليّين و قائدين فى وقت واحد.

إلّا أنّ الالتفات إلى الظروف الزمانية الخاصّة بنزول الآية و ورود الحديث، و كذلك القرائن المستوحاة من خطبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تنفى هذه الذريعة أيضا، إنّنا نعلم أنّ هذا الحدث قد جرى فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إنّه كان يبلغ الناس بآخر الأوامر لأنّه

قال «و إنّى أوشك أن أدعى فأجيب».

إنّ من يقول هذا لا شك فى أنّه بصدد تعيين خليفته، و إنّه يضع الخطط للمستقبل، لا للحاضر، كذلك من الواضح، إنّه لا يقصد إعلان وجود قائدين أو وليّين فى وقت واحد.

و ممّا يلفت النظر أنّ بعض علماء أهل السنة الذين يطرحون هذا الاعتراض، يتقدم بعضهم برأى يناقض ذلك تماما، و هو أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد عين عليا عليه السّلام فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۰

الخلافة و الولاية، و لكنّه لم يعين تأريخ التعيين، فما المانع أن يأتى ذلك بعد ثلاثة خلفاء؟

إنّه لأمر محير حقّا! يتشبثون بألوان المتناقضات لكى يبتعدوا عن حقيقة القضية! ألا يسأل هؤلاء أنفسهم: إذا أراد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يعين خليفته الرابع ضمانا لمستقبل المسلمين، فلما ذا لم يعين الخليفة الأوّل و الثّانى و الثّالث فى يوم الغدير، و هم يتقدمون الرّابع و تنصيبهم مقدم على الأوّل؟! و مرّة أخرى نكرر مقولتنا السابقة لنختم به بحثنا هذا، و هى أنّه لو لا وجود نظرات خاصّة فى الأمر، لما حدثت كل هذه الاعتراضات و الإشكالات بشأن هذه الآية و هذا الحديث، كما لم يحدث شىء من ذلك فى غيرهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۱

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۶۸ الى ۶۹]

اشارة

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۶۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۹)

سبب النّزول

اشارة

جاء فى تفسير «مجمع البيان» و تفسير القرطبى، عن ابن عباس قال: جاء جماعة من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: أ لست تقرّ بأن التّوراة من عند اللّه؟

قال: «بلى».

قالوا: فإنّا نؤمن بها و لا نؤمن بما عداها (و فى الحقيقة فانّ التّوراة تعتبر القدر المشترك بيننا و بينكم، و لكنّ القرآن كتاب مختص بكم).

فنزلت الآية الاولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۲

التّفسير

لاحظنا فى ما سبق من تفسير آيات هذه السورة أنّ قسما كبيرا منها يدور حول العقبات التى كان يضعها أهل الكتاب «اليهود و النصارى» فى طريق المسلمين و ما كانوا يوردونه من مجادلة و تساؤل، هذه الآية- أيضا- تشير إلى جانب آخر من ذلك الموضوع، ترد فيها على منطقهم الواهى الداعى إلى اعتبار التّوراة كتابا متفقا عليه بين المسلمين و اليهود، و ترك القرآن باعتباره موضع خلاف.

لذلك فالآية تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

و ذلك لأنّ هذه الكتب- كما قلنا- صادرة عن مبدأ واحد و أصولها واحدة، و لمّا كان آخر هذه الكتب السماوية أكملها و أجمعها فإنّه هو الأجدر بالعمل به، كما أنّ الكتب السابقة تحمل بشائر و ارشادات إلى آخر الكتب، و هو القرآن، فإذا كانوا- حسب زعمهم- يقبلون التّوراة و الإنجيل، و كانوا صادقين فى زعمهم، فلا مندوحة لهم عن القبول بتلك البشائر أيضا، و إذ وجدوا تلك العلامات فى القرآن، فإن عليهم أن يحنوا رؤوسهم خضوعا لها.

هذه الآية تقول أنّ الادعاء لا يكفى، بل لا بدّ من إتباع ما جاء فى هذه الكتب السماوية عمليا، ثمّ أن القضية ليست «كتابنا» و «كتابكم»، بل هى الكتب السماوية و ما أنزل من اللّه، فكيف تريدون بمنطقكم الواهى هذا أن تتجاهلوا آخر كتاب سماوى؟

و يعود القرآن ليشير إلى حالة أكثريتهم، فيقرّر أنّ أكثرهم لا يأخذون العبرة و العظة من هذه الآيات و لا يهتدون بها، بل أنّهم- لمّا فيهم من روح العناد- يزدادون فى طغيانهم و كفرهم وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْياناً وَ كُفْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۳

و هكذا يكون التأثير المعكوس للآيات الصادقة و القول المتزن فى النفوس المملوءة عنادا و الجاجا.

و فى ختام الآية يخفف اللّه من حزن رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إزاء تصلب هذه الأكثرية من المنحرفين و عنادهم، فيقول له فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ ۵۱].

هذه الآية ليست مقصورة على اليهود- طبعا- فالمسلمون أيضا إذا اكتفوا بادعاء الإسلام و لم يقيموا تعاليم الأنبياء، و خاصة ما جاء فى كتابهم السماوى، فلن تكون لهم منزلة و مكانة لا عند اللّه، و لا فى حياتهم الفردية و الاجتماعية، بل سيظلون دائما أذلاء و مغلوبين على أمرهم.

الآية التّالية تعود لتقرر مرّة أخرى هذه الحقيقة، و تؤكّد أنّ جميع الأقوام و أتباع كل المذاهب دون استثناء، مسلمين كانوا أم يهودا أم صابئين ۵۲] أم مسيحيين، لا ينجون و لا يأمنون الخوف من المستقبل و الحزن على ما فاتهم إلّا إذا آمنوا باللّه و بيوم الحساب و عملوا صالحا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

هذه الآية، فى الحقيقة ردّ قاطع على الذين يظنون النجاة فى ظل قومية معينة، و يفضلون تعاليم بعض الأنبياء على بعض، و يتقبلون الدعوة الدينية على أساس من تعصب قومى، فتقول الآية إن طريق الخلاص ينحصر فى نبذ هذه الأقوال.

و كما أشرنا فى تفسير الآية (۶۲) من سورة البقرة، التى تقترب فى مضمونها من مضمون هذه الآية سعى بعضهم بجد ليثبت أنّ هذه الآية تعتبر دليلا على «السلام العام» و على أنّ أتباع جميع الأديان ناجون، و أن يتجاهل فلسفة نزول الكتب السماوية بالتتابع الذى يدل

على تقدم الإنسان فى مسيرته التكاملية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۴

التدريجية.

و لكن- كما قلنا- تضع الآية حدّا فاصلا بقولها وَ عَمِلَ صالِحاً لكل قول، و تشخص الحقيقة، بخصوص تباين الأديان، فتوجب العمل بآخر شريعة إلهية، لأنّ العمل بقوانين منسوخة ليس من العمل الصالح، بل العمل الصالح هو العمل بالشرائع الموجودة و بآخرها (لمزيد من الشرح و التوضيح بهذا الشأن انظر المجلد الأوّل ص ۲۱۷.

ثمّ إنّ هناك احتمالا- مقبولا- فى تفسير عبارة مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً و هو إنّها تختص باليهود و النصارى و الصابئين، لأنّ الَّذِينَ آمَنُوا فى البداية لا تحتاج إلى مثل هذا القيد، و عليه، فإن معنى الآية يصبح هكذا:

إنّ المؤمنين من المسلمين- و كذلك اليهود و النصارى و الصابئين، بشرط أن يؤمنوا و أن يتقبلوا الإسلام و يعملوا صالحا- سيكونون جميعا من الناجين و إن ماضيهم الدينى لن يكون له أى أثر فى هذا الجانب، و إن الطريق مفتوح للجميع (تأمل بدقّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۵

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۰ الى ۷۱]

اشارة

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ (۷۰) وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ (۷۱)

التّفسير

فى آيات سابقة من سورة البقرة، و فى أوائل هذه السورة أيضا إشارة إلى عهد و ميثاق أخذه اللّه تعالى على بنى إسرائيل و فى هذه الآية تذكير بهذا الميثاق:

لَقَدْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ رُسُلًا.

يبدو أنّ هذا الميثاق هو الذى جاءت الإشارة إليه فى الآية (۹۳) من سورة البقرة، أى العمل بما أنزل اللّه! ثمّ يضاف إلى ذلك القول بأنّهم، فضلا عن كونهم لم يعملوا بذاك الميثاق، كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَ فَرِيقاً يَقْتُلُونَ

هذه هى طرائق المنحرفين الأنانيين و سبلهم، فهم بدلا من إتباع قادتهم، يصرون على أن يكون القادة هم التابعين و لا هوائهم، و إلّا فليس لهؤلاء الهداة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۶

و الأنبياء حتى حق الحياة.

فى هذه الآية جاء الفعل «كذبوا» بصيغة الماضى بينما جاء الفعل «يقتلون» بصيغة المضارع، و لعل السبب- بالإضافة إلى المحافظة على التناسب اللفظى فى أواخر الآيات السابقة و التّالية و كلها بصيغة المضارع- هو كون الفعل المضارع يدل على الاستمرار، و القصد من ذلك الإشارة إلى استمرار هذه الروح فيهم، و أن تكذيب الأنبياء و قتلهم لم يكن حدثا عارضا فى حياتهم، بل كان طريقا و اتجاها لهم ۵۳].

فى الآية التّالية إشارة إلى غرورهم أمام كل ما اقترفوه من طغيان و جرائم:

وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ أى ظنوا مع ذلك أن البلاء و الجزاء لن ينزل بهم، و اعتقدوا- كما صرحت الآيات الأخرى- أنّهم من جنس أرقى، و أنّهم أبناء اللّه! و أخيرا استحال هذا الغرور الخطير و التكبر إلى ما يشبه حجابا غطى أعينهم و آذانهم: فَعَمُوا وَ صَمُّوا عن رؤية آيات اللّه و عن سماع كلمات الحقّ.

و لكنّهم عند ما أصابتهم مظاهر من عقاب اللّه و شاهدوا نتائج أعمالهم المشؤومة، ندموا و تابوا بعد أن أدركوا أن وعد اللّه حق، و أنّهم ليسوا عنصرا متميزا فائقا.

و تقبل اللّه توبتهم: ثُمَّ تابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

إلّا أنّ حالة الندم و التوبة لم تلبث طويلا، فسرعان ما عاد الطغيان و التجبر و سحق الحقّ و العدالة، و عادت أغشية الغفلة الناتجة عن الانغماس فى الإثم تحجب أعينهم و آذانهم مرّة أخرى ثُمَّ عَمُوا وَ صَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ فلم يعودوا يرون آيات أو يسمعوا كلمة الحقّ، و عمت الحالة الكثير منهم.

و لعل تقديم «عموا» على «و صمّوا» يعنى أن عليهم أوّلا أن يبصروا آيات اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۷

و معجزات رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ثمّ يستمعوا إلى تعاليمه و يستوعبوها.

و ورود عبارة كَثِيرٌ مِنْهُمْ بعد تكرار عَمُوا وَ صَمُّوا جاء لتوضيح أنّ حالة الغفلة و الجهل و العمى و الصمم تجاه الحقائق لم تكن عامّة، بل كان بينهم بعض الأقلية من الصالحين، و فى هذا دليل على أن تنديد القرآن باليهود لا ينطوى على أى جانب عنصرى أو طائفى، بل هو موجّه إلى أعمالهم فحسب.

هل أن تكرار عبارة عَمُوا وَ صَمُّوا ذو طابع عام تأكيدى، أم للإشارة إلى حادثتين مختلفتين؟

يرى بعض المفسّرين أنّ التكرار يشير إلى واقعتين مختلفتين حدثتا لبنى إسرائيل، الاولى: الغزو البابلى لهم، و الثّانية: غزو الإيرانيين و الروم، و القرآن أشار إليها بشكل عابر فى بداية سورة بنى إسرائيل.

و لا يستبعد- أيضا- أنّ بنى إسرائيل قد تعرضوا مرات عديدة لهذه الحالات فحينما يشاهدون نتائج أعمالهم الشريرة، كانوا يتوبون، ثمّ ينقضون توبتهم، و قد حدث هذا عدّة مرّات لا مرّتين فقط.

فى نهاية الآية جملة قصيرة عميقة المعنى تقول: إنّ اللّه لا يغفل أبدا عن أعمالهم، إذ أنّه يرى كل ما يعملون: وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۲ الى ۷۴]

اشارة

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قالَ الْمَسِيحُ يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ (۷۲) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۴)

التّفسير

تعقيبا على البحوث الماضية بشأن انحرافات اليهود التى مرّت فى الآيات السابقة، تتحدث هذه الآيات و التى تليها عن انحرافات المسيحيين، فتبدأ أولا بأهم تلك الانحرافات، أى «تأليه المسيح» «تثليث المعبود»: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

و أىّ كفر أشدّ من أن يجعلوا اللّه اللامحدود من جميع الجهات متحدا مع مخلوق محدود من جميع الجهات، و أن يصفوا الخالق بصفات المخلوق. مع أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۰۹

المسيح عليه السّلام نفسه يعلن صراحة لبنى إسرائيل: يا بَنِي إِسْرائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ و بهذا يستنكر كل لون من ألوان الشرك، و يفرض الغلوّ فى شخصه، و يعتبر نفسه مخلوقا كسائر مخلوقات اللّه.

و لكى يشدد المسيح التوكيد على هذا الأمر، و ليزيل كل إبهام و خطأ، يضيف قائلا: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَأْواهُ النَّارُ.

و يمضى فى التوكيد و إثبات أنّ الشرك و الغلو ضرب من الظلم الواضح، فيقول أيضا: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصارٍ.

سبق أن أشرنا إلى أنّ تاريخ المسيحية يؤكّد بأنّ التثليث لم يكن معروفا فى القرون الاولى من المسيحية، و لا حتى على عهد المسيح عليه السّلام، بل أن الأناجيل الموجودة- على الرغم من كل ما فيها من تحريفات و إضافات- ليس فيها أدنى إشارة إلى التثليث، و هذا ما يعترف به المحققون المسيحيون أنفسهم، و عليه فإن ما ورد فى الآية المذكورة عن إصرار المسيح عليه السّلام على مسألة التوحيد إنّما ينسجم مع المصادر المسيحية الموجودة، و يعتبر من دلائل عظمة القرآن ۵۴].

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الموضوع الذى تتناوله الآية هو الغلو و وحدة المسيح باللّه. أو بعبارة أخرى، هو «التوحيد فى التثليث»، و لكن الآية التّالية تشير إلى مسألة «تعدد الآلهة» فى نظر المسيحيين، أى «التثليث فى التوحيد»، و تقول:

إنّ الذين قالوا أن اللّه ثالث الأقانيم ۵۵] الثلاثة لا ريب أنّهم كافرون: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ.

اعتقد كثير من المفسّرين، و منهم الطبرسى فى «مجمع البيان»، و الشيخ الطوسى فى «التبيان»، و الفخر الرازى و القرطبى فى تفسيريهما، أنّ الآية السابقة تشير إلى فرقة من المسيحيين باسم «اليعاقبة» يعتقدون أن اللّه متحد بالمسيح عليه السّلام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۰

و هذه الآية وردت بشأن فرقة أخرى هى «الملكانية» و «النسطورية» الذين يقولون بالأقانيم الثلاثة، أو الآلهة الثلاثة.

غير أنّ هذه النظرة عن المسيحية كما سبق أن قلنا- لا تطابق مع الواقع، لأن الإعتقاد بالتثليث عام بين المسيحيين كافة، كما أن التوحيد بيننا نحن المسلمين عقيدة عامّة قطعية، و لكنّهم فى الوقت الذى يعتقدون حقا بتثليث الأرباب، يؤمنون أيضا بالوحدة الحقيقية، قائلين أن ثلاثة حقيقيين يؤلفون واحدا حقيقيا! الظاهر أنّ الآيتين المذكورتين تشيران إلى جانبين مختلفين لهاتين القضيتين: فى الاولى إشارة إلى وحدة الآلهة الثلاثة، و فى الثّانية إشارة إلى تعددها، و توالى المسألتين هو فى الحقيقة إشارة الى واحد من الأدلة الواضحة على بطلان عقيدتهم، فكيف يمكن للّه أن يكون واحدا مع المسيح و روح القدس مرّة، و مرّة أخرى يكون ثلاثة أشياء؟ أمن المعقول أن يتساوى الثلاثة مع الواحد؟! إنّ ما يؤيد هذه الحقيقة هو أنّنا لا نجد بين المسيحيين أية طائفة لا تؤمن بالآلهة الثلاثة![۵۶].

و يرد القرآن عليهم ردا قاطعا فيقول: وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا إِلهٌ واحِدٌ و فى ذكر «من» قبل «إله» نفى أقوى لأى معبود آخر.

ثمّ ينذرهم بلهجة قاطعة: وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

يقول بعضهم أن «من» فى «منهم» بيانية، و لكن الظاهر أنّها تبعيضية تشير إلى الذين بقوا على كفرهم حتى بعد أن دعا القرآن إلى التوحيد، لا الذين تابوا و رجعوا.

يذكر صاحب «المنار» قصّة فى المجال تكشف عن غموض تثليث النصارى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۱

و توحيدهم نقلا عن صاحب (إظهار الحقّ) قال:

«نقل أنّه تنصر ثلاثة أشخاص، و علمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية، سيما عقيدة التثليث و كانوا فى خدمته، فجاء أحد

المسيحيين إلى هذا القسيس، و سأله عمن تنصّر. فقال: ثلاثة أشخاص تنصّروا فسأله: هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية؟ فقال: نعم، و استدعى واحدا منهم ليريه ذلك فسأله القسيس عن عقيدة التثليث، فقال: إنّك علمتنى أن الآلهة ثلاثة، أحدهم فى السماء، و الثّانى تولد من بطن مريم العذراء، و الثّالث الذى نزل فى صورة الحمامة على الإله الثّانى بعد ما صار ابن ثلاثين سنة، فغضب القسيس و طرده و قال: هذا جاهل.

ثمّ طلب الآخر منهم سأله فقال: إنّك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة و صلب واحد منهم فالباقى إلهان، فغضب عليه القسيس- أيضا- و طرده.

ثمّ طلب الثّالث و كان ذكيا بالنسبة إلى الأولين و حريصا فى حفظ العقائد، فسأله، فقال: يا مولاى، حفظت ما علمتنى حفظا جيدا، و فهمت فهما كاملا بفضل السيد المسيح: أن الواحد ثلاثة و الثلاثة واحد، و صلب واحد منهم و مات، فمات الكل لأجل الاتحاد، و لا إله الآن، و إلّا يلزم نفى الاتحاد! فى الآية الثالثة يدعوهم القرآن إلى أن يتوبوا عن هذه العقيدة الكافرة لكى يغفر لهم اللّه تعالى، فيقول: أَ فَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

اشارة

مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۷۵) قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۷۶) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ (۷۷)

التّفسير

تواصل هذه الآيات البحث الذى جاء فى الآيات السابقة حول غلو المسيحيين فى المسيح عليه السّلام و اعتقادهم بألوهيته، فتفند فى بضع آيات قصار اعتقادهم هذا، و تبدأ متسائلة عمّا وجدوه فى المسيح من اختلاف عن باقى الأنبياء حتى راحوا يؤلهونه، فالمسيح ابن مريم قد بعثه اللّه كما بعث سائر الأنبياء من قبله: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

إذا كان بعثه من قبل اللّه سببا للتأليه و الشرك، فلما ذا لا تقولون القول نفسه بشأن سائر الأنبياء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۳

و لكنّنا نعلم أنّ المسيحيين المنحرفين لا يقنعون باعتبار عيسى عليه السّلام مجرّد مبعوث من اللّه، فاعتقادهم العام فى الوقت الحاضر هو اعتباره ابن اللّه، و أنّه هو اللّه بمعنى من المعانى و أنّه جاء ليفتدى ذنوب البشر (و لم يأت لهدايتهم و قيادتهم) لذلك أطلقوا عليه اسم «الفادى» أى الذى افتدى بنفسه آثام البشر.

و لمزيد من التوكيد، يقول: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ أى أنّ من تكون له أمّ حملته فى رحمها، و من يكون محتاجا إلى كثير من الأمور، كيف يمكن أن يكون إلها؟! ثمّ إذا كانت أمّه صديقة فذلك لأنّها هى- أيضا- على خط رسالة المسيح عليه السّلام، منسجمة معه، و تدافع عن رسالته، لهذا فقد كان عبدا من عباد اللّه المقربين، فينبغى ألّا يتخذ معبودا كما هو السائد بين المسيحيين الذين يخضعون أمام تمثاله إلى حدّ العبادة.

و مرّة أخرى يشير القرآن إلى دليل آخر ينفى الربوبية عن المسيح عليه السّلام، فيقول:

كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ

فهـذا الـذى يحتاج إلى الطعام، و لو لم يتناول طعاما لعـدّة أيّام يضـعف عن الحركة، كيف يمكن أن يكون ربّا أو يقرن بالربّ؟! و فى ختام الآيـة إشارة وضوح هـذه الـدلائل من جهـة، و إلى عناد أولئك و جهلهم من جهـة أخرى، فيقول: انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآياتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۵۷].

تكرر كلمة «انظر» فى الآية توجيه للنظر إلى جهتين: إلى الدلائل الواضـحة الكافية لكل شـخص، و إلى رد الفعل السـلبى المحير المثير للعجب الصادر من هؤلاء.

و لكى يكمل الاسـتدلال السابق تستنكر الآية التّالية عبادتهم المسيح مع أنّهم يعلمون أن له احتياجات بشرية، و إنّه لا قدرة له على دفع الضرر عن نفسه أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۴

نفعها، فكيف يتسنى له دفع الضرر عن الغير أو نفعهم؟ قُلْ أَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً؟

فكثيرا ما تعرّض هو و أتباعه للأذى على أيدى أعدائهم، و لو لا أنّ اللّه شمله بلطفه لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة.

و فى النهاية يحذرهم من أن يظنوا أنّ اللّه لا يسمع ما يتقولونه أو لا يعلم ما يكنونه: وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ممّا يلفت النظر أنّ مسألة كون المسيح عليه السّـلام بشـرا ذا حاجات مادية جسـمانية- و هى ما يسـتند إليها القرآن فى هذه الآية و فى آيات أخرى- كانت من أكبر المعضـلات بوجه المسـيحيين الـذين يدعون ألوهيته، فسـعوا إلى تبرير ذلك بشتى الأساليب، حتى أنّهم اضطروا أحيانا إلى القول بثنائية المسيح: اللاهوت و الناسوت، فهو من حيث لاهوتيته ابن اللّه، بل هو اللّه نفسه و من حيث ناسوتيته فهو جسم و مخلوق من مخلوقات اللّه، و أمثال ذلك من التبريرات التى هى خير دلالة على ضعف منطقهم و خطله.

لا بـدّ من الالتفات- أيضا- أنّ الآيـة اسـتعملت «ما» بمكان «من» و التى تشـير عادة إلى غير العاقل، و لعل ذلك يفيـد الشـمول بالنسـبة للمعبودات و الأصنام المصنوعة من الحجر أو الخشب، فيكون المقصود هو أنّه إذا جاز أن يعبد الناس مخلوقا، جازت كذلك عبادتهم الأصـنام، لأنّ هـذه المعبودات تتساوى من حيث كونها جميعا مخلوقات، و أنّ تأليه المسـيح عليه السّـلام ضـرب من عبادة الأصـنام، لا عبادة الإله.

الآية التّالية تأمر رسول اللّه عليه السّلام، بعد اتضاح خطأ أهل الكتاب فى الغلو أن يدعوهم بالأدلة الجلية إلى الرجوع عن السير فى هذا الطريق: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِ ۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۵

إنّ غلو النصارى معروف، إلّا أنّ غلو اليهود، الـذى يشـملهم تعبير يا أَهْلَ الْكِتابِ قـد يكون إشارة إلى ما كانوا يقولونه عن العزير و قد اعتبروه ابن اللّه، و لمـا كـان الغلو ينشـأ- أكثر مـا ينشأ- عن إتباع الضالين أهواءهم، لـذلك يقول اللّه سـبحانه وَ لا تَتَّبِعُوا أَهْواءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ ضَلُّوا عَنْ سَواءِ السَّبِيلِ

و فى هـذا إشارة- أيضا- إلى ما انعكس فى التّأريـخ المسـيحى، إذ أنّ موضوع التثليث و الغلو فى أمر المسـيح عليه السّـلام لم يكن له وجود خلال القرون الاولى من المسـيحية، و لكن عند ما اعتنق بعض الهنود و أمثالهم من عبدة الأصـنام المسيحية أدخلوا فيها شيئا من دينهم السابق، كالتثليث و الشرك.

إنّ الثـالوث الهنـدى (الإيمـان بالآلهـة الثلاثـة: برهمـا، و فيشـنو، و سـيغا)، كان تاريخيا أسـبق من التثليث المسـيحى الـذى لا شك أنّه انعكـاس لـذاك، ففى الآيـة الثلاثين من سورة التوبـة و بعـد ذكر غلو اليهود و النصارى فى مسألـة العزير و المسـيح عليه السّـلام يقول سبحانه يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ

و قـد وردت كلمـة «ضـلوا» فى هـذه الآيـة مرّتين بالنسـبة للكفـار الـذين اقتبس منهم أهـل الكتـاب الغلو، و لعـل هـذا التكرار من باب

التوكيد، إذ أنّهم كانوا قبل ذلك من الضّالين، ثمّ لمّا أضلّوا لآخرين بدعواهم وقعوا فى ضلال آخر، و من يسعى لتضليل الآخرين يكون أضلّ منهم فى الواقع، لأنّه يكون قد استهلك قواه لدفع نفسه و دفع الآخرين إلى طريق التعاسة و لحمل آثام الآخرين- أيضا- على كاهله، و هل يرتضى المرء السائر على الطريق المستقيم أن يضيف إلى آثامه آثام غيره أيضا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۷۸ الى ۸۰]

اشارة

لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (۷۸) كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ (۷۹) تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ (۸۰)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى المصير المشؤوم الذى انتهى إليه الكافرون السابقون، لكى يعتبر به أهل الكتاب فلا يتبعونهم اتباعا أعمى، فيقول: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

أمّا لماذا ورد اسما هذين النّبيين دون غيرهما، فللمفسّرين فى ذلك أقوال، فمن قائل: إنّ السبب هو أنّهما كانا أشهر الأنبياء بعد موسى عليه السّلام، و قيل: إنّ السبب هو أنّ كثيرا من أهل الكتاب كانوا يفخرون بأنّهم من نسل داود.

و تذكر الآية أوّلا أنّ داود كان يلعن السائرين على طريق الكفر و الطغيان.

و يقول بعض: إنّ فى الآية إشارة إلى حادثتين تأريخيتين أثارتا غضب هذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۷

النّبيين، فلعنا جمعا من بنى إسرائيل، فداود قد لعن سكان مدينة (أيلة) الساحلية المعروفين باسم (أصحاب السبت)، و سيأتى تفصيل تأريخهم فى سورة الأعراف، و عيسى عليه السّلام لعن جمعا من اتباعه ممن أصروا على اتباع طريق الإنكار و المعارضة حتى بعد نزول المائدة من السماء.

على كل حال، فالآية تشير إلى أنّ مجرّد كون الإنسان من بنى إسرائيل، أو من أتباع المسيح دون أن ينسجم مع خط سيرهما، لا يكون مدعاة لنجاته، بل أنّ هذين النّبيين قد لعنا من كان على هذه الشاكلة من الناس.

و فى آخر الآية توكيد لهذا الأمر و بيان للسبب: ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ

الآية التّالية تؤكّد أنّ هؤلاء لم يعترفوا أبدا بأنّ عليهم يتحملوا أية مسئولية اجتماعية، و لا هم كانوا يتناهون عن المنكر، بل أنّ بعضا من صلحائهم كانوا بسكوتهم و ممالاتهم يشجعون العصاة عمليا كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لذلك فقد كانت أعمالهم سيئة و قبيحة: لَبِئْسَ ما كانُوا يَفْعَلُونَ

هنالك فى تفسير هذه الآية روايات منقولة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أهل البيت عليهم السّلام ذات دلالات تعليمية.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر و لتأخذون على يد السفيه و لتأطرنه على الحقّ اطرا، أو ليضربن اللّه قلوب بعضكم على بعض و يلعنكم كما لعنهم»[۵۹].

و

فى حديث آخر عن الامام الصّادق عليه السّلام فى تفسير كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ أنّه قال: «أمّا أنّهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم و لا يجلسون مجالسهم، و لكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا فى وجوههم و أنسوا بهم»[۶۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۸

الآية الثّالثة تشير إلى معصية أخرى من معاصيهم: تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

من البديهى أنّ صداقتهم لأولئك لم تكن صداقة عادية، بل كانت ممتزجة بأنواع المعاصى، و كانوا يشجعون الأعمال و الأفكار الخاطئة، لذلك أدانت الآية فى عباراتها الأخيرة الأعمال التى قدموها ليوم المعاد، تلك الأعمال التى استوجبت غضب اللّه و عذابه الدائم: لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذابِ هُمْ خالِدُونَ

أمّا من هم المقصودون بتعبير الَّذِينَ كَفَرُوا فإنّ بعضا يقول: إنّهم كانوا مشركى مكّة الذين صادقوا اليهود.

و يرى بعض أنّهم الجبارون و الظالمون الذين كان اليهود قديما يمدون إليهم يد الصداقة، و هذا الرأى يؤكّده

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: «يتولون الملوك الجبارين و يزينون لهم أهواءهم ليصيبوا من دنياهم»[۶۱].

و ليس ثمّة ما يمنع أن تشمل الآية كلا المعنيين، بل و تكون أعم منهما أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۱۹

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۸۱]

اشارة

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۸۱)

التّفسير

هذه الآية تبيّن لهم طريق النجاة من نهجهم الخاطئ، و هو أنّهم لو كانوا حقا يؤمنون باللّه و برسوله و بما أنزل عليه، لما عقدوا أواصر الصداقة مع أعداء اللّه و لا اعتمدوهم أبدا:

وَ لَوْ كانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِياءَ و لكن الذى يؤسف له هو أنّ الذين يطيعون أوامر اللّه قلّة، و معظمهم خارجون عن نطاق إطاعته و سائرون على طريق الفسق وَ لكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فاسِقُونَ

من الواضح أنّ كلمة «النّبى» هنا تعنى «رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم» و ذلك لأنّ هذه الكلمة قد استعملت فى القرآن المجيد فى آيات متعددة بهذا المعنى، و هذا الموضوع يتكرر فى عشرات الآيات.

ثمّة احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، هو أنّ الضمير فى «كانوا» يعود على المشركين و عبدة الأصنام، أى لو أنّ هؤلاء المشركين الذين يعتمدهم اليهود و يثقون بهم، قد آمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، لما اختارهم اليهود أصدقاء لهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۰

و هذا دليل بيّن على على ضلال هؤلاء و فسقهم، و ذلك لأنّهم- على الرغم من زعمهم أنّهم يتبعون الكتب السماوية- يتخذون عبدة الأصنام أصدقاء لهم ما دام هؤلاء مشركين، و لكنّهم يبتعدون عنهم إذا توجهوا إلى اللّه و الكتب السماوية.

بيد أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى ظاهر الآيات، حيث الضمائر كلّها تعود إلى مرجع واحد هو اليهود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۱

الجزء السّابع من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۳

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۲ الى ۸۶]

اشارة

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (۸۲) وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (۸۳) وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (۸۴) فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (۸۵) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۸۶)

سبب النّزول

المهاجرون الأوّل فى الإسلام:

كثير من المفسّرين- و منهم الطبرسى فى «مجمع البيان»، و الفخر الرازى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۴

و صاحب «المنار» ينقلون فى تفاسيرهم عن المفسّرين السابقين أنّ هذه الآيات قد نزلت بحقّ «النّجاشى» صاحب الحبشة على عهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أتباعه، و فى تفسير «البرهان» حديث يشرح هذا الموضوع شرحا وافيا.

يمكن تلخيص الرّوايات الإسلامية و التواريخ و أقوال المفسّرين بهذا الخصوص فى ما يلى:

فى السنوات الاولى من بعثة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته العامّة كان المسلمون أقلية ضعيفة، و كانت قريش قد تواصت أن تضيق الخناق على مواليها و أتباعها الذين يؤمنون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا فقد أصبح كلّ مسلم واقعا تحت ضغط عشيرته و قومه يومئذ لم يكن عدد المسلمين يكفى للقيام بجهاد تحررى.

و لكى يحافظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على حياة هذه الجماعة القليلة، و يهيئ قاعدة للمسلمين خارج الحجاز، اختار لهم الحبشة و أمرهم بالهجرة إليها قائلا:

«إنّ بها ملكا صالحا لا يظلم و لا يظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل اللّه عزّ و جلّ للمسلمين فرجا».

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقصد النجاشى (النجاشى اسم عام لجميع سلاطين الحبشة، مثل كسرى لملوك إيران، أمّا النجاشى المعاصر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو (أصحمة)، أى العطية و الهبة بلغة الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلا و أربع نساء من المسلمين إلى الحبشة بحرا على ظهر سفينة صغيرة استأجروها، كان ذلك فى شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، و قد أطلق عليها اسم الهجرة الاولى.

و لم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم جعفر بن أبى طالب و جمع من المسلمين، فكانوا مع السابقين جمعا مؤلفا من ۸۲ رجلا سوى النساء و الصبيان، و شكلت هذه المجموعة النواة الاولى للتجمع الإسلامى المنظم.

كان لفكرة هذا الهجرة وقع شديد على عبدة الأصنام، لأنّهم أدركوا جيدا أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۵

لن یمضی زمن طویل حتی یکون علیهم أن یواجهوا جمعا قویا من المسلمین الذین اعتنفوا الإسلام- بالتدریج- دینا لهم فی أرض الحبشة حیث الأمن و الأمان.

فشمروا عن ساعد الجد لإحباط تلک الفکرة، فاختاروا اثنین من فتیانهم الأذکیاء المعروفین بالدهاء و المکر، و هما (عمرو بن العاص) و (عمارة بن الولید) و حملوهما مختلف الهدایا و التحف إلی النجاشی لیوغروا صدره علی المسلمین فیطردهم من بلاده، و علی ظهر السفینة التی أقلت هذین إلی الحبشة سکرا و تخاصما إلّا أنّهما- لکی ینفذا المهمّة التی جاءا من أجلها- نزلا إلی البر الحبشی، و حضرا مجلس النجاشی بکثیر من الأبهة، و خاصّة بعد أن اشتریا ضمائر حاشیة النجاشی بالکثیر من الهدایا و الرشاوی، فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلی جانبهما و تأییدها.

بدأ عمرو بن العاص کلامه للنجاشی قائلا: «أیّها الملک، إنّ قوما خالفونا فی دیننا و سبوا آلهتنا، و صاروا إلیک فردهم إلینا».

ثمّ قدما ما حملاه من هدایا إلی النجاشی.

فوعدهم النجاشی أن یبت بالأمر بعد استجواب ممثلی اللاجئین و بعد التشاور مع حاشیته.

و فی یوم آخر عقدت جلسة حافلة حضرتها حاشیة النجاشی و جمع من العلماء المسیحیین، و ممثل المسلمین جعفر بن أبی طالب، و مبعوثا قریش، و بعد أن استمع النجاشی إلی أقوال مبعوثی قریش، التفت إلی جعفر و طلب منه بیان ما لدیه.

قال جعفر: یا أیّها الملک سلهم، أ نحن عبید لهم؟

فقال عمرو: لا، بل أحرار کرام.

جعفر: سلهم ألهم علینا دیون یطالبوننا بها؟

عمرو: لا، ما لنا علیکم دیون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۶

جعفر: فلکم فی أعناقنا دماء تطالبونا بذخول بها؟

عمرو: لا.

جعفر: فما تریدون منّا؟ آذیتمونا فخرجنا من دیارکم، ثمّ قال:

«نعم أیّها الملک خالفناهم بعث اللّه فینا نبیّا أمرنا بخلع الأنداد و ترک الاستقسام بالأزلام، و أمرنا بالصّلاة و الزّکاة، و حرّم الظلم و الجور و سفک الدّماء بغیر حقّها، و الزنا و الربا و المیتة و الدّم و لحم الخنزیر، و أمرنا بالعدل و الإحسان و إیتاء ذی القربی، و نهانا عن الفحشاء و المنکر و البغی».

فقال النّجاشی: بهذا بعث اللّه عیسی، ثمّ قال النجاشی لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل اللّه علی نبیّک شیئا؟

قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مریم، فلمّا بلغ قوله: وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا قال: هذا و اللّه هو الحقّ.

فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلینا.

فرفع النجاشی یده و ضرب بها وجه عمرو و قال: اسکت، و اللّه لئن ذکرته بعد بسوء لأفعلنّ بک و قال: ارجعوا إلی هذا هدیته، و قال لجعفر و أصحابه: امکثوا فإنّکم آمنون.

کان لهذا الحدث أثر بالغ بعید المدی، ففضلا عمّا کان له من أثر إعلامی عمیق فی تعریف الإسلام لجمع من أهل الحبشة، فإنّه شد من عزیمة المسلمین فی مکّة و حملهم علی الاطمئنان و الثقة بقاعدتهم فی الحبشة لإرسال المسلمین الجدد إلیها، إلی أن یشتد ساعدهم و تقوی شوکتهم.

و مضت سنوات، و هاجر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینة، و ارتفع شأن الإسلام، و تمّ التوقیع علی صلح الحدیبیة، و توجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لفتح خیبر، و فی ذلک الیوم الذی کان فیه المسلمون یکادون یطیرون فرحا لتحطیمهم أکبر قلعة للأعداء الیهود، فإذا بهم یشهدون من بعید قدوم جمع من الناس صوبهم، ثمّ ما لبثوا حتی عرفوا أن أولئک لم یکونوا سوی المهاجرین الأوائل إلی الحبشة و قد عادوا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۷

ذلک الیوم إلی أوطانهم بعد أن تحطمت قوی الأعداء الشیطانیة، و قویت جذور شجیرة الإسلام النامیة.

و إذ شاهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مهاجری الحبشة، قال قولته التّأریخیة: «لا أدری أنا بفتح خیبر أسر أم بقدوم جعفر»؟!

یروی أنّ جعفر و أصحابه جاؤوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معهم سبعون رجلا، اثنان و ستون من الحبشة و ثمانیة من أهل الشام فیهم بحیراء الراهب، فقرأ علیهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سورة «یس» إلی آخرها فبکوا حتی سمعوا القرآن و آمنوا و قالوا:

ما أشبه هذا بما کان ینزل علی عیسی، فأنزل اللّه فیهم هذه الآیات.

و روی عن سعید بن جبیر فی سبب نزول الآیة أنّ النجاشی أرسل ثلاثین شخصا من أخلص أتباعه إلی المدینة لإظهار حبّه لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و للإسلام، أولئک هم الذین استمعوا إلی آیات سورة «یس» فأسلموا، فنزلت الآیات المذکورة تقدیرا لأولئک المؤمنین.

(لا یتعارض سبب النّزول هذا مع کون سورة المائدة قد نزلت فی أواخر عمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)، إذ أنّ هذا القول یرجع إلی معظم آیات السورة، و لیس ثمّة ما یمنع أن تکون بعض تلک الآیات قد نزلت فی حوادث سابقة، ثمّ وضعت- لأسباب- بأمر من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذه السّورة.

التّفسیر

حقد الیهود و مودّة النصاری:

تقارن هذه الآیات بین الیهود و النصاری الذین عاصروا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فی الآیة الاولی وضع الیهود و المشرکون فی طرف واحد و المسیحیون فی طرف آخر: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الْیَهُودَ وَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِینَ آمَنُوا الَّذِینَ قالُوا إِنَّا نَصاری

یشهد تاریخ الإسلام، بجلاء علی هذه الحقیقة، ففی کثیر من الحروب التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۸

أثیرت ضد المسلمین کان للیهود ضلع فیها، بصورة مباشرة أو غیر مباشرة، و لم یتورعوا عن التوسل بأیة وسیلة للتآمر، و قلیل منهم اعتنق الإسلام، و لکننا قلّما نجد المسلمین یواجهون المسیحیین فی غزواتهم، کما أنّ الکثیرین منهم التحقوا بصفوف المسلمین.

ثمّ یعزوا القرآن هذا الاختلاف فی السلوک الفردی و الاجتماعی إلی وجود خصائص فی المسیحیین المعاصرین لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم تکن موجودة فی الیهود:

فأوّلا کان بینهم نفر من العلماء لم یسعوا- کما فعل علماء الیهود- إلی إخفاء الحقائق ذلِکَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّیسِینَ ۶۲].

ثمّ کان منهم جمع من الزهاد الذین ترکوا الدنیا، و هی النقطة المناقضة لما- کان یفعله بخلاء الیهود الجشعین.

و على الرغم من كلّ انحرافاتهم كانوا على مستوى أرفع بكثير من مستوى اليهود: «و رهبانا».

و كثير منهم كانوا يخضعون للحق، و لم يتكبروا، فى حين كان معظم اليهود يرون أنّهم عنصر أرفع، فرفضوا قبول الإسلام الذى لم يأت على يد عنصر يهودى:

وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ

ثمّ إنّ نفرا منهم كانوا إذا استمعوا لآيات من القرآن تنحدر دموعهم مثل من صحب جعفر من الأحباش لأنّهم يعرفون الحقّ إذا سمعوه:

وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِ

فكانوا ينادون بكل صراحة و شجاعة، يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ

لقد كان تأثرهم بالآيات القرآنية من الشدة بحيث أنّهم كانوا يقولون: وَ ما لَنا لا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ ما جاءَنا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنا رَبُّنا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ

سبق أن قلنا إنّ هذه المقارنة كانت بين اليهود و النصارى المعاصرين لرسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۲۹

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فاليهود- و إن كانوا من أصحاب الكتب السماوية- بلغت شدة تعلقهم بالمادة و حبّهم لها أن انخرطوا فى سلك المشركين الذين لم يكن يربطهم بهم أى وجه شبه مشترك، مع أن اليهود فى البداية كانوا من المبشرين بمجىء الإسلام و لم تكن قد دخلتهم انحرافات كالتثليث و الغلو اللذين كانا عند المسيحيين، غير أن حبّهم للدنيا حبّ عبادة قد أبعدهم عن الحقّ، بينما معاصروهم المسيحيون لم يكونوا على هذه المشاكلة.

إلّا أنّ التّأريخ القديم و المعاصر يقول لنا: أنّ المسيحيين فى القرون التى أعقبت ذلك قد ارتكبوا بحق الإسلام و المسلمين جرائم لا تقل عمّا فعله اليهود فى هذا المجال.

إنّ الحروب الصليبية الطّويلة و الدّموية فى القرون الماضية، و الاستفزازات الكثيرة التى يقوم بها الاستعمار ضد الإسلام و المسلمين اليوم غير خافية على أحد، لذلك ليس لنا أن نأخذ الآيات المذكورة مأخذ قانون عام بالنسبة لجميع المسيحيين، بل إنّ الآية: إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ... و ما بعدها دليل على إنّها نزلت بحق جمع من المسيحيين الذين كانوا يعاصرون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيتان الأخيرتان فيهما إشارة إلى مصير هاتين الطائفتين و إلى عقابهما و ثوابهما، أولئك الذين أظهروا المودة للمؤمنين و خضعوا لآيات اللّه و أظهروا إيمانهم بكل شجاعة و صراحة: فَأَثابَهُمُ اللَّهُ بِما قالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ ۶۳].

و أمّا أولئك الذين ساروا فى طريق العداء و العناد فتقول الآية عنهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۰

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۸۷ الى ۸۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَ

احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

سبب النّزول

لا تتجاوزوا الحدود!

ثمّة روايات متعددة وردت بشأن نزول هذه الآيات منها: فى أحد الأيّام أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يصف بعض ما يجرى يوم القيامة و حال الناس فى تلك المحكمة الإلهية العظمى، فهزّ الوصف نفوس الناس و راح بعضهم يبكى، و على أثر ذلك عزم بعض أتباع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ترك بعض لذائذ الحياة و رفاهها، و أن ينصرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۱

بدلا من ذلك إلى العبادة، فأقسم أمير المؤمنين عليه السّلام أن ينام من الليل أقلّه و يصرفه فى العبادة، و أقسم بلال أن يصوم أيّامه كلّها، و أقسم عثمان بن مظعون أن يترك إتيان زوجته و أن ينقطع إلى العبادة.

جاءت زوجة عثمان بن مظعون- و كانت امرأة جميلة- يوما إلى عائشة فعجبت عائشة من حالها فقالت: ما لى أراك متعطلة؟

فقالت: لمن أتزين؟ فو اللّه ما قاربنى زوجى منذ كذا و كذا فانّه قد ترهب و لبس المسوح و زهد فى الدنيا، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فجاء إليهم و أخبرهم أن ذاك خلاف سنّته و قال: «فمن رغب عن سنتى فليس منى» ثمّ جمع الناس و خطبهم و قال:

«ما بال أقوام حرموا النساء و الطعام و الطيب و النوم و شهوات الدنيا، أمّا إنّى لست آمركم أن تكونوا قسيسين و رهبانا، فإنّه ليس فى دينى ترك اللحم و لا النساء و لا اتّخاذ الصوامع، و إنّ سياحة أمّتى الصوم و رهبانيتهم الجهاد، اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا و حجوا و اعتمروا و أقيموا الصّلاة و آتوا الزّكاة و صوموا رمضان، و استقيموا يستقم لكم، فإنّما هلك من كان قبلكم بالتشديد، شددوا على أنفسهم فشدّد اللّه عليهم ...».

فقام الذين كانوا قد أقسموا على ترك تلك الأمور و قالوا: يا رسول اللّه، لقد أقسمنا على ذلك، فما ذا نفعل؟ فنزلت الآيات المذكورة جوابا لهم ۶۴].

لا بدّ من القول بأنّ قسم البعض مثل قسم عثمان بن مظعون لم يكن مشروعا لما فيه من غمط لحقوق زوجته، و لكن فيما يتعلق بقسم الإمام على عليه السّلام بإحياء الليل بالعبادة، فإنّه كان أمرا مباحا، و لكن المستفاد من الآيات هو أنّ الاولى أن لا يكون ذلك بصورة مستمرة و دائمة، و لا يتعارض مع عصمة على عليه السّلام، لأننا نقرأ بما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۲

يشبه ذلك بالنسبة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية الاولى من سورة التحريم: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ

التّفسير

القسم و كفارته:

فى هذه الآية و الآيات التّالية لها مجموعة من الأحكام الإسلامية المهمّة، بعضها يشرع لأوّل مرّة، و بعض آخر جاء توكيدا و توضيحا

لأحكام سابقة وردت فى آيات اخرى من القرآن، لأنّ هذه السورة- كما سبق أن قلنا- نزلت فى أواخر عمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فكان لا بدّ من التأكيد فيها على أحكام اسلامية مختلفة.

فى الآية الاولى إشارة إلى قيام بعض المسلمين بتحريم بعض النعم الإلهية.

فنهاهم اللّه عن ذلك قائلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ۶۵].

إنّ ذكر هذا الحكم، مع أخذ سبب النّزول بنظر الإعتبار، قد يكون إشارة إلى أنّه إذا كان فى الآيات السابقة شىء من الثناء على فريق من علماء المسيحية و رهبانها لتعاطفهم مع الحقّ و التسليم له، لا لتركهم الدنيا و تحريم الطيبات، و ليس للمسلمين أن يقتبسوا منهم ذلك، فبذكر هذا الحكم يعلن الإسلام صراحة استنكار الرهبنة و هجر الدنيا كما يفعل المسيحيون و المرتاضون (ثمّة شرح أوفى لهذا الموضوع فى تفسير الآية (۲۷) من سورة الحديد: ... وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها.

ثمّ لتوكيد هذا الأمر تنهى الآية عن تجاوز الحدود، لأنّ اللّه لا يحبّ الذين يفعلون ذلك وَ لا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

و فى الآية التى تليها آخر للأمر، إلّا أنّ الآية السابقة كان فيها نهى عن التحريم، و فى هذه الآية أمر بالانتفاع المشروع من الهبات الإلهية، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۳

وَ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً.

و الشرط الوحيد لذلك هو الاعتدال و التقوى عند التمتع بتلك النعم: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أى أنّ إيمانكم باللّه يوجب عليكم احترام أوامره فى التمتع و فى الاعتدال و التقوى.

هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، و هو أنّ الأمر بالتقوى يعنى إن تحريم المباحات و الطيبات لا يأتلف مع درجات التقوى المتكاملة الرفيعة، فالتقوى تستلزم أن لا يتجاوز الإنسان حد الاعتدال من جميع الجهات.

و الآية التى بعدها تتناول القسم الذى يقسم به الإنسان فى حالة تحريم الحلال و فى غيره من الحالات بشكل عام، و يمكن القول أنّ القسم نوعان:

فالاولى: هو القسم اللغو، فيقول: لا يُؤاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ

فى تفسير الآية (۲۲۵) من سورة البقرة- التى تتناول موضوع عدم وجود عقاب على اللغو فى الأيمان- قلنا: إنّ المقصود باللغوّ فى الأيمان- كما يقول المفسّرون و الفقهاء- الأيمان التى ليس لها هدف معين و لا تصدر عن وعى و عزم إرادى، و إنما هى قسم يحلف به المرء من غير تمعن فى الأمر فيقول: و اللّه و باللّه، أو لا و اللّه و لا باللّه، أو إنّه فى حالة من الغضب و الهياج يقسم دون وعى.

و يقول بعضهم: إنّ الإنسان إذا كان واثقا من أمر فاقسم به، ثمّ ظهر أنّه قد أخطأ، فقسمه- يعتبر أيضا- من نوع اللغو فى الأيمان، كأن يتيقن أحدهم من خيانة زوجته على أثر سعاية بعض الناس و وشايتهم، فيقسم على طلاقها، ثمّ يتّضح له أن ما سمعه بحقّها كان كذبا و افتراء، فإنّ قسمه ذاك لا اعتبار له، إننا نعلم أيضا أنّه بالإضافة إلى توفر القصد و الإرادة و العزم فى القسم الجاد، يجب أن يكون محتواه غير مكروه و غير محرم، و عليه إذا أقسم أحدهم مختارا أن يرتكب عملا محرما أو مكروها، فإن قسمه لا قيمة له و لا يلزمه الوفاء به، و يحتمل أن يكون مفهوم «اللغو» فى هذه الآية مفهوما واسعا يشمل هذا النوع من الأيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۴

أيضا.

و القسم الثّانى: هو القسم الجاد الإرادى الذى قرره المرء بوعى منه، هذا النوع من القسم هو الذى يعاقب عليه اللّه إذا لم يف به الإنسان: وَ لكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الْأَيْمانَ

كلمة «العقد» تعنى فى الأصل- كما قلنا فى بداية سورة المائدة- جمع أطراف الشىء جمعا محكما.

و منه تسمیة ربط طرفی الحبل ب «العقدة» ثمّ انتقل هذا المعنی إلی الأمور المعنویة، فأطلق علی کل اتفاق و عهد اسم العقد، فعقد الأیمان- کما فی الآیة- یعنی التعهد بکل جد و عزم و تصمیم علی أمر ما بموجب القسم.

بدیهی أن الجد وحده فی القسم لا یکفی لصحته، بل لا بدّ أیضا من صحة محتواه- کما قلنا- و أن یکون أمرا مباحا فی الأقل، کما لا بدّ من القول بأنّ القسم بغیر اسم اللّه لا قیمة له.

و علیه إذا أقسم إمرؤ باللّه أن یعمل عملا محمودا، أو مباحا علی الأقل، فیجب علیه أن یعمل بقسمه، فإن لم یفعل، فعلیه کفارة التخلف.

و کفارة القسم هی ما ورد فی ذیل الآیة المذکورة، و هی واحدة من ثلاثة:

الأولی: فَکَفَّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرَةِ مَساکِینَ و لکیلا یؤخذ هذا الحکم علی إطلاقه بحیث یصار إلی أی نوع من الطعام الدنیء و القلیل، فقد جاء بیان نوع الطعام بما لا یقل عن أوسط الطعام الذی یعطی لأفراد العائلة عادة: مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِیکُمْ

ظاهر الآیة یدل علی النوعیة المتوسطة، و لکن یحتمل أنّه إشارة إلی الکمیة و الکیفیة کلیهما، فقد جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه الحد الوسط من الکیفیة، و عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه الحدّ الوسط من الکمیة، الأمر الذی یدل علی أن المطلوب هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۵

الحد الوسط من کلیهما[۶۶].

و لا حاجة للقول بأنّ «الحدّ الوسط» سواء فی الکمیة أو الکیفیة، یختلف باختلاف المدن و القری و الأزمنه.

و قد احتمل بعضهم تفسیرا آخر للأوسط، و هو أنّه یعنی الجید الرفیع، و هما من معانی «الأوسط» کما نقرأ فی الآیة (۲۸) من سورة القلم: قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَکُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ

الثّانیة: أَوْ کِسْوَتُهُمْ

من الطبیعی أنّ ذلک یعنی الملابس التی تغطی الجسم حسب العادة، لذلک ورد فی بعض الرّوایات أنّ الإمام الصادق علیه السّلام بیّن أنّ المقصود بالکسوة فی هذه الآیة قطعتا اللباس (الثوب و السروال)، أمّا الروایة المنقولة عن الإمام الباقر علیه السّلام بأن ثوبا واحدا یکفی، فربّما تکون إشارة إلی الثوب العربی الطویل المعروف و الذی یکسو الجسم کلّه، أمّا بشأن النسوة فلا شک أنّ ثوبا واحدا لا یکفی، بل لا بدّ من غطاء للرأس و الرقبة، و هذا هو الحدّ الأدنی لکسوة المرأة لذلک لا یستبعد أن تکون الکسوة التی تعطی کفارة تختلف أیضا باختلاف الفصول ۶۷] و الأمکنة و الأزمنة.

أمّا من حیث الکیفیة، و هل یکفی الحد الأدنی، أم ینبغی مراعاة الحد الأوسط؟ فإن للمفسرین رأیین فی ذلک:

۱- إن کل کسوة تکفی إذا أخذت الآیة علی إطلاقها.

۲- إنّه ما دمنا قد راعینا الحدّ الأوسط فی الإطعام، فلا بدّ أن نراعی هذا الحد فی الکساء أیضا، غیر أن الرأی الأوّل أکثر انسجاما مع إطلاق الآیة.

الثّالثة: أَوْ تَحْرِیرُ رَقَبَةٍ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۶

و إن کانت الآیة مطلقة فی الظاهر.

و هذا ما یدل علی أنّ الإسلام یتوسل بطرق مختلفة لتحریر العبید، أمّا فی الوقت الحاضر حیث یبدو أنّه لا وجود للرق، فإنّ علی المسلمین أن یختاروا واحدة من الکفارتین المتقدمتین.

لیس ثمّة شک فی أنّ هذه المواضیع الثلاثة متباینة من حیث قیمتها تباینا کبیرا، و لعل القصد من هذا التباین هو حریة الإنسان فی إختیار الکفارة التی تناسبه و تناسب إمکاناته المادیة.

و لكن قد يوجد من لا قدرة له على أىّ منها، لذلك فإنّه بعد بيان تلك الأحكام يقول سبحانه و تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّام إذن، فصيام ثلاثة أيّام مقصور على الذين لا قدرة لهم على تحقيق أى من الكفارات الثلاث السابقة، ثمّ يؤكّد القول ثانية: ذلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ

و مع ذلك، فلكى لا يظن أحد أنّه بدفع الكفارة يجوز للمرء أن يرجع عن قسم صحيح أقسمه، يقول تعالى: وَ احْفَظُوا أَيْمانَكُمْ

و بعبارة أخرى: إنّ الالتزام بالقسم واجب تكليفى، و عدم تنفيذه حرام، و الكفارة تأتى بعد الرجوع عن القسم.

فى ختام الآيات يبيّن القرآن أنّ هذه الآيات توضح لكم الأحكام التى تضمن سعادة الفرد و المجتمع و سلامتها لتشكروه على ذلك: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۰ الى ۹۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۹۰) إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (۹۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۹۲)

سبب النّزول

تذكر التفاسير الشيعية و السنّية روايات متعددة عن سبب نزول الآية الاولى تكاد تكون متشابهة، من ذلك أنّه جاء فى تفسير «الدر المنثور» عن سعد بن أبى وقاص أنّه قال: إنّ هذه الآية قد نزلت بشأنى. كان أنصارى قد أعد طعاما دعانا إليه مع جمع من الناس، فتناولوا الطعام و شربوا الخمر، و كان هذا قبل تحريمها فى الإسلام، و عند ما صعدت النشوة إلى رؤوسهم أخذوا يتفاخرون و ارتفع بينهم الكلام شيئا فشيئا حتى وصل الأمر بأحدهم أن تناول عظم بعير فضربنى به على أنفى فشجه فقمت إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حكيت له ما جرى، فنزلت الآية المذكورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۸

و فى «مسند أحمد» و «سنن أبى داود» و «النسائى» و «الترمذى» أنّ عمر (و كان يكثر من الخمر كما جاء فى تفسير «فى ظلال القرآن» ج ۳، ص ۳۳) كان يدعو اللّه أن ينزل حكما واضحا فى الخمر، و عند ما نزلت الآية (۲۱۹) من سورة البقرة يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ .. قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنّه ظل يكرر دعاءه و يطلب مزيدا من التوضيح حتى نزلت الآية (۴۳) من سورة النساء:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى فقرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا، غير أنّه استمر فى دعاءه، حتى نزلت الآية التى نحن بصددها موضحة الحكم بشكل كامل، و عند ما قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على عمر، فقال: انتهينا انتهينا[۶۸]!

التّفسير

مراحل تحريم الخمر و حكمها النهائى:

سبق أنّ ذكرنا فى المجلد الثّالث من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۴۳) من سورة النساء، إنّ معاقرة الخمر فى الجاهلية و قبيل الإسلام كانت منتشرة انتشارا أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنّ حبّ عرب الجاهلية كان مقصورا على ثلاثة:

الشعر و الخمر و الغزو.

و يستفاد من بعض الرّوايات، أنّه حتى بعد تحريم الخمر فإن الإقلاع عنها كان شاقّا على بعض المسلمين، حتى قالوا: ما حرم علينا شىء أشد من الخمر[۶۹]! من الواضح أنّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية و الاجتماعية بنظر الإعتبار لتعذر الأمر و شق تطبيق التحريم، لذلك اتخذ أسلوب التحريم التدريجى و إعداد الأفكار و الأذهان لاقتلاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۳۹

هذه الآفة من جذورها، و هى العادة التى كانت قد تأصلت فى نفوسهم، و عروقهم، ففى أوّل الأمر وردت إشارات فى الآيات المكية تستقبح شرب الخمر، كما فى الآية (۶۷) من سورة النحل: وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً.

فهنا «سكر» و تعنى الشراب المسكر الذى كانوا يستخرجونه من التمر و العنب، قد وضع فى قبال الرزق الحسن، فاعتبره شرابا غير طيب بخلاف الرزق الحسن، إلّا أنّ تلك العادة الخبيثة- عادة معاقرة الخمرة- كانت أعمق من أن تستأصل بهذه الإشارات، ثمّ أنّ الخمر كانت تؤلف جانبا من دخلهم الاقتصادى لذلك، عند ما هاجر المسلمون إلى المدينة و أسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية أشد فى تحريم الخمر من الاولى، لكى تهيئ الأذهان أكثر إلى التحريم النهائى، تلك هى الآية (۲۱۹) من سورة البقرة: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

فها هنا إشارة إلى منافع الخمر الاقتصادية لبعض المجتمعات، كالمجتمع الجاهلى، مصحوبة بإشارة إلى أخطارها الكبيرة و مضارها التى تفوق كثيرا منافعها الاقتصادية.

ثمّ فى الآية (۴۳) من سورة النساء: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَ أَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ يأمر اللّه المسلمين أمرا صريحا بأن لا يقيموا الصّلاة و هم سكارى حتى أدركوا ما يقولونه أمام اللّه.

واضح أنّ هذا لم يكن يعنى أنّ شرب الخمر فى غير الصّلاة جايز، بل هى مسألة التدرج فى تحريم الخمر مرحلة مرحلة، أى أنّ هذه الآية كأنّها تلتزم الصمت و لا تقول شيئا صراحة فى غير مواقع الصّلاة.

إنّ تقدم المسلمين فى التعرف على أحكام الإسلام و استعدادهم الفكرى لاستئصال هذه المفسدة الاجتماعية الكبيرة التى كانت متعمقة فى نفوسهم، أصبحا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۰

سببا فى نزول آية صريحة تماما فى تحريم الخمر حتى سدت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار و المسوغات، و هذه الآية هى موضوع البحث.

و إنّه لمما يستلفت النظر أنّ تحريم الخمرة يعبر عنه فى هذه الآية بصورة متنوعة:

۱- فالآية تبدأ بمخاطبة المؤمنين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أى أنّ عدم الصدوع بهذا الأمر لا ينسجم مع روح الإيمان.

۲- استعمال «إنّما» التى تعنى الحصر و التوكيد.

۳- وضعت الخمر و القمار إلى جانب الأنصاب ۷۰] (و هى قطع أحجار لا صورة لها كانت تتخذ كالأصنام) للدلالة على أنّ الخمر و القمار لا يقلان ضررا عن عبادة الأصنام، و لهذا

جاء فى حديث شريف أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «شارب الخمر كعابد الوثن»[۷۱].

۴- الخمر و القمار و عبادة الأصنام، و الاستقسام و الأزلام (ضرب من اليانصيب)[۷۲] كلها قد اعتبرها القرآن رجسا و خبثا: إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصابُ وَ الْأَزْلامُ رِجْسٌ

۵- و هذه الأعمال القبيحة كلّها من أعمال الشيطان: مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ

۶- و أخيرا يصدر الأمر القاطع الواجب الإتباع: فَاجْتَنِبُوهُ

لا بـدّ من التنويـة بأنّ لتعبير «فاجتنبوه» مفهوما أبعـد، إذ أنّ الاجتناب يعنى الابتعاد و الانفصال و عـدم الاقتراب، ممّا يكون أشد و أقطع من مجرّد النهى عن شرب الخمر.

۷- و فى الختام يقول تعالى أن ذلك: لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ أى لا فلاح لكم بغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۱

ذلك.

۸- و فى الآيـة التّاليـة لها يعـدد بعضا من أضـرار الخمر و القمار، التى يريـد الشـيطان أن يوقعها بهم: إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلاةِ.

۹- و فى ختام هذه الآية يتقدم باستفهام تقريرى: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ

أى بعد كل هذا التوكيد و التوضـيح، ثمّة مكان لخلق المبررات أو للشك و التردد فى تجنب هذين الإثمين الكبيرين؟ لذلك نجد أنّ عمر الـذى كان شديـد الولع بالخمر (كما يقول مفسـرو أهل السـنة) و الـذى كان- لهـذا السـبب- لا يرى فى الآيات السابقـة ما يكفى لمنعه، قال عند ما سمع هذه الآية: انتهينا، انتهينا! لأنّه رأى فيها الكفاية.

۱۰- فى الآية الثالثة التى تؤكّد هذا الحكم، يأمر المسلمين: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ احْذَرُوا.

ثمّ يتوعد المخالفين بالعقاب، و أنّ مهمّة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الإبلاغ: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

الآثار المهلكة للخمر و الميسر:

على الرغم من أننا أشـرنا فى تفسـير الآية (۲۱۹) من سورة البقرة فى المجلـد الثّانى من هذا التّفسـير إشارة موجزة أضـرار هاتين الآفتين الاجتماعيتين، إلّا أنّنا لتوكيد الأمر- اقتداء بالقرآن الكريم- نضـيف هنا أمورا أخرى هى مجموعة من الإحصاءات المختلفة كل واحدة منها تعتبر شهادة وافية تدل على عظم تلك الأضرار و عمق تأثيرها.

۱- فى إحصائيـة صـدرت فى بريطانيـا بشـأن الجنون الكحولى و مقـارنته بـالجنون العـادى، جـاء أنّه فى مقابـل (۲۲۴۹) مجنونا بسـبب الإدمان على الخمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۲

هناك (۵۳) مجنونا فقط لأسباب مختلفة أخرى ۷۳].

۲- و فى إحصاء آخر من أمريكا أنّ ۸۵٪ من المصابين بأمراض نفسية هم من المدمنين على الخمر[۷۴].

۳- يقول عـالم إنجليزى اسـمه (بنتـام): أنّ المشـروبات الكحوليـة تحول أهـالى الشـمال إلى أنـاس حمقى و بله، و أهالى الجنوب إلى مجانين، ثمّ يضيف: إنّ الدين الإسلامى يحرم جميع أنواع المسكرات، و هذا واحد من مميزات الإسلام ۷۵].

۴- لو أجرى إحصاء عن السكارى الذين انتحروا، أو ارتكبوا الجرائم و حطموا العوائل، لكان لدينا رقم رهيب ۷۶].

۵- فى فرنسا يموت كلّ يوم ۴۴۰ شخصا ضحية للخمور[۷۷].

۶- تقول إحصائیة أخری من أمریکا: أنّ عدد المرضی النفسانیین خلال سنة واحدة بلغ ضعف قتلاها فی الحرب العالمیة الثّانیة، و یری العلماء الأمریکان أنّ السببین الرئیسیین لهذا هما المشروبات الکحولیة و التدخین ۷۸].

۷- جاء فی إحصائیة وضعها عالم یدعی (هوگر) نشرها فی مجلة (العلوم) بمناسبة عید تأسیسها العشرین، قال فیها: أنّ ۶۰٪ من القتل المتعمد، ۷۵٪ من الضرب و الجرح و ۳۰٪ من الجرائم الأخلاقیة (بما فیها الزنا بالمحارم!) و ۲۰٪ من جرائم السرقة، سببها المشروبات الکحولیة، و عن هذا العالم نفسه أنّ ۴۰٪ من الأطفال المجرمین قد ورثوا آثار الکحول ۷۹].

۸- إنّ الخسائر التی تصیب الإقتصاد البریطانی من جراء تغیب العمال عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۳

العمل بسبب إدمانهم علی الخمر تبلغ سنویا نحو ۵۰ ملیون دولار، و هو مبلغ یکفی لإنشاء الآلاف من ریاض الأطفال و المدارس الابتدائیة و الثانویة.

۹- الإحصاءات التی نشرت عن خسائر الإدمان علی الکحول فی فرنسا تقول: أنّ الخزینة الفرنسیة تتحمل سنویا مبلغ (۱۳۷) ملیارد فرنک، إضافة إلی الأضرار الأخری کما یلی:

۶۰ ملیار فرنک للصرف المحاکم و السجون.

۴۰ ملیار فرنک للصرف علی الإعانات العامّة و المؤسسات الخیریة.

۱۰- ملیارات من الفرنکات للصرف علی المستشفیات الخاصّة لمعالجة المدمنین علی المسکرات.

۷۰ ملیار فرنک للصرف علی الأمن الاجتماعی.

و هکذا یتّضح أنّ عدد المرضی النفسانیین و مصحات الأمراض العقلیة و جرائم القتل و المخاصمات الدمویة و السرقة و الاغتصاب و حوادث المرور، تتناسب تناسبا طردیا مع عدد حانات الخمور.

۱۰- أثبتت الدوائر الاحصائیة فی أمریکا أنّ القمار کان السبب المباشر فی ۳۰٪ من الجرائم، و فی إحصائیة أخری عن جرائم القمار نری و للأسف الشدید أن ۹۰٪ من جرائم السرقة و ۵۰٪ من الجرائم الجنسیة و ۱۰٪ من فساد الأخلاق و ۳۰٪ من الطلاق و ۴۰٪ من الضرب و الجرح و ۵٪ من حوادث الانتحار إنما هی بسبب القمار[۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۴

الآیة [سورة المائدة (۵): آیة ۹۳]

اشارة

لَیْسَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِیما طَعِمُوا إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ یُحِبُّ الْمُحْسِنِینَ (۹۳)

سبب النّزول

جاء فی تفسیر «مجمع البیان» و تفسیر «الطبری» و تفسیر «القرطبی» و غیرها من التفاسیر أنّه بعد نزول آیة تحریم الخمر و المیسر، قال بعض أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إذا کان هذان العملان علی هذا القدر من الإثم، فما حال المسلمین الذین توفاهم اللّه قبل نزول هذه الآیة و کانوا ما یزالون یمارسونهما؟

فنزلت هذه الآیة جوابا لهم.

التّفسير

تجيب هذه الآية الذين يتساءلون عن الماضين قبل نزول آية تحريم الخمر و الميسر، أو الذين لم يسمعوا بعد تلك الآية لبعد مناطقهم التى يعيشون فيها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۵

فتقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا[۸۱] و لكنّها تشترط لتلك التقوى و الإيمان و العمل الصالح: إِذا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثمّ تكرر ذلك ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا و للمرّة الثالثة تكرر الآية بقليل من الاختلاف ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا، و تنتهى بالتوكيد وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

هنالك كلام كثير بين المفسّرين القدامى و المحدثين حول هذا التكرار، فبعض يراه للتوكيد و يقول: أنّ أهمية التقوى و الإيمان و العمل الصالح تقتضى الإعادة و التكرار و التوكيد.

إلّا أنّ جمعا آخر من المفسّرين يعتقدون أنّ كلّ جملة من هذه الجمل المكررة تشير إلى حقيقة منفصلة عن الأخرى، و أنّ هناك احتمالات متعددة بشأن اختلاف كل جملة عن الأخرى، و لكن معظم هذه الاحتمالات لا يقوم عليها دليل أو شاهد.

و لعل خير ما قيل بهذه الخصوص هو قولهم: أنّ المقصود بالتقوى فى المرّة الاولى هو ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية و الذى يسوق الإنسان نحو البحث و التدقيق فى الدين، و مطالعة معجزة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و البحث عن اللّه، فتكون نتيجة ذلك الإيمان و العمل الصالح، و بعبارة أخرى: إذا لم يكن فى الإنسان شىء من التقوى فإنّه لا يتجه إلى البحث عن الحقيقة، و عليه فإن ورد كلمة «التقوى» لأوّل مرّة فى هذه الآية إشارة إلى هذا المقدار من التقوى، و ليس فى هذا تناقض مع بداية الآية التى تقول: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... لأنّ الإيمان هنا يمكن أن يكون بمعنى التسليم الظاهرى، بينما الإيمان الذى يحصل بعد التقوى هو الإيمان الحقيقى.

و تكرار التقوى للمرّة الثّانية إشارة إلى التقوى التى تنفذ إلى أعماق الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۶

فيزداد تأثيرها، و تكون نتيجتها الإيمان الثابت الوطيد الذى يؤدى إلى العمل الصالح، و لذلك لم يرد «العمل الصالح» بعد «الإيمان» فى الجملة الثّانية: ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا أى أنّ هذا الإيمان من الثبوت و النفاذ بحيث لا حاجة معه لذكر العمل الصالح.

و فى المرحلة الثّالثة يدور الكلام على التقوى التى بلغت حدّها الأعلى بحيث أنّها فضلا عن دفعها إلى القيام بالواجبات، تدفع إلى الإحسان أيضا، أى إلى الأعمال الصالحة التى ليست من الواجبات.

و عليه فإنّ هذه الضروب الثلاثة من التقوى تشير إلى ثلاث مراحل من الإحساس بالمسؤولية و كأنّها تمثل المرحلة (الابتدائية) و المرحلة (المتوسطة) و المرحلة (النهائية)، و لكل مرحلة قرينة تدل عليها فى الآية.

أمّا ما ذهب إليه مفسّرون آخرون بشأن تناول الآية ثلاثة أنواع من التقوى و ثلاثة أنواع من الإيمان فلا قرينة عليه و لا شاهد فى الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۷

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۴ الى ۹۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ

أَلِيمٌ (۹۴) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۹۵) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹۶)

سبب النّزول

جاء فى كتاب الكافى و فى كثير من التفاسير أنّه فى سنة الحديبية، عند ما قصد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه من المسلمين العمرة و هم محرمون، صادفوا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۸

طريقهم كثيرا من الحيوانات البرية و كانوا قادرين على صيدها باليد أو بالرمح، لقد كان الصيد من الكثرة بحيث قيل أنّ الحيوانات كانت تجوس بين الخيام و تمر بين الناس، الآية الاولى من هذه الآيات فنزلت فى هذا الوقت تحذر المسلمين من صيدها، و تعتبر امتناعهم عن صيدها ضربا من الامتحان لهم.

التّفسير

أحكام الصّيد عند الإحرام:

تبيّن هذه الآيات أحكام صيد البر و البحر أثناء الإحرام للحج أو للعمرة.

فى البداية إشارة إلى ما حدث للمسلمين فى عمرة الحديبية، فيقول سبحانه و تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ وَ رِماحُكُمْ

يستفاد من تعبير الآية أنّ اللّه تعالى يريد إنباء الناس عن قضية سوف تقع فى المستقبل، كما يظهر أيضا أنّ وفرة الصيد فى ذلك المكان لم يكن أمرا مألوفا، فكان هذا امتحانا للمسلمين، على الأخص إذا أخذنا بنظر الإعتبار حاجتهم الماسة إلى الحصول على طعامهم من لحوم ذلك الصيد الذى كان موفورا و فى متناول أيديهم، إنّ تحمل الناس فى ذلك العصر الحرمان من ذلك الغذاء القريب يعتبر امتحانا كبيرا لهم.

قال بعضهم: أنّ المقصود من عبارة: تَنالُهُ أَيْدِيكُمْ هو أنّهم كانوا قادرين على صيدها بالشباك أو بالفخاخ، و لكن ظاهر الآية يشير إلى أنّهم كانوا حقّا قادرين على صيدها باليد.

ثمّ يقول من باب التوكيد: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخافُهُ بِالْغَيْبِ سبق أن أوضحنا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۱۴۳) من سورة البقرة أنّ تعبير «لنعلم» أو «ليعلم» و أمثالها لا يقصد بها، أن اللّه لم يكن يعلم شيئا، و أنّه يريد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۴۹

يعلمه عن طريق اختبار الناس، بل المقصود هو البأس الحقيقة المعلومة لدى اللّه لباس العمل و التحقق الخارجى، و ذلك لأنّ الاعتماد على نوايا الأشخاص الداخلية و استعدادهم غير كاف للتكامل و للمعاقبة و الإثابة، بل يجب أن ينكشف كل ذلك خلال أعمال خارجية لكى يكون لها تلك الآثار (لمزيد من التوضيح انظر ذيل الآية المذكورة).

و الآية فى الخاتمة تتوعد الذين يخالفون هذا الحكم الإلهى بعذاب شديد:

فَمَنِ اعْتَدى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ

على الرّغم من أنّ الجملة الأخيرة فى الآية تدل على تحريم الصيد أثناء الإحرام، و لكن الآية التّالية لها تصدر حكما قاطعا و صريحا و عاما بشأن تحريم الصيد أثناء الإحرام، إذ تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ

و هل تحريم الصيد (و هو صيد البر بدلالة الآية التى تليها) يشمل جميع أنواع الحيوانات البرية، سواء أ كان لحمها حلالا أم حراما، أم أنّه يختص بحلال اللحم منها؟

لا- تتفق آراء المفسّرين و الفقهاء بهذا الشأن، إلّا أنّ المشهور بين فقهاء الإمامية و مفسريهم أنّ الحكم عام، و يؤيد ذلك الرّوايات المروية عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، أمّا فقهاء أهل السنة فمنهم- مثل أبى حنيفة- من يتفق مع الإمامية فى ذلك، و منهم- كالشافعى- من يرى الحكم مقصورا على الحيوانات المحللة اللحوم و لكن الحكم، على كل حال، لا يشمل الحيوانات الأهلية، لأنّ الحيوانات الأهلية لا- توصف بالصيد، إنّ ممّا يستلفت النظر فى رواياتنا هو أنّ الصيد ليس وحده المحرم أثناء الإحرام، بل التحريم يشمل حتى الإعانة على الصيد، و الإشارة أو الدلالة عليه أيضا.

قد يظن بعض أنّ الصيد لا- يشمل ذوات اللحم الحرام، إلّا أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّ الغرض من صيد الحيوان متنوع، فمرّة يكون الغرض لحمها، و أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۰

جلدها، و ثالثة لدفع أذاها، ثمّة بيت ينسب إلى الإمام على عليه السّلام من الممكن أن يكون شاهدا على هذا التعميم: يقول:

صيد الملوك أرانب و ثعالبو إذا ركبت فصيدى الأبطال

و للاستزادة من المعرفة بشأن أحكام الصيد الحلال و الحرام يمكن الرجوع إلى الكتب الفقهية.

ثمّ بعد ذلك يشار إلى كفارة الصيد فى حال الإحرام، فيقول: وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّداً فَجَزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ

فهل المقصود من «مثل» هو التماثل فى الشكل و الحجم أى إذا قتل أحد حيوانا وحشيا كبيرا مثل النعامة- مثلا- فهل يجب عليه أنّ يختار الكفارة من الحيوانات الكبيرة، كالبعير مثلا أو إذا صاد غزالا، فهل كفارته تكون شاة تقاربه فى الحجم و الشكل؟ أم أنّ «مثل» هو التماثل فى القيمة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص ۱۵۰

المشهور و المعروف بين الفقهاء و المفسّرين هو الرأى الأوّل، كما أنّ ظاهر الآية أقرب إلى هذا المعنى، و ذلك لأنّه بالنظر لعمومية الحكم على الحيوانات ذوات اللحم الحلال و ذوات اللحم الحرام، فإنّ أكثر هذه الحيوانات ليس لها قيمة ثابتة لكى يمكن إختيار مثيلاتها من الحيوانات الأهلية.

و هذا- على كلّ حال- قد يكون ممكنا فى حالة وجود المثيل من حيث الشكل و الحجم، أمّا حالة انعدام المثيل، فلا مندوحة من تقدير قيمة للصيد بشكل من الأشكال، و ليمكن إختيار حيوان أهلى حلال اللحم يقاربه فى القيمة.

و لمّا كان من الممكن أن تكون قضية التماثل موضع شك عند بعضهم فقد أصدر القرآن حكمه بأن ذلك ينبغى أنّ يكون بتحكيم شخصين مطلعين و عادلين:

يَحْكُمُ بِهِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ

أمّا عن مكان ذبح الكفارة، فيبيّن القرآن أنّه يكون بصورة «هدى» يبلغ أرض الكعبة: هَدْياً بالِغَ الْكَعْبَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۱

و المشهور بين فقهائنا هو أنّ «كفارة الصيد أثناء الإحرام للعمرة» يجب أنّ تذبح فى «مكّة» و «كفارة الصيد أثناء الإحرام للحج» يجب

أن تذبح فى «منى»، و هذا لا يتعارض مع الآية المذكورة، لأنّها نزلت فى إحرام العمرة، كما قلنا.

ثمّ يضيف أنّه ليس ضروريا أنّ تكون الكفارة بصورة أضحية، بل يمكن الاستعاضة عنها بواحد من اثنين آخرين: أَوْ كَفَّارَةٌ طَعامُ مَساكِينَ و أَوْ عَدْلُ ذلِكَ صِياماً.

مع أنّ الآية لا تذكر عدد المساكين الذين يجب إطعامهم، و لا عدد الأيّام التى يجب أنّ تصام، فإن اقتران الاثنين معا من جهة، و التصريح بلزوم الموازنة فى الصيام، يدل على أنّ المقصود ليس إطلاق عدد المساكين الذين يجب إطعامهم بحسب رغبتنا، بل المقصود تحديد ذلك بمقدار قيمة الأضحية.

أمّا كيف يتمّ التوازن بين الصيام و إطعام المسكين، فيستفاد من بعض الرّوايات أنّ مقابل كلّ «مدّ» من الطعام (ما يعادل نحو ۷۵۰ غراما من الحنطة و أمثالها) يصوم يوما واحدا، و يستفاد من روايات أخرى أنّه يصوم يوما واحدا فى مقابل كلّ «مدّين» من الطعام، و هذا يعود فى الواقع إلى أن الذى لا يستطيع صوم رمضان يكفّر عن كل يوم منه بمدّ واحد أو بمدّين اثنين من الطعام للمحتاجين (لمزيد من الاطلاع بهذا الخصوص انظر الكتب الفقهية).

أمّا إذا ارتكب محرم صيدا فهل له أن يختار أيّا من هذه الكفارات الثلاث، أو أنّ عليه أن يختار بالترتيب واحدة منها، أى الذبيحة أوّلا، فإن لم يستطع فإطعام المسكين، فإنّ لم يستطع فالصيام، فالفقهاء مختلفون فى هذا، و لكن ظاهر الآية يدل على حرية الإختيار.

إنّ الهدف من هذه الكفارات هو لِيَذُوقَ وَبالَ أَمْرِهِ ۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۲

ثمّ لما لم يكن لأى حكم أثر رجعى يعود إلى الماضى، فيقول: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ

أمّا من لم يعتن بهذه التحذيرات المتكررة و لم يلتفت إلى أحكام الكفارة و كرر مخالفاته لحكم الصيد و هو محرم فإنّ اللّه سوف ينتقم منه فى الوقت المناسب: وَ مَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ

ثمّة نقاش بين المفسّرين عمّا إذا كانت كفارة صيد المحرم تتكرر بتكرره، أو لا، ظاهر الآية يدل على أنّ التكرار يستوجب انتقام اللّه، فلو استلزم تكرار الكفارة لوجب أنّ لا يكتفى بذكر الانتقام الإلهى، و للزم ذكر تكرار الكفارة صراحة، و هذا ما جاء فى الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام.

بعد ذلك يتناول الكلام صيد البحر: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ

لكن ما المقصود من الطعام؟ فإن بعض المفسّرين يرون أنّه ذلك النوع من السمك الذى يموت بدون صيد و يطفو على سطح الماء، مع أنّنا نعلم أنّ هذا الكلام ليس صحيحا، لأنّ السمك الميت بهذا الشكل حرام مع أنّ بعض الرّوايات التى يرويها أهل السنّة تدل على حليته.

إنّ ما يستفاد من التعمق فى ظهور الآية هو أنّ القصد من الطعام ما يهيأ للأكل من سمك الصيد إذ أنّ الآية تريد أن تحلل أمرين، الأوّل هو الصيد، و الثّانى هو الطعام المتخذ من هذا الصيد.

و بهذه المناسبة، ثمّة فتوى معروفة بين فقهائنا تعتمد مفهوم هذا التعبير، و ذلك فيما يتعلق بصيد البر، فإن هذا الصيد ليس وحده حراما، بل أنّ طعامه حرام أيضا.

ثمّ تشير الآية إلى الحكمة فى هذا الحكم و تقول: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ، أى لكيلا تعانوا المشقّة فى طعامكم و أنتم محرومون، فلكم أن تستفيدوا من نوع واحد من الصيد، ذلك هو صيد البحر.

و لمّا كان من المألوف أن يكون السمك الذى يحمله المسافر معه هو السمك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۳

المملح، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى تفسير العبارة المذكورة فى الآية بأنّه يجوز «للمقيمين» أن يطعموا السمك الطازج و

«للمسافرين» السمك المملح.

و لا بدّ من التنبيه إلى أنّ حكم أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعامُهُ ليس حكما مطلقا و عاما فى حلّية صيد البحر كافة كما يظن بعضهم، و ذلك لأنّ الآية ليست فى معرض بيان أصل حكم صيد البحر، بل هدف الآية هو أنّ تبيّن للمحرم أنّ صيد البحر (الذى كان حلالا قبل الإحرام له أن يطعمه فى حال الإحرام أيضا)، و بعبارة أخرى: لتبيّن الآية أصل تشريع القانون، و إنّما تشير إلى خصائص قانون سبق تشريعه فليست الآية فى معرض عمومية الحكم، بل هى تبيّن حكم المحرم فحسب.

و للتوكيد تعود الآية إلى الحكم السابق مرّة أخرى و تقول: وَ حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ ما دُمْتُمْ حُرُماً.

و لتوكيد جميع الأحكام التى ذكرت، تقول الآية فى الخاتمة: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

حكمة تحريم الصّيد حال الإحرام:

معلوم أنّ الحج و العمرة من العبادات التى تفصل الإنسان عن عالم المادة و تنقله إلى محيط ملىء بالمعنويات، فخصوصيات الحياة المادية، و الجدال الخصام، و الرغبات الجنسية، و اللذائذ المادية كلّها تنفصل عن الإنسان فى مناسك الحج و العمرة، و يبدأ الإنسان ضربا من الرياضة الإلهية المشروعة، و يبدو أن تحريم صيد البرّ فى حال الإحرام يرمى إلى الهدف نفسه.

ثمّ لو أحل الصيد لزائرى بيت اللّه الحرام، مع الأخذ بنظر الإعتبار كثرة الزوار و كثرة ترددهم فى كلّ سنة على هذه الأرض المقدسة، لقضى على وجود الكثير من الحيوانات القليلة أصلا فى تلك الأرض القاحلة الخالية من الماء و الزرع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۴

فجاء هذا التشريع لضمان بقاء حيوانات تلك المنطقة و الحفاظ عليها من الانقراض.

و إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّه حتى فى غير حال الإحرام يمنع صيد الحرم، و كذلك قطع أشجاره و حشائشه، تبيّن لنا أنّ لهذا التشريع ارتباطا وثيقا بقضية الحفاظ على البيئة و على النبات و الحيوان فى تلك المنطقة، و صيانتها من الإبادة.

إنّ هذا التشريع من الدّقة و الإحكام بحيث أنّه يمنع فيه حتى هداية الصياد إلى مكان الصيد، فقد جاء فى بعض الرّوايات من طرق أهل البيت عليهم السّلام

أنّ الإمام الصادق عليه السّلام قال لأحد أصحابه: «لا تستحلن شيئا من الصيد و أنت حرام و لا أنت حلال فى الحرم و لا تدلن محلا و لا محرما فيصطاده، و لا تشر إليه فيستحل من أجلك، فإنّ فيه فداء لمن تعمّده»[۸۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۵

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۹۷ الى ۹۹]

اشارة

جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقَلائِدَ ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۹۷) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۸) ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۹۹)

التّفسير

اشارة

بعد الكلام فى الآيات السابقة على تحريم الصيد فى حال الإحرام، يشير القرآن الكريم فى هذه الآية إلى أهمية «مكّة» و أثرها فى بناء حياة المسلمين الاجتماعية، فيقول أوّلا: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ

فهذا البيت المقدس رمز وحدة الناس و مركز لتجمع القلوب حوله، و مؤتمر عظيم لتوثيق الرّوابط المختلفة، فهم فى ظل هذا البيت المقدس و فى مركزيته و معنويته المستمدة من جذور تاريخية عميقة يستطيعون إصلاح الكثير ممّا يستوجب الإصلاح و الترميم فى حياتهم، و إقامة سعادتهم على قواعده المتينة، لذلك فقد وصف هذا البيت فى سورة آل عمران (الآية ۹۶): إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۶

لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ

فى الحقيقة إنّ المسلمين يستطيعون- انطلاقا من المفهوم الواسع لقوله: قِياماً لِلنَّاسِ أن يصلحوا كل أمورهم بالركون إلى هذا البيت و فى إطار تعاليم الحج البناءة.

و لما كانت هذه المناسك يجب أنّ تجرى فى جو آمن و خال من الحروب و المنازعات و المخاصمات، فقد أشارت الآية إلى أثر الأشهر الحرم (و هى الأشهر التى تمنع فيها الحرب مطلقا) و قالت: وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ ۸۴] كما أشارت إلى الأضاحى الفاقدة للعلامة (الهدى) و الأضاحى ذات العلامة (القلائد) التى منها يطعم الناس فى موسم الحج، و تؤمن جانبا من احتياجات الحاج للقيام بمناسكه، فقالت: وَ الْهَدْىَ وَ الْقَلائِدَ.

و لمّا كان مجموع هذه الأحكام و القوانين و التشريعات بشأن الصيد، و كذلك بشأن حرم مكّة و الشهر الحرام و غير ذلك، يحكى عمق تدبير الشارع وسعة علمه تقول الآية: ذلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ بناء على ما مرّ بناء فى تفسير هذه الآية يتّضح الارتباط بين بدايتها و نهايتها، إذ أنّ هذه الأحكام التشريعية لا يستطيع أن ينظمها إلّا من كان عليما بأعماق القوانين التكوينية، فالذى لا علم له بدقائق شؤون السماء و الأرض و بما استقرّ فى روح الإنسان و جسمه عند خلقه، لا تكون له القدرة على تقرير أحكام كهذه، فالقانون الصحيح السليم هو ذاك الذى ينسجم مع قانون الخلق و الفطرة.

الآية التّالية تؤكّد تلك التشريعات، و تحث الناس على إتباعها و تهدد المخالفين و العاصين فتقول: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و لعل تقديم شَدِيدُ الْعِقابِ على غَفُورٌ رَحِيمٌ إشارة إلى أنّ عقاب اللّه الشديد يمكن إطفاؤه بماء التوبة و الدخول فى رحمة اللّه و غفرانه.

و مرّة أخرى تؤكّد الآية على أنّ الناس هم المسؤولون عن أعمالهم، و أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۷

النّبى مسئول عن تبليغ الرّسالة لا غير ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ و فى الوقت نفسه: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ

أهمية الكعبة:

إنّ «الكعبة»- التى ذكرت فى هذه الآية و فى الآيات السابقة مرّتين- من مادة «كعب» أى بروز خلف القدم، ثمّ أطلق على كل بروز، و المكعب كذلك لأنّه بارز من جهاته الأربع، و الكاعب (و جمعها كواعب) هى الأنثى التى برز صدرها.

و الظاهر أنّ تسمية بيت اللّه بالكعبة يرجع أيضا، إلى ارتفاعه الظاهرى و بروزه، كما هو رمز لارتفاع مقامه و عظمة مكانته.

إنّ للكعبة تاريخا عريقا حافلا بالحوادث و الوقائع، و كلّ هذه الحوادث تنطلق من عظمتها و مكانتها المهمّة.

أهمية الكعبة تبلغ حدا بحيث أنّ الأحاديث الإسلامية تعتبر هدمها فى مصاف قتل النّبى و الإمام و النظر إليها عبادة، و الطواف بها من أفضل الأعمال، و قد

جاء فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «لا ينبغى لأحد أن يرفع بناءه فوق الكعبة»[۸۵].

طبيعى أنّ أهمية الكعبة و احترامها لم يأتيا من بنائها،

فقد قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى الخطبة القاصعة: «ألا ترون أنّ اللّه، سبحانه، اختبر الأولين من لدن آدم صلوات اللّه عليه، إلى الآخرين من هذا العالم، بأحجار لا تضر و لا تنفع و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام (الذى جعله للنّاس قياما) ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الدنيا مدرا ...»[۸۶].

أهمية مكانة الكعبة عند اللّه تعود إلى أنّها أقدم مراكز العبادة و التوحيد، و نقطة تجتذب إليها أنظار الشعوب و الأقوام المختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۸

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۰]

اشارة

قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰۰)

التّفسير

الأكثرية ليست دليلا على الطهارة:

دار الحديث فى الآيات السّابقة حول تحريم الخمر و القمار و الأنصاب و الأزلام و صيد البر فى حال الإحرام، و لكن قد نجد أناسا يتذرعون لارتكاب هذه المعاصى بالكثرة الكاثرة من الذين يرتكبونها فى بعض الأمصار، فيقولون مثلا: أنّ أكثر أهل المدينة الفلانية يعاقرون الخمرة، أو أنّهم يمارسون القمار، أو أنّ أكثرية الناس فى ظروف خاصّة لا يقيمون وزنا لتحريم الصيد و لغيره لذلك، فهم أيضا يحذون حذوهم و يهملون العمل بتلك التشريعات، فلكيلا يتذرع الناس بأمثال هذه الأعذار، يضع اللّه سبحانه قاعدة كلية عامّة و رئيسية فى عبارة قصيرة شاملة يخاطب بها رسوله الكريم: قُلْ لا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ

و عليه فإن الخبيث و الطيب- فى الآية- يشملان كل ما يرتبط بالإنسان، طعاما كان ذلك أم فكرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۵۹

و فى الختام يخاطب العلماء و أصحاب العقول و الأذكياء فيقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أمّا أنّ مدلول الآية من قبيل توضيح الواضحات، فذلك لأن ثمّة من يظن أنّ أمورا عارضة، مثل كثرة إتباع الخبيث، أو ما يسمى ب «الأكثرية» تجعل ذلك الخبيث فى مصاف الطيب، كما يحدث أحيانا أن نرى بعضهم يقع تحت تأثير الجماعة و اتجاه أهواء الأكثرية، ظانا أنّه حيثما مالت الأكثرية كان ذلك دليلا قاطعا على صحة ما مالت إليه، بينما الأمر ليس كذلك، و القضايا التى أيدتها الأكثرية و ظهر بطلانها كثيرة جدا.

فى الواقع إنّ ما يميز الخبيث من الطيب هو الأكثرية الكيفية لا الكمية، أى أنّ المطلوب هو أفكار أقوى و أرفع و أسمى و أنقى لا كثرة المؤيدين.

هذه القضـية لا تلاءم أذواق بعض الناس فى العصر الحاضر، بعد أنّ تشبعت أذهانهم على أثر التلقين و وسائل الأعلام بأن الأكثرية هى معيـار معرفـة الخـبيث من الطيب، إلى حـدّ الإيمـان بـأن «الحقّ» هو مـا أرادته الأكثريـة، و «الطيب» هو مـا مـالت إليه الأكثريـة، و ليس كذلك. إن معظم مشاكل العالم ناتجة عن هذا اللون من التفكير.

نعم، إذا تمتعت الأكثرية بقيادة صادقة و تعليمات صحيحة، بحيث تؤلف أكثرية ناضجة بما للكلمة من معنى، فيمكن حينئذ اعتبار هذه الأكثرية و اتجاهاتها مقياس تمييز الخبيث عن الطيب، لا الأكثرية الفجة غير الناضجة.

على كل حال، يشير القرآن إلى هذا الأمر فى هذه الآية، و يحذر الناس من الانجراف مع أكثرية الخبثاء، و فى مواضع أخرى تكاد تبلغ العشرة يقول تعالى:

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ أمّا تقـديم «الخبيث» على «الطيب» فى الآيـة، فـذلك لأنّ الكلام موجه إلى الذين يحسـبون كثرة الخبيث دليلا على صحة ما يذهبون إليه، فلا بدّ من الردّ على هؤلاء، و تعريفهم بأن معيار الخباثة و الطيبة لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۰

يكون فى يوم من الأيّام هو الأكثريـة أو الأقليـة، بـل فى كـل زمـان و مكان كان «الطيب» خيرا من «الخبيث» و أن أصـحاب الحجى و التبصـر لا ـ ينخـدعون بـالكثرة، فهم يتجنبون الخبيث دائما حتى و إن تلوث به جميع المحيطين بهم، و ينـدفعون نحو الطّيب حتى و إن ابتعد عنه الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۱

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (۱۰۱) قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ (۱۰۲)

سبب النّزول

الأقوال فى سبب نزول هاتين الآيتين مختلف فى مصادر الحديث و التّفسير، و لكن الذى ينسجم أكثر مع سبب نزول هاتين الآيتين، هو ما

جاء فى تفسير «مجمع البيان» عن على بن أبى طالب عليه السّلام قال: خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «إنّ اللّه كتب عليكم الحـج» فقام عكاشـة بن محصن و قيل سـراقة بن مالك فقال: أفى كلّ عام يا رسول اللّه؟ فأعرض عنه حتى عاد مرّتين أو ثلاثا، فقال رسول اللّه: «ويحك ما يؤمنك أن أقول: نعم، و اللّه لو قلت نعم لوجبت، و لو وجبت ما اسـتطعتم، و لو تركتم لكفرتم، فاتركونى كمـا تركتكم، فإنّمـا هلـك من كـان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيـائهم، فـإذا أمرتكم بشـىء فأتوا منه ما اسـتطعتم، و إذا نهيتكم عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۲

شىء فاجتنبوه»[۸۷].

ينبغى ألا يظن أحد بأن سـبب نزول هاتين الآيتين- كما سنتطرق إلى ذلك فى تفسيرهما- يعنى غلق أبواب السؤال و باب تفهم الأمور بوجوه الناس، لأنّ القرآن فى آياته يأمر الناس صراحة بالرجوع إلى أصحاب الخبرة فى فهم الأمور:

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۸۸] بل المقصود هو الأسئلة التافهة و التحجج، و الإلحاح المؤدى غالبا إلى تشويش أفكار الناس و قطع التسلسل الفكرى للخطيب.

التّفسير

الأسئلة الفضولية:

لا شك أنّ السّؤال مفتاح المعرفة، و لذلك من قلّت أسئلته قلت معرفته، و فى القرآن و فى الرّوايات الكثير من التوكيد على الناس أن يسألوا عمّا لا يعرفون، و لكن لكل قاعدة استثناء، و لهذا المبدأ التربوى الأساس استثناءاته أيضا، منها أن هناك أحيانا بعض المسائل التى يكون إخفاؤها أفضل لحفظ النظام الاجتماعى و لمصلحة أفراد المجتمع، ففى أمثال هذه الحالات لا يكون الإلحاح فى السؤال عنها و السعى لكشف النقاب عن حقيقتها بعيدا عن الفضيلة فحسب، بل يكون مذموما أيضا مثلا:

يرى معظم الأطباء ضرورة كتمان الأمراض الصعبة الشفاء و المخيفة عن المريض نفسه، و قد يخبرون أهله شريطة أنّ يلتزموا كتمان الأمر عن المريض، و السبب هو أن التجارب قد دلت على أنّ المريض إذا عرف أنّ مرضه لا يشفى بسرعة انتابه الرعب و الهلع و قد يؤخر ذلك شفاءه، إن لم يكن مرضه مهلكا فعلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۳

المريض أنّ لا يلح فى إلقاء الأسئلة على طبيبه العطوف، لأنّ هذا الإلحاح قد يحرج الطبيب، فيصرّح للمريض بما لا ينبغى أنّ يصارحه به تخلصا من هذا الإصرار و اللجاج.

كذلك الناس عموما، فهم فى التعامل فيما بينهم يحتاجون إلى أن يحسن بعضهم الظن ببعض، فللحفاظ على هذا الرصيد الهام خير لهم ألّا يعرفوا خفايا الآخرين، إذ أن لكل امرئ نقاط ضعيفه، فانكشاف نقاط ضعف الناس يضرّ بالتعاون فيما بينهم فقد يكون امرؤ ذو شخصية مؤثرة قد ولد فى عائلة واطئة و منحطة، و إذا انكشف هذا فقد تتزلزل آثاره الوجودية فى المجتمع، لذلك ينبغى على الناس ألا يلحوا فى السؤال و التفتيش فى هذا المجال.

كما أنّ الكثير من الخطط و المناهج الاجتماعية يلزمها الكتمان حتى يتمّ تنفيذها، فالإعلان عنها يعتبر ضربة تؤخر سرعة إنجاز العمل.

هذه و أمثالها نماذج لما لا يصح فيه الإلحاح فى السؤال، و على القادة أن لا يفشوا أمثال هذه الأسرار ما لم يقعوا تحت ضغط شديد.

و القرآن فى هذه الآية يشير إلى الموضوع نفسه و يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْياءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ

و لكن إلحاح بعض الناس بالسؤال من جهة، و عدم الإجابة على أسئلتهم من جهة أخرى، قد يثير الشكوك و الريب عند الآخرين بحيث يؤدى الأمر إلى مفاسد أكثر، لذلك تقول الآية: وَ إِنْ تَسْئَلُوا عَنْها حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ فيشق عليكم الأمر.

أمّا قصر افشائها على وقت نزول القرآن، فذلك لأنّ تلك التساؤلات كانت متعلقة بمسائل ينبغى أن تنزل أجوبتها عن طريق الوحى.

ثمّ لا تحسبوا اللّه غافلا عن ذكر بعض الأمور إن سكت عنها، فقد عَفَا اللَّهُ عَنْها وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۴

يقول على عليه السّلام: «إنّ اللّه افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها، و حدّ لكم حدودا فلا تعتدوها، و نهى عن أشياء فلا تنتهكوها، و سكت لكم عن أشياء و لم يدعها نسيانا فلا تتكلفوها»[۸۹].

سؤال:

قد يسأل سائل: إذا كان إفشاء هذه الأمور يتعارض مع مصلحة الناس، فلما ذا يماط اللثام عنها على أثر الإلحاح؟

الجواب:

السبب هو ما قلناه من قبل، فالقائد إذا لزم الصمت رغم الإلحاح بالسؤال، فقد تنجم عن ذلك مفاسد أخطر، و يثار سوء ظن يشوب أذهان الناس، مثل صمت الطبيب إزاء إلحاح المريض فى السؤال عن مرضه، فإن ذلك يثير شكوك المريض، و قد يحمله على الظن بأن الطبيب لم يشخص مرضه بعد، فيهمل استعمال ما يصفه له من علاج، عندئذ لا يسع الطبيب إلّا أن يفشى له سرّ مرضه، و لو سبب له ذلك بعض المشاكل.

الآية التى بعدها تؤكّد هذه الحقيقة، و تبيّن أنّ أقواما سابقين كانت لهم أسئلة كهذه، و بعد أن سمعوا أجوبتها خالفوها و عصوا: قَدْ سَأَلَها قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ

و للمفسّرين أقوال مختلفة بشأن تلك الأقوام، منهم من ذهب إلى أن الأمر يخص تلامذة عيسى عليه السّلام عند ما طلبوا مائدة من السماء، فعند ما تحقق لهم ما أرادوا عصوا، و يقول بعض: إنّها حكاية مطالبة النّبى صالح عليه السّلام بمعجزة، و لكن الظاهر أن هذه الاحتمالات بعيدة عن الصواب، لأنّ الآية تتحدث عن «سؤال» عن مجهول يراد الكشف عنه، لا عن «طلب» شىء، و لعل استعمال كلمة «سؤال» فى كلا الحالين هو سبب هذا الخطأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۵

قد تكون تلك الأقوام من بنى إسرائيل أمروا بذبح بقرة للتحقيق فى أمر جريمة (انظر شرح ذلك فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير) فراحوا يمطرون موسى بالأسئلة عن خصائص البقرة و مميزاتها ممّا لم يكن قد نزل بشأنها أى شىء، و لكنّهم بسؤالاتهم المتكررة التى لم تكن ضرورية أخذوا يشقون على أنفسهم، بحيث أن العثور على تلك البقرة الموصوفة أصبح من الصعوبة بمكان و تحملوا الكثير من النفقات فى سبيل ذلك، حتى كادوا أن ينصرفوا عن التنفيذ.

فى تفسير قوله تعالى: ثُمَّ أَصْبَحُوا بِها كافِرِينَ احتمالان:

الأوّل: أنّ المقصود بالكفر هو العصيان، كما سبقت الإشارة إليه.

و الثّانى: هو أنّ الكفر قصد بمعناه المعروف، و ذلك لأن سماع الإجابات المزعجة التى تثقل على السامع قد تدفع به إلى إنكار أصل الموضوع و صلاحية المجيب، كأن يسمع مريض جوابا لا يروقه من طبيبه، فيؤدى ردّ الفعل به إلى إنكار صلاحية الطبيب و اتهامه بعدم الفهم مثلا أو بالهرم و نسيان المعلومات.

فى ختام هذا البحث نجد لزاما أن نكرر ما قلناه فى بدايته، و هو أنّ هذه الآيات لا تمنع أبدا إلقاء الأسئلة المنطقية التربوية و البناءة، بل تتحدد بالأسئلة التى لا لزوم لها، و بالتعمق فى أمور لا ضرورة للتعمق فيها و التى من الأفضل بل من اللازم- أحيانا- بقاؤها فى طى الكتمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۶

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۴]

اشارة

ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۱۰۳) وَ إِذا

قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ (۱۰۴)

التّفسير

فى الآيـة الاولى إشارة إلى أربعة «بدع» كانت سائدة فى الجاهلية، فقد كانوا يضـعون على بعض الحيوانات علامات و أسـماء لأسـباب معينـة و يحرمون أكـل لحومهـا و لاـ يجيزون شـرب لبنهـا أو جز صوفها أو حتى امتطاءها، كانوا أحيانا يطلقون سـراح هـذه الحيوانات تسـرح و تمرح دون أن يعترضـها أحد، أى أنّهم كانوا يطلقونها سائبة دون أن يستفيدوا منها شيئا، لذلك يقول اللّه تعالى: ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لا سائِبَةٍ وَ لا وَصِيلَةٍ وَ لا حامٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۷

بحوث

اشارة

۱- «البحيرة» هى النّاقة التى ولدت خمسة أبطن خامسها أنثى- و قيل ذكر- فيشقون أذنها، و تترك طليقة و لا تذبح.

«البحيرة» من مـادة «بحر» بمعنى الواسع العريض، و لهـذا سـمى البحر بحرا، و تسـمية الناقـة بـالبحيرة جـاءت من شق أذنهـا شـقا واسـعا عريضا.

۲- «السائبـة» هى الناقـة التى تكون قـد ولـدت اثنى عشـر بطنا- و قيل عشـرة أبطن- فيطلقونها سائبـة و لا يمتطيها أحد، و لها أن ترعى حيثما تشاء و ترد حيثما تشاء دون أن يعترضـها أحد، و قد يحلبونها أحيانا لإطعام الضيف، و «السائبة» من مادة «سيب» أى جريان الماء أو المشى بحرّية.

۳- «الوصيلة» هى الشاة التى ولدت سبعة أبطن- و قيل أنّها التى تلد التوائم، من مادة «وصل» و كانوا يحرمون ذبحها.

۴- «الحام» و اللفظة اسم فاعل من مادة «حمى»، و يطلق على الفحل الذى يتخذ للتلقيح، فإذا اسـتفيد منه فى تلقيح الأناث عشر مرات و ولدن منه، قالوا: لقد حمى ظهره، فلا يحق لأحد ركوبه، و من معانى «الحماية» المحافظة و الحيلولة و المنع.

هناك احتمالات أخرى وردت عند المفسّرين و فى الأحاديث بشأن تحديد هذه المصطلحات الأربعة، لكن القاسم المشترك بين كل هـذه المعانى هو أنّها تدل جميعا على حيوانات قدّمت خدمات كبيرة لأصـحابها فى «النتاج» فكان هؤلاء يحترمونها و يطلقون سـراحها لقاء ذلك.

صحيـح أنّ عملهم هـذا ضـرب من العرفـان بالجميـل و مظهر من مظـاهر الشـكر، حـتى نحو الحيوانـات، و هو بهـذا جـدير بالتقـدير و الإجلال، و لكنّه كان تكريما لا معنى له لحيوانات لا تدرك ذلك.

كما كان- فضلا عن ذلك- مضيعة للمال و إتلافا لنعم اللّه و تعطيلها عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۸

الاسـتثمار النافع، ثمّ أنّ هذه الحيوانات، بسبب هذا الاحترام و التكريم، كانت تعانى من العذاب و الجوع و العطش لأنّه قلما يقدم أحد على تغذيتها و العناية بها.

و لما كانت هذه الحيوانات كبيرة فى السن عادة، فقد كانت تقضى بقية أيّامها فى كثير من الحرمان و الحاجة حتى تموت ميتة محزنة، و لهذا كله وقف الإسـلام بوجه هذه العادة! إضافة إلى ذلك، يستفاد من بعض الرّوايات و التفاسير أنّهم كانوا يتقربون بذلك كله، أو

بقسم منه إلى أصنامهم، فكانوا فى الواقع ينذرون تلك الحيوانات لتلك الأصنام، و لذلك كان إلغاء هذه العادات تأكيدا لمحاربة كل مخلفات الشرك.

و العجيب فى الأمر، أنّهم كانوا يأكلون لحوم تلك الحيوانات إذا ما ماتت موتا طبيعيا (و كأنّهم يتبركون بها) و كان هذا عملا قبيحا آخر[۹۰].

ثمّ تقول الآية: وَ لكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ قائلين أنّ هذه قوانين إلهية دون أن يفكروا فى الأمر و يعقلوه، بل كانوا يقلدون الآخرين فى ذلك تقليدا أعمى: وَ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

الآية الثّانية تشير إلى منطقهم و دليلهم على قيامهم بهذه الأعمال: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ قالُوا حَسْبُنا ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا.

فى الواقع، كان كفرهم و عبادتهم الأصنام ينبع من نوع آخر من الوثنية، هو التسليم الأعمى للعادات الخرافية التى كان عليها أسلافهم، معتبرين ممارسات أجدادهم لها دليلا قاطعا على صحتها، و يرد القرآن بصراحة على ذلك بقوله: أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ

أى لو كان أجدادكم الذين يستندون إليهم فى العقيدة و العمل من العلماء و المهتدين لكان اتباعكم لهم إتباع جاهل لعالم، لكنكم تعلمون أنّهم، لا يعلمون أكثر منكم و لعلهم أكثر تخلفا منكم، و من هنا فإنّ تقليدكم إيّاهم تقليد جاهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۶۹

لجاهل، و هو فوض و مذموم فى ميزان العقل.

تركيز القرآن فى هذه الآية على كلمة «أكثر» يدل على أنّه كانت فى ذلك المحيط الجاهلى المظلم فئة- و إن قلت- على قدر من الفهم بحيث تنظر بعين الاحتقار و الاشمئزاز إلى تلك الممارسات.

وثن اسمه «الأسلاف»:

من الأمور التى كانت سائدة فى الجاهلية و التى تكررت الإشارة إليها فى القرآن التفاخر بالآباء و الأجداد و إجلالهم إلى حدّ التقديس الأعمى و إتباع أفكارهم و عاداتهم و تقاليدهم. و ليس هذا مقصورا على الجاهلية الاولى، فهو موجود بين كثير من الأقوام المعاصرة، و لعلّه أحد أسباب اشاعة الخرافات و انتقالها من جيل إلى جيل، و كان «الموت» يضفى هالة من القدسية و الاحترام و الإجلال على الأسلاف.

لا شك أنّ روح الاعتراف بالجميل و رعاية المبادئ الإنسانية توجب علينا احترام الماضين من آبائنا و أجدادنا، و لكن لا أن نعتبرهم معصومين عن كل خطأ و مصونين عن كل نقد و تجريح لأفكارهم و سلوكهم فنتبع خرافاتهم و نقلدهم فيها تقليدا أعمى، ليس هذا فى الواقع سوى لون من ألوان الوثنية و المنطق الجاهلى، إنّنا من الممكن أن نحترم أفكارهم و تقاليدهم المفيدة، و نحطم فى الوقت نفسه عاداتهم غير الصحيحة، خاصّة و أن الأجيال الحديثة أوسع علما و أعمق معرفة من الأجيال السابقة بسبب مضى الزمن و تقدم العلم و التجربة، و ما من عقل رصين يجيز تقليد الماضين تقليدا أعمى.

و من العجيب أن نرى بعض العلماء و أساتذة الجامعة يعيشون هذا اللون من التقديس الأعمى لعادات السلف، فيبلغ بهم التعصب القومى إلى التمسك بعادات و تقاليد ما أنزل اللّه بها من سلطان متبعين بذلك منطق العرب فى جاهليتهم الاولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۰

تناقض بلا مبرّر:

جاء فى تفسير «الميزان» و «الدر المنثور» عن عدد من الرواة منهم الحكيم الترمذى فى «نوادر الأصول» و عن غيره، عن أبى الأحوص عن أبيه، قال: أتيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى خلقان من الثياب، فقال لى: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أى المال؟» قلت: من كل المال، من الإبل و الغنم و الخيل و الرقيق، قال:

«فإذا أتاك اللّه، فلير عليك». أى لا ينبغى أن تعيش كالمساكين مع انك صاحب ثروة.

ثمّ قال: «تنتج إبلك وافية آذانها؟» قلت: نعم و هل تنتج الإبل إلّا كذلك؟ قال:

«فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها و تقول: هذه بحر، و تشق آذان طائفة منها و تقول: هذه الصرم؟» قلت: نعم، قال: «فلا تفعل، إن كل ما أتاك اللّه لك حل، ثمّ قال: ما جعل اللّه من بحيرة و لا سائبة و لا وصيلة و لا حام»[۹۱].

نفهم من هذه الرواية أنّهم كانوا يجمدون قسما من أموالهم، و لكنّهم فى الوقت نفسه كانوا يقتصدون فى ملبسهم، بل و يبخلون فيه، و هذا نوع من التناقض الذى لا مسوغ له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۱

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۵]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

التّفسير

كلّ امرئ مسئول عن عمله:

دار الحديث فى الآية السابقة حول تقليد الجاهليين آباءهم الضالين، فأنذرهم القرآن بأن تقليدا كهذا لا ينسجم مع العقل و المنطق، فمن الطبيعى أن يتبادر إلى أذهانهم السؤال: إنّنا إذا كان علينا أن ننفصل عن أسلافنا فى هذه الأمور، فما ذا سيكون مصيرهم؟ ثمّ إذا نحن أقلعنا عن هذه التقاليد فما مصائر الكثير من الناس الذين ما يزالون متمسكين بها و واقعين تحت تأثيرها فكان جواب القرآن: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

ثمّ يشير إلى موضوع البعث و الحساب و مراجعة حساب كل فرد: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۲

ردّ على اعتراض:

أثار بعضهم شبهة حول هذه الآية، فظن أنّ بين هذه الآية و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر- و هو من التشريعات الإسلامية الصريحة المسلم بها- ضرب من التضاد أو التناقض، إذ أن هذه الآية تقول عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

هناك أحاديث و روايات تدل على أنّ هذا الموضوع أثار شبهة حتى فى عصر نزول الآية يقول (جبير بن نفيل): كنت فى جمع من

أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جالسين بحضرته، و كنت أحدثهم سنا، و كان الحديث يدور حول الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فقاطعتهم و قلت: ألم يأت فى القرآن يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ (أى بهذه الآية لا يبقى ما يوجب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر) و إذا بالحاضرين يجمعون على توبيخى و تقريعى قائلين: كيف تقتبس آية من القرآن دون أن تعرف معناها و تفسيرها؟

فندمت على ما قلت أشد الندم، و عادوا إلى بحثهم السابق.

و عند انفضاض المجلس التفتوا إلى قائلين: إنّك شاب حدث السن، قمت بتفصيل آية من القرآن عما حولها بغير أن تعرف معناها.

و قد يطول بك العمر حتى ترى كيف يحيط البخل بالناس و يسيطر عليهم، و تسيطر عليهم أهواؤهم و يعتدّ كل منهم برأيه، فلتحذر يومئذ من أن يضرّك من ضل منهم (أى أنّ الآية تشير إلى ذلك الزمان).

و اليوم نجد الراكنين إلى الدعة و طلاب الراحة، عند ما يدور الحديث حول القيام بهاتين الفريضتين الإلهيتين الكبيرتين- الأمر بالمعروف- و النهى عن المنكر- يتذرعون بهذه الآية و يحرفونها عن موضعها، مع أنّنا بقليل من الدقّة فى النظر ندرك ألّا تضاد بين هاتين الفريضتين و ما جاء فى هذه الآية:

فأوّلا: تبيّن الآية أنّ كل امرئ يحاسب على انفراد، و أنّ ضلال الآخرين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۳

الأسلاف و غير الأسلاف لا يؤثر فى هداية الذين اهتدوا، حتى و إن كانوا قريبين قرب الأخ أو الأب أو الابن، لذلك فلا تتبعوهم و انجوا بأنفسكم (لاحظ بدقّة).

و ثانيا: تشير هذه الآية إلى الحالة التى لا يكون للأمر بالمعروف و النهى عن المنكر أى أثر، أو تكون شروط فاعليتهما غير متوفرة، ففى أمثال هذه الحالات يشعر بعض المؤمنين بالألم، و يتساءلون عمّا ينبغى لهم أن يفعلوه، فتجيبهم الآية:

لا تثريب عليكم، فقد أديتم واجبكم، إذ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ

نجد هذا المعنى فى الحديث الذى ذكرناه أعلاه، و كذلك

فى بعض الأحاديث الأخرى فقد سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذه الآية فقال: «ائتمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحا مطاعا و هوى متبعا و إعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك و ذر عوامهم»[۹۲].

و هناك روايات أخرى بالمضمون نفسه و تفيد هذه الحقيقة ذاتها.

فخر الدين الرازى- حسب عادته- يذكر عدة أوجه فى الإجابة على السؤال المذكورة، و لكنّها تكاد تعود كلها إلى الأمر الذى ذكرناه، و لعله ذكرها جميعا لبيان كثرة عددها.

على كلّ حال، لا شك أنّ مسألة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر من أركان الإسلام التى لا يمكن التغاضى عنها بأى شكل من الأشكال، و لا تسقط إلّا عند اليأس من تأثيرها أو من توفر شروطها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۴

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۰۶ الى ۱۰۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ لا نَكْتُمُ

شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ (۱۰۶) فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۱۰۷) ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۱۰۸)

سبب النّزول

جاء فى «مجمع البيان» و بعض التفاسير الأخرى فى سبب نزول هذه الآيات أنّ أحد المسلمين، و يدعى (ابن أبى مارية) و معه اخوان مسيحيان من العرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۵

يدعيان (تميم)، (عدى) خرجوا من المدينة للتجارة، و فى الطريق مرض (ابن أبى مارية) المسلم، فكتب وصية أخفاها فى متاعه، و عهد بمتاعه إلى رفيقيه- النصرانيين- فى السفر، و طلب منهما أن يسلماه، إلى أهله، ثمّ مات ففتح النصرانيان متاعه و استوليا على الثمين و النفيس فيه، و سلما الباقى إلى الورثة، و عند ما فتح الورثة متاعه لم يجدا فيه بعض ما كان ابن أبى مارية قد أخذه معه عند سفره و فجأة عثروا على الوصية، و وجدوا فيها ثبتا بكل الأشياء المسروقة، ففاتحوا المسيحيين بالموضوع، فأنكرا و قالا: لقد سلمناكم كل ما سلمه لنا، فشكوا الرجلين إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت هذه الآيات تبيّن حكم القضية.

غير أن سبب النّزول المذكور فى «الكافى» يقول: إنّهما أنكرا أوّلا وجود متاع آخر، و وصل الأمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لما لم يكن هناك دليل ضدهما طلب منهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحلفا اليمين، و برأهما، و لكن بعد أيّام قليلة ظهر بعض المتاع المسروق عند الرجلين فثبت كذبهما، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فانتظر حتى نزلت الآيات المذكورة، عندئذ أمر أولياء الميت بالقسم، و أخذ الأموال دفعها إليهم.

التّفسير

من أهم المسائل التى يؤكّدها الإسلام هى مسألة حفظ حقوق الناس و أموالهم و تحقيق العدالة الاجتماعية هذه الآيات تبيّن جانبا من التشريعات الخاصّة بذلك، فلكيلا تغمط حقوق ورثة الميت و أيتامه الصغار، يصدر الأمر للمؤمنين قائلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ

المقصود بالعدل هنا العدالة، و هى تجنب الذنوب الكبيرة و نظائرها، و لكن يحتمل من معنى الآية أيضا أنّ يكون المقصود من العدالة: الأمانة فى الشؤون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۶

المالية، إلّا إذا ثبت بدلائل أخرى ضرورة توفر شروط أخرى فى الشاهد.

و «منكم» تعنى من المسلمين بإزاء غير المسلمين، الذين تأتى الإشارة إليهم فى العبارة التّالية من الآية.

لا بدّ من القول بأنّ القضية هنا لا تتعلق بالشهادة العادية المألوفة، بل هى شهادة مقرونة بالوصاية، أى أن هذين وصيان و شاهدان فى الوقت نفسه، أمّا الاحتمال القائل باختيار شخص ثالث كوصى بالإضافة إلى الشاهدين هنا، فإنه خلاف ظاهر الآية و يخالف سبب نزولها، لأنّنا لاحظنا أنّ ابن أبى مارية لم يكن يرافقه فى السفر غير اثنين اختارهما وصيين و شاهدين.

ثمّ تأمر الآية: إذا كنتم فى سفر و وافاكم الأجل و لم تجدوا وصيّا و شاهدا من المسلمين فاختاروا اثنين من غير المسلمين: أَوْ آخَرانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ

و على الرغم من عدم وجود ما يفهم من الآية أنّ اختيار الوصى و الشاهد من غير المسلمين مشروط بعدم وجودهما من المسلمين، فهو واضح، لأنّ الاستعاضة تكون عند ما لا تجد من المسلمين من توصيه، كما أنّ ذكر قيد السفر يفيد هذا المعنى أيضا، و على الرغم من أنّ (أو) تفيد «التخيير» عادة، إلّا أنّها هنا- و فى كثير من المواضع الأخرى- تفيد «الترتيب»، أى اخترهما أوّلا من المسلمين، فإن لم تجد، فاخترهما من غير المسلمين.

و غنى عن القول أنّ المقصود من غير المسلمين هم أهل الكتاب من اليهود و النصارى طبعا، لأنّ الإسلام لم يقم وزنا فى أية مناسبة للمشركين و عبدة الأصنام مطلقا.

ثمّ تقرر الآية حمل الشاهدين عند الشهادة على القسم باللّه بعد الصّلاة، فى حالة الشك و التردد: تَحْبِسُونَهُما مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ

و يجب أنّ تكون شهادتهما بما مفاده: إنّنا لسنا على استعداد أن نبيع الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۷

بمنافع مادية، فنشهد بغير الحقّ حتى و إن كانت الشهادة ضد أقربائنا: لا نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى و إننا لن نخفى أبدا الشهادة الإلهية، و إلّا فسنكون من المذنبين: وَ لا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الْآثِمِينَ

و لا بدّ أن نلاحظ ما يلى:

أوّلا: إنّ هذه التفاصيل فى أداء الشهادة إنّما تكون عند الشك و التردد.

و ثانيا: لا فرق بين المسلم و غير المسلم فى هذا كما يبدو من ظاهر الآية، و إنّما هو فى الحقيقة- وسيلة لإحكام أمر حفظ الأموال فى إطار الاتهام، و ليس فى هذا ما يناقض القبول بشهادة عدلين بغير تحليف، لأنّ هذا يكون عند انتفاء الشك فى الشاهدين، لذلك فلا هو ينسخ الآية و لا هو مختص بغير المسلمين (تأمل بدقّة).

ثالثا: الصّلاة بالنسبة لغير المسلمين يقصد بها صلاتهم التى يتوجهون فيها إلى اللّه و يخشونه، أمّا بالنسبة للمسلمين فيقول بعض: إنّها خاصّة بصلاة العصر، و فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إشارة إلى ذلك، إلّا أنّ ظاهر الآية هو الإطلاق و يشمل الصلوات جميعها، و لعل ذكر صلاة العصر فى رواياتنا يعود إلى جانبه الاستحبابى، إذ أنّ الناس يشتركون أكثر فى صلاة العصر، ثمّ ان وقت العصر كان الوقت المألوف للتحكيم و القضاء بين المسلمين.

رابعا: اختيار وقت الصّلاة للشهادة يعود إلى أنّ المرء فى هذا الوقت يعيش آثار الصّلاة التى تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ[۹۳] و أنّه فى هذا الظرف الزمانى و المكانى يكون أقرب إلى الحقّ، بل قال بعضهم: إنّ من الأفضل أن تكون الشهادة فى «مكّة» عند الكعبة و بين «الركن» و «المقام» باعتباره من أقدس الأمكنة، و فى المدينة تكون جنب قبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآية التّالية يدور الكلام على ثبوت خيانة الشاهدين إذا شهدا بغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۸

الحقّ، كما جاء فى سبب نزول الآية، فالحكم فى مثل هذه الحالة- أى عند الاطلاع على أن الشاهدين قد ارتكبا إثمّ العدوان على الحقّ و اضاعته- هو أن تستعيضوا عنهما باثنين آخرين ممن ظلمهما الشاهدان الأولان (أى ورثة الميت) فيشهدان لإحقاق حقهما: فَإِنْ عُثِرَ عَلى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرانِ يَقُومانِ مَقامَهُما مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيانِ

يذهب العلّامة الطبرسى فى «مجمع البيان» إلى أنّ هذه الآية تعتبر من حيث المعنى و الإعراب من أعقد الآيات و أصعبها، و لكن بالالتفات إلى نقطتين نجد أنّها ليست بتلك الصعوبة و التعقيد.

فالنّقطة الاولى: هى أن معنى «استحق» هنا بقرينة كلمة «إثم» هو إثمّ العدوان على حق الآخرين.

و النّقطة الثّانية: هى أنّ «الأوليان» تعنى هنا «الأولان» أى الشاهدان اللذان كانا عليهما أنّ يشهدا أوّلا و لكنّهما انحرفا عن طريق الحقّ.

و عليه يكون المعنى: إذا ثبت أنّ الشاهـدين الأولين ارتكبا مخالفـة، فيقوم مقامهما اثنان آخران ممن وقع عليهم ظلم الشاهدين الأولين ۹۴].

ثمّ تبيّن ما ينبغى على هذين الشاهدين أن يفعلاه فَيُقْسِمانِ بِاللَّهِ لَشَهادَتُنا أَحَقُّ مِنْ شَهادَتِهِما وَ مَا اعْتَدَيْنا إِنَّا إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ

لمّا كـان أوليـاء الميت على علم بالأـموال و الأمتعـة التى أخـذها معه عنـد سـفره أو التى يملكهـا عمومـا، فيمكن أن يشـهدوا على أنّ الشاهدين الأولين قد خانا و ظلما، و تكون هذه الشهادة حسية مبنية على القرائن، لا حدسية.

و الآيـة الأخيرة، فى الحقيقـة، بيان لحكمـة الأحكام التى جاءت فى الآيات السابقة بشأن الشـهادة و هى أنّه إذا أجريت الأمور بحسـب التعاليم، أى إذا طلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۷۹

الشاهـدان للشـهادة بعـد الصّـلاة بحضور جمع، ثمّ ظهرت خيانتهما، و قام اثنان آخران من الورثـة مقامهما للكشف عن الحقّ، فـذلك يحمل الشـهود على أن يكونوا أدق فى شهادتهم، خوفا من اللّه أو خوفا من الناس: ذلِكَ أَدْنى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهادَةِ عَلى وَجْهِها أَوْ يَخافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمانٌ بَعْدَ أَيْمانِهِمْ

فى الواقع سيكون هذا سببا فى الخشية من المسؤولية أمام اللّه و أمام الناس، فلا ينحرفان عن محجة الصواب.

و لتوكيد الأحكام المذكورة يأمر الناس قائلا: اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۰

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۰۹]

اشارة

يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۰۹)

التّفسير

هـذه الآيـة، فى الحقيقة، تكملة للآيات السابقة، ففى ذيل تلك الآيات الخاصّة بالشـهادة الحقّة و الشـهادة الباطلة، كان الأمر بالتقوى و الخشـية من عصيان أمر اللّه، و فى هذه الآية تذكير بذلك اليوم الذى يجمع اللّه الرسل فيه و يسألهم عن رسالتهم و مهمتهم و عمّا قاله الناس ردا على دعواتهم يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ

لقـد نفوا عن أنفسـهم العلم، و أوكلوا جميع الحقـائق إلى علم اللّه و قـالُوا لا ـ عِلْمَ لَنـا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ و عليه فـإنكم أمـام علام الغيوب و أمام محكمة هذا شأنها، فاحذروا أن تنحرف شهادتكم عن الحقّ و العدل ۹۵].

هنا يبرز سؤالان: الأوّل: إنّ ما يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الأنبياء شهداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۱

على أممهم، بينما نجدهم فى هذه الآية ينكرون كل علم و يوكلون كل شىء إلى اللّه.

و لكن ليس فى هـذا اختلاـف و لاـ تضـاد، بـل هو يحكى عن مرحلـتين، فى المرحلـة الاـولى و هى الـتى تشـير إليهـا الآيـة الـتى نحن بصددها، يظهر الأنبياء الأدب بإزاء سؤال اللّه، فينفون العلم عن أنفسهم، و يوكلون كل شىء إلى علم اللّه، و لكنّهم فى المراحل التّالية يبيّنون ما يعرفونه عن أممهم و يشـهدون، و هـذا يكاد يشـبه المعلم الـذى يطلب من تلميـذه أن يجيب على سؤال فيظهر التلميذ التأدب أوّل الأمر و يقول: أن علمه لا شىء بالنسبة لعلم المعلم، ثمّ بعد ذلك يدلى بما يعرف.

و السؤال الآخر: كيف ينفى الأنبياء العلم عن أنفسهم مع أنّهم إضافة إلى العلوم العادية يعلمون الكثير من الحقائق الخفية التى علمها اللّه لهم.

رغم أنّ للمفسّرين كلاما كثيرا فى جواب هذا السؤال، نرى أنّ الموضوع واضح و هو أنّ الأنبياء يرون علمهم لا شىء بالنسبة لعلم اللّه، و الحقّ كذلك، فوجودنا لا شىء بالنسبة لوجود اللّه الأبدى و علمنا لا وزن له بإزاء علم اللّه، فمهما يكن «الممكن» فإنّه لا يكون شيئا بإزاء «الواجب»، و بعبارة أخرى: إنّ علم الأنبياء، و إن كان فى حد ذاته غزيرا، لكنه لا شىء بالقياس إلى علم اللّه.

فى الحقيقة، العالم الحقيقى هو الذى يكون حاضرا و ناظرا فى كل مكان و زمان، و عارفا بتركيب كل ذرة من ذرات العالم، و بكل أجزاء هذا العالم المترابط فى وحدة واحدة، و هذه صفة تختص باللّه سبحانه.

يتّضح ممّا قلنا أنّ هذه الآية ليست دليلا على نفى كل علم بالغيب عن الأنبياء و الأئمّة كما زعم بعضهم، و ذلك لأن «علم الغيب» بالذات يختص بمن يكون حاضرا فى كل مكان و زمان، و أمّا غيره تعالى فإنّه لا علم له بالغيب سوى ما يعلمه اللّه.

و هذا مأخوذ من آيات عديدة فى القرآن، منها الآية (۲۶) من سورة الجن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۲

عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ و الآية (۴۹) من سورة هود: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ

يستفاد من هذه الآيات و أمثالها أنّ علم الغيب مختص بذات اللّه، و لكنّه يعلّمه لمن يشاء و بالقدر الذى يشاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۳

الآية [سورة المائدة (۵): آية ۱۱۰]

اشارة

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۱۰)

التّفسير

نعم اللّه على المسيح:

هذه الآية و الآيات التّالية لها حتى آخر سورة المائدة تختص بسيرة حياة السيد المسيح عليه السّلام و النعم التى أسبغها اللّه عليه و على أمّته، يبيّنها اللّه هنا لتوعية المسلمين و ايقاظهم فتقول الآية: إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَ عَلى والِدَتِكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۴

و معنى «إذ قال»: و اذكر إذ قال.

و حسب هذا التّفسير، تشرع هذه الآيات ببحث مستقل له جانبه التربوى للمسلمين و يرتبط بهذه الدنيا، إلّا أن عددا من المفسّرين- كالطبرسى و البيضاوى و أبى الفتوح و الرازى- يرون أنّ هذه الآية تابعة للآية السابقة و تتعلق بالحوار الذى يدور بين اللّه و الأنبياء يوم القيامة، و على هذا يكون الفعل الماضى «قال» بمعنى «يقول» المضارع، غير أنّ هذا يخالف ظاهر الآية، خاصّة و أنّ تعداد النعم التى

أنزلت على شخص ما يستهدف إحياء روح الاعتراف بالجميل و الشكر فيه، و هذا لإمكان له يوم القيامة.

ثمّ تشرع الآية بذكر النعم: إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ

لقد بحثنا معنى «روح القدس» فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير بحثا مستفيضا و أحد الاحتمالات المقصودة هو أنّه إشارة إلى ملك الوحى، جبرائيل، و الاحتمال الآخر هو تلك القوة الغيبية التى كانت تعين عيسى على إظهار المعجزات و على تحقيق رسالته المهمّة، و هذا المعنى موجود فى غير الأنبياء أيضا بدرجة أضعف.

من نعم اللّه الأخرى: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا أى أنّ كلامك فى المهد، مثل كلامك و أنت كهل، كلام ناضج و محسوب، لا كلام طفل غر.

ثمّ أيضا: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ إنّ ذكر التّوراة و الإنجيل بعد ذكر كلمة كتاب مع أنّهما من الكتب السماوية، إنّما هو من باب التفصيل بعد الإجمال.

و من النعم الأخرى: وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي

و مع ذلك فإنّك تشفى بإذن اللّه الأعمى بالولادة و المصاب بالمرض الجلدى البرص: وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۵

ثمّ وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى بِإِذْنِي

و أخيرا كان من نعمى عليك بأن منعت عنك أذى بنى إسرائيل يوم قام الكافرون منهم بوجهك و وسموا ما تفعل بأنّه السحر، فدفعت أذى أولئك المعاندين اللجوجين عنك و حفظتك حتى تسير بدعوتك: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

يستلفت النظر فى هذه الآية أنّها تكرر «باذنى» أربع مرات لكيلا يبقى مكان للغلو فى المسيح عليه السّلام و ادعاء الألوهية له، أى أنّ ما كان يحققه المسيح عليه السّلام بالرغم من إعجازه و إثارته الدهشة و مشابهته للأفعال الإلهية، لم يكن ناشئا منه، بل كان من اللّه و باذنه، فما كان عيسى سوى عبد من عبيد اللّه، مطيع لأوامره، و ما كان له إلّا ما يستمده من قوة اللّه الخالدة.

و قد يسأل سائل: إنّ كانت هذه النعم كلها قد أسبغت على عيسى عليه السّلام فلما ذا تعتبر الآية هذه النعم قد أسبغت على أمّه أيضا؟

لا شك أنّ كل موهبة تصل الابن تكون قد وصلت الأم أيضا، فكلاهما من اصل واحد، و من شجرة واحدة.

و كما ذكرنا فى ذيل الآية (۴۹) من سورة آل عمران، فإن هذه الآية و الآيات المشابهة دلائل على ولاية أولياء اللّه التكوينية، ففى تاريخ حياة المسيح عليه السّلام ينسب إليه إحياء الموتى و إبراء الأكمه و الأبرص، و لكن بأمر اللّه و إذنه.

يتّضح من هذا أنّ من الممكن أن ينعم اللّه على من يشاء قدرة كهذه تمكنه من التصرف بعالم التكوين و القيام بأمثال هذه الأعمال أحيانا، إنّ تفسير هذه الآية بأنّها تشير إلى دعاء الأنبياء و استجابة اللّه لدعائهم هو خلاف ظاهر الآية، و أنّ ما نقصده بولاية أولياء اللّه التكوينية هو هذا الذى قلناه آنفا، إذ ليس ثمّة دليل على أكثر من هذا المقدار (انظر تفسير سورة آل عمران الآية (۴۹) لمزيد من التوضيح).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۶

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۵]

اشارة

وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ (۱۱۱) إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ

يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۱۲) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ (۱۱۳) قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱۴) قالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُها عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۱۱۵)

التّفسير

قصّة نزول المائدة على الحواريين:

تعقيبا على ما جاء فى الآيات السابقة من بحث حول ما أنعم اللّه به على المسيح عليه السّلام و أمّه يدور الحديث هنا حول النعم التى أنعم اللّه بها على الحواريين، أى أصحاب المسيح عليه السّلام.

ففى البداية تشير الآية إلى ما أوحى إلى الحواريين أن يؤمنوا باللّه و برسوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۷

المسيح عليه السّلام فاستجابوا وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ

إن للوحى فى القرآن معنى واسعا لا ينحصر فى الوحى الذى ينزل على الأنبياء، بل أن الإلهام الذى ينزل على قلوب الناس يعتبر من مصاديقه أيضا، لذلك جاء هذا المعنى فى الآية (۷) من سورة القصص بشأن أم موسى التى أوحى إليها[۹۶] بل إن الكلمة تطلق فى القرآن حتى على الغرائز التكوينية عند الحيوان، كالنحل.

و هناك احتمال أن يكون المقصود هو الإيحاء الذى كان يلقيه المسيح عليه السّلام بواسطة المعاجز فى نفوسهم.

لقد تناولنا الحواريين و أصحاب المسيح عليه السّلام بالبحث فى تفسير آية (۵۲) آل عمران هذا التّفسير.

ثمّ تذكر الآية نزول المائدة من السماء: إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ.

«المائدة» تعنى فى اللغة الخوان و السفرة و الطبق، كما تعنى الطعام الذى يوضع عليها و أصلها من «ميد» بمعنى التحرك و الاهتزاز، و لعل سبب إطلاق لفظة المائدة على السفرة و الطعام هو ما يلازمها من تحريك و انتقال.

شعر المسيح عليه السّلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذى يدل على الشك و التردد، على الرغم من كل تلك الأدلة و الآيات، فخاطبهم و قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و لكنّهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السّلام أن هدفهم برىء، و أنّهم لا يقصدون العناد و اللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافا إلى الحالة النّورانية فى قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوى لأنّ للغذاء و نوعيته اثر مسلّم فى روح الإنسان) قالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْها وَ تَطْمَئِنَّ قُلُوبُنا، وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنا وَ نَكُونَ عَلَيْها مِنَ الشَّاهِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۸

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، و لتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهى من أثر فى الروح و من زيادة فى الثقة و اليقين.

و لمّا أدرك عيسى عليه السّلام حسن نيّتهم فى طلبهم ذاك، عرض الأمر على اللّه: قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيداً لِأَوَّلِنا وَ آخِرِنا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارْزُقْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

من الواضح هنا أنّ الأسلوب الذى عرض به عيسى بن مريم الأمر على اللّه كان أليق و أنسب، و يحكى عن روح البحث عن الحقيقة و

رعایة الشؤون العامّة للمجتمع.

فاستجاب اللّه لهذا الطلب الصادر عن حسن نیة و إخلاص، قالَ اللَّهُ إِنِّی مُنَزِّلُها عَلَیْکُمْ فَمَنْ یَکْفُرْ بَعْدُ مِنْکُمْ فَإِنِّی أُعَذِّبُهُ عَذاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعالَمِینَ

فبعد نزول المائدة تزداد مسئولیات هؤلاء و تقوی الحجة علیهم، و لذلک فإنّ العقاب سیزداد أیضا فی حالة الکفر و الانحراف.

ملاحظات:

اشارة

هنا لا بدّ من التحقیق فی عدّة نقاط من هذه الآیات الکریمة:

۱- ما القصد من طلب المائدة؟

لا شک أنّ الحواریین لم یکونوا مدفوعین بقصد شیء فی طلبهم هذا، و لا هم کانوا یریدون المشاکسة و المعاندة، بل کانوا یرغبون فی بلوغ مرحلة الاطمئنان الأقوی و إبعاد ما بقی من رواسب الشک و الوسوسة من أعماقهم، فکثیرا ما یحدث أنّ إنسانا یتأکد من أمر بالمنطق و حتی بالتجربة، و لکن إذا کان الأمر مهما جدّا فإنّ بقایا من الشک و التردد تظل فی ثنایا قلبه، لذلک فهو شدید الرغبة فی أن تتکرر تجاربه و اختباراته، أو أن تتبدل استدلالاته المنطقیة و العلمیة إلی مشاهدات عینیة تقتلع من أعماق قلبه جذور تلک الشکوک و الوساوس، و لهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۸۹

نری إبراهیم علیه السّلام، علی ما کان علیه من مقام و یقین یسأل اللّه أن یری المعاد رأی العین لکی یتبدل إیمانه العلمی إلی «عین الیقین» و إلی «شهود».

و لکن أسلوب طلب الحواریین تمیز بشیء من الفضاضة لذلک ظن عیسی علیه السّلام أنّهم بصدد البحث عن الأعذار و الحجج، فاعترضهم و بعد أن شرحوا له حقیقة موقفهم وافق علی طلبهم.

۲- ما المقصود بعبارة هَلْ یَسْتَطِیعُ رَبُّکَ

لا شک أنّ ظاهر هذا الکلام یوحی بأنّ الحواریین کانوا یشکون فی قدرة اللّه علی إنزال مائدة، إلّا أنّ المفسّرین المسلمین لهم آراء أخری فی تفسیرها، منها أنّ هذا الطلب وقع فی بدایة أمرهم و قبل أن یتعرفوا علی جمیع صفات اللّه.

و رأی آخر یقول: إنّ سؤالهم یعنی: هل یری اللّه أن من المصلحة أن ینزل علیهم مائدة من السماء؟ کأن یقول شخص: لا أستطیع أن أعهد إلی فلان بکل ثروتی، و لا یعنی أنّه لیس بقادر علی ذلک، بل یعنی أنّه لا یری مصلحة فی الأمر.

و رأی ثالث یقول: أن «یستطیع» تعنی «یستجیب» لأن مادة (طوع) تعنی الانقیاد، فإذا وردت من باب (الاستفعال) فیمکن أن تفید المعنی نفسه، فیکون المعنی: هل یستجیب اللّه لطلبنا بشأن إنزال مائدة من السماء؟

۳- ما هی تلک المائدة السماویة؟

لم یـذکر القرآن شـیئا عن محتویاتها، و لکن یسـتفاد من بعض الأحادیث، و خاصـة الحدیث المروی عن الإمام الباقر علیه السّـلام، أن تلک المائدة کانت تحوی أرغفة من الخبر و مقدارا من السـمک، و لعل سبب طلب هذه المعجزة کان ما سمعوه عن المائدة السماویة التی نزلت علی بنی إسرائیل باعجاز من موسی علیه السّلام فطلبوا هم أیضا من عیسی علیه السّلام مثل ذلک.

۴- هل نزلت علیهم مائدة؟

رغم أنّ الآیـات المـذکورة تکـاد تصـرح بنزول المائـدة، فاللّه لا یخلف وعـده، و لکن العجیب أنّ بعض المفسّـرین یشـکون فی نزول المائدة، و یقولون: أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۰

الحواریین حین عرفوا عظم المسؤولیـة الـتی سوف تقع علیهم بعـد نزول المائـدة، تخلوا عن طلبهم، و لکن الواقع أنّ المائـدة قـد نزلت فعلا.

۵- ما العید؟

«العیـد» فی اللغـة من «العود» أی الرجوع، لـذلک فـذکری الأیّام التی تنداح فیها المشاکل عن قوم أو مجتمع و تعود أیام الفوز و الهناء الأوّل تکون عیدا. کذلک هی الأعیاد الإسـلامیة فبعد شهر من طاعة اللّه فی صوم رمضان، أو بعد أداء فریضة الحج العظیمة، یعود إلی النفس طهرها و صـفاؤها الأولین الفطریین، و یزول التلوث عن الفطرة، فیکون العیـد، و لما کان یوم نزول المائدة یوم العودة إلی الفوز و الطهارة و الإیمان باللّه، فقد سمّاه المسیح علیه السّلام عیدا.

و قد ورد فی الأخبار أنّ نزول المائدة کان فی یوم الأحد، و لعل هذا هو سبب الاحترام الذی یکنه المسیحیون لهذا الیوم.

إنّنا

نقرأ لأمیر المؤمنین علی علیه السّلام قوله: «و کل یوم لا یعصی اللّه فیه فهو یوم عید»[۹۷].

و فی هذا إشارة إلی الموضوع نفسه، لأنّ یوم ترک المعصیة هو یوم فوز و طهارة و عودة إلی الفطرة الاولی.

۶- لماذا العقاب الشدید؟

هنا أمر مهم ینبغی ألا نغفل عنه، و ذلک أنّه عنـد ما یبلغ الإیمان مرحلـة الشـهود و عین الیقین أی عند ما تری الحقیقة رأی العین، و لا یبقی مکان لأی شک أو تردد، فإنّ مسـئولیة المرء تزداد و تثقل، لأنّ هذا المرء لم یعد ذلک الذی کانت تنتابه الوساوس و الشـکوک من قبل، بل هو امرؤ ورد مرحلة جدیدة من الإیمان و تحمل المسؤولیة، فأقل تقصیر أو غفلة من جانبه یستدعی العقاب الشدید، و لهذا فـإنّ مسـئولیة الأنبیاء و أولیاء اللّه أشـد و أثقل، بحیث أنّهم کانوا فی خشـیة دائمـة منها، إننا فی الحیاة الیومیـة نصادف نماذج من هـذا القبیل أیضا، فمثلا یعلم کل شخص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۱

أنّ فى بلده أو مدينته جياعا يتحمل مسئوليتهم، و لكنه عند ما يرى بعينيه إنسانا بريئا يتضور جوعا و يتألم سغبا، فلا شك أنّ درجة مسئوليته تكون عندئذ أعلى.

۷- «العهد الجديد» و المائدة.

فى الأناجيل الأربعة الموجودة حاليا لا نجد كلاما عن المائدة كما فى القرآن، عدا ما جاء فى إنجيل يوحنا، فى الباب (۲۱)، حول استضافة المسيح الإعجازية جمعا من الناس بالخبز و السمك، و لكننا بقليل من التفحص ندرك أنّ ذلك لا علاقة له بالمائدة التى نزلت من السماء للحواريين ۹۸].

ثمّة كلام فى كتاب «أعمال الرسل» و هو من كتب العهد الجديد، يدور حول نزول مائدة على أحد الحواريين و اسمه بطرس، و لكن هذا أيضا ليس هو الموضوع الذى نحن بصدده، غير أنّنا نعلم أن كثيرا من الحقائق التى نزلت على عيسى عليه السّلام لا أثر لها فى الأناجيل السائدة، كما أن كثيرا ممّا نراه فى هذه الأناجيل لم ينزل على المسيح عليه السّلام ۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۲

الآيات [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۸]

اشارة

وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۱۸)

التّفسير

براءة المسيح من شرك أتباعه:

هذه الآيات تشير إلى حديث يدور بين اللّه و المسيح يوم القيامة، بدليل أنّنا بعد بضع آيات نقرأ: هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ و لا شك أنّه يوم القيامة.

ثمّ أنّ جملة فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ دليل آخر على أنّ الحوار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۳

قد جرى بعد عهد نبوة المسيح عليه السّلام، و الفعل «قال» الماضى لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، لأنّ القرآن ملىء بذكر أمور عن يوم القيامة استعمل فيها الزمن الماضى، و هو إشارة إلى أنّ وقوعه حتمى، أى أنّ مجيئه فى المستقبل على درجة من الثبوت و الحتمية بحيث أنّه يبدو و كأنّه قد وقع فعلا، فيستعمل له صيغة الماضى.

على كل حال تقول الآية الاولى: وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لا ريب أنّ المسيح عليه السّلام لم يقل شيئا كهذا، بل دعا إلى التوحيد و عبادة اللّه، أنّ القصد من هذا الاستفهام هو استنطاقه أمام أمّته

و بيان إدانتها.

فيجيب المسيح عليه السّلام بكل احترام ببضع جمل على هذا السؤال:

۱- أوّلا ينزّه اللّه عن كل شرك و شبهة: قالَ سُبْحانَكَ

۲- ثمّ يقول: ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍ أى ما لا يحق لى قوله و لا يليق بى أن أقوله.

فهو فى الحقيقة لا ينفى هذا القول عن نفسه فحسب، بل ينفى أن يكون له حق فى قول مثل هذا القول الذى لا ينسجم مع مقامه و مركزه.

۳- ثمّ يستند إلى علم اللّه الذى لا تحده حدود تأكيدا لبراءته فيقول: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَ لا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۱۰۰].

۴- ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ لا أكثر من ذلك.

۵- وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[۱۰۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۴

أى كنت أحول دون سقوطهم فى هاوية الشرك مدّة بقائى بينهم، فكنت الرقيب و الشاهد عليهم، و لكن بعد أن رفعتنى إليك، كنت أنت الرقيب و الشاهد عليهم.

۶- إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى على كل حال فالأمر أمرك و الإرادة إرادتك، إن شئت أن تعاقبهم على انحرافهم الكبير فهم عبيدك و ليس بامكانهم أن يفروا من عذابك، فهذا حقّك بإزاء العصاة من عبيدك، و إن شئت أن تغفر لهم ذنوبهم فإنّك أنت القوى الحكيم، فلا عفوك دليل ضعف، و لا عقابك خال من الحكمة و الحساب.

هنا يتبادر إلى الذهن سؤالان:

۱- هل يوجد فى تاريخ المسيحية ما يدل على أنّهم اتّخذوا من (مريم) معبودة؟ أم أنّهم إنّما قالوا فقط بالتثليث أو الآلهة الثلاثة: (الإله الأب) و (الإله الابن) و (روح القدس) على اعتبار أن (روح القدس) هو الوسيط بين (الإله الأب) و (الإله الابن) و هو ليس (مريم).

للإجابة على هذا السؤال نقول: صحيح أنّ المسيحيين لم يؤلهوا مريم، و لكنّهم كانوا يؤدون أمام تمثالها طقوس العبادة، كالوثنيين الذى لم يكونوا يعتبرون الأصنام آلهة، و لكنّهم كانوا يعتبرونها شريكة للّه فى العبادة.

و هناك فرق بين «اللّه» بمعنى الخالق، و ال «إله» بمعنى المعبود، و كانت (مريم) عند المسيحيين (آلهة) لا أنّها بمثابة «اللّه».

يقول أحد المفسّرين: إنّ المسيحيين على اختلاف فرقهم، و إن لم يطلقوا كلمة (إله) أو معبود على مريم، و اعتبروها أم الإله لا غير، فهم فى الواقع يقدمون لها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۵

طقوس الدعاء و العبادة، سواء أطلقوا عليها هذا الاسم أم لم يطلقوه، ثمّ يضيف قائلا: قبل مدّة صدر فى بيروت العدد التاسع من السنة السابقة من مجلة (المشرق) المسيحية بمناسبة الذكرى الخمسين للبابا (بيوس التاسع) و فيها مواضيع مثيرة عن السيدة مريم، منها تصريح بأنّ كلتا الكنيستين الشرقية و الغربية تعبدان (مريم).

و فى العدد الرّابع عشر من السنة الخامسة من الجملة نفسها مقال بقلم (الأب انستانس الكرملى) حاول فيه أن يعثر عن أصول عبادة مريم حتى فى العهد القديم، فراح يفسر حكاية الأفعى (الشيطان) و المرأة (حواء) باعتبارها حكاية مريم ۱۰۲].

و عليه فإنّ عبادة مريم موجودة بينهم.

۲- السؤال الثّانى: كيف يتحدث المسيح عليه السّلام عن مشركى أمّته بعبارات يشم منها رائحة الشفاعة لهم فيقول: وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أ يكون المشرك أهلا للشفاعة و الغفران؟

فى الجواب نقول: لو كان قصد عيسى عليه السّلام هو الشفاعة لهم لكان عليه أن يقول:

فإنك أنت الغفور الرحيم لأن غفران اللّه و رحمته هما اللذان يناسبان مقام الشفاعة، و لكنّنا نراه يقول فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ من هذا يتّضح أنّه لم يكن فى مقام الشفاعة لهم، بل كان يريد أن ينفى عن نفسه أى اختيار و أن يوكل الأمر كلّه إلى اللّه، إن شاء عفا، و إن شاء عاقب، و كل مشيئة منه سبحانه تستند إلى حكمة.

ثمّ ربّما كما بينهم جماعة أدركت خطأها و سارت على طريق التوبة، فتكون هذه الجملة قد قيلت بحقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۶

الآيتان [سورة المائدة (۵): الآيات ۱۱۹ الى ۱۲۰]

اشارة

قالَ اللَّهُ هـذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

التّفسير

الفوز العظيم:

بعد الحوار الذى جرى بين اللّه و المسيح عليه السّلام يوم القيامة- كما شرحناه فى تفسير الآيات السابقة- تقول الآية قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ

طبيعى أنّ المقصود من هذا هو أنّ الصدق فى القول و العمل فى هذه الدنيا هو الذى ينفع فى الآخرة، لأنّ الصدق فى الآخرة- التى لا تكليف فيها- لا ينفع شيئا ثمّ أنّ الوضع فى تلك الحياة مختلف بحيث لا يستطيع أحد إلّا أن يقول الصدق، حتى المذنبون يعترفون بسيئات ما عملوا، و على هذا فلا وجود للكذب يوم القيامة.

و عليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا من مسئولية و رسالة و لم يسيروا إلّا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۷

و عليه، فإنّ الذين أنجزوا ما كلّفوا من مسئولية و رسالة و لم يسيروا إلّا فى طريق الصدق، مثل المسيح عليه السّلام و أتباعه الصادقين، أو أتباع سائر الأنبياء الآخرين الذين التزموا الصدق سينالون ثوابهم.

يتّضح لنا من هذا بأنّ جميع الأعمال الصالحات يمكن أن تنطوى تحت عنوان الصدق فى القول و الفعل، و أنّه الرصيد الذى ينفع يوم القيامة لا غير.

و هؤلاء الصادقون: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها و خير من هذه النعمة المادية أنّهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و لا شك أنّ هذه النعمة الكبرى التى تجمع بين النعم المادية و النعم المعنوية شىء عظيم: ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

يلفت النظر أنّ الآية، بعد ذكر بساتين الجنّة و نعمها الكثيرة، تذكر نعمة رضى اللّه عن عباده، و رضى عباده عنه و تصف ذلك بأنّه الفوز العظيم، و هذا يدل على مدى أهمية هذا الرضى المتبادل، فقد يكون امرؤ غارقا فى أرفع نعم اللّه، و لكنّه إذا أحس بأنّ مولاه و معبوده و محبوبه ليس راضيا عنه، فإن جميع تلك النعم و الهبات تصير علقما فى ذائقة روحه.

كما يمكن أن يتوفر لامرئ كل شىء، و لكنه لا يكون راضيا و لا قانعا بما عنده، فمن الواضح أنّ هذه النعم بأجمعها غير قادرة على

إسعاد تلك الروح، بل تكون دائما معرضة لعذاب قلق غامض و اضطراب نفسى مستمر يقضيان على الراحة النفسية التى هى من أعظم نعم اللّه.

ثمّ إذا كان اللّه راضيا عن امرئ فإنّه يعطيه كل ما يريد، فإذا أعطاه كل ما يريد فإنّه يكون راضيا عن ربّه أيضا، من هنا فإنّ أعظم النعم هى أن يرضى اللّه عن الإنسان و يرضى الإنسان عن ربّه.

و فى آخر الآية إشارة إلى امتلاك اللّه كل شىء و سيطرته على السموات و الأرض و ما فيها، و أنّ قدرته عامّة تشمل كل شىء: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۸

وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هذه الآية، فى الواقع، تعتبر سبب رضى عباد اللّه عن اللّه، و ذلك لأنّ الذى يملك كل شىء فى عالم الوجود له القدرة أن يعطى عباده ما يريدون و أن يغفر لهم و أن يفرحهم و يرضيهم، كما تتضمن إشارة إلى عدم صدق أعمال النصارى فى عبادة مريم، لأنّ العبادة جديرة بأن تكون لمن يحكم عالم الخليقة بأكمله، لا مريم التى لا تزيد عن كونها مخلوقة مثلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۱۹۹

سورة الأنعام

اشارة

مكيّة و فيها مائة و خمس و ستون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۱

سورة الأنعام

سورة محاربة أنواع الشرك و الوثنية

قيل أنّ سورة الأنعام مكية، و هى السورة التاسعة و الستون فى تسلسل نزول السور القرآنية، إلّا أنّ هناك اختلافا بشأن عدد من آياتها، يعتقد بعض أنّ تلك الآيات نزلت فى المدينة، لكن الأخبار الواصلة إلينا من أئمّة أهل البيت عليهم السّلام تفيد بأن واحدة من مميزات هذه السورة هى أنّ آياتها جميعا نزلت فى مكان واحد، و عليه فكل آياتها مكية.

هدف هذه السورة الرئيسى- مثل أهداف السور المكية- توكيد الأصول الثلاثة: «التوحيد» و «النبوة» و «المعاد»، و لكنها تؤكّد أكثر ما تؤكّد قضية عبادة اللّه الواحد و محاربة الشرك و الوثنية، بحيث أنّ معظم آيات هذه السورة يخاطب المشركين و عبدة الأصنام، و بهذا يتناول البحث فى أكثر المواضع أعمال المشركين و بدعهم.

على كل حال، فإن تدبر آيات هذه السورة و التفكير فى استدلالاتها الحية الجلية، يحيى روح التوحيد و عبادة اللّه فى الإنسان، و يحطم قواعد الشرك و يقتلع جذوره، و لعل السبب فى نزول هذه السورة فى مكان واحد هو هذا التماسك المعنوى و إعطاء الأولوية لمسألة التوحيد.

و لعل هذا أيضا هو السبب لما نقرؤه من روايات عن فضل هذه السورة، و إنّها عند نزولها رافقها سبعون ألف ملك، و أنّ من يقرأها و ترتوى روحه من ينبوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۲

التوحيد يستغفر له كل أولئك الملائكة.

إنّ التمعن فى آيات هذه السورة يقضى على روح النفاق و التشتت بين المسلمين، و يجعل الآذان سميعة، و الأعين بصيرة، و القلوب عارفة.

و لكن العجيب أن نرى بعضهم يكتفى من هذه السورة بقراءة ألفاظها فقط، و يعقد الجلسات لتلاوة آياتها من أجل حل المشاكل الشخصية، فلو اهتمت هذه الجلسات بمحتوى السورة، فلا تنحل المشاكل الخاصّة وحدها، بل تنحل جميع مشاكل المسلمين العامّة أيضا، و من المؤسف جدا أنّ جمعا من الناس يعتبرون القرآن مجموعة من (الأوراد) التى لها خواص غامضة و مجهولة فيقرءونها بغير تمعن فى مضامينها، مع أن القرآن كلّه مدرسة و دروس و منهج و يقظة، و رسالة و وعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱) هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (۲)

التّفسير

اشارة

تبدأ السّورة بالحمد للّه و الثناء عليه، ثمّ تشرع بتوعية الناس على مبدأ التوحيد، عن طريق خلق العالم الكبير (السموات و الأرض) أولا، ثمّ عن طريق خلق العالم الصغير (الإنسان) ثانيا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ اللّه الذى هو مبدأ الظّلمة و النّور، و بخلاف ما يعتقده الثنويون، و هو وحده خالق كل شىء: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ.

غير أنّ الكافرين و المشركين، بدلا من أن يتعلموا من هذا النظام الواحد درس التوحيد، يصطنعون للّه الشريك و الشبيه: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۱۰۳].

نلاحظ أنّ القرآن يذكر عقيدة المشركين بعد حرف العطف «ثم» الذى يدل فى اللغة العربية على الترتيب و التراخى، و هذا يدل على أن التوحيد كان فى أوّل الأمر مبدأ فطريا و عقيدة عامّة للبشر، بعد ذلك حصل الشرك كانحراف عن الأصل الفطرى.

أمّا لماذا استعملت الآية كلمة «الخلق» بشأن السموات و الأرض، و كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۴

«جعل» بشأن النّور و الظلمة، فإنّ للمفسّرين فى ذلك كلاما كثيرا، و لكن أقربه إلى الذهن هو القول بأنّ «الخلق» يكون فى أصل وجود الشىء، و «الجعل» يكون بشأن الخصائص و الآثار و الكيفيات التى هى نتيجة لخلق تلك المخلوقات، و لما كان النّور و الظلمة حالتين تابعتين فقد عبّر عنهما بلفظة «جعل».

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام فى تفسير هذه الآية قوله: «و كان فى هذه الآية ردّ على ثلاثة أصناف منهم، لما قال: الْحَمْدُ

لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فكان ردّا على الدهرية الذين قالوا: إنّ الأشياء لا بدء لها و هى دائمة، ثمّ قال: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ فكان ردّا على الثنوية الذين قالوا: إنّ النّور و الظلمة هما المدبران.

ثمّ قال: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ فكان ردّا على مشركى العرب الذين قالوا: إنّ أوثاننا آلهة»[۱۰۴].

هل الظّلمة من المخلوقات؟

تفيد الآية إنّه مثلما أن «النّور» من مخلوقات اللّه، فإنّ «الظلمة» كذلك من مخلوقاته، مع أنّ الفلاسفة و المختصين بالعلوم الطبيعية يعرفون أنّ الظلمة هى انعدام النّور، و لهذا فلا يمكن اطلاق صفة «المخلوق» على المعدوم إذن، كيف تعتبر الآية المذكورة الظلمة من المخلوقات؟

فى ردّ هذا الاعتراض نقول.

أوّلا: الظّلمة ليس تعنى دائما الظلام المطلق، بل كثيرا ما تطلق على النّور الضعيف جدا بالمقارنة مع النّور القوى، فنحن جميعا نقول، مثلا ـ ليل مظلم، مع العلم بأنّ ظلام الليل ليس ظلاما مطلقا، بل هو مزيج من نور النجوم الضعيف أو مصادر أخرى للنور، و على هذا يكون مفهوم الآية هو أنّ اللّه جعل لكم نور النهار و ظلام الليل، فالأوّل نور قوى و الآخر نور ضعيف جدا و واضح أنّ الظلمة، بهذا المعنى، تكون من المخلوقات.

و ثانيا: صحيح أنّ الظلمة المطلقة أمر عدمى، و لكن الأمر العدمى- فى ظروف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۵

خاصّة- يكون نابعا من أمر وجودى، أى أنّ يوجد الظلمة المطلقة فى ظروف خاصة لهدف معين، لا بدّ أن يكون قد استعمل لذلك وسائل وجودية، فإذا أردنا أنّ نجعل الغرفة مظلمة لتحميض صورة- مثلا- فعلينا أن نمنع النّور لكى تحصل الظلمة فى تلك اللحظة المعينة، و ظلمة هذا شأنها ظلمة مخلوقة (مخلوقة بالتبع).

و إذا لم يكن (العدم المطلق) مخلوقا، فإن (العدم الخاص) له نصيب من الوجود، و هو مخلوق.

النّور رمز الوحدة، و الظلمة رمز التشتت:

الأمر الآخر الذى ينبغى الالتفات إليه هنا هو أنّ لفظة (نور) ترد فى القرآن بصيغة المفرد، بينما الظلمة تأتى بصيغة الجمع (ظلمات).

و قد يكون هذا إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الظلام (المادى و المعنوى) مصدرا دائما للتشتت و الانفصال و التباعد، بينما النّور رمز التوحد و التجمع طالما شاهدنا أنّنا فى الليلة الصيفية الظلماء نوقد سراجا فى فناء الدار، ثمّ لا تمضى إلّا دقائق حتى نرى مختلف أنواع الحشرات تتجمع حول السراج مؤلفة تجمعا حيا حول النّور، و لكننا إذا أطفأنا السراج تفرقت الحشرات كل إلى جهة، كذلك الحال فى الشؤون المعنوية و الاجتماعية. فنور العلم و القرآن و الإيمان أساس الوحدة، و ظلام الجهل و الكفر و النفاق أساس التفرق و التشتت.

قلنا: إنّ هذه السورة تسعى إلى لفت نظر الإنسان إلى العالم الكبير لتثبيت قواعد عبادة اللّه و التوحيد فى القلوب، توجه نظره أوّلا إلى العالم الكبير، و الآية التّالية تلفت نظره إلى العالم الصغير (الإنسان) فتشير إلى أعجب أمر، و هو خلقه من الطين فتقول هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

صحيح أنّنا ولدنا من أبوينا، لا ـ من الطين، و لكن بما أنّ خلق الإنسان الأوّل كان من الطين، فيصح أن نخاطب نحن أيضا على أننا

مخلوقين من الطين.

و تستمر السورة فتشير إلى مراحل تكامل عمر الإنسان فتقول: إنّ اللّه بعد ذلك عين مدّة يقضيها الإنسان على هذه الأرض للنمو و التكامل: ثُمَّ قَضى أَجَلًا.

«الأجل» فى الأصل بمعنى «المدّة المعينة» و «قضاء الأجل» يعنى تعيين تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۶

المدّة أو إنهاءها، و لكن كثيرا ما يطلق على الفرصة الأخيرة اسم «الأجل»، فتقول، مثلا: جاء أجل الدّين، أى أنّ آخر موعد التسديد الدّين قد حل. و من هنا أيضا يكون التعبير عن آخر لحظة من لحظات عمر الإنسان بالأجل لأنّها موعد حلول الموت.

ثمّ لاستكمال البحث تقول: وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ

بعد ذلك تخاطب الآية المشركين و تقول لهم: ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ أى تشكون فى قدرة الخالق الذى خلق الإنسان من هذه المادة التافهة (الطين) و اجتاز به هذه المراحل المدهشة، و تعبدون من دونه موجودات لا قيمة لها كالأصنام.

ما معنى الأجل المسمى؟

لا شك أنّ «الأجل المسمى» و «أجلا» فى الآية مختلفتان فى المعنى، أمّا اعتبار الإثنين بمعنى واحد فلا ينسجم مع تكرار كلمة «أجل» خاصّة مع ذكر القيد:

«مسمى» فى الثّانى.

لذلك بحث المفسّرون كثيرا فى الاختلاف بين التعبيرين، و القرائن الموجودة فى القرآن و الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ «أجل» وحدها تعنى غير الحتمى من العمر و الوقت و المدّة، و «الأجل المسمى» بمعنى الحتمى منها، و بعبارة أخرى «الأجل المسمى» هو «الموت الطبيعى» و «الأجل» هو الموت غير الطبيعى.

و لتوضيح ذلك نقول: إنّ الكثير من الموجودات لها من حيث البناء الطبيعى و الذاتى الاستعداد القابلية للبقاء مدّة طويلة، و لكن قد تحصل خلال ذلك موانع تحول بينها و بين الوصول إلى الحد الطبيعى الأعلى، افترض سراجا نفطيا يستطيع أنّ يبقى مشتعلا مدّة عشرين ساعة مع الأخذ بنظر الإعتبار سعته النفطية، غير أن هبوب ريح قوية، أو هطول المطر عليه أو عدم العناية به، يكون سببا فى قصر مدّة الإضاءة، فإذا لم يصادف السراج أى مانع، و ظل مشتعلا حتى آخر قطرة من نفطه ثمّ انطفأ نقول: إنّه وصل إلى أجله المحتوم، و إذا أطفأته الموانع قبل ذلك، فيكون عمره «أجل» غير محتوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۷

و الحال كذلك بالنسبة للإنسان، فإذا توفرت جميع ظروف بقائه و زالت جميع الموانع من طريق استمرار حياته، فإن بنيته تضمن بقاءه مدّة طويلة إلى حد معيّن، و لكنّه إذا تعرض لسوء التغذية، أو ابتلى بنوع من الإدمان، أو إذا انتحر، أو أعدم لجريمة و مات قبل تلك المدّة، فإنّ موته فى الحالة الاولى يكون أجلا محتوما، و فى الحالة الثّانية أجلا غير محتوم.

و بعبارة أخرى: الأجل الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «مجموع العلل التامّة».

و الأجل غير الحتمى يكون عند ما ننظر إلى «المقتضيات» فقط.

استنادا إلى هذين النوعين من الأجل يتّضح لنا كثير من الأمور، من ذلك مثلا ما نقرؤه فى الرّوايات و الأحاديث من أن صلة الرحم تطيل العمر، و قطعها يقصر العمر، و واضح أنّ العمر هنا هو الأجل غير الحتمى.

أمّا قوله تعالى: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ ۱۰۵].

فهو الأجل المحتوم، أى أنّ الإنسان قد وصل إلى نهاية عمره، و هو لا يشمل الموت غير المحتوم السابق لأوانه.

و لكن علينا أن نعلم- على كل حال- أنّ الأجلين يعينهما اللّه، الأوّل بصورة مطلقة، و الثّانى بصورة معلقة أو مشروطة، و هذا يشبه بالضبط قولنا: إنّ هذا السراج ينطفئ بعد عشرين ساعة بدون قيد و لا شرط، و نقول إنّه ينطفئ بعد ساعتين إذا هبت عليه ريح، كذلك الأمر بالنسبة للإنسان و الأقوام و الملل، فنقول: إنّ اللّه شاء أن يموت الشخص الفلانى أو أن تنقرض الأمّة الفلانية بعد كذا من السنين، و نقول إنّ هذه الأمّة إذا سلكت طريق الظلم و النفاق و التفرقة و الكسل و التهاون فإنّها ستهلك فى ثلث تلك المدّة، كلا الأجلين من اللّه، الأوّل مطلق و الآخر مقيد بشروط.

جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام تعقيبا على هذه الآية قوله: «هما أجلان: أجل محتوم و أجل موقوف»

كما جاء عنه فى أحاديث أخرى أنّ الأجل الموقوف قابل للتقديم و التأخير، و الأجل الحتمى لا يقبل التغيير[۱۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۸

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳]

اشارة

وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ (۳)

التّفسير

هذه الآية تكمل البحث السابق فى التوحيد و وحدانية اللّه، و ترد على الذين يقولون بوجود إله لكل مجموعة من الكائنات، أو لكل ظاهرة من الظواهر، فيقولون: إله المطر، و إله الحرب، و إله السلم، و إله السماء، و ما إلى ذلك، تقول الآية: وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَ فِي الْأَرْضِ ۱۰۷] أى كما أنّه خالق كل شىء فهو مدبر كل شىء أيضا، و بذلك ترد الآية على مشركى الجاهلية الذين كانوا يعتقدون أنّ الخالق هو «اللّه» لكنّهم كانوا يؤمنون أنّ تدبير الأمور بيد الأصنام.

هنالك احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّها تعنى حضور اللّه فى كل مكان، فى السموات و الأرض، و لا يخلو منه مكان، فليس هو بجسم ليشغل حيزا معينا، بل هو المحيط بكل الأمكنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۰۹

من الطبيعى أن يكون الحاكم على كل شىء و المدبر لكل الأمور و الحاضر فى كل مكان عارفا بجميع الأسرار و الخفايا و لهذا تقول الآية: إنّ ربّا كهذا يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ

قد يقال بأنّ (السرّ) و (الجهر) يشملان أعمال الإنسان و نواياه، و على ذلك فلا حاجة لذكر وَ يَعْلَمُ ما تَكْسِبُونَ

و لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ «الكسب» هو نتائج العمل و الحالات النفسية الناشئة عن الأعمال الحسنة و الأعمال السيئة، أى أنّ اللّه يعلم أعمالكم و نواياكم، كما يعلم الآثار التى تخلفها تلك الأعمال و النوايا فى نفوسكم، و على كل حال، فانّ ذكر العبارة هذه يفيد التوكيد بشأن أعمال الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۰

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴ الى ۵]

اشارة

وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۵)

التّفسير

قلنا: إنّ معظم الخطاب فى سورة الأنعام موجه إلى المشركين، و القرآن يستخدم شتى السبل لإيقاظهم و توعيتهم، فهذه الآية و الآيات الكثيرة التى تليها تواصل هذا الموضوع.

تشير هذه الآية إلى روح العناد و اللامبالاة و التكبر عند المشركين تجاه الحقّ و تجاه آيات اللّه فتقول: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ۱۰۸].

أى أنّ أبسط شروط الهداية- و هو البحث و التقصى- غير موجود عندهم، و ليس فيهم أى اندفاع لطلب الحقيقة، و لا يحسّون بعطش إليها ليبحثوا عنها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۱

و حتى لو تدفّق ينبوع الماء الزلال عند عتبات بيوتهم لأعرضوا عنه و لما نظروا اليه ... و كذلك فهم يعرضون عن آيات «ربّهم» النازلة لتربيتهم و تكاملهم.

مثل هذه النفسية لا يقتصر وجودها على عهود الجاهلية و مشركى العرب، فاليوم أيضا نجد من بلغ الستين من عمره و مع ذلك لم يجشم نفسه عناء ساعة واحدة من البحث و التحقيق فى اللّه و الدين، و إن وقع بيده كتاب أو بحث فى هذا الموضوع لم ينظر إليه، و إن تحدث إليه أحد بهذا الشأن لم يصغ إليه، هؤلاء هم الجهلاء المعاندون الغافلون الذين قد يظهرون أحيانا أمام الناس بمظهر العالم المتجبر! ثمّ تشير الآية إلى نتيجة أعمالهم، و هى: أنّهم عند ما رأوا الحقيقة كذبوها، و لو أنّهم دققوا فى آيات اللّه جيدا لرأوا الحقيقة و أدركوها و آمنوا بها: فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ و لسوف تصلهم نتيجة هذا التكذيب و السخرية: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْباءُ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ثلاث مراحل من الكفر تتزايد فى الشدّة على التوالى، المرحلة الاولى هى مرحلة الإعراض، ثمّ مرحلة التكذيب، و أخيرا مرحلة الاستهزاء بآيات اللّه.

يدل هذا على أنّ الإنسان فى كفره لا يتوقف فى مرحلة واحدة، بل يزداد باستمرار إنكارا للحق و عدواة له و ابتعادا عن اللّه.

المقصود من التهديد المذكور فى آخر الآية أنّ أوزار عدم الإيمان ستحيق بهم عاجلا أو آجلا فى الدنيا و الآخرة، و الآيات التّالية تؤكّد هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۶]

اشارة

أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۶)

التّفسير

مصير الطّغاة:

ابتداء من هذه الآية و ما بعدها يشرع القرآن بعرض خطّة تربوية مرحلية لإيقاظ عبدة الأصنام و المشركين تتناسب مع اختلاف الدوافع عند الفريقين، يبدأ أوّلا بمكافحة عامل (الغرور) و هو من عوامل الطغيان و العصيان و الانحراف المهمّة، فيذكرهم بالأمم السالفة و مصائرهم المؤلمة، و بذلك يحذر هؤلاء الذين غطت أبصارهم غشاوة الغرور، و يقول: أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً[۱۰۹] وَ جَعَلْنَا الْأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۳

و لكنّهم لمّا استمروا على طريق الطغيان، لم تستطع هذه الإمكانات إنقاذهم من العقاب الإلهى: فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ

أ فلا ينبغى أنّ يكون علمهم بمصائر الماضين عبرة لهم، توقظهم من نوم غفلتهم، و من سكرتهم؟ أليس اللّه الذى أهلك السابقين بقادر على أن يهلك هؤلاء أيضا؟

هاهنا بضع نقاط نلفت إليها الانتباه:

۱- على الرّغم من أن «قرن» تعنى فترة طويلة من الزمن (مائة، أو سبعين أو ثلاثين سنة)، و لكنّها قد تعنى أيضا- كما يقول اللغويون- القوم و الجماعة فى زمان معين (القرن من الاقتران بمعنى التقارب، و بالنظر لأنّ أهل العصر الواحد أو العصور المتقاربة قريبون من بعضهم فقد يطلق عليهم و على زمانهم اسم القرن).

۲- يتكرر فى القرآن القول بأنّ الإمكانات المادية الكثيرة تبعث على الغرور و الغفلة لدى ضعفاء النفس من الناس كقوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى ۱۱۰] لأنّهم بتوفر تلك الإمكانات عندهم يرون أنفسهم فى غنى عن اللّه، غافلين عن العناية الإلهية و الإمدادات الربانية المغدقة عليهم فى كل لحظة و ثانية، و لولاها لما استمروا على قيد الحياة.

۳- ليس هذا التحذير مختصا بعبدة الأصنام، فالقرآن يخاطب- أيضا- اليوم العالم الصناعى الثرى الذى أثملته الإمكانات المادية و ملأته بالغرور، و يحذره من نسيان الأقوام السابقة و ممّا حاق بهم نتيجة ما ارتكبوه من ذنوب، و كأنى بالقرآن يقول للمغرورين فى عالمنا اليوم: إنّكم ستفقدون كل شىء بانطلاق شرارة حرب عالمية أخرى، لتعودوا إلى عصر ما قبل التمدن الصناعى اعلموا أنّ سبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۴

تعاسة أولئك لم يكن شيئا سوى إثمهم و ظلمهم و اضطهادهم الناس و عدم إيمانهم و هذه عوامل ظاهرة فى مجتمعكم أيضا.

حقا إنّ دراسة تاريخ فراعنة مصر، و ملوك سبأ و سلاطين كلدة و آشور، و قياصرة الرّوم، و معيشتهم الباذخة الأسطورية و ما كانوا يتقلبون فيه من نعم لا تعد و لا تحصى، ثمّ رؤية عواقب أمورهم المؤلمة التى حاقت بهم بسبب ظلمهم الذى قوض أركان حياتهم، فيها أعظم العبر و الدروس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۵

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷]

اشارة

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷)

التّفسير

منتهى العناد!

من عوامل انحرافهم الأخرى التكبر و العناد اللذين تشير إليهما، هذه الآية، أنّ المتكبر المكابر انسان عنيد فى العادة، لأنّ التكبر لا يسمح لهم بالاستسلام للحق و الحقيقة، و الأفراد المتصفون بهذه الصفة يكونون عادة معاندين مكابرين، ينكرون حتى الأمور الواضحة القائمة على الدليل و البرهان، بل ينكرون حتى البديهيات، كما نراه بأمّ أعيننا فى المتكبرين من أبناء مجتمعاتنا.

يشير القرآن هنا إلى الطلب الذى تقدم به جمع من عبدة الأصنام (يقال أنّ هؤلاء هم نضر بن الحارث و عبد اللّه بن أبى أمية، و نوفل بن خويلد الذين قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لن نؤمن حتى ينزل اللّه كتابا مع أربعة من الملائكة!) و يقول:

وَ لَوْ نَزَّلْنا عَلَيْكَ كِتاباً فِي قِرْطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۶

أى أنّ عنادهم قد وصل حدّا ينكرون فيه حتى ما يشاهدونه بأعينهم و يلمسونه بأيديهم فيعتبرونه سحرا لكيلا يستسلموا للحقيقة، مع أنّهم فى حياتهم اليومية يكتفون بعشر هذه الدلائل للإيمان بالحقائق و يقتنعون بها، و ما هذا بسبب ما فيهم من أنانية و تكبر و عناد.

و بهذه المناسبة فإنّ «القرطاس» هو كل ما يكتب عليه، سواء أ كان ورقا أو جلدا أو ألواحا، أمّا إطلاقه اليوم على الورق فذلك لانتشار تداول الورق أكثر من غيره للكتابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ (۸) وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ (۹) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسير

خلق المبررات:

من عوامل الكفر و الإنكار الأخرى، روح التحجج و البحث عن المبررات، و على الرغم من أنّ لهذه الروح عوامل أخرى، مثل التكبر و الأنانية، و لكنّه ينقلب بالتدريج إلى حالة نفسية سلبية، تصبح بدورها عاملا من عوامل عدم التسليم للحق.

و من جملة الحجج التى احتج بها المشركون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أشار إليها القرآن فى كثير من آياته- و منها هذه الآية- هى أنّهم كانوا يقولون: لماذا يقوم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده بهذا الأمر العظيم؟ لماذا لا يقوم معه بهذا الأمر أحد من غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۸

جنس البشر، من جنس الملائكة؟ أ يمكن لإنسان من جنسنا أنّ يحمل بمفرده هذه الرسالة على عاتقه؟ وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ

و لا مجال لهذا التحجج على نبوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع كل هذه الدلائل الواضحة و الآيات البيّنات، ثمّ إنّ الملك ليس أقدر من الإنسان و لا يملك قابلية لحمل رسالة أكثر من قابلية الإنسان بل انّ قابلية الإنسان أكثر بكثير.

يرد القرآن عليهم بجملتين فى كل منهما برهان:

الاولى: وَ لَوْ أَنْزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ

أى لو نزل ملك لمعاونة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهلك الكافرون، و سبب ذلك ما مرّ فى آيات سابقة، و هو أنّه إذا اتخذت النبوة جانب الشهود و الحس، أى إذا تحول الغيب بنزول الملك إلى شهود، بحيث يرى كل شىء عيانا، غدت المرحلة هى المرحلة النهائية فى إتمام الحجة، إذ لا يكون ثمّة دليل أوضح منها، و على ذلك فإن العصيان فى هذه الحالة يستوجب العقاب القاطع، و لكن اللّه للطفه و رحمته بعباده، و لكى يمنحهم فرصة التأمل و التفكير، لا يفعل ذلك إلّا فى حالات خاصّة يكون فيها طالب الدليل على أتمّ استعداد، أو فى حالات يستحق فيها طالب الدليل الهلاك، أى أنّه ارتكب ما يستوجب معه العقاب الإلهى، فى هذه الحالة يحقق له طلبه، ثمّ إذا لم يستسلم صدر أمر هلاكه.

الثّانية: هى أنّ الرّسول الذى يبعثه اللّه لقيادة الناس و تربيتهم و ليكون أسوة لهم، لا بدّ أن يكون من جنس الناس أنفسهم و على شاكلتهم من حيث الصفات و الغرائز البشرية، أمّا الملك فلا يظهر لعيون البشر كما أنّه ليس بإمكانه أنّ يكون قدوة عملية لهم، لأنّه لا يدرى شيئا عن حاجاتهم و آلامهم و لا عن غرائزهم و متطلباتها، لذلك فإن قيادته لجنس يختلف عنه كل الاختلاف لا يحقق الهدف.

لذلك فالقرآن فى الجواب الثّانى يقول: لو شئنا أن يكون رسولنا ملكا حسبما يريدون، لوجب أن يتصف هذا الملك بصفات الإنسان و أن يظهر فى هيئة إنسان:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۱۹

وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا[۱۱۱].

يتّضح ممّا قلنا أنّ جملة لَجَعَلْناهُ رَجُلًا لا تعنى: أنّنا سنجعله على هيئة انسان، كما تصور بعض المفسّرين، بل تعنى: أنّنا نجعله على هيئة البشر فى الصفات الظاهرية و الباطنية، ثمّ يستنتج من ذلك أنّهم- فى هذه الحالة أيضا- كانوا سيعترضون الاعتراض نفسه، و هو: لماذا أوكل اللّه مهمّة القيادة إلى بشر و أخفى عنّا وجه الحقيقة: وَ لَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ

«اللبس» بمعنى خلط الأمر و جعله مشتبها بغيره خافيا، و «اللبس» بمعنى ارتداء اللباس، و من الواضح أنّ الآية تقصد المعنى الأوّل، أى أنّنا لو أردنا أن نرسل ملكا لوجب أن يكون فى صورة الإنسان و سلوكه، و فى هذه الحالة سيعتقدون أنّنا خلطنا الأمر على الناس و أوقعناهم فى الاشتباه، و لكانوا يشكلون علينا الإشكالات السابقة، بمثل ما يوقعون الجهلة من الناس فى الخطأ و الاشتباه و يلبسون وجه الحقيقة عنهم، و عليه فإنّ نسبة «اللبس» و الإخفاء إلى اللّه إنّما هى من وجهة نظرهم الخاصة.

و فى الختام يهون الأمر على رسوله و يقولون له: وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

هذه الآية فى الواقع تسلية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطلب اللّه فيها منه أن لا تزعزعه الزعازع، و يهدد فى الوقت نفسه المخالفين و المعاندين و يطلب منهم أن يتفكروا فى عاقبة أمرهم المؤلمة[۱۱۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۰

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۱]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۱۱)

التّفسير

لكى يوقظ القرآن هؤلاء المعاندين المغرورين يسلك فى هذه الآية سبيلا آخر فيأمر رسوله أن يوصيهم بالسياحة فى أرجاء الأرض ليروا بأعينهم مصائر أولئك الذين كذبوا بالحقائق، فلعل ذلك يوقظهم من غفلتهم قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

لا شك أنّ لرؤية آثار السابقين و الأقوام التى هلكت بسبب إنكارها الحقائق تأثيرا أعمق من مجرّد قراءة كتب التّأريخ، لأنّ هذه الآثار تجسد الحقيقة ناطقة ملموسة، و لهذا استعمل جملة «أنظروا» و لم يقل «تفكروا».

و لعل استعمال «ثم» لعاطفة التى تفيد عادة التراخى الزمنى يراد منه أن لا يتعجلوا فى سيرهم و فى اطلاق أحكامهم، عليهم أن يمعنوا النظر فى تلك الآثار التى خلفتها الأقوام السالفة و يفكروا فيها ثمّ يأخذوا منها العبر و يروا عاقبة أعمال تلك الأمم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۱

فيما يتعلق بالسير و السياحة فى الأرض و تأثيره فى إيقاظ الأفكار انظر تفسير الآية (۱۳۷) من سورة آل عمران فى هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۲

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲ الى ۱۳]

اشارة

قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲) وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۳)

التّفسير

اشارة

يواصل القرآن مخاطبة المشركين، ففى الآيات السابقة دار الكلام حول التوحيد و عبادة اللّه الأحد و هنا يدور الحديث عن المعاد، و بالإشارة إلى مبدأ التوحيد يواصل القول عن المعاد بطريقة رائعة، هى طريقة السؤال و الجواب، و السائل و المجيب كلاهما واحد، و هو من الأساليب الأدبية الجميلة.

يتكون الاستدلال هنا على المعاد من مقدمتين:

أوّلا- يقول: قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثمّ يقول مباشرة: أجب أنت بلسان فطرتهم و روحهم: قُلْ لِلَّهِ فبموجب هذه المقدمة يكون كل عالم الوجود ملكا للّه و بيده و تدبيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۳

ثانيا: إنّ اللّه هو وحده مصدر كل رحمة، و هو الذى أوجب على نفسه الرحمة، و يفيض بنعمه على الجميع: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

أ يمكن لربّ هذا شأنه أن يقطع سلسلة حياة البشر نهائيا بالموت فيوقف التكامل و استمرار الحياة؟ أ يتفق هذا مع مبدأ كون اللّه

«فياضا» و «ذا رحمة واسعة»؟ أ يمكن أن يكون قاسيا على عباده بهذا الشكل، و هو مالكهم و مدبر شؤونهم، بحيث أنّهم بعد مدّة يفنون و يتبدلون إلى لا شيء؟

طبعا لا، إذ أنّ رحمته الواسعة توجب عليه أن يسير بالكائنات- و خاصة البشر- فى طريق التكامل، بمثل ما يجعل برحمته من البذرة الصغيرة الزهيدة شجرة ضخمة قوية، أو يحيلها إلى شجيرة ورد جميلة، كما أنّه بفيض رحمته يبدل النطفة التافهة إلى انسان كامل، هذه الرحمة نفسها توجب أن يرتدى الإنسان- الذى عند امكانية الخلود- لباس حياة جديدة بعد موته فى عالم أوسع، تدفعه يد الرحمة فى سيره التكاملى الأبدى، لذلك يقول بعد هاتين المقدمتين: لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ

إنّ الآية تبدأ بالاستفهام التقريرى الذى يراد به انتزاع الإقرار من السامع، و لمّا كان هذا الأمر مسلما به بالفطرة، كما كان المشركون يعترفون بأنّ مالك عالم الوجود ليس الأصنام، بل اللّه، فإنّ الجواب يرد مباشرة، و هذا أسلوب جميل فى عرض مختلف المسائل.

فى مواضع أخرى من القرآن يستدل على المعاد بطرق أخرى، بطريق قانون العدالة، و قانون التكامل، و الحكمة الإلهية، و لكن الاستدلال بالرحمة استدلال جديد جاءت به هذه الآية.

فى نهاية الآية إشارة إلى مصير المشركين المعاندين و عاقبتهم، فهؤلاء الذين أضاعوا رأس مال وجودهم فى سوق تجارة الحياة، لا يؤمنون بهذه الحقائق:

الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۴

ما أعجب هذا التعبير! فقد يخسر المرء أحيانا ثروته أو مركزه أو أى نوع آخر من أنواع رأس المال، ففى هذه الحالات يكون قد خسر شيئا، و لكن هذا الشيء الذى خسره لا يكون جزءا من وجوده، أى أنّه خارج وجوده، أمّا أعظم الخسائر التى هى فى الواقع الخسارة الحقيقية، فهى عند ما يخسر الإنسان أصل وجوده.

إنّ أعداء الحقيقة و المعاندين يخسرون تماما رأس مال العمر و رأس مال الفكر و العقل و الفطرة و جميع المواهب الروحية و الجسمية التى كان ينبغى لهم أن يستخدموها فى طريق الحقّ للوصول إلى مرحلة التكامل، و عندئذ لا يبقى رأس المال و لا صاحبه.

لقد ورد هذا التعبير فى عدد من آيات القرآن الكريم، و هى تعبيرات مرعبة عن المصير المؤلم الذى ينتظر منكرى الحقيقة و المذنبين الملوثين.

سؤال:

قد يقال: إنّ الحياة الأبدية تكون مصداقا للرّحمة بالنسبة للمؤمنين فقط، أمّا لغيرهم فهى لا تعدو أن تكون شقاء و تعاسة.

الجواب:

لا- شك أنّ اللّه هو الذى يوفر فرص الرحمة، فهو الذى خلق الإنسان، و وهب له العقل، و أرسل له الأنبياء لقيادته و هدايته، و منحه مختلف أنواع النعم، و فتح أمامه طريقا للحياة الخالدة، فهذه كلّها ألوان من الرحمة.

و الإنسان فى غضون مسيرته للوصول إلى ثمرات هذه الرحمة إذا انحرف عن طريق و حول هذه الرحمة إلى عذاب و شقاء، فإنّ ذلك لا يخرجها عن كونها رحمة، بل الإنسان هو الملوم على الانحراف عنها و تبديلها إلى عذاب و ألم.

الآية الثّانية تكمل فى الواقع الآية السابقة، فالآية السابقة تشير إلى أنّ اللّه مالك كلّ شيء يستوعبه ظرف «المكان»: قُلْ لِمَنْ ما فِي

السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ...؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۵

أمّا هذه الآية فتشير إلى ملكية اللّه لما يستوعيه ظرف «الزمان» الوسيع، و تقول: وَ لَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهارِ.

فى الواقع، عالم المادة هذا يتحدد بالزمان و المكان، فكل الكائنات التى تقع ضمن ظرف المكان و الزمان- أى عالم المادة كله- ملك للّه.

و ليس الليل و النهار مختصين- طبعا- بالمنظومة الشمسية، فإنّ لجميع كائنات السماوات و الأرض ليلا و نهارا، بعضها له نهار دائم بلا ليل، و لبعضها ليل بلا نهار، ففى الشمس- مثلا- نهار دائم، فهناك ضوء دائم بلا ظلام، و فى بعض الكواكب الخامدة، التى لا نور فيها و لا تجاوز النجوم، ليل دائم سرمدى، و هذه كلّها مشمولة بالآية المذكورة.

لا بدّ هنا أن نلاحظ أنّ «سكن» و السكونة تعنى التوقف و الاستقرار فى مكان ما، سواء أ كان ذلك الموجود الساكن فى حالة حركة أو سكون، نقول مثلا: فلان «ساكن» فى المدينة الفلانية، أى أنّه مستقر هناك، مع أنّه يمكن أن يكون متحركا فى شوارعها.

كما يحتمل أن تقابل «السكون» فى هذه الآية «الحركة»، و لمّا كان السكون و الحركة من الحالات النسبية، فإنّ ذكر أحدهما يغنينا عن ذكر الآخر، و عليه يصبح معنى الآية هكذا: كل ما هو كائن فى الليل و النهار و ظرف الزمان ساكنا كان أم متحركا، ملك للّه.

و بهذا يمكن أن تكون الآية إشارة إلى أحد أدلة التوحيد، لأنّ «الحركة» و «السكون» حالتان عارضتان و حادثتان طبعا، فلا يمكن أن تكونا قديمتين أزليتين، لأنّ الحركة تعنى وجود الشىء فى مكانين مختلفين خلال زمانين، و السكون يعنى وجود الشىء فى مكان واحد خلال زمانين، و عليه فإنّ الالتفات إلى الحالة السابقة كامن فى ذات الحركة و السكون. و نحن نعلم أنّ الشىء إذا كانت له حالة سابقة لا يمكن أن يكون أزليا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۶

نستنتج من هذا الكلام أنّ الأجسام لا تخلو من الحركة و السكون، و أنّ ما لا يخلو من الحركة و السكون لا يمكن أن يكون أزليا، و عليه فكل جسم حادث، و كل حادث لا بدّ من محدث (خالق).

و لكن اللّه ليس جسما، فلا حركة له و لا سكون، و لا زمان و لا مكان، و لذلك فهو أبدى أزلى.

و فى نهاية الآية، و بعد ذكر التوحيد، تشير الآية إلى صفتين بارزتين فى اللّه فتقول: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ أى أنّ اتساع عالم الوجود، و الكائنات فى آفاق الزمان و المكان لا تحول أبدا دون أن يكون اللّه عليما بأسرارها، بل إنّه يسمع نجواها، و يعلم حركة النملة الضعيفة على الصخرة الصمّاء فى الليلة الظّلماء فى أعماق واد سحيق صامت، و إنّه ليدرك حاجاتها و حاجات غيرها، و يعلم ما تفعل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴ الى ۱۶]

اشارة

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۴) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۱۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۲۲۷

التّفسير

لا ملجأ غير اللّه!

من المفسّرين من يذكر أنّ سبب نزول الآية هو أنّه جاء جمع من أهل مكّة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: يا محمّد، إنّك تركت دين قومك، و لم يكن ذلك إلّا بسبب فقرك، فاقبل منّا نصف أموالنا تكن غنيا على أن نترك آلهتنا و شأنها و تعود إلى ديننا، فنزلت هذه الآية ترد عليهم ۱۱۳].

سبق أن قلنا: إنّ آيات هذه السورة نزلت مرّة واحدة فى مكّة، كما جاء فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۸

الأخبار المروية، لذلك لا يمكن أن يكون لكل منها سبب نزول خاص، غير أنّ أحاديث كانت قد جرت قبل نزول هذه السورة بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشركين و بعض هذه الآيات تشير إلى تلك الأحاديث، لذلك ليس ثمّة ما يمنع أن تكون أحاديث من هذا القبيل أيضا قد جرت بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشركين، فيشير القرآن فى هذه الآيات إلى أحاديثهم و يرد عليهم.

على كلّ حال، الهدف من نزول هذه الآيات هو إثبات التوحيد و محاربة الشرك و عبادة الأصنام فالمشركون، و إن اعتقدوا أنّ اللّه هو خالق العالم، كانوا يتخذون من الأصنام ملجأ لأنفسهم، و لربّما اتخذوا صنما لكل حاجة معينة، فلهم إله للمطر، و إله للظلام، و إله للحرب و السلم، و إله للرزق، و هذا هو تعدد الأرباب الذى ساد اليونان القديم.

و لكى يزيل القرآن هذا التفكير الخاطئ، يأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ

فإذا كان هو خالق عالم الوجود كله دون الاستناد إلى قدرة أخرى، و هو الذى يرزق مخلوقاته، فما الذى يدعو الإنسان إلى أن يتخذ من دونه وليا و ربّا؟

و إنّ كل الأشياء غيره مخلوقات و هى بحاجة إليه فى كل لحظات وجودها، فكيف يمكن لها أن تقضى حاجة الآخرين؟

هذه الآية تستعمل كلمة «فاطر» فى حديثها عن خالق السموات و الأرض، و أصل «الفطر» و «الفطور» هو الشق، يروى عن ابن عباس أنّه قال: ما عرفت معنى فاطر السموات و الأرض إلّا عند ما رأيت اعرابيين يتنازعان على بئر قال أحدهما: «أنا فطرتها» أى أنا أحدثتها و أوجدتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۲۹

و لكننا اليوم أقدر من ابن عباس على معرفة معنى «فاطر» بالاستعانة بالعلوم الحديثة، أنّه تعبير ينسجم مع أدق النظريات العلمية الحديثة عن تكون العالم، لقد أظهرت دراسات العلماء أنّ العالم الكبير (الكون) و العالم الصغير (المنظومة الشمسية) كانت كلها كتلة واحدة تشققت على أثر الإنفجارات المتتالية، و تكونت المجرات و المنظومات و الكرات، و فى الآية (۳۰) من سورة الأنبياء بيان أوضح لهذا الأمر: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما.

و النقطة الأخرى التى ينبغى ألا نغفل عنها فى هذه الآية هو أنّها تقتصر على توكيد اتصاف اللّه باطعام مخلوقاته و رزقهم، و لعل ذلك إشارة إلى أنّ أقوى حاجات الإنسان فى حياته المادية هى حاجته إلى «لقمة العيش» كما يقال، و هذه اللقمة هى التى تحمل الناس على الخضوع لأصحاب المال و القوّة، و قد يصل خضوعهم لأولئك حدّ العبودية، ففى هذا يقرر القرآن رزق الناس بيد اللّه لا بيد هؤلاء و لا بيد الأصنام، فأصحاب المال و القوّة هم أنفسهم محتاجون إلى الطعام، و أنّ اللّه هو وحده الذى يطعم الناس و لا يحتاج إلى طعام.

و فى آيات أخرى نرى القرآن يؤكّد مالكية اللّه و رزاقيته بإنزال الأمطار و إنبات النباتات، و ذلك لكى يزيل من أذهان البشر كليا فكرة اعتمادهم على مخلوقات مثلهم.

ثمّ للردّ على أولئك المشركين الذين كانوا يدعون رسول اللّه إلى الانضمام إليهم، يؤكّد القرآن على ضرورة رفض دعوة هؤلاء انطلاقا من مبدأ نهى الوحى الإلهى عن ذلك، إضافة إلى نهى العقل: قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۱۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۰

لا شك أنّ أنبياء اللّه و الصالحين من أقوامهم سبقوا النّبى الخاتم فى استسلامهم لأمر اللّه و عليه فإن قوله تعالى: إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ يعنى أوّل مسلم من أمّة الرسالة الخاتمة.

كما أنّ هذا إشارة إلى أمر تربوى مهم أيضا، و هو أنّ كل قائد ينبغى أن يكون فى تطليق تعاليم دينه قدوة و طليعة، عليه أن يكون أوّل المؤمنين برسالته، و أوّل العاملين بها، و أكثر الناس اجتهادا فيها، و أسرعهم إلى التضحية فى سبيلها.

الآية التّالية فيها توكيد أشدّ لهذا النهى الإلهى عن إتّباع المشركين: قُلْ إِنِّى أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۱۱۵] أى يأمر اللّه رسوله أن يقول بأنّه ليس مستثنى من القوانين الإلهية، و أنّه يخاف- إن ركن إلى المشركين- عذاب يوم القيامة.

و من هذه الآية نفهم أيضا أنّ شعور الأنبياء بالمسؤولية يفوق شعور الآخرين بها.

و لكى يتّضح أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستطيع شيئا بغير الاستناد إلى لطف اللّه و رحمته، فكل شىء بيد اللّه و بأمره، و حتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه يترقب بعين الرجاء رحمة اللّه الواسعة، و منه يطلب النجاة و الفوز: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

هذه الآيات تبيّن منتهى درجات التوحيد، و ترد على الذين كانوا يرون للأنبياء سلطانا مستقلا عن ارادة اللّه، كما فعل المسيحيون عند ما جعلوا من المسيح عليه السّلام المخلّص و المنقذ، فتقول لهم: إنّ الأنبياء أنفسهم يحتاجون إلى رحمة اللّه مثلكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۱

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۷) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱۸)

التّفسير

قدرة اللّه القاهرة:

قلنا إنّ هدف هذه السّورة هو استئصال جذور الشرك و عبادة الأصنام، و هاتان الآيتان تواصلان تحقيق ذلك.

فالقرآن يتساءل أوّلا: لماذا تتوجهون إلى غير اللّه، و تلجأون إلى معبودات تصطنعونها لحل مشاكلكم و دفع الضر عن أنفسكم و استجلاب الخير لها؟ بينما لو أصابك أدنى ضرر فلا يرفعه عنك غير اللّه، و إذا أصابك الخير و البركة و الفوز و السعادة فما ذلك إلّا بقدرة اللّه، لأنّه هو القادر القوى: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[۱۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۲

فی الواقع إنّ سبب الاتجاه إلی غیر اللّه إمّا لتصورهم أنّ ما یتجهون إلیه مصدر الخیرات، و إمّا لاعتقادهم بقدرته و أنّه یدرأ عنهم المصائب و یحل لهم مشاکلهم، و الخضوع إلی حد العبادة لذوی السلطان و المال و القوة ینشأ من أحد هذین الدافعین، هذه الآیة تبیّن أنّ إرادة اللّه حاکمة علی کل شیء، فإذا منع عن أحد نعمة، أو منح أحدا نعمة، فما من قدرة فی العالم تستطیع أن تغیر ذلک، فلما ذا إذن یطأطئون رؤوسهم خضوعا لغیره؟

إنّ استعمال «یمسسک» فی الخیر و الشر، و هی من «مسّ»، تشیر إلی أنّ الخیر و الشر- مهما قلّ- لا یکون إلّا بإرادته و قدرته.

ثمّ إنّ الآیة المذکورة تدحض فکرة «الثنویین» القائلین بمبدأی «الخیر» و «الشر» و عبادتهما، و تقول إنّ الإثنین کلیهما من جانب اللّه، و لکننا سبق أن قلنا أن لیس ثمّة شیء اسمه «الشر المطلق».

و علیه فعند ما ینسب الشر إلی اللّه فإنّما یقصد به علی الظاهر «سلب النعمة» و هو بحدّ ذاته «خیر»، فهو إمّا أن یکون للإیقاظ و التربیة و التعلیم و کبح حالات الغرور و الطغیان و الذاتیة، أو لمصالح أخری.

و فی الآیة التی تلیها إکمال للبحث، فیقول: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ

«القاهر» و «الغالب» و إن کانا بمعنی واحد، إلّا أنّهما من جذرین مختلفین، «القهر» یطلق علی ذلک النصر الذی یتحقق دون أن یتمکن الطرف المقهور من إبداء أیة مقاومة، و فی کلمة «الغلبة» لا یوجد هذا المعنی، و قد تحصل بعد المقاومة، و بعبارة أخری: القاهر یقال لمن یکون تسلطه علی الطرف الآخر من الشمول بحیث إنّه لا یستطیع المقاومة مطلقا کصبّ سطل من الماء علی جذوة صغیرة من النّار فیطفؤها فورا.

یری بعض المفسّرین أنّ «القهر» تستعمل حیث یکون المقهور کائنا عاقلا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۳

و لکن «الغلبة» أوسع منها و تشمل النصر علی الکائنات غیر العاقلة أیضا[۱۱۷].

و علیه إذا کانت الآیة السابقة تشیر إلی شمول قدرة اللّه إزاء المعبودات الزائفة الأخری و أصحاب القوّة، فذلک لا یعنی أنّه مضطر إلی الدخول مدّة فی صراع مع تلک القوی کی یتغلب علیها، بل یعنی أنّ قدرته قاهرة، و قد جاء تعبیر فَوْقَ عِبادِهِ لتأکید هذا المعنی.

و علی هذا، کیف یمکن لإنسان واع أن یعرض عن ربّ العالمین و یتجه إلی کائنات و أشخاص لا یملکون بذواتهم أیة قدرة، و ما یملکونه من قوّة زهیدة إنّما مصدرها اللّه أیضا.

و لإزالة کل و هم قد یخطر لأحدهم بأنّ اللّه قد یسیء استعمال قدرته غیر المتناهیة کما هو الحال فی ذوی القدرة من البشر، یقول القرآن: وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْخَبِیرُ أی أنّه صاحب حکمة و کل أعماله محسوبة، لأنه خبیر و عالم و لا یخطئ فی استعمال قدرته أبدا.

و نقرأ فی حالات «فرعون» أنّه عند ما هدد بقتل بنی إسرائیل، قال: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ ۱۱۸] أی أنّه اتّخذ من قدرته القاهرة- و إن تکن ضعیفة- وسیلة للظلم و غمط حقوق الآخرین، إلّا أنّ اللّه الحکیم الخبیر بتلک القدرة القاهرة منزّه عن أن یظلم حتی أصغر مخلوقاته.

و من نافلة القول أنّ تعبیر فَوْقَ عِبادِهِ هو التفوق فی المقام لا فی المکان، إذ لیس للّه مکان محدد.

و من العجیب جدا أنّ بعض ذوی العقول المتحجرة اتّخذ من هذه الآیة دلیلا علی تجسیم اللّه سبحانه، علی الرغم من عدم وجود أی شک فی أنّ هذا التعبیر معنوی یدل علی تفوق اللّه من حیث القدرة علی عبیده و حتی فرعون- مع کونه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۴

بشرا ذا جسم- یستعمل الکلمة نفسها لإظهار تفوقه السلطوی، لا تفوقه المکانی (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۵

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أَ إِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (۱۹) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰)

التّفسير

أعظم الشّاهدين:

يذكر جمع من المفسّرين أنّ عددا من مشركى مكّة جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: كيف تكون نبيّا و لا نرى أحدا يؤيدك؟ و حتى اليهود و النصارى الذين سألناهم، لم يشهدوا بصحة أقوالك بحسب ما عندهم فى التّوراة و الإنجيل، فهات من يشهد لك على رسالتك، و الآيتان المذكورتان تشيران إلى هذه الواقعة.

فى مواجهة هؤلاء المخالفين المعاندين الذين يغمضون أعينهم عن رؤية كل تلك الدلائل على صدق الرسالة، و يطلبون مزيدا من الشواهد، يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۶

أهناك شهادة أعظم من شهادة ربّ العالمين؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ و هل هناك دليل أكبر من هذا القرآن؟: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ هذا القرآن الذى لا يمكن أن يكون وليد فكر بشرى، خاصّة فى تلك الظروف الزّمانية و المكانية، هذا القرآن الذى يضمّ مختلف الشواهد على إعجازه، فألفاظه معجزة، و معانيه معجزة، أليس هذا الشاهد الكبير وحده كاف لأن يكون تصديقا إلهيا للدعوة!!.

يستفاد من هذه العبارة أيضا أنّ القرآن أعظم معجزة و أكبر شاهد على صدق دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يشير إلى هدف نزول القرآن و يقول: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى أنّ القرآن قد نزل علىّ لكى أنذركم، و أنذر جميع الذين يصل إليهم- عبر تاريخ البشر، و على امتداد الزمان و فى أرجاء العالم كافة- كلامى، و أحذرهم من عواقب عصيانهم.

يلاحظ هنا أنّ الكلام مقتصر على الإنذار مع أنّ خطابات القرآن تجمع غالبا بين الإنذار و البشرى، و السبب فى ذلك يعود إلى أنّ الكلام موجه هنا إلى أفراد معاندين مصرين على المكابرة، و لا يمكن أن نتصور فى الواقع عبارة أوجز و أشمل لبيان المقصود من هذه العبارة، و ما فيها من دقّة و سعة يزيل كل إيهام فى عدم اختصاص دعوة القرآن بالعرب أو بزمان أو مكان معينين.

بعض العلماء استدلوا بهذا التعبير و أمثاله على ختم النّبوة برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهذه الجملة تعنى أنّ الرّسول قد بعث إلى جميع الذين تصلهم دعوته، و هذا يشمل جميع الذين يردون الحياة حتى نهاية العالم.

و تفيد الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ مفهوم إبلاغ القرآن لا يعنى مجرّد وصول نصوصه إلى الأقوام الأخرى فحسب، بل أنّ المفهوم يشمل وصول ترجماته بمختلف اللغات إلى تلك الأقوام.

جاء عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه عند ما سئل عن هذه الآية قال: «بكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۷

لسان»[۱۱۹].

کما أنّ من أصول الفقه المسلم بها هو مبدأ «قبح العقاب بلا بیان» و هذا ما تفیده الآیة المذکورة.

فقد ثبت فی أصول الفقه أنّه ما دام الحکم لم یبلغ شخصا، فإنّه لا یتحمل مسئولیة تنفیذه (إلّا إذا کان مقصرا فی استیعاب الحکم)، فهذه الآیة تقول بأنّ الذین تصلهم الدعوة یتحملون مسئولیتها، أمّا الذین لم تصلهم الدعوة، بدون تقصیر، فلا مسئولیة علیهم.

فی تفسیر (المنار) روایة عن أبیّ بن کعب قال: أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأساری فقال لهم: هل دعیتم إلی الإسلام؟ قالوا: لا، فخلی سبیلهم، ثمّ قرأ وَ أُوحِیَ إِلَیَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَکُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ثمّ قال: خلوا سبیلهم حتی یأتوا مأمنهم من أجل أنّهم لم یدعوا[۱۲۰].

و من هذه الآیة نفهم- أیضا أنّ إطلاق کلمة «شیء» علی اللّه جائز، إلّا أنّه شیء لا کالأشیاء المخلوقة المحدودة، بل هو خالق و لا تحده حدود.

ثمّ أمر اللّه رسوله أن یسألهم: أَ إِنَّکُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْری

و یأمره أن: قُلْ لا أَشْهَدُ، قُلْ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ إِنَّنِی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ

ذکر العبارات الأخیرة فی الآیة له هدف نفسی هام، و هو أنّ المشرکین قد یتصورون حدوث تزلزل فی نفس النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی أثر کلامهم، فیترکون المجلس آملین، و یبشرون أصحابهم بإمکان أن یعید محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم النظر فی دعوته.

فهذه الجمل الصریحة الحاسمة تقضی علی أمل المشرکین و تحیله إلی یأس، و تبیّن لهم أنّ الأمر أعظم ممّا یظنون، و أنّه لم یداخله أدنی شک فی دعوته، و لقد دلت التجارب علی أنّ ذکر أمثال هذه العبارات الجازمة و الحاسمة فی ختام کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۸

بحث له أثر عمیق فی تحقیق الهدف النهائی.

أمّا الذین قالوا: إنّ أهل الکتاب لم یشهدوا لنبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فإنّ الآیة التی بعدها ترد علیهم و تقول: الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَعْرِفُونَهُ کَما یَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمُ أی أن معرفتهم به لا تقتصر علی مبدأ ظهوره و دعوته فحسب، بل إنّهم یعرفون حتی التفاصیل و الخصائص و علاماته الدقیقة أیضا، و علیه، إذ قال جمع من أهل مکّة: إنّهم رجعوا إلی أهل الکتاب فلم یجدوا عندهم علما بالنّبی، فإنّهم إمّا أن یکونوا قد کذبوا و لم یتحققوا من الأمر، أو أنّ أهل الکتاب قد أخفوا عنهم الحقائق و لم یطلعوهم علیها، و هذا الکتمان تشیر إلیه آیات أخری من القرآن (لمزید من التوضیح انظر المجلد الأوّل من هذا التّفسیر فی ذیل الآیة (۱۴۶) من سورة البقرة).

و الآیة تعلن فی آخر مقاطعها النتیجة النهائیة: الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا یُؤْمِنُونَ أی أنّ الذین لا یؤمنون بالنّبی- مع کل ما تحیطه من دلائل و علامات واضحة- هم فقط أولئک الذین خسروا کل شیء فی تجارة الحیاة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۳۹

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۲۱ الی ۲۴]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِآیاتِهِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۱) وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا أَیْنَ شُرَکاؤُکُمُ الَّذِینَ کُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۲۲) ثُمَّ لَمْ تَکُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما کُنَّا مُشْرِکِینَ (۲۳) انْظُرْ کَیْفَ کَذَبُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۲۴)

التّفسير

أشدّ الظّلم:

تواصل هذه الآيات المنهج القرآنى فى مقارعة الشرك و عبادة الأصنام بشكل شامل، تقول الآية الاولى بصراحة و بصورة استفهام استنكارى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ

الجملة الأولى- فى الواقع- إشارة إلى إنكار التوحيد، و الثّانية إشارة إلى إنكار النّبوة ... حقّا لا ظلم أكبر من أن يتخذ المرء قطعة جماد لا قيمة لها، أو إنسانا ضعيفا مثله شريكا لربّ لا تحدّه، حدود، و له الحكم على كل عالم الوجود، فهذا ظلم من جهات ثلاث: ظلم لذات اللّه بالقول بوجود شريك له، و ظلم للشخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۰

نفسه بالحط من قدره إلى حد السجود و الخضوع لقطعة حجر أو خشب، و ظلم بحق المجتمع الذى يسبب له الشرك و التشتت و التفرق و الابتعاد عن روح الوحدة و التوحد.

فلا شك إذن فى أنّ أى ظالم- و على الأخص أولئك الذين لظلمهم جوانب متعددة- لا يمكن أن يرى السعادة و الفلاح: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

إنّ لفظة «الشّرك» لم ترد صراحة فى الآية، و لكن بأخذ الآيات السابقة و اللّاحقة لها بنظر الاعتبار التى تدور حول الشرك، يتّضح أنّ القصد من كلمة «افتراء» هو القول بوجود شريك للّه سبحانه.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يصف فى خمسة عشر موضعا بعض الناس بأنّهم من أظلم الناس فى سياق الاستفهام: «و من أظلم ...» أو «فمن أظلم ...» و على الرغم من أنّ معظم تلك الآيات تتناول الشرك و عبادة الأصنام و إنكار آيات اللّه، أى أنّها تدور حول التوحيد، فإنّ بعضا آخر منها يدول حول أمور أخرى، مثل وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ۱۲۱].

و قول سبحانه وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ۱۲۲].

هنا يثار هذا السّؤال: كيف يمكن أن تكون كل طائفة من هؤلاء أظلم الناس، فى حين أنّ صفة (الأظلم) لا يمكن أن تنطبق إلّا على طائفة واحدة منها؟

نقول فى الجواب: كل هذه الحالات تستقى- فى الحقيقة- من منبع واحد، و هو الشرك و الكفر و العناد. فمنع الناس من ذكر اللّه فى المساجد و السعى فى خرابها دليل على الكفر و الشرك، و كتمان الشهادة أى كتمان الحقائق المؤدى إلى حيرة الناس و ضلالهم، هو معلم من معالم الشرك و إنكار وحدانية اللّه.

الآية التّالية تشير إلى مصير المشركين يوم القيامة مبيّنة أنّهم باعتمادهم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۱

مخلوقات ضعيفة كالأصنام، لا هم حققوا لأنفسهم الراحة فى هذا العالم، و لا هم ضمنوا ذلك فى الحياة الآخرة، فتقول الآية: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أين هم، لماذا لا يأتون اليوم لإنقاذهم؟ لماذا لا يظهر أى حول و لا يبدون أية قوّة؟

ألم تكونوا تتوقعون منهم أن يعينوكم على حل مشكلاتكم؟ فلما ذا- إذن- لا نرى لهم أثرا؟

فيستولى على هؤلاء الرعب و الخوف و يبهتون و لا يحيرون جوابا، سوى أن يقسموا باللّه إنّهم لم يكونوا مشركين، ظنا منهم أنّهم هناك أيضا قادرون على إخفاء الحقائق: ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ

حول معنى «فتنـة» ثمّـة كلام بين المفسّـرين، منهم من قال: إنّها بمعنى الاعتـذار، و قال آخرون: إنّها بمعنى الجواب: و قالوا أيضا: إنّها الشرك ۱۲۳].

هنالك احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، و هو القول بأنّ «الفتنة» من «الافتتان» أى الوله بالشىء، فيكون المعنى أن افتتانهم بالشرك و عبادة الأصنام، بشكل يغشى عقولهم و أفكارهم، قد أدى إلى أن يدركوا يوم القيامة- يوم يزاح الستر- خطأهم الكبير، و يستقبحوا أعمالهم و ينكروها تماما.

يقول الراغب فى «المفردات»: أن أصل «الفتن» إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، فقد يكون هذا المعنى ممّا تفسر به الآية المذكورة، أى أنّهم عند ما تحيط بهم شدّة يوم القيامة يستيقظون و يقفون على خطأهم، فينكرون أعمالهم طلبا للنجاة.

الآية الثّالثة، و من أجل أن يعتبر الناس بمصير هؤلاء الأفراد تقول: انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۲

و تنهار المساند التى اختاروا الاستناد عليها و جعلوها شريكة للّه، و خابوا فى مسعاهم وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

لا بدّ هنا من ملاحظة النقاط التّالية:

۱- لا شك أنّ المقصود بعبارة «انظر» هو النظر بعين العقل، لا بالعين الباصرة إذا لا يمكن أن ترى مشاهد يوم القيامة رأى العين فى هذه الدنيا.

۲- و قوله سبحانه كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ إمّا أن يعنى أنّهم خدعوا أنفسهم فى الدنيا و خرجوا عن طريق الحقّ، و إمّا أن يراد منه يوم القيامة حيث يقسمون على أنّهم لم يكونوا مشركين، و الحقيقة أنّهم بهذا يكذبون على أنفسهم، فقد كانوا مشركين فعلا.

۳- يبقى سؤال آخر، و هو أنّ الآية المذكورة تفيد أنّ المشركين ينكرون شركهم يوم القيامة مع أنّ ظروف يوم القيامة لا يمكن أن تسمح لأحد أن يجانب الصدق و هو يرى تلك الحقائق الحسية، كما لو كان أحد يريد أن يغطى على الشمس فى رابعة النهار، ليقول كذبا: إنّ الدنيا ظلام، ثمّ إن هناك آيات أخرى تفيد بأنّهم يوم القيامة يعترفون صراحة بشركهم و لا يخفون أمرا: وَ لا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً[۱۲۴].

يمكن أن نذكر لهذا السؤال جوابين:

أوّلا: ليوم القيامة مراحل، ففى المراحل الأولى يظن المشركون أنّهم بالكذب يستطيعون التملص من عذاب اللّه الأليم، لذلك يرجعون إلى عادتهم القديمة فى التوسل بالكذب، و لكن فى المراحل التّالية يدركون أن لا مهرب لهم أبدا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۳

فيعترفون بأعمالهم.

يبدو أنّ الأستار يوم القيامة ترفع- بالتدريج- عن عين الإنسان، و فى البداية- عند ما لا يكون المشركون قد درسوا ملفات أعمالهم جيدا بعد- يركنون إلى الكذب، و لكن فى المراحل التّالية حيث ترتفع فيها الأستار أكثر و يرون كل شىء حاضرا، لا يجدون مندوحة عن الاعتراف تماما، مثل المجرمين الذين ينكرون كل شىء فى بداية التحقيق، حتى معرفتهم بأصدقائهم ... و لكنّهم عند ما يرون الأدلة المادية و المستندات الحيّة التى تفضح جريمتهم، يدركون أنّ الأمر من الوضوح بحيث لا يحتمل الإنكار، فيعترفون و يدلون بإفادة كاملة، و قد ورد هذا الجواب فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام ۱۲۵].

و ثانيا: إنّ الآية المذكورة تتحدث عمّن لا يرى نفسه مشركا مثل المسيحيين الذين قالوا بالآلهة الثلاثة و اعتقدوا أنّهم موحدون، أو مثل الذين يدّعون التوحيد، لكن أعمالهم ملوثة بالشرك، لأنّهم كانوا يعرضون عن تعاليم الأنبياء، و يعتمدون على غير اللّه و ينكرون ولاية أولياء اللّه ... هؤلاء يقسمون يوم القيامة على أنّهم كانوا موحدين، و لكنّهم سرعان ما يدركون أنّهم فى الباطن كانوا مشركين، هذا الجواب أيضا قد ورد فى عدد من الرّوايات نقلا عن الإمام على عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام ۱۲۶].

و كلا الجوابين مقبولان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۴

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۵ الى ۲۶]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۵) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۲۶)

التّفسير

حجب لا تقبل الاختراق:

فى هذه الآية إشارة إلى الوضع النفسى لبعض المشركين، فهم لا يبدون أية مرونة تجاه سماع الحقائق، بل أكثر من ذلك- يناصبونها العداء، و يقذفونها بالتهم، فيبعدون أنفسهم و غيرهم عنها، عن هؤلاء تقول الآية: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً[۱۲۷].

فى الواقع كانت عقولهم و أفكارهم منغمسة فى التعصب الجاهلى الأعمى، و فى المصالح المادية و الأهواء، بحيث أصبحت و كأنّها واقعة تحت الأستار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۵

و الحواجز، فلا هم يسمعون حقيقة من الحقائق، و لا هم يدركون الأمور إدراكا صحيحا.

سبق أن قلنا مرارا أنّ نسبة هذه الأمور إلى اللّه، إنّما هو إشارة إلى قانون «العلة و المعلول» و خاصية «العمل»، أى أنّ أثر الاستمرار فى الانحراف و الإصرار على المعاندة و التشاؤم يظهر فى اتصاف نفس الإنسان بهذه المؤثرات، و فى تحولها إلى مثل المرآة المعوجة التى تعكس صور الأشياء معوجة منحرفة، لقد أثبتت التجربة أنّ المنحرفين و المذنبين يحسون أوّل الأمر بعدم الرضا عن حالهم، و لكنّهم يعتادون ذلك بالتدريج، و قد يصل بهم الأمر إلى اعتبار أعمالهم القبيحة لازمة و ضرورية، و بتعبير آخر: هذا واحد من أنواع العقاب الذى يناله المصّرون على العصيان و معاداة الحقّ.

و هؤلاء وصلوا حدّا تصفه الآية فتقول: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها، بل الأكثر من ذلك أنّهم عند ما يأتون إليك، لا يفتحون نوافذ قلوبهم أمام ما تقول، و لا يأتون- على الأقل- بهيئة الباحث عن الحقّ الذى يسعى للعثور على الحقيقة و التفكير فيها، بل يأتون بروح و فكر سلبيين، و لا هدف لهم سوى الجدل و الاعتراض: حَتَّى إِذا جاؤُكَ يُجادِلُونَكَ أنّهم عند سماعهم كلامك الذى يستقى من ينابيع الوحى و يجرى على لسانك الناطق بالحقّ، يبادرون إلى اتهامك بأنّ ما تقوله إنّما هو خرافات اصطنعها أناس غابرون: يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

الآية التّالية تذكر أنّ هؤلاء لا يكتفون بهذا، فهم مع ضلالهم يسعون جاهدين للحيلولة دون سلوك الباحثين عن الحقيقة هذا الطريق بما يشيعونه و يروجونه من مختلف الأكاذيب، و يمنعونهم أن يقتربوا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ و يبتعدون عنه بأنفسهم: وَ يَنْأَوْنَ عَنْهُ ۱۲۸]، دون أن يدركوا أنّ من يصارع الحقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۶

یکن صریعه، و أخیرا، و بحسب قانون الخلق الثابت، یظهر وجه الحقّ من وراء السحب، و ینتصر بماله من قوّة، و یتلاشی الباطل کما یتلاشی الزبد الطافی علی سطح الماء، و علیه فإنّ مساعیهم سوف تتحطم علی صخرة الإخفاق و الخیبة و ما یهلکون غیر أنفسهم، و لکنّهم لا یدرکون الحقیقة: وَ إِنْ یُهْلِکُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما یَشْعُرُونَ

الصاق تهمة عظیمة بأبی طالب مؤمن قریش:

یتّضح ممّا قیل فی تفسیر هذه الآیة أنّها تتابع الکلام علی المشرکین المعاندین و أعداء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الألداء، و الضمیر «هم» یعود بموجب قواعد الأدب و اللغة- إلی الذین تتناولهم الآیة بالبحث، أی الکفار المتعصبین الذین لم یدخروا وسعا فی إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وضع العثرات فی طریق الدعوة إلی الإسلام.

و لکن- لشدید الأسف- نری بعض المفسّرین من أهل السنة یخالفون جمیع قواعد اللغة العربیة، فیقطعون الآیة الثّانیة من الآیة الاولی و یقولون: إنّها نزلت فی أبی طالب والد أمیر المؤمنین علی علیه السّلام.

أنّهم یفسرون الآیة هکذا: هناک فریق یدافعون عن رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّهم فی الوقت نفسه یبتعدون عنه: وَ هُمْ یَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ یَنْأَوْنَ عَنْهُ و هم یستشهدون فی توکید رأیهم ببعض الآیات الأخری من القرآن، ممّا سنتناوله فی موضعه، مثل الآیة (۱۱۴) من سورة التوبة و الآیة (۵۶) من سورة القصص.

لکن جمیع علماء الشیعة و جمع من علماء أهل السنة، و مثل ابن أبی الحدید شارح نهج البلاغة و القسطلانی فی «إرشاد الساری» و زینی دحلان فی حاشیة السیرة الحلبیة، و یعتبرون أبا طالب من مؤمنی الإسلام، و هناک فی المصادر الإسلامیة الأصیلة دلائل کثیرة علی هذا.

و من یطالع هذه الأدلة یندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذی حدا ببعضهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۷

إلی کره أبی طالب و توجیه مثل هذا الاتهام الکبیر إلیه؟! کیف یکون هدفا لمثل هذا الاتهام من کان یدافع بکل کیانه و وجوده عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لطالما وقف هو و ابنه فی مواقع الخطر یدر آن عن حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کل خطر؟! هنا یری المحققون المدققون أنّ التیار المناوئ لأبی طالب تیار سیاسی ینطلق من عداء «شجرة بنی أمیة الخبیثة» لمکانة علی علیه السّلام.

ذلک لأنّ أبا طالب لیس الوحید الذی تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، بل إنّنا نلاحظ علی امتداد تاریخ الإسلام أنّ کل من کان له بأی شکل من الأشکال نوع من القرابة من أمیر المؤمنین علی علیه السّلام لم ینج من هذه الحملات اللئیمة، و فی الحقیقة کان ذنب أبی طالب الوحید أنّه والد الشخصیة الإسلامیة الکبری علی علیه السّلام.

و نذکر هنا بإیجاز مختلف الأدلة التی تثبت إیمان أبی طالب، تارکین التفاصیل للکتب المختصة فی الموضوع.

۱- کان أبو طالب یعلم، قبل بعثة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّ ابن أخیه سوف یصل إلی مقام النبوة، فقد کتب المؤرخون أنّه فی رحلته مع قافلة قریش إلی الشام اصطحب معه ابن أخیه محمّدا البالغ یومئذ الثّانیة عشرة من العمر، و فی غضون الرحلة رأی منه مختلف الکرامات، ثمّ عند ما مرّت القافلة بالراهب (بحیرا) الذی أمضی سنوات طوالا فی صومعته علی طریق القوافل التجاریة، استلف محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نظر الراهب الذی راح یدقق فی وجهه و ملامحه، ثمّ التفت إلی الجمع سائلا: من منکم صاحب هذا الصبی؟ فأشار الجمع إلی أبی طالب الذی قال له: هذا ابن أخی، فقال بحیرا: إنّ لهذا الصبی شأنا، إنّه النّبی الذی

أخبرت به و برسالته الکتب السماویة، و قد قرأت فیها تفاصیل ذلک کله ۱۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۸

و لقد کان أبو طالب قبل ذلک قد أدرک من الوقائع و القرائن التی رآها من ابن أخیه أنّه سیکون نبی هذه الأمّة.

و بموجب ما یذکره الشهرستانی صاحب «الملل و النحل» و غیره من علماء السنة أنّ سماء مکّة قد جست برکتها عن أهلها سنة من السنین، فواجه الناس سنة- جفاف شدید، فأمر أبو طالب أنّ یأتوه بابن أخیه محمّد، فأتوه به و هو رضیع فی قماطه، فوقف تجاه الکعبة، و فی حالة من التضرع و الخشوع أخذ یرمی بالطفل ثلاث مرات إلی أعلی ثمّ یتلقفه و هو یقول: یا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غیثا مغیثا دائما هطلا، فلم یمض إلّا بعض الوقت حتی ظهرت غمامة من جانب الأفق و غطت سماء مکّة کلّها و هطل مطر غزیر کادت معه مکّة أن تغرق.

ثمّ یقول الشهرستانی: هذه الواقعة، التی تدل علی علم أبی طالب بنبوة ابن أخیه و رسالته منذ طفولته تؤکّد إیمانه به، و هذا أبیات أنشدها أبو طالب بعد ذلک بتلک المناسبة:

و أبیض یستسقی الغمام بوجههثمال الیتامی عصمة للأرامل

یلوذ به الهلاک من آل هاشمفهم عنده فی نعمة و فواضل

و میزان عدل لا یخیس شعیرةو وزان صدق وزنه غیر عائل

إنّ حکایة إقبال قریش علی أبی طالب رحمه اللّه عند الجفاف، و استشفاع أبی طالب إلی اللّه بالطفل قد ذکرها غیر الشهرستانی عدد آخر من کبار المؤرخین، و قد أورد العلّامة الامینی قدس سرّه صاحب کتاب «الغدیر» هذه الحکایة و ذکر أنّه نقلها من «شرح البخاری» و «المواهب اللدنیة» و «الخصائص الکبری» و «شرح بهجة المحافل» و «السیرة الحلبیة» و «السیرة النبویة» و «طلبة الطالب»[۱۳۰].

۲- إضافة إلی کتب التّأریخ المعروفة، فإنّ بین أیدینا شعرا لأبی طالب جمع فی «دیوان أبی طالب»، و منه الأبیات التّالیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۴۹

و اللّه لن یصلوا إلیک بجمعهمحتی أوسد فی التراب دفینا

فاصدع بأمرک ما علیک غضاضةو ابشر بذاک و قر منک عیونا

و دعوتنی و علمت أنک ناصحیو لقد دعوت و کنت ثمّ أمینا

و لقد علمت بأنّ دین محمّدمن خیر أدیان البریة دینا

کما قال أیضا:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّدارسولا کموسی خط فی أوّل الکتب

و إنّ علیه فی العباد محبّةو لا حیف فی من خصّه اللّه بالحبّ ۱۳۱]

یذکر ابن أبی الحدید طائفة کبیرة من أشعار أبی طالب (التی یقول عنها ابن شهر آشوب فی «متشابهات القرآن» أنّها تبلغ ثلاثة آلاف بیت) ثمّ یقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالا للشک أنّ أبا طالب کان یؤمن برسالة ابن أخیه.

۳- ثمّة أحادیث منقولة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تؤکّد شهادته بإیمان عمه الوفی أبی طالب، من ذلک ما ینقله لنا صاحب کتاب «أبو طالب مؤمن قریش» فیقول:

عند ما توفی أبو طالب رثاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو علی قبره، قائلا:

«وا أبتاه! وا أبا طالباه وا حزناه علیک! کیف أسلو علیک یا من ربیتنی صغیرا، و اجبتنی کبیرا، و کنت عندک بمنزلة العین من الحدقة

و الروح من الجسد»[۱۳۲].

و كثيرا ما

كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «ما نالت منّى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب»[۱۳۳].

۴- من المتفق عليه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر بقطع كل رابطة صحبة له بالمشركين، و كان ذلك قبل وفاة أبى طالب بسنوات، و عليه فإنّ ما أظهره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الحبّ و التعلق بأبى طالب يدل على أنّه كان يرى فى أبى طالب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۰

تابعا لمدرسة التوحيد، و إلّا فكيف ينهى الآخرين عن مصاحبة المشركين، و يبقى هو على حبّه العميق لأبى طالب؟

۵- فى الأحاديث التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام أدلة وافرة على إيمان أبى طالب و إخلاصه، و لا يسع المجال هنا لذكرها، و هى أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقى و العقلى، كالحديث

المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السّلام الذى قال- بعد أن سئل عن إيمان أبى طالب و أجاب الإيجاب-: «إنّ هنا قوما يزعمون أنّه كافر .. وا عجبا كل العجب! أ يطعنون على أبى طالب أو على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد نهاه اللّه أن تقرّ مؤمنة مع كافر فى غير آية من القرآن (أى فى أكثر من آية) و لا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضى اللّه تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فإنّها لم تزل تحت أبى طالب حتى مات أبو طالب رضى اللّه عنه»[۱۳۴].

۶- و إذا تركنا كل هذا جانبا، فاننا قد نشك فى كل شىء إلّا فى حقيقة كون أبى طالب كان على رأس حماة الإسلام و رسول الإسلام، و كانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيرة و العصبيات القبلية و لا يمكن تفسيرها بها.

و من الأمثلة الحيّة على ذلك حكاية (شعب أبى طالب) يجمع المؤرخون على أنّه عند ما حاصرت قريش النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين محاصرة اقتصادية و اجتماعية و سياسية شديدة و قطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامى و المدافع الوحيد عنهم مدّة ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، و سار ببنى هاشم إلى واد بين جبال مكّة يعرف بشعب أبى طالب فعاشوا فيه، و قد بلغت تضحياته حدا أنّه، فضلا عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أى هجوم قد تشنه قريش عليهم، كان فى كل ليلة يوقظ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من نومه و يأخذه إلى مضجع آخر يعده له و يجعل ابنه الحبيب إليه عليا عليه السّلام فى مكانه، فإذا ما قال له ابنه على عليه السّلام: يا أبة، إنّ هذا سيوردنى موارد الهلكة،

أجابه أبو طالب عليه السّلام: ولدى عليك بالصبر، كل حى إلى ممات، لقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۱

جعلت فداء ابن عبد اللّه الحبيب،

فيرد على عليه السّلام: يا أبه، ما قلت لك ذلك خوفا من الموت فى سبيل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتى لك و استعدادى للوقوف إلى جانب محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۱۳۵].

إنّنا نرى أن من يترك التعصب، و يقرأ- بغير تحيز- ما كتبه التّأريخ بحروف من ذهب عن أبى طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبى الحديد منشدا:

و لو لا أبو طالب و ابنهلما مثل الدين شخصا و قاما

فذاك بمكّة آوى و حامىو هذا بيثرب جس الحماما[۱۳۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۲

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۷ الى ۲۸]

اشارة

وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۷) بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۲۸)

التّفسير

يقظة عابرة عقيمة:

فى هاتين الآيتين إشارة إلى بعض مواقف عناد المشركين، و فيهما يتجسد مشهد من مشاهد نتائج أعمالهم لكى يدركوا المصير المشؤوم الذى ينتظرهم فيستيقظون، أو تكون حالهم- على الأقل- عبرة لغيرهم، فتقول الآية: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ ...[۱۳۷] لتبيّن لك مصيرهم السيئ المؤلم.

إنّهم فى تلك الحال على درجة من الهلع بحيث أنّهم يصرخون: ليتنا نرجع إلى الدنيا لنعوض عن أعمالنا القبيحة، و نعمل للنجاة من هذا المصير المشؤوم.

و نصدق آيات ربّنا، و نقف إلى جاب المؤمنين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۳

فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۱۳۸].

الآية التّالية تؤكّد أن ذلك ليس أكثر من تمن كاذب، و إنّما تمنوه لأنّهم رأوا فى ذلك العالم كل ما كانوا يخفونه- من عقائد و نيات و أعمال سيئة- مكشوفا أمامهم، فاستيقظوا يقظة مؤقتة عابرة: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ

غير أن هذه اليقظة ليست قائمة ثابتة، بل إنّها قد حصلت لظروف طارئة، و لذلك فحتى لو افترضنا المستحيل و عادوا إلى هذه الدنيا مرّة أخرى لفعلوا ما كانوا يفعلونه من قبل و ما نهوا عنه: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ لذلك فهم ليسوا صادقين فى تمنياتهم و مزاعمهم وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

ملاحظات:

۱- يتبيّن من ظاهر بَدا لَهُمْ أنّهم لم يكونوا يخفون كثيرا من الحقائق عن الناس فحسب، بل كانوا يخفونها حتى عن أنفسهم، فتبدوا لهم جلية يوم القيامة، و ليس فى هذا ما يدعو إلى العجب، فالإنسان كثيرا ما يخفى عنه نفسه الحقائق و يغطى على ضميره و فطرته لكى ينال شيئا من الراحة الكاذبة.

إنّ قضية مخادعة النفس و إخفاء الحقائق عنها من القضايا التى تعالجها البحوث الخاصّة بنشاط الضمير، فقد نجد الكثيرين من الذين يتبعون أهواءهم يتنبهون إلى أضرار ذلك عليهم، و لكنّهم لكى يواصلوا أعمالهم تلك بغير أن تنغصها عليهم ضمائرهم- يحاولون إخفاء هذا الوعى فيهم بشكل من الأشكال.

غير أنّ بعض المفسّرين- دون الالتفات إلى هذه النكتة- فهموا من (لهم) ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۴

ينطبق على الأعمال التى أخفاها المشركون عن الناس (تأمل بدقّة).

۲- قد يقال أنّ التمنى ليس من الأمور يصح فيها أن تكون صادقة أو كاذبة، فهى مثل «الإنشاء» الذى لا يحتمل الصدق و الكذب، إلّا أنّ هذا القول بعيد عن الصواب، و ذلك لأنّ «الإنشاء» كثيرا ما يصاحبه «الإخبار» ممّا يحتمل الصدق و الكذب، فقد يقول قائل أتمنى أن يعطينى اللّه مالا وفيرا فأعينك، هذا من باب التمنى بالطبع، و لكن مفهومه هو أنّه إذا أعطانى اللّه مالا وفيرا فانى سوف أساعدك، و هذا مفهوم خبرى يحتمل أن يكون صادقا أو كاذبا، فإذا كنت تعرف بخل المتمنى و ضيق نظرته فأنت تعرف أنّه كاذب حتى إن أعطاه اللّه ما يشاء من المال (هذا الموضوع مشهور كثيرا فى الجمل الإنشائية).

۳- إنّ سبب ذكر الآية أنّهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى تكرار أعمالهم السابقة هو أن كثيرا من الناس عند ما يشاهدون نتائج أعمالهم بأعينهم، أى حينما يصلون إلى مرحلة الشهود، يستنكرون ما فعلوا و يندمون آنيا و يتمنون لو يتاح لهم أن يجبروا ما كسروا، إلّا أنّ هذه تمنيات عارضة تنشأ من مشاهدة نتائج الأعمال عيانا، و تعرض لكل إنسان يشهد بأم عينه ما ينتظره من عذاب و عقاب، و لكن ما أن تغيب تلك المشاهد عن نظره حتى يزول تأثيرها عنه، و يعود إلى سابق عهده.

شأنهم فى ذلك شأن عبدة الأصنام الذين دهمهم طوفان عظيم فى البحر و رأوا أنفسهم على عتبة الهلاك، فنسوا كل شىء سوى اللّه، و لكن ما أن هدأت العاصفة و وصلوا إلى ساحل الأمان حتى عاد كل شىء إلى ما كان عليه ۱۳۹].

۴- ينبغى الالتفات إلى أنّ هذه الحالات تخص جمعا من عبدة الأصنام الذين مرّت الإشارة إليهم فى الآيات السابقة لا كلهم، لذلك كان لا بدّ لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يواصل نصح الآخرين لإيقاظهم و هدايتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۵

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲]

اشارة

وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۲۹) وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۰) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۳۱) وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۳۲)

التّفسير

فى تفسير الآية الأولى احتمالان:

الأوّل: أنّها استئناف لأقوال المشركين المعاندين المتصلبين الذين يتمنون- عند ما يشاهدون أهوال يوم القيامة- أن يعودوا إلى دار الدنيا ليتلافوا ما فاتهم، و لكن القرآن يقول إنّهم إذا رجعوا لا يتجهون إلى جبران ما فاتهم، بل يستمرون على ما كانوا عليه، و أكثر من ذلك فإنّهم يعودون إلى إنكار يوم القيامة وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۱۴۰].

الاحتمال الثّانى: أنّ الآية تشرع بكلام جديد يخصّ نفرا من المشركين ممّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۶

كفروا بالمعاد كليا، فقد كان بين مشركى العرب فريق لا يؤمنون بالمعاد، و فريق آخر يؤمنون بنوع من المعاد.

الآية التّالية تشير إلى مصيرهم يوم القيامة، يوم يقفون بين يدى اللّه: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلى رَبِّهِمْ قالَ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ فيكون جوابهم

أنّهم يقسمون بأنّه الحقّ: قالُوا بَلى وَ رَبِّنا.

عندئذ: قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ لا شك أنّ «الوقوف بين يدى اللّه» لا يعنى إنّ للّه مكانا، بل يعنى الوقوف فى ميدان الحساب للجزاء، كما يقول بعض المفسّرين، أو أنّه من باب المجاز، مثل قول الإنسان عند أداء الصّلاة أنّه يقف بين يدى اللّه و فى حضرته.

الآية التى بعدها فيها، إشارة إلى خسران الذين ينكرون المعاد، فتقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ إنّ المقصود بلقاء اللّه هو- كما قلنا من قبل- اللقاء المعنوى و الإيمان الشهودى (الشهود الباطنى)، أو هو لقاء مشاهد يوم القيامة و الحساب و الجزاء.

ثمّ تبيّن الآية أنّ هذا الإنكار لن يدوم، بل سيستمر حتى قيام يوم القيامة، حين يرون أنفسهم فجأة أمام مشاهده الرهيبة، و يشهدون بأعينهم نتائج أعمالهم، عندئذ ترتفع أصواتهم بالندم على ما قصروا فى حق هذا اليوم: حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها.

و «الساعة» هى يوم القيامة، و «بغتة» تعنى فجأة و على حين غرة، إذ تقوم القيامة دون أن يعلم بموعدها أحد سوى اللّه تعالى، و سبب إطلاق «الساعة» على يوم القيامة إمّا لأنّ حساب الناس يجرى سريعا فيها، أو للإشارة إلى فجائية حدوث ذلك، حيث ينتقل الناس بسرعة خاطفة من عالم البرزخ إلى عالم القيامة.

و «التحسر» هو التأسف على شىء، غير أنّ العرب عند تأثرهم الشديد يخاطبون «الحسرة» فيقولون: «يا حسرتنا»، فكأنّهم يجسدونها أمامهم و يخاطبونها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۷

ثمّ يقول القرآن الكريم وَ هُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ

«الأوزار» جمع «وزر» و هو الحمل الثقيل، و تعنى الأوزار هنا الذنوب، و يمكن أن تتخذ هذه الآية دليلا على تجسد الأعمال، لأنّها تقول إنّهم يحملون ذنوبهم على ظهورهم، و يمكن أيضا أن يكون الاستعمال مجازيا كناية عن ثقل حمل المسؤولية، إذ أنّ المسؤوليات تشبه دائما بالحمل الثقيل.

و فى آخر الآية يقول اللّه تعالى: أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ

فى هذه الآية جرى الكلام على خسران الذين ينكرون المعاد، و الدليل على هذا الخسران واضح، فالإيمان بالمعاد، فضلا عن كونه يعد الإنسان لحياة سعيدة خالدة، و يحثه على تحصيل الكمالات العلمية و العملية، فان له تأثيرا عميقا على وقاية الإنسان من التلوث بالذنوب و الآثام، و هذا ما سوف نتناوله- إن شاء اللّه- عند بحث الإيمان بالمعاد و أثره البناء فى الفرد و المجتمع.

ثمّ لبيان نسبة الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة، يقول اللّه تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ فهؤلاء الذين اكتفوا بهذه الحياة، و لا يطلبون غيرها، هم أشبه بالأطفال الذين يودون أن لو يقضوا العمر كلّه فى اللعب و اللهو غافلين عن كل شىء.

إن تشبيه الحياة الدنيا باللهو و اللعب يستند إلى كون اللهو و اللعب من الممارسات الفارغة السطحية التى لا- ترتبط بأصل الحياة الحقيقية، سواء فاز اللاعب أم خسر، إذ كل شىء يعود إلى حالته الطبيعية بعد اللعب.

و كثيرا ما نلاحظ أنّ الأطفال يتحلقون و يشرعون باللعب، فهذا يكون «أميرا» و ذاك يكون «وزيرا» و آخر «لصا» و رابع يكون «قافلة»، ثمّ لا تمضى ساعة حتى ينتهى اللعب و لا يكون هناك «أمير» و لا «وزير» و لا «لص» و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۸

«قافلة»! أو كما يحدث فى المسرحيات أو التمثيليات، فنشاهد مناظر للحرب أو الحبّ أو العداء تتجسد على المسرح، ثمّ بعد ساعة يتبدد كل شىء.

و الدنيا أشبه بالتمثيلية التى يقوم فيها الناس بتمثيل أدوار الممثلين، و قد تجتذب هذه التمثيلية الصبيانية حتى عقلاءنا و مفكرينا، و لكن

سرعان ما تسدل الستارة و ينتهى التمثيل.

«لعب» على وزن «لزج» من «اللعاب» على وزن «غبار» و هو الماء الـذى يتجمع فى الفم و يسـيل منه، فإطلاق لفظـة «اللعب» على اللهو و التسلية جاء للتشابه بينه و بين اللعاب الذى يسيل دون هدف.

ثمّ تقارن الآية حياة العالم الآخر بهذه الدنيا، فتقول: وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

فتلـك حياة خالـدة لا تفنى فى عالم أوسع و على أرفع، عالم يتعامل مع الحقيقـة لا المجاز و مع الواقع، لا الخيال، عالم لا يشوب نعمه الألم و العذاب، عالم كلّه نعمة خالصة لا ألم فيه و لا عذاب.

و لكن إدراك هـذه الحقائق و تمييزها عن مغريات الدنيا الخداعة غير ممكن لغير المفكرين الذين يعقلون، لذلك اتجهت الآية إليهم بالخطاب فى النهاية.

فى حـديث رواه هشـام بن الحكم عن الامـام موسـى بن جعفر عليه السّـلام قـال: «يا هشام إنّ اللّه وعظ أهل العقل و رغبهم فى الآخرة فقال: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ لَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ۱۴۱].

غنى عن القول أنّ هـدف هـذه الآيات هو محاربـة الانشـداد بمظاهر عالم المادة و نسـيان الغايـة النهائيـة، أمّا الذين جعلوا الدنيا وسـيلة للسعادة فهم يبحثون- فى الحقيقة- عن الآخرة، لا الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۵۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُـكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيـاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۳۳) وَ لَقَـدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (۳۴)

التّفسير

المصلحون يواجهون الصعاب دائما:

لا شك أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى نقاشاته المنطقية و محاوراته الفكرية مع المشـركين المعاندين المتصـلبين، كان يواجه منهم المعانـدة و اللجاجة و التصـلب و التعنت، بل كانوا يرشـقونه بتهمهم، و لذلك كله كان النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يشـعر بـالغم و الحزن، و اللّه تعـالى فى مواضع كـثيرة من القرآن يواسـى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و يصبّره على ذلـك، لكى يواصل مسيرته بقلب أقوى و جأش أربط، كما جاء فى هذه الآية: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فاعلم أنّهم لا ينكرونك أنت، بل هم ينكرون آيات اللّه، و لا يكذبونك بل يكذبون اللّه: فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ

و مثل هـذا القول شائع بيننا، فقـد يرى «رئيس» أنّ «مبعوثه» إلى بعض الناس عاد غاضـبا، فيقول له: «هوّن عليك، فان ما قالوه لك إنّما كان موجها إلىّ، و إذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۰

حصلت مشكلة فأنّا المقصود بها، لا أنت» و بهذا يسعى إلى مواساة صاحبه و التهوين عليه.

ثمّة مفسّـرون يرون للآية تفسيرا آخر، لكن ظاهر الآية هو هذا الذى قلناه، و لكن لا بأس من معرفة هذا الاحتمال القائل بأن معنى الآية

هو: إنّ الـذين يعارضونـك هم فى الحقيقـة مؤمنون بصـدقك و لا يشـكون فى صـحة دعوتك، و لكن الخوف من تعرض مصالحهم للخطر هو الذى يمنعهم من الرضوخ للحق، أو أنّ الذى يحول بينهم و بين التسليم هو التعصب و العناد.

يتبيّن من كتب السيرة أنّ الجاهليين- بما فيهم أشدّ المعارضين للدّعوة- كانوا يعتقدون فى أعماقهم بصدق الدعوة، و من ذلك ما روى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لقى أبا جهل فصافحه أبو جهل، فقيل له فى ذلك، فقال: و اللّه إنى لأعلم أنّه صادق، و لكنا متى كنّا تبعا لعبد مناف! (أى أنّ قبول دعوته سيضطرنا إلى اتباع قبيلته).

و ورد فى كتب السيرة أنّ أبا جهل جاء فى ليلة متخفيا يستمع قراءة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما جاء فى الوقت نفسه أبو سفيان و الأخنس بن شريق، و لا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوا إلى الصباح، فلمّا فضحهم الصبح تفرقوا، فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر ما جاء به، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، لما يخافون من علم شبان قريش بهم لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلمّا كانت الليلة الثّانية جاء كل منهم ظانا أنّ صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود، فلمّا أصبحوا جمعتهم الطريق مرّة ثانية فتلاوموا، ثمّ تعاهدوا أن لا يعودوا، فلمّا كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضا، فلما أصبحوا تعاهدوا أن لا يعودا لمثلها، ثمّ تفرقوا فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: اخبرنى- يا أبا حنظلة- عن رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: يا أبا ثعلبة، و اللّه لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء، ما عرفت معناها و لا ما يراد بها.

قال الأخنس: و أنا و الذى حلفت به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۱

ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

قال: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن و بنو عبد المناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، و حملوا (أى أعطوا الناس ما يركبونه) فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب و كنّا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ و اللّه لا نؤمن به أبدا، و لا نصدقه، فقام عنه الأخنس و تركه.

و روى أنّه التقى أخنس بن شريق، و أبو جهل بن هشام فقال له: يا أبا الحكم، اخبرنى عن محمّد أصادق هو أم كاذب، فإنّه ليس هاهنا أحد غيرى و غيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك و اللّه إنّ محمّدا لصادق و ما كذب قط، و لكن إذا ذهب بنو قصى باللواء و الحجابة و السقاية و الندوة و النّبوة فما ذا يكون لسائر قريش؟![۱۴۲].

يتبيّن من هذه الرّوايات و أمثالها أنّ كثيرا من أعداء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الألداء كانوا فى باطنهم يعترفون بصدق ما يقول، إلّا أنّ التنافس القبلى و ما إلى ذلك، لم يكن يسمح لهم بإعلان ما يعتقدون، أو لم تكن لديهم الشجاعة على ذلك.

إنّنا نعلم أنّ مثل هذا الإعتقاد الباطنى ما لم يصاحبه التسليم، لن يكون له أى أثر، و لا يدخل الإنسان فى زمرة المؤمنين الصادقين.

الآية الثّانية تستأنف مواساة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن له حال من سبقه من الأنبياء، و تؤكّد له أنّ هذا ليس مقتصرا عليه وحده، فالأنبياء قبله نالهم من قومهم مثل ذلك أيضا: وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ

و لكنّهم صبروا و تحملوا حتى انتصروا بعون اللّه: فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا و هذه سنة إلهية لا قدرة لأحد على تغييرها: وَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

و عليه، فلا تجزع و لا تبتئس إذا ما كذبك قومك و آذوك، بل اصبر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۲

معاندة الأعداء و تحمل أذاهم، و اعلم أنّ الإمدادات و الألطاف الإلهية ستنزل بساحتك بموجب هذه السنة، فتنتصر فى النهاية عليهم جميعا، و إنّ ما وصلك من أخبار الأنبياء السابقين عن مواجهتهم الشدائد و المصاعب و عن ثباتهم و صبرهم و انتصارهم فى النهاية، لهو شهادة بيّنة لك: وَ لَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ

تشير هذه الآية- فى الواقع- إلى مبدأ عام هو أنّ قادة المجتمع الصالحين الذين يسعون لهداية الشعوب عن طريق الدعوة إلى مبادئ و تعاليم بناءة، و بمحاربة الأفكار المنحطة و الخرافات السائدة و القوانين المغلوطة فى المجتمع، يواجهون معارضة شديدة من جانب فريق الانتهازيين الذين يرون فى انتشار تلك التعاليم و المبادئ البناءة خطرا يتهدد مصالحهم، فلا يتركون وسيلة إلّا استخدموها لترويج أهدافهم المشؤومة، و لا- يتورعون حتى عن التوسل بالتكذيب و الاتهام، و الحصار الاجتماعى، و الإيذاء و التعذيب، و السلب و النهب، و القتل، و بكل ما يخطر لهم من سلاح لمحاربة أولئك المصلحين.

إلّا أنّ الحقيقة، بما فيها من قوة الجاذبية و العمق، و بموجب السنة الإلهية، تعمل عملها و تزيل من الطريق كل تلك الأشواك، إلّا أنّ شرط هذا الإنتصار هو الصبر و المقاومة و الثبات.

تعبر هذه الآية عن السنن بعبارة «كلمات اللّه»، لأنّ الكلم و الكلام فى الأصل التأثير المدرك بإحدى الحاستين، السمع أو البصر، فالكلام مدرك بحاسة السمع، و الكلم بحاسة البصر، و كلمته: جرحته جراحة بان تأثيرها، ثمّ كان توسع فى إطلاق «الكلمة» على الألفاظ و المعانى و حتى على العقيدة و السلوك و السنة و التعاليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۳۵ الى ۳۶]

اشارة

وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ (۳۵) إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (۳۶)

التّفسير

الأموات المتحركون:

هاتان الآيتان استمرار لمواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى بدأت فى الآيات السابقة لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشعر بالحزن العميق لضلال المشركين و عنادهم، و كان يود لو أنّه استطاع أن يهديهم جميعا إلى طريق الإيمان بأية وسيلة كانت.

فيقول اللّه تعالى: وَ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ[۱۴۳]. أى إذا كان إعراض هؤلاء المشركين يصعب و يثقل عليك، فشق أعماق الأرض أو ضع سلّما يوصلك إلى السماء للبحث عن آية- إن استطعت- و لكن اعلم أنّهم مع ذلك لن يؤمنوا بك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۴

«النفق» فى الأصل «النقب» و هو الطريق النافذ، و السرب فى الأرض النافذ فيها، و منه النفاق، و هو الدخول فى الشرع من باب و الخروج عنه من باب، أى أنّ للمنافق سلوكا ظاهرا و آخر خفيا.

فى هذه الآية يخبر اللّه نبيّه بأن ليس فى تعليماتك و دعوتك و سعيك أى نقص، بل النقص فيهم لأنّهم هم الذين رفضوا قبول الحقّ، لذلك فانّ أى مسعى من جانبك لن يكون له أثر فلا تقلق.

و لكن لكيلا- يظن أحد أنّ اللّه غير قادر على حملهم على التسليم يقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى أى لو أراد حملهم على

الاستسلام و الرضوخ لدعوتك و الإيمان باللّه لكان على ذلك قديرا.

غير أنّ الإيمان الإجبارى لا- طائل تحته، إنّ خلق البشر للتكامل مبنى على أساس حرية الإختيار و الإرادة، ففى حالة حرية الإختيار وحدها يمكن تمييز «المؤمن» من «الكافر»، و «الصالح» من «غير الصالح» و «المخلص» من «الخائن» و «الصادق» من «الكاذب». أمّا فى الإيمان الإجبارى فلن يكن ثمّة اختلاف بين الطيب و الخبيث، و على صعيد الإجبار تفقد كل هذه المفاهيم معانيها تماما.

ثمّ يقول سبحانه لنبيّه: فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ أى لقد قلت هذا لئلا تكون من الجاهلين، أى لا تفقد صبرك و لا تجزع، و لا يأخذك القلق بسبب كفرهم و شركهم.

و ما من شك أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعلم هذه الحقائق و لكن اللّه ذكرها له من باب التطمين و تهدئة الروع، تماما كالذى نقوله نحن لمن فقد ابنه: لا تحزن فالدنيا فانية، سنموت جميعا، و أنت ما تزال شابا و لسوف ترزق بابن آخر، فلا تجزع كثيرا.

فلا ريب أنّ فناء دار الدنيا، أو كون المصاب شابا ليسا مجهولين عنده،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۵

و لكنها أمور تقال للتذكير.

على الرّغم من أنّ هذه الآية من الآيات التى تنفى الإجبار و الإكراه، فإنّ بعض المفسّرين كالرّازى، يعتبرها من الأدلة على «الجبر» و يستند إلى وَ لَوْ شاءَ ... و يقول: يتّضح من هذه الآية أنّ اللّه لا يريد للكفار أن يؤمنوا! و لكنّه غفل عن أنّ الإرادة و المشيئة فى هذه الآية هما الإجباريتان، أى أنّ اللّه لا يريد الناس أن يؤمنوا بالإجبار و الإكراه، بل يريدهم أن يؤمنوا باختيارهم و إرادتهم، و عليه فانّ هذه الآية دليل قاطع يدحض مقوله «الجبريين».

فى الآية التى تليها استكمال لما سبق و مزيد من المواساة للرسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول الآية إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ

أمّا الذين هم فى الواقع أشبه بالأموات فأنّهم لا يؤمنون حتى يبعثهم اللّه يوم القيامة: وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۱۴۴].

يومئذ، و بعد أن يروا مشاهد يوم القيامة يؤمنون، إلّا أنّ إيمانهم ذاك لا ينفعهم شيئا، لأنّ رؤية مناظر يوم القيامة العظيمة تحمّل كل مشاهد على الإيمان فيكون نوعا من الإيمان الاضطرارى.

و من نافلة القول أنّ «الموتى» فى هذه الآية لا- تشير إلى الموت الجسمانى فى الأفراد، بل الموت المعنوى، فالحياة و الموت نوعان: حياة و موت عضويان، و حياة و موت معنويان، كذلك أيضا السمع و البصر، عضويان و معنويان فكثير ما نصف المبصرين السامعين الأحياء الذين لا- يدركون الحقائق بأنّهم عمى أو صم أو حتى أموات، إذ إنّ رد الفعل الذى يصدر عادة من الإنسان الحى البصير السامع إزاء الحقائق لا يصدر من هؤلاء.

أمثال هذه التعبيرات كثيرة فى القرآن، و لها عذوبة، و جاذبية خاصّة، بل إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۶

القرآن لا يعير أهمية كبيرة للحياة المادية البايلوجية التى تتمثل فى «الأكل و النوم و التنفس» و إنّما يعنى أشد العناية بالحياة الإنسانية المعنوية التى تتمثل فى تحمل التكاليف و المسؤولية و الإحساس و اليقظة و الوعى.

لا بدّ من القول أيضا: إنّ المعنوى من العمى و الصمم و الموت ينشأ من ذات الأفراد، لأنّهم- لاستمرارهم فى الإثم و إصرارهم عليه و عنادهم- يصلون إلى تلك الحالة.

إنّ من يغمض عينيه طويلا يصل إلى حالة يفقد فيها تدريجيا قوة البصر، و قد يبلغ به الأمر إلى العمى التام، كذلك الذى يغمض عين روحه عن رؤية الحقائق طويلا يفقد بصيرته المعنوية شيئا فشيئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۷]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۷)

التّفسير

اشارة

تشير هذه الآية إلى واحد من الأعذار التى يتذرع بها المشركون، فقد جاء فى بعض الرّوايات أنّه عند ما عجز بعض رؤساء قريش عن معارضة القرآن و مقابلته، قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كل هذا الذى تقوله لا فائدة فيه، إذا كنت صادقا فيما تقول: فأتنا بمعجزات كعصا موسى و ناقة صالح، يقول القرآن بهذا الشأن:

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

من الواضح أنّ أولئك لم يكونوا جادين فى بحثهم عن الحقيقة، لأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد جاء لهم من المعاجز بما يكفى، و حتى لو لم يأت بمعجز سوى القرآن الذى تحداهم فى عدة آيات منه و دعاهم بصراحة إلى أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك، لكان فيه الكفاية لإثبات نبوته، غير أنّ هؤلاء المزيفين كانوا يبحثون عن عذر يتيح لهم إهانة القرآن من جهة، و التملص من قبول دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة أخرى، لذلك كانوا لا يفتأون يطالبونه بالمعجزات، و لو أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استجاب لمطاليبهم لأنكروا كل ذلك بقولهم هذا سِحْرٌ مُبِينٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۸

كما جاء فى آيات أخرى من القرآن، لذلك يأمر اللّه رسوله أنّ: قُلْ إِنَّ اللَّهَ قادِرٌ عَلى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً إلّا أنّ فى ذلك أمرا أنتم عنه غافلون، و هو أنّه إذا حقق اللّه مطاليبكم التى يدفعكم إليها عنادكم، ثمّ بقيتم على عنادكم و لم تؤمنوا بعد مشاهدتكم للمعاجز، فسوف يقع عقاب اللّه عليكم جميعا، و تفنون عن آخركم، لأنّ ذلك سيكون منتهى الاستهتار بمقام الألوهية المقدس و بمبعوثه و آياته و معجزاته، و لهذا تنتهى الآية بالقول: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

إشكال:

يتبيّن من تفسير «مجمع البيان» أنّ بعض مناوئى الإسلام قد اتّخذوا من هذه الآية- منذ قرون عديدة- دليلا يستندون إليه فى الزعم بأنّه لم تكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أية معجزة، لأنّه كلما طلبوا منه معجزة كان يكتفى بالقول: إنّ اللّه قادر على ذلك، و لكن أكثركم لا تعلمون، و هذا ما نهجه بعض الكتاب المتأخرين فأحيوا هذه الفكرة البالية مرّة أخرى.

الجواب:

أوّلا: يبدو أنّ هؤلاء لم يمعنوا النظر فى الآيات السابقة و التّالية لهذه الآية، و إلّا لأدركوا أنّ الكلام يدور مع المعاندين الذين لا

يستسلمون للحق مطلقا، و إنّ موقف هؤلاء هو الذى منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من إجابة طلبهم، فهل نجد فى القرآن أنّ طلاب الحقيقة سألوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحقق لهم معجزة فامتنع؟ الآية (۱۱۱) من هذه السورة نفسها تتحدث عن أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا.

ثانيا: تفيد الرّوايات أنّ هذا الطلب تقدم به بعض رؤساء قريش، و كان هدفهم من ذلك إهانة القرآن و الإعراض عنه، فمن الطبيعى أن لا يستجيب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۶۹

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لطلب يكون دافعه بهذا الشكل.

ثالثا: إنّ أصحاب هذا الإشكال قد أغفلوا سائر آيات القرآن الأخرى التى تصرّح بأنّ القرآن نفسه معجزة خالدة، و كثيرا ما دعت المخالفين إلى معارضته، و أثبتت ضعفهم و عجزهم عن ذلك، كما أنّهم نسوا الآية الأولى من سورة الإسراء التى تقول بكل وضوح: إنّ اللّه أسرى بنبيّه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى ليلة واحدة.

رابعا: ليس من المعقول أن يكون القرآن مليئا بذكر معاجز الأنبياء و خوارق عاداتهم و يدّعى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّه خاتم الأنبياء و أرفعهم منزلة، و أنّ دينه أكمل من أديانهم ثمّ ينكص عن إظهار معجزة استجابة لطلب الباحثين عن الحقّ و الحقيقة، أ فلا يكون هذا نقطة غامضة فى دعوته فى نظر المحايدين و طلاب الحقيقة؟

فلو لم تكن له أية معجزة، لكان عليه أن يسكت عن ذكر معاجز الأنبياء الآخرين لكى يتمكن من تمرير خطّته و يغلق طريق الاعتراض و الانتقاد عليه، و لكنّه لا يفتأ يتحدث عن إعجاز الآخرين و يعدد خوارق العادات عند موسى بن عمران و عيسى بن مريم و إبراهيم و صالح و نوح عليهم السّلام، و هذا دليل بيّن على ثقته التامّة بمعاجزه، إنّ كتب التّأريخ الإسلامى و الرّوايات المعتبرة و نهج البلاغة تشير بما يشبه التواتر إلى خوارق عادات رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۰

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۳۸]

اشارة

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (۳۸)

التّفسير

لاتساع البحث حول هذه الآية، سنبدأ بشرح ألفاظها، ثمّ نفسّرها بصورة إجمالية، ثمّ نتناول سائر جوانبها بالبحث.

«الدّابة» من «دبّ» و الدبيب المشى الخفيف، و يستعمل ذلك فى الحيوان و الحشرات أكثر، و قد ورد فى الحديث «لا يدخل الجنّة ديبوب» و هو النمام الذى يمشى بين الناس بالنميمة.

«الطائر» كل ذى جناح يسبح فى الهواء، و قد يوصف بها بعض الأمور المعنوية التى تتقدم بسرعة و اندفاع، و الآية تقصد الطائر الذى يطير بجناحيه.

«أمم» جمع أمّة، و هى كل جماعة يجمعهم أمر ما، كالدين الواحد أو الزمان الواحد أو المكان الواحد.

«يحشرون» من «حشر» بمعنى «الجمع»، و المعنى الوارد فى القرآن يقصد به يوم القيامة، و خاصة لأنّه يقول: إِلى رَبِّهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۱

هـذه الآية تستأنف ما جاء فى الآيات السابقة من الكلام مع المشركين و تحذيرهم من مصيرهم يوم القيامة، فتتحدث عن «الحشر» و بعث عام يشمل جميع الكائنات الحية و الحيوانات، فتقول أولا: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ

يتّضح من هذا أنّ فصائل الحيوان و الطيور أمم مثل البشر، غير أنّ للمفسّرين أقوالا مختلفة بشأن وجه الشبه فى هذا التمثيل.

بعض يقول: إنّ التشابه يختص بأسرار خلقتها العجيبة التى تدل على عظمة الخالق سبحانه.

و بعض آخر يرى التشابه فى حاجاتها الحياتية المختلفة و فى طرق سد تلك الحاجات و إشباعها.

و منهم من يعتقد أنّ التشابه كائن فى تشابه الإدراك و الفهم و المشاعر، أى أنّ للحيوان و الطير أيضا- إدراكه و مشاعره فى عالمه الخاص، و يعرف اللّه و يسبح له و يقدسه بحسب طاقته، و إن تكن قوّة إدراكه أدنى ممّا فى الإنسان، ثمّ إنّ ذيل هذه الآية- كما سيأتى بيانه- يؤيد هذا الرأى الأخير.

ثمّ تقول الآية: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ.

لعل المقصود بالكتاب هو القرآن الذى يضم كل شىء (ممّا يتعلق بتربية الإنسان و هدايته و تكامله) يبيّنه مرّة بيانا عاما، كالحث على طلب العلم مطلقا، و مرّة بيانا تفصيليا كالكثير من الأحكام الإسلامية و القضايا الأخلاقية.

ثمّة احتمال آخر يقول: إنّ المقصود بالكتاب هو «عالم الوجود» إذ أنّ عالم الخليقة مثل الكتاب الضخم، يضم كلّ شىء و لا ينسى شيئا.

ليس ثمّة ما يمنع من أن تشمل الآية كلا التّفسيرين، فالقرآن لم يترك شيئا تربويا إلّا و ذكره بين دفتيه، كما أنّ عالم الخليقة يخلو من كل نقص و عوز.

و تختم الآية بالقول: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۲

يظهر أنّ ضمير (هم) يعود إلى الدواب و الطير على اختلاف أنواعها و أصنافها، أى أنّ لها- أيضا بعثا و نشورا، و ثوابا و عقابا، و هذا ما يقول به معظم المفسّرين، إلّا أنّ بعض المفسّرين ينكرون هذا، و يفسّرون هذه الآية و الآيات المشابهة تفسيرا آخر، كقولهم: إنّ معنى «الحشر إلى اللّه» هو الموت و الرجوع إلى نهاية الحياة[۱۴۵].

ظاهر الآية يشير- كما قلنا- إلى البعث و الحشر يوم القيامة.

من هنا تنذر الآية المشركين و تقول لهم: إنّ اللّه الذى خلق جميع الحيوانات و وفر لها ما تحتاجه، و رعى كل أفعالها، و جعل لها حشرا و نشورا، قد أوجد لكم دون شك بعثا و قيامة، و ليس الأمر كما تقول تلك الفئة من المشركين من أنّه ليس ثمّة شىء سوى الحياة الدنيا و الممات.

ملاحظات:

۱- هل هناك بعث للحيوانات؟

ما من شك أنّ الشّرط الاوّل للمحاسبة و الجزاء هو «العقل و الإدراك» و يستتبعهما (التكليف و المسؤولية).

يقول أصحاب هذا الرأى: إنّ لديهم ما يثبت أن للحيوانات إدراكا و فهما بمقدار ما تطيق، و من ذلك أن حياة كثير من الحيوانات تجرى وفق نظام دقيق و مثير للعجب، و يدلّ على ارتفاع مستوى إدراكها و فهمها، فمن ذا الذى لم يسمع بالنمل و النحل و تمدّنها العجيب و نظامها المحير فى بناء بيوتها و خلاياها، و لم يستحسن فهمها و إدراكها؟ فعلى الرغم من أنّ بعضهم يعزوا ذلك كله إلى

نوع من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۳

الإلهام الغریزی، فلیس ثمّة دلیل علی أنّ هذه الأعمال تجری بصورة غریزیة لا عقلیة.

ما الدلیل علی أنّ هذه الأعمال- حسبما یدل ظاهرها- لیست ناشئة عن تعقل و إدراک؟ کثیرا ما یحدث أنّ الحیوان یبتکر- استجابة لظرف من الظروف- شیئا لم یسبق له أن مرّ به و جربه، فالشاة التی لم یسبق لها أن رأت ذئبا فی حیاتها تفرغ منه أوّل ما تراه و تدرک خطره علیها، و تتوسل بکل حیلة لدرء خطره عنها.

إن العلاقة التی تتکون بین الحیوان و صاحبه تدریجیا دلیل آخر علی هذا الأمر، فکثیر من الکلاب المفترسة الخطرة تعامل أصحابها- بل و حتی أطفالهم- کما یعاملهم الخادم العطوف.

و یحکی الکثیر عن وفاء الحیوانات و عن تقدیمها کثیرا من الخدمات الإنسانیة و لا شک أنّ هذه أمور لیس من السهل اعتبارها ناشئة بدافع الغریزة، إذ إنّ الغریزة تنشأ عنها أعمال رتیبة من طراز واحد باستمرار، أمّا الأعمال التی تقع فی ظروف خاصّة کردود فعل لحوادث طارئة غیر متوقعة، فهذه تکون إلی التعقل و الإدراک أقرب منها إلی الغریزة.

نشاهد الیوم أنّ حیوانات مختلفة یجری تدریبها لأغراض متنوعة، فالکلاب البولیسیة تدرب للقبض علی المجرمین، و الحمام الزاجل لنقل الرسائل، و حیوانات أخری ترسل لابتیاع بعض الحوائج من السوق، و حیوانات أخری للصید، و هی کلها تؤدی مهماتها بکل دقة و إتقان (حتی أنّهم افتتحوا مؤخرا مدارس خاصّة لتعلیم مختلف الحیوانات)! فضلا عن ذلک کلّه، فإنّ هناک بعض الآیات التی تدل- بوضوح- علی أنّ للحیوانات فهما و إدراکا، من ذلک حکایة هروب النمل من أمام جیش سلیمان، و حکایة ذهاب الهدهد إلی منطقة سبأ بالیمن و رجوعه بأخبار مثیرة لسلیمان.

ثمّة أحادیث إسلامیة کثیرة حول بعث الحیوانات، من ذلک ما

روی عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۴

أبی ذر قال: بیّنا أنا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذ انتطحت عنزان، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «أ تدرون فیما انتطحتا؟» فقالوا: لا ندری، قال: «و لکن اللّه یدری و سیقضی بینهما»[۱۴۶].

و

فی روایة بطرق أهل السنة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «إنّه یحشر هذه الأمم یوم القیامة و یقتص من بعضها لبعض حتی یقتص للجماء من القرناء»[۱۴۷].

و فی الآیة (۵) من سورة التکویر یقول سبحانه: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ و هی دلیل آخر علی ذلک.

۲- الحشر و التکلیف:

تطرح هنا مسألة یتوقف فهم الآیة علیها، و هی هل أن مقولة تکلیف الحیوانات معقولة، مع أنّ من شروط التکلیف العقل، و لهذا لا یکون الطفل و المجنون مکلّفین؟ فهل للحیوانات ذلک العقل الذی یؤهلها للتکلیف؟ و هل یمکن أن نعتبر الحیوان أکثر عقلا و إدراکا من الصبی غیر البالغ و من الجنون؟ فإذا لم یکن له مثل هذا العقل و الإدراک، فکیف یجوز أن یکلّف، و بأی تکلیف؟

للجواب علی هذه السؤال نقول: إنّ للتکلیف مراحل و درجات، و کل مرحلة تناسب درجة معینة من العقل و الإدراک، و انّ التکالیف الکثیرة المفروضة فی القوانین الإسلامیة علی الإنسان تتطلب مستوی رفیعا من العقل و الإدراک لإنجازها، و لا یمکن أن نفرض مثل

تلک التکالیف علی الحیوانات طبعا، لأنّ الشرط المطلوب لإنجازها غیر متوفر فی الحیوانات، إلّا أنّ مرحلة من التکالیف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۵

البسیطة التی یکفی لها ما یناسبها من الفهم و الإدراک یمکن تصورها و قبولها فی الحیوان و لا یمکن إنکارها، بل من الصعب أن نرفض کل تکلیف بشأن الأطفال و المجانین القادرین علی فهم بعض المسائل، فالصبی الذی لم یبلغ سن الرشد- کأن یکون عمره ۱۴- سنة مثلا- لو ارتکب جریمة قتل، و هو عالم بکل أضرار هذا العمل، فلا یمکن اعتباره بریئا، و القوانین الجزائیة فی العالم تضع عقوبات علی بعض جرائم الأطفال غیر البالغین، و إن کانت العقوبات أخف طبعا.

و علیه، فإنّ البلوغ و اکتمال العقل من شروط التکلیف فی المراحل العلیا المتکاملة، أمّا فی المراحل الأدنی، أی فی الذنوب التی لا یخفی قبحها حتی علی من هم أدنی مرتبة، فان البلوغ و التکامل العقلی لیسا شرطا لازما.

فإذا أخذنا اختلاف مراحل التکلیف و اختلاف مراتب العقل بنظر الاعتبار، یمکن حل قضیة الحیوانات أیضا بهذا الشأن.

۳- هل تدل هذه الآیة علی التناسخ؟

من العجیب أن بعض مؤیدی فکرة «التناسخ» الخرافیة یتخذون من هذه الآیة دلیلا علی صحة فکرتهم، و یقولون: یفهم من الآیة أنّ الحیوانات أمم مثلکم، مع أنّنا نعلم أنّها ذاتیا لیست مثلنا، فیمکن إذن القول بأن أرواح البشر التی تفارق أبدانها تحل فی أبدان الحیوانات، و بهذا الشکل تنال الأرواح المذنبة العقاب.

و لکن علی الرغم من أنّ فکرة التناسخ تناقض «قانون التکامل» و لا تتفق مع منطق العقل، و تستوجب إنکار «المعاد» (کما سبق شرحه فی موضعه)، فإنّ هذه الآیة لا تدل علی التناسخ مطلقا، إذ إنّ المجتمعات الحیوانیة- کما قلنا- تشبه المجتمعات البشریة، و هو شبه بالفعل لا بالقوّة، لأن للحیوانات نصیبها من الفهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۶

و الإدراک، و نصیبها من المسؤولیة أیضا، و من ثمّ نصیبها من البعث و الحساب، أنّها تشبه الإنسان فی هذه الحالات.

ینبغی أن نعرف أنّ التکالیف و المسؤولیات الملقاة علی الحیوانات فی مرحلة خاصّة لا تعنی أنّ لها إماما و قائدا و شریعة و دینا کما ذهب إلیه بعض أصحاب التصوف، فهی لا یقودها سوی إدراکها الباطنی، أی أنّها تدرک بعض الأمور، فتکون مسئولة عنها بقدر إدراکها لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۷

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۳۹]

اشارة

وَ الَّذِینَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا صُمٌّ وَ بُکْمٌ فِی الظُّلُماتِ مَنْ یَشَإِ اللَّهُ یُضْلِلْهُ وَ مَنْ یَشَأْ یَجْعَلْهُ عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۳۹)

التّفسیر

الصّم و البکم:

مرّة أخرى يعود القرآن ليتطرق إلى المنكرين المعانـدين، فيقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا صُمٌّ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُماتِ فهم لا يملكون آذانا صاغيـة لكى يسـتمعوا إلى الحقـائق، و لاـ ألسـنا ناطقـة بالحقّ توصل إلى الآخرين ما يـدركه الإنسان من الحقائق، و لمّا كانت ظلمات الأنانية و عباده الذات و المعاندة و الجهل تحيط بهم من كل جانب، فهم لا يسـتطيعون رؤية وجه الحقيقة، و لذلك فهم محرومون من النعم الثلاث التى تربط الإنسان بالعالم الخارجى (أى السمع و البصر و النطق).

يرى بعض المفسّـرين أنّ المقصود بـالصمّ هم المقلّـدون الـذين يتبعون قـادتهم الضـالين دون اعـتراض، و يصـمون آذانهم عن سـماع دعـوات الهـداة الإـلهيين، و إنّ المقصـود بـالبكم هـم أولئـك القـادة الضـالون الـذين يـدركون الحقـائق جيـدا، و لكنّهم حفاظـا على مصالحهم و مراكزهم الدنيوية- يكمون أفواههم، و لا ينطقون بالحقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۸

فكلا الفريقين غريقان فى ظلمات الجهل و عبادة الذات ۱۴۸].

و بعد ذلك يقول القرآن الكريم: مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَ مَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

سبق أن قلنا إنّ نسبة الهداية و الضلالة إلى مشيئة اللّه و إرادته نسبة تفسرها آيات أخرى فى القرآن يقول سبحانه: يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ و يقول: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و فى موضع آخر يقول: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا يتّضح من هذه الآيات و غيرها من الآيات القرآنية أنّ الهداية و الضـلالة اللتين تنسبان فى هذه الحالات إلى مشيئة اللّه إنّما هما فى الحقيقة ثواب اللّه و عقابه لعباده على أفعالهم الحسنة أو السيئة.

و بعبارة أخرى: قـد يرتكب الإنسان أحيانا إثما كبيرا يؤدى به إلى أن يحيط بروحه ظلام مخيف، فتفقد عينه القدرة على رؤية الحقّ، و تفقد أذنه القدرة على سماع صوت الحقّ، و يفقد لسانه القدرة على قول الحقّ.

و قـد يكون الأـمر على عكس ذلـك، أى قـد يعمـل الإنسان أعمالا صالحات كثيرة بحيث أن عالما من النّور و الضوء يشع فى روحه، فيتسع بصـره و بصـيرته، و تزداد أفكاره إشـعاعا، و يكون لسانه ابلغ فى إعلان الحقّ، ذلكم هو مفهوم الهداية و الضـلالة اللتين تنسـبان إلى إرادة اللّه و مشيئته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۷۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۰ الى ۴۱]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۰) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ (۴۱)

التّفسير

التّوحيد الفطرى:

يعود الكلام مرّة أخرى إلى المشـركين، و يـدور الاسـتدلال حول وحدانيّـة اللّه و عبادة الواحـد الأحـد عن طريق تـذكيرهم باللحظات الحرجة و المؤلمة التى تمر بهم فى الحياة، و يستشـهد بضـمائرهم، فهم فى مثل تلك المواقف ينسون كل شـىء، و لا يجدون غير اللّه ملجأ لهم.

يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن: قُلْ أ رَأَيْتَكَمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكَمُ السَّاعَةُ أ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۱۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۰

الحالة النفسية التى تصوّرها هذه الآية لا تنحصر فى المشركين، بل فى كل إنسان حين يتعرّض إلى الشدة و حوادث الخطر و قد لا يلجأ الإنسان فى الحوادث الصغيرة و المألوفة إلى اللّه، إلّا أنّه فى الحوادث الرهيبة و المخيفة ينسى كل شىء و إن ظل فى أعماقه يحس بأمل فى النجاة ينبع من الإيمان بوجود قوة غامضة خفية، و هذا هو التوجه إلى اللّه و حقيقة التوحيد.

حتى المشركون و عبدة الأصنام لا يخطر لهم التوسل بأصنامهم، بل ينسونها فى مثل هذه الظروف تماما، فتقول الآية: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ وَ تَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ

بحوث

هنا يحسن الالتفات إلى النقاط التّالية:

۱- إنّ الاستدلال المطروح فى هاتين الآيتين هو الاستدلال على التوحيد الفطرى الذى يمكن الاستفادة منه فى مبحثين: الأوّل: فى إثبات وجود اللّه، و الثّانى: فى إثبات وحدانيته، لذلك استشهدت الرّوايات الإسلامية و العلماء المسلمون بهاتين الآيتين للرد على منكرى وجود اللّه، و كذلك للردّ على المشركين.

۲- من الملاحظ أنّ الاستدلال المذكور تطرق إلى (قيام الساعة)، و قد يقال:

إنّ المخاطبين لا يؤمنون بالقيامة أصلا، فكيف يمكن طرح مثل هذا الاستدلال أمام هؤلاء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۱

نقول أوّلا: إنّ هؤلاء لم يكونوا جميعا ينكرون يوم القيامة، فقد كان فريق منهم يؤمنون بنوع من البعث.

و ثانيا: قد يكون المعنى بالساعة هى ساعة الموت، أو الساعة الرهيبة التى تنزل فيها على الإنسان مصيبة تضعه على شفا الهلاك.

و ثالثا: قد يكون هذا تعبيرا مجازيا عن الحوادث المخيفة، فالقرآن يكرر القول بأنّ يوم القيامة يقترن بسلسلة من الحوادث المروعة، كالزلازل و العواصف و الصواعق و أمثالها.

۳- إنّنا نعلم أنّ يوم القيامة و ما يصحبه من وقائع و أمور حتمية الوقوع، و لا يمكن تغييرها إطلاقا، فكيف تقول الآية: بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شاءَ؟ فهل القصد هو إظهار قدرة اللّه، أم أنّ هناك قصد آخر؟

فى جواب هذا السؤال نقول: لا يعنى هذا أنّ اللّه سوف يلغى بالدعاء البعث و قيام الساعة أصلا، بل الآية تقصد القول بأنّ المشركين- و حتى غير المشركين عند مشاهدتهم الحوادث الرهيبة عند قيام الساعة و بالأهوال و العذاب الذى ينتظرهم، يستولى عليهم الفزع و الجزع، فيدعون اللّه ليخفف عنهم تلك الأهوال، و ينجيهم من تلك الأخطار، فدعاؤهم يكون لنجاتهم من أهوال يوم القيامة الرهيبة، لا للإلغاء ذلك اليوم من الأساس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۲

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۲ الى ۴۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (۴۲) فَلَوْ لا إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۴۳) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً

فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ (۴۴) فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۵)

التّفسير

مصير الذين لا يعتبرون:

تواصل هذه الآيات توجيه الكلام للضّالين و المشركين، و يتخذ القرآن فيها طريقا آخر لإيقاظهم و ذلك بأن ينقلهم إلى القرون السالفة و الأزمان الماضية، يشرح لهم حال الأمم الضالة و الظالمة و المشركة، و يبيّن لهم كيف أتيح لها جميع عوامل التربية و التهذيب و الوعى، غير أنّ جمعا منهم لم يلقوا بالا إلى أى من تلك العوامل، و لم يعتبروا بما حاق بهم من (بأساء) و (ضراء)[۱۵۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۳

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْناهُمْ بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ

أما كان من الأجدر بهؤلاء أن يستيقظوا عند ما جاءهم البأس و أحاطت بهم الشدائد؟! فَلَوْ لا- إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا تَضَرَّعُوا أنّهم لم يستيقظوا، و لذلك سببان:

الأوّل: إنّهم لكثرة آثامهم و عنادهم فى الشرك زايلت الرحمة قلوبهم و الليونة أرواحهم: وَ لكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ

و الثّانى: إنّ الشيطان قد استغل عبادتهم أهواءهم فزيّن فى نظرهم أعمالهم، فكل قبيح ارتكبوه أظهره لهم جميلا، و لكل خطأ فعلوه جعله فى عيونهم صوابا:

وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

ثمّ تذكر الآية الثّانية أنّه لمّا لم تنفع معهم تلك المصائب و المشاكل و الضغوط عاملهم اللّه تعالى بالعطف و الرحمة، ففتح عليهم أبواب أنواع النعم، لعلهم يستيقظون و يلتفتون إلى خالقهم الذى وهب لهم كل تلك النعم، و يشخصوا الطريق السوى: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ.

إلّا أنّ هذه النعم كانت فى الواقع ذات طابع مزدوج، فهى مظهر من مظاهر المحبّة التى تستهدف إيقاظ النائمين، و هى كذلك مقدمة لنزول العذاب الأليم إذا استمرت الغفلة، و الذى ينغمس فى النعمة و الرفاهية، يشتد عليه الأمر حين تؤخذ منه هذه النعم فجأة، بينما لو أخذت منه بالتدريج، فلا يكون وقع ذلك عليه شديدا، و لهذا يقول إنّنا أعطيناهم الكثير من النعم حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ ۱۵۱].

و هكذا استؤصلت جذور أولئك الظلمة و انقطع نسلهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۴

فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا.

و «الدابر» بمعنى المتأخر و التابع.

و لما كان اللّه قد وفر لهؤلاء كل وسائل التربية و لم يبخل عليهم بأى شىء منها، لذلك فانّ الحمد يختص باللّه الذى يربى أهل الدنيا كافة وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

ملاحظات:

لا بدّ هنا من التنبه إلى بضع نقاط:

۱- قد يبدو لبعضهم أنّ هذه الآيات تتعارض مع الآيات السابقة، فقد بيّنت الآيات السابقة أنّ المشركين إذا هاجمتهم المصاعب و الشدائد يتوجهون إلى اللّه و ينسون كل ما عداه، و لكن هذه الآيات تقول: إنّ هؤلاء لا يستيقظون حتى بعد تعرضهم للمنغصات الشديدة.

هذا التباين الظاهرى يزول إذا انتبهنا إلى النقطة التّالية، و هى أنّ اليقظة الخاطفة المؤقتة عند ظهور الشدائد لا تعتبر يقظة حقيقية، لأنّهم سرعان ما يعودون إلى الغفلة السابقة.

فى الآيات السابقة كان الكلام عن التوحيد الفطرى، فكان التيقظ و التوجه العابر و نسيان كل شىء سوى اللّه فى تلك اللحظات الحساسة ما يكفى لإثبات ذلك، أمّا فى هذه الآيات فالكلام يدور عن الاهتداء و الرجوع عن الضلال إلى الطريق المستقيم، لذلك فانّ اليقظة العابرة المؤقتة لا تنفع شيئا.

قد يتصور أنّ الاختلاف بين الموضعين هو أنّ الآيات السابقة تشير إلى المشركين الذين عاصروا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الآيات التى بعدها تشير إلى الأقوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۵

السابقين، و لذلك لا تعارض بينهما[۱۵۲].

و لكن من المستبعد جدّا أن يكون المشركون المعاندون المعاصرون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خيرا من الضالين السابقين، و عليه فلا حلّ للإشكال إلّا بما قلناه.

۲- نقرأ فى هذه الآيات أنّه عند ما لم يكن لابتلائهم بالشدائد تأثير فى توعيتهم، فإنّ اللّه يفتح أبواب الخيرات على أمثال هؤلاء الآثمين، فهل هذا ترغيب بعد المعاقبة، أم هو مقدمة لعقاب أليم؟ أى: هل هذه النعم نعم استدراجية، تغمر المتمرد تدريجيا بالرفاهية و التنعم و السرور ... تغمره بنوع من الغفلة، ثمّ ينتزع منه كل شىء دفعة واحدة؟

ثمّة قرائن فى الآية تؤيد الاحتمال الثّانى، و لكن ليس هناك ما يمنع من قبول الاحتمالين، أى أنّه ترغيب و تحريض على الاستيقاظ، فإن لم يؤثر، فمقدمة لسلب النعمة و من ثمّ إنزال العذاب الأليم.

جاء فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إذا رأيت اللّه يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنّما هو استدراج) ثمّ تلى الآية فَلَمَّا نَسُوا ...[۱۵۳].

و

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «يا ابن آدم، إذا رأيت ربّك سبحانه يتابع عليك نعمه و أنت تعصيه فاحذره»[۱۵۴].

و

فى كتاب (تلخيص الأقوال) عن الإمام الحسن العسكرى عليه السّلام قال: «إنّ قنبر مولى أمير المؤمنين على عليه السّلام أدخل على الحجاج، فقال: ما الذى كنت تلى من على بن أبى طالب؟ قال: كنت أوضيه، فقال له: ماذا يقول إذا فرغ من وضوئه؟ فقال: كان يتلو هذه الآية: فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ، فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۶

فقال الحجاج: أظنّه كان يتأولها علينا؟! قال: نعم»[۱۵۵].

۳- يتّضح من هذه الآيات أنّ هدف الكثير من الحوادث المؤلمة هو الإيقاظ و التوعية، و هذا جانب من فلسفة «المصائب و الآفات»

التى تحدثنا بشأنها فى بحث التوحيد، و لكن الملفت للنظر هو أنّه يبدأ الموضوع بكلمة «لعل»، و ذلك لأنّ نزول البلاء وحده لا يكفى للإيقاظ، بل هو تمهيد للقلوب المستعدة (سبق أن قلنا أنّ «لعل» فى كلام اللّه تستعمل حيثما تكون هناك شروط أخرى).

هنالك أيضا كلمة «تضرع» التى تعنى أصلا نزول اللبن فى الثدى و استسلامه للرضيع، ثمّ انتقل المعنى إلى الاستسلام مع الخضوع و التواضع، أى أنّ تلك الحوادث الشديدة تهدف إلى إنزالهم عن مطية الغرور و التمرد و الأنانية، و الاستسلام للّه.

۴- ممّا يلفت النظر اختتام الآية بقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ و هذا دليل على أنّ استئصال جذور الظلم و الفساد و القضاء على شأفة الذين يمكن أن يواصلوا هذا الأمر من الأهمية بحيث يستوجب الحمد للّه.

فى حديث ينقله فضيل بن عياض عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «من أحبّ بقاء الظالمين فقد أحبّ أن يعصى اللّه، إنّ اللّه تبارك و تعالى حمد بنفسه بهلاك الظلمة فقال: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (۴۶) قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (۴۷) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۴۸) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۴۹)

التّفسير

اعرفوا واهب النعم!

الخطاب ما يزال موجها إلى المشركين.

فى هذه الآيات حثّ استدلالى على إيقاظهم ببيان آخر يعتمد غريزة دفع الضرر، فيبدأ بالقول: إنّه إذا سلب منكم اللّه النعم الثمينة التى وهبها لكم، مثل السمع و البصر، و أغلق على قلوبكم أبواب التمييز بين الحسن و السىء، و الحقّ الباطل، فمن يا ترى يستطيع أن يعيد إليكم تلك النعم؟ قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۸

سَمْعَكُمْ وَ أَبْصارَكُمْ وَ خَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ

فى الواقع، كان المشركون أنفسهم يعتقدون أنّ الخالق و الرازق هو اللّه، و كانوا يعبدون الأصنام للاستشفاع بها عند اللّه.

و القرآن يحثّهم على الاتجاه المباشر نحو اللّه مصدر كل الخيرات و البركات بدل الاتجاه إلى أصنام لا قيمة لها.

و إضافة إلى ما كان يحمله عبدة الأصنام من اعتقاد باللّه، فإنّ القرآن استجوب عقولهم هنا لإبداء رأيها و حكمها فى أمر أصنام لا تملك هى نفسها عينا و لا أذنا و لا عقلا و لا شعورا، فهل يمكنها أن تهب أمثال هذه النعم للآخرين؟! ثمّ تقول الآية: انظر إلى هؤلاء الذين نشرح لهم الآيات و الدلائل بمختلف الوسائل، و لكنّهم مع ذلك يعرضون عنها: انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ

و فيما يتعلق بمعنى «ختم» و سبب ورود «سمع» بصيغة المفرد، و «أبصار» بصيغة الجمع فى القرآن راجع المجلد الاوّل من هذا التّفسير، (۹۲).

«نصرف» من «التصريف» بمعنى «التغيير»، و الكلمة هنا تشير إلى مختلف الاستدلالات فى صور متنوعة.

و «يصدفون» من «صدف» بمعنى «الجانب» و «الناحية» أى أنّ المعرض عن شىء يدير وجهه إلى جانب أو ناحية أخرى.

و هذه الكلمة تستعمل بمعنى الإعراض أيضا، و لكنه «الإعراض الشديد» كما يقول الراغب الأصفهانى.

تشير الآية الثّانية، بعد ذكر هذه النعم الثلاث «العين و الأذن و الإدراك» التى هى منبع جميع نعم الدنيا و الآخرة- إلى إمكان سلب هذه النعم كلها دفعة واحدة، فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۸۹

الظَّالِمُونَ ۱۵۶].

«بغتة» بمعنى «فجأة» و «جهرة» بمعنى «الظاهر» و العلانية، و المألوف استعمال «سرّا» فى مقابل «جهرة» لا «بغتة»، و لكن لما كانت مقدمات العمل المباغت خافية غالبا، إذ لو لا خفاؤه لما كان مباغتا، فإن فى «بغتة» يكمن معنى الخفاء و السرية أيضا.

و القصد هو أنّ القادر على إنزال مختلف العقوبات، و سلب مختلف النعم هو اللّه وحده، و إنّ الأصنام لا دور لها فى هذا أبدا، لذلك ليس ثمّة ما يدعو إلى اللجوء إليها، لكن اللّه لحكمته و رحمته لا يعاقب إلّا الظالمين.

و من هذا يستفاد أنّ للظلم معنى واسعا يشمل أنواع الشرك و الذنوب، بل إنّ القرآن يعتبر الشرك ظلما عظيما، كما قال لقمان لابنه: لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۱۵۷].

الآية الثالثة تشير إلى مركز الأنبياء، فتقول: ليست الأصنام العديمة الروح هى وحدها العاجزة عن القيام بأى أمر، فإن الأنبياء العظام و القادة الإلهيين أيضا لا عمل لهم سوى إبلاغ الرسالة و الإنذار و التبشير، فكل ما هنالك من نعم إنّما هى من اللّه و بأمره، و أنّهم إن أرادوا شيئا طلبوه من اللّه: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ

و الاحتمال الآخر فى ربط هذه الآية بالآيات السابقة هو أنّ تلك الآيات كانت تتكلم عن البشارة و الإنذار، و هنا يدور القول على أنّ هذا هو هدف بعثة الأنبياء، فهم مبشرون و منذرون.

ثمّ تقول: إنّ طريق النجاة ينحصر فى أمرين، فالذين يؤمنون و يصلحون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۰

أنفسهم و يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ فلا خوف عليهم من العقاب الإلهى، و لا حزن على أعمالهم السابقة. فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

أمّا أولئك الذين لا يصدقون بآياتنا، بل يكذبون بها فإنّ عقابهم على فسقهم و عصيانهم عذاب من اللّه: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

من الجدير بالانتباه أنّ الآية ذكرت عقاب الذين يكذبون بآيات اللّه بعبارة يَمَسُّهُمُ الْعَذابُ فكأنّ هذا العقاب يطاردهم فى كل مكان حتى يشملهم بأشد ما يكون من العذاب.

كذلك ينبغى القول أنّ لكلمة «فسق» معنى واسعا أيضا، يشمل كل أنواع العصيان و الخروج عن طاعة اللّه و عبوديته و حتى الكفر فى بعض الأحيان، و هذا المعنى هو المقصود فى هذه الآية، لذلك لا محل للبحوث التى عقدها الفخر الرازى و مفسّرون آخرون بشأن معنى «الفسق» و شمولها الذنوب، و من ثمّ الدفاع عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۱

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۰]

اشارة

قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ (۵۰)

التّفسير

معرفة الغيب:

هذه الآية استمرار للردّ على اعتراضات الكفار و المشركين المختلفة، و الرد يشمل ثلاثة أقسام من تلك الاعتراضات فى جمل قصيرة:

الأوّل: هو أنّهم كانوا يريدون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القيام بمعجزات عجيبة و غريبة، و كان كل واحد يتقدم باقتراح حسب رغبته، بل إنّهم لم يكونوا يقنعون بمشاهدة معجزات طلبها آخرون، فمرّة كانوا يطلبون بيوتا من ذهب، و مرّة يريدون هبوط الملائكة، و مرّة يريدون أن تتحول أرض مكّة القاحلة المحرقة إلى بستان ملىء بالمياه و الفواكه و غير ذلك ممّا كانوا يطلبونه من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ممّا سيأتى شرحه فى تفسير الآية (۹۰) من سورة الإسراء.

و لعلهم بطلباتهم الغريبة تلك كانوا يتوقعون أن يروا للنبى مقام الألوهية و امتلاك الأرض و السماء، فللردّ على هؤلاء يأتى الأمر من اللّه: قُلْ لا أَقُولُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۲

لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ

«الخزائن» جمع الخزينة، بمعنى المكان الذى تخزن فيه الأشياء التى يراد حفظها و إخفاؤها عن الآخرين، و استنادا إلى الآية: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۱۵۸] يتّضح أنّ «خزائن اللّه» تشمل مصدر و منبع جميع الأشياء، و هى فى الحقيقة تستقى من ذات اللّه اللامتناهية منبع جميع الكمالات و القدرات.

ثمّ تردّ الآية على الّذين كانوا يريدون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يكشف لهم عن جميع أسرار المستقبل، بل و يطلعهم على ما ينتظرهم من حوادث لكى يدفعوا الضرر و يستجلبوا النفع، فتقول: وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ

سبق أن قلنا إنّه لا يكون أحد مطلعا على كل شىء إلّا إذا كان حاضرا و شاهدا فى كل مكان و زمان، و هو اللّه وحده، أمّا الذى يكون وجوده محددا بمكان و زمان معينين فلا يمكن بالطبع أن يطلع على كل شىء، و لكن ما من شىء يحول دون أن يمنح اللّه جزءا من عمله هذا إلى الأنبياء و القادة الإلهيين لإكمال مسيرة القيادة، حسبما يراه من مصلحة، و هذا بالطبع لا يكون علما بالغيب بالذات، بل هو «علم بالغيب بالعرض» أى أنّه تعلم من عالم الغيب.

هنالك آيات عديدة فى القرآن تدل على أنّ اللّه لا يظهر علمه هذا للأنبياء و القادة الإلهيين وحدهم، بل قد يظهره لغيرهم أيضا، ففى الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن نقرأ: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

لا شك أنّ مقام القيادة، و خاصة القيادة العالمية العامة، يتطلب الاطلاع على كثير من المسائل الخافية على عامّة الناس، فإذا لم يطلع اللّه مبعوثيه و أولياءه على علمه، فإنّ مراكزهم القيادية لن تكون كاملة (تأمل بدقّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۳

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّنا نلاحظ أنّ بعض الكائنات الحيّة لا بدّ لها أن تعلم الغيب للمحافظة على حياتها، فيهبها اللّه ما تحتاجه من علم، فنحن- مثلا- قد سمعنا عن بعض الحشرات التى تتنبأ فى الصيف بما سيكون عليه الجو فى الشتاء، أى أنّ اللّه قد وهبها هذا العلم بالغيب، لأنّ حياتها ستتعرض لخطر الفناء دون هذه المعرفة، و سوف نفصل هذه الموضوع أكثر إن شاء اللّه عند تفسير الآية (۱۸۸) من

سورة الأعراف.

فى الجملة الثّالثة ردّ على الذين كانوا يتصورون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ملكا، أو أن يصاحبه ملك، و ان لا يتصف بما يتصف به البشر من تناول الطعام و السير فى الطرقات، و غير ذلك، فقال: وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَىَ

يتّضح من هذه الآية بجلاء أن كل ما عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من علم، و كل ما فعله كان بوحى من السماء، و إنّه لم يكن يفعل شيئا باجتهاده و لا- بالعمل بالقياس و لا بأى شىء آخر كما يرى بعض- و إنّما كان يتبع الوحى فى كل أمر من أمور الدين.

و فى الختام يؤمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ يقول لهم: هل يمكن للذين يغمضون أعينهم و يغلقون عقولهم فلا يفكرون أن ينظر إليهم على قدم المساواة مع الذين يرون الحقائق جيدا و يتفهمونها؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَ فَلا تَتَفَكَّرُونَ

إنّ ذكر هذه الجملة فى أعقاب الجملات الثلاث السابقة قد يكون لأنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبق أن قال: لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ و وَ لا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ و لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ بل إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَىَ و لكن هذا كلّه لا يعنى إنّنى مثلكم، أيّها المشركون، بل أنا إنسان بصير بالواقع بينما المشرك أشبه بالأعمى، فهل يستويان؟

ثمّة احتمال آخر لربط هذه الجمل، و هو أن الأدلة و البراهين على التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۴

و على صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم واضحة جلية، و لكنّها تتطلب عينا بصيرة لكى تراها، فإذا كنتم لا تقبلونها فليس لأنها أدلة غامضة معقدة، بل لكونكم تفتقرون إلى العين البصيرة، فهل يستوى الأعمى و البصير؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۵

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۵۱]

اشارة

وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۵۱)

التّفسير

فى ختام الآية السابقة ذكر سبحانه عدم استواء الأعمى بالبصير، و فى هذه الآية يأمر نبيّه أن ينذر الذين يخشون يوم القيامة وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلى رَبِّهِمْ أى أن هؤلاء لهم هذا القدر من البصيرة بحيث يحتملون وجود حساب و جزاء، و فى ضوء هذا الاحتمال و الخوف من المسؤولية تتولّد فيهم القابلية على التلقّى و القبول.

سبق أن قلنا: إنّ وجود القائد المؤهل و البرنامج التربوى الشامل لا يكفيان وحدهما لهداية الناس، بل ينبغى أن يكون لدى هؤلاء الناس الاستعداد لتقبل الدعوة، تماما مثل أشعة الشمس التى لا تكفى وحدها لتشخيص معالم الطريق، بل لا بدّ من وجود العين الباصرة أيضا، و مثل البذرة السليمة التى لا يمكن أن تنمو بغير وجود الأرض الصالحة للزراعة.

يتّضح من هذا أنّ الضمير فى «به» يعود على القرآن، و هذا يتبيّن من القرائن، على الرغم من أنّ القرآن لم يذكر فى الآيات السابقة صراحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۶

كما أنّ المقصود من «يخافون» أى يحتملون وجود الضرر، إذ يخطر ببال كل عاقل يستمع إلى دعوة الأنبياء الإلهيين، بأنّ من المحتمل

أن تكون دعوة هؤلاء صادقة، و أنّ الإعراض عنها يوجب الخسران و الضرر، و يستنتج من ذلك أنّ من الخير له أن يدرس الدعوة و يطلع على الأدلة.

و هذا واحد من شروط الهداية، و هو ما يطلق عليه علماء العقائد اسم «لزوم دفع الضرر المحتمل» و يعتبرونه دليل وجوب دراسة دعوى من يدعى النّبوة، و لزوم المطالعة لمعرفة اللّه.

ثمّ يقول: إنّ أمثال هؤلاء من ذوى القلوب الواعية يخافون ذلك اليوم الذى ليس فيه غير اللّه ملجأ و لا شفيع: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ

نعم، أنذر أمثال هؤلاء الناس و ادعهم إلى اللّه، إذ أنّ الأمل فى هدايتهم موجود: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

بديهى أنّ نفى «الشفاعة» و «الولاية» فى هذه الآية عن غير اللّه لا يتناقض مع شفاعة أولياء اللّه و ولايتهم، إذ إنّنا سبق أن أشرنا إلى أنّ المقصود هو نفى الشفاعة و الولاية بالذات، أى أنّ هذين الأمرين مختصان ذاتا باللّه، فإذا كان لأحد غيره مقام الشفاعة و الولاية فبإذن منه و بأمره، كما يصرح القرآن بذلك: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۱۵۹].

للمزيد من التوضيح بشأن الشفاعة عموما، انظر المجلد الأوّل: ص ۱۹۸.

و المجلد الثّانى من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۲ الى ۵۳]

اشارة

وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (۵۲) وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (۵۳)

سبب النّزول

اشارة

ذكرت روايات عديدة فى سبب نزول هاتين الآيتين، و لكنّها متشابهة، من ذلك ما جاء فى تفسير «الدار المنثور»: مرّت جماعة من قريش بمجلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان «صهيب» و «عمار» و «بلال» و «خباب» و أمثالهم من الفقراء و العمال حاضرين فيه، فتعجبوا من ذلك (لأنّهم كانوا يحسبون أن شخصية المرء مرهونة بالثروة و الجاه و المقام، و لم يستطيعوا إدراك المنزلة المعنوية لهؤلاء الأشخاص، و لا ما سيكون لهم من دور بناء فى إيجاد المجتمع الإسلامى و الإنسانى الكبير) فقالوا: يا محمّد! أرضيت بهؤلاء من قومك، أ فنحن نكون تبعا لهم؟، أ هؤلاء الذين منّ اللّه عليهم؟! اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم اتّبعناك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۸

فأنزل اللّه الآية.

بعض مفسّرى أهل السنة، مثل صاحب تفسير (المنار) يورد حديثا أشبه بذاك، ثمّ يقول: إنّ عمر بن الخطاب كان حاضرا و اقترح على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقبل عرض هؤلاء الملأ من قريش، ليتبيّن مدى صدق قولهم؟ فنزلت الآيتان فى رفض

اقتراحه.

ينبغى ألّا يغرب عن البال أنّ ذكر سبب نزول بعض آيات هذه السورة لا يتنافى مع نزول السورة كلها فى مكان واحد، فقد سبق أن قلنا إنّ من الممكن أن تقع حوادث مختلفة فى أوقات مختلفة قبل نزول السورة، ثمّ تنزل السورة بشأن تلك الحوادث.

يلزم هنا أن نذكر أنّه جاء فى رواية أنّ الملأ من قريش- حينما رفض رسول اللّه عرضهم- اقترحوا عليه شيئا آخر، و قالوا له: لو نحيت هؤلاء حتى نخلو بك ... فإذا انصرفنا، فإذا شئت أعدتهم إلى مجلسك، فأجابهم النّبى إلى ذلك، فقالوا له: اكتب لنا بهذا على نفسك كتابا، فدعا بصحيفة و أحضر عليا ليكتب، فنزل جبرائيل بالآية تنهى عن ذلك.

غير أنّ هذه الرواية، على الرغم من كونها لا- تنسجم مع روح تعاليم الإسلام التى رفضت دوما المساومة فى مثل هذه الحالات، و أكّدت باستمرار على وحدة المجتمع الإسلامى، فإنّها لا تنسجم مع الآية السابقة: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ فكيف يمكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبول الاقتراح دون انتظار للوحى.

ثمّ إنّ عبارة وَ لا- تَطْرُدِ فى بداية الآية تدل على أنّهم قد طلبوا طرد أولئك، لا التناوب معهم، و البون شاسع بين طلب الطرد و طلب التناوب، و هذا يدل على أنّ سبب نزول الآية هو ما أوردناه أوّلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۲۹۹

مكافحة التّفكير الطّبقى:

فى هذه الآية إشارة إلى واحد من احتجاجات المشركين، و هو أنّهم كانوا يريدون من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقرّ ببعض الامتيازات لطبقة الأغنياء و يفضلهم على طبقة الفقراء، إذ كانوا يرون فى جلوسهم مع الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منقصة لهم أى منقصة! مع أنّ الإسلام كان قد جاء للقضاء على مثل هذه الامتيازات الزائفة الجوفاء، كانوا يصرون على هذا الطلب فى طرد أولئك عنه، غير أنّ القرآن ردّ هذا الطلب مستندا إلى أدلة حية، فيقول: وَ لا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۱۶۰].

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يشر إلى هؤلاء الأشخاص إشارة خاصّة، بل اكتفى بصفتهم البارزة و هى أنّهم يذكرون اللّه صباح مساء، أى دائما، و انّ ذكرهم اللّه هذا ليس فيه رياء، بل هو لذات اللّه وحده، فهم يريدونه وحده و يبحثون عنه، و ليس ثمّة امتياز اسمى من هذا.

يتبيّن من آيات قرآنية مختلفة أنّ هذا لم يكن أوّل طلب من نوعه يتقدم به هؤلاء المشركون الأغنياء المتكبرون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل لقد تكرر اعتراضهم على النّبى بشأن اجتماع الفقراء حوله، و مطالبتهم إياه بطردهم.

فى الحقيقة كان هؤلاء يستندون فى طلبهم ذاك إلى سنة قديمة خاطئة تقيم المرء على أساس ثروته، و كانوا يعتقدون أنّ المعايير الطبقية القائمة على أساس الثروة يجب أن تبقى محفوظة، و يرفضون كل دعوة تستهدف إلغاء هذه القيم و المعايير.

فى سيرة النّبى نوح عليه السّلام نرى أنّ أشراف زمانه كانوا يقولون له:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۰

وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ ۱۶۱] و اعتبروا ذلك دليلا على بطلان رسالته.

إنّ واحدا من دلائل عظمة الإسلام و القرآن، و عظمة مدرسة الأنبياء عموما، هو أنّها وقفت ثابتة لا تتزحزح فى وجه أمثال هذه الطلبات، و راحت تحطم هذه الامتيازات الموهومة فى كل المجتمعات التى تعتبر التمايز الطبقى مسألة ثابتة، لتعلن أنّ الفقر ليس نقصا فى أشخاص مثل سلمان و أبى ذر و الخباب و بلال، كما أنّ الثروة ليست امتيازا اجتماعيا، أو معنويا لهؤلاء الأثرياء الفارغين

المتحجرين المتكبرين.

ثمّ تقول الآيـة: إنّه ليس ثمّـة مـا يـدعو إلى إبعـاد هؤلاء المؤمنين عنك، لأنّ حسابهم ليس عليك، و لا حسابك عليهم: ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ، وَ ما مِنْ حِسابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ، و لكنّك مع ذلك إذا فعلت تكون ظالما: فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ

يختلف المفسّرون فى توضيح المقصود من «الحساب» هنا.

منهم من يقول: إنّ المقصود هو حساب رزقهم، أى أنّهم و إن كانوا فقراء فإنّهم لا يثقلون عليك بشـىء، لأنّ حساب رزقهم على اللّه، كما أنّك أنت أيضا لا تحملهم ثقل معيشتك، إذ ليس من حساب رزقك عليهم من شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص ۳۰۰

ر أنّ هـذا الاحتمال يبـدو بعيـدا، لأن الظاهر أن القصد من الحساب هو حساب الأعمال، كما يقول كثير من المفسّـرين، أمّا لماذا يقول اللّه أن حساب أعمالهم ليس عليك، مع أنّهم لم يبدر منهم أى عمل سىء يستوجب هذا القول؟

فالجواب: إنّ المشـركين كانوا يتهمون أصـحاب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم الفقراء بالابتعاد عن اللّه بسبب فقرهم، زاعمين أنّهم لو كانت أعمالهم مقبولة عند اللّه لزمه الترفية و التوسعة عليهم فى معيشتهم، بل كانوا يتهمونهم بأنّهم لم يؤمنوا إلّا لضمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۱

معيشتهم و الوصول إلى لقمة العيش.

فيرد القرآن على ذلـك مبينـا أنّنـا حتى لو فرضـنا أنّهم كـذلك، فان حسابهم على اللّه، ما دام هؤلاء قـد آمنوا و أصبحوا فى صـفوف المسلمين، فلا يجوز طردهم بأى ثمن، و بهذا يقف فى وجه إحتجاج أشراف قريش.

و شاهـد هـذا التّفسـير ما جاء فى حكاية النّبى نوح عليه السّـلام التى تشـبه حكاية أشـراف قريش، فأولئك كانوا يقولون لنوح: أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ فيرد عليهم نوح قائلا: وَ ما عِلْمِى بِما كـانُوا يَعْمَلُونَ إِنْ حِسـابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّى لَوْ تَشْـعُرُونَ، وَ مـا أَنَـا بِطـارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ۱۶۲].

من هنـا يجب على الأنبيـاء أن يتقبلوا كـل امرئ يظهر الإيمان بـدون أى تمييز و من أيـة طبقـة كان فكيف بالمؤمنين الأطهار الـذين لا يريدون إلّا وجه اللّه، و كل ذنبهم هو أنّهم فقراء صفر اليدين من الثروة، و لم يتلوثوا بالحياة الدنيئة لطبقة الأشراف!

امتياز كبير للإسلام:

إنّنا نعلم أنّ دائرة صـلاحيات رجال الـدين المسـيحيين المعاصـرين قد اتسـعت اتساعا مضـحكا بحيث إنّهم أعطوا أنفسـهم حق غفران الذنوب، فبإمكانهم طرد الأشخاص و تكفيرهم أو قبولهم لأتفه الأمور.

إلّا أنّ القرآن، فى هـذه الآيـة و فى آيات أخرى ينفى صـراحة أن يكون لأحـد الحقّ، بل و لا لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم نفسه فى أن يطرد أحـدا أظهر إيمـانه و لم يفعل ما يوجب إخراجه من الإسـلام، و أن غفران الـذنوب و الحساب بيـد اللّه وحـده، و لا يحق لأحد التدخل فى هذا أبدا.

و الكلام هنا على «الطرد الدينى» لا «الطرد الحقوقى» فلو كانت إحدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۲

المـدارس وقفا على طبقـة خاصّـة من الطلاب، و قبل أحـدهم فيها لتوفر شـروط القبول فيه، ثمّ فقـد بعض تلك الشـروط، فان طرده و إخراجه من تلك المدرسـة لا مانع فيه، كذلك لو أنّ مدير مدرسة أعطيت له صـلاحيات معينة لغرض إدارة شؤونها، فله كل الحقّ فى

الاستفادة من تلك الصلاحيات لحفظ النظام و رعاية مصالح المدرسة (فما ورد فى حديث صاحب تفسير المنار عند تفسيره الآية ممّا يخالف هذا المعنى ناشى من الاشتباه بين الطرد الدينى و الطرد الحقوقى).

الآية الثّانية يحذر فيها القرآن أصحاب المال و الثروة من أن هذه الأمور اختبار لهم، فإذا لم يجتازوا الامتحان فعليهم أن يتحملوا العواقب المؤلمة، فاللّه يمتحن بعضهم ببعض: وَ كَذلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ

«الفتنة» تعنى هنا الامتحان ۱۶۳] و أى إمتحان أصعب ممّا يمر به الأغنياء الذين كانوا قد اعتادوا لسنوات طويلة على الترفع على الطبقات الدنيا، فلا يشاركونهم أفراحهم و أتراحهم، بل حتى أنّهم يبعدون قبور موتاهم عن قبورهم، أمّا الآن فيطلب منهم أن يتخلوا عن كل ذلك و أن يحطموا كل تلك العادات و السنن، و يكسروا القيود و السلاسل ليلتحقوا بدين طلائعه من الفقراء و من يسمون بالطبقة الدنيا.

ثمّ تضيف الآية أنّ الأمر يصل بهؤلاء إلى أنّهم ينظرون إلى المؤمنين الصادقين نظرة احتقار لِيَقُولُوا أَ هؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنا[۱۶۴]؟! ثمّ تجيب الآية على المعترضين مؤكدة أنّ هؤلاء الأشخاص أناس شكروا نعمة التشخيص الصحيح بالعمل، كما أنّهم شكروا نعمة دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقبولها، فأى نعمة أكبر، و أى شكر أرفع، و لذلك رسخ اللّه الإيمان فى قلوبهم:

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۴ الى ۵۵]

اشارة

وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۴) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (۵۵)

التّفسير

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت بشأن الذين نهت الآيات السابقة عن طردهم و إبعادهم، و يرى بعض آخر أنّها نزلت فى فريق من المذنبين قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: إنّهم قد أذنبوا كثيرا، فسكت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى نزلت الآية.

و مهما يكن سبب نزول الآية، فالذى لا شك فيه أنّ معناها واسع و شامل، لأنّها تبدأ أوّلا بالطلب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يطرد المذنبين مهما عظمت ذنوبهم، بل عليه أن يستقبلهم و يتقبلهم: وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ

يحتمل أن يكون هذا السّلام من اللّه بوساطة رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو أنّه من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة، و هو- على كلا الاحتمالين دليل على القبول و الترحيب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۴

و التفاهم و المحبّة.

ثمّ تقول الآية كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ.

«كتب» تأتى فى كثير من الأحيان كناية عن الإلزام و التعهد، إذ إنّ من نتائج الكتابة توكيد الأمر و ثبوته.

و فى الجزء الأخير من الآيـة- و هو توضـيح و تفسـير لرحمـة اللّه- يتحـدث بلهجة عاطفية: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و قد سبق القول ۱۶۵] أنّ «الجهالة» فى مثل هذه المواضع تعنى طغيان الشـهوة و سـيطرتها، و الإنسان بسبب هذه الأهواء المستفحلة، لا بسـبب عدائه للّه و للحق- يفقد المقدرة العقيلة و السيطرة على الشهوات، مثل هذا الشخص- و إن كان عالما بالذنب و الحرمة- يسمى جاهلا لأنّ علمه مستتر وراء حجب الأهواء و الشـهوات، و هـذا الشـخص مسـئول عن ذنوبه، و لكنّه يسـعى لإصـلاح نفسه و جبران أخطائه لأنّ أفعاله لم تكن عن روح عداء و خصام.

تأمر الآية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يطرد أى شخص مؤمن مهما تكن طبقته و ظروفه و عنصره، بل عليه أن ينظر إلى الجميع بعين المساواة، و أن يحتضنهم و يعمل على إصلاحهم حتى و إن كانوا ملوثين بالذنوب.

الآية التّالية و من أجل توكيد هذا الموضوع تشير إلى أنّ اللّه سبحانه يوضح آياته و أوامره توضيحا بيّنا لكى يتبيّن طريق الباحثين عنه و المطيعين له، كما يتبيّن طريق الآثمين المعاندين من أعداء اللّه: وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۱۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۵

من الواضـح فى هـذه الآيـة أنّ «المجرم» ليس كل مـذنب، لأنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مكلّف فى هـذه الآية أن يتقبل المـذنبين الـذين يقبلون عليه، مهمـا يكن جرمهم الـذى ارتكبوه عن جهـل، و عليه فان المجرمين هنا هم أولئك المـذنبون المعانـدون الذين لا يستسلمون للحق.

أى بعـد هـذه الـدعوة العامّـة إلى اللّه، التى تشـمل حتى المجرمين النادمين يتّضح بشـكل كامل طريق المعاندين الذين لا يرجعون عن عنادهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

اشارة

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۵۶) قُلْ إِنِّى عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ ما عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ (۵۷) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِى ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (۵۸)

التّفسير

الإصرار العقيم:

ما يزال الخطاب فى هـذه الآيات موجها إلى المشـركين و عبدة الأصـنام المعاندين- كدأب معظم آيات هذه السورة- يبدو من سـياق هذه الآيات أنّهم دعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى اعتناق دينهم، الأمر الذى يستدعى نزول الآية: قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۱۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۷

جملة «نهيت» التى وردت بصـيغة الماضـى و مبنية للمجهول تشير إلى أنّ النهى عن عبادة الأصنام ليس أمرا جديدا، بل كان دائما قائما

و سيبقى كذلك.

ثمّ بجملة قُلْ لا أَتَّبِعُ أَهْواءَكُمْ يجيب بوضوح على إصرارهم العقيم، بالنظر لأنّ عبادة الأصنام لا تتفق مع المنطق و لا مع الأدلة العقلية، لأنّ العقل يدرك بسهولة أن الإنسان أشرف من الجماد، فكيف يمكن للإنسان أن يخضع لأى مخلوق آخر فضلا عن المخلوق الأدنى؟ هذا مع أنّ هذه الأصنام هى من صنع الإنسان نفسه فكيف يتخذ الإنسان ما خلقه بنفسه معبودا يعبده و يلجأ إليه فى كل مشاكله؟ و بناء على ذلك، فإنّ منشأ عبادة الأصنام ليس سوى التقليد الأعمى و الإتّباع المقيت للأهواء و الشهوات.

و فى ختام الآية يؤكّد القرآن مرّة أخرى على أنّه إذا فعل ذلك قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ

الآية التّالية تتضمّن جوابا آخر، و هو: قُلْ إِنِّي عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ

«البيّنة» أصلا ما يفصل بين شيئين بحيث لا يكون بينهما تمازج أو اتصال، ثمّ أطلقت على الدليل و الحجة الواضحة، لأنّها تفصل بين الحق و الباطل.

و فى المصطلح الفقهى تطلق «البيّنة» على الشاهدين العدلين، غير أنّ معنى الكلمة اللغوى واسع جدا، و شهادة العدل واحد من تلك المعانى، و كذلك كانت المعجزة بيّنة لأنّها تفصل بين الحق و الباطل، و إذا قيل للآيات و الأحكام الإلهية بينات فلكونها من مصاديق الكلمة الواسعة.

و عليه، فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمر فى هذه الآية أن يقول: إنّ دليلى فى قضية عبادة اللّه و محاربة الأصنام واضح و بيّن، و ان تكذيبكم و إنكاركم لا يقللان من صدق الدليل.

ثمّ يشير إلى حجّة واهية أخرى من حججهم، و هى أنّهم كانوا يقولون: إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۸

كنت على حق فعلا فعجل بالعقاب الذى تتوعدنا به، فيقول لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

ما عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لأنّ الأعمال و الأوامر كلها بيد اللّه: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

و بعد ذلك يقول مؤكدا: إنّ اللّه هو الذى: يَقُصُّ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ

بديهى أنّ القادر على أن يفصل بين الحق و الباطل على خير وجه هو الذى يكون أعلم الجميع، و من السهل عليه التمييز بين الحق و الباطل، ثمّ تكون له القدرة الكافية على استخدام علمه، و هاتان الصفتان (العلم و القدرة) هما من صفات الذات الإلهية اللامحدودة، و عليه فإنّه عزّ و جلّ خير من يقص الحق، أى يفصل الحق من الباطل.

الآية التّالية تأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء الجماعة الملحاحة العنيدة الجاهلة: لو أن ما تطلبونه منى على عجل كان فى سعتى و قدرتى، و أجبتكم إليه لانتهى الأمر، و لم يعد بينى و بينكم شىء: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ

و لكيلا يظنوا أن عقابهم قد طواه النسيان، يقول فى النهاية وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ و سوف يعاقبهم فى الوقت المناسب.

بحوث

هنا لا بدّ من ذكر بعض النقاط:

۱- يستفاد من آيات القرآن أنّ كثيرا من الأمم الماضية طلبوا مثل هذا الطلب من أنبيائهم، و هو: إذا كنت صادقا فيما تقول فلما ذا لا ترسل علينا العقاب الذى تتوعدنا به؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۰۹

قوم نوح عليه السّلام طلبوا منه ذلك قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۱۶۸] و نظير ذلك

جاء على لسان قوم صالح ۱۶۹] و كذلك فعل قوم عاد مع نبيّهم هود[۱۷۰].

و يستفاد من سورة الإسراء أنّ هذا الطلب قد تكرر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى أنّهم قالوا له: إننا لا نؤمن لك أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً[۱۷۱].

كان الدافع إلى هذه الطلبات غير المعقولة السخرية و الاستهزاء، أو الرغبة فى رؤية المعجزة، و فى كلتا الحالتين كان الطلب أحمقا، إذ فى الحالة الثانية يكون تحقق الطلب سببا فى إبادتهم، و لا يكون ثمّة مجال للاستفادة من ظهور المعجزة، و فى الحالة الأولى كان لدى الأنبياء أدلة بينة توفر- على الأقل- احتمال التصديق عند كل ناظر بصير، فكيف يمكن مع هذا الاحتمال أن يطلب أحد القضاء على نفسه، أو أن لا يأخذ المسألة مأخذ الجد، غير أنّ التعصب و العناد بلاء عظيم يقفان بوجه كل فكر و منطق.

۲- إنّ معنى إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ واضح، أى أنّ كل أمر فى عالم الخلق و التكوين و فى عالم الأحكام و التشريع بيد اللّه، و بناء على ذلك إذا كان لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقوم بمهمّة فذلك أيضا بأمر من اللّه.

فإذا أحيا المسيح عليه السّلام ميتا- مثلا- فهو بإذن اللّه، و كذلك كل منصب- بما فى ذلك القيادة الإلهية و التحكيم و القضاء- إذا أوكل إلى أحد، فإنّما هو بأمر اللّه تعالى.

و لكنّ الذى يؤسف له أنّ هذه الآية الواضحة استغلت على مدى التّأريخ، فمرّة تمسك بها الخوارج فى قضية «الحكمين» التى أرادوها هم و أمثالهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۰

حرب «صفين» فكانت

«كلمة حق أريد بها باطل» كما قال الإمام على عليه السّلام

، حتى أصبح شعارهم (لا حكم إلّا للّه).

لقد كانوا من الجهل و البلاهة إنّهم حسبوا أن من حكم بأمر اللّه و الإسلام فى أمر من الأمور يكون قد خالف إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ بينما كانوا يقرءون القرآن كثيرا، و لكن لا يفهمونه إلّا قليلا فالقرآن نفسه فى موضوع الاحتكام العائلى يصرح باختيار حكم من جانب الزوجة و حكم من جانب الزوج: فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَماً مِنْ أَهْلِها[۱۷۲].

و اعتبر بعض آخر هذه الآية- كما يقول الفخر الرازى فى تفسيره- دليلا على الجبرية، قائلين إنّنا إذا قبلنا بأنّ الأوامر فى عالم الخلق بيد اللّه، فلا يبقى لأحد مجال للاختيار.

و لكنّنا نعلم أنّ حرية إرادة عباد اللّه و حرية اختيارهم هى أيضا، بأمر من اللّه الذى شاء أن يكونوا أحرارا فى إختيار ما يعملون، لكى يحملهم مسئولية أعمالهم و التكاليف الملقاة على عواتقهم.

۳- «يقص» فى اللغة ترد بمعنى القطع، و فى القاموس: «قص الشعر و الظفر أى قطع منهما بالمقص أى المقراض»، و على هذا يكون معنى و «يقص الحق» إنّ اللّه يقطع الحق عن الباطل و يفصل بينهما، و لذلك يتلوها بقوله: هُوَ خَيْرُ الْفاصِلِينَ للتوكيد، فالفعل «يقص» هنا لا يعنى سرد حكاية، كما ظن بعض المفسّرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۱

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲]

اشارة

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ وَ لا رَطْبٍ وَ

لا ـ يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۵۹) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۶۰) وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ (۶۱) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ (۶۲)

التّفسير

أسرار الغيب:

فى هذه الآيات يدور الكلام حول علم اللّه و قدرته وسعة حكمه و أمره، و هى تشرح ما أجملته الآيات السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۲

تشرع الآية فى الكلام على علم اللّه فتقول: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ.

«مفاتح» جمع «مفتح» (بكسر الميم و فتح التاء) و هو المفتاح، أمّا إذا كانت بفتح الميم فهى بمعنى الخزانة التى تختزن فيها الأشياء.

و على الأوّل يكون المعنى: إنّ جميع مفاتيح الغيب بيد اللّه.

و على الثّانى يكون المعنى: إنّ جميع خزائن الغيب بيد اللّه.

و يحتمل أن يكون المعنيان قد اجتمعا فى عبارة واحدة، و كما هو ثابت فى علم الأصول، فإن استعمال لفظة واحدة لعدة معان لا مانع منه، و على كل حال فهاتان الكلمتان متلازمتان، لأنّه حيثما كانت الخزانة كان المفتاح.

و أغلب الظن أنّ «مفاتح» بمعنى «مفاتيح» لا ـ بمعنى «خزائن» لأنّ الهدف هو بيان علم اللّه، فتكون المفاتيح وسائل لمعرفة مختلف الذخائر و هو أنسب بالآية، و فى موضعين آخرين فى القرآن ترد كلمة «مفاتح» بمعنى المفاتيح ۱۷۳].

ثمّ لتوكيد ذلك أكثر يقول: وَ يَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

«البرّ» كل مكان واسع فسيح، و تطلق على اليابسة، «و البحر» كذلك تعنى المحل الواسع الذى يتجمع فيه الماء، و تطلق على البحار و المحيطات و على الأنهر العظيمة أحيانا.

فالقول بأنّ اللّه يعلم ما فى البر و البحر، كناية عن إحاطته بكل شىء، و هذه الإحاطة بما فى البرّ و البحر إنّما تمثل فى الحقيقة جانبا من علمه الأوسع.

فهو عالم بحركة آلاف الملايين من الكائنات الحية، الكبيرة و الصغيرة، فى أعماق البحار.

و هو عالم بارتعاش أوراق الأشجار فى كل غابة و جبل.

و هو عالم بمسيرة كل برعمة و تفتح أوراقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۳

و هو عالم بجريان النسيم فى البوادى و منعطفات الوديان.

و هو عالم بعدد خلايا جسم الإنسان و كريات دمه.

و هو عالم بكل الحركات الغامضة فى الإلكترونات فى قلب الذّرة.

و هو عالم بكل الحركات الغامضة فى الإلكترونات فى قلب الذّرة.

و هو عالم بكل الأفكار التى تمرّ بتلافيف أدمغتنا حتى أعماق أرواحنا ...

نعم أنّه عالم بكل ذلك على حدّ سواء.

لذلك فإنّه يؤكّد ذلك مرّة أخرى فيقول: وَ ما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها.

أى أنّه يعلم عدد الأوراق و لحظة انفصال كل ورقة عن غصنها و طيرانها فى الهواء، حتى لحظة استقرارها على الأرض، كل هذا جلى أمام علم اللّه.

كذلك لا تختفى حبّة بين طيات التراب إلّا و يعلمها اللّه و يعلم كل تفاصيلها:

وَ لا حَبَّةٍ فِي ظُلُماتِ الْأَرْضِ

التركيز هنا- فى الحقيقة- على نقطتين حساستين لا- يمكن أن يتوصل إليهما الإنسان حتى لو أمضى ملايين السنين من عمره يرتقى سلم الكمال فى صنع أجهزته و أدواته المدهشة.

ترى من ذا الذى يستطيع أن يعرف كم تحمل الرياح معها فى هبوبها على مختلف أصقاع الأرض فى الليل و النهار، من أنواع البذور المنفصلة عن نباتاتها؟

و إلى أين تحملها و تنشرها، أو تدسها فى التراب حيث تبقى سنوات مختفية، حتى يتهيأ لها الماء فتنبت و تنمو؟

من ذا الذى يعلم كم من هذه البذور فى كل أنحاء الدنيا تحمل عن طريق الإنسان أو الحشرات فى كل ساعة من نقطة إلى نقطة أخرى؟

أى دماغ الكترونى هذا الذى يستطيع أن يحصى عدد أوراق الشجر التى تسقط كل يوم من أشجار الغابات؟ انظر إلى غابة من الغابات فى الخريف، و خاصّة بعد مطر شديد أو ريح عاصفة، و تطلع إلى مشهد سقوط الأوراق المتواصل البديع، عندئذ تتكشف لك هذه الحقيقة، و هى أنّ علوما من هذا القبيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۴

لن تكون يوما فى متناول يد الإنسان.

إنّ سقوط الورقة- فى الحقيقة- هو لحظة موتها، بينما سقوط البذرة فى مكمنها من الأرض هو لحظة بدء حياتها، و ما من أحد غير اللّه يعلم بنظام هذا الموت و هذه الحياة، و حتى أنّ كل خطوة تخطوها البذرة نحو حياتها و انبعاثها و تكاملها خلال اللحظات و الساعات، جلية فى علم اللّه.

إنّ لهذا الموضوع أثرا «فلسفيا» و آخر «تربويا»:

أمّا أثره الفلسفى، فينفى رأى الذين يحصرون علم اللّه بالكليات، و يعتقدون أنّه لا يعلم عن الجزئيات شيئا، و فى الآية هنا تأكيد على أنّ اللّه يعلم الكليات و الجزئيات كلها.

أمّا أثره التربوى فواضح، لأنّ الإيمان بهذا العلم الواسع للّه يقول للإنسان: إنّ جميع أسرار وجودك، و أعمالك، و أقوالك و نياتك، و أفكارك كلّها بيّنة أمام اللّه، فإذا آمن الإنسان حقّا بهذا، فكيف يمكن له أن لا يكون رقيبا على نفسه و يسيطر على أعماله و أقواله و نياته! و فى ختام الآية يقول تعالى: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

تبيّن هذه العبارة القصيرة سعة علم اللّه اللامحدود و إحاطته بكل الكائنات بدون أى استثناء، إذ أن «الرطب» و «اليابس» لا يقصد بهما المعنى اللغوى، بل هما كناية عن الشمول و العمومية.

و للمفسّرين آراء متعددة فى معنى: «كتاب مبين»، و لكنّ الأقوى أنّه كناية عن علم اللّه الواسع، أى انّ كل الموجودات مسجلة فى علم اللّه اللامحدود، كما أنّه تفسر بكونه «اللوح المحفوظ» نفسه، إذ لا يستبعد أن يكون اللوح المحفوظ هو صفحة علم اللّه.

و ثمّة احتمال آخر عن معنى «كتاب مبين» و هو أنّه عالم الخلق و سلسلة العلل و المعلولات التى كتب فيها كل شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۵

جاء فيما روى عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ «الورقة» الساقطة بمعنى الجنين الساقط، و «الحبّة» بمعنى الابن، و «ظلمات الأرض»

بمعنى رحم الأمّ، و «رطب» ما بقى حيا من النطفة، و «يابس» ما تلاشى من النطفة[۱۷۴].

لا شك أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الجمود على المعانى اللغوية للآية، إذ إنّ معنى «الورقة» و «الحبّة» و «ظلمات الأرض» و «الرّطب» و «اليابس» معروف، و لكنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بهذا التّفسير أرادوا أن يوسعوا من آفاق نظرة المسلمين إلى القرآن، و أن لا ينحصروا فى إطار الألفاظ، بل يتوسعوا فى نظرتهم حين توجد قرائن على هذا التوسع.

الرّواية أعلاه تشير إلى أنّ معنى «الحبّة» لا ينحصر فى بذور النباتات، بل يشمل أيضا بذور النطف الإنسانية.

فى الآية الثانية ينتقل الكلام إلى إحاطة علم اللّه بأعمال الإنسان و هو الهدف الأصلى و إلى بيان قدرة اللّه القاهرة، لكى يستنتج الناس من هذا البحث الدروس التربوية اللازمة فتبدأ بالقول بأنّ اللّه هو الذى يقبض أرواحكم فى الليل، و يعلم ما تعملون فى النهار: وَ هُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ ما جَرَحْتُمْ بِالنَّهارِ.

«توفى» تعنى استرجع، فالقول بأنّ النوم هو استرجاع للروح يعود إلى أنّ النوم أخو الموت، كما هو معروف، فالموت تعطيل كامل لجهاز الدماغ، و انقطاع تام فى ارتباط الروح بالجسد، بينما النوم تعطيل قسم من جهاز الدماغ و ضعف فى هذا الارتباط، و عليه فالنوم مرحلة صغيرة من مراحل الموت ۱۷۵].

«جرحتم» من «جرح» و هى هنا بمعنى الاكتساب، أى أنّكم تعيشون تحت ظل قدرة اللّه و علمه ليلا و نهارا، و انّ الذى يعلم بانفلاق الحبّة و نموها فى باطن الأرض، و يعلم بسقوط أوراق الأشجار و موتها فى أى مكان و زمان، يعلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۶

بأعمالكم أيضا.

ثمّ يقول: إنّ نظام النوم و اليقظة هذا يتكرر، فأنتم تنامون فى الليل ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضى أَجَلٌ مُسَمًّى ۱۷۶] أى ثمّ يوقظكم فى النهار .. و تستمر هذه العملية حتى نهاية حياتكم.

و يبيّن القرآن النتيجة النهائية لهذا المبحث بالشكل التالى: ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و فى الآية الثّالثة توضيح أكثر لإحاطة علم اللّه بأعمال عباده و حفظها بكل دقة ليوم الحساب، بعد أن يسجلها مراقبون مرسلون لإحصاء أعمالهم: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً.

سبق أن قلنا إنّ «القاهر» هو المتسلط الغالب المهيمن الذى لا تقف أمامه أية قوّة، و يرى بعضهم هذه الكلمة تستعمل حيث يكون المقهور عاقلا.

أمّا كلمة «الغالب» فليست فيها هذه الخصوصية، فهى عامّة واسعة المعنى.

«حفظة» جمع «حافظ» و هم هنا الملائكة الموكّلون بحفظ أعمال الناس، كما جاء فى سورة الإنفطار، الآيات ۱۰- ۱۳: إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

و يرى بعض المفسّرين أنّهم لا يحفظون أعمال الإنسان، بل هم مأمورون بحفظ الإنسان نفسه من الحوادث و البلايا حتى يحين أجله المعين، و يعتبرون حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ بعد «حفظة» قرينة تدل على ذلك، كما يمكن اعتبار الآية (۱۱) من سورة الرعد دليلا عليه كذلك ۱۷۷].

و لكنّ بالتدقيق فى مجموع الآية التى نحن بصددها نتبيّن أنّ القصد من الحفظ هنا هو حفظ الأعمال، أمّا بشأن الملائكة الموكّلين بحفظ الناس فسوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۷

نشرحه بإذن اللّه عند تفسير سورة الرعد.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم أن حفظ الأعمال يستمر حتى نهاية الأعمار و حلول الموت: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا.

و تبيّن الآيـة فى النهايـة أنّ هؤلاء الملائكـة لا يقصـرون و لا يفرطون فى مهمتهم، فلا يتقـدمون لحظـة و لا يتأخرون فى موعـد قبض الروح.

و يحتمل أيضا أنّ هـذه الصـفة ترتبط بالملائكـة الـذين يحفظون حساب أعمال البشـر، فهم فى حفظهم للحساب لا يصـدر منهم أدنى تقصير أو قصور، و الآية تركز على هذا القسم بالذات.

فى الآية الاخيرة يشير القرآن الكريم إلى آخر مراحل عمل الإنسان، فيقول:

ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ أى عادوا إلى اللّه بعد أنّ طووا مرحلة حياتهم، و اختتم ملفهم الحاوى على كل شىء.

و فى تلك المحكمة يكون النظر فى القضايا و إصدار الأحكام بيد اللّه: أَلا لَهُ الْحُكْمُ

و على الرغم من كـل تلـك الأعمال و الملفّات المتراكمـة عن أفراد البشـر طوال تاريخهم الصاحب فانّ اللّه سـريع فى النظر فيها: وَ هُوَ أَسْرَعُ الْحاسِبِينَ

لقد جاء فى بعض الرّوايات: «إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده فى مقدار حلب شاة»

أى أنّ ذلك لا يتجاوز فترة حلب شاة[۱۷۸].

و كما قلنا فى تفسـير الآيـة (۲۰۲) من سـورة البقرة، إنّ إجراء الحسـاب من السـرعة بحيث إنّه يمكن أن يتمّ فى لحظـة واحـدة بالنسـبة للجميع، بل إن ذكر فترة حلب شاة فى الروايـة المـذكورة يقصـد منه بيان قصـر الزمن اللازم لـذلك، و على هذا نقرأ فى رواية أخرى: «إن اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۸

البصر»[۱۷۹].

و الدليل على ذلك هو ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية، و هو أنّ أعمال الإنسان تؤثر فى وجوده و فى وجود الكائنات المحيطة به، تماما مثل الماكنة التى تسجل مقدار حركتها فى عداد متصل بها.

و بتعبير أوضـح، لو كانت هناك أجهزة دقيقـة جـدا لاسـتطاعت أن تسـجّل فى عين الإنسان عـدد النظرات الآثمة، و على الألسـنة عدد الأكـاذيب و الافتراءات و التهم و الطعون التى اقترفتهـا، أى أن كـل عضو من أعضاء الجسم فيه- بالإضافـة إلى روحه- جهاز حاسـب يكشف الحساب فى لحظة واحدة.

و إذا جاء فى بعض الرّوايات أنّ محاسـبة المسؤولين و الأغنياء تطول يوم القيامـة فإن هذا لا يعنى فى الواقع طول زمن الحساب، بل هو طول زمن المحاسـبة عليهم، إذ لا بـدّ لهم من الإجابـة على الأسـئلة الكثيرة التى تلقى عليهم بشـأن الأعمال التى ارتكبوها، أى أن ثقل مسئولياتهم و لزوم إجابتهم على الأسئلة لإتمام الحجّة عليهم هى التى تطيل زمن محاكمتهم.

يؤلف مجموع هذه الآيات درسا تربويا كاملا لعباد اللّه فى إحاطة علمه تعالى بأصـغر ذرات هذا العالم و بأكبرها و قدرته و قهره لعباده و معرفته بجميع أعمال البشـر، و قيام كتبة أمناء بحفظ أعمال الناس و قبض أرواحهم فى لحظات معينة بالنسبة لكل منهم، و بعثهم يوم القيامة، و من ثمّ محاسبتهم محاسبة دقيقة و سريعة.

كيـف يمكـن أن يـؤمن الشـخص بمجمـوع هـذه المسائـل ثـمّ لا يراقب أعمـاله، يظلم دون وازع، و يكـذب و يفـترى و يعتـدى على الآخرين؟

هل يجتمع كل هذا مع الإيمان و الاعتقاد على صعيد واحد؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۱۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۳ الى ۶۴]

اشارة

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۳) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۶۴)

التّفسير

النّور الّذى يضىء فى الظلّام:

مرّة أخرى يأخذ القرآن بيد المشركين و يتوغّل بهم إلى أعماق فطرتهم، و هناك فى تلك الأغوار المحفوفة بالأسرار الغامضة يريهم نور التوحيد و عبادة الواحد الأحد، فيقول للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قل لهم: قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ؟

إنّ الظلام يكون حسيا أحيانا و معنويا أحيانا أخرى، الظلام الحسى هو الذى يكون عند انقطاع النّور انقطاعا تاما، أو يضعف بحيث لا يرى شىء، أو يرى بالجهد الجهيد، و الظلام المعنوى هو المشاكل و الصعوبات ذات النهايات المظلمة الغامضة، الجهل ... الاضطرابات الاجتماعية و الاقتصادية و الفكرية، و الانحرافات و الفساد الأخلاقى التى لا يمكن التكهن بعواقبها السيئة، أو التى تجر إلى التعاسة و الشقاء ... كلّها ظلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۰

إنّ الظلام بذاته مخيف مثير للأوهام و التخيلات، فهجوم الكثير من الحيوانات الخطرة و سطوة اللصوص و المجرمين يقع تحت جنح الظلام، أنّ لكل امرئ ذكرياته عن هذه الحالات، فعند هبوط الظلام تنشط الأوهام و تخرج منها الأشباح المرعبة، فيستولى الخوف و الهلع على العامّة من الناس.

الظلام من العدم، و الإنسان يهرب بطبيعته من العدم و يخافه، و لهذا نراه يخاف الظلام.

و إذا حدثت فى هذا الظلام حوادث واقعية مرعبة، كأن يكون الإنسان مسافرا فى البحر، و تحاصره فى ليلة ظلماء الأمواج الهائلة و الدوامات المائية، فإنّ خوفه من ذلك يكون أضعاف ما لو حدث ذلك بالنهار، لأنّ الإنسان فى مثل هذه الظروف يجد أبواب النجاة مسدودة فى وجهه، و هكذا لو كان فى ليلة حالكة الظلام يسير فى الصحراء فيضل الطريق و يسمع زمجرة الوحوش المفترسة من هنا و هناك و هى تبحث عن فريسة، فى مثل هذه اللحظات ينسى الإنسان كل شىء و لا يعود يتذكر شيئا سوى نفسه، و النّور الذى يسطع فى أعماقه و يجذبه نحو المبدأ قادر على إزالة ما يعتوره من بلاء و ضيق، هذه الحالات تفتح نوافذ على عالم التوحيد و معرفة اللّه، لذلك يقول فى أمثال هذه الحالات: تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً.

و تعقدون- و أنتم فى تلك الحالة- عهدا و ميثاقا على أنفسكم، و تقولون:

لَئِنْ أَنْجانا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ

ثمّ تأمر الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخبرهم أنّ اللّه سوف ينجيهم من هذه و من غيرها من الأخطار، و قد فعل ذلك من قبل مرارا، و لكنّهم بعد زوال الخطر عنهم يعودون إلى طريق الشرك و الكفر: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْها وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۱

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الالتفات إلى عدّة نقاط:

۱- لعل ذكر «التضرع» و هو الدعاء علانية، و «الخفية» هى الدّعاء فى السرّ، إشارة إلى أنّ المصائب تختلف، فالتى لم تصل مرحلة شديدة قد تستدعى الدعاء خفية، و عند ما تكون شديدة تحمل المرء على أن يرفع يديه بالدعاء جهرا، و قد يصاحب ذلك البكاء و الصراخ، أى أنّ اللّه يحل مشاكلكم خفيفها و شديدها.

۲- يرى بعضهم أنّ الآية تشير إلى أربع حالات نفسية فى الإنسان، كل واحدة منها ردة فعل معينة لظهور المشاكل: حالة «الدعاء» و حالة «التضرع» و حالة «الإخلاص» و حالة «تقديم الشكر عند النجاة من الأخطار».

و لكنّ الذى يؤسف له أن هذه الحالات تمر ببعض الناس مرورا خاطفا و كأنّه حالات اضطرارية فى مواجهة الأخطار و المشاكل، و بما أنّها ليست مصحوبة بالوعى و الإدراك، فإنّها تخفت و تنطفئ بمجرّد انتهاء الأزمة.

و بناء على ذلك، فإن هذه الحالات، و ان تكن خاطفة، تستطيع أن تكون دليلا على معرفة اللّه لمن عسر عليه ادراك الدلائل الأخرى.

۳- «الكرب» فى الأصل بمعنى حفر الأرض و قلبها، و كذلك تعنى العقدة المحكمة الشد فى حبل الدلو، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الغم و الهم و الحزن التى تقلب قلب الإنسان و تثقل عليه كالعقدة.

لذلك فإنّ ذكر «الكرب» بما له من المعنى الواسع الذى يشمل أنواع المشاكل و الأزمات بعد ذكر «ظلمات البرّ و البحر» و التى تشمل جانبا من المشاكل فقط، يعتبر من قبيل ذكر مفهوم عام بعد بيان مفهوم خاص (تأمل بدقة).

و هذا يجدر بنا أنّ نذكر حديثا تورده بعض التفاسير فى هذه الآية:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «خير الدعاء الخفى و خير الرزق ما يكفى»

(لا الثروات الضخمة التى هى حصيلة حرمان الآخرين، و تكون عبئا على كاهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۲

الإنسان)، و

روى أيضا أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بقوم رفعوا أصواتهم بالدعاء فقال: «إنّكم لا تدعون أصمّ و لا غائبا، و إنّما تدعون سميعا قريبا»[۱۸۰].

يستفاد من هذا الحديث أنّ خير الدعاء ما كان خفيا مقترنا بتوجه و إخلاص.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۶۵]

اشارة

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (۶۵)

التّفسير

ألوان العذاب:

فى الآيات السابقة التى تتضمن بيان التوحيد الفطرى تتجلى محبّة اللّه لعباده، و حنوه عليهم عند الشّدائد و الصعاب، و استجابته

لدعواتهم.

و فى هـذه الآيـة تركيز على التهديـد بعـذاب اللّه و عقابه، من أجل إكمال طرق التربيـة و التهذيب، أى أنّ اللّه و هو أرحم الراحمين و ملجأ اللاجئين، قهار منتقم مقابل الطغاة العصاة، ففى هذه الآية يؤمر الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بتهديد المجرمين بثلاثة أنواع من العقاب: عـذاب من فوق، و عـذاب من تحت، و عقاب يتمثل فى اختلاف الكلمـة و الحرب و إراقـة الـدماء: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ

و فى الختـام تقول الآيـة: انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ أى انظر كيف نوضـح لهم المعـالم و الـدلائل على أمل أن يفهموا الحقائق و يعودا إلى اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۴

بحوث

هنا أيضا لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

۱- هنالـك اختلاـف بين المفسّـرين بشأن المقصود من العـذاب من فوق و من تحت، و يظهر أنّ لهاتين الكلمتين معانى واسـعة، فهما تشـملان الجهتين الماديتين من السـماء و من الأرض كالصواعق و الأمطار الغزيرة و العواصف المدمّرة التى يأتى من فوق، و الزلازل و الانشقاقات الأرضية المدمرة و فيضانات الأنهر و البحار من تحت.

كذلك تشـمل الآلام و المصائب التى ينزلها بعض الحكام و الطبقات المتسـلطة فى المجتمع على رؤوس الشـعوب، و كذلك الآلام و العذاب الذى يسببه بعض الموظّفين الذين لا يعرفون واجبهم للناس ممّا قد لا يقل عما يسببه الحكام و الطّبقات العليا من المجتمع.

و كذلك يحتمل أن تشـمل أسـلحة الحرب المخيفة فى عصـرنا التى تبيد حياة البشر بشكل وحشى من الأرض و الجو، و تحيل المدن خلال مدّة قصيرة إلى ركام و انقاض عن طريق القصف الجوى و الهجوم الأرضى و زرع الألغام و الغواصات المدمّرة داخل البحار.

۲- «يلبسـكم» من «اللبس» بفتـح اللاـم بمعنى الاختلاـط و الاـمتزاج، لاـ من «اللبس» بضم اللاـم بمعنى ارتـداء الملابس، و على ذلك يكون معنى الآية: إنّه قادر على أن يجعل منكم جماعات مختلفة تختلط بعض ببعض.

يسـتنتج من هذا التعبير أنّ مسألة اختلاف الكلمة و التفرق فى المجتمع لا تقل خطورتها عن العذاب السـماوى و الصواعق و الزلازل، و هو فى الحقيقـة كـذلك، بل قـد يكون الخراب الناشـئ من اختلاف الكلمة و التفرق أحيانا أشد وطأة و دمارا من الزلازل و الصواعق، كثيرا ما نلاحظ أنّ دولا عامرة يصيبها الفناء بسبب النفاق و التفرقة، و هذه الكلمة تحذير لجميع مسلمى العالم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۵

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآية، و هو- أنّ اللّه قد أشار- إلى جانب العذاب السماوى و الأرضى- إلى لونين آخرين من العذاب: أحدهما:

اختلاف العقيـدة و الفكر (و هو فى الواقع مثل العذاب النازل من فوق)، و الآخر: هو الاختلاف فى العمل و السـلوك الاجتماعى الذى يؤدى إلى الحروب و إراقة الدماء (و هو أشبه بالعذاب الآتى من تحت).

و عليه، فالآية تشير إلى أربعة ألوان من العذاب الطبيعى، و لونين من العذاب الاجتماعى.

۳- لا بدّ من الانتباه إلى أن قوله تعالى: أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً[۱۸۱]، لا يعنى أنّ اللّه يبتلى الناس- بـدون مبرر- بالنفاق و الاختلاف، بل إنّ ذلـك نتيجـة سوء أعمـالهم و غرورهم و أنانياتهم، و الانغماس فى منافعهم الشخصـية، ممّا يثير روح النفاق و التفرقـة بينهم، و ما نسـبة ذلك إلى اللّه إلّا لأنّه جعل تلك الآثار من نتائج تلك الأعمال.

۴- على الرّغم من أنّ الخطاب فى هذه الآية موجه إلى المشـركين و عبدة الأصـنام، فإنّنا نستنتج أنّ المجتمع المشرك و المنحرف عن

طريق التوحيد و عبادة اللّه، يصاب بظلم الطبقات العليا، و ظلم الطبقات الدنيا المتهاونة فى واجباتها، كما تقع البشرية بين براثن الاختلاف العقائدية و المخاصمات الدموية فى المجتمع، كما هو حال المجتمعات المعاصرة التى تعبد أوثان الصناعة و الثروة، فهى رهين مصائب لا فكاك لها من مخالبها.

بعض الشعوب المسلمة تتحدث عن التوحيد و عبادة اللّه بأقوالها، و لكنّها بأفعالها مشركة تعبد الأصنام. إن مصائر شعوب كهذا لا يختلف عن مصائر المشركين. و

قد يكون حديث الإمام الباقر عليه السّلام: «كل هذا فى أهل القبلة»

إشارة إلى هذا الاختلاف بين المسلمين، فعند ما ينحرف المسلمون عن طريق التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۶

تأخذ الأنانية وحبّ الذات مكان الأخوة الإسلامية، و تتغلب المصالح الشخصية على المصلحة العامّة، و لا يفكر الفرد إلّا بنفسه و ينسى الناس أوامر اللّه و نواهيه، فيحيق بهم ما أحاق بأولئك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۶ الى ۶۷]

اشارة

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۶۶) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۶۷)

التّفسير

تكمل هاتان الآيتان البحث الذى جرى فى الآيات السابقة عن الدعوة إلى اللّه و المعاد و حقائق الإسلام و الخشية من عقاب اللّه.

الآية الأولى: تخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ قومه- أى قريش و أهل مكّة- لم يصدقوا ما يقول مع أنّه صدق و حق و تؤكّده الأدلة العقلية المختلفة و الفطرية:

وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُ ۱۸۲] ثمّ يصدر الأمر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ أى إنّما أنا رسول و لست أضمن قبولكم.

فى الآيات الكثيرة المشابهة لهذه الآية (كالآيات ۱۰۷- الأنعام، ۱۰۸- يونس، ۴۱- الزمر، ۶- الشورى) يتبيّن أنّ المقصود من «وكيل» فى هذه المواضع هو المسؤول عن الهداية العملية للأفراد و الضامن لهم- لذلك فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول لهم فى هذه الآية: إنّ الأمر يعود إليكم، فأنتم الذين يجب أن تتخذوا القرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۸

النهائى فى قبول الحقيقة أو ردّها، فما أنا إلّا رسول أبلغ رسالة اللّه.

و فى الآية التّالية القصيرة ذات المعنى العميق تحذير لهم، و دعوة إلى إختيار الطريق الصحيح، و لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۱۸۳] أى أنّ كل خبر أخبركم به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الدنيا أو فى الآخرة موضع و مقر، و سوف يتحقق فى موعده المقرر، و عندئذ ستعرفون ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۲۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹]

اشارة

وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۶۸) وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۶۹)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه عند ما نزلت الآية الأولى و نهى المسلمون عن مجالسة الكفار و الذين كانوا يسخرون من آيات اللّه، قال فريق من المسلمين إذا كان علينا أن نلتزم بهذا النهى فى كل مكان فإنّه يمتنع علينا الذهاب إلى المسجد الحرام و الطواف به (و ذلك لأنّ أولئك كانوا منتشرين فى أطراف المسجد و لا يفتأون يتناولون الآيات القرآنية بالكلام الباطل، فحيثما نتوقف فى أرجاء المسجد ثمّة احتمال أن يصل كلامهم الى مسامعنا). عندئذ نزلت الآية الثانية تأمر المسلمين فى مثل هذه الحالات أن ينصحوهم و يهدوهم و يرشدوهم قدر إمكانهم.

إنّ ورود سبب نزول لهذه الآية لا يتعارض- كما قلنا من قبل- مع نزول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۰

السورة كلها مرّة واحدة، إذ من المحتمل أن تكون هناك حوادث مختلفة فى حياة المسلمين، فتنزل سورة واحدة تختص كل مجموعة من آياتها ببعض تلك الحوادث.

التّفسير

اجتناب مجالس أهل الباطل:

بما أنّ المواضيع التى تتطرق إليها هذه السورة تتناول حال المشركين و عبدة الأصنام، فهاتان الآيتان تبحثان موضوع آخر من المواضيع التى تتعلق بهم، ففى البداية تقول للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۱۸۴].

على الرغم من أنّ الكلام هنا موجه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه لا يقتصر عليه وحده، بل هو موجه إلى المسلمين كافة، إنّ فلسفة هذا الحكم واضحة، إذ لو اشترك المسلمون فى مجالسهم، لاستمر المشركون فى خوضهم فى آيات اللّه بالباطل نكاية بالمسلمين و استهزاء بكلام اللّه و لكنّ المسلمين إذا مروا دون أن يبالوا بهم، فسيكفّون عن ذلك و يغيرون الحديث إلى أمور أخرى، لأنّهم كانوا يتقصدون إيذاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين.

ثمّ تخاطب الآية رسول اللّه مؤكّدة أهمية الموضوع: وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ[۱۸۵] بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ أى إذا أنساك الشيطان هذا الأمر و جلست مع هؤلاء القوم سهوا، فعليك- حالما تنتبه- أن تنهض فورا و تترك مجالسة الظالمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۱

سؤالان:

هنا يبرز سؤالان:

الأوّل: هل يمكن للشّيطان أن يتسلط على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يسبب له النسيان؟

و بعبارة أخرى، كيف يمكن للنّبى مع عصمته و كونه مصونا عن الخطأ حتى فى الموضوعات أن يخطئ و أن ينسى؟

فى الإجابة على هذا السؤال يمكن القول بأنّ الخطاب فى الآية و إن يكن موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهو يتحدث فى الواقع مع اتباعه الذين يمكن أن ينسوا فيساهموا فى اجتماعات المشركين الآثمة، فهؤلاء عليهم حال انتباههم إلى ذلك أن يتركوا المكان، أنّ مثل هذا الأسلوب كثير الحدوث فى حياتنا اليومية و موجود فى مختلف آداب العالم، فأنت قد توجه الخطاب إلى أحدهم و لكنّ هدفك هو أن يسمع الآخرون ذلك كما يقول المثل: إياك أعنى و اسمعى يا جارة.

هناك مفسّرون آخرون مثل الطبرسى فى مجمع البيان و أبى الفتوح فى تفسيره المعروف يوردون جوابا آخر عن هذا السؤال خلاصته: إنّ السهو و النسيان فى قضايا الأحكام و مقام حمل الرسالة من جانب اللّه غير جائزين بالنسبة للأنبياء، أمّا فى الحالات التى لا تؤدى إلى ضلال الناس فجائزان، إلّا أنّ هذا الجواب لا يتفق مع ما هو مشهور عند متكلمينا من أن الأنبياء و الأئمّة معصومون عن الخطأ و مصونون عن النسيان، لا فى قضايا الأحكام وحدها، بل حتى فى القضايا العادية أيضا.

السؤال الثّانى: يعتبر بعض علماء أهل السنة هذه الآية دليلا على عدم جواز التقية الدينية للقادة الدينيين، و ذلك لأنّ الآية تصرّح بالنهى عن اللجوء إلى التقية أمام الأعداء و تأمر بترك مجلسهم.

و الجواب على هذا الاعتراض واضح، فالشيعة لا يقولون بوجوب التقية دائما، بل إنّ التقية فى بعض الأحيان حرام، إنّما ينحصر وجوبها فى الظروف التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۲

تكون فيها للتقية و كتمان الحق منافع أكبر من منافع إظهاره، أو تكون سببا فى دفع خطر أو ضرر كبير.

الآية التّالية فيها استثناء واحد، فإذا اشترك بعض المتقين فى جلسات هؤلاء المشركين لكى ينهوهم عن المنكر على أمل أن يؤدى ذلك إلى انصراف أولئك عن الإثم، فلا مانع من ذلك، و أنّ آثام أولئك لا تسجل على هؤلاء، لأنّ قصدهم هو الخدمة و القيام بالواجب: وَ ما عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لكِنْ ذِكْرى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

و هنالك تفسير آخر لهذه الآية، و الذى قلناه أكثر انسجاما مع ظاهر الآية و مع سبب النّزول.

و ينبغى أن نعلم- فى الوقت نفسه- إنّ الذين لهم أن يستفيدوا من هذا الاستثناء هم الذين تنطبق عليهم شروط الآية، فيكونون متميزين بالتقوى، و بعدم التأثر بهم، و بالقدرة على التأثير فيهم.

سبق فى تفسير الآية (۱۴۰) من سورة النساء أن تطرقنا إلى هذا الموضوع و ذكرنا مسائل أخرى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۰]

اشارة

وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

التّفسير

الذين اتّخذوا الدّين لعبا:

هـذه الآية تواصل ما بحثته الآية السابقة، و تأمر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يدع أولئك الذين يسـتهينون بأمر دينهم، و يتخـذون ممّـا يلهون و يلعبون به مـذهبا لهم و يغترون بالـدنيا و بمتاعهـا المادى: وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

بـديهى أنّ الأـمر بترك هؤلاء لا يتعارض مع قضـية الجهاد، فللجهاد شـروط، و لإهمال الكفار شـروط أخرى، و كل واحـد من هـذين الحالين يجب أن يتحقق فى ظروفه الخاصّة، قد يستلزم الأمر- أحيانا- دفع المناوئين عن طريق عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۴

الاعتنـاء بهم، و فى أحيان أخرى قـد يقتضـى الأمر الجهاد و التوسل بالسـلاح، أمّا القول بأنّ آيات الجهاد قـد نسـخت هـذه الآيـة فغير صحيح.

و تشـير هذه الآية إلى أنّ سلوكهم الحياتى من حيث المحتوى أجوف و واه، فهم يطلقون اسم الدين على بعض الأعمال التى هى أشبه بلعب الأطفـال و مجمون الكبار، فهؤلاء غير جـديرين بالمناقشـة و المباحثـة، و عليه يؤمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بأن يعرض عنهم و لا يعتنى بدينهم الفارغ.

يتضـح ممّا قلنا أنّ «دينهم» يعنى «دين الشـرك و عبادة الأصـنام» الذى كانوا يدينون به، أمّا القول بأنّ المقصود هو «الدين الحق» و إنّ إضافة الدين إليهم يستند إلى كون الدين فطريا، فيبدو بعيد الاحتمال.

و الاحتمال الآخر فى تفسـير الآية هو أن القرآن يشير إلى جمع من الكفار الذين كانوا يتعاملون مع دينهم كألعوبة و ملهاة، و لم ينظروا أبدا إلى الدين كأمر جاد يستوجب إمعان الفكر و التأمل، أى أنّهم كانوا لا يؤمنون حقيقة حتى فى معتقدات شركهم، و لم يقيموا وزنا حتى لدينهم الذى لا أساس له.

على كل حال فالآية لا تخص الكفار وحدهم، بل هى تشـمل جميع الذين يتخذون من الأحكام الإلهية و من المقدسات وسائل للتلهى و ملء الفراغ و بلوغ الأهداف المادية الشخصية، أولئك الذين يجعلون الدين آلة الدنيا، و الأحكام الإلهية العوبة أغراضهم الخاصّة.

ثمّ يؤمر الرّسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يتّبههم إلى أعمالهم هـذه و إلى أنّ هناك يوما لا بدّ لهم أن يستسـلموا فيه لنتائج أعمالهم و لن يجدوا من ذلك مفرا: وَ ذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِما كَسَبَتْ ۱۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۵

يوم لا شفيع ينفع و لا ولى سوى اللّه: لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ

إنّهم يؤمئـذ فى حال صـعبة مؤلمـة يرزحون فى قيود أعمالهم بحيث إنّهم يرتضون أن يدفعوا أية غرامة (إن كان عندهم ما يدفعونه) و لكنّها لن تقبل منهم:

وَ إِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْها[۱۸۷].

ذلك لأنّهم يكونون بين مخالب أعمالهم، و لا فدية تنجيهم، و لا توبة تنفعهم بعد أن فات الأوان: أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا.

ثمّ يشار إلى جانب ممّا سيصـيبهم من العذاب الأليم بسبب إعراضهم عن الحق و الحقيقة: لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ

إنّهم يتعذّبون بالماء الحريق من الداخل، و يكتوون بنار الجحيم.

يجـدر الانتباه هنا إلى أن جملة أُولئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِما كَسَبُوا هى بمثابة السـبب الذى يمنع من قبول الغرامة و من قبول أى شـفيع و ولى، أى أن عقابهم ليس لعلـة خارجيـة بحيث يمكن دفعها بشـكل من الأشـكال، بل ينبع من داخل الذات و سـلوكها و أعمالها، إنّهم

أسرى أعمالهم القبيحة، لذلك لا مفر لهم، لأنّ فرار المرء من أعماله و آثارها إنّما هو فرار من ذاته، و هو غير ممكن.
غير أنّنا لا بدّ أن نعلم أنّ هذه الحالة من الشدّة و الصعوبة و انعدام طريق العودة و رفض الشفاعة إنّما تكون بحق الذين أصروا على كفرهم و استمروا عليه، كما يتبيّن من عبارة: بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (الفعل المضارع يفيد الاستمرارية).
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۷۱) وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ وَ هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۲)

التّفسير

اشارة

كان المشركون يصرّون على دعوة المسلمين إلى العودة إلى الكفر و عبادة الأصنام، فنزلت هذه الآية تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالردّ عليهم ردّا يدحض رأيهم و يفند دعوتهم فى جواب بصيغة الاستفهام الاستنكارى: أ تريدون منّا أن نشرك مع اللّه ما لا يملك لنا نفعا فنعبده لذلك، و لا يملك لنا ضررا فنخافه؟!: قُلْ أَ نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُنا وَ لا يَضُرُّنا.
هذه الآية تشير إلى أنّ أفعال الإنسان تنشأ عادة عن دافعين، فهى إمّا أن تهدف إلى استجلاب منفعة (مادية كانت أم معنوية)، و أمّا إلى دفع ضرر (ماديا كان أم معنويا). فكيف يقدم الإنسان على أمر ليس فيه أى من هذين العاملين؟
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۷
ثمّ يأتى باستدلال آخر على المشركين، فيقول: إذا عدنا إلى عبادة الأصنام، بعد الهداية الإلهية نكون قد رجعنا القهقهرى، و هذا يناقض قانون التكامل الذى هو قانون حياتى عام: وَ نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا بَعْدَ إِذْ هَدانَا اللَّهُ ۱۸۸].
ثمّ يضرب مثلا لتوضيح الأمر، فيقول: إنّ الرجوع عن التوحيد إلى الشرك أشبه بالذى أغوته الشياطين (أو غيلان البوادى التى كان عرب الجاهلية يعتقدون أنّه تمكن فى منعطفات الطرق و تغوى السابلة و تضلهم عن الطريق) فتاه عن مقصده و ظل حيرانا فى الباديّة: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّياطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرانَ بينما له رفاق يرشدونه إلى الصراط السوى المستقيم و ينادونه: هلم إلينا، و لكنّه من الحيرة و التيه بحيث لا يسمع النداء، أو إنّه غير قادر على اتخاذ القرار: لَهُ أَصْحابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنا[۱۸۹].
و فى الختام يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول: إنّ الهداية من اللّه و ليس لنا إلّا أن نسلم لأمر اللّه ربّ العالمين: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدى وَ أُمِرْنا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ
و هذا دليل آخر على رفض دين المشركين، إذ التسليم لا يكون إلّا لخالق الكون و مالكه و ربّ عالم الوجود، لا الأصنام التى لا دور لها فى إيجاد هذا العالم و إدارته.

سؤال:

يبرز هنا هـذا السؤال: لم يكن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قبل البعثـة من أتباع دين المشـركين فكيف تقول الآية: نُرَدُّ عَلى أَعْقابِنا و نحن نعلم أنّه لم يسجد قط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۸

لصنم، إذ لم يرد هذا فى جميع التواريخ التى كتبت عنه، بل أن مقام العصمة لا يمكن أن يسمح بحدوثه؟

الجواب:

فى الحقيقة تعتبر هذه الآية ممّا جاء على لسان جميع المسـلمين، لا على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده، و لذلك جاءت الضمائر فيها بصيغة الجمع.

الآية التّالية، تواصل شرح الدعوة الإلهية قائلة: إنّنا فضلا عن التوحيد، فقد أمرنا بإقامة الصّلاة و بتقوى اللّه: وَ أَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ اتَّقُوهُ و فى الختام يشار إلى المعاد و إلى أنّ الناس إلى اللّه يرجعون: وَ هُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

هذه الآيات القصار تكشف عن البرنامج الذى يدعو اليه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المتألف من أربعة مبادئ، تبدأ بالتوحيد و تنتهى بالمعاد، و بينهما مرحلتان متوسطتان هما: تقوية الارتباط باللّه، و الاتقاء من كل ذنب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۳۹

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۳]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۷۳)

التّفسير

هذه الآية دليل على ما جاء فى الآية السابقة، و على ضرورة التسليم للّه و إتّباع رسوله، لذلك تقول: هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

إنّ مبدأ عالم الوجود هو وحده الجدير بالعبادة، و هو وحده الذى يجب الخضوع و التسليم له، لأنّه خلق الأشياء لمقاصد حقّه.

المقصود من «الحق» فى الآيـة هو الأهـداف و النتائـج و المنافع و الحكم، أى أنّ كل مخلوق قد خلق لهدف و غاية و مصـلحة، و هذه الآية تشبه الموضوع الذى تتناوله الآية (۷۷) من سورة ص التى جاء فيها: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا.

ثمّ يقول: إنّه فضـلا عن كونه مبـدع عـالم الوجود، فـان يوم القيامـة أيضا يقوم بأمره، و إذا ما أصـدر أمره بقيام ذلك اليوم فإنّه يتحقق فورا: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۰

فَيَكُونُ ۱۹۰].

يحتمـل بعضـهم أنّ هـذه العبـارة تشـير إلى مبـدأ الخلق و إيجاد عالم الوجود، حيث خلق كل شـىء بأمر اللّه، و لكن بالنظر لأنّ الفعل

«يقول» مضارع، و هناك قبل هذه الآية إشارة إلى أصل الخلق، و كذلك بالرجوع إلى الآيات التّالية، يمكن القول بأنّ هذه العبارة تخص البعث و يوم القيامة.

سبق فى تفسير الآية (۱۱۷) من سورة البقرة فى المجلد الأوّل أن قلنا إنّ كُنْ فَيَكُونُ لا تعنى إصدار أمر لفظى لشىء أن يكون فيكون، بل تعنى إنّه إذا شاء خلق شىء، فإنّ إرادته تتحقق دون حاجة الى وجود أى عامل آخر، فإذا شاء أن يتحقق الشىء فهو يتحقق فورا. و إذا شاء أن يتحقق تدريجيا فإنّ خطّة تحققه التدريجى تبدأ.

ثمّ يضيف: أنّ ما يقوله اللّه هو الحق، أى أنّه مثلما كان مبدأ الخلق ذا أهداف و نتائج و مصالح، كذلك سيكون يوم القيامة: قَوْلُهُ الْحَقُ

و فى ذلك اليوم الذى ينفخ فيه فى صور و يبعث الناس يوم القيامة، يكون الحكم و الملك للّه: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ.

حكومة اللّه على عالم الوجود و مالكيته له قائمتان منذ بداية الخلق حتى نهايته و فى يوم القيامة، و لا يختص ذلك بيوم القيامة وحده، لكن هناك عوامل و أسبابا تؤثر فى مسار هذه الدنيا و تقدمها نحو أهدافها، لذلك قد يغفل الإنسان أحيانا عن وجود اللّه وراء هذه الأسباب و العوامل، أمّا فى ذلك اليوم الذى تتعطل فيه جميع الأسباب و العوامل، فإنّ حكومة اللّه و مالكيته تكونان أجلى و أوضح من أى وقت سابق، كما جاء فى آية أخرى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۱

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۱۹۱].

فيما يتعلق بماهية «الصور» و كيف ينفخ فيه إسرافيل فتموت الأحياء، ثمّ يعيد النفخ فى الصور فيعود الجميع إلى الحياة و يبدأ يوم القيامة- سوف نشرح ذلك إن شاء اللّه- فى تفسير الآية (۶۸) من سورة الزمر.

و فى ختام الآية إشارة إلى ثلاث من صفات اللّه تعالى، فهو: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

ترد هذه الصفات غالبا فى الآيات التى تخص يوم القيامة، أى أنّه بمقتضى صفة العلم المطلق عالم بأعمال عباده، و بمقتضى قدرته و حكمته يجازى كلا بما يستحقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۷۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۷۴)

التّفسير

اشارة

لما كانت هذه السورة تحارب الشرك و عبادة الأصنام و يدور فيها الكلام أكثر ما يدور على المشركين و عبدة الأصنام، و تستخدم مختلف الأساليب لإيقاظهم، فهى تستخدم هنا حكاية إبراهيم بطل التوحيد، و تشير إلى منطقه القوى فى تحطيم الأصنام ضمن بضع آيات.

من الجدير بالانتباه أنّ القرآن فى كثير من بحوثه عن التوحيد و محاربة عبادة الأصنام يستند إلى هذه الحقيقة، لأنّ إبراهيم عليه السّلام

كان يحظى باحترام الأقوام كافة، و على الأخص مشركى العرب.

يقول: إنّ إبراهيم و بخ أباه (عمّه) قائلا: أ تختار هذه الأصنام الحقيرة التى لا حياة فيها آلهة للعبادة: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ و أى ضلال أشد و أضح من أن يجعل الإنسان ما يخلقه بيده إلها يعبده، و يتخذ من كائن جامد لا روح فيه و لا إحساس ملجأ يفزع إليه و يبحث عن حل مشاكله عنده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۳

هل كان آزر أبا إبراهيم؟

تطلق كلمة «الأب» فى العربية على الوالد غالبا، و لكنّها قد تطلق أيضا على الجد من جهة الأمّ و على العم، و كذلك على المربى و المعلم و الذين يساهمون بشكل ما فى تربية الإنسان، و لكنّها إذا جاءت مطلقة فانّها تعنى الوالد ما لم تكن هناك قرينة تدلّ على غير ذلك.

فهل الرجل الذى تشير إليه الآية (آزر) هو والد إبراهيم؟ أ يجوز أن يكون عابد الأصنام و صانعها والد نبى من أولى العزم؟ ألا يكون للوراثة من هذا الوالد تأثير شىء فى أبنائه؟

بعض مفسّرى أهل السنّة يجيب بالإيجاب على السؤال الأوّل، و يعتبر آزر والد إبراهيم الحقيقى، أمّا المفسّرون الشيعة فيجمعون على أن آزر ليس والد إبراهيم، بل قال بعضهم: إنّه كان جدّه لأمّه، و قال أكثرهم: إنّه كان عمه، و هم فى ذلك يستندون إلى القرائن التّالية:

۱- لم يرد فى كتب التّأريخ أنّ أبا إبراهيم هو آزر، بل يقول التّأريخ إنّ اسم أبيه هو «تارخ» و هذا ما ورد أيضا فى العهدين القديم و الجديد، و الذين يعتبرون آزر والد إبراهيم يستندون إلى تعليلات لا يمكن قبولها من ذلك أنّهم يقولون: إنّ اسم والد إبراهيم هو تارخ و لقبه آزر، و هذا القول لا تسنده الوثائق التّأريخية.

أو يقولون: إنّ «آزر» اسم صنم كان أبو إبراهيم يعبده، و هذا القول لا يأتلف مع هذه الآية التى تقول أن أباه كان آزر، إلّا إذا قدرنا جملة أو كلمة، و هذا أيضا خلاف الظاهر.

۲- يقول القرآن: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى ... ثمّ لكيلا يتخذ أحد من استغفار إبراهيم لآزر حجّة يقول:

وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۴

تَبَرَّأَ مِنْهُ ۱۹۲] و ذلك لأنّ إبراهيم كان قد وعد آزر أن يستغفر له: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۱۹۳] بأمل رجوعه عن عبادة الأصنام، و لكنّه عند ما رآه مصمما على عبادة الأصنام و معاندا، ترك الاستغفار له.

يتّضح من هذه الآية بجلاء أن إبراهيم بعد أن يئس من آزر، لم يعد يطلب له المغفرة و لم يكن يليق به أن يفعل.

كل القرائن تدل على أنّ هذه الحوادث وقعت عند ما كان إبراهيم شابا، يعيش فى بابل و يحارب عبدة الأصنام.

و لكن آيات أخرى فى القرآن تشير إلى أن إبراهيم فى أواخر عمره، و بعد الانتهاء من بناء الكعبة، طلب المغفرة لأبيه (فى هذه الآيات- كما سيأتى- لم تستعمل كلمة «أب» بل استعملت كلمة «والد» الصريحة فى المعنى) حيث يقول:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ ...

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ ۱۹۴].

إذا جمعنا هـذه الآية مع آية سورة التوبة التى تنهى المسلمين عن الاستغفار للمشركين و تنفى ذلك عن إبراهيم، إلّا لفترة محدودة و لهدف مقدس، تبيّن لنا بجلاء أنّ المقصود من «أب» فى الآية المذكورة ليس «الوالد»، بل هو العم أو الجد من جانب الأمّ أو ما إلى ذلك، و بعبارة أخرى: إنّ «والد» تعطى معنى الأبوة المباشرة، بينما «أب» لا تفيد ذلك.

و قد وردت فى القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما فى الآية (۱۳۳) من سورة البقرة: قالُوا نَعْبُدُ إِلهَكَ وَ إِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِلهاً واحِداً و الضمير فى «قالوا» يعود على أبناء يعقوب، و كان إسماعيل عم يعقوب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۵

لا أباه.

۳- و هناك روايات إسلامية مختلفة تؤكّد هذا الأمر،

فقد جاء فى حديث معروف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لم يزل ينقلنى اللّه من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجنى فى عالمكم هذا لم يدنسنى بدنس الجاهلية»[۱۹۵].

و لا شك أن أقبح أدناس الجاهلية هو الشرك و عبادة الأوثان، أما القائلون أنّ أقبحها هو الزنا فلا يقوم على قولهم دليل. خاصّة و انّ القرآن يقول: إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ۱۹۶].

الطبرى، و هو من علماء أهل السنة، ينقل فى تفسيره «جامع البيان» عن المفسّر المعروف «مجاهد» أنّه قال: لم يكن آزر والد إبراهيم ۱۹۷].

الآلوسى فى «روح المعانى» يؤكّد عند تفسير هذه الآية أنّ الشيعة ليسوا وحدهم الذين يعتقدون أن آزر لم يكن والد إبراهيم، بل إن كثيرا من علماء المذاهب الأخرى يرون أن آزر اسم عم إبراهيم ۱۹۸].

و السيوطى العالم السنى المعروف، نقل فى كتابه «مسالك الحنفاء» عن أسرار التنزيل للفخر الرازى أن والدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أجداده لم يكونوا مشركين أبدا. مستدلا على ذلك بالحديث الذى نقلنا آنفا، ثمّ يستند السيوطى نفسه إلى مجموعتين من الرّوايات.

الأولى: تقول إنّ آباء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أجداده حتى آدم كان كل واحد منهم أفضل أهل زمانه (و ينقل أمثال هذه الرّوايات عن «صحيح البخارى» و «دلائل النبوة» للبيهقى و غيرهما من المصادر).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۶

و الثّانية: هى التى تقول: إنّه فى كل عصر و زمان كان هناك أناس من الموحدين الذين يعبدون اللّه، ثمّ يجمع بين هاتين المجموعتين من الرّوايات و يستنتج أنّ أجداد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بما فيهم والد إبراهيم، كانوا حتما من الموحدين ۱۹۹].

يتبيّن من هذا أنّ التّفسير المذكور لهذه الآية مبنى على وجود قرائن واضحة من القرآن نفسه و من مختلف الرّوايات الإسلامية، و ليس تفسيرا مبنيا على الرأى الشخصى فقط، كما يقول بعض مفسّرى أهل السنة، مثل صاحب «المنار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۷۵ الى ۷۹]

اشارة

وَ كَذلِكَ نُرِى إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (۷۵) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هـذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ

قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (۷۶) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هـذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَکُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّینَ (۷۷) فَلَمَّا رَأَی الشَّمْسَ بازِغَـةً قالَ هـذا رَبِّی هـذا أَکْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ یا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْـرِکُونَ (۷۸) إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِیَ لِلَّذِی فَطَرَ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِیفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۷۹)

التّفسير

أدلة التوحيد فى السموات:

على أثر الكره الذى كان يحمله إبراهيم للأوثان و طلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، تشير هذه الآيات إلى نضال إبراهيم المنطقى مع مختلف عبدة الأصنام، و تبيّن كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلى الواضح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۸

تبيّن أولاـ أنّ اللّه كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية اللّه و سلطته المطلقة على السموات و الأرض: وَ كَذلِكَ نُرِی إِبْراهِیمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۲۰۰].

«الملكوت» من «ملك» بمعنى المالكية و الحكم و «الواو» و «التاء» أضيفتا للتوكيد و المبالغة، فالمقصود من الكلمة هنا حكومة اللّه المطلقة على عالم الوجود برمته.

و لعل هذه الآية إجمال للتفصيل الوارد فى الآيات التّالية بشأن الكواكب و القمر و الشمس و إدراك أنّها من المخلوقات لدى مشاهدة أفولها.

أى أنّ القرآن بدأ بذكر مجمل تلك الحالات، ثمّ أخذ يفصلها، و بهذا يتّضح المقصود من إراءة ملكوت السموات و الأرض لإبراهيم عليه السّلام.

كما أنّه فى الختام يقول إنّ الهدف من ذلك هو أن يصبح إبراهيم من أهل اليقين: وَ لِیَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ

لا شك أنّ إبراهيم كان موقنا يقينا استدلاليا و فطريا بواحدانية اللّه، و لكنّه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال، كما أنّه كان مؤمنا بالمعاد و يوم القيامة، و لكنّه بمشاهدة الطيور المذبوحة التى عادت إليها الحياة بلغ إيمانه مرحلة «عين اليقين».

الآيات التّالية تشرح هذا المعنى، و تبيّن استدلال إبراهيم من أفول الكواكب و الشمس على عدم الوهيتها، فعند ما غطى ستار الليل المظلم العالم كلّه، ظهر أمام بصره كوكب لامع، فنادى إبراهيم: هذا ربّى! و لكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبّ الذين يغربون: فَلَمَّا جَنَّ عَلَیْهِ اللَّیْلُ رَأَی كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِینَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۴۹

و مرّة أخرى رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضى ذو الإشعاع و اللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربّى: و لكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكواكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدنى ربّى إلى الطريق الموصل إليه فسأكون فى عداد التائهين فَلَمَّا رَأَی الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هـذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّینَ

عند ذاك كان الليل قد انقضى، و راح يجمع أطراف أستاره المظلمة هاربا من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق و تلقى بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبى تنشره على الجبل و الوادى و الصحراء، و ما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّى فإنّه أكبر و أقوى ضوءا، و لكنّه إذ رآها كذلك تغرب و تختفى فى جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم

قراره النهائى قائلا: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التى تجعلونها شريكة للّه: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلها قادرا و حاكما على نظام الكائنات، فإنى أتجه إلى الذى خلق السموات و الأرض، و فى إيمانى هذا لن أشرك به أحدا، فانى موحد و لست مشركا: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ حَنِيفاً وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

للمفسّرين كلام كثير فى تفسير هذه الآية و الآيات التّالية بشأن ما دفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۰

بإبراهيم الموحد العابد للّه الواحد، أن يشير إلى كوكب فى السماء و يقول: هذا ربّى؟ و من بين آراء المفسّرين الكثيرة نقف عند تفسيرين قد اختار كلا منهما عدد من كبار المفسّرين، كما أنّهما مدعومان بشواهد من المصادر الحديثية:

الأوّل: يقول إنّ إبراهيم كان يريد شخصيا أن يفكر فى معرفة اللّه و أن يعثر على المعبود الذى كان يجده بفطرته النقية فى أعماق ذاته، إنّه كان يعرف اللّه بنور فطرته و دليل العقل الإجمالى إذ إنّ كل تعبيراته تدل على أنّه لم يكن يشك أبدا فى وجوده، و لكنّه كان يبحث عن مصداقه الحقيقى، بل لقد كان يعلم بمصداقه الحقيقى أيضا، و لكنّه كان يريد أن يصل عن طريق الاستدلال العقلى الأوضح إلى مرحلة «حق اليقين».

و قد وقعت له هذه الحوادث قبل نبوته، و يحتمل أن تكون فى أوّل بلوغه أو قبيل ذلك.

نقرأ فى بعض التواريخ و الرّوايات أنّ هذه كانت المرّة الأولى التى يرنو فيها إبراهيم بنظره إلى السماء و إلى كواكبها الساطعة، لأن أمّه كانت منذ طفولته قد أخفته فى عار خوفا عليه من بطش نمرود الجبار و جلاوزته.

غير أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا، إذ يصعب أن نتصور إنسانا يعيش سنوات طويلة فى بطن غار و لا يخلو خارجه، و لو مرّة، فى ليلة ظلماء، فلعل الذى قوى هذا الاحتمال فى نظر بعض المفسّرين هو تعبير رَأَى كَوْكَباً الذى يوحى بأنه لم يكن قد رأى كوكبا حتى ذلك الحين، و لكن هذا التعبير لا يحمل فى الواقع مثل هذا المفهوم، بل المقصود هو أنّه، و إن كان قد رأى الكواكب و الشمس و القمر مرات حتى ذلك الوقت، فقد ألقى الأوّل مرّة نظرة فاحصة مستطلعة إلى هذه الظواهر. و كان يفكر فى مغزى بزوغها و أفولها و نفى الألوهية عنها، فى الحقيقة كان إبراهيم قد رآها مرارا، و لكن لا بتلك النظرة.

لذلك فإنه عند ما يقول: هذا رَبِّي لا يقولها قاطعا جازما، بل يقولها من باب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۱

الفرض و الاحتمال حتى يفكر فى الأمر، و هذا يشبه تماما حالنا و نحن نحاول أن نعثر على سبب حادثة ما، فنقلب مختلف الاحتمالات و الافتراضات على وجوهها واحدة واحدة، و نستقصى لوازم كل فرضية حتى نعثر على العلة الحقيقية، و هذا لا يكون كفرا، بل و لا حتى دليلا على عدم الإيمان، بل هو طريق لتحقيق أكثر و لمعرفة أفضل، للوصول إلى مراحل أعلى من الإيمان، كما فعل إبراهيم فى مسألة «المعاد» إذ قام بمزيد من الدراسة يوصل إلى مرحلة الشهود و الاطمئنان.

جاء فى تفسير العياشى عن محمّد بن مسلم عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام أنّه قال: «إنّما كان إبراهيم طالبا لربّه، و لم يبلغ كفرا، و انّه من فكر من الناس فى مثل ذلك فإنه بمنزلته»[۲۰۱].

و هنالك روايتان أخريان يذكرهما تفسير نور الثقلين بهذا الشأن.

أمّا التّفسير الثّانى فيقول: إن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبدة النجوم و الشمس، و يحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديدة فى بابل مع عبدة الأوثان و خروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، و إبراهيم الذى كان قد خبر عناد الأقوام الجاهلة فى بابل و خطأ تفكيرهم، أراد أن يحلب إليه انتباه عبدة الكواكب و الشمس و القمر، فأظهر فى البداية أنّه معهم و قال

لهم:

إنكم تقولون: إنّ كوكب الزاهرة هذا هو ربّى، حسنا، فلنر ما يحصل لهذا الإعتقاد فى النهاية، و لم يمض وقت طويل حتى اختفى وجه الكواكب النير خلف ستار الأفق المظلم، عندئذ اتّخذ إبراهيم من هذا الأفول سلاحا يواجههم به فقال: أنا لا يمكننى أن أتقبل معبودا كهذا.

و عليه، فإنّ عبارة هذا رَبِّى تعنى: هذا ما تعتقدون أنّه ربّى، أو أنّه قالها بلهجة الاستفهام: «هذا ربّى؟».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۲

و يؤيد هذا التّفسير أيضا رواية فى «نور الثقلين» و تفاسير أخرى عن كتاب «عيون أخبار الرضا عليه السّلام».

كيفية استدلال إبراهيم على التوحيد:

هنا يبرز هذا السؤال: كيف استطاع إبراهيم أن يستدل من غروب الشمس و القمر و الكواكب على عدم ربوبيتها؟

يمكن أن يكون هذا الاستدلال من طرق ثلاثة:

۱- إنّ اللّه المربى، كما يستفاد من كلمة «رب» لا بدّ أن يكون دائما قريبا من مخلوقاته و أن لا ينفصل عنهم لحظة واحدة، و عليه لا يجوز لكائن يغرب و يختفى ساعات طويلة، بنوره و بركته و تنقطع صلته كليا عن الكائنات الأخرى، أن يكون ربّا و إلها.

۲- إنّ كائنا يغرب و يبزغ و يخضع للقوانين الطبيعية، لا يمكن أن يحكم على هذه القوانين و يملكها؟ إنّه هو نفسه مخلوق ضعيف يخضع لأوامرها و غير قادر على أدنى انحراف عنها ...

۳- إنّ الكائن المتحرك لا يمكن إلّا يكون كائنا حادثا، فقد أثبتت الفلسفة أنّ الحركة دليل على الحدوث، لأنّ الحركة ذاتها نوع من الوجود الحادث، و أن ما يكون فى معرض الحوادث، أى يكون ذا حركة، لا يمكن أن يكون كائنا أزليا و أبديا (تأمل بدقّة).

ملاحظات

هنا لا بدّ من الانتباه إلى النقاط التّالية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۳

۱- فى الآية الأولى من الآيات التى نحن بصددها، كلمة «كذلك ...» تلفت النظر، و هى تعنى: إنّنا مثلما أوضحنا عقلا أضرار عبادة الأصنام لإبراهيم، كذلك نريه مالكية اللّه للسماوات و الأرض و حكمه عليها، يقول بعض المفسّرين:

ذلك يعنى: إنّنا كما أريناك قدرة اللّه و حكمه على السموات، أريناها لإبراهيم أيضا لكى يزداد معرفة باللّه.

۲- أصل «الجن» ستر الشىء عن الحاسة، فمعنى الآية هو: عند ما ستر الليل ملامح الكائنات عن إبراهيم ... و إطلاق كلمة «مجنون» على المخبول لإسدال ستار على عقله، و إطلاق «الجن» على الكائنات غير المرئية جاء من هذا الباب، و كذلك الجنين لاختفائه عن الأنظار فى رحم أمه، و «الجنّة» هى البستان التى اختفت أرضها تحت أغصان الأشجار، و قيل للقلب «الجنان» لاستتاره فى الصدر، أو لأنّه يخفى أسرار الإنسان.

۳- و بشأن تعيين الكوكب الذى رآه إبراهيم، ذهب المفسّرون مذاهب شتى، غير أنّ معظمهم يراه «الزهرة» أو «المشترى» و يذكر التّأريخ أنّ القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أمّا الحديث المنقول عن الإمام الرضا عليه السّلام فى «عيون الأخبار» فيقول: إنّ ذلك الكوكب كان «الزهرة»، و هذا ما جاء أيضا فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام ۲۰۲].

يقول بعض المفسّرين أنّ أهالى كلدة و بابل شرعوا فى محاربة عبدة الأصنام، و راحوا يختارون السيارات باعتبار كل واحدة منها تمثل

إلها لنوع من أنواع الأشياء من ذلك أنّهم اعتبروا «المريخ» إله الحرب، و «المشترى» إله العدل و العلم، و «عطارد» إليه الوزراء و «الشمس» ملك الآلهة جميعا[۲۰۳].

۴- «بازغ» من «بزغ» و بزغه: شقه و أسال دمه، و لذلك تطلق على عمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۴

البيطار فى الجراحة، و إطلاق هذه الكلمة على طلوع الشمس أو القمر تعبير بليغ يحمل أجمل صور التشبيه، فالشمس و القمر عند الطلوع يشقان الظلام، و يسكبان عند الأفق إحمرار الشفق الذى ليس ببعيد الشبه عن الدم المسفوح.

۵- «فطر» من «الفطور» بمعنى الشق، و لعل إطلاق هذه الكلمة على خلق السماء و الأرض ناشئ- كما قلنا فى تفسير الآية (۱۴) من هذا السورة- من كون العالم كان فى اليوم الأوّل حسبما يقول العلم اليوم- كتلة واحدة، ثمّ تشققت و ظهرت الكرات و الإجرام السماوية الواحدة بعد الأخرى (انظر تفسير الآية المذكورة لمزيد من الإيضاح).

۶- «الحنيف» هو الخالص، كما جاء فى تفسير الآية (۶۷) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۰ الى ۸۳]

اشارة

وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ قالَ أَ تُحاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّى شَيْئاً وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (۸۰) وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۱) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۸۲) وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۸۳)

التّفسير

اشارة

تعقيبا على ما جرى بحثه فى الآيات السابقة بشأن استدلالات إبراهيم عليه السّلام التوحيدية، تشير هذه الآيات إلى ما دار بين إبراهيم و الأقوام المشركة من عبدة الأصنام، الذين بدأوه بالمحاجة وَ حاجَّهُ قَوْمُهُ

فردّ عليهم إبراهيم عليه السّلام قائلا: لماذا تجادلوننى فى اللّه الواحد الأحد و تخالفوننى فيه، و هو الذى وهبنى من الدلائل المنطقية الساطعة ما هدانى به إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۶

طريق التوحيد قالَ أَ تُحاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانِ

يتّضح فى هذه الآية بجلاء أنّ قوم إبراهيم المشركين من عبدة الأصنام كانوا يحاولون جهدهم و بأى ثمن أن يبعدوا إبراهيم عن عقيدته و يرجعوه إلى عبادة الأصنام، و لكنّه بكل شجاعة و جرأة ردّ عليهم بالدلائل المنطقية الواضحة.

لا تشير هذه الآيات إلى المنطق الذى توسل به قوم إبراهيم لحمله على ترك عقيدته، و لكن يبدو من جواب إبراهيم أنّهم قد حذروه و هددوه بغضب آلهتهم و عقابها فى محاولة لإرعابه و إخافته، لأنّنا على أثر ذلك نسمع إبراهيم يستهين بتهديدهم و يؤكّد لهم أنّه لا

يخشى أصنامهم التى لا حول لها و لا قوّة فى إيصال أى أذى إليه وَ لا أَخافُ ما تُشْرِكُونَ بِهِ .. فما من أحد و لا من شىء بقادر على أن يلحق بى ضررا إلّا إذا شاء اللّه: إِلَّا أَنْ يَشاءَ رَبِّى شَيْئاً[۲۰۴].

يظهر من هذه الآية أنّ إبراهيم عليه السّلام سعى لاتخاذ إجراء وقائى تجاه حوادث محتملة، فيؤكّد أنّه إذا أصابه فى هذا الصراع شىء- فرضا- فلن يكون لذلك أى علاقة بالأصنام، بل يعود إلى إرادة اللّه، لأنّ الصنم الذى لا روح فيه و لا قدرة له على أن ينفع نفسه أو يضرها، لا يتأتى له أن ينفع أو يضرّ غيره.

و يضيف إلى ذلك مبينا أنّ ربّه على درجة من سعة العلم بحيث يسع بعلمه كل شىء: وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً.

هذه العبارة- فى الواقع- دليل على العبارة السابقة التى تقول: إنّ الأصنام لا قدرة لها على النفع و الضرر، لأنّها لا تملك العلم و لا المعرفة اللازمين لمن يريد أن ينفع أو يضرّ، إنّ اللّه الذى أحاط علمه بكل شىء هو وحده القادر على أن يكون منشأ النفع و الضرر، فلم إذن أخشى غضب غير اللّه؟! ثمّ يحرك فيهم روح البحث و التفكير فيخاطبهم قائلا: أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۷

فى الآية التّالية ينهج إبراهيم منطقا استدلاليا آخر، فيقول لعبدة الأصنام:

كيف يمكننى أن أخشى الأصنام و يستولى علىّ الخوف من تهديدكم، مع إنّى لا أرى فى أصنامكم أثرا للعقل و الإدراك و الشعور و القوة و العلم، أمّا أنتم فعلى الرغم من إيمانكم بوجود اللّه و إقراركم له بالعلم و القدرة، و معرفتكم بأنّه لم يأمركم بعبادة هذه الأصنام، فانّكم لا تخافون غضبه: وَ كَيْفَ أَخافُ ما أَشْرَكْتُمْ وَ لا تَخافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً[۲۰۵].

إنّنا نعلم أن عبدة الأصنام لم يكونوا ينكرون وجود اللّه خالق السموات و الأرض، و لكنّهم كانوا يشركون الأصنام فى عبادته و يعتبرونها شفيعة لهم عنده، كونوا منصفين إذن و قولوا: فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

يستند منطق إبراهيم عليه السّلام هنا إلى منطق العقل القائم على الواقع، إنّكم تهددوننى بغضب الأصنام، مع أن تأثيرها و هم من الأوهام، و لكنّكم بعدم خشيتكم من اللّه العظيم الذى نؤمن به جميعا، و نعتقد بوجوب اتباع أمره تكونون قد تركتم أمرا ثابتا، و تمسكتم بأمر و همى فهو لم يصدر إلينا أمرا بعبادة الأصنام.

فى الآية التّالية جواب يدلى به إبراهيم على سؤال كان هو قد ألقاه فى الآية السابقة (و هذا أسلوب من أساليب الاستدلال العلمى، فقد يسأل المتكلم سؤالا عن لسان المخاطب ثمّ يبادر إلى الإجابة عليه مباشرة كدليل على أن الجواب من الوضوح بحيث ينبغى أن يعرفه كل شخص)، يقول: إنّ المؤمنين الذين لم يمزجوا إيمانهم بظلم، هم الآمنون و هم المهتدون الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

ثمّة رواية عن أمير المؤمنين على عليه السّلام تؤيد كون هذه الآية استكمالا لحوار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۸

إبراهيم مع عبدة الأصنام ۲۰۶].

بعض المفسّرين يرى أن من المحتمل أن تكون هذه الآية بيانا إلهيا، و ليست مقولة قالها إبراهيم، إلّا أن ما ذكرناه- فضلا عن تأييد الرواية المذكورة له- أكثر انسجاما مع ترتيب الآيات و وضعها، أمّا القول بأنّ هذه الآية لسان حال عبدة الأصنام، و إنّهم قالوها بعد تيقظهم على أثر سماع أدلة إبراهيم، فأمر بعيد الاحتمال جدّا.

ما معنى «الظلم» هنا؟

يرى معظم المفسّرين أنّ معنى «الظلم» هنا هو «الشرك». و أنّ الآية (۱۲) من سورة لقمان: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ دليل على ذلك.

و

فى رواية منقولة عن ابن عباس أنّه عند نزول هذه الآية شقّ على الناس فقالوا: يا رسول اللّه و أينا لم يظلم نفسه؟ (أى أنّ الآية تشملهم جميعا)، فقال:

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح:

... يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۲۰۷].

غير أنّ لآيات القرآن معانى متعددة فى كثير من الحالات بحيث يمكن أن يكون أحدها أوسع و أشمل، و هذا الاحتمال جائز فى هذه الآية أيضا، فيحتمل أن يكون «الأمن» عاما يشمل الأمن من عقاب اللّه، و الأمن من حوادث المجتمع المؤلمة، و الأمن من الحروب و المفاسد، و الجرائم و حتى الأمن النفسى لا يتحقق إلّا عند ما يسود المجتمع مبدءان معا: الإيمان و العدالة الاجتماعية، فإذا ما تزلزلت قاعدة الإيمان باللّه، و زال الشعور بالمسؤولية أمام اللّه، و حل الظلم محل العدالة الاجتماعية، فلن يكون فى مثل هذا المجتمع أمان. لذلك فعلى الرغم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۵۹

المساعى و الجهود التى يبذلها فريق من العلماء فى العالم للحيلولة دون انعدام الأمن، فإنّ الهوة بين العالم و حالة الأمن و الاستقرار تتسع يوما بعد يوم إنّ السبب هو ما جاء فى الآية المذكورة: تزلزل أركان الإيمان، و قيام الظلم مقام العدالة.

إنّ تأثير الإيمان فى الاطمئنان النفسى و الهدوء الروحى لا يمكن إنكاره، كما لا يخفى على أحد حالات تبكيت الضمير و القلق النفسى بسبب ارتكاب المظالم.

روى عن الإمام الصّادق عليه السّلام فى قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ قال: «بما جاء به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الولاية، و لم يخلطوها بولاية فلان و فلان»[۲۰۸].

هذا التّفسير يستهدف- فى الحقيقة- بيان روح الموضوع فى الآية الشريفة، إذ أنّ الكلام يدور حول ولاية اللّه و عدم خلطها بولاية غيره، و لما كانت ولاية أمير المؤمنين على عليه السّلام بموجب إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ .. قبسا من ولاية اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الولايات غير المعينة من قبل اللّه ليست كذلك، فإنّ هذه الآية من خلال نظرة واسعة تشمل الجميع، و عليه ليس المقصود من هذا الحديث أن ينحصر معنى الآية فى هذا فقط، بل إنّ هذا التّفسير قبس من مفهوم الآية الأصلى.

لذلك نجد فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه جعل هذه الآية تشمل الخوارج الذين خرجوا من ولاية اللّه و دخلوا فى ولاية الشيطان ۲۰۹].

الآية التّالية فيها إشارة إجمالية لما مضى من بحث بشأن التوحيد و مجابهة الشرك كما جاء فى لسان إبراهيم: فتقول: وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ عَلى قَوْمِهِ

صحيح أنّ تلك الاستدلالات كانت منطقية توصّل إليها إبراهيم بقوّة العقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۰

و الإلهام الفطرى غير أن قوة العقل و الإلهام الفطرى من اللّه، لذلك فإنّ اللّه ينسبها إلى نفسه و يوقعها فى القلوب المستعدة كقلب إبراهيم عليه السّلام.

و من الجدير بالملاحظة أنّ «تلك» اسم إشارة للبعيد، غير أنّها تستعمل أحيانا للقريب للدلالة على أهمية المشار إليه و علو مقامه، مثل ذلك ما جاء فى أوّل سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ

ثمّ تقول الآية: نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ[۲۱۰] و لكيلا يخامر بعضهم الشك فى أنّ اللّه يحابى فى إعطاء الدرجات لمن يشاء، تقول: إن اللّه متصف بالحكمة و بالعلم، فلا يمكن أن يرفع درجة من لا يستحق ذلك: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۴ الى ۸۷]

اشارة

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنا وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۸۴) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۵) وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (۸۶) وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۸۷)

التّفسير

فى هذه الآيات إشارة إلى النعم التى أسبغها اللّه على إبراهيم، و هى تتمثل فى أبناء صالحين و ذرية لائقة، و هى من النعم الإلهية العظيمة.

يقول سبحانه: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ و لم تذكر الآية ابن إبراهيم الآخر إسماعيل، بل ورد اسمه خلال حديث آية تالية، و لعل السبب يعود إلى أنّ ولادة إسحاق من (سارة) العقيم العجوز تعتبر نعمة عجيبة و غير متوقعة.

ثمّ يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرّد كونهما ولدى نبى، بل لإشعاع نور الهداية فى قلبيهما نتيجة التفكير السليم و العمل الصالح: كُلًّا هَدَيْنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۲

ثمّ لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، و أنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: وَ نُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ إنّنا نعلم أن نوحا هو أوّل أولى العزم من الأنبياء الذين جاؤوا بدين و بشريعة.

فالإشارة إلى مكانة نوح، و هو من أجداد إبراهيم، و الإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه و قبيلته، إنّما هى توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة و الأصل» و «الذّرية».

و على أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أسرة إبراهيم: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى وَ هارُونَ ثمّ يبيّن أن منزلة هؤلاء ناشئة من أعمالهم الصالحة و هم لذلك ينالون جزاءهم: وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

هناك كلام كثير بين المفسّرين بشأن الضمير فى وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ هل يعود إلى إبراهيم، أم إلى نوح؟ غير أنّ أغلبهم يرجعه إلى إبراهيم، و الظاهر أنّه لا مجال للشك فى عودة الضمير إلى إبراهيم، لأنّ الكلام يدور على ما وهبه اللّه لإبراهيم، لا لنوح عليهما السّلام، كما أنّ الرّوايات التى سوف نذكرها تؤيد هذا الرأى.

النقطة الوحيدة التى حدت ببعض المفسّرين إلى إرجاع الضمير إلى نوح هى ورود ذكر «يونس» و «لوط» فى الآيات التّالية، إذ المشهور فى التّأريخ أنّ «يونس» لم يكن من أبناء إبراهيم، كما أنّ «لوطا» كان ابن أخى إبراهيم أو ابن أخته.

غير أنّ المؤرخين ليسوا مجمعين على نسب «يونس»، فبعضهم يراه من أسرة إبراهيم ۲۱۱] و آخرون يرونه من أنبياء بنى إسرائيل ۲۱۲].

ثمّ إنّ الجارى عند المؤرخين أن يحفظوا النسب من جهة الأب، و لكن ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۳

الذى يمنع من أن ينتسب «يونس» من جهة أمّه إلى إبراهيم، كما هى الحال بالنسبة إلى عيسى الذين نقرأ اسمه فى الآيات؟

أمّا «لوط» فهو، و إن لم يكن من أبناء إبراهيم، فقد كان من أسرته، فالعرب تطلق لفظة «لأب» على «العم»، و كذلك تعتبر ابن الأخ أو

ابن الأخت من «ذريـة» المرء. و على هـذا ليس لنا أن نتغاضـى من ظاهر هذه الآيات فنعيد الضـمير إلى نوح، و هو ليس موضوع القول هنا.

فى الآية الثانية يرد ذكر زكريا و يحيى و عيسى و الياس على أنّهم جميعا كانوا من الصالحين، أى أنّ مكانتهم المرموقة ليست من باب المجاملة الإجبارية، بل هى بسبب أعمالهم الصالحة فى سبيل اللّه: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

الآيـة الثالثـة تذكر أربعة آخرين من الأنبياء و القادة الإلهيين، و هم إسـماعيل و اليسع و يونس و لوط الذين رفعهم ربّهم درجات على أهل زمانهم: وَ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطاً وَ كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ

لم يتفق المفسّـرون بشأن اسم «اليسع» فقد قال بعض: إنّه اسم عبرى أصله «يوشع» ثمّ أضيفت إليه الألف و للام و أبدلت الشين سينا، و بعض يرى أنّه اسم عربى من الفعل المضارع «يسع» و على كل حال هو اسم أحد الأنبياء من نسل إبراهيم.

و فى الآيـة الأـخيرة إشـارة عامّـة إلى آبـاء الأنبيـاء المـذكورين و أبنائهم و إخوانهم ممن لم ترد أسـماؤهم بالتفصـيل و هم جميعا من الصالحين الذين هداهم اللّه: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۴

ملاحظات

اشارة

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بعض النقاط:

۱- أبناء النّبى:

فى هـذه الآيات اعتبر عيسـى من أبناء إبراهيم (و باحتمال من أبناء نوح) مع انّنا نعلم أنّ اتصاله بهما إنّما هو من جهـة الأم، و هذا دليل على أنّ سلسلة النسب تتقدم من جهة الأب و الأم تقدما متساويا، و لذلك فإنّ الأحفاد من الابن أو البنت هم ذرية المرء و أولاده.

و على هـذا فـإنّ أئمّـة أهـل البيت عليهم السّـلام، و هو جميعا من أحفاد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من ابنته يعتبرون أبناء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّ جاهليـة مـا قبـل الإسـلام لم تكن تعترف للمرأة بأيـة مكانـة أو قيمـة، و كـان النسب عنـدهم مـا اتصل من جهـة الأب فقط، غير أنّ الإسـلام أبطل هـذه العادة الجاهليـة، و من المؤسف أنّ بعض أصـحاب الأقلام الـذين فى نفوسـهم شـىء تجاه أئمـة أهل البيت عليهم السّلام، سعوا إلى إنكار هذا الموضوع، و حاولوا العودة إلى الجاهلية بالامتناع عن نسبة أبناء فاطمة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و رفضوا اطلاق عبارة «ابن رسول اللّه» عليهم إحياء للتقاليد الجاهلية.

هـذا الموضوع نفسه كان قـد عرض للمناقشـة على عهود الأئمّة، فكانوا يجيبونهم بهذه الآية باعتبارها الدليل الدامغ و الردّ الحاسم على ما يفترون.

من ذلك ما

جـاء فى «الكـافى» و فى تفسـير العياشـى عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «و اللّه لقـد نسب اللّه عيسـى بن مريم فى القرآن إلى إبراهيم عليه السّلام من قبل النساء ثمّ تلا: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ ... إلى آخر الآيتين، و ذكر عيسى.

و فی تفسیر العیاشی عن أبی الأسود قال: أرسل الحجاج إلی یحیی بن معمر قال: بلغنی أنّک تزعم أنّ الحسن و الحسین من ذریة النّبی تجدونه فی کتاب اللّه، و قد قرأت کتاب اللّه من أوّله إلی آخره فلم أجده، قال: ألیس تقرأ سورة الأنعام:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۵

وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ حتی بلغ یَحْیی وَ عِیسی ألیس عیسی من ذریة إبراهیم و لیس له أب؟ قال: صدقت.

و فی (عیون أخبار الرضا) فی باب جمل من أخبار موسی بن جعفر علیه السّلام مع هارون الرشید و مع موسی بن المهدی حدیث طویل بینه و بین هارون و فیه ... ثمّ قال: کیف قلتم: إنّا ذریّة النّبی، و النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یعقب، و إنّما العقب للذکر، لا للأنثی و أنتم ولد لابنته، و لا یکون لها عقب، فقلت: «أسألک بحق القرابة و القبر و من فیه إلّا ما اعفیتنی من هذه المسألة» فقال: لا، أو تخبرنی بحجّتکم فیه یا ولد علی، و أنت یا موسی یعسوبهم و إمام زمانهم، کذا أنهی إلی، و لیست أعفیک فی کل ما أسألک عنه حتی تأتینی فیه بحجّة من کتاب اللّه، و أنتم تدعون معشر ولد علی أنّه لا یسقط عنکم منه شیء لا ألف و لا واو، إلّا تأویله عندکم، و احتججتم بقوله عزّ و جلّ: ما فَرَّطْنا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیْءٍ و استغنیتم عن رأی العلماء و قیاسهم، فقلت: «تأذن لی فی الجواب؟» قال: هات، فقلت: «أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم بسم اللّه الرحمن الرحیم: وَ مِنْ ذُرِّیَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَیْمانَ وَ أَیُّوبَ وَ یُوسُفَ وَ مُوسی وَ هارُونَ وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ وَ زَکَرِیَّا وَ یَحْیی وَ عِیسی من أبو عیسی یا أمیر المؤمنین؟ قال: لیس لعیسی أب، فقلت: «إنّما الحق بذراری الأنبیاء من طریق مریم علیها السّلام، و کذلک ألحقنا بذراری النّبی من قبل أمنا فاطمة علیها السّلام»[۲۱۳].

یلفت النظر أنّ بعض المتعصبین من أهل السنة تطرقوا إلی هذا الموضوع عند تفسیرهم لهذه الآیة، منهم الفخر الرازی فی تفسیره حیث استدل بها أن الحسن و الحسین من ذریة النّبی، لأنّ اللّه ذکر عیسی من ذریة إبراهیم مع أنّه یرتبط به عن طریق الأم فقط[۲۱۴].

و صاحب المنار الذی لا یقل تعصبا عن الفخر الرازی یقول: بعد أن ینقل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۶

کلام الرازی، أنّ فی هذا الباب

حدیثا کره البخاری فی صحیحه عن أبی بکر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال مشیرا إلی الحسن بن علی علیه السّلام: «إنّ ابنی هذا سید»

بینما کانت لفظة (ابن) عند عرب الجاهلیة لا تطلق علی ابن البنت .. ثمّ یضیف، لهذا السبب، اعتبر الناس أولاد فاطمة أولاد رسول اللّه و عترته و أهل بیته.

لا شک أنّ أبناء البنت و أبناء الابن هم أبناء المرء و لا فرق بینهما، و لا هی قضیة اختص بها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده، و ما سبب الاعتراض علی هذا إلّا التعصب و إلّا التمسک بالأفکار الجاهلیة، و لهذا نجد جمیع التشریعات الإسلامیة، کالزواج و الإرث، لا تفرق بینهما، إنّ الاستثناء الوحید فی هذا الباب هو فی موضوع الخمس الذی ورد فی کتب الفقه، حیث جعل لمن تحصل فیه عنوان السیادة.

۲- لماذا وردت أسماء الأنبیاء فی ثلاث مجموعات فی ثلاث آیات؟

یحتمل بعض المفسّرین أنّ المجموعة الأولی: داود و سلیمان و أیوب و یوسف و موسی و هارون هؤلاء الستة، کانوا بالإضافة إلی نبوتهم یمسکون بیدهم القیادة و زمان الحکم، و لعل ورود کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ إشارة إلی الأعمال الصالحة التی قاموا بها أثناء حکمهم.

أمّا المجموعة الثّانیة: زکریا و یحیی و عیسی و الیاس، فهم بالإضافة إلی نبوتهم کانوا معروفین بالزهد و اعتزال الدنیا، فجاء تعبیر: کُلٌّ

مِنَ الصَّالِحِينَ بعد ذكر أسمائهم.

و المجموعة الثّالثة: إسماعيل و اليسع و يونس و لوط، فهم يشتركون فى كونهم قاموا برحلات طويلة و هاجروا فى سبيل نشر دعوة اللّه، و عبارة كلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ (إذ اعتبرنا الإشارة إلى هؤلاء الأربعة، لا لجميع من ورد ذكرهم فى هذه الآيات الثلاث) تعتبر إشارة إلى هجرة هؤلاء فى أرجاء الأرض و بين الأقوام المختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۷

۳- أهمية الأبناء الصالحين فى تعريف شخصية الإنسان:

و هذا موضوع آخر يستنتج من هذه الآيات، فلإضفاء الأهمية على شخصية إبراهيم عليه السّلام بطل تحطيم الأصنام، يشير اللّه إلى شخصيات إنسانية عظيمة كانوا من ذريّته فى العصور المختلفة، و يصفهم بصفات جليلة، بحيث نجد من بين مجموع خمسة و عشرين نبيّا ورد ذكرهم فى القرآن، ستة عشر منهم من ذرية إبراهيم، و واحدا من أجداده، و هذا فى الواقع درس كبير للمسلمين كافة لكى يدركوا أنّ أبناءهم جزء من كيانهم و شخصيتهم، و أنّ لقضاياهم التربوية و الإنسان أهمية كبيرة جدا.

۴- جواب على اعتراض:

لعل الذين يقرءون: وَ مِنْ آبائِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ إِخْوانِهِمْ وَ اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ يستنتجون أنّ آباء الأنبياء لم يكونوا جميعا من المؤمنين و أنّ منهم من لم يكن موحدا، كما يقول بعض المفسّرين من أهل السنة عند تفسير هذه الآية، و لكنّنا يجب أن نلاحظ أنّ تعبير اجْتَبَيْناهُمْ وَ هَدَيْناهُمْ بالقرينة الموجودة فى هذه الآيات تعنى مقام النبوة و حمل الرسالة، و بهذا يتهاوى الاعتراض، أى أنّ معنى هذه الآية سيكون هكذا: إنّنا قد اخترنا بعضا منهم لمقام النبوة، و هذا لا يعنى أنّ الآخرين لم يكونوا موحدين و فى الآية (۹۰) من هذه السورة وردت لفظة «الهداية» بمعنى النبوة[۲۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۸

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۸۸ الى ۹۰]

اشارة

ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۸۸) أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ (۸۹) أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ (۹۰)

التّفسير

ثلاثة امتيازات مهمّة:

بعد ذكر مجموعات الأنبياء فى الآيات السابقة، تتناول هذه الآيات الخطوط العامّة لحياتهم، و تبدأ القول: ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ

يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

أى أنّ هؤلاء على الرغم من صلاحهم و استرشادهم بقوة العقل و الفكر فى سيرهم الحثيث على طريق الهداية، شملتهم عناية الهداية الإلهية، و أخذت بأيديهم و إلّا فاحتمال انحرافهم و انحراف كل انسان موجود دائما.

و لكيلا يحسب البعض أنّ هؤلاء قد أجبروا على السير فى هذا الطريق، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۶۹

يظن أنّ اللّه ينظر إلى هؤلاء نظرة خاصّة و استثنائية دونما سبب، يقول القرآن عنهم: وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

فهم إذن مشمولون بهذا القانون الإلهى الذى يسرى على غيرهم بغير محاباة.

الآية التّالية تشير إلى ثلاثة امتيازات مهمّة هى أساس جميع امتيازات الأنبياء، و هى قوله: أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۳۶۹

لا يعنى هذا أنّهم جميعا كانوا من أصحاب الكتب السماوية، و لكن الكلام يدور على المجموع، فنسب الكتاب إلى المجموع أيضا، و هذا كقولنا: الكتاب الفلانى ذكر العلماء و كتبهم، أى كتب من له تأليف منهم.

أمّا المقصود من «الحكم» فثمّة احتمالات ثلاثة:

۱- الحكم بمعنى «العقل و الإدراك»، أى: إنّنا فضلا عن إنزال كتاب سماوى عليهم فقد وهبناهم القدرة على التعقل و الفهم، إذ أن وجود الكتاب بغير وجود القدرة على فهمه فهما كاملا عميقا لا جدوى فيه.

۲- بمعنى «القضاء» أى أنّهم باستنباط القوانين الإلهية من تلك الكتب السماوية كانوا قادرين على أن يقضوا بين الناس بامتلاكهم لجميع شروط القاضى العادل.

۳- بمعنى «الحكومة» و الإمساك بزمان الإدارة، بالإضافة إلى مقام النّبوة، إنّ الدليل على المعانى المذكورة- بالإضافة إلى المعنى اللغوى الذى ينطبق عليها- هو أنّ كلمة «الحكم» قد وردت بهذه المعانى نفسها أيضا فى آيات أخرى من القرآن ۲۱۶].

و ليس ثمّة ما يمنع من أنّ يشمل استعمال الكلمة فى هذه الآية المعانى الثلاثة مجتمعة، فالحكم أصلا- كما يقول «الراغب» فى «مفرداته» هو المنع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۰

و من ذلك العقل الذى يمنع من وقوع الأخطاء و المخالفات، و كذلك القضاء الصحيح يمنع من وقوع الظلم، و الحكومة العادلة تقف بوجه الحكومات غير العادلة، فهى قد استعملت فى المعانى الثلاثة.

قلنا من قبل إنّ جميع الأنبياء لم يكونوا يحظون بهذه الامتيازات كلها، و إسناد حكم إلى الجمع لا يعنى شموله جميع أفراد ذلك الجمع، بل قد يكون لبعض أفراده، و من ذلك مسألة إيتاء الكتاب لهؤلاء الأنبياء.

ثمّ يقول: لئن رفضت هذه الجماعة (أى المشركون و أهل مكّة) تلك الحقائق، فإن دعوتك لن تبقى بغير استجابة، إذ إنّنا قد أمرنا جمعا آخر لا بقبولها فحسب، بل و بالحفاظ عليها فهم لا يسلكون طريق الكفر أبدا، بل يتبعون الحقّ:

فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ

جاء فى تفسير «المنار» و تفسير «روح المعانى» عن بعض المفسّرين أنّ المقصود بالقوم هم الفرس، و قد أسرعوا فى قبول الإسلام و جاهدوا فى سبيل نشره، و ظهر فيهم العلماء فى شتى العلوم و الفنون الإسلامية و ألفوا الكثير من الكتب ۲۱۷].

الآية الأخيرة تجعل من منهاج هؤلاء الأنبياء العظام قدوة رفيعة للهداية تعرض على رسول لاسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول له:

أولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ ۲۱۸].

تؤكّد هذه الآية مرّة أخرى على أن أصول الدعوة التى قام بها الأنبياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۱

واحدة، بالرغم من وجود بعض الاختلافات الخاصّة و الخصائص اللازمة التى تقتضيها الحاجة فى كل زمان و مكان، و كل دين تال يكون أكمل من الدين السابق. بحيث تستمر مسيرة الدروس العلمية و التربوية حتى تصل إلى المرحلة النهاية، أى الإسلام.

و لكن ما المقصود من أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يهتدى أولئك الأنبياء؟

يقول بعض المفسّرين: إنّ المقصود قد يكون هو الصبر و قوة التحمل و الثبات فى مواجهة المشاكل، و يقول بعض آخر إنّه «التوحيد و إبلاغ الرسالة» و لكن يبدو أنّ للهداية معنى واسعا يشمل التوحيد و سائر الأصول العقائدية، كما يشمل الصبر و الثبات و سائر الأصول الأخلاقية و التربوية.

يتّضح ممّا سبق أنّ هذه الآية لا تتعارض مع القول بأنّ الإسلام ناسخ الأديان و الشرائع السابقة، إذ أنّ النسخ إنّما يشمل جانبا من أحكام تلك الشرائع لا الأصول العامّة للدعوة.

ثمّ يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول للنّاس إنّه مثل سائر الأنبياء لا يتقاضى أجرا لقاء عملية تبليغ الرسالة: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً.

ليس الاقتداء بالأنبياء و بسنتهم الخالدة هو وحده الذى يوجب علىّ عدم طلب الأجر، بل أنّ هذه الدين الطاهر الذى جئتكم به وديعة إلهية أضعها بين أيديكم، و طلب الأجر على ذلك لا معنى له.

ثمّ إنّ هذا القرآن و هذه الرسالة و الهداية إن هى إلّا إيقاظ و توعية للناس جميعا: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ

إنّ النعم العامّة الشاملة مثل نور الشمس و الهواء و الأمطار هى أمور عامّة و عالمية، لاتباع و لا تشترى، و لا أجر يعطى لقاءها، هذه الهداية أو الرسالة ليست خاصّة و مقصورة على بعض دون بعض حتى يمكن طلب الأجر عليها، (ممّا قيل فى تفسير هذه العبارة يتضح الترابط بينها و بين عبارات الآية الأخرى، و بين ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۲

سبقها من آيات).

كما يتّضح من هذه الآية الأخيرة أنّ الدين الإسلامى ليس قوميا و لا إقليميا، و إنّما هو دين عالمى عام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۱]

اشارة

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِى جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۹۱)

سبب النّزول

الغافلون عن اللّه:

روى عن ابن عباس أنّ جمعا من اليهود قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا محمّد أ حقا أنزل اللّه عليك كتابا؟ فقال: نعم، فقالوا: قسما باللّه إنّه لم ينزل عليك كتابا من السماء[۲۱۹].

هنالك أقوال أخرى فى سبب نزول هذه الآية، و لكنّنا سنعرف فيما بعد أنّ ما قلناه أقرب و أنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۴

التّفسير

يختلف المفسّرون حول كون هذه الآية واردة بشأن اليهود أو المشركين، و لمّا لم تكن لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مباحثات مع اليهود فى مكّة، بل بدأت فى المدينة، و هذا السورة مكّية، لذلك يرى بعضهم أنّ هذه الآية قد نزلت فى المدينة، إلّا أنّها وضعت فى هذه السّورة المكية بأمر من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لهذا فى القرآن ما يشابهه.

لاتضاح الحقيقة يجب أن نتعرف أوّلا على تفسير الآية الإجمالى، ثمّ نبحث عمن تتحدث عنه الآية، و عمّا تستهدفه.

فى البداية تقول الآية: إنّهم لم يعرفوا اللّه معرفة صحيحة و أنكروا نزول كتاب سماوى على أحد: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ.

فيأمر اللّه رسوله أن قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ

ذلك الكتاب الذى جعلتموه صحائف متناثرة، تظهرون منه ما ينفعكم و تخفون ما تظنونه يضرّكم: تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً.

إنّكم تتعلمون من هذا الكتاب السماوى أمورا كثيرة لم تكونوا أنتم و لا ءاباؤكم تعلمون عنها شيئا: وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ

و فى ختام الآية يؤمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يذكر اللّه و أن يترك أولئك فى أباطيلهم و عنادهم و لعبهم: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ

إذا كانت هذه الآية قد نزلت فى المدينة و كان اليهود هم المعنيين بها، يكون المعنى أنّ جمعا من اليهود كانوا ينكرون نزول كتاب سماوى على الأنبياء.

و لكن هل يمكن أن ينكر اليهود- اتباع التّوراة- نزول كتاب سماوى؟ نعم، و سيزول عجبك إذا علمت المسألة التّالية: لو أمعنا النظر فى العهد الجديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۵

(الإنجيل) و العهد القديم (التّوراة و الكتب الملحقة بها) نجد أنّ كل هذه الكتب تفتقر إلى المسحة السماوية، أى أنّها ليست خطابا موجها من اللّه إلى البشر، بل إنّها مقولات وردت على ألسنة تلامذة موسى و المسيح عليهما السّلام و أتباعهما على شكل سرد لحوادث تاريخية و سير، و الظاهر أنّ اليهود و المسيحيين اليوم لا ينكرون ذلك، إذ أنّ حكاية موت موسى و عيسى و حوادث كثيرة أخرى وقعت بعدهما وردت فى هذه الكتب، لا باعتبارها تنبؤات عن المستقبل، بل سردا لحوادث ماضية، فهل يمكن لكتب مثل هذه أن تكون قد نزلت على موسى و عيسى؟! كل ما فى الأمر أنّ المسيحيين و اليهود يعتقدون أنّ هذه الكتب قد كتبت بأيدى أناس عندهم أخبار عن الوحى، فاعتبروها كتبا مقدسة خالية من الخطأ و يمكن الاعتماد عليها.

بناء على هذا يتضح لنا لماذا كان هؤلاء ينتابهم العجب لدى سماعهم أسلوب القرآن بشكل خطاب من اللّه إلى النّبى و إلى عباد اللّه؟ و كما قرأنا فى سبب نزول هذه الآية فإنّهم قد انتابهم العجب فسألوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن كان اللّه قد أنزل عليه- حقا- كتاب، ثمّ أنكروا هذا الأمر كليا و نفوا أن يكون أى كتاب قد نزل على أحد، حتى على موسى.

غير أنّ اللّه يردّ عليهم قائلا: إنّكم- أنفسكم- تعتقدون أن ألواحا و مواضيع قد نزلت على موسى، أى إنّ الكتاب الذى بين أيديكم و ان لم يكن كتابا سماويا إلّا أنّكم تؤمنون- على الأقل- بأنّ شيئا مثل هذا قد نزل من قبل اللّه، و أنتم تظهرون قسما منه و تخفون كثيرا منه: و على ذلك فلا يبقى مجال للشك فى إمكان إنكار اليهود نزول كتاب سماوى.

أمّا إذا كانت الآية كسائر آيات هذه السّورة تخصّ المشركين، فيكون المعنى أنّهم أنكروا نزول أى كتاب سماوى لانكار و نفى دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن اللّه يبيّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۶

لهم منطقيا أنّهم لا يستطيعون إنكار ذلك كليا بالنظر لنزول التّوراة على موسى، و أنّ المشركين- و إن لم يدينوا بدين اليهود- كانوا يعتبرون الأنبياء السابقين و إبراهيم، و موسى أيضا على أقوى احتمال- أنبياء فى عصورهم و أقاليمهم، لذلك فهم عند ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجأوا إلى أهل الكتاب يبحثون عندهم فى كتبهم عن أمارات و دلائل تتنبأ بظهور هذا النّبى، فلو لم يكونوا يؤمنون بأنّ تلك الكتب نازلة من السماء، لما لجأوا إليها يطلبون ما طلبوا، لذلك فهم بعد أن سألوا اليهود، أظهروا ما كانت فيه مصلحتهم، و أخفوا ما عداه (كعلامات ظهور النّبى الجديد المذكورة فى تلك الكتب)، و على هذا يمكن تطبيق هذه الآية على أقوال مشركى مكّة أيضا.

لكن التّفسير الأوّل أقرب إلى سياق الآية و سبب النّزول و ما فيها من ضمائر.

ملاحظات:

هنا لا بدّ من الإشارة إلى بضع نقاط:

۱- «قراطيس» جمع «قرطاس» من أصل يونانى حسب قول بعضهم، و هو «ما يكتب فيه» كما يقول «الراغب» فى «مفرداته» و بناء على ذلك فإن الورق العادى و جلود الحيوانات و الأشجار و أمثالها التى كانت تستخدم فى الكتابة قديما، تنضوى تحت هذه الكلمة.

۲- قد يسأل سائل: لماذا تذم الآية اليهود كتابتهم الوحى الإلهى على القراطيس، و هل فى تلك ما يوجب الذم؟

و جوابا على ذلك نقول: إنّ الذم لم يكن لهذا السبب، إنّما السبب هو أنّهم كتبوه على قراطيس متفرقة بحيث يمكنهم أن يظهروا منه ما تقتضيه منافعهم، و أن يخفوا ما يؤدى إلى ضررهم.

۳- إنّ عبارة وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ فى الواقع إشارة إلى أنّ من يعرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۷

اللّه معرفة صحيحة لا يمكن أن ينكر إرساله الهداة و المرشدين و معهم الكتب السماوية إلى البشر، لأنّ حكمة اللّه توجب:

أوّلا: أن يعين الإنسان فى مسيرته المليئة بالمنعطفات لبلوغ هدفه التكاملى الذى خلق من أجله و إلّا انتقض الهدف من الخلقة، و هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بغير الوحى و الكتب السماوية و التعاليم السليمة من كل خطأ و سهو.

ثانيا: كيف يمكن لربوبية اللّه ذات الرحمة العامّة و الخاصّة أن تترك الإنسان وحيدا فى طريق سعادته الملىء بمختلف الموانع و العقبات و المتاهات، فلا يرسل إليه قائدا و مرشدا يحمل التعاليم الشاملة للأخذ بيده و توجيهه، و عليه فإن حكمته و رحمته توجبان إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية.

لا شك أن معرفة حقيقة الذات الالهية المقدسة و كنه صفاته غير ممكنة، و هذه الآية لا تقصد هذا الحدّ من معرفة اللّه، و إنّما تريد أن تقول: لو حصل الإنسان على المقدار الميسور من معرفة اللّه فلا يبقى شك بأن مثل هذا الربّ لا يمكن أن يترك عباده بدون هاد و دليل و كتاب سماوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۸

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۲]

اشارة

وَ هـذا كِتـابٌ أَنْزَلْنـاهُ مُبـارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَهـا وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹۲)

التّفسير

تعقيبا على البحث الذى دار فى الآيات السابقة حول كتاب اليهود السماوى، تشير هذه الآية إلى القرآن باعتباره كتابا سماويا آخر، و الواقع أنّ ذكر التّوراة مقدمة لذكر القرآن لإزالة كل عجب و تخوف من نزول كتاب سماوى على فرد من البشر، فتبدأ بالقول: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ و هو كتاب «مبارك» لأنّه مصدر كل خير و بركة و صلاح و تقدم، ثمّ إنّه يؤكّد الكتب التى نزلت قبله: مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ و المقصود من أنّ القرآن يصدق الكتب التى بين يديه هو أنّ جميع الإشارات و الإمارات التى وردت فيها تنطبق عليه.

و هكذا نجد علامتين على أحقّية القرآن وردتا فى عبارتين: الأولى: وجود علامات فى الكتب السابقة تخبر عنه، و الثّانية: محتوى القرآن نفسه الذى يضم كل خير و بركة و سعادة، و بناء على ذلك فصدق القرآن يتجلى فى محتواه من جهة، و فى المستندات التّأريخية من جهة أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۷۹

ثمّ يبيّن القرآن هدف نزوله و هو توجيه الإنذار و التحذير لأم القرى (مكّة) و الساكنين حولها و تنبيههم إلى مسئولياتهم و واجباتهم: وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها[۲۲۰].

«الإنذار» اخبار فيه تخويف من ترك الواجبات و المسؤوليات و هذا من أهم أهداف القرآن، خاصّة بالنسبة للطغاة المعاندين.

و فى الختام تقرر الآية أنّ الذين يعتقدون بيوم القيامة، يوم الحساب و الجزاء، سيصدقون بهذا الكتاب، و يؤدون فريضة الصّلاة و لا يفرطون فيها: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ

بحوث

اشارة

نلفت الانتباه هنا إلى النقاط التّالية:

۱- الإسلام دين عالمى

تبيّن آيات القرآن المختلفة بما لا يدع مجالا للشك أنّ الإسلام دين عالمى، من ذلك: لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ۲۲۱] و إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ ۲۲۲]. و قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً[۲۲۳] و غيرها كثير فى القرآن، و لكلّها تؤكّد هذه الحقيقة، و إنّه لمما يثير الانتباه أنّ معظم هذه الآيات قد نزلت فى مكّة يوم لم يكن الإسلام قد تخطى حدود تلك المدينة.

و لكن فيما يخص الآية التى نحن بصددها، يظهر لنا السؤال التالى: إنّ الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۰

توجه الإنذار و الهداية إلى ام القرى و من حولها، فكيف ينسجم هذا مع القول بأنّ الإسلام عالمى؟

فى الحقيقة أنّ هذا الاعتراض جاء أيضا على لسان اليهود و غيرهم من أتباع الأديان الأخرى ظانين أنّهم قد أصابوا من عالمية الإسلام مقتلا، باعتبار أنّ الآية تحدد مكانه بمنطقة خاصّة هى مكّة و أطرافها[۲۲۴].

الجواب:

يتّضح الجواب من هذا الاعتراض بالانتباه إلى نقطتين، بحيث ندرك أنّ هذه الآية، فضلا عن كونها لا تتعارض مع عالمية الإسلام، هى واحد من أدلة عالميته أيضا:

القرية بلغة القرآن اسم لكل موضع يجتمع فيه الناس، سواء كان مدينة كبيرة أم قرية صغيرة، ففى سورة يوسف- مثلا- جاء على لسان اخوة يوسف يخاطبون أباهم: وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيها[۲۲۵] و نحن نعلم أنّهم كانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمة مصر حيث حجز عزيز مصر أخاهم (بنيامين) كذلك نقرأ: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ ۲۲۶]. بديهى أنّ المقصود هنا ليس القرى فى الأرياف، بل هو كل منطقة مسكونة فى العالم.

و من جهة أخرى هناك روايات عديدة تقول: إنّ اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة، و هو ما أطلق عليه اسم «دحو الأرض».

كما أنّنا نعلم أنّه فى البداية هطلت أمطار غزيرة فغطّى الماء الكرة الأرضية برمتها، ثمّ غاض الماء شيئا فشيئا و استقر فى المنخفضات، و ظهرت اليابسة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۱

تحت الماء، و كانت مكّة أوّل نقطة يابسة ظهرت من تحت الماء، حسب الأحاديث الإسلامية.

و كون مكّة ليست أعلى مكان على الكرة الأرضية فى الوقت الحاضر، لا يتعارض أبدا مع هذا القول، لأن مئات الملايين من السنين تفصلنا اليوم عن ذاك الزمان، و قد حدثت خلال ذلك تغيرات جغرافية بدلت وجه الأرض كليا، فبعض الجبال هبطت إلى أعماق البحار، و بعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلا، و هذا ثابت فى علم التضاريس الأرضية و الجغرافية الطبيعية.

أمّا كلمة «أم» فتعنى- كما سبق أن قلنا- الأصل و الأساس و المبدأ لكل شىء.

من كل هذا يتبيّن أنه إذا أطلق مكّة اسم «أم القرى» فذلك يستند إلى أنّها كانت مبدأ ظهور اليابسة على الأرض، «و من حولها» أى جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.

و هذا ما تؤيده الآيات الأخرى التى تؤكّد عالمية الإسلام، و كذلك الرسائل الكثيرة التى بعث بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى رؤساء العالم، مثل كسرى و قيصر، و قد جاء شرح ذلك فى المجلد الثانى من هذا التّفسير.

۲- العلاقة بين الإيمان بالقرآن و الإيمان بالآخرة

تبيّن هذه الآية: إنّ الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون أيضا بالقرآن، أى أنّهم يعلمون أن هذه الدنيا ما هى إلّا مقدمة لعالم الآخرة، و إنّها أشبه بالمزرعة أو المدرسة أو المتجر، و الوصول إلى ذلك الهدف الرفيع و الاستعداد لذلك اليوم لا يكون إلّا عن طريق مجموعة من القوانين و المناهج و الدساتير و إرسال الأنبياء.

بعبارة أخرى، إنّ اللّه قد أرسل الإنسان إلى هذه الحياة ليطوى مسيرته التكاملية و ليصل إلى مستقره الأصلى فى العالم الآخر، و هذا الغرض ينتقض إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۲

لم یرسل إلیه الأنبیاء و الکتب السماویة، من هنا یمکن أن نستنتج من الإیمان باللّه و المعاد، الإیمان بنبوة الأنبیاء و الکتب السماویة (تأمل بدقّة).

۳- أهمیة الصّلاة

نلاحظ فی هذه الآیة أنّها تشیر إلی الصّلاة من بین جمیع الفرائض الدینیة، و نعلم أنّ الصّلاة هی مظهر الارتباط باللّه، و لذلک کانت أرفع من جمیع العبادات منزلة، و یری بعضهم أنّه عند نزول هذه الآیة کانت العبادة الوحیدة المفروضة حتی ذلک الوقت هی الصّلاة[۲۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۳

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۹۳]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ قالَ أُوحِیَ إِلَیَّ وَ لَمْ یُوحَ إِلَیْهِ شَیْءٌ وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَوْ تَری إِذِ الظَّالِمُونَ فِی غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِکَةُ باسِطُوا أَیْدِیهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَکُمُ الْیَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما کُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ غَیْرَ الْحَقِّ وَ کُنْتُمْ عَنْ آیاتِهِ تَسْتَکْبِرُونَ (۹۳)

سبب النّزول

ثمّة روایات متعددة فی سبب نزول هذه الآیة وردت فی کتب الحدیث و التّفسیر، من ذلک أنّ الآیة نزلت بشأن شخص یسمی «عبد اللّه بن سعد» من کتاب الوحی، ثمّ خان فطرده رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فراح یزعم أنّه قادر علی قول مثل آیات القرآن، یقول جمع آخر من المفسّرین أنّ الآیة، أو قسما منها، نزلت بحق «مسیلمة الکذاب» الذی ادعی النبوّة، و لکن بالنظر لأنّ مسیلمة الکذاب ظهر فی أواخر حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هذه السورة مکّیة، فإنّ مؤیدی هذا التّفسیر یقولون: إنّ هذه الآیة نزلت فی المدینة، ثمّ أدخلت ضمن هذه السورة بأمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۴

علی کل حال هذه الآیة، مثل سائر آیات القرآن، نزلت فی ظروف خاصّة، و هی ذات محتوی عام یشمل کل من ادعی النبوة و أمثالهم.

التّفسیر

فی الآیات السابقة مرّت الإشارة إلی مزاعم الیهود الذین أنکروا نزول أی کتاب سماوی علی أحد، و فی هذه الآیة یدور الکلام علی اشخاص آخرین یقفون علی الطرف المعاکس تماما لأولئک، فیزعمون کذبا أن الوحی ینزل علیهم.

و تتناول الآیة ثلاث جماعات من هؤلاء بالبحث، ففی البدایة تقول: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً.

و الجماعة الثّانية هم الذين يدعون النّبوة و نزول الوحى عليهم، فلا هم أنبياء، و لا نزل عليهم وحى: أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ.

و الجماعة الثّالثة هم الذين أنكروا نبوة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو زعموا ساخرين أنّهم يستطيعون أنّ يأتوا بمثل آيات القرآن، و هم فى ذلك كاذبون و لا قدرة لهم على ذلك: وَ مَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ

نعم، هؤلاء كلّهم ظالمون، بل أظلم الظالمين، لأنّهم يغلقون طريق الحق بوجه عباد اللّه و يضلونهم فى متاهات الضلال حائرين، و يحاربون قادة الحق، فهم ضالون مضلون، فمن أظلم ممن يدعى لنفسه القيادة الإلهية و ليست لديه صلاحية مثل هذا المقام.

على الرغم من أنّ الآية تخصّ أدعياء النبوة و الوحى، إلّا أنّ روحها تشمل كل من يدعى كذبا لنفسه مكانة ليس أهلا لها.

ثمّ تبيّن العقاب الأليم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۵

الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۲۲۸] أى لو أنك- أيّها النّبى- رأيت هؤلاء الظالمين و هم يمرون بشدائد الموت و النزع الأخير، و ملائكة قبض الأرواح ما دين أيديهم نحوهم و يقولون لهم: هيا أخرجوا أرواحكم، لأدركت العذاب الذى ينزل بهم.

عندئذ تخبرهم ملائكة العذاب بأنّهم سينالون اليوم عذابا مذلا لأمرين:

الأوّل: إنّهم كذبوا على اللّه، و الآخر، إنّهم لم ينصاعوا لآياته: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَ كُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ

ملاحظات:

ينبغى هنا ملاحظة النقاط التّالية:

۱- تعتبر الآية أدعياء النبوة و القادة المزيفين من أشد الظالمين، بل لا ظلم أشدّ من ظلمهم، لأنّهم يسرقون أفكار الناس و يهدمون عقائدهم و يغلقون بوجوههم أبواب السعادة و يحيلونهم إلى مستعمرين فكريا لهم.

۲- جملة باسِطُوا أَيْدِيهِمْ قد تعنى أنّ ملائكة قبض الأرواح تبسط أيديها إليهم استعدادا لقبض أرواحهم، و قد تعنى بسط أيديهم للبدء بتعذيبهم.

۳- أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ تعنى فى الواقع ضربا من التحقير تبديه الملائكة نحو هؤلاء الظالمين، و إلّا فإنّ إخراج الروح ليس من عمل هؤلاء، بل هو من واجب الملائكة، مثل ما يقال للمجرم عند إعدامه: مت! و لعل هذا التحقير يقابل تحقيرهم لآيات اللّه و أنبيائه و عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۶

و فى الوقت نفسه تعتبر هذه الآية دليلا آخر على استقلال الروح و انفصالها عن الجسد، كما يستفاد من الآية أنّ تعذيب هؤلاء يبدأ منذ لحظة قبض أرواحهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۴]

اشارة

وَ لَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۹۴)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان و تفسير الطبرى و تفسير الآلوسى إنّ مشركا اسمه النضر بن الحارث قال: إنّ اللآت و العزى (و هما من أصنام العرب المشهورة) سوف يشفعان لى يوم القيامة، فنزلت هذه الآية جوابا له و لأمثاله.

التّفسير

الضّالون:

أشارت الآية السابقة إلى أحوال الظالمين و هم على شفا الموت، هنا فى هذه الآية تعتبر عن خطاب اللّه لهم عند الموت أو عند الورود إلى ساحة يوم القيامة.

فيبدأ بالقول بأنّهم يأتون يوم القيامة منفردين كنا خلقوا منفردين: وَ لَقَدْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۸

جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

و الأموال التى وهبناها لكم و كنتم تستندون إليها فى حياتكم، قد خلفتموها وراءكم، و جئتم صفر الأيدى: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ ۲۲۹].

و لا نرى معكم تلك الأصنام التى قلتم إنّها سوف تشفع لكم و ظننتم أنّها شريكة فى تعيين مصائركم وَ ما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ.

و لكن الواقع أنّ جمعكم قد تبدد، و تقطعت جميع الروابط بينكم: لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ

و كل ما ظننتموه و ما كنتم تستندون إليه قد تلاشى و ضاع: وَ ضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

كان المشركون العرب يستندون فى حياتهم إلى أشياء ثلاثة: القبيلة أو العشيرة التى كانوا ينتمون إليها، و الأموال التى جمعوها لأنفسهم، و الأصنام التى اعتبروها شريكة للّه فى تقرير مصير الإنسان و شفيعة لهم عند اللّه، و الآية فى كل جملة من جملها الثلاث تشير إلى واحدة من هذه الأمور، و إلى أنّها عند الموت تودعه و تتركه وحيدا فريدا.

هنا ينبغى الالتفات إلى نقطتين:

۱- نظرا لمجىء هذه الآية فى أعقاب الآية السابقة التى تحدثت عن قيام الملائكة بقبض الأرواح عند الموت، و كذلك بالنظر إلى عبارة: وَ تَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ نفهم أنّ هذا الكلام يقال لهم عند الموت أيضا، و لكن من جانب اللّه، غير أنّ بعض الرّوايات تقول: إنّ هذا الخطاب يوجه إليهم يوم القيامة، على أى حال فإنّ الهدف لا يختلف فى الحالين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۸۹

۲- على الرغم من نزول هذه الآية بشأن مشركى العرب، فهى ليست بالطبع مقصورة عليهم.

ففى ذلك اليوم تنفصم العرى و تنفصل عن البشر كل الانشدادات المادية و المعبودات الخيالية المصطنعة و جميع ما اصطنعوه لأنفسهم فى الحياة الدنيا ليكون سندا لهم يستعينون به فى يوم بؤسهم لا يبقى سوى الشخص و عمله، و يزول كل ما عدا ذلك، أو يضل عنهم بحسب تعبير القرآن و هو تعبير جميل يوحى بأنّ الشركاء سيكونون إلى درجة من الصغر و الحقارة و الضياع أنّهم لا يروا بالعين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۰

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۹۵ الى ۹۶]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۹۵) فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۹۶)

التّفسير

فالق الإصباح:

مرّة أخرى يوجه القرآن الخطاب إلى المشركين، و يشرح لهم دلائل التوحيد فى عبارات جذابة و فى نماذج حية من أسرار الكون و نظام الخلق و عجائبه.

فى الآية الأولى يشير إلى ثلاثة أنواع من عجائب الأرض، و فى الآية الثّانية يشير إلى ثلاثة من الظّواهر السماوية.

يقول القرآن الكريم أوّلا: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى

«الفلق» شقّ الشىء و إبانة بعضه عن بعض ۲۳۰].

و «الحب» و «الحبة» تقال لانواع الحبوب الغذائية كالحنطة و الشعير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۱

و نحوهما من المطعومات التى تحصد، كما يقال ذلك لبروز الرياحين أيضا[۲۳۱].

و «النوى» من النّواة، قيل إنّه يخص نوى التمر، و لعل هذا يرجع إلى كثرة التمر فى بيئة العرب حتى كان العربى ينصرف ذهنه إلى نوى التمر إذا سمع هذه الكلمة.

و لننظر الآن إلى ما يمكن فى هذا التعبير:

ينبغى أن نعلم أنّ أهم لحظة فى حياة الحبّة و النّوى هى لحظة الفلق، و هى أشبه بلحظة ولادة الطفل و انتقاله من عالم إلى عالم آخر، إذ فى هذه اللحظة يحصل أهم تحول فى حياته.

و ممّا يلفت الانتباه أنّ الحبّة و النّواة غالبا ما تكونان صلبتين، فنظرة إلى نوى التمر و الخوخ و أمثالهما، و إلى بعض الحبوب الصلبة، تكشف لنا أنّ تلك النطفة الحياتية التى هى فى الواقع صغيرة، محصنة بقلعة مستحكمة تحيط بها من كل جانب، و انّ يد الخالق قد أعطت لهذه القلعة العصية على الاختراق خاصية التسليم و الليونة أمام اختراق نطفة النبات، كما منحت النطفة قوة اندفاع تمكنها من فلق جدران قلعتها فتطلع النبتة بقامتها المديدة، هذه حقّا حادثة عجيبة فى عالم النبات لذلك يشير إليها القرآن على أنّها من دلائل التوحيد.

ثمّ يقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ

يتكرر هذا التعبير كثيرا فى القرآن مشيرا إلى نظام الموت و الحياة و تبديل هذا بذاك، فمرّة ترى الحياة تنبعث من مواد جامدة لا روح فيها فى أعماق المحيطات و مجاهل الغابات و الصحارى، فيخلق من تركيب مواد كل واحدة منها سم قاتل مواد حيوية، و أحيانا ترى العكس، فبإجراء تغيير بسيط على كائنات حية قوية مفعمة بالحياة تراها قد تحولت إلى كائن لا حياة فيه.

إنّ موضوع الحياة و الموت بالنسبة للكائنات الحية من أعقد المسائل التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۲

لم تستطيع العلوم البشرية الوصول إلى كنه حقيقتها و رفع الستار عن أسرارها لتخطو إلى أعماق مجهولاتها، و لتعرف كيف يمكن لعناصر الطبيعة و موادها الجامدة أن تطفر طفرة عظيمة فتتحول إلى كائنات حية.

قد يأتى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه الإنسان أن يصنع كائنا حيا باستخدام التركيبات الطبيعية المختلفة و تحت ظروف معقدة خاصّة، و بطريقة تركيب أجزاء مصنعة، كما يفعلون بالمكائن و الأجهزة، غير أن قدرة البشر «المحتملة» فى المستقبل لا تستطيع أن تقلل من أهمية مسألة الحياة و تعقيداتها التى تبدأ من المبدع القادر.

لذلك نجد القرآن- و فى معرض إثبات وجود اللّه- كثيرا ما يكرر هذا الموضوع، كما يستدل أنبياء عظام كإبراهيم و موسى- على وجود مبدأ قادر حكيم بمسألة الحياة و الموت لإقناع جبابرة طغاة مثل نمرود و فرعون.

يقول إبراهيم لنمرود: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ ۲۳۲]، و يقول موسى لفرعون:

وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى ۲۳۳].

ينبغى ألّا ننسى أنّ ظهور الحى من الميت لا يختص فى بداية ظهور الحياة على الأرض فقط، بل يحدث هذا فى كل وقت بانجذاب الماء و المواد الأخرى إلى خلايا الكائنات الحية، فتكتسى كائنات غير حية بلباس الحياة، و عليه فإنّ القانون الطبيعى السائد اليوم و القائل بأنّه لا يمكن فى الظروف الحالية التى تسود الأرض لأى كائن غير حى أن يتحول إلى كائن حى، و حيثما وجد كائن حى فثمّة بذرة حية وجد منها هو قانون لا يتعارض مع ما قلناه، (فتأمل بدقّة)! و يستفاد من روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية و الآيات المشابهة لها، أنّ ذلك يشمل الحياة و الموت الماديين كما يشمل الحياة و الموت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۳

المعنويين أيضا[۲۳۴] فثمّة مؤمنون ولدوا لآباء غير مؤمنين، و آخرون مفسدون و أشرار ولدوا لآباء من المتقين الأخيار، ناقضين قانون الوراثة بإرادتهم و اختيارهم.

و هذا بذاته دليل آخر على عظمة الخلاق الذى أعطى الإنسان هذه القدرة و الإرادة.

النقطة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هى أنّ «يخرج» الفعل المضارع و «مخرج» اسم الفاعل، يدلان على الاستمرار، أى أنّ نظام ظهور الحى من الميت و ظهور الميت من الحى نظام دائم و عام فى عالم الخلق.

و فى ختام الآية توكيد للموضوع: ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ أى هذا هو ربّكم و هذه هى قدرته و علمه اللامتناهى، فكيف بعد هذا تنحرفون عن الحق و تميلون إلى الباطل؟ ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ و فى الآية الثّانية يشير القرآن إلى ثلاث نعم سماوية: فيقول أولا: فالِقُ الْإِصْباحِ و ذكرنا، أنّ «الفلق» هو شقّ الشىء و إبانة بعضه عن بعض، و «الإصباح» و «الصبح» بمعنى واحد.

إنّه تعبير رائع، فظلام الليل قد شبه بالستارة السميكة التى يشقها نور الصباح شقا، و هذه الحالة تنطبق على الصبح الصادق و الصبح الكاذب كليهما، لأنّ الصبح الكاذب هو الضوء الخفيف الذى يظهر فى آخر الليل عند المشرق على هيئة عمود، و كأنّه شق يبدأ من الشرق نحو الغرب فى قبة السماء المظلمة، و الصبح الصادق هو الذى يلى ذلك على هيئة شريط أبيض لامع جميل يظهر عند امتداد الأفق الشرقى، و كأنّه يشق عباب الليل الأسود من الأسفل ممتدا من الجنوب إلى الشمال، متقدما فى كل الأطراف حتى يغطى السماء

كلها شيئا فشيئا.

كثيرا ما يشير القرآن إلى نعمتى النّور و الظلام و الليل و النهار، و لكنّه هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۴

يتناول «طلوع الصبح» كنعمة من نعم اللّه الكبرى، فنحن نعرف أنّ هذه الظاهرة تحدث لوجود جو الأرض، ذلك الغلاف الضخم من الهواء الذى يحيط بالأرض، فلو كانت الأرض- مثل القمر- عديمة الجو، لما كان هناك «طلوعان» و لا «فلق» و لا «إصباح»، و لا «غسق» و لا «شفق» بل كانت الشمس تبزغ فجأة، بدون أية مقدمات و لسطع نورها فى العيون التى اعتادت على ظلام الليل و لم تكد تفارقه، و عند الغروب تختفى فجأة، و تعم الظلمة الموحشة فى لحظة واحدة كل الأرجاء، غير أنّ الجو الموجود حول الأرض و المؤدى إلى حصول فترة فاصلة بين ظلام الليل و ضياء النهار عند طلوع الشمس و غروبها يهيئ الإنسان تدريجيا لتقبل هذين الاختلافين المتضادين و الانتقال من الظلمة إلى النّور، و من النّور إلى الظلمة، شيئا فشيئا، بحيث إنّه يستطيع أن يتحمل كل منهما، فنحن نشعر بالانزعاج إذا كنّا فى غرفة مضاءة و انطفأت الأنوار فجأة و عم الظلام، ثمّ إذا استمر الظلام ساعة، و عاد النّور مرّة أخرى فجأة، عادت معها حالة الانزعاج بسبب سطوع الضوء المفاجئ الذى يؤلم العين و يجعلها غير قادرة على رؤية الأشياء، و إذا ما تكرر هذا الأمر فإنّه لا شك سيؤذى العين، غير أنّ فالِقُ الْإِصْباحِ قد جنب الإنسان هذا الأذى بطريقة رائعة[۲۳۵].

و لكيلا يظن أحد أنّ فلق الصبح دليل على أنّ ظلال الليل أمر غير مطلوب و أنّه عقاب أو سلب نعمة، يبادر القرآن إلى القول: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً.

من الأمور المسلم بها أنّ الإنسان يميل خلال انتشار النّور و الضياء إلى العمل و بذل الجهد، و يتجه الدم نحو سطح الجسم و تتهيأ العضلات للفعالية و النشاط، و لذلك لا يكون النوم فى الضوء مريحا، بل يكون أعمق و أكثر راحة كلما كان الظلام أشد، حيث يتجه الدم فيه نحو الداخل، و تدخل الخلايا عموما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۵

فى نوع من السكون و الراحة، لذلك نجد فى الطبيعة أنّ النوم فى الليل لا يقتصر على الحيوانات فقط، بل إنّ النباتات تنام فى الليل أيضا، و عند بزوغ خيوط الصباح الأولى تشرع بفعاليتها و نشاطها، بعكس الإنسان فى هذا العصر الآلى، فهو يبقى مستيقظا إلى ما بعد منتصف الليل، ثمّ يظل نائما حتى بعد ساعات من طلوع الشمس، فيفقد بذلك نشاطه و سلامته.

فى الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام نجد التأكيد على ما ينسجم مع هذا التنظيم، من ذلك ما

جاء فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال يوصى أحد قواده «... و لا تسر أوّل الليل فإنّ اللّه جعله سكنا و قدره مقاما لا ضعنا، فارح فيه بدنك و روح ظهرك»[۲۳۶].

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «تزوج بالليل فإنّه جعل الليل سكنا»[۲۳۷].

و

فى كتاب الكافى عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام أنّه كان يأمر بعدم ذبح الذبائح فى الليل و قبل طلوع الفجر، و كان يقول: «إنّ اللّه جعل الليل سكنا لكل شىء»[۲۳۸].

ثمّ يشير اللّه تعالى إلى الثالثة من نعمه و دلائل عظمته بجعل الشمس و القمر وسيلة للحساب: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً.

«الحسبان» بمعنى الحساب، و لعل القصد منه أنّ الدوران المنظم لهاتين الكرتين السماويتين و سيرهما الدائب (المقصود طبعا حركتها فى أنظارنا و هى الناشئة عن حركة الأرض) عون لنا على وضع مناهجنا الحياتية المختلفة وفق مواعيد محسوبة، كما ذكرنا فى التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۶

يرى بعض المفسّرين أنّ الآية تريد أن تقول إن هاتين الكرتين السماويتين تتحركان فى السماء وفق حساب و برنامج و نظام.

و عليه فهى فى الحالة الأولى إشارة إلى إحدى نعم اللّه على الإنسان، و فى الحالة الثّانية إشارة إلى واحد من أدلة التوحيد و إثبات وجود الخالق، و لعلها إشارة إلى كلتيهما.

على كل حال، إنّه لموضوع مهم جدّا أن تكون الأرض منذ ملايين السنين تدور حول الشمس و القمر يدور حول الأرض، و بذلك تنتقل الشمس فى أنظارنا من برج إلى برج بين الأبراج الفلكية الاثنتى عشرة، و القمر يدور فى حركته المنتظمة من الهلال حتى المحاق، أنّ حساب هذا الدوران من الدقة و الضبط بحيث إنّه لا يتقدم و لا يتأخر لحظة واحدة، و لو لاحظنا أنّ الأرض تدور حول الشمس فى مدار بيضوى معدل شعاعه ۱۵۰- مليون كيلومتر ضمن جاذبية الشمس العظيمة، و القمر الذى يدور كل شهر حول الأرض فى مدار شبه دائرة شعاعه نحو ۳۷۴ ألف كيلومتر و لا يخرج من جاذبية الأرض العظيمة، فهو دائم الانجذاب نحوها، عندئذ يمكن أن ندرك مدى التعادل الدقيق بين قوة الجذب بين هذه الأجرام السماوية من جهة، و القوة الطاردة عن مراكزها (القوة المركزية) من جهة أخرى، بحيث لا يمكن أنّ تتوقف لحظة واحدة أو تختلف قيد شعرة.

و هذا ما لا يمكن أن يكون إلّا فى ظل علم و قدرة لا نهائيتين يضعان تخطيطه و ينفذانه بدقّة، لذلك تنتهى الآية بقولها: ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۹۷]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۹۷)

التّفسير

بعد شرح نظام دوران الشمس و القمر فى الآية السابقة، تشير هذه الآية إلى نعمة أخرى من نعم اللّه على البشر، فجعل النجوم ليهتدى بها الإنسان فى ليالى البر و البحر: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

و تختتم الآية بالقول بأنّ اللّه قد بين آياته لأهل الفكر و الفهم و الإدراك: و قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

منذ آلاف السنين و الإنسان يعرف النجوم فى السماء و نظامها، و على الرغم من تقدم البشر فى هذا المضمار تقدما كبيرا، فإنّه ما يزال يتابع وضع النجوم قليلا أو كثيرا، بحيث كانت له هذه النجوم خير وسيلة لمعرفة الاتجاه فى الأسفار البرية و البحرية، و على الأخص فى المحيطات الواسعة التى كانت تخلو من كل إمارة تشير إلى الاتجاه قبل اختراع الأسطرلاب.

إنّ النجوم هى التى هدت ملايين البشر و أنقذتهم من الغرق و أوصلتهم إلى بر السلامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۸

لو تطلعنا إلى السماء عدّة ليال متوالية لانكشف لنا أنّ مواضع النجوم فى السماء متناسقة فى كل مكان، و كأنّها حبات لؤلؤ خيطت على قماش أسود، و إنّ هذا القماش يسحب باستمرار من الشرق إلى الغرب، و كلها تتحرك معه و تدور حول محور الأرض دون أن تتغير الفواصل بينها، إنّ الاستثناء الوحيد فى هذا النظام هو عدد من الكواكب التى تسمى بالكواكب السيارة لها حركات مستقلة و خاصّة، و عددها ثمانية: خمسة منها ترى بالعين المجرّدة، و هى (عطارد و الزهرة، و زحل، و المريخ و المشترى) و ثلاثة لا ترى إلّا بالتلسكوب و هى (أورانوس و نبتون و پلوتو) بالإضافة إلى كوكب الأرض التى تجعل المجموع تسعة.

و لعل إنسان ما قبل التّأريخ كان يعرف شيئا عن «الثوابت» و «السيارات» لأنّه لم يكن هناك ما يمكن أن يجلب انتباهه أكثر من السماء المرصعة بالنجوم فى ليلة ظلماء، فلا يستبعد أن يكون هو أيضا قد استخدم النجوم فى الاستهداء و معرفة الاتجاه.

يستفاد من بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ لهذه الآية تفسيرا آخر، و هو أنّ المقصود بالنجوم القادة الإلهيين و الهداة إلى طريق السعادة، أى الأئمّة الذين يهتدى بهم الناس فى ظلام الحياة فينجون من الضياع، و سبق أن قلنا أنّ هذه التفاسير المعنوية لا تتنافى مع التفاسير الظاهرية، و من الممكن أن تقصد الآية كلا التفسيرين ۲۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۳۹۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۹۸ الى ۹۹]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (۹۸) وَ هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِى ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۹۹)

التّفسير

هاتان الآيتان تتابعان دلائل التوحيد و معرفة اللّه، و الوصول إلى هذا الهدف يأخذ القرآن بيد الإنسان و يسيح به فى آفاق العالم البعيدة و قد يسير به فى داخل ذاته و يبيّن له آثار اللّه فى جسمه و روحه، فيتيح له أن يرى اللّه فى كل مكان.

فيبدأ بالقول: وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ.

أى أنّكم، على اختلاف ملامحكم و أذواقكم و أفكاركم و التباين الكبير فى مختلف جوانب حياتكم، قد خلقتم من فرد واحد، و هذا دليل على منتهى عظمة الخالق و قدرته التى أوجدت من المثال الأوّل كل هذه الوجوه المتباينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۰

و جدير بالملاحظة أنّ هذه الآية تعبر عن خلق الإنسان بالإنشاء، و الكلمة لغويا تعنى الإيجاد و الإبداع مع التربية، أى أنّ اللّه قد خلقكم و تعهد بتربيتكم، و من الواضح أنّ الخالق الذى يخلق شيئا ثمّ يهمله لا يكون قد أبدى قدرة فائقة، و لكنّه إذا استمر فى العناية بمخلوقاته و حمايتها، و لم يغفل عن تربيتها لحظة واحدة، عندئذ يكون قد أظهر حقّا عظمته وسعة رحمته.

بهذه المناسبة ينبغى ألا نتوهّم من قراءة هذه الآية، أنّ أمّنا الأولى حواء قد خلقت من آدم (كما جاء فى الفصل الثّانى من سفر التكوين من التّوراة)، و لكن آدم و حواء خلقا من تراب واحد، و كلاهما من جنس واحد و نوع واحد، لذلك قال: إنّهما خلقا من نفس واحدة، و قد بحثنا هذا الموضوع فى بداية تفسير سورة النساء.

ثمّ يقول: إنّ فريقا من البشر «مستقر» و فريقا آخر «مستودع» فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ

«المستقر» أصله من «القر» (بضم القاف) بمعنى البرد، و يقتضى السكون و التوقف عن الحركة، فمعنى «مستقر» هو الثابت المكين.

و «مستودع» من «ودع» بمعنى ترك، كما تستعمل بمعنى غير المستقر و الوديعة هى التى يجب أن تترك عند من أودعت عنده لتعود إلى صاحبها.

يتّضح من هذا الكلام أنّ الآية تعنى أنّ الناس بعض «مستقر» أى ثابت، و بعض «مستودع» أى غير ثابت، أمّا المقصود من هذين التعبيرين، فالكلام كثير بين المفسّرين، و بعض التفاسير تبدو أقرب إلى الآية كما أنّها لا تتعارض فيما بينها.

من هذه التفاسیر القول بأنّ «مستقر» صفة الذین کمل خلقهم و دخلوا «مستقر الرحم» أم مستقر وجه الأرض، و «المستودع» صفة الذین لم یکتمل خلقهم بعد و إنّما هو ما یزالون نطفا فی أصلاب آبائهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۱

تفسیر آخر یقول: إنّ «مستقر» إشارة إلی روح الإنسان الثابتة و المستقرة، و «مستودع» إشارة إلی جسم الإنسان الفانی غیر الثابت.

و قد جاء فی بعض الرّوایات تفسیر معنوی بهذین التعبیرین، و هو أنّ «مستقر» تعنی الذین لهم إیمان ثابت «و مستودع» تعنی من لم یستقر إیمانه ۲۴۰].

و ثمّة احتمال أن یکون هذان التعبیران إشارة إلی الجزئین الأولین فی ترکیب نطفة الإنسان، إنّ النطفة- کما نعلم- تترکب من جزئین: الأوّل هو «البویضة» من الأنثی، و الثانی هو «الحیمن» أو «المنی» من الذکر، أنّ البویضة فی رحم الأنثی تکان تکون مستقر، و لکن حیمن الذکر حیوان حی یتحرک بسرعة نحوها، و ما أن یصل أوّل حیمن إلی البویضة حتی یمتزج بها و «یخصبها» و یصد (الحیامن) الأخری، و من هذین الجزئین تتکون بذرة الإنسان الأولی.

و فی ختام الآیة یعود فیقول: قَدْ فَصَّلْنَا الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَفْقَهُونَ

عند الرجوع إلی کتب اللغة یتبیّن لنا أنّ «الفقه» لیس کل معرفة أو فهم، بل هو التوصل إلی علم غائب بعلم حاضر[۲۴۱]، و بناء علی ذلک فالهدف من التمعن فی خلق الإنسان و اختلاف أشکاله و ألوانه، هو أن یتوصل المرء المدقق من معرفة الخلق إلی معرفة الخالق.

الآیة الثانیة هی آخر آیة فی هذه المجموعة التی تکشف لنا عن عجائب عالم الخلق و تهدینا إلی معرفة اللّه بمعرفة مخلوقاته.

فی البدایة تشیر الآیة إلی واحدة من أهم نعم اللّه التی یمکن أن تعتبر النعمة الأم و أصل النعم الأخری، و هی ظهور النباتات و نموها بفضل النعمة التی نزلت من السماء: وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً.

و إنّما قال (من السماء) لأنّ سماء کل شیء أعلاه، فکل ما فی الأرض من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۲

میاه العیون و الآبار و الأنهار و القنوات و غیرها منشؤها الأمطار من السماء، و قلّة الأمطار تؤثر فی کمیة المیاه فی تلک المصادر کلها، و إذا استمر الجفاف جفّت تلک المنابع، أیضا.

ثمّ تشیر إلی أثر نزول الأمطار البارز: فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ کُلِّ شَیْءٍ.

یری المفسّرون احتمالین فی المقصود من نَباتَ کُلِّ شَیْءٍ.

الأوّل: إنّ المقصود من ذلک کل أنواع النباتات و أصنافها التی تسقی من ماء واحد، و تنبت فی أرض واحدة و تتغذی من تربة واحدة، و هذه واحدة من عجائب الخلق، کیف تخرج کل هذه الأصناف من النباتات بأشکالها و ألوانها و أثمارها المختلفة و المتباینة أحیانا من أرض واحدة و ماء واحد! و الاحتمال الثّانی: هو أنّ النباتات یحتاج إلیها کل مخلوق آخر من حشرات و طیور و حیوانات فی البحر و البر، و انّه لمن العجیب أنّ اللّه تعالی یخرج من أرض واحدة و ماء واحد الغذاء الذی یحتاجه کل هؤلاء، و هذا من روائع الأعمال المعجزة کأنّ یستطیع أحد أن یصنع من مادة معینة فی المطبخ آلاف الأنواع من الأطعمة لآلاف الأذواق و الأمزجة.

و الأعجب من کل هذا أنّ نباتات الصحراء و الیابسة لیست وحدها التی تنمو ببرکة ماء المطر، بل إنّ النباتات المائیة الصغیرة التی تطفو علی سطح البحر و تکون غذاء للأسماک تنمو بأشعة الشمس و قطرات المطر.

و لا أنسی ما قاله أحد سکّان المدن الساحلیة و هو یشکو قلّة الصید فی البحر، و یذکر سبب ذلک بأنّه الجفاف و قلّة نزول المطر، فکان یعتقد أنّ قطرات المطر فی البحار أشد تأثیرا منها فی الیابسة.

ثمّ تشرح الآیة ذلک و تضرب مثلا- ببعض النباتات التی تنمو بفضل الماء، فتذکر أنّ اللّه یخرج بالماء سیقان النباتات الخضر من الأرض، و من تلک الحبّة الصلبة یخلق الساق الأخضر الطری اللطیف الجمیل بشکل یعجب الناظرین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۳

فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً[۲۴۲].

و من ذلک الساق الأخضر أخرجنا الحبّ متراصفا منظما: نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراكِباً[۲۴۳].

و کـذلک بالماء نخرج من النخل طلعا مغلقا، ثمّ یتشـقق فتخرج الاعذاق بخیوطها الرفیعة الجمیلة تحمل حبات التمر، فتتدلی من ثقلها: وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ.

«الطلع» هو عذق التمر قبل أن ینفتح غلافه الأخضر، و إذ ینفتح الطلع تخرج منه أغصان العذق الرفیعة، و هی القنوان و مفردها قنو.

و «دانیة» أی قریبة، و قد یکون ذلک إشارة إلی قرب أغصان العذق من بعضها، أو إلی أنّها تمیل نحو الأرض لثقلها.

و کذلک بساتین فیها أنواع الأثمار و الفواکه: وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ

ثمّ تشیر الآیة إلی واحدة أخری من روائع الخلق فی هذه الأشجار و الأثمار، فتقول: مُشْتَبِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ

انظر تفسیر الآیة (۱۴۱) من هذه السورة فی شرح المتشابه و غیر المتشابه للزّیتون و الرّمان ۲۴۴].

إنّ شـجرتی الرمان و الزیتون متشابهتان من حیث الشـکل الخارجی و تکوین الأغصان و هیئة الأوراق تشابها کبیرا، مع أنّهما من حیث الثمر و طعمه و فوائـده مختلفتـان، ففی الزیتون مادة زیتیـة قویـة الأثر، و فی الرمان مادة حامضـیة أو سـکریة، فهما متباینان تماما، و مع ذلک فقد تزرع الشجرتان فی أرض واحدة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۴

و تشربان من ماء واحد، فهما متشابهان و غیر متشابهین فی آن واحد.

و من المحتمل أنّ تکون الإشارة إلی أنواع مختلفة من أشـجار الفاکهة التی یتشابه بعضـها فی الشـجر و فی الثمر، و یختلف بعضها عن الآـخر فی ذلـک، (أی أنّ کـل واحـدة من هـاتین الصـفتین تختص بمجموعـة من الأشـجار و الأثمـار، أمّـا حسب التّفسـیر الأـوّل، فإنّ الصفتین لشیء واحد).

ثمّ ترکز الآیة من بین مجموع اجزاء شجرة علی ثمرة الشجرة و علی ترکیب الثمرة إذا أثمرت، و کذلک علی نضج الثمرة إذا نضجت، ففیها دلائل واضحة علی قدرة اللّه و حکمته للمؤمنین من الناس: انْظُرُوا إِلى ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ يَنْعِهِ إِنَّ فِي ذلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ما نقرؤه الیوم فی علم النبات عن کیفیـة طلوع الثمرة و نضـجها یکشف لنا عن الأهمیة الخاصّة التی یولیها القرآن للأثمار، إذ إنّ ظهور الثمرة فی عالم النبات أشـبه بولادة الأبناء فی عالم الحیوان، فنطفة الذکر فی النبات تخرج من أکیاس خاصّة بطرق مختلفة (کالریاح أو الحیوانات) و تحط علی القسم الأنثوی فی النبات، و بعـد التلقیـح و الترکیب تتشـکل البیضـة الملقحـة الأولی، و تحیط بها مواد غذائیة مشابهـة لترکیبها، أنّ هـذه المواد الغذائیة تختلف من حیث الترکیب و کذلک من حیث الطعم و الخواص الغذائیة و الطبیة. فقد تکون ثمرة (مثل العنب و الرمان) فیها مئات من الحبّ، کل حبّة منها تعتبر جنینا و بذرة لشجرة أخری، و لها ترکیب معقد عجیب.

إنّ شـرح بنیـة الأثمار و المواد الغذائیة و الطبیة خارج عن نطاق هذا البحث، و لکن من الحسن أنّ نضـرب مثلا بثمرة الرمان التی أشار إلیها القرآن علی وجه الخصوص فی هذه الآیة.

إذا شـققنا رمانة و أخذنا إحدی حباتها نظرنا خلالها باتجاه الشمس أو مصدر ضوء آخر نجدها تتألف من أقسام أصغر، و کأنّها قواریر صغیرة مملوءة بماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۵

الرّمان قد رصـفت الواحدة إلی جنب الأخری. ففی حبّة الرمان الواحدة قد تکون المئات من هذه القواریر الصغیرة جدا، یجمع أطرافها غشـاء رقیق هو غشاء حبّـة الرمان الشـفاف، ثمّ لکی یکون هـذا التغلیف أکمل و أمتن و أبعـد عن الخطر رکّب عـدد من الحبات علی قاعـدة فی نظام معین، و لفت فی غلاف أبیض سـمیک بعض الشـیء، و بعـد ذلک یأتی القشـر الخارجی للرمانة، یلف الجمیع لیحول

دون نفوذ الهواء و الجراثيم، و لمقاومة الضربات و لتقليل تبخر ماء الرمان فى الحبات إلى أقل حدّ ممكن.

إنّ هذا الترتيب فى التغليف لا يقتصر على الرمان، فهناك فواكه أخرى- مثل البرتقال و الليمون- لها تغليف مماثل، أمّا فى الأعناب و الرمان فالتغليف أدق و ألطف.

و لعل الإنسان حذا حذو هذا التغليف عند ما أراد نقل السوائل من مكان إلى مكان، فهو يصف القنانى الصغيرة فى علبة و يضع بينها مادة لينة، ثمّ يضع العلب الصغيرة فى علب أكبر و يحمل مجموعها إلى حيث يريد.

و أعجب من ذلك استقرار حبات الرمان على قواعدها الداخلية و أخذ كل منها حصتها من الماء و الغذاء و هذا كله ممّا نراه بالعين، و لو وضعنا ذرات هذه الثمرة تحت المجهر لرأينا عالما صاخبا و تراكيب عجيبة مدهشة محسوبة بأدق حساب.

فكيف يمكن لعين باحثة عن الحقيقة أن تنظر إلى هذه الثمرة ثمّ تقول: إنّ صانعها لا- يملك علما و لا معرفة!! إنّ القرآن إذ يقول انْظُرُوا إنّما يريد هذه النظرة الدقيقة إلى هذا القسم من الثمرة للوصول إلى هذه الحقائق.

هذا من جهة، و من جهة أخرى فإن المراحل المتعددة التى تمر بها الثمرة منذ تولّدها حتى نضجها تثير الانتباه، لأنّ «المختبرات» الداخلية فى الثمرة لا تنفك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۶

عن العمل فى تغيير تركيبها الكيمياوى إلى أن تصل إلى المرحلة النهائية و يثبت تركيبها الكيمياوى النهائى، أنّ كل مرحلة من هذه المراحل دليل على عظمة الخالق و قدرته.

و لكن لا- بدّ من القول- بحسب تعبير القرآن- إنّ المؤمنين الذين يمعنون النظر فى هذه الأمور هم الذين يرون هذه الحقائق، و إلّا فعين العناد و المكابرة و الإهمال و التساهل لا يمكن أن ترى أدنى حقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۳]

اشارة

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَصِفُونَ (۱۰۰) بَدِيعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۰۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۰۲) لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (۱۰۳)

التّفسير

خالق كل شيء:

هذه الآيات تشير إلى جانب من العقائد السقيمة و الخرافات التى يؤمن بها المشركون و أصحاب المذاهب الباطلة، و ترد عليهم بالمنطق.

فأوّلا: قالوا: إنّ للّه شركاء من الجن وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَ

فيما يتعلق بالجن، هل المقصود بهم هو المعنى اللغوى الذى يفيد كل كائن غير مرئى و مخفى عن حس الإنسان، أم هم طائفة الجن التى يرد ذكرها مرارا فى القرآن و التى سنشير إليها قريبا؟ للمفسرين فى هذا احتمالان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۸

علی الاحتمال الأوّل قد تکون الآیة إشارة إلی الذین کانوا یعبدون الملائکة أو مخلوقات غیر مرئیة.

و علی الاحتمال الثّانی قد تکون الإشارة إلی الذین کانوا یعتبرون الجن شرکاء للّه أو زوجات له.

یقول الکلبی فی کتاب «الأصنام»: إنّ إحدی الطوائف العربیة، و تدعی «بنو ملیح» و هی إحدی أفخاذ قبیلة «خزاعة» کانت تعبد الجن ۲۴۵]، کما یقال إنّ عبادة الجن و الاعتقاد بالوهیتها کانت منتشرة بین مذاهب الیونان الخرافیة و فی الهند[۲۴۶].

و یستدل من الآیة (۱۵۸) من سورة الصافات: وَ جَعَلُوا بَیْنَهُ وَ بَیْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً علی أنّه کان بین العرب من یری بین اللّه و الجن نسبا و قرابة، و یذکر بعض المفسّرین أنّ قریشا کانت تعتقد أنّ اللّه قد تزوج الجن، فکان الملائکة ثمرة ذلک الزواج ۲۴۷].

فینکر الإسلام علیهم ذلک، إذ کیف یمکن ذلک و هو الذی خلق الجن:

وَ خَلَقَهُمْ أی کیف یمکن أن یکون المخلوق شریکا للخالق، لأنّ الشرکة دلیل التماثل و التساوی، مع أنّ المخلوق لا یمکن أن یکون فی مصاف خالقه أبدا! الخرافة الأخری هی قولهم جهلا- إنّ للّه بنین و بنات: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِینَ وَ بَناتٍ بِغَیْرِ عِلْمٍ

أفضل دلیل علی أنّ هذه العقائد لیست سوی خرافة، هو أنّها تصدر عنهم بِغَیْرِ عِلْمٍ أی أنّهم لا یملکون أی دلیل علی هذه الأوهام.

من الملاحظ أنّ القرآن استعمل لفظة «خرقوا» من الخرق، و هو تمزیق الشیء بغیر رویة و لا حساب، و هی فی النقطة المقابلة تماما «للخلق» القائم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۰۹

الحساب، هاتان اللفظتان: «الخلق و الخرق» قد تستعملان فی حالات الکذب و الاختلاق، مع اختلاف بینهما هو أن (الخلق و الاختلاق) تستعمل فی الأکاذیب المدروسة و (الخرق و الاختراق) فیما لا حساب فیه من الکذب.

أی أنّهم اختلقوا تلک الأکاذیب دون أن یدرسوا جوانب الموضوع و بدون أن یعدوا له ما یلزم من الأمور.

أمّا الطوائف التی کانت تنسب للّه البنین، فإنّ القرآن یذکر فی آیات أخری اسم طائفتین من هؤلاء:

الأولی: هم المسیحیون الذین قالوا: إنّ عیسی ابن اللّه.

و الأخری: هم الیهود الذین قالوا: عزیر ابن اللّه.

یستفاد من الآیة (۳۰) من سورة التوبة، و ممّا توصل إلیه المحققون عن دراسة الجذور المشترکة بین المسیحیة و البوذیة، و علی الأخص فی موضوع التثلیث، أنّ المسیحیین و الیهود لیسوا وحدهم الذین نسبوا ابنا للّه، بل کان هذا موجودا فی المعتقدات الخرافیة القدیمة.

أمّا بشأن نسبة بنات للّه، فالقرآن نفسه یوضح ذلک فی آیات أخری:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِکَةَ الَّذِینَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً[۲۴۸].

و کما سبقت الإشارة إلیه، جاء فی التفاسیر و التواریخ إنّ قریشا کانت تری الملائکة بنات اللّه من زواجه بالجن.

و القرآن یرفض تماما فی نهایة الآیة کل هذه الخرافات التی لا أساس لها، و بعبارة حاسمة قاطعة: سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یَصِفُونَ

و الآیة التّالیة ترد علی تلک العقائد الخرافیة فتؤکّد أنّ اللّه هو ذلک الذی أبدع خلق السموات و الأرض: بَدِیعُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

هل هناک غیر اللّه من فعل ذلک أو یستطیع فعله کیما یکون شریکا له فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۰

عبادته؟ کلا، الجمیع مخلوقاته و یطیعون أمره و محتاجون إلیه.

ثمّ کیف یمکن أن یکون له أبناء دون أن تکون له زوجة؟! أَنَّی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ صاحِبَةٌ.

و ما حاجته إلی زوجة؟ ثمّ من التی تکون زوجته و هم جمیعا مخلوقاته؟

و فضلا عن ذلك كلّه أنّ ذاته القدسية منزهة عن كل الصفات الجسمانية، بينما الحاجة إلى زوجة و أبناء من الصفات الجسمانية المادية.

و مرّة أخرى تؤكّد الآية مقامه باعتباره خالقا لكل شيء، و محيطا بكل شيء:

وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الآية الثّالثة تؤكّد على سبيل الاستنتاج من كل ما سبق من ذكر خالقية اللّه لكل شيء، و إبداعه السموات و الأرض و إيجادها، و كونه منزها عن الصفات و العوارض الجسمية و عن الحاجة إلى الزوجة و الأبناء و إحاطته العلمية بكل شيء: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ فلا يستحق العبودية غيره.

و لكى ينقطع كل أمل بغير اللّه، و تنقلع كل جذور الشرك و الاعتماد على غير اللّه، تختتم الآية بالقول: وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أى أنّ مفتاح حل مشاكلكم بيده وحده، و ما من أحد غيره قادر على حلها إذ ما من أحد- غيره- إلّا و هو محتاج إلى إحسانه و كرمه، فلا موجب إذن لأن تطرح مشاكلك على غيره، و تطلب حلّها من غيره.

لاحظ أنّ العبارة تقول: عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ و لم تقل: لكلّ شيء وكيل، و اختلاف المعنى واضح، لأنّ «على» تفيد التسلط و نفوذ الأمر، أمّا «اللام» فتفيد التبعية، أى أن التعبير الأوّل يدل على الولاية و الرعاية، و الثّانى يدل على التمثيل و الوكالة.

الآية الاخيرة من الآيات مورد البحث، و من أجل إثبات حاكمية اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۱

و إحاطته بكل شيء و حفاظه على كل شيء، و كذلك لإثبات أنّه يختلف عن كل شيء، تقول: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أى أنّه الخبير بمصالح عبيده و بحاجاتهم، و يتعامل معهم بمقتضى لطفه.

فى الحقيقة أنّ من يريد أن يكون حافظ كل شيء و مربيه و ملجأه لا بدّ أن يتصف بهذه الصفات.

كما أنّ الآية تقول: إنّه يختلف عن جميع الأشياء فى العالم، لأنّ أشياء العالم بعضها يرى و يرى، كالإنسان، و بعضها لا يرى و لا يرى كصفاتنا الباطنية، و بعض آخر يرى و لا يرى، كالجمادات، فالوحيد الذى لا يرى و لكنّه يرى كلّ شيء هو اللّه الواحد الأحد.

بحوث

اشارة

هنا نشير إلى بضع نقاط:

۱- لا تدركه الأبصار:

تثبت الأدلة العقلية أنّ اللّه لا- يمكن أن يرى بالعين، لأنّ العين لا- تستطيع أن ترى إلّا الأجسام، أو على الأصح بعضا من كيفيات الأجسام، فإذا لم يكن الشيء جسما و لا- كيفية من كيفيات الجسم، لا يمكن أن تراه العين، و بتعبير آخر، إذا أمكنت رؤية شيء بالعين، فلأن لهذا الشيء حيزا و اتجاها و كتلة، فى حين أنّ اللّه أرفع من أن يتصف بهذه الصفات، فهو وجود غير محدود و هو أسمى من عالم المادة المحدود فى كل شيء.

فى كثير من الآيات، و على الأخص فى الآيات التى تشير إلى بنى إسرائيل و طلبهم رؤية اللّه، نجد القرآن ينفى بكل وضوح إمكان

رؤیة اللّه (سوف یأتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۲

شرح ذلک فی تفسیر الآیة ۱۴۳- من سورة الأعراف إن شاء اللّه).

و من العجیب أنّ کثیرا من أهل السنة یعتقدون أنّ اللّه سیری یوم القیامة، و یعبر صاحب تفسیر المنار عن ذلک بقوله: هذا من مذاهب أهل السنة و العلم بالحدیث ۲۴۹].

و الأعجب من ذلک أنّ بعض المحققین المعاصرین الواعین یمیلون- أیضا- إلی هذا الاتجاه و یصرون علیه! أمّا الواقع فإنّ بطلان هذه الفکرة إلی درجة من الوضوح بحیث لا یستوجب نقاشا، لأنّ الأمر لا یختلف بین الدنیا و الآخرة (إذا قلنا بالمعاد الجسمانی)، إنّ اللّه فوق المادة، و لا یتبدل یوم القیامة إلی وجود مادی، و لا یخرج من لا محدودیته لیصبح محدودا، و لا یتحول فی ذلک الیوم إلی جسم أو إلی کیفیة من کیفیات الجسم! و هل الأدلة العقلیة علی عدم إمکان رؤیة اللّه فی الدنیا هی غیرها فی الآخرة»؟ أم هل یتغیر حکم العقل بهذا الشأن یومذاک؟! و لا یمکن تبریر هذه الفکرة بأنّ من المحتمل أن یصبح للإنسان فی الآخرة نوع آخر من الرؤیة و الإدراک، لأنّ هذه الرؤیة و الإدراک إذا کانت فی الآخرة فکریة و عقلانیة، فإنّنا فی هذه الدنیا أیضا نشاهد اللّه و جماله بعین القلب و قوة العقل، أمّا إذا کانت الرؤیة هی نفسها التی نری بها الأجسام، فإنّ رؤیة اللّه بهذا المعنی مستحیلة فی هذه الدنیا و فی الآخرة علی السواء.

و بناء علی ذلک فإنّ القول بأنّ الإنسان لا یری اللّه فی هذه الدنیا، و لکن المؤمنین یرونه یوم القیامة غیر منطقی و غیر مقبول.

إنّ ما حمل هؤلاء علی الذهاب إلی هذا المذهب و الدفاع عنه هو وجود أحادیث فی کتبهم المعروفة تقول بإمکان رؤیة اللّه یوم القیامة، و لکن ألیس من الأفضل أن نقول ببطلان هذا الرأی بالدلیل العقلی، و نحکم باختلاق أمثال هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۳

الرّوایات و عدم اعتبار الکتب التی أوردت مثل هذه الرّوایات، (اللهم إلّا إذا قلنا أنّ المقصود من هذه الرؤیة هی الرؤیة القلبیة) هل یصح أن نجانب حکم العقل و الحکمة من أجل أمثال هذه الأحادیث؟! أمّا الآیات القرآنیة التی یبدو منها لأوّل وهلة أنّها تدل علی رؤیة، مثل وُجُوهٌ یَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلی رَبِّها ناظِرَةٌ[۲۵۰] و یَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَیْدِیهِمْ ۲۵۱] فإنّها من باب الکنایة و الرمز، إنّنا نعلم أنّ أیة آیة قرآنیة لا یمکن أن تخالف حکم العقل و منطق الحکمة.

و الملفت للنظر أنّ الأحادیث و الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام تستنکر هذه العقیدة الخرافیة أشد استنکار، و تنتقد القائلین بها أشد انتقاد، من ذلک أنّ أحد أصحاب الإمام الصّادق علیه السّلام و اسمه (هشام) یقول: کنت عند الإمام الصّادق علیه السّلام فدخل علیه معاویة بن وهب (و هو من أصحاب الإمام أیضا) و سأله قائلا: یا بن رسول اللّه، ما قولک فی ما جاء بشأن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قد رأی اللّه، فکیف رآه؟ و کذلک

فی الحدیث المروی عنه أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: إنّ المؤمنین فی الجنّة یرون اللّه. فبأی شکل یرونه؟ فتبسم الإمام الصّادق ابتسامه ألم، و قال: «یا معاویة بن وهب! ما أقبح أن یعیش المرء سبعین أو ثمانین سنة فی ملک اللّه، و یتنعم بنعمه، ثمّ لا یعرفه حق المعرفة یا معاویة، إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یر اللّه رأی العین أبدا، إنّ المشاهدة نوعان: المشاهدة القلبیة، و المشاهدة البصریة، فمن قال بالمشاهدة القلبیة فقد صدق، و من قال بالمشاهدة البصریة فقد کذب و کفر باللّه و بآیاته فإنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: من شبه اللّه بالبشر فقد کفر»[۲۵۲].

و

فی (أمالی الصدوق) بإسناده إلی إسماعیل بن الفضل قال: سألت الإمام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۴

الصّادق علیه السّلام عن اللّه تبارک و تعالی، و هل یری فی المعاد؟ فقال: «سبحان اللّه و تعالی عن ذلک علوا کبیرا، یا ابن الفضل، إنّ الأبصار لا تدرک إلّا ما له لون و کیفیة، و اللّه تعالی خالق الألوان و الکیفیة»[۲۵۳].

من الجدیر بالانتباه أنّ هذا الحدیث یؤکّد کلمة «لون» و نحن الیوم نعلم أنّ الجسم بذاته لا یری مطلقا، و إنما الذی نراه هو لونه، فإذا لم یکن للجسم أی لون فلن یری.

(فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر بحث بهذا الشأن فی تفسیر الآیة (۴۶) من سورة البقرة).

۲- اللّه خالق کل شیء

بعض المفسّرین من أهل السنة، ممن یذهب إلی الجبر یتخذ من قوله تعالی خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ دلیلا علی صحة مذهبهم فی الجبر، فیقول: إنّ أعمالنا و أفعالنا من «أشیاء» هذا العالم أیضا، لأنّ کلمة «شیء» تطلق علی کل ذی وجود، ماديا کان أم غیر مادی، و سواء کان من الذوات أم من الصفات، و علیه عند ما نقول: إنّ اللّه خالق کل شیء، لا بدّ لنا أن نقبل أیضا بأنّه خالق أفعالنا، و هذا هو الجبر بعینه.

بید أنّ القائلین بحریة الإرادة و الإختیار یردون بجواب واضح علی أمثال هذه الاستدلالات، و هو أنّ خالقیة اللّه حتی بالنسبة لأفعالنا لا تتعارض مع حریتنا فی الإختیار، إذ أنّ أفعالنا یمکن أن تنسب إلینا و إلی اللّه، فنسبتها إلی اللّه قائمة علی کونه قد وضح جمیع مقدمات ذلک تحت تصرفنا، فهو الذی وهبنا القوة و القدرة و الإراده و الإختیار، فما دامت جمیع المقدمات من خلقه، فیمکن أن تنسب أفعالنا إلیه باعتباره خالقها، و لکن من حیث اتخاذ القرار النهائی فإننا بالاستفادة ممّا وهبه اللّه لنا من القدرة علی الإرادة و الإختیار نتخذ القرار بأداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۵

الفعل أو ترکه، فمن هنا تنسب هذه الأفعال إلینا و نکون مسئولین عنها.

و بتعبیر الفلاسفة: لا یوجد فی هذا المقام علّتان أو خالقان للفعل فی عرض واحد.

بل هما ممتدتان طولا لأنّ وجود علّتین تامّتین فی عرض واحد لا معنی له، لکنّهما إذا کانا طولیین فلا مانع من ذلک، و لما کانت أفعالنا تستلزم المقدمات التی وهبها اللّه لنا، فیمکن أن ننسب هذه المستلزمات إلیه أیضا، إضافة إلی نسبتها إلی فاعلها.

هذا الکلام أشبه بالذی یرید أن یختبر عماله فیترک لهم الحریة فی عملهم و اختیاراتهم، و یهیء لهم جمیع ما تطلبه عملهم من مقدمات و وسائل، فطبیعی أن تعتبر أفعالهم منسوبة إلی ربّ العمل، و لکن ذلک لا یسلبهم حریة العمل و الإختیار، بل یکونون مسئولین عن أعمالهم.

و سنبحث فکرة الجبر و الإختیار- إن شاء اللّه- بالتفصیل عند تفسیر الآیات المرتبطة بالموضوع.

۳- ما معنی «بدیع»؟

سبق أن ذکرنا أن «بدیع» تعنی موجد الشیء بغیر سابق وجود، أی أنّ اللّه أوجد السموات و الأرض بغیر أن یسبق ذلک وجود مادة أو خطة سابقة.

هنا یعترض بعضهم بقوله: کیف یمکن إیجاد شیء من عدم و نحن قد بحثنا هذا فی تفسیر الآیة (۱۱۷) من سورة البقرة، و ذکرنا ما ملخصه: إنّنا عند ما نقول إنّ اللّه أوجد الأشیاء من العدم لا نعنی أنّ المادة الأولیة لخلقها هی «العدم» مثلما نقول: إنّ النجار صنع

الکرسی من الخشب، فهذا بالطبع مستحیل، لأنّ «العدم» لا یمکن أن یکون مادة «الوجود».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۶

إنّما المقصود هو أنّ موجودات هـذا العالم لم تکن موجودة من قبل، ثمّ وجدت، و لیس فی هذا ما یصعب فهمه، و قد ضربنا لذلک أمثلة فی تفسیر آیة (۱۱۷) من سورة البقرة، و نضیف هنا قائلین: إنّنا قادرون علی أن نوجد فی أذهاننا أشیاء لم تکن فیها من قبل مطلقا، و لا شک أنّ لهذه الموجودات الذهنیة نوعا من الوجود و الکینونة، رغم أنّه لیس وجودا خارجیا، و لکنّها موجودة فی أفق أذهاننا، و إذا کان وجود الشیء بعد العدم مستحیلا، فما الفرق بین الوجود الذهنی و الوجود الخارجی؟

و بناء علی ذلک فإنّنا کما نستطیع أن نخلق فی أذهاننا کائنات لم یکن لهم وجود من قبل، کذلک یفعل اللّه ذلک فی العالم الخارجی، انّ قلیلا من التأمل فی هذا المثال أو فی الأمثلة التی ضربناها هناک کاف لحل هذه المسألة.

۴- ما معنی «اللطیف»؟

«اللطیف» من مادة «لطف» و قد وردت هذه الصفة فی الآیات السابقة کاحدی الصفات الالهیة، و اللطیف ۲۵۴] إذا وصف به الجسم دل علی الخفیف المضاد للثقیل، و یعبر باللطافة و اللطف عن الحرکة الخفیفة و عن تعاطی الأمور الدقیقة التی قد لا تدرکها الحواس، و یصح أن یکون وصف اللّه تعالی باللطف علی هذا الوجه لمعرفته بدقائق الأمور، و لخلقه أشیاء دقیقة لطیفة غیر مرئیة، و تتسم أفعاله بالدقة المتناهیة الخارجة عن قدرة الإدراک.

یروی (الفتح بن یزید الجرجانی) حدیثا عن الإمام علی بن موسی الرضا علیهما السّلام یعتبر معجزة علمیة فی هذا المجال یقول: قال الإمام علیه السّلام: «.. إنّما قلنا اللطیف، للخلق اللطیف و لعلمه بالشیء اللطیف، أو لا تری- وفقک اللّه و ثبتک- إلی أثر صنعه فی النبات اللطیف و غیر اللطیف و من الخلق اللطیف و من الحیوان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۷

الصغار و من البعوض و الجرجس و ما هو أصغر منها ما لا یکاد تستبینه العیون، بل لا یکاد یستبان لصغره الذکر من الأنثی، و الحدث المولود من القدیم، لما رأینا صغر ذلک فی لطفه و اهتداءه للسفاد و الهرب من الموت و الجمع لما یصلحه و ما فی لجج البحار و ما فی لحاء الأشجار و المفاوز و القفار و إفهام بعضها عن بعض منطقها و ما یفهم به أولادها عنها و نقلها الغذاء إلیها ثمّ تألیف ألوانها حمرة مع صفرة و بیاض مع حمرة و أنّه ما لا تکاد عیوننا تستبینه لدمامة خلقها لا تراه عیوننا و لا تلمسه أیدینا، علمنا أنّ خالق هذا الخلق لطیف لطف بخلق ما سمیناه بلا علاج و لا أداة و لا آلة و أنّ کل صانع شیء فمن شیء صنعه و اللّه الخالق اللطیف الجلیل خلق و صنع لا من شیء».

إنّ هذا الحدیث الذی یشیر إلی الجراثیم و الکائنات المجهریة قبل أن یولد (پاستور) بقرون یفسر معنی اللطیف.

و یحتمل أیضا أن یکون المقصود من اللطیف هو أنّ ذاته المقدسة من اللطافة بحیث لا تدرک بالحواس، و علیه فإنّه «اللطیف» لأنّ أحدا لا علم له به، و هو «الخبیر» لأنّه عالم بکل شیء.

و قد ورد هذا المعنی فی بعض روایات أهل البیت علیهم السّلام أیضا[۲۵۵] و لیس هناک ما یمنع من إرادة المعنیین من هذه الکلمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۸

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۷]

اشارة

قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۱۰۴) وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۰۵) اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۶) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۷)

التّفسير

ليس من واجبك الإكراه:

تعتبر هذه الآيات نتيجة للآيات السابقة، ففى البداية تقول: قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ

«بصائر» جمع «بصيرة» من «البصر» بمعنى الرؤية، و لكنّها فى الغالب رؤية ذهنية و عقلانية، و قد تطلق على كل ما يؤدى إلى الفهم و الإدراك، و هذه الكلمة فى هذه الآيات تعنى الدليل و الشاهد، و تشمل جميع الدلائل التى وردت فى الآيات السابقة، بل إنّها تشمل حتى القرآن نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۱۹

ثمّ لكى تبيّن أنّ هذه الأدلة و البراهين كافية لإظهار الحقيقة لأنّها منطقية، تقول: فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها، أى أنّ إبصارهم يعود بالنفع عليهم و عماهم يسبب الإضرار بهم.

و فى نهاية الآية تقول، على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ.

للمفسّرين احتمالان فى تفسير هذا المقطع من الآية:

الأوّل: إنّى لست أنا المسؤول عن مراقبتكم و المحافظة عليكم و ملاحظة أعمالكم، فاللّه هو الذى يحافظ على الجميع، و هو الذى يعاقب و يثيب الجميع، أنّ واجبى لا يتعدى إبلاغ الرسالة و بذل الجهد لهداية الناس.

و الآخر: أنا غير مأمور لأحملكم بالجبر و الإكراه على قبول الإيمان، إنّما واجبى هو أن أدعوكم إلى ذلك بتبيان الحقائق بالمنطق و الحجّة و أنتم الذين تتخذون قراركم النهائى.

و ليس ما يمنع من انطواء العبارة على كلا المعنيين.

الآية التّالية تؤكّد أنّ اتخاذ القرار النهائى فى إختيار طريق الحقّ أو الباطل إنّما يرجع للناس أنفسهم، و تقول: وَ كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ ۲۵۶] أى كذلك نبيّن الأدلة و البراهين بصور و أشكال متنوعة.

لكن جمعا عارضوا، و قالوا- دونما دليل و برهان- إنّك تلقيت هذا من الآخرين (أى اليهود و النصارى): وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ ۲۵۷].

إلّا أنّ جمعا آخر ممن لهم الاستعداد لتقبل الحق لما لهم من بصيرة و فهم و علم، يرون وجه الحقيقة و يقبلونها: وَ لِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

إنّ اتهام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه اقتبس تعاليمه من اليهود و النصارى قد تكرر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۰

من جانب المشركين، و ما يزال المعارضون المعاندون يتابعونهم فى ذلك، مع أنّ حياة الجزيرة العربية لم تكن فيها مدرسة و لا درس ليتعلم منها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شيئا، كما أنّ رحلاته إلى خارج الجزيرة كانت قصيرة لا تدع مجالا لمثل هذا الاحتمال، ثمّ إنّ معلومات اليهود و المسيحيين الذين كانوا يسكنون الحجاز كانت على درجة من التفاهة و تسطير الخرافات بحيث لا يمكن- أصلا- مقارنتها بما فى القرآن و لا بتعاليم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سنشرح هذا الموضوع- إن شاء اللّه- عند

تفسير الآية (۱۰۳) من سورة النحل.

ثمّ تبيّن الآيـة واجب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى قبال معانـدة المعارضـين و حقدهم و اتهاماتهم، فتقول: اتَّبِعْ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و من واجبك أيضا الإعراض عما يوجهه إليك المشركون من افتراءات: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ

هذا- فى الواقع- ضرب من التسلية و التقوية المعنوية للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكيلا ينتاب عزمه الراسخ الصلب أى ضعف فى مواجهة أمثال هؤلاء المعارضين.

يتبيّن ممّا قلناه بجلاء أنّ عبارة وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ لا- تتعارض مطلقا مع الأمر بـدعوتهم إلى الإسـلام و لا مع الجهاد ضـدهم، فالمقصود هو أن لا يلقى اهتماما إلى أقوالهم الباطلة و اتهاماتهم الكاذبة، بل يمضى فى طريقه بثبات.

الآيـة الأخيرة يكرر القرآن فيما- مرّة أخرى- القول بأنّ اللّه لا يريـد أن يكره المشـركين و يجبرهم على الإسـلام، إذ لو أراد ذلك لما كـان هنـاك أى مشـرك: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكُوا كما يؤكّـد القول لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: إنّك لست مسـئولا عن أعمـال هؤلاء، لأنّك لم تبعث لإكراههم على الإيمان: وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، و لا من واجبك حملهم على عمل الخير: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

«الحفيظ» هو من يراقب أمرا أو شخصا ليحفظه من أن يصاب بضرر، أمّا «الوكيل» فهو من يسعى لإحراز النفع لموكله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۱

لعل من المفيد أن نشـير إلى أنّ نفى هاتين الصـفتين «الحفاظ و الوكالة» عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يعنى نفى الإجبار على دفع ضـرر أو اجتلاب نفع، و إلّا فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يدعوهم- ضمن تبليغه الرسالة- إلى عمل الخير و ترك الشر بصورة طوعية و اختيارية.

إنّ الفكرة التى تسود هذه الآيات تستلفت النظر، فهى تقول: إنّ الإيمان باللّه و بتعاليم الإسلام لا يكون عن طريق الإكراه و الإجبار، بل يكون عن طريق المنطق و الاسـتدلال و النفوذ إلى أفكـار النـاس و أرواحهم، فالإيمـان بالإـكرام لا قيمـة له، لأنّ المهم هو أن يـدرك الناس الحقيقة فيتقبلوها بإرادتهم و اختيارهم.

كثيرا مـا يؤكّـد القرآن حقيقـة كون الإسـلام بعيـدا عن كـل عنف و خشونـة، كتلـك الأعمال التى كانت ترتكبها الكنيسـة فى القرون الوسطى ۲۵۸]، و محاكم تفتيش العقائد.

أمّا صلابة الإسلام فى مواجهة المشركين فسوف نبحثها- إن شاء اللّه فى بداية تفسير سورة البراءة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۰۸]

اشارة

وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۰۸)

التّفسير

اشارة

تناولت الآيات السابقة موضوع قيام تعاليم الإسلام على أساس المنطق، و قيام دعوته على أساس الاستدلال و الإقناع لا الإكراه، و هذه الآية تواصل نفس التوجيهات فتنهى عن سبب ما يعبد الآخرون- أى المشركون- لأنّ هذا سوف يدعوهم إلى أن يعمدوا هم أيضا- ظلما و عدوانا و جهلا- إلى توجيه السب إلى ذات اللّه المقدسة: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ

يروى أنّ بعض المؤمنين كانوا يتألمون عند رؤيتهم عبادة الأصنام، فيشتمون أحيانا الأصنام أمام المشركين، و قد نهى القرآن نهيا قاطعا عن ذلك، و أكّد التزام قواعد الأدب و اللياقة حتى فى التعامل مع أكثر المذاهب بطلانا و خرافة.

إنّ السبب واضح، فالسّب و الشّتم لا يمنعان أحدا من المضى فى طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۳

الخطأ، بل إنّ التعصب الشديد و الجهل المطبق الذى يركب هؤلاء يدفع بهم إلى التمادى فى العناد و اللجاجة و إلى التشبث أكثر بباطلهم، و يستسهلون إطلاق ألسنتهم بسبّ مقام الرّبوبية جل و علا، لأنّ كل أمّة تتعصب عادة لعقائدها و أعمالها كما تقول العبارة التّالية من الآية: كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ

و فى الختام تقول الآية: ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ.

بحوث

هنا ينبغى الانتباه إلى ثلاث نقاط:

۱- هذه الآية نسبت إلى اللّه تزيين الأعمال الحسنة و السيئة لكل شخص، و قد يثير هذا عجب بعضهم، إذ كيف يمكن أن يزين اللّه أعمال المرء السيئة فى نظره؟

سبق أن أجبنا مرات على مثل هذه الأسئلة فأمثال هذه التعبيرات تشير إلى صفة العمل و أثره، أى أنّ الإنسان عند ما يقوم بعمل ما بصورة متكررة، فإنّ قبح عمله يتلاشى فى نظره شيئا فشيئا، و يتخذ شكلا جذابا، و لما كان علّة العلل و سبب الأسباب و خالق كل شىء هو اللّه، و أنّ جميع التأثيرات ترجع إليه، فإنّ هذه الآثار تنسب أحيانا فى القرآن إلى اللّه (تأمل بدقّة).

و بعبارة أوضح، إنّ عبارة زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ تفسر هكذا: لقد أقحمناهم فى نتائج سوء أفعالهم إلى الحد الذى أصبح القبيح جميلا فى نظرهم.

يتضح من هذا أنّ القرآن ينسب- أحيانا- تزيين الأعمال إلى الشيطان، و هذا لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ الشيطان يوسوس لهم لكى يرتكبوا الأعمال القبيحة، و هم يستسلمون لوسوسة الشيطان، فتكون النتيجة أنّهم يلاقون عاقبة أعمالهم السيئة، و بالتعبير العلمى نقول: إنّ السببية من اللّه، و لكنّ هؤلاء هم الذين يوجدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۴

السبب، مدفوعين بوسوسة الشيطان (تأمل بدقّة)[۲۵۹].

۲- الأحاديث الإسلامية- أيضا- تواصل منطق القرآن فى ترك سبّ الضالين و المنحرفين، فقد أمر كبار قادة الإسلام بضرورة الاستناد إلى المنطق و الاستدلال دائما، و بلزوم تجنب شتم عقائد الآخرين، و قد جاء فى نهج البلاغة أنّ الإمام على عليه السّلام خاطب فريقا من أصحابه الذين كانوا يسبون أتباع معاوية فى حرب صفين،

فقال: «إنى أكره لكم أن تكونوا سبابين، و لكنّكم لو وصفتم أعمالهم و ذكرتم حالهم كان أصوب فى القول و أبلغ فى العذر»[۲۶۰].

۳- قد يعترض بعضهم قائلا: كيف يمكن لعبدة الأصنام أن يسبوا اللّه مع أنّهم فى الغالب يؤمنون باللّه و يعتبرون الأصنام مجرّد شفعاء إلى اللّه.

و لكنّنا إذا أمعنا النظر فى حالة العامّة المعاندين المتعصبين أدركنا أنّ هذا ممكن و لا عجب فيه، فإنّ أمثال هؤلاء إذا أثير غضبهم سعوا للانتقام و الإثارة بأى ثمن كان، حتى و إن كان ذلك بالإساءة إلى عقائد مشتركة يقول الآلوسى فى «روح المعانى» إنّ بعض العوام من الجهلة عند ما سمع بعض الشيعة يسب الشّيخين أزعجه ذلك فراح يسب عليا عليه السّلام، و إذا سئل عمّا دعاه إلى سب الإمام على عليه السّلام الذى يحترمه، قال: كنت أريد أن أنتقم من ذلك الشيعى، و لم أجد ما يغضبه و يثيره خيرا من هذا، فحملوه على أن يتوب عما فعل [۲۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۵

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۰]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰۹) وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱۰)

سبب النّزول

قيل فى نزول هذه الآية: إنّ قريش قالت: يا محمّد تخبرنا أنّ موسى كانت معه عصا يضرب بها الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا، و تخبرنا أنّ عيسى كان يحيى الموتى و تخبرنا أنّ ثمود كانت لهم ناقة فأتنا بآية من الآيات كى نصدقك، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أى شىء تحبون أن آتيكم به؟ قالوا: اجعل لنا الصفا ذهبا، و ابعث لنا بعض موتانا، حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل، و أرنا الملائكة يشهدون لك، أو ائتنا باللّه و الملائكة قبيلا!! فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فإن فعلت بعض ما تقولون، أ تصدقوننى؟» قالوا: نعم و اللّه لئن فعلت لنتبعنك أجمعين، و سأل المسلمون رسول اللّه أن ينزلها عليهم حتى يؤمنوا.

فقام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدعو اللّه تعالى أن يجعل الصفا ذهبا، فجاء جبرئيل عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۶

فقال له: إن شئت أصبح الصفا ذهبا، و لكن إنّ لم يصدقوا عذبتهم، و إن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «بل يتوب تائبهم» فأنزل اللّه تعالى الآيتين.

التّفسير

وردت فى الآيات السابقة أدلة كثيرة كافية على التوحيد، و ردّ الشرك و عبادة الأصنام، و مع ذلك فإنّ فريقا من المشركين المعاندين المتعصبين لم يرضخوا للحق، و راحوا يعترضون و ينتقدون، من ذلك أنّهم أخذوا يطلبون من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم القيام بخوارق عجيبة و غريبة يستحيل بعضها أساسا (مثل طلب رؤية اللّه)، زاعمين كذبا أنّ هدفهم من رؤية تلك المعجزات هو الإيمان، فى الآية الأولى، يقول القرآن: أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِها[۲۶۲].

و فى الردّ عليهم يشير القرآن إلى حقيقتين: يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّلا أن يقول لهم:

قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ أى أن تحقيق المعجزة لا يكون وفق مشتهياتهم، بل إنّها بيد اللّه و بأمره.

ثمّ يخاطب المسلمين البسطاء الذين تأثروا بإيمان المشركين فيقول لهم:

وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ ۲۶۳] مؤكدا بذلك أنّ هؤلاء المشركين كاذبون فى قسمهم.

كما أنّ مختلف المشاهد التى جرت بينهم و بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تؤكّد حقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۷

أنّهم لم يكونوا يبحثون عن الحق، بل كان هدفهم من كل ذلك أن يشغلوا الناس و يبذروا فى نفوسهم الشك و التردد.

الآيـة التّاليـة تبيّن سـبب عنـادهم و تعصـبهم، فتقول: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصـارَهُمْ كَمـا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أى أنّهم بإصـرارهم على الانحراف و السير فى طريق ملتو و تعصبهم الناشئ عن الجهل و رفض التسليم للحق، أضاعوا قدرتهم على الرؤية الصحيحة و الإدراك السليم، فراحوا يعيشون فى متاهات الضلال و الحيرة.

هنا أيضا نسب هذا الفعل إلى اللّه كما سبق من قبل، و هو فى الواقع نتيجة أعمالهم و سوء فعالهم، و ما نسبة ذلك إلى اللّه إلّا لأنّه علّة العلـل و مبـدأ عـالم الوجود، و كل خصـيصة فى أى شـىء إنّما هى بإرادته، و بعبارة أخرى: إنّ اللّه جعل من النتائـج الحتميـة للعناد و التعصب الأـعمى و الانحراف أن يكون لها مثل هـذا الأثر، و هو انحراف الإنسان شـيئا فشـيئا فى هـذا الطريق، فلا يعود يـدرك الأمور إدراكا سليما.

ثمّ تشـير الآية فى الخاتمة إلى أنّ اللّه، يترك أمثال هؤلاء فى حالتهم تلك لكى يشـتد ضلالهم و تزداد حريتهم: وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۲۶۴].

نسأل اللّه أن يجنبنا الابتلاء بمثل هذا الضـلال و الحيرة الناتجة عن أعمالنا السيئة، و أن يمنحنا النظرة السليمة الكاملة لكى نرى الحقيقة ناصعة لا غبش عليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۲۹

الجزء الثامن من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۱

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۱۱]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (۱۱۱)

التّفسير

لماذا لا يرعوى المعاندون؟

هـذه الآيـة تتبع سابقاتها فى تعقيب الحقيقـة نفسـها، و هـدف هذه الآيات هو بيان كذب أولئك الذين طلبوا تحقيق معجزات عجيبة و غريبة يستحيل تحقق بعضها كما مرّ (مثل رؤية اللّه جهرة).

فهم يظنون أنّهم بطلبهم تلك المعجزات العجيبـة سوف يزعزعون أفكار المؤمنين و يزلزلون عقائد الباحثين عن الحق و يشـغلونهم عن ذلك.

فيصـرّح القرآن فى الآيـة المـذكورة قائلا: وَ لَوْ أَنَّنـا نَزَّلْنـا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مـا كـانُوا

لِيُؤْمِنُوا[۲۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۲

ثمّ يؤكّد ذلك أنّهم لا يمكن أن يؤمنوا إلّا فى حالة واحدة و هى أن يجبرهم اللّه بإرادته على الإيمان: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إلّا أنّ إيمانا كهذا لا ينفع فى تربيتهم و لا يؤثر فى تكاملهم و فى النهاية يقول: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ

هناك كلام مختلف بين المفسّرين عمّن يعود إليهم الضمير «هم» فى هذه العبارة، فقد يعود إلى المؤمنين الذين أصروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يحقق للمشركين طلباتهم و يأتيهم بكل معجزة يريدونها.

و ذلك لأنّ معظم هؤلاء المؤمنين كانوا يجهلون زيف الكفار فى دعواهم، و لكنّ اللّه كان عالما بأنّهم كاذبون، و لذلك لم يجبهم إلى طلباتهم، إلّا أنّ دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن تخلو- طبعا- من معجزة، فقد حقق اللّه فى مواضع خاصّة معجزات مختلفة على يده.

و الاحتمال الآخر هو أنّ الضمير «هم» يعود إلى الكفار أصحاب الطلبات أنفسهم، أى أنّ أكثرهم يجهل قدرة اللّه على تحقيق كل أمر خارق للعادة، و لعلهم يعتبرون قدرته محدودة لذلك كانوا يصفون معاجز الرّسول بالسحر، يقول سبحانه: وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ۲۶۶] فهم قوم معاندون و جاهلون و ينبغى أن لا يهتم أحد بكلامهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۳

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۳]

اشارة

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۱۲) وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ لِيَرْضَوْهُ وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ (۱۱۳)

التّفسير

وساوس الشياطين:

تشير هذه الآية إلى أنّ أمثال هؤلاء المعاندين اللجوجين المتعصبين الذين أشارت إليهم الآيات السابقة، لم يقتصر وجودهم على عهد نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل إنّ الأنبياء السابقين وقف فى وجوههم أعداؤهم من شياطين الإنس و الجن:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِ لا عمل لهم سوى الكلام المنمق الخادع يستغفل به بعضهم بعضا، يلقونه فى غموض أو يهمس به بعض لبعض: يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

و لكن: لو أراد اللّه لمنع هؤلاء بالإكراه عن ذلك و لحال دون وقوف هؤلاء الشياطين و أمثالهم بوجه الأنبياء: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ بيد أنّ اللّه لم يشأ ذلك، لأنّه أراد أن يكون الناس أحرارا، و ليكون هناك مجال لاختبارهم و تكاملهم و تربيتهم، إنّ سلب الحرية و الإكراه لا يأتلف مع هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۴

الأغراض، ثمّ إنّ وجود أمثال هؤلاء الأعداء المعاندين المتعصبين لا يضر المؤمنين الصادقين، شيئا، بل يؤدى بشكل غير مباشر إلى

تكامل الجماعة المؤمنة، لأنّ التكامل يسير عبر التضاد، و وجود عدو قوى له تأثير على تعبئة الطاقات البشرية و تقوية الإرادة.

لذلك يأمر اللّه نبيّه فى آخر السورة أن لا يلقى بالا إلى أمثال هذه الأعمال الشيطانية: فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ

ملاحظات:

نسترعى الانتباه إلى النقاط التّالية:

۱- فى هذه الآية ينسب اللّه إلى نفسه وجود شياطين الإنس و الجن فى قبال الأنبياء بقوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا ... و اختلف المفسّرون فى معنى هذه العبارة، و لكن كما سبق أن شرحنا جميع أعمال الناس يمكن أن تنسب إلى اللّه، لأنّ ما يملكه الناس إنّما هو من اللّه، فقدرتهم منه، و كذلك حرية اختيارهم و إرادتهم، لذلك فان أمثال هذه التعبيرات لا يمكن أن تعنى سلب حرية الإنسان و اختياره، و لا أنّ اللّه قد خلق بعض الناس ليتخذوا موقف العداء من الأنبياء، إذ لو كان الأمر كذلك لما توجهت إليهم أية مسئولية بشأن عدائهم للأنبياء، لأنّ عملهم فى هذه الحالة يعتبر تنفيذا لرسالتهم، و الأمر ليس كذلك ... بالطبع.

و لا يمكن إنكار ما لوجود أمثال هؤلاء الأعداء- المختارين طبعا- من أثر بنّاء غير مباشر فى تكامل المؤمنين، و بتعبير آخر: يستطيع المؤمنون الصادقون أن ينتزعوا من وجود الأعداء أثرا إيجابيا متخذين منه وسيلة لرفع مستواهم و وعيهم و إعدادهم للمقاومة، لأنّ وجود العدو يحفز الإنسان لاستجماع قواه.

۲- للشياطين (جمع شيطان) معنى واسع يشمل كل طاغ معاند مؤذ، لذلك يطلق القرآن على الوضيع الخبيث الطاغى من البشر اسم الشيطان، كما نلاحظ فى هذه الآية حيث ذكر شياطين الإنس و غير الإنس الذين لا نراهم، أمّا «إبليس»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۵

فهو اسم خاص للشيطان الذى وقف بوجه آدم عليه السّلام و هو فى الحقيقة رئيس جميع الشياطين، و عليه فالشيطان اسم جنس، و إبليس اسم على خاص ۲۶۷].

۳- زُخْرُفَ الْقَوْلِ يعنى الكلام المعسول الخادع الذى يعجبك ظاهره و هو فى الباطن قبيح ۲۶۸] و «الغرور» هو الغفلة فى اليقظة.

۴- تعبير يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ فيه إشارة لطيفة إلى أنّهم فى أقوالهم و أفعالهم الشيطانية يرسمون خططا غامضة يتبادلونها فيما بينهم سرّا لئلا يعرف الناس شيئا عن أعمالهم حتى ينفذوا خططهم كاملة، أنّ من معانى «الوحى» الهمس فى الأذن.

الآية التّالية تشير إلى نتيجة كلام الشياطين المزخرف الخادع فتقول: أخيرا سيستمع الذين لا إيمان لهم- أى الذين لا يؤمنون بيوم القيامة- إلى تلك الأقوال و تميل قلوبهم إليها: وَ لِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ[۲۶۹].

«لتصغى» من «الصغو» و هو الميل إلى شىء، و لكنّه فى الأغلب ميل ناشئ عن طريق السمع، فإذا استمع أحد إلى كلام مع الموافقة، فهو «الصغو» و «الإصغاء».

ثمّ يقول: إنّ نهاية هذا الميل هو الرضاع التام- بالمناهج الشيطانية وَ لِيَرْضَوْهُ

و ختام كل ذلك كان ارتكاب أنواع الذنوب و الأعمال القبيحة: وَ لِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۴ الى ۱۱۵]

اشارة

أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ

مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۱۱۴) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۱۱۵)

التّفسير

هـذه الآيـة فى الواقع هى نتيجـة الآيات السابقة، إذ تقول: بعد كل تلك الأدلة و الآيات الواضـحة التى تؤكّد التوحيد: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً[۲۷۰]؟ و هو الـذى أنزل هـذا الكتاب السـماوى العظيم الـذى فيه كل احتياجات الإنسان التربوية، و ما يميز بين الحق و الباطل و النّور و الظلمة، و الكفر و الإيمان: وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلًا.

و ليس الرّسول و المسـلمون وحـدهم يعلمون أنّ هـذا الكتـاب قـد نزل من اللّه، بل إنّ أهل الكتاب (اليهود و النصارى) يعلمون ذلك أيضا، لأنّ علائم هذا الكتاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۷

السماوى قرءوها فى كتبهم و يعلمون أنّه نزل من اللّه بالحق: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ

و على ذلك لم يبق مجال للشك فيه، و كذلك أنت أيّها النّبى لا تشك فيه أبدا، فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

هنا يبرز هذا السؤال: هل كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يداخله أدنى شك ليخاطب بمثل هذا القول؟

و الجواب: هو ما سبق أن قلناه فى مثل هـذه الحالات، و هو أن المخاطب فى الحقيقـة هم الناس، و ما مخاطبة النّبى مباشـرة إلّا لتوكيد الموضوع و ترسيخه، و ليكون التحذير للناس أقوى و أبلغ.

الآية التّالية تقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَ عَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

«الكلمـة» بمعنى القول، و تطلق على كل جملـة و كل كلام مطولا كان أم موجزا، و قد تطلق على الوعد، كما فى الآية: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ (الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا[۲۷۱]، لأنّ الشخص عند ما يعد يتلفظ ببعض الكلمات المتضمنة لمفهوم الوعد.

و قد يأتى بمعنى الدين و الحكم و الأمر للسبب نفسه.

أمّا بالنسـبة لاستعمالها فى هذه الآية فقيل إنّها تعنى القرآن، و قيل إنّها دين اللّه، و قيل: وعد النصر الذى وعد اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و ليس بين هذه تعارض، فقد تكون الآية أرادت هذه المعانى جميعا، و لأنّ الآيات السابقة كانت تشير إلى القرآن، فتفسير الكلمة بالقرآن أقرب.

فيكون معنى الآية إذن: إنّ القرآن ليس موضع شك بأىّ شكل من الأشكال، فهو كامل من جميع الجهات و لا عيب فيه، و كل أخباره و ما فيه من تواريخ صدق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۸

و كل أحكامه و قوانينه عدل.

و ربّما يكون معنى «كلمـة» هنا هو الوعـد الـذى جاء فى العبارة التّاليـة لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ إذ يتكرر هذا التعبير فى القرآن الكريم كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ۲۷۲] و قوله سبحانه وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۲۷۳]، فى أمثال هذه الآيات تكون الآية التّالية بيانا للوعد الذى ورد من قبل تحت لفظة «كلمة».

و على ذلك يكون معنى الآية: لقد تحقق وعدنا بالصدق و بالعدل، و هو أنّه ليس لأحد القدرة على تبديل أحكام اللّه.

و قد تتضمن الآية كل هذه المعانى.

و إذا كانت الآيـة تعنى القرآن، فـذلك لا يتعارض مع كون القرآن لم يكن قـد اكتمل نزوله حينـذاك، إذ المقصود هو أن ما نزل منه كان متكاملا و لا عيب فيه.

و يستند بعض المفسّرين إلى هـذه الآية لاثبات عدم تحريف القرآن، لأنّ تعبير لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ تعنى أنّ أحدا لا يستطيع أن يحدث

فى القرآن تبـديلا أو تغييرا، لا فى لفظه، و لا فى إخباره، و لا فى أحكامه، و أنّ هذا الكتاب السـماوى الذى يجب أن يبقى حتى نهاية العالم هاديا للناس سيبقى محفوظا و مصونا من أغراض الخائنين و المحرفين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۳۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (۱۱۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۱۷)

التّفسير

نعلم أنّ آيات هذه السورة نزلت فى مكّة، يوم كان المسلمون قلّة فى العدد، و لعل قلّتهم هذه و كثرة المشركين و عبدة الأصنام كانت مدعاة لتوهم بعضهم أنّه إذا كان دين أولئك باطلا فلم كثر أتباعه؟! و إذا كان دين الإسلام حقّا، فما سبب قلّة معتنقيه؟

و لـدفع هذا التوهم يخاطب اللّه نبيّه بعد ذكر أحقيّة القرآن فى الآيات السابقة قائلا: وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

و فى الجملـة التّاليـة يبيّن سـبب ذلـك، و هو أنّهم لا ـ يتبعون المنطق و التفكير السـليم، بـل هم يتبعون الظنون التى تخالطهـا الأـهواء و الأكاذيب و يمتزج بها الخداع و التخمين: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۲۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۰

فيكون مفهوم الآية الشريفة أنّ الأكثرية لا يمكن أنّ تكون وحدها الدليل على طريق الحق، و من هذا نستنتج أنّه يجب التوجه إلى اللّه وحده لمعرفة طريق الحق، حتى لو كان السائرون فى هذا الطريق قلّة فى العدد.

و الـدليل على ذلك يرد فى الآية التّالية التى تؤكّد على أنّ اللّه عليم بكل شـىء و لا مكان للخطأ فى علمه، فهو أعرف بطريق الهداية، كما هو أعرف بالضالين و بالسائرين على طريق الهداية: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۲۷۵].

هنا يبرز سؤال: يفهم من الآية أنّ اللّه سبحانه أعلم بطريق الهداية، فهل هناك من يعلم طريق الهداية بدون هدى اللّه حتى كون اللّه هو الأعلم؟! و الجواب: إنّ الإنسان قادر- بلا شك- أن يتوصل بعقله إلى بعض الحقائق، و يـدرك طريق الهدايـة و الضـلالة إلى حـد ما، غير أنّ مـديّات ضوء العقل لها حدود، و قد يظل بعض الحقائق خارج نطاق تلك الحدود، ثمّ إنّ معلومات الإنسان قد يعتورها الخطأ، فيكون لذلك بحاجة إلى مرشدين و هداة إلهيين، لذلك فتعبير «اللّه أعلم» صحيح، و إن يكن قياسا مع الفارق.

لا أهمية للكثرة العددية:

على العكس ممّـا يظنّه بعضـهم بـأنّ الكـثرة العدديـة توافق الصواب دائمـا فـإنّ القرآن ينفى هـذا فى كثير من آيـاته، و لا ـ يقيم للكثرة «العدديـة» أى وزن، بـل يرى- فى الحقيقـة- إنّ الكـثرة «الكيفيـة» هى المقيـاس، لا ـ الكـثرة «الكميـة» على الرغـم مـن أنّ المجتمعـات المعاصرة لم تجد لإدارة الحياة الاجتماعية طريقا سوى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۴۴۱

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۱

الاستناد إلی الأکثریة، فلا ننس أنّ هذا- کما قلنا- نوع من الاضطرار و الوصول إلی طریق مسدود، إذ لا یمکن العثور فی مجتمع مادی علی وسیلة صحیحة و سلیمة لاتخاذ القرارات و لسن القوانین.

لذلک نجد الکثیر من العلماء مضطرین إلی القبول بفکرة الأکثریة، علی الرغم من اعترافهم بأنّ هذه القاعدة کثیرا ما یصاحبها الخطأ، و ذلک لأنّ عیوب الوسائل الأخری أکثر.

بید أنّ مجتمعا مؤمنا برسالة الأنبیاء لا یجد نفسه مضطرا لاتباع نظر الأکثریة فی سن القوانین، لأنّ مناهج الأنبیاء الصادقة و قوانینهم الإلهیة خالیة من کل عیب و نقص، و لا یمکن مقارنتها بما تستصوبه الأکثریة المعرضة للخطأ.

لو ألقینا نظرة علی وضع العالم الیوم و علی الحکومات القائمة علی أساس رأی الأکثریة، و علی القوانین السقیمة التی تملیها الأهواء ثمّ تقرها الأکثریة، لرأینا أنّ الأکثریة العددیة لم تداو جرحا، بل إنّ معظم الحروب و أکثر المفاسد أقرّتها الأکثریة.

الاستعمار، و الاستغلال، و الحروب، و إراقة الدماء، و حریة تعاطی المسکرات، و القمار، و الإجهاض، و البغاء، و غیر ذلک ممّا یندی له الجبین خجلا، قد أقرّتها الأکثریة فی المجالس النیابیة فی کثیر من البلدان التی تصف نفسها بأنّها متقدمة باعتبارها تعکس رغبة أکثریة عامّة الناس، و هذا دلیل علی حقیقة ما نقول.

و من الناحیة العلمیة نتساءل هل أنّ أکثریة المجتمعات صادقة؟ هل الأکثریة أمینة؟ أ تراها تمنع نفسها من الاعتداء علی حقوق الآخرین، إذا استطاعت؟ هل تنظر الأکثریة إلی منافعها و منافع الآخرین بنظرة واحدة؟

الإجابات ناطقة بلسان الحال لا المقال، لذلک لا بدّ من الاعتراف بأنّ استناد العالم المعاصر إلی الأکثریة نوع من الإکراه تفرضه الأوضاع القائمة، و انّه شر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۲

مفروض علی المجتمعات.

نعم، لو أنّ العقول المفکرة، مصلحی المجتمعات البشریة المخلصین، و العلماء الهادین- و هم أقلیة دائما- شنوا حملة شاملة لتنویر أفکار عامّة الناس بحیث تنال المجتمعات قسطا من الوعی و الرشد الفکری و الاجتماعی، لاقتربت وجهات نظر أکثریة کهذه إلی الحقیقة اقترابا کبیرا، غیر أنّ أکثریة غیر راشدة و غیر واعیة، بل فاسدة و منحرفة و ضالة، لا تستطیع أن تقیل عثرة نفسها أو غیرها! لذلک فالأکثریة وحدها لا تکفی، و إنّها الأکثریة المهتدیة هی القادرة علی حل مشاکل المجتمع إلی الحد الذی یستطیعه بشر.

و إذا کان القرآن فی کثیر من المواضع یذم الأکثریة، فالمقصود هو الأکثریة غیر الرشیدة دون شک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۳

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۱۸ الی ۱۲۰]

اشارة

فَکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ إِنْ کُنْتُمْ بِآیاتِهِ مُؤْمِنِینَ (۱۱۸) وَ ما لَکُمْ أَلَّا تَأْکُلُوا مِمَّا ذُکِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَیْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَکُمْ ما حَرَّمَ عَلَیْکُمْ إِلاَّ ما اضْطُرِرْتُمْ إِلَیْهِ وَ إِنَّ کَثِیراً لَیُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِینَ (۱۱۹) وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ إِنَّ الَّذِینَ یَکْسِبُونَ الْإِثْمَ سَیُجْزَوْنَ بِما کانُوا یَقْتَرِفُونَ (۱۲۰)

التّفسیر

لا بدّ من إزالة آثار الشرك:

هـذه الآيات فى الحقيقـة واحدة من نتائج البحوث التى سـبقت فى التوحيد و الشـرك، لذلك تبدأ الآية الأولى بفاء التفريع التى يؤتى بعدها بالنتيجة.

الآيات السابقة تناولت بأساليب متنوعة حقيقة التوحيد و إثبات بطلان الشرك و عبادة الأصنام.

و من نتائـج ذلك أنّ على المسـلمين أن يمتنعوا عن أكل لحوم القرابين التى تذبح باسم الأصـنام، بل عليهم أن يأكلوا من لحم ما ذكر اسم اللّه عليه، حيث كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۴

من عادة العرب أن يـذبحوا القرابين لأصـنامهم، و يأكلوا من لحومها للتبرك بها، و كان هـذا جزءا من عبادتهم الأصـنام، لـذلك يبـدأ القرآن بالقول: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآياتِهِ مُؤْمِنِينَ

أى أنّ الإيمان ليس مجرّد قول و ادعاء و عقيـدة و نظريـة، بل لا بدّ أن يظهر على صـعيد العمل أيضا، فالذى يؤمن باللّه يأكل من هذه اللحوم فقط.

بديهى أنّ الفعل «كلوا» لا يعنى الوجوب، بل يعنى إباحة أكلها و حرمة أكل ما عداها.

و من هـذا يتبيّن أنّ حرمـة الذبائـح التى لم يـذكر اسم اللّه عليها، ليست من وجهة النظر الصـحيحة حتى يقال: ما الفائدة الصّـحيحة من ذكر اسم اللّه على الذبيحة بل لها خلفية أخلاقية و معنوية و تستهدف تثبيت قواعد التوحيد و عبودية اللّه الواحد الأحد.

الآية التّالية تورد هذا الموضوع نفسه بعبارة مغايرة مع مزيد من الاستدلال، فتقول: لم لا تأكلون من اللحوم التى ذكر اسم اللّه عليها، فى الوقت الذى بيّن اللّه لكم ما حرم عليكم؟ وَ ما لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

مرّة أخرى نشـير إلى أنّ التوبيـخ و التوكيـد ليسـا من أجل ترك أكل اللحم الحلال، بل الهـدف هو أنّ هـذه هى التى ينبغى أن تأكلوا منها، لا من غيرها، و بعبارة أخرى: التوكيـد يكون هنا على النقطـة المقابلـة لمفهوم العبارة، من هنا اسـتدل على ذلك بالقول: قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

أمّا موضع هذا التفصيل فقد يتصوّر البعض أنّه فى سورة المائدة، أو فى آيات من هذه السورة (الأنعام، ۱۴۵).

و لما كانت هـذه السورة قـد نزلت فى مكّـة، و سورة المائدة نزلت بالمدينة، و الآيات التّالية من هذه السورة لم تكن قد نزلت بعد فإنّ أيّا من هذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۵

الاحتمالين غير صحيح، فالموضوع إمّا أن يكون الآية (۱۱۵) من سورة النحل التى تـذكر بعض اللحوم المحرم أكلها، و خاصّة التى لم يـذكر عليهـا اسم اللّه، أو أن يكون المراد التعاليم التى كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بينها بشأن اللحوم، لأنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يتحدث إلّا بوحى.

ثمّ يسـتثنى من ذلك حالـة واحـدة: إِلَّا مَا اضْـطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ سواء كان هـذا الاضـطرار ناشـئا من وجود الإنسان فى البيـداء و تحت ضـغط الجوع الشديد، أو الوقوع تحت سيطرة المشركين الذين قد يجبرونه على أكل لحومهم.

ثمّ تشير الآية إلى أنّ كثيرا من الناس يحاولون أن يضلوا الآخرين عن جهل أو عن إتباع الهوى: وَ إِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

و على الرغم من أنّ إتباع الهوى مصحوب دائما بالجهل، و لكنّه يكرر ذلك للتوكيد فيقول: ... بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

يستفاد من هذا التعبير أيضا أنّ العلم الصحيح لا يقترن باتّباع الهوى و الانسياق مع الخيال، و حيثما اقترن فهو الجهل لا العلم.

يلزم القول أنّ الجملة المذكورة ربّما تكون إشارة إلى ما كان سائدا بين المشركين العرب الذين كانوا يسوغون لأنفسهم أكل لحوم الحيوانات الميتة بالقول: أ يجوز أن تعتبر لحوم الحيوانات التى نقتلها بأنفسنا حلالا، و لحوم الحيوانات التى يقتلها اللّه حراما؟

بديهى أنّ هذا لم يكن سوى سفسطة فارغة، لأنّ الحيوان الميت ليس حيوانا ذبحه اللّه ليمكن مقارنته بالحيوانات المذبوحة، إذ إنّ الحيوان الميت بؤرة الأمراض، و لحمه فاسد، و لهذا حرم اللّه أكله، و أخيرا يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ الذين يحاولون بهذه الأدلة الواهية تنكّب طريق الحق، بل يسعون إلى إضلال الآخرين.

الآية الثّالثة تذكر قانونا عاما، لاحتمال أن يرتكب بعضهم هذا الإثم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۶

الخفاء، و تقول: وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ

يقال إنّهم فى الجاهلية كانوا يعتقدون أن الزنا إذا ارتكب فى الخفاء فلا بأس به، أما إذ ارتكب علنا فهو الإثم! و اليوم- أيضا- نجد أناسا يسيرون وفق هذا المنطق الجاهلى فيخشون ارتكاب الإثم علانية، و لكنّهم يرتكبون فى الخفاء ما يشاءون من الآثام دون رادع من ضمير.

إنّ هذه الآية لا تدين هذا المنطق فحسب، بل تحمل مفاهيم واسعة، فهى بالإضافة إلى ما قلناه آنفا تتضمن الكثير من التفاسير التى وردت للإثم الظاهر و الباطن، من ذلك مثلا- قولهم: انّ الإثم الظاهر هو ما يرتكب بوساطة أعضاء الجسم، و الإثم الباطن هو ما يرتكب فى القلب و فى النيّة و العزم.

ثمّ من باب تهديد المذنبين بما ينتظرهم من مصير مشؤوم و تذكيرهم بذلك، تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ

عبارة يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ تعبير رائع يشير إلى أن الإنسان فى هذه الدنيا أشبه بأصحاب رؤوس الأموال الذين يدخلون سوقا كبيرة، أنّ رؤوس أموالهم الذكاء و العقل و العمر و الشباب و الطاقات المختلفة التى هى مواهب اللّه، فالمسكين ذاك الذى «يكتسب» الإثم بدل أن يكتسب السعادة و الشخصية الإنسانية و التقوى و القرب إلى اللّه.

و «سيجزون» أى ينالون الجزاء فى المستقبل القريب ... قد يشير إلى يوم القيامة، و أنّه و إن بدا فى نظر بعضهم بعيدا، فهو فى الحقيقة قريب جدا، و إن هذا العالم سرعان ما تنطوى أيّامه و يحين المعاد.

و قد يكون إشارة إلى أنّ أغلب أفراد البشر ينالون فى هذه الدنيا بعض ما يستحقونه من نتائج أعمالهم السيئة بشكل ردود فعل فردية و اجتماعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۷

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۱]

اشارة

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (۱۲۱)

التّفسير

دار الكلام فى الآيات السابقة حول الجانب الإيجابى من مسألة اللحوم، أى أكل اللحوم الحلال، و فى هذه الآية تأكيد للجانب السلبى

من المسألة:

وَ لا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ثمّ فى جملة واحدة يدين هذا العمل:

وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ و إثم و خروج عن طريق العبودية و إطاعة اللّه.

و لكيلا يقع بعض البسطاء من المسلمين تحت تأثير وسوسة الشيطان، تخاطبهم الآية: إنّ الشياطين يوسوسون فى الخفاء لأتباعهم لكى يدخلوا معكم فى جدل و نقاش: وَ إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ و لكن كونوا على حذر، و لا تطيعوهم: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ

لعل هذا الجدل و الوسوسة إشارة إلى ما كان سائدا بين المشركين بشأن أكل الميتة (و ذهب البعض إلى أنّ العرب المشركين أخذوه من المجوس) و قولهم: إنّنا نأكل الميتة لأنّ اللّه أماتها، و هى لذلك أفضل ممّا نقتله بأيدينا، معتقدين أن عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۸

أكل الميتة نوع من الجفاء لعمل اللّه! غافلين أنّ الحيوان الميت موتا طبيعا، إضافة إلى مرضه غالبا، يضم بين لحمه دما قذرا فاسدا يفسد معه اللحم، بسبب عدم انقطاع أوداجه، و لذلك أمر اللّه أن تؤكل- فقط- لحوم الحيوانات المذبوحة بطريقة خاصّة، و المراق دمها خارج بدنها.

و يستفاد من هذه الآية- ضمنيا- حرمة الذبيحة غير الإسلامية، لأنّها إضافة إلى الجهات الأخرى- لم يتقيد ذابحها بذكر اسم اللّه عليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۴۹

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۳]

اشارة

أَ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (۱۲۳)

سبب النّزول

قيل فى نزول الآية الأولى إنّ أبا جهل الذى كان من ألد أعداء الإسلام و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آذى يوما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إيذاء شديدا، و كان «حمزة» عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- ذاك الرجل الشجاع- لم يسلم بعد، بل كان ما يزال يقلب الأمر فى ذهنه، و قد خرج فى ذلك اليوم كعادته للصيد فى الصحراء، و عند عودته سمع بما جرى بين أبى جهل و ابن أخيه، فغضب غضبا شديدا و ذهب إلى أبى جهل و صفعه صفعة أسالت الدم من أنفه، و على الرغم من مكانة أبى جهل و نفوذه فى عشيرته، فإنّ لم يرد عليه لما يعرفه عن شجاعة حمزة.

و عاد حمزة إلى الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعلن إسلامه، و منذ ذلك اليوم أصبح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۰

جنديا من جنود الإسلام، و دافع عنه حتى استشهد بين يدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذه الآية نزلت بشأن هذه الحادثة و بيّنت إسلام حمزة، و إصرار أبى جهل على الكفر و الفساد.

و تفيد بعض الرّوايات الأخرى أنّ الآية نزلت بشأن إسلام عمار بن ياسر و إصرار أبى جهل على الكفر.

و مهما يكن، فإنّ هذه الآية- مثل الآيات الأخرى- لا تختص بواقعة نزولها، بل هى ذات مفهوم واسع يصدق على كل مؤمن صادق و

كل معاند لجوج.

التّفسير

الإيمان و الرّؤية الواضحة:

ترتبط هـذه الآيـة بالآيـات السابقـة من حيث كون الآيـات السابقـة أشـارت إلى طـائفتين من الناس: المؤمنين المخلصـين، و الكافرين المعاندين الذين لا يكتفون بضـلالهم، بل يسـعون حثيثا إلى تضـليل الآخرين، هنا أيضا يتجسد وضع هاتين الطائفتين من خلال ضرب مثل واضح.

يشير المثال إلى طائفة من الناس كانوا من الضّالين، ثمّ غيروا مسيرتهم باعتناق الإسلام فهؤلاء أشبه بالميت الذى يحييه اللّه بإرادته: أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ

كثيرا مـا يسـتعمل القرآن «الموت» و «الحياة» بالمـدلول المعنوى لهما لتمثيل الكفر و الإيمان، و هـذا يـدل على أنّ الإيمان ليس مجرّد معتقـدات جافـة و أوراد و طقوس، بل هو بمثابة الروح التى تحل فى النفوس الميتة غير المؤمنة، فتؤثر عليها فى جميع شؤونها، و تمنح العيون الرؤيـة، و الآذان قـدرة السـمع، و اللسان قوة البيان، و الأطراف العزم على أداء النشاطات البناءة ... الإيمان يغير الأفراد، و يشـمل هذا التغيير كل جوانب الحياة، و تبدو آثاره فى كل الحركات و السكنات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۱

و تفيد جملة فَأَحْيَيْناهُ أنّ الإيمان- و إن اسـتلزم سعى الإنسان لنيله- لا يتم إلّا بهداية من اللّه! ثمّ تقول الآية عن أمثال هؤلاء: وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ

على الرغم من وجود الاختلاف فى تفسير هـذا «النّور» فالظاهر أنّ المقصود ليس القرآن و تعاليم الشـرع فحسب، بل أكثر من ذلك، حيث يمنـح الإيمان باللّه الإنسان رؤية و إدراكا جديدين ... يمنحه رؤية واضـحة و يوسع من آفاق نظرته لتتجاوز إطار حياته المادية و جدران عالم المادة الضيق إلى عالم أرحب و أوسع.

و لما كان الإيمان يدعو الإنسان إلى أن يبنى نفسه، فانه يزيح عن عينيه أغشـية الأنانية و التعصب و المعاندة و الأهواء، و يريه حقائق ما كان قادرا على إدراكها من قبل.

إنّه فى ضوء هـذه النّور يسـتطيع أن يميز مسـيرة حياته بين الناس، و أنّ يصون نفسه و يحافظ عليها و يحصـنها ضـد ما يقع فيه الآخرون من أخطار الطمع و الجشع و الأفكار المادية المحدودة، و الوقوف بوجه أهوائه و كبح جماحها.

إنّ مـا نقرأه فى الأحـاديث الإسـلامية من أنّ «المؤمن ينظر بنور اللّه» إشـارة إلى هـذه الحقيقـة، إنّ مجرّد الوصف غير قـادر على تبيان خصـائص هـذه الرؤيـة الإيمانيـة التى يمنحها اللّه للإنسان، بل ينبغى أن يـذوق الإنسان طعمها لكى يـدرك بنفسه مغزى هـذا القول و يحس به.

ثمّ تقارن الآيـة بين هـذا الإنسان الحى، الفعال، النير، و المؤثر، بالإنسان العـديم الإيمان و المعاند، فتقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها.

نلاحظ أنّ الآيـة لا تقول: «كمن فى الظّلمات» بل تقول: كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ يقول بعضـهم: إنّ الهـدف من هذا التعبير هو إثبات أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فى الظّلمات و التعاسة إلى الحد الذى جعلهم مثلا يعرفه المدركون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۲

و قد يكون ذلك إشارة إلى معنى أدق هو: أنّه لم يبق من وجود هؤلاء الأفراد سوى شبح، أو قالب، أو مثال أو تمثال، لهم هياكل خالية من الروح و أدمغة معطلة عن العمل.

لا بدّ من القول- أيضا- إنّ «النّور» الذى يهدى المؤمنين جاء بصيغة المفرد، بينما «الظّلمات» التى يعيش فيها الكافرون جاءت بصيغة الجمع، و ذلك لأنّ الإيمان ليس سوى حقيقة واحدة، و هو يرمز إلى الوحدة و التوحيد، بينما الكفر و عدم الإيمان مدعاة للتشتت و التفرقة.

و فى الختام تشير الآية إلى سبب مصير هؤلاء المشؤوم فتقول: كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْكافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

سبق أن قلنا: إنّ من خصائص تكرار العمل القبيح أنّ قبحه يتضاءل فى عين الفاعل حتى يبدو له أخيرا و كأنّه عمل جميل، و يتحول إلى مثل القيد يشد أطرافه، و يمنعه من الخروج من هذا الفخ، إنّ مطالعة بسيطة لحال المجرمين تكشف لنا هذه الحقيقة بجلاء.

و لمّا كان بطل هذه المشاهد فى جانبها السلبى هو «أبو جهل» الذى كان من كبار مشركى قريش و مكّة، فالآية الثّانية تشير إلى حال هؤلاء الزعماء الضالين و قادة الكفر و الفساد، فتقول: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكابِرَ مُجْرِمِيها لِيَمْكُرُوا فِيها.

كررنا القول من قبل: أنّ سبب نسبة أمثال هذه الأفعال إلى اللّه، لكونه تعالى هو علّة العلل و مسبب الأسباب و مصدر كل القدرات، و الإنسان يستخدم ما وهبه اللّه من إمكانات طالحا كان هذا الفعل أم صالحا.

جملة «ليمكروا» تشير إلى عاقبة أعمالهم، و لا تعنى الهدف من خلقهم ۲۷۶] أى أنّه عاقبة عصيانهم و كثرة ذنوبهم أدت بهم إلى أن يصبحوا سدا على طريق الحق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۳

و عاملا- على جر الناس نحو الانحراف و الابتعاد عن طريق الحق، فالمكر فى الأصل هو اللف و الدوران، ثمّ أطلق على كل عمل منحرف مقرون بالإخفاء.

و فى الختام تقول الآية: وَ ما يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ ما يَشْعُرُونَ

و أى مكر و خديعة أعظم من أن يقوم هؤلاء باستخدام كل رؤوس أموال وجودهم، بما فى ذلك فكرهم و ذكاؤهم و ابتكاراتهم و أعمارهم و وقتهم و أموالهم، فى صفقة لا- تعود عليهم بأى ربح، بل تثقل ظهورهم بأحمال الذنوب و الآثام الثقيلة، ظانين أنّهم قد أحرزوا الربح و الإنتصار! كما يستفاد من هذه الآية أنّ النكبات و التعاسة التى تصيب المجتمع إنّما تنشأ من كباره و قادته، إذ إنّهم هم الذين يتوسلون بالمكر و الحيلة لتغيير معالم الطريق إلى اللّه، و يخفون وجه الحق عن الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۴

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۲۴]

اشارة

وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴)

سبب النّزول

يقول العلّامة الطّبرسى فى «مجمع البيان»: نزلت هذه الآية بشأن «الوليد بن المغيرة» (الذى كان من زعماء عبدة الأصنام دماغهم المفكر) كان هذا يقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا كانت النّبوة حقّا، فأنا أولى منك بها لكبر سنى و لكثرة مالى.

و قيل: إنّها نزلت بشأن «أبى جهل» لأنّه كان يقول: مقام النّبوة يجب أن يكون موضع تنافس، فنحن و بنو عبد مناف (قبيلة رسول اللّه) كنّا نتنافس على كل شىء، و نجرى كفرسى رهان كتفا لكتف، حتى قالوا: إنّ نبيا قام فيهم، و أنّه ينزل عليه الوحى فنحن لا نؤمن به إلّا إذا نزل علينا الوحى كما ينزل عليه.

التّفسير

اللّه أعلم حيث يجعل رسالته:

تشير هذه الآية بإيجاز إلى طريقة تفكير هؤلاء الأكابر أَكابِرَ مُجْرِمِيها و إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۵

مزاعمهم المضحكة الباطلة، فتقول: وَ إِذا جاءَتْهُمْ آيَةٌ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ كأنّ الوصول إلى مقام النبوة و هداية الناس يعتمد على سن الشخص و ماله، أو هو ميدان للمنافسة الصبيانية بين القبائل! و كأنّ على اللّه أن يراعى هذه الأمور المضحكة الباطلة التى لا تدل إلّا على منتهى الانحطاط الفكرى و عدم إدراك معنى النبوة و قيادة الخليقة! إنّ القرآن يرد على هؤلاء بوضوح قائلا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

بديهى أنّ الرسالة لا علاقة لها بالسن و لا بالمال و لا بمراكز القبائل، لأنّ شرطها الأوّل هو الاستعداد الروحى، و طهارة الضمير، و السجايا الإنسانية الأصيلة، و الفكر السامى، و الرأى السديد ثمّ التقوى إلى درجة العصمة ... إنّ هذه الصفات، و خصوصا الاستعداد لمقام العصمة لا يعلم بها غير اللّه، فما أبعد الفرق بين هذه الشروط و ما كان يدور بخلد أولئك.

كما إنّ من يخلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا بدّ أن تكون له جميع تلك الصفات عدا الوحى و التشريع، أى أنّه حامى الشرع و الشريعة، و الحارس على قوانين الإسلام، و القائد المادى و المعنوى للناس، لذلك لا بدّ له أن يكون معصوما عن الخطأ و الإثم، لكى يكون قادرا على أن يوصل الرسالة إلى أهدافها، و أن يكون قائدا مطاعا و قدوة يعتمد عليها.

و بناء على ذلك، يكون إختياره من اللّه أيضا، فهو وحده الذى يعلم أن يضع هذا المقام، فلا يمكن أن يترك ذلك للناس و لا للانتخابات و الشورى.

و فى النهاية تشير الآية إلى المصير الذى ينتظر أمثال هؤلاء المجرمين و الزّعماء الذين يدعون الباطل، فتقول: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما كانُوا يَمْكُرُونَ ۲۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۶

كان هؤلاء الأنانيون بمواقفهم العدائية يريدون أن يحافظوا على مراكبهم، و لكنّ اللّه سينزلهم إلى أدنى درجات الصغار و الحقارة بحيث إنّهم سيتعذبون بذلك عذابا روحيا شديدا، مضافا إلى أنّهم سيلاقون العذاب الشديد فى الآخرة لأنّ سعيهم على طريق الباطل كان شديدا أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۷]

اشارة

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ

الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هذا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷)

التّفسير

الإمدادات الإلهية:

تعقيبا على الآيات السابقة التى دارت حول المؤمنين الصادقين و الكافرين المعاندين تشرح هذه الآية النعم الإلهية الكبيرة التى تنتظر الفريق الأوّل، و الشقاء الذى سيصيب الفريق الثانى، فتقرر أنّ اللّه ينعم بالهداية على من يشاء، و ذلك بأن يفتح صدره لتقبل الإسلام، أمّا الذى لا يريد اللّه أن يوفقه لذلك- لسوء أعماله- يضيق صدره بحيث يجعله و كأنّه يريد أن يصعد إلى السماء. فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۸

و لتوكيد هذه الأمر تضيف الآية: كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فيسلبهم التوفيق و يركسهم فى التعاسة و الشقاء.

ملاحظات

اشارة

هنا يبغى أن نلاحظ النقاط التّالية:

۱- ما المقصود من «الهداية» و «الضلالة»؟

سبق لنا أن قلنا مرات عديدة أن المقصود من لفظى «الهداية» و «الضلالة» الإلهيين هو توفير الظروف و المقدمات المؤدية إلى الهداية بالنسبة للذين لهم الاستعداد لذلك، و سلبها عن الذين لا استعداد لهم لذلك، بالنظر إلى أعمالهم.

إنّ السالكين طريق الحق و الباحثين عن الإيمان المتعطشين إليه، يضع اللّه فى طريقهم مصابيح مضيئة لكيلا يضيعوا فى ظلمات الطريق، و ليصلوا إلى منبع إكسير الحياة، أمّا الذين أثبتوا تماهلهم تجاه هذه الحقائق فهم محرومون من هذه الإمدادات الإلهية، و سوف يتعثرون فى طريقهم بالكثير من المشاكل، و لا يوفّقون لهداية.

و بناء على ذلك، فلا الفريق الأوّل مجبور على السير فى هذا الطريق، و لا الفريق الثانى فى أعمالهم، و فى الواقع أنّ الهداية و الضلال يكملان ما أرادوه هم بأنفسهم و اختاروه.

۲- المقصود من «الصّدر»

هنا هو الروح و الفكر، و هذه الكناية ترد كثيرا، و المقصود من «الشرح» هو بسط الروح و ارتفاع الفكر و اتسّاع أفق العقل البشرى، لأنّ تقبّل الحق يستدعى التنازل عن الكثير من المصالح الشخصية، ممّا لا يقدر عليه إلّا ذوو الأرواح العالية و الأفكار السامية.

۳- «الحرج» بمعنی الضیق الشدید

، و هذه هی حال المعاندین و فاقدی الإیمان، ففکرهم قاصر و روحهم ضیقة صغیرة، و لا یتنازلون فی حیاتهم عن شیء.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۵۹

۴- معجزة قرآنیة علمیة:

إنّ تشبیه أمثال هؤلاء بالذی یرید أن یصعد إلی السماء، جاء لأنّ الصعود إلی السماء صعب جدّا، فکذلک هو قبول الحق عند هؤلاء.
إنّنا فی کلامنا الیومی نتمثل بهذا التشبیه، فإذا أردنا أن نقول أنّ الوصول إلی الأمر الفلانی صعب نقول: أن تصل إلی السماء أقرب إلیک من ذلک.
بالطّبع لم یکن الطیران فی السماء للبشر آنذاک أکثر من تصور، و لکن علی الرغم من تحقق ذلک الیوم، فهو ما یزال صعبا، و کثیرا ما یصادف رواد الفضاء المشاکل فی طیرانهم.
و یخطر فی الذهن معنی ألطف من ذلک یکمل البحث السابق، و هو أنّه ثبت الیوم علمیا أنّ الهواء المجاور للأرض مضغوط بشکل یصلح لتنفس الإنسان، و لکنّنا کلما ارتفعنا قلت کثافة الهواء و نسبة وجود الأوکسجین فیه، بحیث إنّنا إذا ارتفعنا بضع کیلومترات أصبح من الصعب أن نتنفس بسهولة (بغیر قناع الأوکسجین)، و إذا ما واصلنا صعودنا ازداد ضیق تنفسنا و أصبنا بالإغماء، إن ذکر هذا التشبیه فی ذلک الزمن قبل أن تثبت هذه الحقیقة العملیة یعتبر واحدة من معجزات القرآن العلمیة.

۵- ما هو شرح الصدر؟

فی هذه الآیة یعتبر «شرح الصدر» من نعم اللّه الکبری و «ضیق الصدر» من عقاب اللّه، کما جاء ذکر هذه النعمة فی قوله تعالی: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ ۲۷۸] و یتضح هذا أکثر عند دراسة الأشخاص، فأنت تری بعضهم علی درجة من سعة الصدر بحیث إنّهم قادرون علی استیعاب کل حقیقة مهما کبرت، و علی العکس منهم نری صدر بعضهم من الضیق بحیث لا تکاد تنفذ إلیها أیة حقیقة، فأفق
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۰
رؤیتهم الفکریة محدود جدّا و مقتصر علی الحیاة الیومیة، فلو تهیأ لهم الأکل و النوم فکل شیء علی ما یرام، و إذا اختل ذلک فقد انهارت حیاتهم و انتهی کل شیء.
عند ما نزلت الآیة المذکورة أعلاه،
سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن معنی شرح الصدر، فقال: «نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء فینشرح له صدره و ینفسح».
فسألوه: أ لذلک علامة یعرف بها؟
قال: «نعم، الإنابة إلی دار الخلود، و التجافی عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزول الموت»[۲۷۹] بالإیمان و العمل الصالح السعی فی سبیل اللّه.
الآیة التّالیة تؤکّد البحث السابق فتقول: إنّ المدد الإلهی الذی یشمل السالکین سبیل اللّه و یسلب عن الذین یتنکبون عن سبیل اللّه، إنّما هو سنة إلهیة مستقیمة ثابتة لا تتبدل وَ هذا صِراطُ رَبِّکَ مُسْتَقِیماً.

كما يحتمل أن يكون «هذا» إشارة إلى الإسلام أو القرآن، إذ إنّ الصراط المستقيم هو الطريق المستقيم المستوى.

و فى ختام الآية توكيد آخر: قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ أى لمن يملكون قلوبا واعية و آذانا سامعة.

الآية الثّالثة تشير إلى نعمتين من أكبر النعم التى يهبها اللّه للذين يطلبون الحق، إحداهما: لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ و الثّانية: وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ أى ناصرهم و حافظهم، و كل ذلك لما قاموا به من الأعمال الصالحات: بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

فأى فخر أجل و أرفع من أن يتولى اللّه أمور الإنسان و يتكفل بها فيكون حافظه و وليه، و أية نعمة أعظم من أن تكون له دار السلام، دار الأمن و الأمان، حيث لا حرب و لا سفك دماء، و لا نزاع و لا خصام، و لا عنف و لا تنافس قاتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۱

و مميت، و لا تضارب مصالح، و لا كذب و لا افتراء، و لا اتهام و لا حسد و لا حقد، و لا هم و لا غم، بل الهدوء و الطمأنينة و الهناء؟

و لكن الآية تقول أيضا: إنّ هذه النعم لا تأتى بمجرّد الكلام، بل هى تعطى لقاء العمل ... نعم العمل!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۲

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۲۸) وَ كَذلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۲۹)

التّفسير

تعود هاتان الآيتان إلى بيان مصير المجرمين الضالين و المضلين فتكملان ما بحث فى السابق، فتذكّران بيوم يقفون فيه وجها لوجه أمام الشياطين الذين كانوا يستلهمون منهم، فيواجه التابعون و المتبوعون سؤالا- لا جواب لديهم عليه، و لا ينالون سوى التحسر و الحزن، إنّها تحذيرات للإنسان كيلا ينظر فقط إلى أيّامه المعدودات على الأرض، بل عليه أن يفكر بالعاقبة.

تذكر الآية فى البداية بذلك اليوم الذى يجتمع فيه الجن و الإنس، ثمّ يقال يا أيّها المضلون من الجن لقد أضللتم كثيرا من الناس: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۳

مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ۲۸۰].

«الجن» هنا هم الشياطين، لأن كلمة الجن- كما سبق أن قلنا- تشمل كل كائن غير مرئى و الآية (۵۰) من سورة الكهف تذكر عن رئيس الشياطين، إبليس إنّه كانَ مِنَ الْجِنِ

الآيات السابقة التى تحدثت عن وسوسة الشياطين الهامسة إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ و كذلك الآية التّالية التى تحدثت عن سيطرة بعض الظالمين على الآخرين، قد تكون إشارة إلى هذا الموضوع.

و يبدو أنّ الشياطين المضلين لا- جواب لديهم على هذا السؤال و يطرقون صامتين، غير أنّ أتباعهم من البشر يقولون: ربّنا، هؤلاء استفادوا منّا كما إنّنا استفدنا منهم حتى جاء أجلنا: وَ قالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَ بَلَغْنا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا.

أى كان شياطيننا فرحين بسيطرتهم علينا و كنّا نتبعهم مستسلمين، أمّا نحن فكنّا مستمتعين بمباهج الحياة و لذائذها غير متقيدين بشىء

و لا ملتفتين إلى سرعة زوالها، لما كان الشياطين يوسوسون به فى آذاننا و يظهرونه فى صور جميلة جذابة.

هنا تختلف آراء المفسّرين بشأن المقصود من كلمة «أجل»، هل هى نهاية عمر الإنسان، أم يوم القيامة؟ و لكن الظاهر أنّ المقصود نهاية العمر لأنّ «الأجل» كثيرا ما استعمل فى القرآن بهذا المعنى.

غير أنّ اللّه يخاطب التابعين و المتبوعين الفاسدين و المفسدين جميعا: قالَ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِينَ فِيها إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ

إنّ الجملة الاستثنائية إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إمّا أن تكون إشارة إلى أن خلودهم فى العذاب و العقاب، و فى هذه الحالات لا يسلب القدرة من اللّه على تغيير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۴

الحكم، فهو قادر فى أى وقت يشاء أن يغير ذلك، و إن أبقاه خالدا لجمع منهم.

و إمّا أن تكون إشارة إلى الذين لا يستحقون الخلود فى العذاب، أو الجديرون بنيل العفو الإلهى، فيجب استثناؤهم من الخلود فى العذاب.

و فى الختام تقول الآية: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ فعقابه مبنى على حساب دقيق، و كذلك عفوه، لأنّه عالم بمن يستحقهما.

الآية التّالية تشير إلى سنّة إلهية ثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص، و تقرر أنّ هؤلاء الطغاة و الظالمين سيكون وضعهم فى الآخرة كما كانوا عليه فى الدنيا يجر بعضهم بعضا نحو التهلكة و سوء المصير و الانحراف: كَذلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و كما ذكرنا فى البحوث الخاصّة بالمعاد فان يوم القيامة مشهد ردود الفعل فى صور مكبرة، و ما يوجد هناك انعكاس عن أعمالنا فى هذه الدنيا.

جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى عن الإمام عليه السّلام فى معنى هذه الآية قال: «أى نولى كل من تولى أولياءهم فيكونون معهم يوم القيامة».

و من الجدير بالملاحظة أنّ جميع هؤلاء قد وصفوا بالظلم فى هذه الآية، و لا شك أنّ الظلم بمعناه الواسع يشملهم جميعا، فأى ظلم أكبر من أن يخرج الإنسان نفسه من ولاية اللّه ليداخل فى ولاية المستكبرين و يتّبعهم فيكون فى العالم الآخر تحت ولايتهم أيضا.

ثمّ إنّ هذا التعبير، و كذلك تعبير بِما كانُوا يَكْسِبُونَ يشيران إلى أنّ هذا المصير السيء إنّما هو بسبب أعمالهم، و هذه سنة إلهية و قانون الخليقة القاضى بأنّ السائرين فى الظلام لا بدّ أن يسقطوا فى هوة التعاسة و الشقاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۵

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۲]

اشارة

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۱۳۰) ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ (۱۳۱) وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (۱۳۲)

التّفسير

إتمام الحجة:

ورد وصف مصير الظالمين من أتباع الشياطين يوم القيامة فى الآيات السابقة و لكيلا يظن أحد أنّهم فى حالة من الغفلة ارتكبوا ما ارتكبوه من إثم، تبيّن هذه الآيات أن تحذيرهم قد تمّ بما فيه الكفاية و تمّت عليهم الحجة، لذلك يقال لهم يوم القيامة: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا.

«معشر» من العدد «عشرة»، و بما أن العشرة تعتبر عددا كاملا، فالمعشر هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۶

الجماعة الكاملة التى تضم مختلف الطوائف و الأصناف، أمّا بشأن الرسل الذين بعثوا إلى الجن هل كانوا منهم، أم من البشر؟ فهناك كلام بين المفسّرين، و لكن الذى يستفاد من آيات سورة الجن يدل بجلاء على أنّ الإسلام و القرآن للجميع بما فيهم الجن، و أنّ نبى الإسلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الجميع، و لكن هذا لا يمنع أن يكون لهم رسل و ممثلون من جنسهم عهد إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدعوتهم إلى الإسلام (سيأتى شرح ذلك بالتفصيل، و كذلك المعنى العلمى للجن فى تفسير سورة الجن فى الجزء ۲۹ من القرآن الكريم).

و لكن ينبغى أن نعلم أنّ «منكم» لا- تعنى أن أنبياء كل جنس يكونون من الجنس نفسه، لأنّنا عند ما نقول: «نفر منكم ...» يمكن أن يكون هؤلاء من طائفة واحدة أو من عدّة طوائف.

ثمّ تقول الآية: قالُوا شَهِدْنا عَلى أَنْفُسِنا لأنّ يوم القيامة ليس يوم الكتمان، بل إنّ دلائل كل شىء تكون بادية للعيان، و ما من أحد يستطيع أن يخفى شيئا، فالجميع يعترفون أمام هذا السؤال الإلهى قائلين: إنّنا نشهد ضد أنفسنا و نعترف أنّ الرسل قد جاؤونا و أبلغونا رسالاتك و لكنّنا خالفناها.

نعم ... لقد كانت أمامهم آيات و دلائل كثيرة من اللّه، و كان يميزون الخطأ من الصواب، إلّا أنّ الحياة الدنيا ببريقها و مظاهرها قد خدعتهم و أضلتهم: وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

هذه الآية تدل بوضوح على أنّ العقبة الكبرى فى طريق سعادة البشر هى الحبّ اللامحدود لعالم المادة و الخضوع له بلا قيد و لا شرط، ذلك الحبّ الذى كبل الإنسان بقيود الأسر و دفعه إلى ارتكاب كل ألوان الظلم و العدوان و الإجحاف و الأنانية و الطغيان.

مرّة أخرى يؤكّد القرآن أنّهم شهدوا على أنفسهم بألسنتهم بأنّهم قد ساروا فى طريق الكفر و وقفوا إلى جانب منكرى اللّه: وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۷

كافِرِينَ

الآية التّالية تعيد المضمون السابق بصورة قانون عام و سنة ثابتة، و هى: أنّ اللّه لا يأخذ الناس فى المدن و المناطق المسكونة بظلمهم إذا كانوا غافلين، إلّا بعد أن يرسل إليهم الرسل لينبهوهم إلى قبيح أعمالهم، و يحذروهم من مغبة أفعالهم:

ذلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها غافِلُونَ

قد تعنى «بظلم» أنّ اللّه لا يعاقب أحدا بسبب ظلمه و هو غافل عنه، و قبل أن يرسل الرسل، و قد تكون بمعنى أنّ اللّه لا يظلم أحدا بأن يعاقبه عمّا فعل و هو غافل، لأنّ معاقبتهم بهذه الصورة تعتبر ظلما، و اللّه أرفع من أن يظلم أحدا[۲۸۱].

و تذكر الآية الثالثة خلاصة ما ينتظر هؤلاء من مصير و تقرر أنّ لكل من هؤلاء- الأخيار و الأشرار، المطيعين و العصاة، طالبى العدالة و الظالمين- درجات و مراتب يوم القيامة تبعا لأعمالهم، و إن ربك لا- يغفل عن أعمالهم، بل يعلمها جميعا، و يجزى كلا بقدر ما يستحق: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

هذه الآية تؤكّد مرّة أخرى الحقيقة القائلة بأنّ جميع «الدّرجات» و «الدّركات» التى يستحقها الإنسان إنّما هى وليدة أعماله، لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۸

الآیات [سورة الأنعام (۶): الآیات ۱۳۳ الی ۱۳۵]

اشارة

وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ ما یَشاءُ کَما أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّةِ قَوْمٍ آخَرِینَ (۱۳۳) إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۱۳۴) قُلْ یا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۱۳۵)

التّفسیر

الآیة الأولی تستدل علی ما سبق فی الآیات التی مرّت بشأن عدم ظلم اللّه تعالی، و یؤکّد أنّ اللّه لا حاجة له بشیء و هو عطوف و رحیم، و علیه لا دافع له علی أن یظلم أحدا أبدا، لأن من یظلم لا بدّ أن یکون محتاجا، أو أن یکون قاسی القلب فظا: وَ رَبُّکَ الْغَنِیُّ ذُو الرَّحْمَةِ کما أنّه لا حاجة له بطاعة البشر، و لا یخشی من ذنوبهم، بل إنّه قادر علی إزالة کل جماعة بشریة و وضع آخرین مکانها کما فعل بمن سبق تلک الجماعة: إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ ما یَشاءُ کَما أَنْشَأَکُمْ مِنْ ذُرِّیَّةِ قَوْمٍ آخَرِینَ

بناء علی ذلک فهو غنی لا حاجة به إلی شیء، و رحیم، و قادر علی کل شیء، فلا یمکن إذن أن نتصوره ظالما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۶۹

و إذا أدرکنا قدرته التی لا حدود لها یتّضح لنا أنّ ما وعده بشأن یوم القیامة و الجزاء سوف یتحقق فی موعده بدون أی تخلف: إِنَّ ما تُوعَدُونَ لَآتٍ

کما أنّکم لا تستطیعون أن تخرجوا عن نطاق حکمه و لا أن تهربوا من قبضته العادلة: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ ۲۸۲].

ثمّ یؤمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یهددهم: قُلْ یا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلی مَکانَتِکُمْ إِنِّی عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

هنا أیضا نلاحظ أنّ کلمة «الکفر» استعیض عنها بکلمة «ظلم»، و هذا یعنی أنّ الکفر و إنکار اللّه نوع من الظلم الصریح، فهو ظلم بحق النفس، و ظلم بحق المجتمع، و لما کان الظلم یناقض العدالة العامّة فی عالم الوجود، فهو محکوم بالإخفاق و الهزیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۰

الآیة [سورة الأنعام (۶): آیة ۱۳۶]

اشارة

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِیباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَکائِنا فَما کانَ لِشُرَکائِهِمْ فَلا یَصِلُ إِلَی اللَّهِ وَ ما کانَ لِلَّهِ فَهُوَ یَصِلُ إِلی شُرَکائِهِمْ ساءَ ما یَحْکُمُونَ (۱۳۶)

التّفسیر

لاقتلاع جذور الشرک و عبادة الأصنام من الأذهان یعود القرآن إلی ذکر العادات و التقالید و العبادات الخرافیة السائدة بین المشرکین، و یثبت فی بیان واضح أنّها خرافیة و لا أساس لها، فقد کان کفّار مکّة و سائر المشرکین یخصصون للّه سهما من مزارعهم

و أنعامهم، كما كانوا يخصصون سهما منها لأصنامهم أيضا، قائلين: هذا القسم يخص اللّه، و هذا القسم يخص شركاءنا أى الأصنام: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا.

على الرغم من أنّ الآية تشير إلى نصيب اللّه فقط، و لكن العبارات التّالية تدل على أنّهم كانوا يخصصون نصيبا للأصنام أيضا، جاء فى بعض الرّوايات: أنّهم كانوا يصرفون ما يخصصونه للّه على الأطفال و الضيوف، و النصيب المخصص للأصنام من الزرع و الأنعام كانوا يصرفونه على خدم الأصنام و القائمين على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۱

معابدها و الأضاحى و على أنفسهم أيضا[۲۸۳].

سبب اعتبارهم الأصنام شركاءهم يعود إلى كونهم يرونها شريكة لهم فى أموالهم و حياتهم.

و تعبير مِمَّا ذَرَأَ أى ممّا خلق، يشير إلى بطلان مزاعمهم، إذ إنّ كل أموالهم و ما يملكون هو ممّا خلق اللّه فكيف يجعلون نصيبا منه للّه و نصيبا منه للأصنام؟! ثمّ تشير الآية إلى واحد من أحكامهم العجيبة و هو الحكم بأنّ ما خصصوه لشركائهم لا يصل إلى اللّه، و لكن ما خصصوه للّه يصل إلى شركائهم فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ

اختلف المفسّرون بشأن المقصود من هذه الآية، و لكن آراءهم كلها تدور حول حقيقة واحدة، هى أنّه إذا أصاب نصيب اللّه ضرر على أثر حادثة قالوا: هذا لا أهمية له لأنّ اللّه لا حاجة به إليه، و لكن إذا أصاب الضرر نصيب أصنامهم عوضوا عنه من نصيب اللّه، قائلين: إنّ الأصنام أشد حاجة إليه.

كما أنّهم إذا نفذ الماء المار بمزرعة اللّه إلى مزرعة الأصنام قالوا: لا مانع من ذلك، فاللّه ليس محتاجا، و لكن إذا حدث العكس منعوا الماء المتسرب إلى مزرعة اللّه، قائلين: إنّ الأصنام أحوج! و فى الختام تدين الآية هذه الخرافات فتقول: ساءَ ما يَحْكُمُونَ

إنّ قبح عملهم- فضلا عن قبح عبادة الأصنام- يتبيّن فى الأمور التّالية.

۱- على الرغم من أنّ كل شىء هو من خلق اللّه، و ملك له دون منازع، و أنّه هو الحاكم على كل الكائنات و هو مدبرها و حافظها فإنّهم إنّما كانوا يخصصون جانبا من ذلك كله للّه، و كأنّهم هم المالكون الأصليون، و كأنّ حق التقسيم بيدهم، (إنّ جملة مِمَّا ذَرَأَ تشير إلى هذا كما قلنا).

۲- لقد كانوا فى هذا التقسيم يلزمون جانب الأصنام و يفضلون ما لها على ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۲

للّه، لذلك لم يكونوا يهتمون بما يصيب نصيب اللّه من ضرر، و لكنّهم كانوا يجبرون كل ضرر يصيب نصيب الأصنام من نصيب اللّه، فكان هذا تحيزا إلى جانب الأصنام ضد اللّه! ۳- يتبيّن من بعض الرّوايات أنّهم كانوا يهتمون اهتماما كبيرا بحصة الأصنام، فقد كان خدم الأصنام و القائمون على معابدها و كذلك المشركون يأكلون من حصة الأوثان، بينما كانوا يخصصون حصة اللّه للأطفال و للضيوف، و تدل القرائن على أنّ الأغنام السمينة و المحاصيل الزارعية الجيدة كانت من نصيب الأصنام، أى لمصلحة السدنة الخاصّة.

كل هذا دل على أنّهم فى هذا التقسيم لم يكونوا يعترفون للّه حتى بمنزلة مساوية لمنزلة الأصنام.

فأى حكم أقبح و أدعى إلى العار من أن يعتبر إنسان قطعة من الحجر أو الخشب الذى لا قيمة له أرفع من خالق عالم الوجود، هل هناك هبوط فكرىّ أحط من هذا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۳

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۳۷]

اشارة

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ (۱۳۷)

التّفسير

يشير القرآن فى هذه الآية إلى عمل قبيح آخر من أعمال عبدة الأصنام القبيحة و جرائمهم الشائنة، و يذكر أنّه كما ظهر لهم أنّ تقسيمهم الحصص بين اللّه و الأصنام عمل حسن بحيث إنه اعتبروا هذا العمل القبيح و الخرافى، بل و المضحك، عملا محمودا، كذلك زين الشركاء قتل الأبناء فى أعين الكثيرين من المشركين بحيث إنّهم راحوا يعدون قتل الأولاد نوعا من «الفخر» و «العبادة»:

وَ كَذلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكاؤُهُمْ

«الشّركاء» هنا هم الأصنام، فقد كانوا أحيانا يقدمون أبناءهم قرابين لها، أو كانوا ينذرون أنّهم إذا وهبوا ابنا يذبحونه قربانا لأصنامهم، كما جاء فى تاريخ عبدة الأصنام القدامى و عليه فان نسبة «التزيين» للأصنام تعود إلى أن شدة تعلقهم بأصنامهم و حبهم لها كان يحدو بهم إلى ارتكاب هذه الجريمة النكراء و استنادا إلى هذا التّفسير، فإنّ قتل الأولاد هذا لا علاقة له بوأد البنات أو قتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۴

الأولاد خشية الإملاق.

يحتمل أيضا أن يكون المقصود بتزيين الأصنام هذه الجريمة، هو أن القائمين على أمر الأصنام و المعابد هم الذين كانوا يحرضونهم على هذا العمل و يزينونه لهم، باعتبارهم الألسنة الداعية باسم الأصنام، فقد جاء فى التّأريخ أنّ العرب كانوا إذا عزموا على السفر أو الأعمال المهمّة، طلبوا الإذن من «هبل» كبير أصنامهم، و ذلك بأن يضربوا بالقداح، أى بأسهم الميسر، فقد كان هناك كيس معلق بجانب هبل فيه سهام كتب على مقابضها «افعل» أو «لا تفعل»، فكانوا يخلطون السهام ثمّ يسحبون واحدا منها، فما كتب عليه يكون هو الأمر الصادر من هبل، و بهذه الطريقة كانوا يتصورون أنّهم يكتشفون آراء أصنامهم، فلا يستبعد أنّهم فى مسألة قتل أولادهم قرابين للأصنام كانوا يلجأون إلى أولياء المعابد ليأتوهم بما تأمر به الأصنام.

هنالك أيضا الاحتمال القائل بأن وأد البنات- الذى كان سائدا، كما يقول التّأريخ بين قبائل بنى تميم لرفع العار- كان أمرا صادرا عن الأصنام، فقد جاء فى التّأريخ أنّ «النعمان بن المنذر» هاجم بعض العرب و أسر نساءهم و فيهن ابنة «قيس بن عاصم» ثمّ أقرّ الصلح بينهم و عادت كل امرأة إلى عشيرتها، عدا ابنة قيس التى فضلت البقاء عند العدو لعلها تتزوج أحد شبانهم، فكان وقع هذا شديدا على قيس، فاقسم بالأصنام انّه إذا رزق بابنة أخرى فانه سوف يئدها حية، ثمّ لم يمض زمن طويل حتى أصبح هذا العمل الشائن سنّة بينهم، و باسم الدفاع عن العرض راحوا يرتكبون أفظع جريمة بقتلهم أولادهم الأبرياء[۲۸۴].

و عليه، فإنّ وأد البنات يمكن أن يكون مشمولا بمفهوم هذه الآية.

هنالك أيضا احتمال آخر فى تفسير هذه الآية و ان لم يتطرق إليه المفسّرون،

.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۵

و هو أنّ عرب الجاهلية كانوا على درجة من التقدير و الاحترام لأصنامهم بحيث إنّهم كانوا يصرفون أموالهم الثمينة على تلك الأصنام و على خدامها المتنفذين الأثرياء، و يبقون هم فى فقر مدقع إلى الحد الذى كان يحملهم هذا الفقر و الجوع على قتل بناتهم.

فهذا التعلق الشديد بالأصنام كان يزين لهم عملهم الشنيع ذاك.

و لكن التّفسير الأوّل، أى التضحية بأولادهم قربانا للأصنام، أقرب إلى نص الآية.

ثمّ يوضح القرآن أنّ نتيجة تلك الأفعال القبيحة هى أنّ الأصنام و خدامها ألقوا بالمشركين فى مهاوى الهلاك، و شككوهم فى دين اللّه، و حرموهم من الوصول إلى الدين الحق: لِيُرْدُوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ

و مع ذلك كله، فإنّ اللّه قادر على أن يوقفهم عند حدهم بالإكراه، و لكن الإكراه خلاف سنة اللّه، إنّ اللّه يريد أن يكون عباده أحرارا لكى يمهد أمامهم طريق التربية و التكامل، و ليس فى الإكراه تربية و لا تكامل: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما فَعَلُوهُ

و ما دام هؤلاء منغمسين فى أباطيلهم و خرافاتهم دون أن يدركوا شناعتها، بل الأدهى من ذلك أنّهم ينسبونها أحيانا إلى اللّه، إذن فاتركهم و اتهاماتهم و التفت إلى تربية القلوب المستعدة: فَذَرْهُمْ وَ ما يَفْتَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۶

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۳۸ الى ۱۳۹]

اشارة

وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِراءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳۸) وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۱۳۹)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى بعض الأحكام الخرافية لعبدة الأوثان، و التى تدل على قصر نظرتهم و ضيق تفكيرهم، و تكمل ما مر فى الآيات السابقة.

تذكر فى البداية أقوال المشركين بشأن من لهم الحق فى نصيب الأصنام من زرع و أنعام، و تبيّن أنّهم كانوا يرون أنّها محرمة إلّا على طائفة معينة: وَ قالُوا هذِهِ أَنْعامٌ وَ حَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُها إِلَّا مَنْ نَشاءُ بِزَعْمِهِمْ

و مرادهم المتولّون أمور الأصنام و المعابد، و المشركون كانوا يذهبون إلى أنّ لهؤلاء وحدهم الحق فى نصيب الأصنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۷

يتّضح من هذا أنّ القسم الأوّل من الآية يشير إلى كيفية تصرفهم فيما يخصصونه للأصنام من الزرع و الأنعام.

«الحجر» هو المنع، و لعلها مأخوذة كما يقول الراغب الأصفهانى فى «المفردات» من الحجر، و هو أنّ يبنى حول المكان بالحجارة ليمنع عما وراءه، و حجر إسماعيل سمى بذلك لأنّه مفصول عن سائر أقسام المسجد الحرام بجدار من حجر، و على هذا الاعتبار يطلق على «العقل» اسم «الحجر»، أحيانا، لكونه يمنع المرء من ارتكاب الأعمال القبيحة، و إذا ما وضع أحد تحت رعاية أحد و حمايته قيل: إنّه فى حجره، و المحجور هو الممنوع من التصرف فى ماله ۲۸۵].

ثمّ تشير الآية إلى واحدة أخرى من خرافاتهم تقضى بمنع ركوب بعض الدواب: وَ أَنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها.

الظاهر أنّها هى الحيوانات التى مرّ ذكرها فى تفسير الآية (۱۰۳) من سورة المائدة، و هى «السائبة» و «البحيرة» و «الحام» (انظر التفسير المذكور لمزيد من التوضيح).

ثمّ تشير إلى القسم الثّالث من الأحكام الباطلة فتقول: وَ أَنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا.

و لعلها إشارة إلى الحيوانات التى كانوا يذكرون أسماء أصنامهم عليها فقط عند ذبحها، أو هى المطايا التى كانوا يحرمون ركوبها للذهاب إلى الحج، كما جاء ذلك فى تفسير «مجمع البيان» و «التّفسير الكبير» و «المنار» و «القرطبى» نقلا عن بعض المفسّرين، و فى

كلتا الحالتين كان الحكم خرافيا لا أساس له.

و الأعجب من ذلك أنّهم لم يقنعوا بتلك الأحكام الفارغة، بل راحوا ينسبون إلى اللّه كل ما يخطر لهم من كذب: افْتِراءً عَلَيْهِ

و فى ختام الآية، و بعد ذكر تلك الأحكام المصطنعة، تقول إنّ اللّه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۸

سَيَجْزِيهِمْ بِما كانُوا يَفْتَرُونَ

نعم، إذا أراد الإنسان- بفكره الناقص القاصر- أن يضع القوانين و الأحكام، فلا شك أنّ كل طائفة سوف تضع من القوانين ما ينسجم و أهواءهم و مطامعهم، فيحرمون على أنفسهم أنعم اللّه دون سبب، أو يحللون على أنفسهم أفعالهم القبيحة، و هذا هو سبب قولنا إنّ اللّه وحده هو الذى يسنّ القوانين لأنّه يعلم كل شىء و يعرف دقائق الأمور، و هو سبحانه بمعزل عن الأهواء.

الآية التّالية تشير إلى حكم خرافى آخر بشأن لحوم الحيوانات، يقضى بأنّ حمل هذه الأنعام يختص بالذكور، و هو حرام على الزوجات، أمّا إذا خرج ما فى بطونها ميتا، فكلهم شركاء فيه: وَ قالُوا ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ خالِصَةٌ لِذُكُورِنا وَ مُحَرَّمٌ عَلى أَزْواجِنا وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكاءُ.

و لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذِهِ الْأَنْعامِ هى الحيوانات التى ذكرناها من قبل.

يرى بعض المفسّرين أنّ عبارة ما فِي بُطُونِ هذِهِ الْأَنْعامِ تشمل لبن هذه الأنعام، و لكن عبارة وَ إِنْ يَكُنْ مَيْتَةً تبيّن أنّ المقصود هو الجنين الذى إذا ولد حيّا فهو للذكور، و إنّ ولد ميتا- و هو ما لم يكن مرغوبا عندهم- فهم جميعا شركاء فيه بالتساوى.

هذا الحكم لا يقوم- أوّلا- على أى دليل، و هو- ثانيا- قبيح و بشع فيما يتعلق بالجنين الميت، لأنّ لحم الحيوان الميت يكون فى الغالب فاسدا و مضرا، ثمّ هو- ثالثا- نوع من التمييز بين الرجل و المرأة، بجعل الطيب للرجال فقط، و بجعل المرأة شريكة فى الفاسد فقط.

ينهى القرآن هذا الحكم الجاهلى، و يقرر أنّ اللّه سوف يعاقبهم على هذه الأوصاف، سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ

«الوصف» هنا يشير إلى ما كانوا ينسبونه إلى اللّه، كأنّ ينسبون إليه تحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۷۹

هذه اللحوم بالرغم من أنّ المقصود هو الصفة أو الحالة التى تستولى على المذنب على أثر تكرار، الإثم و تجعله مستحقا للعقاب، و ختاما تقول: إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ

فهو عليم بأعمالهم و أقوالهم و اتهاماتهم الكاذبة، كما أنّه يعاقبهم وفق حساب و حكمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۰

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۰]

اشارة

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۱۴۰)

التّفسير

تعقيبا على الآيات السابقة التى تحدثت عن بعض الأحكام التافهة و التقاليد القبيحة فى عصر الجاهلية الشائن، كقتل الأبناء قربانا للأصنام، و وأد البنات خشية العار، و تحريم بعض نعم اللّه الحلال، تدين هذه الآية كل تلك الأعمال بشدة، فى سبعة تعبيرات و فى

جمل قصيرة نافذة توضح حالهم.

ففى البداية تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ فعملهم وصف هنا بأنّه خسران بالمنظار الإنسانى و الأخلاقى، و بالمناظر العاطفى و الاجتماعى، و الخسارة الكبرى هى الخسارة المعنوية فى العالم الآخر. فهذه الآية تعتبر عملهم أوّلا «خسرانا» ثمّ «سفاهة» و خفة عقل، ثمّ «جهلا» و كل صفة من هذه الصفات الثلاث كافية لإظهار قبح أعمالهم، فأى عقل يجيز للأب أن يقتل أولاده بيده؟ أو ليس هذا من السفاهة و خفة العقل أن يفعل هذا ثمّ لا يخجل من فعلته، بل يعتبرها نوعا من الفخر و العبادة؟ أى علم يجيز للإنسان أن يعتبر هذه الأعمال قانونا اجتماعيا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۱

من هنا نفهم ما قاله ابن عباس بشأن ضرورة قراءة سورة الأنعام لمن شاء أن يدرك مدى تخلف الأقوام الجاهليين.

ثمّ يذكر القرآن أنّ هؤلاء قد حرموا على أنفسهم ما رزقهم اللّه و أحله لهم و كذبوا على اللّه و نسبوا هذه الحرمة له سبحانه: وَ حَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِراءً عَلَى اللَّهِ

فى هذه العبارة إدانة أخرى لأعمالهم، فهم- أوّلا- حرموا على أنفسهم النعمة التى «رزقهم» إيّاها و أباحها لهم و كانت ضرورية لحياتهم، فنقضوا بذلك قانون اللّه.

و هم- ثانيا- «افتروا» على اللّه قائلين إنّه هو الذى أمر بذلك.

فى ختام الآية و فى جملتين قصيرتين إدانة أخرى لهم، فهم: قَدْ ضَلُّوا، ثمّ إنّهم لم يسلكوا يوما الطريق المستقيم: وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۱]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُتَشابِهاً وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۱۴۱)

التّفسير

درس عظيم على درب التوحيد:

لقد جاءت الإشارة فى هذه الآية إلى عدّة مواضيع، كل واحد منها متفرع عن الآخر، و نتيجة عنه.

فهو تعالى يقول أوّلا: إنّ اللّه تعالى هو الذى خلق أنواع البساتين و المزارع الحاوية على أنواع الأشجار و النباتات، فمنها ما يعتمد فى موقفه على الأعمدة و العروش حيث تحمل ما لذّ و طاب من الفواكه و الثمار، و تخلب بمنظرها الساحر العيون و الألباب، و منها ما لا يحتاج إلى عريش، بل هو قائم على سوقه يلقى بظلاله الوارفة على رؤوس الآدميّين، و يسدّ بثماره المتنوعة حاجة الإنسان إلى الغذاء: وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشاتٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۳

لقد ذهب المفسّرون فى تفسير كلمة «معروش» و «غير معروش» إلى ثلاثة احتمالات:

۱- ما أشرنا إليه قبل قليل، فالمعروش هو الأشجار و النباتات التى لا تقوم على سوقها بل تحتاج إلى عروش و سقف، و غير المعروش

هو الأشجار و النباتات التی تقوم علی سوقها و لا تحتاج إلی عروش و سقف، (لأنّ العرش یدلّ علی ارتفاع فی شیء، و لهذا یقال لسقف البیت عرش، و یقال للسریر المرتفع عرش).

۲- إنّ المراد من «المعروش» هو الأشجار المنزلیة و ما یزرعه الناس و یحفظ بواسطة الحیطان فی البساتین، و من «غیر المعروش» الأشجار البرّیة و النباتات الصحراویة و الجبلیة و ما ینبت فی الغابات.

۳- «المعروش» هو ما یقوم علی ساقه من الأشجار أو یرتفع علی الأرض، و «غیر المعروش» هو الأشجار التی تمتد علی الأرض.

و لکن یبدو أنّ المعنی الأوّل أنسب، هنا، و لعلّ ذکر «المعروشات» فی مطلع الحدیث إنّما هو لأجل بنیان هذا النوع من الأشجار و ترکیبها العجیب، فإنّ نظرة عابرة إلی شجرة الکرم و قضبان العنب و سیقانها الملتویة العجیبة، و المزوّدة بکلالیب و مقابض خاصّة، و کیفیة التفافها بکل شیء حتی تستطیع أن تنمو، و تثمر، خیر شاهد علی هذا الزعم.

ثمّ إنّ الآیة تشیر إلی نوعین من البساتین و المزارع إذ تقول: وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ

و ذکر هذین النوعین بالخصوص إنّما هو لأهمیتهما الخاصّة فی حیاة البشر، و دورهما فی نظامه الغذائی (و لا بدّ أن تعرف أن الجنّة کما تطلق علی البستان، کذلک تطلق علی الأرض التی غطّاها الزرع).

ثمّ إنّه تعالی یضیف قائلا: إنّ هذه الأشجار مختلفة و متنوعة من حیث الثمر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۴

و الطعم. فمع أنّ جمیعها ینبت من أرض واحدة و یسقی بماء واحد فإن لکل واحدة منها رائحة خاصّة، و نکهة معینة، و خاصیة تختص بها، و لا توجد فی غیرها: مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ ۲۸۶].

ثمّ یشیر سبحانه إلی قسمین آخرین من الثمار عظیمی الفائدة، جلیلی النفع فی مجال التغذیة البشریة إذ یقول: وَ الزَّيْتُونَ وَ الرُّمَّانَ

إن إختیار هاتین بالذکر من بین أشجار کثیرة إنّما هو لأجل أن هاتین الشجرتین: (شجرة الزیتون و شجرة الرمان) رغم تشابههما من حیث الظاهر و المظهر تختلفان اختلافا شاسعا من حیث الثمرة، و من حیث الخاصیة الغذائیة، و لهذا عقّب علی قوله ذلک بهاتین الکلمتین: مُتَشابِهاً، وَ غَيْرَ مُتَشابِهٍ ۲۸۷].

و بعد ذکر کلّ هذه النعم المتنوّعة یقول سبحانه: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ، وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ

ثمّ ینهی فی نهایة المطاف عن الإسراف إذ یقول تعالی: وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

«الإسراف» تجاوز حدّ الاعتدال فی کل فعل یفعله الإنسان. و هذه الجملة یمکن أن تکون إشارة إلی عدم الإسراف فی الأکل، أو عدم الإسراف فی الإنفاق و البذل، لأنّ البعض قد یسرف فی البذل و الإنفاق إلی درجة أنّه یهب کل ما عنده إلی هذا و ذاک، فیقع هو و أبناؤه و أهله فی عسر و فقر و حرمان!!

بحوث

۱- ارتباط هذه الآیة بالآیات السابقة

فی الآیات السابقة من هذه السورة جری حدیث عن الأحکام الخرافیة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۵

کانت سائدة بین الوثنیین، الذین کانوا یجعلون نصیبا من الزرع و الأنعام للّه، و کانوا یعتقدون بأنّ ذلک النصیب یجب أن یصرف علی نحو خاص، کانوا یحرّمون رکوب بعض الأنعام، و یقدّمون أولادهم قرابین إلی بعض الأصنام و الأوثان!! إنّ الآیة الحاضرة، و الآیة

اللاحقة تحملان ردّا على جميع هذه الأحكام و المقررات الخرافية الجاهلية إذ تقولان بصراحة، إنّ اللّه تعالى هو خالق جميع هذه النعم، فهو الذى أنشأ جميع هذه الأشجار و الأنعام و الزروع، كما أنّه هو الذى أمر بالانتفاع بها، و عدم الإسراف فيها، و على هذا الأساس فليس لغيره أى حق لا فى «التحريم»، و لا فى «التحليل».

۲- ماذا تعنى جملة

إِذا أَثْمَرَ مع ذكر «ثمره» قبل ذلك؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين، و لكن الظاهر أن هذه الجملة تهدف إلى تقرير و بيان أنّ بمجرد ظهور الثمار على هذه الأشجار، و ظهور سنابل القمح، و الحبوب فى الزرع يجوز الانتفاع بها حتى إذا لم يعط منها حقوق الفقراء بعد، و إنما يجب إيتاء هذا الحق لأهله حين حصاد الزرع، و قطاف الثمر (يوم الحصاد) كما يقول تعالى: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ

۳- ما هو المراد من الحقّ الذى يجب إعطاؤه؟

يرى البعض أنّها هى الزّكاة الواجبة المفروضة، أى عشر أو نصف عشر المحصول البالغ حدّ النصاب الشرعى.

بيد أنه مع الالتفات إلى أنّ هذه السورة قد نزلت فى مكّة، و أن حكم الزّكاة نزل فى السنة الثانية من الهجرة أو بعد ذلك فى المدينة المنورة، يبدو مثل هذا الاحتمال بعيدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۶

و قد عرّف هذا الحق فى روايات عديدة وصلتنا من أهل البيت عليهم السّلام، و كذا فى روايات عديدة وردت فى مصادر أهل السنة بغير الزّكاة.

و جاء فيها أنّ المراد منه هو يعطى من المحصول إلى الفقير عند حضوره عملية الحصاد أو القطاف، و ليس له حدّ معين ثابت ۲۸۸].

و فى هذه الحالة، هل هذا الحكم وجوبى أم استحبابى؟

يرى البعض أنه حكم وجوبى، أى أنّ إعطاء هذا الحق كان واجبا على المسلمين قبل تشريع حكم «الزّكاة» و لكنّه نسخ بعد نزول آية الزّكاة، فحلّت الزّكاة بحدودها الخاصّة محل ذلك الحق.

و لكن يستفاد من أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أن هذا الحكم لم ينسخ، بل هو باق فى صورة الحكم الاستحبابى، و هذا يعنى أنه يستحبّ الآن إعطاء شىء من المحاصيل الزراعية إلى من يحضر عند حصادها و قطافها من الفقراء.

۴- يمكن أن يكون التعبير بكلمة «يوم» إشارة إلى أنه يحبّذ أن يوقع حصاد الزرع، و قطاف الثمر فى النهار حتى إذا حضر الفقراء يعطى إليهم شىء منها، لا فى الليل كما يفعل بعض البخلاء لكيلا يعرف أحد بهم.

و قد أكّدت الرّوايات الواصلة إلينا من أهل البيت عليهم السّلام على هذا الأمر أيضا[۲۸۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۲ الى ۱۴۴]

اشارة

وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۱۴۲) ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ

مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۴۳) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۴۴)

التّفسير

إنّ هذه الآيات- كما أشرنا إلى ذلك- بصدد إبطال أحكام خرافيّة جاهليّة كان المشركون يدينون بها فى مجال الزراعة و الأنعام.

ففى الآية المتقدمة جرى الحديث حول أنواع المزروعات و الثمار التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۸

أنشأها اللّه، و فى هذه الآيات يدور الحديث حول الحيوانات المحلّلة اللحم، و ما تؤديه من خدمات، و ما يأتى منها من منافع.

يقول أوّلا: إنّ اللّه هو الذى خلق لكم حيوانات كبيرة للحمل و النقل، و أخرى صغيرة: وَ مِنَ الْأَنْعامِ حَمُولَةً وَ فَرْشاً[۲۹۰].

و «حمولة» جمع و ليس لها مفرد- كما قال علماء اللغة- و تعنى الحيوانات الكبيرة التى تستخدم للحمل و النقل كالإبل و الفرس و نظائرها.

و «فرش» هو بنفس المعنى المتعارف، و لكن فسّر هنا بالغنم و ما يشابهه من الحيوانات الصغيرة، و الظاهر أنّ العلة فى ذلك هو أنّ هذا النوع من الأنعام لصغرها و اقترابها من الأرض كالفراش فى مقابل الأنعام و الحيوانات الكبيرة الجثة- التى تقوم بعملية الحمل و النقل، كالإبل- فعند ما نشاهد قطعيا من الأغنام و هى مشغولة بالرعى فى الصحارى و المراعى بدت لنا و كأنّها فرش ممدودة على الأرض، فى حين أن قطيع الإبل لا يكون له مثل هذا المنظر.

ثمّ إنّ تقابل «الحمولة» «الفرش» أيضا يؤيد هذا المعنى.

و قد ذهب بعض المفسّرين إلى احتمال آخر أيضا، و هو أن المراد من هذه الكلمة هى الفرش التى يتخذها الناس من هذه الأنعام و الحيوانات، يعنى أن الكثير من هذه الحيوانات تستخدم للحمل و النقل، كما يستفاد منها فى صنع الفرش. و لكن الاحتمال الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

ثمّ إنّ الآية الشريفة تخلص إلى القول بأنه لمّا كانت جميع هذه الانعام قد خلقها اللّه تعالى و حكمها بيده، فإنّه يأمركم قائلا: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

أمّا أنّه لماذا لا يقول: كلوا من هذه الأنعام و الحيوانات، بل يقول: كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ فلأن الحيوانات المحلّلة اللحم لا تنحصر فى ما ذكر فى هذه الآيات، بل هناك حيوانات أخرى محلّلة اللحم أيضا و لكنّها لم تذكر فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۸۹

السابقة.

و لتأكيد هذا الكلام و إبطال أحكام المشركين الخرافية يقول: وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فهو الذى أعلن الحرب على آدم منذ بداية الخلق.

و هذه العبارة إشارة إلى أن هذه الأحكام و المقررات العارية عن الدليل، و التى تنبع فقط من الهوى و الجهل، ما هى إلّا وساوس شيطانية من شأنها أن تبعدكم عن الحق خطوة فخطوة، و تؤدى بكم إلى متاهات الحيرة و الضلالة.

هذا و قد مرّ توضيح أكثر لهذه العبارة عند تفسير الآية (۱۶۸) من سورة البقرة.

الآية الثانية تبيّن قسما من الحيوانات المحلّلة اللحم، و بعض الأنعام التى يستفاد منها فى النقل، كما يستفاد منها فى تغذية البشر و طعامهم أيضا فيقول: إنّ اللّه خلق لكم ثمانية أزواج من الأنعام: زوجين من الغنم (ذكر و أنثى)، و زوجين من المعز: ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ

۲۹۱] مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ

و بعد ذكر هذه الأزواج الأربعة يأمر تعالى نبيّه فورا بأن يسألهم بصراحة:

هل أن اللّه حرّم الذكور منها أم الإناث: قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ ! أم أنّه حرّم عليهم ما فى بطون الإناث من الأغنام، أم ما فى بطون الإناث من المعز؟:

أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ ! ثمّ يضيف قائلا: إذا كنتم صادقين فى أنّ اللّه حرّم شيئا ممّا تدعونه، و كان لديكم ما يدلّ على تحريم أى واحد من هذه الأنعام فهاتوا دليلكم على ذلك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۰

نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

ثمّ فى الآية اللاحقة يبيّن الأزواج الأربعة الأخرى من الأنعام التى خلقها اللّه للبشر، إذ يقول: و خلق من الإبل ذكرا و أنثى، و من البقر ذكرا و أنثى، فأى واحد من هذه الأزواج حرّم اللّه عليكم: الذكور منها أم الإناث؟ أم ما فى بطون الإناث من الإبل و البقر: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ، أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحامُ الْأُنْثَيَيْنِ ! و حيث أن الحكم بتحليل هذه الأنعام و تحريمها إنّما هو بيد اللّه خالقها و خالق البشر و خالق العالم كله، من هنا يتوجّب على كلّ من يدّعى تحليل أو تحريم شىء منها، إمّا أن يثبت ذلك عن طريق شهادة العقل، و إمّا أن يكون قد أوحى له بذلك، أو يكون حاضرا عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند صدور هذا الحكم منه.

و لقد صرّح فى الآية السابقة بأنّه لم يكن لدى المشركين أى دليل علمىّ أو عقلىّ على تحريم هذه الأنعام، و حيث أنّهم لو يدّعوا أيضا نزول الوحى عليهم، أو النبوة، فعلى هذا يبقى الاحتمال الثالث فقط، و هو أن يدّعوا أنّهم حضروا عند أنبياء اللّه و رسله يوم أصدروا هذه الأحكام، و لهذا يقوم اللّه لهم فى مقام الإحتجاج عليهم: هل حضرتم عند الأنبياء و شهدتم أمر اللّه لهم بتحليل أو تحريم شىء من هذه الأنعام: أَمْ كُنْتُمْ شُهَداءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهذا؟! و حيث إنّ الجواب على هذا السؤال هو الآخر بالنفى و السلب، يثبت أنّهم ما كانوا يمتلكون فى هذا المجال إلّا الافتراء، و لا يستندون إلّا إلى الكذب.

و لهذا يضيف فى نهاية الآية قائلا: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً، لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۲۹۲].

فيستفاد من هذه الآية أن الافتراء على اللّه من أكبر الذنوب و الآثام، إنّه ظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۱

للّه تعالى و لمقامه الربوىّ العظيم، و ظلم لعباد اللّه، و ظلم النفس، و للتعبير ب «أظلم» فى مثل هذه الموارد كما قلنا سابقا، جانب نسبىّ، و على هذا فلا مانع من استعمال نفس هذا التعبير بالنسبة إلى بعض الذنوب الكبيرة الأخرى.

كما و يستفاد من هذه الآية أيضا أن الهداية و الإضلال الإلهيين لا يكونان بالجبر، بل إن لهما مقدمات و عللا تبدأ من الإنسان نفسه و تتحقق بفعله هو، فعند ما يعمد أحد باختياره إلى ممارسة الظلم و الجور يحرمه اللّه حينئذ من عنايته و حمايته، و يتركه يضيع فى متاهات الحيرة و الضلالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۴۵]

اشارة

قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ

بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴۵)

التّفسير

بعض الحيوانات المحرّمة:

ثمّ إنّه تعالى- بهدف تمييز المحرمات الإلهية عن البدع التى أحدثها المشركون و أدخلوها فى الدين الحق- أمر نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الآية بأن يقول لهم بكل صراحة، و من دون إجمال أو إبهام: لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ من الشريعة أى شىء من الأطعمة يكون مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ من ذكر أو أنثى، و صغير أو كبير.

اللّهم إِلَّا عدّة أشياء، الأوّل: أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً.

أو يكون دَماً مَسْفُوحاً و هو ما خرج من الذبيحة عند التزكية بالقدر المتعارف (لا الدّماء التى تبقى فى جسم الذبيحة فى عروقها الشعرية الدقيقة، بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۳

خروج قدر كبير منها بعد الذبح).

أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ.

لأنّ جميع هذه الأشياء رجس و منشأ لمختلف الأضرار فَإِنَّهُ رِجْسٌ

إنّ الضمير فى «فإنّه» و إن كان ضمير الإفراد، إلّا أنّه يرجع- حسب ما يذهب إليه أكثر المفسّرين- إلى الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (الميتة، الدم، لحم الخنزير) فيكون معنى الجملة الأخيرة هى: فإنّ كل ما ذكر رجس ۲۹۳]. و هذا هو المناسب لظاهر الآية و هو عودة الضمير إلى جميع تلك الأقسام، إذ لا شك فى أن الميتة و الدم هما أيضا رجس كلحم الخنزير.

ثمّ أشار تعالى إلى نوع رابع فقال: أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۲۹۴] أى التى لم يذكر اسم اللّه عليها عند ذبحها.

و الجدير بالتأمل أنّه ذكرت لفظة «فسقا» بدلا عن كلمة «الحيوان».

و «الفسق» كما أسلفنا يعنى الخروج عن طاعة اللّه و عن رسم العبودية، و لهذا يطلق على كل معصية عنوان الفسق.

و أمّا ذكر هذه اللفظة فى هذا المورد فى مقابل الرجس الذى أطلق على الموارد الثلاثة المذكورة سابقا، فيمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللحوم المحرمة على نوعين:

اللحوم المحرّمة لخباثتها بحيث تنفر منها الطباع، و توجب أضرارا جسدية، و يطلق عليها وصف الرجس (أى النجس).

اللحوم التى لا تعدّ من الخبائث، و لا تستتبع أضرارا جسميّة و صحيّة، و لكنّها- من الناحية الأخلاقية و المعنوية- تدلّ على الابتعاد عن اللّه و عن جادة التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۴

و لهذا حرّمت أيضا.

و على هذا الأساس لا يجب أن نتوقع أن تنطوى اللحوم المحرمة دائما على أضرار صحيّة، بل ربّما حرّمت لأجل أضرارها المعنوية و الأخلاقية، و من هنا يتضح أنّ الشروط الإسلامية المقرّرة فى الذبح على نوعين أيضا:

بعضها- مثل قطع الأوداج الأربعة، و خروج القدر المتعارف من دم الذبيحة- لها جانب صحّى.

و بعضها الآخر- مثل توجيه مقاديم الذبيحة نحو القبلة عند الذبح، و ذكر اسم اللّه عنده، و كون الذابح مسلما- لها جانب معنوىّ.

ثمّ إنّه سبحانه استثنى- فى آخر الآية- من اضطر إلى تناول شىء ممّا ذكر من اللحوم المحرّمة، كما لو لم يجد أىّ طعام آخر و توقفت حياته على تناول شىء من تلك اللحوم، إذ قال: فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۲۹۵] يعنى أنّ من اضطرّ إلى أكل شىء ممّا ذكر من المنهيّات فلا إثم عليه، بشرط أن يكون للحفاظ على حياته، لا للذة، و لا مستحلّا لما حرّمه اللّه، أو متجاوزا حدّ الضرورة، ففى هذه الصورة فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و إنّما اشترط هذان الشرطان لكى لا يتذرع المضطرون بهذه الإباحة فيتعدّوا حدود ما قرّره اللّه بحجة الاضطرار، و يتخذوا من ذلك ذريعة لتجاهل حمى القوانين الإلهية.

و لكنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث الواردة عن آل البيت عليهم السّلام، مثل

الحديث المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الباغى: الظالم، و العادى: الغاصب»[۲۹۶].

كما نقرأ

فى حديث آخر منقول عن الإمام عليه السّلام أنّه قال: «الباغى: الخارج على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۵

الإمام، و العادى: اللص»[۲۹۷].

هذه الرّوايات و نظائرها تشير إلى أنّ الاضطرار إلى تناول اللحوم المحرمة يتفق عادة فى الأسفار، فإذا أقدم أحد على السفر فى سبيل الظلم أو الغصب أو السرقة ثمّ فقد الطعام الحلال فى خلال السفر لم يجز له تناول اللحوم المحرّمة، و إن كانت وظيفته- للحفاظ على حياته من التلف- هو التناول من تلك اللحوم، و لكنّه يعاقب على إثمه هذا، لأنّه أوجد بنفسه المقدمات لمثل هذا السفر الحرام، و على كل حال فإنّ هذه الرّوايات تنسجم مع المفهوم الكلىّ للآية انسجاما كاملا.

جواب على سؤال:

و هنا و يطرح سؤال هو: كيف حصرت جميع المحرمات الإلهية- فى مجال الأطعمة- فى أربعة أشياء، مع أنّنا نعلم بأنّ الأطعمة المحرمة لا تنحصر فى هذه الأشياء، مثل لحوم الحيوانات المفترسة، و لحوم الحيوانات البحرية (إلّا ما كان له فلس من الأسماك) و ما شابه، فهذه كلّها حرام، فى حين لم يجىء فى الآية أى ذكر عن تلك اللحوم، بل حصرت المحرمات فى هذه الأشياء الأربعة؟! قال البعض فى مقام الإجابة على هذا السؤال، بأنّ هذه الآيات نزلت فى مكّة و حكم الأطعمة المحرمة الأخرى لم ينزل بعد.

غير أنّ هذه الإجابة تبدو غير صحيحة، و الشاهد على ذلك أنّ نفس هذا التعبير أو نظيره قد ورد فى السور المدنية مثل الآية (۱۷۳) من سورة البقرة.

و الظاهر أنّ هذه الآية ناظرة- فقط- إلى نفى الأحكام الخرافية التى كانت شائعة و سائدة فى أوساط المشركين، فالحصر «حصر إضافى» لا حقيقىّ.

و بعبارة أخرى: كأنّ الآية تقول: المحرمات الإلهية هذه، و ليس ما نسجته أوهامكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۶

و لكى تتضح هذه الحقيقة لا بأس بأنّ نضرب لذلك مثلا.

يسألنا أحد: لها جاء الحسن و الحسين كلاهما، فنجيب: كلا بل جاء الحسن فقط، لا شك أننا هنا نريد نفى مجىء الشخص الثانى (أى الحسين) و لكن لا مانع من أن يكون آخرون- ممن لم يكونوا محور حوارنا أصلا- قد جاؤوا أيضا، و هذا هو ما يسمى بالحصر

الإضافى (أو النسبىّ).

نعم، لا بـدّ من الانتباه إلى نقطـة مهمّة، و هى أنّ ظاهر الحصـر عادة- الحصـر الحقيقى إلّا فى الموارد التى يوجد فيها قرائن صارفة عن مدلول الظاهر مثل ما نحن فيه الآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۷

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

اشارة

وَ عَلَى الَّذِينَ هـادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۱۴۶) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۴۷)

التّفسير

ما حرّم على اليهود:

فى الآيـات السابقـة حصـرت المحرمـات من الحيوان فى أربعـة، غير أنّ هـاتين الآيتين تشـيران إلى بعض ما حرم على اليهود ليتبيّن أن أحكام الوثنيين الخرافيـة و المجهولـة لا تنطبق لا على أحكام الإسـلام، و لا على دين اليهود (بل و لا على دين المسـيح الـذى يتبع فى أكثر أحكامه الدين اليهودى).

ثمّ إنّه قـد صـرح فى هـذه الآيـات أن هـذا النوع من المحرمـات على اليهود كان له طابع المعاقبـة و صـفة المجازاة، و لو أنّ اليهود لم يرتكبوا الجنايات و المخالفات لما حرّم عليهم هذه الأمور، و على هذا الأساس لسائل أن يسأل الوثنيين: من أين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۸

أتيتم بهذه الأحكام المصطنعة؟

و لهذا يقول سبحانه فى البداية: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ.

و «الظفر» هو فى الأصـل المخلب، و لكنّه يطلق أيضـا على ظلف الحيوانـات من ذوات الأظلاـف (من الحيوانـات التى لهـا أظلاف غير منفرجـة الأصـابع كالحصـان لا كالغنم و البقر التى لها أظلاف منفرجـة) لأنّ أظلافها تشـبه الظفر، كما أنّه يطلق على خف البعير الـذى يكون منتهاه مثل الظفر، و لا يكون فيه انشقاق و انفراج مثل انفراج الأصابع.

و على هذا الأساس فإنّ المسـتفاد من الآية المبحوثة هو أنّ جميع الحيوانات التى لا تكون ذات أظلاف- دوابا كانت أو طيورا- كانت محرّمة على اليهود.

و يستفاد هذا المعنى- على نحو الإجمال أيضا- من سفر اللاويين من التّوراة الحاضرة الإصحاح ۱۱ حيث يقول:

«و أمر الربّ موسـى و هـارون: أوصـيا بنى إسـرائيل: هـذه هى الحيوانـات التى تأكلونهـا من جميع بهـائم الأـرض: تـأكلون كل حيوان مشقوق الظّلف و مجتر، أمّا الحيوانات المجترة فقط ذو المشقوقة الظلف فقط، فلا تأكلوا منها، فالجمل غير طاهر لكم لأنّه مجتر و لكنّه غير مشقوق الظلف»[۲۹۸].

كما أنّه يمكن أن يستفاد من العبارة التّالية فى الآية المبحوثة التى تحدثت عن خصوص البقر و الغنم فقط حرمة لحم البعير على اليهود بصورة كلية أيضا.

(تأمل بدقّة).

ثمّ يقول سبحانه: وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما.

ثمّ يستثنى بعد هذا ثلاثة موارد: أوّلها الشحوم الموجودة فى موضوع الظهر من هذين الحيوانين إذ يقول: إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۴۹۹

و ثانيا: الشّحوم الموجودة على جنبيها، أو بين أمعائها: أَوِ الْحَوايا[۲۹۹].

و ثالثا: الشحوم التى امتزجت بالعظم و التصقت به أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ

و لكنّه صرّح فى آخر الآية بأنّ هذه الأمور لم تكن محرّمة على اليهود- فى الحقيقة- و لكنّهم بسبب ظلمهم و بغيهم حرموا- بحكم اللّه و أمره- من هذه اللحوم و لشحوم التى كانوا يحبّونها ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ

و يضيف- لتأكيد هذه الحقيقة- قوله: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ و إن ما نقوله هو عين الحقيقة.

بحثان

۱- ماذا كان يقترف بنو إسرائيل؟

لا بدّ أن نرى هنا أى ظلم كان يقترفه بنو إسرائيل أوجب أن يحرّم اللّه تعالى عليهم هذه النعم التى كانوا يحبّونها؟! هناك مذاهب متباينة للمفسّرين فى هذا الصعيد، و لكن ما يستفاد من الآية (۱۶۰ و ۱۶۱) من سورة النساء، هو أنّ علّة التحريم المذكور كان عدة أمور:

ظلمهم للضعفاء، و معارضتهم للأنبياء، و منعهم من هداية الناس، و أكل الربا، و أكل أموال الناس بالباطل، إذ يقول:

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ، وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا، وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ

۲- ما معنى «إنّا لصادقون»؟

إنّ عبارة وَ إِنَّا لَصادِقُونَ التى جاءت فى آخر الآية يمكن أن تكون إشارة إلى هذه النقطة و هى: أنّ الصدق و الحق فى مسألة تحريم هذه الأطعمة هو ما قلناه لا ما قاله اليهود فى بعض كلامهم، و هو أنّ تحريم هذه الأطعمة و اللحوم إنّما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۰

كان من جانب إسرائيل (يعقوب)، لأن يعقوب- كما جاء فى الآية (۹۳) من سورة آل عمران- لم يحكم بحرمة هذه الأشياء أبدا، و ليس هذا سوى تهمة ألصقتها اليهود به.

و لما كان عناد اليهود المشركين أمرا بيّنا، و كان من المحتمل أن يتصلّبوا و يتمادوا فى تكذيب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أمر اللّه تعالى نبيّه فى الآية الاخرى أنّهم إن كذّبوه يقول لهم: إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة فهو لا يسارع إلى عقوبتكم و مجازاتكم، بل يمهلكم لعلكم تؤوبون إليه، و ترجعون عن معصيتكم، و تندمون من أفعالهم و تعودون إلى اللّه، فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ.

و لكن إذا أساؤوا فهم أو استخدام هذا الإمهال الإلهى، و استمروا فى كيل التهم فيجب أن يعلموا أنّ عقاب اللّه إيّاهم حتمىّ لا مناص

منه، و سوف يصيبهم غضبه فى المال: وَ لا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

إنّ هـذه الآيـة تكشـف- بوضوح- عن عظمـة التعـاليم القرآنيـة، فـإنّه بعـد شـرح و بيـان كـل هـذه المخالفـات الـتى ارتكبهـا اليهود و المشركون لا يعمد إلى التهديد بالعذاب فورا، بل يترك طريق الرجعة مفتوحا، و ذلك بذكر عبارات تفيض بالحب مثل قوله: «ربّكم» «ذو رحمة» «واسعة» أوّلا. حتى إذا كان هناك أدنى استعداد للرجوع و الإنابة فى نفوسهم شوّقتهم هذه العبارات العاطفية على العودة إلى لطريق المستقيم.

و لكن حتى لا تبعث سعة الرحمة الإلهية هذه على التمادى فى غيهم، و تتسبّب فى تزايد جرأتهم و طغيانهم، و حتى يكفوا على العناد و اللجاج هدّدهم فى آخر جملة من الآية بالعقوبة الحتمية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۱

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۴۸ الى ۱۵۰]

اشارة

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (۱۴۸) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۴۹) قُلْ هَلُمَّ شُهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (۱۵۰)

التّفسير

التملّص من المسؤولية بحجة «الجبر»:

عقيب الكلام المتقدم عن المشركين فى الآيات السابقة، أشار فى هذه الآيات إلى طائفة من استدلالاتهم الواهية، مع ذكر الأجوبة عنها.

فيقول أوّلا: إنّ المشركين سيقولون فى معرض الإجابة عن اعتراضاتك عليهم فى مجال الإشراك باللّه، و تحريم الأطعمة الحلال: إنّ اللّه لو أراد أن لا نكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۲

مشركين، و أن لا يكون آباؤنا و ثنيين، و أن لا نحرّم ما حرّمنا لفعل: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ.

و يلاحظ نظير هذه العبارة فى آيتين أخريين من الكتاب العزيز، فى سورة النحل الآية ۳۵: وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ و فى سورة الزخرف الآية (۲۰): وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ

و هذه الآيات تفيد أن المشركين- مثل كثير من العصاة الذين يريدون التملص من مسئولية العصيان تحت ستار الجبر- كانوا يعتقدون بالجبر، و كانوا يقولون: كلّ ما نفعله فإنّما هو بإرادة اللّه و مشيئته و إلّا لما صدرت منّا مثل هذه الأعمال.

و فى الحقيقة أرادوا تبرئة أنفسهم من جميع هذه المعاصى، و إلّا فإنّ ضمير كل إنسان عاقل يشهد بأن الإنسان حرّ فى أفعاله و غير مجبور، و لهذا إذا ظلمه أحد انزعج منه، و أخذه و وّبخه، بل و عاقبه إذا قدر.

و كـل ردود الفعل هـذه تفيـد أنّه يرى المجرم حرّا فى عمله و مختار، فهو ليس على اسـتعداد لأنّ يغض الطرف عن ردود الفعل هـذه بحجّة أنّ الظلم الواقع عليه من قبل ذلك الشخص مطابق لإرادة اللّه و مشيئته (تأمل بدقة).

نعم هناك احتمال فى هذه الآية، و هو أنّهم كانوا يدّعون أنّ سكوت اللّه على عبادتهم للأصنام و تحريمهم لطائفة من الحيوانات دليل على رضاه، لأنّه إذا لم يكن راضيا بها وجب أن يمنعهم عنها بنحو من الأنحاء.

و كـانوا يريـدون- بـذكر عبارة وَ لا آباؤُنا- أن يسـبغوا على عقائـدهم الفارغـة لون القـدم و الـدوام، و يقولون: إنّ هـذه الأمور ليسـت بجديدة ندعيها نحن بل كان ذلك دائما.

و لكن القرآن تصدّى لجوابهم و ناقشهم بشكل قاطع، فهو يقول أوّلا: ليس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۳

هؤلاء وحـدهم يفترون على اللّه مثل هـذه الأكاذيب: كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۳۰۰] و لكنّهم ذاقوا جزاء افـتراءاتهم: حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا.

فهؤلاء- فى الحقيقـة- كـانوا يكـذبون فى كلامهم هـذا، كما أنّهم يكـذّبون الأنبياء، لأنّ الأنبياء الإلهيين نهوا البشـرية- بصـراحة- عن الوثنية و الشـرك و تحريم ما أحلّه اللّه، فلا آباؤهم سـمعوا ذلك و لا هؤلاء، مع ذلك كيف يمكن أن نعتبر اللّه راضيا بهذه الأعمال؟ .. و لو كان سبحانه راضيا بهذه الأمور فكيف بعث أنبياءه للدعوة إلى التوحيد؟! إنّ دعوة الأنبياء- فى الأساس- أقوى دليل على حرية الإرادة الإنسانية، و إختيار البشر.

ثمّ يقول سبحانه: قل لهم يا محمّد: هل لكم برهان قاطع و مسلّم على ما تدّعونه؟ هاتوه إن كان قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا.

ثمّ يضيف فى النهاية: إنّكم ما تتبعونه ليس سوى أوهام و خيالات فجة: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ

و فى الآيـة اللاحقـة يـذكر دليلا آخر لإبطال ادعاء المشـركين، و يقول: قل: إنّ اللّه أقام براهين جلية و دلائل واضـحة و صـحيحة على وحـدانيته، و هكـذا أقام أحكام الحلال و الحرام سواء بواسـطة أنبيائه أو بواسـطة العقل، بحيث لم يبق أى عذر لمعتذر: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ.

و على هذا الأساس لا يمكن أن يدعى أحد أبدا أنّ اللّه أمضى- بسكوته- عقائدهم و أعمالهم الباطلة، و كذلك يسعهم قط أن يدّعوا أنّهم كانوا مجبورين، لأنّهم لو كانوا مجبورين لكان إقامـة الدليل و البرهان، و إرسال الأنبياء و تبليغهم و دعوتهم لغوا، إنّ إقامة الدليل دليل على حرية الإرادة.

على أنّه يجب الانتباه إلى أنّ «الحجة» الذى هو من «حجّ» يعنى القصد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۴

و تطلق «الحجـة» على الطريق الـذى يقصـده الإنسـان، و يطلق على البرهـان و الـدليل «الحجـة» أيضـا، لأنّ القائل يقصـد إثبات مـدعاه للآخرين عن طريقه.

و مع ملاحظـة لفظـة «بالغـة» يتّضـح أنّ الأدلة التى أقامها اللّه للبشـر عن طريق العقل و النقل و بواسـطة العلم و الفكر، و كذا عن طريق إرسال الأنبياء واضـحة لا لبس فيها من جميع الجهات، بحيث لا يبقى أى مجال للترديد و الشك لأحد، و لهذا السـبب نفسه عصم اللّه سبحانه أنبياءه من كل خطأ ليبعدهم عن أى نوع من أنواع التردد و الشك فى الدعوة و الإبلاغ.

ثمّ يقول فى ختام الآية: و لو شاء اللّه أن يهديكم جميعا بالجبر لفعل: فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ

و فى الحقيقـة فإنّ هـذه الجملـة إشارة إلى أنّ فى مقدور اللّه تعالى أن يجبر جميع أبناء آدم على الهداية، بحيث لا يكون لأحد القدرة على مخالفته، و لكن فى مثل هـذه الصورة لم يكن لمثل هـذا الإيمان و لا للأعمال التى تصـدر فى ضوء هذا الإيمان الجبرى القسـرى أية قيمة، إنّما فضيلة الإنسان و تكامله فى أن يسلك طريق الهداية و التقوى بقدميه و بإرادته و إختياره.

و على هذا الأساس لا منافاة أصلا بين هذه الجملة و الآية السابقة التى ورد فيها نفى الجبر.

إنّ هـذه الجملـة تقول: إنّ إجبار الناس الذى تدّعونه أمر ممكن و مقدور للّه تعالى، و لكنّه لن يفعله قط، لأنّه يخالف الحكمة و ينافى المصلحة الإنسانية.

و كان المشـركون قـد تذرّعوا بالقدرة و المشـيئة الإلهيتين لاختيار مذهب الجبر، على حين أن القدرة و المشـيئة الآلهيتين حق لا شـبهة فيهما، بيـد أنّ نتيجتهما ليست هى الجبر و القسـر، بل إنّ اللّه تعالى أراد أن نكون أحرارا، و أن نسـلك طريق الحق باختيارنا و بمحض إرادتنا.

جاء فى كتاب الكافى عن الإمام الكاظم عليه السّلام أنّه قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۵

«إنّ للّه على الناس حجّتين حجّة ظاهرة و حجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمّة، و أمّا الباطنة فالعقول»[۳۰۱].

و

جاء فى أمالى الصّدوق عن الإمام الصّادق عليه السّلام لمّا سئل عن تفسير قوله تعالى: فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ أنه قال:

«إنّ اللّه تعالى يقول للعبـد يوم القيامـة: عبـدى أ كنت عالما، فإن قال: نعم، قال له: أ فلا عملت بما علمت؟ و إن قال: كنت جاهلا، قال له: أ فلا تعلّمت حتى تعمل؟

فيخصمه، فتلك الحجّة البالغة»[۳۰۲].

إنّ من البديهى أنّ المقصود من الحديث المذكور ليس هو أنّ الحجّة البالغة منحصـرة فى حوار اللّه تعالى مع عباده يوم القيامة، بل إنّ للّه حججا بالغـة عديـدة من مصاديقها ما جاء فى الحـديث المـذكور من الحوار بين اللّه و بين عباده، لأن نطاق الحجـج الإلهيـة البالغة واسع يشمل الدنيا و الآخرة.

و فى الآية التّالية- و لكى يتضح بطلان أقوالهم، و مراعاة لأسـس القضاء و الحكم الصـحيح- دعا المشركين ليأتوا بشهدائهم المعتبرين لو كـان لهم، لكى يشـهدوا لهم بأنّ اللّه هو الـذى حرّم الحيوانات و الزروع التى ادّعوا تحريمها، لهـذا يقول: قُلْ هَلُمَّ شُـهَداءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هذا.

ثمّ يضيف قائلا: إذا كانوا لا يملكون مثل هؤلاء الشهداء المعتبرين (و لا يملكون حتما) بل يكتفون بشهادتهم و ادّعائهم أنفسهم فقط، فلا تشهد معهم و لا تؤيدهم فى دعاويهم: فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ

اتضـح ممّا قيل إنّه لا تناقض قطّ فى الآية لو لوحظت مجموعة، و أمّا مطالبتهم بالشاهد فى البداية ثمّ أمره تعالى بعدم قبول شـهاداتهم، فلا يستتبع إشكالا، لأنّ المقصود هو الإشعار بأنّهم عاجزون عن إقامة الشهود المعتبرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۶

على القطع و اليقين، لأنّهم لا يمتلكون أىّ دليل من الأنبياء الإلهيين و الكتب السـماوية يسـند تحريم هذه الأمور، و لهذا فإنّهم وحدهم الذين يدّعون هذه الأمور سيشهدون، و من المعلوم أنّ مثل هذه الشهادة مرفوضة.

هذا مضافا إلى أنّ جميع القرائن تشـهد بأنّ هذه الأحكام ما هى إلّا أحكام مصطنعة مختلفة نابعة عن محض الهوى و التقليد الأعمى، و لا اعتبار لها مطلقا.

و لذلك قال فى العبارة اللاحقة: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۳۰۳].

يعنى أنّ وثنيتهم، و إنكارهم للقيامـة و البعث، و الخرافات، و إتباعهم للهوى، شواهـد حيّـة على أنّ أحكامهم هـذه مختلقة أيضا، و أنّ ادّعاهم فى مسألة تحريم هذه الموضوعات من جانب اللّه لا قيمة له، و لا أساس له من الصحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۱ الى ۱۵۳]

اشارة

قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۵۱) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱۵۲) وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۵۳)

التّفسير

الأوامر العشرة:

بعد نفى أحكام المشركين المختلفة التى مرّت فى الآيات المتقدمة، أشارت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۸

هذه الآيات الثلاثة إلى أصول المحرمات فى الإسلام، و ذكرت الذنوب الرئيسية الكبيرة فى عشرة أقسام ببيان مقتضب، عميق و فريد، ودعت المشركين إلى أن يحضروا عند النّبى و يستمعوا إلى ما يتلى عليهم من المحرمات الإلهية الواقعية، و يتركوا المحرمات المختلقة جانبا.

يقول أوّلا: قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ

۱- أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

۲- وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً ۳- وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ أى بسبب الفقر و الحرمان لأنّنا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ

۴- وَ لا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ أى لا تقربوها فضلا عن أن لا ترتكبوها.

۵- وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ فلا تسفكوا الدّماء البريئة، و لا تقتلوا النفوس التى حرم اللّه قتلها إلّا ضمن قوانين العقوبات الإلهية، فيجوز أن تقتلوا من أذن اللّه لكم بقتله.

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر هذه الأقسام الخمسة يقول لمزيد من التأكيد: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ فلا ترتكبوها.

۶- وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ فلا تقربوا مال اليتيم إلّا بقصد الإصلاح حتى يبلغ أشده و يستوى.

۷- وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ فلا تطففوا و لا تبخسوا.

و حيث أن الإنسان- مهما دقق فى الكيل و الوزن- قد يزيد أو ينقص بما لا يمكن أن تضبطه الموازين و المكاييل المتعارفة لقلته و خفائه، لهذا عقب على ما قال بقوله: لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

۸- وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى فلا تنحرفوا عن جادة الحق عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۰۹

الشهادة أو القضاء أو أمر آخر حتى و لو كان على القريب، فاشهدوا بالحق، و اقضوا بالعدل.

۹- وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا و لا تنقضوه.

و أمّا ما هو المراد من العهد الالهى المذكور فى هذه الآية؟ فقد ذهب المفسّرون إلى احتمالات عديدة فيه، و لكن مفهوم الآية يشمل جميع العهود الالهيّة «التكوينية» و «التشريعية» و التكاليف الالهية و كل عهد و نذر و يمين.

ثمّ إنّه سبحانه يقول فى ختام هذه الأقسام الأربعة- للتأكيد: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

۱۰- وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ إن طريقى هذا هو طريق التوحيد، طريق الحق و العدل، طريق الطهر و التقوى فامشوا فيه، و اتبعوه، و اسلكوه و لا تسلكوا الطرق المنحرفة و المتفرقة، فتؤدى بكم إلى الانحراف عن اللّه و إلى الاختلاف، و التشرذم، و التفرق، و تزرع فيكم بذور الفرقة و النفاق.

ثمّ يختم جميع هذه الأقسام و للمرّة الثّالثة- لغرض التأكيد بقوله: ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

بحوث

اشارة

إنّ هاهنا عدّة نقاط يجب أن نقف عندها، و هى:

۱- الشروع بالتوحيد و الختم بنبذ الاختلاف

إنّ الملاحظ فى هذه الآيات أنّ هذه التعاليم و الأوامر العشرة بدأت بتحريم الشرك الذى هو فى الواقع المنشأ الأصلى لجميع المفاسد الاجتماعية و المحرمات الالهية، و انتهت- أيضا- بالدّعوة إلى نبذ التفرق و الاختلاف الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۰

يعدّ هو الآخر نوعا من الشرك العملى.

إنّ هذا الموضوع يكشف عن أهمية مسألة التوحيد فى جميع الأصول و الفروع الإسلامية، و بالتالى يكشف عن أن التوحيد ليس مجرّد أصل عقائدى بحت، بل يمثّل روح التعاليم الإسلامية برمتها.

۲- التأكيدات المتتابعة

لقد تكرّرت عبارة ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ للتأكيد عند ختام كل آية من الآيات الثلاث، مع فوارق فى الفواصل طبعا، فقد ختمت العبارة فى الآية الأولى بجملة:

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ و فى الآية الثّانية بجملة: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و فى الآية الثّالثة بجملة: لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

و يبدو أنّ هذه التعابير المختلفة إشارة إلى النقطة التّالية و هى: أنّ المرحلة الأولى عند تلقّى أىّ حكم من الأحكام هو مرحلة «التعقل» أى فهم ذلك الحكم و إدراكه.

و المرحلة الثّانية هى: مرحلة «التذكر» و هضم ذلك الحكم و امتصاص مفاده و استيعاب محتواه.

و المرحلة الثّالثة هى: المرحلة النهائية، و هى مرحلة العمل و التطبيق، و قد أسماها القرآن بمرحلة «التقوى».

صحيح أنّ كل واحدة من هذه العبارات (و المراحل) جاءت بعد ذكر عدّة تعاليم من التعاليم العشرة، إلّا أنّه من الواضح أنّ هذه

المراحل لا- تختص بأحكام معيّنة، لأنّ كل حكم من الأحكام، و كل تعليم من التعاليم بحاجة إلى «التعقل» و «التذكر» و «التقوى و العمل»، إنّما هى رعاية جهات الفصاحة و البلاغة، التى اقتضت توزيع هذه التأكيدات (و المراحل) فى أثناء تلك التعاليم العشرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۱

۳- التعاليم و الأوامر الخالدة

لعلّنا فى غنىّ عن التذكير بأنّ هذه التعاليم و الأوامر العشرة لا تختص بالدين الإسلامى، بل كان نظيرها فى جميع الشرائع المتقدمة عليه و إن كانت قد حظيت فى الإسلام بعناية أكبر و أوسع.

و فى الحقيقة أنّ هذه التعاليم ممّا يدركه العقل السوىّ و الضمير السليم بوضوح و جلاء و بعبارة أخرى: هى من «المستقلات العقلية» و لهذا فإنّها كما ذكرت فى القرآن الكريم، تلاحظ بشكل أو بآخر فى شرائع الأنبياء الآخرين ۳۰۴].

۴- أهمية الإحسان إلى الوالدين

إنّ ذكر مسألة الإحسان للوالدين- بعد مكافحة الشرك مباشرة، و قبل ذكر تعاليم مهمّة مثل حرمة قتل النفس و الأمر بالعدل- يدلّ على الأهمية القصوى التى يحظى بها حق الوالدين فى التعاليم الإسلامية.

و يتّضح هذا الأمر أكثر عند ما نرى أن القرآن الكريم ذكر بدل تحريم أذى الوالدين الذى يلائم سياق هذه الآية فى استعراضها للمحرمات، مسألة الإحسان إليهما، يعنى أنّه ليس إزعاج الوالدين و إيذاؤهما محرّما فقط، بل يجب الإحسان إليهما.

و الأجمل من هذا كلّه أنّ كلمة «الإحسان» عدّيت بحرف «الباء» فقال:

وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً و نحن نعلم أن الإحسان قد يعدّى بإلى و قد يعدّى بالباء، فإذا عدّ بإلى كان معناه: الإحسان إلى الآخر سواء كان بصورة مباشرة، أو مع الواسطة. و لكنّه عند ما يعدّى بالباء يكون معناه: الإحسان بصورة مباشرة و من دون واسطة.

و على هذه الأساس فإنّ هذه الآية تؤكّد أنّ موضوع الإحسان إلى الوالدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۲

من الأهمية البالغة بحيث يجب على الإنسان أن يباشر الإحسان بنفسه إلى الوالدين ۳۰۵].

۵- قتل الأولاد من الإملاق و الجوع

يستفاد من هذه الآيات أنّ العرب فى العهد الجاهلى لم يقتصروا على قتل البنات و وأدهن بسبب بعض العصبيات الخاطئة فحسب، بل كانوا يقتلون أولادهم الذين كانوا يعدّون ثروة كبرى فى المجتمع يومذاك، و ذلك بسبب الفقر و خشيتهم من الفاقة، أيضا. و اللّه تعالى يلفت نظرهم إلى مائدة النعم الإلهيّة الواسعة التى يستفيد منها حتى أضعف الموجودات، و نهاهم سبحانه عن ذلك.

و لكن هذا العمل الجاهلى- و للأسف البالغ- يتكّرر الآن فى عصرنا فى صورة أخرى، إذ نلاحظ كيف يعمد الناس إلى قتل الأطفال الأبرياء و هم أجنّة عن طريق «الكور تاج» و الإجهاض بحجة النقصان الاحتمالى فى المواد الغذائية.

إنّ إسقاط الجنين و إن كان يبرّر الآن بأدلة و حجج أخرى أيضا، إلّا أنّ مسألة الفقر و مسألة نقصان المواد الغذائية، هى من أدلتها الأصليّة.

هذه المسألة و المسائل المشابهة الأخری تشیر إلی أنّ العهد الجاهلی یتکّرر فی شکل آخر، و أنّ «جاهلیة القرن العشرین» أکثر وحشیة من جاهلیة ما قبل الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص۵۱۲

۶- ما هو المقصود من الفواحش؟

«الفواحش» جمع «فاحشة» یعنی ما عظم قبحه من الذنوب. و علی هذا الأساس فإنّ نقض العهد، و التطفیف و الشرک و ما شابه ذلک و إن کانت من الذنوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۳

الکبار، إلّا أنّ ذکرها فی مقابل الفواحش إنّما هو لأجل التفاوت المفهومی بینها.

۷- لا تقربوا هذه الذّنوب

فی الآیات الحاضرة ورد التعبیر بجملة لا تقربوا فی موضعین، و قد تکرر هذا الموضوع (و هذا النهی) فی القرآن لبعض الذنوب الأخر أیضا، و یبدو أنّ هذا التعبیر قد ورد فی مجال الذنوب المثیرة کالزنا، و أموال الیتامی و ما شابهها، لهذا یحذّر الناس من الاقتراب إلیها لکی لا یقعوا تحت إثارتها.

۸- الذّنوب الظاهرة و الباطنة

لا شک فی أنّ جملة ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ تشمل کل الذنوب القبیحة الظاهرة، و الخفیة، و لکن

جاء فی بعض الأحادیث عن الإمام الباقر علیه السّلام «ما ظهر هو الزنا و ما بطن هو المخالّة»

(أی اتخاذ الخلیلات و الصدیقات سرّا و خفیّة) و لکنّه واضح أنّ ذکر هذه الموارد إنّما هو بیان المصداق الواضح، لا أنّه یعنی انحصارها فیها.

۹- الوصایا العشر عند الیهود

نلاحظ فی التّوراة فی الفصل ۲۰- سفر الخروج أحکاما عشرة تعرف عند الیهود بالوصایا، و هی تبدأ من الجملة الثانیة و تنتهی عند السابعة عشرة من ذلک الفصل.

و لکن بالمقارنة بین الوصایا العشر، و بین ما جاء فی الآیات الحاضرة یتضح أنّ فرقا واسعا و بونا شاسعا بین هذین البرنامجین، و علی أنّه لا یمکن الاطمئنان إلی أنّ التّوراة الحاضرة لم تنحرف فی هذا المجال، کما تعرضت للتحریف فی الأقسام الأخری. و لکنّ ما هو مسلّم هو أنّ الوصایا العشر الموجودة فی التّوراة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۴

و إن كانت مشتملة على المسائل اللازمة، إلّا أنّها أقل مستوى بكثير- من حيث السعة و الأبعاد الأخلاقية، و الاجتماعية و العقيدية- من مفاد الآيات الحاضرة.

۱۰- كيف غيّرت هذه الآيات وجه المدينة المنورة؟

لقد وردت فى بحار الأنوار، و كذا فى كتاب أعلام الورى قصّة جميلة تحكى عن تأثير هذه الآيات البالغ فى نفوس المستمعين، و ها نحن ندرج هنا القصة المذكورة باختصار وفقا لما جاء فى بحار الأنوار برواية على بن إبراهيم.

قدم أسعد بن زرارة، و ذكوان بن عبد قيس مكّة فى موسم من مواسم العرب و هما من الخزرج، و كان بين الأوس و الخزرج حرب قد بقوا فيها دهرا طويلا، و كانوا لا يضعون السلاح لا بالليل و لا بالنهار، و كان آخر حرب بينهم يوم بعاث، و كانت الغلبة فيها للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة و ذكوان إلى مكّة يسألون الحلف على الأوس و كان أسعد بن زرارة صديقا لعتبة بن ربيعة فنزل عليه، و قصّ عليه ما جاء من أجله فقال عتبة بن ربيعة فى جواب أسعد: بعدت دارنا من داركم، و لنا شغل لا نتفرغ لشىء، قال أسعد: و ما شغلكم و أنتم فى حرمكم و أمنكم؟ قال عتبة: خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول اللّه، سفّه أحلامنا، و سبّ آلهتنا، و أفسد شبابنا، و فرق جماعتنا.

فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد اللّه بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفا، و أعظمنا بيتا.

فلمّا سمع أسعد و ذكوان ذلك، أخذا يفكّران فيه، و وقع فى قلبهما ما كانا يسمعانه من اليهود، أنّ هذا أوان نبى يخرج بمكّة يكون مهاجره بالمدينة.

فقال أسعد: أين هو؟

قال عتبة: جالس فى الحجر (حجر إسماعيل) و أنّهم (أى المسلمون) لا يخرجون من شعبهم إلّا فى المواسم، فلا تسمع منه، و لا تكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، و كان هذا فى وقت محاصرة بنى هاشم فى الشعب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۵

فقال أسعد لعتبة: فكيف أصنع، و أنا محرم للعمرة لا بدّ لى أن أطوف بالبيت؟

قال: ضع فى أذنيك القطن.

فدخل أسعد المسجد، و قد حشا أذنيه بالقطن فطاف بالبيت و رسول اللّه جالس فى الحجر مع قوم من بنى هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه.

فلمّا كان فى الشّوط الثّانى قال فى نفسه: ما أجد أجهل منّى. أ يكون مثل هذا الحديث بمكّة فلا أتعرّفه حتى أرجع إلى قومى فأخبرهم؟ فأخذ القطن من أذنيه و رمى به، و

قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنعم صباحا. فرفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأسه إليه، و قال: قد أبدلنا اللّه به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنّة، السلام عليكم.

فقال له أسعد: إلى م تدعو يا محمّد؟

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إلى شهادة أن لا إله إلّا اللّه، و أنّى رسول اللّه، و أدعوكم إلى ...

(ثمّ تلا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الآيات الثلاثة المبحوثة هنا و التى تتضمن التعاليم العشرة).

فلمّا سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّا اللّه، و أنّك رسول اللّه، يا رسول اللّه بأبى أنت و أمى أنا من أهل يثرب من الخزرج، و بيننا و بين إخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها اللّه بك، و لا أجد أعزّ منك، و معى رجل من قومى، فإن دخل فى هذا الأمر

رجوت أن يتمّم اللّه لنا أمرنا فيك.

و اللّه يا رسول اللّه، لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، و يبشروننا بمخرجك، و يخبروننا بصفتك، و أرجو أن تكون دارنا دار هجرتك عندنا فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد للّه الذى ساقنى إليك، و اللّه ما جئت إلّا لنطلب الحلف على قومنا، و قد آتانا اللّه بأفضل ممّا أتيت له.

ثمّ أسلم رفيق أسعد- ذكوان- أيضا- ثمّ طلبا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبعث معهم رجلا يعلمهم القرآن، و يدعو الناس إلى أمره، و يطفئ الحروب، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهما إلى المدينة «مصعب بن عمير» و منذئذ أسست قواعد الإسلام فى المدينة و تغير وجه يثرب ۳۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۶

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۴ الى ۱۵۷]

اشارة

ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۱۵۴) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵) أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ (۱۵۶) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ (۱۵۷)

التّفسير

رد حاسم على المتحججين و المتعلّلين:

فى الآيات السابقة دار الحديث عن عشرة من أحكام الإسلام الأساسية التى تشكّل- فى الحقيقة- أساسا و قاعدة للكثير من الأحكام الإسلامية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۷

و يستفاد من قوله تعالى: أَنَّ هذا صِراطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ و نظائره، أنّ هذه الأحكام لم تكن مختصّة بدين معنين أو شريعة خاصّة، خاصّة و أنّها من الأصول و المبادئ التى يحكم بها العقل و يؤيّدها من دون تلكؤ أو تأخير، و بهذا يكون مضمون الآيات السابقة هو بيان الأحكام التى لم تكن مختصّة بالإسلام، بل هى موجودة و مقررة فى جميع الأديان.

ثمّ قال عقيب ذلك فى هذه الآيات: ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِى أَحْسَنَ فقد أتممنا نعمتنا على المحسنين و الذين سلّموا لأمره و اتبعوه.

و ممّا قيل يتّضح معنى كلمة «ثمّ» تستعمل فى اللغة العربية عادة فى «العطف مع التراخى» و يكون معنى الآية هو: أنّنا آتينا هذه التعاليم و الوصايا العامّة للأنبياء السابقين أوّلا ثمّ آتينا موسى كتابا سماويا و بيّنا فيه هذه التعاليم و البرامج و غيرها من التعاليم و البرامج اللازمة.

و بهذا لا حاجة إلى ما ذهب إليه بعض المفسّرين من التوجيهات المختلفة، و الضعيفة أحيانا فى هذا المجال.

كما تتّضح هذه النقطة أيضا، و هى أنّ عبارة: الَّذِى أَحْسَنَ إشارة إلى جميع المحسنين، و الذين يستجيبون للحق، و يقبلون بالأوامر

الإلهية.

وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فإن فيه كلّ شيء ممّا يحتاج إليه المجتمع، و ممّا له أثر فى تكامل الإنسان وتر شيده.

وَ هُدىً وَ رَحْمَةً أى أنّ فى هذا الكتاب الذى نزل على موسى مضافا إلى ما سبق: هدى و رحمة.

إنّ جميع هـذه البرامج، ما هى إلّا لكى يؤمنوا بيوم القيامة، و بلقاء اللّه، و لكى يطهّروا عن طريق الإيمان بالمعاد أفكارهم، و أقوالهم، و أعمالهم و يزكوها:

لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

هذا، و يمكن أن يقال: إذا كانت شريعة موسى شريعة كاملة (كما يستفاد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۸

كلمة «تماما») فما الحاجة إلى شريعة عيسى، و إلى الشريعة الإسلامية؟

و لكن يجب أن يعلم أنّ كلّ شـريعة من الشـرائع إنّما تكون شـريعة جامعة و كاملة بالنسـبة لعصـرها، و من المسـتحيل أن تنزل شـريعة ناقصة من جانب اللّه تعالى.

بيد أنّ هذه الشـريعة التى تكون كاملة بالنسـبة إلى عصـر معيّن يمكن أن تكون ناقصة غير كاملة بالنسـبة إلى العصور اللاحقة، كما أنّ البرنامج الكامل الجامع المعدّ لمرحلة الدراسة الابتدائية، يكون برنامجا ناقصا بالنسـبة إلى مرحلة الدراسة المتوّسطة، و هذا هو السرّ فى إرسال الأنبياء المتعددين بالكتب السماويّة المختلفة المتنوعة حتى ينتهى الأمر إلى آخر الأنبياء و آخر التعاليم.

نعم إذ تهيّأ البشـر لتلقّى التعاليم النهائيـة، و صـدرت إليهم تلك التعاليم و الأوامر، لم يبق حاجـة- بعـد ذلك- إلى دين جديد، و كان شأنهم حينئذ شأن المتخّرجين الذين يمكنهم بما عندهم من معلومات الحصول على نجاحات علمية عن طريق المطالعة و التأمل.

إن أتباع مثل هذه الشـريعة، و مثل هذا الدين (النهائى) لن يحتاجوا إلى دين جديد، و إنّما يكتسبون طاقة حركتهم و تقدمهم من نفس ذلك الدين الإلهى.

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أيضا أنّ القضايا المرتبطة بالقيامة قد وردت فى التّوراة الأصلية بالقدر الكافى. و إذا لم نلاحظ اشارة إلى قضايا الحشـر و المعاد فى التّوراة الفعليـة و الكتب الحاضـرة المرتبطة بها إلّا نادرا، فالظاهر أنّ ذلك بسـبب تحريف اليهود و أصـحاب الدنيا الذين كانوا يرغبون فى قلّة التحدّث فى القيامة و قلّة السماع عنها.

على أنّه قـد وردت فى التّوراة الفعليـة مع ذلك إشارات عابرة و مختصـرة إلى مسألـة القيامة، و لكنّها قليلة إلى درجة دفع بالبعض إلى القول: إنّ اليهود لا يعتقدون بالمعاد و القيامة أساسا، و لكن هذا الكلام أشبه بالمبالغة من الواقع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۱۹

و الحقيقة.

كمـا أنّه يجب أيضـا أن نلفت نظر القـارئ إلى أنّ المراد من إلقـاء اللّه الـذى ورد فى الآيات القرآنيـة ليس هو اللقاء الحسـى و الرؤية البصـرية، بـل المراد هو نوع من الشـهود البـاطنى، و اللقـاء الروحانى، الـذى يتحقق فى يوم القيامـة على أثر التكامل الإنسانى الحاصـل للأشخاص، أو المقصود منه هو: مشاهدة الثواب و العقاب فى العالم الآخر.

الآيـة اللاحقـة تشـير إلى نزول القرآن و تعليماته القيمـة، و بذلك أكملت البحث المطروح فى الآية السابقة، يقول تعالى: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فهذا الكتاب الذى أنزلناه كتاب عظيم الفائدة، عظيم البركة، و هو المنبع لكلّ أنواع الخير و البركة.

و لمّا كان الأمر كذلك وجب اتباعه بصورة كاملة، و وجب التزود بالتقوى، و التجنب عن مخالفته، لتشملكم رحمة اللّه و لطفه فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

و فى الآية الثالثة أبطل سـبحانه جميع المعاذير و التحججات و سدّ جميع طرق التملّص و الفرار فى وجه المشركين، فقال لهم أوّلا: لقد

أنزلنا هـذا الكتاب مع هذه المميزات لكى لا تقولوا: لقد نزلت الكتب السماوية على الطائفتين السابقتين (اليهود و النصارى) و كنّا عن دراستها غافلين، و ليس تمرّدنا على أوامر اللّه لكونها موجودة عند غيرنا من الأمم، و لم يبلغنا منها شىء: أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الْكِتابُ عَلى طائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنا، وَ إِنْ كُنَّا عَنْ دِراسَتِهِمْ لَغافِلِينَ ۳۰۷].

ثمّ إنّه سبحانه ينقل عنهم- فى الآية اللاحقة- نفس ذلك التحجج و لكن بصورة أوسع، و مقرونا هذه المرّة بنوع أشدّ من الغرور و الصّلف و هو: أنّ القرآن الكريم لو لم ينزل عليهم لكان من الممكن أن يدّعوا أنّهم كانوا أكثر استعدادا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۰

أية أمّة أخرى لقبول الأمر الإلهى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتابُ لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ

و الآية المتقدّمة كانت تعكس- فى الحقيقة- هذا التحجج و هو: أنّ عدم اهتدائنا إنّما هو بسبب غفلتنا و جهلنا بالكتب السماوية، و هذه الغفلة و هذا الجهل ناشئ عن أنّ هذه الكتب نزلت على الآخرين، و لم تنزل علينا.

أمّا هذه الآية فتعكس صفة الإحساس بالتفوق و الادّعاء الفارغ الذى كانوا يدّعونه عن تفوّق العنصر العربىّ على غيرهم.

و قد نقل نظير هذا المعنى فى سورة فاطر فى الآية (۴۲) عن مقالة المشركين فى شكل مسألة قاطعة و ليس من باب القضية الشرطية و ذلك عند ما يقول:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

و على أية حال فإنّ القرآن يقول فى معرض الرّد على هذه الادعاءات أن اللّه سبحانه سدّ عليكم كل سبل التملص و الفرار، و أبطل جميع الذرائع و المعاذير، لأنّ اللّه آتاكم كل الآيات، و أقام كل الحجج المقرونة بالهداية الإلهية و بالرحمة الربانية لكم: فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ.

و الملفت للنظر أنّه استعمل لفظ «البينة» بدل الكتاب السماوى، و هو إشارة إلى أنّ هذا الكتاب السماوى واضح المعالم، بيّن الحقائق من جميع الجهات، و مقرون بالدلائل القاطعة، و البراهين الساطعة اللامعة.

و مع ذلك فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآياتِ اللَّهِ وَ صَدَفَ عَنْها.

و «صدف» من «الصدف» و يعنى الإعراض الشديد- من دون تفكير- عن شىء، و هو إشارة إلى أنّهم لم يكونوا ليعرضوا عن آيات اللّه فحسب، بل كانوا يبتعدون عنها- أيضا- من دون أن يفكروا فيها أدنى تفكير. ربّما استعملت هذه اللفظة بمعنى آخر و هو منع الآخرين أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۱

و فى خاتمة هذه الآية بيّن اللّه تعالى العقاب الأليم الذى أعدّ لهؤلاء المخاصمين المعاندين الذين يرفضون الحقائق و ينكرونها من دون أن يفكروا فيها و يدرسوها و لو قليلا- بل و لا- يكتفون برفضها إنما يعمدون إلى صدّ الآخرين عنها، و يحولون بينهم و بين سماعها و استيعابها، بيّن كلّ ذلك فى قوله الموجز و البليغ: سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آياتِنا سُوءَ الْعَذابِ بِما كانُوا يَصْدِفُونَ

و «سوء العذاب» و إن كان بمعنى العذاب السىء، و لكن حيث أن العذاب السيّء عقاب شديد و موجع للغاية فى حدّ نفسه، لذلك فسّره بعض المفسّرين بالعقاب الشديد.

ثمّ إنّ تكرار لفظة «يصدفون» عند بيان جزاء الصادفين عن آيات اللّه لأجل توضيح هذه الحقيقة، و هى أنّ جميع البلايا و المحن التى تصيب هذا الفريق ناشئة من كونهم يعرضون عن الحقائق من دون أدنى تفكير و دراسة، و لو أنّهم سمحوا لأنفسهم بالتفكير و الدراسة- كباحث عن الحقيقة و شاك يطلب اليقين- لما أصيبوا بمثل هذه العواقب الأليمة و المصير المؤلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۲

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۵۸]

اشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۵۸)

التّفسير

توقعات باطلة و مطاليب مستحيلة:

فى الآيات السابقة تبيّنت هذه الحقيقة و هى: أنّنا أتممنا الحجّة على المشركين، و آتيناهم الكتاب السماوى (أى القرآن) لهدايتهم جميعا، لكى لا يبقى لديهم أى عذر يبرّرون به مخالفتهم للرسالة و معارضتهم للدعوة.

و هذه الآية تقول: و لكن هؤلاء الأشخاص المخاصمين المعاندين بلغوا فى لجاجهم و عنادهم حدّا لا يؤثّر فيهم حتى هذا البرنامج الواضح البيّن، و كأنّهم يتوقعون و ينتظرون هلاكهم، أو ذهاب آخر فرصة، أو ينتظرون أمورا مستحيلة.

فيقول أولا: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ لتقبض أرواحهم.

أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ إليهم فيرونه، حتى يؤمنوا به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۳

و يراد من هذا الكلام فى الحقيقة أنّهم ينتظرون أمورا مستحيلة، لا أنّ مجىء اللّه سبحانه و تعالى أو رؤيته أمور ممكنة.

و هذا النوع من البيان و الكلام أشبه ما يكون بمن يقول لشخص مجرم معاند، بعد أن يريه ما لديه من وثائق كافية دامغة و هو مع كل هذا ينكر جنايته: إذا كنت لا تقبل بكل هذه الوثائق، فلعلك تنتظر أن يعود المقتول إلى الحياة، و يحضر فى المحكمة ليشهد عليك بأنّك الذى قتلته؟

ثمّ يقول: أو أنّكم تنتظرون أن تتحقق بعض الآيات الإلهية و العلامات الخاصّة بيوم القيامة و نهاية العالم يوم تنسدّ كل أبواب التوبة: أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ

و على هذا الأساس فإنّ عبارة آياتِ رَبِّكَ و إن جاءت بصورة كليّة و على نحو الإجمال، و لكنّها يمكن أن تكون بقرينة العبارات اللاحقة التى سيأتى تفسيرها، بمعنى علامات القيامة، مثل الزلازل المخيفة، و فقدان الشمس و القمر و الكواكب لأنوارها و أضوائها، و ما أشبه ذلك.

أو يكون المراد من ذلك المطاليب غير المعقولة التى يطلبونها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و من جملتها أنّهم لا يؤمنون به إلّا أن تمطر عليهم السماء حجارة، أو تمتلئ صحارى الحجاز القفراء اليابسة بالينابيع و النخيل!! ثمّ يضيف عقيب ذلك قائلا: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً فأبواب التوبة حينذاك مغلقة فى وجوه الذين لم يؤمنوا إلى تلك الساعة، لأنّ التوبة ساعتئذ تكون ذات صبغة اضطرارية إجبارية، و فاقدة لمعطيات الإيمان الاختيارى و قيمة التوبة النصوح.

هذا، و يتضح ممّا قيل أن عبارة أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً تعنى أنّ الإيمان وحده لا ينفع فى ذلك اليوم، بل حتى أولئك الذين آمنوا من قبل، و لكنّهم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۴

يعملوا عملاـ صالحا، لم ينفعهم فى ذلك اليوم أن يعملوا عملاـ صالحا، لأنّ أوضاعا كتلك تسلب من الإنسان القدرة على ارتكاب الذنب، و تقوده نحو العمل الصالح بصورة جبرية لا مفرّ منها، فلا يكون لمثل هذا العمل أية قيمة ذاتية.

ثمّ إنّه فى المقطع الأخير من الآية يوجه تهديدا شديدا إلى هؤلاء الأشخاص المعاندين، إذ يقول بنبرة شديدة: قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ

لا فائدة للإيمان بدون عمل:

إنّ من النقاط الهامّة التى نستفيدها من الآية الحاضرة هو أنّ الآية تعتبر طريق النجاة منحصرة فى الإيمان، ذلك الإيمان الذى يكتسب المرء فيه خيرا و يعمل فى ظلّه عملا صالحا.

و يمكن أن ينطرح هذا السؤال و هو: هل الإيمان وحده غير كاف و لو خلّى من جميع الأعمال الصالحة؟

و نجيب: صحيح أنّ المؤمن يمكن أن يزلّ أحيانا و يرتكب بعض الذنوب المعاصى ثمّ يندم على فعله و يعمد إلى إصلاح نفسه، و لكن من لم يعمل أىّ عمل صالح طوال حياته، و لم يستغل الفرص الكثيرة و الكافية لذلك، بل على العكس من ذلك صدر منه كل قبيح و وقعت منه كل معصية، و اقترف كل إثم، فإنّه يبدو من المستبعد جدا أن يكون من أهل النجاة، و من الذين ينفعهم إيمانهم، لأنّه لا يمكن أن نصدّق بأنّ شخصا ينتمى إلى دين من الأديان، و لكنّه لا يعمل بأى شىء من تعاليم ذلك الدين و لا مرّة واحدة فى حياته، بل كان يرتكب خلافها دائما، إذ أنّ حالته و موقفه هذا دليل قاطع و بيّن على عدم إيمانه، و عدم اعتقاده.

و على هذا الأساس يجب أن يقترن الإيمان و لو بالحدّ الأدنى من العمل الصالح، ليدلّ ذلك على وجود الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۵

الآيتان [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۱۵۹) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلاَّ مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۶۰)

التّفسير

رفض المفرّقين للصّفوف و نفيهم:

تعقيبا على التعاليم و الأوامر العشر التى مرّت فى الآيات السابقة، و التى أمر فى آخرها بإتباع الصراط الإلهى المستقيم، و بمكافحة أى نوع من أنواع النفاق و التفرقة، جاءت هذه الآية تتضمن تأكيدا على هذه الحقيقة، و تفسيرا و شرحا لها.

فيقول تعالى أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ[۳۰۸] أى أنّ الذين اختلفوا فى الدين و تفرقوا فرقا و طوائف لا يمتون إليك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۶

بصلة أبدا، كما لا يرتبطون بالدين أبدا، لأنّ دينك هو دين التوحيد، و دين الصراط المستقيم، و الصراط المستقيم ما هو إلّا واحد لا أكثر.

ثمّ قال تعالی- مهدّدا موبّخا أولئک المفرّقین- إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَی اللَّهِ ثُمَّ یُنَبِّئُهُمْ بِما کانُوا یَفْعَلُونَ أی أنّ اللّه هو الذی سیؤاخذهم بأعمالهم و هو علیم بها، لا یغیب شیء منها.

بحثان

اشارة

و هاهنا نقطتان یجب الالتفات إلیهما:

۱- من هم المقصودون فی الآیة؟

یعتقد جماعة من المفسّرین أنّ هذه الآیة نزلت فی الیهود و النصاری الذین اختلفوا و تفرّقوا إلی فرق و طوائف مذهبیة مختلفة، و تباغضوا و تشاحنوا و تنازعوا فیما بینهم.

و لکن یری آخرون أنّ هذه الآیة إشارة إلی الذین یفرّقون صفوف هذه الأمّة (الإسلامیة) بدافع التعصب و حبّ الاستعلاء، و حب المنصب و الجاه.

و لکن محتوی هذه الآیة یمثل حکما عاما یشمل کل من یفرّق الصفوف، و کل من یبذر بذور النفاق و الاختلاف بین عباد اللّه بابتداع البدع، من دون فرق بین من کان یفعل هذا فی الأمم السابقة أو فی هذه الأمة.

و ما نلاحظه من الرّوایات المنقولة عن أهل البیت علیهم السّلام و هکذا روایات أهل السنّة التی تصرّح بأن هذه الآیة إشارة إلی مفرّقی الصفوف و أهل البدع فی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۷

الأمّة، فهو من باب بیان المصداق ۳۰۹]، لأنّه لو لم یذکر هذا المصداق لظن البعض أنّ المقصود بالآیة هم الآخرون خاصّة، و أنّ الضمیر عائد إلی غیرهم فیبرّءوا بذلک ساحتهم.

ففی روایة منقولة عن الإمام الباقر علیه السّلام فی ذیل هذه الآیة- علی ما فی تفسیر علی بن إبراهیم- قال فی تفسیرها: «فارقوا أمیر المؤمنین علیه السّلام و صاروا أحزابا»[۳۱۰].

و هناک أحادیث أخر رویت عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول افتراق هذه الأمّة و تشتتها و تشرذمها إلی فرق ذکرها علی سبیل التنبؤ، جمیعها تؤیّد هذه الحقیقة أیضا.

۲- بشاعة التفرقة و زرع الاختلاف

هذه الآیة تکرّر مرّة أخری- و بمزید من التأکید- هذه الحقیقة، و هی أنّ الإسلام دین الوحدة و الاتحاد، و أنّه یرفض کل لون من ألوان التفرقة و إلقاء الاختلاف فی صفوف الأمة، و تقول لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّ عملک و برنامجک لا یشابه عمل المفرقین للصفوف، ناشری الخلاف فیها مطلقا، و انهم بالتالی لا یمتون إلیک و لا تمت إلیهم بصلة أبدا، و إنّ اللّه المنتقم الجبار سوف ینتقم منهم، و یریهم عاقبة أعمالهم الشریرة.

إنّ التوحید الحقیقی لیس واحدا من أصول الإسلام و قواعده فحسب، بل إنّ جمیع أصول الإسلام و فروعه، و جمیع برامجه المتنوعة، تدور حول محور التوحید، و تنطلق منه و تنتهی إلیه التوحید روح ساریة فی کیان التعالیم الإسلامیة برمتها، و التوحید هو الأساس الحضاری الذی تقوم علیه مبادئ الإسلام عامته.

و لکن هذا الدین الذی یتألف من أقصاه إلی أقصاه من عنصر الوحدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۸

و الاتحاد قد وقع الیوم- مع شدة الأسف- فریسة بأیدی مفرّقی الصفوف، و مثیری الاختلاف بحیث فقد وجهه الحقیقی.

فبیّن یوم و آخر ینعق ناعق، و یثیر نغمة جدیدة خبیثة، و یقوم معقّد أو معتوه أو غبیّ و یخالف حکما من أحکام الإسلام، و برنامجا من برامجه، فیلتف حوله فریق من الجهلة و البسطاء، فیفرز تمزقا جدیدا.

علی أنّ للجهل الذی یعانی منه فریق من العامّة دورا مؤثرا فی هذه التفرقة و الاختلافات، لا یقل عن تأثیر ذکاء الأعداء و فطنتهم و یقظتهم فی إذکاء التمزّق الداخلی.

فربّما طرح البعض أمورا أکل علیه الدهر و شرب، من جدید، و أحدثوا حولها ضجّة غبیّة لیشغلوا بها بال الناس، و لکن الإسلام- کما صرحت الآیة غریب عن أعمالهم، و أعمالهم غریبة عن الإسلام، و ستفشل فی المآل کل محاولات المفرقین للصفوف، تذهب أدراج الریاح، و لن یحصدوا منها سوی الخیبة و الخسران.

حملات کاتب «المنار» الظالمة علی الشّیعة:

یعانی کاتب تفسیر المنار من سوء ظن بالغ الشدّة بالنسبة إلی الشیعة، و بنفس القدر یعانی من الجهل بعقائد الشیعة و تاریخهم.

ففی ذیل هذه الآیة یعقد فصلا حول الشیعة تحت غطاء الدعوة إلی الاتحاد، و یصفهم بأنّهم یفرقون الصفوف و یخالفون الإسلام، و أنهم ممن یعملون ضدّ الإسلام و یقومون بنشاطات سیاسیة تخریبیة تحت غطاء المذهب و العقیدة الدّینیة، و کأنّ وجود کلمة «شیعا» فی الآیة الحاضرة و التی لیس لها أی ارتباط بقضیة التشیع و الشیعة ذکّره بهذه الأمور التافهة، فاندفع یتّهم هذه الجماعة المؤمنة من دون تورّع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۲۹

إنّ کتاباته أفضل جواب علی أقواله، و خیر شاهد علی عدم معرفته بعقائد الشیعة، و تأریخهم، و ذلک لأنّه:

۱- یربط بین الشّیعة و «عبد اللّه بن سبأ» الیهودی المشکوک فی أصل وجوده من وجهة نظر التّأریخ، و الذی لیس له- علی فرض وجوده- أدنی دور فی تاریخ التشیع و الشیعة! بینما نجده من جانب آخر یربط بین الشیعة و «الباطنیة» بل حتی بین الشیعة و الفرقة البهائیة التی هی أعدی أعداء الشیعة. علی حین تکشف أدنی معرفة بتاریخ الشیعة أنّ هذه الأحادیث و المزاعم لیست سوی مزاعم و أحادیث خیالیة وهمیة، بل محض افتراء و اتهام و اختلاق.

و الأعجب من کل ذلک هو أنّ هذا الکاتب یربط بین جماعة «الغلاة» (و هم الذین یرفعون علیا علیه السّلام إلی درجة الألوهیة غلوّا) و بین الشیعة فی حین أن الفقه الشیعی أفرز فصلا للغلاة تحت عنوان إحدی الفرق و الطوائف المقطوع بکفرها، و یتهم الشیعة بأنّهم یعبدون أهل البیت، و غیر ذلک من النسب الباطلة الرخیصة.

إن من المسلّم أن کاتب «المنار» لو لم یکن قد تأثر بالأحکام المتسرّعة و العصبیات العمیاء و سمح لنفسه بأن یسمع عقائد الشیعة من أفواههم أنفسهم، و یأخذها منهم، و یستقرئها من کتبهم لا من کتب أعدائهم لعرف جیدا بأنّ ما نسبه إلی الشیعة لیس مجرّد افتراءات و أکاذیب، بل هو مهازل مضحکة.

و الأعجب من ذلک کلّه أنّه عزا نشأة التشیع إلی الإیرانیین، علی أنّ التشیع کان فاشیا فی العراق و الحجاز و مصر قبل أن یتشیع الإیرانیون بقرون مدیدة، و الوثائق التّأریخیة شواهد حیّة علی هذه الحقیقة.

۲- إنّ ذنب الشیعة هو أنّهم عملوا بما صدر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قطعا، و الذی ورد- کذلک- فی أوثق المصادر السنیّة و هو

قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّی تارک فیکم الثقلین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۰

ما أن تمسکتم بهما لن تضلوا أبدا کتاب اللّه و عترتی أهل بیتی»[۳۱۱].

إنّ ذنب الشیعة هو أنّهم یعتبرون أهل البیت النبوی أدری و أعرف من غیرهم بدین النّبی و رسالته، فجعلوهم الملجأ و المرجع فی المشاکل الدینیة، و أخذوا عنهم حقائق الإسلام.

أنّ ذنب الشیعة هو أنّهم فتحوا باب «الاجتهاد» أخذا بحکم المنطق و العقل، و القرآن و السنة و بذلک منحوا الفقه الإسلامی فاعلیة متحرکة، و لم یحصروه ب «أربعة أشخاص» و یجبروا الناس علی إتباعهم.

أ لیست خطابات القرآن و السنة و موجّهة إلی عموم المؤمنین فی جمیع الدهور و العصور؟

أم هل کان أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتّبعون فی فهم الکتاب و السنة أشخاصا معینین، فلما ذا نحصر الإسلام فی حصار قدیم من الجمود باسم «المذاهب الأربعة» الحنفی، الحنبلی، المالکی، الشّافعی؟! إن ذنب الشیعة هو أنّهم یقولون: إنّ صحابة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مثل سائر المسلمین یجب أن یقیّموا بمقیاس إیمانهم و فی ضوء أعمالهم، فمن وافق عمله الکتاب و السنة کان صالحا، و من خالف عمله الکتاب و السنة- سواء أ کان فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو جاء بعده- رفض و طرد، و لا تکفی مجرّد الصحبة لیتستر بها المجرمون و الجناة، فلا یجوز أن یقدّس و یحترم رجال کمعاویة الذی داس کل القیم و تجاهل جمیع الضوابط الإسلامیة، و خرج علی إمام زمانه الذی رضیت به الأمّة الإسلامیة، و علی الأقل فی ذلک العصر (و نعنی علیا علیه السّلام)، و أراق تلک الدّماء الکثیرة! ... لا یجوز تقدیس هذا الشخص و أمثاله لمجرّد صحبته لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لا بعض الصحابة المرتزقة ممن مالأه و سار فی رکابه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۱

نعم هذه هی ذنوب الشیعة و هم یعترفون بها، و لکن هل وجدتم فی عالمنا هذا من هو أشدّ مظلومیّة من الشیعة، بحیث تعتبر أفضل نقاط القوّة فی تاریخها و عقائدها نقاط ضعف، و یکیلون لها سیلا من الاتهامات و الأکاذیب، بل و لا یسمحون لها بأن تنشر معتقداتها فی أوساط المسلمین و تعرضها علیهم بحریة، کما یفعل غیرها من الطوائف، بل یأخذون عقائدها من غیرها.

تری إذا عملت جماعة بأمر نبیّهم فی حین لا یعمل الآخرون به، فهل یعتبر عمل تلکم الجماعة تفریقا للصفوف، و شقا لعصی الأمّة؟ و هل یجب صرف هذه الجماعة عن مسارها لیتحقق الاتحاد، أو تقویم من یسلک غیر سبیل المؤمنین؟

۳- إنّ تاریخ العلوم الإسلامیّة یشهد أنّ الشیعة کانوا السبّاقین فی أکثر هذه العلوم و المعارف إلی درجة أنه اعتبر الشیعة، البناة المؤسسین لعلوم الإسلام.[۳۱۲] إنّ الکتب التی ألّفها علماء الشیعة فی مجال التّفسیر و التّأریخ، و الحدیث و الفقه، و الأصول، و الرجال و الفلسفة الإسلامیة، لیست أمورا یمکن تجاهلها و إنکارها أو إخفاؤها، فهی موجودة فی جمیع المکتبات (اللّهم إلّا اکثر مکتبات أهل السنة الذین لا یسمحون عادة بدخول هذه المؤلّفات و الکتب إلی مکتباتهم، فی حین أننا نسمح بدخول مؤلفاتهم فی مکتباتنا منذ قرون مدیدة) و هذه الکتب شواهد حیّة علی ما ذکرناه.

فهل هؤلاء الذین صنّفوا و ألّفوا کل هذه الکتب حول الإسلام و تعالیمه، فی سبیل نشرها و بثّها و تعمیقها، کانوا أعداء للإسلام؟

و هل عرفتم عدوّا یحبّ الإسلام بهذه الدرجة؟! أم هل یستطیع أحد أن یخدم الإسلام الحنیف بمثل هذه الخدمة الکبیرة، إذا کان

محبّا مخلصا، و عاشقا متيّما؟! هذا و نقول فى ختام حديثنا: إذا أردتم أن نزيل كل هذا الاختلاف و الفرقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۲

تعالوا نعمل شيئا آخر بدل التراشق بالاتهامات، و ذلك أن يتعرف بعضنا على بعض و يفهم بعضنا بعضا، لأنّ مثل هذه النسب و الافتراءات الباطلة ليس من شأنها أن تحقق الوحدة الإسلامية، بل توجه ضربة قاضية إلى أسس الوحدة الإسلامية.

ثواب أكثر، عقاب أقلّ:

فى الآية اللاحقة إشارة إلى الرحمة الإلهية الواسعة، و إلى الثواب الإلهى الواسع الّذى ينتظر الأفراد الصالحين المحسنين، و قد كمّلت التهديدات المذكورة فى الآية بهذه التشجيعات و يقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

ثمّ قال: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها.

و للتأكيد يضيف هذه الجملة أيضا فيقول: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ و إنما يعاقبون بمقدار أعمالهم.

و أمّا ما هو المراد من «الحسنة» و «السّيئة» فى الآية الحاضرة و هل هما خصوص «التوحيد» و «الشرك» أو معنى أوسع؟ فبين المفسّرين خلاف مذكور فى محلّه، و لكن ظاهر الآية يشمل كل عمل صالح و فكر صالح و عقيدة صالحة أو سيئة، إذ لا دليل على تحديد أو حصر الحسنة و السيئة.

بحوث

اشارة

و هاهنا نكات يجب التوجّه إليها و التوقف عندها:

۱-

إنّ المقصود من قوله: «جاء به»

كما يستفاد من مفهوم الجملة هو أن يجىء بالعمل الصالح أو السىء معه، يعنى إذا مثل الإنسان أمام المحكمة الإلهية العادلة يوم القيامة فإنّه لا يحضر بيد فارغة خالية من العقيدة و العمل الصالحين، أو عقيدة أو أعمال طالحة، بل هى معه دائما، و لا تنفصل عنه أبدا، فهى قرينته فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۳

الحياة الأبديّة و تحشر معه.

لقد استعمل مثل هذا التعبير فى الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى أيضا ..

ففى الآية (۳۳) من سورة (ق) نقرأ قوله تعالى: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ إنّ الجنّة لمن آمن باللّه عن طريق الإيمان بالغيب، و خافه و أتى إلى ساحة القيامة بقلب تائب مملوء بالإحساس بالمسؤولية.

۲- أجر الحسنة، عشرة أضعاف

نقرأ فی الآیة الحاضرة أن الحسنة یثاب علیها بعشرة أضعافها، بینما یستفاد من بعض الآیات القرآنیة أنه اقتصر علی عبارة أَضْعافاً كَثِيرَةً من دون ذکر عدد الأضعاف (کما فی الآیة ۲۴۵ من سورة البقرة) و فی بعض الآیات بلغ ثواب بعض الأعمال مثل الإنفاق إلی سبعمائة ضعف (کما فی الآیة ۲۶۱ من سورة البقرة) بل ربّما إلی أکثر من ذلک مثل قوله: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ۳۱۳].

إنّ من الواضح أنه لا تناقض بین هذه الآیات أبدا، إذ إنّ أقل ما یعطی للمحسنین هو عشرة أضعاف الحسنة، و هکذا یتصاعد حجم الثواب مع تعاظم أهمیة العمل و الحسنة، و مع تعاظم درجة الإخلاص، و مع ازدیاد مقدار السعی و الجهد و المبذول فی سبیل العمل الصالح، حتی یصل الأمر إلی أن تتحطم الحدود و المقادیر، و لا یعلم حدّ الثواب و مقداره إلّا اللّه تعالی.

فمثلا الإنفاق الذی یحظی بأهمیة بالغة فی الإسلام یتجاوز مقدار ثوابه الحدّ المتعارف للعمل الصالح الذی هو عشرة أضعاف الحسنة، و یصل إلی «الأضعاف الکثیرة» أو «سبعمائة ضعف» و ربّما أکثر من ذلک.

و الاستقامة التی هی أساس جمیع النجاحات و السعادات، و لا تبقی عقیدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۴

أو عمل صالح و لا یستمر بدونها قد ذکر القرآن لها ثوابا خارجا عن حدّ الإحصاء و الحساب.

و من هنا أیضا یتضح عدم المنافاة بین هذه الآیة و بین الرّوایات التی تذکر لبعض الأعمال الحسنة مثوبة أکثر من عشرة أضعاف.

کما أنّ ما نقرؤه فی الآیة (۸۴) من سورة القصص فی قوله تعالی: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها لا ینافی الآیة الحاضرة حتی نحتاج إلی القول بنسخ الآیة، لأنّ للخیر معنی واسعا یتلاءم مع عشرة أضعاف أیضا.

۳- لماذا کفارة یوم واحد ستین یوما؟

ربّما یتصور البعض: أنّ وجوب صوم «ستین یوما» من باب الکفارة فی مقابل إفطار یوم من شهر رمضان، و العقوبات الأخری فی الدنیا و الآخرة من هذا القبیل، لا تتلاءم مع الآیة الحاضرة التی تقول: السیئة تجازی بمثلها فقط.

و لکن مع الالتفات إلی نقطة واحدة یتضح جواب هذا الاعتراض أیضا و هی أنّ المراد من المساواة بین «المعصیة و العقوبة» لیس هو المساواة العددیة، بل لا بدّ من أخذ کیفیة العمل أیضا بنظر الاعتبار.

إنّ إفطار یوم واحد من أیّام شهر رمضان المبارک مع ماله من الأهمیة، لیست عقوبته صوم یوم واحد بدله من باب الکفارة، بل علیه أن یصوم أیّاما عدیدة حتی تساوی مبلغ احترام ذلک الیوم من شهر رمضان المبارک، و لهذا نقرأ فی بعض الرّوایات أنّ عقوبة الذنوب فی شهر رمضان أشد و أکبر من عقوبة الذنوب فی الأیّام و الأشهر الأخری. کما أنّ ثواب الأعمال الصالحة فی تلک الأیام أکثر و أزید، إلی درجة أنّ ثواب ختمة واحدة للقرآن فی هذا الشهر یعادل ثواب سبعین ختمة للقرآن فی الأشهر الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۵

۴- منتهی اللّطف الرّبانی

إنّ النقطة الأجمل فی المقام هی أنّ الآیة الحاضرة جسّدت منتهی اللطف و الرحمة الإلهیة فی حق الإنسان.

فهل عرفت أحدا بیده کل أزمة الإنسان و شؤونه، کما أنّه محیط بجمیع أعماله و شؤونه، یبعث قادة و مرشدین معصومین لهدایته و

إرشاده، ليوفق إلى الإتيان بالعمل الصالح فى هدى رسله، مستفيدا من الطاقة الإلهية الممنوحة له، مع ذلك يثيبه على حسناته بعشر أمثالها، و لكنّه لا يجازيه على السيئة إلّا بمثلها، ثمّ يجعل باب التوبة و نيل العفو مفتوحا فى وجهه؟!

يقول أبو ذر: قال الصادق المصدّق [أى رسول اللّه : «إنّ اللّه قال الحسنة عشر أو أزيد، و السيئة واحدة أو أغفر، فالويل لمن غلبت آحاده أعشاره»[۳۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۶

الآيات [سورة الأنعام (۶): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۳]

اشارة

قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۶۱) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶۲) لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (۱۶۳)

التّفسير

هذا هو طريقى المستقيم

هذه الآية و الآيات الأخر التى سنقرؤها فيما بعد و التى ختمت بها سورة الأنعام، تعتبر خلاصة الأبحاث المطروحة فى هذه السورة التى بدأت و انتهت بمكافحة الشرك و الوثنية، و تركزت أحاديثها على توضيح هذا الأمر. فقد بدأت هذه السورة بالدعوة إلى التوحيد و مكافحة الشرك، و ختمت بنفس ذلك البحث أيضا.

ففى البداية أمرت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يقول فى مواجهة معتقدات المشركين و الوثنيين و مزاعمهم الجوفاء و العارية عن المنطق السليم: قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أى طريق التوحيد، و رفض كل أشكال الشرك و الوثنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۷

و الجدير بالذكر أنّ هذه الآية و طائفة كبيرة من الآيات السابقة و اللاحقة لها تبدأ بجملة: «قل» و لعلّه لا توجد فى القرآن الكريم سورة كررت فيها هذه الجملة بهذا القدر مثل هذه السورة، و هذا يعكس فى الواقع مدى شدّة المواجهة بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بين منطق المشركين.

كما أنّه يسدّ كل أبواب العذر فى وجوههم، لأنّ تكرار كلمة «قل» علامة على أنّ كل ما يقوله لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما هو بأمر اللّه، بل هو عين كلام اللّه، لا أنّها آراء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أفكاره و قناعاته الشخصية.

و من الواضح أن ذكر كلمة «قل» فى هذه الآيات و أمثالها فى نص القرآن، إنّما هو لحفظ أصالة القرآن، و للدلالة على أن ما يأتى بعدها هو عين الكلمات التى أوحيت إلى رسول اللّه.

و بعبارة أخرى: الهدف منها هو الدلالة على أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يحدث فيها أىّ تغيير فى الألفاظ التى أوحيت إليه، و حتى كلمة «قل» التى هى خطاب إليه قد ذكرها عينا.

ثمّ إنّه تعالى يوضح «الصراط المستقيم» فى هذه الآية و الآيتين اللاحقتين.

فهو يقول أوّلا: إنّه الدين المستقيم الذى هو فى نهاية الصحة و الاستقامة، و هو الأبدى الخالد القائم المتكفل لأمور الدين و الدنيا و الجسد و الروح: دِيناً قِيَماً[۳۱۵].

و حيث أنّ العرب كانوا يكنّون لإبراهيم عليه السّلام محبّة خاصّة، بل كانوا يصفون عقيدتهم و دينهم بأنّه دين إبراهيم هو هذا الذى أدعو أنا إليه لا ما تزعمونه: مِلَّةَ إِبْراهِيمَ

إبراهيم عليه السّلام الذى أعرض عن العقائد الخرافية التى كانت سائدة فى عصره و بيئته، و أقبل على التوحيد حَنِيفاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۸

و «الحنيف» يعنى الشخص أو الشىء الذى يميل إلى جهة ما، و أمّا فى المصطلح القرآنى فيطلق هذا الوصف على من يعرض عن عقيدة عصره الباطلة و يولى وجهه نحو الدين الحق و العقيدة الحقّة.

و كأنّ هذا التعبير جواب و ردّ على مقالة المشركين الذين كانوا يعيبون على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مخالفته للعقيدة الوثنية التى كانت دين أسلافهم من العرب، فقال النّبى فى معرض الردّ على مقالتهم هذه، بأنّ نقض السنن الجاهلية و الإعراض عن العقائد الخرافية السائدة فى البيئة ليس هو من فعلى فقط، بل كان إبراهيم- الذى نحترمه جميعا- كذلك أيضا.

ثمّ يضيف للتأكيد قائلا: وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بل هو بطل الكفاح ضد الوثنية، و حامل الحرب ضد الشرك، الذى لم يفتأ لحظة واحدة عن محاربته و كفاحه.

إنّ تكرار جملة حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فى عدّة موارد من آيات القرآن الكريم مع قوله: «مسلما» أو بدونها، إنّما هو للتأكيد على هذه المسألة و هى أنّ إبراهيم الذى يفتخر به العرب الجاهليون مبرّأ و منزه عن كل هذه العقائد و الأعمال الخاطئة[۳۱۶].

الآية اللاحقة تشير إلى أنّه على النّبى أن يقول: إنّى لست موحدا من حيث العقيدة فحسب، بل إنى أعمل كل عمل صالح: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ فأنا أحيى للّه، و له أموت، و أفدى بكل شىء لأجله، و كل هدفى و كل حبّى بل كل وجودى له.

و «النسك» يعنى فى الأصل العبادة، و لذا يقال: للعابد: ناسك، و لكن هذه الكلمة تطلق فى الأغلب على أعمال الحج فيقال: مناسك الحج.

و قد احتمل البعض أن يكون الموارد من «النسك» هنا هو «الأضحيّة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۳۹

و لكن الظاهر أنّه يشمل كل عبادة، و هو إشارة أوّلا إلى الصّلاة كأهم عبادة، ثمّ إلى سائر العبادات بشكل كلّى، يعنى صلاتى و كل عباداتى، بل و حتى موتى و حياتى كلها له تعالى.

ثمّ فى الآية الثالثة يضيف للتأكيد، و إبطالا لأى نوع من أنواع الشرك و الوثنية قائلا: لا شَرِيكَ لَهُ

ثمّ يقول فى ختام الآية: وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ

كيف كان النّبىّ أوّل مسلم؟

فى الآية الحاضرة وصف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنه أوّل المسلمين.

و قد وقع بين المفسّرين كلام حول هذه المسألة، لأنّنا نعلم أنّه إذا كان المقصود من «الإسلام» هو المعنى الواسع لهذه الكلمة فإنه يشمل جميع الأديان السماويّة، و لهذا يطلق وصف المسلم على الأنبياء الآخرين أيضا، فاننا نقرأ حول نوح عليه السّلام: وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۳۱۷].

و نقرأ حول إبراهيم الخليل عليه السّلام و ابنه إسماعيل أيضا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ۳۱۸].

و جاء فى شأن يوسف عليه السّلام: تَوَفَّنِي مُسْلِماً[۳۱۹].

على أن «المسلم» يعنى الذى يسلّم و يخضع أمام أمر اللّه، و هذا المعنى يصدق على جميع الأنبياء الإلهيين و أممهم المؤمنة، و مع ذلك فإن كون رسول الإسلام أوّل المسلمين، إمّا من جهة كيفية إسلامه و أهميته، لأنّ درجة إسلامه و تسليمه أعلى و أفضل من الجميع، و إمّا لأنّه كان أوّل فرد من هذه الأمّة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۰

قبلت بالإسلام و القرآن.

و قد ورد فى بعض الرّوايات- أيضا- أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّل من أجاب فى الميثاق فى عالم الذّر، فإسلامه متقدم على إسلام الخلائق أجمعين ۳۲۰].

و على أى حال فإنّ الآيات الحاضرة توضح روح الإسلام، و تعكس حقيقة التعاليم القرآنية و هى: الدعوة إلى الصراط المستقيم، و الدعوة إلى دين محطم الأصنام إبراهيم الخالص، و الدعوة إلى رفض أى نوع من أنواع الشّرك و الثنوية ...

هذا من جهة العقيدة و الإيمان.

و أمّا من جهة العمل: الدّعوة إلى الإخلاص، و إلى تصفية النيّة، و الإتيان بكل شىء للّه تعالى، الحياة لأجله، و الموت فى سبيله، و طلب كل شىء منه، و محبّته، و الانقطاع إليه، و عن غيره، و التولى له، و التبرؤ من غيره.

فما أكبر الفرق بين ما جاء فى الدعوة الإسلامية الواضحة، و بين أعمال بعض المتظاهرين بالإسلام الذين لا يفهمون من الإسلام سوى التظاهر بالدين، و لا- يفكرون فى جميع الموارد إلّا فى الظاهر، و لا- يعتنون بالباطن و الحقيقة، و لهذا فليس حياتهم و مماتهم و اجتماعهم و مفاخرهم و حريتهم سوى قشور خاوية لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۱

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۴]

اشارة

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۱۶۴)

التّفسير

إنّ التأكيدات المتتابعة المتوالية و الاستدلال المتنوع فى هذه السورة فى صعيد التوحيد و مكافحة الشرك تنبئ عن أهمية كبرى للموضوع.

و هذه الآية شجبت منطق المشركين من طريق آخر، حيث قال سبحانه لنبيّه:

قل لهم و اسألهم: هل من الصحيح أن أطلب ربّا غير اللّه الواحد فى حين أنّه هو المالك و المربّى، و هو رب كل شىء و بيده أزمة جميع الكائنات، و حكمه جار فى جميع ذرّات الوجود بلا استثناء: قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ.

ثمّ إنّه يردّ على جماعة من المشركين المتحجرين ممن قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: اتّبعنا و علينا وزرك إن كان خطأ، قائلا: وَ لا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْها، وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فلا يعمل أحد إلّا لنفسه، و لا يحمل أحد وزر أحد.

ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ فمآلكم إليه و هو يخبركم عن جميع ما اختلفتم فيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۲

بحثان

إنّ هاهنا نقطتين يجب أن نقف عندهما و نلتفت إليهما:

۱- ربّما حملنا وزر غيرنا

قد يتوهمّ أنّ الآية الحاضرة التى تبيّن أصلين من الأصول المنطقية المسلّمة لدى جميع الأديان و الشرائع (أى مبدأ: لا يعمل أحد إلّا لنفسه، و لا يعاقب أحد بذنب غيره) تتنافى مع الآيات القرآنية الأخرى، كما لا توافق جملة من الرّوايات فى هذه المجال، لأنّ اللّه تعالى يقول فى سورة النحل الآية ۲۵: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ، وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

فإذا لم يحمل أحد وزر أحد فكيف يحمل هؤلاء المضلّون وزر الضالّين أيضا.

كما أنّ الأحاديث المرتبطة ب «السنّة الحسنة» و «السنّة السيئة» المروية بطرق الشيعة و السنّة. تتنافى مع مفهوم الآية الحاضرة

كقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سنّ سنّة حسنة كان له أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء، و من سنّ سنّة سيئة كان عليه وزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء».

و لكن الإجابة على هذا السؤال واضحة، فإنّ الآية المبحوثة هنا تقول: إنّه لا يحمل أحد وزر أحد من دون سبب، و لكنّ الآيات و الرّوايات المشار إليها سلفا تقول: إذا كان الإنسان مؤسّسا لعمل صالح أو سيءّ يعمل وفقه الآخرون، أى كان له «التسبيب» و الدلالة فى قيام الآخرين بعمل معيّن، و كانت له بالتالى دخالة فى وقوعه، فإنّه- و لا شك- يشترك معهم فى نتائجه و عواقبه، لأنّه يعتبر- فى الحقيقة عمله و فعله، فلا مناص من أن يتحمل تبعاته إنّ خيرا فخير، و إن شرا فشرّ، لأنّه هو الذى وضع بيده أساسه الذى قام عليه صرح العمل، و ارتفع بنيانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۳

۲- هل أن أعمال الآخرين الصالحة تنفعنا؟

إنّ التوّهم الآخر الذى يمكن أن يخالج الأذهان حول هذه الآية هو: أنّ الآية تقول: إن عمل كل إنسان لا ينفع إلّا نفسه، و على هذا فإن الأعمال الصالحة التى تهدى إلى الأموات، بل و حتى الأحياء أحيانا، لا يمكن أن تنفعهم، فى حين نقرأ فى روايات كثيرة مروية عن طريق الشيعة و السنة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام أن مثل هذه الأعمال قد تنفع الآخرين، و إن هذا ينطبق على الجميع، فلا ينحصر بعمل الولد لوالديه، بل يشمل كل من يعمل عملا و يهدى ثوابه للآخرين.

هنا مضافا إلى أنّنا نعلم أن الثواب يرتبط بتأثير العمل الصالح المأتى به على روح الإنسان و دوره فى تكامل الإنسان و رقيّه، و لكنّ الذى لم يعمل عملا صالحا قط، بل و لم يكن له أية دخالة فى مقدماته كذلك، فكيف يمكن أن ينشأ منه أثر روحى و معنوى؟؟

و لقد واصل البعض طرح هذا الإشكال بصورة مسهبة، و لم يكن الأفراد العاديون وحدهم هم الذين طرحوه، بل تأثر به بعض المفسّرين و الكتاب، مثل كاتب «المنار» إلى درجة أنّهم تناسوا كثيرا من الأحاديث و الرّوايات المسلّمة، و لكن مع الالتفات إلى نقطتين يتضح الجواب على هذا الإشكال.

۱- صحيح أن عمل كل إنسان سبب لتكامله بالخصوص، و أنّ نتائج الأعمال الصالحة و آثارها الواقعية عائدة إلى القائم بالعمل الصالح، تماما كما تكون «الرّياضة»، و «التّعليم و التّربية» من كل أحد سببا لتقوية جسم فاعلها و روحه و نفسه، و تكاملهما.

و لكن عند ما يعمل أحد عملا صالحا لشخص آخر، فإنّه إنّما يفعله حتما لأجل أن ذلك الشخص يمتلك امتيازا على غيره و صفة

حسنة، أو لأنّه كان مربيّا صالحا، أو تلميذا صالحا، أو صديقا طيبا أو جارا وفيا له، أو كان عالما خدوما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۴

للمجتمع، أو مؤمنا مخلصا، أو يمتلك أدنى حد من الصلاح فى حياته، يوجب جلب أنظار الآخرين، و يسبب فى أن يعملوا أعمالا صالحة و يهدونها إليه.

و على هذا فذلك العمل- فى الحقيقة- إنّما يكون نتيجة لذلك الامتياز، و نتيجة للصفة الحسنة المذكورة، و للنقطة المضيئة فى شخصيته و حياته، و لهذا يكون قيام الآخرين بالأعمال الصالحة له إنما هو أشعة من ضوء علمه الطيب أو نيّته الصالحة، و نتيجة لتلك الخصلة الحسنة التى يتّصف بها.

۲- المثوبات التى يعطيها اللّه تعالى للأشخاص على نوعين: مثوبات تتناسب مع وضع تكاملهم الروحى و صلاحيتهم، يعنى أن أرواحهم و نفوسهم قد تسمو بسبب قيامهم بالأعمال الصالحة سموا كبيرا، و ترتقى فى سلّم الكمال رقيا عظيما إلى درجة يصلحون للعيش فى عوالم أعلى و أفضل، و يرتفعون بما صنعوه على أجنحة العقيدة و العمل الصالح.

و لكن حيث أنّ أىّ عمل صالح هو إطاعة لأمر اللّه سبحانه، و يستحق المطيع لإطاعته أجرا و مثوبة، فإنّه يمكنه أن يهدى ذلك الثواب و الأجر إلى غيره بإرادته و رغبته، تماما، مثل أستاذ متخصّص فى شعبة مهمّة من العلوم يدرّس فى جامعة من الجامعات، فإنّه لا ريب فى أنّه يصل بتدريسه إلى نتيجتين:

فهو من جهة يصل- فى ضوء تدريسه- إلى درجات علمية أكمل و أقوى، و هو فى نفس الوقت يحصل على أموال لقاء خدمته، و لا ريب فى أنّه لا يستطيع أن يهدى النتيجة الأولى لأحد لأنّها خاصّة به، و لكنّه يمكنه أن يقدم (أو يهدى) النتيجة الثانية إلى من يرغب و يحب.

إنّ إهداء (ثواب) الأعمال الصالحة من جانب العاملين بها إلى الأموات، بل و إلى الأحياء أحيانا، إنّما هو من هذا النمط و من هذا القبيل.

و بهذا يرتفع و ينتفى أى إبهام يحوم حول هذه الأحاديث.

و لكن يجب أن نعلم بأنّ المثوبات التى تصل إلى الآخرين عن هذا الطريق لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۵

يمكن أن تضمن سعادتهم، بل تصيبهم منها آثار قليلة و الأصل و الأساس فى نجاتهم إنّما هو إيمانهم و عملهم أنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۶

الآية [سورة الأنعام (۶): آية ۱۶۵]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى ما آتاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۵)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآية التى هى آخر الآيات من سورة الأنعام إشارة إلى أهمية مقام الإنسان و مكانته فى عالم الوجود لتكميل الأبحاث الماضية فى مجال تقوية دعائم التوحيد، و مكافحة الشرك، يعنى أن يعرف الإنسان قيمة نفسه، كأرقى و أفضل كائن فى عالم الخلق، و لا يسجد للخشب و الحجر، و لا يركع أمام الأصنام المختلفة الأخرى، و لا يقع فى أسرها، بل يكون أميرا و حاكما عليها بدل أن يكون أسيرا و محكوما لها.

لهذا قال تعالى فى مطلع كلامه: هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ ۳۲۱].

إن الإنسان الذى هو خليفة اللّه فى أرضه، و الذى سخرت له كل منابع هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۷

العالم و صدر الأمر بحكومته على جميع الموجودات من جانب اللّه تعالى، لا يجوز أن يسمح لنفسه بالسقوط إلى درجة السجود للجمادات.

ثمّ أشار سبحانه إلى اختلاف المواهب و الاستعدادات فى المواهب البدنية و الروحية لدى البشر، و الهدف من هذا الاختلاف و التفاوت، فيقول: وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ من المواهب المتنوعة و المتفاوتة و يختبركم بها.

ثمّ تشير فى خاتمة الآية الحاضرة إلى حرية الإنسان فى إختيار طريق السعادة و طريق الشقاء نتيجة هذه الاختبارات و الابتلاءات، إذ يقول: إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فإنّ ربّك سريع العقاب مع الذين يفشلون فى هذا الاختبار، و غفور رحيم للذين ينجحون فيه و يسعون لإصلاح أخطائهم.

التفاوت بين أفراد البشر و مبدأ العدالة:

لا شك أنّ بين أفراد البشر طائفة من الاختلافات و الفوارق المصطنعة، التى هى نتيجة المظالم التى يمارسها بعض أفراد البشر ضد الآخرين، فهناك مثلا- جماعة يمتلكون ثروات هائلة، و جماعات أخرى تعانى من الفقر المدقع، جماعة يعانون من الجهل و الأمية بسبب عدم توفّر مستلزمات الدراسة، و جماعة أخرى تبلغ المراتب العليا فى الثقافة و العلم بسبب توفّر كلّ الوسائل اللازمة للتحصيل و الدراسة.

جماعة يعانون من المرض و العلّة بسبب سوء التغذية و ندرة الوسائل الصحيّة، فى حين يحظى أفراد معدودون بقدر كبير من السلامة و العافية، بسبب توفر جميع الإمكانيات.

إنّ مثل هذه الفوارق و الاختلافات: الثروة و الفقر، و العلم و الجهل، و السلامة المرض، هى فى الأغلب وليدة الاستعمار و الاستثمار، و هى مظاهر مختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۸

للعبودية و المظالم الظاهرة و الخفية.

إنّ من المسلّم أنه لا يمكن أن تعتبر هذه الأمور من فعل المشيئة الإلهية، و ليس من الصحيح مطلقا الدفاع عن مثل هذه الاختلافات غير المبرّرة أساسا.

و لكن فى نفس الوقت لا- يمكن إنكار أنّه حتى لو روعيت جميع أصول العدالة فى المجتمع الإنسانى- أيضا- فإنّه لا يتساوى الناس جميعا من حيث القابليات و من حيث الفكر، و الذوق، و فى الذكاء، و السليقة و حتى من جهة التركيب البدنىّ.

و لكن هل وجود هذه الاختلافات و الفوارق مخالف لمبدأ العدالة، أو أنّه على العكس يكون هو العدل بمعناه الواقعى، يعنى أنّ مبدأ وضع كل شىء فى محلّه يوجب أن يكون الأفراد غير متساوين.

إذا كان جميع الأفراد فى المجتمع الإسلامى متساوين و متشابهين فى المواهب و القابليات كالقماش أو الأوانى التى تخرج من مصنع واحد، كان المجتمع الإنسانى- حينئذ- مجتمعا ميتا ساكنا جامدا عاريا عن التحرك و التكامل.

انظروا إلى نبتة الورد، فهناك جذور قوية متينة، و سوق رقيقة، و لكنّها متينة نوعا مّا، و فروع ألطف، ثمّ أوراق و أوراد بعضها ألطف من بعض، و هذه المجموعة المتنوعة فى تراكيبها و المختلفة فى متانتها و لطافتها تشكل نبتة وردة جميلة تختلف فيها الخلايا بحسب اختلافها فى وظائفها، و تختلف فيها القابليات و الاستعدادات بحسب اختلافها و وظائفها.

إن نفس هذا الموضوع يلحظ فى العالم البشرى، فأفراد البشر يشكلون من حيث المجموع شجرة كبيرة واحدة يقوم كل فرد برسالة خاصّة فى هذا الصرح العظيم، و له بنيان مخصوص يتلاءم مع وظائفه.

و لهذا يقول القرآن الكريم: إنّ هذه الفوارق و هذا التفاوت وسيلة لاختباركم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۴۹

و امتحانكم، لأن الاختبار و الامتحان الإلهى- كما قلنا سابقا- يعنى «التربية».

و بهذا يجاب على كل اعتراض و إشكال يورد فى المقام على أثر الفهم الخاطئ لمفهوم الآية.

خلافة الإنسان فى الأرض:

إنّ النقطة الأخرى الجديرة بالاهتمام، هى أن القرآن الكريم وصف الإنسان مرارا بالخلافة، و أنّه خليفة اللّه فى أرضه، أن هذا الوصف، و هذا التعبير ضمن بيانه لمكانة الإنسان يبين هذه الحقيقة أيضا، و هى: أن اللّه تبارك و تعالى هو المالك الأصلى و الحقيقى للأموال و الثروات و القابليات، و جميع المواهب الإلهية الممنوحة للإنسان، و ما الإنسان- فى الحقيقة- إلّا خليفة اللّه وكيل من جانبه، و مأذون من قبله.

و من البديهى أن الوكيل- مهما كان- فهو غير مستقل فى تصرفاته، بل يجب أن تخضع تصرفاته لإذن صاحبها الأصلى، و تقع ضمن إجازته.

و من هنا يتضح أن الإسلام- مثلا- يختلف عن النظام الشيوعى، و كذا عن النظام الرأسمالى فى مسألة المالكية، لأنّ الفريق الأوّل يخصّص الملكية بالجماعة، و الفريق الثانى يخصصها بالفرد، بينما يقول الإسلام: الملكية لا هى للفرد و لا هى للمجتمع، بل هى فى الحقيقة للّه تعالى، و الناس و كلاء اللّه، و خلفاؤه.

و بهذا الدليل نفسه يراقب الإسلام طريقة تصرّف الأفراد فى الأموال كسبا و صرفا، و يضع لكل ذلك قيودا و شروطا تجعل الاقتصاد الإسلامى نظاما متميّزا فى مقابل الأنظمة الأخرى.

«ختام سورة الانعام»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۱

سورة الأعراف

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائتان و ستّ آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۳

سورة الأعراف هذه السورة من السور المكية إلّا قوله تعالى: وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ- إلى- بِما كانُوا يَفْسُقُونَ الذى نزل فى المدينة.
عدد آيات هذه السورة (۲۰۶) آية أو (۲۰۵) كما عليه البعض.

لمحة سريعة عن محتويات هذه السّورة:

إن أكثر السور القرآنية (۸۰ إلى ۹۰ سورة)- كما نعلم- نزلت فى مكّة، و نظرا إلى الأوضاع التى كانت سائدة فى المحيط المكّى، و حالة المسلمين خلال ۱۳ عاما، و كذا بالإمعان فى صفحات التّأريخ الإسلامى بعد الهجرة، يتضح بجلاء أن هناك فرقا بين لحن السور المكية و السور المدنية.

ففى السّور المكية يدور الحديث- غالبا- حول المبدأ و المعاد، و حول إثبات التوحيد، و يوم القيامة، و مكافحة الشرك و الوثنية، و تقوية مكانة الإنسان و دعم موقعه فى عالم الخلق، لأنّ الفترة المكّية كانت تشكل فترة بناء المسلمين من حيث العقيدة، و تقوية أسس الإيمان كأسس و قواعد ل «نهضة متجذرة».

ففى الفترة المكية كان على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يطهّر العقول و الأذهان من جميع الأفكار الوثنية الخرافية، و يغرس محلّها روح التوحيد، و العبودية للّه تعالى، و الإحساس بالمسؤولية لأفراد الطبقة المسحوقة و المحقّرة فى اطار العهد الوثنى بشخصيتهم الحضارية و هويتهم و كرامتهم الإنسانية، و حقيقة موقعهم فى نظام الوجود، و عالم الخلق، ليصنع- بالتالى- من ذلك الشعب الوضيع المشحون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۴

بالخرافة، أمة ذات شخصية قوية، و ذات إرادة صلبة، و إيمان فاعل، و قد كان هذا البناء العقائدى القوى الذى تم على يد رسول الإسلام فى هدى القرآن فى مكّة، هو السبب فى تقدم الإسلام المطّرد فى المدينة.

إن آيات السور المكية كذلك تتناسب جميعها مع هذا الهدف الخاص.

أمّا الفترة المدينة، فقد كانت فترة تشكيل و تأسيس الحكومة الإسلامية، فترة الجهاد فى مقابل الأعداء، فترة تأسيس و بناء مجتمع سليم على أساس القيم الإنسانية، و العدالة الاجتماعية.

و لهذا تهتم السور المدنية فى كثير من آياتها بتفاصيل القضايا الحقوقية، و الأخلاقية و الاقتصادية، و الجزائية، و غير ذلك من الحاجات الفردية و الاجتماعية.

و إذا أراد المسلمون اليوم أن يستعيدوا عظمتهم الغابرة، و مجدهم القديم، وجب عليهم أن ينفّذوا هذا البرنامج بالذات، و أن يطووا هاتين الفترتين بصورة كاملة، فإنّه ما لم تتوطد الأسس العقائدية، و ما لم يتم بناؤها بشكل محكم لم تحظ اللّبنات الفوقية و البناء الحضارى للمجتمع بالمتانة و القوة اللازمة.

و على كل حال فحيث أن سورة الأعراف من السور المكية، لذلك تجلّت فيها جميع خصائص السورة المكية و لهذا نرى:

كيف أنّها أشارت فى البدء إلى مسألة «المبدأ و المعاد».

ثمّ بهدف إحياء شخصية الإنسان شرحت- باهتمام و عناية كبيرة- قصّة خلق آدم.

ثمّ عدّدت- بعد ذلك- المواثيق التى أخذها اللّه تعالى من أبناء آدم فى مسير الهداية و الصلاح، واحدا واحدا.

ثمّ للتدليل على هزيمة و خسران الجماعات التى تحيد عن سبيل التوحيد و العدالة و التقوى. و كذا للتدليل على نجاح المؤمنين الصادقين و انتصارهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۵

ذكرت قصص كثير من الأقوام الغابرة و الأنبياء السابقين مثل «نوح» و «لوط» و «شعيب» و ختمت ذلك ببيان قصة بنى إسرائيل، و

جهاد «موسى» ضدّ فرعون، بصورة مفصّلة.

و فى آخر السورة عادت مرّة أخرى إلى مسألة المبدأ و المعاد، بهذا تتناغم البداية و الخاتمة.

أهمية هذه السّورة:

جاء فى تفسير العياشى عن الإمام الصادق أنّه قال: «من قرأ سورة الأعراف فى كل شهر كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون ... فإن قرأها فى كل جمعة كان ممن لا يحاسب يوم القيامة (و كذا قال:) أمّا أن يكون فيها محكما فلا تدعوا قراءتها و القيام بها فإنّها تشهد يوم القيامة لمن قرأها»[۳۲۲].

إن ما يستفاد من الحديث الحاضر بوضوح هو أن هذه الرّوايات و الأحاديث الواردة فى فضل السور لا تعنى أن مجرّد قراءتها تنطوى على كل تلك النتائج، و الثمرات الكبرى، بل إنّ ما يعطى هذه القراءة القيمة النهائية هو الإيمان بمضامين السورة، ثمّ العمل على طبقها.

و لهذا جاء فى الرواية الحاضرة: قراءتها و تلاوتها و القيام بها. كما أنّنا نقرأ

فى هذه الرواية أنّه عليه السّلام قال: «من قرأ هذه السورة كان يوم القيامة من الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون».

و فى الحقيقة فإنّ هذه إشارة لطيفة إلى الآية (۳۵) من هذه السورة، التى يقول فيها سبحانه: فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

فهذه المنزلة- كما يلاحظ القارئ الكريم- مخصوصة بالذين اتقوا، و سلكوا سبيل الصلاح، هذا مضافا إلى أنّ القرآن الكريم كتاب «عقيدة» و «عمل»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۶

و القراءة و التلاوة تعتبران مقدمة لهذا الموضوع.

قال الراغب فى كتاب «المفردات» فى مادة: تلاوة: قوله: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ۳۲۳]، إتباع القرآن بالعلم و العمل.

و هذا يعنى أنّ للتلاوة مفهوما أعلى من مفهوم القراءة، فهى مقرونة بنوع من التدبر و التفكر و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

المص (۱) كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۳)

التّفسير

فى مطلع هذه السّورة نواجه مرّة أخرى «الحروف المقطّعة» و هى هنا عبارة عن: الألف و اللام و الميم، و الصاد.

و قد سبقت منّا أبحاث مفصّلة عند تفسير هذه الحروف فى مطلع سورة «البقرة» و كذا: «آل عمران».

و هنا نلفت النظر إلى تفسير آخر من التفاسير المطروحة فى هذا الصعيد استكمالا للبحث و هو: أنّه يمكن أن يكون أحد الأهداف

لهذه الحروف هو جلب انتباه المستمعين، و دعوتهم إلى السكوت و الإصغاء، لأنّ وجود هذه الحروف فى مطلع الكلام موضوع عجيب لم يسبق له مثيل فى نظر العرب، و من شأنها أن تثير فى العربى حبّ الاستطلاع، و تدعوه إلى متابعة الكلام إلى نهايته.

و من الاتفاق أنّ غالب السور المبدوءة بالحروف المقطّعة هى السور التى نزلت فى مكّة، و نحن نعلم أن المسلمين فى مكّة كانوا أقلّيّة، و كان أعداؤهم و خصومهم خصوما ألدّاء اشتد عنادهم إلى درجة أنّهم ما كانوا على استعداد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۸

حتى لاستماع كلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل ربّما أثاروا ضجيجا، و رفعوا الأصوات فى وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند قراءته للآيات القرآنية ليضيع فى زحمتها و خضمّها نداؤه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو ما أشارت إليه بعض الآيات (مثل الآية ۲۶ سورة فصلت السجدة).

كما أننا نقرأ فى بعض الرّوايات و الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الحروف رموز و إشارة إلى أسماء اللّه، ف «المص» فى السورة المبحوثة مثلا إشارة إلى جملة: أنا اللّه المقتدر الصادق.

و بهذا الطريق يكون كل واحد من الحروف الأربعة صورة مختصرة عن أحد أسماء اللّه تعالى.

ثمّ إنّ موضوع إحلال الصياغات المختصرة محلّ الصياغات المفصّلة للكلمات كان أمرا رائجا من قديم الزمان، و إن حصل مثل هذا فى عصرنا أيضا بشكل أوسع، حيث اختصرت الكثير من العبارات الطويلة، و كذا أسامى المؤسسات أو الهيئات فى كلمة قصيرة أو أحرف معدودة.

على أن ثمّة نقطة تستحق التنويه بها هنا، و هى أنّ التفاسير و التحاليل المختلفة عن «الحروف المقطّعة» لا تتنافى و لا تتناقض فيما بينها، و يمكن أن تكون جميع التفاسير بطونا مختلفة من بطون القرآن.

ثمّ يقول تعالى فى الآية اللاحقة: كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ

و «الحرج» فى اللغة يعنى الشعور بالضيق و أى نوع من أنواع المعاناة، و الحرج فى الأصل يعنى مجتمع الشجر الملتفّ أوّلا ثمّ المنتشر، و هو يطلق على كل نوع من أنواع الضيق.

إنّ العبارة الحاضرة تسلّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطمئن خاطره بأنّ هذه الآيات نازلة من جانب اللّه تعالى فيجب أن لا يشعر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأىّ ضيق و حرج، لا من ناحية ثقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۵۹

الرسالة الملقاة على عاتقه، و لا من ناحية ردود فعل المعارضين و الأعداء الألدّاء تجاه دعوته، و لا من ناحية النتيجة المتوقعة من تبليغه و دعوته.

هذا و يمكن إدراك المشكلات التى كانت تعرقل حركة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إدراكا كاملا إذا عرفنا أن هذه السورة من السور المكّية، و نحن و إن كنّا نعجز عن تصوّر جميع الجزئيات و التفاصيل المرتبطة بحياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صحبه فى المحيط المكى، و فى مطلع الدّعوة الإسلامية، و لكن مع الالتفات إلى حقيقة أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عليه أن يقوم بنهضة ثورية فى جميع المجالات و الأصعدة فى تلك البيئة المتخلفة جدا و فى مدّة قصيرة، يمكن أن نتصور على نحو الإجمال أبعاد و أنواع الصعاب التى كانت تنتظره.

و على هذا الأساس يكون من الطبيعى أن يعمد اللّه سبحانه إلى تسلية النّبى و تطمينه بأن لا يشعر بالضيق و الحرج، و أن يطمئنّ إلى نتيجة جهوده.

ثمّ يضيف تعالى فى الجملة اللاحقة أن الهدف من نزول هذا الكتاب العزيز هو إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب نواياهم و أعمالهم الشريرة، و تذكير المؤمنين الصادقين، إذا يقول: لِتُنْذِرَ بِهِ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ۳۲۴].

هـذا و مجيء قضـيهٔ «الإنـذار» فى صورهٔ الأمر العام الموجّه للجميع، و اختصاص «التـذكير» بالمؤمنين خاصّهٔ، إنّما هو لأجل أنّ الدعوهٔ إلى الحق، و مكافحـهٔ الانحرافات يجب أن تتمّ بصورهٔ عامّـهٔ و شاملهٔ، و لكن من الواضح أنّ المؤمنين هم وحدهم الذين ينتفعون بهذه الدعوهٔ، أولئك الذين تتوفر لديهم أرضيات مستعدّهٔ لقبول الحق، و قد أبعدوا عن أنفسهم روح العناد و اللجاج و سلّموا أمام الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۰

و قـد جاءت هـذه العبارهٔ بعينها فى مطلع سورهٔ البقرهٔ إذا يقول تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُـدىً لِلْمُتَّقِينَ (و للمزيد من التوضـيح راجع تفسير الآيهٔ ۲ من سورهٔ الحمد).

ثمّ إنّه سـبحانه يوجه خطابه إلى عامّـهٔ الناس يقول: اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ و بهـذا الطريق يكون قد بدأ الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مهمّته و رسالته، و انتهى بوظيفهٔ الناس و واجبهم تجاه الرسالهٔ.

و للتأكيد يضيف سبحانه قائلا: وَ لا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فلا تتبعوا غير أوامر اللّه، و لا تختاروا وليا غير اللّه.

و حيث إنّ الخاضعين للحق و المذكرين قليلون، لذا قال فى ختام الآيهٔ:

قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ

و من هـذه الآيهٔ يسـتفاد أنّ الإنسان يواجه طريقين (أو خيارين) إمّا القبول بولايهٔ اللّه و قيادته، و إمّا الدخول تحت ولايهٔ الآخرين، فإذا سلك الطريق الأوّل كان اللّه وليّه، و أمّا إذا دخل تحت ولايـهٔ الآخرين فإن عليه- حينئذ- أن يخضع فى كل يوم لواحد من الأرباب، و أن يختار ربّا جديدا.

و كلمهٔ «الأولياء» التى هى جميع «ولى» إشارهٔ إلى هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۱

الآيتان [سورهٔ الأعراف (۷): الآيات ۴ الى ۵]

اشارهٔ

وَ كَمْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْناها فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ (۴) فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۵)

التّفسير

الأقوام التى هلكت و بادت:

هاتـان الآيتـان تشـيران إلى العواقب المؤلمـهٔ التى تترتب على مخالفـهٔ الأوامر التى تمّ بيانها فى الآيات السابقـهٔ، كما أنّهما تعـدّان- فى الواقع- فهرستا إجماليا عن قصص الأقوام المتعددهٔ أمثال نوح، و قوم فرعون، و قوم عاد و ثمود، و قوم لوط التى ستأتى فيما بعد.

إنّ القرآن الكريم يحـذر و ينـذر بشـدّهٔ فى هـذه الآيـهٔ كل أولئك الذين يتمردون على تعاليم الأنبياء و يقومون بزرع الفجور و الفساد بـدل إصـلاح أنفسـهم و إصـلاح الآخرين، بأن يتـدبروا قليلا فى حياهٔ الأقوام السالفـهٔ و ينظروا كم من قريهٔ عامرهٔ أبادها اللّه، و أهلك سكانها الفاسقين: وَ كَمْ مِنْ قَرْيَهٍ أَهْلَكْناها.

ثمّ يبيّن كيفيـهٔ هلاكهم بأنّ العـذاب الأليم جاءهم فى منتصف الليل و هم يقضون ساعات الراحهٔ و السـكون، أو فى وسط النهار و هم يمضون لحظات الاستراحهٔ و الاسترخاء بعد رحلهٔ من العمل و النشاط اليومى الدّائب: فَجاءَها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۲

بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ

ثمّ يواصل الحديث فى الآية اللاحقة هكذا: فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ فعند ما يتورّطون فى البلاء، و تتحطم حياتهم بعواصف الجزاء يتركون كبرياءهم و نخوتهم و ينادون معترفين بظلمهم: إنّا كنّا ظالمين.

بحوث

إنّ هاهنا نقاطا عديدة ينبغى الالتفات إليها:

۱- «القرية» مأخذوة أصلا من «قرى» (على وزن نهى) و هى تعنى الاجتماع، و حيث إنّ القرية مركز لاجتماع أفراد البشر أطلق عليها هذا الاسم.

من هنا يتّضح أن القرية لا تعنى الرستاق فقط، بل تشمل كل موضع عامر اجتمع فيه أفراد البشر، و قد أطلقت هذه اللفظة- فى كثير من آيات القرآن الكريم- على المدينة، أو أية منطقة عامرة مدينة كانت أو رستاقا.

و «قائلون» اسم فاعل من «القيلولة» يعنى النوم فى نصف النهار، و أصله الراحة، و لهذا يقال الإقالة فى البيع لأنّه الإراحة منه بالإعفاء من عقده.

و «البيات» أى عند الليل.

۲- إنّ ما نقرؤه فى هذه الآيات من أنّ عقاب اللّه تعالى و عذابه يصيب الظالمين ليلا، أو عند منتصف النهار، لأجل أن يذوقوا طعم العذاب و الجزاء، و ذلك عند ما تنهدم راحتهم و سكونهم به انهداما كاملا، كما سبق لهم أن هدموا راحة الآخرين و سكونهم و عكروا صفوهم، و بهذا يكون جزاؤهم مناسبا لذنبهم و من جنسه.

۳- يستفاد من الآية الحاضرة- أيضا- أن جميع الأقوام العاصية الجانية عند ما تواجه العقاب، و تنكشف عن عيونها أغطية الغفلة و الغرور، و تعترف- برمتها-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۳

بذنوبها، و لكن لا يجديها مثل هذا الاعتراف، لأنّه نوع من الاعتراف «الجبرى و الاضطرارى» الذى يضطرّ إليه حتى أشد الناس غرورا.

و بعبارة أخرى، إنّ هذه اليقظة نوع من اليقظة الكاذبة و العابرة و غير المؤثرة التى لا تحمل أية علامة من علامات الانقلاب و التحوّل الروحى، بهذا لا يكون لها أية نتيجة ... نعم، إذا كانوا يظهرون هذه الحقيقة فى حالة الإختيار و الحرية كان ذلك دليلا على انقلابهم الروحى و سببا لنجاتهم.

۴- من المباحث المطروحة عند المفسّرين فى مجال الآية الحاضرة هو:

لماذا قال القرآن أوّلا: أَهْلَكْناها ثمّ أعقب هذه الجملة بجملة أخرى مبدوءة بفاء التفريع التى هى عادة للترتيب الزمانى فقال: فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً فى حين أن مثل هذا العقاب (أى مجيّ البأس بياتا) كان قبل الهلاك لا بعد الهلاك.

و لكن يجب أن نعلم أنّ الجملة المبدوءة بالفاء قد تكون شرحا و تفصيلا للجملة السابقة لا لبيان حادثة أخرى، و فى المقام أشار أوّلا إلى موضوع الإهلاك على نحو الإجمال، ثمّ عمد إلى شرح هذا الموضوع المجمل بقوله:

فَجاءَها بَأْسُنا بَياتاً أَوْ هُمْ قائِلُونَ فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلَّا أَنْ قالُوا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ و لهذا فى الأدب العربى نظائر كثيرة.

۵- إنّ هذا النوع من الآيات يجب أن لا تعتبر شرحا لقصص الأمم الغابرة، و بالتالى ممّا يرتبط بالزمن الغابر و الأمم الماضية فقط.

إنّ هذه الآيات تحذيرات صاعقة لهذا العصر و ما يليه من العصور، لنا و للأمم و الأقوام القادمة، لأنّه لا معنى للتبعيض فى السنة الإلهية.

و الإنسان المسلح بالتكنولوجيا المتقدمة مع كلّ ما أوتى من قوّة هو الآخر عاجز أمام الزلازل و العواصف، و أمام السيول و الأمطار الغريزة، تماما مثل عجز الأمم ما قبل التّأريخ و ضعفها.

و على هذا فليست مثل تلك العواقب السيئة و الأليمة التى أصابت ظلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۴

الأمم الغابرة، و جباريها، و حلّت بالمغرورين و الفسقة و المتمردين ليلا و حطمتهم، ببعيدة عن الإنسان الحاضر. بل إنّ قوة الإنسان المعاصر و قدراته الكبرى يمكن أن تكون مصدر بلاء عظيم له، و تجرّه إلى أحضان حروب مدمّرة لا تنتج سوى فناء جيله، ألا يجب أن نعتبر بهذه الحوادث و نستيقظ من نوم الغفلة!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (۶) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ (۷) وَ الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ (۹)

التّفسير

التّحقيق الشّامل:

لقد تضمنت الآيات السابقة إشارة إلى معرفة اللّه و نزول القرآن الكريم، و أمّا الآيات أعلاه فانها تتحدث عن المعاد فهى مكملة للآيات السالفة، مضافا إلى أنّ الآية المتقدمة تحدثت عن الجزاء الدنيوى للظالمين، و هذا الآيات تبحث فى الجزاء و العقاب الأخروى لهم، و بهذا يتضح الارتباط بينها.

يقول تعالى أوّلا و هو يقرر سنّة عامّة: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أى أنّنا سنسأل فى يوم القيامة كل من أرسلنا لهدايته رسولا، حتما و دون ريب.

بل و نسأل كذلك الأنبياء أيضا: ماذا فعلوا فى مجال تبليغ رسالتهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۶

وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

و على هذا الأساس فالجميع مسئولون، قادة و أتباعا، رسلا و مرسلا إليهم، غاية ما فى الأمر أنّه يختلف السؤال و المسؤوليات من طائفة إلى أخرى.

و ثمّة

حديث مروى عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى هذا الصعيد يؤيد هذا المعنى أيضا، إذا يقول: «فيقام الرسل فيسألون عن تأدية الرسالات التى حملوها إلى أممهم، فأخبروا أنّهم قد أدّوا ذلك إلى أممهم»[۳۲۵].

هذا و قد صرّح فى حديث آخر فى تفسير على بن إبراهيم بهذا المعنى أيضا[۳۲۶].

فى الآية اللاحقة- و لكى لا يتصور أحد بأنّ سؤال اللّه للأنبياء يعنى أن الأمر قد خفى على اللّه و غاب عن علمه قال تعالى بصراحة مزيجة بالقسم، بأننا سوف نشرح لهم كل أعمالهم بعلمنا، لأنّه ما غاب عنّا شىء من أفعالهم، و ما غابوا هم عنّا، فقد كنا معهم فى كل حين و مكان: فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَ ما كُنَّا غائِبِينَ

«لنقصنّ» مأخوذة من «القصة» و هی فی الأصل تعنی ما یتلو بعضه بعضا، و حیث أن القضایا عند شرحها یتلو بعضها بعضا أطلق علیها لفظ القصة، و هکذا أطلق علی العقوبة التی تتلو الجنایة لفظ «القصاص»، و منه «المقصّ» لأنّه یقطع الشعر بالتوالی، و یقال عمن یبحث عن شیء أنّه «قصّ» لأنّه یبحث الحوادث واحدا بعد واحد.

و حیث إنّ فی هذه الجملة أربعة أنواع من التأکید (لام القسم، و نون التأکید، و کلمة علم، التی جاءت بصورة النکرة، و المراد من ذلک بیان عظمته، و جملة ما کان غائبین) لذلک یستفاد منها أنّ المقصود هو: إنّنا نشرح لهم تفاصیل أعمالهم جمیعها القذة بالقذة و تباعا، لیعلموا أنّه لا یخفی عنّا شیء من نیّة أو عمل قط[۳۲۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۷

المساءلة لماذا؟

إنّ أوّل ما یطرح نفسه هنا هو: نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه یعلم بکل شیء، فهو الحاضر فی کل زمان و مکان، الناظر لکل شیء من نیّة أو عمل، فما الحاجة إلی مساءلة الرسل و الأمم عامّة و بدون استثناء؟! الجواب علی هذا السؤال واضح، لأنّ السؤال لو کان للاستعلام و الاستفهام، و بهدف الوقوف علی الحقیقة لم یصح أن یقع من العالم العارف.

و أمّا إذا کان المقصود منه هو إلفات الشخص إلی ما عمله، أو إتمام الحجّة علیه، أو ما أشبه ذلک، لم یکن فی ذلک بأس و لا ضیر، إذ یشبه ذلک تماما ما لو أسدینا إلی أحد خدمات کثیرة و قابلنا بالإساءة و الخیانة، و کان کل ذلک معلوما معروفا عندنا، و مع ذلک فإننا نسائله و نقول: ألسنا قد أسدینا إلیک کذا و کذا من الخدمة؟ فهل کان هذا جزاء الإحسان إلیک؟؟

إنّ مثل هذه المساءلة لیست لاکتساب العلم، و اکتشاف الحقیقة المجهولة، بل هی لتفهیم الطرف الآخر و إیقافه علی الحقیقة، أو أنّه لتثمین خدمة قام بها أحد المسؤولین و تشجیعه، فنسأله: ماذا فعلت فی هذه السفرة التی کلّفت فیها بمهمّة؟

مع أنّنا نعرف من قبل بتفاصیل عمله.

التّوفیق بین آیات المساءلة فی القرآن:

قد یظنّ أن الآیات المطروحة هنا علی بساط البحث، و التی تصرح بکل تأکید بأن اللّه یسأل الجمیع عمّا فعلوه و ارتکبوه، تنافی بعض الآیات القرآنیة الأخری فی هذا الصعید مثلما ما جاء فی سورة الرحمان: فَیَوْمَئِذٍ لا یُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ ... یُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِیماهُمْ ...[۳۲۸].

و کذا الآیات الأخری التی تنفی السؤال؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۸

فکیف یمکن التوفیق و الجمع بین تلک الآیات و الآیات الحاضرة التی تثبت قضیة المساءلة یوم القیامة؟! إن الإمعان فی هذه الآیات کفیل بأن یکشف کل إبهام عنها، فإنه یستفاد من مجموع الآیات الواردة فی مجال المساءلة فی یوم القیامة أن الناس یمرون فی ذلک الیوم بمراحل مختلفة متنوعة، ففی بعض المراحل لا- یسألون عن أی شیء مطلقا، بل یختم علی أفواههم، و تتکلم أعضاؤهم و جوارحهم التی تحتفظ بآثار أعمالهم فی نفسها، کشاهد حیّ لا یردّ یروی أعمالهم بدقة متناهیة.

و فی المرحلة الأخری یرفع الختم عن أفواههم فیتحدثون و یسألون فیعترفون عند ذلک- بعد مشاهدة الحقائق التی انکشفت فی ضوء شهادة الجوارح- بأعمالهم، تماما کالمجرم الذی لا یری بدّا من الاعتراف بجرمه عند مشاهدة الأدلة العینیة.

و قد احتمل بعض المفسّرین أیضا فی تفسیر هذه الآیات، أنّ الآیات النافیة للسؤال إشارة إلی نفی المساءلة الشفاهیة، و الآیات المثبتة إشارة إلی السؤال من الجوارح و هی تجیب بلسان الحال- مثل حمرة وجه الإنسان خجلا من انکشاف جرمه- بالحقائق.

و فی هذه الصورة یرتفع التنافی بین هاتین الطائفتین من الآیات.

فی الآیة اللاحقة- تکمیلا لمبحث المعاد- یشیر تعالی إلی قضیة «وزن الأعمال» الذی جاء ذکره فی السور القرآنیة الأخری مثل ما جاء فی سورة «المؤمنون» فی الآیة (۱۰۲ و ۱۰۳) و سورة القارعة الآیة (۶ و ۸).

فیقول أوّلا: إنّ وزن الأعمال یوم القیامة أمر واقع لا ریب فیه: وَ الْوَزْنُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُ ۳۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۶۹

ما هو میزان الأعمال یوم القیامة؟

لقد وقع کلام کثیر بین المفسّرین و المتکلمین حول کیفیة وزن الأعمال یوم القیامة، و حیث أنّ البعض تصور أنّ وزن الأعمال و میزانها فی یوم القیامة یشبه الوزن و المیزان المتعارف فی هذه الحیاة، و من جانب آخر لم یکن للأعمال البشریة وزن، و خفة و ثقل یمکن أن یعرف بالمیزان، لهذا لا بدّ من حلّ هذه المشکلة عن طریق فکرة تجسم الأعمال، أو عن طریق أن الأشخاص أنفسهم یوزنون بدل أعمالهم فی ذلک الیوم.

حتی أنّه روی عن «عبید بن عمیر» أنه قال: «یؤتی بالرجل الطویل العظیم فلا یزن جناح بعوضة» إشارة إلی أن أولئک الأشخاص کانوا فی الظاهر أصحاب شخصیات کبیرة، و أمّا فی الباطن فلم یکونوا بشیء[۳۳۰].

و لکن لو ترکنا مسألة المقارنة و المقایسة بین الحیاة فی ذلک العالم و الحیاة فی هذا العالم، و علمنا بأن کل شیء فی تلک الحیاة یختلف عمّا علیه فی حیاتنا هذه، تماما مثلما تختلف أوضاع الفترة الجنینیة عن أوضاع الحیاة الدنیا، و علمنا- أیضا- أنّه لیس من الصحیح أن نبحث- فی فهم معانی الألفاظ- عن المصادیق الحاضرة و المعینة دائما، بل لا بدّ أن ندرس المفاهیم من حیث النتائج، اتضحت و انحلت مشکلة «وزن الأعمال فی یوم القیامة».

و توضیح الأمر هو: أننا لو کنا نتلفظ فیما مضی من الزمن بلفظ المصباح کان یتبادر إلی ذهننا صورة و وعاء خاص فیه شیء من الزیت، و نصب فیه فتیل من القطن. و ربّما أیضا تصوّرنا زجاجة وضعت علی النّار لتحفظها من الانطفاء بسبب الریاح، علی حین یتبادر من لفظ المصباح إلی ذهننا الیوم جهاز خاص لا مکان فیه للزیت، و لا للفتیل أمّا ما یجمع بین مصباح الأمس و مصباح الیوم، هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۰

الهدف من المصباح و النتیجة المتوخاة أو المتحصلة منه، یعنی الأداة التی نزیل الظلمة.

و الأمر فی قضیّة «المیزان» علی هذا الغرار، بل و فی هذه الحیاة ذاتها نری کیف أن الموازین تطوّرت مع مرور الزمن تطورا کبیرا، حتی أنه بات یطلق لفظ المیزان علی وسائل التوزین الأخری، مثل مقیاس الحرارة، و مقیاس سرعة الهواء و أمثال ذلک.

اذن، فالمسلّم هو أن أعمال الإنسان توزن فی یوم القیامة بأداة خاصّة لا بواسطة موازین مثل موازین الدنیا، و یمکن أن تکون تلک الأداة نفس وجود الأنبیاء و الأئمّة و الصالحین، و هذا ما یستفاد- أیضا- من الأحادیث المرویة عن أهل البیت علیهم السّلام.

ففی بحار الأنوار ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر قوله تعالی: وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ أنه قال: «و الموازین الأنبیاء، و الأوصیاء، و من الخلق من یدخل الجنّة بغیر حساب»[۳۳۱].

و

جاء فی روایة أخری: إنّ أمیر المؤمنین و الأئمّة من ذریته علیهم السّلام هم الموازین ۳۳۲].

و نقرأ فى إحدى زيارات الإمام أمير المؤمنين المطلقة:

السلام على ميزان الأعمال.

و فى الحقيقة أن الرجال و النساء النموذجيين فى العالم هم مقاييس لتقييم أعمال العباد، فكل من شابههم كان له وزن بمقدار مشابهته لهم، و من بعد عنهم كان خفيف الوزن، أو فاقد الوزن من الأساس.

بل إنّ أولياء اللّه فى هذا العالم هم أيضا مقاييس للوزن و التقييم، و لكن حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۱

أنّ أكثر الحقائق فى هذا العالم تبقى خلف حجب الإبهام و الغموض. تبرز فى يوم القيامة بمقتضى قوله تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ[۳۳۳] و تنكشف هذه الحقائق و تنجلى للعيان.

و من هنا يتّضح لماذا جاء لفظ الميزان فى الآية بصيغة الجمع: «الموازين» لأنّ أولياء اللّه الذين يوزن بهم الأعمال متعددون.

ثمّ إن هناك احتمالا آخر أيضا، و هو أن كل واحد منهم كان متميزا فى صفة معينة، و على هذا يكون كل واحد منهم ميزانا للتقييم فى إحدى الصفات و الأعمال البشرية، و حيث أن أعمال البشر و صفاتهم مختلفة، لهذا يجب أن تكون المعايير و المقاييس متعددة.

و من هنا أيضا يتّضح أنّ ما جاء فى بعض الرّوايات و الأخبار، مثل ما ورد

عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث سألوه: ما معنى الميزان؟ قال: «العدل»

لا ينافى ما ذكرناه، لأنّ أولياء اللّه، و الرجال و النساء النموذجيين فى هذا العالم هم مظاهر للعدل من حيث الفكر، و العدل من حيث العقيدة، و العدل من حيث الصفات و الأعمال (تأملوا)[۳۳۴].

ثمّ إنه تعالى يقول فى المقطع الآخر من الآية: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ

إنّ من البديهى أنّ المراد من الخفّة و الثقل فى الموازين ليس هو خفة و ثقل نفس الميزان، بل قيمة و وزن الأشياء التى توزن بواسطة تلك الموازين، و تقاس بتلك المقاييس.

ثمّ إنّ فى التعبير بجملة «خسروا أنفسهم» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۲

و هى أن هؤلاء قد أصيبوا بأكبر الخسارات، لأنّ الإنسان قد يخسر ماله، أو منصبه، و لكنّه قد يخسر أصل وجوده من دون أن يحصل على شىء فى مقابل ذلك، و تلك هى الخسارة الكبرى، و الضرر الأعظم.

إنّ فى التعبير ب «كانوا بآياتنا يظلمون» فى آخر الآية إشارة إلى أن مثل هؤلاء لم يظلموا أنفسهم فحسب، بل ظلموا- كذا- البرامج الإلهية الهادية، لأنّ هذه البرامج كان ينبغى أن تكون سبلا للهداية و وسائل للنجاة، و لو أنّ أحدا تجاهلها، و لم يكترث بها، فلم يحصل منها هذا الأثر، كان ظالما لها.

و قد جاء فى بعض الرّوايات و الأخبار أنّ المراد من الآيات هنا هم أئمّة الهدى عليهم السّلام، على أن هذا النمط من التّفسير- كما أسلفنا مرارا- لا يعنى حصر مفهوم الآية فيهم، بل هم المصاديق الأتمّ و الأظهر للآيات الالهية.

هذا، و فسّر بعض المفسّرين الظلم فى الآية بالكفر و الإنكار، و هذا المعنى ليس بعيدا عن مفهوم الظلم، إذ قد ورد الظلم فى بعض الآيات القرآنية الأخرى بهذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۰]

اشارة

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۱۰)

التّفسير

مكانة الإنسان و عظمته فى عالم الوجود:

عقيب الآيات التى أشارت إلى المبدأ و المعاد، يدور البحث فى هذه الآية و الآيات اللاحقة حول عظمة الإنسان و أهمية مقامه، و كيفية خلق هذا الكائن و المفاخر التى وهبها اللّه له، و المواثيق التى أخذها اللّه منه لقاء هذه المواهب و النعم، كل ذلك لتقوية قواعد و أسس تربيته و تكامله.

و فى البداية اختصر جميع هذه الأمور فى هذه الآية، ثمّ شرحها و فصّلها فى الآيات اللاحقة.

فهو يقول البداية: نحن الذين منحناكم الملكية و الحاكمية و سلطناكم على الأرض: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ

و أعطيناكم وسائل العيش بجميع أنواعها: وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ

و لكن مع ذلك لم تشكروا هذه النعم إلّا قليلا قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ

و «التمكين» هنا ليس بمعنى أن يوضع شخص فى مكان مّا، بل معناه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۴

يعطى و يوفّر له كل ما يستطيع بواسطته على تنفيذ مآربه، و تهيئة أدوات العمل له، و رفع الموانع و إزالتها عن طريقه، و يطلق على مجموع هذا لفظ «التمكين»، فإننا نقرأ فى القرآن الكريم حول يوسف: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ۳۳۵] أى أننا جعلنا جميع الإمكانيات تحت تصرّفه.

إنّ هذه الآية- مثل بعض الآيات القرآنية الأخرى- تدعو الناس- بعد ذكر و تعداد النعم الإلهية و المواهب الربانيّة- إلى شكرها، و تذم كفران النعم.

إن من البديهى أن بعث روح الشكر و التقدير لدى الناس فى مقابل النعم الإلهية، إنّما هو لأجل أن يخضعوا لواهب النعم تمشيا و استجابة لنداء الفطرة، و لكى يعرفوه و يطيعوه عن قناعة فيهتدوا و يتكاملوا بهذه الطريقة، لا أن الشاكر يؤثر بشكره فى مقام الرّبوبية العظيم، بل الأثر الحاصل من الشكر- مثل سائر آثار العبادات و الأوامر الإلهية- جميعا- يعود إلى الإنسان لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (۱۱) قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (۱۲) قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (۱۳) قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴) قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۱۵)

قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۶) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ

أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ (۱۷) قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۸)

التّفسير

قصّة عصيان إبليس

لقد أشير إلى مسألة خلق الإنسان و كيفية إيجاده فى سبع سور من سور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۶

القرآن الكريم، و الهدف من ذكر هذا الموضوع- كما سبق أن أشرنا فى الآية السابقة- هو بيان شخصية الإنسان، و مقامه، و منزلته بين كائنات العالم، و بعث روح الشكر و الحمد فيه.

لقد جاء ذكر خلق الإنسان من التراب، و سجود الملائكة له، و تمرّد الشيطان و عصيانه، ثمّ موقفه تجاه النوع الإنسانى فى هذه السور بتعابير مختلفة.

و فى الآية المبحوثة الآن يقول اللّه تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ جدّكم الأوّل، و من المأمورين بالسجود إبليس الذين كان موجودا فى صفوفهم و إن لم يكن منهم، فامتثلوا لهذا الأمر جميعا و سجدوا لآدم إلّا إبليس: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

و يمكن أن يكون ذكر «الخلق» فى الآية الحاضرة قبل «التصوير» إشارة إلى:

أنّنا أوجدنا المادة الأصلية للإنسان أوّلا، ثمّ أفضنا عليها الصورة الإنسانية.

بحثان

۱- سجود الملائكة لم يكن سجود عبادة

كما قلنا فى ذيل الآية (۳۴) من سورة البقرة: إنّ سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة، لأن العبادة مخصوصة اللّه سبحانه، بل السجدة هنا بمعنى التواضع (أى الخضوع أمام عظمة آدم و سموّ منزلته فى عالم الخليقة) أو بمعنى السجود للّه الذى خلق مثل هذا المخلوق المتعادل المتوازن.

۲- إبليس لم يكن من الملائكة

إنّ «إبليس»- كما قلنا فى ذيل تلك الآية- لم يكن من الملائكة، بل هو حسب صريح الآيات القرآنية من قسم آخر من الكائنات يدعى «الجنّ» (و للمزيد من التوضيح راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى الحديث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۷

سجود الملائكة لآدم).

فى الآية اللاحقة يقول تعالى: أنه أخذ إبليس على عصيانه و طغيانه، و قالَ ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ فتذرع- فى مقام الجواب- بعذر غير وجيه إذ:

قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

و كـأن إبليس كـان يتصوّر أنّ النّـار أفضـل من التراب، و هـذه هى أكبر غلطـاته و أخطائه، و لعلّه لم يقل ذلك عن خطأ و التباس، بل كـذب عن وعى و فهم، لأنّنا نعلم أنّ التراب مصـدر أنواع البركات، و منبع جميع المواد الحياتيـة، و أهم وسـيلة لمواصـلة الموجودات الحية حياتها، على حين أن الأمر بالنسبة إلى النّار ليس على هذا الشكل.

صحيـح أنّ النّار أحـد عوامل التجزئـة و التركيب فى الكائنات الموجودة فى هـذا الكون، و لكن الدور الأصـلى و الأساسـى هو للمواد الموجودة فى التراب، و تعدّ النّار وسيلة لتكميلها فقط.

و صـحيح- أيضا- أنّ الكرة الأرضـية انفصـلت- فى بدايـة أمرها- عن الشـمس، و كانت على هيئـة كرة ناريـة فبردت تدريجا، و لكن يجب أن نعلم أن الأرض ما دامت مشـتعلة، و حارة لم يكن عليها أى كائن حىّ، و إنّما ظهرت الحياة على سطح هذا الكرة عند ما حلّ التراب و الطين محل النّار.

هـذا مضافـا إلى أنّ أيـة نار ظهرت على سـطح الأرض كان مصـدرها مواد مسـتفادة من التراب، ثمّ إنّ التراب مصـدر نموّ الأشـجار، و الأشـجار مصـدر ظهور النّار، و حتى المواد النفطيـة أو الدهون القابلة للاشـتعال و الاحتراق تعود- أيضا- إلى التراب أو إلى الحيوانات التى تتغذى من المواد النباتية.

على أنّ ميزة الإنسان- بغض النظر عن كل هذه الأمور- لم تكن فى كونه من التراب، بل إنّ ميزته الأصـلية تكمن فى «الروح الإنسانية» و فى خلافته للّه تعالى.

و على فرض أنّ مادة الشيطان الأصلية كانت أفضل من مادة الإنسان، فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۸

ذلك لا يعنى تسويغ عدم السجود للإنسان الذى خلق بتلك الروح، و وهبه اللّه تلك العظمة، و جعله خليفة له على الأرض.

و الظـاهر أنّ الشـيطان كان يعرف بكل هـذه الأمور، و لكن التكبر، و الأنانيـة هما اللـذان منعاه عن امتثال أمر اللّه، و كان ما أتى به من العذر حجة داحضة، و محض تحجج و تعلّل.

أوّل قياس هو قياس الشيطان:

القياس فى الأحكام و الحقائق الدينيـة مرفوض بشـكل قاطع فى أحاديث عديـدة وردت عن أهل البيت عليهم السّـلام، و نقرأ فى هـذه الأحاديث أنّ أوّل من قاس هو الشيطان.

قال الإمام الصادق عليه السّلام لأبى حنيفة: «لا تقس، فإن أوّل من قاس إبليس»[۳۳۶].

و قـد روى هـذا المطلب فى تفاسـير أهل السـنة قـديما و حديثا مثل تفسـير «الطبرى» عن «ابن عباس» و تفسـير المنار و «ابن سـيرين» و «الحسن البصرى»[۳۳۷].

و المراد من القيـاس هـو أن نقيس موضـوع على آخر يتشابهـان من بعض الجهـات، و نحكم للثّـانى بنفس الحكم الموجـود للموضوع الأـوّل من دون أن نعرف فلسـفة الحكم و أسـراره كاملا، كأن نقيس «بول» الإنسان المحكوم بالنجاسـة، و وجوب الاجتناب عنه بعرق الإنسـان، و نقول: بمـا أنّ هـذين الشـيئين يتشابهـان من بعض الجهات و فى بعض الأجزاء، لهـذا يسـرى حكم الأوّل إلى الثانى فيكون كلاهما نجسين، فى حين أنّهما حتى لو تشابها من جهات فهما متفاوتان مختلفان من جهات أخرى أيضا، فأحدهما أرق و الآخر أغلظ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۷۹

و الاجتناب من أحدهما سـهل، و من الآخر صعب و شاق جدّا، هذا مضافا إلى أنه ليست فلسفة الحكم الأوّل معلومة لنا بالكامل، فمثل

هذا القياس ليس سوى قياس تخمينى لا أكثر.

و لهذا السبب منع أئمّتنا عليهم السّلام من القياس بشدّة، استلهاما من كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أبطلوه، لأنّ فتح باب القياس يتسبب فى أن يعمد كل أحد بالاعتماد على دراسته المحدودة و فكره القاصر و بمجرّد أن يعتبر موضوعين متساويين من بعض الجهات ... أن يعمد إلى إجراء حكم الأوّل على الثانى، و بهذا تتعرض قوانين الشرع و أحكام الدين إلى الهرج و المرج.

إنّ بطلان القياس عقلا ليس مقصورا على القوانين الدينية فحسب، فالأطباء هم أيضا يؤكّدون فى توصياتهم على أن لا تعطى و صفة أىّ مريض لمريض آخر مهما تشابها من بعض النواحى، و فلسفة هذا النهى واضحة، لأنّه قد يتشابه المريضان فى نظرنا من بعض النواحى، و لكن مع ذلك يتفاوتان من جهات عديدة، مثلا من جهة القدرة على تحمّل الدواء، و فئة الدم، و مقدار السكر فى الدم، و لا يستطيع الأشخاص العادّيون من الناس أن يشخّصوا هذه الأمور، بل تشخيصها يختص بالأطباء و ذوى الاختصاص فى الطب، فلو أعطيت أدوية مريض لآخر دون ملاحظة هذه الخصوصيات، فمضافا إلى احتمال عدم الانتفاع بها، فإنّها ربّما تكون منشأ لسلسلة من الأخطار غير القابلة للجبران.

و الأحكام الإلهية أدقّ من هذه الجهة، و لهذا جاء فى الأحاديث و الأخبار أنه لو عمل بالقياس لمحق الدين، أو كان فساده أكثر من صلاحه [۳۳۸].

أضف إلى ذلك أنّ اللجوء إلى القياس لاكتشاف الأحكام و معرفتها دليل على قصور الدين، لأنّه إذا كان لكل موضوع حكم فى الدين لم يكن أية حاجة إلى القياس، و لهذا فإنّ الشيعة حيث أنّهم أخذوا جميع احتياجاتهم من الأحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۰

الدينية من مدرسة أهل البيت ورثة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يروا حاجة إلى اللجوء إلى القياس، و لكن فقهاء السنة حيث أنّهم تجاهلوا مدرسة أهل البيت الذين هم حسب نص النّبى الملجأ الثّانى للمسلمين بعد القرآن الكريم لذلك واجهوا نقصا فى مصادر الأحكام الإسلامية و أدلتها، و لم يروا مناصا من اللجوء إلى القياس.

و أمّا فى مورد الشيطان، فنحن نقرأ فى النصوص و الرّوايات أنّه كان أوّل من قاس، و النكتة فيها أنّه قاس خلقته- من الناحية المادية- بخلقة آدم، و تمسك بأفضلية النّار على التراب فى بعض الجهات، و اعتبر ذلك دليلا على أفضلية النّار من جميع النواحى، من دون أن يلتفت إلى امتيازات التراب، بل و من دون أن يلتفت إلى امتيازات آدم الروحانية و المعنوية، فحكم على طريق ما يسمّى بقياس الأولوية، و لكن قياسا على أساس التخمين و الظن و الدراسة السطحية و المحدودة، بأفضليته على آدم، بل و دفعه هذا القياس الباطل إلى تجاهل الأمر الإلهى.

و الملفت للنظر أنّه

ورد فى بعض الرّوايات المروية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى مؤلفات الشيعة و السنة معا أنه قال: «من قاس أمر الدين برأيه قرنه اللّه تعالى يوم القيامة بإبليس»[۳۳۹].

و باختصار، إنّ قياس موضوع بموضوع آخر من دون علم بجميع أسراره و فلسفته، لا يصح أن يكون دليلا على اتحاد حكمهما، و لو أنّ القياس تطرق إلى مسائل الدين و قضايا الشريعة لم تبق للأحكام ضابطة ثابتة، إذ يمكن حينئذ أن يقيس شخص ما موضوعا بنحو، و يصدر حكما بحرمته، و يقيس شخص آخر الموضوع نفسه بنحو آخر و يصدر حكما بحليّته.

و المورد الوحيد الذى يمكن استثناؤه من هذا الأمر هو ما إذا ذكر المقنّن أو الطبيب نفسه دليل حكمه و فلسفة قانونه، ففى هذه الحالة يجوز لنا إذا رأينا هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۱

الدليل و هذه الفلسفة فى موضوع آخر أن نجرى الحكم فيه و نعدّيه إليه أيضا، و هذا هو ما اصطلح عليه بالقياس «المنصوص العلّة»

مثلا: إذا قال الطبیب للمریض: یجب أن تتجنب تناول الفاکهة الفلانیة لأنّها حامضة، علم المریض بأنّ الحموضة تضرّه، و أنّه یجب أن یتجنب الحموضة و إن کان فی فاکهة أخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۴ ؛ ص ۵۸۱

هکذا إذا صرّح القرآن الکریم أو صرّحت السنّة الشریفة بأن: تجنّبوا الخمر لأنّه مسکر، علمنا أنّ کل مسکر حرام (و إن لم یکن خمرا) و یجب اجتنابه.

إنّ هـذا القیـاس لیس باطلاـ و لاـ ممنوعا، لأنّه معلوم الـدلیل و منصوص العلّة مقطوع بها و القیاس الممنوع هو فیما إذا لم نعلم بـدلیل الحکم و فلسفته بصورة القطع و من جمیع الجهات.

علی أن مبحث القیـاس مبحث واسع الأطراف، و ما مضـی من البحث ما إلّا هو عصارة منه، و لمزیـد التوضـیح و الاطلاع راجعوا کتب أصول الفقه و کتب الأخبار، باب القیاس، و نحن نختم البحث الحاضر بذکر حدیث فی هذا المجال.

جاء فی کتاب «علل الشـرائع» دخل أبو حنیفـة علی الإمام الصادق علیه السّـلام فقال له: «یا أبا حنیفـة، بلغنی أنّک تقیس؟ قال: نعم، أنا أقیس. قـال: لاـ تقس فـإنّ أوّل من قـاس إبلیس حین قال: خلقتنی من نار و خلقته من طین فقاس ما بین النّار و الطین، و لو قاس نوریة آدم بنوریة النّار عرف فضل من بین النّورین و صفاء أحدهما علی الآخر»[۳۴۰].

جواب علی سؤال:

بقی هنا سؤال و هو: کیف کان یتحدث الشیطان مع اللّه، فهل کان ینزل علیه الوحی؟

الجواب هو: أنّ کلام اللّه لا یکون بالوحی دائما، فالوحی عبارة عن رسالة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۲

النبوّة، فلاـ مـانع من أن یکلّم اللّه أحـدا لاـ بعنوان الوحی و الرسالـة، بـل عن طریق البـاطنی أو بواسـطة بعض الملائکـة، سواء کان من یحادثه اللّه من الصالحین الأبرار مثل مریم و أمّ موسی، أو من غیر الصالحین مثل الشیطان! و لنعد الآن إلی تفسیر بقیة الآیات:

حیث أن امتنـاع الشـیطان من السـجود لآدم علیه السّـلام لم یکن امتناعا بسـیطا و عادیا و لم یکن معصـیة عادّیـة، بل کان تمرّدا مقرونا بالاعتراض و الإنکار للمقام الربوبی، لأنّه قال: أنا أفضل منه، و هذه الجملة تعنی فی حقیقة الأمر أن أمرک بالسـجود لآدم أمر مخالف للحکمـة و العدالـة و موجب لتقـدیم «المرجوح» علی «الراجـح» لهـذا فإنّ مخالفته کانت تعنی الکفر و إنکار العلم و الحکمة الإلهیین، فوجب أن یخسـر جمیع مراتبه و درجاته، و بالتالی کل ما له من مکانـة عنـد اللّه، و لهـذا أخرجه اللّه من ذلک المقام الکریم، و جرّده من تلک المنزلة السامقة التی کان یتمتع بها فی صفوف الملائکة، فقال له: فَاهْبِطْ مِنْها.

و قـد ذهـب جمـع مـن المفسّـرین فی ضـمیر «منهـا» إلی إرجـاعه إلی «السـماء» أو «الجنّـة» و ذهب آخرون إلی إرجاعهـا إلی «المنزلة الدرجة»، و هما لا یختلفان کثیرا من حیث النتیجة.

ثمّ إنّه تعالی شرح له منشأ هذا السقوط و التنزّل بالعبارة التّالیة: فَما یَکُونُ لَکَ أَنْ تَتَکَبَّرَ فِیها.

و أضـاف للتأکیـد قائلاـ: فَـاخْرُجْ إِنَّکَ مِنَ الصَّاغِرِینَ یعنی إنّـک بعملـک و موقفک هـذا لم تصـبح کبیرا، بل علی العکس من ذلک أصبته بالصغار و الذلة.

إنّ هـذه الجملـة توضح بجلاء أن شـقاء الشـیطان کله کان ولید تکبره، و إن أنانیته هذه التی جعلته یری نفسه أفضل ممّا هو، هی التی تسـببت فی أن لاـ یکتفی بعـدم السـجود لأـدم، بل و ینکر علم اللّه و حکمته، و یعترض علی أمر اللّه، و ینتقـده، فخسـر علی أثر ذلک منزلته و مکانته، و لم یحصد من موقفه إلّا الذلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۳

و الصغار بدل العظمة و هذه يعنى أنّه لم يصل إلى هدفه فحسب، بل بات على العكس من ذلك.

و نحن نقرأ فى نهج البلاغة «الخطبة القاصعة» فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام عند ذمّه للتكبر و العجب ما يلى:

«فاعتبروا بما فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل، و جهده الجهيد، و كان قد عبد اللّه ستة آلاف سنة ... عن كبر ساعة واحدة، فمن ذا بعد إبليس يسلم على اللّه بمثل معصيته؟ كلا، ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنّة بشرا بأمر أخرج به منها ملكا، إنّ حكمه فى أهل السماء و أهل الأرض الواحد»[۳۴۱].

و

قد جاء أيضا عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «إنّ للمعاصى شعبا فأوّل ما عصى اللّه به الكبر، و هى معصية إبليس حين أبى و استكبر و كان من الكافرين، و الحرص و هى معصية آدم و حواء ... ثمّ الحسد و هى معصية ابن آدم حيث حسد أخاه فقتله»[۳۴۲].

و كذا

نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه قال: «أصول الكفر ثلاثة: الحرص و الاستكبار و الحسد، فأمّا الحرص فإن آدم حين نهى عن الشجرة حمله الحرص على أن أكل منها، و أمّا الاستكبار فإبليس حيث أمر بالسجود لآدم فأبى، و أمّا الحسد فإبنا آدم حيث قتل أحدهما صاحبه»[۳۴۳].

و لكن قصّة الشيطان لم تنته إلى هذا الحدّ، فهو عند ما عرف بأنه صار مطرودا من حضرة ذى الجلال زاد من طغيانه و لجاجته، و بدل أن يتوب و يثوب إلى اللّه و يعترف بخطئه فإنّ الشىء الوحيد الذى طلبه من اللّه تعالى هو أن يمهله و يؤجّل موته إلى يوم القيامة: قالَ أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

و لقد استجاب اللّه لهذا الطلب، ف قالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۴

إنّ هذه الآيات و ان لم تصرّح بالمقدار الذى استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن، إلّا أننا نقرأ فى الآية (۳) من سورة الحجر أنه تعالى قال له: فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ و هذا يعنى أن مطلب الشيطان لم يستجب له بتمامه و كماله، بل استجيب إلى الوقت الذى يعلمه اللّه تعالى (و سوف نبحث عند تفسير الآية (۳) من سورة الحجر حول معنى قوله إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ إن شاء اللّه).

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هذا (أى الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران ما فات منه أو ليعمّر طويلا، إنّما كان هدفه من ذلك هو إغواء بنى البشر و قالَ فَبِما أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ أى لأغوينهم كما غويت، و لأضلّنهم كما ضللت.

إبليس أوّل القائلين بالجبر:

يستفاد من الآية الحاضرة أن الشيطان لتبرئة نفسه نسب إلى اللّه الجبر إذ قال:

فَبِما أَغْوَيْتَنِي لأغوينهم.

بعض المفسّرين أصرّ على تفسير جملة فَبِما أَغْوَيْتَنِي بنحو لا يفهم منه الجبر، إلّا أن الظاهر هو أنه لا موجب لمثل هذا الإصرار. و شاهد هذا القول هو ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «كان أمير المؤمنين جالسا بالكوفة بعد منصرفه من صفّين إذا أقبل شيخ فجثا بين يديه ثمّ قال له: يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أ بقضاء اللّه و قدره؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السّلام: «أجل مه يا شيخ ما علوتم

تلعة و لا هبطتم بطن واد إلّا بقضاء من اللّه و قدر».

فقال له الشّیخ: عند اللّه أحتسب عنائی یا أمیر المؤمنین.

فقال له علیه السّلام: «یا شیخ فو اللّه لقد عظم اللّه تعالی لکم الأجر فی مسیرتکم و أنتم سائرون و فی مقامکم و أنتم مقیمون و فی منصرفکم و أنتم منصرفون و لم تکونوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۵

فی شیء من حالاتکم مکرهین و لا إلیه مضطرین».

فقال له الشیخ: و کیف لم نکن فی شیء من حالاتنا مکرهین و لا إلیه مضطرین و کان بالقضاء و القدر مسیرنا و منقلبنا و منصرفنا. (فاستفاد السائل من هذه الإجابة الجبریة).

فقال له علیه السّلام: «أو تظن أنّه کان قضاء حتما و قدرا لازما أنّه لو کان کذلک لبطل الثواب و العقاب و الأمر و النهی و الزجر من اللّه تعالی و سقط معنی الوعد و الوعید فلم تکن لائمة للمذنب و لا محمدة للمحسن و لکان المحسن أولی بالعقوبة من المذنب تلک مقالة اخوان عبدة الأوثان و خصماء الرحمن و حزب الشیطان و قدریة هذه الأمّة و مجوسها ...»[۳۴۴].

و من هذا یتّضح أنّ أوّل من وقع فی ورطة الاعتقاد بالجبر هو الشیطان.

ثمّ إنّ الشیطان أضاف- تأکیدا لقوله- بأنّه لن یکتفی بالقعود بالمرصاد لهم، بل سیأتیهم من کل حدب و صوب، و یسدّ علیهم الطریق من کل جانب ثُمَّ لَآتِیَنَّهُمْ مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَیْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ وَ لا تَجِدُ أَکْثَرَهُمْ شاکِرِینَ

و یمکن أن یکون هذا التعبیر کنایة عن أنّ الشیطان یحاصر الإنسان من کل الجهات و یتوسل إلی إغوائه بکل وسیلة ممکنة، و یسعی فی إضلاله، و هذا التعبیر دارج فی المحاورات الیومیة أیضا، فنقول: فلان حاصرته الدیون أو الأمراض من الجهات الأربع.

و عدم ذکر الفوق و التحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان یتحرک عادة فی الجهات الأربع المذکورة، و یکون له نشاط فی هذه الأنحاء غالبا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۶

و

لقد نقل فی حدیث مروی عن الإمام الباقر علیه السّلام تفسیر أعمق لهذه الجهات الأربع حیث قال: «ثمّ قال: لآتینّهم من بین أیدیهم، معناه أهوّن علیهم أمر الآخرة، و من خلفهم، آمرهم بجمع الأموال و البخل بها عن الحقوق لتبقی لورثتهم. و عن أیمانهم، أفسد علیهم أمر دینهم بتزیین الضلالة و تحسین الشبهة. و عن شمائلهم، بتحبیب اللذّات إلیهم و تغلیب الشّهوات علی قلوبهم»[۳۴۵].

و فی آخر آیة من الآیات المبحوثة هنا یصدر مرّة أخری الأمر بخروج الشیطان من حریم القرب الإلهی و المقام الرفیع، بفارق واحد هو أن الأمر بطرده هنا اتّخذ صورة أکثر ازدراء و تحقیرا، و أشدّ عنفا و وقعا، و لعلّ هذا کان لأجل العناد و اللجاج الذی أبداه الشیطان بالإلحاح علی الوسوسة للإنسان و إغوائه و إغرائه، یعنی أن موقفه الأثیم فی البدایة کان منحصرا فی التمرد علی أمر اللّه و عدم امتثاله، و لهذا صدر الأمر بخروجه فقط، و لکن عند ما أضاف معصیة أکبر إلی معصیته بالعزم علی إضلال الآخرین جاء الأمر المشدّد: قالَ اخْرُجْ مِنْها مَذْؤُماً مَدْحُوراً.

ثمّ حلف علی أن یملأ جهنم منه و من اتباعه لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِینَ

فلسفة خلق الشیطان و حکمة إمهاله:

فی مثل هذه الأبحاث تتبادر إلی الأذهان- عادة أسئلة متنوعة و مختلفة أهمها سؤالان:

۱- لماذا خلق اللّه الشيطان، مع أنّه علم بأنّه سيكون منشأ للكثير من الوساوس و الضلالات؟

۲- بعد أن ارتكب الشيطان مثل تلك المعصية الكبيرة، لماذا قبل اللّه طلبه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۷

الإمهال، و تأخير الأجل؟

و قد أجبنا على السؤال الأوّل فى المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا (الأمثل) و قلنا:

أوّلا- إنّ خلق الشيطان كان فى بداية الأمر خلقا جيدا، لا عيب فيه، و لهذا احتل موقعا فى صفوف المقرّبين إلى اللّه، و بين ملائكته العظام، و إن لم يكن من جنسهم ثمّ إنّه بسوء تصرّفه فى حريته بنى على الطغيان و التمرد، فطرد من ساحة القرب الإلهى، و اختصّ باسم الشيطان.

ثانيا: إنّ وجود الشيطان ليس غير مضرّ بالنسبة سالكى طريق الحقّ فحسب، بل يعدّ رمزا لتكاملهم أيضا، لأنّ وجود مثل هذا العدوّ القوىّ فى مقابل الإنسان يوجب تربية الإنسان و تكامله و حنكته، و أساسا ينبثق كل تكامل من بين ثنايا التناقضات و التدافعات، و لا يسلك أى كائن طريق كماله و رشده إلّا إذا واجه ضدا قويا، و نقيضا معاندا.

فتكون النتيجة أنّ الشيطان و إن كان بحكم إرادته الحرّة مسئولا تجاه أعماله المخالفة، و لكن وساوسه لن تضرّ عباد اللّه الذين يريدون سلوك طريق الحقّ، بل يكون مفيدا لهم بصورة غير مباشرة.

و الجواب على السؤال الثانى يتضح ممّا قلناه فى الجواب على الاعتراض الأوّل، لأنّ مواصلة الشيطان لحياته كقضية سلبية يكون وجودها ضروريا لتقوية نقاط إيجابية، لا يكون غير مضرّ فحسب، بل هو مؤثّر و مفيد أيضا، فإنّه مع غضّ النظر عن الشيطان، هناك مجموعة من الغرائز المختلفة فى داخلنا، و هى بوقوفها فى الطرف الآخر من قوانا العقلية و الروحية تشكّلان ساحة صراح و تناقض قويّين، و فى مثل هذه الساحة يتحقق تقدم الإنسان و تكامله، و تربيته و رشده.

و استمرار حياة الشيطان- هو الآخر- لتقوية عوامل هذا التناقض المثمر المفيد.

و بعبارة أخرى: إنّ الطريق المستقيم يتميّز دائما بالالتفات إلى الطرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۸

المنحرفة حوله و لو لا هذه المقايسة و المقارنة لما أمكن تمييز الطريق المستقيم عن الطريق المنحرف.

كلّ هذا بغض النظر عن أنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث أنّ الشيطان بعد قيامه بذلك الذنب، عرّض سعادته و نجاته فى العالم الآخر للخطر بصورة كلّية، و لهذا فإنّه طلب من اللّه تعالى أن يعطيه عمرا طويلا فى هذه الدنيا فى مقابل عباداته التى كان قد أتى بها قبل ذلك، و كانت العدالة الإلهية تقتضى قبول مثل هذا الطلب.

إنّ النقطة المهمّة الأخرى التى يجب الانتباه إليها- أيضا- هى أنّ اللّه تعالى و إن كان ترك الشيطان حرّا فى القيام بوساوسه، و لكنّه من جانب آخر لم يدع الإنسان مجرّدا من الدفاع عن نفسه.

لأنّه أوّلا: وهبه قوّة العقل التى يمكن أن توجد سدّا قويا منيعا فى وجه الوساوس الشيطانية خاصّة إذا لقيت تربية صالحة.

و ثانيا: جعل الفطرة النقيّة و حبّ التكامل فى باطن الإنسان كعامل فعال من عوامل السعادة.

و ثالثا: يبعث الملائكة التى تلهم الخيرات إلى الذين يريدون أن يعيشوا بمنأى عن الوساوس الشيطانية، كما يصرّح القرآن الكريم بذلك إذ يقول: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ[۳۴۶] إنّها تنزل عليهم لتقوية معنوياتهم بإلهامهم ألوان البشارات و التطمينات لهم.

و نقرأ فى موضوع آخر: إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا[۳۴۷] و سدّدوا خطاهم فى طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۸۹

فرضية تطور الأنواع و خلقة آدم:

هل هناك تلاؤم بين ما يقوله القرآن الكريم فى خلقة آدم، مع ما هو مطروح فى فرضية الأنواع فى أبحاث العلوم الطبيعية، أو لا؟ و أساسا هل بلغت فرضية التطور و التكامل مرحلة القطعية و اليقين من وجهة نظر العلماء، أو لا؟ ...

كل هذه الأمور بحاجة إلى أبحاث مفصلة سوف نخوضها بمشيئة اللّه فى ذيل آيات أكثر تناسبا، مثل الآيات (۲۶) إلى (۳۳) من سورة الحجر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۰

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹ الى ۲۲]

اشارة

وَ يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ (۱۹) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وَ قالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ (۲۰) وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ (۲۱) فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ (۲۲)

التّفسير

وساوس شيطانيّة فى حلل خلّابة:

تبيّن هذه الآيات و تستعرض فصلا آخر من قصّة آدم، فتقول أوّلا: إنّ اللّه سبحانه أمر آدم و زوجته حواء بأن يسكنا الجنّة: يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ.

و يستفاد من هذه العبارة أنّ آدم و حواء لم يكونا فى بدء الخلقة فى الجنّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۱

إنّما خلقا أوّلا ثمّ هديا إلى السكنى فى الجنّة و أنّ القرائن تفيد- كما أسلفنا فى ذيل الآيات المتعلقة بقصة خلق آدم فى سورة البقرة- أن تلك الجنّة لم تكن جنّة القيامة، بل هى- كما ورد فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام أيضا جنّة الدنيا، أى أنّها كانت بستانا جميلا أخضر من بساتين هذا العالم، وفّر اللّه سبحانه فيها جميع أنواع النعم و الخيرات.

و فى هذه الأثناء صدر أوّل تكليف و أمر و نهى إلى آدم و حواء من جانب اللّه تعالى، بهذه الصورة: فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ أى أنّ الأكل من جميع أشجار هذه الجنّة مباح لكما، إلّا شجرة خاصّة لا تقرباها، و إلّا كنتما من الظالمين.

ثمّ إنّ الشيطان الذى طرد من رحمة اللّه تعالى بسبب إحجامه عن السجود لآدم، و كان قد صمّم على أن ينتقم لنفسه من آدم و بنيه ما أمكن، و يسعى فى إضلالهم ما استطاع، و كان يعلم جيدا أنّ الأكل من الشجرة الممنوعة تعرّض آدم للإخراج من الجنّة، عمد إلى الوسوسة لآدم و زوجته، و بغية الوصول إلى هذا الهدف نشر شباكا متنوعة على طريقهما.

ففى البدايـة- و كـان يقول القرآن الكريم- بـدأ بنزع لباس الطاعـة و العبوديـة للّه، عنهما، فأبـدى عورتهما التى كانت مخبأة مسـتورة: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما.

و للوصول إلى هـذا الهـدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يسـتغلّ حبّ الإنسان و رغبته الذاتيـة فى التكامل و الرقى و الحياة الخالـدة، و ليوفّر لهما عـذرا يعتـذران و يتوسـلان به لتبرير مخالفتهما لأمر اللّه و نهيه، و لهـذا قال لآدم و زوجته: ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ

و بهذه الطريقة صوّر الأمر الإلهى فى نظرهما بشكل آخر، و صوّر المسألة و كأنّ الأكل من «الشجرة الممنوعة» ليس غير مضرّ فحسب، بل يورث عمرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۲

خالدا أو نيل درجة الملائكة.

و الشاهد على هذا الكلام هو العبارة التى قالها إبليس فى سورة طه الآية ۱۲۰: يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى

فقد جاء فى رواية رويت فى تفسـير القمى عن الإمام الصادق عليه السّـلام، و فى «عيون أخبار الرضا» عن الإمام على بن موسـى الرضـا عليه السّلام: فجاء إبليس فقال:

«إنّكما إن أكلتما من هـذه الشـجرة التى نهاكما اللّه عنها صـرتما ملكين، و بقيتما فى الجنّـة أبدا، و إن لم تأكلا منها أخرجكما اللّه من الجنّة»[۳۴۸].

و لمـا سـمع آدم هـذا الكلام غرق فى التفكير، و لكنّ الشـيطان- من أجـل أن يحكم قبضـته و يعمّق وسوسـته فى روح آدم و حواء- توسّل بالأيمان المغلّظة للتدليل على أنه يريد لهما الخير! وَ قاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، و لم يكن قد وقع فى حبائل الشـيطان و خدعه بعد، و لم يعرف بكذبه و تضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن فى مقدوره أن يصدّق بأن يأتى بمثل هذه الايمان المغلّظة كذبا، و ينشر مثل هذا الحبائل و الشباك على طريقه.

و لهذا وقع فى حبال الشـيطان، و انخدع بوسوسته فى المآل، و نزل بحبل خداعه المهترئ فى بئر الوساوس الشيطانية للحصول على ماء الحياة الخالـدة و الملك الذى لا يبلى، و لكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياة كما ظنّ، بل سـقط فى ورطة المخالفة و العصـيان للأوامر الإلهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك و يلخصه فى عبارة موجزة إذ يقول: فَدَلَّاهُما بِغُرُورٍ[۳۴۹].

و مع أن آدم- نظرا لسابقة عداء الشيطان له، و مع علمه بحكمة اللّه و رحمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۳

الواسعة، و محبته و لطفه- كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس و يقاومها، و لا يسلّم للشيطان، إلّا أنه قد وقع ما وقع على كل حال.

و بمجرّد أن ذاق آدم و زوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس و انكشفت سوءاتهما فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما.

و يسـتفاد من العبارة أعلاه أنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمرة الشـجرة الممنوعة أصـيبا بهذه العاقبة المشؤومة، و فى الحقيقة جرّدا من لباس الجنّة الذى هو لباس الكرامة الإلهية لهما.

و يسـتفاد من هذه الآية جيدا أنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفة لم يكونا عاريين، بل كانا مسـتورين بلباس لم يرد فى القرآن ذكر عن حقيقـة ذلك اللباس و كيفيته، و لكنّه على ايّ حال كان يعـدّ علامة لشخصـية آدم و حواء و مكانتهما و احترامهما، و قد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر اللّه، و تجاهلهما لنهيه.

على حين تقول التّوراة المحرفـة: إنّ آدم و حواء كانا فى ذلك الوقت عاريين بالكامل، و لكنّهما لم يكونا يـدركان قبح العرى، و عند ما ذاقا و أكلا من الشجرة الممنوعة التى كانت شجرة العلم و المعرفة، انفتحت أبصار عقولهما، فرأيا عريهما، و عرفا بقبح هذه الحالة.

إنّ آدم الذى تصفه التّوراة لم يكن فى الواقع إنسانا، بل كان بعيدا من العلم و المعرفة جدا، إلى درجة أنّه لم يكن يعرف حتى عريه.
و لكن آدم الـذى يصـفه القرآن الكريم، لم يكن عارفا بوضـعه فحسب، بل كان واقفا على أسـرار الخلقة أيضا (علم الأسـماء)، و كان يعدّ معلّم الملائكة، و إذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله، بل استغلّ الشيطان صفاء نيّته، و طيب نفسه.
و يشـهد بهذا القول الآية (۲۷) من نفس هـذه السورة، و التى تقول: يـا بَنِى آدَمَ لا ـ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۴

و ما كتبه بعض الكتّاب المسلمين من أن آدم كان عاريا منذ البداية، فهو خطأ بيّن نشأ ممّا ورد فى التّوراة المحرفة.
و على كـل حـال فـإنّ القرآن يقول: إن آدم و حواء لمّـا وجـدا نفسـيهما عـاريين عمـدا فورا إلى ستر نفسـيهما بـأوراق الجنّـة: وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ[۳۵۰].
و فى هـذا الوقت بالذات جاءهما نداء من اللّه يقول: ألم أحذّركما من الاقتراب و الأكل من هذه الشـجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشـيطان عـدوّ لكما؟ فلما ذا تناسـيتم أمرى و وقعتم فى مثل هذه الأزمة: وَ ناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَ أَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ
من المقايسة بين تعبير هذه الآية و الآية الاولى التى أجاز اللّه فيها لآدم و حواء أن يسكنا الجنّة، يستفاد بوضوح أنّهما بعد هذه المعصية ابتعـدا عن مقام القرب الإلهى إلى درجـة أنّ أشـجار الجنّـة أيضا اضـحت بعيدة عنهما. لأنّه فى الآية السابقة تمت الإشارة إلى الشـجرة بأداة الإشارة القريبـة (هـذه الشـجرة) و أمّا فى هـذه الآية فقد اسـتعملت مضافا إلى كلمة (نادى) التى هى للخطاب من بعيد، اسـتعملت (تلكما) التى هى للإشارة إلى البعيد.

بحوث

اشارة

إنّ فى هذه الآية نقاطا لا بدّ من التوقف عندها:

۱- كيفية وسوسة الشيطان

يستفاد من عبارة (وسوس له) نظرا إلى حرف اللام (التى تأتى فى العادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۵

للفائـدة و النفع) أنّ الشـيطان كان يتخذ صـفة الناصح، و المحبّ لآدم، فى حين أن (وسوس إليه) لا ينطوى على هذا المعنى، بل يعنى فقط مجرّد النفوذ و التسلّل الخفىّ إلى قلب أحد.
و على كـل حـال يجب أن لا ـ يتصور أن الوسـاوس الشـيطانية مهمـا بغلت من القوة تسـلب الإـرادة و الإختيـار من الإنسـان، بل يمكن للإنسان- رغم ذلك- و بقوّة العقل و الإيمان أن يقف فى وجه تلك الوساوس و يقاومها.
و بعبـارة أخرى: إن الوسـاوس الشـيطانية لا تجبر الإنسان على المعصـية، بل قوّة الإرادة و حالـة الإختيار باقيـة حتى مع الوساوس، و إنّ مقاومتهـا تحتـاج إلى الاسـتقامة و الصـمود الأـكثر و ربّمـا إلى تحمّـل الألـم و العـذاب و كـذلك فـإنّ الوسـاوس الشـيطانية لا تسـلب

المسؤولية عن أحد و لا تجرّده عنها، كما نلاحظ ذلك فى آدم.

و لهذا نرى أنه رغم جميع العوامل التى حفت بآدم، و دعته إلى مخالفة أمر اللّه و نهيه، و شجعته عليها، و التى أقامها الشيطان فى طريقه، فإنّ اللّه سبحانه اعتبره مسئولا عن عمله، و لهذا عاقبه على النحو الذى سيأتى بيانه.

۲- ماذا كانت الشّجرة الممنوعة؟

جاءت الإشارة إلى الشجرة الممنوعة فى ست مواضع من القرآن الكريم، من دون أن يجرى حديث عن طبيعة أو كيفية أو اسم هذه الشجرة، و أنها ماذا كانت؟ و ماذا كان ثمرها؟ بيد أنّه ورد فى المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «مادىّ» و هو أنّها كانت «الحنطة»[۳۵۱] كما هو المعروف فى الرّوايات.

و يجب الانتباه إلى نقطة، و هى أن العرب تطلق لفظة «الشجرة» حتى على النبتة، و لهذا أطلقت- فى القرآن الكريم- لفظة الشجرة على نبتة اليقطين، إذ قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۶

سبحانه: وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۳۵۲].

و التّفسير الآخر «معنوى» و هو أنّ المقصود من تلك الشجرة- كما فى الرّوايات- هو ما عبّر عنها ب «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقا لهذه الرّوايات- بعد ملاحظة مكانته و مقامه- تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، و لا فوق مكانته مكانة، و لكن اللّه تعال أطلعه على مقام ثلة من الأولياء من ذريته و أبنائه (رسول الإسلام و أهل بيته)، فحصل عند ما يشبه الحسد، و كانت هذه هى الشجرة الممنوعة التى أمر آدم بأن لا يقربها.

و فى الحقيقة تناول آدم- طبقا لهذه الرّوايات- من شجرتين، كانت إحداهما أقلّ منه مرتبة و أدنى منه منزلة، و قد قادته إلى العالم المادى، و كانت هى «الحنطة». و الأخرى هى الشجرة المعنوية التى كانت تمثل مقام ثلة من أولياء اللّه، و الذى كان أعلى و أسمى من مقامه و مرتبته، و حيث أنّه تعدّى حدّه فى كلا الصعيدين ابتلى بذلك المصير المؤلم.

و لكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام منه، بل كان مجرّد إحساس نفسانى من دون أن تتبعه أية خطوة عملية على طبقه.

و حيث إنّ للآيات القرآنية- كما أسلفنا مرارا- معان متعدّدة، فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآية.

و من حسن الاتفاق أنّ كلمة «الشجرة» قد استعملت فى القرآن الكريم فى كلا المعنيين، فحينا استعملت فى المعنى المادى التعارف للشجرة مثل: وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ ۳۵۳] التى هى إشارة إلى شجرة الزيتون، و تارة استعملت فى الشجرة المعنوية مثل وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ التى يكون المراد منها إمّا طائفة من المشركين، أو اليهود، أو الأقوام الطاغية الأخرى مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۷

بنى أمية.

على أنّ المفسّرين أبدوا احتمالات متعددة أخرى حول الشجرة الممنوعة، و لكن ما قلناه هو الأبين و الأظهر من الجميع.

و لكن النقطة التى يجب أن نذكّر بها هنا، هى أنه وصفت الشجرة الممنوعة فى التّوراة المختلفة- المعترف بها اليوم من قبل جميع مسيحيى العالم و يهوديه- بشجرة العلم و المعرفة و شجرة الحياة[۳۵۴] تقول التّوراة: إن آدم لم يكن عالما و لا عارفا قبل أكله من شجرة العلم و المعرفة، حتى أنّه لا يعرف و لم يميّز عريه، و عند ما أكل من تلك الشجرة، و صار إنسانا بمعنى الكلمة طرد من الجنّة خشية أن يأكل من شجرة الحياة أيضا فيخلد كما الآلهة.

و هذا من أوضح القرائن الشاهدة على أنّ التّوراة الرائجة ليست كتابا سماويا، بل هى من نسيج العقل البشرى القاصر المحدود، الذى يعتبر العلم و المعرفة عيبا و شينا للإنسان، و يعتبر آدم بسبب ارتكابه معصية تحصيل العلم و المعرفة مستحقا للطرد من جنة اللّه، و كأنّ الجنّة لم تكن مكان العقلاء الفاهمين و منزل العلماء العارفين!! و لملفت للنظر أنّ الدّكتور «ويليم ميلر» الذى يعدّ من مفسرى الإنجيل القديرين و البارزين بل من مفسّرى العهدين (التّوراة و الإنجيل معا) يقول فى كتابه المسمى «ما هى المسيحية»: «إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّة فى صورة حيّة، و أقنع حواء بأن تأكل من ثمرة تلك الشجرة، ثمّ أعطت حواء من تلك الثمرة إلى آدم، فأكل منها آدم أيضا، و لم يكن فعل أبوينا الأوليين مجرّد خطأ عادى، أو غلطة ناشئة من عدم التفكير، بل كان معصية متعمّدة ضدّ الخالق، و بعبارة أخرى:

إنّ آدم و حواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهة، إنّهما لم يرغبا فى أن يطيعا اللّه، بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما و ميولهما الشخصية، فما ذا كانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۸

النتيجة؟ لقد وبّخهما اللّه تعالى بشدّة، و أخرجهما من الجنّة، ليعيشا فى عالم ملىء بالعذاب و الألم و المحنة».

لقد أراد مفسّر التّوراة و الإنجيل هذا أن يبرر شجرة التّوراة الممنوعة، و لكنّه نسب أعظم الذنوب و هو مضادة اللّه و محاربته- إلى آدم ... أمّا كان من الأفضل أن يعترف- بدل إعطاء مثل هذه التّفسيرات- بتطرّق التحريف و التلاعب إلى هذه الكتب المسماة بالكتب المقدّسة؟!

۳- هل ارتكب آدم معصية؟

يستفاد ممّا نقلناه من الكتب المقدّسة- لدى اليهود و النصارى- أنّهم يعتقدون بأن آدم ارتكب معصية، بل ترى كتبهم أن معصيته لم تكن معصية عادية، و إنما كانت معصية كبيرة و إثما عظيما، بل إن الذى صدر عن آدم هو مضادة اللّه و الطموح فى الألوهية و الربوبيّة، و لكن المصادر الإسلامية- عقلا و نقلا- تقول لنا: إنّ الأنبياء لا يرتكبون إثما، و إنّ منصب إمامة الناس و هدايتهم لا يعطى لمن يرتكب ذنبا و يقترف معصية. و نحن نعلم أن آدم كان من الأنبياء الإلهيين، و على هذا الأساس فإنّ كل ما ورد فى هذه الآيات مثل غيرها من التعابير التى جاءت فى القرآن حول سائر الأنبياء الذين نسب إليهم العصيان، جميعها تعنى «العصيان النسبى» و «ترك الأولى» لا العصيان المطلق.

و توضيح ذلك: أن المعصية على نوعين: «المعصية المطلقة» و «المعصية النسبية»، و المعصية المطلقة هى مخالفة النهى التحريمى، و تجاهل الأمر الإلهىّ القطعىّ، و هى تشمل كلّ نوع من أنواع ترك الواجب و إتيان الحرام.

و لكن المعصية النسبية هى أن يصدر من شخصية كبيرة عمل غير حرام لا ـ يناسب شأنه و لا يليق بمقامه، و ربّما يكون إتيان عمل مباح- بل و مستحب- لا يليق بشأن الشخصيات الكبيرة، و فى هذه الصورة يعدّ إتيان ذلك العمل «معصية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۵۹۹

نسبية»، كما لو ساعد مؤمن واسع الثراء فقيرا لإنقاذه من مخالب الفقر بمبلغ تافه، فإنّه ليس من شك فى أنّ هذه المعونة المالية مهما كانت صغيرة و حقيرة لا تكون فعلا حراما، بل هى أمر مستحب، و لكن كل من يسمع بها يذم ذلك الغنى حتى كأنّه ارتكب معصية و اقترف ذنبا، و ذلك لأنّه يتوقّع من مثل هذا الغنى المؤمن أن يقوم بمساعدة أكبر.

و انطلاقا من هذه القاعدة و على هذا الأساس تقاس الأعمال التى تصدر من الشخصيات الكبيرة بمكانتهم و شأنهم الممتاز، و ربّما يطلق على ذلك العمل- مع مقايسته بذلك- لفظ «العصيان» و «الذنب».

فالصّلاة التى يقوم بها فرد عادى قد تعتبر صلاة ممتازة، و لكنّها تعدّ معصية إذا صدر مثلها من أولياء اللّه، لأن لحظة واحدة من الغفلة

فى حـال العبـادة لا تناسب مقامهم و لا تليق بشأنهم. بل نظرا لعلمهم و تقواهم و منزلتهم القريبـة يجب أن يكونوا حال عبادة اللّه تعالى مستغرقين فى صفات اللّه الجمالية و الجلالية، و غارقين فى التوجه إلى عظمته و حضرته.

و هكـذا الحال فى سائر أعمالهم، فإنّها على غرار عباداتهم، يجب أن تقاس بمنازلهم و شؤونهم، و لهـذا إذا صدر منهم «ترك الأولى» عوتبوا من جانب اللّه، و المراد من ترك الأولى، هو أن يترك الإنسان فعل ما هو الأفضل، و يعمد إلى عمل جيد أو مستحبّ أدنى منه فى الفضل.

فإنّنـا نقرأ فى الأحاديث الإسـلامية أن ما أصـيب به يعقوب من محنـة فراق ولـده يوسف، كان لأجل غفلته عن إطعام فقير صائم وقف على باب بيته عند غروب الشمس يطلب طعاما، فغفل يعقوب عن إطعامه، فعاد ذلك الفقير جائعا منكسرا خائبا.

فلو أنّ هـذا الصـنيع صـدر من إنسان عادى من عامّـة الناس لما حظى بمثل هـذه الأهمية و الخطورة، و لكن يعدّ صدوره من نبىّ إلهىّ كبير، و من قائد أمّة أمرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۰

مهمّا و خطيرا استتبع عقوبة شديدة من جانب اللّه تعالى ۳۵۵].

إنّ نهى آدم عن الشـجرة الممنوعة لم يكن نهيا تحريميا، بل كان ترك أولى، و لكن نظرا إلى مكانة آدم و مقامه و مرتبته عدّ صدوره أمرا مهما و خطيرا، و استوجب مخالفة هذا النهى (و إن كان نهيا كراهيا و تنزيهيا) تلك العقوبة و المؤاخذة من جانب اللّه تعالى.

هذا و قد احتمل بعض المفسّـرين- أيضا- أنّ نهى آدم عن الشجرة الممنوعة كان «نهيا إرشاديا» لا نهيا مولويا، و توضيح ذلك: أنه قد ينهى اللّه تعالى عن شـىء من منطلق كونه مالك الإنسان و صاحب أمره و مولاه، و طاعة هذا النوع من النهى واجبة على كل أحد من الناس، و هذا النوع من النهى يسمى نهيا مولويا.

و لكنّه قـد ينهى عن شـىء لمجرّد أن ينبه الإنسان على أن ارتكاب هـذا النهى ينطوى على أثر غير محمود تماما، مثل نهى الطبيب عن الأطعمـة المضّـرة، و لا ـ شـك فى أنّ المريض لو خالف الطبيب لا يكون قـد أهان الطبيب، و لا أنّه خالف شـخصه، بل يكون بتجاهله نهى الطبيب قد تجاهل إرشاده، و جرّ إلى نفسه التعب و النصب.

و فى قصـة آدم أيضا قال اللّه تعالى له: إنّ نتيجـة الأكل من الشـجرة الممنوعـة هى الخروج من الجنّة، و الوقوع فى التعب و النصب، و كان هذا مجرّد إرشاد و ليس أمرا، و بهذا فإنّ آدم خالف نهيا إرشاديا فقط، لا أنّه أتى عصيانا و ذنبا واقعيا.

و لكن التّفسـير الأـوّل أصـحّ، لأنّ النهى الإرشادىّ لا يحتاج إلى مغفرة، فى حين أنّ آدم- ما سـنقرأ فى الآيـة اللاحقـة- يطلب من اللّه تعالى الغفران، هـذا مضافا إلى أنّ فترة الجنّة كانت تعدّ فترة تدريبية و تعليمية بالنسـبة لآدم ...، فترة الوقوف على التكاليف و الأوامر و النواهى الإلهية ... فترة معرفة الصّديق و العدو ... فترة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۱

الوقوف على نتائـج العصـيان و ثمرة مخالفـة الأـمر الإـلهى و اتبـاع الشـيطان و قبول وساوسه، و نحن نعلم أنّ النهى الإرشادى ليس فى حقيقته تكليفا، و لا ينطوى على تعهّد، و لا يورث مسئولية.

و فى خاتمـة هـذا البحث نـذكّر القارئ بأنّ كلمـة «النهى» و «العصـيان» و «الغفران» و «الظلم» تبـدو فى بادئ النظر و كأنها تعطى معنى المعصـية المطلقة و الذنب الحقيقى و آثاره، و لكن نظرا لمسألة عصـمة الأنبياء الثابتة بالدليل العقلى و النقلى تحمل جميع هذه التعابير على «العصيان النسبىّ» و هذا الأمر لا يبدو بعيدا عن ظاهر اللفظ بالنظر إلى منزلة آدم و سائر الأنبياء العظيمة و سموّ مقامه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۲

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳) قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۲۴) قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ (۲۵)

التّفسير

رجوع آدم إلى اللّه و توبته:

و فى المآل عند ما عرف آدم و حواء بكيد إبليس، و خطّته و مكره الشيطانى، و رأيا نتيجة مخالفتهم فكرا فى تلافى ما فات، و جبران ما صدر منهما، فكانت أوّل خطوة خطياها هى: الاعتراف بظلمهما لنفسيهما أمام اللّه: قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و الخطوة الأولى فى سبيل التوبة و الإنابة إلى اللّه و إصلاح المفاسد هى: أن ينزل الإنسان عن غروره و لجاجه، و يعترف بخطئه اعترافا بنّاء واقعا فى سبيل التكامل.

و الملفت للنظر أن آدم و حواء يظهران أدبا كبيرا مع اللّه فى توبتهما و طلبهما العفو و الغفران منه تعالى فلم يقولا- ربنا اغفر لنا، بل يقولان: إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۳

وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و لا شك أنّ مخالفة أوامر اللّه و نواهيه ظلم يورده الإنسان على نفسه، لأنّ جميع البرامج و الأوامر الإلهية تهدف إلى خير الإنسان، و تتكفل سعادته و تقدمه، و على هذا الأساس فإنّ أية مخالفة من جانب الإنسان تكون مخالفة لتكامل نفسه، و سببا لتأخرها و سقوطها، و آدم و حواء و إن لم يذنبا و لم يرتكبا معصية، و لكن نفس هذا الترك للأولى أنزلهما من مقامهما الرفيع، و استوجب حطّ منزلتهما.

إنّ توبة آدم و حواء الخالصة و إن قبلت من جانب اللّه تعالى- كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۷) من سورة البقرة فَتابَ و لكنّهما لم يستطيعا على كل حال التخلص من الأثر الوضعى و النتيجة الطبيعة لعملهما، فقد أمرا بمغادرة الجنّة، و شمل هذا الأمر الشيطان أيضا:

قالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ

كما ذكّر الجميع بأنّهم سيتعرضون فى الأرض للموت بعد الحياة، ثمّ يخرجون من الأرض مرّة أخرى للحساب قالَ فِيها تَحْيَوْنَ وَ فِيها تَمُوتُونَ وَ مِنْها تُخْرَجُونَ

و الظاهر أن المخاطبين فى هذه الآية: قُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ هم آدم و حواء و إبليس جميعا، و لكن لا يبعد أن يكون المخاطبين فى الآية اللاحقة هم آدم و حواء فقط لأنّهما هما اللذان يخرجان من الأرض.

قصّة آدم و مستقبل هذا العالم:

إن ببعض المفسّرين الذين تأثروا بموجة الأفكار الغربية الإلحادية عادة، و حاولوا أن يضفوا على قصّة آدم و حواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه و الكناية و المجازية، أو ما يسمّى الآن بالرمزية، و يحملوا جميع الألفاظ المتعلقة بهذه الحادثة- على خلاف الظاهر- على الكناية عن المسائل المعنوية.

و لكن الـذى لا شك فيه أن ظاهر هـذه الآيات يحكى عن حادثة واقعية عينية وقعت لأبينا و أمنا الأوّلين: آدم و حواء، و حيث أن هذه القصّة لا تتضمن أية نكتة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۴، ص: ۶۰۴

غير قابلـة للتفسـير حسب الظاهر، كما ليس فيها ما يخالف الموازين العقليـة (ليكون قرينـة على حملها على المعنى الكنائى) لهـذا ليس هناك أى دليل على أن نعرض عن ظاهر الآيات، و لا نحملها على معناها الحقيقى.

و لكن مع ذلك يمكن أن تحمل هذه الحادثة الواقعية الحسية إشارات إلى حياة النوع البشرى فى مستقبل هذه العالم.

يعنى أنّ الإنسان المركب من قوّة «العقل» و من «الغرائز الجامحة» و التى تجرّه كل واحدة منهما إلى جهة و ناحية يواجه فى خضم هذه الحياة الصاخبة دعاة كذّابين أصحاب سوابق سيئة مثل الشيطان، يحاولون بوساوسهم المتواصلة إلقاء الستار و الحجاب على عقله بغية عزله عنه، و بغية خداعه و إضلاله و تركه حائرا فى متاهات الحياة يبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتيجة للاستسلام أمام الوساوس هو انهيار حاجز التقوى، و سقوط لباسه، و انكشاف مساوئه و سوءاته.

و الأـخرى هى الابتعاد عن مقام القرب إلى اللّه، و سـقوط الإنسان عن مقام الإنسانيـة الكريم، و الإخراج من جنـة الأمن و الطمأنينـة، و الوقوع فى دوامة الحياة المادية المضنية.

و فى هـذه الحالـة يمكن لقوّة العقل- أيضا- أن تساعد الإنسان و تعينه على النهوض من كبوته، فيفكر فورا فى تلافى ما فاته، و جبران ما بـدر منه، فيبعثه العقل و التفكير إلى أن يعود إلى اللّه كى يعترف بكل شـجاعة و صـراحة بذنوبه، اعترافا بناء واعيا مفيدا يعدّ منعطفا فى حياته.

و فى هذا الوقت تمتد إليه يد الرحمة الإلهية مرّة أخرى، و تنقذه و تخلصه من السقوط الأبدىّ، و إن كان لا يستطيع مع ذلك التخلص من آثار معصـيته الوضعية و نتائجها الطبيعية مهما كانت قليلة و محدودة. و لكن هذه الحادثة ستكون له درسا و عبرة، و سيمكنه ذلك من أن يتخـذ من هـذه الهزيمـة قاعدة صـلبة لانتصاره فى مسـتقبل الحياة، و يسـتفيد من هذا الضـرر نفعا كبيرا فى المراحل القادمة من حياته.

---

[۱] (۱)- ذكرت الرّوايات التى جاء بها(البيهقى) فى الجزء الثامن من سـننه، ص ۲۶۶ أن علماء اليهود حين قـدموا إلى النّبى كانوا قد جلبوا معهم الرجل و المرأة الزانيين.

[۲] (۱)- المنار، ج ۶، ص ۳۸۸.

[۳] (۱)- فى التّفسير الأوّل تكون اللاء فى عبارة(للكذب) لام التعليل بينما فى التّفسير الثّانى فهى لام التعدية.

[۴] (۲)- تحدثنا عن أساليب التحريف التى اتبعها اليهود فى تفسير الآية(۱۳) من نفس هذه السورة.

[۵] (۱)- تعنى كلمـة(سـحت) فى الأصـل نزع القشـرة، أو شـدّة الجوع، ثمّ أطلقت على كل مال غير مشـروع، أى محرم، و بالأخص الرشوة، لأن مثل هذه الأموال تنزع الصـفاء و المودة عن المجتمع و تزيل عنه البركة و الرخاء مثلما يؤدى نزع قشر الشجرة إلى ذبولها و جفافهـا و على هـذا الأسـاس فإن لكلمـة(سـحت) معنى واسـعا، و إذا ورد فى بعض الرّوايات مصـداق خاص لها فلا يـدل ذلك على اختصاص الكلمة بذلك.

[۶] (۱)- لقـد تطرقنا إلى معنى كلمـة(ربانى) و مصدرها لدى تفسـير الآية(۸۰) من سورة آل عمران، أمّا كلمـة(أحبار) فهى صـيغة

جمع من(حبر) علی وزن(فکر) فهی تعنی کل أثر خیر، أطلقت علی المفکرین الـذین یخلفون أثارا خیرة فی مجتمعهم، و یطلق أیضـا علی حبر الدواة الذی یستعمل للکتابة لما فیه من أثر خیر.

[۷] (۱)- تفسیر القرطبی، الجزء الثّالث، ص ۲۱۸۸.

[۸] (۱)- لقد أورد الکثیر من المفسّرین احتمالا آخر، و هو أن الضـمیر الوارد فی کلمة« له» یعود علی شـخص الجانی، بحیث یصبح المعنی أن الـذی یتنـازل عن حقه یرفع بـذلک القصـاص عن الجـانی و یکون ذلک کفارة لعمل الجانی، إلّا أن ظاهر الآیـة یـدل علی التفسیر الذی أشرنا إلیه أعلاه.

[۹] (۲)- نور الثقلین، الجزء الأول، ص ۶۳۷.

[۱۰] (۱)- المائدة، ۴۴.

[۱۱] (۲)- المائدة، ۱۵.

[۱۲] (۳)- راجع کتـابی« الهـدی إلی دین المصـطفی» و« أنیس الأعلام» لمعرفـة تفاصـیل التحریـف الـوارد فی الإنجیـل و الـدلائل التأریخیة علی ذلک.

[۱۳] (۱)- إنّ الحقیقـة التی أکّدها الکثیر من المفسّرین هی أنّ جملة« قلنا» تکون مقدرة هنا فی هذه الآیة حیث یصـبح مفهوم الآیة کما یلی:« قلنا لیحکم أهل الإنجیل ...».

[۱۴] (۱)- یعتقـد البعض من کبار المفسّرین بوجود فرق بین« الـدّین» و« الشـریعة» و یقولون بأنّ الـدین هو مبـدأ التوحیـد و المبادئ الأخری المشترکـة بین جمیع الـدیانات، لـذلک یکون الـدین واحـدا فی کل الأحوال و الأزمنـة، و الشـریعة هی القوانین و الأحکام و التعالیم التی تختلف أحیانا بین دیانة و أخری لکنّنا لا نمتلک- أیضا- دلیلا واضـحا یؤید هذا القول، لأن هاتین الکلمتین استخدمتا فی الکثیر من الموارد للدلالة علی معنی واحد.

[۱۵] (۱)- تفسیر المنار، ج ۶، ص ۴۲۱.

[۱۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۴۰.

[۱۷] (۱)- إنّ کلمة(دائرة) مشتقة من المصدر(دور) أی الشیء الذی یکون فی حالة دوران، و بما أن القدرات المادیة و الحکومات هی فی حالـة دوران دائم علی طول التّأریـخ، لـذلک یقال لها(دائرة) کما تطلق هذه الکلمة- أیضا- علی أحداث الحیاة المختلفة التی تدور حول الأشخاص.

[۱۸] (۱)- فی هذه الآیة تکون کلمة« هؤلاء» مبتدأ و خبرها جملة« الذین أقسموا باللّه» أمّا جملة« جهد إیمانهم» فهی مفعول مطلق.

[۱۹] (۱)- و قـد ورد فی تفسـیر(البرهـان) و(نور الثقلین) العدیـد من الرّوایـات، منقولـة عن أئمّـة أهل البیت علیهم السّـلام فی هـذا المجال، کما نقل(الثعلبی) و هو أحد علماء السنة هذه الرّوایات(راجع کتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۲۰۰).

[۲۰] (۲)-

\i\i مجمع البیان، ج ۳، ص ۲۰۸- نور الثقلین، ج ۱، ص ۶۴۲- أبو نعیم الأصفهانی فی الحلیة، ج ۶، ص ۶۴ نقلوا هذا الحدیث علی الوجه التالی\E:« لو کان العلم منوطا بالثریا لتناوله رجال من أبناء فارس\»E

أمّا

\i\i ابن عبـد البر فقـد نقل الحدیث علی الصورة التّالیة\E:« لو کان الدین عند الثریا لناله سـلمان\ ...»i و ذلـک فی الإستیعاب، ج ۲، ص ۵۷۷.\E\E

[۲۱] (۱)- تفسـیر الطبری، ج ۶، ص ۱۸۴- إلّـا أنّ بعض الرّوایات ذکرت فقط« قوم أبی موسـی» للإشارة إلی أهل الیمن الـذین هبوا لنصـرة الإسـلام فی أحرج اللحظات، و استثنی أبو موسی تلمیحا إلی قومه، بینما تصرح الرّوایات الأخری بأن(سلمان الفارسی) و قومه

هم المشمولون بهذه الآية.

[۲۲] (۱)- تفسير مجمع البيان: ج ۲، ص ۲۱۰، فى ذيل الآية البحوثة.

[۲۳] (۱)- راجع كتاب إحقاق الحق، ج ۲، ص ۳۰۹- ۴۱۰.

[۲۴] (۲)- راجع كتاب(المراجعات) للسيد عبد الحسين شرف الدين، ص ۱۵۵.

[۲۵] (۳)- منهاج البراعة، ج ۲، ص ۳۵۰.

[۲۶] (۴)- راجع كتاب إحقاق الحق، ج ۲، و كتاب(الغدير) ج ۲، و كتاب المراجعات للاطلاع على تفاصيل أكثر بهذا الشأن.

[۲۷] (۱)- مريم، ۵.

[۲۸] (۲)- الغدير، ج ۱، ص ۱۹۶.

[۲۹] (۱)- عن كتاب(منهاج البراعة)، ج ۲، ص ۳۶۳.

[۳۰] (۱)- جاءت هذه الرواية مرسلة فى تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۸۵.

[۳۱] (۱)- اختلف المفّسرون فى الضمير الوارد فى كلمة(اتّخذوها) هل يعود إلى الصّلاة أو إلى النداء و تفيد أسباب النّزول- التى أشير إليها سابقا- صحة الاحتمالين، لأنّ المنافقين و الكفار كانوا يستهزئون بالآذان و الصّلاة معا، لكن ظاهر الآية يعزز الاحتمال الأوّل، أى أن الضمير يعود على الصّلاة.

[۳۲] (۱)- الوسائل: ج ۵، ص ۳۷۶، باب ۲، ح ۲۱.

[۳۳] (۲)- صاحب هذا القول« كلودستون» الذى يعتبر من السياسيين المتفوقين فى عصره.

[۳۴] (۱)- تفسير القرطبى.

[۳۵] (۲)- الوسائل، ج ۴، ص ۶۱۲.

[۳۶] (۱)- إنّ كلمة« تنقمون» مشتقة من المصدر« نقمة» و تعنى فى الأصل إنكار شىء معين نطقا أو فعلا كما تأتى بمعنى إيقاع العقاب أو الجزاء.

[۳۷] (۱)- إن كلمة(مثوبة) و كذلك كلمة(ثواب) تعنيان- فى الأصل- الرجوع أو العودة إلى الحالة الأولى، كما تطلقان- أيضا- لتعنيا المصير و الجزاء(الأجر أو العقاب) لكنهما فى الغالب تستخدمان فى مجال الجزاء الحسن، و أحيانا تستخدم كلمة(الثواب) بمعنى العقاب و فى الآية جاءت بمعنى المصير أو العقاب.

[۳۸] (۱)- إنّ كلمة(سواء) تعنى فى اللغة(المساواة و الاعتدال و التساوى) و ان وجه تسمية الصراط المستقيم فى الآية\i: سَواءِ السَّبِيلِ E لأنّ جميع أجزاء هذا الطريق مستوية و لأن طرفيه متساويان و ممهدان، كما تطلق هذه التسمية على كل طريقة تتسم بالاعتدال و تخلو من الانحراف، و يجب الانتباه هنا- أيضا- إلى أن عبارة\i عَبَدَ الطَّاغُوتَ E عطف على جملة\i مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ E و كلمة(عبد) فعل ماض و ليست صيغة جمع لعبد مثلما احتمله البعض من المفسّرين و إطلاق تسمية\i عَبَدَ الطَّاغُوتَ E على أهل الكتاب، إمّا أن يكون إشارة إلى عبادة العجل من قبل اليهود، أو إشارة إلى انقياد أهل الكتاب الأعمى لزعمائهم و كبارهم المنحرفين.

[۳۹] (۱)- لقد بيّنا معنى(السحت) فى تفسير الآية(۴۲) من هذه السورة، و شرحنا معنى(يسارعون) فى تفسير الآية(۴۱) من هذه السورة أيضا، فى هذا الجزء.

أمّا كلمة(إثم) فقد شرحنا معانيها فى تفسير الآية(۲۱۹) من سورة البقرة، فى المجلد الأوّل.

[۴۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۹.

[۴۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۴۹، تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۸۶.

[۴۲] (۱)- عبارة« بلّغ» كما يقول الراغب فى« المفردات» أكثر توكيدا من« أبلغ».

[۴۳] (۱)- قیل أنّ عددهم ۹۰ ألفا، و قیل ۱۲۰ ألفا، و قیل ۱۲۴ ألفا.

[۴۴] (۱)- نقل هـذه الأبیات جمع من کبار علماء أهل السـنة، منهم: الحافظ أبو نعیم الأصـفهانی، و الحافظ أبو سـعید السجسـتانی، و الخوارزمی المالکی، و الحافظ أبو عبد اللّه المرزبانی، و الکنجی الشافعی، و جلال الدین السیوطی، و سبط بن الجوزی، و صدر الدین الحموی، و غیرهم.

[۴۵] (۱)- وردت هذه العبارة فی روایات کثیرة.

[۴۶] (۲)- هـذا القسم من الحـدیث یعرف بحـدیث« التهنئـة» و قـد أورده کثیر من کبار علماء الحـدیث و التّفسـیر و التّأریخ من أهل السـنة، عن طریق عـدد من الصـحابة، مثل: ابن عباس، و أبی هریرة، و البراء بن عازب، و زیـد بن أرقم. و قد نقل العلّامة الأمینی رحمه اللّه هذا الحدیث فی المجلد الأوّل من کتابه« الغدیر» عن ستین عالما من علماء أهل السنة!.

[۴۷] (۳)-« حدیث الثقلین» من الأحادیث المتواترة التی وردت فی کتب أهل السـنة عن جمع من الصحابة، منهم: أبو سعید الخدری، و زیـد بن أرقم، و زیـد بن ثـابت، و أبو هریرة، و حذیفـة بن أسـید، و جـابر بن عبـد اللّه الأنصاری، و عبـد اللّه بن حنطب، و عبـد بن حمید، و جبیر بن مطعم و ضمرة الأسلمی، و أبو ذر الغفاری، و أبو رافع، و أم سلمة، عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۴۸] (۱)- المجلد الأوّل، ص ۵۵ و ۵۸.

[۴۹] (۲)- مسند أحمد، المجلد الأول، الصفحات ۸۴ و ۸۸ و ۱۱۸ و ۱۱۹ و ۱۵۲ و ۳۳۱ و ۲۸۱ و ۳۷۰.

[۵۰] (۱)-« المناقب»، ص ۲۱۷.

[۵۱] (۱)-« فلا تأس» من الأسی، بمعنی الغم و الحزن.

[۵۲] (۲)- الصابئون هم أتباع یحیی أو نوح أو إبراهیم، و قد ذکرناهم بتفصیل أکثر فی المجلد الأول.

[۵۳] (۱)- فی الواقع و کما جاء فی تفسیر« مجمع البیان» و فی غیره إنّ عبارة،« فریقا کذبوا و فریقا یقتلون» فی الأصل« کذبوا و قتلوا» و« یکذبون و یقتلون».

[۵۴] (۱)- للمزید من توضیح التثلیث و الوحدة فی التثلیث أنظر المجلد الثالث من هذا التّفسیر.

[۵۵] (۲)-« الأقنوم» بمعنی الأصل و الذات، جمعها« أقانیم».

[۵۶] (۱)- ورد فی بعض الرّوایات، و کذلک بعض التواریخ أنّ بین المسیحیین أقلیة لا تؤمن بالتثلیث، بل یعتقدون اتحاد عیسی باللّه، و لکننا لا نری لهؤلاء فی هذا العصر اسم و لا رسم.

[۵۷] (۱)- الإفک: کل مصـروف عن وجهه الـذی یحق أن یکون علیه، و المأفوک: المصـروف عن الحقّ، و إن کان عن تقصـیره، و من هنا یسمّی إفکا، لأنّه یصد الإنسان عن الحقّ.

[۵۸] (۱)-« لا ـ تغلو» من مـادة« الغلو» و هی بمعنی تجـاوز الحـدّ، إلّـا أنّهـا تسـتعمل للإشـارة تجـاوز الحـدّ بالنسـبة لمقام شـخص من الأشخاص و منزلته، و بالنسبة للأسعار و تستعمل کلمة« الغلاء» و« غلو» السهم علی وزنه« دلو» ارتفاعه و تجاوزه مداه، و فی الماء یقال« غلیـان» و« الغلواء» جموح فی الحیوان، و هی جمیعـا من أصـل واحـد، و یری بعضـهم أن الغلو یعنی الإفـراط و التفریـط معا، و یحصـر بعضهم معناه بالتفریط فقط، و یقابله التقصیر.

[۵۹] (۱)- تفسیر(مجمع البیان) لهذه الآیة، و فی تفسیر القرطبی، ج ۴، ص ۲۲۵۰ حدیث مشابه منقول عن الترمذی.

[۶۰] (۲)- تفسیر البرهان: ج ۱، ص ۴۹۲، و تفسیر نور الثقلین: ج ۱، ص ۶۶۱.

[۶۱] (۱)-(مجمع البیان) فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۶۲] (۱)-« القسیس» تعریب لکلمة سریانیة تعنی الزعیم و الموجه الدینی عند المسیحیین.

[۶۳] (۱)-« أثابهم» من الثواب، و هی فی الأصل بمعنی العودة و ما یرجع إلی الإنسان من جزاء أعماله.

[۶۴] (۱)- ما ذکر أعلاه فی سبب النّزول، قسم منه مأخوذ من تفسیر علی بن إبراهیم، و قسم من تفسیر مجمع البیان و تفاسیر أخری.

[۶۵] (۱)- فی معنی« الحلال» و« الطیب» أنظر المجلد الأول من هذا التفسیر.

[۶۶] (۱)-« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۶۶ و تفسیر« البرهان»، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۶۷] (۲)- ثمّة حدیث بهذا الشأن عن الإمام الباقر علیه السّلام أو الإمام الصادق علیه السّلام أنظر تفسیر« البرهان»، ج ۱، ص ۴۹۶.

[۶۸] (۱)- تفسیر« المنار»، ج ۷، ص ۵۰.

[۶۹] (۲)- نفس المصدر، ج ۷، ص ۵۱.

[۷۰] (۱)- انظر المجلد الثّالث، من هذا التّفسیر بشأن الأنصاب و النصیب.

[۷۱] (۲)- هامش تفسیر الطبری، ج ۷، ص ۳۱، و قد جاء هذا الحدیث فی تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۹ عن الإمام الصادق علیه السّلام.

[۷۲] (۳)- انظر شرح کیفیة الأزلام فی المجلد الثالث من هذا التّفسیر.

[۷۳] (۱)- کتاب« ندوة الکحول»، ص ۶۵.

[۷۴] (۲)- کتاب« ندوة الکحول»، ۶۵.

[۷۵] (۳)- تفسیر الطنطاوی، ج؟، ۱۶۵.

[۷۶] (۴)- دائرة المعارف فرید و جدی، ج ۳، ص ۷۹۰.

[۷۷] (۵)- الآفات الاجتماعیة فی قرننا، ص ۲۰۵.

[۷۸] (۶)- مجموعة منشورات الجیل الجدید.

[۷۹] (۷)- ندوة الکحول، ص ۶۶.

[۸۰] (۱)- ندوة الکحول، ص ۶۶.

[۸۱] (۱)- تطلق کلمة عام« الطعام» علی المأکولات غالبا، و لکنّها قد تطلق علی المشروبات أیضا، کما جاء فی الآیة(۲۴۹) من سورة البقرة\:i فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَیْسَ مِنِّی وَ مَنْ لَمْ یَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّی E.

[۸۲] (۱)- فی« مفردات الراغب» أنّ« وبال» من« الوبل و الوابل» و هو المطر الغزیر، ثمّ أطلق علی العمل الشاق الجسیم، و لمّا کان العقاب شدیدا و ثقیلا عادة، فقد وصف بأنّه« و بال».

[۸۳] (۱)-« وسائل الشیعة» ج ۵، ص ۷۵.

[۸۴] (۱)- مرّ ذکر الأشهر الحرم فی تفسیر الآیة(۱۹۴) من سورة البقرة، ارجع إلی المجلد الثّانی من هذا التّفسیر.

[۸۵] (۱)-« سفینة البحار»، ج ۲، ص ۴۸۲.

[۸۶] (۲)-« نهج البلاغة»، الخطبة القاصعة، رقم ۱۹۲.

[۸۷] (۱)- تفسیر« مجمع البیان» و تفسیر« الدر المنثور» و« المنار» فی ذیل الآیة المذکورة مع بعض الاختلاف.

[۸۸] (۲)- النحل، ۴۳.

[۸۹] (۱)-« مجمع البیان»، ذیل الآیة المذکورة.

[۹۰] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۸۴.

[۹۱] (۱)- تفسیر« المیزان»، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۹۲] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۶۸۴.

[۹۳] (۱)- العنکبوت، ۴۵.

[۹۴] (۱)- على هـذا يكون إعراب« آخران» مبتـدأ، و جملـة« يقومـان مقامهما» خبر، و« أوليان» فاعل« استحقا» و« من الـذين» أى من ورثة الميت الذين وقع عليهم الظلم، و الجار و المجرور صفة« آخران»« تأمل بدقّة».

[۹۵] (۱)- يتّضح من هذا أن i يَوْمَ\ ...E مفعول به لفعل محذوف تفسيره الآية السابقة و تقدير« اتقوا يوم».

[۹۶] (۱)-i وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ\ ...E.

[۹۷] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۴۲۸.

[۹۸] (۱)-« الهدى إلى دين المصطفى»، ج ۲، ص ۲۳۹.

[۹۹] (۲)- نفس المصدر.

[۱۰۰] (۱)- إطلاق كلمة« نفس» على اللّه لا يعنى الروح، فمن معانى النفس الذات.

[۱۰۱] (۲)- فى معنى« توفى» و كونها لا تعنى موت المسيح عليه السّلام أنظر ذيل الآية(۵۵) من سورة آل عمران فى المجلد الثّانى.

[۱۰۲] (۱)- تفسير« المنار»، ج ۷، ص ۲۶۳.

[۱۰۳] (۱)-« يعدلون» من« عدل» على وزن« حفظ» بمعنى التساوى، و هى هنا بمعنى(العديل) أى الشريك و الشبيه و المثيل.

[۱۰۴] (۱)- تفسير« نور الثقلين» ج ۱، ص ۷۰۱.

[۱۰۵] (۱)- الأعراف، ۳۴.

[۱۰۶] (۲)- تفسير« نور الثقلين»، ج ۱، ص ۵۰۴.

[۱۰۷] (۱)- ثمّة اختلاف بين المفسّرين حول إعراب هـذه العبارة القرآنيـة و الظاهر أنّ« هو» مبتـدأ و« اللّه» خبر. وi\ فِي السَّماواتِ ...E\ جار و مجرور متعلقان بفعل تدل عليه كلمة« اللّه» و التقدير:(هو المتفرد فى السموات و الأرض بالألوهية).

[۱۰۸] (۱)- كلمة« آية» نكرة، و وردت فى سياق النفى، فيكون المعنى: إنّهم يعرضون عن كل آية و لا يفكرون فيها.

[۱۰۹] (۱)-« المـدرار» فى الأصل من« در» اللبن، ثم انتقل إلى ما يشـبهه فى النزول كالمطر و الكلمـة صـيغة مبالغـة، و جملة« أرسـلنا السماء» للزيادة فى المبالغة.

[۱۱۰] (۱)- العلق، ۶ و ۷.

[۱۱۱] (۱)- الضـمير« جعلنـاه» يمكن أن يعود على الرّسول، أو على من يرسـل معه لإعـانته على تثبيت النبوة و على الاحتمـال الثّانى يكون اقتراحهم قد تحقق، و على الأوّل قد تحقق أكثر ممّا طلبوه.

[۱۱۲] (۲)-« حاق» بمعنى أحاط به و حل به، وi\« ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ»E\ أى ما كانوا يستهزئون به من تهديد و إنذار يسمعونه من أنبياء اللّه مثل إنـذار نوح و قومه بوقوع الطوفان، فكان قومه من عبـدة الأصـنام يسـخرون من ذلك. و عليه فلا ضـرورة لتقـدير كلمـة« جزاء» كما يقول بعضهم، إذ يكون المعنى: العقوبات التى كانوا يستهزئون بها حلت بهم.

[۱۱۳] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى و تفسير« مجمع البيان» فى ذيل تفسير الآية.

[۱۱۴] (۱)- جملةi\ إِنِّي أُمِرْتُ\ ..E من قبيل الخطاب غير المباشـر، و جملة« و لا تكونن» خطاب مباشر، و لعل هذا الانتقال يقصد به القول بأنّ الابتعاد عن الشـرك و اسـتنكاره أهم بكثير من أن يكون المرء أول المسلمين، و لذا جاء موضوع تجنب الشرك فى خطاب مباشر و مؤكد بنون التوكيد الثقيلة.

[۱۱۵] (۱)- يلاحظ أنّ تركيب عبارة الآيـة يقتضـى أن تأتى جملة« أخاف» بعد جملة« إن عصـيت ربى» لأنّها جواب الشـرط، غير أنّ تقديمها يفيد التأكيد على عظم إحساس رسول اللّه بالمسؤولية أمام أوامر اللّه تعالى.

[۱۱۶] (۱)-« الضـر» هو كـل نقيصـة يتعرض لهـا الإنسـان إمّـا فى الجسم مثـل نقص عضو و المرض، و إمّـا فى النفس مثـل الجهل و السفاهة و الجنون، و إمّا فى أمور أخرى مثل ذهاب المال أو المقام أو الأبناء.

[۱۱۷] (۱)- تفسیر« المیزان» ج ۷، ص ۳۴.

[۱۱۸] (۲)- الأعراف، ۱۲۷.

[۱۱۹] (۱)- تفسیر« البرهان»، و تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۰۷ ذیل الآیة.

[۱۲۰] (۲)- تفسیر« المنار»، ج ۷، ص ۳۴۱.

[۱۲۱] (۱)- البقرة، ۱۱۴.

[۱۲۲] (۲)- البقرة، ۱۴۰.

[۱۲۳] (۱)- إذا أخذناها علی إنّها بمعنی الاعتذار و الجواب، فلا حاجة فیهما للتقدیر، أمّا إذا أخذت بمعنی الشرک، فینبغی أن نقدر کلمة« نتیجة» أی أنّ نتیجة شرکهم کانت أن یقسموا إنّهم لم یکونوا مشرکین.

[۱۲۴] (۱)- النساء، ۴۲.

[۱۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۰۸.

[۱۲۶] (۲)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۰۸.

[۱۲۷] (۱)-« أکنة» جمع« کنان» و هو کل ستار أو حاجز، و« الوقر» بمعنی ثقل السمع.

[۱۲۸] (۱)-« ینأون» من« نأی» بمعنی ایتعد.

[۱۲۹] (۱)- ملخص ما ورد فی سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۱۹۱، و سیرة الحلبی، ج ۱، ص ۱۳۱، و کتب أخری.

[۱۳۰] (۱)-« الغدیر»، ج ۷، ص ۳۴۶.

[۱۳۱] (۱)- هاتان القطعتان وردتا فی« خزانة الأدب» و« و تاریخ ابن کثیر» و« شرح ابن أبی الحدید» و« فتح الباری» و« بلوغ الارب» و« تاریخ أبی الفداء» و« السیرة النبویة» و غیرها نقلا عن« الغدیر»، ج ۸.

[۱۳۲] (۲)-« شیخ الأباطح» نقلا عن« أبو طالب مؤمن قریش».

[۱۳۳] (۳)- الطبری، نقلا عن« أبو طالب مؤمن قریش».

[۱۳۴] (۱)- کتاب« الحجة» و« الدرجات الرفیعة» نقلا عن« الغدیر» ج ۸، ص ۳۸۰.

[۱۳۵] (۱)- الغدیر، ج ۷، ص ۳۵۷- ۳۵۸ بتصرف.

[۱۳۶] (۲)- الغدیر، ص ۸۶.

[۱۳۷] (۱)-« لو» شرطیة، و قد حذف الجواب لوضوحه.

[۱۳۸] (۱)- ینبغی الانتباه إلی نقطة مهمّة فی الآیة: فی القراءة المشهورة التی بین أیدینا« نردّ» مرفوعة و« و لا نکذب» و« نکون» منصوبتان، مع أنّ الظاهر یدل علی أنّهما معطوفتان علی« نردّ» و خیر تعلیل لذلک هو القول بأنّ« نردّ» جزء من التمنی، و« و لا نکذب» جواب التمنی، و« الواو» هنا بمنزلة« الفاء» و معلوم أن جواب التمنی إذا وقع بعد الفاء کان منصوبا، إن مفسرین کالفخر الرازی و المرحوم الطبرسی و أبی الفتوح الرازی أوردوا تعلیلات أخری، و لکن الذی قلناه أوضح الوجوه، و علیه فهذه الآیة تکون شبیهة بالآیة(۵۸) من سورة الزمر\:i لَوْ أَنَّ لِی کَرَّةً فَأَکُونَ مِنَ الْمُحْسِنِینَ E.

[۱۳۹] (۱)- یونس، ۲۲.

[۱۴۰] (۱)- بحسب هذا الاحتمال« و قالوا» معطوفة علی« عادوا» و هذا ما یقول به صاحب تفسیر« المنار».

[۱۴۱] (۱)- تفسیر« نور الثقلین»، ج ۱، ص ۷۱۱.

[۱۴۲] (۱)- الرّوایات المذکورة مستفادة من تفسیر« المنار» و« مجمع البیان» فی ذیل الآیة المذکورة.

[۱۴۳] (۱)- جملة\i فَإِنِ اسْتَطَعْتَ\ ...E جملة شرطیة جوابها محذوف، تقدیره« إن استطعت .. فافعل و لکنّهم لا یؤمنون».

[۱۴۴] (۱)- من حیث الاعراب« الموتی» مبتدأ، و« یبعثهم اللّه» خبر، و معنی ذلک هو أنّ هؤلاء لا یطرأ علی حالهم أی تغییر حتی یبعثهم اللّه یوم القیامة فیرون الحقائق.

[۱۴۵] (۱)- نقل هذا الاحتمال صاحب المنار عن ابن عباس.

[۱۴۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، و نور الثقلین فی تفسیر الآیة المذکورة.

[۱۴۷] (۲)- تفسیر المنار، ذیل الآیة، و الجماء عکس القرناء: الحیوان الفاقد للقرن.

[۱۴۸] (۱)-« المیزان» ج ۷، ص ۸۴.

[۱۴۹] (۱)- یقول علماء العربیة: إنّ« ک» فی« أ رأیتک» و« کم» فی« أ رأیتکم» لیستا اسما و لا ضمیرا، و لکنّهما حرفا خطاب یفیدان التوکید، و الفعل فی مثل هذه الحالات یکون مفردا إنّما الافراد و التثنیة و الجمع تظهر علی حرف الخطاب هذا، ففی« أ رأیتکم» المخاطبون جماعة و لکن الفعل« رأیت» مفرد، و« کم» هو الذی یدل علی أنّ المخاطبین جماعة، و قیل: أنّ هذا التعبیر من حیث المعنی یساوی قولک:(أخبرنی) أو(أخبرونی)، و لکن الحقّ أنّ الجملة تحتفظ بمعناها الاستفهامی، و(أخبرونی) ملازم للمعنی، لا المعنی نفسه، و المعنی یساوی« أعلمتم»؟

[۱۵۰] (۱)-« البأساء» الشدة و المکروه، و تطلق علی الحرب أیضا، و کذلک القحط و الجفاف و الفقر، أما« الضراء» فأکثر ما تعنی العذاب الروحی، کالهم و الغم و الاکتئاب و الجهل، أو الآلام الناشئة عن الأمراض أو عن فقدان مال أو مقام.

و لعل الاختلاف بین معنیی اللفظتین ناشئ عن أن« البأساء» تشیر إلی المکروه الخارجی و« الضراء» تشیر إلی المکروه الداخلی، النفسی أو الروحی، و علی هذا تکون« البأساء» من عوامل إیجاد« الضراء» فتأمل بدقة!

[۱۵۱] (۱)-« الإبلاس» الحزن المعترض من شدة التألم بسبب کثرة المنغصات المؤلمة، و منها اشتقت کلمة« إبلیس»، و هی هنا تدل علی شدة الغم و الهم اللذین یصیبان المذنبین یومئذ.

[۱۵۲] (۱)- یشیر الفخر الرازی فی تفسیره إلی هذه الاختلاف فی ج ۱۲، ص ۲۲۴.

[۱۵۳] (۲)- تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین، ذیل الآیة.

[۱۵۴] (۳)- نهج البلاغة، الکلمة ۲۵.

[۱۵۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۱۸.

[۱۵۶] (۱)- شرحنا معنی« أ رأیتکم» عند تفسیر الآیة ۴۰ من هذه السورة و قلنا: لیس هناک ما یدعو إلی اعتبار المعنی« أخبرونی» بل المعنی هو« أعلمتم»؟

[۱۵۷] (۲)- لقمان، ۱۳.

[۱۵۸] (۱)- الحجر، ۲۱.

[۱۵۹] (۱)- البقرة، ۲۵۵.

[۱۶۰] (۱)- معنی« الوجه» فی اللغة معروف، و لکن الکلمة قد تعنی« الذات» کما فی هذه الآیة، و هناک شرح أوفی لذلک فی المجلد الثانی من هذا التفسیر.

[۱۶۱] (۱)- هود، ۲۷.

[۱۶۲] (۱)- الشعراء، الآیات ۱۱۱- ۱۱۴.

[۱۶۳] (۱)- لمزید من الشرح انظر المجلد الثّانی فی تفسیر الآیتین ۱۹۱ و ۱۹۳ من سورة البقرة.

[۱۶۴] (۲)- أشرنا فی تفسیر الآیة ۱۶۴ من سورة آل عمران إلی أنّ« المنة» تعنی فی الأصل النعمة یهبها اللّه.

[۱۶۵] (۱)- المجلد الثّالث من هذا التّفسیر.

[۱۶۶] (۲)- جملة« و لتستبين» معطوفة فى الواقع على جملة محذوفة تدرك بالقرينة، فيكون المعنى لتستبين سبيل المؤمنين المطيعين و لتستبين سبيل المجرمين.

[۱۶۷] (۱)- استعمال« الذين» التى هى للجمع المذكر العاقل، لا للإشارة إلى الأصنام، يدل على أنّ الكلام يجرى وفق وجهة نظر المشركين.

[۱۶۸] (۱)- هود، ۳۲.

[۱۶۹] (۲)- الأعراف، ۷۷.

[۱۷۰] (۳)- الأعراف، ۷۰.

[۱۷۱] (۴)- الإسراء، ۹۱.

[۱۷۲] (۱)- النساء، ۳۵.

[۱۷۳] (۱)-i ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ\E(القصص، ۷۶) و\i أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ E(النّور، ۶۱).

[۱۷۴] (۱)- تفسير البرهان، ج ۱، ص ۵۲۸.

[۱۷۵] (۲)- هناك شرح أو فى لهذا فى المجلد الثانى.

[۱۷۶] (۱)- الضمير فى« فيه» يعود على« النهار» و« يبعثكم» بمعنى يوقظكم و ينهضكم، و« أجل مسمى» هو العمر المحدد لكل فرد.

[۱۷۷] (۲)- تفسير الميزان، ج ۷، ص ۱۳۴.

[۱۷۸] (۱)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۳۱۳.

[۱۷۹] (۱)- المصدر نفسه، ج ۱، ص ۲۹۸.

[۱۸۰] (۱)- تفسير مجمع البيان و نور الثقلين فى تفسير الآية.

[۱۸۱] (۱)-« شيعا» جمع« شيعة» بمعنى الجماعة.

[۱۸۲] (۱)- الضمير فى« به» يرجعه بعضهم إلى القرآن، و يرجعه آخرون إلى العذاب الذى ورد فى الآيات السابقة، و لكنّ الظاهر إنّه يرجع إلى كل هذه و إلى تعاليم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى كذبوا بها، و تؤكّد ذلك الآية التّالية.

[۱۸۳] (۱)- قد يكون« المستقر» المصدر الميمى بمعنى« الاستقرار» أو اسما لمكان و زمان بمعنى مكان الاستقرار، بالمعنى الأوّل يكون إخبارا عن تحقيق وعد اللّه، و بالمعنى الثانى الإخبار عن مكان تحققه و زمانه.

[۱۸۴] (۱)-« الخوض» كما يقول الراغب الأصفهانى فى« مفرداته» هو الدخول فى الماء و المرور فيه، ثمّ استعير للورود فى أمور أخرى، و أكثر ما ترد فى القرآن بشأن الدخول فى موضوع باطل ما أساس له.

[۱۸۵] (۲)- غنى عن القول بأن(لا تقعد) لا تعنى النهى عن مجرّد الجلوس مع هؤلاء، بل تعنى النهى عن معاشرتهم فى جميع حالات الجلوس و الوقوف أو المسير.

[۱۸۶] (۱)-« البسل» هو حفظ الشىء و منعه بالقوة و القهر، و الإبسال حمل المرء على التسليم، كما تطلق الكلمة على الحرمان من الثواب، أو أخذ الرهائن، و الجيش الباسل بمعنى القاهر الذى يحمل العدو على التسليم، و المعنى فى الآية هو تسليم المرء و خضوعه لأعماله السيئة.

[۱۸۷] (۱)-« العدل» بمعنى« المعادل» و هو ما يدفع جزاء و غرامة لقاء التحرر، و هو أشبه فى الواقع بما يفتدى به.

[۱۸۸] (۱)-« أعقاب» جمع« عقب» و هو مؤخر الرجل، و رجع على عقبه بمعنى انثنى راجعا، و هو هنا كناية عن الانحراف عن الهدف، و هو ما يطلق عليه اليوم اسم« الرجعية».

[۱۸۹] (۲)-« استهوته» من« الهوى» و هو ميل النفس إلى الشهوة، و استهوته بمعنى حملته على إتباع الهوى، و« الحيرة» هى التردد فى

الأمر، و فی الأصل: الجیئة و الذهاب، فالآیة تشیر إلی الذین یذهبون من الإیمان إلی الشرک مستلهمین تحرکاتهم من الشیطان.

[۱۹۰] (۱)- یختلف المفسرون فی متعلق الظرف« یوم»، فبعض یعلقه بجملة« خلق» و بعض یعلقه بجملة« اذکروا» المحذوفة، و لکن لا یستبعد أن یکون متعلقا بجملة« یکون»، فیصبح المعنی: یکون یوم القیامة یوم یقول له کن.

[۱۹۱] (۱)- غافر، ۱۶.

[۱۹۲] (۱)- التوبة، ۱۱۳ و ۱۱۴.

[۱۹۳] (۲)- مریم، ۴۷.

[۱۹۴] (۳)- إبراهیم، الآیتان ۳۹ و ۴۱.

[۱۹۵] (۱)- یورد هذا الحدیث کثیرون من مفسّری الشیعة و السنة، کالمرحوم الطبرسی فی« مجمع البیان» و النیسابوری فی تفسیر« غرائب القرآن» و الفخر الرازی فی« التّفسیر الکبیر» و الآلوسی فی تفسیر« روح المعانی».

[۱۹۶] (۲)- التوبة، ۲۸.

[۱۹۷] (۳)-« جامع البیان»، ج ۷، ص ۱۵۸.

[۱۹۸] (۴)- تفسیر« روح المعانی»، ج ۷، ص ۱۶۹.

[۱۹۹] (۱)-« مسالک الحنفاء»، ص ۱۷ کما جاء فی هامش« بحار الأنوار»، ۱۵، ۱۸ أو بعدها، الطبعة الجدیدة.

[۲۰۰] (۱)- و علی هذا، هناک محذوف مقدار فی الآیة یدل علیه ما فی الآیات السابقة، فیکون مضمون الآیة: کما أرینا إبراهیم قبح ما کان علیه قومه من عبادة الأصنام کذلک نری إبراهیم ملکوت السموات و الأرض(تأمل بدقة).

[۲۰۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین: ج ۱، ص ۷۳۸.

[۲۰۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۳۵ و ۷۳۷.

[۲۰۳] (۲)- تفسیر أبی الفتوح، ج ۴، ص ۴۶۷- الهامش.

[۲۰۴] (۱)- هذا أشبه بالاستثناء المنقطع، فقد نفی عن الأصنام کلّ قدرة علی النفع و الضرر، و أثبتها للّه، و للمفسّرین آراء أخری فی تفسیر هذه الآیة، غیر أن ما قلناه أقرب.

[۲۰۵] (۱)-« السلطان» بمعنی التفوق و الإنتصار، و لما کان الدلیل و البرهان من أسباب الفوز و الإنتصار، فقد یوصفان بالسلطان أیضا، کما هو الحال هنا، أی لا وجود لأی دلیل علی السماح بعبادتها و هذا ما لم یستطع إنکاره عباد صنم، لأنّ أمرا کهذا ینبغی أن یصدر عن طریق العقل و المنطق، أو عن طریق الوحی و النبوة، و عبادة الأصنام مفتقرة إلی کلیهما.

[۲۰۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۲۰۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۴۰.

[۲۰۹] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۳۸.

[۲۱۰] (۱)- أنظر المجلد الثّالث، تفسیر الآیة(۱۴۵) من سورة النساء لمعرفة الفرق بین« الدرجة» و« الدرک».

[۲۱۱] (۱)- تفسیر الآلوسی، ج ۷، ص ۱۸۴.

[۲۱۲] (۲)- دائرة المعارف فرید وجدی، ج ۱۰، ص ۱۰۵۵- فی مادة« یونس».

[۲۱۳] (۱)- تفسیر(نور الثقلین)، ج ۱، ص ۷۴۳.

[۲۱۴] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۳، ص ۶۶.

[۲۱۵] (۱)-« من آبائهم» جار و مجرور متعلقان أمّا بجملة« فضلنا» الواردة فی الآیة السابقة أو بمحذوف تفسره الجملة التّالیة فیکون

الأصل« اجتبینا من آبائهم» ینبغی الالتفات إلی أن« من» فی الآیة تبعیضیة حسب الظاهر.

[۲۱۶] (۱)- جاءت فی الآیـة(۱۲) من سورة لقمـان بمعنی العلم و الفهم، و فی الآیـة(۲۲) من سورة ص بمعنی القضاء، و فی الآیـة(۲۶) من سورة الکهف بمعنی الحکومة.

[۲۱۷] (۱)- یحتمـل أیضا أن یکون المراد من« هؤلاء» هم الأنبیاء أنفسـهم، أی إذا افترضـنا المسـتحیل، و قلنا أنّ هؤلاء الأنبیاء العظام تخلوا عن أداء الرسالـة الإلهیـة، فإنّ الرسالـة کانت تواصل سـیرها علی أیدی قوم آخرین، هنالک تعبیرات مماثلة فی القرآن، کما جاء فی الآیة(۶۵) من سورة الزمرi لَئِنْ أَشْرَکْتَ لَیَحْبَطَنَّ عَمَلُکَ E.

[۲۱۸] (۲)- الهاء فی« اقتده» لیست ضـمیرا، بل هی هاء السکت التی تلحق الکلمة المتحرکة عند الوقف، مثل همزة الوصل التی یؤتی بها إذا کان حرف الابتداء فی الکلمة ساکنا، و هی تسقط عند الوصل، مثل هاء السکت غیر أنّ هذه الهاء بقیت فی الکتابة القرآنیة من باب الاحتیاط و ارتوی الوقف هنا لکی تظهر هاء السکت.

[۲۱۹] (۱)- تفاسیر مجمع البیان و أبی الفتوح الرازی و المنار فی تفسیر الآیة.

[۲۲۰] (۱)- یختلف المفسّـرون فی الجملـة التی یمکن أن نعطف علیها جملـة« و لتنـذر» و لعلها معطوفـة علی جملـة محذوفة بمعنی« لتبشر» أو مثلها.

[۲۲۱] (۲)- الأنعام، ۱۹.

[۲۲۲] (۳)- الأنعام، ۹۰.

[۲۲۳] (۴)- الأعراف، ۱۵۸.

[۲۲۴] (۱)- ورد اعتراض بعض المستشرقین بهذا الشأن ذکره صاحب المنار، ج ۷، ص ۶۲۱، و فی تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۳، ص ۳۰۵.

[۲۲۵] (۲)- یوسف، ۸۲.

[۲۲۶] (۳)- الأعراف، ۹۶.

[۲۲۷] (۱)- تفسیر المنار، ج ۷، ص ۶۲۲.

[۲۲۸] (۱)-« الغمرات» جمع غمرة(علی وزن ضـربة)، و أصل الغمر إزالة أثر الشیء، ثمّ استعملت للماء الکثیر الذی لیستروجه الشیء تماما، کما تطلق علی الشدائد و الصعاب التی تغمر المرء.

[۲۲۹] (۱)-« خولناکم» من« الخول» و هو إعطاء ما یحتاج إلی التعهد و التدبیر و الإدارة، و هو النعم التی یسبغها اللّه تعالی علی عباده.

[۲۳۰] (۱)- الراغب الأصفهانی(المفردات)، ص ۳۸۵.

[۲۳۱] (۱)- المصدر نفسه، ص ۱۰۵.

[۲۳۲] (۱)- البقرة، ۲۵۸.

[۲۳۳] (۲)- طه، ۵۳.

[۲۳۴] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب(طینة المؤمن الکفار)، تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۴۳.

[۲۳۵] (۱)- یقول علماء الفلک: یبدأ طلوع الصبح عند ما تصل الشمس إلی ۱۸- درجة قبل الأفق الشرقی، و یعم الظلام کل شیء و یختفی الشفق عند ما تصل إلی ۱۸- درجة تحت الأفق الغربی.

[۲۳۶] (۱)- تفسیر الصافی فی تفسیر الآیة.

[۲۳۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۳۸] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۳۹] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۴۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۴۱] (۲)- مفردات الراغب، ص ۳۸۵.

[۲۴۲] (۱)- کلمة« أخضر» تشمل کل أخضر فی النبات، حتی براعم الأشجار، و لکن بما إنّها متبوعة مباشرة بالحب المتراکب فالمقصود فی الآیة هو زراعة الحبوب.

[۲۴۳] (۲)-« المتراکب» من الرکوب و ما رکب بعضه بعضا، و أکثر الحبوب بهذا الشکل.

[۲۴۴] (۳)- یقول الراغب فی مفرداته: إنّ« مشتبها» و« متشابها» بمعنی یکاد یکون واحدا.

[۲۴۵] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۳، ص ۳۲۶- الهامش.

[۲۴۶] (۲)- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۶۴۸.

[۲۴۷] (۳)- تفسیر معجم البیان و تفاسیر أخری.

[۲۴۸] (۱)- الزخرف، ۱۹.

[۲۴۹] (۱)- تفسیر المنار، ج ۷، ص ۶۵۳.

[۲۵۰] (۱)- القیامة، ۲۳ و ۲۴.

[۲۵۱] (۲)- الفتح، ۱۰.

[۲۵۲] (۳)- معانی الأخبار، نقلا عن« المیزان»، ج ۸، ص ۲۶۸.

[۲۵۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۳.

[۲۵۴] (۱)- أصول الکافی، ج ۱، ص ۹۳.

[۲۵۵] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۴۸.

[۲۵۶] (۱)-« نصرف» من« التصرف» و هو بمعنی رد الشیء من حالة أو إبداله بغیره، أی أنّ الآیات تنزل فی صور و أشکال متنوعة و لمختلف المستویات العقلیة و العقائدیة و الاجتماعیة.

[۲۵۷] (۲)-« اللام» فی لیقولوا هی« لام العاقبة» لبیان العاقبة التی وصل إلیها الأمر دون أن تکون هی الهدف المقصود، لقد کانت هذه تهمة یوجهها المشرکون إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۲۵۸] (۱)-« القرون الوسطی» هی فترة الألف سنة التی امتدت بین القرن السادس المیلادی حتی نهایة القرن الخامس عشر، کما یطلق علیها اسم« الفترة المظلمة» التی مرت علی أوروبا و المسیحیة، و الجدیر بالذکر أنّ« العصر الذهبی الإسلامی» یقع فی منتصف القرون الوسطی.

[۲۵۹] (۱)- فی ثمانیة مواضع من القرآن نسب تزیین الأعمال إلی الشیطان، و فی عشرة مواضع جاء التعبیر بصیغة- المبنی للمجهول« زین»، و فی موضعین إثنین نسب إلی اللّه، و ممّا سبق أن قلناه یتضح معنی هذه الحالات الثلاث.

[۲۶۰] (۲)- نهج البلاغة، الکلام ۲۰۶.

[۲۶۱] (۳)- الآلوسی،« تفسیر روح المعانی»، ج ۷، ص ۲۱۸.

[۲۶۲] (۱)-« الجهد» بمعنی السعی و بذل الطاقة، و المقصود هنا الجهد فی توکید القسم.

[۲۶۳] (۲)- المفسّرون غیر متفقین علی« ما»، أ هی استفهامیة أم نافیة؟ و کذلک فیما یتعلق بترکیب الجملة، بعضهم یقول إنّ« ما» استفهامیة استنکاریة، و لو کانت کذلک لکان معنی الآیة: أنّی لکم أن تعلموا إنّهم لا یؤمنون إن رأوا معجزة، أی إنّه قد یؤمنون، و هذا خلاف ما ترید الآیة، لذلک اعتبر بعضهم« ما» نافیة، و هو الأقرب إلی الذهن، فیکون معنی الآیة: أنتم لا تعلمون إنّهم حتی إذا

تحققت لهم المعجزات لا يؤمنون، و على ذلك يكون فاعل« يشعر» مقدر بمعنى« شيء» و للفعل« يشعر» مفعولان« كم» و\i أَنَّها\ ...E(تأمل بدقّة).

[۲۶۴] (۱)-« يعمهون» من« عمه» بمعنى الحيرة و الشك.

[۲۶۵] (۱)-i حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ\E تعنى: حققنا لهم كل طلباتهم، فالحشر بمعنى الجمع، و قبلا بمعنى أمامهم و قبالتهم، و قد تكون« قبل» جمع« قبيل» بمعنى تجميع الملائكة و الأموات أمامهم جماعات.

[۲۶۶] (۱)- الحجر، ۱۴ و ۱۵.

[۲۶۷] (۱)- انظر المجلد الأوّل بهذا الشأن.

[۲۶۸] (۲)-« زخرف» تعنى أصلا الزينة و الذهب الذى يستخدم للزينة، ثمّ أطلقت على الكلام ذى الظاهر الجميل المزين.

[۲۶۹] (۳)- يختلف المفسّرون فى إعراب هذه الآية، و فى ما عطفت عليه جملة« و لتصغى» أمّا الأقرب إلى مفهوم الآية فهو أن الجملة معطوفة على« يوحى» و لامها« لام العاقبة» أى إنّ عاقبة أمر الشياطين ستكون أنّهم يوحى بعضهم إلى بعض كلاما خادعا فيميل إليه الذين لا إيمان لهم، و قد تكون معطوفة على محل« غرورا» و هى مفعول لأجله(إذ أنّ الإنسان ينخدع أوّلا ثمّ يميل إلى ما انخدع به) فتأمل بدقّة.

[۲۷۰] (۱)-« الحكم» القاضى و الحاكم، و بعضهم يراه مساويا للحاكم من حيث المعنى، و لكن يرى بعضهم، و منهم الشيخ الطوسى رحمه اللّه، أنّ الحكم من لا ـ يحكم بغير الحق، أمّا الحاكم فقد يحكم بكليهما، و يرى آخرون، و منهم صاحب المنار أنّ الحكم من يختاره الطرفان للحكم، و ليس الحاكم كذلك.

[۲۷۱] (۱)- الأعراف، ۱۳۶.

[۲۷۲] (۱)- هود، ۱۱۹.

[۲۷۳] (۲)- الصافات، ۱۷۱ و ۱۷۲.

[۲۷۴] (۱)-« الخرص» هو كل قول أطلق عن ظن و تخمين، و أصله من تخمين كمية الثمر على الأشجار عند استئجار البستان، و أمثال ذلك، ثمّ أطلق على كل ظن و تخمين قد يطابق الواقع و قد لا يطابقه، و الكلمة تستعمل فى الكذب أيضا، و قد تكون فى الآية بكلا المعنيين.

[۲۷۵] (۱)- صيغة التفضيل تتعدى عادة بالباء، فكان المفروض أن يقال« أعلم بمن يضل» و لكن الباء حذفت هنا و« من يضل» منصوبة بنزع الخافض.

[۲۷۶] (۱)-« اللام» هنا هى لام« العاقبة» و ليست اللام الغائية، و قد وردت فى القرآن كثيرا.

[۲۷۷] (۱)-« الإجرام» من« جرم» و أصله القطع، و المجرم هو الذى يقطع العهود و ارتباطه باللّه بعدم إطاعته، و لذلك أطلقت كلمة« الجرم» على الإثم و الذنب، فى هذا إشارة لطيفة إلى أنّ هناك فى ذات الإنسان اتفاق مع الحق و الطهارة و العدالة، و الإجرام هو قطع هذه الاتفاق الفطرى الإلهى.

[۲۷۸] (۱)- الإنشراح، ۱.

[۲۷۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۳۶۳.

[۲۸۰] (۱)-« يوم» ظرف متعلق بجملة« يقول» المحذوفة فيكون أصل الجملة\i:يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ E.

[۲۸۱] (۱)- فى الحالة الأولى فاعل« ظلم» هم الكافرون، و فى الحالة الثانية يكون نفى الظلم عن اللّه تعالى.

[۲۸۲] (۱)-« معجزين» من« أعجز» أى جعله عاجزا، فالآية تقول: إنّكم لا ـ تستطيعون أن تجعلوا اللّه عاجزا عن بعث الناس و تحقيق العدالة، و بعبارة أخرى: أنتم لا تستطيعون مقاومة قدرة اللّه.

[۲۸۳] (۱)- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۱۲۲.

[۲۸۴] (۱)- یتصور بعض أنّ کلمة« أولاد» فی الآیة لا تنسجم مع هذا التّفسیر، غیر أنّ لهذه الکلمة معنی واسعا یشمل الأبناء و البنات، و کما جاء فی الآیة(۲۲۳) من سورة البقرة\:i وَ الْوالِداتُ یُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَیْنِ کامِلَیْنِ E

[۲۸۵] (۱)-« حجر» فی هذه الآیة وصفیة، بمعنی محجور، و یستوی فیها المذکر و المؤنث.

[۲۸۶] (۱)- الأکل: بضم الألف و ضم أو سکون الکاف یعنی ما یؤکل.

[۲۸۷] (۲)- تقدم لنا توضیح فی هذا المجال عند تفسیر الآیة(۹۹) من نفس هذه السورة.

[۲۸۸] (۱)- الأحادیث المذکورة ذکرها صاحب الوسائل فی کتاب الزّکاة فی أبواب زکاة الغلات فی الباب ۱۳، و البیهقی فی کتاب السنن، ج ۴، ص ۱۳۲.

[۲۸۹] (۲)- راجع بهذا الصدد کتاب وسائل الشیعة کتاب الزّکاة، أبواب زکاة الغلات، باب کراهة الحصاد و الجذاذ باللیل، ج ۶، ص ۱۳۶.

[۲۹۰] (۱)- الواو فی صدر الآیة هی واو العاطفة و ما بعدها عطف علی الجنات فی الآیة السابقة.

[۲۹۱] (۱)- أزواج جمع« زوج» تعنی فی اللغة ما یقابل الفرد، و لکن یجب الانتباه إلی أنّه ربّما یراد منه مجموع الذکر و الأنثی، و ربّما یطلق علی کل واحد من الزوجین، و لهذا یطلق علی الذکر و الأنثی معا: زوجین، و استعمال لفظ الأزواج الثمانیة فی الآیة إشارة إلی الذکور الأربعة من الأصناف الأربعة، و الإناث الأربع من تلک الأصناف.

و یحتمل أیضا أن یکون المراد من الأزواج الثمانیة فی الآیة: الألیف من تلک الأصناف الأربعة و ما یقابلها من الوحشی، أی الذکر و الأنثی من الغنم الألیف، و الذکر و الأنثی من الغنم الوحشی، و هکذا ... فتکون الأزواج حینئذ الأزواج حینئذ ثمانیة.

[۲۹۲] (۱)- ثمّة احتمالات عدیدة حول ما هو متعلق بالجار و المجرور فی قوله:« بغیر علم»، و لکن لا یبعد أن یکون هذا الظرف متعلقا بفعل:« یضل» یعنی أنّهم بسبب جهلهم یضلون الناس.

[۲۹۳] (۱)- و فی الحقیقة یکون معنی کلمة« فإنّه» هو« فإن ما ذکر».

[۲۹۴] (۲)-« أهلّ» أصله« الإهلال»، و هو مأخوذ فی الأصل من الهلال، و الإهلال یعنی رفع الصوت عند رؤیة الهلال، ثمّ استعمل لکل صوت رفیع، کما أنّه یطلق علی بکاء الصبی عند الولادة الاستهلال، و حیث أنّهم کانوا یذکرون أسماء أصنامهم بصوت عال عند ذبح الأنعام عبرّ عن فعلهم هذا بالإهلال.

[۲۹۵] (۱)-« الباغی» من« البغی» و هو یعنی الطلب،« و العادی» من« العدو» و هو یعنی التجاوز.

[۲۹۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۵، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۲۹۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۵، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۲۹۸] (۱)- الکتاب المقدس، سفر اللّاویین، الاصحاح ۱۱، ص ۱۴۲.

[۲۹۹] (۱)-« الحوایا» جمع« حاویة» و هی مجموعة ما یوجد فی بطن الحیوان و التی تکون علی هیئة کرة تتضمّن الأمعاء.

[۳۰۰] (۱)-« کذب» فی اللغة تأتی بمعنیین تکذیب الغیر، و کذلک فعل الکذب.

[۳۰۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۷۴.

[۳۰۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۷۶.

[۳۰۳] (۱)-« یعدلون» مشتق من مادة« عدل» بمعنی الشریک و التشبیه، و علی هذا الأساس فإنّ مفهوم جملة« و هم بربّهم یعدلون» هم أنّهم کانوا یعتقدون بشریک و شبیه اللّه سبحانه.

[۳۰۴] (۱)- راجع الآیة(۱۳) من سورة الشوری.

[۳۰۵] (۱)- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۱۸۵.

[۳۰۶] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، ج ۱۹، ص ۸ و ۹ و ۱۰.

[۳۰۷] (۱)-« أن تقولوا» معناه« لئلّا تقولوا» و نظیر ذلک کثیر فی لغة العرب.

[۳۰۸] (۱)-« الشیع» من حیث اللغة تعنی الفرق و الطوائف المختلفة و أتباع الأشخاص المختلفین، و علی هذا فإنّ مفرد کلمة یعنی من یتبع مدرسة أو شخصا معینا، هذا هو المعنی اللغوی لکلمة الشیعة. و لکن للفظة الشیعة معنی آخر فی الاصطلاح، فهو یطلق علی من یتبع أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام و یشایعه، و لا یصح أن نخلط بین المعنیین اللغوی و الاصطلاحی.

[۳۰۹] (۱)- نور الثقلین، المجلد الاوّل، ص ۷۸۳.

[۳۱۰] (۲)- نور الثقلین، المجلد الاوّل، ص ۷۸۳.

[۳۱۱] (۱)- راجع صحیح الترمذی مجلد ۳ الصفحة ۱۰۰، و سنن البیهقی المجلد الأوّل الصفحة ۱۳ و المجلد الثّانی الصفحة: ۴۳۱، و کنز العمال المجلد الأوّل الصفحة ۱۵۴ و ۱۵۹، و الطبقات الکبری لابن سعد المجلد الثانی، الصفحة ۲ و کتبا أخری.

[۳۱۲] (۱)- للوقوف علی أدلة هذا الموضوع راجع کتاب« تأسیس الشیعة لعلوم الإسلام»، و کتاب« أصل الشیعة و أصولها».

[۳۱۳] (۱)- الزمر، ۱۰.

[۳۱۴] (۱)- مجمع البیان، المجلد الرابع، ص ۳۹۰.

[۳۱۵] (۱)-« قیما» قد تأتی أیضا بمعنی الاستقامة، و قد تأتی بمعنی الثبات و الدوام و کذلک تأتی بمعنی القائم بأمور الدین و الدنیا.

[۳۱۶] (۱)- البقرة، ۱۳۵، آل عمران، ۴۷ و ۹۵.

[۳۱۷] (۱)- یونس، ۷۲.

[۳۱۸] (۲)- البقرة، ۱۲۸.

[۳۱۹] (۳)- یوسف، ۱۰۱.

[۳۲۰] (۱)- تفسیر الصافی، ذیل هذه الآیة.

[۳۲۱] (۱)-« الخلائف» کما فی المفردات للراغب- جمع خلیفة« و خلفاء» جمع« خلیف» و هما بمعنی من یقوم مقام أحد بعده، و التاء المضافة إلی الکلمة تفید المبالغة، و قال جمع آخر من أهل اللغة: الخلائف جمع خلیف و خلیفة.

[۳۲۲] (۱)- تفسیر البرهان، المجلد الثانی، الصفحة ۲ و نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۲.

[۳۲۳] (۱)- البقرة، ۱۲۱.

[۳۲۴] (۱)- و علی هذا الأساس فإن جملة« لتنذر» تتعلق ب« أنزل» و لیس بجملة« فلا یکن» و لعل جعل هذه الجملة(أی جملة لتنذر) بعد جملة« فلا یکن فی صدرک حرج» لأجل أنّه یجب أوّلا إعداد النّبی فی طریق الدعوة، ثمّ اقتراح الهدف و هو الإنذار علیه(تأمل جیدا).

[۳۲۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۴.

[۳۲۶] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۷] (۳)- تفسیر« مجمع البیان»، و تفسیر« التبیان» عن معنی القصة فی ذیل الآیة الحاضرة ورد البحث أعلاه فی.

[۳۲۸] (۱)- الرحمان، ۳۹ و ۴۱.

[۳۲۹] (۱)- بناء علی هذا یکون الوزن هنا بمعناه المصدری و هو مبتدأ و« الحق» خبره، و إن أعطیت احتمالات فی ترکیب الجملة الحاضرة و لکن ما قلناه أقرب من الجمیع.

[۳۳۰] (۱)- رویت هذه الروایة من عبید بن عمیر فی تفسیر« مجمع البیان» و تفسیر« الطبری» و ظاهر العبارة یوحی بأن الکلام هو لعبید

و لیس لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

[۳۳۱] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، ج ۷، ص ۲۵۲ و ۲۵۱.

[۳۳۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۳] (۱)- إبراهیم، ۴۸.

[۳۳۴] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۵.

[۳۳۵] (۱)- تفسیر یوسف، ۵۶.

[۳۳۶] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۶.

[۳۳۷] (۲)- تفسیر المنار، المجلد ۸ الصفحة ۳۲۱، و تفسیر الطبری، الجزء ۸ و ۹، و تفسیر القرطبی، ج ۴ الصفحة ۲۰۶۷.

[۳۳۸] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۸، باب القیاس.

[۳۳۹] (۱)- تفسیر المنار، ج ۸، ص ۳۳۱ و نور الثقلین، ج ۲، ص ۷.

[۳۴۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۶، و علل الشرائع، ص ۸۶.

[۳۴۱] (۱)- إطلاق« الملک» علی الشیطان إنما هو لأجل أنّه کان له مکان فی صفوف الملائکة، و کان ردیفا لهم لا أنّه کان منهم و من جنسهم کما قلنا سابقا.

[۳۴۲] (۲)- سفینة البحار، مادة کبر.

[۳۴۳] (۳)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۲۱۹، باب أصول الکفر.

[۳۴۴] (۱)- حق الیقین فی معرفة اصول الدین، ج ۱، ص ۷۲.

[۳۴۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۴، ص ۴۰۴.

[۳۴۶] (۱)- فصّلت، ۳۰.

[۳۴۷] (۲)- الأنفال، ۱۲.

[۳۴۸] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی، ص ۱۳.

[۳۴۹] (۲)- دلّی من مادة التدلیة و تعنی إرسال الدلو فی البئر بحبل تدریجا، و هذه- فی حقیقتها- کنایة لطیفة عن أنّ الشیطان أنزل بحبل مکره و خداعه آدم و زوجته من مقامهما الرفیع، و أرسلهما إلی قعر بئر المشکلات و الابتعاد عن الرحمة الإلهیة.

[۳۵۰] (۱)-« یخصفان» من مادة« الخصف» و تعنی فی الأصل ضم شیء إلی شیء آخر، و الجمع، ثمّ أطلق علی ترفیع النعل أو الثواب المتمزق و خیاطته فقیل: خصف النعل أو الثوب، أی جمع الأجزاء المتفرقة و ضم بعضها إلی الآخر.

[۳۵۱] (۱)- و للاطلاع علی هذه الرّوایات یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الأوّل، الصفحة ۵۹ و ۶۰ و المجلد الثانی، الصفحة ۱۱، فی تفسیر آیات سورة البقرة و سورة الأعراف.

[۳۵۲] (۱)- الصافات، ۱۴۶.

[۳۵۳] (۲)- المؤمنون، ۲۰.

[۳۵۴] (۱)- التّوراة، سفر التکوین الإصحاح الثانی الفقرة رقم ۱۷.

[۳۵۵] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثانی ص ۴۱۱، نقلا عن کتاب علل الشرائع.

الجزء الخامس

[تتمة سورة الأعراف

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

يـا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنـا عَلَيْكُمْ لِباسـاً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَ رِيشاً وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَـذَّكَّرُونَ (۲۶) يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَـهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (۲۷) وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَـةً قـالُوا وَجَـدْنا عَلَيْهـا آباءَنا وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۲۸)

التّفسير

إنذار إلى كل أبناء آدم:

إنّ قصة آدم و مشـكلته مع الشـيطان- كما أسـلفنا فى آخر بحث فى الآيات السابقة- عكست تصويرا واقعيا عن حياة جميع أفراد البشر على الأرض، و لهذا بيّن اللّه تعالى فى الآيات الحاضـرة و ما بعدها سلسلة من التعاليم و البرامج البنّاءة لجميع أبناء آدم، و هى تعتبر فى الحقيقة استمرارا لبرامج آدم فى الجنّة.

ففى البداية يشير إلى مسألة اللباس و ستر سوءات البدن التى كان لها دور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶

مهم فى قصّة آدم، إذ يقول: يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ

و لكن فائـدة اللباس الـذى أرسـلناه لكم لا تقتصـر على ستر البـدن و إخفاء العيوب و السوءات، بل للتجمل و الزينـة أيضا حيث يجعل أجسامكم أجمل ممّا هى عليه. وَ رِيشاً.

و كلمة «ريش» فى الأصل هو ما يستر أجسام الطيور، و حيث أنّ ريش الطيور هو اللباس الطبيعى فى أجسامها، لهذا أطلق على نوع من أنواع الألبسة، و لكن حيث أنّ ريش الطير فى الأغلب مختلف الألوان جميلها، لذلك تتضـمّن هذه الكلمة مفهوم الزينة و الجمال، هذا مضافا إلى أنّه تطلق كلمة الريش على الأقمشة التى تلقى على سرج الفرس أو جهاز البعير.

و قـد أطلق بعض المفسّـرين و أهـل اللغـة هـذه اللفظـة على معنى أوسع أيضا، و هو كل نوع من أنواع الأثاث و الحاجيات التى يحتاج إليها الإنسان، و لكن الأنسب فى الآية الحاضرة هو الألبسة الجميلة و ثياب الزينة.

ثمّ تحدث القرآن عقيب هذه الجملة التى كانت حول اللباس الظاهرى، عن حدّ اللباس المعنوى تبعا لسيرته فى الكثير من الموارد التى تمزج بين الجانبين المادى و المعنوى، الظاهرى و الباطنى إذ قال: وَ لِباسُ التَّقْوى ذلِكَ خَيْرٌ.

و تشبيه التقوى باللبـاس تشبيه قوى الدلالـة، معبّر جـدّا، لأنّه كمـا أنّ اللبـاس يحفـظ البـدن من الحرّ و القرّ، يقى الجسم عن الكثير من الأخطار، و يستر العيوب الجسمانية، و هو بالإضافة الى هذا و ذاك زينة للإنسان، و وقايته من الكثير من الأخطار الفردية و الاجتماعية، تعدّ زينة كبرى له ... زينة ملفتة للنظر تضيف إلى شخصيته رفعة و سمّوا، و تزيدها جلالا و بهاء.

ثمّ إنّ هناك مذاهب متعددة للمفسّرين فى تحديد المراد من لباس التقوى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷

و أنّه ما هو؟

فبعض فسّره ب «العمل الصالح» و بعض ب «الحیاء» و بعض ب «لباس العبادة»، و بعض ب «لباس الحرب» مثل الدرع و الخوذة، و حتی الترس، لأنّ لفظة التقوی مشتقّة من مادة «الوقایة» بمعنی الحفظ و الحمایة، و بهذا المعنی جاء فی القرآن الکریم أیضا، کما نقرأ فی سورة النحل الآیة (۸۱): وَ جَعَلَ لَکُمْ سَرابِیلَ تَقِیکُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِیلَ تَقِیکُمْ بَأْسَکُمْ ....

و لکن للآیات القرآنیة- کما قلنا مرارا- معنی واسعا فی الغالب، و لها مصادیق متعددة و مختلفة، و فی الآیة الحاضرة- أیضا- یمکن استفادة جمیع هذه المعانی منها.

و حیث أنّ لباس التقوی فی هذه الآیة موضوع فی مقابل اللباس الساتر للبدن، لهذا یبدو للنظر أنّ المراد منه هو «روح التقوی» التی تحفظ الإنسان، و تنطوی تحتها معانی «الحیاء» و «العمل الصالح» و أمثالهما.

ثمّ إنّ اللّه تعالی یقول فی ختام الآیة: ذلِکَ مِنْ آیاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ أی إنّ هذه الألبسة التی جعلها اللّه لکم، سواء الألبسة المادیة أو المعنویة، اللباس الجسمانی أو لباس التقوی، کلّها من آیات اللّه لیتذکر الناس نعم الربّ تعالی.

نزول اللباس!

نلاحظ فی آیات متعددة من القرآن الکریم أنّ اللّه سبحانه یقول فی صعید توفیر اللباس للبشر: «و أنزلنا» و هو بمعنی الإرسال من مکان عال إلی الأسفل، إذ یقول: قَدْ أَنْزَلْنا عَلَیْکُمْ لِباساً فی حین أنّ اللباس کما هو المعلوم أمّا أنّه یتّخذ من الصوف، أو یتّخذ من مواد نباتیّة و ما شاکل ذلک من أشیاء الأرض.

کما أننا نقرأ فی الآیة (۶) من سورة الزمر وَ أَنْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِیَةَ أَزْواجٍ و فی سورة الحدید الآیة (۳۵) وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِیدَ. فما ذا یعنی هذا؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸

یصرّ کثیر من المفسّرین علی تفسیر مثل هذه الآیات بالنّزول المکانی أی من فوق إلی تحت، مثلا یقولون: إنّ ماء المطر ینزل من السماء إلی الأرض فتروی منه النباتات و الحیوانات، من هنا تکون مواد اللباس قد نزلت- بهذا المعنی- من السماء إلی الأرض.

و فی مجال الحدید أیضا یقولون: إنّ الأحجار و الصخور السماویة العظیمة التی تحتوی علی عناصر الحدید قد انجذبت إلی الأرض.

و لکن النّزول ربّما استعمل بمعنی النّزول المقامی، و قد استعملت هذه اللفظة فی المحاورات الیومیة بهذا الشکل کثیرا، فیقال مثلا: أصدر الحاکم أمره إلی أمرائه و معاونیه، أو یقال: رفعت شکوای إلی القاضی، لهذا لا داعی إلی الإصرار علی تفسیر هذه الآیات بالنّزول المکانی.

فحیث أنّ النعم الإلهیة قد صدرت من المقام الرّبوبی الرفیع إلی البشر، لهذا عبّر عن هذا المفهوم بهذا اللفظ، و هو تعبیر یدرکه الإنسان بدون إشکال أو صعوبة.

و یشبه هذا الموضوع ما نلاحظه فی ألفاظ الإشارة القریبة و البعیدة أیضا، فقد یکون شیء ما ذا بال أو موضوع مهمّ فی متناول أیدینا، و لکنّه- لما کان من حیث الشأن- یتمتّع بمقام مهمّ رفیع، فإنّنا نشیر إلیه باسم الإشارة البعید، فنقول فی محاوراتنا مثلا: تلک الشّخصیة، و نحن نقصد رجلا حاضرا قریبا، و قد جاء فی القرآن الکریم: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ و المقصود من الکتاب المشار إلیه بالإشارة البعیدة القرآن الحاضر، و لکن تعظیما له أستعیض فی الإشارة إلیه عن أداة الإشارة القریبة بأداة الإشارة البعیدة.

اللباس فی الماضی و الحاضر:

لم یزل الإنسان فیما مضی- کما یشهد به التاریخ- یلبس الثیاب، و لکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹

الألبسة قد تغیرت و تنوعت تنوعا بالغا عبر الزمن، فقد کانت الثیاب تلبس فیما سبق- و فی الأغلب- لأجل حفظ الجسم من الحرّ و القرّ و کذا للزینة و التجمل، و الجانب الوقائی کان یأتی فی الدرجة اللاحقة، و لکن فی ظل الحیاة الصناعیة الحاضرة أصبح الجانب الوقائی فی المرتبة الأولی من الأهمیة فی کثیر من الحقول، فرجال الفضاء و رجال الإطفاء، و عمال المعادن و المناجم و الغواصون، و غیرهم کثیرون، یستخدمون ألبسة خاصّة لوقایة أنفسهم من مختلف الأخطار.

لقد تطورت وسائل إنتاج الألبسة و الثیاب فی عصرنا الراهن تطورا هائلا، و اتسع نطاقها اتساعا کبیرا، بحیث أصبح لا یقاس بما مضی.

یقول کاتب تفسیر المنار فی المجلد الثّامن عند تفسیر الآیة المبحوثة هنا:

«لقد بلغ من إتقان صناعات اللباس أنّ عاهل ألمانیة الأخیر (قیصرها) دخل مرّة أحد معامل الثیاب لیشاهد ما وصلت إلیه من الإتقان، فجزوا أمامه عند دخوله صوف بعض کباش الغنم، و لما انتهی من التجوال فی المعمل و مشاهدة أنواع العمل فیه، و أراد الخروج قدّموا له معطفا لیلبسه تذکارا لهذه الزیارة، و أخبروه أنّه صنع من الصوف الذی جزوه أمامه عند دخوله، فهم قد نظفوه فی الآلات المنظّفة، فغزلوه بآلات الغزل، فنسجوه بآلات النسج، ففصّلوه فخاطوه فی تلک الفترة القصیرة، فانتقل فی ساعة أو ساعتین من ظهر الخروف إلی ظهر الإمبراطور».[۱] و لکن- للأسف- قد اتسعت الجوانب الفرعیة، بل و غیر المحمودة و الفاضحة للثیاب و الألبسة و تعددت کثیرا إلی درجة أنّها غطت علی الفلسفة الأصلیة للباس.

لقد أصبح اللباس- الیوم- وسیلة لأنواع التظاهر، و إشاعة الفساد، و تحریک الشهوات، و التکبر و الإسراف و التبذیر، و ما شابه ذلک. حتی أنّنا ربّما نشاهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰

ألبسة یرتدیها جماعات من الناس- و بخاصّة الشباب المتغرب- یفوق طابعها الجنونی علی الطابع العقلانی، و تکون أشبه بکل شیء إلّا باللباس و الثوب.

و الذی تقود إلیه الدراسة الموضوعیة لهذه الظاهرة، هو أنّ للعقد النفسیة دورا مهمّا فی ارتداء مثل هذه الألبسة العجیبة الغریبة، فالأفراد الذین لا یتمکنون من القیام بعمل مهم و ملفت للنظر لتوکید وجودهم فی المجتمع یلجأون إلی هذا الأسلوب و یحاولون بارتداء هذه الألبسة غیر المأنوسة و العجیبة إثبات وجودهم و حضورهم، و لهذا نلاحظ أنّ أصحاب الشخصیات المحترمة، أو الذین لا یعانون من عقد نفسیّة ینفرون من ارتداء مثل هذه الثیاب.

و علی کل حال فإنّ مبالغ طائلة و ثروات عظیمة جدّا تهدر و تبدّد- الیوم- فی سبیل اقتناء و تعاطی الألبسة المتنوعة و الموضات المختلفة و لو منع من تبذیرها و تبدیدها و الإسراف فیها لأمکن حل الکثیر من المشکلات الاجتماعیة بها، و لتحولت إلی بلاسم و ضمادات ناجعة لکثیر من جراحات الطبقات المحرومة و الفئات البائسة الفقیرة فی المجتمعات البشریة.

هذا و یستفاد من تاریخ حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأئمّة العظام أنّهم کانوا یعارضون بشدّة مسألة التفاخر بالألبسة و الإفراط فی التجمل بها، إلی درجة أنّنا نقرأ فی الرّوایات أنّ وفدا من النصاری قدم علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المدینة، و هم یلبسون الألبسة الحریریة الجمیلة جدا، و التی لم یرها العرب إلی ذلک الیوم و لم یعهد أن لبسوها، فلما حضروا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سلموا علیه، لم یردّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی سلامهم، بل أحجم حتی عن التحدث معهم و لو بکلمة، و أعرض عنهم،

فلمّا سألوا علیّا علیه السلام عن سبب إعراض النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عنهم، قال علیه السلام لهم: أری أن تضعوا حللکم هذه و خواتیمکن ثمّ تعودون إلیه.

ففعل النصارى ما قاله لهم الإمام عليه السلام، ثمّ دخلوا على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسلّموا عليه فردّ عليهم و تحدث معهم. ثمّ قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الذى بعثنى بالحق لقد أتونى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱

المرّة الأولى و إنّ إبليس لمعهم».[۲]

الآية اللاحقة يحذّر فيها اللّه سبحانه جميع أبناء البشر من ذرية آدم من كيد الشيطان و مكره، و يدعو إلى مراقبته، و الحذر منه، لأنّ الشّيطان أبدى عداءه لأبيهم آدم، فكما أنّه نزع عنه لباس الجنّة بوساوسه يمكن أن ينزع عنهم لباس التقوى، و لهذا يقول تعالى: يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما.

و فى الحقيقة إنّ الأمر الذى يربط الآية الحاضرة بالآية السابقة هو أنّ الآية السابقة تحدثت عن اللباس الظاهرى و المعنوى للإنسان (لباس التقوى)، و هذه الآية تضمنت تحذيرا و دعوة له لمراقبة الشيطان و الحذر من نزعه لباس التقوى عنكم.

على أنّ ظاهر عبارة لا- يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ هو نهى الشيطان عن هذا العمل، و لكن أمثال هذه العبارات تعتبر كنايات لطيفة لنهى المخاطب، و تشبه ما إذا خاطبنا صديقا نحبه قائلين: لا يصح أن يوجه إليك فلان ضربة، أى راقبه حتى لا تتعرض لضربته و أذاه.

ثمّ إنّ اللّه تعالى يؤكّد على أنّ الشيطان و أعوانه يختلفون عن غيرهم من الأعداء إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ فلا بدّ من شدّة الحذر من مثل هذا العدوّ.

و فى الحقيقة عند ما تظن أنك و حيد، فإنّه من الممكن أن يكون حاضرا معك، فيجب عليك الحذر من هذا العدوّ الخفىّ الذى لا يمكن معرفة لحظات هجومه و عدوانه المباغت، و لا بدّ من اتخاذ حالة الدفاع الدائم أمامه.

و فى خاتمة الآية يأتى سبحانه بجملة هى فى الحقيقة إجابة على سؤال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲

مهم، فقد يتساءل أحد: كيف سلّط اللّه العادل الرحيم عدوّا بهذه القوة على الإنسان ... عدوّا لا يمكن مقايسة قواه بقوى الإنسان ... عدوا يذهب حيث يشاء دون أن يحس أحد بتحركاته، بل إنّه- حسبما جاء فى بعض الأحاديث- يجرى من الإنسان مجرى الدم فى عروقه، فهل تنسجم هذه الحقيقة مع عدالة اللّه سبحانه؟! الآية الشريفة- فى خاتمتها- ترد على هذا السؤال الاحتمالى إذ تقول: إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

أى إنّ الشياطين لا يسمح لهم قط بأن يتسلّلوا و ينقذوا إلى قلوب و أرواح المؤمنين الذين لم يكونوا على استعداد لقبول الشيطان و التعامل معه.

و بعبارة أخرى: إنّ الخطوات الأولى نحو الشيطان إنّما يخطوها الإنسان نفسه، و هو الذى يسمح للشيطان بأن يتسلل إلى مملكة جسمه. فالشيطان لا يستطيع اجتياز حدود الروح و يعبرها إلّا بعد موافقة من الإنسان نفسه، فإذا أغلق الإنسان نوافذ قلبه فى وجه الشياطين و الأبالسة، فسوف لا تتمكن من النفوذ إلى باطنه.

إن الآيات القرآنية الأخرى شاهدة أيضا على هذه الحقيقة، ففى سورة النحل فى الآية (۱۰۰) نقرأ إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ فالذين يتعشقون الشيطان و يسلمون إليه زمام أمرهم و يعبدونه هم الذين يتعرضون لسيطرته و وساوسه.

و فى الآية (۴۷) من سورة الحجر نقرأ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ

و بعبارة أخرى: صحيح أنّنا لا نرى الشيطان و جنوده و أعوانه، إلّا أننا نستطيع أن نرى آثار أقدامهم، ففى كل مجلس معصية، و فى كل مكان تهيّأت فيه وسائل الذنب، و فى كل مكان توفرت فيه زبارج الدنيا و بهارجها، و عند طغيان الغرائز، و عند اشتعال لهيب الغضب، يكون حضور الشيطان حتميا و مسلّما، و كأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳

الإنسان يسمع فی هذه المواقع صوت وساوس الشيطان بآذان قلبه، و يری آثار قدمه بأمّ عينيه.

و

قد روی- فی هذا الصعيد- حديث رائع عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: «لما دعا نوح ربّه عز و جل علی قومه أتاه إبليس لعنة اللّه فقال: يا نوح إنّ لک عندی يدا! أريد أن أكافئک عليها.

فقال نوح: إنّه ليبغض إلیّ أن يكون لک عندی يد، فما هی؟

قال: بلی دعوت اللّه علی قومک فأغرقتهم، فلم يبق أحد أغويه، فأنا مستريح حتی ينشأ قرن آخر و أغويهم.

فقال نوح: ما الذی تريد أن تكافينی به؟

قال: أذكرنی فی ثلاثة مواطن، فإنّی أقرب ما أكون إلی العبد إذا كان فی أحدهن:

أذكرنی إذا غضبت؟

و اذكرنی إذا حكمت بين اثنين! و اذكرنی إذا كنت مع امرأة خاليا ليس معكما أحد!»[۳].

النقطة الأخری التی يجب الانتباه إليها هنا، هی أنّ ثلّة من المفسّرين استنبطوا من هذه الآية أنّ الشيطان غير قابل للرؤية للإنسان مطلقا، فی حين يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الأمر ممكن أحيانا.

و لكن الظاهر أنّ هذين الاتجاهين غير متعارضين، لأنّ القاعدة الأولية و الأصلية هی أن لا يری، و لكن لهذه القاعدة- كغيرها- استثناءات، فلا تناف فی الآية التالية يشير تعالی إلی واحدة من وساوس الشيطان المهمّة و التی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴

تجری علی ألسنة بعض الشياطين من الإنس أيضا، و هی أنّه عند ما يسأل الشخص لدی ارتكابه عملا قبيحا، عن دليله يجيب قائلا: هذا ما وجدنا آباءنا يفعلونه: وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا.

ثمّ يضيفون إلی هذه الحجّة حجّة كاذبة أخری قائلين: وَ اللَّهُ أَمَرَنا بِها.

إنّ مسألة التقليد الأعمی للآباء، بالإضافة إلی الافتراء علی اللّه، عذران مختلفان، و حجّتان داحضتان يتشبث بهما العصاة المتشيطنون لتبرير أعمالهم القبيحة غالبا.

و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم لم يعبأ بالدليل الأوّل (يعنی التقليد الأعمی للآباء و الأسلاف) و لم يعتن به، و كأنّه وجد نفسه فی غنی عن الرّدّ عليه و إبطاله، لأنّ العقل السليم يدرک بطلانه، هذا مضافا إلی أنّه قد ردّ عليه فی مواضع عديدة من القرآن الكريم. و إنّما اكتفی بالردّ علی الحجّة الثّانية، أو بالأحری (التبرير الثّانی) حيث قال: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ.

إنّ الأمر بالفحشاء حسب تصريح الآيات القرآنية عمل الشيطان لا عمل اللّه، فإنّه تعالی لا يأمر إلّا بالمعروف و الخير[۴] ثمّ يختم الآية بهذه العبارة: أَ تَقُولُونَ عَلَی اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

و رغم أنّ الأنسب أن يقول: لماذا تنسبون ما هو كذب و ليس له واقع إلی اللّه؟

لكنّه قال بدل ذلک: لماذا تقولون ما لا تعلمون علی اللّه؟ و هذا فی الحقيقة استنادا الی الحدّ الأدنی من موضع قبول الطرف الآخر، فيقال: إذا كنتم لا تتيقنون كذب هذا الكلام، فعلی الأقل ليس لديكم دليل علی إثباته، فلما ذا تتهمون اللّه و تقولون علی اللّه ما لا تعلمون؟!.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵

ما هو المقصود من الفحشاء؟

ما هو المراد من الفحشاء هنا؟ قالت طائفة كبيرة من المفسّرين: إنّها إشارة إلى تقليد كان سائدا بين جماعة من العرب فى العهد الجاهلى، و هو الطواف حول بيت اللّه المعظم عريانا «رجالا و نساء» ظنا منهم بأنّ الثياب التى ارتكبت فيها الذنوب لا تليق بأن يطاف بها حول الكعبة المعظمة.

على أنّ هذا التّفسير يتناسب مع الآيات السابقة التى دار الحديث فيها عن الثّياب و الألبسة.

و لكنّنا نقرأ فى روايات متعددة أنّ المراد من الفحشاء هنا هو كلام حكّام الجور الذين يدعون الناس إلى أنفسهم، و يعتقدون بأنّ اللّه فرض طاعتهم على الناس.

و لكن بعض المفسّرين- مثل كاتب «المنار» و «الميزان»- أخذوا للآية مفهوما واسعا إذ قالوا: إنّ الفحشاء تشمل كل عمل قبيح منكر، و بملاحظة سعة مفهوم لفظة الفاحشة، فإنّ الأنسب هو أنّ للآية معنى واسعا سعة معنى الكلمة، و مسألة «الطواف بالبيت عريانا» و «اتباع القادة و الزعماء الظلمة» تعدّ من المصاديق الواضحة لذلك، فلا منافاة بين الطائفتين من الرّوايات.

هذا و قد أعطينا توضيحا كافيا حول التسليم المطلق لتقاليد الأسلاف و أعرافهم عند تفسير الآية (۱۷۰) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۹ الى ۳۰]

اشارة

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (۲۹) فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۰)

التفسير

حيث أنّ الحديث فى الآية السابقة دار حول الفحشاء التى يشمل مفهوما كلّ أنواع الفعل القبيح، و تأكّد أنّ اللّه يأمر بالفحشاء إطلاقا لهذا أشير فى هذه الآية إلى أصول و مبادئ التعاليم الإلهية فى مجال الوظائف و الواجبات العملية فى جملة قصيرة، ثمّ تبعه بيان أصول العقائد الدينية، أى المبدأ و المعاد، بصورة مختصرة موجزة.

يقول أوّلا: أيّها النّبى قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ و العدل.

و نحن نعلم أنّ للعدل مفهوما واسعا يشمل جميع الأعمال الصالحة، لأنّ حقيقة العدل هى استخدام كل شىء فى مجاله، و وضع كل شىء فى محلّه.

ثمّ إنّه و إن كان بين «العدالة» و «القسط» تفاوتا، إذ تطلق «العدالة» و يراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷

منها إعطاء كل ذى حق حقه، و يقابلها «الظلم» و هو منع ذوى الحقوق من حقوقهم، بينما يعنى «القسط» أن لا تعطى حق أحد لغيره.

و بعبارة أخرى: أن لا يرضى بالتبعيض، و يقابله أن يعطى حقّ أحد لغيره.

و لكن المفهوم الواسع لهاتين الكلمتين اللتين قد تستعملان منفصلتين، متساو تقريبا، و هما يعنيان رعاية الاعتدال و التوازن فى كل شىء و فى كل عمل، و بالتالى وضع كل شىء فى مكانه.

ثمّ إنّه سبحانه أمر بالتوحيد فى العبادة و محاربة كلّ ألوان الشرك و أنواعه، إذ قال: وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ أى وجهوا قلوبكم نحو اللّه الواحد دون سواه، وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

و بعد تحكيم و إرساء قاعدة التوحيد، وجه الأنظار نحو مسألة المعاد و البعث يوم القيامة، إذ قال: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ

بحثان

اشارة

هنا نقطتان يجب الالتفات إليهما و الوقوف عندهما:

۱- ما المقصود من «أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ...»

ذكر المفسّرون فى تفسير أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ تفاسير متنوعة، فتارة قالوا: المراد هو التوجه صوب القبلة.
و أخرى: إنّ المراد هو المشاركة فى المساجد أثناء الصلوات اليومية.
و ثالثة احتملوا أيضا أن يكون الهدف منه هو حضور القلب و النية الخالصة عند العبادة.
و لكن التّفسير الذى ذكرناه أعلاه (أى التوجه إلى اللّه، و محاربة كل ألوان
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸
الشرك و التوجه إلى غير اللّه) يبدو للنظر أنّه أنسب مع ما سبق و ما يلحق هذه الجملة، و إن لم تكن إرادة كل هذه المعانى بعيدة عن مفهوم الآية أيضا.

۲- أقصر الأدلة على المعاد

لقد بحث أمر المعاد و البعث فى يوم القيامة كثيرا، و يستفاد من آيات القرآن الكريم أنّ هضم هذه المسألة كان أمرا صعبا و عسيرا بالنسبة إلى كثير من الناس فى العصور الغابرة، إلى درجة أنّهم كانوا يتخذون أحيانا من طرح مسألة القيامة و المعاد من قبل الأنبياء دليلا على عدم صحة دعوتهم، و بل حتى (و العياذ باللّه) دليلا على الجنون و يقولون: أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۵].
و لكن يجب الانتباه إلى أنّ ما كان يدعو لمزيد من تعجبهم و دهشتهم، هو مسألة المعاد الجسمانى، لأنّهم ما كانوا يصدّقون بأنّ الأبدان بعد صيرورتها ترابا، و تبعثر ذراتها بفعل الرياح و الأعاصير و تناثرها فى أرجاء الأرض. أن تجتمع هذه الذرات المتبعثرة من بين أكوام التراب. و أمواج البحار، و من بين ثنايا ذرات الهواء، و يلبس ذلك الإنسان لباس الوجود و الحياة مرّة أخرى.
إن القرآن الكريم أجاب فى آيات متنوعة على هذا الظن الخاطئ، و الآية الحاضرة تعكس إحدى أقصر و أجمل التعابير فى هذا المجال، إذ تقول: أنظروا إلى بداية الخلق، انظروا إلى جسمكم الذى يتكون من مقدار كبير من الماء، و مقدار أقل من المواد المعدنية و شبه المعدنية المختلفة المتنوعة أين كان فى السابق؟ فالمياه المستخدمة فى جسمكم يحتمل أنّ كل قطرة منها كانت سادرة فى محيط من محيطات الأرض ثمّ تبخّرت و تبدلت إلى السّحب، ثمّ نزلت فى شكل قطرات المطر على الأراضى، و الذرات التى استخدمت فى نسيج جسمكم من مواد الأرض الجامدة كانت ذات يوم فى هيئة حبّة قمح أو ثمرة شجرة، أو خضروات مختلفة جمعت من مختلف نقاط الأرض.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹

و على هذا فلا مكان للتعجب و الدهشة إذا سمعنا أنّه بعد تلاشى بدن الإنسان و رجوعه إلى حالته الأولى تجتمع تلك الذرّات ثانية، و تتواصل و تترابط و يتشكل الجسم الأوّل، فلو كان هذا الأمر محالا فلما ذا وقع فى مبدأ الخلقة.

إذا «كما بدأكم» اللّه «تعودون» أى يعيدكم فى الآخرة، و هذا هو الموضوع الذى تضمنته العبارة القصيرة.

فى الآيـة اللاحقـة يصف سبحانه ردود الفعل التى أظهرها الناس قبال هذه الدعوة (الدعوة إلى التوحيد و الخير و المعاد) فيقول: فَرِيقاً هَدى وَ فَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ.[۶] و لأجل أن لا يتصور أحد أنّ اللّه يهدى فريقا أو يضلّ فريقا من دون سبب، أضاف فى الجملة ما يلى: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى إنّ الضالين هم الذين اختاروا الشياطين أولياء لهم بدل أن يدخلوا تحت ولاية اللّه، فضلوا.

و العجب أنّه رغم كل ما أصابهم من ضلال و انحراف يحسبون أنّهم المهتدون الحقيقون وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ هـذه الحالة تختص بالذين غرقوا فى الطغيان و المعصـية، و كان انغماسـهم فى الفساد، و الضـلال و الانحراف، و الوثنية، كبيرا إلى درجة أنّه انقلبت حاسة تمييزهم رأسا على عقب، فحسبوا القبيح حسنا، و الضلالات هداية، و فى هذه الحالة أغلقت فى وجوههم كل أبواب الهداية، و هذا هو ما أوجدوه و جلبوه لأنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳۲)

التّفسير

اشارة

الحـديث فى هاتين الآيتين يتناسب مع قصّـة آدم فى الجنّـة، و كـذلك يتناول مسألـة اللباس و سائر مواهب الحياة، و كيفيـة الاسـتفادة الصحيحة منها.

فى البدايـة يـأمر جميع أبنـاء آدم ضـمن دسـتور عـام أبـدى، يشـمل جميع الأعصار و القرون، أن يتخـذوا زينتهم عنـد ما يـذهبون إلى المساجد يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ.

هذه الجملة يمكن أن تكون إشارة إلى كل «زينة جسـمانية» ممّا يشـمل لبس الثياب المرتبة الطاهرة الجميلة، و مشط الشعر، و استعمال الطيب و العطر و ما شابه ذلك كما يمكن أيضا أن تكون إشارة إلى كل «زينة معنوية» يعنى الصفات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱

الإنسانية و الملكات الأخلاقية، و صدق النية و طهارتها و إخلاصها.

و إذا رأينا أنّ بعض الرّوايات الإسـلامية تشـير- فقط- إلى اللباس الجيّـد أو مشط الشـعر، أو إذا رأينا أنّ بعضـها الآخر يتحدث- فقط- عن مراسـيم صلاة العيد و صلاة الجمعة، فإنّ ذلك لا يدل على الانحصار، بل الهدف هو بيان مصاديقها الواضحة[۷] و هكذا إذا رأينا أنّ طائفـة أخرى من الرّوايات تفسـر الزينـة بالقادة الصالحين ۸]، فإنّ كل ذلك يـدل على سـعة مفهوم الآيـة الذى يشـمل جميع أنواع

الزينة الظاهرية و الباطنية.

و هـذا الحكم و إن كان يتعلق بجميع أبناء آدم فى كل زمان و مكان، إلّا أنّه ينطوى ضـمنا على ذم عمل قبيح كان يقوم به جماعة من الأعراب فى العهـد الجاهلى عنـد دخولهم فى المسـجد الحرام و الطواف بالكعبة المعظمة، حيث كانوا يطوفون بالبيت المعظم عراة من دون ساتر يستر عوراتهم، كما أنّه يتضـمن- أيضا- نصـيحة لأولئك الـذين يرتـدون عنـد إقامـة الصـلاة أو الـدخول إلى المساجد ثيابا وسـخة خلقـة أو ألبسـة تخصّ المنزل، و يشـتركون فى مراسـيم عبـادة و هم على تلـك الهيئـة المزريـة، الأمـر الـذى نشاهـده اليوم- و للأسف- بين بعض الغفلة السذج من المسـلمين، فى حين أننا مكلّفون- طبقا للآية الحاضـرة، و الرّوايات الواردة فى هذا الصـعيد- بأن نرتدى لدى ارتيادنا للمساجد أفضل ثيابنا و ألبستنا.

ثمّ فى العبارة اللاحقة يشير سبحانه إلى مواهب أخرى، يعنى الأطعمة و الأشربة الطاهرة الطيبة، و يقول: وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا.

و لكن حيث أنّ الإنسان حريص بحكم طبيعته البشرية، يمكن أن يسىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲

استخدام هذين التعليمين، و بدل أن يستفيد من نعمة اللباس و الغذاء الصـحيح بالشـكل المعقول و المعتدل، يسلك سبيل الإسراف و التبذير و البذخ، لهذا أضاف مباشرة قائلا: وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

و كلمـة «الإسـراف» كلمة جامعة جدّا بحيث تشـمل كل إفراط فى الكم و الكيف، و كذا الأعمال العابثة و الإتلاف و ما شابه ذلك، و هـذا هو أسـلوب القرآن خاصّـة، فهو عند الحث على الاسـتفادة من مواهب الحياة و الطبيعة يحذّر فورا من سوء اسـتخدامها، و يوصـى برعاية الاعتدال.

و فى الآيـة اللاحقـة يعمـد إلى الرّد- بلهجـة أكثر حـدّة- على من يظن أنّ تحريم أنواع الزينـة و التزين و الاجتناب من الأطعمـة الطيبة الحلال علامة الزهد، و سببا للتقرب إلى اللّه فيقول: أيّها النّبى قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ

إذا كانت هـذه الأمور قبيحة فإنّ اللّه تعالى لا يخلق القبيح، و إذا خلقها اللّه ليتمتع بها عباده فكيف يمكن أن يحرّمها؟ و هل يمكن أن يكون هنـاك تنـاقض بين جهـاز الخلق، و بين التعـاليم الدينيـة؟! ثمّ أضاف للتأكيـد: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الـدُّنْيا خالِصَـةً يَوْمَ الْقِيامَةِ أى أنّ هـذه النعم و المـواهب قـد خلقت للمـؤمنين فى هـذه الحيـاة، و إن كـان الآـخرون- أيضـا- يسـتفيدون منهـا رغم عـدم صلاحيتهم لـذلك، و لكن فى يوم القيامـة حيث الحياة الأعلى و الأفضل، و حيث يتميز الخبيث عن الطيب، فإنّ هـذه المواهب و النّعم ستوضع تحت تصرف المؤمنين الصالحين فقط، و يحرم منها الآخرون حرمانا كليّا.

و على هـذا الأساس فإنّ ما هو للمؤمنين فى الـدنيا و الآخرة، و خاص بهم فى العالم الآخر كيف يمكن أن يحرّم عليهم؟ أنّ الحرام هو ما يورث مفسدة، لا ما هو نعمة و موهبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳

هذا و قد احتمل أيضا فى تفسير هذه العبارة من الآية أنّ هذه المواهب و إن كانت فى هذه الدنيا ممزوجة بالآلام و المصائب و البلايا، إلّا أنّها توضع تحت تصرف المؤمنين و هى خالصة من كل ذلك فى العالم الآخر (و لكن التّفسير الأوّل يبدو أنّه أنسب).

و فى ختام الآية يقول من باب التأكيد: كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

الزّينة و التّجمل من وجهة نظر الإسلام:

لقد اختار الإسـلام- كسائر الموارد- حدّ التوسط و الاعتدال فى مجال الانتفاع و الاسـتفادة من أنواع الزينة، لا كما يظن البعض من أنّ التمتع و الاسـتفادة من الزينة و التجمل- مهما كان بصورة معتدلة- أمر مخالف للزّهد، و لا كما يتصور المفرطون فى اسـتعمال الزينة و

التجمل الذين يجوّزون لأنفسهم فعل كل عمل شائن بغية الوصول إلى هذا الهدف الرخيص.

و لو أننا أخذنا بناء الجسم و الروح بنظر الإعتبار، لرأينا أنّ تعاليم الإسلام فى هذا الصعيد تنسجم تماما مع خصائص الروح الإنسانية و بناء الجسم البشرى و متطلباتهما، و احتياجاتهما الذاتية.

توضيح ذلك: إنّ غريزة حبّ الجمال- باعتراف علماء النفس- هى إحدى أبعاد الروح الإنسانية الأربعة، و التى تشكل مضافا إلى غريزة حب الخير، و غريزة حب الاستطلاع، و غريزة التّدين، الأبعاد الأصلية فى النفس الإنسانية.

و يعتقدون بأنّ جميع الظواهر الجمالية الأدبية و الشعرية، و الصناعات الجميلة، و الفن بمعناه الواقعى، إنّما هو نتيجة هذه الغريزة و هذا الإحساس.

و مع هذا كيف يمكن أن يعمد قانون صحيح إلى خنق هذا الحس المتأصل و المتجذر فى أعماق الروح الإنسانية، و يتجاهل العواقب السيئة فى حال عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴

إشباعه بصورة صحيحة.

و لهذا لم يكتف فى الإسلام بتجويز التمتع بجمال الطبيعة و الاستفادة من الألبسة الجميلة و المناسبة، و استعمال كل أنواع العطور، و ما شابه ذلك، بل أوصى بذلك و حثّ عليه أيضا، و رويت فى هذا المجال أحاديث كثيرة عن أئمّة الدين فى المصادر و الكتب الموثوقة.

فإننا نقرأ- مثلا- فى تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنّه عند ما كان ينهض إلى الصلاة كان يرتدى أحسن ثيابه، و لما سئل: لماذا يلبس أحسن ثيابه؟

قال: «إنّ اللّه جميل يحبّ الجمال، فأتجمل لربّى و هو يقول: خذوا زينتكم عند كل مسجد»[۹].

و

فى الحديث أنّ أحد الزهاد، و يدعى عباد بن كثير البصرى، رأى الإمام الصادق عليه السلام و هو يلبس ثيابا غالية الثمن فقال معترضا عليه: يا أبا عبد اللّه، إنّك من أهل بيت نبوة و كان أبوك و كان، فما لهذه الثياب المزينة عليك؟ فلو لبست دون هذه الثياب. فقال له أبو عبد اللّه عليه السلام: «ويلك- يا عباد- من حرّم زينة اللّه التى أخرج لعباده و الطيّبات من الرّزق؟»[۱۰].

و أحاديث أخرى.

إنّ هذا التعبير، أى أنّ اللّه جميل يحب الجمال، أو أنّ اللّه مصدر الجمال إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى: أنّ الاستفادة من كل نوع من أنواع الزينة و الجمال لو كان ممنوعا لما خلق اللّه تلك الزينة أبدا، إنّ خلق الأشياء الجميلة فى عالم الوجود دليل على أنّ خالقها يحبّ الجمال.

و لكن المهم هنا أنّ الناس يسلكون- غالبا- فى مثل هذه المواضيع طريق الإفراط و المبالغة، و يعمدون إلى الترف بمختلف الحجج و المعاذير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵

و لهذا يعمد القرآن الكريم فورا و بعد ذكر هذا الحكم الإسلامى- كما أسلفنا- إلى تحذير المسلمين من الإسراف و الإفراط و المبالغة فى الاستفادة من هذه الأمور، ففى أكثر من عشرين موضعا من القرآن الكريم يشير إلى مسألة الإسراف و يذمّه بشدّة (و قد تحدثنا بإسهاب حول الإسراف فى تفسير الآيات المناسبة) و على كل حال، فإنّ أسلوب القرآن الكريم و الإسلام فى هذا الصعيد أسلوب يتسم بالتوازن و الاعتدال، فلا- جمود فيه يقمع الرغبات المودعة فى الروح الإنسانية إلى الجمال، و لا- هو يؤيد مسلك المسرفين المتطرفين و ذوى البطنة و الجشع فى التمتع بالزينة و الجمال.

بل هو ينهى حتى عن التزين و التجمل المعتدل فى المجتمعات التى يعيش فيها محرومين مساكين، و لهذا نلاحظ فى بعض الرّوايات و الأحاديث أنّه عند ما يسأل أحد الأئمّة: لماذا يلبس ثيابا فاخرة، و قد كان جدّه لا يلبس مثل هذه الثياب؟ فيجيب الإمام عليه السلام قائلا:

«إنّ على بن أبى طالب عليه السلام كان فى زمان ضيق فإذا اتّسع الزمان فأبرار الزّمان أولى به»[۱۱].

توصية صحية هامّة:

إنّ عبارة كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا التى جاءت فى الآية الحاضرة، و إن كانت تبدو للنظر أمرا بسيطا جدّا، إلّا أنّه ثبت اليوم أنّه واحد من أهم الأوامر و التعاليم الصحيحة، و ذلك لأنّ تحقيقات العلماء توصلت إلى أنّ منبع الكثير من الأمراض و الآلام هو الأطعمة الإضافية الزائدة التى تبقى فى بدن الإنسان إنّ هذه المواد الإضافية تشكل من جانب عبئا ثقيلا على القلب و غيره من أجهزة الجسم، و هى من جانب آخر منبع مهيّأ لمختلف أنواع العفونات و الأمراض، و لهذا فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶

الخطوة الأولى لعلاج الكثير من الأمراض هو أن تحترق هذه المواد الزائدة التى تمثل- فى الحقيقة- فضلات الجسم، و تتم عملية تطهير الجسم منها عمليا.

إنّ العامل الأصل فى وجود هذه المواد الزائدة هو الإسراف، و الإفراط فى الأكل و البطنة، و الطريق إلى تجنب هذه الحالة ليس إلّا رعاية الاعتدال فى الأكل، و خاصّة فى عصرنا هذا الذى كثرت فيه أمراض مختلفة مثل السكرى، و تصلب الشرايين، و أنواع السكتة، و ما شابه ذلك من الأمراض التى يعدّ الإفراط فى الأكل مع عدم الحركة البدنية بالمقدار الكافى أحد العوامل الاساسية لها، و ليس هناك من سبيل لإزالة هذه الأمراض و تجنبها إلّا الحركة البدنية الكافية، و الاعتدال فى المأكل و المشرب.

و قد نقل المفسّر الكبير العلامة «الطبرسى» فى «مجمع البيان» قصة رائعة فى هذا المجال و هى أنّه:

حكى أنّ هارون الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق، فقال ذات يوم لعلى بن الحسين بن واقد: ليس فى كتابكم من علم الطب شىء، و العلم علمان: علم الأديان، و علم الأبدان.

فقال له على: قد جمع اللّه الطب كلّه فى نصف آية من كتابه و هو قوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا و جمع نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الطب فى قوله: «المعدة بيت الداء و الحمية رأس كل دواء، و أعط كل بدن ما عودته».

فقال الطبيب: ما ترك كتابكم و لا نبيّكم لجالينوس طبّا[۱۲].

فمن كان يظن أنّ هذه التوصية سطحية، فما عليه إلّا أن يجرّبها فى حياته كما يدرك أهميتها و يسبر غورها، و يشاهد المعجزة فى سلامة الجسم برعاية هذا الدّستور الصحى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۳]

اشارة

قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۳۳)

التّفسير

المحرمات الإلهية:

لقد شاهدنا مرارا أنّ القرآن الكريم كلّما تحدث عن أمر مباح أو لازم، تحدث فورا عن ما يقابله، من الأمور القبيحة و المحرمات، ليكمّل كلّ واحد منهما الآخر.

و هنا أيضا تحدّث- عقيب السماح بالتمتع و الاستفادة من المواهب الإلهية و إباحة كل ما هو زينة و جمال- عن المحرمات على نحو العموم، ثمّ أشار بصورة خاصّة إلى عدة نقاط مهمّة.

ففى البداية تحدث عن تحريم الفواحش و قال: يا أيّها النّبى قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ

و «الفواحش» جمع «فاحشة» و تعنى الأعمال القبيحة البالغة فى القبح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸

و السوء لا جميع الذنوب، و لعلّ التأكيد على هذا المطلب (ما ظهر منها و ما بطن) هو لأجل أنّ العرب الجاهليين كانوا لا يستقبحون عمل الزنا إذا أتى به سرّا، و يحرّمونه إذا كان ظاهرا مكشوفا.

ثمّ إنّه عمّم الموضوع، و أشار إلى جميع الذنوب و قال «و الإثم» أى كل إثم.

و الإثمّ فى الأصل يعنى كل عمل مضرّ، و كل ما يوجب انحطاط مقام الإنسان و تردّى منزلته، و يمنعه و يحرمه من نيل الثواب و الأجر الحسن. و على هذا يدخل كل نوع من أنواع الذنوب فى المفهوم الواسع للإثم.

و لكن بعض المفسّرين أخذوا الإثمّ هنا فقط بمعنى «الخمر» و استدلوا لذلك بالشعر المعروف.

شربت الإثمّ حتى ضلّ عقلى كذاك الإثمّ يصنع بالعقول ۱۳]

و لكنّ الظاهر أنّ هذا المعنى ليس هو تمام مفهوم الكلمة، بل أحد مصاديقه.

و مرّة أخرى يشير بصورة خاصّة إلى عدد من كبريات المعاصى و الآثام، فيقول: وَ الْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِ أى كل نوع من أنواع الظلم، و التجاوز على حقوق الآخرين.

و «البغى» يعنى السعى و المحاولة لتحصيل شىء، و لكن يراد منه غالبا الجهود المبذولة لغصب حقوق الآخرين، و لهذا يكون مفهومه- فى الغالب- مساويا لمفهوم الظلم.

و من الواضح أنّ وصف «البغى» فى الآية المبحوثة بوصف «غير الحق» من قبيل التوضيح و التأكيد على معنى «البغى».

ثمّ أشار تعالى إلى مسألة الشرك و قال: وَ أَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً فهو أيضا محرّم عليكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹

و من الواضح أنّ جملة ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً للتأكيد، و لإلفات النظر إلى حقيقة أنّ المشركين لا يملكون أى دليل منطقى و أى برهان معقول، و كلمة «السلطان» تعنى كل دليل و برهان يوجب تسلّط الإنسان و انتصاره على من يخالفه.

و آخر ما يؤكّد عليه من المحرمات هو نسبة شىء لم يستند إلى علم اللّه وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

و لقد بحثنا حول القول على اللّه بغير علم عند تفسير الآية (۲۸) من نفس هذه السورة أيضا.

و لقد أكّد فى الآيات القرآنية و الأحاديث الإسلامية على هذه المسألة كثيرا، و منع المسلمون بشدة عن قول ما لا يعلمون إلى درجة أنّه

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السماوات و الأرض».[۱۴]

و لو أنّنا أمعنا النظر و دققنا جيدا فى أوضاع المجتمعات البشرية، و المصائب و المتاعب التى تعانى منها تلكم المجتمعات، لعرفنا أنّ القسط الأكبر من هذا الشقاء ناشئ من بث الشائعات، و القول بغير علم، و الشهادة بغير الحق، و إبداء و جهات نظر لا تستند إلى برهان أو دليل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۴]

اشارة

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۳۴)

التّفسير

لكلّ أمّة أجل:

فى هذه الآية يشير اللّه تعالى إلى واحدة من سنن الكون و الحياة، يعنى فناء الأمم و زوالها، و يلقى ضوءا أكثر على الأبحاث التى تتعلق بحياة أبناء البشر على وجه الأرض و مصير العصاة، التى سبق الحديث عنها فى الآيات السابقة.

فيقول أوّلا: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ثمّ يشير إلى أنّ هذا الأجل لا يتقدم و لا يتأخر إن جاء فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ أى أنّ الأمم و الشعوب مثل الأفراد، لها موت و حياة، و أنّ الأمم تندثر و ينمحى أثرها من على وجه الأرض، و تحل مكانها أمم أخرى، و إنّ سنّة الموت و قانون الفناء لا يختصان بأفراد الإنسان، بل تشمل الجماعات و الأقوام و الأمم أيضا، مع فارق و هو أنّ موت الشعوب و الأمم يكون- فى الغالب- على أثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱

انحرافها عن جادة الحق و العدل، و الإقبال على الظلم و الجور، و الانغماس فى بحار الشهوات، و الغرق فى أمواج الإفراط فى التجمل و الرفاهية.

فعند ما تسلك الأمم فى العالم هذه المسالك و تنحرف عن سنن الكون و قوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، و تسقط فى النهاية إنّ دراسة زوال مدنيات كبرى، مثل حضارة بابل، و فراعنة مصر، و قوم سبأ، و الكلدانيين و الآشوريين، و مسلمى الأندلس و أمثالها، توضح الحقيقة التالية، و هى أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات و الحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ساعة واحدة.

و يجب الالتفات إلى أنّ «الساعة» فى اللغة تعنى أصغر وحدة زمنية، فربّما تكون بمعنى لحظة، و ربّما تكون بمعنى أقل قدر من الزمن، و إن كانت الساعة تعنى فى عرفنا الحاضر اليوم مدة واحد من أربع و عشرين ساعة فى اليوم.

الرد على خطأ:

رأت بعض المذاهب المختلفة التى ظهرت فى القرون الأخيرة بغية الوصول إلى أهدافها، أن تزعزع- بظنها- قبل أى شىء أسس خاتمية رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لهذا تمسكت ببعض الآيات القرآنية التى لا تدل على هدفها، و بمعونة من

تفسيرها بالرأى، و شيء من المغالطة و السفسطة للتدليل على مقصودها.

و من تلك الآيات الآيـة المبحوثة هنا. فقالوا: إنّ القرآن يصـرّح بأنّ لكل أمّة أجلا و نهاية، و المراد من الأمّة الدين و الشـريعة، و لهذا فإنّ للدّين الإسلامى أمدا و نهاية أيضا!.

إنّ أفضل الطرق لتقييم هذا الاستدلال هو أن ندرس المعنى الواقعى للفظة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲

الأمّة فى اللغة، ثمّ فى القرآن الكريم.

يستفاده من كتب اللغـة، و كـذا من موارد اسـتعمال هـذه اللفظة فى القرآن الكريم، و التى تبلغ ۶۴ موضـعا، إنّ الأمّة فى الأصل تعنى الجماعة.

فمثلا فى قصـة موسـى نقرأ هكـذا: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ۱۵] أى يمتحون المـاء من البئر لأنفسـهم و لأنعامهم.

و كذا نقرأ فى مجال الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر: وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ[۱۶].

كما نقرأ أيضا: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ۱۷].

و المعنيون بالأمّة هم أهالى مدينة إيلة من بنى إسرائيل.

و نقرأ حول بنى إسـرائيل: وَ قَطَّعْنـاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ أَسْـباطاً أُمَماً[۱۸] من هـذه الآيات يتّضـح جيـدا أنّ الأمّـة تعنى الجماعـة، و لا تعنى الدين، و لا أتباع الدين، و لو أنّنا لا حظنا استعمالها فى أتباع الدين، فإنّما هو بلحاظ أنّهم جماعة.

و على هـذا الأسـاس يكون معنى الآيـة المبحوثـة هنـا هو أنّ لكل جماعـة من الجماعات البشـرية نهايـة، فليس آحاد الناس هم الـذين يموتون، و تكون لأعمارهم آجال و آماد فحسب، بل الأمم هى الأخرى تموت، و تتلاشى و تنقرض.

و أساسا لم تستعمل لفظة الأمّة فى الدين أبدا، و لهذا فإنّ الآية لا ترتبط بمسألة الخاتمية مطلقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۵ الى ۳۶]

اشارة

يـا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيـاتِي فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۳۵) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۳۶)

التفسير

تعليم آخر لأبناء آدم:

مرّة أخرى يخـاطب اللّه سـبحانه أبنـاء آدم و ذريّته، إذ يقـول: يـا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيـاتِي فَمَنِ اتَّقى وَ أَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ۱۹] أى إذا أتاكم رسـلى يتلون عليكم آياتى فاتّبعوهم، لأنّ من اتّقى منكم و اتبعهم و أصلح نفسه و الآخرين كان فى أمن من عذاب اللّه الأليم، فلا يخاف و لا يحزن.

و فى الآية اللاحقة يضيف سبحانه و تعالى قائلا: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴

فتلك عاقبة المؤمنين، و هذه عاقبة المكذبين لهم.

رد على سفسطة أخرى:

أقدم جماعة من مختلقى الأديان و المذاهب فى العصور الأخيرة- على غرار ما قلنا فى تفسير الآيات السابقة- على التمسك بطائفة من الآيات القرآنية بغية تعبيد الطريق لأهدافهم و التمهيد لتحقيقها، و ادعوا كونها دليلا على نفى خاتمية رسول الإسلام، على حين لا ترتبط هذه الآيات بتلك المسألة قط.

و من تلكم الآيات الآية الحاضرة، فهم من دون أن يلاحظوا ما يسبقها و ما يلحقها من الآيات قالوا: إن «يأتينّكم» فعل مضارع، و يدلّ على أنّه من الممكن أن يبعث اللّه رسلا آخرين فى المستقبل.

و لكن لو رجعنا إلى الوراء قليلا، و استعرضنا الآيات التى تتحدث عن خلقة آدم و سكونته فى الجنّة، ثمّ إخراجه منها هو و زوجته. و لاـ حظنا أنّ المخاطبين فى هذه الآيات ليسوا المسلمين، بل مجموع البشر و جميع أبناء آدم، لا تضح جواب هذه الشّبهة و ردّ هذا الاستدلال، لأنّه لا شك أنّه قد بعث لمجموع أبناء آدم رسل كثيرون، جاء ذكر أسماء طائفة معتد بها فى القرآن الكريم، و جاء ذكر آخرين فى كتب التواريخ.

غاية ما فى الأمر أنّ هذا الفريق من مختلقى المذاهب و الأديان، تجاهلوا الآيات السابقة بغية إضلال الناس و خداعهم، و قالوا: إنّ المخاطبين فى هذه الآية هم خصوص المسلمين، و استنتجوا من ذلك إمكان وجود رسل آخرين.

إنّ لأمثال هذه السفسطات نظائر كثيرة فى السابق، و بخاصّة فى حالة الفصل بين آية و أخرى و جملة و أخرى، و التغافل عن سوابق الآية و لواحقها، فينتزعون منها مفهوما يوافق رغباتهم و إن كان يقابل المفهوم الواقعى للآية فى الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۳۷]

اشارة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ (۳۷)

التفسير

من هذه الآية فما بعد تتضمّن الآيات بيان أقسام مختلفة من المصير السيء الذى ينتظر المفترين و المكذبين لآيات اللّه تعالى، و فى البداية تشير إلى كيفية حالهم عند الموت، إذ تقول: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ

و كما أسلفنا- فى سورة الأنعام فى ذيل الآية ۲۱- لقد عرف «أظلم الناس» فى عدّة آيات من القرآن الكريم بتعابير مختلفة، و لكن الصفات التى ذكرت لهم تعود كلّهم إلى جذر واحد، و هو الشرك و عبادة الأصنام و تكذيب آيات اللّه سبحانه. و فى الآية المبحوثة هنا ذكرت مسألة الافتراء على اللّه سبحانه كصفة بارزة من صفاتهم، مضافا إلى صفة التكذيب بالآيات الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶

و نظرا إلى أنّ منشأ جميع أنواع الشقاء فى نظر القرآن هو الشرك، و رأس مال جميع السعادات هو التوحيد، يتّضح لماذا يكون هؤلاء الضالون المضلون أظلم الناس. إنّ هؤلاء ظلموا أنفسهم كما ظلموا المجتمع الذى يقيمون فيه، إنّهم يغرسون النفاق و التفرقة فى كل مكان، و يشكّلون سدّا و مانعا كبيرا فى طريق وحدة الصفوف و التقدم و الإصلاحات الواقعية[۲۰].

ثمّ إنّه تعالى يصف وضعهم عند الموت فيقول: أُولئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتابِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ أى أنّ هؤلاء سيأخذون ما هو نصيبهم و ما هو مقدر مكتوب لهم من النعم المختلفة، حتى إذا استوفوا حظهم من العمر، و انتهوا إلى آجالهم النهائية، حينئذ تأتيهم ملائكتنا الموكلون بقبض أرواحهم.

و المراد من «الكتاب» هى المقدرات من النعم المختلفة التى قدرها اللّه تعالى لعباده فى هذا العالم، و إن احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب هو العذاب الإلهى، أو ما هو أعمّ من المعنيين.

و لكن بالنظر إلى كلمة (حتى) التى تشير عادة إلى انتهاء الشىء، يتّضح أنّ المراد هو فقط نعم الدنيا المتنوعة المختلفة التى لكل أحد فيها حظ و نصيب، سواء المؤمن أو الكافر، الصالح و الطالح، و التى تؤخذ عند الموت، لا- العقوبات الإلهية التى لا تنتهى بحلول الموت، و التعبير بالكتاب عن هذه النعم و المقدرات إنّما هو لأجل شبهها بالأمور التى تخضع للتقسيم و الأسهم و تكتب.

و على كل حال، فإنّ عقوباتهم تبدأ منذ لحظة حلول الموت، ففى البداية يواجهون التوبيخ و عتاب الملائكة المكلّفين بقبض أرواحهم، فيسألونهم: أين معبوداتكم الّتى اتخذتموها من دون اللّه و التى طالما تحدثتم عنها، و كنتم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷

تسوقون إليها ثرواتكم سفها. قالُوا أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فيجيبهم هؤلاء بعد أن يرون أنفسهم منقطعين عن كلّ شىء، و يرون كيف تبددت جميع أوهامهم و تصوراتهم الخاطئة حول آلهتهم و ذهبت أدراج الرياح، قائلين: لا نرى منها أثرا و إنّها لا تملك أن تدافع عنّا، و أنّ جميع ما فعلناه من العبادة لها كان عبثا و باطلا قالُوا ضَلُّوا عَنَّا.

و هكذا يشهدون على أنفسهم بالكفر و الضلال وَ شَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ

إنّ ظاهر المسألة و إن كان يوحى بأنّ الملائكة تسأل و أنّهم يجيبون، و لكنّه فى الحقيقة نوع من العقوبة النفسية لهم يلفتون بها نظرهم إلى الوضع المأساوى الذى يصيبهم من جراء أعمالهم، و يرونهم كيف ضلوا و تاهوا فى المتاهات و الضلالات مدة طويلة من العمر، و ضيّعوا كل رؤوس أموالهم الثمينة دون جدوى دون أن يحصدوا منها حصيلة مسرّة مشرّفة فى حين أغلق فى وجههم طريق العودة، و هذا هو أوّل سوط جهنّمى من سياط العقوبة الإلهية التى تتعرض لها أرواحهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۳۸ الى ۳۹]

اشارة

قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ (۳۸) وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۳۹)

التفسير

تنازع القادة و الاتباع فى جهنم!

فى هذه الآية يواصل القرآن الكريم بيان المصير المشؤوم للمكذبين بآيات اللّه.

ففى الآيات السابقة صور لنا وضعهم عند حلول الموت، و سؤال الملائكة القابضة للأرواح لهم، و هنا يرسم لنا ما يجرى بين الجماعات المظلّة و الغاوية، و بين من تعرضوا للإغواء فى يوم القيامة.

ففى يوم القيامة يقول اللّه لهم: التحقوا بمن يشابهكم من الجن و الإنس ممن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹

سبقوكم، و ذوقوا نفس مصيرهم النّار قالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فِي النَّارِ.

إنّ هذا الأمر يمكن أن يكون بشكل أمر تكوينى، يعنى أن يجعلهم جميعا فى مكان واحد، أو يكون شبيها بأمر تشريعى يصدر إليهم يسمعونه بآذانهم، و يكونون مجبورين على إطاعته.

و عند ما يدخل الجميع فى النّار تبدأ مصادماتهم مع زملائهم و أشباههم فى المسلك، و هى مصادمات عجيبة، فكلّما دخلت جماعة منهم فى النّار لعنت الأخرى و اعتبرتها سببا لشقائها و مسئولة عن بلائها و محنتها كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها.[۲۱] و لعلنا قلنا مرارا: إنّ ساحة القيامة و ما يجرى فيها انعكاس واسع و كبير لمجريات هذه الدنيا. فلطالما رأينا فى هذا العالم الجماعات و الفرق و الأحزاب المنحرفة تلعن إحداها الأخرى، و تبدى تنفرها منها. على العكس من أنبياء اللّه، و المؤمنين الصالحين، و المصلحين الخيّرين، فإنّ كل واحد منهم يؤيّد برنامج الآخر، و يعلن عن ارتباطه به و اتحاده معه فى الأهداف و الغايات.

إلّا أنّ الأمر لا ينتهى إلى هذا الحدّ، بل عند ما يستقر الجميع- بمنتهى الذلّة و الصغار- فى الجحيم و العذاب الأليم، تبدأ كل واحدة منها برفع شكايتها إلى اللّه من الأخرى.

ففى البداية يبدأ المخدوعون المغرّر بهم بعرض شكايتهم، و حيث أنّهم لا يجدون مناصا ممّا هم فيه يقولون: ربّنا إنّ هؤلاء المغوين هم الذين أضلونا و خدعونا، فضاعف يا ربّ عذابهم، عذابا لضلالهم و عذابا لإضلالهم إيّانا. و هذا هو ما يتضمّنه قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰

حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ.

و لا شك أنّ هذا الطلب منطقى و معقول جدّا، بل إنّ المضلين سينالون ضعفا من العذاب حتى من دون هذا الطلب، لأنّهم يتحملون مسئولية انحراف من أضلوا أيضا دون أن ينقص من عذابهم شىء، و لكن العجيب هو أن يقال لهم فى معرض الإجابة على طلبهم: سيكون لكلتا الطائفتين ضعفان من العذاب و ليس للمضلين فقط قالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ

و مع الإمعان و الدقة يتّضح لماذا ينال المخدوعون المضللون ضعفا من العذاب أيضا، لأنّه لا يستطيع أئمّة الظلم و الجور و رؤوس الانحراف و الضلال أن ينفذوا لوحدهم برامجهم، بل هؤلاء الأتباع المعاندون المتعصبون لأسيادهم هم الذين يمدون قادة الضلال و رؤوس الانحراف بالقوّة و المدّد الذى يوصلهم إلى أهدافهم الشريرة، و على هذا الأتباع يجب أن ينالوا ضعفا من العذاب أيضا، عذابا لضلالهم هم، و عذابا لمساعدتهم للظالمين و إعانتهم قادة الانحراف.

و لهذا نقرأ

فى حديث معروف عن الإمام الكاظم عليه السلام حول أحد شيعته يدعى صفوان، حيث نهاه عن التعاون مع هارون الرشيد قائلا: «يا صفوان كلّ شىء منك حسن جميل ما خلا شيئا واحدا».

قلت: جعلت فداك أى شىء؟

قال عليه السلام إكراؤك جمالك من هذا الرجل (هارون الرشيد العباسى).

قلت: و اللّه ما أكريته أشرا و لا بطرا و لا للصيد و لا للهو، و لكنّى أكريته لهذا الطريق (يعنى طريق مكّة) ...

فقال لى عليه السلام: يا صفوان أيقع كراؤك عليهم؟ قلت: نعم جعلت فداك.

فقال لى: أ تحبّ بقاءهم حتى يخرج كراؤك. قلت: نعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱

قال عليه السلام: «من أحبّ بقاءهم فهو منهم، و من كان منهم كان ورد النّار».[۲۲]

و فى الآية اللاحقة ينقل القرآن الكريم جواب قادة الضلال و الانحراف بأنّه ليس بيننا و بينكم أى تفاوت، فإذا قلنا فقد أيدتم، و إذا خطونا فقد ساعدتم، و إذا ظلمنا فقد عاونتم، و إذن فذوقوا بإزاء أعمالكم عذاب اللّه الأليم، وَ قالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

و المقصود من «الأولى» الطائفة الأولى أى القادة (قادة الضلال الانحراف) و المقصود من «الأخرى» الأتباع، و الأنصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۰ الى ۴۱]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (۴۰) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ وَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۴۱)

التفسير

مرّة أخرى يتناول القرآن بالحديث مصير المتكبرين و المعاندين، يعنى أولئك الذين لا يخضعون لآيات اللّه و لا يستسلمون للحق، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ.

و

قد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «أمّا المؤمنون فترفع أعمالهم و أرواحهم إلى السماء فتفتح لهم أبوابها، و أمّا الكافر فيصعد بعمله و روحه حتى إذا بلغ إلى السماء نادى مناد: اهبطوا به إلى سجّين».[۲۳]

و قد رويت بهذا المضمون أحاديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير الطبرى و سائر التفاسير، فى ذيل الآية المبحوثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳

من الممكن أن يكون المقصود من السماء هنا معناه الظاهر، و كذا يمكن أن تكون كناية عن مقام القرب الإلهى، كما نقرأ فى الآية (۹) من سورة فاطر: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

ثمّ أضاف قائلا: وَ لا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ، أى حتى يدخل البعير فى ثقب الإبرة.

إنّ هذا التعبير كناية لطيفة عن استحالة هذا الأمر، و قد اختير هذا المثال و التصوير الحسّى للإخبار عن عدم إمكان دخول هؤلاء الأشخاص فى الجنّة، فكما لا يتردد أحد فى استحالة عبور الجمل بجثته الكبيرة من خلال ثقب الإبرة، فكذلك لا ينبغى الشك فى عدم وجود طريق لدخول المستكبرين إلى الجنّة مطلقا.

و «الجمل» فى اللغة يعنى البعير الذى خرجت أسنانه حديثا، و لكن أحد معانى الجمل هو الحبل القوى و المتين الذى تربط به السفن

أيضا[۲۴].

و حيث إنّ بين الحبل و الإبرة تناسبا أقوى و أكثر، لهذا ذهب بعضهم إلى هذا المعنى عند تفسير الآية، و لكن أكثر المفسّرين الإسلاميين رجّح المعنى الأوّل، و هم على حق فى هذا الاتجاه لأمور:

أوّلا: إنّ فى أحاديث أئمّة الإسلام كذلك تعابير تناسب التّفسير الأوّل.

ثانيا: إنّه يلاحظ نظير هذا التّفسير حول الأثرياء (المتكبرين الأنانيين) فى الإنجيل أيضا، ففى إنجيل لوقا الباب ۱۸ الجملة ۲۴ و ۲۵ نقرأ هكذا: إنّ عيسى قال: «ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت اللّه. لأنّ دخول الجمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت اللّه».

و لا أقل يستفاد من هذه العبارة أنّ هذه الكناية كانت متداولة بين الشعوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴

منذ قديم الزمان.

و قد نستعمل هذا المثل أيضا، فى محاوراتنا اليومية الآن، فيقال عن الأشخاص المتشدّدين جدّا أحيانا، و المتساهلين جدّا أحيانا أخرى: (إنّ فلانا تارة لا يدخل من باب المدينة، و تارة يدخل من ثقب إبرة).

ثالثا: بالنظر إلى أنّ استعمال لفظة الجمل فى المعنى الأوّل (أى البعير) أكثر، بينما استعمالها فى الحبل الغليظ قليل جدا، لهذا يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و فى خاتمة الآية يضيف تعالى للمزيد من التأكيد و التوضيح قائلا: وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُجْرِمِينَ

و فى الآية اللاحقة يشير إلى قسم آخر من عقوبتهم المؤلفة إذ يقول: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ ۲۵].

ثمّ يضيف للتأكيد وَ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ

و الملفت للنظر و الطريف: أنّه يعبّر عنهم مرّة ب «المجرم» و مرّة ب «الظالم» و ثالثة ب «المكذبين» لآيات اللّه، و رابعة ب «المستكبرين»، و ترجع جميعها إلى حقيقة واحدة فى الواقع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۲ الى ۴۳]

اشارة

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۴۲) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳)

التّفسير

الطّمأنينة الكاملة و السّعادة الخالدة:

إنّ أسلوب القرآن- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هو عرض الطوائف المختلفة و بيان مصائرها جنبا إلى جنب لتأكيد الموضوع، و شرح أوضاعها عن طريق المقارنة و المقايسة بينها.

و لقد كان البحث فى الآيات السابقة حول المكذبين لآيات اللّه، و المستكبرين و الظالمين، و هنا يشرح و يبيّن المستقبل المشرق للمؤمنين إذ يقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ... أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶

و قد أتى بين المبتدأ و الخبر بجملة معترضة[۲۶]. توضّح الكثير من الإبهامات إذ يقول: لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

و هذه الجملة تؤكّد بأنّه لا ينبغى لأحد أن يتصور بأن الايمان باللّه، و الإتيان بالعمل الصالح و سلوك سبيل المؤمنين، أمر متعسر غير مقدور إلّا لأفراد معدودين، لأنّ التكاليف الإلهية فى حدود الطاقة البشرية و ليست أكثر منها، و بهذا فتح الطريق فى وجه كل أحد عالما كان أو جاهلا، صغيرا كان أو كبيرا، و دعا الجميع إلى اللحاق بهذا الصف، فالمطلوب من كل أحد العمل بمقدار قابليته الفكرية و البدنية و إمكانياته.

إنّ هذه الآية- مثل سائر الآيات القرآنية- تحصر وسيلة النجاة و السعادة الأبدية فى الإيمان و العمل الصالح، و هكذا تفنّد العقيدة النّصرانية المحرفة الذين يعتبرون صلب المسيح فى مقابل ذنوب البشر وسيلة للنجاة، و يقولون: إنّه قربان لخطايا الإنسانية.

إنّ إصرار القرآن الكريم على مسألة الإيمان و العمل الصالح، فى الآيات المختلفة لتفنيد هذه المقولة و أمثالها.

و فى الآية اللاحقة أشار تعالى إلى واحدة من أهم النعم التى أعطاها اللّه سبحانه لأهل الجنّة، و التى تكون سببا لطمأنينتهم النفسية و سكنتهم الروحية، إذ قال وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ

و (الغل) فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء خفية و سرّا، و لهذا يقال للحسد و الحقد و العداوة، الذى يتسلّل إلى النفس الإنسانية بصورة خفية (الغل)، و إنّما يطلق «الغلول» على الرشوة بهذه المناسبة لأنّها تؤخذ خفيّة و سرّا لارتكاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷

خيانة.[۲۷] و فى الحقيقة إنّ من أكبر عوامل الشقاء التى يعانى منها الناس فى هذه الحياة، و مصدر الكثير من الصراعات الإجماعية الواسعة التى تؤدى- مضافا إلى الخسائر الفادحة فى المال و النفس- الى زعزعة الاستقرار الروحى، هو الحسد و الحقد.

فنحن نعرف الكثير ممن لا ينقصهم شىء فى الحياة، و لكنّهم يعانون من الحسد و الحقد للآخرين، و هو عذابهم الوحيد الذى يعكر صفو حياتهم و يضيق عليهم رحبها، و يترك معيشة هؤلاء المرفهين ساحة تجوال عساكر الحزن و الغم، و تدفعهم إلى سلوكيات مرهقة و غير منطقية.

إنّ أهل الجنّة معافون من هذه الشقاوات و المحن بالكلية، لأنّهم لا يتصفون بهذه الصفات القبيحة، فلا حسد و لا حقد فى قلوبهم، و لهذا لا يتعرضون لعواقبها النكرة. إنّهم يعيشون معا فى منتهى التواد و التحابب و الصفاء و السكينة.

إنّهم راضون عن وضعهم الذى هم فيه، حتى الذين يعيشون فى مراتب أدنى من الجنّة لا يحسدون من فوقهم أبدا، و لهذا تنحل أعظم مشكلة تعترض طريق التعايش السلمى.

و لقد نقل بعض المفسّرين حديثا فى المقام عن السدّى قال: «إنّ أهل الجنّة إذا سيقوا إلى الجنّة وجدوا عند بابها شجرة فى أصل ساقها عينان فيشربون من إحداهما فينزع ما فى صدورهم من غلّ، فهو الشراب الطهور، و اغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم، فلن يشعثوا و لن يشحبوا بعدها أبدا»[۲۸] إن هذا الحديث و إن لم ينته سنده إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهما السلام و إنّما رواه أحد المفسّرين و هو «السّدى» و لكنّه لا يبعد أن يكون قد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸

الأصل، لأنّ هذه الأمور ليست من المسائل و القضايا التى يستطيع السدّى و أمثاله الاطلاع عليها.

و على كل فهى إشارة لطيفة إلى الحقيقة التالية، و هى أنّ أهل الجنّة قد تطهروا باطنا و ظاهرا، جسما و روحا، فهم يتحلون بالجمال الجسمانى، و الجمال الروحانى معا، و لهذا فهم لا يعانون،- مطلقا- من الحسد و الحقد.

فما أسعد من يبنى لنفسه فى هذه الدنيا جنّة أخرى، بتطهير صدره من الحقد و الحسد ليتخلّص من افرازاتهما المؤلمة.

و بعد ذكر هذه النعمة الروحانية، يشير القرآن الكريم إلى نعمهم المادية الجسدية، فيقول: تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ.

ثمّ بعكس رضى أهل الجنّة الكامل الشامل الذى يعبرون عنه بالحمد و الشكر للّه و حده على ما هداهم إليه من النعم وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ

و هنا يأتيهم النداء بأن ما ورثتموه من النعم إنّما هو بسبب أعمالكم وَ نُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و مرّة أخرى نصل إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ النجاة رهن بالعمل الصالح، و ليسن بالأمانى و الظنون الخاوية.

و «الإرث» فى الأصل بمعنى انتقال مال أو ثروة من شخص إلى آخر من دون أن يكون بينهما عقد (أى الانتقال عبر مسير طبيعى تلقائى، لا عن طريق البيع و الشراء) و لهذا يطلق الإرث على انتقال أموال الميت إلى خلفه.

لماذا عبّر بالإرث؟

و هنا ينقدح سؤال و هو: كيف يقال لأهل الجنّة: هذه النعم أورثتموها لقاء أعمالكم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹

و الجواب أوضحه

حديث روى بطرق الشيعة و السنّة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّة، و منزل فى النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة، فذلك قوله أورثتموها بما كنتم تعملون».[۲۹]

فهذا الحديث يشير إلى أنّ أبواب السعادة و الشقاء مفتوحة أمام جميع الناس قاطبة، و إنّه لم يخلق أحد يوم خلق و هو من أهل الجنّة، أو من أهل النّار، بل يمتلك الجميع قابلية الوصول إلى كلا هذين المنزلين، و إنّما إرادتهم هى التى تحدد و تقرّر مصيرهم.

و من البديهى أنّه عند ما يستقر المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة فى الجنّة، و يستقر الكفار و الأشرار فى النّار ينتقل مكان و منزل كل واحد منهما الى الآخر بصورة طبيعية.

و على كل حال، فإن هذه الآية و هذا الحديث هما من البراهين و الدلائل الواضحة على نفى الجبر، و ثبوت الإختيار و حرية الإرادة فى الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۴ الى ۴۵]

اشارة

وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (۴۴) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ (۴۵)

التّفسير

اشارة

بعد البحث فى الآيات السابقة حول مصير أهل الجنّة و أهل النّار، أشار هنا إلى حوار هذين الفريقين فى ذلك العالم، و يستفاد من ذلك أنّ أهل الجنّة و أهل النّار يتحادثون بينهم و هم فى مواقعهم فى الجنّة أو النّار.

فيقول أوّلا: وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا.

فيجيبهم أهل النّار قائلين: نعم وجدنا كل ذلك. عين الحقيقة قالُوا: نَعَمْ

و يجب الالتفات إلى أن (نادى) و إن كان فعلا ماضيا، إلّا أنّه هنا يعطى معنى المضارع، و مثل هذه التعابير كثيرة فى القرآن الكريم، حيث يذكر الحوادث التى تقع فى المستقبل حتما بصيغة الفعل الماضى، و هذا يعدّ نوعا من التأكيد، يعنى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱

المستقبل واضح جدّا، و كأنّه قد حدث فى الماضى و تحقق.

على أنّ التعبير ب «نادى» الذى يكون عادة للمسافة البعيدة، يصوّر بعد المسافة المقامية أو المكانية بين هذين الفريقين.

و هنا يمكن أن يطرح سؤال و هو: و ما فائدة حوار هذين الفريقين مع أنّهما يعلمان بالجواب؟

و جواب هذا السؤال معلوم، لأنّ السؤال ليس دائما للحصول على المزيد من المعلومات، بل قد يتّخذ أحيانا صفة العتاب و التوبيخ و الملامة، و هو هنا من هذا القبيل. و هذه هى واحدة من عقوبات العصاة و الظالمين الذين عند ما كانوا يتمتعون بلذائذ الدنيا، حيث كانوا يؤذون المؤمنين بالعتابات المرّة، و الملامات المزعجة، فلا بدّ- فى الآخرة- أن ينالوا عقابا من جنس عملهم كنتيجة طبيعة لفعلهم، و لهذا الموضوع نظائر فى سور القرآن المختلفة، منها ما فى آخر سورة المطففين.

ثمّ يضيف تعالى بأنّه فى هذا الوقت بالذات ينادى مناد بنداء يسمعه الجميع:

أن لعنة اللّه على الظالمين فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

ثمّ يعرّف الظالمين و يصفهم بقوله: الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كافِرُونَ [۳۰] و من الآية الحاضرة يستفاد مرّة أخرى أنّ جميع الانحرافات و المفاسد قد اجتمعت فى مفهوم «الظلم» و للظالم مفهوم واسع يشمل جميع مرتكبى الذنوب، و الآثام، و خصوصا الضالون المضلّون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲

من هو المؤذّن! و المنادى؟

من هو هذا المؤذن الذى يسمعه الجميع؟ و فى الحقيقة له سيطرة و تفوق على جميع الفرقاء و الطوائف؟

لا يستفاد من الآية شىء فى هذا المجال، و لكن جاء فى الأحاديث الإسلامية المفسّرة و الموضّحة لهذه الآية، تفسير المؤذّن بأمير المؤمنين على عليه السلام.

روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى- الذى هو من علماء أهل السنّة بسنده عن «محمّد بن الحنفية» عن على عليه السلام أنّه قال: «أنا ذلك المؤذّن».

و هكذا روى بسنده عن «ابن عباس» أنّ لعلّى عليه السلام أسماء فى القرآن الكريم لا يعرفها الناس، منها «المؤذّن» فى قول اللّه تعالى: فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فهو الذى ينادى بين الفريقين أهل الجنّة و أهل النّار، و يقول: «ألا لعنة اللّه على الذين كذبوا بولايتى و استخفّوا بحقّى»[۳۱].

و لقد رويت روايات و أحاديث متعددة مماثلة بطرق الشيعة، منها ما

رواه الصّدوق رحمه اللّه بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب بالكوفة منصرفه فى نهروان، و بلغه أنّ

معاوية يسبّه و يعيبه و يقتل أصحابه، فقام خطيبا (إلى أن قال): «و أنا المؤذن فى الدنيا و الآخرة، قال اللّه عزّ و جلّ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ أنا ذلك المؤذن، و قال: وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ أنا ذلك الأذان»[۳۲].

و نحن نرى أنّ السبب فى انتخاب أمير المؤمنين على عليه السلام مؤذنا و مناديا فى ذلك الوقت هو:

أوّلا: لأنّه كان له مثل هذا المنصب من قبل اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنيا أيضا، فهو بعد فتح مكّة كلّف من جانب اللّه بأن يتلو الآيات الأولى من سورة البراءة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳

على مسامع الناس بصوت عال فى موسم الحج، تلك الآيات التى تبدأ بقوله:

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ ۳۳] ثانيا: إنّ موقف الإمام على عليه السلام طوال حياته الشريفة كان موقف المكافحة للظلم، و النضال ضد الظالمين، حتى أنّ دفاعه عن المظلوم و عداءه للظالم و خاصّة مع ملاحظة ظروف عصره لتسطع فى الصفحات البارزة من تأريخه.

أ فليست الحياة فى العالم الآخر هى نوع من تجسم كبير و واسع و متكامل لحياة البشر فى هذا العالم؟ و كلاهما بالتالى و جهان لعملة واحدة.

فإذا كانت هذه حقيقة من الحقائق، لم يبق أى مجال لاستغراب أن يكون مؤذن ذلك اليوم، و الذى يلعن الظالمين فى مكان بين الجنّة و النّار، بأمر من اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو على عليه السلام.

من هذا يتّضح الجواب و الردّ على ما كتبه كاتب «المنار» الذى شككك فى كون هذا المقام لعلى عليه السلام فضيلة، إذ يقول: و لو كنّا نعقل لإسناد هذا التأذين إليه كرم اللّه وجهه معنى يعدّ به فضيلة أو مثوبة عند اللّه تعالى لقبلنا الرّواية بما دون السند الصحيح.[۳۴] إذ يجب أن نقول له: كما أنّ النيابة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى إبلاغ سورة البراءة فى موسم الحج تعتبر من أكبر فضائله عليه السلام، و كما أنّ مكافحته للظالمين و الجائرين تعتبر من أبرز فضائله، يكون حمله لهذه المهمّة فى القيامة و الذى يعد استمرارا لنفس ذلك البرنامج فضيلة طاهرة له أيضا.

كما يتّضح ممّا قلناه- أيضا- الردّ على ما كتبه «الآلوسى» كاتب تفسير «روح المعانى» الذى قال: و رواية الإمامية عن الرضا و ابن عباس أنّه على كرم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴

اللّه تعالى وجهه ما لم يثبت من طريق أهل السنّة[۳۵].

لأن هذا الحديث- كما أسلفنا- نقله علماء الفريقين السنة و الشيعة كلاهما فى كتبهم و مصنفاتهم، فلا مجال للتشكيك فى صدوره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۴۶ الى ۴۹]

اشارة

وَ بَيْنَهُما حِجابٌ وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ (۴۶) وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۷) وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (۴۸) أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۴۹)

التّفسير

الأعراف معبر مهم إلى الجنّة:

عقيب الآيات السابقة التى بيّنت جانبا من قصّة أهل الجنّة و أهل النّار، تحدث فى هذه الآيات حول «الأعراف» التى هى منطقة فى الحد الفاصل بين الجنّة و النّار مع خصوصياتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶

و فى البداية يشير إلى الحجاب الذى أقيم بين أهل الجنّة و أهل النّار، إذ يقول: وَ بَيْنَهُما حِجابٌ

و يستفاد من الآيات اللاحقة أنّ الحجاب المذكور هو «الأعراف» و هو مكان مرتفع بين الفريقين يمنع من رؤية كل فريق الفريق الآخر، و لكن وجود مثل هذا الحجاب لا يمنع من أن يسمع كل منهما صوت الآخر و نداءه، كما مرّ فى الآيات السابقة.

فلطالما رأينا جيرة يتحادثون من وراء الجدار، و يستجلى أحدهما حال الآخر دون أن يراه، على أنّ الذين يقفون على الأعراف، أى على الأقسام المرتفعة من هذا المكان المرتفع، يرون كلا الفريقين (تأملوا جيدا).

و يستفاد من بعض آيات القرآن الكريم، مثل الآية (۵۵) من سورة الصافات، أن أهل الجنّة ربّما تطّلعوا من أماكنهم و شاهدوا أهل النّار، و لكن مثل هذه الموارد الاستثنائية لا تنافى ما عليه وضع الجنّة و النّار أساسا، و أنّ ما قلناه آنفا يعكس و يصور الكيفية لهذين المكانين، و إن كان لهذا القانون- أيضا- بعض الاستثناءات، فيمكن أن يشاهد بعض أهل الجنّة أهل النّار فى شرائط خاصّة.

إنّ ما يجب أن نذكر به مؤكدين قبل الخوض فى بيان كيفية الأعراف هو أن التعابير الواردة حول القيامة و الحياة الأخرى لا تستطيع- بحال- أن تكشف القناع عن جميع خصوصيات تلكم الحياة، بل للتعابير- أحيانا- صفة التشبيه و التمثيل.

و أحيانا تكشف بعض تلك التعابير عن مجرّد شبح فى هذا المجال، لأنّ الحياة فى ذلك العالم تكون فى آفاق أعلى، و هى أوسع بمراتب كثيرة من الحياة فى هذا العالم، تماما مثل سعة الحياة الدنيا هذه بالقياس إلى عالم الرحم و الجنين.

و على هذا فلا عجب إذا كانت الألفاظ و المفاهيم المتداولة فى هذا العالم لا تستطيع أن تعكس بصورة كاملة و معبّرة تلك المفاهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷

ثمّ إنّ القرآن الكريم يقول: وَ عَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيماهُمْ يرون كلّا من أهل الجنّة و أهل النّار و يعرفونهم بملامح وجوههم.

و «الأعراف» فى اللغة جمع «عرف» بمعنى المحل و الموضع المرتفع، و لهذا يطلق على شعر ناصية الفرس، و الريش الموجود على عنق الديك لفظ العرف، فيقال «عرف الفرس» أو «عرف الديك»، و من هذا المنطلق يطلق على المكان المرتفع من البدن لفظ العرف أيضا (و سوف نتحدث بتفصيل حول خصوصيات منطقة الأعراف التى جاء ذكرها فى هذه الآية بعد الفراغ من تفسير الآيات).

ثمّ يقول: أنّ هؤلاء الرجال ينادون أهل الجنّة و يسلّمون عليهم، و لكنّهم لا يدخلون الجنّة و إن كانوا يرغبون فى ذلك وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ. لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ

و لكن عند ما ينظرون إلى الطرف الآخر و يشاهدون أهل النّار يصطلون فيها، يتضرعون إلى اللّه طالبين أن لا يجعلهم مع الظالمين وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۳۶].

و الجدير بالذكر أنّه استخدم فى رؤية أهل النّار فى الآية لفظة وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ يعنى عند ما تعطف أبصارهم نحو جهنم لمشاهدة أهلها، و هذه أشارة إلى أنّهم يكرهون مشاهدة أهل النّار، و كأنّ نظرهم إليهم مقرون بالإكراه و الإجبار.

و فى الآية اللاحقة يضيف: إنّ أصحاب الأعراف ينادون فريقا من الجهنميين الذين يعرفونهم بملامح وجوههم و يلومونهم قائلين: أمّا

ترون أنّ جمعكم للأموال و الأفراد و التجبّر و التكبّر عن قبول الحق لم ينفعكم شيئا، فأين تلك الأموال و أولئك الأعوان؟ و ماذا حصدتم من تلك المواقف و الصفات السيّئة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸

وَ نادى أَصْحابُ الْأَعْرافِ رِجالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ، وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ

و مرّة أخرى يقولون موبخين و معاتبين، و هم يشيرون إلى جمع من ضعفاء المؤمنين المستقرين فوق الأعراف: أَ هؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ.

و فى المآل تشمل الرحمة الإلهية هذه الطائفة من ضعفاء المؤمنين، و يقال لهم ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

من كل ما قلنا اتضح أنّ المراد من ضعفاء المؤمنين هم الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و لكنّهم بسبب تورطهم فى بعض الذنوب كانوا موضع ازدراء من قبل أعداء الحق فى الدنيا، و كانوا يركزون على هؤلاء و يقولون: كيف يمكن لمثل هؤلاء أن تشملهم الرحمة الإلهية؟ و كيف يمكن لمثل هؤلاء أن يسعدوا؟ و لكن روح الإيمان و الحسنات التى كانت عندهم فعلت فعلتها- فى المآل- و فى ظلّ اللطف الرّبانى و الرحمة الإلهية، فسعدوا و دخلوا الجنّة.

من هم أصحاب الأعراب:

«الأعراف» فى الأصل- و كما أسلفنا- منطقة مرتفعة، و يتّضح فى ضوء القرائن التى وردت فى آيات القرآن و أحاديث أئمّة الإسلام، أنّه مكان خاص بين قطبى السعادة و الشقاء، أى الجنّة و النّار. و هو كحجاب حائل بين هذين، أو كأرض مرتفعة فصلت بين هذين الموضعين بحيث يشرف من يقف عليها على الجنّة و النّار، و يشاهد كلا الفريقين، و يعرفهم بوجوههم المبيضة أو المسودة، المشرقة أو المظلمة المكفهرة.

و الآن لنرى من هم الواقفون على الأعراف؟ و من هم أصحاب الأعراف؟

إنّ دراسة الآيات الأربع المبحوثة هنا تفيد أنّه ذكر لهؤلاء الأشخاص نوعين متناقضين مختلفين من الصفات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۹

ففى الآية الأولى و الثّانية وصف الواقفون على الأعراف بأنّهم يتمنون أن يدخلوا الجنّة، و لكنّ ثمّة موانع تحول دون ذلك، و عند ما ينظرون إلى أهل الجنّة يحيونهم و يسلمون عليهم و يودون لو يكونون معهم، و لكنّهم لا يستطيعون فعلا أن يكونوا معهم، و عند ما ينظرون إلى أهل النّار يستوحشون ممّا آلوا إليه من المصير، و يتعوذون بأنّه من ذلك المصير، و من أن يكونوا منهم.

و لكن يستفاد من الآية الثّالثة و الرّابعة بأنّهم أفراد ذوو نفوذ و قدرة، يوبخون أهل النّار و يعاتبونهم، و يساعدون الضعفاء فى الأعراف على العبور إلى منزل السعادة.

و قد قسمت الرّوايات الواردة فى هذا المجال أهل الأعراف الى هذين الفريقين المختلفين أيضا.

ففى بعض الأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام نقرأ: «نحن الأعراف»[۳۷] أو عبارة: «آل محمّد هم الأعراف»[۳۸] و ما شابه هذه التعابير.

و نقرأ فى طائفة أخرى عبارة:

«هم أكرم الخلق على اللّه تبارك و تعالى»[۳۹]

أو

«هم الشهداء على الناس و النّبيون شهداؤهم»[۴۰]

و روایات أخری تحکی أنّهم الأنبیاء و الأئمّة و الصلحاء و الأولیاء.

و لکن طائفة أخری مثلما

ورد عن الإمام الصادق علیه السلام تقول: «هم قوم استوت حسناتهم و سیئاتهم، فإن أدخلهم النّار فبذنوبهم، و إن أدخلهم الجنّة فبرحمته».[۴۱]

و ثمّة روایات متعددة أخری فی تفاسیر أهل السنة قد رویت عن «حذیفة» و

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۰

«عبد اللّه بن عباس» و «سعید بن جبیر» و أمثالهم بهذا المضمون ۴۲].

و نری فی هذه التفاسیر أیضا مصادر تفید أنّ أهل الأعراف هم الصلحاء و الفقهاء و العلماء أو الملائکة.

و بالرغم من أنّ ظاهر الآیات و ظاهر هذه الرّوایات تبدو متناقضة فی بدون النظر، و لعله لهذا السبب أبدی المفسّرون فی هذا المجال آراء مختلفة، و لکن مع التدقیق و الإمعان یتّضح أنّه لا یوجد أی تناقض و منافاة، لا بین الآیات و لا بین الأحادیث، بل جمیعها تشیر إلی حقیقة واحدة.

و توضیح ذلک: أنّه یستفاد من مجموع الآیات و الرّوایات- کما أسلفنا- الأعراف معبر صعب العبور علی طریق الجنّة و السعادة الأبدیة.

و من الطبیعی أنّ الأقویاء الصالحین و الطاهرین هم الذین یعبرون هذا المعبر الصعب بسرعة، أمّا الضعفاء الذی خلطوا عملا صالحا و آخر سیئا فیعجزون عن العبور.

کما أنّه من الطبیعی أیضا أن تقف قیادات المجموع و سادة القوم عند هذه المعابر الصعبة مثل القادة العسکریین الذین یمشون فی مثل هذه الحالات فی مؤخرة جیوشهم لیعبر الجمیع. یقفون هناک لیساعدوا ضعفاء الإیمان، فینجو من یصلح للنجاة ببرکة مساعدتهم و معونتهم و نجدتهم.

و علی هذا الأساس، فأصحاب الأعراف فریقان: ضعفاء الإیمان و المتورطون فی الذنوب الذین هم بحاجة إلی الرحمة، و الأئمّة السادة الذین یساعدون الضعفاء فی جمیع الأحوال.

و علی هذا فإن الطائفة الأولی من الآیات و الأحادیث تشیر إلی الفریق الأوّل من الواقفین علی الأعراف، و هم الضعفاء، و الطائفة الثّانیة منها تشیر إلی الفریق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۱

الثّانی من أصحاب الأعراف، و هم السادة و الأنبیاء و الأئمّة و الصلحاء.

و نری فی بعض الرّوایات- أیضا- شاهدا واضحا و جلیا علی هذا الجمع مثل

الحدیث المنقول عن الإمام الصّادق علیه السلام الذی قال فیه: «الأعراف کثبان بین الجنّة و النّار، و الرجال الأئمّة یقفون علی الأعراف مع شیعتهم و قد سبق المؤمنون إلی الجنّة بلا حساب».

و یقصد من الشیعة الذی یقفون مع الأئمّة علی الأعراف العصاة منهم.

ثمّ یضیف قائلا:

«فیقول الأئمّة لشیعتهم من أصحاب الذنوب: انظروا إلی إخوانکم فی الجنّة قد سبقوا إلیها بلا حساب، و هو قوله تبارک و تعالی: سَلامٌ عَلَیْکُمْ لَمْ یَدْخُلُوها وَ هُمْ یَطْمَعُونَ ثمّ یقال: انظروا إلی أعدائکم فی النّار، و هو قوله تعالی: وَ إِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ ثمّ یقولون لمن فی النّار من أعدائهم: هؤلاء شیعتی و إخوانی الذین کنتم أنتم تختلفون (تحلفون) فی الدنیا أن لا ینالهم اللّه برحمة، ثمّ تقول الأئمّة لشیعتهم: ادخلوا الجنّة لا خوف علیکم و أنتم تحزنون ۴۳].

و نظير هذا المضمون روى فى تفاسير أهل السنة عن حذيفة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۴۴].

و نكرر مرّة أخرى هنا أنّ الحديث حول تفاصيل و جزئيات القيامة و خصوصيات الحياة فى العالم الآخر أشبه بما لو أننا أردنا أن نصف شبحا من بعيد، فى حين أنّ بين ذلك الشبح و بين حياتنا تفاوتا واسعا و اختلافا كبيرا، فما نفعله فى هذه الصورة هو أنّنا نستطيع بألفاظنا المحدودة و القاصرة أن نشير إليه إشارة ناقصة قصيرة.

هذا، و النقطة الجديرة بالالتفات هى أنّ الحياة فى العالم الآخر مبتنية على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۲

أساس النماذج و العيّنات الموجودة فى هذه الدنيا، فهكذا الحال بالنسبة إلى الأعراف، لأنّ الناس فى هذه الدنيا ثلاث فرق: المؤمنون الصادقون الذين وصلوا إلى الطمأنينة الكاملة فى ضوء الإيمان، و لم يدخروا وسعا فى طريق المجاهدة.

و المعاندون و أعداء الحق المتصلبون المتمادون فى لجاجهم الذين لا يهتدون بأية وسيلة. و الفريق الثّالث هم الذين يقفون فى هذا الممر الصّعب عبوره- فى الوسط بين الفريقين، و أكثر عناية القادة الصادقين و أئمّة الحق موجهة إلى هؤلاء، فهم يبقون إلى جانب هؤلاء، و يأخذون بأيديهم لإنقاذهم و تخليصهم من مرحلة الأعراف ليستقروا فى صف المؤمنين الحقيقيين.

و من هنا يتّضح أن تدخّل الأنبياء و الأئمّة فى انقاذ هذا الفريق فى الآخرة كتدخلهم لذلك فى الدنيا لا ينافى أبدا قدرة اللّه و حاكميته على كل شىء، بل كل ما يفعلونه إنّما هو بإذن اللّه تعالى و أمره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۰ الى ۵۱]

اشارة

وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۵۱)

التّفسير

نعم الجنّة حرام على أهل النّار:

بعد أن استقر كل من أهل الجنّة و أهل النّار فى أماكنهم و منازلهم، تدور بينهم حوارات نتيجتها العقوبة الروحية و المعنوية لأهل النّار.

و فى البداية يبدأ الكلام من جانب أهل النّار: وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ فهم يطلبون أن يجودوا عليهم بشىء من الماء أو من نعم الجنّة.

و لكن أهل الجنّة يبادرون إلى رفض هذا المطلب قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۴

بحوث

هنا عدّة نقاط يجب أن نتوقف عندها و نلتفت إليها:

۱- يبدأ القرآن الكريم بأحاديث أهل النّار مع أهل الجنّة بلفظة (و نادى) التى تستعمل عادة للتخاطب من مكان بعيد، و هذا يفيد بأنّ بين الفريقين فاصلة كبيرة و مع ذلك يتمّ هذا الحوار و يسمع كل منهما حديث الآخر، و هذا ليس بعجيب، فلو أن المسافه بلغت ملايين الفراسخ لأمكن أن يسمع كل واحد منهما كلام الآخر، بل و يرى- فى بعض الأحيان- الطرف الآخر.

و لو كان القبول بهذا أمرا متعذرا أو متعسرا فى الماضى، و كانت تشكل مشكلة بالنسبة إلى السامعين، فإنّه مع انتقال الصوت و الصورة فى عصرنا الحاضر من مسافات بعيدة جدا انحلّت هذه المشكلة، و لم تعد الآية موضع تعجب و غرابة.

۲- إنّ أوّل طلب يطلبه أهل النّار هو الماء، و هذا أمر طبيعى، لأنّ الشخص الذى يحترق فى النّار المستعرة يطلب الماء قبل أى شىء حتى يبرد غليلة و يرفع به عطشه.

۳- إنّ عبارة مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ التى هى عبارة مجملة، و تتسم بالإبهام، تفيد أنّه حتى أهل النّار لا يمكنهم أن يعرفوا بشىء من حقيقة النعم الموجودة فى الجنّة و أنواعها. و هذا الموضوع يتفق و ينسجم مع بعض الأحاديث التى تقول:

(إنّ فى الجنّة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر).

ثمّ إنّ عطف الجملة ب «أو» يشير الى أنّ النعم الاخروية الأخرى و خاصّة الفواكه يمكنها أن تحلّ محل الماء و تطفئ عطش الإنسان.

۴- إنّ عبارة إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ إشارة إلى أهل الجنّة بأنفسهم، ليسوا هم الذين يمتنعون عن إعطاء شىء من هذه النعم لأهل النّار، لأنّه لا يقلّ منها شىء بسبب الإعطاء، و لا أنّهم يحملون حقدا أو ضغينة على أحد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۵

صدورهم، حتى بالنسبة إلى أعدائهم، و لكن وضع أهل النّار بشكل لا يسمح لهم أن يستفيدوا من نعم الجنّة.

إنّ هذا الحرمان- فى الحقيقة- نوع من «الحرمان التكوينى» مثل حرمان كثير من المرضى من الأطعمة اللذيذة المتنوعة.

فى الآية اللاحقة يبيّن سبب حرمانهم، و يوضح بذكر صفات أهل النّار أهل هذا المصير الأسود قد هيّئوه هم لأنفسهم، فيقول أوّلا: إنّ هؤلاء هم الذين اتخذوا دينهم لعبا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً.

و هذا إلى جانب أنّهم خدعتهم الدنيا و اغتروا بها وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

إنّ هذه الأمور سببت فى أن يغرقوا فى و حل الشهوات، و ينسوا كل شىء حتى الآخرة، و ينكروا أقوال الأنبياء، و يكذبوا بالآيات الإلهية، و لهذا أضاف قائلا: فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا، وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ

و من البديهى أنّ المراد من «النسيان» الذى نسب هنا إلى اللّه هو بمعنى أنّنا نعاملهم معاملة الناسى تماما، مثل أن يقول شخص لصديقه: (كما أنّك نسيتنى فسوف أنساك أن أيضا) أى أننى سوف أعاملك معاملة المتناسى لشىء.

كما أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ أوّل مرحلة من مراحل الانحراف و الضلال، هو أن لا يأخذ الإنسان قضاياه المصيرية بمأخذ الجدّ، بل يتعامل معها معاملة المتسلّى و الهازل، فتؤدى به هذه الحالة إلى الكفر المطلق، و إنكار جميع الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۲ الى ۵۳]

اشارة

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۵۳)

التّفسير

هذه الآية إشارة- فى الدرجة الأولى- إلى أنّ حرمان الكفار و مصيرهم المشؤوم إنّما هو نتيجة تقصيراتهم أنفسهم، و إلّا فليس هناك من جانب اللّه أى تقصير فى هدايتهم و قيادتهم و إبلاغ الآيات إليهم و بيان الدروس التربوية لهم، لهذا يقول تعالى: إنّنا لم نال جهدا و لم ندخر شيئا فى مجال الهداية و الإرشاد، بل أرسلنا لهم كتابا شرحنا فيه كل شىء بحكمة و دراية وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ

و هو كتاب فيه رحمة و هداية، لا للمعاندين الأنانيين، بل للمؤمنين هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۷

الآية اللاحقة تشير إلى الطريقة الخاطئة فى تفكير العصاة و المنحرفين فى صعيد الهداية الإلهية فيقول: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ أى كأنّ هؤلاء يتوقعون أن يروا نتيجة الوعد و الوعيد الإلهى بعيونهم (أى يروا أهل الجنّة و هم فيها، و أهل النّار و هم فيها) حتى يؤمنوا.

و لكنّه توقّع سخيف، لأنّه عند ما تترجم الوعود الإلهية على صعيد الواقع ينتهى الأمر، و لم يعد هناك مجال للرجوع و لا طريق للعودة، و هناك سيعترفون بأنّهم قد تناسوا كتاب اللّه و تجاهلوا التعاليم الإلهية التى أنزلها على رسله بالحق، و كان قولهم حقّا أيضا: يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِ

سيغرقون فى هذا الوقت فى قلق و اضطراب، و يفكرون فى مخلص ينقذهم من هذه المشكلة و يقولون فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا.

و إذا لم يكن هناك شفعاء لنا، أو إنّنا لا نصلح أساسا للشّفاعة، أ فلا يمكن أن نرجع إلى الدنيا و نقوم بأعمال غير ما عملناه سابقا، و نسلّم للحق و الحقيقة أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

و لكن هذا التنبيه جاء- و للأسف- متأخرا جدا، فلا طريق للعودة و لا صلاحية لهم للشفاعة، لأنّهم قد خسروا كلّ رؤوس أموالهم، و تورطوا فى خسران جميع وجودهم قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ

و سوف يثبت لهم أنّ أصنامهم و معبوداتهم ليس لها أى دور هناك، و فى الحقيقة ضاعت- فى نظرهم- جميعا وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و كأنّ الجملتين الأخيرتين ردّ على طلبهم، يعنى إذا كانوا يريدون شفعاء يشفعون فإنّ عليهم حتما أن يتوسّلوا بأصنامهم التى كانوا يسجدون لها، فى حين أنّ تلك الأصنام و لأوثان لا تكون مؤثرة هناك مطلقا.

و أمّا عودتهم إلى الدنيا فإنّها ممكنة فى ما لو بقى لديهم رأس مال، و لكنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۸

قد خسروا كل رؤوس أموالهم و فقدوا كل وجودهم.

من هذه الآية يستفاد أوّلا أنّ الإنسان حرّ مختار فى أعماله، و إلّا لما طلب العودة و الرجوع إلى الدنيا لملافاة ما فات، و ثانيا: إنّ العالم الآخر ليس مكان العمل و اكتساب الفضائل و النجاة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۶۹

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۵۴]

اشارة

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ

النُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۵۴)

التّفسیر

اشارة

فی الآیات السابقة قرأنا أنّ المشرکین یقفون یوم القیامة علی خطأهم الکبیر فی صعید انتخاب المعبود، و الآیة الحاضرة تصف المعبود الحقیقی مع ذکر صفاته الخاصّة حتی یستطیع الذین یطلبون الحقیقة و ینشدونها أن یعرفوه بوضوح فی هذا العالم و قبل حلول یوم القیامة، و یبدأ حدیثه هذا بقوله: إِنَّ رَبَّکُمُ اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ أی أنّ المعبود لا یمکن أن یکون إلّا من کان خالقا.

هل خلق العالم فی ستّة أیّام؟

لقد ورد البحث عن خلق العالم و تکوینه فی ستّة أیّام، فی سبعة موارد من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۰

آیات القرآن الکریم ۴۵]، و لکنّه فی ثلاثة موارد أضیف إلی السماوات و الأرض لفظة «و ما بینهما» أیضا. و التی هی فی الحقیقة توضیح للجملة السابقة، لأنّ جمیع هذه الأشیاء تدخل فی معنی السماوات و الأرض، لأنّنا نعلم أنّ السماء تشمل جمیع الأشیاء التی توجد فی الأعلی، و الأرض هی النقطة المقابلة للسماء.

و هنا یتبادر هذا السؤال فورا و هو: قبل أن تخلق السماوات و الأرض لم یکن لیل و لا نهار لیقال: خلقت السماوات و الأرض فیهما، لأنّ اللیل و النهار ناشئان من دوران الأرض حول نفسها فی مقابل الشمس.

هذا مضافا إلی أنّ ظهور المجموعة الکونیة فی ستّة أیام- یعنی أقل من أسبوع- یخالف العلم، لأنّ العلم یقول: لقد استغرق تکوّن الأرض و السماء حتی وصل الی الواضع الحالی ملیاردات من السنوات و الأعوام.

و لکن نظرا إلی المفهوم الواسع للفظة «یوم» و ما یعادلها فی مختلف اللغات، یکون جواب هذا السؤال واضحا، لأنّه کثیرا ما یستعمل الیوم بمعنی الدورة، سواء استغرقت مدة سنة، أو مائة سنة، أو ملیون سنة أو ملیاردات السنین، و الشواهد التی تثبت هذه الحقیقة، و تفید أنّ أحد معانی الیوم هو الدورة، کثیرة:

۱- لقد استعملت لفظة الیوم و الأیّام فی القرآن الکریم مئات المرات، و فی کثیر من الموارد لم تکن بمعنی اللیل و النهار، مثلا یعبر عن عالم البعث بیوم القیامة، و هذا یشهد بأنّ مجموع عملیة القیامة التی هی دورة طویلة الأمد و المدّة، تسمی یوم القیامة.

و یستفاد من بعض الآیات القرآنیة أنّ یوم القیامة و محاسبة أعمال الناس یستغرق خمسین ألف سنة (سورة المعارج الآیة ۴).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۱

۲- نقرأ فی کتب اللغة أیضا أنّ الیوم ربّما یطلق علی الزمن بین طلوع الشمس و غروبها، و ربّما علی مقدار من الزمان مهما کان قدره، قال الراغب فی المفردات: «الیوم یعبّر به عن وقت طلوع الشمس إلی غروبها، و قد یعبّر عن مدة من الزمان أی مدّة کانت».

۳- جاء فی روایات أئمّة الدین و أحادیثهم- کذلک- استعمال الیوم بمعنی الدهر، کما

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی نهج البلاغة أنّه قال: «الدّهر یومان: یوم لک، و یوم علیک».

و نقرأ فی تفسیر البرهان فی تفسیر هذه الآیة

، عن تفسیر علی بن إبراهیم الإمام علیه السّلام قال: «فی ستة أیّام، أی فی ستة أوقات»،

أی فی ست دورات.

۴- کثیرا ما نشاهد فی المحاورات الیومیة، و أشعار الشعراء فی اللغات المختلفة، أنّ کلمة الیوم و ما یعادلها قد استعملت بمعنی الدورة و العهد، مثلا نقول یوم کانت الکرة الأرضیة حارة و مشتعلة، و یوم صارت باردة و ظهرت فیها آثار الحیاة، فی حین أنّ فترة سخونة الأرض و اشتعالها استغرقت ملیاردات من الأعوام.

أو عند ما نقول غصب آل أمیة الخلافة الإسلامیة یوما، و غصبها بنو العباس یوما آخر. فی حین أنّ فترة اغتصاب الأمویین للخلافة استغرقت عشرات السنین و فترة اغتصاب العباسیین لها استغرقت المئات.

من مجموع الحدیث السابق نستنتج أنّ اللّه سبحانه و تعالی خلق السماوات و الأرض فی ست دورات متوالیة، و إن استغرقت کل دورة من هذه الدورات ملایین أو ملیاردات السنین، و العلم الحدیث لم یبیّن أی أمر یخالف هذا الموضوع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۷۱

و هذه الدورات- احتمالا- هی علی الترتیب:

۱- یوم کان الکون فی شکل کتلة غازیة الشکل، فانفصلت منها أجزاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۲

بسبب دورانها حول نفسها، و تشکلت من المواد المنفصلة الکرات و الأنجم.

۲- هذه الکرات قد تحولت تدریجا إلی هیئة کتلة من المواد الذائبة المشعة أم الباردة القابلة للسکنی.

۳- فی دورة أخری تألفت المنظومة الشمسیة و انفصلت الأرض عن الشمس.

۴- فی الدورة الرّابعة بردت الأرض و أصبحت قابلة للحیاة.

۵- ثمّ ظهرت النباتات و الأشجار علی الأرض.

۶- و بالتالی ظهرت الحیوانات و الإنسان فوق سطح الأرض.

و کل ما ذکرناه أعلاه من الأدوار الستة لعملیة خلق و تکوین السماوات و الأرض تنطبق علی الآیات (۸) إلی (۱۱) من سورة فصلت التی سیأتی تفسیرها فی المستقبل إن شاء اللّه.

لماذا لم یخلق اللّه العالم فی لحظة واحدة؟

و هنا یطرح سؤال آخر نفسه و هو: لماذا خلق اللّه السماوات و الأرض فی دورات عدیدة و طویلة، و هو القادر علی خلقها فی لحظة واحدة؟

إنّ جواب هذا السؤال یمکن الوقوف علیه بالالتفات إلی نقطة واحدة، و هی أنّ الخلق لو تمّ فی لحظة واحدة، لکان ذلک أقل دلالة علی عظمة الخالق و قدرته و علمه، و لکن لما تمّت عملیة الخلق و التکوین فی مراحل مختلفة و أشکال متنوعة، وفق برنامج منظم محسوب، کان لذلک دلالة أوضح علی معرفة الخالق.

ففی المثل لو کانت النّطفة البشریة تتبدل فی لحظة واحدة إلی ولید کامل، لمّا کان ذلک یحکی عظمة الخلق و التکوین، و لکن عند ما ظهر الولید خلال ۹ أشهر، و ضمن برنامج دقیق و اتخذ فی کل یوم و شهر شکلا خاصا و صورة خاصّة، استطاعت کل واحدة من هذه المراحل أن تقدّم آیة جدیدة من آیات العظمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۳

الإلهیة، و تکون دلیلا جدیدا علی قدرة الخالق.

ثمّ یقول القرآن الکریم: إنّ اللّه تعالی بعد خلق السماوات و الأرض أخذ زمام إدارتها بیده (أی لیس الخلق منه فقط، بل منه الإدارة و التدبیر أیضا) فقال تعالی:

ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ

و هذا جواب لمن یعتقد أنّ الکون محتاج إلی اللّه تعالی فی الخلق و الإیجاد دون البقاء.

ما هو العرش؟

«العرش» فی اللغة هو ما له سقف، و قد یطلق العرش علی نفس السقف، مثل قوله تعالی: أَوْ کَالَّذِی مَرَّ عَلی قَرْیَةٍ وَ هِیَ خاوِیَةٌ عَلی عُرُوشِها[۴۶] و ربّما یأتی بمعنی الأسرة الکبیرة المرتفعة، مثل أسرة الملوک و السلاطین، کما جاء فی قصة سلیمان: أَیُّکُمْ یَأْتِینی بِعَرْشِها[۴۷] و هکذا یطلق لفظ العرش علی الأسقف التی یقیمها المزارعون لحفظ بعض الأشجار، و بخاصّة المتسلقة منها، کما نقرأ فی القرآن الکریم: وَ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشاتٍ وَ غَیْرَ مَعْرُوشاتٍ ۴۸] و لکن عند ما ینسب الی اللّه سبحانه و تعالی و یقال: عرش اللّه، یراد منه مجموعة عالم الوجود، الذی یعدّ فی الحقیقة سریر حکومة اللّه تعالی.

و أساسا فإنّ عبارة اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ کنایة عن سیطرة حاکم من الحکام علی أمور بلده، کما أنّ المراد من جملة «ثلّ عرشه» هو خروج زمام الأمر من یده و فقدان السیطرة علیه، و قد استعملت هذه الکنایة فی اللغة بکثرة إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۴

یقال: إنّ جماعة من الناس ثارت فی البلد الفلانی، و أنزلت حاکمه من سریره و عرشه، فی حین من الممکن أن لا یکون لذلک الزعیم و الحاکم تخت أصلا.

أو یقال: إنّ جماعة من الناس أیدوا فلانا، و أجلسوه علی العرش، فکل هذه کنایة عن امتلاک السلطة أو فقدانها.

و علی هذا تکون عبارة اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ کنایة عن الإحاطة الکاملة للّه تعالی و سیطرته علی تدبیر أمور الکون- سماء و أرضا- بعد خلقها.

و من هنا یتّضح أنّ الذین أخذوا هذه الجملة دلیلا علی «جسمانیّة اللّه» کأنّهم لم یلتفتوا إلی موارد استعمال هذه الجملة العدیدة فی هذا المعنی الکنائی.

و هناک معنی آخر للعرش، و هو أنّه قد ورد أحیانا فی قبال «الکرسی» و فی مثل هذه الموارد یمکن أن یکون الکرسی (الذی یطلق عادة علی المقعد القصیر القوائم) کنایة عن العالم المادی، و العرش کنایة عن عالم ما فوق المادة (أی عالم الأرواح و الملائکة) کما جاء فی تفسیر آیة وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ التی مرّت فی سورة البقرة.

ثمّ یقول بأنّه تعالی هو الذی یلقی باللیل- کغشاء- علی النهار، و یستر ضوء النهار بالأستار المظلمة یُغْشِی اللَّیْلَ النَّهارَ.

و الملفت للنظر أنّ العبارة المذکورة ذکرت فی مجال اللیل فقط، و لم یقل (و یغشی النهار اللیل) لأنّ الغطاء و الغشاء یناسب الظلمة فقط و لا یناسب النور و الضوء.

ثمّ یضیف بعد ذلک قائلا: إنّ اللیل یطلب النهار طلبا حثیثا (یطلبه حثیثا).

إنّ هـذا التعبیر- نظرا لوضع اللیل و النهار فی الکرة الأرضـیة- تعبیر فی غایـة الروعة و الجمال، لأنّه لو نظر أحد إلی کیفیة حرکة الکرة الأرضـیة من الخارج، و کیفیة دورانها حول نفسها و وقوع ظلها المخروطی الشکل علی نفسها، مع العلم أنّ الکرة الأرضیة تدور بسرعة فائقة حول نفسها (أی فی حدود ۳۰ کیلومترا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۵

الدقیقة) لأحس أنّ غول الظلّ المخروطی الأسود یجری بسرعة کبیرة علی هذه الکرة خلف ضوء النهار.

و لکن هـذا الأـمر غیر صادق بالنسـبة إلی ضوء النهار، لأنّ ضوء الشـمس منتشـر فی نصف الکرة الأرضـیة و فی جمیع الفضاء المحیط بأطراف الأرض، و لا یتخذ لنفسه شکلا خاصا، و إنّما ظلمة اللیل فقط هی التی تدور مثل شبح غامض الأسرار حول الأرض.

ثمّ یضـیف تعـالی أنّه هـو الـذی خلـق الشـمس و القمر و النجوم، و هی خاضـعة لأـمره بعـد خلقهـا: وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ و هی مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ

(و سوف نبحث حول تسخیر الشمس و القمر و النجوم و معانی ذلک فی ذیل الآیات المناسبة بإذن اللّه تعالی).

ثمّ بعـد ذکر خلق العالم و نظام اللیل و النهار، و خلق الشـمس و القمر و النجوم، قال مؤکّـدا: اعلموا أنّ خلق الکون و تدبیر أموره کلّه بیده سبحانه دون سواه، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ.

ما هو «الخلق» و «الأمر»؟

هناک کلام کثیر بین المفسّرین حول المراد من «الخلق» و «الأمر» أنّه ما هو؟

و لکن بالنظر إلی القرائن الموجودة فی هـذه الآیة- و الآیات القرآنیة الأخری یسـتفاد أنّ المراد من «الخلق» هو الخلق و الإیجاد الأوّل.

و المراد من «الأمر» هو السنن و القوانین الحاکمة علی عالم الوجود بأسره بأمر اللّه تعالی، و التی تقود الکون فی مسیره المرسوم له.

إن هـذا التعبیر- فی الحقیقـة- ردّ علی الـذین یتصورون أنّ اللّه خلق الکون ثمّ ترکه لحـاله و أهله، و جلس جانبا. أی إنّ العالم بحاجة إلی اللّه فی وجوده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۶

و حدوثه، دون بقائه و استمراره.

إنّ هذه الجملة تقول: کلّا، بل إنّ العالم کما یحتاج إلی حدوثه إلی اللّه، کذلک یحتاج إلیه فی تدبیره و استمرار حیاته و إدارة شؤونه إلی اللّه، و لو أنّ اللّه صرف عنایته و لطفه عن الکون لحظة واحدة لتبدد النظام و انهار و انهدم بصورة کاملة.

و قد مال بعض الفلاسـفة إلی أن یفسّر عالم «الخلق» بعالم «المادة» و عالم «الأمر» بعالم «ما وراء المادة» لأنّ لعالم الخلق جانبا تدریجیا، و هـذه هی خاصـیة المادة. و لعالم الأمر جانبا دفعیا و فوریا، و هذه هی خاصـیة عالم ما وراء المادة، کما نقرأ فی قوله تعالی: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَـیْئاً أَنْ یَقُـولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۴۹] و لکن بـالنظر إلی موارد اسـتعمال لفظـة الأـمر فی آیات القرآن، و حتی عبارة وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومَ مُسَـخَّراتٍ بِأَمْرِهِ الواردة فی الآیـة المبحوثـة یسـتفاد الأـمر یعنی کـل أمر إلهی سواء فی عالم المادة أو فی عالم ما وراء المادة (تأملوا رجاء).

ثمّ فی ختام الآیة یقول: تَبارَکَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ

فی الحقیقة إنّ هذه الجملة- بعد ذکر خلق السـماوات و الأرض و اللیل و النهار و الشمس و القمر و النجوم و تدبیر عالم الوجود- نوع من الثناء علی الذات الربوبیة المقدسة، و قد سیق لتعلیم العباد.

و «تبارك» من مادة البركة و أصلها «بركـ» و معناها صدر البعير، حيث أنّ الإبل عند ما تستقر فى مكان ما تلصق صدورها على الأرض، لهذا اتخذت هذه الكلمة تدريجيا معنى الثبوت و الاستقرار و الاستتباب، ثمّ وصفت و سمّيت كل نعمة مستقرة و دائمة، و كل كائن طويل العمر، و مستمر الآثار و الخيرات، بأنّه موجود مبارك، و يقال أيضا للمكان الذى يتجمع فيه الماء «بركة» لبقائه فى ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۷

المكان مدة طويلة.

من هنا يتّضح أنّ رأس المال «المبارك» هو الذى يتصف بالدوام، و الكائن «المبارك» هو الموجود المستديم الآثار، و من البديهى أنّ أليق وجود لهذه الصفة هو وجود اللّه تعالى، فهو وجود مبارك أزلى أبدى، و هو بالتالى منشأ جميع البركات و الخيرات، و منبع الخير المستمر تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (و سوف نتحدث فى هذا المجال فى تفسير الآية (۹۲) من سورة الأنعام أيضا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۸

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۵ الى ۵۶]

اشارة

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۵۵) وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶)

التّفسير

شروط استجابة الدعاء:

لقد أثبتت الآية السابقة- فى ضوء ما أقيم من برهان واضح- هذه الحقيقة، و هى أنّ الذى يستحق للعبادة فقط هو اللّه، و فى عقيب ذلك ورد الأمر هنا بالدعاء، الذى هو مخ العبادة و روحها، يقول أوّلا: ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَ خُفْيَةً.

و «التضرع» فى الأصل من مادة «ضرع» بمعنى الثدى، و على هذا يكون فعل التضرع بمعنى حلب اللبن من الضرع، و حيث إنّه عند حلب اللبن تتحرك الأصابع على حلمة الثدى من جهاتها المختلفة استدارا للحليب، لهذا استعملت هذه الكلمة فى من يظهر حركات خاصّة إظهارا للخضوع و التواضع.

و على هذا فإنّ الآية المبحوثة، و عبارة ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً تحثّنا على أن نقبل على اللّه بمنتهى الخضوع و الخشوع و التواضع، بل يجب أن تنعكس روح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۷۹

الدعاء فى أعماق روحه، و على جميع أبعاد وجوده، و يكون اللسان مجرّد ترجمانها، و يتحدث نيابة عن جميع أعضائه.

و أمره تعالى- فى الآية الحاضرة- بأن يدعى اللّه «خفية» و فى السّر، لأنّه أبعد عن الرياء، و أقرب إلى الإخلاص، و لأجل أن يكون الدعاء مقرونا بتمركز الفكر و حضور القلب.

و نحن نقرأ

فى حديث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما كان فى إحدى غزواته، و وصل جنود الإسلام إلى واد رفعوا أصواتهم بالتهليل و التكبير قائلين: «لا إله إلّا اللّه» و «اللّه أكبر» فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يا أيّها الناس اربعوا على أنفسكم، أمّا

إنّكم لا تدعون أصمّ و لا غائبا، إنّكم تدعون سميعا قريبا، إنّه معكم»[۵۰].

كما و يحتمل فى هـذه الآيـة أيضا أن يكون المراد من «التضـرع» هو الدعاء الظاهر العلنى، و المراد من «الخفية» الدعاء الخفى السّرى، لأنّ لكل مقام اقتضاء خاصا، فقد يقتضـى أن يكون الدعاء علنا، و ربّما يقتضـى خفية و سـرا، و هناك رواية وردت فى ذيل هذه الآية تؤيد هذا الموضوع.

ثمّ قال تعالى فى ختام الآية: إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ أى أنّ اللّه لا يحب المعتدين.

و لهذه العبارة معنى وسيع يشـمل كل نوع من أنواع العدوان و التجاوز، سواء الصراخ و رفع الصوت عاليا جدا حين الدعاء، أو التظاهر و ممارسة الرياء، أو التوجه إلى غير اللّه حين الدعاء.

و فى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى حكم هو فى الحقيقة شرط من شروط تأثير الدعاء، إذ قال: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها.

و من المسلم أنّ الأدعية إنّما تكون عند اللّه أقرب إلى الإجابة إذا تحققت فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۰

الشرائط اللازمة، و من جملة ذلك أن يكون الدعاء مقترنا بالجوانب البناءة و العملية فى حدود المستطاع، و أن تراعى حقوق الناس، و أن تلقى حقيقة الدعاء بأنوارها و ظلالها على وجود الإنسان الداعى بأسـره، و لهذا فلا تسـتجاب أدعية المفسدين و العصاة، و لا تنتهى إلى أية نتيجة مرجوّة.

و المراد من «الفساد بعد الإصلاح» يمكن أن يكون الإصلاح من الكفر أو الظلم أو كليهما،

جاء فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام: (إنّ الأرض كانت فاسدة فأصلحها نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۵۱].

و مرّة أخرى يعود إلى مسألة الدعاء و يذكر شرطا آخر من شرائطه فيقول:

وَ ادْعُوهُ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

أى لا تكونوا راضيين معجبين بأفعالكم بحيث تظنون أنّه لا توجد فى حياتكم أية نقطة سوداء، إذ أنّ هذا الظن هو أحد عوامل التقهقر و السـقوط، كما لا تكونوا يائسـين إلى درجـة أنّكم لا ترون أنفسـكم لائقين للعفو الإلهى، و لإجابة الدعاء، إذ أنّ هذا اليأس و القنوط هو الآخر سـبب لانطفاء شعلة السعى و الاجتهاد، بل لا بد أن تعرجوا نحوه تعالى بجناحى (الخوف) و (الأمل) الخوف من المسؤوليات و العثرات، و الأمل برحمته و لطفه.

و فى خاتمة الآية يقول تعالى للمزيد من التأكيد على أسباب الأمل بالرحمة الإلهية إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

و يمكن أن تكون هـذه العبارة إحـدى شـرائط إجابة الدعاء، يعنى إذا كنتم تريدون أن لا تكون أدعيتكم خاوية، و مجرّد لقلقة لسان، فيجب أن تقرنوها بعمل الخير و الإحسان، لتشـملكم الرحمـة الإلهيـة بمعونـة ذلك و تثمر دعواتكم، و بهـذا تكون الآيـة قـد تضـمنت الإشارة إلى خمسة من شرائط قبول الدعاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۱

و إجابته، و هى باختصار كالتالى:

۱- أن يكون الدعاء عن تضرّع و خفية.

۲- أن لا يتجاوز حدّ الاعتدال.

۳- أن لا يكون مقرونا بالإفساد و المعصية.

۴- أن يكون مقرونا بالخوف و الأصل المعتدلين.

۵- أن يكون مقرونا بالبرّ و الإحسان، و فعل الخيرات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۲

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۷ الى ۵۸]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۵۷) وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (۵۸)

التّفسير

لا بد من المربى و القابليّة:

فى الآيات الماضية مرّت إشارات عديدة إلى مسألة «المبدأ» أى التوحيد و معرفة اللّه، من خلال الوقوف على أسرار الكون، و فى هذه الآيات ضمن بيان طائفة من النعم الإلهية وردت الإشارة إلى مسألة «المعاد» و البعث، ليكمل هذان البحثان أحدهما الآخر.

و هذه هى سيرة القرآن الكريم و دأبه فى كثير من الموارد، حيث يقرن بين «المبدأ» و «المعاد»، و الملفت للنظر أنّه يستعين لمعرفة اللّه، و كذا لتوجيه الأنظار إلى أمر المعاد معا بالاستدلال بالأسرار الكامنة فى خلق موجودات هذا العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۳

فيقول تعالى أولا: وَ هُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ

ثمّ يقول: إنّ هذه الرياح التى تهب من المحيطات تحمل معها سحبا ثقيلة مشبّعة بالماء حَتَّى إِذا أَقَلَّتْ سَحاباً ثِقالًا.

ثمّ يسوق تلك السحب إلى الأراضى الظامئة اليابسة، و يكلفها بأن تروى تلك العطاشى سُقْناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ

و بذلك ينهمر ماء الحياة فى كل مكان فَأَنْزَلْنا بِهِ الْماءَ.

و بمعونة هذا الماء نخرج للبشر أنواعا متنوعة من الثمار و الفواكة فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

نعم، إنّ الشمس تسطع على المحيطات و البحار، فيتبخر الماء و يتصاعد البخار إلى الأعلى، و هناك فى الطبقات العالية الباردة من الجو يتراكم البخار و يشكل كتلا ثقيلة من السحب، ثمّ تحمل الرياح كتل السحاب العظيمة على ظهرها، و تتوجه إلى الأراضى التى كلفت بسقيها، فتجرى بعض هذه الرياح قدام كتل السحاب، و تكون مزيجة بشىء. من الرطوبة الخفيفة، فتحدث نسيما مريحا تستشم منه رائحة المطر اللذيذة الباعثة للحياة و النشاط.

إنّها- فى الحقيقة- المبشرات بنزول المطر، ثمّ ترسل كتل الغيم العظيمة حبات المطر من بين ثناياها، لكنّها ليست بالكبيرة جدّا فتتلف الزروع و الأراضى، و لا بالصغيرة جدّا فتضيع فى الفضاء و لا تصل إلى الأرض، ثمّ تحط هذه الحبات على الأرض برفق و هدوء، و تنفذ فى ترابها شيئا فشيئا، فتنبت البذور و الحبات. و تبدل الأرض المحترقة بالجفاف، و التى كانت أشبه شىء بمقبرة مظلمة و ساكنة و هامدة، إلى مركز فعّال نابض بالحياة و الحركة، و تنشأ الجنائن الخضراء الغنية بالأزاهير و الثمار.

ثمّ عقيب ذلك يضيف فورا كَذلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتى و نلبسهم حلّة الوجود و الحياة مرّة أخرى.

و لقد أتينا بهذا المثال لأجل أن نريكم أنموذجا من المعاد فى هذه الدنيا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۴

الذى يتكرر أمام عيونكم كل يوم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

و فى الآية اللاحقة- و حتى لا يظن أحد أن نزول المطر على نمط واحد يدل على أنّ جميع الأراضى تصير حيّة على نمط واحدا أيضا، و حتى يتّضح أنّ القابليات و الاستعدادات متفاوته تسبّبت فى أن تتفاوت حالات الاستفادة و الانتفاع بالمواهب الإلهية يقول: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ أى أنّ الأرض الصالحة هى التى تستفيد من المطر، و تثمر خير إثمار بإذن ربّها.

أمّا الأراضى السبخة و الخبيثة فلا تثمر إلّا بعض الأعشاب غير النافعة وَ الَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً.[۵۲] هكذا يكون الأمر بالبعث، و إن كان سببا لعودة الحياة إلى جميع افراد البشر، إلّا أنّ جميع الناس لا- يحشرون على نمط واحد و هيئة واحدة، إنّهم مختلفون متفاوتون فى ذلك مثل تفاوت الأرض الحلوة، و الأرض المالحة، نعم يتفاوتون، و يكون هذا التفاوت ناشئا من الأعمال و العقائد و النيات.

ثمّ فى ختام الآية يقول تعالى: إنّ هذه الآيات نبيّنها لمن يشكرونها، و يستفيدون من عبرها و مداليلها، و يسلكون فى ضوئها سبيل الهداية كَذلِكَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ

إن الآية الحاضرة- فى الحقيقة- إشارة إلى مسألة مهمّة تتجلى فى هذه الحياة و فى الحياة الأخرى فى كل مكان، و هى أنّ فاعلية الفاعل وحدها لا تكفى للإثمار و الإنتاج الصحيح المطلوب، بل لا بدّ من «قابلية القابل» فهى شرط للتأثير و الإثمار. فإنّه ليس هناك شىء ألطف و أكثر بعثا للحياة و النشاط من حبات المطر، و لكن هذا المطر نفسه الذى لا شك فى لطافة طبعه، يورق و يورد فى مكان، و ينبت الشوك و الحنظل فى مكان آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۵۹ الى ۶۴]

اشارة

لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۶۰) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلالَةٌ وَ لكِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّى وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴)

التّفسير

رسالة نوح أوّل الرّسل من أولى العزم:

تقدم أنّ هذه السورة- بعد ذكر سلسلة من القضايا الجوهرية و العامّة فى صعيد معرفة اللّه و المعاد و الهداية الإلهية للبشر، و مسألة الشعور بالمسؤولية-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۶

تشير إلى قصص ثلة من الأنبياء الكرام و الرسل العظام مثل «نوح» و «هود» و «صالح» و «شعيب» و بالتالى «موسى بن عمران» عليهم السلام أجمعين، كى تقدم أمثلة حية لهذه الأبحاث و بصورة عملية فى ثنايا تاريخهم الحافل بالحوادث و العبر.

فيبدأ سبحانه من قصة نوح النّبى، و يستعرض قسما من حواراته مع قومه الوثنيين المعاندين.

و قد وردت قصة نوح فى سور قرآنية متعددة، مثل سورة هود، الأنبياء، و المؤمنون، الشعراء، كما أنّ هناك سورة قصيرة فى القرآن

الكريم باسم «سورة نوح» و هى السورة الحادية و السبعون من سور الكتاب العزيز.

و سوف يأتى شرح و دراسة جهود هذا النّبى العظيم، و كيفية صنعه للسفينة، و الطوفان الرهيب، و غرق قومه الأنانيين الفاسدين و الوثنيين بإسهاب فى السور المذكورة، و هنا أكتفى- فقط- بإعطاء فهرست عن ذلك ضمن ست آيات هى:

يقول أوّلا: لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ

إنّ أوّل شىء ذكّرهم به هو إلفات نظرهم إلى حقيقة التوحيد، و نفى أى نوع من أنواع الوثنية فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

إنّ شعار التوحيد ليس شعار نوح وحده، بل هو أوّل شعار عند جميع الأنبياء و المرسلين الإلهين، و لهذا يشاهد فى آيات متعددة من هذه السورة- و غيرها من السور القرآنية- أنّ أوّل ما يفتتح أكثر الأنبياء دعواتهم به هو هذا الشعار: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ (راجع الآيات ۶۵، و ۷۳ و ۸۵ من نفس هذه السورة).

من هذه العبارات يستفاد جيدا أنّ الوثنية كانت أسوأ مانع فى طريق سعادة البشرية جمعاء، و أنّ حملة غصون التوحيد هؤلاء كانوا أوّل ما يفعلونه لغرس هذه الغصون فى مزرعة الحياة البشرية و تربية أنواع الورود الزاهية و الأشجار المثمرة فيها، هو أنّهم يشمرون عن ساعد الجدّ ليطهروا الحياة البشرية بمنجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۷

تعاليمهم البناءة من الأشواك، أشواك الوثنية و الشرك و العبودية لغير اللّه تعالى.

و يستفاد من الآية (۲۳) فى سورة نوح خاصّة أنّ الناس فى زمن النّبى نوح عليه السلام كانوا يعبدون أصناما متعددة تدعى «ودّ» و «سواع» و «يغوث» و «يعوق» و «نسر»، التى سيأتى الحديث عنها عند تفسير تلك الآية بإذن اللّه.

و بعد أن أيقظ نوح ضمائرهم و فطرتهم الغافية، حذّرهم من مغبة الوثنية و عاقبتها المؤلمة إذ قال: إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ و المراد من عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يمكن أن يكون الطوفان المعروف بطوفان نوح، الذى قلّما شوهد مثله فى العقوبات فى العظمة و السعة، كما و يمكن أن يكون إشارة إلى العقوبة الإلهية فى يوم القيامة، لأنّ هذا التعبير قد ورد فى معنيين من القرآن الكريم. فإنّنا نقرأ فى سورة الشعراء الآية (۱۸۹): فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ الآية وردت حول العقوبة التى نزلت بقوم شعيب فى هذه الدنيا بسبب ذنوبهم و معاصيهم، و نقرأ فى سورة المطففين الآية (۵): أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۵۳].

إنّ عبارة «أخاف» (أى أخشى أن تصيبكم هذه العقوبة، بعد ذكر مسألة الشرك فى الآية المبحوثة، يمكن أن تكون لأجل أن نوحا يريد أن يقول لهم: إذا لم تتيقنوا وقوع هذه العقوبة، فعلى الأقل ينبغى أن تخافوا منها، و لهذا لا يجيز العقل أن تسلكوا- مع هذا الاحتمال- هذا السبيل الوعر، و تستقبلوا عذابا عظيما أليما كهذا.

و لكن قوم نوح بدل أن يستقبلوا دعوة هذا النّبى العظيم الإصلاحية، المقرونة بقصد الخير و النفع لهم، فينضوون تحت راية التوحيد و يكفون عن الظلم و الفساد، قال جماعة من الأعيان و الأثرياء الذين كانوا يحسون بالخطر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۸

مصالحهم بسبب يقظة الناس و انتباههم، و يرون الدين مانعا من عبثهم و مجونهم و شهواتهم، قالوا لنوح بكل صراحة و قحة: نحن نراك فى ضلال واضح قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ

و «الملأ» تطلق عادة على الجماعة التى تختار عقيدة و فكرة واحدة، و يملأ اجتماعها و جلالها الظاهرى عيون الناظرين، لأن مادة «الملأ» أصلا من «الملء»، و قد استعملها القرآن على الأغلب فى الجماعات الأنانية المستبدة ذات المظهر الأنيق و الباطن الفاسد الملوث بالأوضاد و الشرور، و الذين يملأون ساحات المجتمع المختلفة بوجودهم.

و لقد جابه نوح عليه السلام تعنتهم و خشونتهم بلحن هادئ و لهجة متينة تطفح بالمحبّة و الرحمة، فقال فى معرض الردّ عليهم: أنا

لست بضال، بل ليست فى أية علامة للضلال، و لكنّى مرسل من اللّه قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هذه إشارة إلى أنّ الأرباب التى تعبدوها و تفترضون لكل واحد منها مجالا للسيادة و الحاكمية، مثل إله البحر، إله السماء، إله السلام و الحرب، و ما شاكل ذلك، كله لا ـ أساس لها من الصحة، و رب العالمين ما هو إلّا اللّه الواحد الذى خلقها جميعا و أوجدها من العدم.

ثمّ إنّ هدفى إنّما هو إبلاغ ما حمّلت من رسالة أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي

و لن آلو جهدا فى تقديم النصح لكم، و قصد نفعكم، و إيصال الخير إليكم وَ أَنْصَحُ لَكُمْ

«أنصح» من مادة «نصح» يعنى الخلوص و الغلو عن الغش و عن الشىء الدخيل، لهذا يقال للعسل الخالص: ناصح العسل، ثمّ أطلقت هذه اللفظة على الكلام الصادر عن سلامة نية، و بقصد الخير، و من دون خداع و مكر.

ثمّ أضاف تعالى وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۸۹

إنّ هذه العبارة يمكن أن يكون لها جانب تهديد فى مقابل معارضاتهم و مخالفتهم، و كأنّه يريد أن يقول: أنا أعلم بعقوبات إلهية أليمة تنتظر العصاة لا ـ تعلمون شيئا عنها، أو تكون إشارة إلى لطف اللّه و رحمته، و تعنى أنّكم إذا أطعتم اللّه، و كففتم عن تعنتكم، فإنّى أعلم مثوبات عظيمة لكم لا تعلمونها و لم تقفوا لحدّ الآن على سعتها. أو تكون إشارة إلى أنّنى إذا كنت قد كلفت بهدايتكم فإنّنى أعلم أمورا عن اللّه العظيم و عن أوامره لا ـ تعرفونها، و لهذا يجب أن تطيعونى و تتبعونى. و لا ـ مانع من أن تكون كل هذه المعانى مقصودة و مجتمعة فى مفهوم الجملة الحاضرة.

و فى الآية اللاحقة نقرأ لنوح كلاما آخر قاله فى مقابل استغراب قومه من أنّه كيف يمكن لبشر أن يكون حاملا ـ لمسؤولية إبلاغ الرسالة الإلهية، إذ قال: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ، وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

يعنى: أىّ شىء فى هذه القضية يدعو إلى الاستغراب و التعجب، لأنّ الإنسان الصالح هو الذى يمكنه أن يقوم بهذه الرسالة أحسن من أى كائن آخر. هذا مضافا إلى أنّ الإنسان هو القادر على قيادة البشر، لا الملائكة و لا غيرهم.

و لكن بدل أن يقبلوا بدعوة مثل هذا القائد المخلص الواعى كذبه الجميع، فأرسل اللّه عليهم طوفانا فغرق المكذبون و نجا فى السفينة نوح و من آمن فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا.

و فى خاتمة الآية بين دليل هذه العقوبة الصعبة، و أنّه عمى القلب الذى منعهم عن رؤية الحق، و أتباعه إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ ۵۴].

و هذا العمى القلبى كان نتيجة أعمالهم السيئة و عنادهم المستمر، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۰

التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا بقى فى الظلام مدة طويلة، أو أغمض عينيه لسبب من الأسباب و امتنع عن النظر مدة من الزمن، فإنّه سيفقد قدرته على الرؤية تدريجا و سيصاب بالعمى فى النهاية.

و هكذا سائر أعضاء البدن إذا تركت الفعالية و العمل مدّة من الزمن يبست و تعطلت عن العمل نهائيا.

و بصيرة الإنسان هى الأخرى غير مستثناة عن هذا القانون، فالتغاضى المستمر عن الحقائق، و عدم استخدام العقل و التفكير فى فهم الحقائق و الواقعيات بصورة مستمرة، يضعف بصيرة الإنسان تدريجا إلى أن تعمى عين القلب و العقل فى النهاية تماما.

هذه لمحة عن قصة نوح، و أمّا بقية هذه القصّة و كيفية وقوع الطوفان و تفاصيلها الأخرى، فسوف نشير إليها فى السور التى أشرنا إليها فى مطلع هذا البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۱

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۶۵ الى ۷۲]

اشارة

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۶۵) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۶۶) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۷) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ (۶۸) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۶۹)

قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷۰) قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۷۱) فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ (۷۲)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۲

التّفسير

لمحة عن قصّة قوم هود:

عقيب ذكر رسالة نوح و الدروس الغنية بالعبر الكامنة فيها، عمد القرآن الكريم إلى إعطاء لمحة سريعة عن قصّة نبى آخر من الأنبياء العظام، و هو النّبى هود عليه السلام، و ذكر ما جرى بينه و بين قومه.

و هذه القصّة ذكرت فى سور أخرى من القرآن الكريم مثل سورة «الشعراء» و سورة «هود» التى تناولت هذه القصّة بشىء من التفصيل، و أمّا فى الآيات الحاضرة فقد ذكر شىء مختصر عمّا دار بين هود و المعارضين له و نهايتهم.

يقول تعالى أوّلا: و لقد أرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هودا وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً.

و قوم «عاد» كانوا أمّة تعيش فى أرض «اليمن» و كانت أمّة قوية من حيث المقدرة البدنية و الثروة الوافرة التى كانت تصل إليهم عن طريق الزراعة و الرعى، و لكنّها كانت متخمة بالانحرافات الاعتقادية و بخاصّة الوثنية و المفاسد الأخلاقية المتفشية بينهم.

و قد كلّف «هود» الذى كان منهم- و كان يرتبط بهم بوشيجة القربى- من جانب اللّه بأن يدعوهم إلى الحق و مكافحة الفساد، و لعل التعبير ب «أخاهم» إشارة إلى هذه الوشيجة النسبية بين هود و قوم عاد.

ثمّ إنّه يحمل أيضا أن يكون التعبير ب «الأخ» فى شأن النّبى هود، و كذا فى شأن عدّة أشخاص آخرين من الأنبياء الإلهيين مثل نوح عليه السلام (سورة الشعراء الآية ۱۰۶) و صالح (سورة الشعراء الآية ۱۴۲) و لوط (سورة الشعراء الآية ۱۶۱) و شعيب (سورة الأعراف الآية ۸۵) إنّما هو لأجل أنّهم كانوا يتعاملون مع قومهم فى منتهى الرحمة، و المحبّة مثل أخ حميم، و لا يألون جهدا فى إرشادهم و هدايتهم و دعوتهم إلى الخير و الصلاح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۳

إنّ هذه الكلمة تستعمل فى من يعطف على أحد أو جماعة غاية العطف، و يتحرق لهم غاية التحرق، مضافا إلى أنّها تحكى عن نوع من التساوى و نفى أى رغبة فى التفوق و الزعامة، يعنى أن رسل اللّه لا يحملون فى نفوسهم أية دوافع شخصية فى صعيد هدايتهم، إنما يجاهدون فقط لانقاد شعوبهم و أقوامهم من ورطة الشقاء.

و على كل حال، فإنّ من الواضح و البيّن أنّ التعبير ب «أخاهم» ليس إشارة إلى الأخوة الدينية مطلقا، لأنّ هؤلاء الأقوام لم تستجب-

فى الأغلب- لدعوة أنبيائها الإصلاحية.

ثمّ يذكر تعالى أنّ هود شرع فى دعوته فى مسألة التوحيد و مكافحة الشرك و الوثنية: قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ

و لكن هذه الجماعة الأنانية المستكبرة، و بخاصّة أغنياؤها المغرورون المعجبون بأنفسهم، و الذين يعبّر عنهم القرآن بلفظة «الملأ» باعتبار أنّ ظاهرهم يملأ العيون، قالوا لهود نفس ما قاله قوم نوح لنوح عليه السلام قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكاذِبِينَ

«السفاهة» و خفة العقل كانت تعنى فى نظرهم أن ينهض أحد ضد تقاليد بيئته مهما كانت تلكم التقاليد خاوية باطلة، و يخاطر حتى بحياته فى هذا السبيل.

لقد كانت السفاهة فى نظرهم و منطقهم هى أن لا يوافق المرء على تقاليد مجتمعه و سننه البالية، بل يثور على تلك السنن و التقاليد، و يستقبل برحابة صدر كل ما تخبئه له تلك الثورة و المجابهة.

و لكن هودا- و هو يتحلى بالوقار و المتانة التى يتحلى بها الأنبياء و الهداة الصادقون الطاهرون- من دون أن ينتابه غضب، أو تعتريه حالة يأس قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفاهَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ

ثمّ إنّ هودا أضاف: إنّ مهمته هى إبلاغ رسالات اللّه إليهم، و إرشادهم إلى ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۴

فيه سعادتهم و خيرهم، و انقادهم من ورطة الشرك و الفساد، كل ذلك مع كامل الإخلاص و النصح و الأمانة و الصدق أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ

ثمّ إنّ هودا أشار- فى معرض الرّد على من تعجب من أن يبعث اللّه بشرا رسولا- إلى نفس مقولة نوح النّبى لقومه: أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ أى هل تعجبون من أن يرسل اللّه رجلا من البشر نبيّا، ليحذركم من مغبة أعمالكم، و ما ينتظركم من العقوبات فى مستقبلكم؟

ثمّ إنّه استثارة لعواطفهم الغافية، و إثارة لروح الشكر فى نفوسهم، ذكر قسما من النعم التى أنعم اللّه تعالى بها عليهم، فقال: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ فقد ورثتم الأرض بكل ما فيها من خيرات عظيمة بعد أن هلك قوم نوح بالطوفان بسبب طغيانهم و بادوا.

و لم تكن هذه هى النعمة الوحيدة، بل وهب لكم قوة جسدية عظيمة وَ زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً.

إنّ جملة زادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً يمكن أن تكون- كما ذكرنا- إشارة إلى قوة قوم عاد الجسدية المتفوقة، لأنّه يستفاد من آيات قرآنية عديدة، و كذا من التواريخ، أنّهم كانوا ذوى هياكل عظيمة قوية و كبيرة، كما نقرأ ذلك من قولهم فى سورة «فصلت» الآية ۱۵ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً و فى الآية (۷) من سورة الحاقة نقرأ- عند ذكر ما نزل بهم من البلاء بذنوبهم- فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ حيث شبه جسومهم بجذوع النخل الساقطة على الأرض.

و يمكن أن تكون إشارة- أيضا- إلى تعاظم ثروتهم و إمكانياتهم المالية، و مدنيتهم الظاهرية المتقدمة، كما يستفاد من آيات قرآنية و شواهد تاريخية أخرى، و لكن الاحتمال الأوّل أنسب مع ظاهر الآية.

و فى خاتمة الآية يذكّر تلك الجماعة الأنانيّة بأن يتذكروا نعم اللّه لتستيقظ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۵

فيهم روح الشكر فيخضعوا لأوامره، علّهم يفلحون فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و لكن فى مقابل جميع المواعظ و الإرشادات المنطقية، و التذكير بنعم اللّه و مواهبه، انبرت تلك الثلة من الناس الذين كانوا يرون

مكاسبهم المادية فى خطر، و قبول دعوة النّبى تصدّهم عن التمادى فى أهوائهم و شهواتهم، انبرت إلى المعارضة، و قالوا بصراحة: إنّك جئت تدعونا إلى عبادة اللّه وحده و ترك ما كان أسلافنا يعبدون دهرا طويلا، كلّا، لا يمكن هذا بحال قالُوا أَ جِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا؟

لقد كان مستوى تفكير هذه الثّلة منحطا جدّا- كما تلاحظ- إلى درجة أنّهم كانوا يستوحشون من عبادة اللّه وحده، بينما يعتبرون تعدّد الآلهة و المعبودات مفخرة من مفاخرهم.

و الجدير بالتأمل أنّ دليلهم فى هذا المجال لم يكن إلّا التقليد الأعمى لما كان عليه الآباء و الأسلاف، و إلّا فكيف يمكن أن يبرروا خضوعهم لقطعات من الصخور و الأخشاب؟! و فى النهاية، و لأجل أن يقطعوا أمل هود فيهم تماما، و يقولوا كلمتهم الأخيرة قالوا: إذا كان حقا و واقعا ما تنذرنا به من العذاب، فلتبادر به، أى أنّنا لا نخشى تهديداتك أبدا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

و عند ما بلغ الحوار إلى هذه النقطة، و أطلق أولئك المتعنتون كلمتهم الأخيرة الكاشفة عن رفضهم الكامل لدعوة هود، و أيس هود- هو الآخر- من هدايتهم تماما، قال: إذن ما دام الأمر هكذا فسيحلّ عليكم عذاب ربّكم قالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ

و «الرّجس» فى الأصل بمعنى الشىء غير الطاهر، و يرى بعض المفسّرين أنّ لأصل هذه اللفظة معنى أوسع، فهو يعنى كل شىء يبعث على النفور و التقزز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۶

و القرف، و لهذا يطلق على جميع أنواع الخبائث و النجاسات و العقوبات لفظ «الرجس» لأنّ جميع هذه الأمور توجب نفور الإنسان، و ابتعاده.

و على كل حال فإنّ هذه الكلمة فى الآية المبحوثة يمكن أن تكون بمعنى العقوبات الإلهية، و يكون ذكرها مع جملة «قد وقع» التى هى بصيغة الفعل الماضى إشارة إلى أنّكم قد أصبحتم مستوجبين للعقوبة حتما و قطعا، و أن العذاب سيحل بكم لا محالة.

كما يمكن أن يكون بمعنى النجاسة و تلوث الروح، يعنى أنّكم قد غرقتم فى دوّامة الانحراف و الفساد إلى درجة أنّ روحكم قد دفنت تحت أوزار كثيفة من النجاسات، و بذلك استوجبتم غضب اللّه، و شملكم سخطه.

ثمّ لأجل أن لا يبقى منطق عبادة الأوثان من دون ردّ أضاف قائلا:

أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فهذه براء، و جئتم تجادلوننى فى عبادتها فى حين لم ينزل بذلك أى دليل من جانب اللّه.

و فى الحقيقة، أنّ هذه الأصنام لا تملك من الألوهية إلّا أسماء من دون مسمّيات، و هى أسماء من نسج خيالكم و خيال أسلافكم، و إلّا فهى كومة أحجار و أخشاب لا تختلف عن غيرها من أحجار البرارى و أخشاب الغابات.

ثمّ قال: فإذا كان الأمر هكذا فلننتظر جميعا، انتظروا أنتم أن تنفعكم أصنامكم و معبوداتكم و تنصركم، و أنتظر أنا أن يحلّ بكم غضب اللّه و عذابه الأليم جزاء تعنتكم، و سيكشف المستقبل أى واحد من هذين الانتظارين هو الأقرب إلى الحقيقة و الواقع فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ

و فى نهاية الآية بيّن القرآن مصير هؤلاء القوم المتعنتين فى عبارة قصيرة موجزة: فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ ما كانُوا مُؤْمِنِينَ أجل، لقد أنجى اللّه هودا و من اتبعه من القوم بلطفه و رحمته، و أمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۷

الذين كذبوا بآيات اللّه، و رفضوا الانضواء تحت لواء دعوته، و الانصياع للحق، فقد أبيدوا نهائيا.

و «دابر» فى اللغة بمعنى آخر الشىء و مؤخرته، و بناء على هذا المفهوم يكون معنى الآية: أنّنا أبدنا هؤلاء القوم إبادة كاملة و استأصلنا شأفتهم.

(و سوف نبحث بالتفصيل حول قوم عاد و بقية خصوصيات حياتهم و كيفية عقوبة اللّه لهم و العذاب الذى نزل و حلّ بهم عند تفسير سورة هود بإذن اللّه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۷۳ الى ۷۹]

اشارة

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۳) وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۷۴) قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۷۵) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۷۶) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷۷)
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۷۸) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (۷۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۹۹

التّفسير

قصة قوم صالح و ما فيها من عبر

فى هذه الآيات جاءت الإشارة إلى قيام «صالح» النّبى الإلهى العظيم فى قومه «ثمود» الذين كانوا يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز و الشام، و بهذا يواصل القرآن أبحاثه السابقة الغنية بالعبر حول قوم نوح و هود.

و قد أشير إلى هذا القصة أيضا فى سورة: «هود» و «الشعراء» و «القمر» و «الشمس» و جاءت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة «هود» أمّا هذه الآيات فقد أوردت ما دار بين صالح عليه السلام و قومه قوم ثمود، و عن مصيرهم، و عاقبة أمرهم بصورة مختصرة.

فيقول تعالى فى البداية: وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً.

و قد مر بيان العلة فى إطلاق لفظة «الأخ» على الأنبياء عند تفسير الآية (۶۵) من نفس هذه السورة فى قصة هود.

و لقد كانت أوّل خطوة خطاها نبيّهم صالح فى سبيل هدايتهم، هى الدعوة إلى التوحيد، و عبادة اللّه الواحد قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

ثمّ أضاف: إنّه لا يقول شيئا من دون حجة أو دليل، بل قد جاء إليهم ببيّنة من ربّهم قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً.

و «النّاقة» أنثى الإبل، و قد أشير إلى ناقة صالح فى سبعة مواضع من القرآن الكريم ۵۵] و أمّا حقيقة هذه الناقة، و كيف كانت معجزة صالح الساطعة، و آيته المفحمة لقومه، فذلك ما سنبحثه فى سورة هود، فى ذيل الآيات المرتبطة بقوم ثمود بإذن اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۰

على أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ إضافة «الناقة» إلى «اللّه» فى الآيات الحاضرة من قبيل الإضافة التشريفية- كما هو المصطلح- فهى إشارة إلى أنّ هذه الناقة المذكورة لم تكن ناقة عادية، بل كانت لها ميزات خاصّة.

ثمّ إنّه يقول لهم: اتركوا الناقة تأكل فى أرض اللّه و لا تمنعوها فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ و إضافة الأرض إلى «اللّه» إشارة إلى أنّ هذه الناقة لا تزاحم أحدا، فهى تعلف من علف الصحراء فقط، و لهذا يجب أن لا يزاحموها.

ثمّ يقول فى الآية اللاحقة وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَ بَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ أى من جانب لا تنسوا نعم اللّه الكثيرة، و من جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب اللّه بذنوبهم و هلكوا.

ثمّ ركز على بعض النعم الإلهية كالأرض فقال: تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً، وَ تَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً، فالأرض قد خلقت بنحو تكون سهولها المستوية و المزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء و الظروف الجوية القاسية.

و يبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم فى الصيف و الشتاء، ففى فصل الربيع و الصيف كانوا يعمدون إلى الزراعة و الرعى فى السهول الواسعة و الخصبة، و لهذا كانت عندهم قصور جميلة فى السهول، و عند حلول فصل البرد و الانتهاء من الحصاد يسكنون فى بيوت قوية منحوتة فى قلب الصخور، و فى أماكن آمنة تحفظهم من خطر السيول و العواصف و الاخطار.

و فى ختام الآية يقول تعالى: فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۱

مُفْسِدِينَ ۵۶].

ثمّ إنّنا نلاحظ أيضا أنّ جماعة الأغنياء و المترفين ذوى الظاهر الحسن، و الباطن القبيح الخبيث، الذين عبر عنهم بالملإ أخذوا بزمام المعارضة لهذا النّبى الإلهىّ العظيم، و حيث أنّ عددا كبيرا من أصحاب القلوب الطيبة و الأفكار السليمة كانت ترزح فى أسر الأغنياء و المترفين، قد قبلت دعوة النّبى صالح و اتبعته، لهذا بدأ الملأ بمخالفتهم لهؤلاء المؤمنين.

فقال الفريق المستكبر من قوم صالح للمستضعفين الذين آمنوا بصالح: هل تعلمون يقينا أنّ صالحا مرسل من قبل اللّه قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ

على أنّ الهدف من هذا السؤال لم يكن هو تحرى الحق، بل كانوا يريدون بإلقاء هذه الشبهات زعزعة الإيمان فى نفوس من آمن، و إضعاف معنوياتهم، و ظنا منهم بأن هذه الجماهير ستطيعهم و تكف عن متابعة صالح و حمايته، كما كانت مطيعة لهم يوم كانت تحت سيطرتهم و نفوذهم.

و لكن سرعان ما واجهوا ردّ تلك الجموع المؤمنة القاطع، الكاشف عن إرادتها القوية و عزمها على مواصلة طريقها، حيث قالوا: إنّنا لسنا نعتقد بأنّ صالحا رسول من قبل اللّه فحسب، بل نحن مؤمنون أيضا بما جاء به قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ

و لكن هؤلاء المغرورين المتكبرين لم يكفوا عن عملهم، بل عادوا مرّة أخرى إلى إضعاف معنوية المؤمنين قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و كانت هذه محاولة منهم لجرّ هؤلاء المستضعفين الى صفوفهم مرّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۲

أخرى.

كانوا المقدّمين فى المجتمع و الأسوة للآخرين على الدوام بما كانوا يتمتّعون به من قوة و ثراء، لهذا كانوا يظنون أنّهم بإظهار الكفر سيكونون أسوة للآخرين أيضا، و أن الناس سوف يتبعونهم كما كانوا يفعلون ذلك من قبل، و لكنّهم سرعان ما وقفوا على خطأهم، و علموا أنّ الناس قد اكتسبوا بالإيمان باللّه على شخصيّة حضارية جديدة و استقلال فكرى، و قوة إرادة.

و الجدير بالانتباه أنّ الأغنياء و الملأ وصفوا فى الآيات الحاضرة بالمستكبرين، و وصفت الجماهير الكادحة المؤمنة بالمستضعفين، و هذا يفيد الفريق الأوّل قد وصلوا بشعورهم بالتفوق، و غصب حقوق الناس و استغلالهم إلى مرتبة ما يسمى فى لغة العصر ب «الطبقة المستغلّة»، و الفريق الآخر بالطبقة المستغلّة.

عند ما يئس الملأ و الأغنياء المستكبرون من زعزعة الإيمان فى نفوس الجماهير المؤمنة بصالح عليه السلام، و من جانب آخر رأوا أنّ وساوسهم و شائعاتهم لا تجدى نفعا مع وجود «الناقة» التى كانت تعدّ معجزة صالح عليه السلام، لهذا قرّروا قتل الناقة، مخالفين بذلك أمر ربّهم فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ۵۷].

و لم يكتفوا بهذا أيضا، بل أتوا إلى صالح نفسه و بصراحة قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

يعنى أنّنا لا نخاف تهديداتك مطلقا، و أن هذه التهديدات جميعها لا أساس لها ... و الحقيقة أنّ هذا الكلام نوع من الحرب النفسية ضد صالح عليه السلام، بهدف إضعاف روحيته و روحية المؤمنين به.

و عند ما وصل المعارضون بطغيانهم و تمرّدهم إلى آخر درجة، و أطفأوا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۳

نفوسهم آخر بارقة أمل فى الإيمان، حلّت بهم العقوبة الإلهية طبقا لقانون انتخاب الأصلح، و إهلاك و محو الكائنات الفاسدة و المفسدة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

إنّها كانت زلزلة و رجفة عظيمة تهاوت على أثرها قصورهم و بيوتهم القوية، و اندثرت حياتهم الجميلة، حتى أنّه لم يبق منهم إلّا أجساد ميتة ... هكذا أصبحوا.

و «جاثم» فى الأصل مشتق من مادة «جثم» بمعنى القعود على الركب، و التوقف فى مكان واحد، و لا يبعد أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الزلزلة و الرجفة جاءتهم و هم فى حالة نوع هنيئة، فجلسوا على أثرها فجأة، و بينما كانوا قاعدين على ركبهم لم تمهلهم الرجفة، بل ماتوا و هم على هذه الهيئة، إمّا خوفا، و إمّا بسبب انهيار الجدران عليهم، و إمّا بفعل الصاعقة التى رافقت الزلزال!!

بأىّ شىء أهلك قوم ثمود:

و هنا يطرح سؤال و هو: يستفاد من الآية الحاضرة أنّ الشىء الذى أهلك هؤلاء المتمردون كان هو الزلزال، و لكن يظهر من الآية (۱۳) من سورة فصلت أنّه كان الصاعقة، بينما نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة الحاقة فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ يعنى أنّ قوم ثمود اهلكوا بشىء مدمّر، فهل هناك تناقض بين هذه التعابير؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يمكن أن يلخص فى جملة واحدة، و هى جميع هذه العبارات ترجع إلى معنى واحد، أو أنّه يلازم بعضها بعضا، فكثيرا ما تحدث الرجة الأرضية فى منطقة ما بفعل صاعقة عظيمة، أى أنّه تحدث صاعقة أوّلا، ثمّ تحدث على أثرها رجة أرضية.

و أمّا «الطاغية» فهى بمعنى كائن تجاوز عن حدّه، و هذا ينسجم مع الزلزلة و كذا مع الصاعقة، و لهذا فلا يوجد أى تناقض بين الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۴

و فى آخر آية من الآيات المبحوثة يقول: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ وَ لكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ

أى بعد هذه القضية تولى صالح و هو يقول: لقد أديت رسالتى إليكم، و نصحت لكم و لكنّكم لا تحبّون من ينصحكم.

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: هل كلام صالح هذا كان بعد هلاك المتمردين من قومه، أو أنّ هذا الكلام هو الحوار الأخير الذى جرى بينه و بين قومه قبيل هلاك القوم و موتهم، أى بعد إتمام الحجّة عليهم ... و لكن ذكر فى عبارة القرآن بعد قضية هلاكهم و موتهم بالرجفة؟

هناك احتمالان: و الحقيقة أنّ الاحتمال الثّانى أنسب مع ظاهر الخطاب، لأنّ الحديث مع قوم ثمود يفيد أنّهم كانوا أحياء. و لكن الاحتمال الأوّل هو أيضا غير بعيد، لأنّه كثيرا ما تتم محادثة أرواح الموتى بمثل هذا الكلام ليعتبر الباقون الحاضرون، تماما كما نقرأ

نظير ذلك فى تاريخ الإمام على عليه السلام فإنّه عليه السلام وقف- بعد معركة الجمل- عند جسد طلحة و
قال: «ويل أمّك، طلحة! لقد كان لك قدم لو نفعك، و لكن الشيطان أضلك فأزلك، فعجلك إلى النّار».[۵۸]
كما نقرأ- أيضا- فى أواخر نهج البلاغة أنّ الإمام عليا عليه السلام عند ما عاد من معركة صفّين وقف عند مدخل الكوفة و التفت إلى مقابر الموتى، فسلّم على أرواح الماضين أوّلا، ثمّ قال: «أنتم السابقون و نحن اللاحقون».
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۰ الى ۸۴]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۸۴)

التّفسير

مصير قوم لوط المؤلم:

فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلا آخر غنيا بالعبر من قصص الأنبياء، و بذلك يواصل هدف الآيات السابقة و يكمله، و القصة هذه المرّة هى قصة النّبى الإلهى العظيم «لوط».
و لقد ذكرت هذه القصة فى عدّة سور من القرآن الكريم، منها سورة «هود» و «الحجر» و «الشعراء» و «الأنبياء» و «النمل» و «العنكبوت».
و هنا يشير القرآن الكريم- ضمن آيات خمس- إلى خلاصة سريعة عن
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۶
الحوار الذى دار بين لوط، و قومه.
و يظهر أنّ الهدف الوحيد فى هذه السورة (الأعراف) هو تقديم عصارات و خلاصات من مواجهات الأنبياء و حواراتهم مع الجماعات المتمردة من أقوامهم، و لكن الشرح الكامل لقصصهم موكول إلى السور القرآنية الأخرى (و سوف نأتى بقصّة هذه الجماعة بصورة مفصلة فى سورة هود و الحجر إن شاء اللّه).
الآية الأولى تقول فى البدء: اذكروا و إذ قال لوط لقومه: أ ترتكبون فعلا قبيحا لم يفعله أحد قبلكم من الناس؟ وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ ! فهذه المعصية مضافا إلى كونها عملا قبيحا جدّا- لم يفعلها أحد قبلكم من الأقوام- و بذلك يكون قبح هذا العمل الشنيع مضاعفا، لأنّه أصبح أساسا لسنّة سيئة، و سببا لوقوع الآخرين فى المعصية عاجلا أو آجلا.
و يستفاد من الآية الحاضرة أنّ هذا العمل القبيح ينتهى- من الناحية التأريخية- إلى قوم لوط، و كانوا قوما أثرياء مترفين شهوانيين، سنذكر أحوالهم بالتفصيل فى السور التى أشرنا إليها إن شاء اللّه تعالى.
و فى الآية اللاحقة يشرح المعصية التى ذكرت فى الآية السابقة و يقول:
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ.

و أى انحراف أسوأ و أقبح من أن يترك الإنسان وسيلة توليد النسل و إنجاب الأولاد، و هو مقاربة الرجل للمرأة، و الذى أودعه اللّه فى كيان كل إنسان بصورة غريزية طبيعية، و يعمد إلى «الجنس الموافق»، و يفعل بالتالى ما يخالف- أساسا- الفطرة، و التركيب الطبيعى للجسم و الروح الإنسانيين، و الغريزة السوية الصحيحة، و تكون نتيجة عقم الهدف المتوخى من المقاربة الجنسية.

و بعبارة أخرى: يكون أثره الوحيد، هو الإشباع الكاذب و المنحرف للحاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۷

الجنسية، و القضاء على الهدف الأصلى، و هو استمرار النسل البشرى.

ثمّ يقول تعالى فى نهاية الآية: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ أى تجاوزتم حدود اللّه، و وقعتم فى متاهة الانحراف و التجاوز عن حدود الفطرة.

و يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى أنّهم لم يسلكوا سبيل الإسراف فى مجال الغريزة الجنسية فحسب، بل تورطوا فى مثل هذا الانحراف و الإسراف فى كل شى، و فى كل عمل.

و الجدير بالذكر أنّ الآية الأولى ذكرت الموضوع بصورة مجملة، و لكن الآية الثّانية ذكرته بصورة مبيّنة و واضحة، و هذا هو أحد فنون البلاغة عند بيان القضايا الهامة، فإذا فعل أحد عملا شيئا قال له مرشده و وليه الواعى الحكيم، لبيان أهمية الموضوع: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، فإذا قال له الشخص، ماذا فعلت؟ يقول له مرّة أخرى: أنت ارتكبت ذنبا عظيما، و فى المآل يكشف القناع عن فعله و يشرحه.

إنّ هذا النوع من البيان يهيء فكر الطرف الآخر و نفسه للوقوف تدريجا على شناعة عمله القبيح و خطورته، و هو أبلغ فى التأثير.

و فى الآية اللاحقة أشار القرآن الكريم إلى الجواب المتعنت و غير المنطقى لقوم لوط، و قال: إنّهم لم يكن لديهم أى جواب فى مقابل دعوة هذا النّبى الناصح المصلح، إلّا أن قالوا: أخرجوا لوطا و أتباعه من مدينتكم. و لكن ما كان ذنبهم؟ إنّ ذنبهم هو أنّهم كانوا جماعة طاهرين لم يلوثوا أنفسهم بأدران المعصية وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

و هذا ليس موضع تعجب و استغراب أن يطرد جماعة من العصاة الفسقة أشخاصا طاهرين لا لشىء إلّا لأنّهم أنقياء الجيب، يجتنبون المنكرات، و ذلك لأنّ هؤلاء القوم يعتبرون هؤلاء مزاحمين لشهواتهم، فكانت نقاط القوة لدى أولئك الأطهار نقاط ضعف و عيب فى نظرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۸

و يحتمل أيضا فى تفسير جملة إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ أنّ قوم لوط كانوا يريدون بهذه العبارة أن يتهموا ذلك النّبى العظيم و أتباعه الأتقياء بالرياء و التظاهر بالتطهر، كما سمعنا و قرأنا فى الأشعار كثيرا حيث يتهم الخمارون الأشخاص الطيبين النزيهين بالرياء و التظاهر، و يعتبرون (خرفتهم الملوثة بالخمر) أفضل من (سجادة الزاهد) و هذا نوع من التزكية الكاذبة للنفس التى يتذرع بها هؤلاء العصاة الأشقياء.

مع ملاحظة كل ما قيل فى الآيات الثلاثة أعلاه، يستطيع كل قاض منصف أن يصدر حكمه بحق مثل هذه الجماعات و الأقوام الذين يتوسلون- فى مقابل إصلاح المصلحين و نصيحة الناصحين، و دعوة نبى إلهىّ عظيم- بالتهديد و الاتهام، و لا يعرفون إلّا لغة القوة و القهر، و لهذا قال اللّه تعالى فى الآية اللاحقة:

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ ۵۹] أى لما بلغ الأمر إلى هذا الحد أنجينا لوطا و أتباعه الواقعين و أهله الطيبين، إلّا زوجته التى كانت على عقيدة قومه المنحرفين فتركناها.

قال البعض: إنّ كلمة «أهل» و إن كان المتعارف إطلاقها على العائلة، و لكن فى الآية الحاضرة استعملت فى الأتباع الصادقين- أيضا- يعنى أنّهم كانوا معدودين جزءا من أهله و عائلته أيضا، و لكن يستفاد من الآية (۳۶) من سورة الذاريات أنّه لم يؤمن بلوط و دعوته أحد من قومه قط إلّا عائلته و أقرباؤه، و على هذا الأساس يكون لفظ الأهل هنا مستعملا فى معناه الأصلى، أى أقرباؤه.

من الآية (۱۰) من سورة التحريم إجمالا أنّ زوجة لوط كانت فى البداية امرأة صالحة، و لكنّها سلكت سبيل الخيانة فيما بعد، و جرأت أعداء لوط عليه.

و فى آخر آية من الآيات إشارة قصيرة جدا- و لكن ذات مغزى و معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۰۹

عميق- إلى العقوبة الشديدة و الرهيبة التى حلّت بهؤلاء القوم، إذ قال تعالى:

وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً أىّ مطر ... إنّه كان مطرا عجيبا حيث انهالت عليهم الشهب و النيازك كالمطر و أبادتهم عن آخرهم!! إنّ هذه الآية و إن لم تبيّن نوع المطر الذى نزل على القوم، و لكن من ذكر لفظة «المطر» بصورة مجملة اتضح أنّ ذلك المطر لم يكن مطرا عاديا، بل كان مطرا من الحجارة، كما سيأتى فى سورة هود الآية (۸۳).

فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

إنّ هذا الخطاب و إن كان موجها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّه من الواضح أنّ الهدف هو اعتبار جميع المؤمنين به.

هذا و سيأتى تفصيل قصّة هذه الجماعة، و كذا مضار اللواط المتعددة، و حكمه فى الشريعة الإسلامية، عند تفسير آيات سورة «هود» و «الحجر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۰

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۵ الى ۸۷]

اشارة

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸۵) وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۸۶) وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۸۷)

التّفسير

رسالة شعيب فى مدين:

فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم فصلا خامسا من قصص الأقوام الماضين، و مواجهة الأنبياء العظام معهم، و هذا الفصل يتناول قوم شعيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۱

بعث شعيب عليه السلام الذى ينتهى نسبه- حسب كتب التاريخ- إلى إبراهيم عبر خمس طبقات، إلى أهل مدين. و هى مدينة من مدن الشام، كان أهلها أهل تجارة و ترف قد سادت فيهم الوثنية، و كذا الحيلة، و التطفيف فى المكيال و الميزان، و البخس فى المعاملة.

و قد جاء تفصيل هذه المواجهة بين هذا النّبى العظيم و بين أهل مدين، فى سور متعددة من القرآن الكريم، و بخاصّة فى سورة «هود» و «الشعراء»، و نحن تبعا للقرآن الكريم سنبحث بتفصيل هذه القصّة فى ذيل آيات سورة هود إن شاء اللّه. أمّا هنا فنذكر شيئا عن هذه

القصّة باختصار طبقا للآيات المطروحة هنا.

فى البداية يقول سبحانه: و لقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً.

روى جماعة من المفسّرين، مثل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الفخر الرازى فى تفسيره المعروف، أن «مدين» فى الأصل اسم لأحد أبناء إبراهيم الخليل، و حيث أنّ أبناءه و أحفاده سكنوا فى أرض على طريق الشام سميت تلك الأرض «مدين».

هذا و قد أوضحنا السرّ فى استعمال لفظة «أخاهم» فى الآية (۶۵) من هذه السورة.

ثمّ إنّه تعالى أضاف: إنّ شعيبا مثل سائر الأنبياء بدأ دعوته بمسألة التوحيد و قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و قال: إنّ هذا الحكم مضافا إلى كونه من وحى العقل، ثابت بواسطة الأدلة الواضحة التى جاءتهم من جانب اللّه أيضا: قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أمّا أنّ هذه «البيّنة» ما هى؟ فإنّه لم يرد كلام حولها فى الآيات الحاضرة، و لكن الظاهر أنّها إشارة إلى معجزات شعيب عليه السلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۲

ثمّ أنّه عليه السلام بعد الدعوة إلى التوحيد أخذ فى محاربة المفاسد الاجتماعية و الأخلاقية و الاقتصادية السائدة فيهم، و فى البدء منعهم من ممارسة التطفيف، و الغش فى المعاملة، يقول: فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ۶۰] و واضح أن تسرّب أىّ نوع من أنواع الخيانة و الغش فى المعاملات يزعزع بل و يهدم أسس الطمأنينة و الثقة العامّة التى هى أهم دعامة لاقتصاد الشعوب و تلحق بالمجتمع خسائر غير قابلة للجبران. و لهذا السبب كان أحد الموضوعات الهامّة التى ركز عليها شعيب هو هذا الموضوع بالذات.

ثمّ يشير إلى عمل آخر من الأعمال الأثيمة، و هو الإفساد فى الأرض بعد أن أصلحت أوضاعها بجهود الأنبياء، و فى ضوء الإيمان فقال: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها.

و من المسلّم أنّه لا يستفيد أحد من إيجاد الفساد و من الإفساد، سواء كان فسادا أخلاقيا، أو من قبيل فقدان الإيمان، أو عدم وجود الأمن، لهذا أضاف فى آخر الآية قائلا: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و كأنّ إضافة عبارة: «إن كنتم مؤمنين» إشارة إلى أنّ هذه التعاليم الاجتماعية و الأخلاقية إنما تكون متجذرة و مثمرة إذا كانت نابعة من الإيمان و مستمدة من نوره. أمّا لو كانت قائمة على أساس سلسلة من ملاحظة المصالح المادية، لم يكن لها بقاء و دوام.

و فى الآية اللاحقة يشير إلى رابع نصيحة لشعيب، و هى منعهم عن الجلوس على الطرقات و تهديد الناس، و صدّهم عن سبيل اللّه، و تضليل الناس بإلقاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۳

الشبهات و تزييف طريق الحق المستقيم فى نظرهم، فقال: وَ لا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُونَ، وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَ تَبْغُونَها عِوَجاً.

و أمّا أنّه كيف كانوا يهدّدون الراغبين فى الإيمان، فقد ذكر المفسّرون فى هذا المجال احتمالات متعددة، فالبعض احتمل أنّه كان ذلك عن طريق التهديد بالقتل، و بعض آخر احتمل أنّه كان عن طريق قطع الطريق و نهب أموال المؤمنين، و لكن المناسب مع بقية العبارات الأخرى فى الآية هو المعنى الأوّل.

و فى ختام الآية جاءت النصيحة الخامسة لشعيب، التى ذكّر فيها قومه بالنعم الإلهية لتفعيل حسّ الشكر فيهم، فيقول: تذكّروا عند ما كنتم أفرادا قلائل فزادكم اللّه فى الأفراد و ضاعف من قوتكم: وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

ثمّ يلفت نظرهم إلى عاقبة المفسدين و نهاية أمرهم و مصيرهم المشؤوم حتى لا يتبعوهم فى السلوك فيصابوا بما أصيبوا به، فيقول: وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

و يستفاد من الجملة الأخيرة أنّه على العكس من الدعايات غير المدروسة لتحديد النسل فى هذه الأيّام فإنّ كثرة أفراد المجتمع، يمكن أن تكون منشأ القوّة و عظمة و تقدم المجتمع فى أكثر الموارد، طبعا شريطة أن تضمن معيشتهم وفقا لبرامج منظمة، من الناحية المادية و المعنوية.

إنّ آخر آية من الآيات المبحوثة هنا بمثابة إجابة على بعض استفهامات المؤمنين و الكفار من قومه، لأنّ المؤمنين- على أثر الضغوط التى كانت تتوجه إليهم من جانب الكفار- كان من الطبيعى أن يطرحوا هذا السؤال على نبيّهم: إلى متى نبقى فى العذاب و نتحمل الأذى؟

و كان معارضوهم- أيضا- و الذين تجرأوا لأنّهم لم تصبهم العقوبة الإلهية فورا يقولون: إذا كنت من جانب اللّه حقّا فلما ذا لا يصيبنا شىء رغم كل ما نقوم به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۴

من إيذاء و معارضة؟ فيقول لهم شعيب: إن كانت طائفة منكم آمنت بما بعثت به، و أعرض أخرى فلا ينبغى أن يكون ذلك سببا لغرور الكفار، و يأس المؤمنين، اصبروا حتى يحكم اللّه بيننا و بينهم. فالمستقبل سوف يكشف عمن يكون على حق، و من يكون على باطل وَ إِنْ كانَ طائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنا وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۵

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۸۸ الى ۸۹]

اشارة

قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنا قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ (۸۸) قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّنا وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ (۸۹)

التّفسير

هذه الآيات تستعرض ردّ فعل قوم شعيب مقابل كلمات هذا النّبى العظيم المنطقية، و حيث أنّ الملا و الأثرياء المتكبرين فى عصره كانوا أقوياء فى الظاهر، كان رد فعلهم أقوى من رد فعل الآخرين.

إنّهم كانوا- مثل كل المتكبرين المغرورين يهددون شعيبا معتمدين على قوتهم و قدرتهم، كما يقول القرآن الكريم: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنا.

قد يتصور البعض من ظاهر هذا التعبير «لتعودن إلى ملتنا» أنّ شعيبا كان قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۶

ذلك فى صفوف الوثنيين، و الحال ليس كذلك، بل حيث أنّ شعيبا لم يكن مكلّفا بالتبليغ، لذلك كان يسكت على أعمالهم، و كانوا يظنون أنّه كان على دين الوثنية فى حين أنّ أحدا من النّبيين لم يكن وثنيا حتى قبل زمان النّبوة، و إنّ عقول الأنبياء و درايتهم كانت أسمى من أن يرتكبوا مثل هذا العمل غير المعقول و السخيف، هذا مضافا إلى أنّ هذا الخطاب لم يكن موجها إلى شعيب وحده، بل يشمل المؤمنين من أتباعه- أيضا- و يمكن أن يكون هذا الخطاب لهم.

على أن تهديد المعارضين لم يقتصر على هذا، بل كانت هناك تهديدات أخرى سنبحثها فى سائر الآيات المرتبطة بشعيب.

و قد أجابهم شعيب فى مقابل كل تهديداتهم و خشونتهم تلك بكلمات فى غاية البساطة و الرفق و الموضوعية، إذ قال لهم: و هل فى إمكانكم أن تعيدوننا إلى دينكم إذا لم نكن راغبين فى ذلك: قالَ أَ وَ لَوْ كُنَّا كارِهِينَ ۶۱]؟

و فى الحقيقة يريد شعيب أن يقول لهم: هل من العدل أن تفرضوا عقيدتكم علينا، و تكرهوننا على أن نعتنق دينا ظهر لنا بطلانه و فساده؟ هذا مضافا إلى أنّه ما جدوى عقيدة مفروضة، و دين جبرىّ؟! و فى الآية اللاحقة يواصل شعيب قوله: قَدِ افْتَرَيْنا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْها.

إن هذه الجملة فى الحقيقة توضيح للجملة السابقة المجملة، و مفهوم هذه الجملة هو: نحن لم نترك الوثنية بدافع الهوى و الهوس، بل أدركنا بطلان هذه العقيدة بجلاء، و سمعنا الأمر الإلهى فى التوحيد بأذن القلب، فإذا عدنا من عقيدة التوحيد إلى الشرك- و الحال هذه- نكون حينئذ قد افترينا على اللّه عن وعى و شعور، و من المسلّم أنّ اللّه سيعاقبنا على ذلك بشدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۷

ثمّ يضيف شعيب قائلا: وَ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فِيها إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ

و مراد شعيب من هذا الكلام هو أنّنا تابعون لأمر اللّه، و لا نعصيه قيد شعرة، فعودتنا غير ممكنة إلّا إذا أمر اللّه بذلك.

ثمّ من دون إبطاء يضيف: إنّ اللّه يأمر بمثل هذا، لأنّ اللّه يعلم بكل شىء و يحط علما بجميع الأمور وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً و على هذا الأساس ليس من الممكن أن يعود عن أمر أعطاه، لأنّه لا يعود و لا يرجع عن أمر أعطاه إلّا من كان علمه محدودا، و اشتبه ثمّ ندم على أمره، أمّا الذى يعلم بكل شىء و يحيط بجميع الأمور علما فيستحيل أن يعيد النظر.

ثمّ لأجل أن يفهمهم بأنّه لا يخاف تهديداتهم، و أنّه ثابت فى موقفه، قال:

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا.

و أخيرا لأجل أن يثبت حسن نيّته، و يظهر رغبته فى طلب الحقيقة و السلام، حتى لا- يتهمه أعداؤه بالشغب و الفوضوية و الإخلال بالأمن يقول: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ

أى: يا ربّ أنت أحكم بيننا و بين هؤلاء بالحق، و ارفع المشاكل التى بيننا و بين هؤلاء، و افتح علينا أبواب رحمتك، فأنت خير الفاتحين.

و قد روى عن ابن عباس أنّه قال: ما كنت أعرف ماذا يعنى الفتح فى الآية حتى سمعت امرأة تقول لزوجها: أفاتحك عند القاضى، يعنى أطلبك عند القاضى للفصل بيننا، فعرفت معنى الفتح فى مثل هذه الموارد، و أنّه بمعنى القضاء و الحكم (لأن القاضى يفتح العقدة فى مشكلة الطرفين)[۶۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

اشارة

وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۹۰) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۱) الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ (۹۲) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ (۹۳)

التّفسير

تتحدث الآية الأولى عند الدعايات التى كان يبثّها معارضو شعيب ضدّ من يحتمل فيهم الميل إلى الإيمان به فتقول: وَ قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

و المقصود من الخسارة- هنا- الخسارات المادية التى تصيب المؤمنين بدعوة شعيب، إذ من المسلّم عدم عودتهم إلى عقيدة الوثنية، و على هذا الأساس كان يجب يخرجوا من بلدهم و ديارهم بالقهر، و يتركوا بيوتهم و أملاكهم.

و هناك احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّ مرادهم هو الأضرار المعنوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۱۹

بالإضافة إلى الأضرار المادية، لأنّهم كانوا يتصورون أنّ طريق النجاة يتمثل فى الوثنية لا فى دين شعيب.

و عند ما وصل أمرهم إلى الإصرار على ضلالتهم، و على إضلال غيرهم أيضا، و لم يبق أى أمل فى إيمانهم و هدايتهم، حلّت بهم العقوبة الإلهية بحكم قانون حسم مادة الفساد، فأصابهم زلزال رهيب شديد بحيث تهاوى الجميع أجسادا ميّتة، فى داخل بيوتهم و منازلهم فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

و قد مرّ فى ذيل الآية (۷۸) من هذه السورة- تفسير لفظة «جاثمين» و قلنا هناك أنّه قد استعملت عبارات و ألفاظ مختلفة للتعبير عن عامل هلاك هذه الجماعة لا منافاة بينها.

فمثلا: جاء فى شأن قوم شعيب- فى الآية الحاضرة- أنّ عامل هلاكهم كان هو: «الزلزال» و فى الآية (۹۴) من سورة هود أنّه «صيحة سماوية» و فى الآية (۱۸۹) من سورة الشعراء: أنّه «ظلة من السحاب القاتل» و تعود كلها إلى موضوع واحد، و هو أنّ العذاب المهلك كان صاعقة سماوية مخيفة، اندلعت من قلب السحب الكثيفة المظلمة، و استهدفت مدينتهم، و على أثرها حدث زلزال شديد (هو خاصية الصواعق العظيمة) و دمّر كل شيء.

فى الآية اللاحقة شرح القرآن الكريم أبعاد هذا الزلزال العجيب المخيف الرهيب بالعبارة التالية: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا[۶۳]. أى أنّ الذين كذبوا شعيبا أبيدوا إبادة عجيبة، و كأنّهم لم يكونوا يسكنون تلك الديار.

و فى ختام الآية يقول: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الْخاسِرِينَ

و كأنّ هاتين الجملتين جوابا لأقوال معارضى شعيب، لأنّهم كانوا قد هدّدوا بأن يخرجوه هو و أتباعه فى حالة عدم انصرافهم من دين التوحيد إلى الدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۰

السابق، فقال القرآن: إنّهم أبيدوا كاملة، و كأنّهم لم يسكنوا فى تلك المنازل، فضلا عن أن يستطيعوا إخراج غيرهم من البلد.

و فى مقابل قولهم: إنّ أتباع شعيب يستلزم الخسران، قال القرآن الكريم: إنّ نتيجة الأمر أثبتت أنّ مخالفة شعيب هى العامل الأصلى فى الخسران.

و فى آخر آية- من الآيات المبحوثة- نقرأ آخر كلام لشعيب مع قومه بعد اعراضه عنهم حيث قال: لقد بلّغت رسالات ربّى، و نصحتكم بالمقدار الكافى، و لم آل جهدا فى إرشادكم: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ

ثمّ قال فَكَيْفَ آسى عَلى قَوْمٍ كافِرِينَ أى لست متأسّفا على مصير الكافرين، لأننى قد بذلت كل ما فى وسعى لهدايتهم و إرشادهم، و لكنّهم لم يخضعوا للحق و لم يسلّموا، فكان يجب أن ينتظروا هذا المصير المشؤوم.

أمّا أنّه هل قال شعيب هذا الكلام بعد هلاكهم، أم قبل ذلك؟ هناك احتمالان، فيمكن أن يكون قبل هلاكهم، و لكن عند شرح القصة جاء ذكره بعد ذلك.

و لكن مع الالتفات إلى آخر عبارة، و التى يقول فيها: إنّ مصير هؤلاء الكافرين المؤلم لا يدعو إلى الأسف أبدا، يترجح للنظر أنّ هذه الجملة قيلت بعد نزول العذاب، و أنّ هذه التعابير- كما أشرنا فى ذيل الآية (۷۹) من هذه السورة قيلت و تقال للأموات كثيرا (و قد

أشرنا إلى شواهد ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۱

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۴ الى ۹۵]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (۹۴) ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۹۵)

التّفسير

إذ لم تنفع المواعظ:

إنّ هذه الآيات- التى ذكرت بعد استعراض قصص مجموعة من الأنبياء العظام، مثل نوح و هود و صالح و لوط و شعيب، و قبل أن يعمد القرآن الكريم إلى استعراض قصّة موسى بن عمران- إشارة إلى عدّة أصول و قواعد عامّة تحكم فى جميع القصص و الحوادث، و هى قواعد و أصول إذا فكّرنا فيها كشفت القناع عن حقائق قيمة ترتبط بحياتنا- جميعا- ارتباطا وثيقا.

فى البداية يقول: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ فالصعاب و المشاق و البلايا التى تصيب الأفراد إنّما يفعلها اللّه بهم عسى أن ينتبهوا، و يتركوا طغيانهم، و يرجعوا إلى اللّه و يتوبوا إليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۲

و ذلك لأنّ الناس ما داموا فى الرخاء و الرفاه فهم فى غفلة و لما يكون لديهم استعداد و قابلية لقبول الحق. أمّا عند ما يتورّطون فى المحنة و البلاء، يشرق نور فطرتهم و توحيدهم و يتذكرون اللّه قهرا بلا اختيار، و تستعد قلوبهم لقبول الحق.

و لكن هذه اليقظة و النهضة ليست عند الجميع على حدّ سواء، فهى فى كثير من الناس سريعة و عابرة و غير ثابتة، و بمجرّد أن تزول المشكلات يعودون إلى غفلتهم و غفوتهم، و لكن هذه المشكلات تعتبر بالنسبة إلى جماعة آخرين نقطة تحول فى الحياة، و يعودون إلى الحق إلى الأبد.

و الأقوام الذين جرى الحديث- فى الآيات السابقة- حولهم كانوا من النمط الأوّل.

و لهذا قال تعالى فى الآية اللاحقة: عند ما لم تغيّر تلك الجماعات سلوكها و مسيرها تحت ضغط المشكلات و الحوادث، بل بقوا فى الضلال، رفعنا عنهم المشكلات و جعلنا مكانها النعم و الرخاء فازدهرت حياتهم و كثر عددهم و زادت أموالهم ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا.

و «عفوا» من مادة «عفو» التى تكون أحيانا بمعنى الكثرة، و أحيانا بمعنى الترك و الإعراض، و تارة تكون بمعنى محو آثار الشىء. و لكن لا يبعد أن يكون أصل جميع تلك الأمور هو الترك، غاية ما هنالك قد يترك شىء لحاله حتى يتجذر، و يتوالد و يتناسل و يزداد، و ربّما يترك حتى يهلك و ينهدم تدريجا و شيئا فشيئا. و لهذا جاء بمعنى الزيادة و الهلاك معا.

و قد احتمل المفسّرون فى الآية المبحوثة ثلاثة احتمالات أيضا:

الأوّل: أنّنا أعطيناهم إمكانيات حتى يزدادوا فيستعيدوا كل ما فقدوه- فى فترة الشدّة و الضراء- من الأفراد و الأموال.

الآخر: أنّنا أعطيناهم نعما كثيرة جدا بحيث غرتهم، فنسوا اللّه، و تركوا شكره.

الثّالث: أنّنا أعطيناهم نعما كى يستطيعوا بها أن يزيلوا أثار فترة النكبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۳

و يمحوها.

إنّ هذه التفاسير و إن كانت متفاوتة من حيث المفهوم، و لكنّها من حيث النتيجة متقاربة فيما بينها.

ثمّ أضاف: أنّهم عند زوال المشكلات بدل أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة و هى «النعمة» و «النقمة» بيد اللّه، و أنّهم راجعون إلى اللّه، يتذرعون- لخداع أنفسهم- بهذا المنطق، و هو إذا تعرضنا للمصائب و البلايا، فإنّ ذلك ليس بجديد، فقد مس آباءنا الضراء و السراء، و كانت لهم حالات رخاء و حالات بلاء، فالحياة لها صعود و نزول، و الصعاب أمواج غير ثابتة و سريعة الزوال وَ قالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ. فهى إذن قضية طبيعية، و مسألة اعتيادية.

فيقول القرآن الكريم فى الختام: إنّ الأمر عند ما بلغ إلى هذا الحد، و لم يستفيدوا من عوامل التربية- أبدا- بل ازدادوا غرورا و عنجهيّة و تكبرا أهلكناهم فجأة و من غير سابق إنذار، لأنّ ذلك أشد إيلاما و نكالا لهم، و عبرة لغيرهم:

فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۴

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۹۶ الى ۱۰۰]

اشارة

وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۶) أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ (۹۷) أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (۹۸) أَ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ (۹۹) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰)

التّفسير

التّقدم و العمران فى ظل الإيمان و التقوى:

فى الآيات الماضية وقع البحث فيما جرى لأقوام مثل قوم هود و صالح و شعيب و نوح و لوط على نحو الإجمال، و إن كانت تلك الآيات كافية لبيان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۵

النتائج المشحونة بالعبر فى هذه القصص، و لكن الآيات الحاضرة تبيّن النتائج بصورة أكثر وضوحا فتقول: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أى لو أنّهم سلكوا سبيل الإيمان و التقوى، بدل الطغيان و التمرد و تكذيب آيات اللّه و الظلم و الفساد، لم يتخلصوا من غضب اللّه و عقوبته فسحب، بل لفتحت عليهم أبواب السماء و الأرض.

و لكن للأسف- تركوا الصراط المستقيم الذى هو طريق السعادة و الرفاه و الأمن، و كذبوا الأنبياء، و تجاهلوا برامجهم الإصلاحية، فعاقبناهم بسبب أعمالهم وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

بحوث

اشارة

و هنا مواضیع ینبغی الوقوف عندها:

۱- برکات الأرض و السماء

لقد وقع حدیث بین المفسّرین فی ما هو المراد من «برکات» الأرض و السماء؟ فقال البعض: إنّها المطر، و النباتات التی تنبت من الأرض.

و فسّرها البعض بإجابة الدعاء، و حل مشاکل الحیاة.

و لکن هناک احتمال آخر- أیضا- هو أنّ المراد من البرکات السماویة هی البرکات المعنویة، و المراد من البرکات الأرضیة هی البرکات المادیة.

و لکن مع ملاحظة الآیات السابقة یکون التّفسیر الأوّل أنسب من الجمیع، لأنّه فی الآیات السابقة التی شرحت العقوبات الشدیدة التی حلّت بالمجرمین و الطغاة، فأشارت تارة إلی نزول السیول من السماء و طغیان الینابیع و العیون من الأرض (مثل طوفان نوح) و أخری إلی الصواعق و الصیحات السماویة، و ثالثة إلی الزلازل الأرضیة الرهیبة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۶

و فی الآیة المطروحة هنا طرحت هذه الحقیقة علی بسط البحث، و هی: أنّ العقوبات ما هی إلّا لأفعالهم هم، و إلّا فلو کان الإنسان طاهرا مؤمنا، فإنّه بدل أن یحل العذاب السماوی أو الأرضی بساحته، تتواتر علیه البرکات الإلهیة من السماء و الأرض ... أجل، إنّ الإنسان هو الذی یبدل البرکات بالبلایا.

۲- معنی «البرکات»

«البرکات» جمع «برکة» و هذه الکلمة- کما أسلفنا- تعنی فی الأصل «الثبات» و الاستقرار، و یطلق علی کل نعمة و موهبة تبقی و لا تزول، فی مقابل الموجودات العاریة عن البرکة، و السریعة الفناء و الزوال، و الخالیة عن الأثر.

و الملفت للنظر أنّ فائدة التقوی و الإیمان لا- تقتصر علی نزول البرکات الإلهیة، بل هما سبب فی أن یصرف الإنسان ما لدیه فی المصارف اللازمة الصحیحة.

ففی المثل نلاحظ الیوم أنّ قسما کبیرا من الطاقات الإنسانیة، و المصادر الاقتصادیة تصرف فی سبیل سباق التسلح و صنع الأسلحة المدمّرة. و بذلک تنعدم البرکة فیها، و لا تثمر سوی الدمار و الخراب، و لکن المجتمعات البشریة إذا تحلّت بالتقوی و الإیمان، فإنّ هذه المواهب الإلهیة سیکون لها وضع آخر، و من الطبیعی أن تبقی آثارها و تخلد، و تکون مصداقا لکلمة البرکات.

۳- ماذا یعنی «الأخذ»؟

فی الآیة أعلاه استعملت کلمة «أخذ» فی مفهوم المجازاة و العقوبة، و هذا فی الحقیقة لأجل أنّ الشخص الذی یراد عقوبته یؤخذ أوّلا فی العادة، ثمّ یوثق بوسائل خاصّة حتی لا تبقی له قدرة علی الفرار، ثمّ یعاقب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۷

۴- المفهوم الواسع للآیة

إنّ الآیة الحاضرة و إن کانت ناظرة إلی وضع الأقوام الغابرة، و لکنّه من المسلّم أن مفهومها مفهوم واسع و عام و دائم، و لا تنحصر فی شعب معین أو قوم خاص، فإنّها سنة إلهیة أن یبتلی غیر المؤمنین، و المتورطین فی المعاصی و الذنوب بأنواع مختلفة و متنوعة من البلایا فی هذه الدنیا، فربّما ینزل علیهم البلاء السماوی و الأرضی، و ربّما تشتعل نیران الحروب العالمیة أو المحلیة فتبتلع أموالهم و تبیدها و ربّما یفارقهم الأمن و الاستقرار، فتسحق المخاوف و الهواجس بأظلافها أبدانهم و نفوسهم، و حسب تعبیر القرآن یکون کل ذلک بما کسبت أیدیهم ورد فعل لأعمالهم.

إن فیض اللّه لیس محدودا و لا ممنوعا، کما أنّ عقوباته لا تختص بقوم أو شعب.

لماذا تعیش الأمم الکافرة فی الرخاء؟

اشارة

من کل ما قلناه یتّضح الجواب علی سؤال یدور کثیرا بین جماعة من الناس، و هو: إذا کان الإیمان و التقوی یبعثان علی نزول أنواع البرکات الإلهیة، و یکون العکس موجبا لسلب البرکات، فلما ذا نشاهد الشعوب غیر المؤمنة ترفل فی الرخاء و الرفاه، فی حین یعیش جماعة من أهل الإیمان بعسر و مشقّة؟

إنّ الإجابة علی هذا السؤال تتّضح بملاحظة نقطتین:

۱- إنّ تصوّر أنّ الشعوب غیر المؤمنة الفاقدة للتقوی ترفل فی النعمة و الرخاء و تغرق فی السعادة هو تصور خاطئ ینبع من اشتباه أکبر، و هو اعتبار الثروة دلیلا علی السعادة.

إنّ الناس یتصورون- عادة- أنّ کل شعب امتلک صناعة أکثر تقدما، و ثروة أکبر، کان أسعد من غیره، فی حین لو تسنی لنا أن ننفذ إلی أعماق هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۸

المجتمعات و نلاحظ الآلام الممضة التی تحطم روح هذه الشعوب و جسمها عن کثب، فسوف نسلّم أن أکثر تلک الشعوب هی من أشقی سکان الأرض.

هذا بغض النظر عن أنّ هذا التقدم النسبیّ إنّما هو نتیجة استخدامهم لأصول و مبادئ مثل السعی و الاجتهاد، و النظم و الشعور بالمسؤولیة التی هی جزء من تعالیم الأنبیاء، و من صلب توجیهاتهم.

فی هذه الأیّام- التی نکتب فیها هذا القسم من التّفسیر- نشرت الجرائد و الصحف أنّه حدث فی نیویورک- التی هی واحدة من أکبر نقاط العالم المادی ثروة و أکثرها تقدما- حادث جدّ عجیب علی أثر انقطاع فجائی للتیار الکهربائی، و ذلک الحادث هو أنّ کثیرا من الناس هاجموا المحلات و المخازن و سرقوا کل ما فیها بحیث أن ثلاثة آلاف من المغیرین علی المحلات اعتقلوا بواسطة البولیس.

إنّ من المسلّم أن عدد المغیرین- فی الواقع- أکثر بأضعاف من هذا العدد، و هذا العدد هم الذین لم یمکنهم الفرار و الهرب و النجاة

من قبضة البوليس، كما أنّه من المسلّم أن المغيرين لم يكونوا سراقا محترفين هيّئوا أنفسهم من قبل لمثل هذه الإغارة العمومية، لأنّ الحادثة المذكورة كانت حادثة فجائية.

من هذا نستنتج أنّه مع حالة انقطاع عابر للتيار الكهربائى يتحول عشرات الآلاف من سكان مدينة ثرية و متقدمة- كما يشاءون تسميتها- إلى لصوص و سراق، إن هذا لا يدل على الانحطاط الخلقى لدى شعب من الشعوب فحسب، بل يدل على فقدان الأمن الاجتماعى الشديد أيضا.

و الخبر الآخر الذى نقلته الصحف، و يكمل- فى الحقيقة- هذا الخبر، و هو أن أحد الشخصيات المعروفة كان يقيم فى تلك الأيّام فى نيويورك، فى أحد الفنادق الشهيرة ذات العشرات من الطوابق، قال: إنّ انقطاع التيار الكهربائى تسبب فى أن يمسى التجول فى معابر وصالات ذلك الفندق عملا بالغ الخطورة، بحيث أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۲۹

مسئولى الفندق ما كانوا يسمحون لأحد بأن يغادر مكانه إلى غرفته منعا من أن يتعرض للمغيرين داخل صالات الفندق، و لهذا نظموا المسافرين و النزلاء فى جماعات مكونة من عشرة أو أكثر، و تولى موظفون مسلحون إيصالهم إلى غرفهم تحت حراسة مشددة.

ثمّ يضيف ذلك الشخص المذكور: أنّه ما لم يعان من الجوع الشديد لم يجرأ على الخروج من غرفته.

و لكن انقطاع التيار الكهربائى هذا يقع فى البلاد المتأخرة الشرقية كثيرا، و لكن لا تحدث مثل هذه المشاكل، و هذا يفيد أن سكان البلدان المتقدمة رغم كونهم يمتلكون ثروة عظيمة، و صنائع عظيمة، لا يملكون أدنى قدر من الأمن فى بيئتهم.

هذا مضافا إلى أنّ شهود عيان يقولون: إنّ القتل و الاغتيال فى تلك البيئات كشرب الماء من حيث السهولة و اليسر.

و نحن نعلم أنّنا أعطينا الدنيا كلها لأحد و كان يعيش فى مثل هذه الظروف، كان من أشقى أهل الأرض ... على أنّ مشكلة الأمن هى واحدة من مشكلاتهم، و إلّا فهناك مفاسد اجتماعية أخرى كل واحد منها بدوره حالة مؤلمة جدا ... و مع الالتفات إلى هذه الحقائق فلا معنى لتوهّم أنّ الثروة سعادة.

۲- أمّا ما يقال عن سبب تخلّف المجتمعات المتحلية بالإيمان و التقوى، فإذا كان المقصود من الإيمان و التقوى هو مجرّد ادعاء الإسلام و ادعاء أتباع مبادئ الأنبياء و تعاليمهم، فالاعتراض وجيه. و لكننا لا نعتبر حقيقة الإيمان و التقوى إلّا نفوذهما فى جميع أعمال الإنسان، و جميع شؤون الحياة، و هذا أمر لا يتحقق بمجرّد الادعاء و الزعم.

إنّ من المؤسف جدّا أن نجد التعاليم الإسلامية و مبادئ الأنبياء متروكة أو شبه متروكة فى كثير من المجتمعات الإسلامية، فملامح هذه المجتمعات ليست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۰

ملامح مجتمعات المسلمين الصادقين الحقيقيين.

لقد دعا الإسلام إلى الطهارة و الاستقامة و الأمانة و الاجتهاد و الجد، فأين تلك الأمانة و الاجتهاد؟

إنّ الإسلام يدعو إلى العلم و المعرفة و اليقظة و الوعى، فأين ذلك العلم و الوعى و اليقظة؟! و إن الإسلام يدعو إلى الاتحاد و التضامن و وحدة الصفوف و التفانى، فهل سادت هذه الأصول و المبادئ فى المجتمعات الإسلامية الحاضرة بصورة كاملة، و مع ذلك بقيت متخلّفة؟! لهذا يجب أن نعترف بأنّ الإسلام شيء، و المسلمون اليوم شيء آخر.

فى الآيات اللاحقة و المزيد من التأكيد على عمومية هذا الحكم، و أن القانون أعلاه ليس خاصا بالأقوام الغابرة بل يشمل الحاضر و المستقبل أيضا- يقول: هل أنّ المجرمين الذين يعيشون فى نقاط مختلفة من الأرض يرون أنفسهم فى أمن من أن تحل بهم العقوبات الإلهية، فتنزل بهم صاعقة أو يصبهم زلزال فى الليل و هم نائمون أَ فَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَ هُمْ نائِمُونَ

و هل هم فى أمان من ذلك العذاب فى النهار و هم غارقون فى أنواع اللهو و اللعب أَ وَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَ هُمْ

يَلْعَبُونَ

يعنى أنّهم فى قبضة القدرة الإلهية فى جميع الأحوال و الأوقات، ليلا و نهارا، فى اليقظة و النوم، فى ساعات الفرح و الترح، و بإشارة واحدة و أمر واحد يقضى عليهم جميعا، و يطوى صفحة حياتهم نهائيا، دون الحاجة الى مقدمات و أسباب قبلية، أو لمرور الزمان لهذا العمل.

أجل فى لحظة واحدة، و من دون أية مقدمات يمكن أن تحل أنواع المصائب و النوائب بهذا الإنسان الغافل.

و العجيب أنّ البشرية الحاضرة، رغم كل ما أحرزته من تقدم ورقى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۱

الصنائع و فى التكنولوجيا، و مع أنّها سخرت طاقات الكون و الطبيعة المختلفة لخدمة نفسها، فإنّها ضعيفة و عاجزة تجاه هذه الحوادث، بنفس المقدار من العجز و الضعف الذى كان عليه إنسان العصور السابقة. يعنى أن الإنسان لم يتغير حاله تجاه الزلازل و الصواعق و ما شابهها، حتى بالنسبة إلى إنسان ما قبل التاريخ.

و هذه علامة قوية على نهاية عجز الإنسان و شدة ضعفه رغم قدرته و قوته ...

و هذه حقيقة يجب أن يجعلها الإنسان نصب عينيه دائما و أبدا.

و فى الآية اللاحقة يعود القرآن الكريم إلى ذكر و تأكيد هذه الحقيقة بشكل آخر فيقول: أ فأمن المجرمون من المكر الإلهى، فى حين لا يأمن مكره إلّا الخاسرون أ فَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ

و «المكر»- كما قلنا فى ذيل الآية ۹۴ من سورة آل عمران- يعنى فى اللغة العربية كل حيلة و وسيلة لصرف الشخص عن الهدف الذى يمضى إليه، سواء كان حقا أو باطلا، و قد أخذ فى مفهوم هذه اللغة نوع من التدرج و النفوذ التدريجى.

و على هذا فالمراد من المكر الإلهى، هو أنّ اللّه تعالى يصرفهم بخططه القوية التى لا تقهر عن حياة الرفاه و اللذة دون اختيارهم و يقطعها عليهم. و هذه إشارة إلى العقوبات الإلهية الفجائية و المهلكة.

جواب على سؤال:

إنّ الجملة التى وردت فى ختام الآية الحاضرة تقول: لا يأمن أحد- إلّا الخاسرون- من المكر الإلهى و العقوبة الإلهية، و هنا يطرح هذا السؤال، و هو: هل تشمل هذه العبارة الأنبياء و الأئمّة العظام و الصالحين؟

لقد تصوّر البعض أنّهم خارجون من هذا الحكم، و أنّ الآية تختص بالمجرمين. و لكن الظاهر أن هذا الحكم عام يشمل الجميع، لأنّه حتى الأنبياء و الأئمّة كانوا مراقبين لأعمالهم دائما كى لا تصدر منهم أدنى زلة أو عثرة، لأنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۲

نعلم أن مقام العصمة ليس مفهومه أن المعصية مستحيلة عليهم، بل يعنى أنّهم مصونون عن الإثم و المعصية بفعل إرادتهم و إيمانهم و حسن اختيارهم، إلى جانب العنايات الربانية.

إنّهم كانوا يخافون من ترك الأولى و يتجنبونه، و يخشون أن لا يتمكنوا من القيام بمسؤولياتهم الثقيلة. و لهذا نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة الأنعام حول الرّسول الأعظم قُلْ إِنِّى أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

و لقد رويت فى تفسير الآية الحاضرة- أيضا- أحاديث تؤيد ما قلناه:

«صليت خلف أبى عبد اللّه (الصادق) عليه السلام، فسمعته يقول: «اللّهم لا تؤمنى مكرك.

ثمّ جهر فقال: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ

و نقرأ

فى نهج البلاغة أيضا: «لا تأمنن على خير هذه الأمّة عذاب اللّه، لقول اللّه سبحانه: فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ ۶۴].

إنّ عدم الأمن من المكر الإلهى- فى الحقيقة- يعنى الخوف من المسؤوليات و الخوف من التقصير فيها، و من المعلوم أن الخوف يجب أن يكون فى قلوب المؤمنين دائما إلى جانب الأمل بالرحمة الإلهية بشكل متساو، و أن التوازن بين هذين هو منشأ كلّ حركة و نشاط، و هو الذى يعبّر عنه فى الرّوايات بالخوف و الرجاء.

و قد جاء التصريح فى هذه الرّوايات بوجوب أن يكون المؤمنون دائما بين الخوف و الرجاء، و لكن المجرمين الخاسرين نسوا العقوبات الإلهية بحيث صاروا يرون أنفسهم فى منتهى الأمن المكر الإلهى.

و فى الآية اللاحقة يقول القرآن الكريم- بهدف إيقاظ عقول الشعوب الغافية و إلفات نظرهم إلى العبر التى كانت فى حياة الماضيين: ألا يتنبه الذين ورثوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۳

السيادة على الأرض- من الأقوام الماضية- إلى ما فى حياة الماضيين و قصصهم من عبر، فلو أنّنا أردنا أن نهلكهم بذنوبهم لفعلنا أ وَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِها أَنْ لَوْ نَشاءُ أَصَبْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ

و يمكننا أيضا أن نتركهم أحياء و نسلب منهم الشعور و حس التشخيص و التمييز بالمرّة بسبب توغّلهم فى الذنوب، بحيث لا يسمعون معها حقيقة، و لا يقبلون نصيحة، و يعيشون بقية حياتهم حيرى وَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ

أمّا كيف يسلب اللّه تعالى من هذا الفريق من المجرمين حس التمييز و التشخيص، فيمكنك الوقوف على مزيد التوضيح فى هذا المجال فى تفسير الآية (۷) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۴

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۲]

اشارة

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ (۱۰۱) وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ (۱۰۲)

التّفسير

فى هاتين الآيتين ركّز القرآن الكريم على العبر المستفادة من بيان قصص الماضين، و الخطاب متوجه هنا إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أن الهدف هو الجميع، يقول القرآن الكريم أوّلا: هذه هى القرى و الأقوام التى نقص عليك قصصهم:

تِلْكَ الْقُرى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبائِها[۶۵] ثمّ يقول: لم يكن إهلاكهم قبل إتمام الحجة عليهم، بل لقد جاءهم الأنبياء أوّلا بالبراهين الجلية و بذلوا قصارى جهدهم فى إيقاظهم و إرشادهم وَ لَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ

و لكنّهم قاوموا الأنبياء و خالفوا دعوتهم، و أصروا و لجّوا فى عنادهم، و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۵

يكونوا على استعداد لأن يؤمنوا بما كذبوا به من قبل، بل استمروا على تكذيبهم حتى مع مشاهدتهم البينات: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ

من هذه الجملة يستفاد أنّ الأنبياء الإلهيين قاموا بدعوتهم و إرشادهم مرارا و تكرارا، و لكن المشركين لجوا فى عنادهم، و بقوا

متصلبين فى مواقفهم المتعنتة الرافضة، و أعرضوا عن قبول دعوة الأنبياء حتى بعد وضوح الكثير من الحقائق.

و فى العبارة اللاحقة يبيّن تعالى علّة هذا التعنت و اللجاج: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ

يعنى أنّ الـذين يسـيرون فى درب خاطئ، و يسـتمرون فى السـير فى ذلك الطريق، ينتقش الانحراف و الكفر على قلوبهم نتيجة تكرار العمل السيء.

و يتجذر الفساد فى نفوسهم، كما يثبت النقش على السكة (و الطبع فى اللغة نقش صورة على شيء كالسكة) و هذا فى الحقيقة هو أثر العمل و خاصيته.

و قـد نسب إلى اللّه هو تعـالى مسـبب الأسـباب، و هو منشـأ تـأثير كل مؤثر، فهو يهب الفعل هـذه الخاصـية عنـد تكراره، حيث يجعله «ملكة» فى نفس الشخص.

و لكن من الواضح و البيّن أن مثل الضلال ليس له أى صفة جبرية و قهرية، بل إنّ موجد الأسباب هو الإنسان و إن كان التأثير بأمر اللّه تعالى (فتأمل).

و فى الآية اللاحقة بيّن تعالى قسمين آخرين من نقاط الضعف الأخلاقى لدى هذه الجماعات، و التى تسببت فى ضلالها و هلاكها.

فى البداية يقول: إنّهم كانوا لا يحترمون العهود و المواثيق بل ينقضونها وَ ما وَجَدْنا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ.

و هـذا العهـد يمكن أن يكون إشارة إلى «العهد الفطرى» الذى أخذه اللّه على جميع عباده بحكم الجبلة و الفطرة، لأنّه عند ما أعطاهم العقل و الـذكاء و القابليـة، كان مفهوم ذلك هو أخـذ العهد الميثاق منهم بأن يفتحوا عيونهم و آذانهم، و يروا الحقائق و يسـمعوها، و هذا هو ما أشارت إليه الآيات الأخيرة من هذه السورة (أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۶

الآية ۱۷۳) و هو المعروف ب «عالم الذّر» الذى سنشرحه بإذن اللّه فى ذيل تلك الآيات.

كما أنّه يمكن أن يكون إشارة إلى العهد الذى كان الأنبياء الإلهيون يأخذونه من الناس، و كان أكثر الناس يقبلونه، و لكنّهم ينقضونه.

أو يكون إشارة إلى جميع المواثيق «الفطرية» و «التشريعية».

و على كـل حـال فـإنّ روح نقض الميثـاق كـان من أسـباب معارضـة الأنبيـاء و الإصـرار على سـلوك طريق الكفر و النفاق، و الابتلاء بعواقبها المشؤومة.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى عامل آخر إذ يقول: وَ إِنْ وَجَدْنا أَكْثَرَهُمْ لَفاسِقِينَ

يعنى أن روح التمرد و التجاوز على القانون، و الخروج عن نظام الخلقـة و القوانين الإلهية، كان عاملا آخر من عوامل اسـتمرارهم على الكفر، و إصرارهم على مخالفة الدعوة الإلهية.

و يجب الانتباه إلى أن الضمير فى «أكثرهم» يرجع إلى جميع الأقوام و الجماعات السالفة.

و ما ورد فى الآيـة من أن أكثرهم ينقضون العهد إنّما هو من باب رعاية حال الأقليات التى آمنت بالأنبياء السابقين، و بقيت و فيّه لهم، و هـذه الجماعات المؤمنة و إن كانت قليلة و ضـئيلة العدد جدّا بحيث أنّها ما كانت تتجاوز أحيانا أسـرة واحدة. و لكن روح الواقعية و تحرى الحق المتجلّيـة فى كل آيات القرآن أوجبت أن لا يتجاهل القرآن الكريم حق هـذه الجماعات القليلة أو الأفراد المعدودين، بل يراعيها فلا يصف جميع الأفراد فى المجتمعات السالفة بالانحراف و الضلال و نقض العهد و الفسق.

و هذا موضوع جميل جدّا، و جدير بالاهتمام، و هو ما نشاهده و نلحظه فى آيات القرآن كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۱۰۳) وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۴) حَقِيقٌ عَلى أَنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۰۵) قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۰۶) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (۱۰۷)
وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۱۰۸)

التّفسير

المواجهة بين موسى و فرعون:

بعد ذكر قصص ثلة من الأنبياء العظام باختصار فى الآيات السابقة بيّن تعالى فى هذه الآيات و الآيات الكثيرة اللاحقة قصّة موسى بن عمران، و ما جرى بينه و بين فرعون و ملئه و عاقبة أمره.

و علّة بيان هذه القصّة بصورة أكثر تفصيلا من قصص الأنبياء الآخرين فى هذه السورة قد تكون لأجل أنّ اليهود أتباع موسى بن عمران كانوا أكثر من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۸

غيرهم فى بيئة نزول القرآن، و كان إرشادهم إلى الإسلام أوجب.[۶۶] و ثانيا: لأنّ قيام النّبى الأكرم كان أشبه بقيام موسى بن عمران من غيره من الأنبياء.

و على كل حال فإنّ هذه القصة الزاخرة بالعبر قد أشير إلى فصول أخرى منها أيضا فى سور أخرى، مثل: سورة البقرة، طه، الشعراء، النمل، القصص، و سور أخرى، و لو أنّنا درسنا آيات كل سورة على حدة، ثمّ وضعناها جنبا إلى جنب لم نلحظ فيها جانب التكرار على خلاف ما يتصوره البعض، بل ذكر من هذه الملحمة التاريخية فى كل سورة ما يناسبها من البحث للاستشهاد به. و حيث أنّ مصر كانت أوسع، و كان لشعبها حضارة أكثر تقدما من قوم نوح و هود و شعيب و ما شابههم، و كانت مقاومة الجهاز الفرعونى- بنفس النسبة- أكثر و أكبر، و لهذا تمتع قيام موسى بن عمران بأهمية أكبر، و حوى عبرا و نكات أكثر، و قد ركّز القرآن الكريم على النقاط البارزة المختلفة من حياة موسى و بنى إسرائيل بمناسبات مختلفة.

و على العموم يمكن حصر و تلخيص حياة هذا النّبى الإلهى العظيم فى خمس دورات و مراحل:

۱- مرحلة الولادة، و ما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه فى البلاط الفرعون.

۲- مرحلة فراره من مصر، و حياته فى أرض «مدين» فى كنف النّبى شعيب عليه السلام.

۳- مرحلة بعثته، ثمّ المواجهات الكثيرة بينه و بين فرعون و جهازه.

۴- مرحلة نجاته و نجاة بنى إسرائيل من مخالب فرعون، و الحوادث التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۳۹

جرت عليه فى الطريق، و عند وروده إلى بيت المقدس.

۵- مرحلة مشاكله مع بنى إسرائيل.

و يجب الانتباه إلى أن القرآن الكريم تناول فى كل سورة من سور قسما- أو عدّة أقسام- من هذه المراحل الخمس.

و من تلك الآيات التى تناولت جوانب من قصّة موسى عليه السلام هذه الآيات، و عشرات الآيات الأخر من هذه السورة، و هى تشير

إلى مراحل ما بعد بعثة موسى بن عمران بالنبوة. و لهذا فإنّنا نوكل الأبحاث المتعلقة بالمراحل السابقة على هذه المرحلة إلى حين تفسير الآيات المرتبطة بتلك الأقسام فى السور الأخرى، و بخاصّة سورة القصص.

فى الآية الأولى من الآيات الحاضرة يقول تعالى: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ أى من بعد قوم نوح و هود و صالح.

و يجب الالتفات إلى أنّ «فرعون» اسم عام، و هو يطلق على كل ملوك مصر، كما يطلق على ملوك الروم «قيصر» و ملوك فارس «كسرى».

و لفظة «الملأ»- كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق- تعنى الأعيان و الأشراف الذين يملأون ببريقهم و ظواهرهم الباذخة العيون، و لهم حضور ملفت للنظر فى جميع ميادين المجتمع.

و السر فى إرسال موسى فى بداية الدعوة إلى فرعون و ملأه هو أنّه علاوة على أنّ إحدى برامج موسى كان هو نجاة بنى إسرائيل من براثن استعمار الفراعنة و تخليصهم من أرض مصر- و هذا لا يمكن أن يتم من دون الحوار مع فرعون- إنّما هو لأجل أن المفاسد الاجتماعية و انحراف البيئة لا تعالج بمجرّد الإصلاحات الفردية و الموضعية فقط، بل يجب أن يبدأ بإصلاح رؤوس المجتمع و قادته الذين يمسكون بأزمة السياسة و الإقتصاد و الثقافة، حتى تتهيأ الأرضية لإصلاح البقية، كما يقال عرفا: إنّ تصفية الماء يجب أن تكون من المنبع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۰

و هذا هو الدرس الذى يعطيه القرآن الكريم لجميع المسلمين، لإصلاح المجتمعات الإسلامية.

ثمّ يقول تعالى: فَظَلَمُوا بِها.

و نحن نعلم أنّ لفظ الظلم بالمعنى الواسع للكلمة هو: وضع الشىء فى غير محلّه، و لا شك فى أن الآيات الإلهية توجب أن يسلّم الجميع لها، و بقبولها يصلح الإنسان نفسه و مجتمعه، و لكن فرعون و ملأه بإنكارهم لهذه الآيات ظلموا هذه الآيات.

ثمّ يقول تعالى فى ختام الآية: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

و هذه العبارة إشارة إجمالية إلى هلاك فرعون و قومه الطغاة المتمردين، الذى سيأتى شرحه فيما بعد.

و هذه الآية تشير إشارة مقتضبة إلى مجموع برنامج رسالة موسى، و ما وقع بينه و بين فرعون من المواجهة و عاقبة أمرهم.

أمّا الآيات اللاحقة فتسلّط الاضواء بصورة أكثر على هذا الموضوع.

فيقول أوّلا: وَ قالَ مُوسى يا فِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هذه هى أوّل مواجهة بين موسى و بين فرعون، و هى صورة حية و عملية من الصراع بين «الحق» و «الباطل».

و الطريف أنّ فرعون كأنّه كان ينادى لأوّل مرّة ب «يا فرعون» و هو خطاب رغم كونه مقرونا برعاية الأدب، خال عن أى نوع من أنواع التملق و التزلف و إظهار العبودية و الخضوع، لأنّ الآخرين كانوا يخاطبونه عادة بألفاظ فيها الكثير من التعظم مثل: يا مالكنا، يا سيدنا، يا ربنا، و ما شابه ذلك.

و تعبير موسى هذا، كان يمثل بالنسبة إلى فرعون جرس إنذار و ناقوس خطر. هذا مضافا إلى أن عبارة موسى إِنِّى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ كانت- فى الحقيقة- نوعا من إعلان الحرب على جميع تشكيلات فرعون، لأنّ هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۱

يثبت أن فرعون و نظراءه من أدعياء الرّبوبية يكذبون جميعا فى ادعائهم، و أن ربّ العالمين هو اللّه فقط، لا فرعون و لا غيره من البشر.

و فى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عقيب دعوى الرسالة من جانب اللّه قال:

فالآن إذ أنا رسول ربّ العالمين ينبغى ألا أقول عن اللّه إلّا الحق، لأنّ المرسل من قبل اللّه المنزّه عن جميع العيوب لا يمكن أن يكون

كاذبا حَقِيقٌ عَلى أنْ لا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ

ثمّ لأجل توثيق دعواه للنّبوة، أضاف: أنا لا أدعى ما أدّعيه من دون دليل، بل إنّ معى أدلـة واضـحة من جانب اللّه قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

فإذا كان الأمر هكذا فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إِسْرائِيلَ

و كان هذا فى الحقيقة قسما من رسالة موسى بن عمران الذى حرّر بنى إسرائيل من قبضة الاستعمار الفرعونى، و وضع عنهم إصرهم و أغلال العبودية التى كانت تكبّل أيديهم و أرجلهم، لأنّ بنى إسـرائيل كانوا فى ذلك الزمان عبيدا أذلّاء بأيدى القبطيين (أهالى مصـر) فكانوا يستفيدون منهم فى القيام بالأعمال السافلة و الصعبة و الثقلية.

و يستفاد من الآيات القادمـة- و كـذا الآيات القرآنيـة الأخرى بوضوح و جلاء أنّ موسـى كان مكلفا بدعوة فرعون و غيره من سـكان أرض مصر إلى دينه، يعنى أن رسالته لم تكن منحصرة فى بنى إسرائيل.

فقال فرعون بمجرّد سـماع هذه العبارة- (أى قوله: قد جئتكم ببيّنة)- هات الآية التى معك من جانب اللّه إن كنت صادقا قالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

و بهذه العبارة اتّخذ فرعون- ضمن إظهار التشكيك فى صدق موسى- هيئة الطالب للحق المتحرى للحقيقة ظاهرا، كما يفعل أى متحر للحقيقة باحث عن الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۲

و من دون تـأخير أخرج موسـى معجزتيه العظيمتين التى كانت إحـداهما مظهر «الخوف» و الأخرى مظهر «الأمل» و كانتا تكملان مقام إنذاره و مقام تبشيره، و ألقى فى البداية عصاه: فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ ۶۷].

و التعبير ب «المبين» إشارة إلى أنّ تلك العصا التى تبـدلت إلى ثعبان حقّا، و لم يكن سـحرا و شـعبذة و ما شاكل ذلك، على العكس من فعل السـحرة لأنّه يقول فى شأنهم: إنّهم مارسوا الشـعبذة و السحر، و عملوا ما تصوره الناس حيات تتحرك، و ما هى بحيات حقيقة و واقعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۱۴۲

ّ ذكر هـذه النقطـة أمر ضـرورى، و هى أنّنا نقرأ فى الآيـة (۱۰) من سورة النمـل، و الآيـة (۳۱) من سورة القصـص، أن العصـا تحركت كالجانّ، و «الجانّ» هى الحيات الصغيرة السريعة السير، و إنّ هذا التعبير لا ينسجم مع عبارة «ثعبان» التى تعنى الحية العظيمة ظاهرا.

و لكن مع الالتفـات إلى أنّ تينـك الآـيتين ترتبطـان ببدايـة بعثـة موسـى، و الآيـة المبحوثـة هنـا ترتبـط بحين مواجهته لفرعون، تنحل المشـكلة، و كأن اللّه أراد أن يوقف موسى على هذه المعجزة العظيمة تدريجا فهى تظهر فى البداية أصغر، و فى الموقف اللاحق تظهر أعظم.

هل يمكن قلب العصا إلى حية عظيمة؟!

على كل حال لا شك فى أنّ تبـديل «العصا» إلى حيـة عظيمـة معجزة، و لا يمكن تفسـيرها بالتحليلات الماديـة المتعارفـة، بل هى من وجهـة نظر الإلهى الموحـد- الـذى يعتبر جميع قوانين المادة محكومـة للمشـيئة الربانية- ليس فيها ما يدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعة من الخشب إلى حيوان بقوة ما فوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۳

الطبيعة.

و يجب أن لا ـ ننسى أن جميع الحيوانات فى عالم الطبيعة توجد من التراب، و الأخشاب و النباتات هى الأخرى من التراب، غاية ما هنالك أن تبديل التراب إلى حية عظيمة يحتاج عادة إلى ملايين السنين، و لكن فى ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّة إلى درجة تتحقق كل تلك التحولات و التكاملات فى لحظة واحدة و بسرعة، فتتخذ القطعة من الخشب- التى تستطيع وفق الموازين الطبيعية أن تغير بهذه الصورة بعد مضى ملايين السنين- تتخذ مثل هذه الصورة فى عدّة لحظات.

و الذين يحاولون أن يجدوا لمعاجز الأنبياء تفسيرات طبيعية و مادية- و ينفوا طابعها الإعجازى، و يظهروها فى صورة سلسلة من المسائل العادية مهما كانت هذه التفاسير مخالفة لصريح الكتب السماوية. إنّ هؤلاء يجب أن يوضحوا موقفهم: هل يؤمنون باللّه و قدرته و يعتبرونه حاكما على قوانين الطبيعة، أم لا؟

فإذا كانوا لا يؤمنون به و بقدرته، لم يكن كلام الأنبياء و معجزاتهم إلّا لغوا لديهم.

و إذا كانوا مؤمنين بذلك، فما الداعى لنحت، مثل هذه التّفسيرات و التبريرات المقرونة بالتكلف و المخالفة لصريح الآيات القرآنية.

(و إن لم نر أحدا من المفسّرين- على ما بينهم من اختلاف السليقة- عمد إلى هذا التّفسير المادى، و لكن ما قلناه قاعدة كلية).

ثمّ إنّ الآية اللاحقة تشير إلى المعجزة الثّانية للنّبى موسى عليه السلام التى لها طابع الرجاء و البشارة، يقول تعالى: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ

«نزع» تعنى فى الأصل أخذ شىء من مكان، مثلا أخذ العباءة من الكتف و اللباس عن البدن يعبر عنه فى اللغة العربية بالنزع فيقال: نزع ثوبه و نزع عباءته، و هكذا أخذ الروح من البدن يطلق عليه النزع. و بهذه المناسبة قد يستعمل فى الاستخراج، و قد جاءت هذه اللفظة فى الآية الحاضرة بهذا المعنى.

و مع أنّ هذه الآية لم يرد فيها أى حديث عن محل إخراج اليد، و لكن من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۴

الآية (۳۲) من سورة القصص اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ يستفاد أنّ موسى كان يدخل يده فى جيبه ثمّ يخرجها و لها بياض خاص، ثمّ تعود إلى سيرتها و حالتها الأولى.

و نقرأ فى بعض الأحاديث و الرّوايات و التفاسير أنّ يد موسى كانت مضافا إلى بياضها تشعّ بشدّة، و لكن الآيات القرآنية ساكتة عن هذا الموضوع، مع عدم تناف بينهما.

إنّ هذه المعجزة و المعجزة السابقة حول العصا- كما قلنا سابقا- ليس لها جانب طبيعى و عادى، بل هى من صنف خوارق العادة التى كان يقوم بها الأنبياء، و هى غير ممكنة من دون تدخل قوة فوق طبيعية فى الأمر.

و هكذا أراد موسى بإظهار هذه المعجزة أن يوضح هذه الحقيقة، و هى أن برامجه ليس لها جانب الترهيب و التهديد، بل الترهيب و التهديد للمخالفين و المعارضين، و التشويق و الإصلاح و البناء و النورانية للمؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۲]

اشارة

قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۱۰۹) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۱۱۱) يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (۱۱۲)

التّفسير

بدء المواجهة:

فى هذه الآيات جاء الحديث عن أوّل ردّ فعل لفرعون و جهازه فى مقابل دعوة موسى عليه السلام و معجزاته.

الآيـة الأولى تـذكر عن ملأ فرعون أنّهم بمجرّد مشاهدتهم لأعمال موسـى الخارقة للعادة اتهموه بالسـحر، و قالوا: هذا ساحر عليم ماهر فى سحره: قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

و لكن يستفاد من آيات سورة الشعراء الآية (۳۴) أن هذا الكلام قاله فرعون حول موسى: قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

و لكن لا منافاة بين هاتين الآيتين، لأنّه لا يبعد أن يكون فرعون قال هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۶

الكلام فى البداية، و حيث أن عيون الملأ كانت متوجهة إليه، و لم يكن لهذا الملأ المتملق المتزلف هدف إلّا رضـى رئيسه و سيده، و ما ينعكس على محياه، و ما توحى به إشارته، كرّر هو أيضا ما قاله الرّئيس، فقالوا: أجل، إن هذا لساحر عليم.

و هذا السلوك لا يختص بفرعون و حواشيه، بل هو دأب جميع الجبارين فى العالم و حواشيهم.

ثمّ أضافوا: إنّ هدف هذا الرجل أن يخرجكم من وطنكم يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ

يعنى أنّه لا يهدف إلّا اسـتعماركم و استثماركم، و إنّ الحكومة على الناس، و غصب أراضى الآخرين، و هذه الأعمال الخارقة للعادة و ادعاء النّبوة كلّها لأجل الوصول إلى هذا الهدف.

ثمّ قالوا بعد ذلك: مع ملاحظة هذه الأوضاع فما هو رأيكم: فَما ذا تَأْمُرُونَ

يعنى أنّهم جلسوا يتشـاورون فى أمر موسـى، و يتبادلون الرأى فيما يجب عليهم اتّخاذه تجاهه، لأنّ مادة «أمر» لا تعنى دائما الإيجاب و الفرض، بل تأتى- أيضا- بمعنى التشاور.

و هنا لا بدّ من الالتفات إلى أنّ هذه الجملة وردت فى سورة الشعراء الآية (۳۵) أيضا، و ذلك عن لسان فرعون، حيث قال لملائه: فما ذا تأمرون. و قد قلنا:

إنّه لا منافاة بين هذين.

و قد احتمل بعض المفسّـرين- أيضا- أن تكون جملة «فما ذا تأمرون» فى الآية الحاضرة خطابا وجهه ملأ فرعون و حاشيته إلى فرعون، و صـيغة الجمع إنما هى لرعاية التعظيم، و لكن الاحتمال الأوّل- و هو كون هذا الخطاب موجها من ملأ فرعون إلى الناس- أقرب إلى النظر.

و على كل حال فقد قال الجميع لفرعون: لا تعجل فى أمر موسى و هارون، و أجلّ قرارك بشأنهما إلى ما بعد، و لكن ابعث من يجمع لك السحرة من جميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۷

أنحاء البلاد قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ

نعم ابعث من يجمع لك كل ساحر ماهر فى حرفته عليم فى سحره يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ

فهل هذا الاقتراح من جانب حاشية فرعون كان لأجل أنّهم كانوا يحتملون صدق ادعاء موسى للنّبوة، و كانوا يريدون اختباره؟

أو أنّهم على العكس كـانوا يعتبرونه كاذبـا فى دعواه، و يريـدون افتعال ذريعـة سياسـية لأى موقف سـيتخذونه ضـد موسـى كما كانوا يفعلون ذلك فى بقية مواقفهم و نشاطاتهم الشخصية؟ و لهذا اقترحوا ارجاء أمر قتل موسى و أخيه نظرا لمعجزتيه اللتين أورثتا رغبة فى

مجموعة كبيرة من الناس فى دعوته و انحيازهم إليه، و مزجت صورة «نبوته» بصورة «المظلومية و الشهادة» و أضفت بضم الثّانية إلى الأولى- مسحة من القداسة و الجاذبية عليه و على دعوته.

و لهذا فكروا فى بداية الأمر فى إجهاض عمله بأعمال خارقة للعادة مماثلة، و يسقطوا اعتباره بهذه الطريقة، ثمّ يأمرون بقتله لتنسى قصة موسى و هارون و تمحى عن الأذهان إلى الأبد.

يبدو أن الاحتمال الثّانى بالنظر إلى القرائن الموجودة فى الآيات- أقرب إلى النظر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۱۳ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۱۱۳) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۱۱۴) قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۱۱۷)

فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۱۲۰) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۲)

التّفسير

كيف انتصر الحقّ فى النهاية؟

فى هذه الآيات جرى الحديث حول المواجهة بين النّبى موسى عليه السلام، و بين السحرة، و ما آل إليه أمرهم فى هذه المواجهة، و فى البداية تقول الآية: إنّ السحرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۴۹

بادروا إلى فرعون بدعوته، و كان أوّل ما دار بينهم و بين فرعون هو: هل لنا من أجر إذا غلبنا العدوّ وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ! و كلمة «الأجر» و إن كانت تعنى أى نوع من أنواع الثواب، و لكن نظرا إلى ورودها هنا فى صورة «النكرة»، و «النكرة» فى هذه الموارد إنّما تكون لتعظيم الموضوع و إبراز أهميته بسبب إخفاء ماهيته و نوعيته، لهذا يكون الأجر هنا بمعنى الأجر المهم و العظيم و بخاصّة أنّه لم يكن ثمّة نزاع فى أصل استحقاقهم للأجر و المثوبة، فالمطلوب من فرعون هو الوعد بإعطائهم أجرا عظيما و عوضا مهمّا.

فوعدهم فرعون- فورا- وعدا جيدا و قال: إنّكم لن تحصلوا على الأجر السخى فقط، بل ستكونون من المقرّبين عندى قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

و بهذه الطريقة أعطاهم وعدا بالمال و وعدا بمنصب كبير لديه، و يستفاد من هذه الآية أنّ التقرب إلى فرعون فى ذلك المحيط، و تلك البيئة كان أعلى و أسمى و أهم من المال و الثروة، لأنّه كان يعنى منزلة معنوية كان من الممكن أن تصبح منشأ لأموال كثيرة و ثروات كبيرة.

و فى المآل حدّد موعد معين لمواجهة السحرة لموسى، و كما جاء فى سورة «طه» و «الشعراء» دعى جميع الناس لمشاهدة هذا النزال، و

هذا یدل علی أنّ فرعون کان مؤمنا بانتصاره علی موسی علیه السلام.

و حلّ الیوم الموعود، و هیّأ السحرة کل مقدمات العمل ... حفنة من العصیّ و الحبال التی یبدو أنّها کانت معبأة بمواد کیمیاویة خاصّة، تبعث علی حرکتها إذا سطعت علیها الشمس، لأنّها تتحول إلی غازات خفیفة تحرّک تلک العصی و الحبال المجوفة.

و کانت واقعة عجیبة، فموسی وحده (لیس معه إلّا أخوه) یواجه تلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۰

المجموعة الهائلة من السحرة، و ذلک الحشد الهائل من الناس المتفرجین الذین کانوا علی الأغلب من أنصار السحرة و مؤیدیهم.

فالتفت السحرة فی غرور خاص و کبیر إلی موسی علیه السلام و قالوا: إمّا أن تشرع فتلقی عصاک، و إمّا أن نشرع نحن فنلقی عصیّنا؟

قالُوا یا مُوسی إِمَّا أَنْ تُلْقِیَ وَ إِمَّا أَنْ نَکُونَ نَحْنُ الْمُلْقِینَ

فقال موسی علیه السلام بمنتهی الثقة و الاطمئنان: بل اشرعوا أنتم قالَ أَلْقُوا.

و عند ما ألقی السحرة بحبالهم و عصیّهم فی وسط المیدان سحروا أعین الناس، و أوجدوا بأعمالهم و أقاویلهم المهرجة و مبالغاتهم و هرطقاتهم خوفا فی قلوب المتفرجین، و أظهروا سحرا کبیرا رهیبا: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْیُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِیمٍ

و کلمة «السحر»- کما مرّ فی المجلد الأوّل من هذه الموسوعة التفسیریة، عند تفسیر الآیة (۱۰۲) من سورة البقرة- تعنی فی الأساس الخداع و الشعبذیة، و قد یطلق أیضا علی کل عامل غامض، و دافع غیر مرئی.

و علی هذا الأساس، فإن هذه الجماعة کانت توجد أفعالا عجیبة بالاعتماد علی سرعة حرکة الأیدی، و المهارة الفائقة فی تحریک الأشیاء لتبدو و کأنّها أمور خارقة للعادة و کذلک الأشخاص الذین یستفیدون من الخواص الکیمیاویة و الفیزیاویة الغامضة الموجودة فی الأشیاء و المواد، فیظهرون أعمالا مختلفة خارقة للعادة. کل هؤلاء یدخلون تحت عنوان «الساحر».

هذا علاوة علی أن السحرة یستفیدون- عادة- من سلسلة من الإیحاءات المؤثرة فی مستمعیهم، و من العبارات و الجمل المبالغة، و ربّما الرهیبة المخوفة لتکمیل عملهم، و التی تترک آثارا جدّ عجیبة فی مستمعیهم و متفرجیهم و جمهورهم.

و یستفاد من آیات مختلفة فی هذه السورة و من سور قرآنیة أخری حول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۱

قصة سحرة فرعون، أنّهم استخدموا کل هذه العوامل و الأدوات، و عبارة «سحروا أعین الناس» و جملة «استرهبوهم» أو تعبیرات أخری فی سور «طه» و «الشعراء» جمیعها شواهد علی هذه الحقیقة

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الإشارة إلی نقطتین:

۱- المشهد العجیب لسحر السّاحرین

لقد أشار القرآن الکریم إشارة إجمالیة من خلال عبارة وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِیمٍ إلی الحقیقة التالیة و هی: أنّ المشهد الذی أوجده السحرة کان عظیما و مهما، و مدروسا و مهیبا، و إلّا لما استعمل القرآن الکریم لفظة «عظیم» هنا.

و يستفاد من كتب التاريخ و من روايات و أحاديث المفسّرين فى ذيل هذه الآية، و كذا من آيات مشابهة- بوضوح- سعة أبعاد ذلك المشهد.

فبناء على ما قاله بعض المفسّرين كان عدد السحرة يبلغ عشرات الألوف، و كانت الأجهزة و الوسائل المستعملة كذلك تبلغ عشرات الآلاف، و نظرا إلى أن السحرة المهرة و المحترفين لهذا الفن فى مصر كانوا فى ذلك العصر كثيرين جدّا، لهذا لا يكون هذا الكلام موضع استغراب و تعجب. خاصّة أنّ القرآن الكريم فى سورة «طه» الآية (۶۷) يقول: فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى أى أنّ المشهد كان عظيما جدّا و رهيبا إلى درجة أن موسى شعر بالخوف قليلا، و إن كان ذلك الخوف- حسب تصريح نهج البلاغة-[۶۸] لأجل أنّه خشى أن من الممكن أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۲

يتأثر الناس بذلك المشهد العظيم، فيكون إرجاعهم إلى الحق صعبا، و على أى حال فإنّ ذلك يكشف عن عظمة ذلك المشهد و رهبته.

۲- الاستفادة من السلاح المشابه

من هذا البحث يستفاد- بجلاء و وضوح- أنّ فرعون بالنظر إلى حكومته العريضة فى أرض مصر، كانت له سياسات شيطانية مدروسة، فهو لم يستخدم لمواجهة موسى و أخيه هارون من سلاح التهديد و الإرعاب، بل سعى للاستفادة من أسلحة مشابهة- كما يظن- فى مواجهة موسى، و من المسلّم أنّه لو نجح فى خطّته لما بقى من موسى و دينه أى أثر أو خبر، و لكان قتل موسى عليه السلام فى تلك الصورة أمرا سهلا جدا، بل و موافقا للرأى العام، جهلا منه بأنّ موسى لا يعتمد على قوة إنسانية يمكن معارضتها و مقاومتها، بل يعتمد على قوّة أزلية إلهية مطلقة، تحطّم كلّ مقاومة، و تقضى على كل معارضة.

و على أية حال، فإنّ الاستفادة من السلاح المشابه أفضل طريق الإنتصار على العدو المتصلّب، و تحطيم القوى المادية.

فى هذه اللحظة التى اعترت الناس فيها حالة من النشاط و الفرح، و تعالت صيحات الابتهاج من كل صوب، و علت وجوه فرعون و ملائه ابتسامة الرضى، و لمع فى عيونهم بريق الفرح، أدرك الوحى الإلهى موسى عليه السلام و أمره بإلقاء العصى، و فجأة انقلب المشهد و تغير، و بدت الدهشة على الوجوه، و تزعزت مفاصل فرعون و أصحابه كما يقول القرآن الكريم: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ

و «تلقف» مشتقة من مادة «لقف» (على وزن سقف) بمعنى أخذ شىء بقوة و سرعة، سواء بواسطة الفم، و الأسنان، أو بواسطة الأيدى، و لكن تأتى فى بعض الموارد بمعنى البلع و الابتلاع أيضا، و الظاهر أنّها جاءت فى الآية الحاضرة بهذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۳

المعنى.

و «يأفكون» مشقّة من مادة «إفك» على وزن «مسك» و هى تعنى فى الأصل الانصراف: عن الشىء، و حيث أن الكذب يصرف الإنسان من الحق أطلق على الكذب لفظ «الإفك».

و هناك احتمال آخر فى معنى الآية ذهب إليه بعض المفسّرين، و هو أن عصا موسى بعد أن تحولت إلى حيّة عظيمة لم تبتلع أدوات سحر السحرة، بل عطّلها عن العمل و الحركة و أعادها إلى حالتها الأولى. و بذلك أوصد هذا العمل طريق الخطأ على الناس، فى حين أن الابتلاع لا يمكنه أن يقنع الناس بأنّ موسى لم يكن ساحرا أقوى منهم.

و لكن هذا الاحتمال لا يناسب جملة «تلقف» كما لا يناسب مطالب الآية، لأنّ «تلقف»- كما أسلفنا- تعنى أخذ شىء بدقة و سرعة لا

قلب الشيء و تغييره.

هـذا مضافا إلى أنّه لو كان المقرر أن يظهر إعجاز موسـى عليه السـلام عن طريق إبطال سـحر السـحرة، لم تكن حاجـة إلى أن تتحول العصى إلى حيّة عظيمة، كما قال القرآن الكريم فى بداية هذه القصّة.

و بغض النظر عن كـل هـذا، لـو كـان المطلـوب هو إيجـاد الشـك و الوسوسـة فى نفوس المتفرجين، لكـانت عودة وسائـل السـحرة و أدواتهم إلى هيئتها الأولى- أيضا- قابلة للشك و الترديد، لأنّه من الممكن أن يحتمل أن موسى بارع فى السحر براعة كبرى بحيث أنّه استطاع إبطال سحر الآخرين و إعادتها إلى هيئتها الأولى.

بـل إن الـذى تسـبب فى أن يعلم النـاس بـأن عمـل موسـى أمر خـارق للعـادة، و أنّه عمـل إلهى تحقق بالاعتماد على القـدرة و الإلهية المطلقـة، هو أنّه كان فى مصـر آنـذاك مجموعـة كبيرة من السـحرة الماهرين جـدّا، و كان أساتـذه هذا الفن وجوها معروفة فى تلك البيئة، فى حين أن موسى الذى لم يكن متصفا بأى واحدة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۴

هذه الصفات، و كان- فى الظاهر- رجلا مغمورا، نهض من بين بنى إسرائيل، و أقدم على مثل ذلك العمل الذى عجز أمامه الجميع. و من هنا علم أن هناك قوة غيبية تدخلت فى عمل موسى، و أن موسى ليس رجلا عاديا.

و فى هـذا الوقت ظهر الحق، و بطلت أعمـالهم المزّيفـة فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ لأنّ عمل موسـى كان عملا واقعيا، و كانت أعمالهم حفنة من الحيل و من أعمال الشعبذة، و لا شك أنّه لا يستطيع أى باطل أن يقاوم الحق دائما.

و هذه هى أوّل ضربة توجهت إلى أساس السلطان الفرعونى الجبّار.

ثمّ يقول تعالى فى الآية اللاحقة: و بهذه الطريقة ظهرت آثار الهزيمة فيهم، و صاروا جميعا أذلاء: فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ

و بالرغم من أنّ المؤرخين ذكروا فى كتب التاريخ قضايا كثيرة حول هذه الواقعة، و لكن حتّى من دون نقل ما جاء فى التواريخ يمكن الحـدس أيضا بما حدث فى هذه الساعة من اضـطراب فى الجماهير المتفرجة ... فجماعة خالفوا بشدّة بحيث أنّهم فرّوا و هربوا، و أخذ آخرون يصيحون من شدّة الفزع، و بعض أغمى عليه.

و أخذ فرعون و ملأه ينظرون إلى ذلك المشهد مبهوتين مستوحشين، و قد تحدّرت على وجوههم قطرات العرق من الخجل و الفشل، فأجمعوا يفكرون فى مسـتقبلهم الغامض المبهم، و لم يـدر فى خلـدهم أنّهم سـيواجهون مثل هـذا المشـهد الرهيب الذى لا يجدون له حلّا.

و الضـربة الأقوى كانت عنـد ما تغير مشـهد مواجهـة السـحرة لموسـى عليه السـلام تغييرا كلّيا، و ذلك عنـد ما وقع السـحرة فجأة على الأرض ساجدين لعظمة اللّه وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ

ثمّ نادوا بأعلى صوتهم و قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ

و بذكر هذه الجملة بينوا- بصراحة- الحقيقة التالية و هى: أنّنا آمنا بربّ هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۵

غير الربّ المختلق، المصطنع، إنّه الربّ الحقيقى.

بل لم يكتفوا بلفظة «ربّ العالمين» أيضا، لأنّ فرعون كان يـدعى أنّه ربّ العالمين، لهـذا أضافوا: «ربّ موسـى و هارون» حتى يقطعوا الطريق على كل استغلال.

و لم يكن فرعون و الملأ يتوقعون هذا الأمر مطلقا، يعنى أنّ الجماعة التى كان يعلّق الجميع آمالهم عليها للقضاء على موسـى و دعوته، أصـبحت فى الطليعـة من المؤمنين بموسـى و دعوته، و وقعوا ساجـدين للّه أمام أعين الناس عامّة، و أعلنوا عن تسـليمهم المطلق و غير المشروط لدعوة موسى عليه السلام.

على أنّ هـذا الموضوع الـذى غيّر أناسـا بمثل هـذه الصورة، يجب أن لا يكون موضوع اسـتغراب و تعجب، لأنّ نور الإيمان و التوحيد موجـود فى جميع القلوب، و يمكن أن تخفيه بعض الموانع و الحجب الاجتماعيـة مـدّة طويلـة أو قصـيرة، و لكن عنـد مـا تهب بعض العواصف بين حين و آخر تنزاح تلك الحجب، و يتجلّى ذلك النور و يأخذ بالأبصار.

و بخاصّـة أن السـحرة المـذكورين كانوا أساتـذة مهرة فى صـناعتهم، و كانوا أعرف من غيرهم بفنون عملهم و رموز سـحرهم، فكانوا يعرفون- جيدا- الفرق بين «المعجزة» و «السحر» فالأمر الذى يحتاج الآخرون لمعرفته إلى المطالعة الطويلة و الدقة الكبيرة، كان واضحا عند السحرة و بينا، بل أوضح و أبين من الشمس فى رابعة النهار.

إنّهم مع معرفتهم بفنون و رموز السـحر الذى تعلموه طوال سـنوات، عرفوا و أدركوا أن عمل موسى لم يكن يشبه- أبدا- السحر، و أنّه لم يكن نابعا من قـدرة البشـر، بل كان نابعا من قـدرة فوق الطبيعـة و فوق البشـر، و بذلك لا مجال للاسـتغراب و التعجب فى اعلانهم إيمانهم بموسى بمثل تلك السرعة و الصراحة و الشجاعة و عدم الخوف من المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۶

و جملة «ألقى السـحرة» التى جاءت فى صـيغة الفعل المبنى للمجهول، شاهد ناطق على الاسـتقبال البالغ لدعوة موسـى و تسليم السحرة المطلق له عليه السـلام. يعنى أنّ جاذبيـة موسـى كان لها من الأثر القوى البالغ فى قلوب و نفوس أولئك السـحرة، بحيث أنّهم سـقطوا على الأرض من دون اختيار، و دفعهم ذلك إلى الإقرار و الاعتراف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۶]

اشارة

قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هـذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۱۲۴) قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ (۱۲۶)

التّفسير

التّهديدات الفرعونية الجوفاء:

عند ما توجهت ضـربة جديدة- بانتصار موسـى على السـحرة و إيمانهم به- إلى أركان السـلطة الفرعونية، استوحش فرعون و اضطرب بشـدّة و رأى أنّه إذا لم يظهر أى ردّ فعـل فى مقابـل هـذا المشـهد، فسـيؤمن بموسـى كـل الناس أو أكثرهم، و سـتكون السـيطرة على الأوضاع غير ممكنة، لهذا عمد فورا إلى عملين مبتكرين:

فى البداية وجه اتهاما (لعلّه مرغوب عند السواد من الناس) إلى السحرة، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۸

هـددهم بأشـدّ التهديـدات، و لكن على العكس من توقعات فرعون أظهر السـحرة مقاومـة عجيبة تجاه هذين الموقفين، مقاومة أغرقت فرعون و جهازه فى تعجب شديد، و أفشلت جميع خططه. و بهذه الطريقة وجهوا ضربة ثالثة إلى أركان السلطان الفرعونى المتزلزل، و قد رسمت الآيات اللاحقة هذا المشهد بصورة رائعة.

فى البداية يقول: إنّ فرعونا قال للسحرة: هل آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ! و كأنّ التغيير ب «به» لأجل تحقير موسى و الازدراء به، و كأنّه بجملة «قبل أن آذن لكم» أراد أن يظهر أنّه يتحرى الحقيقة و يطلب الحق، فلو كان عمل موسى عليه السلام يتسم بالحقيقة و الواقعية لأذنت أنا للناس بأن يؤمنوا به، و لكن استعجالكم كشفت عن زيفكم، و أنّ هناك مؤامرة مبيّنة ضد شعب مصر.

و على أية حال، أفادت الجملة أعلاه أنّ فرعون الجبار الغارق فى جنون السلطة كان يدعى أن لا يحق للشعب أن يتصرف أو يعمل أو يقول شيئا من دون إجازته و إذنه، بل لا يحق لهم أن يفكروا و يؤمنوا بدون أمره و إذنه أيضا!! و هذه هى أعلى درجات الاستعباد و الاستحمار، أن يكون شعب من الشعوب أسيرا و عبدا بحيث لا يحق له حتى التفكير و الإيمان القلبى بأحد أو بعقيدة.

و هذا هو البرنامج الذى يواصله «الاستعمار الجديد»، يعنى أنّ المستعمرين لا يكتفون بالاستعمار الاقتصادى و السياسى و الاجتماعى، بل يسعون إلى تقوية جذورهم عن طريق الاستعمار الفكرى.

و تتجلى مظاهر هذا الاستعباد الفكرى فى البلاد الشيوعية أكثر فأكثر، بالحدود المغلقة، و الأسوار الحديدية و الرقابة الشديدة المفروضة على كل شىء، و بخاصّة على الأجهزة الثقافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۵۹

و لكن فى البلاد الرأسمالية الغربية التى يظن البعض أنّه لا يوجد استعباد فكرى و ثقافى على الأقل و أن لكل أحد أن يفكر و يختار بحرية، يمارس الاستعباد بنحو آخر، لأنّ الرأسماليين الكبار بتسلّطهم الكامل على الصحف المهمّة، و الإذاعات، و محطات التلفزيون، و جميع سبل الارتباط الجمعى و وسائل الإعلام، يفرضون على المجتمع أفكارهم و آراءهم فى لباس الحرية الفكرية، و يوجهون المجتمع- عن طريق عملية غسيل دماغ واسعة و مستمرة- إلى الوجهة التى يريدون، و هذا بلاء عظيم يعانى منه عصرنا الحاضر.

ثمّ يضيف فرعون قائلا إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها.

و نظرا إلى الآية (۷۱) من سورة «طه» التى تقول إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ يتّضح أنّ مراد فرعون هو أنّ هناك مؤامرة مدروسة و تواطؤا مبيّنا قد دبرتموه قبل مدّة للسيطرة على أوضاع مصر و استلام زمام السلطة، لا أنّكم دبرتموه للتو و قبل قليل فى لقاء محتمل بينكم و بين موسى.

و من هنا يتّضح أنّ المراد من «المدينة» هو مجموع القطر المصرى، و الألف و اللام ألف و لام الجنس، و المراد من «لتخرجوا منها أهلها» هو تسلط موسى عليه السلام و بنى إسرائيل على أوضاع مصر، و إقصاء حاشية فرعون و أعوانه عن جميع المناصب الحساسة، أو إبعاد بعضهم إلى النقاط البعيدة من البلاد، و الآية (۱۱۰) فى هذه السورة شاهدة على ذلك أيضا.

و على كل حال، فإنّ هذه التهمة كانت خاوية و مفضوحة، إلى درجة أنّه لم يكن يقتنع بها إلّا العوام و الجهلة من الناس، لأنّ موسى عليه السلام لم يكن حاضرا فى مصر، و لم يلتق بأحد من السحرة من قبل، و لو كان أستاذهم و كبيرهم الذى علمهم السحر، لوجب أن يكون معروفا و مشهورا فى جميع الأماكن، و أن يعرفه أكثر الناس، و هذه لم تكن أمورا يمكن إخفاؤها و كتمانها، لأنّ التواطؤ مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۰

أشخاص المنتشرين فى شتى مناطق مصر على أمر بهذا القدر من الاهمية غير ممكن عملا.

ثمّ إنّ فرعون هدّدهم بتهديد غامض و لكنّه شديد و محكم، إذ قال: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ! و فى الآية اللاحقة بيّن تفاصيل ذلك التهديد الذى هدّد به السحرة فاقسم بأن يقطع أيديهم و أرجلهم و يصلبهم، إذ قال: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

و فى الحقيقة كان مراده أن يقتلهم بالتعذيب و التنكيل، و يجعل من هذا المشهد الرهيب درسا للآخرين، لأن قطع الأيدى و الأرجل، ثمّ الصلب على الشجر أمام الناس، و منظر تدفق الدم من أجسامهم و ما يرافق هذا من حالات النزع فوق المشانق إلى أن يموتوا،

سيكون عبرة لمن يعتبر (و لا بدّ من ملاحظة أن الصلب فى ذلك الزمان لم يكن يتمّ على النحو الذى يتمّ به الآن، و هو تعليق المشنوق بوضع الحبل فى عنقه، بل كان الحبل يوضع تحت كتفيه حتى لا يموت بسرعة).

و لعل قطع اليد و الرجل من خلاف، كان لأجل أن هذا العمل يتسبب فى أن يموتوا بصورة أبطأ، و يتحملوا قدرا أكثر من الألم و العذاب.

و الجدير بالتأمل أن البرامج التى انتهجها فرعون لمكافحة السحرة الذين آمنوا بموسى، كانت برامج عامّة فى مكافحة الجبارين و تعاملهم الوحشى الرخيص مع أنصار الحق و المنادين به، فهم من جانب يستخدمون حربة التهمة حتى يزعزعوا مكانة أنصار الحق فى نفوس الجماهير، و من جانب آخر يتوسلون بسلاح القوة و القهر و التهديد لتحطيم إرادتهم، و لكن- كما نقرأ فى ذيل قصّة موسى- لم يستطع هذان السلاحان أن يفعلا شيئا فى نفوس أنصار الحق، و لن يفعلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۱

لقد قاوم السحرة كلتا حربتى فرعون، و أجابوه جواب رجل واحد: إنّنا نرجع إلى ربّنا إذن قالُوا إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

يعنى إذا تحقق تهديدك الثّانى (و هو القتل) فمعناه أنّنا سننال الشهادة فى سبيل الدفاع عن الحق، و هذا لا يوجب ضررا علينا، و لا ينقصنا شيئا، بل يعدّ سعادة و فخرا عظيما لنا.

ثمّ إنّهم للردّ على تهمة فرعون، و لإيضاح الحقيقة لجماهير المتفرجين على هذا المشهد، و اثبات براءتهم من أى ذنب، قالوا: إنّ الإشكال الوحيد الذى تورده علينا هو أنّنا آمنا بآيات اللّه و قد جاءتنا وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا.

يعنى أنّنا لسنا مشاغبين، و لا متآمرين، و لا متواطئين ضدك، و ليس إيماننا بموسى يعنى أنّنا نريد استلام أزمة الحكم، و لا أن نخرج أهل هذه البلاد من ديارهم، و أنت نفسك تعلم أننا لسنا بهذا الصدد، بل نحن عند ما رأينا الحق و شاهدنا علائمه بوضوح أجبنا داعى اللّه و لبينا نداءه و آمنا به، و هذا هو ذنبنا الوحيد فى نظرك ليس غير.

و هكذا أظهروا لفرعون بالجملة الأولى أنّهم لا يخافون أى تهديد، و أنّهم يستقبلون جميع الحوادث و التبعات حتى الشهادة بمنتهى الشهامة. و بالجملة الثّانية ردّوا بصراحة على الاتهامات التى وجهها فرعون إليهم.

إن جملة «تنقم» مشتقة من مادة «نقمة» على وزن «نعمة» و هى فى الأصل تعنى رفض شىء باللسان أو بالعمل و العقوبة. و على هذا فإنّ الآية أعلاه يمكن أن تكون بمعنى إنّ العمل الوحيد الذى تنكره علينا هو أنّنا آمنا، أو يعنى أنّ العقوبة التى تريد أن تعاقبنا بها إنما هو لأجل إيماننا.

ثمّ إنّهم أشاحوا بوجوههم عن فرعون و توجهوا إلى اللّه سبحانه، و طلبوا منه الصبر و الاستقامة، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم لا يستطيعون أن يقاوموا تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۲

العقوبات الثقيلة من دون نصره و تأييده و عونه، لهذا قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ

و الملفت للنظر أنّهم بعبارة أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أظهروا أن الخطر المحدق بهم بلغ الدرجة القصوى، فأعطنا يا ربّ أنت- أيضا- آخر درجات الصبر و الاستقامة، لأنّ «أفرغ» من مادة «الإفراغ» بمعنى صبّ السائل من وعاء حتى يفرغ.

الاستقامة الواعية:

يمكن أن يتملك الإنسان عجب شديد عند أوّل اطلاعة على قصّة السحرة فى زمان موسى عليه السلام الذين صاروا من المؤمنين الصادقين، هل يمكن أن يحدث مثل هذا الانقلاب و التحول العميق فى الروح الإنسانية فى مثل هذه المدّة القصيرة، بحيث يقطع

الشخص كل علاقاته مع الصف المخالف، و يصير فى صف الموافق، ثمّ يدافع عن عقيدته الجديدة بإصرار و عناد عجيبين إلى درجة أنّه يتجاهل مكانته و مصالحه و حياته جميعا، و يستقبل الشهادة بشجاعة منقطعة النظير، و بوجه مستبشر؟

و لكن هذا الاستغراب يتبدد إذا التفتنا إلى هذه النقطة، و هى أنّ هؤلاء- نظرا إلى سوابقهم الكثيرة فى علم السحر- وقفوا جيدا على عظمة معجزة النّبى موسى عليه السلام و حقانيته، و سلكوا هذا السبيل عن وعى كامل ... و هذا الوعى صار منشأ لعشق ملتهب سر بل كل وجودهم و كيانهم، و هو عشق لا يعرف حدّا و سدّا، و فوق جميع النوازع و الرغبات البشرية.

إنّهم كانوا يعلمون جيدا أى طريق يسلكونه؟ و لماذا يجاهدون؟ و من يكافحون؟ و أى مستقبل مشرق ينتظر هذا الجهاد العظيم؟

أجل، إذا كان الإيمان مقرونا بالوعى الكامل فإنّه ينتهى إلى مثل هذا العشق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۳

الملتهب الذى لا يكون هذا التفانى فى سبيله مثار للعجب.

و لهذا نرى كيف أن السحرة قالوا بصراحة و شجاعة (كما فى سورة طه الآية (۷۲): قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِى فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِى هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا.

و أخيرا- و كما جاء فى الرّوايات و كتب التأريخ- استقام أولئك الجماعة من السحرة الذين آمنوا بموسى حتى نفّذ فرعون تهديداته، و مثّل بأجسامهم تمثيلا- مروعا، و صلبهم على جذوع النخل على مقربة من نهر النيل. و هكذا كتبت أسماؤهم مع أحرار التاريخ بأحرف من نور، و كانوا كما وصفهم المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى: كانوا أوّل النهار كفارا سحرة، و آخر النهار شهداء و بررة.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ مثل هذا الانقلاب و التحول و الاستقامة ليس ممكنا إلّا فى ظلّ الإمدادات الإلهية، و من المسلّم أن كلّ من اختار سلوك طريق الحق، شملته هذه العنايات الرّبانية، و الإمدادات الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۴

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۲۷ الى ۱۲۹]

اشارة

وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِى نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (۱۲۷) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۱۲۸) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآيات يبيّن لنا القرآن الكريم مشهدا آخر من الحوار الذى دار بين فرعون و بين ملائه حول وضع موسى عليه السّلام، و يستفاد من القرائن الموجودة فى نفس الآية أنّ محتوى هذه الآيات يرتبط بفترة ما بعد المواجهة بين موسى و بين السحرة.

تقول الآية فى البداية: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۵

يستفاد من هذا التعبير- جيدا- أنّ فرعون بعد هزيمته أمام موسى عليه السّلام ترك موسى و بنى إسرائيل أحرارا (طبعا الحرية النسبية)

مدّة من الزمن، و لم يترك بنو إسرائيل بدورهم هذه الفرصة من دون أن يشتغلوا بالدعوة و التبليغ لصالح دين موسى عليه السّلام إلى درجة أن قوم فرعون قلقوا من انتشاره و نفوذ دعوتهم، فحضروا عند فرعون و حرضوه على اتّخاذ موقف مشدد تجاه موسى و بنى إسرائيل.

فهل فترة الحرية النسبية هذه كانت لأجل الخوف و الرعب الذى أصاب فرعون بسبب ما رأى من معجزة موسى عليه السّلام القوية، أو للاختلاف الذى برز فى شعب مصر (و حتى القبطيين منهم) حول موسى و دينه، حيث أنّ جماعة رغبوا فى دينه، و كان فرعون شاهدا لهذه الحالة فلم يمكنه أن يتخذ فى مثل هذه الأجواء و الظروف موقفا متشددا من موسى و دينه.

كلا الاحتمالين قريبان إلى ذهن فرعون، و يمكن أن يكون كلاهما معا قد تركا أثرا فى نفسه و فكره.

و على كل حال فإنّ فرعون- بسبب تحذيرات أعوانه و حاشيته- صمم على اتّخاذ موقف متشدد من بنى إسرائيل، فقال لحاشيته فى معرض الجواب على تحريضهم و تحذيرهم: سأقتل أبناءهم و استخدام نساءهم و نحن متفوقون عليهم على كل حال: قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من لفظة «آلهتك» و الظاهر من الآية هو أنّ فرعون كانت له معبودات و أصنام، و إن كان يفهم من الآية (۴) من سورة النازعات أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى و من الآية (۳۸) من سورة القصص ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى إنّ فرعون كان أعظم إله لشعب مصر، أو على الأقل كان فرعون يعتبر نفسه أعظم معبود لشعب مصر و لكن مع ذلك كان قد اختار آلهة لنفسه و كان يعبدها.

و النقطة الأخرى أن فرعون عمد هنا إلى مكافحة جذرية و عميقة، و قرر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۶

تحطيم قوة بنى إسرائيل تحطيما كاملا، و ذلك بالقضاء على المقاتلين و رجال الحرب بقتل أبناء بنى إسرائيل و استئصالهم، و يستبقى نساءهم و بناتهم لاسترقاقهن و استخدامهن، و هذا هو نهج كل مستعمر قديم و جديد، فهو يقضى على الرجال العالمين و القوى المؤثرة فى المواجهة، أو يقتل فيهم روح الرجولة و الشهامة و الغيرة و الحمية بالوسائل المختلفة، و يستبقى غير المؤثرين فى هذا المجال.

على أنّه يحتمل- أيضا- أن فرعون كان يريد أن يبلغ هذا الكلام إلى مسامع بنى إسرائيل، فتتحطم معنوياتهم من جهتين: أوّلاهما من جهة قتل أبنائهم و رجال مستقبلهم، و الأخرى: من جهة وقوع نسائهم و أعراضهم فى أيدى العدو.

و على كل حال أراد بعبارة إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أن يزيل الخوف و القلق من قلوب حاشيته و أعوانه، و يخبرهم بأنّه مسيطر على الأوضاع سيطرة كاملة.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال، و هو: لماذا لم يقرر فرعون قتل موسى، و إنّما قرر- فقط- القضاء على أبناء بنى إسرائيل؟

جواب:

يستفاد من آيات سورة المؤمن- جيدا- أنّ فرعون كان عازما فى البداية على قتل موسى، و لكن نصائح مؤمن آل فرعون المقترنة بالتهديد، فى أنّ قتل موسى يمكن أن يقترن بالخطر فيحتمل أن يكون مرسلا من اللّه حقيقة و واقعا، و أن كل ما يقوله من العقوبات

الإلهية يتحقق بمقتله، أثرت فى روح فرعون و فكره.

هذا مضافا إلى أنّ خبر انتصار موسى على السحرة انتشر فى كل مكان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۷

و وقع بسببه خلاف بين شعب مصر فى مخالفة أو تأييد موسى. و لعل فرعون خاف إن هو اتّخذ من موسى عليه السّلام موقفا حادا واجه ردّ فعل قوى من جانب الناس الذين تأثروا بهذه المسألة، و لهذا انصرف عن فكرة قتل موسى عليه السّلام.

و الآية اللاحقة بيّنت- فى الحقيقة- خطّة موسى التى اقترحها على بنى إسرائيل لمواجهة تهديدات فرعون، و شرح فيها شروط الغلبة على العدو، و ذكرهم بأنّهم إذا عملوا بثلاث مبادئ انتصروا على العدو حتما:

أوّلها: الاتكال على اللّه فقط قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ

و الآخر: أن يثبتوا و لا يخافوا من تهديدات العدو: وَ اصْبِرُوا.

و للتأكيد على هذا المطلب، و من باب ذكر الدليل، ذكّرهم بأنّ الأرض كلّها ملك اللّه، و هو الحاكم عليها و المالك المطلق لها، فهو يعطيها لمن يشاء إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ

و آخر هذه المبادئ هو أن يعتمدوا التقوى لأنّ العاقبة لمن اتّقى وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

هذه المبادئ و الشروط الثلاثة- أحدها فى العقيدة (الاستعانة باللّه) و الثّانى فى الأخلاق (الصبر و الثبات) و الأخير فى العمل (التقوى)- ليست شرائط انتصار قوم بنى إسرائيل وحدهم على العدو، بل كل شعب أراد الغلبة على أعدائه لا بدّ له من تحقيق هذه البرامج الثلاثة فالأشخاص غير المؤمنين و الجبناء الضعفاء الإرادة، و الشعوب الفاسقة الغارقة فى الفساد، إذا ما انتصرت فإنّ انتصارها يكون لا محالة مؤقتا غير باق.

و الملفت للنظر أنّ هذه الشروط الثلاثة كل واحد منها متفرع على الآخر، فالتقوى لا تتوفر من دون الثبات و الصبر فى مواجهة الشهوات، و أمام بهارج العالم المادّى، كما أنّ الصبر و الثبات لا يكون لهما أى بقاء و دوام من دون الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۸

باللّه.

و فى آخر آية من الآيات الحاضرة يعكس القرآن الكريم شكايات بنى إسرائيل و عتابهم من المشكلات التى ابتلوا بها بعد قيام موسى عليه السّلام فيقول: قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا فإذا متى يحصل الفرج؟! و كأنّ بنى إسرائيل مثل كثير منّا كانوا يتوقعون أن تصلح جميع الأمور بقيام موسى عليه السّلام فى ليلة واحدة ... أن يزول فرعون و يسقط، و يهلك الجهاز الفرعونى برمته، و تصبح مصر بجميع ثرواتها تحت تصرف بنى إسرائيل، و يتحقق كل ذلك عن طريق الإعجاز، من دون أن يتحمل بنو إسرائيل أىّ عناء.

و لكن موسى عليهم السّلام أفهمهم بأنّهم سينتصرون فى المآل، و لكن أمامهم طريقا طويلا، و إنّ هذا الإنتصار- طبقا للسنة الإلهية- يتحقق فى ظل الاستقامة و الثبات و السعى و الاجتهاد، كما جاء ذلك فى الآية الحاضرة قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ

و ذكر كلمة «عسى» مثل كلمة «لعلّ» التى وردت فى كثير من الآيات القرآنية إشارة- فى الحقيقة- إلى أنّ لهذا التوفيق و الإنتصار شرائط، من دونها لا يصلون إليه، (للوقوف على المزيد فى هذا المجال راجع ما كتبناه فى تفسير الآية ۸۴ من سورة النساء).

ثمّ يقول فى ختام الآية: إنّ اللّه أعطاكم هذه النعمة، و أعاد إليكم حريتكم المسلوبة كى ينظر كيف تتصرفون أنتم فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ يعنى ستبدأ- بعد الإنتصار- مرحلة امتحانكم و اختباركم، اختبار شعب كان فاقدا لكل شىء ثمّ حصل على كل شىء فى ضوء الهداية الإلهية.

إنّ هذا التعبير- هو ضمنا- إشعار بأنّكم سوف لا تخرجون من هذا الاختبار- فى المستقبل- بنجاح، و ستفسدون و تظلمون كما فعل من كان قبلكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۶۹

و نقرأ

فى رواية وردت فى كتاب الكافى مروية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «وجدنا فى كتاب على صلوات اللّه عليه: إنّ الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده و العاقبة للمتقين، أنا و أهل بيتى الذين أورثنا اللّه الأرض و نحن المتقون»[۶۹]

و هذه إشارة إلى أن الحكم المذكور فى هذه الآية حكم شامل، و قانون عام، و الأرض هى الآن- فى الحقيقة- للمتقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۰ الى ۱۳۱]

اشارة

وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳۱)

التّفسير

العقوبات التنبيهية:

لقد كان القانون الإلهى العام فى دعوة الأنبياء- كما قلنا فى تفسير الآية (۹۴) من نفس هذه السورة- هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان اللّه تعالى يبتلى الأقوام المعاندين بأنواع المشاكل و البلايا، حتى يحسّوا بالحاجة فى ضمائرهم و أعماق نفوسهم، و تستيقظ فيهم فطرة التوحيد المتكسّلة تحت حجاب الغفلة عند الرفاه و الرخاء، فيعودوا إلى الإحساس بضعفهم و عجزهم، و يتوجهوا إلى المبدأ القادر مصدر جميع النعم.

و فى أوّل آية من الآيتين الحاضرتين إشارة إلى نفس هذا المطلب فى قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۱

لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

و «السنين» جمع «سنة» بمعنى العام، و لكنّها إذا قرنت بلفظة «أخذ» أعطت معنى الابتلاء بالقحط و الجدب، و على هذا يكون معنى أخذته السنة هو: أصيب بالقحط و الجدب، و لعل علّة ذلك هى أن أعوام القحط و الجدب قليلة بالقياس إلى أعوام الخصب و الخير، و على هذا إذا كان المراد من السنة السنين العادية لم يكن ذلك موضوعا جديدا، و يتبيّن من ذلك أنّ المراد من السنين هى السنين الاستثنائية، أى سنوات القحط و أعوام الجدب.

و كلمة «آل» كانت فى الأصل «أهل» ثمّ قلبت فصارت هكذا، و الأهل بمعنى أقرباء الإنسان و خاصته، سواء أقرباؤه أو زملاؤه و نظراؤه فى المسلك و التفكير و أعوانه.

و مع أنّ القحط و الجدب أصابا حاشية فرعون و مؤيديه أجمع، و لكن الخطاب فى الآية موجه إلى خصوص أقربائه و خاصته، و هو

إشارة إلى أن المهم هو أن يستيقظ هؤلاء، لأنّ بيدهم أزمة الناس ... أن يضلوا الناس، أو يهدونهم، و لهذا توجه الخطاب إليهم فقط، و إن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضا.

و يجب أن لا نستبعد هذه النقطة، و هى أن الجدب كان يعدّ بلاء عظيما لمصر، لأنّ مصر كانت بلدا زراعيا، فكان الجدب مؤذيا لجميع الطبقات، و لكن من المسلّم أنّ آل فرعون- و هم الأصحاب الأصليين للأراضى الزراعية و إنتاجها- كانوا أكثر تضررا بهذا البلاء.

ثمّ إنّه يعلم من الآية الحاضرة أنّ الجدب استمر عدّة سنوات، لأنّ كلمة «سنين» صيغة جمع، و خاصّة أنّه أضيف إليها عبارة نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لأنّ الجدب المؤقت و العابر يمكن أن يترك شيئا من الأثر فى الأشجار و لكن عند ما يكون الجدب طويلا فإنّه يبيد الأشجار أيضا. و يحتمل أيضا أنّه علاوة على الجدب فانّ الفواكه و الثمار أصيبت بآفات قاتلة كذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۲

و كأنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ إشارة إلى هذه النقطة، و هى: أنّ التوجه إلى حقيقة التوحيد موجودة من البداية فى الروح الآدمية، و لكنّه على أثر التربية غير الصحيحة أو بطر النعمة ينساها الإنسان، و عند حلول البلايا و الأزمات يتذكر ذلك مجددا، و مادة «تذكر» تناسب هذا المعنى.

هذا و الجدير بالانتباه أنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ جاءت فى ذيل الآية (۹۴) و هى مقدمة أخرى- فى الحقيقة- لأنّ الإنسان يتذكر أوّلا، ثمّ يخضع و يسلّم، أو يطلب من اللّه الصفح و المغفرة.

و لكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلهية، و يستيقظوا من غفلتهم و غفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف و الحالة، و فسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية و مطابقة لرغبتهم، و كانوا يعيشون فى راحة و استقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا، و صلاحنا فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ

و لكن عند ما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السّلام و جماعته فورا و يقولون هذا من شومهم: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ

و «يطّيروا» مشتقة من مادة «تطيّر» بمعنى التشاؤم، و أصلها من الطير، فقد كان العرب غالبا ما يتشاءمون بواسطة الطيور. و ربّما تشاءموا بصوت الغراب، أو بطيران الطير، فإذا طار من ناحية اليسار اعتبروا ذلك علامة الشقاء و الفشل، و كلمة التطير تعنى مطلق التشاؤم.

و لكن القرآن الكريم قال فى معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم و بلاء أصابكم انّما هو من قبل اللّه، و أنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، و لكن أكثرهم لا يعلمون أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

و الجدير بالتأمل أن هذا النمط من التفكير لم يكن خاصا بالفرعونيين، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۳

هو أمر نلاحظه بوضوح الآن بين الشعوب المصابة بالأنانية و الضلال، فهى- بغية قلب الحقائق، و خداع ضميرها أو ضمائر الآخرين- كلما أصابها نجاح و تقدم اعتبرت ذلك ناشئا من جدارتها و كفاءتها، و إن لم يكن فى ذلك النجاح و التقدم أدنى شىء من تلك الكفاءة و الجدارة، و بالعكس إذا أصابها أى إخفاق و شقاء نسبت ذلك فورا إلى الأجانب و إلى أيادى العدو الخفيّة أو المكشوفة، و إن كانوا هم بأنفسهم سبب ذلك الشقاء و الإخفاق.

يقول القرآن الكريم: إنّ أعداء الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتوسلون بمثل هذا المنطق أيضا فى مقابل رسول اللّه (كما نقرأ فى الآية ۷۸ من سورة النساء).

و فى مكان آخر يقول: إنّ المنحرفين هم هكذا (كما فى سورة فصلت الآية ۵۰) و هذا فى الحقيقة هو أحد مظاهر الأنانية و اللجاج البارز.[۷۰]

التفاؤل و التشاؤم (الفأل و الطيرة):

مسألة التطيّر و التفاؤل و التشاؤم قد تكون منتشرة فى مختلف المجتمعات البشرية، فيتفاءلون بأمور و أشياء و يعتبرونها دليل النجاح، و يتشاءمون بأمور و أشياء و يعتبرونها آية الهزيمة و الفشل. فى حين لا توجد أية علاقة منطقية بين النجاح و الإخفاق و بين هذه الأمور، و بخاصّة فى مجال التشاؤم حيث كان له غالبا جانب خرافى غير معقول.

إنّ هذين الأمرين و إن لم يكن لهما أى أثر طبيعى إلّا أنّه يمكن أن يكون لهما أثر نفسى لا ينكر، و إنّ التفاؤل غالبا يوجب الأمل و التحرك، و التشاؤم يوجب اليأس و الوهن و التراجع.

و لعله لأجل هذا لم ينه فى الرّوايات و الأحاديث الإسلامية عن التفاؤل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۴

بينما نهى عن التشاؤم بشدّة،

ففى حديث معروف مروى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «تفاءلوا بالخير تجدوه»

و قد شوهد فى أحوال النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الهداة عليهم السلام- أنفسهم- أنّهم ربّما تفاءلوا بأشياء، مثلا عند ما كان المسلمون فى «الحديبية» و قد منعهم الكفار من الدخول إلى مكّة جاءهم «سهيل بن عمرو» مندوب من قريش، فلمّا علم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باسمه قال متفائلا باسمه:

«قد سهل عليكم أمركم»[۷۱]

و قد أشار العالم المعروف «الدميرى» و هو من كتّاب القرن الثامن الهجرى، فى إحدى كتاباته إلى نفس هذا الموضوع، و قال: إنّما أحب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الفأل لأنّ الإنسان إذا أمل فضل اللّه كان على خير، و إن قطع رجاءه من اللّه كان على شر، و الطيرة فيها سوء ظن و توقع للبلاء[۷۲] و لكن فى مجال التشاؤم الذى يسمّيه العرب «التطير» و «الطيرة» ورد فى الأحاديث الإسلامية- كما أسلفنا- ذم شديد، كما أشير إليه فى القرآن الكريم مرارا و تكرارا أيضا، و شجب بشدّة[۷۳].

و من جملة ذلك ما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «الطيرة شرك»[۷۴]

و ذلك لأن من يعتقد بالطيرة كأنّه يشركها فى مصير الإنسان و تشير بعض الأحاديث أنّه إذا كان للطيرة أثر سىء فهو الأثر النفسى، قال الإمام الصادق عليه السلام: «الطيرة على ما تجعلها، إن هونتها تهونت، و إن شددتها تشدّدت، و إن لم تجعلها شيئا لم تكن شيئا»[۷۵]

و ورد أنّ طريقة مكافحة الطيرة تتمثل فى عدم الاعتناء بها،

فقد روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاث لا يسلّم منها أحد: الطيرة و الحسد و الظن. قيل: فما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۵

نصنع؟ قال: إذا تطيرت فامض (أى لا تعتن بها) و إذا حسدت فلا تبغ (أى لا تعمل بوحى منه شيئا) و إذا ظننت فلا تحقق».

و العجيب أنّ مسألة الفأل و الطيرة كانت و لا تزال موجودة حتى فى البلاد الصناعية المتقدمة، و فى أوساط من يسمّون بالمثقفين، بل و حتى النوابغ المعروفين، و من جملتها: يعتبر المرور من تحت السلّم عند الغربيين- و سقوط المملحة، و إهداء سكين، أمورا يتشاءم بها بشدّة.

على أنّ وجود الفأل الجيـد- كما قلنا- ليس مسألـة مهمّـة، بل لها غالبا آثار حسـنة طيبـة، و لكن يجب مكافحـة عوامل التشاؤم و فكرة الطيرة، و نبـذها من الأذهان، و أفضل وسـيلة لمكافحتها هى تقويـة روح التوكل، و الثقـة باللّه و الاعتماد عليه كما أشـير إلى ذلك فى الأحاديث الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۲ الى ۱۳۳]

اشارة

وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳)

التّفسير

النّوائب المتنوعة:

فى هاتين الآيتين أشير إلى مرحلة أخرى من الدروس المنبهة التى لقّنها اللّه لقوم فرعون، فعند ما لم تنفع المرحلة الأولى، يعنى أخذهم بالجدب و السـنين و ما ترتب عليه من الأضرار المالية فى إيقاظهم و تنبيههم، جاء دور المرحلة الثّانية و تمثلت فى عقوبات أشدّ، فأنزل اللّه عليهم نوائب متتابعة مدمرة، و لكنّهم- و للأسف- لم ينتبهوا مع ذلك.

و فى الآية الأولى من الآيات المبحوثة يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون فى إنكار دعوة موسى، و قالوا: مهما تأتنا من آية و تريد أن تسحرنا بها فإننا لن نؤمن بك: وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۷

فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

إنّ التعبير ب «الآية» لعلّه من باب الاستهزاء و السخرية، لأنّ موسى عليه السلام وصف معاجزه بأنّها آيات اللّه، و لكنّهم كانوا يفسرونها بالسحر.

إنّ لحن الآيـات و القرائن يفيـد أنّ الجهـاز الإعلامـى الفرعونى الـذى كـان- تبعـا لـذلك العصـر- أقوى جهاز إعلامى، و كان النظام الحاكم فى مصـر يسـتخدمه كامل الاسـتخدام ... إنّ هـذا الجهاز الإعلامى قـد عبّأ قواه فى توكيد تهمة السـحر فى كل مكان، و جعلها شعارا عاما ضد موسـى عليه السـلام، لأنّه لم يكن هناك تهمة منها أنسب بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون انتشار الدعوة الموسوية و نفوذها المتزايد فى الأوساط المصرية.

و لكن حيث أن اللّه سـبحانه لا يعاقب أمّـة أو قوما من دون أن يتمّ عليهم الحجّـة قال فى الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة و متعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أولا: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ

و كلمة «الطوفان» مشـتقّة من مادة «الطوف» على وزن «خوف» و تعنى الشىء الذى يطوف و يدور، ثمّ أطلقت هذه اللفظة على الحادثة التى تحيط بالإنسان، و لكنّها أطلقت- فى اللغـة- على السـيول و الأمواج المدمرة التى تأتى على كل شـىء فى الأغلب، و بالتالى تدمر البيوت، و تقتلع الأشجار من جذورها.

ثمّ سلط الجراد على زروعهم و أشجارهم (و الجراد).

و قد جاء فى الأحاديث أن هجوم أسراب الجراد كان عظيما جدّا إلى درجة أنّها وقعت فى أشجارهم و زروعهم أكلا و قضما و إتلافا، حتى أنّها أفرغتها من جميع الغصون و الأوراق، و حتى أنّها أخذت تؤذى أبدانهم، بحيث تعالت صيحاتهم و استغاثاتهم.

و كلّما كان يصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسى عليه السلام و يسألونه أن يطلب من اللّه أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان و الجراد أيضا، و قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۸

موسى عليه السلام، و ارتفع عنهم البلاء و لكنّهم مع ذلك لم يكفّوا عن لجاجهم و تعنتهم.

و فى المرّة الثّالثة سلط عليهم القمل وَ الْقُمَّلَ

و أمّا ما هو المراد من «القمل» فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين، و لكن الظاهر أنّه نوع من الآفات الزراعية التى تصيب الغلات، و تفسدها و تتلفها.

و عند ما خفت أمواج هذا البلاء، و استمرّوا فى عنادهم سلط اللّه عليهم فى المرحلة الرّابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايدا شديدا حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: وَ الضَّفادِعَ ۷۶].

ففى كل مكان كانت الضفادع الصغيرة و الكبيرة تزاحمهم، حتى فى البيوت و الغرف و الموائد و أوانى الطعام، بحيث ضاقت عليهم الحياة بما رحبت، و لكنّهم مع ذلك لم يخضعوا للحق، و لم يسلّموا.

و فى هذا الوقت بالذات سلّط اللّه عليهم الدم.

قال البعض: إنّ داء الرعاف (و هو نزيف الدم من الأنف) شاع بينهم كداء عام، و أصيب الجميع بذلك. و لكن أكثر الرّواة و المفسّرين ذهبوا إلى أن نهر النيل العظيم تغير و صار لونه كلون الدم، بحيث صار تعافه الطباع، و لم يعد قابلا للانتفاع.

و قال تعالى فى ختام ذلك: إنّ هذه الآيات و المعاجز الباهرة- رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى- و لكنّهم استكبروا عن قبول الحق و كانوا مجرمين.

آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ

و فى بعض الرّوايات نقرأ أن كل واحدة من هذه البلايا كانت تقع فى سنة واحدة، يعنى أنّه أصابهم الطوفان فى سنة، و الجراد فى سنة أخرى، و الآفات الزراعية فى سنة ثالثة، و هكذا. و لكن نقرأ فى بعض الرّوايات أنّه كان يفصل بين كل بلاء و آخر شهر واحد لا أكثر و على أى حال، لا شك أنّها كانت تقع بصورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۷۹

منفصلة، و فى فواصل زمنية مختلفة (كما يقول القرآن: مفصلات) كى تكون هناك فرصة للتفكر و التنبه و اليقظة.

هذا و الجدير بالانتباه أنّنا نقرأ فى الرّوايات أن هذه البلايا كانت تصيب آل فرعون و قومه خاصّة، و كان بنو إسرائيل فى معزل عن ذلك، و لا شك أنّ هذا نوع من الإعجاز، و لكن يمكن أن نبرر قسما من ذلك بتبرير علمى معقول، لأنّنا نعلم أنّ أجمل نقطة فى بلد مثل مصر هى شاطئا النيل و ضفتاه، و كانت هذه الشواطئ و الضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونيين و القبطيين و محل سكناهم، فقصورهم الجميلة الشامخة، و مزارعهم الخضراء و بساتينهم العامرة، كانت فى هذه الضفاف.

و بطبيعة الحال كان نصيب بنى إسرائيل الذين كانوا عبيدا للفرعونيين و القبطيين هى النقاط النائية و الصحارى البعيدة الشحيحة الماء.

و من الطبيعى أنّ الطوفان عند ما يحدث يكون الأقرب إلى الخطر ضفتا النيل و شاطئاه و من يسكنها، و كذا عند ما كانت الضفادع تخرج من الماء، و كذا انقلاب الماء إلى هيئة الدم كان يظهر فى مياه الفرعونيين الذين كانوا يسكنون إلى جانب النيل دون بنى إسرائيل، و أمّا الجراد و الآفات النباتية فقد كانت تتعرض لها المناطق الزراعية و البساتين الخضراء الوفيرة المحصول فى الدرجة الأولى.

كل ما قيل فى الآيات السابقة جاء فى التوراة أيضا، و لكن ثمّة فروق واضحة بين محتويات القرآن الكريم و ما جاء فى التوراة راجع سفر الخروج الفصل السابع إلى العاشر من التوراة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۰

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۴ الى ۱۳۶]

اشارة

وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۳۶)

التّفسير

نقض العهد المتكرر:

فى هذه الآيات نلاحظ رد فعل الفرعونيين فى مقابل النوائب و البلايا المتبهة الإلهيّة، و يستفاد من مجموعها أنّهم عند ما كانوا يقعون فى مخالب البلاء ينتبهون من غفوتهم بصورة مؤقتة شأنهم شأن جميع العصاة، و كانوا يبحثون عن حيلة للتخلص منها، و يطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو لهم، و يسأل اللّه فى خلاصهم، و لكن بمجرّد أن يزول عنهم طوفان البلاء و تهدأ أمواج الحوادث، ينسون كل شيء و يعودون إلى سيرتهم الأولى.

و فى الآية الأولى نقرأ: وَ لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۱

بِما عَهِدَ عِنْدَكَ

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى و يطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، و أن يفى اللّه بما وعده له من استجابة دعائه: بِما عَهِدَ عِنْدَكَ

ثمّ يقولون: إذا دعوت فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، و نرفع طوق العبودية عن بنى إسرائيل: لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ

و لفظة «الرجز» استعملت فى معانى كثيرة: البلايا الصعبة، الطاعون، الوثن و الوثنية، وسوسة الشيطان، و الثلج أو البرد الصلب.

و لكن جميع ذلك مصاديق مختلفة لمفهوم يشكّل الجذر الأصلى لتلك المعانى، لأن أصل هذه اللفظة كما قال «الراغب» فى «المفردات» هو الاضطراب.

و حسب ما قال «الطبرسى» فى «مجمع البيان» مفهومه الأصلى هو الانحراف عن الحق.

و على هذا الأساس إطلاق لفظ «الرجز» على العقوبة و البلاء، لأنّها تصيب الإنسان لانحرافه عن الحق، و ارتكاب الذنب، و كذا يكون الرجز نوعا من الانحراف عن الحق، و الاضطراب فى العقيدة، و لهذا أيضا يطلق العرب هذا اللفظ على داء يصيب الإبل، و يسبب اضطراب أرجلها حتى أنّها تلجأ للمشى بخطوات قصيرة، أو تمشى تارة و تتوقف تارة أخرى، فيقال لهذا الداء «الرجز» على وزن «المرض».

و السبب فى إطلاق الرجز على الأشعار الحربيّة، لأنّها ذات مقاطع قصيرة و متقاربة.

و على كل حال، فإنّ المقصود من «الرجز» فى الآيات الحاضرة هو العقوبات المنبهة الخمسة التى أشير إليها فى الآيات السابقة، و إن احتمل بعض المفسّرين أن يكون إشارة إلى البلايا الأخرى التى أنزلها اللّه عليهم و لم يرد ذكرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۲

فى الآيات السابقة، و منها الطاعون أو الثلج و البرد القاتل، الذى وردت الإشارة إليها فى التوراة.

هذا، و قد وقع كلام بين المفسّرين فى المراد من عبارة بِما عَهِدَ عِنْدَكَ و أنّه ما هو المقصود من ذلك العهد الإلهى الذى أعطاه سبحانه لموسى؟

إنّ ما هو الأقرب إلى النظر هو أن المقصود من ذلك الوعد الإلهى هو أن يستجيب دعاءه إذا دعاه، و لكن يحتمل أيضا أن يكون المقصود هو عهد «النبوة» و تكون «الباء» باء القسم، يعنى نقسم عليك بحق مقام نبوتك إلّا ما دعوت اللّه ليرفع عنّا هذا البلاء.

و فى الآية اللاحقة يشير إلى نقضهم للعهد و يقول: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ ۷۷].

إنّ جملة إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إشارة إلى أنّ موسى حدّد لهم وقتا و عيّن أمدا، فكان يقول لهم: فى الوقت الفلانى سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتّضح لهم أنّ ارتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمرا اتفاقيا و صدفة، بل هو بفضل دعائه و طلبه من اللّه تعالى.

إنّ جملة إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ و بالنظر إلى أن «ينكثون» فعل مضارع يدلّ على الاستمرارية يفيد أنّه قد تكرر تعهدّهم لموسى عليه السلام ثمّ نقضهم للعهد، حتى أصبح نقض العهد جزءا من برنامجهم و سلوكهم الدائم.

و آخر هذه الآيات تبيّن- من خلال جملتين قصيرتين- عاقبة كلّ هذا التعنت، و نقض العهد، فتقول بصورة مجملة فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ ثمّ تشرح هذا الانتقام و تذكر تفصيله فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ ۷۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۳

إنّهم لم يكونوا غافلين واقعا، لأنّ موسى عليه السلام ذكّرهم مرارا و بالوسائل المختلفة المتعددة و نبههم، بل أنّهم تصرّفوا عمليا كما يفعل الغافلون، فلم يعتنوا بآيات اللّه أبدا.

و لا شك أن المقصود من الانتقام الإلهى ليس هو أنّ اللّه كان يقوم بردّ الفعل فى مقابل أعمالهم، كما يفعل الأشخاص الحاقدون الذين ينطلقون فى ردود أفعالهم من مواقع الحقد و الانتقام، بل المقصود من الانتقام الإلهى هو أن الجماعة الفاسدة و غير القابلة للإصلاح لا يحق لها الحياة فى نظام الخلق، و لا بدّ أن تمحى من صفحة الوجود.

و الانتقام فى اللغة العربية- كما أسلفنا- يعنى العقوبة و المجازاة، لا ما هو شائع فى عرف الناس اليوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۴

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۳۷]

اشارة

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (۱۳۷)

التّفسير

قوم فرعون و المصير المؤلم:

بعد هلاك قوم فرعون، و تحطّم قدرتهم، و زوال شوكتهم، ورث بنو إسرائيل الذين طال رزوحهم فى أغلال الأسر و العبودية أراضى الفراعنة الشاسعة و الآية الحاضرة تشير إلى هذا الأمر وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها.

و «الإرث» كما أسلفنا يعنى فى اللغة المال الذى ينتقل من شخص إلى آخر من دون تجارة و معاملة، سواء كان المنتقل منه حيا أو ميّتا.

و «يستضعفون» مشتقّة من مادة «الاستضعاف» و تطابق كلمة «الاستعمار» التى تستعمل اليوم فى عصرنا الحاضر، و مفهومها هو أن يقوم جماعة بإضعاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۵

جماعة أخرى حتى يمكن للجماعة الأولى أن تستغل الجماعة الضعيفة فى سبيل مآربها و مصالحها، غاية ما هنالك أن هناك تفاوتا بين هذه اللفظة و لفظة الاستعمار، و هو: أن الاستعمار ظاهره تعمير الأرض، و باطنه الإبادة و التدمير، و لكن الاستضعاف ظاهره و باطنه واحد.

و التعبير ب كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ إشارة إلى الفرعونيين كانوا يستبقون بنى إسرائيل فى حالة ضعف دائمية: ضعف فكرى، و ضعف أخلاقى، و ضعف اقتصادى، و من جميع الجهات و فى جميع النواحى.

و التعبير ب مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا إشارة إلى الأراضى الواسعة العريضة التى كانت تحت تصرّف الفرعونيين، لأنّ الأراضى الصغيرة ليس لها مشارق و مغارب مختلفة، و بعبارة أخرى «ليس لها آفاق متعددة» و لكن الأراضى الواسعة جدا من الطبيعى أن يكون مشارق و مغارب بسبب كروية الأرض فيكون التعبير بمشارق الأرض و مغاربها كناية عن أراضى الفرعونيين الواسعة العريضة جدّا.

و جملة بارَكْنا فِيها إشارة إلى الخصب العظيم الذى كانت تتمتع به هذه المنطقة- يعنى مصر و الشام- التى كانت تعدّ آنذاك، و فى هذا الزمان أيضا، من مناطق العالم الخصبة الكثيرة الخيرات. حتى أن بعض المفسّرين كتب: إن بلاد الفراعنة فى ذلك العصر كانت واسعة جدّا بحيث كانت تشمل بلاد الشام أيضا.

و على هذا الأساس لم يكن المقصود من العبارة هو الحكومة على كل الكرة الأرضية، لأنّ هذا يخالف التاريخ حتما. بل المقصود هو حكومة بنى إسرائيل على كل أراضى الفراعنة و بلادهم.

ثمّ يقول: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا أى تحقق الوعد الإلهى لبنى إسرائيل بانتصارهم على الفرعونيين، بسبب صبرهم و ثباتهم.

و هذا هو الوعد الذى أشير إليه فى الآيات السابقة (الآية ۱۲۸ و ۱۲۹ من نفس هذه السورة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۶

صحيح أنّ هذه الآية تحدّثت عن بنى إسرائيل و نتيجة ثباتهم فى وجه الفرعونيين فقط، إلّا أنّه يستفاد من الآيات القرآنية الأخرى أن هذا الموضوع لا- يختص بقوم أو شعب خاص، بل إن كان شعب مستضعف نهض و حاول تخليص نفسه من مخالب الأسر و الاستعمار، استعان فى هذا السبيل بالثبات و الاستقامة، سوف ينتصر آخر المطاف و يحرر الأراضى التى احتلها الظلمة الجائرون.

ثمّ يضيف فى آخر الآية: نحن الذين دمرنا قصور فرعون و قومه العظيمة، و أبنيتهم الجميلة الشامخة، و كذا بساتينهم و مزارعهم العظيمة وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ

و «صنع» كما يقول «الراغب» فى «المفردات» يعنى الأعمال الجميلة، و قد وردت هذه اللفظة فى الآية الحاضرة بمعنى الهندسة الجملية الرائعة التى كان يستخدمها الفرعونيين فى أبنيتهم.

و «ما يعرشون» فى الأصل تعنى الأشجار و البساتين التى تنصب بواسطة العروش و السقف، و لها جمال عظيم و روعة باهرة.

و «دمرنا» من مادة «التدمير» بمعنى الإهلاك و الإبادة.

و هنا يطرح السؤال التالى و هو: كيف أبيدت هذه القصور و البساتين، و لماذا؟

و نقول فى الجواب: لا ـ يبعد أن ذلك حدث بسبب زلازل و طوفانات جديدة و أمّا الضرورة التى قضت بهذا الفعل فهى أن جميع الفرعونيين لم يغرقوا فى النيل، بل غرق فرعون و جماعة من خواصّه و عسكره الذين كانوا يلاحقون موسى عليه السلام، و من المسلّم أنّه لو بقيت تلك الثروات العظيمة، و الإمكانيات الاقتصادية الهائلة بيد من بقى من الفراعنة الذين كان عدد نفوسهم فى شتى نواحى مصر كثيرا جدا لاستعادوا بها شوكتهم، و لقدروا على تحطيم بنى إسرائيل، أو الحاق الأذى بهم على الأقل. أمّا الإمكانيات و الوسائل فإن من شأنه أن يجردهم من أسباب الطغيان إلى الأبد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۳۸ الى ۱۴۱]

اشارة

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۴۰) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۱۴۱)

التّفسير

الاقتراح على موسى بصنع الوثن:

فى هذه الآيات إشارة إلى جانب حساس آخر من قصّة بنى إسرائيل التى بدأت فى أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، و ذلك هو مسألة توجه بنى إسرائيل إلى الوثنية التى بحثت بداياتها فى هذه الآيات، و جاءت نتيجتها النهائية بصورة مفصّلة فى سورة طه من الآية (۸۶) إلى (۹۷)، و بصورة مختصرة فى الآية (۱۴۸) فما بعد من هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۸

و فى الحقيقة فإنّه مع انتهاء قصة فرعون بدأت مشكلة موسى الداخلية الكبرى، يعنى مشكلته مع جهلة بنى إسرائيل، و الأشخاص المتعنتين و المعاندين.

و كانت هذه المشكلة أشدّ على موسى عليه السلام و أثقل بمراتب كثيرة- كما سيتّضح من قضية مواجهته لفرعون و الملأ و هذه هى خاصية المشاكل و المجابهات الداخلية.

فى الآية الأولى: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ أى النيل العظيم.

و لكن فى مسيرهم مرّوا على قوم يخضعون للأصنام فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ

و «عاكف» مشتقّة من مادة «العكوف» بمعنى التوجه إلى شىء و ملازمته المقارنة لاحترامه و تبجيله.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدّة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبودا على غرار معبودات هؤلاء قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ.

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الافتراح الأحمق بشدّة، و قال لهم: قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الانتباه إلی نقاط:

۱- الجهل منشأ الوثنیة

یستفاد من هذه الآیة بوضوح أنّ منشأ الوثنیة هو جهل البشر باللّه تعالی من جانب، و عدم معرفته بذاته المقدسة و أنّه لا یتصور له شبیه أو نظیر أو مثیل.

و من جانب آخر جهل الإنسان بالعلل الأصلیة لحوادث العالم الذی یتسبب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۸۹

أحیانا فی أن ینسب الحوادث إلی سلسلة من العلل الخرافیة و الخیالیة و منها الأصنام.

و من جانب ثالث جهل الإنسان بما وراء الطبیعة، و قصور فکره إلی درجة أنّه لا یری و لا یؤمن إلّا بالقضایا الحسیة.

إن هـذه الجهالات تضافرت و تعاضدت، و صارت علی مدار التأریخ منشأ للوثنیة و عبادة الأصـنام، و إلّا فکیف یمکن أن یأخذ إنسان واع فاهم عارف باللّه و صـفاته، عارف بعلل الحوادث، عارف بعالم الطبیعة و عالم بما بعد الطّبیعة. قطعة من الصخر منفصلة من الجبل مثلا، فیستعمل قسما منها فی بناء بیته، أو صنع سلالم منزله، و یتخذ قسما آخر معبودا یسجد أمامه، و یسلّم مقدراته بیده.

و الجدیر بالذکر أنّنا نقرأ فی کلام موسـی علیه السـلام فی الآیة الحاضرة کیف یقول لهم: أنتم غارقون فی الجهل دائما، (لأنّ تجهلون فعل مضارع و یدل غالبا علی الاستمراریة) و بخاصّة أن متعلق الجهل لم یبیّن فی الآیة، و هذا یدل علی عمومیة المجهول و شمولیته.

و الاغرب من کل ذلک أنّ بنی إسـرائیل بقولهم اجْعَلْ لَنا إِلهاً أظهروا أن من الممکن أن یصـیر الشیء التافه ثمینا- بمجرّد اختیارهم و جعلهم و وضع اسم الصنم و المعبود علیه- و توجب عبادته التقرب إلی اللّه، و عدم عبادته البعد عنه تعالی، و تکون عبادته منشأ للخیر و البرکة، و احتقاره منشأ للضرر و الخسارة، و هذه هی نهایة الجهل و الغفلة.

صحیـح أنّ مقصود بنی إسـرائیل لم یکن إیجـاد معبود یکون خـالق العالم، بل کان مقصودهم هو: اجعل لنا معبودا نتقرب بعبادته إلی اللّه، و یکون مصدرا للخیر و البرکة، و لکن هل یمکن أن یصـیر شیء فاقدا للروح و التأثیر مصدرا للخیرات و التأثیرات بمجرّد تسمّیته معبودا و إلها؟ هل الدافع لذلک العمل شیء سوی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۰

الجهل و الخرافة، و الخیال الواهی و التصور الخاوی؟![۷۹]

۲- أرضیة الوثنیة عند بنی إسرائیل

لا شک أنّه کانت لـدی بنی إسـرائیل- قبل مشاهدة هذا الفریق من الوثنیین- أرضـیة فکریة مساعدة لهذا الموضوع، بسـبب معاشـرتهم الدائمة للمصریین الوثنیین، و لکن مشاهدة هذا المشهد الجدید کان بمثابة شرارة کشفت عن دفائن جبلّتهم، و علی کل حال فإنّ هذه

القضية تكشف لنا أنّ الإنسان إلى أىّ مدى يتأثر بعامل البيئة، فإنّ البيئة هى التى تستطيع أن تسوق الإنسان إلى اللّه، كما أنّ البيئة هى التى تسوقه إلى الوثنية، و أنّ البيئة يمكن أن تصير سببا لأنواع المفاسد و الشقاء، أو منشأ للصلاح و الطهر. (و إن كان انتخاب الإنسان نفسه هو العامل النهائى) و لهذا اهتم الإسلام بإصلاح البيئة اهتماما بالغا.

۳- الكفرة بالنعم فى بنى إسرائيل

الموضوع الآخر الذى يستفاد من الآية بوضوح، أنّه كان بين بنى إسرائيل أشخاص كثيرون ممن يكفرون النعمة و لا يشكرونها، فمع أنّهم رأوا كل تلك المعاجز التى أتى بها موسى عليه السلام، و مع أنّهم تمتعوا بكل تلك المواهب الإلهية التى خصّهم اللّه بها، فإنّه لم ينقص عن هلاك عدوهم فرعون و نجاتهم من الغرق برهة من الزمن حتى نسوا كل هذه الأمور دفعة واحدة، و طلبوا من موسى أن يصنع لهم أصناما ليعبدوها!! و نقرأ فى نهج البلاغة أنّ أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين عليه السلام قائلا: ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه. فردّ عليه الإمام صلوات اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۱

عليه قائلا:

«إنّما اختلفنا عنه لا فيه، و لكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فقال إنّكم قوم تجهلون».

أى أنّنا اختلفنا فى الأحاديث و الأوامر التى وصلت إلينا عن نبيّنا، لا أنّنا اختلفنا حول النّبى و نبوته، (فكيف بألوهية اللّه) و لكنّكم ما إن خرجتم من مياه البحر إلّا و اقترحتم على نبيّكم أن اجعل لنا آلهة كما للوثنيين آلهة، و قال موسى:

إنّكم قوم تجهلون.

و فى الآية اللاحقة نقرأ أنّ موسى عليه السلام- لتكميل حديثه لبنى إسرائيل- قال: إنّ هذه الجماعة الوثنية التى ترونها سينتهى أمرها إلى الهلاك، و إن عملهم هذا باطل لا أساس له إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

فعمل هذه الجماعة باطل، و جهودهم غير منتجة، كما أن مصير مثل هؤلاء القوم و كل قوم وثنيين و مشركين هو الهلاك و الدمار. (لأنّ «متبّر» مشتقّة من التبار أى الهلاك).

ثمّ تضيف الآية التوكيد: إنّ موسى عليه السلام قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

يعنى إذا كان الدافع إلى عبادة اللّه هو حسّ الشكر، فجميع النعم التى ترفلون فيها هى من اللّه، و إذا كان الدافع للعبادة و العبودية كون هذه العبادة منشأ لأثر ما، فإنّ ذلك أيضا يرتبط باللّه سبحانه، و على هذا الأساس مهما يكن الدافع، فليس سوى اللّه القادر المنّان يصلح للعبادة و مستحقا لها.

و فى الآية اللاحقة يذكر القرآن الكريم إحدى النعم الإلهية الكبرى التى وهبها اللّه سبحانه لبنى إسرائيل، ليبعث بالالتفات إلى هذه النعمة الكبرى حسّ الشكر فيهم، و ليعلموا أن اللائق بالخضوع و العبادة هو الذات الإلهية المقدسة فحسب، و ليس هناك أى دليل يسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر و لا تنفع شيئا أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۲

يقول فى البداية: تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائما وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ

و «يسومون» مشتقّة من مادة «سوم» و تعنى فى الأصل- كما قال «الراغب» فى «المفردات»- الذهاب فى طلب شىء، كما يستفاد من القاموس تضمنه لمعنى الاستمرار و المضّى أيضا، و على هذا يكون معنى يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ أنّهم كانوا يعذبونكم بتعذيبات

قاسية باستمرار.

ثمّ تمشيا مع أسلوب القرآن فى بيان الأمور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، و هو: قتل الأبناء، و استبقاء النساء للخدمة و الاسترقاق يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ، وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ

و قد كان فى هذا اختبار عظيم من اللّه لكم وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

و سياق الآية يكشف عن أن هذه العبارة قالها موسى عليه السلام عن اللّه لنبى إسرائيل عند ما رغبوا بعد عبورهم بحر النيل فى الوثنية و عبادة الأصنام.

صحيح أنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون المخاطبون فى هذه الآية هم يهود عصر الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ التّفسير الأوّل يحتاج إلى تقدير شيء بأن يقال: إن الآية كانت فى الأصل هكذا: قال موسى: قال ربّكم ... و هذا خلاف الظاهر.

و لكن مع الالتفات إلى أنّه لو كان المخاطبون فى هذه الآية هم يهود عصر النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانقطع ارتباط الآية بما يسبقها و ما يلحقها بصورة كاملة، و كانت هذه الآية كالجملة المعترضة، يبدو للنظر أن التّفسير الأوّل أصح.

هذا و لا بدّ- ضمنا- من الالتفات إلى أن نظير هذه الآية مرّ فى سورة البقرة الآية (۴۹) مع فارق جدا بسيط، و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۹) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۲]

اشارة

وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲)

التّفسير

الميعاد الكبير:

فى هذا الآية إشارة إلى مشهد من مشاهد حياة بنى إسرائيل، و مشكلة موسى عليه السلام معهم، و ذلك هو قصّة ذهاب موسى إلى ميقات ربّه، و تلقى أحكام التّوراة عن طريق الوحى و كلامه مع اللّه، و اصطحاب جماعة من كبار بنى إسرائيل و شخصياتهم إلى الميقات لمشاهدة هذه الحادثة و إثبات أنّ اللّه لا يمكن أن يدرك بالأبصار، و التى ذكرت بعد قصّة عبادة بنى إسرائيل للعجل و انحرافهم عن مسير التوحيد، و ضجّة السامرىّ العجيبة.

يقول تعالى أوّلا: وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً.

و كلمة «الميقات» مشتقّة من مادة «الوقت» بمعنى الموعد المضروب للقيام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۴

بعمل ما، و يطلق عادة على الزمان، و لكنّه قد يطلق على المكان الذى يجب أن يتمّ العمل فيه، مثل «ميقات الحج» يعنى المكان الذى لا يجوز أن يجتازه أحد إلّا محرما.

ثمّ ذكرت الآية أنّ موسى استخلف هارون و أمره بالإصلاح فى قومه، و أن لا يتبع سبيل المفسدين: وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي

فِی قَوْمِی وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِیلَ الْمُفْسِدِینَ

بحوث

اشارة

و هنا عدّة نقاط ینبغی التوقف عندها و الالتفات إلیها:

۱- لماذا التفکیک بین الثلاثین و العشر؟

إنّ أوّل سؤال یطرح نفسه فی مجال الآیة الحاضرة، هو: لماذا لم یبیّن مقدار المیقات بلفظ واحد هو الأربعین، بل ذکر أنّه واعده ثلاثین لیلة ثمّ أتمّه بعشر، فی حین أنّه تعالی ذکر ذلک الموعد فی لفظ واحد هو أربعین فی الآیة (۱۵۱) من سورة البقرة.

ذکر المفسّرون تفسیرات عدیدة لهذا التفکیک، و الذی یبدو أقرب إلی النظر و أکثر انسجاما مع أحادیث أهل البیت علیهم السلام هو أنّه و إن کان الواقع هو أربعین یوما، إلّا أنّه فی الحقیقة وعد اللّه موسی فی البدایة ثلاثین یوما ثمّ مدّده عشرة أیّام أخری، اختبارا لبنی إسرائیل کی یعرف المنافقون فی صفوف بنی إسرائیل.

فقد روی عن الإمام محمّد الباقر علیه السلام أنّه قال: إنّ موسی علیه السلام لما خرج وافدا إلی ربّه واعدهم ثلاثین یوما، فلمّا زاده اللّه علی الثلاثین عشرا قال قومه، قد أخلفنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۵

موسی فصنعوا ما صنعوا (من عبادة العجل)[۸۰].

و أمّا أن هذه الأیّام الأربعین صادفت أیّام أی شهر من الشهور الإسلامیة، فیستفاد من بعض الرّوایات أنّها بدأت من أوّل شهر ذی القعدة و ختمت بالیوم العاشر من شهر ذی الحجة (عید الأضحی). و قد جاء التعبیر بلفظ أربعین لیلة فی القرآن الکریم لا أربعین یوما، فالظاهر أنّه لأجل أن مناجاة موسی لربّه کانت تتمّ غالبا فی اللیالی.

۲- کیف نصب موسی علیه السلام هارون قائدا و إماما؟

السؤال الثّانی الذی یطرح نفسه هنا، هو: إنّ هارون کان نبیّا، فکیف نصبه موسی علیه السلام خلیفة له و إماما و قائد لبنی إسرائیل؟

و الجواب علی هذا السؤال یتّضح بعد الالتفات إلی أنّ مقام النّبوة شیء و مقام الإمام شیء آخر، و لقد کان هارون نبیّا، و لکن لم یکن قد أنیط به مقام الإمامة العامّة لبنی إسرائیل، بل کان مقام الإمامة و منصب القیادة العامّة خاصا بموسی علیه السلام، و لکنّه عند ما قصد أن یفارق قومه إلی میقات ربّه اختار هارون إماما و قائدا.

۳- لماذا طلب موسی علیه السلام من أخیه الإصلاح و عدم اتّباع المفسدین؟

السؤال الثّالث الذی یطرح نفسه هنا، هو: لماذا قال موسی علیه السلام لأخیه: أصلح و لا تتبع سبیل المفسدین، مع أن هارون نبی

معصوم من المستحیل أن یتبع طریق المفسدین و ینهج نهجهم الفاسد؟

نقول فی الجواب: إنّ هذا- فی الحقیقة- نوع من التوکید لإلفات نظر أخیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۶

إلی أهمیة مکانته فی بنی إسرائیل. و لعله أراد بهذا الموضوع أن یوضح لبنی إسرائیل و یفهمهم أن علیهم أن یمتثلوا لتعالیم هارون و نصائحه و مواعظه الحکیمة، و لا یستثقلوا أوامره و نواهیه، و لا یعتبروا تلک الأوامر و النواهی و کذلک قیادة هارون لهم دلیلا علی قصرهم و صغرهم ... بل یفعلون کما یفعل هارون حیث کان رغم منزلته البارزة و مقام نبوته تابعا و مطیعا لنصائح موسی علیه السلام.

۴- میقات واحد أو مواقیت متعددة؟

السؤال الرّابع الذی یطرح نفسه هنا، هو: هل ذهب موسی إلی میقات ربّه مرّة واحدة، و هی هذه الأربعون یوما، و تلقی أحکام التوراة و شریعته السماویة عن طریق الوحی فی هذه الأربعین یوما، کما اصطحب معه جماعة من شخصیات بنی إسرائیل معه کممثلین عن قومه، لیشهدوا نزول أحکام التوراة علیه، و لیفهمهم أن اللّه لا یدرک بالأبصار أبدا، فی هذه الأربعین یوما نفسها؟

أم أنّه کانت له مع اللّه أربعینات متعددة، أحدها لأخذ الأحکام، و فی الأخری اصطحب کبار قومه، و له- احتمالا- أربعون ثالثة لمقاصد و مآرب أخری غیر هذه، (کما یستفاد من سفر الخروج من التوراة الفعلیة الفصل ۱۹ إلی ۲۴).

و هنا أیضا وقع کلام بین المفسّرین، و لکن الذی یبدو أنّه أقرب إلی الذهن- بملاحظة الآیة المبحوثة و الآیات السابقة علیها و اللاحقة لها- أن جمیع هذه الأمور ترتبط بحادثة واحدة لا متعددة، لأنّه بغض النظر عن أن عبارة الآیة اللاحقة وَ لَمَّا جاءَ مُوسی لِمِیقاتِنا تناسب تماما وحدة هاتین القصّتین، فإنّ الآیة (۱۴۵) من نفس هذه السورة تفید- بجلاء- أن قصّة ألواح التوراة، و استلام أحکام هذه الشریعة قد تمّت جمیعها فی نفس هذا السفر أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۷

۵- حدیث المنزلة

اشارة

أشار کثیر من المفسّرین الشیعة و السنة- فی ذیل الآیة المبحوثة- إلی حدیث «المنزلة» المعروف، بفارق واحد هو: أنّ الشیعة اعتبروا هذا الحدیث من الأدلة الحیّة و الصریحة علی خلافة علی علیه السلام لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة و بلا فصل.

و لکی یتّضح هذا البحث ندرج هنا أوّلا أسانید و نص هذا الحدیث باختصار، ثمّ نبحث فی دلالته، ثمّ نتکلم حول الحملات التی وجهها بعض المفسّرین إلی الشیعة.

أسانید حدیث المنزلة:

۱-

روی جمع کبیر من صحابة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول غزوة تبوک: أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خرج إلی تبوک و استخلف علیا فقال: أ تخلفنی فی الصبیان و النساء؟

قال: «ألا ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لیس نبیّ بعدی».

و هذا النص ورد فی أوثق الکتب الحدیثیة لدی أهل السنّة، یعنی صحیح البخاری و عن سعد بن أبی وقاص.[۸۱]

و

قد روی هذا الحدیث- أیضا- فی صحیح مسلم الذی یعدّ من المصادر الرئیسیة عن أهل السنّة، فی باب «فضائل الصحابة» عن سعد أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السلام: «أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی»[۸۲].

فی هذا الحدیث الذی نقله صحیح مسلم أعلن عن الموضوع بصورة کلیّة، و لم یرد فیه ذکر عن غزوة تبوک.

و هکذا نقل حدیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذا فی سیاق ذکر غزوة تبوک بعد ذکر الحدیث بصورة کلّیة، بصورة مستقلة کما جاء فی صحیح البخاری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۸

و قد ورد عین هذا الموضوع فی سنن ابن ماجه أیضا[۸۳].

و قد أضیف فی سنن الترمذی مطلب آخر، و هو أنّ معاویة قال لسعد ذات یوم: ما یمنعک أن تسبّ أبا تراب؟! قال: أمّا ما ذکرت ثلاثا قالهنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلن أسبّه، لئن تکون لی واحدة منهن أحبّ إلیّ من حمر النعم. ثمّ عدد الأمور الثلاثة فکان أحدها ما قاله رسول اللّه لعلی فی تبوک و هو

قوله: «أمّا ترضی أن تکون منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبوة بعدی»[۸۴].

و قد أشیر إلی هذا الحدیث فی عشرة موارد من مسند أحمد بن حنبل، تارة ذکرت فیه غزوة تبوک، و تارة من دون ذکر غزوة تبوک بل بصورة کلّیة[۸۵].

و قد روی فی أحد هذه المواضع أنّه أتی ابن عباس- بینما هو جالس- تسعة رهط، فقالوا: یا ابن عباس، إمّا أن تقوم معنا، و إمّا أن تخلونا هؤلاء، فقال ابن عباس: بل أقوم معکم (إلی أن قال) و خرج بالناس (أی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) فی غزوة تبوک ثمّ نقل کلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السلام و أضاف:

«إنّه لا ینبغی أن أذهب إلّا و أنت خلیفتی»[۸۶].

و جاء نفس هذا الحدیث فی «خصائص النسائی»[۸۷] و هکذا فی مستدرک الحاکم ۸۸]، و فی تاریخ الخلفاء للسیوطی ۸۹] و فی الصواعق المحرقة لابن حجر[۹۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۱۹۹

و سیرة ابن هشام ۹۱] و السیرة الحلبیة[۹۲] و کتب کثیرة أخری.

و نحن نعلم أن هذه الکتب من الکتب المعروفة، و المصادر الأولی لأهل السنة.

و الجدیر بالذکر أن هذا الحدیث لم یروه «سعد بن أبی وقاص» عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وحده، بل رواه- أیضا- مجموعة کبیرة من الصحابة الذین یتجاوز عددهم عشرین شخصا منهم: «جابر بن عبد اللّه» و «أبو سعید الخدری» و «أسماء بنت عمیس» و «ابن عباس» و «أم سلمة» و «عبد اللّه بن مسعود» و «أنس بن مالک» و «زید بن أرقم» و «أبو أیوب» و الأجدر بالذکر أنّ هذا الحدیث رواه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «معاویة بن أبی سفیان» و «عمر بن الخطاب» أیضا.

و

ینقل «محب الدین الطبری» فی «ذخائر العقبی» أنّه جاء رجل إلی معاویة فسأله عن مسألة فقال: سل عنها علی بن أبی طالب فهو أعلم. قال: یا أمیر المؤمنین (و یقصد به معاویة) جوابک فیها أحبّ إلیّ من جواب علیّ.

قال: بئسما قلت، لقد کرهت رجلا کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یغره بالعلم غرا، و قد قال له: أنت منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی، و کان عمر إذا أشکل علیه أخذ منه ۹۳].

و

روی أبو بکر البغدادی فی «تأریخ بغداد» بسنده عن عمر بن الخطّاب أنّه رأی رجلا یسبّ علیّا علیه السلام فقال: إنّی أظنّک منافقا، سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول:

«إنّما علیّ منّی بمنزلة هارون من موسی، إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۰

حدیث المنزلة فی سبعة مواضع:

النقطة الأخری، إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- و خلافا لما یتصّوره البعض- لم یقل هذا البحث فی علی علیه السلام فی غروة تبوک فقط، بل قال هذه العبارة فی عدّة مواضع منها:

۱- فی المؤاخاة الأولی: یعنی فی المرّة الأولی التی آخی فیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین المهاجرین و اختار علیّا علیه السلام فی هذه المؤاخاة لنفسه و

قال: «أنت منی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی»[۹۵].

۲- فی یوم المؤاخاة الثّانیة: و کانت فی المدینة بعد الهجرة بخمسة أشهر، حیث آخی بین المهاجرین و الأنصار، و اصطفی لنفسه منهم علیّا و اتخذه من دونهم أخاه، و

قال له: «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبیّ بعدی و أنت أخی و وارثی»[۹۶].

۳- أم سلیم- التی کانت علی جانب من الفضل و العقل، و کانت تعدّ من أهل السوابق، و هی من الدعاة إلی الإسلام، و استشهد أبوها و أخوها بین یدی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فارقت زوجها لأنّه أبی أن یعتنق الإسلام، و کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یزورها فی بیتها بین الحین و الآخر و یسلّیها- تروی أم سلیم هذه

أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لها ذات یوم: «إنّ علیّا لحمه من لحمی و دمه من دمی، و هو منّی بمنزلة هارون من موسی»[۹۷].

-۴

قال ابن عباس: سمعت عمر بن الخطاب یقول: کفّوا عن ذکر علی بن أبی طالب فقد رأیت من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه خصالا لئن تکون لی واحدة منهن فی آل الخطّاب أحبّ إلی ممّا طلعت علیه الشمس، کنت أنا و أبو بکر و أبو عبیدة فی نفر من أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فانتهینا إلی باب أمّ سلمة و علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۱

قائم علی الباب، فقلنا: أردنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: یخرج إلیکم، فخرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسرنا إلیه، فاتکأ علی علی بن أبی طالب ثمّ ضرب بیده منکبة ثمّ قال:

«أنت (یا علی) أوّل المؤمنین إیمانا، و أوّلهم إسلاما، و أنت منّی بمنزلة هارون من موسی»[۹۸].

-۵

روی النسائی فی کتاب «الخصائص» أن علیا و زیدا و جعفر اختصموا فی من یکفل ابنة حمزة، و کان کل واحد منهم یرید أن یکفلها هو دون غیره فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی: «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی»[۹۹].

-۶

روی جابر بن عبد اللّه أنّه عند ما أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بسدّ جمیع أبواب المنازل التی کانت مشرعة إلی المسجد إلّا باب بیت علی علیه السلام، قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّه یحلّ لک فی المسجد ما یحلّ لی، و إنّک بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۱۰۰].

هذه الموارد الستّة النّبی هی غیر غزوة تبوک، أخذناها برمتها من المصادر المعروفة لأهل السنّة، و إلّا فإن هناک فی الرّوایات المرویّة عن طریق الشیعة موارد أخری قال فیها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذه العبارة فی شأن علی علیه السلام أیضا.

من مجموع ذلک یستفاد- بوضوح و جلاء- أنّ حدیث المنزلة لم یکن مختصا بغزوة تبوک، بل هو أمر عام و دائم فی شأن علی علیه السلام.

و من هنا یتّضح أیضا- أنّ ما تصوره بعض علماء السنّة مثل «الآمدی» من أن هذا الحدیث یتکفل حکما خاصا فی مجال خلافة علی علیه السلام و أنّه یرتبط بظرف غزوة تبوک خاصّة، و لا یرتبط بغیره من الظروف و الأوقات، تصوّر باطل أساسا، لأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کرّر هذه العبارة فی مناسبات متنوعة ممّا یفید أنّه کان حکما عاما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۲

محتوی حدیث المنزلة:

لو درسنا- بموضوعیة و تجرّد- هذا الحدیث، و تجنّبنا الأحکام المسبّقة و التحججات الناشئة من العصبیة، لاستفدنا من هذا الحدیث أنّ علیّا علیه السلام کان له- بموجب هذا الحدیث- جمیع المنازل التی کانت لهارون فی بنی إسرائیل- إلّا النّبوة- لأنّ لفظ الحدیث عام، و الاستثناء (إلّا أنّه لا نبیّ بعدی) یؤکّد هو الآخر هذه العمومیّة، و لا یوجد أیّ قید أو شرط فی هذا الحدیث یخصصه و یقیّده.

و علی هذا الأساس یمکن أن یستفاد من هذا الحدیث الأمور التالیة:

۱- إنّ الإمام علیا علیه السلام أفضل الأئمّة بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما کان لهارون مثل هذا المقام.

۲- إنّ علیا وزیر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و معاونه الخاص و عضده، و شریکه فی قیادته، لأنّ القرآن أثبت جمیع هذه المناصب لهارون عند ما یقول حاکیا عن موسی قوله: وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هارُونَ أَخِی، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی [۱۰۱].

۳- إنّه کان لعلی علیه السلام- مضافا إلی الأخوة الإسلامیة العامّة مقام الأخوة الخاصّة و المعنویة للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۴- إنّ علیّا علیه السلام کان خلیفة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و مع وجوده لم یکن أی شخص آخر یصلح لهذا المنصب.

أسئلة حول حدیث المنزلة:

لقد أورد بعض المتعصبین إشکالات و اعتراضات علی هذا الحدیث و التمسک به لإثبات خلافة علی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بلا فصل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۳

بعض الإشکالات و الاعتراضات واهیة جدا إلی درجة لا تصلح للطرح علی بساط المناقشة، بل لا یملک المرء عند السماع بها إلّا إن یتأسف علی حال البعض کیف صدّتهم الأحکام المسبقة غیر المدروسة عن قبول الحقائق الواضحة؟

أمّا البعض الآخر من الإشکالات القابلة للمناقشة و الدراسة فنطرحها علی بساط البحث تکمیلا لهذه الدراسة:

الإشکال الأوّل: إن هذا الحدیث یبین- فقط- حکما خاصا محدودا، لأنّه ورد فی غزوة تبوک، و ذلک عند ما انزعج علی علیه السلام من استبقائه فی المدینة بین النساء و الصبیان، فسلّاه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذه العبارة:

و على هذا الأساس كان المقصود هو: إنّك وحدك الحاكم و القائد لهذه النسوة و الصبيان دون غيرك.

و قد اتضح الجواب على هذا الإشكال من الأبحاث السابقة- بجلاء- و تبيّن أنّه- على خلاف تصور المعترضين- لم يرد هذا الحديث فى واقعة واحدة، و لم يصدر فى واقعة تبوك فقط، بل صدر فى موارد عديدة على أساس كونه يتكفل حكما كليّا، و قد أشرنا إلى سبعة موارد و مواضع منها مع ذكر أسانيدها من مؤلفات علماء أهل السنة.

هذا مضافا إلى أنّ بقاء علىّ عليه السلام فى المدينة لم يكن أمرا بسيطا يهدف المحافظة على النساء و الصبيان فقط، بل لو كان الهدف هو هذا، لتيسر للآخرين القيام به، و إنّ النّبى لم يكن ليترك بطل جيشه البارز فى المدينة لهدف صغير، و هو يتوجه إلى قتال امبراطورية كبرى (هى إمبراطورية الروم الشرقية).

إنّ من الواضح أنّ الهدف كان هو منع أعداء الرسالة الكثيرين الساكنين فى أطراف المدينة و المنافقين القاطنين فى نفس المدينة، الذين كانوا يفكرون فى استغلال غيبة النّبى الطويلة لاجتياح المدينة قاعدة الإسلام، و لهذا عمد رسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۴

اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أن يخلف فى غيبته شخصيّة قويّة يمكنه أن يحفظ هذا المركز الحساس، و لم تكن هذه الشخصية سوى على عليه السلام.

الإشكال الثّانى: نحن نعلم- كما اشتهر فى كتب التاريخ أيضا- أنّ هارون توفى فى عصر موسى عليه السلام نفسه، و لهذا لا يثبت التشبيه بهارون أن عليّا عليه السلام خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد وفاته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لعل هذا هو أهم إشكال أورد على هذا البحث و التمسك به، و لكن جملة

«إلّا أنّه لا نبى بعدى»

تجيب على هذا الإشكال بوضوح، لأنّه إذا كان كلام

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يقول: أنت منّى بمنزلة هارون من موسى،

خاصا بزمان حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما كانت هناك ضرورة إلى جملة

«إلّا أنّه لا نبى بعدى»

لأنّه إذا اختص هذا الكلام بزمان حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكان التحدث حول من يأتى بعده غير مناسب أبدا (إذ يكون لهذا الاستثناء- كما اصطلح فى العربية- طابع الاستثناء المنقطع الذى هو خلاف الظاهر).

و على هذا الأساس يكشف وجود هذا الاستثناء- بجلاء- أنّ كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ناظر إلى مرحلة ما بعد وفاته، غاية ما هنالك و لكى لا يلتبس الأمر، و لا يعتبر أحد عليّا عليه السلام نبيّا بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: إنّ لك جميع هذه المنازل و لكنّك لن تكون نبيّا بعدى.

فيكون مفهوم كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أن لك جميع ما لهارون من المناصب و المنازل، لا فى حياتى فقط، بل أنّ هذه المنازل تظلّ مستمرة و باقية لك إلّا مقام النّبوة.

و بهذه الطريقة يتّضح أن تشبيه على عليه السلام بهارون، إنّما هو من حيث المنازل و المناصب، لا من حيث مدّة استمرار هذه المنازل و المناصب، و لو أنّ هارون كان يبقى حيا لكان يتمتع بمقام الخلافة لموسى و مقام النّبوة معا.

و مع ملاحظة أنّ هارون كان له- حسب صريح القرآن- مقام الوزارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۵

و المعاونة لموسى، و كذا مقام الشركة فى أمر القيادة (تحت إشراف موسى) كما أنّه كان نبيّا، تثبت جميع هذه المنازل لعلى عليه السلام إلّا النّبوة، حتى بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشهادة عبارة

(إلّا أنّه لا نبى بعدى).

الإشكال الثّالث: إنّ الاستدلال بهذا الحديث يستلزم أنّه كان لعلى عليه السلام منصب الولاية و القيادة حتى فى زمن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حين لا يمكن أن يكون هناك إمامان و قائدان فى عصر واحد.

و لكن مع الالتفات إلى النقطة التالية يتّضح الجواب على هذا الإشكال أيضا، و هى أنّ هارون كان له- من دون شك- مقام قيادة بنى إسرائيل حتى فى عصر موسى عليه السلام، و لكن لا بقيادة مستقلة، بل كان قائدا يقوم بممارسة وظائفه تحت إشراف موسى. و قد كان على عليه السلام فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معاونا للنّبى فى قيادة الأمّة أيضا، و على هذا الأساس يصير قائدا مستقلا بعد وفاة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و على كل حال، فإنّ حديث المنزلة الذى هو من حيث الأسانيد من أقوى الأحاديث و الرّوايات الإسلامية التى وردت فى مؤلفات جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء، إنّ هذا الحديث يوضح لأهل الإنصاف من حيث الدلالة أفضلية على عليه السلام على الأمّة جمعاء، و أيضا خلافته المباشرة (و بلا فصل) بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكن مع العجب العجاب أنّ البعض لم يكتف برفض دلالة الحديث على الخلافة، بل قال: إنّه لا يتضمّن و لا يثبت أدنى فضيلة لعلىّ عليه السلام ... و هذا حقّا أمر محيّر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۶

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۴۳]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳)

التّفسير

المطالبة برؤية اللّه:

فى هذه الآيات و الآيات اللاحقة يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بنى إسرائيل، و ذلك عند ما طلب جماعة من بنى إسرائيل من موسى عليه السلام- بإلحاح و إصرار- أن يروا اللّه سبحانه، و أنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلا من قومه و اصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، و هناك رفع طلبهم إلى اللّه سبحانه، فسمع جوابا أوضح لبنى إسرائيل كل شىء فى هذا الصعيد.

و قد جاء قسم من هذه القصّة فى سورة البقرة الآية (۵۵) و (۵۶)، و قسم آخر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۷

منه فى سورة النساء الآية (۱۵۳)، و قسم ثالث فى الآيات المبحوثة هنا فى الآية (۱۵۵) من هذه السورة.

ففى الآيات الحاضرة يقول أوّلا: وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ

و لكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبى: كلا، لن ترانى أبدا قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا.[۱۰۲] فلمّا رأى موسى هذا المشهد الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنّه سقط على

الأرض مغمى عليه وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً.

و عند ما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبت إليك، و أنا أوّل من آمن بك فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

بحوث

اشارة

و فى هذه الآية نقاط ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

۱- لماذا طلب موسى رؤية اللّه؟

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه هنا هو: كيف طلب موسى عليه السلام- و هو النّبى العظيم و من أولى العزم- رؤية اللّه و هو يعلم جيدا أن اللّه ليس بجسم، و ليس له مكان، و لا- هو قابل للمشاهدة و الرؤية، و الحال أن مثل هذا الطلب لا- يليق حتى بالأفراد العاديّين من الناس؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۸

صحيح أنّ المفسّرين ذكروا أجوبة مختلفة على هذا السؤال، و لكن أوضح الأجوبة هو أن موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعة من جهلة بنى إسرائيل أصرّوا على أن يروا اللّه حتى يؤمنوا (و الآية ۱۵۳ من سورة النساء خير شاهد على هذا الأمر) و قد أمر موسى عليه السلام من جانب اللّه أن يطرح مطلب قومه هذا على اللّه سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافى، و قد صرّح بهذا فى رواية مرويّة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى كتاب عيون أخبار الرضا أيضا[۱۰۳].

و من القرائن الواضحة التى تؤيد هذا التّفسير ما نقرأه فى الآية (۱۵۵) من نفس هذه السورة، من أنّ موسى عليه السلام قال بعد ما حدث ما حدث: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا.

فيتّضح من هذه الجملة أنّ موسى عليه السلام لم يطلب لنفسه مثل هذا الطلب إطلاقا، بل لعلّ الرجال السبعين الذين صعدوا معه إلى الميقات هم أيضا لم يطلبوا مثل هذا الطلب غير المعقول و غير المنطقى، إنّهم كانوا مجرّد علماء، و مندوبين من جانب بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام لينقلوا فيما بعد مشاهداتهم لجماعات الجهلة و الغافلين الذين طلبوا رؤية اللّه سبحانه و تعالى و مشاهدته.

۲- هل يمكن رؤية اللّه أساسا؟

نقرأ فى الآية الحاضرة أنّ اللّه سبحانه قال لموسى عليه السلام: انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فهل مفهوم هذا الكلام هو أنّ اللّه قابل للرؤية أساسا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۲۰۸

جواب هو أن هذا التعبير هو كناية عن استحالة مثل هذا الموضوع، مثل جملة (حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط) و حيث أنّه كان من المعلوم أنّ الجبل يستحيل أن يستقر فى مكانه عند تجلّى اللّه له، لهذا ذكر هذا التعبير.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۰۹

۳- ما هو المراد من تجلّی اللّه؟

لقد وقع کلام کثیر بین المفسّرین فی هذا الصعید، و لکن ما یبدو للنظر من مجموع الآیات أنّ اللّه أظهر إشعاعة من أحد مخلوقاته علی الجبل (و تجلّی آثاره بمنزلة تجلیه نفسه) و لکن ماذا کان ذلک المخلوق؟ هل کان إحدی الآیات الإلهیة العظیمة التی بقیت مجهولة لنا إلی الآن، أو أنّه نموذج من قوة الذرّة العظیمة، أو الأمواج الغامضة العظیمة التأثیر و الدفع، أو الصاعقة العظیمة الموحشة التی ضربت الجبل و أوجدت برقا خاطفا للأبصار و صوتا مهیبا رهیبا و قوّة عظیمة جدا، بحیث حطّمت الجبل و دکّته دکّا[۱۰۴]؟! و کأنّ اللّه تعالی أراد أن یری- بهذا العمل- شیئین لموسی علیه السلام و بنی إسرائیل:

الأوّل: أنّهم غیر قادرین علی رؤیة ظاهرة جد صغیرة من الظواهر الکونیة العظیمة، و مع ذلک کیف یطلبون رؤیة اللّه الخالق.

الثانی: کما أن هذه الآیة الإلهیة العظیمة مع أنّها مخلوق من المخلوقات لا أکثر، لیست قابله للرؤیة بذاتها، بل المرئی هو آثارها، أی الرجة العظیمة، و المسموع هو صوتها المهیب. أمّا أصل هذه الأشیاء أی تلک الأمواج الغامضة أو القوة العظیمة فلا هی تری بالعین، و لا هی قابلة للإدراک بواسطة الحواس الأخری، و مع ذلک هل یستطیع أحد أن یشک فی وجود مثل هذه الآیة، و یقول:

حیث أنّنا لا نری ذاتها، بل ندرک فقط آثارها فلا یمکن أن نؤمن بها.

فإذا یصح الحکم هذا حول مخلوق من المخلوقات، فکیف یصح أن یقال عن اللّه تعالی: بما أنّه غیر قابل للرؤیة، إذن لا یمکننا الإیمان به، مع أنّه ملأت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۰

آثاره کل مکان؟

و هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة و هو أنّ موسی علیه السلام طلب لنفسه هذا المطلب حقیقة، و لکن لم یکن مقصوده مشاهدته بالعین التی تستلزم جسمانیته تعالی، و تنافی نبوة موسی علیه السلام، بل المقصود هو نوع من الإدراک الباطنی و المشاهدة الباطنیة، نوع من الشهود الکامل الروحیّ و الفکری، لأنّه کثیرا ما تستعمل الرؤیة فی هذا المعنی مثلما نقول: «أنا أری فی نفسی قدرة علی القیام بهذا العمل» فی حین أنّ القدرة لیست شیئا قابلا للرؤیة، بل المقصود هو أنّنی أجد هذه الحالة فی نفسی بوضوح.

کان موسی علیه السلام یرید أن یصل إلی هذه المرحلة من الشهود و المعرفة، فی حین أن الوصول إلی هذه المرحلة لم یکن ممکنا فی الدنیا، و إن کان ممکنا فی عالم الآخرة الذی هو عالم الشهود.

و لکن اللّه تعالی أجاب موسی علیه السلام قائلا: إنّ مثل هذه الرؤیة غیر ممکنة لک، و لإثبات هذا المطلب تجلّی للجبل، فتحطّم الجبل و تلاشی، و بالتالی تاب موسی من هذا الطلب ۱۰۵].

و لکن هذا التّفسیر مخالف لظاهر الآیة المبحوثة هنا، و یتطلب ارتکاب التجوّز من جهات عدیدة[۱۰۶] هذا مضافا إلی أنّه ینافی بعض الرّوایات الواردة فی تفسیر الآیة أیضا، فالحق هو التّفسیر الأول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۱

۴- مم تاب موسی علیه السلام؟

إنّ آخر سؤال یطرح نفسه هنا هو: أن موسی علیه السلام بعد أن أفاق قال: تُبْتُ إِلَیْکَ فی حین أنّه لم یرتکب إثما أو معصیة، لأن هذا

الطلب كـان من جـانب بنى إسـرائيل، و كـان طرحه بتكليف من اللّه، فهو أدى واجبه إذن، ثمّ إذا كان هـذا الطلب لنفسه و كان مراده الشهود الباطنى لم يحسب هذا العمل إثما؟؟

و لكن يمكن الجواب على هذا السؤال من جانبين:

الأوّل: أن موسى طلب مثل هذا الطلب بالنيابة عن بنى إسرائيل، و مع ذلك طلب من اللّه أن يتوب عليه، و أظهر الإيمان.

الآخر: أنّ موسـى عليه السـلام و إن كان مكلّفا بأن يطرح طلب بنى إسـرائيل، و لكنّه عند ما تجلى ربّه للجبل و اتّضـحت حقيقة الأمر، انتهت مـدّة هـذا التكليف، و فى هـذا الوقت لا بدّ من العودة إلى الحالة الأولى يعنى الرجوع إلى ما قبل التكليف، و إظهار إيمانه حتى لا تبقى شبهة لأحد، و قد بيّن ذلك بجملة، إنى تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ

۵- اللّه غير قابل للرؤية مطلقا

إنّ هـذه الآيـة من الآيات التى تشـهد بقوة و جلاء أنّ اللّه غير قابل للرؤيـة و المشاهدة مطلقا، لأنّ كلمة «لن» حسب ما هو مشـهور بين اللغويين للنفى الأبدى، و على هذا الأساس يكون مفهوم جملة لَنْ تَرانِى إنّك لا ترانى لا فى هذا العالم و لا فى العالم الآخر.

و لو أنّ أحدا شكّك- افتراضا- فى أن يكون «لن» للنفى التأبيدى يدل إطلاق الآية، و كون نفى الرؤية ذكر من دون قيد أو شرط على أن اللّه غير قابل للرؤية فى مطلق الزمان و جميع الظروف.

إنّ الأدلة العقلية هى الأخرى تهدينا إلى هذه الحقيقة، لأنّ الرؤية تختص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۲

بالأجسام.

و على هـذا الأسـاس، إذا جـاء فى الأحاديث و الأخبار الإسـلامية أو الآيات القرآنيـة عبارة «لقاء اللّه» فإن المقصود هو المشاهـدة بعين القلب و العقل، لأنّ القرينـة العقلية و النقلية أفضل شاهد على هذا الموضوع و قد كان لنا أبحاث أخرى فى ذيل الآية (۱۰۲) من سورة الأنعام فى هذا الصعيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۴ الى ۱۴۵]

اشارة

قالَ يا مُوسـى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِى وَ بِكَلامِى فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنا لَهُ فِى الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (۱۴۵)

التّفسير

ألواح التوراة:

و فى النهاية أنزل اللّه شرائع و قوانين دينه على موسى عليه السلام.

ففى البداية: قالَ يا مُوسى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِى وَ بِكَلامِى

فإذا كان الأمر كذلك فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ

فهل يستفاد من هذه الآية أن التكلم مع اللّه كان من امتيازات موسى الخاصّة به دون بقية الأنبياء، يعنى اصطفيتك لمثل هذا الأمر من بين الأنبياء؟

الحق أنّ هذه الآية ليست بصدد إثبات مثل هذا الأمر، بل إن هدف الآية- بقرينة ذكر الرسالات التى كانت لجميع الأنبياء- هو بيان امتيازين كبيرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۴

لموسى على الناس: أحدهما تلقى رسالات اللّه و تحمّلها، و الآخر التكلّم مع اللّه، و كلا هذين الأمرين من شأنهما تقوية مقام قيادته بين أمته.

ثمّ أضاف تعالى واصفا محتويات الألواح التى أنزلها على موسى عليه السلام بقوله:

وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

ثمّ أمره بأن يأخذ هذه التعاليم و الأوامر مأخذ الجد، و يحرص عليها بقوة فَخُذْها بِقُوَّةٍ.

و أن يأمر قومه أيضا بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها.

كما يحذرهم بأن مخالفة هذه الأوامر و التعاليم و الفرار من المسؤوليات و الوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، و أن عاقبتها هى جهنم و سوف يرى الفاسقون مكانهم سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ

بحوث

اشارة

ثمّ إن هاهنا نقاط عديدة ينبغى التوقف عندها و الالتفات إليها:

۱- نزول الألواح على موسى

إنّ ظاهر الآية الحاضرة يفيد أن اللّه تعالى أنزل ألواحا على موسى عليه السلام قد كتب فيها شرائع التوراة و قوانينها، لا أنّه كانت فى يدى موسى عليه السلام ألواح ثمّ انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر اللّه.

و لكن ماذا كانت تلك الألواح، و من أى مادة؟ إنّ القرآن لم يتعرض لذكر هذا الأمر، و إنما أشار إليها بصورة الإجمال و بلفظة «الألواح» فقط، و هذه الكلمة جمع «لوح»، و هى مشتّقة من مادة «لاح يلوح» بمعنى الظهور و السطوع، و حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۵

أنّ المواضيع تتّضح و تظهر بكتابتها على صفحة، تسمى الصفحة لوحا[۱۰۷].

و لكن ثمّة احتمالات مختلفة فى الرّوايات و أقوال المفسّرين حول كيفية و جنس هذه الألواح، و حيث إنّها ليست قطعية أعرضنا عن ذكرها و التعرض لها.

۲- كيف كلّم اللّه موسى؟

یستفاد من الآیات القرآنیة المتنوعة أنّ اللّه تعالی کلّم موسی علیه السلام، و کان تکلیم اللّه لموسی عن طریق خلق أمواج صوتیة فی الفضاء أو فی الأجسام، و ربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتیة من خلال «شجرة الوادی الأیمن» و ربّما من «جبل طور» و تبلغ مسمع موسی فما ذهب الیه البعض من أن هذه الآیات تدلّ علی جسمانیة اللّه تعالی جمودا علی الألفاظ تصوّر خاطئ بعید عن الصواب.

علی أنّه لا شک فی أن ذلک التکلّم کان من جانب اللّه تعالی بحیث أن موسی علیه السلام کان لا یشک عند سماعه له فی أنّه من جانب اللّه، و کان هذا العلم حاصلا لموسی، إمّا عن طریق الوحی و الإلهام أو من قرائن أخری.

۳- عدم وجوب جمیع تعالیم الألواح

یستفاد من عبارة مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً أنّه لم تکن جمیع المواعظ و المسائل موجودة فی ألواح موسی علیه السلام لأنّ اللّه یقول: وَ کَتَبْنا لَهُ فِی الْأَلْواحِ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ مَوْعِظَةً و هذا لأجل أن دین موسی علیه السلام لم یکن آخر دین، و لم یکن موسی علیه السلام خاتم الأنبیاء، و من المسلّم أن الأحکام الإلهیة التی نزلت کانت فی حدود ما یحتاجه الناس فی ذلک الزمان، و لکن عند ما وصلت البشریة إلی آخر مرحلة حضاریة للشرایع السماویة نزل آخر دستور إلهی یشمل جمیع حاجات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۶

الناس المادیة و المعنویة.

و تتّضح من هذا أیضا علة تفضیل مقام علی علیه السلام علی مقام موسی علیه السلام فی بعض الرّوایات ۱۰۸]، و هی أن علیا علیه السلام کان عارفا بجمیع القرآن، الذی فیه تبیان کل شیء نَزَّلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ فی حین أنّ التوراة لم یرد فیها إلّا بعض المسائل.

۴- هل فی الألواح تعالیم حسنة و أخری غیر حسنة؟

إنّ ما نقرؤه فی الآیة وَ أْمُرْ قَوْمَکَ یَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها لا یعنی أنّه کانت فی ألواح موسی تعالیم «حسنة» و أخری «سیئة» و أنّهم کانوا مکلّفین بأن یأخذوا بالحسنة و یترکوا السیئة، أو کان فیها الحسن و الأحسن، و کانوا مکلّفین بالأخذ بالأحسن فقط، بل ربّما تأتی کلمة «أفعل التفضیل» بمعنی الصفة المشبهة، و الآیة المبحوثة من هذا القبیل ظاهرا، یعنی أن «الأحسن» هنا بمعنی «الحسن» و هذا إشارة إلی أن جمیع تلک التعالیم کانت حسنة و جیدة.

ثمّ إنّ هناک احتمالا آخر فی الآیة الحاضرة- أیضا- و هو أن الأحسن بمعنی أفعل التفضیل، و هو إشارة إلی أنّه کان بین تلک التعالیم أمور مباحة (مثل القصاص) و أمور أخری و صفت بأنّها أحسن منها (مثل العفو) یعنی: قل لقومک و من اتبعک لیختاروا ما هو أحسن ما استطاعوا، و للمثال یرجحوا العفو علی القصاص (إلّا فی موارد خاصّة)[۱۰۹].

۵- فی مجال قوله: سَأُرِیکُمْ دارَ الْفاسِقِینَ الظاهر أن المقصود منها هو جهنم، و هی مستقرّ کل أولئک الذین یخرجون من طاعة اللّه، و لا یقومون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۷

بوظائفهم الإلهیة.

ثمّ إنّ بعض المفسّرین احتمل أیضا أن یکون المقصود هو أنّکم إذا خالفتم هذه التعالیم فإنکم سوف تصابون بنفس المصیر الذی أصیب به قوم فرعون و الفسقة الآخرون، و تتبدل أرضکم إلی دار الفاسقین ۱۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۸

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۶ الى ۱۴۷]

اشارة

سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷)

التّفسير

مصير المتكبرين:

البحث فى هاتين الآيتين هو فى الحقيقة نوع من عملية استنتاج من الآيات الماضية عن مصير فرعون و ملئه و العصاة من بنى إسرائيل، فقد بيّن اللّه فى هذه الآيات الحقيقة التالية و هى: إذا كان الفراعنة أو متمرّدو بنى إسرائيل لم يخضعوا للحق مع مشاهدة كل تلك المعاجز و البينات، و سماع كل تلكم الحجج و الآيات الإلهية، فذلك بسبب أنّنا نصرف المتكبرين و المعاندين للحق- بسبب أعمالهم- عن قبول الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۱۹

و بعبارة أخرى: إنّ الإصرار على تكذيب الآيات الإلهية قد ترك فى نفوسهم و أرواحهم أثرا عجيبا، بحيث خلق منهم أفرادا متصلبين منغلقين دون الحق، لا يستطيع نور الهدى من النفوذ إلى قلوبهم.

و لهذا يقول أوّلا: سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ

و من هنا يتّضح أنّ الآية الحاضرة لا تنافى أبدا الأدلة العقلية حتى يقال بتأويلها كما فعل كثير من المفسّرين- إنّها سنة إلهية أن يسلب اللّه من المعاندين الألدّاء توفيق الهداية بكل أشكاله و أنواعه فهذه هى خاصية أعمالهم القبيحة أنفسهم، و نظرا لانتساب جميع الأسباب إلى اللّه الذى هو علّة العلل و مسبب الأسباب فى المآل نسبت إليه.

و هذا الموضوع لا هو موجب للجبر، و لا مستلزم لأى محذور آخر، حتى نعمد إلى توجيه الآية بشكل من الأشكال.

هذا، و لا بدّ من الالتفات- ضمنيا- إلى أنّ ذكر عبارة بِغَيْرِ الْحَقِ بعد لفظة:

التكبر إنّما هو لأجل التأكيد، لأنّ التكبر و الشعور بالاستعلاء على الآخرين و احتقار عباد اللّه يكون دائما بغير حق، و هذا التعبير يشبه الآية (۶۱) من سورة البقرة، عند ما يقول سبحانه: وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِ فقيد بغير الحق هنا قيد توضيحى، و توكيدى لأنّ قتل الأنبياء هو دائما بغير حق.

خاصّة أنّها أردفت بكلمة «فى الأرض» الذى يأتى بمعنى التكبر و الطغيان فوق الأرض، و لا شك أنّ مثل هذا العمل يكون دائما بغير حق.

ثمّ أشار تعالى إلى ثلاثة أقسام من صفات هذا الفريق «المتكبر المتعنت» و كيفية سلب توفيق قبول الحق عنهم.

الأولى قوله تعالى: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها إنّهم لا يؤمنون حتى و لو رأوا جميع المعاجز و الآيات و الثّانية، وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۰

سَبِيلًا و الثّالثة إنّهم على العكس وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا.

بعد ذكر هذه الصفات الثلاث الحاكية برمتها عن تصلب هذا الفريق تجاه الحق، أشار إلى عللها و أسبابها، فقال: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ

و لا شك أنّ التكذيب لآيات اللّه مرّة- أو بضع مرات- لا يستوجب مثل هذه العاقبة، فباب التوبة مفتوح فى وجه مثل هذا الإنسان، و إنّما الإصرار فى هذا الطريق هو الذى يوصل الإنسان إلى نقطة لا يعود معها يميّز بين الحسن و القبيح، و المستقيم و المعوج، أى يسلب القدرة على التمييز بين «الرشد» و «الغى».

ثمّ تبيّن الآية اللاحقة عقوبة مثل هؤلاء الأشخاص و تقول: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ

و «الحبط» يعنى بطلان العمل و فقدانه للأثر و الخاصية، يعنى أنّ مثل هؤلاء الأفراد حتى إذا عملوا خيرا فإنّ عملهم لن يعود عليهم بنتيجة (و للمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع ما كتبناه عند تفسير الآية ۲۱۷ من سورة البقرة).

و فى ختام الآية أضاف بأن هذا المصير ليس من باب الانتقام منهم، إنما هو نتيجة أعمالهم هم، بل هو عين أعمالهم ذاتها و قد تجسمت أمامهم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ ! إنّ هذه الآية نموذج آخر من الآيات القرآنية الدالة على تجسّم الأعمال، و حضور أعمال الإنسان خيرها و شرها يوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۱

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۴۸ الى ۱۴۹]

اشارة

وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۱۴۹)

التّفسير

اليهود و عبادتهم للعجل:

فى هذه الآيات يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، و فى نفس الوقت العجيبة التى وقعت فى بنى إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، و هى قصّة عبادتهم للعجل التى تمّت على يد شخص يدعى «السامرى» مستعينا بحلى بنى إسرائيل و ما كان عندهم من آلات الزّينة.

إنّ هذه القصّة مهمّة جدّا بحيث إنّ اللّه تعالى أشار إليها فى أربع سور، فى سورة البقرة الآية (۵۱) و (۵۴) و (۹۲) و (۹۳)، و فى سورة النساء الآية (۱۵۳)، و الأعراف الآيات المبحوثة هنا، و فى سورة طه الآية (۸۸) فما بعد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۲

على أنّ هذه الحادثة مثل بقية الظواهر الاجتماعية لم تكن لتحدث من دون مقدمة و أرضيّة، فبنوا إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة فى مصر و شاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول. و من جانب آخر عند ما عبروا النيل شاهدوا فى الضفة الأخرى مشهدا من الوثنية، حيث وجدوا قوما يعبدون البقر، و كما مرّ عليك فى الآيات السابقة طلبوا من موسى عليه السلام صنما كتلك الأصنام، و لكن

موسى عليه السلام وبّخهم و ردّهم، و لا مهم بشدّة.

و ثالث، تمديد مدّة ميقات موسى عليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذى تسبب فى أن تشيع فى بنى إسرائيل شائعة وفاة موسى عليه السلام بواسطة بعض المنافقين، كما جاء فى بعض التفاسير.

و الأمر الرابع، جهل كثير من بنى إسرائيل بمهارة السامرىّ فى تنفيذ خطته المشئومة، كل هذه الأمور ساعدت على أن تقبل أكثرية بنى إسرائيل فى مدّة قصيرة على الوثنية، و يلتفوا حول العجل الذى أوجده لهم السامرىّ للعبادة.

و فى الآية الحاضرة يقول القرآن الكريم أوّلا: إنّ قوم موسى عليه السلام بعد ذهابه إلى ميقات ربّه صنعوا من حليّهم عجلا، و كان مجرّد تمثال لا- روح فيه، و لكنّه كان له صوت كصوت البقر، و اختاروه معبودا لهم: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ و مع أنّ هذا العمل (أى صنع العجل من الحلىّ) صدر من السامرىّ (كما تشهد بذلك آيات سورة طه) إلّا أنّه مع ذلك نسب هذا العمل إلى بنى إسرائيل لأنّ كثيرا منهم ساعد السامرىّ فى هذا العمل و عاضده، و بذلك كانوا شركاء فى جريمته، فى حين رضى بفعله جماعة أكبر منهم.

و ظاهر هذه الآية و إن كان يفيد- فى بدء النظر- أنّ جميع قوم موسى شاركوا فى هذا العمل، إلّا أنّه بالتوجه إلى الآية (۱۵۹) من هذه السورة، التى تقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ يستفاد أنّ المراد من الآية المبحوثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۳

هنا ليس كلّهم، بل أكثرية عظيمة منهم سلكوا هذا السبيل، و ذلك بشهادة الآيات القادمة التى تعكس عجز هارون عن مواجهتها و صرفها عن ذلك.

كيف كان للعجل الذهبى خوار؟

و «الخوار» هو الصوت الخاص الذى يصدر من البقر أو العجل، و قد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ السامرى بسبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصّة فى باطن صدر العجل الذهبى، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبىّ شبيه بصوت البقر.

و يقول آخرون: كان العجل قد وضع فى مسير الريح بحيث كان يسمع منه صوت على أثر مرور الريح على فمه الذى كان مصنوعا بهيئة هندسية خاصّة.

أمّا ما ذهب إليه جماعة من المفسّرين من أن السامرىّ أخذ شيئا من تراب من موضع قدم جبرئيل و صبّه فى العجل فصار كائنا حيا، و أخذ يخور خوارا طبيعيا فلا شاهد عليه فى آيات القرآن الكريم، كما سيأتى بإذن اللّه فى تفسير آيات سورة طه.

و كلمة «جسدا» شاهد على أن ذلك العجل لم يكن حيوانا حيا، لأنّ القرآن يستعمل هذه اللفظة فى جميع الموارد فى القرآن الكريم بمعنى الجسم المجرّد من الحياة و الروح ۱۱۱] و بغض النظر عن جميع هذه الأمور يبعد أن يكون اللّه سبحانه قد أعطى الرجل المنافق (مثل السامرىّ) مثل تلك القدرة التى يستطيع بها أن يأتى بشىء يشبه معجزة النّبى موسى عليه السلام، و يحيى جسما ميتا، و يأتى بعمل يوجب ضلال الناس حتما و لا يعرفون وجه بطلانه و فساده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۴

أمّا لو كان العجل بصورة تمثال ذهبى كانت أدلة بطلانه واضحة عندهم، و كان من الممكن أن يكون وسيلة لاختبار الأشخاص لا شىء آخر.

و النقطة الأخرى التى يجب الانتباه إليها، هى أنّ السامرى كان يعرف أن قوم موسى عليه السلام قد عانوا سنين عديدة من الحرمان،

مضافا إلى أنّهم كانت تغلب عليهم روح المادية- كما هو الحال فى أجيالهم فى العصر الحاضر- و يولون الحليّ و الذهب احتراما خاصّا، لهذا صنع عجلا من ذهب حتى يستقطب إليه اهتمام بنى إسرائيل من عبيد الثروة.

أمّا أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب و الفضة؟

فقد جاء فى الرّوايات أن نساء بنى إسرائيل كنّ قد استعرن من الفرعونيين كمية كبيرة من الحليّ و الذهب و الفضّة لإقامة أحد أعيادهن، ثمّ حدثت مسألة الغرق و هلاك آل فرعون، فبقيت تلك الحلى عند بنى إسرائيل ۱۱۲].

ثمّ يقول القرآن الكريم معاقبا و موبّخا: ألم ير بنو إسرائيل أن هذا العجل لا يتكلم معهم و لا يهديهم لشىء، فكيف يعبدونه؟ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا.

يعنى أن المعبود الحقيقى هو من يعرف- على الأقل- الحسن و القبيح، و تكون له القدرة على هداية أتباعه، و يتحدث إلى عبدته و يهديهم سواء السبيل، و يعرّفهم على طريقة العبادة.

و أساسا كيف يسمح العقل البشرى بأن يعبد الإنسان شيئا ميتا صنعه و سوّاه بيده، حتى لو استطاع- افتراضا- أن يبدّل الحلّى إلى عجل واقعى فإنّه لا يليق به أن يعبده، لأنّه عجل يضرب ببلادته المثل.

إنّهم فى الحقيقة ظلموا بهذا العمل أنفسهم، لهذا يقول فى ختام الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۵

اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ

بيد أنّه برجوع موسى عليه السلام إليهم، و اتضاح الأمر عرف بنو إسرائيل خطأهم، و ندموا على فعلهم، و طلبوا من اللّه أن يغفر لهم، و قالوا: إذا لم يرحمنا اللّه و لم يغفر لنا فإنّنا لا شك خاسرون وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و جملة سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ أى عند ما عثروا على الحقيقة، أو عند ما وقعت نتيجة عملهم المشؤومة بأيديهم، أو عند ما سقطت كل الحيل من أيديهم و لم يبق بأيديهم شىء فى الأدب العربى كناية عن الندامة، لأنّه عند ما يقف الإنسان على الحقائق، و يطلع عليها، أو يصل إلى نتائج غير مرغوب فيها، أو تغلق فى وجهه أبواب الحيلة، فإنّه يندم بطبيعة الحال، و لهذا يكون الندم من لوازم مفهوم هذه الجملة.

و على كل حال، فقد ندم بنو إسرائيل من عملهم، و لكن الأمر لم ينته إلى هذا الحدّ، كما نقرأ فى الآيات اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۰ الى ۱۵۱]

اشارة

وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۵۰) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۱۵۱)

التّفسير

ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل:

فى هـاتين الآـيتين بيّن تعالى بالتفصـيل ما جرى بين موسـى عليه السـلام و بين عبـدة العجل عنـد عودته من ميقاته المشار اليه فى الآية السابقة. فهاتان الآيتان تعكسان ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة التى أدت إلى يقظة هذه الجماعة.

يقول فى البدء: و لما عاد موسـى عليه السـلام إلى قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم دينى و أسأتم الخلافة وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۷

غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي ۱۱۳].

إنّ هذه الآية تفيد بوضوح أن موسـى عند رجوعه إلى قومه من الميقات و قبل أن يلتقى ببنى إسـرائيل كان غضبان أسفا، و هذا لأجل أن اللّه تعالى كان قـد أخبر موسـى عليه السـلام بأنّه اختبر قومه من بعـده و قـد أضـلّهم السامرىّ قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ ۱۱۴].

ثمّ إنّ موسى عليه السلام قال لهم: أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

للمفسّرين كلام كثير فى تفسير هذه الجملة، و قد ذكروا احتمالات عديدة مختلفة، إلّا أن ظاهر الآيات يفيد أن المراد هو أنّكم تعجلتم فى الحكم بالنسبة إلى أمر اللّه تعالى فى قضية تمديـد مـدّة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرتم عدم مجيئى فى المدة المقررة- أوّلا- دليلا على موتى، فى حين كان يتعين عليكم أن تتريثوا و تنتظروا قليلا ريثما تمرّ أيّام ثمّ تتّضح الحقيقة.

و فى هذا الوقت بالذات، أى عند ما واجه موسى عليه السلام هذه الأزمة الخطيرة من حياة بنى إسرائيل، و كان الغضب الشديد يسر بل كل كيانه، و يثقل روحه حزن عميق، و قلق شديد على مستقبل بنى إسرائيل، لأنّ التخريب و الإفساد أمر سهل، و ربّما استطاع شخص واحد تخريب كيان عظيم و لكن الإصـلاح و التعمير أمر صـعب و عسير جدّا. خاصّة أنّه إذا سرت فى شعب جاهل متعنت نغمة مخالفة شاذة، وافقت هوى و رغبة، فإنّ محوها لا شك لن يكون أمرا ممكنا و سهلا.

فهنا لا بـدّ أن يظهر موسـى عليه السـلام غضـبه الشديد و يقوم بالحدّ الأعلى من ردّ الفعل و السـخط، كى يوقظ الأفكار المخدّرة لدى بنى إسرائيل، و يوجد انقلابا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۸

ذلك المجتمع الذى انحرف عن الحق، إذ العودة إلى الحق و الصواب عسيرة فى غير هذه الصورة.

إنّ القرآن يسـتعرض ردّة فعل موسـى الشديدة فى قبال ذلك المشـهد و فى تلك الأزمة، إذ يقول: إنّ موسـى ألقى ألواح التوراة التى كانت بيده، و عمد إلى أخيه هارون و أخذ برأسه و لحيته و جرهما إلى ناحيته ساخطا غاضبا.

و كمـا يسـتفاد من آيات قرآنيـة أخرى، و بخاصّـة فى سورة طه، أنّه علاوة على ذلك لام هارون بشـدّة، و صاح به، لماذا قصّـرت فى المحافظة على عقائد بنى إسرائيل و خالفت أمرى ۱۱۵].

و فى الحقيقـة كان هذا الموقف يعكس- من جانب- حالة موسـى عليه السـلام النفسـية، و انزعاجه الشديد تجاه و ثنية بنى إسـرائيل و انحرافهم، و من جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهزّ عقول بنى إسرائيل الغافية، و الفاتهم إلى بشاعة عملهم.

و بناء على هذا إذا كان إلقاء ألواح التوراة فى هذا الموقف قبيحا- فرضا- و كان الهجوم على أخيه لا يبدو كونه عملا صحيحا، و لكن مع ملاحظة الحقيقة التالية، و هى أنّه من دون إظهار هذا الموقف الانزعاجى الشديد لم يكن من الممكن إلفات نظر بنى إسـرائيل إلى بشاعـة خطئهم ... و لكـان من الممكن أن تبقى رواسب الوثنيـة فى أعمـاق نفوسـهم و أفكـارهم ... إنّ هـذا العمـل لم يكن فقـط غير مذموم فحسب، بل كان يعد عملا واجبا و ضروريا.

و من هنا يتّضح أنّنا نحتاج أبدا إلى التبريرات و التوجيهات التى ذهب إليها بعض المفسّـرين، للتوفيق بين عمل موسـى عليه السلام هذا

و بين مقام العصمة التى يتحلى بها الأنبياء، لأنّه يمكن أن يقال هنا: إنّ موسى عليه السلام انزعج فى هذه اللحظة من تأريخ بنى إسرائيل انزعاجا شديدا لم يسبق له مثيل، لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۲۹

المشاهد ألا و هو الانحراف عن التوحيد إلى عبادة العجل، و كان يرى جميع آثارها و أخطارها المتوقعة.

و على هذا فإنّ إلقاء الألواح و مؤاخذة أخيه بشدّة فى مثل هذه اللحظة مسألة طبيعية تماما.

إنّ ردة الفعل الشديدة هذه و إظهار الغضب هذا، كان له أثر تربوى بالغ فى بنى إسرائيل، فقد قلب المشهد رأسا على عقب فى حين أنّ موسى لو كان يريد أن ينصحهم بالكلمات اللينة و المواعظ الهادئة، لكان قبولهم لكلامه و نصحه أقلّ بكثير.

ثمّ إنّ القرآن الكريم ذكر أنّ هارون قال- و هو يحاول استعطاف موسى و إثبات برائته فى هذه المسألة-: يا ابن أمّ هذه الجماعة الجاهلة جعلونى ضعيفا إلى درجة أنّهم كادوا يقتلوننى، فإذن أنا برىء، فلا تفعل بى ما سيكون موجبا لشماتة الأعداء بى و لا تجعلنى فى صف هؤلاء الظالمين قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

إن التعبير ب: «ابن أمّ» فى الآية الحاضرة أو «يا ابن أمّ» (كما فى الآية ۹۴ من سورة طه) مع أن موسى و هارون كانا من أب و أم واحدة، إنّما هو لأجل تحريك مشاعر الرحمة و العطف لدى موسى عليه السلام فى هذه الحالة الساخنة.

و فى المآل تركت هذه القصّة أثرها، و سرعان ما التفت بنو إسرائيل إلى قبح أعمالهم، فاستغفروا اللّه و طلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشىء، و توجه إلى اللّه قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ لِأَخِى وَ أَدْخِلْنا فِى رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

إنّ طلب موسى عليه السلام العفو و المغفرة من اللّه تعالى لنفسه و لأخيه، لم يكن لذنب اقترفاه، بل كان نوعا من الخضوع للّه، و العودة إليه، و إظهار النفرة من أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۰

الوثنيين القبيحة، و كذا لإعطاء درس عملى للجميع حتى يفكروا و يروا إذا كان موسى و أخوه- و هما لم يقترفا انحرافا- يطلبان من اللّه العفو و المغفرة هكذا، فالأجدر بالآخرين أن ينتبهوا و يحاسبوا أنفسهم، و يتوجهوا إلى اللّه و يسألوه العفو و المغفرة لذنوبهم. و قد فعل بنو إسرائيل هذا فعلا- كما تفيد الآيتان السابقتان.

مقاربة بين تواريخ القرآن و التوراة الحاضرة:

يستفاد من الآيات الحاضرة، و آيات سورة طه أن بنى إسرائيل هم الذين صنعوا العجل لا هارون، و أنّ شخصا خاصا فى بنى إسرائيل يدعى السامرىّ هو الذى أقدم على مثل هذا العمل، و لكن هارون- أخا موسى و وزيره و مساعده- لم يكن يتفرج على هذا الأمر بل عارضه، و لم يأل جهدا فى هذا السبيل، حتى أنّهم كادوا أن يقتلوه لمعارضته لهم.

و لكن العجيب أنّ التوراة الفعلية تنسب صنع العجل و الدعوة إلى عبادته إلى هارون خليفة موسى عليه السلام و وزيره و أخيه، إذ نقرأ فى الفصل ۳۲ من سفر الخروج من التوراة، ما يلى:

«لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النّزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون و قالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأنّ هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و أتونى بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم و أتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم و صوّره بالإزميل و صنعه عجلا مسبوكا، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر.

فلمّا نظر هارون بنى مذبحا أمامه و نادى هارون و قال: غدا عيد للربّ (ثمّ بين مراسيم تقديم القرابين لهذا العمل».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۱

ثمّ تشرح التوراة قصّة رجوع موسى عليه السلام غاضبا إلى بنى إسرائيل و إلقاء التوراة، ثمّ تقول:

«و قال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبت عليه خطيّئة عظيمة؟! فقال هارون: لا يحم غضب سيدى. أنت تعرف الشعب إنّه فى شرّ».

إنّ ما ذكر هو قسم من قصة عبادة بنى إسرائيل للعجل برواية التوراة الحاضرة بالنص، فى حين أن التوراة نفسها تشير فى فصول أخرى إلى سمّو مقام هارون و علو منزلته، و من ذلك التصريح بأنّ بعض معاجز موسى قد ظهرت و تحققت على يدى هارون (الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراة).

كما أنّها تصف هارون بأنّه نبى قد أعلن عن نبوته موسى (الإصحاح الثامن من سفر الخروج أيضا).

و على كل حال، تعترف التوراة لهارون- الذى كان خليفة لموسى عليه السلام و عارفا بتعاليم شريعته- بمنزلة سامية ... و لكن انظروا إلى الخرافة التى تصف بأنّه كان صانع العجل، و من عوامل حصول الوثنية فى بنى إسرائيل، و حتى أنّه اعتذر لموسى عليه السلام عليه بما هو أقبح من الذنب حيث قال: إنّهم كانوا يميلون إلى الشرّ أساسا و قد شجعتهم عليه.

فى حين أنّ القرآن الكريم ينزه هذين القائدين من كل ألوان التلوّث بأدران الشرك و الوثنية.

على أنّه ليس هذا المورد هو المورد الوحيد الذى ينزّه فيه القرآن الكريم ساحة الأنبياء و الرسل، و تنسب التوراة الحاضرة أنواع الإهانات و الخرافات إلى الأنبياء المطهرين. و فى اعتقادنا أنّ أحد الطرق لمعرفة أصالة القرآن و تحريف التوراة و الإنجيل الفعليين، هو هذه المقارنة بين القضايا التأريخية التى وردت فى هذه الكتب حول الأنبياء و الرسل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۲

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۲ الى ۱۵۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (۱۵۲) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۵۳) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (۱۵۴)

التّفسير

اشارة

لقد فعلت ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها فى المآل فقد ندم عبدة العجل الإسرائيليون- و هم أكثرية القوم- على فعلهم، و قد طرح هذا الندم فى عدّة آيات قبل هذه الآية أيضا (الآية ۱۴۹) و من أجل أن لا يتصور أن مجرّد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفى للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلا: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا.

و هكذا لأجل أن لا يتصور أنّ هذا القانون يختص بهم أضاف قائلا: وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۳

إن التعبير ب «اتّخذوا» إشارة إلى أنّ الوثن ليس له أية واقعية، و لكن انتخاب عبدة الأوثان هو الذى أعطاه تلك الشخصية و القيمة الوهمية، و لهذا أتى بكلمة «العجل» وراء هذه الجملة فورا، يعنى أنّ ذلك العجل هو نفس ذلك العجل حتّى بعد انتخابه للعبادة.

أمّا أنّ هذا الغضب ما هو؟ و هذه الذّلة ما هى؟ فالقرآن لم يصرح بشىء عنهما فى هذه الآية، و إنّما اكتفى بإشارة مجملة، و لكن يمكن أن تكون إشارة إلى الشقاء و المصائب و المشكلات التى ابتلوا بها بعد هذه الحادثة و قبل دخولهم الأرض المقدسة.

أو أنّه إشارة إلى مهمّة قتل بعضهم بعضا العجيبة التى كلّفوا بها كجزاء و عقوبة لمثل ذلك الذنب العظيم.

و هنا قد يطرح هذا السؤال، و هو أنّ من المرتكزات الفكرية هو أنّ حقيقة التوبة تتحقق بالندامة، فكيف لم يشمل العفو الإلهى بنى إسرائيل مع أنّهم ندموا على فعلهم؟

و الجواب هو أنّه ليس لدينا أى دليل على أنّ مجرّد الندامة لوحدها تنفع فى جميع الأحوال و المواضع. صحيح أنّ الندامة هى أحد أركان التوبة، و لكنّها ليست كل شىء.

إنّ معصية عبادة الأوثان السجود للعجل فى ذلك النطاق الواسع و فى تلك المدّة القصيرة، و بالنسبة إلى ذلك الشعب الذى شاهد بأم عينيه كل تلكم المعاجز و الآيات، لم تكن معصية يمكن التغاضى عنها بمثل هذه السهولة، و كفاية يقول مرتكبها: «أستغفر اللّه» و ينتهى كلّ شىء.

بل لا بدّ أن يرى هذا الشعب غضب اللّه و يذوق طعم المذلة فى هذه الحياة، و يساط الذين افتروا على اللّه الكذب بسوط البلاء حتى لا يفكروا مرّة أخرى فى ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۴

و فى الآية اللاحقة يكمّل القرآن الكريم هذا الموضوع و يقول فى صورة قانون عام: وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فالذين يتوبون من بعد السيئة و تتوفر كل شروط التوبة لديهم يغفر اللّه لهم و يعفو عنهم.

جواب على سؤالين:

۱- هل الآيتان الحاضرتان جملة معترضة وقعت وسط قصّة بنى إسرائيل كتذكير لرسول اللّه و المسلمين؟ أو أنّه خطاب اللّه لموسى عليه السلام بعد قصّة عبادة بنى إسرائيل للعجل؟

ذهب بعض المفسّرين إلى الاحتمال الأوّل، و ارتضى بعض آخر الاحتمال الثّانى.

و الذين ارتضوا الاحتمال الأوّل استدلوا بجملة إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ لأنّ الجملة فى صورة خطاب إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الذين ارتضوا الاحتمال الثّانى استدلوا بجملة سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ الذى جاء فى صورة الفعل المضارع.

و لكن ظاهر الآيات يفيد أنّ هذه الجملة قسم من خطاب اللّه إلى موسى عليه السلام فى تعقيب قصّة العجل، و فعل المضارع (سينالهم) شاهد جيد على هذا الموضوع، و ليس هناك ما يمنع أن يكون «إنّ ربّك» خطاب موجه إلى موسى عليه السلام ۱۱۶].

۲- لماذا جاء الإيمان فى الآية الحاضرة بعد ذكر التوبة و الحال أنّه ما لم يكن هناك إيمان لا تتحقق توبة؟

إنّ الجواب على هذا السؤال يتّضح من أن قواعد الإيمان تتزلزل عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۵

ارتكاب المعصية، و يصيبها نوع من الوهن، إلى درجة أنّنا نقرأ فى الأحاديث الإسلامية:

«لا يشرب الخمر و هو مؤمن، و لا يزنى و هو مؤمن» أى أن الإيمان يتضاءل ضوؤه، و يفقد أثره.

و لكن عند ما تتحقق التوبة يعود الإيمان إلى ضوئه و أثره الأوّل، و كأنّ الإيمان تجدّد مرّة أخرى.

ثمّ إنّ الآيات الحاضرة ركزت- فقط- على الذلة فى الحياة الدنيا، و يستفاد من ذلك أن توبة بنى إسرائيل من هذه المعصية بعد الندامة من قضية الوثنية و تذوق العقوبة فى هذه الدنيا، قد قبلت بحيث أنّها أزالت عقوبتهم فى الآخرة، و إن بقيت أعباء الذنوب الأخرى التى لم يتوبوا منها فى أعناقهم.

الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة تقول: و لما سكن غضب موسى عليه السلام، و حصل على النتيجة التى كان يتوخاها، أخذ الألواح من الأرض، تلك الألواح التى كانت تحتوى- من أوّلها إلى آخرها- على الرحمة و الهداية، رحمة و هداية للذين يشعرون بالمسؤولية، و الذين يخافون اللّه، و يخضعون لأوامره و تعاليمه وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِي نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۵ الى ۱۵۶]

اشارة

وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (۱۵۵) وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ (۱۵۶)

التّفسير

مندوبو بنى إسرائيل فى الميقات:

فى الآيتين الحاضرتين يعود القرآن الكريم مرّة أخرى إلى قصة ذهاب موسى إلى الميقات «الطور» فى صحبة جماعة، و يقص قسما آخر من تلك الحادثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۷

هذا و قد وقع بين المفسّرين كلام فى أنّه هل كان لموسى عليه السلام ميقات واحد مع ربّه، أو أكثر من ميقات واحد؟ و قد أقام كل واحد منهم شواهد لإثبات مقصوده من القرآن الكريم، و لكنّه كما قلنا سابقا- فى ذيل الآية (۱۴۲) من هذه السورة- أنّه يظهر من مجموع القرائن فى القرآن الكريم و الرّوايات أن موسى عليه السلام كان له ميقات واحد، و ذلك برفقة جماعة من بنى إسرائيل.

و فى هذا الميقات بالذات أنزل اللّه الألواح على موسى و كلمه عليه السلام، و فى نفس هذا الميقات اقترح بنو إسرائيل على موسى عليه السلام أن يطلب من اللّه أن يريهم نفسه جهرة. فى هذا الوقت نفسه نزلت الصاعقة أو حدث الزلزال و غشى على موسى عليه السلام و سقط بنو إسرائيل على الأرض مغشيا عليهم، و قد ورد هذا الموضوع فى حديث مروىّ عن على بن إبراهيم فى تفسيره.

إنّ كيفية وضع آيات هذه السورة و إن كان يحدث- فى بادئ النظر- إشكالا، و هو: كيف أشار اللّه تعالى أولا إلى ميقات موسى عليه السلام ثمّ ذكر قصّة عبادة العجل، ثمّ عاد مرّة أخرى إلى مسألة الميقات؟

هل هذا النظم و هذا الطراز من الكلام يناسب الفصاحة و البلاغة التى يتسم بها القرآن الكريم؟

و لكن مع الالتفات إلى أنّ القرآن ليس كتاب تأريخ يسجل الحوادث حسب تسلسلها، بل هو كتاب هداية و تربية و بناء إنسانى، و فى مثل هـذا الكتاب توجب أهميـة الموضوع أن يترك متابعـة حادثـة مؤقتا، و يعمـد إلى بحث ضـرورى آخر، ثمّ يعود مرّة أخرى لنفس الحادثة الأولى.

بناء على هـذا لا توجد أية ضـرورة إلى أن نعتبر الآية المذكورة هنا إشارة إلى بقية قصة عبادة العجل، و نقول: إنّ موسـى عليه السـلام ذهب مرّة أخرى بصـحبة بنى إسـرائيل إلى جبل الطور بعد قضية عبادة العجل للاعتذار إلى اللّه و التوبة، كما قال بعض المفسّرين، لأنّ هذا الاحتمال بغض النظر عن جهات أخرى يبدو بعيدا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۸

النظر من جهـة أنّه آل إلى هلاك جماعة ذهبت إلى الميقات للاعتذار و التوبة، فهل من الممكن أن يهلك اللّه تعالى جماعة أتوا إلى الميقات للاعتذار إلى اللّه بالنيابة عن قومهم؟! و على كل حال، فقد قال القرآن الكريم فى الآيتين الحاضرتين أوّلا:

وَ اخْتارَ مُوسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقاتِنا.

و لكن بنى إسـرائيل حيث إنّهم سـمعوا كلام اللّه طلبوا من موسـى عليه السّلام أن يطلب من اللّه تعالى أن يريهم نفسه- لبنى إسرائيل- جهرة، و فى هـذا الوقت بالـذات أخـذهم زلزال عظيم و هلك الجماعة، و وقع موسـى عليه السّـلام على الأرض مغشـيا عليه، و عند ما أفـاق قال: ربّاه لو شـئت لأهلكتنا جميعا، يعنى بماذا أجيب قومى لو هلك هؤلاء فَلَمَّا أَخَـذَتْهُمُ الرَّجْفَـةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِـئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّاىَ

ثمّ قال: ربّاه إنّ هذا المطلب التافة إنّما هو فعل جماعة من السفهاء، فلا تؤاخذنا بفعلهم: أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا؟

و لقـد اعتبر بعض المفسّـرين- وجود كلمـة «الرجفـة» فى هـذه الآية، و كلمة «الصاعقة» فى الآية (۵۵) من سورة البقرة المتعلقـة بطلب رؤيـة اللّه جهرة- دليلا على التفاوت بين الميقاتين. و لكن- كما قلنا سابقا- إن الصاعقـة فى كثير من الأوقات ترافق الرجفـة الشديـدة، لأنّه على أثر التصادم بين الشـحنات الكهربائيـة الموجبـة فى السـحب و السالبـة فى الأرض تبرق شـرارة عظيمة تهزّ الجبال و الأراضـى بشـدّة، و ربّمـا تحطمها و تبعثرها كما جاء فى قصّـة البلاء الـذى نزل على قوم صالـح العصاة، حيث يعبر فيه عنه بالصاعقـة تارة (سورة فصلت الآية ۱۷) و تارة بالرجفة (سورة الأعراف الآية ۷۸).

و قد اسـتدل بعض المفسّرين بعبارة بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا على أنّ العقوبة هنا كانت لأجل الفعل الذى صدر من بنى إسرائيل (مثل عبادة العجل) لا لأجل الكلام الذى قالوه فى مجال طلب رؤية اللّه جهرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۳۹

و الجواب على هـذا الكلام واضـح أيضا، لأنّ الكلام فعل من أفعال الإنسان أيضا، و إطلاق «الفعل» على «الكلام» ليس أمرا جديـدا و غير متعارف، مثلا عند ما نقول: إنّ اللّه يثيبنا يوم القيامة على أعمالنا، فإنّ من المسلّم أنّ لفظة أعمالنا تشمل كلماتنا أيضا.

ثمّ إنّ موسـى عليه السّـلام قال فى عقيب هذا التضـرع و الطلب من اللّه: ربّاه إنّى أعلم أن هذا كان اختبارك و امتحانك، فأنت تضـلّ من تشاء (و كان مستحقا لذلك) و تهدى من تشاء (و كان لائقا لذلك) إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ و اختبارك.

و هنا أيضا تكلّم المفسّـرون فى معنى «الفتنـة» كثيرا و ذهبوا مذاهب شتى، و لكن بالنظر إلى أن لفظة «الفتنة» جاءت فى القرآن الكريم بمعنى الاختبـار و الامتحـان مرارا كما فى الآيـة (۲۸) من سورة الأنفـال: أَنَّمـا أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ و كـذا فى الآيـة (۲) من سورة العنكبوت، و الآيـة (۱۲۶) من سورة التوبـة) لا- يكون مفهوم الآيـة الحاضـرة غامضا. لأنّه لا شك فى أن بنى إسـرائيل واجهوا فى هـذا المشهد اختبارا شديدا، فأراهم اللّه تعالى أن هذا الطلب (طلب رؤية اللّه) طلب تافة و مستحيل الوقوع.

و فى ختام الآية يقول موسى عليه السّلام: رباه: أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ

من مجموع الآيات و الرّوايات يسـتفاد أنّ الهالكين قد استعادوا حياتهم فى المآل و عادوا برفقة موسى عليه السّلام إلى بنى إسرائيل، و

قصّوا عليهم كلّ ما سمعوه و شاهدوه، و أخذوا فى إرشاد الغافلين الجاهلين و هدايتهم.

و فى الآيـة اللاحقة يشير إلى طلب موسى عليه السّلام من ربّه و تكميل مسألة التوبة التى ذكرت فى الآيات السابقة، يقول موسى: وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۰

و «الحسنة» تعنى كل خير و جمال، و على هذا الأساس تشمل جميع النعم، و كذا التوفيق للعمل الصالح، و المغفرة، و الجنّة، و كل نوع من أنواع السعادة، و لا دليل على حصرها بنوع خاص من هذه المواهب، كما ذهب إليه بعض المفسّرين.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم دليل هذا الطلب هكذا: إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أى عدنا إليك و اعتذرنا عمّا فعله سفهاؤنا، حيث طلبوا ما لا يليق بمقام عظمتك.

و «هدنا» مشتقة من مادة «هود» بمعنى العودة المقترنة بالرفق و الهدوء، و كما قال بعض اللغويين: تشمل العودة من الخير إلى الشر أيضا، و كذا من الشر إلى الخير[۱۱۷]، و لكن جاءت فى كثير من الموارد بمعنى التوبة و العودة إلى طاعة اللّه.

يقول الراغب فى «المفردات» نقلا عن بعض: «يهود فى الأصل من قولهم:

هدنا إليك، و كان اسم مدح، ثمّ صار بعد نسخ شريعتهم لازما لهم، و إن لم يكن فيه معنى المدح».

و لكن بما أن بعض اللغويين ذكر أن معنى هذه اللفظة هو الرجوع من الشر إلى الخير، أو من الخير إلى الشر، يمكن القول بأن هذه الكلمة ليست متضمنة للمدح بحال، بل هى حاكية عن الاضطراب الروحى و القلق الأخلاقى الذى كانت تعانى منه تلك الجماعة.

و قال بعض آخر من المفسّرين أنّ علّة تسمية هؤلاء القوم ب «اليهود» لا يرتبط مطلقا بهذه اللفظة، بل لفظة يهود متخذة أصلا من مادة «يهوذا» الذى هو اسم لأحد أبناء يعقوب عليه السّلام ثمّ تبدلت الذال إلى الدال، و صارت يهودا، فيطلق على المنسوب إليه يهودى [۱۱۸].

و لقد أجاب اللّه- فى النهاية- دعاء موسى عليه السّلام و قبل توبته، و لكن لا بصورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۱

مطلقة، بل جاء ذلك فى ختام الآية مشروطا بشروط، إذ يقول: قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ و كان مستحقا.

و قد قلنا مرارا، إنّ «المشيئة» فى هذه الموارد، بل فى جميع الموارد، ليس بمعنى الإرادة المطلقة و من غير قيد أو شرط، بل هى إرادة مقترنة بالحكمة و الصلاحيات و اللياقات، و بهذا يتّضح الجواب على كل إشكال فى هذا الصعيد.

ثمّ يضيف تعالى قائلا وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ.

إنّ هذه الرحمة الواسعة يمكن أن تكون إشارة إلى النعم و المواهب الدنيوية التى تشمل الجميع و يستفيد منها الكل، برا و فاجرا، صالحا و طالحا.

كما يمكن أن تكون إشارة إلى أنواع الرحمة المادية و المعنوية، لأنّ النعم المعنوية لا تختص بقوم دون قوم، و إن كان لها شرائط تتوفر لدى الجميع.

و بعبارة أخرى: إن أبواب الرحمة الإلهية مفتوحة للجميع، و إنّ الناس هم الذين عليهم أن يقرروا دخول هذه الأبواب فلو لم تتوفر شرائط الورود فى بعض الناس فإنّ ذلك دليل على تقصيرهم هم، لا محدودية الرحمة الإلهية (و التّفسير الثّانى أنسب مع مفهوم الآية و الجملة التى ستأتى).

و لكن حتى لا يظن أحد أنّ قبول التوبة، أو سعة الرحمة الإلهية و شموليتها، غير مقيدة و غير مشروطة، و من دون حساب أو كتاب، يضيف فى ختام الآية:

سرعان ما أكتب رحمتى للّذين تتوفر فيهم ثلاثة أمور: اتقوا، و آتوا الزكاة، و آمنوا بآياتى فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ

الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ و «التقوى» إشارة إلى اجتناب كل معصية و إثم.

و «الزكاة» مرادة هنا بمعناها الواسع، و حسب الحديث المعروف «لكل شيء زكاة» يشمل جميع الأعمال الصالحة و الطيبة.

و جملة وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ تشمل الإيمان بالمقدسات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۲

و بهذه الطريقة تتضمّن الآية برنامجا كاملا و جامعا.

و إذا فسرنا الزكاة بمعنى خاص (أى المعنى المتعارف و المصطلح للزكاة) كان ذكرها من بين سائر الوظائف الإلهية، لأجل أهميتها فى صعيد العدالة الاجتماعية.

و

قد روى فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قام فى الصلاة فقال أعرابى و هو فى الصلاة: اللّهم ارحمنى و محمّدا و لا ترحم معنا أحدا، فلمّا سلّم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال للأعرابى: لقد تحجرت واسعا، أى جعلت شيئا واسعا، أمرا ضيقا محدودا فالرحمة الإلهية لا تنحصر فى أحد من الناس ۱۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۷]

اشارة

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)

التّفسير

اتبعوا هذا النّبى:

هذه الآية فى الحقيقة تكمل الآية السابقة التى تحدثت عن صفات الذين تشملهم الرحمة الإلهية الواسعة، أى من تتوفر فيهم الصفات الثلاث: التقوى، و أداء الزكاة، و الإيمان بآيات اللّه. و فى هذه الآية يذكر صفات أخرى لهم من باب التوضيح، و هى اتّباع الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الإيمان باللّه غير قابل للفصل عن الإيمان بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اتباع دينه، و هكذا التقوى و الزكاة لا يتمان و لا يكملان من دون اتباع القيادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۴

لهذا يقول تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ

ثمّ يبيّن ست صفات لهذا الرّسول مضافا إلى مقام الرسالة:

۱- أنّه نبىّ اللّه النَّبِيَ

و النّبى يطلق على كل من يبيّن رسالة اللّه إلى الناس، و يوحى إليه و إن لم يكن مكلّفا بالدعوة و التبليغ، و لكن الرّسول مضافا إلى كونه نبيّا- مكلّف بالدعوة إلى دين اللّه، و تبليغه و الاستقامة فى هذا السبيل.

و على هـذا يكون مقام الرسالـة أعلى من مقام النّبوة، و بناء على هـذا يكون معنى النّبوة مأخوذا فى مفهوم الرسالـة أيضا، و لكن حيث أنّ الآية بصدد توضـيح و تفصـيل خصوصيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهذا ذكرهما على نحو الاستقلال، و فى الحقيقة إنّ ما أخذ فى مفهوم الرّسول مجملا، ذكر فى الآية بصورة مستقلة من باب توضيح و تحليل صفاته.

۲- أنّه نبىّ أمّى لم يتعلم القراءة و الكتابة، و قد نهض من بين جماهير الناس من أرض مكّة أم القرى قاعدة التوحيد الأصلية: (الأمى).

و حول مفهوم «الأمىّ» المشـتقة من مادة «أمّ» بمعنى الوالدة، أو من «الأمّة» بمعنى الجماعة، دار كلام كثير بين المفسّـرين، فبعض فسّره بأنّه لم يتعلم و لم يـدرس، يعنى أنّه باق على الحالة التى ولد بها من أمّه أوّل يوم، و لم يتتلمذ على أحد، و بعض فسّـره بمن نهض من بين جماهير الأمّـة، لا من بين طبقـة الأعيان و المترفين و الجبارين، و فسّـرته جماعـة ثالثة بأنّه ظهر من مكّة «أمّ القرى» لأنّ هذه الكلمة مرادفة ل «المكى».

و الأحاديث الإسلامية الواردة فى مصادر مختلفة هى أيضا تفسّر هذه الكلمة تارة بأنّه: لم يدرس و أخرى: بأنّه مكّى ۱۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۵

و لكن لا مانع أبـدا من أن تكون كلمة «الأمّى» إشارة إلى كل المفاهيم و المعانى الثلاثة، و قد قلنا مرارا: إنّه لا مانع من اسـتعمال لفظة واحدة فى عدة معان، و لهذا الموضوع شواهد كثيرة فى الأدب العربى. (و سنبحث بتفصيل حول أميّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد الفراغ من تفسير هذه الآية).

۳- ثمّ إنّ هذا النّبى هو الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ

و فى صـعيد وجود البشارات المختلفة فى كتب العهدين (التوراة و الإنجيل) حتى التوراة و الإنجيل المحرفين الحاضرين أيضا، سيكون لنا بحث تفصيلى بعد الفراغ من تفسير هذه الآية.

۴- و من سـمات هـذا النّبى أنّ دعـوته تتطـابق لنـداء العقـل مطابقـة كاملـة، فهـو يـدعو إلى كـل الخيرات و ينهى عن كـل الشـرور و الممنوعات العقلية: يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ.

۵- كمـا أنّ محتوى دعوته منسـجم مع الفطرة الإنسانيـة السـليمة، فهو يحل ما ترغب فيه الطباع السـليمة و يحرم ما تنفر منه وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ

۶- أنّه ليس كأدعياء النّبوة و الرسالـة الذين يهدفون إلى توثيق الناس بأغلال الاسـتعمار و الاسـتثمار و الاسـتغلال، بل هو على العكس من ذلك، إنّه يرفع عنهم إصـرهم و الأغلال التى تكبّل عقولهم و أفكارهم و تثقل كاهلهم وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ ۱۲۱].

و حيث أنّ هذه الصـفات الست بالإضافة إلى الصـفة السابعة و هى مقام الرسالة تشكّل من حيث المجموع علامة واضحة و دليل قاطع على صدق دعواه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۶

فيضيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ، وَ نَصَرُوهُ، وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و «عزروه» المشـتقّة من مـادة «تعزير» تعنى الحمايـة و النصـرة المقترنـة بالاـحترام و التبجيل، و يقول البعض إن هـذه اللفظـة تعنى- فى الأصل- المنع، فإذا كان المنع من العـدوّ، كان مفهومه النصـرة، و إذا كان المنع من الـذنب كان مفهومه العقوبـة و التنبيه، و لهذا يقال للعقوبات الخفيفة «تعزير».

و الجدير بالانتباه استعمال كلمة أُنْزِلَ مَعَهُ بدل «أنزل إليه» فى حين أننا نعلم أنّه لم يكن لشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نزول من السماء، و لكن حيث أن النبوة و الرسالة نزلا مع القرآن من جانب اللّه، لهذا عبر ب «أنزل معه».

بحوث

اشارة

و هنا لا بد من الوقوف عند نقاط هامة هى:

۱- خمسة أدلة على النّبوة فى آية واحدة

لم ترد فى آية من آيات القرآن أدلة عديدة على حقانية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما جاء فى هذه الآية ... فلو أننا أمعنا النظر بدقة فى الصفات السبع التى ذكرها اللّه تعالى فى هذه الآية لنبيه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لوجدنا أنّها تحتوى على سبعة أدلة واضحة لإثبات نبوته:

الأوّل: أنّه «أمّى» لم يدرس، و لكنّه مع ذلك أتى بكتاب لم يغيّر مصير أهل الحجاز فقط، بل كان نقطة تحول هام فى التأريخ البشرى، حتى أنّ الذين لم يقبلوا بنبوته لم يشكوا فى عظمة كتابه و تعاليمه.

فهل يتفق و الحسابات الطبيعية أن يقوم بهذا العمل شخص نشأ فى بيئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۷

جاهلية و لم يتتلمذ على أحد؟

الثّانى: أنّ دلائل نبوته قد وردت بتعابير مختلفة فى الكتب السماوية السابقة على نحو توجد علما لدى المرء بحقانيته ... فإنّ البشارات التى جاءت فى تلك الكتب لا تنطبق إلّا عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقط.

الثّالث: أن محتويات دعوته تنسجم انسجاما كاملا مع العقل، لأنّه يدعو إلى المعروف، و النهى عن المنكر و القبائح، و هذا الموضوع يتّضح بجلاء بمطالعة تعاليمه.

الرّابع: أنّ محتويات دعوته منسجمة مع الطبع السليم و الفطرة السويّة.

الخامس: لو لم يكن من جانب اللّه لكان عليه أن يقوم بما يضمن مصالحه الخاصّة، و فى هذه الصورة كان يتعين عليه أن لا يرفع الأغلال و السلاسل عن الناس، بل عليه أن يبقيهم فى حالة الجهل و الغفلة لاستغلالهم بنحو أفضل، فى حين أنّنا نجده يحرر الناس من الأغلال الثقيلة.

أغلال الجهل و الغفلة عن طريق الدعوة المستمرة إلى العلم و المعرفة.

أغلال الوثنية و الخلافة عن طريق الدعوة إلى التوحيد.

أغلال التمييز بكل أنواعه، و الحياة الطبقية بجميع أصنافها، عن طريق الدعوة إلى الأخوة الدينية و الإسلامية، و المساواة أمام القانون.

و هكذا سائر الأغلال الأخرى.

إنّ كل واحد من هذه الدلائل لوحده دليل على حقانية دعوته، كما أنّ مجموعها دليل أوضح و أقوى.

۲- كيف كان النّبى أميّا؟

هناك احتمالات ثلاثة معروفة حول مفهوم «الأمّى» كما قلنا سابقا:

أوّلها: أن معناه: الذى لم يدرس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۸

الثّانى: أنّ معناه: المولود فى أرض مكّة، و الناهض منها.

الثّالث: أنّ معناه الذى قام من بين صفوف الجماهير.

و لكن الرأى الأشهر هو التّفسير الأوّل، و هو أكثر انسجاما مع موارد استعمال هذه اللفظة، و يمكن أن تكون المعانى الثلاثة مرادة برمتها أيضا، كما قلنا.

ثمّ إنّه لا نقاش بين المؤرخين بأنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يدرس، و لم يكتب شيئا، و قد قال القرآن الكريم- أيضا- فى الآية (۴۸) من سورة العنكبوت حول وضع النّبى قبل البعثة: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ

و أساسا كان عدد العارفين بالكتابة و القراءة فى المحيط الحجازى قليلا جدّا، حيث كان الجهل هو الحالة السائدة على الناس بحيث أن هؤلاء العارفين بالكتابة و القراءة كانوا معروفين بأعيانهم و أشخاصهم، فقد كان عددهم فى مكّة من الرجال لا يتجاوز (۱۷) شخصا، و من النساء امرأة واحدة[۱۲۲].

من المسلّم أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لو كان قد تعلّم القراءة و الكتابة- فى مثل هذه البيئة- لدى أستاذ لشاع ذلك و صار أمرا معروفا للجميع، و على فرض أنّنا لم نقبل بنبوته، و لكن كيف يمكنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينفى- فى كتابه- بصراحة هذا الموضوع؟ ألا يعترض عليه الناس و يقولون: إن دراستك و تعلّمك للقراءة و الكتابة أمر مسلّم معروف لنا، فكيف تنفى ذلك؟

إنّ هذه قرينة واضحة على أميّة النّبى.

و على كل حال، فإنّ وجود هذه الصفة فى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان تأكيدا على نبوته حتى ينتفى أى احتمال فى ارتباطه إلّا باللّه و بعالم ما وراء الطبيعة فى صعيد دعوته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۴۹

هذا بالنسبة إلى فترة ما قبل النّبوة، و أمّا بعد البعثة فلم ينقل أحد المورّخين أنّه تلقى القراءة أو الكتابة من أحد، و على هذا بقى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أميّته حتى نهاية عمره.

و لكن من الخطأ الكبير أن تتصوّر أنّ عدم التعلّم عند أحد يعنى عدم المعرفة بالكتابة و القراءة، و الذين فسّروا «الأمّية» بعدم المعرفة بالكتابة و القراءة كأنّهم لم يلتفتوا إلى هذا التفاوت.

و لا مانع أبدا من أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عارفا بالقراءة و الكتابة بتعليم اللّه، و من دون أن يتتلمذ على يد أحد من البشر، لأنّ مثل هذه المعرفة هى بلا شك من الكمالات الإنسانية، و مكملة لمقام النّبوة.

و يشهد بذلك ما ورد فى الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام ۱۲۳] أن نص الرواية و لكنّه لأجل أن لا يبقى أى مجال لأدنى تشكيك فى دعوته لم يكن صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستفيد من هذه المقدرة.

و قول البعض: إنّ القدرة على الكتابة و القراءة لا تعدّ كمالا، فهما وسيلة للوصول إلى الكمالات العلميّة، و ليسا بحدّ ذاتها علما حقيقيا و لا كمالا واقعيا فإن جوابه كامن فى نفسه، لأنّ العلم بطريق الكمال كمال أيضا.

قد يقال: إنّه نفى فى روايتين عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بصراحة تفسير «الأمّى» بعدم القراءة و الكتابة، بل بالمنسوب إلى «أم القرى» (مكّة).

و نقول فى الردّ: إنّ إحدى هاتين الروايتين «مرفوعة» حسب اصطلاح علم الحديث فلا قيمة لها من حيث السند، و الرواية الأخرى منقولة عن «جعفر بن محمّد الصوفى» و هو مجهول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۰

و أمّا ما تصوّره البعض من أن الآیة الثّانیة من سورة الجمعة یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیاتِهِ وَ یُزَکِّیهِمْ وَ یُعَلِّمُهُمُ الْکِتابَ وَ الْحِکْمَةَ و آیات أخری دلیل علی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یتلو القرآن علی الناس من شیء مکتوب، فهو خطأ بالغ، لأنّ التلاوة تطلق علی التلاوة من مکتوب علی شیء، کما تطلق علی القراءة حفظا و من ظهر القلب، و استعمال لفظة التلاوة فی حق الذین یقرءون الأشعار أو الأدعیة حفظا و من علی ظهر القلب کثیر.

من مجموع ما قلناه نستنتج:

۱- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یتلق القراءة و الکتابة من أحد حتما، و بهذا تکون إحدی صفاته أنّه لم یدرس عند أستاذ.

۲- أنّنا لا نملک أی دلیل معتبر علی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قرأ أو کتب شیئا قبل النبوة، أو بعدها.

۳- إنّ هذا الموضوع لا یتنافی مع تعلیم اللّه تعالی القراءة أو الکتابة لنبیّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- البشارات بظهور النّبی فی العهدین:

إنّ الشواهد التأریخیة القطعیة، و کذا محتویات کتب الیهود و النصاری المقدسة (التوراة و الإنجیل) تفید أن هذه الکتب لیست هی الکتب السماویة التی نزلت علی موسی و عیسی علیهما السّلام و أن ید التحریف قد طالتهما، بل إنّ بعضها اندرس و اندثر، و أن ما هو موجود الآن باسم الکتب المقدسة بینهم ما هی إلّا خلیط من نسائج الأفکار و الأدمغة البشریة و شیء من التعالیم التی نزلت علی موسی و عیسی علیهما السّلام ممّا بقی فی أیدی تلامذتهم.

و علی هذا الأساس لا غرور و لا عجب إذا لم نقف علی عبارات صریحة حول البشارة بظهور النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۱

و لکن مع هذا فإنّه یلحظ فی ثنایا هذه الکتب المحرفة عبارات تتضمّن إشارات معتدّ بها حول ظهور هذا النّبی العظیم، و قد جمعها ثلّة من علمائنا فی کتب و مؤلفات مستقلة، أو مقالات تتحدث فی هذا المجال. و حیث أن ذکر کل تلک البشائر و ما حولها من حدیث و کلام ممّا یطول به المقام، فإنّنا نکتفی بذکر بعض منها علی سبیل المثال لا الحصر.

۱- جاء فی سفر التکوین الاصطلاح ۱۷ العبارة ۱۷ إلی ۲۰: «و قال إبراهیم للّه لیت إسماعیل یعیش أمامک، فقال اللّه ... و أمّا إسماعیل فقد سمعت لک فیه (أی دعاءک فی حقه) ها أنا أبارکه و أثمره و أکثره کثیرا جیدا. اثنی عشر رئیسا یلد و أجعله أمّة کبیرة».

۲- «لا یزول قضیب من یهوذا و مشترع من بین رجیله حتی یأتی شیلون و له یکون خضوع شعوب».

و الجدیر بالانتباه أن أحد معانی شیلون- حسب تصریح المستر هاکس فی کتاب قاموس الکتاب المقدس- هو الإرسال، و هو یوافق کلمة «رسول» أو «رسول اللّه».

۳- و فی إنجیل یوحنا الباب ۱۵ العبارة رقم ۱۶ جاء ما یلی: «و أمّا المعزی الروح القدس الذی سیرسله الأب باسمی فهو یعلّمکم کل شیء و یذکرکم بکل ما قلته لکم».

۴- و کذا جاء فی إنجیل یوحنا ذاته الاصطلاح ۱۶ العبارة رقم ۷: «لکنّی أقول لکم الحق: إنّه خیر لکم أن أنطلق. لأنّه إن لم أنطلق لا یأتیکم المعزّی. و لکن إن ذهبت أرسله إلیکم، و متی جاء ذاک هو یرشدکم إلی جمیع الحق، لأنّه لا یتکلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۲

من نفسه بل کل ما یسمع یتکلم به و یخبرکم بأمور آتیة».[۱۲۴] و النقطة الجدیرة بالاهتمام أنّه جاءت الکلمة فی إنجیل یوحنا باللغة

الفارسية «المسلّى» و لكنّها فى الإنجيل العربى طبعة لندن (مطبعة وليام وطس عام ۱۸۵۷) جاء مكانها: «فارقليطا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۳

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۵۸]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحيِى وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵۸)

التّفسير

دعوة النّبى العالميّة:

جاء فى حديث عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: يا محمّد، أنت الذى تزعم أنّك رسول اللّه، و أنّك الذى يوحى إليك كما يوحى إلى موسى بن عمران؟ فسكت النّبى ساعة ثمّ قال: «نعم أنا سيد ولد آدم و لا فخر، و أنا خاتم النّبيين، و إمام المتقين، و رسول ربّ العالمين.» قالوا: إلى من، إلى العرب أم إلى العجم، أم إلينا؟ فأنزل اللّه هذه الآية التى صرّحت بأنّ رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رسالة عالمية[۱۲۵].

و لكن مع ذلك لا يمكن إنكار ارتباط هذه الآية بالآية السابقة المتعلقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۴

بصفات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الدعوة إلى اتباع دينه و شريعته.

و فى البداية يأمر اللّه تعالى رسول اللّه قائلا: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.

إنّ هذه الآية مثل آيات كثيرة أخرى من القرآن الكريم دليل واضح على عالمية دعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآية (۲۸) من سورة «سبأ» أيضا نقرأ: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ

و فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام أيضا نقرأ: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أى بلغه القرآن.

و فى مطلع سورة الفرقان نقرأ: تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً فهو أرسل إلى الناس كافة ليحذرهم من المسؤوليات.

هذه نماذج من الآيات التى تشهد بعالمية دعوة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و سوف نبحث حول هذه المسألة أيضا فى ذيل الآية (۷) من سورة الشورى، و قد مر لنا فى ذيل الآية (۹۲) من سورة الأنعام- أيضا- بحث مبسوط نوعا ما فى هذا الصعيد.

ثمّ إنّه وصف الإله الذى يدعو إليه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بثلاث صفات:

۱- الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فله الحاكمية المطلقة.

۲- لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فلا معبود يليق للعبادة سواه.

۳- يُحيِى وَ يُمِيتُ بيده نظام الحياة و الموت.

و بهذه الطريقة تنفى هذه الآية ألوهية غير خالق السماوات و الأرض، و ألوهيّة كل صنم، و كذا تنفى التثليث المسيحى، كما و تؤكّد على رسالة النّبى العالمية و قدرة اللّه تعالى على أمر المعاد.

و فى الختام تدعو جميع أهل العالم إلى الإيمان باللّه و برسوله الذى لم يتعلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۵

القراءة و الكتابة و القائم من بين الناس فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّي

النّبى الذى لا يكتفى بدعوة الآخرين إلى هذه الحقائق فحسب، بل يؤمن هو فى الدرجة الأولى- بما يقول، يعنى الإيمان باللّه و كلماته الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِماتِهِ

إنّه لا يؤمن فقط بالآيات التى نزلت عليه، بل يؤمن بجميع الكتب الحقيقة للأنبياء السابقين.

إنّ إيمانه بدينه و الذى يتجلى من خلال أعماله و تصرّفاته دليل واضح على حقانيته، لأن عمل الآمر بشىء يعكس مدى إيمانه بما يأمر به و يدعو إليه. و إيمانه بقوله أحد الأدلة على صدقه. إنّ تأريخ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم برمّته يشهد بهذه الحقيقة و هى أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان أكثر من غيره التزاما بالتعاليم التى جاء بها.

أجل، لا بدّ لكم من اتّباع مثل هذا النّبى حتى تسطع أنوار الهداية على قلوبكم، لتهتدوا إلى طريق السعادة وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

و هذا إشارة إلى أنّه لا يكفى مجرّد الإيمان، و إنما يفيد الإيمان إذا اقترن بالاتباع العملىّ.

و الجدير بالالتفات إلى أن الآية الحاضرة نزلت فى مكّة يوم كان المسلمون يشكلون أقلية صغيرة جدّا بحيث إنّه قلّما كان هناك من يحتمل أن يسيطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على مكّة فضلا عن جزيرة العرب، أو قسم كبير من العالم.

و على هذا الأساس، فإنّ الذين يتصورون أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ادعى فى البداية تبليغ الرسالة لأهل مكّة فقط، و عند ما انتشر دينه و علا أمره فكر فى السيطرة على الحجاز، ثمّ فكر فى البلاد الأخرى، و راسل ملوك العالم و أمراءه و قادته، و أعلن عن رسالته العالمية. تجيب الآية الحاضرة التى نزلت فى مكّة على كل تصوراتهم هذه، فهى تصرح فى غير إبهام و لا غموض بأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعلن عن دعوته العالمية منذ البداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۶

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۵۹ الى ۱۶۰]

اشارة

وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۵۹) وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْباطاً أُمَماً وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۶۰)

التّفسير

جانب من نعم اللّه على بنى إسرائيل:

فى الآيات الحاضرة إشارة إلى حقيقة رأينا نظيرها فى القرآن الكريم، و هذه الحقيقة هى تحرى القرآن للحق، و احترامه لمكانة الأقليات الدينية الصالحة، يعنى أنّه لم يكن ليصف جميع بنى إسرائيل بأسرهم بالفساد و الإفساد، و بأنّ هذا العزق القومى برمته ضالّ متمرد من دون استثناء، بل اعترف بأن منهم أقلية صالحة غير موافقة على أعمال الأكثرية، و قد أولى القرآن الكريم اهتماما خاصا بهؤلاء فيقول: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۷

إنّ هـذه الآيـة قـد تشـير إلى فريق صـغير لم يسـلّموا للسامرىّ و دعوته، و كانوا يـدافعون عن دين موسـى دائما و أبدا، أو إلى الفرق و الطوائف الصالحة الأخرى التى جاءت بعد موسى عليه السّلام.

و لكن هـذا المعنى يبـدو غير منسـجم مع ظاهر الآيـة، لأن «يهدون» و «يعدلون» فعل مضارع، و هو على الأقل يحكى عن زمان الحال، يعنى عصـر نزول القرآن، و يثبت وجود مثـل هـذا الفريق فى ذلـك الزمـان، إلّا أن نقـدّر فعـل «كـان» فتكون الآيـة إشـارة إلى الزمان الماضى، و نعلم أن التقدير من دون قرينة خلاف الظاهر.

و كـذلك يمكن أن يكون ناظرا إلى الأقليـة اليهوديـة الـذين كانوا يعيشون فى عصـر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و الذين اعتنقوا الإسـلام تدريجا و بعد مطالعة دعوة النّبى و محتوى رسالته، و انضـموا إلى صـفوف المسـلمين الصادقين. و هذا التّفسير ينسجم أكثر مع ظاهر الفعلين المضارعين المستعملين فيها.

و ما جاء فى بعض روايات الشـيعة و السـنة من أنّ هـذه الآية إشارة إلى فريق صـغير من بنى إسـرائيل يعيشون فيما وراء الصـين، عيشـة عـدل و تقوى و توحيد و عبودية اللّه تعالى فغير مقبول، لأنّه مضافا إلى عدم موافقته لما نعلمه من جغرافيا العالم اليوم، و مضافا إلى أن التواريـخ الحاضـرة الموجودة لا تؤيـد هذا الموضوع، فإنّ الأحاديث المذكورة غير معتبرة من حيث السـند، و لا يمكن أن يعتمد عليها كأحاديث صحيحة حسب قواعد علم الرجال.

و فى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى عدّة أقسام من نعم اللّه على بنى إسرائيل.

فيقول أوّلا: وَ قَطَّعْناهُمُ اثْنَتَيْ عَشْـرَةَ أَسْـباطاً أُمَماً و هـذا التقطيع و التقسـيم إنّما هو لأجل أن يسودهم نظام عادل، بعيد عن المصادمات الخشنة.

و واضح أنّه عند ما يكون فى شعب من الشعوب تقسيمات إدارية صحيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۸

و منظمـة، و يخضع كل قسم من تلك الأقسام لقيادة قائـد قدير، فإنّ إدارتهم و رعاية العدالة بينهم تكون أسـهل، و لنفس هذا السـبب عمدت جميع الدول إلى مثل هذا العمل و أخذت بهذه القاعدة.

و «أسـباط» جمع سـبط (بفتح السـين و بكسرها) تعنى فى الأصل الانبساط فى سهولة، ثمّ يطلق السبط و الأسباط على الأولاد و بخاصّة الأحفاد لأنّهم امتداد العائلة.

و المراد من الأسـباط- هنا- هو قبائل بنى إسـرائيل و فروعها، الـذين كان كل واحد منها منشـعبا و منحدرا من أحد أولاد يعقوب عليه السّلام.

و النّعمة الأخرى هى: أنّه عند ما كان بنو إسـرائيل متوجهين إلى بيت المقدس و أصابهم العطش الشديد الخطير فى الصـحراء، و طلبوا من موسـى عليه السّـلام الماء، أوحى إليه أن اضرب بعصاك الحجر ... ففعل فنبع الماء فشربوا و نجوا من الهلاك وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى إِذِ اسْتَسْقاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً.

و قد كانت الينابيع هذه مقسمة بين أسباط بنى إسرائيل بحيث عرف كل سبط منهم نبعه الذى يشرب منه قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ

و يسـتفاد من هـذه الجملة أنّ هذه الينابيع الاثنى عشـر التى نبعت من تلك الصـخرة العظيمة كانت معلّمة بعلامات و متميز بعضـها عن بعض بفوارق، بحيث كان يعرف كل فريق من فرق بنى إسـرائيل نبعه المختص به و المقرّر له، لا يقع بينهم أى خلاف و يسود النظم و الانضباط فى جماعتهم، و يتمّ الشرب بصورة أسهل و أفضل.

و النّعمـة الثالثـة هى: أن اللّه تعالى أرسل لهم- فى تلك الصـحارى الملتهبـة حيث لا سـقف و لا ضـلال- سـحبا ظلّلتهم وَ ظَلَّلْنا عَلَيْهِمُ الْغَمامَ

و النّعمة الرّابعة إنزال المنّ و السلوى عليهم كغذائين لذيذين و مقويين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۵۹

وَ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى

ثمّ إنّ المفسّرين أعطوا تفسيرات متنوعة لهذين الغذاءين «المنّ» و «السلوى» اللذين أنزلهما اللّه على بنى إسرائيل فى تلك الصحراء القاحلة (و قد ذكرنا هذه التفاسير عند دراسة الآية ۵۷ من سورة البقرة) و قلنا بأنّه لا يبعد أنّ «المن» كان نوعا من العسل الطبيعى الذى كان فى بطون الجبال المجاورة، أو عصارات و إفرازات نباتية كانت تظهر على أشجار كانت نابتة هنا و هناك فى تلك الصحراء، و «السلوى» نوع من الطير الحلال اللحم شبيه بالحمام.

ثمّ يقول اللّه تعالى: و قلنا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ

و لكنّهم أكلوا و كفروا النعمة و لم يشكروها و بذلك ظلموا فى الحقيقة أنفسهم وَ ما ظَلَمُونا وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و يجب الانتباه إلى أن مضمون هذه الآية جاء فى الآيات (۵۷) و (۶۰) من سورة البقرة مع فارق بسيط، غاية ما فى الأمر أنّه عبر عن نبوع الماء من الصخر هنا ب «انبجست» و هناك ب «انفجرت»، و حسب اعتقاد جماعة من المفسّرين أنّ التفاوت بين هاتين العبارتين هو أن «انفجرت» تعنى «خروج الماء بدفع، و كثرة» و «انبجست» تعنى «خروج الماء بقلّة» و لعل هذا التفاوت لأجل الإشارة إلى أنّ عيون الماء المذكورة لم تنبع من الصخرة العظيمة دفعة حتى يصير ذلك سببا لاستيحاشهم و خوفهم و قلقهم، و لا تكون لهم قدرة على تنظيم المياه المندفقة و حصرها، بل خرجت ابتداء بهدوء و قلة، ثمّ توسعت المجارى و كثرت المياه النابعة.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هاتين الكلمتين ترجعان إلى مفهوم واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۰

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۶۲]

اشارة

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۱۶۱) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (۱۶۲)

التّفسير

اشارة

فى تعقيب الآيات السابقة تشير هاتان الآيتان إلى قسم آخر من المواهب الإلهية لبنى إسرائيل و طغيانهم تجاه تلك النعم، و كفرانهم بها.

يقول تعالى: (و) اذكروا إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ

و قلنا لهم اطلبوا من اللّه حطّ الذنوب عنكم و عفوه عن خطاياكم، و ادخلوا من باب بيت المقدس بخضوع وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً.

فإذا قمتم بهذه الأمور غفرنا لكم خطاياكم، و أعطينا للمحسنين ثوابا أكبر و نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۱

و بالرغم من أن اللّه فتح أمامهم أبواب الرحمة، و لو أردوا اغتنام الفرصة لاستطاعوا حتما إصلاح ماضيهم و حاضرهم، و لكن لم يغتنم الظالمين من بنى إسرائيل هذه الفرصة فحسب، بل بدّلوا أمر اللّه، و قالوا خلاف ما أمروا أن يقولوه:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ

و فى المآل نزل عليهم بسبب هذا الطغيان و الظلم للنفس و للآخرين عذاب من السماء فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ

و يجب الانتباه إلى أنّ مضمون هاتين الآيتين جاء أيضا- مع فارق بسيط- فى سورة البقرة الآية (۵۸) و (۵۹) و قد أوردنا تفسيرا أكثرا تفصيلا هناك.

و الفرق الوحيد بين هذه الآيات المبحوثة هنا، و آيات سورة البقرة هو أنّه يقول هنا: بِما كانُوا يَظْلِمُونَ و قال هناك: بِما كانُوا يَفْسُقُونَ و لعل الفارق بين هذين إنما هو لأجل أن الذنوب لها جانبان: أحدهما الجانب المرتبط باللّه، و الجانب الآخر مرتبط بنفس الإنسان. و قد أشار القرآن إلى الجانب الأوّل فى آية سورة البقرة بعبارة «الفسق» الذى مفهومه الخروج عن طاعة اللّه، و إلى الثّانى فى الآية الحاضرة بعبارة «الظلم».

ما هى «حطّة» و ماذا تعنى؟

الجدير بالذكر أن بنى إسرائيل كانوا مكلّفين بأن يطهروا قلوبهم و أرواحهم عند دخولهم بيت المقدس من أدران الذنوب بتوبة خالصة و واقعية تتلخص فى كلمة «حطّة» و أن يطلبوا من اللّه المغفرة لكل تلك الجرائم التى ارتكبوها، و بخاصّة ما آذوا به نبيّهم العظيم موسى بن عمران قبل ورودهم بيت المقدس.

و كلمة «حطّة» التى كانت- فى الحقيقة- شعارهم عند دخولهم بيت المقدس، هى صورة اختصارية لعبارة «مسألتنا حطّة» يعنى نطلب منك يا ربّ أن تحطّ عنّا ذنوبنا بإنزال شآبيب الرحمة و العفو علينا، لأنّ «حطّة» معناها إنزال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۲

الشىء من علو و هذا الشعار شأنه شأن جميع الشعارات الأخرى لا يكفى فيه أن يكون مجرّد لقلقة لسان، بل يجب أن يكون اللسان ترجمان الروح و مرآة الوجدان، و لكنّهم- كما سيأتى فى الآية اللاحقة- مسخوا كثيرا من تلك الشعارات حتى هذا الشعار التربوى، و جعلوه وسيلة للّهو و الاستهزاء و السخرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۳ الى ۱۶۶]

اشارة

وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۱۶۳) وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً قالُوا مَعْذِرَةً إِلى رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۱۶۴) فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِيسٍ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۱۶۵) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسِئِينَ (۱۶۶)

التّفسير

قصّة فيها عبرة:

فى هـذه الآيات يستعرض مشـهدا آخر من تاريخ بنى إسـرائيل الزاخر بالحوادث، و هو مشـهد يرتبط بجماعة منهم كانوا يعيشون عند ساحل بحر. غاية ما فى الأمر أن الخطاب موجه فيها إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فيقول له: اسأل يهود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۴

عصـرك حول تلك الجماعـة، يعنى جـدّد هـذه الخاطرة فى أذهانهم عن طريق السؤال ليعتبروا بها، و يجتنبوا المصـير و العقاب الـذى ينتظرهم بسبب طغيانهم و تعنتهم.

إنّ هـذه القصّـة- كما أشـير إليها فى الأحاديث الإسـلامية- ترتبط بجماعـة من بنى إسـرائيل كانوا يعيشون عنـد ساحل أحـد البحار (و الظـاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسـطين) فى ميناء يسـمى بميناء «أيلـة» (و الـذى يسـمى الآن بميناء ايلات) و قـد أمرهم اللّه تعالى على سبيل الاختبار و الامتحان أن يعطّلوا صـيد الأسـماك فى يوم السـبت، و لكنّهم خالفوا هـذا التعليم، فأصـيبوا بعقوبـة موجعة مؤلمة نقرأ شرحها فى هذه الآيات.

فى البدايـة تقول الآية: وَ سْـئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ حاضِـرَةَ الْبَحْرِ. أى اسأل يهود عصـرك عن قضـية القرية التى كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ تقول: و ذكّرهم كيف أنّهم تجـاوزوا- فى يوم السـبت- القـانون الإلـهى إِذْ يَعْـدُونَ فِى السَّبْتِ لأنّ يوم السـبت كان يوم عطلتهم، و كان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، و عن صيد السمك و يشتغلوا بالعبادة، و لكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشـرح القرآن العدوان المذكور بالعبادة التالية: إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَـبْتِهِمْ شُرَّعاً فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء فى يوم السبت، بينما كانت تختفى فى غيره من الأيّام.

و «السـبت» فى اللغة تعنى تعطيل العمل للاستراحة، و ما نقرؤه فى سورة النبأ وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً أشارة- كذلك- إلى هذا الموضوع، و سمّى «يوم السبت» بهذا الاسم لأنّ الأعمال العادية و المشاغل كانت تتعطل فى هذا اليوم، ثمّ بقى هذا الاسم لهذا اليوم علما له.

و من البديهى أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنة ساحل البحر مورد كسبهم و تغذيتهم، و كأنّ الأسماك بسبب تعطيل عملية الصيد فى يوم السبت صارت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۵

تحس بنوع من الأـمن من ناحيـة الصـيادين، فكـانت تظهر على سـطح الماء أفواجا أفواجا، بينما كانت تتوغل بعيـدا فى البحر فى الأيّام الأخرى التى كان الصيّادون فيها يخرجون للصيد.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعى عادى أم كان له جانب اسـتثنائى و إلهى، كان وسيلة لامتحان و اختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم:

و هكذا اختبرناهم بشىء يخالفونه و يعصون الأمر فيه كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و جملـة بِما كانُوا يَفْسُـقُونَ إشارة إلى أنّ اختبارهم كان بما من شأنه أن يجـذبهم و يدعوهم إلى نفسه، و إلى المعصـية و المخالفة، و جميع الاختبارات كذلك، لأن الاختبار يجب أن يبيّن مدى مقاومة الأشخاص أمام جاذبية المعاصى و الذنوب.

عنـد ما واجهت هـذه الجماعـة من بنى إسـرائيل هذا الامتحان الكبير الذى كان متداخلا مع حياتهم تداخلا كاملا، انقسـموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» و كانوا يشكّلون الأكثرية، و هم الذين خالفوا هذا الأمر الإلهى.

«الفریق الثّانی» و کانوا علی القاعدة یشکلون الأقلیة، و هم الذین قاموا- تجاة الفریق الأوّل بوظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

«الفریق الثّالث» و هم الساکتون المحایدون الذین لم یوافقوا العصاة، و لا قاموا بوظیفة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر.

و فی الآیـة الثّانیة من الآیات المبحوثة هنا یشـرح الحوار الذی دار بین العصاة، و بین الذین نهوهم عن ارتکاب هذه المخالفة فیقول: وَ إِذْ قالَتْ أُمَّةٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۶

مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِکُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِیداً[۱۲۶].

فأجـابهم الآـمرون بـالمعروف النـاهون عن المنکر: بأنّنـا ننهی عن المنکر لأنّنـا نؤدی واجبنـا تجاه اللّه تعالی، و حتی لا نکون مسـئولین تجاهه، هذا مضافا إلی أنّنا نأمل أن یؤثر کلامنا فی قلوبهم، و یکفوا عن طغیانهم و تعنتهم قالُوا مَعْذِرَةً إِلی رَبِّکُمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ

و یستفاد من الجملة الحاضرة أنّ هؤلاء الواعظین کانوا یفعلون ذلک بهدفین:

الأوّل: أنّهم کانوا یعظون العصاة حتی یکونوا معذورین عند اللّه.

و الآـخر: عسـی أن یؤثروا فی نفوس العصـاة، و یفهم من هـذا الکلاـم أنّهم حتی مع عـدم احتمـال التأثیر، فإنّهم کانوا لا یحجمون عن الوعظ و النصیحة فی حین أن المعروف هو أن وجوب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر مشروطین باحتمال التأثیر.

و لکن لاـ بـدّ من الانتباه إلی أنّه ربّما یجب بیان الحقائق و الوظائف الإلهیـة حتی مع عـدم احتمال التأثیر، و ذلک عنـد ما یکون عـدم بیان الأحکام الإلهیـة، و عـدم إنکار المنکر سببا لتناسـی و تنامی البـدع، و حینما یعـدّ السـکوت دلیلا علی الرضا و الموافقة. ففی هذه الموارد یجب إظهار الحکم الإلهی فی مکان حتی مع عدم تأثیره فی العصاة و المذنبین.

إنّ هذه النقطة جدیرة بالالتفات، و هی أنّ الناهین عن المنکر کانوا یقولون:

نحن نرید أن نکون معذورین عند (ربّکم) و کأنّ هذا إشارة إلی أنّکم أیضا مسئولون أمام اللّه، و إنّ هذه الوظیفة لیست وظیفتنا فقط، بل هی وظیفتکم تجاه ربّکم فی الوقت ذاته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۷

ثمّ إنّ الآیـة اللاحقـة تقول: و فی المآل غلبت عبادة الـدنیا علیهم، و تناسوا الأمر الإلهی، و فی هـذا الوقت نجینا الذین کانوا ینهون عن المنکر، و عاقبنـا الظـالمین بعقـاب ألیم منهم بسـبب فسـقهم و عصـیانهم فَلَمَّا نَسُوا مـا ذُکِّرُوا بِهِ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ یَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِینَ ظَلَمُوا بِعَذابٍ بَئِیسٍ بِما کانُوا یَفْسُقُونَ ۱۲۷].

و لاـ شک أنّ هـذا النسـیان لیس نسـیانا حقیقیا غیر موجب للعـذر، بل هو نوع من عـدم الاکتراث و الاعتناء بأمر اللّه، و کأنّه قـد نسـی بالمرّة.

ثمّ یشرح العقوبات هکذا: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ قُلْنا لَهُمْ کُونُوا قِرَدَةً خاسِئِینَ ۱۲۸].

و واضح أن أمر «کونوا» هنا أمر تکوینی مثل: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ ۱۲۹].

بحوث

اشارة

و هنا نقاط عدیدة یجب الالتفات إلیها:

۱- كيف ارتكبوا هذه المعصية؟

و أمّا كيف بدأت هذه الجماعة عملية التجاوز على هذا القانون الإلهى؟ فقد وقع فيه كلام بين المفسّرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۸

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّهم عمدوا فى البداية إلى ما يسمى بالحيلة الشرعية، فقد أحدثوا أحواضا إلى جانب البحر، و فتحوا لها أبوابا إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب فى يوم السبت فتقع فيها أسماك كثيرة مع ورود الماء إليها، و عند الغروب حينما كانت الأسماك تريد العودة إلى البحر يوصدون تلك فتحبس الأسماك فى تلك الأحواض، ثمّ يعمدون فى يوم الأحد إلى صيدها، و أخذها من الأحواض، و كانوا يقولون: إنّ اللّه أمرنا أن لا نصيد السمك، و نحن لم نصد الأسماك إنّما حاصرناها فقط[۱۳۰].

و يقول بعض المفسّرين: إنّهم كانوا يرسلون كلاليبهم و صناراتهم و شباكهم فى البحر يوم السبت، ثمّ يسحبونها يوم الأحد و قد علقت بها الأسماك، و هكذا كانوا يصيدون السمك حتى فى يوم السبت و لكن بصورة ما كرة.

و يظهر من بعض الرّوايات الأخرى أنّهم كانوا يصيدون السمك يوم السبت من دون مبالاة بالنهى الإلهى، و ليس بواسطة أية حيلة.

و لكن من الممكن أن تكون هذه الرّوايات صحيحة بأجمعها و ذلك أنّهم فى البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، و ذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب و الصنارات، ثمّ لما صغرت هذه المعصية فى نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السب و حرمته، فأخذوا يصيدون السمك فى يوم السبت تدريجا و علنا، و اكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جدا.

۲- من هم الذين نجوا؟

الظاهر من الآيات الحاضرة أنّ فريقا واحدا من الفرق الثلاثة (العصاة، المتفرجون، الناصحون) هو الذى نجى من العذاب الإلهى و هم افراد الفريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۶۹

الثّالث.

و كما جاء فى الرّوايات، فإنّه عند ما رأى هذا الفريق أن عظاته و نصائحه لا تجدى مع العصاة انزعجوا و قالوا: سنخرج من المدينة، فخرجوا إلى الصحراء ليلا، و اتفق أن أصاب العذاب الإلهى كلا الفريقين الآخرين.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ العصاة هم الذين أصيبوا بالعذاب فقط، و نجى الساكتون أيضا، فهو لا يتناسب مع ظاهر الآيات الحاضرة.

۳- هل أنّ كلا الفريقين عوقبوا بعقاب واحد

يظهر من الآيات الحاضرة أنّ عقوبة المسخ كانت مقتصرة على العصاة، لأنّه تعالى يقول: فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ ما نُهُوا عَنْهُ ... و لكن من جانب آخر يستفاد من الآيات الحاضرة- أيضا- أنّ الناصحين الواعظين فقط هم الذين نجوا من العقاب، لأنّه تعالى يقول: أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ.

من مجموع هاتين الآيتين يتبيّن أنّ العقوبة نالت كلا الفريقين، و لكن عقوبة المسخ اختصت بالعصاة فقط، و أمّا عقوبة الآخرين فمن المحتمل أنّها كانت الهلاك و الفناء، بالرغم من أن العصاة أيضا هلكوا بعد مدّة من المسخ حسب ما جاء فى هذا الصدد من

الرّوایات.[۱۳۱]

۴- هل المسخ کان جسمانیا أو روحانیا؟

«المسخ» أو بتعبیر آخر «تغییر الشکل الإنسانی إلی الصورة الحیوانیة» و من المسلّم أنّه حدث علی خلاف العادة و الطبیعة.

علی أنّه قد شوهدت حالات جزئیة من (موتاسیون) و القفزة، و تغییر الشکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۰

و الصورة فی الحیوانات إلی أشکال و صور أخری، و قد شکّلت أسس فرضیة التکامل فی العلوم الطبیعیة الحاضرة.

و لکنّ الموارد التی شوهدت فیها ال «موتاسیون» و القفزة إنّما هی فی صفات الحیوانات الجزئیة، لا الصفات الکلیّة، یعنی أنّه لم یشاهد إلی الآن نوعا من أنواع الحیوان تغیّر علی أثر ال «موتاسیون» إلی نوع آخر، بل یمکن أن تتغیر خصوصیات معینة من الحیوان، ناهیک عن أنّ هذه التغییرات إنّما تظهر فی الأجیال التی توجد فی المستقبل، لا أن یحصل هذا التغییر فی الحیوان یتولد من أمّه.

و علی هذا الأساس، یکون تغیر صورة إنسان أو حیوان إلی صورة نوع آخر أمرا خارقا للعادة.

و لکن تقدم أنّ هناک أمورا تحدث علی خلاف العادة و الطبیعة، و هذه الأمور ربّما تقع فی صورة المعاجز التی یأتی بها الأنبیاء، و أحیانا تکون فی صورة الأعمال الخارقة للعادة التی تصدر من بعض الأشخاص، و إن لم یکونوا أنبیاء (و هی تختلف عن معاجز الأنبیاء طبعا).

و بناء علی هذا، و بعد القبول بإمکان وقوع المعاجز و خوارق العادة، لا مانع من مسخ صورة إنسان إلی إنسان آخر. و لا یکون ذلک مستحیلا تأباه العقول.

و وجود مثل هذه الخوارق للعادة- کما قلنا فی مبحث إعجاز الأنبیاء- لا هو استثناء و خرق لقانون العلیة، و لا هو خلاف العقل، بل هو مجرّد کسر قضیة «عادیّة طبیعیّة» فی مثل هذه الموارد، و لها نظائر رأیناها فی الأشخاص غیر العادیین ۱۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۱

بناء علی هذا لا مانع من قبول «المسخ» علی ما هو علیه فی معناه الظاهری الوارد فی الآیة الحاضرة و بعض الآیات القرآنیة الأخری، و أکثر المفسّرین قبلوا هذا التّفسیر أیضا.

و لکن بعض المفسّرین- و هم الأقلیّة- قالوا: إنّ المسخ هو «المسخ الروحانی» و الانقلاب فی الصفات الأخلاقیة، بمعنی ظهور صفات مثل صفات القرود أو الخنازیر فی الطغاة و المتعنتین، مثل الإقبال علی التقلید الأعمی و التوجه الشدید إلی البطنة و الشهوة، التی هی صفات بارزة لهذین الحیوانین.

و هذا الاحتمال نقل عن أحد المفسّرین القدامی و هو مجاهد.

و ما أخذه البعض علی مسألة المسخ، و أنّه خلاف التکامل، و أنّه یوجب العودة و الرجوع و التقهقر فی الخلقة غیر صحیح، لأنّ قانون التکامل یرتبط بالذین یسیرون فی طریق التکامل، لا أولئک الذین انحرفوا عن مسیرة التکامل، و خرجوا عن دائره هذا القانون.

فعلی سبیل المثال: الإنسان السلیم ینمو نموا منتظما فی أعوام الطفولة، و لکنّه إذا حصلت فی وجوده بعض النقائص، فیمکن أن لا یتوقف الرشد و النمو فحسب، بل یتقهقر و یفقد نموه الفکری و الجسمانی تدریجا.

و لکن یجب الانتباه علی کل حال إلی أنّ المسخ و التبدل و التحول الجسمانی یتناسب مع الأعمال التی قام بها الشخص، یعنی أنّ بعض العصاة یسلکون سبیل الطغیان تحت ضغط من دوافع الهوی و الشهوة، و جماعة أخری تتلوث حیاتهم بأدران الذنوب أثر التقلید الأعمی، و لهذا یظهر المسخ فی کل فریق من هذه الفرق بصورة متناسبة مع کیفیة أعمالهم.

على أنّه قد جرى الحديث فى الآيات الحاضرة فقط عن «القردة» و لم يجر أى حديث عن «الخنازير» و لكن فى الآية (۶۰) من سورة المائدة يدور الحديث حول جماعة مسخ بعضهم فى صورتين (بعض قردة و بعض خنازير) و هذه الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۲

حسبما قال بعض المفسّرين: نزلت حول أصحاب السبت، فالكبار منهم الذين أطاعوا أمر الشهوة و البطن مسخوا خنازير، و الشباب المقلد لهم تقليدا أعمى و كانوا يشكلون الأكثرية مسخوا قردة.

و لكن على كل حال يجب الالتفات إلى أنّ الممسوخين- حسب الرّوايات- بقوا على هذه الحالة عدة أيّام ثمّ هلكوا، و لم يتولد منهم نسل أبدا.

۵- المخالفة تحت غطاء الحيلة الشّرعية

إنّ الآيات الحاضرة و إن كانت لا تتضمّن الإشارة إلى تحايل أصحاب السبت فى صعيد المعصية، و لكن- كما أسلفنا- أشار كثير من المفسّرين فى شرح هذه الآيات إلى قصّة حفر الأحواض، أو نصب الصنارات فى البحر فى يوم السبت، و يشاهد هذا الموضوع نفسه فى الرّوايات الإسلامية، و بناء على هذا تكون العقوبة الإلهية التى جرت على هذا الفريق- بشدة- تكشف عن أن الوجه الحقيقى للذنب لا يتغير أبدا بانقلاب ظاهره، و باستخدام ما يسمى بالحيلة الشرعية، فالحرام حرام سواء أتى به صريحا، أو تحت لفافات كاذبة، و معاذير واهية.

إنّ الذين تصوروا أنّه يمكن بالتغيير الصورى تبديل عمل حرام إلى حلال يخدعون أنفسهم فى الحقيقة، و من سوء الحظ أن هذا العمل رائج بين بعض الغفلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الدين و هذا هو الذى يشوّه وجه الدين فى نظر الغرباء عن الدين، و يكرّهه إليهم بشدّة.

إن العيب الأكبر الذى يتسم به هذا العمل- مضافا إلى تشويه صورة الدين- هو أن هذا العمل التحايلى يصغر الذنب فى الأنظار و يقلّل من أهميته و خطورته و قبحه، و يجرّئ الإنسان فى مجال الذنب إلى درجة أنّه يتهيأ شيئا فشيئا لارتكاب الذنوب و المعاصى بصورة صريحة و علنية. فنحن

نقرأ فى نهج البلاغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۳

أنّ الإمام عليّا عليه السّلام قال: «إنّ القوم سيفتنون بأموالهم، و يمنون بدينهم على ربّهم، و يتمنون رحمته، و يأمنون سطوته، و يستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة و الأهواء الساهية، فيستحلّون الخمر بالنّبيذ[۱۳۳] و السحت بالهدية، و الربا بالبيع» (الخطبة ۱۵۶).

و يجب الانتباه إلى الدافع وراء أمثال هذه الحيل، إمّا إلباس الباطن القبيح بلباس قشيب و إظهاره بمظهر حسن أمام الناس، و إمّا خداع الضمير، و اكتساب طمأنينة نفسية كاذبة.

۶- أنواع الابتلاء الإلهى المختلفة

صحيح أنّ صيد السمك من البحر لسكان السواحل لم يكن مخالفة، و لكن قد ينهى اللّه جماعة من الناس و بصورة مؤقّتة، و بهدف الاختبار و الامتحان عن مثل هذا العمل، ليرى مدى تفانيهم، و يختبر مدى إخلاصهم، و هذا هو أحد أشكال الامتحان الإلهى.

هذا مضافا إلى أنّ يوم السبت كان عند اليهود يوما مقدسا، و كانوا قد كلّفوا- احتراما لهذا اليوم بالتفرغ للعبادة و ممارسة البرامج

الدينية- و الكف- عن الكسب و الإشتغال بالأعمال اليومية، و لكن سكان ميناء «أيلة» تجاهلوا كلّ هذه الاعتبارات و المسائل، فعوقبوا معاقبة شديدة جعلت منهم و من حياتهم المأساوية و مصيرهم المشؤوم درس و عبرة للأجيال اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۴

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۷ الى ۱۶۸]

اشارة

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۶۷) وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۶۸)

التّفسير

تفرق اليهود و تشتتهم:

هذه الآيات إشارة إلى قسم من العقوبات الدنيوية التى أصابت جماعة من اليهود خالفت أمر اللّه تعالى، و سحقت الحق و العدل و الصدق.

فيقول فى البداية: و اذكروا يوم أخبركم اللّه بأنّه سيسلّط على هذه الجماعة العاصية المتمردة فريقا يجعلها حليفة العذاب و الأذى إلى يوم القيامة وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ

و «تأذّن» و «أذّن» كلاهما بمعنى الإخبار و الإعلام، و كذا جاء بمعنى الحلف و القسم، و فى هذه الصورة يكون معنى الآية أنّ اللّه تعالى أقسم بأن يكون مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۵

هؤلاء الأشخاص فى العذاب إلى يوم القيامة.

و يستفاد من هذه الآية أنّ هذه الجماعة المتمردة الطاغية لن ترى وجه الاستقرار و الطمأنينة أبدا، و إن أسّست لنفسها حكومة و شيّدت دولة، فإنّها مع ذلك ستعيش حالة اضطراب دائم و قلق مستمر، إلّا أن تغيّر- بصدق- سلوكها، و تكفّ عن الظلم و الفساد.

و فى ختام الآية يضيف تعالى قائلا: إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ فبالنسبة إلى الكفار سريع العقاب، و بالنسبة للمذنبين التائبين التائبين غفور رحيم.

و هذه الجملة تكشف عن أنّ اللّه قد ترك الباب مفتوحا أمامهم حتى لا يظن أحد أنّه قد كتب عليهم المصير المحتوم و الشقاء الابدى الذى لا خلاص منه.

و فى الآية اللاحقة يشير تعالى إلى تفرق اليهود فى العالم فيقول: وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ فهم متفرقون منقسمون على أنفسهم بعضهم صالحون، و لهذا عند ما سمعوا بنداء الإسلام و عرفوا دعوة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آمنوا به، و بعضهم لم يكونوا كذلك بل ألقوا الحق وراءهم ظهريا، و لم يرتدعوا عن معصية فى سبيل ضمان مصالحهم و حياتهم المادية.

و مرّة أخرى تتجلى هذه الحقيقة فى هذه الآية و هى أنّ الإسلام لا يعادى العنصر اليهودى، و لا يشجبهم لكونهم أتباع دين معيّن، أو منتمين إلى عنصر و عرق معيّن، بل يجعل أعمالهم هى مقياس تقييمهم.

ثمّ يضيف تعالى قائلا: وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

أى ربّما نكرمهم و نجعلهم فى رفاه و نعمة حتى نثير فيهم روح الشكر، و يعودوا إلى طريق الحق. و ربّما نغرقهم فى الشدائد و المصاعب و المصائب حتى ينزلوا عن مركب الغرور و الأنانية و التكبر، و يقفوا على عجزهم، لعلهم يستيقظون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۶

و يعودون إلى اللّه، و الهدف فى كلتا الحالتين هو التربية و الهداية و العودة إلى الحق.

و على هذا الأساس تشمل «الحسنات» كل نعمة و رفاه و استقرار، كما تشمل «السيئات» كل نقمة و شدة، و حصر هذين المفهومين فى دائر ضيّقة معيّنة لا دليل عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۷

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۶۹ الى ۱۷۰]

اشارة

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَ دَرَسُوا ما فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶۹) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (۱۷۰)

التّفسير

فى الآيات الماضية دار الحديث حول أسلاف اليهود، و لكن فى الآية الحاضرة دار الكلام حول أبنائهم و أخلافهم.

و فى البداية يقول تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هذَا الْأَدْنى إنّهم ورثوا التوراة عن أسلافهم، و كان عليهم أن ينتفعوا بها و يهتدوا، و لكنّهم رغم ذلك فتنوا بمتاع هذه الدنيا و حطامها الرخيص التافه، و استبدلوا الحق و الهدى بمنافعهم الماديّة.

و «خلف» على وزن «حرف» يأتى غالبا فى الأولاد غير الصالحين- كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۸

ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين، فى حين أنّ «الخلف» على وزن «شرف» يأتى بمعنى الولد الصالح ۱۳۴].

ثمّ يضيف قائلا: و عند ما وقعوا بين مفترق طريقين: بين ضغط الوجدان من جهة، و الرغبات و المنافع المادية من جهة أخرى عمدوا إلى الأمانى و الآمال الكاذبة و قالوا: لنأخذ المنافع الدنيوية فعلا سواء من حلال أو حرام، و اللّه سيرحمنا و يغفر لنا وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا.

إنّ هذه الجملة تكشف عن أنّهم كانوا بعد القيام بمثل هذا العمل يتخذون حالة من الندم العابر و التوبة الظاهرية، و لكن هذه الندامة- كما يقول القرآن الكريم- لم تكن لها أية جذور فى أعماق نفوسهم، و لهذا يقول تعالى: وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ

و «عرض» على وزن «غرض» يعنى الشىء الذى لاثبات له و لا دوام، و من هذا المنطق يطلق على متاع العالم المادى اسم العرض، لكونه زائلا غير ثابت فى الغالب، فهو يقصد الإنسان يوما و يقبل عليه بوفرة بحيث يضيع الإنسان حسابه و لا يعود قادرا على عده و إحصائه و يبتعد عنه و جمعه و حصره، يوما آخر بالكلية بحيث لا يملك منه إلّا الحسرة و التذكر المؤلم، هذا مضافا إلى أن جميع نعم هذه الدنيا هى أساسا غير دائمة، و غير ثابته ۱۳۵].

و على كل حال، فإنّ هذه الجملة إشارة إلى عمليات الارتشاء التى كان يقوم بها بعض اليهود لتحريف الآيات السماوية، و نسيان

أحكام اللّه لمضادتها لمصالحهم و منافعهم المادية.

و لهذا قال تعالى فى عقيب ذلك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۷۹

أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ أى أنّهم أخذ عليهم الميثاق- بواسطة كتابهم السماوى التوراة- أن لا يفتروا على اللّه كذبا، و لا يحرفوا كلماته، و لا يقولوا إلّا الحق.

ثمّ يقول: لو كان هؤلاء الذين يرتكبون هذه المخالفات جاهلون بالآيات الإلهية، لكان من الممكن أن ينحتوا لأنفسهم أعذارا، و لكن المشكلة هى أنّهم رأوا التوراة مرارا و فهموا محتواها و مع ذلك ضيعوا أحكامها، و نبذوا أمرها وراء ظهورهم وَ دَرَسُوا ما فِيهِ و «الدرس» فى اللغة يعنى تكرار شىء، و حيث أن الإنسان عند المطالعة، و تلقى العلم من الأستاذ و المعلم يكرّر المواضيع، لهذا أطلق عليه لفظ «الدرس» و إذا ما رأينا أنّهم يستعملون لفظة «درس و الاندراس» على انمحاء أثر الشىء فإنّما هو لهذا السبب و بهذه العناية، و لأنّ الأمطار و الرياح و الحوادث الأخرى تتوالى على الأبنية القديمة و تبليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۲۷۹

فى ختام الآية يقول: إنّ هؤلاء يخطئون فى تقديرهم للأمور، و إنّ هذه الأعمال لن تجديهم نفعا وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ألا تفهمون هذه الحقائق الواضحة أ فَلا تَعْقِلُونَ ؟

و فى مقابل الفريق المشار إليه سابقا يشير تعالى إلى فريق آخر لم يكتفوا بعدم اقتراف جريمة تحريف الآيات الإلهية و كتمانها فحسب، بل تمسكوا بحذافيرها و طبقوها فى حياتهم حرفا بحرف، و القرآن يصف هذه الجماعة بأنّهم مصلحو العالم، و يعترف لهم بأجر جزيل و ثواب عظيم، و يقول عنهم: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ

و قد وقع كلام بين المفسّرين حول المراد من «الكتاب» و هل أنّه التوراة أو القرآن الكريم؟ بعض ذهب إلى الأوّل، و بعض إلى الثّانى. و الظاهر أنّه إشارة إلى فريق من بنى إسرائيل الذين انفصلوا عن الضالين الظالمين، و عاكسوهم فى سلوكهم و موقفهم. و لا شك أن التمسك بالتوراة و الإنجيل و ما فيهما من بشائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۰

بظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لا ينفصل عن الإيمان بهذا النّبى.

إنّ فى التعبير ب «يمسّكون» الذى هو بمعنى الاعتصام و التمسك بشىء نكتة ملفتة للنظر، لأنّ التمسك بمعنى الأخذ و الالتصاق بشىء لحفظه و صيانته، و هذه هى الصورة الحسيّة للكلمة، و أمّا الصورة المعنوية لها فهى أن يلتزم الإنسان بالعقيدة بمنتهى الجدية و الحرص، و يسعى فى حفظها و حراستها.

إنّ التمسك بالكتاب الإلهى ليس هو أن يمسك الإنسان بيده أوراقا من القرآن أو التوراة أو الإنجيل أو أى كتاب آخر و يشدّها عليه بقوة، و يجتهد فى حفظ غلافه و ورقه من التلف، بل التمسك الواقعى هو أن لا يسمح لنفسه بأن يرتكب أدنى مخالفة لتعاليم ذلك الكتاب، و أن يجتهد فى تحقيق و تطبيق مفاهيمه من الصميم.

إنّ الآيات الحاضرة تكشف لنا بوضوح عن أنّ الإصلاح الواقعى فى الأرض لا يمكن من دون التمسك بالكتب السماوية، و من دون تطبيق الأوامر و التعاليم الإلهية، و هذا التعبير يؤكّد- مرّة أخرى- هذه الحقيقة، و هى أنّ الدين ليس مجرّد برنامج يرتبط بعالم ما وراء الطبيعة، و بدار الآخرة، بل هو برنامج للحياة البشرية، و يهدف إلى حفظ مصالح جميع أفراد البشر، و إجراء مبادئ العدل و السلام و الرفاه و الاستقرار، و بالتالى كل مفهوم تشمله كلمة «الإصلاح» الواسعة المعنى.

و ما نراه من التركيز على خصوص «الصلاة» من بين الأوامر و التعاليم الإلهية، فإنّما هو لأجل أن الصلاة الواقعية تقوّى علاقة الإنسان

باللّه الـذى يراه حاضـرا و ناظرا لجميع أعماله و برامجه، و مراقبا لجميع أفعاله و أقواله، و هـذا هو الـذى عبر عنه فى آيات أخرى بتأثير الصلاة فى الدعوة إلى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و ارتباط هذا الموضوع بإصلاح المجتمع الإنسانى أوضح من أن يحتاج إلى بيان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۱

من كل ما قيل يتّضـح أنّ هذا المبدأ و المرتكز الفكرى لا يختص باليهود، بل هو أصل فى حياة الأمم و الشـعوب. و على هذا الأساس فإنّ الذين يجمعون متاعا زائلا بواسـطة كتمان الحقائق و تحريفها، ثمّ يرون نتائجه المشؤومة يتّخذون لأنفسهم حالة من التوبة الكاذبة، توبـة سـرعان ما تزول و تـذوب أمام ابتسامه من منفعـة ماديـة متجـدّدة، كما يذوب الثلج فى حرّ القيظ فهؤلاء هم المخالفون لإصـلاح المجتمعات البشـرية، و هم الـذين يضـحون بمصالـح الجماعة فى سبيل مصالح الفرد، سواء صدر هذا الفعل من يهوديّ أو مسـيحى أو مسلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۲

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۷۱]

اشارة

وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۱۷۱)

التّفسير

آخر كلام حول اليهود:

«نتقنا» من مادة «نتق» على وزن «قلع» تعنى فى الأصل قلع و انتزاع شـىء من مكانه، و إلقاءه فى جانب آخر، و يطلق على النساء اللواتى يلدن كثيرا أيضا «ناتق» لأنّهن يفصلن الأولاد من أرحامهن و يخرجنهم بسهولة.

و هـذه الآيـة آخر آية فى هذه السورة تتحدث حول حياة بنى إسـرائيل، و هى تتضـمّن تذكير قصّة أخرى ليهود عصـر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، قصّـة فيهـا عبرة، كما أنّها دليل على إعطاء ميثاق و عهـد، إذ يقول: و اذكروا إذ قلعنا الجبل من مكانه و جعلناه فوق رؤوسهم كأنّه مظلّة وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.

و قد ظنوا أنّه سيسقط على رؤوسهم، فإنتابهم اضطراب شديد و فزع:

وَ ظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ

و فى تلك الحالة قلنا لهم: خذوا ما أعطيناكم من الأحكام بقوة و جديّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۳

خُـذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ و اذكروا ما جاء فيه حتى تتقوا، و خافوا من العقاب الإلهى و اعملوا بما أخـذناه فيه منكم من المواثيق وَ اذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

إنّ هـذه الآية نفسـها جاءت- بفارق بسـيط فى الآية (۶۳) من سورة البقرة، و كمـا قلنـا هنـاك فإنّ هـذه القصـة وقعت- حسب ما قال المفسّر المعروف العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان عن ابن زيد- عند ما عاد موسى عليه السلام من جبل الطور، و اصطحب معه أحكام التوراة ... فعند ما عرض على قومه الواجبات و الوظائف و أحكام الحلال و الحرام تصوروا أنّ العمل بكل هذه الوظائف أمر مشكل، و

لهـذا بنوا على المخالفـة و العصـيان ... فى هـذا الوقت نفسه، رفعت قطعـة عظيمة من الجبل فوق رؤوسـهم، بحيث وقعوا فى اضـطراب عظيم، فالتجأوا إلى موسى عليه السلام و طلبوا منه رفع هذا الخطر و الخوف عنهم، فقال لهم موسى عليه السلام فى تلك الحالة:

لو تعهدتم بأن تكونوا أوفياء لهذه الأحكام لزال عنكم هذا الخطر ... فسلّموا و تعهّدوا و سجدوا للّه تعالى فزال عنهم الخطر، و أزيحت الصخرة من فوق رؤوسهم.

أسئلة و أجوبة:

و هنا سؤالان أشرنا إليهما فى سورة البقرة و إلى جوابيهما، و نذكر مختصرا عنهما هنا بالمناسبة.

السّؤال الأوّل: ألم يكن لأخذ الميثاق فى هذه الحالة صفة الإجبار؟

و الجواب: لا شك أنّه كانت تحكم فى ذلك الظرف حالة من الإجبار و الاضـطرار، و لكن من المسلّم أنّه لمّا ارتفع و زال الخطر فيما بعد كان بإمكانهم مواصلة هذا السلوك باختيارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۴

هذا مضافا إلى أنّه لا معنى للإجبار فى مجال الإعتقاد، أمّا فى مجال العمل فلا مانع من أن يجبر الناس على أمور تربوية تضمن خيرهم و سـعادتهم و صـلاحهم. فهل من العيب لو أنّنا أجبرنا شخصا على ترك عادة شريرة، أو سلوك طريق آمن من الخطر، و عدم سلوك طريق محفوف بالأخطار؟

السّؤال الثّانى: كيف رفع الجبل فوق رؤوسهم:

الجواب: ذهب بعض المفسّرين إلى أن الجبل قلع من مكانه بأمر اللّه، و استقر فو رؤوسهم كمظلّة.

و ذهب آخرون إلى أنّه اهتز الجبل اهتزازا شديدا بفعل زلزال شديد بحيث شاهد الناس الذين كانوا يسكنون فى سفح الجبل ظلّ قسم منه فوق رؤوسهم.

و يحتمل أيضا أن قطعة من الجبل انتزعت من مكانها و استقرت فوق رؤوسهم لحظة واحدة، ثمّ مرّت و سقطت فى جانب آخر.

و لا شك فى أنّ هذا الأمر كان أمرا خارقا للعادة و ليس حدثا طبيعيا عاديا.

و الموضوع الآخر الذى يجب الانتباه إليه هو أنّ القرآن لا يقول: إنّ الجبل صار مظلّة فوق رؤوسهم بل قال: (كأنّه ظلّة).

و هـذا التعبير إنّمـا هو لأجـل أنّ المظلّـة تنصب على رؤوس الأشـخاص لإظهـار الحب، و الحال أنّ هـذه العمليـة- المـذكورة فى الآية الحاضـرة- كانت من باب التهديد، أو لأجل أنّ المظلة شـىء مستقر و ثابت، و لكن رفع الجبل فوق رؤوسهم كان يتسم بعدم الثبات و الدوام.

قلنا: مع هذه الآية تختم الآيات المتعلقة بقصة بنى إسرائيل و الحوادث المختلفة، و الذكريات الحلوة و المرّة التى وقعت فى حياتهم.

و هذه القصّة هى آخر قصص الأنبياء التى جاءت فى هذه السورة. و ذكر هذه القصّة فى نهاية قصصهم- مع أنّها ليست آخر حدث من الحوادث المرتبطة بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۵

الجماعة- لعله لأجل أنّ الهدف من جميع هذه القصـص هو التمسك بآيات اللّه و العمل بالمواثيق، و لأجل الوصول إلى التقوى الذى جاء بيانه فى هذه الآية و الآية السابقة.

يعنى أنّ رسالـة موسـى عليه السـلام و سائر الأنبياء و أعمالهم مواجهاتهم المسـتمرة و الصـعبة و ما لقوا من صـعاب و متاعب و شـدائد مضنية كانت لأجل تطبيق أوامر اللّه، و تنفيذ مبادئ الحق و العدالة و الطهر و التقوى فى المجتمعات البشرية بشكل كامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۶

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۲ الى ۱۷۴]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (۱۷۲) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (۱۷۳) وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۱۷۴)

التّفسير

العهد الأوّل و عالم الذّر:

الآيات المذكورة أعلاه، تشير إلى «التوحيد الفطرى» و وجود الإيمان فى أعماق روح الإنسان ... و لذلك فإنّ هذه الآيات تكمل الأبحاث الواردة فى الآيات المتقدمة من هذه السورة فى شأن «التوحيد الاستدلالى»! و بالرغم من كثرة الأقوال و الكلام بين المفسّرين فى شأن عالم الذّر، إلّا أنّنا نحاول أن نبيّن التّفسير الإجمالى لهذه الآيات الكريمة، ثمّ نختار الأهم من أبحاث المفسّرين، و نبيّن وجهة نظرنا بصورة استدلالية موجزة! يقول اللّه سبحانه مخاطبا نبيّه فى هذه الآية وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۷

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا! ....

«الذريّة» كما يقول أهل اللغة و علماؤها، معناها فى الأصل الأبناء الصغار اليافعون، إلّا أنّها تطلق فى الغالب على عموم الأبناء، و قد تستعمل هذه الكلمة فى معنى المفرد، كما قد تستعمل فى معنى الجمع، إلّا أنّها فى الأصل تحمل معنى الجمع! و الجذر اللغوى لهذه الكلمة مختلف فيه، إذ احتملوا له أوجها متعددة.

فقال بعضهم: إنّ جذر هذه الكلمة مأخوذ من «ذرأ» على زنة «زرع» و معناه الخلق، فعلى هذا الوجه يكون معنى الذرية مساويا «للمخلوق».

و قال بعضهم: بل الجذر مأخوذ من «ذرّ» على وزن «شرّ» و يعنى الموجودات الصغيرة جدّا كذرّات الغبار مثلا و النمل الصغير، و من هنا فإنّ أبناء الإنسان تبدأ حياتهم من نطفة صغيرة جدا.

و الاحتمال الثّالث أنّه مأخوذ من مادة ذرو و معناه النثر و التفريق و التنقية [و منه ذرو الحنطة[۱۳۶]] و إنما سمى أبناء الإنسان بالذرية لأنّهم يتفرقون فى أنحاء الأرض بعد التكاثر! ثمّ يشير اللّه سبحانه إلى الهدف النهائى من هذا السؤال و الجواب، و أخذ العهد من ذرية آدم فى مسألة التوحيد، فيقول: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ

الآية التّالية تشير إلى هدف آخر من أخذ هذا العهد، و هو أنّه إنّما أخذ ربّك هذا العهد من ذرية بنى آدم لئلا تعتذروا أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ

أجل ... وَ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۸

إيضاح لما ورد عن عالم الذّر.

رأینا أنّ الآیات محل البحث تتحدث عن أخذ العهد من ذریّة آدم، لکن کیف أخذ هذا العهد؟! لم یرد فی النص إیضاح فی جزئیات هذا الموضوع، إلّا أنّ للمفسّرین آراء متعددة تعویلا منهم علی الرّوایات الإسلامیة «الواردة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أهل بیته علیهم السّلام» و من أهم هذه الآراء رأیان.

۱- حین خلق آدم ظهر أبناؤه علی صورة الذّر إلی آخر نسل له من البشر «و طبقا لبعض الرّوایات ظهر هذا الذّر أو الذرّات من طینة آدم نفسه» و کان لهذا الذرّ عقل و شعور کاف للاستماع و الخطاب و الجواب، فخاطب اللّه سبحانه الذرّ قائلا أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ ! ...

فأجاب الذرّ جمیعا: بَلی شَهِدْنا ثمّ عاد هذا الذرّ «أو هذه الذرات» جمیعا إلی صلب آدم «أو إلی طینته» و من هنا فقد سمی بهذا العالم بعالم الذرّ ... و هذا العهد بعهد «أ لست»؟

فبناء علی ذلک، فإنّ هذا العهد المشار إلیه آنفا هو عهد تشریعی، و یقوم علی أساس «الوعی الذاتی» بین اللّه و الناس.

۲- إنّ المراد من هذا العالم و هذا العهد هو عالم الاستعداد «و الکفاءات»، و «عهد الفطرة» و التکوین و الخلق. فعند خروج أبناء آدم من أصلاب آبائهم إلی أرحام الأمهات، و هم نطف لا تعدو الذرات الصغار، و هبهم اللّه الاستعداد لتقبل الحقیقة التوحیدیة، و أودع ذلک السرّ الإلهی فی ذاتهم و فطرتهم بصورة إحساس داخلی ... کما أودعه فی عقولهم و أفکارهم بشکل حقیقة واعیة بنفسها.

فبناء علی هذا، فإنّ جمیع أبناء البشر یحملون روح التوحید، و ما أخذه اللّه من عهد منهم أو سؤاله إیّاهم: أ لست بربکم؟ کان بلسان التکوین و الخلق، و ما أجابوه کان باللسان ذاته!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۸۹

و مثل هذه التعابیر غیر قلیلة فی أحادیثنا الیومیّة، إذ نقول مثلا: لون الوجه یخبر عن سره الباطنی «سیماهم فی وجوهم»، أو نقول: إنّ عینی فلان المجهدتین تنبئان أنّه لم ینم اللیلة الماضیة.

و قد روی عن بعض أدباء العرب و خطبائهم أنّه قال فی بعض کلامه: سل الأرض من شق أنهارک و غرس أشجارک و أینع ثمارک؟ فإنّ لم تجبک حوارا أجابتک اعتبارا! ...

کما ورد فی القرآن الکریم التعبیر علی لسان الحال، کالآیة (۱۱) من سورة فصلت، إذ جاء فیها فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً قالَتا أَتَیْنا طائِعِینَ

هذا باختصار هو خلاصة الرأیین أو النظرتین المعروفتین فی تفسیر الآیات آنفة الذکر ...

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل فیه بعض الإشکالات، و نعرضها فی ما یلی:

۱- ورد التعبیر فی نصّ الآیات المتقدمة عن خروج الذریّة من بنی آدم من ظهورهم، إذ قال تعالی ... مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّیَّتَهُمْ مع أنّ التّفسیر الأوّل یتکلم عن آدم نفسه أو عن طینة آدم.

۲- إذا کان هذا العهد قد أخذ عن وعی ذاتی و عن عقل و شعور، فکیف نسیه الجمیع؟! و لا یتذکر أحد مع أنّ الفاصلة الزمانیة بین زماننا لیست بأبعد مدی من الفاصلة بین هذا العالم و العالم الآخر «أو القیامة»؟ و نحن نقرأ فی آیات عدیدة من القرآن الکریم أنّ الناس سواء کانوا من أهل الجنّة أو من أهل النّار لا ینسون أعمالهم الدنیویة فی یوم القیامة، و یتذکرون ما اکتسبوه بصورة جیدة، فلا یمکن أن یوجّه هذا النسیان العمومی فی شأن عالم الذر أبدا «و لا مجال لتأویله!».

۳- أیّ هدف کان من وراء مثل هذا العهد؟! فإذا کان الهدف أن یسیر المعاهدون، فی طریق الحق عند تذکرهم مثل هذا العهد، و ألّا یسلکوا إلّا طریق معرفة اللّه، فینبغی القول بأنّ مثل هذا الهدف لا یتحقق أبدا و بأی وجه کان، لأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۰

الجمیع نسوه!! ...

و بدون هذا الهدف یعدّ هذا العهد لغوا و لا فائدة فیه.

۴- إنّ الإعتقاد بمثل هذا العالم یستلزم- فی الواقع- القبول بنوع من التناسخ، لأنّه ینبغی- طبقا لهذا التّفسیر- أن تکون روح الإنسان قد خلقت فی هذا العالم قبل ولادته الفعلیة، و بعد فترة طویلة أو قصیرة جاء إلی هذا العالم ثانیة، و علی هذا فسوف تحوم حوله کثیرا من الإشکالات فی شأن التناسخ! غیر أنّنا إذا أخذنا بالتّفسیر الثّانی، فلا یرد علیه أیّ إشکال ممّا سبق، لأنّ السؤال و الجواب، أو العهد المذکور- عهد فطری، و ما یزال کلّ منّا یحس بآثاره فی أعماق روحه، و کما یعبر عنه علماء النفس ب «الشعور الدینی» الذی هو من الإحساسات الأصیلة فی العقل الباطنی للإنسان. و هذا الإحساس یقود الإنسان علی امتداد التأریخ البشری إلی «طریق» معرفة اللّه ... و مع وجود هذا الإحساس أو الفطرة لا یمکن التذرّع بأنّ أباءنا کانوا عبدة للأصنام و نحن علی آثارهم مقتدون!! ...

فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها[۱۳۷].

و الإشکال الوحید الذی یرد علی التّفسیر الثّانی هو أنّ هذا السؤال و الجواب یتخذ شکلا «کنائیّا» و یتسم بلغة الحوار. إلّا أنّه مع الالتفات إلی ما بیّناه آنفا بأن مثل هذه التعابیر کثیر فی لغة العرب و جمیع اللغات، فلا یبقی أیّ إشکال فی هذا المجال.

و یبدو أن هذا التّفسیر أقرب من سواه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۱

عالم الذر فی الرّوایات الإسلامیّة:

وردت روایات کثیرة فی مختلف المصادر الإسلامیّة من کتب الشیعة و أهل السنة حول عالم الذّر ... بحیث تتصور لأوّل وهلة و کأنّها روایة متواترة ... فمثلا فی تفسیر البرهان وردت ۳۷ روایة، و فی تفسیر نور الثقلین وردت ذیل الآیات الآنفة ۳۰ روایة بعضها مشترک و الآخر مختلف، و بملاحظة الاختلاف فیها فقد یصل مجموع ما ورد من الرّوایات إلی أربعین روایة ...

إلّا أنّنا سنجد- بعد التدقیق فی مضامینها و محتواها و تقسیمها إلی مجامیع، و فحصها- أنّه لا یمکن أن نعثر روایة واحدة معتبرة منها، فکیف یمکن الإعتقاد بتواترها؟! إنّ أکثر تلک الرّوایات منقول عن زرارة، و بعضها عن صالح بن سهل، و بعضها عن أبی بصیر، و بعضها عن جابر، و بعضها عن عبد اللّه بن سنان، و من ذلک یظهر لنا أنّه لو روی شخص واحد روایات کثیرة لکنّها متحدة المضمون فهی تعد بحکم الروایة الواحدة، و بناء علی ذلک فسیقلّ عدد تلک الرّوایات الکثیرة و تتضاءل نسبتها و تبلغ ما بین ۱۰ إلی ۲۰ روایة، هذا من ناحیة السند.

أمّا من ناحیة المضمون و الدلیل فإنّ مضامینها تختلف بعضها عن بعض، فمنها ما یوافق التّفسیر الأوّل، و منها ما یوافق التّفسیر الثّانی، و بعضها لا یوافق التّفسیرین ...

فالرّوایات المرقمة (۳) و (۴) و (۸) و (۱۱) و (۲۸) و (۲۹) و المرویة عن زرارة فی تفسیر البرهان- ذیل الآیات محل البحث- تتفق و التّفسیر الأوّل. و ما روی عن عبد اللّه بن سنان فی الروایتین (۷) و (۱۲) فی تفسیر البرهان نفسه، یتفق و التّفسیر الثانی ...

أی أنّ بعض هذه الرّوایات مبهم، و بعضها یمثّل رموزا و عبارات مجازیة، کما فی الروایتین (۱۸) و (۲۳) المرویتین عن أبی سعید الخدری و عبد اللّه الکلبی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۲

الواردتین فی التّفسیر آنف الذکر.

و بعض الرّوایات یذکر «أرواح بنی آدم» کما فی الروایة (۲۰) المرویّة عن المفضّل! ...

ثمّ إن الرّوایات- المذکورة آنفا- بعضها ذو سند معتبر، و بعضها فاقد للسند أو مرسل.

فبناء علی ذلک- و بملاحظة التعارض بین الرّوایات- لا یمکننا التعویل علیها علی أنّها وثیقة معتبرة ... و کما عبّر أکابر علمائنا فی مثل

هذه الموارد فإنّه ينبغى أن نتجنّب الحكم على مثل هذه الرّوايات، و أن نكلها إلى أصحابها و رواتها.

و فى هذه الصورة نبقى متمسّكين بالنص القرآنى، و كما ذكرنا أنفا فإن التّفسير الثّانى أكثر انسجاما مع الآيات.

و لو كان أسلوبنا فى البحث التفسيرى يسمح لنا أن نذكر جميع طوائف الرّوايات، و التحقيق فيها- كنا أشرنا آنفا- لفعلنا ذلك ليكون البحث أكثر وضوحا.

إلّا أنّ الراغبين يمكنهم الرجوع إلى التّفسير «نور الثقلين، و تفسير البرهان، و بحار الأنوار»، و ليبحثوا فى مجاميعها و يصنفوها، و ينظروا فى أسانيدها و مضامينها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۳

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۵ الى ۱۷۸]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۱۷۶) ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (۱۷۷) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۷۸)

التّفسير

اشارة

فى هذه الآيات إشارة لقصّة أخرى من قصص بنى إسرائيل، و هى تعد مثلا و أنموذجا لجميع أولئك الذين يتصفون بمثل هذه الصفات.

و كما سنلاحظ خلال تفسير الآيات- محل البحث- فإنّ للمفسّرين احتمالات متعددة فى الذى تتحدث عنه أو (عليه) الآيات ... إلّا أنّه ممّا لا ريب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۴

فيه أن مفهوم الآيات- كسائر الآيات النازلة فى ظروف خاصّة- عام و شامل.

و الآية الأولى من هذه الآيات يخاطب بها النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول القرآن الكريم وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ

فهذه الآية واضحة أنّها تحكى قصّة رجل كان فى البداية فى صف المؤمنين، و حاملا للعلوم الإلهية و الآيات، إلّا أنّه انحراف عن هذا النهج، فوسوس له الشيطان، فكانت عاقبة أمره أن انجرّ إلى الضلال و الشقاء! ...

و التعبير ب «انسلخ» و هو من مادة «الانسلاخ» معناه فى الأصل الخروج من الجلد ... يدلّ على أن الآيات و العلوم الإلهية كانت تحيط به إحاطة الجلد بالبدن، إلّا أنّه خرج منها على حين غرّة و استدار إلى الوراء و غيّر مسيره بسرعة! كما أنّ التعبير القرآنى «فأتبعه الشيطان» يستفاد منه أنّ الشيطان كان أوّل الأمر آيسا منه تقريبا، لأنّه كان يسلك سبيل الحق تماما، و بعد أن انحرف لحقه الشيطان و تربص له و أخذ يوسوس له حتى انتهى أمره إلى أن يكون من الضالين المنحرفين الأشقياء[۱۳۸].

و الآية التّالية تكمل هذا الموضوع على النحو التّالى وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها.

إلّا أن من المسلّم أنّ إكراه الناس و إجبارهم على أن يسلكوا سبيل الحق لا ينسجم و السنن الإلهية و حرية الإدارة، و لا يكون ذلك دليلا على عظمة الشخص، لهذا فإنّ الآية تضيف مباشرة. إنّنا تركناه و هواه، و بدلا من أن ينتفع من معارفه فإنّه هوى و انحطّ وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ

و كلمة (أخلد) من (الإخلاد) و هى تعنى السكن الدائم فى مكان واحد مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۵

حرية الإرادة، فجملة (أخلد إلى الأرض) تعنى اللصوق الدائم بالأرض، و هى كناية عن عالم المادة و بهارجها، و اللذائذ غير المشروعة للحياة المادية.

ثمّ تشبّه الآية هذا الفرد بالكلب الذى يخرج لسانه لاهثا دائما كالحيوانات العطاشى فتقول فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ

فهو لفرط اتّباعه الهوى و تعلقه بعالم المادة انتابته حالة من التعطش الشديد غير المحدود وراء لذائذ الدنيا، و كل ذلك لم يكن لحاجة، بل لحالة مرضيّة، فهو كالكلب المسعور الذى يظهر بحالة عطش كاذب لا يمكن ارواؤها و هى حالة عبيد الذين لا يهمهم غير جمع المال و اكتناز الثروة فلا يحسون معه بشبع أبدا.

ثمّ تضيف الآية: إنّ هذا المثال الخاص لا يتعلق بفرد معين، بل: ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

العالم المنحرف «بلعم بن باعوراء»:

كما لاحظنا أنّ الآيات السالفة لم تذكر اسم أحد بعينه، بل تحدثت عن عالم كان يسير فى طريق الحق ابتداء و بشكل لا يفكر معه أحد بأنّه سينحرف يوما، إلّا أنّه نتيجة لاتّباعه لهوى النفس و بهارج الدنيا انتهى إلى السقوط فى جماعة الضالين و أتباع الشياطين.

غير أنّنا نستفيد من أغلب الرّوايات و أحاديث المفسّرين أن هذا الشخص يسمّى (بعلم بن باعوراء) الذى عاصر النّبى موسى عليه السلام و كان من مشاهير علماء بنى إسرائيل، حتى أن موسى عليه السلام كان يعوّل عليه على أنّه داعية مقتدر، و بلغ أمره أن دعاءه كان مستجابا لدى البارى جل و علا، لكنّه مال نحو فرعون و إغراءاته فانحرف عن الصواب، و فقد مناصبه المعنوية تلك حتى صار بعدئذ فى جبهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۶

أعداء موسى عليه السلام ۱۳۹].

إلّا أننا نستبعد ما يحتمله بعضهم من أن المقصود هو (أمية بن الصلت) الشاعر المعروف فى زمان الجاهلية، الذى كان بادئ أمره و نتيجة لاطلاعه على الكتب السماوية ينتظر نبى آخر الزمان، ثمّ حصل له هاجس أن النّبى قد يكون هو نفسه، و لذلك بعد أن بعث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصابه الحسد له و عاداه.

و بعيد كذلك ما احتمله بعضهم من أنّه كان (أبا عامر) الراهب المعروف فى الجاهلية، الذى كان يبشر الناس بظهور رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكنّه بعد ظهوره صار من أعدائه. لأنّ جملة (و اتل) و كلمة (نبأ) و جملة (فاقصص القصص) تدل على أنّ تلك الأمور لا تتعلق بأشخاص عاصروا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. بل بأقوام سابقين، مضافا إلى تلك فإنّ سورة الأعراف من السور المكية و قضيتا [أبى عامر الراهب و [أمية بن الصلت تتعلقان بحوادث المدينة.

و لكن بما أن أشخاصا على غرار «بلعم» كانوا موجودين فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ك (أبى عامر) و (أمية بن الصلت)

فإنّ الآيات محل البحث تنطبق على هذه الموارد فى كل عصر و زمان، و إلّا فإنّ مورد القصّة هو «بلعم بن باعوراء» لا غير.

و قد نقل تفسير (المنار) عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن مثل بلعم بن باعوراء فى بنى إسرائيل كأمية بن أبى الصلت فى هذه الأمّة.

و

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «الأصل من ذلك بلعم، ثمّ ضربه اللّه مثلا لكل مؤثر هواه على هوى اللّه من أهل القبلة».

و من هذا يتبيّن أن الخطر الأكيد الذى يهدد المجتمعات الإنسانية هو خطر المثقفين و العلماء الذين يسخّرون معارفهم للفراعنة و الجبارين لأجل أهوائهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۷

و ميولهم الدنيوية (و الإخلاد إلى الأرض) و يضعون كل طاقاتهم الفكرية فى سبيل الطاغوت الذى يعمل ما فى وسعه لاستغلال مثل هذه الشخصيات لإغفال و إضلال عامّة الناس.

و لا يختص الأمر بزمن النّبى موسى عليه السلام أو غيره من الأنبياء، بل حتى بعد عصر النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى يومنا هذا نجد أمثال بلعم بن باعوراء و أبى عامر الراهب و أمية بن الصلت، يضعون علومهم و معارفهم و نفوذهم الاجتماعى من أجل الدرهم و الدينار، أو المقام، أو لأجل الحسد، تحت إختيار المنافقين و أعداء الحق و الفراعنة أمثال بنى أمية و بنى العباس و سائر الطواغيت.

و يمكن معرفة أولئك العلماء من خلال أوصاف أشارت إليها الآيات محل البحث، فإنّهم ممن نسى ربّه و اتبع هواه، و هم ذوو نزوات سخروها للرذيلة بدل التوجه نحو اللّه و خدمة خلقه، و بسبب هذا التسافل فقدوا كل شىء و وقعوا تحت سلطة الشيطان و وساوسه، فسهل بيعهم و شراؤهم، و هم كالكلاب المسعورة التى لا ترتوى أبدا، و لهذه الأمور ترك هؤلاء سبيل الحقيقة و ضلوا عن الطريق حتى غدوا أئمّة الضلال.

و يجب على المؤمنين معرفة مثل هؤلاء الأشخاص و الحذر منهم و اجتنابهم.

و الآيتان التاليتان- كنتيجة عامّة و شاملة لقضية- (بلعم) و العلماء الدنيويين فتقول أولاهما ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ

فما أفحش ظلم الإنسان لنفسه و هو يسخّر ملكاته المعنوية و علومه النافعة التى بإمكانها أن تعود عليه و على مجتمعه بالخير- و يضعها تحت إختيار المستكبرين و أصحاب القدرة الدنيوية و يبيعها بثمن بخس فيؤدى ذلك إلى سقوطه و سقوط المجتمع و الآية الاخيرة تحذّر الإنسان و تؤكّد له أن الخلاص من مثل هذا الانحراف و ما يكيده الشياطين لا يمكن إلّا بتوفيق و تسديد من اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۸

عز و جل مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يُضْلِلْ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و تقدم كرّات بأنّ (الهداية) و (الإضلال) الإلهيين لا يعدان إجبارا و لا بدون حساب أو دليل، و يقصد بهما إعداد الأرضية للهداية و فتح سبلها أو إيصادها، و ذلك بسبب الأعمال الصالحة أو الطالحة التى صدرت من الإنسان من قبل، و على أية حال فالتصميم النهائى بيد الإنسان نفسه ...

فبناء على هذا فإنّ الآية محل البحث تنسجم مع الآيات المتقدمة التى تذهب إلى أصل حرية الإرادة ... و لا منافاة بين هذه الآية و تلكم الآيات بتاتا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۲۹۹

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۷۹ الى ۱۸۱]

اشارة

وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (۱۷۹) وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۸۰) وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (۱۸۱)

التّفسير

علائم أهل النّار:

هذه الآيات تكمل الموضوع الذى تناولته الآيات المتقدمة حول العلماء الذين ركنوا إلى الدنيا، و عوامل الهداية و الضلال. و الآيات- محل البحث- تقسم الناس إلى مجموعتين ... و تحكى عن صفاتهما و هما أهل النّار، و أهل الجنّة.

فتتحدث عن المجموعة الأولى- أهل النّار أوّلا، فتأتى بالقسم و التوكيد فتقول وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ

و كلمة «ذرأنا» مشتقّة من «ذرأ»، و تعنى هنا الإيجاد و الخلق، غير أنّها فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۰

أصل اللغة تعنى نشر الشىء و تفريقه، و قد وردت بهذا المعنى «الثّانى» فى القرآن أيضا، كما فى عبارة تَذْرُوهُ الرِّياحُ ۱۴۰].

و لأنّ خلق الكائنات يستلزم تفريقها و توزيعها و انتشارها على وجه الأرض، فقد جاءت هذه الكلمة بمعنى خلق «المخلوق» أيضا:

و على كل حال، فإنّ الإشكال المهم فى هذا التعبير هو كيف قال اللّه سبحانه وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ فى حين قال فى مكان آخر وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۱۴۱] و طبقا لمعنى هذه الآية فإنّ الجن و الإنس لم يخلقوا لغير عبادة اللّه و الرقى و التكامل و السعادة، أضف إلى ذلك أنّ هذا التعبير تشمّ منه رائحة الجبر فى الخلق، و من هنا فقد استدل بعض مؤيدى مدرسة الجبر من أمثال الفخر الرازى بهذه الآية لإثبات مذهبه.

لكنّنا لو ضممنا آيات القرآن بعضها إلى بعض و بحثناها موضوعيّا دون أن نبتلى بالسطحيّة، لوجدنا الجواب على هذا السؤال كامنا فى الآية محل البحث ذاتها، كما هو بيّن فى آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا ... بحيث لا يدع مجالا لأنّ تستغل الآية ليسا فهمها لدى بعض الأفراد. مثل هذا التعبير كمثل قول النجار إذ يقول مثلا: إنّ قسما كبيرا من هذا الخشب و قد هيأته لكى أصنع منه أبوابا جميلة، و القسم الآخر هو للإحراق و الإضرام ... فالخشب الرائق الجيّد المناسب سأستعمله للقسم الأوّل، و أمّا الخشب الردىء غير المناسب فسأدعه للقسم الثّانى.

ففى الحقيقة أنّ للنجار هدفين: هدفا «أصيلا» و هدفا (تبعيّا).

فالهدف الأصيل هو صنع الأبواب و الأطر الخشبيّة الجيّدة و ما إلى ذلك، و هو يبذل قصارى جهده و سعيه فى هذا المضمار ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۱

إلّا أنّه حين يجد أنّ بعض الخشب لا ينفعه شيئا، فسيكون مضطرا إلى نبذه ليكون حطبا للحرق و الإشعال، فهذا الهدف «تبعىّ» لا أصلى.

و الفرق الوحيد بين هذا المثال و ما نحن فيه، أنّ الاختلاف بين أجزاء الخشب ليس اختيارا، و اختلاف الناس له صلة وثيقة بأعمالهم أنفسهم، و هم مختارون و إرادتهم حرّة بإزاء أعمالهم.

و خير شاهد على هذا الكلام ما جاء من صفات لأهل النّار و صفات لأهل الجنّة فى الآيات محل البحث، التى تدل على أنّ الأعمال هى نفسها أساس هذا التقسيم، إذ كان فريق منهم فى الجنّة، و فريق فى السعير.

و تعبير آخر فإنّ اللّه سبحانه- و وفقا لصريح آيات القرآن المختلفة- خلق الناس جميعهم على نسق واحد طاهرين، و وفّر لهم أسباب السعادة و التكامل، إلّا أنّ قسما منهم اختاروا بأعمالهم جهنم فكانوا من أهلها فكان عاقبة أمرهم خسرا ... و أن قسما منهم اختاروا بأعمالهم الجنّة و كان عاقبة أمرهم السعادة ...

ثمّ يلخّص القرآن صفات أهل النّار فى ثلاث جمل، إذ تقول الآية: لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها ...

و قد قلنا مرارا: إنّ التعبير ب «القلب» فى مصطلح القرآن يعنى الفكر و الروح و قوّة العقل، أى أنّهم بالرّغم ممّا لديهم من استعداد للتفكير، و أنّهم ليسوا كالبهائم فاقدى الشعور و الإدراك، إلّا أنّهم فى الوقت ذاته لا يفكرون فى عاقبتهم و لا يستغلون تفكيرهم ليبلغوا السعادة.

و الصفة الثّانية التى ذكرتها الآية لأهل النّار وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها و الصفة الثّالثة الواردة فى حقهم وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

لأنّ البهائم و الأنعام لا تملك هذه الاستعدادات و الإمكانات، إلّا أنّهم بما لديهم من عقل سالم و عين باصرة و أذن سامعة، بإمكانهم أن يبلغوا كل مراتب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۲

الرقى و التكامل، إلّا أنّهم نتيجة لاتباعهم هواهم و رغبتهم- بكل هذه التوافه من الأمور تركوا هذه الاستعدادات جانبا ... و كان شقاؤهم كبيرا لهذا السبب:

أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ

فالمعين الذى يحييهم و يروى ظمأهم موجود إلى جانبهم و هم على مقربة منه، إلّا أنّهم يتصارخون من الظمأ. و أبواب السعادة مفتحة أمامهم لكنّهم لا يلتفتون إليها.

و يتّضح ممّا ذكرناه أنفا أنّهم اختاروا بأنفسهم سبل شقائهم و هدروا النعم الكبرى «العقل و العين و الأذن ...» لا أنّ اللّه أجبرهم على أن يكونوا من أهل النّار.

لماذا هم كالأنعام؟

لقد شبّه القرآن الكريم الجاهلين الغافلين عديمى الشعور بالأنعام و البهائم مرارا، إلّا أن تشبيه القرآن هؤلاء بالأنعام لعلّه بسبب انهماكهم باللذائذ و الشهوات الجنسية و النوم فحسب، فهم كالأمم التى تحلم فى الوصول إلى حياة مادية مرفهة تحت شعارات برّاقة تخدع الإنسان بأنّ آخر هدف للعدالة الاجتماعية و القوانين البشرية هو الحصول على الخبز و الماء ...

و كما يشبهها

الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة قائلا: «كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقممها»[۱۴۲].

و بتعبير آخر: إنّ جماعة منهم تنعم بالرفاه كالأغنام المربوطة التى تدجن لتسمن، و جماعة آخرين كالغنم السائمة الباحثة عن العلف و الماء فى الصحراء، إلّا أن هدف كل منهما هو ما يشبع البطن ليس إلّا!.

و هذا الذى ذكرناه أنفا قد يصدق على شخص معين كما قد يصدق أمّة كاملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۳

برمّتها، فالأمم التى لا تفكر بنفسها و تتلهى بالأمور التافهة غير الصائبة، و لا تعالج جذور شقائها و لا تطمح لأسباب الرقّى، ليس لها آذان سامعة و لا أعين باصرة، فهى من أهل النّار أيضا، لا نار القيامة فحسب، بل هى مبتلاة بنار الدنيا و شقائها كذلك.

و فى الآية التّالية إشارة إلى حال أهل الجنّة و بيان لصفاتهم، فتبدأ الآية بدعوة الناس إلى التدبّر و التوجّه إلى أسماء اللّه الحسنى كمقدمة للخروج من صف أهل النّار، فتقول: وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها.

و المرد من «أسماء اللّه الحسنى» هى صفات اللّه المختلفة التى هى حسنى جميعا، فنحن نعرف أنّ اللّه عالم قادر رازق عادل جواد كريم رحيم، كما أنّ له صفات أخرى حسنى من هذا القبيل أيضا.

فالمراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنى، ليس هو ذكر هذه الألفاظ و جريانها على اللسان فحسب، كأن نقول مثلا: يا عالم يا قادر يا أرحم الراحمين. بل ينبغى أن نتمثّل هذه الصفات فى وجودنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، و أن يشع إشراق من علمه و شعاع من قدرته و جانب من رحمته الواسعة فينا و فى مجتمعنا.

و بتعبير آخر: ينبغى أن نتّصف بصفاته و نتخلّق بأخلاقه، لنستطيع بهذا الشعاع، شعاع العلم و القدرة و الرحمة و العدل أن نخرج أنفسنا و مجتمعنا الذى نعيش فيه من سلك أهل النّار ...

ثمّ تحذر الآية من هذا الأمر، و هو أن لا تحرّف أسماؤه فتقول: وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ سَيُجْزَوْنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الإلحاد- فى الأصل- مأخوذ من مادة «اللّحد» على زنة «المهد» التى تعنى الحفرة التى تقع فى طرف واحد، و على هذا الأساس فقد سمّيت الحفرة التى تكون فى جانب القبر «لحدا».

ثمّ أطلق هذا الاستعمال «الإلحاد» على كل عمل ينحرف عن الحدّ الوسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۴

نحو الإفراط أو التفريط، و لذلك فقد سمّى الشرك و عبادة الأوثان إلحادا أيضا.

و المقصود من الإلحاد فى أسماء اللّه هو أن نحرف ألفاظها أو مفاهيمها.

بحيث نصفه بصفات لا تليق بساحته المقدسة، كما يصفه المسيحيون بالتثليث «اللّه و الابن و روح القدس» أو أن نطبّق صفاته على المخلوقين كما فعل ذلك المشركون و عبدة الأوثان إذ اشتقوا لأصنامهم أسماء من أسماء اللّه فسمّوها ...

اللات و العزّى و مناة ... (و غيرها) فهذه الأسماء مشتقّة من اللّه و العزيز و المنان «على التوالى».

أو أنّهم حرفوا صفاته حتى شبّهوه بالمخلوقات، أو عطلوا صفاته، و ما إلى ذلك.

أو أنّهم اكتفوا بذكر الاسم فحسب دون أن يتمثلوه و يعرفوا آثاره فى أنفسهم و فى مجتمعاتهم.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى صفتين من أبرز صفات أهل الجنّة، إذ تقول الآية: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ

و فى الواقع، إنّ لأهل الجنّة منهجين ممتازين فأفكارهم و أهدافهم و دعواتهم و ثقافاتهم حقّة، و هى فى اتجاه الحق أيضا، كما أنّ أعمالهم و خططهم و حكوماتهم قائمة على أساس الحق و الحقيقة.

بحوث

۱- ما هى الأسماء الحسنى؟

فى كتب الأحاديث «لأهل السنة و الشيعة» أبحاث كثيرة عن أسماء اللّه الحسنى، نورد خلاصتها فى هذا المجال مضافا إليها ما نعتقده

نحن فی هذا الصدد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۵

لا شک أنّ الأسماء الحسنی تعنی الأسماء الکریمة، و نحن نعرف أن أسماء اللّه کلّها تحمل مفاهیم حسنی، و لذلک فجمیع أسمائه أسماء حسنی، سواء کانت صفات لذاته المقدّسة الثبوتیة کالعلم و القادر، أم کانت صفات سلبیة کالقدّوس مثلا، أو صفات تحکی فعلا من أفعاله کالخالق أو الغفور أو الرحمان أو الرحیم إلخ ...

و من ناحیة أخری، لا شک أنّ صفات اللّه لا یمکن إحصاؤها، لأنّ کمالاته غیر متناهیة، و یمکن أن یذکر لکل صفة من صفاته أو کمال من کمالاته اسم ...

إلّا أن ما نستفیده من الأحادیث أنّ لبعض صفاته أهمیة أکثر من سواها، و لعل «الأسماء الحسنی» الواردة من الآیة فی الآیة محل البحث إشارة إلی هذه الطائفة من الأسماء المتمیّزة، إذ ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام من أهل بیته روایات کثیرة بهذا المعنی کالروایة الواردة فی کتاب التوحید «للصّدوق»

عن أبی عبد اللّه جعفر بن محمّد الصادق، عن آبائه علیهم السّلام، عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ للّه تبارک و تعالی تسعة و تسعین اسما- مائة إلّا واحدة- من أحصاها دخل الجنّة»[۱۴۳].

کما

ورد فی کتاب التوحید عن الإمام علی بن موسی الرّضا علیه السّلام عن آبائه عن علی علیه السّلام أنّه قال: «إنّ للّه عز و جل تسعة و تسعین اسما من دعا اللّه بها استجاب له و من أحصاها دخل الجنّة»[۱۴۴].

و قد جاء فی کتب أحادیث (أهل السنّة)

«کما فی کتاب صحیح البخاری و صحیح مسلم ... و الترمذی و کتب أخری» هذا المضمون ذاته: إنّ للّه تسعة و تسعین اسما فمن دعاء بها استجاب دعاءه، و من أحصاها فهو من أهل الجنّة[۱۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۶

و یستفاد من بعض الأحادیث أن هذه الأسماء التسعة و التسعین کلها فی القرآن، کالرّوایة الواردة

عن ابن عباس أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «للّه تسعة و تسعون اسما من أحصاها دخل الجنّة، و هی فی القرآن»[۱۴۶].

و لذلک فقد سعی جماعة من العلماء إلی أن یستخرجوا أسماء اللّه الحسنی من القرآن، إلّا أن ما جاء فی القرآن من أسماء و صفات للّه سبحانه تزید علی تسعة و تسعین اسما، فبناء علی ذلک لعل الأسماء الحسنی من بین تلک الأسماء، لا أنّه لا یوجد فی القرآن غیر تسعة و تسعین اسما للّه المشار إلیها آنفا (فی بعض الأحادیث) ...

و قد صرّحت بعض هذه الرّوایات بالأسماء الحسنی «التسعة و التسعین» ...

و نحن نوردها هنا، إلّا أنّه ینبغی الالتفات إلی أن بعض هذه الأسماء الواردة فی هذه الروایة لم ترد فی القرآن بالصیغة الواردة فی الروایة ذاتها و إنّما ورد مضمونها أو مفهومها فی القرآن.

فقد جاء فی الرّوایة المنقولة فی کتاب «التوحید» للصّدوق

عن الإمام الصادق عن آبائه عن علی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فبعد أن أشار علیه السّلام إلی أنّ للّه تسعة و تسعین اسما قال و هی: «اللّه، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، السمیع، البصیر، القدیر، القادر، العلی، الأعلی، الباقی، البدیع، الباری، الأکرم، الباطن، الحی، الحکیم، العلیم، الحلیم، الحفیظ، الحق، الحسیب، الحمید، الحفی، الرب، الرحمن، الرحیم، الذارئ، الرازق، الرقیب، الرؤوف، الرائی، السّلام، المؤمن، المهیمن، العزیز، الجبار، المتکبر، السید، السبّوح، الشهید، الصادق، الصانع، الظاهر، العدل، العفو، الغفور، الغنی، الغیاث، الفاطر، الفرد، الفتاح، الفالق، القدیم، الملک، القدوس، القوی، القریب، القیّوم، القابض، الباسط، قاضی

الحاجات،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۷

المجید، المولی، المنان، المحیط، المبین، المغیث، المصوّر، الکریم، الکبیر، الکافی، کاشف الضر، الوتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادی، الوفی، الوکیل، الوارث، البرّ، الباعث، التواب، الجلیل، الجواد، الخبیر، الخالق، خیر الناصرین، الدیان، الشکور، العظیم، اللطیف، الشافی»[۱۴۷].

لکن الأهم- هنا- و ینبغی ملاحظته و الالتفات إلیه، هو أنّ المراد من دعاء اللّه بأسمائه الحسنی هل یعنی أن نعدّ هذه الأسماء أو أن نجریها علی الألسنة فحسب، بحیث أن من ذکر هذه التسعة و التسعین اسما دون أن یتمثل محتواها و یفهمها کان من السعداء، أو أنّه ستجاب دعوته. بل الهدف هو أن یؤمن الإنسان بهذه الأسماء و الصفات، ثمّ یسعی- ما استطاع إلی ذلک سبیلا- لأنّ یعکس فی وجوده إشراقا من مفاهیم تلک الأسماء، أی للعالم، القادر، الرحمان، الرحیم، الغفور، القوی، الغنی، الرازق، و أمثالها. فإنّ کان کذلک کان من أهل الجنّة، و کان دعاؤه مستجابا و نال کل خیر قطعا.

و یستفاد ضمنا ممّا ذکرناه آنفا أنّه لو وردت فی بعض الرّوایات الأخری و الأدعیة أسماء غیر هذه الأسماء للّه سبحانه، حتی لو وصلت إلی الألف- مثلا- فلا منافاة بینها و بین ما نقلناه هنا أبدا، لأنّ أسماء اللّه لا حد لها و لا حصر، و هی- کذاته و کمالاته- لا نهایة لها. و إن کان لبعض هذه الأسماء أو الصفات میزات خاصّة.

من ذلک الروایة الواردة

فی أصول الکافی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة، إذ یقول: «نحن و اللّه الأسماء الحسنی»[۱۴۸]

فهی إشار إلی أن إشعاعا من صفاته قد انعکس فینا، فمن عرفنا فقد عرف ذاته المقدسة ...

أو أنّه لو ورد مثلا فی بعض الأحادیث أنّ جمیع الأسماء الحسنی تتلخص فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۸

التوحید الخالص، فإنّما هو لأن جمیع صفاته ترجع إلی ذاته المقدسة.

و یشیر الفخر الرازی فی تفسیره إلی أمر قابل للملاحظة، و هو أنّ جمیع صفات اللّه تعالی یعود إلی إحدی حقیقتین «استغناء ذاته عن کل شیء» أو «احتیاج الآخرین إلی ذاته المقدسة ...»[۱۴۹].

۲- الأمّة الهداة!

قرأنا فی الآیات محل البحث أنّ طائفة من عباد اللّه یدعون نحو الحق و یحکمون به وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ

هناک تعبیرات مختلفة فی الرّوایات الواردة فی کتب الأحادیث الإسلامیة، فی المراد من هذه الأمّة. و من جملة هذه الرّوایات ما ورد عن أمیر المؤمنین أنّه قال علیه السّلام. المراد من الآیة هو «أمّة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۱۵۰].

و یعنی الإمام بهم أتباع النّبی الصادقین المنزّهین عن کل بدعة و انحراف و تغییر أو حیاد من تعالیمه الکریمة ...

و لهذا

فقد ورد فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «و الذی نفسی بیده لتفرقن هذه الأمة علی ثلاث و سبعین فرقة کلّها فی النّار إلّا فرقة وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ و هذه التی تنجو من هذه الأمّة».

و لعل العدد- ۷۳- للکثرة، و هو إشارة إلی الطوائف المختلفة التی ظهرت فی طول تاریخ الإسلام فی عقائد عجیبة غریبة، و لحسن

الحظ قد انقرض أغلبها فلم یبق منها إلّا أسماؤها فی کتب «تاریخ العقائد».

و

فی حدیث آخر ورد فی کتب أهل السنة عن الإمام علی علیه السّلام ضمن إشارته لاختلاف الأمم التی تظهر بعدئذ فی الأمّة الإسلامیة، أن قال علیه السّلام «الفرقة الناجیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۰۹

أنا و شیعتی و أتباع مذهبی»[۱۵۱]

و جاء فی بعض الرّوایات الأخری أنّ المراد من قول تعالی: وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِ هم الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام»[۱۵۲].

و واضح أنّ الرّوایات المذکورة أنفا کلّها تعالج حقیقة واحدة، و هی بیان للمصادیق المختلفة لهذه الحقیقة، و هی أن الآیة تشیر إلی أمّة تدعو إلی الحق و تعمل بالحق و تحکم به، و تسیر فی مسیر الإسلام الصحیح. غایة ما فی الأمر أنّ بعضهم فی قمة هذه الأمّة و رأسها و بعضهم فی مراحل أخر ...

و ممّا یسترعی النظر أنّ هؤلاء الذین عبّرت عنهم الآیة بقولها وَ مِمَّنْ خَلَقْنا أُمَّةٌ یَهْدُونَ علی اختلاف لغاتهم و قومیّاتهم و مراحلهم العلمیة و أمثالها، هم أمّة واحدة لا غیر، و لذلک فإنّ القرآن قال عنهم: أُمَّةٌ یَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ یَعْدِلُونَ و لم یعبر عنهم ب «أمم یهدون إلخ ...».

۳- اسم اللّه الأعظم

جاء فی بعض الرّوایات عن قصة بلعم بن باعورا الذی ورد ذکره- آنفا- أنّه کان یعرف الاسم الأعظم، و لا بأس أن نشیر إلی هذا الموضوع لمناسبة ورود الأسماء الحسنی فی الآیات محل البحث ...

فقد وردت روایات مختلفة فی شأن الاسم الأعظم، و یستفاد منها أن من یعرف الاسم الأعظم لا یکون مستجاب الدعاء فحسب، بل تکون له القدرة علی أن یتصرف فی عالم الطبیعة و أن یقوم بأعمال مهمّة ...

و الاسم الأعظم، أیّ اسم هو من أسماء اللّه؟! بحث علماء الإسلام کثیرا فی هذا الشأن، و أغلب أبحاثهم تدور فی أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۰

یعثروا علی اسم من بین أسماء اللّه له هذه الخصوصیّة العجیبة و الأثر الکبیر.

إلّا أن الأهم فی البحث أن نعثر علی اسم أو صفة من صفاته تعالی بتطبیقها علی وجودنا نحصل علی تکامل روحی تترتب علیه تلک الآثار.

و بتعبیر آخر: إنّ المسألة المهمّة هی التخلق بصفات اللّه و الاتصاف بها و وجودها فی الإنسان، و إلّا کیف یمکن أن یکون الشخص الردیء الوضیع مستجاب الدعوة بمجرّد معرفته الاسم الأعظم؟! و إذا ما سمعنا أنّ بلعم بن باعوراء کان لدیه هذا الاسم الأعظم إلّا أنّه فقده، فمفهوم هذا الکلام أنّه کان قد بلغ- بسبب بناء شخصیته و إیمانه و علمه و تقواه- إلی مثل هذه المرحلة من التکامل المعنوی، بحیث کان مستجاب الدعوة عند اللّه، إلّا أنّه سقط أخیرا فی الوحل، فقد تلک الروحیة بسبب اتباعه لهوی النفس و انقیاده لفراعنة زمانه، و لعل المراد من نسیان الاسم الأعظم هو هذه الحالة أو هذا المعنی.

کما أنّنا لو قرأنا- أیضا- أن الأنبیاء و الأئمّة الکرام کانوا یعرفون الاسم الأعظم، فمفهوم هذا الکلام هو أنّهم جسّدوا اسم اللّه الأعظم

فى وجودهم، و استضاءوا بشعاعه، فأولاهم اللّه- بهذه الحال- مثل هذه المقام العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۱

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۲ الى ۱۸۳]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۲) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (۱۸۳)

التّفسير

الاستدراج! ...

تعقيبا على البحث السابق الـذى عالجته الآيات المتقدمـة- و الذى يبيّن حال أهل النّار، تبيّن هاتان الآيتان واحدة من سـنن اللّه فى شأن كثير من عباده المجرمين المعاندين، و هى ما عبّر عنها القرآن «بعذاب الاستدراج».

و الاسـتدراج جـاء فى موطنين من القرآن: أحـدهما فى الآيتين محل البحث، و الآخر فى الآيـة (۴۴) من سورة القلم، و كلا الموطنين يتعلقان بمكذّبى آيات اللّه و منكر بها.

و كما يقول أهل اللغة، فإنّ للاستدراج معنيين:

أحدهما: أخذ الشـىء تدريجا، لأنّ أصل الاسـتدراج مشـتق من (الدرجة) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العمارة إلى أسفلها بالسلالم درجة درجة، أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجة درجة و مرحلة مرحلة، فقد سمى هذا الأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۲

استدراجا.

و المعنى الثّانى للاسـتدراج هو، اللّف و الطّى، كطّى السّـجل أو «الطومار» و لفّه. و هـذان المعنيان أوردهما الراغب فى مفرداته، إلّا أنّ التأمل بدقّة فى المعنيين يكشف أنّهما يرجعان إلى مفهوم كلى جامع واحد: و هو العمل التدريجى.

و بعد أن عرفنا معنى الاستدراج نعود إلى تفسير الآية محل البحث.

يقول سبحانه فى الآية الأولى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ

أى سنعذبهم بالاستدراج شيئا فشيئا، و نطوى حياتهم.

و الآيـة الثّانية تؤكّد الموضوع ذاته، و تشـير بأنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب عليهم، بل يمهلهم لعلهم يحذرون و يتعظون، فإذا لم ينتبهوا من نومتهم ابتلوا بعذاب اللّه، فتقول الآية وَ أُمْلِي لَهُمْ

لأنّ الاستعجال يتذرع به من يخاف الفوت، و اللّه قوى و لا يفلت من قبضته أحد إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

و «المتين» معناه القوى المحكم الشديد، و أصله مأخوذ من المتن، و هو العضلة المحكمة التى تقع فى جانب الكتف (فى الظهر).

و «الكيـد» و المكر متساويان فى المعنى، و كما ذكرنا فى ذيل الآية (۵۴) من سورة آل عمران، أنّ المكر يعنى فى أصل اللغة الاحتيال و منع الآخر من الوصول إلى قصده.

و يسـتفاد من الآية- آنفة الذكر و آيات أخرى و بعض الأحاديث الشـريفة الواردة- فى شأن الاسـتدراج، أو العذاب الاسـتدراجى، أنّ اللّه لا يتعجل بالعذاب على الطغاة و العاصـين المتجرئين وفقا لسـنته فى عباده، بل يفتح عليهم أبواب النعم. فكلّما ازدادوا طغيانا زادهم

نعما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۳

و هذا الأمر لا يخلو من إحدى حالتين، فإمّا أن تكون هذه النعم مدعاة للتنبيه و الإيقاظ فتكون الهداية الإلهية فى هذه الحال عملية.

أو أنّ هـذه النعم تزيدهم غرورا و جهلا، فعندئذ يكون عقاب اللّه لهم فى آخر مرحلة أوجع، لأنّهم حين يغرقون فى نعم اللّه و ملذاتهم و يبطرون، فإنّ اللّه سبحانه يسلب عندئذ هذه النعم منهم، و يطوى سجل حياتهم، فيكون هذا العقاب صارما و شديدا جدّا ...

و هذا المعنى بجميع خصوصياته لا يحمله لفظ الاستدراج وحده، بل يستفاد هذا المعنى يفيد مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ أيضا.

و على كل حال، فهـذه الآيـة تنـذر جميع المجرمين و المـذنبين بأنّ تأخير الجزاء من قبل اللّه لا يعنى صـحة أعمالهم أو طهارتهم، و لا عجزا و ضـعفا من اللّه، و أن لا- يحسـبوا أنّ النعم الـتى غرقوا فيهـا هى دليـل على قربهم من اللّه، فمـا أقرب من أن تكون هـذه النعم و الانتصارات مقدمة لعقاب الاسـتدراج. فاللّه سـبحانه يغشّيهم بالنعم و يمهلهم و يرفعهم عاليا، إلّا أنّه يكبسهم على الأرض فجأة حتى لا يبقى منهم أثر، و يطوى بذلك وجودهم و تأريخ حياتهم كله.

يقول الإمام على عليه السّلام فى نهج البلاغة أنّه «من وسّع عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا فقد أمن مخوفا»[۱۵۳].

كما

جاء عنه عليه السّـلام فى روضة الكافى أنّه قال: «ثمّ إنّه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فى ذلك الزمان شىء أخفى من الحق، و لا أظهر من الباطل، و لا أكثر من الكذب على اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إلى أن قال- يدخل الداخل لما يسمع من حكم القرآن فلا يطمئن جالسا حتى يخرج من الـدين، ينتقل من دين ملك إلى دين ملك، و من ولايـة إلى ولايـة ملك، و من طاعـة ملك إلى طاعة ملك، و من عهود ملك إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۴

عهود ملك، فاستدرجهم اللّه تعالى من حيث لا يعلمون»[۱۵۴].

و

يقول الإمام الصادق عليه السّـلام: «كم من مغرور بما قد أنعم اللّه عليه، و كم من مسـتدرج يستر اللّه عليه، و كم من مفتون بثناء الناس عليه»[۱۵۵].

و

جاء عنه عليه السّـلام فى تفسـير الآيـة المشار إليها آنفا أنّه قال: «هو العبـد يـذنب الـذنب فتجـدد له النعمـة معه، تلهيه تلك النعمـة عن الاستغفار عن ذلك الذنب»[۱۵۶].

و

ورد عنه عليه السّـلام فى كتاب الكافى أيضا: «إنّ اللّه إذا أراد بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة و يذكره الاستغفار، و إذا أراد بعبد شرّا فـأذنب ذنبـا أتبعـه بنعمـة لينسـيه الاسـتغفار، و يتمـادى بهـا، و هـو قـوله عزّ و جـل: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا- يَعْلَمُونَ بـالنعم عند المعاصى»[۱۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۴ الى ۱۸۶]

اشارة

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۸۴) أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۱۸۵) مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۸۶)

سبب النّزول

روى المفسّرون أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كان بمكّة، صعد ذات ليلة على جبل الصفا و دعا الناس إلى توحيد اللّه، و خاصّة قبائل قريش، و حذرهم من عذاب اللّه، و

قال: «إنّى نذير لكم بين يدى عذاب شديد، قولوا، لا إله إلّا اللّه تفلحوا»

فقال المشركون: إنّ صاحبهم قد جنّ، بات ليلا يصوت حتى الصباح، فنزلت الآيات و ألجمتهم وردت قولهم.

و رغم أنّ الآية لها شأن خاص، إلّا أنّها فى الوقت ذاته لمّا كانت تدعو إلى معرفة النّبى و هدف الخلق و التهيؤ للعالم الآخر، ففيها ارتباط وثيق بالمواضيع التى سبق بيانها فى شأن أهل الجنّة و أهل النّار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۶

التّفسير

التهم و الأباطيل:

فى الآية الأولى من الآيات- محل البحث- يردّ اللّه سبحانه على كلام المشركين الذى لا أساس له بزعمهم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد جنّ، فيقول سبحانه: أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ[۱۵۸].

و هذا التعبير يشير إلى أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن شخصا مجهولا بينهم، و تعبيرهم ب «الصاحب» يعنى المحب و المسامر و الصديق و ما إلى ذلك. و كان النّبى معهم أكثر من أربعين عاما يرون ذهابه و إيابه و تفكيره و تدبيره دائما و آثار النبوغ كانت بادية عليه، فمثل هذا الإنسان الذى كان يعدّ من أبرز الوجوه و العقلاء قبل الدعوة إلى اللّه، كيف تلصق به مثل هذه التهمة بهذه السرعة؟! أمّا كان الأفضل أن يتفكروا- بدلا من إلصاق التهم به- أن يكون صادقا فى دعواه و هو مرسل من قبل اللّه سبحانه؟! كما عقب القرآن الكريم و بيّن ذلك بعد قوله أو لم يتفكروا؟

فقال: إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ...

و فى الآية التّالية- استكمالا للموضوع آنف الذكر- دعاهم القرآن إلى النظر فى عالم الملكوت، عالم السموات و الأرض، إذ تقول الآية: أ وَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ.

ليعلموا أنّ هذا العالم الواسع، عالم الخلق، عالم السموات و الأرض، بنظامه الدقيق المحيّر المذهل لم يخلق عبثا، و إنّما هناك هدف وراء خلقه. و دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحقيقة، هى من أجل ذلك الهدف، و هو تكامل الإنسان و تربيته و ارتقاؤه.

و «الملكوت» فى الأصل مأخوذ من «الملك» و يعنى الحكومة و المالكية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۷

و الواو و التاء المزيدتان المردفتان به هما للتأكيد و المبالغة. و يطلق هذا الاستعمال على حكومة اللّه المطلقة التى لا حدّ لها و لا نهاية ...

فالنظر إلى عالم الملكوت و نظامه الكبير الواسع المملوك للّه سبحانه يقوّى الإيمان باللّه و الإيمان بالحق، كما أنّه يكشف عن وجود هدف مهم فى هذا العالم الكبير المنتظم أيضا. و فى الحالين يدعو الإنسان إلى البحث عن ممثل اللّه و رسول رحمته الذى يستطيع أن يطبق الهدف من الخلق فى الأرض.

ثمّ تقول الآية معقبة ... لتنبّههم من نومة الغافلين وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ

أى: أوّلا: ليس الأمر كما يتصورون، فأعمارهم لا تخلد و الفرص تمر مرّ السحاب، و لا يدرى أحد أهو باق إلى غد أم لا؟! فمع هذه الحال ليس من العقل التسويف و تأجيل عمل اليوم إلى غد.

ثانيا: إذ لم يكونوا ليؤمنوا بهذا القرآن العظيم الذى فيه ما فيه من الدلائل الواضحة و البراهين اللائحة الهادية إلى الإيمان باللّه، فأى كتاب ينتظرونه خير من القرآن ليؤمنوا به؟ و هل يمكن أن يؤمنوا بكلام آخر و دعوة أخرى غير هذه؟! و كما نلاحظ فإنّ الآيات محل البحث توصد جميع سبل الفرار بوجه المشركين، فمن ناحية تدعوهم إلى أن يتفكروا فى شخصيّة النّبى و عقله و سابق أعماله فيهم لئلا يتملّصوا من دعوته باتهامهم إيّاه بالجنون.

و من ناحية أخرى تدعوهم إلى أن ينظروا فى ملكوت السماوات و الأرض، و الهدف من خلقهما، و أنّهما لم يخلقا عبثا.

و من ناحية ثالثة تقول: وَ أَنْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ لئلا يسوّفوا قائلين اليوم و غدا و بعد غد إلخ ...

و من ناحية رابعة تقول: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فإنّهم لن يؤمنوا بأى حديث آخر و أى كتاب آخر، إذ ليس فوق القرآن كتاب أبدا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۸

و أخيرا فإنّ الآية التالية، و هى آخر آية من الآيات محل البحث، تختتم الكلام بالقول مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

و كما ذكرنا مرارا فإن مثل هذه التعابير لا تشمل جميع الكفار و المجرمين، بل تختص بأولئك الذين يقفون بوجه الحقائق معاندين ألدّاء، حتى كأنّما على أبصارهم غشاوة و فى سمعهم صمم و على قلوبهم طبع، فلا يجدون إلّا أسدالا من الظلمات تحجب طريقهم. و كل ذلك هو نتيجة أعمالهم أنفسهم، و هو المقصود بالإضلال الإلهى مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۱۹

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۷]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۱۸۷)

سبب النّزول

أيّان يوم القيامة؟!

وفقا لمّا ورد فى بعض الرّوايات ۱۵۹] فإنّ قريشا أرسلت عدّة أنفار إلى نجران ليسألوا اليهود الساكنين فيها- إضافة إلى المسيحيين هناك- مسائل ملتوية ثمّ يلقوها على النّبى عند رجوعهم إليه، ظنّا منهم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيعجز عن إجابتهم، و من

جملـة هـذه الأسـئلة كان هـذا السؤال: متى تقوم الساعـة؟! فلما سألوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ذلك السؤال نزلت الآيـة محل البحث و أفحمتهم![۱۶۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۰

التّفسير

مع أنّ هـذه الآيـة ذات سـبب خـاص فى النّزول- كما ذكروا- إلّا أنّها فى الوقت ذاته لها علاقـة وثيقـة بالآيات المتقدمـة أيضا، لأنّه قد وردت الإشارة إلى يوم القيامة و لزوم الاسـتعداد لمثل ذلك اليوم فى الآيات السابقة. و بالطبع فإنّ موضوعا كهذا يستدعى السؤال عن موعـده و قيامه، و يسـتثير كثيرا من الناس أن يسألوه: أيّان يوم القيامـة؟ لهـذا فإنّ القرآن يقول: يَسْـئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها؟! و بالرغم من أنّ «الساعـة» تعنى زمان نهاية الدنيا، إلّا أنّها فى الغالب- أو دائما كما ذهب البعض- تأتى بمعنى القيامة فى القرآن الكريم، و خاصّـة من بعض القرائن التى تكتنف الآيـة- محل البحث- إذ تؤكّد هذا الموضوع كجملة: متى تقوم الساعة؟ الواردة فى شأن نزول الآية:

و كلمـة «أيّان» تساوى «متى» و هما للسّؤال عن الزمان، و المرسـى مصدر ميمى من الإرساء، و هما بمعنى واحد، و هو ثبات الشـىء أو وقوعه، لـذلك يطلق على الحبـل وصف «الراسـى» فيقـال: جبـال راسـيات، فبنـاء على ذلك فإنّ «أيّان مرساها» تعنى: فى أى وقت تقع القيامة و تكون ثابتة؟! ثمّ تضيف الآية مخاطبة النّبى أن يردهم بصراحة قائلة: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ.

إلّا أنّ الآية تذكر علامتين مجملتين، فتقول أوّلا: ثَقُلَتْ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

أيـة حادثـة يمكن أن تكون أثقل من هـذه، إذ تضـطرب لهولها جميع الأجرام السـماوية «قبيل القيامة» فتخمد الشـمس و يظلم القمر و تندثر النجوم، و يتكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۱

من بقاياها عالم جديد بثوب آخر![۱۶۱] ثمّ إنّ قيام الساعة يكون على حين غرّة، و بدون مقدمات تدريجية، بل على شـكل مفاجئ و انقلاب سريع.

ثمّ تقول الآية مرّة أخرى: يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْها[۱۶۲].

و تضيف الآية مخاطبة النّبى الكريم: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

و ربّمـا يسـأل- أو يتسـاءل- بعض الناس: لم كان علم الساعـة خاصّا باللّه و ذاته المقدسـة، و لا يعلم بها حتى الأنبياء؟! و الجواب على ذلك: إن عـدم معرفـة الناس بوقوع يوم القيامـة و زمانها «بضـميمة كون القيامـة لا تأتى إلّا بغتـة» و مع الالتفات إلى هول يوم القيامة و عظمتهـا، هـذا الأـمر يبعث على أن يتوقّع النـاس وقوع يوم القيامـة فى أى وقت و يترقبوهـا باسـتمرار، و يكونوا على أهبـة الاسـتعداد و التهيؤ، لكى ينجوا من أهوالها. فعدم المعرفة هذا له أثر مثبت جلى فى تربية النفوس و الالتفات إلى المسؤولية و اتقاء الذنوب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۲

الآية [سورة الأعراف (۷): آية ۱۸۸]

اشارة

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِـى نَفْعاً وَ لا ضَـرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْـتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِـيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۸۸)

سبب النّزول

روى بعض المفسّرين «كالعلّامة الطبرسى فى مجمع البيان» أن أهل مكّة قالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا كان لك ارتباط باللّه، أ فلا يطلعك اللّه على غلاء السلع أو زهادتها فى المستقبل، لتهيئ عن هذا الطريق ما فيه النفع و الخير و تدفع عنك ما فيه الضرر و السوء، أو يطلعك اللّه على السّنة الممحلة «القحط» أو العام المخصب العشب، فينتقل إلى الأرض الخصيبة؟ فنزلت عندئذ الآية- محل البحث- و كانت جواب سؤالهم.

التّفسير

لا يعلم الغيب إلّا اللّه:

بالرّغم من أنّ هذه الآية لها شأن خاص فى نزولها، إلّا أنّ ارتباطها بالآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۳

السابقة واضح، لأنّ الكلام كان فى الآية السابقة على عدم علم أحد بقيام الساعة إلّا اللّه، و الكلام فى هذه الآية على نفى علم الغيب عن العباد بصورة كلية.

ففى الجملة الأولى من هذه الآية خطاب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ و لا شك أنّ كل إنسان يستطيع أن ينفع نفسه، أو يدفع عنها الشر، و لكن على الرغم من هذه الحال فإنّ الآية- محل البحث، كما نلاحظ- تنفى هذه القدرة عن البشر نفيا مطلقا. و ذلك لأنّ الإنسان فى أعماله ليس له قوّة من نفسه، بل القوّة و القدرة و الاستطاعة كلّها من اللّه، و هو سبحانه الذى أودع فيه كل تلك القوّة و القدرة و ما شاكلهما.

و بتعبير آخر: إنّ مالك جميع القوى و القدرات و ذو الإختيار المستقل- و بالذات- فى عالم الوجود هو اللّه عزّ و جلّ فحسب، و الآخرون حتى الأنبياء و الملائكة يكتسبون منه القدرة و يستمدون منه القوّة، و ملكهم و قدرتهم هى بالغير لا بالذات ...

و جملة «إلّا ما يشاء اللّه» شاهد على هذا الموضوع أيضا.

و فى كثير من آيات القرآن الأخرى نرى نفى المالكية و النفع و الضرر عن غير اللّه، و لذلك فقد نهت الآيات عن عبادة الأصنام و ما سوى اللّه سبحانه ...

و نقرأ فى الآيتين (۳) و (۴) من سورة الفرقان وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً فكيف يملكون لغيرهم؟! و هذه هى عقيدة المسلم، إذ لا يرى أحدا «بالذات» رازقا و مالكا و خالقا و ذا نفع أو ضرر إلّا اللّه، و لذا فحين يتوجه المسلم إلى أحد طالبا منه شيئا فهو يطلبه مع التفاته إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ ما عند ذلك الشخص فهو من اللّه (فتأمل بدقّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۴

و يتّضح من هذا إنّ الذين يتذرعون بمثل هذه الآيات لنفى كل توسل بالأنبياء و الأئمّة، و يعدون ذلك شركا، فى خطأ فاضح، حيث تصوروا بأنّ التوسل بالنّبى أو الإمام مفهومه أن نعدّ النّبى أو الإمام مستقلا بنفسه فى قبال اللّه- و العياذ باللّه- و أنّه يملك النفع و الضرر أيضا.

و لكن من يتوسل بالنّبى أو الإمام مع الإعتقاد بأنّه لا يملك شيئا من نفسه، بل يطلبه من اللّه، أو أنّه يستشفع به إلى اللّه، فهذا الإعتقاد

هو التوحيد عينه و الإخلاص ذاته. و هو ما أشار إليه القرآن فى الآيـة محل البحث بقوله: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ أو بقوله: إِلَّا بِإِذْنِهِ فى الآية مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

فبناء على ذلك فإنّ فريقين من الناس على خطأ فى مسألة التوسل بالنّبى و الأئمّة الطاهرين ...

الفريق الأوّل: من يزعم أنّ النّبى أو الإمام له قدرة و قوة مستقلة بالذات فى قبال اللّه، فهذا الإعتقاد شرك باللّه.

و الفريق الآخر: من ينفى القدرة- بالغير- عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام، فهذا الإعتقاد انحراف عن مفاد آيات القرآن الصريحة.

إذن: الحق هو أنّ النّبى و الأئمّة يشفعون للمتوسل بهم بإذن اللّه و أمره، و يطلبون حل معضلته من اللّه.

و بعد بيان هذا الموضوع تشير الآية إلى مسألة مهمّة أخرى ردّا على سؤال جماعة منهم فتقول: وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ[۱۶۳].

لأنّ الذى يعرف أسرار الغيب يستطيع أن يختار ما هو فى صالحه، و أن يجتنب عمّا يضرّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۵

ثمّ تحكى الآية عن مقام النّبى الواقعى و رسالته، فى جملة موجزة صريحة، فتقول على لسانه: إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ملاحظة

ألم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعلم الغيب؟!

يحكم بعض السطحيين لدى قراءتهم لهذه الآية- و بدون الأخذ بنظر الإعتبار الآيات القرآنية الأخرى، بل حتى القرائن الموجودة فى هذه الآية أيضا- أنّ الآية آنفة الذكر دليل على نفى علم الغيب عن الأنبياء نفيا مطلقا ...

مع أنّ الآية- محل البحث- تنفى علم الغيب المستقل و بالذات عن النّبى، كما أنّها تنفى القدرة على كل نفع و ضرّ بصورة مستقلة. و نعرف أنّ كل إنسان يملك لنفسه و للآخرين النفع أو الضر.

فبناء على ذلك فإنّ هذه الجملة المتقدمة شاهد واضح على أنّ الهدف ليس هو نفى مالكية النفع و الضر أو نفى علم الغيب بصورة مطلقة، بل الهدف نفى الاستقلال، و بتعبير آخر: إنّ النّبى لا يعرف شيئا من نفسه، بل يعرف ما أطلعه اللّه عليه من أسرار غيبه، كما تقول الآيتان (۲۶) و (۲۷) من سورة الجن عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

و أساسا، فإنّ كمال مقام القيادة لا سيما إذا كان الهدف قيادة العالم بأسره، و فى جميع المجالات الماديّة و المعنوية، هو الاحاطة الواسعة بالكثير من المسائل الخفية عن سائر الناس، لا المعرفة بأحكام اللّه و قوانينه فحسب، بل المعرفة بأسرار عالم الوجود، و البناء البشرى، و قسم من حوادث المستقبل و الماضى، فهذا القسم من العلم يطلعه اللّه على رسله، و إذا لم يطلعهم عليه لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۶

تكمل قيادتهم! ...

و بتعبير آخر: إنّ أحاديث الأنبياء و الرسل و سيرتهم ستكون محدودة بظروف عصرهم و محيطهم، لكن عند ما يكونون عارفين بهذا القسم من أسرار الغيب فسيقومون ببناء حضارة على مستوى الأجيال القادمة، فتكون مناهجهم صالحة لمختلف الظروف و المتغيّرات ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۷

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۸۹ الى ۱۹۳]

اشارة

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۸۹) فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۹۰) أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۱۹۱) وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۲) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ (۱۹۳)

التّفسير

جحد نعمة عظمى:

فى هذه الآيات إشارة إلى جانب آخر من حالات المشركين و أسلوب تفكيرهم، و الردّ على تصوّراتهم الخاطئة. لما كانت الآية السابقة تجعل جميع ألوان النفع و الضرّ و علم الغيب منحصرا باللّه، و كانت فى الحقيقة إشارة إلى توحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۸

أفعال اللّه. فالآيات محل البحث تعدّ مكملة لها لأنّ هذه الآيات تشير إلى توحيد أفعال اللّه أيضا.

تقول الآية الأولى من هذه الآيات هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْها فجعل الحياة و السكن جنبا إلى جنب فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ۱۶۴].

و بمرور الأيّام و الليالى ثقل الحمل فَلَمَّا أَثْقَلَتْ كان كل من الزوجين ينتظر الطفل، و يتمنّى أن يهبه اللّه ولدا صالحا، فلذلك دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ و عند ما استجاب اللّه دعاءهما، و رزقهما الولد الصالح أشركا باللّه فَلَمَّا آتاهُما صالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

الجواب على سؤال مهم!

هناك بين المفسّرين كلام فى المراد من الزوجين الذين تكلمت عنهما الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث ...

هل أنّ المراد من «النفس الواحدة» و زوجها آدم و حواء؟ مع أنّ آدم من الأنبياء و حواء امرأة مؤمنة كريمة، فكيف ينحرفان عن مسير التوحيد و يسلكان مسير الشرك؟! و إذا كان المراد من النفس الواحدة غير آدم و تشمل الآية جميع أفراد البشر، فكيف ينسجم التعبير إذا و قوله تعالى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ؟! ثمّ بعد هذا ما المراد من الشرك، و أى عمل أو تفكير قام به الزوجان فجعلا للّه شركاء؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۲۹

و فى الجواب على مثل هذه الأسئلة نقول:

يوجد طريقان لتفسير الآيتين هاتين «و ما بعدهما»، و لعل جميع ما قاله المفسّرون على اختلاف آرائهم يرجع إلى هذين الطريقين ...

الأوّل: إنّ المراد من نفس «واحدة». هو الواحد الشخصى كما ورد هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن أيضا، و منها أوّل آية من

سورة النساء.

و التعبير بالنفس الواحدة- أساسا- جاء فى خمسة مواطن فى القرآن المجيد، واحدة منها فى الآية- محل البحث- و الأربعة الأخرى هى فى سورة النساء (الآية الأولى) و سورة الأنعام، الآية (۹۸)، و سورة لقمان، الآية (۲۸)، و سورة الزمر، الآية (۶)، و بعض هذه الآيات لا علاقة لها ببحثنا هذا، و بعضها يشبه الآية محل البحث. فبناء على ذلك فالآيات- محل البحث- تشير إلى آدم و زوجه حوّاء فحسب! و على هذا فالمراد بالشرك ليس هو عبادة غير اللّه أو الإعتقاد بألوهية غيره، بل لعل المراد شى آخر من قبيل ميل الإنسان لطفله، الميل الذى ربّما يجعله غافلا عن اللّه أحيانا.

و التّفسير الثانى: هو أنّ المراد من النفس الواحدة هو الواحد النوعى، أى أن اللّه خلقكم جميعا من نوع واحد كما خلق أزواجكم من جنسكم أيضا.

و بذلك فإنّ الآيتين و ما بعدهما من الآيات- محل البحث- تشير إلى نوع الناس، فهم يدعون اللّه و ينتظرون الوالد الصالح فى كمال الإخلاص للّه و الانقطاع إليه، كمن يحدق بهم الخطر فيلتجئوا إلى اللّه، و يعاهدون اللّه على شكره بعد حلّ معضلاتهم. و لكن عند ما يرزقهم اللّه الولد الصالح، أو يحلّ مشاكلهم ينسون جميع عهودهم فإنّ كان الولد جميلا قالوا: إنّه اكتسب جماله من أبيه أو أمّه، و هذا هو قانون الوارثة. و تارة يقولون: إنّ غذاؤه و الظروف الصحية تسببت فى نموّه و سلامته. و تارة يعتقدون بتأثير الأصنام و يقولون: إنّ ولدنا كان من بركة الأصنام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۰

و عطائها! و أمثال هذا الكلام ...

و هكذا يهملون التأثير الرّبانى بشكل عام، و يرون العلّة الأصلية هى العوامل الطبيعية أو المعبودات الخرافية[۱۶۵].

و القرائن فى الآيات- محل البحث- تدل على أن التّفسير الثّانى أكثر انسجاما و أكثر تفهما لغرض الآية، لأنّه:

أوّلا: إن تعبيرات الآى تحكى عن حال زوجين كانا يعيشان فى مجتمع ما من قبل، و رأيا الأبناء الصالحين و غير الصالحين فيه، و لهذا طلبا من اللّه و سألاه أن يرزقهما الولد الصالح. و لو كانت الآيات تتكلم على آدم و حواء فهو خلاف الواقع، لأنّه لم يكن يؤمئذ ولد صالح و غير صالح حتى يسألا اللّه الولد الصالح.

ثانيا: الضمائر الواردة فى آخر الآية الثّانية و الآيات التى تليها، كلها ضمائر «جمع» و يستفاد من هذا أنّ المراد من ضمير التثنية هو إشارة إلى الفريقين لا إلى الشخصين.

ثالثا: أنّ الآيات التى تلت الآيتين الأوّليين تكشف عن أنّ المقصود بالشرك هو عبادة الأصنام، لا محبّة الأولاد و الغفلة عن اللّه، و هذا الأمر لا ينسجم و النّبى آدم و زوجه! فبملاحظة هذه القرائن يتّضح أنّ الآيات- محل البحث- تتكلم عن نوع الإنسان و زوجه ليس إلّا.

و كما ذكرنا فى الجزء الثّانى من التّفسير الأمثل أن خلق زوج الإنسان من الإنسان ليس معناه أن جزءا من بدنه انفصل عنه و تبدل إلى زوج له يسكن إليه «كما ورد فى رواية إسرائيلية أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر!».

بل المراد أن زوج الإنسان من نوعه و جنسه، كما نقرأ فى الآية (۲۱) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۱

سورة مريم! قوله تعالى: أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها.

رواية مجعولة:

جاء فى بعض المصادر الحديثية لأهل السنّة، و بعض كتب الحديث الشيعية غير المعتبرة، فى تفسير الآيات محل البحث، حديث لا

ينسجم مع العقائد الإسلامية، و لا يليق بشأن الأنبياء أبدا. و هذا الحديث كما جاء فى مسند أحمد هو:

أنّ سمرة بن جندب روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: لمّا ولدت حواء طاف بها إبليس و كان لا يعيش لها ولد فقال: سميّه: عبد الحارث، فعاش و كان ذلك من وحى الشّيطان و أمره ۱۶۶]

«الحارث اسم من أسماء الشيطان».

و جاء فى بعض الرّوايات الوارد فيها هذا المضمون ذاته أن آدم رضى بهذا الأمر!! و سواء أ كان راوى هذه الرواية سمرة بن جندب- الكذاب المشهور- أم غيره أمثال كعب الأحبار أو وهب بن منبه اللذين كانا من علماء اليهود ثمّ أسلما، و يعتقد بعضهم أنّهما أدخلا فى الثقافة الإسلامية خرافات التوراة و بنى إسرائيل.

و مهما يكن الأمر فالرواية بنفسها خير دليل على فسادها و بطلانها، لأنّ آدم الذى هو خليفة اللّه «فى أرضه» و نبيّه الكبير، و كان يعلم الأسماء، بالرغم من كونه بترك الأولى هبط إلى الأرض، إلّا أنّه لم يكن إنسانا يختار سبيل الشرك و يسمّى ولده عبد الشيطان، فهذا الأمر يصدق فى مشرك جاهل فحسب لا فى آدم ...

و الأعجب من ذلك أنّ الحدى أنف الذكر يتضمن معجزة للشيطان أو كرامة له، إذ بتسميته الولد باسمه عاش الولد خلافا للأبناء الآخرين. و إنّه لمدعاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۲

للأسف الشديد أن ينساق كثير من المفسّرين تحت وطأة هذا الحديث المختلق و أضرابه، فيجعلون مثل هذه الأباطيل تفسيرا للآى. و على كل حال، فإنّ مثل هذا الكلام لما كان مخالفا للقرآن، و مخالفا للعقل أيضا، فينبغى أن ينبذ فى سلة المهملات.

و تعقيبا على هذا الأمر يردّ القرآن- بأسلوب بيّن متين- عقيدة المشركين و أفكارهم مرة أخرى، فيقول: أَ يُشْرِكُونَ ما لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ

و ليس هذا فحسب، فهم ضعاف وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

و الأوثان و الأصنام فى حالة لو ناديتموها لما استجابت لكم وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَتَّبِعُوكُمْ

فمن كان بهذه المنزلة و بهذا المستوى أنّى له بهداية الآخرين! و يحتمل بعض المفسّرين احتمالا آخر فى تفسير الآية، و هو أنّ الضمير «هم» يرجع إلى المشركين لا- إلى الأصنام، أى أنّهم إلى درجة من الإصرار و العناد بحيث لا- يسمعونكم و لا- يذعنون لكم و لا يسلمون.

كما و يحتمل أنّ المراد هو أنّكم لو طلبتم منهم الهداية، فلن يتحقق دعاؤكم و طلبكم على كل حال سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ

و طبقا للاحتمال الثّانى يكون معنى الجملة على النحو التالى: سواء عليكم أ طلبتم من الأصنام شيئا، أو لم تطلبوا ففى الحالين لا أثر لها، لأنّ لا تقدر على أداء أى شىء أو التأثير فى شىء.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: إذا المشركين إذا ابتلوا بمشكلة تضرعوا إلى الأصنام و دعوها، و إذا لم يصبهم أذى أو سوء كانوا يسكتون عنها، فالقرآن يخاطبهم بالقول سَواءٌ عَلَيْكُمْ أَ دَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۳

الآيتان [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۴ الى ۱۹۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۹۴) أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ (۱۹۵)

التّفسير

هاتان الآيتان- محل البحث- تواصلان الكلام على التوحيد و مكافحة الشرك، و تكملان ما عالجته الآيات السابقة، فتعدّان كل شرك فى العبادة عملا سفيها و بعيدا عن المنطق و العقل! و التدفيق فى مضمون هاتين الآيتين يكشف أنّهما تبطلان منطق المشركين بأربعة أدلة، و السرّ فى كون القرآن يعالج إبطال الشرك باستدلالات مختلفة، و كل حين يأتى ببرهان مبين، لأن الشرك ألدّ أعداء الإيمان، و أكبر عدوّ لسعادة الفرد و المجتمع.

و لما كانت للشرك جذور مختلفة و أفانين متعددة فى أفكار البشر، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۴

القرآن يستغل كل فرصة لقطع جذوره الخبيثة ... و أفانينه التى تهدد المجتمع الإنسانى.

فتقول الآية الأولى من هاتين الآيتين: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ

فبناء على ذلك لا معنى لأن يسجد الإنسان لشىء مثله، و أن يمدّ يد الضراعة و الحاجة إليه، و أن يجعل مقدّراته و مصيره تحت يده!

و بتعبير آخر: إنّ مفهوم هذه الآية هو أنّكم- أيّها المشركون- لو أمعنتم النظر لرأيتم معبوداتكم ذات أجسام و أسيرة المكان و الزمان، و تحكمها قوانين الطبيعة، و هى محدودة من حيث الحياة و العمر و الإمكانات الأخرى. و خلاصة الأمر: ليس لها امتياز عليكم، و إنّما جعلتم لها امتيازا عليكم بتصوراتكم و تخيلاتكم! ثمّ إنّ كلمة «عباد» جمع «عبد» و يطلق هذا اللفظ على الموجود الحى، مع أن الآية استعملته فى الأصنام، فكانت لذلك تفاسير متعددة ...

التّفسير الأوّل: أنّه من المحتمل أن تشير الآية إلى المعبودين من جنس الإنسان أو المخلوقات الأخرى، كالمسيح إذ عبده النصارى، و الملائكة إذ عبدتها جماعة من المشركين العرب.

و التّفسير الثانى: أنّ الآية تنزلت و حكت ما توهمه المشركين فى الأصنام بأنّ لها القدرة، فكانوا يكلمونها و يتضرعون إليها، فالآية- محل البحث- تخاطبهم بأنّه على فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا، فهى لا تعدو أن تكون عبادا أمثالكم.

التّفسير الثّالث: أنّ العبد فى اللغة يطلق أحيانا على الموجود الذى يرزح تحت نيز الآخر و يخضع له، حتى لو لم يكن له عقل و شعور، و من هذا القبيل أنّ العرب يطلقون على الطريق المطرّق بالذهاب و الإياب أنّه «معبّد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۵

ثمّ تضيف الآية: أنّكم لو تزعمون بأنّ لهم عقلا و شعورا فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و هذا هو الدليل الثّانى على إبطال منطق المشركين، و هو كون الأصنام لا تستطيع أن تعمل شيئا، و هى ساكتة عاجزة عن الإجابة و الردّ ...

و فى البيان الثّالث تبرهن الآية على أنّ الأصنام أضعف حتى من عبادها المشركين، فتساءل مستنكرة: أَ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ ۱۶۷] بِها أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها أَمْ لَهُمْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها.

و هكذا فإنّ الأصنام من الضعة بمكان حتى أنّها بحاجة إلى من يدافع عنها و يحامى عنها، فليس لها أعين تبصر بها، و لا آذان تسمع بها، و لا أرجل تمشى بها، و لا أى إحساس آخر. و أخيرا فإنّ الآية تبيّن ضمن تعبير هو فى حكم الدليل الرّابع مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلِ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ

أى إذا كنت كاذبا، و أنّ الأصنام مقربات عند اللّه، و قد تجرأت عليها فلم لا تعضب علىّ؟ و ليس لها و لا لكم و لمكائدكم أى تأثير

على. فبناء على ذلك فاعلموا أنّ هذه الأصنام موجودات غير مؤثرة، و إنّما تصوراتكم هى التى أضفت عليها ذلك التوهّم!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۶ الى ۱۹۸]

اشارة

إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (۱۹۶) وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ (۱۹۷) وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ (۱۹۸)

التّفسير

المعبودات التى لا قيمة لها:

تعقيبا على الآية المتقدمة التى كانت تخاطب المشركين بالقول (على لسان النّبى): ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلا تُنْظِرُونِ منبهة إياهم أنّهم لا يستطيعون أن يصيبوا النّبى بأدنى ضرر، فإنّ الآية الأولى- من الآيات- محل البحث- تذكر الدليل على ذلك فتقول: إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتابَ

و ليس وليى وحدى فحسب، بل هو ولى جميع الصالحين وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ

ثمّ يؤكّد القرآن بالآية التّالية على بطلان عبادة الأوثان مرّة أخرى فيقول:

وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۷

بل أبعد من ذلك وَ إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدى لا يَسْمَعُوا و بالغرم من العيون المصنوعة لهم التى يخيل إلى الرائى أنّها تنظر: وَ تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَ هُمْ لا يُبْصِرُونَ

و كما أشرنا سابقا أيضا، فالآية- محل البحث- يحتمل أن تشير إلى الأصنام كما يحتمل أن تشير إلى المشركين. ففى الصورة الأولى مفهومها- كما قدمنا بيانه- أمّا فى الصورة الثّانية فيكون مفهومها: أنّه لو دعا المسلمون هؤلاء المشركين المعاندين إلى طريق التوحيد الصحيح ما قبلوا ذلك منهم، و هم ينظرون إليك و يرون دلائل الصدق و الحق فيك، إلّا أنّهم لا يبصرون الحقائق! و مضمون الآيتين الأخيرتين ورد فى الآيات السابقة أيضا، و هذا التكرار إنّما هو لمزيد التأكيد على مكافحة الشرك و قلع جذوره التى نفذت فى أفكار المشركين و أرواحهم عن طريق التلقين و التقرير المتكرر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۸

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۱۹۹ الى ۲۰۳]

اشارة

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ (۱۹۹) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۰۰) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ (۲۰۱) وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ (۲۰۲) وَ إِذا لَمْ تَأْتِهِمْ

بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۰۳)

التّفسير

وساوس الشّيطان:

فى هـذه الآيـات يبيّن القرآن شـروط التبليغ و قيـادة الناس و إمامتهم بأسـلوب أخّاذ رائق وجيز، و هى فى الوقت ذاته تتناسب و الآيات المتقدمة التى كانت تشير إلى مسألة تبليغ المشركين أيضا.

ففى الآيـة الأولى- من الآيات محل البحث- إشارة إلى ثلاث من وظائف القادة و المبلغين، فتوجه الخطاب للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول فى البداية خُذِ الْعَفْوَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۳۹

العفو: قد يأتى بمعنى الزيادة فى الشـىء أحيانا، كما قد يأتى بمعنى الحدّ الوسط، كما يأتى بمعنى قبول العذر و الصـفح عن المخطئين و المسيئين، و تأتى أحيانا بمعنى استسهال الأمور.

و القرائن الموجودة فى الآيـة تـدلّ على أنّ الآيـة محل البحث لا علاقـة لها بالمسائل الماليـة و أخذ المقدار الإضافى من أموال الناس، كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل مفهومها المناسب هو استسهال الأمور، و الصفح، و اختيار الحدّ الوسط[۱۶۸].

و من البديهى أنّه لو كان القائد أو المبلغ شـخصا فظا صعبا، فإنّه سيفقد نفوذه فى قلوب الناس و يتفرقون عنه، كما قال القرآن الكريم: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۱۶۹].

ثمّ تعقيب الآية بذكر الوظيفة الثّانية للنبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تأمره بأن يرشد الناس إلى حميد الأفعال التى يرتضيها العقل و يدعو إليها اللّه عزّ و جل قائلة: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ

و هى تشير إلى أنّ ترك الشدّة لا يعنى المجاملة، بل هو أن يقول القائد أو المبلغ الحق، و يدعو الناس إلى الحق و لا يخفى شيئا.

أمّا الوظيفة الثّالثة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فهى أن يتحمل الجاهلين، فتقول: وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ

فالقـادة و المبلغون يواجهون فى مسـيرهم أفرادا متعصّبين جهلـة يعانون من انحطاط فكرى و ثقافى و غير متخلقين بالأخلاق الكريمـة، فيرشقونهم بالتهم، و يسيئون الظن بهم و يحاربونهم.

فطريق معالجة هذه المعضلة لا يكون بمواجهة المشركين بالمثل، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۰

الطريق السـليم هو التحمل و الجلـد و عـدم الاكثرات بمثل هذه الأمور. و التجربة خير دليل على أنّ هذا الأسـلوب هو الأسـلوب الأمثل لمعالجة الجهلة، و إطفاء النائرة، و القضاء على الحسد و التعصب، و ما إلى ذلك.

و فى الآية التّالية دسـتور آخر، و هو فى الحقيقة يمثل الوظيفة الرّابعة التى ينبغى على القادة و المبلغين أن يتحملوها، و هى أن لا يدعوا سبيلا- للشـيطان إليهم، سواء كان متمثلا بالمال أم الجاه أم المقام و ما إلى ذلك، و أن يردعوا الشـياطين أو المتشـيطنين و وساوسـهم، لئلا ينحرفوا عن أهدافهم.

فالقرآن يقول: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۱۷۰].

أجمع آية أخلاقية ...:

روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا آية فى القرآن أجمع فى «المسائل» الأخلاقية من هذه الآية»[۱۷۱]

«أى الآية الأولى من الآيات محل البحث».

قال بعض الحكماء فى تفسير هـذا الحديث: إنّ أصول الفضائل الأخلاقية وفقا لأصول القوى الإنسانية «العقل» و «الغضب» و «الشّهوة» تتلخص فى ثلاثة أقسام:

۱- الفضائل العقلية: و تدعى بالحكمة، و تتلخص بقوله تعالى: وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ

۲- و الفضائل النّفسية فى مواجهة الطغيان و الشهوة، و تدعى بالعفة، و تتلخص ب «خذ العفو».

۳- و التسلط على القوة الغضبية، و تدعى بالشجاعة، و تتلخص فى قوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۱

تعالى وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ

و سواء كان الحديث الشريف يدلّ على ما فسّره المفسّرون و أشرنا إليه آنفا، أو كما عبرنا عنه بشروط القائد أو المبلغ، فهو يبيّن هذه الحقيقة، و هى أنّ هذه الآية القصيرة الوجيزة تتضمّن منهجا جامعا واسعا كليّا فى المجالات الأخلاقية و الاجتماعية، بحيث يمكننا أن نجد فيها جميع المناهج الإيجابية البناءة و الفضائل الإنسانية. و كما يقول بعض المفسّرين: إنّ إعجاز القرآن بالنسبة إلى الإيجاز فى المبنى، و السعة فى المعنى، يتجلى فى الآية محل البحث تماما.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الآية و إن كانت تخاطب النّبى نفسه إلّا أنّها تشمل جميع الأمّة و المبلغين و القادة.

كما ينبغى الالتفات إلى أنّ الآيات محل البحث ليس فيها ما يخالف مقام العصمة أيضا، لأنّ الأنبياء و المعصومين ينبغى أن يستعيذوا باللّه من وساوس الشيطان، كما أنّ أىّ أحد لا يستغنى عن لطف اللّه و رعايته و الاستعاذة به من وساوس الشياطين، حتى المعصومين.

و

جاء فى بعض الرّوايات أنّه لما نزلت الآية خُذِ الْعَفْوَ ... سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبرئيل عن ذلك فقال جبرئيل: لا أدرى، حتى أسأل العالم ثم أتاه فقال:

«يا محمّد، إنّ اللّه يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، و تعطى من حرمك، و تصل من قطعك»[۱۷۲].

و

جاء فى حديث آخر أنّه لما نزلت آية خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجاهِلِينَ قال النّبى: كيف يا ربّ و الغضب؟ فنزل قوله وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۱۷۳].

و ينبغى الإشارة إلى أنّ الآية الثّانية هنا جاءت فى سورة فصلت الآية (۳۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۲

بتفاوت يسير بين الآيتين، إذ ورد التعبير مكان قوله تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ و فى الآية التّالية بيان للانتصار على وساوس الشيطان بهذا النحو إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ أى يتذكرون ما أنعم اللّه عليهم، و يفكرون فى سوء عاقبة الذنب و عذاب الآخرة فيتّضح لهم بذلك طريق الحق.

و الطّائف: هو الذى يطوف و يدور حول الشىء، فكأن وساوس الشيطان تدور حول فكر الإنسان و روحه كالطائف حول الشىء ليجد منفذا إليه، فإذا تذكر الإنسان فى مثل هذه الحالة ربّه، و استعاذ من وساوس الشيطان و عاقبة أمره، أبعدها عنه. و إلّا أذعن لها و انقاد وراء الشيطان.

و أساسا فإنّ كل إنسان فى آية مرحلة من الإيمان، أو أى عمر كان، يبتلى بوساوس الشياطين. و ربّما أحس أحيانا أن فى داخله قوة مهيمنة تدفعه نحو الذنب و تدعوه إليه، و لا شك أن مثل هذه الحالة من الوساوس فى مرحلة الشباب أكثر منها فى أية مرحلة أخرى،

و لا سيما إذا كانت البيئة أو المحيط كما هو فى العصر الحاضر من التحلّل و الحريّة، لا الحرية بمعناها الحقيقى، بل بما يذهب إليه الحمقى «من الانسلاخ من كل قيد و التزام أخلاقى أو اجتماعى أو دينى» فتزداد الوساوس الشيطانية عند الشباب.

و طريق النجاة الوحيد من هذا التلوّث و التحلل فى مثل هذه الظروف، هو تقوية رصيد التقوى أولا، كما أشارت إليه الآية إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا ... ثمّ المراقبة و التوجه نحو النفس، و الالتجاء إلى اللّه و تذكر ألطافه و نعمه و عقابه الصارم للمذنب ...

و هناك إشارات كثيرة فى الرّوايات الإسلاميّة إلى أثر ذكر اللّه العميق فى معالجة الوساوس الشيطانية. حتى أن الكثير من المؤمنين و العلماء و ذوى المنزلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۳

كانوا يحسون بالخطر عند مواجهة وساوس الشيطان، و كانوا يحاربونها «بالمراقبة» المذكورة فى كتب علم الأخلاق بالتفصيل.

و الوساوس الشيطانية مثلها مثل الجراثيم الضارة التى تبحث عن البنية الضعيفة لتنفذ فيها. إلّا أنّ الأجسام القوية تطرد هذه الجرائم فلا تؤثر فيها.

و جملة فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ إشارة إلى حقيقة أن الوساوس الشيطانية تلقى حجابا على البصيرة «الباطنية» للإنسان، حتى أنّه لا يعرف العدوّ من الصديق، و لا الخير من الشر. إلّا أن ذكر اللّه يكشف الحجب و يزيد الإنسان بصيرة و هدى، و يمنحه القدرة على معرفة الحقائق و الواقعيات، المعرفة التى تخلّصه من مخالب الوساوس الشيطانية.

و ملخص القول: أننا لا حظنا فى الآية السابقة كيف ينجو المتقون من نزغ الشيطان و وسوسته بذكر اللّه، إلّا أن الآثمين إخوة الشياطين يبتلون بمزيد الوساوس فلا ينسلخون عنها، كما تعبّر الآية التالية عن ذلك قائلة: وَ إِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ

«الإخوان» كناية عن الشياطين، و الضمير «هم» يعود على المشركين و الآثمين، كما نقرأ هذا المصطلح فى الآية (۲۷) من سورة الإسراء إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ

و «يمدونهم» فعل مأخوذ من الإمداد و معناه الإعانة و الإدامة، أى أنّهم يسوقونهم فى هذا الطريق دائما.

و جملة ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ تعنى أنّ الشياطين لا يألون جهدا فى إضلال المشركين و الآثمين.

ثمّ تذكر الآية التّالية حال جماعة من المشركين و المذنبين البعيدين عن المنطق، فتقول: إنّهم يكذبونك- يا رسول اللّه- عند ما تتلوا عليهم آيات القرآن، و لكن عند ما لا تأتيهم بآية، أو يتأخر الوحى يتساءلون عن سبب ذلك: وَ إِذا لَمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۴

تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قالُوا لَوْ لا اجْتَبَيْتَها[۱۷۴] و لكن قل لهم اننى لا- اعمل و لا- أقول إلّا بما يوحى اللّه الىّ قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و يتّضح من هذه الآية- ضمنا- أنّ جميع أقوال النّبى و أفعاليه مصدرها وحى السماء، و من قال بغير ذلك فهو بعيد عن القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۵

الآيات [سورة الأعراف (۷): الآيات ۲۰۴ الى ۲۰۶]

اشارة

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۲۰۴) وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ (۲۰۵) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (۲۰۶)

التّفسير

وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا:

لقد بدأت هذه السورة (سورة الأعراف) ببيان عظمة القرآن، و تنتهى بالآيات- محل البحث- التى تتكلم عن القرآن أيضا.

و بالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا أسبابا لنزول الآيـة الأولى- من هذه الآيات محل البحث- منها مثلا ما روى عن ابن عباس و جماعة آخرين، أنّ المسلمين فى بادئ أمرهم كانوا يتكلمون فى الصلاة، و ربّما ورد شخص (جديد) أثناء الصلاة فيسأل المصلين و هم مشغولون بصلاتهم: كم ركعة صليتم؟ فيجيبونه: كذا ركعة. فنزلت الآية و منعتهم أو نهتهم عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۶

كما نقل الزّهرى سببا آخر لنزول الآيـة، و هو أنّه لما كان النّبى يقرأ القرآن، كان شاب من الأنصار يقرأ معه القرآن بصورت مرتفع، فالآية نزلت و نهت عن ذلك.

و أيّا كان شأن نزول هـذه الآية، فهى تقول: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و الفعل «انصتوا» مأخوذ من مادة «الإنصات» و معناه: السكوت المشفوع بالإصغاء و الاستماع.

و قد اختلف المفسّرون فى أن الإنصات و السكوت هنا فى الآيـة، هل هو عند قراءة القرآن فى جميع الموارد؟ أم هو منحصر وقت الصلاة و عند قراءة إمام الجماعة؟ أم هو عند ما يقرأ إمام الجمعة- فى خطبة الصلاة- القرآن؟

كما أنّ هناك أحاديث شتى فى هذا الصدد فى كتب الفريقين فى تفسير هذه الآية. و الذى يستفاد من ظاهر الآية أن هذا الحكم عام غير مختص بحال ما و لا وقت معيّن. إلّا أنّ الرّوايات المتعددة الواردة عن الأئمّة الطاهرين، بالإضافة إلى إجماع العلماء و اتفاقهم على عدم وجوب الاستماع عند قراءة القرآن فى أية حال، يستدل من ذلك على أن هذا الحكم بصورة كليّة حكم استحبابى، أى ينبغى إن قرئ القرآن- حيثما كان، و كيف كان- أن يستمع الآخرون و ينصتوا احتراما للقرآن، لأنّ القرآن ليس كتاب قراءة فحسب، بل هو كتاب فهم و إدراك، ثمّ هو كتاب عمل أيضا.

و هذا الحكم المستحب ورد عليه التأكيد إلى درجة أنّ بعض الرّوايات عبّرت عنه بالوجوب.

إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يجب الإنصات للقرآن فى الصّلاة و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۷

غيرها و إذا قرئ عندك القرآن وجب عليك الإنصات و الاستماع»[۱۷۵].

حتى أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أنّ لو كان إمام الجماعة مشغولا بالقراءة فى الصلاة، و قرأ شخص آخر آية من القرآن فيستحب للإمام السكوت حتى ينهى قراءة الآية، ثمّ يكمل الإمام قراءته. حيث

ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليّا عليه السلام كان مشغولا بصلاة الصبح، و كان ابن الكوّا- ذلك المنافق الفظّ القلب- خلف الإمام مشغولا بالصلاة، فقرأ فجأة وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و كان هدفه من قراءة الآية أن يعترض على الإمام علىّ مكنيّا عن قبول الحكم فى صفين- كما احتملوا ذلك- لكن الإمام سكت احتراما للقرآن حتى ينتهى ابن الكوّا من قراءة الآيـة، ثمّ رجع الإمام إلى قراءته فأعاد ابن الكوا عمله مرّة ثانيـة، فسكت الإمام أيضا، فكرر ابن الكوّا القراءة ثالثة فسكت على عليه السلام أيضا، ثمّ تلا قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ

و هو يشير إلى أن عذاب اللّه و عقابه الأليم فى انتظار المنافقين و غير المؤمنين، و ينبغى أن يتحمل الإنسان أذاهم، ثمّ أن الإمام أكمل

السورة و هوى إلى الركوع ۱۷۶].

و يستفاد من مجمع ما تقدّم، و لا سيما من البحث آنف الذكر، أن الاستماع و السكوت عند قراءة آيات القرآن أمر حسن جدّا إلّا أنّه بشكل عام غير واجب ... و لعلّ جملة لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ إضافة إلى الرّوايات و الإجماع، تشير إلى استحباب هذا الحكم أيضا.

و المورد الوحيد الذى يجب فيه السكوت أو يكون حكم السكوت فيه واجبا، هو فى صلاة الجماعة، إذ على المأموم أن يسكت و يستمع لقراءة الإمام، حتى أنّ جمعا من الفقهاء قالوا: إنّ هذه الآية تدل على سقوط الحمد و السورة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۸

قبل المأموم «عند صلاة الجماعة».

و من جملة الرّوايات الدالة على هذا الحكم ما

روى من حديث عن الإمام الباقر عليه السلام «و إذا قرئ القرآن فى الفريضة خلف الإمام فاستمعوا له و انصتوا لعلّكم ترحمون»[۱۷۷].

و أمّا استعمال «لعل» فى هذه الجملة، فهو- كما أشرنا سابقا- لغرض أن تشملكم رحمة اللّه، فمجرّد السكوت غير كاف، بل توجد أمور أخرى منها العمل بالآى أيضا.

و لا بأس أن نذكر الملاحظة التى بيّنها الفقيه المعروف الفاضل المقداد السيورى فى كتابه «كنز العرفان» إذ فسّر الآية تفسيرا آخر فقال: إنّ المراد من الآية هو الإصغاء للآيات و إدراك مفاهيمها و الإذعان لإعجازها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۳۴۸

لعل هذا التّفسير كان بسبب أنّ الآية السابقة كانت تتكلم عن المشركين، إذ كانوا يتذرعون بحجج واهية فى شأن نزول القرآن، فالقرآن يقول لهم: فاستمعوا و انصتوا لعلكم تعرفون الحق ۱۷۸].

و ليس هناك مانع من أن نعتبر مفهوم الآية واسعا بحيث يشمل جميع الكفار و المسلمين، فغير المسلمين عليه أن يستمع و ينصت للقرآن و يكفر فيه حتى يؤمن فينال رحمة ربّه، و المسلم عليه أن يستمع و يدرك مفهوم الآى و يعمل به لينال رحمة ربّه، لأنّ القرآن كتاب إيمان و علم و عمل لجميع، لا لطائفة خاصّة أو فريق معين.

و فى الآية التّالية إكمالا- للأمر السابق يخاطب القرآن النّبى الكريم- و هذا الحكم كلى و عام أيضا و إن كان الخطاب موجها للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى سائر آيات القرآن الأخرى و أحكامها- إذ يقول سبحانه فى كتابه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۴۹

وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً[۱۷۹].

ثمّ يضيف قائلا: وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

[و الآصال: جمع الأصيل، و معناه قبيل المغرب أو عند الغروب.] وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ

فذكر اللّه فى كل حال و فى كل وقت، صباحا و مساء، مدعاة لإيقاظ القلوب و جلائها من الدرن، و إبعاد الغفلة عن الإنسان. و مثله مثل مزنة الربيع، إذا نزلت أمرعت القلوب بأزهار التوجه و الإحساس بالمسؤولية و البصيرة، و كل عمل إيجابى بنّاء! ...

ثمّ تختتم هذه الآية سورة الأعراف بهذه العبارة، و هى أنّكم لستم المكلّفون بذكر اللّه من يذكر اللّه ليس هو أنتم فحسب، بل إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ

و التعبير ب عِنْدَ رَبِّكَ لا- يعنى القرب المكانى، لأنّ اللّه ليس له مكان خاص، بل هو إشارة إلى القرب المقامى، أى أنّ الملائكة و غيرهم من المقربين على رغم مقامهم و منزلتهم عند اللّه، فهم لا يقصرون فى التسبيح و الذكر للّه و السجود له.

و السجدة عند تلاوة هذه الآية مستحبة، إلّا أنّ بعض أهل السنة كأصحاب أبى حنيفة و أتباعه يقولون بوجوبها.

ربّنا نور قلوبنا بنور ذکرک، ذلک النور الذی یفتح لنا طریقنا نحو الحقیقة، و نستمد منه المدد فی نصرة رایة الحق و مکافحة الظالمین و أن تدرک مسئولینا و نؤدی رسالتنا- آمین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۱

سورة الأنفال

اشارة

و هی مدینة و عدد آیاتها خمس و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۳

«سورة الأنفال»

نظرة خاطفة إلی محتویات هذه السورة

فی الآیات الخمس و السبعین التی تتکون منها سورة الأنفال أثیرت مباحث مهمّة جدّا.

ففی مستهلها إشارة إلی قسم مهم من المسائل المالیة من جملتها الأنفال و الغنائم التی یعدّ کلّ منهما دعامة لبیت المال. کما تضمّنت هذه السورة مباحث أخری منها:

صفات المؤمنین الصادقین و ما یمتازون به، قصّة معرکة بدر، و هی أوّل مواجهة مسلحة بین المسلمین و أعدائهم، و ما تضمّنت من أحداث عجیبة تلهم العبر.

بعض أحکام الجهاد و وظائف المسلمین إزاء هجوم العدوّ المتواصل.

ما جری للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی لیلته التاریخیة «لیلة المبیت».

حال المشرکین قبل الإسلام و خرافاتهم.

ضعف المسلمین و عجزهم بادئ الأمر ثمّ تقویتهم ببرکة الإسلام.

حکم الخمس و کیفیة تقسیمه.

وجوب الاستعداد «العسکری و السیاسی و الاجتماعی» للجهاد فی کل زمان و مکان.

رجحان قوی المسلمین و المعنویة علی عدوهم بالرغم من قلّة عددهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۴

ظاهرا.

حکم أسری الحرب و کیفیة معاملتهم.

المهاجرون و الذین لم یهاجروا.

مواجهة المنافقین و طریقة التعرّف علیهم. و أخیرا نجد فی هذه السورة سلسلة مسائل أخری أخلاقیة و اجتماعیة بنّاءة.

فلا غرابة أن نقرأ بعض الرّوایات الواردة فی شأن هذه السورة و فضیلتها، کالرّوایة الواردة

عن الإمام الصادق إذ تقول مثلا: «من قرأ سورة الأنفال و براءة فی کل شهر لم یدخله نفاق أبدا، و کان من شیعة أمیر المؤمنین حقّا، و یأکل یوم القیامة من موائد الجنّة معهم حتی یفرغ الناس من الحساب»[۱۸۰].

و کما أشرنا من قبل فإنّ فضائل سور القرآن و الثواب العظیم الذی وعد به من یتلو هذه السور، کل ذلک لا یتأتی بمجرّد قراءة

الألفاظ، بل القراءة مقدمة للتفكّر، و التفكّر وسيلة للفهم، و الفهم مقدّمة للعمل. و بما أنّ سورة الأنفال شرحت كيفية البراءة من صفات المنافقين، و كذلك ذكرت صفات المؤمنين الصادقين حقّا، فمن قرأها و تمثلها فى حياته لم يدخله نفاق أبدا.

و كذلك من قرأ صفات المجاهدين فى هاتين السورتين، و جوانب من التّضحيات الواردة عن أمير المجاهدين على عليه السلام و تمثلها، كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۵

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱)

سبب النّزول

ورد عن ابن عباس أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عيّن فى يوم معركة بدر جوائز للمقاتلين المسلمين ترغيبا، كأنّ يقول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثلا: من جاءنى بفلان من الأعداء أسيرا فله عندى كذا «جائزة».

و كان هذا الترغيب- إضافة إلى ايقاده روح الإيمان و الجهاد فى وجودهم- مدعاة أن يثب المقاتلون الفتية فى تسابق «افتخارى» نحو الهدف.

إلّا أنّ الكهول و الشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا انتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النّبى، إلّا أنّ الشيوخ و كبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيبا أيضا، لأنّنا كنّا سندا و ظهيرا لكم، و لو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتما. و احتدم النقاش حينئذ بين رجلين من الأنصار فى شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآية- محل البحث- و قالت بصراحة: إنّ الغنائم هى للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۶

أن يتصرّف فيها ما يشاء. فقسّمها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بين المسلمين بالتساوى، و أمر أن يصطلح الإخوة المسلمون فيما بينهم.

التّفسير

اشارة

إنّ الآية- محل البحث- كما قرأنا فى سبب النّزول، نزلت بعد معركة بدر و تتكلم على غنائم الحرب و تبيّن حكما إسلاميا واسعا بشكل عام، فتخاطب النّبى بالقول: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفالِ قُلِ الْأَنْفالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ!.

فبناء على ذلك فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذاتَ بَيْنِكُمْ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أى أنّ الإيمان ليس بالكلام فحسب، بل هو الطاعة للّه و الرّسول دون قيد أو شرط و فى جميع مسائل الحياة لا فى غنائم الحرب وحدها.

ما هی الأنفال؟

الأنفال فی الأصل مأخوذة من مادة «نفل» علی زنة «نفع» و معناها الزیادة، و إنما سمّیت الصلوات المستحبة نافلة لأنّها زیادة علی الصلوات الواجبة، و کذلک یطلق علی الحفید نافلة لأنّه زیادة فی الأبناء.

و یطلق لفظ «نوفل» علی من یهب المزید من العطاء.

و إنّما سمّیت غنائم الحرب أنفالا أیضا لأنّها کمیة من الأموال الإضافیة التی تبقی دون صاحب، و تقع فی أیدی المقاتلین دون أن یکون لها مالک خاص. أو لأنّ المقاتلین إنّما یحاربون للانتصار علی العدو لا للغنائم، فالغنیمة أو الغنائم موضوع إضافی یقع فی أیدیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۷

ملاحظات

۱- بالرّغم من أنّ الآیة محل البحث نازلة فی شأن غنائم الحرب، إلّا أنّ لمفهومها حکما کلّیا و عامّا، و هی تشمل جمیع الأموال الإضافیة التی لیس لها مالک خاص. لهذا ورد فی الرّوایات عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ الأنفال لها مفهوم واسع، إذ نقرأ فی بعض الرّوایات المعتبرة

عن الإمامین «الباقر و الصادق علیهما السّلام» ما یلی: «إنّها ما أخذ من دار الحرب من غیر قتال، کالذی انجلی عنها أهلها و هو المسمّی فیئا، و میراث من لا وارث له، و قطائع الملوک إذا لم تکن مغصوبة و الآجام و بطون الأدویة و الموات، فإنّها للّه و لرسوله، و بعده لمن قام مقامه یصرفه حیث یشاء من مصالحه و مصالح عیاله»[۱۸۱]

و بالرّغم من أنّ الحدیث- أنف الذکر- لم یتحدّث عن جمیع غنائم الحرب، إلّا أنّنا نقرأ حدیثا آخر

عن الإمام الصادق علیه السلام یقول فیه: «إنّ غنائم بدر کانت للنّبی خاصّة فقسمها بینهم تفضلا منه»[۱۸۲].

و نستنتج ممّا ذکر آنفا أنّ مفهوم الأنفال أساسا لا یقتصر علی غنائم الحرب فحسب، بل یشمل جمیع الأموال التی لیس لها مالک خاص، و هذه الأموال جمیعها للّه و للرسول و لمن یلی أمره و یخلفه، و بتعبیر آخر: إنّ هذه الأموال للحکومة الإسلامیّة، و تصرف فی منافع المسلمین العامّة.

غایة ما فی الأمر أنّ قانون الإسلام فی غنائم الحرب و الأموال المنقولة التی تقع فی أیدی المقاتلین المسلمین عند القتال- کما سنفصل ذلک فی هذه السورة- مبنیّ علی أن یعطی أربعة أخماسها- ترغیبا- للمقاتلین المسلمین و تعویضا عن أتعابهم، و یصرف خمسها فی المصارف التی أشارت إلیها الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۸

(۴۱) من هذه السورة.

و علی هذا الأساس فإنّ الغنائم داخلة فی مفهوم الأنفال العام، و هی فی الأصل ملک الحکومة الإسلامیة، و إعطاء أربعة أخماسها للمقاتلین عطیة و تفضل منها.

۲- قد یتصور أنّ الآیة محل البحث «بناء علی شمولها غنائم الحرب أیضا» تتنافی و الآیة ۴۱ من هذه السورة التی تقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ و سائر المصارف. لأنّ مفهومها أنّ أربعة الأخماس الباقیة هی للمقاتلین المسلمین.

إلّا أنّه مع ملاحظة ما ذکرناه آنفا یتّضح أنّ غنائم الحرب فی الأصل کلها للّه و للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إعطاء أربعة

أخماسها للمقاتلين نوع من التفضل و الهديّة، و بتعبير آخر: إنّ الحكومة الإسلامية تهب أربعة الأخماس من حقها إلى المجاهدين، فلا يبقى عندئذ أى تناف بين الآيتين.

و يتّضح أيضا أن آية الخمس لا تنسخ أية الأنفال،- كما تصوّر ذلك بعض المفسّرين- بل كلّ منهما باق على قوّته! ۳- كما قرأنا فى شأن النّزول آنفا، أنّ مشاجرة وقعت بين بعض الأنصار فى شأن غنائم الحرب، و قطعا لهذه المشاجرة فقد نفت الآية أن تكون الغنائم لغير اللّه و الرّسول ثمّ أمرت المسلمين بإصلاح ذات البين.

و أساسا فإنّ إصلاح ذات البين و إيجاد التفاهم و قلع الكدر و البغضاء من صدور المسلمين، و تبديل كل ذلك بالمحبّة، يعدّ من أهم الأغراض الإسلامية.

و كلمة «ذات» تعنى الخلقة و البنية و أساس الشىء، و البين يعنى حالة الارتباط و العلاقة بين شخصين أو شيئين. فبناء على هذا فإنّ إصلاح ذات البين يعنى إصلاح أساس الارتباطات، و تقوية العلاقات و تحكيمها، و إزالة عوامل التفرقة و النفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۵۹

و قد أولت التعاليم الإسلامية عناية فائقة لهذا الموضوع حتى عدته من أفضل العبادات.

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام فى آخر وصاياه- عند ما عممه ابن ملجم بالسيف- لولديه «إنّى سمعت جدّكما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: إصلاح ذات البين أفضل من عامّة الصلاة و الصيام»[۱۸۳].

و

جاء عن الإمام الصادق صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتاب الكافى أنّه قال: «صدقة يحبّها اللّه إصلاح بين النّاس إذا تفاسدوا، و تقارب بينهم إذا تباعدوا»[۱۸۴].

كما

ورد عنه عليه السلام فى الكتاب آنف الذكر ذاته أنّه قال للمفصل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالى»[۱۸۵].

و لهذا نقرأ فى بعض الرّوايات عن أبى حنيفة سابق الحاجّ قال: مرّ بنا المفضّل و أنا و ختنى نتشاجر فى ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتّى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال أمّا إنّها ليست من مالى و لكن أبو عبد اللّه عليه السلام أمرنى إذا تنازع رجلان من أصحابنا فى شىء أن أصلح بينهما و أفتديها من ماله، فهذا من مال أبى عبد اللّه عليه السلام ۱۸۶].

و السبب فى كل هذا التأكيد فى المسائل الاجتماعية يتجلى بقليل من التأمل، لأنّ عظمة الأمّة و قدرتها و عزّتها لا يمكن تحقيقه إلّا فى ظل التفاهم و التعاون. فإذا لم يتمّ إصلاح ذات البين، و لم تطو الخلافات الصغيرة و المشاجرات، تنفذ جذور العداوة و البغضاء فى القلوب تدريجا، و تتحول الأمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۰

القوية المتحدة إلى جماعات متفرقة متناحرة، و تضعف أمام الأعداء و الحوادث، كما يحدق الخطر بالمسائل العبادية فى مثل هذه الأمّة من صلاة و صيام، و حتى بحيثية القرآن و (موجوديته).

و لذلك فقد أوجبت الشريعة الإسلامية إصلاح ذات البين فى بعض مراحله، و جازت الإنفاق من بيت المال لتحقق هذا الأمر، و ندبت إلى ذلك فى مراحله الأخرى التى لا تتعلق بمصير المسلمين مباشرة، و عدت ذلك مستحبا مؤكّدا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲ الى ۴]

اشارة

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳) أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴)

التّفسير

خمس صفات خاصّة بالمؤمنين:

كان الكلام فى الآية السابقة عن تقوى اللّه و طاعته و طاعة رسوله بعد المشاجرة اللفظية بين بعض المسلمين فى شأن الغنائم.

و إكمالا لهذا الموضوع فالآيات- محل البحث- تذكر صفات المؤمنين بحق فى عبارات موجزة غزيرة المعنى.

فيشير الذكر الحكيم فى هذه الآيات إلى خمس صفات بارزة فى المؤمنين:

ثلاث منها ذات جانب معنوى و روحانى و باطنى، و اثنتين منها لها جانب عملى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۲

و خارجى ...

فالثلاث الأولى عبارة عن «الإحساس بالمسؤولية» و «الإيمان» و «التوكل».

و الاثنتان الأخريان هما الارتباط باللّه، و الارتباط بخلق اللّه سبحانه.

فتقول الآيات أوّلا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

و «الوجل» حالة الخوف التى تنتاب الإنسان، و هو ناشئ عن أحد أمرين:

فقد ينشأ عند إدراك المسؤولية و احتمال عدم القيام بالوظائف اللازمة التى ينبغى على الإنسان أداؤها بأكمل وجه امتثالا لأمر اللّه تعالى.

و قد ينشأ عند إدراك عظمة مقام اللّه، و التوجه إلى وجوده المطلق الذى لا نهاية له، و مهابته التى لا حدّ لها.

و توضيح ذلك: قد يتفق للإنسان أن يمضى لرؤية شخص عظيم هو- بحق- جدير بالعظمة من جميع الجوانب، فالإنسان الذى يمضى لرؤيته قد يقع تحت تأثير ذلك المقام و تلك العظمة، بحيث يحس بنوع من الرهبة فى داخله و يضطرب قلبه حتى أنّه لو أراد الكلام لتعلثم، و قد ينسى ما أراد أن يقوله، حتى لو كان ذلك الشخص يحب هذا الإنسان و يحب الآخرين جميعا و لم يصدر عنه ما يدعو إلى القلق.

فهذا الخوف و الاضطراب أو المهابة مصدرها عظمة ذلك الشخص، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۱۸۷].

كما نقرأ فى آية أخرى من قوله تعالى: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ[۱۸۸].

و هكذا فإن العلاقة قائمة بين العلم و الخوف أيضا، و بناء على ذلك فمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۳

الخطأ أن نعدّ أساس الخوف و الخشية عدم أداء الوظائف المطلوبة فحسب.

ثمّ تبيّن الآية الصفة الثّانية للمؤمنين فتقول: وَ إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً.

إنّ النمو و التكامل من خصائص جميع الموجودات الحية، فالموجودات الفاقد للنمو و التكامل إمّا أن يكون ميتا أو فى طريقه إلى

الموت. و المؤمنون حقّا لهم إيمان حيّ ينمو غرسه يوما بعد يوم بسقيه من آيات اللّه، و تفتح أزهاره و براعمه، و يؤتى ثماره أكثر فأكثر، فهم ليسوا كالموتى من الجمود و عدم التحرك، ففى كل يوم جديد يكون لهم فكر جديد و تكون صفاتهم مشرقة جديدة ...

و هذه الدّرجات مبهمة لم يعين مقدارها و ميزانها، و هذا الإبهام يشير إلى أنّها درجات كريمة عالية.

و للمؤمنين إضافة لدرجاتهم رحمة من اللّه و مغفرة و رزق كريم.

و الحق أنّنا- نحن المسلمين- الذين ندّعى الإسلام و قد نرى أنفسنا أولى فضل على الإسلام و القرآن، نتهم القرآن و الإسلام جهلا بأنّهما سبب التأخر و الانحطاط، و ترى لو أنّنا طبقنا فقط مضامين هذه الآيات محل البحث على أنفسنا و التى تمثل صفات المؤمنين بحق، و لم نتكل على هذا و ذاك، و أن نطوى كل يوم مرحلة جديدة من الإيمان و المعرفة، و أن نحس دائما بالمسؤولية لتقوية علاقتنا باللّه و بعباده فننفق ما رزقنا اللّه فى سبيل تقدم المجتمع، أ نكون بمثل ما نحن عليه اليوم؟! و ينبغى ذكر هذا الموضوع أيضا، و هو أنّ الإيمان ذو مراحل و درجات، فقد يكون ضعيفا فى بعض مراحله حتى أنّه لا يبدو منه أى شىء عملى مؤثر، أو يكون ملوّثا بكثير من السيّئات. إلّا أنّ الإيمان المتين الراسخ من المحال أن يكون غير بناء أو غير مؤثر و ما يراه البعض من أن العمل ليس جزءا من الإيمان، فلاقتصارهم على أدنى مراحل الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۴

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ (۵) يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۶)

التّفسير

قرأنا فى الآية الأولى من هذه السورة أنّ بعض المسلمين من جديدى العهد بالإسلام، كانوا غير راضين عن كيفية تقسيم غنائم معركة بدر (إلى حد ما).

ففى الآيتين محل البحث يقول اللّه سبحانه لأولئك: هذه ليست أوّل مرّة تكرهون شيئا مع أنّه فيه صلاحكم كما كان الأمر فى أساس غزوة بدر و كانوا غير راضين بادئ الأمر، إلّا أنّهم رأوا كيف تمت هذه المعركة لصالح الإسلام و المسلمين.

فإذن لا ينبغى أن تقوّم أحكام اللّه بالنظرات الضيقة المحدودة، بل ينبغى الانصياع و التسليم لها ليستفاد من نتائجها النهائية.

تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث: إنّ عدم رضا بعض المسلمين فى شأن تقسيم الغنائم يشبه عملية إخراجك من مكّة و عدم رضى بعض المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۵

بذلك: كَما أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكارِهُونَ

و التعبير بالحق إشارة إلى أنّ أمر الخروج كان طبقا لوحى الإلهى و دستور سماوى، و كانت نتيجته الوصول إلى الحق و استقرار المجتمع الإسلامى، إلّا أنّ هؤلاء الأفراد لا يرون إلّا ظواهر الأمور، و لهذا: يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ

إلّا أنّ الحوادث التالية كشفت لهم عن خطئهم فى حساباتهم، و أنّ خوفهم و قلقهم دونما أساس، و أنّ هذه المعركة (معركة بدر)

حققت للمسلمين انتصارات مشرقة، فمع رؤية مثل هذه النتائج علام يجادلون فى الحق و تمتد ألسنتهم بالاعتراض؟! و التعبير ب فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يكشف ضمنا- أوّلا- أن هذا التشاجر أو المحاورة لم تكن عن نفاق أو عدم إيمان، بل عن ضعف الإيمان و عدم امتلاك النظرة الثاقبة فى المسائل الإسلامية.

و ثانيا: إنّ الذين جادلوا فى شأن الغنائم كانوا قلّة و فريقا من المؤمنين، غير أنّ بقيتهم و غالبيتهم أذعنوا لأمر رسول اللّه و استجابوا له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۶

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۷ الى ۸]

اشارة

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (۷) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸)

غزوة بدر أوّل مواجهة مسلحة بين الإسلام و الكفر ...

لما كانت الآيات السابقة قد أشارت إلى معركة بدر، فإنّ الآيتين أعلاه و ما بعدهما من الآيات قد أماطت اللثام عن جوانب مهمّة و حساسة فى تلك المعركة ليستلهم المسلمون من هذه الآيات الحقائق التى مرّت بهم فى الماضى القريب، و يجعلوها أمام أعينهم للعبرة و الاتعاظ.

و لإيضاح الآيتين محل البحث و الآيات التّالية، من المناسب أن نلقى الضوء على ما جرى فى هذه المعركة الحاسمة، و كيف كانت هذه المواجهة المسلحة الأولى و هذا الجهاد الإسلامى بوجه العدوّ اللدود؟ لتتجلى لنا دقائق الأمور و لطائف ما أشارت إليه الآيات الكريمة فى شأن معركة بدر الكبرى.

بدأت معركة بدر- طبقا لما يقول المؤرخون و المحدّثون و المفسّرون- حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۷

كان أبو سفيان كبير مكّة عائدا بقافلة تجارية مهمّة مؤلفة من أربعين شخصا، و تحوى على ثروة تجارية تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصحابه أن يتعبأوا و يتهيئوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التى تحمل جل رأس مال العدوّ معها، و بمصادرة أموال القافلة لتوجيه ضربة اقتصادية نحو العدوّ و تعقبها ضربة عسكرية قاصمة.

و كان للنّبى و أصحابه الحق فى مثل هذه الحملة أو الهجوم، لأنّه- أوّلا- عند ما هاجر المسلمون من مكّة نحو المدينة استولى أهل مكّة على كثير من أموالهم، و نزلت بهم خسارة كبيرة. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخسارة.

ثمّ بعد هذا كلّه برهن أهل مكّة طيلة الثلاثة عشر عاما التى أقام النّبى و أصحابه بمكّة خلالها أنّهم لا يألون جهدا فى إيذاء النّبى و أصحابه، بل أرادوا به الوقيعة و المكيدة، فإنّ عدوّا كهذا لن يسكت عن النّبى و دعوته بمجرّد هجرته إلى المدينة، و من المسلم به أنّه سيعبئ قواه فى المستقبل لمواجهة النّبى و الإيقاع به.

إذن فالعقل و المنطق يوجبان أن يسارع المسلمون بمبادرة عاجلة لمصادرة أموال أهل مكّة لتدمير دعامتهم الاقتصادية، و ليوفروا على أنفسهم إمكانية التهيؤ العسكرى و الاقتصادى لمواجهة العدو مستقبلا.

و هذه المبادرة كانت و لا تزال فى جميع الخطط العسكرية قديمها و حديثها و أمّا من يرى أن توجّه النّبى نحو قافلة أبى سفيان- و

دون الأخـذ بنظر الإعتبار هـذه الجهات المشار إليها آنفا- نوعا من الإغارة، فإمّا أن يكون جاهلا لا يعرف جذور المسائل التأريخية فى الإسلام أو أنّه مغرض يريد تحوير الواقعيات و الثوابت التاريخية.

و على كل حال، فإنّ أبا سـفيان عرف عن طريق أتباعه و أصدقائه تصميم النّبى على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۸

أرسل من يمضى إلى مكّة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضـى رسول أبى سـفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سـفيان، إذ خرم أنف بعيره و بتر أذنيه و الدماء تسـيل على وجه البعير لهيجانه، و قـد شقّ ثوبه- أو طمريه- و ركب بعيره على خلاـف مـا يركب النـاس «إذ ظهره كان إلى رقبـة البعير و وجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكّـة أخـذ يصـرخ قائلا: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم و أسـرعوا و تعجلوا إليها، و إن كنت لاـ أعتقـد أنّكم سـتدركونها فى الوقت المنـاسب، فـإنّ محمّـدا و رجالاـ مـارقين من دينكم قـد خرجوا من المدينـة ليتعرضوا لقافلتكم.

و كانت عاتكـة بنت عبد المطلب عمّة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم آنئذ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة، و قد تناقلت الأفواه رؤياها فيزداد الناس هيجانا.

و كانت عاتكـة قـد رأت قبل ثلاثة أيّام من مجىء رسول أبى سـفيان إلى مكّة، أنّ شـخصا يصـرخ: أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعـد هذا المنادى إلى أعلى جبل أبى قيس و أخذ حجرا كبيرا فرماه فتلاشـى الحجر فى الهواء، و لم يبق بيت فى مكّة لقريش إلّا نزل فيه منه شىء، كما أن وادى مكّة يجرى دما عبيطا.

فلمّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها و قصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال: ما رأت عاتكـة رؤيا، هـذه نبيّـة ثانيـة فى بنى عبـد المطلب، و باللات و العزّى لننظرن ثلاثة أيّام، فإن كـان مـا رأت حقّـا فهو كما رأت، و إن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتابا: أنّه ما من أهل بيت من العرب أكـذب رجالا و نساء من بنى هاشم.

و لكن لم يكد يمضى اليوم الثّالث حتى كان ما من أمر ذلك الرجل الذى هزّ مكّة و أهلها.

و لما كان أكثر أهل مكّة شركاء فى هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة و تحركوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۶۹

نحو القافلة بحوالى ۹۵۰ مقاتلا و ۷۰۰ بعير و مائة فرس، و كان أبو جهل يقود هذا الجيش. و من جهة أخرى و لكى يسـلم أبو سـفيان من تعرض النّبى و أصحابه لقافلته، فقد غير مسيره و اتجه نحو مكّة بسرعة.

و كان النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـد قارب بدرا فى نحو من ثلاثمائة و ثلاث عشـر رجلا كانوا يمثلون رجال الإسـلام آنئذ «و بدر منطقة ما بين مكّة و المدينة» و قد بلغه خبر تهيؤ أبى جهل و من معه لمواجهته.

فتشاور النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مع أصـحابه: هل يلحقون القافلة و يصادرون أموالها، أو أن عليهم أن يتهيئوا لمواجهة جيش العدوّ؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، و كرهت طائفة أخرى ذلك و قالت: إنما خرجنا لمصادرة أموال القافلة.

و دليلهـا معها، إذ أنّها لم تخرج إلّا لهـذا السـبب (من المدينـة) و لم يكن النّبى و أصـحابه عازمين على مواجهـة جيش أبى جهل و لم يتعبأوا لذلك، فى حين أن أبا جهل قد تعبأ لهم و يريد قتالهم.

و قـد ازداد هـذا الـتردد بيـن الطـائفتين، خاصّـة بعـد أن عرف أصـحاب النّبى أنّ جيش العـدوّ ثلاثـة أضـعافهم و تجهيزاتـه أضـعاف تجهيزاتهم، إلّا أنّ النّبى بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أى قتال العـدوّ» فلما التقى الجيشان لم يصـدق العدوّ أن المسـلمين قد

وردوا الميدان بهذه القلّة، بل ظن العدوّ أنّهم مختبئون و أنّهم سيحدقون به عند المواجهة، لذلك فقد أرسل شخصا ليرصد الأمور فرجع و أخبرهم بأنّ المسلمين ليسوا أكثر ممّا رأوهم.

و من جهة أخرى- كما أشرنا آنفا- فإنّ طائفة من المسلمين كانت فى قلق و اضطراب و كانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النّبى و أصحاب أبى جهل! لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طمأنهم بوعد اللّه و

قال: «إنّ اللّه وعدنى إحدى الطائفتين و لن يخلف اللّه الميعاد»

قافلة قريش أو جيش قريش، و لن يخلف اللّه وعده، فواللّه لكأنّى أرى مصرع أبى جهل و جماعة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۰

أصحابه بعينىّ.

ثمّ أمر النّبى أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر «و بدر فى الأصل اسم رجل من قبيلة جهينة حفر بئرا فى ذلك الموضوع فسمّيت باسمه، و سمّيت الأرض بأرض بدر أيضا».

و فى هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، و اتّجه نحو مكّة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، و أرسل رسولا إلى قريش: إنّ اللّه نجىّ قافلتكم، و لا أظن أنّ مواجهة محمّد فى هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداء يكفونكم أمره. إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبى سفيان و أقسم باللات و العزّى أنّه سيواجه محمّدا، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه أو؟؟؟ سيأسرهم جميعا و يمضى بهم لمكّة، حتى يبلغ خبر هذا الإنتصار آذان العرب.

و أخيرا ورد جيش قريش أرض بدر و أرسلوا غلمانهم للاستقاء من ماء بدر،

فأسرهم أصحاب النّبى و أخذوهم للتحقيق إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألهم النّبى: من أنتم؟ فقالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم؟! فقالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون فى كل يوم جزورا؟ فقالوا: تسعة إلى عشرة.

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: القوم تسعمائة الى ألف

(كل مائة يأكلون بعيرا واحدا).

كان الجوّ مكفهرا بالرعب و الوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججا بالسلاح، ولديه المؤونة و العدّد، حتى النساء اللائى ينشدن الأشعار و المغنيات اللائى يثرن الحماسة. و كان جيش أبى جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، و لا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

فلمّا رأى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أصحابه قلقون و ربّما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غدا بمعنويات مهزورة قال لهم كما وعده اللّه: لا تحزنوا فإنّ كان عددكم قليلا فإنّ اللّه سيمدكم بالملائكة، و سرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۱

المشكلة الأخرى التى كان أصحاب النّبى يواجهونها، هى أن أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النّبى فاغتسلوا منه و توضأوا و أصبحت الأرض صلبة صالحة للنزال، العجيب فى ذلك أنّ المطر كان فى جهة العدوّ شديدا بحيث أربكهم و أزعجهم.

و الخبر الجديد الذى حصل عليه أصحاب النّبى من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلا حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية فى حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ اللّه أنزل عليها جيشا من الرعب و الوحشة.

و عند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوّهم، و لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إتماما للحجّة و لئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية- أرسل إلى قريش ممثلا عنه ليقول لهم: إنّ النّبى لا يرغب فى قتالكم لا يحبّ أن

تكونوا أوّل جماعة تحاربه. فوافق بعض قادة قريش على هذا الاقتراح و رغبوا فى الصلح، إلّا أنّ أبا جهل امتنع و أبى بشدّة.

و أخيرا اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك و الكفر، و وقف حمزة عمّ النّبى و على ابن عمّ النّبى الذى كان أصغر المقاتلين سنّا وجها لوجه مع صناديد قريش و قتلوا من بارزهم فانهار ما تبقى من معنويات العدوّ، فأصدر أبو جهل أمرا عاما بالحملة، و كان قد أمر بقتل أصحاب النّبى من أهل المدينة «الأنصار» و أن يؤسر المهاجرون من أهل مكّة. فقال النّبى لأصحابه:

«غضّوا أبصاركم و عضو على نواجذ و لا تستلوا سيفا حتى آذان لكم».

ثمّ

مدّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يديه إلى الدعاء، و رفع بهما نحو السماء فقال: «يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد و إن شئت أن لا تعبد لا تعبد ...»

فهبت ريح عاصف الى العدوّ، و كان المسلمون يحملون على عدوّهم و الرياح تهب من خلفهم بوجه العدوّ، و أثبت المسلمون جدارة فائقة و صمدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۲

للقتال حتى قتلوا منهم سبعين «و أبو جهل من القتلى» و أسروا سبعين، و انهزم الجمع و ولّوا الدبر، و لم يقتل من المسلمين إلّا نفر قليل، و كانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين و عدوّهم من قريش، و انتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم ۱۸۹].

التّفسير

و الآن و بعد أن عرفنا باختصار كيف كانت غزوة بدر، نعود ثانية إلى تفسير الآيتين.

فى الآية الأولى- من الآى محل البحث- إشارة إلى وعد اللّه بالنصر فى معركة بدر إجمالا، إذ تقول الآية: وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ

لكنكم لخوفكم من الخسائر و اخطار و بلايا الحرب لم تكونوا راغبين فيها وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

و قد جاء فى بعض الرّوايات الإسلامية

أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لهم: «إحدى الطائفتين لكم، إمّا العير و إمّا النفير».

و كلمة العير تعنى القافلة، و النفير يعنى الجيش.

إلّا أنّه- كما يلاحظ فى الآية الكريمة، أنّ التعبير جاء بذات الشكوكة مكان الجيش و النفير، و بغير ذات الشوكة مكان القافلة أو العير.

و هذا التعبير يحمل فى نفسه معنى لطيفا، لأنّ الشوكة ترمز إلى القدرة و تعنى الشدّة، و أصلها مأخوذ من الشوك، ثمّ استعملت هذه الكلمة «الشوكة» فى نصول الرماح، ثمّ أطلق هذا الاستعمال توسعا على كل نوح من الأسلحة، و لما كان السلاح يمثل القوّة و القدرة، و الشدّة فقد عبر عنه بالشوكة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۳

فبناء على هذا فإنّ ذات الشوكة تعنى الجماعة المسلحة، و غير ذات الشوكة تعنى الجماعة غير المسلحة، و لو اتفق أن يوجد فيها رجال مسلحون فهم معدودون لا- يكترث بهم. أى أن فيكم من يرغب فى مواجهة العدو غير مسلحة، و ذلك بمصادرة أموال تجارته، و ذلك ابتغاء الراحة أو حبّا منه للمنافع المادية، فى حين أن الحرب أثبتت بعد تمامها أن الصلاح يكمن فى تحطيم قوى العدو العسكرية، لتكون الطريق لا حبة لانتصارات كبيرة فى المستقبل، و لهذا فإنّ الآية تعقب بالقول وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ ۱۹۰].

فعلى هذا، كانت واقعة بدر درسا كبير للمسلمين للإفادة منه فى الحوادث الآتية، و يؤكّد لهم أن يتدبروا عواقب الأمور، و لا يكونوا

سطحيين يأخذون بالمصالح الآنية، و بالرغم من أنّ بعد النظر يقترن بالمصاعب عادة، و قصر النظر على العكس من ذلك يقترن بالمنافع المادية و الراحة المؤقتة، إلّا أنّ النصر فى الحالة الأولى يكون شاملا و متجذّرا، أمّا فى الحالة الثّانية فهو انتصار سطحى موقت.

و لم يكن هذا درسا لمسلمى ذلك اليوم فحسب، بل ينبغى لمسلمى اليوم أن يستلهموا من ذلك التعليم السماوى، فعليهم ألّا يغضوا أبصارهم عن المناهج الأصولية بسبب المشاكل و الأتعاب و يستبدلوها بمناهج غير الأصولية قليلة الأتعاب.

و فى آخر آية يماط اللثام عن الأمر بصورة أجلى، إذ تقول الآية الكريمة لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

ترى هل الآية هذه تأكيد لما ورد فى الآية السابقة، كما يبدو لأوّل وهلة، أم هو موضوع جديد تتضمنه الآية؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۴

قال بعض المفسّرين، كالفخر الرّازى فى تفسيره الكبير، و صاحب المنار: إنّ الحقّ فى الآية المتقدمة إشارة لانتصار المسلمين فى معركة بدر، إن الحقّ فى الآية محل البحث، «الثّانية» إشارة لانتصار الإسلام و القرآن الذى كان نتيجة الإنتصار العسكرى فى معركة بدر، و هكذا فإنّ الإنتصار العسكرى- فى تلك الظروف الخاصّة- مقدمة لانتصار الإسلام و المسلمين.

كما يرد هذا الاحتمال، و هو أن الآية السابقة تشير إلى إرادة اللّه «الإرادة التشريعية» التى كانت جلية فى أوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الآية الثّانية تشير إلى نتيجة هذا الحكم و الأمر (فلاحظوا بدقة!) ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۵

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۹ الى ۱۴]

اشارة

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (۹) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۱۰) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (۱۱) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (۱۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۱۳)

ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ (۱۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۶

التّفسير

دروس مفيدة من ساحة المعركة:

إنّ هذه الآيات تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، و الألطاف الإلهية الكثيرة التى شملت المسلمين لتثير فى نفوسهم الإحساس بالطاعة و الشكر، و لتعبيد الدرب نحو انتصارات المستقبل.

و تشير ابتداء لإمداد الملائكة فتقول: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ

جاء فى بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يستغيث و يدعو ربّه مع بقية المسلمين، و قد رفع يديه نحو السماء قائلا:

«اللّهم أنجز لى ما وعدتنى، اللّهم إنّ تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض)[۱۹۱].

و عند ذلك فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ

و كلمة (مردفين) من (الإرداف) بمعنى اتّخاذ محل خلف الشىء فيكون مفهومها أنّ الملائكة كانت تتابع بعضها بعضا فى النّزول لنصرة المسلمين.

و احتمل معنى آخر فى الآية، و هو أنّ مجموعة الألف من الملائكة كانت تتبعها مجموعات أخرى، ليتطابق هذا المعنى و الآية (۱۲۴) من سورة آل عمران، و التى تقول عن لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ

إلّا أنّ الظاهر أنّ عدد الملائكة فى بدر هو الألف، و كلمة مردفين صفة هذا الألف. و آية سورة آل عمران كانت وعدا للمسلمين فى أنزال ملائكة أكثر لنصرة المسلمين إذا ما اقتضى الأمر.

و لئلا يعتقد بعض بأنّ النصر كان بيد الملائكة فحسب، فإنّ الآية تقول: وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى وَ لِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۷

. لأنّ اللّه عزيز و مقتدر لا يستطيع أحد الوقوف مقابل إرادته، و حكيم لا ينزل نصرته إلّا للأفراد الصالحين و المستحقين لذلك.

هل قاتلت الملائكة؟

لقد جرى البحث فى هذه المسألة كثيرا بين المفسّرين، فبعضهم يرى أنّ الملائكة دخلت ساحة القتال و هاجمت الأعداء بأسلحتها الخاصّة، و قتلت بعضهم. و نقلت بعض الرّوايات فى تأييد ذلك.

إلّا أنّ القرائن تؤيد الرأى الذى يقول: إنّ الملائكة نزلت لتطمئن قلوب المؤمنين، و يزداد عزمهم، و هذا الرأى أقرب إلى الواقع لعدّة أدلة:

أوّلا: لقد قرأنا فى الآية قوله تعالى: وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ فإذا ما علم المسلمون بهذا المدد فإنّهم يقاتلون بصورة أفضل، لا أن الملائكة شاركت فى الحرب.

ثانيا: إذا كانت الملائكة هى التى قتلت جنود الأعداء، فأيّة فضيلة للمجاهدين فى معركة بدر و ما ورد عن مقامهم و منزلتهم من روايات كثيرة؟

ثالثا: كان عدد المقتولين فى بدر هو (۷۰ نفرا) و قد كان الكثير منهم قد سقط بسيف على عليه السّلام، و القسم الآخر بيد المقاتلين الآخرين، و هؤلاء معروفون بأسمائهم فى التاريخ، فبناء على ذلك- من الذى- بقى لتقتله الملائكة؟! ثمّ تذكر الآية النعمة الثّانية التى اكتنفت المؤمنين فتقول: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ

و (يغشى) من مادة (الغشيان) بمعنى تغطية الشىء و إحاطته. فكأنّ النوم كالغطاء الذى وضع عليهم فغطّاهم.

و (النعاس) يطلق على بداية النوم، أو النوم القليل أو الخفيف الناعم و لعلها إشارة إلى أنّه بالرغم من هدوئكم النفس لم يأتكم نوم عميق يمكّن الأعداء من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۸

استغلاله و الهجوم عليكم. و هكذا استفاد المسلمون من هذه النعمة العظيمة من تلك الليلة.

و الرحمة الثّالثة التى وصلتكم هى: وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ

و هـذا الرّجز قـد يكون وسـاوس الشـيطان، أو رجزا بـدنيا كجنابـة بعضـهم، أو الأمرين معا. و على أيـة حال، فإنّ الماء ملأ الوديان من أطراف بـدر بعـد أن اسـتولى الأعـداء على آبار بدر و كان المسـلمون بحاجة ماسة للغسل و رفع العطش، فإذا هذا الماء قد ذهب بكل تلك الأرجاس.

ثمّ أنّ اللّه تعالى أراد بـذلك تقويـة معنويات المسـلمين و كـذلك تثبيت الرمال المتحركـة تحت أقدامهم بواسط المطر: وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ ... و يمكن أن يكون المراد من تثبيت الأقـدام هو رفع المعنويـات و زيـادة الثبـات و الاسـتقامة ببركـة تلك النعمة، أو إشارة إلى هذين الأمرين.

و النعمـة الأـخرى التى أنعمها اللّه على المجاهـدين فى بـدر، هى الرعب الـذى أصاب به اللّه قلوب أعـدائهم، فزلزل معنوياتهم بشـدة، فيقول تعالى إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

و إنّه لمن العجب و الغرابـة أن ينهـار جيش قريش القوى أمـام جيش المسـلمين القليـل، و أن تـذهب معنوياتهم- كما ينقل التاريـخ- بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، و حتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصا مألوفين، و كانوا يقولون بأنّ المسلمين قد جاؤوكم من قرب يثرب (المدينة) بهدايا يحملونها على إبلهم هى الموت.

و لا شك أنّ هذا الرعب الذى أصاب قلوب المشركين، و الذى كان من عوامل النصر، لم يكن جزافا، فلقد أثبت المسلمون شجاعتهم و أقاموا صلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۷۹

الجماعة، و كانت شعارتهم قوية. فإظهار المؤمنون الصادقين وفاءهم و خطبة بعضهم مثل

سعد بن معاذ نيابة عن الأنصار أمام النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلا: «بأبى أنت و أمّى، يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّنا قد آمنا بك و صدقناك و شـهدنا أنّ ما جئت به حق من عند اللّه فمرنا بما شئت و خذ من أموالنا ما شئت، و اترك منه ما شئت و الـذى أخـذت منه أحبّ إلىّ من الـذى تركت منه، و اللّه لو أمرتنـا أن نخوض هـذا البحر لخضـنا معك ... إنّنا لنرجوا أن يقرّ اللّه عزّ و جلّ عينيك بنا ....».

مثل هـذا الحـديث سـرعان ما انتشـر بين الأعـداء و الأصدقاء، أضف إلى ذلك ما رآه المشـركون من ثبات راسخ عند المسـلمين يوم كانوا فى مكّة رجالا و نساء.

اجتمعت كل هذه الأمور لترسم صورة الخوف عند المشركين.

ثمّ الريـح العاتيـة الـتى كـانت تهب على المشـركين و المطر الشديـد عليهم و الخواطر المخفيـة لرؤيـا (عاتكـة) فى مكّـة، و غيرهـا من العوامل التى كانت تبعث فيهم الخوف و الهلع الشديد.

ثمّ آن القرآن يذكّر المسـلمين بالأمر الذى أصدره النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم للمسـلمين بأنّ عليهم اجتناب الضرب غير المؤثر فى المشركين، حال القتال لئلا تضيع قوتهم فيه، بل عليهم توجيه ضربات مؤثرة و قاطعة فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ و (البنان) جمع (البنانة) بمعنى رؤوس أصابع الأيدى أو الأرجل، أو الأصابع نفسـها، و فى هذه الآية يمكن أن تكون كناية عن الأيدى و الأرجل أو بالمعنى الأصـلى نفسه، فإنّ قطع الأصابع من الأيدى يمنع من حمل السـلاح، و قطعها من الأرجل يمنع الحركة، و يحتمل أن يكون المعنى هو إذا كان العدو مترجلا، فيجب أن تكون الأهداف رؤوسهم، و إذ كان راكبا فالأهداف أيديهم و أرجلهم.

كما أنّ بعضا يرى أنّ هذه الجملة هى خطاب للملائكة، إلّا أنّ القرائن تدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۰

على أنّ المخاطبين هم المسلمون، و إذا كان الملائكة هم المخاطبين فيها فيمكن أن يكون الهدف من الضرب على الرؤوس و الأيدى

و الأرجل، هو إيجاد الرعب فيهم لترتبك أيديهم و أرجلهم فتسقط و تنحنى رؤوسهم. (و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يخالف الظاهر من العبارة، و يجب إثباته بالقرائن تحدثنا عنها سابقا من مسألة عدم قتال الملائكة).

و بعد كل تلك الأحاديث، و لكيلا يقول شخص بأنّ هذه الأوامر الصادقة تخالف الرحمة و الشفقة و أخلاق الرجولة، فإنّ الآية تقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

و (شاقوا) من مادة (الشقاق) و هى فى الأصل بمعنى الإنفطار و الانفصال، و بما أنّ المخالف أو العدوّ و يبتعد عن الآخرين فقد سمى عمله شقاقا: وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

ثمّ يؤكّد هذا الموضوع: و يقول: ذوقوا العذاب الدنيوى من القتل فى ميدان الحرب و الأسر و الهزيمة السافرة، و مع ذلك انتظروا عذاب الآخرة أيضا: ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النَّارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۱

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ (۱۵) وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۶) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۷) ذلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ (۱۸)

التّفسير

الفرار من الجهاد ممنوع!

كما ذكرنا فى تفسير الآيات السابقة، فإنّ الحديث عن قصّة معركة بدر و ألطاف اللّه الكثيرة على المسلمين الأوائل من أجل أن يتّخذ منه المسلمين العبرة و الدرس فى المستقبل، لذلك فإنّ هذه الآيات توجه خطابها للمؤمنين و تأمرهم أمرا عاما بالقتال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبارَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۲

و (لقيتم) من مادة (اللقاء) بمعنى الاجتماع و المواجهة، و تأتى فى أكثر أحيان بمعنى المواجهة فى ميدان الحرب.

و (الزّحف) فى الأصل بمعنى الحركة إلى أمر ما بحيث تسحب الأقدام على الأرض كحركة الطفل قبل قدرته على المشى، أو الإبل المرهقة التى تخط أقدامها على الأرض أثناء سيرها، و يطلق على الجيش الجرار الذى يشاهد من بعيد و كأنّه يحفر الأرض أثناء مسيره.

و استخدام كلمة (زحف)- فى الآية آنفا- تشير إلى أنّه بالرغم من أنّ عدوكم قوى و كثير، و أنتم قليلون، فلا ينبغى لكم الفرار من ساحة الحرب، و كما كان عدوكم كثيرا فى ميدان بدر فثبّتم و انتصرتم.

فالفرار من الحرب يعدّ فى الإسلام من كبائر الذنوب، إلّا أنّ ذلك مرتبط- كما نبيّن بعض الآيات- بكون الأعداء ضعفى عدد المسلمين، و سنبحث هذا الأمر بعون اللّه فى الآيتين (۶۵) و (۶۶) من هذه السورة. و لذلك تذكر الآية بعدها جزاء من يفر من ميدان الحرب مع الإشارة لمن يستثنون منهم فتقول: وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

و كما نرى فقد استثنت الآية صورتين من مسألة الفرار، ظاهرهما أنّهما من صورة الفرار، غير أنّهما فى الحقيقة و الواقع صورتان للقتال و الجهاد.

الصورة الأولى: عبّر عنها ب «مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ» و «متحرف» من مادة (التحرّف) أى الابتعاد جانبا من الوسط نحو الأطراف و الجوانب، و المقصود بهذه الجملة هو أنّ المقاتلين يقومون بتكتيك قتالى إزاء الأعداء، فيفرون من أمامهم نحو الأطراف ليلحقهم الأعداء: ثمّ يغافلوهم فى توجيه ضربة قوية إليهم و استخدام فن الهجوم و الانسحاب المتتابع و كما يقول العرب: (الحرب كرّ و فرّ).

الصورة الثّانية: أن يرى المقاتل نفسه وحيدا فى ساحة القتال، فينسحب للالتحاق بإخوانه المقاتلين و ليهجم معهم من جديد على الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۳

و على كل حال، فلا ينبغى تفسير هذا التحريم بشكل جاف يتنافى و أساليب الحروب و خدعها، و التى هى أساس كثير من الانتصارات.

و تختتم الآية محل البحث بالقول: إنّ جزاء من يفرّ مضافا إلى استحقاقه لغضب اللّه فانّ مصيره إلى النّار: وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

و الفعل «باء» مشتق من «البواء» و معناه الرجوع و اتّخاذ المنزل، جذره فى الأصل يعنى تصفية محل ما و تسطيحه، و حيث إنّ الإنسان إذا نزل فى محل عدله و سطحه، فقد جاءت هذه الكلمة هنا بهذا المعنى. و فى الآية إشارة إلى أنّ غضب اللّه مستمر و دائم عليهم، فكأنّهم قد اتّخذوا منزلا عند غضب اللّه.

و كلمة «المأوى» فى الأصل معناها «الملجأ» و ما نقرؤه فى الآية، محل البحث وَ مَأْواهُ جَهَنَّمُ فهو إشارة إلى أنّ الفارين يطلبون ملجأ و مأوى من فرارهم لينقذوا أنفسهم من الهلكة، إلّا أنّ ما يحصل هو خلاف ما يطلبون، إذ ستكون جهنم مأواهم، و ليس ذلك فى العالم الآخر فحسب، بل هو فى هذا العالم إذ سيحترقون فى جهنم الذلة و الانكسار و الضياع.

و لذا

فقد جاء فى «عيون الأخبار» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى جواب أحد أصحابه حين سأله عن فلسفة تحريم الفرار من الجهاد فقال: «و حرم اللّه الفرار من الزحف لما فيه من الوهن فى الدين، و الاستخفاف بالرسل و الأئمّة العادلة عليهم السّلام، و ترك نصرتهم على الأعداء، و العقوبة على إنكار ما دعوا إليه من الإقرار بالرّبوبية و إظهار العدل و ترك الجور و إماتة الفساد، لما فى ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين، و ما يكون من السبى و القتل و إبطال دين اللّه عزّ و جلّ و غيره من الفساد»[۱۹۲]

و من ضمن الامتيازات الكثيرة التى كانت عند الإمام على عليه السّلام، و ربّما يشير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۴

إلى نفسه أحيانا ليكون نبراسا للآخرين

قوله «إنّى لم أفر من الزحف قطّ، و لم يبارزنى أحد إلّا سقيت الأرض من دمه»[۱۹۳]

و العجيب أنّ بعض المفسّرين من أهل السنة يصرّ على أنّ حكم الآية السابقة يختص بمعركة بدر، و أنّ التهديد و الوعيد من الفرار من الجهاد يتعلق بالمقاتلين فى بدر فحسب، مع أنّه لا يوجد دليل فى الآية على هذا التخصيص، بل لها مفهوم عام يشمل كل المقاتلين و المجاهدين.

و فى الرّوايات و الآيات كثير من القرائن الذى يؤيد هذا المعنى «و لهذا الحكم شروط طبعا سنتناولها نعالجها فى الآيات المقبلة من هذه السورة إن شاء اللّه».

و لئلا يصاب المسلمون بالغرور فى انتصارهم، و لئلا يعتمدوا على قواهم الجسمية فحسب، و ليذكروا اللّه فى قلوبهم دائما، و ليتعلقوا به طلبا لألطافه، فإنّ الآية التّالية تقول: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى

لقد ورد فى الرّوايات و التفاسير أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى يوم بدر: أعطنى حفنة من تراب الأرض و حصاها، فناوله على ذلك، فرمى النّبى جهة المشركين بذلك التراب و قال: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ ما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى [۱۹۴]

قالوا: كان لهذا الفعل أثر معجز إذ وقع ذلك التراب على وجوه المشركين و عيونهم فملأهم رعبا.

لا شك أنّ الظاهر يشير إلى أنّ النّبى و أصحابه هم الذين أدّوا هذا الدور فى معركة بدر، لكن القرآن يقول: إنكم لم تفعلوا ذلك أوّلا، لأنّ القدرات الروحية و الجسمية و الإيمانية التى هى أصل تلك النتائج كلها من عطاء اللّه و قد تحركتم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۵

بقوة اللّه و فى سبيل اللّه. و ثانيا قد حصلت فى ساحة بدر معاجز كثيرة أشرنا إليها سابقا، و قد بعثت فى نفوس المجاهدين القوّة، و انهارت بها قوى المشركين و معنوياتهم، و كان كل ذلك بألطاف اللّه سبحانه.

و فى الحقيقة فإنّ الآية محل البحث تشير إلى لطيفة فى مذهب

«لا جبر و لا تفويض بل أمر بين أمرين»

لأنّها فى الوقت الذى تخبر عن قتل المسلمين للكافرين، و تقول إنّ النّبى رمى التراب بوجوه المشركين تسلب منهم كل هذه الأمور (فتأمل بدقّة).

و لا شك فى عدم وجود تناقض فى مثل هذه العبارة، بل الهدف هو القول بأنّ هذا الفعل كان منكم و من اللّه أيضا، لأنّه كان بإرادتكم و اللّه منحكم القوة و المدد.

و بناء على ذلك فإنّ الذين اعتقدوا بمذهب الجبر مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود فى الآية ذاتها.

و الذين قالوا بوحدة الوجود مستدلين بهذه الآية فإنّ الردّ عليهم موجود فى الآية بأسلوب لطيف، لأنّه إذا كان المراد بأنّ الخالق و المخلوق واحد، فلا ينبغى أن ينسب الفعل إليهم تارة و ينفى عنهم تارة أخرى، لأنّ النسبة و نفيها دليل على التعدد، و إذا تجردت الأفكار عن الحكم المسبق و التعصب المقيت لرأينا أن الآية لا ترتبط بأىّ من المذاهب الضّالة، بل هى تشير إلى المذهب الوسط «أمر بين أمرين» فحسب.

و هذه الإشارة لأجل هدف تربوى، و هو إزالة الغرور و آثاره، إذ يقع ذلك عادة فى الأفراد بعد الانتصارات.

و تشير الآية فى ختامها إلى لطيفة مهمّة أخرى، و هى أنّ ساحة بدر كانت ساحة امتحان و اختبار، إذ تقول: وَ لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً.

و البلاء معناه الاختبار فى الأصل، غاية ما فى الأمر تارة يكون بالنعم فيسمى بلاء حسنا، و تارة بالمصائب و العقاب فيسمّى بلاء سيئا، كما تشير إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۶

ذلك الآية (۱۶۸) من سورة الأعراف فى شأن بنى إسرائيل وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ

لقد شاء اللّه أن يذيق المؤمنين فى أوّل مواجهة مسلحة بينهم و بين أعدائهم طعم النصر، و أن يجعلهم متفائلين للمستقبل، و هذه الموهبة الإلهية كانت اختبارا لهم جميعا، و إلّا أنّه لا ينبغى لهم أن يغتروا بهذا الإنتصار أبدا، فتكون النتيجة سلبية، و ذلك بأن يروا عدوهم حقيرا و ينسوا بناء ذواتهم و يغفلوا عن الاعتماد على اللّه.

لهذا فإنّ الآية تختتم بهذه الجملة إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أى أنّ اللّه سمع صوت استغاثة النّبى و المؤمنين، و اطلع على صدق نياتهم، فأنزل ألطافه عليهم جميعا و نصرهم على عدوّهم، و أنّ اللّه يعامل عباده بهذه المعاملة حتى فى المستقبل، فيطلع على ميزان صدق نياتهم و إخلاصهم و استقامتهم، فالمؤمنون المخلصون

ينتصرون أخيرا، و المراؤن المدعون ينهزمون و يفشلون.

و فى الآية التالية يقول سبحانه تعميما لهذا الموضوع و أنّ مصير المؤمنين و الكفار هو ما سمعتم، فيقول: ذلِكُمْ ۱۹۵] ثمّ يعقب القرآن مبينا العلّة وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۷

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۱۹]

اشارة

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۹)

التّفسير

لقد جرى بحث كثير بين المفسّرين حول الذين توجهت إليهم الآية بالحديث، فبعضهم يعتقد بأنّهم المشركين، لأنّهم قبل خروجهم من مكّة إلى بدر اجتمعوا حول الكعبة و ضربوا على ستائرها (لغرورهم و اعتقادهم بأنّهم على الحق). و قالوا: «اللّهم أنصر أعلى الجندين و أهدى الفئتين و أكرم الحزبين»[۱۹۶].

و روى أنّ أبا جهل دعا فقال: (اللهم ربّنا ديننا القديم و دين محمّد الحديث، فأى الدينين كان أحب إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم)[۱۹۷] ... و لذلك فقد نزلت هذه الآية لتقول لهم: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۸

و الذى يبعد هذا التّفسير أن الحديث فى الآيات السابقة و اللاحقة لهذه الآية موجه للمؤمنين، فيستبعد أن تكون بينها آية واحدة تتحدث مع المشركين، و يضاف لذلك الارتباط المعنوى الموجود بين مضامين كل هذه الآيات- و لذلك اعتبر بعض المفسّرين أنّ المخاطبين فى الآية هم المؤمنون، و أحسن صورة لتفسير الآية على هذا الوجه هى:

لقد حصل بين بعض المؤمنين جدال حول تقسيم الغنائم بعد واقعة بدر- كما رأينا- و نزلت آيات توبخهم و تضع الغنائم تحت تصرف شخص الرّسول كاملا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقام بتقسيمها بينهم بالتساوى، بغية تربيتهم و تعليمهم، ثمّ ذكّرهم بحوادث بدر و كيف نصرهم اللّه على عدوّهم القوى.

و هذه الآية تتابع الحديث عن الموضوع نفسه فتخاطب المسلمين و تقول لهم: إنّكم إذا سألتم اللّه الفتح و النصر فسوف يستجيب لكم و ينصركم، و إذ تركتم الاعتراض و الجدال عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبذلك مصلحتكم، و إذا عدتم لنفس الأسلوب من الاعتراض فسنعود نحن أيضا، و نترككم وحيدين فى قبضة الأعداء و حتى إذا كان عددكم كثيرا فبدون نصرة اللّه لن تقدروا أن تعملوا أى شىء، و إنّ اللّه مع المؤمنين المخلصين و الطائعين لأوامره و أوامر نبيّه.

و هكذا يستفاد من الآيات و خاصّة من إلقاء اللوم على المسلمين لبعض مخالفتهم، و كذلك سياق الآيات السابقة و ما فيها من أواصر و روابط معنوية واضحة، فإن التّفسير الثّانى يكون أقرب إلى النظر ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۸۹

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۰ الى ۲۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (۲۰) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ (۲۱) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (۲۲) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۲۳)

التّفسير

الذين قالوا سمعنا و هم لا يسمعون!

تتابع هـذه الآيات البحوث السابقة، فتدعو المسـلمين إلى الطاعة التامة لأوامر الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى السـلم أو الحرب أو فى أى أمر آخر، و أسـلوب الآيـات فيه دلالـة على تقصـير بعض المؤمنين فى التنفيـذ و الطاعـة، فتبـدأ بالقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

و تضيف لتؤكّد الأمر من جديد: وَ لا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ

لا شك فى أنّ إطاعـة أوامر اللّه تعالى واجبة على الجميع، المؤمنين و غير المؤمنين، و لكن بما أنّ المخاطبين و المعنيين بهذا الحديث التربوى هم المؤمنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۰

فلهذا كان الكلام فى هذه الآية الشريفة موجها إليهم.

الآية الثّانية: تؤكّد هذا المعنى أيضا فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ

إنّ هذا التعبير الطريف يشير للذين يعلمون و لا يعملون، و يسمعون و لا يتأثرون، و فى ظاهرهم أنّهم من المؤمنين، و لكنّهم لا يطيعون أوامر الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فهؤلاء لهم آذان سامعـة لكـل الأحـاديث و يعون مفاهيمهـا، و بما أنّهم لا يعملون بها و لا يطبقونها فكأنّهم صمّ لا يسمعون، لأنّ الكلام مقدمة للعمل فلو عدم العمل فلا فائدة من أية مقدمة.

و أمّا المراد مـن هؤلاء الأشـخاص الـذين يحـذّر القرآن المسـلمين لكيلا يصـيروا مثلهم، فيرى بعض أنّهم المنـافقون الـذين اتخـذوا لأنفسـهم مواقع فى صـفوف المسـلمين، و قال آخرون: إنّما تشير إلى طائفة من اليهود، و ذهب بعض بأنّهم المشركون من العرب. و لا مانع من انطباق الآية على هذه الطوائف الثلاث، و كل ذى قول بلا عمل.

و لما كان القول بلا عمل، و الاسـتماع بلا تأثر، أحـد الأمراض التى تصّاب بها المجتمعات، و أساس الكثير من التخلفات، فقـد جاءت الآية الأخرى لتؤكّد على هذه المسألة بأسلوب آخر، فقالت: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ۱۹۸].

و لمّا كان القرآن كتاب عمل فإنّه ينظر إلى النتائج دائما، فيعتبر كل موجود لا فائـده فيه كالمعدوم، و كل حى عديم الحركة و التأثير كالميت، و كل حاسّة من حواس الإنسان مفقود إذا لم تؤثر فيه تأثيرا ايجابيا فى مسيرة الهدايـة و السـعادة، و هذه الآية اعتبرت الذين لهم آذن سالمة لكنّهم لا يستمعون لآيات اللّه و دعوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۱

الحق و نـداء السـعادة، كمن لا أذن له و لا سـمع لديه، و الذين لهم ألسـنة سالمة لكنّها ساكتة عن الدعوة إلى الحق و مكافحة الظلم و الفساد، فلا يأمرون بمعروف و لا ينهون عن منكر، بل يضيعون هذه النعمة فى التملق و التذلل أمام الطواغيت أو تحريف الحق و تقوية

الباطل، فهؤلاء كمن هو أبكم لا يقدر على الكلام، و كذلك الذين يتمتعون بنعمة الفكر و العقل و لكنّهم لا يصححون تفكيرهم، فهؤلاء فى عداد المجانين.

و تقول الآية بعدها إن اللّه لا يمتنع من دعوة هؤلاء إن كانوا صادقين فى طلبهم و على استعداد لتقبل الحق: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ

و قد ورد فى الرّوايات أنّ بعض عبدة الأصنام جاءوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: إذا أخرجت لنا جدنا الأكبر (قصى بن كلاب) حيّا من قبره، و شهد لك بالنبوة، فسوف نسلّم جميعا! فنزلت الآية لتقول: إنّه لو كان حديثهم صادقا لفعل اللّه ذلك لهم بواسطة المعجزة، لكنّهم يكذبون و يأتون بأعذار واهية، بهدف التخلص من الإذعان لدعوة الحق ...

و يقول تعالى: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ

فالذين سمعوا دعوة الحق كثيرا، و بلغت آذانهم آيات القرآن، و فهموا مضامينها العالية، لكنّهم أنكروها بسبب عتوهم و عصبيّتهم، فهم غير مؤهلين للهداية لما اقترفت أيديهم، و لا شأن بعدئذ للّه و رسوله بهم، فهم فى ظلام دامس و ضلال بهيم.

كما أنّ هذه الآية تعد جوابا قاطعا للقائلين بمدرسة الجبر، لأنّها تقرر بأن يكمن فى الإنسان نفسه و أنّ اللّه يعامل الناس بما يبدونه من أنفسهم من استعداد و قابلية فى طريق الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۲

ملاحظتان

۱- «و لو علم اللّه فيهم خيرا لأسمعهم»

لقد حاول بعض الناشئة عمل قياس منطقى من هذه الآية و الخروج منه بنتيجة لصالحهم، فقالوا، إنّ القرآن يقول فى الآية: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ و قال أيضا: وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ فيمكن الاستنتاج من هاتين الجملتين الجملة التّالية و هى: لو علم اللّه فيهم خيرا فهم سيعرضون.

و هذا الاستنتاج خطأ محض.

و قد أخطأ هؤلاء لأنّ معنى جملة: وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ فى قسمها الأوّل هو: لو كان لهؤلاء قابلية فسيوصل الحق لأسماعهم، و لكن القسم الثّانى معناه أن هؤلاء إذا لم تتهيأ لهم القابلية للهداية فسوف لن يستجيبوا و سوف يعرضون ...

و النتيجة أن الجملة المذكورة آنفا وردت فى الآية بمعنيين مختلفين، و على هذا لا يمكن تأليف قياس منطقى منهما ...[۱۹۹] (فتأمل).

و هذه المسألة تشبه من يقول: إنّنى لو كنت أعتقد بأنّ فلانا يستجيب لدعوتى لدعوته، لكنّه فى الحال الحاضر إذا دعوته فسوف لن يستجيب، و لذلك فسوف لن أدعوه ...

۲- لاستماع الحق مراحل

إنّ الإنسان قد يسمع أحيانا ألفاظا و عبارات دون التفكير فى مضامينها، إلّا أنّ بعضا لفرط لجاجتهم، كانوا يرفضون حتى هذا القدر من السمع، كما يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۳

عنهم القرآن وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۲۰۰].

و تارة يقبل الإنسان باستماع الأحاديث، لكنّه لا يقرر أبدا العمل بها، كالمنافقين الذين ورد ذكرهم فى الآية (۱۶) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً.

و قد يصل وضع هؤلاء أعلى مراحل الخطر، إذ يسلبون القدرة على معرفة الخبيث و الطيب، و حتى إذا استمعوا الحديث الحق لا يكون بإمكانهم استيعابه و هضمه.

و القرآن يقول عن هذه الطوائف الثلاث، إنّ هؤلاء فى واقعهم صم بكم، لإنّ الذى يسمع فى الحقيقة يجب عليه الإدراك و التفكير و العزم على العمل بإخلاص.

و كم من أناس فى عصرنا و زمننا الحاضر عند ما يسمعون آيات القرآن يتفاعلون معها بشكل ملفت للنظر، لكنّهم فى العمل لا يتطابقون بأى شكل مع مضمون القرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۴

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۴ الى ۲۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۵) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۲۶)

التّفسير

دعوة للحياة:

تتابع هذه الآيات دعوة المسلمين المتقدمة للعلم و العمل و الطاعة و التسليم لكنّها تتابع الهدف ذاته عن طريق آخر، فتقول ابتداء: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ

فهذه الآية تقول بصراحة: إنّ دعوة الإسلام هى دعوة للعيش و الحياة، الحياة المعنوية، الحياة المادية، الحياة الثقافية، الحياة الاقتصادية، الحياة السياسية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۵

الحياة الأخلاقية و الاجتماعية، و أخيرا الحياة و العيش بالمعنى الصحيح على جميع الأصعدة، و هذه أقصر و أجمع عبارة عن الإسلام و رسالته الخالدة، إذا سأل أحد عن أهداف الإسلام، و ما يمكن أن يقدمه، فنقول جملة قصيرة: إنّ هدفه هو الحياة على جميع الأصعدة، هذا ما يقدمه لنا الإسلام.

ترى هل كان الناس موتى قبل بزوغ الإسلام و نزول القرآن ليدعوهم القرآن إلى الحياة ...؟

و جواب هذا التساؤل: نعم، فقد كانوا موتى و فاقدى الحياة بمعناها القرآنى، لأنّ الحياة ذات مراحل مختلفة أشار إلى جميعها القرآن الكريم.

فتارة تأتى بمعنى (الحياة النباتية) كما يقول القرآن: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها[۲۰۱].

و تارة تأتى بمعنى (الحياة الحيوانية) مثل: إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى ۲۰۲].

و تارة بمعنى (الحياة الفكرية و العقلية) مثل: أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ ۲۰۳] و تارة بمعنى «الحياة الخالدة فى العالم الآخر) مثل: يا لَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَياتِى ۲۰۴].

و تارة بمعنى (العالم و القادر بلا حد و لا نهاية) كما نقول عن اللّه: الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ

و بالنظر إلى هذه الأقسام التى ذكرناها نعرف أنّ الناس فى الجاهلية كانوا يعيشون الحياة الحيوانية و المادية، و كانوا بعيدين عن الحياة الإنسانية و المعنوية و العقلية، فجاء القرآن ليدعوهم إلى الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۶

و من هنا نعلم أنّ من يضع الدين فى قوالب جامدة لا روح فيها بعيدا عن مجالات الحياة، و يختزله فى مسائل فكرية و اجتماعية صرفة فقد جانب الصواب كثيرا، لأنّ الدين الصحيح هو الذى يبعث الحركة فى كل جوانب الحياة، و يحيى الفكر و الثقافة و الإحساس بالمسؤولية، و يوجد التكامل و الرّقى و الوحدة و التألف، فهو إذا يبعث الحياة فى البشرية بكل معنى الكلمة.

و بذلك تتّضح هذه الحقيقة أيضا و هى أن الذين فسّروا الآية بمعنى واحد هو الجهاد أو الإيمان أو القرآن أو الجنّة، و اعتبروا كل واحد من هذه الأمور هو العامل الوحيد للحياة فى الآية المباركة، هؤلاء فى الحقيقة حددوا مفهوم الآية، لأنّه يشتمل على كل ذلك و أكثر حيث يندرج،- ضمن مفهوم الآية- كل شىء، و كل فكر، و كل قانون يبعث الروح فى جانب من جوانب الحياة.

ثمّ يقول تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

إنّ المقصود بالقلب هنا- كما ذكرنا سابقا- الروح و العقل، أمّا كيف يحول اللّه بين المرء و قلبه؟ فقد ذكروا لذلك احتمالات مختلفة ...

فتارة قيل: إنّه إشارة لشدّة قرب اللّه من عباده، فكأنّ اللّه فى داخل روح العبد و جسمه، و كما يقول القرآن الكريم: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

و قيل: إشارة إلى أنّ تقلب القلوب و الأفكار هو بيد اللّه، كما نقرأ فى الدعاء:

(يا مقلب القلوب و الأبصار).

و قيل: إنّ المقصود هو أنّ الإنسان لولا اللطف الإلهى غير قادر على معرفة الحق من الباطل.

و قيل أيضا: إنّ المقصود هو أنّه ما دام للناس فرصة فينبغى عليهم أداء الطاعات و أعمال الخير، لأنّ اللّه قد يحول بواسطة الموت بين المرء و قلبه.

و يمكن بنظرة شاملة جمع كل التفاسير فى تفسير واحد، هو أنّ اللّه عزّ و جلّ حاضر و ناظر و مهيمن على كل المخلوقات. فإنّ الموت و الحياة و العلم و القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۷

و الأمن و السكينة و التوفيق و السعادة، كلّها بيديه و تحت قدرته، فلا يمكن للإنسان كتمان أمر ما عنه، أو أن يعمل أمرا بدون توفيقه، و ليس من اللائق التوجه لغيره و سؤال من سواه. لأنّه مالك كل شىء و المحيط بجميع وجود الإنسان. و ارتباط هذه الجمل مع سابقتها من جهة أنّه لو دعا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الناس إلى الحياة، فذلك لأنّ الذى أرسله هو مالك الحياة و الموت و العقل و الهداية و مالك كل شى.

و للتأكيد على هذا الموضوع فإنّ الآية تريد أن تقول: إنّكم لستم اليوم فى دائرة قدرته فحسب، بل ستذهبون إليه فى العالم الآخر، فأنتم فى محضره و تحت قدرته هنا و هناك.

ثمّ تشير إلى عاقبة السوء لمن يرفض دعوة اللّه و رسوله إلى الحياة فتقول:

وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكَمْ خَاصَّةً.

و كلمـة (فتنة) استعملت فى القرآن المجيد بمعان مختلفة، فقد جاءت تارة بمعنى الإختيار و الامتحان، و تارة بمعنى البلاء و العذاب و المصيبة، و هى فى الأصل بمعنى إدخال الـذهب فى بوتقـة النّار ليتميز جيده من رديئه، ثمّ استعملت بمعنى الإختيارات التى تكشـف الصفات الباطنية للإنسان، و استحدثت فى الابتلاء و الجزاء الذى يبعث الصفاء فى روح الإنسان و يطهّره من شوائب الذنوب، و أمّا فى هذه الآية فإنّ كلمة (فتنة) بمعنى البلاء و المصائب الاجتماعية التى يصاب بها الجميع فيحترق فيها الأخضر مع اليابس.

و فى الحقيقـة فشأن الحوادث الاجتماعية هو هكذا، فإذا ما توانى مجتمع ما عن أداء رسالته، و انهارت القوانين على أثر ذلك، و انعدم الأمن، فإنّ نار الفتنة ستحرق الأبرار مع الأشرار، و هذا هو الخطر الذى يحذر اللّه تبارك و تعالى منه و يحذر فى هذه الآية المجتمعات البشرية كلّها.

و مفهوم الآية هنا هو أنّ أفراد المجتمع مسئولين عن أداء وظائفهم، و كذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۸

فهم مسئولون عن حثّ الآخرين لأداء وظائفهم أيضا، لأنّ الاختلاف و التشتت فى قضايا المجتمع يؤدى إلى انهياره، و يتضـرر بذلك الجميع، فلا يصحّ أن يقول أحد بأنّنى أؤدى رسالتى الاجتماعية و لا علاقة لى بالآثار السلبية الناجمة عن عدم أداء الآخرين لواجباتهم، لأنّ آثار القضايا الاجتماعية ليست فردية و لا شخصية.

و هـذا الموضوع يشـبه تمامـا ما لو احتجنا لصـد هجوم الأعـداء إلى مائـة ألف مقاتل، فإذا قام خمسون ألف مقاتل بأداء وظائفهم فمن اليقين أنّهم سيخسـرون عنـد منـازلتهم العـدو، و هـذا الانكسـار سيشـمل الـذين أدوا وظـائفهم و الـذين تقاعسوا عن أدائها و هـذه هى خصوصية المسائل الاجتماعية.

و يمكن إيضـاح هـذه الحقيقـة بصـورة أجلى و هى: أنّ الأخيـار من أبنـاء المجتمع مسـئولون فى التصـدّى للأشـرار لأنّهم لو اختـاروا السكوت فسيشاركون أولئك مصيرهم عند اللّه كما

ورد ذلك فى حـديث مشـهور عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث قال: (إنّ اللّه عزّ و جلّ لا يعذب العامّة بعمل الخاصّة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم و هم قادرون على أن ينكرون، فإذا فعلوا ذلك عذب اللّه الخاصّة و العامّة)[۲۰۵].

و يتّضـح ممّـا قلنـاه أنّ هـذا الحكم يصـدق فى مجـال الجزاء الإلـهى فى الـدنيا و الآـخرة، و كـذلك فى مجال النتائـج و آثار الأعمال الجماعية[۲۰۶].

و تختتم الآيـة بلغـة التهديـد فتقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيـدُ الْعِقابِ لئلا يصاب هؤلاء بالغفلـة بسـبب الألطاف و الرحمة الإلهية و ينسوا شدّة الجزاء الإلهى، فتأكلهم الفتن و تحيط بهم من كل جانب، كما أحاطت المجتمع الإسلامى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۳۹۹

و أرجعته القهقرى بسبب نسيانه السنن و القوانين الإلهية.

فنظرة قصـيرة إلى مجتمعنـا الإسـلامى فى زماننـا الحاضـر و الانكسـارات الـتى أصـابته أمـام أعـدائه، و الفتـن الكـثيرة، كالاسـتعمار و الصهيونية، و الإلحاد و المادية، و الفساد الخلقى و تشتت العوائل و سقوط شبابه فى وديان الفساد، و التخلف العلمى، كل ذلك يجسد مضـمون الآية، و كيف أنّ تلك الفتن أصابت كل صـغير و كبير، و كل عالم و جاهل، و سيسـتمر كل ذلك حتى اليوم الذى تتحرك فيه الروح الاجتماعية للمسلمين، و يهتم الجميع بصلاح المجتمع و لا يتخلفوا عن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و يأخـذ القرآن الكريم مرّة أخرى بأيـدى المسـلمين ليعيـدهم نحو تـاريخهم، فكم كانوا فى بدايـة الأمر ضـعفاء و كيف صاروا لعلهم يدركون الدرس البليغ الذى علّمهم إيّاه فى الآيات السابقة فيقول: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ

و هذه عبارة لطيفة تشير إلى الضعف و قلّة العدد التى كان عليها المسلمون فى ذلك الزمن، و كأنّهم كانوا شيئا صغيرا معلقا فى الهواء بحيث يمكن للأعداء أخذه متى أردوا، و هى إشارة لحال المسلمين فى مكّة قبل الهجرة قبال المشركين الأقوياء. أو إشارة لحال المسلمين فى المدينة بعد الهجرة فى مقابل القوى الكبرى كالفرس و الروم: فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۰

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۲۷ الى ۲۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۷) وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۸)

سبب النّزول

لقد وردت عدّة روايات فى سبب نزول هاتين الآيتين، منها ما ورد عن الإمامين الباقر و الصّادق عليهما السلام من أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بمحاصرة يهود (بنى قريضة) و استمرت هذه المحاصرة واحدا و عشرين يوما، حتى أجبروا على المطالبة بالصلح، كما جرى ذلك مع اليهود من (بنى النضير) و ذلك بأن يرحلوا عن أرض المدينة إلى أرض الشام، لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رفض ذلك العرض (لعلّه كان يشك فى صدق نيّاتهم) و قال: يجب القبول بحكم (سعد بن معاذ) لكنّهم طلبوا من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يرسل إليهم (أبا لبابة) و هو من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة، و كانت له معهم صداقة قديمة، و كانت عائلته و أبناؤه و أمواله عندهم.

فقبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك الطلب و أرسل (أبا لبابة) إليهم فاستشاروه: هل من مصلحتهم القبول بتحكيم (سعد بن معاذ)؟ فأشار أبو لبابة إلى حلقه، بمعنى أنّكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۱

لو قبلتم فسوف تقتلون فلا ترضوا بهذا العرض، فهبط أمين الوحى جبرائيل عليه السلام إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأخبره بذلك.

يقول أبو لبابة: فو اللّه ما زالت قدماى حتى عرفت إنّى خنت اللّه و رسوله، و عند ذاك نزلت هذه الآيات فى أبى لبابة. و قد عاد أبو لبابة معلنا ندمه الشديد و أتى بحبل و ربط نفسه به إلى أحد أعمدة مسجد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و قال: و اللّه لا أذوق طعاما و لا شرابا حتى يموت أو يقبل اللّه توبته. و استمر على هذه الحال دون أكل و شرب إلى سبعة أيّام، حتى فقد وعيه و سقط على الأرض مغشيا عليه، فقبل اللّه توبته، و قام المؤمنون بإبلاغة الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يفك عنه الحبل، فجاءه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فكّ حبله، و قال (أبو لبابة):

إنّ من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها بالذنب و أن انخلع من مالى،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له: «يجزيك الثلث أن تصدّق به»[۲۰۷].

و قد جاء هذا المضمون نفسه فى كتب أهل السنة حول سبب النّزول، إلّا أنّ بعضهم استبعد النّزول فى شأن (بنى قريضة)، لأنّ سابقاتها من الآيات تتعلق بحادثة بدر، و لأنّ هذه القضية لم تقع إلّا بعد مدّة طويلة من واقعة بدر، لهذا قالوا:

إنّ المقصود فى الرّوايات هو أنّ حادثة بنى قريضة من مصاديق الآية، لا أنّها نزلت فيها، و إنّ هذه العبارة يوردها الكثيرون فى أسباب النّزول. فعلى سبيل المثال فقد جاء فى بعض الكتب نقلا- عن بعض الصحابة أنّ الآية الفلانية قد نزلت فى قتل عثمان، غير أنّ من المعلوم أنّ قتل عثمان حدث بعد سنين طويلة من وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يحتمل أيضا أن الآية قد نزلت فى بنى قريضة، و لكن بما أنّها كانت تتناسب و الآيات النازلة فى قضية بدر، فقد أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإلحاقها بتلك الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۲

التّفسير

الخيانة و أساسها:

يوجه اللّه سبحانه فى الآية الأولى من الآى محل البحث الخطاب إلى المؤمنين فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ

إنّ الخيانة للّه و رسوله، هى وضع الأسرار العسكرية للمسلمين فى تصرف أعدائهم، أو تقوية الأعداء أثناء محاربتهم، أو بصورة عامّة ترك الواجبات و المحرمات و الأوامر الإلهية، و لذلك فقد ورد عن (ابن عباس): إنّ من ترك شيئا من الأوامر الإسلامية فقد ارتكب خيانة بحق اللّه و رسوله.

ثمّ تقول الآية: وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ ۲۰۸].

و (الخيانة) فى الأصل معناها: الامتناع عن دفع حق أحد مع التعهد به، و هى ضد (الأمانة) و الأمانة و إن كانت تطلق على الأمانة المالية غالبا، لكنّها فى منطق القرآن ذات مفهوم أوسع يشمل شؤون الحياة الاجتماعية و السياسية و الأخلاقية كافة، و لذلك

جاء فى الأحاديث: «المجالس بالأمانة».

و نقرأ

فى حديث آخر: «إذا حدث الرجل بحديث ثمّ التفت فهو أمانة.

و من ذلك تكون أرض الإسلام أمانة إلهية بأيدى المسلمين و أبنائهم أيضا. و فوق كل ذلك فإنّ القرآن المجيد و تعاليمه كل ذلك يعد أمانة إلهية كبرى، و قد قال بعضهم:

إنّ أمانة اللّه هى أوامره، و أمانة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سنته، و أمانة المؤمنين أموالهم و أسرارهم، و لكن الأمانة فى الآية- آنفا- تشتمل على كل ذلك.

على كل حال، فإنّ الخيانة فى الأمانة من أقبح الأعمال و شرّ الذنوب. فإنّ من يخون الأمانة منافق فى الحقيقة، كما

ورد فى الحديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. حيث قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۳

ائتمن خان، و إن صام و صلى و زعم أنّه مسلم».

كما أن ترك الخيانة فى الأمانة يعدّ من الحقوق و الواجبات الإنسانية، حتى إذا كان صاحب الأمانة غير مسلم فلا تجوز خيانة أمانته.

و يقول القرآن فى آخر الآية: وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أى أنّه قد يصدر منكم على نحو الخطأ ما هو خيانة، و لكن تقدموا على الخيانة و أنتم

تعلمون، فإنّ عملا كعمل (أبى لبابة) لم يكن لجهل أو خطأ، بل بسبب الحب المفرط للمال و البنين و حفظ المصالح الشخصية الذى قد يسد فى لحظة حساسة كل شىء بوجه الإنسان، فكأنّه لا يرى بعينه و لا يسمع بأذنيه ... فيخون اللّه و رسوله، و هذه فى الحقيقة خيانة مع العلم، و المهم أن يستيقظ الإنسان بسرعة كما فعل (أبو لبابة) ليصلح ما قام بتخريبه.

و الآية بعدها تحذر المسلمين ليجتنبوا الماديات و المنافع العابرة، لئلا- تلقى على عيونهم و آذانهم غشاء فيرتكبون خيانة تعرّض المجتمع إلى الخطر فتقول:

وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ.

و كلمة «فتنة»- كما ذكرنا- تأتى فى مثل هذه الموارد بمعنى وسيلة الامتحان، و الحقيقة أنّ أهم وسيلة لامتحان الإيمان و الكفر و الشخصية و فقدانها، و ميزان القيم الإنسانية للأفراد هو هذان الموضوعان (المال و الأولاد).

فكيفية جمع المال و كيفية إنفاقه، و المحافظة عليه و ميزان التعلق به، كل تلك ميادين لامتحان البشر، فكم من أناس يلتزمون بظاهر العبادة و شعائر الدين، حتى المستحبات يلتزمون بشدّة فى أدائها، لكنّهم إذا ما ابتلوا بقضية مالية، تراهم ينسون كل شىء و يدعون الأوامر الإلهية و مسائل الحق و العدل و الإنسانية جانبا.

أمّا عن الأبناء فهم ثمار قلب الإنسان و براعم حياته المتفتحة، و لهذا نجد الكثير من الناس المتمسكين بالدين و المسائل الأخلاقية و الإنسانية، لا يراعوا الحق و الدين بالنسبة للمسائل المتعلقة بمصلحة أبنائهم، فكأنّ ستارا يلقى على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۴

أفكارهم فينسون كل الأمور، و يصير حبّهم لأبنائهم سببا ليحلّوا الحرام و يحرموا الحلال، و من أجل توفير المستقبل لأبنائهم يستحقون كل حق و يقدمون على كل منكر، فيجب علينا الاعتصام باللّه العظيم فى هذين الميدانين العظيمين للامتحان، و أن نحذر بشدّة، فكم من الناس زلت أقدامهم و سقطوا فيهما، و ظلت لعنة التأريخ تلاحقهم أبدا بذلك. فإذا زلت لنا قدم يوما، فيجب علينا الإسراع فى تصحيح المسير ك (أبى لبابة) و إذا كان المال هو السبب فى الانحراف، فعلينا بذله و إنفاقه فى سبيل اللّه.

و فى نهاية الآية بشارة كبرى لمن يخرج من هذين الامتحانين منتصرا، فتقول: وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

فمهما كان حبّ الأبناء كبيرا، و مهما كانت الأموال محبوبة و كثيرة، فإنّ جزاء اللّه و ثوابه أعلى و أعظم من كل ذلك.

و هنا تثار أسئلة كثيرة، منها: لماذا يمتحن اللّه الناس مع إحاطته العلمية بكل شىء؟ و لماذا يكون الامتحان شاملا للجميع حتى الأنبياء؟ و ما هى مواد الامتحان الإلهى و ما هى السبل للتغلب عليها؟ و قد أجبنا على كل تلك الأسئلة فى المجلد الأولى من التّفسير الأمثل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۵

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۲۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹)

التّفسير

الإيمان و وضوح الرّؤية:

تناولت الآيات السابقة أوامر حياتية تتضمّن السعادة المادية و المعنوية للإنسان، لكن العمل بها غير ممكن إلّا فى ظلال التقوى، لذلك

جاءت هذه الآية المباركة لتؤكّد أهمية التقوى و آثارها فى مصير الإنسان، و قد بيّنت الآية أربعة ثمار و نتائج للتقوى.

فقالت ابتداء: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ....

و كلمة «فرقان» صيغة مبالغة من مادة (فرق) و هى هنا بمعنى الشىء الذى يفصل بين الحق و الباطل تماما.

إنّ هذه الجملة الموجزة و الكبيرة فى معناها قد بيّنت إحدى أهم المسائل المؤثره فى مصير الإنسان، و هى أنّ درب الإنسان نحو النصر محفوف دائما بالمصاعب و الحفر فإذا لم يبصرها جيدا و يحسن معرفتها و اتقاءها فسيسقط فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۶

لا محالة، فأهم مسألة فى هذا الطريق هى معرفة الحق و الباطل، معرفة الحسن و القبيح، معرفة الصديق و العدو، معرفة الفوائد و الأضرار، معرفة عوامل السعادة و الضياع، فإذا استطاع الإنسان معرفة هذه الحقائق جيدا فسيسهل عليه الوصول إلى الهدف.

إنّ المشكلة التى تعترض الإنسان غالبا هى خطأه فى تشخيص الباطل و اختياره على الحق، و انتخاب العدوّ بدل الصديق، و طريق الضلال بدل طريق الهداية، و هنا يحتاج الإنسان إلى بصر و بصيرة قويّة، و وضوح رؤية. إنّ هذه الآية المباركة تقول: إنّ هذه البصيرة ثمرة لشجرة التقوى. أمّا كيف تعطى هذه التقوى البصيرة للإنسان؟ فقد يكون الأمر مبهما لدى البعض، لكن قليلا من الدقّة و التأمل كافية لتوضيح العلاقة الوثيقة بين هذين الإثنين، و لإيضاح ذلك نقول:

أوّلا: إنّ قوّة عقل الإنسان تستطيع إدراك الحقائق بقدر كاف، و لكن ستائر من الحرص و الطمع و الشهوة و حبّ النفس و الحسد، و الحبّ المفرط للمال و الأزواج و الأولاد و الجاه و المنصب كل ذلك يغدوّ كالدخان الأسود أمام بصيرة العقل، أو كالغبار الغليظ الذى يملأ الآفاق، و هنا لا يمكن للإنسان معرفة الحق و الباطل فى أجواء مظلمة، أمّا إذا غسل تلك الغشاوة بماء التقوى و انقشع ذلك الدخان الأسود، عند ذاك تسهل عليه رؤية نور الحق.

ثانيا: أنّنا نعلم أنّ كل كمال فى أى مكان إنّما هو قبس من كمال الحق، و كلّما اقترب الإنسان من اللّه فإنّ نور الكمال المطلق سينعكس فى وجوده أكثر، و على ذلك فإنّ أى علم و معرفة فهو نبع من علمه و معرفته تعالى، و كلّما تقدّم الإنسان فى ظلال التقوى و ترك المعاصى من اللّه، ذابت قطرة وجوده فى بحر وجود العظيم أكثر، و سيحصل على مقدار أكثر من العلم و المعرفة.

و بعبارة أخرى فإنّ قلب الإنسان كالمرآة، و وجود اللّه كالشمس الساطعة على الوجود، فإذا تلوثت مرآة قلبه من الأهواء حتى اسودت، فسوف لا تعكس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۷

النور، فإذا تمّ جلاؤها بالتقوى و زال الدرن عنها، فإنّ تلك الشمس الوضاءة الساطعة ستنعكس فيها و تنير كل مكان.

و لذلك فإنّنا نرى على مدى التأريخ بعض النساء و الرجال المتّقين يملكون وضوحا من الرؤية لا يمكن بلوغه بوسائل العلم و المعرفة أبدا، فهم يرون أسباب الكثير من الحوادث التى تعصف بالمجتمع غير المرئية، و يرون وجود أعداء الحق و إن حجبتها آلاف الستائر الخادعة.

و هذا الأثر العجيب للتقوى فى معرفة الواقع، جاء ذكره فى الكثير من الرّوايات و الآيات الأخرى، ففى سورة البقرة تقول الآية ۲۸۲: اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ و جاء فى الحديث المعروف: «المؤمن ينظر بنور اللّه».

و فى نهج البلاغة فى قصار الكلم: «أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع».

ثالثا: بالتحليل العقلى يمكن فهم العلاقة الوثيقة بين التقوى و إدراك الحقائق أيضا، لأنّ المجتمعات التى تسير فى دروب الفساد و الرذيلة و أجهزة الإعلام فيها تطبل لذلك الميسر، و الصحافة و الراديو و التلفزيون كلها تدعو للتلوث و الانحراف و خدمة الفساد، فمن البديهى أن يصعب على الناس تمييز الحق من الباطل، الجيد من الردىء، و نتيجة الأمر، فإنّ انعدام التقوى يكون سببا لفقدان القدرة على هذه المعرفة أو سوء المعرفة.

و مثال آخر: فإنّ عائلة غير متقيّة، و صغارها يشبون فى محيط ملوث بالفساد و الرّذيلة، فمن العسير على هؤلاء فى المستقبل تمييز الجيد من الردىء، و إهدار القوى و الطاقات فى الذنوب يتسبب بقاء الناس على مستوى دان من البصيرة و المعرفة و انحطاط فى التفكير حتى و إن كانوا متقدمين فى الصناعة و الحياة المادية.

و بناء على ما تقدم فإنّنا نرى أنّ ادنى انحراف عن التقوى يسبب نوعا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۸

العمى و سوء المعرفة، لذلك نرى فى العالم الصناعى اليوم مجتمعات متقدمة جدّا فى العلم و الصناعة، و لكنّها فى حياتها اليومية مصابة بأمراض و مشاكل شديدة تبعث على الاستغراب و التعجب، و هنا تتجلى عظمة ما قاله القرآن الكريم.

و نظرا إلى أنّ التقوى لا- تنحصر بالتقوى فى العمل، بل تشمل التقوى فى الفكر و العقل، فإنّ هذه الحقيقة تتّضح بصورة أجلى. فالتقوى فى الفكر تعنى مواجهة التسيّب و عدم الانضباط فى التفكير، بمعنى أن نبحث فى دراساتنا و تحقيقاتنا عن أصح الأدلة و أوثق البراهين، و أن لا نلتزم بعقيدة دون التحقيق الكافى و الدقة اللازمة.

و الذين يراعون التقوى و يلتزمونها فى تفكيرهم سيبلغون النتائج الصحيحة أسرع بكثير ممن لا يلتزم بها، كما أنّ الخلط و الخطأ يكثر عند من لا يتقى اللّه فى استدلالاته و أسلوب تفكيره.

و هناك أمر آخر يجب الانتباه إليه، لأنّ الكثير من مفاهيمنا الإسلامية قد تعرضت للتشويه بين المسلمين، و هو أنّ الكثير من الناس يتصور أنّ الإنسان المتقى هو الذى يكثر من غسل بدنه و لباسه و يعتبر كل فرد و كل شىء نجسا و مشكوكا فيه، و ينزوى جانبا متجنبا الخوض فى الأمور الاجتماعية، و يسكت أمام كل واقعة، فهذه النظرات المغلوطة عن التقوى و المتقين فى الحقيقة إحدى عوامل انحطاط المجتمعات الإسلامية، لأنّ هذه التقوى لا تنتج معرفة و لا وضوح رؤية و لا تكون فرقانا بين الحق و الباطل.

و على كل حال، و بعد أن اتّضح أوّل ثواب للمتقين نعود لتفسير بقية الآية و سائر الثمار الأربعة لها.

يقول القرآن الكريم: إنّه إضافة إلى معرفة الحق من الباطل فإنّ من آثار التقوى أن يغطى على ذنوبكم و يمحوا آثارها من وجودكم وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۰۹

مضافا إلى ذلك، فإنّه تعالى سيشملكم بمغفرته وَ يَغْفِرْ لَكُمْ

و ثمار كثيرة أخرى تنتظركم لا يعلمها إلّا اللّه: وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

فهذه الآثار الأربعة هى ثمرات فى شجرة التقوى، و وجود روابط طبيعية بين التقوى و قسم من هذه الآثار لا يمنع من نسبة كل ذلك إلى اللّه تبارك و تعالى، لأنّنا و كما قلنا مرارا فى هذا التّفسير فإنّ أى موجود ذى آثار إنّما تحصل بمشيئة اللّه و قدرته، فيمكن نسبة تلك الآثار إلى اللّه عزّ و جلّ، و إلى ذلك الموجود أيضا.

و أمّا الفرق بين (تكفير السيئات) و (الغفران). فقد قال بعض المفسّرين بأنّ الأولى إشارة إلى الحجب من الدنيا، و الثّانية إلى النجاة من الجزاء الأخروى، و يرد احتمال آخر هنا و هو أن (تكفير السيئات) تشير للآثار النفسية و الاجتماعية للذنوب و التى تزول بفعل التقوى، و لكن (الغفران) إشارة إلى مسألة العفو الإلهى و الخلاص من الجزاء ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۰

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۳۰]

اشارة

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (۳۰)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون و المحدثون أن الآية- محل البحث- تشير إلى الحوادث التى أدت إلى هجرة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة.

هذه الحوادث و إن رويت بعبارات مختلفة إلّا أنّها تتفق جميعا على حقيقة أنّ اللّه عزّ و جلّ قد أنقذ نبيّه الكريم عن طريق الإعجاز من خطر محدق به، و نروى هذه الحادثة وفقا لمّا ورت فى الدّر المنثور و مجمع البيان ذيل الآية آنفا ...

قال المفسّرون: إنّها نزلت فى شأن «دار النّدوة» و ذلك أنّ نفرا من قريش اجتمعوا فيها و هى دار قصىّ بن كلاب، و تآمروا فى أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال عروة بن هشام: نتربص به ريب المنون، و قال أبو البخترى: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه، و قال أبو جهل: ما هذا برأى، و لكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد ... فيرضى بنو هاشم حينئذ بالديّة، فصوّب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۱

إبليس هذا الرأى، و كان قد جاءهم فى صورة شيخ كبير من أهل نجد، و خطّأ الأولّين.

فاتفقوا على هذا الرأى و أعدّو الرجال و السلاح و جاء جبرئيل عليه السلام فأخبر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فخرج إلى الغار و أمر عليّا فبات على فراشه، فلمّا أصبحوا و فتشوا عن الفراش، و جدوا عليّا عليه السلام و قد ردّ اللّه مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدرى، فاقتصّوا أثره و أرسلوا فى طلبه، فلمّا بلغوا الجبل و مرّوا بالغار رأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو كان هاهنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثا ثمّ قدم المدينة»[۲۰۹].

التّفسير

سرّ بداية الهجرة:

يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية، و خمس آيات تليها، نزلت فى مكّة لأنّها تشير إلى هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن سياقها يدل على نزولها بعد الهجرة، إذ تتكلم على حادثة سابقة.

فبناء على ذلك تكون هذه الآية قد نزلت فى المدينة بالرغم من حديثها عن هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتحدث عن الذكرى الكبرى و النعمة العظمى التى منّ اللّه بها على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين، فتقول فى بدايتها وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

كلمة «المكر» كما ذكرنا سلفا تعنى فى اللغة التدبير و التخطيط و الحيلة.

ثمّ تضيف الآية قائلة: وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

فإذا أمعنّا النظر فى موضوع هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فإنّنا سنجد أنّ المشركين قد بذلوا كل ما فى وسعهم و جهدهم من طاقات فكرية و جسدية للقضاء على نبىّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۲

الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى أنّهم أعدّوا جائزة لهذا الغرض و هى مائة ناقة، و هذا العدد من الإبل كان يعدّ ثروة كبرى

يومئذ «هذه الجائزة لكلّ من يقبض على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى بعد أن خرج عن قبضتهم» و قد طفق الكثير يجوبون الفيافى و الجبال ليبحثوا عنه طلبا لتلك الجائزة الكبرى حتى بلغوا الغار، و لكن اللّه سبحانه أذهب بأتعابهم أدراج الرياح بواسطة نسيج العنكبوت! و نظرا إلى أنّ هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تمثل مرحلة جديدة فى التأريخ الإسلامى، بل التأريخ الإنسانى، فإنّنا نستنتج أنّ اللّه قد غير مسيرة التأريخ البشرى بما نسجته العنكبوت من خيوط! ...

و هذا الأمر لا ينحصر بهجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل فى جميع تأريخ الأنبياء، فإنّ اللّه سبحانه أذل أعداءهم و دمرهم و أباد قوى الضلال بأسباب هيّنة كالريح- مثلا- أو كثرة البعوض، أو الطير الصغيرة التى تسمّى بالأبابيل، ليبيّن حالة الضعف البشرى و العجز إزاء قدرته اللامتناهية و ليردع الإنسان عن التفكير بالطغيان و العناد.

و ممّا يسترعى النظر أنّ الالتجاء إلى هذه الأساليب الثّلاثة: السجن و النفى و القتل، لم يكن منحصرا بالمشركين فى مواجهة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، فإنّ الطغاة يلجأون إلى هذه الأساليب الثّلاثة دائما للقضاء على المصلحين و إسكاتهم، و الحيلولة دون بسط نفوذهم بين المستضعفين، إلّا أنّه كما كانت النتيجة خلاف ما أراده مشركو مكّة فى شأن النّبى و أضحت مقدمة لتحرك إسلامى جديد، فكذلك مثل هذه الموجهات الشديدة قد باءت نتائجها فى مواطن أخرى بعكس ما كان متوقعا[۲۱۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۳

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۱ الى ۳۵]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۳۱) وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۲) وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۳۳) وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۴) وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۵)

التّفسير

القائلون شططا:

ذكر فى الآية السابقة مثل خرافى من منطق المشركين العملى، و فى هذه الآيات مثل آخر من منطقهم الفكرى، ليتّضح أنّ هؤلاء لم يمتلكوا سلامة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۴

الفكر و لا صحة فى العمل، فجميع أساليبهم خاوية بغير أساس.

تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا قالُوا قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

كانوا يقولون مثل هذا الكلام عند ما يعجزون عن مواجهة القرآن و معارضته، و كانوا يعرفون جيدا أنّهم غير قادرين على معارضة القرآن، إلّا أنّهم و لحقدهم و عصبيتهم، أو لأنّهم يريدون إضلال الناس، كانوا يقولون: إنّ الإتيان بمثل هذه الآيات غير عسير و لو نشاء لقلنا مثلها، و لكنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا بمثلها أبدا، و ما هذا القول منهم سوى ادعاء فارغ يهدفون بذلك إلى إبقاء كيانهم الاجتماعى- كسائر الجبابرة فى التأريخ- إلى أمر معدود.

و الآيـة التّالية تتحدث عن منطق عجيب آخر فتقول: وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ

لقـد كـانوا يقولون ذلـك لشـدّة تعصـبهم و عنادهم، و كانوا يتصورون أنّ الـدين الإسـلامى لا أساس له أبـدا، و إلّا فإنّ أحـدا يحتمل حقانية الإسلام كيف يمكنه أن يدعو على نفسه بمثل هذا الدعاء؟

كما و يحتمل أيضا أنّ شـيوخ المشـركين و سادتهم يقولون ذلك الكلام لتضـليل الناس و ليثبتوا لبسـطائهم أنّ رسالـة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم باطلة تماما، فى حين أنّهم لا يعتقدون بما يقولون. و كأنّهم- أى المشـركين- يريدون أن يقولوا للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّك تتكلم عن الأنبياء السابقين، و إنّ اللّه قد أهلك أعداءهم بحجارة أمطرها عليهم «كما هى الحال فى شأن قوم لوط» فإن كنت صادقا فيما تقول فأمطر علينا حجارة من السماء! و

قـد ورد عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام (فى مجمع البيان) أنّه لما نصب رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عليا عليه السّـلام يوم غـدير خم فقـال: من كنت مولاـه فعلى مولاـه، طـار ذلك فى البلاد، فقـدم على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم النعمان بن الحارث الفهرى، فقال: أمرتنا من اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۵

أن نشـهد أن لاـ إله إلّا اللّه و أنّك رسول اللّه، و أمرتنا بالجهاد و الحـج و الصوم و الصـلاة و الزكاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتى نصـبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه، فهذا شىء منك أو أمر من عند اللّه؟

فقال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «و اللّه الذى لا إله إلّا هو، إن هذا من اللّه». فولّى النعمان بن الحارث و هو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله ۲۱۱].

و هـذا الحـديث لا ينافى نزول الآيـة فى قصّة الغدير، لأنّ سـبب النّزول لم يكن موضوع النعمان، بل إن النعمان قد اقتبس من الآية فى الدعاء على نفسه، و هذا يشـبه قولنا فى الدعاء مقتبسـين ذلك من القرآن رَبَّنا آتِنا فِى الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً «و سيأتى تفصيل هـذا الموضوع و ما ذكرته كتب أهل السـنة من أساتيـد كثيرة له فى ذيل الآيـة الأولى من سورة المعارج سَأَلَ سائِلٌ بِعَـذابٍ واقِعٍ بإذن اللّه».

و فى ما تقدم من الآيات نلاحظ أنّ المشركين وجّهوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إشكالين.

الأوّل منهما: واضـح البطلان، و هو قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هـذا. فلم يردّ عليه القرآن. بديهى أن هذا الادعاء أجوف كاذب، لأنّهم لو استطاعوا لما توانوا عنه أبدا و لجاءوا به، فلا حاجة إذن للردّ عليه.

و الإشـكال الثّانى: لو كانت هـذه الآيات نازلـة من قبل اللّه فأنزل علينا العقاب و البلاء، فيرد عليهم القرآن فى الآيـة الثّالثـة، من الآيات محل البحث، بقوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

و فى الحقيقة أنّ وجودك- يا رسول اللّه- الذى هو رحمة للعالمين، يمنع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۶

نزول البلاء بسبب هذه الذنوب، فيهلك قومك كما هلكت الأمم السابقة جماعات أو متفرقين.

ثمّ تعقيب الآية بالقول: وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

و للمفسّـرين احتمالات متعـددة فى تفسـير الجملـة آنفـة الـذكر، منها أنّ بعض المشـركين نـدموا على قولهم الـذى ذكرته الآية فقالوا: غفرانك ربّنا، و كان ذلك سببا لأن لا ينزل عليهم العذاب حتى بعد خروج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة.

و قال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى من بقى من المؤمنين فى مكّة، لأنّ بعضا ممن لم يستطع الهجرة بقى فيها بعد خروج النّبى، فوجودهم الذى هو شعاع من وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منع من نزول العذاب.

كما يحتمل أن تكون هذه الجملة التى ذكرتها الآية تتضمّن مفهوم جملة شرطية، أى أنّهم لو ندموا على فعلهم توجهوا إلى اللّه و استغفروه فسيرتفع عنهم عقاب اللّه.

كما لا- يبعد- فى الوقت ذاته- الجمع بين هذه الاحتمالات كلّها فى تفسير الآية، أى يمكن أن تكون الآية إشارة إلى جميع هذه الاحتمالات.

و على أية حال، فإنّ مفهوم الآية لا يختصّ بمعاصرى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل هو قانون عام كلىّ يشمل جميع الناس. لهذا فقد روى فى مصادرنا عن الإمام على، و

فى مصادر أهل السنة عن تلميذ الإمام على «ابن عباس» أنّه قال عليه السّلام: «كان فى الأرض أمانان من عذاب اللّه، و قد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به. و قرأ هذه الآية»[۲۱۲].

و يتّضح من الآية- محل البحث، و الحديث آنف الذكر- أنّ وجود الأنبياء عليهم السّلام مدعاة لأمن الناس من عذاب اللّه و بلائه الشديد، ثمّ الاستغفار و التوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۷

و التوجه و الضراعة نحو اللّه، إذ يعدّ الاستغفار و التوبة ممّا يدفع به العذاب.

فإذا انعدم الاستغفار فإنّ المجتمعات البشرية ستفقد الأمن من عذاب اللّه لما اقترفته من الذنوب و المعاصى.

و هذا العذاب أو العقاب قد يأتى فى صورة الحوادث الطبيعية المؤلمة، كالسيل مثلا، أو الحروب المدمّرة، أو فى صور أخرى، و

قد جاء فى دعاء كميل بن زياد عن الإمام على عليه السّلام قوله «اللهم اغفر لى الذنوب التى تنزل البلاء».

فهذا التّعبير يدل على أنّه لو لا الاستغفار فإنّ كثيرا من الذنوب قد تكون سببا فى البلاء و الكوارث.

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفة، و هى أنّ الاستغفار لا- يعنى تكرار ألفاظ معينة، كأن يقول المرء «اللهم اغفر لى» بل المراد منه روح الاستغفار الذى هو حالة العودة نحو الحق و التهيؤ لتلافى ما مضى من العبد قبال ربّه.

و الآية التّالية: تقول: إنّ هؤلاء حقيقون بعذاب اللّه وَ ما لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

و هذا التعبير فى الآية يشير إلى يوم كان المسلمون فى مكّة، و لم يكن لهم الحق أن يقيموا صلاة الجماعة بتمام الحرية، و الاطمئنان عند المسجد الحرام، إذ كانوا يتعرضون للإيذاء و التعذيب.

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى منع المشركين المسلمين و صدهم إياهم بعد أدائهم مناسك الحج و العمرة، فلم يأذنوا لهم بالتردد إلى المسجد الحرام.

و العجيب أنّ هؤلاء المشركين كانوا يتصورون أنّ لهم حق التصرف كيفما شاءوا فى المسجد الحرام، و أنّهم أولياؤه. إلّا أنّ القرآن يضيف فى هذه الآية قائلا:

وَ ما كانُوا أَوْلِياءَهُ و بالرغم من زعمهم أنّهم أولياؤه ف إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۴۱۷

مع أنّ هذا الحكم ورد فى شأن المسجد الحرام، إلّا أنّه يشمل جميع المراكز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۸

الدينية و المساجد فإنّ سدنتها ينبغى أن يكونوا من أطهر الناس و أتقاهم و أورعهم و أكثرهم اهتماما بالمحافظة على مراكز العبادة، ليجعلوها منطلقا للتعليم و بثّ الوعى و الإيقاظ. إذ لا- يصلح لإدارة هذه المراكز حفنة من الحمقى أو باعة الضمائر الملوّثين و المرتبطين بالأجانب، الذين يسعون إلى تحويل المساجد و مراكز العبادة إلى محال تجارية، أو جعلها مكانا لتخدير الأفكار، و الابتعاد

عن الحقّ. و فى اعتقادنا أنّ المسلمين لو كانوا ملتزمين بتعاليم القرآن فى شأن المساجد، لكانت المجتمعات الإسلامية اليوم لها وجه آخر و صورة مشرقة! و الأعجب فى هذا الشأن أنّ المشركين كانوا يدّعون أنّهم يصلّون و يعبدون اللّه بما كانوا يقومون به من أعمال قبيحة كالصفير و التصدية عند البيت، و لهذا فقد قالت الآية التالية عنهم: وَ ما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكاءً وَ تَصْدِيَةً.

و نقرأ فى التأريخ أنّ طائفة من الأعراب فى زمان الجاهلية عند ما كانوا يطوفون بالبيت العتيق، كانوا يخلعون ثيابهم و يصفرون و يصفقون و يسمّون أعمالهم هذه عبادة، و ورد أيضا أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان يقف بجانب الحجر الأسود و يتجه بوجهه نحو الشمال ليكون فى مقابل الكعبة و بيت المقدس، و يشرع بالصلاة، كان يقف إلى يمينه و يساره رجلان من بنى سهم فيأخذ أحدهم بالصياح و الآخر بالتصفيق ليؤذياه فى صلاته.

تعقب الآية على ما تقدم لتقول: إنّ أعمالكم- بل حتى صلاتكم- مدعاة للخجل و السفاهة و لذلك فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

إنّ الإنسان حين يقلّب صفحات التأريخ و يتوغّل فيه باحثا عن جوانب من تاريخ عرب الجاهلية التى وردت الإشارة إليها فى القرآن، يرى- و يا للعجب العجاب!- فى عصرنا الحاضر الذى عرف بعصر الفضاء و الذرة من يعيد تلك الأعمال التى كانت فى زمان الجاهلية، و يتصوّر نفسه فى عبادة، فيقرءون الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۱۹

القرآنية أو الأشعار فى مدح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الامام على عليه السّلام بالألحان الموسيقية ذات الإيقاع المثير، و تهتزّ أيديهم و رؤوسهم بما يشبه حالة الرقص، و يسمّون ذلك ذكرا و مدائح، و يقيمونها فى التكايا و غيرها. مع إنّ الإسلام يبرأ من جميع هذه الأعمال، و هى مثل آخر من أمثلة أعمال «الجاهلية».

و يبقى هنا سؤال واحد، و هو أنّ الآية الثّالثة من الآيات محل البحث قد نفت نزول العذاب بتوفر شرطين طبعا، و الآية الرّابعة أثبتت ترى ألا يقع التضاد بين الآيتين؟

و الجواب: إنّ الآية السابقة إلى العقاب الدنيوى، و الآية اللاحقة لعلها إشارة إلى العقاب الأخروى، أو أنّها إشارة إلى أنّ هؤلاء يستحقون العقاب فى الدنيا و هو محدق بهم، فإذا مضى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتوبوا و يستغفروا ربّهم فإنّه سينزل بهم لا محالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۰

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (۳۶) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۳۷)

سبب النّزول

جاء فى تفسير على بن إبراهيم و كثير من التفاسير الأخرى، أنّ الآية- محل البحث- نزلت فى معركة بدر، و ما بذله أهل مكّة للصدّ عن سبيل اللّه، لأنّهم لما عرفوا ما حصل- إذ جاءهم مبعوث أبى سفيان- قاموا بجمع الأموال الكثيرة ليعينوا بها مقاتليهم، إلّا أنّهم خابوا و قتلوا و آبوا إلى جهنم و ساءت مصيرا، و كان ما أنفقوه فى هذا الصدد وبالا و حسرة عليهم. و الآية الأولى تشير إلى سائر معوناتهم التى قدموها فى سبيل مواجهة الإسلام و محاربته، و قد طرحت الموضوع فى صياغة كلّية.

و قال بعضهم: إنّ الآية نزلت فى ما بذله أبو سفيان لألفى مقاتل «مرتزق» فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۱

معركة أحد.

إلّا أنّه لما كانت الآية محل البحث واقعة فى سياق الآيات النازلة فى معركة بدر، فإنّ الرأى الأوّل فى شأن نزولها يبدو أقرب للصحة.

التّفسير

مهما يكن شأن نزول الآية، فمفهومها مفهوم جامع يحمل فى معناه كلّ ما بذله أعداء الحق و العدل من أموال لنيل مقاصدهم المشؤومة، إذ تقول فى مستهلها: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

إلّا أنّ هذا الإنفاق و البذل لن يحقق لهم نصرا فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ

و لا يبتلون بالحسرة و الهزيمة فى الدنيا فحسب، بل هم كذلك فى الآخرة أيضا وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ

ملاحظات

۱- يستفاد من الآية محل البحث أنّ «هؤلاء» يحسّون بعدم جدوى أعمالهم حتى قبل غلبهم و انهزامهم، و حيث إنّهم لا يرون نتيجة مثمرة لما أنفقوه من الأموال، فسيبتلون بالألم و الحسرة، و هذا الأمر هو نوع من جزائهم الدنيوى و أحد عقوباتهم فيها.

أمّا الجزاء الآخر الذى ينالونه، فهو فشل خططهم و مناهجهم، لأنّ الذين يقاتلون و هم متعلقون بالأموال و الثروة لا يستطيعون مواجهة المقاتلين من أجل المبدأ و الأهداف المقدسة.

و قد برهنت الحوادث فى عصرنا هذا على أن الدول القوية التى تغرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۲

مقاتليها بالمال و الرغبات المادية، كثيرا ما تصاب بالخزى و الافتضاح و الهزيمة بوجه الأمم المستضعفة التى تقاتل عن إيمان و عقيدة راسخة! ...

و بالإضافة إلى هذين الجزاءين فهناك جزاء ثالث ينتظرهم يوم القيامة، و هو «الغضب الإلهى».

۲- ما ذكرته الآية محل البحث، نجد له أمثلة فى عصرنا الحاضر، كقوى الاستكبار، و اتباع الظلم و الفساد، و دعاة المذاهب الخرافية الباطلة، و باذلى الأموال الطائلة لتحقيق أهدافهم و تضليل الناس و صدهم عن سبيل الحق، و هم يظهرون بأزياء متعددة، فتارة فى صورة المساعدات المالية- ظاهرا- كبناء المستشفيات، و أخرى فى صورة التعاون الثقافى، و مرّة فى ثوب المقاتلين المرتزقة.

لكن الهدف النهائى واحد و الماهية واحدة، فكل همّهم التوسعة الاستعمارية و الظلم و الجور، و لو وقف المؤمنون حقّا صفا بوجه هذه المحاولات كما وقف أصحاب بدر لأحبطوا جميع هذه المحاولات و لباءت بالفشل، و لجعلوا هذا الإنفاق وبالا و حسرة على المستكبرين، و لساقوهم إلى جهنم و ساءت مصيرا.

۳- قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية واحدة من دلائل صدق دعوة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّها تخبر عن حوادث لم تكن وقعت بعد، و قد غلب بها أعداء الإسلام، و مع أن أولئك بذلوا أموالا طائلة لانتصارهم!! و إذا لم نعتبر الآية من الأخبار بالمغيبات التى تتعلق بالحوادث المقبلة، فإنّها على الأقل تكشف عن محتوى القرآن الدقيق فى شأن المواجهة بين الحق و الباطل، كما أنّها تكشف عن عظمة القرآن و التعاليم الإسلامية.

و بعد أن تكلمت الآية السابقة على ثلاث نتائج مشؤومة لإنفاق أعداء الإسلام، فإنّ الآية التى تليها تقول: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

هذه سنة إلّهية دائمة أن يعرف المخلص من غير المخلص، و الطاهر من غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۳

الطاهر، و المجاهد الصادق من الكاذب، و الأعمال الطيبة من الأعمال الخبيثة، فلا يبقى أى من ذلك مجهولا أبدا، بل لا بدّ فى النهاية من أن تمتاز الصفوف بعضها عن بعض و يسفر الحق عن وجهه. و هذا الأمر يتحقق- طبعا- عند ما يكون أتباع الحق- كأولئك المسلمين الأوائل يوم بدر- فى مستوى كاف من التضحية و الوعى.

ثمّ تضيف الآية وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ

فالخبيث من أية طائفة و فى أى شكل كان سيؤول فى النهاية إلى الخسران، كما تقول الآية فى نهاية المطاف أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (۳۸) وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳۹) وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۴۰)

التّفسير

اشارة

من المعلوم فى أسلوب القرآن هو الجمع بين البشارة و النذارة، أى أنّه كما ينذر أعداء الحق بالعقاب و العذاب، فإنّه يفتح لهم فى الوقت نفسه طريق العودة أمامهم.

و الآية الأولى: من الآيات محل البحث تتبع هذا الأسلوب ذاته، فتأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ

و يستفاد من الآية المباركة أنّ قبول الإسلام يوجب محو كل سابقة و هو ما ورد فى الرّوايات على أنّه أصل عام، كما فى عبارة «الإسلام يجبّ ما قبله» أو ما جاء عن أهل السنة فى تعبير آخر

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن «الإسلام يهدم ما كان قبله،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۵

و إن الهجرة تهدم ما كان قبلها، و إن الحج يهدم ما كان قبله»[۲۱۳]

و المقصود من الحديث آنفا هو أنّ كل ما عمله الإنسان من سيئات و حتى تركه للفرائض و الواجبات قبل إسلامه فسوف يمحى عنه بقبوله الإسلام، و لا يكون قبوله للإسلام أثر رجعى لما سبق، لهذا ورد فى كتب الفقه عدم وجوب قضاء ما فات من العبادات على من أسلّم.

و تضيف الآية قائلة: إنّهم إن لم يصححوا أسلوبهم وَ إِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ

و المقصود من هذه السنة هو ما آل إليه أعداء الحق بعد ما واجهوا الأنبياء، و ما أصاب المشركين عند ما واجهوا النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معركة بدر.

فنحن نقرأ فی سورة غافر، الآیة: (۵۱): إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ یَوْمَ یَقُومُ الْأَشْهادُ.

و نقرأ فی سورة الاسراء، الآیة (۷۷): بعد بیان سحق أعداء الإسلام قوله تعالی: سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِیلًا.

و لمّا کانت الآیة السابقة قد دعت الأعداء للعودة إلی الحق، و إن هذه الدعوة قد تولد هذه الفکرة لدی المسلمین و هی أنّه قد انتهت فترة الجهاد و لا بدّ بعد الآن من اللین و التساهل، ترفع هذه الشبهة الآیة التالیة و تقول: وَ قاتِلُوهُمْ حَتَّی لا تَکُونَ فِتْنَةٌ وَ یَکُونَ الدِّینُ کُلُّهُ لِلَّهِ

و کلمة «الفتنة»- کما بیناها فی تفسیر الآیة (۱۹۳) من سورة البقرة- ذات معنی واسع تشمل کل أنواع الضغوط، فتارة یستعملها القرآن بمعنی عبادة الأصنام و الشرک الذی یشمل کل أنواع التحجر و الجمود و اضطهاد أفراد المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۶

و تطلق الفتنة أیضا علی الضغوط التی یفرضها الأعداء، للوقوف بوجه اتساع دعوة الإسلام، و لإسکات صوت أهل الحق، بل حتی إرجاع المؤمنین نحو الکفر.

و فی الآیة محل البحث فسر الفتنة بعضهم بمعنی الشرک، و فسّرها آخرون بأنّها تعنی سعی الأعداء لسلب الحریات الفکریة و الاجتماعیة من المسلمین.

و لکن الحقّ أنّ مفهومها واسع یشمل الشرک، بقرینة قوله: وَ یَکُونَ الدِّینُ لِلَّهِ و سائر ضغوط الأعداء علی المسلمین.

الهدف من الجهاد و بشری کریمة:

تشیر الآیة آنفة الذکر إلی قسمین من أهداف الجهاد المقدسة و هما:

۱- القضاء علی عبادة الأصنام و تطهیر الأرض من معابدها و نحو ذلک و کما ذکرنا فی بحثنا عن أهداف الجهاد فإنّ الحریّة الدینیة تتعلق بمن یتّبع أحد الأدیان السماویة فلا یجوز إکراه هؤلاء من أجل تغییر عقیدتهم، و لکن عبادة الأصنام لیست دینا و لا فکرا، بل هی خرافة و جهل و انحراف، و علی الحکومة الإسلامیة إزالتها و تطهیر البلاد منها عن طریق الإعلام و التبلیغ الإسلامی- أوّلا- و إذا لم یؤدّ ذلک إلی نتیجة فیجب اللجوء إلی القوة لتدمیر معابد الأوثان.

۲- نیل الحریة فی نشر الإسلام و التبلیغ له، و فی هذا القسم أجاز الإسلام استخدام القوّة فی مواجهة من یمنع المسلمین من نشر عقیدتهم لفتح الطریق بوجه الحوار المنطقی السلیم.

و قد ورد فی تفاسیر أهل السنة کتفسیر «روح البیان» للآلوسی، و تفاسیر شیعیة أخری،

عن الإمام الصادق علیه السّلام «لم یجیء تأویل هذه الآیة، و لو قام قائمنا بعد، سیری من یدرکه ما یکون من تأویل هذه الآیة، و لیبلغن دین محمّد ما بلغ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۷

اللیل حتی لا یکون شرک علی ظهر الأرض کما قال تعالی»[۲۱۴].

و لقد أنکر صاحب تفسیر المنار- لتعصبه- هذا الحدیث الوارد فی شأن مسألة قیام المهدی علیه السّلام، و ذلک لحکمه المسبق المخطئ فی هذه القضیة، و العجیب أن له میلا خاصا فی تفسیره إلی الفکر الوهابی، مع أنّ الوهابیین بالرغم من تعصّهم یصرحون بأنّ ظهور الإمام المهدی علیه السّلام من الأمور المسلّم بها، و یعتبرون الرّوایات فیه من المتواترات.

و سنورد الأدلة و المصادر فی هذا الصدد فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة، کما سنشیر إلی النقطة الأساسیة فی خطأ هذا المفسّر و

الرد عليها، و لقد فصلنا الأمر فى كتابنا «المصلح العالمى الكبير».

و إذا كانت بعض الرّوايات المتعلقة بظهور المهدى غير صحيحة و فيها بعض الخرافات، فلا ينبغى أن يؤدّى ذلك إلى الإعراض عن بقية الرّوايات الصحيحة و المتواترة! و أخيرا فإنّ الآية فى نهايتها، و تزامنا مع الشدة فى العمل، تمدّ يد المحبّة و الرأفه إلى الأعداء مرّة أخرى فتقول: فإن انتهوا فإن الله بما يعملون خبير و لكن إذا تمادوا فى عنادهم و طغيانهم و لم يستسلموا للحقّ، فاعملوا أنّ النصر حليفكم و الهزيمة من نصيب أعدائكم، لانّ اللّه مولاكم و هو خير ناصر و معين:

وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۲۹

بداية الجزء العاشر القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۱

الآية [سورة الأنفال (۸): آية ۴۱]

اشارة

وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۱)

التّفسير

الخمس فرض إسلامى مهم:

وجدنا فى بداية هذه السورة كيف أنّ بعض المسلمين تشاجروا فى شأن تقسيم الغنائم بعد غزوة بدر، و قد أمر اللّه سبحانه- درءا لأصول الخلاف- أن توضع الغنائم تحت تصرف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لينفقها بما يراه صالحا، فقام بتقسمها بالتساوى بين المقاتلين المسلمين.

و فى هذه الآية عود إلى مسألة الغنائم، لتناسب الآيات التى سبقتها، و التى كانت تتكلم على الجهاد، إذ وجدنا فى بعضها إشارات مختلفة لموضوع الجهاد، و لما كان الجهاد يرتبط بمسألة الغنائم غالبا، فكان فى المقام تناسب بين الجهاد و بين ذكر أحكام الغنائم «بل سنلاحظ أن القرآن تعدى فى حكمه إلى أبعد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۲

مسألة الغنائم، و نظر إلى جميع الموارد».

يقول الحق سبحانه: وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى (الأئمة من أهل البيت عليهم السلام) وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ من ذرية الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا. و يضيف مؤكّدا إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ ما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ أى يوم بدر- يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ

و ينبغى الالتفات إلى أنّه على الرغم من أنّ الخطاب فى الآية موجه إلى المؤمنين، لأنّها تبحث فى غنائم الجهاد الإسلامى، و بديهى أنّ المجاهد مؤمن، لكنّها مع ذلك تقول: إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ و فى ذلك إشارة إلى أنّ ادعاء الإيمان وحده لا يعدّ دليلا على الإيمان، بل حتى المشاركة فى سوح الجهاد قد لا تكون دليلا على الإيمان، فقد تكون وراء ذلك أمور أخرى. فالمؤمن الكامل هو الذى

يـذعن لأوامر اللّه كافـة و ينقاد لها، و خاصّـة الأوامر و الأحكام الماليـة، و لا يأخـذ ببعض و يترك بعضا، و تشـير الآيـة فى نهايتها إلى قدرة اللّه غير المحدودة، فتقول:

وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أى بالرغم من قلتكم يوم بدر و كثيرة عدوّكم فى الظاهر، لكن اللّه القادر خذلهم و أيدكم فانتصرتم عليهم.

ملاحظات

۱- يوم الفرقان بين الحق و الباطل

سمّى يوم معركة بدر بيوم الفرقان بين الحق و الباطل، و يوم الالتقاء بين جماعة الكفر و جماعة الإيمان، و فى ذلك إشارة إلى ما يلى:

أوّلا: إنّ يوم بدر ظهرت فيه الأدلة على صدق النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لأنّه وعد المسـلمين بالنصـر قبل ذلك، مع أنّ القرائن فى الظاهر لم تكن دالة على ذلك، و لقد اتّحدت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۳

تلك الأسـباب بشـكل غير متوقع فكان النصر، و هو ما لا يمكن حمله على المصادفة و الاتفاق فبناء على ذلك فإن صدق الآيات التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ذلك اليوم كان كامنا فى الآيات نفسها.

ثانيا: إنّ المعركة فى بدر: «يوم التقى الجمعان» كانت فى الواقع إحدى النعم الإلهية الكبرى على المسـلمين، لإنّ بعضـهم كان يخشاها فى البداية، لكن تلك المواجهة و النصـر دفعا بهم خطوات كبيرة نحو الأمام، إذ بلغ صداهم و اشـتهارهم بذلك أنحاء الجزيرة العربية، و دعا الجميع للتفكّر فى هـذا الـدين الجديـد و قـدرته المذهلـة و كان ذلك اليوم يوما شديدا على الأمّة الإسـلامية القليلة آنئذ، حيث امتاز به المؤمنون الصادقون عن المدعين الكاذبين، فكان ذلك اليوم بكل جوانبه يوم الفرقان بين الحق و الباطل.

[۲- عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال و هذه الآية]

۲- ذكرنا فى بداية السورة عدم وجود تضادّ بين آية الأنفال و هذه الآية، و لا موجب الإعتبار إحداهما ناسـخة للأخرى، لأنّه بمقتضـى آية الأنفال فإنّ الغنائم الحربية هى للنّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه وهب أربعة أخماسها للمقاتلين المسلمين، و ادخر الخمس المتبقى للموارد التى ذكرتها الآية «و لمزيد الإيضاح راجع بحثنا فى تفسير الآية الأولى من هذه السورة».

۳- ما هو المراد من ذى القربى؟

ليس المراد فى هذه الآية الأقرباء كلّهم و لا أقرباء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم جميعا، بل هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، و الـدليل على هـذا الأمر هو الرّوايات المتواترة التى وردت عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن طرق أهل البيت ۲۱۵]، و توجد أدلة أخرى على ذلك فى كتب أهل السنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۴

فبناء على ذلك فإنّ من يرى أنّ سـهما من الخمس يتعلق بكل أقرباء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم يواجه هذا السؤال و هو: ما هذا

امتیاز الذی أولاه الإسلام لأقرباء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قومه، مع أنّ الإسلام بعید عن القبلیة و القومیة و العرقیة؟! لکنّنا إذا خصصنا «بذی القربی» الأئمّة من أهل البیت علیهم السّلام مع ملاحظة أنّهم خلفاء النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قادة الحکومة الإسلامیة، یتّضح السبب فی إعطائهم هذا السهم من الخمس.

و بعبارة أخری: إنّ السهام الثّلاثة «سهم اللّه و سهم النّبی و سهم ذی القربی» ترجع جمیعها إلی قائد الحکومة الإسلامیة، فیصرف منها فی شؤون حیاته البسیطة، و ینفق الباقی منها فی ما یوجبه مقام القیادة، أی أنّه یصرفها فی الحقیقة فی حاجات الناس و المجتمع!.

و حیث أن بعض المفسّرین من أهل السنة «کصاحب المنار» یری أنّ ذا القربی هو جمیع الأقارب، فقد تخبط فی الإجابة علی السؤال آنف الذکر و ظلّ فی حیرة من أمره، حتی جعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أشبه بالملوک و السلاطین، فأوجب علیه أن یجذب قومه و قبیلته الیه بالأموال التی عنده! و من الواضح بطلان هذا المنطق، إذ یتنافی و منطق الحکومة العالمیة الإنسانیة التی لا تعترف بالامتیازات القبلیّة «و سیأتی إیضاح هذا الموضوع بصورة أکثر فی البحوث المقبلة، إن شاء اللّه».

۴- ما هو المراد من الیتامی و المساکین و ابن السبیل

إنّ المقصود بالیتامی و المساکین و ابن السبیل- فی الآیة- هم هذه الطوائف الثلاث من بنی هاشم بالرغم من أنّ ظاهر الآیة مطلق غیر مقید، و دلیلنا علی التقیید هو الرّوایات الکثیرة الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام، و نعلم بأنّ کثیرا من الأحکام المطلقة فی النصوص القرآنیة قیدتها السنة النبویة و جعلت لها شروطا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۵

و هذا الأمر غیر منحصر بالآیة محل البحث حتی تکون مثارا للغرابة و التعجب.

أضف إلی ذلک أنّ الزکاة محرمة علی المحتاجین من بنی هاشم، فیلزم توفیر مصدر آخر لهم، و هذه قرینة علی أنّ الآیة تخصّ المحتاجین من بنی هاشم.

لذا نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «إنّ اللّه تعالی لما حرّم علینا الصدقة أنزل لنا الخمس، فالصدقة علینا حرام و الخمس لنا حلال»[۲۱۶]

۵- هل الغنائم منحصرة فی غنائم الحرب

اشارة

الموضوع المهم الآخر الذی یجب أن یبحث فی الآیة، و هو فی الحقیقة بمثابة العمدة فیها، هو: هل لفظ الغنیمة المذکور فیها یطلق علی الغنائم الحربیة فحسب، أو الموضوع أوسع من ذلک فیشمل کل زیادة فی المال؟! ففی الصورة الأولی فإنّ الآیة تبیّن الخمس فی غنائم الحرب فحسب، و أمّا الخمس فی سائر الموارد فینبغی معرفته من السنة و الأخبار المتواترة و صحیح الرّوایات، و لا مانع أن یشیر القرآن إلی قسم من أحکام الخمس بما یناسب مسائل الجهاد، و أن تتناول السنة الشریفة بیان أقسامه الباقیة.

فمثلا قد وردت الصلوات الخمس الیومیة صریحة فی القرآن، کما أشیر إلی صلاة الطواف التی هی من الصلوات الواجبة أیضا، و لم ترد أیّة إشارة فی القرآن إلی صلاة الآیات المتفق علی وجوبها من قبل الفرق الإسلامیة من أهل السنة و الشیعة کافة، و لا نجد قائلا یقول بأنّه لا یجب الإتیان بصلاة الآیات لأنّها لم تذکر فی القرآن أو أن القرآن أشار إلی بعض الأغسال و لم یذکر غیرها، فیجب

ترك ما لم يشر إليه القرآن! فهذا المنطق لا يقره أى مسلم أبدا.

فبناء على ذلك، لا إشكال فى أن يبيّن القرآن قسما واحدا من أقسام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۶

الخمس فحسب، و يكلّ توضيح الباقى إلى السنّة، و فى الفقه الإسلامى نظائر كثيرة لهذه المسألة.

إلّا أنّه مع هـذه الحال ينبغى أن ننظر إلى معنى «الغنيمـة» فى اللغة و العرف! فهل هى منحصـرة فى غنائم الحرب؟! أم تشـمل كل أنواع الأرباح و الزيادة فى المال؟! الـذى يسـتفاد من كتب اللغـة هو أنّ جـذرها اللغوى لم يرد فى ما يؤخذ من العدوّ فى الحرب، بل تشـمل كل أنواع الزيادة المالية و غيرها.

و نشـير هنـا إلى بعض كتب اللغـة المشـهورة التى يعتمـد عليهـا علماء العربيـة و أدباؤها على سبيل المثال و الشاهـد. إذ نقرأ فى كتاب «لسان العرب» الجزء الثّانى عشر قوله «الغنم الفوز بالشىء من غير مشقّة، و الغنم و الغنيمة، و المنغم:

الفىء، و

فى الحديث: الرهن لمن رهنه له غنمه و عليه غرمه، غنمه زيادته و نماؤه و فاضل قيمته ... و غنم الشىء غنما فاز به ...».

و نقرأ فى الجزء التاسع من «تاج العروس»: و الغنم: الفوز بالشىء بلا مشقّة».

و فى كتاب «القاموس» هذا المعنى نفسه للغنيمة أيضا.

و جاء فى كتاب «المفردات» للراغب أنّ أصل الغنيمة من الغنم، ثمّ يقول: ثمّ استعملوه فى كل مظفور به من العدى و غيره.

و حتى من ذكر أنّ معناها هو غنائم الحرب، لم ينكر أنّ معناها فى الأصل واسع و شامل لكل خير يقع بيد الإنسان بدون عناء و مشقة.

و ترد الغنيمـة فى العرف فى مقابل الغرامـة، فكما أن معنى الغرامة واسع شامل لكل أنواع الغرامات، فإنّ معنى الغنيمة واسع شامل لكل أنواع الغنائم.

و قد وردت هذه الكلمة فى نهج البلاغة كثيرا بالمعنى المذكور نفسه، إذ نقرأ

فى الخطبة (۷۶) قوله عليه السّلام: «اغتنم المهل».

و

فى الخطبة (۱۲۰) يقول عليه السّلام: «من أخذها لحق و غنم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۷

و

يقول فى كتابه (۵۳) إلى مالك الأشتر: «و لا تكوننّ عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم».

و

يقول فى كتابه (۴۵) إلى عثمان بن حنيف: «فو اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا و لا ادخرت من غنائمها و فرا».

و

يقول فى بعض كلماته القصار برقم (۳۳۱): «إنّ اللّه جعل الطاعة غنيمة الأكياس».

و

يقول فى كتابه (۴۱): «و اغتنم من استقرضك فى حال غناك».

و نظير هذه التعابير و الكلمات التى تدل على عدم انحصار معنى الغنيمة فى غنائم الحرب كثير.

و أمّا ما قاله المفسّرون:

إنّ أكثر المفسّرين الذين تناولوا هذه الآية بالبحث صرّحوا بأنّ للغنيمة معنى واسعا فى اللغة يشمل غنائم الحرب و غيرها ممّا يحصل عليه الإنسان من دون مشقّة، و حتى الذين قالوا بأنّها تختص بغنائم الحرب «لفتوى فقهاء السنة» يعترفون بأنّ معناها فى اللغة غير مقيد، بل قيّدوه بدليل آخر.

«القرطبى» مفسّر أهل السنة المعروف، كتب فى ذيل الآية: «إنّ الغنيمة فى اللغة هو الخير الذى يناله الفرد أو الجماعة بالسعى و الجد»[۲۱۷].

و ينبغى أن يعلم أن علماء أهل السنة متفقون على أنّ المراد من الغنيمة المذكورة فى آية وَ اعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ هى الأموال التى يحصل عليها الناس بالقوّة فى الحرب، و ينبغى ملاحظة أنّ هذا القيد غير وارد فى اللغة، لكنّه ورد فى العرف الشرعى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۸

و يقول «الفخر الرازى» فى تفسيره: الغنم الفوز بالشىء يقول بعد هذا: إنّ المعنى الشرعى للغنيمة فى اعتقاد فقهاء أهل السنة هو غنائم الحرب ۲۱۸].

كما أنّ «صاحب المنار» قد ذكرها بمعناها الواسع و لم يخصصها بغنائم الحرب، بالرغم من اعتقاده بلزوم تقييد المعنى الواسع بالقيد الشرعى، و تخصيص الآية بغنائم الحرب ۲۱۹].

و قال «الآلوسى» فى تفسيره روح المعانى: «إن الغنم فى الأصل معناه كل ربح و منفعة»[۲۲۰].

و قال صاحب «مجمع البيان» فى بداية كلامه: إنّ الغنيمة بمعنى غنائم الحرب، إلّا أنّه لما بين معنى الآية قال: «قال أصحابنا: إنّ الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب و أرباح التجارات، و فى الكنوز و المعادن و الفوضى، و غير ذلك ما هو مذكور فى الكتب، و يمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإنّ فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم و الغنيمة»[۲۲۱].

و العجيب أنّ بعض المغرضين- و كأنّهم مأمورون ببث السّموم فى الأفكار- حرّفوا ما ذكره صاحب مجمع البيان فى كتاب ألفوه فى شأن الخمس، حيث ذكروا عبارته الأولى فى تفسير الغنيمة بأنّ المراد منه غنائم الحرب، و لكنّهم لم يشيروا إلى إيضاحاته حول عموميّة المعنى اللغوى و معنى الآية الذى أورده أخيرا، و قد كذبوا بما لفقوا على هذا المفسّر الإسلامى الكبير، و كأنّهم يتصورون أن كتاب مجمع البيان فى أيديهم و لن يقرأه غيرهم. و الأعجب من ذلك أنّهم لم يرتكبوا هذه الخيانة الفكرية فحسب، بل تصرفوا فى كتب أخرى فأخذوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۳۹

بما ينفعهم و تركوا ما يضرّهم.

و فى تفسير «الميزان» ورد بصراحة- استنادا إلى علماء اللغة- أنّ الغنيمة هى كل فائدة تستحصل عن طريق التجارة و الكسب أو الحرب، و مع أن سبب نزول الآية هو غنائم الحرب، إلّا أنّ ذلك لا يخصص مفهوم الآية و عموميتها[۲۲۲].

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا ما يلى:

إنّ آية الغنائم ذات معنى واسع يشمل كل فائدة و ربح، لإنّ معنى الغنيمة اللغوى عام و لا دليل على تخصيص الآية.

و الشىء الوحيد الذى استند إليه جماعة من مفسّرى أهل السنة، هو أنّ الآيات السابقة و الآيات اللاحقة لهذه الآية تتعلق بالجهاد، و هذا الأمر يكون قرينة على أنّ آية أَنَّما غَنِمْتُمْ تتعلق بغنائم الحرب.

فى حين أنّ أسباب النّزول و سياق الآيات لا يخصص عمومية الآية كما هو معلوم، و بعبارة أجلى: لا مانع من كون مفهوم الآية ذا معنى عام، و أن يكون سبب نزولها هو غنائم الحرب فى الوقت ذاته، فهى من مصاديق هذا المفهوم أو الحكم.

و نظير هذه الأحكام كثير فى القرآن الكريم و السنة المطهرة، بأن يكون حكمها عاما و مصداقها جزئيا «خاصّا».

فمثلا فى الآية (۷) من سورة الحشر نقرأ قوله تعالى: ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فهذه الآية ذات حكم كلى فى

وجوب الالتزام بأوامر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع أن سبب نزولها هو الأموال التی تقع بأیدی المسلمین من دون حرب، و یطلق علی ذلک اصطلاحا «الفیء».

و کذلک نجد فی الآیة (۲۳۳) من سورة البقرة حکما کلیا فی قوله: لا تُکَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَها مع أنّه یتعلق بالنساء المرضعات و الأمر موجه لآباء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۰

الأطفال الرضّع أن یعطوا المرضعات أجورهن حسب وسعهم. و کون الآیة واردة فی هذا الأمر الخاص لا یمنع من عمومیة القانون الذی جاءت به و هو عدم التکلیف.

الخلاصة، أنّ الآیة محل البحث جاءت فی سیاق آیات الجهاد، إلّا أنّها تقول:

«إنّ أیة فائدة أو ربح تحصلون علیه- و منه غنائم الحرب- فعلیکم أن تعطوا خمسه».

و خاصّة أنّ «ما» الموصولة «و من شیء» لفظان عامان لیس فیهما قید و لا شرط و هما یؤکّدان هذا الموضوع.

۶- ألا یعد تخصیص نصف الخمس لبنی هاشم تبعیضا بین المسلمین؟!

اشارة

یتصوّر بعض أن هذه الضریبة الإسلامیة الشاملة لخمس الکثیر من الأموال، أی نسبة (عشرین المائة) حیث یعطی نصفها للسادة من أبناء الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، نوع من التمییز العنصری أو ملاحظة العلاقات العائلیة، و أنّ هذا الأمر لا ینسجم و روح العدالة الاجتماعیة للإسلام و کونها شاملة لجمیع العالم.

الجواب:

إنّ هؤلاء لم یدر سوا ظروف هذا الحکم و خصوصیاته بدقة کافیة، فالإجابة علی هذا السؤال کامنة فی تلک الخصوصیات.

و توضیح ذلک: أوّلا: إن نصف الخمس المتعلق ببنی هاشم إنّما یعطی للمحتاجین و الفقراء منهم فحسب، و لما یکفیهم لسنة واحدة لا- أکثر، فبناء علی ذلک تصرف هذه الأموال علی المقعدین عن العمل و المرضی و الیتامی من الصغار، أو من یکون فی ضیق و حرج. لسبب من الأسباب و لهذا فإنّ القادرین علی العمل «بالفعل أو بالقوّة» و الذین بإمکانهم أن یدیروا حیاتهم المعاشیة، لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۱

لهم بأی وجه أن یأخذوا شیئا من الخمس.

أمّا ما یقوله بعض السواد بأنّ السّادة یمکنهم أخذ الخمس حتی و لو کان میزاب بیتهم من ذهب فهو کلام ساذج و لا أساس له أبدا.

ثانیا: إنّ المحتاجین و الضعفاء من سادات بنی هاشم لا یحق لهم أخذ شیء من الزکاة، فلهذا جاز لهم أن یأخذوا من هذا القسم من الخمس فحسب.[۲۲۳] ثالثا: إذا زاد القسم المختص لبنی هاشم عن احتیاجاتهم فإنّه یرجع إلی بیت المال حتی ینفق فی مصارف أخری، کما أنّه إذ نقص هذا السهم عن حاجتهم یدفع الباقی من بیت المال إلیهم أو من سهم الزکاة.

و بملاحظة تلک النقاط الثلاث یتّضح لنا عدم وجود فرق- فی الواقع- من النّاحیة المادیّة بین السادة و غیرهم.

فالمحتاجون من غیرهم یمکنهم سدّ حاجتهم من الزّکاة و یحرمون من الخمس، و المحتاجون من السادة یسدّون حاجتهم من الخمس و یحرمون من الزّکاة.

فیوجد فی الحقیقة صندوقان، هما صندوق الخمس و صندوق الزکاة، فیحق لکل من القسمین الأخذ من أحد الصندوقین و بصورة

التساوی فیما بینهما، أی ما یحتاجه کلّ لعام واحد (فتأمل).

فالذین لم یمعنوا النظر فی هذه الشروط و الخصوصیات تصوّروا من بیت المال أکثر من غیرهم أو أنّهم یتمتعون بامتیاز خاص.

و السؤال الوحید الذی یطرح نفسه هنا هو: إذا قلنا بعدم الفرق بین الإثنین آخر الإمر، فما جدوی هذه الخطة إذا؟! و یمکن أن ندرک جواب هذا التساؤل بملاحظة شیء واحد، و هو أنّ بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۲

الزکاة و الخمس بونا شاسعا، إذ أنّ الزکاة من ضرائب الأموال العامّة للمجتمع الإسلامی فتصرف عموما فی هذه الجهة، و لکن الخمس من ضرائب الحکومة الإسلامیة فیصرف علی القیادة و الحکومة الإسلامیة و تؤمن حاجتها منه.

فالتحریم علی السادة من مدّ أیدیهم للأموال العامّة، «الزّکاة» کان فی الحقیقة لیجتنبوا عن هذا المال باعتبارهم أقارب النّبی، و لکیلا تکون ذریعة بید الأعداء بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سلط أقرباءه علی الأموال العامّة.

إلّا أنّه- من جانب آخر- ینبغی سدّ حاجة الضعفاء و الفقراء من السادة، لذلک جعلت هذه الخطة لسدّ حاجتهم من میزانیة الحکومة الإسلامیة لا من المیزانیة العامّة ففی الحقیقة أنّ الخمس لیس امتیازا لبنی هاشم، بل هو لإبعادهم من أجل الصالح العام و لئلا ینبعث سوء الظن بهم ۲۲۴].

و الذی یسترعی النظر أنّ هذا الإمر أشارت إلیه أحادیث الشیعة و السنة،

ففی حدیث عن الإمام الصادق نقرأ: «أنّ أناسا من بنی هاشم أتوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسألوه أن یستعملهم علی صدقات المواشی، و قالوا: یکون لنا هذا السهم الذی جعل اللّه عزّ و جلّ للعاملین علیها فنحن أولی به، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا بنی عبد المطلب (هاشم) إن الصدقة لا تحل لی و لا لکم، و لکنّی وعدت الشفاعة، إلی أن قال: «أ ترونی مؤثرا علیکم غیرکم»[۲۲۵].

و یدل هذا الحدیث علی أن بنی هاشم کانوا یرون فی ذلک الأمر حرمانا، و قد وعدهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یشفع لهم.

و نقرأ حدیثا فی صحیح مسلم الذی یعد من أهم مصادر الحدیث عند أهل السنة، خلاصته أنّ العباس و ربیعة بن الحارث جاء إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبا منه أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۳

یأمر ابنیهما- و کانا فتیین و هما عبد المطلب بن ربیعة و الفضل بن العباس- بجمع الزکاة لیتمکنا أن یأخذا سهما منه شأنهما کشأن الآخرین، لیؤمّنا لنفسیهما المال الکافی لزواجهما، فامتنع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أمر بسد حاجتهما عن طریق آخر و هو الخمس.

و یستفاد من هذا الحدیث الذی یطول شرحه أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان مصرّا علی أبعاد أقاربه عن الحصول علی الزکاة التی هی من أموال عامّة الناس.

من مجموع ما قلناه یتّضح أنّ الخمس لیس امتیازا للسّادة، بل هو نوع من الحرمان لحفظ المصالح العامّة ...

۷- ما هو المراد من سهم اللّه؟

إنّ ذکر سهم علی أنّه سهم اللّه، للتأکید علی أهمیة مسألة الخمس و إثباتها، و لتأکید ولایة الرّسول و القیادة الإسلامیة و حاکمیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا.

أى كما أنّ اللّه جعل سهما باسمه و هو أحق بالتصرف فيه، فقد أعطى النّبى و الإمام حق الولاية و التصرف فيه كذلك، إلّا فإنّ سهم اللّه يجعل تحت تصرف النّبى أو الإمام يصرفه فى المكان المناسب، و ليس للّه حاجة فى سهم معين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ وَ لكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (۴۲) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلاً وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴۳) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴۴)

التّفسير

الأمر الذى لا بدّ منه:

يعود القرآن فى هذه الآيات الكريمة- و لمناسبة الكلام فى الآيات السابقة إلى يوم الفرقان يوم معركة بدر و انتصار المسلمين لمؤزر فى ذلك الموقف الخطير- يعود ليعرب عن أجزاء من فصول تلك المعركة، ليطلع المسلمون على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۵

أهمية ذلك النصر العظيم.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوى

«العدوة» مأخوذة من «العدو» على زنة «السّرو» و معناها فى الأصل التجاوز، و لكنّها تطلق على أطراف كل شىء، و حواشيه، لأنّها تتجاوز الحدّ الوسط إلى إحدى الجوانب، و جاءت هذه الكلمة فى هذه الآية بهذا المعنى أى «الطرف، و الجانب».

«و الدنيا» مأخوذة من الدنّو، على وزن العلوّ و تعنى الأقرب، و يقابل هذا اللفظ الأقصى و القصوى.

و كان المسلمون فى الجانب الشمالى من ميدان الحرب الذى هو أقرب إلى جهة المدينة، و كان الأعداء فى الجانب الجنوبى و هو الأبعد.

و يحتمل أن يكون المعنى هو أنّ المسلمين لاضطرارهم كانوا فى القسم الأسفل فى الميدان، و كان الأعداء فى القسم الأعلى منه و هو يعدّ ميزة لهم.

ثمّ تعقّب الآية قائلة: وَ الرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ

و كما رأينا من قبل فإنّ أبا سفيان حين علم بتحرّك المسلمين غيّر مسير قافلته إلى جهة أخرى على جانب البحر الأحمر حتى صار قريبا من مكّة، و لو أنّ المسلمين لم يضلّوا أثر القافلة فلعلهم كانوا يتبعونها، و لا يوفقون لمواجهة الأعداء و منازلتهم فى معركة بدر التى تحقق فيها النصر العظيم و الفتح المبين.

و بغض النظر عن كل ذلك فإنّ عدد قوات المسلمين و إمكاناتهم كان أقلّ من قوات الأعداء من جميع الوجوه، لهذا فإنّ الآية الكريمة تقول: وَ لَوْ تَواعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعادِ.

لأنّ الكثير منكم سيدركون ضعفهم الظاهرى قبال الأعداء فيتقاعسون عن قتالهم، و لكن اللّه جعلكم إزاء أمر مقدر، و كما تقول الآية: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۶

مَفْعُولًا.

و ليعرف الحق من الباطل فى ظلال ذلك النصر غير المتوقع و المعجزة الباهرة و لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.

و المراد من «الحياة» و «الهلكة» هنا هو الهداية و الضلال، لأنّ يوم بدر الذى سمّى يوم الفرقان تجلّى فيه الإمداد الإلهى لنصرة المسلمين، و ثبت فيه أن لهؤلاء علاقة باللّه و أنّ الحق معهم.

و تعقبّ الآية قائلة: وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ

فقد سمع نداء استغاثاتكم، و كان مطلعا على نيّاتكم، و لذلك أيّدكم بنصره على أعدائكم.

إنّ القرائن تدلّ عن أنّ بعض المسلمين لو كانوا يعرفون حجم قوّة أعدائهم لامتنعوا عن مواجهتهم، مع أنّ طائفة أخرى من المسلمين كانوا مطيعين للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مواجهة جميع الشدائد، لهذا فإنّ اللّه جعل الأمور تسير بشكل يلتقى فيه المسلمون- شاءوا أم أبوا- مع أعدائهم، فكانت المواجهة المصيرية.

و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى فيه منامه من قبل أن قلّة المشركين تقاتل المسلمين، و كانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر و بشارة به، فقد رواه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للمسلمين فازدادت العزائم فى الزحف نحو معركة بدر.

و بالطبع فإنّ رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى منامه كانت صحيحة، لأنّ قوّة الأعداء و عددهم بالرغم من كثرتهم الظاهرية، إلّا أنّهم كانوا قلّة فى الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهة المسلمين، و نحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير و إشارة، و أن الرؤيا الصحيحة هى التى تكشف الوجه الباطنى للأمور.

و الآية الثّانية: من الآيات محل البحث تشير إلى الحكمة من هذا الأمر، و النعمة التى أولاها سبحانه و تعالى للمسلمين عن هذا الطريق، فتقول: إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ و لهبطت معنوياتكم، و لم يقف الأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۷

عند هذا الحدّ، بل لأدّى ذلك إلى التنازع و اختلاف الكلمة وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ و أنقذ الأمر بواسطة الرؤيا التى أظهرت الوجه الباطنى لجيش الأعداء، و لأنّ اللّه يعرف باطنكم إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و تذكّر الآية الأخرى بمرحلة من مراحل معركة بدر تختلف عن سابقتها، ففى هذه المرحلة و فى ظل خطاب النّبى المؤثر فيهم و البشائر الرّبانية، و رؤية حوادث حال التهيؤ للقتال- كنزول المطر لرفع العطش و لتكون الرمال الرخوة صالحة لساحة المعركة- تجددت بذلك المعنويات و كبر الأمل بالنصر و قويت عزائم القلوب، حتى صاروا يرون الجيش المعادى و كأنّه صغير ضعيف لا حول و لا قوة له، فتقول الآية المباركة: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا.

أمّا العدوّ فإنّه لما كان يجهل معنويات المسلمين و ظروفهم، فكان ينظر إلى ظاهرهم فيراهم قليلا جدّا، بل رآهم أقل ممّا هم عليه، إذ تقول الآية فى الصدد وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ

حتى روى عن أبى جهل أنّه قال: إنّما أصحاب محمّد أكلة جزور، و فى ذلك كناية عن منتهى القلّة. أو أنّهم سيحسمون الأمر معهم فى يوم واحد من الغداة حتى العشية، و قد جاء فى الأخبار أنّهم كانوا ينحرون كل يوم عشرة من الإبل لطعامهم، لأنّ عدد جيش قريش كان حوالى ألف مقاتل.

و على كل حال: فقد كان تأثير هذين الأمرين كبيرا فى نصر المسلمين، لأنّهم من جهة رأوا جيش العدو قليلا فنزال كل خوف و رعب من نفوسهم، و من جهة أخرى ظهر عدد المسلمين قليلا فى عين العدو، كيلا يترددوا فى قتال المسلمين و ينصرفوا عن الحرب التى

أدت فى النهاية إلى هزيمتهم.

لهذا فإنّ الآية تعقب على ما سبق قائلة: لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا.

فلم تنته هذه المعركة وحدها وفق سنة اللّه فحسب، بل إن إرادته نافذة فى كل شىء وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۸

و فى الآية (۱۳) من سورة آل عمران إشارة إلى المرحلة الثّالثة من قتال يوم بدر، إذ تشير إلى أنّ الأعداء لمّا اشتعل أوار الحرب و رأوا الضربات الشديدة لجيش الإسلام تنزل على رؤوسهم كالصواعق، أصابهم الذعر و الخوف الشديد، فأحسوا عندئذ و كأنّ جيش الإسلام قد ازداد عدده و تضاعف أضعاف ما كان عليه، فانهارت معنوياتهم و أدّى هذا الأمر إلى هزيمتهم و تمزقهم.

و ممّا ذكرناه آنفا يتّضح أنّه لا يوجد أى تناقض، لا بين الآيات محل البحث، و لا بينها و بين الآية (۱۳) من سورة آل عمران، لإنّ كلّا من هذه الآيات تبيّن مرحلة من مراحل المعركة.

فالمرحلة الأولى: هى ما قبل القتال، و هى ما ورد فيها عن رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى منامه و رؤيته جيش المشركين قليلا.

و المرحلة الثّانية: هى نزولهم فى أرض بدر و معرفة بعض المسلمين بعدد الأعداء و عدده و خوف بعضهم و خشيته من قتالهم.

و المرحلة الثّالثة: هى حصول المواجهة المسلحة و ما أنعمه اللّه عليهم، و ما رأوه من مشاهد قلّلت عدد أعدائهم فى أعينهم «فتأملوا بدقّة!».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۴۹

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۴۵) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۴۶) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۴۷)

التّفسير

ستة أوامر أخرى فى شأن الجهاد:

قال المفسّرون: إنّ أبا سفيان بعد ما استطاع النجاة بقافلة قريش التجارية من مواجهة المسلمين، أرسل مبعوثا إلى قريش الذاهبين إلى ساحة بدر و دعاهم إلى العودة، لأنّه رأى أن لا حاجة إلى القتال، لكن أبا جهل هذا المغرور و المتعصب و المتكبر أقسم أن لا يرجعوا حتى يبلغوا أرض بدر «و كانت بدر قبل هذه المعركة من مراكز اجتماع العرب، و تقام فيها سوق تجارية كل عام» و يمكثوا فيها ثلاثة أيّام، و ينحروا الإبل و يأكلون ما يشتهون و يشربون الخمر، و تغنى لهم المغنيّات، حتى يسمع جميع العرب بهم و تثبت بذلك قوتهم و قدرتهم! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۰

لكن أمرهم آل إلى الهزيمة فشربوا كؤوس المنايا المترعة بدلا من كؤوس الخمر، و جلست المغنيات ينحن على جنائزهم!! و الآيات

محل البحث تشير إلى هذا الموضوع، و تنهى المسلمين عن مثل هذه الأعمال، و تضع لهم تعاليم جديدة فى شأن الجهاد إضافة إلى ما سبق من هذه الأمور.

و بصورة عاملة فإنّ فى الآيات محل البحث ستة أوامر للمسلمين هى:

۱- أنّها تقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا أى أن إحدى علائم الإيمان هى ثبات القدم فى جميع الأحوال، و خاصّة فى مواجهة الأعداء.

۲- وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و لا ـ ريب أنّ المراد من ذكر اللّه هنا ليس هو الذكر اللفظى فحسب، بل حضور القلب، و ذكر علمه تعالى و قدرته غير المحدودة و رحمته الواسعة، فهذا التوجه إلى اللّه يقوّى من عزيمة الجنود المجاهدين، و يشعر الجندى بأنّ سندا قويّا لا تستطيع أية قدرة فى الوجود أن تتغلب عليه يدعمه فى ساحة القتال، و إذا قتل فسينال السعادة الكبرى و يبلغ الشهادة العظمى، و جوار رحمة اللّه، فذكر اللّه يبعث على الاطمئنان و القوّة و القدرة و الثبات فى نفسه.

بالإضافة إلى ذلك، فذكر اللّه و حبّه يخرجان حبّ الزوجة و المال، و الأولاد من قلبه، فإنّ التوجه إلى اللّه يزيل من القلب كل ما يضعفه و يزلزله، كما

يقول الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام فى دعائه المعروف- فى الصحيفة السجادية- بدعاء أهل الثغور: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة، و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون، و اجعل الجنّة نصب أعينهم».

۳- كما أنّ من أهم أسس المبارزة و المواجهة هو الالتفات للقيادة و إطاعة أوامر القائد و الآمر، الآمر الذى لولاه لما تحقق النصر فى معركة بدر، لذلك فإنّ الآية بعدها تقول: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

۴- وَ لا تَنازَعُوا فَتَفْشَلُوا لأنّ النزاع و الفرقة امام الأعداء يؤدى إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۱

الضعف و خور العزيمة، و نتيجة هذا الضعف و الفتور هى ذهاب هيبة المسلمين و قوتهم و عظمتهم وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ

«و الريح» فى اللغة، هى الهواء. فالنزاع يولد الضعف و الوهن.

و أمّا ذهاب الريح، فهو إشارة لطيفة إلى زوال القوّة و العظمة، و عدم سير الأمور كما يرام، و عدم تحقق المقصود، لأنّ حركة الريح فيما يرام توصل السفن إلى مقاصدها، و لما كانت الريح فى ذلك العصر أهم قوّة لتحريك السفن فقد كانت ذات أهمية قصوى يؤمئذ.

و حركة الرّيح فى الرّوايات و البيارق تدل على ارتفاع الرّاية التى هى رمز القدرة و الحكومة، و التعبير آنف الذكر كناية لطيفة عن هذا المعنى.

۵- ثمّ تأمر الآية بالاستقامة بوجه العدوّ، و فى قبال الحوادث الصعبة، فتقول: وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ

و الفرق بين ثبات القدم فى الأمر الأوّل، و الاستقامة و الصبر فى الأمر الخامس، هو من جهة أن ثبات القدم يمثل الناحية الظاهرية، «الجسمية» أمّا الاستقامة و الصبر فليسا ظاهريين، بل هما أمران نفسيان و معنويان.

۶- و تدعو الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- المسلمين إلى اجتناب الأعمال الساذجة البلهاء، و رفع الأصوات الفارغة، و تشير إلى قضية أبى سفيان و أسلوب تفكيره هو و أصحابه، فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَ رِئاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

فأهدافهم غير مقدسة، و كذلك أساليبهم فى الوصول إليها، و لقد رأينا كيف أبيدوا و تلاشى كلّ ما جاءوا به من قوّة و عدّة، و سقط بعضهم مضرجا بدمائه فى التراب، و أسبل الآخرون عليهم الدّموع و العبرات فى مأتمهم، بدل أن يشربوا الخمر فى حفل ابتهاجهم، و

تختتم الآية بالقول: وَ اللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۲

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۴۸ الى ۵۱]

اشارة

وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (۴۸) إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۹) وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۵۰) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۵۱)

التّفسير

المشركون و المنافقون و وساوس الشيّطان:

مرّة أخرى نلاحظ فى هذه الآيات تجسيد جانب آخر من معركة بدر بما يتناسب و الآيات السابقة فى هذا الشأن، أو بما يتناسب و الآية الأخيرة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۳

تكلمت عن أعمال المشركين الشيطانيّة فى يوم بدر.

فكما أنّ دعاة الحق مؤيدون باللّه و ملائكة فى نهجهم الذى سلكوه، فإنّ أتباع الباطل و الضالين متأثرون بوساوس الشياطين و إغواءاتهم.

و قد مرّ فى بعض الآيات السابقة كيف أن الملائكة دافعت عن المقاتلين المسلمين فى بدر (و مرّ تفسير ذلك). فإنّ أوّل آية من الآيات محل البحث تتكلم عن دفاع الشياطين عن المشركين، فتبدأ بالقول: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ

إنّ تزيين الشيطان للعمل يكون عن طريق تحريك الأهواء و الشهوات و الرّذائل، فيتزين للإنسان عمله حتى ينظر إليه باعجاب و يعده عملا عقلائيا من جميع الجهات، و يراه منطقيا نبيلا.

ثمّ تقول الآية: وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جارٌ لَكُمْ

و لن آلو جهدا فى الدفاع عنكم، كما يدافع الجار عن جاره و يظهر له وفاءه و إخلاصه، و ألازمكم ملازمة الظل للشاخص.

كما و يحتمل فى تفسير الجار هنا أنّه ليس المراد من الجار جار الدّار، بل هو من يؤوى غيره و يؤمنه و يلجأ إليه، لأنّ من عادة العرب و خاصّة القبائل أو الطوائف القويّة منها أن تضمّن من يلجأ إليها من أصدقائها و أصحابها و تؤمنهم و تدافع عنهم بكل ما أوتيت من قوّة.

فالشيطان يمنح أصحابه المشركين الأمان و ورقة اللجوء إليه.

ثمّ تقول الآية: فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ

و استدل على نكوصه و تراجعه القهقرى بدليلين هما:

أوّلا قوله: إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ

فإنّه يرى آثار النصر جيدا فى وجوه المسلمين الغاضبة و يشاهد عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۴

سمات اللطف الإلهى و الإمداد الغيبى و تأييد الملائكة لهم، فمن الطبيعى أن يتراجع عند ما يرى كل ذلك الدعم الرّبانى و القوى الغيبية.

و الثّانى قوله: إِنِّى أَخافُ اللَّهَ

فإنّ الجزاء الإلهى ليس أمرا يسيرا يمكنه أن يقف بوجهه، بل إنّه هو العذاب الأليم وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ

هل جاء الشيطان عن طريق الوسوسة أو ظهر متجسدا لهم؟

جرى الكلام بين المفسّرين حول مسألة نفوذ الشيطان إلى قلوب المشركين، و قوله لهم فى ساحة معركة بدر، و كيفية حصول ذلك، و تتلخص جميع الآراء القديمة و الحديثة فى عقيدتين:

۱- يعتقد بعضهم أنّ هذا الأمر حصل على صورة وساوس باطنية، فقد زين لهم بوساوس أعمالهم فى عيونهم و صوّر لهم أنّهم يملكون قوّة لا تقهر، و أغراهم و صوّر لهم أنّه هو ملجؤهم، إلّا أنّهم بعد قتالهم الشديد للمسلمين، و الحوادث الإعجازية التى حققت النصر للمسلمين و محت الوساوس عن قلوبهم، أحسوا بالانكسار و أنّه لا ملجأ لهم أبدا سوى ما ينتظرهم من الجزاء الإلهى و العذاب الشديد.

۲- و يرى بعضهم الآخر أنّ الشيطان تجسد لهم فى صورة الإنسان، ففى رواية أوردتها كتب الحديث كثيرا: إنّ قريشا عند ما قررت التحرك و المسير نحو بدر، كانت تخشى الهجوم من طائفة بنى كنانة لتشاجر كان بينها و بينهم، و عند ذاك جاءهم إبليس فى صورة «سراقة بن مالك» الذى كان من رؤوس بنى كنانة و طمأنهم بأنّهم يوافقونهم على هذا الأمر، و أنّهم سينتصرون، لكنّه تراجع لما رأى نزول الملائكة، و لاذ بالفرار و انهزم الجيش عند ما رأى ضربات المسلمين الشديدة و انهزام إبليس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۵

و قالت قريش بعد عودتها لمكّة: إنّ سراقة السبب فى انهزام الجيش، فوصل الخبر إلى سراقة فأقسم أنّه لا علم له بذلك، و عند ما قصّ عليه بعضهم ما كان منه فى يوم بدر أنكر كل ذلك و أقسم أنّه لم يخرج من مكّة و لم يحصل من تلك الأمور شىء أبدا، فعلم أنّ ذلك لم يكن سراقة بن مالك ۲۲۶].

و دليل الطائفة الأولى أنّ إبليس لا يستطيع أن يتمثل فى سورة إنسان.

بينما ترى الطائفة الثّانية عدم وجود دليل على استحالة هذا الأمر أبدا، و خاصّة أنّه نقل ما يشبه هذه القصّة فى هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجىء، رجل كبير على هيئة شيخ نجدى إلى دار الندوة، و إضافة إلى أن سياق الآية و ظاهر المحادثة يتلاءم مع تجسيد الشيطان.

و على أية حال، فإنّ الآية تدل على أنّ الناس إذا ساروا فى نهج الحق أو الباطل فى الأمور و القضايا الجماعية، فإنّ سلسلة من الإمدادات و القوى الغيبية أو القوى الشيطانية ستتحرك معهم، و هى تظهر فى مختلف الصور، فعلى السائرين فى سبيل الحق و منهاج اللّه الحذر من هذا الأمر.

و تشير الآية بعدها إلى روحيّة جماعة ممن يميلون إلى الشرك فى ساحة بدر، فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ حين تصوروا أنّهم سينتصرون مع قلّة العدد و العدّة، أو أنّهم سينالون الشهادة و الحياة الابدية فى هذا المسار.

لكن هؤلاء لعدم إيمانهم و عدم معرفتهم بالإمداد الإلهى أنكروا تلك الحقائق البينة، لأنّه كما تقول الآية المباركة: وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

و قد اختلف المفسّرون فى المراد من المنافقين و الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ و لا يستبعد أن تكون العبارتان تشير ان إلى المنافقين فى المدينة، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۶

القرآن الكريم عند ما يتعرض لموضوع المنافقين فى أوّل سورة البقرة يقول: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً[۲۲۷] فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية- محل البحث- إمّا أنّهم من المنافقين الذين التحقوا بصفوف المسلمين من المدينة، و كانوا يظهرون الإسلام و الإيمان و لم يكونوا فى حقيقتهم كذلك، أو أنّهم من الذين تظاهروا بالإيمان فى مكّة لكنّهم لم يهاجروا إلى المدينة و انضموا فى معركة بدر إلى صفوف المشركين، فلمّا رأوا قلّة المسلمين فى معركة بدر قبال جيوش الكافرين قالوا: إنّ هؤلاء أصابهم الغرور فى دينهم الجديد و جاءوا إلى هذه الساحة.

و على أية حال فإنّ اللّه سبحانه يخبر عن نيّات هؤلاء الباطنية، و يوضح الخطأ فى تفكير هؤلاء و أمثالهم.

و تجسّد الآية بعدها كيفية موت الكفار و نهاية حياتهم، فتتوجه بالخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

و مع أنّ الفعل «ترى» فعل مضارع، لكنّه مع وجود «لو» يدل على الماضى، فتكون الآية إشارة إلى حالة المشركين السابقة و موتهم الأليم، و لهذا السبب يعتقد بعض المفسّرين أن ذلك إشارة إلى قتل هؤلاء على أيدى الملائكة فى بدر، و أوردوا فى هذا الصدد بعض الرّوايات غير المؤكّدة. إلّا أنّ القرائن- كما أشرنا سابقا- تدل على عدم تدخل الملائكة مباشرة فى الحرب أو المعركة، فبناء على هذا فإنّ الآية محل البحث تتكلم عن ملائكة الموت و كيفية قبض الأرواح و الجزاء الأليم الذى يمنى به أعداء الحق فى تلك اللحظة.

و عَذابَ الْحَرِيقِ إشارة إلى جزاء يوم القيامة و عقابه، و قد جاء هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۷

فى آيات أخرى من القرآن كالآية (۲۲) من سورة الحج، و الآية (۱۰) من سورة المعارج بالمعنى ذاته ...

ثمّ يقال لأولئك: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ

و التعبير ب «أيديكم» إنّما جاء لأنّ أكثر أعمال الإنسان يجريها بالاستعانة باليد، و إلّا فإنّ الآية تشمل جميع الأعمال البدنية و الروحية.

و تضيف الآية الأخيرة معقبة بالقول: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

و مصطلح «الظلّام» صيغة مبالغة، و معناها شديد الظلم، و قد أوضحنا السبب فى اختيار هذه الكلمة و أمثالها فى بحوث حول الظلم فى المجلد الثّالث من التّفسير الأمثل فليراجع هناك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۸

الآيات: [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۲ الى ۵۴]

اشارة

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۵۲) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۵۳) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ (۵۴)

التّفسير

سنّة اللّه تقبل التغيير و التبديل:

فى هذه الآيات إشارة إلى «سنة إلهية دائمة» تتعلق بالشعوب و الأمم و المجتمعات، لئلا يتصور بعض أنّ ما أصاب المشركين يوم بدر من عاقبة سيئة كان أمرا استثنائيا، فإنّ من جاء بمثل تلك الأعمال فى السابق، أو سيقوم بها مستقبلا سينال العاقبة ذاتها.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۵۹

فبناء على هذه فإنّ قريشا و المشركين و عبدة الأصنام فى مكّة، الذين أنكروا آيات اللّه و تعنتوا بوجه الحق و حاربوا قادة الإنسانية، ليسوا وحدهم الذين نالوا جزاء ما اقترفوه، بل أنّ ذلك قانون دائم، و سنة إلهية تشمل من هم أقوى منهم- كآل فرعون- كما تشمل الشعوب الضعيفة كذلك، ثمّ توضح الآية التالية أصل هذا الموضوع فتقول: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

و بعبارة أخرى: إنّ الرحمة الرّبانيّة عامّة تسع جميع الخلق، لكنّها تبلغ الناس و تصل إليهم بما يناسب كفاءتهم و شأنهم، فإنّ اللّه سبحانه يغدق مبتدئا بنعمه الماديّة و المعنويّة على جميع الأمم، فإذا استفادوا من تلك النعم فى السير نحو الكمال و الاستمداد منها فى سبيل الحق تعالى و الشكر على نعمائه، بالإفادة منها إفادة صحيحة، فإنّ اللّه سبحانه سيثبّت نعماءه و يزيدها. أمّا إذا استغلت تلك المواهب فى سبيل الطغيان و الانحراف و العنصرية، و كفران النعمة و الغرور و الفساد، فإنّ اللّه سيسلبهم تلك النعم أو يبدلها إلى بلاء و مصيبة، بناء على ذلك فإنّ التغيير يكون من قبلنا دائما، و إلّا فإنّ النعماء الإلهية لا تزول! ...

و تعقيبا على هذا الهدف يعود القرآن ليشير إلى حال الطغاة- كفرعون و أقوام آخرين- فيقول: كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَغْرَقْنا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلٌّ كانُوا ظالِمِينَ ظلموا أنفسهم و ظلموا سواهم أيضا.

الجواب على سؤال:

قد يرد هنا سؤال و هو: لم تكررت عبارة كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ فى الآى بفاصلة قليلة مرّتين، و مع اختلاف يسير فى التعبير؟! و للإجابة على هذا التساؤل ينبغى الالتفات إلى لطيفة، و هى أنّه بالرغم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۰

أنّ التكرار أو التأكيد على المسائل الحساسة من أصول البلاغة، و يلاحظ فى أقوال البلغاء و الفصحاء، لكنّ فى الآيات- آنفة الذكر- فرقا مهما يخرج تلك العبارة عن صورة التكرار. و هو أنّ الآية الأولى تشير إلى الجزاء الإلهى فى مقابل إنكار آيات الحق و التكذيب بها، ثمّ تمثل حال هؤلاء بقوم فرعون و الأقوام السابقين.

إلّا أنّ الآية الثّانية تشير إلى تبدل النعم فى الدنيا و ذهاب المواهب الرّبانية، مثل الانتصارات و الأمن و القدرات و ما يفتخر به. ثمّ مثّلت الآية بحال فرعون و الأقوام السابقين.

ففى الحقيقة أنّ جانبا من الكلام كان عن سلب النعم و ما ينتج عن ذلك من الجزاء، و يقع الكلام فى جانب آخر منه على تبدل النعم و تحوّلها.

ملاحظتان

۱- أسباب حياة الشعوب و موتها

يعرض التأريخ لنا شعوبا و أممّا كثيرة، فطائفة اجتازت سلّم الرقى بسرعة، و وصلت طائفة ثانية إلى أسفل مراحل الانحطاط، و طائفة ثالثة عاشت يوما فى تشتت و ضياع و تناحر و تفرقة، ثمّ قويت فى يوم آخر، و طائفة رابعة على العكس منها إذ سقطت من أعلى مراتب الفخر إلى قعر و ديان الذلة و الضياع.

و الكثير من الناس يمرّون مرور الكرام على حوادث التأريخ المختلفة دون أى تفكر فيها، و الكثير منهم بدلا من البحث فى العلل أو الأسباب الواقعية لحياة الشعوب و موتها يرجعون ذلك إلى أسباب وهمية و خيالية.

و يرجعوها آخرون إلى حركة الأفلاك و دورانها إيجابا و سلبا.

و أخيرا فإنّ بعضهم لجأ إلى مسألة القضاء و القدر بمفهومها المحرّف، أو إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۱

مسائل حسن الطالع و الحظ و عدمهما، و ما شابه ذلك، فيرجعون كل الحوادث الحسنة أو المرّة إلى هذه الأمور. و كل ذلك بسبب الخوف من الأسباب الحقيقة لتلك الأمور.

و القرآن الكريم فى الآيات المتقدمة يضع أصبع التحقيق على الأصل و المنبع، و يبيّن أنواع العلاج و أسباب النصر و الهزيمة فيقول: لأجل معرفة الأسباب الأصيلة لا يلزم البحث عنها فى السماوات و لا فى الأرضين، و لا وراء الأوهام و الخيال، بل ينبغى البحث عنها فى وجودكم و فكركم و أرواحكم و أخلاقكم، و فى نظمكم و الاجتماعية، فإنّ كل ذلك كامن فيها.

فالشعوب التى فكّرت مليّا و حركت عقولها و وحدّت جموعها و تآخت فيما بينها، و كانت قوية العزم و الإرادة، و قامت بالتضحية و الفداء عند لزوم ذلك، هذه الشعوب منتصرة حتما.

أمّا إذا حلّ الضعف و التخاذل و الركود مكان العمل و السعى الحثيث، و حلّ التراجع مكان الجرأة و النفاق و التفرقة مكان الاتحاد، و حبّ النفس مكان الفداء، و حل التظاهر و الرياء محل الإخلاص و الإيمان، فيبدأ عند ذلك السقوط و البلاء.

و فى الحقيقة أنّ جملة: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ تبيّن أسمى قانون فى حياة الإنسانية، و توضح أنّ مدرسة القرآن الكريم هى أكرم مدرسة فكرية لحياة المجتمعات الإنسانية، و أوضحها حتى لأولئك الذين نسوا فى عصر الفضاء و الذرّة قيمة الإنسان، و جعلوا حركة التأريخ مرتبطة بالمصانع و المعامل و قضايا الإقتصاد.

فهى تقول لهؤلاء: إنّكم فى خطأ كبير إذا أخذتم بالمعلول و تركتم العلة الأصلية أو نسيتموها، و تمسكتم بغصن واحد من شجرة كبيرة و تركتم أصولها.

و لئلا نمضى بعيدا، فإنّ تأريخ الإسلام، أو تأريخ حياة المسلمين- بتعبير أصح- قد شهد انتصارات باهرة فى بداياته، و انكسارات و هزائم مرّة صعبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۲

بعدها.

ففى القرون الأولى كان الإسلام يتقدم فى العالم بسرعة، و يبث فى كل مكان منه أنوار العلم و الحريّة، و يبسط ظلاله على أقوام جدد بالثقافة و العلوم، فكان ذا قدرة متحركة و محركة و بنّاءة معا، و جاء بمدينة زاهرة لم يشهد التاريخ مثلها، و لم تمر بضعة قرون حتى أخذ الخمول يعطل تلك الحركة، و أخذت الفرقة و التشتت و الضعف و الخور و التخلف مكان ذلك الرقى، حتى بدأ المسلمون

يمدون أيديهم إلى الآخرين طلبا لوسائل الحياة الابتدائية، و يبعثون بأبنائهم إلى ديار الأجانب لأخذ الثقافة و العلم، بينما كانت جامعات المسلمين يومئذ من أرقى جامعات العالم العلمية و المراكز التى تهوى إليها أفئدة الأصدقاء و الأعداء ابتغاء المعرفة.

لكن الأمور بلغت حدا بحيث أنّهم لم يصدروا علما و صناعة، بل استوردوا ما يحتاجونه من خارج بلدانهم.

و أرض فلسطين التى كانت يوما مركز مجد المسلمين و عظمتهم و لم يتمكن الصليبيون- لمدّة مائتى عام- برغم تقديمهم ملايين القتلى و الجرحى من ابترازها من أيدى المقاتلين المسلمين. إلّا أنّهم أسلموها «اليوم» خلال ستة أيّام ببساطة، فى وقت كان عليهم أن يعقدوا المؤتمرات أشهرا و سنين لإرجاع شبر منها. و لا يعرف بعد هذا إلى أية نتيجة سيصلون؟

ألم يعد اللّه عباده بالقول: وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ۲۲۸] أو قوله: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۲۲۹].

أو قوله: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ ۲۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۳

فهل اللّه عاجز- و العياذ باللّه- من تحقيق و عوده؟! أو قد نسيها! أو غيّرها؟

و إذا لم يكن كذلك، فلم ذهب كل ذلك المجد و العظمة و العزّة؟

إنّ القرآن الكريم يجيب- فى آية قصيرة- على كل تلك التساؤلات، و يدعو إلى العودة إلى أعماق الوجدان، و النظر فى ثنايا المجتمع، فسترون أن التغيير يبدأ من أنفسكم، و أنّ الألطاف و الرحمة الإلهية تعم الجميع، فأنتم الذين أذهبتم قدراتكم و طاقاتكم هدرا فصرتم إلى هذا الحال.

و لا تتكلم الآية عن الماضى فحسب ليقال: إنّ ما مضى قد مضى بما فيه من مرارة و حلاوة، و انتهى و لن يعود، و الكلام عنه غير مجد و غير نافع. بل تتكلم الآية عن الحاضر و المستقبل أيضا، فإنّكم إذا عدتم إلى اللّه و أحكمتم أسس إيمانكم، و وعت عقولكم، و ذكرتم عهودكم و مسئولياتكم، و تصافحت الأيدى بعضها مع بعض و تعالت الصرخات المدوّية للنهضة، و بدأتم بالجهاد و الفداء و السعى و العمل على كل صعيد، فسوف تعود المياه إلى مجاريها، و ستنقضى الأيّام السود و ترون أفقا مشرقا و ضاء، و ستعود أمجادكم العظيمة، فى صورة أجلى و أكبر! تعالوا لتبديل أحوالكم، و ليكتب علماؤكم، و يجاهد مقاتلوكم، و يسعى التجار و العمال، و يقرأ شبابكم أكثر فأكثر و يطهروا أنفسهم و تزداد معارفهم، ليتحرك دم جديد فى عروق مجتمعكم فتتجلّى قدراتكم بشكل يعيد له أعداؤكم الأرض المحتلة التى لم يعد منه شبر واحد بالرغم من كل أنواع التذلل و الرجاء و الاستعطاف!! ...

و من الضرورى أن نذكر هذه اللطيفة، و هى أنّ القيادة ذات تأثير مهم فى مصير الشعوب، و لا ننسى أن الشعوب الواعية تختار لنفسها القيادة الحكيمة اللائقة، أمّا القادة الضعاف أو المتكبرون أو الظالمون فيسحقهم غضب الشعوب و إرادتهم القوية، و لا ينبغى أن ننسى أنّ ما وراء الأسباب و العوامل الظاهرية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۴

سلسلة من الإمدادات الغيبية تنتظر المؤمنين و المخلصين، لكنّها لا ينالها كل أحد جزافا، بل لا بدّ من الاستعداد و الجدارة! و نختتم هذا الموضوع بذكر روايتين.

الأولى: ما

ورد عن الإمام الصّادق فى هذا الشأن إذ قال عليه السّلام «ما أنعم اللّه على عبد بنعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنبا يستحقق بذلك السلب»[۲۳۱].

و الثّانية: ما نقرؤه

فى حديث آخر له عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ بعث نبيا من أنبيائه إلى قومه و أوحى إليه أن قل لقومك: إنّه ليس من أهل قرية و لا ناس كانوا على طاعتى فأصابهم فيها سراء، فتحولوا عمّا أحبّ إلى ما أكره إلّا تحولت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون. و ليس من

أهل قرية و لا- أهل بيت كانوا على معصيتى فأصابهم فيها ضراء فتحولوا عمّا أكره إلى ما أحبّ إلّا تحولت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون».

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

۲- لا جبر فى العاقبة و لا جبر فى التأريخ، و لا فى سائر الأمور ...

و الموضوع المهم الآخر الذى يستفاد من هذه الآيات بوضوح، هو أنّه ليس للإنسان مصير خاص قد تعين من قبل، و لا يقع تحت تأثير ما يسمى ب «جبر التأريخ» و «جبر الزمان» بل إنّ الذى يصنع التأريخ و حياة الإنسانية، و يجعل التحوّلات فى الأسلوب و الأخلاق و الأفكار و غيرها، و هو إرادة الإنسان نفسه! فبناء على ذلك فالذين يعتقدون بالقضاء و القدر الجبرى، و يقولون: إنّ الأمور و الحوادث جميعها تجرى بمشيئة اللّه الإجبارية، تردّهم هذه الآية.

و كذلك الجبر المادى الذى يجعل من الإنسان ألعوبة بيد الغرائز التى لا تتغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۵

و أصول الوارثة.

أو جبر المحيط بحيث يرون أنّه تتحكم فيه الأوضاع الاقتصادية و المعامل و المصانع.

فكل ما تقدم من «الجبر» ترفضه المدرسة الإسلامية، و يرفضه القرآن، فالإنسان حرّ و هو الذى يقرر مصيره بنفسه.

إنّ الإنسان- بملاحظة ما قرأناه فى الآيات من قانون- يمسك بزمام مصيره و تأريخه بنفسه، فيصنع لها الفخر و النصر، و هو الذى يسوق نفسه إلى الابتلاء و المذلة، فداؤه منه و دواؤه بيده، فإذا لم يغير نفسه و لم يسع فى بناء شخصيته لن يكون له دور فى صياغة مصيره و شأنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۵۵ الى ۵۹]

اشارة

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۵۵) الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ (۵۶) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۵۷) وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ (۵۸) وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (۵۹)

التّفسير

مواجهة من ينقض العهد بشدّة!

فى هذه الآيات المباركة إشارة إلى طائفة أخرى من أعداء الإسلام الذين وجهوا ضربات مؤلمة للمسلمين فى حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المليئة بالأحداث، إلّا أنّهم ذاقوا جزاء ما اقترفوه مرّا و كانت عاقبة أمرهم خسرا. و هؤلاء هم يهود المدينة الذين عاهدوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عدّة مرات.

و هذه الآيات تبيّن الأسلوب الشديد الذى ينبغى أن يتخذه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحقّهم، الأسلوب الذى فيه عبرة للآخرين، كما فيه درء لخطر هذه الطائفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۷

و تبدأ الآيات فتعرف هذه الطائفة بأنّها شر الأحياء الموجودة فى هذه الدنيا فتقول: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و لعل التعبير ب الَّذِينَ كَفَرُوا يشير إلى أنّ كثيرا من يهود المدينة كانوا يعلنون حبّهم للنبى و إيمانهم به قبل أن يظهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وفقا لما وجدوه مكتوبا عنه فى كتبهم، حتى أنّهم كانوا يدعون الناس و يمهدون الأمور لظهوره. و لكنّهم و بعد أن ظهر وجدوا أنّ مصالحهم المادية مهددة بالخطر، فكفروا به و أظهروا عنادا شديدا فى هذا الأمر حتى لم تبق بارقة أمل بإيمانهم، و كما يقول القرآن الكريم: فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

و تقول الآية الأخرى: الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ[۲۳۲]. و المغروض أن يراعوا الحياد على الأقل فلا يكونوا بصدد الإضرار بالمسلمين و إعانة الأعداء عليهم.

فلا هم يخافون اللّه تعالى، و لا يحذرون من مخالفة أوامره، و لا يراعون القواعد و الأصول الانسانية: وَ هُمْ لا يَتَّقُونَ

و التعبير ب «ينقضون» و «لا- يتقون» و هما فعلان مضارعان، هذا التعبير بهما يدلّ على الاستمرار، كما أنّه يدل على أنّهم قد نقضوا عهودهم مرارا.[۲۳۳].

و الآية بعدها توضح كيفية أسلوب مواجهة هؤلاء فتقول: فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ أى قاتلهم بشكل مد مرّ بحيث أن الطوائف القابعة خلفهم لإمدادهم يعتبروا بذلك و يتفرقوا عنهم.

و كلمة «تثقفنهم» مأخوذة من مادة «الثقف» على زنة «السقف» بمعنى بلوغ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۸

الشىء بدقة و سرعة، و هى إشارة إلى وجوب التنبه و الاطلاع السريع و الدقيق على قراراتهم، و الاستعداد لإنزال ضربة قاصمة لها وقع الصاعقة عليهم قبل أن يفاجئوك بالهجوم.

و كلمة «شرّد» مأخوذة من مادة «التشريد» و هى بمعنى التفريق المقرون بالاضطراب فينبغى أن يكون الهجوم عليهم بشكل تتفرق معه المجموعات الأخرى من الأعداء و ناقضى العهود، و لا يفكروا بالهجوم عليكم.

و هذا الأمر إنّما صدر ليعتبر به الأعداء الآخرون، بل حتى الأعداء فى المستقبل أيضا و يتجنبوا الحرب مع المسلمين، و ليتجنب نقض العهد- كذلك- الذين لهم عهود مع المسلمين، أو الذين سيعاهدونهم مستقبلا لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلى سَواءٍ و لا تبدأهم بالهجوم قبل إبلاغهم بإلغاء العهد إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ

و بالرغم من أنّ الآية قد منحت النّبى صلاحية نقض العهد إذا أحس بخيانتهم أو نقضهم عهودهم، إلّا أن من الواضح أن الخوف من نقضهم العهد لا يكون جزافا و دون سبب بل عند ما يرتكبون ما يدلّ على تفكيرهم بالنقض و يتفقون مع العدوّ على الهجوم، فهذا القدر من القرائن و الأمارات يجيز للنّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغهم إلغاء العهد.

و جملة «فانبذ إليهم» من «الإنباذ» و هى بمعنى «الإلقاء» أو «الإعلام» و «الرّد» أى: ردّ عليهم عهودهم و أعلن عن إلغائها جهرا.

و التعبير ب «على سواء» إمّا بمعنى أنّه كما أنّهم نقضوا العهد بأعمالهم التى اقترفوها، فألغه أنت من جهتك أيضا، فهذا حكم عادل، يتساوى و ما فعلوه. أو بمعنى الإعلان عن ذلك بأسلوب واضح صريح لا لبس فيه و لا خدعة.

و على كل حال، فإنّ الآية- محل البحث- فى الوقت الذى تنذر فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۶۹

المسلمين من نقض العهد، و تحذرهم أن يكونوا هدفا و غرضا لهجوم العدوّ، فهى تدعوهم إلى رعاية مبادئ الإنسانية فى حفظ العهود

أو إلغائها.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يوجه تعالى الخطاب إلى ناقضى العهد، فيحذرهم من عاقبة ذلك فيقول: وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۰

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (۶۰) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۱) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۶۲) وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۳) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۶۴)

التّفسير

المزيد من التعبئة العسكرية و الهدف منها:

تشير أوّل آية هنا- لتناسب الكلام فى الآيات المتقدمة عن الجهاد- إلى أصل مهم يجب على المسلمين التمسك به فى كل عصر و مصر، و هو لزوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۱

الاستعداد العسكرى لمواجهة الأعداء، فتقول: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.

أى لا تنتظروا حتى يهجم العدوّ فتستعدوا عندئذ لمواجهته، بل يجب أن تكون لديكم القدرة و الاستعداد اللازم لمواجهة هجمات الأعداء المحتملة.

و تضيف الآية قائلة: وَ مِنْ رِباطِ الْخَيْلِ

«الرّباط» بمعنى شدّ الشيء، و يرد هذا الاستعمال كثيرا بمعنى ربط الحيوان فى مكان ما لرعايته و المحافظة عليه، و قد جاء هذا اللفظ هنا بما يناسب ذلك بمعنى الحفظ و المراقبة بصورة عامّة.

و «المرابطة» تعنى حفظ الحدود، و تأتى كذلك بمعنى الرقابة على شيء آخر، و يطلق على مكان شدّ وثاق الحيوان ب «الرباط» و لذلك سمّت العرب أماكن نزول المجاهدين رباطا أيضا.

ملاحظات

اشارة

۱- فى الجملة القصيرة- آنفة الذكر- بيان لأصل مهم فى الجهاد و حفظ وجود المسلمين و ما لديهم من مجد و عظمة و فخر، و

التعبیر فی الآیة واسع إلی درجة أنّه ینطبق علی کل عصر مصر تماما.

و کلمة «قوّة» و إن قصرت لفظا، إلّا أنّها ذات معنی وسیع و مغزی عمیق، فهی لا تختص بأجهزة الحرب و الأسلحة الحدیثة لکل عصر فحسب، بل تتسع لتشمل کلّ أنواع القوی و القدرات التی یکون لها أثرا ما فی الإنتصار علی الأعداء، سواء من الناحیة المادیة أو الناحیة المعنویة.

فالذین یرون أنّ السبیل الوحید للانتصار علی الأعداء هو کمیة السلاح، هم علی خطأ کبیر، لأنّنا شاهدنا فی عصرنا الحاضر شعوبا قلیلة العدد و أسلحتها غیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۲

متطورة انتصرت علی شعوب أقوی و ذات أسلحة حدیثة متطورة، کما حصل للشعب الجزائری المسلم فی مواجهة الدولة الفرنسیة القویة! فبناء علی ذلک، و مضافا إلی ضرورة تحصیل الاسلحة المتطورة فی کل زمان بعنوان وظیفة إسلامیة حتمیة- تجب تقویة عزائم الجنود و معنویاتهم للحصول علی قوّة أکبر و أهمّ.

و لا ینبغی الغفلة عن بقیة القوی و القدرات الاقتصادیة و الثقافیة و السیاسیة، و التی تندرج تحت عنوان «القوّة» و لها تأثیر بالغ علی الأعداء.

و ممّا یسترعی النظر أنّ الرّوایات الإسلامیة ذکرت لنا تفاسیر مختلفة فی شأن «القوّة» و معناها، و ذلک یکشف عن مفهومها الواسع، ففی بعض الرّوایات نجد أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بیّن أنّ المراد من القوّة هو «النّبل»[۲۳۴].

و نقرأ فی روایة أخری- وردت فی تفسیر علی بن إبراهیم- أن المقصود من القوة هو کل أنواع السلاح ۲۳۵].

کما نقرأ فی تفسیر العیاشی أن المراد منه السیف و الدرع ۲۳۶].

و نجد روایة أخری فی کتاب من لا یحضره الفقیه تقول: «منه الخضاب بالسواد»[۲۳۷].

فتری أنّ الإسلام قد أولی لون شعر المقاتلین من کبار السن اهتماما لیستعملوا الخضاب، فیراهم العدوّ فی عمر الشباب فیصاب بالرعب منهم، و یکشف هذا الأمر عن مدی سعة مفهوم القوّة.

و بناء علی ذلک، فمن فسّر القوّة بمصداق واحد محدود قد جانب الصواب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۳

جدّا.

و لکن مع الأسف، فإنّ المسلمین علی الرغم ممّا لدیهم من مثل هذا التعلیم الصریح، لا نجد فیهم أثرا لتقویة العزائم و المعنویات بین صفوفهم، کأنّهم قد نسوا کل شیء. و لا هم یستغلّون قواهم الاقتصادیة و الثقافیة و العسکریة و السیاسیة لمواجهة عدوّهم.

و الأعجب من ذلک أنّنا مع إهمالنا هذا الأمر العظیم و ترکه وراء ظهورنا نزعم أنّنا ما زلنا مسلمین!! و نلقی تبعة تأخرنا و انحطاطنا علی رقبة الإسلام، و نقول: إذا کان الإسلام داعیة ترقّ و تقدم، فلم نحن المسلمون فی تأخر و تخلف؟! و نحن نعتقد أنّ هذا الشعار الإسلامی الکبیر: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ إذا أضحی شعارا شاملا فی کل مکان، ینادی، به الصغیر و الکبیر، و العالم و غیر العالم، و المؤلف و الخطیب، و الجندی و الضابط، و الفلاح و التاجر، و التزموا به فی حیاتهم و طبقوه، کان کافیا لجبران التخلفّ و التأخر.

إنّ سیرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العملیة و أئمّة الإسلام تدل علی أنّهم لم یدخروا وسعا، و استغلوا کل فرصة لمواجهة العدوّ، کإعداد الجنود و تهیئة السلاح، و شد الأزر و رفع المعنویات، و بناء معسکرات التدریب، و إختیار الزمان المناسب للهجوم، و العمل علی استعمال مختلف الأسالیب الحربیة، و لم یترکوا أیة صغیرة و لا کبیرة فی ذلک.

و المعروف أنّ النّبی بلغه أن سلاحا جدیدا مؤثرا صنع فی الیمن أیّام معرکة حنین، فأرسل النّبی جماعة إلی الیمن لشرائه فورا.

و نقرأ فی أخبار معرکة أحد أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ردّ علی شعار المشرکین «أعل هبل، اعل هبل» بشعار أقوی منه و هو «اللّه أعلی و أجل» ورد علی شعارهم: «إنّ لنا العزی و العزی لکم»، بقوله: «اللّه مولانا و لا مولی لکم»، و هذا الأمر یدلّ علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین- کذلک- لم یغفلوا عن اختیار أقوی الشعارات فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۴

مواجهة الأعداء و الردّ علی عقائدهم و شعاراتهم.

و من التعالیم الإسلامیة المهمّة فی هذا الصدد موضوع سباق الخیل و الرمایة، و ما جوّزه الفقه فیهما من الربح و الخسارة، فهو مثل آخر علی تفکیر الإسلام العمیق إلی جانب الاستعداد لمواجهة الأعداء و حثّ المسلمین علی ذلک.

۲- و اللطیفة المهمّة الأخری التی نستنتجها من الآیة آنفة الذکر هو عالمیة و خلود هذا الدین الالهی. لأنّ مفاهیم هذا الدین و مضامینه ذات أبعاد واسعة لا تخلق علی مرور الزمان و لا تغدو بالیة أو منسوخة برغم القدم، فجملة وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ کان لها مفهوم حی قبل أکثر من ألف عام، کما هی الحال الیوم، و سیبقی مفهومها حیا إلی عشرات الآلاف من السنین الأخری لأنّ أی سلاح یظهر فی المستقبل فهو کامن فی کلمة «القوّة» الجامعة، إذ أن جملة «ما استطعتم» عامّة، و کلمة «قوّة» نکرة تؤید عمومیة تلک الجملة لتشمل کل قوّة.

۳- و یرد هنا سؤال و هو: لماذا وردت عبارة «رباط الخیل» بعد کلمة «قوّة» بمالها من المفهوم الواسع.

و جواب هذا السؤال هو أنّ الآیة بالرغم من أنّها تتضمن قانونا شاملا لکل عصر و زمان، فهی فی الوقت ذاته تحمل تعلیما مهما خاصا بعصر النّبی، الذی هو عصر نزول القرآن. و فی الحقیقة إن هذا المفهوم العام جاء بمثال واضح لذلک العصر، لأنّ الخیل کانت فی ذلک الزمن من أهم وسائل الحرب، فهی وسیلة مهمّة عند المقاتلین الشجعان و الأبطال فی هجومهم و قتالهم السریع، و أهمیتها تشبه أهمیة الطائرات و الدبابات فی العصر الحاضر.

الهدف من تهیئة السلاح و زیادة التعبئة العسکریة:

ثمّ ینتقل القرآن بعد ذلک التعلیم المهم إلی الهدف المنطقی و الإنسانی من وراء هذا الموضوع، فیقول: إنّ الهدف منه لیس تزوید الناس فی العالم أو فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۵

مجتمعکم بأنواع الأسلحة المدمرة التی تهدم المدن و تحرق الأخضر و الیابس و لیس الهدف منه استغلال أراضی الآخرین و ممتلکاتهم، و لیس الهدف هو توسعة الاستعباد و الاستعمار فی العالم، بل الهدف من ذلک هو تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّکُمْ لأنّ أکثر الأعداء لا یستمعون لکلمة الحق و لا یستجیبون لنداء المنطق و المبادی الإنسانیة، و لا یفهمون غیر منطق القوّة! فإذا کان المسلمون ضعافا، فسوف یفرض علیهم الأعداء کل ما یریدون، أمّا إذا اکتسبوا القوّة الکافیة، فإنّ أعداء الحق و العدل و الاستقلال و الحریة سیشعرون بالخوف و لا یفکرون بالتجاوز و العدوان.

و الیوم- و نحن فی تفسیر هذه الآیة- فإنّ قسما من الأراضی الإسلامیة فی فلسطین و غیرها من الدول المجاورة تسحقها أحذیة الجنود الصهاینة، و قد أغاروا بهجومهم الأخیر علی لبنان فشردّوا الآلاف من العوائل، و قتلوا المئات من الأبریاء، و هدموا الکثیر من الأحیاء و الدور السکنیة، و أحالوها إلی انقاض، فأضافوا- بهذه المأساة المروعة جریمة أخری إلی سجلهم الأسود ... فی وقت استنکر الرأی العام العالمی هذا العمل الوحشی حتی أصدقاء إسرائیل، و أصدرت الأمم المتحدة بیانا دعت فیه إلی إخلاء هذه الأرض، لکن هذا الشعب الذی لا یتجاوز بضعة ملایین لا یرید الاستماع لأیة کلمة حق و أی منطق إنسانی، و ذلک لما لدیه من قوّة و أسلحة و استعداد

كاف للحرب أعدّه منذ سنين طويلة لمثل هذا العدوان.

فالمنطق الوحيد الذى يمكن به الردّ على هؤلاء هو منطق وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ فكأنّ هذه الآية نزلت فى عصرنا الحاضر و من أجلنا، لتقول لنا: جهزوا أنفسكم و كونوا من القوة بحيث يصاب عدوّكم بالذعر و الخوف كيما يغادر أرضكم و ينسحب إلى مكانه الأوّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۶

و ممّا يثير النظر و يسترعيه أنّ الآية هنا جمعت التعبير ب «عدوّ اللّه» و «عدوّكم» و ذلك إشارة إلى عدم وجود منافع و أغراض شخصية فى الجهاد و الدفاع عن الإسلام، بل الهدف هو حفظ رسالة الإسلام الإنسانية، فالذين يعادونكم إنّما هم أعداء اللّه و أعداء الحق و العدل و الإيمان و التوحيد و الأخلاق الإنسانية، فينبغى الردّ عليهم انطلاقا من هذا المجال.

و فى الحقيقة إنّ هذا التعبير شبيه بالتعبير «فى سبيل اللّه» أو «الجهاد فى سبيل اللّه» الذى يدلّ على أنّ الجهاد أو الدفاع الإسلامى لا يشبه فتح البلدان فى ما مضى من التأريخ، و لا غزو الاستعمار التوسعى اليوم، و لا فى صورة إغارات القبائل العربية فى زمن الجاهلية، بل كل ذلك من أجل اللّه و فى سبيل اللّه، و فى مسير إحياء الحق و العدل.

ثمّ تضيف الآية بأنّ المزيد من استعداداتكم العسكرية يخيف أعداء آخرين لا تعرفونهم فتقول: وَ آخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ

ملاحظتان

۱- من هم المقصودون فى الآية «الذين لا تعلمونهم»

بالرّغم من أنّ المفسّرين احتملوا فى هذه الطائفة: الذين لا تعلمونهم احتمالات كثيرة، فقال بعضهم: إنّهم يهود المدينة الذين كانوا يضمرون عداءهم، و قال آخرون: إنّها إشارة إلى الأعداء مستقبلا، كدولة الروم و الفرس اللتين لم يحتمل المسلمون يومئذ أنّهم سيكونون فى حرب معهما أو يقع القتال بينهما و بينهم.

إلّا أنّ الأصح- كما نراه- هو أن المراد منها هم المنافقون الذين دخلوا فى صفوف المسلمين دون أن يعلموهم، فإذا قوى جيش الإسلام فإنّ أولئك سيقعون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۷

فى حيرة و اضطراب و يرحلون، و الشاهد على هذه الموضوع هو الآية (۱۰۱) من سورة التّوبة إذ تقول: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ

و يحتمل أن مفهوم الآية يشمل جميع أعداء الإسلام غير المعروفين أعم من المنافقين و غيرهم.

۲- الاستعداد فى كل مكان و زمان

و تتضمن الآية تعليما لمسلمى اليوم أيضا، و هو أنّه لا ينبغى الاكتفاء بالاستعداد لأعداء الإسلام الذين تعرفونهم، بل عليكم أن تنتبهوا للأعداء الاحتماليين أو «بالقوّة» و أن تتهيأوا حتى تكونوا فى أعلى حدّ من القوّة و القدرة، و فى الحقيقة فإنّ المسلمين لو تنبهوا لهذه القضية المهمّة لما منوا بهجمات الأعداء المفاجئة.

و فى نهاية الآية إشارة إلى موضوع مهم آخر، و هو أنّ الاستعداد العسكرى و جمع الأسلحة و الأجهزة الحربية و وسائل الدفاع

المختلفة، كل ذلك يحتاج إلى بالدعم المالى اللازم له، لذلك تأمر المسلمين بالتعاون الجماعى لتهيئة ذلك المال، و أن ما يبذلونه فى هذا الأمر فهو عطاء فى سبيل اللّه، و لن ينقص منه شىء أبدا وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ فيرجع إليكم جميعه، بل أكثر ممّا أنفقتم وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ و ستنالون ثواب ذلك فى هذه الدنيا فى انتصار الإسلام و قوته و عظمته، لأنّ الشعب الضعيف ستتعرض أمواله للخطر و سيفقد أمنه و حريته و استقلاله أيضا، فبناء على ذلك فإنّ ما تنفقونه فى هذا السبيل سيعود إليكم عن طريق آخر و فى مستوى أفضل و أسمى.

كما أنّ ثوابا أعظم ينتظركم فى العالم الآخر فى جوار رحمة اللّه، فمع هذه الحال لا تظلمون، بل ستنالون خيرا كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۸

و ممّا يسترعى النظر أنّ الجملة آنفة الذكر جاء فيها لفظ «شىء» و هى ذات مفهوم واسع، أى لا يخفى على اللّه ما تبذلونه من جميع الأشياء، مالا كان أو نفسا أو فكرا أو منطقا أو قوة أو أى مال آخر ينفق فى تقوية بنية المسلمين الدفاعية و العسكرية، فإنّ اللّه سيدخره و يعيده إليكم فى حينه.

و قد احتمل بعض المفسّرين أن جملة «و أنتم لا تظلمون» معطوفة على جملة «ترهبون» أى أنّكم إذا ما أعددتم القوة اللازمة لمواجهة الأعداء فسيخافون أن يهجموا عليكم، و لن يقدروا على ظلمكم و إيذائكم، و بناء على ذلك فلن يصيبكم ظلم أبدا.

أهداف الجهاد فى الإسلام و أركانه:

و اللطيفة الأخرى التى تستفاد من هذه الآية، و تكون جوابا على كثير من أسئلة الجهلاء و إشكالاتهم، هى بيان شكل الجهاد و هدفه و منهجه، فالآية تقول بوضوح: إنّ الهدف منه ليس قتل الناس أو الاعتداء على حقوق الآخرين، بل الهدف- كما ذكرنا- هو إرهابكم الأعداء لكيلا يعتدوا عليكم و ليخافوكم، فينبغى أن تكون جميع جهودكم و سعيكم منصبّا فى سبيل قطع شر أعداء اللّه و الحق و العدل.

فهل يملك الجهلة فى أذهانهم مثل هذا التصوّر عن الجهاد فى القرآن الكريم، و ما صرّح به فى هذه الآية- محل البحث- ليسوغ لهم أن يحملوا كل هذه الحملات المسعورة المتتالية على هذا القانون الإسلامى. فتارة يدّعون بأنّ الإسلام هو دين السيف، و تارة يقولون بأنّ الإسلام يفرض على الناس أفكاره بالحديد، و يقيسون النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسائر محتلى البلدان فى التاريخ.

و فى عقيدتنا أنّ جواب كل هؤلاء هو أن يعود إلى القرآن، و يفكروا فى الهدف الأصيل لهذا الموضوع، لتتّضح لهم كل تلك الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۷۹

الاستعداد للصّلح:

مع أنّ الآية السابقة أو ضحت هدف الجهاد فى الإسلام بقدر كاف، فإنّ الآية التالية التى تتحدّث على الصلح بين المسلمين توضح هذا الأمر بصورة أجلى فتقول وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها.

و يحتمل فى تفسير هذه الجملة المتقدمة أنّهم إذا بسطوا أجنحتهم للسلم فابسط جناحيك أنت للسلم أيضا، لأنّ «جنحوا» فعل مصدره «الجنوح» و هو الميل، و يطلق على كل طائر أنّه «جناح» أيضا، لأنّ كل جناح فى الطائر يميل إلى جهة، لذلك يمكن الاستناد فى تفسير هذه الآية إلى جذر اللغة تارة، و إلى مفهومها الثّانوى تارة أخرى.

و لمّا كان الناس يترددّون أغلب الأحيان عند ما يراد التوقيع على معاهدة الصلح، فإنّ الآية تأمر النّبى بعدم التردد فى الأمر إذا كانت

الشروط عادلة و منسجمة مع المنطق السليم و العقل، فتقول: وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

و مع ذلك فهى تحذر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين من احتمال الاحتيال و الخداع فى دعوة الأعداء، إلى الصلح، فقد تكون دعوة للتمويه و الرّغبة فى توجيه ضربة مفاجئة، أو يكون هدفهم هو تأخير الحرب ليتمكنوا من إعداد قوات أكثر، إلّا أنّ الآية تطمئن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يخشى هذا الأمر أيضا، لأنّ اللّه عزّ و جلّ سيكفيه أمرهم و سينصره فى جميع الأحوال، إذ تقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

و سيرتك أيّها النّبى- السابقة- شاهدة على هذه الحقيقة، لأنّ اللّه هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ

فكم أرادوا بك كيدا، و كم مهدوا و أعدّوا لك من خطط مدمّرة بحيث لم تكن الغلبة عليها بالوسائل المألوفة ممكنة، لكنّه عزّ و جلّ حفظك و رعاك فى مواجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۰

كل ذلك.

أضف إلى ذلك أنّ المؤمنين المخلصين قد أحاطوا بك من كل جانب و لم يدخروا وسعا فى الدفاع عنك، فقد كانوا قبل ذلك متشتتين متعادين، و لكنّ اللّه شرح صدورهم بأنوار الهداية وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

و قد كانت الحرب لسنوات طويلة قائمة على قدم و ساق بين طائفتى الأوس و الخزرج و كانت صدورهم تغلى غيظا و حقدا بعضهم على بعض بشكل لم يكن أى أحد يتصور أنّهم سيعيشون بعضهم مع بعض بالحب و الصفاء فى يوم ما، و سيكونون صفا واحدا متراصا، و لكن اللّه القادر المتعادل فعل ذلك ببركة الإسلام و فى ظلال القرآن، و لم يكن هذا الإمر مقتصرا على الأوس و الخزرج الذين هم من الأنصار، بل كان ذلك بين المهاجرين أيضا الذين جاءوا من مكّة، إذ لم يكن بينهم- قبل الإسلام- حب و مودّة، بل كانت صدورهم مليئة بالبغضاء و الشحناء أيضا، لكن اللّه عزّ و جلّ غسل كل تلك الأحقاد و أزالها بحيث تمكن معها ثلاثمائة و ثلاثة عشر من أبطال بدر، منهم حوالى ثمانين نفرا من المهاجرين و الباقى من الأنصار، فكانوا جيشا صغيرا، لكنّه متحدّ قوى استطاع أن يكسر شوكة العدوّ و يحطم قوته.

ثمّ تضيف الآية أن اتّحاد تلك القلوب، أو إيجاد تلك الألفة، لم يكن بوسائل مألوفة أو مادية لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ

إنّ الذين يعرفون حالة نفوس المتعصبين و الحاقدين، كأولئك الذين كانوا فى العصر الجاهلى، يعرفون كذلك أن تلك الأحقاد و الضغائن لم يكن بالإمكان إزالتها، لا بالمال و لا بالجاه و المقام، لأنّها كانت لا تزول عندهم إلّا بالانتقام الذى يتكرر بصورة متسلسلة فيما بينهم، و فى كل مرّة يكون فى صورة أبشع و أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۱

وحشية و إجراما، و الأمر الوحيد الذى أمكن بسببه قلع تلك الجذور الفاسدة من أصولها، هو إحداث ثورة عارمة و تغيير شامل فى الأفكار و الأرواح و العقائد، ثورة تصنع تحوّلا فى شخصياتهم و تبدل أساليب تفكيرهم، و ترفعهم عن الحضيض الذى كانوا فيه، لتتجلى لهم أعمالهم السابقة فى وجهها الكالح القبيح، فيطهروا بذلك أنفسهم، و يدرءوا عنها الأحقاد و الأوساخ و العصبية القبلية العمياء و هذه أمور لا يمكن إيجادها بالثروة و لا بالمال، بل فى ظلال الإيمان و التوحيد الخالص فحسب.

و تضيف الآية معقبة فى الختام إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

فعزته تقتضى عجز الآخرين من الوقوف فى مواجهته، و حكمته تقتضى أن تكون كل أموره جارية وفق حساب دقيق و نظام صحيح، و لهذا فإنّ الخطة الدقيقة وحدت القلوب المتنافرة المتفرقة و جعلتها تنصاع للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لينشروا أنوار الهداية فى كل أرجاء العالم.

ملاحظتان

۱- قال بعض المفسّرين: إنّ الآيـة محل البحث تشير إلى الخلافات بين الأوس و الخزرج، الذين هم من الأنصار فحسب، و لكن نظرا إلى أنّ المهاجرين و الأنصار نهضوا جميعا لنصرة النّبىّ فيتّضح اتساع مفهوم الآية.

و لعل أولئك كانوا يتصورون أنّ الخلافات كانت قائمة بين الأوس و الخزرج دون غيرهم، مع أنّه كانت اختلافات كثيرة فى المستويات الطبقية و الاجتماعية بين الفقراء و الأغنياء، و الكبار و الصغار، بين هذه القبيلة و تلك، تلك الخلافات و «الانشقاقات» أذهبها الإسلام و محا آثارها، كما يقول القرآن الكريم فى مكان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۲

آخر: وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً[۲۳۸].

۲- إنّ هذا القانون لا يختص بالمسلمين الأوائل فحسب، فاليوم حيث يبسط الإسلام ظلاله على ثمانمائة مليون مسلم فى أنحاء العالم، و هم من مختلف العناصر و الأقوام المتباعدة و المجتمعات المتنوعة. إذ لا يمكن إيجاد أية حلقة اتصال بين كل هؤلاء سوى حلقة الإيمان و التوحيد، فإنّ الأموال و الثروات و المؤتمرات لا يمكنها أن تفعل شيئا مهما فى هذا المجال، بل ما يمكن أن يوحدهم هو إيقاد شعلة الإيمان أكثر فى قلوب هؤلاء كما حصل عند المسلمين الأوائل، لأنّ النصر لا يتحقق إلّا عن هذا الطريق، و هو طريق الأخوة الإسلامية بين جميع الناس.

و تخاطب الآية الأخيرة من الآيات محل البحث النّبى بالقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و نقل بعض المفسّرين أنّ هذه الآية الكريمة نزلت عند ما قال جماعة من يهود بنى قريظة و بنى النضير لما قالوا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نحن نسلم و نتبعك، يعنى إنّنا مستعدون لاتباعك و نصرتك، فنزلت هذه الآية محذرة النّبى لئلا يعتمد على هؤلاء، بل المعول عليه هو اللّه و المؤمنون ۲۳۹].

و قد أورد الحافظ أبو نعيم- و هو من أكابر علماء السنة- فى كتابه فضائل الصحابة، بسنده، أنّ هذه الآية نزلت فى حق على أمير المؤمنين، فالمقصود بالمؤمنين هو على عليه السّلام ۲۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۳

و قد قلنا مرارا: إنّ مثل هذه التفاسير و أسباب النّزول لا تجعل الآيات محدودة و منحصرة، بل المقصود فيها هو أنّ شخصا كعلى بن أبى طالب عليه السّلام الذى كان فى أوّل صفوف المؤمنين هو السند الأوّل للنبى بعد اللّه من بين المسلمين، مع أنّ بقية المؤمنين هم أنصار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعوانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۴

الآيتان [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۵ الى ۶۶]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۶۵) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (۶۶)

التّفسير

لا ترتقبوا تساوى القوى:

فى هاتين الآيتين تتوالى التعاليم العسكرية و أحكام الجهاد أيضا.

فالآية الأولى منهما تخاطب الرّسول فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتالِ

إنّ الجنود و المقاتلين مهما كانوا عليه من استعداد ينبغى قبل بدء الحرب أن ترفع معنوياتهم و تشحذ هممهم، و هذا الأمر معروف فى جميع النظم العسكرية فى العالم، إذ يقوم قادة الجيوش و أمراؤهم قبل التحرك نحو سوح القتال أو عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۵

ساحة القتال، فيلقون خطبا تثيرهم و تقوّى من معنوياتهم و تحذرهم من الهزيمة و الجبن.

غاية ما فى الأمر أنّ مثل مسألة الترغيب و التشويق إلى القتال محدودة فى المدارس الماديّة، و لكنّها واسعة فى الأديان السماوية، نظرا للتعاليم الربانية، و تأثير الإيمان باللّه، و التذكير بمنزلة الشهداء عند ربّهم و مقامهم عنده، و ما ينتظرهم من الثواب الجزيل البعيد المدى، و ما سينالونه من العزة و الفخر عند انتصارهم، فكل ذلك يحرك روح البطولة و الثبات فى نفوس الجنود، فتلاوة بعض آيات القرآن فى الحروب الإسلاميّة تشحذ الجندى عزما و قوّة و إقداما لا حدود له، و يتقد فيه الشوق و العشق للتضحية و الفداء.

و على كل حال، فإنّ الآية توضح أهمية الإعلام و التبليغ و شحذ همم المقاتلين و الجنود و معنوياتهم باعتبار ذلك تعليما إسلاميا مهما.

و تعقب الآية بالتعليم الثّانى فتقول: إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا.

و بالرغم من أنّ الآية فى صورة إخبار عن غلبة الرجل على عشرة، لكن بقرينة الآية بعدها الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ يتّضح أنّ المراد من ذلك هو تعيين الحكم أو الوظيفة و الخطة و المنهج، لا أنّه مجرّد خبر و هكذا فينبغى للمسلمين أن لا ينتظروا حتى يبلغ عددهم مقدارا يكافئ قوة العدو و أفراده، ليتحركوا إلى ساحة القتال و الجهاد، بل يجب عليهم القيام بواجباتهم حتى إذا كان عدوّهم عشرة أضعافهم.

ثمّ تشير الآية إلى علّة هذا الحكم فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ و هذا التعليل يبدو عجيبا لأوّل وهلة، إذ ما هى العلاقة بين المعرفة و الفقاهة و بين النصر أو بين عدم المعرفة و الهزيمة؟! لكن الواقع هو أنّ العلاقة بينهما قريبة و متينة، لأنّ المؤمنين يعرفون نهجهم الذى سلكوه و يدركون الهدف من خلقهم و إيجادهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۶

و يؤمنون بنتائجه الإيجابية فى هذا العالم، و الثواب الجزيل الذى ينتظرهم فى العالم الآخر، فهم يعلمون، لم يقاتلون؟ و من أجل من يجاهدون؟ و فى سبيل أى هدف مقدس يضحون؟ و على من سيكون حسابهم إذا ما ضحوا و استشهدوا فى هذا المضمار؟

فهذا السير الواضح المشفوع بالمعرفة يمنحهم الثبات و الصبر و الاستقامة.

أمّا الذين لا يؤمنون باللّه و اليوم الآخر، كعبدة الأصنام، فلا يعرفون لأى أمر يقاتلون؟ و لأجل من يجاهدون؟ و إذا قتلوا فمن يؤدّى دية دمهم؟ فهم لتقليدهم الأعمى و لعاداتهم الجاهلية ساروا رواء هذه الأفكار، و هكذا تبعث ظلمات الطريق و عدم معرفتهم الهدف و نتائج أعمالهم على انهيار أعصابهم و تفت فى عضدهم و ثباتهم، و تجعل منهم كائنات ضعيفة.

و بعد ذلك الحكم الثقيل بجهاد الأعداء و ان كانوا عشرة اضعاف يخفف اللّه عن المؤمنين و يتنزل فى الحكم الذى يرهقهم فيقول: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً.

ثمّ يقول: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ

و لكن على كل حال ينبغى أن لا تنسوا تسديد اللّه وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ

بحوث

اشارة

و هنا لا بدّ من الالتفات الی عدّة أمور:

۱- هل نسخت الآیة الأولی

کما لا حظنا فإنّ الآیـة الأولی تأمر المسـلمین أن لا یتقاعسوا عن مواجهـة الأعـداء حتی إذا کانوا عشـرة أضـعافهم، غیر أنّ الآیـة الثّانیة تخفض هذا العدد إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۷

ضعفین فحسب.

و هـذا الاختلاف الظاهر بین الآیتین جعل بعضـهم یقول: إن الآیـة الأولی- من الآیتین محل البحث- نسـختها الآیـة الثّانیة، أو أنّه حمل الآیـة الأولی علی الاسـتحباب و الثّانیـة علی الوجوب، أی إذا کان عـدد الأعداء ضـعف عدد المسـلمین فیجب علیهم عدم التراجع عن ساحة الجهاد و القتال، أمّا إذا زاد عددهم عن الضعف حتی بلغ عشرة أضعافهم فلهم عندئذ أن لا یقاتلوهم، و إن کان الأفضل لهم أن لا ینسحبوا عن جهادهم العدوّ.

إلّا أنّ بعض المفسّـرین یرون أن الاختلاف الظاهری الموجود بین الآیتین لا یـدل علی النسـخ، و لا یدل علی الاسـتحباب، بل إن لکل واحـدة من الآیتین حکما معینا، فعند ما یبتلی المسـلمون بالضـعف و الخور و یکثر فیهم المقاتلون غیر المحنّکین أو غیر المدرّبین و لا المتهیئین للقتال، فعندئـذ یکون معیار العـدد هو نسـبة الضـعف. أمّا إذا کان المقاتلون علی اسـتعداد تام، أشداء فی إیمانهم و عزائمهم کالکثیر من أبطال بدر، فالنسبة عندئذ ترتقی إلی عشرة أضعاف.

فبناء علی ذلک فإنّ الحکمین فی الآیتین محل البحث یرتبطان بالطائفتین المختلفتین و فی ظرفین متفاوتین.

و بهـذا لا یوجـد نسـخ فی الآی هنـا، و إذا وجـد فی الرّوایات التعبیر بالنسـخ فینبغی الالتفات إلی أن النسـخ ذو معنی واسع و یشـمل التخصیص فی بعض الموارد.

۲- أسطورة توازن القوی

إنّ الآیتین- محـل البحث- تتضـمنان هـذا الحکم المسـلّم به، و هو أنّ علی المسـلمین ألّا ینتظروا موازنـة القوی الظاهریـة بینهم و بین العدو، بل علیهم أن ینهضوا لمواجهته و إن کان ضعف عددهم، بل حتی لو کان عشرة أضعاف عددهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۸

أحیانا، و أن لا یفروا من العدوّ بسبب قلّة العدد أبدا.

و ممّا یسـتجلب النظر أنّ أغلب المعـارک التی کـانت تجری بین المسـلمین و أعـدائهم کـان فیها میزان القوی لصالـح العـدو، و کان المسـلمون قلّة غالبا، و لم یکن هذا الأمر قد وقع فی حروب الإسلام فی عصر النّبی فحسب- کبدر و أحد و الأحزاب أو کمعرکة مؤتة التی رووا أن جیش المسـلمین کان لا یتجاوز ثلاثـة آلاف مقاتل، أمّا جیش العـدو فأقل ما ذکروا عنه أنّه کان حوالی مائـة و خمسـین

ألفا، بل حتى الحروب بعد عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد ذكروا أن فرقا مذهلا كان بين جيش الإسلام الذى حرر فارس و جيش الساسانيين، فقد قيل مثلا: إنّ الجيش الإسلامى كان لا يتجاوز خمسين ألف مقاتل، بينما كان جيش خسرو پرويز خمسمائة ألف مقاتل! و أمّا فى معركة اليرموك التى وقعت بين المسلمين و الروم، فقد ذكر المؤرخون أن الجيش الذى جمعه هرقل كان حوالى مائتى ألف مقاتل، بينما كان جيش الإسلام لا يتجاوز أربعة و عشرين ألفا! و الأعجب من ذلك أن المؤرخين يذكرون أنّ قتلى جيش الروم فى معركة اليرموك كانوا يزيدون على سبعين ألفا!! و ما من شك أن الموازنة بين القوى أو التفوق العسكرى أحد أسباب النصر بحسب الظاهر، و لكن ما هو السبب الذى كان وراء انتصار المسلمين القلة فى مثل هذه المعارك؟

و الإجابة على هذا السؤال المهم ذكرها القرآن فى الآيتين محل البحث فى ثلاثة تعابير:

التّعبير الأوّل: يقول فيه: عِشْرُونَ صابِرُونَ ثمّ قوله فى الآية بعدها: مِائَةٌ صابِرَةٌ أى ذوو استقامة و ثبات.

و المراد هنا أنّ روح الاستقامة و الثبات، التى هى ثمرة شجرة الإيمان، كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۸۹

سببا فى أن يغلب الرجل المسلم عشرة أمثاله من الكفار.

التّعبير الثّانى: و فى مكان آخر يقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ أى أنّ عدم معرفة العدو هدفه، و معرفتكم هدفكم المقدس، يستعاض عن موضوع قلتكم إزاء كثرة العدو.

التّعبير الثّالث: هو قوله سبحانه فى الآى محل البحث: بِإِذْنِ اللَّهِ أى أن الإمدادات الغيبية و لطف اللّه و رحمته تشمل مثل هؤلاء المجاهدين الصابرين فتنصرهم على عدوّهم.

و فى عصرنا يواجه المسلمون أعداء ألدّاء أقوياء أيضا، لكن العجيب أن جيش المسلمين فى كثير من المعارك أكثر من جيش العدوّ، و لكن مع ذلك لا أثر لانتصار المسلمين، و كأنّهم يسيرون باتجاه مخالف عمّا كان يسير عليه المسلمون الأوائل.

و السّبب هو أنّ المسلمين اليوم لا يتمتعون بمعرفة كافية و يا للأسف، و قد فقدوا روح الصبر و الاستقامة بسبب ركونهم إلى عوامل الفساد و زخرف الحياة المادية و زبرجها، كما أنّ الإمداد الغيبى و رعاية اللّه قد سلبا منهم بسبب تلوّثهم بالذنوب، فابتلوا بمثل هذه العاقبة! إلّا أنّ طريق العدوة ما يزال مفتوحا، و تأمل أن يأتى اليوم الذى يعى المسلمون مرّة أخرى مفهوم هاتين الآيتين و أمثالهما ليخلعوا عن أنفسهم حالة الذل و التقهقر.

۳- ما هو المراد من الآيتين؟

ممّا يستجلب النظر أنّ الكلام فى الآية الأولى- من الآيتين محل البحث- كان على نسبة الواحد إلى العشرة، فمثلت الآية ب إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۰

إلّا أن الكلام فى الآية الثّانية كان عن نسبة الضعف مثل المائة فى قبال المائتين، و الألف فى قبال الألفين: فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ ... إلخ.

و كأن هذا المثال البليغ يريد أن يبيّن هذا الحقيقة، و هى أنّ الرجال الأشداء من ذوى العزيمة و الإيمان يمكنهم أن يشكّلوا جيشا مقتدرا حتى لو كانوا عشرين رجلا، إلّا أنّهم لو كانوا ضعفاء، فليس بإمكانهم أن يصنعوا جيشا من عشرين، بل لا بدّ أن يكونوا أضعاف هذا العدد لتشكيل جيش، «فلاحظوا بدقة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۱

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۶۷ الى ۷۱]

اشارة

ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۶۷) لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۶۸) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّباً وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۹) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷۰) وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۷۱)

التّفسير

أسرى الحرب:

بيّنت الآيات السابقة بعض أحكام الجهاد المهمّة و مواجهة الأعداء، و فى هذه الآيات استكمال لما سبق فى عرض قسم من أحكام أسرى الحرب، لأنّ أغلب الحروب تقترن بتأسير جماعة من المتقاتلين من قبل الطرف الآخر، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۴۹۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۲

أولى الإسلام أهمية قصوى لمسألة أسرى الحرب، من حيث أسلوب التعامل معهم، و من حيث بعض النواحى الإنسانية و أهداف الجهاد أيضا.

و أوّل موضوع مهم يثار فى هذا الشأن، هو ما قالته الآية الكريمة من أن كل نبى ليس له الحق فى أسرار افراد العدو الّا بعد أن يثبت اقدامه فى الأرض و يكيل الضربات القاضية للأعداء: ما كانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ

و الفعل «يثخن» مأخوذ من «الثخن» على زنة «المحن» و معناه فى الأصل الضخامة و الغلظة و الثقل، ثمّ استعمل هذا اللفظ بمعنى الفوز و القوّة و النصر و القدرة، للسبب المذكور آنفا.

و قال بعض المفسّرين: إنّ معنى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ يدل على المبالغة و الشدّة فى قتل الأعداء، و قالوا: إنّ معنى ذلك أن أخذ الأسرى ينبغى أن يكون بعد مقتلة عظيمة فى الأعداء و لكن مع ملاحظة كلمة «فى الأرض» و الالتفات إلى جذر هذه الكلمة الذى يعنى الشدّة و الغلظة، يتّضح أن معنى الآية ليس هو ما ذكروه، بل القصد هو التفوق على العدو تماما و إظهار القوّة و القدرة و إحكام السيطرة على المنطقة.

إلّا أنّه لمّا كان فى قتل الأعداء و إبادتهم دليل على السيطرة و إحكام مواقع المسلمين أحيانا، فإنّ من مصاديق هذه الجملة فى بعض الشروط قتل الأعداء، و ليس هو مفهوم الجملة الأصيل.

على أية حال، فإنّ الآية تنبه المسلمين إلى نقطة مهمّة فى الحرب، و هى أنّ عليهم عدم التفكير و الانشغال بأخذ الأسرى قبل اندحار العدوّ بالكامل، لأنّ بعض المسلمين المقاتلين- كما يستفاد من بعض الرّوايات- كان جلّ سعيهم هو الحصول على أكبر عدد من الأسرى فى ساحة بدر مهما أمكنهم، لأنّ العادة كانت أن يدفع عن الأسير مبلغ من المال على شكل فدية ليتم الإفراج عنه بعد نهاية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۳

الحرب.

و يعدّ هذا الأمر عملا حسنا فى بعض المواقع، إلّا أنّه عمل خطير قبل أن يطمأن من اندحار العدو كاملا، لأنّ الانشغال بأسر العدو و شدّ وثاقهم و نقلهم إلى مكان آمن، كل ذلك يبعد المقاتلين غالبا عن أصل الهدف الذى من أجله كانت الحرب، و ربّما يمنح العدو الجريح فرصة لجمع قواه و إعادة هجومه، كما حدث فى غزوة أحد، حيث شغل بعض المسلمين أنفسهم بجمع الغنائم، فاستغل العدوّ هذه الفرصة فأنزل ضربته الأخيرة بالمسلمين.

و بناء على ذلك فإنّ تأسير الأعداء يجوز فى صورة ما لو حصل اليقين بالنصر الساحق عليه، أمّا فى غير هذه الصورة فيجب توجيه الضربات الشديدة و المتتالية لهدم قوات العدو و شلّها فإذا حصل الاطمئنان بذلك فإنّ الأهداف الإنسانية توجب إيقاف القتل و الاكتفاء بأسرهم.

و قد أوضحت الآية هاتين النقطتين المهمتين: العسكرية، و الإنسانية، فى عبارة موجزة:

ثمّ ألقت باللوم على أولئك الذين خالفوا هذا الأمر فتقول: تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ.

«و العرض» يعنى الأمور غير الثابتة، و لما كانت الذخائر المادية غير ثابتة فى هذه الدنيا فقد عبّر عنها بالعرض.

و كما قلنا آنفا فإن الاهتمام بالجانب المادى فيما يتعلق بالأسرى و الغفلة عن الهدف النهائى، أى الإنتصار على العدو، لا أنّه يحبط الثواب الأخروى فحسب، بل يسيء إلى الإنسان فى حياته الدنيا و إلى عزّته و رفعته و استقراره، ففى الحقيقة، هذه الأهداف المذكورة للفرد فى الحياة الدنيا تعدّ من أمور الدنيا الثابتة، فلا ينبغى أن نترك المنافع الطويلة الأمد و المستقبلية رهن الخطر من أجل أن نحصل على منافع مادية عابرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۴

و تختتم الآية بالقول أن التعليم آنف الذكر- فى الواقع- مزيج من العزة و النصر و الحكمة و التدبير، لأنّه صادر من قبل اللّه تعالى وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الآية التالية توجّه اللوم و التعنيف ثانية لأولئك الذين يعرضون المنفعة العامّة و المصلحة الاجتماعية للخطر من أجل الحصول على المنافع المادية العابرة، فتقول الآية: لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيما أَخَذْتُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

و قد أورد المفسّرون فى شأن قوله تعالى: لَوْ لا كِتابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ احتمالات مختلفة كثيرة، إلّا أنّ أقربها و أكثرها ملاءمة و مناسبة هو «إذا لم يكن اللّه قد قرر من قبل أن لا يعذب عباده ما لم يبيّن نبيّه حكمه لهم، لأخذكم أخذا شديدا بسبب تأسيركم عدوكم رغبة فى المنافع المادية و إيقاعكم جيش الإسلام و انتصاره النهائى فى الخطر، إلّا أنّه- كما صرحت الآيات الكريمة فى القرآن- فإنّ سنة اللّه اقتضت أن تبين أحكامه ثمّ يجازى الذى يخالفون عن أمره»، إذ قال سبحانه: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا[۲۴۱].

ملاحظات

اشارة

۱- إنّ ظاهر الآيات- كما قلنا آنفا- يعالج موضوع أخذ الأسرى فى الحرب لا- أخذ «الفدية» بعدها، و بذلك ينحل كثير من الإشكالات التى أثارها جماعة من المفسّرون بشأن مفهوم الآية.

كما أنّ اللوم و التعنيف يختص بجماعة انشغلت- قبل أن يتمّ النصر النهائى- بأسر العدو لأهداف دنيوية، و لا علاقة لها بشخص النّبى و أصحابه المؤمنين الذين كان هدفهم الجهاد فى سبيل اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۵

و بذلک تنتفی جمیع البحوث التی أوردوها، کالقول بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد ارتکب ذنبا! و کیف ینسجم هذا العمل و عصمته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ فهذا الأمر غیر صحیح.

کما یثبت بطلان الأحادیث المختلفة التی نقلتها بعض مصادر أهل السنة و کذبها فی تفسیر هذه الآیة، و التی تزعم أن الآیة[۲۴۲] نزلت فی شأن أخذ النّبی و بعض المسلمین الفدیة مقابل أسری الحرب بعد معرکة بدر، و قبل أن یأذن اللّه بذلک. و أنّ الذی خالف هذا الأمر و طالب بقتل الأسری هو عمر فحسب- أو سعد بن معاذ- و

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال فی حق عمر: لو نزل العذاب علینا لما نجا منه إلّا عمر- أو سعد بن معاذ-

فإنّ جمیع ذلک عار من الصحة و لا أساس له، و إنّ تلک الرّوایات بعیدة کل البعد عن تفسیر الآیة، و خاصّة أن أمارات الوضع ظاهرة علی هذه الأحادیث تماما.

۲- إنّ الآیات محل البحث لا تخالف أخذ الفداء و إطلاق سراح الأسری إذا اقتضت مصلحة المجتمع الإسلامی ذلک، بل تقول هذه الآیات: إنّه لا ینبغی علی المجاهدین أن یکون همهم الأسر من أجل الفداء، فبناء علی ذلک فهی تنسجم و تتفق و الآیة (۴) من سورة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من جمیع الوجوه، إذ تقول تلک الآیة فَإِذا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّی إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً.

إلّا أنّه یجب الالتفات إلی مسألة مهمّة هنا، و هی: إذا کان بین الأسری من یثیر إطلاق سراحهم فتنة نشوب نار الحرب، و یعرض انتصار المسلمین للخطر، فیحق للمسلمین أن یقتلوا مثل هؤلاء الأشخاص، و دلیل هذا الموضوع کامن فی الآیة محل البحث ذاتها، بقرینة «یثخن» و التعبیر فی الآیة (۴) من سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۶

محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ب «أثخنتموهم».

و لهذا فقد جاء فی بعض الرّوایات الإسلامیّة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر بقتل اثنین من أسری معرکة بدر، و هما «عقبة بن أبی معیط» و «النضر بن الحارث» و لم یرض بأن یفتدیا أنفسهما أبدا[۲۴۳].

۳- و فی الآیات محل البحث تأکید علی موضوع حریة إرادة الإنسان مرّة أخری، و نفی مذهب الجبر، لأنّها تقول: إنّ اللّه یرید لکم الآخرة، و لکن بعضکم أغرته المنافع المادیّة العابرة و رکن إلیها.

و فی الآیة التالیة إشارة إلی حکم آخر من أحکام أسری الحرب، و هو حکم أخذ الفداء.

و قد جاء فی بعض الرّوایات ۲۴۴] الواردة فی شأن نزول هذه الآیات أنّه بعد انتهاء معرکة بدر و أخذ الأسری، و بعد ما أمر النّبی أن تضرب عنقا الأسیرین الخطرین «عقبة بن أبی معیط» و «النضر بن الحارث» خافت الأنصار أن ینفذ هذا الحکم فی بقیة الأسری فیحرموا من أخذ الفداء، فقالوا: یا رسول اللّه إنّا قتلنا سبعین رجلا و أسرنا سبعین، و کلّهم من قبیلتک فهدب لنا هؤلاء الأسری لنأخذ الفداء منهم. و کان النّبی یترقب نزول الوحی، فنزلت هذه الآیات فأجازت أخذ الفداء فی قبال إطلاق سراح الأسری.

و روی أنّ أکثر ما عین فداء علی الأسری من المال هو أربعة آلاف درهم، و أقلّة ألف درهم، فلمّا سمعت قریش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتی حررت أسراها.

و العجیب أن صهر النّبی علی ابنته زینب «أبا العاص» کان من بین أسری معرکة بدر، فأرسلت زوجته زینب قلادتها التی أهدتها أمّها خدیجة علیهما السّلام إلیها فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۷

زفافها، لتفتدی بها زوجها، فلمّا وقعت عینا النّبی علی تلک القلادة و تذکر تضحیة خدیجة و جهادها، و تجسّدت مواقفها أمام عینیه،

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رحم اللّه خديجة، فهذه قلادة جعلتها خديجة فى جهاز بنتى زينب.

و وفقا لبعض الرّوايات فإنّه امتنع عن قبول القلادة احتراما لخديجة و إكراما، و استجاز المسلمين فى إرجاع القلادة، فأذنوا له أن يرجع القلادة إلى زينب، ثمّ أطلق ۲۴۵] النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سراح أبى العاص، شريطة أن يرسل ابنته زينب- التى كانت قد تزوجت من أبى العاص قبل الإسلام- إلى المدينة، فوافق أبو العاص على هذا الشرط و وفى به بعدئذ[۲۴۶].

و على أية حال، فإنّ الآية محل البحث أجازت للمسلمين التصرف فى غنائم المعركة، و المبلغ الذى يأخذونه فداء من الأسير، فقالت: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّباً.

و يمكن أن تكون هذه الجملة ذات معنى واسع يشمل حتى الغنائم الأخرى غير الفداء.

ثمّ تأمرهم الآية بالتقوى فتقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ و هذا إشارة إلى أنّ جواز أخذ مثل هذه الغنائم لا ينبغى أن يجعل هدف المجاهدين فى المعركة هو جميع الغنائم و أن يأسروا العدوّ حتى يأخذوا فداءه. و إذا كان فى القلوب مثل هذه النيّات السيئة فعليهم أن يطهروا قلوبهم منها، و يعدهم اللّه بالعفو عمّا مضى فتقول الآية:

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۸

هل أن أخذ «الفداء» أمر منطقىّ عادل؟!

قد ينقدح هنا سؤال مهم و هو: كيف ينسجم الفداء قبال إطلاق سراح الأسير و أصول العدالة؟ أن ليس هذا نوعا من بيع الإنسان؟

و الجواب على هذا السؤال يتجلى واضحا حين نعرف أنّ الفداء هو نوع من الضرائب العسكرية، أو الغرامة الحربية، إذ أن كل حرب سبب فى إهدار كثير من الطاقات الاقتصادية و القوى الإنسانية، فالجماعة التى تقاتل من أجل الحق يحق لها أنّ تعوض عن خسائرها بعد الحرب، و أحد طرق التعويض هو «الفداء». و مع ملاحظة أن الفداء كان يومئذ يتراوح بين أربعة آلاف درهم عن الأسير الغنى، و ألف درهم عن الأسير الفقير، يتّضح أنّ الأموال التى أخذت من قريش فى هذا الصدد لم تكن كثيرة، بل لم تكن كافية لسد خسائر المسلمين المالية و الإنسانية فى تلك المعركة! ثمّ بعد هذا كلّه، فقد ترك المسلمون أموالا كثيرة- فى مكّة- عند هجرتهم اضطرارا إلى المدينة، فكانت هذه الأموال عند أعدائهم من قريش، و كان للمسلمين الحق أن يعوضوا عن خسائرهم و أموالهم فى يوم بدر بالفداء.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة التى أشارت إليها الآية ۴ من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هى أنّ مسألة الفداء ليست إلزامية، فللحكومة الإسلامية أن تبادل الأسرى متى ما رأت فى ذلك مصلحة، أو أن تمن عليهم فتطلق سراحهم دون تعويض.

و المسألة المهمّة الأخرى فى شأن أسرى الحرب هى موضوع إصلاحهم و تربيتهم و هدايتهم، و لعل هذا الأمر غير موجود فى المذاهب الماديّة، لكنّه مثار عناية و اهتمام أكيد فى الجهاد من أجل تحرير الإنسان و إصلاحه و تعميم الحق و العدل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۴۹۹

و لهذا فإنّ الآية الرّابعة من الآيات محل البحث تخاطب النّبى أن يدعو الأسرى إلى الإيمان باللّه و إصلاح أنفسهم، و يرغبهم فى كل ذلك، فتقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ

و المراد من كلمة «خيرا» فى الجملة آنفة الذكر إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً هو الإيمان و قبول الإسلام أمّا المراد من كلمة «خير» فى الجملة الأخرى «يؤتكم خيرا» فهو الثواب أو الأجر المادى و المعنوى الذى ينالونه ببركة الإسلام، و هو أعظم عند اللّه من الفداء بمراتب كثيرة! ثمّ إضافة إلى ذلك فسيشملكم لطف اللّه و يعفو عن سيئاتكم وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و حيث إنّ من الممكن أن يستغل بعض الأسرى إظهار الإسلام ليسيء إلى الإسلام و يخون النّبى و ينتقم من المسلمين، فإنّ الآية التالية تنذر النّبى و المسلمين و تنذر أولئك من الخيانة فتقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا خِيانَتَكَ فَقَدْ خانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ و أى خيانة أعظم من عدم الاستجابة لنداء الفطرة و العزوف عن نداء الحق و العقل، و الشرك باللّه و عبادة الأصنام بدلا من الإيمان باللّه و توحيده؟ ثمّ إنّ عليهم أن لا ينسوا نصرة اللّه لك فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ و إذا أرادوا الخيانة فى المستقبل فلن يفلحوا و سوف ينالون الخزى و الخسران و الهزيمة مرّة أخرى. لأنّ اللّه مطلع على نيّاتهم، و جميع تعاليم الإسلام فى شأن الأسرى وفق حكمته وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ و قد جاء فى كتب الفريقين- الشيعة و أهل السنة- فى ذيل الآيتين محل البحث أن العباس عم النّبى كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۰

يؤخذ عنه فداء إكراما لرسول اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و اللّه لا تذرون منه درهما»،

(أى إذا كان الفداء قانونا إسلاميا عامّا، فلا ينبغى أن يفرق بين عمى و بين أى أسير آخر).

و

قال لعمّه العباس: «ادفع عنك و عن ابن أخيك- عقيل- الفداء».

فقال له العباس «و كان شغوفا بالمال». يا محمّد أ تريد أن تجعلنى فقيرا حتى أمد يدى إلى قريش؟! فقال له النّبى: أعط فداءك من المال الذى أودعته عند أم الفضل- زوجتك- و قلت لها: إذا قتلت فى ساحة المعركة فأنفقيه على نفسك و على أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الإمر و قال: من أخبرك بهذا؟ «و لم يطلع عليه أحد أبدا» فقال رسول اللّه: أخبرنى بذلك جبرائيل.

فقال العباس: أحلف بمن يحلف به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعلم بذلك إلّا أنا و زوجتى، ثمّ قال: أشهد أنك رسول اللّه، و أعلن إسلامه.

و عاد جميع أسرى بدر إلى مكّة إلّا العباس و عقيلا و نوفلا، إذ أسلموا و بقوا فى المدينة، و الآيات محل البحث تشير إلى حال أولئك ۲۴۷].

و جاء فى شأن إسلام العباس فى بعض التواريخ أنّه عاد إلى مكّة بعد إسلامه، و كان يكتب إلى النّبى عن مؤامرات المشركين ثمّ هاجر إلى المدينة قبل السنة الثّامنة من الهجرة «عام فتح مكّة».

و

فى كتاب قرب الإسناد عن الإمام الباقر عن أبيه الإمام زين العابدين، أنّه جيء إلى رسول اللّه ذات يوم بأموال كثيرة، فالتفت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى العباس و قال له: ابسط عباءتك أو «رداءك» و خذ من هذا المال، ففعل العباس و أخذ من ذلك المال، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هذا ما قاله اللّه سبحانه و تلا قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۱

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرى ۲۴۸].

و هو إشارة إلى أن وعد اللّه قد تحقق عمليا فى إتيان العباس خيرا ممّا أخذ منه.

و يعرف من هذا الحديث أنّ النّبى كان فى صدد أن يعوض الأسرى الذين أسلموا عمّا أخذ منهم، ترغيبا و تشويقا، و أن يعيد إليهم أموالهم المأخوذة منهم بصورة أحسن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۲

الآيات [سورة الأنفال (۸): الآيات ۷۲ الى ۷۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۷۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ (۷۳) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۷۴) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷۵)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۳

التّفسير

أربع طوائف مختلفة:

تبحث هـذه الآيات التى تختتم بها سورة الأنفال- و تعـدّ آخر فصل من فصولها- عن طوائف المهاجرين و الأنصار و الطوائف الأخرى من المسلمين و بيان قيمة هؤلاء جميعا، فتعطى كل طائفة قيمة، و تستكمل ما تناولته الآيات السابقة فى شأن الجهاد و المجاهدين.

و بتعبير آخر: إنّ هـذه الآيـات عـالجت نظـام المجتمع الإسـلامى من حيث العلائق المختلفـة، لأنّ خطـة الحرب و خطـة الصـلح كسائر الخطط و المناهج العامّة، لا يمكن أن يتمّ أىّ منها دون تكوين علاقة اجتماعية صحيحة، و أخذها بنظر الإعتبار.

و قد تناولت هذه الآيات خمس طوائف، أربع منها من المسلمين، و واحدة من غير المسلمين، و الطوائف الأربع هى:

۱- المهاجرون السابقون.

۲- الأنصار فى المدينة.

۳- المؤمنون الذين لم يهاجروا.

۴- الذين آمنوا من بعد و هاجروا.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

فقـد أشـير فى هذا القسم من الآية إلى الطائفتين، الأولى و الثّانية [المهاجرون، و الأنصار] أى الذين آمنوا فى مكّة ثمّ هاجروا منها إلى المدينة، و الذين آمنوا فى المدينة ثمّ آزروا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و نصـروه و دافعوا عنه و عن المهاجرين، و قد وصفتهم الآية بأنّهم بعضهم أولياء بعض، و بعضهم حماة بعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۴

و الذى يسترعى النظر أنّ الآية وصفت الطائفة الأولى بأربع صفات هى:

الإيمـان، و الهجرة و الجهـاد المـالى و الاقتصـادى «و ذلـك عن طريق الإعراض عن أموالهم فى مكّة، و ما بـذلوه من أموال فى غزوة بدر»، و الصفة الرّابعة جهادهم بأنفسهم و دمائهم و أرواحهم.

أمّا الأنصار فقد وصفتهم الآية بصفتين هما: الإيواء، و النصرة.

و قد جعلت هذه الآية الجميع مسئولين بعضهم عن بعض، و يتعهد كلّ بصاحبه بقولها بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

فهاتـان الطائفتـان- فى الحقيقـة- كانتا تمثلان مجموعتين متلازمتين لا يمكن لأحـدهما الاسـتغناء عن الأخرى، إذ منهما يتكون نسـيج المجتمع الإسلامى، فهما بمثابة «المغزل و الخيط».

ثمّ تشير الآية إلى الطائفة الثّالثة فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا.

ثمّ اسـتثنت فى الجملـة التى بعدها مسـئولية واحدة فحسب، و أثبتتها فى شأن هذه الطائفة، فقالت: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ... إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثاقٌ

و بتعبير آخر: يلزم الـدفاع عن أولئـك فى صورة ما لو أصـبحوا قبال عـدوّ مشترك، أمّا إذا واجهوا كفارا بينكم و بينهم عهـد و ميثاق، فإنّه يجب الوفاء بالعهد و الميثاق، و هى مقدمة على الدفاع فى هذه الصورة.

و حضّت الآيـة على رعايـة العهـود و المواثيق و الدقـة فى أداء هـذه المسؤوليـة، و منبهـة إلى علم اللّه بكـل الأـمور، فقـالت: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

فهو يرى جميع أعمالكم و يطلع على ما تفعلون من جهاد، أو أداء للوظيفة الملقاة على عاتقكم، أو إحساس بالمسؤولية، كما يعلم بمن لم يعتن بالأمر، و كذلك بالوهن و الضعف و عدم الإحساس بالمسؤولية إزاء هذه الوظائف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۵

الكبيرة.

أمّا الآية الثّانية فتشـير إلى النقطة المقابلة للمجتمع الإسـلامى، أى مجتمع الكفر و أعداء الإسـلام، فتقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

أى أنّ علاقاتهم منحصـرة فيما بينهم، و لا يحق لكم أن تتعاهدوا معهم، أو تحاموا عنهم، أو تطلبوا منهم النصرة لأنفسكم، أو تلجؤوهم و تؤووهم إليكم، أو تأووا و تلتجئوا إليهم.

و بعبارة موجزة: لا يحق للكفار أن يدخلوا فى نسيج المجتمع الإسلامى، و لا يحق للمسلمين أن يدخلوا فى نسيج الكفار.

ثمّ تنبه الآية المسلمين و تحذرهم من مخالفة هذا التعليم، فتقول: إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسادٌ كَبِيرٌ.

و أى فتنة و فساد أكبر من تهميش انتصاركم، و سريان دسائس الأعداء فى مجتمعكم، و تخطيطهم لهدم دينكم دين الحق و العدل.

أمّـا فى الآيـة التاليـة فنجـد تأكيـدا على مقـام المهـاجرين و الأنصـار مرّة أخرى، و مـا لهمـا من موقع و أثر فى تحقق أهـداف المجتمع الإسلامى، فتثنى عليهم الآية بقولها: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.

لأنّهم هبوا لنصـرة الإسـلام فى الأيام الصـعبة الشديـدة و فى الغربـة و المحنة و قد اشترك كل فرد منهم بنوع من النصـرة للّه و لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

فهم فائزون بثواب اللّه و النعمة الأخروية، كما أنّهم يتمتعون فى هذه الدنيا بالعزة و رفعة الرأس و الكرامة.

أمّا الآيـة الأخيرة فتشـير إلى الطائفـة الرّابعـة من المسـلمين، أى أولئك الـذين آمنوا و هاجروا من بعد، فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۶

مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ

أى أنّ المجتمع الإسـلامى ليس مجتمعا منغلقا و محصورا على نفسه، بل أبوابه مفتوحـة لجميع المؤمنين و المهاجرين و المجاهدين، و إن كان للمهاجرين الأوائل مقام خاص و منزلـة كريمـة، إلّا أنّ ذلك لا يعنى أن المؤمنين الجدد و المهاجرين فى المسـتقبل لا يعدّون جزاء من المجتمع الإسلامى و لا يكونون من نسيجه.

و تشـير الآية فى ختامها إلى ولاية الأرحام بعضهم لبعض، و أوليتها فيما جعله اللّه فى عبادة من أحكام، فتقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ

أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ

و فى الحقيقة فإنّ الآيات السابقة تتكلم عن ولاية المؤمنين و المسلمين العامّة «بعضهم إلى بعض» أمّا هذه الآية محل البحث فتؤكّد هذا الموضوع فى شأن الأرحام و الأقارب، فهم إضافة إلى ولاية الإيمان و الهجرة يتمتعون بولاية الأرحام أيضا، و من هنا فهم يرثون و يورثون بعضهم بعضا، إلّا أنّه لا إرث بين غيرهم من المؤمنين الذين لا علاقة قربى بينهم.

فبناء على ذلك فإنّ الآية الأخيرة لا تتكلم عن الإرث، بل تتكلم عن موضوع واسع من ضمنه موضوع الإرث.

و إذا وجدنا فى الرّوايات الإسلامية، و فى الكتب الفقهية، استدلالا بهذه الآية و الآية المشابهة لها فى سورة الأحزاب على الإرث، فلا يعنى ذلك أن الآى الذى استدل به على الإرث منحصر بهذا الشأن فحسب، بل توضح قانونا كليّا، و الإرث جزء منه. و لهذا نجد أنّه استدل بهذه الآية محل البحث على موضوع خلافة النّبى مع أنّها غير داخلة فى موضوع الإرث المالى.

و استدل بها على أولوية غسل الميت، كما صرّحت به الرّوايات الإسلامية.

و بملاحظة ما ذكرناه آنفا يتّضح أنّه لا دليل على ما أصر عليه جماعة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۷

المفسّرين على انحصار هذه الآية بمسألة الإرث، و إذا أردنا أن نختار مثل هذه التّفسير فإنّ السبيل الوحيد له أن نعده مستثنيا الإرث من الولاية المطلقة، التى بيّنتها الآيات السابقة لعامّة المهاجرين و الأنصار، فنقول: إنّ الآية الأخيرة تقول بأنّ ولاية المسلمين العامّة بعضهم لبعض لا تشمل الإرث.

و أمّا الاحتمال بأنّ الآيات السابقة تشمل الإرث أيضا ثمّ نسخت الآية الأخيرة هذا الحكم منها، فيبدو بعيدا جدّا، لأنّ الترابط فى المفهوم بين هذه الآيات جميعا من الناحية المعنوية، بل حتى التشابه اللفظى، كل ذلك يدل على أنّ الآيات نزلت معا فى وقت واحد.

و بهذا لا يمكن القول بالتناسخ بين هذه الآيات.

و على كل حال فإنّ التّفسير الأكثر تناسبا لهذه الآيات هو ما بيناه آنفا.

و فى آخر جملة من هذه الآية- التى هى آخر جملة من سورة الأنفال أيضا- يقول اللّه سبحانه: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فما نزل فى هذه السّورة من أحكام تتعلق بالأنفال و غنائم الحرب، و تعاليم الجهاد و الصلح، و أحكام الأسرى و الحرب، و ما يتعلق بالهجرة و غيرها، كل ذلك كان وفق حساب دقيق يتلاءم و روح المجتمع الإنسانى، و العواطف و البشرية، و المصالح العامّة فى جميع جوانبها المختلفة.

ملاحظات

۱- الهجرة و الجهاد

إنّ دراسة التاريخ الإسلامى تدلّ على أن هذين الموضوعين كانا من عوامل انتصار المسلمين الرئيسية قبال عدوّهم، فلولا الهجرة لتمّ دفن الإسلام فى مكّة، و لولا الجهاد لما اتسعت رقعة الإسلام، فالهجرة أخرجت الإسلام من منطقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۸

خاصّة إلى مداه الرحب و صيرته عالميّا، و الجهاد علّم المسلمين أنّهم إذا لم يعتمدوا على قدراتهم فإنّ عدوّهم الذى لا يلتزم بأيّة مقررات سوف لا يعترف لهم بأدنى حقّ. سوف لا يعطيهم حقوقهم المشروعة، و لا يصيخ لهم سمعا أبدا.

و اليوم إذا أردنا انقاذ الإسلام من الطرق المسدودة، و إزاحة الموانع التى جعلها الأعداء فى طريقه من كل جهة، فلا سبيل إلى ذلك

إلّا باحياء هذين الأصلين: الهجرة و الجهاد.

فالهجرة توصل صوت المسلمين إلى أسماع العالم كله، و تروى ظمأ القلوب المتعطشة للحق و العدل و من هو فى شوق إلى معرفة الحقيقة.

و الجهاد يهب المسلمين التحرك و الحياة، و يبعد أعداءهم الذين لا ينفعهم إلّا منطق القوة عن قارعة الطريق و يبيدهم.

و قد حدثت الهجرة فى الإسلام مرارا. فكانت هجرة المسلمين من مكّة إلى الحبشة حيث غرسوا بها الإسلام خارج الجزيرة العربية و بنوا فيها حصنا للمسلمين الأوائل قبال ضغوط أعدائهم.

ثمّ هجرة النّبى و المسلمين الأولى إلى المدينة، و لهؤلاء المهاجرين الذين يطلق عليهم (مهاجرو بدر) أهمية قصوى فى تأريخ الإسلام، لأنّهم اتّجهوا ظاهرا نحو مستقبل مجهول مظلم، و غضوا ابصارهم عن جميع ما ملكوه فى سبيل اللّه، و أعرضوا عن حطام الدنيا.

هؤلاء المهاجرين أى: «المهاجرون الأوّلون» مثلوا فى الحقيقة الحجر الأساس لصرح الإسلام العظيم، و القرآن يثنى عليهم بالتكريم و التعظيم، و لوليهم عناية خاصّة، لأنّهم كانوا من أشد المسلمين تضحية.

«الهجرة الثّانية» أطلقت على هجرة طائفة أخرى من المسلمين إلى المدينة، و ذلك بعد صلح الحديبية و الحصول على محيط آمن نسبيا بعد هذا الصلح، و قد تطلق الهجرة على كل مهاجر من مكّة إلى المدينة حتى بعد واقعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۰۹

بدر، و إلى زمان فتح مكّة.

أمّا بعد فتح مكّة فقد انتفت الهجرة من مكّة إلى المدينة، لأنّ مكّة أصبحت مدينة إسلامية أيضا، و الحديث النبوى المشهور «لا هجرة بعد الفتح» يشير إلى هذا المعنى.

لكن هذا الكلام لا يعنى أن مفهوم الهجرة زاك من قاموس مبادئ الإسلام كليّا كما يتصور بعضهم، بل الهجرة من مكّة إلى المدينة انتفى موضوعها، و إلّا فمتى ما حدثت ظروف كظروف المسلمين الأوائل فقانون الهجرة باق على قوته، و سوف يبقى ما دام الإسلام يتسع حتى يستوعب العالم أجمع.

و مع الأسف الشديد فإنّ أغلب المسلمين لنسيانهم هذا الأصل الإسلامى المهم انغلقوا على أنفسهم، بينما نرى المبشرين المسيحيين و الفرق الضالة و الاستعمار يهاجرون إلى أنحاء المعمورة كلها، و يذهبون حتى إلى القبائل أو الطوائف المتوحشة ممن يأكلون لحوم البشر فى مجاهيل أفريقيا، و يجوبون القطبين المتجمدين الشمالى و الجنوبى فى سبيل تحقيق أهدافهم، مع أن هذه مهمّة المسلمين فى الواقع، إلّا أن العمل أضحى من الآخرين! و الأعجب من ذلك وجود الكثير من القرى فى جوار المدن الإسلامية الكبرى، و بمسافة لا تبعد كثيرا عنها، إلّا أن أهلها لا يعرفون عن الإسلام شيئا، و لا يعرفون أحكامه، و ربّما لم يروا وجه مبلغ إسلامى هناك أبدا. لهذا فإنّ محيطهم مستعد لنشوء جراثيم الفساد و المذاهب المختلقة و البدع التى يفتعلها «الاستعمار» و لا ندرى بماذا يجيب المسلمون ربّهم يوم القيامة- و هم ورثة المهاجرين الأوائل- إزاء هذه الحال المزرية؟! و بالرغم من مشاهدة تحرك فى هذا الصدد أخيرا، إلّا أنّه محدود و غير كاف ابدا.

و على أية حال، فإن موضوع الهجرة و أثرها فى تاريخ الإسلام و مصير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۰

المسلمين أكبر من أن نأتى على جميع جوانبه بهذا الاختصار (و لنا كلام بهذا الشأن لدى تفسير الآيات التى تتناول هذا الموضوع إن شاء اللّه ...).

۲- المبالغة و الإغراق فى تنزيه الصحابة

حاول بعض إخواننا أهل السنة أن يستنتج من ما أولاه القرآن للمهاجرين السابقين «الأوائل» من اهتمام و احترام، أنّهم لن يرتكبوا ذنبا إلى آخر عمرهم و حياتهم. و ذهبوا إلى إكرامهم و احترامهم جميعا دون استثناء، و دون الاعتراض على هذا و ذاك، و كيف ذلك؟! ثمّ عمموا هذا القول على جميع الصحابة- فضلا عن المهاجرين- و ذلك لثناء القرآن عليهم فى بيعة الرضوان و غيرها، و ذهبوا عملا إلى أنّ الصحابة- دون النظر إلى اعمالهم- أفراد متميزون. فلا يحق لأىّ شخص توجيه النقد لهم و التحقيق فى سلوكهم. يجوز بأىّ وجه أن يوجه النقد إليهم.

و من جملة هؤلاء المفسّر المعروف صاحب المنار، إذ حمل فى ذيل الآيات محل البحث حملة شعواء على الشيعة، لأنّهم ينتقدون المهاجرين الأولين، و لم يلتفت إلى أن مثل هذا الإعتقاد لا يتضاد و روح الإسلام و تاريخه!! فلا ريب أنّ للصحابة- و على الخصوص المهاجرين منهم- حرمة خاصّة، إلّا أنّ هذه الحرمة كانت قائمة ما داموا فى طريق الحق و يضحّون من أجل الحق، لكن من المقطوع به أن نظرة القرآن إلى بعضهم أو حكمه قد تغير منذ انحرف عن النهج القويم و الصراط المستقيم.

فمثلا، كيف يمكننا أن نبرئ طلحة و الزبير من نقضهما بيعة إمامهما الذى انتخبه المسلمون «بغض النظر عن تصريح النّبى بمقامه و شأنه» و كانا من ضمن المسلمين الذين بايعوه؟ و كيف يمكن تبرأتهما من دماء سبعة عشر ألف مسلم قتلوا فى حرب الجمل، مع أنّه لا عذر لمن يسفك دم إنسان واحد أمام اللّه مهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۱

كان، فكيف بهذا العدد الهائل الذين سفكت دماؤهم؟

ترى هل يمكن أن نعدّ عليّا عليه السلام و أصحابه فى حرب الجمل على الحق كما نعدّ أعداءه فيها على الحق أيضا؟! و نعد طلحة و الزبير و من معهما من الصحابة على الحق كذلك؟! و هل يقبل العقل و المنطق هذا التضاد الفاضح؟

و هل يمكننا أن نغض النظر من أجل عنوان «تنزيه الصحابة» و لا نلتفت إلى التأريخ و ننسى كل ما حدث بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نضرب عرض الجدار قاعدة إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ

مالكم كيف تحكمون؟! و ما يمنع أن يكون الإنسان من أهل الجنّة و مؤيدا للحق يوما، و يكون من أهل النّار و مؤيدا للباطل و من أعداء الحق يوما آخر؟ ... فهل الجميع معصومون؟

ألسنا نرى التغييرات فى أحوال الأشخاص بأم أعيننا؟! قصة «اصحاب الردّة» و ارتداد جمع من المسلمين بعد رحلة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مذكورة فى كتب أهل السنّة و الشّيعة، و أن الخليفة الأوّل تصدى لهم و قاتلهم، فهل يعقل أنّ أحدا من «اصحاب الردّة» لم ير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يكونوا فى عدّة الصحابة؟

و الأعجب من ذلك أنّ بعضا تشبث بالاجتهاد للتخلص من الطريق المسدود و التناقض فى ذلك، و قالوا: إن أمثال طلحة و الزبير و معاوية و من لفّ لفهم قد اجتهدوا فأخطأوا و ليسوا مذنبين، بل هم مثابون مأجورون بأعمالهم من قبل اللّه! فما أفضح هذا المنطق؟! فهل الثورة على خليفة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نقض البيعة و هدر دماء الآلاف من الأبرياء من أجل رئاسات دنيوية و حب المال، موضوع معقد و مبهم و لا يعرف أحد ما فيه من سوء؟! ترى هل فى سفك كل تلك الدماء البريئة أجر و ثواب عند اللّه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۲

فإذا أردنا تبرئة جماعة من الصحابة ممّا ارتكبوه من جرائم، فسوف لا نرى مجرما أو مذنبا فى الدنيا، و سنبرئ بهذا المنطق جميع القتلة و المجرمين و الجبابرة.

إنّ مثل هذا الدّفاع غير المنطقى- عن الصحابة- سيسبب النظرة السيئة إلى أصل الإسلام.

و الخلاصة، أنّنا لا سبيل لنا إلّا احترام الجميع خاصّة أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما داموا لم ينحرفوا عن مسير الحق و

العدل و مناهج الإسلام، و إلّا فلا.

۳- الإرث فى قوانين الإسلام

كما أشرنا سابقا فى تفسير سورة النساء، فإنّ الناس فى زمان الجاهلية كانوا يتوارثون عن ثلاث طرق:

۱- عن طريق النسب «و كان منحصرا بالأولاد الذكور، أمّا الأطفال و النساء فهؤلاء محرومون من الإرث».

۲- و عن طريق «التبنى» بأن يجعل ولد غيره ولده.

۳- و عن طريق العهد الذى يعبر عنه بالولاء[۲۴۹].

و فى بداية الإسلام كان العمل جاريا بهذه الطرق قبل نزول قانون الإرث، إلّا أنّه سرعان ما حلّت الأخوة الإسلامية مكان ذلك، و ورث المهاجرون الأنصار فحسب، و هم الذين تآخوا و عقدوا عهد الأخوة الإسلامية، و بعد أن اتسع الإسلام أكثر فأكثر شرّع حكم الإرث النسبى و السببى، و نسخ حكم الأخوة الإسلامية فى الإرث.

و قد أشارت إليه الآيات- محل البحث- و الآية (۶) من سورة الأحزاب، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۳

تقول: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ

كل هذا مقطوع به من حيث التاريخ، إلّا أنّه- كما قلنا من قبل- فإن جملة وَ أُولُوا الْأَرْحامِ الواردة فى الآيات محل البحث لا تختص بمسألة الإرث، بل هى ذات معنى واسع، و الإرث جزء منه.

۴- ما المراد من الفتنة و الفساد الكبير

احتمل المفسّرون فى تفسير هاتين الكلمتين الواردتين فى الآيات محل البحث احتمالات كثيرة، إلّا أنّ ما ينسجم أكثر مع مفهوم هذه الآية هو أنّ المراد من «الفتنة» هو الاختلاف و التفرق و تزلزل مبانى العقيدة الإسلامية على أثر وسوسة الأعداء، و «الفساد» يشمل كل إخلال و تخريب للنظم الاجتماعية المختلفة و خاصّة سفك الدماء البريئة و الإرهاب و أمثال ذلك.

و فى الحقيقة فإنّ القرآن المجيد ينذر المسلمين إذا لم يحكموا علائق الأخوة و التعاون فيها بينهم، و لم يقطعوا ارتباطهم بالعدوّ، فإنّ جماعتهم تزداد تشتتا يوما بعد يوم، و بنفوذ الأعداء داخل المجتمع الإسلامى و وساوس إغواءاتهم تزلزل أسس الإيمان و قواعده، و يبتلى المسلمون عن هذا الطريق بفتنة عظيمة.

و كذلك إذا لم تكن علائق اجتماعية قوية، فإنّ العدو سرعان ما ينفذ إلى المجتمع و تحدث أنواع المفاسد من إرهاب و سفك الدماء، و تضيع الأموال و إغواء الأولاد، و يبدو الضعف و النقص واضحا فى المجتمع، و يعم الفساد الكبير كل مكان.

ربّنا، أيقظ مجتمعنا الإسلامى بلطفك. و نبّهنا إلى أخطار التعاون مع الأعداء و تكوين العلاقة و إياهم. و نزّه مجتمعنا من الفتنة و الفساد الكبير بنور المعرفة و وحدة الكلمة، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۵

سورة التّوبة

اشارة

و هی مدنیّة و عدد آیاتها مائة و تسع و عشرون آیة فحسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۷

سورة التّوبة ینبغی الالتفات إلی الأمور التالیة قبل الشروع فی تفسیر السورة

۱- أسماء هذه السّورة ...

ذکر المفسّرون لهذه السّورة أسماء عدیدة تبلغ العشرة، غیر أنّ المشهور منها هو ما یلی: سورة البراءة، و سورة التوبة، و السورة الفاضحة. و لکلّ من التسمیات سبب جلی.

فالبراءة، لأنّها تبتدأ بإعلان براءة اللّه من المشرکین، و الذین ینقضون عهدهم.

و التوبة، لما ورد من مزید الکلام عن التوبة فی هذه السورة.

و الفاضحة، لما فیها من الآیات التی تکشف النقاب عن أعمال المنافقین لتعریتهم و خزیهم و فضیحتهم.

۲- متی نزلت هذه السورة

هذه السورة هی آخر سورة نزلت علی النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو من أواخر السور النازلة علیه فی المدینة، و هی کما قلنا ذات ۱۲۹ آیة فحسب.

و المعروف أن بدایة نزول هذه السورة کانت فی السنة التاسعة للهجرة، و یدلّ تتبع آیاتها علی أنّ قسما منها نزل قبل معرکة تبوک، و قسما منها نزل عند الاستعداد للمعرکة أو «الغزوة»، و قسما منها نزل بعد الرجوع من المعرکة و الفراغ منها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۸

و من بدایة السورة حتی الآیة (۲۸) نزل قبیل موسم الحج، کما سنبیّن ذلک بعون اللّه، و الآیات الأولی- هذه- و التی تتعلق بمن بقی من المشرکین بلّغها أمیر المؤمنین علیه السلام فی موسم الحج.

۳- محتوی السّورة

لمّا کان نزول هذه السورة إبّان انتشار الإسلام فی الجزیرة العربیة، و تحطیم آخر مقاومة للمشرکین فقد کان لما حوته من مفاهیم أهمیة بالغة و مواضیع حساسة. إذ یتعلق قسم منها بالبقیة الباقیة من عبدة الأوثان و المشرکین، و قطع العلاقات معهم، و إلغاء المعاهدات و المواثیق التی کانت بینهم و بین المسلمین، لنقضهم لها مرارا، لیتم تطهیر المحیط الإسلامی من رجس الوثنیة إلی الأبد.

و حیث إن بعض الأعداء عند انتشار رقعة الإسلام و تحطیم قوی الشرک غیّر مظهره بغیة النفوذ بین المسلمین، و لتوجیه ضربة قاضیة للإسلام من قبل المنافقین فإنّ قسما مهما من آیات هذه السورة تتحدّث عن المنافقین و عاقبهم، و تحذر المسلمین منهم.

و بعض آیات هذه السورة تتحدّث عن الجهاد فی سبیل اللّه و أهمیته، لأنّ الغفلة عن هذا الأمر الحیاتی فی ذلک الظرف الحساس تبعث علی ضعف المسلمین و تقهقرهم أو انکسارهم.

کما أنّ قسما منه یکمل البحوث السابقة التی تناولت انحراف أهل الکتاب «الیهود و النصاری» عن حقیقة التوحید، و تتکلم عن انصراف علمائهم عن واجبهم فی التبلیغ و قیادة المجتمع.

و فی بعض آیات هذه السورة حثّ للمسلمین علی الاتحاد و رص الصفوف- تعقیبا علی ما جاء آنفا فی الحث علی الجهاد- و توبیخ للمتخاذلین المتحرّفین أو الضعاف الذین یتذرعون بذرائع واهیة للتخلص من هذا الواجب، ثمّ إنّ فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۱۹

ثناء على المهاجرين السابقين إلى الهجرة، و الصفوة من المؤمنين الصادقين.

و حيث سبّب انتشار الإسلام و اتساع رقعة مجتمعه آنئذ ظهور حاجات مختلفة ينبغى توفيرها، فقد عرضت بقية الآيات من هذه السورة موضوع الزكاة و تحريم تراكم الثروات و اكتنازها، و وجوب طلب العلم أو التعلّم و تعليم الجهلة، و تناولت بحوثا متنوعة أخرى كقصة هجرة النّبى، و الأشهر الحرم التى يحرم فيها القتال، و أخذ الجزية من الأقليات الدينية غير الإسلامية كاليهود و النصارى، و ما إلى ذلك.

۴- لم لم تبدأ هذه السورة بالبسملة؟

يجيب استهلال السورة على السؤال آنف الذكر فقد بدئت بالبراءة- من قبل اللّه- من المشركين، و إعلان الحرب عليهم، و اتباع أسلوب شديد لمواجهتهم، و بيان غضب اللّه عليهم، و كل ذلك لا يتناسب و البسملة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ الدالة على الصفاء و الصدق و السلام و الحب، و الكاشفة عن صفة الرحمة و اللطف الإلهى.

و قد ورد هذا التعليل عن على عليه السلام ۲۵۰].

و يعتقد بعض المفسّرين أن سورة براءة- فى الحقيقة- تتمة لسورة الأنفال، لأنّ الأنفال تتحدث عن العهود، و براءة تتحدث عن نقض تلك العهود، فلم تذكر البسملة بين هاتين السورتين لارتباط بعضهما ببعض. و قد ورد عن الإمام الصادق هذا المعنى أيضا[۲۵۱].

و لا مانع أن يكون السبب فى عدم ذكر البسملة مجموع الأمرين آنفى الذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۰

- معا- فالأوّل ناظر إلى الرواية الأولى «رواية الإمام على» و الثّانى يشير إلى رواية الإمام الصادق عليه السلام.

۵- فضيلة هذه السورة و آثارها

أولت الرّوايات الإسلامية أهميّة خاصّة لتلاوة سورتى براءة و الأنفال، و ممّا جاء فى شأنهما

عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «من قرأ براءة و الأنفال فى كل شهر لم يدخله نفاق أبدا، و كان من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام حقّا».

و قد قلنا مرارا: إنّ ما ورد من أهمية قصوى فى الرّوايات الإسلامية فى قراءة مختلف السور لا يعنى ظهور آثار تلك القراءة من دون تفكّر و تطبيق لمضامينها، فنقول مثلا: من قرأ سورتى براءة و الأنفال دون إدراك لمعانيهما فسيدرأ عنه النفاق، و يكون من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، بل المراد فى الحقيقة أن يكون مضمون السورة مؤثّرا فى بناء شخصية الفرد و المجتمع، و لا يتحقق ذلك إلّا بإدراك مغزى السورة و استيعاب معناها، و الاستعداد و التهيؤ لتطبيقها.

و حيث أن السورتين قد أوضحتا الخطوط العريضة العامّة فى حياة المؤمنين الصادقين و من فى قبالهم من المنافقين، و أنارتا الطريق للعاملين لا للمدّعين فحسب، فستكون ثمرة تلاوتهما و الإعتبار بمضمونيهما هو ما ذكرته الرواية و بهذا تكون التلاوة مؤثرة بنّاءة.

و أمّا من ينظر إلى القرآن و آياته الشريفة بشكل آخر، فهو أبعد ما يكون عن روح هذا الكتاب التربوى الذى جاء لبناء الإنسانية و هدايتها.

و

قد ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان الأهمية القصوى لما نوهنا عنه من لطائف، أنّه قال «نزلت علىّ براءة و التوحيد فى سبعين ألف صف من صفوف الملائكة، و كان كل صف منهم يوصينى بأهمية هاتين السورتين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۱

۶- حقیقة تأریخیة یسعی بعضهم إلی طمس معالمها

من المتفق علیه بین جمیع المؤرخین و المفسّرین تقریبا أنّه لما نزلت الآیات الأولی من سورة براءة، و ألغیت العهود التی کانت بین المشرکین و المسلمین، أمر النّبی أبا بکر أن یبلغ هذه الآیات فی موسم الحج، ثمّ أخذها منه و أعطاها علیا علیه السلام لیقوم بتبلیغها، فقرأها علی علی الناس فی موسم الحج. و بالرغم من اختلاف الرّوایات فی جزئیات هذه القصة و جوانبها المتفرقة، إلّا أن ذکر النقاط التالیة یمکن أن یجلو لنا حقیقة ناصعة:

۱- یروی أحمد بن حنبل- إمام أهل السنة المعروف- فی مسنده عن ابن عباس، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل فلانا «المقصود بفلان هو أبو بکر کما سیتّضح ذلک بعدئذ» و أعطاه سورة التوبة لیبلغها الناس فی موسم الحج، ثمّ أرسل علیّا خلفه و أخذها منه و

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لا یذهب بها إلّا رجل منّی و أنا منه»[۲۵۲].

۲- کما جاء فی المسند ذاته عن أنس بن مالک، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل سورة براءة مع أبی بکر لیبلغها، فلمّا وصل أبو بکر إلی ذی الحلیفة- و یدعی بمسجد الشجرة أیضا- و هو و علی بعد مسافة فرسخ عن المدینة تقریبا،

قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا یبلغها إلّا أنا أو رجل من أهل بیتی»

فبعث بها مع علی علیه السلام ۲۵۳].

۳- و

ورد أیضا فی المسند نفسه- بإسناد آخر- عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام أنّه لما بعثه النّبی و معه براءة قال: یا رسول اللّه لست خطیبا، فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لا محیص عن ذلک، فإمّا أن أذهب بها أو تذهب بها، فقال علی: إذا کان و لا بدّ فأنا أذهب بها. فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «انطلق بها فإنّ اللّه یثبت لسانک و یهدی قلبک»[۲۵۴].

۴- و ینقل النسائی- أحد کبار علماء السنة- فی خصائصه،

عن زید بن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۲

سبیع، عن علی علیه السلام، أن النّبی أرسل أبا بکر بسورة براءة إلی أهل مکّة، ثمّ بعث علیّا خلفه لیأخذ الکتاب منه «یعنی السورة» فلحقه فی الطریق و أخذ الکتاب منه، فعاد أبو بکر حزینا أسیفا، و قال: یا رسول اللّه أنزل فیّ شیء؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا، إلّا أنّی أمرت أن أبلغه أنا أو رجل من أهل بیتی»[۲۵۵].

۵- و

فی سند آخر أیضا، عن عبد اللّه بن أرقم، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعث أبا بکر بسورة براءة، فلمّا سار و بلغ بعض الطریق بعث النّبی علیا فلحقه و أخذ منه السورة، فذهب بها علی إلی مکّة، فرجع أبو بکر إلی النّبی متأثرا فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«لا یؤدی عنّی إلّا أنا أو رجل منّی»[۲۵۶].

۶- و أورد ابن کثیر- المفسّر المعروف-

عن أحمد بن حنبل، عن حنش، عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام، أنّه عند ما نزلت عشر آیات من سورة براءة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعا أبا بکر و أعطاه إیّاها لیبلغها أهل مکّة، ثمّ بعث خلفی و أمرنی بالذهاب خلفه و أخذ الکتاب منه، فعاد أبو بکر

إلی النّبی و قال: أنزل فیّ شیء؟

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا، و لکنّ جبرئیل جاءنی و قال: لن یؤدی عنک إلّا أنت أو رجل منک»[۲۵۷].

۷- و نقل ابن کثیر هذا المضمون عینه عن زید بن سبیع ۲۵۸].

۸- کما أنّه روی هذا الحدیث عن أبی جعفر محمّد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب (محمّد الباقر علیه السلام) فی تفسیره ۲۵۹].

۹- و

روی العلّامة ابن الأثیر و هو- الآخر- من علماء السنة الکبار، فی «جامع الأصول» عن الترمذی عن أنس بن مالک، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أرسل سورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۳

براءة مع أبی بکر ثمّ دعاه، و قال: «لا ینبغی لأحد أن یبلغ هذه إلّا رجل من أهلی» فدعا علیا فأعطاه إیّاها[۲۶۰].

۱۰- و

روی محب الدین الطبری، فی کتابه ذخائر العقبی، عن أبو سعید أو أبی هریرة، أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أمر أبا بکر أن یتولی أمر الحج، فلمّا مضی و بلغ ضجنان سمع أبو بکر صوت بعیر علی فعرفه، فجاء إلی علی و قال: فیم جئت؟

فقال علیه السلام: أرسل النّبی معی سورة براءة. فلمّا رجع أبو بکر إلی النّبی و أظهر تأثره من تغییر «الرسالة» قال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا یبلغ عنّی غیری أو رجل منی» یعنی علیا[۲۶۱].

و قد صرحت روایات أخری أنّ النّبی أعطی ناقته علیا لیرکبها و یأتی بها أهل مکّة فیبلغهم، فلمّا وصل منتصف الطریق سمع أبو بکر صوت ناقة رسول اللّه فعرفها.

و هذا النص- مع ما ورد آنفا- یدل علی أنّ الناقة کانت ناقة النّبی و قد أعطاها علیّا، لأهمیة ما أمر به.

و قد روی هذا الحدیث کثیر من کتب أهل السنة مسندا تارة، و مرسلا تارة أخری، و هو من الأحادیث المتفق علیها، و لا یطعن فیه أبدا.

و طبقا لبعض الرّوایات الواردة عن أهل السنة أنّ أبا بکر لما صرف عن إبلاغ سورة براءة، جعل أمیرا علی الحاج بمکّة.

توضیح و تحقیق:

هذا الحدیث یثبت- بجلاء- فضیلة للإمام علی علیه السلام، إلّا أنّنا- و یا للأسف- نجد مثل هذه الأحادیث لا ینظر إلیها بعین الإنصاف و الحق، إذ یسعی بعضهم إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۴

محوها و نسیانها کلیّا، أو إلی التقلیل من أهمیتها و قیمتها بأسالیب شتی ملتویة:

۱- فمثلا یتناول صاحب تفسیر المنار تارة- من الحدیث آنف الذکر- المقطع الذی یتعلق بجعل أبی بکر أمیرا علی الحاج، و یختار الصمت و السکوت فی بقیة الحدیث الذی یدور حول أخذ سورة من أبی بکر لیبلغها علی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و قد قال فیه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا یبلغها إلّا أنا أو رجل منّی» یعنی علیّا علیه السلام.

مع أنّ سکوت قسم من الأحادیث عن هذا الموضوع لا یکون دلیلا علی أن نهمل جمیع تلک الأحادیث الواردة فی شأن علی علیه السلام و لا نأخذها بنظر الإعتبار!! فأسلوب التحقیق یقتضی تسلیط الضوء علی الأحادیث الواردة فی هذا الشأن کافة، حتی و لو کانت

على خلاف ما يجنح إليه الكاتب و تميل نفسه، و أن لا يصدر عليها حكما مسبقا.

۲- و يقوم بعض المفسّرين تارة بتضعيف سند الحديث، كما فى بعض الأحاديث الواردة عن حنش و السمّاك «كما فعله المفسّر آنف الذكر».

مع أنّ هذا الحديث ليس له طريق واحد أو طريقان، بل له طرق شتى فى كتبهم المعتبرة.

۳- و من العجيب الغريب أن يوجهوا مثل الحديث آنف الذكر توجيها مثيرا، فيقولون: إنّما أعطى النّبى سورة براءة عليّا، لأنّ العرب اعتادت عند إلغاء المواثيق أو العهود أن يمضى الشخص بنفسه أو يرسل أحدا من أهله.

مع أنّه ورد التصريح عن النّبى:

أوّلا: من طرق متعددة، أنّ جبرئيل أمره بأن يبلغ على سورة براءة أو هكذا أمرت! ...

ثانيا: إنّنا نقرأ فى بعض الأحاديث الواردة عن طرقهم

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السلام: ينبغى أن تبلغ سورة براءة، و إن لم تفعل فينبغى أن أبلغها أنا (مؤدى الحديث).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۵

ترى ألم يكن العباس عمّ النّبى أو أحد من أقارب النّبى موجودا يومئذ بين المسلمين! حتى يقول النّبى لعلى: إن لم تذهب فينبغى أن أذهب، لأنّه لا يبلغها عنى إلّا أنا أو رجل منّى؟! ثالثا: لم يذكروا دليلا لأصل هذا الموضوع، و هو أنّه كان من عادة العرب (كذا و كذا) و أكبر الظن أنّهم وجّهوا الحديث آنف الذكر وفق ميولهم و نزعاتهم! ...

رابعا:

جاء فى بعض الرّوايات المعتبرة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا يذهب بها إلّا رجل منّى و أنا منه»

أو ما شابه ذلك.

و هذا التعبير يدل على أنّ النّبى كان يعدّ عليّا كنفسه، و يعد نفسه كعلى أيضا.

و هذا المضمون تناولته آية المباهلة.

و نستنتج ممّا ذكرناه آنفا أنّنا لو تركنا التعصب الأعمى و الأحكام المسبقة جانبا، وجدنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بفعله هذا أبان أفضلية على عليه السلام على جميع الصحابة إنه هذا إلا بلاغ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۶

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ (۲)

التّفسير

إلغاء عهود المشركين:

كانت فى المجتمع الإسلامى و محيطه طوائف شتى، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتخذ منها موقفا خاصّا يتناسب و موقفها منه.

فطائفة منها مثلا لم يكن لها أىّ عهد مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك لم يكن له أىّ عهد معها.

و طوائف أخرى عاهدت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحديبية- و أمثالها- على ترك المخاصمة و المنازعة، و كانت عهود بعضهم ذات أجل مسمى، و بعض العهود لم تكن ذات أجل مسمى.

و قد نقضت بعض تلك الطوائف عهودها من جانب واحد، و بدون أى سبب يجيز النقض و ذلك بمظاهرتها أعداء الإسلام. أو حاولت اغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۷

كما هو الحال فى يهود بنى النضير و بنى قريظة، فواجههم النّبى بشدة و طردهم من المدينة، لكن بعض المعاهدات بقيت سارية المفعول، سواء كانت ذات أجل مسمى أو لم تكن.

الآية الأولى من الآيتين محل البحث تعلن للمشركين كافة بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

ثمّ أمهلتهم مدّة أربعة أشهر ليفكروا فيها و يحدّدوا موقفهم من الإسلام، فإمّا أن يتركوا عبادتهم للأصنام، أو يتهيئوا للمواجهة و القتال، فقالت: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[۲۶۲] وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكافِرِينَ

ملاحظتان

۱- هل يصحّ إلغاء المعاهدة من جانب واحد؟!

نحن نعرف أنّ الإسلام أولى أهمية قصوى للوفاء بالعهد و الالتزام بالمواثيق حتى مع الكفار و المشركين، و هنا ينقدح سؤال و هو: كيف أمر القرآن بإلغاء العهود التى كانت بين المسلمين و المشركين من جانب واحد؟! و يتّضح الجواب بملاحظة الأمور التالية:

أوّلا: كما صرّح فى الآيتين (۷) و (۸) من هذه السورة فإنّ إلغاء هذا العهد لم يكن دون أية مقدمة، بل هناك قرائن و دلائل ظهرت من جانب المشركين تدلّ على نقضهم عهدهم، و أنّهم كانوا على استعداد- فى ما لو استطاعوا- أن يوجهوا ضربة قاضية للمسلمين دون أدنى اعتناء بعهودهم التى عاهدوها، و من المنطقى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۸

أنّه إذا رأى الإنسان عدوّه يتربص به و يستعد لنقض عهده، ولديه قرائن على ذلك و علائم واضحة أن ينهض لمواجهته قبل أن يستغفله و يعلن إلغاء عهده و يردّ عليه بما يستحق.

ثانيا: ما المانع من إلغاء العهود و المواثيق التى تفرض فى ظروف استثنائية على بعض الأمم و الشعوب- فيضطرون مكرهين على قبولهم و الرضا بها- من جانب واحد إذا حصلوا على القدرة الكافية لإلغائها.

و عبادة الأصنام ليست عقيدة و لا فكرا، بل هى خرافة و وهم باطل خطر، فيجب القضاء عليها و إزالتها من المجتمع الإنسانى، فإذا كانت قوة عبدة الأصنام و قدرتهم بالغة فى الجزيرة العربية، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مجبورا على معاهدتهم و مصالحتهم، فإنّ ذلك لا يعنى أنّه لا يحق له إلغاء- معاهدته إذا ما قويت شوكته- و أن يبقى على عهده الذى يخالف العقل و المنطق و الدراية.

و هـذا يشـبه تماما ظهور مصـلح كبير- مثلا- بين عبدة البقر، فيقوم بعمل إعلامى كبير، و حين يواجه ضـغوطا شديدة يضـطر إلى عقد هدنة بينهم و عند ما يجتمع له أتباع بقدر كاف ينتفض لإزالة هذه الخرافة، و الأفكار المنحطة، و يلغى معاهدته.

و لهذا نلحظ أنّ هذا الحكم مختص بالمشـركين، أمّا أهل الكتاب و سائر الأقوام الذين كانوا فى أطراف الجزيرة العربية من الذين كان بينهم و بين النّبى نوع من المواثيق و المعاهدات، فقد بقيت على حالها و لم يلغ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مواثيقهم و عهودهم حتى وفاته.

أضف إلى ذلك أن إلغاء عهود المشـركين لم يكن قد حدث بصورة مفاجئة، بل أمهلوا مدّة أربعة أشـهر، و أعلن هذا القرار فى الملأ العـام، و فى اجتمـاع الحـاج يـوم عيـد الأضـحى، و فى الـبيت الحرام، لتكـون لهم الفرصـة الكافيـة للتفكير، و لتحديـد الموقف، لعلهم يرجعون عن تلك الخرافة التى كانت أساس تفرقتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۲۹

و تشـتتهم و جهلهم، و يرتدعون عن خيانتهم. و اللّه سـبحانه لم يرض لهم أن يكونوا غافلين عن هذا القرار، فلم يسـلبهم فرصة التفكّر، فإنّ لم يسلموا فقد كانت لهم الفرصة الكافية للاستعداد للمواجهة القتالية و الحرب، لئلا تكون المواجهة غير متكافئة الطرفين.

فلو لم يكن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم ليرعى الأصول الإنسانية و الأخلاقية لما كان أمهلهم مدّة أربعة أشـهر، و الفرصة الكافية لأن توقظهم من نومتهم؛ أو يستعدوا لتهيئة القوّة القتالية المناسبة لمواجهة المسلمين و محاربتهم إيّاهم بها.

أجل، لو لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كذلك لما أمهلهم و لحاربهم من يوم إلغاء المعاهدة! و من هنا فإنّنا نجد الكثير من أولئك المشركين- عبدة الأصنام- راجعوا أنفسهم و فكروا مليّا فى التعاليم الإسلامية حتى ثابوا إلى رشدهم و اعتنقوا الإسلام.

۲- متى بدأت الأشهر الأربعة؟

هناك بين المفسّرين كلام كثير فى الجواب على هذا السؤال، إلّا أنّ ظاهر الآى يدل على أن المدّة بدأت منذ إعلان البلاغ المهم على المشركين، أى من يوم عيد الأضحى، و هو العاشر من شهر ذى الحجة، و انتهت فى العاشر من شهر ربيع الثانى من السنة التالية.

و يؤيد ذلك ما ورد من حديث مروى عن الإمام الصّادق عليه السلام فى هذا الشأن «راجع تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۰۳».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳ الى ۴]

اشارة

وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳) إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۴)

التّفسير

العهود المحترمة:

نلحظ فى هاتين الآيتين البيّنتين مزيد تأكيد على موضوع إلغاء المعاهدات التى كانت بين النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المشركين، حتى أنّ تاريخ الإلغاء قد أعلن فى هذه الآية إذ نقول: وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ ۲۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۱

و فى الحقيقة، أنّ اللّه سبحانه يريد فى هذا الإعلان العام فى مكّة المكرمة، و فى ذلك اليوم العظيم، أن يوصد كل ذريعة يتذرع بها المشركون و الأعداء، و يقطع ألسنة المفسدين، لئلا يقولوا: إنّهم استغفلوا فى الحملة أو الهجوم عليهم، و إن ذلك ليس من الشّهامة و الرجولة.

كما أنّ التّعبير ب «إلى الناس» مكان أن يقال «إلى المشركين» يدل على وجوب إبلاغ هذا «الأذان» و الإعلام لجميع الناس الحاضرين فى مكّة ذلك اليوم، ليكون غير المشركين شاهدا على هذا الأمر أيضا.

ثمّ يتوجه الخطاب فى الآية إلى المشركين أنفسهم ترغيبا و ترهيبا، لعلهم يهتدون، إذ تقول الآية: فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

أى أنّ الاستجابة لرسالة التوحيد فيها صلاحكم و فيها خير لكم و لمجتمعكم و دنياكم و آخرتكم، فلو تدبّرتم بجد و صدق لرأيتم أن قبول الدعوة هو البلسم الشافى لكلّ جراحاتكم و ليس فى الأمر منفعة للّه أو لرسوله.

ثمّ إنّ الآية تحذر المخالفين المعاندين المتعصبين فتقول: وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ فلا يمكنكم الخروج من دائرة قدرته المطلقة بحال.

و أخيرا فإنّ الآية أنذرت المعاندين المتعصبين قائلة: وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ

و كما أشرنا من قبل فإنّ إلغاء هذه العهود من جانب واحد- و رفض عهد المشركين- يختص بأولئك الذين دلّت القرائن على استعدادهم لنقض عهدهم و بدت بوادره، لذلك فإنّ الآية استثنت قسما منهم لوفائهم بالعهد، فقالت إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَ لَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۲

ملاحظات

۱- الحج الأكبر!

اختلف المفسّرون فى المراد من قوله تعالى: يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ و الذى نستفيده من كثير من الرّوايات الواردة عن الفريقين، روايات أهل البيت عليهم السّلام و أهل السنة، أنّه يوم العاشر من ذى الحجة «عيد الأضحى» و بتعبير آخر «يوم النحر».

و انتهاء المدة باليوم العاشر من شهر ربيع الثّانى «للسنة العاشرة»، وفقا لما جاء فى المصادر الإسلامية، دليل آخر على هذا الموضوع: أضف إلى ذلك كله فإنّ يوم النحر فى الواقع ينتهى فيه القسم الأساس من أعمال الحج، و من هنا فيمكن أن يدعى ذلك اليوم بيوم الحج الأكبر[۲۶۴] و أمّا سبب تسميته بالحج الأكبر، فلأنّه اجتمع فى ذلك العام جميع الطوائف من المسلمين و عبدة الأوثان و المشركين، [كما اعتادوا عليه فى موسم الحج إلّا أنّ هذا الأمر لم يتحقق فى السنين التالية «لمنع غير المسلمين من الحج».

و هناك تفسير آخر مضافا إلى التّفسير المذكور آنفا و هو أن المراد منه مراسم الحج فى قبال مراسم العمرة التى يعبر عنها بالحج الأصغر.

و هذا التّفسير جاء فى بعض الرّوايات الإسلامية، و لا يمنع أن تكون كلتا العلّتين مدعاة لهذه التسمية[۲۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۳

۲- المواد الأربع التی أعلنت ذلک الیوم

و إن کـان القرآن الکریم أعلن براءة اللّه من المشـرکین بشـکل مطلق، إلّا أنّ الـذی یسـتفاد من الرّوایات أنّ علیّا علیه السـلام قـد أمر بإبلاغ أربع مواد إلی الناس، و هی:

۱- إلغاء عهد المشرکین.

۲- لا یحق للمشرکین أن یحجّوا فی المواسم المقبلة.

۳- منع العراة و الحفاة من الطواف الذی کان شائعا و مألوفا حتی ذلک الوقت.

۴- منع المشرکین من دخول البیت الحرام.

و

قـد جـاء فی تفسـیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السـلام أنّ الإمام علیا خطب فی موسم الحـج ذلک العام فقال: «لا یطوفن بالبیت عریان، و لا یحجن البیت مشرک، و من کان له مدة فهو إلی مدته، و من لم تکن له مدة فمدته أربعة أشهر».

و فی بعض الروایات إشارة إلی المادة الرّابعة، و هی عدم دخول المشرکین و عبدة الأصنام البیت الحرام ۲۶۶].

۳- من هم الذین کانت لهم عهود «إلی مدّة»

یظهر من أقـوال المؤرخین و بعض المفسّـرین أنّ الـذین کـانت لعهـدهم مـدة، هم جماعـة من بنی کنـانه و بنی ضـمرة، فقـد بقی من عهـدهم فی ترک المنازعـة تسـعة أشـهر، و قـد بقی النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم علی عهده وفیّا، لأنّهم بقوا أوفیاء لعهدهم و لم یظاهروا المشرکین فی مواجهة الإسلام حیت انتهت مدّتهم ۲۶۷].

و قد عدّ بعضهم طائفة بنی خزاعة من هؤلاء الذین کان لعهدهم مدّة.[۲۶۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۴

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۵ الی ۶]

اشارة

فَإِذَا انْسَـلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِکِینَ حَیْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ کُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَـوُا الزَّکـاةَ فَخَلُّوا سَـبِیلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۵) وَ إِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِکِینَ اسْـتَجارَکَ فَأَجِرْهُ حَتَّی یَسْـمَعَ کَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذلِکَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا یَعْلَمُونَ (۶)

التّفسیر

الشدّة المقرونة بالرّفق:

نقرأ فى الآيتين أعلاه بيان وظيفة المسلمين بعد انتهاء مدّة إمهال المشركين «الأشهر الأربعة» و قد أصدر القرآن أوامره الصارمة فى هذا الصدد فقال: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۲۶۹].

ثمّ يقول: وَ خُذُوهُمْ وَ احْصُرُوهُمْ وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ[۲۷۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۵

و يلاحظ فى هذه الآية أربعة أوامر صارمة صادرة فى شأن المشركين «إيصاد الطرق بوجههم، محاصرتهم، أسرهم، ثمّ قتلهم». و ظاهر النص أنّ الأمور الأربعة ليست على نحو التخيير، بل ينبغى ملاحظة الظروف و المحيط و الزمان و المكان و الأشخاص، و العمل بما يناسب هذه الأمور، فلو كان فى الأسر و المحاصرة و إيصاد السبيل بوجه المشركين الكفاية فيها، و إلّا فلا محيص عن قتالهم.

و هذه الشدّة متناغمة و متوائمة مع منهج الإسلام و خطته فى إزالة الوثنية و قلعها من جذورها، و كما أشرنا إلى ذلك سلفا، فإنّ حرية الإعتقاد «أى عدم إكراه أهل الأديان الأخرى على قبول الإسلام» تنحصر فى أهل الكتاب من اليهود و النصارى، و لا تشمل عبدة الأوثان، لأنّ الوثنية ليست عقيدة صحيحة، و لا دينا كى تلحظ بعين الاحترام، بل هى تخلّف و خرافة و انحراف و جهل، و لا بدّ من استئصال جذورها بأى ثمن كان و كيف ما كان.

و هذه الشدّة و القوّة و الصرامة لا تعنى سدّ الطريق،- طريق الرجوع نحو التوبة- بوجههم، بل لهم أن يثوبوا إلى رشدهم و يعودوا إلى سبيل الحق، و لذلك فإنّ الآية عقبت بالقول: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ

و فى هذه الحال، أى عند رجوعهم نحو الإسلام، لن يكون هناك فرق بينهم و بين سائر المسلمين، و سيكونون سواء و إياهم فى الحقوق و الأحكام.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يتوب على عباده المنيبين إليه.

و تستكمل الآية التالية هذا الموضوع بأمر آخر، كما يتّضح بجلاء أن هدف الإسلام من هذا الأمر إنّما هو نشر التوحيد و الحق و العدالة، و ليس هو الاستثمار أو الاستعمار و امتصاص المال، أو الاستيلاء على أراضى الآخرين، إذ تقول الآية: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ

أى عليك أن تعامل من يلجأ إليك من المشركين برفق و لطف، و امنحه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۶

المجال للتفكير حتى يبيّن له محتوى دعوتك فى كمال الإرادة و الحرية، فإذا أشرقت أنوار الهداية فى قلوبهم فسيؤمنون بدعوتك.

ثمّ تضيف الآية قائلة: ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ و أوصله إلى مكان آمن حتى لا يعترضه أحد فى طريقه.

و أخيرا فإنّ الآية تبين علة هذا الحكم، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ

فبناء على ذلك لو فتحت أبواب اكتساب المعرفة بوجوههم، فإنّه يؤمّل فيهم خروجهم من الوثنية التى هى وليدة الجهل- و التحاقهم بركب التوحيد الذى هو وليد العلم و المعرفة.

و قد ورد فى كتب السنة و الشيعة أنّ أحد المشركين (عبدة الأصنام) سأل عليّا عليه السلام بعد إلغاء المعاهدة فقال: يا ابن أبى طالب، لو أراد أحد أن يواجه النّبى بعد هذه المدّة «الأشهر الأربعة» و يسأله أو يسمع كلام اللّه منه، أهو آمن؟! فقال على عليه السلام: أجل، إنّ اللّه يقول: وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ ۲۷۱].

و هكذا تتوازن و تتساوى كفتا الشدّة المستفادة من الآية الأولى- محل البحث- و اللين المستفاد من الآية التى تليها، فإنّ سبيل التربية قائم على الشدة المشفوعة باللين، ليكون منهما الدواء الناجع.

ملاحظات

۱- ما المراد من الأشهر الحرم؟

بالرّغم من أنّ المفسّرين قد بحثوا كثيرا فى هذا الشأن، إلّا أنّه- مع ملاحظة ما جاء فى الآيات المتقدمة- يظهر أنّ المراد منها هى أربعة الأشهر التى كانت مدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۷

الإمهال للمشركين، و التى بدأت من عاشر ذى الحجة للسنة التاسعة و انتهت بالعاشر من شهر ربيع الثّانى من السنة العاشرة الهجرية.

و هذا التّفسير يعتقد به أغلب المحققين، و الأهم من ذلك أنّ كثيرا من الرّوايات صرّحت بهذا المضمون أيضا[۲۷۲].

۲- هل الصّلاة و الزّكاة شرط فى قبول الإسلام؟

يستفاد من الآيتين محل البحث أنّه لا بدّ من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة لقبول توبة المشركين، و لهذا فقد استدل بعض فقهاء أهل السنة على أن ترك الصلاة و الزكاة دليل على الكفر.

إلّا أنّ الحق هو أنّ المراد من هذين الحكمين الإسلاميين هو متى ما شك فى إسلام شخص ما، كما هى الحال فى المشركين يومئذ، فعلامة إسلامه أن يؤدى هاتين الوظيفتين «الصلاة، و الزكاة».

أو أنّ المراد هو أن يقرّوا بالصلاة و الزكاة على أنّهما أمران إلهيان و يلتزموا بهما، و يعترفوا بهما على أنّهما فرضان واجبان و إن قصّروا فى أدائهما، لأن هناك أدلة وافرة تقضى بأنّ تارك الصلاة أو الزكاة ليس كافرا، بل يعدّ إسلامه ناقصا.

و بالطبع إن كان ترك الزكاة له دلالة على تحدّى الحكومة الاسلامية و الثورة عليها فهو سبب للكفر، إلّا أن هذا بحث آخر لا علاقة له بموضوعنا هذا.

۳- الإيمان وليد العلم

يستفاد من الآيات محل البحث أنّ الباعث على عدم الإيمان هو الجهل، و أساس الإيمان الأصيل هو العلم، لهذا فينبغى توفير الإمكانات اللازمة لإرشاد الناس و هدايتهم ليعرفوا طريق الحقّ، و لا يقبلوا الإسلام بواسطة التقليد إلا عميق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۸

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (۷) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ (۸) اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (۱۰)

التّفسير

المعتدون النّاقضون العهد:

كما لاـ حظنا فى الآيات السابقة الإسلام ألغى جميع العهود التى كانت بينه و بين المشركين و عبدة الأوثان- إلّا جماعة خاصّة- و أمهلهم مدّة أربعة أشهر ليقرروا موقفهم منه.

و فالآيات- محل البحث- بيان لعلة إلغاء العهود من قبل الإسلام، فتقول الآية الأولى من هذه الآيات مستفهمة استفهاما إنكاريا: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۳۹

عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ ! أى أنّهم لا ينبغى لهم أن يتوقعوا أو ينتظروا الوفاء بالعهد من قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من جانب واحد، فى وقت تصدر منهم المخالفات و عدم الوفاء بالعهد.

ثمّ استثنت الآية مباشرة أولئك الذين لم ينقضوا عهدهم، بل بقوا أوفياء له، فقالت: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

و فى الآية التالية يثار هذا الموضوع بمزيد الصراحة و التأكيد، و يستفهم عنه استفهاما إنكاريا أيضا، إذ تقول الآية: كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

و كلمة «الإلّ» معناها القرابة، و قال بعضهم: إنّها تعنى هنا العهد و الميثاق.

فعلى المعنى الأوّل أى «القرابة» يكون المراد من ظاهر الآية أنّه بالرغم من أنّ قريشا تربطها برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بعض المسلمين علاقة قربى، إلّا أنّها لا ترقب هذه القرابة أو الرحم و لا ترعى حرمتها، فكيف إذن تتوقع من النّبى و المسلمين احترام علاقتهم بها.

و على المعنى الثّانى تكون كلمة «إلّ» مؤكّدة بكلمة (ذمّة) و تعنى العهد و الميثاق أيضا، قال الراغب فى المفردات: إن «الإل» كل حالة ظاهرة من عهد حلف و قرابة تئل (أى تلمع) فلا يمكن إنكاره ۲۷۳].

و تضيف الآية معقبة بأن هؤلاء يريدون أن يخدعوكم بألفاظهم المزوّقة فقالت: يُرْضُونَكُمْ بِأَفْواهِهِمْ وَ تَأْبى قُلُوبُهُمْ

لأن قلوبهم مليئة بالحقد و القسوة و طلب الانتقام و عدم الاعتناء بالعهد و علاقة القربى، و إن أظهروا المحبّة بألسنتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۰

و فى نهاية الآية إشارة إلى جذر هذا الموضوع و أساسه و هو فسقهم، فتقول:

وَ أَكْثَرُهُمْ فاسِقُونَ

و فى الآية التالية بيان لبعض علائم فسقهم و عصيانهم، إذ أعربت الآية عن ذلك على النحو التالى اشْتَرَوْا بِآياتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ

و قد جاء فى بعض الرّوايات أن أبا سفيان أقام مأدبة و دعا إليها جماعة من الناس، ليثير حفيظتهم و عداوتهم بوجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذا الطريق.

و يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية محل البحث تشير إلى هذه القصة، إلّا أن الظاهر أن الآية ذات مفهوم واسع يشمل هذه القصّة و ما شاكلها حيث أغمضوا أعينهم و صدوا عن سبيل اللّه و آياته من أجل منافعهم المادية التى لا تدوم طويلا.

ثمّ تعقب الآية بالقول: إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ فقد خسروا طريق السعادة و ضيعوها، و حرّموا الهداية، و هم فى الوقت ذاته أو صدوا

الطريق بوجه الآخرين، و أى عمل أسوأ من أن يحمل الإنسان وزره و وزر سواه! أمّا فى آخر آية من الآيات- محل البحث- فهى تأكيد آخر على ما ورد فى الآيات المتقدمة، إذ تقول الآية: لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

و هذه الخصلة فيهم لم يبتل بها المؤمنون فحسب بل يعتدون على كل من تناله أيديهم وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ

و بالرغم من أنّ مضمون هذه الآية تأكيد لما سبق من الآيات المتقدمة، إلّا أنّ هناك فرقا بينهما، حيث كان الكلام فى ما سبق على عدم رعاية المشركين حرمة لخصوص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه المتقّين حوله كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً أمّا الآية محل البحث فالكلام فيها عن عدم رعايتهم حرمة لكل مؤمن لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

أى إن المشركين لا ينظرون إليكم (النّبى و الخواص من الصحابة) نظرة تمتاز عن سواكم بل هذه النظرة- نظرة العداء و البغضاء- ينظر بها المشركون إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۱

كلّ مؤمن، و لا يكترثون بكل شىء و لا يرعون حرمة و لا عهدا، فهم فى الحقيقة أعداء الإيمان و الحقّ، و هم مصداق ما ذكره القرآن فى شأن أقوام سابقين أيضا حيث يقول: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[۲۷۴].

ملاحظتان

۱- من هم المستثنون فى هذه الآية؟

جرى الكلام بين المفسّرين فى الطائفة المستثناة من الحكم: إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فمن هؤلاء المستثنون فى هذه الآية؟! إلّا أنّه بملاحظة الآيات السابقة، يظهر أن المراد من هذه الجملة هم أولئك الذين بقوا على عهدهم و وفائهم، أى القبائل التى هى من بنى ضمرة و بنى كنانة و بنى خزيمة و أضرابهم.

و فى الحقيقة فإنّ هذه الجملة بمنزلة التأكيد للآيات السابقة، فإنّ على المسلمين أن يكونوا حذرين واعين، و أن يعرفوا هؤلاء الأوفياء بالعهد و يميزوهم عن سواهم الناكثين للعهد.

و ما قوله تعالى: عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فلعل هذا التعبير يشير إلى ما كان من معاهدة بين المسلمين و المشركين فى السنة السادسة للهجرة، عند صلح الحديبية على بعد خمسة عشر ميلا عن مكّة، فقد التحق جماعة آخرون من مشركى العرب كالقبائل المشار إليها آنفا بهذه المعاهدة حيث عاهدوا المسلمين عن ترك الخصام، إلّا أن مشركى قريش نقضوا عهدهم، ثمّ أسلموا فى السنة الثامنة عند فتح مكّة، أمّا الجماعة التى التحقت حينئذ من المشركين بمن عاهد المسلمين، فلم يسلموا و لم ينقضوا عهدهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۲

و لمّا كانت أرض مكّة تستوعب منطقة واسعة «حولى ۴۸ ميلا» فقد عدّت المنطقة كلها جزءا من المسجد الحرام، كما نقرأ عن ذلك فى الآية (۱۹۶) من سورة البقرة، إذ تذكر موضوع حج التمتع و أحكامه فتقول: ذلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرامِ

و المعروف عند الفقهاء و فتاواهم أن أحكام حج التمتع إنما تجب على من تبعد داره «أو دار أهله» أكثر من ۴۸ ميلا عن مكّة.

فبناء على ذلك لا مانع أبدا من أن يطلق على الحديبية، التى تبعد ۱۵ ميلا عن مكّة، تعبير: عند المسجد الحرام.

و أمّا قول بعضهم: إن الاستثناء الوارد فى الآية إنما هو فى شأن مشركى قريش، الذين عدّ القرآن الكريم عهدهم الذى عقدوه فى صلح الحديبية محترما، فهذا القول يبدو بعيدا، بل هو غير صحيحى، لأنّه.

أوّلا: من المعلوم أنّ مشركى قريش نقضوا العهد، فنقضهم مقطوع به، و لا مراء فيه، فإن لم يكونوا قد نقضوا العهد، فمن الذين لم

ينقضوا عهدهم إذا؟! ثانيا: إن صلح الحديبية إنّما كان فى السنة السادسة للهجرة، بينما أسلم مشركو قريش فى السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكّة، فبناء على ذلك فالآيات هذه النازلة فى السنة التاسعة للهجرة، لا يمكن أن تكون ناظرة إليهم.

۲- متى يجوز الغاء المعاهدة؟

كما قلنا ذيل الآيات المتقدمة، فإنّ المراد من الآيات محل البحث لا يعنى جواز الغاء العهد بمجرّد تصميم المشركين و عزمهم على نقض العهد عند بلوغهم القدرة، بل إنّهم أبدوا هذا الأسلوب و طريقة تفكيرهم عمليّا مرارا، فمتى استطاعوا أن يوجهوا ضربتهم إلى الإسلام دون الالتفات إلى المعاهدة وجهوها.

و هذا المقدار من عملهم كاف لإلغاء عهدهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۳

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۱۱) وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (۱۲) أَ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳) قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (۱۴) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۵)

التّفسير

لم تخشون مقاتلة العدوّ؟!

إنّ أحد أساليب الفصاحة و البلاغة أن يكرر المتحدّث المطلب المهم بتعابير مختلفة للتأكيد على أهمية، و ليكون له أثر فى النفوس. و لما كانت مسألة تطهير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۴

المحيط الإسلامى من الوثنية و عبادة الأصنام و إزالة آثارها، من المسائل ذات الأهميّة القصوى، فإنّ القرآن يكرر هذه المطالب بعبارات جديدة- فى الآيات محل البحث- و يورد القرآن كذلك لطائف تخرج المطلب- عن صورة التكرار، و لو التكرار المجازى.

فتقول الآية الأولى من هذا الآيات محل البحث: فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ

و تضيف معقبة وَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و كان التعبير فى الآيات المتقدمة أنّهم إذا أدّوا وظيفتهم الإسلامية، أى تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزّكاة فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ أمّا التعبير فى هذه الآية فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ أى لا فارق بينهم و بين أحد من المسلمين من حيث الاحترام و المحبّة، كما لا فارق بين الإخوان.

و هذه التعابير تؤثر من الناحية النفسية فى أفكار المشركين و عواطفهم لتقبل الإسلام، إذ تقول فى حقّهم تارة فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ و تارة فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ إلخ ...

و لكن لو استمر المشركون فى نقض العهود، فتقول الآيـة التاليـة: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكَمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمانَ لَهُمْ

صحيح أنّهم عاهدوكم على عدم المخاصمة و المقاتلة، إلّا أن هذه المعاهدة- بنقضها مرارا، و كونها قابلة للنقض فى المستقبل- لا اعتبار لها أصلا و لا قيمة لها.

و تعقّب الآية مضيفة لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ و فى الآية الأخرى خطاب للمسلمين لإثارة هممهم، و إبعاد روح الضعف و الخوف و التردد عنهم فى هذا الأمر الخطير، إذ تقول الآية: أ لا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَ هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ

فعلام تقلقون و أنتم لم تبدأوهم بالقتال و إلغاء العهد من قبلكم وَ هُمْ بَدَؤُكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۵

أَوَّلَ مَرَّةٍ؟

و إذا كان بعضكم يتردد فى مقاتلتهم خشية، منهم، فإنّ هذه الخشية لا محل لها أ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

و فى الآية التالية وعد بالنصر الحاسم للمسلمين، إذ تقول قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

و ليس ذلك فحسب، بل، وَ يُخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

و بهذا يشعر المؤمنون بالراحة و الطمأنينة بعد أن كانوا يقاسون الألم و العذاب تحت وطأة هؤلاء المجرمين، و يزيل اللّه تعالى عن قلوبهم آلام المحنة بهذا النصر وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ هم جماعة المؤمنين من بنى خزاعة، و قد استغفلهم عبدة الأوثان من بنى بكر فهجموا عليهم غدرا.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذا التعبير هم جماعة من أهل اليمن استجابوا لدعوة الإسلام، و لما وصلوا مكّة عذّبوا و أوذوا من قبل عبدة الأصنام.

إلّا أنّه لا يبعد أن تشمل هذه العبارة جميع أولئك الذين تعرّضوا لأذى المشركين و عبدة الأصنام و تعذيبهم فكانت قلوبهم تغلى دما منهم.

أمّا الآية التالية فتضيف: إنّ فى انتصار المؤمنين و هزيمة الكافرين سرورا للمؤمنين، و إنّ اللّه يسدّدهم وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

و يحتمل أن تكون هذه الجملة تأكيدا للجملة السابقة وَ يَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كما يحتمل أن تكون مستقلة عنها. و أن تكون الجملة السابقة إشارة إلى أنّ القلوب التى مرضت و تألمت سنين طوالا من أجل الإسلام و النّبى الكريم، شفيت بانتصار الإسلام.

و أمّا الجملة الثّانية وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ فهى إشارة أن أولئك الذين فقدوا أعزّتهم و أحبّتهم بما لا قوه من تعذيب وحشى من قبل المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۶

فأغاظوهم، سيقّر اللّه عيونهم بهلاك المشركين وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ

و تختتم الآية بالقول: وَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

كما تشير العبارة الأخيرة ضمنا إلى امكانية أن يلج بعضهم باب التوبة، فينبغى على المسلمين أن يعرفوا أن اللّه يقبل توبتهم، فلا يعاملوهم بشدة و قسوة فلا يجوز ذلك. كما أن الجمل بنفسها تحمل البشرى بأنّ مثل هؤلاء سيميلون نحو الإسلام و يشملهم توفيق اللّه، لما لديهم من التهيؤ الروحى و القابليّة.

و قد ذهب بعض المفسّرين أنّ الآيات الأخيرة- بصورة عامّة من قبيل الإخبار القرانى بالمغيبات، و هى من دلائل صدق دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ ما أخبر عنه القرآن قد تحقق فعلا.

ملاحظات

۱- هناك كلام بين المفسّرين فى الجماعة الذين عنتهم الآية قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ من هم؟! قال بعضهم: إنّ الآية تشير إلى اليهود، و إلى بعض الأقوام الذين نازلوا المسلمين و قاتلوهم بعد حين كالفرس و الرّوم.

و قال بعضهم: هى إشارة إلى كفّار قريش.

و قال بعضهم: بل هى إشارة إلى المرتدين بعد إسلامهم.

إلّا أنّ ظاهر الآيات يدلّ- بوضوح- على أن موضوعها هو جماعة المشركين و عبدة الأصنام الذين عاهدوا المسلمين على عدم القتال و المخاصمة، إلّا أنّهم نقضوا عهدهم.

و كان هؤلاء المشركون فى أطراف مكّة أو سائر نقاط الحجاز.

كما أنّه لا يمكن القبول بأنّ الآية ناظرة إلى قريش، لأنّ قريشا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۷

و رئيسها- أبا سفيان- أعلنوا إسلامهم- ظاهرا- فى السنة الثامنة بعد فتح مكّة، و السورة محل البحث نزلت فى السنة التاسعة للهجرة.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد من الآية هو الفرس أو الروم بعيد جدّا عن مفهوم الآية، لأنّ الآية- أو الآيات محل البحث- تتكلم عن مواجهة فعلية، لا على مواجهات مستقبلية أضف إلى ذلك فإنّ الفرس أو الروم لم يهمّوا بإخراج الرّسول من وطنه.

كما أنّ الاحتمال بأنّ المراد هم المرتدون بعد الإسلام، بعيد غاية البعد، لإن التأريخ لم يتحدث عن مرتدين أقوياء واجهوا الرّسول ذلك الحين ليقاتلهم بمن معه من المسلمين.

ثمّ إنّ كلمة «أيمان» جمع «يمين» و كلمة «عهد» يشيران إلى المعاهدة بين المشركين و الرّسول على عدم المخاصمة، لا إلى قبول الإسلام. فلاحظوا بدقة.

و إذا وجدنا فى بعض الرّوايات الإسلامية أنّ هذه الآية طبّقت على «النّاكثين» فى «معركة الجمل» و أمثالها، فلا يعنى ذلك أن الآيات نزلت فى شأنهم فحسب، بل الهدف من ذلك أنّ روح الآية و حكمها يصدقان فى شأن الناكثين و من هم على شاكلتهم ممن سيأتون فى المستقبل.

و السؤال الوحيد الذى يفرض نفسه و يطلب الإجابة، هو: إذا كان المراد جماعة المشركين الذين نقضوا عهودهم، و قد جرى الكلام عليهم فى الآيات المتقدمة، فعلام تعبّر الآية هنا عنهم بالقول: وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ مع أنّهم قد نكثوها فعلا.

و الجواب: إنّ المراد من هذه الجملة- المذكورة آنفا- أنّهم لو واصلوا نقضهم أو نكثهم للأيمان، و لم يثوبوا إلى رشدهم، فينبغى مقاتلتهم. و نظير ذلك ما جاء فى قوله تعالى: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ و مفهومها أنّنا نطلب من اللّه أن يوفقنا لأنّ نسير على الصراط المستقيم و أن تستمرّ هدايته إيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۸

و الشاهد على هذا الكلام أنّ جملة وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ جاءت فى مقابل فَإِنْ تابُوا وَ أَقامُوا الصَّلاةَ أى لا يخلو الأمر من أحد وجهين، فإمّا أن يتوبوا و يعرضوا عن الشرك و يتجهوا نحو اللّه، و إمّا أن يستمرا على طريقهم و نكث أيمانهم. ففى الصورة الأولى هم إخوانكم فى الدين، و فى الصورة الثّانية ينبغى مقاتلتهم.

۲- ممّا يسترعى الانتباه أنّ الآيات محل البحث لا تقول: قاتلوا الكفار، بل تقول: فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ و هى إشارة إلى أن (القاعدة الجماهيرية) و عامّة الناس تبع لزعمائهم و رؤسائهم، فينبغى أن يكون الهدف القضاء على رؤسائهم و أئمتهم، لأنّهم أساس الضلال و التضليل و الظلم و الفساد، فاستأصلوا شجرة الكفر من جذورها و أحرقوها. فمواجهة الكفار لا تجدى نفعا ما دام أئمتهم فى الوجود،

أضف إلى ذلك فإنّ هـذا التعبير يعـدّ ضـربا من ضـروب النظرة البعيدة المدى و علو الهمة و تشـجيع المسـلمين، إذ عدّ أئمّة الكفر فى مقابل المسلمين، فليواجهوهم فذلك أجدر من مواجهة من دونهم من الكفّار.

و العجيب أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا التعبير يعنى أبا سفيان و أمثاله من زعماء قريش، مع أنّ جماعة منهم قتلوا فى معركة بدر، و أسلم الباقى منهم كأبى سفيان بعد فتح مكّة- بحسب الظاهر- و كانوا عند نزول الآية فى صفوف المسلمين، فمقاتلتهم لا مفهوم لها.

و اليوم ما يزال هذا الدسـتور القرآنى المهم باقيا على قوته «سارى المفعول» فالكى نزيل الاسـتعمار و الفساد و الظلم، لا بدّ من مواجهة رؤوساء و الأكابر و أئمّة المنحرفين، و إلّا فلا جدوى من مواجهة من دونهم من الأفراد، فلاحظوا بدقة.

۳- إنّ التّعبير ب فَإِخْوانُكُمْ فِي الـدِّينِ الوارد فى الآيات المتقدمة، من ألطف التعابير التى يمكن أن يعبّر بها فى شأن المساواة بين أفراد المجتمع، و بيان أوثق العلائق العاطفية، لأنّ أجلى العلائق العاطفية و أقربها فى الناس التى تمثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۴۹

المساواة الكاملة هى العلاقة ما بين الأخوين.

إلّا أنّ من المؤسف أن الانقسامات الطبقية و النداءات القومية سـحقت هذه الأخوة الإسـلامية التى كان الأعداء يغبطوننا عليها، و وقف الإخوان فى مواجهة إخوانهم متراصين بشكل لا يصدق، و قد يقاتل كلّ منهما الآخر قتالا لا يقاتل العدوّ عدوه بمثل هذا القتال، و هذا واحد من أسرار تأخرنا فى عصرنا هذا.

۴- يسـتفاد- إجمالا- من جملـة «أ تخشونهم» أنّه كـان بين المسـلمين جماعـة يخافون من الاسـتجابة للأمر بالجهاد، إمّا لقوّة العـدوّ و قدرته، أو لأنّهم كانوا يعدو نقض العهد ذنبا.

فالقرآن يخاطبهم بصـراحة أن لا تخافوا من هؤلاء الضعاف، بل ينبغى أن تخافوا من عصيان أمر اللّه. ثمّ إن خشيتكم من نكث الإيمان و نقض العهـد ليست فى محلها، فهم الـذين نكثوا أيمانهم و هم بدأوكم أوّل مرّة! ۵- يبـدو أنّ جملة هَمُّوا بِإِخْراجِ الرَّسُولِ إشارة إلى مسألـة عزمهم على إخراج الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من مكّة (عنـد هجرته إلى المدينة) بادئ الأمر، إلّا أن نياتهم تغيرت و تبدلت إلى الإقدام على قتله، إلّا أنّ النّبى غادر مكّة فى تلك الليلة بأمر اللّه.

و على كـل حال، فإنّ ذكر هـذا الموضوع ليس على سبيل أنّهم نقضوا عهـدهم، بل هو بيان ذكرى مؤلمـة من جنايات عبـدة الأصـنام، حيث اشتركت قريش و القبائل الأخرى فى هذا الأمر. أمّا نقض العهد من قبل عبدة الأصنام المشركين فكان واضحا من طرق أخرى.

۶- ممّا يثير الدهشـة و التعجب أنّ بعض أتباع مـذهب الجبر يسـتدل على مـذهبه بالآيـة قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ مع أنّنا لو تجردنا عن التعصب لما وجدنا فى الآية أدنى دليل على مرادهم، و هذا يشبه تماما لو أردنا أن ننجز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۰

عملا- مثلا- فنمضـى إلى بعض أصـدقائنا و نقول له: نأمل أن يصـلح اللّه هـذا الأمر على يـدك، فإنّ مفهوم كلامنا هذا لا يعنى بأنّك مجبور على أداء هذا الأمر، بل المراد أنّ اللّه منحك قدرة و نية طاهرة، و بالإفادة منهما اسـتطعت أن تؤدى عملك باختيارك و بحرية تامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۱

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۶]

اشارة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما

تَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسير

فى هذه الآية ترغيب للمسلمين فى الجهاد عن طريق آخر، حيث تحمّل الآية المسلمين مسئولية ذات عبء كبير، و هى أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أن كلّ شىء سيكون تامّا بادعائكم الإيمان فحسب، بل يتجلى صدق النيّة و صدق القول و الإيمان الواقعى فى قتالكم الأعداء قتالا خالصا من أى نوع من أنواع النفاق.

فتقول الآية أوّلا: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لا رَسُولِهِ وَ لَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً[۲۷۵].

و «الوليجة» مشتقة من «الولوج» و معناه الدخول، و تطلق الوليجة على من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۲

يعتمد عليه فى الأسرار و معناها يشبه معنى البطانة تقريبا.

و فى الحقيقة فإنّ الجملة المتقدمة تنّبه المسلمين إلى أنّ الأعمال لا تكمل بإظهار الإيمان فحسب، و لا تتجلى شخصية الأشخاص بذلك، بل يعرف الناس باختبارهم عن طريقين:

الأوّل: الجهاد فى سبيل اللّه لغرض محو آثار الشرك و الوثنية.

الثانى: ترك أية علاقة أو أى تعاون مع المنافقين و الأعداء.

فالأوّل لدفع العدو الخارجى، و الثّانى يحصّن المجتمع من خطر العدو الداخلى.

و جملة لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ التى قد يلاحظ نظيرها فى بعض آيات القرآن الأخر، تعنى أن أمركم لم يتحقق بعد، و بتعبير آخر: إنّ نفى العلم هنا معناه نفى المعلوم، و يستعمل مثل هذا التعبير فى مواطن التأكيد. و إلّا فإنّ اللّه- طبقا للأدلة العقلية و صحيح آيات القرآن الكثيرة- كان عالما بكل شىء، و سيبقى عالما بكل شىء.

و هذه الآية تشبه الآية الأولى من سورة العنكبوت، إذ تقول: الم* أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ

و كما ذكرنا آنفا فى تفسيرنا لسورة آل عمران أنّ اختبار اللّه لعباده ليس لكشف أمر مجهول عنده، بل هو لتربيتهم و لأجل إنّما الاستعدادات و تجلّى الأسرار الداخلية فى الناس.

و تختتم الآية بما يدلّ على الإخطار و التأكيد وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

فلا ينبغى أن يتصور أحدّ أنّ اللّه لا يعرف العلائق السرّية بين بعض الأفراد و بين المنافقين، بل يعرف كل شىء جيدا و هو خبير بالأعمال كلها.

و يستفاد من سياق الآية أن بين المسلمين يؤمئذ من كان حديث العهد بالإسلام و لم يكن على استعداد للجهاد، فيشمله هذا الكلام أمّا المجاهدون الصادقون فقد بيّنوا مواقفهم فى سوح الجهاد مرارا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۳

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ (۱۷) إِنَّما يَعْمُرُ

مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (۱۸)

التّفسير

من يعمر مساجد اللّه؟

من جملة المسائل التى يمكن أن تخالط أذهان البعض بعد إلغاء عهد المشركين و حكم الجهاد، هو: لم نبعد هذه الجماعة العظيمة من المشركين عن المسجد الحرام لأداء مناسك الحج، مع أنّ مساهمتهم فى هذه المراسم عمارة للمسجد من جميع الوجوه «المادية و المعنوية» إذ يستفاد من إعاناتهم المهمّة لبناء المسجد الحرام، كما يكون لوجودهم أثر معنوى فى زيادة الحاجّ و الطائفين حول الكعبة المشرفة و بيت اللّه.

فالآيتان- محل البحث- تردّان على مثل هذه الأفكار الواهية التى لا أساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۴

لها، و تصرّح الآية الأولى منهما بالقول: ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ شاهِدِينَ عَلى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ.

و شهادتهم على كفرهم جلية من خلال أحاديثهم و و أعمالهم، بل هى واضحة فى طريقة عبادتهم و مراسم حجّهم.

ثمّ تشير الآية إلى فلسفة هذا الحكم فتقول: أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ

و لذلك فهى لا تجديهم نفعا: وَ فِي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ

فمع هذه الحال لا خير فى مساعيهم لعمارة المسجد الحرام و بنائه و ما إلى ذلك، كما لا فائدة من كثرتهم و احتشادهم حول الكعبة.

فاللّه طاهر منزّه، و ينبغى أن يكون بيته طاهرا منزّها كذلك، فلا يصح أن تمسه الأيدى الملوثة بالشرك.

أمّا الآية التّالية فتذكر شروط عمارة المسجد الحرام- إكمالا للحديث آنف الذكر- فتبيّن خمسة شروط مهمّة فى هذا الصدد، فتقول، إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و هذا النص إشارة إلى الشرطين الأوّل و الثّانى، اللذين يمثلان الأساس العقائدى، فما لم يتوفر هذان الشرطان لا يصدر من الإنسان أى عمل خالص نزيه، بل لو كان عمله فى الظاهر سليما فهو فى الباطن ملّوث بأنواع الأغراض غير المشروعة.

ثمّ تشير الآية إلى الشرطين الثّالث و الرّابع فتقول: وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ.

أى أن الإيمان باللّه و اليوم الآخر لا يكفى أن يكون مجرّد ادعاء فحسب، بل تؤيده الأعمال الكريمة، فعلاقة الإنسان باللّه ينبغى أن تكون قوية محكمة، و أن يؤدى صلاته بإخلاص، كما ينبغى أن تكون علاقته بعباد اللّه و خلقه قوية، فيؤدى الزكاة إليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۵

و تشير الآية إلى الشرط الخامس و الأخير فتقول: وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ

فقلبه ملىء بعشق اللّه، و لا يحسّ إلّا بالمسؤولية فى امتثال أمره و لا يرى لأحد من عبيده أثرا فى مصيره و مصير مجتمعه و تقدمه، هم أقل من أن يكون لهم أثر فى عمارة محل للعبادة.

ثمّ تضيف الآية معقبة بالقول: فَعَسى أُولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ فيبلغون أهدافهم و يسعون لعمارة المسجد.

ملاحظات

۱- ما المراد من العمارة

هل تعنی عمارة المسجد بناءه و تأسیسه و ترمیمه، أو تعنی الاجتماع فیه و المساهمة فی الحضور عنده؟! اختار بعض المفسّرین أحد هذین المعنیین فی تفسیر «عمارة المسجد» فی الآیة- محل البحث- غیر أنّ الآیة ذات مفهوم واسع یشمل هذه الأمور و ما شاکلّها جمیعا. فلیس للمشرکین أن یحضروا فی المساجد، و لیس لهم أن یبنوا مسجدا- و ما إلی ذلک- بل علی المسلمین أن یقوموا بکل ذلک.

و یستفاد من الآیة- ضمنا- أنّه لا ینبغی للمسلمین أن یقبلوا من المشرکین- بل جمیع الفرق غیر الإسلامیة- هدایا أو إعانات للمساجد و بنائها، لأنّ الآیة الأولی و إن کانت تتکلم علی المشرکین، لکنّ الآیة الثّانیة بدأت بکلمة «إنما» لتدل علی أن عمارة مساجد اللّه خاصّة بالمسلمین.

و من هنا یتّضح أیضا أنّ متولی المساجد و مسئولیها ینبغی أن یکونوا من أنزه الناس، و لا ینتخب لهذه المهمّة من لا حریجة له فی الدین طمعا فی ماله و ثروته، أو مقامه الاجتماعی کما هو الحال فی کثیر من البلاد، إذ تولّی مساجدها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۶

من لیس لها أهلا.

بل یجب ابعاد جمیع الأیدی الملوثة عن هذه الأماکن المقدسة.

و منذ أن تدخل فی أمور المساجد و المراکز الإسلامیة أو أشرف علیها حکام الجور، أو الأثریاء المذنبون، فقدت تلک المساجد و المراکز الإسلامیة «حیثیتها» و مکانتها و مسخت مناهجها البنّاءة، و لذا فنحن نری کثیرا من هذه المساجد علی شاکلة مسجد ضرار.

۲- العمل الخالص ینبع من الإیمان فحسب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۵ ؛ ص۵۵۶

یتساءل بعضنا قائلا: ما یمنع أن نستعین بأموال غیر المسلمین لبناء المساجد و عمارتها؟! لکن من یسأل مثل هذا السؤال لم یلتفت إلی أنّ الإسلام یعد العمل الصالح ثمرة شجرة الإیمان فی کل مکان، فالعمل ثمرة نیّة الإنسان و عقیدته دائما و هو انعکاس لها و یتخذ شکلهما و لونهما دائما، فالنیات غیر الخالصة لا تنتج عملا خالصا.

۳- الحماة الشجعان

تدل عبارة وَ لَمْ یَخْشَ إِلَّا اللَّهَ علی أنّ عمارة المسجد المحافظة علیها لا تکون إلّا فی ظل الشهامة و الشجاعة، فلا تکون هذه المراکز المقدسة مراکز لبناء شخصیة الإنسان و ذات منهج تربوی عال إلّا إذا کان بانوها و حماتها رجالا شجعانا لا یخشون أحدا سوی اللّه، و لا یتأثرون بأی مقام، و لا یطبقون منهجا غیر المنهج الإلهی.

۴- هل المراد من الآیة هو المسجد الحرام فحسب؟!

یعتقد بعض المفسّرین أنّ الآیة محل البحث تختص بالمسجد الحرام، مع أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۷

ألفاظ الآیـة عامّـة، و لا دلیل علی هـذا التخصـیص، و إن کان المسـجد الحرام الذی هو أعظم المساجد الإسـلامیة فی مقدمتها، و یوم نزول الآیة کان المسجد الحرام هو محل إشارة الآیة، إلّا أنّ ذلک لا یدلّ علی تخصیص مفهوم الآیة.

۵- أهمیة بناء المساجد

وردت أحادیث کثیرة فی أهمیة بناء المساجد عن طرق أهل البیت و أهل السنة، تدلّ علی ما لهذا العمل من الشأن الکبیر.

فقد ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من بنی مسجدا و لو کمفحص قطاة بنی اللّه له بیتا فی الجنّة»[۲۷۶].

کما

ورد عنه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قوله: «من أسرج فی مسجد سراجا لم تزل الملائکة و حملة العرش یستغفرون له ما دام فی ذلک المسجد ضوؤه»[۲۷۷].

إلّا أنّ ما هو أکثر أهمیة هذا الیوم هو عمارة المسـجد المعنویة، و بتعبیر آخر ینبغی أن نهتم بعمارة شخصـیة الذین یرتادون المسـجد و أهله و حفظته اهتمامنا بعمارة المسجد ذاته.

فالمسجد ینبغی أن یکون مرکزا لکل تحرک إسلامی فاعل یؤدی إلی إیقاظ الناس، و تطهیر البیئة و المحیط، و حثّ المسلمین للدفاع عن میراث الإسلام.

و ینبغی الالتفـات إلی أن المسـجد جـدیر بأن یکون مرکزا للشـباب المؤمن، لا محلا للعجزة و الکسالی و المقعـدین، فالمسـجد مجال للنشاط الاجتماعی الفعال، لا مجال العاطلین و البطّالین و المرضی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۸

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۹ الی ۲۲]

اشارة

أَ جَعَلْتُمْ سِـقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْـجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْـتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۹) الَّذِينَ آمَنُوا وَ هـاجَرُوا وَ جاهَـدُوا فِي سَبِيـلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِـهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَـةً عِنْـدَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيها نَعِيمٌ مُقِيمٌ (۲۱) خالِدِينَ فِيها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۲۲)

سبب النّزول

هناک روایات مختلفة فی سبب نزول الآیات- محل البحث- منقولة فی کتب أهل السنة و الشیعة، و نورد هنا ما یبدو أکثر صحة.

یروی «أبو القاسم الحسـکانی» عالم أهل السـنة المعروف، عن بریدة، أن «شـیبة» و «العباس» کان یفتخر کلّ منهما علی صاحبه، و بینما هما یتفاخران إذ مرّ علیهما علی بن أبی طالب علیه السلام فقال: فیم تتفاخران؟

فقال العباس: حبیت بما لم یحب به أحد و هو سقایة الحاج.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۵۹

فقال شیبة: إنی أعمر المسجد الحرام، و أنا سادن الکعبة.

فقال على عليه السلام: على أنّى مستحى منكما، فلى مع صغر سنى ما ليس عندكما.

فقالا: و ما ذاك؟! فقال: جاهدت بسيفى حتى آمنتما باللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فخرج العباس مغضبا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شاكيا عليّا فقال: ألا ترى ما يقول؟

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أدعو لى عليّا فلمّا جاءه على قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لم كلّمت عمّك العباس بمثل هذا الكلام؟ فقال عليه السلام: إذا كنت أغضبته، فلما بيّنت من الحق، فمن شاء فليرض بالقول الحق و من شاء فليغضب.

فنزل جبرئيل عليه السلام و قال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرؤك السلام و يقول: اتل هذه الآيات: أ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۲۷۸].

و قد وردت هذه الرواية بالمضمون ذاته مع اختلاف يسير فى التعابير فى كتب كثيرة لأهل السنة، كتفسير الطبرى و الثعلبى، و أسباب النّزول للواحدى و تفسير الخازن البغدادى، و معالم التنزيل للعلّامة البغوى، و المناقب لابن المغازلى، و جامع الأصول لابن الأثير، و تفسير الفخر الرازى، و كتب أخرى.[۲۷۹] و على كل حال، فالحديث آنف الذكر من الأحاديث المعروفة و المشهورة، التى يقرّبها حتى المتعصبون، و سنتكلم عنه مرّة أخرى بعد تفسير الآيات.

التّفسير

مقياس الفخر و الفضل:

مع أنّ للآيات- محل البحث- شأنا فى نزولها، إلّا أنّها فى الوقت ذاته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۰

تستكمل البحث الذى تناولته الآيات المتقدمة، و نظير ذلك كثير فى القرآن.

فالآية الأولى من هذه الآيات تقول: أ جَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَ عِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ جاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

«السقاية» لها معنى مصدرى و هو إيصال الماء للآخرين، و كما تعنى المكيال، كما جاء فى الآية ۷۰ من سورة يوسف فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ و تعنى الإناء الكبير أو الحوض الذى يصب فيه الماء.

و كان فى المسجد الحرام بين بئر زمزم و الكعبة محل يوضع فيه الماء يدعى ب «سقاية العباس» و كان معروفا آنئذ، و يبدو أنّ هناك إناء كبيرا فيه ماء يستقى منه الحاج يومئذ.

و يحدثنا التأريخ أنّ منصب «سقاية الحاج» قبل الإسلام كان من أهل المناصب، و كان يضاهى منصب سدانة الكعبة، و كانت حاجة الحاج الماسة فى أيّام الحج إلى الماء فى تلك الأرض القاحلة اليابسة المرمضة[۲۸۰] التى يقل فيها الماء، و جوّها حار أغلب أيّام السنة، و كانت هذه الحاجة الماسة تولى موضوع «سقاية الحاج» أهميّة خاصّة، و من كان مشرفا على السقاية كان يتمتع بمنزلة اجتماعية نادرة، لأنّه كان يقدم للحاج خدمة حياتية.

و كذلك «عمارة المسجد الحرام» أو سدانته و رعايته، كان لها أهميته الخاصّة، لأنّ المسجد الحرام حتى فى زمن الجاهلية كان يعدّ مركزا دينيا، فكان المتصدى لعمارة المسجد أو سدانته محترما.

و مع كل ذلك فإنّ القرآن يصّرح بأنّ الإيمان باللّه و باليوم الآخر و الجهاد فى سبيل اللّه أفضل من جميع تلك الأعمال و أشرف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۱

أمّا الآیة التالیة فتوضح ما أجملته الآیة السابقة و تؤکّده بالقول: الَّذِینَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَ أُولئِکَ هُمُ الْفائِزُونَ

و أمّا الآیة الثّالثة- من الآیات محل البحث- فتقول: إنّ اللّه أنعم علی المؤمنین و المهاجرون و المجاهدین فی سبیله ثلاث مواهب هی:

۱- یُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ

۲- وَ رِضْوانٍ

۲۳- وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِیها نَعِیمٌ مُقِیمٌ

و تعقب الآیة الأخیرة لمزید التوکید بالقول خالِدِینَ فِیها أَبَداً إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِیمٌ

ملاحظتان

۱- تحریف التاریخ

کما قرأنا آنفا فی شأن نزول الآیات محل البحث، و طبقا لروایة وردت فی کثیر من کتب الآیات أهل السنة الشهیرة، أنّها نزلت فی علی علیه السلام و بیان فضائله، علی أنّ مفهوم الآیات عام واسع «و قد قلنا مرارا بأن أسباب النّزول لا تحدّد مفاهیم الآی».

إلّا أنّ بعض مفسّری أهل السنة لم یرغب فی أن تثبت للإمام علی علیه السلام فضائل بارزة مع اعتقادهم بأنّه رابع خلفاء المسلمین! و کأنّهم خافوا إن أذعنوا لما یجدونه عند علی علیه السلام من الفضائل أن یقف الشیعة أمامهم متسائلین: لم قدّمتم علی علی غیره؟

فلذلک أغمضوا النظر عن کثیر من مناقبه و فضائله، و سعوا جاهدین لأن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۲

یقدحوا فی سند الروایة التی تذکر فضل علی علیه السلام علی غیره أو فی دلالتها.

و یا للأسف ما زال هذا التعصب المقیت ممتدا إلی عصرنا الحاضر، حتی أنّ بعض علمائهم المثقفین لم یسلموا من هذا الداء الوبیل و التعصب دون دلیل! و لا- أنسی المحاورة التی جرت بینی و بین بعض علماء أهل السنة، إذ أظهر کلاما عجیبا عند ذکرنا لمثل هذه الأحادیث، فقال: فی عقیدتی أنّ الشیعة یستطیعون أن یثبتوا جمیع معتقدات مذهبهم «أصولها و فروعها» من مصادرنا و کتبنا، لأنّ فی کتبنا أحادیث کافیة لصالح آراء الشیعة و صحة مذهبهم.

إلّا أنّه من أجل أن یریح نفسه من جمیع هذه الکتب، قال: أعتقد أن أسلافنا کانوا حسنی الظن، و قد أوردوا کل ما سمعوه فی کتبهم، فلیس لنا أن نأخذ کل ما أوردوه ببساطة!! «طبعا کان حدیثه یشمل الکتب الصحاح و المسانید المعتبرة و ما هو عندهم فی المرتبة الأولی».

فقلت له: لیس هذا هو الأسلوب فی التحقیق، حیث یعتقد إنسان ما بمذهب معین، لأنّ آباءه کانوا علیه و ورثه عن سلفه، فما وجده من حدیث ینسجم و مذهبه قال: إنّه صحیح، و ما لم ینسجم حکم علیه بعدم الصحة، لأنّ السلف الصالح کان حسن الظن، حتی لو کان الحدیث معتبرا.

فما أحسن أن نختار أسلوبا آخر للتحقیق بدل ذلک، و هو أن نتجرّد من عقیدتنا الموروثة ثمّ ننتخب الأحادیث الصحیحة دون تعصب.

و نسأل الآن: لماذا سکتوا عن الأحادیث الشهیرة التی تذکر فضل علی و علو مقامه، بل نسوها و ربّما طعنوا فیها، فکأن مثل هذه الأحادیث لا وجود لها أصلا؟

و مع الالتفات إلی ما ذکرناه آنفا، ننقل کلاما لصاحب تفسیر «المنار» المعروف، إذ أهمل شأن نزول الآیات محل البحث المذکور

آنفا، و نقل رواية لا تنطبق و محتوى الآيات أصلا، و ينبغى أن نعدّها حديثا مخالفا للقرآن، فقال عنها:

إنّها معتبرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۳

و هى ما نقل عن النعمان بن بشير إذ يقول: كنت جالسا فى عدة من أصحاب النّبى إلى جوار منبره، فقال بعضهم: لا أرى عملا بعد الإسلام أفضل من سقاية الحاج و إروائهم، و قال الآخر: إنّ عمارة المسجد الحرام أفضل من كل عمل، فقال الثالث، فى سبيل اللّه أفضل ممّا قلتما.

فنهاهم عمر عن الكلام و قال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول اللّه- و كان ذلك اليوم يوم الجمعة- و لكنّى سأسأل رسول اللّه بعد الفراغ من الصلاة- صلاة الجمعة- فى ما اختلفتم فيه.

و بعد أن أتمّ صلاته جاء إلى رسول اللّه فسأله عن ذلك، فنزلت الآيات محل البحث ۲۸۱].

إلّا أنّ هذه الرّواية لا تنسجم و الآيات محل البحث من عدّة جهات، و نحن نعرف أن كلّ رواية مخالفة للقرآن ينبغى أن تطرح جانبا و يعرض عنها؛ لأنّه:

أوّلا- لم يكن فى الآيات محل البحث قياس ما بين الجهاد و سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام، بل القياس ما بين سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام من جهة، و الإيمان باللّه و اليوم الآخر و الجهاد من جهة أخرى، و هذا يدل على أن من كان يقوم بمثل السقاية و العمارة فى زمان الجاهلية كان يقيس عمله بالإيمان و الجهاد. فالقرآن يصرّح بأنّ سقاية الحاج و عمارة المسجد الحرام لا يستويان- كل منهما- مع الإيمان باللّه و الجهاد فى سبيله و ليس القياس بين الجهاد و عمران المسجد و سقاية الحاج (لاحظ بدقة).

ثانيا: إنّ جملة وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تدل على أن أعمال الطائفة الأولى كانت معروفة بالظلم، و إنما يفهم ذلك فيما لو كانت هذه الأعمال صادرة فى حال الشرك، لإنّ القرآن يقول إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۲۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۴

و لو كان القياس بين الإيمان و سقاية الحاج المقرونة بالإيمان و الجهاد، لكانت جملة وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لغوا- و العياذ باللّه- لأنّها حينئذ لا مفهوم لها هنا.

ثالثا: إنّ الآية الثّانية- محل البحث- التى تقول الَّذِينَ آمَنُوا وَ هاجَرُوا وَ جاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً مفهومها أن أولئك أفضل و أعظم درجة ممن لم يؤمنوا و لم يهاجروا و لم يجاهدوا فى سبيل اللّه، و هذا المعنى لا ينسجم و كلام النعمان- آنف الذكر- لأنّ المتكلمين وفقا لحديثه كلهم مؤمنون و لعلهم أسهموا فى الهجرة و الجهاد رابعا: كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن إقدام المشركين على عمارة المساجد و عدم جواز ذلك: ما كانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ و الآيات محل البحث تعقب على الموضوع ذاته، و يدل هذا الأمر على أن موضوع الآيات هو عمارة المسجد الحرام و سقاية الحاج حال الشرك، و هذا لا ينسجم و رواية النعمان.

و الشىء الوحيد الذى يمكن أن يستدل عليه هو التعبير ب أَعْظَمُ دَرَجَةً حيث يدل على أن الطرفين المقيسين كل منهما حسن بنفسه، و إن كان أحدهما أعظم من الآخر.

إلّا أنّ الجواب على ذلك واضح، لأنّ أفعل التفضيل غالبا تستعمل فى الموازنة بين أمرين، أحدهما واجد للفضيلة و الآخر غير واجد، كأن يقال مثلا:

الوصول متأخرا خير من عدم الوصول، فمفهوم هذا الكلام لا يعنى أن عدم الوصول شىء حسن، لكن الوصول بتأخير أحسن.

أو أننا نقرأ فى القرآن وَ الصُّلْحُ خَيْرٌ أى من الحرب [سورة النساء الآية ۲۸] فهذا لا يعنى أنّ الحرب شىء حسن.

أو نقرأ مثلا وَ لَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ [سورة البقرة الآية ۲۲۱] ترى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۵

هل المشرک حسن و فیه خیر؟! أو نقرأ فی سورة التوبة ذاتها (الآیة ۱۰۸) لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أی أحق من مسجد ضرار الذی بناه المنافقون للعبادة، مع أننا نعرف أن العبادة فی مسجد ضرار لیست بحق أبدا، فنظیر هذه التعابیر فی القرآن و اللغة العربیة، بل فی سائر اللغات کثیر.

من مجموع ما ذکرناه نستنتج أن روایة النعمان بن بشیر لأنّها مخالفة لمحتوی القرآن ینبغی أن تطرح و تنبذ جانبا، و أن نأخذ بما ینسجم و ظاهر الآی، و هو ما قدمناه بین یدی تفسیر هذه الآیات، علی أنّه سبب لنزولها، و أنّه لفضیلة کبری لإمام الإسلام العظیم علی علیه السلام.

نسأل اللّه أن یثبت أقدامنا علی متابعة الحق و أهله من الأئمّة الصالحین، و أن یجنبنا التعصب، و یفتح أبصارنا و أسماعنا و أفکارنا لقبول الحق.

۲- ما هو مقام الرضوان؟

یستفاد من الآیات- محل البحث- أنّ مقام الرضوان الذی هو من أعظم المواهب التی یهبها اللّه المؤمنین و المجاهدین فی سبیله، هو شیء غیر الجنات و النعیم المقیم و غیر رحمته الواسعة.

و سنتناول بیان هذا الموضوع ذیل الآیة (۷۲) من هذه السورة، فی تفسیر جملة وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ إن شاء اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۶

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۲۳ الی ۲۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۲۳) قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۲۴)

التّفسیر

کلّ شیء فداء للهدف:

إنّ آخر وسوسة أو ذریعة یمکن أن یتذرع بها جماعة من المسلمین للامتناع عن جهاد المشرکین (و فعلا فقد تذرع بعضهم وفقا لما ورد فی قسم من التفاسیر) بأن من بین المشرکین و عبدة الأوثان أقارب لهم، فقد یسلم الأب و یبقی ولده فی الشرک علی حاله، و قد یقع العکس إذ یخطو الابن نحو توحید اللّه و یبقی أبوه مشرکا، و هذه الحالة ربّما کانت موجودة بین الأخ و أحیه، و الزوج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۷

و زوجه، و الفرد و عشیرته أو قبیلته، و هکذا.

فإذا کان القرار أن یجاهد الجمیع المشرکین فلا بدّ أن یغمضوا أعینهم عن أرحامهم و أقاربهم و عشیرتهم إلخ. هذا کلّه من جهة.

ثمّ و من جهة أخرى كانت رؤوس الأموال و القدرة التجارية بيد المشركين تقريبا، و لهذا يسبب تردد المشركين إلى مكّة ازدهار التجارة.

و من جهة ثالثة كان للمسلمين فى مكّة بيوت عامرّة نسبيا، فإذا قاتلوا المشركين فمن المحتمل أن يهدمها المشركون، أو تفقد قيمتها إذا عطل المشركون مراسم الحاج و مناسكه بمكّة.

فالآيتان- محل البحث- ناظرتان إلى مثل هؤلاء الأشخاص، و تردّان عليهم ببيان صريح، فتقول الآية الأولى منهما: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ

ثمّ تعقب- على وجه التأكيد- مضيفة: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أى ظلم أسوأ من أن يظلم الإنسان نفسه بتعلقه بأعداء الحق و المشركين، و يظلم مجتمعه، و يظلم نبيّه أيضا؟! أمّا الآية التالية فهى تتناول هذا الموضوع بنحو من التفصيل و التأكيد و التهديد و التقريع، فتخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعنف أولئك الذين لا- يرغبون فى جهاد المشركين لما ذكرناه آنفا، فتقول قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ

و لما كان ترجيح مثل هذه الأمور على رضا اللّه و الجهاد فى سبيله، يعدّ نوعا من العصيان و الفسق البيّن، و إن من تشبث قلبه بالدنيا و زخرفها و زبرجها غير جدير بهداية اللّه، فإنّ الآية تعقب فى الختام قائلة وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۸

الْفاسِقِينَ

و قد جاء فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى شأن الآيتين ما يلى: «لما أذّن أمير المؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك، جزعت قريش جزعا شديدا، و قالوا: ذهبت تجارتنا و ضاعت علينا و خربت دورنا، فأنزل اللّه فى ذلك قل (يا محمّد) إلخ ...

و الآيتان- محل البحث- ترسمان خطوط الإيمان الأصيل و تميزانها عن الإيمان المبطن بالشرك و النفاق.

كما أنّهما تضعان حدا فاصلا بين المؤمنين الواقعيين و بين ضعاف الإيمان، و تقول إحداهما بصراحة: إن كانت هذه الأمور الثمانية «فى الحياة المادية» التى يتعلق أربعة منها بالأرحام و الأقارب آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ

و يتعلق قسم منها بالمجتمع و «العشيرة».

و القسم السّادس يرتبط بالمال.

و السابع بالتجارة و الاكتساب.

و أمّا الثامن- و هو الأخير- فيتعلق بالمساكن ذات الأناقة «و مساكن ترضونها».

فإذا كانت هذه الأمور الثمانية- المذكورة آنفا- أغلى و أعزّ و أحب عند الإنسان من اللّه و رسوله، و الجهاد فى سبيله و امتثال أوامره، حتى أن الإنسان لا يكون مستعدا بالتضحية بتلك الأمور الثمانية من أجل اللّه و الرّسول و الجهاد، فيتّضح أن إيمانه الواقعى لم يكمل بعد! فحقيقة الإيمان و روحه و جوهره، كل ذلك يتجلّى بالتضحية بمثل هذه الأمور من دون تردد.

أضف إلى ذلك، فإن من لم يكن مستعدا للتضحية بمثل تلك الأمور، فقد ظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۶۹

نفسه و مجتمعه فى الواقع، كما أنّه سيقع فى ما كان يخاف من الوقوع فيه لأنّ الأمّة التى تتلكأ فى اللحظات الحساسة من تأريخها المصيرى، و فى المآزق الحاسمة، فلا يضحى أبناؤها بمثل ذلك، فستواجه الهزيمة عاجلا أو آجلا، و سيتعرض كلّ ما تعلقت القلوب به فلم تجاهد من أجله الى خطر الضياع و التلف بيد الأعداء.

ملاحظات

اشارة

۱- ما قرأناه فى الآيتين- محل البحث- ليس مفهومه قطع علائق المحبة بالأرحام، و إهمال رؤوس الأموال الاقتصادية، و الانسياق إلى تجاوز العواطف الإنسانية و إلغائها، بل المراد من ذلك أنّه ينبغى أن لا ننحرف عند مفترق الطرق إلى الأموال و الأزواج و الأولاد و الدور و المقام الدنيوى، بحيث لا نطبّق فى تلك الحالة حكم اللّه، أو لا نرغب فى الجهاد، و يحول عشقنا المادى دون تحقيق الهدف المقدس.

لهذا يلزم على الإنسان إذا لم يكن على مفترق الطرق أن يرعى الجانبين «العلاقة باللّه و العلاقة بالرحم».

فنحن نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة لقمان، قوله تعالى فى شأن الأبوين المشركين وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِى الدُّنْيا مَعْرُوفاً.

۲- إنّ أحد تفاسير جملة فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ما أشرنا إليه آنفا، و هو التهديد من قبل اللّه لأولئك الذين يقدّمون منافعهم المادية و يفضلونها على رضا اللّه، و لما كان هذا التهديد مجملا كان أثره أشدّ وحشة و إشفاقا، و هذا التعبير يشبه قول من يكلم صاحبه الذى دونه و تحت أمره، فيقول له: إذا لم تفعل ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۰

أمرتك، فسأقوم بما ينبغى أيضا.

و هناك احتمال آخر لتفسير الجملة- محل البحث- و هو أنّ اللّه سبحانه يقول: إذا لم تكونوا مستعدين للتضحية، فإنّ اللّه يفتح لنبيّه عن طريق آخر. و كيف شاء، إذ ليس ذلك بعسير عليه. و نظير هذا المعنى ما جاء فى الآية (۵۴) من سورة المائدة، إذ نقرأ فيها يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ

الماضى و الحاضر مرهونان بهذا الأمر:

۳- قد يتصور بعضهم بأنّ ما جاء فى الآيتين يخص صدر الإسلام و التاريخ الماضى، إلّا أنّ ذلك خطأ كبير، فالآيتان تستوعبان حاضر المسلمين و مستقبلهم أيضا.

فإذا قدّر للمسلمين أن لا يضحوا بأموالهم و أنفسهم و أولادهم و دورهم إلخ ... فى سبيل اللّه، و لا يكون لهم إيمان متين، و يفضلون الأمور المادية على رضا اللّه، و تبقى قلوبهم متعلقة بالمال و الأولاد و زبارج الدنيا، فيكون مستقبلهم مظلما، لا مستقبلهم فحسب، بل حتى يومهم هذا، ففى مثل هذا الحال سيحدق بهم الخطر و سيفقدون موروثهم الحضارى، و تكون مصادر حياتهم بأيدى الأجانب و يفقدون معنى الحياة، لأن الحياة هى حياة الإيمان و الجهاد فى ظل الإيمان.

فعلينا أن نغرس مدلول هاتين الآيتين فى قلوب أطفال المسلمين و شبابهم و نجعله شعارا لنا، و نحيى فى نفوس المسلمين روح التضحية و الجهاد، ليحافظوا على ثقافتهم و موروثهم المعرفى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۲۵ الى ۲۷]

اشارة

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (۲۵) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ (۲۶) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۷)

التّفسير

الكثرة وحدها لا تجدى نفعا:

فى الآيات المتقدمة رأينا أنّ اللّه سبحانه يدعوا المسلمين إلى التضيحة و الجهاد على جميع الصعد فى سبيل اللّه و قلع جذور الشرك و عبادة الأوثان، و يهدد بشدّة من يتقاعس منهم عن الجهاد و التضحية بسبب التعلق بالأزواج و الأولاد و الأرحام و العشيرة و المال و الثروة.

أمّا الآيات محل البحث فتشير إلى مسألة مهمّة، و هى أنّ على كل قائد أن ينّبه أتباعه فى اللحظات الحساسة بأنّه إذا كان فيهم بعض الأشخاص من ضعاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۲

الايمان و الذين يحجبهم التعلّق بالمال و الولد و الأزواج و ما إلى ذلك عن الجهاد فى سبيل اللّه، فلا ينبغى أن يقلق المؤمنون المخلصون من هذا الأمر، و عليهم أن يواصلوا طريقهم، لأنّ اللّه لم يتخلّ عنهم يوم كانوا قلة، كما هو الحال فى معركة بدر، و لا يوم كانوا كثرة- ملء العين (كما فى معركة حنين) و قد أعجبتهم الكثرة فلم تغن عنهم شيئا، لكن اللّه سبحانه أنزل جنودا لم تروها، و عذب الذين كفروا، فاللّه فى الحالين ينصر المؤمنين و يرسل إليهم مدده ...

لهذا فإن الآية الأولى من الآيات محل البحث تقول لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ.

و المواطن جمع الموطن، و معناه المحل الذين يختاره الإنسان للسكن الدائم، أو المؤقت، إلّا أن من معانيه أيضا ساحة الحرب و المعركة، و ذلك لأنّ المقاتلين يقيمون فى مكان الحرب مدّة قصيرة أو طويلة أحيانا.

ثمّ تضيف الآية معقبة وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ و كان جيش المسلمين يوم حنين زهاء اثنى عشر ألفا، و قال بعض المؤرخين: كانوا عشرة آلاف أو ثمانية آلاف، غير أنّ الرّوايات المشهورة تؤيد ما ذكرناه آنفا، إذ تقول:

إنّهم كانوا اثنى عشر ألفا، و هذا الرقم لم يسبق له مثيل فى الحروب الإسلامية قبل ذلك الحين، حتى اغترّ بعض المسلمين و قالوا: «لن نغلب اليوم».

إلّا أنّه- كما سنبيّن الموضوع فى الحديث على غزوة حنين- قد فرّ كثير من المسلمين ذلك اليوم، لكونهم جديدى عهد بالإسلام و لم يتوغل الإيمان فى قلوبهم فانكسر جيش المسلمين فى البداية و كاد العدوّ أن يغلبهم لولا أن اللّه أنزل بلطفه مدده و جنوده فنجّاهم.

و يصور القرآن هذه الهزيمة بقوله وَ ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۳

و فى هذه اللحظات الحساسة حيث تفرق جيش الإسلام هنا و هناك، و لم يبق مع النّبى إلّا القلة، و كان النّبى مضطربا و متألّما جدّا لهذه الحالة نزل التأييد الإلهى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها.

و كما قلنا فى حديثنا عن غزوة بدر فى ذيل الآيات الخاصّة بها، أن نزول هذه الجنود غير المرئية كان لشدّ أزر المسلمين و تقوية

معنويـاتهم، و إيجـاد روح الثبـات و الاسـتقامة فى نفوسـهم و قلـوبهم، و لاـ يعنى ذلـك اشـتراك الملائكـة و القـوى الغيبيـة فى المعركة[۲۸۳].

و يذكر القرآن النتيجة النهائية لمعركة حنين الحاسمة فيقول وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذلِكَ جَزاءُ الْكافِرِينَ

و كان هذا العذاب و الجزاء أن قتل بعض الكافرين، و أسر بعضهم، و فرّ بعضهم إلى مناطق بعيدة عن متناول الجيش الاسلامى.

و مع هـذا الحال فإنّ اللّه يفتـح أبواب توبته للأسـرى و الفارين من الكفّار الـذين يرغبون فى قبول مبدأ الحق «الإسـلام» لهذا فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تقول: ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و جملـة «يتوب» التى وردت بصـيغة الفعل المضارع، و التى تـدل على الاسـتمرار، مفهومها أن أبواب التوبة و الرجوع نحو اللّه مفتوحة دائما بوجه التائبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۴

ملاحظات

۱- غزوة حنين ذات العبرة

«حنين» منطقة قريبة من الطائف، و بما أنّ الغزوة وقعت هناك فقد سميّت باسم المنطقة ذاتها، و قد عبّر عنها فى القرآن ب «يوم حنين» و لها من الأسماء- غزوة أوطاس، و غزوة هوازن أيضا.

أمّا تسـميتها بأوطاس، فلأن «أوطاس» أرض قريبـة من مكان الغزوة- و أمّا تسـميتها بهوازن، فلأن إحدى القبائل التى شاركت فى غزوة حنين تدعى بهوازن.

أمّا كيف حدثت هذه الغزوة، فبناء على ما ذهب إليه ابن الأثير فى الكامل، أن هوازن لمّا علمت بفتح مكّة، جمع القبيلة رئيسـها مالك بن عوف و قال لمن حوله: من الممكن أن يغزونا محمّد بعد فتح مكّة، فقالوا: من الأحسن أن نبدأه قبل أن يغزونا.

فلما بلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر المسلمين أن يتوجهوا إلى أرض هوازن ۲۸۴].

و بـالرغم من عـدم الاختلاـف بين المؤرخين فى شـأن هـذه الغزوة و المسائـل العامّـة فيها، إلّا أنّ فى جزئياتها روايات متعـددة لا يكاد بعضـها ينسـجم مع الآخر، و ما ننقله هنا فقد اقتضبناه عن مجمع البيان للعلامة الطبرسى، بناء على روايته القائلة: إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف و اجتمعوا عنـده فى أخريات شـهر رمضان أو شوال فى السـنة الثامنـة للهجرة، و كانوا قـد جاءوا بأموالهم و أبنائهم و أزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، و هكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقـد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لواءه، و سـلمّه عليّا عليه السـلام و أمر حملـة الرايات الـذين ساهموا فى فتـح مكّة أن يتوجهوا براياتهم ذاتها مع على بن أبى طالب إلى حنين، و اطّلع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۵

النّبى أن صـفوان بن أمية لديه دروع كثيرة، فأرسل النّبى إليه أن أعرنا مائة درع، فقال صـفوان: أ تريدونها عارية أم غصـبا؟ فقال النّبى: بل عارية نضمنها و نعيدها سالمه إليك، فأعطى صفوان النّبى مائة درع على أنّها عارية، و تحرك مع النّبى بنفسه إلى حنين.

و كان ألفا شـخص قد أسـلم فى فتح مكّة، فأضـيف عددهم إلى العشـرة آلاف الذين ساهموا فى فتح مكّة، و صاروا حوالى اثنى عشر ألفا، و تحركوا نحو حنين.

فقـال مالـك بن عوف- و كـان رجلاـ جريئـا شـهما- لقـبيلته: اكسـروا أغمـاد سـيوفكم، و اختبئوا فى كهوف الجبـال و الوديـان و بين

الأشجار، و اكمنوا لجيش الإسلام، فإذا جاءوكم الغداة «عتمة» فاحملوا عليهم و أبيدوهم.

ثمّ أضاف مالك بن عوف قائلا: إن محمّدا لم يواجه حتى الآن رجال حرب شجعانا، ليذوق مرارة الهزيمة!! فلما صلّى النّبى صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، و أصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من المقاتلين جديدى الإسلام (بمكّة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذهل المسلمون و اضطروا و فرّ الكثير منهم. فخلّى اللّه بين جيش المسلمين و جيش العدو، و ترك الجيشين على حالهما، و لم يحم المسلمين لغرورهم- مؤقتا- حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلّا أنّ عليّا حامل لواء النّبى بقى يقاتل فى عدّة قليلة معه، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى (قلب) الجيش و حوله بنو هاشم، و فيهم عمه العباس، و كانوا لا يتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أيمن ابن أم أيمن.

فمرّت مقدمة الجيش فى فرارها من المعركة على النّبى فأمر النّبى عمّه العباس- و كان جهير الصوت- أن يصعد على تل قريب و ينادى فورا: يا معشر المهاجرين و الأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۶

تفرّون؟ هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فلمّا سمع المسلمون صوت العباس رجعوا و قالوا: لبّيك لبّيك، و لا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين و حملوا على العدوّ من كل جانب حملة شديدة، و تقدّموا بأذن اللّه و نصره، بحيث تفرقت هوازن شذر مذر مذعورة، و المسلمون ما زالوا يحملون عليها. فقتل حوالى مائة شخص من هوازن، و غنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم ۲۸۵].

و نقرأ فى نهاية هذه الحادثة التأريخية أن ممثلى هوازن جاءوا النّبى و أعلنوا إسلامهم، و أبدى لهم النّبى صفحه و حبّه، كما أسلم مالك بن عوف رئيس القبيلة، فردّ النّبى عليه أموال قبيلته و أسراه، و صيره رئيس المسلمين فى قبيلته أيضا.

و الحقيقة أنّ السبب المهم فى هزيمة المسلمين بادئ الأمر- بالإضافة إلى غرورهم لكثرتهم- هو وجود ألفى شخص ممن أسلم حديثا و كان فيهم جماعة من المنافقين طبعا، و آخرون كانوا قد جاءوا مع النّبى لأخذ الغنائم، و جماعة منهم كانوا بلا هدف، فأثر فرار هؤلاء فى بقية الجيش.

أمّا السرّ فى انتصارهم النهائى فهو وقوف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على عليه السّلام و جماعة قليلة من الأصحاب، و تذكرهم عهودهم السابقة و إيمانهم باللّه و الركون إلى لطفه الخاص و نصره.

۲- من هم الفارّين

ممّا لا شك فيه أنّ الأكثرية الساحقة فرّت بادئ الأمر من ساحة المعركة، و ما تبقى منهم كانوا عشرة فحسب، و قيل أربعة عشر شخصا، و أقصى ما أوصل عددهم المؤرخون لم يتجاوزوا مائة شخص.

و لما كانت الرّوايات المشهورة تصّرح بأن من بين الفارين الخلفاء الثلاثة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۷

فإنّ بعض المفسّرين سعى لأن يعدّ هذا الفرار أمرا طبيعيا.

يقول صاحب تفسير المنار ما ملخصه: لما رشق العدوّ المسلمين بسهامه، كان جماعة قد التحقوا بالمسلمين من مكّة، و فيهم المنافقون و ضعاف الإيمان و الطامعون «للغنائم» ففرّ هؤلاء جميعا و تقهقروا إلى الخلف، فاضطرب باقى الجيش طبعا، و حسب العادة- لا خوفا- فقد فرّوا أيضا، و هذا أمر طبيعى عند فرار طائفة فإنّه يتزلزل الباقى منهم فيفر أيضا- ففرارهم لا يعنى ترك النّبى و عدم نصرته أو

تسليمه بيد عدوه، حتى يستحقوا غضب اللّه!![۲۸۶] و نحن لا نعلّق على هذا الكلام، لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

كما ينبغى أن نذكر هذه المسألة و هى أنّ «صحيح البخارى» حين يتكلم عن الهزيمة و فرار المسلمين ينقل ما يلى:

فإذا عمر بن الخطاب فى الناس، و قلت: (الراوى): ما شأن الناس؟ قال: أمر اللّه، ثمّ تراجع الناس إلى رسول اللّه ۲۸۷].

غير أننا تجرّدنا من الأحكام المسبقة، و التفتنا إلى القرآن الكريم، وجدناه لا يذم جماعة بعينها، بل يذم جميع الفارين.

و لا ـ ندرى ما الفرق بين قوله تعالى ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ حيث قرأنا هذه العبارة فى الآيات محل البحث، و بين عبارة أخرى وردت فى الآية (۱۶) من سورة الأنفال إذ تقول وَ مَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ! فبناء على ذلك لو ضممنا الآيتين بعضهما إلى بعض لعرفنا أنّ المسلمين ارتكبوا خطأ كبيرا يومئذ إلّا القليل منهم، غاية ما فى الأمر أنّهم تابوا بعدئذ و رجعوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۸

۳- الإيمان و السكينة

السكينة فى الأصل مأخوذة من السكون، و تعنى نوعا من الهدوء أو الاطمئنان الذى يبعد كل نوع من أنواع الشك و الخوف و القلق و الاستيحاش عن الإنسان، و يجعله راسخ القدم بوجه الحوادث الصعبة و الملتوية. و السكينة لها علاقة قربى بالإيمان، أى أنّ السكينة وليدة الإيمان، فالمؤمنون حين يتذكرون قدرة اللّه التى لا ـ غاية لها، و يتصورون لطفه و رحمته يملأ قلوبهم موج الأمل و يغمرهم الرجاء.

و ما نراه من تفسير السكينة بالإيمان فى بعض الرّوايات ۲۸۸]، أو بنسيم الجنّة متمثلا فى صورة إنسان ۲۸۹] كل ذلك ناظر إلى هذا المعنى.

و نقرأ فى القرآن فى الآية (۴) من سورة الفتح قوله تعالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ

و على كل حال فهذه الحالة نفسية خارقة للعادة، و موهبة إلهية بحيث يستطيع الإنسان أن يهضم الحوادث الصعبة، و أن يحس فى نفسه عالما من الدعة و الاطمئنان برغم كلّ ما يراه.

و ممّا يسترعى النظر أن القرآن- فى الآيات محل البحث- لا يقول: ثمّ أنزل اللّه سكينته على رسوله و عليكم، مع أنّ جميع الجمل فى الآية تحتوى على ضمير الخطاب (كم)، بل تقول الآية عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ و هى إشارة إلى أن المنافقين و أهل الدنيا و الذين كانوا مع النّبى فى المعركة لم ينالوا سهما من السكينة و الاطمئنان، بل كانت السكينة من نصيب المؤمنين فحسب.

و نقرأ فى بعض الرّوايات أن نسيم الجنّة هذا كان مع أنبياء اللّه و رسله ۲۹۰]،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۷۹

فلذلك كانوا- فى الحوادث الصعبة التى يفقد فيها كل إنسان توازنه إزاءها- أصحاب عزم راسخ و سكينة و اطمئنان، و إرادة حديدية لا تقبل التزلزل.

و كان نزول السكينة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معركة حنين- كما ذكرنا آنفا- لرفع الاضطراب الناشئ من فرار أصحابه من المعركة، و إلّا فهو كالجبل الشامخ الركين، و كذلك ابن عمّه على عليه السلام و قلة من أصحابه (المسلمين).

۴- فى الآيات محل البحث إشارة إلى أنّ اللّه نصر المسلمين فى مواطن كثيرة! هناك كلام كثير بين المؤرخين حول عدد مغازى النّبى و حروبه، التى أسهم فيها صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شخصيّا، و قاتل الأعداء، أو حضرها دون أن يقاتل بنفسه، أو الحروب التى وقف فيها المسلمون بوجه أعدائهم و لم يكن الرّسول حاضرا فى المعركة.

إلّا أنّه يستفاد من بعض الرّوايات التى وصلتنا عن طرق أهل البيت عليهم السّلام أنّها تبلغ الثمانين غزوة.

و قد ورد فى كتاب (الكافى) أن أحد خلفاء بنى العباس كان قد نذر مالا كثيرا إن هو عوفى من مرضه «و يقال أنّه قد سمّ»، فلما عوفى جمع الفقهاء الذين كانوا عنده، فسألهم عن المال الذى يجب أداؤه لإيفاء نذره، فلم يعرفوا للمسألة جوابا. و أخيرا سأل الخليفة العباسى الإمام التاسع محمّد بن على الجواد عليه السلام

فقال: «الكثير ثمانون».

فلمّا سألوه عن دليله فى ذلك استشهد الإمام بالآية لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَواطِنَ كَثِيرَةٍ ثمّ قال: عددنا حروب النّبى التى انتصر فيها المسلمون على أعدائهم فكانت ثمانين ۲۹۱].

۵- إن ما ينبغى على المسلمين أن يعتبروا به و يلزمهم أن يأخذوا منه درسا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۰

بليغا، هو أن ينظروا إلى الحوادث التى هى على شاكلة حادثة حنين، فلا يغتروا بكثرة العدد أو العدد، فالكثرة وحدها لا تغنى شيئا، بل المهم فى الأمر وجود المؤمنين الراسخين فى الإيمان، ذوى الإرادة و التصميم، حتى لو كانوا قلة.

كما أنّ طائفة قليلة استطاعت أن تغير هزيمة حنين إلى انتصار على العدو و كانت الكثيرة بادئ الأمر سبب الهزيمة، لأنّها لم تنصهر بالإيمان تماما.

فالمهم أن يتوفر فى مثل هذه الحوادث أناس مؤمنون ذوو استقامة و تضحية، لتكون قلوبهم مركزا للسكينة الإلهية، و ليكونوا كالجبال الراسخة بوجه الأعاصير المدمرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۱

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۲۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۲۸)

التّفسير

لا يحقّ للمشركين أن يدخلوا المسجد الحرام:

قلنا: إن واحدا من الأمور الأربعة التى بلّغها الإمام على عليه السلام فى موسم الحج فى السنة التاسعة للهجرة، هو أنّه لا يحق لأحد من المشركين دخول المسجد الحرام، أو الطواف حول البيت، فالآية محل البحث تشير إلى هذا الموضوع و حكمته، فتقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا.

و هل الآية هذه دليل على نجاسة المشرك بالمفهوم الفقهى، أو لا؟! هناك كلام بين الفقهاء و المفسّرين، و من أجل تحقيق معنى الآية يلزمنا التحقيق فى كلمة «نجس» قبل كل شىء ...

«النجس» على زنة «الهوس» كلمة ذات معنى مصدرى، و تأتى للتأكيد و المبالغة و الوصف.

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ النجاسة و النجس يطلقان على كل قذارة، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۲

على نوعين: قذارة حسية، و قذارة باطنية.

و يقول الطبرسى فى مجمع البيان: كل ما ينفر منه الإنسان يقال عنه: إنّه نجس.

فلذلك فإنّ كلمة نجس تستعمل فى موارد كثيرة- حتى فى ما لا مفهوم للنجاسة الظاهرية فيه- فمثلا يسمّى العرب الأمراض الصعبة المزمنة أو التى لا علاج لها ب «النجس» كما يطلق على الشخص الشّرير، أو الساقط خلقيا، أو الشيخ الهرم، أنّه نجس.

و من هنا يتّضح أنّه مع ملاحظة ما جاء فى الآية- محل البحث- لا يمكن الحكم بأنّ إطلاق كلمة نجس على المشركين تعنى أن أجسامهم قذرة كقذارة البول و الدم و الخمر و ما إلى ذلك أو لعقيدتهم «الوثنية» فهى قذارة باطنية، و من هنا لا يمكن الاستدلال بهذه الآية على نجاسة الكفار، بل ينبغى البحث عن أدلة أخرى.

ثمّ تعقب الآية على ذوى النظرة السطحية الذين كانوا يزعمون بأن المشركين إذا انقطعوا عن المسجد الحرام ذهبت تجارتهم و غدوا فقراء معوزين فتقول وَ إِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ.

كما فعل ذلك سبحانه على خير وجه، فباتساع رقعة الإسلام فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ سيل الزائرين يتجه نحو بيت اللّه فى مكّة، و ما زال هذا الأمر مستمرا حتى عصرنا الحاضر حيث أصبحت مكّة فى أحسن الظروف فهى بين سلسلة جبال صخرية لا ماء فيها و لا زرع، لكنّها مدينة عامرة، و قد صارت بإذن اللّه مركزا مهما للبيع و الشراء التجارة.

و يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فكل ما يأمركم به اللّه فهو وفق حكمته، و هو عليم بما سيؤول إليه أمره من نتائج مستقبلية، و هو خبير بذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۳

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۲۹]

اشارة

قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (۲۹)

التّفسير

مسئوليتنا إزاء أهل الكتاب:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن وظيفة المسلمين إزاء المشركين، أمّا الآية- محل البحث (و ما يليها من الآى)- فتبيّن تكليف المسلمين و وظيفتهم إزاء أهل الكتاب.

و فى هذه الآيات جعل الإسلام لأهل الكتاب سلسلة من الأحكام تعدّ حدّا وسطا بين المسلمين و الكفار، لأنّ أهل الكتاب من حيث اتّباعهم لدينهم السماوى لهم شبه بالمسلمين، إلّا أنّهم من جهة أخرى لهم شبه بالمشركين أيضا.

و لهذا فإنّ الإسلام لا يجيز قتلهم، مع أنّه يجيز قتل المشركين الذين يقفون بوجه المسلمين، لأنّ الخطة تقضى بقلع جذور الشرك و الوثنية من لكرة الأرضية، غير أنّ الإسلام يسمح بالعيش مع أهل الكتاب فى صورة ما لو احترم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۴

أهل الكتاب الإسلام، و لم يتآمروا ضده، أو يكون لهم إعلام مضاد.

و العلامة الأخرى لموافقتهم على الحياة المشتركة السلمية مع المسلمين هى أن يوافقوا على دفع الجزية للمسلمين، بأن يعطوا كل عام إلى الحكومة الاسلامية مبلغا قليلا من المال بحدود و شروط معينة سنتناولها فى البحوث المقبلة إن شاء اللّه.

و فى غير هذه الحال فإنّ الإسلام يصدر أمره بمقاتلتهم، و يوضح القرآن دليل شدة هذا الحكم فى جمل ثلاث فى الآية محل البحث: إذ تقول الآية أوّلا: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

لكن كيف لا ـ يؤمن أهل الكتاب- كاليهود و النصارى- باللّه و باليوم الآخر، مع أننا نراهم فى الظاهر يؤمنون باللّه و يقرون بالمعاد أيضا؟

و الجواب: لأنّ إيمانهم مزيج بالخرافات و الأوهام، أمّا فى مسألة الإيمان بالمبدأ و حقيقة التوحيد، فلأنّه:

أوّلا: يعتقد طائفة من اليهود- كما سنرى ذلك فى الآيات المقبلة- أن عزيرا ابن اللّه، كما يتعقد المسيحيون عامّة بألوهية المسيح و التثليث [اللّه و الابن و روح القدس .

و ثانيا: كما يشار إليه فى الآيات المقبلة، فانّ كلّا من اليهود و النصارى مشركون فى عبادتهم، و يعبدون أحبارهم- عمليّا- و يطلبون منهم العفو و الصفح عن الذنب، و هذا ممّا يختصّ به اللّه، مضافا إلى تحريف الأحكام الإلهية بصورة رسمية.

و أمّا إيمانهم بالمعاد فإيمان محرّف، لأنّ المعاد كما يستفاد من كلامهم منحصر بالمعاد الروحانى، فبناء على ذلك فإنّ إيمانهم بالمبدأ مخدوش، و إيمانهم بالمعاد كذلك.

ثمّ تشير الآية إلى الصفة الثّانية لأهل الكتاب، فتقول: وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۵

اللَّهُ وَ رَسُولُهُ

و من الممكن أن يكون المراد من كلمة «رسوله» نبيّهم موسى أو عيسى عليهما السّلام، لأنّهم لم يكونوا أوفياء لأحكام دينهم، و كانوا يرتكبون كثيرا من المحرمات الموجودة فى دين موسى أو عيسى، و لا يقتصرون على ذلك فحسب، بل كانوا يحكمون بحليتها أحيانا.

و يمكن أن يكون المراد من «رسوله» نبىّ الإسلام محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّما أمر المسلمون بمقاتلة اليهود و النصارى و جهادهم إيّاهم، لأنّهم لم يذعنوا لما حرّمه اللّه على يد نبيّه، و ارتكبوا جميع أنواع الذنوب.

و هذا الاحتمال يبدو أقرب للنظر، و الشاهد عليه الآية (۳۳) من هذه السورة ذاتها، و سنقف على تفسيرها قريبا، إذ تقول: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِ

أضف إلى ذلك حين ترد كلمة (رسوله) فى القرآن مطلقة فالمراد منها النّبى (محمّد) صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لو سلّمنا بأنّ المراد من (رسوله) هنا نبيّهم، فكان ينبغى أن تكون الكلمة (تثنية) أو جمعا، كما جاء فى الآية (۱۳) من سورة يونس وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ و نظير هذا التعبير فى القرآن ملحوظ و يمكن أن يقال: إنّ الآية فى هذه الصورة ستكون من باب تحصيل الحاصل أو توضيح الواضح، لأن من البديهى أن غير المسلمين لا يحرمون ما حرمه الإسلام.

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ المراد من هذه الصفات هو بيان علة جواز جهاد المسلمين اليهود و مقاتلتهم إيّاهم. أى يجوز أن تجاهدوا اليهود و النصارى- لأنّهم لا يحرمون ما حرم الإسلام ارتكبوا كثيرا من الآثام- إذا واجهوكم و خرجوا عن كونهم أقلية مسالمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۶

و تذكر الآية الصفة الثّالثة التى كانوا يتصفون بها فتقول: وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِ

و يوجد احتمالان فى هذه الجملة أيضا، إلّا أنّ الظاهر أنّ المراد من دين الحق هو دين الإسلام المشار إليه بعد بضع آيات.

و ذكر هذه الجملة بعد عدم اعتقادهم بالمحرمات الإسلامية، هو من قبيل ذكر العام بعد الخاص، أى أن الآية أشارت أوّلا إلى

ارتكابهم لمحرمات كثيرة، و هى محرّمات تلفت النظر كشرب الخمر و الربا و أكل لحم الخنزير، و ارتكاب كثير من الكبائر التى كانت تتسع يوما بعد يوم.

ثمّ تقول الآية: إن هؤلاء لا يدينون بدين الحق أساسا، أى أن أديانهم منحرفة عن مسيرها الأصيل، فنسوا كثيرا من الحقائق و التزموا بكثير من الخرافات مكانها، فعليهم أن يتقبلوا الإسلام، و أن يعيدوا بناء أفكارهم من جديد على ضوء الإسلام و هداه، أو يكونوا مسالمين- على الأقل- فيعيشوا مع المسلمين، و أن يقبلوا شروط الحياة السلمية مع المسلمين.

و بعد ذكر هذه الأوصاف الثلاثة، التى هى فى الحقيقة المسوغ لجهاد المسلمين لأهل الكتاب، تقول الآية مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ و كلمة «من» فى الآية بيانية لا تبعيضية، و بتعبير آخر: إنّ القرآن يريد أن يقول: إن أهل الكتاب السابقين- و للأسف- لا يدينون بدين الحق و انحرفوا عن المعتقدات الصحيحة، و هذا الحكم يشملهم جميعا.

ثمّ تبيّن الآية الفرق بين أهل الكتاب و المشركين فى مقاتلتهم، بالجملة التالية حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ

«و الجزية» مأخوذة من مادة الجزاء، و معناها المال المأخوذة من غير المسلمين الذين يعيشون فى ظلّ الحكومة الإسلامية، و هذه التسمية لأنّها جزاء حفظ أموالهم و أرواحهم (هذا ما يستفاد من كلام الراغب فى مفرداته فلا بأس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۷

بمراجعتها).

«و الصاغر» مأخوذ من «الصغر» على زنة «الكبر» و خلاف معناه، و معناه الراضى بالذلة. و المراد من الآية أن الجزية ينبغى أن تدفع فى حال من الخضوع للإسلام و القرآن.

و بتعبير آخر: هى علامة الحياة السلمية، و قبول كون الدافع للجزية من الأقلية المحفوظة و المحترمة بين الأكثرية الحاكمة.

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المراد من الجزية فى الآية هو تحقير أهل الكتاب و إهانتهم و السخر منهم، فلا يستفاد ذلك من المفهوم اللغوى لكلمة الآية، و لا ينسجم و روح تعاليم الإسلام السمحة، و لا ينطبق مع سائر التعاليم أو الدستور الذى وصلنا فى شأن معاملة الأقليات.

و ما ينبغى التنويه به هنا هو أنّ الآية و إن ذكرت شرط «الجزية» من بين شروط الذمة فحسب، إلّا أن التعبير ب هُمْ صاغِرُونَ إشارة إجمالية إلى سائر شروط الذمّة، لأنّه يستفاد من هذه الجملة بأنّهم- مثلا- يعيشون فى محيط إسلامى، فليس لهم أن يظاهروا أعداء الإسلام، و لا يكون لهم إعلام مضاد للإسلام، و لا يقفوا حجر عثرة فى رقيه و تقدمه، و ما إلى ذلك، لأنّ هذه الأمور تتنافى و روح الخضوع و التسليم للإسلام و التعاون مع المسلمين.

ما هى الجزية؟!

تعدّ الجزية ضريبة مالية «إسلامية» و هى تتعلق بالأفراد لا بالأموال و لا بالأراضى، أو بتعبير آخر: هى ضريبة مالية سنوية على الرؤوس.

و يعتقد بعضهم أنّها ليست من أصل عربى، بل هى فارسية قديمة و أصلها «كزيت» و معناها الأموال التى تؤخذ للدعم العسكرى، أو ما يصطلح عليه فى عصرنا ب «المجهود الحربى». لكن الكثير يعتقدون أن هذه الكلمة «الجزية»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۸

عربية خالصة.

و كما ذكرنا آنفا فهى مأخوذة من الجزاء، لأنّ الضريبة التى تدفع، إنّما هى جزاء الأمن الذى توفره الحكومة الإسلامية للأقليات المذهبية.

و الجزية، كانت قبل الإسلام، و يعتقد بعضهم أن أوّل من أخذ الجزية هو كسرى أنوشروان الملك الساسانى، و لو لم نسلّم بأنّه الأوّل فلا أقل من أن أنوشروان كان يأخذ من أبناء وطنه الجزية، و كان يأخذ ممن لم يكن موظفا فى الدولة و عمره أكثر من عشرين عاما و أقل من خميس عاما، مبلغا سنويا يتراوح بين ۱۲ و ۸ و ۶ و ۴ درهم، على أنّه ضريبة سنوية على كل فرد.

و ذكروا أن فلسفة هذه الضرائب أو حكمتها هى الدفاع عن موجودية الوطن و استقلاله و أمنه، و هى وظيفة عامّة على جميع الناس، فبناء على ذلك متى ما قام جماعة فعلا بالمحافظة على الوطن و لم يستطع الآخرون أن يجندوا أنفسهم للدفاع عن الوطن، لأنّهم يكتسبون و يتّجرون- مثلا- فإن على الجماعة الثّانية أن تقوم بمصارف المقاتلين فتدفع ضرائب سنوية للدولة.

و ما لدينا من القرائن يؤيد فلسفة الجزية ... سواء قبل الإسلام أو بعده.

فمسألة السنّ فى من يعطى الجزية فى عصر أنوشروان الذى ذكرناه آنفا «و هى أنّ الجزية تقع على من عمره عشرون عاما إلى خميس عاما» دليل واضح على هذا المطلب، لأنّ أصحاب هذه المرحلة، من العمر كانوا قادرين على حمل السلاح و المساهمة فى الحفاظ على أمن البلاد، إلّا أنّهم كانوا يدفعون الجزية لأعمالهم و كسبهم.

و الشاهد الآخر على ذلك أنّه لا تجب الجزية «فى الإسلام» على المسلمين، لأنّ الجهاد واجب عليهم جميعا، و عند الضرورة يجب على الجميع أن يتجهوا نحو ساحات القتال ليقفوا بوجه العدوّ، إلّا أنّه لما كانت الأقليات المذهبية فى حلّ من أمر الجهاد، فعليها أن تدفع المال مكان الجهاد، ليكون لهم نصيب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۸۹

الحفاظ على أمن الوطن الذى يتمتعون بالحياة فيه.

ثمّ إن سقوط الجزية عن الأطفال و الشيوخ و المقعدين و النساء و العمى، دليل آخر على هذا الموضوع.

ممّا ذكرناه يتّضح أن الجزية إعانة مالية فحسب، يقدمها أهل الكتاب إزاء ما يتحمله المسلمون من مسئولية فى الحفاظ عليهم و على أموالهم.

فبناء على ذلك فإنّ من يزعم أنّ الجزية نوع من أنواع حق التسخير، لم يلتفت إلى روحها و حكمتها و فلسفتها، و هى أن أهل الكتاب متى دخلوا فى أهل الذمة فإنّ الحكومة الإسلامية يجب عليها أن ترعاهم و تحافظ عليهم و تمنعهم من كل أذى أو سوء. و هكذا فإنّ أهل الذمة عند دفعهم الجزية، بالإضافة إلى التمتع بالحياة مع المسلمين فى راحة و أمان فليس عليهم أى تعهد من المساهمة فى القتال مع المسلمين و فى جميع الأمور الدفاعية- و يتّضح أن مسئوليتهم إزاء الحكومة الإسلامية أقل من المسلمين بمراتب.

أى أنّهم يتمتعون بجميع المزايا فى الحكومة الإسلامية بدفعهم مبلغا ضئيلا، و يكونون سواء هم و المسلمون. فى حين أنّهم لا يواجهون الأخطار و مشاكل الحرب.

و من الادلة التى تؤيد فلسفة هذا الموضوع، أنّه فى المعاهدات التى كانت- فى صدر الإسلام بين المسلمين و أهل الكتاب فى شأن الجزية، تصريح بأنّ على أهل الكتاب أن يدفعوا الجزية، و فى قبال ذلك على المسلمين أن يمنعوهم (أى يحفظوهم) و أن يدافعوا عنهم إذا داهمهم العدو الخارجى.

و هذه المعاهدات كثيرة، و نورد مثلا منها، و هى المعاهدة التى تمت بين خالد بن الوليد مع المسيحيين الذين كانوا يقطنون حول «الفرات»:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۵، ص: ۵۹۰

نص كتاب المعاهدة:

«هـذا کتاب من خالد بن الولید لصـلوبا بن نسـطونا و قومه، إنی عاهدتکم علی الجزیة و المنعة، فلک الذّمة و المنعة، و ما منعناکم فلنا الجزیة و إلّا فلا، کتب سنة اثنتی عشرة فی صفر»[۲۹۲].

و الـذی یسترعی النظر هو أننا نقرأ فی هـذه المعاهدة و أمثالها أنّه متی ما قصّـر المسـلمون فی الحفاظ علی أهل الذمة أو لم یمنعوهم، فالجزیة تعاد إلیهم أو لا تؤخذ منهم عندئذ أصلا.

و ینبغی الالتفـات إلی أنّ الجزیـة لیس لها مقـدار معین و میزانها بحسب اسـتطاعة من تجب علیهم، غیر أنّ المسـتفاد من التواریـخ أنّها عبارة عن مبلغ ضئل قد لا یتجاوز الدینار[۲۹۳] فی السـنة، و ربّما قید فی المعاهدة أن علی دافعی الجزیة أن یدفعوا بمقدار استطاعتهم جزیة.

و من جمیع ما تقـدم ذکره یتّضـح أنّ جمیع ما أثیر من شـبهات أو إشـکالات فی هذا الصدد، باطل لا اعتبار له، و یثبت أن هذا الحکم الإسلامی حکم عادل و منصف.

---

[۱] (۱) المنار، ج ۸، ص ۳۵۹.

[۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثانی، ص ۴- ۵، مادة لبس.

[۳] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، الجزء ۱۱، الصفحة ۳۱۸.

[۴] (۱)- راجع سورة البقرة، ۲۶۸ و ۲۶۹.

[۵] (۱)- سورة سبأ، ۸.

[۶] (۱) جملـة« فریقـا هـدی» من حیث الإعراب و الترکیب تکون کالتالی: فریقا مفعول هـدی فعل و فاعل مؤخرین، و فریقا(الثّانیـة) مفعول مقدم.

و أضل فعل و فاعل مؤخران مقدران دل علیهما جملة« حق علیهم الضلالة».

[۷] (۱) للاطلاع علی هذه الرّوایات راجع تفسیر البرهان المجلد ۲، الصفحة الثّانیة ۹ و ۱۰ و تفسیر نور الثقلین المجلد الثّانی الصفحة ۱۸ و ۱۹.

[۸] (۲) المصدر السابق.

[۹] (۱) الوسائل، المجلد الثالث، أبواب أحکام الملابس.

[۱۰] (۲) الوسائل، أبواب أحکام الملابس الباب ۷، ح ۳.

[۱۱] (۱) الوسائل، ج ۳، أبواب الملابس الباب ۷، ح ۱۱.

[۱۲] (۱) مجمع البیان، المجلد ۴، ص ۴۱۳.

[۱۳] (۱) التبیان عند تفسیر الآیة المبحوثة، و تاج العروس مادة« إثم».

[۱۴] (۱) عیون أخبار الرضا علیه السلام، طبقا لروایة تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۲۶.

[۱۵] (۱) القصص، ۲۳.

[۱۶] (۲) آل عمران، ۱۰۴.

[۱۷] (۳) الأعراف، ۱۶۴.

[۱۸] (۴) الأعراف، ۱۶۰.

[۱۹] (۱)« أمّا» مرکبة فی الأصل من« أن»، و« ما» و« إن» حرف شرط و« ما» حرف للتأکید.

[۲۰] (۱) لمزید من التوضیح راجع تفسیر الآیة(۲۱) من سورة الأنعام.

[۲۱] (۱) التعبیر بالأخت کنایة عن الارتباط الفکری و الصلة الروحیة بین هذه الفرق المنحرفة، و حیث أن الأمة مؤنث لفظی، لهذا عبر عنها بالأخت، لا الأخ.

[۲۲] (۱) وسائل الشیعة، ج ۱۷، ص ۱۸۲، ۱۷

[۲۳] (۱) مجمع البیان فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۲۴] (۱) راجع« تاج العروس»، و« القاموس» مادة الجمل.

[۲۵] (۱) المهاد جمع مهد و زان عهد أی الفرش، و الغواش فی الأصل غواشی جمع غاشیة بمعنی کل نوع من أنواع الغطاء، کما أنّه یطلق علی الخیمة أیضا، و فی الآیة الحاضرة یمکن أن یکون بمعنی الخیمة أو بمعنی الغطاء.

[۲۶] (۱) ینبغی أن لا ـ یتصور أحد بأنّ معنی الجملة المعترضة هو أنّ مفادها أجنبی و غریب من الموضوع المعترض، بل لا بدّ أنّ هناک ارتباطا ما بینها و بین ما قبلها و ما بعدها، و إن کانت من حیث الترکیب توسطت کلاما متصلا، و علی هذا الأساس فإنّ الجملة المعترضة معترضة من حیث الترکیب اللفظی، لا من حیث المعنی.

[۲۷] (۱) للمزید من التوضیح راجع الآیة(۱۶۱) من سورة آل عمران.

[۲۸] (۲) تفسیر المنار، المجلد ۸، الصفحة ۴۲۱.

[۲۹] (۱) نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۳۱، و تفسیر القرطبی، المجلد الرّابع، الصفحة ۲۶۴۵، و تفاسیر أخری.

[۳۰] (۱) یبغونها عوجا بمعنی یطلبونها عوجا، أی أنّهم یرغبون و یجتهدون فی أن یضلوا الناس بإلقاء الشبهات و الدعایات المسمومة عن الطریق المستقیم. کما أنّ الراغب قال فی« المفردات» عوج(بفتح العین) یعنی الاعوجاج الحسی، و عوج بکسر العین یطلق علی الاعوجاجات التی تدرک بالفکر و العقل، و لکن هذا التفصیل لا ینسجم مع ظاهر طائفة من الآیات القرآنیة مثل الآیة(۱۰۷) من سورة طه(فتأمل بدقّة).

[۳۱] (۱) مجمع البیان عند الآیة المطروحة هنا.

[۳۲] (۲) تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۱۷.

[۳۳] (۱) التوبة، ۳.

[۳۴] (۲) تفسیر المنار، ج ۸، ص ۴۲۶.

[۳۵] (۱) روح المعانی، ج ۸، ص ۱۲۳.

[۳۶] (۱)« تلقاء» فی الأصل- حسب قول بعض المفسّرین و أهل الأدب- مصدر، و هو بمعنی المقابلة، و لکن استعمل فیما بعد فی معنی ظرف المکان، أی فی المکان المقابل و المحاذی.

[۳۷] (۱) تفسیر البرهان، المجلد الثانی، الصفحة ۱۷ و ۱۸ و ۱۹.

[۳۸] (۲) المصدر السابق.

[۳۹] (۳) المصدر السابق.

[۴۰] (۴) نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۳۳ و ۳۴.

[۴۱] (۵) تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۱۷.

[۴۲] (۱) تفسیر الطبری، المجلد ۷، الصفحة ۱۳۷ و ۱۳۸ عند تفسیر الآیة.

[۴۳] (۱) تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۱۹ و ۲۰.

[۴۴] (۲) تفسیر الطبری، ج ۸ الصفحة، ۱۴۲ و ۱۴۳.

[۴۵] (۱) و هی: الآیة المبحوثة هنا، و ۳ یونس، و ۷ هود، و ۵۹ الفرقان و ۴ السجدة و ۳۸ ق، و ۴ الحدید.

[۴۶] (۱) البقرة، ۲۵۹.

[۴۷] (۲) النمل، ۲۸

[۴۸] (۳) الأنعام، ۱۴۱.

[۴۹] (۱) سورة یس، ۸۲.

[۵۰] (۱) مجمع البیان، المجلد الرابع، الصفحة ۴۲۹.

[۵۱] (۱) مجمع البیان، المجلد الرابع، الصفحة ۴۲۹.

[۵۲] (۱) النّکد: هو البخیل الممسک الذی یتعذر أخذ شیء منه بسهولة، و لو أنّه أعطی لأعطی الشیء الیسیر الحقیر. و لقد شبهت الأراضی المالحة السبخة غیر المساعدة للزرع بمثل هذا الشخص.

[۵۳] (۱) کلمة عظیم فی الآیة أعلاه صفة« لیوم» لا للعذاب.

[۵۴] (۱)« عمین» جمع عمی، و هو یطلق عادة علی من تعطلت بصیرته الباطنیة، و لکن الأعمی یطلق علی من فقد بصره الظاهری، و کذلک یطلق علی من فقد بصیرته الباطنیة أیضا(و عمی حینما یدخل علیها الإعراب تتبدل إلی عم).

[۵۵] (۱) قال الطبرسی فی المجمع: الناقة أصلها من التوطئة و التذلیل بعیر منوق أی مذلل موطأ، و لعل إطلاقها علی أثنی الإبل لکونها أکثر ذلولا للامتطاء و الرکوب.

[۵۶] (۱)« تعثوا» مشتقة من مادة« عثی» معنی إیجاد الفساد، غایة ما هنالک أنّ هذه المادة تستعمل فی الأغلب فی المفاسد الأخلاقیة و المعنویة، فی حین تطلق مادة« عبث» علی المفاسد الحسیة، و بناء علی هذا یکون کلمة« المفسدین» بعد جملة« لا تعثوا» لغرض التأکید، لأنّ کلیهما یعطیان معنی واحدا.

[۵۷] (۱) المراد من العقر هو قطع عصب خاص خلف رجل الناقة أو الفرس هو سبب حرکتها، فإذا قطع سقط الحیوان، و فقد القدرة علی الحرکة، و التنقل.

[۵۸] (۱) شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید، ج ۱، ص ۲۴۸.

[۵۹] (۱) یقال« الغابر» لمن ذهب أهله و فنوا و بقی وحده، کما ذهبت عائلة لوط معه، و بقیت زوجته وحدها معه، و أصیبت بما أصیب به العصاة.

[۶۰] (۱) البخس یعنی نقص حقوق الأشخاص، و النّزول عن الحد بصورة توجب الظلم و الحیف.

[۶۱] (۱) إنّ فی هذه الجملة حذفا و تقدیرا، فالکلام فی الأصل علی هذه الصورة:« أ تردوننا فی ملتکم و لو کنّا کارهین».

[۶۲] (۱) تفسیر منهج الصادقین.

[۶۳] (۱)« یغنوا» مشقة من مادة« غنی» بمعنی« الإقامة فی المکان» یقول الطبرسی فی مجمع البیان: لا یبعد أن یکون المفهوم الأصلی للغنی هو عدم الحاجة، لأنّ من کان عنده منزل حاضر، فهو مستغن عن منزل آخر.

[۶۴] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، الجملة ۳۷۷.

[۶۵] (۱)« نقصّ» من مادة« قص» و قد مر شرحها فی ذیل الآیة ۷.

[۶۶] (۱) صحیح أنّ هذه السورة نزلت فی مکّة، و لم تکن مکّة مرکز تجمع الیهود، و لکن من دون شک کان لحضور فی المدینة و سائر نقاط الحجاز أثر واسع فی المجتمع المکّی.

[۶۷] (۱) احتمل« الراغب» فی« المفردات» أن تکون کلمـة ثعبان متخـذة من مادة« ثعب» بمعنی جریان الماء، لأنّ حرکـة هذا الحیوان تشبه الأنهر التی تجری بصورة ملتویة.

[۶۸] (۱) الخطبة، ۴.

[۶۹] (۱) التّفسیر نور الثقلین، المجلد الثانی، الصفحة ۵۶.

[۷۰] (۱) ذکر« حسـنة» محلاـة بالألف و اللام و« إذا» و ذکر« سـیئة» مع(إن) بصورة النکرة إشارة إلی النعم کانت تنزل علیهم بصورة متتابعة، بینما کانت البلایا تنزل أحیانا.

[۷۱] (۱) المیزان، المجلد ۱۹، الصحفة ۸۶.

[۷۲] (۲) سفینة البحار، المجلد الثانی، الصفحة ۱۰۲.

[۷۳] (۳) مثل سورة« یس» الآیة(۱۹)، و سورة النمل الآیة(۴۷)، و الآیة المطروحة علی بساط البحث هنا.

[۷۴] (۴) المیزان فی ذیل الآیة المبحوثة هنا.

[۷۵] (۵) المیزان، فی ذیل الآیة المبحوثة هنا.

[۷۶] (۱) الضّفادع جمع ضفدعة و قد جاء ذکر هذا البلاء فی الآیة بصورة الجمع، و لکن البلایا السابقة جاءت فی صورة المفرد. و لعل هذا یفید أن اللّه سلّط علیهم أنواعا مختلفة من الضفادع.

[۷۷] (۱) النکث علی وزن مکث، یعنی فل الحبل المفتول، ثمّ أطلق علی نقض المیثاق و العهد.

[۷۸] (۲) یستفاد من مصادر اللغـة، و کتب الأحادیث أن المراد من الیم هو« البحر»، و هو یطلق علی نهر النیل أیضا، أمّا أن لفظـة الیم هـل هی عربیـة أو سـریانیة أو هیرغلوفیـة، فقـد وقع فی ذلـک کلاـم بین العلمـاء، یقول صـاحب تفسـیر المنـار و هو أحـد علماء مصـر المعروفین و الـذی جمع وجوه اشتراک اللغات الهیروغلوفیـة و العربیـة و ألف کتاب المعجم الکبیر فی هـذا المجال نقل: أنه وجد بعد التحقیق أن لفظة الیم کانت فی اللغة المصریة تعنی البحر، و علی هذا الأساس حیث أن هذه القصة تتعلق بمصر لهذا استفاد القرآن من لغات المصریین فی بیان هذه الحادثة.

[۷۹] (۱) مرّت أبحاث أخری حول تاریخ الوثنیة فی تفسیر الآیة(۲۵۸) سورة البقرة.

[۸۰] (۱) تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۳۳- نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۶۱.

[۸۱] (۱) صحیح البخاری، الجزء السّادس، الصفحة ۳، طبعة دار إحیاء التراث العربی.

[۸۲] (۲) صحیح مسلم، المجلد الرّابع، الصفحة ۱۸۷، طبعة دار إحیاء التراث العربی.

[۸۳] (۱) المجلد الأوّل، الصفحة ۴۳، طبعة دار إحیاء الکتب العربیة.

[۸۴] (۲) المجلد الخامس، الصفحة ۶۳۸، طبعة المکتبة الإسلامیة لصاحبها الحاج ریاض الشیخ.

[۸۵] (۳) مسند أحمد بن حنبل، المجلد الأول، الصفحة ۱۷۳ و ۱۷۵ و ۱۷۷ و ۱۷۹ و ۱۸۳ و ۱۸۵ و ۲۳۱، و المجلد السّادس، الصفحة ۳۶۹ و ۴۳۸.

[۸۶] (۴) مسند أحمد، المجلد الأوّل، الصفحة ۲۳۱.

[۸۷] (۵) خصائص النسائی، ص ۴ و ۱۴.

[۸۸] (۶) المجلد الثالث، الصفحة ۱۰۸ و ۱۰۹.

[۸۹] (۷) المجلد الأوّل، الصفحة ۶۵.

[۹۰] (۸) الصفحة ۱۷۷.

[۹۱] (۱) السیرة النبویة، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۶۳ طبعة مصر.

[۹۲] (۲) السیرة الحلبیة، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۵۱ طبعة مصر.

[۹۳] (۳) ذخائر العقبی، الصفحة ۷۹، طبعة مکتبة القدس، الصواعق المحرقة، ص ۱۷۷، طبعة مکتبة القاهرة.

[۹۴] (۴) تاریخ بغداد، المجلد السابع، الصفحة ۴۵۲ طبعة السعادة.

[۹۵] (۱) کنز العمال، الحدیث ۹۱۸، المجلد الخامس، الصفحة ۴۰، و المجلد السّادس، الصفحة ۳۹۰.

[۹۶] (۲) منتخب کنز العمال،(فی حاشیة مسند أحمد)، المجلد الخامس، من مسند أحمد، الصفحة ۳۱.

[۹۷] (۳) کنز العمال، المجلد السّادس، الصفحة ۱۶۴.

[۹۸] (۱) کنز العمال، المجلد السّادس، الصفحة ۳۹۵.

[۹۹] (۲) خصائص النسائی، الصفحة ۱۹.

[۱۰۰] (۳) ینابیع المودة، آخر باب ۱۷، الصفحة ۸۸ الطبعة الثّانیة دار الکتب العراقیة.

[۱۰۱] (۱) سورة طه، ۲۹ الی ۳۲.

[۱۰۲] (۱)« دک» فی الأصل بمعنی سوّی الأرض، و علی هـذا فالمقصود من عبارة« جعله دکّا» هو أنّه حطم الجبال و سواها کالأرض و جاء فی بعض الرّوایات أنّ الجبل تناثر أقساما، سقط کلّ قسم منه فی جانب أو غار فی الأرض نهائیا.

[۱۰۳] (۱) تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۶۵.

[۱۰۴] (۱) الصاعقة عبارة عن التبادل الکهربائی بین قطع الغیوم و الکرة الأرضـیة، فالسـحب ذات الکهربیة الموجبة عند ما تقترب إلی الأرض ذات الکهربیة السـلبیة تندلع شـرارة من بینهما یعنی السـطح المجاور من الکرة الأرضیة، و هی خطرة مدمرة فی الغالب، و لکن البرق و الرعد ینشآن من التبادل الکهربائی بین قطعتین من السـحاب أحدهما موجب، و الآخر سـلبی، و حیث أنّهما یحدثان فی السماء لذلک لا یشکلان خطرا فی العادة إلّا للطائرات. و السفن الفضائیة.

[۱۰۵] (۱) ملخص من تفسیر المیزان، المجلد الثامن، الصفحة ۲۴۹ إلی ۲۵۴.

[۱۰۶] (۲) فهو مخالف لمفهوم الرؤیة، و لإطلاق جملة« لن ترانی» و جملة« أ تهلکنا بما فعل السفهاء منّا» هذا بغض النظر عن أن طلب الشهود الباطنی لیس أمرا سیئا لیتوب منه موسی، فقد طلب إبراهیم من اللّه مثل هذا المطلب فی مجال المعاد أیضا و لبی اللّه طلبه.

و لو أن الجواب فی مجال الشهود الباطنی للّه بالنفی لما کان دلیلا علی المؤاخذة و العقاب.

[۱۰۷] (۱) تفسیر التبیان، المجلد الرّابع، الصفحة ۵۳۹.

[۱۰۸] (۱) للوقوف علی هذه الرّوایات یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۶۸.

[۱۰۹] (۲) و یحتمل أیضا أن الضـمیر فی« أحسنها» یرجع إلی« القوة» أو« الأخذ بقوة» و هو إشارة إلی أن علیهم أن یأخذوا بها بأفضل أنواع الجدیة و القوة و الحرص.

[۱۱۰] (۱) تفسیر المنار المجلد التاسع الصفحة ۱۹۳.

[۱۱۱] (۱) راجع الآیات(۸) من سورة الأنبیاء، و(۳۴) من سورة ص.

[۱۱۲] (۱) راجع تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة المبحوثة هنا.

[۱۱۳] (۱)« الأسف» کما یقول الراغب فی« المفردات» بمعنی الحزن المقرون بالغضب، و هـذه الکلمـة قد تسـتعمل فی أحد المعنیین أیضـا. و تعنی فی الأصل أن ینزعـج الإنسان من شـیء بشـدة، و من الطبیعی أن هـذا الانزعاج إذا کان بسـبب من هو دونه ظهر مقرونا بالغضب، و بردة فعل غاضـبة، و إذا کان ممن هو فوقه ممن لا یسـتطیع مقاومته ظهر من صورة الحزن المجرّد، و قد نقل عن ابن عباس أیضا أن للحزن و الغضب أصل واحد و إن اختلفا لفظا.

[۱۱۴] (۲) سورة طه، ۸۵.

[۱۱۵] (۱) سورة طه: ۹۲- ۹۳.

[۱۱۶] (۱) فیکون التقدیر فی الآیة الحقیقة هکذا:« قال اللّه لموسی أن الذین ...».

[۱۱۷] (۱) تفسیر المنار، المجلد التاسع، الصفحة ۲۲۱، و قد نقل هذا المعنی عن ابن الأعرابی.

[۱۱۸] (۲) تفسیر أبو الفتوح، المجلد الخامس، الصفحة ۳۰۰، فی تفسیر الآیة الحاضرة.

[۱۱۹] (۱) مجمع البیان فی تفسیر هذه الآیة.

[۱۲۰] (۱) للاطلاع علی هذه الرّوایات راجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّانی، الصفحة ۷۸ و ۷۹، و تفسیر روح المعانی، المجلد التّاسع، الصفحة ۷۰، فی تفسیر الآیة الحاضرة.

[۱۲۱] (۱)« الإصر» یعنی فی الأصل عقد الشیء و حبسه، و یطلق علی کل عمل یمنع الإنسان من الفعالیة و الحرکة، و یطلق علی العهد و المیثاق أو العقوبات، لفظ الإصر، لأنّ هذه الأمور تحدّ من حرکة الإنسان.

[۱۲۲] (۱) فتوح البلدان، للبلاذری، ط مصر، الصفحة ۴۵۹.

[۱۲۳] (۱) تفسیر البرهان المجلد الخامس، الصفحة ۳۷۳ ذیل آیات سورة الجمعة.

[۱۲۴] (۱) کل النصوص المنقولة هنا مقتبسة من کتاب العهد القدیم و الجدید طباعة و إصدار دار الکتاب المقدس فی العالم العربی عام ۱۹۷۹.

[۱۲۵] (۱) عن المجالس حسب نقل تفسیر الصافی، ج ۱، فی ذیل هذه الآیة.

[۱۲۶] (۱) التعبیر ب« أمّة منهم» یکشف عن أن الفریق الثّانی کانوا أقلّ من العصاة، لأنّه عبّر عنهم بلفظة« قوما» بدون کلمة منهم) و تقرأ فی بعض الآیات أنّ عدد نفوس هذه المدینة کان ثمانین ألف و بضعة آلاف، و قد ارتکب ۷۰ ألفا منهم هذه المعصیة(راجع تفسیر البرهان، المجلد الثّانی، الصفحة ۴۲).

[۱۲۷] (۱) بئیس مشتقة من مادة« بأس» یعنی الشدید.

[۱۲۸] (۲)« عتوا» من مادة عتّو علی وزن« غلوّ» بمعنی الامتناع عن طاعة أمر، و ما ذکره بعض المفسّرین من تفسیره بمعنی الامتناع فقط یخالف ما قاله أرباب اللغة.

[۱۲۹] (۳) سورة یس، ۲۸.

[۱۳۰] (۱) تفسیر البرهان، المجلد ۲، الصفحة ۲۲، و قد روی هذا الکلام عن ابن عباس فی تفسیر مجمع البیان فی ذیل الآیة.

[۱۳۱] (۱) و إذا کان یستفاد من بعض الرّوایات خلاف هذا الموضوع، فإنّه مضافا إلی أنّه لا یمکن الاعتماد علیه فی مقابل ظاهر الآیات فإنّما ضعیفة من حیث السند أیضا، و یحتمل أن یکون الراوی قد أخطأ فی نقل الروایة.

[۱۳۲] (۱) لقد جمع أحد الکتّاب المعاصرین نماذج کثیرة- من مصادر موثوقة- لأشخاص من البشر أو حیوانات استثنائیّة، ملفتة للنظر و مثیرة للعجب، و من جملة ذلک: إنسان یستطیع قراءة السطور بأصابعه، أو امرأة وضعت مرتین فی خلال شهرین، و فی کل مرة ولدت ولدا، أو طفلا کان قلبه خارج صدره، أو امرأة لم تکن تعرف أنّها حامل حتی لحظة وضعها لولیدها، و ما شابه ذلک.

[۱۳۳] (۱) کان النبیذ عبارة عن وضع مقدار من التمر أو الشعیر أو الزبیب فی الماء، عدّة أیّام، ثمّ شربه و هذا و إن لم یکن حراما شرعا، و لکنّه علی أثر سخونة الهواء تتبدل المواد السکریة فیه إلی مواد کحولیة خفیفة.

[۱۳۴] (۱) مجمع البیان، و تفسیر ابن الفتوح الرازی، فی ذیل الآیة الحاضرة.

[۱۳۵] (۲) یجب الانتباه، إلی أن« عرض» علی وزن« غرض» یختلف عن« عرض» علی وزن(فرض) فالأول بمعنی کل رأس مال دنیوی، و الثانی بمعنی المال النقدی.

[۱۳۶] (۱) یقال ذرأ فلان الحنطة ذروأ أو ذرّاها تذریة، أی نقّاها من الشوائب.

[۱۳۷] (۱) الروم، ۳۰.

[۱۳۸] (۱) تبع و اتبع بمعنی لحق أو أدرک.

[۱۳۹] (۱) فی التوراة الحالیة نجد ورود قضیة« بلعم بن باعوراء» أیضا، إلّا أنّ التوراة تبرئه فی النهایة من الانحراف، یراجع بذلک سفر الأعداد الباب ۲۲.

[۱۴۰] (۱) الکهف، ۴۵.

[۱۴۱] (۲) سورة الذاریات: ۵۶.

[۱۴۲] (۱) نهج البلاغة، من کتاب له و ۲۴ رقم ۴۵.

[۱۴۳] (۱) تفسیر المیزان، و مجمع البیان، و نور الثقلین، ذیل الآیة.

[۱۴۴] (۲) تفسیر المیزان، و مجمع البیان، و نور الثقلین.

[۱۴۵] (۳) المصدر السابق.

[۱۴۶] (۱) المصدر السابق.

[۱۴۷] (۱) المیزان، ج ۸، ص ۳۷۶، نقلا عن التوحید للصدوق.

[۱۴۸] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۳.

[۱۴۹] (۱) تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۵، ص ۶۶.

[۱۵۰] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۵.

[۱۵۱] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۳.

[۱۵۲] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۴- ۱۰۵.

[۱۵۳] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۱۵۴] (۱) المصدر السابق.

[۱۵۵] (۲) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۱۵۶] (۳) المصدر السابق.

[۱۵۷] (۴) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۳.

[۱۵۸] (۱)« الجنّة» کما یذهب إلیه أصحاب اللغة معناها الجنون، و معناها فی الأصل: الحائل و المانع فکأنما یلقی علی العقل حائل عند الجنون.

[۱۵۹] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۴.

[۱۶۰] (۲) یری بعض المفسّرین کالمرحوم الطبرسی أن سبب النّزول هو فی جماعة من الیهود الذین جاءوا النّبی و سألوه عن یوم القیامة، إلّا أنّه لمّا کانت السورة نازلة فی مکّة، و لم یکن بین النّبی و الیهود فیها خصام و جدال، فهذا الموضوع مستبعد جدّا.

[۱۶۱] (۱) قال بعض المفسّرین أنّ المراد من هذه الجملة هو أن معرفة القیامة أو علمها ثقیل علی أهل الأرض و السماوات، إلّا أنّ الحقّ هو التّفسیر المذکور آنفا« فی المتن» لأنّ القول بحذف کلمتی العلم و الأهل خلاف ظاهر الآیة.

[۱۶۲] (۲) الحفی فی الأصل هو من یسأل عن الشیء بتتابع و إصرار، و لما کان الإصرار فی السؤال باعثا علی زیادة العلم، فقد تستعمل هذه اللفظة علی العالم کما هی هنا أیضا.

[۱۶۳] (۱) فی الحقیقة أن هناک حذفا فی الآیة تقدیره« لا أعلم الغیب» و الجملة التی بعدها شاهدة علی ذلک.

[۱۶۴] (۱) تغشاها فعل یلیه ضمیر التأنیث و هو غشی، و معناه غطّی، و هذه الجملة کنایة لطیفة عن المقاربة الجنسیة و المضاجعة.

[۱۶۵] (۱) یری بعض المفسّرین أن بدایة الآیة یتعلق بآدم و حواء، و ذیل الآیة تتعلق بأبناء آدم و حواء، و هذا تکلّف، لأنّه یحتاج إلی حذف و تقدیر، و هو لا ینسجم و ظاهر الآیة.

[۱۶۶] (۱) مسند بن حنبل، وفقا لما وراه تفسیر المنار، ج ۹، ص ۵۲۲.

[۱۶۷] (۱) یبطشون فعل مشتق من« البطش» علی زنة« العرش» و معناه الاستیلاء بالشدّة و الصولة و القدرة! ...

[۱۶۸] (۱) لمزید من التوضیح یراجع الجزء الثّانی من التّفسیر الأمثل فی هذا الصدد.

[۱۶۹] (۲) آل عمران، ۱۵۹.

[۱۷۰] (۱) ینزغ مأخوذ من مادة« النزغ» علی زنة« النزع» و معناه الدخول فی الأمر لإفساده أو الإثارة ضده! ...

[۱۷۱] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۷۲] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة محل البحث.

[۱۷۳] (۲) روی ذلک صاحب المنار قائلا: روی عن جدنا الإمام الصادق رضی اللّه عنه فی ج ۹، ص ۵۳۸.

[۱۷۴] (۱) الاجتباء مأخوذ من الجبایة، و أصلها جمع الماء فی الحوض و نحوه، و لذلک یسمّی حوض الماء ب« الجابیة، و جمع الخراج یسمّی جبایة أیضا. ثمّ توسعوا فی الاستعمال فأطلقوا علی جمع الأشیاء و انتخابها و اختیار ما یراد منها اجتباء. فجملة« لولا اجتبیتها» تعنی لو لا اخترتها.

[۱۷۵] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۷.

[۱۷۶] (۲) تفسیر البرهان.

[۱۷۷] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۵۷.

[۱۷۸] (۲) کنز العرفان، ج ۱، ص ۱۹۵.

[۱۷۹] (۱) التضرّع مأخوذ من الضرع و هو الثدی، و الفعل تضرع یطلق علی من یتحلب اللبن بأصابعه، ثمّ توسع فی هذا الاستعمال فأطلق علی إظهار الخضوع و التواضع.

[۱۸۰] (۱) تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۸۱] (۱) کنز العرفان، ج ۱، ص ۲۵۴.

[۱۸۲] (۲) المصدر السابق.

[۱۸۳] (۱) نهج البلاغة.

[۱۸۴] (۲) الحدیثان ۱ و ۲ من أصول الکافی باب إصلاح بین الناس.

[۱۸۵] (۳) المصدر السابق.

[۱۸۶] (۴) المصدر السابق.

[۱۸۷] (۱) الحشر، ۲۱.

[۱۸۸] (۲) فاطر، ۲۸.

[۱۸۹] (۱) لمزید من الإیضاح یراجع تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۲۱ إلی ۱۳۶ و مجمع البیان ج ۴، ص ۵۲۱، ۵۲۳، و ما ذکرناه بتصرف و اختصار.

[۱۹۰] (۱) الدابر بمعنی ذیل الشیء و عقبه، فبناء علی هذا یکون معنی« و یقطع دابر الکافرین» هو استئصال جذورهم.

[۱۹۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۱۹۲] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۸.

[۱۹۳] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۹.

[۱۹۴] (۲) راجع نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۴۰.

[۱۹۵] (۱) فی الحقیقة أن هذا الکلمة إشارة إلی جملة مقدرة هی« ذلکم الذی سمعتم هو حال المؤمنین و الکافرین ...».

[۱۹۶] (۱) هذه الجملة فی الحقیقة« ذلکم الذی سمعتم هو حال المؤمنین و الکافرین».

[۱۹۷] (۲) مجمع البیان و تفاسیر أخری.

[۱۹۸] (۱)« ... صم» جمع« الأصم» و هو الذی لا یسمع و« البکم» جمع« الأبکم» و هو فاقد النطق.

[۱۹۹] (۱) و بحسب اصطلاح المنطق أنّ الحدّ الوسط غیر موجود فی القیاس آنفا، لأنّ الجملة الأولی هی(لأسمعهم حال کونهم یعلم فیهم خیرا). و الجملة الثّانیة(لأسمعهم حال کونه لا یعلم فیهم فهما) و النتیجة أنّ الحدّ الوسط المشترک غیر موجود بین الجملتین لتمکین تألیف القیاس منهما، لأنّ الجملتین مختلفتان و منفصلتان(فتأمل).

[۲۰۰] (۱) سورة فصلت، الآیة ۲۶.

[۲۰۱] (۱) الحدید، ۱۷.

[۲۰۲] (۲) فصلت، ۳۹.

[۲۰۳] (۳) الأنعام، ۲۲.

[۲۰۴] (۴) الفجر، ۲۴.

[۲۰۵] (۱) تفسیر المنار، الجزء ۹، ص ۶۳۸.

[۲۰۶] (۲) فقد جری الحدیث بین المفسّرین حول کلمة« لا تصیبنّ» فی أنّها هل هی صیغة نفی أو نهی، فالذین قالوا بالنهی و فسّروها بمعنی اتّقوا الفتن لأنّها لا تصیب الظالمین وحدهم، و قال بعض: إنّها صیغة نفی و لکن لما یعتقده علماء العربیة بأنّ نون التوکید لا تظهر فی النهی و جواب القسم، فقد اعتبروا الجملة جوابا لقسم مقدر.

[۲۰۷] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۴۳.

[۲۰۸] (۱)« تخونوا) فی الأصل(لا تخونوا) و قد حذفت(لا) بقرینة الجملة السابقة.

[۲۰۹] (۱) الدر المنثور وفقا لما نقل عنه صاحب المنار، و مجمع البیان ذیل الآیة.

[۲۱۰] (۱) الملاحظة اللطیفة هنا هو أنّ کتابة هذا التّفسیر کانت فی الاجزاء السابقة تسیر مسیرا بطیئا، و لکن بما أن راقم هذه السّطور حین کتابة هذا الجزء من التّفسیر کان قد نفی من قبل حکومة الطاغوت إلی مدینة« مهاباد» و« أنارک» فإنّ کتابة هذا التّفسیر قد سارعت الخطی بحیث إنّنی أکملت تمام هذا الجزء فی ذلک المنفی.

[۲۱۱] (۱) راجع مجمع البیان، ج ۵، ص ۳۵۲ و تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۵۱.

[۲۱۲] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار.

[۲۱۳] (۱) صحیح مسلم وفقا لما نقله صاحب المنار فی تفسیره، ج ۹، ص ۶۶۵.

[۲۱۴] (۱) راجع مجمع البیان، ذیل الآیة، و تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۵۵، تفاسیر أخری.

[۲۱۵] (۱) یراجع کتاب وسائل الشیعة، ج ۶، باب الخمس.

[۲۱۶] (۱) وسائل الشیعة، ج ۶، باب الخمس، و مجمع البیان ذیل الآیة ...

[۲۱۷] (۱) راجع تفسیر القرطبی، ج ۴، ص ۲۸۰.

[۲۱۸] (۱) الفخر الرازی، ج ۱۵، ص ۱۶۴.

[۲۱۹] (۲) تفسیر المنار، ج ۱۰، ص ۷۰۳.

[۲۲۰] (۳) تفسیر روح المعانی: ج ۱۰، ص ۲.

[۲۲۱] (۴) تفسیر مجمع البیان، ج ۴، ص ۵۴۳.

[۲۲۲] (۱) المیزان، ج ۹، ص ۸۹.

[۲۲۳] (۱) إنّ حرمة أخذ بنی هاشم الزکاة مسلم بها و قد وردت فی أکثر کتب الحدیث و فتاوی العلماء و کتبهم الفقهیة، فهل یعقل بأنّ الإسلام قد فکّر فی شأن الفقراء و المحتاجین من غیر بنی هاشم و لم یعالج قضیة المحتاجین من بنی هاشم؟ فترکهم لحالهم.

[۲۲۴] (۱) و إذا لاحظنا أنّ فی بعض الرّوایات التعبیر ب« کرامة لهم من أوساخ الناس» فهو لیقنع بنی هاشم من هذه الحرمة من جانب، و لیفهم الناس أن یؤدوا الزّکاة إلی المحتاجین ما استطاعوا إلی ذلک سبیلا.

[۲۲۵] (۲) وسائل الشیعة، ج ۶، ص ۱۸۶.

[۲۲۶] (۱) نقل باختصار عن مجمع البیان و نور الثقلین، و سائر التفاسیر، ذیل الآیة.

[۲۲۷] (۱) البقرة، ۱۰.

[۲۲۸] (۱) الروم، ۴۷.

[۲۲۹] (۲) المنافقون، ۸.

[۲۳۰] (۳) الأنبیاء، ۱۰۵.

[۲۳۱] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۹۳.

[۲۳۲] (۱)« من» فی جملة« عاهدت منهم» إمّا للتبعیض فتعنی أنّک عاهدت سادتهم أو البارزین من یهود المدینة، أو أنّها للصلة فتکون معناها عاهدتهم ...

کما یرد هذا الاحتمال و هو أن معنی« عاهدت منهم» هو أخذت العهد منهم.

[۲۳۳] (۲) بالإضافة إلی ما ذکرنا فی المتن فهناک قرینة لفظیة تدل علی هذا المعنی أیضا و هی« فی کل مرّة» ...

[۲۳۴] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۶۴- ۱۶۵.

[۲۳۵] (۲) المصدر السابق.

[۲۳۶] (۳) المصدر السابق.

[۲۳۷] (۴) المصدر السّابق.

[۲۳۸] (۱) آل عمران، ۱۰۳.

[۲۳۹] (۲) تفسیر التبیان، ج ۵، ص ۱۵۲.

[۲۴۰] (۳) موسوعة الغدیر، ج ۲، ص ۵۱.

[۲۴۱] (۱) الإسراء، ۱۵.

[۲۴۲] (۱) تفسیر المنار، ج ۱۰، ص ۹۰- تفسیر روح المعانی، ج ۱۰، ص ۳۲- و تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۵، ص ۱۹۸.

[۲۴۳] (۱) راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۵.

[۲۴۴] (۲) راجع تفسیر علی بن إبراهیم وفقا لما جاء فی نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۳۶.

[۲۴۵] (۱) ورد فی الکامل لابن الأثیر، ج ۲، ص ۱۳۴ أنّه« فلمّا رآها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رقّ لها رقة شدیدة و قال:« إن رأیتم أن تطلقوا لها أسیرها؟ و تردوا علیها الذی لها فافعلوا»، فأطلقوا لها أسیرها و ردوا القلادة.

[۲۴۶] (۲) تفسیر المیزان، ج ۹، ص ۱۴۱.

[۲۴۷] (۱)- یراجع تفسیر نور الثقلین، و روضة الکافی، و تفسیر القرطبی، و تفسیر المنار، ذیل الآیة محل البحث.

[۲۴۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۶۸.

[۲۴۹] (۱) بحثنا موضوع الإرث بالولاء فی الجزء الثّالث بصورة مفصلة.

[۲۵۰] (۱)

\i\i جاء فی مجمع البیان عن الشیخ الطبرسی عن علی علیه السلام أنّه قال E« لم تنزل i بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ E علی رأس سورة« براءة» لأنّ بسم اللّه للأمان و الرحمة و نزلت براءة لرفع الأمان و السیف فیه\!».E

[۲۵۱] (۲)- قال الطبری نقلا عن الإمام الصادق علیه السلام« الأنفال و براءة واحدة!».

[۲۵۲] (۱) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۳۳۱، ط مصر.!

[۲۵۳] (۲) مسند أحمد بن حنبل، ج ۳، ص ۲۱۲.

[۲۵۴] (۳) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۱۵۰.

[۲۵۵] (۱) الخصائص ... للنسائی، ص ۲۸.

[۲۵۶] (۲) المصدر السّابق.

[۲۵۷] (۳) تفسیر ابن کثیر، ج ۲، ص ۳۲۲.

[۲۵۸] (۴) المصدر السابق.

[۲۵۹] (۵) المصدر السابق.

[۲۶۰] (۱) جامع الأصول، ج ۹، ص ۴۷۵.

[۲۶۱] (۲) ذخائر العقبی، ص ۶۹.

[۲۶۲] (۱)« سیحوا» فعل أمر مشتق من« السیاحة» و معناها الجولة الهادفة.

[۲۶۳] (۱) جملة و أذان إلخ. معطوفة علی جملة: براءة من اللّه. و هناک احتمالات أخری فی ترکیب الجملة« و نظمها»، غیر أن ما ذکرناه أکثر ظهورا کما یبدوا.

[۲۶۴] (۱)

\i\i جاء فی تفسیر نور الثقلین، عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال\:E« إنّما سمّی الأکبر لأنّها کانت سنة حج المسلمون و المشرکون و لم یحج المشرکون بعد تلک السنة.(ج ۲، ص ۱۸۴\)E

[۲۶۵] (۲) و

\i\i جاء فی التّفسیر المذکور آنفا عن الإمام الصّادق علیه السلام فی جوابه لبعض أصحابه\:E الأکبر هو یوم النحر و الأصغر العمرة(ج E

۲، ص ۱۸۶)

[۲۶۶] (۱) جاء فی بعض الرّوایات منع المشرکین من دخول المسجد.

[۲۶۷] (۲) تفسیر مجمع البیان، ج ۵، ذیل الآیة محل البحث.

[۲۶۸] (۳) تفسیر المنار، ج ۱۰، ذیل الآیة محل البحث.

[۲۶۹] (۱) الفعل« انسلخ» مأخوذ من الانسلاخ و معناه الخروج، و أصله من« سلخ الشاة» أی إخراج الشاة من جلدها عند الذبح.

[۲۷۰] (۲) المرصد مأخوذ من الرّصد و یعنی الطریق أو الکمین.

[۲۷۱] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۰۶ و تفسیر الفخر الرازی، ص ۲۲۶.

[۲۷۲] (۱) ورد فی تفسیر نور الثقلین، الجزء الثّانی منه ذیل الآیة محل البحث حدیث بهذا الشأن(فراجع إن شئت).

[۲۷۳] (۱) المفردات، ص ۲۰.

[۲۷۴] (۱) سورة البروج، الآية ۸.

[۲۷۵] (۱)« أم» حرف عطف و يعطف بها جملة استفهامية على جملة استفهامية أخرى، و لهذا فهى تعطى معنى الاستفهام، غاية ما فى الأمر أنّها تأتى بعد جملة استفهامية دائما، و فى الآية محل البحث عطفت على الجملة« ألا تقاتلون» التى بدئت بها الآية(۱۳).

[۲۷۶] (۱) ورد هذا الحديث فى كتاب وسائل الشيعة، الباب ۸ من أبواب أحكام المساجد كما ورد عن ابن عباس فى تفسير المنار، ج ۱، ص ۲۱۳.

[۲۷۷] (۲) كتاب المحاسن، ص ۵۷ حسب نقل كنز العرفان، ج ۱، ص ۱۰۸.

[۲۷۸] (۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات محل البحث.

[۲۷۹] (۲) لمزيد الإيضاح يراجع كتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۲۲- ۱۲۷.

[۲۸۰] (۱)« المرمضة» مشتقة من« الإرماض» أى شديدة الحر، و الأرض الرمضاء كذلك: شدية الحر.

[۲۸۱] (۱) تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۲۱۵.

[۲۸۲] (۲) سورة لقمان: الآية ۱۳.

[۲۸۳] (۱) لمزيد من الإيضاح يراجع تفسير الآيات ۹- ۱۲ من هذا الجزء نفسه.

[۲۸۴] (۱) راجع الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۲۶۱، نقلنا القصة بشىء من الاختصار.

[۲۸۵] (۱) مجمع البيان، ج ۵، ص ۱۷- ۱۹.

[۲۸۶] (۱) راجع تفسير المنار، و إقرار التفصيل فيه، ج ۱، الصفحات ۲۶۲ و ۲۶۳ و ۲۶۵.

[۲۸۷] (۲) المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۱۴.

[۲۸۹] (۲) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۰۱.

[۲۹۰] (۳) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۱۲.

[۲۹۱] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۷.

[۲۹۲] (۱) نقلا عن تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۲۹۴.

[۲۹۳] (۲) من المناسب أن أشير إلى أن المقصود بالدينار ليس هو الدينار المتعارف بينا كالدينار العراقى أو الدينار الأردنى أو الدينار الكويتى و هلّم جرا، بل هو الدينار الذهبى الذى يعادل مثقالا و نصف أو أدنى من ذلك بقليل.

الجزء السادس

[تتمة سورة التوبة]

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۳۰) اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ

عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳۱) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۳۲) هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۳۳)

التّفسير

شرك أهل الكتاب:

كان الكلام فى الآيات المتقدمة بعد الحديث عن المشركين و إلغاء عهودهم و ضرورة إزالة دينهم و معتقداتهم الوثنية يشير بعد ذلك إلى أهل الكتاب و قد حدد الإسلام لهم شروطا ليعيشوا بسلام مع المسلمين، فإنّ لم يفوا بها كان على المسلمين أن يقاتلوهم.

و فى الآيات محل البحث بيان لوجه الشبه بين أهل الكتاب و المشركين، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶

سيما اليهود و النصارى منهم، ليتّضح أنّه لو كان بعض التشدد فى معاملتهم، فإنّما هو لانحرافهم عن التوحيد، و ميلهم إلى نوع من الشرك فى العقيدة، و نوع من الشرك فى العبادة.

فتقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

بحوث

۱- من هو عزير؟!

«عزير» فى لغة العرب هو «عزرا» فى لغة اليهود، و لمّا كانت العرب تغيّر فى بعض الكلمات التى تردها من لغات أجنبية و تجرى على لسانها، و ذلك كما هى الحال فى إظهار المحبّة خاصّة فتصغر الكلمة، فصغرت عزرا إلى عزير، كما بدلت كلمة يسوع العبرية إلى عيسى فى العربية، و يوحنا إلى يحيى.[۱] و على كان حال، فإن عزيرا- أو عزرا- له مكانة خاصّة فى تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لأمّة اليهود بانى مجدهم و فى الواقع فإنّ له خدمة كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميرا فى واقعته المشهورة، و جعل مدنهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، و هدموا معابدهم، و أحرقوا توراتهم، و قتلوا رجالهم، و سبوا نساءهم، و أسروا أطفالهم، و جىء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالى قرن.

و لما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، و كان من أكابر اليهود، فاستشفعه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷

فى اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم و كتب لهم التّوراة- ممّا بقى فى ذهنه من أسلافه اليهود و ما كانوا قد حدّثوا به- من جديد.

و لذلك فهم يحترمونه أيما احترام، و يعدّونه منقذهم و محيى شريعتهم.[۲] و كان هذا الأمر سببا أن تلقبه جماعة منهم ب «ابن اللّه» غير أنّه يستفاد من بعض الرّوايات- كما فى الإحتجاج للطبرسى- أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراما له لا على نحو الحقيقة.

و لكنّنا نقرأ فى الرّواية ذاتها أنّ النّبى سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تجلّون عزيرا و تكرمونه لخدماته العظمى و تطلقون عليه هذا الاسم، فعلام لا تسمّون موسى و هو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسألة جوابا و أطرقوا برؤوسهم)[۳].

و مهما یکن من أمر فهذه التسمیة کانت أکبر من موضوع الإجلال و الاحترام فی أذهان جماعة منهم، و ما هو مألوف عند العامّة أنّهم یحملون هذا المفهوم علی حقیقته، و یزعمون أنّه ابن اللّه حقّا، لأنّه خلصهم من الدمار و الضیاع و رفع رؤوسهم بکتابة التوراة من جدید.

و بالطبع فهذا الإعتقاد لم یکن سائدا عند جمیع الیهود، إلّا أنّه یستفاد أنّ هذا التصّور أو الإعتقاد کان سائدا عند جماعة منهم، و لا سیما فی عصر النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و الدلیل علی ذلک أنّ أحدا من کتب التاریخ، لم یذکر بأنّهم عند ما سمعوا الآیة آنفة الذکر احتجوا علی النّبی أو أنکروا هذا القول «و لو کان لبان».

و ممّا قلناه یمکن الإجابة علی السؤال التّالی: أنّه لیس بین الیهود فی عصرنا الحاضر من یدعی أنّ عزیرا ابن اللّه و لا من یعتقد بهذا الإعتقاد، فعلام نسب القرآن هذا القول إلیهم؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸

و توضیح ذلک، أنّه لا یلزم أن یکون لجمیع الیهود مثل هذا الإعتقاد، إذ یکفی هذا القدر المسلم به، و هو أنّه فی عصر نزول الآیات علی النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی الیهود من یعتقد بهذا الإعتقاد، و الدلیل علی ذلک کما نوّهنا، هو أنّه لم ینکر أیّ منهم ذلک علی النّبی و الشیء الوحید الذی صدر منهم- وفقا لبعض الرّوایات- أنّهم قالوا: إنّ هذا اللقب «ابن اللّه» إنّما هو لاحترام عزیر، و قد عجزوا عن جواب لمّا سألهم و أشکل علیهم: لم لا تجعلون هذا اللقب إذا لنبیّکم موسی علیه السّلام؟! و علی کل حال فمتی ما نسب قول أو اعتقاد إلی قوم ما، فلا یلزم أن یکون الجمیع قد اتفّقوا علی ذلک، بل یکفی أن یکون فیهم جماعة ملحوظة تذهب إلی ذلک.

۲- لم یکن المسیح ابن اللّه

لا ریب أن المسیحیین یعتقدون أن عیسی هو الابن الحقیقی للّه، و لا یطلقون هذا الاسم إکراما و تشریفا له، بل علی نحو المعنی الواقعی له، و هم یصرّحون فی کتبهم أن إطلاق هذا الاسم علی غیر المسیح بالمعنی الواقعی غیر جائز، و لا شک أنّ هذا من بدع النصاری، و المسیح لم یدّع مثل هذا الادعاء أبدا، و إنّما کان یقول:

بأنّه عبدّ للّه، و لا معنی أساسا لأن ننسب علاقة الأبوة و البنوة الخاصّة بعالم المادة و عالم الممکنات بین اللّه و عباده أبدا.

۳- اقتباس هذه الخرافات

یقول القرآن المجید فی الآیة محل البحث: أنّهم- أی الیهود و النصاری- یضاهئون- أی یشبهون بانحرافاتهم- الذین کفروا و المشرکین.

و هذا التعبیر یشیر إلی أنّهم مقلّدون إذ کانوا یعتقدون بأنّ بعض الآلهة هو إله الأب، و بعضها إله الابن، و حتی أنّ بعضهم کان یعتقد بأنّ هناک إله الأم، و إله الزوج،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹

و قد لوحظت مثل هذه الأفکار فی جذور عقائد المشرکین فی الهند أو الصین أو مصر القدیمة ثمّ تسرّبت إلی الیهود و النصاری.

و فی العصر الحاضر خطر عند بعض المحقّقین أن یوازن و یقارن بین ما فی العهدین «التوراة و الإنجیل و ما یرتبط بهما» و بین عقائد البوذیین و البرهمائیین، فاستنتجوا أن کثیرا من معارف الإنجیل و التوراة تتطابق مع خرافات البوذیین و البرهمائیین تطابقا ملحوظا، حتی

أنّ بعض الحكايات و القصص الموجودة فى الإنجيل هى الحكايات و القصص ذاتها الموجودة فى الديانة البوذائية و البرهمائية.
و إذا كان المفكرون توصّلوا اليوم إلى مثل هذه الحقيقة، فإنّ القرآن أشار إليها قبل أربعة عشر قرنا فى الآية محل البحث.

۴- ما هو معنى قاتَلَهُمُ اللَّهُ

جملة و إن كان معناها فى الأصل أنّ اللّه مقاتل إيّاهم و ما إلى ذلك، لكن كما يقول الطبرسى فى مجمع البيان نقلا عن ابن عباس، إن هذه الجملة كناية عن اللعنة أى أنّ اللّه أبعدهم عن رحمته، فهو دعاء عليهم.
و فى الآية التالية إشارة إلى شركهم العملى فى قبال الشرك الاعتقادى، أو بعبارة أخرى إشارة إلى شركهم فى العبادة، إذ تقول الآية:
اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
«الأحبار» جمع حبر، و معناه العالم، و «الرهبان» جمع راهب و تطلق على من ترك دنياه و سكن الدير و أكبّ على العبادة.
و ممّا لا شك فيه أنّ اليهود و النصارى لم يسجدوا لأحبارهم و رهبانهم، و لم يصلوا و لم يصوموا لهم، و لم يعبدوهم أبدا، لكن لما كانوا منقادين لهم بالطاعة دون قيد أو شرط، بحيث كانوا يعتقدون بوجوب تنفيذ حتى الأحكام المخالفة لحكم
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰
اللّه من قبلهم، فالقرآن عبّر عن هذا التقليد الأعمى بالعبادة.
و هذا المعنى وارد
فى رواية عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام إذا قالا: «أمّا و اللّه ما صاموا لهم و لا صلّوا، و لكنّهم أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا، فاتبعوهم و عبدوهم من حيث لا يشعرون».[۴]
و
فى حديث آخر، أنّ عدىّ بن حاتم قال: وفدت على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كان فى رقبتى صليب من الذّهب، فقال لى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا عدى ألق هذا الصنم عن رقبتك، ففعلت ذلك، ثمّ دنوت منه فسمعته يتلو الآية اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً فلمّا أتم الآية قلت له: نحن لا نتّخذ أئمتنا أربابا أبدا، فقال: «ألم يحرموا حلال اللّه و يحلّوا حرامه فتتبعوهم؟ فقلت: بلى، فقال: فهذه عبادتهم».[۵]
و الدليل على هذا الموضوع واضح، لأنّ التقنين خاص باللّه، و ليس لأحد سواه أن يحل أو يحرم للناس، أو يجعل قانونا، و الشىء الوحيد الذى يستطيع الإنسان أن يفعله هو اكتشاف قوانين اللّه و تطبيقها على مصاديقها.
فبناء على ذلك لو أقدم أحد على وضع قانون يخالف قانون اللّه، و قبله إنسان آخر دون قيد أو اعتراض او استفسار فقد عبد غير اللّه، و هذا بنفسه نوع من أنواع الشرك العملى، و بتعبير آخر: هو عبادة غير اللّه.
و يظهر من القرائن أنّ اليهود و النصارى يرون مثل هذا الإختيار لزعمائهم، بحيث لهم أن يغيّروا ما يرونه صالحا بحسب نظرهم، و ما يزال بعض المسيحيين يطلب العفو من القسيس فيقول له القسّ، عفوت عنك! و كان- منذ زمن- موضوع صكوك الغفران رائجا.
و هناك لطيفة أخرى ينبغى الالتفات إليها، و هى أنّه لما كانت عبادة المسيحيين لرهبانهم تختلف عن عبادة اليهود لأحبارهم، فالمسيحيون يرون المسيح ابن اللّه
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱
واقعا و اليهود يطيعون أحبارهم دون قيد أو شرط، لذا فإنّ الآية أشارت إلى عبادة كل منهما، فقالت: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

ثمّ فصلت المسيح على حدة فقالت: وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

و هذا التعبير يدلّ على منتهى الدقة فى القرآن.

و فى ختام الآيـة تأكيـد على هـذه المسألـة، و هى أن جميع هـذه العبـادات للبشـر بدعـة، و هى من العبادات الموضوعـة وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

درس تعليمى:

إنّ القرآن المجيـد يعلّم أتباعه فى الآيـة- محل البحث- درسا قيّما جـدّا، و يبيّن واحـدا من أبرز مفاهيم التوحيد فيها، إذ يقول: لا يحقّ لأىّ مسلم طاعة إنسان آخر دون قيد أو شرط، لأنّ هذا الأمر مساو لعبادته، و جميع الطاعات يجب أن تكون فى إطار طاعة اللّه، و إنّما يصـح اتباع الإنسان نظيره متى كانت قوانينه غير مخالفة لقوانين اللّه، أيّا كان ذلك الإنسان و فى أية مكانة أو منزلة. لأنّ الطاعة بلا قيد أو شرط مساوية للعبادة، أو هى شكل من أشكال الشرك و العبودية، إلّا أنّه يا للأسف- بلى المسلمون- لبعد المسافة الزمنية- بالابتعاد عن تعاليم هذا الدسـتور الإسـلامى المهم، و إقامه الأصـنام البشـرية، فتفرقوا و تغلب عليهم المستعمرون و المستثمرون، و إذا لم تتكسر هذه الأصنام البشرية فلا ينبغى أن ننتظر زوال هذه البلايا و سدّ الثغرات.

و أساسا فإنّ هـذا النوع من الشـرك أو العبادة الوثنيـة أخطر بكثير من عبادة الأصـنام و الأحجار فى زمان الجاهلية، و السـجود لها، لأنّ تلك الأصـنام و الأحجار ليس فيها روح حتى تستعمر عبدتها، إلّا أنّ الأصنام البشرية و بسبب غرورهم و عدوانهم يجرّون أتباعهم إلى الوبال و الذلة و الشقاء و الانحطاط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲

و فى الآيـة الثّالثة من الآيات محل البحث تشبيه طريف لسـعى اليهود و النصارى، أو سـعى جميع مخالفى الإسـلام حتى المشـركين، و جـدّهم و اجتهادهم المسـتمر «العقيم» الذى لا يعود عليهم بالنفع أبدا، إذ تقول الآية: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

ملاحظات

اشارة

۱- شبّه الدين- دين اللّه- فى هذه الآية و فى القرآن و تعاليم الإسـلام بالنور، و نحن نعرف أن النّور أساس الحياة و الحركة و النمو و العمران على الأرض و منشأ كل جمال.

و الإسلام دين يحرّك كل مجتمع إنسانى نحو التكامل، و هو أساس كل خير و بركة.

كما شبّه اجتهاد الكافر بالنفخ بالأفواه و كم هو مثير للضحك أن يحاول الإنسان إطفاء نور عظيم كنور الشمس بنفخة؟ و لا تعبير أبلغ من تعبير القرآن لتجسيد هـذه المحاولات اليائسة، و فى الواقع فإنّ محاولات مخلوق ضـعيف إزاء قدرة اللّه التى لا نهاية لها، لا تكون أحسن حالا ممّا ذكرته الآية.

۲- ورد موضوع محاولـة إطفاء نور اللّه فى القرآن فى موردين: أحدهما فى الآية محل البحث، و الآخر فى الآية (۸) من سورة الصف، و فى الآيتين انتقاد للكفار و محاولات أعـداء اللّه اليائسـة، إلّا أن بين تعبيرى الآيتين تفاوتا يسـيرا، إذ جاء التعبير فى الآيـة محل البحث

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا إلّا أن الآية (۸) من سورة الصف جاء فيها التعبير يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا.

و ممّا لا شك فيه أن هذا التفاوت أو الاختلاف اليسير فى التعبير القرآنى لغاية بلاغية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳

يقول الراغب فى مفرداته موضحا الفرق بين أَنْ يُطْفِؤُا و لِيُطْفِؤُا: إنّ الآيـة الأولى تشير إلى محاولـة إطفاء نور اللّه بـدون مقدمات، أمّا الآية الأخرى فتشير إلى محاولة إطفائه بالتوسل بالأسباب و المقدمات، فالقرآن يريد أن يقول:

سواء توسّلوا بالأسباب أم لم يتوسلوا فلن يفلحوا أبدا، و عاقبتهم الهزيمة و الخسران.

۳- كلمة «يأبى» مأخوذة من الإباء، و معناه شدة الامتناع و عدم المطاوعة، و هذا التعبير يثبت إرادة اللّه و مشـيئته الحتمية لإكمال دينه و ازدهاره كما أنّ التعبير مدعاة لاطمئنان جميع المسلمين، إن كانوا مسلمين حقّا! أنّ مستقبل دينهم لا بأس عليه، بل هو مؤيد بأمر اللّه.

المستقبل للإسلام:

الآية الأخيرة من الآيات- محل البحث- فى نهاية المطاف تزف البشـرى للمسـلمين باستيعاب الإسلام العالم بأسره، و تكمل ما أشارت إليه- آنفا- أن أعداء الإسلام لن يفلحوا فى محاولاتهم و مناوآتهم بوجه الإسلام أبدا، و تقول بصراحة:

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْـرِكُونَ و المقصود من الهدى هو الدلائل الواضحة، و البراهين اللائحة الجليّة التى وجدت فى الدين الإسلامى.

و أمّا المراد من دين الحق، فهو هـذا الـدين الـذى أصوله حقّـة و فروعه حقّـة أيضا، و كل ما فيه من تاريـخ و براهين و نتائج حق، و لا شك أن الدين الذى محتواه حق، و دلائله و براهينه حقّة، و تأريخه حق جلى، لا بدّ أن يظهر على جميع الأديان.

و بمرور الزمان و تقـدم العلم و سـهولة الارتباطات، فإن الواقع سـيكشف وجهه و يطلعه من وراء سدل الإعلام المضـللة، و ستزول كل العقبات و الموانع و السدود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴

التى وضعت فى طريق انتشار الإسلام.

و هكذا فإنّ دين الحق سيسـتوعب كل مكان، و لا يحول بينه و بين تقدمه شـىء أبدا، لأنّ الحركات المضادة للإسلام حركات مخالفة لسير التأريخ و سنن الخلق.

بحوث

۱- المراد «الهدى و دين الحقّ»

هـذا التعبير الوارد فى الآيـة محـل البحث: أَرْسَـلَ رَسُولَهُ بِالْهُـدى وَ دِينِ الْحَقِ بمثابـة الـدليل على انتصار الإسـلام و ظهوره على جميع الأديان، لأنّه لمّا كان محتوى دعوة النّبى الهدايـة، و العقل يدل على ذلك فى كل موطن، و لما كانت أصوله و فروعه موافقة للحق، و مع الحق، و تسير فى مسير الحق، و لأجل الحق.

فهذا الدين سينتصر على جميع الأديان طبعا.

و قـد جاء عن أحـد علماء الهنـد أنّه سبر فكره فى مطالعة مختلف الأديان فترة من الزمن، و انتهى أمره إلى اختيار الدين الإسـلامى من

بین جمیع أدیان العالم، ثمّ نشر کتابا بالإنجلیزیة اسمه «لم أسلمت؟» و بیّن فیه مزایا الدین الإسلامی علی غیره من الأدیان.
و من أهم المسائل التی أثارت انتباهه- کما یقول- أنّ الإسلام هو الدین الوحید الذی له تأریخ ثابت محفوظ و یتعجّب کیف اختارت أوربا لها دینا تری إنّ من جاء به أجلّ من الإنسان و تعدّه ربّها، مع أن هذا الدین لیس له تاریخ دقیق.[۶] إنّ مطالعة آراء الذین اعتنقوا الإسلام دینا جدیدا و عزفوا عن دینهم السابق، تکشف أنّهم کانوا فی منتهی البساطة و الغفلة و التضلیل، بینما دلّتهم أصول الإسلام
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵
و فروعه ذات الأدلّة المحکمة إلی الدین الإلهی البعید عن الخرافات کلّها، و الذی یتجلی فیه نور الحق و الهدایة.

۲- انتصار المنطق أم انتصر القوّة؟

هناک کلام بین المفسّرین فی کیفیة ظهور الدین الإسلامی علی سائر الأدیان، و هذا الظهور أو الإنتصار فی أیّ شکل هو؟
قال بعض المفسّرین: هذا الإنتصار انتصار منطقی استدلالی فحسب، و یقولون بأن هذا الموضوع حاصل فعلا، لأنّ الإسلام من حیث منطقه و دلائله لا یقاس به دین آخر.
غیر أنّ التحقیق فی موارد استعمال مادة «الإظهار» فی قوله تعالی: لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ یکشف أنّ هذه المادة غالبا ما تستعمل فی القدرة الظاهریة و الغلبة المادیة، کما جاء فی قصّة أصحاب الکهف: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ۷] و کما نقرأ فی شأن المشرکین كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً[۸].
فمن البدیهی أنّ الغلبة فی مثل هذه الموارد لیست غلبة منطقیة، بل هی غلبة عینیة و فعلیة، و علی کل حال فمن الأفضل و الأکثر صحة أن نعتقد بأنّ هذا الظهور و الغلب ظهور مطلق- من جمیع الجوانب- لأنّه ینسجم و مفهوم الآیة التی هی مطلقة من جمیع الجهات أیضا، فیکون المعنی أنّه سیأتی یوم ینتصر فیه الإسلام انتصارا منطقیا و انتصارا ظاهریا، فی امتداد سیطرته و نفوذه المطلق، و حکومته العامّة علی جمیع الأدیان، و سیجعل جمیع الأدیان تحت شعاعه.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶

۳- القرآن و ظهور المهدی

إنّ الآیة- محل البحث- عینها و بالألفاظ ذاتها، وردت فی سورة الصف، کما وردت فی أخریات سورة الفتح باختلاف یسیر.
و الآیة تخبر عن حدث مهمّ کبیر استدعت أهمیته هذه أن تتکرر الآیة فی القرآن، و هذا الحدث الذی أخبرت عنه الآیة هو استیعاب الإسلام للعالم بأسره.
و بالرغم من أن بعض المفسّرین فسر الإنتصار- فی الآیة محل البحث- انتصارا فی منطقة معینة و محدودة، و قد حدث ذلک فعلا فی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أو ما بعده من العصور للإسلام و المسلمین، إلّا أنّه مع ملاحظة أن الآیة مطلقة لا قید فیها لا شرط، فلا دلیل علی تحدید المعنی، فمفهوم الآیة انتصار الإسلام کلیّا- و من جمیع الجهات- علی جمیع الأدیان، و معنی هذا الکلام أنّ الإسلام سیهیمن علی الکرة الأرضیة عامّة، و سینتصر علی جمیع العالم.
و لا شک أن هذا الأمر لم یتحقّق فی الوقت الحاضر، لکنّنا ندری أن هذا وعد من قبل اللّه حتمی و أنّه سیتحقق تدریجا، فسرعة انتشار الإسلام و تقدمه فی العالم، و الاعتراف الرسمی به من قبل الدول الأوروبیة المختلفة و نفوذه السریع فی أفریقیا و أمریکا، و إعلان کثیر من العلماء و المفکرین اعتناقهم الإسلام، کل ذلک یشیر إلی أنّ الإسلام أخذ باستیعاب العالم.

إلّا أنّه طبقا للرّوايات المختلفة الواردة فى المصادر الإسلامية، فإنّ هذا الموضوع إنّما يتحقق عند ظهور المهدى عليه السّلام فيجعل الإسلام عالميا.

ينقل العلامة الشيخ الطبرسى فى تفسيره (مجمع البيان) الآية محل البحث

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ ذلك يكون عند خروج المهدى، فلا يبقى أحد إلّا أقرّ بمحمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم».

كما

ورد فى التّفسير ذاته عن النّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا وبر إلّا أدخله اللّه كلمة الإسلام».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷

كما أن الشيخ الصدوق رضوان اللّه عليه

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية- فى كتابه إكمال الدين- أنّه قال: «و اللّه ما نزل تأويلها بعد، و لا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم، فإذا خرج القائم لم يبق كافر باللّه العظيم».

قدس سره ۹] و هناك أحاديث أخرى بهذا المضمون وردت عن أئمة المسلمين عليهم السّلام.

كما أنّ جماعة من المفسّرين ذكروا هذا التّفسير فى ذيل الآية أيضا.

إلّا أنّ المدهش أن كاتب «المنار» هنا لم يكتف برفض هذا التّفسير المذكور آنفا، بل ناقش الأحاديث فى المهدى عليه السّلام، و حاول أن ينكر بتعصبه الخاص جميع الأحاديث الواردة فى شأنه، و لم يأل جهدا فى التذرع بما لديه من الحجج الواهية ليقول: إنّ هذه الأحاديث لا يمكن قبولها بحال، و يزعم أنّ الإعتقاد بوجود المهدى من أفكار الشيعة، و معتقداتهم، أو معتقدات من يميل إلى التشيّع.

ثمّ بعد هذا كلّه يرى صاحب «المنار» أنّ الإعتقاد بوجود المهدى مدعاة للتخلف و الرّكود! و من هنا نرى أنّه لا بدّ أن نعالج- و لو باقتضاب- الرّوايات الواردة فى شأن المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و آثار هذا الإعتقاد فى تقدم المجتمع الإسلامى، و مواجهة الظلم و الفساد، ليعلم أن التعصب إذا دخل من باب خرج العلم و المعرفة من باب آخر.

و مع أنّ صاحب المنار له باع طويلة فى العلوم و المعارف الإسلامية، إلّا أنّه لنقطة الضعف التى ابتلى بها «التعصب الشديد» يقلب بعض الحقائق الجليّة و ينكرها تماما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸

الرّوايات الإسلامية فى المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف»

بالرّغم من كثرة الكتب المؤلفة من قبل علماء أهل السنة و علماء الشيعة، فى شأن الأحاديث الواردة فى المهدى عليه السّلام و نهضته الإصلاحية، إلّا أنّنا نعتقد أنّ كل ذلك ليس بأبلغ و لا أوجز فى الوقت ذاته ممّا كتبه علماء الحجاز من رسائل ردّا على السائلين فى هذا المجال، لذلك نرى من المناسب أن ننقل مضامين تلك الإجابات و مؤداها للقراء الكرام.

لكنّنا نذكر قبلا، أنّ الرّوايات الواردة فى المهدى «عجل اللّه فرجه الشريف» من الكثرة بحيث لا يستطيع أى محقق اسلامى- من أى مذهب كان- أن ينكر تواترها.

و قد كتبت حتى الآن كتب كثيرة فى هذا الصدد، و قد اتفق مؤلّفوها على صحة الأخبار الواردة فى المصلح المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف»، إلّا أنّ أفرادا معدودين- كأحمد أمين المصرى و ابن خلدون- و من تبعهما، يشككون فى صدور هذه الأحاديث عن نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرائن المتوفرة فى أيدينا تدل على أن الباعث على ترددهم لم يكن لضعف فى الأخبار، بل

کانوا یرون أن الرّوایات الواردة فی المهدی علیه السّلام مشتملة علی مسائل لا تکاد تصدّق بسهولة أو أنّهم لم یستطیعوا أن یمیّزوا الأحادیث الصحیحة عن غیرها. او لم یجدوا تفسیرا لها.

و علی کل حال یلزمنا قبل کلّ شیء أن نضع بین یدی القراء الکرام نص السّؤال و الجواب الذی نشرته رابطة العالم الإسلامی و التی یقوم علیها أشدّ المتزمتین إفراطا- فی المذاهب الإسلامیة- أی الوهابیین، لیتّضح أنّ مسألة ظهور المهدی «عجّل اللّه فرجه الشّریف» بین المسلمین تعتقد بها الأغلبیة الساحقة منهم، و نعتقد أن هذه الرسالة علی و جازتها جمعت فی طیّها الدلائل علی ذلک بما لیس لکل أحد أن یتوفر له هذا الجمع، و إذا کان الوهابیون المتعصبون قد أذعنوا لهذا الأمر، فللسبب ذاته المشار إلیه آنفا فی الرسالة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹

فقبل بضعة أعوام وجّه شخص من کینیا- یدعی أبا محمّد- سؤالا إلی رابطة العالم الإسلامی فی شأن المهدی المنتظر «عجّل اللّه فرجه الشّریف».

فأجابه مدیر الرّابطة، محمّد صالح القزاز، بردّ یتضمّن تصریحا بأنّ ابن تیمیّة یؤمن بالأحادیث الواردة فی شأن المهدیّ أیضا، و قد کتب هذه الرسالة خمسة علماء معروفین من أهل الحجاز جوابا علی سؤال أبی محمّد الکینی.

و قد ورد فی هذه الرسالة بعد ذکر اسم المهدی علیه السّلام و محل ظهوره «مکّة» ما یلی:

«عند ظهوره یکون العالم ملیئا بالفساد و الکفر و الجور، فیملأ اللّه به «المهدی» العالم عدلا کما ملیء ظلما و جورا، و هو آخر الخلفاء الراشدین الاثنی عشر الذین أخبر عندهم النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتب الصحاح.

و الأحادیث المتعلقة بالمهدیّ نقلها عدّة من أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم منهم: عثمان بن عفان، علی بن أبی طالب، طلحة بن عبید اللّه، عبد الرحمن بن عوف، قرة بن أساس المزنی، عبد اللّه بن الحارث، أبو هریرة، حذیفة بن الیمان، جابر بن عبد اللّه، أبو أمامة، جابر بن ماجد، عبد اللّه بن عمر، أنس بن مالک، عمران بن الحصین، و أم سلمة.

فهؤلاء عشرون راویا صحابیا رووا عن النّبی فی المهدی «عجّل اللّه فرجه الشّریف» و غیرهم کثیر أیضا، و هناک أحادیث کثیرة عن الصحابة أنفسهم ورد فیها الکلام عن ظهور المهدی «عجّل اللّه فرجه الشّریف» و یمکن أن تضاف هذه الرّوایات إلی الرّوایات الواردة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ ذلک «أی الکلام فی المهدی» لم یکن مسألة اجتهادیة لیمکن الاجتهاد فیها، فبناء علی ذلک فإنّ الصحابة قد سمعوا هذا الموضوع من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

ثمّ تضیف الرسالة:

إن الأحادیث آنفة الذکر المرویّة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مذکورة فی کتب الحدیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰

و الکتب الإسلامیة الأخری سواء منها السنن أو المعاجم أو المسانید، و کذلک شهادات الصحابة و أقوالهم التی هی بمثابة الحدیث أیضا، و من الکتب التی وردت فیها الأحادیث فی المهدی أو أقوال الصحابة هی: سنن أبی داود، و سنن الترمذی، و ابن ماجه، و ابن عمرو الدانی، و مسند أحمد، و ابو یعلی، و البزاز، و صحیح الحاکم، و معجما الطبرانی «الکبیر و المتوسط» و الرویانی، و الدار قطنی، و أبو نعیم فی أخبار المهدی، و الخطیب البغدادی فی تاریخ بغداد، و ابن عساکر فی تأریخ دمشق، و غیرها.

و تضیف الرسالة: إنّ بعض العلماء المسلمین کتبوا فی هذا الشأن کتبا خاصّة، منهم: أبو نعیم فی أخبار المهدی، و ابن حجر الهیثمی فی «القول المختصر فی علامات المهدی المنتظر»، و الشوکانی، فی «التوضیح فی تواتر ما جاء فی المنتظر و الدجال و المسیح» و إدریس العراقی المغربی فی کتاب المهدی، و أبو العباس بن عبد المؤمن المغربی فی کتاب «الوهم المکنون فی الردّ علی ابن

خلدون».

و آخر من كتب فى هـذا الشأن بحثا مطوّلا، و هو مـدير الجامعـة الإسـلامية فى المدينـة المنورة «فى حلقات متعـدّدة فى مجلـة الجامعة المذكورة».

ثمّ تضـيف الرسالـة أيضا، إن جماعة من علماء الإسـلام قديما و حديثا صـرّحوا فى كتبهم أن الأحاديث الواردة فى المهدى تقرب من التواتر و لا يمكن إنكارها بأىّ وجه، و منهم.

السـخاوى فى «فتح المغيث» و محمّد بن الحسن السفاوينى فى «شرح العقيدة» و أبو الحسن الأبرى فى «مناقب الشافعى» و ابن تيمية فى «فتاواه» و السيوطى فى «الحاوى» و إدريس العراقى فى كتابه «المهدى» و الشوكانى فى كتاب «التوضيح فى تواتر ما جاء فى المنتظر» و محمّد جعفر الكنانى فى «نظم التناثر» و أبو العباس بن عبد المؤمن فى «الوهم المكنون ...».

و تختم الرسالة بالقول بأن ابن خلدون وحده أنكر الأحاديث فى المهدى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱

و عـدّها واهيـة لا أساس لها، و أنّها عاريـة من الصـحة، إذ قال: لا مهـدىّ إلّا عيسـى، إلّا أنّ علماء الإسـلام و رجاله ردّوا على مقالته، و خاصّـة أبو العبـاس بن عبـد المؤمن فى كتابه «الوهم المكنون فى الردّ على ابن خلـدون» الـذى خصّـص فى كتابه بحثا مسـهبا فى هـذا الشأن، و قد نشر الكتاب منذ أكثر من ثلاثين سنة.

و يقول حفاظ الأحاديث و العلماء الكبار بصـراحة، إن الأحاديث فى المهدى تشتمل على الصحيح و الحسن، و مجموعها متواتر، فبناء على ذلـك فالاعتقـاد بظهور المهـدى واجب على كل مسـلم، و يعـدّ هـذا من عقائـد أهل السـنة و الجماعـة و لا ينكرها إلّا الجهلـة أو المبتدعون ... إلخ.

مدير إدارة مجمع الفقه الإسلامى محمّد المنتصر الكنائى

الانتظار و آثاره البنّاءة:

كان الكلام فى البحث السابق أن هذا الإعتقاد لم يكن ممّا طرا على التعاليم الإسـلامية، بل هو من أكثر المباحث القطعية المأخوذة عن مؤسس دعائم الإسلام صلوات اللّه عليه، و يتفق على ذلك عموم الفرق الإسلامية، و الأحاديث فى هذا الشأن متواترة أيضا.

و الآـن لنقف على آثـار الانتظـار فى المجتمعـات الإسـلامية و ما هى عليه من أحوال، لنرى هل أن الإيمان بظهور الإمام المهـدى عليه السّـلام يجعـل الإنسـان عارفـا فى الـوهم و الخيـال ثمّ ليستسـلم لجميع الظروف، أو هو نوع من الـدّعوة إلى النهوض و بنـاء الإنسـان و المجتمع؟! هل يدعو إلى التحرك، أم إلى الركود؟

هل يبعث فى الإنسان روح المسؤولية، أم هو مدعاة للفرار منها؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲

و أخيرا: أهو مخدّر، أم موقظ؟

إلّا أنّه قبل أن نوضـح الإجابة على هذه الأسـئلة- لا بدّ من الالتفات إلى هذه الملاحظة و هى أن أسـمى المفاهيم و أكرم الدساتير متى ما وقعت فى أيدى أناس جهلة أو غير جديرين بها، فمن الممكن أن تمسخ بسوء استفادتهم فتكون النتيجة خلافا للهدف الأصلى تماما و تتعاكس فى المسار، و مثل هذا واقع بكثرة، و سنرى أن مسألة انتظار المهدى عليه السّلام من هذه المسائل أيضا.

و من أجـل تحاشـى و الأخطاء و الاشـتباهات فى مثل هـذه المباحث، ينبغى- كما قيل- أن ننهل الماء من معينه العـذب، لئلا نجـد فيه كدر الأنهار أو السواقى المشوبة.

أی علینا أن نراجع النصوص الإسلامیة الأصیلة مباشرة و أن نفهم الانتظار من لسان روایاتها المختلفة، حتی نطّلع علی الهدف الأصلیّ منها!

الرّوایات الشّریفة:

۱- سأل بعضهم الإمام الصّادق علیه السّلام: ما تقول فی رجل موال للأئمّة علیهم السّلام و ینتظر ظهور حکومة الحق، ثمّ یموت و هو علی هذه الحال؟!

فقال الإمام الصادق علیه السّلام: هو بمنزلة من کان مع القائم فی فسطاطه. ثمّ سکت هنیئة، ثمّ قال: هو کمن کان مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم ۱۰].

و هذا المضمون نفسه ورد فی روایات متعددة بتعابیر مختلفة:

۲- إذ جاء فی بعضها: بمنزلة الضارب بسیفه فی سبیل اللّه.

۳- و فی بعضها: کمن قارع مع رسول اللّه بسیفه.

۴- و فی بعضها: بمنزلة من کان قاعدا تحت لواء القائم.

۵- و فی بعضها: بمنزلة المجاهدین بین یدی رسول اللّه.

۶- و فی بعضها: بمنزلة من استشهد مع رسول اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳

فهذه التشبیهات السبعة فی الرّوایات الست المذکورة، آنفا فی شأن المهدی علیه السّلام، تبیّن هذه الواقعیة و هی أنّ هناک علاقة و ارتباط بین مسألة الانتظار من جانب، و جهاد العدوّ فی أشدّ أشکاله من جانب آخر «فتأملوا بدقّة».

۷- کما ورد فی روایات متعددة أن انتظار مثل هذه الحکومة الحقة من أفضل العبادات، و هذا المضمون ورد فی بعض أحادیث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کلام الإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام.

فقد ورد عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أفضل أعمال أمّتی انتظار الفرج من اللّه عزّ و جلّ».[۱۱]

و

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حدیث آخر: «أفضل العبادة انتظار الفرج».[۱۲]

و هذان الحدیثان یشیران إلی انتظار الفرج، سواء الفرج بمفهومه الواسع العام أو بمفهومه الخاص أی انتظار ظهور المصلح و یبیّنان أهمیة الانتظار بجلاء أیضا.

و مثل هذه التعابیر تعنی أنّ الانتظار معناه الثوریة المقرونة بالتهیؤ للجهاد، فلا بدّ أن نتصوّر هذا المعنی لنفهم المراد من الانتظار، ثمّ نحصل علی النتیجة المتوخاة.

مفهوم الانتظار!

الانتظار: یطلق عادة علی من یکون فی حالة غیر مریحة و هو یسعی لإیجاد وضع أحسن.

فمثلا المریض ینتظر الشفاء من سقمه، أو الأب ینتظر عودة ولده من السفر، فهما أی المریض و الأب مشفقان، هذا من مرضه و ذاک من غیاب ولده، فینتظران الحال الأحسن و یسعیان من أجل ذلک بما فی وسعهما.

و کذلک- مثلا- حال التّاجر الذی یعانی الأزمة السوقیة و ینتظر النشاط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴

الاقتصادی. فهاتان الحالتان أی: الاحساس بالأزمة، و السعی نحو الأحسن هما من الانتظار.

فبناء علی ذلک، فإنّ مسألة انتظار حکومة الحق و العدل، أی حکومة «المهدی علیه السّلام» و ظهور المصلح العالمی، مرکبة فی الواقع من عنصرین: عنصر نفی، و عنصر إثبات، فعنصر النفی هو الإحساس بغرابة الوضع الذی یعانیه المنتظر، و عنصر الإثبات هو طلب الحال الأحسن! و إذا قدّر لهذین العنصرین أن یحلّا فی روح الإنسان فإنّهما یکونان مدعاة لنوعین من الأعمال و هذان النوعان هما:

۱- ترک کل شکل من أشکال التعاون مع أسباب الظلم و الفساد، بل علیه أن یقاومها، هذا من جهة.

۲- و بناء الشخصیة و التحرک الذاتی و تهیئة الاستعدادات الجسمیة و الروحیة و المادیة و المعنویة لظهور تلک الحکومة العالمیة الإنسانیة، من جهة أخری.

و لو أمعنّا النظر لوجدنا أنّ هذین النوعین من الأعمال هما سبب فی الیقظة و الوعی و البناء الذاتی.

و مع الالتفات إلی مفهوم الانتظار الأصیل، ندرک بصورة جیدة معنی الرّوایات الواردة فی ثواب المنتظرین و عاقبة أمرهم، و عندها نعرف لم سمّت الرّوایات المنتظرین بحقّ بأنّهم بمنزلة من کان مع القائم تحت فسطاطه «عجل اللّه فرجه» أو أنّهم تحت لوائه، أو أنّهم کمن یقاتل فی سبیل اللّه بین یدیه کالمستشهد بین یدیه، أو کالمتشحط بدمه! ... إلخ ...

تری أ لیست هذه التعابیر تشیر إلی المراحل المختلفة و درجات الجهاد فی سبیل الحق و العدل، التی تتناسب و مقدار الاستعداد و درجة انتظار الناس؟

کما أنّ میزان التضحیة و معیارها لیسن فی درجة واحدة، إذا أردنا أن نزن تضحیة المجاهدین، فی سبیل اللّه و درجاتهم و آثار تضحیاتهم، فکذلک الانتظار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵

و بناء الشخصیّة و الاستعداد، کل ذلک لیس فی درجة واحدة، و إن کان کلّ من هذه «العناوین» من حیث المقدمات و النتائج یشبه العناوین آنفة الذکر. فکلّ منهما جهاد و کل منهما استعداد و تهیؤ لبناء الذات، فمن هو تحت خیمة القائد و فی فسطاطه یعنی أنّه مستقر فی مرکز القیادة، و عند آمریة الحکومة الاسلامیة! فلا یمکن أن یکون إنسانا غافلا جاهلا، فذلک المکان لیس مکانا لکل أحد و إنّما هو مکان من یستحقه بجدارة! فکذلک الأمر عند ما یقاتل المقاتل بین یدی هدا القائد أعداء حکومة العدل و الصلاح، فعلیه أن یکون مستعدا بشکل کامل روحیا و فکریا و قتالیا.

و لمزید التعرف علی الآثار الواقعیة لانتظار ظهور المهدی علیه السّلام لاحظوا التوضیح التّالی:

الانتظار یعنی الاستعداد الکامل:

إذا کنت ظالما مجرما، فکیف یتسنی لی أن أنتظر من سیفه متعطش لدماء الظالمین؟! و إذا کنت ملوّثا غیر نقی فکیف أنتظر ثورة یحرق لهبها الملوّثین؟! و الجیش الذی ینتظر الجهاد الکبیر یقوم برفع معنویات جنوده و یلهمهم روح الثورة، و یصلح نقاط الضعف فیهم إن وجدت، لأنّ کیفیة الانتظار تتناسب دائما و الهدف الذی نحن فی انتظاره.

۱- انتظار قدوم أحد المسافرین من سفره.

۲- انتظار عودة حبیب عزیز جدا.

۳- انتظار حلول فصل اقتطاف الثمار و جنی المحاصیل.

كل من هـذه الأنواع من الانتظار مقرون بنوع من الاسـتعداد، ففى أحـدها ينبغى تهيئة البيت و وسائل التكريم، و فى الآخر ما ينبغى أن يقتطف به من الأدوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶

و السـلال و هكذا ... و الآن سنتصوّر كيف يكون انتظار ظهور مصلح عالمى كبير و كيف نكون فى انتظار ثورة و تغيير و تحول واسع لم يشهد تأريخ الإنسانية مثيلا له؟

الثورة التى ليست كسائر الثورات السابقة، إذ هى غير محدودة بمنطقة ما، بل هى عامّة و للجميع، و تشمل جميع شؤون الحياة و الناس، فهى ثورة سياسية، ثقافية، اقتصادية، أخلاقية.

الحكمة الأولى، بناء الشّخصية الفرديّة:

إنّ بناء الشّخصـية- قبل كل شـىء- بحاجة إلى عناصر معدّة ذات قيم إنسانية، ليمكن للفرد أن يتحمل العبء الثقيل الإصلاحى للعالم، و هذا الأمر بحاجة- أوّلا- إلى الارتقاء الفكرى و العلمى و الاستعداد الروحى، لتطبيق ذلك المنهج العظيم.

فالتحجر، و ضيق النظر و الحسد، و الاختلافات الصبيانية، و كل نفاق بشكل عام أو تفرقة لا تنسجم و مكانة المنتظرين الواقعيين.

و المسألة المهمّة- هنا- أنّ المنتظر الواقعى لا يمكنه أن يقف موقف المتفرج ممّا أشـرنا إليه آنفا، بل لا بدّ أن يقف فى الصف الآخر، أى صف الثائرين المصلحين، فالإيمان بالنتائج و ما يؤول إليه هذا التحول، لا يسمح له أبدا أن يكون فى صف «المثبطين» المتقاعسين، بل يكون فى صف المخلصين المصلحين، و يكون عمله خالصا و روحه أكثر نقاء، و أن يكون شهما عارفا معرفة كافية بالأمور.

فإذا كنت فاسدا معوجّا فكيف يمكننى أن أنتظر نظاما لا مكان فيه للفاسدين؟

أليس مثل هـذا الانتظار كافيا لأن أطهّر نفسـى و فكرى، و أغسل جسـمى و روحى من التلوّث؟! و الجيش الذى ينتظر جهادا تحرريا لا بدّ له أن يكون فى حالة من الاستعداد الكامل، و أن يهيئ السلاح الجدير بالمعركة، و أن يصنع الملاجئ و المواضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷

العسـكرية اللازمـة و أن يرفع المعنويات القتاليـة فى صـفوف أفراده، و يقوى روحيّاتهم، يسـرج فى قلوبهم شـعلة العشق للمواجهة فإنّ جيشـا ليس فيه مثـل هـذه الاسـتعدادات لاـ يكون جيشـا (منتظرا) و إذا ادعى الانتظار فهو «كاذب»! إنّ انتظار المصـلح، «العالمى» معناه الاسـتعداد الكامـل فكريـا، و أخلاقيا، ماديا و معنويا، الاسـتعداد لإصـلاح العالم كلّه. فتصوّروا أنّ مثل هـذا الاسـتعدادكم يكون بنّاء؟! فإصلاح المعمورة كلّها، و إنهاء الظلم و الفساد و النواقص ليس عملا بسيطا، و لا هو بالمزاح أو الهزل، بل الاستعداد لمثل هذا الهدف الكبير ينبغى أن يتنـاسب معه، و أن يكون بسـعته و عمقه! فلاـ بـدّ من وجود رجـال كبـار مصـممين ذوى إرادة أقوياء لا ينكصون و لا ينهزمون أبدا، ذوى نظرة واسعة و استعداد تام و تفكير عميق، حتى تتحقق مثل هذه الثورة الإصلاحية العالمية.

و بناء الشخصـية لمثل هـذا الهـدف يسـتلزم الارتباط بأشـد المناهـج الأخلاقيـة، و الفكريـة و الاجتماعيـة أصالة و عمقا، فهذا هو معنى الانتظار الواقعى! ترى هل يستطيع أن ينكر أحد فيقول: إن مثل هذا الانتظار لا يكون فاعلا.

الحكمة الثّانية، التعاون الاجتماعى:

إنّ المنتظرين بحـق فى الـوقت الـذى ينبغى عليهم أن يهتمّـوا ببنـاء «شخصـيتهم» عليهم، أن يراقبـوا أحـوال الآـخرين، و أن يجـدّوا فى إصـلاحهم جـدّهم فى إصـلاح ذاتهم ... لأنّ المنهج العظيم الذى ينتظرونه ليس منهجا فرديّا، بل هو منهج ينبغى أن تشترك فيه جميع

العناصر الثورية، و أن يكون العمل جماعيا عاما، و أن تتسق المساعى و الجهود بشكل يتناسب و تلك الثورة العالمية هم فى انتظارها.

ففى ساحة معركة واسعة يقاتل فيها مجموعة جنبا إلى جنب، لا يمكن لأحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸

منهم أن يغفل عن الآخرين بل عليه أن يشدّ أزرهم و أن يسدّ الثغرة و يصلح نقطة الضعف إن وجدت و يرمم المواضع المتداعية و يدعم ما ضعف منها، لأنّه لا- يمكن تطبيق مثل هذا المنهج دون مساهمة جماعية نشيطة فعّالة متسقة متناسقة! فبناء على ذلك فالمنتظرون بحقّ عليهم أن يصلحوا حال الآخرين بالإضافة إلى إصلاح حالهم.

فهذا هو الأثر الآخر البنّاء، الذى يورثه الانتظار لقيام مصلح عالمى، و هذه حكمة الفضائل التى ينالها، المنتظرون بحق.

الحكمة الثّالثة، المنتظرون بحق لا يذوبون فى المحيط الفاسد:

إنّ الأثر المهم الآخر للانتظار هو عدم ذوبان المنتظرين فى المحيط الفاسد، و عدم الانقياد وراء المغريات و التلوّث بها أبدا.

و توضيح ذلك: أنّه حين يعم الفساد المجتمع، أو تكون الأغلبية الساحقة منه فاسدة، فقد يقع الإنسان النقى الطاهر فى مأزق نفسى، أو بتعبير آخر: فى طريق مسدود «لليأس من الإصلاحات التى يتوخّاها».

و ربّما يتصور «المنتظرون» أنّه لا مجال للإصلاح، و أن السعى و الجدّ من أجل البقاء على «النقاء» و الطهارة و عدم التلوّث، كل ذلك لا- طائل تحته، أو لا جدوى منه، فهذا اليأس أو الفشل قد يجرّ الإنسان نحو الفساد و الاصطباغ بصبغة المجتمع الفساد، فلا يستطيع المنتظرون عندئذ أن يحافظوا على أنفسهم باعتبارهم أقليّة صالحة بين أكثرية طالحة، و أنّهم سيفتضحون إن أصروا على مواصلة طريقهم و ينكشفون لأنّهم ليسوا على شاكلة الجماعة.

و الشىء الوحيد الذى ينعش فيهم الأمل و يدعوهم الى المقاومة و التجلد و عدم الذّوبان و الانحلال فى المحيط الفاسد، هو رجاؤهم بالإصلاح النهائى، فهم فى هذه الحال- فحسب- لا يسأمون عن الجد و المثابرة، بل يواصلون طريقهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹

سبيل المحافظة على الذات و حفظ الآخرين و إصلاحهم أيضا.

و حين نجد- فى التعاليم الإسلامية- أن اليأس من رحمة اللّه و ثوابه من أعظم الذنوب و الكبائر، فقد يتعجب بعض الجهّال: كيف يكون اليأس من رحمة اللّه من الكبائر و الى هذه الدرجة من الأهمية، حتى أنّه أشدّ من سائر الذنوب الأخرى، فإنّ حكمته و «فلسفته» فى الحقيقة هو ما أشرنا إليه آنفا، لأنّ العاصى الآيس من رحمة اللّه لا يرى شيئا ينقذه و يخلصه من عذاب اللّه، فلا يفكر بإصلاح الخلل، أو- يكفّ عن الذنب على الأقل لأنّه يقول فى نفسه: أنا الغريق فهل أحشى من البلل؟

و النهاية الحتمية جهنّم، و قد اشتريتها، فما عسى أن أفعل؟ ... و ما الى ذلك.

إلّا أنّه حين تنفتح له نافذة الأمل، فإنّه سيرجو عفو ربّه، و يتجه نحو تغيير نفسه و حاله، و يحصل له منعطف جديد فى حياته يدعوه الى التوقف عن مواصلة الذنوب و العودة نحو الطهارة و النقاء و الإصلاح.

و من هنا يمكننا أن نعتبر أنّ الأمل عامل تربوى مهم و مؤثر فى المنحرفين أو الفاسدين، كما أنّ الصالحين لا يستطيعون أن يواصلوا مسيرهم فى المحيط الفاسد إذا لم يكن لهم أمل بالانتصار على المفاسد.

و النتيجة أنّ معنى انتظار ظهور المصلح، هو أنّ الدنيا مهما مالت نحو الفساد أكثر كان الأمل بالظهور أكثر، و الانتظار يكون له أثر نفسى كبير، فيضمن للنفوس القوّة فى مواجهة الأمواج و التيارات الشديدة كيلا- يجرفها الفساد، فهم ليسوا أربط جأشا فحسب، بل بمقتضى قول الشاعر:

عند ما يأزف ميعاد الوصالفلظى العشّاق فى أىّ اشتعال

إذن فهم يسعون أكثر للوصول الى الهدف المنشود، و تنشد همتهم لمواجهة الفساد و مكافحته بشوق لا مزيد عليه.

و ممّا ذكرناه- آنفا- نستنتج أن الأثر السلبى للانتظار إنّما يكون فى صوره ما لو مسخ مفهومه أو حرّف عن واقعه، كما حرفه المخالفون و الأعداء، و مسخه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰

الموافقون، غير أنّه لو أخذ بمفهومه الواقعى لكان عاملا تربويّا مهمّا بنّاء محرّكا باعثا على الأمل و الرجاء.

و ممّا يؤيد هذا الكلام ما ورد عن الأئمّة الطّاهرين عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ إذ جاء أنّ المراد من الآية هو «القائم و أصحابه».[۱۳] كما جاء فى حديث آخر أنّها، أى هذه الآية نزلت فى المهدى عليه السّلام.

و قد عبّرت هذه الآية عن الإمام المهدى و أصحابه ب الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

فبناء على ذلك فإنّ تحقّق هذه الثورة الإصلاحية بدون إيمان مستحكم يقضى على كل أنواع الضعف و التحلّل و بدون عمل صالح يفتح الطريق لإصلاح العالم، فإن هذا التحقّق مستبعد جدّا.

و الطالبون لهذا التحقّق عليهم أن يزدادوا إيمانا و معرفة، و أن يجدّوا فى العمل الصالح و إصلاح ذاتهم.

و هؤلاء هم طليعة تلك الحكومة العالمية و أملها المشرق، لا من ركن الى الظلم و الجور ....

و ليس المنتظر لتلك الحكومة الأشخاص الضعاف الهمة و الجبناء الذين يخافون حتى من ظلّهم.

و لا البطّالون الساكتون عن الحق التّاركون للآمر بالمعروف و النهى عن المنكر فى محيطهم الفاسد. أجل ... هذا هو الأثر الإيجابى البناء لانتظار قيام المهدى عليه السّلام فى المجتمع الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۳۴) يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (۳۵)

التّفسير

كنز الأموال:

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن أعمال اليهود و النصارى المشوبة بالشرك، إذ كانوا يعبدون الأحبار و الرهبان من دون اللّه.

الآية الأولى محل البحث تقول: إنّ أولئك مضافا إلى كونهم غير جديرين بالألوهية فهم غير جديرين بقيادة الناس أيضا، و خير دليل على ذلك أعمالهم المتناقضة المضطربة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲

فالآيـة هنـا تلتفت نحو المسـلمين فتخـاطبهم بـالقول: يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَ الرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

الطريف هنـا أنّنا نواجه الأسـلوب نفسه فى القرآن على ما عهـدناه فى أمكنـة أخرى من آياته، فالآيـة هنا لم تقل: إنّ الأحبار و الرهبان جميعهم ليـأكلون، بل قالت: إِنَّ كَثِيراً فهى تسـتثنى الأقليـة الصالحـة منهم، و هـذا النوع من الدقـة ملحوظ فى سائر آيات القرآن، و قد أشرنا الى ذلك سابقا.

لكن كيف يـأكلون أموال النـاس دون مسوّغ أو مجوّز، أو كمـا عبّر القرآن «بالباطل» فقـد أشـرنا سابقا الى ذلك فى آيات أخرى كما ورد فى التأريخ شىء منه أيضا، و ذلك:

أوّلا: إنّهم كتموا حقائق التعاليم التى جاء بها موسـى عليه السّـلام فى توراته و عيسى عليه السّلام فى إنجيله، لئلا يميل الناس الى الدين الجديـد، «الدين الإسـلامى» فتنقطع هداياهم و تغدو منافعهم فى خطر، كما أشارت الى ذلك الآيات (۴۱) و (۷۹) و (۱۷۴) من سورة البقرة.

و الثّانى: إنّهم بأخـذهم «الرّشوة» كانوا يقلبون الحق باطلا و الباطل حقّا، و كانوا يحكمون لصالح الأقوياء، كما أشارت الى ذلك الآية (۴۱) من سورة المائدة.

و من أساليبهم غير المشـروعة فى أخذ المال هو ما يسمّى ب «صكوك الغفران و بيع الجنّة» فكانوا يتسلمون أموالا باهظة من الناس، و يبيعون الجنّة ب «صـكوك الغفران» و الغفران و دخول الجنّة منحصـران بإرادة اللّه و أمره، و هـذا الموضوع- أى صـكوك الغفران- يضجّ به تأريخ المسيحيّة! كما أثار نقاشات و جدالا عندهم.

و أمّـا صـدّهم عن سبيـل اللّه فهو واضـح، لأنّهم كـانوا يحرفون آيات اللّه، أو أنّهم كانوا يكتمونها رعايـة لمنافعهم الخاصّـة، بل كانوا يتهمون كل من يرونه مخالفا لمقامهم و منافعهم، و يحاكمونه- فى محاكم تدعى بمحاكم التفتيش الدينى بأسوأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳

وجه، و يصدرون عليه أحكاما جائرة قاسية جدّا.

و لو لم يقوموا بمثل هذه الأعمال و لم يقدموا على صدّ أتباعهم عن سبيل اللّه، لكان آلاف الآلاف من أتباعهم ملتفين اليوم حول راية الإسـلام و دين الحق من صـميم أرواحهم و قلوبهم، فبنـاء على ذلـك يمكن أن يقـال- بكل جرأة و دون تحفظ- أن آثام الآلاف من الجماعات فى رقاب أولئك «الرهبان و الأحبار» لأنّهم كانوا سببا فى بقائهم فى الظلمات، ظلمات الكفر و الضلال ...

و ما زالت الكنيسة لحدّ الآن تبذل قصارى وسـعها- و لا يقصر فى ذلك اليهود أيضا- لتغيير أفكار عامّة الناس، و إلفاتهم عن الإسلام، كما وجه اليهود تهما كثيرة عجيبة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هـذا الموضوع من الوضوح و الشـمول أنّ جماعـة من علماء المسـيحية المثقفين اعترفوا بأنّ أسـلوب الكنيسـة فى مواجهة الإسـلام و محاربته أحد أسباب جهل الغربيين بالإسلام و عدم اطلاعهم على هذا الدين الطاهر.

و تعقيبا على موضوع حب اليهود و النصارى لدنياهم و أكل المال بالباطل، فإنّ القرآن يتحدث عن قانون كلّى فى شأن أصحاب المال و ذوى الثراء، الذين يكنزون أموالهم، فيقول: وَ الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ وَ لا يُنْفِقُونَها فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

و الفعل «يكنزون» مأخوذ من مادة «الكنز» و هو المال المـدفون فى الأرض، و هو فى الأصل جمع أجزاء الشـىء، و من هنا فقـد سـمّى البعير ذو اللحم الكثير بأنّه «كناز اللحم» ثمّ استعمل الكنز فى جمع المال و ادخاره و دفنه، أو فى الأشياء القيمة غالية الثمن.

فبناء على ذلك فإنّ الكنز ملحوظ فيه الجمع و الإخفاء و المحافظة.

«الذهب و الفضة» معدنان مشهوران، و كان النقد أو العملة سابقا بالدينار الذهبى و الدرهم الفضىّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴

و لبعض العلماء تعریف طریف فی شأن هذین المعدنین و لغتیهما «کما ذکر ذلک العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان» فقال: إنّما سمّی الذهب ذهبا لذهابه عن الید عاجلا، و إنّما سمّیت الفضة لانفضاضها أی لتفرّقها، و لمعرفة مآل و حقیقة هذه الثروة فإنّ هذه التسمّیة کافیة (لکلّ من المالین- الذهب و الفضة).

و منذ کانت المجتمعات البشریة کانت مسألة المبادلة- سلعة بسلعة- رائجة بین الناس، فکان کلّ یبیع ما یجده زائدا علی حاجته من المحاصیل الزراعیة أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعة أخری، لأنّ النقد «الدینار أو الدرهم» لم یکن آنئذ، لکن لما کانت المبادلة- أعنی مبادلة الأجناس أو البضائع- تحدث بعض المشاکل أو المصاعب، لعدم وجود ما یحتاجه البائع، دائما فقد یکون هناک شیء آخر- مثلا- یراد تبدیله، فقد دعت الحاجة الی اختراع النقد.

و قد کان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاة الی تحقق هذه الفکرة، و هی أن تمثل الفضة القیمة الدانیة، و أن یمثل الذهب القیمة الغالیة، و بهما اتّخذت المعاملات رونقا جدیدا بارزا.

فبناء علی ذلک فإنّ الحکمة الأصیلة من النقد- الذهب و الفضة- هی سرعة تحرک عجلة المبادلات الاقتصادیة.

أمّا الذین یکنزون الذهب و الفضة، فهم لا یکونون سببا لرکود الوضع الاقتصادی و الضرر بالمجتمع فحسب، بل إنّ عملهم هذا مخالف لفلسفة ابتداع النقد و اختراعه.

فالآیة محل البحث تحرم الکنز و جمع المال، و الثروة بصراحة، و تأمر المسلمین أن ینفقوا أموالهم فی سبیل اللّه و ما فیه نفع عباد اللّه، و أن یتجنبوا کنزها و دفنها و إبعادها عن تحرک السوق، و إلّا فلینتظروا «العذاب الألیم».

و هذا العذاب الألیم لیس جزاءهم فی یوم القیامة فحسب، بل یشملهم فی الدنیا- لإرباکهم الحالة الاقتصادیة و لإیجاد الطبقیة بین الناس «الفقیر و الغنی» أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵

و إذا لم یکن أهل الدنیا یعرفون أهمیة هذا الدّستور الإسلامی بالأمس، فنحن نستطیع أن ندرکه جیدا، لأنّ الأزمات الاقتصادیة التی أبتلی بها البشر نتیجة احتکار الثروة من قبل جماعة «أنانیة»، و ظهورها علی صورة حروب و ثورات و سفک دماء، غیر خاف علی أحد أبدا.

حتی یعدّ جمع الثروة کنزا؟

هناک کلام بین المفسّرین فی شأن الآیة- محل البحث- فهل کلّ جمع للمال أو ادخار له یعدّ کنزا، لأنّه زائد علی حاجة الإنسان، فهو حرام وفق مفهوم الآیة ...

أو أنّ الحکم خاصّ ببدایة الإسلام و قبل نزول حکم الزّکاة ثمّ ارتفع حکم الکنز بنزول حکم الزّکاة ...

أو أنّه یجب علی الإنسان دفع زکاته سنویا لا غیر، فإذا دفع الإنسان زکاة سنته فلا یکون مشمولا بحکم الکنز و إن جمع المال؟

فی کثیر من الرّوایات الصادرة عن أهل البیت علیهم السّلام و روایات أهل السّنة، یلوح لنا التّفسیر الثّالث،

ففی حدیث عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أی مال أدّیت زکاته فلیس بکنز».[۱۴]

کما نقرأ فی بعض الرّوایات أنّه

لمّا نزلت آیة الکنز ثقل علی المسلمین الأمر، فقالوا: لیس لنا أن ندخر شیئا لأبنائنا إذا، ثمّ سألوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «إن اللّه لم یفرض الزکاة إلّا لیطیب بها ما بقی من أموالکم، و إنّما فرض المواریث من أموال تبقی بعدکم».[۱۵]

أی أن جمع المال لو کان- بشکل عام ممنوعا- لما وجدنا لقانون الإرث موضوعا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶

و

فی کتاب الأمالی للشیخ الطوسی قدس سرّه ورد هذا المضمون ذاته عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «من أدی زکاة مال فما تبقّی منه لیس بکنز».[۱۶]

إلّا أنّنا نقرأ روایات أخری فی المصادر الإسلامیة لا ینسجم ظاهرا- و لأوّل وهلة- و التّفسیر الآنف الذکر، و منها ما

ورد عن الإمام علی علیه السّلام فی مجمع البیان أنّه قال: «ما زاد علی أربعة آلاف ۱۷] فهو کنز أدّی زکاته أو لم یؤدّها، و ما دونها فهی نفقة، فبشرهم بعذاب ألیم».[۱۸]

و

قد ورد فی الکافی عن معاذ بن کثیر، أنّه سمع عن الصادق علیه السّلام یقول: «لشیعتنا أن ینفقوا ممّا فی أیدیهم فی الخیرات، و ما بقی فهو حلال لهم، إلّا أنّه إذا ظهر القائم حرم جمیع الکنوز و الأموال المدخرة حتی یؤتی بها إلیه و یستعین بها علی عدوه، و ذلک معنی قوله تعالی: وَ الَّذِینَ یَکْنِزُونَ الذَّهَبَ وَ الْفِضَّةَ.[۱۹]

و نقرأ فی سیرة أبی ذر رضوان اللّه علیه فی کثیر من الکتب أنّه لما کان فی الشام، کان یقرأ الآیة- محل البحث- فی شأن معاویة، و یقول بصوت عال صباح مساء:

«بشر أهل الکنوز بکیّ فی الجباه وکیّ بالجنوب وکیّ بالظهور أبدا حتی یتردّد الحرّ فی أجوافهم».[۲۰]

کما یظهر من استدلال أبی ذر رضی اللّه عنه بالآیة فی وجه عثمان، أنّه کان یعتقد أنّ الآیة لا تختص بمانعی الزّکاة، بل تشمل غیرهم أیضا.

و یمکن الاستنتاج من مجموع الأحادیث- آنفة الذکر- منضمة إلیها الآیة محل البحث، أنّه فی الظروف الاعتیادیة المألوفة، حیث یری الناس آمنین، أو غیر محدق بهم الخطر، و المجتمع فی حال مستقر، فیکفی عندئذ دفع الزکاة و ما تبقی لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷

یعد کنزا. و ینبغی الالتفات بطبیعة الحال الی أنّه مع رعایة الموازین الإسلامیة، و ما هو مقرر فی شأن رؤوس الأموال و الأرباح، فإنّ الأموال لا تتراکم بشکل غیر مألوف فوق العادة، لأنّ الإسلام وضع قیودا و شروطا للمال لا یتسنی للإنسان معها جمع الأموال و ادّخارها.

و أمّا فی الحالات غیر الطبیعیة و غیر الاعتیادیة، و عند ما یقتضی حفظ مصالح المجتمع الإسلامی ذلک، فإنّ الحکومة الإسلامیة، تحدّد لجمع المال مقدارا، کما مرّ فی حدیث الإمام علی علیه السّلام أو تطالب الناس بالکنوز و ما جمعوه من المال کلیّا، کما هو الحال فی قیام المهدی، إذ مرّت روایة الإمام الصادق علیه السّلام مع ذکر العلّة ...

«فیستعین به (أی المال) علی عدوّه».

إلّا أنّنا نکرر القول بأنّ هذا الموضوع یختص بالحکومة الإسلامیة، و هی التی لها حق البتّ و التصمیم فی مواطن الضرورة و الاقتضاء «فلاحظوا بدقّة».

و أمّا قصّة أبی ذر رضی اللّه عنه فلعلّها ناظرة الی هذا الموضوع ذاته، إذا کان المجتمع الإسلامی فی حاجة ماسة و شدیدة للمال، و کان جمع المال و کنزه مخالفا لمنافع المجتمع و حفظ وجوده.

و مع أن أبا ذر رضی اللّه عنه کان ناظرا الی أموال «بیت المال» التی کانت عند عثمان و معاویة، و نحن نعرف أنّه مع وجود المستحقین لا یجوز تأخیر دفع المال عنهم لحظة واحدة، بل یجب دفعه الی أصحابه فورا، و لا علاقة لمسألة الزکاة بهذا الموضوع أبدا.

علی أنّ التواریخ الإسلامیة- سنّیة و شیعیة- مجمعة و شاهدة علی أنّ عثمان وزّع أموال بیت المال الضخمة الطائلة علی أقاربه، و أن معاویة بنی من بیت مال المسلمین قصرا ضحما أحیا به أساطیر قصور الساسانیین، و کان لأبی ذر رضوان اللّه علیه الحق فی أن یحتج بالآیة محل البحث أمامها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸

أبو ذر و الاشتراکیة!!

من المؤاخذات علی الخلیفة الثّالث مسألة إبعاد أبی ذر رضی اللّه عنه المصحوب بالقسوة و الخشونة الی الرّبذه، تلک المنطقة التی کان یبغضها أبو ذر و التی کانت غیر صالحة من حیث الماء و الهواء، حتی انتهی الأمر الی موت هذا الصحابی الجلیل و المجاهد المضحی فی سبیل الإسلام، و هو الذی

قال فیه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما أظلّت الخضراء و لا أقلّت الغبراء من ذی لهجة أصدق من أبی ذرّ».

و نعرف أنّ الاختلاف بین أبی ذر و عثمان لم یکن لأنّ أبا ذر کان یتمنی المال أو المقام، بل علی العکس فقد کان أبو ذر زاهدا عابدا ورعا من جمیع الوجوه، بل منشأ الخلاف و أساسه، هو أن عثمان فرّق مال بیت مال المسلمین علی ذوی قرباه و أصحابه و أنفقه بلا حساب.

و کان أبو ذر رضی اللّه عنه متشددا فی الأمور المالیة، و لا سیّما ما کان منها متعلقا ببیت مال المسلمین، و کان یرغب فی أن یسیر جمیع المسلمین علی سنة النّبی فی هذا المجال، و التصرف بالمال، لکننا نعرف أنّ الأمور أخذت طابعا آخر فی عصر الخلیفة الثّالث عثمان.

و علی کل حال، فإنّ أبا ذرّ رضی اللّه عنه لما واجه الخلیفة الثّالث بشدّة، و عنّفه فی إنفاق المال، أرسله عثمان الی الشام بادئ الأمر، فواجه أبو ذر معاویة هناک بصورة أشدّ نقدا و أکثر صراحة، حتی أنّ ابن عباس قال: لقد برم معاویة من کلام أبی ذر و کتب الی عثمان: إنّه إن کانت لک حاجة فی الشام فخذ أبا ذر، فإنّه إن بقی فیها فسوف یصرف أهلها عنک.

فکتب عثمان کتابا و أحضر أبا ذرّ الی المدینة، و کما یقول بعض المؤرّخین:

کتب عثمان الی معاویة، أن ابعث أبا ذرّ فی جماعة من شرطتک و لا ترفّه علیه، و لیجدّوا به السیر لیل نهار، و لا یدعوه یستریح لحظة، حتی أن أبا ذر لما وصل المدینة مرض هناک و لما لم یکن وجوده فی المدینة هیّنا علی عثمان و أتباعه، فقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹

نفوه الی «الرّبذة» حتی مات رحمه اللّه فیها.

و هناک من یحاول الدفاع عن الخلیفة الثّالث و یتّهم أبا ذر أحیانا بأنّه اشتراکی، إذ کان یری أنّ جمیع الأموال عائدة الی اللّه، و کان ینکر الملکیة الفردیة!! و هذا الاتهام فی منتهی الغرابة، فمع أنّ القرآن یحترم الملکیة الفردیة بصراحة- وفق شروط معینة- و کان أبو ذر رضی اللّه عنه من المقرّبین الی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و تربّی فی حضن الإسلام و القرآن، و ما أظلت الخضراء أصدق منه، فکیف یتهم أبو ذر بمثل هذا الاتهام؟! إنّ قاطنی الصحراء البعیدین یعرفون هذا الحکم الإسلامی، و کانوا قد سمعوا الآیات التی تتعلق بالتجارة و الإرث، فکیف یمکن أن یصدق بأن أقرب تلامذة رسول اللّه کان جاهلا بهذا الحکم؟

ألیس ذلک لأنّ المتعصبین الألداء من أجل تبرئة الخلیفة الثّالث و الأعجب من ذلک تبرئة معاویة و حکومته- اتهموا أبا ذرّ بمثل هذا الاتهام، و ما یزال بعض من عمی العیون صمّ الآذان یقلدون أسلافهم؟! أجل إن أبا ذر رضی اللّه عنه- بوحی و استلهام من آیات القرآن و خاصّة آیة الکنز- کان یعتقد و یصرّح بعقیدته أن بیت المال لا ینبغی أن یتحول الی ملکیة فردیة بید الأشخاص، و یجب ألّا

يحرم المستضعفون و المحتاجون منه، و ينبغى أن ينفق فى سبيل تقوية الإسلام و مصالح المسلمين، فلا يجوز تبذير الأموال، و أن بيت المال ليس ملكا لمعاوية و أضرابه كى يشيد بهذه الأموال القصور على شاكلة قصور الأكاسرة و القياصرة! ثمّ إنّ أبا ذرّ كان يعتقد يومئذ أنّه بإمكان الأغنياء أن يقنعوا بما دون الإسراف، ليواسوا إخوانهم الفقراء، و ينفقوا أموالهم فى سبيل اللّه.

فإذا كان أبو ذر رحمه اللّه ذا وزر فوزره ما ذكرناه إلّا أن المؤرّخين المتملقين، أو الذين يؤرخون للارتزاق و يبيعون دينهم بدنياهم، غيّروا صورة هذا الصحابى المجاهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰

الناصع فجعلوه اشتراكيا!! و ما يؤخذ على أبى ذر من وزر أيضا هو حبّه الشديد للإمام على عليه السّلام، فقد كان هذا كافيا لأن يقوم بنو أمية بأساليبهم و أراجيفهم الخبيثة الجهنمية بإسقاط حيثية أبى ذر، إلّا أن نقاءه و طهارته و معرفته بالأحكام الإسلامية كانت ناصعة الى درجة أنّهم افتضحوا و لم يفلحوا فى مرامهم.

و من جملة الأكاذيب العجيبة التى ألصقوها بأبى ذر لتبرئة الخليفة الثّالث، ما ذكره ابن سعد فى «الطبقات»: إنّ جماعة من أهل الكوفة جاؤوا أبا ذرّ عند ما نفاه عثمان الى الرّبذه فقالوا: إن هذا الرجل (أى عثمان) فعل ما فعل بك، فهل مستعد أن ترفع راية تقاتل بها عثمان، و نحن نقاتله تحت رايتك؟ فقال أبو ذر: كلّا، لو أرسلنى عثمان من المشرق الى المغرب لكنت مطيعا لأمره.[۲۱] و لم يلتفت هؤلاء الوضّاعون الى أنّه لو كان مطيعا لأمره، لما كان عثمان يضيق ذرعا به فيكون عليه- فى المدينة- عبئا ثقيلا لا يستطيع حمله أبدا.

و الأعجب من ذلك ما ذكره صاحب المنار- ذيل الآية محل البحث- مشيرا الى قصّة أبى ذر و ما جرى بينه و بين عثمان، فيقول: إنّ قصّة أبى ذر تدل على أن عصر الصحابة- و لا سيما عصر عثمان- كان إظهار العقيدة فيه مألوفا، و كان العلماء محترمين، و الخلفاء ذوى ولاء، حتى أن معاوية لم يجرأ أن يقول شيئا لأبى ذر، بل كتب كتابا الى من هو فوقه مرتبة- أى عثمان- و طلب منه أن يرى فيه رأيه!! و الحق أنّ التعصّب قد يصنع الأعاجيب، فهل كان- التبعيد و النفى الى الأرض اليابسة الحارة المحرقة «الرّبذة» أرض الموت و النّار تعبير عن احترام حرية الفكر و محبّة العلماء!! هل أنّ تسليم هذا الصحابى الجليل «بيد الموت» يعدّ دليلا على حرية العقيدة!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱

و إذا كان معاوية لم يستطيع أن يجرأ على قتل أبى ذر أو التآمر عليه- خوفا من إنكار عامّة الناس- فهل يعدّ ذلك احتراما لأبى ذر من قبل معاوية؟! و من عجائب هذه القصّة- أيضا- أن المدافعين عن الخليفة الثّالث يقولون: إن تبعيد أبى ذر كان بحكم قانون [تقديم دفع المفسدة على جلب المصلحة؟] لأنّه و إن كان لوجود أبى ذر فى المدينة مصلحة كبيرة، و كان الناس يستفيدون من علمه، إلّا أنّ عثمان كان يرى أن بقاءه فى المدينة يجر المفسدة- لطريقة تفكيره- و يحدث انعطافا شديدا لا يمكن تحمله، فلأجل ذلك أغضى عثمان عن المصلحة فى وجوده و أخرجه الى الرّبذة دفعا للمفسدة و لما كان كل من أبى ذر و عثمان مجتهدا، فلا يمكن توجيه النقد أو الإشكال أو أى شىء آخر إليه.[۲۲] و نحن بدورنا نتساءل: آية مفسدة كانت تترتب على وجود أبى ذر فى المدينة؟! ترى هل فى إعادة الناس الى سنة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مفسدة؟! و لم لا يشكل أبو ذر رضى اللّه عنه على الخليفة الأوّل و لا الثّانى اللذين لم يفعلا- ما فعله عثمان فى أموال المسلمين «و بيت المال»؟! و هل فى إعادة الناس الى المناهج المالية التى كانت فى صدر الإسلام مفسدة؟! و هل فى نفى أبى ذر و قطع لسان الحق مصلحة؟! ألم تؤد أعمال عثمان و استمراره بإنفاق بيت المال الى أن أصبح ضحية لكل ذلك؟! ألم يكن ذلك مفسدة و تركه مصلحة؟! و لكن ما عسى أن نفعل، فإذا دخل التعصب من باب فرّ المنطق من باب آخر!! و على كل حال، فإنّ سيرة هذا الصحابى الجليل لا تخفى على أى محقق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲

منصف، و لا مجال لتبرئة الخليفة الثّالث ممّا نال من أبى ذر من الأذى أبدا، و المنطق الحق يدين أعمال عثمان.

جزاء من يكنز!

فى الآيـة التّاليـة إشارة الى واحـد ممّا يحيق بمثل هؤلاء ممّن يكنز المال فى العالم الآخر، إذ تقول الآية: يَوْمَ يُحْمى عَلَيْها فِي نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بِها جِباهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ

و يخاطبهم ملائكة العذاب و هم فى هذا الحال: هذا ما كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ

و هذه الآية توكّد مرّة أخرى هذه الحقيقة، و هى أنّ أعمال الإنسان لا تمضـى سدى، بل تبقى و تتجسّد له يوم القيامة، و تكون مدعاة سروره أو مدعاة شقائه.

و هناك كلام بين المفسّرين فى سبب ذكر الجباه و الظهور و الجنوب وحدها من بين سائر أعضاء الجسم.

غير أنّه

روى عن أبى ذرّ رضى اللّه عنه أنّه كان يقول: «حتى يتردد الحرّ فى أجوافهم»

أى أن الحرارة المحرقة التى تمس هذه الأعضاء الثلاثة تنفذ الى سائر الجسم و تستوعبه كلّه.

كما قيل: إنّ الوجه فى ذكر هذه الأعضاء الثلاثة دون غيرها، هو أنّ أصـحاب المال حين كان يأتيهم المحروم أو الفقير، كان ردّ فعلهم يظهر على جباههم أحيانا، فيظهرون عدم الاعتناء بهم، و تارة ينحرفون عنهم، و تارة يديرون ظهورهم لهم، فهذه الأعضاء الثلاثة تكوى فى نار جهنم، بما حمى عليه من الذهب أو الفضة و ما كنزوه دون أن ينفقوه فى سبيل اللّه.

و من نافلـة القول أن نشـير الى لطيفة بلاغية، فى الآية محل البحث و هى التعبير ب «يوم يحمى عليها» أى يحمى على الذهب و الفضة، و التعبير المطّرد أن يقال: يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳

تحمى الفضة أو يحمى الذهب، لا أنّه يحمى عليه، كما يقال مثلا: يحمى الحديد فى النّار.

و لعل هـذا العبير يشـير الى إحراق الذهب و الفضة الى درجة قصوى بحيث توضع النّار عليها. إذ أن جعل الفضة و الذهب على النّار لا يكفى لأن تكون محرقة «للغاية».

فـالقرآن لا ـ يقول: يوم تحمى فى نار جهنم، بل يقول: يحمى عليها، أى توضع النّار عليها لتكون فى أسـفل النّار كيما تشـتد حرارتها و هذا التعبير الحىّ يجسّد شدة عذاب أولى الثروة الذين يكنزونها فى يوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۳۶) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۳۷)

التّفسير

وقف القتال «الإجبارى»:

لما كانت هذه السورة تتناول أبحاثا مفصلة حول قتال المشركين، فالآيتان- محل البحث- تشيران الى أحد مقرّرات الحرب و الجهاد فى الإسلام، و هو احترام الأشهر الحرم.

فتقول الأولى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵

السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

و التعبير ب «كتاب اللّه» يمكن أن يكون إشارة الى القرآن المجيد أو سائر الكتب السماوية، إلّا أنّه بملاحظة جملة يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ يبدو أنّ المعنى الأكثر مناسبة هو كتاب الخلق و عالم الوجود.

و على كل حال، فمنذ ذلك اليوم الذى استقرت عليه المجموعة الشمسية بنظامها الخاص حدثت السنين و الأشهر، فالسنة عبارة عن دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة و الشهر دوران القمر حول الأرض دورة كاملة.

و هذا فى الحقيقة تقويم طبيعى قيّم غير قابل للتغيير حيث يمنح حياة الناس جميعا نظاما طبيعيا، و ينظّم على وجه الدقة حسابهم التأريخى، و تلك نعمة عظمى من نعم اللّه للبشر كما بيّنا تفصيل ذلك فى ذيل الآية (۱۸۹) من سورة البقرة:

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ

ثمّ تضيف الآية- آنفة الذكر- معقّبة: مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

يرى بعض المفسّرين أنّ تحريم القتال فى هذه الأشهر الأربعة كان من عهد «إبراهيم الخليل عليه السّلام»، و كان نافذ حتى فى زمان الجاهلية على أنّه سنة متّبعة إلّا أنّ عرب الجاهلية كانوا يغيرون هذا الأشهر أحيانا تبعا لميولهم و أهوائهم، إلّا أن الإسلام أقرّ حرمتها على حالها و لم يغيّرها، و ثلاثة من الأشهر متوالية و تسمى بالأشهر السرد و هى: ذو القعدة، و ذو الحجة، و المحرم. و شهر منها منفصل عنها، و هو رجب و يسمى بالشهر الفرد.

و ينبغى التنويه على أنّ تحريم هذه الأشهر إنّما يكون نافذ المفعول إذا لم يبدأ العدو بقتال المسلمين فيها، أمّا لو فعل فلا شك فى وجوب قتاله على المسلمين لأنّ احترام الشهر الحرام لم ينتقض من قبلهم، بل انتقض من قبل العدوّ «و قد بيّنا تفصيل ذلك ذيل الآية (۱۹۴) من سورة البقرة».

ثمّ تضيف الآية مؤكّدة: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶

و يستفاد من بعض الرّوايات أن تحريم القتال فى هذه الأشهر الحرم، كان مشرّعا فى الديانة اليهودية و المسيحية و سائر الشرائع السماوية، إضافة الى شريعة إبراهيم الخليل عليه السّلام. و لعلّ التعبير ب ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ إشارة الى هذه اللّطيفة، أى أنّ هذا التحريم كان فى أوّل الأمر على شكل قانون ثابت:

ثمّ تقول الآية: فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ

إلّا أنّه لمّا كان تحريم هذه الأشهر قد يتخذ ذريعة من قبل العدو لمهاجمة المسلمين فيها، فقد عقبت الآية بالقول: وَ قاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً فبالرغم من أنّ هؤلاء مشركين و الشرك أساس التشتت و التفرقة، إلّا أنّهم يقاتلونكم فى صف واحد، «كافة» فينبغى عليكم أن تقاتلوهم كافة، فذلك منكم أجدر لأنّكم موحّدون فلا بدّ من توحيد كلمتكم أمام عدوكم و لتكونوا كالبنيان المرصوص.

و تختتم الآية بالقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

و فى الآية الثّانية- من الآيتين محل البحث- إشارة الى إحدى السنن الخاطئة فى الجاهلية، و هى سنة النسىء «تغيير الأشهر الحرم» إذ تقول الآية: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ففى أحد الأعوام يقرّرون حليّة الشهر الحرام و يحرمون أحد الأشهر الحلال للمحافظة على العدد أربعة يُحِلُّونَهُ عاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فهؤلاء يضيعون بتصرفهم هذا فلسفة تحريم الأشهر، و يتلاعبون بحكم اللّه بحسب ما تمليه عليهم أهواؤهم، و العجيب أنّهم يرضون عن عملهم، و فعلهم هذا كما تقول الآية: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ

فهم يغيرون الأشهر الحرم و يبدلونها، و يعدّون ذلك تدبيرا لحياتهم و معاشهم، أو يتصوّرون أنّ طول فترة إيقاف القتال يقلل من حماس المقاتلين فلا بدّ من إثارة الحرب ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷

فاللّه سبحانه إذا علم أن فى عباده من ليس أهلا للهداية و التوفيق، خلاه و نفسه:

وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ

بحوث

۱- فلسفة الأشهر الحرم!

كان تحريم القتال فى هذه الأشهر الأربعة أحد الطرق لإيقاف الحروب الطويلة الأمد و وسيلة للدعوة نحو الصلح و الدعة، لأنّ المحاربين إذا وضعوا أسلحتهم فى هذه الأشهر الأربعة، و أخمدت نيران الحرب و وجدت الفرصة للتفكير، فمن غير المستبعد أن تنتهى الحرب و يحل السّلام محلّه، لأنّ الشروع المجدد بعد إيقاف القتال و انطفاء نار الحرب فى غاية الصعوبة، و لا ننسى أن المقاتلين فى حرب فيتنام خلال العشرين سنة من الحرب كانوا يواجهون صعوبة كبيرة لإيقاف القتال خلال أربع و عشرين ساعة لبداية العام الميلادى الجديد، إلّا أنّ الإسلام جعل لأتباعه قرارا بإيقاف القتال خلال أربعة أشهر، و هذا الأمر بنفسه يدل على روح السّلام فى الإسلام و المطالبة بالصلح.

إلّا أنّ العدو إذا أراد أن يستغلّ هذا القانون الإسلامى، و أن ينتهك حرمة هذه الأشهر فعلى المسلمين أن يواجهوه بالمثل.

۲- مفهوم النسىء و فلسفته فى الجاهليّة

«النسىء» على وزن «الكثير» من مادة «نسأ» و معناها التأخير و يمكن أن تكون هذه الكلمة اسم مصدر أو مصدرا، و تطلق على ما يؤجل من إعطاء المال أو قبضه.

و كان عرب الجاهلية يؤخرون بعض الأشهر الحرم، فمثلا كانوا ينتخبون شهر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸

«صفر» بدل شهر محرم فى عام فيحرمونه، كما حدث لأحد زعماء قبيلة بنى كنانة، إذ خطب فى اجتماع كبير نسبيّا فى موسم الحج بمنى و قال: إنّنى أخرت المحرم هذا العام و انتخبت شهر صفر مكانه.

و قد روى عن ابن عباس: إنّ أوّل من سنّ هذه السنّة هو عمرو بن لحى، و قال بعضهم: بل هو قلمس «من بنى كنانة».

و فلسفة هذا العمل «التأخير و النسىء» فى عقيدتهم أن توالى ثلاثة أشهر حرم تباعا كذى القعدة و ذى الحجة و المحرم يسبب

إضعاف معنويات المحاربين، لأنّ عرب الجاهلية كانوا يتوقون الى الإغارة و سفك الدماء و الحرب، و أساسا فإنّ الحرب و الإغارة و ما شاكلهما كان يمثل جزءا من حياتهم، و كان من الصعب عليهم أن يتحملوا ثلاثة أشهر حرم (يتوقف فيها القتال) لذا فقد كانوا يسعون لفصل شهر المحرم عن هذه الأشهر (أو يؤخروه)! كما يرد هذا الاحتمال أيضا، و هو أنّ ذا الحجة قد يقع فى الصيف أحيانا، ممّا يسبب عليهم، حرجا فى موضوع الحج، و نعرف أن الحج لم يكن مسألة عبادية عند العرب فحسب، بل كان موسما كبيرا منذ زمن إبراهيم الخليل عليه السّلام يجتمع فيه خلق كبير، و تقام فيه الأسواق التجارية و الاقتصادية و المحافل الشعرية و الخطابية، و يفيدون منها فوائد عامّة، لذلك كانوا يبدلون شهر ذى الحجة حسب ميولهم و يجعلون مكانه شهرا آخر طيب الأجواء لطيف الهواء.

و ربّما كانت كلا الغايتين صحيحتين.

و على كل حال، كان هذا العمل باعثا على إشعال نار الحرب أكثر فأكثر، و أن تسحق الغاية من الأشهر الحرم، و أن يتلاعب بمواسم الحج حسب الأهواء ابتغاء المنافع المادية.

و قد عدّ القرآن هذا العمل زيادة فى الكفر، لأنّهم إضافة إلى شركهم و كفرهم الاعتقادى فإنّهم بسحقهم هذا الدستور كانوا يرتكبون كفرا عمليا، و لا سيما أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹

كانوا يرتكبون مخالفتين فى آن واحد إذ كانوا يحرّمون ما أحل اللّه و يحلّون ما حرّم اللّه.

۳- وحدة الكلمة مقابل العدو

إنّ القرآن يعلمنا فى الآيتين آنفتى الذكر أن نقف صفا واحدا بوجه العدو عند الحرب، و يستفاد من هذا النص القرآنى أنّه ينبغى التنسيق حتى فى المواجهات السياسية و الثقافية، و الاقتصادية و العسكرية فنحن نكتسب القوة فى ظل هذه الوحدة التى تنتهل من روح الإسلام و هذا الأمر قد جعل فى طى النسيان و كان مدعاة الى انحطاط المسلمين و تأخرهم.

۴- كيف يزيّن للناس سوء أعمالهم؟!

إنّ فطرة الإنسان إذا كانت نقيّة تميز الصالح من الطالح بصورة جيدة، إلّا أنّه حين يذنب الإنسان و يخطو فى طريق الآثام فإنّه يفقد هذا الإحساس «بتمييز الصالح من الطالح» تدريجا.

و متى ما واصل الإقدام على السيئات، تبدو له سيئاته و كأنّها أمر حسن و تتزين له، و هذ ما أشارت إليه آيات القرآن- فى هذا المورد- و فى موارد أخرى.

و قد ينسب تزيين الأعمال السيئة للشيطان، كما فى الآية (۶۳) من سورة النحل فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ و قد يسند الفعل الى ما لم يسمّ فاعله و يبنى للمجهول كما فى الآى محل بحثنا، و قد يكون الفاعل وسوسة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء. و قد ينسب الى الشركاء أى الأصنام، كما فى الآية (۱۳۷) من سورة الأنعام، و قد ينسب تزيين الأعمال السيئة الى اللّه، كما فى الآية (۴) من سورة النمل إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ

و قد قلنا مرارا: إنّ نسبة مثل هذه الأمور الى اللّه مع أنّها تخصّ عمل الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰

نفسه لأن خواص الأشياء بيد اللّه، فهو مسبب الأسباب. و قلنا بأن مثل هذه النسبة لا تنافى مسألة الإختيار و حرية إرادة الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۳۸ الى ۳۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (۳۸) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

سبب النّزول

جاء عن ابن عباس و آخرين أنّ الآيتين- محل البحث- نزلتا فى معركة تبوك حين كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عائدا من الطائف الى المدينة، و هو يهيئ الناس و يعبؤهم لمواجهة الروم.

و قد ورد فى الرّوايات الإسلاميّة أنّ النّبى لم يكن يبيّن أهدافه و إقدامه على المعارك للمسلمين قبل المعركة لئلا- تقع الأسرار العسكرية بيد أعداء الإسلام، أنّه فى معركة تبوك، لما كانت المسألة لها شكل آخر، فقد بيّن كل شىء للمسلمين بصراحة، و أنّهم سيواجهون الروم، لأنّ مواجهة امبراطورية الروم لم تكن مواجهة بسيطة كمواجهة مشركى مكّة أو يهود خيبر، و ينبغى على المسلمين أن يكونوا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲

منتهى الاستعداد و بناء الشخصية أضف الى كل ذلك أنّ المسافة بين المدينة و أرض الروم كانت بعيدة غاية البعد، و كان الوقت صيفا قائظا، و هو أوان اقتطاف الثمار و حصد الحبوب و الغلات.

هذه الأمور اجتمعت بعضها الى بعض فصعب على المسلمين الخروج للقتال.

حتى أنّ بعضهم تردد فى استجابته لدعوة الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فالآيتان- محل البحث- نزلتا فى هذا الظرف، و أنذرتا المسلمين بلهجة صارمة لمواجهة هذه المعركة الحاسمة.[۲۳]

التّفسير

التّحرك نحو سوح الجهاد مرّة أخرى

كما أشرنا آنفا فى شأن نزول الآتين، فإنّهما نزلتا فى غزوة «تبوك».

و تبوك منطقة بين المدينة و الشام، و تعدّ الآن من حدود الحجاز، و كانت آنئذ على مقربة من أرض الروم الشرقية المتسلطة على الشامات.[۲۴] و قد حدثت هذه الواقعة فى السنة التاسعة للهجرة، أى بعد سنة من فتح مكّة تقريبا.

و بما أن المواجهة فى هذا الميدان كانت مواجهة لإحدى الدول الكبرى فى ذلك العصر، لا مواجهة لإحدى القبائل العربية، فقد كان جماعة من المسلمين قلقين مشفقين من المساهمة و الحضور فى هذه المواجهة، و لذلك فقد كانت الأرضية مهيأة لوساوس المنافقين و بذر السموم، فلم يألوا جهدا فى إضعاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳

المعنويات و إحباط المؤمنين أبـدا. فقـد كان الموسم موسم اقتطاف الثمار و جمع المحاصـيل الزراعيـة، و كان هذا الموسم للمزارعين يعدّ فصلا مصيريا، إذ فيه رفاه سنتهم هذا من جهة.

و من جهـة أخرى، فإنّ بعـد المسافـة و حرارة الجوّ- كما أشـرنا آنفا- كلّ ذلك كان من العوامل المثبطة للمسـلمين فى حركتهم نحو مواجهة الأعداء.

فنزل الوحى ليشدّ من أزر الناس، و الآيات تترى الواحدة بعد الأخرى لإزالة الموانع و الأسباب المثبطة.

ففى الآيـة الأولى- من الآيتين محل البحث- يـدعو القرآن المسـلمين الى الجهاد بلسان الترغيب تارة و بالعتاب تارة أخرى و بالتهـديد ثالثة فهو يدعوهم و يهيؤهم الى الجهاد، و يدخل إليهم من كل باب.

إذ تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ

«اثّاقلتم» فعل مشـتق من الثقل، و معناه واضـح إذ هو خلاف «الخفيف» و جملـة «اثاقلتم» كنايـة عن الرغبـة فى البقاء فى الوطن و عـدم التحرك نحو سوح الجهـاد، أو الرغبـة فى عـالم المادة و اللصوق بزخارفها و الانشـداد نحو الـدنيا، و على كل حال فالآيـة تخاطب من كان كذلك من المسلمين- ضعاف الإيمان- لا جميعهم، و لا المسلمين الصادقين و عاشقى الجهاد فى سبيل اللّه.

ثمّ تقول الآية مخاطبة إيّاهم بلهجة الملامة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

فكيف يتسـنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخسـران، و كيف يعوّض متاعا غاليا لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئا؟! ثمّ تتجاوز الآية مرحلة الملامة و العتاب الى لهجة أشدّ و أسلوب تهديدىّ جديد، فتقول: إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم و أعرضـتم عن الذهاب الى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسـلام ستتوقف و ينطفئ نور الإسلام، فأنتم فى غايـة الخطأ و اللّه غنى عنكم وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ قوما أفضل منكم من كل جهـة، لا من حيث الشخصـيّة فحسب، بل من حيث الإيمان و الإرادة و الشهامة و الاستجابة و الطاعة وَ لا تَضُرُّوهُ شَيْئاً.

و هذه حقيقة و ليست ضربا من الخيال أو أمنية بعيدة المدى، فاللّه عزيز حكيم وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

ملاحظات

۱- فى الآيتين آنفتى الذكر تأكيد على الجهاد من سبعة وجوه:

الأوّل: أنّها تخاطب المؤمنين يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

الثّانى: أنّها تأمر بالتحرك نحو ميدان الجهاد انْفِرُوا.

الثّالث: أنّها عبرت عن الجهاد ب فِي سَبِيلِ اللَّهِ

الرّابع: الاستفهام الإنكارى فى تبديل الدنيا بالآخرة أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ؟

الخامس: التهديد بالعذاب الأليم.

السّادس: الاستبدال بالمخاطبين قَوْماً غيرهم.

السّابع: أنّ اللّه على كل شىء قدير و لا يضره شيئا و إنّما يعود الضرر على المتخلفين.

۲- يستفاد من الآيتين- آنفتى الـذكر- أن تعلق قلوب المجاهدين بالحياة الدنيا يضـعف همتهم فى أمر الجهاد، فالمجاهدون ينبغى أن يكونوا معرضين عن الدنيا، زهّادا غير مكترثين بزخارفها و زبارجها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵

و نقرأ

دعاء للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام لأهل الثغور و حماة الحدود، إذ تقول: «و أنسهم عند لقائهم العدوّ ذكر دنياهم الخدّاعة و امح عن قلوبهم خطرات المال الفتون».

و لو عرفنا قيمة الدنيا و حالها شأن الآخرة و دوامها معرفة حقّة، لوجدنا أنّ الدنيا زهيدة بالمقارنة و الموازنة مع الآخرة الى درجة أنّها لا تحسب شيئا و نقرأ

حديثا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد يقول فيه: «و اللّه ما الدنيا فى الآخرة إلّا كما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ثمّ يرفعا فينظر بم ترجع»!

۳- هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من قوله تعالى: يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ الوارد فى الآى محل البحث فمن هم هؤلاء؟! قال بعضهم: هم الفرس و قال آخرون: بل هم أهل اليمن. و لكلّ منهم أثره فى تقدم الإسلام. و قال آخرون: إنّ المراد بالنص السابق هم أولئك القوم الذين ضحوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه و تقبلوا الإسلام، بعد أن نزلت الآيتان آنفتا الذكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۴۰]

اشارة

إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۴۰)

التّفسير

المدد الإلهى للرّسول فى أشد اللحظات:

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن موضوع الجهاد و مواجهة العدوّ، و كما أشرنا فقد جاء الكلام عن الجهاد مؤكّدا بعدّة طرق، من ضمنها أنّه لا ينبغى أن تتصوروا أنّكم إذا تقاعستم من الجهاد و نصرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فستذهب دعوته و الإسلام أدراج الرياح.

فالآية محل البحث تعقّب على ما سبق لتقول: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ [۲۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷

و كان ذلك عند ما تآمر مشركو مكّة على اغتيال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قتله، و قد مرّ بيان ذلك فى ذيل الآية (۳۰) من سورة الأنفال بالتفصيل، حيث قرّروا بعد مداولات كثيرة أن يختاروا من كل قبيلة من قبائل العرب رجلا مسلّحا و يحاصروا دار النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليلا، و أن يهجموا عليه الغداة و يحملوا عليه حملة رجل واحد فيقطعوه بسيوفهم.

و لكن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم اطّلع- بأمر اللّه- على هذه المكيدة، فتهيأ للخروج من (مكّة) و الهجرة إلى (المدينة) إلّا أنّه توجه نحو (غار ثور) الذى يقع جنوب مكّة و فى الجهة المخالفة لجادة المدينة و اختبأ فيه، و كان معه (أبو بكر) فى هجرته هذه.

و قد سعى الأعداء سعيا حثيثا للعثور على النّبى، إلّا أنّهم عادوا آيسين، و بعد ثلاثة أيّام من اختباء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و صاحبه فى الغار و اطمئنانه من رجوع العدوّ توجه ليلا نحو المدينة (فى غير الطريق المطرّق) و بعد بضعة أيّام وصل صلى اللّه عليه و آله و سلّم المدينة سالما، و بدأت مرحلة جديدة من تأريخ الإسلام هناك.

فالآيـة آنفـة الـذكر تشـير إلى أشـدّ اللحظات حرجا فى هـذا السـفر التاريخى، فتقول: إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا و بالطبع فإنّهم لم يريدوا إخراجه بل أرادوا قتله، لكن لما كانت نتيجة المؤامرة خروج النّبى من مكّة فرارا منهم، فقد نسبت الآية إخراجه إليهم.

ثمّ تقول: كان ذلك فى حال هو ثانِيَ اثْنَيْنِ

و هذا التعبير إشارة إلى أنّه لم يكن معه فى هذا السـفر الشاق إلّا رجل واحد، و هو أبو بكر إِذْ هُما فِي الْغارِ أى غار ثور، فاضطرب أبو بكر و حزن فأخـذ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم يسـرّى عنه، و كمـا تقول الآيـة: إِذْ يَقُولُ لِصـاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸

و لعـل هـذه الجنود الغيبيّـة هى الملائكـة التى حفظت النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى سـفره الشـاق المخيف، أو الملائكـة التى نصرته فى معركتى بدر و حنين و أضرابهما.

وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا.

و هى إشـارة إلى أنّ مؤامراتهم قـد بـاءت بالخيبـة و الفشل و حبطت أعمالهم و آراؤهم، و شعّ نور اللّه فى كل مكان، و كان الإنتصار فى كل موطن حليف محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم لا يكون الأمر كذلك وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

فبعزته و قدرته نصر نبيّه، و بحكمته أرشده سبل الخير و التوفيق و النجاح.

قصّة صاحب النّبى فى الغار:

هناك كلام طويل بين مفسّـرى الشـيعة و أهل السنة فى شأن صحبة أبى بكر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى سفره و هجرته، و ما جاءت من إشارات مغلقة فى شأنه فى الآية آنفا. فمنهم من أفرط، و منهم من فرّط.

فالفخر الرازى فى تفسـيره سـعى بتعصـبه الخاص أن يسـتنبط من هذه الآية اثنتى عشرة فضيلة! لأبى بكر، و من أجل تكثير عدد فضائله أخذ يفصّل و يسهّب بشكل يطول البحث فيه ممّا يتلف علينا الوقت الكثير.

و على العكس من الفخر الرازى هناك من يصرّ على استنباط صفات ذميمة لأبى بكر من سياق الآية.

و ينبغى أن نعرف- أوّلا- هـل تـدل كلمـة «الصاحب» على الفضـيلة؟ و الظاهر أنّها ليست كـذلك، لأنّ الصاحب فى اللغـة تـدلّ على الجليس أو الملازم للمسافر بشـكل مطلق، سواء كان صالحا أم طالحا، كما نقرأ فى الآيـة (۳۷) من سورة الكهف عن محـاورة رجلين فيما بينهما، أحدهما مؤمن و الآخر كافر قالَ لَهُ صاحِبُهُ ... أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ! كما يصـرّ بعضـهم على أنّ مرجع الضمير من «عليه» فى قوله تعالى فَأَنْزَلَ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ يعود على أبى بكر، لأنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم لم يكن بحاجـة إلى السـكينة، فنزول السـكينة إذن كـان على صاحبه، أى أبى بكر.

إلّا أنّه مع الالتفات إلى الجملة التى تليها وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها و مع ملاحظة اتحاد المرجع فى الضـمائر، يتّضح أن الضـمير فى «عليه» يعود على النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أيضا، و من الخطأ أن نتصور بأنّ السـكينة إنّما هى خاصّة فى مواطن الحزن و الأسـى، بل ورد فى القرآن- كثيرا- التعبير بنزول السـكينة على النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و ذلـك حين يواجه الشدائـد و الصـعاب، و من ذلك ما جاء فى الآية (۲۶) من هذه السورة أيضا فى شأن معركة حنين ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

كمـا نقرأ فى الآيـة (۲۶) من سـورة الفتـح أيضـا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَـكِينَتَهُ عَلى رَسُـولِهِ وَ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ مع أنّه لم يرد فى الجمـل و التعـابير

المتقدمة على هاتين الجملتين أى شىء من الحزن و ما إلى ذلك، و إنّما ورد التعبير عن مواجهة الصعاب و التواء الحوادث ...

و على كل حال، فإنّ القرآن يدلّ أن نزول السكينة إنّما يكون عند الشدائد، و ممّا لا ريب فيه أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يواجه اللحظات الصعبة و هو فى (غار ثور)! و الأعجب من كل ما تقدم أن بعضا قال: بأنّ التعبير وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها يعود على أبى بكر. مع أنّ جميع المحاور فى هذه الآية تدور حول نصرة اللّه نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و القرآن يريد أن يكشف أنّ النّبى ليس وحده، و إذا لم ينصره أحد من أصحابه و جماعته، فإنّ اللّه سينصره. فكيف يمكن لأحد أن يترك الشخص الذى تدور حوله بحوث الآية، و يتّجه نحو شخص ثانوى و تبعى فى منظور الآية؟! و هذا يدلّ على أن التعصب بلغ حدّا بأصحابه، بحيث منعهم حتى من الالتفات إلى معنى الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴۱) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۴۲)

التّفسير

الكسالى الطّامعون:

قلنا: إنّ معركة تبوك كانت لها حالة استثنائية، و كانت مقترنة بمقدمات معقّدة و غامضة تماما، و من هنا فإن عددا من ضعاف الإيمان أو المنافقين أخذ «يتعلّل» فى الاعتذار عن المساهمة فى هذه المعركة. و قد وردت فى الآيات المتقدمات ملامة للمؤمنين من قبل اللّه سبحانه لتباطؤهم فى نصرة نبيّهم عند صدور الأمر بالجهاد، و عدم الإسراع إلى ساحة الحرب و أكّدت بأنّ الأمر بالجهاد لصالحكم، و إلّا فإنّ بإمكان اللّه أن يهيئ جنودا مؤمنين شجعانا مكان الكسالى الذين لاحظ لهم فى الثبات و الإرادة، بل حتى مع عدمهم فهو قادر على أن يحفظ نبيّه، كما حفظه «ليلة المبيت»، و فى «غار ثور».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۱

و العجيب أنّ عددا من «خيوط العنكبوت» المنسوجة على مدخل الغار كانت سببا لانحراف فكر الأعداء الألداء، و أن يعودوا قافلين آيسين بعد وصولهم إلى هذا الغار، و أن يسلم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من كيدهم.

فحيث أنّ بإمكان اللّه أن يغيّر مسير التأريخ، ببضعة خيوط من نسيج العنكبوت، فأية حاجة بهذا أو ذاك ليبدى كلّ معاذيره!! و فى الحقيقة فإنّ جميع هذه الأوامر هى لتكامل المسلمين أنفسهم، لا لرفع الحاجة لدى اللّه سبحانه ... و تعقيبا على هذا الكلام يدعو المؤمنين جميعا مرّة أخرى- دعوة عامّة- نحو الجهاد و يعنف المتسامحين فيقول سبحانه: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا.

«الخفاف» جمع الخفيف، «الثقال» جمع الثقيل، و لهاتين الكلمتين مفهوم شامل يستوعب جميع حالات الإنسان. أى انفروا فى أية حالة كنتم شبابا أم شيوخا، متزوجين أم غير متزوجين، تعولون أحدا أم لا- تعولون، أغنياء أم فقراء، مبتلين بشىء أم غير مبتلين، أصحاب تجارة أو زراعة أم لستم من أولئك! فكيف ما كنتم فعليكم أن تستجيبوا لدعوة الداعى إلى الجهاد، و أن تنصرفوا عن أىّ عمل شغلتم به، و تنهضوا مسرعين إلى ساحات القتال، و فى أيديكم السلاح.

و ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هاتين الكلمتين تعنيان مثلا واحدا ممّا ذكرنا آنفا، لا دليل عليه أبدا، بل إنّ كل واحد ممّا ذكرناه مصداق جلى لمفهومها الوسيع.

ثمّ تضيف الآية قائلة: وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ أى جهادا مطلقا عاما من جميع الجهات، لأنّهم كانوا يواجهون عدوّا قويّا مستكبرا، و لا يتحقق النصر إلّا بأن يجاهدوا بكل ما وسعهم من المال و الأنفس.

و لئلا يتوهّم أحد أنّ هذه التضحية يريدها اللّه لنفسه و لا تنفع أصحابها، فإنّ الآية تضيف قائلة: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۲

أى إن كنتم تعلمون بأنّ الجهاد مفتاح عزتكم و رفعتكم و منعتكم.

و لو كنتم تعلمون بأنّ أية أمّة فى العالم لن تصل بدون الجهاد إلى الحرية الواقعية و العدالة.

و لو كنتم تعلمون بأنّ سبيل الوصول إلى مرضاة اللّه و السعادة الأبدية و أنواع النعم و المواهب الإلهية، كل ذلك إنّما هو فى هذه النهضة المقدسة العامّة و التضحية المطلقة.

ثمّ يتناول القرآن ضعاف الإيمان الكسالى الذين يتشبثون بالحجج الواهية للفرار من ساحة القتال، فيخاطب النّبى مبيّنا واقعهم فيقول: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ ۲۶] وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ[۲۷] و العجيب أنّهم لا يكتفون بالأعذار الواهية، بل وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ فعدم ذهابنا إلى ساحات القتال إنّما هو لضعفنا و عدم اقتدارنا و ابتلائنا!! يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

فهم قادرون على الذهاب إلى ساحات القتال، لكن حيث أن السفر ذو مشقة، و يواجهون صعوبة و حرجا، فإنّهم يتشبثون بالكذب و الباطل.

و لم يكن هذا الأمر منحصرا بغزوة تبوك و عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، ففى كل مجتمع فئة من الكسالى و المنافقين و الطامعين و الانتهازيين الذين ينتظرون لحظات الإنتصار ليقحموا أنفسهم فى الصفوف الأولى، و يصرخوا بعالى الصوت أنّهم المجاهدون الأوائل و المخلصون البواسل، لينالوا ثمرات جهود الآخرين فى انتصارهم دون أن يبذلوا أىّ جهد! غير أنّ هؤلاء «المجاهدين» المخلصين!! كما يزعمون، حين يواجهون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۳

الشدائد و الأزمات يلوذون بالفرار و يتشبثون بالأعذار الباطلة و الحجج الواهية.

كأن يقول أحدهم: إنّى مريض، و يقول الآخر: إنى مبتلى بطفلى، و يقول الثّالث:

زوجى مقرب و على و شك الولادة، و يقول الرّابع: يا ليتنى كنت معكم لو لا ضعف فى عينىّ لا أبصر بهما، و يقول الخامس: أنا أتدارك مقدمات الأمر و أنا على أثركم، و هكذا ...

إلّا أنّ على القادة و الصفوة من النّاس أن يعرفوا هذه الفئة من بداية الأمر، و إذا لم يكونوا أهلا للإصلاح فينبغى إخراجهم و طردهم من صفوف المجاهدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۴

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۳ الى ۴۵]

اشارة

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (۴۳) لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ

يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (۴۴) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (۴۵)

التّفسير

التعرّف على المنافقين!

يستفاد من الآيات- محل البحث- أنّ جماعة من المنافقين جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بعد أن تذرعوا بحجج واهية مختلفة- حتى أنّهم أقسموا على صدق مدعاهم- استأذنوا النّبى أن ينصرفوا عن المساهمة فى معركة تبوك، فأذن لهم النّبى بالانصراف.

فاللّه سبحانه يعتّب على النّبى فى الآية الأولى من الآيات محل البحث فيقول:

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و هناك كلام طويل بين المفسّرين فى المراد من عتاب اللّه نبيّه المشفوع بالعفو عنه، أهو دليل على أن إذن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مخالفة، أم هو من باب ترك الأولى، أم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۵

لا هذا و لا ذاك؟! و قد جنح البعض إلى الإفراط إلى درجة أنّهم أساؤوا إلى مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ساحته المقدّسة، و زعموا أن الآيات المذكورة أنفا دليل على إمكان صدور العصيان و الذنب من قبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم يراعوا- على الأقل- الأدب الذى رعاه اللّه العظيم فى تعبيره عن نبيّه الكريم، إذ بدأ بالعفو ثمّ ثنى بالعتاب و المؤاخذة، فوقعوا فى ضلال عجيب.

و الإنصاف أنّه لا دليل فى الآية على صدور أى ذنب أو معصية من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حتى ظاهر الآية لا يدلّ على ذلك، لأنّ جميع القرائن تثبت أن النّبى سواء أذن لهم أم لم يأذن، فإنّهم لم يكونوا ليساهموا فى معركة تبوك، و على فرض مساهمتهم فيها لم يحلّوا مشكلة من أمر المسلمين، بل يزيدون الطين بلة، كما سنقرأ فى الآيات التالية قوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا.

فبناء على ذلك فإنّ المسلمين لم يفقدوا أيّة مصلحة بإذن النّبى لأولئك بالانصراف، غاية الأمر أنّه لو لم يأذن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لهم فسرعان ما ينكشف أمرهم و يعرفهم المسلمون، غير أنّ هذا الموضوع لم يكن من الأهمية بحيث أنّ ذهابهم و فقدانهم موجبا لارتكاب ذنب أو عصيان.

و ربّما يمكن أن يسمى ذلك تركا للأولى فحسب، بمعنى أنّ إذن النّبى لهم فى تلك الظروف، و بما أظهره أولئك المنافقون من الأعذار بأيمانهم، و إن لم يكن أمرا سيئا، إلّا أن ترك الإذن كان أفضل منه، لتعرف هذه الجماعة بسرعة.

كما يحتمل فى تفسير الآية هو أنّ العتاب أو الخطاب المذكور آنفا إنّما هو على سبيل الكناية، و لم يكن فى الأمر حتى «ترك الأولى» بل المراد بيان روح النفاق فى المنافقين ببيان لطيف و كناية فى المقام.

و يمكن أن يتّضح هذا الموضوع بذكر مثال فلنفرض أن ظالما يريد أن يلطم وجه ابنك، إلّا أن أحد أصدقائك يحول بينه و بين مراده فيمسك يده فقد تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۶

راضيا عن سلوكه هذا، بل و تشعر بالسرور الباطنى، إلّا أنّك و لإثبات القبح الباطنى للطرف المقابل تقول لصديقك: لم لا تركته يضربه على وجهه و يلطمه؟

و هدفك من هذا البيان إنّما هو إثبات قساوة قلب هذا الظالم و نفاقه، الذى ورد فى ثوب عتاب الصديق و ملامته من قبلك؟

و هناك شبهة أخرى فى تفسير الآية، و هى أنّه: ألم يكن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعرف المنافقين حتى يقول له اللّه سبحانه: لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و الجواب على هذا السؤال، هو:

أوّلا- أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يعرف المنافقين و يعلم حالهم عن طريق العلم الظاهرى، و لا- يكفى علم الغيب للحكم فى الموضوعات، بل ينبغى أن ينكشف أمرهم عن طريق الأدلة المألوفة و (المعتادة).

ثانيا: لم يكن الهدف الوحيد أن يعلم النّبى حالهم فحسب، بل لعل الهدف كان أن يعلم المسلمون جميعا حالهم، و إن كان الخطاب موجّها للنّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يتناول القرآن أحد علامات المؤمنين و المنافقين، فيقول: لا- يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ

بل ينهضون مسرعين دون سأم أو ملل عند صدور الأمر بالجهاد و يدعوهم الإيمان باللّه و اليوم الآخر و مسئولياتهم و إيمانهم بمحكمة القيامة، كلّ ذلك يدعوهم إلى هذا الطريق و يوصد بوجوههم الأعذار و الحجج الواهية وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ

ثمّ يضيف القرآن: إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و يعقّب مؤكّدا عدم إيمانهم بالقول: وَ ارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ

و بالرّغم من أنّ الصفات الواردة فى الآيات آنفا جاءت بصيغة الفعل المضارع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۷

إلّا أنّ المراد منها بيان صفات المؤمنين و صفات المنافقين و أحوالهم، و لا فرق بين الماضى و الحال و الاستقبال فى ذلك.

و على كل حال فإن المؤمنين- بسبب إيمانهم- لديهم إرادة ثابتة و تصميم أكيد لا يقبل التهاون و الرجوع حيث يرون طريقهم بجلاء و وضوح، فمقصدهم معلوم و هدفهم واضح، و لذلك فهم يمضون بخطى واثقة نحو الأمام و لا يترددون أبدا.

أمّا المنافقون فلأن هدفهم مظلم و غير معلوم، فهم مترددون حائرون ذاهلون، و يبحثون دائما عن الأعذار و الحجج الواهية للتخلص و الفرار من تحمل المسؤولية الملقاة على عواتقهم.

و هاتان العلامتان لا تختصان بالمؤمنين و المنافقين فى صدر الإسلام و معركة تبوك فحسب، بل يمكن فى عصرنا الحاضر أن نميز المؤمنين الصادقين من المدّعين الكاذبين بهاتين الصفتين.

فالمؤمن شجاع ذو إرادة و تصميم و خطى واثقة، و المنافق جبان و خائف و متردد و حائر و يبحث عن المعاذير دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۸

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۴۶ الى ۴۸]

اشارة

وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (۴۶) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالاً وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۴۷) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ

حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ (۴۸)

التّفسير

عدم وجودهم أفضل:

فى الآيـة الأولى- من الآيات أعلاه- بيان لعلامـة أخرى من علائم كذبهم، و هى فى الحقيقة تكمل البحث الوارد فى الآيات المتقدمة آنفا، إذ جاء فيها وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فالآية محل البحث تقول: وَ لَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً.

و لم ينتظروا الإذن لهم، وَ لكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ۲۸] وَ قِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۶۹

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد ب «قيل اقعدوا» فمن هو القائل؟! أهو اللّه سبحانه، أم النّبى، أم باطنهم؟! الظاهر أنّه أمر تكوينى نهض من باطنهم المظلم، و إنّه مقتضـى عقيدتهم الفاسدة و أعمالهم القبيحة، و كثيرا ما يرى أن مقتضـى الحال يظهرونه فى هيئة الأمر أو النهى. و يستفاد من الآية محل البحث أنّ لكلّ عمل ونيّة اقتضاء يبتلى به الإنسان شاء أم أبى، و ليس لكلّ أحد قابلية السير فى سبيل اللّه و تحمّل الأعباء الكبرى، بل هو توفيق من قبل اللّه يوليه من يجد فيه طهارة النيّة و الاستعداد و الإخلاص.

و فى الآيـة التاليـة إشارة إلى هـذه الحقيقـة، و هى أن عـدم مساهمـة مثل هؤلاء الأفراد فى ساحـة الجهاد ليس مـدعاة للتأثر و الأسـف فحسب، بل لعله مـدعاة للسـرور، لأنّهم لا ينفعونكم فحسب، بل سـيكونون بنفاقهم و معنوياتهم المتزلزلة و انحرافهم الأخلاقى مصدرا لمشاكل أخرى جديدة.

و الآيـة فى الحقيقة تعطى درسا للمسـلمين أن لا يكترثوا بكثرة المقاتلين أو قلّتهم و كميتهم و عددهم، بل عليهم أن يفكروا فى اختيار المخلصين المؤمنين و إن كانوا قلّة، فهذا درس لمسلمى الماضى و الحاضر و المستقبل.

و تقول الآية: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ أى إلى تبوك للقتال ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا.

«الخبال» بمعنى الاضطراب و التردد.

و الخبل على زنة «الأجل» معناه الجنون.

و الخبل على زنة «الطبل» معناه فساد الأعضاء.

فبنـاء على ذلك فإنّ حضورهم بتلك الروحيّـة الفاسـدة المقرونـة بالتردد و النفاق لا أثر له سوى إيجاد الشك و التردد و تثبيط العزائم بين جنود الإسلام.

و تضيف الآية قائلة: وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ[۲۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۰

ثمّ تنذر المسلمين من المتأثرين بهم فى صفوف المسلمين وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ

«السمّاع» تطلق على من يسمع كثيرا دون تروّ أو تدقيق، فيصدّق كل كلام يسمعه.

فبناء على ذلك فإنّ وظيفة المسلمين الراسخين فى الإيمان مراقبت مثل هؤلاء الضعفاء لئلا يقعوا فريسة المنافقين الذئاب. كما يرد هذا الاحتمال، و هو أنّ المراد من السمّاع فى الآية هو الجاسوس الذى يتجسّس بين المسلمين و يجمع الأخبار للمنافقين.

و تختتم الآية بالقول: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إنذار للنّبىّ صـلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ هؤلاء المنافقين لم يبادروا لأوّل مرّة إلى التخريب و

التفرقة و بذر السموم، بل ينبغى أن تتذكر- يا رسول اللّه- أنّ هؤلاء ارتكبوا من قبل مثل هذه الأمور و هم يتربصون الفرص الآن لينالوا مناهم لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ

و هذه الآية تشير إلى ما جرى فى معركة أحد حيث رجع عبد اللّه بن أبى و أصحابه و انسحبوا و هم فى منتصف الطريق، أو أنّها تشير إلى مؤامرات المنافقين عامّة التى كانوا يكيدونها للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو للمسلمين، و لم يغفل التاريخ أن يسجلها على صفحاته! وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ و خطّطوا للإيقاع بالمسلمين، أو لمنعهم من الجهاد بين يديك، إلّا أن كل تلك المؤامرات لم تفلح، و إنما رقموا على الماء و رشقوا سهامهم على الحجر حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ

غير أن مشيئة العباد و إرادتهم لا أثر لها إزاء مشيئة اللّه و إرادته، فقد شاء اللّه أن ينصرك و أن يبلغ رسالتك إلى أصقاع المعمورة، و يزيل العراقيل و الموانع عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۱

منهاجك، و قد فعل.

إلّا أنّ ما يهمنا هنا أن نعرف أنّ مدلول الآيات آنفة الذكر لا يختص بعصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و زمانه، ففى كل جيل و كل عصر جماعة من المنافقين تحاول أن تنثر سموم التفرقة فى اللحظات الحسّاسة و المصيرية، ليحبطوا روح الوحدة و يثيروا الشكوك و التردد فى أفكار الناس، غير أنّ المجتمع إذا كان واعيا فهو منتصر بأمر اللّه و وعده الذى وعد أولياءه، و هو- سبحانه- الذى يذر ما يرقم المنافقون و مخططاتهم سدى، شريطة أن يجاهد أولياؤه فى سبيله مخلصين، و أن يراقبوا بحذر أعداءهم المتوغلين بينهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۷۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۲

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۴۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۴۹)

سبب النزول

قال جماعة من المفسّرين: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعبّئ المسلمين و يهيؤهم لمعركة تبوك و يدعوهم للتحرك نحوها، فبينا هو على مثل هذه الحال إذا برجل من رؤساء طائفة «بنى سلمة» يدعى «جدّ بن قيس» و كان فى صفوف المنافقين، فجاء إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مستأذنا أن لا يشهد المعركة، متذرعا بأنّ فيه شبقا إلى النساء، و إذا ما وقعت عيناه على بنات الروم فربّما سيهيم ولها بهنّ و ينسحب من المعركة!! فأذن له النّبى بالانصراف.

فنزلت الآية أعلاه معنفة ذلك الشخص!

فالتفت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى بنى سلمة و قال: من كبيركم؟ فقالوا: جدّ بن قيس، إلّا أنّه رجل بخيل و جبان، فقال: و أى شىء أبشع من البخل؟ ثمّ قال: إن كبيركم ذلك الشاب الوضىء الوجه بشر بن براء «و كان رجلا سخيا سمحا بشوشا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۳

التّفسير

المنافقون المتذرّعون:

يكشف شأن النزول المذكور أن الإنسان متى أراد أن يتنصل من تحمل المسؤولية يسعى للتذرّع بشتى الحيل، كما تذرع المنافق جد بن قيس لعدم المشاركة فى المعركة و ميدان الجهاد، بأنّه ربّما تأسره الوجوه النضرة من بنات الروم و تختطف قلبه، فينسحب من المعركة و يقع فى إشكال شرعى!! ...

و يذكرنى قول جد بن قيس بكلام بعض الضالعين فى ركاب الطاغوت، إذ كان يقول: إذا لم نضغط على الناس فإنّ ما نتسلمه من الراتب و الحقوق المالية مشكل شرعا. فمن أجل التخلص من هذا الإشكال الشرعى لا بدّ من إيذاء الناس و ظلمهم!.

و على كل حال فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليردّ على مثل هذه الذرائع المفضوحة قائلا: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَ لا تَفْتِنِّي بالنساء و الفتيات الروميات الجميلات.

كما و يحتمل فى شأن نزول الآية أن جد بن قيس كان يتذرع ببقاء امرأته و أطفاله و أمواله بلا حام و لا كفيل بعده ليتخلّص من الجهاد.

و لكن القرآن يقول مجيبا عليه و أمثاله: أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

أى أنّ أمثال أولئك الذين تذرّعوا بحجّة الخوف من الذنب- هم الآن واقعون فيه فعلا، و أن جهنم محيطة بهم، لأنّهم تركوا ما أمرهم اللّه و رسوله به وراء ظهورهم و انصرفوا عن الجهاد بذريعة الشبهة الشرعية!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۴

ملاحظتان

۱- إن أحد طرق معرفة جماعة المنافقين فى كل مجتمع، هو التدقيق فى أسلوب استدلالهم و أعذارهم التى يذكرونها ليتركوا ما عليهم من الوظائف، فهذه الأعذار تكشف- بجلاء- ما يدور فى خلدهم و باطنهم. فهم غالبا ما يتشبثون بسلسلة من الموضوعات الجزئية و المضحكة أحيانا بدلا من الاهتمام بالمواضيع المهمّة، و يستعملون المصطلحات الشرعية لإغفال المؤمنين و يتذرّعون بالاحكام الشرعية و أوامر اللّه و رسوله، فى حين غارقون فى دوّامة الخطايا، جادّون فى عداوتهم للرسول و دينه القويم.

۲- للمفسّرين أقوال مختلف فى تفسير جملة وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ فقال بعضهم: هذه العبارة كناية عن إحاطة عوامل ورودهم إلى جهنم بهم، أى أن ذنوبهم تحيط بهم! و قال بعضهم: إنّ هذا التعبير من قبيل الحوادث الحتمية المستقبلية التى تذكر بصيغة الفعل الماضى أو الحال، أى أن جهنم ستحيط بهم بشكل قاطع.

كما و يحتمل أن نفسر الجملة بمعناها الحقيقى، و هو أن جهنم موجودة فعلا، و هى عبارة عن باطن هذه الدنيا، فالكفار قابعون فى وسط جهنّم فى حياتهم الدنيوية و إن لم يصدر الأمر بتأثيرها، كما أن الجنّة موجودة فى هذه الدنيا أيضا و تحيط بالجميع، غاية ما فى الأمر لما كان أهل الجنّة جديرين بها فسيكونون مرتبطين بها؛ و أهل النّار جديرون بالنّار فهم من أهلها أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۰ الى ۵۲]

اشارة

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ (۵۰) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (۵۲)

التّفسير

فى الآيات- آنفة الذكر- إشارة إلى إحدى صفات المنافقين و علاماتهم و بهذا تتابع البحث الذى يتناول صفات المنافقين فى ذيل الآيات المتقدمة و الآيات اللاحقة.

تقول الآيات أوّلا: إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ

سواء كانت هذه الحسنة انتصارا على العدوّ، أو الغنائم التى تنالونها فى المعارك أو أىّ تقدّم آخر.

و هذه المساءة دليل على العداوة الباطنيّة و فقدان الإيمان. فكيف يمكن لمن له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۶

أدنى إيمان أن يسوءه انتصار النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو أى مؤمن آخر؟! و لكنّهم على خلاف هذه الحال عند الشدّة و الخطب: وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ

هؤلاء المنافقون عمى القلوب ينتهزون أيّة فرصة لصالحهم و منافعهم، و يزعمون أن ما نالوه كان بتدبيرهم و عقلهم، إذ لم نساهم فى المعركة الفلانية و لم نقع فى أىّ مأزق!! كما أبتلى به الآخرون الذين لم يكن لهم نصيب من التعقل و التدبر، و بهذه المزاعم يعودون إلى أوكارهم و هم يكادون أن يطيروا فرحا.

و لكنك- يا رسول اللّه- عليك أن تردّ عليهم بجواب منطقىّ متين و ذلك:

أوّلا: قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا أجل فلا يريد بنا إلّا الخير و الصلاح: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

فهم يعشقون اللّه فحسب، و منه يطلبون المدد و العون، و يتوكلون عليه و يلتجئون إليه عند الخطوب.

و هذا خطأ كبير أبتلى به المنافقون، إذ يتخيّلون أنّهم بعقولهم القاصرة و فكرهم المحدود يستطيعون أن يواجهوا جميع المشكلات و الحوادث، و أن يكونوا فى غنىّ عن رحمة اللّه و لطفه!! ... إنّهم لا يعلمون أن جميع وجودهم لا يعدو ورقة يابسة فى مهبّ العاصفة. أو كقطرة ماء فى صحراء محرقة فى يوم قائظ فلو لا لطف اللّه و مدده فما عسى أن يفعل الإنسان الضعيف أمام الشدائد و الخطوب؟!

ثانيا: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ! فإمّا أن نبير الأعداء فى ساحة الحرب و نبيدهم و نعود منتصرين، أو نقتل فننهل ورد الشهادة العذب، فكلاهما محبّب لنا و مصدر افتخارنا.

و هكذا يختلف حالنا عن حالكم، فنحن نتوقع لكم مساءتين: إمّا أن تصيبكم سهام البلايا و المصائب و العقوبات الإلهية سواء فى الدنيا أو الآخرة، أو يكون هلاككم على أيدينا: وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۷

بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ تربصوا غبطتنا و سعادتنا و نحن نتربص شقاءكم و سوء عاقبتكم.

بحوث

۱- المقادير و سعى الإنسان

ممّا لا شك فيه أن مآلنا و عاقبة أمرنا- بأيدينا- ما دام الأمر يدور فى دائرة سعينا وجدّنا، و القرآن الكريم يصرّح بهذا الشأن أيضا، كقوله تعالى: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ۳۰]، و كقوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[۳۱] و فى آيات أخر. بالرغم من أنّ الجد و السعى هما من السنن الإلهيّة و بأمره تعالى أيضا.

إلّا أنّه عند خروج الأمر عن دائرة سعينا وجدّنا، فإنّ يد القدر هى التى تتحكم بمآلنا و عاقبة أمرنا، و ما هو جار بمقتضى قانون العليّة الذى ينتهى إلى مشيئة اللّه و علمه و حكمته و هو مقدّر علينا، فهو ما سيكون و يقع حينئذ. غاية ما فى الأمر أن المؤمنين باللّه و علمه و حكمته و لطفه و رحمته، يفسّرون هذه المقادير بأنّها جارية وفقا «للنظام الأحسن» و ما فيه مصلحة العباد، و كلّ يبتلى بمقادير تناسبه حسب جدارته التى اكتسبها.

فالجماعة إذا كانوا من المنافقين الجبناء و الكسالى و المتفرقين فهى محكومة بالفناء حتما. إلّا أنّ الجماعة المؤمنة الواعية المتّحدة المصمّمة، ليس لها إلّا النصر و التوفيق مآلا.

فبناء على ذلك يتّضح أنّ الآيات آنفة الذكر لا تنافى أصل الحرية [حرية الإرادة و الإختيار] و ليست دليلا على العاقبة الجبرية للإنسان أو أن سعى الإنسان لا أثر له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۸

۲- لا وجود للهزيمة فى قاموس المؤمنين

نواجه فى آخر آية- من الآيات محل البحث- منطقا محكما متينا يستبطن السّر الأساس لانتصارات المسلمين الأوائل جميعا، و لو لم يكن للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من تعليم و دستور إلّا ما نجده فى هذه الآية لكان كافيا لانتصار أتباعه و مقتفى منهاجه، و هو أنّه لا مفهوم للهزيمة فى صفحات أرواحهم فقد أثبتت الحوادث أنّهم منتصرون على كل حال، منتصرون إن استشهدتم! ... منتصرون إن قتلتم أعداءكم! و إنّ للمؤمنين مسلكين لا ثالث لهما، فى أىّ منهما ساروا و سلكوا و صلوا إلى هدفهم و غايتهم.

أحدها هو طريق الشهادة التى تمثل أوج الفخر للمؤمنين، و أعظم موهبة يمكن أن تتصور للإنسان أن يبيع اللّه نفسه، و يشترى الحياة الأبدية الخالدة و جوار اللّه، و التنعم بما لا يمكن وصفه من النعم.

و الآخر هو الإنتصار على العدوّ و تدمير قواه الشيطانية، و تطهير البيئة و المحيط الإنسانى من لوث الظالمين و المنحرفين الضالين، و هذا بنفسه فيض و لطف كبير و فخر مسلّم به.

فالجندى الذى يدخل ساحة المعركة بهذه الروحية و المعنوية لا يفكر بالفرار و الإدبار أبدا، و لا يخاف من أى أحد و لا من أى شىء، فالخوف و الاستيحاش و الاضطراب و التردد ليس لها طريق إلى قلبه و وجوده. و الجيش الذى يتألف من جنود بهذه الروحية لا يعرف الهزيمة إطلاقا.

و لا يحصل الإنسان على هذه المعنويات العالية إلّا عن طريق اعتماد التعليمات الاسلامية، فلو أنّ هذه التعليمات تجلّت مرّة أخرى فى نفوس المسلمين بالتربية السليمة و التعليم الصحيح لأمكن جبران كل اشكال التخلف الذى أصاب المسلمين.

أولئك الذين يطالعون و يدرسون أسباب تقدّم المسلمين الأوائل و انتصارهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۷۹

و أسباب تأخرهم فى الوقت الحاضر، و يعدّون الأمر أحجية و لغزا لا ينحلّ، من الأفضل لهم أن يأتوا و يفكروا فى هذه الآية ليتّضح لهم الجواب على ما يرد فى خواطرهم.

ممّا ينبغى الالتفات إليه آنفة الذكر عند ما تتحدث عن هزيمتى المنافقين و اندحارهم، تبيّن ذلك بتفصيل وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا إلّا أنّها تمرّ على بيان انتصار المؤمنين بإجمال، فكأنّ المسألة من الوضوح بمكان حتى أنّها لا تحتاج إلى بيان و شرح، و هذه لطيفة بلاغيّة تناولتها الآية الكريمة.

۳- صفات المنافقين

نؤكّد مرّة أخرى على أنّه لا ينبغى أن نقرأ هذه الآيات و نعدّ موضوعها مسألة تاريخية ترتبط بما سبق، بل علينا أن نعتبرها درسا ليومنا و أمسنا و غدنا، و لجميع الناس. فليس من مجتمع يخلو من مجموعة منافقين، قلّت أو كثرت، و صفاتهم على شاكلة واحدة تقريبا.

فالمنافقون عادة أناس جهلة أنانيون متكبرون، يزعمون بأنّهم يتمتّعون بقسط وافر واف من العقل و الدراية! إنّهم فى عذاب و حسرة ما دام الناس فى راحة و سرور و يفرحون عند ما تحلّ بهم كارثة!.

إنّهم يتخبطون فى دوامة من الوهم و الشك و الحيرة، و لذلك فهم يخطون تارة نحو الأمام، و أخرى إلى الوراء!! و على خلافهم المؤمنون، فهم يشاركون الناس فى السراء و الضرّاء، و لا يزعمون أنّهم أولو علم و دراية، و لا يستغنون عن رحمة اللّه و لطفه، و قلوبهم تعشق اللّه و لا تخاف فى سبيله من سواه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۰

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۳ الى ۵۵]

اشارة

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (۵۳) وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ (۵۴) فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (۵۵)

التّفسير

تشير هذه الآيات إلى قسم آخر من علامات المنافقين و عواقب أعمالهم و نتائجها، و تبيّن بوضوح كيف أن أعمالهم لا أثر لها و لا قيمة، و لا تعود عليهم بأىّ نفع.

و لما كان- من بين الأعمال الصالحة- الإنفاق فى سبيل اللّه «الزكاة بمعناها الواسع» و الصلاة «و هى العلاقة بين الخلق و الخالق»- لهما موقع خاص، فقد اهتمّت الآيات بهذين القسمين اهتماما خاصا! تخاطب الآيات النّبى الكريم فتقول: قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۱

مِنْكُمْ ۳۲].

ثمّ تشير الآية إلى سبب ذلك فتقول: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ

فنيّاتكم غير خالصة، و أعمالكم غير طاهرة، و قلوبكم مظلمة، و إنّما يتقبل اللّه العمل الطاهر من الورع التقى.

و واضح أنّ المراد من الفسق هنا ليس هو الذنب البسيط و المألوف، لأنّه قد يرتكب الإنسان ذنبا و هو فى الوقت ذاته قد يكون مخلصا فى أعماله، بل المراد منه الكفر و النفاق، أو تلوّث الإنفاق بالرياء و التظاهر.

كما لا يمنع أن يكون الفسق- فى التعبير آنفا- فى مفهومه الواسع شاملا للمعنيين، كما ستوضح الآية التالية ذلك.

و فى الآية التالية يوضح القرآن مرّة أخرى السبب فى عدم قبول نفقاتهم فيقول: وَ ما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ

و القرآن يعوّل كثيرا على أنّ قبول الأعمال الصالحة مشروط بالإيمان، حتى أنّه لو قام الإنسان بعمل صالح و هو مؤمن، ثمّ كفر بعد ذلك فإنّ الكفر يحبط عمله و لا يكون له أى أثر «بحثنا فى هذا المجال فى المجلد الثّانى من التّفسير الأمثل».

و بعد أن أشار القرآن إلى عدم قبول نفقاتهم، يشير إلى حالهم فى العبادات فيقول: وَ لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى كما أنّهم وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ

و فى الحقيقة أنّ نفقاتهم لا تقبل لسببين:

الأوّل: هو أنّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ

و الثّانى: أنّهم إنما ينفقون عن كره و إجبار.

كما أن صلواتهم لا تقبل لسببين أيضا:

الأوّل: لأنّهم كَفَرُوا بِاللَّهِ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۲

و الثّانى: أنّهم لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى ...

العبارات المتقدمة فى الوقت الذى تبيّن حال المنافقين فى عدم النفع من أعمالهم، فهى فى الحقيقة تبيّن علامة أخرى من علائمهم فى الوقت ذاته، و هى أن المؤمنين الواقعيين يمكن معرفتهم من نشاطهم عند أداء العبادة، و رغبتهم فى الأعمال الصالحة التى تتجلى فيهم بإخلاصهم.

كما يمكن معرفة حال المنافقين عن طريق كيفية أعمالهم، لأنّهم يؤدّون أعمالهم عادة دون رغبة و مكرهين، فكأنّما يساقون إلى عمل الخير سوقا.

و بديهى أنّ أعمال الطائفة الأولى (المؤمنين) لما كانت تصدر عن قلوب تعشق اللّه مقرونة بالتحرق و اللهفة، فإنّ جميع الآداب و مقرراتها مرعية فيها. إلّا أنّ الطائفة الثّانية لما كانت أعمالها تصدر عن إكراه و عدم رغبة، فهى ناقصة لا روح فيها، و هكذا تكون البواعث المختلفة فى أعمال الطائفتين تظفى على الأعمال شكلين مختلفين.

و فى آخر الآية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب نحو النّبى قائلا: فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ

فهى و إن كانت نعمة بحسب الظاهر، إلّا أنّه إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ

و فى الواقع فإنّهم يعذبون عن طريقين بسبب هذه الأموال و الأولاد، أى القوة الاقتصادية و الإنسانية:

فالأوّل: إنّ مثل هؤلاء الأبناء لا يكونون صالحين عادة، و مثل هذه الأموال لا بركة فيها، فيكونان مدعاة قلقهم و ألمهم فى الحياة الدنيا، إذ عليهم أن يسعوا ليل نهار من أجل أبنائهم الذين هم مدعاة أذاهم و قلقهم، و أن يجهدوا أنفسهم لحفظ أموالهم التى اكتسبوها عن طريق الإثمّ و الحرام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۳

و الثّانى: لما كانوا بهذه الأموال و الأولاد متعلقين، و لا يؤمنون بالحياة بعد الموت و لا بالدار الآخرة الواسعة و لا بنعيمها الخالد فليس من الهيّن أن يغمضوا عن هذه الأموال و الذّرية، و يخرجون من هذه الدنيا- بحال مزرية و فى حال الكفر.

فالمال و البنون قد يكونان موهبة و سعادة و مدعاة للرفاه و الهدوء و الاطمئنان و الدعة إذا كانا طاهرين طيبين و إلّا فهما مدعاة العذاب و الشقاء و الألم.

ملاحظتان

۱- يسأل بعضهم: إنّ الآيـة الأـولى- من الآيـات محل البحث- تقول: أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ مع أن الآيـة الأخرى تقول بصراحة: وَ لا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَ هُمْ كارِهُونَ

ترى ألا توجـد منافاة بين هـذين التعبيرين؟! لكن مع قليل من الدقـة يتّضـح الجواب على هـذا السؤال، و هو أن بدايـة الآيـة الأولى فى صورة القضـية الشـرطية، أى لو أنفقتم طوعا أو كرها فعلى آيـة حال لن تتقبل منكم. و نعرف أن القضـية الشـرطية لا تـدل على وجود الشرط، أى على فرض أن ينفقوا طوعا و اختيارا فإنفاقهم لا فائدة فيه، لأنّهم غير مؤمنين.

إلّا أنّ ذيل الآية الأخرى بيان قضية خارجيّة، و هى أنّهم ينفقون عن إكراه دائما.

۲- و الدرس الذى نستفيده من الآيات الآنفة، هو أنّه لا ينبغى الانخداع بصلاة الناس و صيامهم، لأنّ المنافقين يؤدون ذلك أيضا، كما أنّهم ينفقون بحسب الظاهر فى سبيل اللّه. بل ينبغى تمييز الصلاة و الإنفاق بدافع النفاق من غيرهما عن أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۴

المؤمنين البنّاءة و الهادفة، و يمكن معرفة ذلك بالتدقيق و الإمعان فى النظر، و نقرأ

فى الحديث: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شىء اعتاده، و لو تركه استوحش و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۵

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (۵۶) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ (۵۷)

التّفسير

علامة أخرى للمنافقين:

ترسم الآيتـان أعلاه حالـة أخرى من أعمال المنافقين بجلاء، إذ تقول الآيـة الأولى: وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ و من شدّة خوفهم و فرقهم يخفون كفرهم و يظهرون الإيمان.

و «يفرقون» من مادة «الفرق» على زنة «الشفق» و معناه شدّة الخوف.

يقول «الراغب» فى «المفردات» إن الفرق فى الأصل معناه التفرّق و التشتت، فكأنّهم لشدّة خوفهم تكاد قلوبهم أن تتفرق و تتلاشى.

و فى الواقع أنّ مثل هؤلاء لما فقدوا ما يركنون إليه فى أعماقهم، فهم فى هلع و اضـطراب عظيم دائم، و لا يمكنهم أن يكشفوا عمّا فى بـاطنهم لمـا هم عليه من الهلع و الفزع، و حيث أنّهم لا يخافون اللّه «لعـدم إيمانهم به»، فهم يخافون من كل شـىء غيره، و يعيشون فى استيحاش دائم، غير أنّ المؤمنين الصادقين ينعمون فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۶

ظل الإيمان بالهدوء و الاطمئنان.

و الآيـة التاليـة تصوّر شـدّة عـداوة المنافقين للمؤمنين و نفورهم منهم، فى عبارة موجزة إلّا أنّها فى غايـة المتانـة و البلاغة، إذ تقول: لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَحُونَ

«الملجأ» معناه معروف، و هو ما يأوى إليه الخائف عادة، كالقلاع و الكهوف و أضرابهما.

و «المغارات» جمع مغارة.

و «المدّخل» هو الطريق الخفى تحت الأرض، كالنقب مثلا.

و «يجمحون» مأخوذ من الجماح، و معناه الحركـة السـريعة و الشديـدة التى لا يتأتى لأىّ شـىء أن يصـدها، كحركـة الخيول المسـرعة الجامحة التى لا تطاوع أصحابها، و لذلك سمّى الجواد الذى لا يطاوع صاحبه جموحا أو جامحا.

و على كـل حـال، فهـذه الآيـة واحـدة من أبلغ الآيـات و التعـابير التى يسوقهـا القرآن فى وصف المنـافقين، و بيـان هلعهم و خوفهم و بغضـهم إخـوانهم المـؤمنين، بحيث لـو كـان لهم سبيـل للفرار من المـؤمنين، و لـو على قمم الجبـال أو تحت الأـرض، لولّوا إليه و هم يجمحون، و لكن ما عسـى أن يفعلوا مع الروابط التى تربطهم معكم من القبيلـة و الأموال و الثروة، كل ذلك يضـطرهم إلى البقاء على رغم أنوفهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقـاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهـا رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهـا إِذا هُمْ يَسْـخَطُونَ (۵۸) وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مـا آتـاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (۵۹)

سبب النّزول

جاء فى تفسـير «الدر المنثور» عن «صـحيح البخارى» و «النسائى» و جماعة آخرين، أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم كان مشـغولا بتقسـيم الأموال (من الغنائم أو ما شاكلها)، و إذا برجل من بنى تميم يدعى ذو الخويصـرة- و هو حرقوص بن زهير- يأتى فيقول له: يا رسول اللّه، اعـدل. فقال رسول اللّه: «ويلك من يعدل إذا لم أعدل!» فصاح عمر: يا رسول اللّه ائذن لى أضـرب عنقه. فقال رسول اللّه: «دعه فإنّ له أصحابا يحتقر أحدكم صلاته مع صلواتهم و صومهم مع صومه، يمرقون من دين كما يمرق السهم من الرميّة ...».[۳۳]

فنزلت الآيتان عندئذ و نصحت مثل هؤلاء الناس و وعظتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۸

التّفسير

الأنانيون السفهاء:

فى الآيـة الأـولى أعلاه إشارة إلى حالـة أخرى من حالات المنافقين، و هى أنّهم لا يرضون أبـدا بنصـيبهم، و يرجون أن ينالوا من بيت

المال أو المنافع العامّة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، سواء كانوا مستحقين أم غير مستحقين، فصداقتهم و عداوتهم تدوران حول محور المنافع سلبا و إيجابا.

فمتى ملئت جيوبهم رضوا (عن صاحبهم) و متى ما أعطوا حقّهم و روعى العدل فى إيتاء الآخرين حقوقهم سخطوا عليه، فهم لا يعرفون للحق و العدالة مفهوما «فى قاموسهم» و إذا كان فى قاموسهم مفهوم للحق أو العدل، فهو على أساس أن من يعطيهم أكثر فهو عادل، و من يأخذ حق الآخرين منهم فهو ظالم!! و بتعبير آخر: إنّهم يفقدون الشخصية الاجتماعية، و يتمسكون بالشخصية الفردية و المنافع الخاصّة، و ينظرون للأشياء جميعا من هذه الزّاوية (المشار إليها آنفا).

لذا فإنّ الآية تقول: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ لكنّهم فى الحقيقة ينظرون إلى منافعهم الخاصّة فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَ إِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ

فهؤلاء يرون أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير منصف و لا عادل!! و يتهمونه فى تقسيمه المال!.

وَ لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ

ترى ألا يوجد أمثال هؤلاء فى مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة؟! و هل الناس جميعا قانعون بحقّهم المشروع! فمن أعطاهم حقهم حسبوه عادلا؟! ممّا لا ريب فيه أنّ الجواب على السؤال الآنف بالنفى، و مع كل الأسف فما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۸۹

يزال الكثيرون يقيسون العدل و يزنون الحق بمعيار المنافع الشخصيّة و لا يقنعون بحقوقهم!! و لو قدّر لأحد أن يوصل إلى جميع الناس حقوقهم المشروعة و لا سيما المحرومين منهم- لتعالى صراخهم و عويلهم!! فبناء على ذلك، لا داعى لأن نقلب و نتصفح سجل التاريخ لمعرفة المنافقين.

فبنظرة واحدة إلى من حولنا، بل بنظرة إلى أنفسنا، نستطيع أن نميز حالنا من حال الآخرين! اللهم، أحى فينا روح الإيمان، و أمت فى أنفسنا النفاق و أفكار الشيطان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۰]

اشارة

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶۰)

التّفسير

موارد صرف الزكاة و دقائقها:

فى تاريخ صدر الإسلام مرحلتان يمكن ملاحظتهما بوضوح، إحداهما فى مكّة، حيث كان هدف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين فيها تعليم الأفراد و تربيتهم و نشر التعاليم الإسلامية. و الثّانية فى المدينة، حيث أقدم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على تشكيل حكومة إسلاميّة أجرى من خلالها الأحكام و التعاليم الإسلامية.

و ممّا لا شك فيه أنّ أوّل و أهم مسألة واجهت تشكيل الحكومة هى إيجاد بيت المال، إذ عن طريقه تؤمّن حاجات الدولة الاقتصادية،

و هى حاجات طبيعية توجد فى كل دولة بدون استثناء، و من هنا كان إيجاد بيت المال من أوائل أعمال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة، و تشكل الزكاة أحد موارده، و على المشهور فإنّ هذا الحكم شرّع فى السنة الثّانية للهجرة النبوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۱

و كما سنشير- بعد حين- إلى إرادة اللّه و حكمه، فإنّ حكم الزكاة قد نزل من قبل فى مكّة، لكن لا على نحو وجوب جمعها فى بيت المال، بل كان الناس يؤدونها ذاتيا، أمّا فى المدينة فإنّ قانون جباية الزكاة و جمعها فى بيت المال قد صدر من اللّه تعالى فى الآية (۱۰۳) من سورة التوبة.

إنّ الآية التى نبحثها، و التى نزلت يقينا بعد آية وجوب الزكاة- و إن لم يسبق لها ذكر فى القرآن الكريم- تبيّن الموارد المختلفة التى تصرف فيها الزكاة. و ممّا يلفت النظر أن الآية بدأت بكلمة (إنّما) الدالّة على الحصر، و هى توحى بأنّ بعض الأفراد الأنانيين أو المغفلين كانوا يطمعون فى أن يحصلوا على نصيب من الزكاة بدون أى وجه لاستحقاقهم لها، لكن كلمة (إنّما) ردّت أيديهم فى أفواههم. و هذا المعنى تبيّنه الآيتان اللتان سبقت هذه الآية، حيث ذكرت أنّ هؤلاء كانوا يعترضون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى عدم إعطائهم شيئا من الزكاة، و يرضون عنه إذا أعطاهم شيئا منها.

و على أى حال، فإنّ الآية قد بيّنت- بوضوح- الموارد الحقيقة التى تصرف فيها الزّكاة، و أنهت التوقعات غير المنطقية و حددت موارد صرف الزّكاة فى ثمانية أصناف:

۱- الفقراء.

۲- المساكين: و سيأتى البحث فى نهاية تفسير الآية عن الفرق بين الفقير و المسكين.

۳- العاملين عليها: و هم الذين يسعون فى جباية الزكاة، و إدارة بيت المال، و ما يعطى لهم هو فى الواقع بمنزلة أجرة عملهم، و لهذا لا يشترط فيهم الفقر على أى حال.

۴- المؤلفة قلوبهم: و هم الذين لا يوجد لديهم الحافز و الدافع المعنوى القوى من أجل النهوض بالأهداف الإسلامية و تحقيقها، و لكن و يمكن استمالتهم بواسطة بذل المال لهم، و الاستفادة منهم فى الدفاع عن الإسلام و تحكيم دولته، و إعلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۲

كلمته. و سيأتى توضيح أوسع حول هذا القسم.

۵- فى الرقاب: و هذا يعنى أن قسما من الزكاة يخصّص لمحاربة العبودية و الرق و إنهاء هذه الحالة غير الإنسانية، و كما قلنا فى محله فإنّ برنامج الإسلام فى معالجة مسألة الرقيق هو اتباع نظام (التحرير التدريجى) الذى ينتهى إلى تحرير جميع العبيد بدون مواجهة ردود فعل اجتماعية غير متوقعة، و يشكّل تخصيص قسم من الزكاة لهذا الموضوع جانبا من هذا البرنامج المتكامل.

۶- الغارمون: و هم الذين عجزوا عن أداء ديونهم، و لم يكن هذا العجز نتيجة لتقصيرهم.

۷- فى سبيل اللّه: و المراد منه- كما سنشير إليه فى آخر تفسير الآية- جميع السبل التى تؤدى إلى تقوية و نشر الدين الإلهى، و هى أعم من مسألة الجهاد و التبليغ و أمثالها.

۸- ابن السبيل: و هم الذين تخلفوا فى الطريق لعلة ما، و ليس معهم من الزاد و الراحلة ما يوصلهم إلى بلدانهم أو إلى الجهة التى يقصدونها، حتى و لو لم يكونوا فقراء فى واقعهم، لكنّهم افتقروا الآن نتيجة سرقة أموالهم أو مرضهم أو قلّة أموالهم أو لأسباب أخر، و مثل هؤلاء يجب أن يعطوا من الزكاة ما يوصلهم إلى مقصدهم أو بلدهم.

و فى خاتمة الآية نلاحظ التأكيد على صرفها فى الجهات السابقة، و لذلك قال سبحانه: فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ و لا شك أنّ هذه الفريضة قد حسبت بصورة دقيقة جدّا، و بصورة تحفظ مصالح الفرد و المجتمع، لأنّ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۳

بحوث

اشارة

و هنا أمور ینبغی ملاحظتها:

۱- الفرق بین الفقیر و المسکین

هناک بحث بین المفسّرین فی مفهومی الفقیر و المسکین، هل أنّ مفهومهما واحد، و تکرار اللفظین معا فی الآیة من باب التأکید فتصبح موارد صرف الزکاة سبعة لا ثمانیة، أم أنّهما لهما معنیان مختلفان؟

أغلب المفسّرین و الفقهاء قالوا بالثّانی، لکن وقع البحث حتی بین أنصار هذا القول فی تفسیر و تحدید مفهوم کل من الکلمتین، و الذی یبدو أقرب للنظر، أنّ الْفَقِیرَ هو الشخص الذی یعانی من حاجة مالیة فی حیاته و معاشه مع أنّه یعمل و یکتسب، لکنّه لا یسأل أحدا مطلقا رغم حاجته لعفته و عزّة نفسه، أمّا المسکین فهو أشد حاجة من الفقیر، و هو العاجز عن العمل، فهو مضطر لأنّ یستعطی الناس و یسألهم. و الدلیل علی ذلک أنّ الأصل اللغوی لکلمة مسکین مأخوذ من مادة السکون، لأنّ المسکین لشدة فقره کأنّه سکن و أخلد إلی الأرض.

ثمّ إنّ ملاحظة استعمال الکلمتین فی مواضع متعددة من القرآن یؤید هذا الرأی، فمثلا: نقرأ فی الآیة (۱۶) من سورة البلد: أَوْ مِسْکِیناً ذا مَتْرَبَةٍ و فی الآیة (۸) من سورة النساء: وَ إِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبی وَ الْیَتامی وَ الْمَساکِینُ فَارْزُقُوهُمْ و یفهم من هذا التعبیر أنّ المراد بالمساکین هم الذین یسألون و یستعطون إذا حضروا مثل هذه المواضع.

و فی الآیة (۲۴) من سورة القلم نقرأ: أَنْ لا یَدْخُلَنَّهَا الْیَوْمَ عَلَیْکُمْ مِسْکِینٌ و هی إشارة إلی السائلین.

و کذلک التعبیر ب (إطعام مسکین) أو (طعام مسکین)، فإنّه یوحی بأنّ المساکین هم الجیاع الذین یحتاجون إلی الطعام، فی حین أنّنا نستطیع أن نفهم بوضوح- من خلال بعض الآیات القرآنیة التی وردت فیها کلمة الفقیر- أنّ المراد من الفقراء هم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۴

أفراد محتاجون للمال لکنّهم لحفظ ماء الوجه و لعزة أنفسهم لا یسألون الناس مطلقا، کما تبین ذلک الآیة (۲۷۳) من سورة البقرة: لِلْفُقَراءِ الَّذِینَ أُحْصِرُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ لا یَسْتَطِیعُونَ ضَرْباً فِی الْأَرْضِ یَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِیاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

و بعد کل هذا

ففی روایة رواها محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق أو الإمام الباقر علیهما السّلام، أنّه سأله عن الفقیر و المسکین فقال: «الفقیر الذی لا یسأل، و المسکین الذی هو أجهد منه الذی یسأل»[۳۴].

و بهذا المضمون وردت روایة عن أبی بصیر عن الصادق علیه السّلام، و کلتاهما صریحتان فی المعنی السابق.

و نذکّر هنا بأنّ قسما من القرائن قد یظهر منه أحیانا خلاف ما قلناه، إلّا أنّنا إذا نظرنا إلی مجموع القرائن اتّضح أن الحق ما قلناه.

۲- هل یجب تقسیم الزّکاة إلی ثمانیة أجزاء متساویة؟

یعتقد بعض المفسّرین و الفقهاء أنّ ظاهر الآیة یدلّ علی وجوب تقسیم الزکاة إلی ثمانیة أجزاء متساویة، و صرف کل جزء فی مورده

الخاص إلّا أن يكون مقدار الزكاة من القلّة بحيث لا يمكن تقسيمه إلى ثمانية أقسام.

أمّا الأكثرية الساحقة من الفقهاء فقد ذهبوا إلى أن ذكر الأصناف الثمانية فى الآية يبيّن جواز صرف الزكاة فى هذه الموارد، لا أنّه يجب تقسيم الزكاة إلى ثمانية أجزاء. و السيرة الثابتة للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام تؤيّد هذا المعنى، إضافة إلى أنّ الزكاة إحدى الضرائب الإسلامية، و الحكومة الإسلامية هى المسؤولة عن جبايتها من الناس، و الهدف من تشريعها هو تأمين الحاجات المختلفة للمجتمع الإسلامى.

أمّا كيفية صرف الزكاة فى هذه الموارد الثمانية، فإنّه يرتبط بالضرورات الاجتماعية من وجه، و برأى و وجهة نظر الحكومة الإسلامية من جهة أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۵

۳- متى شرعت الزّكاة؟

يستفاد من الآيات القرآنية المختلفة- و من جملتها الآية (۱۵۶) من سورة الأعراف، و الآية (۳) من سورة النمل، و الآية (۴) من سورة لقمان، و الآية (۷) من سورة فصلت، و كلها سور مكّية- أن حكم وجوب الزكاة نزل فى مكّة، و كان المسلمون ملزمين بأدائها كواجب شرعى، لكن لما قدم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة و أسس الدولة الإسلامية، و كان لا بدّ من إيجاد بيت المال، أمره اللّه سبحانه بأن يأخذ الزكاة من الناس بنفسه- لا أنهم يصرفون الزكاة بأنفسهم حسب ما يرونه- فنزلت الآية (۱۰۳) من سورة التوبة: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً ....

و المشهور أنّ ذلك انّ فى السنة الثّانية للهجرة، ثمّ بيّنت الآية التى نبحثها- الآية (۶۰) من سورة التوبة- موارد صرف الزكاة بصورة دقيقة. و لا ينبغى التعجب من أن تشريع أخذ الزكاة فى الآية (۱۰۳)، و بيان موارد صرفها- و الذى يقال أنّه نزل فى السنة التاسعة للهجرة- فى الآية (۶۰)، لأنا نعلم أن آيات القرآن لم تجمع و ترتب حسب تأريخ نزولها، بل بأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث أمر بوضع كل آية فى مكانها المناسب.

۴- من هم المقصودون ب الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ

الذى يفهم من تعبير الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أن أحد موارد صرف الزكاة هم الأفراد الذين يراد استمالتهم و جلب محبّتهم بالزكاة، لكن هل المراد منهم الكفار الذين يمكن الاستعانة بهم فى أمر الجهاد ببذل الزكاة لهم، أم يدخل معهم المسلمون ضعيفو الإيمان؟

و كما قلنا فى المباحث الفقهية، فإنّ لهذه الآية، و كذلك للروايات الواردة فى هذا الموضوع مفهوما واسعا، و لهذا فإنّها تشمل كل من يمكن استمالته من أجل نفع و تحكيم الإسلام، و لا دليل على تخصيصها بالكفار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۶

۵- دور الزّكاة فى الإسلام

إذا علمنا أنّ الإسلام يظهر على أنّه مذهب أخلاقى أو فلسفى أو عقائدى بحت، بل ظهر إلى الوجود كدين و قانون كامل و شامل عولجت فيه كل الحاجات المادية و المعنوية فى الحياة، و كذلك إذا علمنا أن تشكيل و تأسيس الدولة الإسلامية قد لازم ظهور

الإسلام منذ عصر النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و إذا علمنا أن الإسلام يهتم اهتماما خاصّا بنصرة المحرومين و مكافحة الطبقية فى المجتمع اتضح لنا أنّ دور بيت المال و الزكاة التى تشكل أحد موارده، من أهم الأدوار.

لا شك أن فى كل مجتمع أفرادا عاجزين عن العمل، مرضى، يتامى، معوقين، و أمثالهم، و هؤلاء يحتاجون حتما إلى من يحميهم و يرعاهم و يقوم بشؤونهم.

و كذلك يحتاج هذا المجتمع إلى جنود مضحين من أجل حفظ وجوده و كيانه، أمّا مصاريف هؤلاء الجنود و نفقاتهم فإنّ الدولة هى التى تلتزم بتأمينها و دفعها إليهم.

و كذلك العاملون فى الدولة الإسلامية، الحكام و القضاة، وسائل الإعلام و المراكز الدينية و غيرها، فكل قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى ميزانية خاصّة و مبالغ طائلة لا يمكن تهيئتها دون أن يكون هناك نظام مالى محكم منظم.

و على هذا الأساس أولى الإسلام الزكاة- التى تعتبر فى الحقيقة نوعا من الضرائب على الإنتاج و الأرباح، و على الأموال الراكدة- اهتماما خاصا، حتى أنّه اعتبرها من أهم العبادات، و قد ذكرت- جنبا إلى جنب- مع الصلاة فى كثير من الموارد، بل إنّه اعتبرها شرطا لقبول الصلاة.

و أكثر من هذا أننا نقرأ فى الرّوايات الإسلامية أنّ الدولة الإسلامية إذا طلبت الزكاة من شخص أو أشخاص و امتنع هؤلاء من ذلك فسوف يحكم بارتدادهم، و إذا لم تنفع النصيحة معهم و لم يؤثر الموعظة فيهم، فإنّ الاستعانة بالقوّة العسكرية لمقابلتهم أمر جائز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۷

و

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من منع قيراطا من الزكاة فليس هو بمؤمن، و لا مسلم، و لا كرامة».[۳۵]

و ممّا يلفت النظر أنّ الرّوايات قد أظهرت أن تعين الزكاة بهذا المقدار يبيّن دقة حسابات الإسلام، فإنّ المسلمين جميعا لو أدّوا زكاة أموالهم بصورة دقيقة و كاملة فسوف لن يبقى فقير أو محروم فى كافة أنحاء البلاد الإسلامية.

ففى رواية عن الصادق عليه السّلام: «و لو أنّ الناس أدّوا زكاة أموالهم ما بقى مسلم فقيرا محتاجا ...

و إن الناس ما افتقروا، و لا احتاجوا، و لا جاعوا، و لا عروا إلّا بذنوب الأغنياء»[۳۶].

و كذلك يفهم من الرّوايات أنّ أداء الزكاة سبب لحفظ أصل الملك و الأموال و تحكيم أسسها، بحيث أنّ الناس إذا أهملوا تطبيق هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ الفاصلة و التفاوت بين الطبقات سيصل إلى حد يعرض أموال الأغنياء إلى الخطر.

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام: «حصّنوا أموالكم بالزكاة»[۳۷].

و بهذا المضمون نقلت روايات أخرى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السّلام.

و لمزيد الاطلاع على هذه الأحاديث راجع الأبواب: الأوّل و الثّالث و الرّابع و الخامس من أبواب الزكاة من المجلد السّادس من وسائل الشيعة.

۶- ما الفرق بين العطف ب «اللام أو فى»؟

النقطة الأخيرة التى ينبغى الالتفات إليها، هى أنّ فى الآية التى نبحثها أربعة أقسام ذكرت معطوفة على حرف اللام:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۸

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَ الْمَساكِينِ وَ الْعامِلِينَ عَلَيْها وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ و هذا التعبير عادة يفيد الملكية. أمّا الأقسام الأربعة الأخرى فقد سبقها حرف (فى): وَ فِي الرِّقابِ وَ الْغارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ و هذا التعبير عادة يستعمل لبيان مورد الصرف ۳۸].

هناك بحث و نقاش بين المفسّرين فى سبب اختلاف التعبير، فالبعض يعتقد أن الأصناف الأربعة الأولى يملكون الزكاة، أمّا الأصناف الأربعة الأخرى فإنّهم لا يملكونها، بل إن الزكاة يجوز أن تصرف فيهم.

و البعض الآخر يعتقد أن الاختلاف فى التعبير يشير إلى مسألة أخرى، و هى أنّ الطائفة الثّانية أكثر استحقاقا للزكاة، لأن كلمة (فى) لبيان الظرفية، لهذا فإن هذه المجموعة الرباعية تمثل محتوى و مصرف الزكاة، و الزكاة و وعاء لها، فى حين أن المجموعة الأولى ليست كذلك.

لكننا نحتمل و نرجح احتمالا آخر، و هو أن الستة أقسام- و هم: الفقراء و المساكين و العاملون عليها و المؤلفة قلوبهم و الغارمون و ابن السبيل- التى لم تذكر قبلها (فى) متساوون و قد عطفت على بعضها البعض، أمّا القسمان الآخران- و هما فى الرقاب و فى سبيل اللّه- اللذان بيّنتهما (فى) فإنّ لهما وضعا خاصا، و ربّما كان السبب فى اختلاف التعبير من جهة إمكان تملك الزكاة من قبل الأصناف الستة، و يمكن أداء الزكاة إليهم (حتى المدينين و العاجزين عن أداء ديونهم، لكن بشرط الاطمئنان إلى أنّ هؤلاء يصرفونها فى سداد ديونهم).

أمّا الصنفان الآخران فلا يملكون الزكاة، و لا يمكن دفع الزكاة إليهم، بل تصرف فى جهتهم، فمثلا يجب الشراء العبيد و تحريرهم عن طريق الزكاة، و من الواضح أنّهم لا يملكون الزكاة فى هذه الحالة، بل صرفت الزكاة فى جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۹۹

تحريرهم. و كذلك الحال بالنسبة إلى الموارد التى تندرج تحت عنوان (فى سبيل اللّه) كنفقات الجهاد، و إعداد الأسلحة، أو بناء المساجد و المراكز الدينية، و أمثال هذه المفردات لا تملك الزكاة بل أنّها مورد لصرف الزكاة.

و على أى حال، فإنّ التفاوت الاختلاف فى التعبير يوضح الدقة المتناهية فى التعبيرات القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۶۱]

اشارة

وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۱)

سبب النّزول

هذا حسن لا قبيح!

ذكرت عدّة أسباب متباينة لنزول الآية المذكورة و منها أنّ الآية نزلت فى جماعة من المنافقين كانوا يذكرون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بسوء، فنهاهم أحدهم و قال: لا تتحدثوا بهذا الحديث لئلا يصل إلى سمع محمّد فيذكرنا بسوء و يؤلب الناس علينا.

فقال له أحدهم- و اسمه جلاس-: لا يهمنا ذلك، فنحن نقول ما نريد، و إذا بلغه ما نقول سنحضر عنده و ننكر ما قلناه، و سيقبل ذلك منا فإنّه سريع التصديق لما يقال له، و يقبل كل ما يقال من كل أحد، فهو أذن، فنزلت الآية و أجابتهم.

التّفسير

تتحدّث الآية- كما يفهم من مضمونها- عن فرد أو أفراد كانوا يؤذون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بكلامهم و يقولون أنّه أذن و يصدّق كل ما يقال له سريعا وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۱

يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ

«الأذن» فى الأصل تطلق على الجزء الظاهر من الحاسة السامعة (الصيوان)، لكنّها تطلق على الأفراد الذين يصغون كثيرا لكلام الناس أو كما يقال: سمّاع.

هؤلاء المنافقون اعتبروا هذه الصفة- و التى هى سمة ايجابية للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و التى يجب توفرها فى أى قائد كامل- نقطة ضعف فى سيرته و معاملته صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كأنّهم غفلوا عن أن القائد إذا أراد أن يحبه الناس لا بدّ أن يظهر لهم كل محبّة و لطف، و أن يقبل عذر المعتذر ما أمكن، و يستر على عيوبهم، (إلّا أن تكون هذه الصفة الحميدة سببا لاستغلالها من قبل البعض).

من هنا نلاحظ أنّ القرآن قد ردّهم مباشرة، و أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهم بأنّه إذا كان يصغى لكلامكم، و يقبل أعذاركم، أو كما تظنون بأنّه أذن، فإنّ ذلك فى مصلحتكم و لمنفعتكم قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ فإنّه بذلك يحفظ ماء وجوهكم و شخصيتكم، و لا- يجرح شعوركم و عواطفكم، و بذلك- أيضا- يسعى لحفظ وحدتكم و اتحادكم و مودتكم، و لو أراد أن يرفع الستار عن أفعالكم القبيحة، و يفضح الكاذبين على رؤوس الأشهاد، لضرّكم ذلك و شق عليكم، و افتضح عدّة منكم، و عندها سيغلق أمامهم باب التوبة ممّا يؤدى إلى توغلهم فى الكفر و الابتعاد عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن كان من المحتمل هدايتهم.

إن القائد الرحيم و المحنّك يجب أن يكون مطّلعا على كل شىء، لكن لا ينبغى له أن يجابه أفراده بأمورهم الخاصّة و المجهولة عند الآخرين حتى يتربى من لهم الاستعداد و القابلية و تبقى اسرار الناس فى طى الكتمان.

و يحتمل فى تفسير الآية أن يراد معنى آخر، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يقول فى جواب هؤلاء الذين يعيبون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إصغاءه للآخرين: ليس الأمر كما تظنون بأنّه يسمع كل ما يقال له، بل إنّه يصغى إلى الكلام الذى فيه نفعكم، أى أنّه يسمع الوحى الإلهى، و الاقتراح المفيد، و يقبل اعتذار الأفراد إذا كان هذا القبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۲

فى صالح المعتذرين و المجتمع ۳۹].

و من أجل أن لا- يستغل المتتبعون لعيوب الناس ذلك، و لا يجعلون هذه الصفة وسيلة لتأكيد كلامهم، أضاف اللّه تعالى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يؤمن باللّه و يطيع أوامره، و يصغى إلى كلام المؤمنين المخلصين، و يقبله و يرتب عليه الأثر، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ و هذا يعنى أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان له طريقان و أسلوبان فى عمله:

أحدهما: الحفاظ على الظاهر و الحيلولة دون هتك الأستار و فضح أسرار الناس.

و الثّانى: فى مرحلة العمل، فقد كان صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى البداية يسمع من كل أحد، و لا ينكر على أحد ظاهرا، أمّا فى الواقع العملى فإنّه لا يعتنى و لا يقبل إلّا أوامر اللّه و اقتراحات و كلام المؤمنين المخلصين، و القائد الواقعى يجب أن يكون كذلك فإن تأمين مصالح المجتمع لا يتم إلّا عن هذا الطريق، لذلك عبر عنه بأنّه رحمة للمؤمنين وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و يمكن أن يطرح هنا سؤال، و هو أننا نلاحظ فى بعض الآيات التعبير عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ [۴۰] لكننا نقرأ هنا أنّه رحمة للمؤمنين، فهل يتطابق ذلك العموم مع هذا التخصيص؟

إلّا أنّنا إذا لاحظنا نقطة دقيقة سيتّضح جواب هذا السؤال، و هى أنّ للرحمة درجات و مراتب متعددة، فإحداها مرتبة (القابلية و الاستعداد)، و الأخرى (الفعلية).

فمثلا: المطر رحمة إلهية، أى أنّ هذه القابلية و اللياقة موجودة فى كل قطرات المطر، فهى منشأ الخير و البركة و النمو و الحياة، لكن من المسلّم أنّ آثار هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۳

الرحمة لا تظهر إلّا فى الأراضى المستعدّة، و على هذا فإنّه يصح قولنا: إنّ جميع قطرات المطر رحمة، كما يصح قولنا: إنّ هذه القطرات أساس الرحمة فى الأراضى التى لها القابلية و الاستعداد لتقبل هذه الرحمة، فالجملة الأولى إشارة إلى مرحلة (الاقتضاء و القابلية)، و الجملة الثّانية إشارة إلى مرحلة (الوجود و الفعل)، و على هذا فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أساس الرحمة لكل العالمين بالقوة، أمّا بالفعل فهو مختص بالمؤمنين.

بقى هنا شىء واحد، و هو أنّ هؤلاء الذين يؤذون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بكلامهم و يتتبعون أحواله لعلهم يجدون عيبا يشهّرون به يجب أن لا يتصوروا أنّهم سوف يبقون بدون جزاء و عقاب، فصحيح أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مأمور، و من واجبه- كقائد- أن يقابل هؤلاء برحابة صدر و لا يفضحهم، لكن هذا لا يعنى أنّهم سوف يبقون بدون جزاء، و لهذا قال تعالى فى نهاية الآية: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۴

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۲ الى ۶۳]

اشارة

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (۶۲) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (۶۳)

سبب النّزول

يستفاد من أقوال بعض المفسّرين أنّ الآيتين المذكورتين مكملتان للآية السابقة، و من الطبيعى أن يكون سبب نزولها نفس السبب السابق، إلّا أن جمعا آخر من المفسّرين ذكر سببا آخر لنزول هاتين الآيتين، و هو أنّه لما نزلت الآيات التى ذمت المتخلفين عن غزوة تبوك و وبختهم قال أحد المنافقين: أقسم باللّه أنّ هؤلاء أشرافنا و أعياننا، فإن كان ما يقوله محمّد حقّا فإنّ هؤلاء أسوا حالا من الدواب، فسمعه أحد المسلمين و قال: و اللّه إن ما يقوله لحق، و إنّك أسوأ من الدابة. فبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فبعث إلى ذلك المنافق فأحضر، فسأله عن سبب قوله ذلك الكلام، فحلف أنّه لم يقل ذلك، فقال الرجل المؤمن الذى كان طرفا فى خصومة الرجل و أبلغ كلامه لرسول اللّه: اللّهم صدّق الصادق و كذّب الكاذب. فنزلت الآيتين أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۵

التّفسير

المنافقون و التظاهر بالحق:

إن إحدى علامات المنافقين و أعمالهم القبيحة و التى أشار إليها القرآن مرارا هى إنكارهم الأعمال القبيحة و المخالفة للدين و

العرف، و هم إنّما ينكرونها من أجل التغطية على واقعهم السيء و إخفاء الصورة الحقيقية لهم، و لما كان المجتمع يعرفهم و يعرف كذبهم فى هذا الإنكار فقد كانوا يلجؤون إلى الأيمان الكاذبة من أجل مخادعة الناس و إرضائهم.

و فى الآيات السابقة الذكر نرى أنّ القرآن المجيد يكشف الستار عن هذا العمل القبيح ليفضح هؤلاء من جهة، و يحذّر المسلمين من تصديق الإيمان الكاذبة من جهة أخرى.

فى البداية يخاطب القرآن الكريم المسلمين و ينبههم إلى أنّ هدف هؤلاء من القسم هو إرضاؤكم يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ و من الواضح إذن أن هدف هؤلاء من هذه الأيمان لم يكن بيان الحقيقة، بل إنّهم يسعون عن طريق المكر و الخديعة إلى أن يصوروا لكم الأشياء و الواقع على غير صورته الحقيقة، و يصلون عن هذا الطريق إلى مقاصدهم، و إلّا فلو كان هدفهم هو إرضاء المؤمنين الحقيقيين عنهم، فإنّ إرضاء اللّه و رسوله أهم من إرضاء المؤمنين، غير أنا نرى أنّهم بأعمالهم هذه قد أسخطوا اللّه و رسوله، و لذا عقبت الآية فقالت: وَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ

ممّا يلفت النظر أن الجملة المذكورة لما كانت تتحدث عن اللّه و رسوله، فعلى القاعدة النحوية ينبغى أن يكون الضمير فى «يرضوه» ضمير التثنية غير أن المستعمل هنا هو ضمير المفرد، و هذا الاستعمال و التعبير يشير إلى أن رضا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من رضا اللّه. بل أنّه لا يرتضى من الأعمال إلّا ما يرتضيه اللّه سبحانه، و بعبارة أخرى: فإنّ هذا التعبير يشير إلى حقيقة (توحيد الأفعال)، لأنّ النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۶

الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يملك استقلالية العمل فى مقابل اللّه، بل إن غضبه و رضاه و كل أعماله تنتهى إلى اللّه، فكل شيء من أجل اللّه و فى سبيله.

روى أنّ رجلا فى زمن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال ضمن كلامه: من أطاع اللّه و رسوله فقد فاز، و من عصاهما فقد غوى. فلما سمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كلامه غضب- حيث أن الرجل ذكر اللّه و رسوله بضمير التثنية فكأنّه جعل اللّه و رسوله فى درجة واحدة- و قال: «بئس الخطيب أنت، هلا قلت: و من عصى اللّه و رسوله»[۴۱]؟!

و فى الآية الثّانية نرى أنّ القرآن يهدد المنافقين تهديدا شديدا، فقال: أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها و من أجل أن يؤكّد ذلك أضاف تعالى ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

(يحادد) مأخوذ من (المحادّة) و أصلها (حدّ)، و معناها نهاية الشيء و طرفه، و لما كان الأعداء و المخالفون يقفون فى الطرف الآخر المقابل، لذا فإن مادة (المحادّة) قد وردت بمعنى العداوة أيضا، كما نستعمل كلمة (طرف) فى حياتنا اليومية و نريد منها المخالفة و العداوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۷

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۴ الى ۶۶]

اشارة

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (۶۴) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (۶۵) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۶۶)

سبب النّزول

ذکرت عدّة أسباب لنزول هذه الآیات، و کلّها ترتبط بأعمال المنافقین بعد غزوة تبوک. فمن جملتها: إنّ جمعا من المنافقین کانوا قد اجتمعوا فی مکان خفی و قرّروا قتل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عند رجوعه من غزوة تبوک، و کانت خطتهم أن ینصبوا کمینا فی إحدی عقبات الجبال الصعبة، و عند ما یمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من تلک العقبة ینفرون بعیره، فأطلع اللّه نبیّه علی ذلک، فأمر جماعة من المسلمین بمراقبة الطریق و الحذر، فلمّا وصل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی العقبة- و کان عمار یقود الدابة و حذیفة یسوقها- اقترب المنافقون متلثّمین لتنفیذ مؤامرتهم فأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم حذیفة أن یضرب وجوه دوابهم و یدفعهم، ففعل حذیفة ذلک.

فلمّا جاوز النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم العقبة- و قد زال الخطر- قال لحذیفة: هل عرفتهم؟ فقال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۸

لم أعرف أحدا منهم، فعرّفه رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بهم، فقال حذیفة: ألا ترسل إلیهم من یقتلهم؟ فقال: «إنی أکره أن تقول العرب: إنّ محمّدا لما انقضت الحرب بینه و بین المشرکین وضع یده فی قتل أصحابه».

و قد نقل سبب النزول هذا عن الإمام الباقر علیه السّلام، و جاء أیضا فی العدید من کتب التّفسیر و الحدیث.

و ذکر سبب آخر للنزول و هو: أنّ مجموعة من المنافقین لما رأوا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قد تهیّأ للقتال و اصطف أمام الأعداء، قال هؤلاء بسخریة: أ یظن هذا الرجل أنّه سیفتح حصون الشام الحصینة و یسکن قصورها، إن هذا الشیء محال، فأطلع اللّه نبیّه علی ذلک، فأمر رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یسدوا علیهم المنافذ و الطرق، ثمّ ناداهم و لامهم و أخبرهم بما قالوا، فاعتذروا بأنّهم إنّما کانوا یمزحون و أقسموا علی ذلک.

التّفسیر

مؤامرة أخری للمنافقین:

لا حظنا فی الآیات السابقة کیف أنّ المنافقین اعتبروا نقاط القوّة فی سلوک النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نقاط ضعف، و کیف حاولوا استغلال هذه المسألة من أجل بثّ التفرقة بین المسلمین. و فی هذه الآیات إشارة إلی نوع آخر من برامجهم و طرقهم.

فمن الآیة الأولی یستفاد أنّ اللّه سبحانه و تعالی یکشف الستار عن أسرار المنافقین أحیانا، و ذلک لدفع خطرهم عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و فضحهم أمام الناس لیعرفوا حقیقتهم، و یحذروهم و لیعرف المنافقون موقع اقدامهم و یکفّوا عن تآمرهم، و یشیر القرآن إلی خوفهم من نزول سورة تفضحهم و تکشف خبیئة أسرارهم فقال:

یَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِی قُلُوبِهِمْ

إلّا أنّ العجیب فی الأمر أن هؤلاء و لشدة حقدهم و عنادهم لم یکفّوا عن استهزائهم و سخریتهم، لذلک تضیف الآیة: بأنّهم مهما سخروا من أعمال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۰۹

فإن اللّه لهم بالمرصاد و سوف یظهر خبیث أسرارهم و یکشف عن دنیء نیّاتهم، فقال: قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ

تجدر الإشارة إلی أنّ جملة (استهزءوا) من قبیل الأمر لأجل التهدید کما یقول الإنسان لعدوّه: اعمل کل ما تستطیع من أذی و إضرار لتری عاقبة أمرک، و مثل هذه الأسالیب و التعبیرات تستعمل فی مقام التهدید.

کما یجب الالتفات إلی أنّنا نفهم من الآیة بصورة ضمنیة أنّ هؤلاء المنافقین یعلمون بأحقیة دعوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و

صدقها، و يعلمون فى ضميرهم و وجدانهم ارتباط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه سبحانه و تعالى، إلّا أنهم لعنادهم و إصرارهم بدل أن يؤمنوا به و يسلموا بين يديه، فإنّهم بدأوا بمحاربته و إضعاف دعوته المباركة، و لذلك قال القرآن الكريم: يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ

و ينبغى الالتفات إلى أنّ جملة تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ لا تعنى أن أمثال هذه الآيات كانت تنزل على المنافقين، بل المقصود أنّها كانت تنزل فى شأن المنافقين و تبيّن أحوالهم.

أمّا الآية الثّانية فإنّها أشارت إلى أسلوب آخر من أساليب المنافقين، و قالت:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ ۴۲]. أى إذا سألتهم عن الدافع لهم على هذه الأعمال المشينة قالوا: نحن نمزح و بذلك ضمنوا طريق العودة، فهم من جهة كانوا يخططون المؤامرات، و يبثون السموم، فإذا تحقق هدفهم فقد وصلوا إلى مآربهم الخبيثة أمّا إذا افتضح أمرهم فإنّهم سيتذرعون و يعتذرون بأنّهم كانوا يمزحون، و عن هذا الطريق سيتخلصون من معاقبة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الناس لهم.

إن المنافقين فى أى زمان، تجمعهم وحدة الخطط، و الضرب على نفس الوتر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۰

لذا فلهم نغمة واحدة، و هم كثيرا ما يستفيدون و يتبعون هذا الطرق، بل إنّهم فى بعض الأحيان يطرحون أكثر المسائل جدية لكن بلباس المزاح الساذج البسيط، فإن وصلوا إلى هدفهم و حققوه فهو، و إلّا فإنّهم يفلتون من قبضة العدالة بحجّة المزاح.

غير أنّ القرآن الكريم واجه هؤلاء بكل صرامة، و جابههم بجواب لا مفرّ معه من الإذعان للواقع، فأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يخاطبهم قُلْ أَ بِاللَّهِ وَ آياتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ أى إنّه يسألهم: هل يمكن المزاح و السخرية حتى باللّه و رسوله و آيات القرآن؟! هل إنّ هذه المسائل التى هى أدق الأمور و أكثرها جدية قابلة للمزاح؟! هل يمكن إخفاء قضية تنفير البعير و سقوط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من تلك العقبة الخطيرة، و التى تعنى الموت، تحت عنوان و نقاب المزاح؟ أم أنّ السخرية و الاستهزاء بالآيات الإلهية و إخبار النّبى بالانتصارات المستقبلية من الأمور التى يمكن أن يشملها عنوان اللعب؟ كل هذه الشواهد تدل على أنّ هؤلاء كان لديهم أهداف خطيرة مستترة خلف هذه الأستار و العناوين.

ثمّ يأمر القرآن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول للمنافقين بصراحة: لا تَعْتَذِرُوا، و السبب فى ذلك أنّكم قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فهذا التعبير يشعر أن هذه الفئة لم تكن منذ البداية فى صف المنافقين، بل كانوا مؤمنين لكنّهم ضعيفو الإيمان، بعد هذه الحوادث الآنفة الذكر سلكوا طريق الكفر.

و يحتمل أيضا فى تفسير العبارة أعلاه أن هؤلاء كانوا منافقين من قبل، إلّا أنّهم لم يظهروا عملا مخالفا، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين كانوا مكلّفين أن يعاملوهم كأفراد مؤمنين، لكن لما رفع النقاب بعد أحداث غزوة تبوك، و ظهر كفرهم و نفاقهم أعلم هؤلاء بأنّهم لم يعودوا من المؤمنين.

و اختتمت الآية بهذه العبارة: إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۱

كانُوا مُجْرِمِينَ فهى تبيّن أنّ طائفة قد استحقت العذاب نتيجة الذنوب و المعاصى، و هذا دليل على أن أفراد الطائفة الأخرى إنّما شملهم العفو الإلهى لأنّهم غسلوا ذنوبهم و معاصيهم بماء التوبة من أعماق وجودهم.

و فى الآيات القادمة- كالآية ۷۴- قرينة على هذا المبحث.

و قد وردت روايات عديدة فى ذيل الآية، تبيّن أن بعض هؤلاء المنافقين الذين مرّ ذكرهم فى هذه الآيات قد ندموا على ما بدر منهم من أعمال منافية للدين و الأخلاق فتابوا، غير أن البعض الآخر قد بقى على مسيرته حتى النهاية.

و لمزيد التوضيح و الاطلاع راجع: تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۳۹.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۶۷ الى ۷۰]

اشارة

الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۶۷) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (۶۸) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۹) أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۷۰)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۳

التّفسير

علامات المنافقين:

البحث فى هذه الآيات يدور كالسابق حول سلوك المنافقين و علاماتهم و صفاتهم، «فالآية الأولى من هذه الآيات تشير إلى أمر كلّى، و هو أن روح النفاق يمكن أن تتجلّى بأشكال مختلفة و تبدو فى صور متفاوتة بحيث لا تلفت النظر فى أوّل الأمر، خصوصا أن روح النفاق هذه يمكن أن تختلف بين الرجل و المرأة، لكن يجب أن لا يخدع الناس بتغيير صور النفاق بين المنافقين، المنافقين يشتركون فى مجموعة من الصفات تعتبر العامل المشترك فيما بينهم، لذلك يقول اللّه سبحانه: الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ

و بعد ذلك يشرع القرآن الكريم فى ذكر خمس صفات لهؤلاء:

الأولى و الثّانية: إنّهم يدعون الناس إلى فعل المنكرات و يرغبونهم فيها من جهة، و يبعدونهم و ينهونهم عن فعل الأعمال الصالحة من جهة أخرى يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ أى أنّهم يسلكون طريقا و يتّبعون منهاجا هو عكس طريق المؤمنين تماما، فإنّ المؤمنين يسعون دائما- عن طريق الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر- إلى أن يصلحوا المجتمع و ينقوه من الشوائب و الفساد، بينما يسعى المنافقون إلى إفساد كل زاوية فى المجتمع و اقتلاع جذور الخير و الأعمال الصالحة من بين الناس من أجل الوصول إلى أهدافهم المشؤومة، و لا شك أنّ وجود مثل هذا المحيط الفاسد و البيئة الملوّثة ستساعدهم كثيرا فى تحقيق أهدافهم.

الثّالثة: إنّ هؤلاء بخلاء لا يتمتعون بروح الخير للناس فلا ينفقون فى سبيل اللّه، و لا يعينون محروما، و لا يستفيد أقوامهم و معارفهم من أموالهم، فعبّر عنهم القرآن:

وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ و لا شك أنّ هؤلاء إنّما يبخلون بأموالهم لأنّهم لا يؤمنون بالآخرة و الثواب و الجزاء المضاعف لمن أنفق فى سبيل اللّه، بالرغم من أنّهم كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۴

يبذلون الأموال الطائلة من أجل الوصول إلى أغراضهم و آمالهم الشريرة الدنيئة، و ربّما بذلوها رياء و سمعة، لكنّهم لا يقدمون على

البذل على أساس الإخلاص للّه سبحانه و تعالى.

الرّابعة: إنّ كل أعمالهم و أقوالهم و سلوكهم يوضح أن هؤلاء قد نسوا اللّه، و الوضع الذى يعيشونه يبيّن أن اللّه قد نسيهم فى المقابل، و بالتالى فإنّهم قد حرموا من توفيق اللّه و تسديده و مواهبه السنية، أى أنّه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، و آثار و علامات هذا النسيان المتقابل واضحة فى كل مراحل حياتهم، و إلى هذا تشير الآية: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ

و هنا نودّ الإشارة إلى أن نسبة النسيان إلى اللّه جلّ و علا ليست نسبة واقعية و حقيقية- كما هو المعلوم بديهة- بل هى كناية عن معاملة لهؤلاء معاملة الناسى، أى إنّه لا يشملهم برحمته و توفيقه لأنّهم نسوه فى البداية، و مثل هذا التعبير متداول حتى فى الحياة اليومية بين الناس، فقد نقول لشخص مثلا: إنّنا سوف ننساك عند إعطاء الأجرة أو الجائزة لأنّك قد نسيت واجبك، و هذا تعبير يعنى أنّنا سوف لا نعطيه أجره و مكافأته. و هذا المعنى ورد كثيرا فى روايات أهل البيت عليهم السّلام ۴۳].

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ موضوع نسيان اللّه تعالى قد عطف بفاء التفريع على نسيان هؤلاء القوم، و هذا يعنى أنّ نتيجة نسيان هؤلاء لأوامر اللّه تعالى و طغيانهم و عصيانهم هى حرمانهم من مواهب اللّه و رحمته و عنايته.

الخامسة: إنّ المنافقين فاسقون و خارجون من دائرة طاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى، و قالت الآية: إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و نلاحظ أنّ هذه الصفات المشتركة متوفرة فى المنافقين فى كل الاعصار.

فمنافقو عصرنا الحاضر و إن تلبسوا بصور و أشكال جديدة، إلّا أنّهم يتحدون فى الصفات و الأصول المذكورة أعلاه مع منافقى العصور الغابرة، فإنّهم كسابقيهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۵

يدعون الناس إلى الفساد و يرغبونهم فيه، و ينهون الناس عن فعل الخير و يمنعونهم إن استطاعوا، و كذلك فى بخلهم و إمساكهم و عدم إنفاقهم، و بعد كل ذلك فإنّهم يشتركون فى الأصل الأهم، و هو أنّهم قد نسوا اللّه سبحانه و تعالى فى جميع مراحل حياتهم، و تعديهم على قوانينه و فسقهم. و ممّا يثير العجب أنّ هؤلاء بالرغم من كل هذه الصفات القبيحة السيئة يدّعون الإيمان باللّه و الإعتقاد الرصين بأحكام الدين الإسلامى و أصوله و مناهجه! فى الآية التى تليها نلاحظ الوعيد الشديد و الإنذار بالعذاب الأليم و الجزاء الذى ينتظر هؤلاء حيث تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ و أنّهم سيخلدون فى هذه النّار المحرقة خالِدِينَ فِيها و أن هذه المجازاة التى تشمل كل أنواع العذاب و العقوبات تكفى هؤلاء، إذ هِيَ حَسْبُهُمْ و بعبارة أخرى: إنّ هؤلاء لا يحتاجون إلى عقوبة أخرى غير النّار، حيث يوجد فى نار جهنم كل أنواع العذاب: الجسمية منها و الروحية.

و تضيف الآية فى خاتمتها أن اللّه تعالى قد أبعد هؤلاء عن ساحة رحمته و جازاهم بالعذاب الأبدى وَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ بل إن البعد عن اللّه تعالى يعتبر بحد ذاته أعظم و أشد عقوبة و آلمها.

تكرر التأريخ و الإعتبار به:

من أجل توعية هؤلاء المنافقين، وضعت الآية الآتية مرآة التاريخ أمامهم، و دعتهم إلى ملاحظة حياتهم و سلوكهم و مقارنتها بالمنافقين و العتاة المردة الذين تمردوا على أوامر اللّه سبحانه و تعالى، و أعطتهم أوضح الدروس و أكثرها عبرة، فذكّرهم بأنّهم كالمنافقين الماضين و يتبعون نفس المسير و سيلقون نفس المصير:

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ علما أنّ هؤلاء كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً.

و كما أنّ هؤلاء قد تمتعوا بنصيبهم فى هذه الحياة الدنيا، و صرفوا أعمارهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۶

طريق قضاء الشهوات و المعصية و الفساد و الانحراف، فإنّكم قد تمتعتم بنصيبكم كهؤلاء: فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ و الخلاق فى اللغة بمعنى النصيب و الحصة، يقول الراغب فى مفرداته:

أنّها مأخوذة من مادة (خلق)، و يحتمل- على هذا- أن الإنسان قد يستفيد و يتمتع بنصيبه فى هذه الحياة الدنيا بما يناسب خلقه و خصاله.

ثمّ تقول بعد ذلك: إنّكم كمن مضى من أمثالكم قد أوغلتم و سلكتم مسلك الاستهزاء و السخرية، تماما كهؤلاء: وَ خُضْتُمْ كَالَّذِى خاضُوا[۴۴].

ثمّ تبيّن الآية عاقبة أعمال المنافقين الماضين لتحذر المنافقين المعاصرين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كل منافقى العالم فى جملتين:

الأولى: إن كل أعمال المنافقين قد ذهبت أدراج الرياح، فى الدنيا و الآخرة، و لم يحصلوا على أى نتيجة حسنة، فقالت: حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ.

الثّانية: إنّ هؤلاء هم الخاسرون الحقيقيون بما عملوه من الأعمال السيئة:

وَ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

إن هؤلاء المنافقين يمكن أن يستفيدوا و يحققوا بعض المكاسب و الامتيازات من أعمال النفاق، لكن ما يحصلون عليه مؤقت و محدود، فإنّنا إذا أمعنا النظر فسنرى أن هؤلاء لم يجنوا من سلوك هذا الطريق شيئا، لا فى الدنيا و لا فى الآخرة، كما يعكس التاريخ هذه الحقيقة، و يبيّن كيف أنّ المنافقين على مرّ الدهور و الأيّام قد توالت عليهم النكبات و أزرت بهم و حكمت عليهم بالفناء و الزوال، كما أن ممّا لا شك فيها أنّ هذه العاقبة الدنيوية تبيّن المصير الذى ينتظرهم فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۷

إن الآية الكريمة تنبه المنافقين المعاصرين للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول لهم: إنّكم ترون أنّ هؤلاء السابقين رغم تلك الإمكانات و القدرات و الأموال و الأولاد لم يصلوا إلى نتيجة، و أنّ أعمالهم قد أصبحت هباء منثورا لأنّها لم تستند إلى أساس محكم، بل كانت أعمال نفاق و مراوغة، فإنّكم ستواجهون ذلك المصير بطريق أولى، لأنّكم أقل من هؤلاء قدرة و قوة و امكانات.

و بعد هذه الآيات يتحول الحديث من المنافقين و يتوجه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتبع أسلول الاستفهام الإنكارى، فتقول الآية: أَ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْراهِيمَ وَ أَصْحابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكاتِ ۴۵] فإنّ هذه الأقوام كانت فى الأزمان السالفة تسيطر على مناطق مهمّة من العالم، إلّا أن كل فئة قد ابتليت بنوع من العقاب الإلهى نتيجة لانحرافها و طغيانها و إجرامها، و فرارها من الحق و العدالة، و إقدامها على الظلم و الاستبداد و الفساد.

فقوم نوح عوقبوا بالطوفان و الغرق، و قوم عاد (قوم هود) بالرياح العاصفة و الرعب، و قوم ثمود (قوم صالح) بالزلازل و الهدم و الدمار، و قوم إبراهيم بسلب النعم، و أصحاب مدين (قوم شعيب) بالصواعق المحرقة، و قوم لوط بخسف المدن و فنائهم جميعا. و لم يبق من هؤلاء إلّا الجثث الهامدة، و العظام النخرة تحت التراب أو فى أعماق البحار.

إنّ هذه الحوادث المرعبة تهز وجدان و أحاسيس كل إنسان إذا امتلك أدنى إحساس و شعور عند مطالعتها و تحقيقها.

و رغم طغيان هؤلاء و تمردهم فانّ اللّه الرؤوف الرحيم لم يحرم هؤلاء من رحمته و عطفه لحظة، و قد أرسل إليهم الرسل بالآيات البينات لهدايتهم و إنقاذهم من الضلالة إذ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ إلّا أن هؤلاء لم يصغوا إلى آية موعظة و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۸

يقبلوا نصيحة من أنبياء اللّه و أوليائه، و لم يقيموا وزنا لجهاد و متاعب هؤلاء الأبرار و تحملهم كل المصاعب فى سبيل هداية خلق اللّه، و إذا كان العقاب قد نالهم فلا يعنى أن اللّه عزّ و جلّ قد ظلمهم، بل هم ظلموا أنفسهم بما أجرموا فاستحقوا العذاب فَما كانَ اللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۱۹

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۷۱) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۷۲)

التّفسير

صفات المؤمنين الحقيقيين:

مرّ فى الآيات السابقة ذكر بعض الصفات المشتركة بين المنافقين، الرجال منهم و النساء، و تلخصت فى خمس صفات: الأمر بالمنكر، و النهى عن المعروف، و البخل و عدم الإنفاق، و نسيان اللّه سبحانه و تعالى، و مخالفة و عصيان أوامر اللّه.

و تذكر هذه الآيات صفات و علامات المؤمنين و المؤمنات، و تتخلص فى خمس صفات أيضا، فتقابل كل صفة منها صفة من صفات المنافقين، واحدة بواحدة، لكنّها فى الاتجاه المعاكس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۰

و تشرع الآية بذكر صفات المؤمنين و المؤمنات، و تبدأ ببيان أنّ بعضهم لبعض ولى و صديق وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ

إنّ أوّل ما يلفت النظر أن كلمة (أولياء) لم تذكر أثناء الكلام عن المنافقين، بل ورد (بعضهم من بعض) التى توحى بوحدة الأهداف و الصفات و الأعمال، و لكنّها تشير ضمنا إلى أن هؤلاء المنافقين و إن كانوا فى صف واحد ظاهرا و يشتركون فى البرامج و الصفات، إلّا أنهم يفتقدون روح المودة و الولاية لبعضهم البعض، بل إنّهم إذا شعروا فى أى وقت بأنّ منافعهم و مصالحهم الشخصية قد تعرضت للخطر فلا مانع لديهم من خيانة حتى أصدقائهم فضلا عن الغرباء، و إلى هذه الحالة تشير الآية (۱۴) من سورة الحشر: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى

و بعد بيان هذه القاعدة الكلية، تشرع ببيان الصفات الجزئية للمؤمنين:

۱- ففى البداية تبيّن أن هؤلاء قوم يدعون الناس إلى الخيرات يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

۲- إنّهم ينهون الناس عن الرذائل و المنكرات وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

۳- إنّهم بعكس المنافقين الذين كانوا قد نسوا اللّه، فإنّهم يقيمون الصلاة، و يذكرون اللّه فتحيا قلوبهم و تشرف عقولهم وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ.

۴- إنّهم- على عكس المنافقين و الذين كانوا يبخلون بأموالهم- ينفقون أموالهم فى سبيل اللّه و فى مساعدة عباد اللّه و بناء المجتمع و إصلاح شؤونه، و يؤدون زكاة أموالهم وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ.

۵- إنّ المنافقين فسّاق و متمردون، و خارجون من دائرة الطاعة لأوامر اللّه، أمّا المؤمنون فهم على عكسهم تماما، إذ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ

رَسُولَهُ

أمّا ختام الآيـة فإنّه يتحـدث عن امتيازات المؤمنين، و المكافأة و الثواب الذى ينتظرهم، و أوّل ما تعرضت لبيانه هو الرحمة الإلهية التى تنتظرهم ف أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۱

إنّ كلمة (الرحمة) التى ذكرت هنا لها مفهوم واسع، و يدخل ضمنه كل خير و بركة و سعادة، سواء فى هذه الحياة أو فى العالم الآخر، و هذه الجملة فى الواقع جاءت مقابلة لحال المنافقين الذين لعنهم اللّه و أبعدهم عن رحمته.

و لا شك أنّ وعد اللّه للمؤمنين قطعى و يقينى لأنّ اللّه قادر و حكيم، و لا يمكن للحكيم أن يعد بدون سبب، و ليس اللّه القادر بعاجز عن الوفاء بوعده حين وعد إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

الآيـة الثّانيـة شـرحت جانبا من هـذه الرحمـة الإلهية الواسـعة التى تعم المؤمنين فى بعديها المادى و المعنوى. فهى أوّلا تقول: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ، و من خصائص هـذه النعمـة الكبيرة أنّها لا زوال لها و لا فناء، بل الخلود الأبـدى، لذا فإن المؤمنين و المؤمنات سيكونون خالِدِينَ فِيها.

و من المواهب الإلهيـة الأـخرى التى سوف ينعمون بهـا هى المساكن الجميلـة، و المنازل المرفهـة التى أعـدها اللّه لهم وسط الجنان وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ

(عدن) فى اللغة تعنى الإقامة و البقاء فى مكان ما، و لهذا يطلق على المكان الذى توجد فيه مواد خاصّة اصـطلاح (معدن)، و على هذا المعنى فإنّ هناك شـبها بين الخلود و عـدن، لكن لما أشارت الجملـة السابقـة إلى مسألة الخلود، يفهم من هذه الجملة أن جنات عدن محل خاص فى الجنّة يمتاز على سائر حدائق الجنّة.

لقد وردت هذه الموهبة الإلهية بأشكال و تفسيرات مختلفة فى الرّوايات و كلمات المفسّرين، فنطالع

فى حـديث عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: «عـدن دار اللّه التى لم ترها عين، و لم يخطر على قلب بشـر، لا يسـكنها غير ثلاثـة: النّبيين، و الصدّيقين، و الشّهداء»[۴۶].

و

فى كتـاب الخصـال نقـل عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم قوله: «من سـرّه أن يحيـا حياتى، و يموت مماتى، و يسـكن جنتى التى واعدنى اللّه ربّى، جنات عدن ... فليوال على بن أبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۲

طالب عليه السّلام و ذريته عليهم السّلام من بعده».[۴۷]

و يتّضـح من هـذا الحديث أن جنات عدن حدائق خاصّة فى الجنّة سيسـتقر فيها النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و جماعة من خلّص أصحابه و أتباعه.

و هذا المضـمون قد ورد فى حديث آخر عن على عليه السّلام، و يدل على أن جنات عدن مقر إقامة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

بعد ذلك تشـير الآية إلى الجزاء المعنوى المعد لهؤلاء، و هو رضـى اللّه تعالى عنهم المختص بالمؤمنين الحقيقيين، و هو أهم و أعظم جزاء، و يفوق كل النعم و العطايا الأخرى وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ.

إنّ اللذة المعنوية و الإحساس الروحى الذى يحس و يلتذ به الإنسان عند شـعوره برضى اللّه سبحانه و تعالى عنه لا يمكن أن يصفه أى بشـر، و على قول بعض المفسّرين فإنّ نسـمة و لحظـة من هـذه اللـذة الروحيـة تفوق نعم الجنّة كلها و مواهبها المختلفـة و المتنوعة و

اللامتناهية.

من الطبيعى أنّنا لا ـ نستطيع أن نجسم و نرسم صورة فى أفكارنا عن أى نعمة من نعم الحياة الأخرى و نحن فى قفص الحياة الدنيا و حياتها المحدودة، فكيف سنصل إلى إدراك هذه النعمة المعنوية و الروحية الكبرى؟! نعم، يمكن إيجاد تصور ضعيف عن الاختلافات المادية و المعنوية التى نعيشها فى هذه الدنيا، فمثلا يمكن إدراك الاختلاف فى اللذة بين اللقاء بصديق عزيز جدا بعد فراق طويل و لذّة الإحساس الروحى الخاص الذى يعترى الإنسان عند إدراكه أو حلّه لمسألة علمية معقدة صرف فى تحصيلها و الوصول إلى دقائقها الشهور، بل السنين، أو الانشداد الروحى الذى يبعث على النشاط و الجد فى لحظات خلوص العبادة، أو النشوة عند توجه القلب و حضوره فى مناجاة تمتزج بهذا الحضور، و بين اللذة التى نحس بها من تناول طعام لذيذ و أمثالها من اللذائذ، و من الطبيعى أن هذه اللذائذ المادية لا يمكن مقارنتها باللذائذ المعنوية، و لا يمكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۳

أن تصل إلى مصافها.

من هنا يتّضح التصور الخاطئ لمن يقول بأن القرآن الكريم عند ما يتحدث عن الجزاء و العطاء الإلهى الذى سيناله المؤمنون الصالحون يؤكّد على النعم المادية، و لا ـ يتطرق إلى النواحى المعنوية، لأن الجملة أعلاه- أى: رضوان من اللّه أكبر- ذكرت أن رضوان اللّه أكبر من كل النعم، خاصّة و أنّها وردت بصيغة النكرة، و هى تدل على أن قسما من رضوان اللّه أفضل من كل النعم المادية الموجودة فى الجنّة، و هذا يبيّن القيمة السامية لهذا العطاء المعنوى.

إن الدليل على أفضلية الجزاء المعنوى واضح أيضا، لأنّ الروح فى الواقع بمثابة (الجوهر) و الجسم بمكان (الصدف)، فالروح كالآمر و القائد، و الجسم كالجندى المطيع و المنفذ، فالتكامل الروحى هو الهدف، و الجسم وسيلة و لهذا السبب فإن إشعاعات الروح و آفاقها أوسع من الجسم و اللذائذ الروحية لا يمكن قياسها و مقارنتها باللذائذ المادية و الجسمية، كما أن الآلام الروحية أشدّ ألما من الآلام الجسمية.

و فى نهاية أشارت الآية إلى جميع هذه النّعم المادية و المعنوية، و عبرت عنها بأنّ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۴

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۷۳]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۳)

التّفسير

جهاد الكفار و المنافقين:

و أخيرا، صدر القرار الإلهى للنّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى وجوب جهاد الكفار و المنافقين بكل قوّة و حزم يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ و لا تأخذك بهم رأفة و رحمة، بل شدد وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ و هذا العقاب هو العقاب الدنيوى، أمّا فى الآخرة فإن محلهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

إن طريقة جهاد الكفار واضحة و معلومة، فإنّ جهادهم يعنى التوسل بكل الطرق و الوسائل فى سبيل القضاء عليهم، و بالذات الجهاد

المسلح و العمل العسكرى، لكن البحث فى أسلوب جهاد المنافقين، فمن المسلم أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يجاهدهم عسكريا و لم يقابلهم بحد السيف، لأنّ المنافق هو الذى أظهر الإسلام، فهو يتمتع بكل حقوق المسلمين و حماية القانون الإسلامى بالرغم من أنّه يسعى لهدم الإسلام فى الباطن فكم من الأفراد لا حظّ لهم من الإيمان، و لا يؤمنون حقيقة بالإسلام، غير أنّنا لا نستطيع أن نعاملهم معاملة غير المسلمين.

اذن، فالمستفاد من الرّوايات و أقوال المفسّرين هو أنّ المقصود من جهاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۵

المنافقين هو الاشكال و الطرق الأخرى للجهاد غير الجهاد الحربى و العسكرى، كالذم و التوبيخ و التهديد و الفضيحة، و ربّما تشير جملة وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ إلى هذا المعنى.

و يحتمل فى تفسير هذه الآية: أنّ المنافقين يتمتعون بأحكام الإسلام و حقوقه و حمايته ما دامت أسرارهم مجهولة، و لم يتّضح وضعهم على حقيقته، أمّا إذا تبيّن وضعهم و انكشفت خبيئة أسرارهم فسوف يحكمون بأنّهم كفار حربيون، و فى هذه الحالة يمكن جهادهم حتى بالسيف.

لكن الذى يضعف هذا الاحتمال أنّ إطلاق كلمة المنافقين على هؤلاء لا يصح فى مثل هذه الحالة، بل إنّهم يعتبرون من جملة الكفار الحربيين، لأنّ المنافق- كما قلنا سابقا- هو الذى يظهر الإسلام و يبطن الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۶

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۷۴]

اشارة

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۷۴)

سبب النّزول

ذكرت فى سبب نزول هذه الآيات أقوال و آراء مختلفة، و كلّها تتفق على أن بعض المنافقين قد تحدثوا بأحاديث سيئة و غير مقبولة حول الإسلام و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بعد أن فشا أمرهم و انتشرت أسرارهم أقسموا كذبا بأنّهم لم يتفوهوا بشىء، و كذلك فإنّهم قد دبروا مؤامرة ضد النّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم، غير أنّها قد أحبطت.

و من جملتها: أنّ أحد المنافقين- و اسمه جلاس- سمع بعضا من خطب الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيّام غزوة تبوك، و أنكرها بشدّة و كذبها، و بعد رجوع المسلمين إلى المدينة حضر رجل يقال له: عامر بن قيس- كان قد سمع جلاس- عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أبلغه كلام جلاس، فلما حضر جلاس و سأله النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن ذلك أنكر، فأمرهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۷

النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقسما باللّه- فى المسجد عند المنبر- أنّهما لا يكذبان، فاقتربا من المنبر فى المسجد و أقسما، إلّا أن عامرا دعا بعد القسم و قال: اللّهم أنزل على نبيّك آية تعرّف الصادق، فأمّن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمون على دعائه. فنزل جبرئيل بهذه الآية، فلمّا بلغ قوله تعالى: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ قال جلاس: يا رسول اللّه، إنّ اللّه اقترح علىّ التوبة، و إنّى قد ندمت على ما كان منّى، و أتوب منه، فقبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم توبته.

و كما أشرنا سابقا فقد ذكر أن جماعة من المنافقين صمموا على قتل النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى طريق عودته من غزوة تبوك، فلمّا وصل إلى العقبة نفروا بعيره ليسقط فى الوادى، إلّا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد أطلع بنور الوحى على هذه النّية الخبيثة، فرد كيدهم فى نحورهم و أبطل مكرهم. و كان زمام الناقة بيد عمار يقودها، و كان حذيفة يسوقها لتكون الناقة فى مأمن تام، و أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين أن يسلكوا طريقا آخر حتى لا يخفى المنافقون أنفسهم بين المسلمين و ينفّذوا خطتهم.

و لما وصل إلى سمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وقع أقدام هؤلاء أو حوافر خيولهم أمر بعض أصحابه أن يدفعوهم و يبعدوهم، و كان عدد هؤلاء المنافقين اثنى عشر أو خمسة عشر رجلا، و كان بعضهم قد أخفى وجهه، فلمّا رأوا أن الوضع لا يساعدهم على تنفيذ ما اتفقوا تواروا عن الأنظار، إلّا أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عرفهم و ذكر أسماءهم واحدا واحدا لبعض أصحابه ۴۸].

لكن الآية- كما سنرى- تشير إلى خطتين و برنامجين للمنافقين: إحداهما:

أقوال هؤلاء السيئة. و الأخرى: المؤامرة و الخطة التى أحبطت، و على هذا الأساس فإنا نعتقد أن كلا سببى النزول صحيحان معا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۸

التّفسير

مؤامرة خطرة:

إنّ ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة واضح جدّا، لأنّ الكلام كان يدور حول المنافقين، غاية ما فى الأمر أنّ هذه الآية تزيح الستار عن عمل آخر من أعمال المنافقين، و هو أن هؤلاء عند ما رأوا أن أمرهم قد انكشف، أنكروا ما نسب إليهم بل أقسموا باليمين الكاذبة على مدّعاهم.

فى البداية تذكر الآية أن هؤلاء المنافقين لا يرتدعون عن اليمين الكاذبة فى تأييد إنكارهم، و لدفع التهمة فإنّهم يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا فى الوقت الذى يعلمون أنّهم ارتكبوا ما نسب إليهم من الكفر وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ و على هذا فإنّهم قد اختاروا طريق الكفر بعد إعلانهم الإسلام وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ.. و من البديهى أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين منذ البداية، بل إنّهم أظهروا الإسلام فقط، و على هذا فإنّهم بإظهارهم الكفر قد هتكوا و مزّقوا حتى هذا الحجاب المزيف الذى كانوا يتسترون به.

و فوق كل ذلك فقد صمّموا على أمر خطير لم يوفقوا لتحقيقه وَ هَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا و يمكن أن يكون هذا إشارة إلى تلك المؤامرة لقتل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ليلة العقبة، و التى مرّ ذكرها آنفا، أو أنّه إشارة إلى كل أعمال المنافقين التى يسعون من خلالها إلى تحطيم المجتمع الإسلامى و بثّ بذور الفرقة و الفساد و النفاق بين أوساطه، لكنّهم لن يصلوا إلى أهدافهم مطلقا.

ممّا يستحق الانتباه أن يقظة المسلمين تجاه الحوادث المختلفة كانت سببا فى معرفة المنافقين و كشفهم، فقد كان المسلمون- دائما- يرصدون هؤلاء، فإذا سمعوا منهم كلاما منافيا فإنّهم يخبرون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم به من أجل منعهم و تلقى الأوامر فيما يجب عمله تجاه هؤلاء. إنّ هذا الوعى و العمل المضاد المؤيّد بنزول الآيات أدى إلى فضح المنافقين و إحباط مؤامراتهم و خططهم الخبيثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۲۹

الجملة الأخرى تبيّن واقع المنافقين القبيح و نكرانهم للجميل فتقول الآية: إنّ هؤلاء لم يروا من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أى خلاف أو أذى، و لم يتضرروا بأى شىء نتيجة للتشريع الإسلامى، بل على العكس، فإنّهم قد تمتعوا فى ظل حكم الإسلام بمختلف

النعم المادية و المعنوية وَ ما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۴۹] و هذه قمة اللؤم.

و لا شك أنّ إغناءهم و تأمين حاجاتهم فى ظل رحمة اللّه و فضله و كذلك بجهود النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستحق أن ينقم من جرائه هؤلاء المنافقون، بل إنّ حقّه الشكر و الثناء، إلّا أنّ هؤلاء اللؤماء المنكرين للجميل و المنحرفى السيرة و السلوك قابلوا الإحسان بالإساءة.

و مثل هذا التعبير الجميل يستعمل كثيرا فى المحادثات و المقالات، فمثلا نقول للذى أنعمنا عليه سنين طويلة و قابل إحساننا بالخيانة: إنّ ذنبنا و تقصيرنا الوحيد أنّنا آويناك و دافعنا عنك و قدّمنا لك منتهى المحبّة على طبق الإخلاص.

غير أنّ القرآن- كعادته- رغم هذه الأعمال لم يغلق الأبواب بوجه هؤلاء، بل فتح باب التوبة و الرجوع إلى الحق على مصراعيه إن أرادوا ذلك، فقال: فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ و هذه علامة واقعية الإسلام و اهتمامه بمسألة التربية، و معارضته لاستخدام الشدّة فى غير محلّها و هكذا فتح باب التوبة حتى بوجه المنافقين الذين طالما كادوا للإسلام و تآمروا على نبيّه و حاكوا الدسائس و التهم ضده، بل إنّه دعاهم إلى التوبة أيضا.

هذه فى الحقيقة هى الصورة الواقعية للإسلام، فما أظلم هؤلاء الذين يرمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۰

الإلام بأنّه دين القوة و الإرهاب و الخشونة! هل توجد فى عالمنا المعاصر دولة مستعدة لمعاملة من يسعى لإسقاطها و تحطيمها كما رأينا فى تعامل الإسلام السامى مع مناوئيه، مهما ادّعت أنّها من أنصار المحبة و السلام؟! و كما مرّ علينا فى سبب نزول الآية، فإنّ أحد رؤوس النفاق و المخططين له لما سمع هذا الكلام تاب ممّا عمل، و قبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم توبته.

و فى نفس الوقت و من أجل أن لا يتصور هؤلاء أن هذا التسامح الإسلامى صادر من منطق الضعف، حذّرهم بأنّهم إن استمروا فى غيهم و تنكّروا لتوبتهم، فإنّ العذاب الشديد سينالهم فى الدّارين وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ و إذا كانوا يظنون أنّ أحدا يستطيع أن يمدّ لهم يد العون مقابل العذاب ا لإلهى فإنّهم فى خطأ كبير، فإنّ العذاب إذا نزل بهم فساء صباح المنذرين: وَ ما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

من الواضح بديهة أنّ عذاب هؤلاء فى الآخرة معلوم، و هو نار جهنم، أمّا عذابهم فى الدنيا فهو فضيحتهم و مهانتهم و تعاستهم و أمثال ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۵ الى ۷۸]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (۷۶) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ (۷۷) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۷۸)

سبب النّزول

المعروف بين المفسّرين أنّ هذه الآيات نزلت فى رجل من الأنصار يدى ثعلبة بن حاطب، و كان رجلا فقيرا يختلف إلى المسجد دائما، و كان يصر على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يدعو له بأن يرزقه اللّه مالا وفيرا،

فقال له النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه»

أو ليس الأولى لك أن تتأسى بنبىّ اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تحيا حياة بسيطة و تقنع بها؟ لكن ثعلبة لم يكف و لم يصرف النظر عن أمله، و أخيرا قال للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: و الّذى بعثك بالحق نبيّا، لئن رزقنى اللّه لأعطين كل الحقوق و أؤدى كل الواجبات، فدعا له النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فلم يمض زمان- و على رواية- حتى توفى ابن عم له، و كان غنيّا جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۲

فوصلت إليه ثروة عظيمة، و على رواية أخرى أنّه اشترى غنما، فلم تزل تتوالد حتى أصبح حفظها و رعايتها فى المدينة أمرا غير ممكن، فاضطر أن يخرج إلى أطراف المدينة، فألهته أمواله عن حضور الجماعة، بل و حتى الجمعة.

و بعد مدّة أرسل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عاملا إلى ثعلبة ليأخذ الزكاة منه، غير أن هذا الرجل البخيل الذى عاش لتوّه حياة الرفاه امتنع من أداء حقوق اللّه تعالى، و لم يكتف بذلك، بل اعترض على حكم الزّكاة و قال: إنّ حكم الزكاة كالجزية، أى أنّنا أسلمنا حتى لا نؤدى الجزية، فإذا وجبت علينا الزكاة فأى فرق بيننا و بين غير المسلمين؟

قال هذا فى الوقت الذى لم يفهم معنى الجزية و لا معنى الزكاة، أو أنّه فهمه، إلّا أن حبّ الدنيا و تعلقه بها لم يسمح له ببيان الحقيقة و إظهار الحق، فلمّا بلغ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما قاله

قال: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة»

، فنزلت هذه الآيات.

و قد ذكرت أسباب أخر لنزول هذه الآيات تشابه قصّة ثعلبة مع اختلاف يسير.

و يفهم من أسباب النزول المذكورة و من مضمون الآيات أنّ هذا الشخص- أو الأشخاص المذكورين- لم يكونوا من المنافقين فى بداية الأمر، لكنّهم لهذه الأعمال ساروا فى ركابهم.

التّفسير

المنافقون و قلّة الاستيعاب:

هذه الآيات فى الحقيقة تضع إصبعها على صفة أخرى من صفات المنافقين السيّئة، و هى أنّ هؤلاء إذا مسّهم البؤس و الفقر و المسكنة عزفوا على وتر الإسلام بشكل لا يصدق معه أحد أنّ هؤلاء يمكن أن يكونوا يوما من جملة المنافقين، بل ربّما ذمّوا و لاموا الذين يمتلكون الثروات و القدرات الواسعة على عدم استثمارها فى خدمة المحرومين و مساعدة المحتاجين!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۳

إلّا أنّ هؤلاء أنفسهم، إذا تحسّن وضعهم المادى فإنّهم سينسون كل عهودهم و مواثيقهم مع اللّه و الناس، و يغرقون فى حبّ الدنيا، و ربّما تغيّرت كل معالم شخصياتهم، و يبدؤون بالتفكير بصورة أخرى و بمنظار مختلف تماما، و هكذا يؤدى ضعف النفس هذا إلى حبّ الدنيا و البخل و عدم الإنفاق و بالتالى يكرّس روح النفاق فيهم بشكل يوصد أمامهم أبواب الرجوع إلى الحق.

فالآية الأولى تتحدث عن بعض المنافقين الذين عاهدون اللّه على البذل و العطاء لخدمة عباده إذا ما أعطاهم اللّه المال الوفير وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ

إلّا أنّهم يؤكّدون هذه الكلمات و الوعود ما دامت أيديهم خالية من الأموال فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ غير

أن عملهم هـذا و مخـالفتهم للعهود التى قطعوهـا على أنفسـهم بـذرت روح النفـاق فى قلوبهم و سـيبقى إلى يوم القيامـة متمكنـا منهم فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ و إنّما استحقوا هذه العاقبة السيئة غير المحمودة بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ و فى النهاية و بّخت الآية هؤلاء النفر و لامتهم على النوايا السـيئة التى يضـمرونها، و على انحرافهم عن الصـراط المستقيم، و استفهمت بأنّهم أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

ملاحظات

و هنا يجب الانتباه إلى عدّة ملاحظات:

۱- يمكن أن نرى بوضوح تام من خلال جملـة فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ أنّ النسـبة و العلاقة بين الكثير من الذنوب و الصـفات السـيئة، بل و حتى بين الكفر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۴

و النفاق، هى نسـبة و علاقـة العلـة و المعلول، لأنّ الجملـة الآنفة الذكر تبيّن و تقول بصـراحة: إنّ سـبب النفاق الذى نبت فى قلوبهم و حرفهم عن الجادة هو بخلهم و نقضـهم لعهودهم، و كـذلك الـذنوب و المخالفات الأخرى التى ارتكبوها، و لهـذا فإنّنا نقرأ فى بعض العبارات أن الكبائر فى بعض الأحيان تكون سببا فى أن يموت الإنسان و هو غير مؤمن، إذ ينسلخ منه روح الإيمان بسببها.

۲- إنّ المقصود من يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ و الـذى يعود ضـميره إلى اللّه سـبحانه و تعـالى هو يوم القيامـة، لأـن تعبير لِقـاءَ رَبِّهِ و أمثاله فى القرآن يسـتعمل عـادة فى موضوع القيامـة. صـحيح أن فترة العمـل- التى هى الحيـاة الـدنيا- تنتهى بموت الإنسـان، و بموته يغلق ملف أعماله الصالحة و الطالحة، إلّا أن آثار تلك الأعمال تبقى تؤثر فى روح الإنسان إلى يوم القيامة.

و قـد احتمل جماعـة أنّ ضـمير (يلقونه) يعود إلى البخل، فيكون المعنى: حتى يلاقوا جزاء بخلهم و عقابه. و يحتمل كذلك أن يكون المراد من لقاء اللّه: لحظة الموت. إلّا أن جميع هذه خلاف ظاهر الآية، و الظاهر ما قلناه.

و لنا بحث فى أنّه ما هو المقصود من لقاء اللّه فى ذيل الآية (۶۴) من سورة البقرة.

۳- و يسـتفاد أيضا- من الآيات أعلاه- أنّ نقض العهود و الكذب من صفات المنافقين، فهؤلاء سحقوا جميع العهود المؤكدة مع ربّهم و لم يعيروها أية أهمية، فإنّهم يكذبون حتى على ربّهم، و الحديث المعروف المنقول عن النبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم يؤكّد هذه الحقيقة، حيث

يقول صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب، و إذا وعد أخلف، و إذا ائتمن خان»[۵۰].

و من الملفت للنظر وجود هـذه العلامات الثلاث مجتمعـة فى القصّـة المـذكورة- قصّة ثعلبة- فإنّه كذب، و أخلف وعده، و خان أمانة اللّه، و هى الأموال التى رزقه اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۵

إيّاها، و هى فى الحقيقة أمانة اللّه عنده.

و

قـد ورد الحـديث المذكور فى الكافى بصورة أشد تأكيدا عن الإمام الصادق عليه السّـلام عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث يقـول: «ثلاـث مـن كـن فيـه كـان منافقـا، و إن صـام و صـلى و زعـم أنّـه مسـلم: من إذا ائتمن خـان، و إذا حـدث كـذب، و إذا وعد أخلف»[۵۱].

نـذكر هنا أن من الممكن أن تصـدر الـذنوب المـذكورة من المؤمنين، إلّا أنّها نادرة، أمّا اسـتمرار صدورها فهو علامة روح النفاق فى ذلك الشخص.

۴- و هنا ملاحظة أخرى ينبغى أن ننبه عليها، و هى أن ما قرأناه فى هذه الآيات ليس بحثا تاريخيا مختصا بحقبة مضت من الزمان، بل هو بيان واقع أخلاقى و اجتماعى يوجد فى كل عصر و زمان، و فى كل مجتمع- بدون استثناء- توجد نماذج كثيرة تمثل هذا الواقع.

إذا لا حظنا واقعنا الذى نعيشه و دققنا فيه- و ربّما إذا نظرنا إلى أنفسنا- فسنكتشف نماذج من أعمال ثعلبة بن حاطب، و طريقة تفكيره فى صور متعددة و أشخاص مختلفين، فإنّ الكثيرين فى الأوضاع العادية أو عند إعسارهم و فقرهم يكونون من المؤمنين المتحرقين على دينهم و الثابتين على عهدهم حيث يحضرون فى الحلقات الدينية، و ينضوون تحت كل لواء يدعو إلى الإصلاح و إنقاذ المجتمع، و يضمون أصواتهم إلى كل مناد الحق و العدالة، و لا يألون جهدا فى سبيل أعمال الخير، و يصرخون و يقفون بوجه كل فساد.

أمّا إذا فتحت أمامهم أبواب الدنيا و نالوا بعض العناوين و المراكز القيادية أو تسلطوا على رقاب الناس، فستتغير صورهم و سلوكهم، و الأدهى من كل ذلك أن تتبدل ماهيتهم، و عندئذ سيخمد لهيب عشقهم للّه، و يهدأ ذلك الهيجان و التحرق على دين اللّه، و تفتقدهم تلك الحلقات و الجلسات الدينية، فلا يساهمون فى أية خطة إصلاحية و لا يسعون من أجل ذلك الحق، و لا تثبت لهم قدم فى مواجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۶

الباطل.

هؤلاء و قبل أن يصلوا الى مآربهم لم يكن لهم محل من الإعراب، أو أثر فى المجتمع، لذا سيعاهدون اللّه و عباده بألف عهد و ميثاق بأنّهم إن تمكنوا من الأمر، أو امتلأت أياديهم من القدرات و الأموال فسيفعلون كذا و كذا، و يتوسلون للوصول الى أهدافهم بطرح آلاف الإشكالات و الانتقادات فى حق المتصدين و يتهمونهم بعدم معرفتهم بإدارة الأمور، و عدم إحاطتهم بوظائفهم و واجباتهم، أمّا إذا وصلوا الى ما يرومونه و تمكنوا من الأمر، فسينسون كل تلك الوعود و العهود و يتنكرون لها، و ستتبخر كل تلك الإيرادات و الانتقادات و تذوب كما يذوب الجليد فى حرارة الصيف.

نعم، إنّ ضعف النفس هذا واحدة من العلامات البارزة و الواضحة للمنافقين، و هل النفاق إلّا كون صاحبه ذا وجهين، و بتعبير آخر: هل هو إلّا ازدواج الشخصية؟ إن سيرة هكذا أفراد و تأريخهم نموذج للشخصية المزدوجة، لأن الإنسان الأصيل ذو الشخصية المتينة لا يكون مزدوج الشخصية.

و لا شك أنّ للنفاق درجات مختلفة، كالإيمان، تماما، فالبعض قد ترسخت فيهم هذه الخصلة الخبيثة الى درجة اقتلعت كل زهور الإيمان باللّه من قلوبهم، و لم تبق لها أثرا، بالرغم من أنّهم ألصقوا أنفسهم بالمؤمنين و ادعوا أنّهم منهم.

لكن البعض الآخر مع أنّهم يملكون إيمانا ضعيفا، و هم مسلمون بالفعل، إلّا أنّهم يرتكبون أعمالا تتفق مع سلوك المنافقين، و تفوح منها رائحة الازدواجية، فهؤلاء ديدنهم الكذب، إلّا أن ظاهرهم الصدق و الصلاح، و مثل هؤلاء يصدق عليهم أيضا أنّهم منافقون و ذوو وجهين.

أليس الذى عرف بالأمانة لظاهره الصالح، و استطاع بذلك أن يكسب ثقة و اطمئنان الناس فأودعوه أماناتهم، إلّا أنّه يخونهم فى أماناتهم، هو فى واقع الحال مزدوج الشخصية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۷

و كذلك الذين يقطعون العهود و المواثيق، لكنّهم لا يفون بها مطلقا، ألا يعتبر عملهم عمل المنافقين؟

إن من أكبر الأمراض الاجتماعية، و من أهم عوامل تخلف المجتمع وجود أمثال هؤلاء المنافقين فى المجتمعات البشرية و نحن نستطيع أن نحصى الكثير منهم فى مجتمعاتنا الاسلامية إذا كنّا واقعيين و لم نكذب على أنفسنا. و العجب أنّنا رغم كل هذه العيوب و المخازى و البعد عن روح التعليمات و القوانين الإسلامية، فإننا نحمّل الإسلام تبعة تخلفنا عن الركب الحضارى الأصيل!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۸

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۷۹ الى ۸۰]

اشارة

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۷۹) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۸۰)

سبب النّزول

وردت عدّة روايات فى سبب نزول هذه الآيات فى كتب التّفسير و الحديث، يستفاد من مجموعها أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد صمّم على إعداد جيش المسلمين لمقابلة العدو- و ربّما كان ذلك فى غزوة تبوك- و كان محتاجا لمعونة الناس فى هذا الأمر، فلما أخبرهم بذلك سارع الأغنياء إلى بذل الكثير من أموالهم، سواء كان هذا البذل من باب الزكاة أو الإنفاق، و وضعوا هذه الأموال تحت تصرف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

أمّا الفقراء، كأبى عقيل الأنصارى أو سالم بن عمير الأنصارى، لما لم يجدوا ما ينفقونه لمساعدة جنود الإسلام، فقد عمدوا إلى مضاعفة عملهم، و استقاء الماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۳۹

ليلا، فحصلوا على صاعين من التمر، فادخروا منه صاعا لمعيشتهم و معيشة أهليهم، و أتوا بالآخر إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قدموه، و شاركوا بهذا الشيء اليسير- الذى لا قيمة له ظاهرا- فى هذا المشروع الإسلامى الكبير.

غير أنّ المنافقين الذين لا همّ لهم إلّا تتبع ما يمكن التشهير به بدلا من التفكير بالمساهمة الجدية فإنّهم عابوا كلا الفريقين، أمّا الأغنياء فاتهموهم بأنّهم إنّما ينفقون رياء و سمعة، و أمّا الفقراء الذين لا يستطيعون إلّا جهدهم، و الذين قدموا اليسير و هو عند اللّه كثير، فإنهم سخروا منهم بأن جيش الإسلام هل يحتاج إلى هذا المقدار اليسير؟ فنزلت هذه الآيات، و هددتهم تهديدا شديدا و حذرتهم من عذاب اللّه.

التّفسير

خبث المنافقين:

فى هذه الآيات إشارة إلى صفة أخرى من الصفات العامّة للمنافقين، و هى أنّهم أشخاص لجوجون معاندون وهمهم التماس نقاط ضعف فى أعمال الآخرين و احتقار كل عمل مفيد يخدم المجتمع و محاولة إجهاضه بأساليب شيطانية خبيثة من أجل صرف الناس عن عمل الخير و بذلك يزرعون بذور النفاق و سوء ظن فى أذهان المجتمع، و بالتالى إيقاف عجلة الإبداع و تطور المجتمع و خمول الناس و موت الفكر الخلّاق.

لكن القرآن المجيد ذم هذه الطريقة غير الإنسانية التى يتبعها هؤلاء، و عرّفها للمسلمين لكى لا يقعوا فى حبائل مكر المنافقين و من ناحية أخرى أراد أن يفهم المنافقون أن سهمهم لا يصيب الهدف فى المجتمع الإسلامى.

ففى البداية يقول: إنّ هؤلاء الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ

اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۰

أَلِيمٌ

«يلمزون» مأخوذة من مادة (لمز) بمعنى تتبع العيوب و العثرات، و «المطوّعين» مأخوذة من مادة (طوع) على وزن (موج) بمعنى الطاعة، لكن هذه الكلمة تطلق عادة على الأفراد الذين دأبهم عمل الخيرات، و هم يعملون بالمستحبات علاوة على الواجبات.

و يستفاد من الآية أعلاه أنّ المنافقين كانوا يعيبون جماعة، و يسخرون من الأخرى، و من المعلوم أن السخرية كانت تنال الذين يقدمون الشيء القليل، و الذين لا يجدون غيره ليبذلوه فى سبيل الإسلام، و على هذا لا بدّ أن يكون لمزهم و طعنهم مرتبطا بأولئك الذين قدموا الأموال الطائلة فى سبيل خدمة الإسلام العزيز، فكانوا يرمون الأغنياء بالرياء، و يسخرون من الفقراء لقلّة ما يقدمونه.

و نلاحظ فى الآية التى تليها تأكيدا أشد على مجازاة هؤلاء المنافقين، و تذكر آخر تهديد بتوجيه الكلام و تحويله من الغيبة إلى الخطاب، و المخاطب هذه المرّة هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و إنّما لن يغفر اللّه لهم لأنّهم قد أنكروا اللّه و رسالة رسوله، و اختاروا طريق الكفر، و هذا الإختيار هو الذى أرداهم فى هاوية النفاق و عواقبه المشؤومة ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و من الواضح أن هداية اللّه تشمل السائرون فى طريق الحق و طلب الحقيقة، أمّا الفساق و المجرمون و المنافقون فإنّ الآية تقول: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۱

ملاحظات

و هنا نلفت الأنظار إلى عدّة ملاحظات:

۱- إنّ نوع العمل هو المهم لا مقداره، و هذه الحقيقة فى القرآن واضحة جلية، فالإسلام لم يستند فى أى مورد إلى كثرة العمل و مقداره، بل هو يؤكّد دائما- و فى كل الموارد- على أن الأساس هو نوع العمل و كيفيته، و هو يولى الإخلاص فى العمل أهمية خاصّة، و الآيات المذكورة نموذج واضح لهذا المنطق القرآنى.

و كما رأينا- أنّ القرآن الكريم مجّد عملا مختصرا لعامل مسلم بقى يعمل إلى الصباح فى استقاء الماء بقلب يغمره عشق اللّه و محبته، و ينبض بالمسؤولية تجاه مشاكل المجتمع الإسلامى ليحصل على صاع من تمر و يقدّمه لمقاتلى الإسلام فى لحظات حساسة و فى مقابل ذلك نرى القرآن قد ذمّ الذين حقّروا هذا العمل الصغير ظاهرا، الكبير واقعا، و هدّدهم و أوعدهم بالعذاب الأليم الذى ينتظرهم.

و من هذه الواقعة تتّضح حقيقة أخرى، و هى أنّ المسلمين فى المجتمع الإسلامى الواقعى السالم يجب أن يحسوا جميعا بالمسؤولية تجاه المشاكل التى تعترض المجتمع و تظهر فيه، و لا يجب أن ينتظروا الأغنياء و المتمكنين يقوموا وحدهم بحل هذه المشاكل و المصاعب، بل على الضعفاء أيضا أن يساهموا بما يستطيعون، مهما صغر و قل ما يقدمونه، لأنّ الإسلام يتعلق بالجميع لا بفئة منهم، و على هذا، فعلى الجميع أن يسعوا فى حفظ الإسلام و لو ببذل النفوس و الدماء، و يعملوا بكل وجودهم من أجل حياته و صيانته. المهم أن كل فرد يجب أن يبذل ما يستطيع، و لا يلتفت إلى مقدار عطائه، فليس المعيار كثرة العطاء و قلته، بل الإحساس بالمسؤولية و الإخلاص فى العمل.

و من المناسب فى هذا المقام أن نطالع حديثا نقل

عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث سئل:

أى الصدقة أفضل؟ فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «جهد المقل».

۲- إنّ الصفة التى ذكرتها الآيات السابقة كسائر صفات المنافقين الأخرى لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۲

تختص بمنافقى عصر النبوة، بل هى مشتركة بين منافقى كل العصور و الأزمنة، فإنّ هؤلاء يسعون بسوء ظنهم و دناءة سريرتهم أن يقللوا من أهمية أعمال الخير بأساليب مختلفة، و إماتة الحوافز الخيّرة فى الناس و السخرية و الاستهزاء، و الاستهانة بأعمال الفقراء المخلصة و الخالية من كل شائبة، و تحطيم شخصية هؤلاء، كل ذلك من أجل إطفاء جذوة الخير فى المجتمع لينالوا ما يطمحون إليه من الشر و الفساد.

إلّا أنّ الواجب على المسلمين الواعين فى كل عصر و زمن أن ينتبهوا إلى أهداف المنافقين و خططهم، و أن يشمروا الساعد و يحثوا السير فى الاتجاه المضاد لعمل هؤلاء، فيدعون الناس إلى عمل الخير، و يوقرون و يعظمون العمل الصغير إذا صدر من الفقراء، و يكبرون فيهم تلك النفوس التى لم تقصّر عن خدمة الإسلام حسب طاقتهم، و عن هذا الطريق سيشجعون الصغير و الكبير على الاستمرار فى هذه الأعمال، بل و يكثرون منها إذا قدروا، و كذلك عليهم أن يبينوا لهم خطط المنافقين الهدامة فى سبيل تحطيمهم، فإذا عرفها المجتمع فسوف لا تؤثر فيه دعاياهم و سمومهم، و عندها سيستمر فى طريق الخير و خدمة الدين الحنيف و تثبيت هذه العقيدة التى اختارها.

۳- ليس المراد من جملة سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ أنّ اللّه سيعمل أعمالا تشابه أعمالهم، بل المراد- كما قاله المفسّرون- أنّ اللّه سبحانه تعالى سيجازيهم على ما عملوا من الأعمال السيئة، أو أنّه تعالى سيحقرهم كما حقروا عباده و سخروا منهم.

۴- لا شك أنّ عدد السبعين الوارد فى الآية يدل على الكثرة لا على نفس العدد، و بعبارة أخرى: إن معنى الآية، أنّك مهما استغفرت لهؤلاء فلن يغفر اللّه لهم، تماما كما يقول شخص لآخر: إذا أصررت و كررت قولك مائة مرّة فلن أقبل منك، و لا يعنى هذا أنّه لو كرر قوله مائة مرّة و زاد واحدة فسوف يقبل قوله، بل المراد أن قوله سوف لن يقبل مطلقا مهما كرره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۳

إنّ مثل هذا التعبير يفيد تأكيد المراد، و لهذا فقد ذكر هذا الموضوع بنفسه فى الآية (۶) من سورة المنافقين، و قد نفى نفيا مطلقا، حيث تقول الآية: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

و الدليل الآخر على هذا الكلام، العلة التى ذكرت فى آخر الآية، و هى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ و هى توضح أنّ الاستغفار لأمثال هؤلاء مهما كثر و عظم فإنّه سوف لا ينجيهم، و لا يمكن أن يكون سببا فى خلاصهم ممّا ينتظرهم.

العجيب فى الأمر أنّ عدّة روايات نقلت من مصادر أهل السنة،

ورد فيها أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال بعد أن نزلت هذه الآية: «لأزيدن فى الاستغفار لهم على سبعين مرّة»!

رجاء منه أن يغفر اللّه لهم، فنزلت: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۵۲].

و هذه الرّوايات تعنى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد فهم من هذه الآية أنّ المراد من السبعين هو العدد بالذات، و لهذا قال: «لأزيدن فى الاستغفار لهم على سبعين مرّة»

فى الوقت الذى تريد الآية- كما قلنا- أن تقول لنا: إن العدد المذكور ذكر على وجه الكثرة و المبالغة، و كناية عن النفى المطلق المقترن بالتأكيد، خصوصا مع ملاحظة العلة التى ذكرت فى ذيل الآية التى توضح ما ذكرناه.

و على هذا الأساس فإنّ هذه الرّوايات لا يمكن قبولها لأنّها تخالف القرآن، خاصّة و أن أسانيدها غير معتبرة عندنا.

التوجيه الوحيد الممكن لهذه الرّوايات- بالرغم من أنّه خلاف الظاهر- هو أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول ذلك قبل

نزول الآيات المذكورة، و لما نزلت هذه الآيات كف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن الاستغفار لهؤلاء.

و نقلت رواية أخرى فى هذا الموضوع، قد تكون هى الأصل للرّوايات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۴

الأخرى المذكورة، و إنّما اختلفت الرّوايات لأنّها نقلت بالمعنى لا بالنص، و هى

أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لو علمت إنّنى لو زدت على السبعين مرّة غفر لهم لفعلت»،

و معنى هذا الكلام- خاصه مع ملاحظة (لو) الدالة على الامتناع- أنّى أعلم أن اللّه سبحانه لا يغفر لهؤلاء، غير أن قلبى يحرص على هداية عباد اللّه و نجاتهم، بحيث لو عملت- فرضا- أن الزيادة فى الاستغفار عن السبعين مرّة ستنجيهم لفعلت ذلك.

و على كل حال، فإن معنى الآيات المذكورة واضح، و كل حديث يخالفها فإمّا أن يوجه بحيث يوافقها أو يطرح جانبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۱ الى ۸۳]

اشارة

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (۸۱) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (۸۳)

التّفسير

إعاقة المنافقين مرّة أخرى:

يستمر الحديث فى هذه الآيات حول تعريف المنافقين و أساليب عملهم و سلوكهم و أفكارهم ليعرفهم المسلمون جيدا، و لا يقعوا تحت تأثير وسائل إعلامهم و خططهم الخبيثة و سمومهم.

فى البداية تتحدث الآية عن هؤلاء الذين تخلفوا عن الجهاد فى غزوة تبوك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۶

و تعذروا بأعذار واهية كبيت العنكبوت، و فرحوا بالسلامة و الجلوس فى البيت بدل المخاطرة بأنفسهم و الاشتراك فى الحرب رغم أنّها مخالفة لأوامر اللّه و رسوله: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ و بدل أن يضعوا كل وجودهم و إمكاناتهم فى سبيل اللّه لينالوا افتخار الجهاد و عنوان المجاهدين، فإنّهم امتنعوا وَ كَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

إلّا أنّ هؤلاء النفر لم يكتفوا بتخلفهم و تركهم لهذا الواجب المهم، بل إنّهم سعوا فى تحذيل الناس عن الجهاد بوساوسهم الشّيطانية و محاولة إخماد جذوة الحماسة الملتهبة فى صدور المسلمين و تشبث المنافقون بكل عذر يمكن أن يحقق الهدف حتى و لو كان العذر الحرّ!! وَ قالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ. و فى الحقيقة إنّ هؤلاء كانوا يطمعون فى أضعاف إرادة المسلمين، و من جهة أخرى كانوا يحاولون سحب أكبر عدد ممكن إلى مستنقع رذيلتهم، حتى لا ينفردوا بالجرم.

ثمّ تتغير وجهة الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فيأمره اللّه سبحانه و تعالى أن يجيبهم بلهجة شديدة و أسلوب قاطع: قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ لكنّهم للأسف لضعف إيمانهم، و عدم الإدراك الكافى لا يعلمون آية نار تنتظرهم، فشرارة

واحدة من تلك النّار أشدّ حرارة من جميع نيران الدّنيا و أشدّ حرقة و ألما.

و تشير الآية الثّانية إلى أنّ هؤلاء قد ظنوا بأنّهم قد حققوا نصرا بتخلفهم و تخذيلهم المسلمين و صرف أنظارهم عن مسألة الجهاد، و ضحكوا لذلك و قهقهوا بملء أفواههم، و هذا هو حال المنافقين فى كل عصر و زمن، إلّا أنّ القرآن حذّرهم من مغبة أعمالهم فقال: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً.

نعم، ليبكوا على مستقبلهم المظلم ليبكوا على العذاب الأليم الذى ينتظرهم ليبكوا على أنّهم أعلقوا كل أبواب العودة بوجوههم، و أخيرا ليبكوا على ما أنفقوا من قوتهم و قدراتهم و عمرهم الثّمين، و اشتروا به الخزى و الفضيحة و سوء العاقبة و تعاسة الحظ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۷

و فى نهاية الآية يبيّن اللّه تعالى أنّ هذه العاقبة التى تنتظرهم هى جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

ممّا قلناه يتّضح أنّ المقصود هو: إنّ هذه الجماعة يجب أن يضحكوا قليلا فى هذه الدنيا و يبكوا كثيرا، لأنّهم لو اطلعوا على ما ينتظرهم من العذاب الأليم لبكوا كثيرا و لضحكوا قليلا بالفعل.

إلّا أنّ بعض المفسّرين يذكر رأيا آخر فى تفسير هذه الآية، و هو أنّهم مهما ضحكوا فإنّ ضحكهم قليل لقصر عمر الدنيا، و سيبكون فى الآخرة بكاء بحيث أن كل بكاء الدنيا لا يعادل شيئا من ذلك البكاء.

غير أن التّفسير الأوّل أنسب و أوفق لظاهر الآية، و للتعبيرات المشابهة لها سواء وردت فى الأقوال أم الكتابات، خاصّة إذا علمنا أن اللازم من التّفسير الثّانى أن يكون معنى الأمر فى الآية هو الإخبار لا الأمر، و هذا خلاف الظاهر.

و يشهد للمعنى الأوّل

الحديث المعروف عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و الذى ذكره كثير من المفسّرين، حيث قال: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا».

(فتأمل جيدا).

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- إشارة إلى طريقة أخرى دقيقة و خطرة من طرق المنافقين، و هى أنّهم حينما يفعلون ما يخالف القانون الإسلامى، فإنّهم يظهرون أعمالا يحاولون بها جبران ما صدر منهم، و محاولة تبرئة ساحتهم ممّا يستحقون من العقوبة، و بهذه الأعمال المناقضة لأعمالهم المخالفة للقانون فإنّهم يخفون وجوههم الحقيقة، أو يسعون إلى ذلك.

إنّ الآية الكريمة تقول: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا أى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يجب أن يزرع اليأس فى نفوس هؤلاء، و يعلمهم أن هذا التلون سوف لا ينطلى على أحد، و لن يخدع بهم أحد، و الأولى لهم أن يحزموا أمتعتهم و يرحلوا من هذا المكان إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۸

مكان آخر، فإنّ أحدا سوف لا يقع فى مكائدهم و حبائلهم فى هذه المدينة.

و توجد هنا مسألة ينبغى التنبيه إليها، و هى أنّ جملة طائِفَةٍ مِنْهُمْ توحى أن هؤلاء المنافقين لم يكونوا بأجمعهم يمتلكون الشجاعة حتى يحضروا و يطلبوا من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم السماح لهم فى الخروج إلى الجهاد، ربّما لأن بعضهم كانوا مفضوحين إلى حد يخجلون معه من الحضور فى مجلس النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلب الخروج معه.

ثمّ تبيّن الآية أن سبب عدم قبول اقتراح هؤلاء و طلبهم ب إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ

ملاحظات

۱- لا شك أنّ هذه المجموعة من المنافقين لو كانوا قد ندموا على تخلفهم و تابوا منه، و أرادوا الجهاد فى ميدان آخر من أجل غسل

ذنبهم السابق، لقبل اللّه تعالى منهم ذلك، و لم يردهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فعلى هذا يتبيّن لنا أن طلبهم هذا بنفسه نوع من المراوغة و الشيطنة و عمل نفاقى، أو قل: إنّه كان تكتيكا من أجل إخفاء الوجه القبيح لهم، و الاستمرار فى أعمالهم السابقة.

۲- إنّ كلمة (خالف) تأتى بمعنى المتخلف، و هى إشارة إلى المتخلفين عن الحضور فى ساحات القتال، سواء كان تخلفهم لعذر أو بدون عذر.

و ذهب البعض قال: إنّ خالف بمعنى مخالف، أى اذهبوا أيّها المخالفون و ضموا أصواتكم إلى المنافقين لتكونوا جميعا صوتا واحدا.

و فسّرها البعض بأنّ معناها (فاسد) لأنّ الخلوف بمعنى الفساد، و خالف: جاء فى اللغة بمعنى فاسد.

و يوجد احتمال آخر، و هو أنّه قد يراد من الكلمة جميع المعانى المذكورة، لأنّ المنافقين و أنصارهم توجد فيهم كل هذه الصفات الرذيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۴۹

۳- و كذا ينبغى أن نذكر بأنّ المسلمين يجب أن يستفيدوا من طرق مجابهة المنافقين فى الأعصار الماضية، و يطبقوها فى مواجهة منافقى محيطهم و مجتمعهم، كما يجب اتباع نفس أسلوب النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم معهم، و يجب الحذر من السقوط فى شباكهم و أن لا ينخدع المسلم بهم، و لا يرق قلبه لدموع التماسيح التى يذرفونها، «فإنّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۸۴ الى ۸۵]

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص ۱۵۰

وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ ماتُوا وَ هُمْ فاسِقُونَ (۸۴) وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ (۸۵)

التّفسير

أسلوب أشدّ فى مواجهة المنافقين:

بعد أن أزاح المنافقون الستار عن عدم مشاركتهم فى ميدان القتال، و علم الناس تخلفهم الصريح، و فشا سرّهم، أمر اللّه سبحانه و تعالى نبيّه بأن يتبع أسلوبا أشدّ و أكثر صراحة ليقتلع و إلى الأبد- جذور النفاق و الأفكار الشيطانية، و ليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم فى المجتمع الإسلامى، و كخطوة عملية فى مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهى وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ

إن هذا الأسلوب- فى الواقع- هو نوع من الكفاح السلبى الفاعل فى مواجهة المنافقين، لأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يستطع- للأسباب التى ذكرناها آنفا- أن يأمر بقتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۱

هؤلاء صراحة لتطهير المجتمع الإسلامى منهم، أمّا هذا الأسلوب السلبى فهو مؤثر فى احتقار هؤلاء و تحجيم دورهم، و تقزيمهم و

طردهم من المجتمع الإسلامى.

من المعلوم أنّ المؤمن الحقيقى محترم فى الشرع الإسلامى حيّا و ميتا، و لهذا نرى الدين الإسلامى الحنيف قد أصدر ضمن تشريعاته الأمر بتغسيل الميت و تكفينه و الصلاة عليه و دفنه، و أوجب أن يولى احتراما كبيرا، و أن يودع التراب بمراسم خاصّة، و حتى بعد دفنه فإنّ من حقوقه أن يزور المؤمنون قبره، و يستغفروا له، و يطلبوا الرحمة له.

إنّ عدم إجراء هذه المراسم لفرد معين يعنى طرده من المجتمع الإسلامى، و إذا كان الطارد له هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، فإنّ الصدمة و الأثر النفسى على نفسيته و وجوده سيكون شديدا جدا.

إن هذا البرنامج و الأسلوب الدقيق- فى الواقع- كان قد أعد لمقابلة منافقى ذلك العصر، و يجب أن يستفيد المسلمون من هذه الأساليب، أى أنّ هؤلاء المنافقين ما داموا يظهرون الإسلام، فمن الواجب عليهم أن يعاملوهم كمسلمين و إن كان باطنهم شيئا آخر، أمّا إذ أظهروا نفاقهم، و كشفوا اللثام عن وجوههم الحقيقية، فعندئذ يجب أن يعاملوهم كأجانب عن الإسلام.

و فى آخر الآية يتّضح سبب هذا الأمر الإلهى ب إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ و رغم ذلك فإنّهم لم يفكروا بالتوبة و لم يندموا على أفعالهم ليغسلوها بالتوبة، بل إنّهم بقوا على أفعالهم وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ

و هنا يمكن أن يسأل أحدكم: إنّ المنافقين إذا كانوا- حقيقة- بهذا البعد عن رحمة اللّه، و على المسلمين أن لا يظهروا أى ود أو محبّة تجاههم، فلما ذا فضّلهم اللّه تعالى و منحهم كل هذه القوى الاقتصادية من الأموال و الأولاد؟

فى الآية الأخرى يوجه اللّه سبحانه و تعالى الخطاب إلى النّبى وَ لا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ أَوْلادُهُمْ فإنّها ليست منحة و محبة من اللّه تعالى لهؤلاء المنافقين، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۲

على العكس تماما، فإنّ هذه الأموال و الأولاد ليست لسعادتهم، بل إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ

إنّ هذه الآية- كنظيرتها التى مرّت فى هذه السورة، و هى الآية ۵۵- تشير إلى حقيقة، و هى أن هذه الإمكانيات و القدرات الاقتصادية و القوى الإنسانية للاشخاص الفاسدين ليست غير نافعة لهم فحسب، بل هى- غالبا- سبب لابتلائهم و تعاستهم، لأنّ أشخاصا كهؤلاء لا هم يصرفون أموالهم فى مواردها الصحيحة ليستفيدوا منها الفائدة البناءة، و لا يتمتعون بأبناء صالحين كى يكونوا قرة عين لهم و معتمدهم فى حياتهم. بل إنّ أموالهم تصرف غالبا فى طريق الشهوات و المعاصى و نشر الفساد و تحكيم أعمدة الظلم و الطغيان، و هى السبب فى غفلتهم عن اللّه سبحانه و تعالى، و كذلك أولادهم فى خدمة الظلمة و الفاسدين، و مبتلين بمختلف الانحرافات الأخلاقية، و بذلك سيكونون سببا فى تراكم البلايا و المصائب.

غاية الأمر إنّ الذين يظنون أن الأصل فى سعادة الإنسان هو الثروة و القوة البشرية فقط، أمّا كيفية صرف هذه الثروة و القوّة فليس بذلك الأمر المهم، تكون لوحة حياتهم مفرحة و مبهجة ظاهرا، إلّا أنّنا لو اقتربنا منها و اطلعنا على دقائقها، و علمنا أنّ الأساس فى سعادة الإنسان هو كيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات و القدرات لعلمنا أنّ هؤلاء ليسوا سعداء مطلقا.

و هنا يجب الانتباه لمسألتين:

۱- لقد وردت فى سبب نزول الآية الأولى روايات متعددة لا تخلو من الاختلاف.

فيستفاد من بعض الرّوايات، أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما مات عبد اللّه بن أبى- المنافق المشهور- صلى عليه، و وقف على قبره و دعا له، بل لفّه بقميصه ليكون كفنا له،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۳

فنزلت الآیة و نهت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن تکرار هذا الفعل.

فی الوقت الـذی یفهم من روایات أخری أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم کان قد صـمّم أن یصـلی علیه، فنزل جبرئیل و تلا هذه الآیة، و منعه من هذا العمل.

و تقول عـدة روایات أخری أنّ النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم لم یصل علیه، و لم یکن عزم علی هـذا العمل، غایـة ما فی الأمر أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أرسل قمیصه لیکفن به لترغیب قبیلة عبد اللّه بن أبی فی الإسـلام، و لما سـئل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عن سبب فعله هذا أجاب صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم بأنّ قمیصه سوف لن ینجیه من العذاب، لکنّه یأمل أن یسـلم الکثیر بسبب هذا العمل، و بالفعل قد حدث هذا، فإنّ الکثیر من قبیلة الخزرج قد أسلموا بعد هذه الحادثة.

و بـالنظر إلی اختلاـف هـذه الرّوایات اختلافا کثیر، فإنّا قـد صـرفنا النظر عن ذکرها کسب للنزول، خصوصا علی قول بعض المفسّـرین الکبار بأنّ وفاة عبد اللّه بن أبی کانت سـنة (۹) هجریة، أمّا هذه الآیات فقد نزلت فی حدود السـنة الثّامنة.[۵۳] غیر أن الذی لا یمکن إنکاره، أنّ الظاهر من أسـلوب الآیة و نبرتها أن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یصلی علی المنافقین، و کان یقف علی قبورهم قبل نزول هذه الآیات، لأنّ هؤلاء کانوا مسلمین ظاهرا[۵۴]، لکنّه امتنع من هذه الأعمال بعد نزول هذه الآیة.

۲- و کذلک یستفاد من الآیة المذکورة جواز الوقوف علی قبور المؤمنین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۴

و الـدعاء لهم و الترحم علیهم، لأنّ النهی الوارد فی الآیـة مختص بالمنافقین، و علی هذا فإنّ هذه الآیة تعنی بمفهومها جواز زیارة قبور المؤمنین، أی: الوقوف علی قبورهم و الدعاء لهم. إلّا أن الآیة قد سکتت عن مسألة إمکان التوسل بقبور هؤلاء المؤمنین، و طلب قضاء الحاجات ببرکتهم من اللّه تعالی، رغم جواز ذلک من وجهة نظر الرّوایات الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۵

الآیات [سورة التوبة (۹): الآیات ۸۶ الی ۸۹]

اشارة

وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَکَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَکُنْ مَعَ الْقاعِدِینَ (۸۶) رَضُوا بِأَنْ یَکُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طُبِعَ عَلی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا یَفْقَهُونَ (۸۷) لکِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولئِکَ لَهُمُ الْخَیْراتُ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸۸) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها ذلِکَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ (۸۹)

التّفسیر

دناءة الهمّة

الکلام فی هـذه الآیـات یـدور کـذلک حول المنـافقین، إلّا أنّ هـذه الآیـات تقارن بین الأعمال القبیحـة للمنافقین و أعمال المؤمنین الحقیقیین الحسنة، و توضح من خلال هذه المقارنة انحراف هؤلاء المنافقین و دناءتهم.

فالآیة الأولی تتحدث عن حال المنافقین إذا ما دعا الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلّم الناس إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۶

الثبات على الإيمان و الجهاد فى سبيل اللّه، فإنّهم- أى المنافقون- رغم قدرتهم الجسمية و المالية سيطلبون العذر و السماح لهم بعدم المشاركة و البقاء مع ذوى الأعذار: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَ قالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ

كلمة «الطول» على وزن فعل- جاءت بمعنى القدرة و الاستطاعة المالية، و على هذا فإنّ أُولُوا الطَّوْلِ بمعنى المستطيعين و القادرين ماليا و جسميا على الحضور فى ميدان الحرب، و رغم ذلك فهم يميلون إلى التخلف مع أولئك الذين لا قدرة لديهم- ماديا أو بدنيا- على الحضور و المشاركة فى الجهاد.

و أصل هذه الكلمة مأخوذ من «الطول» ضد العرض، و الاشتراك و الارتباط بين هذين المعنيين واضح، لأنّ القدرة المالية و الجسمية يعطى معنى الاستمرارية و الدوام و طول القدرة.

و فى الآية التى تليها و بخ القرآن هؤلاء و ذمّهم و قبّحهم بأنّهم رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ و كما أشرنا سابقا، فإنّ خوالف جمع خالفة، و أصلها من (خلف)، و لذلك يقال للمرأة إذا خرج الرجل من المنزل، و بقيت فى المنزل: إنّها خالفة. و المقصود من الخوالف فى هذه الآية كل الذين عذروا عن المشاركة فى الجهاد بشكل أو آخر، أعم من أن يكونوا نساء أو مسنّين أو مرضى أو صبيان. و قد أشارت بعض الأحاديث الواردة فى تفسير الآية إلى هذا الموضوع.

ثمّ أضافت الآية: بأن هؤلاء نتيجة لكثرة الذنوب و النفاق و صلوا إلى مرحلة وَ طُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ و قد بحثنا فى بداية سورة البقرة معنى الطبع على القلب.[۵۵] ثمّ تحدثت الآية التى تليها فى الجانب المقابل عن صفات و روحيات الفئة التى تقابل المنافقين، و هم المؤمنون المخلصون، و عن أعمالهم الحسنة، و بالتالى عاقبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۷

أعمالهم المعاكسة تماما لعاقبة أولئك. فهى تقول: لكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فكانت عاقبتهم أن يتمتعوا بكل الخيرات و السعادة و اللذائذ المادية و المعنوية فى الدنيا و الآخرة وَ أُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

كلمة (الخيرات) صيغة جمع محلّى بالألف و اللام، و من ذلك يستفاد عموميتها، فهى تعبير جامع لكل توفيق و خير و نصر و موهبة، و هى تشمل المادية منها و المعنوية.

كما أن تعبير هاتين الجملتين- حسب القواعد التى قررت فى المعانى و البيان- يدل على الحصر، أى أن هذا التعبير يدل على أن (المخلصين) وحدهم يمثلون هذا الجانب المقابل، و يدل على أنّ هؤلاء وحدهم الذين يستحقون كل خير و سعادة، هؤلاء الذين يجاهدون بكل وجودهم و بكل ما يمتلكون.

و يستفاد بوضوح من هذه الآية أن «الإيمان» و «الجهاد» إذا اتحدا فى شخص، فسيصحبهما كل خير و بركة، و لا سبيل إلى الفلاح و الإخلاص، أو إلى شىء من الخيرات و البركات المادية و المعنوية إلّا فى ظل هذين العاملين.

و هناك نقطة أخرى تستحق التنبيه لها، و هى أنّنا نستفيد من خلال مقارنة صفات هاتين المجموعتين أنّ المنافقين- لفقدانهم الإيمان، و تلوثهم المضاعف بالمعاصى و الذنوب- أفراد جاهلون، لذلك فهم محرومون من (علو الهمة) التى هى وليدة الفهم و الشعور و الوعى، فهم يرضون أن يكونوا مع القاعدين من المرضى و الصبيان، و يأبون الحضور فى سوح الجهاد رغم افتخاراته و امتيازاته.

أمّا فى المقابل، فإنّ المؤمنين قد اتضحت لهم الأمور و أدركوا عواقبها فعلت همتهم بحيث رأوا أن الجهاد هو الطريق الوحيد للانتصار على المشاكل التى تعترضهم، فسعوا إليه بكل وجودهم و قدراتهم.

إن هذا الدرس الكبير هو الذى علمنا القرآن إياه فى كثير من آياته، و مع ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۸

فنحن غافلون عنه.

و فى آخر آيـة من الآيات التى نبحثها إشارة إلى قسم من الجزاء الأخروى المعـد لهؤلاء المؤمنين، فهى تبشـرهم بأنّهم قد أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ و توكّـد لهم بأنّ هـذه المواهب و النعم سوف لا تفنى و لا تنفـد، بل سـيبقون خالِـدِينَ فِيها، ثمّ تبيّن أن ذلِكَ هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

إنّ تعبير أَعَدَّ اللَّهُ علّامة جلية على مدى الاحترام الذى أولى اللّه هؤلاء المؤمنين به، حيث أعدلهم من قبل كل هذه المواهب و النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۵۹

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۹۰]

اشارة

وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۹۰)

التّفسير

فى هذه الآية- و لمناسـبة البحث هنا للأبحاث السابقة حول المنافقين الذين يتعذرون بكل عذر و يتمسـكون بأتفه الحجج- إشارة إلى وضع و واقع مجموعتين من المتخلفين عن الجهاد:

الأولى: و هم المعذورون فعلا فى عدم مشاركتهم فى القتال.

و الثّانية: و هم المتخلفون عن أداء هذا الواجب الكبير تمردا و عصيانا، و ليس لهم أى عذر فى تخلفهم هذا.

ففى البداية تقول الآية أنّ هؤلاء الأعراب رغم أنّهم كانوا معذورين فى عدم الاشتراك فى الجهاد، فإنّهم حضـروا بين يدى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يأذن لهم فى الجهاد: وَ جاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ و فى مقابل ذلك فإن الفئة الأخرى التى كذبت على اللّه و رسوله قد تخلف أفرادها دون أى عذر، وَ قَعَدَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۰

الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ و فى النهاية هددت الآية المجموعة الثّانية تهديدا شديدا و أنذرتهم بأنّه سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

إن ما قلناه فى تفسـير الآيـة المذكورة هو الأنسب للقرائن الموجودة، فإننا نرى من جهة أن هاتين الفئتين تقابل إحداهما الأخرى، و من جهـة أخرى فإنّ كلمـة (منهم) تـدل على أن أفراد المجموعتين لم يكونوا كفارا بأجمعهم، و من هاتين القرينتين يفهم أن (المعـذرين) هم المعذورون حقيقة.

إلّا أنّه قيل فى مقابل هذا التّفسير تفسيران آخران:

الأوّل: إنّ المقصود من (المعـذرين) هم الذين كانوا يتمسـكون بالأعذار الواهية و الكاذبة للفرار من الجهاد. و المقصود من المجموعة الثّانية هم الذين لا يكلفون أنفسهم حتى مشقّة الاعتذار، بل إنّهم يمتنعون علنا و بكل صراحة عن إطاعة أوامر اللّه عزّ و جلّ.

الثّانى: إنّ كلمـة (المعـذرين) تشـمل كـل الفئـات التى تعتـذر بأعـذار ما عن الـذهاب إلى ميادين الحرب و الجهاد، سواء كانت هـذه الأعذار صادقة أم كاذبة.

إلّا أنّ القرائن تدل على أنّ (المعذرين) هم المعذورون الحقيقيون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۱) وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (۹۲) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۹۳)

سبب النّزول

نقل فى سبب نزول الآية الأولى أن أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم المخلصين قال للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رسول اللّه، إنى شيخ كبير أعمى و عاجز، و ليس لى حتى من يأخذ بيدى ليذهب بى إلى ميدان القتال، فهل أعذر إذا لم أحضر و أشارك فى الجهاد؟ فسكت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآية و عذرت مثل هؤلاء الأفراد.

و يستفاد من سبب النزول هذا أن المسلمين- حتى الأعمى منهم- لم يكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۲

ليسمحوا لأنفسهم أن يمتنعوا عن الحضور فى ميدان الجهاد، و ربّما كان ذلك لأنّهم كانوا يحتملون أن وجودهم بهذه الحالة قد يرغّب المجاهدين فى الانضمام إلى جيوش المسلمين و مشاركتهم فى أمر الجهاد، أو أنّهم يكثرون السواد على أقل التقادير.

و بالنسبة للآية الثّانية ورد فى الرّوايات أنّ سبعة نفر من فقراء الأنصار جاءوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه وسيلة للمشاركة فى الجهاد، و لما لم يكن لدى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم شىء من ذلك خرجوا من عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أعينهم تفيض من الدمع، ثمّ عرفوا بعد ذلك ب «البكّائين».

التّفسير

العشق للجهاد و دموع الحسرة:

هذه الآيات قسمت المسلمين فى مجال المشاركة فى الجهاد لتوضيح حال سائر المجاميع من ناحية القدرة على الجهاد، أو العجز عنه، و أشارت إلى خمس مجموعات: أربع منها معذورة حقيقة و واقعا، و الخامسة هم المنافقون.

الآية الأولى تقول: إنّ الضعفاء، و العاجزين لكبر أو عمى أو نقص فى الأعضاء، و الذين لا وسيلة لهم يتنقلون بها و يستفيدون منها فى المشاركة فى الجهاد، لا حرج عليهم إذا تخلفوا عن هذا الواجب الإسلامى المهم: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ هذه الأقسام الثلاث تعذر فى كل قانون إذا لم تشارك، و العقل و المنطق يمضى هذا التسامح، و من المسلم أنّ القوانين الإسلامية لا تنفصل عن المنطق و العقل فى أى مورد.

كلمة «الحرج» فى الأصل تعنى مركز اجتماع الشىء، و لما كان اجتماع الناس و كثرتهم فى مكان و مركز ما ملازم لضيق ذلك المكان، فقد استعملت هذه الكلمة بمعنى الضيق و الإزعاج و المسؤولية و التكليف، و يكون معناها فى هذه الآية هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۳

المعنى الأخير، أى المسؤولية و التكليف.

ثمّ بيّنت الآيـة شـرطا مهمـا فى السـماح لهؤلاء بالانصـراف، و هو إخلاصـهم و حبّهم للّه و رسوله، و رجاؤهم و عملهم كل خير لهـذا الدين الحنيف، لذا قالت: إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ أى إنّ هؤلاء إذا لم يكونوا قادرين على حمل السـلاح و المشاركة فى القتال، فإنّهم قادرون على استعمال سـلاح الكلمة و السلوك الإسـلامى الأمثل، و بهذا يستطيعون ترغيب المجاهدين، و يثيرون الحماس فى نفوس المقاتلين، و يرفعون معنوياتهم بذكرهم الثمرات المترتبة على الجهاد و ثوابه العظيم.

و كـذلك يجب أن لا يقصـروا فى هدم و تضـعيف معنويات العدو، و تهيئة أرضـية الهزيمة فى نفوس أفراده قدر المسـتطاع لأنّ كلمة (نصح) فى الأصل بمعنى (الإخلاص) و هى كلمة جامعة شاملة لكل شـكل من أشـكال طلب الخير و الإقدام المخلص فى هذا السبيل، و لما كان الكلام عن الجهاد، فإنّها تنظر إلى كل جهد و سعى يبذل فى هذا المجال.

ثمّ تـذكر الآيـة الـدليل على هـذا الموضوع، فتـذكر أن مثل هؤلاء الأفراد الـذين لا يألون جهـدا فى عمل الخير، لا يمكن أن يعاتبوا أو يوبّخوا أو يعاقبوا، إذ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ

بعد ذلك اختتمت الآية بذكر صـفتين عظيمتين من صـفات اللّه عزّ و جلّ- و كل صفاته عظيمة- كدليل آخر على جواز تخلف هؤلاء المندرجين ضمن المجموعات الثلاث فقالت: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(غفور) مأخوذة من مادة الغفران، أى الستر و الإخفاء، أى إن اللّه سـبحانه و تعالى سـيلقى السـتار على أعمال هؤلاء المعذورين و يقبل أعـذارهم، و كون اللّه «رحيمـا» يقتضـى أن لا يكلف أحـدا فوق طاقته، بل يعفيه من ذلك، و إذا أجبر هؤلاء على الحضور فى ميـدان القتال، فإنّ ذلك لا يناسب غفران اللّه و رحمته، و هذا يعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۴

أنّ اللّه الغفور الرحيم سيعفى هؤلاء عن الحضور حتما، و يعفو عنهم.

و يستفاد من جملة من الرّوايات التى نقلها المفسّرون فى ذيل هـذه الآيـة، أنّ هـذه المجموعات المعـذورة لا يقتصـر الأمر فيهم على السـماح لهم فى التخلف و عدم مؤاخذتهم فحسب، بل إنّ أفرادها لهم من الجزاء و الثواب كثواب المجاهدين الذين حضـروا و قاتلوا، كل على قدر اشتياقه و تحرقه للمشاركة، فنحن نقف على

حديث عن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و نقرأ: إنّ رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم لما قفل من غزوة تبوك فأشرف على المدينـة قال: «لقـد تركتم بالمدينـة رجالا ما سـرتم فى مسـير، و لا أنفقتم من نفقة، و لا قطعتم واديا إلّا كانوا معكم فيه قالوا: «و كيف يكونون معنا و هم بالمدينة؟ قال:

حبسهم العذر»[۵۶].

ثمّ تشـير الآية إلى الفئة الرّابعة من المعفو عنهم و هؤلاء هم الذين حضـروا- بشوق- عند النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يحملهم على الـدواب للمشاركـة فى الجهاد، فاعتـذر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم بأنّه لا يملك ما يحملهم عليه، فخرجوا من عنـده و عيونهم تفيض من الـدمع حزنـا و أسـفا على مـا فـاتهم، و على أنّهم لا يملكون ما ينفقونه فى سبيل اللّه: وَ لا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ

«تفيض» من مـادة الفيضـان، أى الانسـكاب و التساقط بعـد الامتلاء، فإنّ الإنسان إذا أهمه أمر أو دهمته مصـيبة، فإذا لم تكن شديـدة اغرورقت عيناه بالدموع و امتلأت دون أن تجرى، أمّا إذا وصلت إلى مرحلة يضعف الإنسان عن تحملها سالت دموعه.

إنّ فى هـذه دلالـة على أنّ هؤلاء النفر من أصـحاب رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم كـانوا عشاقا و مولهين بالجهاد إلى درجة أنّهم لمـا رخص لهم فى البقـاء لم يكتفوا بالتـأسف و الهمّ لهـذه الرخصـة، بل إنّهم جرت دموعهم كما لو فقـد إنسان أعز أصـدقائه و أحبائه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۵

و بكوا بكاء مرّا لهذا الحرمان.

لا شك أن الفئة الرّابعة لا تفترق عن الفئة الثّالثة المذكورة فى الآية و لكنّهم لهذه الحالة الخاصّة من العشق، و لامتيازهم بها عن السابقين، و لتكريمهم جسمت الآية وضعهم بصورة مستقلة ضمن نفس الآية، و كانت خصائصهم هى:

أوّلا: إنّهم لم يقتنعوا بعدم ملكهم لمستلزمات الجهاد، فحضروا عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم طمعا فى الحصول عليها، و أصروا عليه إصرارا شديدا فى تهيئتها إنّ أمكنه ذلك.

ثانيا: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما اعتذر عن تلبية طلبهم لم يكتفوا بعدم الفرحة بذلك، بل انقلبوا بهمّ و حزن فاضت دموعهم بسببه، و لهاتين الخصلتين ذكرهم اللّه سبحانه و تعالى مستقلا فى الآية.

أمّا آخر الآية فتبين وضع الفئة الخامسة، و هم الذين لم يعذروا، و لن يعذروا عند اللّه تعالى، فإنّهم قد توفرت فيهم كل الشروط، و يملكون كل مستلزمات الجهاد، فوجب عليهم حتما، لكنّهم رغم ذلك يحاولون التملّص من أداء هذا الواجب الإلهى الخطير، فجاءوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يطلبون الإذن فى الانصراف عن الحرب، فبيّنت الآية أنّهم سيؤاخذون بتهربهم و يعاقبون عليه: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْنِياءُ.

و تضيف الآية بأنّ هؤلاء يكفيهم عارا و خزيا أن يرضوا بالبقاء مع العاجزين و المرضى رغم سلامتهم و قدرتهم، و لم يهتموا بأنّهم سيحرمون من فخر الاشتراك فى الجهاد: رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ و كفى به عقابا أن يسلبهم اللّه القدرة على التفكر و الإدراك نتيجة أعمالهم السيئة هذه، و لذلك أبغضهم اللّه وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۶

ملاحظات

۱- تتّضح من هذه الآيات- بصورة جلية و واضحة- المعنويات القوية العالية لجنود الإسلام، و كيف أن قلوبهم كانت تتطلع بشوق، و تتحرق عشقا للجهاد و الشهادة، و هذا الفخر و الوسام مقدم على جميع الأوسمة و الصفات الأخرى التى كانوا يمتلكونها، و من هنا يتّضح عامل هو من أهم عوامل التقدم السريع للإسلام و تطوره و انتشاره فى ذلك اليوم، و تخلفنا فى الوقت الحاضر لفقداننا هذا الوسام.

كيف يمكننا أن نجعل من يبكى ألما و حسرة لحرمانه من الجهاد، و إن كان لعذر، و من يحاول التذرع بألف عذر و عذر من أجل الفرار من صف المجاهدين، فى صف واحد و مرتبة واحدة؟

إذا رجعت إلينا روح الإيمان و حبّ الجهاد و عشقه، و الافتخار بالشهادة فى سبيل اللّه، و دبت فى واقعنا الميت، فإنّنا سنحصل على نفس الامتيازات و الانتصارات التى حققها و حصل عليها مسلمو الصدر الأوّل.

إنّ تعاستنا و تخلفنا يكمن فى أننا التزمنا بالإسلام ظاهرا، و اتخذناه ردءا دون أن ينفذ إلى أعماقنا و وجودنا، و رغم ذلك فإننا نتوقع أن نصل بهذا الواقع إلى مستوى المسلمين الأوائل! ۲- و نستفيد من الآيات السابقة أيضا، أنّه لا يستثنى أحد- بصورة عامّة- من المشاركة فى أمر الجهاد، من دعم المجاهدين، و إسنادهم فى جهادهم، حتى المرضى و العاجزين عن حمل الأسلحة و المشاركة فى ميدان الحرب، فإنّهم إن عجزوا عن ذلك فهم قادرون أن يرغّبوا المجاهدين و يثيروا حماسهم بكلامهم و بيانهم و سلوكهم، و أن يدعموا جهادهم بذلك، و فى الحقيقة فإنّ للجهاد مراحل متعددة، فإذا عذر الإنسان عن احدى مراحله فإنّ ذلك لا يعنى سقوط بقية المراحل عن ذمته.

۳- إنّ جملة ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ أصبحت منبعا قانونيا واسعا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۷

المباحث الفقهيـة حيث استفاد الفقهاء منها أحكاما كثيرة، فمثلا: إذ تلفت الوديعـة فى يد الأمين بدون أى افراط أو تفريط منه، فإنّه لا يكون ضامنا، و من جملة الأدلّة على هذه المسألة هى الآية المذكورة، لأنّه محسن، و لم يرتكب مخالفة، فإذا اعتبرناه مسئولا و ضامنا، فإنّ هذا يعنى أنّ المحسن مؤاخذ.

ليس هناك شك فى أنّ الآيـة المذكورة قد وردت فى المجاهدين، إلّا أنا نعلم أن مورد الآية لا ينقص من عموميتها، و بعبارة أخرى، فإن مورد الآية لا يخصص الحكم مطلقا.

نهاية الجزء العاشر من القرآن المجيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۶۹

بداية الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۴ الى ۹۶]

اشارة

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۴) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۹۵) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۹۶)

سبب النّزول

يقول بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت فى جماعة من المنافقين يبلغ عددهم ثمانين رجلا، لأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لما رجع من غزوة تبوك أمر أن لا يجالسهم أحد و لا يكلمهم، فلمّا رأى هؤلاء هذه المقاطعة الاجتماعية الشديدة بدأوا يعتذرون عمّا بدر منهم، فنزلت هذه الآيات لتبيّن حال هؤلاء و حقيقتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۲

التّفسير

لا تصغوا إلى أعذارهم و أيمانهم الكاذبة:

تستمر هذه السلسلة من الآيات فى الحديث عن الأعمال الشيطانية للمنافقين، و تزيح الستار عنها الواحد تلو الآخر، و تحذر المسلمين من الانخداع بريائهم أو الوقوع تحت تأثير كلماتهم المعسولة.

الآيـة الأولى تبيّن للمسلمين أن هؤلاء إذا علموا بقدومكم فسيأتون يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ إن التعبير ب (يعتذرون) بصيغة المضارع، يظهر منه أن اللّه تعالى قد أطلع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل على كذب المنافقين، و أنّهم سيأتونهم ليعتذروا إليهم، و لذلك فإنّه تعالى علمهم كيفية جواب هؤلاء إذا قدموا إليهم ليعتذروا منهم.

ثمّ يتوجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- باعتباره قائد المسلمين- بأن يواجه المنافقين قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ لأنّا على علم بأهدافكم الشيطانية و ما تضمرون و ما تعلنون، إذ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ إلّا أنّه فى الوقت نفسه سيبقى باب التوبة و الرجوع إلى الصواب مفتوحا أمامكم وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ

و احتمل البعض فى تفسير هذه الآية أنّ التوبة ليست هى المقصودة من هذه الجملة، بل المقصود أن اللّه و رسوله سيطلعان على أعمالكم و يريانها فى المستقبل كما رأياها الآن، و سيحبطان كل مؤامراتكم، و على هذا فلا يمكن أن تصنعوا شيئا، لا اليوم و لا غدا، و لنا بحث مفصّل حول هذه الجملة، و مسألة عرض أعمال الأمة على نبيّها صلى اللّه عليه و آله و سلّم سيأتى فى ذيل الآية (۱۰۵) من هذه السورة.

ثمّ قالت الآية: إنّ كل أعمالكم و نياتكم ستثبت اليوم فى كتبكم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و فى الآية التالية إشارة أخرى إلى أيمان المنافقين الكاذبين، و تنبيه للمسلمين على أنّ هؤلاء سيتوسلون باليمين الكاذبة لتغفروا لهم خطيئاتهم و تصفحوا عنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۳

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

فى الحقيقة، إنّ هؤلاء يطرقون كل باب ليردّوا منه، فتارة يريدون إثبات براءتهم و عدم تقصيرهم بالاعتذار، و تارة يعترقون بالتقصير ثمّ يطلبون العفو عن ذلك التقصير، إذ ربّما استطاعوا عن إحدى هذه الطرق النفوذ إلى قلوبكم، لكن لا تتأثروا بأى أسلوب من هذه الأساليب، بل إذا جاؤوكم ليعتذروا إليكم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ

إنّ هؤلاء يطلبون منكم أن تعرضوا عن أفعالهم، أى أن تصفحوا عنهم، لكنكم يجب أن تعرضوا عنهم، لكن لا- بالصفح و العفو، بل بالتكذيب و الإنكار عليهم، و هذان التعبيران المتشابهان لفظا لهما معنيان متضادان تماما، و لهما هنا من جمال التعبير و جزالته و بيانه ما لا يخفى على أهل الذوق و البلاغة.

و لتأكيد المطلب و توضيحه و بيان دليلة عقّبت الآية بأن السبب فى الاعراض هؤلاء إِنَّهُمْ رِجْسٌ و لأنّهم كذلك فإنّ مصيرهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ لأنّ الجنّة أعدت للمتقين الذين يعملون الصالحات، و ليس فيها موضع للأرجاس الملوّثين بالمعاصى. إن كل العواقب السيئة التى سيلقونها إنما يرونها جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

فى الآية الأخيرة التى نبحثها هنا إشارة إلى يمين أخرى من أيمان هؤلاء، الهدف منها جلب رضى المسلمين يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ الفرق بين اليمين فى هذه الآية و اليمين فى الآية السابقة، أنّ المنافقين فى الآية السابقة أرادوا تهدئة خواطر المؤمنين فى الواقع العملى أمّا اليمين التى فى هذه فإنّها تشير إلى أنّ المنافقين أرادوا من المؤمنين مضافا إلى سكوتهم العملى إظهار الرضا القلبى عنهم.

الملفت للنظر هنا أن اللّه تعالى لم يقل: لا ترضوا عنهم، بل عبّر سبحانه بتعبير تشم منه رائحة التهديد، إذ تقول عزّ و جلّ: فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۴

الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ

لا- شك أن هؤلاء من الناحية الدينية و الأخلاقية لا يعيرون اهتماما لرضى المسلمين، بل إن الهدف من عملهم هذا هو رفع النظرة السلبية و الغضب عليهم من أفكار و قلوب المسلمين، ليكونوا فى المستقبل فى مأمن من ردود الفعل ضدهم إذا بدرت منهم أعمال منافية، إلّا أن اللّه تعالى لما عبر بقوله: لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ نبّه المسلمين على أن هؤلاء فاسقون، و لا معنى لرضاكم عنهم، فإنّ هؤلاء دأبهم يضحكوا على الأذقان، فانتبهوا وعوا أمر هؤلاء و لا تقعوا فى شراكهم.

كم هو مهم و جيدّ أن يراقب المسلمون فى كل زمان خطط المنافقين الشيطانية و يعرفوهم، حتى لا- يستفيدوا من الخطط السابقة

للوصول إلى أهدافهم المشؤومة عبر هذه الوسائل و الخطط الخبيثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۵

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۹۷ الى ۹۹]

اشارة

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۹۷) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۹۸) وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۹۹)

التّفسير

الأعراب القساة و المؤمنون:

فى هذه الآيات الثّلاث- استمرارا للبحث المتقدم حول منافقى المدينة- حديث و بحث حول وضع منافقى الأعراب- و هم سكان البوادى- و علاماتهم و أفكارهم، و كذلك قد تحدثت حول المؤمنين الخلص منهم.

و ربّما كان السبب فى تحذير المسلمين من هؤلاء، هو أن لا يتصور المسلمون أن المنافقين هم- فقط- هؤلاء المتواجدون فى المدينة، بل إنّ المنافقين من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۶

الأعراب أشدّ و أقسى، و شواهد التأريخ الإسلامى تدل على المسلمين قد تعرضوا عدّة مرات لهجوم منافقى البادية، و لعل الانتصارات المتلاحقة لجيش الإسلام هى التى جعلت المسلمين فى غفلة عن خطر هؤلاء.

على كل حال، فالآية الأولى تقول: إنّ الأعراب، بحكم بعدهم عن التعليم و التربية، و عدم سماعهم الآيات الرّبانية و كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أشدّ كفرا و نفاقا من مشابهيهم فى المدينة: الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَ نِفاقاً و لهذا البعد و الجهل فمن الطبيعى، بل الأولى أن يجهلوا الحدود و الأحكام الإلهية التى نزلت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ

كلمة «الأعراب» من الكلمات التى تعطى معنى الجمع، و لا مفرد لها فى لغة العرب، و على ما قاله أئمّة اللغة- كمؤلف القاموس و الصحاح و تاج العروس و آخرون- فإن هذه الكلمة تطلق على سكان البادية فقط، و مختصة بهم، و إذا أرادوا إطلاقهم على شخص واحد فإنّهم يستعملون نفس هذه الكلمة و يلحقون بها ياء النسب، فيقولون: أعرابى. و على هذا فإنّ أعراب ليست جمع عرب كما يظن البعض.

أمّا «أجدر» فهى مأخوذة من الجدار، و من ثمّ أطلقت على كل شىء مرتفع و مناسب، و لهذا فإنّ (أجدر) تستعمل- عادة- بمعنى الأنسب و الأليق.

و تقول الآية أخيرا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ أى إنّه تعالى عند ما يحكم على الأعراب بمثل هذا الحكم، فلأنّه يناسب الوضع الخاص لهم، لأنّ محيطهم يتصف بمثل هذه الصفات.

لكن و من أجل لا يتوهم بأنّ كل الأعراب أو سكان البوادى يتصفون بهذه الصفات، فقد أشارت الآية التالية إلى مجموعتين من

الاعراب.

ففى البداية تتحدث عن أن قسما من هؤلاء الأعراب- لنفاقهم أو ضعف إيمانهم- عند ما ينفقون شيئا فى سبيل اللّه، فإنّهم يعتبرون ذلك ضررا و خسارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۷

لحقت بهم، لا أنّه توفيق و نصر و تجارة رابحة: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً[۵۷].

و من الصفات الأخرى لهؤلاء أنّهم دائما ينتظرون أن تحيط بكم المصائب و النوائب و المشاكل، و يرميكم الدهر بسهمه: وَ يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ.

«الدوائر» جمع دائرة، و معناها معروف، و لكن العرب يقولون للحادثة الصعبة و الأليمة التى تحل بالإنسان: دائرة، و جمعها (دوائر).

فى الواقع أنّ هؤلاء أفراد ضيقو النظر، و بخلاء و حسودون، و بسبب بخلهم فإنّهم يرون كل إنفاق فى سبيل اللّه خسارة، و بسبب حسدهم فإنهم ينتظرون دائما ظهور المشاكل و المشاغل و المصائب عند الآخرين. ثمّ تقول الآية- بعد ذلك- إن هؤلاء ينبغى أن لا يتربصوا بكم، و ينتظروا حلول المصائب و الدوائر بكم، لأنّها فى النهاية ستحل بهم فقط: عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ[۵۸].

ثمّ تختم الآية الحديث بقولها: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ فهو تعالى يسمع كلامهم، و يعلم بنياتهم و مكنون ضمائرهم.

أمّا الآية الأخيرة فقد أشارت إلى الفئة الثّانية من الأعراب، و هم المؤمنون المخلصون، إذ تقول: وَ مِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ و لهذا السبب فإنّهم لا يعتبرون الإنفاق فى سبيل اللّه خسارة أبدا، بل وسيلة للتقرب إلى اللّه و دعاء الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لإيمانهم بالجزاء الحسن و العطاء الجزيل الذى ينتظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۸

المنفقين فى سبيل اللّه: وَ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَواتِ الرَّسُولِ

هنا يؤيّد اللّه تعالى و يصدّق هذا النوع من التفكير، و يؤكّد على أنّ هذا الإنفاق يقرب هؤلاء من اللّه قطعا: أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ و لهذا سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ و إذا ما صدرت من هؤلاء هفوات و عثرات، فإنّ اللّه سيغفرها لهم لإيمانهم و أعمالهم الحسنة، ف إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إنّ التأكيدات المتوالية و المكررة التى تلاحظ فى هذه الآية تجلب الانتباه حقّا، فإنّ (ألا) و (إن) يدل كلاهما على التأكيد، ثمّ جملة سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ خصوصا مع ملاحظة (فى) التى تعنى الدخول و الغوص فى الرحمة الإلهية، و بعد ذلك الجملة الأخيرة التى تبدأ ب (إنّ) و تذكر صفتين من صفات الرحمة و هما غَفُورٌ رَحِيمٌ كل هذه التأكيدات تبيّن منتهى اللطف و الرحمة الإلهية بهذه الفئة.

و ربّما كان هذا الاهتمام بهؤلاء لأنّهم رغم حرمانهم من التعليم و التربية، و عدم الفهم الكافى لآيات اللّه و أحاديث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّهم قبلوا الإسلام و آمنوا به بكل وجودهم، و رغم قلّة إمكانياتهم المالية- التى يحتمها وضع البادية- فإنّهم لم يمتنعوا عن البذل و الإنفاق فى سبيل اللّه، و لذلك استحقوا كل تقدير و احترام، و أكثر ممّا يستحقه سكان المدينة المتمكنون.

و يجب الالتفات إلى أنّ القرآن قد استعمل عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ فى حق الأعراب المنافقين، التى تدل على إحاطة التعاسة و سوء العاقبة بهم، أمّا فى حق المؤمنين فقد ذكرت عبارة فِي رَحْمَتِهِ لتبيّن إحاطة الرحمة الإلهية بهؤلاء، فقسم تحيط به الرحمة الإلهية، و الآخر تحيط به الدوائر و المصائب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۷۹

بحوث

اشارة

و هنا ملاحظات تسترعی الانتباه:

۱- التّجمعات الکبیرة

یبدو بوضوح- من الآیات المذکورة- مدی الأهمیة التی یولیها الإسلام للمجتمعات الکبیرة، و الأماکن المزدحمة بالسکان، و الجمیل فی الأمر أنّ الإسلام قد نهض و بزغ نوره من محیط متخلف، محیط لا تشم منه رائحة التمدن و التطور، إلّا أنّه فی الوقت نفسه یهتم اهتماما خاصّا بالعوامل البناءة التی تنهض بالمجتمع، و تحلّق به فی أجواء التطور و الرقی، فنراه یقرر أنّ هؤلاء الذین یعیشون فی مناطق نائیة عن المدینة أکثر تخلفا من أهل المدن، لأنّهم لا یملکون الوسائل الکافیة للتعلیم و التربیة فتخلفوا، و لهذا نقرأ

فی نهج البلاغة قول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «الزموا السواد الأعظم، فإنّ ید اللّه مع الجماعة»[۵۹].

إلّا أنّ هذا الکلام لا یعنی أن یتجه کل الناس إلی المدن، و یترکوا القری- التی هی أساس عمران المدن- تعبث بها ید الخراب، بل یجب السّعی فی إیصال علم و تقدم المدینة إلی القریة، و تقویة أسس التربیة و التعلیم و أصول الدین و الوعی و نشرها بین صفوف القرویین.

و لا شک أنّ سکان القری إذا ترکوا علی حالتهم و لم تفتح علیهم نافذة من العلوم المدنیة و آیات الکتب السماویة، و تعلیمات و توجیهات النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الهداة الکرام، فسیحل بهم الکفر و النفاق سریعا و یأخذ منهم مأخذا عظیما. إنّ هؤلاء لهم استعداد أکبر لقبول التربیة السلیمة و التعلیم الصحیح لصفاء قلوبهم، و بساطة أفکارهم، و قلّة انتشار المکر و المراوغة التی تعم المدن بینهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۰

۲- الأعراب من سکان المدن

إنّ کلمة (الأعرابی) و إن کانت تعنی ساکن البادیة، إلّا أنّها استعملت بمعنی أوسع فی الأخبار و الرّوایات الإسلامیة، و بتعبیر آخر: فإنّ مفهومها الإسلامی لا یرتبط أو یتحدد بالمنطقة الجغرافیة التی یشغلها الأعراب، بل تعبر عن منهجیة فی التفکیر، فإنّ من کان فی منأی عن الآداب و السنن و التربیة الإسلامیة فهو من الاعراب و إن کان سکان المدن، أمّا سکّان البادیة الملتزمون بالآداب و السنن الإسلامیة فلیسوا بأعراب.

الحدیث المشهور المنقول عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من لم یتفقه منکم فی الدین فهو أعرابی»[۶۰]

دلیل قوی و شاهد واضح علی الکلام أعلاه.

و فی خبر آخر نقرأ: «من الکفر التعرب بعد الهجرة».

و نقل أیضا

عن علی علیه السّلام فی نهج البلاغة أنّه خاطب جماعة من أصحابه العاصین لأمره فقال: «و اعلموه أنّکم صرتم بعد الهجرة أعرابا»[۶۱]

فی الحدیثین أعلاه جعل «التعرب» مقابل «الهجرة»، و إذا لا حظنا أنّ للهجرة أیضا مفهوما واسعا لا یتحدد بالجانب المکانی، بل إنّ أساسها انتقال الفکر من محور الکفر إلی محور الإیمان، اتّضح معنی کون الفرد أعرابیا، أی أنّه یعنی الرجوع عن الآداب و السنن

الإسلامية إلى الآداب و العادات الجاهلية.

۳- نطالع فى الآية المذكورة أعلاه الواردة فى حق المؤمنين من الأعراب، أنّ هؤلاء يعتبرون إنفاقهم أساس القرب من اللّه تعالى، خاصّة و أنّ هذه الكلمة قد وردت بصيغة الجمع (قربات)، و هى توحى أنّ هؤلاء لا يبتغون من إنفاقهم قربة واحدة، بل قربات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۱

و ممّا لا شك فيه أنّ القرب و القربة بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى لا تعنى القرب المكانى، بل القرب المقامى، أى السير إلى الذات المقدسة و الكمال المطلق و التعرض لأنوار صفات جماله و جلاله و فى دائرة الفكر و الروح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۲

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۰]

اشارة

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۰۰)

التّفسير

السّابقون إلى الإسلام:

بالرغم من أن المفسّرين قد نقلوا أسبابا عديدة للنزول، إلّا أنّ أيّا منها- كما سنرى- ليس سببا للنزول، بل إنّها فى الواقع بيان المصداق و الوجود الخارجى لها.

على كل حال، فإنّ هذه الآية- التى وردت بعد الآيات المتحدثة عن حال الكفار و المنافقين- تشير إلى مجموعات و فئات مختلفة من المسلمين المخلصين، و قسمتهم إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: السابقون فى الإسلام و الهجرة: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ

الثّانى: السابقون فى نصرة و حماية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه المهاجرين:

وَ الْأَنْصارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۳

الثّالث: الذين جاؤوا بعد هذين القسمين و اتبعوا خطواتهم و مناهجهم، و قبولهم الإسلام و الهجرة، و نصرتهم للدين الإسلامى، فإنّهم ارتبطوا بهؤلاء السابقين:

وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ ۶۲].

ممّا قلناه يتبيّن أنّ المقصود من «بإحسان» فى الحقيقة هو بيان الأعمال و المعتقدات لهؤلاء السابقين إلى الإسلام التى ينبغى اتباعها، و بتعبير آخر فإنّ (إحسان) وصف لبرامجهم التى تتّبع.

و قد احتمل أيضا فى معنى الآية أنّ (إحسان) بيان لكيفية المتابعة، أى أن هؤلاء يتبعونهم بالصورة اللائقة و المناسبة. ففى الصورة الأولى الباء فى (بإحسان) بمعنى (فى)، و فى الصورة الثّانية بمعنى (مع). إلّا أنّ ظاهر الآية مطابق للتفسير الأوّل.

و بعد ذكر هذه الأقسام الثّلاثة قالت الآية: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ

إن رضـى اللّه سبحانه و تعالى عن هؤلاء هو نتيجة لإيمانهم و أعمالهم الصالحة التى عملوها، و رضاهم عن اللّه لما أعد لهم من الجزاء و العطايا المختلفة التى لا تدركها عقول البشر. و بتعبير آخر، فإنّ هؤلاء قد نفذوا كل ما أراده اللّه منهم، و فى المقابل أعطاهم اللّه كل ما أرادوا، و على هذا فكما أنّ اللّه سبحانه راض عنهم، فإنّهم راضون عن اللّه تعالى.

و مع أنّ الجملـة السابقـة قد تضـمنت كل المواهب و النعم الإلهية، المادية منها و المعنوية، الجسـمية و الروحية، لكن الآية أضافت من باب التأكيد، و بيان التفصيل بعد الإجمال: وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا الْأَنْهارُ و من امتيازات هذه النعمة أنّها خالدة، و سيبقى هؤلاء خالِدِينَ فِيها و إذا نظرنا إلى مجموع هذه المواهب المادية و المعنوية أيقنا أن ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۴

أىّ فوز أعلى و أكبر من أن يدرك الإنسان أن خالقه و معبوده و مولاه قد رضى عنه، و قد وقّع على قبول أعماله؟ و أى فوز أعلى من أن يحصل الإنسان على مواهب خالدة نتيجة أعمال محدودة يعملها فى أيّام هذا العمر الفانى؟

بحوث

۱- موقع السّابقين

فى كل ثورة اجتماعيـة جبارة تقوم ضـد أوضاع المجتمع الفاسـدة، فإنّ طلائع الثورة هم أعمدتها، و على عاتقهم يقع حملها و ثقلها، و هؤلاء فى الحقيقـة هم أوفى عناصـر الثورة، لأنّهم نصـروا قائـدهم و قـدوتهم فى أحلك الظروف و التفوا حوله فى ساعات المحنـة و الوحـدة رغم أنّهم محاصـرون و تحيـط بهم أنواع الأخطار إلّا أنّهم لم يتخلوا عن دعمهم و نصـرتهم و تضـحيتهم. خاصّـة و إن مطالعة تاريخ صدر الإسـلام تعطى صورة واضحة عن مدى ضخامة المشاكل التى واجهها السابقون و الرعيل الأوّل من المسلمين! كيف كانوا يؤذونهم و يعذبونهم لكنّهم لم يصـرخوا و لم يتأوهوا رغم شدة آلامهم، كانوا يتهمونهم، يسـحبونهم بالسـلاسل، و بالتالى يقتلونهم. و رغم كـل ذلـك، فـإنّ هؤلاء قـد وضـعوا قـدما فى هـذا السبيل بإرادة حديديـة، و عشق ملتهب، و عزم راسـخ، و إيمان عميق، و وطنوا أنفسهم على تحمل أنواع المخاطر و المصاعب.

و من بين هؤلاء كان سـهم المهاجرين الأوّلين هو الأرجـح، و من بعدهم الأنصار الأوائل، أى الذين دعوا النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينـة و اسـتقبلوه برحابـة و أسـكنوا أصـحابه و اعتبروهم كـإخوانهم، و دافعوا عنهم بكل وجودهم، بل قـدموهم حتى على قومهم. و إذا كانت الآية أعلاه قد أولت هذين القسمين اهتماما خاصا، فلهذه العوامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۵

إلّـا أنّ القرآن الكريم فى الوقت نفسه- كمـا هى طريقته دائمـا- لم يبخس حقّ الآـخرين، و ذكر كـل الأقسام و الفئات الأخرى الـذين التحقوا فى عصـر النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أو الأعصار التاليـة، و الـذين هاجروا، أو آووا المهاجرين و نصـروهم تحت عنوان التابعين بإحسان، و بشر الجميع بالأجر و الجزاء الحسن.

۲- من هم التابعون؟

اصـطلح جماعـة من العلماء على أنّ كلمـة «التابعين» تعنى تلامـذة الصـحابة، و جعلوها من مختصاتهم، أى أولئك الذين لم يروا النّبى الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، لكنّهم تصـدوا لاكتسـاب العلـوم الإسـلامية و وسـعوها، و بعبـارة أخرى: إنّهم اكتسـبوا علـومهم

الإسلامیة من صحابة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لکن مفهوم الآیـة- کمـا قلنـا قبل قلیل- من الناحیـة اللغویـة و إلّا ینحصـر بهـذه المجموعـة و لا یختص بها، بل یشـمل کل الفئات و المجموعات التی اتبعت برامج و أهداف الطلائع الإسلامیة و السابقون إلی الإسلام فی کل عصر و زمان.

و توضـیح ذلک أنّه علی خلاف ما یعتقده البعض من أن الهجرة و النصـرة- اللتین هما من المفاهیم الإسلامیة البناءة- مختصتان بعصر النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، فإنّهما توجدان فی کل عصـر- و حتی فی عصـرنا الحاضر- و لکن بأشکال أخری، و علی هذا فإنّ کل الأفراد الذین یسیرون فی هذا المسیر- مسیر الهجرة و النصرة- یدخلون تحت هذین المفهومین.

إذن، المهم أن نعلم أن القرآن الکریم بذکره کلمة (إحسان) یؤکّد علی أن اتباع خط السابقین إلی الإسلام، و السیر فی طریقهم یجب أن لا ـ یبقی فی حـدود الکلام و الادعاء، بل و حتی مجرّد الإیمان الخالی من العمل، بل یجب أن تکون هـذه المتابعـة أو الاتباع اتباعا فکریا و عملیا و فی کل الجوانب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۶

۳- من هو أوّل من أسلم؟

إنّ أکثر المفسّرین یطرح هنا سؤالا- لمناسبة بحث الآیة- و هو: من هو أوّل من أسلم، و ثبت هذا الافتخار العظیم باسمه فی التاریخ؟

و فی جواب هـذا السؤال، فقـد قـالوا بالإجمـاع، إنّ أوّل من أسـلم من النسـاء خدیجـة زوجـة النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم الوفیة المضـحیة. و أمّا من الرجال فکل علماء الشـیعة و مفسـریهم، و فریق کبیر من أهل السـنة قالوا: إنّ علیّا علیه السّلام أوّل من أسلم و لبّی دعوة النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

إنّ اشـتهار هذا الموضوع بین علماء أهل السنة بلغ حدا ادّعی جماعة منهم الإجماع علیه و اتفقوا علی ذلک. و من جملة هؤلاء الحاکم النیسابوری فی (المسـتدرک علی الصـحیحین) و فی کتاب (المعرفـة)، فإنّه یقول فی ص ۲۲: لا أعلم خلافا بین أصـحاب التواریخ أنّ علی بن أبی طالب رضی اللّه عنه أوّلهم إسلاما، و إنّما اختلفوا فی بلوغه ۶۳].

و کتب ابن عبد البر فی (الاستیعاب) ج ۲، ص ۴۵۷: اتفقوا علی أنّ خدیجـة أوّل من آمن باللّه و رسوله و صدقه فیما جاء به، من علی بعدها[۶۴].

و کتب أبو جعفر الإسـکافی: قد روی الناس کافة افتخار علی بالسبق إلی الإسلام.[۶۵] و بعد هذا، فإنّ الرّوایات الکثیرة التی نقلت عن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم و عن علی علیه السّـلام نفسه، و الصـحابة- فی هـذا الباب بلغت حد التواتر، و کنموذج لها نورد هنا بعض الأحادیث:

۱-

قال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «أوّلکم ورودا علی الحوض أوّلکم إسلاما، علی بن أبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۷

طالب علیه السّلام».[۶۶]

۲-

نقل جماعة من علماء أهل السنة عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه أخذ بید علی علیه السّلام و قال:

«إنّ هذا أوّل من آمن بی، و هذا أوّل من یصافحنی، و هذا الصدیق الأکبر».[۶۷]

-۳

نقل أبو سعيد الخدرى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه وضع يده بين كتفى على عليه السّلام و قال:

«يا على، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أوّل المؤمنين باللّه إيمانا، و أوفاهم بعهد اللّه، و أقومهم بأمر اللّه ...»[۶۸]

و كما أشرنا سابقا، فإنّ عشرات الرّوايات فى مختلف كتب التأريخ و التّفسير و الحديث قد نقلت عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و آخرين فى هذا الباب، و من أراد مزيد الاطلاع فليراجع الجزء الثّالث من الغدير ص ۲۲۰- ۲۴۰، و كتاب إحقاق الحق الجزء ۳ ص ۱۱۴- ۱۲۰.

و هنا التفاتة لطيفة، و هى أنّ جماعة لما لم يستطيعوا إنكار سبق على عليه السّلام فى الإيمان و الإسلام سعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخر، أو التقليل من أهمية هذا الموضوع، و البعض يحاول أن يجعل أبا بكر مكان على عليه السّلام، و يدعى أنّه أول من أسلم.

فهم يقولون تارة إنّ عليّا عليه السّلام فى ذلك الوقت كان فى العاشرة من عمره، و هو غير بالغ طبعا، و على هذا فإن إسلامه يعنى إسلام صبى، و مثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير فى تقوية جبهة المسلمين و زيادة اقتدارهم فى مقابل الأعداء (هذا القول ذكره الفخر الرازى فى تفسيره فى ذيل الآية).

و هذا عجيب حقّا، و هو فى الحقيقة إيراد و اعتراض على شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۸

لأنا نعلم أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد عرض الإسلام على عشيرته و قومه يوم الدار، و لم يقبله إلّا علىّ عليه السّلام حين قام و أعلن إسلامه، فقبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إسلامه، بل و خاطبه بأنّك:

أخى و وصى و خليفتى.

إنّ هذا الحديث الذى نقله جماعة من حفاظ الحديث، من الشيعة و السنة، فى كتب الصحاح و المسانيد، و كذلك جمع من مؤرخى الإسلام، و استندوا عليه، يبيّن أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مضافا إلى قبوله إسلام على عليه السّلام فى ذلك السن الصغير، فإنّه عرفه للحاضرين- و للناس فيما بعد- بأنّه أخوه و وصيه و خليفته ۶۹].

و يعبرون تارة أخرى بأنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة، و من الرجال أبو بكر، و من الصبيان على عليه السّلام، و أرادوا بهذا التعبير أن يقللوا من أهمية إسلام على عليه السّلام. (ذكر هذا التعبير المفسّر المعروف و المتعصّب صاحب المنار فى ذيل الآية المبحوثة).

إلّا أنّ أوّلا: كما قلنا، إنّ سن على عليه السّلام الصغير فى ذلك اليوم لا يقدح فى أهمية الأمر بأى وجه، و لا يقلل من شأنه، خاصّة و أن القرآن الكريم قال فى شأن يحيى:

وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۷۰]، و كذلك نقرأ ما قاله فى شأن عيسى عليه السّلام من أنّه تكلم و هو فى المهد، و خاطب أولئك الذين وقعوا فى حيرة و شك من أمره و قال: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا[۷۱].

إنّنا إذا ما ضممنا مثل هذه الآيات إلى الحديث الذى نقلناه آنفا من أنّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم جعل عليّا عليه السّلام وصيه و خليفته اتّضح أن كلام صاحب المنار لم يصدر إلّا عن تعصب مقيت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۸۹

ثانيا: إنّ من غير المسلم تاريخيا أنّ أبا بكر هو ثالث من أسلم، بل ذكروا فى كثير من كتب التاريخ و الحديث جماعة أخرى أسلمت قبله.

و ننهى هذا البحث بذكر هذا المطلب، و هو أنّ عليا عليه السّلام أشار مرارا و تكرارا فى خطبه إلى أنّه أوّل من أسلم، و أوّل من آمن، و أوّل من صلّى مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بيّن موقعه من الإسلام، و هذه المسألة قد نقلت عنه فى كثير من الكتب.

إضافة إلى أنّ ابن أبى الحديد نقل عن العالم المعروف أبى جعفر الإسكافى المعتزلى، أن البعض يقول: إذا كان أبو بكر قد سبق إلى الإسلام، فلما ذا لم يستدل لنفسه بذلك فى أى موقف؟ بل و لم يدّع ذلك أى أحد من مواليه من الصحابة.[۷۲]

۴- هل كان الصحابة كلهم صالحين؟

لقد أشرنا سابقا إلى هذا الموضوع، و إلى أنّ علماء أهل السنة يعتقدون- عادة- بأن جميع أصحاب النّبى فاضلون و صالحون و من أهل الجنّة. و لمناسبة الآية لهذا البحث، و التى جعلها البعض دليلا قاطعا على هذا المدعى، فإنّنا هنا نحلّل و نفصل هذا الموضوع المهم الذى يعتبر أساسا و منبعا لاختلاف كثيرة أخرى فى المسائل الإسلامية.

إنّ كثيرا من مفسّرى أهل السنة نقلوا حديثا فى ذيل هذه الآية، و هو أن حميد بن زياد قال: ذهبت إلى محمّد بن كعب القرظى و قلت له: ما تقول فى أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟ فقال: جميع أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الجنّة، محسنهم و مسيئهم! فقلت: من أين قلت هذا؟ فقال: اقرأ هذه الآية: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ إلى قوله تعالى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ثمّ قال: لكن قد اشترط فى التابعين أن يتبعوا الصحابة فى أعمال الخير (ففى هذه الصورة فقط هم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۰

الناجين، أمّا الصحابة فلم يشترط عليهم هذا الشرط)[۷۳].

إلّا أنّ هذا الادعاء لا يمكن قبوله، و هو مردود بأدلة كثيرة:

أوّلا- إن الحكم المذكور فى الآية يشمل التابعين أيضا، و المقصود من التابعين- كما أشرنا سابقا- كل الذين يتبعون المهاجرين و الأنصار السابقين فى معتقداتهم و أهدافهم و برامجهم، و على هذا فإنّ كل الأمّة بدون استثناء ناجية.

و أمّا ما ورد فى حديث محمّد بن كعب، من أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد ذكر قيد الإحسان فى التابعين، أى أتباع الصحابة فى أعمالهم الحسنة، لا فى ذنوبهم، فهو أعجب البحوث و أغربها، لأنّ مفهوم ذلك إضافة الفرع إلى الأصل، فعند ما يكون شرط نجاة التابعين أن يتبعوا الصحابة فى أعمالهم الحسنة، فاشتراط هذا الشرط على الصحابة أنفسهم يكون بطريق أولى.

و بتعبير آخر فإنّ اللّه تعالى يبيّن فى الآية أن رضاه يشمل كل المهاجرين و الأنصار السابقين الذين كانت لهم برامج و أهداف صالحة، و كل التابعين لهم، لا أنّه قد رضى عن المهاجرين و الأنصار، الصالح منهم و الطالح، أمّا التابعون فإنّه يرضى عنهم بشرط.

ثانيا: إنّ هذا الموضوع لا يناسب الدليل العقلى بأى وجه من الوجوه، لأنّ العقل لا يعطى أى امتياز لأصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فما الفرق بين أبى جهل و أمثاله، و بين من آمنوا أوّلا ثمّ انحرفوا عن الدين؟

و لماذا لا تشمل رحمة البارى و الرضوان الإلهى الأشخاص الذين جاؤوا بعد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بسنوات و قرون، و لم تكن تضحياتهم و جهادهم أقل ممّا عمله أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل قد امتازوا بأنهم لم يروا نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لكنّهم عرفوه و آمنوا به؟

إنّ القرآن الذى يقول: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ كيف يرضى هذا التبعيض و التفرقة غير المنطقية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۱

إنّ القرآن الذى يلعن الظالمين و الفاسقين فى آياته المختلفة، و يعدهم ممّن استوجب العقاب و العذاب الإلهى، كيف يوافق و يقرّ هذه الصيانة غير المنطقية للصحابة فى مقابل الجزاء الإلهى؟! هل إنّ مثل هذه اللعنات و التهديدات القرآنية قابلة للاستثناء، و أن يخرج من دائرتها قوم معينون؟ لماذا و لأجل أى شى؟! و إذا تجاوزنا عن كل ذلك، ألا يعتبر مثل هذا الحكم بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للصحابة ليرتكبوا من الذنب و الجريمة ما يحلو لهم؟

ثالثا: إنّ هذا الحكم لا يناسب المتون التأريخية الإسلامية، لأنّ كثيرا ممّن كان فى صفوف المهاجرين و الأنصار قد انحرف عن طريق الحق، و تعرض لغضب الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم الملازم لغضب اللّه عزّ و جلّ. ألم نقرأ فى الآيات السابقة قصّة ثعلبة بن حاطب الأنصارى، و كيف انحرف و أصبح مورد لعنة و غضب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟! و نقول بصورة أوضح: إذا كان مقصود هؤلاء أنّ أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يرتكبوا أى معصية، و كانوا معصومين، فهذا من قبيل إنكار البديهيات.

و إن كان مقصودهم أنّ هؤلاء قد ارتكبوا المعاصى، و عملوا المخالفات، إلّا أنّ اللّه تعالى راض عنهم رغم ذلك، فإنّ معنى ذلك أن اللّه سبحانه قد رضى بالمعصية! من يستطيع أن يبرئ ساحة طلحة و الزبير اللذين كانا فى البداية من خواص أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كذلك عائشة زوجة النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم من دماء سبعة عشر ألف مسلم أريقت دماؤهم فى حرب الجمل؟ هل أنّ اللّه عزّ و جلّ كان راضيا عن إراقة هذه الدماء؟! هل إنّ مخالفة على عليه السّلام خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم- الذى إذا لم نقبل النّص على خلافته فرضا، فعلى الأقل كان قد انتخب بإجماع الأمّة- و شهر السلاح بوجهه و بوجه أصحابه الأوفياء شىء يرضى اللّه عنه؟

فى الحقيقة، إنّ أنصار نظرية (تنزيه الصحابة) بإصرارهم على هذا المطلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۲

و المبحث قد شوهوا صورة الإسلام الطاهر الذى جعل الإيمان و العمل الصالح هو المعيار و الأساس الذى يستند عليه فى تقييم الأشخاص فى كل المجالات و على أى الأحوال.

و آخر الكلام إن رضى اللّه سبحانه و تعالى فى الآية التى نبحثها قد اتخذ عنوانا كليا، و هو الهجرة و النصرة و الإيمان و العمل الصالح، و كل الصحابة و التابعين تشملهم رحمة اللّه و رضاه ما داموا داخلين تحت هذه العناوين، فإذا خرجوا منها خرجوا بذلك عن رضى اللّه تعالى.

ممّا قلنا يتّضح بصورة جلية أنّ قول المفسّر العالم- لكنّه متعصب- أى صاحب المنار، الذى يشن هنا هجوما عنيفا و تقريعا لاذعا على الشيعة لعدم اعتقادهم بنزاهة الصحابة جميعا، لا قيمة له، إذ الشيعة لا ذنب لهم إلّا أنّهم قبلوا حكم العقل و شهادة التاريخ، و شواهد القرآن و أدلّته التى وردت فى هذه المسألة، و لم يعتبروا الامتيازات الواهية، و الأوسمة التى أعطاها المتعصبون للصحابة بدون استحقاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۳

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۱]

اشارة

وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (۱۰۱)

التّفسير

مرّة أخرى يدير القرآن المجيد دفة البحث إلى أعمال المنافقين و فئاتهم، فيقول: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ أى يجب أن لا تركزوا اهتمامكم على المنافقين الموجودين داخل المدينة، بل ينبغى أن تأخذوا بنظر الإعتبار المنافقين المتواجدين فى أطراف

المدينة، و تحذروهم، و تراقبوا أعمالهم و نشاطاتهم الخطرة. و كلمة (أعراب) كما أشرنا تقال عادة لسكان البادية.

ثمّ تضيف الآية بأنّ فى المدينة نفسها قسما من أهلها قد وصلوا فى النفاق إلى أقصى درجاته، و ثبتوا عليه، و أصبحوا ذوى خبرة فى النفاق: وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ

(مردوا) مأخوذة من مادة (مرد) بمعنى الطغيان و العصيان و التمرد المطلق، و هى فى الأصل بمعنى التعرى و التجرّد، و لهذا يقال لمن لم ينبت الشعر فى وجهه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۴

(أمرد)، و شجرة مرداء، أى خالية من أى ورقة، و المارد هو الشخص العاصى الذى خرج على القانون و عصاه كلية.

و قال بعض المفسّرين و أهل اللغة: إنّ هذه المادة تأتى بمعنى (التمرين) أيضا.

(ذكر فى تاج العروس و القاموس أن التمرين واحد من معانى هذه الكلمة). و ربّما كان ذلك، لأنّ التجرد المطلق من الشىء، و الخروج الكامل من هيمنته لا يمكن تحققه بدون تمرين و ممارسة.

على كل حال، فإنّ هؤلاء المنافقين قد انسلخوا من الحق و الحقيقة، و تسلطوا على أعمال النفاق إلى درجة أنّهم كانوا يستطيعون أن يظهروا فى مصاف المؤمنين الحقيقين، دون أن ينتبه أحد إلى حقيقتهم و مراوغتهم.

إنّ هذا التفاوت فى التعبير عن المنافقين الداخليين و الخارجيين فى الآية يلاحظ جليا، و ربّما كان ذلك إشارة إلى أنّ المنافقين الداخليين أكثر تسلطا على النفاق، و بالتالى فهم أشد خطرا، فعلى المسلمين أن يراقبوا هؤلاء بدقّة، لكن يجب أن لا يغفلوا عن المنافقين الخارجين، بل يراقبونهم أيضا. لذلك تقول الآية مباشرة بعد ذلك لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ و من الطبيعى أنّ هذا إشارة العلم الطبيعى للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن هذا لا ينافى أن يقف كاملا على أسرارهم عن طريق الوحى و التعليم الإلهى.

و فى النهاية تبيّن الآية صورة العذاب الذى سيصب هؤلاء: سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ

لا شك أنّ العذاب العظيم إشارة إلى عذاب يوم القيامة، إلّا أنّ بين المفسّرين نقاشا و احتمالات عديدة فى نوعية العذابين الآخرين و ماهيتهما. إلّا أنّ الذى يرجحه النظر أن واحدا من هذين العذابين هو العقاب الاجتماعى لهؤلاء، و المتمثل فى فضيحتهم و هتك أسرارهم، و الكشف عمّا فى ضمائرهم من خبيث النوايا، و هذا يستتبع خسرانهم لكل وجودهم الاجتماعى، و الدليل على ذلك ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۵

قرأناه فى الآيات السابقة، و قد ورد فى بعض الأحاديث أنّ أعمال هؤلاء عند ما كانت تبلغ حد الخطر، كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعرف هؤلاء الناس بأسمائهم و صفاتهم، بل و ربّما طردهم من المسجد.

و العذاب الثّانى هو ما أشارت إليه الآية (۵۰) من سورة الأنفال، حيث تقول هناك: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ

و يحتمل أيضا أن يكون العذاب الثّانى إشارة إلى المعاناة النفسية و العذاب الروحى الذى كان يعيشه هؤلاء نتيجة انتصارات المسلمين فى كل الجوانب و الأبعاد و المجالات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۶

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۲]

اشارة

وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۰۲)

سبب النّزول

نقلت روايات عديدة فى سبب نزول هذه الآية، و نواجه فى أكثرها اسم (أبى لبابة الأنصارى) فهو- حسب رواية- قد امتنع مع اثنين- أو أكثر- من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم من الاشتراك فى غزوة تبوك، لكنّهم لما سمعوا الآيات التى نزلت فى ذم المتخلفين ندموا أشدّ الندم، فجاءوا إلى مسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ربطوا أنفسهم بأعمدته، فلمّا رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بلغه أمرهم قالوا بأنّهم أقسموا أن لا يفكوا رباطهم حتى يفكّه رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فأجابهم رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه يقسم أيضا أن لا يفعل ذلك حتى يأذن له اللّه، فنزلت الآية، و قبل اللّه توبتهم، ففكّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم رباطهم.

فأراد هؤلاء أن يشكروا ذلك، فقدموا كل أموالهم بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: إنّ هذه الأموال هى التى صرفتنا و منعتنا عن الجهاد، فاقبلها منّا، و أنفقها فى سبيل اللّه، فأخبرهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه لم ينزل عليه شىء فى هذا. فلم تمض مدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۷

حتى نزلت الآية التى تلى هذه الآية، و أمرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأخذ قسما من أموال هؤلاء، و حسب بعض الرّوايات فإنّه قبل ثلثها.

و نقرأ فى بعض الرّوايات، أن هذه الآية قد نزلت فى قصّة بنى قريظة مع أبى لبابة، فإن بنى قريظة قد استشاروا أبا لبابة فى أن يسلّموا لحكم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أوامره، فأشار إليهم بأنّهم إن سلّموا له فسيقتلهم جميعا، ثمّ ندم على ما صدر، فتاب و شدّ نفسه بعمود المسجد، فنزلت الآية، و قبل اللّه تعالى توبته ۷۴].

التّفسير

التّوابون:

بعد أن أشارت الآية السابقة إلى وضع المنافقين فى داخل المدينة و خارجها، أشارت هذه الآية هنا إلى وضع جمع من المسلمين العاصين الذين أقدموا على التوبة لجبران الأعمال السيئة التى صدرت منهم، و رجاء لمحوها: وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ و يشملهم برحمته الواسعة ف إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

إنّ التعبير ب (عسى) فى الآية، و التى تستعمل فى الموارد التى يتساوى فيها احتمال الفوز و عدمه، أو تحقق الأمل و عدمه، ربّما كان ذلك كيما يعيش هؤلاء حالة الخوف و الرجاء، و هما وسيلتان مهمتان للتكامل و التربية.

و يحتمل أيضا أنّ التعبير ب (عسى) إشارة إلى وجوب الالتزام بشروط أخرى فى المستقبل، مضافا إلى الندم على ما مضى و التوبة منه و عدم الاكتفاء بذلك بل يجب أن تجبر الأعمال السيئة التى ارتكبت فيما مضى بالأعمال الصالحة مستقبلا.

إلّا أنّنا إذا لا حظنا أن الآية تختم ببيان المغفرة و الرحمة الإلهية، فإن جانب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۸

الأمل و الرجاء هو الذى يرجح.

و هناك ملاحظة واضحة أيضا، و هى أن نزول الآية فى أبى لبابة، أو سائر المتخلفين عن غزوة تبوك لا يخصص المفهوم الواسع لهذه الآية، بل إنّها تشمل كل الأفراد الذين خلطوا الأعمال الصالحة الحسنة بالسيئة، و ندموا على أعمالهم السيئة.

و لهذا نقل عن بعض العلماء قولهم: إنّ هذه الآية أرجى آيات القرآن الكريم، لأنّها فتحت الأبواب أمام المذنبين العاصين، و دعت التّوابين إلى اللّه الغفور الرحيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۱۹۹

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۵]

اشارة

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۱۰۳) أَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۰۴) وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۰۵)

التّفسير

الزّكاة مطهرة للفرد و المجتمع:

فى الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى أحد الأحكام الإسلامية المهمّة، و هى مسألة الزكاة، حيث تأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل عام أن خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً.

إنّ كلمة (من) التبعيضية توضح أنّ الزكاة تشكل- دائما- جزءا من الأموال، لا أنّها تستوعب جميع الأموال، أو الجزء الأكبر منها.

ثمّ تشير إلى قسمين من الفلسفة الأخلاقية و الاجتماعية للزكاة، حيث تقول:

تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها فهى تطهرهم من الرّذائل الأخلاقية، و من حبّ الدنيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۰

و عبادتها، و من البخل و غيره من مساوئ الأخلاق، و تزرع مكانها خلال الحب و السخاء و رعاية حقوق الآخرين فى نفوسهم. و فوق كل ذلك فإنّ المفاسد الاجتماعية و الانحطاط الخلقى و الاجتماعى المتولّد من الفقر و التفاوت الطبقى و الذى يؤدى إلى وجود طبقة محرومة، كل هذه الأمور ستقتلع بتطبيق هذه الفريضة الإلهية و أدائها، و هى التى تطهر المجتمع من التلوث الذى يعيشه و يحيط به، و كذلك سيفعّل التكافل الاجتماعى، و ينمو و يتطور الإقتصاد فى ظل مثل هذه البرامج.

و على هذا فإنّ حكم الزكاة مطهر للفرد و المجتمع من جهة و يكرّس الفضيلة فى النفوس من جهة أخرى، و هو سبب فى تقدم المجتمع أيضا، و يمكن القول بأنّ هذا التعبير أبلغ ما يمكن قوله فى الزكاة، فهى تزيل الشوائب من جهة، و وسيلة للتكامل من جانب آخر.

و يحتمل أيضا فى معنى هذه الآية أن يكون فاعل (تطهّرهم) هو الزكاة، و فاعل (تزكيهم) (النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم)، و على هذا سيكون معنى هذه الآية هو: إنّ الزكاة تطهرهم، و إن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى يربيهم و يزكيهم.

إلّا أنّ الأظهر أنّ الفاعل فى كلا الفعلين هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما شرحنا و بيّنا ذلك فى البداية، رغم أنّه ليس هناك فرق كبير فى النتيجة.

ثمّ تضيف الآية فى خطابها للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك حينما تأخذ الزكاة منهم فادع لهم وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إنّ هذا يدل على وجوب شكر الناس و تقديرهم، حتى إذا كان ما يؤدونه واجبا عليهم و حكما شرعيا يقومون به، و ترغيبهم بكل الطرق، و خاصّة

المعنویة و النفسیة، و لهذا

ورد فی الرّوایات أنّ الناس عند ما کانوا یأتون بالزکاة إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان یدعو لهم یقول: «اللهم صل علیهم».

ثمّ تقول الآیة: إِنَّ صَلاتَکَ سَکَنٌ لَهُمْ لأنّ من برکات هذا الدعاء أن تنزل الرحمة الإلهیة علیهم، و تغمر قلوبهم و نفوسهم الی درجة أنّهم کانوا یحسون بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۱

مضافا إلی ثناء النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، أو من یقوم مقامه فی جمع زکاة أموال الناس بحدّ ذاته یبعث علی خلق نوع من الراحة النفسیة و الفکریة لهم، بحیث یشعرون بأنّهم إن فقدوا شیئا بحسب الظاهر، فإنّهم قد حصلوا- قطعا- علی ما هو أفضل منه.

اللطیف فی الأمر، أنّنا لم نسمع لحد الآن أن المأمورین بجمع الضرائب مأمورین بشکر الناس و تقدیرهم، إلّا أنّ هذا الحکم الذی شرع کحکم مستحب فی الأوامر و الأحکام الإسلامیة یعکس عمق الجانب الإنسانی فی هذه الأحکام.

و فی نهایة الآیة نقرأ: وَ اللَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ و هذا الختام هو المناسب لما سبق من بحث فی الآیة، إذ أن اللّه سبحانه یسمع دعاء النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و مطلع علی نیّات المؤدین للزّکاة.

ملاحظات

اشارة

۱- یتّضح من سبب النزول المذکور لهذه الآیة، أنّ هذه الآیة ترتبط بالآیة التی سبقتها فی موضوع توبة أبی لبابة و رفاقه، لأنّهم- و کشکر منهم لقبول توبتهم- أتوا بأموالهم و وضعوها بین یدی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لیصرفها فی سبیل اللّه، إلّا أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم اکتفی بأخذ قسم منها فقط.

إلّا أنّ سبب النزول هذا لا ینافی- مطلقا- أن هذه الآیة بیّنت حکما کلیا عاما فی الزکاة، و لا یصحّ ما طرحه بعض المفسّرین من التضاد بین سبب نزولها و ما بینته من حکم کلی، کما قلنا ذلک مکررا فی سائر آیات القرآن و أسباب نزولها.

السؤال الوحید الذی یبقی هنا، هو أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم- حسب روایة- قد قبل ثلث أموال أبی لبابة و أصحابه، فی الوقت الذی لا یبلغ مقدار الزکاة الثلث فی أی مورد، ففی الحنطة و الشعیر و التمر و الزبیب العشر أحیانا، و أحیانا جزء من عشرین جزءا، و فی الذهب و الفضة (۵، ۲٪)، و فی الأنعام (البقر و الغنم و الإبل) لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۲

یصل إلی الثلث مطلقا.

لکن یمکن الإجابة علی هذا السؤال بأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أخذ قسما من أموالهم بعنوان الزکاة، و المقدار الإضافی الذی یکمل الثلث بعنوان الکفّارة عن ذنوبهم، و علی هذا فإنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أخذ الزکاة الواجبة علیهم، و مقدارا آخر لتطهیرهم من ذنوبهم و تکفیرها فکان المجموع هو الثلث.

۲- إنّ حکم (خذ) دلیل واضح علی أنّ رئیس الحکومة الإسلامیة یستطیع أن یأخذ الزکاة من الناس، لا أنّه ینتظر الناس فإن شاؤوا أدّوا الزکاة، و إلّا فلا.

۳- إنّ جملة صَلِّ عَلَیْهِمْ و إن کانت خطابا للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّه من المسلّم أنّها فی معرض بیان حکم کلّی- لأنّ القانون الکلّی یعنی أن الأحکام الإسلامیة تجری علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و باقی المسلمین علی السواء، و مختصات النّبی

من جانب الأحكام يجب أن تثبت بدليل خاصّ- و على هذا فإنّ المسؤولين عن بيت المال فى كلّ عصر و زمان يستطيعون أن يدعوا لمؤدى الزكاة بجملة: «اللّهم صلّ عليهم».

و ممّا يثير العجب أنّ بعض المتعصبين من العامّة لم يجوز الصلاة مستقلة على آل الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أى أنّ شخصا لو قال: (اللّهمّ صلّ على علىّ أمير المؤمنين) أو:

(صلّ على فاطمة الزّهراء) فإنّهم اعتبروا ذلك ممنوعا و حراما! فى الوقت الذى نعلم أنّ منع مثل هذا الدعاء هو الذى يحتاج إلى دليل، لا- جوازه! إضافة إلى أنّ القرآن الكريم- كما قلنا سابقا- قد أجاز بصراحة مثل هذا الدعاء فى حق أفراد عاديين، فكيف بأهل بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و خلفائه؟! لكن، ماذا يمكن عمله؟ فإنّ التعصبات قد تقف أحيانا مانعة حتى من فهم آيات القرآن.

و لمّا كان بعض المذنبين- كالمتخلفين عن غزوة تبوك- يصرّون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى قبول توبتهم، أشارت الآية الثّانية من الآيات التى بين يدينا إلى أنّ قبول التوبة ليس مرتبطا بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل باللّه الغفور الرحيم، لذا قالت: أَ لَمْ يَعْلَمُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۳

أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ و لا ينحصر الأمر بتوقّف قبول التوبة على قبول اللّه لها، بل إنّه تعالى هو الّذى يأخذ الزكاة و الصدقات الأخرى التى يعطيها العباد تقربا إليه، أو تكفيرا لذنوبهم: وَ يَأْخُذُ الصَّدَقاتِ

لا شكّ فى أنّ الذى يأخذ الزكاة هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو الإمام المعصوم عليه السّلام أو خليفة المسلمين و قائدهم، أو الأفراد المستحقون، و فى كلّ هذه الأحوال فإنّ اللّه تبارك و تعالى لا يأخذ الصدقات ظاهرا، و لكن لمّا كانت يد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و النّواب الحقيقيين يد اللّه سبحانه- لأنّهم خلفاء اللّه و وكلاؤه- قالت الآية: إنّ اللّه يأخذ الصدقات. و كذلك العباد المحتاجون، فإنّهم يأمر اللّه يأخذون مثل هذه المساعدات، و هم فى الحقيقة وكلاء اللّه، و على هذا فإنّ يدهم يد اللّه أيضا.

إنّ هذا التعبير من ألطف التعبيرات التى تجسّد عظمة هذا الحكم الإسلامى- أى الزكاة- فبالرغم من ترغيب كلّ المسلمين و دعوتهم إلى القيام بهذه الوظيفة الإلهية الكبيرة، فإنّها تحذرهم بشدّة و تأمرهم بأن يراعوا الآداب الإسلامية و يتقيّدوا باحترام من يؤدونها إليه، لأنّ من يأخذها هو اللّه عزّ و جلّ، و إنّما حذرتهم حتى لا يتصور بعض الجهال، أنّه لا مانع من تحقير المحتاجين، أو إعطائه الزكاة بشكل يؤدى إلى تحطيم شخصية آخذ الزكاة، بل بالعكس عليهم أن يؤدوها بكلّ أدب و خضوع، كما يوصل العبد شيئا إلى مولاه.

ففى رواية عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ الصدقة تقع فى يد اللّه قبل أن تصل إلى يد السائل»[۷۵]!

و

فى حديث آخر عن الإمام السّجاد عليه السّلام: «إنّ الصدقة لا تقع فى يد العبد حتى تقع فى يد الرّب»[۷۶].

بل إنّ رواية صرّحت بأنّ كلّ أعمال ابن آدم تتلقاها الملائكة إلّا الصدقة، فإنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۴

تصل مباشرة إلى يد اللّه سبحانه ۷۷].

هذا المضمون قد ورد فى روايات أهل البيت عليهم السّلام بعبارات مختلفة، و

نقل أيضا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن طريق العامّة، فقد جاء فى صحيح مسلم و البخارى: «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب- و لا- يقبل اللّه إلّا الطيب- إلّا أخذها الرحمن بيمينه، و إن كانت تمرة، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»[۷۸].

إنّ هذا الحديث المشحون بالتشبيهات و الكنايات، و العظيم المعنى، مؤشر و دليل على الأهمية الخاصّة للخدمات الإنسانية و مساعدة

المحتاجين و المحرومين فى الأحكام الإسلامية.

لقد وردت عبارات حديثية أخرى فى هذا المجال، و هى مهمّة و ملفتة للنظر إلى درجة أن اتباع هذا الدين يرون أنفسهم خاضعين لمن يأخذ منهم صدقاتهم، و كأنّ ذلك المحتاج يمن على المتصدّق و يتفضل عليه بقبول صدقته.

فمثلا نجد فى بعض الأحاديث، أن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام كانوا أحيانا يقبلون الصّدقة احتراما و تعظيما للصدقة، ثمّ يعطونها الفقراء، أو إنّهم كانوا يعطونها للفقير ثمّ يأخذونها منه يقبّلونها و يشمّونها ثمّ يعيدونها إليه، لماذا؟ لأنّهم وضعوها فى يد اللّه سبحانه! و بهذا ندرك عظيم الفاصلة بين الآداب الإسلامية و بين الأشخاص الذين يحقرون المحتاجين فيما إذا أرادوا أن يعطوا الشىء اليسير، أو يعاملونهم بخشونة و قسوة، بل و يرمون مساعدتهم أحيانا بلا أدب و خلق؟! و كما قلنا فى محلّه، فإنّ الإسلام يسعى بكلّ جدّ على أن لا يبقى فقير واحد فى المجتمع الإسلامى، إلّا أنّه ممّا لا شك فيه أنّ فى كلّ مجتمع أفرادا عاجزين أطفال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۵

يتامى، مرضى ... و أمثال هؤلاء ممّن لا قدرة له على العمل، و هؤلاء يجب تأمين احتياجاتهم عن طريق بيت المال و الأغنياء، لكن هذا التأمين يجب أن يرافقه احترامهم و صيانة شخصياتهم.

ثمّ قالت الآية فى النهاية من باب التأكيد: وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

التّوبة و الجبران:

يستفاد من عدّة آيات فى القرآن الكريم أنّ التوبة لا تعنى الندم على المعصية فحسب، بل يجب أن يرافقها ما يجبر و يكفر عن الذنب، و يمكن أن يتمثل جبران هذا الخطأ بمساعدة المحتاجين ببذل ما يحتاجونه، كما هو فى هذه الآيات، و كما مرّ فى قصّة أبى لبابة.

و لا فرق فى كون الذنب المقترف ذنبا ماليا، أو أى ذنب آخر، كما هو الحال فى قضية المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ الهدف فى الواقع هو تطهير الروح التى تلوّثت بالمعصية من آثار هذه المعصية، و ذلك بالعمل الصالح، و هذا هو الذى يرجع الروح إلى طهارتها الأولى التى كانت عليها قبل الذنب.

و توكّد الآية التى تليها البحوث التى مرّت بصورة جديدة، و تأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغ الناس: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ فهى تشير إلى أن لا يتصور أحد أنّه إذا عمل عملا، سواء فى خلوته أو بين الناس فإنّه سيخفى على علم اللّه سبحانه، بل إنّ الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين يعلمون به إضافة إلى علم اللّه عزّ و جلّ.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة و الإيمان بها له أعمق الأثر فى تطهير الأعمال و النيات، فإنّ الإنسان- عادة- إذا أحسّ بأنّ أحدا ما يراقبه و يتابع حركاته و سكناته، فإنّه يحاول أن يتصرّف تصرفا لا نقص فيه حتى لا يؤاخذه عليه من يراقبه، فكيف إذا أحسّ و آمن بأنّ اللّه و رسوله و المؤمنين يطلعون على أعماله؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۶

إنّ هذا الاطلاع هو مقدمة للثواب أو العقاب الذى ينتظره فى العالم الآخر، لذا فإنّ الآية الكريمة تعقب على ذلك مباشرة و تقول: وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

ملاحظات

۱- مسألة عرض الأعمال

إنّ بين أتباع مـذهب أهل البيت عليهم السّـلام، و نتيجـة للأخبار الكثيرة الواردة عن الأئمّة عليهم السّـلام، عقيدة معروفة و مشـهورة، و هى أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الأئمّة عليهم السّلام يطلعون على أعمال كل الأمّة، أى أنّ اللّه تعالى يعرض أعمالها بطرق خاصّة عليهم.

إنّ الرّوايات الواردة فى هذا الباب كثيرة جدّا، و ربّما بلغت حدّ التواتر، و ننقل هنا أقساما منها كنماذج:

روى عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «تعرض الأعمال على رسول اللّه أعمال العباد كل صباح، أبرارها و فجارها، فاحذروها، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ و سكت ۷۹].

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّـلام: «إنّ الأعمال تعرض على نبيّكم كل عشـية الخميس، فليستح أحدكم أن يعرض على نبيّه العمل القبيح»[۸۰].

و

فى رواية أخرى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، أنّ شخصا قال له: ادع اللّه لى و لأهل بيتى، فقال: «أ و لست أفعل؟ و اللّه أنّ أعمالكم لتعرض علىّ فى كل يوم و ليلة». يقول الراوى، فاستعظمت ذلك، فقال لى، «أمّا تقرأ كتاب اللّه عزّ و جلّ:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۷

وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ هو و اللّه على بن أبى طالب»[۸۱].

إنّ بعض هذه الأخبار ورد فيها ذكر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقط، و فى بعضها على عليه السّلام، و فى بعضها الآخر ذكر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الأئمّة عليهم السّـلام، كما أنّ بعضـها قد خص وقت عرض الأعمال بعصـر الخميس، و بعضها جعله كل يوم، و بعضها فى الأسبوع مرّتين، و بعضها فى أوّل كل شهر، و بعضها عند الموت و الوضع فى القبر.

و من الواضـح أنّ لا- منافـاة بين هـذه الرّوايـات، و يمكن أن تكون كلّهـا صـحيحة، تمامـا كما هو الحال فى دسـتور عمل المؤسـسات الخيرية، فالمحصـلة اليومية تعرض فى نهاية كل يوم، و الأسـبوعية منها فى نهاية كل أسـبوع، و الشـهرية أو السـنوية فى نهاية الشهر أو السنة على المسؤولين فى المراتب العليا.

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل يمكن اسـتفادة هذا الموضوع من نفس الآية مع غضّ النظر عن الرّوايات التى وردت فى تفسيرها؟ أم أنّ الأـمر كمـا قـاله مفسّـر و العامّـة، و هو أنّ الآيـة تشـير إلى أمر طبيعى، و هو أنّ الإنسان إذا عمل أى عمل، فإنّه سـيظهر، شاء أم أبى، و مضافا إلى علم اللّه سبحانه، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين سيطلعون على ذلك العمل بالطرق الطبيعة؟

و فى الجواب عن هذا السؤال يجب أن يقال: الحق أنّ لدنيا شواهد على هذا الموضوع من نفس الآية، و ذلك:

أوّلا: إنّ الآيـة مطلقة، و هى تشـمل جميع الأعمال، فإنّا نعلم أن جميع الأعمال لا يمكن أن تتّضح للنّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المؤمنين بالطرق العادية الطبيعية، لأنّ أكثر المعاصى ترتكب فى السر، و تبقى مستترة عن الأنظار و العلم غالبا، بل إنّ الكثير من أعمال الخير أيضـا تعمـل فى السـرّ، و يلفهـا الكتمان. و دعوى أن كل الأعمال، الصالحـة منها و الطالحـة، أو أغلبها تتّضـح للجميع واضـحة و البطلان و بعيدة كل البعد عن المنطق و الحكمة. و على هذا فإنّ علم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين بأعمال الناس يجب أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۸

عن طريق غير طبيعى، بل عن طريق التعليم الإلهى.

ثانيا: إنّ آخر الآية يقول: فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و لا شك أنّ هذه الجملة تشـمل كل أعمال البشـر- العلنية منها و المخفية- و ظاهر

تعبير الآيـة أنّ المقصود من العمل الوارد فى أولها و آخرها واحد، و على هذا فإن أول الآية يشـمل أيضا كل الأعمال- الظاهرة منها و الباطنة- و لا شك أنّ الوقوف عليها كاملا لا يمكن بالطرق المعروفة الطبيعية.

و بتعبير آخر، فإنّ نهاية الآية تتحدث عن جزاء جميع الأعمال، و كذلك تبحث بداية الآية علم اللّه و رسوله و المؤمنين بكل الأعمال، فهنا مرحلتان: إحداهما:

مرحلة الاطلاع و العلم، و الأخرى: مرحلة الجزاء، و الموضوع واحد فى المرحلتين.

ثالثا: إنّ ضـميمة المؤمنين فى الآيـة إلى اللّه و رسوله يصـح فى صورة يكون المقصود فيها كل الأعمال و بطرق غير الطبيعية، و إلّا فإنّ الأعمـال العلنيـة يراهـا المؤمنـون و غير المـؤمنين على السـواء، و من هنـا تتّضـح مسألـة أخرى بصـورة ضـمنية، و هى أنّ المقصود من المؤمنين فى الآيـة- كما ورد فى الرّوايات الكثيرة أيضا- ليس جميع المؤمنين، بل فئـة خاصّـة منهم، و هم الذين يطلعون على الأسـرار الغيبية بإذن اللّه تعالى، و نعنى بهم خلفاء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الحقيقيين.

و المسألة الأخرى التى يجب الانتباه لها هنا، و هى- كما أشـرنا سابقا- أنّ مسألة عرض الأعمال لها أثر عظيم على المعتقدين بها، فإنّى إذا علمت أنّ اللّه الموجود فى كـل مكـان معى، و بالإضافـة إلى ذلـك فـإنّ نـبيى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و أئمّتى عليهم السّـلام يطلعون على كل أعمالى، الحسنة و السيئة فى يوم كل يوم، أو فى كل أسبوع، فلا شك أنّى سأكون أكثر مراقبة و رعاية لما يبدر منّى من أعمـال، و أحـاول تجنب السـيئة منهـا مـا أمكن، تماما كما لو علم العاملون فى مؤسـسة ما بأنّ تقريرا يوميا أو أسـبوعيا، تسـجل فيه جزئيات أعمالهم، يرفع إلى المسؤولين ليطلعوا على دقائق أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۰۹

۲- هل الرّؤية هنا تعنى النظر؟

المعروف بين جميع من المفسّـرين أنّ الرؤيـة الواردة فى قوله تعالى: فَسَـيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ... تعنى المعرفة، لا العلم، لأنّها لم تأخذ أكثر من مفعول واحد و لو كانت الرؤية بمعنى العلم لأخذت مفعولين.

لكن لا- مـانع أن تكون الرؤيـة بمعناهـا الأصـلى، و هو مشاهـدة المحسوسات، لا بمعنى العلم، و لا بمعنى المعرفـة، فإنّ هـذا الموضوع بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى الموجود فى كل مكان، و المحيط بكل المحسوسات لا مناقشة فيه.

و أمّـا بالنسـبة للنّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و الأئمّـة عليهم السّـلام، فلا مانع من ذلك أيضا، حيث أنّهم يرون نفس الأعمال عند عرضها، لأنّا نعلم أنّ أعمال الإنسان لا تفنى، بل تبقى إلى يوم القيامة.

۳- لا شك أنّ اللّه عزّ و جلّ يعلم بالأعمال قبل وقوعها، و الذى فى جملة:

فَسَيَرَى اللَّهُ إشارة إلى تلك الأعمال بعد تحققها فى عالم الوجود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۰۶]

اشارة

وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰۶)

سبب النّزول

قال جماعة من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فى ثلاثة من المتخلفين عن غزوة تبوك، و هم: «هلال بن أمية» و «مرارة بن ربيع» و «كعب بن مالك»، و سيأتى بيان ندمهم على ذلك و كيفية توبتهم فى ذيل الآية (۱۱۸) من هذه السورة، إن شاء اللّه تعالى.

و يستفاده من بعض الرّوايات الأخرى أنّ هذه الآية نزلت فى بعض الكفار الذين قتلوا الشخصيات الإسلامية الكبرى- كحمزة سيد الشهداء- فى ساحات الحروب، ثمّ اهتدوا و دخلوا فى دين الإسلام.

التّفسير

اشارة

فى هذه الآية إشارة إلى مجموعة من المذنبين الذين لم تتّضح جيدا عاقبة أمرهم، فلا هم مستحقون حتما للرحمة الإلهية، و لا من المغضوب عليهم حتما، لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى حقّهم: وَ آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۱

إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ

«مرجون» مأخوذ من مادة (إرجاء) بمعنى التأخير و التوقيف، و فى الأصل أخذت من (رجاء) بمعنى الأمل، و لما كان الإنسان قد يؤخر شيئا ما أحيانا رجاء تحقق هدف من هذا التأخير، فإنّ هذه الكلمة قد جاءت بمعنى التأخير، إلّا أنّه تأخير ممزوج بنوع من الأمل.

إنّ هؤلاء فى الحقيقة ليس لهم من الإيمان الخالص و العمل الصالح بحيث يمكن عدهم من أهل السعادة و النجاة، و ليسوا ملوّثين بالمعاصى و منحرفين عن الجادة بحيث يكتبون من الأشقياء، بل يوكل أمرهم إلى اللطف الإلهى كيف سيعامل هؤلاء، و هذا طبعا حسب أوضاعهم الروحية و مواقعهم.

و تضيف الآية- بعد ذلك- أنّ اللّه سبحانه سوف لا يحكم على هؤلاء بدون حساب، بل يقتضى بعلمه و حكمته: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

سؤال:

و هنا يطرح سؤال مهم قلمّا بحثه المفسّرون بصورة وافية، و هو ما الفرق بين هذه الفئة، و الفئة التى مرّ بيان حالتها فى الآية (۱۰۲) من هذه السورة؟ فإنّ كلا الجماعتين كانوا من المذنبين، و كلا المجموعتين تابوا، لأنّ المجموعة الأولى اعترفوا بذنوبهم، و أظهروا الندم عليها، و المجموعة الثّانية تستفاد توبتهم من قوله تعالى: وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ و كذلك فإنّ كلا الفئتين ينتظر أفرادها الرحمة الإلهية و يعيشون حالة الخوف و الرجاء.

و للجواب على هذا السؤال نقول: إنّه يمكن التفرقة بين هاتين الطائفتين عن طريقين:

۱- إنّ الطائفة الأولى تابوا بسرعة، و أظهروا ندمهم بصورة واضحة، فمثلا نرى أبا لبابة قد أوثق نفسه بعمود المسجد، و بعبارة موجزة: إنّ هؤلاء أعلنوا ندمهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۲

صريحا، و أظهروا استعدادهم لتحمل الكفارة البدنية و المالية مهما كانت.

أمّا أفراد الطائفة الثّانية فإنّهم لم يظهروا ندمهم فى البداية، و لو أنّهم ندموا فى أنفسهم و وجدانهم، و لم يظهروا استعدادهم لتحمل ما يترتب على ذنبهم و معصيتهم، فهم فى الواقع كانوا يطمحون إلى العفو عن ذنوبهم الكبيرة بكل بساطة و يسر.

إنّ هؤلاء- و مثالهم الواضح هو الثلاثة الذين أشير إليهم، و سيأتى بيان وضعهم- بقوا فى حالة الخوف و الرجاء، و لهذا نرى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر الناس أن يقاطعوهم و يبتعدوا عنهم، و بهذا فقد عاشوا محاصرة اجتماعية شديدة اضطروا نتيجتها أن يسلكوا فى النهاية نفس الطريق الذى سلكه أتباع الفريق الأوّل، و لما كان قبول توبة هؤلاء فى ذلك الوقت يظهر بنزول آية، فقد بقى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى انتظار الوحى، حتى قبلت توبتهم بعد خمسين يوما أو أقل.

و لهذا فإنّا نرى الآية نزلت فى حق الطائفة الأولى قد ختمت بقوله: إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ و هو دليل على قبول توبتهم، أمّا الطائفة الثّانية فما داموا لم يغيروا مسيرهم فقد جاءت جملة: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ التى لا تدل من قريب أو بعيد على قبول توبتهم.

و لا مجال للتعجب من أنّ الندم لوحده لم يكن كافيا لقبول التوبة من المعاصى الكبيرة، خاصّة فى عصر نزول الآيات، بل يشترط مع ذلك الإقدام على الاعتراف الصريح بالذنب، و الاستعداد لتحمل كفارته و عقوبته، و بعد ذلك نزول الآية التى تبشر بقبول التوبة.

۲- الفرق الثّانى بين هاتين الطائفتين، هو أنّ الطائفة الأولى بالرغم من أنّهم عصوا بتخلفهم عن أداء واجب إسلامى كبير، أو لتسريبهم بعض الأسرار العسكرية إلى الأعداء، إلّا أنّهم لم يرتكبوا الكبائر العظيمة كقتل حمزة سيد الشهداء، و لهذا فإنّهم بمجرّد أن تابوا و استعدوا للجزاء قبل اللّه توبتهم. غير أن قتل حمزة و أمثاله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۳

لم يكن بالشىء الذى يمكن جبرانه، و لهذا فإنّ نجاة هذا الفريق مرتبطة بأمر اللّه و إرادته، إمّا يعفو عنهم أو يعاقبهم.

و على أى حال، فإنّ الجواب الأوّل يناسب تلك المجموعة من الرّوايات الواردة فى سبب النزول، و التى تربط الآية بالثلاثة المتخلفين عن غزوة تبوك، أمّا الجواب الثّانى فإنّه يوافق الرّوايات العديدة الواردة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، و التى تقول إنّ هذه الآية تشير إلى قاتلى حمزة و جعفر و أمثالهما[۸۲].

و لو دققنا النظر حقا لرأينا أن لا منافاة بين الجوابين، و يمكن أن يكون كل منهما مقصودا فى تفسير الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۴

الآيات [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَ كُفْراً وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۰۷) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (۱۰۸) أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰۹) لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۱۰)

سبب النّزول

تتحدث الآيات أعلاه عن جماعة أخرى من المنافقين الذين أقدموا- من أجل تحقيق أهدافهم المشؤومة- على بناء مسجد فى المدينة، عرف فيما بعد ب (مسجد الضرار).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۵

و قد ذكر هذا الموضوع كل المفسّرين الإسلاميين، و كثير من كتب التاريخ و الحديث، مع وجود اختلافات فى جزئياته.

و خلاصة القضیة- کما تستفاد من التفاسیر و الأحادیث المختلفة- أنّ جماعة من المنافقین أتوا إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و طلبوا منه أن یسمح لهم ببناء مسجد فی حی بنی سلیم- قرب مسجد قبا- حتی یصلی فیه العاجزون و المرضی و الشیوخ، و کذلک لیصلی فیه جماعة من الناس الذین لا یستطیعون أن یحضروا مسجد قبا فی الأیّام الممطرة، و یؤدوا فرائضهم الإسلامیة، و کان ذلک فی الوقت الذی کان فیه النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم عازما علی التوجه إلی تبوک.

فأذن لهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّهم لم یکتفوا بذلک، بل طلبوا منه أن یصلی فیه، فأخبرهم بأنّه عازم علی السفر الآن، و عند عودته بإذن اللّه فسوف یأتی مسجدهم و یصلی فیه.

فلمّا رجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من تبوک حضروا عنده و طلبوا منه الحضور فی مسجدهم و الصلاة فیه، و أن یدعوا اللّه لهم بالبرکة، و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یدخل بعد أبواب المدینة، فنزل الوحی و تلا علیه هذه الآیات، و کشف الستار عن الأعمال هؤلاء، فأمر النّبی بحرق المسجد المذکور، و بهدم بقایاه، و أن یجعل مکانه محلا لرمی القاذورات و الأوساخ.

إذا نظرنا إلی الوجه الظاهری لهذا العمل، فسوف نتحیر فی البدایة، فهل أن بناء مسجد لحمایة المرضی و الطاعنین فی السنن من الظروف الطارئة، و الذی هو فی حقیقته عمل دینی و خدمة إنسانیة، یعدّ عملا مضرا و سیئا حتی یصدر فی حقّه هذا الحکم؟ إلّا أنّنا إذا دققنا النظر فی الواقع الباطنی و حققناه رأینا أنّ هذا الأمر بهدمه فی منتهی الدقة.

و توضیح ذلک، أنّ رجلا فی زمن الجاهلیة یقال له: أبو عامر، کان قد اعتنق النصرانیة، و سلک مسلک الرهبانیة، و کان یعد من الزهاد و العباد و له نفوذ واسع فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۶

طائفة الخزرج.

و عند ما هاجر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المدینة و احتضنه المسلمون و نصروه و بعد انتصار المسلمین علی المشرکین فی معرکة بدر، رأی أبو عامر- الذی کان یوما من المبشرین بظهور النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم- أنّ الناس قد انفضوا من حوله، و بقی وحیدا، و عند ذلک قرر محاربة الإسلام، فهرب من المدینة إلی کفار مکّة، و استمد منهم القوّة لمحاربة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و دعا قبائل العرب لذلک فکان ینفذ و یقود جزءا من مخططات معرکة أحد، و هو الذی أمر بحفر الحفر بین الصفین و التی سقط النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی أحدها فجرحت جبهته و کسرت رباعیته.

فلمّا انتهت غزوة أحد بکل ما واجه المسلمون فیها من مشاکل و نوائب، دوی صوت الإسلام أکثر من ذی قبل، و عمّ کل الأرجاء، فهرب أبو عامر من المدینة و ذهب إلی هرقل ملک الروم لیستعین به قتال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لیرجع إلی المسلمین و یقاتلهم فی جحفل لجب و جیش عظیم.

و یلزم هنا أن نذکر هذه النقطة، و هی أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لما رأی صدر منه من التحریض و الدعوة لقتال المسلمین و نبیّهم سمّاه (فاسقا).

یقول البعض: إنّ الموت لم یمهله حتی یطلع هرقل علی نوایاه و مشاریعه، إلّا أنّ البعض الآخر یقول: إنّه اتصل بهرقل و تحمس لوعوده! علی کل حال، فإنّه قبل أن یموت أرسل رسالة إلی منافقی المدینة یبشرهم فیها بالجیش الذی سیصل لمساعدتهم، و أکّد علیهم بالخصوص علی أن یبنوا له مرکزا و مقرّا فی المدینة لیکون منطلقا لنشاطات المستقبل.

و لما کان بناء مثل هذا المقر، و باسم أعداء الإسلام غیر ممکن عملیا، رأی المنافقون أن یبنوا هذا المقر تحت غطاء المسجد، و بعنوان مساعدة المرضی و العاجزین.

و أخیرا تمّ بناء المسجد، و یقال أنّهم اختاروا شابا عارفا بالقرآن من بین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۷

المسلمين يقال له: «مجمع بن حارثة» أو «مجمع بن جارية» و أوكلوا له إمامة المسجد.

إلّا أنّ الوحى الإلهى أزاح الستار عن عمل هؤلاء، و ربّما لم يأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشىء قبل ذهابه إلى تبوك ليواجه هؤلاء بكل شدّة، من أجل أن يتّضح أمرهم أكثر من جهة، و لئلا ينشغل فكريا و هو فى مسيرة إلى تبوك بما يمكن أن يحدث فيما لو أصدر الأمر.

و كيف كان، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكتف بعدم الصلاة فى المسجد و حسب، بل إنّه- كما قلنا- أمر بعض المسلمين- و هم مالك بن دخشم، و معنى بن عدى، و عامر بن سكر أو عاصم بن عدى- أن يحرقوا المسجد و يهدموه، فنفذ هؤلاء ما أمروا به، فعمدوا إلى سقف المسجد فحرّقوه، ثمّ هدموا الجدران، و أخيرا حولوه إلى محل لجمع الفضلات و القاذورات ۸۳].

التّفسير

معبد و ثنى فى صورة مسجد!

أشارت الآيات السابقة إلى وضع مجاميع مختلفة من المخالفين، و تعرّف الآيات التى نبحثها مجموعة أخرى منهم، المجموعة التى دخلت حلبة الصراع بخطة دقيقة و ذكية، إلّا أن اللطف الإلهى أدرك المسلمين، و بدد أحلام المنافقين بإبطال مكرهم و إحباط خطتهم.

فالآية الأولى تقول: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً[۸۴] و أخفوا أهدافهم الشريرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۸

تحت هذا الإسلام المقدس، ثمّ لخصت أهدافهم فى أربعة أهداف:

۱- إنّ هؤلاء كانوا يقصدون من هذا العمل إلحاق الضرر بالمسلمين، فكان مسجدهم (ضرارا).

«الضرار» تعنى الإضرار العمدى، و هؤلاء فى الواقع بعكس ما كانوا يدّعونه من أنّ هدفهم تأمين مصالح المسلمين و مساعدة المرضى و العاجزين عن العمل، كانوا يسعون من خلال هذه المقدمات إلى المكيدة بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و رسالته، و سحق المسلمين، بل إذا استطاعوا أن يقتلعوا الدين الإسلامى و جذوره من صفحة الوجود فإنّهم سوف لا يقصرون فى هذا السبيل.

۲- تقوية أسس الكفر، و محاولة إرجاع الناس إلى الحالة التى كانوا يعيشونها قبل الإسلام: (و كفرا).

۳- إيجاد الفرقة بين المسلمين، لأنّ اجتماع فئة من المسلمين فى هذا المسجد سيقلل من عظمة التجمع فى مسجد قبا الذى كان قريبا منه، أو مسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان يبعد عنه، وَ تَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ

و يظهر من هذه الجملة- و كذلك فهم بعض المفسّرين- أنّ المسافة بين المساجد يجب أن لا تكون قليلة بحيث يؤثر الاجتماع فى مسجد على جماعة المسجد الآخر، و على هذا فإنّ الذين يبنون المساجد أحدها إلى جانب الآخر بدافع من التعصب القومى، أو الأغراض الشخصية و يفرقون جماعات المسلمين بحيث تبقى صفوف الجماعة خالية لا روح فيها و لا جاذبية، يرتكبون ما يخالف الأهداف الإسلامية.

۴- و الهدف الأخير لهؤلاء هو تأسيس مقر و مركز لإيواء المخالفين للدين و أصحاب السوابق، السيئة، و الانطلاق من هذا المقر فى سبيل تنفيذ خططهم و مؤامراتهم: وَ إِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ

إلّا أنّ ممّا يثير العجب أنّ هؤلاء قد أخفوا كل هذه الأغراض الشريرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۱۹

و الأهداف المشؤومة فى لباس جميل و مظهر خداع، و أنّهم لا يريدون إلّا الخير:

وَ لَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى و هذا هو دين المنافقين و ديدنهم فى كل العصور، فإنّهم إضافة إلى تلبسهم بلباس حسن، فإنّهم يتوسلون عند الضرورة بأنواع الأيمان الكاذبة من أجل تضليل الرأى العام، و انحراف الأفكار.

إلّا أنّ القرآن الكريم يبيّن أن اللّه تعالى الذى يعلم السرائر و ما فى مكنون الضمائر، و الذى تساوى لديه الظاهر و الباطن، و الغيب و الشهادة يشهد على كذب هؤلاء: وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

فى هذه الجملة نلاحظ عدة تأكيدات لتكذيب هؤلاء، فهى جملة اسمية أوّلا، ثمّ إنّ كلمة (إن) للتأكيد، و أيضا اللام فى (لكاذبون)، و التى تسمى لام الابتداء تفيد التأكيد، و كذلك فإنّ مجيء كلمة (كاذبون) مكان الفعل الماضى دليل على استمرارية كذب هؤلاء، و بهذه التأكيدات فإنّ اللّه سبحانه و تعالى قد كذّب أيمان هؤلاء المغلظة و المؤكدة أشد تكذيب.

يؤكّد اللّه سبحانه و تعالى فى الآية التالية تأكيدا شديدا على مسألة حياتية مهمّة، و يأمر نبيّه بصراحة أن لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً بل لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ لا المسجد الذى أسس من أوّل يوم على الكفر و النفاق و تقويض أركان الدين.

إنّ كلمة (أحق) و إن كانت أفعل التفضيل، إلّا أنّها لم تأت هنا بمعنى المقارنة بين شيئين فى التناسى و الملاءمة، بل هى تقارن بين التناسب و عدمه، و الملاءمة و عدمها، و مثل هذا التعبير يستعمل كثيرا فى آيات القرآن الكريم و الأحاديث، بل و فى محادثاتنا اليومية، و له نماذج عديدة.

فمثلا نقول للشخص المجرم و السارق: إنّ الاستقامة و العمل الصالح الصحيح خير لك، فإنّ هذا الكلام لا يعنى أنّ السرقة و التلوث بالجريمة شيء حسن، و أن الاستقامة و الطهارة أحسن، بل معناه أن الاستقامة و حسن السيرة شيء حسن،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۰

و أنّ السرقة عمل سيء و غير مناسب.

و قال المفسّرون: إنّ المسجد الذى أشارت الآية إلى أنّه يستحق أن يصلى فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو «مسجد قبا» حيث بنى المنافقون مسجد ضرار على مقربة منه.

و احتمل أيضا أن يكون المقصود منه مسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أو كل المساجد التى بنيت على أساس التقوى، إلّا أنّنا لا حظنا تعبير أَوَّلِ يَوْمٍ و أن مسجد قبا هو أوّل مسجد بنى فى المدينة[۸۵]، علمنا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب و الأرجح، و لو أنّ هذه الكلمة تناسب أيضا مساجد أخرى كمسجد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ

و لكن هل المراد من الطهارة فى هذه الآية هى الطهارة الظاهرية و الجسمية، أم المعنوية؟

هناك بحث بين المفسّرين فى الرّواية التى نقلت فى تفسير (التبيان) و (مجمع البيان) فى ذيل هذه الآية

عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال لأهل قبا: «ماذا تفعلون فى طهركم، فإنّ اللّه تعالى قد أحسن عليكم الثناء؟» قالوا: نغسل أثر الغائط.

و قد نقلت روايات أخرى بهذا المضمون عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام، لكن- كما قلنا سابقا و أشرنا مرارا- مثل هذه الرّوايات لا تدل على انحصار مفهوم الآية فى هذا المصداق، بل- و كما يشير ظاهر إطلاق الآية- أنّ للطهارة هنا معنى واسعا يشمل كل أنواع التطهير، سواء التطهير الروحى من آثار الشرك و الذنوب، أو التطهير الجسمى من الأوساخ و النجاسات.

و فى الآية الثّالثة من الآيات مقارنة بين فريقين و فئتين: المؤمنين الذين بنوا مساجد كمسجد قبا على أساس التقوى، و المنافقين الذين بنوه على أساس الكفر و النفاق و التفرقة و الفساد. فهى تقول أوّلا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۱

أَ فَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ

«بنیان» مصدر بمعنی اسم مفعول، و یعنی المبنی، و (شفا) بمعنی حافة الشیء و طرفه، و (جرف) بمعنی حافة النهر أو حافة البئر التی جرف الماء ما تحتها. و (هار) بمعنی الشخص أو البناء المتصدع المشرف علی السقوط، أو هو فی حال السقوط.

إن التشبیه الوارد أعلاه یعطی صورة فی منتهی الوضوح عن عدم ثبات أعمال المنافقین و تزلزلها، و فی المقابل استحکام و دوام أعمال المؤمنین و نشاطاتهم و برامجهم، فهو یشبه المؤمنین بمن أراد أن یبنی بناء، فإنّه ینتخب الأرض الجیدة القویة التی تتحمل البناء، و مختار من مواد البناء الأولیة ما کان جیدا.

أمّا المنافقون فإنّه یشبّههم بمن یبنی بیته علی حافة النهر- و مثل هذه الأرض جوفاء- لأن جریان الماء قد نخرها، و بالتالی فهی عرضة للسقوط فی أی لحظة، و کذلک النفاق، فإنّ ظاهره حسن لکنّه عدیم المحتوی کالبنایة الجمیلة ذات الأساس النخر.

إنّ هذه البنایة یمکن أن تنهار فی آیة لحظة، و مذهب أهل النفاق أیضا یمکن أن یظهر واقع أتباعه و باطنهم، و بالتالی فضیحتهم و خزیهم.

إنّ التقوی و السعی فی مرضاة اللّه تبارک و تعالی یعنی التعامل مع الواقع، و السیر وفقا لقوانین الخلقة و هی بدون شک عامل البقاء و الثبات.

أمّا النفاق فإنّه یعنی الانفصال عن الواقع و الابتعاد عن قوانین الوجود، و هذا بلا شک هو عامل الزوال و الفناء.

و من هنا، فإنّ المنافقین یظلمون أنفسهم و یظلمون المجتمع أیضا و لذلک فإنّ الآیة اختتمت بقوله: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ و کما قلنا مرارا، فإنّ الهدایة الإلهیة تعنی تهیئة المقدمات للوصول إلی الغایة، و هی تشمل- فقط- أولئک الذین لدیهم الاستعداد لتقبل هذه الهدایة و یستحقونها، أمّا الظالمون الفاقدون لمثل هذا الاستعداد فسوف لا یشملهم هذا اللطف مطلقا، لأنّ اللّه حکیم، و مشیئته و إرادته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۲

وفق حساب دقیق.

و فی آخر آیة إشارة إصرار المنافقین و عنادهم، فهی تعبّر عن تعصبهم و إصرارهم فی أعمالهم، و عنادهم فی نفاقهم، و حیرتهم فی ظلمة کفرهم، فهم فی شک من بنیانهم الذی بنوه، أو فی النتیجة المرجوة منه، و سیبقون فی هذه الحال حتی موتهم: لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ

إنّ هؤلاء یعیشون حالة دائمة من الحیرة و الاضطراب، و إن مقر النفاق الذی أقاموه، و المسجد الضرار الذی بنوه، سیبقی عامل تردد و لجاجة فی أرواح هؤلاء، فبالرغم من أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد أحرق هذا البناء و هدمه، إلّا أن أثره و أهدافه قد لا تزول من القلوب.

و تقول الآیة أخیرا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ فإنّه تعالی إنّما أمر نبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم بهدم هذا البناء الذی یحمل صفة الحق ظاهرا، حتی تتبیّن نیّات السوء التی انطوی علیها هؤلاء، و تنکشف حقائقهم و بواطنهم و هذا الحکم الإلهی هو عین الحکمة، و حسب صلاح المجتمع الإسلامی، و قد صدر علی هذا الأساس، لا أنّه حکم عجول صدر نتیجة انفعال أو فی لحظة غضب.

بحوث

۱- درس کبیر

إنّ قصّة مسجد الضرار درس لكل المسلمين من جميع الجهات، فإنّ قول اللّه سبحانه و عمل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يوضحان تماما بأنّ المسلمين يجب أن لا يكونوا سطحيين فى الرؤية مطلقا، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى الجوانب التى تصطبغ بصبغة الحق، و يغفلون عن الأهداف الأصلية المراد تحقيقها، و المستترة بهذا الظاهر البراق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۳

المسلم هو الذى يعرف المنافق و أساليب النفاق فى كل زمان، و فى كل مكان، و بأى لباس تلبس، و بأى صورة يظهر بها، حتى و لو كانت صورة الدين و المذهب، أو لباس مناصرة الحق و القرآن و المساجد.

إنّ الاستفادة من مذهب ضد مذهب آخر ليس شيئا جديدا، بل هو طريق الاستعمار و أسلوبه على الدوام، فإنّ وسيلة الجبارين و المنافقين و أسلوبهم فى العمل هو الوقوف على رغبة الناس فى مسألة ما، و استغلال تلك الرغبة فى سبيل إغفالهم و بالتالى استعمارهم، و يستعينون بقدرات مذهب ما فى ضرب و هدم مذهب آخر إن استدعى الأمر ذلك.

و أساسا فإنّ جعل الأنبياء المزورين و المذاهب الباطلة، هو تحوير الميول المذهبية للناس عن هذا الطريق و صبّها فى القنوات التى يريدونها و يديرونها.

و من البديهى أنّ محاربة الإسلام بصورة علنية فى محيط كمحيط المدينة، و ذلك فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مع ذلك النفوذ الخارق للإسلام و القرآن، أمر غير ممكن، بل يجب إلباس الكفر لباس الدين، و تغليف الباطل بغلاف الحق لجذب البسطاء و السذج من الناس.

إلّا أنّ المسلم الحقيقى ليس سطحيا إلى تلك الدرجة بحيث يخدع بهذه الظواهر، بل إنّه يدقق فى العوامل و الأيادى التى وضعت هذه البرامج، و يحقق القرائن الأخرى التى لها علاقة البرامج و ماهيتها، و بذلك سيرى الصورة الباطنية للأفراد المختبئة خلف الصورة الظاهرية.

المسلم ليس بذلك الفرد الذى يقبل كل دعوة تصدر من أى فم بمجرّد موافقتها الظاهرية للحق، و يلبى تلك الدعوة.

المسلم ليس ذلك الشخص الذى يصافح كل يد تمد إليه، و يؤيد و يدعم كل حركة يشاهدها بمجرّد رفعها شعارا دينيا، أو يتعهد بالانضمام تحت أى لواء يرفع باسم المذاهب و الدين، أو ينجذب إلى كل بناء يشيد باسم الدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۴

المسلم يجب أن يكون حذرا، واعيا، واقعيا، بعيد النظر، و من أهل التحليل و التحقيق فى كل المسائل الاجتماعية.

المسلم يعرف المتمردين العصاة فى لباس الملائكة و الوداعة، و يميز الذئاب المتلبسة بلباس الحراس و الرعاة، و يعد نفسه لمحاربة الأعداء الظاهرين بصورة الأصدقاء.

هناك قاعدة أساسية فى الإسلام، و هى أنّه يجب معرفة النيات قبل كل شىء، و أنّ قيمة كل عمل ترتبط بنيّته، لا بظاهره، فبالرغم من أنّ النية أمر باطنى، إلّا أن أحدا لا يمكنه إضمار نيّته دون أن يظهر أثرها على جوانب عمله و فلتاته، حتى و لو كان ماهرا و مقتدرا فى اخفائها.

و من هذا سيتّضح الجواب عن هذا السؤال، و هو: لماذا أصدر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمرا بحرق المسجد الذى هو بيت اللّه، و يأمر بهدم المسجد الذى لا يجوز شرعا إخراج حصاة واحدة من حصاة، و يجعل المكان الذى يجب تطهيره فورا إذا ما تنجس محلا لجمع الفضلات و القاذورات!! و جواب كل هذه الأسئلة موضوع واحد، و هو أنّ مسجد الضرار لم يكن مسجدا بل معبدا للأصنام ... لم يكن مكانا مقدسا، بل مقرا للفرقة و النفاق ... لم يكن بيت اللّه، بل بيت الشيطان ... و لا يمكن أن تبدل الأسماء و العناوين و الأقنعة من واقع الأشياء شيئا مطلقا.

كان هذا هو الدرس الكبير الذى أعطته قصّة مسجد الضرار لكل المسلمين، و فى كل الأزمنة و الأعصار.

و تتّضح من هذا البحث- أيضا- أهمية الوحدة بين صفوف المسلمين من وجهة نظر الإسلام، و التى تبلغ حدا بحيث إذا كان بناء مسجد جنب مسجد يؤدى إلى التفرقة و الاختلاف بين صفوف المسلمين فلا قدسية لذلك المسجد إطلاقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۵

۲- النفى لا يكفى لوحده!

الدرس الثّانى الذى يمكن أخذه من هذه الآيات، هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الآيات أن لا يصلى فى مسجد الضرار، بل يصلى فى المسجد التى وضعت قواعده و أسسه على أساس التقوى.

إنّ النفى و الإثبات يتجلى فى الإسلام من شعاره الأصلى (لا إله إلّا اللّه) إلى أموره الصغيرة و الكبيرة الأخرى، يبيّن هذه الحقيقة، و هى ضرورة وجود الإثبات إلى جانب النفى دائما على أرض الواقع العملى، فإنّا إذا نهينا الناس عن الذهاب إلى مراكز الفساد، فيجب أن نبنى و نوفر لهم المقابل المراكز النقية الصالحة لإشباع روح الحياة الجماعية فى الفرد و إرضائها ... إذا منعنا وسائل اللهو المنحرفة، فيجب توفير وسائل لهو سالمة و هادفة ... إذا حاربنا الثقافة الاستعمارية، فيجب أن تهيئ الثقافة الصحيحة و المراكز السليمة و المدارس الصالحة للتربية و التعليم ... إذا شجبنا الانحلال الخلقى و السقوط الاجتماعى، فيجب أن نوفر وسائل الزواج البسيطة و نضعها تحت تصرف الشباب.

الأشخاص الذين صبّوا كل اهتماماتهم فى جانب النفى، دون الاهتمام بالجانب الإيجابى و الإثباتى، عليهم أن يتيقنوا بأن نفيهم لوحده لا يثمر شيئا، لأنّ سنّة الحياة أن تشبع كل الغرائز و الأحاسيس عن الطريق الصحيح، و لأنّ قانون الإسلام المسلّم به أن كل (لا) يجب أن تصحبها (إلا) ليتولد منها التوحيد الذى يهب الحياة.

و هذا هو الدرس الذى نساه الكثير من المسلمين مع الأسف رغم تقصيرهم هذا يشكون من عدم تقدم و تطور البرامج الإسلامية! هذا فى الوقت الذى لا ينحصر برنامج الإسلام بالنفى كما يتخيل هؤلاء، فإنهم إذا قرنوا النفى بالإثبات فإنّ تقدمهم سيكون حتميا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۶

۳- شرطان أساسيان

الدرس القيم الثّالث الذى يمكن استنباطه من الآيات محل البحث هو أن المقر و المركز النشط و الإيجابى دينيا و اجتماعيا، هو الذى يتشكل من عنصرين.

الأوّل: أن يكون الأساس الذى يستند إليه، و الهدف الذى يطمح إلى تحقيقه، طاهرين من البداية: أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ

الثّانى: أن يكون رواد هذا المركز و حماته أناسا طاهرين و مخلصين و مؤمنين:

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا.

إنّ فقدان أحد هذين الركنين الأساسيين يعنى انهيار البناء و عدم وصوله إلى الهدف المنشود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۲]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۱) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۲)

التّفسير

تجارة لا نظير لها:

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن المتخلفين عن الجهاد، فإنّ هاتين الآيتين قد بيّنتا المقام الرفيع للمجاهدين المؤمنين مع ذكر مثال رائع.

لقد عرّف اللّه سبحانه و تعالى نفسه فى هذا المثال بأنّه مشتر، و المؤمنين بأنّهم بائعون، و قال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۸

و لما كانت كل معاملة تتكون فى الحقيقة من خمسة أركان أساسية، و هى عبارة عن: المشترى، و البائع، و المتاع، و الثمن، و سند المعاملة أو وثيقتها، فقد أشار اللّه سبحانه إلى كل هذه الأركان، فجعل نفسه مشتريا، و المؤمنين بائعين، و أموالهم و أنفسهم متاعا و بضاعة، و الجنّة ثمنا لهذه المعاملة. غاية ما فى الأمر أنّه بيّن طريقة تسليم البضاعة بتعبير لطيف، فقال: يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ و فى الواقع فإنّ يد اللّه سبحانه حاضرة فى ميدان الجهاد لتقبل هذه البضاعة، سواء كانت روحا أم مالا يبذل فى أمر الجهاد.

ثمّ يشير بعد ذلك إلى سند المعاملة الثابت، و الذى يشكل الركن الخامس فيها، فقال: وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ

إذا أمعنا النظر فى قوله: فِي سَبِيلِ اللَّهِ يتّضح جليا أنّ اللّه تعالى يشترى الأرواح و الجهود و المساعى التى تبذل و تصرف فى سبيله، أى سبيل إحقاق الحق و العدالة، و الحريّة و الخلاص لجميع البشر من قبضة الكفر و الظلم و الفساد.

ثم، و من أجل التأكيد على هذه المعاملة، تضيف الآية: وَ مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ أى أنّ ثمن هذه المعاملة و إن كان مؤجلا، إلّا أنّه مضمون، و لا وجود لأخطار النسيئة، لأنّ اللّه تعالى لقدرته و استغنائه عن الجميع أوفى من الكل بعهده، فلا هو ينسى، و لا يعجز عن الأداء، و لا يفعل ما يخالف الحكمة ليندم عليه و يرجع عنه، و لا يخلف وعده و العياذ باللّه، و على هذا فلا يبقى أى مجال للشك فى وفائه بعهده، و أدائه الثمن فى رأس الموعد المقرر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۲۲۸

الأروع من كل شىء أنّه تعالى قد بارك للطرف المقابل صفقته، و يتمنى لهم أن تكون صفقة و فيرة الربح، تماما كما هو المتعارف بين التجار، فيقول عزّ و جلّ:

فَاسْتَبْشِرُوا[۸۶] بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۲۹

و قد جاء نظير هذا المبحث بعبارات أخرى، ففى الآيتين (۱۰) و (۱۱) من سورة الصف يقول اللّه عزّ و جلّ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

إنّ الإنسـان ليقع فى حيرة هنا من كل هـذا اللطف و الرحمـة الإلهيـة، فإنّ اللّه المالك لكل عالم الوجود، و الحاكم المطلق على جميع عالم الخلقـة، و كل ما يملكه أىّ موجود فانما هو من فيضه و منحته، يبـدو فى مقام المشترى لنفس هذه المواهب التى وهبها لعباده، و يشترى ما أعطاه بمئات الأضعاف.

و الأعجب من ذلك، أنّ الجهاد الذى هو السبب فى عزّة الإنسان و افتخار الامّة، و ثمراته تعود فى النهاية عليها، قد اعتبر دفعا و تسلميا لهذه البضاعة.

و مع أنّ المتعـارف أنّ الثمن يجب أن يعـادل المثمن أو البضاعـة، إلّـا أن هـذا التعادل لم يلاحظ فى هـذه المعاملـة، و جعلت السـعادة الأبدية فى مقابل بضاعة متزلزلة يمكن أن تفنى فى أية لحظة، (سواء كان على فراش المرض أو ساحة القتال).

و الأهم من هـذا أنّ اللّه سـبحانه و تعالى مع أنّه أصدق الصادقين، و لا يحتاج إلى سـند و ضـمان، فإنّه تعهد بأهم الوثائق و الضـمانات أمام عبيده.

و فى نهايـة هـذه المعاملـة العظيمـة، و الصـفقة الكبيرة، فإنّه قد بارك لهم و بشّـرهم، فهل تتصور رحمة و محبّة أعلى من هذه؟! و هل يوجد معاملة أكثر ربحا من هذه؟! و لهذا

ورد فى حـديث عن جابر بن عبـد اللّه الأنصارى أنّه لما نزلت هذه الآية كان النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى المسـجد، فتلا هذه الآية بصوت عال، فكبر الناس، فتقدم رجل من الأنصار و سأل رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رسول اللّه، أنزلت هذه الآية؟ فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۰

«نعم». فقال الأنصارى: بيع ربيح لا نقيل و لا نستقيل ۸۷].

كما هى طريقـة القرآن المجيـد، حيث أنّه يجمل الكلام فى آيـة، ثمّ يعمد إلى التفصـيل فى الآية التى تليها، فقد بيّن سـبحانه فى الآية الثّانية حال البائعين للروح و المال لربّهم عزّ و جلّ، فذكر تسع صفات مميزة لهم:

۱- فهم يغسلون قلوبهم و أرواحهم من رين الذنوب بماء التوبة: التَّائِبُونَ

۲- و هم يطهرون أنفسهم فى نفحات الدعاء و المناجاة مع ربّهم: الْعابِدُونَ

۳- و هم يحمدون و يشكرون كل نعم اللّه المادية و المعنوية: الْحامِدُونَ

۴- و هم يتنقلون من مكان عبادة إلى آخر: السَّائِحُونَ

و بهـذا الترتيب فإنّ برامـج تربيـة النفس عنـد هؤلاء لا تنحصـر فى العبادة، أو فى إطار محـدود، بل إن كان مكان هو محل عبدة للّه و جهاد للنفس و تربية لها بالنسبة لهؤلاء، و كل مكان يوجد فيه درس و عبرة لهؤلاء فإنّهم سيقصدونه.

(سائح) فى الأصل مأخوذ من (سيح)، و (سياحة) و التى تعنى الجريان و الاستمرار.

و هناك بحث بين المفسّـرين فيما هو المقصود من السائح فى الآية، و أى نوع من الجريان و الاسـتمرار و السـياحة هو؟ فالبعض يرى- كما قلنا أعلاه- إن السير فى تربية النفس و جهادها إنّما يكون فى أماكن العبادة،

ففى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «سياحة أمّتى فى المساجد»[۸۸].

و البعض الآخر يقول: إنّ السائح يعنى الصائم، لأنّ الصوم عمل مستمر طوال اليوم، و

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن السّائحين هم الصّائمون»[۸۹].

و البعض الآخر من المفسّرين يرى أن السياحة تعنى التنقل و التجوال فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۱

الأرض لمشاهدة آثار عظمة اللّه، و معرفة المجتمعات البشرية، و التعرف على عادات و تقاليد و علوم الأقوام التى تحيى فكر الإنسان و

تنميه و تطوره.

و فريق آخر من المفسّرين يرى أن السياحة تعنى التوجه إلى ميدان الجهاد و محاربة الأعداء، و يستشهدون بالحديث النبوى: «إنّ سياحة أمّتى الجهاد فى سبيل اللّه».[۹۰]

و أخيرا فإنّ البعض يرى أنّها سير العقل و الفكر فى المسائل العلمية المختلفة المرتبطة بعالم الوجود و التفكر فيها، و معرفة عوامل السعادة و الإنتصار، و أسباب الهزيمة و الفشل.

إلّا أنّ أخذ الأوصاف- التى ذكرت قبل السياحة و بعدها- بنظر الإعتبار يرجح المعنى الأوّل، و يجعله الأنسب من بين المعانى الأخرى، و إن كانت كل هذه المعانى ممكنة فى هذه الكلمة، لأنّها جمعت فى مفهوم السير و السياحة.

۵- و هم يركعون مقابل عظمة اللّه: الرَّاكِعُونَ

۶- و يضعون جباههم على التراب أمام خالقهم و يسجدون له: السَّاجِدُونَ

۷- و هم يدعون الناس لعمل الخير: الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

۸- و لم يقتنعوا بهذه الدّعوة للخير، بل حاربوا كل منكر و فساد: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

۹- و بعد أدائهم وظيفة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، يقومون بأداء آخر و أهم واجب اجتماعى، أى حفظ الحدود الإلهية و إجراء قوانين اللّه، و إقامة الحق و العدالة: وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ

و بعد ذكر هذه الصفات التسع فإنّ اللّه يرغّب- مرّة أخرى- أمثال هؤلاء المؤمنين المخلصين الذين هم ثمرة منهج الإيمان و العمل، و يقول للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۲

و لما لم يذكر متعلق البشارة، و بتعبير آخر: إنّ البشارة لما جاءت مطلقة فإنّها تعطى مفهوما أوسع يدخل ضمنه كل خير و سعادة، أى بشر هؤلاء بكل خير سعادة و فخر.

و ينبغى الالتفات إلى أن الصفات الست الأولى ترتبط بجانب جهاد النفس و تربيتها، و الصفة السّابعة و الثّامنة ترتبطان بالواجبات الاجتماعية الحساسة، و تشيران إلى تطهير محيط المجتمع من السلبيات، و الصفة الأخيرة تتحدث عن المسؤوليات المختلفة المتعددة المرتبطة بتشكيل الحكومة الصالحة، و المشاركة الجدية فى المسائل السياسية الإيجابية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۳

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴]

اشارة

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۱۳) وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (۱۱۴)

سبب النّزول

جاء فى مجمع البيان فى سبب نزول الآيات أعلاه، أنّ جماعة من المسلمين كانوا يقولون للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا فى الجاهلية؟ فنزلت هذه الآيات تنذرهم بأنّ لا حقّ لأحد أن يستغفر للمشركين.

و قد ذكرت فى سبب نزول هذه الآيات أمور أخرى، سنوردها فى نهاية تفسير هذه الآية.

التّفسير

ضرورة قطع العلاقات مع الأعداء:

نهت الآية الأولى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين عن الاستغفار للمشركين بلهجة قاطعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۴

و حادة، فهى تقول: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ و لكى توكّد ذلك قالت: وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى

ثمّ أنّ القرآن الكريم بيّن سبب و دليل هذا الحكم فقال: مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ فإنّ هذا العمل- أى الاستغفار للمشركين- عمل لا معنى له و فى غير محله، لأنّ المشرك لا يمكن العفو عنه بأى وجه، و لا سبيل لنجاة من سار فى طريق الشرك، إضافة إلى أن طلب المغفرة نوع من إظهار المحبة و الارتباط بالمشركين، و هذا هو الأمر الذى نهى عنه القرآن مرارا و تكرارا.

و لما كان المسلمون العارفون بالقرآن قد قرءوا من قبل أن إبراهيم استغفر لعمه آزر، و لذا فمن الممكن جدّا أن يتبادر الى أذهانهم هذا السؤال: ألم يكن آزر مشركا؟ و إذا كان هذا العمل منهيا عنه فكيف يفعله هذا النّبى الكبير؟

لهذا نرى أن الآية الثّانية تتطرق لهذا السؤال و تجيب عليه مباشرة لتطمئن القلوب، فقالت: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ

و فى آخر الآية توضيح بأنّ إبراهيم كان إنسانا خاضعا بين يدى اللّه عزّ و جلّ، و خائفا من غضبه، و حليما واسع الصدر، فقالت: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ

إنّ هذه الجملة قد تكون بيانا لسبب الوعد الذى قطعه إبراهيم لآزر بالاستغفار له، لأنّ حلمه و صبره من جهة، و كونه أوّاها- و الذى يعنى كونه رحيما طبقا لبعض التفاسير- من جهة أخرى، كانا يوجبان أن يبذل قصارى جهده فى سبيل هداية آزر، حتى و إن كان بوعده بالاستغفار له، و طلب المغفرة عن أعماله السابقة.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة دليلا على أنّ إبراهيم لخضوعه و خشوعه و خوفه من مخالفة أوامر اللّه سبحانه لم يكن مستعدا لأن يستغفر للمشركين أبدا، بل إنّ هذا العمل كان مختصا بزمان كان أمل هداية آزر يعيش فى قلبه، و لهذا فإنّه بمجرّد أن اتّضح أمر عداوته ترك هذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۵

فإن قيل: من أين علم المسلمون أنّ إبراهيم قد استغفر لآزر؟

قلنا: إن آيات سورة التوبة هذه- كما أشرنا فى البداية- قد نزلت فى أواخر حياة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد قرأ المسلمون من قبل فى سورة مريم، الآية (۴۷) أن إبراهيم بقوله: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي كان قد وعد آزر بالاستغفار، و من المسلّم أن نبى اللّه إبراهيم عليه السّلام لا يعد كذبا، و كلما وعد و فى بوعده.

و كذلك كانوا قد قرءوا فى الآية (۴) من سورة الممتحنة أنّ إبراهيم قد قال له:

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ و كذلك فى الآية (۸۶) من سورة الشعراء، و هى من السور المكية، حيث ورد الاستغفار صريحا بقوله: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ

ملاحظات

۱- رواية موضوعة!

إنّ الكثير من مفسّرى العامّة نقلوا حديثا موضوعا

عن صحيح البخارى و مسلم و كتب أخرى عن سعيد بن المسيب عن أبيه، أنّه لما حضرت أبا طالب الوفاة أتى إليه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان عنده أبو جهل و عبد اللّه بن أبى أمية، فقال له النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

«يا عم، قل لا إله إلّا اللّه أحاج لك بها عند اللّه»، فالتفت أبو جهل و عبد اللّه بن أبى أمية إلى أبى طالب و قالوا: أ تريد أن تصبو عن دين أبيك عبد المطلب؟! و كرر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله، إلّا أنّ أبا جهل و عبد اللّه منعاه من ذلك. و كان آخر ما قاله أبو طالب: على دين عبد المطلب، و امتنع عن قول: لا إله إلّا اللّه، فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عندئذ: «سأستغفر لك حتى أنهى عنه» فنزلت الآية: ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا ...[۹۱].

إلّا أنّ الأدلة و القرائن على كذب و وضع هذا الحديث واضحة، لما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۶

أوّلا: المعروف و المشهور بين المفسّرين و المحدثين أنّ سورة براءة نزلت فى السنة التاسعة للهجرة، بل يعتقد البعض أنّها آخر سورة نزلت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فى حين أن المؤرخين ذكروا أن وفاة أبى طالب كانت فى مكّة، و قبل هجرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لهذا نرى التخبط و التناقض الصريح الذى وقع فيه بعض المتعصبين كصاحب تفسير المنار، فإنّهم قالوا تارة: إنّ هذه الآية نزلت مرّتين! مرّة فى مكّة، و مرّة فى المدينة فى السنة التاسعة للهجرة و ظنوا أنّهم لما ادّعوا هذا الدليل رفعوا التناقض الذى سقطوا فيه.

و قالوا تارة أخرى: إنّ من الممكن أن تكون هذه الآية نزلت حين وفاة أبى طالب، ثمّ أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بوضعها فى سورة التوبة. إلّا أنّ هذا الادعاء كسابقه السابق عار من الدليل.

ألم يكن من الأجدر بهم بدل أن يتخطبوا فى هذه التوجيهات التى لا أساس لها، أن يترددوا و يشككوا فى صحة الرّواية السابقة؟!

ثانيا: لا شك فى أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد نهى المسلمين فى آيات من القرآن عن محبّة المشركين قبل موت أبى طالب، و نحن نعلم أن الاستغفار من أظهر مصاديق إبراز المحبّة و الصداقة، فكيف يمكن و الحال هذه أن يرحل أبو طالب من الدنيا و يقسم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه سيستغفر له حتى ينهاه اللّه؟! العجيب أنّ الفخر الرازى، الذى عرف بتعصبه فى أمثال هذه المسائل، لما لم يستطع إنكار أنّ هذه الآية قد نزلت- كبقية سورة التوبة- فى أواخر عمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عمد إلى توجيه محير و عجيب، و هو أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم استمر بعد وفاة أبى طالب فى الاستغفار له حتى نزلت هذه الآية و نهته عن الاستغفار! ثمّ يقول: ما المانع من أن يكون هذا الأمر- أى الاستغفار- مجازا للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين إلى ذلك الوقت؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۷

إنّ الفخر الرازى إذا حرر نفسه من قيود التعصب، سيلتفت إلى عدم إمكان أن يستغفر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لفرد مشرك طوال هذه المدّة، فى الوقت الذى كانت آيات كثيرة من القرآن الكريم قد نزلت إلى ذلك الزمان تدين و تشجب أى نوع من مودة المشركين و محبتهم ۹۲].

ثالثا: إنّ الشخص الوحيد الذى روى هذه الرّواية هو «سعيد بن المسيب»، و بعضه و عداؤه لأمير المؤمنين على عليه السّلام أشهر من نار على علم، و على هذا لا يمكن الاعتماد على روايته فى شأن على عليه السّلام أو أبيه أو أبنائه مطلقا.

لقد نقل «العلّامة الأمینی قدس سرّه»- بعد أن أشار إلی الموضوع أعلاه- کلاما عن «الواقدی» یستحق التوقف عنده، حیث یقول: إن سعید بن المسیب مر بجنازة الإمام السجاد علی بن الحسین علیه السّلام و لم یصل علیها، و اعتذر بعذر واه، إلّا أنّه علی قول ابن حزم- لما سئل: أ تصلی خلف الحجاج أم لا؟ قال: نحن نصلّی خلف من هو أسوأ من الحجاج! رابعا: کما قلنا فی الجزء الخامس من هذا التّفسیر، فإنّ ممّا لا شک فیه أنّ أبا طالب قد آمن بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بیّنا الأدلة الواضحة علی ذلک، و أثبتنا بأنّ ما قیل فی عدم إیمان أبی طالب هو تهمة کبیرة. و قد صرّح بذلک کل علماء الشیعة، و جماعة من علماء السنة کابن أبی الحدید فی (شرح نهج البلاغة) و القسطلانی فی (إرشاد الساری) و زینی دحلان فی (حاشیة السیرة الحلبیة).

و قلنا أن المحقق المدقق إذا لا حظ المد السیاسی المغرض الذی تزعمه حکام بنی أمیة ضد علی علیه السّلام، استطاع أن یقدر بأن کل من ارتبط بأمیر المؤمنین علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۸

السّلام لم یبق بمنأی عن التعرض المغرض.

فی الحقیقة، أنّ أبا طالب لم یکن له ذنب سوی أنّه أبو علی بن أبی طالب علیه السّلام إمام المسلمین، و قائدهم العظیم! أ لم یتهموا أبا ذرّ، ذلک المجاهد الإسلامی الکبیر لحبّه و عشقه لعلی علیه السّلام، و جهاده ضد مذهب عثمان؟! (لمزید الاطلاع علی إیمان أبی طالب الذی کان حامیا لرسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی جمیع مراحل حیاته، و مدافعا عنه، و مطیعا لأوامره، راجع الآیة (۲۵) و (۲۶) من سورة الانعام فی المجلد الرّابع من تفسیرنا هذا)

۲- لماذا وعد إبراهیم آزر بالاستغفار؟

و هنا یطرح سؤال آخر، و هو: کیف وعد إبراهیم عمّه آزر بالاستغفار، و حسب ظاهر هذه الآیة و آیات القرآن الأخری، فإنّه قد وفی بوعده، مع العلم أنّه لم یؤمن أبدا، و کان من المشرکین و عبدة الأصنام الی آخر حیاته، و الاستغفار لمثل هؤلاء ممنوع؟

و للإجابة علی هذا السؤال ینبغی الانتباه أوّلا إلی أنّه یستفاد من الآیة- بوضوح- أنّ إبراهیم کان یأمل أن یجذب آزر إلی الإیمان و التوحید عن هذا الطریق، و کان استغفاره فی الحقیقة هو: اللّهم اهده، و تجاوز عن ذنوبه السابقة.

لکن لما ارتحل آزر من هذه الدنیا و هو مشرک- و أصبح من المحتم عند إبراهیم أنّه مات و هو معاد للّه، و لم یبق سبیل لهدایته- ترک استغفاره لآزر. و علی هذا فإنّ المسلمین أیضا یستطیعون أن یستغفروا لأصدقائهم و أقربائهم المشرکین ما داموا علی قید الحیاة، و کان هناک أمل فی هدایتهم، بمعنی طلب الهدایة و المغفرة من اللّه سبحانه لهؤلاء، إلّا أنّهم إذا ماتوا و هم کفار فلا مجال للاستغفار بعد ذلک.

أمّا ما ورد فی بعض الرّوایات من أنّ الإمام الصادق علیه السّلام ذکر أنّ إبراهیم علیه السّلام کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۳۹

قد وعد آزر بالاستغفار ان هو أسلم- لا أنّه یستغفر له قبل إسلامه، فلمّا تبیّن له أنّه عدو للّه تنفر منه و ابتعد عنه، و علی هذا فإنّ وعد إبراهیم کان مشروطا، فلمّا لم یتحقق الشرط لم یستغفر له أبدا، فإنّ هذه الرّوایة إضافة إلی أنّها مرسلة و ضعیفة، فإنّها تخالف ظاهر أو صریح الآیات القرآنیة، لأنّ ظاهر الآیة التی نبحثها أن إبراهیم قد استغفر، و صریح الآیة (۸۶) من سورة الشعراء أن إبراهیم قد طلب المغفرة له، حیث یقول: وَ اغْفِرْ لِأَبِی إِنَّهُ کانَ مِنَ الضَّالِّینَ

و الشاهد الآخر ما ورد عن ابن عباس أنّه قال: إن إبراهیم قد استغفر مرارا لآزر ما دام حیا، فلمّا مات علی کفره و تبیّن عداؤه لدین الحق، امتنع عن هذا العمل.

و لما كان فريق من المسلمين راغبين فى أن يستغفروا للمحسنين الذين ماتوا و هم مشركون، فقد نهاهم القرآن بصراحة عن ذلك، و صرّح بأن وضع إبراهيم يختلف تماما عن وضعهم، فإنّه كان يستغفر لآزر فى حياته رجاء هدايته و إيمانه، لا بعد موته.

۳- ضرورة قطع كل رابطة بالأعداء

إنّ هذه الآية ليست الوحيدة التى تتحدث عن قطع كل رابطة بالمشركين، بل يستخلص من عدّة آيات فى القرآن الكريم أن كل ارتباط و تضامن و علاقة، العائلية منها و غيرها، يجب أن تخضع لإطار العلاقات العقائدية، و يجب أن يحكم الانتماء الى اللّه و محاربة كل أشكال الشرك و الوثنية كل اشكاليات الترابط بين المسلمين. لأنّ هذا الارتباط هو الأساس و الحاكم على كل مقدراتهم الاجتماعية، و لا تستطيع العلاقات و الروابط السطحية و الفوقية أن تنفيه.

إنّ هذا درس كبير للأمس و اليوم، و كل الأعصار و القرون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۵ الى ۱۱۶]

اشارة

وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱۵) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۱۱۶)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ فريقا من المسلمين ماتوا قبل نزول الفرائض و الواجبات و تشريعها، فجاء جماعة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أظهروا قلقهم على مصير هؤلاء- و كانوا يظنون أن هؤلاء ربّما سينالهم العقاب الإلهى لعدم أدائهم الفرائض، فنزلت الآية و نفت هذا التصور[۹۳].

و قال بعض الآخر من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فى مسألة استغفار المسلمين للمشركين، و إظهارهم محبّتهم لهم قبل النهى الصريح الوارد فى الآيات السابقة، لأنّ هذه المسألة كانت باعثا لقلق المسلمين، فنزلت الآية و طمأنتهم إلى أنّ استغفارهم قبل النى لا يوجب حسابهم و معاقبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۱

التّفسير

العقاب بعد البيان:

إن الآية الأولى تشير إلى قانون كلّى و عام، يؤيده العقل أيضا، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى ما دام لم يبيّن حكما، و لم يصل شىء من الشرع حوله، فإنّه تعالى سوف لا يحاسب عليه أحدا، و بتعبير آخر: فإنّ التكليف و المسؤولية تقع دائما بعد بيان الأحكام، و هذا هو

الذى يعبر عنه فى علم الأصول بقاعدة (قبح العقاب بلا بيان).

و لذلك فأوّل ما تطالعنا به الآية قوله: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ

إنّ المقصود من (يضل)- فى الأصل الإضلال و التضييع، أو الحكم بالإضلال- كما احتمله بعض المفسّرين (كما يقال فى التعديل و التفسيق، أى الحكم بعدالة الشخص و فسقه)[۹۴] أو بمعنى الإضلال من طريق الثواب يوم القيامة، و هو فى الواقع بمعنى العقاب.

أو أنّ المقصود من «الإضلال» ما قلناه سابقا، و هو سلب نعمة التوفيق، و إيكال الإنسان إلى نفسه، و نتيجة ذلك هو الضياع و الحيرة و الانحراف عن طريق الهداية لا محالة، و هذا التعبير إشارة خفية و لطيفة إلى حقيقة ثابتة، و هى أنّ الذّنوب دائما هى مصدر و سبب الضلال و الضياع و الابتعاد عن طريق الرشاد[۹۵].

و أخيرا تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ أى إن علم اللّه يحتم و يؤكّد على أنّ اللّه سبحانه ما دام لم يبيّن الحكم الشرعى لعباده، فإنّه سوف لا يؤاخذهم أو يسألهم عنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۲

جواب سؤال

يتصور بعض المفسّرين و المحدّثين أنّ الآية دليل على أن «المستقلات العقلية»- (و هى الأمور التى يدركها الإنسان عن طريق العقل لا عن طريق حكم الشرع، كإدراك قبح الظلم و حسن العدل، أو سوء الكذب و السرقة و الاعتداء و قتل النفس و أمثال ذلك)- ما دام الشرع لم يبيّنها، فإن أحدا غير مسئول عنها. و بتعبير آخر فإنّ كل الأحكام العقلية يجب أن تؤيد من قبل الشرع لإيجاد التكليف و المسؤولية على الناس، و على هذا فإنّ الناس قبل نزول الشرع غير مسئولين مطلقا، حتى فى مقابل المستقلات العقلية.

إلّا أنّ بطلان هذا التصور واضح، فإنّ جملة حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ تجيبهم و تبيّن لهم أنّ هذه الآية و أمثالها خاصّة بالمسائل التى بقيت فى حيز الإبهام و تحتاج إلى التّبيين و الإيضاح، و من المسلّم أنّها لا تشمل المستقلات العقلية، لأنّ قبح الظلم و حسن العدل ليس أمرا مبهما حتى يحتاج إلى توضيح.

الذين يذهبون إلى هذا القول غفلوا عن أن هذا القول- إن صحّ- فلا وجه لوجوب تلبية دعوة الأنبياء، و لا مبرر لأن يطالعوا و يحققوا دعوى مدعى النّبوة و معجزاته حتى يتبيّن لهم صدقه أو كذبه، لأنّ صدق النّبى و الحكم الإلهى لم يبيّن لحد الآن لهؤلاء، و على هذا فلا داعى للتحقق من دعواه.

و على هذا فكما يجب التثبت من دعوى من يدعى النّبوة بحكم العقل، و هو من المستقلات العقلية، فكذلك يجب اتباع سائر المسائل التى يدركها العقل بوضوح.

و الدليل على هذا الكلام التعبير المستفاد من بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام،

ففى كتاب التوحيد، عن الصادق عليه السّلام أنّه قال فى تفسير هذه الآية: «حتى يعرّفهم ما يرضيه و ما يسخطه»[۹۶].

و على كل حال، فإنّ هذه الآية و أمثالها تعتبر أساسا لقانون كلّى أصولى، و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۳

أننا ما دمنا لا نملك الدليل على وجوب أو حرمة شىء، فإنّنا غير مسئولين عنه، و بتعبير آخر فإنّ كل شىء مباح لنا، إلّا أن يقوم دليل على وجوبه أو تحريمه، و هو ما يسمونه ب (أصل البراءة).

و تستند الآية التالية على هذه المسألة و توكّد: إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و أن نظام الحياة و الموت أيضا بيد قدرته، فإنّه هو الذى يُحْيِي وَ يُمِيتُ و على هذا: وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ، و هو إشارة إلى أنّه لما كانت كل القدرات و الحكومات

فى عالم الوجود بيده، و خاضعة لأمره، فلا ينبغى لكم أن تتكلوا على غيره، و تلتجئوا إلى البعيدين عن اللّه و إلى أعدائه و توادوهم، و توثقوا علاقتكم بهم عن طريق الاستغفار و غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۴

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸]

اشارة

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (۱۱۸)

سبب النّزول

درس كبير!

قال المفسّرون: إنّ الآية الأولى نزلت فى غزوة تبوك، و ما واجهه المسلمون من المشاكل و المصاعب العظيمة، هذه المشاكل التى كانت من الكثرة و الصعوبة بمكان بحيث صمّم جماعة على الرجوع، إلّا أنّ اللطف الإلهى و التوفيق الرّبانى شملهم، فثبتوا فى مكانهم.

و من جملة من قيل أن الآية نزلت فيهم أبو خيثمة، و كان من أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لا- من المنافقين، إلّا أنّه لضعفه امتنع عن التوجه إلى معركة تبوك مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۵

مرّت عشرة أيّام على هذه الواقعة، و كان الهواء حارا محرقا، فحضر يوما عند زوجتيه، و كنّ قد هيأن خيمته، و أحضرن الطعام اللذيذ و الماء البارد، فتذكر فجأة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و غاص فى تفكير عميق، و قال فى نفسه: إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه و ما تأخر، و ضمن له آخرته، قد حمل سلاحه على عاتقه و سار فى الصحارى المحرقة، و تحمل مشقّة هذا السفر، أمّا أبو خيثمة- يعنى نفسه- فهو فى ظل بارد، يتمتع بأنواع الأطعمة، و النساء الجميلات!! إنّ هذا ليس من الإنصاف.

فالتفت إلى زوجاته و قال: أقسم باللّه أن لا أكلم إحداكن كلمة، و لا أستظل بهذه الخيمة حتى ألتحق بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم. قال ذلك و حمل زاده و جرابه و ركب بعيره و سار، و جهدت زوجتاه أن يكلمنه فلم يعبأ بهما و لم ينبس ببنت شفة، و واصل سيره حتى اقترب من تبوك.

فقال المسلمون بعضهم لبعض: من هذا الراكب على الطريق؟،

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «كن أبا خيثمة»

فلمّا اقترب و عرفه الناس، قالوا: نعم، هو أبو خيثمة، فأناخ راحلته و سلّم على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و حدثه بما جرى له، فرحبّ به النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و دعا له.

و بذلك فإنّه كان من جملة الذين مال قلبهم إلى الباطل، إلّا أنّ اللّه سبحانه و تعالى لما رأى استعداده الروحى أرجعه إلى الحق و ثبّت قدمه.

و قد نقل سبب آخر لنزول الآیة الثّانیة، خلاصته:

إنّ ثلاثة من المسلمین و هم: «کعب بن مالک» و «مرارة بن ربیع» و «و هلال بن أمیة»، امتنعوا من المسیر مع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و الاشتراک فی غزوة تبوک، إلّا أن ذلک لیس لکونهم جزءا من المنافقین، بل لکسلهم و تثاقلهم، فلم یمض زمان حتی ندموا.

فلمّا رجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من غزوة تبوک حضروا عنده و طلبوا منه العفو عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۶

تقصیرهم، إلّا أن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یکلمهم حتی بکلمة واحدة، و أمر المسلمین أیضا أن لا یکلموهم.

لقد عاش هؤلاء محاصرة اجتماعیة عجیبة و شدیدة، حتی أنّ أطفالهم و نساءهم أتوا إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و طلبوا الإذن منه فی أن یفارقوا هؤلاء إلّا أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لم یأذن لهم بالمفارقة، لکنّه أمرهم أن لا یقتربوا منهم.

إنّ فضاء المدینة بوسعته قد ضاق علی هؤلاء النفر، و اضطروا للتخلص من هذا الذل و الفضیحة الکبیرة إلی ترک المدینة و الالتجاء إلی قمم الجبال.

و من المسائل التی أثرت تأثیرا روحیا شدیدا، و أوجدت صدمة نفسیة عنیفة لدی هؤلاء ما رواه کعب بن مالک قال: کنت یوما جالسا فی سوق المدینة و أنا مغموم، فتوجه نحوی رجل مسیحی شامی، فلمّا عرفنی سلمنی رسالة من ملک الغساسنة کتب فیها: إذا کان صاحبک قد طردک و أبعدک فالتحق بنا، فتغیر حالی و قلت: الویل لی، لقد وصل أمری إلی أن یطمع بی العدو! خلاصة الأمر: إنّ عوائل هؤلاء و أصدقاءهم کانوا یأتونهم بالطعام، إلّا أنّهم لا یکلمونهم قط، و مضت مدّة علی هذه الحال و هم یتجرعون ألم الانتظار و الترقب فی أن تنزل آیة تبشرهم بقبول توبتهم، لکن دون جدوی فی هذه الأثناء خطرت علی ذهن أحدهم فکرة و قال: إذا کان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا و اعتزلونا، فلما ذا لا یعتزل کل منا صاحبه، صحیح أنّنا مذنبون جمیعا، لکن یجب أن لا یفرح أحدنا لذنب الآخر. و بالفعل اعتزل بعضهم بعضا، و لم یتکلموا بکلمة واحدة، و لم یجتمع اثنان منهم فی مکان. و أخیرا ... و بعد خمسین یوما من التوبة و التضرع إلی اللّه سبحانه و تعالی قبلت توبتهم و نزلت الآیة فی ذلک ۹۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۷

التّفسیر

الحصار الاجتماعی للمذنبین:

تتحدّث هذه الآیات أیضا عن غزوة تبوک، و المسائل و الأحداث التی ترتبط بهذا الحدث الکبیر، و ما جری خلاله.

فتشیر الآیة الأولی إلی رحمة اللّه اللامتناهیة التی شملت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المهاجرین و الأنصار فی اللحظات الحساسة، و تقول: لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَی النَّبِیِّ وَ الْمُهاجِرِینَ وَ الْأَنْصارِ الَّذِینَ اتَّبَعُوهُ فِی ساعَةِ الْعُسْرَةِ.

ثمّ تبیّن أن شمول هذه الرحمة الإلهیة لهم کان فی وقت اشتدت فیه الحوادث و الضغوط و الاضطرابات إلی الحد الذی أوشکت أن تزل فیه أقدام بعض المسلمین عن جادة الصواب، (و صمموا علی الرجوع من تبوک) فتقول: مِنْ بَعْدِ ما کادَ یَزِیغُ قُلُوبُ فَرِیقٍ مِنْهُمْ ثمّ توکّد مرّة أخری علی أن اللّه سبحانه قد تاب علیهم، فتقول: ثُمَّ تابَ عَلَیْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِیمٌ

و لم تشمل الرحمة الإلهیة هذا القسم الکبیر الذی شارک فی الجهاد فقط، بل شملت حتی الثلاثة الذین تخلفوا عن القتال و مشارکة المجاهدین فی ساحة الجهاد: وَ عَلَی الثَّلاثَةِ الَّذِینَ خُلِّفُوا.

إلّا أنّ اللطف الإلهی لم یشمل هؤلاء المتخلفین بهذه السهولة، بل عند ما عاش هؤلاء- و هم کعب بن مالک و مرارة بن ربیع و هلال

بن أميـة، الـذين مر شـرح حالهم فى سـبب النزول- مقاطعة اجتماعية شديدة، و قاطعهم كل الناس بالصورة التى تصورها الآية، فتقول: حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ

بـل إنّ صـدور هؤلاـء امتلأـت همّـا و غمّـا بحيث ظنوا أن لاـ مكان لهم فى الوجود، فكأنّه ضاق عليهم وَ ضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُـهُمْ فابتعد أحدهم عن الآخر و قطعوا العلاقة فيما بينهم.

عند ذلك رأوا كل الأبواب مغلقة بوجوههم. فأيقنوا وَ ظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۸

إِلَّا إِلَيْهِ فـأدركتهم رحمـة اللّه مرّة أخرى، و سـهلت و يسـرت عليهم أمر التوبـة الحقيقيـة، و الرجوع إلى طريق الصواب ليتوبوا: ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

بحوث

اشارة

و هنا بحوث نلفت النظر إليها:

۱- المراد من توبة اللّه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم

قرأنا فى الآية الأولى أن اللّه سـبحانه قد تاب على النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المهاجرين و الأنصار، و قبل توبتهم. و لا شـك أنّ النّبى معصوم من الـذنوب، و لم يرتكب معصـية ليتوب فيقبل اللّه توبته، و إن كان بعض مفسّرى العامّـة قـد اعتبروا التعبير فى هـذه الآية دليلا على صدور السهو و المعصية من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى أحداث تبوك.

إلّا أنّ التدقيق فى نفس هذه الآية و سائر آيات القرآن سيرشدنا إلى عدم صحة هذا التّفسير، لأن:

أوّلا: إن معنى توبـة اللّه سـبحانه رجوعه بالرحمـة و الرعايـة على عباده، و لا يوجـد فى هذا المعنى أثر للزلل أو المعصـية، كما قال فى سورة النسـاء بعـد ذكر قسم من الأحكام: يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَ يَهْـدِيَكُمْ سُـنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ففى هذه الآية و التى قبلها لم يرد حديث عن الزلل و المعصـية، بل الكلام- عن تبيين الأحكام و الإرشاد إلى سنن الماضين القيمة المفيدة، و هذا بنفسه يوضح أن التوبة هنا بمعنى شمول رحمة اللّه سبحانه لعباده.

ثانيا: لقد ورد فى كتب اللغة أن أحد معانى التوبة هو ما ذكرناه، ففى كتاب (القاموس) المعروف ورد فى أن هذا هو أحد معانى التوبة ما لفظة: رجع عليه بفضله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۴۹

و قبوله:

ثالثا: إنّ الآيـة تحصـر الانحراف عن طريق الحق و التخلف عنه بجماعة من المؤمنين، مع أنّها تصـرح بأنّ الرحمة الإلهية تعم الجميع، و هو بنفسه يبيّن أنّ توبة اللّه هنا ليست بمعنى قبول عذر العباد، بل هى الرحمة الإلهية الخاصّة التى أدركت النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم و كل المؤمنين بدون استثناء فى اللحظات الحساسة، و ثبّتت أقدامهم فى أمر الجهاد.

۲- غزوة تبوك و ساعة العسرة

«السّاعة» من الناحية اللغوية بمعنى مقطع زمنى، سواء كان قصيرا أم طويلا، و لا يقال للزمن الطويل جدا: ساعة. «و العسرة» بمعنى المشقة و الصعوبة.

إن تاريخ الإسلام يبيّن أنّ المسلمين لم يعانوا مثل ما عانوه فى غزوة تبوك من الضغوط و المشقة، لأنّ المسير إلى تبوك كان فى وقت اشتداد حر الصيف من جهة.

و من جهة أخرى فإنّ القحط قد أثّر فى الناس و أنهك قواهم.

و كذلك فإنّ الفصل كان فصل اقتطاف الثمار، و لا بدّ من جمع ما على الأشجار و النخيل لتأمين قوت سنتهم.

و إذا تجاوزنا جميع ذلك، فإنّ المسافة بين المدينة و تبوك طويلة جدا.

و العدو الذى كانوا يريدون مواجهته هو إمبراطورية الروم الشرقية، التى كانت يومها من أقوى الامبراطوريات العالمية.

إضافة إلى ما مرّ، فإنّ وسائل النقل بين المسلمين كانت قليلة إلى الحد الذى قد يضطر أحيانا عشرة أشخاص إلى أن يتناوبوا ركوب وسيلة واحدة، و بعض المشاة لم يكونوا يمتلكون حتى النعل، و كانوا مضطرين إلى العبور على رمال الصحراء الحارقة بأقدام عارية ...

أمّا من ناحية الطعام و الشراب، فإنّهم كانوا يعانون من قلّة المواد الغذائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۰

بحيث أنّ عدّة أشخاص يشتركون فى تمرة واحدة أحيانا، فيمص كل منهم التمرة و يعطيها لصاحبه حتى لا يبقى منها إلى النواة ... و كان عدّة أفراد يشتركون فى جرعة ماء!! لكن، و رغم كل هذه الأوضاع، فإنّ المسلمين كانوا يتمتعون بمعنويات عالية و راسخة، و بالرغم من كل المشكلات، فإنّهم توجهوا برفقة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم نحو العدو، و بهذه الاستقامة و الرجولة فإنّهم سجلوا للمسلمين. و فى كل العصور و القرون، درسا كبيرا خالدا فى ذاكرة الزمن ... درسا كافيا لكل الأجيال، و طريقا للانتصار على أكبر الأعداء و أخطرهم و أكثرهم عدّة ...

و لا شك أنّ بين المسلمين من كان يمتلك معنويات أضعف، و هم الذين دارت فى رؤوسهم فكرة الرجوع و الذين عبّر عنهم القرآن الكريم ب مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لأنّ (يزيغ) مأخوذة من (زيغ) بمعنى الميل و الانحراف عن الحق نحو الباطل.

لكن، و كما رأينا، فإنّ المعنويات العالية للأكثرية من المسلمين، و لطف اللّه سبحانه بهم، هو الذى صرف هؤلاء عن هذه الفكرة، ليلتحقوا بجماعة المجاهدين فى طريق الحق.

۳- ما هو معنى خُلِّفُوا؟

لقد عبرت الآيات عن هؤلاء الثلاثة المقصرين المهملين ب (خلّفوا) بمعنى الذين تركهم الجيش وراء ظهره، و ذلك لأن المسلمين عند ما كانوا يصادفون من يتخاذل و يكسل عن الجهاد، فإنّهم لا- يعبؤون به، بل يتركونه وراء ظهورهم و يتوجهون إلى جبهات الجهاد.

أو لأنّ هؤلاء عند ما حضروا عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليعتذروا و يطلبوا الصفح عن ذنبهم لم يقبل عذرهم، و أخّر قبول توبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۱

۴- درس كبير دائمى

من المسائل المهمّة التى تستفاد من هذه الآيات، مسألة مجازاة المجرمين و الفاسدين عن طريق الحصار الاجتماعى و قطع الروابط و العلاقات، فنحن نرى أن قطع الروابط هذا قد وضع هؤلاء الثلاثة فى شدة كانت أصعب عليهم من كل السجون بحيث ضاقت عليهم الدنيا تحت وطأت الحصار الاجتماعى و قطعوا الأمل من كل شىء.

إنّ هذا الأسلوب قد أثر فى المجتمع الإسلامى آنذاك تأثيرا قويا جدّا، بحيث قلّ بعد هذه الحادثة من يجرءوا أن يرتكبوا مثل هذه المعاصى.

إنّ هذا النوع من العقاب لا يحتاج إلى متاعب و ميزانية السجون، و ليس فيه خاصية تربية الكسالى و الأشرار كما هو حال السجون، إلّا أنّ أثره أكبر و أشدّ من تأثير أى سجن، فهو نوع من الإضراب و الجهاد السلبى للمجتمع مقابل الأفراد الفاسدين، فإنّ المسلمين إذا أقدموا على مثل هذه المجابهة فى مقابل المتخلفين عن أداء الواجبات الاجتماعية الحساسة، فإنّ النصر سيكون حليفهم قطعا، و سيكون بامكانهم تطهير مجتمعهم بكل سهولة.

أمّا روح المجاملة و المساومة و الاستسلام التى سرت اليوم- مع الأسف- فى كثير من المجتمعات الإسلامية كمرض عضال، فإنّها لا تمنع و لا تقف أمام أمثال هؤلاء المتخلفين، بل و تشجعهم على أعمالهم القبيحة.

۵- غزوة تبوك و نتائجها

منطقة «تبوك» هى أبعد نقطة وصل إليها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى غزواته، و هذه الكلمة فى الأصل اسم قلعة محكمة و عالية كانت فى الشريط الحدودى بين الحجاز و الشام، و لذلك سمّيت تلك المنطقة بأرض تبوك.

إنّ انتشار الإسلام السريع فى جزيرة العرب كان سببا فى أن يدوى صوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۲

الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و نداؤه فى جميع الدول المجاورة للجزيرة العربية، و لم يكن أحد يعير للحجاز أهمية لغاية ذلك اليوم، فلما بزغ فجر الإسلام، و ظهرت قوّة جيش النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى وحّد الحجاز تحت راية واحدة، خاف هؤلاء من عاقبة الأمر.

إنّ دولة الروم الشرقية المتاخمة للحجاز، كانت تحتمل أن تكون من أوائل ضحايا تقدم الإسلام السريع، لذلك فقد جهزت جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل، و كان مجهزا بالأسلحة الكافية التى كانت تمتلكها قوّة عظمى كإمبراطورية الروم، و استقر الجيش فى حدود الحجاز، فوصل الخبر إلى مسامع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عن طريق المسافرين، فأراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يلقن الروم و باقى جيرانه درسا يكون لهم عبرة.

فلم يتأخر عن إصدار أمره بالتهيؤ و الاستعداد للجهاد، و بعث الرسل الى المناطق الأخرى يبلّغون المسلمين بأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فلم يمض زمن حتى اجتمع لديه ثلاثون ألفا لقتال الرومين، و كان من بينهم عشرة آلاف راكب و عشرون ألف راجل.

كان الهواء شديد الحّر، و قد فرغت المخازن من المواد الغذائية، و المحصولات الزراعية لتلك السنة لم تحصد و تجمع بعد، فكانت الحركة فى مثل هذه الأوضاع بالنسبة للمسلمين صعبة جدّا، إلّا أنّ أمر اللّه و رسوله يقضى بالمسير فى ظل أصعب الظروف و طى الصحارى الواسعة و المليئة بالمخاطر بين المدينة و تبوك.

إنّ هذا الجيش نتيجة للمشاكل الكثيرة التى واجهها من الناحية الاقتصادية، و المسير الطويل، و الرياح السموم المحرقة، و عواصف

الرمال الكاسحة، و عدم امتلاك الوسائل الكافية للنقل، قد عرف ب (جيش العسرة)، و لكنّه تحمل جميع هذه المشاكل، و وصل إلى أرض تبوك فى غرة شعبان من السنة التاسعة للهجرة، و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد خلف عليا عليه السّلام مكانه، و هى الغزوة الوحيدة التى لم يشارك فيها أمير المؤمنين عليه السّلام.

إن قيام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بإقامة على عليه السّلام مكانه كان عملا ضروريا و فى محله، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۳

كان من المحتمل جدا أن يستفيد المتخلفون من المشركين أو المنافقين- الذى امتنعوا بحجج مختلفة عن الاشتراك فى الجهاد- من غيبة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الطويلة، و يجمعوا أفرادهم و يحملوا على المدينة و يقتلوا النساء و الأطفال و يهدموا المدينة، إلّا أنّ وجود على عليه السّلام كان سدّا منيعا فى وجه مؤامراتهم و خططهم.

و على كل حال، فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حينما وصل إلى تبوك لم ير أثرا لجيوش الروم، و ربّما كان ذلك لأنّهم سمعوا بخبر توجه هذا الجيش الإسلامى العظيم، و قد سمعوا من قبل بشجاعة و استبسال المسلمين العجيبة، و ما أبدوه من بلاء حسن فى الحروب، فرأوا أنّ الأصلح سحب قواتهم إلى داخل بلادهم، و ليبيّنوا أنّ خبر تجمع جيش الروم على الحدود، و نيّته بالقيام بهجوم على المدينة، شائعة لا أساس لها، لأنّهم خافوا من التورط بمثل هذه الحرب الطاحنة دون مبررات منطقية، فخافوا من ذلك.

إلّا أنّ حضور جنود الإسلام إلى ساحة تبوك بهذه السرعة قد أعطى لأعدائه عدة دروس:

أولا: إنّ هذا الموضوع أثبت أنّ المعنويات العالية و الروح الجهادية لجنود الإسلام، كانت قوية إلى الدرجة التى لا يخافون معها من الاشتباك مع أقوى جيش فى ذلك الزمان.

ثانيا: إنّ الكثير من القبائل و أمراء أطراف تبوك أتوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمضوا عهودا بعدم التعرض للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و محاربته، و بذلك فقد اطمأن المسلمون من هذه الناحية، و أمنوا خطرهم.

ثالثا: إنّ إشعاع الإسلام و أمواجه قد نفذت إلى داخل حدود إمبراطورية الروم، و دوّى صدى الإسلام فى كل الأرجاء باعتباره أهم حوادث ذلك اليوم، و هذا قد هيأ الأرضية الجيدة لتوجه الروميين نحو الإسلام و الإيمان به.

رابعا: إنّ المسلمين بقطعهم هذا الطريق، و تحملهم لهذه الصعاب، قد عبّدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۴

الطريق لفتح الشام فى المستقبل، و قد اتضح للجميع بأن هذا الطريق سيقطع فى النهاية.

و هكذا، فإنّ هذه المعطيات الكبيرة تستحق كل هذه المشاق و التعبئة و الزحف.

و على كل حال، فإنّ النّبى على عادته- قد استشار جيشه فى الاستمرار فى التقدم أو الرجوع، و كان رأى الأكثر بأنّ الرجوع هو الأفضل و الأنسب لروح التعليمات الإسلامية، خاصّة و أن جيوش المسلمين كانت قد تعبت نتيجة المعاناة الكبيرة فى الطريق، و ضعفت مقاومتهم الجسمية، فأقر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الرأى ورد جيوش المسلمين إلى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۵

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۱۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (۱۱۹)

التّفسير

كونوا مع الصّادقين:

فى الآيات السابقة كان الحديث حول جماعة من المتخلفين الذين نقضوا عهدهم مع اللّه و رسوله، و أظهروا عمليا تكذيبهم للإيمان باللّه و اليوم الآخر، و رأينا كيف أنّ المسلمين قد أرجعوهم إلى حظيرة الإيمان بمقاطعتهم، و نبّهوهم على خطئهم.

أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى النقطة المقابلة لهؤلاء، فهى تأمر بتحكيم الروابط مع الصادقين الذين حافظوا على عهدهم و ثبتوا عليه.

فى البداية تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ و لأجل أن يستطيعوا سلوك طريق التقوى الملىء بالمنعطفات و الاخطار بدون اشتباه و انحراف أضافت: وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

و قد احتمل المفسّرون احتمالات مختلفة فى المقصود من الصادقين، و من هم؟

إلّا أنّنا إذا أردنا اختصار الطريق، يجب أن نرجع إلى القرآن الكريم نفسه الذى فسّر معنى الصادقين فى آيات متعددة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۶

فنقرأ فى سورة البقرة، الآية (۱۷۷): لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ لكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ الْكِتابِ وَ النَّبِيِّينَ وَ آتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ السَّائِلِينَ وَ فِي الرِّقابِ وَ أَقامَ الصَّلاةَ وَ آتَى الزَّكاةَ وَ الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهَدُوا وَ الصَّابِرِينَ فِي الْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ حِينَ الْبَأْسِ أُولئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

فنحن نرى فى هذه الآية أنّها بعد نهى المسلمين عن البحث و المناقشة حول مسألة تغيير القبلة، تفسر لهم حقيقة العمل الصالح و البر بأنّه الإيمان باللّه و يوم القيامة و الملائكة و الكتب السماوية و الأنبياء، ثمّ الإنفاق فى سبيل اللّه و مساعدة المحتاجين و المحرومين، و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة، و الوفاء بالعهد، و الاستقامة و الصمود أمام المشاكل حين الجهاد، و بعد ذكر كل هذه الصفات تقول: إنّ الذين يمتلكون هذه الصفات هم الصادقون و هم المتقون.

و على هذا، فإنّ الصادق هو الذى يؤمن بكل المقدسات، ثمّ يعمل بموجبها فى جميع النواحى، و فى الآية (۱۵) من سورة الحجرات نقرا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فإنّ هذه الآية أيضا تعرّف الصدق بأنّه مجموع الإيمان و العمل الذى لا تشوبه أية شائبة من التردد أو المخالفة.

و نقرا فى الآية (۸) من سورة الحشر: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ فهذه الآية عرّفت الصادقين بأنّهم المؤمنون المحرومون الذين استقاموا و ثبتوا رغم كل المشاكل، و أخرجوا من ديارهم و أموالهم، و لم يكن لهم هدف و غاية سوى رضى اللّه و نصرة رسوله صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

من مجموع هذه الآيات نحصل على نتيجة، و هى أنّ الصادقين هم الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۷

يؤدون تعهداتهم أمام الإيمان باللّه على أحسن وجه دون أى تردد أو تماهل و لا يخافون سيل المصاعب و العقبات، بل يثبتون صدق إيمانهم بأنواع الفداء و التضحية.

و لا شك أنّ لهذه الصفات درجات، فقد يكون البعض فى قمتها، و هم الذين نسمّيهم بالمعصومين، و البعض فى درجات أقل و أدنى منها.

هل المراد من الصّادقين هم المعصومون فقط؟

بالرغم من أنّ مفهوم الصادقين- كما ذكرنا سابقا- مفهوم واسع، إلّا أنّ المستفاد من الرّوايات الكثيرة أنّ المراد من هذا المفهوم هنا هم المعصومون فقط.

يروى سليم بن قيس الهلالى: إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام كان له يوما كلام مع جمع من المسلمين، و من جملة ما قال: «فأنشدكم اللّه أ تعلمون أن اللّه أنزل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فقال سلمان: يا رسول اللّه أ عامّة هى أم خاصّة؟

قال: أمّا المأمورون فالعامّة من المؤمنين أمروا بذلك، و أمّا الصادقون فخاصّة لأخى على و الأوصياء من بعده إلى يوم القيامة»؟ قالوا: اللّهم نعم ۹۸].

و يروى نافع عن عبد اللّه بن عمر: إنّ اللّه سبحانه أمر أوّلا المسلمين أن يخافوا اللّه ثمّ قال: كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ يعنى مع محمّد و أهل بيته ۹۹].

و بالرغم من أنّ بعض مفسّرى أهل السنة- كصاحب المنار- قد نقلوا ذيل الرّواية أعلاه هكذا: مع محمّد و أصحابه، و لكن مع ملاحظة أن مفهوم الآية عام و شامل لكل زمان، و صحابة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا فى زمن خاص، تبيّن لنا أنّ العبارة التى وردت فى كتب الشيعة عن عبد اللّه بن عمر هى الأصح.

و نقل صاحب تفسير البرهان نظير هذا المضمون عن طرق العامّة، و قال: إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۸

موفق بن أحمد بإسناده عن ابن عباس، يروى فى ذيل هذه الآية: هو على بن أبى طالب. ثمّ يقول: أورد ذلك أيضا عبد الرزاق فى كتاب رموز الكنوز[۱۰۰].

أمّا المطلب الأهم، فهو أنّ الآية تأمر أوّلا بالتقوى، ثمّ بالكون مع الصادقين، فلو أنّ مفهوم الصادقين فى الآية عامّا و شاملا لكل المؤمنين الحقيقيين المستقيمين، لكان اللازم أن يقال: و كونوا من الصادقين، لا مع الصادقين. (فتأمل جيدا).

إنّ هذه بذاتها قرينة واضحة على أنّ (الصّادقين) فى الآية هم فئة خاصّة.

و من جهة أخرى، فليس المراد من الكون معهم أن يكون الإنسان مجالسا و معاشرا لهم، بل المراد قطعا هو اتباعهم و السير فى خطاهم.

إذا كان الشخص غير معصوم هل يمكن صدور أمر بدون قيد أو شرط باتباعه و السير فى ركابه؟ أليس هذا بنفسه دليلا على أن هذه الفئة و المجموعة هم المعصومون؟

و على هذا، فإنّ ما استفدناه من الرّوايات يمكن استفادته من الآية إذا دققنا النظر فيها.

إن الملفت للنظر هنا، أنّ المفسّر المعروف الفخر الرازى، المعروف بتعصبه و تشكيكه، قد قبل هذه الحقيقة- و إن كان أغلب مفسّرى السنة سكتوا عنها عند مرورهم بهذه الآية- و يقول: إنّ اللّه قد أمر المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين، و على هذا فإنّ الآية تدل على أن من يجوز الخطأ عليهم يجب عليهم الاقتداء بالمعصوم حتى يبقوا مصونين عن الخطأ فى ظلّه و عصمته، و سيكون هذا الأمر فى كل زمان، و لا نملك أى دليل على اختصاص ذلك بعصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إلّا أنّه يضيف بعد ذلك: إنّنا نقبل أنّ مفهوم الآية هو هذا، و يجب أن يوجد معصوم فى كل وقت، إلّا أنّنا نرى أن هذا المعصوم هو جميع الأمّة، لا أنّه فرد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۵۹

واحد! و بتعبير آخر: إنّ هذه الآية دليل على حجية إجماع المؤمنين، و عدم خطأ مجموع الأمّة[۱۰۱].

و بهذا الترتيب، فإنّ الرازى قد طوى نصف الطريق جيدا، إلّا أنّه زاغ فى النصف الثّانى، و لو أنّه التفت إلى النكتة التى وردت فى متن

الآية لأكمل النصف الثّانى أيضا بسلامة، و هى أنّه لو كان المقصود من الصادقين مجموع الأمّة، فإنّ الأتباع سيكونون جزء من ذلك المجموع و هو فى الواقع اتباع الجزء للقدوة و الإمام، و سيعنى ذلك اتحاد التابع و المتبوع، فى حين نرى أنّ ظاهر الآية هو أن القدوة غير المقتدى، و التابعين غير المتبوعين، بل يفترقون عنهم. (دققوا ذلك).

و نتيجة ذلك: إنّ هذه الآية من الآيات التى تدل على وجود المعصوم فى كل عصر و زمان.

و يبقى سؤال أخير، و هو أنّ الصادقين جمع، و هل يجب على هذا الأساس أن يكون فى كل زمان معصومون متعددون؟

و الجواب على هذا السؤال واضح أيضا، و هو أنّ الخطاب ليس مختصا بأهل زمن و عصر معين، بل إنّ الآية تخاطب كل العصور و القرون، و من البديهى أن المخاطبين على مر العصور لا بد و أن سيكونوا مع جمع من الصادقين. و بتعبير آخر، فإنّه لما كان فى كل زمان معصوم، فإنّنا إذا أخذنا كل القرون و العصور بنظر الإعتبار، فإنّ الكلام سيكون عن جمع المعصومين لا عن شخص واحد.

و الشاهد الناطق على هذا الموضوع هو أنّه لا يوجد فى زمن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أحد تجب طاعته غير شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فى الوقت نفسه فإنّ من المسلّم أنّ الآية تشمل المؤمنين فى زمانه، و على هذا الأساس سنفهم أن الجمع الوارد فى الآية لا يراد منه الجمع فى زمان واحد، بل هو فى مجموعة الأزمنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۱]

اشارة

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۲۰) وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۱)

التّفسير

معاناة المجاهدين لا تبقى بدون ثواب:

كان البحث فى الآيات السابقة حول توبيخ و ملامة الممتنعين عن الاشتراك فى غزوة تبوك، و تبحث هاتان الآيتان البحث النهائى لهذا الموضوع كقانون كلّى.

فالآية الأولى تقول: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ لأنّه قائد الأمّة، و رسول اللّه، و رمز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۱

بقاء و حياة الأمّة الإسلامية، و إن تركه وحيدا لا يعرض حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم للخطر فحسب، بل يعرّض دين اللّه، و كذلك وجود و حياة المؤمنين أيضا أمام الخطر الجدى.

إنّ القرآن- فى الواقع- يرغّب كل المؤمنين بملازمة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حمايته و الدفاع عنه فى مقابل كل الأخطار و العقبات باستعمال نوع من البيان و التعبير العاطفى، فهو يقول: إنّ أرواحكم ليست بأعزّ من روح النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حياتكم ليست بأفضل من حياته، فهل يسمح لكم إيمانكم أن تدعو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يواجه الخطر و هو أفضل و أعز

موجود إنسانى، و قد بعث لنجاتكم و قيادتكم نحو الهدى و تستثقلون التضحية فى سبيله حفاظا على أرواحكم و سلامتكم؟! من البديهى أنّ التأكيد على أهل المدينة و أطرافها إنّما هو لأنّ المدينة كانت مقرّ الإسلام يومئذ و مركزه المشع، و إلّا فإنّ هذا الحكم غير مختص بالمدينة و أطرافها، و غير مختص بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّ واجب كل المسلمين، و فى جميع العصور أن يحترموا و يكرموا قادتهم كأنفسهم، بل أكثر، و يبذلون قصارى جهدهم فى سبيل الحفاظ عليهم، و لا يتركوهم يواجهون الصعاب و الأخطار وحدهم، لأنّ الخطر الذى يحدق بهؤلاء يحدق بالأمّة جميعا.

ثمّ تشير الآية إلى مكافآت المجاهدين المعدة مقابل كل صعوبة يلاقونها فى طريق الجهاد، و تذكر سبعة أقسام من هذه المشاكل و الصعاب و ثوابها، فتقول:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لا نَصَبٌ وَ لا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ و من المحتم أنّهم سيقبضون جوائزهم من اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۲

سبحانه، واحدة بواحدة، ف إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ و كذلك فإنّهم لا يبذلون شيئا فى امر الجهاد:

وَ لا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً و لا يقطعون أرضا فى ذهابهم للوصول إلى ميدان القتال، أو عند رجوعهم منه إلّا ثبت كل ذلك فى كتبهم:

وَ لا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ و إنّما يثبت ذلك لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و هنا يجب الانتباه لمسائل:

۱- إنّ جملة لا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا قد فسّرها أغلب المفسّرين كما ذكر أعلاه، و قالوا: إنّ المقصود هو أن المجاهدين فى سبيل اللّه لا يتلقون ضربة من قبل العدو، سواء جرحوا بها أو قتلوا أو أسروا و أمثال ذلك، إلّا و تسجّل فى صحائف أعمالهم ليجزوا عليها، و مقابل كل تعب و صعوبة ما يناسبها من الأجر، و من الطبيعى أننا إذا لاحظنا أنّ الآية فى مقام ذكر المصاعب و حسابها، فإن ذلك ممّا يناسب هذا المعنى.

إلّا أنّنا إذا أردنا أن نفسر هذه العبارة بملاحظة ترتيب الفقرات و موقع هذه الجملة منها، و ما يناسبها لغويا، فإنّ معنى الجملة يكون: إنّهم لا ينزلون بالعدو ضربة إلّا كتبت لهم، لأنّ معنى نال من عدوه فى اللغة: ضربه، إلّا أن النظر إلى مجموع الآية يرجح التّفسير الأوّل.

۲- ذكر المفسّرون تفسيرين لجملة: أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أحدهما على أساس أن كلمة (أحسن) وصف لأفعالهم، و الآخر على أنّها وصف لجزائهم.

فعلى التّفسير الأوّل و هو ما اخترناه، و هو الأوفق لظاهر الآية- فأنّ أعمال المجاهدين هذه قد اعتبرت و عرّفت بأنّها أحسن أعمالهم فى حياتهم، و أنّ اللّه سبحانه سيعطيهم من الجزاء ما يناسب أعمالهم.

و على التّفسير الثّانى الذى يحتاج إلى تقدير كلمة (من) بعد كلمة (أحسن) فإنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۳

تعنى إن جزاء اللّه أفضل و أثمن من أعمالهم، و تقدير الجملة: ليجزيهم اللّه أحسن ممّا كانوا يعملون، أى سيعطيهم اللّه أفضل ممّا أعطوا.

۳- إنّ الآيات المذكورة لا تختص بمسلمى الأمس، بل هى للأمس و اليوم و لكل القرون و الأزمنة.

و لا شك أنّ الاشتراك فى أى نوع من الجهاد، صغيرا كان أم كبيرا، يستبطن مواجهة المصاعب و المشاكل المختلفة، الجسمية منها و الروحية و المالية و أمثالها، إلّا أن المجاهدين أناروا قلوبهم و أرواحهم بالإيمان باللّه و وعوده الكبيرة. و علموا أن كل نفس و كلمة و خطوة يخطونها فى هذا السبيل لا تذهب سدى، بل إنّها محفوظة بكل دقة دون زيادة أو نقصان، و إنّ اللّه سبحانه سيعطيهم فى مقابل

هذه الأعمال- باعتبارها أفضل الأعمال- من بحر لطفه اللامتناهى أنسب المكافئات و أليقها ...

إنّهم إذا عاشوا هـذا الإحساس فسوف لا يمتنعون مطلقا من تحمل هـذه المصاعب مهما عظمت و ثقلت، و سوف لا يـدعون للضـعف طريقا إلى أنفسهم مهما كان الجهاد مريرا و مليئا بالحوادث و العقبات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۴

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۲۲]

اشارة

وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۱۲۲)

سبب النّزول

روى الطبرسـى رحمه اللّه فى مجمع البيان عن ابن عباس، أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم لما سار إلى ميـدان القتال، كان جميع المسلمين يسيرون بين يديه باستثناء المنافقين و المعذورين، إلّا أنّه بعد نزول الآيات التى ذمت المنافقين، و خاصّة المتخلفين عن غزوة تبوك، فإنّ المؤمنين صـمموا أكثر من قبل على المسارعة إلى ميادين الحرب، بل و حتى فى الحروب التى لم يشارك فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بنفسه، فإنّ جميع السرايا كانت تتوجه الى الجهاد، و يدعون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وحده، فنزلت الآية و أعلنت أنّه لا ينبغى فى غير الضـرورة أن يذهب جميع المسلمين إلى الجهاد، بل يجب أن يبقى جماعة منهم ليتعلموا العلوم الإسلامية و أحكام الدين من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يعلموا أصحابهم المجاهدين عند رجوعهم من القتال.

و قد نقل هذا المفسّر الكبير سببا آخر للنّزول بهذا المضمون أيضا، و هو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۵

جماعة من أصـحاب النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم انتشـروا بين القبائل يدعونهم إلى الإسـلام، فرحبّوا بهم و أحسـنوا إليهم، إلّا أنّ بعضـهم قد لا مهم على تركهم النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و التوجه إليهم، و قد تأثر هؤلاء لذلك و رجعوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فنزلت الآية تؤيد عمل هؤلاء فى الدعوة إلى الإسلام، و أزالت قلقهم.

و روى سـبب ثالث للنزول فى تفسير «التبيان»، و هو أنّ الأعراب لما أسلموا توجّهوا جميعا نحو المدينة لتعلم الأحكام الإسلامية، فسبّب ذلـك ارتفـاع قيمـة البضائع و المواد الغذائيـة، و إيجاد مشاكل و مشاغل أخرى لمسـلمى المدينـة، فنزلت الآيـة و عرّفتهم بأنّه لا يجب توجههم جميعا إلى المدينة و ترك ديارهم و أخلاؤها، بل يكفى أن يقوم بهذا العمل طائفة منهم.

التّفسير

محاربة الجهل و جهاد العدو:

إنّ لهـذه الآيـة ارتباطا بالآيات السابقة حول موضوع الجهاد، و تشـير إلى حقيقة حياتية بالنسـبة للمسـلمين، و هى: أنّ الجهاد و إن كان عظيم الأهمية، و التخلف عنه ذنب و عار، إلّا أنّه فى غير الحالات الضـرورية لا لزوم لتوجه المؤمنون كافة إلى ساحات الجهاد، خاصّـة

فى الموارد التى يبقى فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة، بل يبقى منهم جماعة لتعلم أحكام الدين و يتوجه الباقون إلى الجهاد: وَ ما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

فإذا رجع أصحابهم من الجهاد يقومون بتعليمهم هذه الأحكام و المعارف الإسلامية، و يحذرونهم من مخالفتها: وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ و الهدف من ذلك أن يحذر هؤلاء عن مخالفة أوامر اللّه سبحانه بإنذارهم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۶

ملاحظات

و هنا ملاحظات ينبغى التوقف عندها:

۱- إنّ ما قيل فى تفسير هذه الآية إضافة إلى أنّه يناسب سبب نزولها المعروف، فإنّه الأوفق مع ظاهر جمل الآية من أى تفسير آخر، إلّا أنّ الشىء الوحيد هنا هو أنّنا يجب أن نقدر جملة «لتبقى طائفة» بعد «من كل طائفة» أى: لتذهب طائفة من كل فرقة، و تبقى طائفة أخرى، و هذا الموضوع بالطبع مع ملاحظة القرائن الموجودة فى الآية لا يستوجب إشكالا. (فتأمل بدقة).

إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل عدم وجود أىّ تقدير فى الآية، و المقصود أن جماعة من المسلمين يذهبون إلى الجهاد تحت عنوان الواجب الكفائى، و يعرفون فى ساحات الجهاد أحكام الإسلام و تعاليمه، و يرون بأنفسهم انتصار المسلمين على الأعداء، الذى هو بذاته نموذج من آثار عظمة و أحقية هذا الدين، و إذا ما رجعوا يكونون أوّل من يشرح لإخوانهم ما جرى ۱۰۲].

و الاحتمال الثّالث الذى احتمله بعض المفسّرين. و هو أنّ الآية تبيّن حكما مستقلا عن مباحث الجهاد، و هو أنّه يجب على المسلمين واجبا كفائيا أن ينهض من كل قوم عدّة أفراد بمسؤولية تعلم الأحكام و العلوم الإسلامية، و يذهبوا إلى معاهد العلم الإسلامية الكبيرة، و بعد تعلمهم العلوم يرجعون إلى أوطانهم و يبدؤون بتعليم الآخرين ۱۰۳].

و لكن التّفسير الأوّل كما تقدم- أقرب إلى مفهوم الآية، و إن كانت إرادة كل هذه المعانى ليس ببعيد[۱۰۴].

۲- لقد تصور البعض وجود نوع من المنافاة بين هذه الآية و الآيات السابقة، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۷

الآيات السابقة أمرت الجميع بالتوجه إلى ساحات الجهاد، و وبخت المتخلفين بشدة، أمّا هذه الآية فتقول. أنّه لا ينبغى للجميع ان يتوجهوا إلى ميدان الحرب.

و لكن من الواضح أنّ هذين الأمرين قد صدرا فى ظروف مختلفة، فمثلا فى غزوة تبوك لم يكن هناك بد من توجه كل المسلمين إلى الجهاد لمواجهة الجيش القوى الذى أعدته إمبراطورية الروم لمحاربة الإسلام و القضاء عليه. أمّا فى حالة مقابلة جيوش و مجاميع أصغر و أقل فليست هناك ضرورة لتوجه الجميع إلى الحرب، خاصّة فى الحالات التى يبقى فيها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بنفسه، فإنّه يجب عليهم أن لا يخلوا المدينة مع احتمالات الخطر المتوقعة، و أن لا يغفلوا عن التفرغ لتعلم المعارف و الأحكام الإسلامية.

و على هذا فلا يوجد أى نوع من التنافى بين هذه الآيات، و ما تصوره البعض من التنافى هو اشتباه محض.

۳- لا شك أنّ المقصود من التفقه فى الدين هو تحصيل جميع المعارف و الأحكام الإسلامية، و هى أعم من الأصول و الفروع، لأنّ كل هذه الأمور قد جمعت فى مفهوم التفقه، و على هذا، فإنّ هذه الآية دليل واضح على وجوب توجه فئة من المسلمين وجوبا كفائيا على الدوام لتحصيل العلوم فى مختلف المجالات الإسلامية، و بعد الفراغ من التحصيل العلمى يرجعون إلى مختلف البلدان، و خصوصا بلدانهم و أقوامهم، و يعلمونهم مختلف المسائل الإسلامية.

و بناء على ذلك، فإنّ الآية دليل واضح على وجوب تعلم و تعليم المسائل الإسلامية، و بتعبير آخر فإنّها أوجبت التعلم و التعليم معا، و

إذا كانت الـدنيا فى يومنا الحاضـر تفتخر بسنّها التعليم الإجبارى، فإنّ القرآن قد فرض قبل أربعة عشـر قرنا هذا الواجب على المعلمين علاوة على المتعلمين.

۴- اسـتدل جماعة من علماء الإسـلام بهذه الآية على مسألة جواز التقليد، لأنّ التقليد إنّما هو تعلم العلوم الإسـلامية و إيصالها للآخرين فى مسائل فروع الدين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۸

و وجوب اتباع المتعلمين لمعلمين.

و كما قلنا سابقا، فإنّ البحث فى هـذه الآية لا ينحصـر فى فروع الدين، بل تشـمل حتى المسائل الأصولية، و تتضـمن الفروع أيضا على كل حال.

الإشكال الوحيد الذى يثار هنا، هو أنّ الاجتهاد و التقليد لم يكن موجودا فى ذلك اليوم، و الأشخاص الذين كانوا يتعلّمون المسائل و يوصـلونها للآخرين حكمهم كحكم البريـد و الإرسال فى يومنا هـذا، لا حكم المجتهـدين، أى إنهم كانوا يأخـذون المسألـة من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يبلغونها للآخرين كما هى من دون إبداء أى رأى أو وجهة نظر.

و لكن مع الأخذ بنظر الاعتبار المفهوم الواسع للاجتهاد و التقليد يتّضح الجواب عن هذا الإشكال.

و توضـيح ذلـك: إن ممّـا لا- شـك فيه أن علم الفقه على سـعته التى نراها اليوم لم يكن له وجود ذلك اليوم، و كان من السـهل على المسـلمين أن يتعلّموا المسائل من النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، لكن هذا لا يعنى أنّ علماء الإسـلام كان عملهم هو بيان المسائل فقط، لأن الكثير من هؤلاء كانوا يـذهبون إلى الأماكن المختلفـة كقضاة و أمراء، و من البديهى أن يواجهوا من المسائل ما لم يسـمعوا حكمهـا بالـذات من النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم، إلّا أنّهـا كانت موجودة فى عمومات و إطلاقات آيات القرآن المجيـد. فكان هؤلاء قطعا يقومون بتطبيق الكليات على الجزئيات- و فى الاصطلاح العلمى: رد الفروع إلى الأصول ورد الأصول على الفروع- لمعرفة حكم هذه المسائل، و كان هذا بحد ذاته نوعا من الاجتهاد البسيط.

إنّ هـذا العمل و أمثاله كان موجودا فى زمن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم حتما، فعلى هـذا فإنّ الجـذور الأصـلية للاجتهاد كانت موجودة بين أصحاب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لو أنّ الصحابة لم يكونوا جميعا بهذه الدرجة.

و لما كان لهذه الآية مفهوما عاما، فإنّها تشمل قبول أقوال موضحى و ناقلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۶۹

الأحكام، كما تشمل قبول قول المجتهدين، و على هذا، فيمكن الاستدلال بعموم الآية على جواز التقليد.

۵- المسألـة المهمّـة الأخرى التى يمكن استخلاصـها من الآيـة، هى الأهميـة الخاصّـة التى أولاها الإسـلام لمسألـة التعليم و التعلم، إلى الدرجـة التى ألزم فيهـا المسـلمين بـأن لا- يـذهبوا جميعـا إلى ميـدان الحرب، بـل يجب أن يبقى قسم منهم لتعلم الأحكـام و المعارف الإسلامية.

إنّ هذا يعنى أن محاربة الجهل واجب كمحاربة الأعداء، و لا تقل أهمية أحد الجهادين عن الآخر. بل إن المسـلمين ما لم ينتصروا فى محاربتهم للجهل و اقتلاع جذوره من المجتمع، فإنّهم سوف لا ينتصرون على الأعداء، (لأنّ الأمّة الجاهلة محكومة بالهزيمة دائما).

أحد المفسّـرين المعاصـرين ذكر فى ذيل هذه الآية بحثا جميلا، و قال: كنت أطلب العلم فى طرابلس و كان حاكمها الإدارى من أهل العلم و الفقه فى مـذهب الشافعية- فقال لى مرّة: لماذا تسـتثنى الدولة العلماء و طلاب العلوم الدينية من الخدمة العسـكرية و هى واجبة شرعا و هم أولى الناس بالقيام بهذا الواجب؟

يعرّض بى- أليس هـذا خطأ لا- أصـل له فى الشـرع؟ فقلت له على البداهـة: بل لهـذا أصل فى نص القرآن الكريم، و تلوت عليه الآية فاستكثر الجواب على مبتدئ مثلى لم يقرأ التّفسير و أثنى ورعا[۱۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۰

الآية [سورة التوبة (۹): آية ۱۲۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (۱۲۳)

التّفسير

قتال الأقرب فالأقرب:

أشارت الآيـة فى سـياق احكام الجهاد التى ذكرت لحـد الآن فى هذه السورة- إلى أمرين آخرين فى هذا الموضوع الإسـلامى المهم، فوجهت الخطاب أوّلا إلى المؤمنين و قالت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ.

صحيـح أنّه تجب محاربـة الكفـار جميعـا، و لا فرق بينهم فى ذلك، إلّا أنّه من الوجهـة التكتيكيـة و طريقـة القتال يجب البـدء بالعـدو الأقرب، لأنّ خطر العـدوّ القريب أكبر، كما أنّ الدعوة للإسـلام و هداية الناس إلى دين الحق يجب أن تبدأ من الأقرب، و النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم قد بدأ بأمر اللّه سـبحانه بدعوة أقاربه و عشيرته، ثمّ دعا أهل مكّة. ثمّ جزيرة العرب و قام بإرسال الرسل إليها، و بعدها كتب الرسائل إلى ملوك العالم، و لا شك أن هذا الأسلوب هو الأقرب للنجاح و الوصول إلى الهدف.

و من الطبيعى أن لكل قانون استثناء، فقد يكون العدو الأبعد- فى بعض الأحيان- أشد خطرا من العدو القريب، و عندها تجب المبادرة إلى دفعه أوّلا، لكن، كما قلنا، فإن هذا استثناء لا قانون ثابت و دائم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۱

و أمّا ما قلناه من أنّ المبادرة إلى مجابهة العدو الأقرب هى الأهم و الأوجب.

فإنّ أسبابه واضحة، و ذلك:

أوّلا: إنّ خطر العدو القريب أكبر و أشد من العدو البعيد.

ثانيا: إنّ اطلاعنا و علمنا بالعدو القريب أكثر، و هذا من العوامل المساعدة و المقربة للنصر.

ثالثا: إنّ التوجه لمحاربـة العـدو البعيد لا يخلو من خطورة اضافية، فالعدو القريب قد يسـتغل الفرصة و يحمل على الجيش من الخلف، أو يستغل خلو المقر الأصلى للإسلام فيهجم عليه.

رابعا: إنّ الوسائل اللازمة و نفقات محاربة العدوّ القريب أقل و أبسط، و التسلط على ساحة الحرب فى ظل ذلك أسهل.

لهذه الأسباب و أسباب أخرى، فإنّ دفع العدو الأقرب هو الأوجب و الأهم.

و الجـدير بالـذكر أنّ هذه الآية لما نزلت كان الإسـلام قد اسـتولى على كل جزيرة العرب تقريبا، و على هذا فإن أقرب عدو فى ذلك اليوم ربّما كان أمبراطورية الروم الشرقية التى توجه المسلمون إلى تبوك لمحاربتها.

و كـذلك يجب أن لا ننسـى أنّ هـذه الآيـة بالرغم من أنّها تتحدث عن العمل المسـلح و البعد المكانى، إلّا أنّه ليس من المسـتبعد أن روح الآيـة حاكمـة فى الأعمال المنطقيـة و الفواصل المعنويـة، أى إنّ المسـلمين عنـد ما يعزمون على المجابهة المنطقية و الإعلامية و التبليغية يجب أن يبدؤوا بمن يكون أقرب إلى المجتمع الإسـلامى و أشدّ خطرا عليه، فمثلا فى عصـرنا الحاضر نرى أن خطر الإلحاد و المادية يهدد كل المجتمعات، فيجب تقديم التصدّى لها على مواجهة المذاهب الباطلة الأخرى، و هذا لا يعنى نسيان هؤلاء، بل يجب

إعطاء الأهمیـة القصوی للهجوم نحو الفئة الأخطر، و هکذا فی مواجهة الاسـتعمار الفکری و السیاسـی و الاقتصادی التی تحوز الدرجة الأولی من الأهمیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۲

و الأمر الثّانی فیما یتعلق بالجهاد فی الآیـة، هو أسـلوب الحزم و الشـدّة، فهی تقول: إن العـدو یجب أن یلمس فی المسـلمین نوعا من الخشونة و الشدّة:

وَ لْیَجِدُوا فِیکُمْ غِلْظَةً و هی تشیر إلی أنّ الشجاعة و الشهامة الداخلیة و الاستعداد النفسی لمقابلة العدو و محاربته لیست کافیة بمفردها، بل یجب اظهار هـذا الحزم و الصـلابة للعـدو لیعلم أنّکم علی درجـة عالیـة من المعنویات، و هذا بنفسه سـیؤدی إلی هزیمتهم و انهیار معنویاتهم.

و بعبارة أخری فإنّ امتلاک القدرة لیس کافیا، بل یجب اسـتعراض هذه القوّة أمام العدو. و لهذا نقرأ فی تأریخ الإسـلام أنّ المسـلمین عنـد ما أتوا إلی مکّة لزیارة بیت اللّه، أمرهم رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أن یسـرعوا فی طوافهم، بل أن یعـدوا و یرکضوا لیری العدو- الذی کان یراقبهم عن کثب- قوتهم و سرعتهم و لیاقتهم البدنیة.

و کذلک نقرأ فی قصّة فتح مکّة أنّ النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سلّم أمر المسلمین فی اللیل أن یشعلوا نیرانا فی الصحراء لیعرف أهل مکّة عظمة جیش الإسلام، و قد أثر هذا العمل فی معنویاتهم. و کذلک أمر أن یجعل أبو سفیان کبیر مکّة فی زاویة و یستعرض جیش الإسلام العظیم قواته أمامه.

و فی النهایـة تبشـر الآیة المسـلمین بالنصـر من خلال هذه العبارة: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِینَ و یمکن أن یشـیر هذا التعبیر- إضافة لما قیل- إلی أن استعمال الشدّة و الخشونة یجب أن یقترن بالتقوی، و لا یتعدی الحدود الإنسانیة فی أی حال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۳

الآیتان [سورة التوبة (۹): الآیات ۱۲۴ الی ۱۲۵]

اشارة

وَ إِذا مـا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ أَیُّکُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِیماناً فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِیماناً وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ (۱۲۴) وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ کافِرُونَ (۱۲۵)

التّفسیر

تأثیر آیات القرآن المتباین علی القلوب:

تشیر هاتان الآیتان إلی واحدة من علامات المؤمنین و المنافقین البارزة، تکملة لما مرّ من البحوث حولهما.

فتقول أوّلاـ: وَ إِذا مـا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ أَیُّکُمْ زادَتْهُ هـذِهِ إِیماناً[۱۰۶] و هم یریـدون بکلامهم هـذا أن یبینوا عدم تأثیر سور القرآن فیهم، و عـدم اعتنـائهم بها، و یقولون: إنّ هـذه الآیات لا تحتوی علی الشـیء المهم و المحتوی الغنی، بل هی کلمات عادیـة و معروفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۴

و لکن القرآن یجیبهم بلهجة قاطعة، و یقول ضمن تقسیم الناس الی طائفتین:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

و هذا على خلاف المنافقين و مرضى القلوب من الجهل و الحسد و العناد وَ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ و فى النهاية، فإنّ هؤلاء بعنادهم يغادرون الدنيا على الكفر: وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ

ملاحظات

و هنا ملاحظات ينبغى التنبه لها:

۱- إنّ القرآن الكريم يؤكّد من خلال هاتين الآيتين على حقيقة، و هى أنّ وجود البرامج و القوانين الحياتية لا تكفى بمفردها لسعادة فرد أو جماعة، بل يجب أن يؤخذ بنظر الإعتبار وجود الأرضية المهيئة و الاستعداد للتلقى كشرط أساسى.

إنّ آيات القرآن كقطرات المطر تصيب الحديقة الغناء و الأرض السبخة، فالذين ينظرون إلى الحقائق بروح التسليم و الإيمان و العشق، يتعلمون من كل سورة- بل من كل آية- درسا يزيد فى إيمانهم، و يفعّل سمات الإنسانية لديهم.

أمّا الذين ينظرون إلى هذه الآيات من خلف حجب العناد و الكبر و النفاق، فإنّهم لا يستفيدون منها، بل و تزيد فى كفرهم و رجسهم. و بتعبير أخر فإنّهم يعصون كل أمر فيها ليرتكبوا بذلك معصية جديدة تضاف إلى معاصيهم، و يواجهون كل قانون بالتمرد عليه، و يصرون على رفض كل حقيقة، و هذا هو سبب تراكم المعاصى و الآثام فى وجودهم، و بالتالى تتجذّر هذه الصفات الرذيلة فى كيانهم، و فى النهاية إغلاق كل طرق الرجوع بوجوههم و موتهم على الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۵

و بتعبير آخر فإنّ (فاعلية الفاعل) فى كل برنامج تربوى لا تكفى لوحدها، بل إنّ روح التقبل و (قابلية القابل) شرط اساسى أيضا.

۲- «الرجس» فى اللغة بمعنى الخبيث النجس السيء، و على قول الراغب فى كتاب المفردات، فإنّ هذا الخبث و التلوث أربعة أنواع: فتارة ينظر إليه من جهة الغريزة و الطبع، و أخرى من جهة الفكر و العقل، و ثالثة من جهة الشرع، و رابعة من كل الجهات.

و لا شك أنّ السوء و الخبث الناشئ من النفاق و اللجاجة و التعنت أمام الحق سيولد نوعا من الشر و الخبث الباطنى و المعنوى بحيث يبدو أثره بوضوح فى النهاية على الإنسان و كلامه و سلوكه.

۳- إنّ جملة وَ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ مع ملاحظة أنّ أصل كلمة (بشارة) تعنى السرور و الفرح الذى تظهر آثاره على وجه الإنسان، تبيّن مدى تأثير الآيات القرآنية التربوى فى المؤمنين، و وضوح هذا التأثير بحيث تبدو علاماته فورا على وجوههم.

۴- لقد اعتبرت هذه الآيات «المرض القلبى» نتيجة حتمية و ملازمة للنفاق و الصفات القبيحة. و كما قلنا سابقا فإنّ القلب فى مثل هذه الموارد يعنى الروح و العقل، و مرض القلب فى هذه المواضع بمعنى الرذائل الأخلاقية و الانحرافات النفسية، و هذا التعبير يوضح أنّ الإنسان إذا كان يتمتع بروح سالمة و طاهرة فلا أثر فى وجوده لهذه الصفات الذميمة، و مثل هذه الأخلاق السيئة كالمرض الجسمى خلاف طبيعة الإنسان، و على هذا فإنّ التلوّث بهذه الصفات دليل على الانحراف عن المسير الأصلى و الطبيعى، و دليل على المرض الروحى و النفسى ۱۰۷].

۵- إنّ هذه الآيات تعطى درسا كبيرا لكل المسلمين، لأنّها تبيّن هذه الحقيقة، و هى أنّ المسلمين الأوائل كانوا يشعرون بروح جديدة مع نزول كل سورة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۶

القرآن، و يتربون تربية جديدة تصل إلى درجة بحيث تبدو آثارها بسرعة على محياهم، بينما نرى اليوم أشخاصا، ظاهرهم أنّهم مسلمون، لا تؤثر فيهم السورة إذا قرءوها، بل إن ختم القرآن كله لا يترك أدنى أثر عليهم! هل أنّ سور القرآن فقدت تأثيرها؟ أم أن تسمم الأفكار، و مرض القلوب، و وجود الحجب المتراكمة من أعمالنا السيئة هى التى أدت إلى خلق حالة عدم الاهتمام، و جعلت

على القلوب أكنة لا يمكن اختراقها؟

يجب علينا أن نلتجئ إلى اللّه من حالنا هذا، و نسأله أن يمن علينا بقلوب كقلوب المسلمين الأوائل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۷

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۶ الى ۱۲۷]

اشارة

أ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عام مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۲۷)

التّفسير

يستمر الكلام فى هذه الآيات حول المنافقين، و هى توبّخهم و تذمهم فتقول:

أ وَ لا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ و العجيب أنّهم رغم هذه الامتحانات المتلاحقة لا يعتبرون ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَ لا هُمْ يَذَّكَّرُونَ

و هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه ما هو المراد من هذا الاختبار السنوى الذى يجرى مرّة أو مرّتين؟

فالبعض يقول: إنّه الأمراض، و البعض الآخر يقول: إنّه الجوع و الشدائد الأخرى، و ثالث يقول: إنّه مشاهدة آثار عظمة الإسلام و أحقية النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ساحات الجهاد التى كان يحضرها هؤلاء المنافقون بحكم الضغط الاجتماعى و ظروف البيئة التى يعيشونها، و رابع يعتقد أنّه رفع الستار عن أسرارهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۸

و فضيحتهم.

غير أنا إذا قرأنا آخر الآية حيث تذكر أنّ هؤلاء لم يتذكروا رغم كل ذلك، سيتّضح أنّ هذا الاختبار من الاختبارات التى ينبغى أن تكون سببا فى توعية هذه المجموعة.

و يظهر أيضا من تعبير الآية أنّ هذا الاختبار يختلف عن الاختبار العام الذى يواجهه كل الناس فى حياتهم. و إذا أخذنا هذا الموضوع بنظر الإعتبار فسيظهر أن التّفسير الرّابع- أى إزاحة الستار عن أعمال هؤلاء السيئة و ظهور باطنهم و حقيقتهم- أقرب إلى مفهوم الآية.

و يحتمل أيضا أن يكون للامتحان و الابتلاء فى هذه الآية مفهوم جامع بحيث يشمل كل هذه المواضيع.

ثمّ تشير الآية إلى الموقف الإنكارى لهؤلاء فى مقابل الآيات الإلهية، فتقول:

وَ إِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ

إنّ خوف هؤلاء و قلقهم ناشى، من أنّ تلك السورة تتضمن فضيحة جديدة لهم، أو لأنّهم لا يفهمون منها شيئا لعمى قلوبهم، و الإنسان عدو ما يجهل.

و على كل حال، فإنّهم كانوا يخرجون من المسجد حتى لا يسمعوا هذه الأنغام الإلهية، إلّا أنّهم كانوا يخشون أن يراهم أحد حين خروجهم، و لذلك كان أحدهم يهمس فى أذن صاحبه و يسأله: هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ و إذا ما اطمأنوا إلى أن الناس منشغلون بسماع كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و غير ملتفتين إليهم خرجوا: ثُمَّ انْصَرَفُوا.

إنّ جملة هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ، كانوا يقولونها إمّا بألسنتهم، أو بإشارة العيون، فى حين أن الجملة الثّانية نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ تبيّن أمرا

واحدا هو نفس ما عينته الجملة الأولى، و فى الحقيقة فإنّ هل يراكم أحد تفسير لنظر بعضهم إلى البعض الآخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۷۹

و تطرقت الآية فى الختام إلى ذكر علة هذا الموضوع فقالت: إنّ هؤلاء إنّما لا يريدون سماع كلمات اللّه سبحانه و لا يرتاحون لذلك لأنّ قلوبهم قد حاقت بها الظلمات لعنادهم و معاصيهم فصرفها اللّه سبحانه عن الحق، و أصبحوا أعداء للحق لأنّهم أناس جاهلون لا فكر لهم: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ

و قد ذكر المفسّرون لقوله تعالى: صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ احتمالين:

الأوّل: إنّها جملة خبرية. كما فسرناها قبل قليل.

الثّانى: إنّها جملة إنشائية، و يكون معناها اللعنة، أى إنّ اللّه سبحانه يصرف قلوب هؤلاء عن الحق. إلّا أن الاحتمال الأوّل هو الأقرب كما يبدو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۰

الآيتان [سورة التوبة (۹): الآيات ۱۲۸ الى ۱۲۹]

اشارة

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۱۲۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۱۲۹)

التّفسير

آخر آيات القرآن المجيد:

إنّ هذه الآيات برأى بعض المفسّرين، هى آخر الآيات التى نزلت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و بها تنتهى سورة براءة، فهى فى الواقع إشارة إلى كل المسائل التى مرّت فى هذه السورة، لأنّها تبيّن من جهة لجميع الناس، سواء المؤمنون منهم أم الكافرون و المنافقون، أنّ جميع الضغوط و التكاليف التى فرضها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن الكريم، و التى ذكرت نماذج منها فى هذه السورة، كانت كلها بسبب عشق النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لهداية الناس و تربيتهم و تكاملهم.

و من جهة أخرى فإنّها تخبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا- يقلق و لا- يتحرق لعصيان و تمرد الناس، و الذى ذكرت منه- أيضا- نماذج كثيرة فى هذه السورة، و ليعلم أنّ اللّه سبحانه حافظه و معينه على كل حال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۱

و من هنا فإنّ خطاب الآية الأولى موجه للناس، فهى تقول: لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ خاصّة و أنّه قد وردت لفظة مِنْ أَنْفُسِكُمْ بدل منكم، و هى تشير إلى شدة ارتباط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالناس، حتى كأنّ قطعة من روح الناس و المجتمع قد ظهرت بشكل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لهذا السبب فإنّه يعلم كل آلامهم، و مطلع على مشاكلهم، و شريكهم فى غمومهم و همومهم، و بالتالى لا- يمكن أن يتصور صدور كلام منه إلّا فى مصلحتهم، و لا- يخطو خطوة إلّا فى سبيلهم، و هذا فى الواقع أوّل وصف للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ذكر فى هذه الآية.

و من العجيب أنّ جماعة من المفسّرين الذين وقعوا تحت تأثير العصبية القومية و العربية قالوا: إنّ المخاطب فى هذه الآية هم العرب!

أى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاءكم من هذا الأصل!.

إنّنا نعتقد أن هذا هو أسوأ تفسير ذكر لهذه الآية، لأنا نعلم أنّ الشيء الذى لم يجر له ذكر فى القرآن الكريم هو مسألة الأصل و العرق، ففى كل مكان تبدأ خطابات القرآن ب يا أَيُّهَا النَّاسُ و يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و أمثالها، و لا يوجد فى أى مورد «يا أيّها العرب» و «يا قريش» و أمثال ذلك.

إضافة الى أنّ ذيل الآية الذى يقول: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ينفى هذا التّفسير بوضوح، لأنّ الكلام فيه عن كل المؤمنين، من أى قومية أو عرق كانوا.

و ممّا يثير الأسف أنّ بعض العلماء المتعصبين قد حجّموا عالمية القرآن و عموميته لكل البشر، و حاولوا حصره فى حدود القومية و العرق المحدودة.

و على كل حال، فبعد ذكر هذه الصفة مِنْ أَنْفُسِكُمْ أشارت الآية إلى أربع صفات أخرى من صفات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم السامية، و التى لها الأثر العميق فى إثارة عواطف الناس و جلب انتباههم و تحريك أحاسيسهم.

ففى البداية تقول: عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ أى أن الأمر لا ـ ينتهى فى أنّه لا ـ يفرح لأذاكم و مصاعبكم، بل إنّه لا يقف موقف المتفرج تجاه هذا الأذى، فهو يتألم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۲

لألمكم، و إذا كان يصرّ على هدايتكم و يتحمل الحروب المضنية الرهيبة، فإنّ ذلك لنجاتكم أيضا، و لتخليصكم من قبضة الظلم و الاستبداد و المعاصى و التعاسة.

ثمّ تضيف أنّه حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ و يتحمس لهدايتكم.

«الحرص» فى اللغة بمعنى قوة و شدة العلاقة بالشيء، و اللطيف هنا أن الآية أطلقت القول و قالت: حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ فلم يرد حديث عن الهداية، و لا ـ عن أى شيء آخر، و هى تشير إلى عشقه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكل خير و سعادة ورقى لكم. و كما يقال: إن حذف المتعلق دليل على العموم.

و على هذا، فإنّه إذا دعاكم و سار بكم إلى ساحات الجهاد المريرة، و إذا شدّد النكير على المنافقين، فإنّ كل ذلك من أجل عشقه لحريتكم و شرفكم و عزتكم.

و هدايتكم و تطهير مجتمعكم.

ثمّ تشير إلى الصفتين الثّالثة و الرّابعة و تقول: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ و على هذا فإنّ كل الأوامر الصعبة التى يصدرها، (حتى المسير عبر الصحارى المحرقة فى فصل الصيف المقرون بالجوع و العطش لمواجهة عدو قوى فى غزوة تبوك) فإنّ ذلك نوع من محبته و لطفه.

و هناك بحث بين المفسّرين فى الفرق بين «الرؤوف» و «الرحيم»، إلّا أنّ الذى يبدو أن أفضل تفسير لهما هو أنّ الرؤوف إشارة إلى محبّة خاصّة فى حقّ المطيعين، فى حين أنّ الرحيم إشارة إلى الرحمة تجاه العاصين، إلّا أنّه يجب أن لا يغفل عن أن هاتين الكلمتين عند ما تفصلان يمكن أن تستعملا فى معنى واحد، أمّا إذا اجتمعتا فتعطيان معنى مختلفا أحيانا.

و فى الآية التى تليها، و هى آخر آية فى هذه السورة، وصف للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه شجاع و صلب فى طريق الحق، و لا ييأس بسبب عصيان الناس و تمردهم، بل يستمر فى دعوتهم إلى دين الحق: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فهو حصنه الوحيد .. أجل لا حصن لى إلّا اللّه، فإليه استندت و عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۳

رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

إنّ الـذی بیـده العرش و العـالم العلوی و ما وراء الطبیعـة بکل عظمتها، و هی تحت حمایته و رعایته، کیف یترکنی وحیـدا و لا یعیننی علی الأعداء؟ فهل توجد قدرة لها قابلیة مقاومة قدرته؟ أم یمکن تصور رحمة و عطف أشد من رحمته و عطفه؟

إلهنا، الآن و قد أنهینا تفسیر هذه السورة، و نحن نکتب هذه الأسـطر، فإن أعداءنا قد أحاطوا بنا، و قد ثارت أمتنا الرشـیدة لقلع جذور الظلم و الفساد و الاسـتبداد، بوحدة لا نظیر لها، و اتحاد بین کل الصـفوف و الطبقات بدون اسـتثناء حتی الأطفال و الرضع ساهموا فی هذا الجهاد و المقارعة، و لم یتوان أی فرد عن القیام بأی نوع من التضحیة و الفداء.

ربّاه، إنّک تعلم کل ذلک و تراه، و أنت منبع الرحمـة و الحنان، و قـد وعـدت المجاهـدین بالنصـر، فعجل النصـر و أنزله علینا، و ارو هؤلاء العطاشی و العشاق من زلال الإیمان و العدل و الحریة، إنّک علی کل شیء قدیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۵

سورة یونس

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها مائة و تسع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۷

«سورة یونس علیه السّلام»

محتوی و فضیلة هذه السورة

هذه السورة من السور المکیة، و علی قول بعض المفسّـرین فإنّها نزلت بعد سورة الإسـراء و قبل سورة هود، و توکّد- ککثیر من السور المکیة- علی عدة مسائل أساسیة و أصولیة، و أهمها مسألة المبدأ و المعاد.

غایـة ما فی الأمر أنّها تتحدث أوّلا عن مسألة الوحی و مقام النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم، ثمّ تتطرق إلی نماذج و علامات الخلقة العظیمة التی تدل علی عظمة اللّه عز و جل، و بعد ذلک تدعو الناس إلی الالتفات إلی عدم بقاء الحیاة المادیة فی هذه الدنیا، و حتمیة زوالها، و وجوب التوجه إلی الآخرة و التهیؤ لها عن طریق الإیمان و العمل الصالح.

و قـد ذکرت السورة- کدلائل و شواهد علی هذه المسائل- أقساما مختلفة من حیاة کبار الأنبیاء، و من جملتهم نوح و موسـی و یونس علیهم السّلام و لهذا سمّیت بسورة یونس.

و قـد ذکرت کـذلک، لتأیید هذه المباحث، کلاما عن عناد و تصـلب عبدة الأوثان، و ترسم و توضح لهم حضور اللّه سـبحانه فی کل مکان و شهادته، و تستعین لإثبات هذه المسألة بأعماق فطرة هؤلاء التی تتعلق بالواحد الأحد عند ما یقعون فی المشاکل و المعضلات، حیث یتّضح هذا التعلق الفطری باللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۸

و أخیرا فإنّها تسـتغل کل فرصـة للبشارة و الإنـذار، البشارة بالنعم الإلهیـة التی لا حـدود لها للصالحین، و الإنـذار و الإرعاب للطاغین و العاصین، لتکملة البحوث أعلاه.

و لهذا فإنّنا نقرأ

فی روایـة عن الإمام الصّادق علیه السّـلام: «من قرأ سورة یونس فی کل شـهرین أو ثلاثة مرّة، لم یخف علیه أن یکون من الجاهلین، و کان یوم القیامة من المقربین»[۱۰۸]،

و ذلك لأنّ آيات التحذير و الوعيد و آيات التوعية كثيرة فى هذه السورة، و إذا ما قرئت بدقة و تأمل، فإنّها ستكشف ظلمة الجهل عن روح ابن آدم، و سيبقى أثرها عدّة أشهر على الأقل، و إذا ما أدرك الإنسان محتوى السورة و عمل بها، فإنّه سيكون- يقينا- يوم القيامة من المقربين.

ربّما لا نحتاج أن نذكّر بأنّ فضائل السور- كما قلنا سابقا- لا يمكن تحصيله بمجرّد تلاوة الآيات من دون إدراك معناها، و من دون العمل بمحتواها، لأن التلاوة مقدمة للفهم، و الفهم مقدمة للعمل!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۸۹

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (۱) أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (۲)

التّفسير

رسالة النّبى:

فى هذه السورة نواجه- مرّة أخرى- الحروف المقطعة فى القرآن، و التى ذكرت بصورة (ألف و لام وراء) و قد تحدثنا فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف فى تفسير هذه الحروف بالقدر الكافى، و سنبحثها فى المستقبل- إن شاء اللّه تعالى- فى الموارد المناسبة، و سنضيف إليها مباحث و مطالب جديدة.

بعد هذه الحروف تشير الآية أوّلا إلى عظمة آيات القرآن و تقول: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ

إنّ التعبير ب (تلك) و هى اسم إشارة للبعيد، بدل (هذه) التى تشير للقريب، و الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۰

جاء نظيره فى بداية سورة البقرة، يعتبر من التعبيرات الجميلة و اللطيفة فى القرآن، و هو كناية عن عظمة و رفعة مفاهيم القرآن، لأنّ المطالب اليسيرة و البسيطة يشار لها غالبا باسم الإشارة القريب، أمّا المطالب المهمّة العالية المستوى، و التى تعانق السحاب فى علو أفقها، فإنّها تبيّن باسم الإشارة البعيد.

إنّ توصيف الكتاب السماوى- أى القرآن- بأنّه (حكيم) هو إشارة إلى أن آيات القرآن محكمة و منظمة و دقيقة، بحيث لا يمكن أن يأتيها أو يخالطها أى شكل من أشكال الباطل و الخرافة، فهى لا تقول إلّا الحق، و لا تدعو إلّا إلى طريق الحق.

أمّا الآية الثّانية فإنّها تبيّن- و لمناسبة تلك الإشارة التى مرّت إلى القرآن و الوحى الإلهى فى الآية السابقة- واحدا من إشكالات المشركين على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو نفس الإشكال الذى جاء فى القرآن بصورة متكررة. و هذا التكرار يبيّن أن هذا الإشكال من إشكالات المشركين المتكررة، و هو: لماذا نزل الوحى الإلهى من اللّه على إنسان مثلهم؟ و لماذا لم تتعهد الملائكة بمسؤولية هذه الرسالة الكبيرة؟ فيجيب القرآن عن هذه الأسئلة فيقول: أَ كانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ

الواقع أنّ كلمة «منهم» تضمنت الجواب على سؤالهم، أى إنّ القائد و المرشد إذا كان من جنس أتباعه، و يعلم أمراضهم، و مطلع على

احتياجاتهم، فلا مجال للتعجب، بل العجب أن يكون القائد من غير جنسهم، بحيث يعجز عن قيادتهم نتيجة عدم اطلاعه على وضعهم.

ثمّ تشير إلى محتوى الوحى الإلهى. و تلخصه فى أمرين:

الأوّل: إنّ الوحى الذى أرسلناه، مهمته إنذار الناس و تحذيرهم من عواقب الكفر و المعاصى: أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ

و الثّانى: هو وَ بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و فى الوقت الذى يوجد بحث بين المفسّرين فى المقصود من «قدم الصدق»، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۱

أنّ أحد التفاسير الثلاثة المذكورة هنا- أوكل الثلاثة- قابل للقبول بصورة علمية.

فالتّفسير الأوّل: إن «قدم الصدق» هذا إشارة إلى أن الإيمان له ب «سابقة فطرية»، و إنّ المؤمنين عند ما يظهرون إيمانهم فهم فى الحقيقة يصدقون فطرتهم- لأنّ أحد معانى القدم هو السابقة- كما يقولون: لفلان قدم فى الإسلام، أو قدم فى الحرب، أى إنّ له سبقا فى الإسلام أو الحرب.

و الثّانى: إنّه إشارة إلى مسألة المعاد و نعيم الآخرة، لأنّ أحد معانى القدم هو المقام و المنزلة، و هو يناسب كون الإنسان يرد إلى منزله و مقامه برجله، و هذا التّفسير يعنى أنّ للمؤمنين مقاما و منزلة ثابتة و حتمية عند اللّه سبحانه، و أن أى قوّة لا تستطيع تغييرها و جعلها فى شكل آخر.

أمّا التّفسير الثّالث فهو أن القدم بمعنى القدوة و الزعيم و القائد، أى إننا أرسلنا للمؤمنين قائدا و مرشدا صادقا.

لقد وردت عدّة روايات عن طريق الشيعة و السنة لهذه الآية تفسر قدم الصدق بأنّه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو ولاية على عليه السّلام و تؤيد هذا المعنى ۱۰۹].

و كما قلنا فإنّ من الممكن أن تكون البشارة بكل هذه الأمور هى المرادة من التعبير أعلاه.

و تنهى الآية حديثها بذكر اتهام طالما كرّره المشركون و اتهموا به النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فقالت: قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ

إنّ كلمة (إن) و «لام» التأكيد و صفة «المبين»، كلها دلائل على مدى تأكيد أولئك الكفار على هذه التهمة، و عبروا ب (هذا) لتصغير مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و التقليل من أهميته.

أمّا لماذا اتهموا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالسحر؟ فجوابه واضح، ذلك أنّهم لم يكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۲

يمتلكون الجواب المقنع مقابل إعجاز كلامه و شريعته و قوانينه العادلة الرفيعة. فلم يكن لهم سبيل إلّا أن يفسروا هذه الظواهر الخارقة للعادة بأنّها سحر، و بهذا فقط يمكنهم إبقاء البسطاء تحت سيطرة الجهل و عدم الاطلاع على الواقع.

إنّ أمثال هذه التعبيرات التى كانت تصدر من ناحية الأعداء ضد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم دليل بنفسها على أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقوم بأعمال خارقة للعادة، بحيث تجذب القلوب و الأفكار نحوها، خاصّة و أن التأكيد على السحر فى شأن القرآن المجيد هو بنفسه دليل قاطع و قوى على الجاذبية الخارقة الموجودة فى هذا الكتاب السماوى، و لأجل خداع الناس فإنّهم كانوا يجعلونه فى إطار السحر.

و سنتحدث عن هذا الموضوع فى الآيات المناسبة إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۳

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳ الى ۴]

اشارة

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۴)

التّفسير

معرفة اللّه و المعاد:

بعد أن أشار القرآن الكريم إلى مسألة الوحى و النّبوة فى بداية هذه السورة، انتقل فى حديثه إلى أصلين أساسيين فى تعليمات و تشريعات جميع الأنبياء، ألا و هما المبدأ و المعاد، و بيّن هذين الأصلين ضمن عبارات قصيرة فى هاتين الآيتين.

فيقول أوّلا: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ و كما أشرنا سابقا، فإنّ كلمة (يوم) فى لغة العرب، و ما يعادلها فى سائر اللغات، تستعمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۴

فى كثير من الموارد بمعنى المرحلة، كما نقول: فى يوم ما كان الاستبداد يحكم بلادنا، أمّا اليوم فهى فى ظل الثورة الاسلامية تنعم الحرية، و يعنى أن مرحلة الاستبداد قد انتهت و جاءت مرحلة استقلال الشعب و حريته ۱۱۰].

و على هذا فإنّ مفهوم الجملة أعلاه يكون: إنّ اللّه سبحانه قد خلق السماء و الأرض فى ستة مراحل، و لما كنّا قد تحدثنا عن هذه المراحل الستة سابقا، فإنّنا لا نكرر الكلام هنا[۱۱۱].

ثمّ تضيف الآية: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ. كلمة «العرش» تأتى أحيانا بمعنى السقف، و أحيانا بمعنى الشىء الذى له سقف، و تارة بمعنى الأسرّة المرتفعة، هذا هو المعنى الأصلى لها، أمّا معناها المجازى فهو القدرة، كما نقول:

فلان تربع على العرش، أو تحطمت قوائم عرشه، أو أنزلوه من العرش، فكلها كناية عن تسلم القدرة أو فقدانها، فى الوقت الذى يمكن أن لا يكون للعرش أو الكرسى وجود فى الواقع أصلا، و لهذا فإنّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ تعنى أنّ اللّه سبحانه قد أمسك بزمام أمور العالم ۱۱۲].

«التدبر» من مادة (التدبير) و فى الأصل من (دبر) بمعنى الخلف و عاقبة الشىء، و على هذا فإنّ معنى التدبير هو التحقق من عواقب الأعمال، و تقييم المنافع، ثمّ العمل طبق ذلك التقييم. إذن، و بعد أن تبيّن أنّ الخالق و الموجد هو اللّه سبحانه، اتّضح أنّ الأصنام- هذه الموجودات الميتة و العاجزة- لا يمكن أن يكون لها أى تأثير فى مصير البشر، و لهذا قالت الآية فى الجملة التالية: ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۱۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۵

و تتحدث الآية التالية- كما أشرنا- عن المعاد، و تبيّن فى جمل قصار أصل مسألة المعاد، و الدليل عليها، و الهدف منها!.

فتقول أوّلا: إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً و بعد الاستناد إلى هذه المسألة المهمّة و التأكيد عليها تضيف: وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ثمّ تشير إلى الدليل على ذلك بقولها: إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ أى إنّ هؤلاء الذى يشكّون فى المعاد يجب عليهم أن ينظروا إلى بدء الخلق، فإنّ من أوجد العالم فى البداية يستطيع أن يعيده من جديد. و قد مر بيان هذا الاستدلال بصورة أخرى فى الآية (۲۹) من سورة الأعراف ضمن جملة قصيرة تقول: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ و قد سبق شرح ذلك فى تفسير سورة الأعراف.

إنّ الآيات المرتبطة بالمعاد فى القرآن توضح أنّ العلة الأساسية فى تشكيك و تردد المشركين و المخالفين، هى أنّهم كانوا يشكون فى إمكان حدوث مثل هذا الشىء، و كانوا يسألون بتعجب بأنّ هذه العظام النخرة التى تحولت إلى تراب، كيف يمكن أن تعود لها الحياة و ترجع إلى حالتها الأولى؟ و لهذا نرى أنّ القرآن قد وضع إصبعه على مسألة الإمكان هذه و يقول: لا تنسوا أن الذى يبعث الوجود من جديد، و يحيى الموتى هو نفسه الذى أوجد الخلق فى البداية.

ثمّ تبيّن الهدف من المعاد بأنّه لمكافأة المؤمنين على جميع أعمالهم الصالحة حيث لا تخفى على اللّه سبحانه مهما صغرت: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ أمّا أولئك الذين اختاروا طريق الكفر و الإنكار، و لم تكن لديهم أعمال صالحة- لأنّ الإعتقاد الصالح أساس العمل الصالح- فإنّ العذاب الأليم و أنواع العقوبات بانتظارهم: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ

و هنا نقطتان تسترعيان الانتباه:

۱- لما لم يكن للّه سبحانه و تعالى مكان خاص، و خاصّة إذا علمنا أنّه موجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۶

فى كل مكان فى جميع العوالم، و أنّه أقرب إلينا منّا، فإنّ هذه الحقيقة قد جعلت المفسّرين يفسرون إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فى هذه الآية، و الآيات الأخرى فى القرآن، تفاسير مختلفة:

فقيل تارة أن المقصود هو أنّكم ترجعون إلى جزاء اللّه سبحانه.

و ربّما اعتبر بعض الجاهلين هذا التعبير دليلا على تجسم اللّه سبحانه فى يوم القيامة، و بطلان هذه العقيدة أوضح من أن يحتاج إلى بيان و إثبات.

إلّا أنّ الذى يبدو بدقة من خلال آيات القرآن الكريم، إنّ عالم الحياة كقافلة تحركت من عالم العدم و تستمر فى مسيرتها اللانهائية نحو اللانهاية التى هى ذات اللّه المقدسة، بالرغم من أنّ المخلوقات محدودة، و المحدود لا يمكن أن يكون لا نهائيا قط، غير أنّ سيره إلى التكامل لا يتوقف أيضا، و حتى بعد قيام القيامة فإنّ السير التكاملى سيستمر، كما أوضحنا ذلك فى بحث المعاد.

يقول القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً.

و يقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ

و لما كان بداية الحركة من جهة الخالق، حيث شعت منه أوّل بارقة للحياة، و أن هذه الحركة التكاملية- أيضا- تسير نحوه، فقد عبّرت الآية بالرجوع. و بعبارة مختصرة فإنّ هذه التعبيرات إضافة إلى أنّها تشير إلى أن بداية حركة عامّة الموجودات من اللّه سبحانه، فإنّها تبيّن أيضا أنّ هدف هذه الحركة و غايتها، هى ذات اللّه المقدسة. و إذا لا حظنا أن تقديم كلمة «إليه» يدل على الحصر، سيتّضح أن اى وجود غير ذات اللّه المقدسة لا يمكن أن يكون هدفا و غاية لهذه الحركة التكاملية لا الأصنام و لا أى مخلوق آخر، لأنّ كل هذه الوجودات محدودة، و مسير الإنسان مسير لا نهائى.

۲- إنّ كلمة «القسط» تعنى فى اللغة إعطاء سهم آخر، و لذلك فقد أخفى فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۷

مفهوم العدل و الإنصاف. و اللطيف أنّ الآية قد استعملت هذه الكلمة فى حق ذوى الأعمال الصالحة فقط، و لم تذكرها فى جزاء الكافرين و السيئى الأعمال، و ذلك لأنّ العذاب ليس على شكل الحصص و الأرباح، و بتعبير أخر فإنّ كلمة القسط تناسب الجزاء الحسن فقط، لا العقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلاَّ بِالْحَقِّ یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ (۵) إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ (۶)

التّفسير

جانب من آيات عظمة اللّه:

لقد مرّت فى الآيات السابقة إشارة عابر إلى مسألة المبدأ و المعاد، إلّا أن هذه الآيات و ما بعدها تبحث بصورة مفصلة هذين الأصلين الأساسيين اللذين يمثلان أهم دعامة لدعوة الأنبياء، و بتعبير آخر فإنّ الآيات اللاحقة بالنسبة للسابقة بمثابة التفصيل للإجمال.

لقد أشارت الآية الأولى التى نبحثها إلى جوانب من آيات عظمة اللّه سبحانه فى عالم الخلقة فقالت: هُوَ الَّذِی جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیاءً وَ الْقَمَرَ نُوراً.

إنّ الشمس التى تعم العالم بنورها لا- تعطى النور الحرارة للموجودات فحسب، بل هى العامل الأساس فى نمو النباتات و تربية الحيوانات، و إذا دقّقنا النظر رأينا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۲۹۹

أنّ كل حركة على وجه الكرة الأرضية، حتى حركة الرياح و أمواج البحار و جريان الأنهار و الشلالات، هى من بركات نور الشمس، و إذا ما انقطعت هذه الأشعة الحياتية عن كرتنا الأرضية يوما فإنّ السكون و الظلمة و الموت سيخيّم على كل شىء فى فاصلة زمنية قصيرة.

و القمر بنوره الجميل هو مصباح ليالينا المظلمة، و لا تقتصر مهمّته على هداية المسافرين ليلا و إرشادهم إلى مقاصدهم، بل هو بنوره المناسب يبعث الهدوء و النشاط لكل سكان الأرض.

ثمّ أشارت الآية إلى فائدة أخرى لوجود القمر فقالت: وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ أى إنّكم لو نظرتم إلى القمر، و أنّه فى أوّل ليلة هلال رفيع، ثمّ يكبر حتى يكون بدرا فى ليلة النصف من الشهر، و بعدها يبدأ بالنقصان التدريجى حتى اليوم أو اليومين الأخيرين حيث يغيب فى المحاق، ثمّ يظهر على شكل هلال من جديد و يدور إلى تلك المنازل السابقة، لعلمتم أن هذا الاختلاف ليس عبثا، بل إنّه تقويم طبيعى دقيق جدّا يستطيع الجاهل و العالم قراءته، و يقرأ فيه تاريخ أعماله و أمور حياته ۱۱۴].

ثمّ تضيف الآية: إن هذا الخلق و الدوران ليس عملا غير هادف، أو هو من باب اللعب، بل ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِکَ إِلَّا بِالْحَقِ

و فى النهاية توكّد الآية: یُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ إلّا أنّ هؤلاء الغافلين و فاقدى البصيرة بالرغم من أنهم يمرون كثيرا على هذه الآيات و الدلائل، إلّا أنّهم لا يدركون أدنى شىء منها.

و تتطرق الآية الثّانية إلى قسم آخر من العلامات و الدلائل السماوية و الأرضية الدالّة على وجوده سبحانه، فتقول: إِنَّ فِی اخْتِلافِ اللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ما خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَّقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۰

فليست السماء و الأرض بذاتهما من آيات اللّه و حسب، بل إن كل واحدة من الموجودات التى توجد فيهما تعتبر آية بحد ذاتها، إلّا أنّ الذين يدركون تلك الآيات هم الذين سمت أرواحهم و صفت نتيجة لتقواهم و بعدهم عن المعاصى، و هم الذين يقدرون على

رؤية وجه الحقيقة و جمال المعشوق.

ملاحظات

و هنا ملاحظات ينبغى الانتباه لها:

۱- هناك نقاش طويل بين المفسّرين فى الفرق بين كلمتى الضياء و النور، فالبعض منهم اعتبرهما مترادفتين و أن معناهما واحدا، و البعض الأخر قالوا: إنّ الضياء استعمل فى ضوء الشمس فالمراد به النور القوى، أمّا كلمة النور التى استعملت فى ضوء القمر فإنّها تدل على النور الأضعف.

الرأى الثّالث فى هذا الموضوع هو أنّ الضياء بمعنى النور الذاتى، أمّا النور فإنّه أعم من الضياء و يشمل الذاتى و العرضى، و على هذا فإنّ اختلاف تعبير الآية يشير إلى هذه النقطة. و هى أنّ اللّه سبحانه قد جعل الشمس منبعا فوّارا للنور، فى الوقت الذى جعل للقمر صفة الاكتساب، فهو يكتسب نوره من الشمس.

و الذى يبدو أنّ هذا التفاوت مع ملاحظة آيات القرآن، هو الأصح، لأنا نقرا فى الآية (۱۶) من سورة نوح: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً و فى الآية (۶۱) من سورة الفرقان، وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً فإذا لا حظنا أنّ نور السراج ينبع من ذاته، و هو منبع و عين للنور، و أن الشمس قد شبهت فى الآيتين بالسراج، سيتّضح أنّ هذا التفاوت مناسب جدا فى الآيات مورد البحث.

۲- هناك اختلاف بين أهل الكتاب و كتّاب اللغة فى أن (ضياء) جمع أم مفرد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۱

فالبعض، كصاحب كتاب «القاموس»، اعتبرها مفردا، إلّا أن البعض الآخر كالزجّاج اعتبر الضياء جمعا للضوء، و قد قبل هذا المعنى صاحبا تفسير «المنار» و تفسير «القرطبى»، و خاصّة صاحب المنار، حيث استفاد على أساس هذا المعنى استفادة خاصّة من الآية، فهو يقول: إن ذكر الضياء بصيغة الجمع فى شأن نور الشمس إشارة إلى الشىء الذى أثبته العلم اليوم بعد قرون، و هو أنّ نور الشمس مكون من سبعة أنوار، و بتعبير آخر سبعة ألوان، هى الألوان التى تظهر فى قوس قزح، و تلاحظ عند مرور النور عبر المناشير البلورية.

و لكن يبقى هنا سؤال، و هو: هل أن نور القمر، رغم أنّه أضعف، غير متكون من الألوان المختلفة؟

۳- هناك بحث و نقاش بين المفسّرين فى أنّ ضمير قَدَّرَهُ مَنازِلَ يعود إلى القمر فقط، أم يرجع إلى الشمس و القمر؟ فالبعض يعتقد أن الضمير و إن كان مفردا، إلّا أنّه يعود إلى الإثنين معا، و نظير ذلك فى الأدب العربى غير قليل.

اختيار هذا الرأى من أجل أن القمر ليس الوحيد الذى له منازل، بل إنّ للشمس أيضا منازل، ففى كل وقت تكون فى برج خاص، و الاختلاف فى الأبراج هذا هو مبدأ التاريخ و الأشهر الشمسية.

و الحق أنّ ظاهر الآية يوحى بأنّ هذا الضمير المفرد يعود للقمر فقط، لقربه منه، و هذا بنفسه يحتوى على نكتة، ذلك:

أوّلا: إنّ الأشهر التى عرفت فى الإسلام و القرآن رسميا هى الأشهر القمرية.

ثانيا: إنّ القمر كرة متحركة و لها منازل، أمّا الشمس فإنّها تقع فى وسط المنظومة الشمسية، و ليس لها حركة ضمن مجموع هذه المنظومة، و إنّ اختلاف الأبراج و مسير الشمس فى المدار الفلكى ذى الإثنى عشر برجا، و الذى يبدأ من الحمل و ينتهى بالحوت، ليس بسبب حركة الشمس، بل بسبب حركة الأرض حول الشمس، و دوران الأرض هذا هو السبب فى أن نرى الشمس تقابل كل شهر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۲

واحدا من البروج الفلكية الإثنى عشر، و على هذا فليس للشمس منازل مختلفة خلافا للقمر. (دققوا جيدا).

إنّ هذه الآية فى الحقيقة تشير إلى إحدى المسائل العلمية المرتبطة بالأجرام السماوية كانت خافية على البشر فى ذلك الزمان حيث ما يدركوا هذا الفرق بين حركة الشمس و القمر.

۴- لقد عدت الآيات أعلاه اختلاف الليل و النهار من آيات اللّه سبحانه، و ذلك لأنّ نور الشمس إذا استمر فى إشعاعه على الأرض، فإنّ من المسلّم أن درجة الحرارة سترتفع إلى الحد الذى تستحيل معه الحياة على وجه الأرض.

و كذلك الليل إذا استمر فإنّ كل شىء سينجمد لشدّة البرودة.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد جعل هذين الكوكبين يتبع أحدهما الآخر لتهيئة أسباب الحياة و المعيشة على وجه الكرة الأرضية[۱۱۵].

إنّ أثر العدد و الحساب و التاريخ و السنة و الشهر فى نظام حياة البشر و الروابط الاجتماعية و المكاسب و الأعمال لا يخفى على أحد.

۵- إنّ مسألة العدد و الحساب التى أشير إليها فى الآيات أعلاه، هى فى الواقع واحدة من أهم مسائل حياة البشر فى جميع النواحى و المجالات.

نعلم إنّ أهمية أية نعمة تتّضح أكثر عند ما نلاحظ الحياة بدون تلك النعمة، و على هذا فلو أن حساب التاريخ و امتياز الأيّام و الأشهر و السنين رفع من حياة البشر، مثلا لا توجد أيام واضحة و محددة للأسبوع، و لا أيّام الشهر، و لا عدد الشهور و السنين، ففى هذه الحالة ستتعرض كل المسائل التجارية و الاقتصادية و السياسية و كل الاتفاقيات و البرامج الزمنية المعدة للخلل و عندها سوف لا يثبت حجر على حجر و ستنفرط عقده النظم فى الأعمال، و حتى وضع الزراعة و تربية الحيوانات و الصناعات الإنتاجية ستعمها الفوضى و الاضطراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۳

لكن لما كان اللّه سبحانه قد خلق الإنسان ليحيا حياة سعيدة مقرونة بالنظام، فإنّه قد وضع وسائلها تحت تصرفه.

صحيح أن الإنسان يمكنه تنظيم أعماله إلى حدّ ما بالأمور الاعتبارية، إلّا أنّه إذا لم يستند إلى الميزان الطبيعى فإنّ مقياسه الجعلى لا يكون عاما و شاملا، و ليس قابلا للاعتماد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۳۰۳

دوران الشمس و القمر- و بتعبير أصح دوران الأرض حول الشمس- و المنازل التى لهما، يشكل تقويما طبيعيا واضح الأساس و يستفيد منه الجميع فى كل مكان، و يعتمدون عليه، فكما أن مقدار اليوم و الليلة يعتبر مقياسا تاريخيا صغيرا ينشأ نتيجة عالم طبيعى، أى حركة الأرض حول نفسها، فإنّ الشهر و السنة يجب أن تستند إلى دوران طبيعى، و على هذا المنوال فإنّ حركة القمر حول الأرض يشكل مقياسا أكبر، فإنّ الشهر يساوى ثلاثين يوما تقريبا، و حركة الأرض حول الشمس ينتج منها مقياس أعظم، و هو السنة.

قلنا: إنّ التقويم الإسلامى يستند إلى التقويم القمرى و دوران القمر، و رغم أنّ دوران الشمس فى الأبراج الإثنى عشر طريقة جيدة لتعيين الأشهر الشمسية، أنّ هذا التقويم مع أنّه طبيعى، إلّا أنّه لا ينفع الجميع، و إنّما يستطيع علماء النجوم فقط عبر رصد النجوم من تحديد كون الشمس فى البرج الفلانى، و لهذا السبب فإنّ الآخرين مجبورون على مراجعة التقاويم التى نظمت من قبل هؤلاء المنجمين. أن دوران القمر المنتظم حول الأرض يعطى تقويما واضحا يستطيع قراءة خطوطه و خرائطه حتى الأميون و سكّان البوادى.

و توضيح ذلك إن هيئة القمر تختلف فى كل ليلة فى السماء عن الليلة السابقة و اللاحقة، بحيث لا توجد ليلتان فى طول الشهر تتحد فيها هيئة القمر فى السماء، و إذا دققنا قليلا فى وضع القمر كل ليلة فإنّنا سنعتاد رويدا رويدا على تعيين تلك الليلة من ليالى الشهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۴

و قد يتصور البعض أن نصف الشهر الثّانى تتكرر فى صور النصف الأوّل بعينها، و أنّ صورة القمر فى ليلة الإحدى و العشرين مثلا هى

بعينها صورته فى الليلة السابقة، إلّا أن هذا اشتباه كبير، لأنّ جانب النقص فى القمر فى النصف الأوّل هو الطرف الأعلى، فى حين أنّ جانب نقصه فى النصف الثّانى من الطرف الأسفل، و بتعبير آخر فإنّ أطراف الهلال الدقيقة تكون إلى الشرق فى البداية، بينما هى فى الجانب الغربى عند أواخر الشهر، إضافة إلى أنّ القمر يرى فى الغرب أوائل الشهر، أمّا فى أواخره فإنّه يرى فى الشرق، و يتأخر كثيرا فى طلوعه. و على هذا فإنّه يمكن الاستفادة من شكل القمر مع تغييراته التدريجية كعداد يومى، و لتحديد أيّام الشهر بدقة من خلال شكل القمر.

على كل حال، فإنّنا فى هذه الموهبة التى نسميها «النظام التأريخى»، مدينون لهذا الخلق الإلهى، و لو لا حركات القمر و الشمس (و الأرض) لكان لنا وضع مضطرب و فوضوى فى الحياة لم يكن فى الحسبان تصوره.

إنّ السجناء فى الزنزانات الانفرادية المظلمة، و الذين أضاعوا الزمان و الأوقات و لم يهتدوا إليها، قد أحسوا بهذه الحيرة و عدم الهدفية و التكليف.

يقول أحد السجناء فى عصرنا الحاضر الذى قضى شهرا فى زنزانة انفرادية مظلمة لعملاء الظالمين: لم تكن لى أيّة وسيلة أو طريقة لتحديد أوقات الصلاة، إلّا أنّهم عند ما كانوا يأتوننى بالغداء كنت أصلى الظهر و العصر، و إذا ما أتوا بالعشاء أصلى المغرب و العشاء، و صلاة الصبح عادة مع الفطور! و لكى أحسب الأيّام فإنّى كنت آخذ وجبات الطعام بنظر الإعتبار، فكل ثلاث وجبات أعدها يوما، غير أنى لا أعلم ماذا حدث عند ما خرجت من السجن، فقد رأيت اختلافا بين حسابى و حساب الناس!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (۷) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۹) دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰)

التّفسير

أهل الجنّة و النّار:

كما مرت الإشارة، فإنّ القرآن قد عرض فى بداية هذه السورة بحثا إجماليا عن موضوع المبدأ و المعاد، ثمّ بدأ بشرح هذه المسألة، ففى الآيات السابقة كان هناك شرح و بحث حول مسألة المعاد، و يلاحظ فى هذه الآيات تفصيل حول المعاد و مصير الناس فى العالم الآخر.

ففى البداية يقول: إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۶

بها فهم لا يعتقدون بالمعاد و تجاهلوا الآيات البينات فلم يتدبروا فيها كيما تستيقظ قلوبهم و يتحرك فيهم روح الاحساس بالمسؤولية وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ فكلا هاتين الطائفتين مصيرهم الى النّار: أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

إنّ النتيجة الطبيعية و الحتمية لعدم الإيمان بالمعاد هى الارتباط بهذه الحياة المحدودة و العلائق المادية، و الاطمئنان بها و الاعتماد

عليها، و نتيجة ذلك- أيضا- هو تلوّث الأعمال و فساد السلوك فى أنماط الحياة المختلفة، و لا تكون عاقبة ذلك إلّا النّار.

و كذلك فإنّ الغفلة عن الآيات الإلهية هى أساس البعد عن اللّه سبحانه، و الابتعاد عن اللّه هو العلّة لعدم الإحساس بالمسؤولية و التلوّث بالظلم و الفساد و المعصية، و عاقبة ذلك لا تكون إلّا النّار.

بناء على هذا، فإنّ كلا الفريقين أعلاه- أى الذين لا يؤمنون بالمبدأ، أو لا يؤمنون بالمعاد- سيكونان ملوّثين حتما بالأعمال الذميمة، و مستقبل كلا الفريقين مظلم.

إنّ هاتين الآيتين تؤكّدان مرّة أخرى هذه الحقيقة، و هى أنّ إصلاح مجتمع ما و إنقاذه من نار الظلم و الفساد، يتطلب تقوية ركنى الإيمان باللّه و المعاد اللذين هما شرطان ضروريان و أساسيان، فإنّ عدم الإيمان باللّه سبحانه سيقتلع الإحساس بالمسؤولية من وجود الإنسان، و الغفلة عن المعاد يذهب بالخوف من العقاب، و على هذا فإنّ هذين الأساسين العقائديين هما أساس كل الإصلاحات الاجتماعية.

ثمّ يشير القرآن إلى وضع فئة أخرى فى مقابل هذه الفئة، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ فإنّ نور الهداية الإلهية الذى ينبعث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۷

من نور إيمانهم يضىء كل آفاق حياتهم، و قد اتّضحت لهم الحقائق باشراقات هذا النور بحيث لم تعد شراك المذاهب المادية و زبارجها، و لا الوساوس الشيطانية و بريق المطامع الدنيوية قادرة على التعتيم على افكارهم و دفعهم فى طريق الانحراف عن الصواب و الحق.

إنّ وضع هؤلاء فى الحياة الأخرى أنّهم تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

إنّ هؤلاء يرفلون فى محيط مملوء بالصلح و الصفاء و عشق اللّه و أنواع النعم، ففى كل وقت تنير وجودهم نفحة و رشحة من ذات اللّه و صفاته، فإنّ دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَ و كلما التقى بعضهم بالآخر فإنّهم يتحدثون عن الصفاء و السّلام وَ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ و أخيرا فإنّهم كلّما التذوا بنعم اللّه المختلفة شكروا ذلك وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

ملاحظات

۱- المقصود من لقاء اللّه الذى جاء فى الآية الأولى ليس هو اللقاء الحسى قطعا، بل المقصود أنّ الإنسان إضافة إلى الحصول على الثواب و عطايا اللّه، فإنّه يشعر يوم القيامة بنوع من الحضور القلبى بالنسبة للذات المقدسة، لأنّه حينئذ سيرى آيات اللّه و علاماته بصورة أوضح فى كل مكان، و سيحصل على رؤية و إدراك جديد لمعرفته ۱۱۶].

۲- إنّ الحديث فى قوله تعالى: يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ عن هداية الإنسان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۸

ظل الإيمان، و هذه الهداية لا تختص بعالم الآخرة، بل إنّ الإنسان ينجو بنور إيمانه فى هذه الدنيا من كثير من الاشتباهات و الخدع و الأخطاء و المعاصى المتولّدة من الطمع و الأنانية و الأهواء، و سوف يحدد طريقه إلى الجنّة فى الآخرة فى ظلّ إشعاع هذا الإيمان كما يقول القرآن: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ ۱۱۷].

و

فى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله فى صورة حسنة فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورا و قائدا إلى الجنّة»[۱۱۸].

۳- ورد فى هذه الآيات: تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فى الوقت الذى عبرت آيات أخرى من القرآن ب تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ، و بتعبير

آخر، فإنّنا نقرأ فى مواضع أخرى أنّ الأنهار تجرى من تحت أشجار الجنّة، أمّا هنا فإنّ الأنهار تجرى من تحت أهل الجنّة!.

إنّ هذا التعبير يمكن أن يشير إلى أنّ قصور أهل الجنّة قد تكون مبنيّة على الأنهار، و هذا يضفى عليها جمالا خارقا.

و قد يشير إلى أنّ أنهار الجنّة مسخرّة لأوامرهم و فى قبضتهم، كما نقرأ فى قصّة فرعون أنّه كان يقول: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۱۱۹].

و قد احتمل كذلك أن تكون «تحت» بمعنى «بين أيدى» أى أن أنهار الماء تجرى مقابلهم.

۴- ممّا يلفت النظر أن آخر آية من الآيات قيد البحث تشير إلى ثلاث حالات، أو ثلاث نعم كبيرة لأهل الجنّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۰۹

الحالة الأولى: هى حالة التوجه إلى ذات اللّه المقدسة، و البهجة التى تحصل لهم نتيجة هذا التوجه لا يمكن مقارنتها بأية لذّة أخرى.

الحالة الثّانية: اللّذة التى تحصل نتيجة الارتباط بالمؤمنين الآخرين فى ذلك المحيط المفعم بالودّ و التفاهم، و هذه اللّذة هى أحلى لذّة بعد لذة التوجه إلى اللّه سبحانه.

الحالة الثّالثة: اللّذة التى تحصل من التمتع بأنواع نعم الجنّة، و هى تدفعهم إلى التوجه إلى اللّه أيضا، و بالتالى حمده و شكره. (فتأمل بدقة)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۰

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۱۱) وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲)

التّفسير

الهمج الرّعاع:

الكلام فى هذه الآيات يدور كذلك حول عقاب المسيئين، فتقول الآية الأولى بأنّ اللّه سبحانه إذا جازى المسيئين على أعمالهم بنفس العجلة التى يجب بها هؤلاء تحصيل النعم و الخير، فستنتهى أعمار الجميع و لا يبقى لهم أثر: وَ لَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ إلّا أنّ لطف اللّه سبحانه لما كان شاملا لجميع العباد، حتى المسيئين و الكافرين و المشركين، فلا يمكن أن يعجل بعذابهم و جزائهم لعلهم يعون و يتوبون، و يرجعون عن الضلال إلى الحق و الهدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۱

هذا إضافة إلى أنّ الجزاء إذا ما تمّ بهذه السرعة فإنّه يعنى زوال حالة الاختبار التى هى أساس التكليف تقريبا، و ستتصف طاعة المطيعين بالجبر و الاضطرار، لأنّهم بمجرّد أن يعصوا فسيلاقون جزاءهم الأليم فورا.

و احتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ جماعة من الكفار العنودين، الذين تحدث القرآن عنهم مرارا، كانوا يقولون للأنبياء: إذا كان ما تقولونه حقّا، فادعوا اللّه أن ينزل علينا البلاء، فإذا استجاب اللّه تعالى دعوة هؤلاء ما كان ليبقى من هؤلاء أحد.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

و فى الختام تقول الآيـة: يكفى عقابـا لهؤلاء أن نتركهم و شأنهم ليبقوا فى حيرتهم، فلا هم يميزون الحق من الباطل، و لا هم يجـدون سبيل النجاة من متاهاتهم: فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

عند ذلك تشـير الآية إلى وجود نور التوحيد فى فطرة الإنسان و أعماق روحه و تقول: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً.

نعم ... إنّ خاصـية المشاكـل و الشدائـد الخطيرة، أنّها تزيل الحجب عن فطرة الإنسان الطاهرة، و تحرق فى فرن الحوادث كل الطبقات السوداء التى غطت هذه الفطرة، و يسطع عندها- و لو لمدّة قصيرة- نور التوحيد.

ثمّ تقول الآيـة: إنّ هؤلاء الأفراد الى درجـة من الجهل و ضـيق الأفق بحيث أنّهم يعرضون بمجرّد كشف الضـرّ عنهم، حتى كأنّهم لم يدعونا و لم نساعدهم: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

أمّا من الذى يزين لهم أعمالهم؟ فقد بحثنا ذلك فى ذيل الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام، و مجمل الكلام هو:

إنّ اللّه سبحانه هو الذى يزين الأعمال، و ذلك بجعل هذه الخاصية فى الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۲

القبيحـة و المحرّمـة، بحيث أن الإنسان كلما تلوّث بها أكثر، فإنّه سـيتطبع عليها، و بمرور الزمن يزول قبحها تدريجيا، بل و تصل الحال إلى أن يراها حسنة و جميلة.

و أمّا لماذا سـمّت الآيـة أمثال هؤلاء «مسـرفين» فلأنّه لا إسـراف أكثر من أن يهـدر الإنسان أهم رأس مال فى وجوده، إلّا و هو العمر و السـلامة و الشـباب و القوى، و يصـرفه فى طريق الفساد و المعصـية، أو فى طريق تحصـيل متاع الدنيا التافه الفانى، و لا يربح من ذلك شيئا.

ألا يعد هذا العمل إسرافا، و أمثال هؤلاء مسرفين؟

و هنا يجب الالتفات إلى نقطة مهمّة:

الإنسان فى القرآن الكريم:

لقد وردت حول الإنسان تعبيرات مختلفة فى القرآن الكريم:

فعبّرت عنه آيات كثيرة أنّه «بشر» و عبّرت عنه آيات متعددة بالإنسان، و فى آيات أخرى «بنى آدم»، و العجيب أنّ فى كثير من الآيات التى عبّرت عنه بالإنسان، ذكرت صفاته المذمومة و غير الحميدة.

فقـد عرفته هذه الآيات بأنّه موجود كثير النسـيان و ناكر للجميل، و فى آية أخرى بأنّه موجود ضـعيف: وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً[۱۲۰]، و فى آيـة أخرى بـأنّه ظالم و كافر: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ[۱۲۱]، و فى موضع آخر أنّه بخيـل: وَ كـانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً[۱۲۲]، و فى موضع آخر أنّه عجول: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا[۱۲۳] و فى مكان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۳

آخر أنّه كفور: وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً[۱۲۴]، و فى مورد آخر أنّه موجود كثير الجدل:

وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا[۱۲۵].

و فى موضع آخر أنّه ظلوم جهول: إِنَّهُ كـانَ ظَلُوماً جَهُولًا[۱۲۶]، و فى مكـان آخر أنّه كفور مبين: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۱۲۷]، و فى مكـان آخر أنّه موجود قليل التحمل و الصبر، يبخل عنـد النعمـة، و يجزع عنـد البلاء: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا

مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً[۱۲۸]، و فى مورد آخر مغرور: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۱۲۹]، و فى موضع آخر أنّه موجود يطغى عند الغنى:

إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى ۱۳۰].

و بناء على هذا فإنّا نرى القرآن المجيد قد عرّف الإنسان بأنّه موجود يتضمّن جوانب و صفات سلبية كثيرة، و نقاط ضعف متعددة.

فهل أنّ هذا هو نفس ذلك الإنسان الذى خلقه اللّه فى أحسن تقويم و أفضل تكوين: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۱۳۱]؟

و هل أن هذا هو نفس الإنسان الذى علمه اللّه ما لم يعلم: عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ۱۳۲]؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۴

و هل هو نفس الإنسان الذى علمه اللّه البيان: خَلَقَ الْإِنْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ ۱۳۳].

و أخيرا، فهل أنّ هذا هو الإنسان الذى حثّه اللّه على السعى و الكدح فى المسير إلى اللّه: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً[۱۳۴].

يجب أن نرى من هم الذين تتكرّس فيهم كل نقاط الضعف هذه، بالرغم من كل هذه الكرامة و المحبة الإلهية؟

الظاهر أنّ هذه المباحث تتعلق بمن لم ينشأ فى حجر القادة الإلهيين، بل نشأ و نما كما تنمو الأعشاب، فلا معلم و لا دليل، و قد اطلق العنان لشهواته و غاص وسط الأهواء و الميول.

من الطبيعى أنّ مثل هذا الإنسان لا يستفيد من إمكاناته و ثرواته العظيمة، و يسخرها فى طريق الانحرافات و الأخطاء، و عند ذلك سيظهر كموجود خطر، و فى النهاية عاجز و بائس. و إلّا فالإنسان الذى يستفيد من وجود القادة الإلهيين، و يستغل فكره فى مسير الحركة التكاملية و الحق و العدل، فإنّه يخطو نحو مرتبة الآدمية، و يستحق اسم «بنى آدم» و يصل إلى درجة لا يرى فيها إلّا اللّه سبحانه، كما يقول القرآن: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا[۱۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۵

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۱۳) ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۴)

التّفسير

الإعتبار بالظّالمين السابقين:

تشير هذه الآيات أيضا إلى معاقبة الأفراد الظالمين و المجرمين فى هذه الدنيا، و قد نبّهت المسلمين- بعد أن أطلعتهم على تاريخ من قبلهم- إلى أنّهم إذا سلكوا نفس طريق هؤلاء، فسينتظرهم نفس المصير.

فالآية الأولى تقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا ثمّ تضيف: كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

ثمّ تبيّن الآية التالية هذا الأمر بصورة أكثر صراحة، و تقول: ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۶

ملاحظات

۱- إنّ كلمة «قرون»- جمع قرن- تستعمل عادة بمعنى الزمان الطويل، و لكن حسب ما قاله علماء اللغة فإنّها جاءت أيضا بمعنى القوم و الجماعة الذين يعيشون فى عصر واحد، لأنّ مادتها الأصلية بمعنى الاقتران و القرب، و المراد هنا فى هذه الآية هو المعنى الأخير، أى: الجماعات و الأقوام الذين يعيشون فى عصر واحد.

۲- لقد ذكرت الآيات- أعلاه- أنّ سبب فناء و هلاك الأقوام السابقة هو الظلم، و ذلك لأنّ للفظ الظلم من المفهوم و المعنى الجامع ما يدخل ضمنه كل نوع من الذنب و الفساد.

۳- يستفاد من جملة: وَ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا أنّ اللّه سبحانه يهلك فقط أولئك الذين لا أمل فى إيمانهم حتى فى المستقبل، و على هذا فإنّ الأقوام التى يمكن أن تؤمن فى المستقبل لا يشملها مثل هذا العقاب، لأنّ الفرق كبير بين أن يقال: لم يؤمنوا، و بين أن يقال: لم يكونوا يؤمنون (فتدبّر).

۴- إنّ جملة لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ لا تعنى النظر بالعين الباصرة قطعا، و لا تعنى التفكر و النظر القلبى، لأنّ اللّه سبحانه منزّه عن كليهما، بل المراد منها أنّها حالة شبيهة بالانتظار، أى إنّنا سنترككم و أنفسكم ثمّ ننتظر ماذا تعملون؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵) قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۶) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (۱۷)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآيات نزلت فى عدّة نفر من عبدة الأوثان، ذلك أنّهم أتوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: إنّ ما ورد فى هذا القرآن من الأمر بترك عبادة أصنامنا الكبيرة، اللات و العزّى و مناة و هبل، و ذم هذه الآلهة، ممّا لا يمكن أن نتحمله، فإذا أردت أن نتبعك فأت بقرآن آخر لا يوجد فيه هذا الذم و التوبيخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۸

لآلهتنا، أو غيّر على الأقل هذه الأمور التى وردت فى هذا القرآن! فنزلت هذه الآيات و أجابتهم.

التّفسير

كتعقيب للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن المبدأ و المعاد، تبحث هذه الآيات نفس الموضوع و المسائل المتعلقة به.

فى البداية تشير إلى واحد من الاشتباهات الكبيرة لعباد الأصنام، و تقول:

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ

إنّ هؤلاء الجهلة العاجزين لم يرضوا بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قائدا و مرشدا لهم، بل كانوا يدعون لاتباع خرافاتهم و أباطيلهم و يطلبون منه قرآنا يوافق انحرافاتهم و يؤيدها، لا أنّه يصلح مجتمعهم، فبالاضافة الى أنّهم لم يؤمنوا بالقيامة، و لم يشعروا بالاثمّ فى مقابل أعمالهم كان قولهم هذا يدل على أنّهم لم يفهموا معنى النّبوة، أو أنّهم كانوا يتخذونها هزوا.

إنّ القرآن الكريم يلفت نظر هؤلاء الى هذا الاشتباه الكبير، و يأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهم: قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي ۱۳۶] ثمّ يضيف للتأكيد: إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ و لست عاجزا عن تغيير أو تبديل هذا الوحى الإلهى- فحسب- بل: إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

ثمّ تتطرق الآية التالية إلى دليل هذا الموضوع و تقول: قل لهم بأنّى لست مختارا فى هذا الكتاب السماوى: قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَ لا أَدْراكُمْ بِهِ و الدليل على ذلك فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ لكنّكم لم تسمعوا منّى مثل هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۱۹

الكلام مطلقا، و لو كانت هذه الآيات من عندى لتحدثت بها لكم خلال هذه الأربعين سنة، فهل لا تدركون أمرا بهذه الدرجة من الوضوح: أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و كذلك، و من أجل التأكيد يضيف: بأنّى أعلم أنّ أقبح أنواع الظلم هو أن يفترى الإنسان على اللّه الكذب: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً و على هذا فكيف يمكن أن أرتكب مثل هذا الذنب الكبير؟!.

و كذلك فإنّ التكذيب بآيات اللّه سبحانه من أشدّ الكبائر و أعظمها: أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ فإذا كنتم جاهلين بعظمته ما ترتكبونه من الإثم فى تكذيب و إنكار آيات الحق، فإنّى لست بجاهل بها، و على كل حال فإنّ عملكم هذا جرم كبير، و إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

ملاحظات

۱- إنّ المشركين كانوا يطلبون من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إمّا أن يستبدل القرآن بكتاب آخر، أو يبدله، و الفرق واضح بين الاثنين، ففى الطلب الأوّل كان هدفهم هو اقتلاع وجود هذا الكتاب تماما ليحل محله كتاب آخر من طرف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا فى الطلب الثّانى فكانوا يريدون على الأقل أن تبدل الآيات التى تخالف أصنامهم حتى لا يشعروا بأى ضيق و انزعاج من هذه الناحية.

و نحن نرى كيف أنّ القرآن الكريم أجابهم بلهجة قاطعة بأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليس له أى اختيار و تصرف فى التبديل، و لا التغيير، و لا تسريع نزول الوحى أو تأخره.

و ندرك من ذلك حماقة و غباء هؤلاء فهم يقبلون بالنّبى الذى يتبع خرافاتهم و أهواءهم، لا القدوة و المربى و القائد و الدليل!.

۲- ممّا يستحق الانتباه، أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإجابة عن الطلبين اكتفى بذكر عدم القدرة بتنفيذ الطلب الثّانى و قال: إنّى لا أستطيع أن أغيره من تلقاء نفسى، و بهذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۰

البيان يكون قد نفى الطلب الأوّل بطريق أولى، لأنّ تغيير بعض الآيات إذا كان خارجا عن حدود صلاحية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فهل بامكانه تبديل كل هذا الكتاب السماوى؟

إنّ هذا نوع من الفصاحة فى التعبير، حيث أنّ القرآن الكريم يعيد و يكرر كل المسائل فى غاية الضغط و الاختصار فى العبارة، بدون جملة أو كلمة زائدة إضافية.

۳- يمكن أن يقال: إنّ الدليل المذكور فى الآيات- أعلاه- على أنّ القرآن ليس من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّه حتما من اللّه سبحانه، ليس مقنعا. فما هو وجه الملازمة فى أنّ هذا الكتاب إذا كان من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فلا بدّ أن يكون قد سمعت منه نماذج و مقاطع من قبل؟

إلّا أنّ جواب هذا السؤال واضح بأدنى دقة و تأمل، لأنّ النبوغ الفكرى و قدرة و الاكتشاف و الإبداع فى الإنسان- حسب ما قاله علماء النفس- يبدأ من سن العشرين و يصل كحد أقصى إلى سن الخامسة و الثلاثين أو الأربعين، أى إن الإنسان إذا لم يقدم حتى ذلك الوقت على إبداع و ابتكار عمل جديد، فلا يمكنه بعد هذا السن غالبا.

إنّ هذا الموضوع الذى يعتبر اليوم كشفا نفسيا لم يكن فى الماضى واضحا إلى هذا الحدّ، إلّا أنّ أغلب الناس يعلمون هذا الموضوع بهداية الفطرة، بأن من غير الممكن أن يكون للإنسان معتقد و يعيش بين قوم، و لا يظهر ذلك مطلقا. و القرآن الكريم قد استند أيضا إلى هذا الأساس و هو: كيف يستطيع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذا العمر أن يمتلك مثل هذه الأفكار و يكتمها الى ذلك الوقت؟

۴- كما أشرنا فى ذيل الآية (۲۱) من سورة الأنعام، فإنّ القرآن قد عرّف فى موارد كثيرة جماعة من الناس بأنّهم «أظلم» و ربّما يبدو لأوّل وهلة أن هناك تناقضا، فإنّا إذا وصفنا جماعة بأنّهم أظلم، فكيف يمكن أن تتقبل مجموعة أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۱

هذه الصفة؟

و قد قلنا فى جواب هذا السؤال: إنّ كل هذه العناوين ترجع إلى عنوان واحد، و هو مسألة الشرك و الكفر و العناد و الافتراء و التكذيب بالآيات الإلهية، و فى الآيات التى نبحثها، تنحدر من هذا الأصل أيضا. (لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۲۱) من سورة الأنعام).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۲

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۱۸]

اشارة

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱۸)

التّفسير

آلهة بدون خاصية!

واصلت الآية الحديث عن التوحيد أيضا، و ذلك عن طريق نفى ألوهية الأصنام، و ذكرت عدم أهلية الأصنام للعبادة و انتفاء قيمتها و أهميتها: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ

من البديهى أن الأصنام- حتى لو فرضنا أنّها منشأ الضر و النفع و الربح و الخسارة- ليست لها لياقة أن تكون معبودة، إلّا أنّ القرآن الكريم يريد بهذا التعبير أن يوضح هذه النقطة، و هى أنّ عبدة الأصنام لا يمتلكون أدنى دليل على صحة هذا العمل، و يعبدون موجودات لا خاصية لها مطلقا، و هذه أقبح و أسوأ عبادة.

ثمّ تتطرق إلى ادعاءات عبدة الأوثان الواهية، وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۳

اللَّهِ أى إنّ هذه الأصنام و الآلهة تستطيع بشفاعتها أن تكون سببا للضر و النفع رغم عجزها عن أى عمل بصورة مستقلة.

لقد كان الإعتقاد بشفاعة الأصنام أحد أسباب عبادتها، و كما جاء فى التواريخ، فإنّ عمرو بن لحى كبير العرب عند ما ذهب إلى المياه المعدنية فى الشام لمعالجة نفسه بها، جلب انتباهه وضع عبدة الأصنام، و لما سأل منهم عن الباعث على هذا العمل و العبادة، قالوا له: إنّ هذه الأصنام هى سبب نزول الأمطار، و حل المشاكل، و لها الشفاعة بين يدى اللّه، و لما كان رجلا خرافيا وقع تحت تأثير هذه الأجوبة، و طلب منهم بعض الأصنام ليأخذها إلى الحجاز، و عن هذا الطريق راجت عبادة الأصنام بين أهل الحجاز.

إنّ القرآن يقول فى دفع هذا الوهم: قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ و هو كناية عن أن اللّه سبحانه لو كان له مثل هؤلاء الشفعاء. فإنّه يعلم بوجودهم فى أى نقطة كانوا من السماء و الأرض، لأنّ سعة علم اللّه لا تدع أصغر ذرة فى السماء و الأرض إلّا و تحيط بها علما.

و بتعبير آخر، إن ذلك يشبه تماما ما لو قيل لشخص: أ عندك مثل هذا الوكيل؟

و هو فى الجواب يقول: لا علم لى بوجود هذا الوكيل، و هذا أفضل دليل على نفيه حيث لا يمكن أن لا يعلم الإنسان بوكيله.

و فى آخر الآية تأكيد لهذا الموضوع حيث تقول: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

لقد بحث موضوع الشفاعة بصورة مفصلة فى المجلد الأوّل ذيل الآية (۴۶) من سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۴

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۱۹]

اشارة

وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۹)

التّفسير

إنّ هذه الآية- تتمّة للبحث الذى مرّ فى الآية السابقة حول نفى الشرك و عبادة الأصنام- تشير إلى فطرة التوحيد لكل البشر، و تقول: وَ ما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً.

إنّ فطرة التوحيد هذه، و التى كانت سالمة فى البداية، إلّا أنّها قد اختلفت و تلوّثت بمرور الزمن نتيجة الأفكار الضيقة، و الميول الشيطانية و الضعف، فانحرف جماعة عن جادة التوحيد و توجهوا إلى الشرك، و قد انقسم المجتمع الإنسانى إلى قسمين مختلفين: قسم موحّد، و قسم مشرك: فَاخْتَلَفُوا. بناء على هذا فإنّ الشرك فى الواقع نوع من البدعة و الانحراف عن الفطرة، الانحراف المترشح من الأوهام و الخرافات التى لا أساس لها.

و قد يطرح هنا هذا السؤال، و هو: لماذا لا يرفع اللّه هذا الاختلاف بواسطة عقاب المشركين السريع، ليرجع المجتمع الإنسانى جميعه موحّدا؟

و يجيب القرآن الكريم مباشرة عن هذا السؤال بأنّ الحكمة الإلهية تقتضى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۵

حرية البشر فى مسير الهداية، فهى رمز التكامل و الرقى، و لو لم يكن أمره كذلك فإنّ اللّه سبحانه كان سيقضى بينهم فى اختلافاتهم:

وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

بناء على هذا فإنّ كَلِمَةٌ فى الآية إشارة إلى السنّة و قانون الخلقة الذى يقتضى حرية البشر، لأنّ المنحرفين و المشركين لو كانوا يعاقبون سريعا و مباشرة، فإنّ إيمان الموحّدين سيكون اجباريا و نتيجة للخوف و الرهبة، و مثل هذا الإيمان لا يعدّ فخرا. و لا دليلا على التكامل، و اللّه سبحانه قد أجّل العقاب و الجزاء لعالم الآخرة لينتخب الصالحون و الطاهرون طريقهم بحرية تامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۶

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۲۰]

اشارة

وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۲۰)

التّفسير

المعجزات المقترحة!

مرّة أخرى يتطرق القرآن الكريم إلى اختلاق المشركين للحجج عند امتناعهم عن الإيمان و الإسلام وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

من الطبيعى، و بدليل القرائن التى سنشير إليها بعد حين، أنّ هؤلاء لم يقصدوا أى معجزة، لأنّ من المسلّم أنّه كان للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إضافة إلى القرآن معاجر أخرى، و تاريخ الإسلام و بعض الآيات القرآنية شاهدة على هذه الحقيقة.

إنّ هؤلاء كانوا يظنون أنّ الإعجاز أمر بيد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو يستطيع أن يقوم به فى أى وقت و بأية كيفية يريد، مضافا الى أنّه مأمور أن يستفيد من هذه القوّة مقابل كل مدّع لجوج معاند و العمل حسب ميله لإقناعه و إقامة الحجة عليه، و لهذا فإنّ القرآن الكريم يأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مباشرة: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ و بناء على هذا، فإنّ المعجزة ليست بيدى لآتيكم كل يوم بمعجزة جديدة إرضاء لأهوائكم و حسب ميولكم و رغباتكم، ثمّ لا تؤمنون بعد ذلك بأعذار واهية و حجج ضعيفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۷

و فى النهاية تقول الآية بلهجة التهديد: فَانْتَظِرُوا إِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فانتظروا العقاب الإلهى، و أنا أنتظر النصر! أو كونوا بانتظار ظهور مثل هذه المعجزات، و أكون بانتظار عقابكم أيّها المعاندون!.

ملاحظتان

و هنا ملاحظتان ينبغى الالتفات إليهما:

۱- كما أشرنا أعلاه فإنّ كلمة (آية) أى المعجزة- و إن كانت مطلقة و تشمل كل أنواع المعاجز- إلّا أنّ القرائن تبيّن أنّ هؤلاء لم يطلبوا المعجزة لمعرفة صدق النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل كانوا طلاب معاجز اقتراحية، أى إنّهم كانوا كل يوم يقترحون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم معجزة جديدة و يأملون أن يطيعهم فى ذلك، فكأنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إنسان لا عمل

له سوى صنع المعجزات، و هو منتظر لكل من هبّ و دبّ ليقترح عليه شيئا فيحقق له اقتراحه، غافلين عن أن المعجزة هى من فعل اللّه سبحانه أوّلا، و لا تتم إلّا بأمره و إرادته، و هى- ثانيا- معجزة لمعرفة أحقّية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الاهتداء به، و وقوعها مرّة واحدة كاف لهذا الغرض، و علاوة على ذلك فإنّ نبىّ الإسلام قد أظهر من المعجزات القدر الكافى، فطلب المزيد لا يكون إلّا بدافع الاقتراحات الأهوائية و الشهوانية.

و الشاهد على أنّ المقصود من (الآية) هنا المعجزات الاقتراحية، هو:

أوّلا: إنّ نهاية الآية تهدد هؤلاء، و لو كانوا يطلبون المعجزة لاكتشاف الحقيقة، فلا وجه لهذا التهديد.

ثانيا: رأينا قبل عدّة آيات أن هؤلاء كانوا عنودين و لجوجين إلى الحد الذى اقترحوا فيه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبدل كتابه السماوى، أو يغير على الأقل الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۸

التى تشير إلى نفى عبادة الأصنام.

ثالثا: حسب القاعدة المسلمة لدينا بأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإنّا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال بعض الآيات- كالآيات (۹۰) و (۹۴) من سورة الإسراء- أن عبدة الأصنام اللجوجين هؤلاء، لم يكونوا طلاب معجزة لأجل الهداية، و لهذا نراهم كانوا يقولون أحيانا: نحن لن نؤمن لك حتى تفجر العيون من هذه الأرض اليابسة، و يقول الآخر: إنّ هذا ليس بكاف، بل يجب أن يكون لك بيت من ذهب، و ثالث يقول: و هذا أيضا لا يقنعنا حتى ترقى فى السماء أمام أعيننا، و يضيف رابع أنّ هذا الرقى فى السماء ليس كافيا أيضا إلّا إذا أتيتنا بكتاب من اللّه لنا!! و أمثال ذلك من السفاسف و الخزعبلات.

إذن، فقد اتّضح ممّا قلنا أعلاه أنّ الاستدلال بهذه الآية على نفى أية معجزة، أو كل المعجزات غير القرآن الكريم زيف يجانب الحقيقة، (و ستطالعون- إن شاء اللّه مزيدا من التوضيح حول هذا الموضوع فى ذيل الاية (۵۹) من سورة الإسراء).

۲- يمكن أن تكون كلمة «الغيب» فى جملة: إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ إشارة إلى أنّ المعجزة أمر مربوط بعالم الغيب، و ليست من اختيارات الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هى مختصة باللّه تعالى.

أو أن تكون إشارة إلى أن مصالح الأمور و الوقت المناسب لنزول المعجزة هى جزء من أسرار الغيب و مختصات اللّه سبحانه، فمتى رأى أن الوقت مناسب لنزول المعجزة، و أنّ طالب المعجزة باحث عن الحقيقة، أنزل المعجزة، لأنّ الغيب و الأسرار الخفية من مختصات ذاته المقدسة.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۲۹

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۱ الى ۲۳]

اشارة

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِى آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (۲۱) هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۲۲) فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۳)

التّفسير

يدور الكلام فى هذه الآيات- أيضا- حول عقائد و أعمال المشركين، ثمّ دعوتهم إلى التوحيد و نفى كل أنواع الشرك.

فالآية الأولى تشير إلى بعض سلوكيات المشركين الحمقاء، و تقول: أنّنا عند ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۰

نبتلى الناس بالمشاكل و النكبات من أجل إيقاظهم و تنبيههم، ثمّ نرفع هذا البلاء عنهم و نذيقهم طعم الراحة و الهدوء بعد تلك الضرّاء، فإنّهم بدلا من أن ينتبهوا لهذه الآيات و يرجعوا إلى الصواب، يسخرون بها، أو يفسرونها بتفسيرات غير صحيحة، فمثلا يفسرون الابتلاءات و المشاكل بأنّها نتيجة غضب الأصنام، و النعم و الطمأنينة بأنّها دليل على شفقتها، أو أنّهم يعدون كل هذه الأمور صدفة محضة:

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا.

إنّ كلمة «مكر» فى الآية أعلاه، و التى تعنى بشكل عام إعمال الفكر، تشير إلى التوجيهات الخاطئة و طرق التهرّب التى يفكر بها المشركون عند مواجهة الآيات الإلهية، و ظهور أنواع البلايا و النعم.

إلّا أنّ اللّه سبحانه حذر هؤلاء بواسطة نبيّه، و أمره أن قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً.

و كما أشرنا مرارا، الى أنّ المكر فى الأصل هو كل نوع من التخطيط المقترن بالعمل المخفى، لا المعنى الذى يفهم من هذه الكلمة اليوم، و هو الاقتران بنوع من الشيطنة، و على هذا فإنّه يصدق على اللّه سبحانه كما يصدق على العباد[۱۳۷]. لكن ما هو مصداق المكر الإلهى فى هذه الآية؟

الظاهر أنّها إشارة إلى نفس تلك العقوبات الإلهية التى يحلّ بعضها فى نهاية الخفاء و بدون أية مقدمة و بأسرع ما يكون، بل إنّه يعاقب و يعذب بعض المجرمين بأيديهم أحيانا. و من البديهى أن من هو أقدر من الكل و أقوى من الجميع على دفع الموانع و تهيئة الأسباب، ستكون خططه- أيضا- هى الأسرع. و بتعبير آخر فإنّ اللّه سبحانه فى أى وقت يريد أنزال العقاب بأحد العباد أو تنبيهه، فإنّ هذا العقاب سيتحقق مباشرة، فى حين أن الآخرين ليسوا كذلك.

ثمّ يهدد هؤلاء بأن لا- تظنوا أنّ هذه المؤامرات و الخطط ستنسى، بل إنّ رسلنا- أى الملائكة- يكتبون كل هذه المخططات التى تهدف إلى إطفاء نور الحق:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۱

إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ و لذلك يجب أن تهيئوا أنفسكم للجواب و العقاب فى الحياة الأخرى.

و سنبحث كتابة الأعمال و الملائكة المأمورين بها فى الآيات المناسبة.

و تغوص الآية التالية فى أعماق فطرة البشر، و توضح لهؤلاء حقيقة التوحيد الفطرى، و كيف أن الإنسان عند ما تلّم به المشاكل الكبيرة و فى أوقات الخطر، ينسى كل شىء إلّا اللّه تبارك و تعالى و يتعلق به، لكنّه بمجرّد أن يرتفع البلاء و تزول الشدّة و تحل المشكلة، فإنّه سيسلك طريق الظلم و يبتعد عن اللّه سبحانه.

تقول الآية: هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ فى هذا الحال بالضبط تذكروا اللّه و دعوه بكل إخلاص و بدون أية شائبة من الشرك، و دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فيرفعون أيديهم فى هذا الوقت للدعاء: لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فلا نظلم أحدا و لا نشرك بعبادتك غيرك.

و لكن ما أن أنجاهم اللّه و أوصلهم إلى شاطئ النجاة بدؤوا بالظلّم و الجور:

فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ لكن يجب أن تعلموا- أيّها الناس- إنّ نتيجة ظلمكم ستصيبكم أنتم يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما

بَغْيُكَمْ عَلى أَنْفُسِكَمْ و آخر عمل تستطيعون عمله هو أن تتمتعوا قليلا فى هذه الدنيا: مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا[۱۳۸] ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكَمْ فَنُنَبِّئُكَمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۲

ملاحظات

و هنا يجب الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

۱- إنّ ما قرأناه فى الآيات أعلاه غير مختص بعبدة الأوثان، بل هو قانون كلى ينطبق على كل الأفراد الملوّثين من عبيد الدنيا المشغوفين بها فعند ما تحيط بهم أمواج البلايا و المحن و تقصر أياديهم عن كل شىء، و لا يرون لهم ناصرا و لا معينا، فإنّهم سيمدون أيديهم بالدعاء بين يدى اللّه سبحانه و يعاهدونه بألف عهد و ميثاق، و ينذرون و يقطعون العهود بأنّهم إن تخلصوا من هذه البلايا و الأخطار سيفعلون كذا و كذا.

إلّا أنّ هذه اليقظة و الوعى التى هى انعكاس لروح التوحيد الفطرى، لا تستمر طويلا عند أمثال هؤلاء، فبمجرّد أن يهدأ الطوفان و تنقشع سحب البلاء، فإنّ حجب الغفلة ستغشى قلوبهم، تلك الحجب الكثيفة التى لا تنقشع عن تلك القلوب إلّا بالطوفان.

و رغم أنّ هذه اليقظة مؤقتة، و ليس لها أثر تربوى فى الأفراد الملوّثين جدّا، أنّها تقيم الحجّة عليهم، و ستكون دليلا على محكوميتهم.

أمّا الذين تلوثوا بالمعاصى قليلا، فإنّهم سيتنبهون فى هذه الحوادث و يصلحون مسارهم. و أمّا عباد اللّه الصالحون فأمرهم واضح، فإنّ توجههم إلى اللّه سبحانه فى السراء بنفس قدر توجههم إليه فى الضراء، لأنّهم يعلمون أن كل خير و بركة تصل إليهم، و تبدو ظاهرا أنّها نتيجة للعوامل الطبيعية، فإنّها فى الواقع من اللّه تعالى.

و على كل حال، فإنّ هذا التذكير و التذكر قد جاء كثيرا فى آيات القرآن المجيد.

۲- لقد ذكرت «الرحمة» فى الآيات أعلاه مقابل «الضراء»، و لم تذكر السراء، و هى إشارة إلى أنّ أى حسن و نعمة تصل إلى الإنسان فهى من اللّه سبحانه و رحمته اللامتناهية. فى حين أنّ السوء و النقمات إذا لم تكن للعبرة، فإنّها من آثار أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۳

الإنسان نفسه.

۳- إنّ الضمائر فى بداية الآية الثّانية من الآيات التى نبحثها وردت بصيغة المخاطب، إلّا أنّها فى الأثناء بصيغة الغائب، و من المسلم أن لذلك نكتة ما:

قال بعض المفسّرين: إنّ تغيير أسلوب الآية من أجل أنّها تبيّن حال المشركين و تعرضهم فى الحال ابتلائهم بالطوفان و البلاء درسا و عبرة للآخرين، و لهذا فإنّها فرضتهم غائبين و فرضت الباقين حضورا.

و قال البعض الآخر: إنّ النكتة هى عدم الاعتناء بهؤلاء و تحقيرهم، حيث أن اللّه سبحانه قد قبل حضور هؤلاء و خاطبهم. ثمّ أبعدهم عنه و تركهم.

و يحتمل أيضا أن تكون الآية بمثابة تجسيم طبيعى عن وضع الناس، فما داموا جالسين فى السفينة و لم يبتعدوا عن الساحل فإنّهم فى إطار المجتمع، و على هذا يمكن أن يكونوا مخاطبين، أمّا عند ما تبعدهم السفينة عن الساحل، و يختفون عن الأنظار تدريجيا، فإنّهم يعتبرون كالغائبين، و هذا فى الواقع تجسيم حى لحالتين مختلفتين عند هؤلاء.

۴- إنّ جملة أُحِيطَ بِهِمْ تعنى أنّ هؤلاء قد أحاطت بهم الأمواج المتلاطمة من كل جانب، إلّا أنّها هنا كناية عن الهلاك و الفناء

الحتمى لهؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۴

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۴ الى ۲۵]

اشارة

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۴) وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۲۵)

التّفسير

لوحة الحياة الدّنيا:

مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عدم استقرار و دوام الحياة الدنيا، ففى الآية الأولى من الآيات التى نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف و جميل لرفع حجب الغرور و الغفلة من أمام نواظر الغافلين و الطغاة إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ.

إنّ قطرات المطر هذه تسقط على الأراضى التى لها قابلية الحياة. و بهذه القطرات ستنمو مختلف النباتات التى يستفيد من بعضها الإنسان، و من بعضها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۵

الآخر الحيوانات فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ

إنّ هذه النباتات علاوة على أنّها تحتوى على الخواص الغذائية المهمّة للكائنات الحيّة الأخرى، فإنّها تغطى سطح الأرض و تضفى عليها طابعا من الجمال حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ فى هذه الأثناء حيث تتفتح الجنابذ و تورق أعالى الأشجار و تعطى ذلك المنظر الزاهى و تبتسم الأزهار و تتلألأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، و تتمايل الأغصان طربا مع النسيم، و تظهر حبات الغذاء و الأثمار أنفسها شيئا فشيئا و تجسم جانبا دائب الحركة من الحياة بكل معنى الكلمة، و تملأ القلوب بالأمل، و العيون بالسرور و الفرح، بحيث وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها .. فى هذه الحال و بصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمّر، و نجعلها كأنّ لم تكن شيئا مذكورا أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

لَمْ تَغْنَ مأخوذة من مادة (غنا) بمعنى الإقامة فى مكان معين، و على هذا فإنّ جملة لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ تعنى أنّها لم تكن بالأمس هنا، و هذا كناية عن فناء الشىء بالكلية بصورة كأنّه لم يكن له وجود مطلقا!.

و للتأكيد تقول الآية فى النهاية: كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

إنّ ما ذكر أعلاه تجسيم واضح و صريح عن الحياة الدنيوية السريعة الانقضاء و الخداعة، و المليئة بالتزاويق و الزخارف، فلا دوام لثرواتها و نعيمها، و لا هى مكان أ من و سلامة. و لهذا فإنّ الآية التالية أشارت بجملة قصيرة إلى الحياة المقابلة لهذه الحياة، و قالت: وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ

فلا وجود و لا خبر هناك عن مطاحنات و اعتداءات المتكالبين على الحياة المادية، و لا حرب و لا إراقة دماء و لا استعمار و لا استثمار، و كل هذه المفاهيم قد جمعت فى كلمة دار السّلام.

و إذا تلبّست الحياة فى هذه الدنيا بعقيدة التوحيد و الايمان بالمبدأ و المعاد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۶

فإنّها ستتبدل أيضا إلى دار السّلام، و لا تكون حينئذ كالمزرعة التى أتلفها البلاء و الوباء.

ثمّ تضيف الآية: إنّ اللّه سبحانه يهدى من يشاء- إذا كان لائقا لهذه الهداية- إلى صراطه المستقيم، ذلك الصراط التى ينتهى إلى دار السّلام و مركز الأمن و الأمان وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

ملاحظات

۱- لما كان القرآن كتاب تربية و تكامل للإنسان، فإنّه يستعين بالأمثلة لتوضيح الحقائق العقلية فى كثير من الموارد، و قد يجسّد المواضيع التى لها امتداد زمنى طويل فى مسرحية و تمثيلية قصيرة و قابلة للمطالعة أمام أعين الناس.

إنّ متابعة تأريخ ملىء بالحوادث يتعلق بإنسان ما، أو جيل ما، و الذى قد يطول لمائة سنة أحيانا ليس بالأمر الهين بالنسبة للأفراد العاديين، أمّا عند ما تتلخص هذه الساحة و الحياة فى عدّة أشهر، كما هو الحال فى حياة كثير من النباتات، من الولادة إلى الرشد و النمو و الجمال، ثمّ الهلاك و الموت، و تظهر أمام الإنسان، فإنّه يستطيع أن يرى ببساطة مراحل حياته و كيفيتها فى هذه المرآة الشفافة.

جسموا هذه اللقطات أمام أعينكم تماما: حديقة مليئة بالأشجار و الخضرة و النباتات الدائمة الثمر، و صخب الحياة يعم كل أرجائها ... و فجأة فى ليلة مظلمة، أو يوم صحو تغطى السحب السوداء وجه السماء، و ترعد و تبرق ثمّ تهب الأعاصير العاتية و تنهمر الأمطار الشديدة من كل جانب و تدمرها.

غدا نأتى لرؤية تلك الحديقة ... الأشجار متكسرة ... النباتات و الأعشاب مبعثرة و ميتة، و كل شىء أمامنا ملقى على الأرض بصورة لا نصدق معها أنّ هذه هى تلك الحديقة الغنّاء الجميلة التى كانت تبتسم فى وجوهنا بالأمس!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۷

نعم، هكذا هى الحوادث فى حياة البشر، خصوصا فى عصرنا الحاضر حيث تدمّر زلزلة أو حرب لا تطور إلّا ساعات قليلة مدينة عامرة و جميلة، و لا تبقى منها إلّا الأنقاض. و أجساد متناثرة هنا و هناك.

آه ... ما أشد غفلة الذين يفرحون بمثل هذه الحياة الزائلة الفانية؟! ۲- فى جملة فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ ينبغى الالتفات إلى أنّ الاختلاط فى الأصل- كما قال الراغب فى المفردات- هو الجمع بين شيئين أو أكثر، سواء كانت سائلة أو جامدة. و الاختلاط أعم من الامتزاج، لأن الامتزاج يطلق عادة على السوائل، و على هذا يكون معنى الجملة أنّ النباتات يختلط بعضها بالبعض الآخر بواسطة ماء المطر، سواء النباتات التى تنفع الإنسان، أو الحيوان ۱۳۹].

و تشير الجملة أعلاه- أيضا- إشارة ضمنية إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ اللّه سبحانه ينبت من ماء المطر، الذى هو نوع واحد و ليس له إلّا حقيقة واحدة، أنواع النباتات المختلفة التى تؤمن مختلف حاجات الإنسان و الحيوان من المواد الغذائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشارة

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۶) وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ

جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۷)

التّفسير

بيض الوجوه و سود الوجوه:

مرّت الإشارة فى الآيات السابقة إلى عالم الآخرة و يوم القيامة، و لهذه المناسبة فإنّ هذه الآيات تبيّن مصير الصالحين و عاقبة المذنبين فتقول فى البداية:

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَ زِيادَةٌ[۱۴۰].

و مع أن هناك بحث بين المفسّرين فى المقصود من الزيادة فى هذه الجملة، إلّا أنّنا إذا علمنا أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا، رأينا أنّ المراد هو الإشارة إلى الثواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۳۹

المضاعف الكثير، الذى يتضاعف أحيانا عشر مرات، و أخرى آلاف المرات حسب نسبة الإخلاص و الطهارة و التقوى و قيمة العمل، فنقرأ فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام. مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

و فى الآية (۱۲۷) من سورة النساء: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

و فى الآيات المرتبطة بالإنفاق فى سورة البقرة آية (۲۶۱) يدور الحديث أيضا عن مكافأة الصالحين و مضاعفة عملهم إلى سبعمائة ضعف، أو مضاعفته أضعافا كثيرة من قبل اللّه سبحانه.

و النقطة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أن من الممكن أن تستمر هذه الزيادة و الإضافة حتى فى عالم الآخرة، أى أنّه فى كل يوم سيمنحهم اللّه سبحانه موهبة و لطفا جديدا، و هذا يبيّن أن حياة العالم الآخر ليست على وتيرة واحدة، بل تستمر فى حركتها نحو التكامل الى ما لا نهاية.

و الرّوايات التى وردت عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية، و التى تبيّن أن المراد من «الزيادة» هو التوجه إلى نور الذات الإلهية المقدسة و الاستفادة من هذه الموهبة المعنوية الكبيرة قد تكون إشارة إلى هذه النكتة.

و فى بعض الرّوايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السّلام، فسّرت «الزيادة» بزيادة النعم الدّنيوية التى يتفضل بها اللّه على الصالحين علاوة على ثواب الآخرة، و لكن لا مانع من أن تكون الزيادة فى الآية أعلاه إشارة إلى كل هذه المواهب.

ثمّ تضيف الآية: وَ لا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَ لا ذِلَّةٌ. «يرهق» مأخوذة من مادة «رهق»، و هى بمعنى التغطية القهرية و الجبرية، «و القتر» بمعنى «الغبار» و الدخان.

و فى النهاية تقول: أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ التعبير بالأصحاب إشارة إلى التناسب الموجود بين روحية هذه المجموعة و محيط الجنّة.

ثمّ يأتى الحديث فى الآية التالية عن أصحاب النّار الذين يشكلون الطرف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۰

المقابل للمجموعة الأولى، فتقول: وَ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها و هنا لا يوجد كلام عن الزيادة، لأنّ الزيادة فى الثواب فضل و رحمة، أمّا فى العقاب فإنّ العدالة توجب أن يكون بقدر الذنب و لا يزيد ذرة واحدة. إلّا أن هؤلاء عكس الفريق الأوّل مسودة

وجوههم وَ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ[۱۴۱].

و يمكن أن يقول قائل: إنّ هؤلاء يجب أن لا يروا من العقاب إلّا بقدر ذنوبهم، و أنّ اسوداد الوجه هذا، و غبار الذل الذى يغطيهم شيء إضافى. لكن ينبغى الانتباه إلى أن هذه هى خاصية و أثر العمل الذى ينعكس من داخل روح الإنسان إلى الخارج، تماما كما نقول: إنّ الأفراد المعتادين على شرب الخمر يجب أن يجلدوا.

و فى الوقت نفسه فإنّ الخمر تولد مختلف أمراض المعدة و القلب و الكبد و الأعصاب.

و على كل حال، فقد يظن المسيئون أنّهم سوف يكون لهم طريق للهرب أو النجاة، أو أنّ الأصنام و أمثالها تستطيع أن تشفع لهم، إلّا أن الجملة التالية تقول بصراحة: ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ

إنّ وجوه هؤلاء مظلمة و مسودة إلى الحد الذى كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (۲۸) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (۲۹) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۳۰)

التّفسير

مشهد من قيامة عبدة الأوثان:

تتابع هذه الآيات أيضا البحوث السابقة حول المبدأ و المعاد و وضع المشركين، و تجسم حيرة و انقطاع هؤلاء عند حضورهم فى محكمة العدل الإلهى، و وقوفهم بين يدى اللّه لمحاسبتهم.

فتقول أوّلا: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ ۱۴۲]. و اللطيف أنّ الآية أعلاه قد عبّرت عن الأصنام بشركائكم، فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۲

حين أنّ المشركين كانوا قد جعلوا الأصنام شريكة للّه، لا شريكة أنفسهم.

إنّ هذا التعبير فى الحقيقة إشارة لطيفة إلى أن الأصنام لم تكن شريكة للّه، و أن أوهام و تخيلات عبدة الأوثان هى التى أعطتها هذا المقام، و هذا يشبه تماما ما لو عيّن المشرف على التعليم معلما أو مديرا غير صالح لمدرسة ما، صدرت و منهما أعمال قبيحة و غير لائقة. فتقول للمشرف: تعال و انظر، هذا معلمك و هذا مديرك يرتكبان مثل هذه الأعمال، فى حين أنّه ليس معلمه و لا مديره، بل معلم المدرسة و مديرها الذى اختارهما.

ثمّ تضيف: أنّنا سوف نعزل هاتين الفئتين- أى العابدون و المعبودون- عن بعضهم البعض، و نسأل كلا منهما على انفراد، تماما كما هو المتداول فى كل المحاكم حيث يسأل كل واحد على انفراد، فنسأل العابدين: بأى دليل جعلتم هذه الأصنام شريكة للّه و عبدتموها؟ و نسأل المعبودين: لماذا أصبحتم معبودين؟ أو لماذا رضيتم بهذا العمل؟ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ ۱۴۳].

فى هذه الأثناء ينطق الشركاء الذين صنعتهم أوهام هؤلاء: وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ فأنتم فى الواقع كنتم تعبدون أهواءكم و ميولكم و أوهامكم، لا- أنّكم كنتم تعبدوننا، و لو سلمّنا ذلك فإنّ عبادتكم لنا لم تكن بأمرنا و لا برضانا، و العبادة كهذه ليست بعبادة فى الحقيقة.

ثمّ، و من أجل التأكيد الأشد، يقولون: فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ ۱۴۴].

هناك بحث بين المفسّرين فى المراد من الأصنام و الشركاء، أى معبودات هى؟

و كيف أنّها تتكلم بهذا الكلام؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۳

فالبعض احتمل أن يكون المراد منها المعبودات الإنسانية و الشيطانية، أو من الملائكة التى لها عقل و شعور و إدراك، إلّا أنّهم رغم ذلك لا يعلمون بأنّ فئة تعبدهم، أمّا لأنّهم يعبدونهم حال غيابهم، أو بعد موتهم، و على هذا فإنّ تكلم هؤلاء سيكون أمرا طبيعيا جدّا، و هذه الآية نظيرة الآية (۴۱) من سورة سبأ، التى تقول: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ

و الاحتمال الآخر الذى ذكره كثير من المفسّرين، هو أن اللّه سبحانه يبعث الحياة و الشعور فى الأصنام فى ذلك اليوم بحيث تستطيع إعادة الحقائق و ذكرها، و الجملة أعلاه للأصنام التى دعاها اللّه سبحانه للشهادة، و أنّهم كانوا غافلين عن عبادة من يعبدهم، و بذلك تكون أكثر تناسبا مع هذا المعنى، لأنّ الأصنام الحجرية و الخشبية لا تفهم شيئا أصلا.

و يمكن أن نحتمل فى تفسير هذه الآية أنّها تشمل كل المعبودات، غاية ما فى الأمر أن المعبودات التى لها عقل و شعور تعيد الحقائق و تذكرها بلسانها، أمّا المعبودات التى لا عقل لها و لا شعور فإنّ الكلام عن لسان حالها، و تتحدث عن طريق انعكاس آثار العمل، تماما كما نقول: إنّ سيماءك تخبر عن سرك، و القرآن الكريم يبيّن أيضا فى الآية (۲۱) من من سورة فصلت أن جلود الإنسان ستنطق يوم القيامة، و كذلك فى سورة الزلزلة يبيّن أنّ الأرض التى كان يسكنها الإنسان ستذكر الحقائق.

إنّ هذه المسألة ليست صعبة التصور فى زماننا الحاضر، فإذا كان شريط أصم يسجل كل كلامنا و يعيده عند الحاجة، فلا عجب أن تعكس الأصنام أيضا واقع أعمال عابديها!.

على كل حال، ففى ذلك اليوم و ذلك المكان و ذلك الحال- كما يتحدث القرآن فى آخر آية من آيات البحث- فإنّ كل إنسان سيختبر كل أعماله التى عملها سابقا و يرى نتيجتها، بل نفس أعماله، سواء العابدون و المعبودون المضلون الذين كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۴

يدعون الناس إلى عبادتهم، و سواء المشركون و المؤمنون، من أى قوم و من أى قبيل: هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ و فى ذلك اليوم سيرجع الجميع إلى اللّه مولاهم الحقيقى، و محكمة المحشر تبيّن أن الحكم لا يتم إلّا بأمره وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِ

و أخيرا فإنّ جميع هذه الأصنام و المعبودات المختلقة التى جعلها هؤلاء شريكة للّه كذبا ستفنى و تمحى: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ فإنّ القيامة ساحة ظهور كل الأسرار الخفية للعباد، و لا تبقى آية حقيقة إلّا و تظهر نفسها. و من الطبيعى أنّ هناك مواقف و مقامات لا تحتاج إلى سؤال أو جدال و بحث، بل إنّ الحال يحكى عن كل شىء، و لا حاجة للمقال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۱ الى ۳۳]

اشارة

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ مَنْ يُدَبِّرُ

الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۱) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۳۲) كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳)

التّفسير

الحديث فى هذه الآيات عن علامات و دلائل وجود اللّه سبحانه و أهليته للعبادة، و تعقب أبحاث الآيات السابقة حول هذا الموضوع.

ففى البداية تقول: قل لهؤلاء المشركين و عبدة الأوثان الحائرين التائهين عن طريق الحق: من يرزقكم من السماء و الأرض؟ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

«الرزق» يعنى العطاء و البذل المستمر، و لما كان الواهب لكل المواهب فى الحقيقة هو اللّه سبحانه، فإنّ «الرازق» و «الرزّاق» بمعناهما الحقيقى لا يستعملان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۶

إلّا فيه فقط، و إذا استعملت هذه الكلمة فى حق غيره فلا شك أنّها من باب المجاز، كالآية (۲۳۳) من سورة البقرة التى تقول فى شأن النساء المرضعات: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

و ينبغى- أيضا- أن نذكّر بهذه النقطة، و هى أنّ أكثر أرزاق الإنسان من السماء، فالمطر المحيى للنبات من السماء، الذى تحتاجه كل الكائنات الحية مستقر فى فضاء الأرض، و الأهم من ذلك كله أشعة الشمس التى لا يبقى بدونها أى كائن حى، و لا تنبعث بدونها أية حركة فى أنحاء الكرة الأرضية فإنّها تأتى من السماء، و حتى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار فإنّها حية بنور الشمس، لأنا نعلم أن غذاء الكثير منها أعشاب صغيرة جدّا تنمو فى طيات الأمواج على سطح المحيط مقابل أشعة الشمس، و القسم الآخر من هذه الحيوانات تتغذى على لحوم الحيوانات البحرية الأخرى التى تتغذى على تلك النباتات.

و الأرض وحدها هى التى تغذى جذور النباتات بواسطة موادها الغذائية، و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية أوّلا عن أرزاق السماء، ثمّ عن أرزاق الأرض حسب تفاوت درجة الأهمية.

ثمّ تشير الآية إلى حاستين من أهم حواس الإنسان، و اللتان لا يمكن كسب العلم و تحصيله بدونهما، فقالت: أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ. و فى الواقع فإنّ هذه الآية أشارت إلى النعم المادية أوّلا، ثمّ إلى المواهب و الأرزاق المعنوية التى تصبح النعم المادية بدونها فاقدة للهدف و المحتوى.

إن كلمة (سمع) مفردة، و هى بمعنى الأذن، و «الأبصار» و جمع بصر بمعنى العين، و هنا يأتى هذا السؤال، و هو: لماذا ذكرت كلمة السمع فى كل القرآن بصيغة المفرد، و أمّا البصر فإنّها جاءت تارة بصيغة المفرد، و تارة أخرى بصيغة الجمع جواب هذا السؤال مذكور فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية (۷) من سوره البقرة.

ثمّ تطرقت الآية إلى ظاهرتى الموت و الحياة اللتين هما أعجب ظواهر عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۷

الخلقة، فتقول: وَ مَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِ و هذا هو نفس الموضوع الذى حيّر عقول علماء الطبيعية و علماء الاحياء، و هو كيف أتى الموجود الحى إلى الوجود من موجود ميت؟ فهل إنّ مثل هذه المسألة- التى لم تفلح جهود و مساعى العلماء الحثيثة إلى الآن فى كشف أسرارها- أمرا بسيطا و مرتبطا بالصدفة و بدون برنامج و هدف؟ لا شك أنّ من وراء ظاهرة الحياة المعقدة و الظريفة و المليئة بالأسرار علم و قدرة خارقة و عقل كلى.

إنّه لم يخلق الكائن الحى فى البداية من الموجودات الأرضية الميتة و حسب، بل إنّه قرر عدم خلود الحياة، و لهذا خلق الموت فى قلب الحياة ليفسح المجال عن هذا الطريق لتغير الأحوال و التكامل.

و يحتمل- أيضا- فى تفسير هذه الآية أنّها تشمل الموت و الحياة المعنويين إضافة إلى الموت و الحياة الماديين، لأنّنا نرى أناسا عقلاء طاهرين و رعين مؤمنين يولدون أحيانا من أبوين ملوثين منحرفين لا إيمان لهما، و يلاحظ أيضا عكس ذلك حيث يأتى إلى الوجود إناسا تافهون لا قيمة لهم من أبوين فاضلين ۱۴۵].

خلافا لقانون الوراثة.

طبعا، لا يوجد مانع من أن تكون الآية أعلاه إلى كلا القسمين، لأنّ كليهما من عجائب الخلقة و من الظواهر العجيبة فى العالم، و هما موضحان لهذه الحقيقة، و هى أن لقدرة الخالق العالم الحكيم دخلا فى هذه الأمور إضافة إلى الأمور الطبيعية.

و قد أعطينا توضيحات أخرى حول هذا الموضوع فى المجلد الخامس ذيل الآية (۹۵) من سورة الأنعام.

ثمّ تضيف الآية: وَ مَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، و الكلام فى الواقع بدأ عن خلق المواهب، ثمّ عن حافظها و حارسها و مدبرها. و بعد أن يطرح القرآن الكريم هذه الأسئلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۸

الثلاثة يقول مباشرة بأنّ هؤلاء سيجيبون بسرعة: فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

يستفاد من هذه الجملة جيدا أنّه حتى مشركى و عبدة الأصنام فى الجاهلة كانوا يعلمون أنّ الخالق و الرازق و المحيى و مدبر أمور عالم الوجود هو اللّه سبحانه، و قد علموا هذه الحقيقة عن طريق العقل، و كذلك عن طريق الفطرة، و هى أنّ هذا النظام الدقيق للعالم لا يمكن أن يكون وليد الصدفة و الفوضى، أو مخلوقا من قبل هذه الأصنام.

و فى آخر الآية يأمر اللّه نبيّه فَقُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ فإنّ الوحيد الذى له أهلية العبادة هو الذى بيده الخلق و تدبير أمره، و إذا كانت العبادة لأجل أهلية و عظمة ذات المعبود، فإنّ هذه الأهلية و العظمة منحصرة فى اللّه تعالى، و إذا كانت من أجل أنّه مصدر الضر و النفع، فإنّ ذلك مختص باللّه أيضا.

و بعد أن عرضت الآية السابقة نماذج من آثار عظمة و تدبير اللّه فى السماء و الأرض، و أيقظت وجدان و عقل المخالفين و دعتهم للحكم فى أمر الخالق، و اعترف هؤلاء بذلك، خاطبتهم الآية التالية بلهجة قاطعة و قالت: فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُ لا الأصنام، و لا سائر الموجودات التى جعلتموها شريكة للبارى عزّ و جلّ، و التى تسجدون أمامها و تعظمونها.

كيف يمكن أن يكون هؤلاء أهلا للعبودية فى حين أنّهم ليسوا فقط غير قادرين على المشاركة فى خلق العالم و تدبيره فحسب، بل منغمسون فى الفقر و الاحتياج من الرأس حتى أخمص القدم.

ثمّ تنتهى إلى ذكر النتيجة: فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ و أنّى تولوا وجوهكم عن عبادة اللّه و أنتم تعلمون ألا خالق و لا معبود حقّا سواه؟

إنّ هذه الآية فى الواقع تطرح طريقا منطقيا واضحا لمعرفة الباطل و تركه، و هو أن يخطو الإنسان أوّلا فى سبيل معرفة الحق بآليات الوجدان و العقل، فإذا عرف الحق فإنّ كل ما خالفه باطل و ضلال، و يجب أن يضرب عرض الحائط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۴۹

و تقول آخر آية فى بيان العلة فى عدم اتباع هؤلاء للحق رغم وضوح الأمر و ظهور الحق: كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ۱۴۶] و فى الواقع فإنّ هذه خاصية الأعمال السيئة المستمرة لهؤلاء بحيث تظلم قلوبهم و تلوث أرواحهم إلى درجة لا يرون معها الحق رغم وضوحه و تجلّيه، و يسلكون نتيجة لذلك طريق الضلال.

بناء على ذلك، فإنّ الآية أعلاه لا دلالة لها مطلقا على مسألة الجبر، بل هى إشارة إلى آثار أعمال نفس الإنسان، لكن لا شك أنّ هذه الأعمال لها تلك الخاصية بأمر اللّه، تماما كما نقول لشخص: لقد قلنا لك مائة مرّة أن لا تحوم حول المواد المخدرة و المشروبات المسكرة و لا تتناولها، لكنّك لم تصغ لنا، فأصبحت الآن من المدمنين عليها و محكوما بأن تبقى تعيسا لمدّة طويلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۰

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۴ الى ۳۶]

اشارة

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳۴) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۵) وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۳۶)

التّفسير

واحدة من علامات الحق و الباطل:

تعقب هذه الآيات أيضا الاستدلالات المرتبطة بالمبدأ و المعاد، و تأمر الآية الأولى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثمّ تضيف:

قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ و لماذا تصرفون وجوهكم عن الحق و تتجهون نحو الضلال؟

و هنا سؤالان:

الأوّل: إنّ مشركى العرب غالبا لا يعتقدون بالمعاد، خاصّة بالصورة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۱

يذكرها القرآن، و إذا كان هذا حالهم فكيف يطلب القرآن منهم الاعتراف به؟

الثّانى: فى الآية السابقة كان الكلام عن اعتراف المشركين و إقرارهم، إلّا أنّ هذه الآية تأمر النّبى أن يقرّ هو بهذه الحقيقة، فلما ذا هذا الاختلاف فى التعبير؟

إلّا أنّ الانتباه إلى مسأله يوضح جواب كلا السؤالين، و هى: إنّ المشركين بالرغم من عدم اعتقادهم بالمعاد الجسمانى، إلّا أنّ ذلك القدر الذى آمنوا به من أن بداية الخلق كانت من اللّه كاف لتقبل المعاد و الإعتقاد به، لأنّ كل من عمل عملا فى البداية قادر على إعادته، و بناء على هذا فإنّ الإعتقاد بالمبدإ إذا ما اقترن بشىء من الدقة كاف لإثبات المعاد. و من هنا يتّضح لماذا أقر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الحقيقة بدلا من المشركين، فإنّه بالرغم من كون الإيمان بالمعاد من لوازم الإيمان بالمبدأ، إلّا أنّ هؤلاء لما لم يتوجهوا إلى هذه الملازمة، اختلف طراز التعبير و أقر النّبى مكانهم.

ثمّ تأمر الآية الأخرى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة أخرى: قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِ لأنّ المعبود يجب أن يكون هاديا و مرشدا لعبادة، خاصّة و أنّها هداية نحو الحق، فى حين أنّ آلهة المشركين، أعمّ من الجمادات أو الاحياء، غير قادرة أن تهدى أحدا إلى الحق بدون الهداية الإلهية، لأنّ الهداية إلى الحق تحتاج إلى منزلة العصمة و الصيانة من الخطأ و الاشتباه، و هذا لا يمكن من دون هداية اللّه سبحانه و تسديده، و لذلك فإنّها تضيف مباشرة: قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِ و إذا كان الحال كذلك أ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى ۱۴۷].

و تقول الآية فى النهاية بلهجة التوبيخ و التقريع و الملامة: فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

و فى آخر آية إشارة إلى المصدر الأساس و العامل الأصل لهذه الانحرافات و هو الأوهام و الظنون وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ

لا يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۲

النهاية تخاطب الآية- بأسلوب التهدد- مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يتبعون أى منطق سليم و تقول: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ

ملاحظات

۱- قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ اللّه سبحانه وحده الذى يهدى إلى الحق، و هذا الحصر إمّا لأنّ المقصود من الهداية ليس. هو إراءة الطريق و حسب، بل هو الإيصال إلى المقصد، و هذا الأمر بيد اللّه فقط، أو لأنّ إراءة الطريق و الدلالة عليه هو أيضا من عمل اللّه فى الدرجة الأولى، و أمّا غيره من الأنبياء و المرشدين و المصلحين الإلهيين فإنّهم يطلعون على طريق الهداية عن طريقه و هدايته، و يصبحون علماء بتعليمه.

۲- إنّ ما نقرؤه فى الآيات أعلاه من أنّ آلهة المشركين لا تستطيع أن تهدى أحدا، بل هى بذاتها محتاجة إلى الهداية الإلهية، و إن كان لا يصدق على الأصنام الحجرية و الخشبية، لأنّها لا تملك العقل و الشعور مطلقا، إلّا أنّه يصدق تماما فى حق الآلهة التى لها شعور كالملائكة و البشر الذين أصبحوا معبودين.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة المذكورة بمعنى القضية الشرطية، أى على فرض أنّ للأصنام عقلا و شعورا، فإنّها لا تستطيع أن تجد الطريق بدون الهداية الإلهية لنفسها، فكيف ستقدر على هداية الآخرين؟

و على كل حال، فإنّ الآيات أعلاه تبيّن- بوضوح- أنّ من برامج اللّه الأصلية لعباده أن يهديهم إلى الحق، و يتمّ ذلك عن طريق منح العقل، و إعطاء الدروس المختلفة عن طريق الفطرة، و إرادة و إظهار آياته فى عالم الخلقة، و كذلك عن طريق إرسال الأنبياء و الكتب السماوية.

۳- طالعنا فى آخر آية من هذه الآيات أنّ أكثر المشركين و عبدة الأصنام يتبعون ظنونهم و أوهامهم، و هنا يأتى سؤال، و هو: لماذا لم يقل اللّه سبحانه: و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۳

يتبع كلّهم بدل أكثرهم، لأنّا نعلم أنّ جميع المشركين شركاء فى هذا الظن الباطل، حيث يعتقدون أنّ الأصنام آلهة بحق و تملك النفع و الضرر و تشفع عند اللّه، و لهذا فإنّ البعض اضطر إلى تفسير كلمة «أكثرهم» بأنّها تعنى «جميعهم»، و ذهب أن هذه الكلمة جاءت أحيانا بهذا المعنى.

إلّا أنّ هذا الجواب غير وجيه، و الأفضل أن نقول: إن المشركين صنفان: صنف يشكل الأكثرية، و هم الأفراد الخرافيون الجهلاء الذين وقعوا تحت تأثير الأفكار الخاطئة، و اختاروا الأصنام لعبادتها.

أمّا القسم الثّانى، و هم الأقلية، فهم الزعماء و أئمّة الكفر الواعون لحقيقة الأمر و المطّلعون على عدم صحة عبادة الأصنام و أنّها لا أساس لها، و إلّا أنّهم يدعون الناس لعبادتها حفظا لمصالحهم، و لهذا السبب فإنّ اللّه يجيب الصنف الأوّل فقط لأنّهم مؤهلين للهداية، أمّا الصنف الثّانى فلم يعبأ بهم مطلقا لأنّهم سلكوا هذا الطريق عن علم و وعى.

۴- يعتبر جماعة من علماء الأصول هذه الآية و أمثالها دليلا على أن الظن لا يمكن أن يكون حجة و سندا بأى وجه من الوجوه، و أن الأدلة القطعية هى الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليها.

إلّا أنّ جماعة أخرى يقولون: إنّنا نلاحظ بين الادلة الفقهية أدلّة ظنية كثيرة، كحجية ظواهر الألفاظ، و شهادة الشاهدين العدلين، أو خبر الواحد الثقة و أمثال ذلك، و لذلك فإنّ الآية المذكورة دليل على أنّ القاعدة الأصلية فى مسألة الظن هى عدم حجيته، إلّا أنّ تثبت حجيته بالدليل القطعى كالأمثلة أعلاه.

إلّا أنّ الحق هو أنّ الآيـة أعلاه تتحـدث عن الظنون و الأوهام التى لا أساس لها، كظنون و أوهام عبـدة الأصـنام فقط، و لا علاقـة لها بالظن الـذى يمكن الاعتماد عليه و الموجود بين العقلاء، و بناء على هـذا فإنّ هـذه الآية و أمثالها لا يمكن الاسـتناد إليها بأى وجه فى مسألة عدم حجية الظن. فتدبر جيدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۴

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ ما كانَ هـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۳۹) وَ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (۴۰)

التّفسير

عظمة دعوة القرآن و حقانيته:

تتطرق هذه الآيات إلى الإجابة عن قسم آخر من كلمات المشركين السقيمة، فإنّ هؤلاء لم يجانبوا الصواب فى معرفة المبدأ و حسب، بل كانوا يفترون على نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه هو الذى اختلق القرآن و نسبه إلى اللّه، و رأينا فى الآيات السابقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۵

أنّهم طلبوا من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأتى بغير هـذا القرآن، أو يغيره على الأقل، و هـذا بنفسه دليـل على أنّهم كـانوا يظنون أن القرآن من تـأليف النّبى! فالآيـة الأولى تقول: وَ ما كانَ هـذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ و اللطيف هنا أنّها بـدل أن تنفى هـذا الأمر نفيا بسيطا، نفته نفيا شأنيا، و هـذا يشبه تماما أن يقول شـخص ما فى مقام الـدفاع عن نفسه: ليس من شأنى الكـذب، و هذا التعبير اعمق و أكثر معنى من أن يقول: إنّى لا أكذب.

ثمّ تتطرق الآية إلى ذكر الدليل على أصالة القرآن و كونه و حيا سماويا: فتقول وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ أى إنّ كل البشارات و الـدلالات الحقّـة التى جاءت فى الكتب السماوية السابقة تنطبق على القرآن و من جاء به تماما، و هذا بنفسه يثبت أنّه ليس افتراء على اللّه بل هو حق، و أساسا فإنّ القرآن شاهد على صدق محتواه من باب أنّ طلوع الشمس دليل على الشمس.

و من هنـا يتّضـح زيف الـذين اسـتدلوا بمثـل هـذه الآيات على عـدم تحريف التّوراة و الإنجيل، لأنّ القرآن الكريم لم يصـدق ما كان موجودا فى هذه الكتب فى عصر النزول، بل إنّه أيّد العلامات الواردة فى هذه الكتب حول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن.

و قد بيّنّا توضيحات أكثر فى هذا الباب فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير فى ذيل الآية (۴۱) من سورة البقرة.

ثمّ تـذكر الآيـة دليلا آخر على أصالـة هـذا الوحى السماوى و هو: إنّ فى هـذا القرآن شـرح كتب الأنبيـاء السابقين الأصيلة، و بيان أحكـامهم الأساسية و عقائـدهم الأصوليـة، و لهـذا فلا شـك فى كونه من اللّه تعـالى، فتقول: وَ تَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ و بتعبير آخر: لا يوجـد فيه أى تضاد و تناقض مع برامـج و أهـداف الأنبياء السابقين، بل يلاحظ فيه تكامل تلك التعليمات و البرامج، و إذا كان هذا القرآن مختلقا فلا بدّ أن يخالفها و يناقضها.

و من هنا نعلم أنّه لا يوجد أى اختلاف بين الكتب السماوية فى أصول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۶

المسائل، سواء كانت فى العقائد الدينية، أو البرامج الاجتماعية، أو حفظ الحقوق، أو محاربة الجهل، أو الدعوة إلى الحق و العدالة، و كذلك إحياء القيم الأخلاقية و أمثال ذلك، سوى أن الكتاب الذى ينزل متأخرا يكون أرفع مستوى و أكمل من السابق، تماما كاختلاف مراحل التعليم فى الابتدائية و الإعدادية و الجامعة، حتى انتهت المراحل بالكتاب الأخير الخاص بالمرحلة النهائية لتحصيل الأمم الدينى، ألا و هو القرآن.

و لا شك فى وجود الاختلاف فى جزئيات الأحكام بين الأديان و المذاهب السماوية، إلّا أنّ الكلام عن أصولها الأساسية المتحدة و المشتركة فى كل مكان.

و ذكر فى الآية التالية دليل ثالث على أصالة القرآن، و خاطبت الذين يدعون أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد افترى هذا القرآن على اللّه، بأنّكم إن كنتم صادقين فى دعواكم فأتوا بسورة من مثله، و استعينوا فى ذلك بمن شئتم غير اللّه، و لكنّكم لا تستطيعون فعل ذلك أبدا، و بهذا الدليل يثبت أن القرآن من وحى السماء أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

إنّ هذه الآيات من جملة الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بصراحة، لا إعجاز كل القرآن فحسب، بل حتى إعجاز السورة الواحدة، و قد خاطبت كل العالمين- بدون استثناء- بأنّكم إن كنتم معتقدين بأنّ هذه الآيات ليست من اللّه فأتوا بمثله، أو بسورة منه على الأقل.

و كما بيّنا فى المجلد الأوّل فى ذيل الآية (۲۳) من سورة البقرة، فإنّ آيات القرآن تتحدى أحيانا أن يؤتى بمثل كل القرآن، و أحيانا بعشر سور، و أحيانا بسورة واحدة، و هذا يوضح أنّ جزء القرآن و كلّه معجز. و لمّا لم تعين الآية سورة معينة فإنّها تشمل كل سورة من القرآن.

طبعا لا شك أنّ إعجاز القرآن لا ينحصر فى جوانب الفصاحة و البلاغة و حلاوة البيان و كمال التعبيرات كما ظن ذلك جماعة من قدماء المفسّرين، بل إن جانب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۷

الإعجاز يتمثل أيضا إضافة لما مر فى بيان المعارف الدينية، و العلوم التى لم تكن معروفة حتى ذلك اليوم، و بيان الأحكام و القوانين، و ذكر تأريخ السابقين من دون أى خطأ أو تلبس بخرافة، و عدم وجود الاختلاف و التضادّ فيه ۱۴۸].

مظاهر و تجليات جديدة من إعجاز القرآن:

ممّا يلفت النظر أنّ مظاهر جديدة من إعجاز القرآن تتّضح مع مرور الزمن، حيث لم تكن تجلب الانتباه- سابقا- و لا يهتم بها، و من جملتها المحاسبات الكثيرة التى أجريت على كلمات القرآن بواسطة العقول الألكترونية، و التى أثبتت أن لكلمات و فقرات القرآن و علاقتها بزمن النزول خصوصيات جديدة، و ما تقرؤونه أدناه نموذج منها:

إنّ تحقيقات بعض العلماء و المحققين أدت إلى كشف روابط معقدة و معادلات حسابية دقيقة جدّا فى آيات القرآن حتى أنّها جمعت بين الحيرة و اليقين فى وجود مثل هذا النظام العلمى فى بناء القرآن، و ذلك عن طريق التحقيق الإحصائى و الرّياضى لكشف القواعد الدقيقة و المعادلات الرياضية للآيات الشريفة و التى تذكرنا من ناحية الأهمية و المعرفة باكتشاف نيوتن للجاذبية.

أحد علماء القرآن بدأ عمله من هذه المسألة البسيطة، و هى أنّ الآيات النازلة فى مكّة قصيرة، و الآيات التى نزلت فى المدينة طويلة، و هذه مسألة طبيعية، فإنّ كل كاتب أو خطيب بليغ يغير من طول جمله و نغمات كلماته حسب موضوع الحديث، فمثلا تكون جمل

التوصیف قصیرة، أمّا مسائل التحلیل و الاستدلال فهی طویلة ... و إذا کان الکلام لغرض تحریک العواطف أو للانتقاد او لبیان الأصول العقائدیة العامّة، فإنّ العبارة تکون قصیرة و بأسلوب الشعارات، أمّا إذا کان بدایة قصّة أو لبیان الکلام فی استخلاص النتائج الأخلاقیة و ... فإنّ الأسلوب یکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۸

هادئا و العبارات طویلة.

إنّ المسائل التی طرحت فی مکّة هی من النوع الأوّل، بینما المسائل التی طرحت فی المدینة من النوع الثّانی، فما نزل فی مکّة کان بدایة ثورة و بیان للمبادئ العامّة، الاعتقادیة و الانتقادیة، و الذی نزل فی المدینة کان لبناء مجتمع و بیان مسائل حقوقیة و أخلاقیة و قصص تاریخیة و استخلاص النتائج الفکریة و العلمیة.

و بما أنّ القرآن نزل بلغة البشر فلا بدّ من أن یتبع السبک الجمیل و البلیغ فی کلام البشر، و فی النتیجة مراعاة قصر و طول الآیات بما یناسب المفاهیم، و بالتالی یجب أن لا یکون القصر و الطول اعتباطیا و عشوائیا، بل یبدأ حسب قاعدة علمیة دقیقة من الآیات القصیرة، و یسیر علی وتیرة تصاعدیة واحدة نحو الآیات الطویلة، و علی هذا الأساس یجب أن تکون کل آیة أقصر من الآیة التی نزلت بعد سنة، و أطول من الآیة التی نزلت قبلها بسنة، و أن یکون مقدار الزیادة محسوبا و دقیقا، و علی هذا فلمّا کان الوحی قد نزل خلال ۲۳ سنة، فیجب أن یکون لدینا ۲۳ طولا فی الآیات کمعدل، و بناء علی هذه القاعدة یمکن أن یکون لدینا ۲۳ عمودا بحیث تقسم کل الآیات حسب الطول فی هذه الأعمدة، و الآن من أین نستطیع أن نعلم أن هذا التقسیم صحیح؟

نحن نعلم سبب نزول بعض الآیات بواسطة الرّوایات الشریفة التی ذکرت- بصراحة- فی أیة سنة نزلت هذه الآیات، و البعض الآخر یمکن تعیینه من خلال مفاهیمه، فمثلا: الآیات التی تبیّن بعض الأحکام کتغییر القبلة، و تحریم الخمر، و تشریع الحجاب و الزکاة و الخمس، أو الآیات التی تتحدث عن الهجرة، فإنّ سنّی تعیین هذه الأحکام معلومة.

و بتعجب مثیر للدهشة نری أن هذه الآیات التی یعلم عام نزولها، قد اجتمعت فی نفس الأعمدة التی فرضت أنّها أخذت حسب الطول فی هذا الجدول. «فتدبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۵۹

جیدا» و الأعجب هو ملاحظة بعض الاستثناءات فی موردین أو ثلاثة، بمعنی أن سورة المائدة مثلا آخر السور الکبار النّازلة، فی حین أن عدّة آیات منها یجب أن تکون حسب المعادلة- قد نزلت فی السنین الأولی! و بعد التحقیق فی متون التفاسیر و الرّوایات الإسلامیة و أقوال المفسّرین المعتبرین، لوحظ أنّهم قالوا: إنّ هذه الآیات القلیلة نزلت فی البدایة، لکن وضعت فی سورة المائدة حسب أمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و بهذه الطریقة یمکن تعیین سنة نزول کل آیة حسب هذا الحساب الریاضی، و کتابة القرآن حسب سنة النزول أیضا.

أی أدیب و بلیغ فی العالم یستطیع أن یعین سنة کتابة کل جملة من خلال طول العبارة؟ خاصّة و أنّه لیس نصا کتابیا کأی أثر علمی أو أدبی جلس کاتبه مدّة معینة و کتبه و لیس کتابا ألفه کاتبه فی موضوع ما، بل یحتوی علی مسائل مختلفة نزلت بالتدریج حسب احتیاج المجتمع، أو هی جواب لمسائل مطروحة من الحوادث و المسائل طرحت علی مدی مسیرة الدعوة و إبلاغ الرسالة، و قد بیّنت من قبل القائد، ثمّ جمعت و نظمت.

بل إنّ موسیقی و لحن لغات و کلمات القرآن الخاصّة- أیضا- معجزة نادرة فی نوعها کما ذکر ذلک بعض المفسّرین. و قد ذکروا شواهد مختلفة جمیلة علی هذا الموضوع، و من جملتها الحادثة أدناه التی وقعت لسید قطب المفسّر المعروف:

یقول فی ذیل الآیة محل البحث:

«و لن أذکر نماذج ممّا وقع لغیری و لکنّی أذکر حادثا وقع لی و کان معی شهود ستة، و ذلک منذ حوالی خمسة عشر عاما .. کنّا ستة

نفر من المنتسبین إلی الإسلام علی ظهر سفینة مصریة تمخر بنا عباب المحیط الأطلسی إلی نیویورک، من بین عشرین و مائة راکب و راکبة أجانب لیس فیهم مسلم .. و خطر لنا أن نقیم صلاة الجمعة فی المحیط علی ظهر السفینة! و اللّه یعلم- أنّه لم یکن بنا أن نقیم الصلاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۰

ذاتها أکثر ممّا کان بنا حماسة دینیة إزاء مبشر کان یزاول عمله علی ظهر السفینة، حاول أن یزاول تبشیره معنا! ... و قد یسر لنا قائد السفینة- و کان إنجلیزیا- أن نقیم صلاتنا، و سمح لبحارة السفینة طهاتها و خدمها- و کلّهم نوبیون مسلمون- أن یصلی منهم معنا من لا یکون فی «الخدمة» وقت الصلاة! و قد فرحوا بهذا فرحا شدیدا، إذ کانت المرّة الاولی التی تقام فیها صلاة الجمعة علی ظهر السفینة ..

و قمت بخطبة الجمعة و إمامة الصلاة، و الرکاب الأجانب- معظمهم- متحلقون یرقبون صلاتنا! .. و بعد الصلاة جاءنا کثیرون منهم یهنئوننا علی نجاح «القدّاس»!!! فقد کان هذا أقصی ما یفهمونه من صلاتنا! و لکن سیدة من هذا الحشد- عرفنا فیما بعد أنّها یوغسلافیة مسیحیة هاربة من جحیم «تیتو» و شیوعیته!- کانت شدیدة التأثر و الانفعال، تفیض عیناها بالدمع و لا تتمالک مشاعرها، جاءت تشدّ علی أیدینا بحرارة؛ و تقول:- فی إنجلیزیة ضعیفة- إنّها لا تملک نفسها من التأثر العمیق بصلاتنا هذه و ما فیها من خشوع و نظام و روح! ..

و لیس هذا موضع الشاهد فی القصّة .. و لکن ذلک مان فی قولها: أی لغة هذه التی کان یتحدث بها «قسیسکم»! فالمسکینة لا تتصور أن یقیم «الصلاة» إلّا قسیس- أو رجل الدین- کما هو الحال عندها فی مسیحیة الکنیسة! و قد صححنا لها هذا الفهم!. و أجبناها .. فقالت: إنّ اللغة التی یتحدث بها ذات إیقاع موسیقی عجیب، و إنّ کنت لم أفهم منها حرفا .. ثمّ کانت المفاجأة الحقیقة لنا و هی تقول: و لکن هذا لیس الموضوع الذی أرید أت أسأل عنه .. إنّ الموضوع الذی لفت حسی، هو أن «الإمام» کانت ترد فی أثناء کلامه- بهذا اللغة الموسیقیة- فقرات من نوع آخر غیر بقیة کلامه! نوع أکثر موسیقیة کما لو کان- الإمام- مملوءا من الروح القدس!- حسب تعبیرها المستمد من مسیحیتها! تفکرنا قلیلا، ثمّ أدرکنا أنّها تعنی الآیات القرآنیة التی وردت فی أثناء خطبة الجمعة و فی أثناء الصلاة! و کانت- مع ذلک- مفاجأة تدعو إلی الدهشة، من سیدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۱

لا تفهم ممّا نقول شیئا![۱۴۹].

و فی الآیة التالیة إشارة إلی واحدة من العلل الأساسیة لمخالفة المشرکین، فتقول: إنّ هؤلاء لم ینکروا القرآن بسبب الإشکالات و الإیرادات، بل إن تکذیبهم و إنکارهم إنّما کان بسبب عدم اطلاعهم و علمهم به: بَلْ کَذَّبُوا بِما لَمْ یُحِیطُوا بِعِلْمِهِ

فی الواقع، إنّ سبب إنکارهم هو جهلهم و عدم اطلاعهم، لکن المفسّرین احتملوا احتمالات متعددة فیما هو المقصود من هذه الجملة و أن الجهل بأی الأمور کان، و کان تلک الاحتمالات یمکن أن تکون مقصودة من الجملة:

الجهل بالمعارف الدینیة و المبدإ و المعاد، کما ینقل القرآن قول المشرکین فی شأن المعبود الحقیقی (اللّه)، حیث کانوا یقولون: أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَیْءٌ عُجابٌ ۱۵۰]. أو أنّهم کانوا یقولون فی مسألة المعاد: أَ إِذا کُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِیداً[۱۵۱]، هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ أَفْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ[۱۵۲].

فی الحقیقة لم یکن لهؤلاء أی دلیل علی نفی المبدأ و المعاد، و کان الجهل و التخلف الناشئ من الخرافات و التعود علی مذهب الأجداد هو السد الوحید فی طریقهم.

أو الجهل بأسرار الأحکام.

أو الجهل بمفهوم بعض الآیات المتشابهة.

أو الجهل بمعنى الحروف المقطعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۲

أو الجهل بالدروس و العبر التى هى الهدف النهائى من ذكر تاريخ الماضين.

إن مجموع هذه الجهالات و الضلالات كانت تحملهم على الإنكار و التكذيب، فى حين أن تأويل و تفسير و تحقق المسائل المجهولة بالنسبة لهؤلاء لم يبيّن بعد وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ

«التأويل» فى أصل اللغة بمعنى إرجاع الشىء و على هذا فإنّ كل عمل أو قول يصل إلى هدفه النهائى نقول عنه: إن تأويله قد حان وقته، و لهذا يطلق على بيان الهدف الأصلى من إقدام معين، أو التّفسير الواقعى لكلمة ما، أو تفسير و إعطاء نتيجة الرؤيا، أو تحقق فرضية فى ارض الواقع، اسم التأويل. و قد تحدثنا بصورة مفصلة حول هذا الموضوع فى المجلد الثّانى ذيل الآية (۷) من سورة آل عمران.

ثمّ يضيف القرآن مبينا أن هذا المنهج الزائف لا ينحصر بمشركى عصر الجاهلية، بل إنّ الأقوام السابقين كانوا مبتلين أيضا بهذه المسألة، فإنّهم كانوا يكذبون الحقائق و ينكرونها دون السعى لمعرفة الواقع، أو انتظار تحققه: كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ و قد مرت الإشارة أيضا فى الآيات (۱۱۳) و (۱۱۸) من سورة البقرة إلى وضع الأمم السابقة من هذه الناحية.

الواقع، إنّ عذر هؤلاء جميعا كان جهلهم و رغبتهم عن التحقيق و البحث فى الحقائق الواقعية، فى حين أن العقل و المنطق يحكمان بأنّه لا ينبغى للإنسان انكار ما يجهله مطلقا، بل يبدأ بالبحث و التحقيق.

و فى النهاية و جهت الآية الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ أى إنّ هؤلاء سيلاقون أيضا نفس المصير.

و أشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إلى فئتين عظيمتين من المشركين، فتقول: إنّ هؤلاء لا يبقون جميعا على هذا الحال، بل إنّ جماعة منهم لم تخمد فيهم روح البحث عن الحق و طلبه و سيؤمنون بالقرآن فى النهاية. فى حين أن الفئة الأخرى ستبقى فى عنادها و إصرارها و جهلها، و سوف لا تؤمن أبدا: وَ مِنْهُمْ مَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۳

يُؤْمِنُ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ

و من الواضح أنّ أفراد الفئة الثّانية فاسدون و مفسدون، و لذلك قالت الآية فى النهاية: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ و هى إشارة إلى أن الذين لا يذعنون للحق، هم أفراد يسعون لحل عرى المجتمع، و لهم دور مهم فى إفساده.

الجهل و الإنكار:

كما يستفاد من الآيات أعلاه أنّ قسما مهمّا من مخالفة الحق و محاربته تنبع عادة من الجهل، و لهذا السبب قالوا: عاقبة الجهل الكفر! إنّ أوّل مهمّة تقع على عاتق كل إنسان يطلب الحق أن يتريث فى مقابل ما يجهل، يتحرك صوب البحث ثمّ و تحقيق كل جوانب المطلب الذى يجهله، و ما لم يحصل على الدليل القاطع على بطلانه فلا ينبغى له رفضه، كما أنّه لا ينبغى له قبوله و الاعتقاد به إذا لم يحصل لديه دليل قاطع على صحته نقل العلّامة الطبرسى

فى مجمع البيان حديثا رائعا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى هذا الباب، حيث يقول «إنّ اللّه خص هذه الأمّة بآيتين من كتابه: أن لا يقولوا إلّا ما يعلمون، و أن لا يردوا ما لا يعلمون، ثمّ قرأ: أَ لَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَ و قرأ: بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۴

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۴۱) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (۴۲) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (۴۳) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۴)

التّفسير

العمى و الصمّ:

تتابع هذه الآيات البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول إنكار و تكذيب المشركين، و إصرارهم على ذلك، فقد علّمت الآية الأولى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم طريقة جديدة فى المواجهة، فقالت: وَ إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

إنّ لإعلان الترفع و عدم الاهتمام هذا، و المقترن بالاعتماد و الإيمان القاطع بالمذهب، أثرا نفسيا خاصا، و بالذات على المنكرين المعاندين، فهو يفهمهم بعدم وجود أى إجبار و إصرار على قبولهم الدعوة الإسلامية. بل إنّهم بعدم تسليمهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۵

أمام الحق سيحرمون أنفسهم، و لا يضرون إلّا أنفسهم.

و قد ورد نظير هذا التعبير فى آيات أخرى من القرآن، كما نقرأ فى سورة الكافرون: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ

و من هذا البيان يتّضح أن محتوى مثل هذه الآيات لا ينافى مطلقا الأمر بالتبليغ أو الجهاد فى مقابل المشركين كيما تعتبر مثل هذه الآيات منسوخة. بل إنّ هذا نوع من المواجهة المنطقية عن طريق عدم الاكتراث لهؤلاء الأشخاص المعاندين.

و تشير الآيتان التاليتان إلى سبب انحراف هؤلاء و عدم إذعانهم للحق، و تبيّن أنّ التعليمات الصحيحة، و الآيات المعجزة التى تهزّ الوجدان و الدلالات الأخرى الواضحة لا تكفى بمفردها لهداية الإنسان، بل إنّ استعداد التقبل و لياقة قبول الحق لازمة أيضا، كما أنّ البذر لوحده ليس كافيا لإنبات النبات و الأوراد، بل إنّ الأرض بدورها يجب أن تكون مستعدة. و لهذا قالت الآية: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۱۵۳] أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ

و هناك فئة ثانية يشخصون بأبصارهم إليك، و ينظرون إلى أعمالك المتضمنة أحقيتك و صدق قولك، إلّا أنّهم عمى لا يبصرون: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ۱۵۴] أَ فَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ

و لكن اعلم و ليعلم هؤلاء أنّ قصور الفكر هذا، و عدم البصيرة و العمى عن رؤية وجه الحق، و الصمم عن سماع كلام اللّه ليس شيئا ذاتيا لهم نشؤوا عليه منذ ولادتهم، و إنّ اللّه تعالى قد ظلمهم، بل إنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم بأعمالهم السيئة و عدائهم و عصيانهم للحق، و عطلوا بذلك عين بصيرتهم و أذن أفئدتهم عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۶

سماع الحق و اتباعه، ف إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَ لكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

ملاحظتان

و هنا ينبغى الالتفات لملاحظتين:

۱- ما نقرؤه فى الآية الثّانية من أنّهم يستمعون إليك، و فى الآية الثّالثة من أنهم ينظرن إليك، إشارة إلى أنّ جماعة من هؤلاء يسمعون هذا الكلام المعجز، و جماعة أخرى ينظرون إلى معجزاتك التى تدل كلها بوضوح على صدق كلامك و أحقية دعوتك، إلّا أنّ أحدا من هاتين الفئتين لم ينتفع من استماعه أو نظره، لأنّ نظرهم لم يكن نظر فهم و إدراك، بل نظر انتقاد و تتبع عثرات و مخالفة.

و كذلك لا يستفيدون من استماعهم، لأنّهم لا يستمعون لإدراك محتوى الكلام، بل للعثور على ثغرات فيه لتكذيبه و إنكاره، و من المعلوم أن نيّة الإنسان ترسم شكل العمل و تغيّر من آثاره.

۲- جاءت فى آخر الآية الثّانية جملة: وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ و فى آخر الآية الثّالثة جملة: وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ و هى إشارة إلى أنّ الاستماع- أى إدراك الألفاظ- ليس كافيا بمفرده، بل إنّ التفكر و التدبر فيها لازم أيضا لينتفع الإنسان من محتواها. و كذلك لا أثر للنظر بمفرده، بل إنّ البصيرة- و هى إدراك مفهوم ما يبصره الإنسان- لازمة أيضا ليصل إلى عمقها و يهتدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۷

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ (۴۵) وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (۴۶) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۴۷)

التّفسير

بعد بيان بعض صفات المشركين فى الآيات السابقة، أشير هنا إلى وضعهم المؤلم فى القيامة. تقول الآية: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ

الإحساس بقلة مقدار الإقامة فى دار الدنيا و قصره، إمّا لأنّه بالنسبة للحياة الاخروى لا يبلغ سوى ساعة واحدة. أو لأنّ هذه الدنيا الفانية انقضت بسرعة بحيث كأنّها لم تكن أكثر من ساعة، أو لأنّهم لما لم يستفيدوا من عمرهم الاستفادة الصحيحة، فيتصورون أنّها لا تساوى أكثر من قيمة ساعة!.

بناء على ما قلناه فى التّفسير أعلاه، فإنّ جملة يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۸

مقدار بقائهم فى الدنيا، أى إنّهم يحسون أنّ أعمارهم كانت قصيرة إلى الحد الذى يكفى لالتقاء شخصين و تعارفهما ثمّ تفرقهما!.

و قد احتمل أيضا- فى تفسير هذه الآية- أنّ المقصود هو الإحساس بقصر الزمان بالنسبة لحياة البرزخ، أى إنّ هؤلاء يعيشون فى فترة البرزخ حالة شبيهة بالنوم بحيث لا يشعرون بمرور السنين و القرون و الأعصار، و يظنون فى القيامة أن مرحلة برزخهم التى استغرقت

آلاف أو عشرات الآلاف من السنين، لم تكن إلّا ساعة. و الشاهد على هذا التّفسير الآيتان (۵۵)- (۵۶) من سورة الروم، اللتان تقولان: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ. وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

يستفاد من هاتين الآيتين أنّ مجموعة من المجرمين يقسمون فى القيامة أن فترة برزخهم لم تكن أكثر من ساعة، إلّا أنّ المؤمنين يقولون لهم: إنّ المدّة كانت طويلة، و الآن قد قامت القيامة و أنتم لا تعلمون. و نحن نعلم أن البرزخ ليس متساويا بالنسبة للجميع، و سنذكر تفصيل ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.

و بناء على هذا التّفسير، فإنّ معنى جملة يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ سيكون: إنّ هؤلاء يحسون بأنّ زمان البرزخ كان قصيرا بحيث أنّهم لم ينسوا أى أمر من أمور الدنيا، و يعرف بعضهم البعض الآخر جيدا. أو أنّ كلا منهم يرى أعمال الآخرين القبيحة هناك، و يطّلع كل منهم على باطن الآخر، و هذا بحد ذاته فضيحة كبرى بالنسبة لهؤلاء.

ثمّ تضيف الآية أنّه سيثبت لكل هؤلاء فى ذلك اليوم: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ و أنفقوا كل ملكاتهم و طاقاتهم الحيوية دون جدوى وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ بسبب هذا التكذيب و الإنكار و الإصرار على الذنب، و لأنّ قلوبهم و أرواحهم كانت مظلمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۶۹

و تقول الآية التالية تهديدا للكفار، و تسلية لخاطر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ

و تبيّن الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث قانونا كليا فى شأن كل الأنبياء، و من جملتهم نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و كل الأمم و من جملتها الأمّة التى كانت تحيا فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فإذا جاء رسولها و بلغ رسالته، و آمن قسم منهم و كفر آخرون، فإنّ اللّه سبحانه يقضى بينهم بعدله، و لا يظلم ربّك أحدا، فيبقى المؤمنون و الصالحون يتمتعون بالحياة، أمّا الكافرون فإنّهم فمصيرهم الفناء او الهزيمة: فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

و هذا ما حصل لنبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أمته المعاصرة له، فإنّ أعداءه هلكوا فى الحروب، أو انهزموا فى النهاية و طردوا من ساحة المجتمع و أخذ المؤمنون زمام الأمور بأيديهم. و بناء على هذا فإنّ القضاء و الحكم الذى ورد فى هذه الآية هو القضاء التكوينى فى هذه الدنيا، و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّه إشارة إلى حكم اللّه يوم القيامة. فهو خلاف الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۰

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۴۸ الى ۵۲]

اشارة

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۴۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (۵۰) أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۵۱) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۵۲)

التّفسير

العذاب الإلهى و اختيارات الرّسول:

بعد التهديدات التى ذكرت فى الآيات السابقة المتعلقة بعذاب و عقاب منكرى الحق، فإنّ هذه الآيات تنقل أوّلا استهزاء هؤلاء بالعذاب الإلهى و سخريتهم و انكارهم. فتقول: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

هذا الكلام كان كلام مشركى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حتما، لأنّ الآيات التالية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۱

تتضمن جواب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم شاهدة على هذا المطلب.

على كل حال، فإنّ هؤلاء أرادوا بهذه الكلمات أن يظهروا عدم اهتمامهم بتهديدات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة، و تقوية قلوب الذين خافوا من هذه التهديدات و تهدئة خواطرهم ليرجعوا إلى صفوفهم.

و فى مقابل هذا السؤال، فإنّ اللّه سبحانه أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم بعدّة طرق:

فيقول أوّلا: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ فإنّى لست إلّا رسوله و نبيّه، و إنّ تعيين موعد نزول العذاب بيده فقط، و إذا كنت لا أملك لنفسى نفعا و لا ضرا، فمن باب الأولى أن لا أملكهما لكم.

إنّ هذه الجملة فى الحقيقة إشارة إلى توحيد الأفعال حيث يرتبط كل شىء فى هذا العالم باللّه سبحانه، و كل الحركات و الأفعال معلولة لإرادته و مشيئته، فهو الذى ينصر المؤمنين بحكمته، و هو الذى يجازى المنحرفين بعدالته.

من البديهى أنّ ذلك لا ينافى أنّ اللّه قد أعطانا قوى و طاقات نملك بواسطتها جلب النفع و دفع الضرر، و نستطيع أن نختار ما يتعلق بمصيرنا، و بتعبير آخر فإنّ هذه الآية تنفى الملكية بالذات لا بالغير، و جملة إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ قرينة واضحة على هذا الموضوع.

و من هنا يعلم أنّ استدلال بعض المتعصبين- ككاتب تفسير المنار- بهذه الآية على نفى جواز التوسل بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ضعيف جدّا، لأنّه إذا كان المقصود من التوسل أن نعتبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ذا قدرة ذاتية و مالكا للنفع و الضر، فإنّ هذا شرك قطعا، و لا يمكن أن يؤمن بهذا أى مسلم، أمّا إذا كانت هذه الملكية من اللّه سبحانه و هى داخلة تحت عنوان: إلّا ما شاء اللّه، فما المانع من ذلك؟ و هذا هو عين الإيمان و التوحيد. إلّا أنّه نتيجة الغفلة عن هذه النكتة أتلف وقته و وقت قرّاء تفسيره بالبحوث الطويلة، و هو مع الأسف (رغم كل الامتيازات الموجودة فى تفسيره) قد ارتكب كثيرا من هذه الأخطاء، و التى يمكن اعتبار التعصب منبعها جميعا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۲

ثمّ يتطرق القرآن إلى جواب آخر و يقول: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ و بتعبير آخر فإنّ أى أمّة إذا انحرفت عن مسير الحق، فسوف لا تكون مصونة من العذاب الإلهى الذى هو نتيجة أعمالها، فعند ما ينحرف الناس عن قوانين الخلقة و الطبيعة فسيبددون طاقاتهم و ملكاتهم فى فراغ و يسقطوا فى النهاية فى هاوية الانحطاط و يحتفظ تاريخ العالم فى ذاكرته بنماذج كثيرة من ذلك.

فى الواقع إنّ القرآن الكريم يحذر المشركين الذين كانوا يتعجلون العذاب الإلهى بأن لا يعجلوا، فعند ما يحل موعدهم فإنّ هذا العذاب سوف لن يتأخر أو يتقدم لحظة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الساعة قد تعنى أحيانا لحظة، و أحيانا المقدار القليل من الزمن، بالرغم من أنّ معناها المعروف اليوم هو الأربع و العشرون ساعة التى تشكل الليل و النهار.

و تطرح الآية الأخرى الجواب الثّالث، فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً فهل تستطيعون أن تدفعوا عن أنفسكم هذا العذاب المفاجئ غير المرتقب؟ و إذا كان الحال كذلك فـ ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ

و بتعبير آخر، فإنّ هؤلاء المجرمين الجريئين إن لم يتيقنوا نزول العذاب فليحتملوا على الأقل أن يأتيهم فجأة، فما الذى يضمن لهؤلاء أنّ تهديدات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم سوف لن تقع أبدا؟ إنّ الإنسان العاقل يجب أن يراعى الاحتياط على الأقل فى مقابل

مثل هذا الضرر المحتمل و يكون منه على حذر.

و ورد نظير هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن، و بتعبيرات أخرى، مثل:

أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا سورة الإسراء، الآية (۶۸). و هذا هو الذى يعبر عنه فى علم الكلام و الأصول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۳

بقاعدة «لزوم دفع الضرر المحتمل»[۱۵۵].

و فى الآية التالية ورد جواب رابع لهؤلاء، فهى تقول: إذا كنتم تفكرون أن تؤمنوا حين نزول العذاب، و أنّ إيمانكم سيقبل منكم، فإنّ ظنّكم هذا باطل لا صحّة له: أَ ثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ لأنّ أبواب التوبة ستغلق بوجوهكم بعد نزول العذاب، و ليس للإيمان حينئذ أدنى أثر، بل يقال لكم: آلْآنَ وَ قَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

هذا بالنسبة لعقاب هؤلاء الدنيوى، و فى الآخرة: ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ فإنّ أعمالكم فى الواقع هى التى أخذت بأطرافكم، و هى التى تتجسد أمامكم و تؤذيكم على الدوام.

ملاحظات

۱- كما قلنا فى ذيل الآية (۳۴) من سورة الأعراف، فإنّ بعض أهل البدع و الأديان المختلقة فى عصرنا استدلوا بآيات. مثل: لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ التى وردت مرّتين فى القرآن، على نفى خاتمية نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و توصلوا إلى أن كل دين و مذهب ينتهى فى النهاية و يخلى مكانه لمذهب آخر. فى حين أن الأمّة تعنى القوم و الجماعة. لا المذهب.

إنّ هدف هذه الآيات هو أنّ قانون الحياة و الموت لا يختص بالأفراد، بل إنّه يشمل الأقوام و الأمم أيضا، فإذا سلكوا طريق الظلم و الفساد فإنّهم سينقرضون لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۴

محالة، خاصّة إذا لا حظنا فى هذا البحث الآية التى قبلها و التى بعدها، فستثبت هذه الحقيقة بوضوح، و هى أنّ الكلام ليس عن نسخ المذهب، بل عن نزول العذاب و فناء قوم أو أمّة، لأنّ الآية السابقة و اللاحقة تتحدثان عن نزول العذاب و العقاب الدنيوى.

۲- إذا لا حظنا الآيات أعلاه سيأتى هذا السؤال، و هو: هل ستبتلى المجتمعات الإسلامية أيضا بهذا العقاب و العذاب فى هذا العالم؟

و الجواب عن هذا السؤال بالإيجاب، إذ لا دليل لدينا على أنّ هذه الأمّة مستثناة، بل إنّ هذا القانون فى حق كل الأمم و الملل، و ما قرأناه فى بعض آيات القرآن- الأنفال/ ۳۳- من أنّ اللّه سبحانه سوف لا يعذب هذه الأمّة، فهو مشروط بواحد من شرطين: إمّا وجود النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بين أولئك، أو الاستغفار و التوبة من الذنوب، لا أنّه بدون قيد أو شرط.

۳- توكّد الآيات أعلاه مرّة أخرى على هذه الحقيقة، و هى أنّ أبواب التوبة تغلق حين نزول العذاب فلا ينفع الندم حينئذ، و سبب ذلك واضح، لأنّ التوبة فى مثل هذه الأحوال تكون عن إكراه و إجبار، و مثل هذه التوبة لا قيمة لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۳ الى ۵۶]

اشارة

وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۳) وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا

النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۵۴) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۵) هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۵۶)

التّفسير

لا معنى للشك فى العذاب الإلهى:

كان البحث فى الآيات السابقة عن جزاء و عقاب المجرمين فى هذه الدنيا و العالم الآخر، و تكمل هذه الآيات هذا البحث أيضا.

فالآية الأولى تقول: إنّ هؤلاء يسألونك بتعجب و استفهام عن حقيقة هذا الوعيد بالعذاب الإلهى فى هذا العالم و العالم الآخر: وَ يَسْتَنْبِئُونَكَ أَ حَقٌّ هُوَ و من المعلوم أنّ «الحق» هنا ليس فى مقابل الباطل، بل المراد منه هو: هل إنّ لهذه العقوبة حقيقة و واقعا و أنّها ستتحقق؟ لأنّ الحق و التحقق مشتقان من مادة واحدة، و من البديهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۶

أنّ الحق فى مقابل الباطل بهذا المعنى الواسع سيشمل كل واقع موجود، و ستكون النقطة المقابلة له كل معدوم و باطل.

و يأمر اللّه سبحانه نبيّه أن يجيبهم على هذا السؤال بما أوتى من التأكيد: قُلْ إِي وَ رَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ و إذا ظننتم أنّكم تستطيعون أن تفلتوا من قبضة العقاب الإلهى فأنتم على خطأ كبير: وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

الواقع إنّ هذه الجملة مع الجملة السابقة من قبيل بيان المقتضى و المانع، ففى الجملة الأولى يقول: إن عذاب المجرمين امر واقعى، و يضيف فى الجملة الثّانية أن أية قدرة لا تستطيع أن تقف أمامه، تماما كالآيات (۸)- (۹) من سورة الطور: إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

إنّ التأكيدات التى تلاحظ فى الآية تستحق الانتباه، فمن جهة القسم، و من جهة أخرى إنّ و لام التأكيد، و من جهة ثالثة جملة وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ و كل هذه توكّد على أنّ العقاب الإلهى حتمى عند ارتكاب الكبائر.

و توكّد الآية الأخرى على عظمة هذه العقوبة، و خاصّة فى القيامة، فتقول: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۱۵۶].

فى الواقع، إنّ هؤلاء مستعدون لأن يدفعوا أكبر رشوة يمكن تصورها من أجل الخلاص من قبضة العذاب الإلهى، لكن لا أحد يقبل من هؤلاء شيئا، و لا ينقص من عذابهم مقدار رأس ابرة، خاصّة و أنّ لبعض هذه العقوبات صبغة معنوية، و هى أنّهم: يرون العذاب و الفضيحة فى مقابل أتباعهم ممّا يوجب لهم اظهار الندم مزيدا من الخزى و العذاب النفسى فلذلك يحاولون عدم إبراز الندم: وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ

ثمّ توكّد الآية على أنّه بالرغم من كل ذلك، فإنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالعدل، و لا يظلم أحد منهم: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ إنّ هذه الجملة تأكيد على طريقة القرآن دائما فى مسأله العقوبة و العدالة، لأنّ تأكيدات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۷

الآية السابقة فى عقاب المذنبين يمكن أن توجد لدى الأفراد الغافلين توهّم أنّ المسألة مسألة انتقام، و لذا فإنّ القرآن يقول أوّلا إنّ الحكم بين هؤلاء يجرى بالقسط، ثمّ يؤكّد على أنّ أى أحد من هؤلاء سوف لا يظلم.

ثم، و من أجل أن لا يأخذ الناس هذه الوعود و التهديدات الإلهية مأخذ الهزل، و لكى لا يظنوا أنّ اللّه عاجز عن تنفيذ هذه الوعود، تضيف الآية: أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لأنّ جهلهم قد حجب بصيرتهم و جعل عليها غشاوة فلم يعوا الحقيقة.

و توكّد آخر آية على هذه المسألة الحياتية مرّة أخرى، حيث تقول: هُوَ يُحيِي وَ يُمِيتُ و بناء على ذلك فإن له القدرة على إماتة العباد، كما أن له القدرة على إحيائهم لمحكمة الآخرة، و فى النهاية: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و ستلاقون جزاء كل أعمالكم هناك.

ملاحظتان

۱- من جملة الأسئلة التى تطرح فى مورد الآيات أعلاه: هل أنّ لسؤال المشركين عن واقعية العقاب الإلهى صفة الاستهزاء، أم أنّه كان سؤالا حقيقيا؟

ذهب البعض الى أنّ السؤال الحقيقى علامة الشك، و هو لا يناسب وضع المشركين، إلّا أنّه بملاحظة أنّ كثيرا من المشركين كانوا فى حالة تردد، و جماعة منهم أيضا كانوا على علم بأحقية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد وقفوا ضده نتيجة التعصب و العناد و أمثال ذلك، فسيبدو واضحا أن كون سؤال هؤلاء حقيقيا ليس بعيدا أبدا.

۲- إن حقيقة الندامة هى الندم على ارتكاب عمل اتّضحت آثاره السلبية سواء استطاع الإنسان أن يجبر ذلك أم لا، و ندم المجرمين فى القيامة من النوع الثّانى، و إنّما كتموه لأنّ إظهاره سيزيد من فضيحتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۷ الى ۵۸]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۵۷) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۵۸)

التّفسير

القرآن رحمة إلهية كبرى:

لقد جاءت فى بعض الآيات السابقة بحوث فى شأن القرآن عكست جوانب من مخالفات المشركين. و فى هذه الآيات تجدد الكلام عن القرآن بهذه المناسبة أيضا، ففى البداية تخاطب جميع البشرية خطابا عالميا و شموليا و تقول:

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

لقد بيّنت هذه الآية أربع صفات للقرآن، و لإدراك مدلولاتها و محتواها لا بدّ أن نعتمد أوّلا على لغاتها و معناها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۷۹

«الوعظ» و «الموعظة»، كما جاء فى المفردات: هو النهى الممتزج بالتهديد، أنّ معنى الموعظة أوسع من هذا ظاهرا، كما نقل عن الخليل بن أحمد الفراهيدى فى نفس كتاب المفردات، أنّ الموعظة عبارة عن التذكير بالنعم و الطيبات المقترن برقة القلب. و فى الحقيقة فإنّ كل نصح و إرشاد يترك أثرا فى المخاطب، و يخوفه من السيئات و يرغّبه فى الصالحات يسمى وعظا و موعظة. و طبعا ليس معنى هذا أن كل موعظة يجب أن يكون لها تأثير، بل المراد أنّها تؤثر فى القلوب المستعدة.

و المقصود من شفاء أمراض القلوب، و بتعبير القرآن شفاء ما فى الصدور، هى تلك التلوّثات المعنوية و الروحية، كالبخل و الحقد و

الحسد و الجبن و الشرک و النفاق و أمثال ذلک، و کلها من الأمراض الروحیة و المعنویة.

و المقصود من «الهدایة» هو الهدایة نحو المقصود، أی تکامل ورقی الإنسان فی کافة الجوانب الإیجابیة.

و المراد من «الرحمة» هی النعم المادیة و المعنویة الإلهیة التی تشمل حال الأفراد اللائقین، کما نقرا فی کتاب المفردات أنّ الرحمة متی ما نسبت إلی اللّه فإنّها تعنی بذله و هبته للنعم، و إذا ما نسبت إلی البشر فإنّها تعنی العطف ورقة القلب.

فی الواقع، إنّ الآیة أعلاه تشرح و تبیّن أربع مراحل من مراحل تربیة و تکامل الإنسان فی ظل القرآن.

المرحلة الأولی: مرحلة الموعظة و النصیحة.

المرحلة الثّانیة: مرحلة تطهیر روح الإنسان من مختلف أنواع الرذائل الأخلاقیة.

المرحلة الثّالثة: مرحلة الهدایة التی تجری بعد مرحلة التطهیر.

المرحلة الرّابعة: هی المرحلة التی یصل فیها الإنسان إلی أن یکون لائقا لأن تشمله رحمة اللّه و نعمته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۰

و کل مرحلة من هذه المراحل تأتی بعد المرحلة السابقة لها، و الجمیل فی الأمر أنّها تتمّ جمیعا فی ظل نور القرآن و توجیهاته.

القرآن هو الذی یعظ البشر، و القرآن هو الذی یغسل قلوبهم من تبعات الذنوب و الصفات القبیحة، و القرآن هو الذی یوقد نور الهدایة فی القلوب لیضیئها، و القرآن أیضا هو الذی ینزل النعم الإلهیة علی الفرد و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص ۳۸۰

یوضح أمیر المؤمنین علی علیه السّلام

فی کلامه الجامع فی نهج البلاغة هذه الحقیقة بأبلغ تعبیر، حیث یقول: «فاستشفوه من أدوائکم، و استعینوا به علی ولائکم، فإنّ فیه شفاء من أکبر الداء، و هو الکفر و النفاق، و الغی و الضلال»[۱۵۷].

و هذا بنفسه یبیّن أنّ القرآن و صفة لتحسین حال الفرد و المجتمع، و صیانتهم من أنواع الأمراض الأخلاقیة و الاجتماعیة، و هذه الحقیقة أودعها المسلمون فی کف النسیان، و بدل أن یستفیدوا من هذا الدواء الشافی، فإنّهم یبحثون عن دوائهم و علاجهم فی المذاهب الأخری، و جعلوا هذا الکتاب السماوی الکبیر کتاب قراءة فقط، لا- کتاب تفکر و عمل! و تقول الآیة الأخری من أجل تکمیل هذا البحث و التأکید علی هذه النعمة الإلهیة الکبری- أی القرآن المجید-: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِکَ فَلْیَفْرَحُوا و لا یفرحوا بمقدار الثروات، و عظم المراکز، و عزة القوم و القبیلة، لأنّ رأس المال الحقیقی و الأساس للسعادة الحقیقیة هو هذا القرآن، فهو أفضل من کل ما جمعوه، و لا یمکن قیاسه بذلک المجموع، إذا هُوَ خَیْرٌ مِمَّا یَجْمَعُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۱

ملاحظتان

۱- هل أنّ القلب هو مرکز الإحساسات؟

ظاهر الآیة الأولی من هذه الآیات، کما هو ظاهر بعض آیات أخری من القرآن، أنّ مرکز الأمراض الأخلاقیة هو القلب.

إنّ هذا الکلام یمکن أن یعارضه فی البدایة هذا الإشکال، و هو أنّنا نعلم أن کل الأوصاف الأخلاقیة و المسائل الفکریة و العاطفیة ترجع إلی روح الإنسان، و لیس القلب إلّا مضخة أتوماتیکیة لنقل الدم و تغذیة خلایا البدن.

هـذا حقّ طبعـا، فإنّ القلب له وظيفـة إدارة جسم الإنسان، و المسائل النفسـية مرتبطـة بروح الإنسان، لكن توجـد هنا نكتـة دقيقـة إذا ما لوحظت سيتّضح رمز هذا التعبير القرآنى، و هى أنّ فى جسم الإنسان مركزين كل منهما مظهر لبعض الأعمال النفسية للإنسان، أى أنّ كلا من هذين المركزين إذا تأثر بالانفعالات النفسية فإنّه سيظهر رد الفعل مباشرة: أحدهما المخ، و الآخر القلب.

عنـد ما نبحث المسائل الفكرية فى محيط الروح، فإنّ انعكاس ذلك التفكير سيتّضح فورا فى المخ، و بتعبير آخر فإنّ المخ آلة تساعد الروح فى مسألـة التفكر، و لذلك فإنّ الدم يدور بصورة أسـرع فى المخ فى حالة التفكير، و تتفاعل خلايا المخ بصورة أكبر، و بالتالى سوف تمتص كمية أكبر من الغذاء و ترسل أمواجا أكثر.

أمّا عنـد ما يكون الكلام و البحث حول المسائل العاطفية كالعشق و المحبّة، و التصـميم و الإرادة و الغضب و الحقد و الحسد، و العفو و الصـفح، فإنّ نشاطا عجيبا يبدأ فى قلب الإنسان، فأحيانا تشتد ضرباته، و أحيانا تقل إلى الحد الذى يظن معه أنّه سيتوقف عن العمل، و نشعر أحيانا أن قلبنا يريد أن ينفجر. كل ذلك نتيجة للارتباط الوثيق للقلب مع هذه المسائل.

لهذه الجهة ينسب القرآن المجيد الإيمان إلى القلب، فيقول: وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۲

فِي قُلُوبِكُمْ ۱۵۸]. و يعبر عن الجهل و العناد و عدم الإذعان للحق بأنّه عمى القلب:

وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ[۱۵۹].

و من نافلـة القول، فإن مثل هـذه التعبيرات ليست مختصـة بالقرآن، بل تلاحظ فى أدب اللغات المختلفـة فى الأزمنـة الغابرة، و تلاحظ اليوم أيضـا مظـاهر هـذه المسألـة بأشـكال مختلفـة. فغالبا ما نقول للشـخص الـذى نحترمه و نحبّه: إنّ لك مكانا فى قلوبنا، أو أنّ قلوبنا منشدة إليك، و الأدباء يجسدون هذا المعنى و يجعلون سنبلة العشق نابعة من القلب دائما.

كـل ذلـك لأنّ الإنسـان يحس دائمـا بتأثير خاص فى قلبه فى حالـة العشق و الغرام، أو الحقـد و الحسـد، أى أنّ أوّل قدحـة فى هـذه المسائل النفسية عند انتقالها إلى الجسم تتجلّى فى القلب.

إضافـة إلى كل هـذا، فقـد أشـرنا سابقا إلى أن أحد معانى القلب فى اللغة هو عقل و روح الإنسان، و معنى ذلك أن القلب لا ينحصـر بهـذا العضو الخـاص الموجود داخـل الصـدر، و هـذا بنفسه يمكن أن يكون تفسـيرا آخر لآيـات القلب، لكن لا ـ جميعها، لأن بعضـها صرحت بأنّها القلوب التى فى الصدور- دققوا ذلك-.

۲- ما هو الفرق بين الفضل و الرحمة؟

هناك بحث مفصّل بين المفسّرين فى الفرق بين الفضل و الرحمة اللذين أشير إليهما فى الآية الثّانية.

أ- فالبعض اعتبر الفضل الإلهى إلى النعم الظاهرية. و الرحمة إشارة إلى النعم الباطنية، و بتعبير آخر إنّ إحداها النعم المادية، و الأخرى النعم المعنوية. و قد جاءت مرارا فى آيات القرآن جملة: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أو لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۳

بمعنى تحصيل الرزق و الموارد المادية.

ب- و قال البعض الآخر: إنّ الفضل الإلهى بداية النعمة، و رحمته دوام النعمة.

و إذا ما لا حظنا أنّ الفضل هو بـذل النعمـة و هبتها، و أن ذكر الرحمـة بعـد ذلك يجب أن يكون شـيئا مضافا على ذلك يتّضح المراد من هـذا التّفسـير. و مـا نقرؤه فى روايـات متعـددة من أنّ المراد من الفضل الإلهى هو وجود النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و نعمة النّبوة، و أنّ المراد من رحمـة اللّه وجود على عليه السّـلام و نعمـة الولاية ربّما كان إشارة إلى هذا التّفسـير، لأنّ النّبى صـلى اللّه عليه و

آله و سلّم كان بداية الإسلام، و الإمام على عليه السّلام سبب بقائه و استمراره فأحدهما علّة محدثة و موجدة، و الآخر علّة مبقية[۱۶۰].

و احتمل البعض الآخر أن يكون الفضل إشارة إلى نعم الجنّة، و الرحمة إشارة إلى العفو عن الذنب و غفرانه.

ج- و يحتمل أيضا أن الفضل إشارة إلى نعمة اللّه العامّة التى تعم العدو و الصديق، و الرحمة- بملاحظة كلمة (للمؤمنين) التى ذكرت كقيد للرحمة فى الآية السابقة- إشارة إلى رحمته الخاصّة بالمؤمنين.

التّفسير الآخر الذى ذكر لهاتين الكلمتين، هو أنّ فضل اللّه إشارة إلى مسألة الإيمان، و الرحمة إشارة إلى القرآن المجيد الذى سبق الكلام عنه فى الآية السابقة.

طبعا، إنّ أغلب هذه المعانى لا تضاد بينها، و يمكن أن تجمع جميعها فى المفهوم الجامع للفضل و الرحمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۴

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۵۹ الى ۶۱]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (۵۹) وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۶۰) وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶۱)

التّفسير

هو الشاهد فى كل مكان!

كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن، و الموعظة الإلهية و الهداية و الرحمة فى هذا الكتاب السماوى، و تتحدث هذه الآيات عن قوانين المشركين المبتدعة و الخرافية و أحكامهم الكاذبة، لأنّ الذى يؤمن باللّه و يعلم أن كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۵

المواهب و الأرزاق منه، يجب أن يقبل هذه الحقيقة أيضا، و هى أنّ بيان حكم هذه المواهب من حيث الحلية و الحرمة بيده، و إنّ التدخل فى هذا العمل بدون إذنه عمل غير صحيح.

الآية الأولى و جهت الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَ حَلالًا إذا أنّهم طبقا لسننهم الخرافية حرموا قسما من الدواب باسم «السائبة» و «البحيرة» و «الوصيلة[۱۶۱]»، و كذلك حرّموا جزءا من محاصيلهم الزراعية، و حرموا أنفسهم من هذه النعم الطاهرة المحلّلة، إضافة إلى ذلك فإن كون الشىء حراما أو حلالا ليس مرتبطا بكم، بل هو مختص بأمر اللّه خالق تلك الموجودات.

ثمّ تقول: قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ أى إنّ لهذا العمل صورتين لا ثالث لهما: فأمّا أن يكون بإذن اللّه، أو أنّه تهمة و افتراء، و لما كان الاحتمال الأوّل منتفيا، فلم يبق إلّا الثّانى.

الآن و قد أصبح من المسلم أنّ هؤلاء بهذه الأحكام الخرافية المبتدعة، إضافة إلى أنّهم حرموا من النعم الإلهية، فإنّهم قد افتروا على الساحة الإلهية المقدسة، و لذلك تضيف الآية: وَ ما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ و

لذلك فإنّه لسعة رحمته لا يعاقب هؤلاء فورا على أعمالهم القبيحة.

إلّا أنّ هؤلاء بدل أن يستغلوا هذه الفرصة الإلهية و يشكروا اللّه على ذلك و ينيبوا إليه، فإنّ أكثرهم غافلون: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ

و يحتمل فى تفسير هذه الآية أيضا، أن كون كل هذه المواهب و الأرزاق- عدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۶

الأشياء المضرة و الخبيثة المستثناة- محللة هو بنفسه نعمة إلهية كبرى، و إنّ كثيرا من الناس بدل أن يؤدوا شكر هذه النعمة، فإنّهم يكفرون بها، و يحرّمون أنفسهم من هذه النعمة بأحكامهم الخرافية و ممنوعاتها.

و حتى لا يتصور أحد أنّ هذه المهلة الإلهية دليل على عدم إحاطة علم اللّه سبحانه بكل أعمال هؤلاء، فإنّ آخر آية من آيات البحث تبيّن هذه الحقيقة بأبلغ عبارة و توضح أن اللّه مطلع على كل ذرات الموجودات فى خفايا السماء و الأرض، و مطلع على دقائق أعمال العباد، فتقول: وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۱۶۲].

«الشهود» جمع شاهد، و هو فى الأصل بمعنى الحضور المقترن بالمشاهدة بالعين أو القلب أو الفكر، و التعبير بالجمع إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه ليس وحده المراقب لأعمال البشر، بل إنّ الملائكة المطيعين لأمره مطلعون أيضا على كل هذه الأعمال و ناظرون إليها.

و كما أشرنا سابقا، فإنّ التعبير بصيغة الجمع فى حق اللّه سبحانه مع أنّ ذاته المقدسة أوحدية من جميع الجهات، إشارة إلى عظمة مقامه، و أن له دائما مأمورين مطيعين مستعدين لتنفيذ أمره و الواقع فإن الكلام ليس عن اللّه وحده، بل عنه و عن كل هؤلاء المأمورين المطيعين.

ثمّ تعقب الآية على مسألة اطلاع اللّه على كل شيء بتأكيد أكبر، فتقول: وَ ما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

«يعزب» مأخوذة من العزوب، و هو فى الأصل بمعنى الابتعاد عن البيت و الأهل فى سبيل إيجاد و تهيئة المراتع للأغنام و الحيوانات، ثمّ استعملت بمعنى الغيبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۷

و الاختفاء بصورة مطلقة.

«و الذّرة» بمعنى الجسم الصغير جدّا، و لذلك يقال للنمل الصغير: ذرة. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۴۰) من سورة النساء.

«الكتاب المبين» إشارة إلى علم اللّه الواسع، و الذى يعبر عنه أحيانا باللوح المحفوظ، و قد تحدثنا عن هذا الموضوع فى تفسير الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

ملاحظات

۱- إنّ الآيات أعلاه قد أثبتت ضمن عبارات قصيرة هذه الحقيقة، و هى أنّ حق التشريع مختص باللّه، و كل من يقدم على مثل هذا العمل بدون إذنه و أمره، فإنّه يكون قد افترى على اللّه، لأنّ كل الهبات و الأرزاق تنزل من عنده، و إنّ اللّه سبحانه هو المالك الأصلى لها فى الحقيقة، و بناء على هذا فإنّ له الحق فى أن يجعل بعضها مباحا و البعض الآخر غير مباح.

و مع أنّ أوامره فى هذا المجال تهدف الى نفع العباد و تكاملهم و ليس له أدنى حاجة لهذا العمل، إلّا أنّه على كل حال هو صاحب الإختيار و التشريع، و قد يرى أنّ من المصلحة إعطاء أحد العباد كالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حق هذا العمل فى حدود معينة. كما يستفاد من روايات متعددة- أيضا- أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد حرم بعض الأمور أو أوجبها، و الذى عبرت عنه الرّوايات ب (فرض النّبى). و من الطبيعى أنّ كل أوامره و نواهيه فى حدود ما خوله اللّه سبحانه من الصلاحيات، و حسب أمر اللّه.

إنّ جملة آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ دليل أيضا على أن من الممكن أن يجيز اللّه أحدا بمثل هذه الإجازة.

إنّ هذا البحث مرتبط بمسألة «الولاية التشريعية»، و التى سنبيّنها بصورة أكثر تفصيلا فى محل آخر إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۸

۲- إنّ تعبير الآيات أعلاه عن الرزق بالنزول- مع أنّنا نعلم أنّ المطر هو الوحيد الذى ينزل من السماء- إمّا لأنّ هذه القطرات المباركة تشكل الأساس لكل الأرزاق، أو لأنّ المراد هو «النزول المقامى» الذى أشرنا إليه سابقا، و مثل هذا التعبير يلاحظ فى المكالمات اليومية، فمثلا إذا صدر أمر من شخص كبير، أو هبة ما إلى شخص صغير، فيقولون: إنّ هذا الأمر صدر من الأعلى، أو أنّه وصلنا من فوق.

۳- لقد أثبت علماء الأصول بجملة آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ قاعدة عدم حجية الظن، و قالوا: إنّ هذا التعبير يوضح أنّه لا يمكن إثبات أى حكم من الأحكام الإلهية بدون القطع و اليقين، و إلّا فإنّه افتراء على اللّه و حرام. (لنا بحوث فى هذا الاستدلال ذكرناها فى مباحث علم الأصول).

۴- إنّ الآيات أعلاه تعطينا درسا آخر، و هو أنّ التشريع مقابل شريعة اللّه دين الجاهلية، حيث كانوا يعطون لأنفسهم الحق فى وضع الأحكام مع ضيق أفكارهم و ضحالتها، و لكن لا يمكن أن يكون المؤمن الحقيقى كذلك مطلقا. و ما نراه فى عصرنا الحاضر من أن جماعة يتحدثون عن اللّه و الإسلام، و فى الوقت نفسه يمدون يد الاستجداء نحو قوانين الآخرين غير الإسلامية، أو يسمحون لأنفسهم بأن يطرحوا جانبا قوانين الإسلام باعتبارها غير قابلة للتطبيق و يشرّعون بأنفسهم القوانين، فإنّ هؤلاء من أتباع سنن الجاهلية أيضا.

إنّ الإسلام الواقعى لا يقبل التجزئة، فعند ما قلنا: إنّنا مسلمون، فيجب أن نعترف بكل قوانينه فما يقال من أن قوانين الإسلام غير قابلة بأجمعها للتنفيذ و هم باطل لا أساس له، و هو ناشئ من التغريب و انهيار الشخصية.

طبعا، إنّ الإسلام- نظرا لشموليته- قد أطلق لنا فى بعض المسائل اتخاذ مقررات و قوانين مناسبة مع ذكر الأصول العامّة حتى نستطيع أن ننظم احتياجات كل عصر و زمان حسب تلك الأصول بالاستشارة و التشاور، ثمّ نضعها فى حيز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۸۹

التنفيذ.

۵- أكّدت الآية الأخيرة حين الإشارة إلى سعة علم اللّه على ثلاث مسائل و قالت: إنّك لا تكون فى حالة نفسية معينة، و لا تتلو أية آية، و لا تقوم بأى عمل إلّا و نحن شاهدون عليك و ناظرون إليك.

إنّ هذه التعبيرات الثلاثة إشارة إلى أفكار و أقوال و أعمال البشر، أى إنّ اللّه تعالى كما ينظر إلى أعمالنا، فإنّه يسمع كلامنا، و هو مطلع على أفكارنا و نيّاتنا، و لا يخرج عن إحاطة علم اللّه شىء منها.

و لا شك أنّ النية و الحالات الروحية تقع فى المرحلة الأولى، و القول يأتى بعدها، ثمّ يتبعهما العمل و التنفيذ، و لهذا قد ورد نفس الترتيب فى الآية.

ثمّ إنّنا نرى أنّ القسم الأوّل و الثّانى قد ذكرا بصيغة المفرد، و الخطاب موجه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا القسم الثّالث فإنّه ورد بصيغة الجمع و الخطاب موجه لعامّة المسلمين، و يمكن أن يكون ذلك باعتبار أن اتّخاذ القرار فى البرامج الإسلامية مرتبط بقائد الأمّة و هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما أن تلقى آيات القرآن من اللّه و تلاوتها يتمّ عن طريقه، إلّا أنّ العمل بهذه البرامج و الأوامر متعلق بكل الأمّة، و لا يستثنى من ذلك أحد.

۶- لقد بيّنت آخر هذه الآيات درسا كبيرا لكل المسلمين ... درس يستطيع أن يسلك بهم طريق الحق و يصرفهم عن الانحرافات و الطرق الملتوية .. درس فيه صلاح المجتمع مع التوجّه اليه، و هو: إنّنا يجب أن نعى هذه الحقيقة، و هى أن كل خطوة نخطوها، و كل كلام نقوله، و كل فكرة تخطر فى أذهاننا، و لأى جهة ننظر، و على أى حال نكون، فليس اللّه سبحانه وحده يراقبنا و نحن على هذه

الأحوال و الأفعال، بل إنّ ملائكته تراقبنا أيضا، و ينظرون إلينا بكل دقة و انتباه.

إنّ أدنى حركة فى خفايا السماء و الأرض لا تخفى على علمه و نظره، بل إنّها تثبت كلّها فى ذلك اللوح المحفوظ الذى لا طريق للغلط و الاشتباه و الاختلاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۰

إليه .. فى صفحة علم اللّه اللامتناهى .. فى فكر الملائكة المقربين و كتّاب أعمال الآدميين .. فى ملفنا و صحيفة أعمالنا كلنا.

و لم يكن ذلك بدون مبرر و علة حيث

يقول الإمام الصادق: «كان رسول اللّه إذا قرأ هذه الآية بكى بكاء شديدا»[۱۶۳] ...

فإذا كان رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع كل ذلك الإخلاص و العبودية، و مع كل تلك الخدمة للخلق و العبادة للخالق خائفا من عمله فى مقابل علم اللّه، فإنّ حالنا و حال الآخرين معلوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۲ الى ۶۵]

اشارة

أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۲) الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۶۳) لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۴) وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۵)

التّفسير

طمأنينة الروح فى ظل الإيمان:

لما شرحت الآيات السابقة بعضا من حالات المشركين و الأفراد غير المؤمنين، بيّنت هذه الآيات حال المؤمنين المخلصين المجاهدين المتقين الذين يقعون فى الطرف المقابل لأولئك تماما، حتى يعرف النور من الظلمة، و السعادة من الشقاء من خلال المقارنة بينهم كما هو شأن القرآن و طريقته دائما.

تقول الآية أوّلا: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ و من أجل فهم دقيق لمحتوى هذا الكلام لا بدّ أن نعرف معنى الأولياء جيدا.

«الأولياء» جمع ولى، و قد أخذت فى الأصل من مادة: ولى، يلى، بمعنى عدم وجود واسطة بين شيئين، و تقاربهما و تتابعهما، و لهذا يطلق على كل شىء له نسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۲

القرابة و القرب من شىء آخر سواء كان من جهة المكان أو الزمان أو النسب أو المقام، بأنّه ولى، و من هنا استعملت هذه الكلمة بمعنى الرئيس و الصديق و أمثال ذلك.

بناء على هذا، فإنّ أولياء اللّه هم الذين لا يوجد حاجب و حائل بينهم و بين اللّه، فقد زالت الحجب عن قلوبهم و يتقلبون فى نور المعرفة و الإيمان و العمل الخالص، و يرون اللّه بعيون قلوبهم بحيث لا يجد الشك أى طريق إلى تلك القلوب الوالهة، و بالنظر لهذه المعرفة باللّه الأزلى و القدرة اللامحدودة و الكمال المطلق، فإنّ كل شىء سوى اللّه حقير فى نظرهم و لا قيمة له، و فان لا أهمية له.

إنّ من يرى المحيط يزهد فى القطرة، و من ينظر الى نور الشمس لا يهتم بنور الشمعة.

و من هنا يتّضح أنّ هؤلاء لماذا لا يخافون، لأنّ الخوف ينشأ عادة من احتمال فقدان النعم التى يمتلكها الإنسان، أو من الأخطار التى يمكن أن تهدده فى المستقبل، كما إنّ الغم و الهم يرتبط عادة بما يتعلق بالماضى، و يستولى على الإنسان نتيجة فقدانه لإمكانيات و ثروات كانت تحت يده.

إنّ أولياء و أحباء اللّه الحقيقيين متحررون من كل أشكال الارتباط و التعلق بعالم المادة، و يحكم «الزهد» بمعناه الحقيقى وجودهم، فهم لا يجزعون من فقدان الممتلكات المادية و لا يخافون من المستقبل، و لا يشغلون أفكارهم بمثل هذه المسائل. و بناء على ذلك فإن الغموم و الأخاويف التى ترتبط بالماضى و المستقبل، و التى تجعل الآخرين فى حال اضطراب و قلق دائم، لا سبيل لها إلى وجود هؤلاء.

إنّ الماء فى الإناء الصغير قد يهتز من نفخة إنسان، لكن المحيط الكبير لا يتأثر حتى بالعاصفة، و لذلك سمّوه المحيط الهادى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۳

تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ۱۶۴]. فلم يكن لهم تعلّق بما كان فى أيديهم سابقا، و لا يصيبهم الغم و الحزن فى اليوم الذى سيفارقونه، فإنّ روحهم أكبر، و فكرهم أسمى من أن تؤثر فيهم مثل هذه الحوادث فى الماضى و المستقبل.

على هذا الأساس فإنّ الأمن و الطمأنينة الواقعية هى الحاكمة على وجودهم، و على حدّ قول القرآن: أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ۱۶۵]، و بتعبير آخر: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۱۶۶].

و الخلاصة هى أنّ الحزن و الخوف عند البشر يتولّدان عادة من حبّ الدنيا، فمن الطبيعى أن لا يصيب هؤلاء الذين نفضوا أيديهم و قلوبهم من حبها خوف، أو حزن.

كان هذا هو البيان الاستدلالى للمسألة، و قد يعرض هذا الموضوع أحيانا ببيان آخر يتخذ شكلا عرفانيا بهذه الصورة:

إنّ أولياء اللّه غارقون فى صفات جماله و جلاله، و ذائبون فى مشاهدة ذاته المقدسة إلى الحد نسوا كل شىء غيره، و معلوم أنّ الغم و الحزن و الخوف و الوحشة تحتاج حتما إلى تصور فقدان و خسارة شىء ما، أو مواجهة عدو أو موجود خطر، فمن لم يجعل لغير اللّه مكانا فى قلبه و لا طريقا الى فكره، و لا يقبل فى روحه إله غيره، كيف يمكن أن يغتم و يخاف و يستوحش؟

لقد اتّضحت ممّا قلناه هذه الحقيقة أيضا، و هى أنّ المقصود من الغموم هى الغموم المادية و الأخاويف الدنيوية، و إلّا فإنّ وجود أولياء اللّه مملوء بالخوف و الخشية .. الخوف من عدم أداء الواجبات و المسؤولية. و الأسف و الحسرة على أن يكون قد فاتهم شىء من الموفقية، و لهذا الخوف و الحسرة صفة معنوية، فهما أساس تكامل وجود الإنسان و رقيّه، بعكس الخوف و الحزن الدنيويين فهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۴

أساس الانحطاط و التسافل.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام فى خطبته المعروفة مع همام، حيث يجسد فيها حالات أولياء اللّه فى أرقى وصف:

«قلوبهم محزونة، و شرورهم مأمونة»

، ثمّ يقول:

«و لو لا الأجل الذى كتب اللّه عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين، شوقا إلى الثواب، و خوفا من العقاب»[۱۶۷].

و يقول القرآن المجيد- أيضا- فى شأن المؤمنين: الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۱۶۸]. و بناء على ذلك فإنّ لهؤلاء خوفا آخر.

هناك بحث بين المفسّرين فيمن هم المقصودون من أولياء اللّه، إلّا أنّ الآية الثّانية وضحت المطلب و أنهت النقاش، فهى تقول: الَّذِينَ

آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

الملفت للنظر أنّها ذكرت الإيمان بصيغة الفعل الماضى المطلق، و التقوى بصيغة الماضى الاستمرارى، و هذا إشارة إلى أنّ إيمان هؤلاء قد بلغ حد الكمال، إلّا أن التقوى التى تنعكس فى العمل اليومى، و تتطلب كل يوم و كل ساعة عملا جديدا، و لها صفة تدريجية، فإنّها قد ظهرت على هؤلاء بصورة برنامج دائمى و مسئولية متواصلة.

نعم .. إنّ الذين يرتكزون على هذين الركنين الأساسيين: الدين و الشخصية، يحسون بدرجة من الطمأنينة داخل أرواحهم بحيث لا تهزهم أية عاصفة من عواصف الحياة. بل يقفون أمامها كالجبل، كما وصفهم

الحديث: «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف».

و توكّد الآية الثّالثة على مسألة عدم وجود الخوف و الغم و الوحشة فى شخصية و قلوب أولياء الحق بهذه العبارة: لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ و على هذا فهم ليسوا خالين من الخوف و الغم و حسب، بل إنّ البشارة و الفرحة و السرور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۵

بالنعم الكثيرة و المواهب الإلهية الا محدودة فى هذه الدنيا و الآخرة من نصيبهم.

(ينبغى الانتباه إلى أن البشرى قد ذكرت مع ألف و لام الجنس بصورة مطلقة، فهى تشمل أنواع البشارات).

ثمّ تضيف من أجل التأكيد أيضا: لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ بل هى ثابتة حقّة، و أن اللّه سبحانه سيفى بما وعد به أولياءه، و ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

و حولت الآية الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يمثل رأس سلسلة أولياء اللّه و أحبائه مخاطبة له بلحن المواساة و تسلية الخاطر: وَ لا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً و لا يمكن أن يقوم العدو بعمل مقابل إرادة الحق، فإنّه تعالى عالم بكل خططهم و دسائسهم. ف هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

ملاحظتان

اشارة

و هنا ملاحظتان ينبغى التوقف عندهما:

۱- ما هو المراد من البشارة فى الآية؟

هناك بحث و جدال بين المفسّرين فى المراد من البشارة التى أعطاها اللّه فى الآيات أعلاه لأوليائه فى الدنيا و الآخرة، فالبعض اعتبرها مختصة بالبشارة التى تقدمها الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار و الموت، وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۱۶۹].

و البعض الآخر يعتبرها إشارة إلى وعود اللّه بالنصر و التغلب على الأعداء، و الحكم فى الأرض ما داموا مؤمنين و صالحين.

و قد فسّرت هذه البشارة فى بعض الرّوايات بأنّها المنامات الجيدة التى يراها المؤمنون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۶

إلّا أنّه، و كما قلنا، فإنّ إطلاق هذه الكلمة، و ألف لام الجنس فى البشرى قد أخفيا فيها مفهوما واسعا بحيث أنّها تشمل كل نوع من البشارة و فرحة الإنتصار و الموفقية، و يندرج فيها كل ما ذكر أعلاه، و فى الواقع فإنّ كلا منها إشارة إلى زاوية من هذه البشارة الإلهية

الواسعة.

و ربّما كان ما فسّرت به البشرى فى بعض الرّوايات بأنّها المنامات الحسنة و الرؤيا الصالحة إشارة إلى أن كل البشارات حتى الصغيرة منها، تدخل أيضا فى مفهوم البشرى، لا أنّها منحصرة بها.

الواقع. و كما قيل سابقا أيضا، فإنّ هذا هو الأثر التكوينى و الطبيعى للإيمان و التقوى حيث تبتعد عن روح الإنسان أشكال الاضطراب و القلق المتولدة من الشك و التردد، و كذلك المتولدة من الذنب و التلوّث و الفجور، فكيف يمكن أن يشعر بالراحة و الاطمئنان من لا- إيمان له، و من ليس له متكأ معنوى يعتمد عليه فى أعماق روحه؟! إنّه يبقى فى سفينة وسط بحر هائج متلاطم الأمواج تقذف به الأمواج العظيمة فى كل جانب وصوب و قد فتحت دوامات البحر أفواهها لابتلاعه!! كيف يمكن أن يهدأ بال و يطمئن خاطر من تلطخت يداه بالظلم و الجور و إراقة دماء الناس و غصب أموال و حقوق الآخرين؟ إنّه- و بخلاف المؤمنين- لا يتمتع حتى بالنوم الهادىء، و غالبا ما يرى المنامات المرعبة التى يرى نفسه فيها مشتبكا مع العدو، و هذا بنفسه دليل على اضطراب روح هؤلاء.

من الطبيعى أنّ الشخص الجانى- خاصّة إذا كان مطاردا- يرى فى عالم الرؤيا أشباحا مرعبة قد أحكمت الطوق لإلقاء القبض عليه، أو أنّ روح ذلك المقتول المظلوم تصرخ فى أعماق ضميره و تعذبه، و لهذا فإنّه عند ما يستيقظ يقول كيزيد:

مالى و للحسين؟ أو يقول ما قاله الحجاج: مالى و لسعيد بن جبير؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۷

۲- الرّويات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام

لقد وردت فى تفسير الآيات أعلاه روايات رائعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، نشير إلى بعض منها:

تلا أمير المؤمنين على عليه السّلام الآية: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ ... ثمّ سأل أصحابه:

أ تعلمون من هم أولياء اللّه؟ فقالوا: أخبرنا بهم يا أمير المؤمنين، فقال: «هم نحن و أتباعنا، فمن تبعنا من بعدنا طوبى لنا، و طوبى لهم أفضل من طوبى لنا»، قالوا: يا أمير المؤمنين، ما شأن طوبى لهم أفضل من طوبى لنا؟ ألسنا نحن و هم على أمر؟

قال: «لا، إنّهم حملوا ما لم تحملوا عليه، و أطاقوا ما لم تطيقوا»[۱۷۰].

و

فى كتاب كمال الدين: روى عن أبى بصير عن الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «طوبى لشيعة قائمنا المنتظرين لظهوره فى غيبته، و المطيعين له فى ظهوره، أولئك أولياء اللّه الذين لا خوف عليهم و لا هم يحزنون»[۱۷۱].

و

يروى أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: إنّ أتباع هذا المذهب يرون فى أواخر لحظات عمرهم ما تقّر به أعينهم، قال الراوى: فقلت له بضع عشرة مرّة:

أى شىء؟ فقال فى كلّها: «يرى» لا- يزيد عليها، ثمّ جلس فى آخرها فقال: «أبيت إلّا أن تعلم»؟ فقلت: نعم يا ابن رسول اللّه ... ثمّ بكيت، فرق لى، فقال: «يراهما و اللّه» فقلت: بأبى و أمى من هما؟ فقال: «ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و على عليه السّلام لن تموت نفس مؤمنة أبدا حتى تراهما». ثمّ قال: «إن هذا فى كتاب اللّه» فقلت: أين، جعلنى اللّه فداك؟ قال: «فى يونس، قول اللّه ها هنا: الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ»[۱۷۲].

و لدينا روايات أخرى بمضمون هذه الرّواية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۸

و من الواضح أنّ هذه الرّواية إشارة إلى قسم من بشارات المؤمنين المتقين، لا جميعها، و واضح- أيضا- أن هذه المشاهدة ليست مشاهدة جسم مادى. بل مشاهدة الجسم البرزخى بالنظر البرزخى، لأنّا نعلم أنّ روح الإنسان تبقى على جسمها البرزخى فى عالم البرزخ الذى يمثل الفاصل بين هذه الدنيا و عالم الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۳۹۹

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۶ الى ۶۷]

اشارة

أَلا- إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۶۶) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۷)

التّفسير

جانب من آيات عظمته:

تعود الآيات أعلاه مرّة أخرى إلى مسألة التوحيد و الشرك و التى تعتبر واحدة من أهم مباحث الإسلام، و بحوث هذه السورة، و تجرّ المشركين إلى المحاكمة و تثبت عجزهم.

فتقول أولا: أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و إذا كان الأشخاص ملكه و منه، فمن الأولى أن تكون الأشياء الموجودة فى هذا العالم ملكه و منه، و بناء على هذه فإنّه مالك كل عالم الوجود، و مع هذا الحال كيف يمكن أن يكون مماليكه شركاءه؟

ثمّ تضيف الآية: وَ ما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۰

إِلَّا الظَّنَ إذ لا دليل و لا برهان لهم على كلامهم وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ

كلمة «الخرص» وردت فى اللغة بمعنى الكذب، و كذلك وردت بمعنى الحدس و التخمين، و فى الأصل- كما قاله الراغب فى مفرداته- بمعنى حزر الفواكه، ثمّ تخمينها على الأشجار، و لما كان الحدس و التخمين قد يخطئ أحيانا، فإنّ هذه المادة قد جاءت بمعنى الكذب أيضا.

و أساسا، فإنّ إتباع الظن و الحدس الذى لا يستند إلى أساس ثابت يجرّ الإنسان فى النهاية إلى وادى الكذب عادة. و الأشخاص الذين جعلوا الأصنام شريكة للّه سبحانه لم يكن لهم مستند فى ذلك إلّا الأوهام .. الأوهام التى يصعب علينا اليوم حتى تصورها، إذ كيف يمكن أن يصنع الإنسان تماثيل و مجسمات لا روح لها، ثمّ يعتبر ما صنعه و خلقه ربّا له و أنّه هو صاحب إرادته، و أن أمره بيده؟! يضع مقدراته فى يده و تحت تصرفه و يطلب منه حل مشاكله؟! أ ليست هذه الدعوى من أوضح مصاديق الزيف و الكذب؟

بل يمكن استفادة هذا من الآية كقانون كلى عام- بدقة قليلة- و هو أنّ كل من يتبع الظن و الأوهام الباطلة فإنّه سينجرّ فى النهاية إلى الكذب .. إنّ الحق و الصدق قائم على أساس القطع و اليقين، أمّا الكذب فإنّه يقوم على أساس التخمينات و الظنون و الشائعات! ثمّ و من أجل إكمال هذا البحث، و تبيّن طرق معرفة اللّه، و الابتعاد عن الشرك و عبادة الأوثان، أشارت الآية الثّانية إلى جانب من المواهب الإلهية التى أودعت فى نظام الخلقة و الدالّة على عظمة و قدرة و حكمة اللّه عزّ و جلّ، فقالت: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً.

إنّ نظام النور و الظلمة الذى أكدت عليه آيات القرآن مرارا، نظام عجيب و غزير الفائدة، فهو من جهة يضىء عرصة حياة البشر بإفاضة النور فى مدّة معينة و يحركها و يبعثها على السعى و الجد، و من جهة أخرى فإنّه بإرخاء سدول الليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۱

المظلم و هدوئه يهىء الروح و الجسد المتعبين للعمل و الحركة من جديد.

نعم إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ أولئك الذين يسمعون و يدركون، و بعد إدراك الحقيقة يتبعونها و يسيرون على نهجها.

ملاحظات

۱- إنّ الهدوء و السكون النفسى الذى هو الهدف من خلق الليل بات من المسلمات العلمية بعد أن أثبته العلم اليوم، فإنّ حجب الظلام ليست وسيلة إجبارية لإيقاف النشاطات اليومية و حسب، بل لها أثر مباشر على السلسلة العصبية و عضلات الإنسان و سائر الحيوانات فتجعلهم فى حالة استراحة و نوم و سكون، و ما أجهل بعض الناس الذين يحيون الليل بالملذات و الرغبات، و يقضون النهار- و خاصّة الفجر المنشط- فى النوم، و لهذا السبب فإنّ أعصابهم متوترة و غير متزنة دائما.

۲- إذا علمنا أنّ الإبصار بمعنى النظر، فإنّ معنى جملة: وَ النَّهارَ مُبْصِراً سيصبح: إنّ اللّه قد جعل النهار ناظرا، فى حين أنّ النهار مبصر لا مبصرا! إن هذا تشبيه و مجاز من قبيل توصيف السبب بأوصاف المسبب، كما يقولون فى شأن الليل: ليل نائم، فى حين أنّ الليل لا ينام، بل هو سبب لأنّ ينام الناس.

۳- إنّ الآيات أعلاه تدين الظن و الوهم مرّة أخرى و تردّه، لكن لما كان الكلام عن أوهام عبدة الأوثان الخرافية التى لا أساس لها، فإنّ الظّن هنا لا يعنى الظّن العقلائى المدروس الذى يعتبر حجة فى بعض الموارد، مثل شهادة الشهود و ظاهر الألفاظ و الإقرارات و المكاتبات، و بناء على هذه فإنّ الآيات أعلاه لا يمكن أن تكون دليلا على عدم حجية الظن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۲

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۶۸ الى ۷۰]

اشارة

قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۸) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۶۹) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (۷۰)

التّفسير

تستمر هذه الآيات- أيضا- فى بحثها مع المشركين، و تذكر واحدة من أكاذيب و اتهامات هؤلاء لساحة اللّه المقدسة، فتقول أوّلا: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً.

إنّ هذا الكلام قاله المسيحيون فى حق المسيح عليه السّلام، ثمّ عبدة الأوثان فى عصر الجاهلية فى حق الملائكة، حيث كانوا يظنون أنّها بنات اللّه، و قاله اليهود فى شأن عزير. و يجيبهم القرآن بطريقين:

الأوّل: إنّ اللّه سبحانه منزّه عن كل عيب و نقص، و هو مستغن عن كل شىء:

سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُ و هـذا إشارة إلى أنّ الحاجـة إلى الولـد، إمّا للحاجة الجسـمية إلى قوته و مساعدته، أو للحاجة الروحية و العاطفية، و لما كان اللّه سبحانه منزّه عن كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۳

عيب و نقص و حاجة، فلا يمكن أن يتخذ لنفسه ولدا.

لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و مع هذا الحال فأى معنى لأن يتخذ لنفسه ولدا ليطمئنه و يهدئه، أو يعينه و يساعده.

ممّا يلفت النظر أنّ الآيـة عبّرت هنا ب (اتخـذ) و هذا يوحى أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون أنّ اللّه تعالى لم يلد ذلك الولد، بل يقولون: إنّ اللّه قد اختار بعض الموجودات كولد له، تماما مثل أولئك الذين لا يولد لهم ولد، و يتبنون طفلا من دور الحضانة و أمثالها.

على كل حال، فإنّ هؤلاء الجاهلين و قصيرى النظر وقعوا فى اشتباه المقارنة بين الخالق و المخلوق، و كانوا يقيسون ذات اللّه الصمدية على وجودهم المحدود المحتاج.

و الجواب الثّانى الذى يذكره القرآن لهؤلاء هو: إنّ من يدعى شـيئا يجب عليه أن يقيم دليلا على مدعاه: إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ أى إنّكم على فرض عـدم قبولكم للدليل الأوّل الواضح، فإنّكم لا تسـتطيعون أن تنكروا هذه الحقيقة، و هى أن ادعاءكم و قولكم تهمة و قول بغير علم.

و تعيد الآية التّالية عاقبة الافتراء على اللّه المشؤومة. فتوجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ

و على فرض أن هؤلاء يسـتطيعون بافتراءاتهم و أكاذيبهم أن ينالوا المال و المقام لعـدّة أيّام، فإنّ ذلك مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ

الواقع أنّ هذه الآية و التى قبلها ذكرتا نوعين من العقاب لهؤلاء الكذابين الذين نسبوا إلى اللّه تهمة اتّخاذ الولد:

الأوّل: إنّ هـذا الكـذب و الافتراء لا يمكن أن يكون أساسـا لفلاح و نجـاح هؤلاء أبـدا، و لا يوصـلهم إلى هـدفهم مطلقا، بل إنّهم يصبحون حيارى تائهين تحيط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۴

التعاسة و الشقاء و الهزيمة بأطرافهم.

الثّانى: على فرض أنّهم استطاعوا أن يستغفلوا الناس و يخدعوهم بهذه الكلمات لعدة أيّام، و يصلوا عن طريق الديانة الوثنية إلى رفاه و عيش رغيد، إلّا أنّ هذا التمتع لا دوام و لا بقاء له، و العذاب الإلهى الخالد فى انتظارهم.

ملاحظات

۱- إنّ كلمـة «سـلطان» تعنى هنا الـدليل، و هذه الكلمة أعمق و أبلغ من كلمة الدليل، لأنّ الدليل بمعنى الدلالة و الإرشاد أمّا السـلطان فهو الشىء الذى يسلط الإنسان على الطرف المقابل، و يناسب موارد البحث و الجدال و النقاش، و هو إشارة إلى الدليل القاطع القوى.

۲- «المتاع» يعنى الشىء الذى يستفيد منه الإنسان و يتمتع به، و مفهومه واسع جدا يشمل كل لوازم و وسائل الحياة و المواهب المادية. يقول الراغب فى المفردات: كلما ينتفع به على وجه ما، فهو متاع و متعة.

۳- إنّ التعبير ب (نـذيقهم) الـذى ورد فى شأن العـذاب الإلهى يشـير إلى أنّ هـذا العذاب الذى سـينال هؤلاء بدرجة من الشدّة بحيث كأنّهم يذوقونه بألسنتهم و أفواههم، و هذا التعبير أبلغ جدا من المشاهدة، بل و حتى من لمس العذاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۱ الى ۷۳]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳)

التّفسير

جانب من جهاد نوح:

الآيات أعلاه بداية لبيان قسم من تأريخ الأنبياء و قصص و حوادث الأمم الماضية لتوعية و إيقاظ المشركين و الفئات المخالفة، فيأمر اللّه نبيّه أن يتابع حديثه السابق مع المشركين بشرح تأريخ الماضين ليكون عبرة لهم.

فى البداية تطرقت إلى قصّة نوح، فقالت: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۶

قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ و لهذا فإنّى لا أخاف غيره. ثمّ تضيف: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ أى ادعوا أصنامكم أيضا لتعينكم فى المشورة، حتى لا يبقى شىء خافيا على أحد و لا يتعرض منكم الى الهم و الغم أحد ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً بل اتّخذوا قراركم فى شأنى بكل وضوح.

«غمّة» من مادة غم، و هى تعنى خفاء الشىء و تغطيته، و إنّما يقولون للحزن: غمّ أيضا لأنّه يغطى قلب الإنسان.

ثمّ يقول: ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ ۱۷۳].

إنّ نوحا رسول اللّه الكبير صمد مقابل أعدائه الأقوياء المعاندين و واجههم بقاطعية و حزم و فى منتهى الشجاعة و الشهامة مع أصحابه القليلين الذين كانوا معه، و كان يستهزئ بقواهم و يريهم عدم اهتمامه بخططهم و أفكارهم و أصنامهم، و بهذه الطريقة كان يوجه ضربة نفسية عنيفة إلى أفكارهم.

و إذا علمنا أنّ هذه الآيات نزلت فى مكّة فى الوقت الذى كان يعيش فيه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ظروفا تشبه ظروف نوح، و كان المؤمنون قلّة، سيتّضح أنّ القرآن يريد أن يعطى للنّبى- أيضا- نفس هذا الدرس بأنّ لا يهتم بقدرة العدو، بل يسير و يتقدم بكل حزم و جرأة و شجاعة، لأنّ اللّه يسنده و ينصره، و لا تستطيع أية قوّة أن تقف فى مقابل قدرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۷

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبر تعبير نوح هذا أو أمثاله فى تاريخ سائر الأنبياء نوعا من الإعجاز، لأنّهم مع عدم امتلاكهم الإمكانيات الظاهرية فإنّهم كانوا يهدّدون العدو بالهزيمة، و أعلنوا خبر انتصارهم النهائى، و هذا لا يمكن قبوله إلّا عن طريق الإعجاز، إلّا أنّ هذا على كل حال درس كبير لكل القادة الإسلاميين بأن لا يخافوا و لا ينهاروا أمام عظمة الأعداء و كثرتهم، بل إنّهم باتكالهم على اللّه كانوا يدعون هؤلاء إلى الميدان بكل حزم و اقتدار و يستصغرون قوتهم، فكان هذا عاملا مهمّا فى تقوية معنويات الأتباع و المؤيدين، و تدمير معنويات العدو و انهيارها.

و ذكرت الآيـة التّالية بيانا آخر عن نوح من أجل إثبات أحقيته، هناك حيث تقول: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ[۱۷۴] إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ فإنّى أعمل له، و لا أريد الأجر إلّا منه وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

إنّ مقولـة نوح هذه درس آخر للقادة الإلهيين بأن لا يتوقعوا أى جزاء مادى و معنوى من الناس لقاء دعوتهم و تبليغهم، لأنّ هذا التوقع يوجد نوعا من التعلق النفسـى الذى يؤدى الى عرقلة أساليب الدعوة الصريحة و النشاطات الحرة، و من الطبيعى عن ذلك أن يقلّ تأثير دعـوتهم و إبلاـغهم، و لهـذا السـبب فـإنّ الطريـق الصـحيح فى الـدعوة إلى الإسـلام أن يعتمـد المبلّغون و الـداعون فى إدارة أمورهم المعاشـية على بيت المال فقط، لا بالاحتجاج إلى الناس! و تبيّن الآيـة الأخيرة عاقبـة و مصـير أعـداء نوح، و صدق توقعه و قوله السابق بهذه الصورة: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ۱۷۵] و لم ننقذهم و حسب، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۸

وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا.

و فى النهاية توجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۰۹

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۷۴]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (۷۴)

التّفسير

الرّسل بعد نوح:

بعـد انتهاء البحث الإجمالى حول قصّة نوح، أشارت هذه الآية إلى الأنبياء الآخرين الذين جاؤوا بعد نوح و قبل موسـى عليهما السّـلام لهداية الناس كإبراهيم و هود و صالح و لوط و يوسف عليهم السّـلام، فقالت: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُـلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فقد كانوا مسلّحين كنوح بسلاح المنطق و الإعجاز و البرامج البناءة، إلّا أنّ الذين سلكوا طريق العناد و كذّبوا الأنبياء السابقين، كذّبوا هؤلاء الأنبياء أيضا و لم يؤمنوا بهم فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ و كان ذلك نتيجـة للعصـيان و التمرد و عـداء الحق الـذى أوصـد تلك القلوب كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۰

ملاحظتان

۱- جملة: فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ تشير إلى أنّ فئة من بين الأمم كانوا لا يسلمون أمام دعوة أى نبى و مصلح، و استمروا فى الثبات على موقفهم، و لم تكن تؤثر فيهم دعوة الأنبياء المتكررة أدنى أثر، و بناء على هـذا فإن الجملـة المـذكورة تشـير إلى طائفة وقفت فى وجه دعوة أنبياء متعددين فى زمانين (و هذا هو ظاهر الجملة حيث أن مرجع كل الضمائر واحد).

و قـد احتمل أيضا فى معنى هذه الآية أنّها تشـير إلى جماعتين مختلفتين، إحداهما كانت فى زمن نوح و كذّبت دعوته، و الأخرى هم

الـذين جاؤوا بعـد أولئك و سـلكوا طريقهم فى إنكار و تكذيب الأنبياء، و بناء على هذا، فإنّ معنى الجملة يصـبح: إنّ المعتدين أقوام آخرين امتنعوا عن الإيمان بالشىء الذى امتنع الماضون عن الإيمان به.

طبعا، بملاحظة أنّ مخالفى دعوة نوح قد هلكوا أثناء الطوفان، سيقوى هذا الاحتمال فى تفسير هذه الآية، إلّا أنّ ذلك يستلزم على كل حال أن نفرق بين مرجع الضمائر فى الجملة، و هى واو الجمع فى كانوا، و ليؤمنوا، و كذبوا.

۲- من الواضـح أنّ جملـة: كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ لا تـدل على الجبر، و قد أخفى تفسـير ذلك فيها، لأنّها تقول: إنّنا نطبع على قلوب المعتـدين حتى لا يـدركوا شـيئا، و بناء على هـذا فإنّ الاعتداءات المتكررة المتلاحقة على حدود الأحكام الإلهية و الحق و الحقيقـة كانت تصـدر من هؤلاء، و كانت تترك أثرها على قلوبهم تدريجيا حتى سـلبت منهم قدرة تشـخيص و تعيين الحق، و وصـل الأمر بهم إلى أن يصبح التمرد و العصيان و المعصية طبيعة ثانية لديهم، بحيث لا يذعنون و لا يسلّمون أمام أية حقيقة[۱۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۵ الى ۷۸]

اشارة

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسـى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۷۵) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (۷۶) قالَ مُوسـى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هـذا وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (۷۷) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (۷۸)

التّفسير

جانب من جهاد موسى و هارون:

لقد جرى ذكر قصـص الأنبياء و الأمم السابقة كنماذج حيّة، و بدأ الحديث أوّلا عن نوح عليه السّلام، ثمّ عن الأنبياء بعد نوح، و وصل الـدور فى هذه الآيات إلى موسـى و هارون عليهما السّـلام و مواجهاتهم المسـتمرة مع فرعون و أتباعه، فتقول الآية الأولى: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَ هارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآياتِنا[۱۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۲

«الملأ» كما أشـرنا إلى ذلك سابقا تطلق على الأشـرف الأثرياء اللامعين الذين يملأ ظاهرهم العيون و يلاحظ حضورهم فى كل مكان من المجتمع. و تأتى عادة فى مثل هذه الآيات محل البحث بمعنى المناصرين و المشاورين و الملتفين حول شخص ما.

و نرى الكلام فى هذه الآيات يدور حول بعثة موسـى إلى فرعون و ملئه فقط، فى حين أنّ موسـى مبعوث لكل الفراعنة و بنى إسرائيل، و علّـة ذلك أنّ مقـدرات المجتمع فى يد الهيئة الحاكمة، و بناء على هذا فإنّ أى برنامج إصـلاحى و ثورى يجب أن يسـتهدف هؤلاء أوّلا، كما تقول ذلك الآية (۱۲) من سورة التوبة:

فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ.

إلّـا أنّ فرعـون و أتبـاعه امتنعـوا عن قبـول دعوة موسـى، و عن التسـليم فى مقابـل الحق: فَاسْتَكْبَرُوا و نظرا للتكـبر و الاسـتعلاء و عـدم امتلاكهم لروح التواضع فإنّهم لم يلتفتوا إلى الحقائق الواضحة فى دعوة موسى، و أصرّوا و استمروا فى إجرامهم:

وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ

و تتحدث الآية التالية عن مراحل مواجهة الفراعنة لموسى و أخيه هارون، و أوّل تلك المراحل هى مرحلة الإنكار و التكذيب و الافتراء و اتهامهما بسوء النية، و ابطال سنن الأجداد، و الإخلال بالنظام الاجتماعى، كما يقول القرآن: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ

إنّ جاذبية دعوة موسى الخارقة من جهة، و معجزاته الباهرة من جهة أخرى، و تزايد نفوذه بصورة محيرة من جهة ثالثة، دفعت الفراعنة إلى التفكير فى حل لهذه المسألة، فلم يجدوا وسيلة أفضل من رميه بالسحر، فأعلنوا أنّه ساحر و أنّ عمله سحر ليس إلّا، و هذه التهمة سائدة فى جميع مراحل الأنبياء و على طول تاريخهم، خاصّة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إلّا أنّ موسى عليه السّلام نهض للدفاع عن نفسه، فأزاح الستار و أوضح كذب هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۳

و أبطل تهمتهم، ففى البداية: قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَ سِحْرٌ هذا[۱۷۸].

صحيح أنّ لكلّ من السحر و المعجزة نفوذا و تأثيرا، و أن من الممكن أن يؤثر الحق و الباطل على إدراكات الناس و نفسياتهم، إلّا أن السحر الذى هو أمر باطل يتميز تماما عن المعجزة التى هى حق، إذا لا يمكن المقارنة بين نفوذ الأنبياء و نفوذ السحرة، فإنّ أعمال السحرة تفتقد الى الهدفية و محدودة و لا قيمة لها، و معجزات الأنبياء لها أهداف إصلاحية و تغييرية و تربوية واضحة، و تعرض بشكل واسع و غير محدود.

إضافة إلى أنّه: وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ و هذا التعبير دليل آخر على امتياز عمل الأنبياء عن السحر. ففى الدليل السابق أثبت اختلاف السحر و المعجزة و وجه و هدف الإثنين و افتراق أحدهما عن الآخر، أمّا هنا فإنّ الدليل يستعين لإثبات المطلب باختلاف حالات السحرة و أصحاب المعاجز.

إنّ السحرة، و بحكم عملهم و فنهم الذى له صفة الانحراف و الإغفال، أفراد انتهازيون يفكرون فى الربح، يستغفلون الناس و يخادعونهم، و يمكن معرفتهم من خلال أعمالهم. أمّا الأنبياء فهم رجال يطلبون الحق، حريصون على هداية الناس، مطهرون، لهم هدف و غاية، و لا يهتمون بالأمور المادية.

إن السحرة لا يرون وجه الفلاح مطلقا، و لا يعملون إلّا من أجل المال و الثروة و المنصب و المنافع الشخصية، فى حين أن هدف الأنبياء هداية خلق اللّه و إصلاح المجتمع الإنسانى من جميع جوانبه المادية و المعنوية.

ثمّ يستمر فرعون و ملؤه فى رمى موسى عليه السّلام بسيل الاتهامات الصريحة، حيث قالُوا: أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا. الواقع، أنهم قدموا صنم «سنة الآباء» و عظمتهم الخيالية و الأسطورية حتى يوجهوا الرأى العام ضد موسى و هارون،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۴

بأنّهما يريدان أن يعبثا بمقدسات مجتمعكم و بلادكم.

ثمّ استمروا فى هذا التشويه، و قالوا بأن دعوتكم إلى دين اللّه ما هى إلّا كذب محض، و كل هذه مصائد و خطط خيانية بهدف التسلط على الناس: وَ تَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ

فى الحقيقة، إنّ هؤلاء لما كانوا يسعون دائما من أجل الحكم الظالم على الناس كانوا يظنون أنّ الآخرين مثلهم، و هكذا كانوا يفسرون مساعى المصلحين و الأنبياء.

وَ ما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ لأنا على علم بنواياكم و خططكم الهدامة.

و كانت هذه هى المرحلة الأولى من المواجهة السلبية مع موسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۷۹ الى ۸۲]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (۷۹) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۸۰) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (۸۱) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲)

التّفسير

المرحلة الثّانية:

تفصل هذه الآيات مرحلة أخرى من المجابهة، و تتحدث عن إجراءات فرعون العملية ضد موسى و أخيه هارون.

فعند ما لا حظ فرعون قسما من معجزات موسى، كاليد البيضاء و الحية العظيمة، و رأى أنّ ادعاء موسى ليس واهيا بدون دليل و برهان، و أنّ هذا الدليل سيؤثر فى جميع أنصاره أو الآخرين قليلا أو كثيرا، فكّر بجواب عملى كما يقول القرآن:

وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ فقد كان يعلم أنّ كل عمل يجب أن يؤتى من طريقة و يجب أن يستعين بالخبراء بذلك الفن.

هل إنّ فرعون كان حقيقة فى شكّ من أحقّية دعوة موسى، و كان يريد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۶

يحاربه و يواجهه عن هذا الطريق؟ أم أنّه كان يعلم أنّه مرسل من اللّه، إلّا أنّه كان يظن أنّه يستطيع بواسطة ضجّة السحرة و غوغائهم أن يهدئ الناس، و يمنع مؤقتا خطر نفوذ موسى فى الأفكار العامّة، و يقول للناس بأنّه إن جاء بعمل خارق للعادة فإنّنا غير عاجزين عن القيام بمثله، و إذا شاءت إرادتنا الملوكية ذلك، فإنّ مثل هذا الشىء سهل يسير بالنسبة لنا! و يبدو أنّ الاحتمال الثّانى أقرب، و يؤيد ذلك سائر الآيات المرتبطة بقصّة موسى التى وردت فى سورة طه و أمثالها، و أنّه هبّ لمجابهة موسى عن وعى و دراية.

على كل حال: فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ

جملة أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ تعنى فى الأصل: ألقوا كل ما تستطيعون إلقاءه، و هذا إشارة إلى الحبال و العصى الخاصّة التى كان جوفها خاليا، وصبت فيه مواد كيماوية خاصّة بحيث أنّها تتحرك و تتقلب إذا ما قابلت نور الشمس. و الشاهد على هذا الكلام الآيات التى وردت فى سورة الأعراف و الشعراء، ففى الآية (۴۳)- (۴۴) من سورة الشعراء نقرأ: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ و لكن من الطبيعى أنّها تتضمن هذا المعنى أيضا بأنّ أظهروا كل ما تملكون من القدرة فى الميدان.

على كل حال، فإنّ هؤلاء قد عبؤوا كل ما يملكون من قدرة، و ألقوا كل ما أتوا به- معهم فى وسط الحلبة: فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ فأنتم أفراد فاسدون و مفسدون لأنّكم تخدمون حكومة جبارة و ظالمة و تعملون على تقوية دعائم هذه الحكومة الغاشمة الدكتاتورية و هذا بنفسه أقوى دليل على كونكم مفسدين، و إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ

فى الواقع، إنّ كل إنسان ذى عقل و علم يستطيع أن يدرك هذه الحقيقة حتى قبل انتصار موسى على السحرة، و هى أنّ عمل السحرة لا يقوم على أساس من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۷

الحق. لأنّه يصب فى طريق تقوية دعائم الظلم و الجور، فأى شخص لم يكن يعلم أنّ فرعون غاصب و ظالم و مفسد؟ و معه ألا تعتبر خدمة مثل هذا الجهاز الحاكم مشاركة فى ظلمه و فساده؟ و هل يمكن أن يكون عمل هؤلاء صحيحا و إلهيا؟ كلّا مطلقا، و بناء على

هذا كان من الواضح أنّ اللّه سيبطل هذه المساعى المفسدة.

هل أنّ التعبير ب «سيبطله» دليل على أنّ السحر حقيقة واقعية، إلّا أنّ اللّه يبطله؟

أم أنّ المقصود من الجملة هو أنّ اللّه يكشف كون السحر باطلا؟

إنّ الآية (۱۱۶) من سورة الأعراف تقول: إنّ سحر السحرة قد أثر فى أعين الناس فخوفوهم به: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ و هذا التعبير لا ينافى أن يكون هؤلاء قد أوجدوا نوعا من الحركات الواقعية فى تلك الحبال و العصى بواسطة سلسلة من الوسائل المرموزة كما وقع ذلك فى المفهوم و المعنى اللغوى للسحر، و خاصّة بالاستفادة من الخواص الفيزيائية و الكيميائية للأجسام المختلفة، إلّا أنّ من المسلّم به أنّ هذه الحبال و العصى لم تكن موجودات حيّة كما ظهرت أمام أعين الناس، كما قال القرآن فى سورة طه الآية (۶۶): فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى بناء على هذا، فإنّ بعض تأثير السحر واقعى، و البعض الآخر و هم و خيال.

و فى الآية الأخيرة، إنّ موسى قال لهؤلاء: إنّ النصر و الغلب لنا فى هذه المبارزة حتما. لأنّ اللّه سبحانه قد وعد أن يظهر الحق بواسطة المنطق القاطع، و معجزات أنبيائه القاهرة، و يفضح و يخزى المفسدين و أهل الباطل و إن كره المجرمون ذلك:

وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ

و المراد من «كلماته» إمّا وعد اللّه بنصرة الرسل و إحقاق الحق، أو معجزاته القاهرة القوية[۱۷۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۳ الى ۸۶]

اشارة

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (۸۳) وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۸۶)

التّفسير

المرحلة الثّالثة:

عكست هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة الثورية بين موسى و فرعون، ففى البداية تبيّن وضع المؤمنين فتقول: فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ

إنّ هذه المجموعة الصغيرة القليلة، و التى كان الشباب و الأشبال يشكلون أكثريتها بمقتضى ظاهر كلمة ذرية، كانت تواجه ضغوطا شديدة من فرعون و أتباعه الى درجة أنّهم خافوا أن يصل بهم الأمر الى ترك دين موسى نتيجة هذه الضغوط الشديدة: عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۱۹

الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

و هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه من كانت هذه الذريّة التى آمنت بموسى؟

و إلى من يعود ضمير مِنْ قَوْمِهِ إلى موسى أم فرعون؟

فذهب البعض الى أنّ هؤلاء كانوا نفرا قليلا من قوم فرعون و الأقباط كمؤمن آل فرعون، و زوجة فرعون و ماشطتها و وصيفتها، و الظاهر أنّ الدليل على اختيار هذا الرأى أن أغلب بنى إسرائيل قد آمنوا. و هذا لا يناسب التعبير ب ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ لأنّه يدل على صغر هذه المجموعة.

إلّا أنّ البعض الآخر يرى أنّهم جماعة من بنى إسرائيل، و الضمير يعود إلى موسى، لأنّ اسم موسى قد ذكر قبله، و حسب قواعد اللغة و النحو فإنّ الضمير يجب أن يرجع إليه.

و لا شك أنّ المعنى الثّانى أوفق لظاهر الآية، و الدليل الآخر الذى يؤيد ذلك هو الآية التالية التى تقول: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ ... أى إنّه خاطب المؤمنين ب «قومى».

الإشكال الوحيد الذى يبقى على هذا التّفسير، هو أنّ جميع بنى إسرائيل قد آمنوا بموسى، لا جماعة منهم.

إلّا أنّ هذا الإيراد يمكن دفعه بملاحظة هذه النقطة، و هى أنّنا نعلم أنّ الشباب فى كل ثورة هم أوّل مجموعة تنجذب إليها، فإضافة إلى قلوبهم الطاهرة و أفكارهم السليمة، فإنّ الحماس و الهيجان الثورى لديهم أكبر و أقوى، علاوة على أنّهم غير متعلقين بالأمور المادية التى تدعو الكبار إلى المحافظة عليها و غيرها الملاحظات المختلفة الأخرى، فليس لهم مال و ثروة يخافون ضياعها، و لا منصب و لا مقام يخشون فقدانه.

بناء على هذا، فمن الطبيعى أن تنجذب هذه الفئة إلى موسى، و تعبير «الذريّة» يناسب هذا المعنى جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۰

هذا إضافة إلى أنّ كبار السن الذين التحقوا فيما بعد بهذه الفئة لم يكن لهم دور مهم فى المجتمع آنذاك، و كانوا ضعفاء و عاجزين، و هذا التعبير- كما نقل عن ابن عباس- فى حقهم ليس ببعيد كما أنّنا حينما ندعو بعض أصدقائنا نقول: اذهب وادع الأولاد، بالرغم من أنهم قد يكونون كبارا، و إذا لم نتفق و هذا المعنى للآية، فإنّ الاحتمال الأوّل يبقى على قوته.

إضافة إلى أن الذرية و إن كانت تطلق عادة على الأولاد، إلّا أنّها من ناحية الأصل اللغوى- كما يقول الراغب فى المفردات- تشمل الصغير و الكبير.

و الملاحظة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها هنا، هى أنّ المراد من الفتنة التى تستفاد من جملة أَنْ يَفْتِنَهُمْ هو صرف هؤلاء عن دين موسى بالتهديد و الإرعاب و التعذيب، أو بمعنى آخر إيجاد مختلف المصاعب و العراقيل امامهم سواء كانت دينية أو غير دينية.

على كل حال، فقد حدّث موسى هؤلاء بلسان المحبّة و المودة من أجل تهدئة خواطرهم و تسكين قلوبهم: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ

إنّ حقيقة التوكل هى إلقاء العمل و التصرف فى الأمور على كاهل الوكيل، و ليس معنى التوكل أن يترك الإنسان الجد و السعى و ينزوى فى زاوية و يقول: إنّ اللّه معتمدى و كفى، بل معناه أن يبذل قصارى جهده، فإذا لم يستطع أن يحل المشكلة و يرفع الموانع من طريقه، فلا يدع للخوف طريقا إلى نفسه، بل يصمد أمامها بالتوكل و الاعتماد على لطف اللّه و الاستعانة بذاته المقدسة و قدرته اللامتناهية، و يستمر فى جهاده المتواصل، و حتى فى حالات القدرة و الاستطاعة فإنّه لا يرى نفسه مستغنيا عن اللّه، لأنّ كل قدرة يتمتع بها هى من اللّه فى النهاية.

هذا هو مفهوم التوكل الذى لا ينفك عن الإيمان و الإسلام، لأنّ الفرد المؤمن و المذعن لأوامر اللّه يعتقد أنّه قادر على كل شىء، و كل عسير مقابل إرادته سهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۱

يسير. و يعتقد بوعد اللّه تعالى للمؤمنين بالنصر.

إنّ هؤلاء المؤمنين المخلصين أجابوا دعوة موسى بالتوكل: فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا. ثمّ رجوا من اللّه سبحانه أن ينجيهم من شر الأعداء و وساوسهم و ضغوطهم و يؤمّنهم: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ و الجميل فى الأمر أنّ فرعون قد وصف فى الآية الأولى بأنّه من الْمُسْرِفِينَ و فى الآية الثّالثة سمّى هو و أعوانه باسم الظَّالِمِينَ و فى آخر آية بأنّهم من الْكافِرِينَ

إنّ هذا التفاوت فى التعبيرات ربّما لأنّ الإنسان يشرع فى مسير الذنب و الخطأ من الإسراف أوّلا، أى التعدى على الحدود، ثمّ الظلم، و ينتهى عمله أخيرا إلى الكفر و الإلحاد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۲

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۸۷ الى ۸۹]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۸۷) وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۸۸) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸۹)

التّفسير

المرحلة الرّابعة: مرحلة البناء من أجل الثّورة:

شرحت هذه الآيات مرحلة أخرى من نهضة و ثورة بنى إسرائيل ضد الفراعنة.

فتقول أولا: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً فالأمر الالهى يقرر اختيار البيوت لبنى إسرائيل بمصر و ان تكون هذه البيوت متقاربة و متقابلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۳

ثمّ تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنويا و روحيا، فقالت: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ و من أجل أن تطرد آثار الخوف و الرعب من قلوب هؤلاء و تعيد و تزيد من قدرتهم المعنوية و الثّورية قالت: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

يستفاد من مجموع هذه الآية أنّ بنى إسرائيل كانوا فى تلك الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة و متطفلة و ملوّثة و خائفة، فلا مأوى لهم و لا اجتماع مركزى، و لا برنامجا معنويا بنّاء، و لا يمتلكون الشجاعة و الجرأة اللازمة للقيام بثورة حقيقية.

لذلك فإنّ موسى و أخاه هارون قد تلقوا مهمّة وضع برنامج فى عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بنى إسرائيل، و خاصّة فى الجانب الروحى:

۱- الاهتمام أوّلا بمسألة بناء المساكن، و عزل مساكنهم عن الفراعنة، و كان لهذا العمل عدّة فوائد:

إحداها: أنّهم بتملّكهم المساكن فى بلاد مصر سيشعرون برابطة أقوى تدفعهم للدفاع عن أنفسهم و عن ذلك الماء و التراب.

و الأخرى: أنّهم سينتقلون من الحياة الطفيلية فى بيوت الأقباط إلى حياة مستقلة.

و الثّالثة: أنّ أسرار أعمالهم و خططهم سوف لا تقع فى أيدى الأعداء.

۲- أن يبنوا بيوتهم متقاربة و يقابل بعضها الآخر. لأنّ القبلة فى الأصل بمعنى حالة التقابل، و إطلاق كلمة القبلة على ما هو معروف

اليوم إنّما هو معنى ثانوى لهذه الكلمة[۱۸۰].

و أدّى هذا العمل الى تجمع و تمركز بنى إسرائيل بشكل فاعل، و استطاعوا بذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۴

وضع المسائل الاجتماعية بعامّة قيد البحث و التحقيق، و أن يجتمعوا مع بعضهم لأداء المراسم الدينية و الشعائر المذهبية، و أن يرسموا الخطط اللازمة من أجل حريتهم.

۳- التوجه إلى العبادة، و خاصّة الصلاة التى تحرر الإنسان من عبودية العباد، و تربطه بخالق كل القوى و القدرات، و تغسل قلبه و روحه من لوث الذنوب، و تحيى فيه الشعور بالاعتماد على النفس و على قدرة اللّه حيث ستدب و تنبعث روح جديدة فى الإنسان.

۴- إنّ هذه المهمّة و جهت الأمر لموسى- باعتباره قائدا- بأن يطهّر روح بنى إسرائيل من اشكال الخوف و الرعب التى كانت من افرازات سنين العبودية و الذلة الطويلة. و أن يربى و ينمى فيهم الإرادة و الشهامة و الشجاعة و ذلك عن طريق بشارة المؤمنين بالفتح و النصر النهائى، و لطف اللّه و رحمته.

الملفت للنظر أنّ بنى إسرائيل من أولاد يعقوب، و جماعة منهم من أولاد يوسف طبعا، و قد حكم هو و اخوته مصر سنين طويلة، و سعوا فى عمران هذا الوطن، إلّا أنّه نتيجة لتركهم طاعة اللّه و الغفلة و الخلافات الداخلية و صلوا إلى مثل هذا الوضع المأساوى. إنّ هذا المجتمع المسحوق المصاب يجب أن يبنى من جديد، و يمحو نقاط ضعفه و يستبدلها بالخصال الروحية البناءة ليعيد عظمة الماضى.

ثمّ أشارت إلى إحدى علل طغيان فرعون و أزلامه، فتقول على لسان موسى:

وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

إنّ اللام فى «ليضلوا» لام العاقبة، أى إنّ جماعة الأشراف الأثرياء المترفين سيسعون من أجل إضلال الناس شاؤوا أم أبوا، و سوف لا تكون عاقبة أمرهم شيئا غير هذا، لأنّ دعوة الأنبياء و الأطروحات الإلهية توقظ الناس و توحدهم و بذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۵

لا يبقى مجال لتسلط الظالمين و كيد المعتدين و ستضيق الدنيا عليهم، فلا يجدوا بدّا من معارضة الأنبياء.

ثمّ يطلب موسى عليه السّلام من اللّه طلبا فيقول: رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ

«الطمس» فى اللغة بمعنى المحو و سلب خواص الشىء، و اللطيف فى الأمر أن ما ورد فى بعض الرّوايات من أنّ أموال الفراعنة قد أصبحت خزفا و حجرا بعد هذه اللعنة، ربّما كان كناية عن أنّ التدهور الاقتصادى قد بلغ بهم أن سقطت فيه قيمة ثرواتهم تماما و أصبحت كالخزف لا قيمة لها! ثمّ أضافت وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ اى: اسلبهم قدرة التفكير و التدبّر أيضا لأنّهم بفقدانهم هاتين الدعامتين (المال و الفكر) سيكونون على حافة الزوال و الفناء، و سينفتح أمامنا طريق الثورة، و توجيه الضربة النهائية لهؤلاء.

اللّهم إن كنت قد طلبت ذلك منك فى حق الفراعنة فليس ذلك نابعا من روح الانتقام و الحقد، بل لأنّ هؤلاء قد فقدوا أرضية الإيمان أبدا: فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ و من الطبيعى أنّ الإيمان بعد مشاهدة العذاب- كما سيأتى قريبا- لا ينفع هؤلاء أيضا.

ثمّ خاطب اللّه سبحانه و تعالى موسى و أخاه بأنّه: الآن و قد أصبحتما مستعدين لتربية و بناء قوم بنى إسرائيل قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما فى سبيل اللّه و لا تخافا سيل المشاكل، و كونا حازمين فى أعمالكما و لا تستسلما أمام اقتراحات الجاهلين، بل استمرا فى برنامجكما الثورى وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۶

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

اشارة

وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۹۱) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (۹۲) وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۹۳)

التّفسير

الفصل الأخير من المجابهة مع الظّالمين:

هذه الآيات جسّدت آخر مرحلة من المواجهة بين بنى إسرائيل و الفراعنة و بيّنت مصير هؤلاء فى عبارات قصيرة، لكنّها دقيقة و واضحة- كما هو دأب القرآن- و تركت المطالب الأخرى تفهم من الجمل السابقة و اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۷

فتقول أوّلا: إنّنا جاوزنا ببنى إسرائيل البحر- و هو نهر النيل العظيم أطلق عليه اسم البحر لعظمته- أثناء مواجهتهم للفراعنة، و عند ما كانوا تحت ضغط و مطاردة هؤلاء: وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ إلّا أنّ فرعون و جنوده طاردوا هؤلاء من أجل القضاء على بنى إسرائيل: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً.

«البغى» يعنى الظلم، «و العدو» بمعنى التعدى، أى إنّ هؤلاء إنّما طاردوهم و تعقبوهم لغرض الظلم و التعدى عليهم، أى على بنى إسرائيل.

جملة «فأتبعهم» توحى بأنّ فرعون و جنوده قد تتبعوا بنى إسرائيل طوعا، و تؤيد بعض الرّوايات هذا المعنى، و البعض الآخر تخالف هذا المعنى، إلّا أن ما يفهم و يستفاد من ظاهر الآية هو الحجة على كل حال.

أمّا كيفية عبور بنى إسرائيل للبحر، و أى إعجاز وقع فى ذلك الحين، فإنّ شرح ذلك سيأتى فى ذيل الآية (۶۳) من سورة الشعراء، إن شاء اللّه تعالى.

على كل حال، فإنّ هذه الأحداث قد استمرت حتى أوشك فرعون على الغرق، و أصبح كالقشة تتقاذفه الأمواج و تلهو به، فعنذاك زالت حجب الغرور و الجهل من أمام عينه، و سطع نور التوحيد الفطرى و صدع بالإيمان: حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ فلست مؤمنا بقلبى فقط، بل إنّى من المسلمين عمليا: وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و لما تحققت تنبؤات موسى عليه السّلام الواحدة تلو الأخرى و أدرك فرعون صدق هذا النّبى الكبير أكثر فأكثر و شاهد قدرته و قوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بنى إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة و لذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلّا الذى آمنت به بنو إسرائيل! إلّا أنّ من البديهى أنّ مثل هذا الإيمان الذى يتجلّى عند نزول البلاء و نشوب أظفار الموت، إيمان اضطرارى يتشبث به كل جان و مجرم و مذنب و ليست له أية قيمة، أو يكون دليلا على حسن نيته أو صدق قوله، و لهذا فإنّ اللّه سبحانه خاطبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۸

فقال: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

و قد قرأنا سابقا فى الآية (۱۸) من سورة النساء: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ حَتَّى إِذا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ

و لهـذا فـإنّ كثير من الناس ما أن تسـتقر بهم الحال و ينجون من الموت يعودون إلى أوضاعهم و أعمالهم السابقـة. و نظير هـذا التعبير الذى ورد أعلاه جاء أيضا فى اشعار و كلمات الأدباء العرب و العجم، مثل:

أتت و حياض الموت بينى و بينهاو جادت بوصل حين لا ينفع الوصل

لكن فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً آية للحكام المستكبرين و لكل الظالمين و المفسدين، و آية للفئات المستضعفة.

هناك بحث بين المفسّرين المراد من البـدن هنا، فأكثرهم يرى بأنّ المراد هو جسـد فرعون الـذى فارقته الروح، لأنّ عظمـة فرعون فى أفكار الناس فى ذلك المحيط بلغت حـدّا بحيث أنّ الكثير لو لا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، و كان من الممكن أن تنسج الأساطير و الخرافات الكاذبة حول نجاة و حياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى اللّه سبحانه جسده خارج الماء.

اللطيف هنـا، أنّ البـدن فى اللغـة- كما قال الراغب فى مفرداته- يعنى الجسـد العظيم- و هـذا يـدلنا على أن فرعون كان عظيم الهيكل ممتلئ الجسم كما هو الحال فى الكثير من أهل الترف و الرفاه الـدنيوى! إلّا أنّ البعض الآخر قالوا: إنّ أحـد معانى البـدن هو الـدرع، و هـذا إشارة إلى أن اللّه سـبحانه قـد أخرج فرعون من الماء بـدرعه الذهبى الذى كان على بدنه ليعرف عن طريقه، و لا يبقى أى مجال للشك فى أنّه فرعون.

هـذه النقطـة أيضا تسـتحق الانتباه، و هى أنهم اسـتفادوا من جملـة «ننجيك» أنّ اللّه سـبحانه قـد أمر الأمواج أن تلقى بـدنه على مكان مرتفع عن الساحل لأنّ مادة «النجوة» تعنى المكان المرتفع و الأرض العالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۲۹

و النقطـة الأخرى التى تلاحظ فى الآيـة أنّ جملـة: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ قـد بـدأت بفاء التفريع، و من الممكن أن يكون ذلك إشارة إلى أن إيمان فرعون الباهت فى هـذه اللحظـة اليائسـة و فى ساعـة الاحتضار كان كالجسـد بـدون روح و لذلك أثر بالمقدار الذى أنجى اللّه جسـد فرعون من الماء بعـد أن فارقته الروح، حتى لا يكون طعمـة للأسـماك و ليكون عبره للأجيال القادمة! و يوجد الآن فى متاحف مصـر و بريطانيـا جثـة أو جثتين من جثث الفراعنـة التى بقيت محنّطـة بالموميـاء، فهل أنّ بـدن فرعون المعاصـر لموسـى من بينها حيث حفظوه فيما بعد بالمومياء، أم لا؟

لا يمكننا اثبات ذلك، إلّا أنّ تعبير لِمَنْ خَلْفَكَ يقوى هـذا الاحتمال فى أن بدن ذلك الفرعون من بين هذه الأبدان، ليكون عبرة لكل الأجيال القادمة، لأنّ تعبير الآية مطلق و يشمل كل الأجيال فى المستقبل (فتدبر جيدا).

و يقول فى نهايـة الآية: إنّه و بالرغم من كل هذه الآيات و الدلالات على قدرة اللّه، و مع كل الدروس و العبر التى ملأت تاريخ البشـر فإنّ الكثير معرضون عنها وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ

و تبيّن آخر آية من هذه الآيات النصـر النهائى لبنى إسرائيل، و الرجوع إلى الأرض المقدسة بعد الخلاص من قبضة الفراعنة، فتقول: وَ لَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ

إنّ التعبير ب مُبَوَّأَ صِدْقٍ يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه قد وفى بما وعد به بنى إسرائيل و أرجعهم إلى الوطن الموعود، أو أنّ مُبَوَّأَ صِدْقٍ إشارة إلى طهارة و قدسية هذه الأرض، و بذلك تناسب أرض الشام و فلسطين التى كانت محط الأنبياء و الرسل.

و قد احتمل جماعة أن يكون المراد أرض مصـر، كما يقول القرآن فى سورة الدخان/ الآية (۲۵)- (۲۸): كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۰

و قد جاء هذا المضمون فى الآية (۵۷)- (۵۹) من سورة الشعراء، و نقرأ فى آخرها: وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ

من هذه الآيات نخرج بأنّ بنى إسرائيل قد بقوا فترة فى مصر قبل الهجرة إلى الشام، و تنعّموا ببركات تلك الأرض المعطاء.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ و لا مانع بالطبع من أن تكون أرض مصـر هى المقصودة، و كذلك أراضى الشام و

فلسطين. إلّا أنّ هؤلاء لم يعرفوا قدر هذه النعمة فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ و بعد مشاهدة كل تلك المعجزات التى جاء بها موسى، و أدلة صدق دعوته، إلّا إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و إذا لم يتذوقوا طعم عقاب الاختلاف اليوم، فسيذوقونه غدا.

و قد احتمل- أيضا- فى تفسير هذه الآية، أن يكن المراد من الاختلاف هو الاختلاف بين بنى إسرائيل و اليهود المعاصرين للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى قبول دعوته، أى إنّ هؤلاء رغم معرفتهم صدق دعوته حسب بشارات و علامات كتبهم السماوية، فإنّهم اختلفوا، فآمن بعضهم، و امتنع القسم الأكبر عن قبول دعوته، و إنّ اللّه سبحانه سيقضى بين هؤلاء يوم القيامة.

إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب لظاهر الآية.

كان هذا الحديث عن قسم من ماضى بنى إسرائيل الملىء بالعبر، و الذى بيّن ضمن آيات فى هذه السورة، و ما أشبه حال أولئك بمسلمى اليوم، فإنّ اللّه قد نصر المسلمين بفضله مرّات كثيرة. و قهر أعداءهم الأقوياء بصورة إعجازية، و نصر بفضله و رحمته هذه الأمة المستضعفة على أولئك المتجبرين، إلّا أنّهم و للأسف الشديد، بدل أن يجعلوا هذا النصر وسيلة لنشر دين الإسلام فى جميع أرجاء العالم، فإنّهم قد اتّخذوه ذريعة للتفرقة و إيجاد النفاق و الاختلاف بحيث عرّضوا كل انتصاراتهم للخطر! اللّهم نجّنا من كفران النعمة هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۴ الى ۹۷]

اشارة

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (۹۴) وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (۹۵) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (۹۶) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۹۷)

التّفسير

لا تدع للشك طريقا إلى نفسك!

لمّا كانت الآيات السابقة قد ذكرت جوانب من ماضى الأنبياء و الأمم السابقة، و كان من الممكن أن يشككك بعض المشركين و منكرى دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى صحة ذلك، فقد طلب القرآن من هؤلاء أن يراجعوا أهل الكتاب للتأكد و العلم بصحة هذه الأقوال، و ليسألوهم عن ذلك، لأنّ كثيرا من هذه المسائل قد ورد فى كتب هؤلاء.

إلّا أنّه بدل أن يوجه الخطاب لهؤلاء، خاطب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ ليثبت عن هذا الطريق بأنّه لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۲

و يحتمل أيضا أنّ الآية أعلاه تطرح بحثا جديدا و مستقلا فى صدق دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تعلم المخالفين أنّهم إن كانوا فى شك من أحقيته فليسألوا أهل الكتاب عن علاماته التى نزلت فى الكتب السابقة كالتّوراة و الإنجيل.

و نقل سبب آخر للنزول فى بعض التفاسير[۱۸۱] يؤيد هذا المعنى، و هو أن جمعا من كفار قريش كانوا يقولون: إنّ هذا القرآن لم

ينزل من اللّه، بل إنّ الشيطان يلقيه على محمّد!! و قد سبب هذا الكلام أن يقع عدّة أشخاص فى وادى الشك و التردد، فأجابهم بهذه الآية.

هل كان النّبى شاكّا؟!

يمكن أن يتراءى للنظر فى البداية أنّ هذه الآيات تحكى عن أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان شاكّا فى صدق الآيات التى كانت تنزل عليه، و أنّ اللّه سبحانه قد أزال شكّه عن الطريق أعلاه.

و لكن واقع الأمر أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتلقى مسألة الوحى مع الشهود و المشاهدة- كما تحكى آيات القرآن هذا المعنى- و معه لا يبقى أى معنى للشك فى هذا المورد. إضافة إلى أنّ هذا الأسلوب من خطاب القريب من أجل تنبيه البعيد رائج فى العرف، و هذا هو المراد من المثل المعروف: إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة، و تأثير مثل هذا الكلام أكبر من الخطاب الصريح فى كثير من الموارد.

إضافة إلى أن ذكر الجملة الشرطية لا يدل دائما على احتمال وجود الشرط، بل هو للتأكيد على مسأله ما أحيانا، أو لبيان قانون كلى عام، فنقرأ مثلا فى الآية (۲۳) من سورة الإسراء: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ و ينبغى الانتباه إلى أنّ المخاطب فى الآية هو النّبى ظاهرا، إلّا أنّه لما كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقد أباه قبل ولادته و أمّه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۳

طفولته، فإنّ من الواضح أنّ احترام الوالدين طرح هنا كقانون عام بالرغم من أن المخاطب ظاهرا هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و كذلك نقرأ فى سورة الطلاق: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ و هذا التعبير لا يدل على أن النّبى قد طلق امرأة فى حياته، بل هو بيان قانون عام، و البديع فى هذا التعبير أنّ المخاطب فى بداية الجملة هو النّبى، و فى نهايتها كل الناس.

و من جملة القرائن التى تؤيد أنّ المقصود الأساس فى الآية هم المشركون و الكافرون، الآيات التى تتلو هذه الآية و التى تتحدث عن كفر و جحود هؤلاء.

و يلاحظ نظير هذا الموضوع فى الآيات المرتبطة بالمسيح، عند ما يسأله اللّه يوم القيامة: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ فإنّه ينكر هذه المسألة بصراحة، و يضيف: إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ سورة المائدة من الآية (۱۱۶).

ثمّ تضيف الآية التّالية: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ من بعد ما اتّضحت لك آيات اللّه و صدق هذه الدعوة.

إنّ الآية السابقة تقول بأنّك إن كنت فى شك فاسأل أولئك المطلعين العالمين، و تقول هذه الآية بأنّك يجب أن تسلم مقابل هذه الآيات بعد أن ارتفعت عوامل الشك، و إلّا فإنّ مخالفة الحق لا عاقبة لها إلّا الخسران.

إنّ هذه الآية قرينة واضحة على أنّ المقصود من الآية السابقة هم عموم الناس بالرغم من أن الخطاب موجه إلى شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ من البديهى أن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يكذب الآيات الإلهية مطلقا، بل كان المدافع المستميت الصلب عن دينه.

ثمّ أنّها تخبر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّ من بين مخالفيك جماعة متعصبين عنودين لا فائدة من انتظار إيمانهم، فإنّهم قد مسخوا من الناحية الفكرية، و توغلوا فى طريق الباطل إلى الحد الذى فقدوا معه الضمير الإنسانى الحى تماما، و تحولوا إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۴

موجودات لا يمكن اختراقها، غايـة ما فى الأمر أنّ القرآن الكريم يبيّن هـذا الموضوع بهذا التعبير: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ

و حتى إذا جاءتهم كل الآيات و الـدلالات فإنّهم لا يؤمنون: وَ لَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَـةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ و لا أثر لإيمانهم فى ذلك الوقت.

إنّ الآيات الأولى من الآيات مورد البحث تدعو عامّة الناس إلى المطالعة و التحقيق و السؤال من أهل العلم، ثمّ طلبت منهم أن ينصروا الحق و يـدافعوا عنه بعـد أن اتّضـح لهم. إلّـا أنّ الآيات الأخيرة تقول: لا تتوقّع أن يؤمن كل هؤلاء، لأنّ البعض قـد فسـد قلبه بحيث لا يمكن إصـلاحه، فلا يثبطك عـدم ايمانهم عن مواصـلة الطريق. و لا تتعب نفسك فى سبيل هدايتهم، بل توجه إلى الأكثرية من الناس ممّن لهم أهلية الهداية.

و كمـا كررنا مرارا، فإنّ التعبيرات التى تشابه هـذه الآيـة السابقـة ليست دليلا على الجبر أبـدا، بل هى من قبيل ذكر آثار عمل الإنسان، لكن لما كان أثر كل شىء بأمر اللّه، فإنّ هذه الأمور تنسب إلى اللّه أحيانا.

و يبدو أنّ ذكر هذه النقطة مهم أيضا، و هى أنّنا قرأنا فى بعض الآيات السابقة فى شأن فرعون أنّه قد أظهر الإيمان بعد نزول العذاب و الوقوع فى قبضة الطوفان، إلّا أن مثل هذا الإيمان لما كان يتصف بالاضطرار لم ينفعه. إلّا أنّ هذه الآيات تقول إنّ هذا لم يكن أسلوب و طريق فرعون وحـده، بل هو طريق كل العنودين الأنانيين المسـتكبرين المسودّه قلوبهم الـذين وصـلوا إلى قمة الطغيان و لديهم نفس هذه الحالة، فإنّ هؤلاء أيضا لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، ذلك الإيمان العديم الأثر بالنسبة لهؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۵

الآية [سورة يونس (۱۰): آية ۹۸]

اشارة

فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (۹۸)

التّفسير

الامّة التى آمنت فى الوقت المناسب!

تحـدثت الآيات السابقـة عن فرعون خاصّـة، و الأقوام السابقة بصورة عامّة، و هى أنّ هؤلاء امتنعوا من الإيمان باللّه فى وقت الإختيار و السلامة، إلّا أنّهم لما أشرفوا على الموت و العذاب الإلهى أظهروا الإيمان الذى لم يكن نافعا لهم آنذاك.

و تطرح الآية التى نبحثها هذه المسألة كقانون عام، فتقول: فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها. ثمّ استثنت قوم يونس فقالت: إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ أى إلى آخر عمرهم.

إنّ كلمـة «لو لا» تعنى هنا النفى على رأى بعض المفسّـرين، و لـذلك تمّ الاسـتثناء منها بواسـطة «إلّا» و على هذا الأساس يصـبح معنى الجملة: لم يؤمن أى من الأقوام و الأمم التى عاشت فى الماضى فى المدن و الأماكن المعمورة أمام أنبياء اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۶

بصورة جماعية إلّا قوم يونس.

إلّا أنّ البعض الآخر معتقـد بأنّ كلمـة «لو لا» لم تأت بمعنى النفى، بل أتت دائما بمعنى التحضـيض- و يقال للسؤال المقترن بالتوبيخ و

التحريك تحضيض- إلّا أن لازم مفهومها فى مثل هذه الموارد يكون نفيا، و لهذا يمكن أن يستثنى منها ب «إلّا».

و على كل حال، فلا شك فى أنّ جماعات كثيرة من الأقوام السالفة آمنوا أيضا، إلّا أنّ الذى يميز قوم يونس هو أنّهم آمنوا بأجمعهم دفعة واحدة، و كان ذلك قبل حلول العقاب الإلهى الحتمى، فى حين أنّ جماعة كبيرة من بين الأقوام الأخرى بقوا على مخالفتهم و عنادهم حتى صدر القرار الإلهى بالعذاب الحتمى، فلمّا رأى هؤلاء العذاب الأليم أظهر أغلبهم الإيمان، إلّا أنّ إيمانهم- و للسبب الذى قلناه سابقا- لم يكن له أثر و لا نفع.

قصّة إيمان قوم يونس:

كانت قصّة هؤلاء على ما جاء فى التواريخ، أنّه عند ما يئس يونس من إيمان قومه القاطنين أرض نينوى فى العراق، دعا على قومه باقتراح من عابد كان يعيش بينهم، فى حين أنّ عالما كان معهم أيضا اقترح على يونس أن يدعو لهؤلاء لا عليهم، و أن يستمر فى إرشاده أكثر من قبل و لا ييأس.

يونس اعتزل قومه بعد الدعاء عليهم، فاجتمع قومه الذين كانوا قد جربوا صدق أقواله حول ذلك الرجل العالم، و لم يكن أمر العذاب القطعى قد صدر بعد، إلّا أنّ علاماته قد شرعت فى الظهور، فاغتنم هؤلاء الفرصة و عملوا بنصيحة العالم و خرجوا معه خارج المدينة. للتضرع و الدعاء، و أظهروا الإيمان و التوبة، و من أجل أن يزداد توجههم الروحى فرقوا بين الأمهات و الأولاد، و لبسوا اللباس الخشن البالى و هبوّا للبحث عن نبيّهم فلم يعثروا له على أثر.

إلّا أنّ هذه التوبة و الإيمان و الرجوع إلى اللّه، الذى تمّ فى الوقت المناسب و عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۷

و عى مقترن بالإخلاص قد أثر أثره، و ارتفعت علامات العذاب و عادت المياه الى مجاريها. و لمّا رجع يونس إلى قومه بعد احداث و وقائع كثيرة وقعت له قبلوه بأرواحهم و قلوبهم.

و سنبيّن تفصيل حياة يونس نفسه فى ذيل الآيات (۱۳۴- ۱۴۸) من سورة الصافات، إن شاء اللّه تعالى.

و الجدير بالذكر، إنّ قوم يونس لم يستحقوا العذاب الإلهى، الحتمى، و إلّا لم تقبل توبتهم، بل كانت تأتيهم الإنذارات و التحذيرات التى تظهر عادة قبل العذاب النهائى، و قد كان مقدارها كافيا للتوعية، فى حين أنّ الفراعنة مثلا كانوا قد رأوا هذه الإنذارات مرارا- كحادثة الطوفان و الجراد و اختلاف ماء النيل الشديد و أمثالها- إلّا أنّهم لم يعبئوا بها مطلقا و لم يأخذوها بمنظار جدى. و اكتفوا بالطلب من موسى أن يدعوا اللّه ليرفع عنهم هذه الابتلاءات ليؤمنوا، لكنّهم لم يؤمنوا مطلقا.

ثمّ إنّ القصّة أعلاه تبيّن بصورة ضمنية مدى تأثير القائد الواعى الرشيد الحريص فى القوم أو الأمّة، فى حين أن العابد الذى لا يمتلك الوعى الكافى يعتمد على الخشونة أكثر، و هكذا يفهم من هذه الرّواية منطق الإسلام فى المقارنة بين العبادة الجاهلة. و العلم الممتزج بالإحساس بالمسؤولية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۸

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۰]

اشارة

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۹۹) وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (۱۰۰)

التّفسير

لا خير فى الإيمان الإجبارى:

لقد طالعنا فى الآيات السابقة أنّ الإيمان الاضطرارى لا يجدى نفعا أبدا، و لهذا فإنّ الآية الأولى من هذه الآيات تقول: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً و بناء على هذا فلا يعتصر قلبك ألما لعدم إيمان جماعة من هؤلاء، فإنّ من مستلزمات أصل حرية الإرادة و الإختيار أن يؤمن جماعة و يكفر آخرون، و إذا كان الأمر كذلك أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

إنّ هذه الآية تنفى بصراحة مرّة أخرى التهمة الباطلة التى قالها و يقولها أعداء الإسلام بصورة مكررة، حيث يقولون: إنّ الإسلام دين السيف، و قد فرض بالقوّة و الإجبار على شعوب العالم، فتجيب الآية- ككثير من آيات القرآن الأخرى- بأنّ الإيمان الإجبارى لا قيمة له، و الدين و الإيمان شيء ينبع عادة من أعماق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۳۹

الروح، لا من الخارج و بواسطة السيف، خاصّة و أنّها حذرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من إكراه و إجبار الناس على الإيمان و الإسلام.

الآية التّالية قد ذكرت هذه الحقيقة أيضا، و هى أنّ البشر و إن كانوا أحرارا فى اختيارهم، إلّا أنّه وَ ما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و لهذا فإنّ هؤلاء قد ساروا فى طريق الجهل و عدم التعقل، و لم يكونوا مستعدين للاستفادة من رأس مال فكرهم و عقلهم، و سوف لا يوفقون للإيمان و هم على هذا الحال، إذ وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ

ملاحظتان

۱- من الممكن أن يتصور فى البداية أنّ هناك تنافيا و تضادا بين الآية الأولى و الثّانية، إذ أنّ الآية الأولى تقول: إنّ اللّه لا يجبر أحدا على الإيمان، فى حين أن الآية الثّانية تقول: إنّ أحدا لا يمكن أن يؤمن حتى يأذن اللّه! إلّا أنّ التنبه إلى نكتة واحدة يرفع هذا التضاد الظاهرى، و هى أنّنا نعتقد بأنّ الجبر غير صحيح، كما أنّ التفويض غير صحيح أيضا، أى أن الناس ليسوا مجبورين تماما على أعمالهم، و لا- هم متروكون و أنفسهم يعملون ما يشاءون، بل إنّهم فى الوقت الذى يكونون فيه أحرارا فى الإرادة، فإنّهم فى حاجة للمعونة الالهية، لأنّ اللّه سبحانه هو الذى يعطيهم حرية الإرادة، فالعقل و الوجدان الطاهر هما من مواهبه و عطاياه، و إرشاد الأنبياء و هداية الكتب السماوية من جانبه أيضا، و بناء على هذا ففى عين حرية الإرادة و الإختيار، فإنّ منبع هذه الهبة و ما ينتج عنها من جانب اللّه سبحانه. دققوا ذلك.

۲- إنّ آخر جملة من الآية الأخيرة، أى وَ يَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا- يَعْقِلُونَ لا- ينبغى أن تفسر بمعنى الجبر مطلقا، لأنّ جملة لا يَعْقِلُونَ دليل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۰

اختيار هؤلاء، أى أنّ هؤلاء الأفراد قد امتنعوا من التفكير و التدبر أوّلا. فاتلوا فى النهاية بهذا العقاب، الذى هو الرجس و قذارة الشك و التردد و ظلمة القلب و الخطأ فى التفكير الذى سلط على هؤلاء حتى سلبت منهم القدرة على الإيمان، إلّا أنّه ينبغى الانتباه إلى أنّ مقدمات العذاب قد هيأها هؤلاء بأنفسهم، و فى مثل هذه الأحوال فإنّ اللّه تعالى لا يأذن فى إيمان هؤلاء.

و بتعبير آخر، فإنّ هذه الجملة تشير إلى أنّ إذن اللّه و أمره ليس أمرا اعتباطيا غير مدروس و محسوب، بل إنّه يشمل أولئك الذين لهم أهلية الإيمان، أمّا غير اللائقين فإنّهم سيحرمون منه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۱

الآيات [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۳]

اشارة

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰۱) فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (۱۰۲) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۳)

التّفسير

الموعظة و النصيحة:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ الإيمان يجب أن يكون اختياريا لا بالجبر و الإكراه، و لهذا فإن الآية الأولى هنا ترشد الناس إلى الإيمان الاختيارى، و تخاطب النّبى فتقول: قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

إن كل هذه النجوم اللامعة و الكواكب السماوية المختلفة التى يدور كل منها فى مداره، و هذه المنظومات الكبيرة و المجرات العملاقة، و هذا النظام الدقيق الحاكم على كل تلك الكواكب، و كذلك هذه الكرة الأرضية بكل عجائبها و اسرارها، و كل هذه الكائنات الحية المتنوعة المختلفة .. تدل بالتمعن فى دقائق صنعها و التدبّر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۲

نظامها على المبدأ الأزلى للعالم. و ستتعرفون أكثر على خالق هذه الكائنات.

إنّ هذه الجملة تنفى بوضوح مسألة الجبر و سلب حرية الإرادة، فهى تقول: إنّ الإيمان هو نتيجة التدبر فى عالم الخلقة، أى إنّ هذا الأمر فى اختياركم.

ثمّ تضيف أنّه رغم كل هذه الآيات و العلامات الدالّة على الحق، فلا داعى للعجب من عدم إيمان البعض، لأنّ الآيات و الدلالات و الإنذارات تنفع الذين لهم الاستعداد لتقبل الحق، أمّا هؤلاء فإنّه وَ ما تُغْنِي الْآياتُ وَ النُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ۱۸۲].

إنّ هذه الجملة إشارة إلى الحقيقة التى قرأناها مرارا فى القرآن، و هى أن الدلائل و كلمات الحق و المواعظ لا تكفى لوحدها، بل إنّ الأرضية المستعدة شرط أيضا فى حصول النتيجة.

ثمّ تقول- بنبرة التهديد المتلبسة بلباس السؤال و الاستفهام-: هل ينتظر هؤلاء المعاندون الكافرون إلّا أن يروا مصيرا كمصير الأقوام الطغاة و المتمردين السابقين الذين عمهم العقاب الإلهى. مصير كمصير الفراعنة و النماردة و شدّاد و أعوانهم و أنصارهم؟! فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ

و تحذرهم الآية أخيرا فتقول: يا أيّها النّبى قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ فأنتم بانتظار هزيمة دعوة الحق، و نحن بانتظار المصير المشؤوم الذى ستلاقونه، مصير المتكبرين الماضين.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الاستفهام فى جملة فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ استفهام إنكارى، أى إنّ هؤلاء بطبيعة سلوكهم هذا لا يمكن أن ينتظروا إلّا حلول مصير مشؤوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۳

مظلم.

کلمة (أیّام) و إن کانت فی اللغة جمع یوم، إلّا أنّها هنا تعنی الحوادث المهلکة التی وقعت للأقوام و الأمم السالفة.

و من أجل أن لا یتوهم متوهم أنّ اللّه سبحانه یصیب بعذابه الصالح و الطالح، تضیف الآیة: إننا إذا ما تحققت مقدمات نزول العذاب علی الأمم السابقة، نقوم بانقاذ عبادنا الصالحین: ثُمَّ نُنَجِّی رُسُلَنا وَ الَّذِینَ آمَنُوا.

ثمّ تقول فی النهایة: إنّ هذا لیس مختصا بالأمم السالفة و الرسل و المؤمنین الماضین، بل کَذلِکَ حَقًّا عَلَیْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِینَ ۱۸۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة یونس (۱۰): الآیات ۱۰۴ الی ۱۰۷]

اشارة

قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی فَلا أَعْبُدُ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لکِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۱۰۴) وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (۱۰۵) وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَنْفَعُکَ وَ لا یَضُرُّکَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّکَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِینَ (۱۰۶) وَ إِنْ یَمْسَسْکَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا کاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ یُرِدْکَ بِخَیْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ یُصِیبُ بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ (۱۰۷)

التّفسیر

الحزم فی التّعامل مع المشرکین:

هذه الآیات و الآیات التی تلیها، هی آخر آیات هذه السورة، و تتحدث جمیعا حول مسألة التوحید و محاربة الشرک و الدعوة إلی الحق، و هی فی الحقیقة فهرست أو خلاصة لبحوث التوحید و تأکید علی محاربة و مجابهة عبادة الأصنام التی بیّنت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۵

مرارا فی هذه السورة.

إنّ سیاق الآیة یوحی بأنّ المشرکین کانوا یتوهمون أحیانا أن من الممکن أن یلین النّبی و یتسامح فی عقیدته فی شأن الأصنام و یعترف و یقرّ لهم عبادة الأصنام و لو جزئیا إلی جانب الإعتقاد باللّه بنحو من الأنحاء.

إلّا أنّ القرآن ینسف هذا التوهم الواهی بصورة قاطعة و حاسمة و یقطع علیهم أحلامهم هذه إلی الأبد، فلا معنی لأی نوع من المساومة و اللین فی مقابل الأصنام، و لا معبود إلّا اللّه، لا تزید کلمة و لا تنقص أخری.

ففی البدایة یأمر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أن یخاطب جمیع الناس: قُلْ یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی شَکٍّ مِنْ دِینِی فَلا أَعْبُدُ الَّذِینَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ و لا تکتفی الآیة بنفی آلهة أولئک، بل تثبت کل العبادة للّه سبحانه زیادة فی التأکید فتقول: وَ لکِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِی یَتَوَفَّاکُمْ و من أجل تأکید أکبر تضیف: أنّ هذه لیست إرادتی فقط، بل وَ أُمِرْتُ أَنْ أَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ

إنّ التأکید هنا علی مسألة قبض الروح فقط من بین صفات اللّه، أمّا لأنّ الإنسان إذا کان یشک فی کل شیء فإنّه لا یستطیع أن یشک فی الموت، أو لأنّ هذه الآیة أرادت أن تنبه هؤلاء إلی مسألة العذاب و العقوبات المهلکة التی أشیر إلیها فی الآیات السابقة، و لوحت بالتهدید بالغضب الإلهی.

و بعد أن بيّنت الآية العقيدة الحقة فى نفى الشرك و عبادة الأوثان بكل صراحة و قوة، تطرقت إلى بيان دليل ذلك، دليل من الفطرة. و دليل من العقل:

وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً و هنا أيضا لم يكتف بجانب الإثبات، بل نفى الطرف المقابل لتأكيد الأمر، فقالت الآية: وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

«الحنيف»- كما قلنا سابقا- تعنى: الشخص الذى يميل و يتحول عن طريق الانحراف إلى جادة الصواب و الاستقامة، و بتعبير آخر: يغض الطرف عن المذاهب و الأفكار المنحرفة، و يتوجه إلى دين اللّه المستقيم، ذلك الدين الموافق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۶

للفطرة موافقة كاملة و مستقيمة. و بناء على هذا فإنّ هذا التعبير يستبطن الإشارة إلى كون التوحيد فطريا فى الأعماق، لأنّ الانحراف شىء خلاف الفطرة، (فتدبّر).

و بعد الإشارة إلى بطلان الشريك بالدليل الفطرى، تشير إلى دليل عقلى واضح، فتقول: وَ لا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَ لا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ إذ تكون قد ظلمت نفسك و مجتمعك الذى تعيش فيه.

أى عقل يسمح أن يتوجه الإنسان لعبادة أشياء و موجودات لا تضر و لا تنفع أبدا، و لا يمكن أن يكون لها أدنى أثر فى مصير الإنسان؟

و هنا أيضا لم تكتف الآية بجانب النفى، بل إنّها توكّد إضافة إلى النفى على جانب الإثبات فتقول: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، و كذلك وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لأنّ عفوه و رحمته وسعت كل شىء وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۷

الآيتان [سورة يونس (۱۰): الآيات ۱۰۸ الى ۱۰۹]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (۱۰۸) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ اصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۱۰۹)

التّفسير

الكلمة الأخيرة:

هاتين الآيتين تضمّنت إحداهما موعظة و نصيحة لعامّة الناس، و اختصت الثّانية بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قد كملتا الأوامر و التعليمات التى بيّنها اللّه سبحانه على مدى هذه السورة و مواضعها المختلفة. و بذلك تنتهى سورة يونس.

فتقول أوّلا، و كقانون عام: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ هذه التعليمات، و هذا الكتاب السماوى، و هذا الدين، و هذا النّبى كلها حق، و الأدلّة على كونها حقّا واضحة، و بملاحظة هذه الحقيقة: فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ

أى إنّى لست مأمورا بإجباركم على قبول الحق، لأن الإجبار على قبول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۸

الإیمان لا معنی له، و لا أستطیع إذا لم تقبلوا الحق و لم تؤمنوا أن أدفع عنکم العذاب الإلهی، بل إنّ واجبی و مسئولیتی هی الدعوة و الإبلاغ و الإرشاد و الهدایة و القیادة، أمّا الباقی فیتعلق بکم، و علیکم انتخاب طریقکم.

إنّ هذه الآیة إضافة إلی أنّها توکّد مرّة أخری مسألة الإختیار و حریة الإرادة، فإنّها دلیل علی أن قبول الحق سیعود بالنفع علی الإنسان نفسه بالدرجة الأولی، کما أن مخالفته ستکون فی ضرره.

إنّ توجیهات القادة الإلهیین و الکتب السماویة ما هی فی الواقع إلّا دروس لتربیة و تکامل البشر، فلا یزید الالتزام بها شیئا علی عظمة اللّه، و لا تنقص مخالفتها من جلاله شیئا.

ثمّ تبیّن وظیفة و واجب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی جملتین: الأولی وَ اتَّبِعْ ما یُوحی إِلَیْکَ فإنّ اللّه قد حدّد مسیرک من خلال الوحی، و لا یجوز لک أن تنحرف عنه قید أنملة.

و الثّانیة: إنّه ستعترضک فی هذا الطریق مشاکل مضنیة و مصاعب جمة، فلا تدع للخوف من سیل المشاکل إلی نفسک طریقا، بل وَ اصْبِرْ حَتَّی یَحْکُمَ اللَّهُ وَ هُوَ خَیْرُ الْحاکِمِینَ فإنّ أمره حق، و حکمه عدل، و وعده متحقق لا محالة.

إلهنا و مولانا: إنّک وعدت عبادک الذین یجاهدون فی سبیلک بإخلاص، و الذین یصبرون و یستقیمون فی سبیلک بالنصر.

اللّهم و قد أحاطت بالمسلمین مشاکل لا تحصی، و نحن عبیدک الذین لا نتوقف عن الجهاد و الاستقامة بمنک و توفیقک، فاکشف عنا سحب المشاکل المظلمة بلطفک، و أنر أبصارنا بنور الحق و العدالة ... آمین یا رب العالمین.

نهایة سورة یونس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۴۹

سورة هود

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها مائة و ثلاث و عشرون آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۱

«سورة هود علیه السّلام»

محتوی هذه السّورة و فضیلتها!

المشهور بین المفسّرین أنّ هذه السورة بأکملها نزلت بمکّة .. و طبقا لما ورد فی «تاریخ القرآن» أنّها السورة التاسعة و الأربعون فی ترتیب السور النازلة علی المرسل صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و طبقا لما صرّح به بعض المفسّرین- أیضا- فإنّ هذه السورة نزلت فی السنوات الأخیرة التی قضاها النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بمکّة، أی بعد وفاة عمّه «أبی طالب علیه السّلام» و زوجته «خدیجة علیها السّلام» ... و بطبیعة الحال فإنّ هذه السورة جاءت فی فترة من أشد الفترات صعوبة فی حیاة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم حیث کان یعانی فیها من ضغوط الأعداء و أراجیفهم الإعلامیة الحاقدة المسمومة أکثر ممّا عاناه فی السنوات السابقة.

و لذلک یلاحظ فی بدایة السورة تعابیر فیها جانب من التسلیة للنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و للمؤمنین.

و یشکل القسم المهم و العمدة من آیات هذه السورة قصص الأنبیاء الماضین و خاصّة قصّة نوح النّبی علیه السّلام الذی انتصر بالفئة

القليلة التى معه على الأعداء الكثيرين.

إنّ سرد هذه القصص فيه تسلية لخاطر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين معه و هم أمام الكم الهائل من الأعداء، كما أنّ فيه درسا لمخالفيهم من الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۲

و على كل حال. فإنّ آيات هذه السورة- كسائر السور المكية- تتناول أصول «المعارف الإسلامية» و لا سيّما المواجهة مع الشرك و عبادة الأصنام، و مسألة المعاد و العالم بعد الموت، و صدق دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، كما يبدو فيها تهديدا ضمنيا للأعداء، و أمرا بالاستقامة للمؤمنين.

فى هذه السورة- إضافة إلى قصّة نوح النّبى و جهاده العنيف التى ذكرت بتفصيل- إشارة إلى قصص الأنبياء هود و صالح و إبراهيم و لوط و موسى و مواقفهم الشجاعة بوجه الشرك و الكفر و الانحراف و الظلم ..

شيبتنى سورة هود!

إنّ آيات هذه السورة تقرر أن على المسلمين أن لا يتركوا السوح و الميادين- فى الحرب و السلم- لكثرة الأعداء و مواجهاتهم الحادة .. بل عليهم أن يواصلوا مسيرتهم و يستقيموا أكثر فأكثر و يوما بعد يوم ..

و على هذا فإنّنا نقرا

فى حديث معروف عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «شيبتنى سورة هود»[۱۸۴]

و

فى حديث آخر أنّه حين لاحظ أصحاب النّبى آثار الشيب قبل أوانه على محيّاه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا: يا رسول اللّه، تعجّل الشيب عليك. فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «شيبتنى سورة هود و الواقعة»[۱۸۵].

و فى روايات أخرى أضيف أيضا سورة المرسلات و سورة النبأ عَمَّ يَتَساءَلُونَ و سورة التكوير و غيرها إلى هاتين السورتين.

و نقل عن ابن عباس فى تفسير الحديث الشريف- آنف الذكر- أنّه ما نزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم آية كان أشدّ عليه و لا أشق من آية فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۳

. كما نقل عن بعض المفسّرين أنّ أحد العلماء رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام فسأله عن سبب ما نقل عنه من قوله: «شيبتنى سورة هود»

أهو ما سلف من الأمم السابقة و هلاكها؟ فبيّن له صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن سببه آية فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ ۱۸۶] و على كل حال فإنّ هذه السورة- بالإضافة إلى هذه الآية- فيها آيات مؤثّرة أخرى تتعلق بيوم القيامة و المحاسبة فى محكمة العدل الإلهى، و آيات تتعلق بما ناله الأقوام السابقون من جزاء، و ما جاء مع بعضها من أوامر فى الوقوف بوجه الفساد بحيث يحمل جميعها طابع المسؤولية ... فلا عجب إذا أن يشيب الإنسان عند ما يفكر فى مثل هذه المسؤوليات ...

مسألة دقيقة أخرى ينبغى الالتفات إليها فى هذا المجال، و هى أنّ كثيرا من هذه الآيات توكّد ما ورد فى السورة السابقة- أى سورة يونس- و أوائلها بوجه خاص يشبه أوائل تلك السورة و مضامينها توكّد تلك المضامين.

التّأثير المعنوى لهذه السّورة:

أمّا بالنسبة لفضيلة هذه السورة،

فقـد ورد فی حـدیث شـریف عن النّبی صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه قال: «من قرأ هـذه السورة أعطی من الأجر و الثواب بعـدد من صدّق هودا و الأنبیاء علیهم السّلام و من کذب بهم و کان یوم القیامة فی درجة الشهداء و حوسب حسابا یسیرا»[۱۸۷].

و من الوضوح بمکان أنّ مجرّد التلاوة لا یعطی هـذا الأثر، و إنّما یکون هـذا الأثر إذا کانت تلاوة هذه السورة مقرونة بالتفکر و العمل بعـدها. و هـذا هو الـذی یقرّب الإنسان إلی المؤمنین السالفین و یبعـده عن الـذین أنکروا علی الأنبیاء و جحـدوا دعواتهم، و علی هذا الأساس یثاب بعددهم و یعطی أجر کل واحد منهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۴

و یکون هدفه کهدف شهداء تلک الأمم السالفة .. فلا مجال للتعجب من أن ینال درجاتهم و یحاسب حسابا یسیرا ...

و ینقـل عن الإمام الصادق علیه السّـلام أنّه قال: «من کتب هـذه السورة علی رق ظبی و یأخـذها معه أعطاه اللّه قوّة، و من یحارب معه لنصر علیهم و غلبهم و کلّ من رآه یخاف منه»[۱۸۸].

و لعل بعضا ممن یطلب الراحـة و ینظر الی الأمور بسـطحیّة یتصوّر فی قراءته لمثل هـذه الأحادیث أنّ الإنسان یمکن أن یصل إلی مثل هـذه الأهداف بمجرّد وجود الکتابة أو الرسم القرآنی معه، و لکنّه جلی و واضح أنّ المقصود بذلک العمل علی طبق ما فی السورة، و أن یتخـذها منهجـا لحیـاته و أن یقرأها دائما و یمضـی علی العمل بها بحـذافیرها .. و لا شک أنّ مثل هـذا العمل تتحقق فیه مثل هـذه الآثـار أیضـا، لأـنّ هـذه السورة تأمر بالاسـتقامة و الوقوف بوجه الفساد و الانسـجام مع الأهـداف، و تحتوی علی التجارب السابقـة من تأریخ الأمم السالفة التی یوجد فی کلّ واحد منها درس من الإنتصار علی العدوّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۵

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الر کِتابٌ أُحْکِمَتْ آیاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَکِیمٍ خَبِیرٍ (۱) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِی لَکُمْ مِنْهُ نَذِیرٌ وَ بَشِیرٌ (۲) وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّکُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَیْهِ یُمَتِّعْکُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی وَ یُؤْتِ کُلَّ ذِی فَضْلٍ فَضْلَهُ وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ عَذابَ یَوْمٍ کَبِیرٍ (۳) إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۴)

التّفسیر

الأصول الاربعة فی دعوة الأنبیاء:

تبـدأ هـذه السورة- کما فی بدایة السورة السابقة و سائر سور القرآن- ببیان أهمیة الکتاب العزیز المنزل من السـماء، لیلتفت الناس إلی محتویاته أکثر و یتفکروا فیه بنظرة أدق.

و ذکر الحروف المقطعة الر- نفسه- دلیل علی أهمیة هذا الکتاب السـماوی العزیز الذی یتشکل من حروف بسیطة معروفة للجمیع مثل الألف و اللام و الراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۶

الر[۱۸۹] مع ما فیه من عظمة و إعجاز بالغین، ثمّ یبیّن بعد هذه الحروف المقطعة واحدة من خصائص القرآن الکریم فی جملتین.

أوّلا: إنّ جميع آياته متقنة و محكمة كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ

و ثانيا: إنّ تفصيل حاجات الإنسان فى حياته الفردية و الاجتماعية- مادية كانت أو معنوية- مبيّن فيها أيضا ثُمَّ فُصِّلَتْ

هذا الكتاب العظيم مع هذه الخصيصة، من أين أنزل، و كيف؟! أنزل من عند ربّ حكيم و خبير مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

فبمقتضى حكمته أحكمت آيات القرآن، و بمقتضى أنّه خبير مطلع بيّن آيات القرآن فى مجالات مختلفة طبقا لحاجات الإنسان، لأنّ من لم يطلع على تمام جزئيات الحاجات الروحية و الجسمية للإنسان لا يستطيع أن يصدر احكاما جديرة بالتكامل.

الواقع، إنّ كل واحدة من صفات القرآن التى جاءت فى هذه الآية تسترفد من واحدة من صفات اللّه .. فاستحكام القرآن من حكمته، و شرحه و تفصيله من خبرته.

و فى بيان ما هو الفرق بين أُحْكِمَتْ و فُصِّلَتْ بحث المفسّرون كثيرا و أبدوا احتمالات عديدة .. و أقرب هذه الاحتمالات- بحسب مفهوم الآية آنفة الذكر- هو أنّ الجملة الأولى تعنى أنّ القرآن مجموعة واحدة مترابطة كالبنيان المرصوص الثابت، كما تدل على أنّه نازل من إله فرد، و لهذا فلا يوجد أى تضادّ فى آياته، و لا يرى بينها أى اختلاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۴۵۶

الجملة الثّانية إشارة إلى أنّ هذا الكتاب فى عين وحدته فيه شعب و فروع متعددة تستوفى جميع حاجات الإنسان الرّوحيّة و المادية، فهو فى عين وحدته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۷

كثير، و فى عين كثرته واحد! ..

و فى الآية التالية يبيّن أهم ما يحتويه القرآن و ما هو أساسه و هو التوحيد و الوقوف بوجه الشرك أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۱۹۰] و هذا أوّل تفصيل لمحتوى هذا الكتاب العظيم.

و الثّانى من محتويات الدعوة السماوية: إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ .. نذير لكم من الظلم و الفساد و الشرك و الكفر، و أحذركم من عنادكم و عقاب اللّه لكم! و ثالث ما فى منهج دعوتى إليكم هو أن تستغفروا من ذنوبكم و تطهروا أنفسكم من الأدران: وَ أَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ

و رابعها هو أن تعودوا إلى اللّه بالتوبة، و أن تتصفوا- بعد غسل الذنوب و التطهر فى ظل الاستغفار- بصفات اللّه، فإنّ العودة إليه تعالى لا تعنى إلّا الاقتباس من صفاته ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ

فى الواقع إنّ أربع مراحل من مراحل الدعوة المهمّة نحو الحق سبحانه بيّنت فى أربع جمل و فى أربعة أقسام، فقسمان يتضمنان الجانب «العقيدى» و الأساسى.

و قسمان يتضمنان الجانب «العملى» و الفوقانى.

فقبول أصل التوحيد و محاربة الشرك، و قبول رسالة النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم أصلان اعتقاديان، و التطهّر من الذنوب و التخلّق بالصفات الإلهية- اللذان يحملان معنى البناء بتمام معناه- أمران عمليان حضّ عليهما القرآن، و إذا تأملنا بدقّة فى الآيات الكريمة وجدنا أن جميع محتوى القرآن يتلخص فى هذه الأصول الأربعة ..

هذا هو الفهرس لجميع محتوى القرآن، و لجميع محتوى هذه السورة أيضا.

ثمّ تبيّن الآيات النتائج العملية لموافقة هذه الأصول الأربعة أو مخالفتها بالنحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۸

التالى يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً فإذا عملنا بهذه الأصول فإنّ اللّه سبحانه يهبنا حياة سعيدة إلى نهاية العمر، و فوق كل ذلك فإنّ كلا يعطى

بمقدار عمله و لا يهمل التفاوت و التفاضل بين الناس فى كيفية العمل بهذه الأصول ... وَ يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ و أمّا فى صورة المخالفة و العناد فتقول الآية: وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ حين تمثلون للوقوف فى محكمة العدل الإلهى.

و اعلموا أنّ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ كائنا من كنتم، و فى أى محل و مقام أنتم، و هذه الجملة تشير إلى الأصل الخامس من الأصول التفصيليّة للقرآن و هى مسألة «المعاد و البعث» و لكن لا تتصوروا- أبدا- أن قدرتكم تعدّ شيئا تجاه قدرة اللّه، أو أنّكم تستطيعون الفرار من أمره و محكمة عدله .. و لا تتصوروا- أيضا- أنّه لا يستطيع أن يجمع عظامكم النخرة بعد الموت و يكسوها ثوبا جديدا من الحياة .. وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

علاقة الدين بالدنيا:

ما يزال الكثير يظنون أن التدين هو العمل لعمارة الآخرة و السعادة بعد الموت، و أنّ الأعمال الصالحة هى الزاد و المتاع للدار الآخرة .. و لا يكترثون أبدا بأثر الدين الأصيل فى الحياة الدنيا على حين أن الدين الصحيح فى الوقت الذى يعمر الدار الآخرة يعمر «الدنيا» أيضا .. و طبيعى إذا لم يكن للدين أى تأثير على هذه الحياة الدنيا فلا تأثير له فى الحياة الأخرى أيضا.

و القرآن الكريم يتعرض لهذا الموضوع بصراحة فى آيات كثيرة، و ربّما يتناول أحيانا الجزئيات من هذه المسائل، كما ورد فى سورة نوح عليه السّلام على لسان هذا النّبى العظيم مخاطبا قومه فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً[۱۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۵۹

و يفهم البعض أنّ صلة هذه المواهب المادية فى الدنيا مع الاستغفار و التطهر من الذنوب معنوية و غير معروفة، فى حين أنّه لا دليل على ذلك، بل الصلة بينهما ظاهرة معروفة.

فأى أحد لا يعلم أن الكذب و السرقة و الفساد تهدم العلاقات الاجتماعية؟

و أى أحد لا يعلم أن الظلم و التبعيض و الإجحاف تجعل من حياة الناس جحيما و تكدر صفوهم؟! و أىّ أحد يشك فى حقيقة أن قبول أصل التوحيد و تكوين مجتمع توحيدى على أساس قيادة الأنبياء، و تطهير المجتمع من الذنوب و الآثام، و التحلّى بالقيم الإنسانية- و هى الأصول الأربعة ذاتها التى أشير إليها فى الآيات المتقدّمة- يسير بالمجتمع البشرى نحو هدف تكاملى أفضل، و يخلق محيطا آمنا عامرا بالصفاء و الحرية و الصلاح؟

و على هذا الأساس نقرأ بعد هذه الأصول الأربعة فى الآيات المتقدمة قوله تعالى: يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۰

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۵]

اشارة

أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۵)

التّفسير

اختلف بعض المفسّرين فى شأن نزول الآية، فقيل أنّها نزلت فى أحد المنافقين و اسمه «الأخنس بن شريق» الذى كان ذا لسان ذلق و

مظهر جميل، و كان يبدى للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الحب ظاهرا لكنّه كان يخفى العداوة و البغضاء فى الباطن.

كما

نقل عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام أنّها نزلت فى جماعة من المشركين، حيث كانوا حين يمرون بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يطأطئون برؤوسهم و يستغشون ثيابهم لئلا يراهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكن الآية تشير- على العموم- إلى أحد الأساليب الحمقاء التى كان يتبعها أعداء الإسلام و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك بالاستفادة من طريقة النفاق و الابتعاد عن الحق، فكانوا يحاولون أن يخفوا حقيقتهم و ماهيتهم عن الأنظار لئلا يسمعوا قول الحق.

لذلك فإنّ الآية تقول: أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۱

و من أجل أن نفهم الآية فهما دقيقا ينبغى أن تتضح لنا كلمة «يثنون» بجلاء فهى من مادة «ثنى» و هى فى الأصل تعنى ضم أقسام الشىء بعضها إلى بعض، فمثلا فى طى قطعة القماش و الثوب يقال «ثنى ثوبه» و إنّما يقال للشخصين على سبيل المثال: اثنان، فلأجل أن انضمّ واحد إلى جانب الآخر، و يقال للمادحين «مثنون» كذلك، لأنّهم يعدون الصفات البارزة واحدة بعد الأخرى.

و تعنى الانحناء أيضا، لأنّ الإنسان بعمله هذا و هو الانحناء يقرّب أجزاء من جسمه بعضها إلى بعض.

و تأتى هذه المادة بمعنى أن تجد العداوة و البغضاء و الحقد طريقها إلى القلب أيضا .. لأنّ الإنسان بهذا العمل يقرب عداء الشخص- أو أىّ شىء آخر- إلى القلب، و مثل هذا التعبير موجود فى الأدب العربى إذ يقال: «اثنونى صدره على البغضاء»[۱۹۲].

و مع الأخذ بنظر الإعتبار بما ورد آنفا من معان لمادة «ثنى» فلا يبعد أن تكون كلمة «يثنون» مشيرة إلى كل عمل خفى- ظاهرى و باطنىّ- قام به أعداء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فمن جهة يضمرون العداوة و البغضاء فى القلوب و يبدون المحبّة فى لسان ذلق جميل! و من جهة أخرى يقربون رؤوسهم بعضها إلى بعض عند التحدث، و يثنون الصدور و يستغشون الثياب، لئلا تنكشف مؤامراتهم و أقوالهم السيئة و يطّلع أحد على نياتهم.

لذلك فإنّ القرآن يعقّب مباشرة: أن أحذروهم، فإنّهم حين يستخفون تحت ثيابهم فإنّ اللّه يعلم ما يخفون و ما يعلنون .. أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۲

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۶]

اشارة

وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۶)

التّفسير

جميع الاحياء ضيوف مأدبته:

الآية السابقة أشارت إلى سعة علم اللّه و إحاطته بالسر و ما يخفون و ما يعلنون، و الآية محل البحث تعدّ دليلا على تلك الآية المتقدمة، فإنّها تتحدث عن الرازق لجميع الموجودات و لا يمكن يتمّ ذلك إلّا بالإحاطة الكاملة بجميع العالم و ما فيه ..

تقول الآية وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها و يعلم تقلّبها و تنقلها من مكان لآخر، و حيثما

کانت فإنّ الرزق یصل إلیها منه.

و هذه الحقائق مع جمیع حدودها ثابتة فی کتاب مبین و لوح محفوظ فی علم اللّه کُلٌّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۳

ملاحظات

اشارة

۱- بالرغم من أنّ کلمة «دابّة» مشتقة من مادة «دبیب» التی تعنی السیر ببطء و بخطی قصیرة، و لکنّها من الناحیة اللغویة تشمل کل حیوان یتحرک فی سیرة ببطء أو بسرعة، فنری کلمة الدابة تطلق علی الفرس و علی کل حیوان یرکب علیه، و واضح أنّ الکلمة فی هذه الآیة- محل البحث- تشمل جمیع الحیوانات الموجودة علی سطح الأرض بما فیها الحیوانات التی تدبّ فی سیرها ..

۲- «الرزق»: هو العطاء المستمر، و من هنا کان عطاء اللّه المستمر للموجودات رزقا. و ینبغی الالتفات إلی أن مفهوم الرزق غیر منحصر فی الحاجات المادیة، بل یشمل کل عطاء مادیّ أو معنوی. و لذلک نقول مثلا: «اللّهم ارزقنی علما کاملا» أو نقول: «اللّهم ارزقنی الشهادة فی سبیلک».

و الظاهر أنّ المراد من الرزق فی هذه الآیة الرزق المادی، و لکن إرادة المفهوم العام الذی یندرج تحته الرزق المعنوی غیر بعید ..

۳- «المستقر»- فی الأصل- تعنی المقّر، لأن جذر هذه الکلمة فی اللغة مأخوذ من «قرّ» علی وزن «حرّ» و تعنی کلمة القرّ البرد الشدید الذی یجعل الإنسان و الموجودات الأخری یرکنون إلی بیوتهم، و من هنا جاءت بمعنی التوقف و السکون أیضا.

و «المستودع» و «الودیعة» من مادة واحدة، و هاتان الکلمتان فی الأصل تعنیان «اطلاق الشیء و ترکه» و لذلک تطلق علیه الأمور غیر الثابتة التی ترجع إلی حالتها الطبیعیة، فیطلق علی کل أمر غیر ثابت «مستودع» و بسبب رجوع الشیء إلی صاحبه الأصلی و ترکه محله الذی هو فیه یسمی ذلک الشیء «ودیعة» أیضا.

فالآیة أنفة الذکر تقول: لا ینبغی التصور أن اللّه سبحانه یرزق الدواب التی تستقر فی أماکنها فحسب، بل هی حیث ما کانت و فی أی ظرف من الظروف تکون فإنّه تعالی یوصل إلیها أرزاقها، لأنّه یعلم أماکن استقرارها، و کذلک یعلم جمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۴

المناطق التی تنتقل إلیها و ترحل عنها من حیوانات بحریة مهولة الحجم، الی أصغر الکائنات المجهریة، فإنّه تعالی یرزق کلا منها بحسب حاجته و حاله.

و هذا الرزق ملحوظ بحیث یناسب حال الموجودات من حیث الکمیة و الکیفیة، و هو مطابق تماما لمقدار الحاجة و الرغبة، حتی غذاء الجنین الذی فی رحم أمّه یتفاوت کل شهر عن الشهر السابق فی النوعیة و الکمیة، بل کل یوم عن الیوم السابق بالرغم ممّا یبدو من أن الدم نوع واحد لا أکثر. و کذلک الطفل فی مرحلة الرضاعة حیث یبدو أن غذاءه من نوع واحد، لکن ترکیب هذا الغذاء أو اللبن یختلف من یوم لآخر.

۴- «الکتاب المبین» معناه المکتوب الواضح البیّن، و یشیر إلی علم اللّه الواسع، و قد یعبر عنه أحیانا باللوح المحفوظ أیضا.

و یحتمل أن یکون هذا التعبیر اشارة إلی أنّه لا ینبغی لأحد أن یهتم لرزقه أقلّ اهتمام، أو یحتمل سقطوا اسمه و سهمه من القلم، لأنّ أسماء الجمیع مثبتة فی کِتابٍ مُبِینٍ کتاب أحصی الجمیع بجلاء و وضوح!

تقسيم الأرزاق و السعى من أجل الحياة!

هناك أبحاث مهمّة فى مسألة «الرزق»، و نأخذ بنظر الإعتبار- هنا- قسما منها:

۱- «الرزق»- كما قلنا آنفا- يعنى فى اللغة العطاء المستمر و الدائم، و هو أعم من أن يكون رزقا ماديّا أو معنويا .. فعلى هذا كل ما يكون فيه نصيب للعباد من قبل اللّه و ينتفعون منه- من مواد غذائية و مسكن و ملبس أو علم و عقل و فهم و إيمان و إخلاص- يسمى رزقا، و من ظنّ أن مفهوم الرزق خاص بالجوانب المادّية لم يلتفت إلى موارد استعماله فى القرآن الكريم بدقة .. فالقرآن يتحدث عن الشهداء فى سبيل اللّه بأنّهم .. أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۱۹۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۵

و واضح أن رزق الشهداء- فى عالم البرزخ- ليس نعمّا مادية، بل هو عبارة عن المواهب المعنوية التى يصعب علينا تصوّرها فى هذه الحياة المادية.

۲- مسأله تأمين الحاجات بالنسبة للموجودات الحية- و بتعبير آخر تأمين رزقها- من المسائل المثيرة التى تنكشف أسرارها بمرور الزمان و تقدّم العلم ..

و تظهر كل يوم ميادين جديدة تدعو للتعجب و الدهشة.

كان العلماء فى الماضى يتساءلون فيما لو كان فى أعماق البحار موجودات حيّة، فمن أين يتم تأمين غذائها؟! إذ أنّ أصل الغذاء يعود إلى النباتات و الحشائش، و هى تحتاج إلى نور الشمس، و لكن على عمق ۷۰۰ متر فصاعدا لا وجود لنور الشمس أبدا، بل ليل أبدى مظلم يلقى ظلاله و يبسط أسداله هناك.

و لكن اتّضح بتقدم العلم أن نور الشمس يغذّى النباتات المجهرية فى سطح الماء و بين الأمواج، و حين تبلغ مرحلة النضج تهبط إلى أعماق البحر كالفاكهة الناضجة، و تنظم إلى الأرزاق الإلهية للأحياء فى تلك الاعماق، مائدة نعمة اللّه للموجودات الحية تحت الماء!

و من جهة أخرى فهناك طيور كثيرة تتغذى من أسماك البحر، منها طيور تطير فى الليل و تهبط الى البحر كالغواص الماهر و عن طريق أمواج رادارية خاصّة تخرج من آنافها تعرف صيدها و تصطاده بمنقارها.

و رزق بعض أنواع الطيور يكون مدّخرا بين ثنايا أسنان حيوانات بحرية كبيرة هذا النوع من الحيوانات بعد أن يتغذى من حيوانات البحر، تحتاج أسنانه إلى «منظف طبيعى» فيأتى إلى ساحل البحر و يفتح فمه الواسع فتدخل هذه الطيور التى أدّخر رزقها فى فم هذا الحيوان الضخم- دون وحشة و لا اضطراب- و تبحث عن رزقها بين ثنايا أسنان هذا الحيوان الكبير، فتملأ بطونها من جهة، و تريح الحيوان الذى تزدحم بين أسنانه «هذه الفضلات» من جهة أخرى .. و حين تخرج الطيور و تطير فى الفضاء يطبق هذا الحيوان البحرى فمه بكل هدوء و يعود إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۶

أعماق البحر.

طريقة إيصال الرزق من اللّه تعالى إلى الموجودات المختلفة مذهلة و محيرة حقّا. من الجنين الذى يعيش فى بطن أمّه و لا يعلم أحد أسراره شيئا، إلى الحشرات المختلفة التى تعيش فى طيّات الأرض، و فى الأشجار و على قمم الجبال أو فى أعماق البحر، و فى الأصداف .. جميع هذه الموجودات يتكفل اللّه برزقها و لا تخفى على علمه، و كما يقول القرآن ... عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها.

الطريف فى الآيات آنفة الذكر أنّها تعّبر عن الموجودات التى تطلب الرزق ب «الدّابّة» و فيها إشارة لطيفة إلى العلاقة بين موضوع «الطاقة» و «الحركة». و نعلم أنّه حيثما تكن حركة فلا بدّ لها من طاقة، أى ما يكون منشأ للحركة، و القرآن الكريم يبيّن- فى الآيات

محل البحث- أنّ اللّه يرزق جميع الموجودات المتحركة، و إذا ما توسعنا فى معنى الحركة فإنّ النباتات تندرج فى هذا الأمر أيضا، لأنّ للنباتات حركة دقيقة و ظريفة فى نموها، و لهذا عدّوا فى الفلسفة الاسلامية موضوع «النمو» واحدا من أقسام الحركة ...

۳- هل أنّ رزق كلّ أحد مقدر و معين من أوّل عمره إلى آخره، و هل أنّه يصل إليه شاء أم أبى؟! أم أنّ عليه يسعى فى طلبه؟

يظنّ بعض الأفراد السذّج استنادا إلى الآية آنفة الذكر، و إلى بعض الرّوايات التى تذكر أنّ الرزق مقدر و معين، أنّه لا داعى للسعى من أجل الرزق و المعاش، فإنّه لا بدّ من وصول الرزق، و يقول بكل بساطة: إنّ من خلق الأشداق قدّر لها الأرزاق.

إنّ سلوك مثل هؤلاء الأفراد الذين لا حظّ لهم من المعرفة الدينية يعطى ذريعة الى الأعداء حيث يدّعون أن الدين أحد عوامل الركود الاقتصادى و تقبل الحرمان و إماتة النشاطات الإيجابيّة فى الحياة، فيقول مثلا: إذا لم تكن الموهبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۷

الفلانية من نصيبى فإنّها لم تكن من رزقى قطعا .. فلو كانت من نصيبى لوصلتنى حتما من دون تكلف عناء الكسب. و بهذا يستغل المستعمرون هذه الفرصة ليحرموا الكثير من الخلق التمتع بأسباب الحياة ... فى حين أن أقل معرفة بالقرآن و الأحاديث الإسلامية تكفى فى بيان أنّ الإسلام يعدّ أساس أى استفادة مادية و معنوية للإنسان هو السعى و الجد و المثابرة، حتى أنّنا نجد فى القرآن جملة بمثابة الشعار لهذا الموضوع، و هى الآية الكريمة لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى

و كان أئمّة المسلمين- و من أجل أن يسنّوا للآخرين نهجا يسيرون عليه- يعملون فى كثير من المواقع أعمالا صعبة و مجهدة.

و الأنبياء السابقون- أيضا- لم يستثنوا من هذا القانون، فكانوا يعملون على الاكتساب، من رعى الأغنام إلى الخياطة إلى نسج الدروع إلى الزراعة. فإذا كان مفهوم الرزق من اللّه أن نجلس فى البيت و ننتظر الرزق، فما كان ينبغى للأنبياء و الأئمّة- الذين هم أعرف بالمفاهيم الدينية- أن يسعوا هذا السعى إلى الرزق! و على هذا نقول: إنّ رزق كل أحد مقدّر و ثابت، إلّا أنّه مشروط بالسعى و الجد، و إذا لم يتوفر الشرط لم يحصل المشروط. و هذا كما نقول: إن لكلّ فرد أجلا و مدة من العمر. و لكن من المسلم و الطبيعىّ أن مفهوم هذا الكلام لا يعنى أنّ الإنسان حتى لو أقدم على الانتحار أو أضرب عن الطعام فإنّه سيبقى حيّا إلى أجل معيّن!! إنّما مفهوم هذا الكلام أن للبدن استعدادا للبقاء إلى مدّة معينة و لكن بشرط أن يراعى الظروف الصحيّة و أن يبتعد عن الأخطار، و أن يجنّب نفسه عمّا يكون سببا فى تعجيل الموت.

المسألة المهمّة فى هذا المجال أنّ الآيات و الرّوايات المتعلقة بتقدير الرزق- فى الواقع- بمثابة الكابح للاشخاص الحريصين و عبّاد الدنيا الذين يلجون كل باب، و يرتكبون أنواع الظلم و الجنايات، و يتصورون أنّهم إذا لم يفعلوا ذلك لم يؤمنوا حياتهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۸

إنّ آيات القرآن و الأحاديث الإسلامية تحذر هذا النمط من الناس ألّا يمدّوا أيديهم و أرجلهم عبثا، و ألّا يطلبوا الرزق من طرق غير مشروعة و لا معقولة، بل يكفى أن يسعوا لتحصيل الرزق عن طريق مشروع، و اللّه سبحانه يضمن لهم الرزق فاللّه الذى لم ينسهم فى ظلمة الرحم.

اللّه الذى تكفّل رزقهم أيّام الطفولة حيث هيأ لهم أثداء الأمّهات اللّه الذى جعل الأب يسعى من الصباح إلى الليل ليهيّئ لهم الغذاء بكل عطف و شفقة- بعد أن أنهوا مرحلة الرضاعة- و هو مسرور بالتعب من أجلهم ...

أجل، هذا الرّب الرحيم كيف يمكن أن ينسى الإنسان إذا ما كبر و وجد القدرة على العمل و الكسب.

ترى هل يجيز الإيمان و العقل أن يلجأ الإنسان إلى الظلم و الإثم و التجاوز على حقوق الآخرين و يحرص على غصب حقوق المستضعفين بمجرّد أنّه يظن عدم توفر رزقه؟

و بالطبع لا- يمكن أن ننكر أن بعض الأرزاق تصل إلى الإنسان سعى لها أم لم يسع. فهل يمكن أن ننكر أن نور الشمس يضىء فى بيتنا من دون سعينا، و أن المطر و الهواء يصلان إلينا دون سعى منّا؟

و هـل يمكن أن ننكر أنّ العقـل و الفكر و الاسـتعداد المـذخور فينـا من أوّل يوم وجودنا لم يكن بسـعينا؟! و لكن هـذه المواهب التى تنقلها إلينا الريح- كما يقال- أو بتعبير أصحّ هذه المواهب التى وصلتنا بلطف اللّه و من دون سعينا، إذا لم نحافظ عليها بالجد و السعى بطريقة صحيحة فستضيع من أيدينا، أو أنّها ستبقى بلا أثر! هناك كلام معروف منقول

عن الإمام على عليه السّلام فى شأن الرزق فيقول «و اعلم يا بنى أن الرزق رزقان، رزق تطلبه و رزق يطلبك»[۱۹۴]

و فى هذا الكلام إشارة إلى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۶۹

الحقيقة.

كمـا لاـ ينكر أن بعض موارد الرزق لاـ يأتى تبعا لشـىء ظاهر و ملموس، بل يصـلنا على أثر سلسـلة من الاتفاقات و المصادفات، هـذه الحوادث و إن كانت فى نظرنا مصادفات، إلّا أنّها فى الواقع و فى نظام الخلق قائمة على حساب دقيق.

و لا شك أن حساب هذا النوع من الرزق منفصل عن الأرزاق التى تأتى تبعا للجد و السـعى، و الكلام آنف الذكر يمكن أن يشير إلى هذا المطلب أيضا.

و لكن على كل حال- فإن النقطـة الأساسـية هنا أنّ جميع التعاليم الإسـلامية تأمرنا أن نسـعى أكثر فأكثر لتأمين نواحى الحياة المادية و المعنوية، و أن الفرار من العمل- بزعم أن الرزق مقسوم و أنّه آت لا محالة- غير صحيح! ..

۴- فى الآيات المتقدمـة- التى هى محل البحث- إشارة إلى «الرزق» فحسب، و بعدها ببضـعة آيات يأتى التعبير عن التائبين و المؤمنين و يشار فيها إلى «المتاع الحسن».

و بالموازنـة و المقارنـة بين هذين الأمرين يدلنا هذا الموضوع على أن الرزق معدّ لكل دابة من إنس و حشـرات و حيوانات مفترسة ... إلـخ. و للمحسـنين و المسـيئين جميعا! ... إلّا أن «المتاع الحسن» و المواهب الجديرة و الثمينة خاصّة بالمؤمنين الذين يطهرون أنفسـهم من كل ذنب و تلوّث بماء التوبة، و يتمتعون بنعم اللّه فى مسير طاعته، لا فى طريق الهوى و الهوس!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۰

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۷]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷)

التّفسير

الهدف من الخلق:

فى هذه الآية بحثت ثلاث نقاط أساسية:

المطلب الأوّل: يبحث عن خلق عـالم الوجود- و خصوصا بدايـة الخلق- الـذى يـدل على قـدرة اللّه و عظمته سـبحانه وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ....

و لا حاجـة لبيان أنّ المقصود من كلمة «اليوم» فى هذه الآية ليس هو اليوم العادى الذى هو مجموع أربع و عشـرين ساعة، لأنّ الأرض

و السماء لم تكونا موجودتين حينئذ .. فلا الكرة الأرضية كانت موجودة، و لا حركتها حول نفسها التى تنتج أربعا و عشرين ساعة .. بل المقصود منه- كما بينا سابقا- هو الزمان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۱

سواء كان قصيرا أو مديدا جدا بحيث يبلغ مليارات السنوات مثلا، و قد نبهنا على هذا المعنى- فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف- بشرح واف فى هذا المجال، فلا حاجة للتكرار و الإعادة.

و ذكرنا هناك أن خلق العالم كان فى ستة أزمنة متوالية و متتابعة، مع أنّ اللّه قادر على أن يخلق العالم كلّه فى لحظة واحدة، و ذلك لأنّ الخلق التدريجى يعطى صورة جديدة و لونا جديدا و شكلا بديعا و تتبيّن قدرة اللّه و عظمته أكثر و أحسن.

فهو يريد أن يبيّن قدرته فى آلاف الصور لا بصورة واحدة، و حكمته فى آلاف الثياب لا بثوب واحد، لتتيسر معرفته و كذلك معرفة حكمته و قدرته للناس، و لنجد الدلائل- من خلال عدد الأيّام و السنوات و القرون و الأعصار التى مرّت على العالم- على معرفة اللّه! .. ثمّ يضيف سبحانه أن عرشه كان على الماء وَ كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ.

و من أجل أن نفهم تفسير هذه الجملة ينبغى أن نفهم المراد من كلمتى «العرش» و «الماء».

«فالعرش» فى الأصل يعنى السقف أو ما يكون له سقف، كما يطلق على الأسرّة العالية كأسرّة الملوك و السلاطين الماضين، و يطلق أيضا على خشب بعض الأشجار، و غير ذلك.

و لكن هذه الكلمة استعملت بمعنى القدرة أيضا و يقال «استوى فلان على عرشه» كناية عن بلوغه القدرة كما يقال «ثلّ عرش فلان» كناية عن ذهاب قدرته ۱۹۵].

كما ينبغى الالتفات إلى هذه الدقيقة، و هى أن العرش يطلق أحيانا على عالم الوجود، لأنّ عرش قدرة اللّه يستوعب جميع هذا العالم.

و أمّا «الماء» فمعناه معروف، و هو السائل المستعمل للشرب و التطهير، إلّا أنّه قد يطلق على كل سائل مائع كالفلزّات المائعة و ما أشبه ذلك، و بضميمة ما قلناه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۲

تفسير هاتين الكلمتين يستفاد أنّه فى بداية الخلق كان الكون بصورة مواد ذائبة «مع غازات مضغوطة للغاية، بحيث كانت على صورة مواد ذائبة أو مائعة».

و بعدئذ حدثت اهتزازات شديدة و انفجارات عظيمة فى هذه المواد المتراكمة الذائبة، و أخذت تتقاذف أجزاء من سطحها إلى الخارج، و أخذ هذا الوجود المترابط بالانفصال. ثمّ تشكلت بعد ذلك الكواكب السيّارة و المنظومات الشمسية و الأجرام السماوية.

فعلى هذا نقول: إنّ عالم الوجود و مرتكزات قدرة اللّه كانت مستقرة بادئ الأمر على المواد المتراكمة الذائبة، و هذا الأمر هو نفسه الذى أشير إليه فى الآية (۳۰) من سورة الأنبياء.

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ....

و فى الخطبة الأولى من نهج البلاغة إشارات واضحة إلى هذا المعنى ..

و المطلب الثّانى: الذى تشير إليه الآية- آنفة الذكر- هو الهدف من خلق الكون، و القسم الأساس من ذلك الهدف يعود للإنسان نفسه الذى يمثل ذروة الخلائق ..

هذا الإنسان الذى كتب عليه أن يسير فى طريق التعليم و التربية و يشقّ طريق التكامل نحو اللّه تعالى يقول اللّه سبحانه: لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا أى ليختبركم و يمتحنكم أيّكم الأفضل و الأحسن عملا بهذه الدار الدنيا.

«ليبلوكم» كلمة مشتقّة من مادة «البلاء» و «الابتلاء» و معناها- كما أشرنا إليه آنفا- الاختبار و الامتحان ..

و الامتحانات الإلهية ليست من قبيل معرفة النفس و كشف الحالة التى عليها الإنسان فى محتواه الداخلى و فى فكره و روحه، بل

بمعنى التربية (تقدم شرح هذا الموضوع فى ذيل الآية ۱۵۵ من سورة البقرة) و الطريف فى هذه الآية أنّها تجعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۳

قيمة كل إنسان بحسن عمله لا بكثرة عمله، و هذا يعنى أن الإسلام يستند دائما إلى الكيفية فى العمل لا إلى الكثرة و الكمية فيه.

و فى هذا المجال

ينقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «ليس يعنى أكثركم عملا و لكن أصوبكم عملا، و إنّما الإصابة خشية اللّه و النيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشدّ من العمل، و العمل الخالص الذى لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ»[۱۹۶].

و المطلب الثّالث: الذى تشير إليه الآية آنفة الذكر- هو مسألة المعاد الذى لا ينفصل و لا يتجزأ عن مسألة خلق العالم، و فيها بيان الهدف من الخلق و هو تكامل الإنسان و تكامل الإنسان يعنى التهيّؤ إلى الحياة فى عالم أوسع و أكمل، و لذلك يقول سبحانه: وَ لَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

و كلمة «هذا» التى وردت- فى الآية آنفة الذكر- على لسان الكفار، إشارة إلى كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى شأن المعاد .. أى إنّ ما تدّعيه أيّها النّبى فى شأن المعاد سحر مكشوف و واضح، فعلى هذا تكون كلمة السحر هنا بمعنى الكلام العارى عن الحقيقة، و القول الذى لا أساس له، و بتعبير بسيط: الخدعة و السخرية!! لأنّ السحرة يظهرون للناظرين بأعمالهم أمورا لا واقع لها، و لهذا قد تطلق كلمة السحر على كل أمر عار عن الحقيقة ..

أمّا من يرى بأنّ «هذا» إشارة إلى القرآن المجيد، لأنّ القرآن أخّاذ و فيه جاذبية السحر فإنّه يجانب الصواب، لأنّ الآية تتكلم عن المعاد و لا تتكلم عن القرآن، و إن كنّا لا ننكر أنّ القرآن فيه جاذبية و أنّه أخّاذ للغاية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸ الى ۱۱]

اشارة

وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸) وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ (۹) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (۱۰) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۱)

التّفسير

استيعاب المؤمنين و عدم استيعاب غيرهم:

فى هذه الآيات- و بمناسبة البحث السابق عن غير المؤمنين- بيان لزوايا الحالات النفسية و نقاط الضعف فى أخلاق هؤلاء الأفراد و التى تجبر الإنسان إلى هاوية الظلام و الفساد.

و أوّل صفة تذكر لهؤلاء هى السخرية من الحقائق و عدم الاكتراث بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۵

و بالمسائل المصيرية، فهؤلاء بسبب جهلهم و عدم معرفتهم و غرورهم- حين يسمعون تهديد الأنبياء فى مؤاخذة المسيئين و معاقبتهم، ثمّ تمرّ عليهم عدّة أيّام يؤخر اللّه تعالى بلطفه فيها العذاب عنهم، نراهم يقولون باستهزاء مبطن: ما السبب فى تأخرّ العذاب الالهى، و

أين عقاب اللّه: وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ

و «الأمّة» مشتقّة من مادة «أمّ» و هى بمعنى الوالدة، و معناها فى الأصل انضمام الأشياء بعضها إلى بعض، و لذلك يقال لكل مجموعة على هدف معين، أو زمان أو مكان واحد «أمة».

و قد جاءت هذه الكلمة بمعنى الوقت و الزمان أيضا، لأنّ أجزاء الزمان مرتبطة بعضها ببعض، أو لأنّ المجموعة أو الجماعة تعيش فى عصر و زمان معين، فنحن نقرأ فى سورة يوسف عليه السّلام الآية (۴۵) مثلا وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ..

ففى الآية- محل البحث- كلمة «الأمّة» جاءت بهذا المعنى، و لذلك و صفت بكلمة «معدودة» فمعنى الآية هو: إذا أخرنا عن هؤلاء العذاب و المجازاة لمدّة قصيرة قالوا: أى شىء يمنعه؟! ..

و على كل حال، فهذه عادة الجاهلين و المغترين، فكلّما و جدوا شيئا لا ينسجم مع ميولهم و طباعهم عدّوه سخرية، لذلك يتخذون التهديدات و النذر التى توقظ أصحاب الحق و تهزهم .. يتخذونها هزوا و يسخرون منها شأنهم شأن من يلعب بالنّار.

لكن القرآن يحذرهم و ينذرهم بصراحة فى ردّه على كلامهم، و يبين لهم أن لا دافع لعذاب اللّه إذا جاءهم أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ و أن الذين يسخرون منه واقع بهم و مدمّرهم وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

أجل، ستصعد صرخاتهم إلى السماء فى ذلك الحين، و يندمون على كلماتهم المخجلة، لكن لا صرخاتهم تغنيهم و تنقذهم، و لا هذا الندم ينفعهم، و لات حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۶

مندم.

و من نقاط الضعف عند هؤلاء قلّة الصبر بوجه المشاكل و الصعاب و انحسار البركات الإلهية. حيث نجد فى الآية التالية قوله تعالى عنهم: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.

و بالرغم من أنّ هذا التعبير يتناول الإنسان بشكل عام، لكن- كما أشرنا إليه سابقا- المراد من الإنسان فى مثل هذه الآيات هو الافراد الذين لم يتلقوا تربية سليمة و المنحرفون عن جادة الحق، لذلك يتطابق هذا البحث مع البحث السابق عن الأفراد غير المؤمنين.

و نقطة الضعف الثّالثة عند هؤلاء أنّهم حين يتنعمون بنعمة و يشعرون بالترف و الرفاه يبلغ بهم الفرح و التكبر و الغرور درجة ينسون معها كل شىء، و لذلك يشير القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة بقوله تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.

و هناك احتمال آخر فى تفسير هذه الجملة لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّى و هو أن مثل هؤلاء الأشخاص حين يصابون بالشدائد ثمّ يبدل اللّه بلطفه هذه الشدائد نعمّا من عنده يقول هؤلاء: إنّ الشدائد السابقة كانت كفارة عن ذنوبنا و قد غسلت جميع معاصينا، لذلك أصبحنا من المقربين إلى اللّه، فلا حاجة للتوبة و العودة إلى ساحة اللّه و حضرته.

ثمّ يستثنى اللّه سبحانه المؤمنين الذين يواجهون الشدائد و المصاعب بصبر، و لا يتركون الأعمال الصالحة على كل حال، فهؤلاء بعيدون عن الغرور و التكبر و ضيق الأفق، حيث يقول سبحانه: إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

هؤلاء لا يغترّون عند وفور النعمة فينسون اللّه، و لا ييأسون عند الشدائد و المصائب فيكفرون باللّه، بل إن أرواحهم الكبيرة و افكارهم السليمة جعلتهم يهضمون النعم و البلايا فى أنفسهم دون الغفلة عن ذكر اللّه و أداء مسئولياتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۷

و لذلك فإنّ لهؤلاء ثوابا و مغفرة من اللّه أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

بحوث

۱- الأمّة المعدودة و أصحاب المهدى عليه السّلام:

فى روايات عديدة وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأمّة المعدودة تعنى النفر القليل، و فيها إشارة إلى أصحاب المهدى عليه السّلام و أنصاره، و على هذا يكون معنى الآية: إذا ما أخرنا العذاب عن الظالمين و المسيئين إلى ظهور المهدى و أصحابه، فإنّ أولئك الظالمين يقولون: أى شىء يقف أمام عذاب اللّه فيحبسه عنّا! و لكن كما قلنا أن ظاهر الآية من الأمّة المعدودة هو الزمان المعدود و المعين، و قد وردت رواية عن الإمام على عليه السّلام فى تفسير الأمّة المعدودة تشير إلى ما بيّناه، و هو الزمان المعين، فيمكن أن تكون الرّوايات الآنفة تشير إلى المعنى الثّانى من الآية، و هو ما اصطلح عليه ب «بطن الآية» و طبيعى أنّه بمثابة البيان عن القانون الكلى فى شأن الظالمين، لا أنّه موضوع خاص بالمشركين الذين عاصروا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و نحن نعلم أنّ آيات القرآن تحمل معانى كثيرة مختلفة، فالمعنى الأوّل و الظاهر يمكن أن يكون فى مسألة خاصّة أو جماعة معينة، و المعنى الآخر يكون عاما مجرّدا عن الزمان و غير مخصوص بفئة معينة.

۲- أربع ظواهر لضيق الأفق الفكرى

رسمت الآيات المتقدمة ثلاث حالات مختلفة من حالات المشركين و المسيئين، و قد ورد فى ضمنها أربعة أوصاف لهم:

الأوّل: إنّ المشرك يؤوس عند قطع النعمة عنه، أى لا يبقى له أمل أبدا.

و الآخر: إنّه كفور، أى غير شاكر أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۸

و الثّالث: إنّه إذا غرق بالنعمة أو نال أقلّ نعمة، فهو- على العكس من الحالة السابقة- ينسى نفسه و ينسى كل شىء و يغفل بما ناله من اللّذة و النشاط، فيغدو ثملا مغرورا و ينجر إلى الفساد و التجاوز على حدود اللّه.

و الوصف الرّابع: إنّ حاله عند وفور النعمة حالة الفخر، أى يبلغ درجة كبيرة من التكبر.

و على كل حال، هذه الأوصاف الأربعة هى ظواهر من ضيق الأفق و قلّة الإستيعاب و الرؤية .. و هى لا تختص بجماعة معينة من غير المؤمنين و ملوّثى الفكر، بل هى سلسلة من الأوصاف العامّة لجميع هؤلاء ..

أمّا المؤمنون الذين يمتعون بروح كبيرة و فكر عال و صدر رحب و رؤية بعيدة المدى، فلا يهزّهم تبدل الدنيا و الزمان، و لا ييأسوا لسلب النعمة عنهم، و لا يغرّهم إقبال النعمة فيكونوا من الغافلين، لذا ينبغى الدقة و الملاحظة فى آخر الآية التى تستثنى المؤمنين، إذ ورد التعبير فيها عن الإيمان بالصبر و الاستقامة إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا.

۳- معيار الضعف النفسى

و المسألة الدقيقة الأخرى التى ينبغى الالتفات إليها، هى أنّه فى الموردين (مورد سلب النعمة بعد إسباغها و مورد إسباغ النعمة بعد سلبها) أشير بكلمة «أذقنا» المشتقّة من «الإذاقة» و يراد بها أن نفوس هؤلاء المشركين ضعيفة إلى درجة أنّهم لو أعطوا نعمة قليلة ثمّ سلبت منهم يضجرون و ييأسون، كما أنّهم إذا ذاقوا نعمة بعد شدة يفرحون و يغترّون بها.

۴- النعم جميعها مواهب:

الطريف أنّه فى الآية الأولى عبّر عن النعمة بالرحمة وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۷۹

رَحْمَةً و فى الآية الثّانية ورد كلمة «النعمة» نفسها، و يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ نعم اللّه جميعها تصل إلى الإنسان عن طريق التفضل و الرحمة لا عن طريق الاستحقاق، و إذا كان الأصل أن تكون النعمة على حسب الاستحقاق، فإنّ جماعة قليلة ستنالها، أو أن أية جماعة لن تنالها أبدا.

۵- أثران للأعمال الحسنة

فى آخر آية- من الآيات محل البحث- وعد بالمغفرة- للأفراد المؤمنين الذين يتمتعون بالاستقامة- و وعد بالأجر الكبير أيضا جزاء لأعمالهم الصالحة، فهى إشارة إلى أنّ الأعمال الصالحة لها أثران:

الأوّل: غسل الذنوب.

و الثّانى: كسب الثواب العظيم و الأجر الكبير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۰

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۱۲) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۳) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۴)

سبب النّزول

وردت فى شأن نزول الآيات المتقدمة روايتان، و يحتمل أن تكون كليهما صحيحتين جميعا.

الأولى: إنّ جماعة من رؤوساء مكّة جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و قالوا: إذا كنت صادقا فى دعواك بأنّك نبى فصير جبال مكّة ذهبا أو ائتنا بملائكة من السماء تصدّق نبوتك، فنزلت هذه الآيات.

و الثّانية: إنّه

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «يا على إنّى سألت ربّى يوالى بينى و بينك ففعل، و سألت ربّى أن يؤاخى بينى و بينك ففعل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۱

و سألت ربّى أن يجعلك وصيى ففعل»

فقال رجلان من قريش- من المخالفين-: و اللّه لصاع تمر فى شن بال أحب إلينا ممّا سئل محمّد ربّه، فهلا سئل ربّه ملكا يعضده على عدوه، أو كنزا يستغنى به عن فاقته؟ ... فنزلت الآيات السابقة لتكون جوابا لأولئك ..[۱۹۷]

التّفسير

القرآن المعجزة الخالدة:

يبدو من هذه الآيات أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يوكل إبلاغ الآيات- نظرا للجاجة الأعداء و مخالفتهم- لآخر فرصة، لذا فإنّ اللّه سبحانه ينهى نبيّه فى أوّل آية نبحثها عن ذلك بقوله: فَلَعَلَّكَ تارِكٌ بَعْضَ ما يُوحى إِلَيْكَ وَ ضائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ لئلا يطلبوا منك معاجز مقترحة كنزول كنز من السماء، أو مجيء الملائكة لتصديقه أَنْ يَقُولُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جاءَ مَعَهُ مَلَكٌ

و كما يستفاد من آيات القرآن الأخرى كما فى سورة الإسراء (الآيات ۹۰- ۹۳)- إنّ هؤلاء لا يطلبون هذه المعاجز ليصدقوا دعوى النّبى و يتبعوا الحق، بل هدفهم اللجاجة و العناد و التّحجج الواهى، فلذلك تأتى الآية معقبة إِنَّما أَنْتَ نَذِيرٌ سواء قبلوا دعواك أم لم يقبلوا، و سخروا منك أم لم يسخروا، فاللّه هو الحافظ و الناظر على كل شىء وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ أى لا تكترث بكفرهم و إيمانهم فإنّ ذلك لا يعنيك، و إنّما وظيفتك أن تبلغهم، و اللّه سبحانه هو الذى يعرف كيف يحاسبهم، و كيف يعاملهم.

و بما أنّ الذين يتذرعون بالحجج و يشكلون على النّبى كانوا أساسا منكرين لوحى اللّه، و يقولون: إنّ هذه الآية ليست نازلة من قبل اللّه، و إنّ هذا الكلام افتراه محمّد- و حاشاه من ذلك- على اللّه كذبا، لذلك تأتى الآية التالية لتبيّن بصراحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۲

تامة: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

فقل لهم يا رسول اللّه- إن كانوا صادقين فى دعواهم أنّ ما تقوله ليس من اللّه و أنّه من صنع الإنسان- فيأتوا بعشر سور مثل هذا الكلام مفتريات، و ليدعوا- سوى اللّه- ما شاؤوا قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَ ادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

أمّا إذا لم يستجيبوا لدعوتك و لا للمسلمين، و لم يلبوا طلبك على الإتيان بعشر سور مفتريات كسور القرآن، فاعلموا أن ذلك الضعف و عدم القدرة دليل على أن هذه الآيات نزلت من خزانة علم اللّه، و لو كانت من صنع بشر، فهم بشر أيضا ..

فلما ذا لا يقدرون على ذلك فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ و اعلموا أيضا أنّه لا معبود سوى اللّه، و نزول هذه الآيات دليل على هذه الحقيقة وَ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فهل يسلم المخالفون مع هذه الحالة فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

أى بعد ما دعوناكم للإتيان بمثل هذه السور، و ظهر عجزكم و عدم قدرتكم على ذلك، فهل يبقى شك فى أن هذه الآيات منزلة من قبل اللّه، و مع هذه المعجزة البينة أمّا زلتم منكرين، أم أنّكم تسلمون و تقرّون حقا؟!

بحوث

اشارة

۱- من المعلوم أنّ كلمة «لعلّ» تأتى لإظهار الرجاء لعمل شىء ما و تحققه، و لكن «لعل» هنا جاءت بمعنى النهى، و هى تماما مثل ما يريد الأب مثلا أن ينهى ولده فيقول له: لعلك ترافق فلانا فأنت حينئذ غير مهتم للعاقبة، فمعنى الكلام هنا:

لا ترافق فلانا لأن صحبته تضرك.

إذا فعلى الرغم من أن «لعل» تفيد الرجاء، إلّا أن المفهوم الالتزامى منها النهى عن عمل أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۳

فى الآيات- محل البحث- يؤكّد اللّه سبحانه على النّبى ألّا يؤخر إبلاغه الوحى خوفا من تكذيب المخالفين أو طلبهم معجزات مقترحة من قبلهم.

۲- يرد هنا سؤال هو: كيف يمكن للنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يؤخر إبلاغه الوحى، أولا يبلغه أساسا؟ مع أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم معصوم و لا يصدر منه الخطأ و الذنب! الجواب: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم متى ما امر بتبليغ حكم فورى فمن المسلّم أنّه يبلغه فورا و دون إبطاء، و لكن يتفق- أحيانا أن يكون وقت التبليغ موسعا .. و النّبى يؤخر البلاغ تبعا لأمور ... هذه الأمور ليس لها جانب شخصى بحيث تعود للنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، بل لها جانب عام و دفاع عن الدين، و هذا التأخير ليس ذنبا قطعا، مثل ما ورد- فى سورة المائدة فى الآية ۶۷- من أمر اللّه للرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالتبليغ، و أن لا يخاف من تهديدات الناس لأنّ اللّه سيحفظه حيث يقول عزّ و جلّ: يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

و على هذا فلم يكن تأخير البلاغ هنا ممنوعا على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن «الإسراع» فيه دليل على قاطعيته .. فالإسراع بالتبليغ يعدّ أولى من التأخير .. فاللّه سبحانه يريد أن يشدّ من معنوية نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يثبت فؤاده و يجعله صلدا أمام المخالفين بحيث يبلغ «بضرس قاطع» و لا يلتفت إلى طلبات المخالفين و حجج المستهزئين، و لا يستوحش من صخبهم و ضجيجهم!

۳- احتمل المفسّرون فى معنى «أم» التى فى أوّل الآية الأخرى أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ احتمالين:

الأوّل: إنّه بمعنى «أو».

و الثّانى: بأنّه بمعنى «بل».

ففى الصورة الأولى يكون المعنى على النحو التالى:

لعلك لم تتل آياتنا خوفا من حجج المخالفين، أو أنّك تلوتها و لكنّهم كذبوك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۴

و قالوا افتريتها على اللّه سبحانه.

و فى الصورة الثّانية يكون المعنى على النحو التالى:

لا تؤخر إبلاغ آياتنا لحجج المخالفين [ثمّ يضيف سبحانه بل هم أساسا منكرون للوحى و للنّبوة، و يزعمون أن الرّسول يكذب على اللّه.

و فى الحقيقة. إنّ اللّه يخبر نبيّه مع هذا البيان أن ما يطلبه هؤلاء من المعاجز المقترحة فليس لطلب «الحق»، بل لأنّهم أساسا منكرون للنّبوة. و إنّما هى حجج و تعاليل يتذرعون بها! و على كل حال، فعند التأمل فى الآيات آنفة الذكر- و خاصّة إذا دققنا النظر فى كلماتها من الناحية الأدبية- نجد أن المعنى الثّانى أقرب إلى مضاد الآيات، فتأملّوا! ۴- لا شكّ أنّ على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يرى معاجزه للذين يطلبون الحق لتكون سندا لحقانية نبوته، و لا يستطيع أى نبى من الأنبياء أن يستند إلى ادعائه فحسب.

و لكن لا ريب و لا شك أن المخالفين الذين تحدثت عنهم الآيات لم يكونوا يطلبون الحقيقة و يبحثون عنها «و ما كانوا يطلبونه من معاجز كانت معاجز اقتراحية على حسب ميولهم و أهوائهم و لا يقتنعون بأية معجزة أخرى».

و من المسلّم أنّ هؤلاء محتالون و ليسوا بطلّاب حقيقة. فهل كان يجب على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تكون لديه كنوز عظيمة كما كان يريده منه مشركو مكّة؟! أو أن يكون معه ملك يصدق دعوته و بلاغه؟! و بعد هذا كلّه ألم يكن القرآن نفسه أعظم و أكبر من كل معجزة .. و إذا لم يكن أولئك فى صدد التحجّج و التّحيّل، فلما ذا لم يذعنوا لآيات القرآن الذى كان يتحدّاهم و يقول لهم: فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَ ادْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

۵- إنّ الآيات- المذكورة- توكّد إعجاز القرآن مرّة أخرى و تقول: ليس هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۵

کلاما عادیا یترشح من الفکر البشری، بل هو وحی السماء الذی ینزل بعلم اللّه اللامحدود و قدرته الواسعة، و علی هذا فإنّه یتحدّی جمیع البشر أن یواجهوه بمثله- مع ملاحظة أنّ المخالفین من معاصری النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و من بعدهم إلی یومنا هذا عجزوا عن ذلک، و فضلوا مواجهة الکثیر من المشاکل علی معارضة القرآن، و هکذا یتّضح أن مثل هذا العمل لم یکن من صنع البشر و لا یکون، فهل المعجزة شیء غیر هذا؟! هذا نداء القرآن ما زال فی أسماعنا، و هذه المعجزة الخالدة تدعو العالمین إلیها و تتحدی جمیع المحافل البشریة، لا من حیث الفصاحة و البلاغة و جمال العبارات و جاذبیتها و وضوح المفاهیم فحسب. بل من حیث المحتوی و العلوم التی فیه و التی لم تکن موجودة فی ذلک الزمان، و القوانین التی تتکفل بسعادة البشریة و نجاتها، و البیان الخالی من التناقض، و القصص التاریخیة الخالیة من الخرافات، و أمثالها. و قد بیّنا ذلک و شرحناه فی تفسیر الآیتین (۲۳ و ۲۴) من سورة البقرة فی إعجاز القرآن.

جمیع القرآن أو عشر سور منه أو سورة واحدة!

۶- نحن نعلم أنّ القرآن دعا فی بعض آیاته المنکرین لنبوة محمّد و المخالفین له إلی الإتیان بمثل القرآن، کما فی سورة الإسراء الآیة (۸۸). و فی مکان آخر إلی الإتیان بعشر سور، کما هو فی الآیات التی بین أیدینا- محل البحث- و فی مکان آخر دعا المخالفین إلی سورة مثل سور القرآن، کما فی سورة البقرة الآیة (۲۳).

و لهذا السبب بحث جماعة من المفسّرین هذا «السرّ» فی التفاوت فی التحدّی و الدعوة إلی المواجهة، فما هو؟! و لم فی مکان من القرآن یطلب الإتیان بمثله.

و فی مکان بعشر سور، و فی مکان یطلب الإتیان بسورة واحدة؟! و قد اتبعوا طرقا مختلفة فی الإجابة علی هذا السؤال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۶

ألف- یعتقد البعض أنّ هذا التفاوت من قبیل التنازل من مرحلة علیا إلی مرحلة أقل علی سبیل المثال، أن یقول قائل لآخر: إذا کنت ماهرا مثلی فی فن الکتابة و الشعر فاکتب کتابا ککتابی و هات دیوان شعر کدیوانی، ثمّ یتنازل و یقول فهات فصلا مثل فصول کتابی، إلی أن یتحدّاه بأن یأتی بصفحة مثل صفحاته.

و لکن هذا الجواب یکون صحیحا فی صورة ما لو کانت سور الإسراء و هود و یونس و البقرة قد نزلت بهذا الترتیب، کما هو منقول فی کتاب «تأریخ القرآن» عن الفهرست لابن الندیم، لأنّه یقول إنّ سورة الإسراء رقمها فی السور (۴۸)، و سورة هود (۴۹)، و سورة یونس (۵۱)، و البقرة هی السورة التسعون النازلة علی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم.

و لکن هذا الکلام لا ینسجم مع ترتیب السور فی التفاسیر الإسلامیة.

ب- یری البعض أن ترتیب السور الآنفة رغم عدم توافقها مع ترتیب التحدی من الأعلی الی الأدنی، و لکن نعلم أنّ جمیع آیات السورة الواحدة لم تنزل مجموعة فی آن واحد، فبعض الآیات کانت تتأخر فی النزول مدة ثمّ یلحقها النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بالسورة الفلانیة بحسب تناسبها معها، و فی محل کلامنا هذا یمکن أن یکون الأمر کذلک، و علی هذا فإنّ تاریخ السور لا یتنافی مع التنزّل، أو التنازل من مرحلة علیا إلی مرحلة دنیا.

ج- هناک احتمال آخر لحل هذا الإشکال هو أنّ أجزاء «القرآن» أجزاء تطلق علی الکل و علی البعض منه، فنحن نقرأ فی الآیة الأولی من سورة الجن إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً و واضح أنّهم سمعوا بعض القرآن لا أنّهم سمعوا القرآن کلّه، و لفظ القرآن فی الأساس مشتق من القراءة، و من المعلوم أنّ القراءة و التلاوة تصدق علی جمیع القرآن و علی جزء منه أیضا، فعلی هذا یکون التحدی ب «مثل

القرآن» غير مقصود به التحدى بالإتيان بمثل جميع القرآن، و هو ينسجم بهذا المعنى مع التحدى بعشر سور منه أو حتى بسورة واحدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۷

و من جهة أخرى فإنّ السورة فى الأصل تعنى «المجموعة المحدودة»، فيكون إطلاقها على مجموعة آيات صحيحا و إن لم يكن ذلك غير جار فى الاصطلاح العرفى.

و بتعبير آخر فإنّ السورة تطلق على معنيين:

الأول: يراد به مجموعة الآيات التى تبحث عن هدف معين.

و الثّانى: يراد به ما بدئ ببسم الله الرحمن الرحيم و ينتهى قبل بسم الله الرحمن الرحيم.

و الشاهد على هذا قوله تعالى فى سورة التوبة الآية (۸۶): وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَ جاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ فالواضح من هذه الآية أن المراد بالسورة من قوله: وَ إِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ليس إلّا الآيات التى تحمل الهدف الآنف، و هو الإيمان باللّه و الجهاد مع الرّسول، و إن كانت الآيات بعضا من سورة! ..

أمّا «الراغب الأصبهانى» فيقول فى مفرداته فى تفسير أوّل سورة النّور سُورَةٌ أَنْزَلْناها أى جملة من الأحكام و الحكم. فكما نلاحظ هنا أن الراغب فسّر السورة بمجموعة من الأحكام و الحكم، فلا يبقى فارق مهم بين ألفاظ «القرآن» و «عشر سور» و «سورة» من حيث المفهوم اللغوى.

و النتيجة أنّ تحدى القرآن ليس من قبيل التحدى بكلمة واحدة أو بجملة واحدة، حتى يدعى مدع أنّه قادر على الإتيان بآية مثل آية وَ الضُّحى أو آية مُدْهامَّتانِ أو أنّه يستطيع أن يأتى بجمل بسيطة كما فى القرآن، بل التحدى فى كل مكان بمجموعة من الآيات التى تحمل هدفا معينا «فتأمل».

۷- من هو المخاطب بقوله تعالى: فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ هناك أقوال بين المفسّرين، فبعض يرى أنّ المخاطب بالآية هم «المسلمون»، أى إذا لم يستجب المنكرون لكم أيّها المسلمون فيأتوا بعشر سور مفتريات فاعلموا أنّ القرآن منزل من اللّه سبحانه، و هذا كاف فى الدلالة على إعجاز القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۸

و قال بعض المفسّرين: المخاطب بالآية هو. «المنكرون» أى: أيّها المنكرون إذا لم يستجب الناس لكم و كل ما دعوتم من دون اللّه، و لم يقدروا على الإتيان بعشر سور فاعلموا أنّ القرآن نازل من قبل اللّه.

و لكن من حيث النتيجة لا يوجد تفاوت مهم بين التّفسيرين، و إنّ الاحتمال الأوّل أقرب حسب الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۸۹

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسير

الآيات أعلاه أكملت الحجة مع «دلائل إعجاز القرآن» على المشركين و المنكرين، و لكن جماعة منهم امتنعوا عن القبول- لحفظ

منافعهم الشخصيّة- بالرّغم من وضوح الحق، فالآيات هـذه تشير إلى مصير هؤلاء فتقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها من رزق مادى و شهرة و تلذذ بالنعم نُوَفِّ إِلَيْهِمْ نتيجة أَعْمالَهُمْ فِيها فى هذه الدنيا وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أى لا ينقص من حقهم شىء فى الدنيا!

«البخس» فى اللغة نقصان الحق، و جملة وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ إشارة إلى أنّهم سينالون نتيجة أعمالهم بدون أقل نقصان من حقوقهم.

هذه الآية سنة إلهية دائمة، و هى أنّ الأعمال «الإيجابية» و المؤثرة لا تضيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۰

نتائجها، مع فارق و هو أنّه إذا كان الهـدف الأصـلى منها هو الوصول إلى الحياة المادية فى هذه الدنيا فإنّ ثمراتها فى الدنيا فحسب، و أمّا إذا كان الهدف هو «اللّه» و كسب رضاه فإنّ تأثيرها و نتائجها ستكون فى الدنيا و فى الآخرة أيضا حيث تكون النتائج كثيرة الثمار.

الواقع إنّ القسم الأوّل من هذه الأعمال كالبناية المؤقتة و القصيرة العمر، فلا يستفاد منها إلّا قليلا، ثمّ مصيرها الى الزوال و الفناء.

أمّا القسم الثّانى منها فإنّها تشبه البناء المرصوص المحكم الذى يدوم قرونا و ينتفع به مدّة مديدة.

و هذا من قبيل ما نراه بوضوح على أرض الواقع المعاش، فالعالم الغربى فتح أسرارا كثيرة من العلم بسعيه المتواصل و المنسّق، و أصبح متسـلطا على قوى الطبيعـة و حصل على مواهب كثيرة لتصـديه الدائب لمشاكل الحياة الدنيوية بصبر و اسـتقامة وجد. فلا كلام فى نيل العالم الغربى جزاء أعماله و تحقيقه انتصارات مشـرقة، و لكن لأنّ هـدفه الحياة الماديّة فحسب، فإنّ أعماله لا تثمر غير توفر الإمكانات الماديـة، حتى الأعمـال الإنسانيـة كبنـاء المستشـفيات و المراكز الصـحية و المراكز الثقافيـة و إعانـة بعض الأمم الفقيرة و أمثال ذلك، «مصيدة» لاسـتعمارهم و اسـتثمارهم للآـخرين .. فلأنّها تحمل هـدفا ماديا فقط و من أجل حفظ المنافع الماديـة فإنّ أثرها يكون ماديّا فحسب. كذلك الحال بالنسبة لمن يعمل رياء.

فلـذلك يقول سـبحانه عنهم فى الآية التالية: أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ليزول كل أثر أخروى لما عملوا فى هذه الدنيا و لا ينالون عليه أى ثواب وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها و كل ما كان لغير اللّه فسيزول أثره وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

«الحبط» فى الأصل يطلق على حالة خاصّة من أكل الحيوانات للعلف بشكل غير طبيعى، فتنتفخ بطونها و يتعطل الجهاز الهضمى عندها فتبدو و كأنّها قد سمنت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۱

و لكنّها فى الباطن و فى الحقيقة مريضة.

هذا التعبير الطريف يقال للأعمال التى تبدو فى الظاهر مفيدة و إنسانية، إلّا أنّها فى الباطن مقرونة بنية ذميمة و خبيثة!

ملاحظات

۱- من الممكن أن يتصور فى البداية أنّ الآيتين محل البحث متعارضتان، فالآية الأولى تقول: إن من كان هدفه الحياة الدنيا فإنّه سينال جزاءه فيها كاملا غير منقوص مَنْ كانَ يُرِيـدُ الْحَياةَ الـدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ أمّا الآية الثّانية فتقول إن أعماله تكون بلا أثر و باطلة: وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و لكن مع الالتفـات إلى أن إحـدى الآـيتين تشـير إلى مـا يجرى فى الـدنيا و الثّانيـة تشـير إلى الـدار الآخرة، يتّضـح الجواب على هـذا الإشـكال، و هو أنّهم ينالون جزاء أعمالهم فى هـذه الدنيا، و لكن لا قيمة لهذا العمل حتى و لو كان من أهم الأعمال- إذا لم يكن لها فى الآخرة أىّ أثر. لأنّ هدفهم لم يكن نقيّا و نيّتهم غير خالصة، حيث كانوا يسـعون لتحصـيل سلسـلة من المنافع المادية، و قد تحققت لهم فى الدنيا.

۲- ذكر كلمـة «الزينـة» بعـد «الحياة الـدنيا» تدلّ ذم عبادة الدنيا و زخرفها و زبرجها، و ليس المقصود من ذلك الاسـتفادة باعتدال من مواهب هذا العالم! فكلمة «الزينة» التى جاءت هنا ببيان مغلق، إلّا أنّها فى آيات أخرى فسـرت بالنساء الجميلات و الكنوز و المراكب و

الزخارف .. إلخ.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ۱۹۸][۱۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۲

۳- ذكر كلمة «الباطل» بعد كلمة «الحبط» يمكن أن تكون إشارة إلى أن أعمالهم لها ظاهر بدون محتوى، و لذلك تذهب نتيجتها أدراج الرياح.

ثمّ يضيف أن أعمالهم أساسا باطلة من البداية و لا خاصية لها، غاية ما فى الأمر إنّ كثيرا من حقائق الأمور لما كانت فى الدنيا غير معروفة فإنّها تنكشف فى الدار الآخرة التى هى محل كشف الأسرار، فيتّضح أنّ هذه الأعمال لم يكن لها قيمة منذ البداية!.

۴- فى كتاب «الدر المنثور»

حديث منقول عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآيات يبيّن مفاد هذه الآيات بجلاء «قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا كان يوم القيامة صارت أمتى على ثلاث فرق: فرقة يعبدون اللّه خالصا، و فرقة يعبدون اللّه رياء. فرقة يعبدون اللّه يصيبون به دنيا».

فيقول للذى كان يعبد اللّه للدنيا: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: الدنيا، فيقول: لا جرم لا ينفعك ما جمعت و لا ترجع إليه. انطلقوا به إلى النّار.

و يقول للذى يعبد اللّه رياء: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ قال: الرياء، فيقول: إنّما كانت عبادتك التى كنت ترائى بها لا يصعد إلى منها شىء و لا ينفعك اليوم، انطلقوا به إلى النّار.

و يقول للذى كان يعبد اللّه خالصا: بعزّتى و جلالى، ما أردت بعبادتى؟ فيقول: بعزّتك و جلالك لأنت أعلم منّى، كنت أعبدك لوجهك و لدارك، قال: صدق عبدى، انطلقوا به إلى الجنّة»[۲۰۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۳

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۱۷]

اشارة

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱۷)

التّفسير

هناك أقوال كثيرة- فى تفسير الآية أعلاه- بين المفسّرين، و لهم نظرات مختلفة فى جزئيات الآية و كلماتها و ضمائرها و الأسماء الموصولة فيها و أسماء الإشارة، و ما نقل عنهم يخالف طريقتنا فى هذا التّفسير، و لكنّ تفسيرين منها أشد وضوحا من غيرهما ننقلهما هنا على حسب الأهميّة:

۱- فى بداية الآية يقول الحق سبحانه:

أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ أى من اللّه تعالى وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً .... أى التوراة التى تؤيّد صدقه و عظمته، مثل هذا الشخص هل يستوى و من لا يتمتع بهذه الخصال و الدلائل البينة.

هذا الشخص هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، «البيّنة» و دليله الواضح هو القرآن المجيد،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۴

و الشاهد المصدق بنبوّته کلّ مؤمن حق أمثال علی علیه السّلام، و من قبل وردت صفاته و علائمه فی التوراة، فعلی هذا ثبتت دعوته عن طرق ثلاثة حقّة واضحة.

الأوّل: القرآن الکریم الذی هو بیّنة و دلیل واضح فی یده.

الثّانی: الکتب السماویة التی سبقت نبوّته و أشارت إلی صفاته بدقّة، و أتباع هذه الکتب السماویة فی عصر النّبی کانوا یعرفونه حقا، و لهذا السبب کانوا ینتظرونه.

و الثّالث: أتباعه و أنصاره المؤمنون المضحّون الذین کانوا یبیّنون دعوته و یتحدثون عنه، لأن واحدا من علائم حقانیّة مذهب ما هو إخلاص اتباعه و تضحیتهم و درایتهم و إیمانهم و عقلهم، إذ أن کلّ مذهب یعرف بأتباعه و أنصاره.

و مع وجود هذه الدلائل الحیّة، هل یمکن أن یقاس مع غیره من المدعین، أم هل ینبغی التردّد فی صدق دعوته؟![۲۰۱].

ثمّ یشیر بعد هذا الکلام إلی طلاب الحقّ و الباحثین عن الحقیقة، یدعوهم إلی الإیمان دعوة ضمنیة فیقول: أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ أی النّبی الذی لدیه هذه الدلائل الواضحة.

و بالرغم من أنّ مثل هؤلاء الذین أشیر إلیهم بکلمة «أولئک» فی الآیة لم یذکروا فی الآیة نفسها، و لکن مع ملاحظة الآیات السابقة یمکن استحضارهم فی جوّ هذه الآیة و الإشارة إلیهم.

ثمّ یعقب بعد ذلک ببیان عاقبة المنکرین و مصیرهم بقوله تعالی: وَ مَنْ یَکْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۵

و فی ختام الآیة- کما هی الحال فی کثیر من آیات القرآن- یوجه الخطاب إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و یبیّن درسا عاما لجمیع الناس، و یقول: بعد هذا کلّه من وجود الشاهد و البیّنة و المصدق بدعوتک، فلا تتردد فی الطریق ذاته فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ لأنّه من قبل اللّه سبحانه إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ و لکن کثیرا من الناس و نتیجة لجهلهم و أنانیتهم لا یؤمنون وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ

۲- التّفسیر الثّانی لهذه الآیة هو أنّ هدفها الأصل بیان حال المؤمنین الصادقین الذین یؤمنون بالنّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع وجود الدلائل الواضحة و الشواهد علی صدق دعوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و ما جاء فی الکتب السماویة السابقة فی شأنه، فأولئک هم المؤمنون، و استنادا إلی هذه الدلائل جمیعا یؤمنون به صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فعلی هذا یکون المقصود من قوله: أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ جمیع الذین لدیهم دلائل مقنعة، حیث سارعوا إلی الإیمان بالقرآن و من جاء به، و لیس المقصود بکلمة «من» فی الآیة هو النّبی.

و الذی یرجع هذا التّفسیر علی التّفسیر السابق هو وجود الخبر فی الآیة صریحا و لیس محذوفا، و المشار إلیه «أولئک» مذکور فی الآیة نفسها، و القسم الأوّل من الآیة یبدأ بقوله: أَ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إلی قوله: أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ و یشکل جملة کاملة من دون أی حذف و تقدیر .. و لکن من دون شک فإنّ التعبیرات الأخری فی هذه الآیة لا تنسجم مع هذا التّفسیر کثیرا، و لهذا جعلنا هذا التفسیر فی المرحلة الثّانیة «فتأمل»! و علی کل حال، فالآیة تشیر إلی امتیازات الإسلام و المسلمین الصادقین و استنادهم إلی الدلائل المحکمة فی اختیار مذهبهم هذا .. و فی قبال ذلک تذکر ما یصیر إلیه المنکرون و المستکبرون من مآل مشؤوم أیضا ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۶

بحوث

۱- ما المقصود «بالشاهد» فی الآیة؟!

قال بعض المفسّرين: إن المقصود بالشاهد هو جبرئيل عليه السّلام أمين وحى اللّه، و منهم من فسّره بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و منهم من قال: إنّ معناه لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى حالة فهم معنى «يتلو» من التلاوة أى القراءة، لا بمعنى التلّو الذى معناه مجيء شخص بعد آخر.

و لكن كثيرا من كبار المفسّرين فسروا «شاهد» بالإمام على عليه السّلام، ففى روايات كثيرة وصلتنا عن الأئمّة المعصومين، و فى بعض كتب تفسير أهل السنة- أيضا- هناك تأكيد على أنّ المقصود من «الشاهد» فى الآية هو الإمام على عليه السّلام أوّل من آمن بالنّبى و القرآن الكريم، و كان معه فى جميع المراحل و لم يقصر لحظة فى التضحية دونه و حمايته إلى آخر نفس ۲۰۲].

و

فى حديث منقول عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «ما من رجل من قريش إلّا و قد أنزل فيه آية أو آيتان من كتاب اللّه، فقال له رجل من القوم: و ماذا أنزل فيك يا أمير المؤمنين؟ فقال: أما تقرا الآية التى فى هود أ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم على بيّنة من ربّه و كنت أنا الشاهد»[۲۰۳].

و فى آخر سورة الرعد عبارة تؤيد هذا المعنى، حيث يقول سبحانه: وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ

هناك روايات كثيرة عن طرق الشيعة و أهل السنة تبيّن أنّ المراد بقوله: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ هو الإمام على عليه السّلام.

و ممّا يجدر ذكره- كما أشرنا سابقا- أن واحدا من أفضل طرق حقانية أىّ مذهب هو مطالعة شخصية أتباعه و المدافعين عنه و حماته. فحين نلاحظ جماعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۷

أتقياء، أذكياء، مؤمنين مخلصين اجتمعوا حول أحد القادة، أو مذهب معين فسيتّضح جيدا أنّ هذا القائد و هذا المذهب على درجة عالية من الحق و الصدق.

و لكن حين نرى جماعة انتهازيين محتالين غير مؤمنين و لا متقين تجمعوا حول مذهب مّا أو قائد مّا، فقلّ أن نصدّق أن ذلك المذهب أو القائد على حق.

و ينبغى الإشارة إلى هذا الأمر، و هو أنّه لا منافاة بين تفسير كلمة الشاهد بالإمام على، و بين شمولها لجميع المؤمنين من أمثال أبى ذرّ و سلمان و عمّار و اضرابهم، لأنّ هذه التفاسير تشير إلى الشخص البارز و الشاخص فى هؤلاء المؤمنين، أى إنّ المقصود هو جماعة المؤمنين الذين فى طليعتهم الإمام على عليه السّلام.

و الدليل على هذا الكلام

رواية منقولة عن الإمام الباقر عليه السّلام: قال: «الذى على بيّنة من ربّه رسول اللّه الذى تلاه من بعده الشاهد منه أمير المؤمنين ثمّ أوصياؤه واحد بعد واحد»[۲۰۴].

و على الرغم من أنّ هذه الرّواية تذكر المعصومين فحسب، و لكنّها تدل على أن الرّوايات التى تفسر الشاهد بالإمام على لا تعنى شخصه فحسب، بل كونه مصداقا و شاخصا للمؤمنين! ...

۲- لماذا أشير إلى التوراة فحسب؟!

إن واحدا من دلائل حقانية النّبى كما ذكر فى الآية الآنفة- الكتب السابقة على نبوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن لم تذكر الآية من بينها سوى التوراة، و نحن نعرف أن الإنجيل بشّر بظهور نبى الإسلام أيضا.

و یمکن أن یکون السبب هو أنّ المحیط الذی نزل فیه القرآن و ظهر الإسلام فیه (أی مکّة و المدینة) متشبعا بأفکار الیهود أکثر من غیرهم من أهل الکتاب، و کان المسیحیون یعیشون فی أماکن أبعد من الیهود کالیمن و الشامات و نجران و الجبال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۸

الشمالیة فی الیمن التی تقع علی فاصلة عشرة منازل من صنعاء! أو لأن أوصاف النّبی وردت فی التوراة بشکل أوسع و أجمع.

و علی کل حال، فالتعبیر عن التوراة ب «إماما» قد یکون لأجل أحکام شریعة موسی علیه السّلام کانت موجودة فیه بشکل أکمل، حتی أنّ المسیحیین یرجعون إلی تعلیمات التوراة!

۳- من هو المخاطب فی قوله: فَلا تَکُ فِی مِرْیَةٍ مِنْهُ

هناک احتمالان فی من هو المخاطب بهذه الآیة:

الاحتمال الأوّل: النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه، أی: یا رسول اللّه لا تتردد فی حقانیّة القرآن و شریعة الإسلام أقلّ تردد! و بالطبع فإنّ النّبی بحکم کونه یدرک الوحی شهودا، و یدرک بالحواس أنّ القرآن نازل من قبل اللّه، بل کان فی درجة أعلی من الإحساس، فلم یکن لدیة تردد فی حقانیة هذه الدعوة، و لکن لیس هذه أوّل خطاب یوجه إلی النّبی و یکون المقصود به عموم الناس، و کما یقول المثل العربی «إیّاک أعنی و اسمعی یا جارة».

و هذا التعبیر أساسا هو ضرب من البلاغة، حیث یوضع المخاطب غیر الحقیقی مکان المخاطب الحقیقی لأهمیته و لأغراض أخری.

و الاحتمال الثّانی: إنّه المخاطب بهذه الآیة کل مکلّف عاقل، أی «فلا تک أیّها المکلف العاقل فی مریة و تردد». و هذا وارد إذا لم یکن المقصود بالآیة أ فَمَنْ کانَ عَلی بَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، بل جمیع المؤمنین الصادقین (فتدبّر).

و لکن التّفسیر الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۴۹۹

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۱۸ الی ۲۲]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أُولئِکَ یُعْرَضُونَ عَلی رَبِّهِمْ وَ یَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِینَ کَذَبُوا عَلی رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَی الظَّالِمِینَ (۱۸) الَّذِینَ یَصُدُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ وَ یَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ کافِرُونَ (۱۹) أُولئِکَ لَمْ یَکُونُوا مُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ وَ ما کانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِیاءَ یُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ ما کانُوا یَسْتَطِیعُونَ السَّمْعَ وَ ما کانُوا یُبْصِرُونَ (۲۰) أُولئِکَ الَّذِینَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما کانُوا یَفْتَرُونَ (۲۱) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِی الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۲۲)

التّفسیر

أخسر النّاس أعمالا:

بعد الآیة المتقدمة التی کانت تتحدث عن القرآن و رسالة النّبی محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم تأتی آیات أخر تشرح عاقبة المنکرین و علاماتهم و مآل أعمالهم.

ففى أوّل آية من هذه الآيات يقول سبحانه: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۰

كَذِباً و يعنى أن تكذيب دعوة النّبى الصادق صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى الواقع هو تكذيب لكلام اللّه و افتراء عليه بالكذب و تكذيب من لا يتحدث عن أحد سوى اللّه يعدّ تكذيبا للّه ۲۰۵].

و كما تقدم فى عدّة مواضع، فالقرآن المجيد يعبر فى عديد من الآيات عن جماعة من الناس بقوله: «أظلم» فى حين أنّ أعمالهم- كما يبدو- مختلفة، و لا يمكن أن نعدّ جماعات كثيرة مع وجود أعمال مختلفة بأنّهم أظلم الناس! بل ينبغى أن يعدّ البعض ظالمين، و البعض الآخر أظلم منهم، و سواهما أشدّ ظلما منهما جميعا ..

و لكن- كما أجبنا عن هذا السؤال عدّة مرات- جذر جميع هذه الأعمال يعود لشىء واحد، و هو الشرك و تكذيب الآيات الإلهية، و هو أعظم البهتان «و لمزيد من الإيضاح يراجع ذيل الآية (۳۱) من سورة الأنعام».

ثمّ يبيّن ما ينتظرهم من مستقبل مشؤوم يوم القيامة حين يعرضون على محكمة العدل الإلهى أُولئِكَ يُعْرَضُونَ عَلى رَبِّهِمْ حينئذ يشهد «الأشهاد» على أعمالهم و أنّ هؤلاء هم الذين كذبوا على اللّه العظيم الرحيم و ولى النعمة ..

وَ يَقُولُ الْأَشْهادُ هؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلى رَبِّهِمْ ثمّ ينادون بصوت عال أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ

و لكن من هم الأشهاد؟ أهم الملائكة، أم الحفظة على الأعمال، أم الأنبياء؟

للمفسّرين احتمالات و آراء، و لكن مع ملاحظة أن آيات أخرى من القرآن تشير إلى أنّ الأنبياء هم الأشهاد، فالظاهر أنّ المراد بالأشهاد هنا هم الأنبياء أيضا .. أو المفهوم الأوسع و هو أنّ الأنبياء و سائر الأشهاد يشهدون على «الأعمال» يوم القيامة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۱

و فى الآية (۴۱) من سورة النساء نقرأ قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

و فى شأن السّيد المسيح عليه السّلام نقرأ فى الآية (۱۱۷) من سورة المائدة: وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ

بعد هذا من القائل: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ أهو اللّه سبحانه، أم الأشهاد على الأعمال؟! هناك أقوال بين المفسّرين، لكن الظاهر أنّ هذا الكلام تتمة لقول الأشهاد ..

و الآية التى بعدها تبيّن صفات الظالمين فى ثلاث جمل:

الأولى تقول: إنّهم يمنعون الناس بمختلف الأساليب عن سبيل اللّه الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فمرّة عن طريق إلقاء الشبهة، و مرّة بالتهديد، و أحيانا عن طريق الإغراء و الطمع، و جميع هذه الأساليب ترجع إلى أمر واحد، و هو الصدّ عن سبيل اللّه.

الثّانية تقول: إنّهم يسعون فى أن يظهروا سبيل اللّه و طريقه المستقيم عوجا وَ يَبْغُونَها عِوَجاً[۲۰۶].

أى بأنواع التحريف من قبيل الزيادة أو النقصان أو التّفسير بالرأى و إخفاء الحقائق حتى لا تتجلى الصورة الحقيقية للصراط المستقيم.

و لا يستطيع الناس و طلاب الحق السير فى هذا الطريق.

و الثّالثة تقول: إنّهم لا يؤمنون بيوم النشور و القيامة وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

و عدم إيمانهم بالمعاد هو أساس الانحرافات، لأنّ الإيمان بتلك المحكمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۲

الكبرى و العالم الوسيع بعد الموت يفعل الطاقات الايجابية الكامنة فى النفس و الروح.

و من الطّريف أنّ جميع هذه المسائل تجتمع فى مفهوم «الظلم» لأنّ المفهوم الواسع لهذه الكلمة يشمل كل انحراف و تغيير للموضع الواقعى للأشياء و الأعمال و الصفات و العقائد.

فى الآية التالية يبيّن أنّ هؤلاء لا يستطيعون الهرب من عقاب اللّه فى الأرض و لا أن يخرجوا من سلطانه أُولئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي

الْأَرْضِ كما أنّهم لا يجدون وليّا و حاميا لهم غير اللّه وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ.

و أخيرا يشير سبحانه إلى عقوبتهم الشديدة حيث تكون مضاعفة يُضاعَفُ لَهُمُ الْعَذابُ

لماذا؟! لأنّهم كانوا ضالين و مخطئين و منحرفين، و فى الوقت ذاته كانوا يجرّون الآخرين إلى هذا السبيل، فلذلك سيحملون أوزارهم و أوزار الآخرين، دون التخفيف عن الآخرين من أوزارهم وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ ۲۰۷].

و هناك أخبار كثيرة فى أن «من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها، و من سنّ سنة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها».

و فى ختام الآية يبيّن اللّه سبحانه أساس شقاء هؤلاء بقوله: ما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَ ما كانُوا يُبْصِرُونَ

فهم فى الحقيقة بإهمالهم هاتين الوسيلتين المؤثرتين [وسيلتى السمع و البصر] لدرك الحقائق، ضلّوا السبيل و أضلّوا سواهم أيضا .. لأنّ الحق و الحقيقة لا يدركان إلّا بالسمع و البصر النافذ.

و من الطريف هنا أنّنا نقرأ فى الآية أنّهم ما كانوا يستطيعون السمع، أى استماع الحق، فهذا التعبير يشير إلى الحالة الواقعية التى هم فيها، و هى أنّ استماع الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۳

كان عليهم صعبا و ثقيلا إلى درجة يتصور فيها أنّهم فقدوا حاسة السمع، فلا قدرة لهم على السمع، و هذا التعبير ينسجم تماما مع قولنا مثلا: إنّ الشخص العاشق لا يستطيع أن يسمع كلاما عن عيوب معشوقه! ..

و بديهى أنّ عدم استطاعة دركهم الحقائق كانت نتيجة لجاجتهم الشديدة و عدائهم للحق و الحقيقة، و هذا لا يسلب عنهم المسؤولية، لأنّهم هم السبب فى ذلك، و هم الذى مهّدوا له، و كان بإمكانهم أن يبعدوا عنهم هذه الحالة، لأنّ القدرة على السبب قدرة على المسبّب.

و الآية التى بعدها تبيّن فى جملة واحدة حصيلة سعيهم وجدهم فى طريق الباطل، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ و هذه أعظم خسارة يمكن أن تصيب الإنسان، إذ يخسر وجوده الإنسانى .. ثمّ تضيف الآية: أنّهم اتخذوا آلهة و معبودين مصطنعين «مزيفين» و لكن تلاشت هذه الآلهة المصنوعة و المزيفة أخيرا .. وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و فى نهاية الآية بيان الحكم النهائى لمآلهم و عاقبتهم بهذا التعبير لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

و السبب واضح؛ لأنّهم حرموا من نعمة السمع الحاد و البصر النافذ، و خسروا كلّ إنسانيتهم و وجودهم، و مع هذه الحال فقد حملوا أثقال مسئوليتهم و أثقال الآخرين مع أثقالهم.

و المعنى الأصلى لكلمة «لا ـ جرم» مأخوذ من «جرم» على وزن «حرم» و هو قطف الثمار من الأشجار، كما نقل ذلك الراغب فى مفرداته، ثمّ توسع هذا المعنى فشمل كلّ نوع من الكسب و التحصيل، و لكثرة استعمال الكلمة فى الكسب غير المرغوب فيه شاعت فى هذا المعنى، و لذلك يطلق على الذنب أنّه جرم.

و لكن حين تبدأ هذه الكلمة جملة و هى مسبوقة ب «لا» فيكون معناها حينئذ:

أنّه لا شىء يمكنه أن يمنع أو يقطع هذا الموضوع، فهى قريبة من معنى «لا بدّ» أو «من المسلّم به» و اللّه العالم «فتدبر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۴

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۲۳) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ

الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۴)

التّفسير

تعقيبا على الآيات المتقدمة التى أوضحت حال منكرى الوحى، تأتى الآيتان هنا لتوضحا من فى قبالهم، و هم المؤمنون حقّا.

فالآيـة الأولى تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أى: استسلموا و انقادوا خاضعين لأمر اللّه و وعده الحق، أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

ملاحظتان

۱- بيان هذه الأوصاف الثلاثة و هى «الإيمان» و «العمل الصالح» و «التسليم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۵

و الخضوع و الإخبات إلى دعوة الحق» إنّما هو بيان أمور واقعية ترتبط بعضها ببعض، لأنّ العمل الصالح ثمرة من شجرة الإيمان، فالإيمان الذى ليس فيه مثل هذه الثمرة إيمان ضعيف و لا قيمة له و لا يحسب له حساب، و كذلك التسليم و الانقياد و الخضوع و الاطمئنان لما وعد اللّه سبحانه، كل ذلك من آثار الإيمان و العمل الصالح .. لأنّ الإعتقاد الصحيح و العمل النقى أساس وجود هذه الصفات و الملكات العالية فى المحتوى الداخلى للإنسان.

۲- كلمة «أخبتوا» مشتقة من «الإخبات» و جذرها اللغوى «خبت» على وزن «ثبت» و معناها الأصلى الأرض المنبسطة الواسعة التى يمكن للإنسان أن يخطو عليها باطمئنان و ارتياح، فلذلك استعملت هذه المادة «الخبت و الإخبات» فى الاطمئنان أيضا .. كما استعملت فى الخضوع و التسليم، لأنّ الأرض التى تبعث على الاطمئنان فى السير هى خاضعة و مستسلمة للسائرين، فعلى هذا يمكن أن يكون معنى الإخبات واحدا من المعانى الثلاثة الآتية، كما و يحتمل شموله لجميع هذه المعانى، إذ لا منافاة بينها:

۱- إنّ المؤمنين حقا خاضعون للّه.

۲- إنّهم مسلّمون لأمر اللّه.

۳- إنّهم مطمئنون بوعود اللّه.

و فى كل صورة إشارة إلى واحدة من أعلى الصفات الإنسانية فى المؤمنين التى ينعكس أثرها على كامل حياتهم! ..

الطريف هنا أنّنا نقرأ

فى حديث عن أبى أسامة قال: قلت لأبى عبد اللّه عليه السّلام: إنّ عندنا رجلا يسمّى «كليبا» لا يجىء عنكم شىء إلّا قال: أنا أسلّم، فسمّيناه: كليب تسليم، قال: فترحم عليه ثمّ قال «أ تدرون ما التسليم»؟ فسكتنا فقال: هو و اللّه الإخبات،

قول اللّه: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ أَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ ۲۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۶

و فى الآية الأخرى بيان لحالة هذين الفريقين فى مثال حىّ و واضح .. حال الأعمى و الأصم، و حال السميع و البصير، فتقول الآية: مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمى وَ الْأَصَمِّ وَ الْبَصِيرِ وَ السَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا ثمّ تعقب الآية أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ! و كما هو معلوم فى علم (المعانى و البيان)، فإنّه من أجل تجسيم الحقائق العقلية و توضيحها و تبيينها لعامّة الناس تشبه المعقولات بالمحسوسات دائما.

و القرآن الكريم اتبع هذه الطريقة بكثرة، و بيّن كثيرا من المسائل الدقيقة و ذات الأهمية البالغة بأمثلة جليّة و أخّاذة، و بيّن حقائقها فى أحسن صورة! البيان السابق من هذا القبيل، لأنّ أحسن الوسائل التى لها أثرها فى معرفة الحقائق الحسية فى عالم الطبيعة هى «العين و

الأذن» و لذلك لا يمكن أن يتصور أن أفرادا يولدون صمّا و عميانا يستطيعون أدراك مواضيع هذا العالم بصورة صحيحة، فهم يعيشون فى عالم غامض و مجهول.

كذلك حال منكرى الوحى، فبسبب لجاجتهم و عدائهم للحق و وقوعهم أسرى بمخالب التعصب و الأنانية و عبادة الذات، فقدوا بصرهم و سمعهم للحقيقة البيّنة، فلا يستطيعون ادراك الحقائق المرتبطة بعالم الغيب، و تأثير الإيمان، و التلذذ بعبادة اللّه، و عظمة التسليم لأمره.

هؤلاء الأفراد يعيشون أبدا عميانا صمّا فى ظلام مطبق و سكوت مميت .. فى حين أنّ المؤمنين الصادقين يرون كل حركة بأعين بصيرة، و يسمعون كل صوت بآذان سميعة، و بالتوجه إلى طريقهم يكون مصيرهم «السعادة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَ آتانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸)

التّفسير

قصّة نوح المثيرة مع قومه:

تقدم أنّ هذه السورة تحمل بين ثناياها قصص الأنبياء السابقين و تأريخهم، و ذلك لإيقاظ أفكار المنحرفين و الالتفات إلى الحقائق و بيان العواقب الوخيمة للمفسدين الفجار. و أخيرا بيان طريق النصر و الموفقية.

فى البداية تذكر قصّة نوح عليه السّلام، و هو أحد الأنبياء أولى العزم، و ضمن (۲۶) آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۸

ترسم النقاط الأساسية لتأريخه المثير ..

و لا شك أنّ قصّة جهاد نوح عليه السّلام المتواصل للمستكبرين فى عصره، و عاقبتهم الوخيمة، واحدة من العبر العظيمة فى تاريخ البشرية، و التى تتضمن دروسا هامّة فى كل واقعة منها ..

و الآيات المتقدمة تبيّن بداية هذه الدعوة العظيمة فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

التأكيد على مسألة الإنذار، مع أنّ الأنبياء كانوا منذرين و مبشرين فى الوقت ذاته لأنّ الثورة ينبغى أن تبدا ضرباتها بالإنذار و إعلام الخطر، لأنّه أشدّ تأثيرا فى إيقاظ النائمين و الغافلين من البشارة.

و الإنسان عادة إذا لم يشعر بالخطر المحدق به فإنّه يفضل السكون على الحركة و تغيير المواقع. و لذلك فقد كان إنذار الأنبياء و تحذيرهم بمثابة السياط على أفكار الضالّين و نفوسهم، فتؤثر فيمن له القابلية و الاستعداد للهداية على التحرك و الاتجاه الى الحق.

و لهذا السبب ورد الاعتماد على الإنذار فى آيات كثيرة من القرآن، كما فى الآية (۴۹) من سورة الحج، و الآية (۱۱۵) من سورة

الشعراء، و الآية (۵۰) من سورة العنكبوت، و الآية (۴۲) من سورة فاطر، و الآية (۷۰) من سورة ص، و الآية (۹) من سورة الأحقاف، و الآية (۵۰) من سورة الذاريات، و آيات أخرى كلها تعتمد على كلمة «نذير» فى بيان دعوة الأنبياء لأممهم.

و فى الآية الأخرى يلخّص محتوى رسالته فى جملة واحدة و يقول: رسالتى هى أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ثمّ يعقب دون فاصلة بالإنذار و التحذير مرّة أخرى إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۲۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۰۹

فى الحقيقة أن مسألة التوحيد و العبودية للّه الواحد الأحد هى أساس دعوة الأنبياء جميعا. فنحن نقرا فى الآية الثّانية من هذه السورة، و الآية (۴۰) من سورة يوسف عليه السّلام، الآية (۲۳) من سورة الإسراء ... نقرأ فى هذه الآيات و أمثالها فى الحديث عن الأنبياء أن دعوتهم جميعا تتلخص فى توحيد اللّه سبحانه.

فإذا كان جميع أفراد المجتمع موحدّون و لا يعبدون إلّا اللّه، و لا ينقادون للأوثان الوهمية الخارجية منها و الداخلية من قبيل الأنانية و الهوى و الشهوات و المقام و الجاه و النساء و البنين فلا يبقى أثر للسلبيات و الخبائث فى المجتمع البشرى.

فإذا لم يصنع الشخص الضعيف من ضعفه هذا صنما ليسجد له و يتبع أمره، فلا استكبار حينئذ و لا استعمار، و لا آثارهما الوخيمة من قبيل الذل و الأسر و التبعية و الميول المنحرفة و أنواع الشقاء بين أفراد المجتمع، لأنّ كل هذه الأمور وليدة الانحراف عن عبادة اللّه و التوجه نحو الأصنام و الطواغيت .. فلننظر الآن أوّل ردّ فعل من قبل الطواغيت و اتباع الهوى و المترفين و أمثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان و ماذا كان؟! لا شك أنّه لم يكن سوى حفنة من الأعذار الواهية و الحجج الباطلة و الأدلة الزائفة التى تعتبر ديدن جميع الجبابرة فى كل عصر و زمان، فقد أجاب أولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الإشراف و المترفين من قوم نوح عليه السّلام قالوا له أنت مثلنا و لا فرق بيننا و بينك: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا زعما منهم أن الرسالة الإلهية ينبغى أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أن البشر يحملها إلى البشر! و ظنّا منهم أنّ مقام الإنسان أدنى من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

نلاحظ هنا كلمة «الملأ» التى تشير إلى أصحاب الثروة و القوة الذين يملأ العين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۰

ظاهرهم، فى حين أن الواقع أجوف. و يشكلون أصل الفساد و الانحراف فى كل مجتمع، و يرفعون راية العناد و المواجهة أمام دعوة الأنبياء عليهم السّلام.

و الإشكال الثّانى: إنّهم قالوا: يا نوح؛ لا نرى متبعيك و من حولك إلّا حفنة من الأراذل و غير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ

و «الأراذل» جمع ل «أرذل» و تأتى أيضا جمع ل «رذل» التى تعنى الموجود الحقير، سواء كان إنسانا أم شيئا آخر غيره.

و بالطبع فإنّ الملتفين حول نوح عليه السّلام و المؤمنين به لم يكونوا أراذل و لا حقراء، و لكن بما أنّ الأنبياء ينهضون للدفاع عن المستضعفين قبل كل شىء، فأوّل جماعة يستجيبون لهم و يلبّون دعوتهم هم الجماعة المحرومة و الفقيرة، و لكن هؤلاء فى نظر المستكبرين الذين يعدّون معيار الشخصيّة القوة و الثروة فحسب يحسبونهم أراذل و حقراء ..

و إنّما سمّوهم ب «بادى الرأى» أى الذين يعتمدون على الظواهر من دون مطالعة و يعشقون الشىء بنظرة واحدة، ففى الحقيقة كان ذلك بسبب أنّ اللجاجة و التعصب لم يكن لها طريق الى قلوب هؤلاء الذين التفوا حول نوح عليه السّلام لأنّ معظمهم من الشباب المطهرة قلوبهم الذين يحسون بضياء الحقيقة فى قلوبهم، و يدركون بعقولهم الباحثة عن الحق دلائل الصدق فى أقوال الأنبياء عليهم السّلام و أعمالهم.

الإشكال الثّالث: الذى أوردوه على نوح عليه السّلام أنهم قالوا: بالاضافة الى أنّك إنسان و لست ملكا، و أن الذين آمنوا بك و التفوا

حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلا وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ

و الآيات التى تعقبها تبيّن رد نوح عليه السّلام و إجاباته المنطقية على هؤلاء حيث تقول: قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۱

و قد اختلف المفسّرون فى جواب نوح عليه السّلام هذا لأى من الإشكالات الثّلاثة هو؟

و لهم فى ذلك أقوال .. و لكن مع التدبر فى الآية يتّضح أنّ هذا الجواب يمكن أن يكون جوابا للإشكالات الثلاثة بأسرها.

لأنّ أوّل إشكال أوردوه على نوح هو: لم كنت إنسانا مثلنا و لم تكن ملكا؟

فكان جوابه لهم: صحيح أننى بشر مثلكم، و لكن اللّه آتانى رحمة و بيّنة و دليلا واضحا من عنده، فلا تمنع بشريتى هذه من أداء هذه الرسالة العظيمة، و لا ضرورة لأن أكون ملكا.

و الإشكال الثّانى هو: إنّ أتباع نوح مخدوعون بالظواهر. فيردّهم بالقول: إنّكم أحق بهذا الاتهام، لأنّكم أنكرتم هذه الحقيقة المشرقة، و عندى أدلّة كافية و مقنعة لكلّ من يطلب الحقيقة، إلّا أنّها خفيت عليكم لغروركم و تكبركم و أنانيتكم! و إشكال الثّالث: أنّهم قالوا: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فكان جواب نوح عليه السّلام: أى فضل أعظم من أن يشملنى اللّه برحمته، و أن يجعل الدلائل الواضحة بين يدى، فعلى هذا لا دليل لكم على اتهامى بالكذب، فدلائل الصدق عندى واضحة و جليّة! ..

و فى ختام الآية يقول النّبى نوح عليه السّلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الاستجابة لدعوتى و أنتم غير مستعدّين لها و كارهون لها أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۲

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۲۹ الى ۳۱]

اشارة

وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالاً إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱)

التّفسير

ما أنا بطارد الذين آمنوا:

فى الآيات المتقدمة رأينا أنّ قوم نوح «الأنانيين» كانوا يحتالون بالحجج الواهية و الإشكالات غير المنطقية على نوح و أجابهم ببيان جليّ واضح و الآيات محل البحث تتابع ما ردّ به نوح عليه السّلام على قومه المنكرين. فالآية الأولى التى تحمل واحدا من دلائل نبوة نوح، و من أجل أن تنير القلوب المظلمة من قومه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۳

تقول على لسان نوح: وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا فأنا لا أطلب لقاء دعوتى مالا أو ثروة منكم، و إنّما جزائى و ثوابى على اللّه سبحانه الذى بعثنى بالنّبوة و أمرنى بدعوة خلقه إليه إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

و هـذا يوضـح بصورة جيـدة و بجلاء أنّنى لا ـ أبتغى هـدفا ماديـا من منهجى هـذا، و لا أفكر بغير الأجر المعنوى من اللّه سـبحانه، و لا يستطيع مدّع كاذب أن يتحمل الآلام و المخاطر دون أن يفكر بالربح و النفع.

و هـذا معيـار و ميزان لمعرفـة القـادة الصـادقين من غيرهم الـذين يتحينون الفرص و يهـدفون الى تـأمين المنافع الماديـة فى كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

و يعقب نوح عليه السّلام بعد ذلك فى ردّه على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء و الشباب فيقول بصورة قاطعة: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا لأنّهم سيلاقون ربّهم و يخاصموننى فى الدار الآخرة إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ ۲۱۰].

ثمّ تختتم الآيـة ببيـان نوح لقومه بـأنّكم جـاهلون وَ لكِنِّى أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ و أى جهل و عـدم معرفـة أعظم من أن تضـيعوا مقياس الفضـيلة و تبحثون عنها فى الثروة و المال الكثير و الجاه و المقام الظاهرى، و تزعمون أنّ هؤلاء المؤمنين العفاة الحفاة بعيـدون عن اللّه و ساحة قدسه! هذا خطؤكم الكبير و عدم معرفتكم و دليل جهلكم.

ثمّ أنتم تتصورون- بجهلكم- أن يكون النّبى من الملائكة، فى حين ينبغى أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحسّ بحاجاتهم و يعرف مشاكلهم و آلامهم.

و فى الآية التى بعدها يقول لهم موضحا: إنّنى لو طردت من حولى فمن ينصرنى من عدل اللّه يوم القيامة و حتى فى هذه الدنيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۴

وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهيّن، إذ سيكونون خصومى يوم القيامـة بطردى لهم، و لا أحـد هناك يسـتطيع أن يدافع عنّى و يخلصنى من عدل اللّه، و لربّما أصابتنى عقوبة اللّه فى هذه الدنيا، أم أنّكم لا تفكرون فى أن ما أقوله هو الحقيقة عينها أَ فَلا تَذَكَّرُونَ

و الفرق بين «التفكر» و «التذكّر» هو أنّ التفكر فى حقيقته إنّما يكون لمعرفة شـىء لم تكن لنا فيه خبرة من قبل، و أمّا التذكر فيقال فى مورد يكون معروفا للإنسان قبل ذلك، كما فى المعارف الفطريّة.

و المسائل التى كانت بين نوح عليه السّـلام و قومه هى أيضا من هـذا القبيل، مسائل يعرفها الإنسان و يـدركها بفطرته و تـدبّره، و لكن تعصب قومه و غرورهم و غفلتهم و أنانيتهم ألقت عليها حجابا و غشاء فكأنّهم عموا عنها.

و آخر ما يجيب به نوح قومه و يردّ على إشـكالاتهم الواهيـة .. إنّكم إذا كنتم تتصورون أن لى امتيازا آخر غير الإعجاز الذى لدىّ عن طريق الوحى فـذلك خطأ، و أقول لكم بصـراحة: لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ و لا أسـتطيع أن أحقق كل شـىء أريـده و كل عمل أطلبه، حيث تحكى الآيـة عن لسانه وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ و لا أقول لكم إنّنى مطلع على الغيب وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ و لا أدعى أنّنى غيركم كأن أكون من الملائكة مثلا وَ لا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ فهذه الادّعاءات الفارغة و الكاذبة يتذرع بها المدّعون الكذبة، و هيهات أن يتـذرع بها الأنبياء الصادقون، لأنّ خزائن اللّه و علم الغيب من خصوصـيات ذات اللّه القدسـيّة وحدها، و لا ينسـجم الملك مع هذه الأحاسيس البشرية أيضا ..

فكل من يدعى واحدا من هذه الأمور الثلاثة المتقدمة- أو جميعها- فهو كاذب.

و مثل هذا التعبير ورد فى نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا كما نلاحظ ذلك فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۵

(۵۰) من سورة الأنعام حيث تقول الآية مخاطبة النّبى أن يبلغ قومه بذلك قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَىَ فانحصـار امتياز نبى الإسـلام فى مسألـة «الوحى» و نفى الأمور الثلاثـة الأخرى يـدل على أنّ الآيات التى تحدثت عن نوح كانت تستبطن هذا المعنى أيضا و إن لم تصرّح بذلك بمثل هذا التصريح!.

و فى ذيـل الآيـة يكرر التأكيـد على المـؤمنين المستضـعفين بـالقول: وَ لا ـ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً .. بـل على

العكس تماما، فخير هذه الدنيا و خير الآخرة لهم و إن كانوا عفاة لخلّو أيديهم من المال و الثروة .. فأنتم الذين تحسبون الخير منحصرا فى المال و المقام و السن و تجهلون الحقيقة و معناها تماما.

و على فرض صحة مدّعاكم أراذل و «أوباش» ف اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ

أنا الذى لا أرى منهم شيئا سوى الصدق و الإيمان يجب علىّ قبولهم، لأنّى مأمور بالظاهر، و العارف باسرار العباد هو اللّه سبحانه، فإن عملت غير عملى هذا كنت آثما إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ

و يرد هـذا الاحتمال أيضا فى تفسير الجملـة الأخيرة لأنّها مرتبطـة بجميع محتوى الآية، أى إذا كنت أدعى علم الغيب أو أنّى ملك أو أن عندى خزائن اللّه أو أن اطرد المؤمنين، فسأكون عند اللّه و عند الوجدان فى صفوف الظالمين.

ملاحظات

۱- أولياء اللّه و معرفة الغيب

الاطلاع على الغيب مطلقا- كما أشرنا إليه مرارا- و بدون أى قيد و شرط هو من خصوصيّات اللّه سبحانه، و لكنّه يطلع أنبياءه و أولياءه على الغيب بقدر ما يراه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۶

مصـلحة كما نرى الإشارة إليه فى الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الجن عـالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَـداً، إِلَّا مَنِ ارْتَضـى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

فعلى هـذا لاـ منافاة و لا تضادّ بين هـذه الآيات- محل البحث- التى تنفى أن يعلم الأنبياء الغيب، و بين الآيات أو الرّوايات التى تنسب إلى الأنبياء أو الأئمّة العلم ببعض الغيب.

فمعرفـة أسـرار الغيب و الاطلاع عليها من خصوصـيّات اللّه بالـذات، و ما عنـد الآخرين فبالعرض و «بالتعليم الإلهى»، و لذلك فإنّ علم الغيب عند غير اللّه محدود بالحدود التى يريدها اللّه سبحانه ۲۱۱].

۲- مقياس معرفة الفضيلة:

مرّة أخرى نـواجه الواقعيـة فى هـذه الآيـات، و هى أن أصـحاب الـثروة و القوة و عبيـد الـدنيا المـاديّين يرون جميع الأشـياء من خلال نافذتهم المادية .. فهم يتصورون أنّ الاحترام و الشخصيّة هما ثمرة وجود الثروة و المقام و الحيثيات فحسب، فلا ينبغى التعجب من أن يكون المؤمنون الصادقون الذين خلت أيديهم من المال و الثروة فى قاموسهم «أراذل» و ينظرون إليهم بعين الاحتقار و الازدراء.

و لم تكن هذه المسألة منحصـرة فى نوح و قومه، إذ كانوا يصـفون المؤمنين المستضـعفين حوله- و لا سـيما الشباب الوعى منهم- بأنّ عقولهم خالية و أفكارهم قاصـرة، و كأنّهم لا قيمة لهم. فالتاريخ يكشف أن هذا المنطق كان موجودا فى عصـر الأنبياء الآخرين و على الأخصّ فى زمن نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الأوائل.

كما نرى الآن مثل هذا المنطق فى عصرنا و زماننا، فالمستكبرون الذين يمثلون فراعنة العصر- اعتمادا على سلطانهم و قدراتهم و قواهم الشيطانية- يتهمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۷

«المؤمنین» بمثل هذا الاتهام .. فکأنّما یعید التاریخ نفسه و صوره علی أیدی هؤلاء و مخالفیهم ..

و لکن حین یتطهر المحیط الفاسد بثورة إلهیة .. فهذه المعاییر التی تقاس بها الشخصیّة و العناوین الموهومة الأخری تلقی فی مزابل التاریخ، و تحل محلّها المعاییر الإنسانیة الأصیلة .. المعاییر المتولدة من صمیم حیاة الإنسان و التی تکون لبنات تحتیة للبناء الفوقانی للمجتمع السلیم الحرّ، حیث یستلهم منها قیمه، کالإیمان و العلم الإیثار و المعرفة و العفو و التسامح و التقوی و الشهامة و الشجاعة و التجربة و الذکاء و الإدارة و النظم و ما أشبهها ..

۳- معنی علم الغیب فی القرآن

هناک بعض المفسّرین کصاحب «المنار» حین یصل إلی هذه الآیة یقول لمن یدعی أن علم الغیب لا یختصّ باللّه، أو یطلب حلّ المشاکل من سواه، یقول فی جملة قصیرة: إنّ هذین الأمرین- علم الغیب و خزائن اللّه- قد نفاهما القرآن عن الأنبیاء، لکن أصحاب البدع من المسلمین و أهل الکتاب یثبتونهما للأولیاء و القدیسین ۲۱۲].

إذا کان مقصوده نفی علم الغیب عنهم مطلقا و لو بتعلیم اللّه، فهذا مخالف لنصوص القرآن المجید الصریحة، و إذا کان مقصوده نفی التوسّل بأنبیاء اللّه و أولیائه بالصورة التی نطلب من اللّه بشفاعتهم أن یحلّ مشاکلنا، فهذا الکلام مخالف للقرآن و الأحادیث القطعیّة المسلّم بها عن طرق الشیعة و أهل السنّة أیضا.

لمزید من الإیضاح فی هذا المجال یراجع ذیل الآیة (۳۴) من سورة المائدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۸

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۳۲ الی ۳۵]

اشارة

قالُوا یا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَکْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۳۲) قالَ إِنَّما یَأْتِیکُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ (۳۳) وَ لا یَنْفَعُکُمْ نُصْحِی إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَکُمْ إِنْ کانَ اللَّهُ یُرِیدُ أَنْ یُغْوِیَکُمْ هُوَ رَبُّکُمْ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَیْتُهُ فَعَلَیَّ إِجْرامِی وَ أَنَا بَرِیءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵)

التّفسیر

کفانا الکلام فأین ما تعدنا به؟!

الآیة الأولی من الآیات أعلاه تتحدث عن قوم نوح علیه السّلام أنّهم: قالُوا یا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَکْثَرْتَ جِدالَنا فأین ما تعدنا به من عذاب اللّه فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ و هذا الأمر یشبه تماما عند ما ندخل فی جدال مع شخص أو أشخاص و نسمع منهم تهدیدا ضمنیا حین المجادلة فنقول: کفی هذا الکلام الکثیر!! اذهبوا و افعلوا ما شئتم و لا تتأخروا، فمثل هذا الکلام یشیر إلی أنّنا لا نکترث بکلامهم و لا نخاف من تهدیدهم، و لسنا مستعدین أن نسمع منهم کلاما أکثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۱۹

فاختیار هذه الطریقة إزاء کل ذلک اللطف و تلک المحبّة من قبل أنبیاء اللّه و نصائحهم التی تجری کالماء الزلال علی القلوب، إنّما

تحكى عن مدى اللجاجة و التعصب الأعمى لدى تلك الأقوام.

فى الوقت ذاته يشعرنا كلام نوح عليه السّلام بأنّه سعى مدّة طويلة لهداية قومه، و لم يترك فرصة للوصول إلى الهدف إلّا انتهزها لإرشادهم، و لكن قومه الضالين أظهروا جزعهم من أقواله و إرشاداته. و هذه المعادلة تتجلى جيدا فى سائر الآيات التى تتحدث عن نوح عليه السّلام و قومه فى القرآن، ففى سورة نوح عليه السّلام بيان لهذه الظاهرة بشكل واف- أيضا- فلنلاحظ الآيات التى تبدا من الآية «۵» و تنتهى بالآية (۱۳) من سورة نوح حيث نقرأ فيها: قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً.

فى الآية- محل البحث- وردت جملة «جادلتنا» من مادة «المجادلة» و أصلها مشتق من «الجدل» التى تعنى فتل الحبل و إبرامه، و لذلك يطلق على البازى «أجدل» لأنّه أشد فتلا من جميع الطيور، ثمّ توسعوا فى اللغة فصارت تطلق على الالتواء فى الكلام و ما أشبه.

مع أنّ «الجدال» و «المراء» و «الحجاج» على وزن «اللجاج» متقاربة المعانى و متشابهة فيما بينها، لكن بعض المحققين يرى أنّ «المراء» فيه نوع من المذمّة، لأنّه يستعمل أحيانا فى الاستدلال فى المسائل الباطلة، و لكن ذلك المفهوم لا يدخل فى كلمتى «الجدال و المجادلة»، و الفرق بين الجدال و الحجاج، أن الجدال يستعمل ليلفت الطرف المقابل و يبعده عن عقيدته، أمّا الحجاج فعلى العكس من ذلك بأن يدعى الشخص إلى العقيدة الفلانية بالاستدلال و البرهان.

لقد أجاب نوح عليه السّلام بجملة قصيرة على هذه اللجاجة و الحماقة و عدم الاعتناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۰

بقوله: إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ فذلك خارج من يدى على كل حال و ليس باختيارى، إنّما أنا رسوله و مطيع لأمره، فلا تطلبوا منّى العذاب و العقاب! .. و لكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا- تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمن آخر وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ

و «المعجز» مشتق من مادة «الإعجاز» و هى بمعنى سلب القدرة من الغير، و تستعمل هذه الكلمة أحيانا فى موارد يكون الإنسان مانعا لعمل الآخر أو لصده عن سبيله فيعجزه عن القيام بأى عمل، و أحيانا تستعمل فى فرار الإنسان من يد الآخر و خروجه من هيمنته فلا يقدر عليه، و أحيانا تستعمل فى تكبيل الآخر بالوثاق، أو بجعله مصونا .. إلخ.

فكل هذه المعانى من أوجه الإعجاز و سلب القدرة من الطرف الآخر.

الآية الآنفة الذكر تحتمل جميع هذه المعانى، لأنّه لا منافاة بين جميع هذه المعانى، فكلها تعنى أنّ لا حيلة تخلصكم و تجعلكم فى أمان من عذابه.

ثمّ يضيف: و إذا كان اللّه يريد أن يضلكم و يغويكم- لما أنتم عليه من الذنوب و التلوّث الفكرى و الجسدى- فلا فائدة من نصحى لكم إذا وَ لا- يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ فهو وليكم و أنتم فى قبضته هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

سؤال: مع مطالعة هذه الآية يثور هذا السؤال فورا- كما أن كثيرا من المفسّرين أشاروا إليه أيضا- و هو: هل يمكن أن يريد اللّه الغواية و الضلال لعباده؟ ثمّ أليس هذا دليلا على الجبر؟ و هل يتوافق هذا المعنى مع أصل حرية الإرادة و الإختيار للإنسان؟

و الجواب: كما اتّضح من ثنايا البحث المتقدم- و ما أشرنا إليه مرات عديدة- أنّه قد تصدر من الإنسان- أحيانا- سلسلة من الأعمال التى تكون نتيجتها الغواية و الانحراف الدائمى و عدم العودة إلى الحق، اللجاجة المستمرة و الإصرار على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۱

الذنوب و العداء الدائم لطلاب الحق و القادة الصادقين .. كل هذه الأمور تلقى على فكر الإنسان حجابا يفقده القدرة على رؤية أقل

شعاع لشمس الحقيقة و الحق، و لأنّ هذه الحالة من نتائج الأعمال التى يقوم بها الإنسان، فلا تكون دليلا على الجبر، بل هى عين الإختيار، و الذى يتعلق باللّه تعالى أنّه جعل فى مثل هذه الأعمال أثرا.

هناك آيات عديدة فى القرآن تشير إلى هذه الحقيقة، و قد أشرنا الى ذلك فى ذيل الآية (۷) من سورة البقرة و آيات أخرى يمكن مراجعتها ..

و فى آخر الآية- محل البحث ورد كلام بمثابة الجملة المعترضة ليؤكّد المواضيع التى بحثت قصّة نوح فى الآيات السابقة و اللاحقة، فتبيّن الآية أن الأعداء يقولون:

إنّ هذا الموضوع صاغه «محمّد» من قبل نفسه و نسبه إلى اللّه أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

ففى جواب ذلك قل يا رسول اللّه: إن كان ذلك من عندى و نسبته إلى اللّه فذنبه علىّ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي و لكنى برىء من ذنوبكم وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ

ملاحظات

۱- «الإجرام» مأخوذ من مادة «جرم» على وزن «جهل» و كما أشرنا إلى ذلك- سابقا- فإنّ معناه قطف الثمرة غير الناضجة، ثمّ أطلقت على كل ما يحدث من عمل سيء، و تطلق على من يحث الآخر على الذنب أنّه أجرم، و حيث أن الإنسان له ارتباط فى ذاته و فطرته مع العفاف و النقاء، فإنّ الإقدام على الذنوب يفصل هذا الارتباط الإلهى منه.

۲- احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية الأخيرة ليست ناظرة الى نبى الإسلام، بل ترتبط بنوح عليه السّلام نفسه، لأنّ جميع هذه الآيات تتحدث عن نوح عليه السّلام، و الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۲

المقبلة تتحدث عنه أيضا، فمن الأنسب أن تكون هذه الآية فى نوح عليه السّلام، و الجملة الاعتراضية خلاف الظاهر، و لكن مع ملاحظة ما يلى:

أوّلا: إنّ شبيه هذا التعبير وارد فى سورة الأحقاف الآية (۸) فى نبى الإسلام.

ثانيا: جميع ما جاء فى نوح عليه السّلام فى هذه الآيات كان بصيغة الغائب، و لكن الآية- محل البحث- جاءت بصيغة المخاطب، و مسألة الالتفات- أى الانتقال من ضمير الغيبة إلى المخاطب- خلاف الظاهر، و إذا أردنا أن تكون الآية فى نوح عليه السّلام فإنّ جملة «يقولون» بصيغة المضارع، و جملة «قل» بصيغة الأمر، يحتاجان كليهما إلى التقدير! ثالثا: هناك حديث فى تفسير البرهان فى ذيل هذه الآية عن الإمامين الصادقين الباقر و الصادق عليهما السّلام يبيّن أنّ الآية المتقدمة نزلت فى كفار مكّة.

من مجموع هذه الدلائل نرى أن الآية تتعلق بنبى الإسلام، و التهم التى و جهت إليه كان من قبل كفار مكّة، و جوابه عليهم.

و ينبغى ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى أنّ الجملة الاعتراضية ليست كلاما لا علاقة له بأصل القول، بل غالبا ما تأتى الجمل الاعتراضية لتؤكّد بمحتواها مفاد الكلام و تؤيده، و إنما ينقطع ارتباط الكلام أحيانا لتخف على المخاطب رتابة الإيقاع و ليبعث الجدة و اللطافة فى روح الكلام، و بالطبع فإنّ الجملة الاعتراضية لا يمكن أن تكون أجنبية عن الكلام بتمام المعنى، و إلّا فتكون على خلاف البلاغة و الفصاحة، فى حين أنّنا نجد دائما فى الكلمات البليغة و الفصيحة جملا اعتراضية.

۳- من الممكن أن يرد هذا الإشكال عند مطالعة الاية الأخيرة، و هو قول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو نوح عليه السّلام للكفار: إن يكن هذا الكلام افتراء فإثمه على. ترى هل يعنى قبول مسئولية الإثم «الافتراء» أنّ كلام الكفار حقا و مطابقا للواقع، و على الناس أن يتابعوه و يطيعوه!؟

و لكن مع تدقيق النظر فى الآيات السابقة نحصل على جواب هذا الإشكال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۳

و هو أنّ الأنبياء فى الحقيقة أرادوا القول: إنّ كلامنا يقوم على الاستدلالات العقلية، فعلى فرض المحال أنّنا لم نكن مبعوثين من قبل اللّه فإثم ذلك على أنفسنا، و هذا بغض النظر عن الاستدلالات العقلية، و لكنّكم أيّها الكفار ستبقون بمخالفتكم صرعى الإثم دائما، الإثم المستمر و الباقى «لا حظ كلمة تجرمون التى جاءت بصيغة المضارع و التى تدل على الاستمرار «فتأمل جيدا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۳۶ الى ۳۹]

اشارة

وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۹)

التّفسير

بداية النّهاية:

إنّ قصّة نوح عليه السّلام الواردة فى آيات هذه السورة، بيّنت بعدّة عبارات و جمل، كل جملة مرتبطة بالأخرى، و كل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السّلام فى قبال المستكبرين، ففى الآيات السابقة بيان لمرحلة دعوة نوح عليه السّلام المستمرة و التى كانت فى غاية الجدية، و بالاستعانة بجميع الوسائل المتاحة حيث استمرت سنوات طوالا- آمنت به جماعة قليلة .. قليلة من حيث العدد و كثيرة من حيث الكيفية و الاستقامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۵

و فى الآيات محل البحث إشارة إلى المرحلة الثّالثة من هذه المواجهة، و هى مرحلة انتهاء دورة التبليغ و التهيؤ للتصفية الإلهية.

ففى الآية الأولى نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك و يؤمن باللّه غير هؤلاء: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ

و هى إشارة إلى أنّ الصفوف قد امتازت بشكل تام، و الدعوة للإيمان و الإصلاح غير مجدية، فلا بدّ إذا من الاستعداد لتصفية و التحول النهائى.

و فى نهاية الآية تسلية لقلب نوح عليه السّلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل هذه الأعمال فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ و نستفيد من هذه الآية- ضمنا- أنّ اللّه يطلع نبيّه نوحا على قسم من أسرار الغيب بمقدار ما ينبغى، كما نجد أنّ اللّه تعالى يخبره بأنّه لن يؤمن بدعوته فى المستقبل غير أولئك الذين آمنوا به من قبل، و على كل حال لا بدّ من إنزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، و ليكون المؤمنون فى منأى عن مخالبهم، و هكذا صدر الأمر بإغراقهم، و لكن لا بدّ لكل شىء من سبب، فعلى نوح أن يصنع السفينة المناسبة لنجاة المؤمنين الصادقين لينشط المؤمنون فى مسيرهم أكثر فأكثر، و لتتم الحجّة على غيرهم بالمقدار الكافى أيضا.

و جاء الأمر لنوح أن ... اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا.

إنّ المقصود من كلمة «أعيننا» إشارة إلى أن جميع ما كنت تعمله و تسعى بجد من أجله فى هذا المجال هو فى مرءاى و مسمع منّا، فواصل عملك مطمئن البال.

و طبيعى أنّ هذا الإحساس بأنّ اللّه حاضر و ناظر و مراقب و محافظ يعطى الإنسان قوة و طاقة، كما أنّه يحسّ بتحمل المسؤولية أكثر.

كما يستفاد من كلمة «وحينا» أيضا أن صنع السفينة كان بتعليم اللّه، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ نوحا عليه السّلام لم يكن بذاته ليعرف مدى الطوفان الذى سيحدث فى المستقبل ليصنع السفينة بما يتناسب معه، و إنّما هو وحى اللّه الذى يعينه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۶

انتخاب أحسن الكيفيات.

و فى نهاية الآية ينذر اللّه نوحا أن لا يشفع فى قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب و إن الغرق قد كتب عليهم حتما وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ

هذه الجملة تبين بوضوح أنّ الشفاعة لا تتيسر لكل شخص، بل للشفاعة شروطها، فإذا لم تتوفر فى أحد الأشخاص فلا يحق للنّبى أن يشفع له و يطلب من اللّه العفو لأجله (راجع المجلد الأوّل من هذا التّفسير ذيل الآية ۴۸ من سورة البقرة).

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد- و لو لحظة واحدة- فى دعوة النّبى نوح عليه السّلام و يحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار و هذه الدعوات المكررة كلها من «وحى اللّه» فتكون مسألة العذاب و الطوفان حتمية!! إلّا أنّهم واصلوا استهزاءهم و سخريتهم مرّة أخرى و هى عادة الأفراد المستكبرين و المغرورين وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ

«الملأ» و الأشراف الراضون عن أنفسهم يسخرون من المستضعفين فى كل مكان، و يعدونهم أذلاء و حقراء لأنّهم لا قوّة لهم و لا ثروة!! و مضافا بل حتى أفكارهم و إن كانت سامية، و مذهبهم و إن كان ثابتا و راسخا، و أعمالهم و إن كانت عظيمة و جليلة .. كل ذلك فى حساب «الملأ» حقير تافه ..! و لذلك لم ينفعهم الإنذار و النصيحة. فلا بدّ أن تنهال أسواط العذاب الأليم على ظهورهم يقال أن الملأ من قوم نوح و الأشراف كانوا جماعات، و كل جماعة تختار نوعا من السخرية و الاستهزاء بنوح ليضحكوا و يفرحوا بذلك الاستهزاء! فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أن دعوى النبوة لم تنفع و صرت نجارا آخر الأمر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۷

و منهم من يقول: حسنا تصنع السفينة، فينبغى أن تصنع لها بحرا، أ رأيت إنسانا عاقلا يصنع السفينة على اليابسة. و منهم من يقول: واها لهذه السفينة العظيمة، كان بإمكانك أن تصنع أصغر منها ليمكنك سحبها إلى البحر.

كانوا يقولون مثل ذلك و يقهقهون عاليا، و كان هذا الموضوع مثار حديثهم و بحثهم فى البيوت و أماكن عملهم، حيث يتحدثون عن نوح و أصحابه و قلّة عقلهم: تأملوا الرجل العجوز و تفرّجوا عليه كيف انتهى به الأمر، الآن ندرك أن الحق معنا حيث لم نؤمن بكلامه، فهو لا يملك عقلا صحيحا!! و لكن نوحا كان يواصل عمله بجدية فائقة و أناة و استقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، و كان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم و عميت قلوبهم، و إنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. و يوما بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل و يتهيأ لذلك اليوم العظيم، و كان نوح عليه السّلام أحيانا يرفع رأسه و يقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ

ذلك اليوم الذى يطغى فيه الطوفان فلا تعرفون ما تصنعون، و لا ملجأ لكم، و تصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة .. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين و من غفلتكم و جهلكم و عدم معرفتكم و يضحكون عليكم.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ إشارة إلى أنّه بالرغم من أنّ مضايقاتكم لنا مؤلمة، و لكننا نتحمل هذه الشدائد و نفتخر بذلك أوّلا، كما أنّ ذلك مهما يكن فهو منقض و زائل، أمّا عذابكم المخزى فهو باق و دائم ثانيا، و هذان الأمران

معا لا یقبلان القیاس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۸

ملاحظات

۱- التصفیة لا الانتقام

یستفاد من الآیات المتقدمة أنّ عذاب اللّه یفتقد جنبة الانتقام، لأنّه عبارة عن تصفیة نوع من البشر و زوالهم لعدم جدارتهم بالحیاة، و لیبقی الصالحون من بعدهم .. إنّ مثل هؤلاء المستکبرین الفاسدین و المفسدین لا أمل بإیمانهم، و لا حق لهم فی الحیاة فی نظر نظام الخلق، و هکذا کان قوم نوح لأنّ الآیات السابقة تبیّن له أنّه لن یؤمن من قومک إلّا من قد آمن، فلا أمل بإیمانهم فتهیأ لصنع «الفلک» وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا.

و هذا الموضوع یبدو جلیا فی دعاء هذا النّبی علی قومه، فنحن نقرأ فی سورة نوح علیه السّلام وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَی الْأَرْضِ مِنَ الْکافِرِینَ دَیَّاراً إِنَّکَ إِنْ تَذَرْهُمْ یُضِلُّوا عِبادَکَ وَ لا یَلِدُوا إِلَّا فاجِراً کَفَّاراً.

و أساسا فإنّ لکل موجود هدفا فی نظام الخلقة، و حین ینحرف هذا الموجود عن هدفه و یغلق علی نفسه جمیع طرق الإصلاح، یکون وجوده و بقاؤه بلا معنی، و لا بد من أن یزول شاء أم أبی، و کا یقول الشاعر:

لا نضرة عندی و لا ورق و لاورد و لا ثمر ففیم بقائی

۲- علائم المستکبرین:

إنّ المستکبرین الأنانیین یحولون المسائل الجدیة التی لا تنسجم مع رغابتهم و میولهم و منافعهم إلی لعب و استهزاء. و لهذا السبب فإنّ الاستهزاء بالحقائق- و لا سیما فیما یتعلق بحیاة المستضعفین- یشکل جزءا من حیاتهم .. فکثیرا ما نجدهم من أجل أن یعطوا لجلساتهم المليئة بآثامهم رونقا و جمالا یبحثون عن مؤمن خالی الید لیسخروا منه و یستهزءوا به.

و إذا اتفق أنّ أحد المؤمنین لم یکن فی مجلسهم فسوف یذکرون واحدا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۲۹

المؤمنین فی غیابه و یسخرون منه و یضحکون! .. إنّهم یتصورون أنفسهم بأنّهم العقل المطلق، و یظنون أنّ الثروة العظیمة- و التی هی من الحرام- دلیل علی شخصیتهم و عظمتهم و قیمتهم! و أنّ الآخرین فاقدو الشخصیة و لا قیمة لهم و غیر لائقین! و لکن القرآن المجید یوجه أشدّ هجومه علی مثل هؤلاء الأفراد المغرورین المتکبرین، و لا سیما استهزاؤهم المحکوم علیه بغضب اللّه و سخطه! نقرأ فی التاریخ الإسلامی- علی سبیل المثال- أن «أبا عقیل الأنصاری» هذا العامل الفقیر و المؤمن کان یسهر اللیل فی حمل الماء من آبار «المدینة» إلی البیوت و یستوفی أجره بتمیرات، ثمّ یأتی بهذه التمیرات إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی غزوة «تبوک» علی أنّها مساعدة لجیش الإسلام، فیلتفت المنافقون المستکبرون و یسخرون منه، فتنزل آیات من القرآن لها وقع الصاعقة علیهم الَّذِینَ یَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِینَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ فِی الصَّدَقاتِ وَ الَّذِینَ لا یَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَیَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۶ ؛ ص۵۲۹

۳- سفینة نوح:

لا شکّ أنّ سفینة نوح لم تکن سفینة عادیّة و لم تنته بسهولة مع وسائل ذلک الزمان آلاته، إذ کانت سفینة کبیرة تحمل بالإضافة إلی المؤمنین الصادقین زوجین اثنین من کل نوع من الحیوانات، و تحمل متاعا و طعاما کثیرا یکفی للمدّة التی یعیشها المؤمنون و الحیوانات فی السفینة حال الطوفان، و مثل هذه السفینة بهذا الحجم و قدرة الاستیعاب لم یسبق لها مثیل فی ذلک الزمان. فهذه السفینة ستجری فی بحر بسعة العالم، و ینبغی أن تمرّ سالمة عبر أمواج کالجبال فلا تتحطم بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۰

لذلک تقول بعض روایات المفسّرین: إنّ طول السفینة کان ألفا و مائتی ذراع، و عرضها کان ستمائة ذراع «کل ذراع یعادل نصف متر تقریبا».

و نقرأ فی بعض الرّوایات أنّ النساء ابتلین قبل الطوفان بأربعین عامّا بالعقم و عدم الإنجاب، و کان ذلک مقدمة لعذابهم و عقابهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۱

الآیات [سورة هود (۱۱): الآیات ۴۰ الی ۴۳]

اشارة

حَتَّی إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِیها مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِیلٌ (۴۰) وَ قالَ ارْکَبُوا فِیها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّی لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۴۱) وَ هِیَ تَجْری بِهِمْ فِی مَوْجٍ کَالْجِبالِ وَ نادی نُوحٌ ابْنَهُ وَ کانَ فِی مَعْزِلٍ یا بُنَیَّ ارْکَبْ مَعَنا وَ لا تَکُنْ مَعَ الْکافِرِینَ (۴۲) قالَ سَآوِی إِلی جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْیَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَیْنَهُمَا الْمَوْجُ فَکانَ مِنَ الْمُغْرَقِینَ (۴۳)

التّفسیر

شروع الطّوفان:

رأینا فی الآیات المتقدمة کیف صنع نوح علیه السّلام و جماعته المؤمنون سفینة النجاة بصدق. و واجهوا جمیع المشاکل و استهزاء الأکثریة من غیر المؤمنین، و هیأوا أنفسهم للطوفان، ذلک الطوفان الذی طهّر سطح الأرض من لوث المستکبرین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۲

الکفرة.

و الآیات- محل البحث- تتعرض لموضوع ثالث، و هو کیف کانت النهایة؟

و کیف تحقق نزول العذاب علی القوم المستکبرین، فتبیّنه بهذا التعبیر حَتَّی إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ.

التّنور: بتشدید النون، هو المکان الذی ینضج الخبز فیه بعد أن کان عجینا.

لکن ما مناسبة فوران الماء فی التنور و اقتراب الطوفان؟

اختلف المفسّرون فکانت لهم أقوال کثیرة فی ذلک ..

قال بعضهم: كان العلامة بين نوح و ربّه لحلول الطوفان أن يفور التّنور، ليلتفت نوح و أصحابه إلى ذلك فيركبوا فى السفينة مع وسائلهم و أسبابهم.

و قال جماعة آخرون: إنّ كلمة «التنور» استعملت هنا مجازا و كناية عن غضب اللّه، و يعنى أن غضب اللّه اشتدّت شعلته و فار، فهو إشارة الى اقتراب حلول العذاب المدمّر، و هذا التعبير مطرّد حيث يشبّهون شدّة الغضب بالفورة و الاشتعال! و لكن يبدو أنّ احتمال أن يكون التنور قد استعمل بمعناه الحقيقى المعروف أقوى، و المراد بالتّنور ليس تنّورا خاصّا، بل المقصود بيان هذه المسألة الدقيقة، و هى أن حين فار التّنور بالماء- و هو محل النّار عادة- التفت نوح عليه السّلام و أصحابه إلى أن الأوضاع بدأت تتبدل بسرعة و أنّه حدثت المفاجأة، فأين «الماء من النّار»؟! و بتعبير آخر: حين رأوا أنّ سطح الماء ارتفع من تحت الأرض و أخذ يفور من داخل التنور الذى يصنع فى مكان يابس و محفوظ، من الرطوبة علموا أن أمرا مهمّا قد حدث و أنّه قد ظهر فى التكوين أمر خطير، و كان ذلك علامة لنوح عليه السّلام و أصحابه أن ينهضوا و يتهيئوا.

و لعلّ قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. و هى فوران التنور بالماء فى بيوتهم و لكن غضوا أجفانهم و صمّوا آذانهم كعادتهم عند مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۳

يسمحوا لأنفسهم بالتفكير فى هذا الأمر و أن إنذارات نوح حقيقية.

فى هذه الحالة بلغ الأمر الإلهى نوحا قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ

لكن كم هم الذين آمنوا معه؟ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ

هذه الآية تشير من جهة إلى امرأة نوح و ابنه كنعان- اللذين ستأتى قصتهما فى الآيات المقبلة- و قد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما و تآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق فى ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

و تشير الآية من جهة أخرى إلى أنّ ثمرة جهاد نوح عليه السّلام بعد هذه السنين الطوال و السعى الحثيث المتواصل فى التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل! بعض الرّوايات تقول أنّه استجاب لنوح خلال هذه الفترة الطويلة ثمانون شخصا فقط، و تشير بعض الرّوايات الأخرى إلى عدد أقل من ذلك، و هذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النّبى العظيم نوح عليه السّلام من الصبر و الاستقامة «فى درجة قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهداية شخص واحد عشر سنوات تقريبا، هذا التعب الذى لا يبذله الناس حتى لأولادهم!.

جمع نوح عليه السّلام ذويه و أصحابه المؤمنين بسرعة، و حين أزف الوعد و اقترب الطوفان و أو شك أن يحل عذاب اللّه أمرهم أن يركبوا فى السفينة وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها[۲۱۳].

لماذا؟! لكى يعلمهم أنّه ينبغى أن تكونوا فى جميع الحالات فى ذكر اللّه تعالى و تستمدوا العون من اسمه و ذكره إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

فبمقتضى رحمته جعل هذه السفينة تحت تصرفكم و اختياركم لتنجيكم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۴

الغرق و بمقتضى عفوه و غفرانه يتجاوز عن أخطائكم.

و أخيرا حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهى فتلبدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، و تراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، و تتابعت أصوات الرعد و ومضات البرق فى السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة و مرعبة جدّا».

شرع المطر و توالى مسرعا منهمرا أكثر فأكثر، و كما يصفه القرآن فى سورة القمر فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ

عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.

و من جهة أخرى ارتفعت المياه الجوفية بصورة رهيبة بحيث تفجرت عيون الماء من كل مكان.

و هكذا اتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل و لا واد و لا تلعة و لا نجد إلّا استوعبه الماء و صار بحرا محيطا خضمّا .. أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم و تغدو كالجبال. و سفينة نوح و من معه تمضى فى هذا البحر وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ فإنّ مصيرك الى الفناء إذا لم تركب معنا.

لم يكن نوح هذا النّبى العظيم أبا فحسب، بل كان مربيّا لا- يعرف التعب و النصب، و متفائلا- بالأمل الكبير بحيث لم ييأس من ابنه القاسى القلب، فناداه عسى أن يستجيب له، و لكن- للأسف- كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرّق عليه.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الأحمق، و ظنّا منه أن ينجو من غضب اللّه أجاب والده نوحا و قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ و لكنّ نوحا لم ييأس مرّة أخرى فنصحه أن يترك غروره و يركب معه و قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ و لا ينجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف اللّه إِلَّا مَنْ رَحِمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۵

الجبل أمره سهل و هين، و كرة الأرض أمرها هين كذلك .. الشمس و المجموعة الشمسية بما فيها من عظمة مذهلة لا تعدل ذرّة إزاء قدرة اللّه الأزليّة.

أليس أعلى الجبال بالنسبة لكرة الأرض بمثابة نتوءات صغيرة على سطح برتقالة؟! أ ليست هذه الأرض التى ينبغى أن يتضاعف حجمها إلى مليون و مائتى ألف مرّة حتى تبلغ حجم الشمس، و هذه الشمس التى تعدّ نجما متوسطا فى السماء من بين ملايين الملايين من النجوم فى متسع عالم الخلق، فأىّ خيال ساذج و فكر بليد يتوقع من الجبل أن يصنع شيئا؟

و فى هذه الحالة التى كان ينادى نوح ابنه و لا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة و التهمت كنعان بن نوح و فصل الموج بين نوح و ولده وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ

بحوث

۱- هل كان طوفان نوح مستوعبا للعالم؟!

من خلال ظاهر الآيات يبدو لنا أنّ الطوفان لم يكن لمنطقة من الأرض دون أخرى، بل غطى كل سطح الأرض، لأنّ كلمة «الأرض» ذكرت بصورة مطلقة، كما فى الآية (۲۶) من سورة نوح رَبِّ لا- تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً كما فى الآية (۴۴) المقبلة من سورة هود وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي و هكذا ذكر كثير من المؤرخين- أيضا- أنّ طوفان نوح كان عالميا، و لذلك يرجع نسل جميع البشر اليوم إلى واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام و سام و يافث» الذين بقوا بعده مدة! و فى التاريخ الطبيعى نعثر على فترة تدعى فترة الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفترة الزمنية قبل تولّد الحيوانات، فهى تنطبق على طوفان نوح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۶

و هذه النظرية موجودة أيضا التاريخ الطبيعى للأرض، و هى أن محور الكرة الأرضية يتغير تدريجا، بحيث يكون القطبان الشمالى و الجنوبى مكان خط الإستواء، و يحلّ خط الإستواء محلّهما، و واضح أنّ الحرارة التى تكون فى أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبية فترتفع مياه البحار حتى تستوعب كثيرا من اليابسة، و مع النفوذ فى ثنايا الأرض و طياتها تحدث العيون المتفجرة، و كل ذلك يبعث على كثرة السحب و الأمطار.

کما أنّ مسألة اختیار نوح علیه السّلام من کل نوع من الحیوانات زوجین و حملها معه علی السفینة یؤید کون الطوفان عالمیّا أیضا، و إذا عرفنا أنّ نوحا کان یسکن الکوفة- کما تقول الرّوایات- و أن طرف الطوفان و حافته- طبقا للرّوایات الأخری- کان فی مکّة و بیت اللّه الحرام، فهذا نفسه أیضا مؤید «لعالمیّة الطوفان».

و لکن مع هذه الحال، فلا یبعد أن یکون الطوفان فی منطقة معینة من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض علی المنطقة الواسعة من العالم تکرر فی عدد من آیات القرآن، کما نقرأ فی قصّة بنی إسرائیل وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا[۲۱۴].

و حمل الحیوانات فی السفینة ربّما کان لئلا ینقطع نسلها فی ذلک القسم من الأرض، خصوصا أن نقل الحیوانات و انتقالها فی ذلک الیوم لم یکن أمرا هیّنا «فتدبر»! و هناک قرائن أخری تقدم ذکرها یمکن أن یستفاد منها أنّ الطوفان لم یستوعب الکرة الأرضیة کلّها.

و هناک مسألة تسترعی الانتباه- أیضا- و هی أنّ طوفان نوح کان بمثابة العقاب لقومه، و لیس لنا دلیل علی أن دعوة نوح شملت الأرض کلها، و عادة فإنّ وصول دعوة نوح فی مثل زمانه إلی جمیع نقاط الأرض أمر بعید .. و لکن علی کل حال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۷

فالهدف القرآنی من بیان هذه القصّة للعبرة و بیان المسائل التی تربی الآخرین، سواء کان الطوفان عالمیا أو غیر عالمی.

۲- هل تقبل التوبة بعد نزول العذاب؟!

یستفاد من الآیات المتقدمة أنّ نوحا علیه السّلام استمر یدعو ولده حتی بعد شروع الطوفان، و هذا دلیل علی أنّه لو آمن ابنه «کنعان» لقبل إیمانه.

و یرد هنا سؤال و هو أنّه بالنظر إلی آیات القرآن الأخری و التی مرّت «نماذج» منها، تنصّ علی أنّ أبواب التوبة تغلق بعد نزول العذاب .. لأنّ المجرمین فی هذه الحالة إذ یرون العذاب محدقا بهم فالغالبیة منهم یتوبون عن إکراه و اضطرار لرؤیة العذاب بأعینهم، فعندئذ تکون توبتهم بلا محتوی و فاقدة للاعتبار.

و لکن بالتدقیق فی الآیات السابقة یمکن الجواب علی هذا السؤال، هو أنّ شروع الطوفان و ما جری فی بدایة الأمر، لم یکن علامة واضحة للعذاب، بل کان یتصور أنّه مطر شدید لا مثیل له .. و علی هذا فإنّ ابن نوح حین قال لأبیه سَآوِی إِلی جَبَلٍ یَعْصِمُنِی مِنَ الْماءِ ظنّا منه أنّ الطوفان و المطر کانا طبیعیین. ففی هذه الحالة لا یبعد أن تکون أبواب التوبة ما تزال مفتوحة، و یمکن أن یرد سؤال آخر فی شأن ابن نوح، و هو أنّه لم نادی نوح ابنه دون سائر الناس فی هذه اللحظة الحرجة؟! و یمکن أن یکون الجواب أنّ نوحا أدّی وظیفته فی الدعوة العامّة للآخرین و بضمنها دعوته لولده، إلّا أنّه کان یتحمل وظیفة أصعب بالنسبة لولده، و هی وظیفة «الابوّة» إلی جانب وظیفة «النّبوة» فلهذا السبب کان یؤکّد علی أداء وظیفته بالنسبة لولده إلی آخر لحظة.

و الاحتمال الآخر و کما یقول المفسّرون أنّ ابن نوح لم یکن فی صفّ الکفار و لا فی صف المؤمنین، بل کما یقول القرآن: کانَ فِی مَعْزِلٍ فلأنّه لم یکن مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۸

المؤمنین فإنّه کان یستحق العقاب، و لأنّه لم یکن مع الکافرین فإنّه کان یستحق أن یتوجه إلیه التبلیغ و اللطف و المحبّة بصورة أکثر .. أضف إلی ذلک أن ابتعاده عن الکفار و کونه فی معزل، کان یقوی أمل نوح فی أن یندم ولده علی الابتعاد عنه.

و هناک احتمال آخر، و هو أنّ ابن نوح لم یکن یخالف أباه بصراحة، بل کان منافقا و کان یوافق أباه فی الظاهر أحیانا، فلذلک طلب نوح من ربّه له النجاة.

و علی کل حال فإنّ الآیة السابقة لا تنافی مضامین الآیات الأخری التی تشیر إلی انسداد أبواب التوبة حال نزول العذاب.

۳- دروس تربویة من طوفان نوح:

اشارة

إنّ هدف القرآن الأصلی من ذکر قصص الماضین بیان دروس و عبر و مسائل تربویة، و فی هذا القسم من قصّة نوح مسائل مهمّة جدّا نشیر إلی قسم منها:

أ- تطهیر وجه الأرض:

صحیح أنّ اللّه رحیم ودود، و لکن لا ینبغی أن ننسی أنّه حکیم أیضا، فبمقتضی حکمته أنّه عند ما لا تؤثر دعوة الناصحین و المربیّن الإلهیین فی قوم فاسدین، فلا حق لهم بعد ذلک فی الحیاة و سینتهون نتیجة للثورات الاجتماعیة أو الطبیعیة و تحت وطأة التنظیم الحیاتی.

و هذا الأمر غیر منحصر فی قوم نوح و لا بزمان معین، إنما هو سنة اللّه فی خلقه و عبادة فی جمیع العصور و الأزمان حتی فی عصرنا الحاضر، و أی إشکال فی أن تکون کل من الحرب العالمیة الأولی و الحرب العالمیة الثّانیة صورة من صور «تطهیر الأرض».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۳۹

ب- لم کان العقاب أو الطوفان؟!

صحیح أن قوما أو أمّة کانوا فاسدین و ینبغی زوالهم و مهما تکن وسائل إزالتهم فالنتیجة واحدة، و لکن بالتدقیق فی الآیات المتقدمة نستفید أنّ هناک تناسبا بین الذنوب و عقاب اللّه دائما و أبدا. «فتدبر جیدا».

کان فرعون یری قدرته و عظمته تتجلی فی «نهر النیل» و میاهه کثیر البرکات، لکن الطریف أنّ هلاک فرعون و نهایته کان فی النیل.

و کان نمرود یعتمد علی «جیشه» العظیم، لکننا نعلم أنّ جیشا- لا یعتد به- من الحشرات هزمه و جنوده أجمعین.

و کان قوم نوح أهل زراعة «و أنعام» و کانوا یجدون کل خیراتهم فی «حبات المطر» لکن نهایتهم کانت بالمطر أیضا ..

و من هنا یتّضح جلیا أنّ حساب اللّه فی غایة الدقّة، و لو لا حظنا الطغاة العتاة فی عصرنا و فی الحرب العالمیة الأولی و الثّانیة کیف أبیدوا بأسلحتهم الحدیثة و المتطورة لا تضح المعنی اکثر.

فلا ینبغی أن نعجب أنّ هذه الصناعات المتقدمة التی اعتمدوا علیها فی استعمار الشعوب و استثمار خیراتهم و استضعافهم .. أدت إلی زوالهم.

ج- اسم اللّه علی کل حال و فی کل مکان

قرأنا فی الآیات المتقدمة أنّ نوحا علیه السّلام یوصی أصحابه أن لا ینسوا ذکر اسم اللّه فی بدایة حرکة السفینة و عند توقفها، فکل شیء یتقوم باسمه و بذکره، و ینبغی أن نستمد العون من ذاته القدسیّة، کل حرکة و کل توقف، حال الهدوء و حال الإعصار و الطوفان، کل هذه الحالات ینبغی أن تبدأ باسمه، لأنّ کل عمل یبدأ دون ذکر اسمه فهو «أبتر و مقطوع»، و کما

ورد عن نبی الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الحدیث الشریف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۰

«کل أمر ذی بال لم یذکر فیه بسم اللّه فهو أبتر»[۲۱۵]

و ليس ذكر اللّه من باب التشريف، بل هو هدف و غاية، فكل عمل ليس فيه هدف إلهى فهو أبتر، لأنّ الأهداف المادية تتلاشى و تنتهى إلّا الأهداف الإلهية فهى غير قابلة للفناء، و حين تبلغ الأهداف المادية الذروة تنطفئ و تزول، إلّا أنّ الأهداف الإلهية خالدة و باقية كذاته المقدسة.

د- المرتكزات الجوفاء:

من الطبيعى أنّ كل أحد يعتمد فى التغلّب على الصعاب و مواجهة المشاكل فى حياته إلى أمر ما، فجماعة يعتمدون على الثروة و المال، و جماعة على المقام و المنصب، و جماعة يلجأون إلى القدرة الجسمية، و آخرون إلى أفكارهم .. و لكن- كما تخبرنا الآيات المتقدمة و يرينا التاريخ- لا- أحد من هؤلاء يستطيع أن يقاوم أدنى مقاومة أمام أمر اللّه و قدرته، حيث يكون مثله كمثل خيط العنكبوت يتلاشى أمام هبوب الرياح الشديدة.

فابن نوح عليه السّلام لغروره و غفلته كان غارقا فى مثل هذا الوهم، و ظن أنّ الجبل سيعصمه من طوفان غضب اللّه و يحميه و لكن موجة واحدة من ذلك الطوفان المتلاطم كشفت سراب ظنّه و أنهت حياته.

من هنا نقرأ فى بعض الأدعية

«إنّى هارب منك إليك»[۲۱۶]

أى: لو كان هناك ملجأ أمام طوفان غضبك يا ربّ، فهذا الملجأ هو ذاتك المقدسة و العودة إليك لا إلى سواك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۱

ه- سفينة النجاة:

لا يمكن الخلاص من أى طوفان دون سفينة النجاة، و ليس شرطا أن تكون هذه السفينة من الخشب و الحديد، بل ما أحسن أن تكون هذه السفينة دينا يقوّم السلوك و يهب الحياة الطيبة و يقاوم أمام أمواج طوفان الانحراف الفكرى، و يوصل أتباعه إلى ساحل النجاة.

و على هذا الأساس وردت روايات كثيرة عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى مصادر الشيعة و السنة تعبر عن أهل بيته- و هم الأئمّة الطاهرون و حملة الإسلام- بأنّهم «سفينة النجاة».

يقول حنش بن المغيرة و أبو ذرّ آخذ بحلقة باب الكعبة و هو يقول: أنا أبو ذر الغفارى، من لم يعرفنى فأنا جندب صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم

سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا»[۲۱۷].

و فى بعض الرّوايات أضيف إليها هذا النص

«و من تخلف عنها غرق»[۲۱۸]

أو

«من تخلف عنها هلك»[۲۱۹].

هذا الحديث الشريف عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يبيّن بصراحة أنّه حين يطغى الطوفان الفكرى و العقائدى و الاجتماعى فى المجتمع الإسلامى، فإنّ طريق النجاة الوحيد هو الالتجاء إلى مذهب أهل البيت عليهم السّلام دون المذهب التى اصطنعتها السلطات السابقة و التى لا علاقة لها بأهل البيت عليهم السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۲

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۴۴]

اشارة

وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴)

التّفسير

نهاية الحادث:

قرأنا فی الآيات السابقة- إجمالا- أنّ الأمواج المتلاطمة الصاخبة من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجا، أمّا المجرمون الجهلة فظنا منهم أنّه طوفان عادی فصعدوا إلى أعالی القمم و المرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضا و خفی تحت الماء كل شیء، و أخذت تلوح للعيون أجساد الطغاة الموتی و ما بقی من البيوت و وسائل المعاش فی ثنايا الأمواج على سطح الماء.

و كان نوح عليه السّلام قد أودع زمام السفينة بيد اللّه سبحانه، و كانت الأمواج تتقاذف السفينة فی كل صوب، و فی روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماما (من بداية شهر رجب حتى نهاية شهر ذی الحجة) و على رواية (من عاشر شهر رجب

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۳

حتى عاشر محرم) و طافت السفينة نقاطا متعددة من الأرض، و طبقا لما جاء فی بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة و حول الكعبة.

و أخيرا صدر الأمر الإلهی بانتهاء العقاب و أن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، و الآية- محل البحث- تبيّن هذا الأمر و جزئياته و نتيجته فی عبارات وجيزة جدّا، و فی الوقت ذاته بليغة و أخّاذة، و قد جاءت الآية فی جمل ست:

۱- وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

۲- وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي و صدر الأمر للسماء أن لا تمطری.

۳- وَ غِيضَ الْماءُ و نزل الماء فی جوف الأرض.

۴- وَ قُضِيَ الْأَمْرُ انتهى حكم اللّه.

۵- وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِ و استقرت السفينة على طرف جبل الجودی.

۶- وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ عندئذ لعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة اللّه.

كم هی رائعة هذه التعابير التی وردت فی الآية المتقدمة، و هی فی الوقت ذاته وجيزة و تفور بالحياة و الجمال الاخّاذ بحيث قال فيها طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعدّ أفصح آيات القرآن و أبلغها و إن كانت آياته جميعا فی غاية البلاغة و الفصاحة.

الشاهد على هذا الكلام هو أنّنا نقرا فی روايات التاريخ الإسلامی أنّ جماعة من كفار قريش نهضوا لمواجهة القرآن و ليأتوا بمثل آياته، فهيأ مريدوهم الطعام و الشراب لهم لفترة أربعين يوما، مثل لب الحنطة الخالص و الخمر المعتق و لحم الغنم- لينسجوا براحة البال على منوال آيات القرآن شبيها لها، و لكنّهم حين بلغوا هذه الآية- محل البعث- هزتهم بحيث نظر بعضهم إلى بعض و قال كل للآخر: هذا كلام لا يشبهه كلام آخر، و هو أساسا لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك و انصرفوا

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۴

عمّا اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين ۲۲۰].

أین یقع الجودی؟

ذهب کثیر من المفسّرین أنّ الجودی الذی استقرت علیه السفینة- کما مرّ ذکره فی الآیة- جبل معروف قرب الموصل ۲۲۱] و قال آخرون: هو جبل فی حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد» و فی کتاب الراغب الأصفهانی (المفردات) أنّه جبل بین الموصل و الجزیرة، و هی (جزیرة ابن عمر فی شمال الموصل).

و لا یبعد أن تکون جمیعها بمعنی واحد، «فالموصل» و «الجزیرة» و «آمد» جمیعها فی الجزء الشمالی من العراق و قرب الشام.

و قال آخرون: یحتمل أن یکون المقصود من الجودی کل جبل صلب أو أرض صلبة و قویة، و معنی الآیة حسب هذا التّفسیر أن السفینة استقرت علی أرض صلبة غیر رخوة لینزل رکابها علی الأرض، و لکن المشهور و المعروف هو المعنی الأوّل.

و فی کتاب «أعلام القرآن» تحقیق و تتبع حول جبل الجودی نورده بما یلی:

«الجودی» اسم جبل استقرت سفینة نوح و استوت علی قمته، و قد ورد اسمه فی الآیة (۴۴) فی سورة هود و هو قریب من المضمون الوارد فی التوراة مع ما یتعلق به من أمور أخری، و هناک ثلاثة أقوال بالنسبة إلی محل جبل الجودی:

۱- بناء علی قول «الاصفهانی» فإنّ جبل الجودی فی الجزیرة العربیة، و هو واحد من جبلین واقعین فی منطقة نفوذ قبیلة (طیء).

۲- إنّ الجودی هو سلسلة جبال «کاردین» الواقعة شمال شرقی جزیرة (ابن عمر) فی شرق دجلة قرب الموصل؟ و یسمّیها الأکراد (کاردو) بلهجتهم، و یسمیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۵

الیونانیون (جوردی) و یسمّیها العرب «الجودی».

فی «الترگوم» و هی الترجمة الکلدانیة ل «التوراة» و کذلک الترجمة السریانیة ل «التوراة»: إنّ المکان الذی استقرت علیه سفینة نوح هو قلعة جبل الأکراد، أی «کاردین».

و الجغرافیون العرب یطبقون الجودی المذکور فی القرآن علی هذه المنطقة- المشار إلیها آنفا- و یقولون إنّ قطع السفینة کان موجودة علی قمة هذا الجبل حتی زمان بنی العباس و کان المشرکون یزورونها ..

و فی القصص البابلیة قصّة شبیهة بطوفان نوح علیه السّلام (ملحمة گیلگامش) و یمکن- إضافة إلی ذلک- احتمال طغیان دجلة فی تلک الفترة، و سکنة تلک المنطقة هم المبتلون بالطوفان.

و فی جبل الجودی کتیبة آشوریة موسومة بکتیبة «میسر» و قد لو حظ فی هذه الکتیبة اسم «آرارتو».

۳- و فی الترجمة الحالیة ل «التوراة»: إن محل استقرار سفینة نوح فی جبال «آرارات» و هو جبل «ماسیس» الواقع فی «أرمنستان» و قد ضبط صاحب قاموس الکتاب المقدّس معناه الأولی، فکان المعنی «ملعون» و قال: بناء علی ما جاء فی الرّوایات فإنّ سفینة نوح استقرّت علی قمة هذا الجبل، و یسمیّه العرب ب «الجودی» و یسمّیه الإیرانیون ب «جبل نوح» و یسمیه الأتراک ب «کرداغ» بمعنی الجبل المنحدر، و هو واقع قرب «أرس».

و حتی القرن الخامس لم یعرف الأرامنة جبلا فی أرمنستان باسم جبل «الجودی» و لکن منذ ذلک الوقت تسرب هذا المفهوم الی علماء الأرمن و قد یکون السبب هو اشتباه المترجمین للتوراة الذین ترجموا جبل «الأکراد» إلی «أرارات» ..

و لعل ممّا سوّغ هذا التصوّر أنّ الآشوریین أطلقوا علی الجبال الواقعة شمال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۶

بحیرة «و ان» و جنوبها اسم «آرارات» أو «آراتو».

يقال أنّ النّبى نوحا بنى مسجدا على قمة جبل الجودى بعد ما غاض الطوفان، و يقول الأرامنة: إنّ فى سفح جبل الجادى «الجودى» قرية تدعى ثمانين أو ثمان، و هى أوّل محل نزل فيه أصحاب نوح عليه السّلام ۲۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (۴۵) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۴۶) قالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۴۷)

التّفسير

حادثة ابن نوح المؤلمة:

قرأنا فى الآيات المتقدمة أنّ ابن نوح لم يسمع نصيحة والده و موعظته، و لم يترك لجاجته و حماقته حتى النفس الأخير، فكانت نهايته الغرق فى أمواج الطوفان.

و هذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم آخر من هذه القصّة، و هو أنّه حين رأى نوح ابنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة و تذكر وعد اللّه فى نجاة أهله فالتفت إلى ساحة اللّه مناديا فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۸

و هذا الوعد هو ما أشارت إليه الآية (۴۰) من هذه السورة حيث يقول سبحانه:

قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

فكان أن تصوّر نوح أن قوله تعالى: إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ خاص بزوجته المشركة التى لم تؤمن به دون ابنه كنعان، و لذلك خاطب نوح ربّ العزّة بهذا الكلام.

و لكنّه سمع الجواب مباشرة .. جواب يهزّ هزا كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة ..

حقيقة أنّ الرّباط الدينى أسمى من رباط النسب و القرابة .. قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة اللّه لم يكن صحيحا، و لا ينبغى أن يتصور نجاة ولده ممّا وعد اللّه به فى نجاة أهله، لذلك توجه إلى اللّه معتذرا مستغفرا و قالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِى وَ تَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ

بحوث

۱- لم كان ابن نوح «عملا غير صالح»؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ فى الآية إيجاز حذف، و أصل الآية هكذا «إنّه ذو عمل غير صالح».

و لكن مع ملاحظة أنّ الإنسان قد يذوب فى عمله إلى درجة كأنّه يصير بنفسه العمل ذاته، و فى اللغات المختلفة يأتى مثل هذا التعبير على نحو المبالغة كأن يقال:

إنّ فلانا هو كل العدل و السخاء، أو إنّ فلانا هو السرقة و الفساد فكأنّه غاص فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۴۹

العمل حتى صار هو العمل بذاته.

فابن نوح كان كذلك، فقد جالس رفقاء السوء و غاص فى أعمالهم السيئة و أفكارهم المنحرفة، بحيث كأنّ وجوده تبدل إلى عمل غير صالح! ..

فعلى هذا .. و إن كان التعبير المقدم موجزا و مختصرا جدا، إلّا أنّه يعبّر عن حقيقة مهمّة فى ابن نوح!.

أى لو كان هذا الظلم و الانحراف و الفساد فى وجود ابن نوح سطحيّا لكانت الشفاعة فى حقّه ممكنة، و لكنّه أصبح غارقا فى الفساد و الانحراف، فليس للشفاعة هنا محلّ، فدع الكلام فيه يا نوح! ..

و ما يراه بعض المفسّرين من أن كنعان لم يكن ابن نوح حقيقة، أو أنّه كان ابنا غير شرعى، أو أنّه ابن شرعى من زوجته عن رجل آخر، بعيد عن الصواب لأنّ قوله: إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فى الواقع علة لقوله: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ أى إنّما نقول لك إنّه ليس من أهلك فلأنّه انفصل عنك بعمله و إن كان الرباط النسبى لا يزال قائما ..

۲- دائرة الوعد الإلهى

مع ملاحظة ما ورد فى الآيات المتقدمة من خطاب نوح لربّه و ما أجابه اللّه به، ينقدح هذا السؤال و هو: كيف لم يلتفت نوح إلى أنّ ابنه كنعان كان خارج دائرة الوعد الالهى؟

و يمكن الإجابة على هذا السؤال- كما أشرنا آنفا- أنّ هذا الابن لم تكن له طريقة واحدة معروفة، فتارة تراه مع المؤمنين و أخرى مع الكفار، ممّا يوهم أنّه مؤمن. بالإضافة إلى الإحساس بالمسؤولية الكبرى التى كان نوح يجدها فى نفسه بالنسبة إلى ولده، كذلك المحبّة و العلاقة الطبيعية التى يجدها كل أب بالنسبة لابنه، و الأنبياء غير مستثنين من هذا القانون، كل ذلك كان سببا فى أن يطلب نوح من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۰

ربّه هذا الطلب ..

و لكن بمجرّد أن اطّلع على واقع الأمر، أسف على طلبه فورا و اعتذر إلى اللّه راجيا عفوه- و إن لم يكن صدر منه ذنب- لأنّ موقع النّبى يقتضى منه أن يراقب كلامه و تصرفاته، فكان الأولى عليه الترك، و من هنا فقد سأل اللّه العفو و المغفرة ..

و من هنا يتّضح الجواب على سؤال: هل يذنب الأنبياء حتى يطلبوا العفو و المغفرة؟ ..

۳- هناك حيث تنقطع العلائق

تعكس الآيات الآنفة درسا من أنجع الدروس الإنسانية و التربوية ضمن بيان قصّة نوح .. درسا لا مفهوم له فى المذاهب المادية لكنّه أصل أساس فى المذهب الإلهى و المعنوى.

فالعلائق المادية «النسب، القرابة، الصداقة، المرافقة» تخضع دائما فى المذاهب السماوية إلى العلائق المعنوية.

و فى المذاهب السماوى لا مفهوم للعلاقة النسبية و القرابة مقابل الرابطة المذهبية.

هناك حيث تتحقق العلاقة الدينية، كسلمان الفارسى الذى لا هو من أهل بيت النّبى و لا من قريش و لا من أهل مكّة، بل لم يكن أساسا من العرب، و لكنّه طبقا لما

ورد فى الحديث الشريف المعروف «سلمان منّا أهل البيت»

كان يعدّ من أسرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إلّا أنّ الابن الواقعى و المباشر للنّبى- كابن نوح- يطرد على أثر قطع علاقته الدينية، و يقال فى شأنه لأبيه نوح: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ

قد تكون هذه المسألة المهمّة عسيرة الفهم لمن يعيش فى دائرة التفكير المادى لكنّها حقيقة من صميم الأديان السماوية جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۱

و على هذا الأساس نجد أحاديث أهل البيت عليهم السّلام تتحدث عن بعض الشيعة الذين يحملون اسم التشيّع إلّا أنّه لا يوجد فيهم علائم من تعليمات أهل البيت عليهم السّلام بنفس الطريقة التى تقدمت فى الآيات الآنفة فى القرآن الكريم حيث نقل عن على بن موسى عليه السّلام أنّه سأل بعض أصحابه يوما: كيف يفسر الناس هذه الآية إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ .. فأجابه أحد الحاضرين: إنّهم يعتقدون أن كنعان لم يكن الابن الحقيقى لنوح،

فقال الإمام: «كلّا لقد كان ابنه، و لكن لمّا عصى اللّه نفاه عن أبيه، كذا من كان منّا لم يطع اللّه فليس منّا»[۲۲۳].

۴- المسلمون المطرودون

و من المناسب أن نستلهم من الآية فنشير إلى قسم من الأحاديث الإسلامية التى ترى طوائف كثيرة من المسلمين، أو أتباع أهل البيت عليهم السّلام فى الظاهر مطرودين و خارجين عن صف المؤمنين و الشيعة:

۱-

فقد ورد عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «من غش مسلما فليس منّا»[۲۲۴].

۲- كما

روى عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «ليس بولى لى من أكل مال مؤمن حرام»[۲۲۵].

۳- و

يقول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ألا و من أكرمه النّاس اتقاء شره فليس منّى».

۴- و

روى عن الإمام على أنّه قال: «ليس من شيعتنا من يظلم الناس».

۵- و

قال الإمام الكاظم عليه السّلام: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه كل يوم»[۲۲۶].

۶- و

يقول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سمع رجلا ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۲

بمسلم»[۲۲۷].

۷- و

قال الإمام الباقر علیه السّلام لأحد أصحابه و کان یدعی «جابرا»: «و اعلم یا جابر بأنک لا تکون لنا ولیّا حتی لو اجتمع علیک أهل مصرک و قالوا: إنّک رجل سوء، لم یحزنک ذلک، و لو قالوا: إنّک رجل صالح، لم یسرک ذلک، و لکن أعرض نفسک علی کتاب اللّه»[۲۲۸].

هذه الأحادیث تضع علامة «البطلان» علی تصورات من یقنع بالاسم فحسب و لکنّهم لا یعیرون أهمیة للعمل بالتکلیف، أو للروابط الایمانیة، و تثبت بوضوح أنّ الأصل فی مذهب القادة الرّبانیین و الأساس هو الإیمان بالعقیدة و العمل بمناهجهم، و ینبغی أن یقاس کل شخص بهذا المقیاس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۳

الآیتان [سورة هود (۱۱): الآیات ۴۸ الی ۴۹]

اشارة

قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَکاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلی أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ یَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِیمٌ (۴۸) تِلْکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیها إِلَیْکَ ما کُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُکَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِینَ (۴۹)

التّفسیر

هبوط نوح بسلام:

هاتان الآیتان هما نهایة الآیات التی تتحدث عمّا جاء فی نوح و قصّته المليئة بالدروس و العبر فی سورة هود، و فیهما إشارة إلی هبوط نوح علیه السّلام من سفینته و عودة الحیاة و العیش الطبیعی علی الأرض.

یقول القرآن فی الآیة الأولی من هاتین الآیتین: قِیلَ یا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَکاتٍ عَلَیْکَ وَ عَلی أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَکَ

لا شک أنّ الطوفان کان قد دمر کل آثار الحیاة .. فالأراضی العامرة و المراتع الخضر و الغابات النضرة کلّها أبیدت، فالحالة کانت تنذر بأزمة خانقة لنوح و أصحابه بالنسبة للمعاش و الغذاء، لکن اللّه سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۴

إزاء البرکات الإلهیة و السلامة و أن کل ذلک سیکون مهیّأ و موفّرا لهم فلا ینبغی الحزن علی شیء ..

مضافا إلی ذلک فقد یأتی الحزن و الخوف من شیء آخر و هو الخوف علی السلامة و الصحة بسبب المستنقعات و المیاه الآسنة الباقیة من آثار الطوفان التی تهدد حیاتهم بالخطر، فاللّه سبحانه یطمئن نوحا و أصحابه أیضا أنّه لا خطر یهددهم، و أن الذی أرسل الطوفان لهلاک الطغاة قادر علی أن یوفر محیطا سالما مليئا بالخیرات و البرکات للمؤمنین کذلک.

هذه الجملة القصیرة تشعرنا و تفهمنا أن القرآن یهتم بالمسائل الدقیقة للغایة، و یعکسها فی عبارات مضغوطة شائقة و أخّاذة!.

کلمة «أمم» هی جمع «أمة» و هذا التعبیر یدل علی أن مع نوح طوائف من عباد اللّه و خلقه، کما یدل هذا التعبیر علی أنّ الأفراد الذین

هم مع نوح كل منهم سيكون سببا لوجود قبيلة و أمّة كبيرة، أو أنّه فعلا كان مع نوح أفراد من قبائل و أمم متعددة فيشكل مجموعهم أمما أيضا ..

و يرد هذا الاحتمال أيضا، و هو أن الأمم التى كانت مع نوح تشمل مجموعة الحيوانات المتعددة، لأنّ القرآن أطلق لفظ الأمّة عليها أيضا فى مكان آخر من آياته، فنحن نقرأ فى سورة الأنعام الآية (۳۸) وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ فيتّضح بهذا أنّ نوحا و أصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات اللّه و ليطمئنوا بالحياة الهانئة، كذلك الحال بالنسبة إلى الحيوانات التى كانت معهم فى السفينة و هبطت إلى الأرض، فإنّ لطف اللّه شملها جميعا كذلك.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نوحا أنّه ستعقب الأمم التى معك أمم من نسلها، و لكن هذه الأمم ستغتر و تغفل عن نعم اللّه فتنال جزاءها من اللّه وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۵

فعلى هذا ليس انتخاب الأصلح من الناس أو إصلاح الناس عن طريق الطوفان هو آخر الانتخاب و آخر الإصلاح، بل ستبلغ مرحلة جديدة من بنى آدم أيضا يصلون بها الذروة من الرشد و التكامل، و لكن الناس قد يسيئون الاستفادة من حرية الإرادة و يستخدمونها فى طريق الشرّ و الفساد، فينالون جزاءهم فى هذه الدنيا كما ينالون العذاب فى الأخرى.

الطريف فى الآية أنّها تقول سَنُمَتِّعُهُمْ ثمّ تتحدث عن العذاب مباشرة. و فى ذلك إشارة إلى أن الاستمتاع ينبغى أن يكون مدعاة للشكر و الثناء على نعم اللّه و طاعته، و لكن غالبا ما يزيد المتنعمين طغيانا و كفرا و يقطعون العلاقة بينهم و بين اللّه.

و ينقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآية أنّ بعض المفسّرين يقول فى قوله: «نمتعهم» إلخ: هلك المستمتعون فى الدنيا لأنّ الجهل يغلب عليهم و الغفلة فلا يتفكرون إلّا فى الدنيا و عمارتها و ملذاتها.

هذا الواقع يرى جيدا فى الدول المتنعمة و المتموّلة فى هذا العالم، حيث يغوص أهلوها بالفساد فلا يفكرون فى المستضعفين- فحسب-، بل نراهم يوما بعد آخر يحاولون الكيد بهم و إراقة دمائهم أكثر فأكثر، لذلك كثيرا ما يتفق أن ينزل اللّه عليهم الحروب و الحوادث الأليمة التى تسلب النعم مؤقتا لعلهم يفيقون من غفلتهم.

و فى آخر آية تختم بها قصّة نوح- فى هذه السورة- إشارة كلية عامّة إلى ما حدث فى عهد نوح فتقول: تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا.

فالخطاب هنا للنّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم يؤكّد عليه أن يصبر و يستقيم كما صبر و استقام نوح عليه السّلام عند ما واجه المشاكل، و هكذا تكون عاقبة الصبر النصر فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۶

الآية الأخيرة تشير إلى عدّة مسائل:

۱- إنّ بيان قصص الأنبياء عليهم السّلام- بالصورة الواقعية و الخالية من أى نوع من أنواع التحريف الخرافة- ممكن عن طريق الوحى السماوى فحسب، و إلّا فإنّ كتب تاريخ الماضين مليئة بالأساطير و القصص الخياليّة التى بلغت درجة لا يمكن معها معرفة الحق من الباطل، و كلما عدنا إلى الوراء أكثر وجدنا الخلط و التزييف أكثر.

فعلى هذا، يعتبر بيان حال الأنبياء الماضين و الأقوام السالفة بصورة سليمة و خالية من الخرافات و الخز الخزعبلات دليلا على حقانية القرآن و الإسلام و النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

۲- يستفاد من هذه الآية- خلافا لما يتصوره البعض- أنّ الأنبياء كانوا يعلمون الغيب عن طريق تعليم اللّه و بالمقدار الذى كان يريده

اللّه لهم، لا- أنّهم يعلمون الغيب من أنفسهم، و إذا وجدنا فى بعض الآيات ما ينفى العلم الغيبى عنهم، فهو إشارة إلى أنّ علمهم ليس ذاتيا، بل هو من اللّه.

۳- و هذه الآية توضح حقيقة أخرى، و هى أنّ بيان قصص الأنبياء و الأقوام الماضين فى القرآن ليس درسا للمسلمين فحسب، بل هو إضافة إلى ذلك تسلية لخاطر النّبى و طمأنة لقلبه، لأنّه بشر أيضا، و ينبغى أن يتلقى الدروس من الأديان الالهية و يتهيأ لمواجهة الطاغوت فى عصره، و أن لا يكترث بهموم المشاكل فى طريقه.

أى كما واجه نوح المشاكل بصبر و استقامة لسنين طوال ليهدى قومه إلى الإيمان، فعليك يا نبى الإسلام أن لا تدع الصبر و الاستقامة على كل حال! و الآن نودع قصّة نوح بكل ما تحمل من عبر و أعاجيب، و نتوجه إلى نبى عظيم آخر و هو هود الذى سمّيت هذه السورة باسمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۰ الى ۵۲]

اشارة

وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (۵۰) يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَ فَلا- تَعْقِلُونَ (۵۱) وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (۵۲)

التّفسير

محطّم الأصنام الشّجاع:

كما أشرنا آنفا، فإنّ قصص خمسة أنبياء عظام و ما واجهوه من شدائد و صعاب فى دعواتهم و النتائج المترتبة عليها مبين فى هذه السورة. و فى الآيات السابقة كان الكلام حول نوح عليه السّلام و أمّا الآن فالحديث عن هود عليه السّلام.

جميع هؤلاء الأنبياء جمعهم هدف واحد و منطق واحد، و جميعهم نهضوا لإنقاذ البشرية من كل أنواع الأسر، و لدعوتهم إلى التوحيد بجميع أبعاده.

و كان شعارهم جميعا الإيمان و الإخلاص و الجد و المثابرة و الاستقامة فى سبيل اللّه، و كان رد الفعل من أقوامهم الخشونة و الإرهاب و الضغوط ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۸

يقول سبحانه فى الآية الأولى من هذه القصّة .. وَ إِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً و نلاحظ فى الآية أنّها و صفت هودا بكونه «أخاهم».

و هذا التعبير جار فى لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد ..

فمثلا يقولون فى الأسدى «أخو أسد» و فى الرجل من قبيلة مذحج «أخو مذحج».

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّا، و هذه الحالة هى صفة الأنبياء جميعا، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة و القيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم ..

معاملة خالية من أية شائبة و اى امتياز أو استعلاء.

كان أوّل دعوة هود- كما هو الحال فى دعوة الأنبياء جميعا- توحيد اللّه و نفى الشرك عنه قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ

فهذه الأصنام ليست شركاءه، و لا منشأ الخير أو الشرّ، و لا يصدر منها أى عمل، و أى افتراء أعظم و أكبر من نسبتكم كل هذا المقام و التقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التى لا قيمة لها إطلاقا.

ثمّ يضيف هود قائلا لقومه: لا تتصوروا أن دعوتى لكم من أجل المادة، فأنا لا أريد منكم أى أجر يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً فأجرى وحده على من فطرنى و وهبنى الروح و أنا مدين له بكل شىء، فهو الخالق و الرازق إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي

و أساسا فإنّى فى كل خطوة أخطوها لسعادتكم، إنّما أفعل ذلك طاعة لأمره، و لذلك ينبغى طلب الأجر منه وحده لا منكم، و إضافة إلى ذلك فهل لديكم شىء من عندكم، فكل ما هو لديكم منه سبحانه أَ فَلا تَعْقِلُونَ

ثمّ شرع هود ببيان الأجر المادى للإيمان لغرض التشويق و الاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۵۹

جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق فى قومه الظالين فبيّن أن هذا الأجر المادى مشروط بالايمان فيقول: وَ يا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ فإذا فعلتم ذلك فإنّه يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً[۲۲۹] لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائما، و زيادة على ذلك فإنّ اللّه بسبب تقواكم و ابتعادكم عن الذنوب و التوجه إليه يرعاكم وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ

فلا تتصوروا أنّ الإيمان و التقوى يضعفان من قوتكم أبدا، بل إنّ قواكم الجسميّة ستزداد بالاستفادة من القوّة المعنوية .. و بهذا الدعم المهم ستقدرون على عمارة المجتمع و بناء حضارة كبيرة و أمّة مقتدرة تتمتع باقتصاد قوى و شعب حر مستقل، فعلى هذا إيّاكم و الابتعاد عن طريق الحق وَ لا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ

بحوث

۱- التوحيد أساس دعوة الأنبياء:

يبين تاريخ الأنبياء أنّهم بدأوا دعوتهم جميعا من التوحيد و نفى الشرك و نفى عبادة الأصنام أيّا كانت، و الواقع فإنّ أى إصلاح فى المجتمعات الإنسانية لا يتيسر بغير هذه الدعوة، لأنّ وحدة المجتمع و التعاون و الإيثار كلها أمور تسترفد من منبع واحد و هو توحيد المعبود.

و أمّا الشرك فهو أساس كل فرقة و تعارض و تضاد و أنانية .. و ما إلى ذلك ..

و ارتباط هذه المفاهيم بالشرك و عبادة الأصنام بالمفهوم الواسع غير خاف على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۰

أحد! الشخص الذى يدور حول نفسه- أو يجرّ النّار إلى قرصه- يرى نفسه فحسب، و لهذا فهو مشرك، لأنّ التوحيد يذيب «الانا» و الذات الفردية فى محيط اجتماعى واسع عريض، و الموحّد لا يرى شيئا سوى واحد كبير، أى أن جميع المجتمع الإنسانى عباد اللّه! و الأشخاص الذين يطلبون الاستعلاء مشركون من نوع آخر، فهم فى صراع مع أبناء جلدتهم و يرون منافعهم منفصلة عن منافع الآخرين، فهذا التجزؤ أو «هذه الازدواجية» ليس إلّا شركا فى أوجه مختلفة.

من هنا بدأ الأنبياء فى سبيل إصلاح المجتمع بالدعوة الى توحيد المعبود «اللّه»، ثمّ توحيد الكلمة، و توحيد العمل، و توحيد المجتمع.

۲- قادة الحق لا يطلبون أجرا من أتباعهم.

إنّ الزعيم الواقعى يمكنه أن يكون فى مأمن من أى اتهام و يواصل طريقه فى غاية الحرية فى صورة ما لو لم تكن له حاجة مادّية، فبذلك يستطيع أن يصحح كل انحراف فى أتباعه، و إلّا فإنّ الحاجة الماديّة بالنسبة لهذا المصلح ستكون غلّا تصفّد به يداه و رجلاه و قفلا على لسانه و فكره.

و من هذا الطريق .. طريق الحاجة الماديّة يدخل المنحرفون لممارسة ضغوطهم عليه عن طريق قطع المساعدات المادية أو عن طريق الإغراء بزيادة المساعدات، و مهما يكن الزعيم و القائد نقيا صافيا و مخلصا فهو انسان- أيضا- و من الممكن أن تزل قدماه و لهذا السبب نقرأ فى الآيات الآنفة- و آيات أخرى من القرآن- أنّ الأنبياء يعلنون بصراحة فى بداية دعوتهم أنّه ليست لهم حاجة مادية و لا ينتظرون من أتباعهم الأجر.

و هذا دستور لجميع القادة و لا سيما القادة الروحانيين و رجال الدين، غاية ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۱

فى الأمر لما كان هؤلاء المصلحون و رجال الدين يقضون أوقاتهم فى خدمة الإسلام و المسلمين، فينبغى أن تؤمن حاجاتهم المادية بطريق صحيح، و أن يقوم صندوق الإعانة و بيت مال المسلمين بتكفّل هذه الجماعة، فإنّ واحدا من أغراض إنشاء بيت المال فى الإسلام هو هذا الغرض، أى ليصرف على رجال الدين المنشغلين بالإصلاح و التبليغ.

۳- الذنب و هلاك المجتمعات

كما نرى أيضا- فى الآيات المتقدمة- أنّ القرآن يقيم رابطة بين المسائل المعنوية و الماديّة، فيعدّ الاستغفار من الذنب و التوبة إلى اللّه أساس العمران و الخصب و الخضرة و النضرة و زيادة فى القوة و الاقتدار.

هذه الحقيقة نلمسها فى كثير من آيات القرآن الكريم، من هذه الآيات ما ورد فى سورة نوح على لسان هذا النّبى العظيم لقومه، حيث تقول الآيات فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً[۲۳۰].

الطريف هنا أنّنا نقرأ فى الرّوايات الإسلامية

أنّ الربيع بن صبيح: قال: كنت عند الحسن بن على عليهما السّلام فجاءه رجل و شكاله من الجدب و القحط، فقال له الحسن عليه السّلام:

استغفر اللّه، فجاءه آخر فشكا له من الفقر، فقال: استغفر اللّه، فجاءه ثالث و قال له:

ادع لى أن يرزقنى اللّه ولدا، فقال الحسن عليه السّلام: استغفر اللّه، يقول الربيع بن صبيح:

فتعجبت و قلت له: ما من أحد يأتيك و يشكو إليك أمره و يطلب النعمة إلّا أمرته بالاستغفار و التوبة إلى اللّه ..

فأجابه: «إنّ ما قلته لم يكن من نفسى، و إنّما استفدت ذلك من كلام اللّه الذى يحكيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۲

عن لسان نبيّه نوح»، ثمّ تلا الآيات المتقدمة.[۲۳۱]

بعض الأشخاص اعتادوا على المرور بهذه المسائل مرور الكرام بأن يقيمون ارتباطا معنويا و علاقة «غير معروفة» بين هذه الأمور و

يريحون أنفسهم من كل تحليل. و لكن إذا دققنا النظر أكثر نجد بين هذه الأمور علائق متقاربة تشد المسائل المادية بالمعنوية فى المجتمع كالخيط الذى يربط بين قطع القماش مثلا.

فأىّ مجتمع يكون ملوّثا بالذنب و الخيانة و النفاق و السرقة و الظلم و الكسل و أمثال ذلك، ثمّ يكون هذا المجتمع عامرا كثيرا البركات!؟

و أى مجتمع ينزع عنه روح التعاون و يلجأ إلى الحرب و النزاع و سفك الدماء، ثمّ تكون أرضه خصبة خضراء، و يكون مرفها فى وضعه الاقتصادى أيضا؟! و أى مجتمع يغرق أفراده فى دوامة الهوى و الميول النفسيّة، ثمّ فى الوقت ذاته يكون قويّا راسخ القدم و يثبت أمام عدوّه؟! ينبغى القول بصراحة أنّه ما من مسألة أخلاقية إلّا و لها أثر مفيد و نافع فى حياة الناس الماديّة، و لا يوجد اعتقاد و إيمان صحيح إلّا و كان لهما نصيب فى بناء مجتمع عامر حرّ مستقلّ و قوى ..

الافراد الذين يفصلون المسائل الأخلاقية و الإيمان بالدين و التوحيد عن المسائل الماديّة لا يعرفون المسائل المعنوية حقّا و لا المسائل الماديّة.

و إذا كان الدين عبارة عن سلسلة من التشريعات و الآداب الظاهرية و الخالية من المحتوى بين الناس، فمن البديهى أن لا يكون له تأثير فى النظام المادى.

و لكن حين تكون الإعتقادات المعنوية و الروحانيّة نافذة فى روح الإنسان إلى درجة تظهر آثارها على يده و رجله و لسانه و أذنه و عينه و جميع ذرات وجوده، فإنّ الآثار البنّاءة لهذه الإعتقادات فى المجتمع لا تخفى على أحد.

و قد لا نستطيع إدراك علاقة الاستغفار بنزول البركات المادية جيدا، و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۳

دون شك فإنّ قسما كبيرا منها يمكن أن ندركه! لقد شاهدنا فى مواجهات المسلمين الثائرين مع الكفار فى هذا العصر و الزمن- جيدا- أنّ الإعتقادات الإسلامية و القوى الأخلاقية و المعنوية استطاعت أن تنتصر على أحدث الأسلحة المعاصرة و أقوى الجيوش و القدرات الاستعمارية، و إن دلّ ذلك على شىء فإنّما يدل على أثر العقائد الدينية الإيجابية و المعنوية إلى أقصى حدّ فى المسائل الاجتماعيّة و السياسيّة.

۴- ما المراد من قوله تعالى: وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ

إنّ الظاهر من هذه الآية أنّ اللّه سبحانه يزيدكم من خلال الاستغفار قوة بالإضافة إلى قوتكم، يشير بعض المفسّرين إليه أنّ المراد من هذه القوّة هى القوّة الإنسانيّة كما مرّ ذلك فى سورة نوح: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ و منهم من قال: إنّها القوى المادية تضاف إلى القوّة المعنويّة. و لكنّ تعبير الآية مطلق و هو يشمل أى زيادة فى القوى المادية و المعنويّة، و لا يعارض أيّا من التفاسير، بل يحتضنها جميعا ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۳ الى ۵۷]

اشارة

قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۵۳) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قالَ

إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مما تُشْرِکُونَ (۵۴) مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ (۵۵) إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ ما مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۶) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ وَ یَسْتَخْلِفُ رَبِّی قَوْماً غَیْرَکُمْ وَ لا تَضُرُّونَهُ شَیْئاً إِنَّ رَبِّی عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ (۵۷)

التّفسير

قوّة المنطق:

و الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين و المغرورين- قوم عاد- مقابل نصائح أخيهم هود و توجيهاته إليهم: قالُوا يا هُودُ ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ أى لم تأتنا بدليل مقنع لنا وَ ما نَحْنُ بِتارِكِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِکَ الذى تدعونا به إلى عبادة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۵

و ترك الأوثان وَ ما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِينَ

و أضافوا إلى هذه الجمل الثّلاث غير المنطقية، أنّك يا هود مجنون و إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ و لا شكّ أنّ هودا- كأى نبى من الأنبياء- أدّى دوره و وظيفته و أظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، و لكنّهم لغرورهم- مثل سائر الأقوام- أنكروا معارجه و عدوّها سحرا و عبارة عن سلسلة من المصادفات و الحوادث الاتفاقية التى لا يمكن أن تكون دليلا على المطلوب.

و أساسا، فإنّ نفى عبادة الأوثان لا يحتاج إلى دليل، و من يكن له أقل شعور و عقل- و يترك المخاصمة- يدرك هذا الأمر جيدا، و لو فرضنا أنّ ذلك يحتاج إلى دليل، فهل يحتاج إلى معجزة بعد الدلائل العقلية و المنطقية ..؟! و بتعبير آخر فإنّ ما جاء فى دعوة هود- فى الآيات المتقدمة- هو الدعوة إلى اللّه الواحد الأحد، و التوبة إليه و الاستغفار من الذنوب، و نفى أى نوع من أنواع الشرك و عبادة الأوثان، كل هذه المسائل يمكن إثباتها بالدليل العقلى.

فعلى هذا، إنّ كان المقصود من قولهم: ما جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ هو نفى الدليل العقلى، فكلامهم هذا غير صحيح قطعا. و إذا كان المقصود هو نفى المعجزة، فإنّ هذا الادعاء لا يحتاج إلى معجزة. و على كل حال فإنّ قولهم: وَ ما نَحْنُ بِتارِكِی آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِکَ دليل على لجاجتهم، لأنّ الإنسان العاقل و الباحث عن الحقيقة يتقبل الكلام الحق من أىّ كان.

و خصوصا هذه الجملة إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَراکَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ فإنّهم يتهمونه بالجنون على أثر غضب آلهتهم! فإنّ هذا الكلام منهم دليل على خرافة منطقهم، و خرافة عبادة الأصنام! فالحجارة و الأخشاب التى ليس فيها روح و لا شعور و التى تحتاج إلى حماية من الإنسان نفسه، كيف تستطيع أن تسلب العقل و الشعور من الإنسان العاقل؟! أضف إلى ذلك، ما دليلهم على جنون هود إلّا أنّه كسر طوق «السنة المتبعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۶

عندهم» و كان معارضا للسنن و الآداب الخرافية فى محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغى أن نعدّ جميع المصلحين و الثائرين على الأساليب الخاطئة مجانين.

و ليس هذا جديدا، فالتاريخ السالف و المعاصر مليء بنسبة الجنون إلى الأشخاص الثائرين على الخرافات و العادات السيئة و المواجهين للاستعمار، و النافضين أثواب الأسر.

على كل حال، فإنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالّين اللجوجين ردا مقرونا بالمنطق، من منطلق القوّة أيضا .. يقول القرآن فى

جواب هود لهم قالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَ اشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ

يشير بـذلك إلى أنّ الأصـنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكى و موتى لمحاربتى لها علنا فعلام تسـكت هذه الأصـنام؟ و ماذا تنتظر بى؟

ثمّ يضـيف أنّه ليست الأصـنام وحدها لا تقدر على شىء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شىء، فإذا كنتم قادرين فَكِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ

فأنا لا ترد عنى كثرتكم و لا أعدها شيئا، و لا أكترث بقوتكم و قدرتكم أبدا، و أنتم المتعطشون لدمى و لديكم مختلف القدرات، إلّا أننى واثق بقدرة فوق كل القدرات، و إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَ رَبِّکُمْ

و هـذا دليل على أنّنى لا أقول إلّا الحق و الصـدق، و أن قلبى مرتبط بعالم آخر، فلو فكرتم جيـدا لكان هـذا وحده معجزا حيث ينهض إنسان مفرد وحيـد بوجه الخرافات و العقائد الفاسدة فى مجتمع قوى و متعصب، لكنّه فى الوقت ذاته لا يشـعر فى نفسه بالخوف منهم، و لا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه! ثمّ يضيف:

لستم وحدكم فى قبضة اللّه، فإنّه ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها، فما لم يأذن به اللّه، لا يستطيع أحد أن يفعل شيئا.

و لكن اعلموا أيضا أنّ ربّى القـدير ليس كالاشـخاص المتقـدرين الذين يسـتخدمون قدرتهم للهوى و اللعب و الأنانية و فى غير طريق الحق، بل هو اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۷

الذى لا يفعل إلّا الحكمة و العدل إِنَّ رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ

ملاحظتان

الأولى: إنّ «الناصـية» فى اللغة معناها الشـعر المسترسل على الجبهة، و هى مشتقة من «نصا» و معناها الاتصال و الارتباط، و أخذ بناصية فلان «كناية عن القهر و التسلط عليه» فما ورد فى الجملة السابقة من الآية من قول الحق سبحانه:

ما مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِیَتِها إشارة إلى قـدرته القاهرة على جميع الأشـياء بحيث لا شـىء فى الوجود له طاقـة المقاومـة قبال هـذه القدرة، لأنّ من أحكم الإمساك على شعر مقدم الرأس من الإنسان أو أى حيوان آخر، فإنّه يسلب منه القدرة على المقاومة عادة.

و الغرض من هـذه العبـارة أنّ المسـتكبرين المغـترين و عبـدة الأوثـان و الظـالمين البـاحثين عن السـلطة لا ـ يتصوروا أنّه إذا أخلى لهم الميـدان لعـدّة أيّام فـذلك دليل على قـدرتهم على المقاومـة أمام قدرة اللّه، فعليهم أن يلتفتوا إلى هذه الحقيقة و أن ينزلوا من مركب غرورهم.

الثّانية: إنّ جملة رَبِّی عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ من أروع التعابير فى الحكاية عن قدرة اللّه المقترنة بعدله، لأنّ المقتدرين فى الغالب ظالمون و متجاوزون للحـدود، و لكن اللّه سـبحانه مع قدرته التى لا نهاية لهم فهو دائما على صـراط مسـتقيم، و جادة صافية و نظم و حساب و دقة!.

كما ينبغى الانتباه الى هذه المسألة الدقيقة، و هى أنّ كلام هود عليه السّلام للمشـركين كان يبيّن هذه الحقيقة، و هى أنّ الأعداء مهما لجـوا فى عنـادهم و زادوا من لجـاجتهم فـإنّ القائـد الحق ينبغى أن يزيـد من اسـتقامته! فكمـا أن قوم هود خوّفوه بشـدّة من آلهتهم و «أوثانهم»، فإنّ هودا فى المقابل أنذرهم بنحو أشدّ من قدرة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۸

القاهرة! ثمّ أنّ هود قال لقومه فى آخر كلامه معهم كما تحكيه الآية فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُکُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَیْکُمْ

إشارة إلى أن لا يتصوروا أنّ هودا سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنّه أدى واجبه و وظيفته، و أداء الواجب انتصار بحدّ ذاته حتى لو

لم تقبل دعوته، و هذا درس لجميع القادة الحقيقيين و أئمة طريق الحق ألّا يحسّوا أبدا بالتعب و القلق من أعمالهم، و إن لم يقبل الناس دعوتهم.

و كما هدد القوم هودا، فإنّه هددهم بأشد من تهديدهم، و قال: إن لم تستجيبوا لدعوتى فإنّ اللّه سيبيدكم فى القريب العاجل وَ يَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ

هذه سنة اللّه فى خلقه و قانونه العام، إنّه متى كان قوم غير لائقين لاستجابة الدّعوة و الهداية و النعم الأخرى التى أنعمها عليهم فإنّه سيبعدهم و يستخلف قوما لائقين بمكانهم إِنَّ رَبِّى عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ.

فلا تفوته الفرصة، و لا يهمل أنبياءه و محبيه، و لا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شىء و قادر على كل شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۶۹

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۸) وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۵۹) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ (۶۰)

التّفسير

اللعن الأبدى على القوم الظّالمين:

فى آخر الآيات التى تتحدث عن قصّة قوم عاد و نبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فتقول الآيات: وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ و توكّد أيضا نجاة المؤمنين وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ.

الطريف هنا أنّ الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمة و الكافرين و مجازاتهم، بيّنت نجاة المؤمنين و خلاصهم، لئلا يتصور أنّ العذاب الإلهى إذا نزل يحرق الأخضر و اليابس معا لأنّ اللّه عادل و حكيم و حاشاه أن يعذب و لو رجلا مؤمنا بين جماعة كفرة يستحقون العذاب و العقاب.

لكن رحمة اللّه تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۰

رأينا من قبل فى قصّة نوح أنّه قبل شروع الطوفان كانت سفينة النجاة قد أعدّت للمؤمنين، و قبل أن ينزل العذاب على قوم لوط و يدمر مدنهم خرج لوط و عدد معدود من أصحابه من المدينة ليلا بأمر اللّه.

و فى قوله تعالى: نَجَّيْنا و تكرار هذه الكلمة فى الآية مرّتين أقوال مختلفة للمفسّرين، ف «نجينا» الأولى تعنى خلاصهم من عذاب الدنيا و «نجّينا» الثّانية تعنى نجاتهم فى المرحلة المقبلة من عذاب الآخرة، و ينسجم هذا التعبير مع وصف العذاب بالغلظة أيضا.

و يشير بعض المفسرين إلى مسألة لطيفة هنا، و هى أنّ الكلام لما كان على رحمة اللّه فمن غير المناسب أن تتكرر كلمة العذاب مباشرة، فأين الرحمة من العذاب؟ لذلك تكررت كلمة «نجينا» لتفصل بين الرحمة و العذاب دون أن ينقص شىء من التأكيد على العذاب.

كما ينبغى الالتفات إلى هذه المسألة الدقيقة أيضا، و هى أنّ آيات القرآن وصفت العذاب بالغليظ فى أربعة موارد[۲۳۲].

و بملاحظة تلك الآية بدقّة نستنتج أنّ العذاب الغليظ مرتبط بالدار الأخرى، و خصوصا الآيات التى جاءت فى سورة ابراهيم و ذكر فيها العذاب الغليظ، فإنّها تصف بصراحة حال أهل جهنّم و أهوالها، و هكذا أن يكون، و ذلك لأنّ عذاب الدنيا مهما كان شديدا فإنّه أخفّ من عذاب الآخرة! و هناك تناسب ينبغى ملاحظته أيضا، و هو أن قوم عاد- كما سيأتى بيان حالهم إن شاء اللّه- ورد ذكرهم فى سورة القمر. و الحاقة، و كانوا قوما ذوى أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، و لهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرا فى تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا ينسبون البناءات الضخمة و العالية إلى عاد و يقولون مثلا: «هذا البناء عادى» لذلك كان عذابهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۱

مناسبا لهم لا فى العالم الآخر بل فى هذه الدنيا كان عذابهم خشنا و عقابهم صارما، كما مرّ فى تفسير السور الآنفة الذكر.

ثمّ تلخّص الآيات ذنوب قوم عاد فى ثلاثة مواضيع:

الأوّل: بإنكارهم لآيات اللّه و عنادهم أيضا لم يتركوا دليلا واضحا و سندا بيّنا على صدق نبوة نبيّهم إلّا جحدوه وَ تِلْكَ عادٌ جَحَدُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ

و الثّانى: إنّهم من الناحية العملية لم يتّبعوا أنبياء اللّه وَ عَصَوْا رُسُلَهُ و إنّما جاءت الرسل بصيغة الجمع، إمّا لأن جميع دعوات الأنبياء هى نحو حقيقة واحدة و هى «التوحيد: و فروعه» فإنكار دعوة نبى واحد يعدّ إنكارا لجميع الأنبياء، أو أن هودا دعاهم للإيمان بنبوة الأنبياء السابقين أيضا،؟ و كانوا ينكرون ذلك.

و الثّالث من الذنوب: إنهم تركوا طاعة اللّه و مالوا لكل جبار عنيد وَ اتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

فأىّ ذنب أعظم من هذه الذنوب: ترك الإيمان، و مخالفة الأنبياء، و الخضوع لطاعة كل جبار عنيد.

و «الجبار» يطلق على من يضرب و يقتل و يدمر من منطلق الغضب و لا يتبع أمر العقل، و بتعبير آخر هو من يجبر سواه على أتباعه و يريد أن يغطى نقصه بادعاء العظمة و التكبر الظاهرى.

و «العنيد» هو من يخالف الحق و الحقيقة أكثر ممّا ينبغى، و لا يرضخ للحق أبدا.

هاتان الصفتان تتجلّيان فى الطواغيت و المستكبرين فى كل عصر و زمان، الذين لا يستمعون لكلام الحق أبدا و يعمدون الى من يخالفهم بانزال أشد انواع العقاب به بلا رحمة.

هنا يرد سؤال: إذا كان الجبار يعطى هذا المعنى فلما ذا ذكرت هذه الصفة للّه، كما فى سورة الحشر الآية (۲۳) و سائر المصادر الإسلامية.

و الجواب هو أنّ «الجبار»- كما أشرنا آنفا- مشتق إمّا من «الجبر» بمعنى القوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۲

و القهر و الغلبة، أو من مادة «الجبران» و معناه: إزالة النقص من شىء.

و لكن «الجبار» سواء كان بالمعنى الأوّل أو الثّانى فهو يستعمل بشكليه، و قد يراد به الذم إذا حاول الإنسان تجاوز النقص الذى فيه باستعلائه على الغير و تكبره و بالادعاءات الخاطئة، أو أنّه يحاول أن يجبر غيره على أن يكون تحت طاعته و رغبته، فيكون الأخير ذليلا لأمره.

هذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن الكريم، و أحيانا تقترن معه صفات ذميمة أخرى، كالآية المتقدمة التى اقترنت مع كلمة «عنيد» و فى الآية (۳۲) من سورة مريم نقرأ على لسان عيسى بن مريم رسول اللّه وَ لَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيًّا كما نقرأ على لسان بنى إسرائيل فى خطابهم لموسى عليه السّلام فى من سكن بيت المقدس من الظالمين حيث ورد فى الآية (۲۲) من سورة المائدة قالُوا (يا

مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ

و لكن قد تأتى كلمة «الجبار» من هذين الجذرين «الجبر» و «الجبران» و هى بمعنى المدح، و تطلق على من يسدّ حاجات الناس و يرفع نقصانهم و يربط العظام المتكسرة، أو أن تكون له قدرة وافرة بحيث يكون الغير خاضعا لقدرته، دون أن يظلم أحدا أو يستغل قدرته ليسىء الاستفادة منها، و لذلك حين تكون كلمة الجبار بهذا المعنى فقد تقترن بصفات مدح أخرى، كما نقرأ فى سورة الحشر الآية (۲۳) الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ و واضح أن صفات كالقدوس و السّلام و المؤمن لا تنسجم مع «الجبار» بمعنى الظالم أو «المتكبر» بمعنى من يرى نفسه أكبر من غيره، و هذا التعبير يدل على أنّ المراد هنا من «الجبار» هو المعنى الثّانى.

و لكن حيث أنّ البعض فسّروا «الجبار» ببعض معانيه دون الالتفات إلى معانيه المتعددة فى اللغة، تصوّروا أنّ استعمال هذا اللفظ غير صحيح فى شأن اللّه، و كذلك فى ما يخصّ لفظ «المتكبر» و لكن بالرجوع إلى جذورهما اللغوية الأصيلة يرتفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۳

الإشكال ۲۳۳].

و فى الآية الأخيرة التى تنتهى بها قصّة «هود» و قومه «عاد» بيان لنتيجة أعمالهم السيئة و الباطلة حيث تقول الآية: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً و بعد الموت لا يبقى إلّا خزيهم و الصيت السىء وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يقال لهم أَلا إِنَّ عاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِعادٍ قَوْمِ هُودٍ.

و كان يكفى تعريف هذه الجماعة بلفظ «عاد» و لكن بعد ذكر عاد جاء لفظ «قوم هود» أيضا لتؤكّد عليهم أوّلا، و لتشير الى أنّهم القوم الذين آذوا نبيهم الناصح لهم ثانيا، و لذلك فقد أبعدهم اللّه عن رحمته.

بحثان

۱- قوم عاد من منظار التاريخ

بالرغم من أنّ بعض المؤرّخين الغربيين ك «أسبرينكل» أرادوا أن ينكروا قصّة «عاد» من الناحية التاريخية، و ربّما كان ذلك بسبب عدم توفر ذكر لهم فى غير الآثار الإسلامية، و لم يجدوها فى كتب العهد القديم «التوراة» و لكن هناك وثائق- تشير إلى قصّة عاد- مشهورة إجمالا بين العرب فى زمن الجاهلية، و قد ذكرهم شعراء العرب قبل الإسلام، و حتى فى العصر الجاهلى كانوا يطلقون لفظ «العادىّ» على البناء العالى و القوى نسبة إلى عاد.

و يعتقد بعض المؤرّخين أنّ لفظ «عاد» يطلق على قبيلتين:

إحداهما: قبيلة كانت تقطن الحجاز قبل التاريخ ثمّ زالت و زالت آثارها أيضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۴

و لم ينقل التاريخ البشرى عنها إلّا أساطير لا يطمأنّ إلى صحتها. و التعبير الوارد فى القرآن «عادا الأولى» إشارة إلى هذه القبيلة.

و لكن فى زمن التاريخ- و من المحتمل أن يكون فى حدود ۷۰۰ سنة قبل ميلاد المسيح- وجد قوم آخرون باسم «عاد» قطنوا الأحقاف أو اليمن أيضا. و كان أولئك طوالا جساما أقوياء مقتدرين، و لذلك كانوا يعدون من مثيرى الحروب.

كما أنّهم كانوا من الناحية الحضارية متمدنين، إذ كانت لهم مدن عامرة و أراضى خصبة خضراء و غابات نضرة، كما وصفوا فى القرآن ... الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ.

و لذلك يقول بعض المؤرّخين «المستشرقين»: إنّ «عادا» كانت تقطن فى حدود «برهوت» إحدى نواحى حضر موت اليمن، و على أثر

البراكين و جبال النّار التى حولها دمرت الكثير من قراهم و مدنهم و تفرقت بقاياهم.

على كل حال فإنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى نعم و ترف، و لكن كما هى طريقة أغلب المتنعمين الغافلين و السكارى من أثر النعمة استغلّوا قدرتهم لظلم الآخرين و استثمارهم و استعمارهم .. و اتبعوا أمر كل جبار عنيد، و أقروا عبادة الأوثان.

و حين دعاهم نبيّهم هود عليه السّلام بكلّ ما أوتى من جهد وجدّ ليضىء أفكارهم بنصحه و مواعظه، و يتمّ الحجّة عليهم، لم يكتفوا بإهمال هذه الدعوة فحسب، بل نهضوا لإسكات هذا الصوت النيّر لهذا النّبى العظيم فمرّة نسبوه إلى السفاهة و الجنون، و مرّة هددوه بغضب آلهتهم، و لكنّه وقف صامدا أمامهم كالجبل لا يخشى غضب هؤلاء القوم المغرورين الأقوياء، حتى استطاع أن يكتسب منهم جماعة تقدّر بأربعة آلاف و طهّر قلوبهم و دعاهم إلى منهاجه و عقيدته، لكن بقى الآخرون مصرّين على عنادهم و لجاجتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۵

و أخيرا- كما سيأتى فى سورة الذاريات و الحاقة و القمر- غمرهم إعصار شديد لمدّة سبعة ليال و ستة أيّام جسوما فأتى على قصورهم فدمّرها و على أجسادهم فجعلها كأوراق الخريف و فرقها تفريقا، و لكن هود كان قد أبعد المؤمنين عن هؤلاء و نجّاهم من العذاب، و أصبحت حياة أولئك القوم و مصيرهم درسا كبيرا و عبرة لكل الجبابرة و الأنانيين ۲۳۴].

۲- اللعن الدائم الأبدى على «عاد»:

هذا التعبير و ما شابهه ورد فى آيات متعددة من القرآن الكريم فى شأن أمم مختلفة، حيث يقول اللّه سبحانه بعد ذكر أحوالهم، كما فى سورة هود الآية ۶۸:

أَلا بُعْداً لِثَمُودَ و فى آية أخرى (۸۹) هود أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ و فى سورة المؤمنون، الآية (۴۱) فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و فى آية أخرى (۴۴) المؤمنون فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ و كما قرأنا فى قصّة نوح من قبل فى هود الآية (۴۴) وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

ففى جميع هذه الآيات جاء اللعن شعارا لمن أذنبوا ذنبا عظيما، و يدور هذا اللعن مدار بعدهم عن رحمة اللّه.

و غالبا ما يطلق اليوم مثل هذا الشعار على المستعمرين و المستكبرين و الظالمين، غاية ما فى الأمر أن هذا الشعار القرآنى أخّاذ و طريف إلى درجة أنّه غير ناظر إلى بعد واحد فحسب. لأنّنا حين نقول مثلا: بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فإنّ هذا التعبير يشمل الابتعاد عن رحمة اللّه، و الابتعاد عن السعادة، و عن كل خير و بركة و نعمة، و عن كونهم عبادا للّه، طبعا ابتعادهم عن الخير و السعادة هو انعكاس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۶

لابتعادهم فى نفوسهم و أرواحهم و محيط عملهم عن اللّه و خلق اللّه، لأنّ كل فكرة و عمل له أثر فى الدار الآخرة يشابه ذلك العمل تماما و لذلك فإنّ ابتعادهم هذا فى هذه الدنيا أساس ابتعادهم فى الآخرة عن رحمة اللّه و عفوه و مواهبه السنيّة[۲۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۷

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۶۱]

اشارة

وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ (۶۱)

التّفسير

قصّة ثمود:

انتهت قصّة «عاد قوم هود» بجميع دروسها بشكل مضغوط، و جاء الدور الآن لثمود «قوم صالح» و هم الذين عاشوا فى وادى القرى بين المدينة و الشام، حسب ما تنقله التواريخ عنهم.

و نرى هنا أيضا أنّ القرآن حين يتحدث عن نبيهم «صالح» يذكره على أنّه أخوهم، و أى تعبير أروع و أجمل منه حيث بيّنا قسما من محتواه فى الآيات المتقدمة، أخ محترق القلب و دود مشفق ليس له هدف إلّا الخير لجماعته وَ إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً.

و نجد أيضا أنّ منهج الأنبياء جميعا يبدأ بمنهج التوحيد و نفى أى نوع من أنواع الشرك و عبادة الأوثان التى هى أساس جميع المتاعب قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۸

لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و لكى يحرك إحساسهم بمعرفة الحق أشار إلى عدد من نعم اللّه المهمّة التى استوعبت جميع وجودهم فقال: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ فأين هذه الأرض و التراب الذى لا قيمة له، و أين هذا الوجود العالى و الخلقة البديعة؟ ترى هل يجيز العقل أن يترك الإنسان خالقه العظيم الذى لديه هذه القدرة العظيمة و هو واهب هذه النعم، ثمّ يمضى إلى عبادة الأوثان التى تثير السخرية.

ثمّ يذكّر هؤلاء المعاندين بعد أن أشار إلى نعمة الخلقة بنعم أخرى موجودة فى الأرض حيث قال: وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها.

و أصل «الاستعمار» و «الإعمار» فى اللغة يعنى تفويض عمارة الأرض لأى كان، و طبيعى أنّ لازم ذلك يجعل الوسائل و الأسباب فى اختيار من يفوّض إليه ذلك تحت تصرفه! هذا ما قاله أرباب اللغة، كالراغب فى المفردات، و كثير من المفسّرين فى تفسير الآية المتقدمة.

و يرد احتمال آخر، و هو أنّ اللّه منحكم عمرا طويلا فى هذه الأرض، و بديهى أنّ المعنى الأوّل و بملاحظة مصادر اللغة هو الأقرب و الأصح كما يبدو.

و على كل حال فهذا الموضوع يصدق بمعنييه فى ثمود، حيث كانت لديهم أراض خصبة و خضراء و مزارع كثيرة الخيرات و البركات، و كانوا يبذلون فى الزراعة ابتكارات و قدرات واسعة، و إلى ذلك كله كانت أعمارهم مديدة و أجسامهم قويّة و كانوا متطورين فى بناء المساكن و البيوت، كما يقول القرآن الكريم: وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ۲۳۶].

الطريف هنا أنّ القرآن لم يقل: إنّ اللّه عمر الأرض و جعلها تحت تصرفكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۷۹

و إنّما قال: و فوّض إليكم إعمار الأرض وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها و هى إشارة إلى أنّ الوسائل معدّة فيها لكل شىء و عليكم إعمارها بالعمل و السعى المتواصل و السيطرة على مصادر الخيرات فيها. و بدون ذلك لا حظّ لكم فى الحياة الكريمة.

كما يستفاد ضمنا أنّه ينبغى من أجل الإعمار أن يعطى المجال لأمّة معينة فى العمل، و تجعل الأسباب و الوسائل اللازمة تحت تصرفها و فى اختيارها.

فإذا كان الأمر كذلك فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ لدعواتكم.

الاستعمار فى القرآن و فى عصرنا الحاضر:

لا حظنا فى الآيات المتقدمة أنّ نبى اللّه «صالحا» من أجل هداية و تربية قومه الضالين «ثمود» ذكرهم بعظيم خلق اللّه لهم من التراب .. و تفويض إعمار الأرض إليهم إذ قال: هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها ....

لكن هـذه الكلمـة مع جمالها الخاص و جـذابيتها التى تعنى العمران و تفويض الإختيارات و إعـداد الوسائل اللازمـة و تهيأتها، تبدّلت هذه الكلمة فى عصرنا إلى درجة أنّها مسخت و أصبحت تعطى معنى معاكسا لمفهوم القرآن تماما.

و ليست كلمة الاستعمار وحدها انتهت إلى هذا المصير المشؤوم، فهناك كلمات كثيرة فى العربية و فى لغات أخرى مسخت و حرّفت و تبـدّلت و انقلبت رأسا على عقب، مثل كلمات «الحضارة» و «الثقافة» و «الحريـة» و فى ظلال هـذه التحريفات تأخـذ هذه الكلمات و أمثالها طريقها إلى التغرّب و البعـد عن معناها، و تتحول لعبادة المادة و أسـر الناس و إنكار الحقائق و التوغل فى كل أنواع الفساد و ما إلى ذلك.

و على كـل حـال، فـإنّ معنى «الاسـتعمار» فى عصـرنا و مفهـومه الواقعى هو «استيلاء الـدول العظمى السياسـية و الصـناعية على الأـمم المستضعفة قليلة القدرة، بحيث تكون نتيجة هذا «الاستيلاء» و هذه «الغارة» امتصاص دمائهم و سلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۰

خيراتهم و مصادرة حياتهم.

هـذا الاسـتعمار الـذى له أوجه شؤم مختلفـة، يتجسم مرّة بشـكل «ثقافى» و أخرى بوجه «فكرى» و ثالثة بوجه «اقتصادى» و رابعة بوجه «سياسـى» و قـد يبـدو بوجه «عسـكرى» أيضا، و هو الـذى بدل دنيانا و جعلها سوداء مظلمة، فالأقلية فى هذه الدنيا لديهم كل شـىء، و الأكثريـة العظمى فاقـدة لكل شـىء هـذا الاسـتعمار هو السـبب فى الحروب و الدمار و الانحرافات و الفساد و التسابق التسـليحى الذى يقصم الظهر.

القرآن استعمل لهذا المفهوم مفردة «الاستضعاف» التى تنطبق تماما على هذا المعنى أى «جعل الشىء ضعيفا» بالمعنى الواسع و الشامل للكلمة، جعل الفكر ضعيفا، و جعل الإقتصاد ضعيفا، و جعل السياسة ضعيفة .. إلخ ..

و قد اتسع مجال الاسـتعمار إلى درجة بحيث أصـبحت كلمة الاستعمار «استعمارية» أيضا، و ذلك لأنّ مفهومها اللغوى قد انقلب رأسا على عقب تماما.

و على كل حال، فإن الاسـتعمار من القصـص الطويلة المثيرة للحزن و الألم، بحيث يمكن أن يقال أنّه يستوعب تاريخ البشرية أجمع و إن تغيّر وجهه دائمـا، و لكن من غير المعلوم أنّه متى يزول من المجتمعات الإنسانيـة، و تقوم حياة البشـر على أساس التعاون و الاحترام المتبادل بين الناس و المساعدة ليتقدم الواحد بعد الآخر فى جميع المجالات ...؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۲ الى ۶۵]

اشارة

قـالُوا يا صالِـحُ قَـدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوًّا قَبْلَ هـذا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُـدَ ما يَعْبُـدُ آباؤُنا وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَـدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۶۲) قـالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُـرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَـيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِـيرٍ (۶۳) وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَـةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُـذَكُمْ عَـذابٌ قَرِيبٌ (۶۴) فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَـةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (۶۵)

التّفسير

اشارة

و الآن لنلاحظ ما الذى كان جواب المخالفين لنبىّ اللّه «صالح عليه السّلام» إزاء منطقه الحى الداعى إلى الحق.

لقد استفادوا من عامل نفسى للتأثير على النّبى «صالح» أو على الأقل للمحاولة فى عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس، و بالتعبير العاميّ الدراج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه، فقالوا: يا صالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۲

مَرْجُوًّا قَبْلَ هذا و كنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا و نستشيرك فى أمورنا و نعتقد بعقلك و ذكائك و درايتك، و لم نشك فى إشفاقك و اهتمامك بنا، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان و هو منهج أسلافنا و مفخرة قومنا، فأبديت عدم احترامك للأوثان و للكبار و سخرت من عقولنا أَ تَنْهانا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا و الحقيقة أننا نشكّ فى دعوتك للواحد الأحد وَ إِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٍ

نجد هنا أن القوم الضّالين يلتجؤون تحت غطاء الاسلاف و الآباء الذين تحيط بهم هالة من القدسية لتوجيه أخطائهم و أعمالهم و أفكارهم غير الصحيحة، و هو ذلك المنطق القديم الذى كان يتذرع به المنحرفون و ما زالوا يتذرعون به فى عصر الذّرة و الفضاء أيضا.

لكن هذا النّبى الكبير لم ييأس من هدايتهم و لم تؤثر كلماتهم المخادعة فى روحه الكبيرة فأجابهم قائلا: يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي مِنْهُ رَحْمَةً أ فأسكت عن دعوتى و لا أبلغ رسالة اللّه و لا أواجه المنحرفين فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ .. و لكن اعلموا أن كلامكم هذا و احتجاجكم بمنهج السلف و الآباء لا يزيدنى إلّا إيمانا بضلالتكم و خسرانكم: فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ...

و بعد هذا كلّه و من أجل البرهان على صدق دعوته، و بيان المعاجز الإلهية التى دونها قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التى هى آية من آيات اللّه و قال: وَ يا قَوْمِ هذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فاتركوها و ذروها تأكل فى أرض اللّه وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

ناقة صالح:

«النّاقة» فى اللغة هى أنثى الجمل، و هى الآية الآنفة فى آيات أخرى أضيفت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۳

إلى لفظ الجلالة «اللّه»[۲۳۷] و هذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، و مع الالتفات إلى ما عبّر عنها فى الآية المتقدمة بأنّها «آية» و علامة إلهية و دليل على الحقانيّة، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة!.

و لكن لم ترد فى القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل، غاية ما فى الأمر أننا نعرف بأنّها لم تكن ناقة عادية كالنوق الأخريات، و الشىء الوحيد المذكور عنها فى القرآن- و فى موردين فحسب- أن صالحا أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم و سهم للناقة، فلهم شرب يوم منه و لها شرب يوم آخر قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۲۳۸] كما جاء فى سورة القمر أيضا وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۲۳۹].

و فى سورة الشمس إشارة مختصرة إليها أيضا، حيث يقول سبحانه: فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها[۲۴۰].

و لكن لم يتّضح كيف كان تقسيم الماء خارقا للعادة؟

هناك احتمالان:

الأوّل: إنّ الناقة كانت تشرب ماء كثيرا بحيث تأتى على ماء «النبع» كله.

و الثانى: إنّه حين كانت ترد الماء لا تجرؤ الحيوانات الأخرى على الورود إلى الماء معها.

أمّا كيف كانت هذه الناقة تستفيد من جميع الماء؟ فيوجه هذا الاحتمال بأنّ ماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۴

القرية كان قليلا- كماء القرى التى ليس فيها أكثر من عين ماء واحدة، و أهل القرية مجبورون على أن يدخروا الماء تمام اليوم فى حفرة خاصّة ليجتمع الماء فى العين مرّة أخرى.

و لكن فى جزء آخر من سورة الشعراء يتجلّى لنا أنّ ثمود لم يعيشوا فى منطقة قليلة الماء، بل كانت لهم غابات و عيون و نخيل و مزارع حيث تقول الآيات:

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ، وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ [۲۴۱] و على كل حال فإنّ القرآن ذكر قصّة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ فى روايات كثيرة عن مصادر الشيعة و أهل السنة أيضا، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل، و لها خصائص أخرى ليس هنا مجال سردها.

و على كل حال. فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» فى شأن الناقة، فقد صمّموا أخيرا على القضاء عليها، لأنّ وجودها مع ما فيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس و التفافهم حول النّبى صالح، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون فى دعوة صالح خطرا على مصالحهم، و لا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض و الانهيار، فتآمروا للقضاء على الناقة و هيأوا جماعة لهذا الغرض، و أخيرا أقدم أحدهم على مهاجمتها و ضربها بالسكين فهوت إلى الأرض فَعَقَرُوها.

«عقروها» مشتقة من مادة «العقر» على وزن «الظلم» و معناه: أصل الشىء و أساسه و جذره، و «عقرت البعير» معناه نحرته و احتززت رأسه، لأنّ نحر البعير يستلزم زوال وجوده من الأصل، و أحيانا تستعمل هذه الكلمة لطعن الناقة فى بطنها. أو لتقطيع أطراف الناقة بدل النحر و كل ذلك فى الواقع يرجع إلى معنى واحد «فتأمل»! ...».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۵

العلاقة الدّينية:

الطريف أنّنا نقرأ فى الرّوايات الإسلامية أنّ الذى عقر الناقة لم يكن إلّا واحدا، لكن القرآن ينسب هذا العمل إلى جميع المخالفين من قوم صالح «ثمود» و يقول بصيغة الجمع: فَعَقَرُوها و ذلك لأنّ الإسلام يعدّ الرضا الباطنى فى أمر ما و الارتباط معه ارتباطا عاطفيا بمنزلة الاشتراك فيه، و فى الواقع فإنّ التآمر على هذا العمل لم يكن له جانب فردى، و حتى ذلك الذى أقدم على عمله لم يكن معتمدا على قوته الشخصيّة فجميعهم كانوا مرتاحين لعمله و كانوا يسندونه، و من المسلّم أنّه لا يمكن أن يعدّ هذا العمل عملا فرديا. بل يعد عملا جماعيا. يقول الإمام على عليه السّلام: «و إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم اللّه بالعذاب لمّا عمّوه بالرضا»[۲۴۲].

و هناك روايات متعددة فى المضمون ذاته نقلت عن نبى الإسلام و أهل بيته الكرام، و هى تكشف غاية الاهتمام من قبل هؤلاء السادة العظام بالعلاقة العاطفية و المناهج الفكرية المشتركة بجلاء، و نورد هنا على سبيل المثال- لا الحصر- عددا منها.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم «من شهد أمرا فكرهه كمن غاب عنه و من غاب عن أمر فرضيه كمن شهده»[۲۴۳].

و

يقول الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام «لو أنّ رجلا قتل فى المشرق فرضى بقتله رجل فى المغرب لكان الراضى عند اللّه عزّ و جلّ شريك القاتل»[۲۴۴].

و

نقل عن الإمام على عليه السّلام أيضا أنّه قال: «الراضى بفعل قوم كالداخل معهم فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۶

و على كل داخل فى باطل إثمان إثم العمل به و إثم الرضا به»[۲۴۵].

و من أجل أن نعرف عمق العلاقة الفكرية و العاطفية فى الإسلام و سعتها بحيث لا يعرف لها حد من جهة الزمان و المكان، فيكفى أن نذكر هذا الكلام للإمام على عليه السّلام من نهج البلاغة لنلفت إليه الأنظار:

«حين انتصر الإمام على فى حرب الجمل على المتمردين و مثيرى الفتنة و فرح أصحاب على بهذا الإنتصار الذى يعدّ انتصارا للإسلام على الشرك و الجاهلية، قال له أحد أصحابه: «وددت لو أنّ أخى شهدنا هنا فى الميدان ليرى انتصارك على عدوك».

فالتفت الإمام عليه السّلام إليه قائلا: «أهوى أخيك معنا» فقال: «نعم» فقال الإمام عليه السّلام:

«شهدنا» ثمّ قال: «و لقد شهدنا فى عسكرنا هذا أقوام فى أصلاب الرجال و أرحام النساء سيرعف بهم الزمان و يقوى بهم الإيمان»[۲۴۶].

و لا شك أنّ أولئك الذين يساهمون فى منهج ما و يشتركون فيه و يتحملون كل مشاكله و أتعابه، لهم امتياز خاص، و لكن هذا لا يعنى أن الآخرين لم يشتركوا فى ذلك أبدا، بل سواء كانوا فى عصرهم أو العصور و القرون المقبلة و لهم ارتباط عاطفى و فكرى بهم فهم مشتركون معهم بنحو من الأنحاء.

هذه المسألة التى قد لا نجد لها نظيرا فى أى مذهب من مذاهب العالم، قائمة على أساس من حقيقة اجتماعية هامة، و هى أن المنسجمون فكريا و عقائديا حتى لو لم يشتركوا فى منهج معيّن، إلّا أنّهم سيدخلون قطعا فى مناهج مشابهة له فى محيطهم و زمانهم، لأنّ أعمال الناس منعكسة عن أفكارهم، و لا يمكن أن يرتبط الإنسان بمذهب معين و لا يظهر أثره فى عمله.

و الإسلام منذ الخطوة الأولى يهتم بإيجاد اصلاحات فى روح الإنسان و نفسه لإصلاح عمله تلقائيا و على ضوء الرّوايات المتقدمة فإنّ أى مسلم يبلغه أنّ فلانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۷

عمل عملا صالحا- أو سيئا- ينبغى أن يتخذ الموقف الصحيح من ذلك العمل فورا و يجعل قلبه و روحه منسجمين مع «الصالحات» و أن ينفر من «السيئات» فهذا السعى و «الجد» الداخلى لا شك سيكون له أثر فى أعماله، و سيتعمق الترابط بين الفكر و العمل.

و فى نهاية الآية نقرأ أنّ النّبى «صالحا» بعد أن رأى تمرّد قومه و عقرهم الناقة أنذرهم فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فهو وعد اللّه الذى لا يتغير و ما أنا من الكاذبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۸

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۶ الى ۶۸]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۶۶) وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ

فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۶۷) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ (۶۸)

التّفسير

نهاية ثمود «قوم صالح»:

فى هذه الآيات يتبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم و قال لهم: تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فتقول الآيات: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا صالِحاً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا لا من العذاب الجسمانى و المادى فحسب، بل وَ مِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ[۲۴۷].

لأنّ اللّه قوى و قادر على كل شىء، و له السلطة على كل أمر، و لا يصعب عليه أى شىء و لا قدرة فوق قدرته إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

و على هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۸۹

اللّه ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة اللّه تعالى.

إنّ رحمة اللّه تستوجب ألّا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين، و ألّا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ و هكذا هلكوا و صاروا «شذر مذر» و مضت آثارهم مع الريح كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلا بُعْداً لِثَمُودَ عن لطف اللّه و رحمته.

ملاحظات

۱- نجد فى هذه الآيات أن رحمة اللّه بالنسبة للمؤمنين واسعة و شاملة، بحيث تنقلهم جميعا إلى مكان آمن، و لا تحرق الأخضر و اليابس بالعذاب.

و من الممكن أن تحدث حوادث مؤلمة كالسيول و الأوبئة و الزلازل التى قد تأتى على الصغير و الكبير، و ليست هذه الحوادث ترجمة لعذاب اللّه، و إلّا فإنّه محال على اللّه فى منطق عدله أن يعذب حتى واحدا بريئا بجرم ملايين المذنبين.

طبعا يمكن أن يوجد أناس ساكتون بين جماعة مذنبين فيؤخذوا بوزرهم، لأنّهم لا يردعونهم عن الظلم و الفساد، فمصيرهم- إذا- سيكون كمصير المجرمين.

و لكنّهم إذا عملوا بواجبهم فمحال أن تنزل عليهم حادثة أو يحيق بهم العذاب «فصّلنا هذا الموضوع فى الأبحاث المرتبطة بمعرفة اللّه و نزول البلاء و الحوادث فى كتب معرفة اللّه»[۲۴۸].

۲- و يظهر جيدا من الآيات المتقدمة أنّ عقاب المعاندين و الطغاة لا يختصّ بالجانب المادى فحسب، بل يشمل الجانب المعنوى، لأنّ نتيجة أعمالهم و مصيرهم المخزى و حياتهم الملوّثة تسجل فصولها فى التاريخ بما يكون عارا عليهم، فى حين يكتب التاريخ حياة المؤمنين بسطور من ذهب و صحائف من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹۰

نور.

۳- ما المراد من الصيحة؟

الصيحة فى اللغة معناها الصوت العظيم الذى يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عادة .. و لكن لا تختصّ بهذا المعنى، بل تشمل كل صوت عظيم .. نقرأ فى القرآن الكريم أن عدّة أقوام آثمين أخذتهم الصيحة من السماء عقابا لهم على ذنوبهم، «ثمود» الذين نتحدث عنهم «و قوم لوط» كما نقرأ فى سورة الحجر الآية (۷۳) «قوم شعيب» كما ذكروا فى سورة هود الآية (۹۴).

و يستفاد من بعض الآيات الأخرى من القرآن أنّ قوم صالح «ثمودا» عوقبوا بالصاعقة فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ[۲۴۹] و من هنا يتبيّن أنّ المراد من الصيحة هو صوت الصاعقة الموحش! سؤال: هل يستطيع صوت الصاعقة الموحش أن يبيد قوما أو جماعة بأسرهم؟! و الجواب: نعم، حتما! .. لأنّنا نعرف أن الأمواج الصوتية إذا تجاوزت حدّا معينا تستطيع أن تكسّر الزجاج، و قد تتهدم على أثرها عمارات، و قد تشل أعضاء البدن الداخلية.

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتى و تكون سرعتها أكثر من سرعة أمواج الصوت يسقط بعض الأفراد فاقدو الوعى، أو تسقط الحامل جنينها بسبب ذلك و قد يتكسر جميع الزّجاج فى عمارات المنطقة التى تمرّ عليها هذه الطائرات.

و طبيعى أنّه إذا كانت شدّة الأمواج الصوتية أكثر ممّا ذكرنا، فمن السهولة أن تحدث اختلالا قاتلا فى شبكات الاعصاب الدماغ و حركات القلب و تسبب موت الإنسان!:

و من الثابت- طبقا لما فى آيات القرآن- أنّ نهاية هذا العالم تكون بصيحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۶، ص: ۵۹۱

عامّة أيضا .. ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ ۲۵۰]، كما أنّ يوم القيامة يبدأ بصيحة موقظة أيضا إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

۴- «الجاثم» من مادة «جثم» و معناه المصدرى الجلوس على الركب، كما يأتى بمعنى السقوط للوجه (و لزيادة التوضيح فى هذا المجال يراجع فى التّفسير الأمثل ذيل الآية ۷۹ من سورة الأعراف).

و يستفاد طبعا من التعبير ب «جاثمين» أنّ الصيحة من السماء كانت السبب فى موتهم، إلّا أنّ أجسادهم كانت ملقاة على الأرض، لكن يستفاد من بعض الرّوايات أنّ الصاعقة أحرقتهم بنارها، و لا منافاة بين الأمرين، لأنّ أثر الصوت الموحش للصاعقة يتّضح فورا، و أمّا آثار، حرقها- و خاصّة لمن هم داخل البيوت- فيظهر بعدئذ.

۵- لفظ «لم يغنوا» مشتق من مادة «غنى» و معناه الإقامة فى المكان، و لا يبعد أن يكون مأخوذا من المفهوم الأصلى و هو «الغنى» و معناه عدم الحاجة، لأنّ الغنى غير المحتاج له بيت مهيّأ و معدّ و ليس مجبورا أن ينتقل كل زمان من منزل إلى آخر- و التعبير بجملة كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا وارد فى ثمود، كما هو وارد فى قوم شعيب، و مفهوم هذا التعبير أنّ طومار حياتهم قد طوى حتى تظن أنّهم لم يكونوا من سكنة هذه الأرض.

نهاية المجلد السّادس

---

[۱] (۱)- المراد من التصغير عادة هو بيان كون الشىء صغيرا فى قبال شىء آخر كبير، مثل رجيل المصغر عن رجل، لكن للتصغير أغراضا بلاغية منها إظهار المحبّة و غيرها، كما فى اظهار الرجل محبته لولده فيصغّر اسمه.

[۲] (۱)- يراجع فى هذا الشأن الميزان، ج ۹، ص ۲۵۳، و المنار، ج ۱۰، ص ۳۲۲.

[۳] (۲)- نور الثقلين، ج ۶، ص ۲۰۵، حديث طويل نقلنا خلاصته معنا لا نصا، و إذا أردتم المزيد راجعوا المصدر المذكور.

[۴] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة و نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۰۹.

[۵] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۶] (۱)- المنار، ج ۱۰، ص ۳۸۹.

[۷] (۱)- الکهف، ۲۰.

[۸] (۲)- التوبة، ۸.

[۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۱.

[۱۰] (۱)- محاسن البرقی، طبقا لما ورد فی البحار، الطبعة القدیمة، ج ۱۳، ص ۱۳۶.

[۱۱] (۱)- الکافی، حسب ما جاء فی البحار، ص ۱۳۶ و ۱۳۷.

[۱۲] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳] (۱) راجع البحار الطبعة القدیمة ج ۱۳، ص ۱۴.

[۱۴] (۱)- المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۴.

[۱۵] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۱۷] (۲)- المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنّها مخارج السنة.

[۱۸] (۳)- مجمع البیان، ذیل الآیة محل البحث، و نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۱۹] (۴)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۲۰] (۵)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۴ و تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۱۲۲.

[۲۱] (۱)- تفسیر المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۶.

[۲۲] (۱)- راجع المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۷.

[۲۳] (۱)- ذکر شأن النّزول هذا جماعة من المفسّرین کالطبرسی فی مجمع البیان، و الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، و الآلوسی فی روح المعانی.

[۲۴] (۲)- الفاصلة بین تبوک و المدینة ۶۱۰ کم و الفاصلة بینها و بین الشام ۶۹۲ کم.

[۲۵] (۱) فی هذه الجملة حذف من الناحیة الأدبیة، و کانت الجملة فی الأصل: إن لا تنصروه ینصره اللّه. لأنّ الفعل الماضی الذی یدل(مفهومه) علی وقوعه فی الماضی أیضا، لا یمکن أن یقع جزاء للشرط إلّا أن یکون الفعل الماضی بمعنی المضارع!

[۲۶] (۱) العرض ما یعرض و یزول عاجلا و لا دوام له، و یطلق عادة علی مواهب الدنیا المادیة، و القاصد معناه السهل. لأنّه فی الأصل من قصد، و الناس یسعون فی قصدهم إلی المسائل السهلة.

[۲۷] (۲) الشقة تعنی الأرض الصخریة أو الطریق الطویل البعید الذی یجلب علی عابره المشقة و النصب.

[۲۸] (۱)- ثبطهم مشتق من التثبیط و یعنی الوقوف بوجه العمل المزمع إجراؤه بوجه من الوجوه.

[۲۹] (۱)- أوضعوا من مادة الإیضاع و معناه، الإسراع فی الحرکة، و معناه هنا الإسراع فی النفوذ بین صفوف المقاتلین، و الفتنة هنا بمعنی التفرقة و اختلاف الکلمة.

[۳۰] (۱) سورة النّجم، ۳۹.

[۳۱] (۲) المدثر، ۳۸.

[۳۲] (۱)- جملة« أنفقوا» و إن کانت فی صورة الأمر، إلّا أن فیها مفهوم الشرط، أی لو أنفقتم طوعا أو کرها لن یتقبل منکم.

[۳۳] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۲۷.

[۳۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۱۴۴، باب ۱ من أبواب مستحقى الزكاة، حديث ۲.

[۳۵] (۱) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۲۰، باب ۴، حديث ۹.

[۳۶] (۲) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۴، باب ۱ من أبواب الزكاة حديث ۶.

[۳۷] (۳) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۶، باب ۱، من أبواب الزكاة، حديث ۱۱.

[۳۸] (۱) ينبغى الانتباه إلى أن(فى) قد ذكرت صريحا فى موردين، و عطف على مجرور(فى) فى موردين، كما أن اللام قد ذكرت فى مورد واحد، و عطف الباقى عليها.

[۳۹] (۱) فى الحقيقة، بناء على التّفسير الأوّل فإنّ i أُذُنُ خَيْرٍ\E التى هى مضاف و مضاف إليه من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، و على التّفسير الثّانى فهى من قبيل إضافة الوصف إلى المفعول، فعلى الاحتمال الأوّل يكون المعنى، إنّه إنسان يقبل الكلام و هو خير لكم، و على الاحتمال الثّانى فالمعنى: إنّه يسمع الكلام المفيد الذى ينفعكم، لا أنّه يسمع كل كلام.

[۴۰] (۲) الأنبياء، ۱۰۷.

[۴۱] (۱) تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآية.

[۴۲] (۱) خوض على وزن حوض، و هو- كما ورد فى كتب اللغة- بمعنى الدخول التدريجى فى الماء، ثمّ أطلقت على الدخول فى مختلف الأعمال من باب الكناية، إلّا أنّها جاءت فى القرآن غالبا بمعنى الدخول أو الشروع بالأعمال أو الأقوال القبيحة البذيئة.

[۴۳] (۱) راجع تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۳۹- ۲۴۰.

[۴۴] (۱) إن جملة\i كَالَّذِى خاضُوا\E فى الواقع بمعنى: كالذى خاضوا فيه، و بعبارة أخرى، فإنّها تشبيه لفعل منافقى اليوم بفعل المنافقين السابقين، كما شبهت الجملة السابقة استفادة هؤلاء من النعم و المواهب الإلهية فى طريق الشهوات كالسابقين منهم، و على هذا فإنّ هذا التشبيه ليس تشبيه شخص بشخص لنضطر إلى أن نجعل(الذى) بمعنى(الذين) أى المفرد بمعنى الجمع، بل هو تشبيه عمل بعمل.

[۴۵] (۱) المؤتفكات مأخوذة من مادة الائتفاك، بمعنى انقلاب الأسفل إلى الأعلى و بالعكس، و هى إشارة إلى مدن قوم لوط التى قلب عاليها سافلها نتيجة الزلزلة.

[۴۶] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۴۷] (۱) كتاب الخصال، على ما نقل فى نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۴۱.

[۴۸] (۱) ما ذكرناه اقتباس من تفسير مجمع البيان و المنار و روح المعانى و تفاسير أخر.

[۴۹] (۱) ممّا يستحق الانتباه أن الجملة أعلاه بالرغم من أنّها تتحدث عن فضل اللّه و رسوله، إلّا أن الضمير فى i مِنْ فَضْلِهِ E جاء مفردا لا- مثنى، و السبب فى ذلك هو ما ذكرناه قبل عدة آيات من أن أمثال هذه التعبيرات لأجل إثبات حقيقة التوحيد، و أن كل الأعمال بيد اللّه سبحانه، و أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إذا ما عمل عملا فهو بأمر اللّه سبحانه، و لا ينعزل عن إرادته سبحانه.

[۵۰] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية.

[۵۱] (۱) سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۷.

[۵۲] (۱) لقد وردت روايات كثيرة بهذا المضمون ذكرت فى تفسير الطبرى، ج ۱۰، ص ۱۳۸.

[۵۳] (۱) راجع الميزان، ج ۹، ص ۳۶۷.

[۵۴] (۲) يستفاد من مجموعة من الرّوايات أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يصلى على المنافقين بعد نزول هذه الآية أيضا، إلّا أنّه يكبر أربعا لا أكثر، أى أنّه كان يصرف النظر عن التكبير الخامس الذى هو دعاء للميت. إنّ هذه الرّواية يمكن قبولها فيما لو

كان معنى الصلاة هنا الدعاء، و(لا تصل) فى الآية هو(لا تدع)، أمّا لو كان المراد(لا تصل) فإنّ هذه الرّواية تخالف ظاهر القرآن، و لا ـ يمكن قبولها. و لا ـ يمكن إنكار أن جملة(لا ـ تصل) ظاهرة بالمعنى الثانى، و لذلك فإنّنا لا ـ نستطيع- من وجهة نظر الحكم الإسلامى- أن نصلى على المنافقين الذين اشتهر نفاقهم بين الناس، و أن نرفع اليد عن ظهور الآية لرواية مبهمة.

[۵۵] (۱) راجع المجلد الأوّل من الأمثل(ذيل آية ۷ من سورة البقرة).

[۵۶] (۱) الدر المنثور، طبقا لنقل الميزان، ج ۹، ص ۳۸۶.

[۵۷] (۱) مغرم- كما ورد فى مجمع البيان- مأخوذة من مادة(غرم) على وزن(جرم)، و هى فى الأصل بمعنى ملازمة الشىء، و لهذه المناسبة قيل للدائن و المدين اللذين لا يدع كل منهما صاحبه: غريم، و أيضا قيل: غرامة، لنفس هذه المناسبة لأنّها تلازم الإنسان و لا تنقطع عنه إلّا بأدائها. و يقال للعشق الشديد: غرام، لأنّه ينفذ إلى روح الإنسان بصورة لا يمكن تصور الانفصال معها. و مغرم يساوى غرامة من حيث المعنى.

[۵۸] (۲) يستفاد من جملة\i عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ\E الحصر، أى إنّ حوادث السوء ستنال هؤلاء فقط. و استفادة الحصر هذه من أن(عليهم) خبر مقدم على المبتدأ.

[۵۹] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

[۶۰] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۵۴.

[۶۱] (۲) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، ص ۱۹۲.

[۶۲] (۱) لقد عدّ الكثير من المفسّرين(من) الواردة فى جملة\i وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ\E تبعيضية، و ظاهر الآية أيضا كذلك، لأن حديث الآية عن طلائع الإسلام و السابقين إليه، لا عن جميع المسلمين. أمّا الباقون فإنّهم يدخلون فى مفهوم الجملة التالية، أى:(التابعون).

[۶۳] (۱) تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۰۷۵.

[۶۴] (۲)- الغدير، ج ۳، ص ۲۳۸ و ۲۳۷.

[۶۵] (۳) المصدر السّابق.

[۶۶] (۱) الحديث أعلاه- حسب نقل الغدير- جاء فى مستدرك الحاكم، ج ۲، ص ۱۳۶، و الإستيعاب، ج ۲، ص ۴۵۷، و شرح ابن أبى الحديد، ج ۳، ص ۲۵۸.

[۶۷] (۲) فى المصدر السابق إنّ هذا الحديث قد نقل عن الطبرانى، و البيهقى، و الميثمى فى المجتمع، و الحافظ الكنجى فى الكفاية، و الإكمال، و كنز العمال.

[۶۸] (۳) هذا الحديث- حسب نقل الغدير- قد نقل فى كتاب حلية الأولياء، ج ۱، ص ۶۶.

[۶۹] (۱) هذا الحديث نقل بعبارات مختلفة، و ما أوردناه أعلاه هو ما نقله أبو جعفر الإسكافى فى كتاب(نهج العثمانية)، و برهان الدين فى(أنباء نجباء الأبناء)، و ابن الأثير فى(الكامل)، و آخرون. لمزيد الاطلاع و الاستيضاح راجع الجزء الثّانى من الغدير، ص ۲۷۸- ۲۸۶.

[۷۰] (۲) مريم، ۱۲.

[۷۱] (۳) مريم، ۳۰.

[۷۲] (۱) الغدير، ج ۳، ص ۲۴۰.

[۷۳] (۱) تفسير المنار، و تفسير الفخر الرازى فى ذيل الآية أعلاه.

[۷۴] (۱) مجمع البيان فى ذيل الآية، و تفاسير أخرى.

[۷۵] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۷۶] (۲) تفسیر العیاشی، علی ما نقل فی تفسیر الصافی فی ذیل الآیة.

[۷۷] (۱) تفسیر العیاشی، علی ما نقل فی تفسیر البرهان فی ذیل الآیة.

[۷۸] (۲) تفسیر المنار، ج ۱۱، ص ۳۳. و قد نقل هذا الحدیث عن طریق أهل البیت علیهم السّلام عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا.

راجع: بحار الأنوار، ج ۹۶، ص ۱۳۴، الطبعة الجدیدة.

[۷۹] (۱) أصول الکافی، ج ۱، ص ۱۷۱، باب عرض الأعمال.

[۸۰] (۲) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۸۱] (۱) أصول الکافی، ج ۱، ص ۱۷۱، باب عرض الأعمال.

[۸۲] (۱) للاطلاع علی هذه الرّوایات، راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۶۵، و تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۰۶.

[۸۳] (۱) مجمع البیان، و تفسیر أبی الفتوح الرازی، و تفسیر المنار، و تفسیر المیزان، و تفسیر نور الثقلین، و کتب أخری.

[۸۴] (۲) بالرغم من أنّ المفسّرین قد أبدوا و جهات نظر مختلفة من الناحیة الأدبیة حول ترکیب هذه الجملة، إلّا أنّ الظاهر هو أن هذه الجملة معطوفة علی الجمل السابقة التی وردت فی شأن المنافقین، و تقدیرها هکذا:« و منهم الذین اتخذوا مسجدا ...».

[۸۵] (۱) الکامل لابن الأثیر، ج ۲، ص ۱۰۷.

[۸۶] (۱) فاستبشروا مأخوذة من مادة البشارة، و التی أخذت فی الأصل من البشرة، أی وجه الإنسان، و هی إشارة إلی آثار الفرحة و السرور التی تبدو بوضوح علی وجه الإنسان.

[۸۷] (۱) الدّر المنثور، کما ورد فی تفسیر المیزان.

[۸۸] (۲) تفسیر المیزان، ذیل الآیة.

[۸۹] (۳) تفسیر نور الثقلین، و کثیر من التفاسیر الأخری.

[۹۰] (۱) تفسیر المیزان، و تفسیر المنار فی ذیل الآیة.

[۹۱] (۱) تفسیر المنار، و تفاسیر أخری لأهل السنة.

[۹۲] (۱) لقد ورد النهی عن محبّة و موالاة الکافرین صریحا فی الآیة(۱۳۹) من سورة النساء، و التی نزلت قبل سورة التوبة مسلما، و کذلک فی الآیة(۳۸) من سورة آل عمران، و هی کذلک نزلت قبل سورة براءة، و فی هذه السورة قال اللّه سبحانه لنبیّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الآیات التی سبقت هذه الآیة\:i اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِینَ مَرَّةً فَلَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ E.

[۹۳] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة.

[۹۴] (۱) یتصور البعض أنّ باب(تفعیل) هو الوحید الذی یأتی أحیانا بمعنی الحکم، فی حین یلاحظ ذلک فی باب(إفعال) أیضا، کالشعر المعروف المنقول عن الکمیت، حیث یقول فی بیان عشقه و حبّه لآل محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم: و طائفة قد أکفرونی بحبّکم.

[۹۵] (۲) لمزید التوضیح حول معنی الهدایة و الضلال فی القرآن، راجع ذیل الآیة(۲۶) من سورة البقرة.

[۹۶] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۷۶.

[۹۷] (۱) مجمع البیان، و سفینة البحار، و تفسیر أبی الفتوح الرازی.

[۹۸] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۷۰.

[۹۹] (۲) المصدر السّابق.

[۱۰۰] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۰.

[۱۰۱] (۱) تفسير الفخر الرازى، ج ۱۶، ص ۲۲۰- ۲۲۱.

[۱۰۲] (۱) اختار الطبرى هذا الرأى، نقل ذلك القرطبى فى تفسيره، و ذكره جماعة من المفسّرين فى ذيل الآية كاحتمال.

[۱۰۳] (۲) هذا التّفسير يناسب سبب النزول الذى أورده المرحوم الشيخ الطوسى فى التبيان.

[۱۰۴] (۳) نلفت انتباهكم إلى أنّنا نعتبر استعمال كلمة واحدة فى عدّة معان أمرا جائزا.

[۱۰۵] (۱) تفسير المنار، ج ۱۱، ص ۷۸.

[۱۰۶] (۱) إنّ(ما) فى جملة\i إِذا ما أُنْزِلَتْ E زائدة فى الحقيقة، و هى للتأكيد. و قال البعض أنّها صلة و هى تسلط أداة الشرط- إى(إذا) على جزائها، و تؤكّد الجملة.

[۱۰۷] (۱) كان لنا بحث آخر عن مرض القلب و مفهومه فى القرآن راجع الآية(۱۶) من سورة البقرة.

[۱۰۸] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۹۰، و تفاسير أخرى.

[۱۰۹] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۷، و تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۱۴۵.

[۱۱۰] (۱) من أجل مزيد التوضيح، و ذكر الأمثلة فى هذا المجال راجع ذيل الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۱۱۱] (۲) المصدر السّابق.

[۱۱۲] (۳) لمزيد التوضيح و الاطلاع على معانى العرش المختلفة، راجع تفسير الآية(۵۴) من سورة الأعراف و(۲۵۵) من سورة البقرة.

[۱۱۳] (۴) لقد أوضحنا توضيحا كافيا مسألة الشفاعة المهمّة فى المجلد الأوّل فى تفسير الآية(۴۷) من سورة البقرة.

[۱۱۴] (۱) لقد بحثنا فى المجلد الثانى حول كون القمر تقويما طبيعيا يمكن من خلال حالاته المختلفة تعيين أيام الشهر بدقة(راجع تفسير الآية ۱۸۹ من سورة البقرة).

[۱۱۵] (۱) لقد أوردنا توضيحات أخرى حول هذا الموضوع فى المجلد الأوّل(راجع تفسير الآية ۱۶۴ من البقرة).

[۱۱۶] (۱) لمزيد التوضيح راجع المجلد الأوّل من تفسيرنا هذا ذيل الآية(۴۶) من سورة البقرة.

[۱۱۷] (۱) الحديد، ۱۲.

[۱۱۸] (۲) تفسير الفخر الرازى، الجزء ۱۷، ص ۴۰.

[۱۱۹] (۳) الزخرف، ۵۲.

[۱۲۰] (۱) النساء، ۳۸.

[۱۲۱] (۲) إبراهيم، ۳۴.

[۱۲۲] (۳) الإسراء، ۱۰۰.

[۱۲۳] (۴) الإسراء، ۱۱.

[۱۲۴] (۵) الإسراء، ۶۷.

[۱۲۵] (۶) الكهف، ۵۴.

[۱۲۶] (۷) الأحزاب، ۷۲.

[۱۲۷] (۸) الزخرف، ۱۹.

[۱۲۸] (۹) المعارج، ۱۹- ۲۱.

[۱۲۹] (۱۰) الإنفطار، ۶.

[۱۳۰] (۱۱) العلق، ۶.

[۱۳۱] (۱۲) سورة التين، ۴.

[۱۳۲] (۱۳) العلق، ۵.

[۱۳۳] (۱) الرحمن، ۳.

[۱۳۴] (۲) الإنشقاق، ۶.

[۱۳۵] (۳) الإسراء، ۷۰.

[۱۳۶] (۱) كلمة(تلقاء) مصدر أو اسم مصدر و جاءت بمعنى المقابلة و المحاذاة، و فى الآية و أمثالها بمعنى الناحية و العندية و الجهة، أى إننى لا أستطيع تغيير ذلك من ناحيتى، أو من عندى.

[۱۳۷] (۱) لمزيد التوضيح راجع المجلد الثانى من تفسيرنا هذا، ذيل الآية(۵۴) من سورة آل عمران.

[۱۳۸] (۱) إنّ كلمة(متاع) منصوبة بفعل مقدر، و فى الأصل كانت: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

[۱۳۹] (۱) يتّضح ممّا قيل أعلاه أنّ الباء فى(به) سببية، و لكن قد احتمل البعض أنّها بمعنى(مع)، أى إنّ ماء ينزل من السماء و يختلط بالنباتات، و ينميها و ينضجها. إلّا أنّ هذا الاحتمال الثّانى لا يناسب آخر الآية الذى يقول\i:مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ E لأنّ ظاهر هذه الجملة أنّ المقصود هو الاختلاط بين أنواع الأعشاب، لا اختلاط الماء و النبات.

دققوا ذلك.

[۱۴۰] (۱) ينبغى التنبه إلى أن(الحسنى) فى هذه الجملة مبتدأ مؤخر، و معنى الآية هكذا. الحسنى للذين أحسنوا، و لذلك فإنّ(زيادة) المعطوفة عليها مرفوعة، و الحسنى صفة للمثوبة المقدّرة، و قد حلّت محلّ الموصوف.

[۱۴۱] (۱) من الممكن، بقرينة الآية السابقة، أن تكون جملة(ترهقهم ذلة) بتقدير: يرهقهم قتر و ذلة)، و بقرينة المقابلة حذفت(قتر) لأجل الاختصار.

[۱۴۲] (۱) إنّ(مكانكم) فى الواقع مفعول لفعل مقدر، و كانت فى الأصل(ألزموا مكانكم أنتم و شركاؤكم حتى تسألوا) و هذه الجملة فى الحقيقة تشبه الآية(۲۴) من سورة الصافات، حيث تقول i وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ E.

[۱۴۳] (۱)« زيلنا» من مادة التزييل، بمعنى التفريق، قال بعض أرباب اللغة: إن مادتها الثلاثية، زال يزيل، بمعنى الفرقة، لا أنّها من مادة: زال يزول بمعنى الزوال.

[۱۴۴] (۲)(إن) فى الجملة أعلاه مخففة من الثقيلة، و هى للتأكيد و معنى الجملة هو: إنّنا كنّا عن عبادتكم لغافلين.

[۱۴۵] (۱) لقد جاء هذا المضمون فى روايات متعددة فى الجزء الأوّل ص ۵۴۳ من تفسير البرهان فى ذيل الآية(۵۹) من سورة الأنعام.

[۱۴۶] (۱) كاف التشبيه هنا إشارة إلى المطلب الذى ذكر فى آخر جملة من الآية السابقة، و معنى الآية هكذا: كما أنّه ليس بعد الحق إلّا الضلال، كذلك حقّت كلمة ربّك.

[۱۴۷] (۱) يهدّى كانت فى الأصل يهتدى، فبدلت التاء دالا و أدغمت فشددت.

[۱۴۸] (۱) لمزيد الاطلاع راجع المجلد الأوّل الآية(۲۳) و(۲۴) من سورة البقرة.

[۱۴۹] (۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۴۲۲.

[۱۵۰] (۲) سورة ص، ۵.

[۱۵۱] (۳) الإسراء، ۹۷.

[۱۵۲] (۴) سورة سبأ، ۸.

[۱۵۳] (۱) فى الحقيقة هناك جملة مقدرة فى هذه الآية تقديرها:« كأنّهم صم لا يستمعون».

[۱۵۴] (۲) هنا أيضا جمله مقدرة هى: كأنّهم عمى لا يبصرون.

[۱۵۵] (۱) يتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الآية المذكورة تشتمل على قضية شرطية، ذكر شرطها، إلّا أنّ جزاءها مقدر، و جملة:

i\ ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ E جملة مستقلة. و تقدير الآية هكذا: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا كنتم تقدرون على دفعه أو تعدونه أمرا محالا فإذا كان الأمر كذلك(ماذا يستعجل منه المجرمون). و ما احتمله البعض من أن جملة: ماذا يستعجل .. هى جزاء الشرط بعيدا جدا. دققوا ذلك.

[۱۵۶] (۱) فى الواقع، إن فى الجملة أعلاه جملة مقدرة، و هى:(من هول القيامة و العذاب).

[۱۵۷] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۱۵۸] (۱) الحجرات، ۱۴.

[۱۵۹] (۲) الحج، ۴۶.

[۱۶۰] (۱) للاطلاع على هذه الرّوايات، راجع تفسير نور الثقلين الجزء ۲ ص ۳۰۷- ۳۰۸.

[۱۶۱] (۱)(البحيرة) هى الحيوان الذى يلد عدّة مرّات، و(السائبة) هو البعير الذى أنتج عشرة أو اثنى عشر ولدا، و(الوصيلة) كانت تطلق على الغنم إذا ولدت سبعة بطون. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية(۱۰۳) من سورة المائدة.

[۱۶۲] (۱) لقد أرجع البعض ضمير(منه) إلى اللّه، أى إن الآيات التى تتلوها من اللّه، إلّا أن الضمير يرجع إلى الشأن أو القرآن ظاهرا، كما قاله كثير من المفسّرين، أى الآيات التى تتلوها فى كل عمل مهم، أو الآيات التى تتلوها من القرآن.

[۱۶۳] (۱) مجمع البيان الجزء الخامس ص ۱۱۶ ذيل الآية.

[۱۶۴] (۱) الحديد، ۲۳.

[۱۶۵] (۲) الأنعام، ۸۲.

[۱۶۶] (۳) الرعد، ۲۸.

[۱۶۷] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۳. صبحى الصالح.

[۱۶۸] (۲) الأنبياء، ۴۹.

[۱۶۹] (۱) السجدة، ۳۰.

[۱۷۰] (۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۰۹.

[۱۷۱] (۲) المصدر السابق.

[۱۷۲] (۳) نور الثقلين، الجزء ۲، ص ۳۱۰(باختصار).

[۱۷۳] (۱) هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه ما هو جزاء شرط جملة\i إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ E؟ و من بين الاحتمالات التى طرحوها يبدو للنظر أن اثنين منها هما الأقرب: الأوّل: إنّ جملة\i فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ E هى جزاء الشرط، و إن جملة:

i\ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ E جملة معترضة فصلت بين الشرط و الجزاء.

الثّانى: إنّ الجزاء محذوف و الجمل التالية تدل على ذلك، و التقدير هكذا: فافعلوا ما تريدون فإنّى متوكل على اللّه. فى الواقع، إنّ جملة\i:فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ E من قبيل العلة حلت محل المعلول، و(شركاءكم) فى الجملة التالية إشارة إلى الأصنام، و الواو قبلها بمعنى مع.(فتدبر جيدا).

[۱۷۴] (۱) جواب هذا الشرط محذوف أيضا، و تقديره: فإن توليتم فلا تضرونى، أو: فإن توليتم فأنتم و شأنكم.

[۱۷۵] (۲)« الفلك» بمعنى السفينة، و الفرق بينها و بين السفينة أن سفينة مفرد و جمعها سفائن أم الفلك فإنّها تطلق على المفرد و

الجمع.

[۱۷۶] (۱) ذكرنا تفصيل هذا المطلب فى المجلد الأوّل ذيل الآية(۷) من سورة البقرة.

[۱۷۷] (۱) المراد من الآيات هى تلك الآيات المتعددة المشهورة التى كانت لموسى فى بداية أمره.

[۱۷۸] (۱) الواقع، أنّ للجملة أعلاه محذوف مقدر يفهم من مجموع الكلام، و كانت فى الأصل هكذا: أ تقولون للحق لما جاءكم سحر، أسحر هذا.

[۱۷۹] (۱) لقد بحثنا مفصلا جزئيات مواجهة موسى لفرعون و الفراعنة، و مسائلها الرائعة فى ذيل الآيات(۱۱۳) و ما بعدها من سورة الأعراف من المجلد الخامس، و بحثنا السحر و حقيقته فى المجلد الأوّل ذيل الآية(۱۰۲) سورة البقرة، فراجع.

[۱۸۰] (۱) بعض المفسّرين لم يأخذوا القبلة فى الآية أعلاه بمعنى المقابل، بل فسروها بنفس معناها، اى قبلة الصلاة، و يعتبرون جملة:(و أقيموا الصلاة) شاهدا على ذلك، إلّا أن المعنى الأوّل أنسب لمفهوم الكلمة اللغوى الأصلى، إضافة إلى أن إرادة كلا المعنيين من هذه الكلمة لا إشكال فيه أيضا، كما مر علينا نظير هذا مرارا.

[۱۸۱] (۱) تفسير أبى الفتوح الرازى، الجزء ۶، ص ۲۲۷ ذيل الآية.

[۱۸۲] (۱) نذر جمع نذير، أى المنذر، و هو كناية عن الأنبياء و القادة الإلهيين، أو هى جمع إنذار، بمعنى تحذير و تهديد الغافلين و المجرمين الذى هو من برامج هؤلاء القادة الإلهيين.

و قد اعتبر البعض(ما) جملة\i ما تُغْنِي الْآياتُ E نافية، و البعض جعلها بمعنى الاستفهام الإنكارى، و هى واحدة من حيث النتيجة، إلّا أنّ الظاهر أن(ما) نافية.

[۱۸۳] (۱) إنّ جملة\i كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ E كانت بهذا المعنى: كذلك ننج المؤمنين و كان ذلك حقّا علينا، أى إنّ جملة(حقا علينا) جملة معترضة بين(كذلك) و(ننج المؤمنين). و يحتمل أيضا أن تكون(كذلك) متعلقة بالجملة السابقة، أى جملة\i نُنَجِّي رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا\E.

[۱۸۴] (۱) نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۳۴.

[۱۸۵] (۲) مجمع البيان، ذيل الآية(۱۱۸) من تفسير سورة هود.

[۱۸۶] (۱) روح المعانى، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۷] (۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۸] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۰۶.

[۱۸۹] (۱) شرحنا هذا المعنى و سائر التفاسير التى ذكرت للحروف المقطعة فى القرآن فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف.

[۱۹۰] (۱) فى جملة\i أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ E احتمالان: الأوّل: إنّه على لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كما أشرنا إليه- و التقدير:

دعوتى و أمرى إلّا تعبدوا إلّا اللّه. و الثّانى: أنّه كلام اللّه، و التقدير: آمركم ألّا تعبدوا إلّا اللّه، و لكن جملة\i إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ\E تنسجم مع المعنى الأوّل.

[۱۹۱] (۱) سورة نوح، ۹- ۱۱.

[۱۹۲] (۱) يراجع« تاج العروس» و« مجمع البيان» و« المنار» و« مفردات الراغب» فى هذا الشأن.

[۱۹۳] (۱) سورة آل عمران، ۱۶۹.

[۱۹۴] (۱) نهج البلاغة، من وصية الإمام على عليه السّلام لولده الحسن عليه السّلام.

[۱۹۵] (۱) قد يطلق« العرش» و يراد به« الكرسى» و له مفهوم آخر و قد بيّناه فى ذيل الآية(۲۲۵) من سورة البقرة.

[۱۹۶] (۱) تفسیر البرهان، الجزء الثّانی، ص ۲۰۷.

[۱۹۷] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۴۲، نقلا عن روضة الکافی.

[۱۹۸] (۱) آل عمران، ۱۴.

[۱۹۹] (۲) لمزید من الإیضاح یراجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة ۱۴ من سورة آل عمران.

[۲۰۰] (۲) نقلا عن تفسیر المیزان، ج ۱۰، ص ۱۸۶.

[۲۰۱] (۱) طبقا لهذا التّفسیر یکون المقصود ب« من» هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و البیّنة هی القرآن، و الشاهد و یراد به معنی« الجنس» من کل مؤمن صادق و فی مقدمتهم الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام و یعود الضمیر فی کلمة« منه» إلی اللّه سبحانه، و یعود الضمیر فی کلمة« من قبله» إلی القرآن أو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و مجموع الجملة مبتدأ و خبره محذوف تقدیره: کمن لیس کذلک، أو کمن یرید الحیاة الدنیا.

[۲۰۲] (۱) راجع تفسیر البرهان، و نور الثقلین، و القرطبی، و مجمع البیان، و سائر التفاسیر.

[۲۰۳] (۲) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۲۱۳، و نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۴۶.

[۲۰۴] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۲۱۳.

[۲۰۵] (۱) ما یقوله المفسّرون من أنّ المراد من هذه الجملة هو الردّ علی من کان یقول: إنّ النّبی یکذب علی اللّه، بعید جدّا، لأنّ الآیات السابقة و اللاحقة لا تناسب هذا التّفسیر، بل المناسب أنّها تشیر إلی الکفار.

[۲۰۶] (۱) المقصود ب« العوج» أی الملتوی، و قد بیّنا شرح ذلک فی ذیل الآیة(۴۵) من سورة الأعراف و ینبغی الالتفات إلی أنّ الضمیر فی« یبغونها» یعود علی سبیل اللّه فهی مؤنث مجازی، أو بمعنی الجادة و الطریقة، فهی مؤنث لفظی، و نقرأ فی سورة یوسف علیه السّلام الآیة(۱۰۸)i قُلْ هذِهِ سَبِیلِی أَدْعُوا إِلَی اللَّهِ E.

[۲۰۷] (۱) العنکبوت، ۲۳.

[۲۰۸] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، الصفحة ۲۱۶.

[۲۰۹] (۱) مع أنّ الألیم صفة للعذاب عادة، و لکن فی الآیة السابقة وقع صفة ل« یوم»، و هذا نوع من الإسناد المجازی اللطیف الذی نجده فی مختلف اللغات فی أدبیاتها.

[۲۱۰] (۱) و هناک احتمال آخر فی تفسیر هذه الجملة، و هو أن مراد نوح علیه السلام: إن الذین آمنوا بی إذا کانوا کاذبین فی الباطن فإنهم سیلاقون ربهم یوم القیامة و هو یحاسبهم، و لکن الاحتمال المذکور أقرب للصحة.

[۲۱۱] (۱) لمزید من الإیضاح یراجع ذیل الآیة(۵۰) من سورة الأنعام و ذیل الآیة(۱۸۸) من سورة الأعراف.

[۲۱۲] (۱) المنار، ج ۱۲، ص ۶۷.

[۲۱۳] (۱) المجری و المرسی: اسما زمان، و یعنی الأوّل وقت التحرک، و الثّانی وقت التوقف.

[۲۱۴] (۱) الأعراف، ۱۲۷.

[۲۱۵] (۱) سفینة البحار ص ۶۶۳ الجزء الأول.

[۲۱۶] (۲) دعاء أبی حمزة الثمالی.

[۲۱۷] (۱) عیون الأخبار، ج ۱، ص ۲۱۱.

[۲۱۸] (۲) المعجم الکبیر بخط الحافظ الطبرانی، صفحة ۳۰ مخطوط.

[۲۱۹] (۳) المصدر نفسه عن جماعة من أهل السنة کابن المغازلی و الخوارزمی، الجزء التاسع من أحقاف الحق، ص ۲۸۰ لمزید الإیضاح جدیدة.

[۲۲۰] (۱) راجع مجمع البیان، ح ۵، ص ۱۶۵، و روح المعانی، ج ۱۲، صفحة ۵۷.

[۲۲۱] (۲) راجع مجمع البیان، و روح المعانی، و القرطبی، ذیل الآیة محل البحث.

[۲۲۲] (۱) أعلام القرآن للغزائلی، ص ۲۸۱.

[۲۲۳] (۱) تفسیر الصافی ذیل الآیة المتقدمة.

[۲۲۴] (۲) سفینة البحار، ج ۲، ص ۳۱۸.

[۲۲۵] (۳) وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۵۳.

[۲۲۶] (۴) بحار الأنوار، الطبعة القدیمة ج ۱۵ قسم الأخلاق.

[۲۲۷] (۱) أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۶۴.

[۲۲۸] (۲) سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۹۱.

[۲۲۹] (۱)« المدرار» کما وضحنا سابقا مشتق من« درّ» و هو انصباب حلیب الأثداء، ثمّ استعمل فی انصباب المطر، و الطریق فی الآیة أنّها لا تعبر ب« ینزل المطر من السماء» بل قالت\:i یُرْسِلِ السَّماءَ عَلَیْکُمْ مِدْراراً\E بمعنی أنّ المطر یهطل إلی درجة غزیرة حتی کأنّ السماء تهطل، و ملاحظة أنّ مدرارا صیغة مبالغة أیضا فیستفاد غایة التوکید من هذه الجملة.

[۲۳۰] (۱) سورة نوح، الآیات ۹- ۱۲.

[۲۳۱] (۱) مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۶۱.

[۲۳۲] (۱) و هی فی السور التالیة: ۱- ابراهیم، الآیة ۷؛ ۲- لقمان، الآیة ۳۴؛ ۳- فصلت، الآیة ۵۰؛ ۴- هود، الآیة ۵۶.

[۲۳۳] (۱) یراجع فی هذا الصدد تاج العروس للزبیدی و المفردات للراغب مادة(جبر) و(کبر) و مجمع البیان و تفسیر البیان ذیل الآیة محل البحث و آیات سورة الحشر الأخیرة.

[۲۳۴] (۱) راجع تفسیر المیزان، تفسیر مجمع البیان، و کتاب أعلام القرآن.

[۲۳۵] (۱) إنّ کلمة« بعدا» من الناحیة النحویة مفعول مطلق للجملة المقدّرة(المحذوفة)« أبعدهم اللّه» و علی القاعدة ینبغی أن یکون هذا المفعول المطلق للجملة المقدرة(إبعادا، لا بعدا) لأنّه مصدر« أبعد» لکن قد یأتی المصدر الثّلاثی مکان الرباعی کما فی قوله تعالی\:i وَ اللَّهُ أَنْبَتَکُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً\E.

[۲۳۶] (۱) سورة الحجر، ۸۲.

[۲۳۷] (۱) مثل هذه الإضافة یقال لها فی المصطلح الأدبی إضافة تشریفیة. بمعنی أنّها إضافة تدل علی شرف الشیء و أهمیته، و فی الآیة المتقدمة یلاحظ نموذجان من هذا النوع ۱- ناقة اللّه. ۲- أرض اللّه. و قد ورد فی موارد أخری غیر هذه الکلمات.

[۲۳۸] (۲) الشعراء، ۱۵۵.

[۲۳۹] (۳) القمر، ۲۸.

[۲۴۰] (۴) الشمس، ۱۳.

[۲۴۱] (۱) الشعراء، الآیة ۱۴۶- ۱۴۸.

[۲۴۲] (۱) نهج البلاغة، و من کلام له، رقم ۲۰۱.

[۲۴۳] (۲) وسائل الشیعة، ج ۱۱، ص ۴۰۹.

[۲۴۴] (۳) وسائل الشیعة، ج ۱۱، ص ۴۱۰.

[۲۴۵] (۱) وسائل الشیعة، ج ۱۱، ص ۴۱۱.

[۲۴۶] (۲) نهج البلاغة، الکلام رقم ۱۲.

[۲۴۷] (۱) الخزى فى اللغة الانكسار الذى يصيب الإنسان سواء من نفسه أو من سواه، و يشمل كل أنواع الذل أيضا.

[۲۴۸] (۱) فى المجلد الخامس من التّفسير الأمثل وردت توضيحات مفيدة لفهم هذا المقصود.

[۲۴۹] (۱) فصلت، الآية ۱۳.

[۲۵۰] (۱) سورة يس، ۴۹.

الجزء السابع

[تتمة سورة هود]

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۶۹ الى ۷۳]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳)

التّفسير

جانب من حياة محطم الأصنام:

و الآن جاء الدور للحديث عن جانب من حياة «ابراهيم عليه السّلام» هذا البطل العظيم الذى حطم الأصنام، و ما جرى له مع قومه. طبعا كل ذلك مذكور بتفصيل اكثر فى سور اخرى من القرآن غير هذه السورة، كسورة البقرة، و آل عمران، و النساء، و الانعام، و الأنبياء، و غيرها.

و هنا تذكر الآيات قسما من حياته المرتبطة بقصّة «قوم لوط» و عقاب هؤلاء الجماعة الملوّثين بالآثام و العصيان، فتقول فى البداية: وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶

إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى

و هؤلاء الرسل- كما سيتبيّن من خلال الآيات التالية- هم الملائكة الذين أمروا بتدمير مدن قوم لوط، و لكنّهم قبل ذلك جاؤوا الى ابراهيم ليسلموه بلاغا يتضمّن بشرى سارة.

امّا عن ماهية هذه البشرى فهناك احتمالان، و لا مانع من الجمع بينهما.

الاحتمال الاوّل: البشرى بتولّد إسماعيل و إسحاق، لانّ ابراهيم عليه السّلام لم يرزق ولدا بعد عمر طويل، فى حين كان يتمنى ان يرزق ولدا او أولادا يحملون لواء النبوّة، فإبلاغهم له بتولد إسماعيل و إسحاق بعد بشارة عظمى.

و الاحتمال الثّانى: انّ ابراهيم كان مستاء ممّا وجده فى قوم لوط من الفساد و العصيان، فحين اخبروه بأنّهم أمروا بهلاكهم سرّ، و كان هذا الخبر بشرى له.

فحين جاءوا ابراهيم قالُوا سَلاماً فأجابهم ايضا و قالَ سَلامٌ و رحّب بهم فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ.

«العجل» فى اللغة ولد البقر و «الحنيذ» معناه المشوى، و احتمل بعضهم انّ ليس كل لحم مشوى يطلق عليه انّه حنيذ، بل هو اللحم المشوىّ على الصخور الى جنب النّار دون ان تصيبه النّار، و هكذا ينضج شيئا فشيئا.

و يستفاد من هذه الجملة انّ من آداب الضيافة ان يعجل للضيف بالطعام، خاصّة إذا كان الضيف مسافرا، فإنّه غالبا ما يكون متعبا و جائعا و بحاجة الى طعام، فينبغى ان يقدم له الطعام عاجلا ليخلد الى الراحة.

و ربّما يقول بعض المنتقدين: أ ليس هذا العجل كثيرا على نفر معدود من الأضياف، و لكن مع ملاحظة انّ القرآن لم يذكر عدد هؤلاء الأضياف اوّلا، و هناك اقوال فى عددهم، فبعض يقول: كانوا ثلاثة، و بعض يقول: اربعة، و بعض يقول:

كانوا تسعة، و بعض قال: احد عشر، و يحتمل ان يكونوا اكثر من ذلك.

و ثانيا: فإنّ ابراهيم كان له اتباع و عمال و جيران، و هذا الأمر متعارف ان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷

يصنع مثل هذا عند الضيافة و يكون فوق حاجة الأضياف ليأكل منه الجميع ..

و لكن حدث لإبراهيم حادث عجيب مع أضيافه عند تقديم العجل الحنيذ لهم، فقد رآهم لا يمدّون أيديهم الى الطعام، و هذا العمل كان مريبا له و جديدا عليه، فأحسّ بالاستيحاش و استغرب ذلك منهم فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً.

و من السنن و العادات القديمة الّتى لا تزال قائمة بين كثير من الناس الذين لهم التزام بالتقاليد الطيبة للاسلاف. هى انّ الضيف إذا تناول من طعام صاحبه (و بما اصطلح عليه: تناول من ملحه و خبزه) فهو لا يكنّ له قصد سوء، و على هذا فإنّ من له قصد سوء مع احد- واقعا- يحاول الّا يأكل من طعامه «و خبزه و ملحه» و من هذا المنطلق شك ابراهيم فى نيّاتهم، و أساء الظن بهم، و احتمل انّهم يريدون به سوءا.

امّا الرسل فإنّهم لمّا اطلعوا على ما فى نفس ابراهيم، بادروا لرفع ما وقع فى نفسه و قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ.

و فى هذه الحال كانت امرأته «سارة» واقفة هناك فضحكت كما تقول الآية وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ

هذا الضحك من سارة يحتمل ان يكون لانّها كانت مستاءة من قوم لوط و فجائعهم، و اطلاعها على قرب نزول العذاب عليهم كان سببا لسرورها و ضحكها.

و هناك احتمال آخر و هو انّ الضحك كان نتيجة لتعجبها او حتى لاستيحاشها ايضا، لانّ الضحك لا يختص بالحوادث السارّة بل يضحك الإنسان- أحيانا- من الاستياء و شدة الاستيحاش، و من أمثال العرب فى هذا الصدد «شر الشدائد ما يضحك».

او انّ الضحك كان لانّ الأضياف لم يتناولوا الطعام و لم تصل أيديهم اليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸

بالرغم من اعداده و تهيأته لهم.

و يحتمل ايضا انّ ضحكها لسرورها بالبشارة بالولد. و ان كان ظاهر الآية ينفى هذا التّفسير، لانّ البشرى بإسحاق كانت بعد ضحكها، الّا ان يقال: انّهم بشروا ابراهيم اوّلا بالولد، و احتملت سارة ان سيكون الولد منها فتعجبت، و انّه هل يمكن لامراة عجوز و فى هذه السن ان يكون لها ولد من زوجها؟ لذلك سألتهم بتعجب فأجابوها بالقول: نعم، و هذا الولد سيكون منك. و التأمل فى سورة الذاريات بهذا الشأن يؤكّد ذلك.

و ينبغى الالتفات هنا الى انّ بعض المفسّرين يصرون على انّ «ضحكت» مشتقة من «ضحك» بمعنى العادة النسائية و هى «الحيض» و قالوا: انّ سارة بعد ان بلغت سنّ اليأس أتتها العادة فى هذه اللحظة و حاضت، و العادة الشهرية تدل على إمكان انجاب الولد، و لذلك فحين بشرت بإسحاق أمكنها ان تصدّق ذلك تماما ... و هؤلاء المفسّرون استندوا فى قولهم الى لغة العرب، حيث قالوا فى هذا

الصدد: ضحكت الأرنب، اى حاضت.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد من جهات مختلفة:

اوّلا: لانّه لم يسمع انّ هذه «المادة» استعملت فى الإنسان بمعنى الحيض فى اللغة العربية، و لهذا فإنّ الراغب حين يذكر هذا المعنى فى مفرداته يقول بصراحة:

انّ هـذا ليس تفسير جملة فضحكت كما تصوّره بعض المفسّرين، بل معناها هو الضحك المألوف، و لكنّها حاضت و هى فى حال الضحك ايضا، و لذلك وقع الخلط بينهما.

ثانيا: إذا كانت هـذه الجملة بمعنى حصول العادة النسائية فلا ينبغى لسارة ان تتعجب من البشرى بالولد «إسحاق» لانّه- و الحال هذه- لا غرابة فى الانجاب، فى حين نستفيد من الجمل الاخرى انّها لم تتعجب من الانجاب فحسب، بل صرخت و قالت: يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹

و على كل حال فإنّ هذا الاحتمال فى الآية يبدو بعيدا جدّا.

ثمّ تضيف الآية انّ إسحاق سيعقبه ولد من صلبه اسمه يعقوب: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ

الواقع انّ الملائكة بشّروها بالولد و بالحفيد، فالاوّل إسحاق و الثّانى يعقوب، و كلاهما من أنبياء اللّه.

و مع التفات «سارة» امراة ابراهيم الى كبر سنّها و سن زوجها فإنّها كانت آيسة من الولد بشدّة، فاستنكرت بصوت عال متعجبة من هذا الأمر و قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ

و كان الحق معها، لانّه طبقا للآية (۲۹) من سورة الذاريات، فإنّها كانت فى شبابها عاقرا، و حين بشرت بالولد كان عمرها- كما يقول المفسّرون و تذكره التوراة فى سفر التكوين- تسعين عاما او اكثر، امّا زوجها ابراهيم عليه السّلام فكان عمره مائة عام او اكثر.

و هنا ينقدح سؤال و هو: لم استدلت سارة على عدم الانجاب بكبر سنّها و كبر سنّ زوجها، فى حين اننا نعلم انّ النساء عادة يصبحن آيسات بعد الخمسين لانقطاع «الحيض» او «العادة» و احتمال الانجاب فى هذه المرحلة بالنسبة لهنّ ضعيف، امّا الرجال فقد أثبتت التجارب الطبيعية انّهم قادرون على الانجاب لسنين أطول ...؟

و الجواب على هذا السؤال واضح: فإنّ الرجال و ان كانوا قادرين على الانجاب، و لكن يضعف احتماله كلما طعنوا فى السنّ و لذا فطبقا للآية (۵۴) من سورة الحجر نجد ابراهيم نفسه متعجبا من هذه البشرى لكبر سنّه، أضف الى ذلك فإنّ سارة من الناحية النفسية لعلها لم تكن فى الانفراد بهذه المشكلة (العقم) و أرادت اقحام زوجها معها.

و على كل حال فإنّ رسل اللّه أزالوا التعجب عنها فورا و ذكّروها بنعم اللّه «الخارقة للعادة» عليها و على أسرتها و نجاتهم من الحوادث الجمة، فالتفتوا إليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰

و قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۱] ....

ذلك الربّ الذى نجّى ابراهيم من مخالب نمرود الظالم، و لم يصبه سوء و هم فى قلب النار، هو ذلك الرّب الذى نصر ابراهيم محطم الأصنام- و هو وحيد- على جميع الطواغيت، و ألهمه القدرة و الاستقامة البصيرة.

و هذه الرحمة الالهية لم تكن خاصّة بذلك اليوم فحسب، بل هى مستمرة فى اهل هذا البيت، و اى بركة أعظم من وجود رسول اللّه محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الائمّة الطاهرين عليهم السّلام فى هذه الاسرة و فى هذا البيت بالذات.

و استدل بعض المفسّرين بهذه الآية على انّ الزوجة تعدّ من «أَهْلَ الْبَيْتِ» ايضا، و لا يختص هذا العنوان بالولد و الأب و الام. و هذا الاستدلال صحيح طبعا، و حتى مع غضّ النظر عن الآية هذه، فإنّ كلمة «اهل» من حيث المحتوى تصحّ بهذا المعنى، و لكن لا مانع

ابـدا ان يخرج جماعة من اهل بيت النّبوة من الناحية المعنوية بسـبب انحرافهم من اهل البيت «و سـيأتى فريد من الإيضاح و الشـرح فى هذا الصدد ان شاء اللّه ذيل الآية ۳۳ من سورة الأحزاب».

و قال ملائكة اللّه لمزيد التأكيد على بشارتهم و كلامهم فى شأن اللّه إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

الواقع انّ ذكر هاتين الصـفتين للّه تعالى على الجملة السابقة، لانّ كلمة «حميد» تعنى من له اعمال ممدوحة و تستوجب الثناء و الحمد، و قد جاء صفة للّه ليشير الى نعمه الكثيرة على عباده ليحمد عليها، و امّا كلمة «مجيد» فتطلق على من يهب النعم حتى قبل استحقاقها.

ترى هل من العجيب على ربّ له هذه الصفات ان يعطى مثل هذه النعمة العظيمة ... اى الأبناء الصالحين لنبيّه الكريم؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۷۴ الى ۷۶]

اشارة

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)

التّفسير

رأينا فى الآيات السابقـة انّ ابراهيم عرف فورا انّ أضـيافه الجـدد لم يكونوا افرادا خطرين او يخشـى منهم، بل كانوا رسل الله على حد تعبيرهم، ليؤدوا وظيفتهم التى أمروا بها فى قوم لوط.

و لمّا ذهب الهلع و الخوف عن ابراهيم من أولئك الأضـياف، و من ناحية اخرى فقد بشـروه بالوليد السعيد، شرع فورا بالتفكير فى قوم لوط الـذين أرسـل إليهم هؤلاـء الرسـل «الملائكـة» فأخـذ يجـادلهم و يتحـدث معهم فى أمرهم فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ[۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲

و هنا يمكن ان ينقدح هذا السؤال، و هو: لم تباحث ابراهيم عليه السّلام مع رسل اللّه و جادلهم فى قوم آثمين ظالمين- كقوم لوط- و قد أمروا بتدميرهم، فى حين انّ هذا العمل لا يتناسب مع نبىّ- خاصّة إذا كان ابراهيم عليه السّلام فى عظمته و شأنه؟

لهذا فإنّ القرآن يعقّب مباشرة فى الآية عن شفقة ابراهيم و توكله على اللّه فيقول إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ۳].

فى الواقع هـذه الكلمات الثلاث المجملـة جواب على السؤال المشار اليه آنفا. و توضـيح ذلك: انّ هـذه الصـفات المـذكورة لإبراهيم تشـير الى انّ مجادلته كانت ممدوحة، و ذلك لانّ ابراهيم لم يتّضح له انّ امر العذاب صادر من قبل اللّه بصورة قطعية، بل كان يحتمل انّه لا يزال لهم حظ فى النجاة، و يحتمل انّهم سيرتدون عن غيهم و يتّعظون، و من هنا فما زال هناك مجال للشفاعة لهم ... فكان راغبا فى تأخير العذاب و العقاب عنهم، لانّه كان حليما، و مشفقا و اوّاها و منيبا الى اللّه.

فما ذكره البعض من انّ مجادلة ابراهيم إذا كانت مع اللّه فلا معنى لها، و إذا كانت مع رسـله فهم ايضا لا يسـتطيعون ان يفعلوا شيئا من أنفسهم، فعلى كل حال فالمجادلة هذه غير صحيحة- مجانب للصواب.

و الجواب: انّه لاـ كلاـم فى الحكم القطعى، امّا لو كان الحكم غير قطعى فمع تغيير الظروف و تبـدل الأوضاع يمكن تغييره، لانّ طريق الرجوع لا زال مفتوحا، و بتعبير آخر: فإنّ الأوامر فى هذه الحالة مشروطة لا مطلقة.

و امّا من احتمـل انّ المجادلـة كـانت مع الرسل فى شأن نجاة المؤمنين، و استشـهدوا على هـذا القول بالآيتين (۳۱) و (۳۲) من سورة

العنكبوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ، قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

فهذا الاحتمال غير صحيح ايضا، و لا ينسجم مع الآية التى تأتى بعدها و هى محل و تقول الآية التالية: انّ الرسل قالوا لإبراهيم- مباشرة- ان اعرض عن اقتراحك لانّ امر ربّك قد تحقق و العذاب نازل لا محالة.

يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ.

و التعبير «ربّك» لا يدل على انّ هذا العذاب خلو من الطابع الانتقامى فحسب، بل يدل ايضا على انّه علامة لتربية العباد و إصلاح المجتمع الانسانى.

و ما نقرؤه فى بعض الرّوايات انّ ابراهيم عليه السّلام قال لرسل اللّه: إذا كان بين هؤلاء القوم مائة مؤمن فهل يعذب المؤمنون؟ قالوا: لا. فقال: إذا كان بينهم خمسون مؤمنا؟ فقالوا: لا ايضا. قال: فإذا كان بينهم ثلاثون مؤمنا؟ قالوا: لا. قال:

فإذا كان بينهم عشرة؟ قالوا: لا. قال: فإذا كان بينهم خمسة؟ قالوا: لا. قال: فإذا كان بينهم مؤمن واحد؟ قالوا: لا. قال: فإنّ فيها لوطا. قالوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ ۴] ... إلخ.

فمثل هذه الرّواية لا تدل بوجه مطلق على انّ المجادلة اقتصرت على هذا الكلام، بل كان ذلك منه بالنسبة الى المؤمنين، و هو شىء آخر غير مجادلته عن الكفار. و من هنا يتّضح انّ الآيات التى وردت فى سورة العنكبوت لا تنافى هذا التّفسير ايضا «فتدبّر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۷۷ الى ۸۰]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۷۷) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (۷۸) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (۷۹) قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (۸۰)

التّفسير

قوم لوط و حياة الخزى:

مرّت فى آيات من سورة الأعراف اشارة الى شىء من مصير قوم لوط، و فسّرنا ذلك فى محلّه، و هنا يتناول القرآن الكريم- و بمناسبة ما ذكره من قصص الأنبياء و اقوامهم و بما ورد فى الآيات المتقدمة عن قصّة لوط و قومه- قسما آخر من حياة هؤلاء القوم المنحرفين الضالين ليتابع بيان الهدف الاصلى الا و هو سعادة المجتمع الانسانى و نجاته بأسره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵

يبيّن القرآن الكريم فى هذا الصدد اوّلا... انّه لما جاءت رسلنا لوطا طار هلعا و ضاق بهم ذرعا و أحاط به الهمّ من كل جانب وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً.

و قد ورد فى الرّوايات الاسلامية انّ لوطا كان فى مزرعته حيث فوجئ بعدد من الشباب الوسيمين الصباح الوجوه قادمون نحوه و راغبون فى النّزول عنده و لرغبته باستضافتهم من جهة، و لعلمه بالواقع المرير الذى سيشهده فى مدينته الملوّثة بالانحراف الجنسى من جهة أخرى، كل ذلك أوجب له الهم ...

و مرّت هذه المسائل على شكل أفكار و صور مرهقة فى فكره، و تحدث مع نفسه وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ

لاحتمال الفضيحة و التورط فى مشاكل عويصة كلمة (سيئ) مشتقّة من ساء، و معناها عدم الارتياح و سوء الحال، و «الذرع» تعنى «القلب» على قول، و قال آخرون: معناها «الخلق» فعلى هذا يكون معنى ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً انّ قلبه أصيب بتأثر شديد لهؤلاء الأضياف غير المدعوين فى مثل هذه الظروف الصعبة.

و لكن بحسب ما ينقله «الفخر الرازى» فى تفسيره عن «الازهرى» انّ الذرع فى هذه الموارد يعنى «الطاقة» و فى الأصل معناه الفاصلة بين اذرع البعير أثناء سيره.

و طبيعى حين يحمل البعير اكثر من طاقته فإنّه يضطر الى تقريب خطواته و تقليل الفاصلة بين خطواته، و بهذه المناسبة و بالتدريج استعمل هذا المعنى فى عدم الارتياح و الاستثقال من الحوادث.

و يستفاد من بعض كتب اللغة ككتاب (القاموس» انّ هذا التعبير انّما يستعمل فى شدة الحادثة بحيث يجد الإنسان جميع الطرق بوجهه موصدة.

و كلمة «عصيب» مشتقّة من «العصب» على زنة «الكلب» و معناه ربط الشىء بالآخر و شده شدّا محكما، و حيث انّ الحوادث الصعبة تشدّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶

و كأنّها تسلبه راحته فيظل مبلبل الأفكار سمّيت «عصيبة» و تطلق العرب على الايّام شديدة الحر انّها عصيبة ايضا.

و على كل حال، فإنّ لوطا لم يجد بدا من ان يأتى بضيوفه الى البيت و يقوم بواجب الضيافة و لكنّه حدّثهم فى الطريق- عدة مرّات- انّ اهل هذه المدينة منحرفون و اشرار ليكونوا على حذر منهم.

و نقرا فى احدى الرّوايات انّ اللّه سبحانه امر ملائكته ان لا يعذبوا قوم لوط حتى يعترف لوط عليهم ثلاث مرّات، و معنى ذلك انّه حتى فى تنفيذ حكم اللّه بالنسبة لقوم ظالمين لا بدّ من تحقق موازين عادلة فى المحاكمة، و قد سمع رسل اللّه شهادة لوط فى قومه ثلاث مرّات أثناء الطريق ۵].

و ورد فى بعض الرّوايات انّ لوطا اخّر ضيوفه كثيرا حتى حلول الليل، فلعله يستطيع ان يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، و يقوم بواجب الضيافة دون ان يساء الى أضيافه. و لكن ما عسى ان يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، و كانت امراة لوط امراة كافرة و تساعد قومه الظالمين، و قد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف الى بيتها، فصعدت الى أعلى السطح و صفقت بيديها اوّلا، ثمّ بإشعال النّار و تصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت فى «الشباك»[۶].

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ۷] و كانت حياة هؤلاء القوم مسودّة و ملطخة بالعار وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ فكان من حق لوط ان يضيق ذرعا يصرخ ممّا يرى من شدّة استيائه و قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فأنا مستعد ان أزوجهن ايّاكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يصدكم عن هذه الأعمال المخزية و ينصحكم بالإقلاع عنها.

و لكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطا بكل وقاحة و عدم حياء و قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ.

و هنا وجد لوط هذا النّبى العظيم نفسه محاصرا فى هذه الحادثة المريرة فنادى و قالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً او سند من العشيرة و الاتباع و

المعاهدين الأقوياء حتى أتغلّب عليكم أوْ آوِى إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ.

ملاحظات

۱- العبارة التى قالها لوط عند هجوم القوم على داره و أضيافه- هؤُلاءِ بَناتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فتزوجوهنّ انّ شئتم فهنّ حلال لكم و لا ترتكبوا الإثم و الذنب و قد- أثارت هذه العبارة بين المفسّرين عدّة اسئلة:

اوّلا: هل المراد من هؤُلاءِ بَناتِى بنات لوط على وجه الحقيقة و النسب؟! فى حين انّ عددهن- و طبقا لما ينقل التاريخ- ثلاث او اثنتان فحسب، فكيف يعرض تزويجهن على هذه الجماعة الكثيرة؟! ام انّ المراد من قوله هؤُلاءِ بَناتِى بنات «القبيلة» و المدينة، و عادة ينسب كبير القوم و رئيسهم بنات القبيلة اليه و يطلق عليهنّ «بناتى».

الاحتمال الثّانى يبدو ضعيفا لانّه خلاف الظاهر.

و الصحيح هو الاحتمال الاوّل، لانّ الذين هجموا على داره و أضيافه كانوا ثلّة من اهل القرية لا جميعهم فاقترح عليهم لوط ذلك الاقتراح، أضف الى ذلك انّ لوطا كان يريد ان يبدى منتهى إيثاره و تضحيته لحفظ ماء وجهه و ليقول لهم:

انّى مستعد لتزويجكم من بناتى لتقلعوا عن آثامكم و تتركوا اضيافى فلعل هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸

الإيثار المنقطع النظير يردعهم و يوقظ ضمائرهم الذى غطته السيئات.

ثانيا: هل يجوز تزويج البنات المؤمنات أمثال بنات لوط من الكفار حتى يقترح عليهم لوط ذلك؟! و قد أجيب على هذا السؤال من طريقين.

الاوّل: انّ مثل هذا الزواج فى مذهب لوط- كما كان فى بداية الإسلام- لم يكن محرما، و لذلك فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم زوّج ابنته زينب من أبى العاص قبل ان يسلم، و لكن هذا الحكم نسخ بعدئذ[۸].

الثّانى: انّ المراد من قول لوط عليه السّلام كان زواجا مشروطا بالايمان، اى هؤلاء بناتى فتعالوا و آمنوا لازوجهن ايّاكم.

و يتّضح انّ الاشكال على النّبى لوط- من انّه كيف يزوج بناته المطهرات من جماعة أوباش- غير صحيح، لانّ عرضه عليهم ذلك الزواج كان مشروطا بالايمان و ليثبت منتهى علاقته بهدايتهم.

۲- ينبغى الالتفات الى انّ كلمة «اطهر» لا تعنى بمفهومها انّ عملهم المخزى و السىء كان «طاهرا» و لكن الزواج من البنات «اطهر»، بل هو تعبير شائع فى لسان العرب- و لغات اخرى- فى المفاضلة و المقايسة بين أمرين، مثلا- يقال لمن يسوق بسرعة رعناء «الوصول المتأخّر خير من عدم الوصول ابدا» او «الاعراض من الطعام المشكوك أفضل من إلقاء الإنسان بيده الى التهلكة» و نقرا فى بعض الرّوايات مثلا انّ الامام الصادق عليه السّلام حين يشعر بالخطر الشديد و «التقيّة» من خلفاء بنى العباس

يقول «و اللّه لئن أفطر يوما من شهر رمضان احبّ الىّ من أن تضرب عنقى»[۹].

مع انّه لا القتل محبوب و لا هو امر حسن بنفسه، و لا عدم الوصول ابدا، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹

أمثالهما.

۳- تعبير لوط أ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فى آخر كلامه مع قومه المنحرفين يكشف عن هذه الحقيقة، و هى انّ وجود رجل- و لو رجل واحد رشيد- بين قوم ما و قبيلة ما يكفى لردعهم من اعمالهم المخزية، اى لو كان فيكم رجل عاقل ذو لبّ و رشد لمّا قصدتم بيتى ابتغاء الاعتداء على ضيفى! هذا التعبير يوضح بجلاء اثر «الرّجل الرّشيد» فى قيادة المجتمعات الانسانية، و هو الواقع الذى وجدنا نماذج كثيرة منه على امتداد التاريخ.

۴- من العجيب انّ هؤلاء القوم المنحرفين الضالين قالوا للوط: ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍ و هذا التعبير كاشف عن غاية الانحراف فى هذه الجماعة، اى انّ مجتمعا منحرفا ملوثا بلغ حدّا من العمى بحيث يرى الباطل حقّا و الحقّ باطلا!! فالزواج من البنات المؤمنات الطاهرات لا يعدّ حقا عندهم، و على العكس من ذلك يعدّ الانحراف الجنسى عندهم حقّا.

انّ الاعتياد و التطبع على الإثم و الذنب يكون فى مراحله النهائية و الخطرة عند ما يتصور انّ اسوا الأعمال و أخزاها هى «حق عند صاحبها» و انّ أنقى الاستمتاع الجنسى و اطهره امر غير مشروع.

۵- و

نقرا فى حديث للإمام الصّادق عليه السّلام فى تفسير الآيات المتقدمة انّ المقصود بالقوّة هو القائم من آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انّ «الركن الشديد» هم أصحابه الذين عددهم (۳۱۳) شخصا[۱۰].

و قد تبدو هذه الرّواية عجيبة و غريبة إذ كيف يمكن الاعتقاد انّ لوطا كان يتمنّى ظهور مثل هذا الشخص مع أصحابه المشار إليهم آنفا.

و لكن التعرف على الرّوايات الواردة فى تفسير آيات القرآن حتى الآن يعطينا مثل هذا الدرس، و هو انّ قانونا كليا يتجلى غالبا فى مصداقه البارز، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰

الواقع انّ لوطا كان يتمنّى ان يجد قوما و رجالا لديهم تلك القدرة و القوّة الروحيّة و الجسمية الكافية لإقامة حكومة العدل الالهية ... كما هى موجودة فى اصحاب المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» الذين يشكلون حكومة عالمية حال ظهور الامام المهدى «عجّل اللّه فرجه الشّريف» و قيامه، لينهض بهم و يواجه الانحراف و الفساد فيزيله عن بكرة أبيه و يبير هؤلاء القوم الذين لا حياء لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۱ الى ۸۳]

اشارة

قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳)

التّفسير

عاقبة الجماعة الظّالمة:

و أخيرا حين شاهد الملائكة رسل الله الأضياف ما عليه لوط من العذاب النفس كشفوا «ستارا» عن اسرار عملهم و قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ

الطريف هنا انّ ملائكة اللّه لم يقولوا: لن يصلنا سوء و ضرر، بل قالوا: لن يصلوا إليك يا لوط فيؤذوك و يسيئوا إليك! و هذا التعبير امّا لانّهم كانوا يحسبون انّهم غير منفصلين عن لوط لانّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲

أضيافه على كل حال، و هتك حرمتهم هتك لحرمة لوط. او لانّهم أرادوا ان يفهموا لوطا بأنّهم رسل اللّه، و انّ عدم وصول قومه إليهم بالاساءة امر مسلّم به، بل حتى لوط نفسه الذى هو رجل من جنس أولئك لن يصلوا اليه بسوء، و ذلك بلطف اللّه و فضله.

نقرا فى الآية (۳۷) من سورة القمر وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ و هذه الآية تدل على ان هؤلاء الجماعة الذين أرادوا السوء بأضياف لوط، فقدوا بصرهم بإذن اللّه، فلم يستطيعوا الهجوم عليهم. و نقرا فى بعض الرّوايات- ايضا- انّ احد الملائكة غشّى وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعا.

و على كل حال، فاطلاع لوط عليه السّلام على حال أضيافه و مأموريتهم نزل كالماء البارد على قلبه المحترق و احسّ بلحظة واحدة ان ثقلا كبيرا من الغمّ و الحيرة قد ازيل عن قلبه، و أشرقت عيناه بالسرور و البهجة، و علم انّ مرحلة الغم و الحيرة أشرفت على الانتهاء، و دنا زمن السرور و النجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

ثمّ امر الأضياف لوطا- مباشرة- ان يرحل هو و اهله من هذه البلدة و قالوا:

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ۱۱].

و لكن كونوا على حذر وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ الى الوراء إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ لتخلّفها عن امر اللّه و عصيانهم مع العصاة الظلمة.

و فى قوله تعالى: لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ عند المفسّرين احتمالات عديدة.

الاوّل: لا ينظر احد الى ورائه مديرا وجهه الى الخلف.

الثّانى: لا تفكروا بما تركتم خلفكم من الأموال و وسائل المعاش، انّما عليكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳

ان تنجوا أنفسكم من الهلاك.

الثّالث: لا يتخلف منكم احد عن هذه القافلة الصغيرة.

الرّابع: انّ الأرض ستضطرب حال خروجكم و ستبدأ مقدمات العذاب فاهربوا بسرعة و لا تلتفتوا الى الوراء ...

و لكن لا مانع من الجمع بين هذه الاحتمالات كلها فى الآية[۱۲].

و خلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل اللّه- اى الملائكة- للوط عليه السّلام: انّ العذاب سينزل قومه صباحا. و مع اوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ

و نقرا فى بعض الرّوايات انّ الملائكة حين وعدوا لوطا بنزول العذاب صباحا، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه ممّا ساءه، و جرح قلبه و ملأه همّا و غمّا ان يعجلوا عليهم بالعذاب فى الحال فإنّ الأفضل الاسراع، و لكن الملائكة طمأنوه و سرّوا عنه بقولهم: أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ

و أخيرا دنت لحظة العذاب و تصرّمت ساعات انتظار لوط النّبى عليه السّلام، و كما يقول القرآن الكريم فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ.

و كلمة «سجّيل» فارسية الأصل، و هى مركبة من «سنگ» و معناها الحجارة و «گل» و معناها الطين، فعلى هذا هى شىء صلبا كالحجارة و لا رخوا كالزهرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴

و انّما هى برزخ «وسط» بينهما.

و «المنضود» من مادة «نضد» و معناه كون الشىء مصفوفا و موضوعا بشكل متتابع و متراكم، اى انّ هذا المطر كان متتابعا سريعا الى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

و لكن هذه الأحجار ليست أحجارا عادية، بل هى أحجار فيها علامات عند اللّه مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
و لا تتصوروا انّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.
هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير أمتهم كما هزئوا بالايمان و الأخلاق الانسانيّة، و كلّما نصحهم نبيّهم بإخلاص و حرقة قلب لم يسمعوا له و سخروا منه، و بلغت صلافتهم و عدم حيائهم حدّا انّهم أرادوا الاعتداء على ضيوف زعيمهم و يهتكوا حرمتهم.
هؤلاء الذين كانوا قد قلبوا كل شيء يجب ان تنقلب مدينتهم عليهم، و لا يكفى ان يغدو عليها سافلها، بل ليمطروا بوابل من الأحجار تدمّر كل شيء من «معالم الحياة» هناك و لا يبقى منهم سوى صحراء موحشة و قبور مظلمة تحت ركام الأحجار الصغيرة.
و هل انّ الذين ينبغى معاقبتهم هم قوم لوط فحسب؟ قطعا لا. فكل جماعة منحرفة و امّة ظالمة ينتظرها مثل هذا المصير، فتارة تكون تحت وابل الأحجار، و أخرى تحت ضربات القنابل المحرقة، و حينا تحت ضغط الاختلافات الاجتماعية القاتلة، و أخيرا فإنّ لكلّ شكلا من العذاب و صورة معينة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵

ملاحظات

۱- لم كان العذاب صباحا

؟ ملاحظة الآيات المتقدمة تثير فى ذهن القارئ هذا السؤال، و هو ايّ اثر للصبح فى هذا الأمر، و لم لم ينزل العذاب فى قلب الليل البهيم؟! ترى هل كان ذلك لانّ الجماعة الذين هجموا على دار لوط فعموا و عادوا الى قومهم و حدثوهم بما جرى لهم، فحينئذ فكر أولئك بما حدث! و انّ اللّه امهلهم الى الصباح لعلهم ينتبهون و يتوبون؟
او انّ اللّه لم يرد الاغارة عليهم فى الليل، و لذلك فقد امر الملائكة ان ينتظروا حتى يحين الصباح؟! لم يرد فى كتب التّفسير شيء من هذا، و لكنّ ما ذكرناه آنفا احتمالات تستحق المطالعة.

۲- لم قلب اللّه عاليها سافلها

؟ قلنا: انّ العذاب ينبغى ان يتناسب مع الإثم، و حيث انّ هؤلاء القوم قلبوا كل شيء عن طريق الانحراف الجنسى فإنّ اللّه جعل مدنهم عاليها سافلها ايضا، و حيث كانوا دائما يتقاذفون بالكلمات البذيئة فيما بينهم، فإنّ اللّه امطرهم بحجارة لتتهاوى على رؤوسهم ايضا.

۳- لماذا الوابل من الأحجار

؟! و هل كان امطارهم بالأحجار الصغيرة قبل انقلاب المدن، او كان مقترنا و متزامنا معها، او بعدها؟! هناك اقوال بين المفسّرين، و الآيات القرآنية لم تصرّح بشيء فى هذا الشأن ايضا، لانّ الجملة عطفت بالواو، و هى لمطلق العطف و لا يستفاد منها الترتيب.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶
و لكن بعض المفسّرين- كصاحب المنار- يعتقد انّ مطر الأحجار امّا ان يكون قبل ان يقلب عاليها سافلها، او مقترن مع القلب، و

ذلک لینال بعض الافراد الذین التجأوا الی زاویة او معزل و لم یدفنوا تحت الانقاض جزاءهم العادل و لا تبقی لهم فرصة للهروب.
و الرّوایة التی تقول: انّ امراة لوط حین سمعت الصوت و التفتت لتری ما حدث أصابها حجر فی الحال فقتلها، هذه الرّوایة تدل علی انّ الأمرین «القلب و وابل المطر» حدثا مقترنین.
و لکن لو تجاوزنا عن ذلک فما یمنع ان یکون وابل الأحجار- لتشدید العذاب- بعد قلب المدن عالیها سافلها، لتتواری أرضهم و تنمحی آثارها تماما.

۴- لماذا العلامة المتمیّزة

؟! قلنا: انّ جملة مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ تفهمنا هذه المسألة الدقیقة، و هی انّ هذه الأحجار کانت ذوات علائم خاصّة و ممیّزة عند اللّه سبحانه ... و لکن کیف کانت علاماتها؟ هناک اقوال بین المفسّرین ... فقال بعضهم: کان فی هذه الأحجار علامات تدل علی انّها لیست کسائر الأحجار «العادیة» بل هی خاصّة لنزول العذاب الالهی لئلا تختلط مع سقوط الأحجار الاخری، و لذا قال آخرون: انّ هذه الأحجار لم یکن لها شبه مع أحجار الأرض بل تدل مشاهدة وضعها علی انّها أحجار سماویّة نزلت الی الکرة الارضیة من خارجها.
و قال آخرون: هی علامات فی علم اللّه، انّ کل حجر منها یصیب شخصا بعلامته او یستهدف نقطة معینة، و هی اشارة الی دقة الحساب فی عقاب اللّه و جزائه بحیث یعلم ایّ شخص یصیبه ای حجر! و لیس المسألة اعتباطیّة.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷

۵- تحریم الانحراف الجنسی

اشارة

یعدّ المیل الجنسی الی المماثل «سواء وقع ذلک بین الرجال او بین النساء» من الذنوب الکبیرة فی الإسلام، و قد جعل الإسلام لکل من الحالتین حدا شرعیا.
فالحدّ الشرعی فی «اللواط» هو القتل فاعلا کان الرجل ام مفعولا. و هناک طرق مبیّنة لهذا القتل فی الفقه الاسلامی، و یجب ان یعوّل علی طرق معتبرة و قطعیة لاثبات هذا الذنب وردت فی الفقه الاسلامی و روایات المعصومین فی هذا المجال. فلا یکفی لاقامة الحد الشرعی- و هو القتل هنا- حتی اقرار المذنب علی نفسه ثلاث مرات، بل یجب ان یقرّ علی نفسه اربع مرات علی الأقل.
و امّا الحدّ علی المراة فی عملیة المساحقة فیکون بعد الإقرار بالذنب علی نفسها اربع مرات، او شهادة اربعة شهود «و بالشرائط المذکورة فی الفقه» مائة جلدة، و قال بعض الفقهاء، إذا کانت المراة التی تقوم بهذا العمل الشنیع ذات بعل فحدّها القتل.
و اقامة هذه الحدود لها شرائط دقیقة ذکرت فی کتب الفقه الاسلامی.
و الرّوایات التی تذم المیل الجنسی الی المماثل و المنقولة عن قادة الإسلام کثیرة و مذهلة و المطالع لهذه الرّوایات یحسّ انّ قبح هذا الذنب لیس له مثیل بین الذنوب.
نقرا مثلا من هذه الرّوایات
روایة عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «لمّا عمل قوم لوط ما عملوا بکت الأرض الی ربّها حتی بلغت دموعها السّماء، و بکت السّماء حتی بلغت دموعها العرش، فأوحی اللّه الی السّماء ان احصبیهم و اوحی الی الأرض ان اخسفی بهم»[۱۳].
و نقرا

فى حديث للإمام الصادق انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من جامع غلاما جاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸

يوم القيامة جنبا لا ينقّيه ماء الدنيا، و غضب اللّه عليه و لعنه و اعدّ له جهنم و ساءت مصيرا. ثمّ قال: ان الذكر يركب الذكر فيهتز العرش لذلك»[۱۴].

و نقرا

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام «... و العامل على هذا من الرجال إذا بلغ أربعين سنة لم يتركه، و هم بقية سدوم. امّا انى لست اعنى بهم انّهم بقيتهم انّهم ولدهم، و لكنّهم من طينتهم، قال: قلت: سدوم التى قلبت، قال: هى اربع مدائن «سدوم و صريم و الدما و غميرا» ... او [ولدنا و عموّرا] إلخ ....[۱۵].

و نقرا

فى رواية اخرى عن الامام امير المؤمنين عليه السّلام انّه قال: «سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لعن اللّه المتشبهين من الرجال بالنساء و المتشبهات من النساء بالرجال»[۱۶].

فلسفة تحريم الميول الجنسية لامثالها

بالرغم من انّ العالم الغربى ملىء بالانحرافات الجنسية، و انّ هذه الأعمال السيئة قد باتت متعارفة بحيث سمع انّ بعض الدول كبريطانيا و طبقا لقانون صدر بكل وقاحة من المجلس النيابى «البرلمان» فيها يجوز هذا الموضوع «اللواط او السحاق» و لكن شيوع هذه المنكرات لا يخفف من قبحها و من مفاسدها الاخلاقية و الاجتماعية و النفسية.

بعض اتباع المذاهب المادّية الذين تلوّثوا بمثل هذه المنكرات يقولون: نحن لا نجد محذورا طبيّا فى هذا الأمر.

و لكنّهم لم يلتفتوا لى انّ كل انحراف جنسى له اثره السلبى فى روحية الإنسان و بنائه النفسى يفقده توازنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹

توضيح ذلك، انّ الإنسان الطبيعى و السليم يميل الى المخالف من جنسه، اى انّ الرجل يميل الى المراة، و المراة تميل الى الرجل، و هذا الميل من اشدّ الغرائز المتجذرة فيه، و الضامن لبقاء نسله، فأىّ عمل يؤدّى الى تحوير هذا الميل الطبيعى عن مساره فسيوجد نوعا من المرض و الانحراف النفسى فى الإنسان.

فالرجل الذى يميل الى نظيره من جنسه، ليس رجلا كاملا، و قد عدّ هذا الانحراف فى كتب الأمور الجنسية «هموسكو اليسيم» اى الميل الجنسى للمماثل من أهم الانحرافات.

و الاستمرار على هذا العمل و ادامته يميت فى الفرد الميل الجنسى الى المخالف. و الشخص الذى يسلّم نفسه لممارسة هذا العمل معه يشعر شيئا فشيئا «باحساسات المراة» و يورث هذا العمل الطرفين «الفاعل و المفعول» ضعفا مفرطا فى الجنس حتى انّه لا يستطيع بعد مدّة على المعاشرة الطبيعية مع جنسه المخالف.

و مع ملاحظة انّ الإحساسات الجنسيّه [بالنسبة للرجل و المراة] لها تأثيرها فى أعضاء بدن كل منهما، كما انّ لها تأثيرها على روحية كلّ منهما و أخلاقه.

تتّضح انّ فقدان الإحساسات الطبيعية الى اى درجة سيؤثر على روح الإنسان و جسمه حتى انه من الممكن ان يبتلى الافراد هؤلاء بالضعف الجنسى الذى يؤدّى الى عدم القدرة على الانجاب و التوليد.

و هؤلاء الأشخاص- غالبا- ليسوا أصحاء من الناحية النفسيّة، و يحسون فى داخلهم انّهم غرباء عن أنفسهم و غرباء عن مجتمعهم ... و

یفقدون بالتدریج القدرة علی الارادة التی هی أساس لکم نجاح و شرط من شروطه، و یتکرس فی روحهم نوع من الاضطراب و القلق.

و إذا لم یصمموا علی إصلاح أنفسهم فورا، و لم یستعینوا عند الضرورة و الحاجة بالطبیب النفسی او الطبیب الجسمی فسیغدو هذا العمل عندهم عادة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰

یصعب ترکها، فمن و علی کلّ حال، فإنّ ای وقت لترک هذا العمل القبیح لا یعدّ خارجا عن أوانه، بل لا بدّ من التصمیم الجاد.

و لا ـ ریب انّ الحیرة و الاضطراب النفسی قد یجرّ هؤلاء الی استعمال المواد المخدرة و المشروبات الکحولیة، کما یجرّهم الی انحرافات أخلاقیة اخری، و هذا بنفسه شقاء عظیم.

الطریف انّنا نقرا فی الرّوایات الاسلامیة عبارة موجزة و ذات معنی کبیر تشیر الی هذه المفاسد، و من هذه الرّوایات ما

نقل عن الامام الصادق علیه السّلام انّ رجلا سأله: لم حرّم اللّه اللواط؟ فقال سلام اللّه علیه: «من اجل انّه لو کان إتیان الغلام حلالا لاستغنی الرجال عن النساء و کان فیه قطع النسل و تعطیل الفروج و کان فی اجازة ذلک فساد کبیر»[۱۷].

و ما یجدر ذکره انّ احد العقوبات الشرعیة لهذا العمل انّ الإسلام حرم الزواج من اخت المفعول و امّه و بنته علی الفاعل، ای إذا تحقق اللواط قبل الزواج فعندئذ یحرم الزواج منهنّ حرمة مؤبدة.

و آخر ما ینبغی التذکیر به هنا من المسائل الدقیقة، ان جرّ الافراد الی مثل هذا الانحراف الجنسی له اسباب و علل مختلفة، حتی من ضمنها أحیانا طریقة التعامل و المعاشرة من قبل الوالدین مع ابنائهما، او الغفلة عنهم و عدم مراقبة من معهم من بنی جنسهم، و طریقة معاشرتهم و منامهم معا فی بیت واحد، کل ذلک له اثره الفاعل فی هذا التلوّث و الانحراف.

نحن نقرا فی احوال قوم لوط انّ سبب انحرافهم و تلوثهم بهذا الذنب انّهم کانوا قوما بخلاء، و لمّا کانت مدنهم علی قارعة الطریق التی تمرّ بها قوافل الشام و لم یکونوا لیرغبوا فی استضافة العابرین من المسافرین، کانوا یوحون إلیهم بدایة الأمر انّهم یریدون ان یعتدوا علیهم جنسیا لیفرّ منهم الضیوف و المسافرون،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱

و لکنّ هذا العمل أصبح بالتدریج مألوفا عندهم و نما عندهم الانحراف الجنسی و بلغ عملهم حدّا انّهم تلوّثوا بالآثام من قرنهم الی قدمهم ۱۸].

و ربّما جرّ المزاح غیر المناسب بین الذکور او بین الإناث الی هذا الانحراف، فعلی کل حال، ینبغی ملاحظة هذه المسائل بدقة انقاذ المنحرفین و الملوّثین بهذا الذنب بسرعة، و یطلب من اللّه التوفیق فی هذا السبیل.

أخلاق قوم لوط:

و نقرا فی الرّوایات و التواریخ الاسلامیة اعمالا سیئة کانت عند قوم لوط سوی الانحراف الجنسی المشار الیه، و من هذه الأعمال ما ورد فی «سفینة البحار» حیث نقرا ما یلی:

... قبل کانت مجالسهم، تشتمل علی انواع المناکیر مثل الشتم و السخف و الصفع و القمار و ضرب المخراق و خذف الأحجار علی من مرّ بهم، و ضرب المعازف و المزامیر و کشف العورات ۱۹].

و واضح انّ الانحراف فی مثل هذه البیئة و اعمال السوء تأخذ ابعادا جدیدة کل یوم، و بغض النظر عن قبح الأعمال السیئة- أساسا- تبلغ الحال درجة لا یری عندها ای عمل فی نظر تلک البیئة سیّئا او منکرا.

و یوجد فی عصر تقدم العلوم من هم أشقی من قوم لوط حیث یسلکون نفس ذلک السبیل و قد تصل اعمال هؤلاء المخزیة الی

درجة ننسى عندها اعمال قوم لوط ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۴ الى ۸۶]

اشارة

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (۸۴) وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۸۵) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (۸۶)

التّفسير

مدين بلدة شعيب ...

مع انتهاء قصّة قوم لوط تصل النوبة الى قوم شعيب و اهل مدين، أولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد و هاموا على وجوههم فى شركهم و عبادة الأصنام، و لم يعبدوا الأصنام فحسب، بل الدّرهم و الدينار و الثروة و المال، و من اجل ذلك فإنّهم لوثوا تجارتهم الرابحة و كسبهم الوفير بالغش و البخس و الفساد.

فى بداية القصّة تقول الآيات وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً و كلمة «أخاهم» كما أشرنا إليها سابقا تستعمل فى مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳

الأنبياء لقومهم، لا لانّهم افراد قبيلته و قومه فحسب، بل اضافة الى ذلك فإنّه يريد الخير لهم. و يتحرق قلبه عليهم، فمثله مثل الأخ الودود.

و «مدين» على وزن «مريم» اسم لمدينة شعيب و قبيلته، و تقع المدينة شرق خليج العقبة، و أهلها من أبناء إسماعيل، و كانوا يتاجرون مع اهل مصر و لبنان و فلسطين.

و يطلق اليوم على مدينة «مدين» اسم «معّان» و لكن بعض الجغرافيين أطلقوا اسم مدين على الساكنين بين خليج العقبة و جبل سيناء.

و ورد فى التوراة ايضا اسم «مديان» و لكن تسمية لبعض القبائل، و طبيعى انّ اطلاق الاسم على المدينة و أهلها امر رائج ۲۰].

هذا النّبى و هذا الأخ الودود المشفق على قومه- كأى نبىّ فى أسلوبه و طريقته فى بداية الدعوة- دعاهم اوّلا الى ما هو الأساس و العماد و المعتقد و هو «التوحيد» و قال: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

لانّ الدعوة الى التوحيد دعوة الى هزيمة جميع «الطواغيت» و السنن الجاهلية و لا يتيسر اىّ إصلاح اجتماعى او اخلاقى بدونه.

ثمّ أشار الى احد المفاسد الاقتصادية التى هى من افرازات عبادة الأصنام و الشرك، و كانت رائجة عند اهل مدين يومئذ جدّا، و قال: وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ اى حال البيع و الشراء.

و «المكيال» و «الميزان» من أدوات الوزن يعرف بهما وزن المبيع و مقداره، و نقصانه يعنى عدم إيفاء حقوق الناس و البخس فى البيع.

و رواج هذين الأمرين بينهم يدل على عدم النظم و الحساب و الميزان فى اعمالهم و نموذجا للظلم و الجور و الإجحاف فى ذلك المجتمع الثرى.

و يشير هذا النّبى العظيم بعد هذا الأمر الى علّتين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴

العلّة الاولى: هى قوله إِنِّى أَراكُمْ بِخَيْرٍ.

يقول اوّلا: انّ قبول نصحى يكون سببا لتفتح أبواب الخير عليكم و تقديم التجارة و هبوط سطح القيمة و استقرار المجتمع.

و يحتمل ايضا فى تفسير هذه الجملة إِنِّى أَراكُمْ بِخَيْرٍ انّ شعيبا يقول لهم:

انّى أراكم منعمين و فى خير كثير، فعلى هذا لا مدعاة لعبادة الأصنام و اضاعة حقوق الناس و الكفر بدلا من الشكر على نعم اللّه سبحانه.

و ثانيا: وَ إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ بسبب إصراركم على الشرك و التطفيف فى الوزن و كفران النعمة ... إلخ.

و كلمة «محيط» جاءت صفة ليوم، اى يوم شامل ذو احاطة، و شمول اليوم يعنى شمول العذاب و العقاب فى ذلك اليوم، و هذا التعبير فيه اشارة الى عذاب الآخرة كما يشير الى عقاب الدنيا الشامل.

فعلى هذا لا أنتم بحاجة الى مثل هذه الأعمال، و لا ربّكم غافل عنكم، فينبغى إصلاح أنفسكم عاجلا.

و الآية الاخرى تؤكّد على نظامهم الاقتصادى، فإذا كان شعيب قد نهى قومه عن قلّة البيع و البخس فى المكيال، فهنا يدعوهم الى إيفاء الحقوق و العدل و القسط حيث يقول: وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ.

و يجب ان يحكم هذا الأصل «و هو اقامة القسط و العدل، و إعطاء كل ذى حقّ حقه» على مجتمعكم بأسره.

ثمّ يخطو خطوة أوسع و يقول: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ و «البخس» و معناه فى اللغة التقليل، و جاء هنا بمعنى الظلم ايضا. و يطلق على الاراضى المزروعة دون سقى «انّها بخس» لانّ ماءها قليل، حيث تعتمد على ماء المطر فحسب، او انّ هذه الاراضى قليلة الانتاج بالنسبة الى الاراضى الزراعية الاخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵

و إذا توسعنا فى معنى هذه الكلمة و مفهوم الجملة وجدناها دعوة الى رعاية جميع الحقوق الفردية و الاجتماعية و لجميع الملل و النحل، و يظهر «بخس الحق» فى كل محيط و عصر و زمان بشكل معين حتى بالمساعدة دون عوض أحيانا، و التعاون و إعطاء قرض معين (كما هى طريقة المستعمرين فى عصرنا).

و نجد فى نهاية الآية انّ شعيبا يخطو خطوة اخرى أوسع و يقول لقومه: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

فالفساد يقع عن طريق البيع و يقع عن طريق غصب حقوق الناس و الاعتداء على حقوق الآخرين، و الفساد ايضا يقع فى الإخلال بالموازين و المقاييس الاجتماعيّة، و يقع ايضا ببخس الناس أشياءهم و أموالهم، و أخيرا يقع الفساد على الحيثيات بالاعتداء على حرمتها و على النواميس و أرواح الناس.

و جملة «لا تعثوا» معناها «لا تفسدوا» بدلالة ذكر مفسدين بعدها لمزيد التوكيد على هذا الموضوع.

انّ الآيتين المتقدمتين تعكسان هذه الواقعية بجلاء، و هى انّه بعد الاعتقاد بالتوحيد و النظر الفكرى الصحيح، ينظر الى الاقتصاد السليم بأهمية خاصّة، كما تدلّان على انّ الإخلال بالنظام الاقتصادى سيكون أساسا للفساد الوسيع فى المجتمع.

ثمّ يخبرهم انّ زيادة الثروة- التى تصل الى أيديكم عن طريق الظلم و استثمار الآخرين- ليست هى السبب فى غناكم، بل ما يغنيكم هو بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

التعبير ب «بَقِيَّتُ اللَّهِ» امّا لانّ الربح الحلال القليل المترشح عن امر اللّه فهو «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و امّا لانّ الحصول على الرزق الحلال باعث على دوام نعم اللّه و بقاء البركات ... و امّا لانّه يشير الى الجزاء و الثواب المعنوى الذى يبقى الى الأبد. فإنّ الدنيا فانية و ما فيها لا محاله فان، و تشير الآية (۴۶) من سورة الكهف: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا الى هذا المضمون ايضا. و التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶

بقوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ اشارة الى انّ هذه الواقعية لا يعرفها الّا المؤمنون باللّه و حكمته و فلسفة أوامره.

و نقرا فى روايات متعددة فى تفسير بَقِيَّتُ اللَّهِ انّ المراد بها وجود المهدى عجّل اللّه فرجه الشريف، او بعض الائمّة الآخرين، و من هذه الرّوايات ما

نقل عن الامام الباقر عليه السّلام فى كتاب إكمال الدين: «اوّل ما ينطق به القائم عليه السّلام حين يخرج هذه الآية بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ثمّ يقول: انا بقية اللّه و حجّته و خليفته عليكم، فلا يسلّم عليه مسلم الّا قال: السّلام عليك يا بقية اللّه فى ارضه»[۲۱].

و قد قلنا مرارا انّ آيات القرآن بالرغم من نزولها فى موارد خاصّة، الّا انّها تحمل مفاهيم جامعة و كلية، بحيث يمكن ان تكون اثر مصداقا فى العصور و القرون التالية و تنطبق على مجال أوسع ايضا.

صحيح انّ المخاطبين فى الآية المتقدمة هم قوم شعيب، و المراد من بَقِيَّتُ اللَّهِ هو الربح و راس المال الحلال او الثواب الالهى، الّا انّ كل موجود نافع باق من قبل اللّه للبشرية، و يكون أساس سعادتها و خيرها يعدّ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» ايضا.

فجميع أنبياء اللّه و رسله المكرمين هم «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و جميع القادة الحقّ الذين يبقون بعد الجهاد المرير فى وجه الأعداء فوجودهم فى الامّة يعدّ «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و كذلك الجنود المقاتلون إذا عادوا الى ذويهم من ميدان القتال بعد انتصاهم على الأعداء فهم «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و من هنا فإنّ «المهدى الموعود» عليه السّلام آخر امام و أعظم قائد ثورى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلم من اجلى مصاديق «بَقِيَّتُ اللَّهِ» و هو أجدر من سواه بهذا اللقب، خاصّة انّه الوحيد الذى بقى بعد الأنبياء و الائمّة عليهم السّلام.

و فى نهاية الآية- محل البحث- نقرا على لسان شعيب وَ ما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ إذ وظيفته هى البلاغ و ليس مسئولا على «إجبار» احد ابدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۸۷ الى ۹۰]

اشارة

قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (۸۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۸۸) وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (۸۹) وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (۹۰)

التّفسير

المنطق الواهى:

و الآن فلنر ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السّماوى «شعيب».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸

فبما انّهم كانوا يتصورون انّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، و دلالة على اصالة ثقافتهم، و كانوا لا يرفعون اليد عن الغش فى المعاملة و تحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالُوا يا شُعَيْبُ أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا و نترك حريتنا فى التصرف

بأموالنا فلا نستطيع الاستفادة منها أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا ان هذا بعيد منك إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ؟! و هنا ينقدح هذا السؤال و هم لم سألوه عن الصلاة و أظهروا اهتمامهم بها؟! قال بعض المفسّرين: كان ذلك لانّ شعيبا كان يكثر من صلاته و يقول للناس: انّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء و المنكرات.

و لكن هؤلاء الأغبياء الذين لم يعرفوا السرّ و العلاقة بين الصلاة و ترك المنكرات، كانوا يسخرون من شعيب و كانوا يقولون له: أ هذه الاذكار و الأوراد و الحركات التى تقوم بها تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا و نهمل سنّة السلف و ثقافتنا التقليدية او ان نسلب اختيارنا من التصرف بأموالنا كيف شئنا؟! و احتمل البعض انّ «الصلاة» اشارة الى العقيدة و الدين، لانّها عبارة عن المظهر البارز للدين.

و على كل حال لو كان أولئك يفكرون جيدا لادركوا هذا الأمر الواقعى و هو انّ الصلاة توقظ فى الإنسان الاحساس بالمسؤولية و التقوى و مخافة اللّه و معرفة الحقوق، و تذكره باللّه و بمحكمة عدل اللّه، و تنفض عن قلبه غبار حبّ الذات و عبادة الذات! و تصرفه عن هذه الدنيا المحدودة و الملوّثة الى عالم ما وراء الطبيعة، الى عالم الصالحات و تزكية النفس، و لذلك فهى تخلّصه من الشرك و عبادة الأصنام و التقليد الأعمى للسلف الجاهل و بخس الناس أشياءهم، و عن انواع الغش و الخداع ... إلخ.

كما ينقدح هنا سؤال آخر، و هو: انّ قولهم لشعيب إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹

الرَّشِيدُ هل كان كلاما واقعيا من منطلق الايمان به، ام هو على سبيل الاستهزاء و السخرية؟! احتمل المفسّرون الوجهين و لكن مع ملاحظة أسلوب سؤالهم أَ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ الذى يستبطن الاستهزاء، يظهر انّ هذه الجملة على نحو الاستهزاء، و هى اشارة الى انّ الإنسان الحليم الرشيد هو من لم يتعجل القول او الراى فى امر دون ان يسبر غوره و يعرف كنهه، و الإنسان العاقل الرشيد هو من لم يسحق سنن قومه تحت رجليه و يسلب حريتهم فى التصرف بأموالهم، فيظهر انّك لم تسبر غور الأمور و ليس لديك عقل حصيف و فكر عميق، لانّ الفكر العميق و العقل يوجبان على الإنسان الّا يرفع يده عن طريقة السلف، و لا يسلب من الآخرين الاختيار و حرية العمل.

و لكن شعيبا ردّ على من اتّهمه بالسفه و قلّة العقل بكلام متين و قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ رَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً[۲۲].

انّه يريد ان يفهم قومه انّ فى عمله هذا هدفا معنويا و انسانيا و تربويا، و انّه يعرف حقائق لا يعرفها قومه، و الإنسان دائما عدوّ ما جهل.

و من الطريف انّه فى هذه الآيات يكرر عبارة يا قَوْمِ و ذلك ليعبّئ عواطفهم لقبول الحق و ليشعرهم بأنّهم منه و انّه منهم، سواء أ كان المقصود بالقوم القبيلة او الطائفة او الجماعة او الاسرة، ام كان المقصود الجماعة التى كان يعيش وسطهم و يعدّ جزءا منهم.

ثمّ يضيف هذا النّبى العظيم قائلا: وَ ما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ فلا تتصوروا اننى أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم و لا تنقصوا المكيال، و انا ابخس الناس او انقص المكيال، او أقول لكم لا تعبدوا الأوثان و انا افعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰

ذلك كلّه، كلا فإنّنى لا افعل شيئا من ذلك ابدا.

و يستفاد من هذه الجملة انّهم كانوا يتهمون شعيبا بأنّه كان يريد الربح لنفسه، و لهذا فهو ينفى هذا الموضوع صراحة و يقول تعقيبا على ما سبق إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

و هذا هو هدف الأنبياء جميعا، حيث كانوا يسعون الى إصلاح العقيدة، و إصلاح الأخلاق، و إصلاح العمل، و إصلاح العلائق و الروابط الاجتماعية و انظمتها وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ للوصول الى هذا الهدف.

و على هذا فإننى، و لأجل أداء رسالتى و الوصول الى هذا الهدف الكبير عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ

و أسعى للاستعانة به على حل المشاكل، و أتوكل عليه فى تحمّل الشدائد فى هذا الطريق، و أعود اليه ايضا.

ثمّ ينبههم الى مسألـة أخلاقيـة، و هى انّه كثيرا ما يحدث للإنسان انّه لا يعرف مصالحه و ينسـى مصـيره، و ذلك بسـبب بغضه و عدائه بالنسبة لشخص آخر او التعصب الأعمى و اللجاجة فى شىء ما، فيقول لهم وَ يا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ و ما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث امطرهم اللّه بحجارة من سجيل منضود و قلب مـدنهم فجعل عاليها سافلها وَ ما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيـدٍ فلا زمانهم بعيد عنكم كثيرا، و لا مكان حياتهم، كما انّ اعمالكم و ذنوبكم لا تقل عن اعمالهم و ذنوبهم ايضا.

و «مـدين» التى كـانت موطن شـعيب لم تكن بعيـدة عن موطن قوم لوط، لانّ الموطنين كلاهمـا كانـا من مناطق «الشامات» و إذا كان بينهمـا فاصـل زمنى، فلم يكن الفاصـل بالمقـدار الـذى يسـتدعى نسـيان تـأريخه، و امّا من الناحيـة العمليـة فالفرق كبير بين الانحراف الجنسى الذى كان عليه قوم لوط و الانحراف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱

الاقتصـادى الـذى كـان عليه قوم شـعيب، لكن كليهمـا يتشابهـان فى توليـد الفسـاد فى المجتمع و الإخلالـ بالنظـام الاجتماعى و اماتة الفضائل الخلقيـة و اشاعـة الانحراف، و من هنا نجـد فى الرّوايات أحيانا مقارنـة الدرهم الربوى المرتبط- بالطبع- بالمسائل الاقتصادية بالزنا الذى هو تلوّث جنسى ۲۳].

ثمّ يأمر شعيب قومه الضالين بشيئين هما فى الواقع ما كان يؤكّد عليه جميع الأنبياء المتقدمين.

الاوّل: قوله: وَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ اى لتطهروا من الذنوب و تجتنبوا الشرك و عبادة الأوثان و الخيانة فى المعاملات.

و الثّانى: قوله: ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ اى ارجعوا اليه.

و الواقع انّ الاستغفار توقف فى مسير الذنب و غسل النفس، و التوبة عودة الى اللّه الكمال المطلق.

و اعلموا انّه مهما يكن الذنب عظيما و الوزر ثقيلا فإنّ طريق العودة اليه تعالى مفتوح و ذلك لانّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ.

و كلمـة «الودود» صـيغة مبالغـة مشـتقّة من الود و معناه المحبّـة، و ذكر هـذه الكلمـة بعـد كلمة «رحيم» اشارة الى انّ اللّه يلتفت بحكم رحمته الى المذنبين التائبين، بل هو اضافة الى ذلك يحبّهم كثيرا لانّ رحمته و محبته هما الدافع لقبول الاستغفار و توبة العباد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۱ الى ۹۳]

اشارة

قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ (۹۱) قالَ يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (۹۲) وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (۹۳)

التّفسير

التّهديدات المتبادلة بين شعيب و قومه:

انّ شـعيبا هذا النّبى العظيم الذى لقّب بخطيب الأنبياء[۲۴] لخطبة المعروفة و الواضـحة، و التى كانت أفضل دليل أمين للحياة المادّية و المعنويـة لهـذه الجماعـة، و اصـل محـاججته لقومه بـالصبر و الانـاة و القلب المحـترق، و لكن تعـالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاـء القوم

الضالون؟! لقد أجابوه بأربع جمل كلّها تحكى عن جهلهم و لجاجتهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳

فأوّلها: انّهم قالوا: يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ... فكلامك أساسا ليس فيه اوّل و لا آخر، و ليس فيه محتوى و لا منطق قيم لنفكر فيه و نتدبره و ليس لديك شيء نجعله ملاكا لعملنا، فلا ترهق نفسك اكثر! و امض الى قوم غيرنا ...

و الثّانيـة: قولهم وَ إِنَّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً فإذا كنت تتصور انّك تستطيع اثبات كلماتك غير المنطقيـة بالقـدرة و القوّة فأنت غارق فى الوهم.

و الثّالثـة: هى انّه لا تظنّ انّنا نتردد فى القضاء عليك بأبشع صورة خوفا منك و من بأسك، و لكن احترامنا لعشيرتك هو الـذى يمنعنا من ذلـك وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ و الطريف انّهم عبّروا عن قبيلـة شـعيب: ب «الرّهـط» و هـذه الكلمـة تطلق فى لغـة العرب على الجماعة التى مجموع أنصارها ثلاثة الى سبعة، او عشرة، او على قول. و هو الحدّ الأكثر- تطلق على أربعين نفرا.

و هم يشـيرون بـذلك الى انّ قبيلتك تتمتع بالقوة الكافيـة مقابل قوتنا، و لكن تمنعنا امور اخرى، و هـذا يشـبه قول القائل: لو لا هؤلاء الاربعـة من قومك و أسـرتك لأعطيناك جزاءك بيـدك. فى حين انّ قومه و أسـرته ليسوا بأربعة، بل المراد بيان هذه المسألة، و هى انّهم لا اهمية لقدرتهم فى نظر القائل.

و قولهم الأخير: وَ مـا أَنْتَ عَلَيْنـا بِعَزِيزٍ فمهمـا كانت منزلتك فى عشـيرتك، و مهما كنت كبيرا فى قبيلتك الّا انّه لا منزلـة لك عنـدنا لسلوكك المخالف و المرفوض.

و لكنّ شـعيبا دون ان يتأثر بكلماتهم الرخيصـة و اتهاماتهم الواهيـة أجابهم بمنطقه العـذب و بيانه الشائق متعجبا و قال: يا قَوْمِ أَ رَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ أ فتـذرونى من اجـل رهطى و قبيلتى التى لا تتجـاوز عـدّة انفـار و لا ينالنى منكم سوء، فلم لا تصـغون لكلامى فى اللّه؟ و هل يمكن ان نقارن عدّة افراد بعظمة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴

سبحانه ... و أنتم لم تهابوه و توقّروه وَ اتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيًّا[۲۵].

و فى الختام يقول لهم: لا تظنوا انّ اللّه غافل عنكم او انّه لا يرى اعمالكم و لا يسمع كلامكم، بل إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

انّ المتحدّث البليغ هو من يستطيع ان يعرّف موقفه من بين جميع المواقف الى الطرف المقابل و يشخصه من خلال أحاديثه.

فحيث انّ المشـركين من قوم شـعيب هـددوه فى آخر كلامهم بالرجم، و ابرزوا قوتهم امامه، كان موقف شـعيب من تهديـداتهم على النحو التالى: وَ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ ۲۶] إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ (وَ مَنْ هُوَ كاذِبٌ) وَ ارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۲۷]. اى انتظروا لتنتصروا علىّ بقواكم و جماعتكم و أموالكم، و انا منتظر ايضا ان يصيبكم اللّه بعذابه و يهلككم جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۴ الى ۹۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ (۹۴) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ (۹۵)

التّفسير

عاقبة المفسدين فى مدين:

قرانا فى قصص الأقوام السابقين مرارا، انّ الأنبياء كانوا فى المرحلة الاولى يدعونهم الى اللّه و لم يألوا جهدا فى النصيحة و الإبلاغ و بيان الحجّة، و فى المرحلة التى بعدها حيث لم ينفع النصح للجماعة ينذرها نبيّها و يخوّفها من عذاب اللّه، ليعود الى طريق الحق من فيه الاستعداد و لتتم الحجّة عليهم، و فى المرحلة الثّالثة، و بعد ان لم يغن اى شىء ممّا سبق- تبدا مرحلة التصفية و تطهير الأرض، و ينزل العقاب فيزيل الأشواك من الطريق.

و فى شأن قوم شعيب- اى اهل مدين- وصل الأمر الى المرحلة النهائية ايضا، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶

مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ.

«الصيحة» كما قلنا سابقا معناها فى اللغة كل صوت عظيم، و القرآن الكريم يحكى عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السّماوية، هذه الصيحة يحتمل ان تكون صاعقة من السّماء او ما شابهها، و كما بينا فى قصّة ثمود «قوم هود» قد تبلغ الأمواج الصوتية حدّا بحيث تكون سببا لهلاك جماعة من الناس.

ثمّ يعقّب القرآن فيقول: فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ اى: أجسادا هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ...

و هكذا طوى سجلّ و طومار حياتهم كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها. و انطفأ بريق كل شىء، فلا ثروة و لا قصور و لا ظلم و لا زينة كل ذلك تلاشى و انعدم.

و كما كانت نهاية عاد و ثمود- و قد حكى عنهما القرآن- فهو يقول عن نهاية مدين ايضا أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ.

و واضح انّ المقصود من كلمة «مدين» اهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة اللّه و كانوا من الهالكين.

دروس تربوية فى قصّة شعيب:

اشارة

انّ أفكار الأنبياء و الوقائع التى جرت للأقوام السابقة تستلهم منها الأجيال التى بعدها، لانّ تجارب حياة أولئك الأقوام هى التى تمخضت عن عشرات السنين او مئات السنين ... ثمّ نقلت إلينا فى عدّة صفحات من «التاريخ» و كل فرد منّا يستطيع ان يستلهم العبر فى حياته.

قصّة هذا النّبى العظيم «شعيب» فيها دروس كثيرة، و من هذه الدروس ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷

۱- اهمية المسائل الاقتصادية

قرانا فى هذه القصّة انّ شعيبا دعا قومه بعد التوحيد الى الحق و العدالة فى الأمور المالية و التجارية، و هذا نفسه يدل على انّ المسائل الاقتصادية فى المجتمع لا يمكن تجاوزها و تهميشها. كما يدل على انّ الأنبياء لم يؤمروا بالمسائل الاخلاقية فحسب، بل كانت دعوتهم تشكل «الإصلاح» ... إصلاح الوضع الاجتماعى غير الجيد، و إصلاح الوضع الاقتصادى كذلك، حيث كانت هذه الأمور من أهم الأمور- عند الأنبياء- بعد التوحيد.

۲- لا ينبغى التّضحية بالاصالة من اجل التعصب

كما قرانا فى هذه القصّة فإنّ احد العوامل التى دعت الى سقوط هؤلاء فى احضان الشقاء انّهم نسوا الحقائق لحقدهم و عدائهم الشخصى، فى حين انّ الإنسان العاقل و الواقعى ينبغى ان يتقبل الحق من كل احد حتى و لو كان من عدوّه.

۳- الصلاة تدعو الى التوحيد و التطهير

لقد سأل شعيبا قومه أ صَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا و ان نترك الغش و عدم إيفاء الميزان حقّه. فلعلهم كانوا يتصورون متسائلين: انّ هذه الاذكار و الادعية ما عسى ان تؤثر فى هذه الأمور؟

على حين انّنا نعرف ان أقوى علاقة و رابطة هى العلاقة الموجودة بين الصلاة و هذه الأمور، فإذا كانت الصلاة بمعناها الواقعى اى مع حضور الإنسان بجميع وجوده امام اللّه فإنّ هذا الحضور معراج التكامل و سلّم الصعود فى تربية روحه و نفسه، و المطهّر لصدإ ذنوبه و رين قلبه و هذا الحضور يقوّى ارادته و يجعل عزمه راسخا و ينزع عنه غروره و كبرياءه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸

۴- النظرة الذاتيّة (الانانيّة) رمز للجمود

! لقد كان قوم شعيب- كما عرفنا فى الآيات السابقة- افرادا انانيين و «ذاتيين» إذ كانوا يتصورون أنفسهم ذوى فهم، و انّ شعيبا يجهل الأمور!! و كانوا يسخرون منه و يعدّون كلامه بلا محتوى و يرونه ضعيفا، و هذه النظرة الضيقة و الانانية صيّرت سماء حياتهم مظلمة و رمت بهم الى هاوية الهلاك.

ليس الإنسان وحده- بل حتى الحيوان- إذا كان «انانيّا» ذا نظرة ضيقة فإنّه سيتوقف فى الطريق!! يقال انّ فارسا وصل الى نهر و أراد عبوره و لكنّه لاحظ بتعجب انّ الفرس غير مستعدّة ان تعبر النهر الصغير و القليل العمق، و كلما الحّ على الفرس لكى تعبر لم يفلح، فمرّ به رجل حكيم، فقال له: حرّك ماء النهر ليذهب فإنّ المشكلة ستنحلّ. ففعل ذلك فعبرت الفرس النهر بكل هدوء!! فسأل الحكيم عن السرّ فى ذلك، فقال: حين كان الماء صافيا كانت صورة الفرس فى الماء فلم يرق للفرس ان تطأ نفسها، و حين اختلط الماء بالطين ذهبت الصورة و نسيت الفرس صورتها فعبرت بكل بساطة!

۵- تلازم الايمان و العمل

لا يزال الكثيرون يتصورون انه يمكن للمسلم ان يكون بالعقيدة وحدها مسلما حتى و ان يقم بأىّ عمل، و ما يزال الكثيرون يريدون من الدين الّا يكون مانعا لرغباتهم و ميولهم، و يريدون ان يكونوا أحرارا بوجه مطلق.

قصّة شعيب تدلنا على انّ قومه كانوا يريدون مثل هذا المنهج، لذلك كانوا يقولون له: نحن غير مستعدين ان نترك ما كان عليه السلف من عبادة الأصنام، و لا نفقد حريتنا فى التصرف بأموالنا ما نشاء.

لقد نسى أولئك انّ ثمرة شجرة الايمان- أساسا- هى العمل، و كان نهج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹

الأنبياء ان يصلحوا الانحرافات العمليّة للإنسان و يسددوا خطواته، و الّا فإنّ شجرة بلا ثمر و ورق و فائدة عملية لا تستحق الّا ان تحرق!

نحن اليوم- و للأسف- نرى بعض المسلمين قد غلب عليهم هذا الطراز من الفكر، و هو انّ الإسلام عبارة عن عقائد جافّة لا تتعدّى حدود المسجد، فما داموا فى المسجد فهى معهم، و إذا خرجوا ودّعوها فيه!! فلا تجد أثرا لاسلامهم فى السوق او الادارات او المحيط.

انّ السير فى كثير من الدول الاسلامية- حتى الدول التى كانت مركزا لانتشار الإسلام- يكشف لنا هذا الواقع المرير، و هو انّ الإسلام منحصر فى حفنة من «الاعتقادات و عدد من العبادات عديمة الروح» لا تجد فيها أثرا عن المعرفة و العدالة الاجتماعية و النمو الثقافى و الأخلاق الاسلاميّة ....

و لكن- لحسن الحظ- نرى فى ضمن هذه الصحوة الاسلامية و لا سيما بين الشباب تحرّك نحو الإسلام الصحيح و الممازجة بين الايمان و العمل، فلا تكاد تسمع فى هذا الوسط مثل هذا الكلام «ما علاقة الإسلام بأعمالنا؟!» او انّ «الإسلام مرتبط بالقلب لا بالحياة و المعاش» و ما الى ذلك.

الاطروحة التى نسمعها من بعض المنحرفين بقولهم: نحن نستوحى عقيدتنا من الإسلام و اقتصادنا من ماركس، هى شبيهة بطريقة تفكير قوم شعيب الضالين و هى محكومة مثلها ايضا، و لكن هذا الانفصال او التفرقة بين العمل و الايمان كان موجودا منذ القدم و لا يزال، و ينبغى ان نكافح مثل هذا التفكير!

۶- الملكية غير المحدودة أساس الفساد

لقد كان قوم شعيب واقعين فى مثل هذا الخطأ حيث كانوا يتصورون انّه من الخطأ القول بتحديد التصرف بالأموال من قبل مالكيها، و لذلك تعجبوا من شعيب و قالوا له: امثلك و أنت الحليم الرشيد يمنعنا من التصرف بأموالنا و يسلب حريتنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰

منها، انّ هذا الكلام سواء كان على نحو الحقيقة و الواقع، ام كان على نحو الاستهزاء، يدلّ على انّهم كانوا يرون تحديد التصرّف بالمال دليلا على عدم العقل و الدارية.

فى حين انّهم كانوا على خطأ كبير فى تصورهم هذا ... إذ لو كان الناس أحرارا فى التصرّف بأموالهم لعمّ المجتمع الفساد و الشقاء، فيجب ان تكون الأمور المالية تحت ضوابط صحيحة و محسوبة كما عرضها الأنبياء على الناس، و الّا فستجرّ الحرية المطلقة المجتمع نحو الانحراف و الفساد.

۷- هدف الأنبياء هو الإصلاح

لم يكن هذا الشعار: إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ شعار شعيب فحسب، بل هو شعار جميع الأنبياء و كل القادة المخلصين، و انّ اعمالهم و أقوالهم شواهد على هذا الهدف. فهم لم يأتوا لاشعار الناس، و لا لغفران الذنوب، و لا لبيع الجنّة، و لا لحماية الأقوياء و تخدير الضعفاء من الناس، بل كان هدفهم الإصلاح بالمعنى المطلق و الوسيع للكلمة ... الإصلاح فى الفكر، الإصلاح فى الأخلاق، الإصلاح فى النظم الثقافية و الاقتصادية و السياسيّة للمجتمع، و الإصلاح فى جميع ابعاد المجتمع.

و كان اعتمادهم و دعامتهم على تحقق هذا الهدف هو اللّه فحسب و لهذا لم يخافوا من التهديدات و المؤامرات كما قال شعيب وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۹۶ الى ۹۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ

الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹)

التّفسير

البطل المبارز لفرعون:

بعد انتهاء قصّة شعيب و اهل مدين، يشير القرآن الكريم الى زاوية من قصّة موسى و مواجهته لفرعون و هذه القصّة هى القصّة السابعة من قصص الأنبياء فى هذه السورة.

تحدث القرآن الكريم عن قصّة موسى عليه السّلام و فرعون و بنى إسرائيل اكثر من مائة مرّة.

و خصوصية قصّة موسى عليه السّلام بالنسبة لقصص الأنبياء- كشعيب و صالح و هود و لوط عليهم السّلام التى قرأناها فى ما سبق- هى انّ أولئك الأنبياء عليهم السّلام واجهوا الأقوام الضالين، لكن موسى عليه السّلام واجه اضافة الى ذلك حكومة «ديكتاتور» طاغ مستبدّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲

هو فرعون الجبار.

و أساسا فإنّ الإصلاح ينبغى ان يبدأ من الأصل و المنبع، و طالما هناك حكومات فاسدة فلن يبصر اى مجتمع وجه السعادة، و على القادة الإلهيين فى مثل هذه المجتمعات ان يدمروا مراكز الفساد قبل كل شىء.

و لكن ينبغى الالتفات الى انّنا نقرا فى هذا القسم من قصّة موسى زاوية صغيرة فحسب و لكنّها فى الوقت ذاته تحمل رسالة كبيرة للناس جميعا.

يقول القرآن الكريم اوّلا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

«السلطان» بمعنى التسلّط، يستعمل تارة فى السلطة الظاهرية، و أحيانا فى السلطة المنطقية، السلطة التى تحاصر المخالف فى طريق مسدود بحيث لا يجد طريقا للفرار.

و يبدو فى الآية المتقدمة انّ «السلطان» استعمل فى المعنى الثّانى، و المراد ب «الآيات» هى معاجز موسى الجليلة، و للمفسرين احتمالات اخرى فى هاتين الكلمتين.

و على كل حال فإنّ موسى أرسل بتلك المعجزات القاصمة و ذلك المنطق القوى إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ

و كما قلنا مرارا فإنّ كلمة «الملا» تطلق على الذين يملا مظهرهم العيون بالرّغم من خلوّ المحتوى الداخلى، و فى منطق القرآن تطلق هذه الكلمة غالبا على الوجوه و الاشراف و الأعيان الذين يحيطون بالمستكبرين و بالقوى الظالمة .. الّا انّ جماعة فرعون الذين وجدوا منافعهم مهددة بالخطر بسبب دعوة موسى، فإنّهم لم يكونوا مستعدين للاستجابة .. لمنطقه الحق و معجزاته فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ و لكن فرعون ليس من شأنه هداية الناس الى الحياة السعيدة او ضمان نجاتهم و تكاملهم: وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ.

انّ هذا نجاح فرعون هذا لم يحصل بسهولة، فقد استفاد من كل انواع السحر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳

و الخداع و التآمر و القوى لتقدم اهدافه و تحريك الناس ضد موسى عليه السّلام، و لم يترك فى هذا السبيل اىّ نقطة نفسية بعيدة عن النظر، فتارة كان يقول: انّ موسى يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ [۲۸] و اخرى كان يقول: إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ.[۲۹] فيحرك مشاعرهم و احاسيسهم المذهبيّة.

و أحيانا كان يتهم موسى، و اخرى كان يهدّده، و أحيانا يبرز قوّته و شوكته بوجه الناس فى مصر، او يدعى الدهاء فى قيادته بما يضمن الخير و الصلاح لهم.

و يوم الحشر حين يأتى الناس عرصات القيامة فإنّ زعماؤهم و قادتهم فى الدنيا هم الذين سيقودوهم هناك حين يرى فرعون هناك: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ و بدلا من ان ينقذهم و يخلصهم من حرارة المحشر و عطشه يوصلهم الى جهنم فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ فبدلا من ان يسكن عطش اتباعه هناك يحرق وجودهم و بدلا من الارواء يزيدهم ظمأ الى ظمأ.

مع ملاحظة انّ «الورود» فى الأصل معناه التحرّك نحو الماء و الاقتراب منه، و لكن الكلمة أطلقت لتشمل الدخول على كل شىء و توسّع مفهومها.

و «الورد» هو الماء يرده الإنسان، و قد يأتى بمعنى الورود ايضا.

و «المورود» هو الماء الذى يورد عليه، ف «هم» اسم مفعول، فعلى هذا يكون معنى الجملة بئس الورد و المورود[۳۰] على النحو التالى: النّار بئس ماؤها ماء حين يورد عليه.

و يلزم ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ العالم بعد الموت- كما قلنا سابقا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴

عالم «تتجسم فيه اعمالنا و أفعالنا» الدنيوية بمقياس واسع، فالشقاء و السعادة فى ذلك العالم نتيجة اعمالنا فى هذه الدنيا، فالأشخاص الذين كانوا فى هذه الدنيا قادة الصلاح يقودون الناس الى الجنّة و السعادة فى ذلك العالم، و الذين كانوا قادة للظالمين و الضالين و اهل النّار يسوقونهم الى جهنم يتقدمونهم هناك! ثمّ يقول القرآن: وَ أُتْبِعُوا فِي هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ. فأسماؤهم الذليلة تثبت على صفحات التاريخ ابدا على انّهم قوم ضالون و جبابرة، فقد خسروا الدنيا و الآخرة و ساءت النّار لهم عطاء و جزاء و بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ[۳۱].

و «الرفد» فى الأصل معناه الاعانة على القيام بعمل معين، و إذا أرادوا ان يسندوا شيئا الى شىء آخر عبروا عن ذلك بالرفد، ثمّ أطلقت هذه الكلمة على العطاء لانّه اعانة من قبل المعطى الى المعطى له!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۰ الى ۱۰۴]

اشارة

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ (۱۰۰) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (۱۰۱) وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (۱۰۲) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (۱۰۳) وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (۱۰۴)

التّفسير

فى آيات هذه السورة تبيان لقصص سبعة أقوام من الأقوام السابقين و لمحات من تأريخ أنبيائهم، و كل واحد منهم يكشف للإنسان قسما جديرا بالنظر من حياته المليئة بالحوادث و يحمل بين جنبيه دروسا من العبرة للإنسان.

و هنا اشارة الى جميع تلك القصص، فيتحدث القرآن عن صورة مستجمعة لما مرّ من الحوادث و الأنباء حيث يقول: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ

الْقُرى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْها قائِمٌ وَ حَصِيدٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۶

و كلمة «قائم» تشير الى المدن و العمارات التى لا تزال باقية من الأقوام السابقين، كأرض مصر التى كانت مكان الفراعنة و لا تزال آثار أولئك الظالمين باقية بعد الغرق، فالحدائق و البساتين و كثير من العمارات المذهلة قائمة بعدهم.

و كلمة «حصيد» معناها اللغوى قطع النباتات بالمنجل، و فى هذه الكلمة اشارة الى بعض الاراضى البائرة، كأرض قوم نوح و ارض قوم لوط، حيث انّ واحدة منهما دمرها الغرق و الثانية أمطرت بالحجارة.

وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ حيث ركنوا و لجأوا الى الأصنام و الآلهة «المزعومة» فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ بل زادوهم ضررا و خسرانا وَ ما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۳۲].

وَ كَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَ هِيَ ظالِمَةٌ فلا يدعها على حالها و إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ.

هذا قانون الهى عام و منهج دائم، فما من قوم او امّة من الناس يتجاوزون حدود اللّه و يمدون أيديهم للظلم و لا يكترثون لنصائح أنبيائهم و مواعظهم، الّا أخذهم اللّه أخذا شديدا و اعتصرتهم قبضة العذاب.

هذه الحقيقة تؤكّد انّ المنهاج السابق منهاج عمومى و سنّة دائمة، و تستفاد من آيات القرآن بصورة جيدة، و هى فى الواقع إنذار لأهل العالم جميعا: ان لا تظنوا انّكم مستثنون من هذا القانون، او انّ هذا الحكم مخصوص بالاقوام السابقين.

و الطبع فإنّ الظلم بمعناه الواسع يشمل جميع الذنوب، و وصفت القرية او المدينة بأنّها «ظالمة» مع انّ الوصف ينبغى ان يكون لساكنيها، فكأنما هناك مسألة دقيقة و هى انّ اهل هذه المدينة انغمسوا فى الظلم الى درجة حتى كأنّ المدينة لها أصبحت مغموسة فى الظلم ايضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۷

و حيث انّ هذا قانون كلّى و عام فإنّ القرآن يقول مباشرة إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ.

لانّ الدنيا لا تعدّ شيئا إزاء الآخرة، و جميع ما فى الدنيا حقير حتى ثوابها و عقابها، و العالم الآخر أوسع- من جميع النواحى- من هذه الدنيا. فالمؤمنين بيوم القيامة يعتبرون لدى مشاهدة واحد من هذه المثل و النماذج فى الدنيا، و يواصلون طريقهم.

و فى ختام الآية اشارة الى وصفين من أوصاف يوم القيامة حيث يقول القرآن ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

هى اشارة الى انّ القوانين و السنن الالهية كما هى عامّة فى هذا العالم، فإنّ اجتماع الناس فى تلك المحكمة الالهية ايضا عام، و سيكون فى زمان واحد و يوم مشهود للجميع يحضره الناس كلّهم و يرونه.

من الطريف هنا انّ الآية تقول ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ و لم تقل «مجموع فيه الناس» و هذا التعبير اشارة الى انّ يوم القيامة ليس ظرفا لاجتماع الناس فحسب، بل هو هدف يمضى اليه الناس فى مسيرهم التكاملى.

و نقرا فى الآية (۹) من سورة التغابن يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ

و بما انّ البعض قد يتوهم انّ الحديث عن ذلك اليوم لم يحن اجله فهو نسيئة و غير معلوم وقت حلوله، لهذا فإنّ القرآن يقول مباشرة: وَ ما نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ.

و ذلك ايضا لمصلحة واضحة جليّة ليرى الناس ميادين الاختبار و التعلم، و ليتجلى آخر منهج للأنبياء و تظهر آخر حلقة للتكامل الذى يمكن لهذا العالم ان يستوعبها ثمّ تكون النهاية.

و التعبير بكلمة «معدود» اشارة الى قرب يوم القيامة، لانّ كل شىء يقع تحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۸

العدّ و الحساب فهو محدود و قريب.

و الخلاصة انّ تأخير ذلك اليوم لا ينبغى ان يغترّ به الظالمون، لانّ يوم القيامة و ان تأخر فهو آت لا محالة، و انّ التعبير بتأخره ايضا غير صحيح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۹

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۸]

اشارة

يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ (۱۰۵) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ (۱۰۶) خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۰۷) وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (۱۰۸)

التّفسير

السّعادة الشّقاوة:

أشير فى الآيات المتقدّمة الى مسألة القيامة و اجتماع الناس كلّهم فى تلك المحكمة العظيمة ... و هذه الآيات- محل البحث- بيّنت زاوية من عواقب الناس و مصيرهم فى ذلك اليوم، إذ تقول الآيات اوّلا: يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ

قد يتصور أحيانا انّ هذه الآية الدالة على تكلّم الناس فى ذلك اليوم بإذن اللّه، تنافى الآيات التى تنفى التكلم هناك مطلقا، كالآية (۶۵) من سورة يس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۰

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ و كالآية (۳۵) من سورة المرسلات حيث نقرا: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ

و لهذا السبب قال بعض المفسّرين الكبار: انّ التكلم هناك «يوم القيامة» لا مفهوم له أساسا. لانّ التكلم وسيلة لكشف باطن الأشخاص و داخلهم، و لو كان لدينا احساس نستطيع ان نطّلع به على أفكار كل شخص لم يكن حاجة الى التكلم ابدا.

فعلى هذا لمّا كانت الأسرار و جميع الأشياء تنكشف «يوم القيامة» على حالة «الظهور و البروز» فلا معنى للتكلم أصلا.

و ببيان آخر: انّ الدار الآخرة دار مكافأة و جزاء لا دار عمل، و على هذا فلا معنى هناك لاختيار الإنسان و تكلمه حسب رغبته و ارادته، بل هو الإنسان و عمله و ما يتعلق به، فلو أراد التكلم فلا يكون كلامه عن اختيار و ارادة و حاكيا عمّا فى ضميره كما فى الدنيا، بل كل ما يتكلم به هناك فهو نوع من الانعكاس عن اعماله التى تظهر جليّة ذلك اليوم. اى انّ الكلام هناك ليس كالكلام فى الدنيا بحيث يستطيع الإنسان على حسب ميله ان يتكلم صادقا او كاذبا.

و على كل حال فإنّ ذلك اليوم هو يوم كشف حقائق الأشياء و عودة الغيب الى الشهود، و لا شبه له بهذه الدنيا.

و لكن هذا الاستنتاج من الآية المتقدّمة لا ينسجم مع ظاهر الآيات الأخرى فى القرآن، لأنّ القرآن يتحدث عن كثير من كلام المؤمنين و المجرمين و القادة و الجبابرة و أتباعهم، و الشيطان و المنخدعين به، و أهل النّار و أهل الجنّة، بحيث يدل على انّ هناك كلاما كالكلام فى هذه الدنيا أيضا.

حتى انّ بعض الآيات يستفاد منها انّ قسما من المجرمين يكذبون فى ردهم على بعض الاسئلة، كما هو مذكور فى سورة الانعام

الآيات (۲۲) الى (۲۴) حيث تقول الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۱

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ* انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

فعلى هذا، من المستحسن ان يجاب على السؤال المتعلق بتناقض ظواهر الآيات حول التكلم بما ذكره كثير من المفسّرين، و هو انّ الناس يقطعون فى ذلك اليوم مراحل مختلفة ... و كل مرحلة لها خصوصياتها، ففى قسم من المراحل لا يسألون ابدا حتى انّ أفواههم يختم عليها فلا يتكلمون، و انّما تنطق أعضاء أجسادهم التى حفظت آثار اعمالها بلغة من دون لسان، و فى المراحل الاخرى يرفع الختم او القفل عن أفواههم و يتكلمون بإذن اللّه فيعترفون بأخطائهم و ذنوبهم و يلوم المخطئون بعضهم بعضا، بل يحاولون ان يلقوا تبعات أوزارهم على غيرهم.

و يشار فى نهاية الآية الى تقسيم الناس جميعا الى طائفتين: طائفة محفوظة، و اخرى بائسة تعيسة فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَ سَعِيدٌ.

و «السعيد» مشتق من مادة «السعادة» و معناها توفر اسباب النعمة.

و «الشقى» مشتق من مادة «الشقاء» و معناه توفر اسباب البلاء و المحنة.

فالسعداء- إذا- هم الصالحون الذين يتمتعون بأنواع النعم فى الجنّة و الاشقياءهم المسيئون الذين هم يتقلبون فى انواع العذاب و العقاب فى جهنم.

و ليس هذا الشقاء- على كل حال- و تلك السعادة سوى نتيجة الأعمال و الأقوال و النيّات التى سلفت من الإنسان فى الدنيا.

و العجيب ان بعض المفسّرين يتخذون هذه الآية ذريعة لعقيدتهم الباطلة فى مجال الجبر، فى حين انّ الآية ليس فيها اقلّ دليل على هذا المعنى، بل هى تتحدث عن السعداء و الأشقياء فى يوم القيامة و انهم و صلوا جميعا بأعمالهم الى هذه المرحلة، و لعلهم توهموا هذه النتيجة من هذه الآية بالخلط بينها و بين بعض الأحاديث التى تتكلم عن شقاء الإنسان او سعادته و هو فى بطن امّه قبل الولادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۲

و لكن هذه المسألة ليس هنا مجالها إذ لها قصّة اخرى و حديث طويل.

ثمّ تشرح الآيات حالات السعداء و الأشقياء فى عبارات موجزة و اخّاذة حيث تقول فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ و تضيف حاكية عن حالهم ايضا: خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.

ملاحظات

۱- هل انّ السعادة و الشقاوة ذاتيان

؟ أراد البعض ان يثبت من الآيات المتقدمة- كما قلنا آنفا- كون السعادة و الشقاء ذاتيين، فى حين انّ الآيات المتقدمة لا تدل على هذا الأمر فحسب، بل تثبت بوضوح كون السعادة و الشقاء اكتسابيين، إذ تقول فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا او تقول وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فلو كان كل من الشقاء و السعادة ذاتيين لكان ينبغى ان يقال «امّا الأشقياء و امّا السعداء» و ما أشبه ذلك التعبير، و من هنا يتّضح بطلان ما جاء فى تفسير الفخر الرازى ممّا مؤداه: «انّ هذه الآيات تحكم من الآن انّ جماعة فى القيامة سعداء و جماعة أشقياء، و من حكم اللّه عليه مثل هذا الحكم و يعلم انه فى القيامة امّا شقى أو سعيد، فمحال عليه ان يغير ذلك و الّا للزم- فى الآية- ان يكون ما اخبر اللّه به كذبا

و یکون علمه جهلا!! و هذا محال» .... فکل ذلک لا أساس له.

و هـذا هو الاشـکال المعروف علی «علم اللّه» فی مسألـة الجبر و الاختیـار و الـذی أجیب علیه قـدیما بـأنه: إذا لم نرد تحمیل افکارنا و آراؤنا المسبقة علی آیات القرآن الکریم، فإنّ مفاهیمها تبدو واضحة، انّ هذه الآیات تقول: یَوْمَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۳

یَأْتِ یکون فیه جمع من الناس سـعداء من خلال اعمالهم، و جمع آخر أشقیاء بسبب اعمالهم، و اللّه سبحانه یعلم من الذی اختار طریق السـعادة باختیـاره، و بـإرادته، و من الـذی خطا خطوات فی مسیر الشـقاء بإرادته. و هـذا المعنی یعطی نتیجـة معاکسـة تماما لما ذکره الرازی حیث انّ النـاس إذا کـانوا مجبورین علی هـذا الطریق فإنّ علم اللّه سـیکون جهلا (و العیاذ باللّه)، لانّ الجمیع اختاروا طریقهم و انتخبوه بإرادتهم و رغبتهم.

الشاهـد فی الکلام انّ الآیات المتقدمة تتحدث عن قصـص الأقوام السابقین، حیث عوقبت عقابا جماعة عظیمة منهم- بسـبب ظلمهم و انحرافهم عن جـادة الحق و العـدل، و بسـبب التلوث بالمفاسـد الاخلاقیـة الشدیـدة، و الوقوف بوجه الأنبیاء و القادة الإلهیین- ألیما فی هـذه الـدنیا ... و القرآن یقص علینـا هـذه القصـص من اجل إرشادنا و تربیتنا و بیان طریق الحق من الباطل، و فصل مسـیر السـعادة عن مسیر الشقاء.

و إذا کنّا- أساسا- کما یتصوّر الفخر الرازی و من علی شاکلته- محکومین بالسعادة و الشقاء الذاتیین، و نؤخذ دون ارادتنا بالسیئات او الصالحات، فإنّ «التعلیم و التربیة» سیکونان لغوا و بلا فائدة ... و مجیء الأنبیاء و نزول الکتب السّماویّة و النصیحة و الموعظة و التوبیخ و الملامة و المؤاخذة و السؤال و المحاکمة و الثواب ... کل ذلک یعدّ غیر ذی فائدة، او یعدّ ظلما.

الأشـخاص الـذین یرون النـاس مجبورین علی عمل الخیر او الشـرّ، سواء کان هـذا الجبر جبرا الهیا، او جبرا طبیعیا، او جبرا اقتصادیا، او جبرا اجتماعیا متطرفون فی عقیـدتهم هـذه فی کلامهم فحسب، او فی کتاباتهم، و لکنّهم حتی أنفسـهم لا یعتقدون- عند العمل- بهذا الاعتقاد، و لهذا فلو وقع تجاوز علی حقوقهم فانّهم یرون المتجاوز مستحقا للتوبیخ و الملامة و المحاکمة و المجازاة ...

و لیسوا مستعدین ابدا للإغضاء عنه بحجة انه مجبور علی هذا العمل و انّ من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۴

الظلم عقابه و مجازاته، او یقولوا انه لم یسـتطع ان لا یرتکب هـذا العمل لانّ اللّه أراد ذلک، او انّ المحیط أجبره، او الطبیعـة ... و هـذا بنفسه دلیل آخر علی انّ اصل الاختیار فطری.

و علی کل حال لا نجـد للجبر مسـلکا فی اعمالنا الیومیة یرتبط بهذه العقیدة، بل اعمال الناس جمیعا تصدر عنهم بصورة حرّة و مختارة و هم مسئولون عنها.

و جمیع الأقوام فی الدنیا یقبلون حریة الارادة، بدلیل تشکیل المحاکم و الادارات القضائیة لمحاکمة المتخلفین.

و جمیع المؤسـسات التربویـة فی العـالم تقبـل بهـذا الأصل ضـمنا، و هو انّ الإنسان یعمل بإرادته و رغبته، و یمکن بإرشاده و تعلیمه و تربیته ان یتجنب الاخطاء و الاشتباهات و الأفکار المنحرفة.

۲- واقع الإنسان بین السعادة و الشقاوة

الطریف انّ لفظ «شـقوا» فی الآیات المتقدمة ورد بصـیغة المبنی للمعلوم، و لفظ «سعدوا»[۳۳] ورد بصـیغة المبنی للمجهول، و لعل فی هـذا الاختلاف فی التعبیر اشارة لطیفـة الی هـذه المسألة الدقیقة، و هی انّ الإنسان یطوی طریق الشـقاء بخطاه، و لکن لا بدّ لطیّ طریق السـعادة فی الأمـداد و العون الالـهی، و الّـا فـإنّه لا یوفّق فی مسـیره، و لا شکّ انّ هـذا الأمـداد و العون یشـمل أولئک الـذین یخطون

خطواتهم الاولی بإرادتهم و اختیارهم فحسب و کانت فیهم اللیاقة و الجدارة لهذا الأمداد. (فلاحظوا بدقة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۵

۳- مسألة الخلود فی القرآن

اشارة

معنی «الخلود» لغة البقاء الطویل، کما جاء بمعنی الأبد ایضا، فکلمة «الخلود» لا تعنی الأبد وحده لانّه تشمل کل بقاء طویل.

و لکن ذکرت فی کثیر من آیات القرآن مع قیود بفهم منها معنی الأبـد، فمثلا فی الآیة (۱۰۰) من سورة التوبة، و الآیة (۱۱) من سورة الطلاق، و الآیة (۹) من سورة التغابن، حین تـذکر هـذه الآیات اهل الجنّة تأتی بالتعبیر عنهم خالِـدِینَ فِیها أَبَـداً و مفهومها ابدیّة الجنّة لهؤلاء، ما نقرا فی آیات القرآن الاخری وصف اهل النّار کالآیة (۱۶۹) من سورة النساء، و الآیة (۲۳) من سورة الجن هذا التعبیر ایضا خالِدِینَ فِیها أَبَداً و هو دلیل علی عذابهم الابدی.

و تعبیرات اخری مثل الآیـة (۳) من سورة الکهف ماکِثِینَ فِیهِ أَبَـداً و الآیة (۱۰۸) من سورة الکهف ایضـا لا یَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا و أمثالها تدل بصورة قطعیّة علی انّ طائفة من اهل الجنّة و طائفة من اهل النّار سیبقون فی العذاب او النعمة.

و لم یستطع البعض ان یحل الإشـکالات فی الخلود و الجزاء الابدی، فاضطر الی الرجوع الی معناه اللغوی و فسّره بالبقاء الطویل، علی حین انّ تعابیر کالتعابیر الواردة فی الآیات المتقدمة لا تفسّر بمثل هذا التّفسیر.

سؤال مهم:

هنا ترتسم فی ذهن کل سامع علامة استفهام کبیرة، إذ کیف نتصوّر عدم التعادل عند اللّه بین الذنب و العقاب؟! و کیف یمکن القبول بـأن یقضـی الإنسان کل عمره الـذی لا یتجاوز ثمانین سـنة- او مائـة سـنة علی الأکثر بالعمل الصالـح او بالإثم، ثمّ یثاب علی ذلک او یعاقب ملایین الملایین من السنین.

و هذا الأمر لیس مهما بالنسبة للثواب لانّ الأجر و الثواب کلما ازداد کان دلیلا علی کرم المثیب و المعطی، فلا مجال للمناقشة فی هذا الأمر.

و لکن السؤال یرد فی العمل السیء و الذنب و الظلم و الکفر، و هو: «هل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۶

ینسـجم العـذاب الـدائم مقابل ذنب محـدود مع اصل العـدل عنـد اللّه»؟ فالـذی لم تتجاوز مرحلة ظلمه و طغیانه و عناده فی أقصـی ما یمکن احتماله مائة سنة، کیف یعذب فی النّار عذابا دائما؟ أ فلا تقتضی العدالة ان یکون هناک نوع من التعادل؟

فمثلا یعاقب مائة سنة بمقدار اعماله السیئة.

الاجوبة غیر المقنعة

انّ تعقیـد المسألـة کان السبب فی توجیه معانی آیات الخلود عنـد البعض و تفسیرها بما لا یستفاد منه العقاب الـدائم الـذی هو علی خلاف اصل العدالة فی عقیدتهم ...

۱- ذهب البعض: إنّ المقصود ب «الخلود» هو المعنی المجازی او الکنائی عنه، ای مـدة و طویلـة نسبیّا، کما یقال مثلا لأولئک الـذین یحکم علیهم بالسـجن طول عمره «محکوم علیه بالسجن المؤبد» مع انّه من المسلم به لا ابدیّة فی السجن حیث ینتهی السجن، مع انتهاء

و يقال فى العربية ايضا «يخلّد فى السجن» و هو مأخوذ من الخلود فى هذه الموارد.

۲- و قال آخرون: انّ أمثال هؤلاء الطغاة و المعانـدين الـذين اكتنفت وجودهم الآثام، فتحوّل وجودهم الى ماهية الكفر او الإثم، هؤلاء و ان بقوا فى نـار جهنم دائمين، الّـا انّ جهنّم لاـ تبقى على حالهـا، فسـيأتى يوم تنطفى نارهـا. كأيـة نار اخرى، و يعم اهل النّار نوع من الهدوء و الراحة.

۳- و احتمل آخرون انّه مع مرور الزمان و بعـد معاناة العـذاب الطويل ينسـجم اهل النّار مع محيطهم، اى انهم يتطبّعون و يتعوّدون على هذا المحيط شيئا فشيئا حتى تبلغ بهم الحالة الّا يحسوا بالعذاب و الشقاء.

و بالطبع فإنّ الداعى الى هذه التوجيهات هو عجزهم و عدم اسـتطاعتهم ان يحلّوا مشـكلة خلود العذاب و دوامه، و الّا فإن ظهور آيات الخلود فى ديمومة العذاب و بقائه غير قابلة للإنكار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۷

الحلّ النهائى للإشكال

و من اجل حلّ هـذا الاشـكال ينبغى ان نعود الى البحوث السالفـة و نعالـج الاشـتباهات الناشـئة من قياس مجازاة يوم القيامـة بالمجازاة الاخرى، ليعلم انّ مسألة الخلود لا تنافى عدالة اللّه ابدا.

و لتوضيح هذا البحث ينبغى الالتفات الى ثلاثة اصول:

۱- انّ العـذاب الـدائم- و كمـا أشـرنا اليه من قبـل- هـو لأولئـك الـذين اوصـدوا أبواب النجـاة بوجوههم، و اضـحوا غرقى الفسـاد و الانحراف عامدين، و غشـى الظلّ المشؤوم للاثم قلوبهم و أرواحهم فاصطبغوا بلون الكفر، و كما نقرا عنهم فى سورة البقرة الآية (۸۱) بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَ أَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

۲- يخطئ من يتصور انّ مـدّة العقاب و زمانه ينبغى ان تكون على قـدر مدّة الإثم و زمانه، لانّ العلاقة بين الإثم و العقاب ليست علاقة زمانية بل كيفية، اى ان زمان العقاب يتناسب مع كيفية الإثم لا مع زمانه.

فمثلا قد يقدم شـخص فى لحظة على قتل نفس محترمة، و طبقا لما فى بعض القوانين يحكم عليه بالحبس الدائم، فهنا نلاحظ انّ زمن الإثم لحظة واحدة، فى حين انّ العقاب قد يبلغ ثمانين سنة.

اذن المهم فى الإثم هو «كيفيته» لا «كمية زمانه».

۳- قلنا انّ العقاب و المحاسـبات فى يوم القيامة لها اثر طبيعى للعمل و خصوصية الذنب، و بعبارة أوضح: ان ما يجده المذنبون من الم و أذى يوم القيامة هو نتيجة اعمالهم التى أحاطت بهم فى الدنيا.

نقرا فى القرآن كما فى سورة يس الآية (۵۴): فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و نقرا فى الآية (۳۳) من سورة الجاثية: وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و فى سورة القصص الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۸

(۸۴): فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الآن و بعـد ان اتّضـحت مقـدمات هـذه الأصول، فإنّ الحل النهائى لهذا الاشـكال لم يعد بعيدا، و يكفى للوصول اليه ان نجيب على الاسئلة التالية.

و لنفرض انّ شـخصا يبتلى بالقرحـة المعديـة نظرا لادمانه على المشـروبات الكحوليـة لمدّة سـبعة ايّام تباعا، فيكون مجبورا على تحمل الألم و الأذى الى آخر عمره، ترى هل هذه المعادلة بين هذا العمل السيء و نتيجته مخالفة للعدالة؟! و لو كان عمر هذا الإنسان (مكان الثمانين سـنة) الف سـنة او مليون سـنة، و لأجل نزوته النفسـية بشـرب الخمر أسبوعا يتألم طول عمره، ترى هل هذا التألم لمليون سنة-

مثلا- مخالف لاصل العدالة ... فی حین انّه ابلغ حال شرب الخمر بوجود هذا الخطر و اعلم بنتیجته؟

و لنفرض ایضا انّ سائق، سیارة لا- یلتزم بأوامر المرور و مقرراته، و الالتزام بها ینفع الجمیع قطعا و یقلل من الحوادث المؤسفة، لکنه یتجاهلها و لا یصغی لتحذیر اصدقائه ... و فی لحظة قصیرة تقع له حادثة- و کل الحوادث تقع فی لحظه- و یفقد بذلک عینه او یده او رجله فی هذه اللحظة. و نتیجة لما وقع یعانی الألم سنین طویلة لفقده البصر او الید او الرجل، فهل تتنافی هذه الظاهرة فیه مع اصل عدالة اللّه؟! و نأتی هنا بمثال آخر- و الامثلة تقرب الحقائق العقلیّة الی الذهن و تهیّؤ لنیل النتیجة النهائیة- فلنفرض اننا نثرنا علی الأرض عدة غرامات من بذور الشوک، و بعد عدّة أشهر او عدة سنوات نواجه صحراء ملیئة بالشوک الذی یدمی أقدامنا و علی العکس ننثر بذور الزهور- مع اطلاعنا- و لا تمرّ فترة حتی نواجه خمیلة ملیئة بالازهار العطرة، فهی تعطرنا و تنعش قلوبنا، فهل فی هذه الأمور التی هی آثار لأعمالنا منافاة لاصل العدالة فی حین انّه لا مساواة بین کمیة هذا العمل و نتیجته؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۶۹

و من مجموع ما بیناه نستنتج ما یلی:

حین یکون الجزاء و الثواب نتیجة و أثرا لعمل المرء نفسه، فإنّ مسألة المساواة من حیث الکمیة و الکیفیة لا تؤخذ بنظر الاعتبار. فما اکثر ما یکون العمل صغیرا فی الظاهر، و لکنه یحوّل حیاة الإنسان الی جحیم و عذاب و الم طیلة العمر، و کذلک ما اکثر ما یکون العمل صغیرا فی الظاهر، و لکنّه یکون سببا للخیرات و البرکات طیلة عمر الإنسان! ینبغی ان لا یتوهم انّ المقصود من صغر العمل (من حیث مقدار الزمان) لانّ الأعمال و الذنوب الداعیة الی خلود الإنسان فی العذاب لیست صغیرة من حیث الاهمیة و الکیفیّة.

فعلی هذا حین یحیط الذنب و الکفر و الطغیان و العناد بوجود الإنسان و یحرق جمیع أجنحته و ریشه و روحه فی نار ظلمه و نفاقه، فأی مکان للعجب ان یحرم فی الدار الآخرة من التحلیق فی سماء الجنّة و ان یکون مبتلی هناک بالعذاب و البلاء.

تری امّا حذّروه و أبلغوه و انذروه من هذا الخطر الکبیر؟! اجل فأنبیاء اللّه من جهة، و ما یأمره العقل من جهة اخری ... جمیعا حذروه بما یلزم، فهل کان ما اقدم علیه من دون اختیاره فلقی هذا المصیر، ام کان عن علم و عمد و اختیار؟ الحقیقة هو انّه کان عالما عامدا.

و کانت نفسه و نتیجة اعماله المباشرة قد ساقته الی هذا المصیر؟! بل انّ کل ما حدث له فهو من آثار اعماله! فلهذا لم یبق مجال للشکوی، و لا إیراد او اشکال مع احد، و لا منافاة مع قانون عدالة اللّه سبحانه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۰

۴- مفهوم الخلود فی هذه الآیات

هل الخلود فی الآیات- محل البحث- بمعنی البقاء الدائم؟! او هو بالمعنی اللغوی المراد منه المدّة الطویلة؟

قال بعض المفسّرین: بما انّ الخلود مقید هنا بقوله ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ فإنّ الخلود لیس معناه البقاء الابدی الدائم، لانّ السّماوات و الأرض لا- أبدیة لهما ... و طبقا لصریح القرآن فإن یوما سیأتی تنطوی فیه السّماوات و تبدل الأرض الی ارض اخری.[۳۴].

و لکن، مع ملاحظة انّ مثل هذه التعابیر فی اللغة العربیة یراد بها البقاء الدائم، فالآیات- محل البحث- ایضا تبیّن الدوام.

فمثلا- تقول العرب: هذا الأمر قائم ما لاح کوکب، او ما کرّ الجدیدان (اللیل و النهار) او ما أضاء فجر، او ما اختلف اللیل و النهار، و أمثالها ... و هی کنایة عن البقاء الدائم، و نقرا عن الامام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة و ذلک حین أشکل علیه بعض المنتقدین الجهلة علی تقسیمه من بیت المال بالسویّة و عدم التمییز بین مقامات الناس لتوطید دفة الحکم.

فانزعج الامام علیه السّلام و

قال: «أ تأمرنی ان اطلب النصر بالجور فی من ولیت علیه؟ و اللّه لا اطور به ما سمر سمیر و ما امّ نجم فی السّماء نجما».[۳۵]

و نقرا فی قصیدة دعبل الخزاعی المعروفة التی أنشدها فی حضرة الامام علی بن موسی الرضا علیه السّلام هذا البیت:

سأبکیهم ما ذرّ فی الأفق شارقو نادی منادی الخیر فی الصلوات ۳۶]

و بالطبع فإنّ هذا الاستعمال لیس مخصوصا بلغة العرب و آدابها، ففی اللغات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۱

الاخری یوجد مثل هذا الاستعمال ایضا ... علی کل حال فإنّ دلالة الآیة علی الدوام قطعیة و غیر قابلة للنقاش.

۵- ما معنی الاستثناء فی الآیة

؟ الجملة الاستثنائیة إِلَّا ما شاءَ رَبُّکَ التی وردت فی الآیات المتقدمة فی اهل الجنّة و فی اهل النّار ایضا، اضحت میدانا واسعا للمفسرین و مثارا للبحث، و قد نقل المفسّر الکبیر الطبرسی فی تفسیر هذا الاستثناء عشرة أوجه عن المفسّرین القدامی، و نعتقد انّ کثیرا من هذه الأوجه ضعیف و لا ینسجم مع الآیات السابقة او اللاحقة، و لذلک نغض النظر عنها، و نورد ما نراه صحیحا هنا، هو وجهان فحسب:

۱- الهدف فی بیان هذا الاستثناء ان لا یتصور انّ الخلود فی النار او فی الجنّه جار علی غیر مشیئة اللّه و ارادته بما یعطی معنی الإلزام و تحدید قدرة اللّه تعالی و ارادته، بل فی الوقت الذی یکون اهل الجنّة و اهل النار خالدین فیهما، فإنّ قدرة اللّه و ارادته حاکمة علی الجمیع، و انّ العذاب و الثواب یتحققان بمقتضی حکمته لکلّ من هذین الطرفین.

و الشاهد علی هذا الکلام ما ورد فی الجملة الثّانیة بعد الاستثناء و هی قوله تعالی: عَطاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ ای غیر منقطع، و هو دلیل علی انّ الجملة الاستثنائیة لبیان قدرته فحسب.

۲- و حیث تذکر الآیات هذین الطرفین فَمِنْهُمْ شَقِیٌّ وَ سَعِیدٌ فلیس الأشقیاء هم الکفار المستحقین للخلود فی النّار فقط بل قد یوجد بینهم مؤمنون من اهل الکبائر فیکون هؤلاء داخلین فی هذا الاستثناء.

و لکن قد ینقدح هذا السؤال ایضا و هو: ما المراد من الاستثناء فی الجملة الثّانیة (التی تتحدث عن الذین سعدوا)؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۲

و فی الجواب علی هذا السؤال أجیب- ایضا- بأنّ المؤمنین المذنبین یدخلون النّار اوّلا لیتطهروا من الذنوب، ثمّ یلتحقون بصفوف اهل الجنّة.

فإنّ الاستثناء فی الجملة الاولی هو بالنسبة لآخر الأمر ... و فی الجملة الثّانیة لاوّل مرّة (فلاحظوا بدقّة).

و یحتمل فی الجواب علی السؤال الآنف الذکر انّ الاستثناء فی الجملة الاولی اشارة الی المؤمنین المذنبین الذین یعتقون من النّار بعد مدة، و الاستثناء فی الجملة الثّانیة اشارة الی قدرة اللّه سبحانه، و الشاهد علی هذا الکلام ورود قوله تعالی إِنَّ رَبَّکَ فَعَّالٌ لِما یُرِیدُ فی الجملة الاولی بعد الاستثناء، لیدل علی تحقق المشیئة الالهیة، و فی الجملة الثّانیة ورد قوله تعالی: عَطاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ لیدل علی الابدیّة (فتدبّر).

و قد احتمل البعض ان یکون العقاب و الثواب متعلقان بحیاة البرزخ «النعیم فی البرزخ او الشقاء فی البرزخ» التی تکون محدودة المدّة و لا بدّ ان تنتهی، و لکنّه احتمال بعید جدّا، لانّ الآیات المتقدمة تتحدث عن یوم القیامة بصراحة، و علاقة هذه الآیات بتلک الآیات علاقة لا تقبل الانفکاک.

کما انّ احتمال کون الخلود هنا بمعنی المدّة الطویلة- کما هو فی بعض آیات القرآن الاخری، و لیس هو البقاء الدائم الابدی- لا

ینسجم مع قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۷۲

عَطاءً غَیْرَ مَجْذُوذٍ و لا مع الاستثناء نفسه الذی یدل علی الابدیة فی الجمل السابقة.

۶- تقول الآیات المتقدمة فی شأن اهل النّار: لَهُمْ فِیها زَفِیرٌ وَ شَهِیقٌ و قد احتمل اهل اللغة و المفسّرون فی معنی هاتین الکلمتین «الزفیر و الشهیق» احتمالات متعددة:

۱- فقال البعض: المراد ب «الزفیر» هو الصراخ المصطحب بإخراج النفس الی الخارج، و امّا «الشهیق» فهو الأنین المقترن بسحب الهواء الی داخل الرئة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۳

۲- و قال آخرون: انّ الزفیر هو بدایة صوت الحمار و الشهیق نهایته، و لعل هذا التّفسیر لا تختلف عن التّفسیر الاوّل کثیرا.

و علی کل حال فإنّ هذین الصوتین یحکیان عن صراخ و عویل اهل النّار الذین یضجون- من الحزن و الغمّ و الحسرة- ضجیجا یملا جمیع وجودهم و یدلّ علی منتهی اذاهم و شدّة عذابهم.

و ینبغی الالتفات الی انّ «الزفیر و الشهیق» کلاهما مصدر، و «الزفیر» فی الأصل حمل العبء الثقیل علی الکتف، و لانّ هذا العمل یؤدی الی التأوه و الضجیج فقد سمیّ زفیرا، و امّا «الشهیق» فمعناه فی الأصل الاطالة و الارتفاع، و من هنا فقد سمی الجبل المرتفع بالجیل الشاهق ایضا، ثمّ أطلقوا هذا اللفظ «الشهیق» علی الأنین.

اسباب السعادة و الشقاء

السعادة ضالّة کل الناس، و کلّ واحد یبحث عنها فی شیء ما و یطلبها فی مکان ما، و هی توفّر اسباب تکامل الفرد فی المجتمع، و النقطة المقابلة لها هی الشقاء الذی یتنفر منه کل احد، و هو عبارة عن عدم مساعدة الظروف للنجاح و التقدم و التکامل.

فعلی هذا، کل من توفرت له اسباب التحرک و التقدم نحو الاهداف السامیة روحیا و جسمیا و عائلیا و بیئیا و ثقافیا، فهو اقرب للسعادة، و بتعبیر آخر هو اکثر سعادة! و لکن ینبغی الالتفات الی انّ أساس السعادة او الشقاء هو ارادة الإنسان نفسه، فهو یستطیع ان یوفر الوسائل لترشید نفسه و حتی مجتمعه، و هو الذی یستطیع ان یواجه عوامل الشقاء و یهزمها او یستسلم لها.

و لیس الشقاء او السعادة فی منطق الوحی و مدرسة الأنبیاء فی داخل ذات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۴

الإنسان شیئا و حتی النواقص فی المحیط و العائلة و الوراثة کل ذلک قابل للتغییر بتصمیم الإنسان و ارادته الّا ان ننکر اصل الارادة فی الإنسان و حریته، و نعدّه محکوما بالظروف الجبریة، و کل من سعادته او شقائه ذاتی او هو نتیجة جبریة لمحیطه، و ما الی ذلک.

و هذا الرای مرفوض فی نظر الأنبیاء و فی نظر المذهب العقلی ایضا.

الطریف انّنا نجد فی الرّوایات المنقولة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اهل البیت علیهم السّلام إشارات الی مسائل مختلفة علی انّها اسباب السعادة، او اسباب الشقاء ... بحیث یتعرف الإنسان خلال مطالعتها علی طریقة التفکیر الاسلامی فی هذه المسألة المهمّة، و سیقف علی الواقعیات العینیة و اسباب السعادة الحقیقیة، بدلا من ان یقف علیها فی المسائل الخرافیة و التصوّرات و السنن الخاطئة الموجودة فی کثیر من المجتمعات.

و نلفت نظر القارئ الکریم علی سبیل المثال الی بعض الأحادیث الشریفة فی هذا الصدد:

۱- ينقل

الامام الصّادق عليه السّلام عن جدّه امير المؤمنين عليه السّلام انّه قال «حقيقة السعادة ان يختم للرجل عمله بالسعادة و حقيقة الشقاوة ان يختم للرجل بالشقاوة»[۳۷].

فهذه الرّواية تقول بصراحة: انّ المرحلة النهائية لعمر الإنسان و اعماله هى المرحلة التى تكشف عن سعادته و شقاوته، و على هذا فهى تنفى السعادة او الشقاء الذاتيين، و تجعل الإنسان رهين عمله، كما تجعل طريق العودة مفتوحا فى جميع المراحل حتى نهاية عمره.

۲- و نقرا

فى حديث آخر عن الامام على عليه السّلام «السعيد من وعظ بغيره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۵

و الشقى من انخدع لهواه و غروره»[۳۸].

و كلام الامام على عليه السّلام هذا تأكيد آخر على عدم ذاتية السعادة و الشقاء و بيان بعض أسبابهما.

۳- و

يقول نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ايضا: «اربع من اسباب السعادة و اربع من الشقاوة، فالأربع التى من السعادة المراة الصالحة، و المسكن الواسع، و الجار الصالح، و المركب البهىّ. و الأربع التى من الشقاوة: الجار السوء، و المراة السوء، و المسكن الضيق، و المركب السوء»[۳۹].

مع ملاحظة انّ هذه الأمور الاربعة لها تأثير بالغ فى الحياة المادية و المعنوية لكل احد، و يمكن ان تكون من عوامل النجاح او الفشل و تتّضح بهذا سعة مفهوم السعادة و الشقاوة فى منطق الإسلام.

فالمرأة الصالحة ترغّب الإنسان فى انواع «الحسنات»، و البيت الواسع يهب روح الإنسان و فكره الهدوء و الراحة و يهيئه للنشاط و الفعالية، و الجار الصالح الذى يقدم له عونا مؤثرا فى راحته و استقراره و حتى فى تقدم اهداف الانسانية، المركب الجيد عامل مؤثر فى الوصول الى الأعمال و الوظائف الاجتماعية، فى حين انّ المركب السوء يكون عاملا فى التأخير و لا يوصل صاحبه الى هدفه.

۴- كما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الحديث ايضا: «من علامات الشقاء: جمود العينين، و قسوة القلب، و شدّة الحرص فى طلب الرزق، و الإصرار على الذنب»[۴۰].

هذه الأمور الاربعة التى وردت فى الحديث المتقدم، هى امور اختيارية و هى نتيجة اعمال الإنسان و أخلاقه الاكتسابية نفسه، و على هذا فإنّ ابعاد اسباب الشقاء هذه تكمن فى اختيار الإنسان نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۶

و إذا لاحظنا اسباب السعادة و الشقاوة فى الأحاديث المتقدمة و حقيقتهما و اثرهما البالغ فى حياة البشر، و قارنّاهما مع الأسباب و المسائل الخرافية التى يعتقد بها جمع كثير- حتى فى عصرنا عصر الذّرة و الفضاء- لوصلنا الى هذا الواقع الذى يؤكّد انّ التعاليم الاسلامية منطقيّة و مدروسة الى أقصى حد.

و لا يزال الى اليوم من يعتقد انّ نعل الفرس سبب للسعادة، و انّ اليوم الثّالث عشر سبب لسوء الحظّ ... و القفز على النّار فى بعض ليالى السنة من اسباب السعادة، و صوت بعض الطيور سبب للشقاء و سوء الحظ، و سكب الماء عند خروج المسافر من اسباب السعادة، و العبور من تحت السلم سبب للشقاء!! و حتى تعليق بعض الأشياء فى رقبة الفرد او على وسائل النقل من اسباب السعادة و العطاس علامة على الفشل إذا كان حين العمل و كثير من أمثال هذه الخرافات نجدها فى الشرق و الغرب بين الأقوام و الأمم المتعددة.

و كم من أناس تعطلوا عن نشاطهم فى الحياة نتيجة ابتلائهم بمثل هذه الخرافات و أصبحوا رهن المصائب الكثيرة.

لقد شطب الإسلام بقلم احمر على جميع هذه التصوّرات الخرافية، و حدّد- مبيّنا بوضوح- سعادة الإنسان و شقاوته فى الفعاليّات الايجابية و السلبية و نقاط الضعف و القوّة فى الأخلاق و المناهج العملية و طريقة التفكير و العقيدة لكل فرد، من خلال الامثلة التى قدمناها فى الأحاديث الاربعة عن اهل البيت عليهم السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۷

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۰۹ الى ۱۱۲]

اشارة

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (۱۰۹) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۱۰) وَ إِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱۱) فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱۲)

التّفسير

الاستقامة و الثّبات:

هذه الآيات- فى الحقيقة- بمثابة تسلية لخاطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما انّها نازلة لبيان وظيفته و مسئوليته، و فى الواقع انّ من أهم النتائج التى يتوصل إليها من القصص السابقة للأمم الماضية هى ان لا يكترث النّبى و من معه من اتباعه المؤمنون حقّا من كثرة الأعداء، و لا يخافوا منهم، و لا يشكّوا او يتردّدوا فى هزيمة عبدة الأصنام و الظالمين الذى يقفون بوجوههم، و ان يواصلوا طريقهم و يعتمدوا على اللّه واثقين به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۸

لذلك يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد:

فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هؤُلاءِ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا كَما يَعْبُدُ آباؤُهُمْ ۴۱].

و يقول بعدها مباشرة: وَ إِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ على انّ جملة موفوهم نصيبهم تعنى أداء الحق كاملا، لكن ذكر كلمة غير منقوص للتأكيد اكثر على هذه المسألة.

و فى الحقيقة انّ هذه الآية تجسّم هذه الحقيقة، و هى انّ ما قرأناه من قصص الأمم السابقة لم يكن اسطورة، كما انّها لا تختص بالماضين، فهى سنّة ابدية و خالدة و هى لجميع الناس ماضيا و حاضرا و مستقبلا.

غاية ما فيه الأمر انّ هذا العقاب فى كثير من الأمم السابقة نزل على شكل بلايا مهولة و عظيمة، لكنّه وجد شكلا آخر فى شأن أعداء نبى الإسلام، و هو انّ اللّه اعطى القدرة و القوة العظيمة لنبيّه و أصحابه المؤمنين بحيث استطاع ان يهزم أعداءه الظالمين اللجوجين الذين أصروا على انحرافهم و غرورهم.

و يسلّى القرآن قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة اخرى، فيحدّثه عن موسى و قومه قائلا:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ... و يقول إذا ما رأيت انّ اللّه لا يعجل العذاب على قومك، فلانّ مصلحة الهداية و التعليم و التربية لقومك توجب ذلك و الّا فانّ القرار الالهى المسبق يقتضى التعجيل بعملية التحكيم و القضاء و بالتالى إنزال العقاب وَ لَوْ لا

كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ و بالرغم من ذلک فهم فی شک من هذا الأمر[۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۷۹

کلمة «مریب» مشتقّة من «الریب» و معناه الشکّ المقترن بسوء الظن و النظرة السیئة و القرائن المخالفة، و علی هذا فیکون مفهوم هذه الکلمة انّ عبدة الأصنام ما کانوا یترددون فی مسألة حقیقة القرآن او نزول العذاب علی المفسدین فحسب، بل کانوا یدّعون بأنّ لدیهم قرائن تخالف ذلک ایضا.

امّا «الراغب» فیقول فی «مفرداته»: انّ معنی الریب هو الشک الذی یرفع عنه الحجاب بعدئذ و یعود الی الیقین، فعلی هذا یکون مفهوم الآیة انّ الحجاب سیکشف عاجلا عن حقانیة دعوتک و کذلک عن عقاب المفسدین و تظهر حقیقة الأمر! و یضیف القرآن لمزید التأکید وَ إِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمالَهُمْ و هذا الأمر لیس فیه صعوبة علی اللّه و لا حرج إِذ إِنَّهُ بِما يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الطریف انّ القرآن یقول: لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ... أَعْمالَهُمْ لیشیر مرّة اخری الی مسألة تجسّم الأعمال و انّ الجزاء و الثواب هما فی الحقیقة اعمال الإنسان نفسه التی تتخذ شکلا آخر و تصل الیه ثانیة.

و بعد ذکر قصص الأنبیاء و الأمم السابقة و رمز نجاحهم و نصرهم، و بعد تسلیة قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تقویة ارادته، یبیّن القرآن- عن هذا الطریق- اهمّ دستور امر به النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ

«استقم» فی طریق الإرشاد و التبلیغ ... استقم فی طریق المواجهة و المواصلة ... استقم فی أداء الوظائف الالهیة و نشر التعلیمات القرآنیة.

و لکن هذه الاستقامة لیست لینال فلان او فلان مستقبلا زاهرا، و لیست للریاء و ما شابه ذلک، و لیست لاکتساب عنوان البطولة، و لا اکتساب «المقام» او «الثروة» او «الموفقیة» او «القدرة»، بل هی لمجرّد طاعة اللّه و اتباع امره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۰

كَما أُمِرْتَ

کما انّ هذه الاستقامة لیست علیک وحدک، فعلیک ان تستقیم أنت وَ مَنْ تابَ مَعَكَ استقامة خالیة من کل زیادة و نقصان و افراط أو تفریط وَ لا تَطْغَوْا إِذ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ و لا تخفی علیه حرکة و لا قول و لا ای خطّة اخری ... إلخ.

المسؤولیة الکبیرة!!

نقرا فی حدیث معروف عن ابن عباس انّه قال: ما نزل علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم آیة کانت اشدّ علیه و لا اشقّ من هذه الآیة. و لذلک قال لأصحابه حین قالوا له:

اسرع إلیک الشیب یا رسول اللّه

قال: صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «شیبتنی هود و الواقعة»[۴۳].

و نقرا

فی روایة اخری انّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال حین نزلت هذه الآیة: «شمّروا شمّروا ... فما رئی ضاحکا ...»[۴۴].

و الدلیل واضح، لانّ اربعة أوامر مهمّة موجودة فی هذه الآیة یلقی کل واحد منها عبئا ثقیلا علی الکتف.

و أهمها الأمر بالاستقامة ... الاستقامة (المشتقة من مادة القیام) من جهة انّ الإنسان یکون تسلطه و سعیه فی عمله حال القیام اکثر ... الاستقامة التی معناها طلب القیام، ای أوجد حالة فی نفسک بحیث لا تجد طریقا للضعف فیک، فما اصعبه من امر و ما اشدّه؟! غالبا ما یکون النجاح فی العمل امرا هیّنا نسبیا ... لکن المحافظة علی النجاح فیها کثیر من الصعوبة ... و فی ای مجتمع؟! فی مجتمع متأخر

متخلف ...

فى مجتمع بعيد عن العلم و التعقل .. فى مجتمع لجوج و بين اعداء كثيرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۱

معاندين ... و فى سبيل بناء مجتمع سالم و حضارة انسانية زاهرة فالاستقامة فى هذا الطريق ليس امرا هيّنا.

و الأمر الآخر: ان تحمل هذه الاستقامة هدفا الهيا فحسب، و ان تكون الوساوس الشيطانية بعيدة عنها تماما، اى ان تكتسب هذه الاستقامة اكبر القدرات السياسية و الاجتماعيّة من اجل اللّه.

و الأمر الثّالث: مسألة قيادة أولئك الذين رجعوا الى طريق الحق و تعويدهم على الاستقامة ايضا.

و الأمر الرّابع: المواجهة و المبارزة فى مسير الحق و العدالة و القيادة الصحيحة و صدّ كل انواع التجاوز و الطغيان، فكثيرا ما يبدى بعض الناس منتهى الاستقامة فى سبيل الوصول للهدف، لكن لا يستطيعون ان يراعوا مسألة العدالة، و غالبا ما يبتلون بالطغيان و التجاوز عن الحدّ.

اجل ... مجموع هذه الأمور و تواليها على النّبى حمّلته مسئولية كبرى، حتى انه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما رئى ضاحكا ... و شيّبته هذه الآية من الهمّ.

و على كل حال فإنّ هذا الأمر لم يكن للماضى فحسب، بل هو للماضى و الحاضر و المستقبل، و هو للأمس و اليوم و الغد القريب و الغد البعيد ايضا.

و اليوم مسئوليتنا المهمّة- نحن المسلمين ايضا، و بالخصوص قادة الإسلام- تتلخّص فى هذه الكلمات الاربعة. و هى: الاستقامة، و الإخلاص، و قيادة المؤمنين، و عدم الطغيان و التجاوز. و دون ربط هذه الأمور بعضها الى بعض فإنّ النصر على الأعداء الذين احاطونا من كل جانب من الداخل و الخارج، و استفادوا من جميع الاساليب الثقافية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و العسكريّة ... هذا النصر لا يكون سوى أوهام فى مخيلة المسلمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۲

الآية [سورة هود (۱۱): آية ۱۱۳]

اشارة

وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۱۱۳)

التّفسير

الرّكون الى الظالمين:

انّ هذه الآية تبيّن واحدا من أقوى و أهم الاسس و البرامج الاجتماعية و السياسية و العسكرية و العقائدية، فتخاطب عامة المسلمين ليؤدوا وظيفتهم القطعية فتقول: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا و السبب واضح فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِياءَ و معلوم عندئذ حالكم ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ

ملاحظات

۱- ما هو مفهوم الرّکون

؟ مفهوم «الرکون» مشتق من مادة «رکن» و معناه العمود الضخم من الحجر او الجدار الذی یربط البناء او الأشیاء الاخری بعضها الی بعض، ثمّ اطلق هذا اللفظ علی الاعتماد او الاستناد الی الشیء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۳

و بالرغم من انّ المفسّرین اعطوا معانی کثیرة لهذه الکلمة فی تفسیرهم للآیة، و لکنّها فی الغالب تعود الی مفهوم جامع و کلی فمثلا فسّرها البعض بالمیل، و فسّرها البعض ب «التعاون»، و فسّرها البعض ب «اظهار الرضا»، و فسّرها آخرون ب «المودّة»، کما فسرها جماعة بالطاعة و طلب الخیر، و کل هذه المعانی ترجع الی الاعتماد و الاتکاء کما هو واضح.

۲- فی ایّ الأمور لا ینبغی الرّکون الی الظالمین

؟ بدیهی انّه فی الدرجة الاولی لا یصح الاشتراک معهم فی الظلم او طلب الاعانة منهم، و بالدرجة الثّانیة الاعتماد علیهم فیما یکون فیه ضعف المجتمع الاسلامی و سلب استقلاله و اعتماده علی نفسه و تبدیله الی مجتمع تابع و ضعیف لا یستحق الحیاة، لانّ هذا الرکون لیس فیه نتیجة سوی الهزیمة و التبعیة للمجتمع الاسلامی.

و امّا ما نلاحظه أحیانا من مسائل التبادل التجاری و الروابط العلمیة بین المسلمین و المجتمعات غیر الاسلامیة علی أساس حفظ منافع المسلمین و استقلال المجتمعات الاسلامیة و ثباتها، فهذا لیس داخلا فی مفهوم الرکون الی الظالمین و لم یکن شیئا ممنوعا من وجهة نظر الإسلام، و فی عصر النّبی نفسه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الاعصار التی تلته کانت هذه الأمور موجودة و طبیعیة ایضا.

۳- فلسفة تحریم الرکون الی الظالمین

الرّکون الی الظالمین یورث مفاسد کثیرة لا تخفی علی احد بصورتها الاجمالیة و لکن کلّما تفحصنا فی هذه المسألة اکثر اکتشفنا مسائل دقیقة جدیدة.

فالرکون الی الظالمین یبعث علی تقویتهم، و تقویتهم مدعاة الی اتساع رقعة الظلم و الفساد فی المجتمعات، و نقرا فی الأوامر الاسلامیة انّ الإنسان ما لم یجبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۴

«و فی بعض الأحیان حتی مع الإجبار» لا یحق له ان یراجع القاضی الظالم من اجل اکتساب حقّه، لان مراجعة مثل هذا القاضی الحاکم الجائر من اجل احقاق الحق مفهومها ان یعترف ضمنا برسمیته و تقواه، و لعل ضرر هذا العمل اکبر من الخسارة التی تقع نتیجة فقدان الحق.

و الرکون الی الظلمة یؤثر تدریجا علی الثقافة الفکریة للمجتمع، فیضمحل مفهوم «قبح الظلم» و یؤدی بالناس الی الرغبة فی الظلم.

و أساسا لا- نتیجة من الرکون الی الغیر بصورة التعلق و الارتباط الشدید الّا سوء الحظ و الشقاء، فکیف إذا کان هذا الرکون الی الظالمین؟

انّ المجتمع الحضاری المقتدر هو المجتمع الذی یقف علی قدمیه، کما یعبر القرآن الکریم فی مثل بدیع فی الآیة (۲۹) من سورة

الفتح إذ یقول: فَاسْتَوی عَلی سُوقِهِ و المجتمع الحرّ المستقلّ هو المجتمع الذی یکتفی ذاتیا، و ارتباطه او تعاونه مع الآخرین هو ارتباط علی أساس المنافع المتبادلة لا- علی أساس رکون الضعیف الی القوی، لانّ هذا الرکون- سواء کان من جهة فکریة او ثقافیة او اقتصادیة او عسکریة او سیاسیة- لا یخلّف سوی الأسر و الاستثمار، و لا یثمر سوی المساهمة فی ظلمهم و المشارکة فی خططهم.

و بالطبع فإنّ الآیة المتقدمة لیست خاصّة بالمجتمعات فحسب، بل تشمل العلاقة و الارتباط بین فردین ایضا، فلا یجوز لإنسان مؤمن ان یرکن الی ای ظالم، فإنّه اضافة الی فقدان استقلاله لرکونه الی دائرة ظلمه، فسیؤدی الی تقویته و اتساع الفساد و العدوان کذلک.

۴- من المقصود ب «الَّذِینَ ظَلَمُوا»

؟ ذکر المفسّرون فی هذا المجال احتمالات مختلفة، فقال بعضهم: المقصود ب الَّذِینَ ظَلَمُوا هم المشرکون، و لکن- کما قال آخرون- لا دلیل علی انحصار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۵

هذا اللفظ بالمشرکین رغم ان مصداق الظالمین فی عصر نزول الآیة هو المشرکین.

کما انّ تفسیر هذه الکلمة فی الرّوایات بالمشرکین لا یدلّ علی الانحصار، لانّنا قلنا مرارا و تکرارا انّ مثل هذه الرّوایات انّما تبیّن المصداق الواضح و الجلی، فعلی هذا الأساس یدخل فی دائرة هذه الآیة جمیع الذین امتدّت أیدیهم الی الظلم و الفساد، او استعبدوا خلق اللّه و عباده، او استغلوا قواهم لمنافعهم، و باختصار کل الذین دخلوا فی المفهوم العام لهذا التعبیر الَّذِینَ ظَلَمُوا.

و لکن من الواضح ان من اخطأوا فی حیاتهم خطأ بسیطا و صاروا من مصادیق الظالم أحیانا غیر داخلین فی مفهوم الآیة قطعا لانّه فی هذه الصور لا- یخرج عن شمولیة هذه الآیة الّا النادر، فلا- یصح الرّکون و الاعتماد علی ای شخص، اللّهم الّا ان نقول: انّ المراد بالرکون هو الاعتماد علی الظالم من جهة ظلمه و جوره، و فی هذه الحال حتی الذین تلوّثت أیدیهم بالظلم مرّة واحدة لا یجوز الرکون إلیهم.

۵- اشکال

بعض المفسّرین من اهل السنة اشکالا یصعب الجواب علیه من مبناهم و هو ما ورد فی روایاتهم من وجوب الطاعة و التسلیم لسلطان الوقت الذی هو من أولو الأمر ایّا کان، لما نقلوا

حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی وجوب طاعة السلطان «و ان أخذ مالک و ضرب ظهرک ...»!

و روایات اخری تؤکّد طاعة السلطان بمعناها الواسع.

و من جهة اخری تقول الآیة: وَ لا- تَرْکَنُوا إِلَی الَّذِینَ ظَلَمُوا فهل یصحّ الجمع بین هذین الأمرین؟! أراد البعض ان یرفع هذا التضاد باستثناء واحد، و هو ان طاعة السلطان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۶

تکون واجبة ما لم ینحرف الی طریق العصیان و یخطو فی طریق الکفر.

و لکن لحن تلک الرّوایات لا ینسجم مع هذا الاستثناء.

و علی کل حال فنحن نعتقد- و کما ورد فی مذهب اهل البیت علیهم السّلام- بوجوب طاعة ولی الأمر العادل و العالم الذی یصح ان یکون خلیفة عامّا للنّبی و اماما من بعده فحسب.

و إذا كان سلاطين بنى اميّة و بنى العباس قد وضعوا الأحاديث فى هذا المجال لمصلحتهم، فلا تنسجم بأى وجه مع اصول مذهبنا و التعليمات القرآنية، و ينبغى ان نعالج هذه الرّوايات، فإن كانت تقبل التخصيص خصّصناها، و الّا طرحناها جانبا، لانّ كل رواية تخالف كتاب اللّه فهى مردودة و باطلة، و القرآن يصرح انّ امام المسلمين لا يجوز ان يكون ظالما، و الآية المتقدمة تقول بصراحة ايضا: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ... او نقول: انّ أمثال هذه الرّوايات مخصوصة بالحالات الضرورية و الاضطرارية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۷

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۴ الى ۱۱۵]

اشارة

وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ (۱۱۴) وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۱۱۵)

التّفسير

الصلاة و الصبر:

هذه الآيات تشير الى أمرين من اهمّ الأوامر الاسلامية، و هما فى الواقع روح الايمان و قاعدة الإسلام، فيأتى الأمر اوّلا بالصلاة وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ

و ظاهر التعبير من طَرَفَيِ النَّهارِ هو بيان صلاة الصبح و صلاة المغرب اللتين يقعان طرفى النهار، و «الزلف» جمع «زلفة» التى تعنى القرب، و يشار بها الى اوّل الليل القريب من النهار فتنطبق على صلاة العشاء.

و هذا التّفسير وارد فى روايات اهل البيت عليهم السّلام ايضا، اى انّ الآية تشير الى الصلوات الثلاث «الصبح و المغرب و العشاء».

و يرد هنا سؤال و هو: لم ذكرت هذه الصلوات الثلاث من بين الصلوات الخمس؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۸

غموض الاجابة دعا بعض المفسّرين لان يتوسع فى معنى طَرَفَيِ النَّهارِ ليشمل صلاة الصبح و الظهر و العصر و المغرب ايضا. و بالتعبير ب وَ زُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ الذى يشير الى صلاة العشاء تكون جميع الصلوات الخمس قد دخلت فى الآية! و الإنصاف ان تعبير طَرَفَيِ النَّهارِ لا يتحمل مثل هذا التّفسير، مع ملاحظة انّ المسلمين فى الصدر الاوّل من الإسلام كانوا مقيدين بأداء صلاة الظهر فى اوّل الوقت و أداء صلاة العصر فى حدود نصف الوقت، اى بين وقت الظهر و وقت المغرب.

الشىء الوحيد الذى يمكن ان يقال هنا: انّ آيات القرآن قد تذكر جميع الصلوات الخمس أحيانا كما فى سورة الاسراء: أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ[۴۵].

و قد تذكر ثلاث صلوات- كالآية محل البحث- و قد تذكر صلاة واحدة كما فى سورة البقرة حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ ۴۶].

فعلى هذا لا يستلزم ذكر جميع الصلوات الخمس فى كل مورد، و قد توجب المناسبات الاشارة الى صلاة الظهر «الصَّلاةِ الْوُسْطى لاهميتها او تشير الى صلاة الصبح او المغرب و العشاء و ذلك لاحتمال ان تقع فى دائرة النسيان للتعب او النوم.

و لاهمية الصلوات اليوميّة- خاصّة- و جميع العبادات و الطاعات و الحسنات- عموما- فإنّ القرآن يشير بهذا التعبير إِنَّ الْحَسَناتِ

يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذلِكَ ذِكْرى لِلذَّاكِرِينَ

و الآية آنفة الذكر كسائر آيات القرآن تبيّن تأثير الأعمال الصالحة فى محو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۸۹

اثر الأعمال السيئة، حيث نقرا فى سورة النساء الآية (۳۱): إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ و نقرا فى سورة العنكبوت الآية (۷): وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

و بهذا تثبت مقولة ابطال السيئات بالطاعات و الأعمال الحسنة.

و من الناحية النفسية- ايضا- لا ريب فى ان الذنب و العمل السيء يوجد نوعا من الظلمة فى روح الإنسان و نفسه، بحيث لو استمرّ على السيئات تتراكم عليه الآثار فتمسخ الإنسان بصورة موحشة.

و لكن العمل الصالح الصادر من الهدف الالهى يهب روح الإنسان لطافة بإمكانها ان تغسل آثار الذنوب و ان تبدّل ظلمات نفسه الى أنوار.

و بما انّ الجملة الآنفة إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ذكرت بعد الأمر بإقامة الصلاة مباشرة، فإنّ واحدة من مصاديقها هى الصلاة اليومية، و إذا ما لاحظنا فى الرّوايات اشارة الى الصلاة اليومية فى التّفسير فحسب فليس ذلك دليلا على الانحصار، بل- كما قلنا مرارا- انّما هو بيان مصداق واضح قطعى.

الاهميّة القصوى للصلاة:

تلاحظ فى الرّوايات المتعددة المنقولة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الائمة الطاهرين عليهم السّلام تعبيرات تكشف عن الاهمية الكبرى للصلاة فى نظر الإسلام.

يقول ابو عثمان: كنت جالسا مع سلمان الفارسى تحت شجرة فأخذ غصنا يابسا و هزّه حتى تساقطت أوراقه جميعا، ثمّ التفت اليّ و قال: ما سألتنى لم فعلت ذلك؟! فقلت: و ما تريد؟! قال: هذا ما كان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كنت جالسا معه تحت شجرة ثمّ

سألنى النّبى هذا السؤال و قال: «ما سألتنى لم فعلت ذلك؟».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۰

فقلت له: و لم يا رسول اللّه؟

فقال: «انّ المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثمّ صلّى الصلوات الخمس تحاتّت خطاياه كما تحاتّ هذا الورق» ثمّ قرا الآية «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ ... إلخ».[۴۷]

و نقرا

فى حديث آخر عن احد اصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اسمه ابو امامة انّه قال: «كنت جالسا يوما فى المسجد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فجاءه رجل و قال: يا رسول اللّه، أذنبت ذنبا يستوجب الحدّ فأقم عليّ الحدّ، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أ صليت معنا؟» قال:

نعم يا رسول اللّه، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فإنّ اللّه غفر ذنبك» ... او «أسقط عنك الحد»[۴۸].

كما

نقل عن على عليه السّلام انه قال: «كنّا مع رسول اللّه ننتظر الصلاة فقام رجل و قال: يا رسول اللّه، أذنبت. فأعرض النّبى بوجهه عنه،

فلما انتهت الصلاة قام ذلک الرجل و أعاد کلامه ثانیة، فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: الم تصلّ معنا و أحسنت لها الوضوء؟ فقال بلی، فقال: هذه کفارة ذنبک»[۴۹].

و

نقل عن علی علیه السّلام ایضا انّه قال: «قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: انّما منزلة الصلوات الخمس لامتی کنهر جار علی باب أحدکم، فما یظن أحدکم لو کان فی جسده درن ثمّ اغتسل فی ذلک النهر خمس مرات، أ کان یبقی فی جسده درن؟ فکذلک و اللّه الصلوات الخمس لامتی»[۵۰].

و علی کل حال، لا مجال للشکّ فی انّه متی ما ادّیت الصلاة بشرائطها فإنّها تنقل الإنسان الی عالم من المعنویّة و الروحانیّة بحیث توثق علائقه الایمانیة باللّه، و تغسل عن قلبه و روحه الأدران و آثار الذنوب.

الصلاة تجیر الإنسان من الذنب، تجلو صدا القلوب.

الصلاة تجذّر الملکات السامیة للإنسان فی اعماق الروح البشریة، و الصلاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۱

تقوی الارادة و تطهر القلب و الروح، و بهذا الترتیب فإنّ الصلاة الواعیة الفاعلة هی مذهب تربوی عظیم.

أرجی آیة فی القرآن:

ینقل فی تفسیر الآیة- محل البحث- حدیث طریف

عن الامام علی علیه السّلام بهذا المضمون، و هو انّه التفت مرّة الی الناس و قال: «ای آیة فی کتاب اللّه أرجی عندکم»؟! فقال بعضهم: إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ.

فقال علیه السّلام: حسنة لیست ایّاها.

فقال آخرون: هی آیة قُلْ یا عِبادِیَ الَّذِینَ أَسْرَفُوا عَلی أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

فقال علیه السّلام: حسنة لیست ایّاها.

فقالوا: هی آیة وَ مَنْ یَعْمَلْ سُوءاً أَوْ یَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ یَسْتَغْفِرِ اللَّهَ یَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِیماً.

قال علیه السّلام: حسنة لیست ایّاها.

فقال آخرون: هی آیة: وَ الَّذِینَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَکَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ یَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ فقال الامام ایضا: «حسنة لیست ایّاها».

ثمّ أحجم الناس، فقال: ما لکم یا معشر المسلمین، فقالوا: و اللّه ما عندنا شیء قال علیه السّلام: «سمعت حبیبی رسول اللّه یقول: أرجی آیة فی کتاب اللّه وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَیِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ إِنَّ الْحَسَناتِ یُذْهِبْنَ السَّیِّئاتِ ذلِکَ ذِکْری لِلذَّاکِرِینَ ۵۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۲

و بالطبع کما ذکرنا فی شرح الآیة (۴۸) من سورة النساء: انه ورد حدیث آخر یشیر الی ان أرجی آیة فی القرآن هی آیة إِنَّ اللَّهَ لا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَ یَغْفِرُ ما دُونَ ذلِکَ لِمَنْ یَشاءُ.

و لکن مع ملاحظة انّ کل آیة من هذه الآیات تنظر الی زاویة من هذا البحث و تبیّن بعدا من الابعاد، فلا تضادّ بینها.

و فی الواقع انّ الآیة محل البحث تتحدّث عن أولئک الذین یؤدّون الصلاة بصورة صحیحة، صلاة مع حضور القلب و الروح، بحیث تغسل آثار الذنوب عن قلوبهم و أرواحهم. امّا الآیة الاخری تتحدّث عن أولئک الذین حرموا من هذه الصلاة، فبإمکانهم من باب

التوبة، فإذن هذه الآية لهؤلاء الجماعة أرجى آية، و تلك الآية لأولئك الجماعة أرجى آية.

و اىّ رجاء أعظم من ان يعلم الإنسان انّه متى زلت قدمه و غلب عليه هواه (دون ان يصرّ على الذنب) و حين يحل وقت الصلاة فيتوضأ و يقف امام معبوده للصلاة، فيحسّ بالخجل عند التوجه الى اللّه لما قدمه من اعمال سيئة و يرفع يديه بالدعاء و طلب العفو فيغفر و تزول عن قلبه الظلمة و سوادها.

و تعقيبا على تأثير الصلاة فى بناء شخصية الإنسان و بيان تأثير الحسنات على محو السيئات، يأتى الأمر بالصبر فى الآية الاخرى بعدها وَ اصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

و بالرغم من انّ بعض المفسّرين حاول تحديد معنى الصبر فى هذه الآية فى الصلاة، او إيذاء الأعداء للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الّا انّ من الواضح ان لا دليل على ذلك- بل ان الآية تحمل مفهوما واسعا كليا و جامعا و يشمل كل انواع الصبر امام المشاكل و المخالفات و الأذى و الطغيان و المصائب المختلفة، فالصمود امام جميع هذه الحوادث يندرج تحت مفهوم الصبر.

«الصبر» اصل كلّى و أساس اسلامى، يأتى أحيانا فى القرآن مقرونا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۳

بالصلاة، و لعل ذلك آت من انّ الصلاة تبعث فى الإنسان الحركة، و الأمر بالصبر يوجب المقاومة، و هذان الأمران، اى «الحركة و المقاومة» حين يكونان جنبا الى جنب يثمران كل اشكال النجاح و الموفقية.

و أساسا يتحقق عمل صالح دون صبر و مقاومة ... لانّه لا بدّ من إيصال الأعمال الصالحة الى النهاية، و لذلك فإنّ الآية المتقدمة تعقب على الأمر بالصبر بثواب اللّه و اجره إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ و معنى ذلك ان العمل الصالح لا يتيسر دون صبر و مقاومة ... لا بأس بذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ الناس ينقسمون الى عدّة جماعات إزاء الحوادث العسيرة الصعبة:

۱- فجماعة تفقد شخصيّتها فورا، و كما يعبر القرآن إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

۲- و جماعة آخرون يصمدون امام الأزمات بكل تحمّل و تجلّد.

۳- و جماعة آخرون بالاضافة الى صمودهم و تحملهم للأزمة، فإنّهم يؤدّون الشكر للّه.

۴- و جماعة آخرون يتجهون الى الأزمات و المصاعب بشوق و عشق، و يفكرون فى كيفية التغلب عليها. و لا يعرفون التعب و النصب فى متابعة الأمور، و لا يهداون حتى تزول المشاكل.

و قد وعد اللّه مثل هؤلاء الصابرين بالنصر المؤزر إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۵۲].

و أنعم عليهم و أثابهم فى الدار الاخرى بالجنّة وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً[۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۴

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۶ الى ۱۱۷]

اشارة

فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ (۱۱۶) وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ (۱۱۷)

التّفسير

عامل الانحراف و الفساد فى المجتمعات:

من اجل إكمال البحوث السابقة ذكر فى هاتين الآيتين اصل اساسى اجتماعى يضمن نجاة المجتمعات من الفساد، و هو انّه ما دام هناك فى كل مجتمع طائفة من العلماء المسؤولين و الملتزمين الذين يحاربون كل اشكال الفساد و الانحراف، و يأخذون على عاتقهم قيادة المجتمع فكريا و ثقافيا و دينيا، فإنّ هذا المجتمع سيكون مصونا من الزيغ و الانحراف.

لكن متى ما سكت عن الحق اهله و حماته، و بقى المجتمع دون مدافع امام عوامل الفساد، فإنّ انتشار الفساد و من ورائه الهلاك امر حتمى.

الآية الاولى اشارت الى القرون و الأمم المتقدمة الذين ابتلوا بأشد انواع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۵

البلاء قائلة: فَلَوْ لا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ ثمّ تستثنى جماعة فتقول: إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا.

هذه الجماعة القليلة و ان كانت تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر، و لكنّها كحال لوط عليه السّلام و أسرته الصغيرة، و نوح و المعدودين ممن آمن به، و صالح و جماعة من اتباعه، فإنّهم كانوا قلّة لم توفق للإصلاح العام و الكلى فى المجتمع.

و على كل حال فإنّ الظالمين الذين كانوا يشكلون القسم الأكبر من المجتمع اتبعوا لذاتهم و تنعمهم، و كما تقول الآية: وَ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَ كانُوا مُجْرِمِينَ

و للتأكيد على هذه الحقيقة، تأتى الآية الثّانية لتقول: انّ هذا الذى ترون من إهلاك اللّه للأمم، إنّما كان لعدم وجود المصلحين فيهم وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ

و أحيانا يسود الظلم و الفساد فى المجتمع، لكن المهم انّ الناس يشعرون بالظلم و الفساد و هم فى طريق الإصلاح، و بهذا الشعور و الاحساس و التحرك بخطوات فى طريق الإصلاح يمهلهم اللّه، و يقرّ لهم قانون الخلق حق الحياة.

و لكن هذا الاحساس متى ما انعدم و أصبح المجتمع صامتا، و أخذ الفساد و الظلم فى الانتشار بكل مكان فإنّ قانون الخلق و الوجود لا يعطيهم الحق فى الحياة، و هذه الحقيقة تتضح بمثال يسير ... فى البدن قوّة و مناعة كريّات الدم البيضاء التى تواجه المكروبات و الجراثيم عند دخولها البدن عن طريق الهواء او الغذاء او الماء او الجروح الجلدية إلخ ...

و هذه الكريّات البيضاء بمثابة الجنود المقاتلة إذ تقف بوجه المكروبات و الجراثيم فتبيدها، او على الأقل تحدّ من انتشارها و نموّها.

و بديهى ان هذه القوة الدفاعية التى تتشكل من ملايين الجنود، لو أضربت يوما عن العمل و بقى البدن دون مدافع، فسيكون ميدانا لهجوم الجراثيم الضارّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۶

بحيث تسرع انواع الأمراض الى البدن.

و جميع المجتمعات البشرية لها مثل هذه الحالة، فلو ارتفعت هذه القوّة المدافعة عنها و هى ما عبّر عنه القرآن ب أُولُوا بَقِيَّةٍ فإن جراثيم الأمراض الاجتماعية المتوفرة فى كل زاوية من المجتمع سرعان ما تنمو و تتكاثر و يسقط المجتمع صريع الأمراض المختلفة.

ان اثر أُولُوا بَقِيَّةٍ فى بقاء المجتمع حساس للغاية، حتى يمكن القول: انّ المجتمع من دون «اولى بقية» يسلب حق الحياة، و من هنا فقد وردت الاشارة إليهم فى الآية المتقدمة.

من هم أُولُوا بَقِيَّةٍ

؟ كلمة «اولوا» تعنى الاصحاب، و كلمة «بقيّة» معناها واضح اى ما يبقى، و يستعمل هذا التعبير فى لغة العرب بمعنى «أولو الفضل» لانّ

الإنسان يدخر الأشياء النفيسة و الجيّدة لتبقى عنده، فالمصطلح أُولُوا بَقِيَّةٍ يحمل فى نفسه مفهوم الخير و الفضل.

و نظرا لانّ الضعفاء- عادة- يرجّحون الفرار على القرار فى ميدان المواجهة الاجتماعية، او يصيبهم الفناء، و لا يبقى فى ميدان المواجهة إلّا من يتمتع بقوّة فكرية او جسدية، و بذلك يبقى الأقوياء فقط، و من هذا المنطلق ايضا تقول العرب فى أمثالها: فى الزوايا خبايا ... و فى الرجال بقايا.

كما جاءت كلمة «بقيّة» فى القرآن الكريم فى ثلاثة موارد و هى تحمل هذا المفهوم، حيث نقرا فى قصّة طالوت و جالوت إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى ۵۴].

و قرانا ايضا قصّة شعيب (فى هذه السورة) مخاطبا قومه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۷

بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۵۵].

و حيث نجد فى قسم من التعبيرات اطلاق بَقِيَّتُ اللَّهِ على «المهدى الموعود» عليه السّلام فهو اشارة الى هذا الموضوع ايضا، لانّه وجود ذو فيض و ذخيرة الهية كبرى، و هو معدّ ليطوى بساط الظلم و الفساد و ليرفع لواء العدل فى العالم كله.

و من هنا نعرف الحق الكبير لهؤلاء الرجال الاجلّاء الافذاذ و المكافحين للفساد، و المصطلح عليهم ب أُولُوا بَقِيَّةٍ على المجتمعات البشرية لانّهم رمز لبقاء الأمم و حياتها و نجاتها من الهلاك.

المسألة الاخرى التى تستجلب النظر فى الآية المتقدمة انّها تقول: وَ ما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَ أَهْلُها مُصْلِحُونَ

و بملاحظة التفاوت بين كلمتى «مصلح» و «صالح» تتجلى هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ الصلاح وحده لا يضمن البقاء، بل إذا كان المجتمع فاسدا و لكن افراده يسيرون باتجاه إصلاح الأمور فالمجتمع يكون له حق البقاء و الحياة ايضا.

فلو انعدم الصالح و المصلح فى المجتمع فإنّ من سنة الخلق ان يحرم ذلك المجتمع حق الحياة و يهلك عاجلا.

و بتعبير آخر: متى كان المجتمع ظالما و لكنه مقبل على إصلاح نفسه، فهذا المجتمع يبقى، و لكن إذا كان المجتمع ظالما و لم يقبل على نفسه فيصلحها او يطهرها فإنّ مصيره الى الفناء و الهلاك.

المسألة الدقيقة الاخرى: انّ واحدا من أسس الظلم و الاجرام- كما تشير اليه الآيات المتقدمة- هو اتباع الهوى و عبادة اللّذة و حبّ الدنيا، و قد عبّر القرآن عن كل ذلك ب «الترف».

فهذا التنعم و التلذذ غير المقيد و غير المشروط أساس الانحرافات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۸

المجتمعات المرفهة، لانّ سكرها من شهواتها يصدها عن إعطاء القيم الانسانية الاصيلة حقّها و درك الواقعيات الاجتماعية، و يغرقها فى العصيان و الآثام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۹۹

الآيتان [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۱۸ الى ۱۱۹]

اشارة

وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ (۱۱۸) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۱۹)

التّفسير

فى الآية الاولى محل البحث اشارة الى واحدة من سنن الخلق و الوجود و التى تمثّل اللبنات التحتيّة لسائر المسائل المرتبطة بالإنسان ... و هى مسألة الاختلاف و التفاوت فى بناء الإنسان روحا و فكرا و جسما و ذوقا و عشقا، و مسألة حرية الارادة و الاختيار.

تقول الآية وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ

لئلا يتصور احد من الناس انّ تأكيد اللّه و إصراره على طاعة امره دليل على عدم قدرته على ان يجعلهم فى سير واحد و منهج واحد.

نعم، لم يكن- اى مانع- ان يخلق جميع الناس بحكم إلزامه و إجباره على شاكلة واحدة، و يجعلهم مؤمنين بالحق و مجبورين على قبول الايمان به ...

لكن مثل هذا الايمان لا تكون فيه فائدة و لا فى مثل هذا الاتحاد ...

فالإيمان القسرى الذى ينبع من هدف غير ارادى لا يكون علامة على شخصية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۰

الفرد و لا- وسيلة للتكامل، و لا- يوجب الثواب كما هو الحال فى خلق النحل خلقا يدفعها بحكم الغريزة الى ان تجمع الرحيق من الازهار ... و خلق بعوضة الملاريا خلقا يجعلها تستقر فى المستنقعات، و لا يمكن لايّ منهما ان تتخلى عن طريقتها.

الّا انّ قيمة الإنسان و امتيازه و أهم ما يتفاوت فيه عن سائر الموجودات هى هذه الموهبة، و هى حرية الارادة و الاختيار، و كذلك امتلاك الأذواق و الاطباع و الأفكار المتفاوتة التى يصنع كل واحد منها قسما من المجتمع و يؤمّن بعدا من ابعاده.

و من طرف آخر فإنّ الاختلاف فى انتخاب العقيدة و المذهب امر طبيعى مترتب على حرية الارادة و يكون سببا لانّ تقبل جماعة طريق الحق و تتبع جماعة أخرى الباطل، الّا ان يتربى الناس تربية سليمة فى احضان الرحمة الالهية و يتعلموا المعارف الحقة بالاستفادة من مواهب اللّه تعالى لهم ... ففى هذه الحال، و مع جميع ما لديهم من اختلافات، و مع الاحتفاظ بالحريّة و الاختيار، فإنّهم سيخطون خطوات فى طريق الحق و ان كانوا يتفاوتون فى هذا المسير.

و لهذا يقول القرآن الكريم فى الآية الاخرى: إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ و لكن هذه الرحمة الالهية ليست خاصّة بجماعة معينة، فالجميع يستطيعون «شريطة رغبتهم» ان يستفيدوا منها (وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ).

الأشخاص الذين يريدون ان يستظلوا برحمة اللّه فإنّ الطريق مفتوح لهم ...

الرحمة التى افاضها اللّه لجميع عباده عن طريق تشخيص العقل و هداية الأنبياء.

و متى ما استفادوا من هذه الرحمة و الموهبة، فإنّ أبواب الجنّة و السعادة الدائمة تفتح بوجوههم، و الّا: فلا: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۱

ملاحظات

۱- حرية الارادة هى أساس خلق الإنسان و دعوة جميع الأنبياء، و أساسا لا يستطيع الإنسان بدونها ان يخطو و لو خطوة واحدة فى مسير التكامل «التكامل الانسانى و المعنوى» و لهذا فقد اكّدت آيات متعددة على انّه لو شاء اللّه ان يهدى الناس بإجباره لهم جميعا لفعل، لكنّه لم يشأ.

فيما يتعلق باللّه هو الدعوة الى المسير الحق و تعريف الطريق و وضع العلامات، و التنبيه، على ما ينبغى الحذر منه و تعيين القائد للمسيرة البشرية و المنهج فحسب.

يقول القرآن الكريم: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى ۵۶] كما يقول ايضا إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ[۵۷] و يقول فى سورة الشمس: فَأَلْهَمَها

فُجُورَها وَ تَقْواها[۵۸] و نقرا ايضا فى سورة الدهر الآية (۴): إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً فعلى هذا فإنّ الآيات محل البحث من أوضح الآيات التى تؤكّد على حرية الارادة و نفى مذهب الجبر، و تدل على انّ التصميم النهائى هو بيد الإنسان.

۲- فى الهدف من الخلق و الوجود، فى آيات القرآن بيانات مختلفة، و فى الحقيقة يشير كل واحد منها الى بعد من ابعاد هذا الهدف، من هذه الآيات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۵۹] اى ليتكاملوا فى مذهب العبادة و ليبلغوا أعلى مقام للانسانية فى هذا المذهب.

و نقرا فى مكان آخر الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۲

[۶۰].

امّا فى الآية محل البحث فيقول: وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ... و كما تلاحظون فإنّ جميع هذه الخطوط تنتهى الى نقطة واحدة، و هى تربية الناس و هدايتهم و تقدمهم و تكاملهم، و كل ذلك يعدّ الهدف النهائى للخلق.

و فائدة هذا الهدف تعود للإنسان نفسه لا الى اللّه، لانّ اللّه وجود مطلق لا نهاية له من جميع الجهات، و مثل هذا الوجود لا نقص فيه ليرفعه و يزيله بالخلق.

۳- و فى نهاية الآية الاخيرة تأكيد على الأمر الالهى بملء جنهم من الجن و الانس أجمعين، و بديهى انّ هذا الأمر المحتوم فيه شرط واحد و هو الخروج من دائرة رحمة اللّه، و التقهقر عن هداية الرسل و الادلّاء من قبله، و بهذا الترتيب فإنّ هذه الآية لا يعتبر دليلا على مذهب الإجبار بل هى تأكيد جديد على مذهب الاختيار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۳

الآيات [سورة هود (۱۱): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۳]

اشارة

وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَ جاءَكَ فِي هذِهِ الْحَقُّ وَ مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۱۲۰) وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ (۱۲۱) وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (۱۲۲) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۱۲۳)

التّفسير

اربع معطيات لقصص الماضين:

بانتهاء هذه الآيات تنتهى سورة هود، و فى هذه الآيات استنتاج كلى لمجموع بحوث هذه السورة، و بما انّ القسم الاهمّ من هذه السورة يتناول القصص التى تحمل العبر من سيره الأنبياء و الأمم السابقة، فإنّ هذه القصص تعطى نتائج قيّمة ملخّصة فى اربعة مواضيع.

تقول هذه الآيات اوّلا: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ و كلمة «كلّا» اشارة الى تنوع هذه القصص، و كل نوع منها يشير الى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۴

اتّخاذ جبهة «قبال الأنبياء» و نوع من الانحرافات و نوع من العقاب، و هذا التنوّع يلقى اشعة نيرة على ابعاد حياة الناس.

«تثبيت قلب النّبى» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تقوية ارادته- التى يشار إليها فى هذه الآية- امر طبيعى، لانّ معارضة الأعداء اللجوجين الشديدة و القاسية- رضينا ام أبينا- تؤثر على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانّه انسان و بشر ايضا. و لكن من اجل ان لا ينفذ اليأس الى قلب النّبى المطهّر و تضعف ارادته الفولاذية من هذه المعارضة و المخالفات و المثبطات، فإنّ اللّه يقص عليه قصص الأنبياء و ما واجهوه، و مقاومتهم قبال أممهم المعاندين، و انتصارهم الواحد تلو الآخر ليقوى قلب النّبى و المؤمنين الذى يلتّفون حوله يوما بعد يوم.[۶۱].

ثمّ تشير الآية الى النتيجة الكبرى الثّانية فتقول الآيات: و جاءك فى هذه الحق.

امّا ثالث الآثار و رابعها اللذان يستلفتان النظر هما مَوْعِظَةٌ وَ ذِكْرى لِلْمُؤْمِنِينَ

الطريف هنا انّ صاحب المنار يقول فى تفسير الآية معقبا: انّ الإيجاز و الاختصار فى هذه الآية المعجزة فى غاية ما يتصور، حتى كأنّ جميع المعاجز السالفة قد جمعت فى الآية نفسها و بيّنت فوائدها جميعا بعدّة جمل قصيرة.

و على اية حال، فإنّ هذه الآية تؤكّد مرّة اخرى انّه لا ينبغى ان نعدّ قصص القرآن ملهاة او يستفاد منها لاشغال السامعين، بل هى مجموعة من احسن الدروس الحياتية فى جميع المجالات، و طريق رحب لجميع الناس فى الحاضر و المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۵

ثمّ تخاطب الآيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يواجه أعداءه الذين يؤذونه و يظهرون اللجاجة و العناد ان واصل الطريق وَ قُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنَّا عامِلُونَ وَ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ

فستعلمون من الذى سينتصر، انتظروا هزيمتنا كما تزعمون انتظارا غير مجد، و نحن ننتظر العذاب من اللّه عليكم، و هو ما ستذوقونه من قبلنا او من قبل اللّه مباشرة.

و هذه التهديدات التى تذكر بصيغة الأمر تلاحظ فى أماكن اخرى من القرآن كقوله تعالى: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[۶۲].

و نقرا فى شأن الشيطان ايضا وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ ۶۳].

و بديهى انّه لا يراد بأيّة صيغة من صيغ الأمر هنا طلب الفعل، بل جميعها جاءت للتهديد و التنديد.

و آخر الآيات من هذه السورة تتحدث عن التوحيد «التوحيد المعرفى و التوحيد الافعالى، و توحيد العبادة» كما تحدثت الآيات الاولى من هذه السورة عن التوحيد ايضا.

هذه الآية- فى الحقيقة- تشير الى ثلاث شعب من التوحيد، توحيد علم اللّه اوّلا، فغيب السّماوات و الأرض خاص باللّه و هو المطّلع عليها جميعا وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

امّا سواه فعلمه محدود، و فى الوقت ذاته فإنّ هذا العلم ناشئ من التعليم الإلهى، فعلى هذا فإنّ العلم غير المحدود، و العلم الذاتى بالنسبة ما فى السموات و الأرض مخصوص بذات اللّه المقدسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۶

و من جهة ثانية فإنّ ازمّة جميع الأفعال مرهونة بقدرته وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ... و هذه مرحلة توحيد الأفعال.

ثمّ تستنتج الآية انّه إذا علمت انّ الاحاطة و العلم غير المحدود و القدرة التى لا تنتهى ... جميعها مخصوص بذات اللّه المقدّسة فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ و هذه مرحلة توحيد العبادة.

فينبغى اجتناب العصيان و العناد و الطغيان وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

ملاحظات

۱- علم الغيب خاص باللّه ...

كما تحدثنا بالتفصيل فى تفسير الآية (۱۸۸) من سورة الأعراف، و فى تفسير الآية (۵۰) من سورة الانعام، انّه لا مجال للتردد فى انّ الاطلاع على الأسرار الخفية او الأسرار الماضية و الآتية كله خاص باللّه ... و الآيات المختلفة من القرآن تؤكّد هذه الحقيقة و تؤيدها ايضا ... انّه ليس كمثله شيء و هو متفرد بهذه الصفة.

و إذا وجدنا فى قسم من آيات القرآن بيان انّ الأنبياء قد يعلمون بعض الأمور الغيبية، او قرانا فى بعض الآيات او الرّوايات الكثيرة انّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الامام عليّا و الائمة المعصومين عليهم السّلام قد يخبرون عمّا يجرى فى المستقبل من حوادث و يبيّنون اسرارا خفيّة منها، فينبغى ان نعرف ان كل ذلك بتعليم اللّه سبحانه.

فهو سبحانه حيث يجد المصلحة يطلع عباده و أولياءه على قسم من اسرار الغيب، و لكن هذا العلم لا هو علم ذاتى و لا غير محدود، بل هو من تعليم اللّه و هو محدود بمقدار ما يريده اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۷

و بهذا البيان تتّضح الاجابة على المنتقدين لعقيدة الشيعة فى مجال على الغيب حيث يرون انّ الأنبياء و الائمة عليهم السّلام يعلمون الغيب.

و ليس الاطلاع على علم الغيب من قبل اللّه خاصا بالأنبياء او الائمّة فقد يطلع اللّه غير النّبى و الائمّة على غيبه ايضا ... فنحن نقرا فى قصّة ام موسى فى القرآن انّ اللّه قال لها: وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۶۴].

و قد يطلع اللّه لضرورة الحياة- أحيانا- الطيور و الحيوانات على الأسرار الخفيّة و حتى على المستقبل البعيد نسبيّا ممّا يصعب علينا تصوّره و بهذا الترتيب قد تكون بعض المسائل التى نحسبها غيبا، هذه المسائل نفسها بالنسبة للطيور او الحيوانات لا تعد من الغيب.

۲- العبادة للّه وحده

فى الآية المتقدمة دليل لطيف على انّ العبادة للّه وحده، و هو انّه لو كانت العبادة من اجل العظمة و صفات الجمال، و الجلال فهذه الصفات قبل كل شيء موجودة فى اللّه، و امّا الآخرون فلا شيء بالنسبة اليه. و اكبر دليل على عظمة اللّه علمه الواسع غير المحدود و قدرته اللامتناهية، و قد اشارت الآية الآنفة الى انّهما مختصّان باللّه.

و إذا كانت العبادة لأجل الالتجاء- فى حلّ المشاكل- الى المعبود ... فإنّ مثل هذا العمل جدير بمن هو عليم بجميع حاجات العباد و اسرارهم الخفيّة. و ما يغيب عليهم، و هو قادر على اجابة دعوتهم، و بالنتيجة فإنّ توحيد الصفات يكون سببا لتوحيد العبادة (لاحظوا بدقّة).

۳- قال بعض المفسّرين: انّ سير الإنسان فى طريق عبودية اللّه، لخّص كلّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۸

فى جملتين فى هذه الآية فَاعْبُدْهُ وَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ لانّ العبادة سواء كانت عبادة جسمانية كالعبادة العامّة، او عبادة روحانية كالتفكّر فى خلق اللّه و نظام اسرار الوجود، هى بداية هذا السير.

و التوكّل الذى يعنى الالتجاء المطلق الى اللّه و إيداع جميع الأشياء بيده، بحيث يعدّ نوعا من «الفناء فى اللّه» هو آخر نقطة من هذا السير.

و فى جميع هذا المسير من بدايته حتى نهايته يوجههم الى حقيقة توحيد الصفات، و يعين السائرين فى هذا المسير و يدعوهم الى

البحث المقرون بالعشق لساحته.

اللّهم ألهمنا معرفتک بصفات جلالک و جمالک.

و ألهمنا ان نتحرک إلیک بعرفان.

اللّهم وفقنا لان نعبدک مخلصین و نتوکل علیک عاشقین.

اللّهم أنت رجاؤنا و ملاذنا فی حل مشاکلنا، ففی هذه الفترة من الزمن أحاطت بالمسلمین المشاکل من کل جانب، و سعی اعداء اللّه لإطفاء نور هذه الصحوة المبارکة، فأنت ولیّنا.

اللهم: لم نکن لنصل لهذه المرحلة لو لا- تأییداتک الظاهرة و الخفیّة التی اعانتنا للوصول إلیها. نسألک ان لا تحرمنا من مواهبک العظیمة فی ما بقی من الطریق و لا تقطع- ألطافک الخاصّة- عنّا.

و وفقنا برحمتک ان نواصل هذا التّفسیر الذی یفتح نافذة جدیدة علی کتابک السّماویّ العظیم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۰۹

سورة یوسف

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها مائة و احدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۱

سورة یوسف

بدایة سورة یوسف

اشارة

قبل الدخول فی تفسیر آیات هذه السورة ینبغی ذکر عدّة امور:

۱- لا اشکال بین المفسّرین فی انّ هذه السورة نزلت فی مکّة، سوی ما نقل عن ابن عباس انّ اربع آیات مدنیة (الآیات الثلاث فی اوّل السورة و الآیة السّابعة منها).

و لکن التدقیق فی ارتباط هذه الآیات بعضها مع البعض الآخر فی هذه السورة یجعلنا غیر قادرین علی التفکیک بینها، فاحتمال نزول هذه الآیات الأربع فی المدینة- علی هذا الأساس- بعید جدّا.

۲- جمیع آیات هذه السورة سوی الآیات القلیلة التی تقع فی نهایة السورة تبیّن قصّة نبیّ اللّه یوسف علیه السّلام. القصّة الطّریفة و الجمیلة و التی تحمل بین طیّاتها العبر. و لذلک سمّیت هذه السورة باسم «یوسف» و بهذه المناسبة- ایضا- ورد ذکر یوسف- من مجموع (۲۷) مرّة فی القرآن- (۲۵) مرّة فی هذه السورة و مرّة واحدة فی سورة غافر الآیة (۳۴)- و مرّة أخری فی سورة الانعام الآیة (۸۴).

و محتوی هذه السورة- علی خلاف سور القرآن الاخری- مرتبط بعضه ببعض، و یبیّن جوانب مختلفة من قصّة واحدة وردت فی اکثر من عشرة فصول، مع بیان اخاذ موجز، عمیق، و طریف و مثیر.

و بالرغم من انّ القصّاصین غیر الهادفین، او من لهم أغراض رخیصة سعوا الی ان یحوّلوا هذه القصّة المهذّبة الی قصّة عشق یحرک اهل الهوی و الشهوة!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۲

و ان یمسخوا الوجه الواقعی لیوسف علیه السّلام بحیث بلغت الحال ان یصوروا «فیلما سینمائیا» و ینشروه بصورة مبتذلة ... الّا انّ القرآن- و کلّ ما فیه أسوة و عبرة- عکس فی ثنایا هذه القصّة اسمی دروس العفة و ضبط النفس و التقوی و الایمان، حتی لو انّ إنسانا قراها عدة مرات فإنّه یتأثر- بدون اختیار- بأسلوبها الجذّاب فی کل مرّة.

و لذا فقد عبّر القرآن عنها ب أَحْسَنَ الْقَصَصِ و جعل فیها العبر للمعتبرین أُولِی الْأَلْبابِ

۳- التدقیق فی آیات هذه السورة یکشف هذه الحقیقة للإنسان، و هی انّ القرآن معجز فی جمیع ابعاده، لان الابطال الذین یقدمهم فی قصصه ابطال حقیقیّون لا خیالیّون، و کل واحد فی نفسه منهم منعدم النظیر:

فإبراهیم علیه السّلام: البطل الذی حطّم الأصنام بروحه العالیة التی لا تقبل المساومة مع الطغاة.

و نوح علیه السّلام: بطل الصبر و الاستقامة و الشفقة و القلب المحترق فی ذلک العمر الطویل المبارک.

و موسی علیه السّلام: البطل المربّی لقومه اللجوجین، و الذی وقف بوجه فرعون المتکبر الطاغی.

و یوسف علیه السّلام: بطل الورع و التقوی و الطهارة ... امام امراة محتالة جمیلة عاشقة.

بعد هذا کلّه تتجلّی القدرة البیانیة للوحی القرآنی بصورة تحیّر الإنسان، لانّ هذه القصّة- کما نعرف- تنتهی فی بعض مواردها الی مسائل العشق و دون ان یمسخها القرآن او یتجاوزها یتعرض الی الاحداث فی مسرحها بدقة بحیث لا یحس السامع شیء غیر مطلوب فیها. و یذکر القضایا بأجمعها فی المتن، و لکن تحفّها اشعة قویة من التقوی و الطهارة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۳

۴- قصّة یوسف قبل الإسلام و بعده

لا شکّ انّ قصّة یوسف کانت مشهورة و معروفة بین الناس قبل الإسلام، لانّها مذکورة فی (۱۴) فصلا من [سفر التکوین فی التوراة بین [الفصل ۳۷- ۵۰] ذکرا مفصلا.

و بطبیعة الحال فإنّ المطالعة الدقیقة فی هذه الفصول الاربعة عشر تکشف مدی الاختلاف بین ما جاء فی التوراة و ما جاء فی القرآن.

و بالمقارنة بین نصّ التوراة و نصّ القرآن نجد انّ نصّ القصّة فی القرآن فی غایة الصدق و تخلو من ای خرافة.

و ما یقوله القرآن للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ إِنْ کُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِینَ یشیر الی قصّة یوسف التی عبّر عنها بأحسن القصص، حیث لم یکن النّبی مطّلعا علی حقیقتها الخالصة.

و یظهر من التوراة انّ یعقوب علیه السّلام لما رای قمیص یوسف ملطخا بالدم قال:

هذا قمیص ولدی و قد اکله الحیوان المفترس، فیوسف ممزق الأحشاء ثمّ خرّق یعقوب ثوبه و شدّ الحزام علی ظهره و جلس ایّاما للبکاء و النواح علی یوسف، و قد عزّاه جمیع ابنائه ذکورا و إناثا الّا انه امتنع ان یقبل تعزیتهم و قال: سأدفن فی القبر حزنا علی ولدی.

بید انّ القرآن یبیّن: انّ یعقوب لم یصدّق ما قاله أولاده، و لم یفزع و لم یجزع لمصیبة ولده یوسف، بل ادّی ما علیه من سنّة الأنبیاء من الصبر و التوکل علی اللّه، و قال لأبنائه: بَلْ سَوَّلَتْ لَکُمْ أَنْفُسُکُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِیلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلی ما تَصِفُونَ و ان کان قلبه یحترق علی فراق ولده و عیناه تدمعان من اجله حتی ابیضتا و عمیتا، و لکن- و کما یعبر القرآن- لم یقم بأی عمل من قبیل تخریق الثوب و النواح و شدّ الحزام علی ظهره- و الذی کان علامة للمصیبة و «العزاء»- و انّما قال: «صبر جمیل» و کتم حزنه «فهو کظیم».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۴

و علی کل حال فإنّ هذه القصّة- بعد الإسلام- تناقلتها أقلام مؤرخی الشرق و الغرب ... و أحیانا مع أغصان و أوراق اضافیة.

۵- لم ذکرت قصّة یوسف فی مکان واحد علی خلاف قصص سائر الأنبیاء

؟! انّ من خصائص قصّة یوسف البارزة انّ هذه القصّة ذکرت فی مکان واحد من القرآن، علی خلاف قصص الأنبیاء التی ذکرت علی شکل فصول مستقلة فی سور متعددة من القرآن.

و الحکمة فی ذلک تعود الی ان تفکیک فصول هذه القصّة مع ملاحظة وضعها الخاص یفقدها ترابطها و انسجامها، فلهذا ینبغی ان تذکر کاملة فی مکان واحد للحصول علی النتیجة المتوخاة و علی سبیل المثال فان الرؤیا و ما ذکره أبوه من تعبیر فی اوّل هذه السورة یفقد معناه دون ذکر نهایتها.

لذلک نقرا فی أواخر هذه السورة، حین جاء یعقوب و اخوة یوسف الی مصر و خرّوا له سجّدا قال یوسف ملتفتا الی أبیه: یا أَبَتِ هذا تَأْوِیلُ رُءْیایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّی حَقًّا[۶۵].

هذا النموذج یوضح الارتباط الوثیق بین بدایة السورة و نهایتها، فی حین انّ قصص الأنبیاء الآخرین لیست علی هذه الشاکلة، و یمکن درک کل واحدة من خلال فصولها.

و الخصیصة الاخری خصائص هذه السورة هی انّ قصص الأنبیاء التی وردت فی السور الاخری من القرآن تبیّن عادة مواجهة الأنبیاء لقومهم المعاندین و الطغاة، ثمّ تنتهی الحالة الی ایمان جماعة بالأنبیاء و مخالفة جماعة اخری لهم و استحقاقهم عذاب اللّه و عقابه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۵

امّا فی قصّة یوسف فلا کلام عن هذا الموضوع، بل اکثر ما فیها بیان حیاة یوسف نفسه و نجاته من المزالق الخطیرة التی تنتهی أخیرا الی استلامه سدّة الحکم، و هی فی حدّ ذاتها «أنموذج» خاص.

۶- فضیلة سورة یوسف

وردت فی الرّوایات الاسلامیة فضائل مختلفة فی تلاوة هذه السورة، و نقرا من ضمنها حدیثا

عن الامام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «من قرا سورة یوسف فی کل یوم او فی کل لیلة، بعثه اللّه یوم القیامة و جماله مثل جمال یوسف، و لا یصیبه فزع یوم القیامة، و کان من خیار عباد اللّه الصالحین»[۶۶].

انّ الرّوایات التی وردت فی فضائل سور القرآن- کما قلنا مرارا- لیس معناها القراءة السطحیّة دون تفکر و عمل، بل تلاوة تکون مقدمة للتفکر ... التفکر الذی یجر الی العمل، و مع ملاحظة محتوی هذه السورة یتّضح ان من یستلهم خطة حیاته من هذه القصّة، و یعفّ نفسه امام طوفان شدید من الشّهوات و المال و الجاه و المقام، الی درجة یری بها خفرة السجن المظلمة مقرونة بطهارة الثوب أفضل من الحیاة فی قصور الملوک الملوّثة، فإنّ مثل هذا الشخص فی جمال روحه کجمال یوسف، و ما من خفیّ الّا ظهر یوم القیامة ... و سیجد له جمالا مذهلا و یکون فی صف عباد اللّه الصالحین.

و ممّا یلزم ذکره انّه ورد فی عدد من الأحادیث النهی عن تعلیم هذه السورة «للنساء»، و لعلّ السرّ فی ذلک هو ما فی الآیات المرتبطة بامراة عزیز مصر ... فبالرغم من سرد القصّة فی بیان عفیف، الّا انّها سبب لتحریک بعض النساء ایضا ... و قد جاء التأکید علی تعلیم سورة «النّور» المشتملة علی آیات الحجاب للنساء بدلا من سورة یوسف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۶

و لکن سند هذه الرّوایات بشکل عام لا یعتمد علیه، اضافة الی ذلک فقد ورد فی بعض الرّوایات الاخری خلاف ذلک حیث ترغّب فی تعلیم هذه السورة للعائلة. و بعد هذا کلّه فإنّه التدقیق فی آیات هذه السورة یکشف انّ هذه السورة، لیس فیها ایّة نقطة سلبیة بالنسبة للنساء، و لیس هذا فحسب، بل ان ما جری لامراة عزیز مصر، درس فیه عبرة لجمیع النسوة اللائی یبتلین بالوساوس الشیطانیّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۲) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ (۳)

التّفسير

احسن القصص بين يديك:

تبدا هذه السورة بالحروف المقطعة «الف. لام. راء» و هى دلالة على عظمة القرآن، و انّ تركيب هذه الآيات ذات المحتوى العميق متكوّن من ابسط الاجزاء، و هى حروف الهجاء «الف- باء .. إلخ» و قد تحدثنا عن الحروف المقطعة فى القرآن- حتى الآن- فى ثلاثة مواضع «بداية سورة البقرة، و آل عمران، و الأعراف» بقدر كاف ... فلا ضرورة للتكرار، و اثبتنا دلالتها على عظمة القرآن.
و ربّما كان لهذا السبب ان تأتى الاشارة- بعد هذه الحروف المقطعة مباشرة- الى بيان عظمة القرآن فى هذه السورة، فتقول: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ
و ممّا يستلفت النظر انّه استفيد من اسم الاشارة «تلك» فى هذه الآية للبعيد، نظير ما جاء فى بداية سورة البقرة و بعض السور القرآنية الاخرى. و قد قلنا: انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۸

مثل هذه التعبيرات جميعا يشار بها الى عظمة هذه الآيات، اى انّها بدرجة من الرفعة و العلوّ كأنّها فى نقطة بعيدة لا يمكن الوصول إليها ببساطة، بل بالسعى و الجدّ المتواصل ... فهى فى أوج السّماوات و فى اعالى الفضاء اللامتناهى، لا انّها مطالب و مفاهيم رخيصة يحصل عليها الإنسان فى كل خطوة.
ثمّ يأتى البيان عن الهدف من نزول الآيات فيقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
فالهدف اذن ليس القراءة او التلاوة او التيمّن او التبرك بتلاوة هذه الآيات فحسب، بل الهدف الاساسى هو الإدراك ... الإدراك القوى الذى يدعو الإنسان الى العمل بجميع وجوده.
و امّا سرّ كون القرآن عربيا فهو بالاضافة الى انّ اللغة العربية واسعة كما يشهد بذلك اهل المعرفة باللغات المختلفة من العالم، بحيث تستطيع ان تكون ترجمانا للسان الوحى، و ان تبيّن المفاهيم الدقيقة لكلام اللّه سبحانه، فمن المسلم به- بعد هذا- انّ نور الإسلام بزغ فى جزيرة العرب التى كانت منطلقا للجاهلية و الظلمة و التوحّش و البربرية، و من اجل ان يجمع اهل تلك المنطقة حول نفسه فينبغى ان يكون القرآن واضحا مشرقا، ليعلّم اهل الجزيرة الذين لا حظ لهم من الثقافة و العلم و المعرفة، و يخلق بذلك مركزا محوريا لانتشار هذا الدين الى سائر نقاط العالم.
و بطبيعة الحال فإنّ القرآن بهذه اللغة «العربيّة» لا يتيسّر فهمه لجميع الناس فى العالم (و هذا شأن اية لغة اخرى) لانّنا لا نملك لغة عالمية ليفهمها جميع الناس، و لكن ذلك لا يمنع من ان يستفيد من فى العالم من تراجم القرآن، او ان يطلعوا تدريجا على هذه اللغة

ليتلمسوا الآيات نفسها و يدركوا مفاهيم الوحى فى طيّات هذه الألفاظ.

و على كل حال فالتعبير بكون القرآن عربيا- الذى تكرر فى عشرة موارد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۱۹

من القرآن- جواب لأولئك الذين يتهمون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه تعلم القرآن من اعجمى، و انّ محتوى القرآن مستورد و ليس وحيا الهيا.

و هذه التعبيرات المتتابعة تحتم ضمنا وظيفة مفروضة على جميع المسلمين، و هى ان يسعوا جميعا الى معرفة اللغة العربية و ان تكون اللغة الثانية الى جانب لغتهم، لانّها لغة الوحى و مفتاح فهم حقائق الإسلام.

ثمّ يقول سبحانه: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ

يعتقد بعض المفسّرين انّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ اشارة الى مجموع القرآن، و انّ جملة بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ قرينة على ذلك. و القصّة هنا ليست بمعنى سرد الحكاية، بل المراد معناها «الجذرى» فى اللغة و هو البحث عن آثار الشىء.

و بما انّ اى موضوع- حين يشرح و يفصّل- يبيّن بكلمات متتابعة، فلذلك يطلق عليه قصّة ايضا.

و على كل حال فإنّ اللّه سبحانه عبّر ب أَحْسَنَ الْقَصَصِ عن مجموع هذا القرآن الذى جاء فى أجمل البيان و الشرح، و افصح الألفاظ و أبلغها، مقرونة بأسمى المعانى و ادقّها، بحيث يبدو ظاهره عذبا جميلا، و من حيث الباطن فمحتواها عظيم.

و نشاهد فى روايات متعددة انّ هذا التعبير استعمل فى مجموع القرآن، رغم انّ هذه الرّوايات لم ترد فى تفسير هذه الآية- محل بحثنا- .

فمثلا نقرا

حديثا نقله على بن ابراهيم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «انّ احسن القصص هذا القرآن»[۶۷].

كما نقل فى روضة الكافى عن خطبة لأمير المؤمنين قوله: ان احسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۰

القصص و ابلغ الموعظة و انفع الذكر كتاب اللّه»[۶۸].

و لكنّ ارتباط الآيات المقبلة التى تبيّن قصّة يوسف عليه السّلام مع هذه الآية- محل البحث- بشكل يشدّ ذهن الإنسان الى هذا المعنى، و هو انّ اللّه عبر عن قصّة يوسف بأحسن القصص و ربّما لا ينقدح فى أذهان الكثيرين ممن يطالعون بداية آيات هذه السورة غير هذا المعنى.

و قلنا مرارا انّه لا مانع من ان تكون مثل هذه الآيات للمعنيين جميعا ...

فالقرآن هو احسن القصص بصورة عامّة، و قصّة يوسف هى احسن القصص بصورة خاصّة.

و لم لا تكون هذه القصّة احسن القصص، مع انّها ترسم فى فصولها المثيرة اسمى دروس الحياة؟! فنحن نشاهد حاكمية ارادة اللّه على كل شىء هذه القصّة، و ننظر بأعيننا المصير الأسود الذى انتهى اليه الحسّاد و ما رقموه على الماء من خطط.

كما تتجسم من خلال سطورها الذلة فى الابتذال و عدم العفة، و العظمة فى التقوى و منظر الصبىّ و هو وحيد فى قعر الجبّ، و فى مشهد آخر نراه يقضى الليالى و الايّام دون ذنب فى حفرة السجن المظلم، ثمّ انبثاق نور الأمل من خلف حجب اليأس و الظّلمات، ثمّ نشاهد بعد ذلك حكومته العظيمة الواسعة نتيجة دراسته و أمانته. كل هذه المشاهد تتجلّى للقارىء لهذه القصّة بشكل رتيب.

لحظات و بسبب رؤيا يتحول مصير امّة ... انقاذ امّة و مجتمع بشرى من الهلكة على يد قائد الهى متيقظ ... و عشرات الدروس الاخرى- الكبيرة- التى تلوح فى هذه القصّة، فلم لا تكون هذه القصّة احسن القصص؟! غاية ما فى الأمر أنّه لا تكفى أن تكون قصّة يوسف وحدها هى احسن القصص، بل المهم ان تكون فينا الجدارة لانّ نفهم هذا الدرس العظيم و ان نعرف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۱

مکانه من نفوسنا.

فکثیر من النـاس لاـ یزال ینظر الی قصّـة یوسف علیه السّـلام علی انهـا حادثـة عشق طریف، و مثله کمثل الدابّـة التی یلوح لها البسـتان النضر الملیء بالازهار، الّا انّها تراه حفنة من «العلف» تسدّ جوعها:

و ما یزال الکثیر من الناس یضفی علی القصّة افرازات خیالیة کاذبة لیحرّف القصّة عن واقعها ... و هذا من عدم اللیاقة و فقدان الجدارة و عدم قابلیة المحل، و الّا فإنّ اصل القصّة جمع کل انواع القیم الانسانیة العلیا فی نفسه.

و سنری فی المستقبل- بإذن اللّه- انّه لا یمکن تجاوز فصول هذه القصّة الجامعة و الجمیلة و کما یقول الشاعر فی هذه القصّة:

یسکر من عطر الزهور الفتی‌حتی یری مفتقدا ثوبه!

اثر القصّة فی حیاة الناس

مع ملاحظة انّ القسم المهمّ من القرآن قد جاء علی صورة تأریخ للأمم السابقة و قصـص الماضـین، فقد یتساءل البعض: لم یحمل هذا الکتاب التربوی کل هذا «التأریخ» و القصص؟! و تتضح العلة الحقیقیة للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

۱- انّ التاریخ مختبر لنشاطات البشریة المختلفة، و ما رسمه الإنسان فی ذهنه من الأفکار و التصورات یجده بصورة عینیة علی صفحات التأریخ.

و بملاحظـة انّ اکثر المعلومـات البشـریة توافقـا مع الواقع و الحقیقـة هی التی تحمل جانبا حسـیّا، فإنّ دور التاریـخ فی اظهار الواقعیّات الحیاتیة یمکن درکه جیدا.

فالإنسان یری بأم عینیه الهزیمة المردیة- لامّة ما- نتیجة اختلافها و تفرقها، کما یری النجاح المشرق فی قوم آخرین فی ظل اتّحادهم و توافقهم. فالتاریخ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۲

یتحدّث بلغة- من دون لسان- عن النتائج القطعیة و غیر القابلة للإنکار للتطبیقات العملیة للمذاهب و الخطط و البرامج عند کل قوم.

و قصص الماضین مجموعة من اکثر التجارب قیمة. و نعرف انّ خلاصة الحیاة و محصولها لیس شیئا سوی التجربة.

و التاریخ مرآة تنعکس علیها جمیع ما للمجتمعات الانسانیة من محاسن و مساوئ و رقی و انحطاط و العوامل لکلّ منها.

و علی هـذا فإنّ مطالعـة تاریـخ الماضـین تجعل عمر الإنسان طویلا بقـدر أعمارهم حقّا، لانّها تضع مجموعـة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه و اختیاره.

و لهذا

یقول الامـام علی علیه السّـلام فی حـدیثه التـاریخی خلالـ وصایاه لولـده الحسن المجتبی فی هـذا الصـدد: «ای بنی انی و ان لم أکن عمّرت عمر من کـان قبلی، فقـد نظرت فی اعمالهم، و فکّرت فی اخبارهم، و سـرت فی آثارهم، حتی عـدت کأحـدهم، بل کأنّی بما انتهی الی من أمورهم قد عمرت من اوّلهم الی آخرهم»[۶۹].

و التاریخ الذی نتحدث عنه طبعا هو التاریخ الخالی من الخرافات و الأکاذیب و التملّقات و التحریفات و المسوخات.

و لکن- و للأسف- مثل هذا النوع من التاریخ قلیل جدا.

و لا ینبغی ان نبعد عن النظر ما للقرآن من اثر فی بیان «نماذج» من التاریخ الأصیل و اراءتها.

التاریخ الذی ینبغی ان یکون کالمرآة الصافیة لا المقعّرة.

التاريخ الذى لا يتحدث عن الوقائع فحسب، بل يصل الى الجذور و يسترشف النتائج.

فمع هذه الحال لم لا يستند القرآن- الذى هو كتاب تربوى عال فى فصوله-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۳

على التاريخ و يأتى بالشواهد و الأمثال من قصص الماضين؟! ۲- ثمّ بعد هذا فإنّ للتاريخ و القصّة جاذبية خاصّة، و الإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة فى جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

و لذلك فإنّ التاريخ و القصّة يشكلان القسم الأكبر من آداب العالم و آثار الكتّاب. و احسن الآثار التى خلّفها الشعراء و الكتاب الكبار سواء كانوا من بلاد العرب او من فارس او من بلاد اخرى هى قصصهم.

فأنت تلاحظ «الكلستان»- لسعدى و «الشاهنامة» لفردوسى و «الخمسة» للنظامى و كذلك آثار «فيجتور هيجو» الفرنسى و «شكسبير» الانجليزى و «غوته» الالمانى جميعها كتبت على هيئة قصص جذابة».

و القصّة سواء كتبت نثرا او شعرا، او عرضت على شاشة المسرح او بواسطة الفيلم السينمائى، فإنّها تترك أثرا فى المشاهد و المستمع دونها اثر الاستدلالات العقلية فى مثل هذا التأثير.

و العلّة فى ذلك قد تكون انّ الإنسان حسى بالطبع قبل ان يكون عقليا و يتخبط فى المسائل المادية قبل ان يتعمق فى المسائل الفكرية.

و كلما ابتعد الإنسان عن ميدان الحسّ فى نفسها جانبا عقليا، كانت هذه المسائل أثقل على الذهن و ابطأ هضما.

و من هنا نلاحظ انّه لأجل بيان الاستدلال العقلى يستمد المفكرين فى المسائل الاجتماعية و الحياتية المختلفة و توغل فى البعد العقلى من الامثلة الحسيّة، و أحيانا يكون للمثال المناسب و المؤثر فى الاستدلال قيمة مضاعفة، و لذلك فإنّ العلماء الناجحين هم أولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب احسن الامثلة.

و لم لا يكون الأمر كذلك، و الاستدلالات العقلية هى حصيلة المسائل الحسّية و العينيّة و التجريبيّة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۴

۳- القصّة و التاريخ مفهومان عند كل احد، على خلاف الاستدلالات العقلية، فإنّ الناس فى فهمها ليسوا سواسية ... و على هذا فإنّ الكتاب الشامل الذى يريد ان يستفيد منه البدوى الامّى و المتوحش ... الى الفيلسوف و المفكر الكبير، يجب ان يكون معتمدا على التاريخ و القصص و الامثلة.

و مجموعة هذه الجهات تبيّن انّ القرآن خطا احسن الخطوات فى بيان التواريخ و القصص فى سبيل التعليم و التربية، و لا سيّما إذ التفتنا الى هذه النقطة، و هى انّ القرآن لا يذكر الوقائع التاريخية فى ايّ مجال بشكل عار من الفائدة، بل يذكر معطياتها بشكل ينتفع بها تربويا، كما سنلاحظ «النماذج» و الامثلة فى هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ (۴) قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۵) وَ كَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَ يُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ عَلى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۶)

التّفسير

بارقة الأمل و بداية المشاكل:

بـدا القرآن بـذكر قصّـة يوسف من رؤياه العجيبـة ذات المعنى الكبير، لانّ هذه الرؤيا فى الواقع تعدّ اوّل فصل من فصول حياة يوسـف المتلاطمة.

جاء يوسف فى احـد الايّام صـباحا الى أبيه و هو فى غايـة الشوق ليحدثه عن رؤياه، و ليكشف سـتارا عن حادثة جديدة لم تكن ذات اهمية فى الظاهر، و لكنّها كانت إرهاصا لبداية فصل جديد من حياته إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۶

رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى ساجِدِينَ

يقول ابن عباس: (انّ يوسف راى رؤياه ليلة الجمعة التى صادفت ليلة القدر) (ليلة تعيين الأقدار و الآجال).

و لكن كم كان ليوسف من العمر حين راى رؤياه؟! هناك من يقول: كان ابن تسع سنوات، و من يقول: ابن سبع، و منهم من يقول: ابن اثنتى عشرة سنة، و القدر المسلم به انّه كان صبيّا.

و ممّا يسـتلفت الانتباه الى جملـة «رأيت» جاءت مكررة فى الآيـة للتأكيـد و القاطعيـة، و هى اشارة الى ان يوسف عليه السّـلام يريد ان يقول: إذا كان كثير من الناس ينسون رؤياهم و يتحدثون عنها بالشك و التردّد، فلست كذلك. بل اقطع بأنّى رأيت احد عشر كوكبا و الشمس و القمر ساجدين لى دون شك.

و اللطيفـة الاخرى هى انّ ضـمير «هم» الـذى يأتى لجمع المـذكر السالم العاقل، قـد اسـتعمل للكواكب و الشّـمس و القمر، و مثل هذا الاسـتعمال «ساجدين» ايضا اشارة الى انّ سجود الكواكب لم يكن من قبيل الصدفة بل كان امرا مدروسا و محسوبا كما يسجد الرجال العقلاء! و واضـح- طبعـا- انّ السـجود المقصود منه هنـا هو الخضوع و التواضع، و الّا فإنّ السـجود المعروف عنـد الناس لا مفهوم له بالنسبة للكواكب و الشمس و القمر.

ان هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزى تركت يعقوب النّبى غارقا فى التفكير ...

فالقمر و الشـمس و الكواكب، و اى الكواكب! انّها احـد عشـر يسـجدون جميعا لولـدى يوسف، كم هى رؤيا ذات مغزى! لا شك انّ الشـمس و القمر «انا و امه او خالته» و الكواكب الأحد عشـر اخوته، هكذا يرتفع قدر ولدى حتى تسـجد له الشمس و القمر و كواكب السّماء.

ان ولدى «يوسف» عزيز عند اللّه إذا راى هذه الرؤيا المثيرة! لذلك توجه الى يوسف بلهجة يشوبها الاضطراب و الخوف المقرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۷

«بالفرحـة» و قـالَ يـا بُنَيَّ لا تَقْصُـصْ رُؤْياكَ عَلى إِخْوَتِكَ فَيَكِيـدُوا لَكَ كَيْـداً و انا اعرف إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَـدُوٌّ مُبِينٌ و هو منتظر الفرصة ليوسوس لهم و يثير نار الفتنة و الحسد و ليجعل الاخوة يقتتلون فيما بينهم.

الطريف هنـا انّ يعقوب لم يقـل «أخـاف من إخوتـك ان يقصـدوا إليـك بسوء» بـل اكّـد ذلك على انّه امر قطعى، و خصوصا بتكرار «الكيد» لانّه كان يعرف نوازع ابنائه و حساسيّاتهم بالنسبة لأخيهم يوسف، و ربّما كان اخوته يعرفون تأويل الرؤيا، ثمّ انّ هذه الرؤيا لم تكن بشكل يعسر تعبيرها.

و من جهـة اخرى لا يتصور ان تكون هذه الرؤيا شبيهة برؤيا الأطفال، إذ يمكن احتمال رؤية الأطفال للشـمس و القمر و الكواكب فى منامهم، و لكن ان تكون الشـمس و القمر و الكواكب موجودات عاقلـة و تنحنى بالسـجود لهم، فهـذه ليست رؤيا أطفال ... و من هـذا

المنطلق خشی یعقوب علی ولده یوسف نائرة الحسد من اخوته علیه.

و لکن هـذه الرؤیا لم تکن دلیلا علی عظمة یوسف فی المسـتقبل من الوجهة الظاهریة و المادیة فحسب، بل تدل علی مقام النبوّة التی سیصل إلیها یوسف فی المستقبل.

و لذلک فقد أضاف یعقوب- لولده یوسف- قائلا: وَ کَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ ۷۰] الْأَحادِیثِ وَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ عَلی آلِ یَعْقُوبَ کَما أَتَمَّها عَلی أَبَوَیْکَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِیمَ وَ إِسْحاقَ

اجل فإنّ اللّه علی کل شیء قدیر و إِنَّ رَبَّکَ عَلِیمٌ حَکِیمٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۸

ملاحظات

۱- الرّؤیا و الحلم

اشارة

انّ مسألة الرؤیا فی المنام من المسائل التی تستقطب أفکار الافراد العادیین من الناس و العلماء فی الوقت نفسه.

فما هذه الأحلام التی یراها الإنسان فی منامه من احداث سیئة او حسنة، و میادین موحشة او مؤنسة، و ما یثیر السرور او الغم فی نفسه؟! أ هی مرتبطة بالماضـی الـذی عشـعش فی اعمـاق روح الإنسـان و برز الی الساحـة بعـد بعض التبـدیلات و التغییرات؟ ام هی مرتبطة بالمسـتقبل الذی تلتقط صوره عدسة الروح برموز خاصّة من الحوادث المستقبلیة؟! او هی انواع مختلفة، منها ما یتعلق بالماضی، و منها ما یتعلق بالمسـتقبل، و منها ناتـج عن المیول النفسـیة و الرغبات و ما الی ذلک ...؟! انّ القرآن یصـرّح فی آیات متعـددة انّ بعض هذه الأحلام- علی الأقل- انعکاسات عن المستقبل القریب او البعید.

و قـد قرانا عن رؤیا یوسف فی الآیات المتقدمـة، کما سـنری قصّة الرؤیا التی حدثت لبعض السـجناء مع یوسف فی الآیة (۳۶) و قصّة رؤیا عزیز مصر فی الآیة (۴۳) و جمیعها تکشف الحجب عن المستقبل.

و بعض هـذه الحوادث- کمـا فی رؤیا یوسف- تحقق فی وقت متأخر نسبیا «یقال انّ رؤیا یوسف تحققت بعـد أربعین سـنة» و بعضـها تحقق فی المستقبل القریب کما فی رؤیا عزیز مصر و لمن فی السجن مع یوسف.

و فی غیر سورة یوسف إشارات الی الرؤیا التی کان لها تعبیر ایضا، کما ورد فی سورة الفتح عن رؤیا النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و ما ورد فی سورة الصافات عن رؤیا إبراهیم الخلیل «و هذه الرؤیا کانت وحیا الهیا بالاضافة لما حملت من تعبیر».

و نقرا

فی الحدیث عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الرؤیا قوله: «الرؤیا ثلاث:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۲۹

بشری من اللّه، و تحزین من الشیطان، و الذی یحدث به الإنسان نفسه فیراه فی منامه»[۷۱].

و واضـح انّ أحلام الشـیطان لیست شـیئا حتی یکون لها تعبیر، و لکن ما یکون من اللّه فی الرؤیا فهی تحمل بشارة حتما ... و یجب ان تکون رؤیا تکشف الستار عن المستقبل المشرق.

و علی کل حال یلزمنا هنا ان نبیّن النظرات المختلفة فی حقیقة الرؤیا، و نشیر إلیها بأسلوب مکثف مضغوط.

و التفاسیر فی حقیقة الرؤیا کثیرة و یمکن تصنیفها الی قسمین هما:

۱- التّفسیر المادی ۲- التّفسیر المعنوی

۱- التّفسیر المادی:

یقول الماديون: یمکن ان تکون للرؤیا عدّة علل:

الف: قد تکون الرؤیا نتیجة مباشرة للأعمال الیومیة، ای انّ ما یحدث للإنسان فی یومه قد یراه فی منامه.

ب- و قد تکون الرؤیا عبارة عن سلسلة من الامانی، فیراها الإنسان فی النوم کما یری الظمآن فی منامه الماء، او ان إنسانا ینتظر مسافرا فیراه فی منامه قادما من سفره.

ج- و قد یکون الباعث للرؤیا الخوف من شیء ما، و قد کشفت التجارب ان الذین یخافون من لص یرونه فی النوم.

امّا فروید و اتباعه فلدیهم مذهب خاص فی تفسیر الأحلام، إذ انهم بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۰

شرح بعض المقدمات یقولون: انّ الرؤیا عبارة عن إرضاء المیول المکبوتة التی تحاول الظهور علی مسرح الوعی بعد تحویرها و تبدّلها فی عملیة خداع الانا.

و لزیادة الإیضاح یقولون:- بعد قبول ان النفس البشریة مشتملة علی قسمین «الوعی» و هو ما له ارتباط بالأفکار الیومیة و المعلومات الارادیة و الاختیاریة للإنسان، و «اللّاوعی» و هو ما خفی فی باطن الإنسان بصورة رغبة لم تتحقق- فکثیرا ما یحدث ان تکون لنا میول لکننا لم نستطع ارضاءها- لظروف ما- فتأخذ مکانها فی ضمیر الباطن: و عند النوم حین یتعطل جهاز الوعی تمضی فی نوع من إشباع التخیل الی الوعی نفسه، فتنعکس أحیانا دون تغییر [کمثل العاشق الذی یری فی النوم معشوقته و أحیانا تتغیر اشکالها و تنعکس بصور مناسبة، و فی هذه الحالة تحتاج الرؤیا الی تعبیر.

فعلی هذا تکون الأحلام مرتبطة بالماضی دائما و لا تخبر عن المستقبل ابدا، نعم یمکن ان تکون وسیلة جیدة لقراءة «ضمیر اللاوعی!».

و من هنا فهم یستعینون لمعالجة الأمراض النفسیّة المرتبطة بضمیر «اللاوعی» باستدراج أحلام المریض نفسه.

و یعتقد بعض علماء التغذیة انّ هناک علاقة بین الرؤیا و حاجة البدن للغذاء، فمثلا لو رای الإنسان فی نومه دما یقطر من أسنانه، فتعبیر ذلک انّ بدنه یحتاج الی فیتامین (ث) و إذا رأی فی نومه أن شعر رأسه صار أبیضا، فمعناه انّه مبتلی بنقص فیتامین (ب).

۲- التّفسیر المعنوی

و امّا الفلاسفة المیتافیزیقیون فلهم تفسیر آخر للرؤیا، حیث یقولون: انّ الرؤیا و الأحلام علی اقسام:

۱- الرّؤیا المرتبطة بماضی الحیاة حیث تشکل الرغبات و الامنیات قسما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۱

مهما من هذه الأحلام.

۲- الرؤیا غیر المفهومة و المضطربة و أضغاث الأحلام التی تنشأ من التوهم و الخیال (و ان کان من المحتمل ان یکون لها دافع نفسی.

۳- الرّؤیا المرتبطة بالمستقبل و التی تخبر عنه.

و ممّا لا شک فیه انّ الأحلام المتعلقة بالحیاة الماضیة و تجسّد الأمور التی راها الإنسان فی طول حیاته لیس لها تعبیر خاص ... و مثلها الاطیاف المضطربة او ما تسمی بأضغاث أحلام التی هی افرازات الأفکار المضطربة، کالاطیاف التی تمرّ بالإنسان و هو فی حال الهذیان او الحمّی، فهی- ایضا- لا یمکن ان تکون تعبیرا عن مستقبل الحیاة ... و لهذا فإنّ علماء النفس یستفیدون من هذه الأحلام و یتخذونها نوافذ للدخول الی ضمیر اللّاوعی فی البشر، و یعدّونها مفاتیح لعلاج الأمراض النفسیّة، و یکون تعبیر الرؤیا عند هؤلاء

لکشف الأسرار النفسیة و أساس الأمراض، لا لکشف حوادث المستقبل فی الحیاة! امّا الأحلام المتعلقة بالمستقبل فهی علی نحوین:

قسم منها أحلام واضحة و صریحة لا تحتاج الی تعبیر ... و أحیانا تتحقق بشکل عجیب فی المستقبل القریب او البعید دون ای تفاوت.

و هناک قسم آخر من هذه الأحلام التی تتحدث عن المستقبل، و لکنّها فی الوقت ذاته غیر واضحة، و قد تغیّرت نتیجة العوامل الذهنیة و الروحیّة الخاصّة فتحتاج الی تعبیر.

و لکل من هذه الأحلام نماذج و مصادیق کثیرة، و لا یمکن إنکارها جمیعا، لانّها لا فی المصادر المذهبیة او الکتب التأریخیة- فحسب- بل تتکرر فی حیاتنا او حیاة من نعرفهم بشکل لا یمکن عدّه من باب المصادفات و الاتفاقات!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۲

و نذکر هنا عدّة نماذج من الأحلام الصادقة التی کشفت بشکل عجیب عن حوادث مستقبلیة سمعناها من افراد موثوقین:

۱- المرحوم الآخوند ملا علی من علماء همدان الموثوقین و المعروفین ینقل عن المرحوم المیرزا عبد النّبی النوری و هو من علماء طهران الکبار هذه القضیة:

عند ما کنت فی سامراء کان یصلنی سنویا من مدینة مازندران مبلغ بمقدار مائة تومان تقریبا، و علی أساس هذا الأمر کنت استقرض دائما مقدار حاجتی من المؤونة و عند ما یصلنی هذا المبلغ کنت أقوم بتسدید هذه القروض.

و فی احد الأعوام جاءنی خبر مؤسف، و هو انّ المحصول الزراعی فی مازندران سیء للغایة بسبب القحط، و لهذا فإنّهم یعتذرون عن عدم إرسال المبلغ المقرر فی هذه السنة، و لما سمعت بذلک تألمت بشدّة و نمت و انا فی هذه الحال من الهم و الغم، فرأیت فی عالم الرؤیا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو یدعونی و یقول: یا فلان، قم و افتح تلک الخزانة (و أشار الی خزانة فی الحائط) و خذ منها مائة تومان موجودة هناک. فانتبهت من النوم، و لم تمض فترة حتی طرقت الباب بعد الظهر، فرأیت رسول المیرزا الشیرازی قدّس سرّه المرجع الکبیر للشیعة و قال لی: انّ المیرزا یدعوک: فتعجبت من هذه الدعوة فی هذا الوقت بالذات. فذهبت الیه فرأیته جالسا فی حجرته (و قد نسیت الرؤیا تماما) و فجأة قال لی المرحوم المیرزا الشیرازی: یا میرزا عبد النّبی افتح باب تلک الخزانة و خذ منها مائة تومان موجودة هناک. فتذکرت الرؤیا فورا و تعجبت کثیرا و أردت ان أقول شیئا، و لکنی شعرت بأنّه لا یرغب فی ذلک، فقمت الی الخزانة فأخذت المبلغ المذکور و خرجت.

۲- و ینقل صدیق- و هو محل اعتماد- ان المرحوم التبریزی صاحب کتاب «ریحانة الأدب» کان له ولد یشکو من یده الیمنی (ربّما کان مبتلی بالروماتیزم)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۳

بشکل یصعب علیه ان یمسک القلم بیده، فتقرر ان یسافر الی المانیا للمعالجة و یقول: حین کنت فی السفینة رأیت فی المنام ان امی توفیت ففتحت التقویم السنوی و سجلت الحادثة- مقیدة بالساعة و الیوم- و لم تمض فترة حتی رجعت الی بلدی فاستقبلنی جماعة من الأقارب و الأصدقاء فوجدتهم لبسوا ثیاب الحداد فتعجبت، و کنت قد نسیت الرؤیا، و أخیرا أخبرت- بالتدریج- ان امی توفیت، فتذکرت مباشرة رؤیای فی السفینة فأخرجت التقویم و سألت عن الیوم الذی توفیت فیه فکان مطابقا لذلک الیوم تماما.

۳- یقول سید قطب فی تفسیره «فی ظلال القرآن» فی هامشه علی الآیات المتعلقة بسورة یوسف: «إذا کنت أنکر جمیع ما قلتم فی الرؤیا فلن أستطیع ان أنکر ما حدث لی یوم کنت فی امریکا ابدا ... رأیت هناک فی المنام انّ ابن أختی قد نزفت عیناه دما و لا یستطیع ان یری (کان ابن أختی و سائر أعضاء اسرتی بمصر) فاستوحشت ممّا رأیت و کتبت رسالة الی اسرتی بمصر فورا، و سألتهم عن حال ابن أختی بوجه خاص، فلم تمض فترة حتی جاءتنی الجواب الذی یخبرنی بأنّ ابن أختی مبتلی بنزیف داخلی فی عینیه و لا یستطیع ان یری، و هو مشغول بالمعالجة.

و ممّا یستلفت النظر انّ النزف الداخلی کان بشکل لا یمکن رؤیته الّا بالاجهزة الطبیّة، و قد حرم ابن أختی من النظر و الرؤیة علی کل

حال. غیر اننی رأیت فی منامی حتی هذه المسألة الدقیقة.

ان الأحلام التی تکشف الحجب عن الأسرار و الحقائق المرتبطة بالمستقبل، او الحقائق الخفیّة المتعلقة بالحاضر، هی اکثر من ان تحصر، و لیس بمقدور بعض الافراد الذی لا یعتقدون بهذه الحقائق إنکارها، او حملها علی المصادفة و الاتفاق! و من خلال التحقیق مع الأصدقاء القریبین یمکن الحصول علی شواهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۴

کثیرة من هذه الأحلام، و هذه الأحلام لا یمکن تعبیرها عن طریق التّفسیر المادی ابدا، و انما الطریق الوحید هو تعبیر فلاسفة الروح و الاعتقاد باستقلال الروح، و من مجموع هذه الأحلام یمکن ان نستفید منها کشاهد علی استقلال الروح.

۲- فی الآیات- محل البحث- نلاحظ ان یعقوب- بالاضافة الی تحذیره لولده یوسف من ان یقصّ رؤیاه علی اخوته- فإنّه عبر عن رؤیاه بصورة اجمالیّة و قال له وَ کَذلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَ یُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ وَ یُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ وَ عَلی آلِ یَعْقُوبَ

و دلالة رؤیا یوسف علی انّه سیبلغ فی المستقبل مقامات کبیرة معنویة و مادیة یمکن درکها تماما ... و لکن یبرز هذا السؤال، و هو: کیف عرف یعقوب انّ ابنه یوسف سیعلم تأویل الأحادیث فی المستقبل؟ اهو خبر أخبره یعقوب لیوسف مصادفة و لا علاقة له بالرؤیا، ام انّه اکتشف ذلک من رؤیا یوسف؟

الظاهر ان یعقوب فهم ذلک من رؤیا یوسف، و یمکن ان یکون ذلک عن احد طریقین:

الاوّل: انّ یوسف فی حداثة سنّه و قد نقل لأبیه- خاصّة- بعیدا عن أعین اخوته (لانّ أباه أوصاه ان لا یقصّها علی اخوته) و هذا الأمر یدلّ علی ان یوسف نفسه کان له احساس خاص برؤیاه بحیث لم یقصصها بمحضر الجمیع ....

و لانّ مثل هذا الاحساس فی صبیّ- کیوسف علیه السّلام- یدلّ علی انّ له استعدادا روحیّا لتعبیر الرؤیا، و انّ أباه قد احسّ بهذا الاستعداد ... و بالتربیة الصحیحة سیکون له فی المستقبل حظّ زاهر فی هذا المجال.

الثّانی: انّ ارتباط الأنبیاء، بعالم الغیب له عدّة طرق، فمرّة عن طریق «الإلهامات القلبیة» و تارة عن طریق «ملک الوحی» و اخری عن طریق «الرؤیا».

و بالرغم من انّ یوسف لم یکن نبیّا فی ذلک الوقت، لکن رؤیته لهذه الرؤیا ذات المعنی الکبیر یدلّ علی ان سیکون له ارتباط بعالم الغیب فی المستقبل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۵

و لا بدّ أن یعرف تعبیر الرؤیا- طبعا- حتی یکون له مثل هذا الارتباط.

۳- من الدروس التی نستلهمها من هذا القسم من الآیات ان نحفظ الأسرار، و ینبغی ان یطبق هذا الدرس أحیانا حتی امام الاخوة، فدائما تقع فی حیاة الإنسان اسرار لو اذیعت و فشت بات مستقبله او مستقبل مجتمعه معرضا للخطر، و المواظبة علی حفظ هذه الأسرار دلیل علی سعة الروح و تملک الارادة، فکثیر من ضعاف الشخصیّة أوقعوا أنفسهم او مجتمعهم فی الخطر بسبب افشاء الأسرار، و کم یری الإنسان- من مساءة و ضرر لانّه ترک حفظ الأسرار ....

و فی هذا المجال

ورد حدیث عن الامام علی بن موسی الرضا علیه السّلام إذ قال: «لا یکون المؤمن مؤمنا حتی تکون فیه ثلاث خصال: سنّة من ربّه، و سنّة من نبیّه، و سنّة من ولیّه. فأمّا السّنة من ربّه فکتمان السرّ، و امّا السّنة من نبیّه فمداراة الناس، و امّا السّنة من ولیّه فالصبر علی البأساء و الضراء»[۷۲].

و

ورد حدیث عن الامام الصادق علیه السّلام یقول: «سرّک من دمک فلا یجرینّ من غیر أوداجک»[۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ (۷) إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۸) اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَ تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ (۹) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۱۰)

التّفسير

المؤامرة:

من هنا تبدا قصّة مواجهة اخوة يوسف و اشتباكهم معه:

ففى الآية الاولى- من الآيات محل البحث- اشارة الى الدروس التربوية الكثيرة التى توحيها القصّة، إذ تقول الآية: لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ

و فى انّ المراد بالسائلين، من هم؟ يقول بعض المفسّرين كالقرطبى فى التّفسير الجامع و غيره: انّ هؤلاء السائلين هم جماعة من يهود المدينة، جاؤوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۷

يسألون النّبى اسئلة فى هذا المجال، و لكن ظاهر الآية مطلق، فلا مرجّح لانّ يكون المراد بالسائلين هم اليهود دون غيرهم.

و ايّ درس أعظم من ان يجتمع عدّة افراد لإهلاك فرد ضعيف و وحيد- فى الظاهر- و بخطط اعدّها الحسد، و يبذلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، و لكن نفس هذا العمل- و دون شعور و ارادة منهم- بات سببا فى تربّعه على سرير الملك و صيرورته آمرا على البلد الكبير «مصر» ثمّ يأتى اخوته فى النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاما له، و هذا يدلّ على ان اللّه إذا أراد امرا فهو قادر على ان يجريه حتى على ايدى من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلّى ان الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيدا فى هذا العالم، فلو سعى جميع افراد هذا العالم الى إزهاق روحه و اللّه لا يريد ذلك، فإنهم لا يستطيعون ان يسلبوا منه شعرة واحدة.

كان ليعقوب اثنا عشر ولدا، و اثنان منهم: يوسف و بنيامين و هما من ام واحدة اسمها راحيل، و كان يعقوب يولى هذين الولدين محبّة خاصّة، لا سيما يوسف.

لانّهما اوّلا: أصغر أولاده، و بالطبع فهما يحتاجان الى العناية و الرعاية و المحبة.

و ثانيا: لانّ امّهما ارتحلت من الدنيا- طبقا لبعض الرّوايات- و بعد هذا كلّه كانت بوادر النبوغ و الذكاء و الحادّ ترتسم على يوسف، و هذه الأمور ادّت الى ان أن يولى يعقوب ابنه هذا عناية اكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۱۳۷

ان الاخوة الحساد- دون ان يلتفتوا الى هذه الجهات- تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف و أخيه، و خاصّة بعد اختلافهم فى الام و المنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم و تدارسوا الأمر و صمموا على المؤامرة إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا

مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ[۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۸

و حكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ان نـار الحسـد و الحقـد لم تـدعهم ليفكروا فى جميع جوانب الأمر ليكتشـفوا دلائل علاقـة الحبّ التى تربط يعقوب بولـديه يوسف و بنيامين، لانّ المنافع الخاصّـة لكل فرد تجعل بينه و بين عقله حجابا فيقضـى من جانب واحـد لتكون النتيجة «الضـلال عن جادة الحق و العـدل» و بـالطبع فـإنّ اتهامهم لأبيهم بالضـلالة، لم يكن المقصود منها الضـلالة الدينيـة، لانّ الآيات الآتيـة تكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، و انما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

ثمّ ادّى بهم الحسـد الى ان يخططوا لهـذا الأمر، فاجتمعوا و قدموا مقترحين و قالوا: اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً- أرسـلوه الى منطقة بعيدة- يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ

و من الحق ان تشعروا بالذنب و الخجل فى وجدانكم لانّكم تقدمون على هذه الجناية فى حق أخيكم الصغير، و لكن يمكن أن تتوبوا و تغسلوا الذنب تَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ

و هناك احتمال آخر لتفسـير هـذه الآيـة هو انّكم إذا أبعدتم أخاكم عن عينى أبيكم يصـلح ما بينكم و بين أبيكم و تذهب اتعابكم و يزول اذاكم من هذا الموضوع، و لكن التّفسير الاوّل اقرب للنظر! و على كل حال فإنّ هذه الجملة تدلّ على احساسهم بالذنب من هذا العمل، و كانوا يخافون اللّه فى اعماق قلوبهم، و لذلك قالوا: نتوب و نكون من بعده قوما صالحين.

و لكن المسألـة المهمـة هنـا هى انّ الحـديث عن التوبـة قبـل الجريمـة- فى الواقع- هو لأجـل خـداع «الوجـدان» و اغرائه و فتـح الباب للدخول الى الذنب، فلا يعدّ دليلا على الندم ابدا.

و بتعبير آخر: انّ التوبة الواقعية هى التى توجد بعد الذنب حالة من الندم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۳۹

و الخجل للإنسان، و امّا الكلام فى التوبة قبل الذنب فليس توبة.

و توضـيح ذلك انّه كثيرا ما يقع أن الإنسان حين يواجه الضـمير و «الوجـدان» عنـد الاقـدام على الذنب، او حين يكون الاعتقاد الدينى سدّا و حاجزا امامه يمنعه عن الذنب و هو مصمم عليه، فمن اجل ان يجتاز حاجز الوجدان او الشرع بيسر، يقوم الشخص بخداع نفسه و ضميره يأتى سوف اقف مكتوف اليدين بعد الذنب، بل سأتوب و امضى الى بيت اللّه و أؤدى الأعمال الصالحة، و سأغسل جميع آثار الذنوب.

اى انّه فى الـوقت الـذى يرسم الخطـة الشـيطانية للاقـدام على الـذنب، يرسم خطـة شـيطانية اخرى لمخادعـة الضـمير و الوجـدان ... و للاعتـداء على عقيـدته! فـإلى ايّ درجـة تبلغ هـذه الخطـة من السوء بحيث تمكّن الإنسان من تحقيق الجنايـة و الـذنب و كسـر الحاجز الدينى الذى يقف امامه!! انّ اخوة يوسف دخلوا من هذا الطريق ايضا.

المسألـة الدقيقـة الاخرى فى هذه الآية: انّهم قالوا: يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ و لم يقولون: يخل لكم قلب أبيكم، و ذلك لانّهم لم يطمئنّوا الى انّ أبـاهم ينسـى يوسف بهـذه السـرعة ... فيكفى ان يتوجه إليهم أبوهم، و لو ظـاهرا! و هنـاك احتمال آخر لهـذا التعبير، و هو أنّ الوجه و العينين نافذتان الى القلب، فمتى ما خلا الوجه لهم فإنّ القلب سيخلو و يتوجه إليهم بالتدريج.

و لكن كـان من بين الاـخوة من هو اكثر ذكـاء و ارق عاطفـة و وجـدانا، لاـنّه لم يرض بقتـل يوسف او إرساله الى البقاع البعيـدة التى يخشى عليه من الهلاك فيها ...

فاقترح عليهم اقتراحا ثالثا، و هو ان يلقى فى البئر (بشـكل لا يصـيبه مكروه) لتمرّ قافلـة فتأخذه معها، و يغيب عن وجه أبيه و وجوههم، حيث تقول الآية فى هذا الصدد قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَ أَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۰

ملاحظات

اشارة

۱- «الجبّ» معناه «البئر» التی لم تنضّد بالطابوق و الصخور، و لعلّ اغلب آبار الصحراء علی هذه الشاکلة.

و «الغیابة» المخبأ من البئر الغائب عن النظر و لعلّ هذا التعبیر یشیر الی ان الآبار الصحراویة یصنع فی قعرها مکان قریب من الماء، بحیث لو أراد احد النزول الی البئر لیستفید من الماء، فإنّه یستطیع ان یجلس هناک و یملا دلوه من ذلک الماء دون ان ینزل هو فی الماء، و بالطبع فإنّ من ینظر البئر من فوقها لا یری ذلک المکان و لذلک سمی «غیابة»[۷۵].

۲- لا شک انّ اقتراح هذا القائل أَلْقُوهُ فِی غَیابَتِ الْجُبِ لم یکن الهدف منه موت یوسف فی البئر، بل بقاءه سالما لتنقذه القافلة عند مرورها علی البئر للاستسقاء.

۳- یستفاد من جملة إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ انّ القائل لم یکن یرغب- أساسا- حتی بهذا الاقتراح و لعله کان لا یوافقهم علی إیذاء یوسف أصلا.

۴- هناک اختلاف بین المفسّرین فی اسم هذا الأخ القائل لا تَقْتُلُوا یُوسُفَ فقال بعضهم: اسمه «روبین» و کان اذکاهم، و قال بعضهم: اسمه «یهودا» و قال آخرون: اسمه «لاوی».

۵- اثر الحسد المدمّر فی حیاة الناس

الدرس الآخر الذی نتعلّمه من هذه القصّة، و هو انّ الحسد یمکن ان یدفع الإنسان حتی الی قتل أخیه، او إیجاد المشاکل له، فنار الحسد إذا لم یمکن إخمادها فإنّها ستحرق صاحبها بالاضافة الی إحراق الآخرین بها.

و أساسا إذا حرم الإنسان من نعمة أنعمها اللّه علی عبد سواه، فإنّه سیکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۱

امام اربع حالات مختلفة.

الاولی: ان یتمنّی ان ینعم اللّه علیه مثل ما أنعم علی غیره، و هذه الحالة تدعی «الغبطة» و هی جدیرة بالثناء و المدح، و لیس لها اثر سیء، لانّها تدعو صاحبها للسعی و الجدّ و المثابرة حتی ینال مثل ما نال المغبوط.

الثّانیة: ان یتمنّی ان تسلب هذه النعمة عن الآخرین، و یسعی من اجل تحقیق هذا التمنی، و هذه هی الحالة المذمومة الموسومة «بالحسد» التی تدعو صاحبها الی التخریب و سلب النعمة عن الآخرین، دون ان تدعوه لانّ یطلب من اللّه مثل ما اعطی غیره من النعم.

الثّالثة: ان یتمنّی ان تکون هذه النعمة له فقط و یحرم الآخرون منها و هذه الحالة تسمّی «البخل» و الانانیة التی تدعو الإنسان ان یطلب شیئا لنفسه، و یلتذّ من حرمان الآخرین.

الرّابعة: ان یتمنّی و یحب تنعّم الآخرین بهذه النعمة و ان کان محروما منها، و هو مستعدّ ان یقدّم ما عنده من أجلهم ... و بغض النظر عن منافعه الشخصیة، و هذه الحالة الرفیعة هی ما یسمّی ب «الإیثار» التی هی من أهم الصفات الانسانیة الحمیدة.

و علی کل حال فإنّ الحسد لا یقتصر علی قتل اخوة یوسف لأخیهم فحسب، بل قد یوصل الإنسان الی قتل نفسه.

و لهذا نجد فی الأحادیث الاسلامیة تعابیر مؤثرة تدعو الی مکافحة هذه الرّذیلة، و علی سبیل المثال نورد منها ما یلی:

۱-

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «انّ اللّه نهی موسی عن الحسد و قال له: انّ الحاسد ساخط لنعمی صادّ لقسمی الذی قسمت بین عبادی، و من یک کذلک فلست منه و لیس منّی»[۷۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۲

۲- و نقرا

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام یقول: «آفة الدین الحسد و العجب و المفاخرة»

کما نقرا له

حدیثا یقول: «انّ المؤمن یغبط و لا یحسد، و المنافق یحسد و لا یغبط»[۷۷].

۶- کما نستنتج درسا آخر من هذا المقطع فی القصّة، و هو انّ الوالدین ینبغی ان یلاحظا أبناءها الآخرین عند إبراز عنایتهما و محبّتهما لواحد منهم، فبالرغم من ان یعقوب لم یرتکب خطأ- دون ایّ شک- بالنسبة لإبراز علاقته لولدیه یوسف و بنیامین، و انّما کان کل ذلک وفق حسابات خاصّة. و لکن هذه الحادثة تکشف لنا انّه ینبغی ان یکون الإنسان اکثر إحساسا، فی هذه المسألة- من القدر اللازم. لانّ إبراز العلاقة لبعض الأبناء دون بعض توجد عقدة فی نفوس الآخرین، الی درجة انّها تجرّهم الی کل عمل مخرّب، حیث یجدون شخصیاتهم منهزمة و لا بدّ من تحطیم شخصیة أخیهم للتعویض عن هذه الهزیمة، فیکون الاقدام علی هذا العمل دون لحاظ الرحمیة و وشائج القربی.

و إذا لم یستطع الإنسان ان یقوم بعمل معاکس، فإنّه یظل یلوم نفسه و یحرضها حتی یبتلی بالمرض النفسی.

و ما زلت اذکر انّه کان لی صدیق قد مرض ولده الصغیر، فأوصی ولده الکبیر برعایته، و أخذ الأب یولی ولده الصغیر محبة و شفقة فائضة «لانّه مریض».

فلم تمض فترة حتی مرض هذا الابن الکبیر بمرض نفسی مجهول، قلت لذلک الصدیق العزیز: الا تفکّر انّ أساس المرض هو عدم العدالة بین ولدیک ...

لکنّه لم یصدّق، و أخیرا راجع الطبیب النّفسانی المختصّ فقال: ان ابنک لیس مریضا بمرض خاصّ، و انّما أساس مرضه هو اهتمامک بأخیه و عدم اهتمامک به، و هو یحس بأنّ شخصیته متعطشة للحنان و الحبّ، فی حین انّ أخاه لم یحرم منهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۳

و فی هذا الصدد نقرا

فی الرّوایات الاسلامیة ان الامام الباقر علیه السّلام قال یوما: «و اللّه انّی لأصانع بعض ولدی، و أجلسه علی فخذی، و انکز له المخّ، و اکسر له الکسر، و ان الحقّ لغیره من ولدی، و لکن مخافة علیه منه و من غیره، لا یصنعوا به ما فعل بیوسف اخوته، و ما انزل اللّه سورة الّا أمثالا لکی لا یجد بعضنا بعضا کما حسد یوسف اخوته، و بغوا علیه، فجعلها رحمة علی من تولّانا، و دان بحبّنا و حجّة علی أعدائنا و من نصب لنا الحرب و العداوة»[۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۴

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

اشارة

قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ (۱۱) أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۱۲) قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ (۱۳) قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ (۱۴)

التّفسير

المؤامرة المشؤومة

! بعد ان صوّب اخوة يوسف اقتراح أخيهم فى عدم قتل يوسف، و القائه فى الجبّ، أخذوا يفكرون فى كيفية فصل يوسف عن أبيه لذلك اقدموا على تخطيط آخر، فجاءوا الى أبيهم بلسان ليّن يدعو الى الترحم، و فى شكل يتظاهرون به انهم مخلصون له و حدثوا أباهم و قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلى يُوسُفَ وَ إِنَّا لَهُ لَناصِحُونَ

تعال يا أبانا و ارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا و ما يزال صبيا و بحاجة الى اللهو و اللعب، و ليس من الصحيح حبسه عندك فى البيت، فخلّ سبيله أَرْسِلْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۵

مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَ يَلْعَبْ ۷۹].

و إذا كنت تخشى عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

و بهذا الأسلوب خططوا لفصل أخيهم عن أبيه بمهارة، و لعلّهم قالوا هذا الكلام امام يوسف ليطلب من أبيه إرساله معهم.

و هذه الخطة تركت الأب- من جانب- امام طريق مسدود، فإذا لم يرسل يوسف مع اخوته فهو تأكيد على اتهامه ايّاهم، و حرضت- من جانب آخر- يوسف على ان يطلب من أبيه الذهاب معهم ليتنزّه كما يتنزه اخوته، و يستفيد من هذه الفرصة لاستنشاق الهواء الطلق خارج المدينة.

اجل، هكذا تكون مؤامرات الذين ينتهزون الفرصة، و غفلة الطرف الآخر، فيستفيدوا من جميع الوسائل العاطفية و النفسيّة، و لكن المؤمنين ينبغى الّا ينخدعوا بحكم

الحديث المأثور «المؤمن كيّس»

اى فطن ذكى فلا يركنوا للمظهر المنمّق حتى لو كان ذلك من أخيهم.

و لكن يعقوب- دون ان يتهم اخوة يوسف بسوء القصد- اظهر تردّده فى إرسال يوسف لامرين: الاوّل: انه سيبتعد عنه فيحزن عليه، و الثانى: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَ أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ

و هذه المسألة طبيعية، حيث قد يبتعد اخوة يوسف عنه فيغفلون عن امره، فيأتى إليه الذئب فيأكله.

و بديهى انّ الاخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الاوّل الذى أشار اليه أبوهم يعقوب، لانّ الحزن و الاغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئا عاديّا حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۶

يعوّض عنه، و ربّما كان هذا التعبير مثيرا لنار الحسد فى اخوة يوسف اكثر.

و من جهة اخرى فإنّ هذا الموضوع الذى أشار اليه يعقوب، و هو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، و هو لا يحتاج الى بيان، لانّ الولد لا بدّ له من الابتعاد عن أبيه من اجل ان ينمو و يرشد، و إذا أريد له ان يكون كنبات «النّورس» بحيث يبقى تحت ظل شجرة

«وجود الأب» فإنّه سوف يبقى عالة عليه فلا بدّ من هذا الابتعاد و الانفصال حتى يتكامل ولده، فاليوم تنزّه و غدا اجتهاد و مثابرة لتحصيل العلم، و بعد غد عمل و سعى للحياة، و أخيرا فإنّ الانفصال لا بدّ منه.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الاوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثّانى لانّه كان مهما و اساسيا بالنسبة لهم إذ قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ

اى: أ ترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله! ثمّ اضافة الى علاقة الاخوة التى تدفعنا للحفاظ على أخينا، ما عسى ان نقول للناس عنّا؟ هل ننتظر ليقال عنّا: انّ جماعة أقوياء و فتية أشداء جلسوا و تفرجوا على الذئب و هو يفترس أخاهم! فهل نستطيع العيش بعد هذا مع الناس؟! لقد أجابوا أباهم بما تضمن قوله: أَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَ أَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ و مشغولون بلعبكم، كيف يكون ذلك؟ و المسألة ليست بهذه البساطة ...

انّها الخسارة و ذهاب ماء الوجه و الخزى ... إذ كيف يمكن لواحد منّا ان يشغله اللعب فيغفل عن أخيه يوسف، لانّه فى مثل هذه الحال لا تبقى لنا قيمة و لا نصلح لاى عمل.

و يبرز هنا سؤال مهم ... و هو: لماذا أشار يعقوب الى خطر الذئب من دون الاخطار الاخرى؟! قال البعض: ان صحراء كنعان- كانت- «صحراء مذئبة» و من هنا كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۷

الخوف من الذئب اكثر من غيره.

و قال البعض: كان ذلك للرؤيا التى رآها يعقوب من قبل و هى ان ذئابا هجمت على ولده يوسف.

و هناك احتمال آخر هو ان يعقوب أجابهم بلسان الكناية، و المقصود من الذئاب فى كلامه هم الأناس المتصفون بصفة الذئب اخوة يوسف.

و على كل حال فقد استطاع اخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، و بتحريك احاسيس يوسف النقيّة و ترغيبه الى التنزه خارج المدينة، و ربّما كان الاوّل مرّة يتاح ليوسف ان يحصل على مثل هذه الفرصة ... استطاعوا ان يأخذوا يوسف معهم و ان يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

بحوث

اشارة

و ينبغى هنا الالتفات الى عدة دروس حيّة تستلهم من هذه القصّة:

۱- مؤامرات الأعداء فى ثياب الأصدقاء

من الطبيعى انّ الأعداء لا يدخلون الميادين- عند الهجوم- بصراحة و دون استتار ابدا.

بل انّهم من اجل تفويت الفرصة على الطرف الآخر و استغفاله و سلبه كل وسائل الدفاع يسعون الى إخفاء عملهم تحت قناع جذاب انّ اخوة يوسف اخفوا خطة هلاكه او ابعاده تحت غطاء اسمى الاحاسيس و العواطف الاخوية، هذه الاحاسيس التى كانت تحرك يوسف من جهة لانّ يمضى معهم، و كانت عند أبيهم موضع قبول من جهة اخرى ايضا.

و هذه هى الطريقة التى نواجهها فى حياتنا اليوميّة على المدى الواسع، و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۸

تلقيناه من ضربات قاسية من أعدائنا المخاتلين بثياب الأبرار فى هذا المضمار غير قليل، و لها مظاهر متعددة، فمرة بمظهر المساعدات الاقتصادية، و اخرى تحت ستار التبادل الثقافى، و ثالثة فى ثوب الدفاع عن حقوق البشر، و رابعة بأسلوب المعاهدات الدفاعية ... كل تلك الأمور كانت نتيجة اسوا القرارات الاستعمارية المذلّة للأمم المستضعفة و التى من ضمنها أمتنا الاسلاميّة.

و لكن و مع هذه التجارب التاريخيّة ينبغى ان نكون حذرين للغاية و ان نعرف أعداءنا جيدا، فلا نحسن الظن بهذه الذئاب البشرية التى تريد ان تمتص دماءنا بما تظهره من عواطف و احاسيس متلبسة بثياب المخلصين المتفانين فما زلنا نتذكر ما فعلته الدول المتسلطة على العالم حيث أرسلت تحت ستار المساعدات الطبيّة الى بعض الدول الافريقية المتضررة بالحرب اسلحة و عتاد أرسلت الى عملائها، كما بعثت اخطر جواسيسها تحت ثياب الدبلوماسية و السفارات و الممثلين لها الى مختلف مناطق العالم.

و تحت ستار الخبراء العسكريين و تدريب الدّول المستضعفة على الاسلحة الحديثة و المتطورة كانوا يأخذون مع عودتهم جميع الأسرار العسكرية لتلك الدولة.

و بإرسال خبراء فنيين!! الى هذه الدول يربطوا عجلة اقتصادها بالمناهج تكرس التبعية ترى، أ ليست كل هذه التجارب التأريخيّة كافية لئلّا ننخدع بهذه الزخارف البرّاقة الكاذبة و ان نعرف وجوه هؤلاء الذئاب المتظاهرين بالانسانيّة.

۲- حاجة الإنسان الفطرية و الطبيعية الى التنزّه و الارتياح

من الطريف ان يعقوب عليه السّلام لم يردّ على كلام اخوة يوسف و استدلالهم على انّه بحاجة الى التنزه و الارتياح، بل وافق على ذلك عمليّا، و هذا دليل كاف على ان ايّ عقل سليم لا يستطيع ان ينكر هذه الحاجة الفطرية و الطبيعيّة ... فالإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۴۹

ليس آلة تستعمل فى اى وقت كان و كيف كان، بل له روح و نفس ينالهما التعب و النصب كما ينالان الجسم. فكما ان الجسم يحتاج الى الراحة و النوم، كذلك الرّوح و النّفس بحاجة الى التنزّه و الارتياح السليم.

التجربة- ايضا- تدل على ان الإنسان كلّما واصل عمله بشكل رتيب، فإنّ مردود هذا العمل سيقلّ تدريجيا نتيجة ضعف النشاط، و على العكس من ذلك فإنّ الاستراحة لعدة ساعات تبعث فى الجسم نشاطا جديدا بحيث تزداد كمية العمل و كيفيته معا، و لذلك فإنّ الساعات التى تصرف فى الراحة و التنزه تكون عونا على العمل ايضا.

و فى الرّوايات الاسلامية نجد هذه الواقعية بأسلوب طريف جاء بمثابة «القانون» حيث

يقول الامام على عليه السّلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فساعة يناجى فيها ربّه، و ساعة يرمّ معاشه، و ساعة يخلى بين نفسه و بين لذّتها فيما يحلّ و يجمل»[۸۰].

و ممّا يستجلب النظر انّ فى بعض الرّوايات الاسلامية أضيفت هذه الجملة الى النص المتقدم «و ذلك عون على سائر الساعات».

و على حدّ تعبير البعض فإنّ التنزّه و الارتياح بمثابة تدهين و تنظيف اجهزة السيّارة، فلو توقفت هذه السيارة ساعة عن العمل لمراقبة اجهزتها و تنظيفها، فإنها ستغدو اكثر قوة نشاطا يعوّض عن زمن توقفها اضعاف المرات، كما انه سيزيد من عمر السيارة ايضا.

لكن المهم ان يكون هذا التنزّه صحيحا، و الّا فإنه لا يحل المشكلة، بل سيزيدها، فإنّ كثيرا من حالات التنزّه هذه تدمر الإنسان و تسلب منه نشاطه و قدرته على العمل لفترة ما، او على الأقل تخفف من نشاط عمله.

و هناك نقطة تدعو للالتفات ايضا، و هى ان الإسلام اهتم بمسألة الترويض و الاستراحة النفسية بحيث أجاز المسابقات فى هذا

المضمار .. و یحدثنا التاریخ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۰

انّ قسما من هذه المسابقات جرت بمرأی من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أحیانا کانت تناط الیه مهمة التحکیم و القضاء فی هذه المسابقة، و ربّما اعطی ناقته الخاصّة- لبعض الصحابة للتسابق علیها.

ففی روایة الامام الصادق علیه السّلام انّه قال: «ان النّبی اجری الإبل مقبلة من تبوک فسبقت العضباء و علیها اسامة، فجعل الناس یقولون: سبق رسول اللّه و رسول اللّه یقول: سبق اسامة[۸۱]»

(اشارة الی ان المهم فی السبق هو الراکب لا المرکب، حتی و ان کان المرکب السابق عند من لا یجیدون السبق).

النقطة الاخری هی انّه کما ان اخوة یوسف استغلّوا علاقة الإنسان- و لا سیما الشاب- بالتنزّه و اللعب من اجل الوصول الی هدفهم الغادر ... ففی حیاتنا المعاصرة- ایضا- نجد اعداء الحق و العدالة یستغلّون مسألة الریاضة و اللعب فی سبیل تلویث أفکار الشباب، فینبغی ان نحذر المستکبرین «الذئاب» الذین یخططون لإضلال الشباب و حرفهم عن رسالتهم تحت اسم الریاضة و المسابقات المحلّیة و العالمیة.

و لا ننسی ما کان یجری فی عصر الطاغوت (الشاه)، فإنّهم و بهدف تنفیذ بعض المؤامرات و نهب ثروات البلاد و تحویلها الی الأجانب لقاء ثمن بخس، کانوا یرتّبون سلسلة من المسابقات الریاضیة الطویلة العریضة لالهاء الناس لئلّا یطلعوا علی المسائل السیاسیّة.

۳- الولد فی ظلّ الوالد

إذا کانت محبّة الأب الشدیدة او الام بالنسبة للولد تستوجب ان یحفظ الی جانبهما، الّا ان من الواضح ان فلسفة هذه المحبة من وجهة نظر قانون الخلقة هی المحافظة التامة علی الولد عند الحاجة إلیها، و علی هذا الأساس ینبغی ان تقل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۱

هذه المحافظة کلّما تقدّمت به السن، و یمنح الولد الاجازة لیخطو فی حیاته نحو الاستقلال، و الّا فسیکون کمثل غرسة النّورس تحت ظل الشجرة القویة دائما لا تنمو کما یلزم.

و ربّما وافق یعقوب علیه السّلام- لهذا السبب- علی اقتراح ابنائه رغم علاقته الشدیدة بیوسف، و أرسله معهم الی خارج المدینة، و مع انّ هذا الأمر کان صعبا علی یعقوب، و لکن مصلحة یوسف و حاجته الی الرشد و النموّ کانت تستوجب ان یجیزه أبوه لیبتعد عنه ساعات و ایّاما! و هذه مسألة تربویة مهمّة غفل عنها کثیر من الآباء و الأمهات، حیث یربّون أولادهم تربیة بحیث لا یستطیعون ان یعیشوا خارج «خیمة الأبوین» و محافظتهما علیهم، و بالتالی یسقطون امام تیارات الحوادث و ضغوطها، کما ان هناک رجالا عظماء فقدوا والدیهم فی دور الطفولة، و لکنّهم صنعوا أنفسهم بأیدیهم و واجهوا المشاکل و تجاوزوها.

فالمهم ان یلتفت الوالدان الی هذه المسألة التربویة، و الّا فستکون محبتهما «الکاذبة» مانعا من استقلال أولادهم.

من الطریف ان هذه المسألة موجودة فی بعض الحیوانات بشکل غریزی، فنحن نری أفراخ الدجاج «الفروج»- مثلا- یبدأ حیاته تحت جناحی امه، و تحافظ الدجاجة الام علیها کما تحافظ علی روحها «العزیزة».

و لکن بعد فترة حیت تکبر هذه الافراخ فإنّ الام لا تترک المحافظة علی هذه الافراخ فحسب، بل تنقر ایّا منها یصل إلیها. و معنی هذا انّها ترید ان تعوّدهم علی ان یتعلموا طریق الحیاة المستقلة! فإلی متی تعیشون غیر مستقلین؟! و لکن هذا الموضوع لا ینافی تقویة الروابط العائلیة و المحافظة علی المودة و المحبّة، بل هی محبّة عمیقة و علاقة محسوبة و نافعة للطرفین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۲

۴- لا قصاص و لا اتهام قبل الجناية

نشاهد فى هذا الفصل من القصّة انّ يعقوب بالرغم من علمه بما سيقدم عليه اخوة يوسف ... و تحذيره ولده يوسف ألّا يقصص رؤياه على اخوته، و ان يكتم الأمر، الّا انّه لم يكن مستعدا لانّ يتّهمهم بقصد الاساءة الى يوسف، بل كان عذره إليهم انّه يحزنه فراقه، و يخاف ان يأكله الذئب فى الصحراء.

و الأخلاق و المعايير الانسانية و الاسس القضائية العادلة توجب ذلك ايضا، فحيث لم تتوفر لدينا علامة ظاهرة على مخالفة شخص ما فلا ينبغى اتّهامه، فالأصل البراءة و الصحّة و الطهارة الّا ان يثبت خلافه.

۵- تلقين العدوّ

المسألة الاخرى اننا نقرا- فى ذيل الآيات المتقدمة-

رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انّه قال: «لا تلقّنوا الكذّاب فيكذب فإنّ بنى يعقوب عليه السّلام لم يعلموا ان الذئب يأكل الإنسان حتى لقّنهم أبوهم»[۸۲].

اشارة الى انه قد يحدث أحيانا ان لا يلتفت الطرف الآخر الى الحيلة و الى طريق الاعتذار و انتخاب طريق الانحراف، فعليكم ان تحذروا من ذكر الاحتمالات المختلفة التى تبيّن له طرق الانحراف.

و مثل هذا يشبه تماما ما لو قال الإنسان لطفله: لا ترم الكرة باتّجاه المصباح، و لم يكن الطفل يعلم ان الكرة يمكن ان ترمى نحو المصباح، فيلتفت الى ان مثل هذا العمل ممكن، و تتحرك فيه نوازع الفحص ... ماذا سيكون لو رميت الكرة باتجاه المصباح؟ ثمّ يبدأ «لعبته» لتنتهى بتكسّر المصباح! و ليس هذا موضوعا هينا و لا خاصا بالأطفال، فقد يتفق أحيانا ان الأوامر و النواهى الخاطئة، تسبب ان يتعلم الناس أشياء لم يعرفوها من قبل، فتوسوس لهم أنفسهم ان يقدموا عليها، فينبغى فى مثل هذه الموارد- قدر المستطاع- ان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۳

تثار المسائل بشكل لا يبعث على اى تعلّم سيئ! و بالطبع فإنّ يعقوب النّبى عليه السّلام قال كلامه عن صفاء و طهارة قلب، الّا انّ أبناءه الضالين استغلوا كلامه لقصدهم السيئ.

و شبيه هذا الموضوع الأسلوب الذى نجده فى كثير من المقالات، فمثلا قد يكتب أحدهم مقالة- او يقوم بإخراج فيلما او غيرها- عن ضرر الموادّ المخدرة او الاستمناء، فيتناول هذه المسائل بصورة يتعلمها غير المطلعين و ينسون المسائل التى تذكر فى هذه المواضيع لذم هذه الأعمال و بيان طرق النجاة منها، و لذلك فغالبا ما يكون ضرر هذه المقالات و الافلام و خسارتها اكثر من فائدتها بمراتب.

۶- و آخر نقطة نشير إليها هنا انّ اخوة يوسف قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ و هى اشارة الى انّ الإنسان إذا تحمّل مسئولية ما- و وافق عليها- فإنّ من الواجب عليه ان يوقف نفسه من أجلها ... و الّا فإنّه سيفقد كل قيمه- قيمة شخصيته، و ماء وجهه، و الموقع الاجتماعى، و وجدانه.

فكيف يعقل ان يكون الشخص ضمير حىّ و وجدان يقظ و شخصية كريمة يعتز بحيثيته و ماء وجهه، و مع كل ذلك يتنصل عن مسئولياته و يقف موقفا سلبيا ازاءها؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۵) وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ (۱۶) قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ (۱۷) وَ جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (۱۸)

التّفسير

الكذب المفضوح:

و أخيرا انتصر اخوة يوسف و اقنعوا أباهم ان يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئنى البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم و ازاحة أخاهم الذى يقف عائقا فى طريقهم ... و كان قلقهم الوحيد ان يندم أبوهم و يسحب كلامه و وعده بإرسال يوسف معهم.

فجاءوا صباحا الى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، و كرر توصياته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۵

فى شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم و ابدوا احترامهم الفائق و محبتهم العميقة، و تحركوا الى خارج المدينة.

يقال: انّ أباهم ودعهم الى بوابة المدينة ثمّ أخذ منهم يوسف و ضمّه الى صدره و دمعت عيناه، ثمّ أودع يوسف عندهم و فارقهم، و لكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، و كان اخوة يوسف لا- يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف و اظهار عنايتهم به و محبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، و لكن ما ان غاب عنهم أبوهم و اطمأنوا الى انّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم و صبوا «جام غضبهم» و حقدهم و حسدهم المتراكم لعدّة سنوات على راس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم و يلتجئ من واحد لآخر و يستجير بهم فلا يجيره احد منهم.

نقرا فى رواية انّ يوسف كان يبكى تحت وابل اللكمات و الضربات القاسيّة، و لكن حين أرادوا ان يلقوه فى الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب اخوته كثيرا و حسبوا ان أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحا ... و لكنّه رفع الستار عن ضحكه و علّمهم درسا كبيرا إذ قال:- لا انسى اننى نظرت- ايها الاخوة- الى عضلات أيديكم القويّة و قواكم الجسدية الخارقة، فسررت و قلت فى نفسى: ما عسى ان يخشى و يخاف من الحوادث و الملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الاخوة، فاعتمدت عليكم و ربطت قلبى بقواكم، و الآن و قد أصبحت أسيرا بين أيديكم و استجير بكم من واحد للآخر فلا أجار، و قد سلطكم اللّه علىّ لا تعلم هذا الدرس، و هو الّا اعتمد و اتوكّل على احد سواه ... حتى و لو كانوا اخوتى.

و على كل حال فالقرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِ ۸۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۶

جملة «اجمعوا» تدلّ على انّ جميع الاخوة كانوا متفقين على هذه الخطّة، و ان لم يتفقوا جميعا على قتله.

و أساسا فإنّ كلمة «اجمعوا» مأخوذة من مادة «جمع» و هى فى هذه الموارد اشارة الى جمع الآراء و الأفكار.

ثمّ تبيّن الآية انّ اللّه اوحى الى يوسف و هدا روعه و ألهمه الّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

ذلك اليوم الذى تجلس فيه على العرش و أنت القوى الأمين، فيأتى إخوتك ليمدّوا ايدى الحاجة إليك، و يكونوا كالظامئين الى

النبع العذب فى الصحراء اللاهبة و يسرعون إليك فى منتهى التواضع، و لكنّك فى حال من العظمة بحيث لا يصدّقون انك أخوهم، و ستقول لهم فى ذلك اليوم: أ لستم الذين فعلتم مع أخيكم الصغير يوسف كذا و كذا ... و كم سيكونون خجلين من فعلهم هذه فى ذلك اليوم! و هذا الوحى الالهى لم يكن وحى النبوة، بقرينة الآية (۲۲) من السورة ذاتها، بل كان إلهاما لقلب يوسف ليعلم انه ليس وحيدا، بل له حافظ و رقيب، و هذا الوحى بثّ فى قلب يوسف نور الأمل و أزال عن روحه ظلمات اليأس و الحيرة.

لقد نفّذ اخوة يوسف خطتهم كما أرادوا، و لكن ينبغى ان يفكروا عند العودة ماذا كيف كى يصدّق أبوهم ان يوسف انتهى بصورة طبيعية لا عن مكيدة ليضمنوا عواطف أبيهم نحوهم.

و كانت الفكرة التى أوصلتهم الى هذا الهدف هى ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه- ظاهرا- عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف و جاؤوا اليه بدلائل مزيّفة!! يقول القرآن الكريم: وَ جاؤُ أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ بكاء كاذبا، و هذا يدلّ على انّ البكاء الكاذب ممكن .. و لا يمكن ان يخدع ببكاء العين وحدها.

امّا الأب الذى كان ينتظر مجىء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۷

و ارتجف حين راى الجمع و ليس بينهم يوسف، و سأل عنه مستفسرا ... فأجابوه و قالُوا يا أَبانا إِنَّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَ تَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا لصغر سنه و لانّه لا يعرف التسابق، و انشغلنا عنه فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ

لأنك أخبرتنا من قبل بهذا الاحتمال، و ستظن ان ادّعاءنا مجرّد احتيال.

لقد كان كلام اخوة يوسف مدروسا بشكل دقيق، و ذلك- اوّلا- لانّهم خاطبوا يعقوب بقولهم بكلمة «يا أَبانا» و فيها ما فيها من الاستعطاف.

و ثانيا: لانّ من الطبيعى ان ينشغل هؤلاء الاخوة الأقوياء بالتسابق، و يتركوا أخاهم الصغير رقيبا على متاعهم، و بعد ذلك كله فقد جاؤوا أباهم يبكون لتمرير خطتهم، و قالوا له: وَ ما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَ لَوْ كُنَّا صادِقِينَ

و من اجل ان يبرهنوا على صحة كلامهم فقد جاؤُ عَلى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ إذ لطخوا الثوب بدم الغزال او الخروف او التيس ...

و لكن حيث انّ الكاذب لا يمتلك حافظة قويّة، و حيث ان اية حقيقة فيها علائق مختلفة و كيفيات و مسائل يقل ان تجتمع منظّمة فى الكذب، فقد غفل اخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... و هى- على الأقل- ان يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب ... فقد قدّموا القميص سالما غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما ان وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شىء و قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً.

جاء فى بعض الرّوايات انّ يعقوب أخذ قميص يوسف و هو يقلّبه و يقول:

«ما أرى اثر ناب و لا ظفر انّ هذا السبع رحيم»، و فى رواية انّه أخذ القميص و ألقاه على وجهه و بكى حتى خضب وجهه بدم القميص، و قال: تاللّه ما رأيت كاليوم ذئبا احلم من هذا أكل ابنى و لم يمزق على قميصه، و جاء انّه بكى و صاح و حرّ مغشيّا عليه فأفاضوا على الماء فلم يتحرك و نادوه فلم يجب و وضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس و لا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۸

ديان يوم الدين ضيعنا أخانا و قتلنا أبانا فلم يفق الّا ببرد السحر[۸۴].

و بالرغم من احتراق قلبه و لهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر او اليأس او الفزع او الجزع، بل قال: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۸۵] ثمّ قال: وَ اللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ و اسأله ان يبدل مرارة الصبر فى فمى الى «حلاوة» و يرزقنى القوة و القدرة على التحمّل اكثر امام هذا الطوفان العظيم، لئلا افقد زمامى و يجرى على لسانى كلام غير لائق.

و لم یقل: اسأله ان یعطینی الصبر علی موت یوسف، لانّه کان یعلم ان یوسف لم یقتل ... بل قال: اطلب الصبر علی مفارقتی ولدی یوسف ... و علی ما تصفون.

ملاحظات

۱- حول الترک «الاولی»

ینقل ابو حمزة الثمالی عن الامام السجاد فیقول: کنت یوم الجمعة فی المدینة و صلیت الغداة مع الامام السجاد علیه السّلام فلمّا فرغ من صلاته و تسبیحه نهض الی منزله و انا معه، فدعا مولاة له تسمی سکینة فقال لها: «لا یعبر علی بابی سائل الّا أطعمتموه فإنّ الیوم یوم الجمعة».

یقول ابو حمزة: فقلت له: لیس کل من یطلب العون مستحقا له، فقال: یا أبا ثابت، أخاف أن یکون بعض من یسألنا محقّا فلا نطعمه و نردّه فینزل بنا- اهل البیت- ما نزل بیعقوب و آله. أطعموهم ان یعقوب کان یذبح کل یوم کبشا فیتصدق منه و یأکل هو و عیاله منه، و ان سائلا مؤمنا صوّاما محقّا له عند اللّه منزلة، و کان مجتازا غریبا اعترّ علی باب یعقوب عشیة جمعة عند أوان إفطاره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۵۹

یهتف علی بابه: أطعموا السائل المجتاز الغریب الجائع من فضل طعامکم، یهتف بذلک علی بابه مرارا و هم یسمعونه، قد جهلوا حقّه و لم یصدقوا قوله: فلما ایس ان یطعموه و غشیه اللیل استرجع و استعبر و شکا جوعه الی اللّه باب و طاویا، و أصبح صائما جائعا صابرا حامدا للّه، و بات یعقوب و آل یعقوب شباعا بطانا و أصبحوا و عندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحی اللّه عزّ و جلّ الی یعقوب فی صبیحة تلک اللیلة: لقد أذللت- یا یعقوب- عبدی ذلة استجررت بها غضبی، و استوجبت بها أدبی، و نزول عقوبتی و بلوای علیک و علی ولدک یا یعقوب، ان احبّ انبیائی الیّ و أکرمهم علی من رحم مساکین عبادی و قرّبهم الیه و أطعمهم و کان لهم مأوی و ملجأ یا یعقوب، ما رحمت «ذمیال» عبدی المجتهد فی عبادته، القانع بالیسیر من ظاهر الدنیا عشاء أمس لمّا عبر ببابک عند أوان إفطاره و یهتف بکم: أطعموا السائل الغریب المجتاز القانع، فلم تطعموه شیئا. فاسترجع و استعبر و شکا ما به الیّ و بات جائعا و طاویا حامدا، أصبح لی صائما، و أنت- یا یعقوب- و ولدک شباع، و أصبحت و عندکم فضل من طعامکم.

او علمت- یا یعقوب- انّ العقوبة و البلوی أولیائی أسرع منها الی اعدائی ...

إلخ ...[۸۶].

و من الطریف

انّ أبا حمزة یقول: سألت الامام زین العابدین علیه السّلام متی رای یوسف رؤیاه؟ فقال الامام: فی تلک اللیلة»[۸۷].

یستفاد من هذا الحدیث ان زلّة بسیطة او بعبارة أدق: «ترک الاولی» و هو لا یعدّ خطیئة او إثما، لانّ یعقوب له یتّضح له حال السائل ... هذا الترک من قبل الأنبیاء و الأولیاء یکون سببا لانّ یبتلیهم اللّه بلاء شدیدا ... و ما ذلک الّا لمقامهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۰

الکبیر الذی یوجب علیهم ان یراقبوا کل حرکاتهم و سکناتهم، لانّ «حسنات الأبرار سیئات المقربین».

فإذا کان یعقوب علیه السّلام قد ابتلی بهذا البلاء و الهمّ لانّه لم یطلع علی حال قلب السائل و آلامه، فکیف الحال فی المجتمعات التی تغرق فیها طائفة بالنعیم و الرفاه و طائفة من الناس جیاع، کیف لا یشملهم غضب اللّه! و کیف یسلمون من عذاب اللّه!

۲- دعاء یوسف البلیغ الجذّاب

ترد فی روایات اهل البیت علیهم السّلام و روایات اهل السنة، ان یوسف حین استقرّ فی قعر الجبّ انقطع أمله من کل شیء، و صرف کلّ توجهه الی ذات اللّه المقدسة یناجی ربّه، و کانت لدیه حوائج ذکرها بتلقین جبرئیل إیاه ...

ففی روایة انّه دعا ربّه بهذه المناجاة

«اللّهم یا مؤنس کل غریب، و یا صاحب کل وحید، یا ملجأ کل خائف، و یا کاشف کل کربة، و یا عالم کل نجوی، و یا منتهی کل شکوی، و یا حاضر کل ملا، یا حیّ یا قیّوم، اسألک ان تقذف رجاءک فی قلبی، حتی لا یکون لی همّ و لا شغل غیرک، و ان تجعل لی من امری فرجا و مخرجا، انّک علی کل شیء قدیر».

و من الطریف انّنا نقرا فی ذیل هذه الروایة، انّ الملائکة سمعت صوت یوسف فنادت:

«الهنا نسمع صوتا و دعاء، الصوت صوت صبی و الدعاء دعاء نبیّ»[۸۸].

و هناک نقطة تدعو للالتفات و هی: حین رمی یوسف اخوته فی الجبّ خلعوا عنه قمیصه و ترکوه عاریا، فنادی: اترکوا لی قمیصی- علی الأقل- لاغطی به بدنی إذا بقیت حیا، و یکون کفنی إذا متّ. فقال له اخوته: اطلبه من الشمس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۱

و القمر و الکواکب الأحد عشر الذین رایتهم فی منامک، لیکونوا مؤنسیک فی هذه البئر، و یکسوک و یلبسوک ثوبا علی بدنک ... فدعا یوسف علی اثر الیأس المطلق بالدعاء الآنف الذکر.[۸۹] و

فی روایة عن الامام الصادق علیه السّلام انّه قال: «حین القی یوسف فی الجبّ هبط علیه جبرئیل و قال: ما تصنع هنا ایّها الغلام؟ فقال له: ان اخوتی القونی فی البئر.

فقال له جبرئیل: أ تحبّ ان تخرج من البئر؟ قال: ذلک بمشیئة اللّه، ان شاء اخرجنی.

فقال له: ان اللّه یأمرک ان تدعو بهذا الدعاء لتخرج من البئر: «اللّهم انّی اسألک بأنّ لک الحمد، لا اله الّا أنت المنّان، بدیع السماوات و الأرض، ذو الجلال و الإکرام، ان تصلی علی محمّد و آل محمّد و ان تجعل لی ممّا انا فیه فرجا و مخرجا»[۹۰].

۳- جملة وَ أَجْمَعُوا أَنْ یَجْعَلُوهُ فِی غَیابَتِ الْجُبِ تدلّ علی انّهم لم یرموه فی البئر، أنزلوه علی مکان یشبه الرصیف لمن یرید النّزول الی سطح الماء، و قد شدوه بحبل حتی إذا نزل و وصل الی غیابة الجبّ ترکوه وحده.

و هناک قسم من الرّوایات التی تفسّر الآیات المتقدمة تؤید هذا الموضوع.

۴- تسویل النفس

جملة «سوّلت» مشتقّة من «التسویل» و معناه «التزیین» و قد یأتی بمعنی «الترغیب» و قد یأتی بمعنی «الوسوسة» کما فی بعض التفاسیر ... جمیع هذه المعانی ترجع الی شیء واحد ... ای انّ هوی النفس زیّن لکم هذا العمل.

و هی اشارة الی انّه حین یطغی هوی النفس علی الإنسان و یستبدّ به عناده، فإنه یتصور ان اسوا الجنایات لدیه امر حسن، کما لو کان ذلک قتل الأخ او ابعاده، و قد یتصور ان ذلک امر مقدّس ... و هذه نافذة علی اصل کلی فی المسائل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۲

النفسیة، بحیث یجعل المیل المفرط و الرغبة الجامحة لأمر ما- و خاصّة مع اقترانهما بالرذائل الاخلاقیة- غشاوة علی احساس الإنسان، فتنقلب عنده الحقائق و تتغیر صورها.

لذا فإنّ القضاء الصحيح و ادراك الواقعيّات العينيّة، لا يمكن لها ان تتحقق دون تهذيب النفس، و إذا كانت العدالة شرط فى القاضى فإنّ هذا الأمر واحد من أسبابها ... و إذا كان القرآن الكريم يقول فى الآية (۲۸۲) من سورة البقرة وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ فذلك اشارة الى هذه الحقيقة ايضا.

۵- الكذاب عديم الحافظة

قصّة يوسف- و ما جرى له مع اخوته- تثبت مرّة اخرى هذا الأصل المعروف الذى يقول: انّ الكذاب لا يستطيع ان يكتم سرّه دائما، لانّ الواقعيات العينية حين تظهر الى الوجود الخارجى تظهر و معها روابط- اكثر من ان تعدّ- مع موضوعات اخرى تدور حولها، و إذا أراد الكاذب ان يهيئ مناخا لمسألة غير واقعية فإنّه لا يستطيع ان يحفظ هذه الروابط مهما كان دقيقا.

و لنفرض انّه يستطيع ان يؤلف بين عدد من الروابط الكاذبة فى حادثة ما، و لكن المحافظة على هذه الروابط المصطنعة فى ذهنه ليست عملا هيّنا، فإنّ اقل غفلة منه تسبب وقوعه فى التناقض، فتتسبب هذه الغفلة فى فضيحة صاحبها و تكشف الأمر الواقعى ... و هذا درس كبير لمن يريد المحافظة على ماء وجهه و مكانته فى المجتمع ان لا يلجأ الى الكذب فيتعرض موقعه الاجتماعى للخطر و ينزل عليه غضب اللّه.

۶- ما هو الصبر الجميل

؟ الصبر امام الحوادث الصعبة و الأزمات الشديدة يدلّ على قوة شخصية الإنسان، و على سعة روحه بسعة ما تتركه هذه الحوادث فلا يتأثر و لا يهتز لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۳

ربّما يحرك النسيم العليل ماء الحوض الصغير، و لكن المحيطات العظيمة كالمحيط الهادى- مثلا- يستوعب حتى الاعصار الذى يتلاشى امام هدوئه و سعته.

و قد يتصبر الإنسان أحيانا، و لكنّه سرعان ما يتلف هذا الصبر بكلماته النابية التى تدل على عدم الشكر و عدم تحمل الحادثة و نفاد الصبر.

و لكن المؤمنين الذين يتمتعون بإرادة قويّة و استيعاب للحوادث، هم أولئك الذين لا يتأثرون بها و لا يجرى على لسانهم ما يدلّ على عدم الشكر و كفران النعمة او الجزع او الهلع.

صبر هؤلاء هو الصبر الجميل ...

قد يبرز الآن هذا السؤال، و هو اننا نقرا فى الآيات الاخرى- من هذه السورة- انّ يعقوب بكى على يوسف حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، أ فلا ينافى ما صدر من يعقوب صبره الجميل؟! و الجواب على هذا السؤال فى جملة واحدة، و هى: ان قلوب عباد اللّه مركز للعواطف، فلا عجب ان ينهلّ دمع عينهم مدرارا، المهم ان يسيطروا على أنفسهم، و لا يفقدوا توازنهم، و لا يقولوا شيئا يسخط اللّه.

و من الطريف ان مثل هذا السؤال وجه الى النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين بكى على موت ولده ابراهيم حيث قالوا له: يا رسول اللّه، أ تنهانا عن البكاء و تبكى؟! فأجابهم النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

«تدمع العين و يحزن القلب، و لا نقول ما يسخط الربّ».

و

فى رواية اخرى انّه قال: «ليس هذا بكاء انّه رحمة»[۹۱].

و هذا اشارة الى انّ ما فى صدر الإنسان هو القلب، و ليس حجر! و طبيعىّ ان يتأثر الإنسان امام المسائل العاطفية، و ابسط هذا التأثر هو انهلال الدمع ... انّ هذا لا يعدّ عيبا، بل هو امر حسن، العيب هو ان يقول الإنسان ما يسخط الربّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۴

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرى هذا غُلامٌ وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ (۱۹) وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (۲۰)

التّفسير

نحو ارض مصر:

قضى يوسف فى ظلمة الجب الموحشة و الوحدة القاتلة ساعات مرّة، و لكنّه بإيمانه باللّه و سكينته المنبثقة عن الايمان شع فى قلبه نور الأمل، و ألهمه اللّه تعالى القوة و القدرة على تحمّل الوحدة الموحشة، و ان ينجح فى هذا الامتحان.

و لكنّ ... اللّه اعلم كم يوما قضى يوسف فى هذه الحالة؟

قال بعض المفسّرين: قضى ثلاثة ايام، و قال آخرون: يومين.

و على كل حال تبلج النّور وَ جاءَتْ سَيَّارَةٌ[۹۲].

و انتخبت منزلها على مقربة من الجبّ، و طبيعى انّ اوّل ما تفكر القافلة فيه-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۵

فى منزلها الجديد- هو تأمين الماء و سد حاجتها منه فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ ۹۳].

فانتبه يوسف الى صوت و حركة من أعلى البئر، ثمّ راى الحبل و الدلو يسرعان الى النّزول، فانتهز الفرصة و انتفع من هذا العطاء الالهى و تعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء ان الدلو قد ثقل اكثر ممّا ينبغى، فلمّا سحبه بقوة الى الأعلى فوجئ نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ و قال: يا بُشْرى هذا غُلامٌ

و شيئا فشيئا سرى خبر يوسف بين جماعة من اهل القافلة، و لكن من اجل ان لا يذاع هذا الخبر و ينتشر، و لكى يمكن بيع هذا الغلام الجميل فى مصر، اخفوه وَ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً[۹۴].

و بالطبع هناك احتمالات اخرى فى تفسير هذه الجملة منها ان الذين عثروا على يوسف اسرّوه و اخفوا خبره، و قالوا: هذا متاع لأصحاب هذا الجبّ أودعوه عندنا لنبيعه فى مصر.

و منها ان احد اخوة يوسف كان بين الحين و الحين يأتى الى الجبّ ليطلع على يوسف و يأتيه بالطعام و حين اطلع اخوة يوسف على ما جرى اخفوا علاقتهم الاخوية بيوسف و قالوا: هذا غلامنا فرّ من أيدينا و اختفى هنا، و هددوا يوسف بالموت إذ كشف الستار عن

الحقيقة.

و لكن التّفسير الاوّل يبدو اقرب للنظر.

و تقول الآيـة فى نهايتهـا: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِمـا يَعْمَلُونَ و بالرغم من اختلاف المفسّـرين فى من هم الـذين شـروا يوسف بثمن بخس، و قول بعضهم: هم اخوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۶

يوسف، و لكن ظاهر الآيات هو من كان فى القافلة، و قد تمّ البحث عن اخوته فى نهاية الآية التى سبقت هذه الآيات، و جميع الضمائر فى الجمل فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ أَسَرُّوهُ بِضاعَةً تعود على من كان فى القافلة.

هنا يبرز هذا السؤال و هو: لم باعوا يوسف الذى كان يعدّ- على الأقل- غلاما ذا قيمة بثمن قليل، او كما عبّر عنه القرآن وَ شَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ...؟

و لكن هذا امر مألوف فإنّ السراق او أولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمّة دون اى تعب و نصب يبيعونها سريعا لئلا يطلع الآخرون.

و من الطبيعى انّهم لا يستطيعون بهذه الفورية ان يبيعوه بسعر غال.

و «البخس» فى الأصل معناه تقليل قيمة الشىء ظلما، و لذلك فإنّ القرآن يقول: وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ ۹۵].

ثمّ انّ هنـاك اختلافـا آخر بين المفسّـرين فى الثمن الـذى بيع به يوسف، و كيف قسّم بينهم؟ فقـال البعض: عشـرون درهمـا، و قـالت طائفـة: اثنان و عشـرون، و مع ملاحظة انّ الباعة كانوا عشـرين يتّضح سـهم كل منهم، و كم هو زهيد! ... و تقول الآية: وَ كانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ

و فى الحقيقـة انّ هذه الجملة فى حكم بيان العلة للجملة المتقدمة، و هى اشارة الى انّهم باعوا يوسف بثمن بخس، لانّهم لم يرغبوا فى هذه المعاملة و لم يعتنوا بها.

و هـذا البيع البخس امّـا لانّ اهل القافلـة اشتروا يوسف بثمن بخس، و الإنسان إذا اشترى شـيئا رخيصا باعه رخيصا عادة، او انّهم كانوا يخافون ان يفتضـح سـرّهم و يجـدون من يـدّعيه، او من جهة انّهم لم يجدوا فى يوسف أثرا للغلام الذى يباع و يشترى، بل وجدوا فيه آثار الحرّية واضحة فى وجهه، و من هنا فلا البائعون كانوا راغبين ببيعه و لا المشترون كانوا راغبين بشرائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۷

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

وَ قالَ الَّذِى اشْتَراهُ مِنْ مِصْـرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْواهُ عَسـى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحـادِيثِ وَ اللَّهُ غـالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۱) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُـدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (۲۲)

التّفسير

فى قصر عزيز مصر:

انتهت حكايـة يوسف مع اخوته الذين القوه فى غيابة الجبّ و بيّناها تفصـيلا، بدا فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث فى مصـر ...

فقد جيء بيوسف الى مصر و عرض للبيع، و لما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذى كان وزيرا لفرعون او رئيسا لوزرائه، لانّه كان يستطيع ان يدفع قيمة أعلى لغلام ممتاز من جميع الجهات، و الآن لنر ما الذى حدث له فى بيت عزيز مصر.

يقول القرآن الكريم فى شأن يوسف: وَ قالَ الَّذِى اشْتَراهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۸

أَكْرِمِى مَثْواهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً[۹۶] فلا ينبغى ان تنظرى اليه كما ينظر الى العبيد.

يستفاد من سياق الآية انّ عزيز مصر لم يرزق ولدا و كان فى غاية الشوق للولد، و حين وقعت عيناه على هذا الصبىّ الجميل و السعيد تعلّق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ

هذا «التمكين» فى الأرض امّا ان يكون لمجيء يوسف الى مصر، و خاصّة ان خطواته، فى محيط مصر مقدّمة لما سيكون عليه من الاقتدار و المكانة القصوى، و امّا انّه لا قياس، بين هذه الحياة فى مصر «العزيز» و بين تلك الحياة فى غيابة الجبّ و الوحدة و الوحشة. فأين تلك الشدّة من هذه النعمة و الرفاه! و يضيف القرآن ايضا وَ لِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ

المراد من «تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ»- كما أشرنا سابقا- هو علم تفسير الأحلام و تعبير الرؤيا حيث كان يوسف قادرا على ان يطلع على بعض اسرار المستقبل من خلاله، او المراد منه الوحى لانّ يوسف مع عبوره من المضايق الصعبة و الشدائد القاسية و نجاحه فى الاختبارات الالهية فى قصر عزيز مصر، نال الجدارة بحمل الرسالة و الوحى. و لكن الاحتمال الاوّل اقرب كما يبدو للنظر.

ثمّ يختتم القرآن هذه الآية بالقول: وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

انّ واحدة من مظاهر قدرة اللّه العجيبة و هيمنته على الأمور كلها ان يدع- فى كثير من الموارد- اسباب موفقية الإنسان و نجاحه بيد أعدائه كما حدث فى مسألة يوسف عليه السّلام، فلو لا خطة اخوته لم يصل الى الجبّ ابدا، و لو لم يصل الى الجبّ لما وصل الى مصر، و لو لم يصل الى مصر لما ذهب الى السجن و لما كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۶۹

هناك اثر من رؤيا فرعون التى أصبح يوسف بسببها عزيز مصر! ففى الحقيقة ان اللّه اجلس يوسف على عرش الاقتدار بواسطة اخوته الذين تصوروا انّهم سيقضون عليه فى تركهم ايّاه فى غيابة الجبّ.

لقد واجه يوسف فى هذا المحيط الجديد، الذى يعدّ واحدا من المراكز السياسية المهمة فى مصر مسائل مستحدثة ... فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة و ثرواتهم و من جهة اخرى كانت تتجسد فى ذهنه صورة أسواق النخاسين و بيع المماليك و العبيد ... و من خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر فى كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدرا على ذلك! اجل، لقد تعلم الكثير من هذه الأشياء فى هذا المحيط المفعم بالضوضاء، و كان قلبه يفيض همّا لانّ الظروف لم تتهيأ له بعد. فاشتغل بتهذيب نفسه و بنائها، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ

كلمة «اشدّ» مشتقّة من مادة «شدّ» و تعنى فتل العقدة باستحكام ... و هى هنا اشارة الى الاستحكام الجسمانى و الروحانى.

قال بعضهم: انّ هذه الكلمة جمع لا مفرد لها ... و لكن البعض الآخر قال: انّها جمع (شدّ) على وزن (سدّ) و لكن معناها الجمعى غير قابل للإنكار على كل حال! المراد من «الحكم» و «العلم» الواردين فى الآية المتقدمة التى تقول: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً ... امّا ان يكون مقام النبوّة كما ذهب الى ذلك بعض المفسّرين، و امّا ان يكون المراد من الحكم العقل و الفهم و القدرة على القضاء الصحيح الخالى من اتباع الهوى و الاشتباه. و المراد من العلم الاطلاع الذى لا يقترن معه الجهل، و مهما كان فإنّ الحكم و العلم موهبتان نادرتان وهبهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۰

اللّه ليوسف لتقواه و صبره و توكله عليه، و جميع هذه الصفات مجتمعة فى كلمة «المحسنين».

قال بعض المفسّرين: هناك ثلاثة احتمالات لمعنى كلمتى (الحكم و العلم) الواردتين فى الآية، و هى:

۱- انّ الحكم اشارة الى مقام النبوة (لانّ النّبى حاكم على الحق) و العلم اشارة الى علم الدين.

۲- ان الحكم يعنى ضبط النفس إزاء الهوى و الميول النفسيّة، و هو هنا اشارة الى الحكمة العملية. و العلم اشارة الى العلم النظرى ... و تقديم الحكم على العلم هنا لانّ الإنسان إذا لم يهذب نفسه و يبنيها بناء صحيحا لا يصل الى العلم الصحيح.

۳- انّ الحكم معناه ان يبلغ الإنسان مقام «النفس المطمئنة» و يتسلّط على نفسه بحيث يستطيع ان يتملك زمام النفس الامّارة و وسوستها ... و المراد من العلم هو الأنوار القدسيّة و اشعة الفيض الالهى الذى تنزل من عالم الملكوت على قلب الإنسان الطاهر[۹۷].

ملاحظات

۱- ما هو اسم «عزيز» مصر

؟ ممّا يستجلب النظر فى الآيات المتقدمة ان اسم عزيز مصر لم يذكر فيها، انّما ورد التعبير عنه ب الَّذِى اشْتَراهُ

لكن من هو هذا العزيز؟! لم تذكره الآية، كما سنرى فى الآيات المقبلة ان عنوانه لم يصرّح به الّا بالتدريج، فمثلا نقرا فى الآية (۲۵) هذا النصّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۱

وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ

و حين نتجاوز هذه الآيات و نصل الى الآية (۳۰) نواجه التعبير عن زوجته ب «امْرَأَتُ الْعَزِيزِ».

و هذا البيان التدريجى امّا لانّ القرآن يتحدث- حسب طريقته- بالمقدار اللازم، و هذا دليل من ادلة الفصاحة و البلاغة، او لأنّه- كما هو ملاحظ هذا اليوم فى «نصوص الآداب» ايضا- حين يبدأ بالقصّة- يبدأ بها من نقطة غامضة ليتحرك الاحساس فى الباحث، و ليلفت نظره نحو القصّة.

۲- يوسف عليه السّلام و تعبير الأحلام

الملاحظة الاخرى التى تثير السؤال فى الآيات المتقدمة، هى: ما علاقة الاطلاع على تفسير الأحلام و تأويل الأحاديث بمجىء يوسف الى قصر عزيز مصر الذى أشير اليه بلام الغاية فى جملة وَ لِنُعَلِّمَهُ ! لكن مع الالتفات الى انّ هذه النقطة يمكن ان تكون جوابا للسؤال الآنف الذكر، و هى ان كثيرا من المواهب العلمية يهبها اللّه قبال التقوى من الذنوب و مقاومة الأهواء و الميول النفسيّة، او بتعبير آخر: انّ هذه المواهب التى هى ثمرة البصيرة القلبية الثاقبة، هى جائزة الهية يهبها اللّه لمثل هؤلاء الأشخاص.

نقرا فى حالات ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور انّه كان رجلا بزازا و كان جميلا للغاية فعشقته امراة و تعلق قلبها به، و استدرجته الى بيتها بأساليب و حيل خاصّة، ثمّ غلّقت الأبواب عليه (لينال منها الحرام) لكنه لم يستسلم لهوى تلك المراة و أخذ ينصحها و يذكر مفاسد هذا الذنب العظيم، و لكن نار الهوى كانت متأججة فى قلبها بحيث لم يطفئها ماء الموعظة، ففكر ابن سيرين فى الخلاص من قبضتها، فلوّث جسده بما كان فى بيتها من اقذار تنفّر الرائى، فلما رأته المراة نفرت منه و أخرجته من البيت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۲

یقال انّ ابن سیرین أصبح ذکیا بعد هذه الحادثة و رزق موهبة عظیمة فی تفسیر الأحلام، و ذکروا قصصا عجیبة عنه فی الکتب التی تتناول تفسیر الأحلام تدل علی عمق اطلاعه فی هذا المجال! فعلی هذا یمکن ان یکون یوسف علیه السّلام قد نال هذه الموهبة الخاصّة (العلم بتأویل الأحادیث) لتسلّطه علی نفسه قبال اثارة امراة العزیز لهوی النفس! ثمّ بعد هذا کله فإنّ قصور الملوک فی ذلک الزمان کانت مراکز لمفسری الأحلام، و انّ شابا- ذکیا کیوسف- کان یستطیع ان یستفید من تجارب الآخرین، و ان یکون له استعداد روحی لافاضة العلم الالهی فی هذا المجال! و علی کل حال فإنّه لیس مستبعدا ان یهب اللّه سبحانه لعباده المخلصین المنتصرین فی میادین «جهاد النفس للهوی و الشّهوات» مواهب من المعارف و العلوم التی لا تقاس بأیّ معیار مادی، و یمکن ان یکون الحدیث المعروف «العلم نور یقذفه اللّه فی قلب من یشاء» اشارة الی هذه الحقیقة.

هذا العلم لیس ممّا یقرا عند الأستاذ، و لا یعطی لایّ کان و بدون حساب ...

بل هو جائزة من الجوائز التی تمنح للمتسابقین فی میادین جهاد النفس!

۳- المراد من قوله تعالی: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ

قلنا ان (اشدّ) معناه الاستحکام الجسمانی و الروحانی، و بلوغ الرشد معناه الوصول الی هذه المرحلة، و لکن هذا العنوان قد عبّر عنه القرآن الکریم فی مراحل مختلفة من عمر الإنسان.

فتارة أطلقه علی سنّ البلوغ کقوله تعالی: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْیَتِیمِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ حَتَّی یَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۹۸].

و تارة یرد هذا المعنی فی وصول الإنسان الی أربعین سنة، کقوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۳

حَتَّی إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِینَ سَنَةً[۹۹].

و تارة یراد به ما قبل مرحلة الشیخوخة و الکبر، کقوله تعالی: ثُمَّ یُخْرِجُکُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ ثُمَّ لِتَکُونُوا شُیُوخاً[۱۰۰].

و لعل هذا التفاوت فی التعبیرات آت من طیّ الإنسان مراحل مختلفة لاستحکام الروح و الجسم، و لا شکّ ان الوصول الی سنّ البلوغ واحد من هذه المراحل.

و بلوغ الأربعین الذی یکون تواما للنضج الفکری و العقلی مرحلة ثانیة، کما ان المرحلة الثّالثة تکون قبل ان یسیر الإنسان نحو قوس النّزول و یبلغ الضعف و الوهن! و علی کل حال فإنّ المقصود فی الآیة- محل البحث- هو مرحلة البلوغ الجسمی و الروحی الذی ظهر فی یوسف بدایة شبابه، یقول الفخر الرازی فی تفسیره فی هذا الصدد: «مدة دور القمر ثمانیة و عشرون یوما و کسر، فإذا جعلت هذه الدورة اربعة اقسام کان کل قسم منها سبعة ایام، فلا جرم رتبوا احوال الأبدان علی الأسابیع، فالإنسان إذا ولد کان ضعیف الخلقة نحیف الترکیب الی ان یتم له سبع سنین، ثمّ إذا دخل فی السبعة الثانیة حصل فیه آثار الفهم و الذکاء و القوّة، ثمّ لا یزال فی الترقی الی ان یتمّ له اربع عشرة سنة، فإذا دخل فی السنة الخامسة عشرة دخل فی الأسبوع الثّالث و هناک یکمل العقل و یبلغ الی حد التکلیف و تتحرک فیه الشهوة، ثمّ لا یزال یرتقی علی هذه الحالة الی ان یتم السنة الحادیة و العشرین و هناک یتم الأسبوع الثّالث، و یدخل فی السنة الثّانیة و العشرین و هذا الأسبوع آخر أسبوع النشوء و النماء، فإذا تمّت السنة الثّامنة و العشرون فقد تمّت مدّة النشوء و النماء و ینتقل الإنسان منه الی زمان الوقوف،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۴

و هو الزمان الذی یبلغ الإنسان فیه اشدّه، و بتمام هذا الأسبوع الخامس- یحصل للإنسان خمسة و ثلاثون سنة ثمّ انّ هذه المراتب مختلفة فی الزیادة و النقصان، فهذا الأسبوع الخامس الذی هو أسبوع الشدّة و الکمال یبتدئ من السنة التّاسعة و العشرین الی الثّالثة و

الثّلاثين، و قد يمتّد الى الخامسة و الثّلاثين، فهذا هو الطريق المعقول فى هذا الباب، و اللّه اعلم بحقائق الأشياء»[۱۰۱].

التقسيم المتقدّم و ان كان مقبولا الى حدّ ما ... لكنّه يبدو غير دقيق، لانّ مرحلة البلوغ اوّلا ليست فى انتهاء العقد الثانى، و كذلك فإن التكامل الجسمانى- طبقا لما يقول علماء اليوم- هو ۲۵ سنة ... و البلوغ الفكرى الكامل أربعون سنة طبقا لبعض الرّوايات، و بعد هذا كله فإنّ ما ورد آنفا لا يصحّ ان يكون قانونا عامّا ليصدق على جميع الأشخاص.

۴- و آخر ما ينبغى الالتفات اليه هنا هو ان القرآن بعد ان يتحدث عن إتيان يوسف الحكم و العلم يعقب بالقول: وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ و معنى ذلك ان مواهب اللّه- حتى للأنبياء- ليست اعتباطا، و كل ينال بمقدار إحسانه و يغرف من بحر اللّه و فيضه اللامحدود كما نال يوسف سهما وافرا من ذلك بصبره و استقامته امام كل تلك المشاكل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۵

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۳ الى ۲۴]

اشارة

وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ (۲۴)

التّفسير

العشق الملتهب:

لم يأسر جمال يوسف الملكوتى عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امراة العزيز كذلك و أصبح متيّما بجماله!.

و امتدّت مخالب العشق الى اعماق قلبها، و بمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوما بعد يوم و يزداد اشتعالا ... لكنّ يوسف هذا الشابّ الطاهر التقى، لم يفكّر بغير اللّه، و لم يتعلّق قلبه بغير عشق اللّه سبحانه.

و هناك امور اخرى زادت من عشق امراة العزيز ليوسف .. فمن جهة لم ترزق الولد، و من جهة اخرى انغمارها فى حياة مترفة مفعمة بالبذخ ... و من جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۶

ثالثة عدم ابتلائها بأىّ نوع من البلاء كما هى حال المتنعّمين، و عدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة .. كلّ ذلك ترك امراة العزيز- الفارغة من الايمان و التقوى- تهوى فى وساوسها الشيطانية الى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيرا عمّا فى قلبها و راودته عن نفسه.

و اتّبعت جميع الاساليب و الطرق للوصول الى هدفها، وسعت لكى تلقى فى قلبه أثرا من هواها و ترغيبها و طلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم:

وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها.

و جملة «راودته» مأخوذة من مادّة «المراودة» و أصلها البحث عن المرتع و المرعى، و ما ورد فى المثل المعروف «الرائد لا يكذب اهله» اشارة الى هذا المعنى، كما يطلق «المرود» على وزن (منبر) على قلم الكحل الذى تكحل به العين، ثمّ توسّعوا فى هذا اللفظ فأطلق على كلّ ما يطلب بالمداراة و الملاءمة.

و هـذا التعبير يشـير الى انّ امراة العزيز طلبت من يوسف ان ينـال منهـا بطريق المسالمـة و المساومـة- كمـا يصـطلح عليه- و بـدون اى تهديد، و أبدت محبّتها القصوى له بمنتهى اللين.

و أخيرا فكّرت فى ان تخلـو به و توفّر له جميع مـا يـثير غريزته، من ثيـاب فضـفاضة، و عطور عبقـة شذيّـة، و تجميلاـت مرغبـة، حـتّى تستولى على يوسف و تأسره!.

يقول القرآن الكريم: وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ

«غلّقت» تـدلّ على المبالغـة و انّهـا أحكمت غلق الأـبواب، و هـذا يعنى انّهـا سـحبت يوسف الى مكان من القصـر المتشـكّل من غرف متداخلة .. و كما ورد فى بعض الرّوايات كانت سـبعة أبواب، فغلقتها عليه جميعا .. لئلّا يجد يوسف اى طريق للفرار .. اضافة الى ذلك أرادت ان تشعر يوسف ان لا يقلق لانتشار الخبر فإنّه سوف لا يفتضح، حيث لا يستطيع احد ان ينفذ الى داخل القصر ابدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۷

و فى هـذه الحـال، حين راى يوسف انّ هـذه الأمور تجرى نحو الإثم، و لم ير طريقا لخلاصه منها، توجّه يوسف الى زليخا و قالَ مَعاذَ اللَّهِ و بهـذا الكلاـم رفض يوسف طلب امراة العزيز غير المشـروع .. و أعلمهـا انّه لن يستسـلم لارادتهـا. و افهمها ضـمنا- كما افهم كلّ انسـان- انّه فى مثـل هـذه الظروف الصـعبة لا سبيل الى النجاة من وساوس الشـيطان و اغراءاته الّا بالالتجاء الى اللّه .. اللّه الـذى لا فرق عنده بين السرّ و العلن، بين الخلوة و الاجتماع، فهو مطّلع و مهيمن على كلّ شىء، و لا شىء الّا و هو طوع امره و ارادته! و بهذه الجملة اعترف يوسف بوحدانيـة اللّه تعالى من الناحيـة النظريـة، و كـذلك من الناحية العملية ايضا، ثمّ أضاف إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوايَ .. أ ليس التجاوز ظلما و خيانة واضحة إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

المراد من كلمة «ربّى»

هناك اقوال كثيرة بين المفسّـرين فى المراد من قوله: إِنَّهُ رَبِّى فأكثر المفسّـرين، كالعلّامـة الطبرسـى فى مجمع البيان و كاتب المنار فى تفسـير المنـار و غيرهمـا، قالوا: انّ كلمـة «ربّ» هنا اسـتعملت فى معناها الواسع، و قالوا: انّ المراد من كلمـة «ربّ» هنا هو «عزيز مصـر» الذى لم يأل جهدا فى إكرام يوسف، و كان يوصى امرأته من البداية بالاهتمام به و قال لها: أَكْرِمِى مَثْواهُ

و من يظنّ انّ هـذه الكلمة لم تسـتعمل بهذا المعنى فهو مخطئ تماما، لانّ كلمة «ربّ» فى هذه السورة أطلقت عدّة مرّات على غير اللّه سبحـانه. و أحيانـا ورد هـذا الاسـتعمال على لسـان يوسف نفسه، و أحيانـا على لسـان غيره! فمثلا فى قصّـة تعبير الرؤيا للسـجناء، طلب يوسف من الذى بشّره بالنجاة ان يذكر حاله عند ملك مصر وَ قالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ (الآية ۴۲).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۸

كما نلاحظ هـذا الاسـتعمال على لسان يوسف- أيضا- حين جاءه مبعوث فرعون مصـر، إذ يقول القرآن الكريم فى هـذا الصـدد: فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ (الآية ۵۰).

و فى الآية (۴۱) من هذه السورة، و ذيل الآية (۴۲) أطلقت كلمة «ربّ» فى لسان القرآن الكريم بمعنى المالك و صاحب النعمة. فعلى هذا تلاحظون انّ كلمة «ربّ» استعملت ۴ مرّات- سوى الآية محلّ البحث- فى غير اللّه، و إن كانت قد استعملت فى هذه السورة و فى سور اخرى من القرآن فى خصوص ربّ العالمين (اللّه) مرارا.

فالحاصل انّ هذه الكلمة من المشترك اللفظى و هى تستعمل فى المعنيين.

و لكن رجّح بعض المفسّـرين ان تكون كلمـة «ربّ» فى هـذه الآية إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوايَ يقصد بها اللّه .. لانّها جاءت بعد كلمة مَعاذَ اللَّهِ مباشـرة، و كونها الى جنب لفظ الجلالة صار سـببا لعود الضـمير فى إِنَّهُ رَبِّى عليه فيكون معنى الآية: انّنى ألتجئ الى اللّه و أعوذ به

فهو الهى الذى اكرمنى و عظم مقامى و كلّ ما عندى من النعم فهو منه.

و لكن مع ملاحظة وصية عزيز مصر لامراته أَكْرِمِي مَثْواهُ و تكرارها فى الآية- محل البحث- يكون المعنى الاوّل اقرب و أقوى.

جاء فى التوراة الفصل ۳۹ رقم ۸ و ۹ و ۱۰ ما مؤدّاه: «و بعد هذا وقعت المقدّمات، انّ امراة سيّده القت نظرتها على يوسف و قالت: اضطجع معى، لكنّه ابى و قال لامراة سيّده: انّه سيّدى غير عارف بما معى فى البيت، و كلّ ما يملك مودع عندى، و لا أجد اكبر منّى فى هذا البيت، و لم يزاحمنى شىء سواك لانّك امرأته، فكيف اقدم على هذا العمل القبيح جدّا، و اتجرّا فى الذنب على اللّه». فهذه الجمل فى التوراة تؤيّد المعنى الاوّل.

و هنا يبلغ امر يوسف و امراة العزيز الى ادقّ مرحلة و اخطرها، حيث يعبّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۷۹

القرآن عنه تعبيرا ذا مغزى كبير وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ

و فى معنى هذه الجملة اقوال بين المفسّرين يمكن تصنيفها و اجمالها الى ثلاثة تفاسير:

۱- انّ امراة العزيز كانت تريد ان تقضى وطرا مع يوسف، و بذلت وسعها فى ذلك، و كاد يوسف يستجيب لرغبتها بطبيعة كونه بشرا شابّا لم يتزوّج و يرى نفسه إزاء المثيرات الجنسيّة وجها لوجه ... لو لا ان راى برهان اللّه ... اى روح الايمان و التقوى و تربية النفس، أضف الى كلّ ذلك مقام العصمة الذى كان حائلا دون هذا العمل! فعلى هذا يكون الفرق بين معانى «همّ» اى القصد من امراة العزيز، و القصد من قبل يوسف، هو انّ يوسف كان يتوقّف قصده على شرط لم يتحقّق، اى (عدم وجود برهان ربّه) و لكن القصد من امراة العزيز كان مطلقا، و لانّها لم يكن لديها مثل هذا المقام من التقوى و العفّة، فإنّها صمّمت على هذا القصد حتّى آخر مرحلة، و الى ان اصطدمت جبهتها بالصخرة الصمّاء! و نظير هذا التعبير موجود فى الآداب العربيّة و غيرها كما نقول مثلا: انّ جماعة لا ترتبط بقيم أخلاقية و لا ذمّة صمّمت على الاغارة على مزرعة فلان و نهب خيراته، و لولا انّى تربّيت سنين طوالا عند استاذى العارف الزاهد فلان، لاقدمت على هذا العمل معهم.

فعلى هذا كان تصميم يوسف مشروطا بشرط لم يتحقّق، و هذا الأمر لا منافاة له مع مقام يوسف من العصمة و التقوى، بل يؤكّد له هذا المقام العظيم كذلك.

و طبقا لهذا التّفسير لم يبد من يوسف اى شىء يدلّ على التصميم على الذنب، بل لم يكن فى قلبه حتّى هذا التصميم.

و من هنا فيمكن القول انّ بعض الرّوايات التى تزعم انّ يوسف كان مهيّئا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۰

لينال وطرا من امراة العزيز، و خلع ثيابه عن بدنه، و ذكرت تعبيرات اخرى نستحيى من ذكرها، كلّ هذه الأمور عارية من الصحّة و مختلقة، و هذه اعمال من شأن الافراد و المنحرفين الملوّثين غير الانقياء. فكيف يمكن ان يتّهم يوسف مع هذه المنزلة و قداسة روحه و مقام تقواه بمثل هذا الاتّهام.

الطريف انّ التّفسير الاوّل

نقل عن الامام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى عبارة موجزة جدّا و قصيرة، حيث يسأله المأمون «الخليفة العبّاسى» قائلا: الا تقولون انّ الأنبياء معصومون؟ فقال الامام: «بلى». فقال: فما تفسير هذه الآية وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ فقال الامام عليه السّلام: «لقد همّت به، و لولا ان راى برهان ربّه لهمّ بها كما همّت، لكنّه كان معصوما و المعصوم لا يهمّ بذنب و لا يأتيه» فقال المأمون: للّه درّك يا أبا الحسن ۱۰۲].

۲- انّ تصميم كلّ من امراة العزيز و يوسف لا علاقة له بالوطر الجنسى، بل كان تصميما على ضرب أحدهما الآخر ..

فتصميم امراة العزيز على هذا العمل كان لعدم انتصارها فى عشقها و بروز روح الانتقام فيها ثأرا لهذا العشق.

و تصمیم یوسف کان دفاعا عن نفسه، و عدم التسلیم لطلب تلک المراة.

و من جملة القرائن التی تذکر فی هذا الموضوع:

اوّلا: انّ امراة العزیز کانت قد صمّمت علی نیل الوطر الجنسی قبل هذه الحالة، و کانت قد هیّأت مقدّمات هذا الأمر، فلا مجال- اذن- لان یقول القرآن:

انّها صمّمت علی هذا العمل الآن، لانّ هذه الساعة لم تکن ساعة تصمیم.

و ثانیا: انّ ظهور حالة الخشونة و الانتقام بعد هذه الهزیمة امر طبیعی، لانّها بذلت ما فی وسعها لاقناع یوسف، و لمّا لم توفّق الی ما رغبت فیه توسلّت بطریق آخر، و هو طریق الخشونة و الضرب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۱

و ثالثا: انّنا نقرا فی ذیل هذه الآیة کَذلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ و المراد بالفحشاء هو التلوّث و عدم العفّة .. و المراد بصرف السوء، هو نجاته من مخالف امراة العزیز، و علی کلّ حال فحین رای یوسف برهان ربّه ... تجنّب الصراع مع امراة العزیز و ضربها، لانّه قد یکون دلیلا علی تجاوزه و عدوانه علیها، و لذا رجّح ان یبتعد عن ذلک المکان و یفرّ نحو الباب.

۳- ممّا لا شکّ فیه انّ یوسف کان شابّا یحمل جمیع الاحاسیس التی فی الشباب، و بالرغم من انّ غرائزه کانت طوع عقله و ایمانه .. الّا انّ مثل هذا الإنسان- بطبیعة الحال- یهیج طوفان فی داخله لما یشاهده من مثیرات فی هذا المجال، فیصطرع العقل و الغریزة، و کلّما کانت أمواج المثیرات اشدّ کانت کفّة الغرائز أرجح، حتّی انّها قد تصل فی لحظة خاطفة الی أقصی مرحلة من القوّة، بحیث لو تجاوز هذه المرحلة خطوة لهوی فی مزلق مهول، و لکنّ قوّة الایمان و العقل ثارت فی نفسه فجأة و تسلّمت زمام الأمور فی انقلاب عسکری سریع و کبحت جماح الشهوة.

و القرآن یصوّر هذه اللحظة الخاطفة الحسّاسة و المتأزّمة التی وقعت بین زمانین هادئین- فی الآیة المتقدّمة- فیکون المراد من قوله تعالی: وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأی بُرْهانَ رَبِّهِ انّ یوسف انجرّ الی حافّة الهاویة فی الصراع بین الغریزة العقل، و لکن فجأة ثارت قوّة الایمان و العقل و هزمت طوفان الغریزة[۱۰۳] .. لئلّا یتصوّر احد انّ یوسف عند ما استطاع ان یخلّص نفسه من هذه الهاویة فلم یقم بعمل مهمّ، لانّ اسباب الذنب و الهیاج الجنسی کانت فیه ضعیفة .. کلّا ابدا .. فهو فی هذه اللحظة الحسّاسة جاهد نفسه اشدّ الجهاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۲

ما المراد من برهان ربّه

؟ «البرهان» فی الأصل مصدر «بره» و معناه «صیرورة الشیء ابیضا» ثمّ اطلق هذا اللفظ علی کلّ دلیل محکم قوی یوجب وضوح المقصود، فعلی هذا یکون برهان اللّه الذی نجّی یوسف نوعا من الادلّة الالهیّة الواضحة، و قد احتمل فیه المفسّرون احتمالات کثیرة، من جملتها:

۱- العلم و الایمان و التربیة الانسانیة و الصفات البارزة.

۲- معرفته بحکم تحریم الزنا.

۳- مقام النبوّة و عصمته من الذنب.

۴- نوع من الأمداد الالهی الذی تداراکه فی هذه اللحظة الحسّاسة بسبب اعماله الصالحة.

۵- هناک روایة یستفاد منها انّه کان فی قصر امراة عزیز مصر صنم تعبده، و فجأة وقعت عیناها علیه، فکأنّها احسّت بأنّ الصنم ینظر الی حرکاتها الخیانیّة بغضب، فنهضت و القت علیه سترا، فاهتزّ یوسف لهذا المنظر، و قال: أنت تستحین من صنم لا یملک عقلا و لا

شعورا و لا إحساسا، فكيف لا استحيى من ربّى الخبير بكلّ شىء، و الذى لا تخفى عليه خافية؟.

فهذا الاحساس منح يوسف قوّة جديدة، و أعانه على الصراع الشديد فى اعماق نفسه بين الغريزة و العقل، ليتمكّن من التغلّب على أمواج الغريزة فى نفسه ۱۰۴].

و فى الوقت ذاته لا- مانع ان تكون جميع هذه المعانى منظورة، لانّ مفهوم البرهان العام يستوعبها جميعا، و قد أطلقت آيات القرآن كلمة «البرهان» على كثير من المعانى المتقدّمة.

امّا الرّوايات التى لا سند لها و التى ينقلها بعض المفسّرين، و التى مؤدّاها انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۳

يوسف صمّم على الذنب، و لكنّه لاحظ فجأة حالة من المكاشفة بين جبرئيل و يعقوب و هو يعضّ على إصبعه، فراى يوسف هذا المنظر و تخلّف عن اقدامه على هذا الذنب .. فهذه الرّوايات ليس لها اى سند معتبر .. و هى روايات إسرائيلية انتجتها الذهنيات البشرية الضيّقة التى لم تدرك مقام النبوّة ابدا.

و الآن لنتوجّه الى تفسير بقيّة الآية إذ يقول القرآن المجيد: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ و هى اشارة الى انّ هذا الأمداد الغيبى و الاعانة المعنوية لانقاذ يوسف من السوء و الفحشاء من قبل اللّه لم يكن اعتباطا، فقد كان عبدا عارفا مؤمنا ورعا ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك و ظلماته، فكان جديرا بهذا الأمداد الالهى.

و بيان هذا الأمر يدلّ على انّ مثل هذه الامدادات الغيبية، فى لحظات الشدّة و الازمة التى تدرك الأنبياء- كيوسف مثلا- غير مخصوصة بهم، فإنّ كلّ من كان فى زمرة عباد اللّه الصالحين المخلصين فهو جدير به هذه المواهب ايضا.

ملاحظات

۱- جهاد النفس

نحن نعرف انّ أعظم الجهاد فى الإسلام هو جهاد النفس، الذى عبّر عنه فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ب «الجهاد الأكبر» اى هو جهاد أعظم من جهاد العدوّ الذى عبّر عنه بالجهاد الأصغر .. و إذا لم يتوفّر فى الإنسان الجهاد الأكبر بالمعنى الواقعى- أساسا- فلن ينتصر فى جهاده على أعدائه.

و فى القرآن المجيد ترتسم صور شتّى فى ميادين الجهاد، و تتجلّى فيها علاقة الأنبياء و اولياء اللّه الصالحين. و قصّة يوسف و ما كان من عشق امراة العزيز الملتهب واحدة من هذه الصور، و بالرغم من انّ القرآن لم يوضّح جميع ما فى القصّة من خفايا و زوايا، الّا انّه أجملها بصورة موجزة فى جملة قصيرة هى وَ هَمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۴

بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ و بيّن شدّة هذا الطوفان.

لقد خرج يوسف من هذا الصراع منتصرا بوجه مشرق لثلاثة اسباب:

الاوّل: انّه التجأ الى اللّه و استعاذ به، و قال: مَعاذَ اللَّهِ

الثّانى: التفاته الى الإحسان الذى اسداه اليه عزيز مصر، و ما تناوله فى بيته فأثّر فيه، فلم ينس فضله طيلة حياته، و مع ملاحظة نعم اللّه التى لا تحصى و انقاذه له من غيابة الجبّ الموحشة الى محيط الامان و الهدوء جعلته يفكّر فى ماضيه و مستقبله، و لا يستسلم للتيارات العابرة.

الثّالث: بناء شخصيّته و عبوديّته المقرونة بالإخلاص التى عبّر عنها القرآن إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ يستفاد منها انّها منحته القوّة و القدرة ليخرج من ميادين الوسوسة التى تهجم عليه من الداخل و الخارج بانتصار.

و هذا درس كبير لجميع الناس الأحرار الذين يريدون ان ينتصروا على عدوّهم الخطر فى ميادين جهاد النفس.

يقول الامام على بن أبى طالب «امير المؤمنين» فى دعاء الصباح، بأسلوب جميل رائق: «و ان خذلنى نصرك عند محاربة النفس و الشيطان، فقد وكلنى خذلانك الى حيث النصب و الحرمان».

و نقرا

فى بعض الأحاديث انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعث سرية فلمّا رجعوا قال:

«مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، و بقى عليهم الجهاد الأكبر» فقيل: يا رسول اللّه، و ما الجهاد الأكبر قال: «جهاد النفس»[۱۰۵].

و

يقول الامام على عليه السّلام ايضا «المجاهد من جاهد نفسه»[۱۰۶].

كما ينقل

عن الامام الصادق عليه السلام انّه قال: «من ملك نفسه إذا رغب و إذا رهب و إذا اشتهى و إذا غضب و إذا رضى حرّم اللّه جسده على النار»[۱۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۵

۲- ثواب الإخلاص

كما أشرنا فى تفسير الآيات المتقدّمة، فإنّ القرآن المجيد عزا نجاة يوسف- من هذه الازمة الخطرة التى أوقعته امراة العزيز فيها- الى اللّه، إذ قال: كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ.

و لكن مع ملاحظة الجملة التى تليها: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ تتجلّى هذه الحقيقة، و هى انّ اللّه سبحانه لا يترك عباده المخلصين فى اللحظات المتأزّمة وحدهم .. و لا يقطع عنهم امداداته المعنويّة .. بل يحفظ عباده بألطافه الخفيّة.

و هذا الثواب فى الواقع هو ما يمنحه اللّه جلّ جلاله لامثال هؤلاء العباد، و هو ثواب الطهارة و التقوى و الإخلاص.

و هناك مسألة جديرة بالتنويه، و هى انّ يوسف «من عباد اللّه المخلصين» و مفرد الكلمة «مخلص» على وزن «مطلق» و هو اسم مفعول.

و لم تأت الكلمة على وزن اسم الفاعل اى «مخلص» على وزن «محسن».

و الدقّة فى آيات القرآن تكشف عن انّ كلمة «مخلص» (بكسر اللام) غالبا ما تستعمل فى مراحل تكامل الإنسان الاولى و فى حال بناء شخصيته، كقوله تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۱۰۸].

و كقوله تعالى: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۱۰۹].

غير انّ كلمة «مخلص» بفتح اللام استعملت فى المرحلة العالية .. التى تحصل بعد مدّة مديدة من جهاد النفس، تلك المرحلة التى ييأس الشيطان فيها من نفوذه و وسوسته داخل الإنسان، و فى الحقيقة تكون نفس الإنسان مؤمّنا عليها من قبل اللّه، يقول القرآن فى هذا الصدد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۶

قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۱۱۰].

و كان يوسف قد بلغ هذه المرحلة بحيث وقف كالجبل امام تلك الازمة، فينبغى على كلّ فرد السعى لبلوغ هذه المرحلة.

۳- العفّة و المتانة فى البيان

من عجائب القرآن و واحدة من ادلّة الاعجاز، انّه لا يوجد فى تعبيره ركّة و ابتذال و عدم العفّة و ما الى ذلك، كما انّه لا يتناسب مع أسلوب الفرد العادى الامّى الذى تربّى فى محيط الجاهليّة، مع انّ حديث كلّ احد يتناسب مع محيطه و أفكاره!.

و بين جميع قصص القرآن و احداثه التى ينقلها توجد قصّة غرام و عشق واقعية، و هى قصّة (يوسف و امراة عزيز مصر).

قصّة تتحدّث عن عشق امراة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

اصحاب المقالات و الكتاب حين يواجهون مثل هذا الأمر .. امّا ان يتحدّثوا عن ابطال القصّة بأن يطلقوا للقلم او اللسان العنان، حتّى تظهر فى (البين) تعابير مثيرة و غير أخلاقية كثيرة.

و امّا ان يحافظوا على العفّة و النزاهة فى القلم و اللسان، فيحوّلوا القصّة الى القرّاء او السامعين بشكل غامض و مبهم.

فالكاتب او صاحب المقال مهما كان ماهرا يبتلى بواحد من هذين الإشكالين، ترى هل يعقل انّ فردا لم يدرس يرسم رسما دقيقا و كاملا لفصول مثل هذا العشق المثير، دون ان يستعمل اقلّ تعبير مهيّج و بعيد عن العفّة؟! و لكنّ القرآن يمزج فى رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصّة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۷

بأسلوب معجب- الدقّة فى البيان مع المتانة و العفّة، دون ان يغضّ الطرف عن ذكر الوقائع، او ان يظهر العجز، و قد استعمل جميع الأصول الاخلاقية و الأمور الخاصّة بالعفّة.

و نعرف انّ اخطر ما فى هذه القصّة ما جرى فى «خلوة العشق» و ما أظهرته امراة العزيز بابتكارها و هواها.

و القرآن يتناول كلّ ما جرى من حوادث و يتحدّث عنها دون ان يظهر اقلّ انحراف من اصول العفّة حيث يقول: وَ راوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَ غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ وَ قالَتْ هَيْتَ لَكَ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (يوسف ۲۳).

و المسائل التى تسترعى الانتباه فى هذه القصّة ما يلى:

۱- كلمة «راود» تستعمل فى مكان يطلب فيه احد من الآخر شيئا بإصرار ممزوجا بالترغيب و اللين، لكن ما الذى ارادته امراة العزيز من يوسف؟! .. بما انّه كان واضحا فقد اكتفى القرآن بالكناية و التلميح دون التصريح!.

۲- انّ القرآن هنا لم يعبّر عن امراة العزيز تعبيرا مباشرا، بل قال: الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها ليقترب من بيان العفّة و اسدال الحجاب، كما جسّد معرفة يوسف للحقّ و جسّد مشاكل يوسف ايضا فى عدم التسليم إزاء من كانت حياته فى قبضتها.

۳- غَلَّقَتِ الْأَبْوابَ التى تدلّ على المبالغة و انّ الأبواب جميعا أوصدت بشدّة، (و هذا تصوير من هذا الميدان المثير).

۴- جملة هَيْتَ لَكَ تشرح آخر كلام امراة العزيز للبلوغ الى وصال يوسف، و لكنّها فى عبارة متينة ذات مغزى كبير و ليس فيها ما يشير الى تعبير سيئ.

۵- مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ التى قالها يوسف لتلك المراة الجملية، معناها كما يقول اكثر المفسّرين: انّى ألتجئ الى اللّه فإنّ عزيز مصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۸

صاحبى و سيّدى و هو يجلّنى و يحترمنى و يعتمد علىّ، فكيف اخونه؟! و هذا العمل خيانة و ظلم إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ و بهذا توضّح الآية سعى يوسف الى إيقاظ العواطف الانسانية فى امراة العزيز.

۶- جملة وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ ترسم- من جهة- تلك الخلوة بدقّة، بحيث لو انّ يوسف لم يكن لديه مقام

العصمة او العقل او الايمان لكان قد وقع فى «الفخّ».

و من جهة أخرى ترسم انتصار يوسف أخيرا فى هذه الظروف على شيطان الشهوة الطاغى .. بأسلوب رائع.

الطريف هنا انّ الآية استعملت كلمة «همّ» فحسب، «اى انّ امراة العزيز صمّمت من جهتها و لو لم ير يوسف برهان ربّه لصمّم من جهته ايضا، ترى هل توجد كلمة اكثر متانة للتعبير عن (القصد و التصميم) أفضل من هذه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۸۹

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۲۵ الى ۲۹]

اشارة

وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۵) قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۶) وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۷) فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (۲۸) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ (۲۹)

التّفسير

فضيحة امراة العزيز

!! المقاومة الشديدة التى أبداها يوسف جعلت امراة العزيز آيسة منه تقريبا ..

و لكن يوسف الذى انتصر فى هذا الدور على تلك المراة المعاندة احسّ انّ بقاءه فى بيتها- فى هذا المزلق الخطر- غير صالح، و ينبغى ان يبتعد عنه، و لذلك اسرع نحو باب القصر ليفتحه و يخرج، و لم تقف امراة العزيز مكتوفة الايدى، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۰

أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، و سحبت قميصه من خلفه فقدّته وَ اسْتَبَقَا الْبابَ وَ قَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ.

(الاستباق) فى اللغة هو المسابقة بين شخصين او اكثر.

و (قدّ) بمعنى مزّق طولا، كما انّ «قطّ» بمعنى مزّق عرضا، و لذلك نقرا

فى الحديث .. «كانت ضربات على بن أبى طالب عليه السّلام أبكارا، إذا اعتلى قدّ، و إذا اعترض قطّ»[۱۱۱].

و على كلّ حال فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب و فتحه فرأيا «يوسف و امراة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأة. يقول القرآن الكريم: وَ أَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ

«ألفيا» من مادّة «الالفاء» و معناها العثور المفاجئ .. و التعبير عن الزوج ب «السيّد» كما يقول بعض المفسّرين كان طبقا للعرف السائد فى مصر، حيث كانت تخاطب المراة زوجها بالسيّد.

فى هذه اللحظة التى رأت امراة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، و شعلة الانتقام تتأجّج فى داخلها من جهة اخرى، كان اوّل شىء توجّهت اليه ان تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحقّ متّهمة يوسف إذ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ

من الطريف هنا انّ هذه المراة الخائنة نسيت نفسها انّها امراة العزيز حينما كانت لوحدها مع يوسف، و لكن عند ما وجدت نفسها

مشرفة على الافتضاح، عبّرت عن نفسها بأنّها اهله لتثير فيه احساس الغيرة! فهى خاصّة به و لا ينبغى لأحد ان يلقى عليها نظرات الطمع!!

و هذا الكلام قريب الشبه بكلام فرعون مصر فى عصر موسى إذ قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۱

أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ،[۱۱۲] حيث كان جالسا على عرش السلطنة! و لكنّه حين وجد نفسه مشرفا على السقوط، و وجد ملكه و تاجه فى خطر، قال عن موسى و أخيه:

يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۱۱۳].

و الأمر الآخر انّ امراة العزيز لم تقل انّ يوسف كان يريد السوء بى، بل تحدّثت [عن ما يستحقّه من الجزاء] مع عزيز مصر، فكأنّ اصل المسألة مسلّم به!! و الكلام عن كيفية الجزاء.

و هذا التعبير المدروس الذى كان فى لحظة اضطراب و مفاجأة للمراة يدلّ على شدّة احتيالها[۱۱۴].

ثمّ انّ التعبير عن السجن اوّلا، ثمّ عدم قناعتها بالسجن وحده، إذ تتجاوز هذا الحكم الى العذاب الأليم او «الاعدام» مثلا.

و لكن يوسف أدرك انّ السكوت هنا غير جائز .. فأماط اللثام عن عشق امراة العزيز قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي

و طبيعى انّ مثل هذا الحادث من العسير تصديقه فى البداية، اى انّ شابّا يافعا غير متزوّج لا يعدّ آثما، و لكن امراة متزوّجة ذات مكانة اجتماعية- ظاهرا- آثمة! فلذلك كانت أصابع الاتّهام تشير الى يوسف اكثر من امراة العزيز.

و لكن حيث انّ اللّه حامى الصالحين و المخلصين فلا يرضى ان يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الاتّهام، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَ هُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَ إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَ هُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ و اى دليل أقوى من هذا الدليل، لانّ طلب المعصية ان كان من طرف امراة العزيز فقد ركضت خلف يوسف و قدّت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۲

قميصه من دبر، لانّه كان يريد الفرار فأمسكت بثوبه فقدّته، و إذا كان يوسف هو الذى هجم عليها و هى تريد الفرار او وقفت امامه للمواجهة و الدفاع، فمن المسلّم ان يقدّ قميص يوسف من قبل! و ايّ شىء اعجب من ان تكون هذه المسألة البسيطة «خرق الثوب» مؤشّرا على تغيير مسير حياة برىء و سندا على طهارته و دليلا على افتضاح المجرم!.

امّا عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، و تحيّر فى قميص يوسف ذاهلا:

فَلَمَّا رَأى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ

فى هذه الحال، و لخوف عزيز مصر من انتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملا، فتسقط منزلته و كرامته فى مصر راى انّ من الصلاح كتمان القضيّة، فالتفت الى يوسف و قال: يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا اى اكتم هذا الأمر و لا تخبر به أحدا .. ثمّ التفت الى امرأته و قال: وَ اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ ۱۱۵].

و ذهب بعض المفسّرين الى انّ القائل لهذه الجملة ليس عزيز مصر، بل الشاهد نفسه، و لكن لا دليل يؤيّد هذا الاحتمال و خاصّة مع وقوع هذه الجملة بعد قول العزيز.

ملاحظات

۱- من كان الشاهد

؟! هناك اقوال فى الشاهد الذى ختم «ملفّ يوسف و امراة العزيز» بسرعة، و أوضح البرىء من المسىء من هو؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۳

قال بعضهم: هو احد أقارب امراة العزیز، و کلمة «مِنْ أَهْلِها» دلیل علی ذلک .. و علی القاعدة فهو رجل حکیم و عارف ذکی بحیث استطاع ان یستنبط الحکم من قدّ الثوب دون ان یکون لدیه شاهد او بیّنة. بل اکتشف حقیقة الحال .. و یقال:

انّ هذا الرجل کان من مشاوری عزیز مصر و کان معه.

التّفسیر الآخر: انّ الشاهد کان طفلا رضیعا من أقارب امراة العزیز و کان علی مقربة من الحادث، و کان یوسف قد طلب من عزیز مصر ان یحتکم الی هذا الطفل، فتعجّب عزیز مصر من هذا الطلب .. تری هل یمکن هذا؟! لکن «الطفل» حین تکلّم- کما تکلّم المسیح علیه السّلام فی المهد- و اعطی هذا المعیار لمعرفة البریء من المسیء، التفت عزیز مصر الی انّ یوسف لیس غلاما (عادیّا) بل هو نبی او متنّبی.

و الرّوایات المنقولة عن طریق اهل البیت علیهم السّلام و اهل السنّة تشیر الی هذا التّفسیر، من جملتها ما

نقله ابن عبّاس عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: انّه قال: «اربعة تکلّموا أطفالا: ابن ماشطة فرعون، و شاهد یوسف، و صاحب جریح، و عیسی بن مریم»[۱۱۶].

کما

نقل عن تفسیر علی بن ابراهیم عن الامام الصادق انّ شاهد یوسف کان طفلا فی المهد[۱۱۷].

و لکن ینبغی الالتفات الی انّ ایّا من الحدیثین المتقدّمین لیس له سند قوی، بل هما مرفوعان.

الاحتمال الثالث: انّ الشاهد هو القدّ فی الثوب الذی تکلّم بلسان الحال، و لکن مع ملاحظة کلمة مِنْ أَهْلِها یضعّف هذا الاحتمال، بل ینفیه!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۴

۲- الموقف الضعیف لعزیز مصر

من جملة المسائل التی تستجلب الانتباه فی هذه القصّة انّ فی مثل هذه المسألة المهمّة التی طعن فیها بناموس عزیز مصر و عرضه، کیف یکتفی قانعا بالقول وَ اسْتَغْفِری لِذَنْبِکِ إِنَّکِ کُنْتِ مِنَ الْخاطِئِینَ و ربّما کانت هذه المسألة سببا لانّ تدعوا امراة العزیز نساء الاشراف الی مجلسها الخاص، و تکاشفهنّ بفصّة حبّها و غرامها بجلاء.

تری: أ کان هذا خوفا من الافتضاح، فاختصر عزیز مصر هذه المسألة و غضّ النظر عنها!؟

ام انّ هذه المسألة- أساسا- لیست بذات اهمیّة للحکّام و مالکی ازمّة الأمور و الطواغیت، فهم لا یکترثون للغیرة و حفظ الناموس، لانّهم ملوّثون بالذنوب و غارقون فی مثل هذه الرذائل و الفساد حتّی کأنّه لا اهمیّة لهذا الموضوع فی نظرهم.

یبدو انّ الاحتمال الثّانی اقرب للنظر!.

۳- حمایة اللّه فی الأزمات

الدرس الکبیر الآخر الذی نتعلّمه من قصّة یوسف، هو حمایة اللّه و رعایته للإنسان الاکیدة فی اشدّ الحالات، و بمقتضی قوله: یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ فمن جهة کان یوسف لا یصدّق ابدا انّ نافذة من الأمل ستفتح له، و یکون قدّ القمیص سندا للطهارة و البراءة، ذلک القمیص الذی یصنع الحوادث، فیوما یفضح اخوة یوسف لانّهم جاؤوا أباهم و هو غیر ممزّق، و یوما یفضح

امراة العزیز لانّه قدّ من دبر، و یوما آخر یهب البصر و النّور لیعقوب، و ریحه المعروف یسافر مع نسیم الصباح من مصر الی ارض کنعان و یبشّر العجوز «الکنعانی» بقدوم موکب البشیر!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۵

و علی کلّ حال فإنّ للّه الطافا خفیّة لا یسبر غورها احد، و حین یهبّ نسیم هذه الألطاف تتغیّر الأسباب و المسبّبات بشکل لا یمکن حتّی لاذکی الافراد ان یتنبّأ عنها!.

بل قد یتّفق أحیانا انّ خیوط العنکبوت تبدّل مسیر الحیاة لامّة او قوم بشکل دائم، کما حدث فی قصّة غار ثور و هجرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۴- خطّة امراة العزیز

فی الآیات المتقدّمة اشارة الی مکر النسوة (طبعا النساء اللائی لا ارتباط لهنّ بشیء الّا هواهنّ کامرأة العزیز) و هذا المکر و التحیّل الموصوف بالعظمة إِنَّ کَیْدَکُنَّ عَظِیمٌ یوجد منه فی التاریخ و القصص التأریخیّة امثلة کثیرة، حیث تکشف اجمالا انّ النساء اللائی یسوقهنّ هواهنّ یرسمن خططا لا نظیر لها من نوعها.

رأینا فی القصّة المتقدّمة کیف انّ امراة العزیز بعد الهزیمة فی عشقها و افتضاح أمرها، برّات نفسها بمهارة و اتّهمت یوسف و لم تقل انّ یوسف قصد السوء بی، بل افترضت ذلک امرا مسلّما به. و انّما سألت فقط عن جزاء مثل من یعمل هذا العمل!! جزاء لا یتوقّف علی السجن فحسب، بل یأخذ ابعادا اخری غیر محدودة.

و نری ایضا انّ هذه المراة فی مقابل لوم نسوة مصر لها إذ عشقت غلامها- فی الآیات التالیة- تستعمل مثل هذا المکر او الخداع، و هذا تأکید آخر علی مکر مثل هؤلاء النسوة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۶

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۳۰ الی ۳۴]

اشارة

وَ قالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَةِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا إِنَّا لَنَراها فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۳۰) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَکْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَیْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّکَأً وَ آتَتْ کُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِکِّیناً وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَیْهِنَّ فَلَمَّا رَأَیْنَهُ أَکْبَرْنَهُ وَ قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَّ وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَکٌ کَرِیمٌ (۳۱) قالَتْ فَذلِکُنَّ الَّذِی لُمْتُنَّنِی فِیهِ وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَ لَئِنْ لَمْ یَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَیُسْجَنَنَّ وَ لَیَکُوناً مِنَ الصَّاغِرِینَ (۳۲) قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَیَّ مِمَّا یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَ أَکُنْ مِنَ الْجاهِلِینَ (۳۳) فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ کَیْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۴)

التّفسیر

مؤامرة اخری:

بالرغم من انّ عشق امراة العزیز المذکور آنفا کان- مسألة خصوصیة-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۷

بحیث اکّد حتّی العزیز علی کتمانها، و لکن حیث انّ هذه الأسرار لا تبقی خافیة، و لا سیّما فی قصور الملوک و اصحاب المال و القوّة- التی فی حیطانها آذان صاغیة- فسوف تتسرّب الی خارج القصر کما یقول القرآن فی هذا الشأن: وَ قالَ نِسْوَةٌ فِی الْمَدِینَةِ امْرَأَتُ الْعَزِیزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبًّا ثمّ لمنها و عنّفنها بهذه الجملة إِنَّا لَنَراها فِی ضَلالٍ مُبِینٍ و واضح انّ المتحدّث بمثل هذا الکلام کنّ نساء اشراف مصر حیث کانت اخبار القصور المفعمة بفساد الفراعنة و المستکبرین مثیرة لهنّ و کنّ یستقصینها دائما.

لم یکن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امراة العزیز و لکنّ ایدیهنّ لم تصل الی یوسف، و کما یقول المثل- «العین بصیرة و الید قصیرة» فکنّ یرین امراة العزیز بسبب هذا العشق فی ضلال مبین.

و یقول بعض المفسّرین: انّ اذاعة هذا السرّ من قبل هذه المجموعة من نساء مصر، کانت خطّة لتحریک امراة العزیز حتّی تدعوهنّ الی قصرها لتکشف لهنّ عن براءتها و تریهن یوسف و جماله! و لعلّهنّ کنّ یتصوّرن انّ یوسف إذا رآهنّ بهره جمالهنّ، و ربّما رآهنّ أجمل من امراة العزیز، و لانّ یوسف کان یحترم امراة العزیز احترام الولد لوالدته- ام مربّیته- فهو لا یطمع فیها، و لهذا السبب یکون احتمال نفوذهنّ الی قلبه أقوی من نفوذ امراة العزیز الیه!.

«الشغف» من مادّة «الشغاف» و معناه أعلی القلب او الغشاء الرقیق المحیط بالقلب، و شغفها حبّا معناه انّها تعلّقت به الی درجة بحیث نفذ حبّه الی قلبها و استقرّ فی أعماقه.

و هذا التعبیر اشارة الی العشق الشدید و الملتهب.

یذکر «الآلوسی» فی تفسیره «روح المعانی» نقلا عن کتاب اسرار البلاغة مراتب الحبّ و العشق و نشیر هنا الی قسم منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۸

فأوّل مراحل الحبّ «الهوی» و معناه المیل، ثمّ «العلاقة» و هی المحبّة الملازمة للقلب، و بعدها «الکلف» و هو الحبّ الشدید، ثمّ «العشق» و بعده «الشعف» بالعین المهملة ای الحالة التی یحترق القلب فیها من الحبّ و یحسّ باللّذة من هذه الحالة .. و بعدها «اللوعة» ثمّ «الشغف» و هو المرحلة التی ینفذ العشق فیها الی جمیع زوایا القلب، ثمّ «الوله» و هو المرحلة التی تخطف عقل الإنسان من العشق، و آخر المراحل «الهیام» و هو المرحلة التی تذهل العاشق و تجرّه الی کلّ جهة دون اختیاره ۱۱۸].

هناک مسألة جدیرة بالالتفات و هی: من الذی أذاع هذا السرّ؟ هل کان من امراة العزیز التی لم ترغب فی هذه الفضیحة ابدا! او من قبل العزیز نفسه! و کان یؤکّد علی کتمان السرّ، او القاضی الحکیم الذی حکم فی الأمر، و یستبعد منه هذا العمل؟! و علی کلّ حال فإنّ مثل هذه المسائل فی هذه القصور المفعمة بالفساد لا تبقی طیّ الکتمان، و أخیرا فإنّها تنتقل علی السنة الذین یظهرون الحرص علی شرف القصر و تنتشر، و من الطبیعی ان یضیف علیها آخرون اوراقا و اغصانا.

امّا امراة العزیز فقد وصلها ما دار بین النسوة من افتضاحها فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَکْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَیْهِنَّ وَ أَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّکَأً وَ آتَتْ کُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِکِّیناً[۱۱۹].

هذا العمل دلیل علی انّ امراة العزیز لم تکن تکترث بزوجها، و لم تأخذ الدرس من فضیحتها، ثمّ أمرت یوسف ان یتخطّی فی المجلس وَ قالَتِ اخْرُجْ عَلَیْهِنَ و تعبیر اخْرُجْ عَلَیْهِنَ بدلا من «ادخل» یشیر الی انّها کانت اخفت یوسف داخل البیت، او جعلته مشغولا فی احدی الغرف التی یوضع فیها الغذاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۱۹۹

عادة حتّی یکون دخوله الی المجلس مفاجأة للجمیع.

نساء مصر- و طبقا لبعض الرّوایات التی تقول: کنّ عشرا .. او اکثر- فوجئن بظهور یوسف کأنّه البدر او الشمس الطالعة، فتحیّرن من جماله فَلَمَّا رَأَیْنَهُ أَکْبَرْنَهُ و فقدن انفسهنّ وَ قَطَّعْنَ أَیْدِیَهُنَ مکان الفاکهة، و حین وجدن الحیاء و العفّة تشرقان من عینیه و قد احمّر

وجهه خجلا صحن جميعا وَ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما هذا بَشَراً إِنْ هذا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۱۲۰].

و هناك اقوال بين المفسّرين فى انّ النسوة الى اى حدّ قطّعن أيديهن؟ فمنهم من بالغ فى الأمر، و لكن كما يستفاد من القرآن على نحو الإجمال انّهن جرحن ايديهنّ.

و فى هذه الحال التى كانت الدماء تسيل من ايدى النسوة و قد لاحظن ملامح يوسف كلّها و صرن امامه «كالخشب المسنّدة» كشفن عن انّهن لسن بأقل من امراة العزيز عشقا ليوسف، فاستغلّت امراة العزيز هذه الفرصة ف قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ

فكأنّ امراة العزيز أرادت ان تقول لهنّ: لقد رأيتن يوسف مرّة واحدة فحدث لكنّ ما حدث و فقدتنّ صوابكن و قطعتن أيديكن من جماله و عشقه، فكيف الام و انا أراه و اسكن معه ليل نهار؟! و هكذا احسّت امراة العزيز بالغرور لانّها وفّقت فى ما ألقته من فكرة و اعطت لنفسها العذر، و اعترفت بكلّ صراحة بكلّ ما فعلت و قالت: وَ لَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ

و بدلا من ان تظهر الندم على كلامها او تتحفّظ على الأقل امام ضيوفها، أردفت القول بكلّ جدّ يحكى عن ارادتها القطعيّة: وَ لَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۰

... و لا اكتفى بسجنه، بل وَ لَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ

و من الطبيعى انّه إذا اكتفى عزيز مصر إزاء خيانة امرأته بالقول: اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ فينبغى ان تجرّ امرأته الفضيحة الى هذه المرحلة .. و أساسا فإنّ مثل هذه الأمور و المسائل فى قصور الفراعنة و الملوك ليست أمورا مهمّة.

ينقل البعض روايات عجيبة مؤدّاها انّ بعضا من نسوة مصر أعطين الحقّ لامرأة العزيز و درن حول يوسف ليرغّبنه بأن يستسلم لحبّها و كلّ واحدة تكلّمت بكلام! فقالت واحدة: ايّها الشاب ما هذا الصبر و الدلال، و لم لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، الا ترى هذا الجمال الآسر؟ أ ليس عندك قلب؟! الست شابّا؟

الا تستلذّ بالعشق و الجمال، فهل أنت حجارة او خشب؟! و قالت الثّانية: إذا كنت لا تعرف عن الجمال و العشق شيئا .. لكن الا تدرى انّ امراة العزيز ذات نفوذ و قدرة .. الا تفكّر ان لو ملكت قلبها فستنال كلّ شيء و تبلغ ايّ مقام شئت ...

و قالت الثّالثة: إذا كنت لا ترغب فى جمالها المثير و لا تحتاج الى مقامها و مالها، و لكن الا تعرف انّها ستنتقم لنفسها بما أوتيت من وسائل الانتقام الخطرة، الا تخاف من السجن و وحشته و من الغربة المضاعفة فيه؟! تهديد امراة العزيز من جانبها بالسجن و الاذلال من جهة، و وساوس النسوة الملوّثات اللائى خطّطن ليوسف كما يخطّط الدلّال من جهة اخرى، اوقعا يوسف فى ازمة شديدة، و أحاط به طوفان المشاكل، و لكن حيث انّ يوسف كان قد صنع نفسه، و قد أوجد نور الايمان و العفّة و التقوى فى قلبه هدوءا و سكينة خاصّة، فقد صمّم بعزم و شجاعة و التفت نحو السّماء ليناجى ربّه و هو فى هذه الشدّة قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ

و حيث كان يدرى ان لا مهرب له الّا الى اللّه فى جميع الأحوال و لا سيما فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۱

الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند اللّه بهذا الكلام وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَ أَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ

ربّاه ... انّنى أتقبّل السجن الموحش رعاية لأمرك و حفظا لطهارة نفسى ...

هذا السجن تتحرّر فيه روحى و تطهّر نفسى، و انا ارفض هذه الحريّة الظاهرية التى تأسر روحى فى سجن «الشهوة» و تلوّث نفسى.

ربّاه .. اعنّى، و هب لى القوّة، و زدنى قدرة و عقلا و ايمانا و تقوى، حتّى انتصر على هذه الوساوس! و حيث انّ وعد اللّه حقّ، و انّه يعين المجاهد (لنفسه او لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سدى و تلقفته رحمته و لطفه كما يقول القرآن الكريم: فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

فهو يسمع نجوى عبيده، و هو مطلع على اسرارهم، و يعرف طريق الحلّ لهم.

ملاحظات

۱- کما رأینا من قبل فإنّ امراة العزیز و نسوة مصر، استفدن من امور مختلفة فی سبیل الوصول الی مرادهن، فمرّة بإظهار العشق و العلاقة الشدیدة و التسلیم المحض، و مرّة بالترغیب و الطمع، ثمّ بالتهدید، او بتعبیر آخر: توسلن بالشهوة و المال و القوّة!! و هذه اصول متّحدة المآل یتوسّل بها الطغاة و المتجبرون فی کلّ عصر و زمان، حتّی لقد رأینا کرارا و مرارا انّهم و من اجل ان یجبروا رجال الحقّ علی الاستسلام، یظهرون لهم فی مجلس واحد لینا للغایة و یلوّحون بالمساعدات و انواع الأمداد ترغیبا، ثمّ یتوسلون فی نهایة المجلس بالتهدید و الوعید، و لا یلتفتون الی ما فی هذا من التناقض فی مجلس واحد و ما فیه من دناءة و خسّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۲

و لؤم فاضح.

و السبب واضح .. فهم یریدون الهدف و لا تهمّهم الوسیلة، و بتعبیر آخر:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۲۰۲

تسیغون للوصول الی اهدافهم ای أسلوب و ایّة وسیلة کانت.

و فی هذا المحیط یستسلم الافراد الضعاف، سواء فی اوّل المرحلة او وسطها او نهایتها، الّا انّ اولیاء الحقّ لا یکترثون بهذه الاسالیب بما لدیهم من شهامة و شجاعة و نور الایمان و یرفضون التسلیم بضرس قاطع حتّی و لو ادّی ذلک الی الموت .. و عاقبتهم الانتصار طبعا، انتصار أنفسهم و انتصار مبادئهم، او علی الأقل انتصار مبادئهم.

۲- کثیرون هم مثل نسوة مصر، فطالما هم جالسون حول الحمی یظهرون أنفسهم منزّهین و أتقیاء و یلبسون ثیاب العفّة و یعدّون الانحراف- کما هو فی امراة العزیز- فی ضلال مبین.

و لکن حین یتعرّضون لأدنی صدمة ینکشف انّ أقوالهم لا تصدّق أفعالهم ..

فإذا کانت امراة العزیز بعد سنین من معاشرة یوسف قد وقعت فی شرک حبّه و عشقه، فإنّهم فی اوّل مجلس یبتلون بمثل هذا المصیر و یقطّعون «الایدی» مکان «الأترنج».

۳- هنا قد یرد سؤال و هو: لم وافق یوسف علی طلب امراة العزیز و خرج علی النسوة فی المجلس؟ المجلس الذی ترتّب من اجل الإثم، او لتبرئة امراة آثمة؟! و لکن مع ملاحظة انّ یوسف کان بحسب الظاهر غلاما مشتری و علیه ان یخدم فی القصر، فلعلّ امراة العزیز استغلّت هذه الفرصة و الحیلة لیأتی بالطعام مثلا دون ان یعرف بهذه الخطّة و مکر النسوة.

و خاصّة انّنا قلنا انّ تعبیر القرآن اخْرُجْ عَلَیْهِنَ کما یظهر منه انّه لم یکن خارجا، بل کان فی احدی الغرف المجاورة للمجلس کالمطبخ مثلا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۳

۴- جملة یَدْعُونَنِی إِلَیْهِ و جملة تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَ تدلّان جیّدا علی انّ نسوة مصر- ذوات الهوی- بعد ما جری لهنّ من تقطیع الایدی و الانبهار بجمال یوسف، وردن هذا المیدان ایضا و طلبن من یوسف ان یستسلم لهنّ او لامراة العزیز، و لکن یوسف ابی علیهنّ جمیعا، و هذا یعنی انّ امراة العزیز لم تکن وحدها فی الجریمة بل کان لها شریکات فی ذلک.

۵- حین یقع الإنسان أسیرا بقبضة الشدائد و الحوادث و تجرّه الی شفی الهاویة، فعلیه ان یتوکّل علی اللّه و یلتجئ الیه و یستمدّ منه فقط، فإذا لم یحظ بلطفه و عونه فإنّه لا یستطیع ان یقوم بأی عمل، و هذا درس علّمنا ایّاه یوسف العظیم الطاهر الذیل، فهو القائل: وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّی کَیْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَیْهِنَّ وَ أَکُنْ مِنَ الْجاهِلِینَ فأنت یا ربّ الحافظ لی، و لا اعتمد علی قوای و قدرتی و تقوای.

هـذه الحالـة «التعلّق المطلق بلطف اللّه» بالاضافـة الى انّها تمنح عبادة اللّه قدرة و اسـتقامة غير محدودة، فهى تشـملهم بألطافه الخفيّة .. تلك الألطاف التى لا يمكن وصفها و التصديق بها الّا عند رؤيتها و مشاهدتها.

فهؤلاء هم الذين يسكنون فى ظلّ اللّه و رحمته فى الدنيا و الآخرة ...

فقـد ورد حـديث عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى هـذا الشـأن يقول: «سـبعة يظلّهم اللّه فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ الّا ظلّه: امام عادل، و شابّ نشأ فى عبادة اللّه عزّ و جلّ، و رجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود اليه، و رجلان كانا على طاعة اللّه عزّ و جـلّ فاجتمعـا على ذلـك و تفرّقـا، و رجـل ذكر اللّه عزّ و جـلّ خاليـا ففـاضت عيناه، و رجل دعته امراة ذات حسن و جمال فقال: انّى أخاف اللّه تعالى، و رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تصدّق بيمينه»[۱۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۵ الى ۳۸]

اشارة

ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْـجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (۳۵) وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّى أَرانِى أَعْصِـرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّى أَرانِى أَحْمِـلُ فَوْقَ رَأْسِـى خُبْزاً تَأْكُـلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِـنِينَ (۳۶) قـالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمـا ذلِكُمـا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۳۷) وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِى إِبْراهِيمَ وَ إِسْـحاقَ وَ يَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْـرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۳۸)

التّفسير

السّجن بسبب البراءة:

انتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف فى قصر العزيز فى تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۵

الغوغاء و الهياج، و لكنّ خبره- بالطبع- وصل الى سمع العزيز .. و من مجموع هذه المجريات اتّضح انّ يوسف لم يكن شابّا عادّيا، بل كـان طـاهرا لدرجـة لا يمكن لاى قوّة ان تجرّه الى الانحراف و التلوّث، و اتّضـحت علامات هـذه الظاهرة من جهات مختلفـة، فتمزّق قميصه من دبر، و مقاومته امام وساوس نسوة مصـر، و اسـتعداده لـدخول السـجن و عـدم الاستسـلام لتهديدات امراة العزيز بالسـجن و العذاب الأليم، كلّ هذه الأمور ادلّة على طهارته لا يمكن لأحد ان يسدل عليها الستار او ينكرها!.

و لازم هذه الادلّة اثبات عدم طهارة امراة العزيز و انكشاف جريمتها، و على اثر ثبوت هذه الجريمة فإنّ الخوف من فضـيحة جنسية فى اسرة العزيز كان يزداد يوما بعد يوم.

فكان الراى بعد تبادل المشورة بين العزيز و مستشاريه هو ابعاد يوسف عن الانظار لينسى الناس اسمه و شخصه، و احسن السبل لذلك ايداعه قعر السجن المظلم اوّلا، و ليشيع بين الناس انّ المذنب الاصلى هو يوسف ثانيا، لذلك يقول القرآن فى هذا الصدد: ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ

التعبير بكلمة «بدا» التى معناها ظهور الراى الجديد، يدلّ على انّ مثل هذا التصميم فى حقّ يوسف لم يكن من قبل. و يحتمل ان تكون

هذه الفكرة اقترحتها امراة العزيز الاوّل مرّة .. و بهذا دخل يوسف النزيه- بسبب طهارة ثوبه- السجن، و ليست هذه اوّل مرّة و لا آخرها ان يدخل الإنسان النزيه «بجريرة نزاهته» السجن!! اجل .. فى المحيط المنحرف تكون الحرية من نصيب المنحرفين الذين يسيرون مع التيار و ليست الحرية وحدها من نصيبهم فحسب، .. بل أنّ الأفراد النجباء كيوسف الذى لا يتلاءم مع ذلك المحيط و لونه و يتحرّك على خلاف مجرى الماء! ينبغى ان يقبعوا فى زاوية النسيان .. و لكن الى متى؟ هل تستمر هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۶

الحالة؟ .. قطعا لا ..

و من جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان وَ دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ

و حيث انّ من الظروف لم تكن تسمح للإنسان ان يحصل فيها على الاخبار بطريق عادى، فإنّه يأنس لاحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث و يتوقّع ما سيكون، حتّى انّ الرؤيا و تعبيرها عنده يكون مطلبا مهمّا.

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوما هذان الفتيان اللذان يقال: انّ أحدهما كان ساقيا فى بيت الملك، و الآخر كان مأمورا للطعام و المطبخ، و بسبب وشاية الأعداء و سعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، و تحدّث كلّ منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة و كانت بالنسبة له امرا عجيبا.

قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَ قالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ثمّ اضافا نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

و حول معرفة الفتيين و اطلاعهما على انّ يوسف له خبرة بتأويل الأحلام هناك اقوال بين المفسّرين:

قال بعضهم: انّ يوسف نفسه اخبر السجناء بأنّ له اطلاعا واسعا فى تفسير الأحلام، و قال بعضهم: انّ سيماء يوسف الملكوتية كانت تدلّ على انّه ليس فردا عاديا .. بل هو فرد عارف مطّلع و صاحب فكر و نظر، و لا بدّ ان يكون مثل هذا الشخص قادرا على حلّ مشاكلهم فى تعبير الرؤيا.

و قال البعض الآخر: انّ يوسف من بداية دخول السجن برهن- بأخلاقه الحسنة و المعاشرة الطيّبة للسجناء و خدمتهم و عيادة مرضاهم- انّه رجل صالح و حلّال المشاكل، لذلك كانوا يلتجئون اليه فى حلّ مشاكلهم و يستعينون به.

و هناك ملاحظة جدير ذكرها، و هى انّ القرآن عبّر ب «الفتى» مكان «العبد» و هو نوع من الاحترام، و عندنا

فى الحديث «لا يقولنّ أحدكم عبدى و امتى و لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۷

فتاى و فتاتى»[۱۲۲]

ليكون العبيد فى مراحل الانعتاق و الحريّة التى نظّمها الإسلام فى مأمن من كلّ انواع التحقير.

التعبير ب إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً امّا لانّه راى فى النوم انّه يعصر العنب للشراب او العنب المخمّر الذى فى الدنّ، و هو يعصره ليصفّيه مستخرجا منه الشراب، او انّه يعصر العنب ليقدّم عصيره للملك! .. دون ان يكون خمرا، و حيث انّ العنب يمكن ان يتبدّل خمرا اطلق عليه لفظ الخمر.

و التعبير ب إِنِّي أَرانِي بدلا من «إنّى رأيت» هو بعنوان حكاية الحال، أى إنّه يفرض نفسه فى اللحظة التى يرى فيها الرؤيا «النوم» و هذا الكلام لتصوير تلك الحالة.

و على كلّ حال فقد اغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا- و كان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء و نصحهم- و بحجّة التعبير كان يبيّن حقائق مهمّة تفتح لهم السبل و لجميع الناس ايضا.

فى البداية، و من اجل ان يستلفت اهتمامهما و اعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذى كان مثار اهتمامهما و توجّههما قالَ لا

يَأْتِيكَما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكَما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكَما.

و بهذا فقد طمأنهما انّهما سيجدان ضالّتهما قبل وصول الطعام إليهما.

و هناك احتمالات كثيرة فى هذه الجملة بين المفسّرين، من جملتها: انّ يوسف قال: انا بأمر اللّه مطّلع على بعض الأسرار، لا انّى أستطيع تعبير الأحلام فحسب، بل انا أستطيع حتّى اخباركم بما سيأتيكم من الطعام و ما نوعه و بأى صورة و اى خصوصية!.

فعلى هذا يكون التأويل بمعنى ذكر خصوصيات ذلك الطعام، و ان كان التأويل قليل الاستعمال فى مثل هذا المعنى طبعا، و لا سيّما انّه ورد فى الجملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۸

السابقة بمعنى تعبير الرؤيا.

و الاحتمال الآخر من مقصود يوسف هو: انّ اى نوع من الطعام ترونه فى النوم فأنا اعرف ما تأويله (و لكن هذا الاحتمال لا ينسجم مع الجملة السابقة) قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما.

فعلى هذا يكون احسن التفاسير للجملة المتقدّمة، هو التّفسير الاوّل الذى ذكرناه فى بداية الحديث.

ثمّ انّ يوسف أضاف الى كلامه مقرونا بالايمان باللّه و التوحيد الجارى بجميع ابعاده فى اعماق وجوده، ليبيّن بوضوح ان لا شىء يتحقّق الّا بإرادة اللّه قائلا: ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي و لئلّا يتصوّر انّ اللّه يمنح مثل هذه الأمور دون حساب، قال إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

و المقصود بهذه الملّة او الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر او عبدة الأصنام من كنعان.

و ينبغى لى ان اترك مثل هذه العقائد لانّها على خلاف الفطرة الانسانية النقيّة، ثمّ انّى تربّيت فى اسرة الوحى و النّبوّة وَ اتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ

و لعلّ هذه هى اوّل مرّة يعرّف يوسف نفسه للسجناء بهذا التعريف، ليعلموا انّه سليل الوحى و النّبوّة و قد دخل السجن بريئا .. كبقيّة السجناء الابرياء فى حكومة الطواغيت.

ثمّ يضيف على نحو التأكيد ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لانّ أسرتنا اسرة التوحيد ... اسرة ابراهيم محطّم الأصنام ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَ عَلَى النَّاسِ

و على هذا فلا تتصوّروا انّ هذا الفضل و الحبّ شملا أسرتنا اهل النّبوّة فحسب- بل هى الموهبة العامّة التى تشمل جميع عباد اللّه المودعة فى أرواحهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۰۹

المسمّاة بالفطرة حيث يتكاملون بقيادة الأنبياء وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ

جدير بالذكر و الالتفات انّ «إسحاق» عدّ فى الآية المتقدّمة فى زمرة «آباء يوسف» فى حين انّنا نعرف انّ يوسف هو ابن يعقوب و يعقوب هو ابن إسحاق، فتكون كلمة أب بهذا مستعملة فى الجدّ ايضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۰

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۳۹ الى ۴۲]

اشارة

يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۳۹) ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ

بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۴۰) يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ (۴۱) وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (۴۲)

التّفسير

السّجن او مركز التّربية:

حين هيّأ يوسف فى البحث السابق قلوب السجينين لقبول حقيقة التوحيد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۱

توجّه إليهما و قال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

فكأنّ يوسف يريد ان يفهم السجينين انّه لم تريان الحرية فى النوم و لا تريانها فى اليقظة؟! أ ليس ذلك من تفرقتكم و شرككم و نفاقكم الذى مصدره عبادة الأوثان و الأرباب المتفرّقين ممّا سبّب ان يتغلّب عليكم الطغاة و الجبابرة؟! فلم لا تجتمعون تحت راية التوحيد، و تعتصموا بحبل الواحد القهّار، لتطردوا من مجتمعكم هؤلاء الظالمين و الجبابرة الذين يسوقونكم الى السجن ابرياء دون ذنب؟! ثمّ يضيف قائلا: ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ بل هى صنع عقولكم العاجزة و افكاركم المنحرفة .. إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ فلا ينبغى ان تطأطئوا رؤوسكم لسواه من الطغاة و الفراعنة، ثمّ أضاف زيادة فى التأكيد قائلا: أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ

اى انّ التوحيد فى جميع ابعاده- فى العبادة، فى الحكومة، فى المجتمع، فى المسائل الثقافية، و فى كلّ شىء- هو الدين الالهى المستقيم و الثابت. وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و لذلك خضعوا لحكومة غير (اللّه) فذاقوا الشقاء و السجون فى هذا السبيل.

و بعد ان ارشد يوسف صاحبى سجنه و دلّهما و دعاهما الى حقيقة التوحيد، بدا بتعبير الرؤيا لهما .. لانّهما من البداية جاءا لهذا الأمر و قد وعدهما بتعبير الرؤيا، و لكنّه اغتنم الفرصة و حدّثهما عن التوحيد الحى و المواجهة مع الشرك، ثمّ التفت إليهما و قال: يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَ أَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ

و بالرغم من تناسب كلّ رؤيا مع ما عبّره يوسف، فكان معلوما اجمالا من الذى يطلق من السجينين؟ و من الذى يصلب منهما؟ الّا انّ يوسف لم يرغب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۲

ان يبيّن التعبير بصراحة اكثر من هذه .. خاصّة و انّ فيه خبرا غير مريح، لذلك جعل التعبير تحت عنوان «أحدكما».

ثمّ أضاف مؤكدا قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ و هو اشارة الى انّ هذا التعبير ليس تعبيرا ساذجا، بل هو من انباء الغيب التى تعلّمها من اللّه، فلا مجال للترديد و الكلام بعد هذا.

فى كثير من التفاسير ورد فى ذيل الجملة المتقدّمة انّ السجين الثّانى الذى سمع بالخبر المزعج أخذ يكذّب رؤياه و يقول: كنت امزح معك، ظانّا انّ مصيره سيتبدّل بهذا التكذيب، فعقّب عليه يوسف بالجملة المتقدّمة! و يحتمل ايضا انّ يوسف كان قاطعا فى تعبير الرؤيا الى درجة بحيث ذكر الجملة المتقدّمة تأكيدا لما سبق بيانه.

و حين احسّ يوسف انّ السجينين سينفصلان عنه عاجلا، و من اجل ان يجد يوما يطلق فيه و يبرّأ من هذه التهمة، اوصى احد السجينين الذى كان يعلم انّه سيطلق ان يذكره عند الملك وَ قالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ لكن هذا الغلام «الناسى» مثله مثل

الافراد قلیلی الاستیعاب، ما ان یبلغوا نعمة ما حتّی ینسوا صاحبها، و هکذا نسی یوسف تماما، و لکن القرآن عبّر عن ذلک بقوله: فَأَنْساهُ الشَّیْطانُ ذِکْرَ رَبِّهِ و هکذا أصبح یوسف منسیّا فَلَبِثَ فِی السِّجْنِ بِضْعَ سِنِینَ

هناک اقوال بین المفسّرین فی انّ الضمیر من فَأَنْساهُ الشَّیْطانُ هل یعود علی ساقی الملک، ام علی یوسف؟ کثیر من المفسّرین یعیدون الضمیر علی یوسف فیکون المعنی: انّ الشیطان انسی یوسف ذکر اللّه فتوسّل بسواه.

و لکن مع ملاحظة الجملة السابقة التی تذکر انّ یوسف کان یوصی صاحبه ان یذکره عند ربّه، یظهر انّ الضمیر یعود علی الساقی نفسه.

و کلمتا «الربّ» فی المکانین بمعنی واحد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۳

کما انّ جملة وَ ادَّکَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ التی ستأتی فی الآیات التالیة، تدلّ علی انّ الذی نسی هو الساقی.

و لکن سواء عاد الضمیر علی یوسف ام علی صاحبه، فما من شکّ من انّ یوسف توسّل بالغیر فی سبیل نجاة نفسه! و بدیهی انّ مثل هذا التوسّل للنجاة من السجن و من سائر المشاکل، لیس امرا غریبا بالنسبة للافراد العادیین، و هو من قبیل التوسّل بالأسباب الطبیعیة، و لکن بالنسبة للافراد الذین هم قدوة و فی مکانة عالیة من الایمان و التوحید، لا یمکن ان یخلو من إیراد، و لعلّ هذا کان سببا فی بقاء یوسف فی السجن بضع سنین، إذ لم یرض اللّه سبحانه لیوسف «ترک الاولی»!.

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انّه قال: «عجیب من اخی یوسف کیف استغاث بالمخلوق دون الخالق؟»

و

روی انّه قال: «لو لا کلمته ما لبث فی السجن طول ما لبث» یعنی قوله اذْکُرْنِی عِنْدَ رَبِّکَ

و

روی عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام قال: «جاء جبرئیل علیه السّلام فقال: یا یوسف من جعلک احسن الناس؟ قال: ربّی، قال: فمن حبّبک الی أبیک دون إخوانک؟ قال: ربّی، قال: فمن ساق إلیک السیارة؟ قال: ربّی، قال: فمن صرف عنک الحجارة؟ قال: ربّی، قال: فمن أنقذک من الجبّ؟ قال: ربّی، قال: فمن صرف عنک کید النسوة؟

قال: ربّی، قال: فإنّ ربّک یقول: ما دعاک الی ان تنزل حاجتک بمخلوق دونی؟ البث بالسجن بما قلت بضع سنین»[۱۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۴

ملاحظات

۱- السّجن مرکز للإرشاد او بؤرة للفساد

للسجن تأریخ مؤلم و مثیر للغمّ جدّا فی هذا العالم، فأسوا المجرمین و احسن الناس کلاهما دخل السجن، و لهذا السبب کان مرکزا دائما لافضل الدروس البنّاءة او لأسوإ الاختبارات.

و فی الحقیقة انّ السجون التی یجتمع فیها المفسدون تعدّ معهدا عالیا للفساد! ففی هذه السجون تتمّ مبادلة الخطط التخریبیّة و التجارب .. و کلّ منحرف یعلم درسه للآخرین، و لهذا السبب حین یطلقون من السجن یواصلون طریقهم بأسلوب اکثر مهارة من السابق و بتشکیل جدید ... الّا ان یلتفت مسئولو السجن لهذا الموضوع، و یعملوا علی تغییر هؤلاء الافراد الذین فیهم الاستعداد و القابلیة الی عناصر صالحة و مفیدة و بنّاءة.

و امّا السجون التى تتشكّل من الصالحين و الابرياء و النزيهين و المجاهدين فى طريق الحقّ و الحرية، فهى معاهد و مراكز لتعليم الدروس العقائديّة و الطرق العملية للجهاد و المبارزة و البناء.

و هذه السجون تعطى فرصة طيّبة للمنافحين فى طريق الحقّ ليؤدّوا دورهم، و ينسّقوا جهودهم بعد التحرّر من هذه السجون.

و حين انتصر يوسف على امراة محتالة ماكرة متّبعة لهواها- كامرأة عزيز مصر- و دخل السجن، سعى ان يبدّل محيط السجن الى محيط بنّاء و مركز للتعليم و التربية، حتّى انّه وضع أساس حريته و حرية الآخرين ضمن تخطيطه هناك.

و هذا الماضى يعطينا درسا مهمّا، و هو انّ الإرشاد و التربية ليسا محدودين فى مركز معيّن كالمسجد و المدرسة- مثلا- بل ينبغى ان يستفاد من كلّ فرصة سانحة للوصول الى هذا الهدف، حتّى و لو كانت فى السجن و تحت أثقال القيود.

امّا عدد السنوات التى قضاها يوسف فى السجن، فهناك اقوال بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۵

المفسّرين، و المشهور انّها سبع سنوات، الّا انّ بعضهم قال: انّ يوسف بقى فى السجن اثنتى عشرة سنة، خمس قبل رؤيا صاحبى سجنه، و سبع بعدها، و كانت سنوات ملأى بالتعب و النصب الّا انّها من جهة الإرشاد كانت سنوات مفعمة بالبركة و الخير[۱۲۴].

۲- حين يصلب المصلحون

! من الطريف انّنا نقرا فى هذه القصّة انّ الذى راى فى منامه انّه يعصر خمرا و يقدّمه للملك قد تحرّر و اطلق من السجن، و انّ الذى راى انّه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه قد صعد عود المشنقة.

أ ليس مفهوم هذا انّ الذين هم على خطى الشّهوات و فى محيط المفسدين و انظمة الطغاة ينالون الحريّة، و امّا الذين يقدّمون خدمة للمجتمع و يعطون الخبز للناس فليس من حقّهم الحياة! و ينبغى ان يموتوا؟ فهذا نسيج المجتمع الذى يحكمه النظام الفاسد .. و هذه نهاية الصالحين فى أمثال هذا المجتمع!.

صحيح انّ يوسف- اعتمادا على الوحى الالهى و علم التعبير- توقّع ما كان، و لكنّ اىّ معبّر لا يمكن له ان يبعد عن نظره هذه المناسبات! ففى الحقيقة انّ الخدمة فى مثل هذه المجتمعات ذنب عظيم، و الخيانة و الاساءة هى الثواب بعينه!.

۳- اكبر دروس الحرّية

رأينا انّ اكبر درس علّمه يوسف للسجناء هو درس التوحيد و عبادة اللّه الواحد الأحد، ذلك الدرس الذى حصيلته الحريّة و التحرّر.

لقد كان يعرف انّ الأرباب «المتفرّقين» و المعبودين المختلفين و الاهداف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۶

المتفرّقة، كلّها أساس التفرقة فى المجتمعات، و طالما هناك تفرقة فالجبابرة مسلّطون على رقاب الناس، لذلك اعطى يوسف «دستورا» و امرا بقطع جذورهم بسيف التوحيد الباتر، لئلّا يضطرّوا الى رؤية الحريّة فى الأحلام و المنام، بل ينبغى ان يشاهدوا الحريّة فى اليقظة.

ترى، أ ليس الجبابرة المسلّطون على رقاب الناس هم ثلّة من الافراد يستطيع الناس مكافحتهم، الّا انّهم بإيجاد التفرقة و النفاق، و عن طريق «الأرباب المتفرقين» استطاعوا ان يتحكّموا على رقاب الناس و يهدّوا قوى المجتمع!.

و من الطبيعى ان يكون اليوم الذى تجتمع فيه الأمم على كلمة التوحيد و توحيد الكلمة تحت راية «اللّه الواحد القهّار» و يجمعوا قواهم، هو يوم زوال أولئك الجبابرة الظالمين، و هذا درس مهم جدّا ليومنا و غدنا و لجميع الناس فى كلّ المجتمعات البشرية و على

امتداد التاريخ.

و من الضرورى ان نلتفت الى هذه المسألة الدقيقة، و هى انّ يوسف يقول:

إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ثمّ يؤكّد أنّ العبادة و الخضوع لا تكونان إلّا له أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ و يؤكّد بعد ذلك بالقول: ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ و يعقّب أخيرا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

فعلى هذا لو تعلّم الناس المعارف الصحيحة و عرفوا الحقيقة، و نهضت فيهم حقيقة التوحيد، فإنّ المشاكل ستنحلّ لا محالة.

۴- استغلال شعار بنّاء بشكل سيئ

شعار إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ الذى هو شعار قرآنى ايجابى مثبت، ينفى ايّة حكومة كانت سوى حكومة اللّه او ما تنتهى اليه حكومة اللّه، الّا انّه- و للأسف- استغلّ على امتداد التاريخ بشكل عجيب، و من ذلك استغلال الخوارج لهذا الشعار فى واقعة «النهروان» حيث كانوا أناسا جامدين حمقى قشريين منحرفين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۷

جدّا .. فتمسكوا بهذا الشعار لنفى التحكيم فى حرب صفين و قالوا: لا يصحّ الحكم لنهاية الحرب او الخليفة لانّ اللّه يقول: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ

لقد كانوا غافلين او متغافلين عن هذه المسألة البديهيّة، و هى انّ التحكيم إذا كان قد تعيّن من ائمّة امر اللّه باتّباعهم فحكمهم ايضا حكم اللّه لانّه ينتهى اليه.

صحيح انّ الحكمين فى حرب صفين لم يتمّ تعيينهما من قبل الامام على عليه السّلام، و لو كان الامام امير المؤمنين على عليه السّلام عيّنهما فإنّ حكمهما حكمه، و حكم على حكم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حكم النّبى حكم اللّه.

و هل يا ترى يحكم اللّه او يقضى مباشرة بين المجتمعات! او يتولّى امور الناس اشخاص من جنسهم، غاية ما فى الأمر ينتهى أمرهم الى اللّه؟! و لكن الخوارج و دون ان يتوجّهوا الى هذه الحقيقة الواضحة اشكلوا على اصل قصّة التحكيم على الامام على عليه السّلام و حتّى عدّوه- و العياذ باللّه- زيغا منه، يا لهذا الجهل و الجمود و البلادة.

و هكذا فإنّ مثل هذه الأمور البنّاءة حين تقع بأيدى افراد جهّال تتحوّل الى أسوإ الوسائل التخريبيّة.

و فى هذا اليوم نرى مجموعة من الناس من ضعاف النفوس الذين لا يقلّون عن أولئك جهلا و لجاجة، تمسّكوا بالآية المتقدّمة لنفى التقليد عن المجتهدين، او نفى صلاحيّة حكومتهم، لكن جوابهم جميعا هو ما ذكرناه آنفا.

۵- التوجّه لغير اللّه

التوحيد لا يتلخّص فى انّ اللّه تعالى احد فرد، بل ينبغى ان يتجسّد فى جميع شؤون الحياة، و احد ابرز علائمه انّ الإنسان الموحّد لا يعتمد على غير اللّه و لا يلتجئ الّا اليه.

نحن لا نقول يجب على الإنسان ان لا يلحظ عالم الأسباب و قانون العلّية لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۸

يرى الأسباب شيئا، و لا يعتمد على الوسائل و الأسباب، بل نقول: انّ لا يرى تأثيرا واقعيّا فى السبب، بل يرى راس الخيط فى جميع الأمور بيد مسبّب الأسباب. و بتعبير آخر: لا يرى للأسباب استقلالا، بل يراها تحت هيمنة الذات المقدّسة للّه سبحانه.

و يمكن ان يكون عـدم توجّه الافراد العاديين لهذه الحقيقة الكبرى مدعاة للعفو، و لكن عدم الالتفات و لو بمقدار راس الابرة بالنسبة لأولياء اللّه يكون سببا لمجازاتهم، و ان لم يكن اكثر من «ترك الاولى» و رأينا كيف انّ يوسف بسبب عدم توجّهه لهذه المسألة المهمّة امتدّ حبسه سنوات لينضج آخرا فى «موقد» الحوادث، و ليحصل على استعداد اكبر لمواجهة الطغاة، و ليعلم انّه لا ينبغى الاعتماد الّا على اللّه. و على المظلومين الذين يسيرون فى طريق (اللّه).

و هذا درس كبير لمن يطوى هذه الطريق و للمجاهدين الصادقين بأن لا يخطر ببالهم الاتّفاق مع الشيطان لضرب شيطان آخر! .. و لئلّا يميلوا الى الشرق او الغرب، و لا يغذّون الخطى الّا على الجادّة الوسطى و هى «الصراط المستقيم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۴۳ الى ۴۹]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ (۴۳) قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ (۴۴) وَ قالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (۴۵) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (۴۶) قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (۴۷)

ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (۴۸) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَ فِيهِ يَعْصِرُونَ (۴۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۰

التّفسير

رؤيا ملك مصر و ما جرى له:

بقى يوسف سنين فى السجن المظلم كأى انسان منسىّ، و لم يكن لديه من عمل الّا بناء شخصيته، و ارشاد السجناء و عيادة مرضاهم و تسلية الموجعين منهم.

حتّى غيّرت (حظّه و طالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر .. و لم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ امّة مصر و ما حولها.

لقد راى ملك مصر الذى يقال انّ اسمه هو «الوليد بن الرّيان» و كان «عزيز مصر وزيره» راى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا و من حوله فقصّ عليهم رؤياه وَ قالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ ثمّ التفت إليهم طالبا منهم تعبير رؤياه فقال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ

و لكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ

«الأضغاث» جمع «ضغث» على وزن (حرص) و معناه المجموعة من الحطب او العشب اليابس او الأخضر او شىء آخر، و «الأحلام» جمع «حلم» على وزن «رخم» معناه الطيف و الرؤيا، فيكون معنى أَضْغاثُ أَحْلامٍ هو الاطياف المختلطة، فكأنّها متشكّلة من مجموعة مختلفة و متفاوتة من الأشياء، و جاءت كلمة الأحلام فى جملة وَ ما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ مسبوقة بالألف و اللام العهدية و هى اشارة الى انّ المعبّرين غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام.

و من اللازم ذكر هـذه المسألـة الدقيقـة و هى: انّ اظهار عجز أولئك فى الحقيقـة كان من اجل انّ المفهوم الواقعى لهذه الرؤيا عندهم غير واضح، و لذلك عدّوها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۱

ضمن الأحلام المختلطة و «الأضغاث» حيث قسّموا الأحلام الى قسمين:

أحلام ذات معنى و هى قابلة للتعبير.

و أحلام مختلطـة لا معنى لها حيث لم يجـدوا لها تعبيرا و تأويلا .. و كانوا يعـدّون هـذا النوع نتيجة قوّة الخيال، على العكس من النوع الاوّل الذى يعدّونه نتيجة اتّصال الروح بعالم الغيب.

كمـا انّ هناك احتمال آخر، و هو انّهم توقّعوا ان تقع حوادث مزعجـة فى المسـتقبل، و ما اعتاد عليه حاشـية الملوك و الطغاة هو ذكر المسائل المريحة لهم فحسب، و كما يصـطلح عليه ما فيه طيب الخاطر، و يمتنعون عن ذكر ما يزعجهم، و هذا احد اسباب سقوط مثل هذه الحكومات المتجبّرة! هنا يرد سؤال، و هو: كيف تجرّا هؤلاء امام السـلطان، بقولهم جوابا لسؤاله عن رؤياه انّها أَضْـغاثُ أَحْلامٍ فى حين انّ المعروف عند حاشية السلطان انّ تفلسف كلّ حركة منه و لو كانت بغير معنى و يفسّرونها تفسيرا مقبولا.

من الممكن انّهم رأوا الملـك مهموما من هـذه الرؤيا، و كان من حقّه ذلك لانّه راى سَـبْعَ بَقَراتٍ سِـمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجافٌ وَ سَـبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ

الا يـدلّ ذلك على أنّ من الممكن انّ افرادا ضـعافا يتسـلّمون السـلطة من يده على حين غرّة!؟! لذلك قالوا له: أَضْـغاثُ أَحْلامٍ ليرفعوا الكدورة عن خاطره، اى: لا تتأثّر فما هنالك امر مهم، و هذه الأحلام لا يمكن ان تكون دليلا على اى شىء.

و هناك احتمال آخر ذكره المفسّرون و هو انّ مرادهم من أَضْغاثُ أَحْلامٍ لم يكن انّ هذه الأحلام لا تأويل لها، بل المراد انّ مثل هذه الأحلام ملتويـة و مجموعة من امور مختلفة، و هم غير قادرين على تأويل مثل هذه الأحلام، فهم لم ينكروا إمكان وجود أسـتاذ ماهر و قادر على تأويل هذه الرؤيا، و انّما أظهروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۲

عجزهم عن التعبير و التأويل فحسب.

و هنا تـذكّر ساقى الملك ما حـدث له و لصاحبه فى السـجن مع يوسف، و نجا من السـجن كما بشّـره يوسف وَ قالَ الَّذِى نَجا مِنْهُما وَ ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ

اجـل فى زاويـة السـجن يعيش رجـل حىّ الضـمير طـاهر القلب مؤمن و قلبه مرآة للحوادث المسـتقبلية، انّه الـذى يسـتطيع ان يكشـف الحجاب عن هذه الرؤيا المغلقة و يعبّرها.

جملة فَأَرْسِـلُونِ تشـير الى انّ من الممكن ان يكون يوسف ممنوع المواجهة، و كان الساقى يريد ان يأذن الملك و من حوله بمواجهته لهذا الشأن.

و هكذا حرّك كلام الساقى المجلس و شخصت الأبصار نحوه، و طلبوا منه الاسراع بالذهاب اليه و الإتيان بالخبر.

مضـى الساقى الى السـجن ليرى صـديقه القـديم .. ذلك الصـديق الـذى لم يف بوعده له، لكنّه ربّما كان يعرف انّ شخصـية يوسـف الكريمـة تمنعه من فتـح «بـاب العتاب» فالتفت اليه و قال: يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِى سَـبْعِ بَقَراتٍ سِـمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَـبْعٌ عِجافٌ وَ سَـبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَ أُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّى أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

كلمـة «الناس» تشـير الى احتمال انّ رؤيا الملك صـيّرها أطرافه المتملّقون و حاشـيته حادثـة مهمّـة لذلك اليوم، فنشـروها بين الناس و عمّموا حالة «القلق» من القصر الى الوسط الاجتماعى العام.

و على كـلّ حـال فإنّ يوسف دون ان يطلب شـرطا او قيـدا او اجرا لتعبيره عبّر الرؤيا فورا تعبيرا دقيقا لا غموض فيه و لا حجاب مقرونا

بما ينبغى عمله فى المستقبل و قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۳

قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۱۲۵].

ثمّ انّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا امطار و لا زراعة كافية، فعليكم بالاستفادة ممّا جمعتم فى سنىّ الرخاء ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَ

و لكن عليكم ان تحذروا من استهلاك الطعام إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ و إذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذ لا خطر يهدّدكم لانّه ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ ..

و يُغاثُ النَّاسُ اى يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، و ليس هذا فحسب، بل فِيهِ يَعْصِرُونَ المحاصيل لاستخراج الدهن و الفاكهة لشراب عصيرها .. إلخ.

ملاحظات

۱- كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقا و محسوبا، حيث كانت البقرة فى الأساطير القديمة مظهر «السنة» .. و كون البقرات سمانا دليل على كثرة النعمة، و كونها عجافا دليل على الجفاف و القحط، و هجوم السبع العجاف على السبع السّمان كان دليلا على ان يستفاد من ذخائر السنوات السابقة.

و سبع سنبلات خضر و قد أحاطت بها سبع سنبلات يابسات تأكيد آخر على هاتين الفترتين فترة النعمة و فترة الشدّة.

اضافة الى انّه اكّد له على هذه المسألة الدقيقة، و هى خزن المحاصيل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۴

سنابلها لئلّا تفسد بسرعة و ليكون حفظها الى سبع سنوات ممكنا.

و كون عدد البقرات العجاف و السنابل اليابسات لم يتجاوز السبع لكلّ منهما دليل آخر على انتهاء الجفاف و الشدّة مع انتهاء تلك السنوات السبع .. و بالطبع فإنّ سنّة سيأتى بعد هذه السنوات سنة مليئة بالخيرات و الأمطار، فلا بدّ من التفكير للبذر فى تلك السنة و ان يحتفظوا بشىء ممّا يخزن لها.

فى الحقيقة لم يكن يوسف مفسّرا بسيطا للأحلام، بل كان قائدا يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، و قد قدّم مقترحا من عدّة مواد لخمسة عشر عاما على الأقل، و كما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك و حاشيته و كان سببا لانقاذ اهل مصر من القحط القاتل من جهة، و ان ينجو يوسف من سجنه و تخرج الحكومة من ايدى الطغاة من جهة اخرى.

۲- مرّة اخرى تعلّمنا هذه القصّة هذا الدرس الكبير و هو انّ قدرة اللّه اكبر ممّا نتصوّر، فهو القادر بسبب رؤيا بسيطة يراها جبابرة الزمان أنفسهم ان ينقذ امّة كبيرة من فاجعة عظيمة، و يخلّص عبده الخالص بعد سنين من الشدائد و المصائب ايضا.

فلا بدّ ان يرى الملك هذه الرؤيا، و لا بدّ ان يحضر الساقى عنده يتذكّر رؤياه فى السجن، و ترتبط أخيرا حوادث مهمّة بعضها ببعض، فاللّه تعالى هو الذى يخلق الحوادث العظيمة من توافه الأمور.

اجل، ينبغى لنا توكيد ارتباطنا القلبى مع هذا الربّ القادر ..

۳- الأحلام المتعدّدة فى هذه السورة، من رؤيا يوسف نفسه الى رؤيا السجينين الى رؤيا فرعون مصر، و الاهتمام الكبير الذى كان يوليه اهل ذلك العصر بالنسبة لتعبير الرؤيا أساسا، يدلّ على انّ تعبير الرؤيا فى ذلك العصر كان من العلوم المتقدّمة، و ربّما وجب- لهذا السبب- ان يكون نبى ذلك العصر- اى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۵

(يوسف)- مطّلعا على مثل هذا العلم الى درجة عالية بحيث يعدّ اعجازا منه.

أ ليست معاجز الأنبياء يجب ان تكون من ابرز العلوم فى زمانهم، ليحصل اليقين- عند العجز من قبل علماء العصر- بأنّ مصدر العلم الذى يحمله نبيّهم هو اللّه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۰ الى ۵۳]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (۵۰) قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۵۱) ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ (۵۲) وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵۳)

التّفسير

تبرئة يوسف من كلّ اتّهام

! لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك- كما قلنا- دقيقا و مدروسا و منطقيا الى درجة انّه جذب الملك و حاشيته اليه، إذ كان يرى انّ سجينا مجهولا عبّر رؤياه بأحسن تعبير و تحليل، دون ان ينتظر ايّ اجر او يتوقّع امرا ما .. كما انّه اعطى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۷

للمستقبل خطّة مدروسة ايضا.

لقد فهم الملك اجمالا انّ يوسف لم يكن رجلا يستحقّ السجن، بل هو شخص اسمى مقاما من الإنسان العادى، دخل السجن نتيجة حادث خفيّ، لذلك تشوّق لرؤيته، و لكن لا ينبغى للملك ان ينسى غروره و يسرع الى زيارته، بل امر ان يؤتى به اليه كما يقول القرآن: وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون ان يثبت براءته، فالتفت الى رسول الملك و قالَ ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَ اذن ..

فيوسف لم يرغب ان يكون كأى مجرم، او على الأقل كأى متّهم يعيش مشمولا ب «عفو الملك» .. لقد كان يرغب اوّلا ان يحقّق فى سبب حبسه، و ان تثبت براءته و طهارة ذيله، و يخرج من السجن مرفوع الراس، كما يثبت ضمنا تلوّث النظام الحكومى و ما يجرى فى قصر وزيره!.

اجل لقد اهتمّ بكرامة شخصيته و شرفه قبل خروجه من السجن، و هذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا انّ يوسف فى عبارته هذه أبدى سموا فى شخصيته الى درجة انّه لم يكن مستعدّا لانّ يصرّح باسم امراة العزيز التى كانت السبب المباشر فى اتّهامه و حبسه، بل اكتفى بالاشارة الى جماعة النسوة اللاتى لهنّ علاقة بهذا الموضوع فحسب.

ثمّ يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجنى شعب مصر و لا جهازه الحكومى و بأى سبب وصلت السجن، فاللّه مطّلع على ذلك إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ

عاد المبعوث من قبل الملك الى يوسف مرّة ثانية الى الملك، و أخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه و علوّ همّته، لذا عظم

يوسف فى نفس الملك و بادر مسرعا الى إحضار النسوة اللائى شاركن فى الحادثة، و التفت اليهنّ قالَ ما خَطْبُكَنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ يجب ان تقلن الحقّ .. هل ارتكب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۸

يوسف خطيئة او ذنبا؟

فتيقّظ فجأة الوجدان النائم فى نفوسهنّ، و أجبنه جميعا بكلام واحد- متّفق على طهارته و قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ.

امّا امراة العزيز التى كانت حاضرة ايضا، و كانت تصغى بدقّة الى حديث الملك و نسوة مصر، فلم تجد فى نفسها القدرة على السكوت، و دون ان تسأل احسّت بأنّ الوقت قد حان لانّ تنزّه يوسف و ان تعوّض عن تبكيت وجدانها و حيائها و ذنبها بشهادتها القاطعة فى حقّه، و خاصّة انّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته الى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن فى شخصيتها و كان كلامه عامّا و مغلقا تحت عنوان «نسوة مصر».

فكأنّما حدث انفجار فى داخلها فجأة و صرخت و قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ

ثمّ واصلت امراة العزيز كلامها ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ لانّى عرفت بعد هذه المدّة الطويلة و ما عندى من التجارب أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ

فى الحقيقة (بناء على انّ الجملة المتقدّمة لامراة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة) فانّها و من اجل اعترافها الصريح بنزاهة يوسف و ما اخطأته فى حقّه، تقيم دليلين:

الاوّل: انّ وجدانها، و يحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا تسمح لها ان تستر الحقّ اكثر من هذا، و ان تخون هذا الشاب الطاهر فى غيابه.

الثّانى: انّ من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلّت لها هذه الحقيقة، و هى انّ اللّه يرعى الصالحين و لا يوفّق الخائنين فى مرادهم ابدا.

و بهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلا قليلا .. و تلمس حقيقة الحياة و لا سيّما فى هزيمة عشقها الذى صنع غرورها و شخصيتها الخياليّة، و انفتحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۲۹

عيناها على الواقع اكثر، فلا عجب ان تعترف هذا الاعتراف الصريح.

و تواصل امراة العزيز القول: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي و بحفظه و اعانته نبقى مصونين، و انا أرجو ان يغفر لى ربّى هذا الذنب إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ

قال بعض المفسّرين: انّ الآيتين الأخيرتين من كلام يوسف، و قالوا: انّهما فى الحقيقة تعقيب لما قاله يوسف لرسول الملك و معنى الكلام يكون هكذا.

«إذا قلت حقّقوا عن شأن النسوة اللائى قطّعن أيديهن، فمن اجل ان يعلم الملك او عزيز مصر الذى هو وزيره، انّى لم اخنه فى غيابه و اللّه لا يهدى كيد الخائنين كما لا أبرئ نفسى لانّ النفس امّارة بالسوء الّا ما رحم ربّى انّ ربّى غفور رحيم».

الظاهر انّ الهدف من هذا التّفسير المخالف لظاهر الآية انّهم صعب عليهم قبول هذا المقدار من العلم و المعرفة لامراة العزيز التى تقول بلحن مخلص و حاك عن التنبّه و التيقّظ.

و الحال انّه لا يبعد انّ الإنسان حين يرتطم فى حياته بصخرة صمّاء، تظهر فى نفسه حالة من التيقّظ المقرون بالاحساس بالذنب و الخجل، خاصّة انّه لوحظ انّ الهزيمة فى العشق المجازى يجرّ الإنسان الى طريق العشق الحقيقى «عشق اللّه».

و بالتعبير علم النفس المعاصر: انّ تلك الميول النفسية المكبوتة يحصل فيها حالة ال «تصعيد» و بدلا من تلاشيها و زوالها فانّها تتجلّى بشكل عال.

ثمّ انّ قسما من الرّوایات التی تشرح حال امراة العزیز- فی السنین الاخیرة من حیاتها- دلیل علی هذا التیقّظ و الانتباه ایضا.

و بعد هذا کلّه فربط هاتین الآیتین بیوسف- الی درجة ما- بعید، و هو خلاف الظاهر بحیث لا ینسجم مع ای من المعاییر الادبیة للأسباب الآتیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۰

اوّلا: کلمة «ذلک» التی ذکرت فی بدایة الآیة هی بعنوان ذکر العلّة، ای علّة الکلام المتقدّم الذی لم یکن سوی کلام امراة العزیز فحسب، و ربط هذا التذییل بکلام یوسف الوارد فی الآیات السابقة امر عجیب.

ثانیا: إذا کانت هاتان الآیتان بیانا لکلام یوسف فسیبدو بینهما نوع من التناقض و التضادّ، فمن جهة یقول: انّی لم اخنه بالغیب، و مرّة یقول: و ما أبرئ نفسی انّ النفس لامّارة بالسوء. و هذا الکلام لا یقوله الّا من یعثر او یزل و لو یسیرا، فی حین انّ یوسف لم یصدر منه ای زلل.

و ثالثا: إذا کان مقصوده ان یعرف عزیز مصر انّه بریء فهو من البدایة «بعد شهادة الشاهد» عرف الواقع، و لذلک قال لامراته: اسْتَغْفِرِی لِذَنْبِکِ و إذا کان مقصوده انّه لم یخن الملک، فلا علاقة للملک بهذا الأمر، و التوسّل الی تفسیرهم هذا بحجّة انّ الخیانة لامراة العزیز خیانة للملک الجبّار، فهو حجّة واهیة- کما یبدو- خاصّة انّ حاشیة القصر لا یکترثون بمثل هذه المسائل.

و خلاصة القول: انّ هذا الارتباط فی الآیات یدلّ علی انّ جمیع ما ورد فی السیاق من کلام امراة العزیز التی انتبهت و تیقّظت و اعترفت بهذه الحقائق.

ملاحظات

۱- هذه عاقبة التقوی

رأینا فی هذا القسم من قصّة یوسف انّ عدوّته المعاندة «زلیخا» اعترفت أخیرا بطهارته، کما اعترفت بذنبها و خطئها .. و ببراءته .. و هذه عاقبة التقوی و طهارة الثوب، و هذا معنی قوله تعالی: وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ یَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لا یَحْتَسِبُ

فکن طاهرا و استقم فی طریق «الطهارة» فاللّه حامیک و لا یسمح للملوّثین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۱

ان یسیئوا إلیک.

۲- الهزائم التی تکون سببا للتیقّظ

لا تکون الهزائم هزائم دائما، بل- فی کثیر من الأحیان- تعدّ الهزیمة هزیمة فی الظاهر الّا انّها فی الباطن نوع من الانتصار المعنوی، و هذه هی الهزائم التی تکون سببا لتیقّظ الإنسان، و تشقّ حجب الغفلة و الغرور عنه، و تعدّ نقطة انعطاف جدیدة فی حیاته.

فامرأة العزیز التی تدعی «زلیخا» او «راعیل» و إن ابتلیت فی عملها بأشدّ الهزائم، لکن هذه الهزیمة فی مسیر الذنب کانت سببا لأنّ تنتبه و یتیقّظ وجدانها النائم، و ان تندم علی ما فات من عملها .. و التفتت الی ساحة اللّه. و ما ینقل من قصتها بعد لقائها لیوسف و هو عزیز مصر- آنئذ- شاهد علی هذا المدّعی، إذ قالت:

«الحمد للّه الذی جعل العبید ملوکا بطاعته و جعل الملوک عبیدا بمعصیته».

و نقرا فى نهاية الحديث انّ يوسف تزوّج منها أخيرا[۱۲۶].

السعداء هم أولئك الذين يصنعون من الهزائم انتصارا، و من سوء الحظّ حظّا حسنا، و من اخطائهم طريقا صحيحا للحياة.

و بالطبع فليس ردّ الفعل من قبل جميع الافراد إزاء الهزائم هكذا ...

فالأشخاص الضعاف حين تصيبهم الهزيمة ييأسون و يكتنف القنوط جميع وجودهم، و قد يؤدّى بهم الى الانتحار و هذه هى الهزيمة الحقيقيّة.

لكن الذين يشعرون بكرامتهم و شخصيّتهم، يسعون لان يجعلوا الهزائم سلّما لصعودهم و ترقّيهم و جسرا لانتصارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۲

۳- الحفاظ على الشرف خير من الحرية الظاهرية

رأينا انّ يوسف لم يدخل السجن لطهارة ثوبه فحسب، بل لم يكن مستعدّا للخروج من السجن حتّى يعود مبعوث الملك و يجرى التحقيقات حول النسوة اللائى قطّعن أيديهن لتثبت براءته و يخرج من السجن مرفوع الراس ... لا ان يخرج كأى مجرم ملوّث يشمله عفو الملك!! و ذلك ذلّ و اى ذلّ! و هذا درس لكلّ الناس فى الماضى و الحاضر و المستقبل.

۴- النفس الامّارة «المتمرّدة»

يقسّم علماء النفس و الأخلاق النفس «و هى الإحساسات و الغرائز و العواطف الانسانية» الى ثلاثة مراحل، و قد أشار إليها القرآن المجيد:

المرحلة الاولى: «النفس الامّارة» و هى النفس التى تأمر الإنسان بالذنب و تجرّه الى كلّ جانب، و لذا سمّوها «امّارة» و فى هذه المرحلة لا يكون العقل و الايمان قد بلغا مرحلة من القدرة ليكبحا جماحها، بل فى كثير من المواقع يستسلمان للنفس الامّارة، و إذا تصارعت النفس الامّارة مع العقل فى هذه المرحلة فإنّها ستهزمه و تطرحه أرضا.

و هذه المرحلة هى التى أشير إليها فى الآية المتقدّمة، و جرت على لسان امراة العزيز بمصر، و جميع شقاء الإنسان أساسه النفس الامّارة بالسوء.

المرحلة الثّانية: «النفس اللوّامة» و هى التى ترتقى بالإنسان بعد التعلّم و التربية و المجاهدة، و فى هذه المرحلة ربّما يخطئ الإنسان نتيجة طغيان الغرائز، لكن سرعان ما يندم و تلومه هذه النفس، و يصمّم على تجاوز هذا الخطأ و التعويض عنه، و يغسل قلبه و روحه بماء التوبة.

و بعبارة اخرى: فى المواجهة بين النفس و العقل، قد ينتصر العقل أحيانا و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۳

تنتصر النفس، الّا انّ النتيجة و الكفّة الراجحة هى للعقل و الايمان.

و من اجل الوصول الى هذه المرحلة لا بدّ من الجهاد الأكبر، و التمرين الكافى، و التربية فى مدرسة الأستاذ، و الاستلهام من كلام اللّه و سنن الأنبياء و الائمّة عليهم السّلام.

و هذه المرحلة هى التى اقسم اللّه بها فى سورة القيامة قسما يدلّ على عظمتها لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ.

المرحلة الثّالثة: «النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» و هى المرحلة التى توصل الإنسان بعد التصفية و التهذيب الكامل الى ان يسيطر على غرائزه و

يروّضها فلا تجد القدرة للمواجهة مع العقل و الايمان، لانّ العقل و الايمان بلغا درجة من القوّة بحيث لا تقف امامهما الغرائز الحيوانية.
و هذه هى مرحلة الاطمئنان و السكينة ... الاطمئنان الذى يحكم المحيطات و البحار حيث لا يظهر عليها الانهزام امام اشدّ الأعاصير.
و هـذا هو مقام الأنبياء و الأولياء و اتباعهم الصادقين، أولئك الـذين تدارسوا الايمان و التقوى فى مدرسة رجال اللّه، و هذّبوا أنفسـهم سنين طوالا، و واصلوا الجهاد الأكبر الى آخر مرحلة.
و إليهم و الى أمثالهم يشـير القرآن الكريم فى سورة الفجر يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي
اللهمّ اعنّا لنستضىء بنور آياتك، و نصعّد أنفسنا الامّارة الى اللّوامة و منها الى النفس المطمئنة .. و لنجد روحا مطمئنا لا يضطرب و لا يتزلزل امام طوفان الحوادث، و ان نكون أقوياء امام الأعداء، و لا تبهرنا زخارف الدنيا و زبارجها، و ان نصبر على البأساء و الضرّاء.
اللهمّ ارزقنا العقل لننتصر على اهوائنا .. و نوّرنا إذا كنّا على خطأ بالتوفيق
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۴
و الهداية.
اللهمّ انّنا لم نبلغ هـذه المرحلـة بخطانا، بل كنت أنت فى كلّ مرحلـة دليلنا و قائـدنا، فلا تحبس الطافك عنّا ... و إذا كان عدم شـكرنا على جميع هذه النعم مستوجبا لعقابك، فأيقظنا من نومة الغافلين قبل ان نذوق العذاب آمين ربّ العالمين.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۵۴ الى ۵۷]

اشارة

وَ قالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (۵۴) قـالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (۵۵) وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۵۶) وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۷)

التّفسير

يوسف أمينا على خزائن مصر:

رأينا انّ يوسف- هـذا النّبى العظيم- ثبتت براءته أخيرا للجميع، و حتّى الأعـداء شـهدوا بطهارته و نزاهته، و ظهر لهم انّ الذنب الوحيد الذى أودع من اجله السجن لم يكن غير التقوى و الامانة التى كان يتحلّى بهما.
اضافة الى هـذا فقـد ثبت لهم انّ هـذا السـجين منهل العلم و المعرفة و النّباهة و طاقة فذّة و عالية فى الادارة، حيث انّه حينما فسّر رؤيا الملك (و هو سلطان
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۶
مصر) بيّن له الطرق الكفيلة للخلاص من المشكلة الاقتصادية المتفاقمة القادمة.
ثمّ يسـتمر القرآن بـذكر القصّة فيقول: وَ قـالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي و هكـذا امر الملك بإحضاره لكى يجعله مسـتشاره الخاص و نائبه فى المهمّات فيستفيد من علمه و معرفته و خبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثمّ أرسل الملك مندوبا لزيارته فى السجن، فدخل عليه و أبلغه تحيات الملك و عواطفه القلبية تجاهه ثمّ قال له: انّه قد لبّى طلبك فى البحث و التحقيق عن نساء مصر و اتّهامهنّ ايّاك، حيث شهدنّ جميعهنّ صراحة ببراءتك و نزاهتك فالآن لا مجال للتأخير، قم لنذهب الى الملك.

فدخل يوسف على الملك و تكلّم معه فعند ما سمع من يوسف الاجوبة التى تحكى عن علمه و فراسته و ذكائه الحادّ، ازداد حبّا له و قال: انّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة و سلطات واسعة و انّك فى موضع ثقتنا و اعتمادنا فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ فلا بدّ ان تتصدّى للمناصب الهامّة فى هذا البلد، و تهتمّ بإصلاح الأمور الفاسدة، و انّك تعلم (حينما فسّرت الرؤيا) بأنّ ازمة اقتصادية شديدة سوف تعصف بهذا البلد، و فى تصوّرى انّك الشخص الوحيد القادر على ان يتغلّب على هذه الازمة.

فاختار يوسف منصب الامانة على خزائن مصر، و قال اجعلنى مشرفا على خزائن هذا البلد فإنّى حفيظ عليم و على معرفة تامّة بأسرار المهنة و خصائصها قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ

كان يوسف يعلم انّ جانبا كبيرا من الاضطراب الحاصل فى ذلك المجتمع الكبير الملىء بالظلم و الجور يكمن فى القضايا الاقتصادية، و الآن و بعد ان عجزت اجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل و اضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له ان يسيطر على اقتصاد مصر حتّى يتمكّن من مساعدة المستضعفين و ان يخفّف عنهم- قدر ما يستطيع- الآلام و المصاعب و يستردّ حقوقهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۷

الظالمين. و يقوم بترتيب الأوضاع المترديّة فى ذلك البلد الكبير، و يجعل الزراعة و تنظيمها هدفه الاوّل و خاصّة بعد وقوفه على انّ السنين القادمة هى سنوات الوفرة حيث تليها سنوات المجاعة و القحط، فيدعو الناس الى الزراعة و زيادة الانتاج و عدم الإسراف فى استعمال المنتوجات الزراعية و تقنين الحبوب و خزنها و الاستفادة منها فى ايّام القحط و الشدّة.

و هكذا لم ير يوسف بدّا من توليّة منصب الاشراف على خزائن مصر.

و قال البعض: انّ الملك حينما راى فى تلك السنة انّ الأمور قد ضاقت عليه و عجز عن حلّها، كان يبحث عمّن يعتمد عليه و ينجّيه من المصاعب، فمن هنا حينما قابل يوسف و رآه أهلا لذلك أعطاه مقاليد الحكم بأجمعها و استقال هو من منصبه.

و قال آخرون: انّ الملك جعله فى منصب الوزير الاوّل بديلا عن (عزيز مصر).

و الاحتمال الآخر هو انّه بقى مشرفا على خزائن مصر- و هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة، الّا انّ الآيتين (۱۰۰) و (۱۰۱) و اللتين يأتى تفسيرهما بإذن اللّه تدلّان على انّه أخيرا استقلّ بأمور مصر- بدل الملك و صار هو ملكا على مصر.

و برغم انّ الآية رقم (۸۸) تقول: انّ اخوة يوسف حينما دخلوا عليه نادوه باسم يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ و هذا دليل على انّه استقلّ بمنصب عزيز مصر، لكن نقول:

انّه لا مانع من ان يكون يوسف قد ارتقى سلّم المناصب تدريجا حيث كان فى اوّل الأمر مشرفا على الخزائن، ثمّ جعل الوزير الاوّل، و أخيرا صار ملكا على مصر.

ثمّ يقول اللّه سبحانه و تعالى منهيا بذلك قصّة يوسف عليه السّلام: وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۸

نعم انّ اللّه سبحانه و تعالى ينزل رحمته و بركاته و نعمه المادية و المعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلا لذلك نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ.

و انّه سبحانه و تعالى لا ينسى ان يجازى المحسنين، و انّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

و لكن لا يقتصر سبحانه و تعالى على مجازاة المحسنين فى الدنيا، بل يجازى المتّقين و المحسنين بأحسن من ذلك فى الآخرة و هو الجزاء الأوفى وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

بحوث

۱- كيف استجاب يوسف لطلب طاغوت زمانه

؟ بالنسبة للآيات المتقدّمة فإنّ اوّل ما يجلب إليها النظر هو انّه كيف لنبى يوسف- هذا النّبى العظيم- طلب طاغوت زمانه و تعاون معه و تحمّل منصب الوزارة او الاشراف على خزينة الدولة؟

جواب هذا السؤال- فى الحقيقة- يكمن فى نفس الآيات السابقة، فإنّه قد تحمّل هذه المسؤولية بعنوان انّه حَفِيظٌ عَلِيمٌ كى يحفظ بيت المال المتضمّن لاموال الشعب و يستثمره فى سبيل منافعهم، و بخاصّة حقوق الطبقة المحرومة و التى غالبا ما يستولى عليها المستكبرون.

اضافة الى هذا فإنّه عن طريق معرفته بتعبير الرؤيا- كما ذكرنا- كان على علم بالأزمة الاقتصادية الشديدة التى سوف تعصف بالشعب المصرى، بحيث لولا التخطيط الدقيق و الاشراف المباشر عليها لماتت جماعات كثيرة من الشعب .. فبناء على هذا فإنّ انقاذ حياة الامّة و الاحتفاظ بأرواح شعب برىء يقتضى ان يستفيد يوسف من هذه الفرصة التى أتيحت له و يستغلّها لأجل خدمة جميع افراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۳۹

الشعب، و بخاصّة المحرومين منهم حيث انّهم عادة ما يكونون اوّل ضحايا الازمة الاقتصادية و اكثر المتضرّرين من الغلاء.

و قد ورد كلام مفصّل حول هذا الموضوع فى بحث استجابة طلب الظالم و قبول الولاية فى علم الفقه، و انّ استجابة طلب الظالم و التصدّى لمناصب الحكم لا يكون حراما دائما، بل تارة يكون مستحبّا، و قد يكون فى بعض الأحيان واجبا شرعا، و ذلك إذا كانت منفعة التصدّى و مرجّحاته الدينيّة اكثر من الإضرار الناتجة عن التصدّى من دعم حكم الظالم و غيره.

و نلاحظ فى روايات عديدة انّ ائمّة اهل البيت عليهم السّلام كانوا يجوّزون لبعض خلّص شيعتهم و أصحابهم أمثال على بن يقطين- الذى كان من اصحاب الكاظم عليه السّلام- حيث تصدّى لمنصب الوزارة لفرعون زمانه- هارون الرشيد- و ذلك بأمر من الامام عليه السّلام، غاية ما فى الأمر انّ الاستجابة و التصدّى لمناصب الحكم او ردّها تابعان لقانون «الأهم و المهم».

فلا بدّ من ملاحظة المنافع الدينيّة و الاجتماعية و مقارنتها مع الإضرار الناتجة، إذ لعلّ الذى يتصدّى للمنصب قد يستطيع فى نهاية المطاف ان يزيح الظالم عن الحكم (كما حدث ليوسف بناء على مضمون بعض الرّوايات الواردة) او يكون المعين الذى تنبثق منه الحركات و الثورات، لانّه يقوم بتهيئة مقدّمات الثورة من داخل اجهزة الحكم القائم (و يمكن ان يكون مؤمن آل فرعون من هذا القبيل) او يكون على الأقل ملجأ و ملاذا للمظلومين و المحرومين و مخفّفا عن آلامهم و الضغوط الواردة عليهم من قبل اجهزة النظام.

و كلّ واحد من هذه الأمور يمكن ان يكون مبرّرا للتصدّى للمناصب و قبولها من الحاكم الظالم، و للإمام الصادق عليه السّلام رواية معروفة فى حقّ هؤلاء الأشخاص

يقول عليه السّلام (كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الاخوان)[۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۰

لكن هذا الموضوع- التعاون مع الظالم- من الأمور التى يقترب فيها حدود الحلال من الحرام، و كثيرا ما يؤدّى تهاون صغير من الشخص المتصدّى الى وقوعه فى اشراك النظام و ارتكاب جريمة تعدّ من اكبر الجرائم و أفظعها- و هى التعاون مع الظالم- فى حين يتصوّر انّه يقوم بعبادة و خدمة انسانية مشكورة.

و قد يستفيد بعض الانتهازيين من حياة (يوسف) او (على بن يقطين) و يتّخذه ذريعة للتعاون مع الظالم و تغطية لاعمالهم الشريرة، فى حين انّه يوجد بون شاسع بين تصرّفاتهم و تصرّفات يوسف او على بن يقطين ۱۲۸].

هنا سؤال آخر یطرح نفسه و هو انّه کیف رضخ سلطان مصر الظالم لهذا الأمر- و استجاب لطلب یوسف- مع علمه بأنّ یوسف لا یسیر بسیرة الظالمین و المستثمرین و المستعمرین، بل یکون علی العکس من ذلک معادیا لهم؟

الاجابة علی هذا السؤال لا تکون صعبة مع ملاحظة امر واحد و هو انّه تارة تحیط الأزمات الاقتصادیة و الاجتماعیة بالظالم بحیث تزلزل ارکان حکومته الظالمة، فیری الخطر محدقا بحکومته و بکلّ شیء یتعلّق بها ... فی هذه الحالة و تجنّبا من السقوط التامّ لا یمانع، بل یدعم قیام حکومة شعبیة عادلة لکی یحافظ علی حیاته و بجزء من سلطته.

۲- اهمیّة المسائل الاقتصادیة و الاداریة

رغم انّنا لا نتّفق مع الرؤیة التی تنظر الی الأمور بمنظار واحد و تحصر جمیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۱

الأمور فی القضایا الاقتصادیة دون إعطاء ای دور للإنسان، و لکن برغم ذلک فإنّه لا یمکن غضّ النظر عن اهمیة القضایا الاقتصادیة و دورها فی المجتمعات، و الآیات السابقة تشیر إلی هذه الحقیقة، و الملاحظ انّ یوسف رکّز من بین جمیع مناصب الدولة علی منصب الاشراف علی الخزانة، و ذلک لعلمه انّه إذا نجح فی ترتیب اقتصاد مصر، فإنّه یتمکّن من إصلاح کثیر من المفاسد الاجتماعیة، کما انّ تنفیذه للعدالة الاقتصادیة یؤدّی الی سیطرته علی سائر دوائر الدولة و جعلها تحت امرته.

و قد اهتمّت الرّوایات الاسلامیة بهذا الموضوع اهتماما کبیرا، فمثلا نری فی الرّوایة المعروفة المرویة عن امیر المؤمنین علی علیه السّلام انّه جعل (قوام الدین و الدنیا) فی رکنین: أحدهما القضایا الاقتصادیة و ما یقوم علیه معاش الناس، و الرّکن الآخر هو العلم و المعرفة.

و برغم انّ المسلمین قد أهملوا هذا الجانب من الحیاة الفردیة و الاجتماعیة الذی اهتمّ به الإسلام کثیرا و تأخّروا عن اعداء الإسلام فی هذا الجانب، الّا انّ یقظة المجتمعات الاسلامیة المتزایدة و توجّههم نحو الإسلام یزید الأمل فی النفوس بأن تزید من نشاطها الاقتصادی و تعتبره عبادة اسلامیة کبری، و تقوم ببناء نظام اقتصادی مدروس وفق خطط محکمة لکی تعود إلیهم قوّتهم و نشاطهم.

و هنا نقطة اخری یجب التنبیه علیها، و هی انّنا نلاحظ انّ یوسف علیه السّلام یخاطب الملک و یقول له: إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ و هذه اشارة الی اهمیّة عنصر الادارة الی جانب عنصر الامانة و انّ توفّر عنصر الامانة و التقوی فقط فی شخص لا یؤهّله لان یتصدّی لأحد المناصب الاجتماعیة الحسّاسة، بل لا بدّ من اجتماع ذلک العامل مع العلم و التخصّص و القدرة علی الادارة، لکونه قرن ال (علیم) مع ال (حفیظ) و کثیرا ما نشاهد الإضرار الناتجة عن سوء الادارة لا تقلّ بل تزید علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۲

الخسائر الناتجة عن الخیانة! فهذه التعلیمات الاسلامیة صریحة فی اهمیّة جانب الادارة و القدرة علیها، و مع ذلک نری تهاون بعض المسلمین بهذا الجانب، فالمهمّ لدیهم هو نصب الأشخاص الذین یطمئنون الی تقواهم و أمانتهم لادارة الأمور، مع انّ السیرة النبویة الشریفة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کذلک سیرة علی علیه السّلام ترشدان الی انّهما کانا یهتمّان اهتماما کبیرا بالجانب الاداری و القدرة علی الادارة مع اهتمامهم بأمانة الشخص و سلوکه الحسن.

۳- الرّقابة علی الاستهلاک

الملاحظ فی القضایا الاقتصادیة انّه قد لا تکون (زیادة الانتاج) بمکان من الاهمیّة بقدر اهمیّة (الرقابة علی الاستهلاک) و من هنا

نشاهد انّ یوسف فی ایّام حکومته، حاول- بشدّة- ان یسیطر علی الاستهلاک الداخلی فی سنوات الوفرة لکی یتمکّن من الاحتفاظ بجزء کبیر من المنتوجات الزراعیة لسنوات القحط و المجاعة القادمة، و فی الحقیقة انّ زیادة الانتاج و الرقابة متلازمان لا یفترقان، فالزیادة فی الانتاج لا تثمر الّا إذا أعقبتها رقابة صحیحة، کما انّ الرقابة تکون اکثر فائدة إذا أعقبتها زیادة فی الانتاج.

انّ السیاسة الاقتصادیة التی انتهجها یوسف علیه السّلام فی مصر أظهرت انّ الخطّة الاقتصادیة الصحیحة و المتطورة مع الزمن لا یمکن ان تقتصر علی متطلّبات الجیل الحاضر، بل لا بدّ و ان تراعی مصالح الأجیال القادمة، لانّ التفکیر بالمصالح المستعجلة للجیل الحاضر و التغاضی عن مصالح الأجیال القادمة- کما لو استهلکنا جمیع ثروات الأرض- تعتبر غایة الانانیة و حبّ الذات، إذ انّ الأجیال القادمة هم فی الواقع إخوتنا و أبناؤنا فلا بدّ من التفکیر فی مصالحهم و عدم التفریط بها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۳

و الملفت للنظر انّه یستفاد من بعض الرّوایات الواردة کما

ورد عن الامام علی بن موسی الرّضا علیهما السّلام «و اقبل یوسف علی جمع الطعام فجمع فی السبع سنین المخصبة فکبسه فی الخزائن، فلمّا مضت تلک السنون و أقبلت المجدیة اقبل یوسف علی بیع الطعام فباعهم فی السنة الاولی بالدراهم و الدنانیر حتی لم یبق بمصر و ما حولها دینار و لا درهم الّا صار فی مملکة یوسف، و باعهم فی السنة الثّانیة بالحلی و الجواهر حتی لم یبق بمصر و ما حولها حلی و لا جواهر الا صار فی ملکة یوسف، و باعهم فی السنة الثّالثة بالدّواب و المواشی حتی لم یبق بمصر و ما حولها دابة و لا ماشیة الّا صار فی ملکیة یوسف، و باعهم فی السنة الرّابعة بالعبید و الإماء حتی لم یبق بمصر و من حولها عبد و لا امة الّا صار فی ملکیة یوسف، و باعهم فی السنة الخامسة بالدّور و العقار حتی لم یبق بمصر و ما حولها دار و لا عقار الّا صار فی ملکیة یوسف، و باعهم فی السنة السّادسة بالمزارع و الأنهار حتی لم یبق بمصر و ما حولها نهر و لا مزرعة الّا صار فی ملکیة یوسف، و باعهم فی السنة السّابعة برقابهم حتی لم یبق بمصر و ما حولها عبد و لا حرّ الّا صار عبد یوسف، فملک احرارهم و عبیدهم و أموالهم و قال النّاس: ما رأینا و لا سمعنا بملک أعطاه اللّه من الملک ما اعطی هذا الملک حکما و علما و تدبیرا، ثمّ قال یوسف للملک: ایّها الملک ما تری فیما خولنی ربّی من ملک مصر و أهلها اشر علینا برأیک، فإنّی لم أصلحهم لافسدهم، و لم انجهم من البلاء لیکون وبالا علیهم و لکن اللّه نجاهم علی یدی، قال له الملک: الرّای رأیک، قال یوسف: انّی اشهد اللّه و أشهدک ایّها الملک انّی اعتقت اهل مصر کلّهم، و رددت إلیهم أموالهم و عبیدهم، و رددت إلیک ایّها الملک خاتمک و سریرک و تاجک علی ان لا تسیر الّا بسیرتی و لا تحکم الّا بحکمی قال له الملک: انّ ذلک لشرفی و فخری لا أسیر الّا بسیرتک و لا احکم الّا بحکمک، و لولاک ما قویت علیه و لا اهتدیت له، و لقد جعلت سلطانی عزیزا ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۴

یرام، و انا اشهد ان لا اله الّا اللّه وحده لا شریک له، و أنت رسوله فأقم علی ما ولیتک فإنّک لدینا مکین أمین»[۱۲۹].

۴- مدح النفس

لا شکّ فی انّ مدح الإنسان نفسه یعدّ من الأمور القبیحة، و لکن لیست هذه قاعدة عامّة، بل قد تقتضی الأمور بأن یقوم الإنسان بعرض نفسه علی المجتمع و الإعلان عن خبراته و تجاربه، لکی یتعرّف علیه الناس و یستفیدوا من خبراته و لا یبقی کنزا مستورا.

و قد مرّ علینا فی الآیات السابقة انّ یوسف حینما تولّی مسئولیة الاشراف علی خزائن مصر وصف نفسه بأنّه: حَفِیظٌ عَلِیمٌ و کان هذا الوصف من یوسف لنفسه ضروریا و ذلک حتّی یعرف شعب مصر و ملیکها انّه یمتلک الصفات اللازمة التی تؤهله للتصدّی لهذا المنصب.

و من هنا نقرا

فی تفسیر العیاشی نقلا عن الامام الصّادق علیه السّلام انّه حینما سئل عن الحکم الشرعی لمدح الإنسان نفسه؟ أجاب علیه السّلام «نعم إذا اضطرّ الیه، امّا سمعت قول یوسف اجعلنی علی خزائن الأرض انّی حفیظ علیم، و قول العبد الصالح: و انا لکم ناصح أمین»[۱۳۰].

و من هنا یتّضح لنا جلیّا فلسفة مدح الامام علی علیه السّلام نفسه فی بعض الخطب، فمثلا

یقول فی خطبة الشقشقیة واصفا نفسه: (... انّ محلی منها محلّ القطب من الرّحی ینحدر عنّی السیل و لا یرقی الیّ الطیر ...)

فمثل هذه الأوصاف هی فی الواقع لأجل إیقاظ الغافلین و إرشادهم الی الاستفادة من هذا المنهل العذب فی سبیل الوصول الی سعادة الفرد و المجتمع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۵

۵- افضلیّة الجزاء المعنوی علی سواه

برغم انّ کثیرا من المؤمنین الخیرین یلقون فی هذه الدنیا جزاء اعمالهم الخیرة، کما هو الحال بالنسبة لیوسف حیث جوزی جزاء حسنا، لعفافه و تقواه و صبره علی البلاء، إذ لو کان آثما لما اعتلی هذا المنصب، و لکن هذا لا یعنی انّ علی الإنسان ان ینتظر الجزاء فی هذه الدنیا و یتوهّم انّ الجزاء یجب ان یکون ماديّا و ملموسا و فی هذه الدنیا و یری تأخیر الجزاء ظلما فی حقّه، لکن هذا التصوّر بعید عن الواقع، لانّ الجزاء الأوفی هو ما یوافی الإنسان فی حیاته القادمة.

و لعلّ لدفع هذا التوهّم الخاطئ و انّ ما جوزی به یوسف هو الجزاء الأوفی، یقول القرآن الکریم وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

۶- الدفاع عن المسجونین

برغم انّ السجن لم یکن دائما محلا للأخیار، بل یستضیف تارة الابریاء و تارة المجرمین، لکنّ القواعد الانسانیة تستوجب التعامل الحسن مع السجناء، حتّی و لو کانوا مجرمین.

و قد یتصوّر البعض أنّ الدفاع عن المسجونین من مبتکرات العصر الحدیث، لکن المتتبّع للتاریخ الاسلامی یری انّه منذ الایّام الاولی لقیام دولة الإسلام کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یؤکّد و یوصی علی التعامل الحسن مع الأسری و المسجونین- کما قرانا جمیعا وصیّة علی علیه السّلام فی حقّ المجرم الذی قام باغتیاله (و هو عبد الرّحمن بن ملجم المرادی) حیث امر ان یرفق به و حتّی انّه علیه السّلام بعث الیه من اللبن الذی کان یشربه و عند ما أرادوا قتله قال: ضربة بضربة.

کما انّ یوسف حینما کان فی السجن کان یعدّ أخا حمیما و صدیقا وفیّا و مستشارا أمینا لجمیع نزلاء السجن، و حینما خرج من السجن- امر ان یکتب-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۶

لجلب انتباه العالمین- علی بابه

«هذا قبور الاحیاء، و بیت الأحزان، و تجربة الأصدقاء، و شماتة الأعداء»[۱۳۱].

و اظهر لهم بهذا الدعاء عطفه و محبّته حیث

قال: «اللهمّ اعطف علیهم بقلوب الأخیار، و لا تعم علیهم الاخبار»[۱۳۲].

و الطریف انّنا نقرا

فی سیاق الحدیث السابق انّه: «فذلک یکون اصحاب السجن اعرف الناس بالاخبار فی کلّ بلدة».

و قد مرّت علینا هذه التجربة فی ایّام السجن، حیث کانت تصلنا الاخبار و بصورة منتظمة- الّا فی بعض الحالات النادرة- و عن طرق خفیّة لا یکشفها السجّانون، و کثیرا ما کان الذی یدخل الی السجن یطّلع علی بعض الاخبار التی لم یکن قد سمعها عند ما کان فی الخارج، و الحدیث عن هذا الموضوع طویل و قد یخرجنا عن هدف هذا الکتاب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۷

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۵۸ الی ۶۲]

اشارة

وَ جاءَ إِخْوَةُ یُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَیْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْکِرُونَ (۵۸) وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِی بِأَخٍ لَکُمْ مِنْ أَبِیکُمْ أَ لا تَرَوْنَ أَنِّی أُوفِی الْکَیْلَ وَ أَنَا خَیْرُ الْمُنْزِلِینَ (۵۹) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِی بِهِ فَلا کَیْلَ لَکُمْ عِنْدِی وَ لا تَقْرَبُونِ (۶۰) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ (۶۱) وَ قالَ لِفِتْیانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِی رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ (۶۲)

التّفسیر

اقتراح جدید من یوسف لإخوته:

و کما کان متوقّعا، فقد تحسّنت الزراعة فی مصر خلال سبع سنوات متتالیة و ذلک علی اثر توالی الأمطار و وفرة ماء النیل و کثرته، و یوسف الذی کان مسئولا عن الشؤون الاقتصادیة فی مصر و مشرفا علی خزائنها، امر ببناء المخازن الکبیرة و الصغیرة التی تستوعب الکمیّات الکبیرة من المواد الغذائیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۸

و تحفظها عن الفساد، و قد اجبر أبناء الشعب علی ان یبیعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الانتاج الزراعی، و هکذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعیة و الاستهلاکیة و مرّت سبع سنوات من الرخاء و الوفرة، و بدا القحط و الجفاف یظهر وجهه الکریه، و منعت السّماء قطرها، فلم تینع ثمرة، و لم تحمل نخلة.

و هکذا أصاب عامّة الشعب الضیق و قلّت منتوجاتهم الزراعیة، لکنّهم کانوا علی علم بخزائن الدولة و امتلائها بالمواد الغذائیة، و ساعدهم یوسف حیث استطاع- بخطّة محکمة و منظّمة مع الأخذ بعین الاعتبار الحاجات المتزایدة، فی السنین القادمة- ان یرفع الضیق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعیة مراعیا فی ذلک العدالة بینهم.

و هذا القحط و الجفاف لم یکن مقتصرا علی مصر وحدها، بل شمل البلدان المحیطة بها ایضا، و منهم شعب فلسطین و ارض کنعان المتاخمة لمصر و الواقعة علی حدودها فی الشمال الشرقی، و کانت عائلة یوسف تسکن هناک و قد تأثّرت بالجفاف. و اشتدّ بهم الضیق، بحیث اضطرّ یعقوب ان یرسل جمیع أولاده- ما عدا بنیامین الذی أبقاه عنده بعد غیاب یوسف- الی مصر، حیث سافروا مع قافلة کانت تسیر الی مصر و وصلوا إلیها- کما قیل- بعد ۱۸ یوما.

و تذکر المصادر التاریخیّة انّ الأجانب عند دخولهم الی الاراضی المصریة کانوا ملزمین بتسجیل اسمائهم فی قوائم معیّنة لکی تعرض علی یوسف، و من هنا فحینما عرض الموظفون تقریرا علی یوسف عن القافلة الفلسطینیة و طلبهم للحصول علی المؤن و الحبوب رای

يوسف أسماء اخوته بينهم و عرفهم و امر بإحضارهم اليه، دون ان يتعرّف احد على حقيقتهم و انّهم اخوته ..

يقول القرآن الكريم: وَ جاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَ هُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ و كان طبيعيّا ان لا يتعرّف اخوة يوسف عليه لانّه فى جانب كان قد مضى على فراقهم ايّاه منذ ان أودعوه الجبّ و خرج منه و دخل الى مصر ما يقرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۴۹

من أربعين سنة، و من جهة اخرى كان لا- يخطر ببالهم انّ أخوهم صار عزيزا لمصر، و حتّى لو رأوا الشبه بين العزيز و بين أخيهم لحملوه على الصدفة.

اضافة الى هذا فإنّ ملابس يوسف تختلف عن السابق، و من الصعب عليهم معرفة يوسف و هو فى ملابس اهل مصر، كما انّ احتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدّة كان ضعيفا عندهم، و على ايّة حال فإنّ اخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب و دفعوا ثمنه بالأموال او الكندر او الاحذية او بسائر ما جلبوه معهم من كنعان الى مصر.

امّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته و لاطفهم و فتح باب الحديث معهم، قالوا:

نحن عشرة اخوة من أولاد يعقوب، و يعقوب هو ابن ابراهيم الخليل نبى اللّه العظيم، و أبونا ايضا من أنبياء اللّه العظام، و قد كبر سنّه و الّم به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغمّ و الحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع اخوته و كان يحبّه كثيرا، فخرج معنا يوما للنزهة و التفرّج و الصيد و غفلنا عنه فأكله الذئب، و منذ ذلك اليوم و أبونا يبكى لفراقه.

نقل بعض المفسّرين انّه كان من عادة يوسف ان لا يعطى و لا يبيع لكلّ شخص الّا حمل بعير واحد، و بما انّ اخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ۱۰ أحمال من الحبوب، فقالوا: انّ لنا أبا شيخا كبيرا عاجزا عن السفر و أخا صغيرا يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز ان يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف ان يضاف الى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطبا ايّاهم و قال: انّى ارى فى وجوهكم النبل و الرفعة كما انّكم تتحلّون بأخلاق طيبة، و قد ذكرتم انّ أباكم يحبّ أخاكم الصغير كثيرا، فيتّضح انّه يمتلك صفات و مواهب عالية و فذّة و لهذا احبّ ان أراه اضافة الى هذا، فإنّ الناس هنا قد أساءوا الظنّ بكم و اتهموكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۰

لانّكم من بلد اجنبى، فأتوا بأخيكم الصغير فى سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، و تدفعوا التّهمة عن أنفسكم.

و هنا يقول القرآن الكريم: انّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم و أرادوا الرحيل عن مصر وَ لَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَ لا- تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَ أَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، و هو انّنى سوف امنع عنكم المؤن و الحبوب إذا لم تأتونى بأخيكم فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَ لا تَقْرَبُونِ و كان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارة بالتهديد، و اخرى بالتحبّب، ان يلتقى بأخيه بنيامين و يبقيه عنده. و ظهر من سياق الآيات.

أمران: انّ الحبوب كانت تباع و تشترى فى مصر بالكيل لا بالوزن، و اتّضح ايضا انّ يوسف كان يستقبل الضيوف- و منهم اخوته- الذين كانوا يفدون الى مصر بحفاوة بالغة و يستظيفهم بأحسن وجه.

و أجاب اخوة يوسف على طلب أخيهم: قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَ إِنَّا لَفاعِلُونَ و يستفاد من قوله إِنَّا لَفاعِلُونَ و اجابتهم الصريحة لعزيز مصر، انّهم كانوا مطمئنين الى قدرتهم على التأثير على أبيهم و أخذ الموافقة منه، و كيف لا يكونون مطمئنين بقدرتهم على ذلك و هم الذين استطاعوا بإصرارهم و الحاحهم ان يفرّقوا بين يوسف و أبيه؟! و أخيرا امر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التى اشتروا بها الحبوب فى رحالهم- جلبا لعواطفهم- وَ قالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۱

بحوث

۱- لماذا لم یظهر یوسف حقیقته لإخوته

بالنسبة للآیات السابقة فإنّ اوّل ما یتبادر الی الذهن هو انّه لماذا لم یعرّف یوسف نفسه لإخوته، حتّی یقفوا علی حقیقة حاله و یرجعوا الی أبیهم و یخبرونه عن مصیر یوسف، و بذلک تنتهی آلامه لأجل فراق یوسف؟

و یمکن طرح هذا السؤال علی شکل أوسع و بصورة اخری، و هو انّه حینما التقی یوسف بإخوته فی مصر کان قد مرّ ثمان سنوات علی تحریره من السجن، حیث کان فی السنة الاولی من سنوات القحط و الجدب، التی أعقبت سبع سنوات من الوفرة و الرخاء، و قام بخزن المنتوجات الزراعیة- و فی السنة الثامنة او بعدها- جاء اخوة یوسف الی مصر لشراء الحبوب، فلما ذا لم یحاول یوسف خلال هذه السنوات الثمان ان یبعث الی کنعان من یخبر أباه بواقع حاله و یخرجه عن آلامه و ینهی مرارته الطویلة؟

حاول جمع من المفسّرین- کالعلّامة الطبرسی فی مجمع البیان و العلّامة الطباطبائی فی تفسیر المیزان و القرطبی فی تفسیره الجامع لأحکام القرآن- الاجابة علی هذا السؤال، و ذکروا له عدّة اجوبة، و لعلّ أحسنها و أقربها هو انّ یوسف لم یکن مجازا من قبل اللّه سبحانه و تعالی فی اخبار أبیه، لانّ قصّة یوسف مع غضّ النظر عن خصائصه الذاتیة کانت ساحة لاختبار یعقوب و حقلا لامتحانه، فلا بدّ من ان یؤدّی یعقوب امتحانه و یجتاز فترة الاختبار قبل ان یسمح لیوسف بإخباره، و اضافة الی هذا فإنّ اسراع یوسف فی اخبار اخوته قد یؤدّی الی عواقب غیر محمودة، مثلا قد یستولی علیهم الخوف و الهلع من انتقام یوسف منهم لما ارتکبوه سابقا فی حقّه فلا یرجعوا الیه.

۲- لماذا ارجع یوسف الأموال الی اخوته

السؤال الذی یطرح نفسه هو انّه لماذا امر یوسف ان تردّ اموال اخوته التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۲

دفعوها ثمنا للحبوب، و توضع فی رحالهم؟

و قد أجاب المفسّرون عن هذا السؤال بإجابات عدیدة، و منهم الرازی فی تفسیره حیث ذکر عشرة اجوبة، لکن بعضها بعید عن الواقع، و لعلّ ملاحظة الآیات السابقة تکفی فی الاجابة عن السؤال، لانّ الآیة الشریفة تقول: لَعَلَّهُمْ یَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ فإنّ یوسف کان یقصد من وراء هذا العمل، انّ اخوته بعد رجوعهم الی الوطن حینما یجدون أموالهم قد خبّئت فی متاعهم، سوف یقفون علی کرم عزیز مصر (یوسف) و جلالة قدره، اکثر ممّا شاهدوه، و سوف یطمئن یعقوب بنوایا عزیز مصر و یعطی الاذن بسفر بنیامین، و یکون السبب و الدافع فی سفرهم الی مصر مرّة اخری و باطمئنان اکثر مستصحبین معهم أخاهم الصغیر.

۳- کیف وهب یوسف الی اخوته اموال بیت المال

؟ السؤال الآخر الذی یطرح نفسه هنا هو انّه کیف وهب یوسف الأموال من بیت المال لإخوته دون ای تعویض؟

یمکن الاجابة علی هذا السؤال بطریقتین:

الاوّل: انّ بیت المال فی مصر کان یحتوی علی حصّة معیّنة من الأموال تصرف فی شؤون المستضعفین (و مثل هذه الحصّة موجودة

دائما) و بما انّ اخوة يوسف كانوا فى تلك الفترة من المستضعفين، استغلّ يوسف هذه الفرصة و استفاد من هذه الحصّة لمساعدة إخوته: (كما كان يستفيد منها فى مساعدة سائر المستضعفين) و من المعلوم انّ الحدود المصطنعة بين الدولة لم تكن حائلا دون مساعدة مستضعفى سائر البلدان من هذه الحصّة.

الثّانى: انّ المناصب العالية فى الدولة- كمنصب يوسف- تتضمّن عادة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۳

امتيازات و حقوق معيّنة، و من اقلّ هذه الحقوق هو ان يهيئ لنفسه و لعائلته المحتاجة و لمن يقرب اليه كأبيه و اخوته مستلزمات العيش الكريم، و قد استفاد يوسف من هذا الحقّ فى إعطاء الأموال لإخوته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۳ الى ۶۶]

اشارة

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۶۳) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۶۴) وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَ نَمِيرُ أَهْلَنا وَ نَحْفَظُ أَخانا وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (۶۵) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (۶۶)

التّفسير

موافقة يعقوب:

رجع اخوة يوسف الى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يفكّرون بمصيرهم فى المستقبل و انّه لو رفض الأب و لم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما انّه لا يعطيهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۵

حصّتهم من الحبوب و المؤن.

و من هنا يقول القرآن: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ و لا سبيل لنا للحصول عليه الّا ان ترسل معنا أخانا فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ و كن على يقين من انّنا سوف نحافظ عليه و نمنعه من الآخرين وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

امّا الأب الشيخ الكبير الذى لم يمح صورة (يوسف) عن ذاكرته مرّ السنين فإنّه حينما سمع هذا الكلام استولى عليه الخوف و قال لهم معاتبا: هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فكيف تتوقّعون منّى ان اطمئن بكم و البّى طلبكم و اوافق على سفر ولدى و فلذّة كبدى معكم الى بلاد بعيدة، و لا زلت اذكر تخلفّكم فى المرّة السابقة عن عهدكم، ثمّ أضاف فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ هذه العبارة لعلّها اشارة الى ما تحدّثت به نفس يعقوب من انّه يصعب علىّ ان اوافق على سفر بنيامين معكم و قد عرفت سوءكم فى المرّة السابقة، لكن حتّى لو وافقت على ذلك فإنّنى اتّكل على اللّه سبحانه و تعالى الذى هو ارحم الراحمين و اطلب رعايته و حفظه منه لا منكم.

الآية السابقة لا تدلّ على الموافقة القطعيّة و قبوله لطلبهم، و انّما هى مجرّد احتمال منه حيث انّ الآيات القادمة تظهر انّ يعقوب لم

يكن قد وافق على طلبهم الّا بعد ان أخذ منهم العهود و المواثيق، و الاحتمال الآخر هو انّ هذه الآية لعلّها اشارة الى يوسف، حيث كان يعلم انّه على قيد الحياة (و سوف نقرا فى الآيات القادمة انّه كان على يقين بحياة يوسف) فدعا له بالحفظ.

ثمّ انّ الاخوة حينما عادوا من مصر وَ لَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ فشاهدوا انّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاءوا الى أبيهم و قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا و هل هناك فضل و كرم اكثر من هذا ان يقوم حاكم اجنبى و فى ظروف القحط و الجفاف،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۶

بمساعدتنا و يبيع لنا الحبوب و المؤن ثمّ يردّ إلينا ما دفعناه ثمنا له؟! ثمّ انّه ردّ بضاعتنا علينا بشكل خفى بحيث لا يستثير فينا الخجل- أ ليس هذا غاية الجود و الكرم؟! فيا أبانا ليس هناك مجال للتأخير- ابعث معنا أخانا لكى نسافر و نشترى الطعام وَ نَمِيرُ أَهْلَنا و سوف نكون جادّين فى حفظ أخينا وَ نَحْفَظُ أَخانا، و هكذا نتمكّن من ان نشترى كيل بعير من الحبوب وَ نَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ و انّنا على يقين فى انّ سماحة العزيز و كرمه- سوف يسهّلان حصوله و ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ.

و فى كلّ الأحوال- رفض يعقوب إرسال ابنه بنيامين معهم، و لكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوى بحيث اضطرّ الى التنازل على مطلبهم و لم ير بدّا من القبول، و لكنّه وافق بشرط: قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ و المقصود من قوله مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ هو العهد و اليمين المتضمّن لاسم اللّه سبحانه و تعالى، و امّا جملة إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فهى فى الواقع بمعنى- الّا إذا أحاطت بكم و غلبتكم الحوادث، و لعلّها اشارة الى حوادث الموت او غيرها من الحوادث و المصائب التى تسلب قدرة الإنسان و تقصم ظهره و تجعله عاجزا.

و ذكر هذا الاستثناء دليل بارز على ذكاء نبى اللّه يعقوب و فطنته، فإنّه برغم حبّه الشديد لولده بنيامين لكنّه لم يحمل أولاده بما لا يطيقوا و قال لهم: انّكم مسئولون عن سلامة ولدى العزيز و انّى سوف اطلبه منكم الّا ان تغلبكم الحوادث القاهرة، فحينئذ لا حرج عليكم.

و على كلّ حال فقد وافق اخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، و حينما أعطوه العهد و المواثيق المغلّظة قال يعقوب: فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۷

بحوث

۱- بالنسبة للآيات السابقة فإنّ اوّل ما يتبادر الى الذهن، هو انّه كيف وافق يعقوب على سفر بنيامين مع اخوته برغم ما اظهروه فى المرّة السابقة من سوء المعاملة مع يوسف، اضافة الى هذا فإنّنا نعلم انّهم كانوا يبطنون الحقد و الحسد لبنيامين- و ان كان اخفّ من حقدهم و حسدهم على يوسف- حيث وردت فى الآيات الافتتاحية لهذه السورة قوله تعالى: إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَ أَخُوهُ أَحَبُّ إِلى أَبِينا مِنَّا وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ اى انّ يوسف و أخاه احبّ الى أبينا برغم ما نملكه نحن من قوّة و كثرة.

لكن تظهر الاجابة على هذا السؤال إذا لاحظنا انّه قد مضى ثلاثون الى أربعين سنة على حادثة يوسف، و قد صار اخوة يوسف الشبّان كهولا، و من الطبيعى انّهم نضجوا اكثر من السابق، كما وقفوا على الآثار السلبية و السيّئة لما فعلوه مع يوسف، سواء فى داخل اسرتهم ام فى وجدانهم، حيث أثبتت لهم تجارب السنين السالفة انّ فقد يوسف كان لا يزيد حبّ أبيهم لهم، بل ازداد نفوره منهم و خلق لهم مشاكل جديدة.

اضافة الى هذه الأمور فإنّ يعقوب لم يواجه طلبا للخروج الى التنزّه و الصيد، بل كان يواجه مشكلة مستعصية مستفحلة، و هى اعداد الطعام لعائلة كبيرة و فى سنوات القحط و المجاعة.

فمجموع هـذه الأمور أجبرت يعقوب على الرضوخ لطلب أولاده و الموافقة على سـفر بنيامين و لكنّه أخذ منهم العهود و المواثيق على ان يرجعوه سالما.

۲- السؤال الآـخر الـذى نواجهه هنـا هو انّه هل الحلف و أخـذ العهـد و المواثيق منهم كان كافيا لكى يوافق يعقوب على سـفر بنيامين معهم؟

الجواب: انّه من الطبيعى انّ مجرّد الحلف و اليمين لم يكن كافيا لـذلك، و لكن فى هـذه المرّة كانت الشواهـد و القرائن تدلّ على انّ هناك حقيقة واضحة قد برزت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۸

الى الوجود، و هى خالية عن محاولات الخداع و التضـليل (كما هو الحال فى المرّة السابقة) ففى مثل هذه الصورة لا سبيل لتأكيد هذه الحقيقـة و جعلهـا اقرب الى التنفيـذ سـوى العهـد و اليمـين، مثـل مـا نشاهـده فى هـذه الايّـام من تحليـف الزعمـاء السياسـيين كرئيس الجمهوريـة او نوّاب البرلمـان، حيث يحلفون بالوفـاء للدسـتور و العمل على طبقه و ذلك بعـد ان انتخبهم الشـعب من خلال انتخابات حرّة و نزيهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۵۹

الآيتان [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۷ الى ۶۸]

اشارة

وَ قـالَ يا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِـدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَـةٍ وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۶۷) وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مـا كـانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَـيْءٍ إِلاَّـ حاجَـةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶۸)

التّفسير

و أخيرا تـوجّه اخـوة يوسـف صوب مصـر للمرّة الثانيـة بعـد اذن أبيهم و موافقته على اصـطحاب أخيهم الصـغير معهم، و حينمـا أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصـيا ايّـاهم بقوله: وَ قالَ يا بَنِيَّ لا تَـدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِـدٍ وَ ادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَـةٍ ثمّ أضاف: انّه ليس فى مقدورى ان امنع ما قد قدّر لكم فى علم اللّه سبحانه و تعالى وَ ما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ و لكن هناك بعض الأمور التى يمكن للإنسان ان يجتنب عنها حيث لم يثبت فى حقّها القدر الالهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۰

المحتوم، و ما أسديته لكم من النصيحة هو فى الواقع لدفع هذه الأمور الطارئة و التى بإمكان الإنسان ان يدفعها عن نفسه ثمّ قال: أخيرا إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ عَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

لا شكّ فى انّ عاصمة مصر فى تلك الايّام شأنها شأن جميع البلدان، كانت تمتلك سورا عاليا و أبوابا متعدّدة و كان يعقوب قد نصح أولاده بأن يتفرّقوا الى جماعات صغيرة، و تدخل كلّ جماعة من باب واحد، لكن الآية السابقة لم تبيّن لنا فلسفة هذه النصيحة.

ذهب جمع من المفسّـرين الى انّ سـبب هـذه النصـيحة هـو انّ اخـوة يوسـف كـانوا يتمتّعون بقسـط وافر من الجمـال (و ان لم يكونوا كيوسف لكنّهم فى كلّ الأحوال كانوا اخوته) و بأجسام قويّـة رشـيقة، و كان الأب الحنون فى قلق شديـد من انّ الفات نظر الناس الى هـذه المجموعة المكوّنة من ۱۱ شـخصا و يدلّ سـيماهم على انّهم غرباء و انّهم ليسوا من اهل مصـر، فيصـيبهم الحسد من تلك العيون

الفاحصة.

ثمّ بعد هذا التّفسير- دخل المفسّرون فى بحث طويل و نقاش مستمر حول موضوع تأثير العين فى حياة الإنسان و استدلّوا على ذلك بشواهد عديدة من الرّوايات و التاريخ. و نحن بحول اللّه و قوّته سوف نبحث عن هذا الموضوع عند حديثنا عن قوله تعالى: وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ [۱۳۳] و نثبت انّه برغم الخرافات الكثيرة التى لفّها العوام حوله الّا انّ مقدارا من هذا الأمر له حقيقة موضوعية حيث ثبت علميا انّ أمواج سيّالة تخرج من العين و تمتلك بعض المواصفات المغناطيسيّة.

و هناك سبب آخر ذكره المفسّرون و هو انّ دخول هذه المجموعة الى مصر بوجوههم المشرقة و أجسامهم الرشيقة القويمة و السير فى شوارعها، قد يثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۱

الحسد و البغضاء فى بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان و يظهرونهم كمجموعة اجنبية تحاول العبث بأمن البلد و نظامه، فحاول يعقوب عليه السّلام ان يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل.

و أخيرا حاول بعض المفسّرين تأويل الآية بمعنى قد يعد ذوقيا ... قال: انّ يعقوب بنصيحته تلك أراد ان يعلم أولاده دستورا اجتماعيا هامّا، و هو انّ على الإنسان ان يبحث عن ضالّته بطرق عديدة و سبل شتّى بحيث لو سدّ طريق بوجهه لكان بمقدوره البحث عنها من طرق اخرى حيث سيكون النصر حليفه فى النهاية، امّا إذا حاول الوصول الى هدفه بانتهاجه طريقا واحدا فقط، فقد يصطدم فى اوّل الطريق بعائق يمنعه عن الوصول فعند ذلك يستولى عليه اليأس و يترك السعى اليه.

واصل الاخوة سيرهم نحو مصر، و بعد ان قطعوا مسافة طويلة و شاسعة بين كنعان و مصر دخلوا الاراضى المصرية، و عند ذاك وَ لَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فهم برغم تفرّقهم الى جماعات صغيرة- طبقا لما وصّاهم به أبوهم- فإنّ الفائدة و الثمرة الوحيدة التى ترتّبت على تلك النصيحة ليس (الّا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) و هذه اشارة الى انّ اثرها لم يكن سوى الهدوء و الطمأنينة التى استولت على قلب الأب الحنون الذى بعد عنه أولاده، و بقى ذهنه و فكره مشغولا بهم و بسلامتهم و خائفا عليهم من كيد الحاسدين و شرور الطامعين، فما كان يتسلّى به فى تلك الايّام لم يكن سوى يقينه القلبى بأنّ أولاده سوف يعملون بنصيحته.

ثمّ يستمرّ القرآن فى مدح يعقوب و وصفه بقوله: وَ إِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و هذه اشارة الى انّ كثيرا من الناس يتيهون فى الأسباب و ينسون قدرة اللّه سبحانه و تعالى و يتصوّرون انّ ما يصيب الإنسان من الشرور انّما هو من الآثار الملازمة لبعض العيون فيتوسلّون بغير اللّه سبحانه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۲

و تعالى لدفع هذه الشرور و يغفلون عن التوكّل على اللّه سبحانه و تعالى و الاعتماد عليه، الّا انّ يعقوب كان عالما بأنّه بدون ارادة اللّه سبحانه و تعالى لا يحدث شىء، فكان يتوكّل فى الدرجة الاولى على اللّه سبحانه و تعالى و يعتمد عليه، ثمّ يبحث عن عالم الأسباب و من هنا نرى فى الآية (۱۰۲) من سورة البقرة انّ القرآن يصف سحرة بابل و كهنتها بأنّهم وَ ما هُمْ بِضارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ و هذه اشارة الى انّ القادر الوحيد هو اللّه سبحانه و تعالى، فلا بدّ من الاعتماد و الاتّكال عليه لا على سواه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۶۹ الى ۷۶]

اشارة

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۶۹) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (۷۰) قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (۷۱) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ (۷۲) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ (۷۳)

قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (۷۴) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۷۵) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (۷۶)

التّفسير

يوسف يخطّط للاحتفاظ بأخيه:

و أخيرا دخل الاخوة على يوسف و اعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته و اصطحبوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۴

معهم أخاهم الصغير برغم امتناع الأب فى البداية، و لكنّهم اصرّوا عليه و انتزعوا منه الموافقة لكى يثبتوا لك انّهم قد وفوا بالعهد، امّا يوسف فإنّه قد استقبلهم بحفاوة و كرم بالغين و دعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر ان يجلس كلّ اثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا و جلس كلّ واحد منهم بجنب أخيه على الطعام، و بقى بنيامين وحيدا فتألّم من وحدته و بكى و قال: لو كان اخى يوسف حيّا لعطف علىّ و لاجلسنى الى جنبه على المائدة لانّنا اخوة من أب واحد و امّ واحدة، قال يوسف مخاطبا ايّاهم: إنّ أخاكم بقى وحيدا و انّنى سأجلسه بجنبى على المائدة و نأكل سويّة من الطعام، ثمّ بعد ذلك امر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها و يناموا، و مرّة اخرى بقى بنيامين وحيدا، فاستدعاه يوسف إلى غرفته و بسط له الفراش الى جنبه، لكنّه لاحظ فى تقاسيم وجهه الحزن و الألم و سمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّها، عند ذلك نفذ صبر يوسف و كشف عن حقيقة نفسه، و القرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله:

وَ لَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

قوله تعالى (فَلا تَبْتَئِسْ) مأخوذ من مادّة (البؤس) و هو اصل بمعنى الضرر و الشدّة، لكن فى الآية الشريفة استعملت بمعنى: لا تسلط الغمّ على نفسك و لا تكن حزينا من معاملتهم لك، و المراد بقوله «يعملون» هو معاملة الاخوة السيّئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده و طرده من بينهم كما فعلوا بيوسف- فقال يوسف لأخيه: لا تحزن فإنّ المحاولات التى قاموا بها لالحاق الضرر بى قد انقلبت الى خير و سعادة و رفعة لى، إذا لا تحزن و كن على يقين بأنّ محاولاتهم سوف تذهب ادراج الرياح.

و تقول بعض الرّوايات: انّه عند ذاك اقترح يوسف على أخيه بنيامين و قال له: هل تودّ ان تبقى عندى و لا تعود معهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۵

قال بنيامين: نعم، و لكن اخوتى لا يوافقون على ذلك، لانّهم قد اعطوا أبى العهود و المواثيق المغلّظة بأن يرجعونى اليه سالما.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّى سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندى و الرجوع دونك.

و بدا يوسف بتنفيذ الخطّة، و امر بأن يعطى لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام و الحبوب ثمّ عند ذاك فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ

لا شكّ فى أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامّة، و لعلّه لم يطّلع على هذه الخطّة سوى موظّف واحد و عند ذاك افتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكى الخاص، و بحث عنه الموظّفون و العمّال كثيرا لكن دون جدوى و حينئذ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ

إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ

و حينما سمع اخوة يوسف هذا النداء ارتعدت فرائصهم و استولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم ان يتّهموا بالسرقة بعد الحفاوة التى قوبلوا بها من جانب يوسف، فتوجّهوا الى الموظفين و العمال و قالوا لهم: ماذا فقدتم؟ قالُوا وَ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ

قالوا: قد فقدنا صواع الملك و نظنّ انّه عندكم قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ و بما انّ الصواع ثمين و مورد علاقة الملك فانّ لمن يعثر عليه جائزة، و هى حمل بعير من الطعام وَ لِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ، ثمّ أضاف المؤذّن و المسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: انّنى شخصيّا اضمن هذه الجائزة وَ أَنَا بِهِ زَعِيمٌ

فاشتدّ اضطراب الاخوة لسماعهم هذه الأمور و زادت مخاوفهم، و توجّهوا الى الموظّف مخاطبين ايّاه قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَ ما كُنَّا سارِقِينَ

قولهم (لقد علمتم ما جئنا ... الى آخره) لعلّه اشارة الى ما قصده الاخوة فى خطابهم للموظفين من انّكم قد وقفتم على حسن نيّتنا فى المرّة السابقة حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۶

جئناكم و قد وضعتم الأموال التى دفعناها إليكم ثمنا للطعام فى رحالنا، لكنّنا رجعنا إليكم مرّة ثانية، فلا يعقل انّنا و قد قطعنا المسافات البعيدة للوصول الى بلدكم نقوم بعمل قبيح و نسرق الصواع؟

اضافة الى هذا فقد ورد فى بعض المصادر انّ الاخوة حينما دخلوا ارض مصر ألجموا جمالهم ليمنعوها من التطاول و التعدّى على المزارع و اموال الناس، فمثلنا الحريص على اموال الناس كيف يعقل ان يقوم بهذا العمل القبيح؟

الّا انّ الموظفين توجّهوا إليهم و قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ

أجاب الاخوة: إنّه عقاب من وجد الصواع فى رحله هو ان يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ و انّ هذا العقاب هو جزاء السارق كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ

و حينئذ امر يوسف الموظفين و العمال بأنّ تنزل رحالهم من على ظهور الجمال و يفتح متاعهم و ان يبحثوا فيها واحدا بعد واحد و دون استثناء، و تجنّبا عن انكشاف الخطّة امر يوسف بأن يبداوا البحث و التفتيش فى امتعة الاخوة اوّلا قبل امتعة أخيه بنيامين، لكنّهم وجدوه أخيرا فى امتعة بنيامين فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ

بعد ان عثر على الصاع فى متاع بنيامين، استولى الارتباك و الدهشة على الاخوة، و صعقتهم هذه الواقعة و رأوا أنفسهم فى حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح و سرق صواع الملك، و هذا يعود عليهم بالخزى و العار، و من جهة اخرى انّ هذا العمل سوف يفقدهم اعتبارهم و نفوذهم عند الملك خصوصا مع حاجتهم الشديدة الى الطعام، و اضافة الى كلّ هذا، كيف يجيبون على استفسارات أبيهم؟ و كيف يقنعونه بذنب ابنه و عدم تقصيرهم فى ذلك؟

قال بعض المفسّرين: انّه بعد ان عثر على الصاع توجّه الاخوة الى بنيامين و عاتبوه عتابا شديدا، فقالوا له: الا تخجل من فعلك القبيح قد فضحتنا و فضحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۷

أباك يعقوب، و آل يعقوب .. قل لنا كيف سرقت الصاع و وضعته فى رحلك؟

أجابهم بنيامين ببرود، حيث كان عالما بالقضيّة و اسرارها: انّ الذى قام بهذا العمل و وضع الصواع فى رحلى، هو نفسه الذى وضع الأموال فى متاعكم فى المرّة السابقة، لكن الاخوة لم ينتبهوا- لهول الواقعة عليهم- لمغزى كلام بنيامين ۱۳۴].

ثمّ يستمرّ القرآن الكريم و يبيّن كيف استطاع يوسف ان يأخذ أخاه بالخطّة التى رسمها اللّه له دون ان يثير فى اخوته اى نوع من المقاومة و الرفض كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ

و الأمر المهمّ فى هذه القضيّة هو انّه لو أراد يوسف ان يعاقب أخاه بنيامين، و طبقا للقانون المصرى- لكان عليه ان يضرب أخاه و يودعه السجن لكن مثل هذه المعاملة كانت تخالف رغبات و اهداف يوسف للاحتفاظ بأخيه، و من هنا و قبل القبض على بنيامين، سأل اخوته عن عقوبة السارق عندهم، فاعترفوا عنده بأنّ السنة المتّبعة عندهم فى معاقبة السارق ان يعمل السارق عند المعتدى عليه كالعبد.

لا ريب انّ للعقوبة و الجزاء طرقا عديدة منها ان يعاقب المعتدى على طبق ما يعاقب به فى قومه، و هكذا عامل يوسف أخاه بنيامين، و توضيحا لهذه الحالة و انّ يوسف لم يكن بإمكانه أخذ أخيه طبقا للدستور المصرى يقول القرآن الكريم: ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ لكن اللّه سبحانه و تعالى يستثنى بقوله: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ و هو اشارة إلى أنّ ما فعله يوسف بأخيه لم يكن الّا بأمر منه سبحانه و تعالى و طبقا لإرادته فى الاحتفاظ ببنيامين، و استمرارا لامتحان يعقوب و أولاده.

و أخيرا يضيف القرآن الكريم و يقول: انّ اللّه سبحانه يرفع درجات من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۸

استطاع ان يفوز فى الامتحان و يخرج مرفوع الراس كما حدث ليوسف نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ و لكن فى كلّ الأحوال فانّ اللّه تعالى عليم يهدى الإنسان الى سواء السبيل و هو الذى أوقع هذه الخطّة فى قلب يوسف و ألهمه ايّاها وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ

بحوث

اشارة

الآيات السابقة تثير اسئلة كثيرة فلا بدّ من الاجابة عليها:

۱- لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة

لماذا لم يعترف يوسف بالحقيقة لإخوته لينهى- و فى اسرع وقت ممكن- مأساة أبيه و ينجيه من العذاب الذى كان يعيشه؟

الجواب على هذا السؤال: هو ما مرّ علينا خلال البحث، من انّ الهدف كان امتحان يعقوب و أولاده و اختبار مدى تحمّلهم و صبرهم على الشدائد و المصائب، و بتعبير آخر: لم تكن هذه الخطّة امرا عفويا دون تفكير، و انّما نفذت طبقا لاوامر اللّه سبحانه و تعالى و ارادته فى اختبار يعقوب و مدى صبره على مصيبة فقد ثانى اعزّ أولاده، لكى تكمل سلسلة الامتحانات و يفوز بالدرجات العالية التى يستحقّها، كما كانت الخطّة اختبارا لأخوة يوسف فى مدى تحمّلهم للمسؤولية و قدرتهم على حفظ العهد و مراعاة الامانة التى قطعوها مع أبيهم.

۲- لماذا اتّهم يوسف أخاه

؟ هل يجوز شرعا ان يتّهم الإنسان بريئا لم يرتكب ذنبا، و لم تقتصر آثار هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۶۹

التّهمة على البرىء وحده، بل تشمل الآخرين من قريب او بعيد؟ كما هو الحال فى يوسف حيث شمل اتّهامه الاخوة و سبب لهم

مشاكل عديدة.

يمكن معرفة الجواب بعد وقوفنا على انّ توجيه هذه التّهمة لبنيامين كان باتّفاق مسبق بينه و بين يوسف، و كان عارفا بأنّ هدف الخطّة و توجيه التهمة اليه لأجل بقائه عند يوسف، امّا بالنسبة للآثار السلبية المترتّبة على الاخوة فإنّ اتّهام بنيامين بالسرقة لم يكن فى الواقع اتّهاما مباشرا لإخوته و إنّ سبب لهم بعض التشويش و القلق و لا مانع من ذلك بالنظر الى امتحان مهم.

۳- لماذا اتّهام الجميع بالسرقة

؟ مرّ علينا فى الآية الشريفة قوله تعالى: إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ و هذه فى الواقع تهمة موجّهة الى الجميع و هى تهمة كاذبة، فما المسوغ و المجوّز الشرعى لمثل هذا الاتّهام الباطل؟

يمكن الاجابة على هذا السؤال فى عدّة نقاط و هى:

اوّلا: انّ قائل هذه الجملة غير معلوم، حيث ورد فى القرآن انّه (قالوا ...) و لعلّ القائلين هم بعض الموظفين من عمّال يوسف و المسؤولين عن حماية خزائن الحبوب، فهم حينما افتقدوا صواع الملك، اطمأنّوا بأنّ السارق هو احد افراد القافلة القادمة من كنعان، فوجّهوا الخطاب إليهم جميعا، و هذا من الأمور الطبيعيّة، فحينما يقوم شخص مجهول فى ضمن مجموعة معيّنة بعمل ما، فإنّ الخطاب يوجّه إليهم جميعا و يقال لهم: إنّكم فعلتم هذا العمل، و المقصود إنّ احد هذا المجموعة او بعضها قد فعل كذا.

ثانيا: الطرف الذى وجّهت اليه التّهمة و هو بنيامين، كان موافقا على توجيه هذه التهمة له، لانّ التهمة كانت مقدّمة للخطّة المرسومة و التى كانت تنتهى ببقائه عند أخيه يوسف، و امّا شمول الاتّهام لجميع الاخوة و دخولهم جميعا فى دائرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۰

الظنّ بالسرقة، فإنّ كلّ ذلك كان اتّهاما مؤقتا حيث زالت بمجرّد التفتيش و العثور على الصواع و ظهر المذنب الواقعى.

قال بعض المفسّرين: انّه قصد بالسرقة- فيما نسبوه الى اخوة يوسف- هو ما اقترفوه سابقا من سرقة الاخوة يوسف من أبيه، لكن هذا التوجيه يتمّ إذا كانت التهمة قد وجهت إليهم من قبل يوسف، لانّه كان عالما بالذنب الذى ارتكبوه، و لعلّ ما ورد فى ذيل الآية الشريفة يدلّ على ذلك، حيث قال العمّال انّنا: نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ و مثل هذا الخطاب لا يتضمّن توجيه السرقة إليهم، (و لكن الجواب الاوّل أصح ظاهرا).

۴- عقوبة السرقة فى تلك الازمنة

يستفاد من الآيات السابقة انّ عقوبة السرقة عند المصريين كانت تختلف عنها عند الكنعانيين، فعند اخوة يوسف (آل يعقوب) و لعلّه عند الكنعانيين كانت العقوبة هى عبودية السارق (بصورة دائمة او مؤقتة) لأجل الذنب الذى اقترفه ۱۳۵].

لكن المصريين لم يجازوا السارق بالعبودية الدائمة او المؤقتة، و انّما كانوا يعاقبون المذنب بالضرب المبرح او السجن، و فى كلّ الأحوال لا يستفاد من قوله تعالى: قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ انّ الشرائع السّماوية كانت تحدّد عقوبة السارق بالعبودية، و لعلّها كانت سنّة متّبعة عند بعض المجتمعات فى تلك الازمنة، و قد ذكر المؤرّخون فى تاريخ العبودية انّ بعض المجتمعات التى كانت تدين بالشرائع الخرافية، كانوا يعاقبون المدين العاجز عن سداد دينه بالعبودية للمدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۱

۵- السقاية او الصواع

يلاحظ فى الآيات السابقة انّ اللّه سبحانه و تعالى يعبّر عن الكيل تارة ب (الصواع) و اخرى ب (السقاية)، و الظاهر انّهما صفتان لشىء واحد، حيث ورد فى بعض المصادر انّ هذا الصاع كان فى اوّل الأمر كأسا يسقى به الملك، ثمّ حينما عمّ القحط و الغلاء فى مصر و صار الطعام و الحبوب يوزّع على الناس حسب الحصص، استعمل هذا الكأس الثمين لكيل الطعام و توزيعه، و ذلك إظهارا لاهميّة الحبوب و ترغيبا للناس فى القناعة و عدم الإسراف فى الطعام.

ثمّ انّ المفسّرين ذكروا أوصافا عديدة لهذا الصاع، حيث قال بعضهم انّها كانت من الفضّة و قال آخرون: انّها كأس ذهبية، و أضاف آخرون انّ الكأس كان مطعما بالجواهر و الأحجار الكريمة، و قد وردت فى بعض الرّوايات الضعيفة إشارة الى هذه الأمور، لكن ليس لنا دليل قطعى و صريح على صحة كلّ هذه المذكورات، الّا ما قيل من انّ هذا الصاع كان فى يوم من الايّام كأسا يسقى به ملك مصر، ثمّ صار كيلا للطعام، و من البديهى انّه لا بدّ و ان يكون لهذا الصاع صبغة رمزية و اعتبارية للدلالة على اهمية الطعام و تحريض الناس على عدم الإسراف فيه، إذ لا يعقل ان يكون الجهاز الذى يوزن به كلّ ما يحتاجه البلد من الطعام و الحبوب، هو مجرّد كأس كان يستعمله الملك فى يوم من الايّام.

و أخيرا فقد مرّ علينا خلال البحث انّ يوسف قد اختير مشرفا على خزائن الدولة، و من الطبيعى ان يكون الصاع الملكى الثمين فى حوزته، فحينما حكم على بنيامين بالعبودية صار عبدا لمن كان الصاع فى يده (اى يوسف) و هذه هى النتيجة التى كان يوسف قد خطّط لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۲

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (۷۷) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۷۸) قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (۷۹)

التّفسير

موقف اخوة يوسف:

و أخيرا اقتنع اخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد ارتكب فعلا شنيعا و قبيحا و إنّه قد شوّه سمعتهم و خذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا ان يبرّئوا أنفسهم و يعيدوا ماء وجههم قالوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ اى انّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف و هو اخوه لأبويه قد ارتكب مثل هذا العمل القبيح، و نحن نختلف عنهما فى النسب، و هكذا أرادوا ان يفصلوا بينهم و بين بنيامين و يربطوه بأخيه يوسف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۳

و حينما سمع يوسف كلامهم تأثّر بشدّة لكنّه كتم ما فى نفسه فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَ لَمْ يُبْدِها لَهُمْ لانّه كان عالما بأنّهم قد افتروا

عليه و اتّهموه كـذبا، الّا انّه لم يرد عليهم و قال لهم باختصار و اقتضاب قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً اى انّكم احقر و اشرّ مكانا ممّن تتّهمونه و تنسبون اليه السرقة، او أنتم احقر الناس عندى.

ثمّ أضاف يوسف: انّ اللّه سبحانه و تعالى اعلم بما تنسبون وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ

الملاحظ هنا انّه برغم انّ اخوة يوسف افتروا عليه زورا و اتّهموه بالسرقة لكى يبرّئوا أنفسهم، لكن لا بدّ و ان تكون لهذه التّهمة ارضية قديمة بحيث تمسّك بها الاخوة فى تلك اللحظة الحرجة.

و من هنا فقد قام المفسّرون بالبحث و التنقيب فى الرّوايات القديمة و المصادر التاريخيّة، و نقلوا ثلاثة نصوص فى هذا المجال:

الاوّل: انّ يوسف بعد ان توفّيت امّه قضى فترة من طفولته عند عمّته، و قد كانت تكنّ له حبّا عميقا، و حينما كبر يوسف و أراد يعقوب ان يفصله عنها، لم تر عمّته حيلة و وسيلة للاحتفاظ بيوسف الّا بحيلة نسائية و ذلك بأن ربطت على خاصرته حزاما او شالا ممّا تركه آل إسحاق، ثمّ ادّعت انّ يوسف أراد سرقتها، فلا بدّ من ان يعاد إليها يوسف- و طبقا للدستور و السنّة المتّبعة عندهم- عبدا قنا جزاء له.

الثّانى: قيل انّ امراة من أرحام يوسف من امّه يوسف كان لها صنم تعبده، فأخذه يوسف و حطمه و رمى به على الطريق، فاتّهموه بالسرقة.

الثّالث: قيل انّ يوسف كان يأخذ- أحيانا بعض الطعام من المائدة و يتصدّق به على الفقراء و المساكين، فعلم الاخوة بذلك و اتّهموه بالسرقة.

لكن مثل هذه الأعمال لا تعدّ سرقة، لانّ النّبيه يعرف انّ ربط الحزام على الشخص دون علمه بأنّه ملك الغير. او كسر الصنم و رميه على الطريق، او أخذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۴

الطعام من المائدة التى بسطها أبوه و يعلم انّه يرضى بالتصدّق ببعضها للفقراء و المساكين، لا يعدّ سرقة و لا يجوز معاقبة من فعله بهذه التّهمة.

و عند ما لاحظ الاخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة و طبقا للسنّة و الدستور المتعيّن عندهما لا بدّ و ان يبقى أخوهم الصغير- بنيامين عند عزيز مصر و يقوم بخدمته كسائر عبيده، و من جهة اخرى فإنّهم قد اعطوا لأبيهم المواثيق و الايمان المغلّظة على ان يحافظوا على أخيهم بنيامين و يعودوا به سالما اليه، حينما وقعوا فى هذه الحالة توجّهوا الى يوسف الذى كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين ايّاه قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ لكى نرجعه الى أبيه و نكون قد وفينا بالوعد الذى قطعناه له، فإنّه شيخ كبير و لا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك ان تترحّم علينا و على أبيه ف إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

امّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ فإنّ العدل و الإنصاف يقتضى ان يكون المعاقب هو السارق، و ليس بريئا رضى بأن يتحمّل أوزار عمل غيره، و لو فعلنا لامسينا من الظالمين إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ

و الطريف انّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة و انّما عبّر عنه ب مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ و هذا برهان على السلوك الحسن و السيرة المستقيمة التى كان ينتهجها يوسف فى حياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۵

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۰ الى ۸۲]

اشارة

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (۸۰) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (۸۱) وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۸۲)

التّفسير

رجوع الاخوة الى أبيهم خائبين:

حاول الاخوة ان يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلّا انّهم فشلوا فى ذلك، و رأوا انّ جميع سبل النجاة قد سدّت فى وجوههم، فبعد ان فشلوا فى تبرئة أخيهم و بعد ان رفض العزيز استعباد أحدهم بدل بنيامين، استولى عليهم اليأس و صمّموا على الرجوع و العودة الى كنعان لكى يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۶

ايّاهم فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا اى انّهم بعد ان يئسوا من عزيز مصر او من انقاذ أخيهم، ابتعدوا عن الآخرين و اجتمعوا فى جانب و بداوا بالتشاور و النجوى فيما بينهم.

قوله تعالى (خلصوا) بمعنى الخلوص، و هو كناية عن الابتعاد عن الآخرين و الاجتماع فى جلسة خاصّة، امّا قوله تعالى «نجيّا» فهو من مادّة (المناجاة) و أصله من (نجوة) بمعنى الربوة و الأرض المرتفعة، فباعتبار انّ الربوات منعزلة عن اراضيها المجاورة، سمّيت الجلسات الخاصّة البعيدة عن عيون الغرباء و الحديث فى السرّ قياسا عليها ب (النجوى) فإذا كلمة (النجوى) تطلق على الحديث السرّى و الخاص سواء كانت فى جلسة خصوصية او فى محاورة خاصّة بين اثنين لا يتعدّى سمعهما.

ذهب كثير من المفسّرين الى انّ جملة خَلَصُوا نَجِيًّا تعدّ من افصح العبارات فى القرآن و أجملها حيث انّ اللّه سبحانه و تعالى قد بيّن فى كلمتين أمورا كثيرة يحتاج بيانها الى عدّة جمل.

و فى ذلك الاجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلا: قالَ كَبِيرُهُمْ أَ لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ بأن تردّوا اليه بنيامين سالما، فالآن بماذا تجيبونه؟ و قد سوّدنا صفحتنا فى المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف وَ مِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ۱۳۶] فالآن و الحالة هكذا- فإنّنى لا اغادر ارض مصر و سوف اعتصم فيها فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَ هُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ و الظاهر انّ قصده بحكم اللّه، امّا الموت الذى هو حكم الهى، اى لا أبرح من هذه الأرض حتّى أموت فيها، و امّا ان يفتح اللّه سبحانه و تعالى له سبيلا للنجاة، او عذرا مقبولا عند أبيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۷

ثمّ أمرهم الأخ الأكبر ان يرجعوا الى أبيهم و يخبروه بما جرى عليهم ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ و هذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، و ظهر للجميع انّه قد سرقها وَ ما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا و لكن نحن لا نعلم الّا ما شهدناه بأعيننا و هذا غاية معرفتنا وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ

و قد يرد احتمال فى تفسير هذه الآية، فلعلّهم بقولهم: وَ ما كُنَّا لِلْغَيْبِ ...

أرادوا ان يخاطبوا أباهم بأنّنا و ان قطعنا عند الايمان و العهود المغلّظة على ان نرجع أخانا سالما، لكنّنا لا نعرف من الأمور الّا ظواهرها و من الحقائق الّا بعضها، فغيب الأمور عند اللّه سبحانه و لم نكن نتصوّر ان يسرق أخونا.

ثمّ أرادوا ان يزيلوا الشكّ و الريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك ان تتحقّق و تسأل من المدينة التى كنّا فيها وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا

فِيها[۱۳۷] و من القافلة التى سافرنا معها الى مصر و رجعنا معها، حيث انّ فيها أناسا يعرفونك و تعرفهم، و بمقدورك ان تسألهم عن حقيقة الحال و واقعها وَ الْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها[۱۳۸] و فى كلّ الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون و لم نقص عليك سوى الحقيقة و الواقع وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

يستفاد من مجموع هذه الكلمات و الحوار الذى دار بين الأولاد و الأب انّ قضيّة سرقة بنيامين كانت قد شاعت فى مصر، و انّ جميع الناس علموا بأنّ احد افراد العير و القافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفى الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها و القبض على سارقها، و لعلّ قول الاخوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۸

لأبيهم وَ سْئَلِ الْقَرْيَةَ ... اى اسأل ارض مصر، كناية عن انّ القضيّة شاعت بحيث علم بها حتّى أراضى مصر و حيطانها.

بحوث

۱- من هو اكبر الاخوة

؟ ذهب بعض المفسّرين الى انّه كان روبين (روبيل) و قال آخرون: انّه (شمعون) و احتمل البعض ان يكون أكبرهم هو (يهودا).

و حصل نقاش آخر بين المفسّرين فى انّه ما المقصود من الكبر، هل هو فى العمر ام فى العقل؟ لكن المستفاد من ظاهر الآية انّ المقصود به هو اكبر الاخوة فى العمر.

۲- الحكم وفق الدلائل الظاهرة:

و يستفاد من مدلول الآية الشريفة انّه يحقّ للقاضى و الحاكم ان يحكم فى الواقعة المرفوعة اليه على ما يستفيده من القرائن و الشواهد القطعيّة، و ان يقرّ المتّهم او يشهد الشهود عنده، لانّنا لاحظنا فى قضيّة اخوة يوسف انّه بمجرّد ان عثر على الصاع فى متاع بنيامين عدّ مذنبا و حكم عليه بالسرقة من دون شهادة او اقرار، لانّنا حينما نتحرّى عن القضيّة نرى انّ كلّ شخص كان مسئولا عن حمل متاعه من الحبوب بنفسه، او انّه كان حاضرا على الأقل عند تحميل العمال لمتاعه، و من جهة اخرى لم يكن يتصوّر احد انّ هناك خطّة فى البين، و هؤلاء الاخوة لم يعاديهم احد فى مصر، فجميع القرائن و الشواهد تورث اليقين بأنّ هذا الفعل (السرقة) قد صدر عمّن وجد عنده الصاع.

و هذا الموضوع بحاجة الى دراسة عميقة فى الفقه الاسلامى لتأثيره المهمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۷۹

فى قضايانا المعاصرة لانّ عالم اليوم يعتمد عليه كثيرا فى محاكماته، لكنّنا تركنا هذا المبحث لانّ مجاله كتاب (القضاء).

۳- يستفاد من الآيات السابقة انّ اخوة يوسف كانت طبائعهم مختلفة، امّا الأخ الأكبر فإنّه كان وفيّا بميثاقه و حافظا لوعده الذى واعد به أباه، امّا بقيّة الاخوة فإنّهم بعد ان شاهدوا فشل جميع محاولاتهم فى اقناع العزيز، تراجعوا عن موقفهم و عدّوا أنفسهم معذورين، و من الطبيعى انّ ما قام به الأخ الأكبر كان هو الأسلوب المجدى و الصحيح، لانّه ببقائه فى مصر و الاعتصام بها و على مقربة من بلاط العزيز و قصره كان باعثا للامل فى ان يترحّم العزيز على الاخوة و على أبيهم الشّيخ الكبير، و يعفو عن هذا الغريب و لا يجازيه من اجل صاع سرقه ثمّ عثر عليه العمّال، فعلى هذا و املاء فى استجداء عطف العزيز، بقى فى مصر و بعث بإخوته الى أبيهم فى كنعان

ليبلغوه الخبر و يطلبوا منه ان يدلّهم على الطريق الصحيح لانقاذ أخيهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۰

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۳ الى ۸۶]

اشارة

قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۸۳) وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (۸۴) قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (۸۵) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۸۶)

التّفسير

يعقوب و الألطاف الالهية:

و أخيرا غادروا مصر متّجهين الى كنعان فى حين تخلّف أخواهم الكبير و الصغير، و وصلوا الى بيتهم منهوكى القوى و ذهبوا لمقابلة أبيهم، و حينما راى الأب الحزن و الألم مستوليا على وجوههم (خلافا للسفرة السابقة و التى كانوا فيها فى غاية الفرح) علم انّهم يحملون اليه اخبارا محزنة و خاصّة حينما افتقد بينهم بنيامين و أخاه الأكبر، و حينما اخبروه عن الواقعة بالتفصيل، استولى عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۱

الغضب و قال مخاطبا ايّاهم بنفس العبارة التى خاطبهم بها حينما أرادوا ان يشرحوا له خديعتهم مع يوسف قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً اى انّ أهواءكم الشيطانية هى التى استولت عليكم و زيّنت لكم الأمر بهذه الصورة التى أنتم تصفونه.

السؤال الذى يطرح نفسه هنا، هو انّ يعقوب هل اكتفى فى نسبة الكذب و اتّباع الهوى لأولاده استنادا الى ما فعلوه فى المرّة السابقة مع يوسف من سوء الفعل و الحنث باليمين و العهد، مع انّ مثل هذا الظنّ و القول و اتّهام الآخرين لمجرّد تجربة سابقة بعيد عن سيرة عامّة الناس فضلا عن يعقوب الذى هو نبى معصوم، و على الخصوص إذا استند المدّعى فى دعواه على وثائق و مستندات تثبت دعواه، كما انّ طريق الفحص و التحقيق عن واقع الحال كان مفتوحا ليعقوب.

او كان يعقوب يقصد بقوله: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ ... الى آخر) الاشارة الى امور اخرى، منها:

۱- لعلّه عتاب لأولاده لخضوعهم امام الأمر الواقع و تسليمهم لحكم العزيز بمجرّد عثور الصاع عند أخيهم، مع انّ العثور بمفرده لا يعدّ دليلا منطقيّا على السرقة.

۲- و لعلّه عتاب لأولاده لما بيّنوه للعزيز من انّ عقوبة السارق عندهم هو استعباده مع انّ هذه السنّة السائرة فى اهل كنعان سنّة باطلة و لا تعدّ قانونا سماويا (هذا ان قلنا انّ هذه السنّة لم تكن مأخوذة من شريعة يعقوب كما ذهب اليه بعض المفسّرين).

۳- و أخيرا لعلّه عتاب لأولاده على استعجالهم فى الخضوع لأحكام العزيز و خلق المعاذير و المبرّرات و الرجوع مستعجلين الى كنعان دون الاقتداء بأخيهم الكبير فى البقاء بمصر برغم العهود و المواثيق المغلّظة التى قطعوها مع أبيهم ۱۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۲

لكن بعد هذا العتاب الملىء بالحزن و الاسى رجع يعقوب الى قرارة نفسه و قال: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ اى انّنى سوف امسك بزمام نفسى، و لا اسمح لها بأن تطغى علىّ بل اصبر صبرا جميلا على امل بأنّ اللّه سبحانه و تعالى سوف يعيد لى اولادى (يوسف و بنيامين و أخوهم

الأكبر) عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً فإنّه هو العالم بواقع الأمور و الخبير بحوادث العالم ما مضى منها و ما سوف يأتى، و لا يفعل الّا عن حكمة و تدبير إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ثمّ بعد هذه المحاورات بين يعقوب و أولاده، استولى عليه الحزن و الألم، و حينما رأى مكان بنيامين خاليا عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، و تذكّر تلك الايّام الجميلة التى كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة و الصفات الحسنة و الذكاء العالى فيشمّ رائحته الطيّبة و يستعيد نشاطه، امّا اليوم فلم يبق منه اثر و لا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) ايضا قد ابتلى مثل يوسف بحادث مؤلم و ذهب الى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الأمور ابتعد عن أولاده و استعبر ليوسف وَ تَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ امّا الاخوة فإنّهم حينما سمعوا باسم يوسف، ظهر على جبينهم عرق الندامة و ازداد خجلهم و استولى عليهم الحزن لمصير اخويهم بنيامين و يوسف، و اشتدّ حزن يعقوب و بكاؤه على المصائب المتكرّرة و فقد اعزّ أولاده وَ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ لكن يعقوب كان- فى جميع الأحوال مسيطرا على حزنه و يخفّف من آلامه و يكظم غيظه و ان لا يتفوّه بما لا يرضى به اللّه سبحان و تعالى فَهُوَ كَظِيمٌ

يفهم من هذه الآيات انّ يعقوب لم يكن فاقدا لبصره، لكنّ المصائب الاخيرة و شدّة حزنه و دوام بكائه افقده بصره، و كما أشرنا سابقا فإنّ هذا الحزن و الألم و العمى كان خارجا عن قدرته و اختياره، فإذا لا يتنافى مع الصبر الجميل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۲۸۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۳

امّا الاخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم ممّا أحدثوه ليوسف،- و فى قضيّة بنيامين- شاهدوا أنفسهم فى وضع صعب و امتحان جديد، و من جهة ثالثة كان يصعب عليهم ان يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة و الألم و يواصل بكاؤه الليل بالنهار، توجّهوا الى أبيهم و خاطبوه معاتبين قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ ۱۴۰] اى انّك تردّد ذكر يوسف و تتأسّف عليه حتّى تتمرّض و تشرف على الهلاك و تموت.

لكنّ شيخ كنعان هذا النّبى العظيم و المتيقّظ الضمير ردّ عليهم بقوله: إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ ۱۴۱] لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد و تنكثون العهد لانّنى وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ فهو اللطيف الكريم الذى لا اطلب سواه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۸۷ الى ۹۳]

اشارة

يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (۸۷) فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (۸۸) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (۸۹) قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (۹۰) قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (۹۱)

قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۹۲) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (۹۳)

التّفسير

اليأس علامة الكفر

! كان القحط و الغلاء و شحّة الطعام يشتدّ يوما بعد آخر فى مصر و ما حولها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۵

و منها كنعان، و مرّة اخرى امر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الاولى ان يبحثوا عن يوسف و أخيه بنيامين، حيث قال لهم: يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ

لكن بما انّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين الى هلاك يوسف و عدم بقاءه، تعجّبوا من توصية أبيهم و تأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس و القنوط و وصّاهم بالاعتماد على اللّه سبحانه و الاتّكال عليه بقوله: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ فإنّه القادر على حلّ الصعاب و إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ

(تحسّس) أصله من (حس) بمعنى البحث عن الشىء المفقود بأحد الحواس، و هنا بحث بين اللغويين و المفسّرين فى الفرق بينه و بين (تجسّس) و قد نقل عن ابن عبّاس انّ التحسّس هو البحث عن الخير، و التجسّس هو البحث عن الشرّ، لكن ذهب آخرون الى انّ التحسّس هو السعى فى معرفة سيرة الأشخاص و الأقوام دون التجسّس الذى هو البحث لمعرفة العيوب.

و هنا رأى ثالث فى انّهما متّحدان فى المعنى، الّا انّ ملاحظة الحديث الوارد بقوله: «لا تجسّسوا و لا تحسّسوا» يثبت لنا انّهما مختلفان و انّ ما ذهب اليه ابن عبّاس فى الفرق بينهما هو الأوفق بسياق الآيات المذكورة، و لعلّ المقصود منهما فى هذا الحديث الشريف: لا تبحثوا عن امور الناس و قضاياهم سواء كانت شرّا ام خيرا.

قوله تعالى «روح» بمعنى الرحمة و الراحة و الفرج و الخلاص من الشدّة.

يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته «الرّوح و الرّوح فى الأصل واحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۶

و جعل الروح اسما للنّفس ... و الرّوح التنفّس و قد أراح الإنسان إذا تنفّس ...).

و أخيرا جمع الاخوة متاعهم و توجّهوا صوب مصر، و هذه هى المرّة الثّالثة التى يدخلون فيها ارض مصر، هذه الأرض التى سبّبت لهم المشاكل و جرّت عليهم الويلات.

لكن فى هذه السفرة- خلافا للسفرتين السابقتين- كانوا يشعرون بشىء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند اهل مصر او العزيز ملوّثة للوصمة التى لصقت بهم فى المرّة السابقة، و لعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. و من جهة اخرى لم يحملوا معهم هذه المرّة من المتاع ما يستحقّ ان يعاوضوه بالطعام و الحبوب، اضافة الى هذه الأمور فإنّ فقد أخيهم بنيامين و الآلام التى المّت بأبيهم كانت تزيد من قلقهم و بتعبير آخر فإنّ السكين قد وصلت الى العظم، كما يقول المثل الّا انّ الذى كان يبعث فى نفوسهم الأمل و يعطيهم القدرة على تحمّل الصعاب هو وصيّة أبيهم لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ

و أخيرا استطاعوا ان يقابلوا يوسف، فخاطبوه- و هم فى غاية الشدّة و الألم- بقولهم: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَ أَهْلَنَا الضُّرُّ اى انّ القحط و الغلاء و الشدّة قد المّت بنا و بعائلتنا و لم نحمل معنا من كنعان إلّا متاعا رخيصا وَ جِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ[۱۴۲] لا قيمة لها و لكن- فى كلّ الأحوال- نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك و نأمل فى معروفك فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ بمنّك الكريم و صدقاتك الوافرة وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنا و لا تطلب منّا الأجر، بل اطلبه من اللّه سبحانه و تعالى حيث إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۷

و الطريف انّ اخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم فى البحث عن إخوتهم اوّلا- بل حاولوا الحصول على الطعام، و لأجل ذلك قابلوا

العزيز و طلبوا منه المؤن و الحبوب، و لعلّ السبب فى ذلك ضعف أملهم فى العثور على يوسف، او لعلّهم أرادوا ان يظهروا أنفسهم امام العزيز و المصريين و كأنّهم أناس جاؤوا لشراء الطعام و الحبوب فقط، فمن ثمّ يطرحوا مشكلتهم امام العزيز و يطلبوا منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى و احتمال تنفيذه اكثر.

قال بعض المفسّرين: انّ مقصود الاخوة من قولهم: تَصَدَّقْ عَلَيْنا كان طلب الإفراج عن أخيهم لانّهم لم يطلبوا من العزيز الطعام و الحبوب مجّانا دون عوض حتّى يطلبوا منه التصدّق عليهم، فإنّهم يدفعون ثمنه.

و نقرا فى روايات وردت فى هذا المقام، انّ الاخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم الى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب فى تلك الرسالة عزيز مصر و اكبر عدالته و صلاحه و شكره على ما بذله له و لعائلته من الطعام و الحبوب، ثمّ عرّف نفسه و الأنبياء من اهل بيته و أخبره برزاياه و ما تحمله من المصائب و المصاعب من فقده اعزّ أولاده و احبّهم الى نفسه يوسف و أخيه بنيامين، و ما أصابهم من القحط و الغلاء، و فى ختام الرسالة طلب من العزيز ان يمنّ عليه و يطلق سراح ولده بنيامين، و ذكّره انّ بنيامين سليل بيت النبوّة و الرسالة و انّه لا يتلوّث بالسرقة و غيرها من الدناءات و المعاصى.

و حينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم الى العزيز شاهدوا انّه فضّ الرسالة باحترام و قبلها و وضعها على عينيه و بدا يبكى بحيث انّ الدموع بلّت ثيابه ۱۴۳] (و هذا ما حيّر الاخوة، و بداوا يفكّرون بعلاقة العزيز مع أبيهم بحيث جعله يبكى شوقا و شغفا حينما فتحها، و لعلّ فعل العزيز اثار عندهم احتمال ان يكون يوسف هو العزيز، و لعلّ هذه الرسالة أثارت عواطف العزيز و شعوره بحيث لم يطق صبرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۸

و عجز عن ان يخفى نفسه بغطاء السلطة و أجبره على كشف نفسه لإخوته).

و فى تلك اللحظة، و بعد ان مضت ايّام الامتحان الصعب- و كان قد اشتدت محنة الفراق على يوسف و ظهرت عليه آثار الكآبة و الهمّ، أراد ان يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله: هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَ أَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ

لاحظوا عظمة يوسف و علوّ نفسه حيث يسألهم اوّلا عن ذنبهم لكن بهذه الكناية اللطيفة يقول: ما فَعَلْتُمْ و ثانيا يبيّن لهم طريقة الاعتذار و انّ ما ارتكبوه فى حقّ إخوتهم انّما صدر عن جهلهم و غرورهم، و انّه قد مضى ايّام الصبى و الطفولة و هم الآن فى دور الكمال و العقل! كما انّه يفهم من الآية الشريفة انّ يوسف لم يكن وحده الذى ابتلى بإخوته و معاملتهم السيّئة، بل انّ بنيامين ايضا كان يقاسى منهم ألوان العذاب، و لعلّه قد شرح لأخيه يوسف فى الفترة التى قضاها فى مصر، جانبا ممّا عاناه تحت أيديهم، و يستفاد من بعض الرّوايات انّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه و مع أخيه ختم استفساره بابتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم احتمال انّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة و لاحظوا و تذكّروا الشبه بينه و بين أسنان أخيهم يوسف ۱۴۴].

امّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الأمور مجتمعة، و شاهدوا انّ العزيز يتحدّث معهم و يستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التى لم يكن يعلمها احد غيرهم الّا يوسف.

و من جهة اخرى ادهشهم يوسف و ما اصابه من الوجد و الهياج حينما استلم كتاب يعقوب، و احسّوا بعلاقة وثيقة بينه و بين صاحب الرسالة.

و ثالثا كلّما أمعنوا النظر فى وجه العزيز و دقّقوا فى ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه و بين أخيهم يوسف .. لكنّهم فى نفس الوقت لم يدر بخلدهم و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۸۹

يتصوّروا انّه يمكن ان يكون أخوهم يوسف قد ارتقى منصب الوزارة و صار عزيزا لمصر، اين يوسف و اين الوزارة و العزّة؟! لكنّهم تجرّأوا أخيرا و سألوه مستفسرين منه قالُوا أَ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ

كانت هذه الدقائق أصعب اللحظات على الاخوة، حيث لم يكونوا يعرفون محتوى اجابة العزيز! و انّه هل يرفع الستار و يظهر لهم

حقيقته، ام انّه سوف يعتقد بأنّهم مجانين حيث ظنّوا هذا الظنّ.

كانت اللحظات تمرّ بسرعة و الانتظار الطويل يثقل على قلوبهم فيزيد فى قلقهم، لكن يوسف لم يدع اخوته يطول بهم الانتظار و رفع الحجاب بينه و بينهم و اظهر لهم حقيقة نفسه و قالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هذا أَخِي لكن لكى يشكر اللّه سبحانه و تعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب و النعم، و لكى يعلّم اخوته درسا آخر من دروس المعرفة قال: إِنَّه قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

لا يعرف احد كيف مرّت هذه اللحظات الحسّاسة على الاخوة كما لا يعرف احد مدى انفعالهم و ما خامرهم من السرور و الفرح و كيف تعانقوا و احتضنوا أخاهم و الدموع الغزيرة التى ذرفوها و ذلك حينما التقوا بأخيهم و بعد عشرات السنين من الفراق، لكنّهم فى كلّ الأحوال كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب و الجريمة التى اقترفوها فى حقّه، فترقّبوا اجابة يوسف و انّه هل يغفر لهم إساءتهم اليه و يعفو عن جريمتهم ام لا؟ فابتدءوا مستفسرين بقولهم: قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا[۱۴۵] اى انّ اللّه سبحانه و تعالى قد فضّلك علينا بالعلم و الحلم و الحكومة وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ ۱۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۰

امّا يوسف الذى كانت نفسه تأبى ان يرى اخوته فى حال الخجل و الندامة- خاصّة فى هذه اللحظات الحسّاسة و بعد انتصاره عليهم- او لعلّه أراد ان يدفع عن أذهانهم ما قد يتبادر إليها من احتمال ان ينتقم منهم، فخاطبهم بقوله: قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۱۴۷] اى انّ العتاب و العقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا و كونوا مرتاحى الضمير و لا تجعلوا للآلام و المصائب السابقة منفذا الى نفوسكم، ثمّ لكى يبيّن لهم انّه ليس وحده الذى أسقط حقّه و عفا عنهم، بل إنّ اللّه سبحانه و تعالى ايضا عفا عنهم حينما أظهروا الندامة و الخجل قال لهم: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ اى انّ اللّه سبحانه و تعالى قد قبل توبتكم و عفا عنكم لانّه ارحم الراحمين.

و هذا دليل على علو قدر يوسف و غاية فضله حيث انّه لم يعف عن سيّئات اخوته فحسب، بل رفض حتّى ان يوبّخ و يعاتب اخوته- فضلا عن ان يجازيهم و يعاقبهم- اضافة الى هذا فإنّه طمأنهم على انّ اللّه سبحانه و تعالى رحيم غفور و انّه تعالى سوف يعفو عن سيّئاتهم، و استدلّ لهم على ذلك بأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو ارحم الراحمين.

و هنا تذكر الاخوة مصيبة اخرى قد المّت بعائلتهم و الشاهد الحى على ما اقترفوه فى حقّ أخيهم الا و هو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزنا و فراقا على يوسف، امّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشكلة حلا حيث خاطبهم بقوله:

اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ثمّ طلب منهم ان يجمعوا العائلة و يأتوا بهم جميعا وَ أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۱

بحوث

۱- من الذى حمل قميص يوسف

؟ ورد فى بعض الرّوايات انّ يوسف قال: انّ الذى يحمل قميصى المشافى الى أبى لا بدّ و ان يكون هو نفسه الذى حمل قميصى الملطّخ بالدماء اليه، لكى يدخل السرور على قلبه بعد ان ملا قلبه حزنا و ألما من قبل! فأعطى ل (يهودا) قميصه بعد ان اعترف له انّه هو الذى حمل قميصه الملطّخ بالدماء الى أبيه و أخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف، و هذا التصرّف من يوسف ان لم يدلّ على شىء فإنّه يدلّ على انّه برغم اعماله الكثيرة و متاعبه اليوميّة، فإنّه لم يغفل عن صغائر الأمور المتعلّقة بالسلوك الاخلاقى ۱۴۸].

۲- یوسف و جلالة شأنه:

ورد فی بعض الرّوایات انّ اخوة یوسف- بعد هذه القضایا- کانوا یحسّون بالخجل الشدید فأرسلوا الیه من یقول له: یا یوسف انّک تستضیفنا کلّ یوم صباحا و مساء- علی مائدتک فنأکل من زادک و هذا ما یزید فی خجلنا حیث لا نطیق النظر الی وجهک بعد ان نتذکّر اساءتنا إلیک، فأجابهم بکلمة لطیفة لیبعد عنهم الخجل بأنّ الفضل یعود إلیهم، و انّ جلوسهم علی مائدته لهو مکرمة منهم و انّ الشعب المصری کانوا ینظرون الیّ نظرة الحرّ الی العبد و یقولون فیما بینهم (سبحان من بلغ عبدا بیع بعشرین درهما ما بلغ!!) ای انظروا الی فعل اللّه سبحانه و تعالی بهذا العبد فإنّه قد بیع فی السوق بعشرین درهما و هو الآن وصل الی هذه المرتبة السامیة، لکنّهم الآن ینظرون الی مائدتی و أنتم جلوس حولها، فیعرفون قدری و تثبت لهم منزلتی و انّنی لست بعبد ذلیل بیع بعشرین درهما، و انّما انا سلیل بیت النبوّة و الرسالة و من أولاد نبی اللّه ابراهیم الخلیل، و هذا ما أباهی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۲

و افتخر به امام الآخرین ۱۴۹].

۳- الشکر علی الانتصار:

انّ الآیات السابقة تعلّمنا بجلاء و وضوح درسا من دروس الأخلاق الاسلامیة، و هو انّه بعد الانتصار علی العدو و کسر شوکته لا بدّ ان لا ننسی العفو و الرحمة، و ان لا نعامله بقساوة، فإنّ اخوة یوسف قد عاملوه اشدّ المعاملة أشرفت به علی نهایته و أوصلته الی أبواب الموت، و لو لم تشمله عنایة اللّه سبحانه و تعالی، لعجز عن الخلاص ممّا اوقعوه فیه، هذا اضافة الی المصائب و الآلام التی تحملها أبوه، لکنّهم الآن جمیعا واقفون امّام یوسف و هو السیّد المطاع و بیده القوّة و القدرة، لکنّه عاملهم بلطف و احسان.

کما انّه یفهم من خلال حدیثه معهم انّه لم یحقد علیهم قطّ، بل الذی یقلقه هو تذکّر الاخوة ماضیهم الأسود و یحسّوا بالخجل! و لذا حاول جاهدا ان یریحهم من هذا القلق و یزیح هذا الکابوس عن صدورهم، بل اکثر من هذا فإنّه حاول ان یفهمهم انّ لهم علیه فضلا فی مجیئهم الی مصر و التعرّف علیهم، فإنّهم کانوا السبب فی کشف حقیقته امام الشعب فی هذا البلد، حیث عرف اهل مصر انّ عزیزهم هو سلیل بیت النبوّة و الرسالة و لیس عبدا بیع فی السوق بدراهم معدودات، و من هنا فإنّ یوسف کان یری لهم فی ذلک فضلا و منّة! و من حسن الصدف انّنا نری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یمتحن بمثل هذه المواقف الحرجة، فمثلا حینما فتح رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مکّة و اذلّ المشرکین و هزمهم و کسر أصنامهم و داس شوکتهم و کبریاءهم، جاء رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (کما رواه ابن عبّاس) الی جوار الکعبة و أخذ بحلقة بابها و کان المشرکون قد التجأوا إلیها هم ینتظرون حکم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیهم، و

قال کلمته المشهورة: «الحمد للّه الذی صدق وعده

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۳

و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده» ثمّ توجّه الی قریش و خاطبهم بقوله: «ماذا تظنّون یا معشر قریش؟ قالوا: خیرا، أخ کریم و ابن أخ کریم، و قد قدرت! قال: و انا أقول کما قال اخی یوسف لا تثریب علیکم الیوم».

ای انّ الیوم لیس یوم ملامة و انتقام و اظهار الحقد و الضغینة

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

فقال عمر بن الخطاب: ففضت عرقا من الحياء من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذلك انّى قد كنت قلت لهم حين دخلنا مكّة: اليوم ننتقم منكم و نفعل ۱۵۰].

كما انّه وردت فى كثير من الرّوايات الاسلامية انّ

«زكاة النصر هو العفو».

يقول على عليه السّلام: «إذا قدرت على عدوّك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه»[۱۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۹۴ الى ۹۸]

اشارة

وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (۹۴) قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (۹۵) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۹۶) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (۹۷) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۹۸)

التّفسير

و أخيرا شملتهم رعاية اللّه و لطفه:

امّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد ان واجهوا يوسف و جرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين و مستبشرين و توجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، و فيما كان الاخوة يقضون اسعد لحظات حياتهم، كان هناك بيت فى بلاد الشام و ارض كنعان- الا و هو بيت يعقوب الطاعن فى السنّ حيث كان يقضى هو و عائلته احرج اللحظات و اشدّها حزنا و بؤسا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۵

لكن- مقارنا مع حركة القافلة من مصر- حدث فى بيت يعقوب حادث غريب بحيث اذهل الجميع و صار مثارا للعجب و الحيرة، حيث نشط يعقوب و تحرّك من مكانه و تحدّث كالمطمئن و الواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّى بسوء و لم تنسبوا كلامى الى السفاهة و الجهل و الكذب لقلت لكم: إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ فإنّى احسّ بأنّ ايّام المحنة و الآلام سوف تنصرم فى القريب العاجل، و انّه قد حان وقت النصر و اللقاء مع الحبيب، و ارى انّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء و المصيبة و لبسوا لباس الفرح و السرور- لكن لا تصدّقون كلامى وَ لَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ ۱۵۲].

و المستفاد من قوله تعالى (فصلت) انّه بمجرّد ان تحرّكت القافلة من مصر احسّ يعقوب بالأمر و تغيّرت أحواله.

امّا الذين كانوا مع يعقوب- و هم عادة أحفاده و ازواج أولاده و غيرهم من الأهل و العشيرة- فقد استولى عليهم العجب و خاطبوه بوقاحة مستنكرين: قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ أ ليس هذا برهانا واضحا على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف لكنّك لا زلت تزعم انّه حى، و أخيرا تقول: انّك تشمّ رائحته من مصر؟! اين مصر و اين الشام و كنعان؟! و هذا دليل على بعدك عن عالم الواقع و انغماسك فى الأوهام و الخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، الم تقل لاولادك قبل فترة اذهبوا الى مصر و تحسّسوا عن احوال يوسف! يظهر من هذه الآية الشريفة انّ المقصود ب (الضلال) ليس الانحراف فى العقيدة، بل الانحراف فى تشخيص حقيقة حال يوسف و القضايا المتعلّقة به، لكن يستفاد من هذه التعابير انّهم كانوا يتعاملون مع هذا النّبى الكبير و الشيخ

المتيقّظ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۶

الضمير بخشونة و قساوة بالغين بحيث كانوا يقولون له مرّة: إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ و هنا قالوا له: إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ لكنّهم كانوا غافلين عن الحقيقة التى كان يتحلّى بها يعقوب و عن صفاء قلبه، و يتصوّرون انّ قلب يعقوب كقلوبهم القاسية المظلمة و انّه لا يطّلع على حقائق الأمور ماضيها و مستقبلها.

و تمضى الليالى و الايّام و يعقوب فى حالة الانتظار ... الانتظار القاسى الذى يستبطن السرور و الفرح و الهدوء و الاطمئنان، الّا انّ المحيطين به كانوا مشغولين عن هذه الأمور لاعتقادهم بأنّ قضيّة يوسف مختومة و الى الأبد.

و بعد عدّة ايّام من الانتظار- و التى لا يعلم الّا اللّه كيف قضاها يعقوب- ارتفع صوت المنادى معلنا عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن فى هذه المرّة- و خلافا للمرّات السابقة- دخل أولاد يعقوب الى المدينة فرحين مستبشرين، و توجّهوا مسرعين الى بيت أبيهم، و قد سبقهم ال (بشير) الذى بشّر يعقوب بحياة يوسف و القى قميص يوسف على وجهه.

امّا يعقوب الذى أضعفت المصائب بصره و لم يكن قادرا على رؤية القميص فبمجرّد ان احسّ بالرائحة المنبعثة من القميص شعر فى تلك اللحظة الذهبية بأنّ نورا قد شعّ فى جميع ذرّات وجوده و انّ السّماء و الأرض مسروران و نسيم الرحمة يدغدغ فؤاده و يزيل عنه الحزن و الألم، شاهد الجدران و كأنّها تضحك معه، و احسّ يعقوب بتغيّر حالته، و فجأة راى النّور فى عينيه و احسّ بأنّهما قد فتحتا و مرّة اخرى راى جمال العالم، و القرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله:

فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً.

هذه الحالة التى حصلت ليعقوب اسالت دموع الفرح من عيون الاخوة و الأهل، و عند ذلك خاطبهم بقوله: أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون الى أنفسهم و يتساءلون عنها و يفكّرون فى ماضيهم الأسود الملىء بالاخطاء و الذنوب، و ما اعتورهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۷

الحسد و غيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الانسانية، لكن ما أجمل التوبة و العودة الى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التى سار فيها ..

و ما احلى تلك اللحظات التى يحاول المذنب ان يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه و يبعدها عن جادّة الخطأ و الانحراف، و هذا ما قام به الاخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها و يطلبون منه العفو و الاستغفار قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ

امّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذى كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون ان يلومهم على تلك الأفعال التى اقترفوها فى حقّه و حقّ أخيهم ..

أجابهم بقوله: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي و املى معقود بأن يغفر اللّه سبحانه و تعالى ذنوبكم إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

ملاحظات

۱- كيف احسّ يعقوب برائحة قميص يوسف

؟! هذا سؤال اثاره کثیر من المفسّرین، و اعتبروه معجزة خارقة للعادة من قبل یعقوب او یوسف. الّا انّه- مع الأخذ بنظر الاعتبار سکوت القرآن عن هذا الأمر- و لم یتناوله علی انّه امر اعجازی او غیر اعجازی فمن الهیّن ان نجد له توجیها علمیّا ایضا. إذ انّ حقیقة «التلیبائی» او انتقال الفکر من النقاط او الأماکن البعیدة تعدّ مسألة علمیّة قطعیّة مسلّما بها ... و انّها تحدث عند من تکون لدیهم علاقة قریبة تربط بعضهم ببعض، او تکون لدیهم قدرة روحیّة عالیة.

و لعلّ کثیرا منّا یواجه مثل هذه المسألة فی حیاتنا الیومیّة، و ذلک ان یشعر شخص «من أب، او امّ، او أخ» مثلا بالکآبة و انقباض النفس دون سبب، ثمّ لا یمضی وقت- او فترة- حتّی یبلغه خبر بأنّ أخاه او ولده قد حدث له حادث ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۸

فی نقطة بعیدة عنه.

فالعلماء یوجّهون هذا الاحساس علی انّه جری عن طریق انتقال الفکر.

و ما ورد فی قصّة یعقوب لعلّه من هذا القبیل ایضا، فعلاقته الشدیدة بیوسف و عظمة روحه، کلّ ذلک کان سببا لان یشعر بالحالة الحاصلة للاخوة نتیجة حمل قمیص یوسف من مسافة بعیدة.

و من الممکن ان یتعلّق هذا الأمر بمسألة سعة دائرة علم الأنبیاء ایضا.

و قد وردت اشارة طریفة- فی بعض الرّوایات- الی مسألة انتقال الفکر، و هی انّ بعضهم سأل الامام أبا جعفر الباقر علیه السّلام: فقال: جعلت فداک، ربّما حزنت من دون مصیبة تصیبنی او امر ینزل بی، حتّی یعرف ذلک اهلی فی وجهی و صدیقی.

فقال علیه السّلام: «نعم یا جابر، انّ اللّه خلق المؤمنین من طینة الجنان و اجری فیهم من ریح روحه، فلذلک المؤمن أخو المؤمن لأبیه و امّه، فإذا أصاب روحا من تلک الأرواح فی بلد من البلدان حزن حزنت هذه لانّها منها»[۱۵۳].

و یستفاد من بعض الرّوایات ایضا انّ هذا القمیص لم یکن قمیصا مألوفا، بل کان ثوبا من ثیاب الجنّة، و قد خلّفه ابراهیم الخلیل علیه السّلام فی آل یعقوب و أسرته لیکون ذکری له، و انّ رجلا کیعقوب علیه السّلام الذی کانت لدیه شامّة من «الجنّة» احسّ برائحة هذا الثوب الذی هو من ثیاب الجنّة من بعید[۱۵۴].

۲- اختلاف حالات الأنبیاء:

الاشکال المعروف الآخر هنا هو ما اثاره بعضهم فی شأن یعقوب من سؤال و هو:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۲۹۹

کیف یمکن ان یکون هذا النّبی العظیم قد احسّ بریح قمیص یوسف من مسافة قدّرها بعضهم بثمانین فرسخا، و قال بعضهم: من مسافة عشرة ایّام، مع انّه لم یطّلع علی الحوادث القریبة منه التی مرّت علی یوسف عند ما القی فی الجبّ فی ارض کنعان؟

و الجواب علی هذا السؤال- مع الالتفات الی ما ذکرناه آنفا فی شأن علم الغیب، و حدود علم الأنبیاء و الائمّة- یسیر لا غبار علیه، لانّ علمهم بالأمور الغیبیّة یستند الی علم اللّه و ارادته، و ما یشاؤه اللّه لهم من العلم «او عدمه» حتّی و لو کان ذلک فی اقرب نقطة من نقاط العالم.

فیمکن تشبیههم من هذا الوجه بالقافلة التی تسیر فی لیل مظلم فی صحراء تغشیها الغیوم و بینا هی علی هذه الحال و إذا السّماء تومض بالبرق اللامع فتضیء الصحراء الی منتهی أطرافها، فتری القافلة بأمّ أعینها کلّ شیء امامها، الّا انّ البرق ینطفئ ثانیة و یستوعب الظلام کلّ مکان فلا یری احد شیئا.

و لعلّ الحدیث الوارد عن الامام الصادق علیه السّلام فی شأن علم الامام علیه السّلام اشارة الی هذا المعنی، إذ

جاء عنه علیه السّلام انّه قال: «جعل اللّه بینه و بین الامام عمودا من نور، ینظر اللّه به الی الامام، و ینظر الامام به الیه، فإذا أراد علم شیء نظر فی ذلک النّور فعرفه»[۱۵۵].

و مع الالتفات الی هذه الحقیقة، فلا مجال للتعجّب بأن تقتضی مشیئة اللّه سبحانه- لابتلاء یعقوب و تمحیصه ان لا یعرف یوما شیئا عن الحوادث فی کنعان و هی تجری قریبا منه، و ان یحسّ برائحة قمیص ولده یوسف و هو فی مصر فی یوم آخر عند ما قدّر له ان تنتهی محنته و بلواه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۰

۳- کیف ردّ علی یعقوب بصره؟!

احتمل بعض المفسّرین انّ یعقوب علیه السّلام لم یفقد بصره بصورة کلیّة، و انّما ضعف بصره، و عند حصول مقدّمات الوصال تبدّل تبدّلا بحیث عاد ذلک البصر الی حالته الطبیعیّة الاولی، الّا انّ ظاهر آیات القرآن یدلّ علی انّه فقد بصره تماما و ابیضّت عیناه من الحزن، و علی ذلک فإنّ بصره عاد الیه عن طریق الاعجاز، حیث یقول القرآن الکریم: فَارْتَدَّ بَصِیراً.

۴- الوعد بالاستغفار:

نقرا فی الآیات- محل البحث- انّ یوسف علیه السّلام قال لإخوته عند ما أظهروا له ندامتهم: یَغْفِرُ اللَّهُ لَکُمْ الّا انّ یعقوب علیه السّلام قال لهم عند ما اعترفوا عنده بالذنب و أظهروا الندامة: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَکُمْ و کان هدفه- کما تقول الرّوایات- ان یؤخّر استجابة طلبهم الاستغفار الی السحر (من لیلة الجمعة) الذی هو خیر وقت لاستجابة الدعاء و قبول التوبة[۱۵۶].

و الآن ینقدح هذا السؤال و هو: کیف أجابهم یوسف بصورة قطعیّة، و أوکل أبوهم ذلک الی المستقبل؟! و لعلّ هذا الاختلاف ناشئ عن انّ یوسف علیه السّلام کان یتحدّث عن «إمکان المغفرة» و انّ هذا الذنب من الممکن ان یعفو اللّه عنه، و یعقوب کان یتحدّث عن «فعلیّة المغفرة» و انّه ما الذی ینبغی ان یفعل حتّی تتحقّق التوبة و المغفرة «فلاحظوا بدقّة».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۱

۵- التوسّل جائز:

یستفاد من الآیات- آنفة الذکر- انّ طلب الاستغفار من الآخرین غیر مناف للتوحید، بل هو سبیل الی الوصول الی لطف اللّه سبحانه، و الّا فکیف کان یمکن لیعقوب ان یستجیب لطلب ابنائه فی ان یستغفر لهم و ان یجیبهم بالإیجاب علی توسّلهم به.

و هذا الأمر یدلّ علی ان التوسّل بأولیاء اللّه جائز علی الإجمال، و الأشخاص الذین یرون ذلک مخالفا لاصل التوحید غافلون عن نصوص القرآن، او انّ التعصّب المقیت یحجب ابصارهم عن تلک النصوص.

۶- نهایة اللیلة السوداء

انّ الدرس الکبیر الذی نستلهمه من الآیات المتقدّمة هو انّه مهما کانت المشاکل و الحوادث صعبة و عسیرة، و مهما کانت الأسباب و

العلل الظاهرية غير تامّة و محدودة، و مهما كان النصر او الفرج بطيئا (او غير متحقّق فعلا) فإنّ ايّا من أولئك لا يمنع من الرجاء و الأمل بلطف اللّه، فاللّه الذى أعاد البصر برائحة القميص و نقل رائحة ذلك القميص من مسافة بعيدة، و ردّ العزيز المفتقد بعد سنين طويلة، قادر على ان يضمّد القلوب المجروحة من الفراق، و ان يشفى آلام النفوس.

اجل انّنا نجد الدرس التوحيدى الكبير ينطوى فى هذا القصص و التاريخ، و هو انّه لا شىء على اللّه بعزيز و لا عسير، بل يهون كلّ شىء بأمره و ارادته.

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۹۹ الى ۱۰۱]

اشارة

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَ قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (۹۹) وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (۱۰۰) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (۱۰۱)

التّفسير

عاقبة امر يوسف و أبيه و اخوته:

مع وصول القافلة التى تحمل أعظم بشارة من مصر الى كنعان، و عودة البصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۳

الى يعقوب، ارتفعت اهازيج فى كنعان. فالبيت الذى لم يخلع اهله عنهم ثياب الحزن و الاسى لسنين عديدة، أصبح غارقا فى السرور و الحبور، فلم يكتموا رضاهم عن هذه النعم الالهيّة ابدا.

و الآن ينبغى على اهل هذا البيت- وفقا لوصيّة يوسف- ان يتحرّكوا و يتّجهوا نحو مصر، و تهيّأت مقدّمات السفر من جميع النواحى، و ركب يعقوب راحلته و شفتاه رطبتان بذكر اللّه و تمجيده، و قد منحه عشق يوسف قوّة و عزما الى درجة و كأنّه عاد شابا من جديد.

و هذا السفر على خلاف الاسفار السابقة- التى كانت مقرونة لدى اخوة يوسف بالقلق و الحزن- كان خاليا من ايّة شائبة من شوائب الهمّ و الغمّ. و حتّى لو كان السفر بنفسه متعبا، فهذا التعب لم يكن شيئا ذا بال قبال ما يهدفون اليه فى مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالى و الايّام ببطء، لانّ الشوق كان يحيل كلّ دقيقة الى يوم او سنة، و لكن انتهى كلّ شىء و لاحت معالم مصر و أبنيتها من بعيد بمزارعها الخضر و أشجارها الباسقة السامقة و عماراتها الجميلة.

الّا انّ القرآن الكريم- كعادته دائما- حذف هذه المقدّمات التى يمكن ان تدرك بأدنى تفكّر و تأمّل، فقال فى هذا الشأن: فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ

و كلمة «آوى»- كما يقول الراغب فى مفرداته- تعنى فى الأصل انضمام شىء الى شىء آخر، و ضمّ يوسف أبويه اليه كناية عن احتضانهما و معانقتهما.

و أخيرا تحقّقت احلى سويعات الحياة ليعقوب، و فى هـذا اللقاء و الوصال الـذى تمّ بين يعقوب و يوسف بعـد سـنين من الفراق، مرّت على يعقوب و يوسف لحظات لا يعلم اللّه عواطفها فى تلك اللحظات الحلوة، و ايّة دموع انسكبت من عينيهما من الفرح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۴

و عندها التفت يوسف الى اخوته و أبويه و قالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ لانّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف فى امن و أمان و اطمئنان.

و يستشفّ من هـذه الجملـة انّ يوسف كان قـد خرج الى خارج بوّابـة المدينـة لاسـتقبال والديه و اخوته، و لعلّ التعبير ب دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ يحتمل ان يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» و ان تهيأ مقدّمات الاستقبال لأبويه و اخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف عليه السّلام وَ رَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ

و كانت هـذه العظمة من النعمة الالهيّة و اللطف و الموهبة التى منّ اللّه بها على يوسف قد ادهشت اخوة يوسف و أبويه فذهلوا جميعا وَ خَرُّوا لَهُ سُجَّداً.

و عندها التفت يوسف الى أبيه وَ قالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ

الم يكن انّى رأيت احـد عشـر كوكبا و الشـمس و القمر رايتهم لى ساجـدين؟! فانظر يأبت كما كنت تتوقّع من عاقبـة امرى قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا .. وَ قَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ

الطريف هنا انّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه فى مصر من بين جميع مشاكله و لم يتكلّم على الجبّ مراعاة لإخوته.

ثمّ أضاف يوسف قائلا: وَ جاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي

و مرّة اخرى يظهر هنـا يوسـف مثلاـ آخر من سـعة صـدره و عظمته، و دون ان يقـول: من هو المقصّـر، و انّمـا يقول بصورة مجملـة انّ الشيطان تدخّل فنزغ بينى و بين اخوتى، فهو لا يريد ان يتشكّى من اخطاء اخوته السالفة.

و التعبير عن ارض كنعان بالبدو تعبير طريف و كاشف عن مدى الاختلاف بين تمدّن مصر و تخلّف كنعان «حضاريّا».

و أخير يقول يوسف: انّ جميع هذه المواهب هى من قبل اللّه، و لم لا تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۵

كذلك ف إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ.

فيتولّى امور عباده بالتيسير و التدبير .. و هو يعلم من هو المحتاج و من هو الجدير بالاستجابة إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقى و ولى النعمـة الدائمة فيقول شاكرا راجيا: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ

و هذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من اثر عظيم فى تغيير حياتى و حياة جماعة آخرين من عبادك، و ما أعظم بركة العلم! فأنت يا ربّ: فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لذلك فقد خضعت و استسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

اى انّنى لاـ اطلب دوام الملـك و بقـاء الحكم و الحيـاة الماديّـة منـك يـا ربّ، لانّ هـذه الأمور جميعها فانيـة و ليس فيها سوى البريق الجـذّاب. بل اطلب منك يا ربّ ان تكون عاقبـة امرى على خير، و ان اقضـى حياتى و أموت مؤمنا فى سبيلك مسـلّما لارادتك، و ان أكون فى صفوف الصالحين. فهذه الأمور هى المهمّة لدىّ فحسب.

بحوث

۱- هل السجود لغير اللّه جائز

؟! كما بيّنا فى الجزء الاوّل من هذا التّفسير عند بحثنا فى شأن سجود الملائكة لآدم، فقلنا: انّ السجود بمعنى العبادة يختص باللّه تعالى و لا تجوز العبادة لاى احد فى ايّ مذهب الّا للّه سبحانه و هذا هو المراد من توحيد العبادة الذى هو قسم مهمّ من التوحيد الذى دعا اليه جميع الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۶

فبناء على هذا لم يكن يوسف و هو نبيّ اللّه يسمح لأحد ان يسجد له و يعبده من دون اللّه، و لا النّبى العظيم يعقوب كان يقدّم على مثل هذا الأمر، و لا القرآن الكريم كان يعبّر عنه بأنّه عمل جدير او على الأقل عمل مجاز.

فبناء على ذلك فإنّ السجود المشار اليه فى الآية- محلّ البحث- امّا انّه كان «سجدة الشكر» للّه تعالى الذى اولى يوسف هذه المواهب و المقام العظيم، و فرّج عن آل يعقوب كربهم و أزال عنهم همومهم، و هذا السجود فى الوقت الذى كان للّه، بما انّه كان من اجل عظمة موهبة يوسف، فإنّه كان يعتبر تعظيما و تكريما ليوسف ايضا، و من هذا المنطلق فإنّ الضمير فى (له) الذى يعود على يوسف قطعا ينسجم و هذا المعنى تماما.

او انّ المراد من السجود هو مفهومه الواسع، اى الخضوع و التواضع، لانّ السجدة- او السجود- لا يأتى اى منهما بمعناه المعروف دائما، بل ربّما يرد بمعنى الخضوع و التواضع أحيانا، فلذا قال بعض المفسّرين: انّ التحيّة او التواضع المتداول آنئذ كان الانحناء و التعظيم، و انّ المراد من السجود فى الآية هو هذا المعنى.

الّا انّه مع الالتفات الى جملة «خرّوا» التى يعنى مفهومها الهوىّ نحو الأرض فإنّه لا يستفاد من السجود فى الآية الانحناء و الخضوع (هنا).

و قال بعض المفسّرين العظام: انّ سجود يعقوب و اخوة يوسف و امّهم كان للّه سبحانه، الّا انّ يوسف كان- بمثابة الكعبة- قبلة لهم، و لهذا جاء فى بعض تعابير العرب قولهم: فلان صلّى للقبلة[۱۵۷].

الّا انّ المعنى الاوّل يبدو اقرب للنظر، و خاصّة

انّ بعض الرّوايات الواردة عن اهل البيت عليهم السّلام تقول: «كان سجودهم للّه، او عبادة للّه»[۱۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۷

كما جاء فى بعض الرّوايات انّ سجودهم كان طاعة للّه و تحيّة ليوسف ۱۵۹].

كما انّ السجود لآدم كان سجودا للّه العظيم الذى خلق مثل هذا الخلق البديع، و هو فى الوقت الذى يعدّ عبادة للّه فهو دليل على احترام آدم و عظمته.

و هذا الأمر يشبه تماما ان يؤدّى رجل- مثلا- عملا مهمّا عظيما، فنسجد نحن للّه الذى خلق مثل هذا الإنسان، فهذا السجود هو للّه كما انّه فى الوقت ذاته يعدّ احتراما و تعظيما للرجل ايضا.

۲- وساوس الشيطان:

انّ جملة نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَ بَيْنَ إِخْوَتِي مع ملاحظة انّ نزغ بمعنى الدخول فى امرّ ما بقصد الفساد او الإفساد تدلّ على انّ لوساوس الشيطان فى مثل هذه الحوادث أثرا مهمّا دائما، الّا انّنا نوّهنا من قبل بأنّ هذه الوساوس لوحدها لا تعمل شيئا، فالمصمّم الأخير هو الإنسان نفسه، بل هو الذى يفتح أبواب قلبه للشيطان و يسمح له بالدخول.

فبناء علی ذلک فلیس فی الآیـة- محلّ البحث- امر خلاف اصل حریّة الارادة أساسا. غایة ما فی الأمر انّ یوسف علیه السّلام بما لدیه من حلم و سعة صدر لم یرغب ان یحرج اخوته و یزید فی خجلهم، فهم کانوا خجلین الی درجة کافیة، و لهذا لم یشر الی المصمّم النهائی و انّما ذکر وساوس الشیطان التی تعدّ العالم الثانوی فحسب.

۳- الأمن نعمة اللّه الکبری

؟ لقد أشار یوسف الی مسألة الأمن من بین جمیع المواهب و النعم بمصر، و قال لأبویه و اخوته ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ و هذا الأمر یدلّ علی انّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۸

نعمة الأمن أساس جمیع النعم، و الحقّ انّها کذلک، لانّه متی ذهبت نعمة الأمن، فإنّ سائر مسائل الرفاه و المواهب المادیة و المعنویة یحدق بها الخطر.

ففی جوّ او محیط غیر آمن، لیس بالمقدور اطاعة اللّه فیه و لا الحیاة الحرّة الکریمة، کما لیس بمقدور الإنسان ان یفکّر تفکیرا مطمئنا هادئا، و لا السعی و الجدّ و الجهاد نحو تحقّق الاهداف الاجتماعیة ایضا.

و هذه الجملة لعلّها اشارة الی هذه اللطیفة، و هی انّ یوسف یرید ان یقول: انّ ارض مصر فی عهدی و حکومتی لیست هی تلک الأرض فی عهد الفراعنة و حکمهم، فأولئک الظالمون المستکبرون المستثمرون الانانیون ولّوا و مضوا کما مضی ذلک التعذیب و الأذی، فالجوّ جو آمن تماما.

۴- اهمیّة مقام العلم:

و مرّة اخری یعوّل یوسف علیه السّلام فی انتهاء عمله و امره علی مسألة علم تعبیر الرؤیا، و یجعل هذا العلم البسیط- ظاهرا- الی جانب تلک الحکومة العظمی و من دون منازع، و هذا یکشف عن تأکیده علی اهمیّة العلم مهما کان بسیطا، فیقول:

رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ وَ عَلَّمْتَنِی مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحادِیثِ

۵- حسن العاقبة:

قد یتقلّب الإنسان فی طول عمره فی اشکال مختلفة متعدّدة، الّا انّ من المسلّم به انّ الصفحات الاخیرة من حیاته اهمّ من جمیع ما مضی علیه، لانّ سجل عمره ینتهی بانتهائها و یتعلّق الحکم النهائی، لذا فإنّ الرجال المؤمنین یطلبون من اللّه دائما ان تکون هذه الصفحات من العمر مشرقة نیّرة، و ان یختم لهم بالخیر.

و نجد یوسف علیه السّلام یطلب من اللّه- هنا- هذا الأمر نفسه فیقول: تَوَفَّنِی مُسْلِماً

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۰۹

وَ أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ

و لیس معنی هذا الکلام طلب الموت من اللّه، کما تصوّره ابن عبّاس فقال: لم یطلب احد من الأنبیاء الموت من اللّه الّا یوسف، فعند ما توفّرت له اسباب حکومته تأجّج العشق (و التعلّق باللّه) فی نفسه فتمنّی لقاء اللّه.

بل طلب یوسف انّما کان الشرط و الحالة فحسب، ای انّه طلب ان یکون عند الوفاة مؤمنا مسلما، و قد کان ابراهیم و یعقوب یوصیان أبناءهما بهذه الوصیّة ایضا بقولهما لهم: فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ [۱۶۰] و قد اختار کثیر من المفسّرین هذا المعنی.

۶- هل جاءت امّ یوسف الی مصر

یستفاد من ظاهر الآیات- آنفة الذکر- بصورة جیّدة انّ امّ یوسف کانت یومئذ حیّة، و قد جاءت مع یعقوب و ابنائها الی مصر، و سجدت شاکرة هذه النعمة. الّا انّ بعض المفسّرین یصرّون علی انّ امّ یوسف «راحیل» کانت قد انتقلت من الدنیا یومئذ، و انّما التی جاءت الی مصر خالته التی تعدّ بمثابة امّه.

و نقرا فی سفر التکوین من التوراة- الفصل ۳۵ الجملة ۱۸- انّ راحیل بعد ان ولدت بنیامین رحلت عن الدنیا. و جاء فی بعض الرّوایات عن (وهب بن منبه) و (کعب الأحبار) هذا المعنی ذاته ایضا، و یبدو انّه مأخوذ من التوراة.

و علی ای حال، فلیس بوسعنا ان نغضی عن ظاهر آیات القرآن التی تقول:

انّ امّ یوسف کانت حیّة آنئذ، و نؤول ذلک و نوجّهه دون ای دلیل.

۷- عدم ذکر القصّة للأب:

نقرا

فی روایة عن الامام الصادق علیه السّلام انّه قال علیه السّلام: «قال یعقوب لیوسف:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۰

یا بنی حدّثنی کیف صنع بک إخوتک؟! قال: یا أبت دعنی.

فقال: أقسمت علیک الّا اخبرتنی! فقال له: اخذونی و اقعدونی علی راس الجبّ، ثمّ قالوا لی: انزع قمیصک، فقلت لهم انّی اسألکم بوجه أبی یعقوب ان لا تنزعوا قمیصی و لا تبدوا عورتی، فرفع فلان السکّین علیّ، و قال: انزل.

فصاح یعقوب فسقط مغشیّا علیه ثمّ أفاق، فقال له: یا بنی کیف صنعوا بک؟! فقال یوسف: انّی اسألک بإله ابراهیم و إسماعیل و إسحاق الّا اعفیتنی.

قال: فترکه» إلخ ۱۶۱].

و هذا الأمر یدلّ علی انّ یوسف لم یرغب بأیّ وجه ابدا ان یعید فی ذهنه او فی ذهن أبیه الماضی المریر، بالرغم من انّ رغبة یعقوب فی التقصّی عن الأمر لم تدعه یستقرّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۱

الآیات [سورة یوسف (۱۲): الآیات ۱۰۲ الی ۱۰۷]

اشارة

ذلِکَ مِنْ أَنْباءِ الْغَیْبِ نُوحِیهِ إِلَیْکَ وَ ما کُنْتَ لَدَیْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ یَمْکُرُونَ (۱۰۲) وَ ما أَکْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِینَ

(۱۰۳) وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۱۰۴) وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (۱۰۵) وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَ هُمْ مُشْرِكُونَ (۱۰۶)

أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۰۷)

التّفسير

الأدعياء مشركون غالبا

! بعد ما انتهت قصّة يوسف عليه السّلام بكلّ دروسها التربوية و نتائجها الغزيرة و القيّمة و الخالية من جزاف القول و الخرافات التاريخيّة .. انتقل الكلام الى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول القرآن الكريم: ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۲

انّ هذه المعلومات الدقيقة لا يعلمها الّا اللّه، او واحد من الذين كانوا حاضرين هناك، و بما انّك لم تكن حاضرا لديهم فالوحى الالهى فقط هو الذى جاءك بهذه الاخبار.

و من هنا يتّضح انّ قصّة يوسف بما انّها وردت فى التوراة فأهل الحجاز عندهم معلومات تقريبيّة عنها، و لكن كلّ هذه الحوادث لم تطرح بهذه الدقّة فى جزئياتها ابدا، و حتّى فى المحافل الخاصّة السابقة لم تكن تعرف بدون اضافة و خرافة.

و على اى حال كان لزاما على الناس ان يؤمنوا بعد مشاهدتهم لعلائم الوحى و سماعهم لهذه النصائح الالهيّة، و ان يتراجعوا عن طريق الغىّ، و لكن يا ايّها النّبى:

وَ ما أَكْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

انّ الوصف ب (الحرص) هنا دليل على شوق و لهفة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لانّ يؤمن الناس، و لكن ما الفائدة، فإصراره و شوقه لم يكونا كافيين، فمن شرط الايمان الاستعداد و القابلية فى نفس الشخص.

انّ أبناء يعقوب عليه السّلام كانوا يعيشون فى بيت الوحى و النبوّة، و مع ذلك نرى كيف عصفت بهم الأهواء حتّى كادوا ان يقتلوا أخاهم، فكيف نتوقّع من جميع الناس ان يتغلّبوا على أهوائهم و شهواتهم مرّة واحدة و بشكل جماعى و يؤمنوا باللّه؟

و هذه الآية بالاضافة الى ما ذكرنا هى تسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى لا ييأس ابدا من إصرارهم على الكفر و الذنوب و لا يستوحش الطريق لقلّة أصحابه، كما نقرا فى آيات اخرى من القرآن الكريم الكهف (۶): فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً و قوله تعالى: وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ فهؤلاء فى الواقع ليس لهم اى عذر او مبرّر لعدم قبول الدعوة بالاضافة الى ما اتّضح من علامات الحقّ انّك لم تسألهم اجرا حتّى يكون مبرّرا لمخالفتك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۳

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

و هذه الدعوة عامّة للجميع، و مائدة واسعة للعام و الخاص و كلّ البشرية.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَ هُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ

فهذه الدلائل يرونها بأعينهم كلّ يوم! تشرق الشمس عند الصباح لتنشر أشعتها الذهبية على الجبال و الوديان و الصحارى و البحار، و تغرب عند المساء و يعمّ الليل بستاره المظلم كلّ مكان.

انّ اسرار هذا النظام العجيب و هذا الشروق و الغروب و حياة النباتات و الحشرات و الإنسان، و هدير المياه، و حركة النسيم، و كلّ هذا الفن العجيب للوجود هو من الوضوح بحيث ان لم يتدبّر احد فيه و فى خالقه سيكون كالخشبة المسنّدة.

كثيرة هى الدلائل التى نعتبرها صغيرة و غير مهمّة، فنحن نمرّ عليها كلّ يوم و لا نعير لها اهميّة، و فجأة يظهر عالم ذو بصيرة فيكتشف بعد دراسة أشهر و سنين اسرار هذه الدلائل و يذهل العالم بها.

المهمّ ان نعلم انّ كلّ ما فى العالم ليس زخرفا و بدون فائدة، لانّها من مخلوقات اللّه الذى لا نهاية لعلمه و لا حدّ لحكمته. و انّما الساذج و الزخرف فهم أولئك الذين يعتقدون بأنّ العالم وجود عبث و ليس له غاية و فائدة. و لهذا فلا تعجب لعدم ايمانهم بالآيات المنزلة عليك، لانّهم لم يؤمنوا بالآيات المحيطة بهم من كلّ مكان وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ

قد يتصوّر هؤلاء انّهم من المؤمنين المخلصين و لكن غالبا ما توجد جذور الشرك فى افكارهم و أقوالهم و ضمائرهم.

ليس الايمان هو الاعتقاد بوجود اللّه فقط، فالمؤمن المخلص هو الذى لا يعتقد بأىّ معبود سوى اللّه، فتكون أقواله و اعماله و كلّ أفعاله خاضعة له. و لا يعترف بغير قانون اللّه، و لا يضع طوق العبوديّة فى رقبته لغيره، و يمتثل بقلبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۴

و روحه لكلّ الأوامر الالهيّة و لو كانت مخالفة لهواه، و يقدّم دائما الإله على الهوى، هذا هو الايمان الخالص من الشرك فى العقيدة و القول و العمل، فلو حسبنا حسابا دقيقا فى هذا المجال لوجدنا انّ الموحّدين الصادقين و المخلصين قليلون جدّا.

و لهذا السبب نقرا

فى الرّوايات الاسلامية ما جاء عن الامام الصادق عليه السّلام «الشرك أخفى من دبيب النحل»[۱۶۲].

أو نقرا:

«انّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: و ما الشرك الأصغر يا رسول اللّه؟ قال: الرياء، يقول اللّه تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم:

«اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء»[۱۶۳].

و نقل

عن الامام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية أعلاه حيث يقول «شرك طاعة و ليس شرك عبادة، و المعاصى التى يرتكبون و هى شرك طاعة أطاعوا فيها الشيطان فأشركوا باللّه فى الطاعة لغيره»[۱۶۴].

و فى بعض الرّوايات نقرا انّ المقصود من (شرك النعمة) بهذا المعنى انّ اللّه يهب الإنسان شيئا فيقول: انّ فلانا قد جاءنى به فلو لم يكن فلان لكنت من الهالكين! و كانت حياتى هباء منثورا، فهنا قد اعتبر الشريك مع اللّه الشخص الذى جرت على يده نعمة اللّه!

الخلاصة: انّ ما يفهم من الشرك ليس الكفر و انكار الإله و عبادة الأصنام فقط، كما

جاء فى حديث عن الامام الرضا عليه السّلام «شرك لا يبلغ به الكفر»

و لكن الشرك بمعناه الواسع يشمل جميع هذه الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۵

و فى آخر آية يحذّر القرآن الكريم أولئك الذين لم يؤمنوا بعد و يمرّوا على الآيات الواضحة مرّ الكرام و يشركون فى اعمالهم حيث يقول: أَ فَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

«الغاشية»: الغطاء او الستار، و يقال للثوب الكبير الذى يغطّى سرج الجواد.

و معناه هنا البلاء و الجزاء الذى يعمّ المفسدين ۱۶۵].

«و الساعة»: القيامة، و قد وردت بهذا المعنى فى كثير من الآيات.

و يحتمل ان تكون كناية عن الوقائع العظيمة التى تحدث قبل يوم القيامة مثل الزلازل و العواصف و الصواعق، او اشارة الى ساعة الموت، و لكن التّفسير الاوّل اقرب الى المعنى كما نرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۶

الآيات [سورة يوسف (۱۲): الآيات ۱۰۸ الى ۱۱۱]

اشارة

قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۰۸) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۰۹) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (۱۱۰) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۱۱۱)

التّفسير

اصدق الدروس و العبر:

فى الآية الاولى من هذه المجموعة يتلقّى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأوامر لتحديد الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۷

و المنهج الذى يتّبعه، فيقول القرآن الكريم: قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ ثمّ يضيف: عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي

و هذه الجملة توضّح انّ كلّ فرد مسلم مقتد بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم له نفس الدور فى الدعوة الى الحقّ، و لا بدّ من دعوة الآخرين الى اللّه، من خلال أفعالهم و أقوالهم، و كذلك تؤكّد هذه الجملة على انّ القائد يجب ان تكون له بصيرة و معرفة كافية، و الّا فإنّ دعوته ليست الى الحقّ، و للتأكيد على ذلك يضيف القرآن الكريم:

وَ سُبْحانَ اللَّهِ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

فهو يؤكّد على نزاهة الخالق الذى يدعو اليه و كماله المطلق الخالى من النقصان و انّه لا يتّخذ معه شريكا.

هذه فى الواقع من خصائص القائد الصادق، ان يعلن بصراحة عن اهدافه و خططه، و ان يسير هو و التابعين له على منهج واضح و سليم، لا ان تسودهم هالة من الإبهام فى الهدف و الطريقة. او ان يسير كلّ واحد منهم فى جهة معيّنة.

فواحدة من الطرق التى نتعرّف بها على القيادات الصادقة من الكاذبة هو انّ القيادة الصادقة تتميّز بصراحة القول و وضوح الطريق امّا الاخرى فهى لكى تحاول التغطية على سلوكها و تلتجئ الى الحديث المبهم و المتعدّد الجوانب.

انّ وقوع هذه الآية بعد الآيات المتعلّقة بيوسف تشير الى انّ طريقة و منهج النّبى لا يختلفان عن طريقة و منهج يوسف النّبى. فهو كان يدعو الى «اللّه الواحد القهّار» حتّى فى زوايا السجن، امّا غيره فكان يدعو الى اسماء انتقلت اليه بسبب التقليد من جاهل الى جاهل آخر. امّا سيرة الأنبياء و الرسل كلّها واحدة.

و بما انّ الأقوام الضالّة و الجاهلة كانت دائما تثير هذا الاعتراض على الأنبياء و هو انّكم بشر؟! و لماذا لا تكلّف الملائكة لهذا الأمر؟ و بما انّ الناس فى الجاهلية كانوا يثيرون نفس الاعتراض بالنسبة الى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته العامّة، فإنّ القرآن

الكريم يجيب مرّة ثانية على هذا الاعتراض فيقول: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۸

قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى

هؤلاء الرّسل هم كباقى الناس يعيشون فى المدن و القرى، و يتجوّلون بين الناس و يشعرون بآلامهم و احتياجاتهم و مشاكلهم.

فالوصف هنا ب مِنْ أَهْلِ الْقُرى بالاضافة الى ما تشمله القرية فى اللغة من معنى المدينة او الرّيف فى مقابل «البدو» التى تطلق على اهل الصحراء، فإنّها قد تشير الى انّ أنبياء اللّه لم ينهضوا من بين سكنة الصحراء- كما صرّح بذلك بعض المفسّرين- لانّ سكّان البادية يتّصفون بالجهل و عدم المعرفة و قلوبهم قاسية و يمتازون بقلّة معلوماتهم عن الحياة و متطلّباتها.

صحيح انّ اكثر سكّان ارض الحجاز كانوا من البدو، و لكن الرّسول من اهل مكّة التى تعتبر مدينة كبيرة نسبيّا، و صحيح ايضا انّ مدينة كنعان لو قيست بأرض مصر التى كان يوسف يحكم فيها لكانت صغيرة و غير مهمّة و لذلك كان يعبّر عنها بالبدو. و لكن نحن نعلم انّ يعقوب و أبناءه لم يكونوا من اهل البادية ابدا، فهم كانوا يعيشون فى هذه المدينة الصغيرة كنعان.

ثمّ يبيّن القرآن الكريم: إذا ما أراد هؤلاء ان يعلموا عاقبة مخالفتهم لدعوتك التى هى الدعوة الى اللّه فإنّ عليهم ان يسيروا ليروا آثار السابقين: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

انّ السير و التجوال فى الأرض لمشاهدة آثار الماضين و خراب دورهم و مدنهم بسبب العذاب الالهى، أفضل درس لهم، درس حى و ملموس للجميع.

وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَ فَلا تَعْقِلُونَ

لماذا؟ لانّ الدنيا دار مليئة بالمصائب و الآلام و غير باقية، امّا الآخرة فدار خالدة و خالية من الآلام و العذاب.

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۱۹

تشير هذه الآية الى ادقّ و أصعب لحظة فى حياة الأنبياء فنقول: انّ الأنبياء يواجهون دائما مقاومة عنيفة من قبل اقوامهم و طواغيت زمانهم حتّى يصل الحال بالأنبياء الى اليأس الى حدّ يظنّون انّ اتباعهم المؤمنين القليلين قد كذبوا عليهم و تركوهم وحدهم فى مسيرتهم فى الدعوة الى الحقّ، و فى هذه الأثناء حيث انقطع أملهم فى كلّ شيء أتاهم نصرنا. و فى نهايتها تشير الى عاقبة المجرمين وَ لا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ

فهذه سنّة اللّه فى الذين اصرّوا على اعمالهم و أغلقوا باب الهداية على أنفسهم، فهم و بعد إتمام الحجّة عليهم ينالهم العذاب الالهى فلا تستطيع اى قوّة ان تردّه.

فى تفسير هذه الجملة من الآية: ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا و من المقصود بها، هناك عدّة آراء للمفسّرين:

۱- انّ كثيرا من علماء التّفسير يرون ما قلناه سابقا، و خلاصته: انّ عمل الأنبياء يصل الى درجة يعتقدون فيها انّ كلّ الناس سوف يكذبوهم، حتّى تلك المجموعة التى تظهر ايمانها و لكنّها غير راسخة فى عقيدتها.

۲- و يحتمل فى تفسير الآية انّ فاعل «ظنّوا» هم المؤمنون، و انّ المشاكل و الاضطرابات تصل الى حدّ بأن يسوء ظنّهم بما وعدهم الأنبياء من النصر و يخيل إليهم انّه خلاف الواقع؟ و ليس بعيدا سوء الظنّ هذا من الافراد الذين آمنوا حديثا.

۳- و بعض آخر اعطى تفسيرا ثالثا للآية، و خلاصته: انّ الأنبياء- بدون شكّ- كانوا بشرا، فحين يزلزلوا زلزالا شديدا و تبدوا جميع الأبواب امامهم موصدة ظاهرا، و لا يرى فى الأفق فرج، و الحوادث المتتالية تعصف بهم، و صرخات المؤمنين الذين نفذ صبرهم تصل الى اسماعهم، نعم فى هذه الحالة و بمقتضى الطبع البشرى قد يتبادر الى أذهانهم انّ الوعد بالنصر بعيد عن الصحّة! او انّ النصر الموعود له شروطه التى لم تتحقّق بعد، و لكن سرعان ما يتغلّبون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۰

على هذه الأفكار و يبعدونها عن أذهانهم و يشع فى قلوبهم بصيص الأمل، و من ثمّ تتّضح لهم بشائر النصر.

و شاهدهم على هذا التّفسير الآية (۲۱۴) سورة البقرة: ... حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ ....

و لكن مجموعة اخرى من المفسّرين أمثال العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان و «الرّازى» فى تفسيره الكبير، بعد ما ذكروا هذا الاحتمال قالوا ببطلانه لانّه حتّى هذا المقدار من التوهّم ليس من مقام الأنبياء، و على ايّة حال فالأصحّ هو التّفسير الاوّل.

و آخر آية من هذه السورة ذات محتوى شامل و جامع لكلّ الأبحاث التى ذكرناها فى هذه السورة، و هى: لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ

فهى مرآة يستطيعون من خلالها ان يروا عوامل النصر و الهزيمة، الهناء و الحرمان، السعادة و الشقاء، العزّ و الذلّة، و الخلاصة كلّ ما له قيمة فى حياة الإنسان و ما ليس له قيمة. و هى مرآة لكلّ تجارب المجتمعات السابقة و الرّجال العظام. و مرآة نشاهد فيها ذلك العمر القصير للإنسان كيف يطول بمقدار عمر كلّ البشر. و لكن اولى الألباب و ذوى البصائر فقط باستطاعتهم ان يشاهدوا العبر فى صفحة المرآة العجيبة هذه: ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

فهذه الآيات التى أنزلناها عليك و التى أزاحت الستار عن التأريخ الصحيح للأمم السابقة ليست من العلم البشرى الذى يمكن معرفته عن العلماء، بل انّ الكتب السّماوية السابقة تشهد على ذلك و تصدّقه و تؤيّده و بالاضافة الى ذلك ففى هذه الآيات كلّ ما يحتاجه الإنسان فى تأمين سعادته و تكامله: وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ.

و لهذا السبب فهى وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فالظاهر من الآية أعلاه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۱

انّها تريد ان تشير الى هذه النقطة المهمّة و هى: انّ للقصص المصنوعة ذات الاثارة كثيرة فى اوساط الأمم و هى من الأساطير الخيالية، و لكن لا يتوهّم احد بأنّ سيرة يوسف او سير بقيّة الأنبياء التى ذكرها القرآن الكريم من ذلك القبيل.

المهمّ انّ هذه القصص المثيرة و ذات العبر هى عين الواقع و لا تحتوى على ادنى انحراف عن الواقع الموضوعى، و لهذا السبب يكون تأثيرها كبيرا جدّا، لأنّنا نعلم أنّ الأساطير مهما تكن شيّقة و مثيرة فإنّ تأثيرها قليل إذا ما قورنت مع سيرة واقعيّة لانّ:

۱- عند ما يصل القارئ او المستمع للقصّة الى أقصى لحظات الاثارة يتبادر الى ذهنه فجأة انّ هذا وهم و خيال ليس اكثر! ۲- انّ هذه القصص فى الواقع هى من هندسة الإنسان، فهو يحاول ان يجسّم أفكاره فى سلوك بطل القصّة، و لذلك فهى ليست اكثر من فكر الإنسان، و هذه القصّة بالمقارنة مع السير الواقعيّة بينهما فرق شاسع و لا تستطيع القصّة البشرية ان تكون اكثر من موعظة لصاحب المقالة. و لكن التاريخ الواقعى للبشر ليس كذلك، فهو اكثر ثمرا و نفعا و اكثر بركة.

نهاية سورة يوسف اللهمّ! امنحنا البصر فى أعيننا و السمع فى آذاننا و العلم فى قلوبنا، حتّى نستطيع ان نحصل من سيرة السابقين على طرقا للنجاة من المشاكل التى نغوص الآن فيها.

ربّنا! ألهمنا بصرا حادّا حتّى نرى عاقبة الذين اختلفوا و تشتّتوا فيما بينهم فكان عاقبتهم الهزيمة و الخسران، و حتّى لا نسير فى نفس الطريق الذى سلكوه.

اللهمّ! ارزقنا تلك النيّة الخالصة لكى نتغلّب بها على نفوسنا، و تلك المعرفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۲

حتّى لا يصيبنا الغرور بالنصر، و تلك السّماحة و نكران الذات بحيث إذا رأينا من هو أفضل منّا على انجاز المسؤولية تركناها و تنازلنا عنها اليه.

فإن منحتنا هذا فسوف نستطيع ان نتغلّب على جميع المشاكل، و ان نحفظ نور الإسلام و القرآن فى هذه الدنيا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۳

سورة الرّعد

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها مائة و ثلاث و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۵

سورة الرّعد

محتوی السّورة

کما قلنا سابقا، بما انّ السور المکیّة کان نزولها فی بدایة دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أثناء محاربته للمشرکین، فإنّها غالبا ما کانت تتحدّث عن المسائل العقائدیة و خصوصا الدعوة الی التوحید و المعاد و محاربة الشرک. فی الوقت الذی نری فیه أنّ السور المدنیة نزلت بعد انتشار الإسلام و قیام الحکومة الاسلامیة، فقد تناولت الأحکام و المسائل المتعلّقة بالنظام الاجتماعی و احتیاجات المجتمع.

فهذه السورة (سورة الرعد) التی هی من السور المکّیة لها نفس الخصائص السابقة، فبعد ما تشیر الی احقّیة القرآن و عظمته، تتطرّق الی آیات التوحید و اسرار الکون التی هی من دلائل ذات اللّه المقدّسة. فتارة تتحدّث عن رفع السّماوات بغیر عمد، و اخری عن تسخیر الشمس و القمر، و مرّة عن مدّ الأرض و خلق الجبال و الأشجار و الثمار، و مرّة عن ستار اللیل المظلم الذی یغشی النهار.

و مرّة اخری تأخذ بأیدی الناس و تنقلهم الی جنّات النخیل و الأعناب و الزروع، و تحصی لهم عجائبها.

ثمّ تتطرّق الی المعاد و بعث الإنسان من جدید و محکمة العدل الالهی، و هذه المجموعة من اصول المبدإ و المعاد تکمل ما أوضح من مسئولیة و وظائف الناس و انّ ای تحوّل فی قضایاهم المصیریّة یجب ان یبدأ من داخل أنفسهم.

ثمّ تعود مرّة اخری الی فکرة التوحید، و تسبیح الرعد و خوف الناس من البرق و الصاعقة، و سجود السّماوات و الأرضین فی مقابل عظمة الربّ. و لأجل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۶

ان تتعقّل القلوب و الأسماع و توقظ الأفکار، و لإیضاح انّ الأوثان لیس لها ای میزة او فائدة، تدعوهم الی التفکّر و التعلّم، و تضرب لهم الأمثال لمعرفة الحقّ من الباطل. الأمثال الحیّة و القابلة للإدراک.

و من هنا فالحصیلة النهائیة للایمان بالتوحید و المعاد هی تلک التطبیقات العملیة و الحیّة لها، فالقرآن فی هذه السورة یدعو الناس الی الوفاء بالعهد و صلة الأرحام و الصبر و الاستقامة و الإنفاق فی السرّ و العلانیة و النهی عن الانتقام.

و یوضّح لهم انّ الدنیا فانیة، و الطمأنینة و الراحة لا تحصلان الّا فی ظلّ الایمان باللّه.

و فی النهایة یأخذ بأیدی الناس و یغور بهم فی اعماق التاریخ، و یریهم العواقب السیّئة للذین طغوا و عصوا و ابعدوا الناس عن الحقّ، و یختم السورة بتهدید الکفّار بعبارات و جمل لاذعة.

اذن فالسورة تبتدئ بالعقائد و الایمان و تنتهی بالبرامج التربویة للإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۷

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
المر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (۱) اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (۲) وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَ أَنْهاراً وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۳) وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۴)

التّفسير

آيات اللّه فى السّماء و الأرض و عالم النّبات:

مرّة اخرى نواجه الحروف المقطّعة فى بداية هذه السورة، و التى وردت فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۸

(۲۹) سورة اخرى، و لكن الحروف المقطّعة المذكورة هنا تتكوّن من الم التى وردت فى بداية عدّة سور، و الر و التى وردت فى بداية سور اخرى، و فى الواقع انّ هذه السورة تنفرد عن غيرها من السور ب المر.

و من المعتقد فى تفسير الحروف المقطّعة انّ لها ارتباطا مباشرا بمعانى نفس السورة، فمن المحتمل انّ هذا التركيب فى بداية سورة الرعد يشير الى جمعها لمحتوى مجموعتين من السور التى تبتدئ ب الم و الر.

و إذا ما امعنا النظر فى محتوى هذه السور نجدها مطابقة لما قلناه، و بخصوص تفسير الحروف المقطّعة كانت لنا شروح مفصّلة عنها فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف فلا ضرورة فى التكرار.

و على ايّة حال فالآية الاولى من هذه السورة تتحدّث عن عظمة القرآن تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ۱۶۶].

و لا يوجد اى شك أو ترديد فى هذه الآيات، لانّها تبيّن عين الحقيقة للكون و نظامه المرتبط بالإنسان. فهو حقّ لا يشوبه باطل، و لهذا السبب فإنّ علائم الحقّ واضحة فيه لا تحتاج الى براهين وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ

لانّ الناس إذا ما تركوا و شأنهم و لم يتّبعوا معلما صادقا يهديهم و يربيهم فى حياتهم و كانوا أحرارا فى اتباع أهوائهم فانّهم سوف يتيهون فى الطريق و يضلّون عن الحقّ.

و امّا إذا كان الرسل و هداة الحقّ هم الائمّة و القادة حيث يضع الفرد نفسه فى تصرّفهم، فإنّ الاكثرية تسير فى طريق الحقّ.

ثمّ تتطرّق السورة الى شرح القسم المهمّ من ادلّة التوحيد و آيات اللّه فى الكون، و تتجوّل بالإنسان فى عرض السّماوات و تريه الكواكب العظيمة و اسرار هذا النظام و حركته، حتّى يؤمن بالقدرة المطلقة و الحكمة اللامتناهية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۲۹

اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها[۱۶۷].

الجملة بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها لها تفسيران:

۱- فكما ترون انّ السّماء مرفوعة بدون عمد (اى انّها فى الأصل بلا عمد كما ترونها فعلا).

۲- و الثانية ان (ترونها) صفة للعمد فيكون المعنى: انّ السّماء مرفوعة بعمد و لكن لا ترونها لانّها غير مرئية! و هذا هو الذى يراه الامام على بن موسى الرضا عليه السّلام،

ففى حديث رواه الحسين بن خالد قال: سألت الامام أبا الحسن الرضا عليه السّلام: ما المقصود فى قوله تعالى: وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ قال: هذه السّماء لها طرق الى الأرض، فقلت له:

كيف تكون لها طرق الى الأرض فى الوقت الذى يقول سبحانه و تعالى: رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ فأجابه الامام: «سبحان اللّه، أ ليس اللّه يقول بغير عمد ترونها؟ قلت بلى، فقال: ثمّ عمد و لكن لا ترونها»[۱۶۸].

انّ هذه الآية بالرغم من وجود هذا الحديث الذى يفسّرها، فإنّها تكشف عن حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول الآيات الكريمة، لانّه فى ذاك الوقت كانت نظرية «بطليموس» فى الهيئة تتحكّم بكلّ قواها فى المحافل العلمية فى العالم و على أفكار الناس، و طبقا لهذه النظرية فإنّ السّماوات عبارة عن اجرام متداخلة تشبه قشور البصل، و انّها لم تكن معلّقة و بدون عمد، بل كلّ واحدة منها تستند الى الاخرى.

و لكن بعد نزول هذه الآيات بألف سنة تقريبا توصل علم الإنسان الى انّ هذه الفكرة غير صحيحة، فالحقيقة انّ الاجرام السّماوية لها مقرّ و مدار ثابت، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۰

تستند الى شىء، فالشىء الوحيد الذى يجعلها مستقرّة و ثابتة فى مكانها هو تعادل قوّة التجاذب و التنافر، فالاولى تربط الاجرام فيما بينها، و الاخرى لها علاقة بحركتها.

هذا التعادل للقوّتين الذى يشكّل اعمدة غير مرئيّة يحفظ الاجرام السّماوية و يجعلها مستقرّة فى مكانها.

و

فى الحديث عن الامام امير المؤمنين عليه السّلام بخصوص هذا الموضوع قال: «هذه النّجوم التى فى السّماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض مربوطة كلّ مدينة الى عمود من نور»[۱۶۹].

و هل نجد أوضح من هذا الوصف «عمود غير مرئى» او «عمود من نور» فى ادب ذلك العصر لبيان أمواج الجاذبية و تعادل قوّتى الجذب و الدفع. و للاطلاع اكثر راجع كتاب [القرآن و آخر الرسل صفحة ۱۶۶ و ما بعدها.

ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ فى خصوص معنى العرش و الاستواء عليه هناك شرح واف عنه فى ذيل الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و بعد ان بيّن خلق السّماوات و هيمنة الخالق عليها، تحدّث عن تسخير الشمس و القمر وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ.

ما أعظم هذا التسخير الذى يقع تحت ارادة و مشيئة الخالق، و فى خدمة الوجود الانسانى و الكائنات الحيّة حيث يشعّ نورهما و تضيئان العالم، و تحافظان على دفء الكائنات و تساعدانها على النمو، و تخلقان ظاهرة الجزر و المدّ فى البحار، و خلاصة القول انّهما منشأ لجميع البركات، و لكن هذا النظام المادّى ليس ابديّا، بل كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى

ثمّ يضيف بعد ذلك: انّ هذه الحركات و التغيّرات فى الأحوال ليست بدون حساب و كتاب، و بدون فائدة و نتيجة، بل يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۱

و تعقيبا للآيات السّابقة التى نقلت الإنسان الى السّماء لتريه الآيات الالهيّة هناك، تنقله الآية الثانية من آيات التوحيد الى كتاب الكون اى الأرض و الجبال و الأنهار و انواع الثمار و شروق الشمس و غروبها، حتّى يتفكّر فى محل استقراره فى البداية ماذا كان؟ و كيف أصبح الآن بهذه الصورة؟

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ و بسطها بالشكل الذى تتهيّأ فيه لحياة الإنسان و نمو النباتات و الحيوانات، و ملاء الاودية و

المنحدرات الصعبة بالتراب من خلال تفتّت الصخور الجبليّة، و جعل الأرض مسطّحة و قابلة للسكن، بعد ان كانت التضاريس مانعة من سكن الإنسان عليها.

و قد يحتمل فى تفسير هذه الجملة مَدَّ الْأَرْضَ الاشارة الى ما يقوله علماء الطبيعة من انّ الأرض كانت مغطاة بالماء. ثمّ استقرّت المياه فى الوديان ظهرت اليابسة، و بمرور الوقت اتّسعت حتّى أصبحت على ما نراه اليوم.

ثمّ يشير القرآن الكريم الى ظهور الجبال وَ جَعَلَ فِيها رَواسِيَ فهى تلك الجبال التى عبّرت عنها فى آيات اخرى ب (الأوتاد) و لعلّ ذلك اشارة الى انّها متشابكة فيما بينها من الأسفل مثلها مثل الدرع الواقى و تغطّى سطح الأرض، فهى تبطل الضغوط الداخلية فى الأسفل و الضغط الخارجى المتمثّل بجاذبية القمر و المدّ و الجزر. و كذلك تقضى على الاضطرابات و الزلازل، و تجعل الأرض مستقرّة و ساكنة و صالحة لحياة الإنسان.

انّ ذكر القرآن الكريم الجبال بعد مدّ الأرض يحتمل ان يكون المراد منه انّ الأرض ليست منبسطة بشكل تامّ بحيث تنعدم فيها المرتفعات، ففى هذه الصورة لا- تستقرّ فيها الأمطار و المياه، او تتحوّل الى مستنقعات و تجرى فيها السيول و تتعرّض للطوفانات الدائمة، فخلق الجبال لتأمن البشرية من هذين الأمرين.

و ليست الأرض كلّها جبالا و وديانا فتكون غير قابلة للسكن، بل تحتوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۲

على مناطق منبسطة و مناطق جبلية و وديان، و هذه أفضل صيغة لحياة الإنسان و الكائنات الحيّة. ثمّ تضيف الآية بعد ذلك الأنهار وَ أَنْهاراً.

رائع جدّا نظام سقى الأرض بواسطة الجبال، و علاقة الأنهار بالجبال، لانّ كثيرا من الجبال تختزن المياه بشكل ثلوج على قممها و فى شقوق الوديان، ثمّ تذوب تدريجيّا، و طبقا لقانون الجاذبية تأخذ طريقها من المناطق المرتفعة الى المناطق المنخفضة بدون ان تحتاج الى قوّة اخرى لمساعدتها، فهى تقوم بسقى كثير من المناطق و بشكل طبيعى على مدار السنة.

فلو لم يكن للأرض انحدار كاف و لم تختزن الجبال المياه بهذا الشكل، لكان سقى كثير من المناطق اليابسة صعبا، و فى حالة الإمكان كنّا نحتاج الى صرف مبالغ هائلة لإيصال الماء إليها.

ثمّ يذكر القرآن بعد ذلك النّباتات و الأشجار التى تتكوّن من الأرض و المياه و اشعّة الشمس، و التى هى أفضل وسيلة لإمرار الإنسان بالغذاء: وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

و الآية تشير هنا الى انّ الفاكهة كائنات حيّة فيها الذكر و الأنثى، و بواسطة التلقيح تتكوّن الثمار.

فإذا كان العالم السّويدى «لينه» المختص بعلم النبات هو الذى توصّل الى هذه الحقيقة فى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى و هى انّ التزويج فى عالم النباتات يعتبر قانونا عامّا تقريبا كالحيوانات و لها نطف ذكرية و انثوية و انّ الثمرة تتكوّن من التلقيح. فالقرآن الكريم قبل الف و مائة عام من ذلك كشف لنا عن هذه الحقيقة، و هذه واحدة من معاجز القرآن العلمية التى تبيّن عظمة هذا الكتاب السّماوى الكبير.

و ليس من شكّ انّ ما قبل «لينه» كان كثير من العلماء يعتقدون بوجود الذكور و الإناث فى بعض الأشجار، حتّى الناس العاديين كانوا يعلمون بذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۳

و لكن لم يكن يعلم اى واحد انّ هذا القانون عام، حتّى كشفه «لينه» و من قبله القرآن الكريم.

و بما انّ حياة الإنسان و كلّ الكائنات- و خصوصا النباتات- لا يمكن لها الاستمرار الّا بوجود نظام دقيق للّيل و النهار، فإنّ القرآن يشير الى ذلك فى القسم الآخر من الآية يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ.

و لو لا ـ ظلمة الليل و هدوؤه، لأحرقت الشمس بنورها المستمر كلّ النباتات، و لم تبق فاكهة و لا اى كائن حى على وجه الأرض، فسطح القمر ليس له نهار دائم و مع هذا نجد ان حتّى هذا المقدار من نهاره الذى يعادل خمسة عشر يوما من ايّام الأرض. نرى انّ درجة فيها مرتفعة جدّا بحيث لو وضعنا هناك ماءا او اى سائل آخر فسوف يغلى و يتبخّر، و لا يمكن لاى موجود حىّ فى الأرض ان يتحمّل هذه الحرارة.

و تبيّن الآية فى النهاية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ أولئك الذين يتفكّرون فى هذا النظام الرائع، فى نظام النّور و الظلام، و حركة الاجرام السّماوية، و تسخير الشمس و القمر و جعلها فى خدمة الإنسان، و فى نظام مدّ الأرض و اسرار خلق الجبال و الأنهار و النّباتات، نعم! فهم يرون بوضوح فى هذه الآيات الحكمة المطلقة و القدرة اللامتناهية للخالق العلّام.

و فى الآية الاخيرة من هذه المجموعة يشير القرآن الكريم الى عدّة نقاط حول علم الأرض و علم النّبات، و التى تعبّر عن النظام الدقيق للخلقة، يقول اوّلا وَ فِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ۱۷۰] فبالرغم من انّ هذه القطع متصلة مع بعضها البعض، فإنّ لكلّ واحد منها بناءه و تركيبه الخاص به، فبعضها قوى و الآخر ضعيف، و بعضها مالح و الآخر حلو، و كلّ قطعة لها الاستعداد فى تربية نوع خاص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۴

من النباتات و أشجار الفاكهة و الزراعة، لانّ احتياجات الإنسان و الحيوان كثيرة و متفاوتة، و قد تكون لكلّ قطعة من الأرض المسؤولية فى تلبية احدى هذه الحاجات. و امّا إذا كانت فى مستوى واحد، او لم تكن استعداداتها مقسّمة بالشكل المطلوب، لكان الإنسان يمرّ بأزمة و نقص فى مواده الغذائية و الطبية و سائر الاحتياجات الاخرى، و لكن هذا التقسيم المناسب للمسؤولية و توزيعها على القطعات المختلفة للأرض سوف يسدّ الاحتياجات اللازمة للإنسان.

قوله تعالى: وَ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَ زَرْعٌ وَ نَخِيلٌ ۱۷۱] صِنْوانٌ وَ غَيْرُ صِنْوانٍ ۱۷۲].

«صنوان» جمع «صنو» بمعنى الغصن الخارج من اصل الشجرة، و عليه فالكلمة تعنى الاغصان المختلفة الخارجة من اصل الشجرة.

و الملفت للنظر انّه يمكن ان يكون لكلّ واحد من هذه الاغصان نوع خاصّ من الثمر، و هذه قد تشير الى قابلية الأشجار للتركيب. ففى بعض الأحيان يتمّ تركيب عدّة أغصان مختلفة على ساق واحدة، و بعد نمو هذه التراكيب تعطى كلّ واحدة منها نوعا خاصا من الثمر، فالتربة واحدة و الساق و الجذر واحد و لكن الثمر مختلف.

و الأعجب من ذلك انّها تسقى بماء واحد يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَ نُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ

و قد نرى كثيرا انّه فى الشجرة الواحدة او فى غصن واحد توجد ثمار من نفس الصنف و لكن لها اطعمة و ألوان مختلفة، و فى العالم نشاهد اورادا كثيرة، و قد يحمل الغصن الواحد اورادا مختلفة الألوان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۵

اى مختبر للأسرار هذا الذى يعمل فى أغصان الأشجار، و الذى ينتج من مواد قليلة متحدة، تركيبات مختلفة تؤمّن احتياجات الإنسان.

أ ليست هذه الأسرار تدلّ على وجود من يقود هذا النظام بالعلم و الحكمة.

و هنا فى آخر الآية يقول تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

هناك عدّة نقاط:

۱- ما هى وجه العلاقة بين التوحيد و المعاد

؟ كان الحديث فى بداية الآية عن التوحيد و اسرار الكون، و لكن نقرا فى نهايتها يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ فما هى وجه العلاقة بين التوحيد و المعاد حتّى تكون الواحدة نتيجة للأخرى؟

للاجابة على هذا السؤال لا بدّ من ملاحظة ما يلى:

ا- انّ قدرة اللّه على إيجاد الكون دليل على قدرته فى إعادته كما نقرا فى الآية (۲۹) من سورة الأعراف كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ او نقرا فى أواخر سورة «يس» قوله تعالى: أَ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

ب- و كما قلنا فى بحثنا عن المعاد، فإنّه لا فائدة من خلق العالم إذا لم تكن الآخرة حقيقة، لانّه لا يمكن ان تكون هذه الحياة هى الهدف من خلق هذا العالم الواسع. يقول القرآن الكريم ضمن آياته المتعلّقة بالمعاد من سورة الواقعة آية (۶۲): وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ ۱۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۶

۲- الاعجاز العلمى للقرآن

هناك آيات كثيرة فى القرآن المجيد أزاحت الستار عن مجموعة من الأسرار العلمية التى كانت خافية على العلماء فى ذلك الوقت. و هذه واحدة من دلائل اعجاز و عظمة القرآن، و غالبا ما كان يشير إليها كثير من المحقّقين فى مسألة الاعجاز.

فمن جملة هذه الآيات ما ذكرناه آنفا و هى الآية التى تذكر الزوجية فى النباتات، فكما قلنا سابقا: انّ ظاهرة الزوجية فى النباتات كانت معروفة للناس منذ القديم و لو بشكلها الجزئى، و لكن لم تكن تعرف بشكل قانون عام حتّى أواسط القرن الثامن عشر حين استطاع العالم «لينه» و الاوّل مرّة ان يكشف عن هذه الحقيقة، و لكن القرآن الكريم اخبر بذلك قبل اكثر من الف عام.

كما أشار القرآن الى هذا الموضوع فى سورة لقمان الآية ۱۰ قوله تعالى:

وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

كما اشارت إليها آيات اخرى.

۳- تسخير الشمس و القمر

قرانا فى الآيات السابقة انّ اللّه سخّر الشمس و القمر، كما نقرا فى آيات كثيرة اخرى عن تسخير السّماء و الأرض و الليل و النهار للإنسان.

فنقرا فى آية وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ[۱۷۴] و فى آية اخرى وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ ۱۷۵] سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ[۱۷۶] وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ[۱۷۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۷

وَ هُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا[۱۷۸] أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ ۱۷۹] وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ۱۸۰].

من مجموع هذه الآيات يمكن ان نستفيد ما يلى:

اوّلا: انّ الإنسان أكمل من جميع الموجودات فى هذا العالم، فمن وجهة اسلامية نرى انّ الشريعة الاسلامية تعطى للإنسان القيمة الكبيرة بحيث تسخّر له كلّ ما فى الكون، فهو خليفة اللّه، و قلبه مستودع نوره! ثانيا: و يتّضح انّ التسخير ليس المقصود منه انّ جميع هذه الكائنات هى تحت امرة الإنسان، بل هى بقدر معيّن تدخل ضمن منافعه و خدمته، و على سبيل المثال فإنّ تسخير الكواكب السّماوية من اجل ان يستفيد الإنسان من نورها او لفوائد اخرى.

فلا يوجد اى مبدا يقيّم الإنسان بهذا الشكل، و لا يوجد فى ايّة فلسفة هذا المقام لشخصيته، فهذه من خصائص المدرسة الاسلامية التى ترفع من قيمة الإنسان بهذا الشكل الكبير، فالمعرفة بها لها اثر عميق على تربيته، لانّه حينما يفكر الإنسان بتعظيم اللّه له، و تسخير

السحاب و الهواء و الشمس و القمر و النّجوم و جعلها فى خدمته، فمثل هذا الإنسان لا تعتريه الغفلة و لا يكون عبدا للشهوات و أسيرا للمال و المقام، بل يحطّم القيود و يتطلّع الى آفاق السّماء.

كيف يمكن القول: انّ الشمس و القمر غير مسخّرين للإنسان فى الوقت الذى نرى انّ فى اشعّتها نور يضىء حياة الإنسان و يحافظ على دفئه، و لولا اشعّة الشمس لما وجدت اى حركة او نشاط على الكرة الارضية، و من جهة اخرى فإنّ جاذبيتها تنظم حركة الأرض حول مدارها، و توجد ظاهرة المدّ و الجزر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۸

البحار بمساعدة القمر و هى بالتالى منبع لكثير من الفوائد و البركات.

فالبحار و الأنهار، و الليل و النهار، و الفلك، كلّ واحدة هى فى خدمة الإنسان و مصالحه. و الدقّة فى هذا التسخير و النظام دليل واضح على عظمة و قدرة و حكمة الخالق المتعال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۳۹

الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۵) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (۶)

التّفسير

تعجّب الكفّار من المعاد:

بعد ما انتهينا من البحث السّابق عن عظمة اللّه و دلائله، تتطرّق الآية الاولى من هذه المجموعة الى مسألة المعاد التى لها علاقة خاصّة بمسألة المبدإ، و يؤكّد القرآن الكريم هذا المعنى حيث يقول: وَ إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَ إِذا كُنَّا تُراباً أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ[۱۸۱] اى إذا أردت ان تتعجّب من قولهم هذا فتعجب لقولهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۰

المعاد.

هذا التعجّب من المعاد كان موجودا عند جميع الأقوام الجاهلة، فهم يظنّون انّ الحياة بعد الموت امر محال، و لكنّنا نرى انّ الآيات السابقة و آيات اخرى من القرآن الكريم تجيب على هذا التساؤل، فما هو الفرق بين بدء الخلق و البعث من جديد؟ فالقادر الذى خلقهم اوّل مرّة باستطاعته ان يبعث الروح فيهم مرّة ثانية، و هل نسى هؤلاء بداية خلقهم حتّى يجادلوا فى بعثهم!؟

ثمّ يبيّن حالهم الحاضر و مصيرهم فى ثلاث جمل:

يقول اوّلا: أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ لانّهم لو كانوا يعتقدون بربوبيّة اللّه لما كانوا يتردّدون فى قدرة اللّه على بعث الإنسان من جديد، و على هذا فسوء ظنّهم بالمعاد هو نتيجة لسوء ظنّهم بالتوحيد و ربوبية اللّه.

و الأمر الآخر انّه بكفرهم و عدم ايمانهم و خروجهم من ساحة التوحيد قيّدوا أنفسهم بالاغلال، أغلال عبادة الأصنام و الأهواء و المادة

و الجهل و الخرافة، و جعلوها فى أعناقهم وَ أُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ

و مثل هؤلاء الأشخاص ليس لهم عاقبة سوى دخول النّار وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و فى الآية الثانية يشير الى دعوى اخرى للمشركين حيث يقول:

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ بدلا من طلب الرحمة ببركة وجودك بينهم.

لماذا يصرّ هؤلاء القوم على الجهل و العناد؟ لماذا لم يقولوا: لو كنت صادقا لأنزلت علينا رحمة اللّه، او لرفعت العذاب عنّا!؟

و هل يعتقدون بكذب العقوبات الالهيّة؟ وَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ۱۸۲].

ثمّ تضيف الآية وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۱

. انّ العذاب الشديد غير مخالف لرحمته الواسعة، كما لا يتوهّم أحدا انّ رحمته العامّة هى إعطاء الفرصة للظالمين ان يفعلوا ما يريدون. لانّه فى هذه الموارد يكون شديد العقاب، و الحصول على نتائج هذه الصفتين للربّ يعنى لَذُو مَغْفِرَةٍ و لَشَدِيدُ الْعِقابِ مرهون بسلوك الإنسان نفسه.

ملاحظتان

۱- لماذا التعجّب فى الخلق الجديد

؟ يستفاد من خلال آيات متعدّده فى القرآن الكريم انّ من جملة مشاكل الأنبياء مع المشركين اثبات «المعاد الجسمانى» لانّهم كانوا يتعجّبون دائما من هذا الموضوع و هو: كيف يبعث الإنسان من جديد بعد ان صار ترابا؟ كما اشارت اليه الآية السابقة أ إِذا كُنَّا تُراباً أ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ و هناك سبع آيات اخرى تشير الى هذا الموضوع (الآية ۳۵ و ۸۲ من سورة المؤمنون ۷- ۲ النمل ۶- ۱ و ۵۳ الصافات- ۳ ق ۷- ۴ الواقعة).

و من هنا يتّضح انّ هذا التساؤل كان مهمّا بالنسبة إليهم حيث كانوا يكرّرونه فى كلّ فرصة، و لكن القرآن الكريم يجيبهم بعبارات قصيرة و قاطعة، فمثلا الآية (۲۹) من سورة الأعراف: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ تتكوّن من كلمات قليلة و لكنّها مفحمة لهم، و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ لانّكم فى الخلق الاوّل لم تكونوا شيئا امّا الآن فتوجد على الأقل عظام نخرة مع التراب المتبقّى منكم.

و فى بعض الأحيان يأخذ بأيدى الناس و يدعوهم الى التفكّر و الإمعان فى عظمة و قدرة الخالق أ وَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۲

۲- هل انّ اللّه يعفو عن الظالمين

؟ قرانا فى الآيات المتقدّمة انّ اللّه يعفو و يغفر للذين ظلموا، و هذا الغفران غير لازم لمن يصرّ على ظلمه، و لكنّه من باب إعطاء الفرصة لهم لان يصلحوا أنفسهم، و الّا فهو تعالى شديد العقاب.

و يمكن ان نستفيد من هذه الآية انّ الذنوب الكبيرة- و من جملتها الظلم- قابلة للغفران (و لكن بتحقّق شروطها)، و هو ردّ على قول

المعتزلة بأنّ الذنوب الكبيرة لا يغفرها اللّه ابدا.

و على ايّة حال ف «المغفرة الواسعة» و «العقاب الشديد» فى الواقع تجعل كل المعترفين بوجود اللّه بين «الخوف» و «الرجاء» الذى يعتبر من العوامل المهمّة لتربية الإنسان، فلا ييأس من رحمة اللّه لكثرة الذنوب، و لا يأمن من العذاب لقلّتها.

و لهذا

جاء فى الحديث عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لو لا عفو اللّه و تجاوزه ما هنئ احد العيش، و لولا وعيد اللّه و عقابه لاتّكل كلّ واحد»[۱۸۳].

و من هنا يتّضح انّ الذين يقولون- أثناء ارتكابهم المعاصى- انّ اللّه كريم، يكذبون فى اتّكالهم على كرم اللّه، فهم فى الواقع يستهزءون بعقاب اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۳

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۷]

اشارة

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (۷)

التّفسير

ذريعة اخرى

! بعد ما أشرنا فى الآيات السّابقة الى مسألة «التوحيد» و «المعاد»، تتطرّق هذه الآية الى واحدة من اعتراضات المشركين المعاندين حول مسألة النبوّة:

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

و من الواضح انّ احدى وظائف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اظهار معاجزه لكى يدلّ على صدقه و صلته بالوحى الالهى، و الذى يبحث عن الحقيقة له الحقّ فى المطالبة بالمعجزة أثناء شكّه و تردّده فى تصديق الدعوة، او تتّضح له دلائل النبوّة عن طريق آخر.

و لكن يجب ان نلتفت الى هذه النقطة و هى: انّ اعداء الأنبياء لم يكن لديهم حسن نيّة او اتّباع للحقّ عند طلبهم المعجزة، بل لعنادهم و عدم تسليمهم للأمر الواقع و لذلك كانوا يقترحون بين فترة و اخرى معاجز عجيبة و غريبة. و هذه ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۴

يسمّى ب «المعجزات الاخلاقية».

اقتراحهم للمعاجز لم يكن لكشف الحقيقة، و لهذا لم يستجب الأنبياء لمطاليبهم، و فى الحقيقة كانت هذه الفئة من الكفّار المعاندين يعتقدون انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدّعى القدرة على انجاز اى عمل خارق للعادة، و اىّ واحد منهم يقترح عليه انجاز عمل ما سوف يلبّى مطاليبه.

و لكن الأنبياء كانوا يقولون لهم الحقيقة و هى انّ المعاجز بيد اللّه، و رسالتنا هداية الناس.

و لذلك نقرا فى تكملة الآية قوله تعالى: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ.

بحثان

هنا يرد سؤالان:

۱- هل الآية «انّما أنت منذر ...» جواب للكفّار؟

كيف يمكن لجملة إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ ان تكون جوابا للكفّار عند طلبهم المعجزة؟

الجواب: بالاضافة الى ما قلناه سابقا فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست له القدرة الغيبية المطلقة كى يطلبوا منه الاعجاز، لانّ الوظيفة الاولى له هى إنذار أولئك الذين يسيرون فى طريق الضلال، و الدعوة الى الصراط المستقيم، و إذا ما احتاجت هذه الدعوة الى المعجزة فسوف يأتى بها النّبى، و لكن لا يأتى بها للمعاندين البعيدين عن هذه المسيرة.

فمعنى الآية: انّ الكفّار نسوا انّ هدف الأنبياء الإنذار و الدعوة الى اللّه، و اعتقدوا انّ وظيفتهم القيام بالمعاجز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۵

۲- ما هو المقصود من جملة لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ

؟ قال بعض المفسّرين: انّ هاتين الصفتين (منذر) و (هاد) صفتان للرسول، فأصل الجملة تكون (أنت منذر و هاد لكلّ قوم).

و لكن هذا التّفسير خلاف الظاهر، لانّ الواو فى جملة وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ تفصل بين جملة إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ و لو كانت كلمة «هاد» قبل «لِكُلِّ قَوْمٍ» كان المعنى السّابق صحيحا. و لكن الأمر ليس كذلك.

و الشىء الآخر هو انّ هدف الآية بيان انّ هناك قسمين من الدعوة الى اللّه:

أحدهما ان يكون عمل الداعى هو الإنذار فقط. و الآخر: ان يكون العمل هو الهداية.

و سوف تسألون حتما: ما هو وجه التفاوت بين (الإنذار) و (الهداية)؟ نقول فى جواب هذا السؤال: انّ الإنذار للذين اضلّوا الطريق و دعوتهم تكون الى الصراط المستقيم، و لكن الهداية و الاستقامة للذين آمنوا.

و فى الحقيقة انّ المنذر مثل العلّة المحدثة، امّا الهادى فبمنزلة العلّة الباقية و هذه هى التى تعبّر عنها بالرّسول و الامام، فالرّسول يقوم بتأسيس الشريعة و الامام يقوم بحفظها و حراستها. (ليس من شكّ انّ الهداية فى آيات اخرى مطلقة للرسول، و لكن بقرينة المنذر فى هذه الآية نفهم انّ المقصود من الهادى هو الشخص الحافظ و الحامى للشريعة).

هناك روايات عديدة تؤكّد ما قلناه سابقا، فقد

قال الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «انا المنذر و على الهادى».

و لا بأس ان نشير الى عدّة من هذه الرّوايات:

۱- فى ذيل هذه الآية

من تفسير الفخر الرازى مرفوعا عن ابن عبّاس قال: وضع رسول اللّه يده على صدره فقال: «انا المنذر» ثمّ اومأ الى منكب على عليه السّلام و قال: (أنت الهادى بك يهتدى المهتدون من بعدى)

هذه الرّواية ذكرها العلّامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۶

«ابن كثير» فى تفسيره، و العلّامة «ابن الصبّاغ المالكى» فى الفصول المهمّة، و «الكنجى» الشافعى فى كفاية الطالب و «الطبرى» فى تفسيره، و «ابو حيّان الاندلسى» فى تفسيره البحر المحيط، و كذلك «العلّامة النيسابورى» فى تفسيره الكشّاف، و عدد آخر من

المفسّرین.

۲- نقل «الحموینی» و هو من علماء اهل السنّة المعروفین فی کتابه فرائد السمطین عن ابو هریرة قال «ان المراد بالهادی علی علیه السّلام».

۳- «میر غیاث الدین» مؤلّف کتاب (حبیب السیّد) کتب یقول فی المجلّد الثّانی صفحة ۱۲: «قد ثبت بطرق متعدّدة انّه لمّا نزل قوله تعالی: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ

قال لعلی: «انا المنذر و أنت الهادی بک یا علی یهتدی المهتدون من بعدی».

کما نقل هذا الحدیث «الآلوسی» فی (روح المعانی) و «الشبلنجی» فی (نور الأبصار) و الشیخ «سلیمان القندوزی» فی (ینابیع المودّة).

و بما انّ اکثر هذه الرّوایات مسنده الی ابن عبّاس فإنّه لم یکن الشخص الوحید الذی روی ذلک، فأبو هریرة نقل ذلک فیما ذکره الحموینی، و حتّی علی نفسه- طبقا لما نقله الثعلبی-

قد قال: «المنذر النّبی و الهادی رجل من بنی هاشم»

یعنی نفسه ۱۸۴].

لا شکّ انّ هذه الأحادیث لا تصرّح بالخلافة، و لکن بالنظر الی ما تحتویه هذه الکلمة (الهدایة) من المعنی الواسع، فإنّها غیر منحصرة بعلی علیه السّلام بل تشمل جمیع العلماء و اصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین کانوا یقومون بنفس المهمّة، فإنّه یتّضح لنا تخصیص علی بن أبی طالب علیه السّلام فی هذه الرّوایات بهذا العنوان یدلّ علی انّه المصداق البارز له، و ذلک لما یمتاز به من الخصوصیات، و هذا المطلب لا یکون منفصلا عن خلافة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۷

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ وَ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (۸) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (۹) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ (۱۰)

التّفسیر

علم اللّه المطلق:

نقرا فی هذه الآیات قسما من صفات الخالق، و التی تکمل بحث التوحید و المعاد، فالحدیث عن علمه الواسع و معرفته بکلّ شیء، هو ذاک العلم الذی یقوم علیه نظام التکوین و عجائب الخلقة و آیات التوحید، و هو العلم الذی یکون أساسا للمعاد و العدالة الالهیّة یوم القیامة و هذه الآیات استندت الی هذین القسمین: (العلم بنظام التکوین، و العلم بأعمال العباد).

تقول الآیة اوّلا: اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى فی رحمها، سواء من أنثی الإنسان او الحیوان وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ ای تنقص قبل موعدها المقرّر وَ ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۸

تَزْدادُ[۱۸۵] ای یعلم بما تزید عن موعدها المقرّر.

فی تفسیر هذه الجمل الثلاث هناک آراء مختلفة بین المفسّرین:

یعتقـد البعض- انّها تشـیر- کما ذکرنا آنفا- الی وقت الولادة، و هی علی ثلاثة انواع: فمرّة یولد المولود قبل موعده. و مرّة فی موعده، و اخری بعـد الموعد المقرّر. فاللّه یعلم کلّ ذلک و یعلم لحظة الولادة بالتحدید، و هذه من الأمور التی لا یسـتطیع ای احد او جهاز ان یحـدّد موعـده، و هـذا العلم خاص بـذات اللّه المنزّهـة، و سـببه واضـح لانّ اسـتعدادات الأرحام و الاجنّـة مختلفة، و لا احد یعلم بهذا التفاوت.

و قال بعض آخر: انّها تشـیر الی ثلاث حالات مختلفة للرحم ایّام الحمل، فالجملة الاولی تشیر الی نفس الجنین الذی تحفظه، و الجملة الثانیـة تشـیر الی دم الحیض الـذی ینصب فی الرحم و یمصّه الجنین، و الجملة الثالثة اشارة الی الدم الاضافی الذی یخرج أثناء الحمل أحیانا، او دم النفاس أثناء الولادة[۱۸۶].

و هناک عـدّة احتمالات اخری فی تفسـیر هـذه الآیـة دون ان تکون متناقضة فیما بینها، و یمکن ان یکون مراد الآیة اشارة الی مجموع هـذه التفاسـیر، و لکن الظـاهر انّ التّفسـیر الاوّل اقرب، بـدلیل جملـة (تحمل) المقصود منها الجنین و الجمل (تغیض) و (تزداد) بقرینة الجملة السابقة تشیر الی الزیادة و النقصان فی فترات الحمل.

روی الشیخ الکلینی فی الکافی عن الامام الصادق علیه السّلام او الامام الباقر علیه السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۴۹

فی تفسیر الآیة انّ «الغیض کلّ حمل دون تسعة أشهر، و ما تزداد کلّ شیء حمل علی تسعة أشهر».

و فی تکملة الحدیث

یقول: «کلّما رأت المراة الدم الخالص فی حملها فإنّها تزداد و بعدد الایّام التی زاد فیها فی حملها من الدم»[۱۸۷].

وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ و لکی لا یتصوّر احد انّ هذه الزیادة و النقصان بدون حساب و دلیل، بل انّ کلّ ساعة و ثانیة و لحظة لا تمرّ دون حسـاب، کمـا انّ للجنین و دم الرحم حسـاب و کتاب ایضا. فالآیـة التی بعـدها تؤکّـد ما قلناه فی الآیـة السابقـة حیث تقول: عالِمُ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ فعلمه بالغیب و الشهادة لهذا السبب الْکَبِیرُ الْمُتَعالِ فهو یحیط بکلّ شیء، و لا یخفی عنه شیء.

و لتکمیل هذا البحث و تأکید علمه المطلق یضـیف القرآن الکریم: سَواءٌ مِنْکُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَ مَنْ جَهَرَ بِهِ وَ مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّیْلِ وَ سارِبٌ بِالنَّهارِ[۱۸۸] و هـذا هو الحقّ فالذی یوجد فی کلّ مکان لا معنی للغیب و الشـهادة او اللیل و النهار عنده، فهو محیط بها و عالم بأخبارها بشکل متساو.

بحوث

۱- القرآن و علم الاجنّة

أشار القرآن المجید مرارا الی مسألة الجنین و عجائب تکوینه لیکون احد الادلّة علی التوحید و معرفة اللّه و علمه المطلق، و بالطبع فإنّ علم الاجنّـة واحـد من العلوم الحدیثة و کان سابقا عبارة عن معلومات اوّلیّة محدودة ثمّ توسـعت فی هذا العصـر. و لکن بتقدّم العلم و المعرفة حدثت قفزة فی هذا المجال کشف عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۰

کثیر من اسرار هـذا العالم الساکن و الهادیء و عن کثیر من عجائبه بحیث نسـتطیع ان نقول: انّ اکبر درس للتوحید و معرفة اللّه کامن فی تکوین الجنین و مراحل تکامله.

فمن هـذا الـذی یرعی هـذا الکائن المخفی و بتعبیر القرآن واقع «فی ظلمات ثلاث» الـذی یمتاز بالظرافة و دقّة التکوین و ان یوصل له المقدار اللازم من الغذاء و یرشده مراحل حیاته؟

و عنـد مـا تقول الآیـة السابقـة: اللَّهُ یَعْلَمُ ما تَحْمِلُ کُلُّ أُنْثی فلیس المقصود من علمه بالـذکر و الأنثی فقط، بل بکلّ خصائصه و الطاقة الکامنـة فیه، هـذه الأشـیاء لا یسـتطیع احـد و بأی وسـیلة ان یتعرّف علیها، و علی هـذا فإنّ وجود هـذا النظام الدقیق و المعقّد للجنین و مراحل تکامله لا یمکن ان یکون بدون صانع عالم و قدیر.

۲- کلّ شیء له مقدار

نحن نقرا فی آیات مختلفـة من القرآن الکریم انّ کلّ شـیء له حدّ محدود و لا یتجاوزه، ففی الآیة (۳) من سورة الطلاق یقول تعالی: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِکُلِّ شَیْءٍ قَدْراً و فی الآیة ۲۱ سورة الحجر یقول تعالی: وَ إِنْ مِنْ شَیْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ و الآیة التی نحن بصددها وَ کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ.

کلّ هذه تشیر الی انّه لیس هناک شیء فی العالم بدون حساب، حتّی الموجودات فی الطبیعة التی نعتبرها فی بعض الأحیان غیر مهمّة، فإنّ وجودها علی أساس حساب دقیق، علمنا بـذلک ام لم نعلم، و أساسا فإنّ معنی حکمـة اللّه هو ان یجعل لکلّ ما فی الکون حـدّا و مقدارا و نظاما.

و کلّ ما حصـلناه الیوم من اسـرار الکون بواسـطة العلوم یؤکّد هذه الحقیقة، فمثلا نری انّ دم الإنسان- الذی هو المادّة الحیاتیة لوجود الإنسان و الذی یقوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۱

بنقل المواد الضـروریّة اللازمة لخلایا الجسم- یترکّب من عشرین مادّة او اکثر، و بنسب ثابتة دقیقة بحیث لو تمّ ای تغییر فیها لتعرّضت سلامـة الإنسان للخطر، و لهـذا السـبب و لمعرفـة النقص الحاصل فی الجسم یقومون بتحلیل الدم و قیاس نسـبة السـکر و الدهن و سائر مرکّبات الدم الاخری، و یتمّ تشخیص العلّة بواسطة معرفة زیادة او نقصان هذه النسب، و لیس دم الإنسان وحده له هذه المیزة، بل کلّ ما فی الوجود له نفس هذه الدقّة فی النظام.

و لا بـدّ هنا من التنبیه علی انّ ما یظهر لنا فی بعض الأحیان من عـدم النظام فی عالم الوجود هو فی الواقع ناتـج من قصور فی علومنا و معرفتنا، فالإنسان الذی یؤمن باللّه لا یمکن ان یتصوّر ذلک، و بتطوّر العلوم تتأکّد لنا هذه الحقیقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۳۵۱

کی نسـتطیع ان نتعلّم هـذا الـدرس و هو انّ المجتمع الانسانی الذی هو جزء من عالم الوجود إذا أراد له العیش بسـلام، فعلیه ان یجعل شعار کُلُّ شَیْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ یسود جمیع جوانبه، و یجتنب الإفراط و التفریط فی اعماله و تخضع جمیع مؤسـساته الاجتماعیة للحساب و الموازین.

۳- الغیب و الشهادة سواء عند اللّه

استندت هذه الآيات الى انّ الغيب و الشهادة معلومان عند اللّه، فهما مفهومان نسبيان و تستخدمان للكائن الذى علمه و وجوده محدود، و على سبيل المثال نحن نمتلك حواسا ذات مدى نسبى، فمتى ما كان الشىء داخلا فى هذا المدى فهو شاهد بالنسبة لنا، و ما كان خارجا عنه فهو غيب، فلو فرضنا انّ أبصارنا لها قدرة غير محدودة و يمكنها النفوذ فى باطن الأشياء و إدراكها، فإنّ كلّ شىء يعتبر شاهد عندنا.

و بما انّ كلّ شىء له حدّ محدود غير الذات الالهيّة، فإنّ لغير اللّه تعالى غيب و شهادة، و لانّ ذات اللّه غير محدودة و وجوده عام و مطلق فإنّ كلّ شىء بالنسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۲

اليه شهادة، و لا معنى للغيب بالنسبة اليه، و إذا ما قلنا- انّ اللّه عالم الغيب و الشهادة فهو ما نعتبره نحن غيب و شهادة، امّا هو فهما عنده سواء. لنفترض انّنا ننظر ما فى أيدينا فى النهار، فهل نجهل ما فيها؟! جميع الكون فى مقابل علم اللّه أوضح من هذا و اظهر.

۴- الآثار التربوية فى إدراكنا لعلم اللّه

أثناء قراءتنا للآيات الماضية التى تقول: انّ اللّه يعلم السرّ و الجهر من القول و حركاتكم فى الليل و النهار و كلّها مشهودة عنده، هل نجد فى أنفسنا ايمانا بهذه الحقيقة؟ .. لو كنّا مؤمنين بذلك حقّا و نشعر بأنّ اللّه تعالى مطّلع علينا فإنّ هذا الايمان و الاحساس الباطنى يبعث على تغيير عميق فى روحنا و فكرنا و قولنا و ضمائرنا؟.

نقل عن الامام الصادق عليه السّلام فى جوابه لمن سأله عن طريقتهم فى الحياة قال:

«علمت انّ اللّه مطلع علىّ فاستحييت».

كما نشاهد كثيرا من المواقف من تأريخ المسلمين و حياتهم تتجلّى فيها هذه الحقيقة، يقال: دخل أب و ابنه فى بستان، فتسلّق الأب شجرة ليقطف ثمارها دون اذن صاحبها، بينما بقى الابن أسفل الشجرة لمراقبة الأوضاع. و فجأة صاح الابن الذى كان مؤمنا و متعلّما و نادى أباه بأن ينزل بسرعة، عندها خاف الأب و نزل فورا و سأل من الذى رآنى؟ قال: الذى هو فوقنا، فنظر الأب الى الأعلى فلم يجد أحدا، و سأل من الذى رآنى؟ قال: الذى هو فوقنا، فنظر الأب الى الأعلى فلم يجد أحدا، فقال الابن: كان قصدى هو اللّه المحيط بنا جميعا، كيف يمكن ان تخاف ان يراك الإنسان، و لا تخاف ان يراك اللّه؟! اين الايمان؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۳

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۱]

اشارة

لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (۱۱)

التّفسير

المعقّبات الغيبية

! علمنا فى الآيات السابقة انّ اللّه بما انّه عالم الغيب و الشهادة فإنّه يعلم أسرار الناس و خفاياهم، و تضيف هذه الآية انّه مع حفظ و حراسة اللّه لعبادة فإنّ لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۱۸۹].

و لكى لا يتصوّر احد انّ هذا الحفظ بدون شروط و ينغمس فى المزلّات، او يرتكب الذنوب الموجبة للعقاب، و مع كلّ ذلك ينتظر من اللّه او الملائكة ان يحفظوه، يعلّل القرآن ذلك بقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۴

. و كى لا يتبادر الى الأذهان انّه مع وجود الملائكة الحافظة فأىّ معنى للعذاب او الجزاء؟ هنا تضيف الآية وَ إِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ و لهذا السبب فإنّه حين صدور العذاب الالهى على قوم او امّة، فسوف ينتهى دور المعقّبات و يتركون الإنسان عرضة للحوادث

بحوث

۱- ما هى المعقّبات

؟ «المعقّبات» كما جاء فى مجمع البيان للعلّامة الطبرسى و كما قاله بعض المفسّرين جمع (معقبة) و هى بدورها جمع (معقّب) و معناه المجموعة التى تعمل بشكل متناوب و مستمر. و الظاهر من الآية انّ اللّه سبحانه و تعالى امر مجموعة من الملائكة بأن يحفظوا الإنسان فى الليل و النهار و من بين يديه و من خلفه.

انّ الإنسان- بدون شك- معرّض فى حياته الى كثير من الحوادث الروحية و الجسمية، فالامراض و المتغيّرات فى السّماء و الأرض محيطة بالإنسان، و خصوصا فى مرحلة الطفولة التى لا يدرك فيها ما يجرى حوله و يكون هدفا سهلا للإصابة بها، فقد يتعجّب الإنسان كيف ينجو الطفل و ينمو من بين جميع هذه الحوادث، و خصوصا فى العوائل التى لا تدرك هذه المسائل و تعانى من قلّة الامكانيات كأبناء الريف الذين يعانون من الحرمان و الفقر و هم معرضون للامراض اكثر من غيرهم.

و إذا ما امعنّا النظر فى هذه المسائل فسوف نجد انّ هناك قوى محافظة، تحفظ الإنسان فى مقابل هذه الحوادث كالدرع الواقى.

و كثيرا ما يتعرّض الإنسان الى حوادث خطرة و يتخلّص منها بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۵

اعجازى تجعله يشعر انّ كلّ ذلك ليس صدفة و انّما هناك قوى محافظة تحميه.

و هناك كثير من الأحاديث المنقولة عن ائمّة المسلمين تؤكّد ذلك و من جملتها:

الحديث المروى عن الامام الباقر عليه السّلام فى تفسير هذه الآية يقول: «يحفظ بأمر اللّه من ان يقع فى ركى او يقع عليه حائط او يصيبه شىء، حتّى إذا جاء القدر خلوا بينه و بينه يدفعونه الى المقادير، و هما ملكان يحفظانه بالليل و ملكان من نهار يتعاقبانه».

و

فى حديث آخر عن الامام الصادق عليه السّلام يقول: «ما من عبد الّا و معه ملكان يحفظانه فإذا جاء الأمر من عند اللّه خليا بينه و بين امر اللّه».

و نقرا

فى نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السّلام «انّ مع كلّ انسان ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليا بينه و بينه».

كما نقرا فى نهج البلاغة فى وصف الملائكة من الخطبة الاولى

«و منهم الحفظة لعباده».

انّ عـدم إدراكنا لوجود المعقّبات عن طريق الحسّ او التجربـة العلمية ليس دليلا على عدم وجودهم، لانّه غير منحصـر فى هذا المجال فقـط، فـالقرآن الكريم و المصادر المعرفيـة الاخرى اشارت الى امور كثيرة وراء الحسّ و التى لا يمكن إثباتها بالطرق العاديـة. و اكثر من ذلـك مـا قلنا سابقا من انّنا نتعرّض فى حياتنا الى كثير من المخاطر و التى لا يمكن النجاة منها الّا بوجود هـذه القوى المحافظـة (و رأيت فى حيـاتى بعض من هـذه النماذج المحيّرة، و التى كانت بالنسبة لى كشـخص صـعب التصـديق دليلا على وجود هـذا المعقّب اللامرئى).

۲- التغيير يبدأ من النفس (قانون عام)

تبيّن الجملة إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ و التى جاءت فى موردين متفاوتين فى القرآن الكريم، انّها قانون عام، قانون حاسم و منذر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۶

هذا القانون الذى هو واحد من القوانين الاساسيّة لعلم الاجتماع فى الإسلام، يقول لنا: انّ ما يصيبكم هو من عند أنفسكم، و ما أصاب القوم من السـعادة و الشـقاء هو ممّـا عملت أيـديهم، و ما يقال من الحظّ و الصدفـة و ما يحتمله المنجّمون ليس له أساس من الصـحّة، فالأساس و القاعـدة هى ارادة الامّة إذا أرادت العزّة و الافتخار و التقدّم، او العكس ان أرادت هى الذلّة و الهزيمة، حتّى اللطف الالهى او العقاب لا يكون الّا بمقدّمة. فتلك ارادة الأمم فى تغيير ما بأنفسهم حتّى يشملهم اللطف او العذاب الالهى.

و بتعبير آخر: انّ هـذا الأصل القرآنى الـذى يبيّن واحـدا من اهمّ المسائل الاجتماعية فى الإسـلام، يؤكّد لنا ان اى تغيير خارجى للأمم مرتبط بالتغيير الداخلى لها، و اى نجاح او فشل يصـيب الامّة ناشئ من هذا الأمر، و الذين يبحثون عن العوامل الخارجية لتبرير اعمالهم و تصـرّفاتهم و يعتبرون القوى المسـتعمرة و المتسـلّطة هى السبب فى شقائهم يقعون فى خطأ كبير، لانّ هذه القوى الجهنميّة لا تستطيع ان تفعل شيئا إذا لم تكن لديها قدرة و مركز فى داخل المجتمع.

المهمّ ان نطهّر مجتمعاتنا من هذه المقرّات و المراكز للمسـتعمرين و لا نجعلها تنفذ فى داخل مجتمعنا، فهؤلاء بمنزلة الشياطين، و نحن نعلم انّ الشيطان ليس له سبيل على عباد اللّه المخلصين، فهو يتسلّط على الذى مهّد له السبيل فى داخله.

يقول هذا الأصل القرآنى: انّنا يجب ان نثور من الداخل كى ننهى حالة الشقاء و الحرمان، ثورة فكرية و ثقافية، ثورة ايمانيّة و أخلاقية، و أثناء وقوعنا فى مخالب الشـقاء يجب ان نبحث فورا عن نقاط الضـعف فينا، و نطهّر أنفسـنا منها بالتوبة و الرجوع الى اللّه و نبدأ حياة جديـدة مفعمـة بالنّور و الحركـة، كى نسـتطيع فى ظلّها ان نبدّل الهزيمة الى نصـر، لا ان نخفى نقاط الضـعف و عوامل الهزيمة هذه و نبحث عنها فى خارج المجتمع و نظلّ ندور فى الطرق الملتوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۷

هنـاك كتب و مؤلّفـات كثيرة كتبت عن عوامـل انتصار المسـلمين الأوائل ثمّ تضـعضع سـلطانهم بعـد حين، و كثير من تلك الأبحاث ظلّت تتعثّر فى الطرق الملتويـة، و لكن إذا مـا أردنـا ان نسـتلهم من الأصـل أعلاه و الصادر من منبع الوحى فيجب ان نبحث عن ذاك النصـر او تلـك الهزيمـة و عن عواملهـا الفكريـة و العقائديـة و الاخلاقيـة فى المسـلمين. ففى الثـورات المعاصـرة و من جملتهـا الثورة الاسـلامية فى ايران، او ثورة الجزائر او ثورة المسـلمين الافغان، نشاهـد بوضوح انطباق هـذا الأصل القرآنى عليها. فقبل ان تغيّر الـدول المستعمرة و المستكبرة طريقتها فى التعامل معنا، غيّرنا نحن ما بأنفسنا فتغيّر كلّ شىء.

و على ايّة حال فهذا درس ليومنا و لغدنا و لمسـتقبلنا و لكلّ المسـلمين و الأجيال القادمة. و نحن نرى انّ القيادات المنتصـرة فقط هى التى استطاعت ان تقود و تغيّر شعوبها على أساس هذا الأصل الخالد، و فى تاريخ المسلمين و الإسلام شواهد على ذلك كثيرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۸

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (۱۲) وَ یُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ الْمَلائِکَةُ مِنْ خِیفَتِهِ وَ یُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَیُصِیبُ بِها مَنْ یَشاءُ وَ هُمْ یُجادِلُونَ فِی اللَّهِ وَ هُوَ شَدِیدُ الْمِحالِ (۱۳) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَ الَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَجِیبُونَ لَهُمْ بِشَیْءٍ إِلَّا کَباسِطِ کَفَّیْهِ إِلَی الْماءِ لِیَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ وَ ما دُعاءُ الْکافِرِینَ إِلَّا فِی ضَلالٍ (۱۴) وَ لِلَّهِ یَسْجُدُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ کَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۱۵)

التّفسیر

قسم آخر من دلائل عظمة اللّه:

یتطرّق القرآن الکریم مرّة ثانیة الی آیات التوحید و علائم العظمة و اسرار الخلقة. فهذه الآیات تحاول ان تقرّب العلاقة بین الإنسان و ربّه من خلال الاشارة الی بعض الظواهر الطبیعیّة بشکل موجز و عمیق المعنی لکی یشعّ نور الایمان فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۵۹

قلوب الناس، فتشیر اوّلا الی البرق هُوَ الَّذِی یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً فالبرق بشعاعه یبهر العیون من جانب، و یحدث صوتا مخیفا و هو الرعد من جانب آخر، و قد یسبّب أحیانا الحرائق للناس و خصوصا فی المناطق الصحراویة فیبعث علی خوفهم و من جانب آخر فإنّه یسبّب هطول الأمطار و یروی ظمأ الصحراء و یسقی المزروعات فیطمع فیه الناس، و بین هذا الخوف و الرجاء تمرّ علیهم لحظات حسّاسة. ثمّ تضیف الآیة وَ یُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ القادرة علی ارواء ظمأ الاراضی الزراعیة.

برکات الرعد و البرق:

نحن نعلم انّ ظاهرة البرق فی المفهوم العلمی هی اقتراب سحابتین إحداهما من الاخری، و هما تحملان شحنات سالبة و موجبة، فیتمّ تفریغ الشحنات بین السحابتین فتحدث شرارة عظیمة، و یحدث مثل ذلک عند اقتراب سلکین أحدهما سالب و الآخر موجب، و إذا کنّا قریبین منهما فإنّنا نسمع صوتا خفیفا، و لکن لاحتواء الغیوم علی شحنات هائلة من الالکترونات فانّهما تحدثان صوتا شدیدا یسمّی الرعد.

و إذا ما اقتربت سحابة تحمل الشحنة الموجبة من الأرض التی تحتوی علی شحنات سالبة فستحدث شرارة تسمّی بالصاعقة، و خطورتها تکمن فی انّ الأرض و المناطق المرتفعة تعتبر راس السلک السالب، حتّی الإنسان فی الصحراء یمکن ان یمثّل هذا السلک فیحدث تفریغ للشحنات یحوّل الإنسان الی رماد فی لحظة واحدة، و لهذا السبب عند وقوع البرق و الرعد فی الصحراء یجب ان یلجأ الإنسان الی شجرة او حائط او الی الجبال او الی ای مرتفع آخر، او ان یستلقی فی ارض منخفضة.

و علی ایّة حال فإنّ للبرق- الذی یسمّی فی بعض الأحیان مزاح الطبیعة-

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۰

فوائد جمّة عرفت من خلال ما كشفه العلم الحديث. و نشير هنا الى ثلاثة منها:

۱- السقى:- من الطبيعى انّ البرق تتولّد منه حرارة عالية جدّا قد تصل بعض الأحيان الى (۱۵) الف درجة مئوية، و هذه الحرارة كافية لان تحرق الهواء المحيط بها، و فى النتيجة يقلّ الضغط الجوى، فيسبّب سقوط الأمطار. و لهذا السبب نرى هطول الأمطار الغزيرة بعد حدوث البرق.

و هذه فى الواقع واحدة من وظائف البرق (السقى).

۲- التعقيم:- و نتيجة للحرارة العالية التى يسبّبها البرق فسوف يزداد مقدار الاوكسجين فى قطرات الماء، و يسمّى هذا الماء بالماء الثقيل او الماء المؤكسد (H ۲ O ۲) و من آثاره قتل المكروبات، و لهذا السبب يستعمل لغسل الجروح، فعند نزول هذه القطرات الى الأرض سوف تبيد بيوض الحشرات و الآفات الزراعية، و لهذا السبب يقال انّ السنة الكثيرة الآفات الزراعية هى السنة القليلة البرق و الرعد.

۳- التغذية و التسميد:- تتفاعل قطرات الماء مع الحرارة العالية للبرق لتنتج حامض الكاربون، و عند نزولها الى الأرض و تركيبها مع محتوياتها تضع نوعا من السّماد النباتى، فتتمّ تغذية النبات من هذا الطريق.

يقول بعض العلماء: انّ مقدار ما ينتجه البرق من الاسمدة فى السنة يصل الى عشرات الملايين من الاطنان، و هذه كميّة كبيرة جدّا.

و على ايّة حال نرى من خلال ظاهرة طبيعيّة صغيرة كلّ هذه المنافع و البركات، فهى تقوم بالسقى و رشّ السموم و التغذية، فيمكن ان تكون دليلا واضحا لمعرفة اللّه، كلّ ذلك من بركات البرق. كما انّه يمكن ان يكون البرق عاملا مهمّا فى إشعال الحرائق من خلال الصاعقة، و قد تحرق الإنسان او الأشجار، و مع انّها نادرة الحدوث و يمكن الوقاية منها، فهى مع ذلك عامل خوف للناس، فمفهوم الخوف و الطمع للبرق قد يكون اشارة الى جميع هذه الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۱

و يمكن ان تكون الجملة وَ يُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ لها علاقة بالبرق الذى يصنع هذه الغيوم المليئة بالمياه.

الآية الاخرى تشير الى صوت الرعد الذى يتزامن مع البرق وَ يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۱۹۰].

نعم، فهذا الصوت المدوّى فى عالم الطبيعة يضرب به المثل، فهو مع البرق فى خدمة هدف واحد و لهما منافع متعدّدة كما أشرنا إليها، و يقومان بعملية التسبيح، و بعبارة اخرى فالرعد لسان حال البرق يحكى عن عظمة الخالق و عن نظام التكوين. فهو كتاب معنوى، و قصيدة غرّاء، و لوحة جميلة و جذّابة، نظام محكم و منظّم و محسوب بدقّة، و بلسان حاله يتحدّث عن علم و مهارة و ذوق الكاتب و الرسام و المعمار و يحمده و يثنى عليه، كلّ ذرّات هذا العالم لها اسرار و نظام دقيق. و تحكى عن تنزيه اللّه و خلوّه من النقص و العيوب (و هل التسبيح غير ذلك؟!).

و تتحدّث عن قدرته و حكمته (و هل الحمد غير بيان صفات الكمال؟!).

و قد احتمل بعض الفلاسفة انّ لكلّ ذرّات هذا العالم نوعا من العقل و الشعور، فهى من خلال هذا العقل تسبّح اللّه و تقدّسه، ليس بلسان الحال فقط، بل بلسان المقال ايضا.

و ليس الرعد و سائر اجزاء العالم تسبّح بحمده تعالى، بل حتّى الملائكة وَ الْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ۱۹۱] فهم يخافون من تقصيرهم فى تنفيذ الأوامر الملقاة على عاتقهم، و بالتالى فهم يخشون العقاب الالهى، و نحن نعلم انّ الخوف يصيب أولئك الذين يحسّون بمسؤولياتهم و وظائفهم .. خوف بنّاء يحثّ الشخص على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۲

السعى و الحركة.

و للتوضيح اكثر فى مجال البرق و الرعد تشير الآية الى الصاعقة وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ و مع كلّ ذلك- و بمشاهدة

آيات العظمة الالهية فى عالم التكوين من السّماء و الأرض و النباتات و الأشجار و البرق و الرعد و أمثالها، و فى قدرة الإنسان الحقيرة تجاه هـذه الحوادث، حتّى فى مقابل واحدة منها مثل شـرارة البرق- نرى انّ هناك جماعة جاهلة تجادل فى اللّه وَ هُمْ يُجادِلُونَ فِي اللَّهِ وَ هُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ

«المحال» فى الأصل «الحيلـة» بمعنى التـدبير السـرّى و غير الظاهر، فالـذى له القـدرة على هذا التدبير يمتلك العلم و الحكمة العالية، و لهذا السبب يستطيع ان ينتصر على أعدائه و لا يمكن الفرار من حكومته.

و ذكر المفسّـرون وجوها عديـدة فى تفسـير شَدِيدُ الْمِحالِ فتارة بمعنى «شديد القوّة»، او «شديد العذاب»، او «شديد القدرة» او «شديد الأخذ»[۱۹۲].

الآية الاخيرة تشير الى مطلبين:

الاـوّل: قوله تعـالى: لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ فهو يسـتجيب لـدعواتنا، و هو عـالم بـدعاء العباد و قادر على قضاء حوائجهم، و لهـذا السـبب يكون دعاؤنا ايّاه و طلبنا منه حقّا، و ليس باطلا.

و لكن دعاء الأصـنام باطل وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ نعم هكـذا فى دعوة الباطل ليست اكثر من وهم، لانّ ما يقولونه من علم و قدرة الأصنام ما هو الّا أوهام و خيال، او ليس الحقّ هو عين الواقع و اصل الخير و البركة؟ و الباطل هو الوهم و اصل الشـرّ و الفسـاد؟ و لتصوير هـذا الموضوع يضـرب لنا القرآن الكريم مثالا حيّا و رائعا يقول: إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَ ما هُوَ بِبالِغِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۳

. فهل يسـتطيع احد ان يجلس على بئر و يطلب الماء بإشارة يد ليبلغ الماء فاه؟ هذا العمل لا يصدر الّا من انسان مجنون! و تحتمل الآية تفسيرا آخر، فهى تشبّه المشركين كمن بسط كفّه فى الماء ليتجمع فوقها الماء، و عند خروجها من الماء لم يجد فيها شيئا منه لانّ الماء يتسرّب من بين أصابع الكفّ المفتوحة.

و هنـاك تفسـير ثالث و هو انّ المشـركين- لحلّ مشاكلهم- كانوا يلجأون الى الأصـنام، فمثلهم مثل الـذى يحتفظ بالماء فى يـده، هل يحفظ الماء فى يد؟! و هناك مثل معروف بين العرب لمن يسعى بدون فائدة يقال له: هو كقابض الماء باليد، و يقول الشاعر:

فأصبحت فيما كان بينى و بينهامن الودّ مثل القابض الماء باليد

و لكنّنا نعتقد انّ التّفسـير الاوّل أوضح! و للتأكيد على هذا الحديث يأتى فى نهاية الآية قوله تعالى: وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ و ايّ ضـلال اكبر من ان يسـعى الإنسان و يجتهـد فى السبيل الضالّ ... و لكنّه لا يصل الى مقاصده. و لا يحصل على شـىء نتيجة تعبه و جهده.

الآية الأخيرة من هذه المجموعة، و لكى تبرهن كيف انّ المشـركين ضـلّوا الطريق تقول: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ ظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

بحوث

۱- ما هو المقصود من سجود الكائنات

؟ السجدة فى هذه الموارد تعنى الخضوع و التسليم، فإنّ جميع الملائكة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۴

و الناس ذوى العقول و الأفكار متواضعين للّه و خاضعين لأوامره، و هناك نوعان من السجود، سجود تكوينى و هو انّ الكلّ خاضعون و مسلّمون للقوانين الطبيعيّة مثل الحياة و الممات و المرض و .. و ..، و البعض منهم له سجود تشريعى بالاضافة الى السجود التكوينى، فهم بميلهم و إرادتهم يسجدون للّه.

۲- ما هو معنى طَوْعاً وَ كَرْهاً

؟ عبارة طَوْعاً وَ كَرْهاً يمكن ان تكون اشارة الى انّ المؤمنين خاضعون للّه بميلهم و إرادتهم، و امّا غير المؤمنين فهم خاضعون كذلك للقوانين الطبيعيّة التى تسير بأمر اللّه ان شاؤوا و ان أبوا.

و (الكره) بضمّ الكاف تعنى الكراهية فى داخل الإنسان، و (كره) بفتح الكاف ما حمل عليه الإنسان من خارج نفسه، و بما انّ الأشخاص غير المؤمنين مقهورون للعوامل الخارجية و للقوانين الطبيعيّة، استعمل القرآن (كره) بفتح الكاف.

و يحتمل فى تفسير طَوْعاً وَ كَرْهاً انّ المقصود من «طوعا» هو التوافق و الميل الفطرى و الطبيعى بين الإنسان و الأسباب الطبيعيّة (مثل حبّ اى انسان للحياة) و المقصود من «كرها» هو ما فرض على الإنسان من الخارج مثل موت أحد الأشخاص بسبب المرض او اى عامل طبيعى آخر.

۳- ما هو معنى كلمة الظلال

؟ «الظّلال» جمع «ظل» و استعمال هذه الكلمة فى الآية يشير الى انّ المقصود فى السجود ليس فقط السجود التشريعى، فظلال الكائنات ليست خاضعة لارادتهم و اختيارهم، بل هو تسليم لقانون الضوء، و على هذا يكون سجودهم تكوينى، يعنى التسليم لقوانين الطبيعيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۵

و طبيعى ليس المقصود من «الظلال» انّ جميع ما فى السّماوات و الأرض لها وجود مادّى كى يكون لها ظلال، و لكن الآية تشير الى تلك الأشياء التى لها ظلال، فمثلا- يقال: انّ جمعا من العلماء و أبنائهم شاركوا فى المجلس الكذائى، و ليس المقصود هنا انّ لكلّ العلماء أبناء «فتدبّر».

و على ايّة حال فإنّ الظلّ امر عدمى، و هو ليس اكثر من فقدان النّور، و لكن له آثارا و وجودا بسبب النّور المحيط به، و لعلّ الآية تشير الى هذه النقطة، و هى انّه حتّى الظلال خاضعة للّه.

۴- ما هو معنى كلوة الْآصالِ

«الآصال» جمع «اصل» و هى جمع «اصيل» و معناه آخر وقت من النهار، و لذلك يعتبر اوّل الليل، و الغدو جمع غداة بمعنى اوّل النهار.

و رغم انّ السجود و الخضوع للأشياء الكونية فى مقابل الأوامر الالهيّة دائمة و مستمرّة فى كلّ وقت، و لكن ذكرها هنا فى موقعين (الصبح و العشاء) امّا انّه كناية عن دوام الوقت، فمثلا- تقول: انّ فلانا يطلب العلم صباحا و مساء، فالمقصود و هو انّه فى كلّ وقت يطلب العلم، و امّا ان يكون المقصود من الآية ما جاء فى الكلام عن الظلال و التى تكون واضحة اكثر فى اوّل النهار و آخره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۶

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۶]

اشارة

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۱۶)

التّفسير

لماذا عبادة الأصنام

؟ كان البيان فى الآيات السابقة عن معرفة اللّه و اثبات وجوده، و هذه الآية تبحث عن ضلال المشركين و الوثنيين و تتناوله من عدّة جهات، حيث تخاطب- اوّلا- النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث تقول: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثمّ تأمر النّبى ان يجيب على السؤال قبل ان ينتظر جوابهم قُلِ اللَّهُ ثمّ انّه يلومهم و يوبّخهم بهذه الجملة قُلْ أَ فَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا.

لقد بيّن- اوّلا- عن طريق ربوبيته انّه المدبّر و المالك لهذا العالم، و لكلّ خير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۷

و نفع من جانبه، و قادر على دفع اى شرّ و ضرّ، و هذا يعنى انّكم بقبولكم لربوبيته يجب ان تطلبوا كلّ شىء من عنده لا من الأصنام العاجزة عن حلّ ايّة مشكلة لكم. ثمّ يذهب الى ابعد من ذلك حيث يقول: انّ هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعا و لا ضرّا فكيف يمكنها ان تنفعكم او تضرّكم؟ و هم و الحال هذه لا يحلّون اى عقدة لكم حتّى لو قمتم بعبادتهم، فهؤلاء لا يستطيعون تدبير أنفسهم فما ذا ينتظر منهم؟

ثمّ يذكر مثالين واضحين و صريحين يحدّد فيها وضع الافراد الموحّدين و المشركين، فيقول اوّلا: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ فكما لا يستوى الأعمى و البصير لا يستوى المؤمن و الكافر، و لا يصحّ قياس الأصنام على الخالق جلّ و علا.

و يقول ثانيا: أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَ النُّورُ كيف يمكن ان نساوى بين الظلام الذى يعتبر قاعدة الانحراف و الضلال، و بين النّور المرشد و الباعث للحياة، و كيف يمكن ان نجعل الأصنام التى هى الظّلمات المحضة الى جنب اللّه الذى هو النّور المطلق، و ما المناسبة بين الايمان و التوحيد اللذان هما نور القلب و الروح، و بين الشرك اصل الظلام؟! ثمّ يدلل على بطلان عقيدة المشركين عن طريق آخر فيقول: أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ و الحال ليس كذلك، فإنّ المشركين أنفسهم لا يعتقدون بها، فهم يعلمون انّ اللّه خالق كلّ شىء، و عالم الوجود مرتبط به، و لذلك تقول الآية: قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۸

بحوث

۱- الخالقية و الرّبوبية يتطلّبان العبادة

یمکن ان یستفاد من الآیـة أعلاه انّ الخـالق هو الربّ المـدبّر، لانّ الخلقـة امر مستمر و دائمی، و لیس من خلق الکائنـات یـترکهم و شأنهم، بل انّه تعالی یفیض بالوجود علیهم باستمرار و کلّ شیء یأخذ وجوده من ذاته المقدّسة، و علی هذا فنظام الخلقة و تدبیر العالم کلّها بید اللّه، و لهذا السبب یکون هو النافع و الضارّ.

و غیره لا یملک شیء الّا منه، فهل یوجد احد غیر اللّه احقّ بالعبادة؟

۲- کیف یسأل و یجیب بنفسه

؟ بـالنظر الی الآیـة أعلاه یطرح هـذا السؤال: کیف امر اللّه نبیّه ان یسأل المشـرکین: من خلق السـماوات و الأرض؟ و بعـدها بـدون ان ینتظر منهم الجواب یأمر النّبی ان یجیب هو علی السؤال ... و بـدون فاصـلة یوبّـخ المشـرکین علی عبادتهم الأصـنام، ای طراز هـذا فی السؤال و الجواب؟

و لکن مع الالتفـات الی هـذه النقطـة یتّضـح لنا الجواب و هو انّه فی بعض الأحیان یکون الجواب للسؤال واضـح جـدّا و لا یحتاج الی الانتظار. فمثلا نسأل أحدا: هل الوقت الآن لیل ام نهار؟ و بلا فاصلة نجیب نحن علی السؤال فنقول:

الوقت بالتأکیـد لیل. و هـذه کنایـة لطیفة، حیث انّ الموضوع واضح جدّا و لا یحتاج الی الانتظار للجواب، بالاضافة الی انّ المشـرکین یعتقدون بخلق اللّه للعالم و لم یقولوا ابدا انّ الأصـنام خالقة السّماء و الأرض، بل کانوا یعتقدون بشفاعتهم و قدرتهم علی نفع الإنسان و دفع الضـرر عنه، و لهذا السـبب کانوا یعبدوهم. و بما انّ الخالقیة غیر منفصلة عن الرّبوبیة یمکن ان نخاطب المشرکین بهذا الحدیث و نقول: أنتم الذین تقولون بأنّ اللّه خالق، یجب ان تعرفوا انّ الربوبیة للّه کذلک،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۶۹

و یختصّ بالعبادة ایضا لذلک.

۳- العین المبصرة و نور الشمس شرطان ضروریان

یشـیر ظاهر المثالین (الأعمی و البصیر) و (الظّلمات و النّور) الی هذه الحقیقة، و هی انّ النظر یحتاج الی شیئین: العین المبصرة، و شعاع الشـمس، بحیث لو انتفی واحـد منهمـا فـإنّ الرؤیـة لا تتحقّق، و الآن یجب ان نفکّر: کیف حال الافراد المحرومین من البصـر و النّور؟ المشـرکون المصداق الواقعی لهذا، فقلوبهم عمی و محیطهم ملیء بالکفر و عبادة الأصـنام، و لهذا السـبب فهم فی تیه و ضیاع. و علی العکس فالمؤمنون بنظرهم الی الحقّ، و استلهامهم من نور الوحی و ارشادات الأنبیاء عرفوا مسیرة حیاتهم بوضوح.

۴- هل انّ خلق اللّه لکلّ شیء دلیل علی الجبر

؟ اسـتدلّ جمع من اتباع مدرسة الجبر انّ جملة اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَـیْءٍ فی الآیة أعلاه لها من السـعة بحیث تشـمل حتّی عمل الافراد، فاللّه خالق اعمالنا و نحن غیر مختارین.

یمکن ان نجیب علی هذا القول بطریقین:

اوّلا: الجمل الاخری للآیة تنفی هذا الکلام، لانّها تلوم المشـرکین بشـکل اکید فإذا کانت اعمالنا غیر اختیاریة، فلما ذا هذا التوبیخ؟! و إذا کانت ارادة اللّه ان نکون مشـرکین فلما ذا یلومنا؟! و لماذا یسـعی بالأدلّة العقلیّة لتغییر مسـیرتهم من الضـلالة الی الهدایة؟ کلّ هذا

دليل على أنّ الناس أحرار فى انتخاب طريقهم.

ثانيا: انّ الخالقية بالذات من مختصّات اللّه تعالى. و لا يتنافى مع اختيارنا فى الأفعال، لانّ ما نمتلكه من القدرة و العقل و الشعور، و حتّى الاختيار و الحرية، كلّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۰

من عند اللّه، و على هذا فمن جهة هو الخالق (بالنسبة لكلّ شىء و حتّى أفعالنا) و من جهة اخرى نحن نفعل باختيارنا، فهما فى طول واحد و ليس فى عرض و أفق واحد، فهو الخالق لكلّ وسائل الأفعال، و نحن نستفيد منها فى طريق الخير او الشرّ.

فمثلا الذى يؤسّس معملا لتوليد الكهرباء او لإنتاج أنابيب المياه، يصنعها و يضعها تحت تصرّفنا، فلا يمكن ان نستفيد من هذه الأشياء الّا بمساعدته، و لكن بالنتيجة يكون التصميم النهائى لنا، فيمكن ان نستفيد من الكهرباء لامداد غرفة عمليات جراحية و انقاذ مريض مشرف على الموت، او نستخدمها فى مجالس اللهو و الفساد، و يمكن ان نروى بالماء عطش انسان و نسقى وردا جميلا، او نستخدم الماء فى إغراق دور الناس و تخريبها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۱

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۷]

اشارة

أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ (۱۷)

التّفسير

وصف دقيق لمنظر الحقّ و الباطل:

يستند القرآن الكريم- الذى يعتبر كتاب هداية و تربية- فى طريقته الى الوقائع العينيّة لتقريب المفاهيم الصعبة الى أذهان الناس من خلال ضرب الأمثال الحسّية الرائعة من حياة الناس، و هنا- ايضا- لأجل ان يجسّم حقائق الآيات السابقة التى كانت تدور حول التوحيد و الشرك، الايمان و الكفر، الحقّ و الباطل، يضرب مثلا واضحا جدّا لذلك ..

يقول اوّلا: أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً الماء عماد الحياة و اصل النمو و الحركة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۲

فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها تتقارب السواقى الصغيرة فيما بينها، و تتكوّن الأنهار و تتّصل مع بعضها البعض، فتسيل المياه من سفوح الجبال العظيمة و الوديان و تجرف كلّ ما يقف امامها، و فى هذه الأثناء يظهر الزّبد و هو ما يرى على وجه الماء كرغوة الصابون من بين أمواج الماء حيث يقول القرآن الكريم: فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً.

«الرابى» من «الربو» بمعنى العالى او الطافى، و الربا بمعنى الفائدة مأخوذ من نفس هذا الأصل.

و ليس ظهور الزبد منحصرا بهطول الأمطار، بل وَ مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ۱۹۳] اى الفلزات المذابة بالنّار لصناعة أدوات الزينة منها او صناعة الوسائل اللازمة فى الحياة.

بعد بيان هذا المثال بشكله الواسع لظهور الزبد ليس فقط فى الماء بل حتّى للفلزات و للمتاع، يستنتج القرآن الكريم كَذلِكَ يَضْرِبُ

اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْباطِلَ ثمّ يتطرّق الى شرحه فيقول: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

فأمّا الزبد الذى لا فائدة فيه فيذهب جفاء و يصير باطلا متلاشيا، و امّا الماء الصافى النقى المفيد فيمكث فى الأرض او ينفذ الى الاعماق و تتكوّن منه العيون و الآبار تروى العطاش، و تروى الأشجار لتثمر، و الازهار لتتفتّح، و تمنح لكلّ شيء الحياة.

و فى آخر الآية- للمزيد من التأكيد فى مطالعة هذه الأمثال- يقول تعالى:

كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۳

بحوث

اشارة

هذا المثال البليغ الذى عبّر عنه القرآن الكريم بألفاظ موزونة و عبارات منظّمة. و صوّر فيها الحقّ و الباطل بأروع صورة، فيه حقائق مخفيّة كثيرة و نشير هنا الى قسم منها:

۱- ما هى علائم معرفة الحقّ و الباطل

؟ يحتاج الإنسان فى بعض الأحيان لمعرفة الحقّ و الباطل- إذا أشكل عليه الأمر- الى علائم و أمثال حتّى يتعرّف من خلالها على الحقائق و الأوهام. و قد بيّن القرآن الكريم هذه العلامات من خلال المثال أعلاه:

الف:- الحقّ مفيد و نافع دائما، كالماء الصافى الذى هو اصل الحياة. امّا الباطل فلا فائدة فيه و لا نفع، فلا الزبد الطافى على الماء يروى ظمآنا أو يسقى أشجارا، و لا الزبد الظاهر من صهر الفلزات يمكن ان يستفاد منه للزينة او للاستعمالات الحياتية الاخرى، و إذا استخدمت لغرض فيكون استخدامها رديئا و لا يؤخذ بنظر الاعتبار .. كما نستخدم نشارة الخشب للإحراق.

باء:- الباطل هو المستكبر و المرفّه كثير الصوت، كثير الأقوال لكنّه فارغ من المحتوى، امّا الحقّ فمتواضع قليل الصوت، و كبير المعنى، و ثقيل الوزن ۱۹۴].

جيم- الحقّ يعتمد على ذاته دائما، امّا الباطل فيستمدّ اعتباره من الحقّ و يسعى للتلبّس به، كما انّ (الكذب يتلبّس بضياء الصدق) و لو فقد الكلام الصادق من العالم لما كان هناك من يصدق الكذب. و لو فقدت البضاعة السليمة من العالم لما وجد من يخدع ببضاعة مغشوشة. و على هذا فوجود الباطل راجع الى شعاعه الخاطف و اعتباره المؤقّت الذى سرقه من الحقّ، امّا الحقّ فهو مستند الى نفسه و اعتباره منه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۴

۲- ما هو الزّبد

؟ «الزبد» بمعنى الرغوة التى تطفوا على السائل، و الماء الصافى اقلّ رغوة، لانّ الزبد يتكوّن بسبب اختلاط الأجسام الخارجية مع الماء،

و من هنا یتّضح انّ الحقّ لو بقی علی صفائه و نقائه لم یظهر فیه الخبث ابدا، و لکن لامتزاجه بالمحیط الخارجی الملوّث فإنّه یکتسب منه شیئا، فتختلط الحقیقة مع الخرافة، و الحقّ بالباطل، و الصافی بالخابط. فیظهر الزبد الباطل الی جانب الحقّ.

و هذا هو الذی یؤکّده

الامام علی علیه السّلام حیث یقول: لو انّ الباطل خلص من مزاج الحقّ لم یخف علی المرتادین، و لو انّ الحقّ خلص من لبس الباطل انقطعت عنه السن المعاندین».[۱۹۵].

یقول بعض المفسّرین انّ للآیة أعلاه ثلاث امثلة: «نزول آیات القرآن» تشبیه بنزول قطرات المطر للخیر، «قلوب الناس» شبیهة بالأرض و الودیان و بقدر وسعها یستفاد منها، «وساوس الشیطان» شبیهة بالزبد الطافی علی الماء، فهذا الزبد لیس من الماء، بل نشأ من اختلاط الماء بمواد الأرض الاخری، و لهذا السبب فوساوس النفس و الشیطان لیست من التعالیم الالهیة، بل من تلوّث قلب الإنسان، و علی ایّة حال فهذه الوساوس تزول عن قلوب المؤمنین و یبقی صفاء الوحی الموجب للهدایة و الإرشاد.

۳- الاستفادة تکون بقدر الاستعداد و اللیاقة

! یستفاد من هذه الآیة- ایضا- انّ مبدا الفیض الالهی لا یقوم علی البخل و الحدود الممنوعة، کما انّ السحاب یسقط امطاره فی کلّ مکان بدون قید او

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۵

شرط، و تستفید الأرض و الودیان منها علی قدر وسعها، فالأرض الصغیرة تستفید اقلّ و الأرض الواسعة تستفید اکثر، و هکذا قلوب الناس فی مقابل الفیض الالهی.

۴- الباطل و الأوضاع المضطربة

عند ما یصل الماء الی السهل او الصحراء و یستقرّ فیها، تبدا المواد المختلطة مع الماء بالترشّح و یذهب الزبد فیظهر الماء النقی مرّة ثانیة، و علی هذا النحو فالباطل یبحث عن سوق مضطربة حتّی یستفید منها، و لکن بعد استقرار السوق و جلوس کلّ تاجر فی مکانه المناسب و تحقق الالتزامات و الضوابط فی المجتمع، لا یجد الباطل له مکانا فینسحب بسرعة!

۵- الباطل یتشکّل بأشکال مختلفة

انّ واحدة من خصائص الباطل هی انّه یغیّر لباسه من حین لآخر، حتّی إذا عرفوه بلباسه یستطیع ان یخفی وجهه بلباس آخر، و فی الآیة أعلاه اشارة لطیفة لهذه المسألة، حیث تقول: لا یظهر الزبد فی الماء فقط، بل یظهر حتّی فی الافران المخصوصة لصهر الفلزات بشکل و لباس آخر، و بعبارة اخری فإنّ الحقّ و الباطل موجودان فی کلّ مکان کما یظهر الزبد فی السوائل بالشکل المناسب لها. و علی هذا یجب ان لا نخدع بتنوّع الوجوه و ان نعرف أوجه الباطل و نطرحه جانبا.

۶- ارتباط البقاء بالنفع

تقول الآیـة: وَ أَمَّا مـا یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ لیس المـاء فقـط یبقی و یـذهب الزبـد الطـافی علیه، بـل حتّی الفلزات تلک التی تستعمل للزینة او للمتاع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۶

یبقی الخالص منها و یـذهب خبثه. و علی هذا النحو فالناس و المدارس و المبادئ لهم حقّ الحیاة علی قدر منفعتهم، و إذا ما رأینا بقاء اصحاب المبادئ الباطلة لفترة فإنّ ذلک بسبب وجود ذلک المقدار من الحقّ الذی اختلط فیه، و بهذا المقدار له حقّ الحیاة.

۷- کیف یطرد الحقّ الباطل

؟ «الجفـاء» بمعنی الإلقـاء و الإـخراج، و لهـذا نکتـة لطیفـة و هی انّ الباطـل یصل الی درجـة لا یمکن فیها ان یحفظ نفسه، و فی هـذه اللحظـة یلقی خارج المجتمع، و هـذه العملیـة تتمّ فی حالـة هیجان الحقّ، فعنـد غلیان الحقّ یظهر الزبـد و یطفو علی سـطح ماء القدر و یقذف الی الخارج، و هذا دلیل علی انّ الحقّ یجب ان یکون فی حالة هیجان و غلیان دائما حتّی یبعد الباطل عنه.

۸- الباطل مدین للحقّ ببقائه

کما قلنا فی تفسـیر الآیة، فلو لم یکن الماء لما وجد الزبد، و لا یمکن له ان یستمر، کما انّه لولا وجود الحقّ فإنّ الباطل لا معنی له و لو لم یکن هناک اشـخاص صادقون لما وقع احد تحت تأثیر الافراد الخونة و لما صدّق بمکرهم، فالشعاع الکاذب للباطل مدین فی بقائه لنور الحقّ.

۹- صراع الحقّ و الباطل مستمر

المثال الذی ضـربه لنا القرآن الکریم فی تجسیم الحقّ و الباطل لیس مثالا محدودا فی زمان و مکان معینین، فهذا المنظر یراه الناس فی جمیع مناطق العالم المختلفة، و هذا یبیّن انّ عمل الحقّ و الباطل لیس مؤقتا و آنیا. و جریان الماء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۷

العـذب و المالـح مسـتمر الی نفـخ الصور، الّـا إذا تحوّل المجتمع الی مجتمع مثالی (کمجتمع عصـر الظهور و قیام الامام المهـدی علیه السّلام) فعنده ینتهی هذا الصراع، و ینتصر الحقّ و یطوی بساط الباطل، و تدخل البشریة مرحلة جدیدة من تاریخها، و الی ان نصل الی هذه المرحلة فالصراع مستمر بین الحقّ و الباطل، و یجب ان نحدّد موقفنا فی هذا الصراع.

۱۰- تزامن الحیاة مع السعی و الجهاد

المثال الرائع أعلاه یوضّـح هـذا الأساس لحیاة الناس، و هو انّ الحیاة بدون جهاد غیر ممکنة، و العزّة بدون سـعی غیر ممکنة ایضا، لانّه یقول: یجب ان یـذهب النـاس الی المنـاجم لتهیئـة مسـتلزمات حیـاتهم فی المتـاع و الزینـة ابْتِغاءَ حِلْیَةٍ أَوْ مَتاعٍ و للحصول علی هـذین الشـیئین یجب تنقیة المواد الخام من الشوائب بواسطة نیران الافران للحصول علی الفلز الخالص الصالح للاستعمال، و هذا لا یتمّ الّا من خلال السعی و المجاهدة و العناء.

و هـذه هی طبیعـة الحیاة حیث یوجد الی جانب الورد الشوک، و الی جانب النصـر توجد المصاعب و المشـکلات، و قالوا فی القدیم: (الکنوز فی الخرائب و فوق کلّ کنز یوجد ثعبان نائم)، فإنّ هذه الخربة و الثعبان تمثّلان المشاکل و الصعوبات للحصول علی الموفّقیة فی الحیاة.

و یؤکّـد القرآن الکریم هـذه الحقیقـة و هی انّ التوفیق لاـ یحصل الّا بتحمّل المصاعب و المحن، یقول جلّ و علا فی الآیـة (۲۱۴) من سورة البقرة: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَـدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا یَأْتِکُمْ مَثَلُ الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِکُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّی یَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ مَتی نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِیبٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۸

الأمثال فی القرآن:

اشارة

انّ دور المثال فی توضـیح و تفسـیر الغایات له اهمیّـة کبیرة غیر قابلة للإنکار، و لهذا السـبب لا یوجد ای علم یسـتغنی عن ذکر المثال لاثبات و توضـیح الحقائق و تقریب معناها الی الأذهان، و تارة ینطبق المثال مع المقصود بشکل یجعل المعانی الصعبة تنزل من السّماء الی الأـرض و تکون مفهومـة للجمیع، فیمکن ان یقـال: انّ المثال له دور مؤثّر فی مختلف الأبحاث العلمیـة و التربویـة و الاجتماعیـة و الاخلاقیة و غیرها، و من جملة تأثیراته:

۱- المثال یجعل المسائل محسوسة:

من المعلوم أنّ الإنسـان یـأنس بالمحسوسـات أکثر، أمّـا الحقائق العلمیـة المعقّـدة فهی بعیـدة المنال. و الأمثال تقرّب هـذه الفواصل و تجعل الحقائق المعنویة محسوسة، و إدراکها یسیر و لذیذ.

۲- المثال یقرّب المعنی:

تارة یحتاج الإنسان لاثبات مسألـة منطقیـة او عقلیـة الی ادلّـة مختلفـة، و مع کلّ هذه الادلّة تبقی هناک نقاط مبهمة محیطة بها، و لکن عند ذکر مثال واضح منسّق مع الغایة یقرّب المعنی و یعزّز الادلّة و یقلّل من کثرتها.

۳- المثال یعمّم المفاهیم

کثیر من البحوث العلمیة بشکلها الاصلی یفهمها الخواص فقط، و لا یستفید منها عامّة الناس، و لکن عند ما یصحبها المثال تکون قابلة للفهم، و یستفید منها الناس علی اختلاف مستویاتهم العلمیة، و لهذا فالمثال وسیلة لتعمیم الفکر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۷۹

و الثقافة.

۴- المثال، یزید فی درجة التصدیق:

مهما تکن الکلیّات العقلیـة منطقیة، فإنّها لا تخلق حالة الیقین الکافیة فی ذهن الإنسان، لانّ الإنسان یبحث عن الیقین فی المحسوسات، فالمثـال یجعـل من المسألـة الذهنیّـة واقعـا عینیّـا، و یوضّـحها فی العالم الخارجی، و لهـذا السـبب فإنّ له اثره فی زیادة درجـة تصـدیق المسائل و قبولها.

۵- المثال یخرس المعاندین:

کثیرا ما لا تنفع الادلّة العقلیّة و المنطقیّة لاسکات الشخص المعاند حیث یبقی مصرّا علی عناده و لکن عند ما نصب الحدیث فی قالب المثال نوصد الطریق علیه بحیث لا یبقی له مجال للتبریر و لا لاختلاق الاعذار.

و لا بأس ان نطرح هنا بعض الامثلة حتّی نعرف مدی تأثیرها:

نقرا فی القرآن الکریم انّ اللّه سبحانه و تعالی یرد علی الذین اشـکلوا علی ولادة السّـید المسـیح علیه السّلام کیف انّه ولد من امّ بغیر أب إِنَّ مَثَلَ عِیسـی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [۱۹۶] لاـحظوا جیـدا، فنحن مهما حاولنا ان نقول للمعانـدین: انّ هـذا العمل بالنسـبة الی قـدرة اللّه المطلقـة لاـ شـیء، فمن الممکن ان یحتجّوا ایضـا، و لکن عنـد مـا نقول لهم هل تعتقـدون انّ آدم خلقه اللّه من تراب؟ فإنّ اللّه الذی له هذه القدرة کیف لا یستطیع إیجاد شخص بدون أب؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۰

و بالنسـبة الی المنـافقین الـذین یقضون فی ظلّ نفاقهم ایّاما مریحـة ظاهرا، فإنّ القرآن الکریم یضـرب مثالا رائعا عن حالهم، فیشـبّههم بالمسـافرین فی الصـحراء فیقول یَکـادُ الْبَرْقُ یَخْطَفُ أَبْصـارَهُمْ کُلَّمـا أَضـاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِیهِ وَ إِذا أَظْلَمَ عَلَیْهِمْ قـامُوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَـذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.[۱۹۷].

فهل یوجد أوضح من هذا الوصف للمنافق التائه فی الطریق، لیستفید من نفاقه و عمله کی یستمرّ فی حیاته؟

و عنـد ما تقول للافراد: انّ الإنفاق یضاعفه لکم اللّه عـدّة مرّات قد لا یسـتطیعون ان یفهموا هذا الحدیث، و لکن یقول القرآن الکریم: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیـلِ اللَّهِ کَمَثَـلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَـبْعَ سَـنابِلَ فِی کُـلِّ سُـنْبُلَةٍ مِائَـةُ حَبَّةٍ[۱۹۸]، و هـذا المثال الواضـح اقرب للإدراک.

و غالبا ما نقول: انّ الریاء لا ینفع الإنسان، فقد یکون هذا الحدیث ثقیلا علی البعض، کیف یمکن لهذا العمل ان یکون غیر مفید، فبناء مستشـفی او مدرسـة حتّی لو کان بقصد الریاء .. لماذا لیست له قیمة عند اللّه؟! و لکن یضـرب اللّه مثالا رائعا حیث یقول: فَمَثَلُهُ کَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَیْهِ تُرابٌ فَأَصـابَهُ وابِلٌ فَتَرَکَهُ صَـلْداً.[۱۹۹] و لکی لاـ نبتعـد کثیرا فالآیـة التی نحن بصـدد تفسـیرها تبحث فی مجـال الحقّ و الباطل و تجسّم هـذه المسألـة بشـکل دقیق، المقـدّمات و النتائـج، و الصـفات و الخصوصـیات و الآثار، و تجعلها قابلـة الفهم للجمیع و تسکت المعاندین، و اکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۱

من ذلک تکفینا تعب البحوث المطوّلة.

و

فی مناظرة للإمام الصادق علیه السّـلام مع احـد الزنادقـة حول قوله تعالی: کُلَّما نَضِـجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَیْرَها لِیَذُوقُوا الْعَذابَ قال: فما بال الغیر؟

أجابه الامام: «ويحك هى هى و هى غيرها!» قال: فمثّل لى ذلك شيئا من امر الدنيا! قال: «نعم، أ رأيت لو انّ رجلا أخذ لبنة فكسرها ثمّ ردّها فى ملبنها، فهى هى و هى غيرها»[۲۰۰].

و لا بدّ هنا من ملاحظة هذه اللفظة و هى انّ المثال و ما له من تأثير كبير و دور فعّال يجب ان يكون مطابقا و موافقا للمقصود، و الّا يكون ضالا و منحرفا.

و لهذا السبب يستفيد المنافقون من هذه الامثلة المنحرفة ليضلّوا بها الناس البسطاء، فهم يستعينون بشعاع المثال ليصدق الناس اكاذيبهم، فيجب ان نحذر من هذه الامثلة المنحرفة و نلاحظها بدقّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۲

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۱۸]

اشارة

لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (۱۸)

التّفسير

الذين استجابوا لدعوة الحقّ:

بعد ما كشفت الآيات السابقة عن وجهى الحقّ و الباطل من خلال مثال واضح و بليغ، اشارت هذه الآية الى مصير الذين استجابوا لربّهم و الذين لم يستجيبوا لهذه الدعوة و اتّجهوا صوب الباطل. تقول اوّلا: لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى

«الحسنى» فى معناها الواسع تشمل كلّ خير و سعادة، بدءا من الخصال الحسنة و الفضائل الاخلاقية الى الحياة الاجتماعية الطاهرة و النصر على الأعداء و جنّة الخلد.

ثمّ تضيف الآية وَ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۳

وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ

لا توجد صيغة أوضح من هذه الآية فى بيان شدّة عذابهم و عقابهم، يمتلك الإنسان كلّ ما فى الأرض و ضعفه ايضا و يفتدى به للنجاة و لا يحصل النجاة.

تشير هذه الجملة فى الواقع الى آخر امنية و التى لا ـ يمكن ان يتصوّر اكثر منها، و هى ان يمتلك الإنسان كلّ ما فى الأرض، و لكن شدّة العذاب للظالمين و مخالفى الحقّ تصل بهم الى درجة ان يفتدوا بكلّ هذه الامنية او أكثر منها لنجاتهم. و لنفرض انّها قبلت منهم فتكون نجاتهم من العذاب فقط، و لكن الثواب العظيم يكون من نصيب الذين استجابوا لدعوة الحقّ.

و من هنا يتّضح انّ العبارة وَ مِثْلَهُ مَعَهُ ليس المقصود منها ان يكون لهم ضعف ما فى الأرض، بل انّهم مهما ملكوا اكثر من ذلك فانّهم مستعدّون للتنازل عنه مقابل نجاتهم من العذاب. و دليله واضح، لانّ الإنسان يطلب كلّ شىء لمنفعته، و لكن عند ما يجد نفسه غارقا فى العذاب فما فائدة تملكه للدنيا كلّها؟

و على اثر هذا الشقاء (عدم قبول ما فى الأرض مقابل نجاتهم) يشير القرآن الكريم الى شقاء آخر أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ

فما هو المقصود من سوء الحساب؟

للمفسّرين آراء مختلفة حيث يعتقد البعض انّه الحساب الدقيق بدون اى عفو او مسامحة، فسوء الحساب ليس بمفهوم الظلم، لانّ اللّه سبحانه و تعالى هو العدل المطلق، و يؤيّد هذا المعنى الحديث الوارد

عن الامام الصادق عليه السّلام انّه قال لرجل: «يا فلان مالك و لأخيك؟» قال: جعلت فداك كان لى عليه حقّ فأستقصيت منه حقّى الى آخره، و عنده سماع الامام لهذا الجواب غضب و جلس ثمّ قال:

«كأنّك إذا استقصيت حقّك لم تسىء اليه! أ رأيت ما حكى اللّه عزّ و جلّ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ أ تراهم يخافون اللّه ان يجور عليهم؟! لا و اللّه ما خافوا الّا الاستقصاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۴

فسمّاه اللّه عزّ و جلّ سوء الحساب، فمن استقصى فقد أساء»[۲۰۱].

و قال البعض: المقصود من سوء الحساب، انّه يلازم حسابهم التوبيخ و الملامة و غيرها، فبالاضافة الى خوفهم من العذاب يؤلمهم التوبيخ.

و يقول البعض الآخر: المقصود هو الجزاء الذى يسوؤهم، كما نقول: انّ فلان حسابه نقى، او لآخر: حسابه مظلم، و هذا يعنى نتيجة حسابهم جيدة او سيّئة، او تقول: (ضع حسابه فى يده) يعنى حاسبه طبقا لعمله.

هذه التفاسير الثلاثة غير متضادّة فيما بينها، و يمكن ان يستفاد منها فى تفسير الآية، و هذا يعنى انّ هؤلاء الافراد يحاسبون حسابا دقيقا، و أثناء حسابهم يوبّخون و يلامون و من ثمّ يستقصى منهم.

و فى نهاية الآية اشارة الى الجزاء الثّالث او النتيجة النهائية لجزائهم وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمِهادُ.

«المهاد» جمع مهد، بمعنى التهيؤ، و يستفاد منها معنى السرير الذى يستخدم لراحة الإنسان، هذا السرير يهيّأ للاستراحة، و قد ذكر القرآن الكريم هذه الكلمة للاشارة الى انّ هؤلاء الطغاة بدلا من ان يستريحوا فى مهادهم يجب ان يحرقوا بلهيب النار.

بحث

يستفاد من الآيات القرآنية انّ الناس فى يوم القيامة ينقسمون الى مجموعتين، فمجموعة يحاسبهم اللّه بيسر و سهولة و بغير تدقيق فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً.[۲۰۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۵

و على العكس من ذلك هناك مجموعة يحاسبون بشدّة حتّى الذرّة و المثقال من الأعمال يحاسبون عليه، كما حدث لبعض البلاد التى كان أهلها من العاصين، فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً[۲۰۳].

انّ هذا الحساب الشديد هو نتيجة لما كان يقوم به هؤلاء فى حياتهم من استقصاء الآخرين حتّى الدينار الأخير، و إذا ما حدث خطأ من احد فإنّهم يعاقبون بأشدّ ما يمكن، و لم يسامحوا أحدا حتّى أبناءهم و إخوانهم و أصدقائهم، و بما انّ الآخرة انعكاس لحياة الدنيا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يحاسبهم حسابا شديدا على اى عمل عملوه بدون ادنى سماح، و على العكس فهناك اشخاص سهلون و مسامحون و من اهل العفو، خصوصا فى مقابل أصدقائهم و اقربائهم و ذوى الحقوق عليهم او الضعفاء، و يغضّون النظر عنهم و عن كثير من زلّاتهم الشخصيّة، و فى مقابل ذلك فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يشملهم بعفوه و رحمته الواسعة و يحاسبهم حسابا يسيرا.

و هذا درس كبير لكلّ الناس و خصوصا أولئك الذين يتصدّرون الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۱۹ الى ۲۴]

اشارة

أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۹) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (۲۰) وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (۲۱) وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (۲۲) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (۲۳)
سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (۲۴)

التّفسير

الأبواب الثّمانية للجنّة و صفات اولى الألباب:

تتحدّث هذه الآيات عن سيرة اولى الألباب و صفاتهم الحسنة، و فيها تكميل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۷

للبحث السابق.

فى الآية الاولى من هذه المجموعة استفهام انكارى: أ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى

و هـذا وصف رائع، فهو لم يقل: أ فمن يعلم انّ هـذا القرآن على الحقّ كمن لا يعلم؟ بل قال: كمن هو أعمى؟ و هذه اشارة لطيفة الى انّه من المحال ان لا يعلم احد بهذه الحقيقة الّا ان يكون أعمى القلب، فكيف يمكن لإنسان يمتلك عينا سليمة و لا يرى نور الشمس، و هذا القرآن كالشمس. و لذلك يجيء فى نهاية الآية قوله تعالى: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ

«الألباب» جمع لبّ بمعنى جوهر الشيء، و يقابل اولى الألباب اولوا الجهل و العمى.

انّ هذه الآية- و كما يذهب اليه بعض المفسّرين- تحثّ الناس على طلب العلم و محاربة الجهل، لانّها تعدّ الفرد الفاقد للعلم كمن هو أعمى. ثمّ بيّن سيرة اولى الألباب من خلال ذكر صفاتهم الحميدة، و اوّل ما أشار القرآن اليه وفاؤهم بالعهد و عدم نقضهم له و الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ لا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ

انّ «عهد اللّه» له معنى واسع، و يشمل العهود الفطرية التى عاهدوا بها ربّهم كالفطرة على التوحيد و حبّ الحقّ و العدالة، و المواثيق العقليّة التى يدركها الإنسان من خلال التفكير و التعقّل لعالم الوجود، و المبدإ و المعاد، و تشمل كذلك العهود الشرعيّة، و هى ما عاهدوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليه من الطاعة للأوامر الالهيّة و ترك المعاصى و الذنوب.

و تشمل هذه المجموعة كذلك الوفاء بالعهد بين الافراد، لانّ اللّه سبحانه و تعالى اوصى بها، بل تدخل ضمن الوفاء الشرعى و الميثاق العقلى.

الصفة الثّانية من صفات اولى الألباب هى وَ الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۸

لا- نجد صيغة أوسع من هذه فى هذا المجال، فالإنسان له صلات و روابط كثيرة، صلة مع ربّه، و مع الأنبياء و القادة، و روابطه مع الأصدقاء و الجيران و الأقرباء و مع كلّ الناس، و الآية تأمر ان تحترم هذه الصلات، و تنهى عن اى عمل يؤدّى الى قطع هذه الصلات

و الروابط.

و الإنسان فى الحقيقة ليس منزويا او منفكّا من عالم الوجود، بل تحكم كلّ وجوده الصلات و الروابط، و من جملة هذه الصلات:

۱- صلته باللّه سبحانه و تعالى، و التى إذا ما قطعها الإنسان تؤدّى الى هلاكه كما فى انطفاء نور المصباح فى حالة قطع التيار الكهربائى عنه، و على هذا فإنّ هذه الصلة التكوينيّة بين الإنسان و ربّه يجب ان تتبعها صلة بأوامره و احكامه من حيث الطاعة و العبودية.

۲- صلته بالأنبياء و الائمّة عليهم السّلام على أساس انّهم قادة للبشرية و قطعها يؤدّى بالإنسان الى الضلال و الانحراف.

۳- صلته بالمجتمع كافّة و خصوصا بذوى الحقوق عليه أمثال الأب و الامّ و الأقرباء.

۴- صلته بنفسه، من حيث انّه مأمور بحفظها و إصلاحها و تكاملها.

انّ اقامة اى صلة من هذه الصلات، هى فى الواقع مصداق للآية يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ و قطعها قطع لما امر اللّه به ان يوصل، لانّ اللّه سبحانه و تعالى امر بأن توصل و لا تقطع.

و بالاضافة الى ما قلناه، فهناك أحاديث واردة بخصوص هذه الآية يتّضح منها انّ المراد القرابة مرّة، و مرّة الامامة او آل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مرّة اخرى كلّ المؤمنين!

فقد جاء عن الامام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية قال: «قرابتك» و عنه ايضا عليه السّلام قال: «نزلت فى رحم آل محمّد و قد يكون فى قرابتك»[۲۰۴]

و من الطريف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۸۹

انّه عليه السّلام يقول فى نهاية الحديث: «فلا تكونن ممّن يقول للشىء انّه فى شىء واحد»

و هذه الجملة اشارة واضحة الى المعانى الواسعة للقرآن الكريم.

و

عن الامام الصادق عليه السّلام فى حديث ثالث يقول: «هو صلة الامام فى كلّ سنة (اى بالمال) بما قلّ او اكثر، ثمّ قال: و ما أريد بذلك الّا تزكيتكم»[۲۰۵].

الصفة الثّالثة و الرّابعة من سيرة اولى الألباب هى قوله تعالى: وَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَ يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ

لمعرفة الفرق بين «الخشية» و «الخوف» المتقاربان فى المعنى يقول البعض:

«الخشية» هى حالة الخوف مع احترام الطرف المقابل و مع العلم و اليقين، و لذلك عدّها القرآن الكريم من خصوصيات العلماء حيث يقول: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

و لكن بالنظر الى استخدام القرآن الكريم لكلمة الخشية مرّات كثيرة يتّضح لنا انّها تأتى بمعنى الخوف و تستعمل معها بشكل مترادف.

هنا يطرح هذا السؤال: إذا كان الخوف من الخالق هو نفس الخوف من حسابه، فما هو الفرق بين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ و يَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ

الجواب: انّ الخوف من اللّه سبحانه و تعالى ليس ملزما دائما ان يكون خوفا من حسابه و عقابه، بل انّ العظمة الالهيّة و الاحساس بالعبوديّة له توجد حالة من الخوف فى قلوب المؤمنين (بغضّ النظر عن الجزاء و العقاب)، و الآية (۲۸) من سورة فاطر قد تشير الى هذا المعنى.

و هناك سؤال آخر يتعلّق بسوء الحساب، و هو: هل من الصحيح انّ هناك ظلم فى محاسبة الافراد؟

و قد تقدّم الجواب على هذا السؤال قبل عدّة آيات من هذه الآية و قلنا انّ المراد هو التدقيق الشديد فى الحساب من دون عفو او

تسامح و ذكرنا ايضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۰

حديثا فى هذا الصدد.

الصّفة الخامسة من صفات اولى الألباب الاستقامة فى مقابل جميع المشاكل التى يواجهها الإنسان فى مسيرة الطاعة و ترك المعصية، و جهاد الأعداء و محاربة الظلم و الفساد[۲۰۶]، و الصبر فى مرضاة الخالق، و لذلك يقول تعالى: وَ الَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ لقد أشرنا مرارا الى مفهوم الاستقامة التى هى المعنى الواسع للصبر.

امّا معنى العبارة وَجْهِ رَبِّهِمْ فقد تشير الى احد معنيين:

اوّلا: كلمة الوجه فى هذه الموارد تعنى العظمة، كما نقول للرأى الصائب و المهمّ «هذا وجه الراى» باعتبار انّ الوجه يمثّل الشكل الظاهر و المهمّ للشىء، كما فى وجه الإنسان الذى يعتبر اهمّ جزء من جسده، و فيه يقع السمع و البصر و النطق.

ثانيا: الوجه هنا بمعنى رضا الخالق، فهم يصبرون على المحن و المشاكل لجلب مرضاة اللّه، فاستعمال الوجه بهذا المعنى بسبب انّ الإنسان عند ما يريد ان يجلب رضا شخص يمعن النظر فى وجهه (و على ذلك فهو يستعمل للكناية عن الشىء). و على ايّة حال فإنّ هذه الجملة تبيّن انّ كلّ صبر و عمل خير تكون له قيمة عند ما يصبح لوجه اللّه، و اىّ عمل آخر يقع تحت تأثير الرياء و الغرور لا قيمة له مطلقا.

يقول بعض المفسّرين: انّ الإنسان يصبر مرّة لكى يقول عنه الناس: انّ هذا كثير الاستقامة. و اخرى لخشيته ان يقولوا عنه انّه قليل الصبر، او يصبر حتّى لا يشمت به الأعداء، او يعلم ان لا فائدة من الجزع .. كلّ هذه الأمور و النيّات لا تدخل ضمن الكمال الانسانى الّا إذا كانت خالصة لوجه اللّه. فهو يصبر و يستقيم لانّه يعلم انّ اىّ فاجعة او مصيبة لها حكمة و دليل، و لا يقول ما يسخط الربّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۱

فهذا الصبر هو المعنى بقوله تعالى: ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ

الصفة السّادسة من صفاتهم هى وَ أَقامُوا الصَّلاةَ. رغم انّ اقامة الصلاة هى مصداق للوفاء بعهد اللّه و كذلك المصداق البارز لحفظ ما امر اللّه به ان يوصل، و مصداق للصبر و الاستقامة، و لكن هناك بعض مصاديق تلك المفاهيم الكلّية اكثر اهميّة فى مصير الإنسان، فهذه الجملة و الجمل التى ما بعدها تشير الى ذلك.

اى شىء اهمّ من هذا؟! انّ الإنسان يجدّد عهده و صلته باللّه سبحانه و تعالى صباحا و مساء، و يتفكّر بعظمة الخالق و يدعوه، و يطهّر نفسه من الذنوب، و يرتبط بالحقّ المطلق، نعم .. فإنّ الصلاة لها كلّ هذه الآثار و البركات.

ثمّ يبيّن الصفة السّابعة لدعاة الحقّ حيث يقول تعالى: وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً.

و هذه الآية ليست الوحيدة التى تشير الى مسألة الإنفاق او الزكاة بعد ذكر الصلاة، فكثير من الآيات تشير الى هذا الترادف، فواحدة تحكم الصلة بين العبد و ربّه و الثّانية بين العباد.

و الجملة مِمَّا رَزَقْناهُمْ تشمل كلّ العطايا من الأموال و العلوم و القوّة و الجاه، و الإنفاق كذلك يشمل جميع هذه الابعاد. و العبارة سِرًّا وَ عَلانِيَةً اشارة اخرى الى هذه الحقيقة و هى انّ إنفاقهم يتمّ بشكل مدروس، فتارة يكون سرّا و يترتّب عليه اثر كبير، و ذلك فى الحالات التى توجب ان يحفظ فيها ماء الوجه للطرف الآخر او تصون الطرف المنفق من الرياء، و مرّة يكون الإنفاق العلنى اكثر تأثيرا و ذلك فى الحالات التى تدعو الآخرين لكى يتأسّوا بهذا العمل الخيّر و يقتدوا به، فيكون سببا لكثير من اعمال الخير.

و من هنا يتّضح انّ القرآن الكريم يدقّق فى اعمال الخير بشكل كبير، ليس فقط فى اصل العمل، بل حتّى فى كيفيّة تنفيذه.

الصفة الثّامنة و الاخيرة هى قوله تعالى: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۲

و معنى هـذه العبارة انّهم لم يكتفوا بالتوبـة و الاسـتغفار فقط عند ارتكابهم الذنوب، بل يدفعونها كذلك بالحسـنات على مقدار تلك الذنوب، حتّى يطهّروا أنفسهم و المجتمع بماء الحسنات.

«يدرءون» مضارع «درأ» على وزن «زرع» بمعنى دفع.

و يحتمـل فى تفسـير الآيـة انّهم لا ـ يقـابلون السـيء بالسـيء، بـل يسـعون من خلال إحسانهم للمسـيئين ان يجعلوهم يعيـدون النظر فى مواقفهم، كما نقرا فى الآية (۳۴) من سورة فصلت قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

و فى نفس الوقت ليس هناك مانع من انّ الآية تشير الى هذين المعنيين، كما اشارت إليها الأحاديث الاسلامية.

ففى الحديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيّئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها»[۲۰۷].

و

عن الامام على عليه السّلام قال «عاتب أخاك بالإحسان اليه و اردد شرّه بالانعام عليه»[۲۰۸].

و لا بـدّ هنا من الالتفات الى هذه النقطة، و هى انّ هذه الأحكام أخلاقية تخصّ الحالات التى يحصل فيها تأثير على الآخرين، و هناك قوانين و احكام جزائية واردة فى التشريع الاسلامى لمعاقبة المسيئين.

و بعد ما ذكر القرآن الكريم الصفات الثمانية لاولى الألباب، أشار فى نهاية الآية الى عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ[۲۰۹].

الآية الاخرى توضّح هذه العاقبة جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۳

و الشـيء الذى يكمل هذه النعم الكبيرة و اللامتناهية وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ فهـذه السـلامة جاءت بعـد ما صبرتم على الشدائـد و تحمّلتم المسؤوليات الجسام و المصائب، و لكم هنا كامل الطمأنينة و الامان، فلا حرب و لا نزاع، و كلّ شيء يبتسم لكم، و الراحة الخالية من المتاعب- هنا- معدّة لكم.

بحوث

۱- لماذا ذكر الصبر فقط

؟ جملـة سَـلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ تشـير الى مسألة الصبر فقط، فى الوقت الذى نرى فيه الآيات السابقة اشارت الى ثمانية صـفات لاولى الألباب، فما هو السرّ فى ذلك؟

للاجابة على هذا الاستفهام نورد ما

جاء عن الامام على عليه السّـلام فى حـديث قيّم و ذى مغزى كبير، حيث قال: «انّ الصبر من الايمان كالرأس من الجسـد، و لا خير فى جسد لا راس معه، و لا فى ايمان لا صبر معه».

فى الحقيقة انّ كلّ الأفعال الحيّة و الصـفات الحميدة للافراد و المجتمعات تسـتند الى الصبر و الاستقامة، و بدونها لا يمكن ان نحصل على اى شـيء من هـذه الصـفات، لاـنّ فى مسـيرة عمل الخير عقبات و موانع لا يمكن ان ننتصـر عليها الّا بالاسـتقامة، فلا الوفاء بالعهد يمكن تنفيـذه بـدون الصبر و الاسـتقامة و لاـ الصـلات الالهيّـة، و لا الخوف من اللّه، و لا اقامـة الصـلاة و لا الإنفاق يمكن بلوغها بغير الصبر و الاستقامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۴

۲- أبواب الجنّة

یستفاد من آیات القرآن الکریم و الأحادیث الشریفة انّ للجنّة عدّة أبواب، و لکن هذا التعدّد للأبواب لیس لکثرة الداخلین الی الجنّة فیضیق علیهم الباب الواحد، و لیس کذلک للتفاوت الطبقی حتّی تدخل کلّ مجموعة من باب، و لا لبعد المسافة او قربها، و لا لجمال الأبواب و کثرتها، فأبواب الجنّة لیست کأبواب القصور و البساتین فی الدنیا، بل تعدّدت هذه الأبواب بسبب الأعمال المختلفة للافراد. و لذا نقرا فی بعض الاخبار انّ للأبواب اسماء مختلفة، فهناک باب یسمّی باب المجاهدین، و المجاهدون یدخلون بسلاحهم من ذلک الباب الی الجنّة، و الملائکة تحییهم ۲۱۰]! و

روی عن الامام الباقر علیه السّلام «و اعلموا انّ للجنّة ثمانیة أبواب، عرض کلّ باب مسیرة أربعین سنة»[۲۱۱].

و من الظریف انّ القرآن الکریم یذکر لجهنّم سبعة أبواب لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ ۲۱۲] و طبقا للرّوایات فإنّ للجنّة ثمانیة أبواب، و هذه اشارة واضحة الی انّ طرق الوصول الی السعادة و جنّة الخلد اکثر من طرق الوصول الی الشقاء و الجحیم. و رحمة اللّه سبقت غضبه «یا من سبقت رحمته غضبه».

و من الطف ما فی الأمر انّ الآیات السابقة اشارت الی ثمان صفات من صفات اولی الألباب، و کلّ واحدة منها- فی الواقع- هی باب من أبواب الجنّة و طریق للوصول الی السعادة الابدیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۵

۳- یلحق بأهل الجنّة اقرباؤهم

الآیة أعلاه و آیات اخری من القرآن الکریم تصرّح انّ من بین اهل الجنّة آباؤهم و أزواجهم و أبناؤهم الصالحون، و هذا انّما هو لإتمام النعمة علیهم، و کی لا یشعروا بفراق احبّائهم، و بما انّ تلک الدار متکاملة و کلّ شیء یتجدّد فیها، فإنّ أصحابها یدخلون فیها بوجوه جدیدة و اکثر محبّة و الفة. المحبّة التی تضاعف من نعم الجنّة لهم.

لا شکّ انّ الآیة أعلاه اشارت الی الآباء و الأزواج و الأبناء، و لکن فی الواقع کلّ الأقرباء سیجتمعون هناک، لانّه من غیر الممکن وجود الأبناء و الآباء بدون إخوانهم و أخواتهم .. و حتّی جمیع اقربائهم، فالأب الصالح یلحق به ابناؤه و اخوته، و علی هذا الأساس یکون حضور الأقرباء معهم بشکل طبیعی.

۴- ما هی جنّات عدن

؟ «العدن» الاستقرار، و هنا جاءت الکلمة بمعنی الخلود، و منه المعدن لمستقرّ العناصر الفلزیة. و یستفاد من مختلف آیات القرآن انّ الجنّة دار خلود لأهلها، و لکن- کما قلنا فی ذیل الآیة (۷۲) من سورة التوبة- جنّات عدن هی محلّ خاص فی الجنّة، و لها صفات و منازل عالیة، و لا یدخلها الّا ثلاثة: الأنبیاء و الصدّیقون و الشهداء[۲۱۳].

۵- التطهیر من آثار الذنوب

ممّا لا شکّ فیه انّ الحسنات و السیئات لها اثر متقابل فی النفس و نحن نری فی حیاتنا الیومیّة کثیرا من النماذج بخصوص هذا

الموضوع، فمرّة يتحمّل الإنسان مشاق سنين كثيرة و يسعى للحصول على الثروة، و لكن يفقدها بعمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۶

بسيط ناتج عن اللامبالاة، او ليس هذا احباطا للحسنات المادية. و مرّة اخرى على العكس حيث يرتكب الإنسان كثيرا من الاخطاء فى حياته و يتحمّل الخسارة الكبيرة، و لكن يسترجعها من خلال عمل شجاع و محسوب.

و الآية وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ اشارة الى هذا الموضوع، لانّ الإنسان غير معصوم، و هو معرّض للخطأ و المعصية، فعليه ان يفكّر بإصلاح ما فسد، فأعمال الخير لا تمحو الآثار الاجتماعية للذنوب، بل كذلك تمحو من قلبه الظلمة و تعيده الى النّور و الصفاء الفطرى. و هذه الحالة تسمّى فى القرآن الكريم ب «التكفير» (كما تقدّم فى ذيل الآية ۲۱۷ من تفسير سورة البقرة إشارات كثيرة فى هذا المجال).

و لكن كما قلنا- فى تفسير الآية أعلاه- يمكن ان تكون اشارة الى الفضيلة الاخلاقية لاولى الألباب، و ذلك انّهم لا يواجهون السيّئة بالسيّئة، بل العكس يقابلون الانتقام بالإحسان و السيّئة بالحسنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۷

الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۲۵ الى ۲۶]

اشارة

وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۲۵) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ (۲۶)

التّفسير

المفسدون فى الأرض

! بعد ما ذكرت الآيات السابقة صفات اولى الألباب و دعاة الحقّ، اشارت هذه الآيات الى قسم من الصفات الاصليّة للمفسدين الذين فقدوا حظّهم من العلم و المعرفة حيث يقول جلّ و علا: وَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

فى الحقيقة يتلخّص فساد عقيدتهم فى الجمل الثلاث الآتية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۸

۱- نقض العهود الالهيّة: و تشمل المواثيق الفطرية و العقليّة و التشريعيّة.

۲- قطع الصلات: و تشمل الصلة مع اللّه و الرسل و الناس و مع أنفسهم.

۳- الإفساد فى الأرض: و هو نتيجة حتمية لنقض العهود و قطع الصلات.

او ليس المفسد هو الذى ينقض عهد اللّه و يقطع الصلات؟! فهذا السعى من قبل هذه المجموعة من الافراد بهدف الوصول الى الأغراض المادّية، و عوضا ان تصل بهم هذه الجهود المبذولة الى الاهداف النّبيلة تبعدهم عنها، لانّ اللعن هو عبارة عن الابتعاد من رحمة اللّه ۲۱۴].

و من الظريف انّ الدار هنا و فى الآية السابقة جاءت بصيغة مطلقة، و هذه اشارة الى انّ الدار الحقيقيّة هى الدار الآخرة، و اى دار ما

عداها فانية و زائلة.

قوله تعالى: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ و هذه اشارة لأولئك الذين يسعون للحصول على دخل اكثر فهم يفسدون فى الأرض و ينقضون عهد اللّه و يقطعون ما امر اللّه به ان يوصل لكى يزيدوا من دخلهم المادّى، و هم غافلون عن هذه الحقيقة و هى انّ الرزق- فى زيادته و نقصه- بيد اللّه سبحانه و تعالى.

و بالاضافة الى ذلك يمكن ان تكون هذه الجملة جوابا على سؤال مقدّر، و هو: كيف انّ اللّه سبحانه و تعالى يرزق كلّ هؤلاء الناس الصالح منهم و الطالح من فيض كرمه.

و الآية تجيب على هذا السؤال و تقول: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ و مع ذلك فهو متاع قليل و زائل، و ما ينبغى السعى اليه هو الآخرة و السعادة الابديّة.

و على ايّة حال فإنّ المشيئة الالهيّة فى مجال الرزق هى انّ اللّه سبحانه و تعالى لا يبسط الرزق لأحد بدون الاستفادة من الأسباب الطبيعيّة له «ابى اللّه ان يجرى الأمور الّا بأسبابها».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۳۹۹

ثمّ تضيف الآية وَ فَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتاعٌ

و قد ذكر «متاع» بصيغة النكرة لبيان تفاهة الدنيا بالمقارنة مع الآخرة.

بحثان

۱- من هو المفسد فى الأرض

؟ الفساد يقابله الإصلاح، و يطلق على كلّ عمل تخريبى، و يقول الراغب فى مفرداته: «الفساد خروج الشىء عن الاعتدال قليلا كان او كثيرا، و يضادّه الصلاح، و يستعمل ذلك فى النفس و البدن و الأشياء الخارجة عن الاستقامة» و على ذلك فكلّ عمل فيه نقص، و كلّ افراط و تفريط فى المسائل الفردية و الاجتماعية هو مصداق للفساد! و فى كثير من موارد القرآن الكريم ذكر الفساد فى مقابل الإصلاح الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ ۲۱۵]، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ [۲۱۶] و قوله تعالى: وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۲۱۷].

كما ذكر الايمان و العمل الصالح فى مقابل الفساد، و حيث يقول جلّ و علا أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ [۲۱۸] و من جانب آخر ذكر الفساد، مع كلمة «فى الأرض» فى كثير من آيات القرآن الكريم نحو عشرين آية و نيّف، و هى توضّح الجوانب الاجتماعية للمسألة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۰

و من جانب ثالث ذكر الفساد و الإفساد مع ذنوب اخرى، و يحتمل ان يكون مصداقا لها، و بعض هذه الذنوب كبيرة و بعضها الآخر أصغر فمثلا قوله تعالى:

إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً،[۲۱۹] و قوله تعالى وَ إِذا تَوَلَّى سَعى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَ يُهْلِكَ الْحَرْثَ وَ[۲۲۰] النَّسْلَ و قوله تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ [۲۲۱] و قوله تعالى: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.[۲۲۲] و مرّة يعتبر فرعون من المفسدين، و أثناء توبته عند غرقه فى النيل يقول:

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ [۲۲۳] و قد استعمل «الفساد فی الأرض» تعبیرا عن السرقة کما فی قصّة یوسف علیه السّلام تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِی الْأَرْضِ وَ ما کُنَّا سارِقِینَ [۲۲۴] و مرّة اخری کنایة عن قلّة البیع، کما فی قصّة شعیب حیث نقرا قوله تعالی:

وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْیاءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ [۲۲۵] و أخیرا استخدم القرآن الکریم الفساد فی التعبیر عن اضطراب النظام الکونی لَوْ کانَ فِیهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا.[۲۲۶] نستفید من مجموع هذه الآیات انّ الفساد- بشکل عام- او الفساد فی الأرض، له معنی واسع جدّا، بحیث یشمل اکبر الجرائم مثل جرائم فرعون و سائر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۱

الطواغیت، کما یشمل الأعمال الأقل اجراما منها مثل بخس الناس أشیاءهم، و یشمل کذلک ای خروج عن حالة الاعتدال کما أشرنا الیه سابقا. و بالنظر الی انّ العقوبة یجب ان تکون مطابقة للجریمة یتّضح لنا انّ کلّ مجموعة من هؤلاء المفسدین لها عقوبة معیّنة و جزاء خاص.

و نری فی الآیة (۳۳) من سورة المائدة التی ذکرت «الفساد فی الأرض مع محاربة اللّه و رسوله» انّ هناک اربع عقوبات و یجب علی الحاکم الشرعی ان یختار العقوبة المناسبة علی مقدار الجریمة (القتل- الصلب- قطع الایدی و الأرجل- النفی) کما بیّن فقهاؤنا فی کتبهم شروط و حدود المفسد فی الأرض و عقوباته ۲۲۷].

و لأجل ان نجتثّ هذه المفاسد، یجب ان نستخدم الوسائل الکافیة فی کلّ مرحلة من مراحلها، ففی المرحلة الاولی نستخدم أسلوب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر عن طریق النصائح و التذکیر، و لکن إذا ما استوجب الأمر نستعمل الشدّة حتّی لو ادّی ذلک الی القتال.

و بالاضافة الی ما أشرنا الیه، فإنّ الجملة وَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ ترشدنا الی هذه الحقیقة فی حیاة المجتمع الانسانی، و هی انّ الفساد الاجتماعی لا یبقی فی مکان معیّن و لا یمکن حصره فی منطقة معیّنة، بل ینتشر بین اوساط المجتمع و فی کافّة بقاع الأرض و یسری من مجموعة الی اخری.

و یستفاد من الآیات القرآنیة انّ واحدة من اهداف بعثة الأنبیاء هو إنهاء حالة الفساد فی الأرض (فی معناه الواسع) کما نقرا فی سورة هود الآیة (۸۸) قول النّبی شعیب علیه السّلام إِنْ أُرِیدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۲

۲- الرزق بید اللّه سبحانه و تعالی و لکن ...

! لا نستفید من الآیة أعلاه فقط أنّ الرزق فی زیادته و نقصانه بید اللّه، بل نستفید من آیات أخر انّ اللّه سبحانه و تعالی یبسط الرزق لمن یشاء و ینقصه لمن یشاء، و لکن لیس کما یعتقده بعض الجهلاء من عدم الکسب و الجلوس فی زاویة البیت حتّی یبعث اللّه لهم الرزق، ان هؤلاء الافراد- الذین یعتبر تفکیرهم السلبی ذریعة لمن یقول بأنّ الدین افیون الشعوب- قد غفلوا عن نقطتین اساسیتین هما:

اوّلا- انّ الارادة و المشیئة الالهیّة التی اشارت إلیها الآیات القرآنیة لیست مسألة اعتباطیة و غیر محسوبة، بل- و کما قلنا سابقا- انّ المشیئة الالهیّة غیر منفصلة عن حکمته جلّ و علا و تدخل فیها الاستعدادات و التوفیقات.

ثانیا: انّ هذه المسألة لا تعنی نفی الأسباب، لانّ عالم الأسباب هو عالم الوجود، و هذه العوالم وجدت بإرادة اللّه و هی غیر منفصلة عن المشیئة التشریعیّة.

و بعبارة اخری: انّ ارادة اللّه فی مجال بسط الرزق نقصه مشروطة بشرائط تتحکّم فی حیاة الناس، فالسعی و الإخلاص و الإیثار، و

بعكس ذلك الكسل و البخل و سوء النيّة، لها دور فعّال و كبير، و لهذا السبب نرى القرآن الكريم يشير مرارا الى انّ الإنسان رهين بسعيه و ارادته و عمله، و ما يستفيده من حياته انّما هو بمقدار هذا السعى و الاجتهاد لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى

و لهذا فإنّ هناك بابا فى السعى لتحصيل الرزق يذكره المحدّثون فى موسوعاتهم الحديثة «كوسائل الشيعة» فى باب التجارة، و يوردون أحاديث كثيرة فى هذا المجال، كما انّ هناك أبوابا اخرى تذمّ البطالة و الكسل، و من جملتها

الحديث المروىّ عن الامام على عليه السّلام حيث يقول: «انّ الأشياء لمّا ازدوجت ازدوج الكسل و العجز فنتجا بينهما الفقر»[۲۲۸].

و

عن الامام الصادق عليه السّلام «لا تكسلوا فى طلب معايشكم فإنّ آباءنا كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۳

يركضون فيها و يطلبونها»[۲۲۹].

و

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «انّى لابغض الرجل ان يكون كسلانا عن امر دنياه، و من كسل عن امر دنياه فهو عن امر آخرته أكسل»[۲۳۰].

و

عن الامام موسى بن جعفر عليه السّلام «انّ اللّه تعالى ليبغض العبد النوّام، انّ اللّه ليبغض العبد الفارغ»[۲۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۴

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (۲۷) الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (۲۸) الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ (۲۹)

التّفسير

الا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب:

فى سورة الرعد- كما أشرنا سابقا- بحوث كثيرة حول التوحيد و المعاد و النبوّة، فالآية الاولى من هذه المجموعة تبحث مرّة اخرى فى دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تبيّن واحدا من اعذار المشركين المعاندين حيث يقول تعالى:

وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ

جملة «يقول» فعل مضارع للدلالة على انّ هذا العذر كان يجرى على ألسنتهم كثيرا، رغم ما يرونه من معجزات الرّسول (فعلى كلّ نبى ان يظهر المعجزة كدليل على صدقه) و مع ذلك كانوا يحتجّون عليه و لا يؤمنون بالمعاجز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۵

السابقة، و يطلبون منه معاجز جديدة تلائم افكارهم.

و بعبارة اخرى إنّ هؤلاء و جميع المنكرين لدعوة الحقّ كانوا دائما يطلبون «المعاجز الاقتراحية»، و يتوقّعون من النّبى ان يجلس فى زاوية الدار و يظهر لكلّ واحد منهم المعجزة التى يقترحها، فإن لم تعجبهم لم يؤمنوا بها!.

فى الوقت الذى نرى فيه انّ الوظيفة الرئيسيّة للأنبياء هى التبليغ و الإرشاد و الإنذار و هداية الناس، و امّا المعجزة فهى امر استثنائى و تكون بأمر من اللّه لا من الرّسول، و لكن نحن نقرا فى كثير من الآيات القرآنية انّ هذه المجموعة المعاندة لا تأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، و كانت تؤذى الأنبياء دائما بهذه الطلبات.

و يجيبهم القرآن الكريم حيث يقول: قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ

و هذه اشارة الى انّ العيب ليس من ناحية الاعجاز، لانّ الأنبياء قد أظهروا كثيرا من المعاجز، و لكن النقص من داخل أنفسهم. و هو العناد و التعصّب و الجهل و الذنوب التى تصدّ عن الايمان.

و لأجل ذلك يجب ان ترجعوا الى اللّه و تنيبوا اليه و ترفعوا عن عيونكم و افكاركم ستار الجهل و الغرور كى يتّضح لكم نور الحقّ المبين.

تشير الآية الثانية بشكل رائع الى تفسير مَنْ أَنابَ حيث يقول تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ثمّ يذكر القاعدة العامّة و الأصل الثابت حيث يقول تعالى: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

و تبحث الآية الاخيرة مصير الذين آمنوا حيث تقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَ حُسْنُ مَآبٍ

كثير من المفسّرين قالوا: انّ كلمة «طوبى» مؤنّث «أطيب»، و بما انّ المتعلّق محذوف فإنّ للكلمة مفهوما واسعا و غير محدود، و نتيجة طوبى لهم هو ان تكون لهم أفضل الأشياء: أفضل الحياة و المعيشة، و أفضل النعم و الراحة، و أفضل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۶

الألطاف الالهيّة، و كلّ ذلك نتيجة الايمان و العمل الصالح لأولئك الراسخين فى عقيدتهم و المخلصين فى عملهم.

و ما ذكره جمع من المفسّرين فى معنى هذه الكلمة و أوصلها صاحب مجمع البيان الى عشرة معانى، فانّها فى الحقيقة تصبّ كلّها فى هذا المعنى الواسع و الشامل الذى ذكرناه.

و نقرا فى روايات متعدّدة انّ «طوبى» شجرة أصلها فى بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم او الامام على عليه السّلام فى الجنّة، و تنتشر أغصانها على رؤوس جميع المؤمنين و على دورهم، و لعلّ هذا تجسيما لقيادتهم و إمامتهم و الصلات القويّة التى تربط بين هؤلاء القادة و أصحابهم، و تكون ثمرتها كلّ هذه النعم المختلفة.

(و إذا ما رأينا انّ طوبى جاءت مؤنّثة لاطيب الذى هو مذكّر، فإنّ ذلك بسبب انّها صفة للحياة و المعيشة او النعمة و كلّ هذه مؤنثة).

بحوث

۱- كيف يطمئن القلب بذكر اللّه

؟ انّ الاضطراب و القلق من اكبر المصاعب فى حياة الناس، و النتائج الحاصلة منهما فى حياة الفرد و المجتمع واضحة للعيان، و الاطمئنان واحد من اهمّ اهتمامات البشر، و إذا حاولنا ان نجمع سعى و جهاد الانسانية على طول التاريخ فى بحثهم للحصول على الاطمئنان بالطرق الصحيحة غير الصحيحة، فسوف تتكوّن لدينا كتب كثيرة و مختلفة تعرض تلك الجهود.

يقول بعض العلماء: عند ظهور بعض الأمراض المعدية- كالطاعون- فإنّ من بين العشرة الافراد الذين يموتون بسبب المرض- ظاهرا- أكثرهم يموت بسبب القلق و الخوف، و عدّة قليلة منهم تموت بسبب المرض حقيقة. و بشكل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۷

عام «الاطمئنان» و «الاضطراب» لهما دور مهمّ فی سلامة و مرض الفرد و المجتمع و سعادة و شقاء الانسانیة، و هذه مسألة لا یمکن التغافل عنها، و لهذا السبب الّفت کتب کثیرة فی موضوع القلق و طرق التخلّص منه، و کیفیّة الحصول علی الراحة، و التاریخ الانسانی ملیء بالمواقف مؤسفة لتحصیل الراحة، و کیف انّ الإنسان یتشبّث بکلّ وسیلة غیر مشروعة کأنواع الاعتیاد علی المواد المخدّرة لنیل الاطمئنان النفسی.

و لکن القرآن الکریم یبیّن اقصر الطرق من خلال جملة قصیرة و لکنّها کبیرة المعنی حیث یقول: أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و لتوضیح هذا المعنی و معرفة عوامل القلق و الاضطراب لا بدّ من ملاحظة ما یلی:

اوّلا: یحدث الاضطراب مرّة بسبب ما یجول فی فکر الإنسان عن المستقبل المظلم، فیحتمل زوال النعمة، او الأسر علی ید الأعداء، او الضعف و المرض، فکلّ هذه تؤلم الإنسان، لکن الایمان باللّه القادر المتعال الرحمن الرحیم، اللّه الذی تکفّل برحمة عباده .. هذا الایمان یستطیع ان یمحو آثار القلق و الاضطراب و یمنحه الاطمئنان فی مقابل هذه الاحداث و یؤکّد له انّک لست وحیدا، بل لک ربّ قادر رحیم.

ثانیا: و مرّة یشغل فکر الإنسان ماضیه الأسود فیمسی قلقا بسبب الذنوب التی ارتکبها و بسبب التقصیر و الزلّات، و لکن بالنظر الی انّ اللّه غفّار الذنوب و قابل التوبة و غفور رحیم، فإنّ هذه الصفات تمنح الإنسان الثقة و تجعله اکثر اطمئنانا و تقول له: اعتذر الی اللّه من سوالف أعمالک السیّئة و اتّجه الیه بالنیّة الصادقة.

ثالثا: ضعف الإنسان فی مقابل العوامل الطبیعیّة، او مقابل کثرة الأعداء یؤکّد فی نفسه حالة القلق و انّه کیف یمکن مواجهة هؤلاء القوم فی ساحة الجهاد او فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۸

المیادین الاخری؟

و لکنّه إذا تذکّر اللّه، و استند الی قدرته و رحمته .. هذه القدرة المطلقة التی لا یمکن ان تقف امامها ایّة قدرة اخری، سوف یطمئنّ قلبه، و یقول فی نفسه: نعم انّنی لست وحیدا، بل فی ظلّ القدرة الالهیّة المطلقة! فالمواقف البطولیة للمجاهدین فی ساحات القتال، فی الماضی او الحاضر، و شجاعتهم النادرة حتّی فی المنازلة الفردیة لهم، کلّها تبیّن حالة الاطمئنان التی تنشأ فی ظلّ الایمان.

نحن نشاهد او نسمع انّ احد الضبّاط المؤمنین فقد بصره مثلا او اصابته جراحات کثیرة بعد قتال شدید مع اعداء الإسلام و لکن عند ما یتحدّث کأنّه لم یکن به شیء، و هذه نتیجة الاستقرار و الطمأنینة فی ظلّ الایمان باللّه.

رابعا: و من جانب آخر یمکن ان یکون اصل المشقّة هی التی تؤذی الإنسان، کالاحساس بتفاهة الحیاة او اللاهدفیة فی الحیاة، و لکن المؤمن باللّه الذی یعتقد انّ الهدف من الحیاة هو السیر نحو التکامل المعنوی و المادّی، و یری انّ کلّ الحوادث تصبّ فی هذا الإطار، سوف لا یحسّ باللاهدفیّة و لا یضطرب فی المسیرة.

خامسا: و من العوامل الاخری انّ الإنسان مرّة یتحمّل کثیرا من المتاعب للوصول الی الهدف، و لکن لا یری من یقیّم اعماله و یشکر له هذا السعی، و هذه العملیة تؤلمه کثیرا فیعیش حالة من الاضطراب و القلق، و امّا إذا علم انّ هناک من یعلم بهذا السعی و یشکره علیه و یثیبه، فلیس للاضطراب و القلق هنا محل من الاعراب.

سادسا: سوء الظنّ عامل آخر من عوامل الاضطراب و الذی یصبّ کثیرا من الناس فی حیاتهم و یبعث فیهم الألم و الهمّ، و لکنّ الایمان باللّه و لطفه المطلق و حسن الظنّ به التی هی من وظائف الفرد المؤمن سوف تزیل عنه حالة العذاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۰۹

و القلق و تحلّ محلّها حالة الاطمئنان و الاستقرار.

سابعا: الهوی و حبّ الـدنیا من اهمّ عوامل القلق و الاضـطراب، و قد تصل الحالة فی عدم الحصول علی لون خاص فی الملبس، او ای شیء آخر من مظاهر الحیاة البرّاقة ان یعیش الإنسان حالة من القلق قد تستمر ایّاما و شهورا.

و لکن الایمـان بـاللّه و التزام المؤمن بالزهـد و الاقتصـاد و عـدم الاستئسـار فی مخـالب الحیـاة المادیـة و مظاهرهـا البرّاقـة ینهی حـالة الاضطراب هذه، و کما

قال الامام علی علیه السّلام: «دنیاکم هذه أهون عندی من ورقة فی فمّ جرادة تقضمها»

فمن کانت له مثل هـذه الرؤیـة کیف یمکن ان تحـدث عنـده حالـة الخوف و القلق نتیجـة لعدم الحصول علی شـیء من وسائل الحیاة المادیّة او فقـدانها؟! ثامنـا: من العوامل المهمّـة الاخری الخوف من الموت، و بما انّ الموت لا یحصل فقط فی السنّ المتأخّرة، بل فی کافّة السـنین و خصوصا أثناء المرض و الحروب، و العوامل الاخری فالقلق یسـتوعب کافّة الافراد. و لکن إذا اعتقدنا انّ الموت یعنی الفناء و نهایة کلّ شـیء (کما یعتقده المادّیون) فإنّ الاضطراب و القلق فی محلّه، و لا بدّ ان یخاف الإنسان من هذا الموت الذی ینهی عنـده کـلّ الآمال و الامانی و الطموحات. و لکن الایمان باللّه یمنحنا الثقـة بأنّ الموت هو باب لحیاة أوسع و أفضل من هـذه الحیاة، و برزخ یمرّ منه الإنسان الی دار فضاؤها رحب، فلا معنی للقلق حینئـذ، بل انّ مثل هـذا الموت- إذا ما کان فی سبیل اللّه یکون محبوبا و مطلوبا.

انّ عوامل الاضطراب لا تنحصر بهذه العوامل، فهناک عوامل کثیرة اخری، و لکن کلّ مصادرها تعود الی ما ذکرناه أعلاه.

و عند ما رأینا انّ کلّ هذه العوامل تذوب و تضمحلّ فی مقابل الایمان باللّه سوف نصدّق انّه أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۲۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۰

۲- الطمأنینة و الخوف من اللّه

طرح بعض المفسّـرین هنا هذا السؤال، و خلاصـته: نحن قرانا فی الآیة أعلاه أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و من جانب آخر فإنّ الآیة ۲ من سورة الأنفال تقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ فهل انّ هاتین الآیتین متناقضتین؟

الجواب: انّ الطمأنینـة المحمودة هی مـا کانت فی مقابل العوامل المادیـة التی تقلق الإنسان- کما أشـرنا الیه سابقا- و لکن المؤمنین لا بدّ و ان یکونوا قلقین فی مقابل مسـئولیاتهم، و بعبارة اخری: انّ المؤمنین لا یشـکون من الاضطراب المدمّر الذی یشکّل غالبیة أشکال القلق و الاضـطرابات، و لکن القلق البنّاء الـذی یحسّ به الإنسان تجاه مسـئولیاته امام اللّه فهو المطلوب و لا بـدّ منه، و هـذا هو الخوف من اللّه ۲۳۳].

۳- ما هو ذکر اللّه، و کیف یتمّ

؟ «الـذکر» کمـا یقول الراغب فی مفرداته: حفـظ المعانی و العلوم، و یسـتعمل الحفظ للبـدء به، بینما الـذکر للاسـتمرار فیه، و یأتی فی معنی آخر هو ذکر الشـیء باللسان او القلب، لـذلک قالوا: انّ الذکر نوعین «ذکر القلب» و «ذکر اللسان» و کلّ واحد منها علی نوعین: بعد النسیان او بدونه.

و علی ایّة حـال لیس المقصود من الـذکر- فی الآیـة أعلاه- هو ذکره باللسان فقط فنقوم بتسبیحه و تهلیله و تکبیره، بل المقصود هو التوجّه القلبی له و ادراک علمه و بأنّه الحاضـر و الناظر، و هذا التوجّه هو مبدا الحرکة و العمل و الجهاد و السعی نحو الخیر، و هو سدّ منیع عن الذنوب، فهذا هو الذکر الذی له کلّ هذه الآثار و البرکات کما اشارت الیه عدّة من الرّوایات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۱

فمن وصایا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للإمام علی علیه السّلام

یقول له: «یـا علی، ثلاث لا تطیقها هـذه الامّـة: المواساة للأخ فی ماله، و انصاف الناس من نفسه، و ذکر اللّه علی کلّ حال، و لیس هو سبحان اللّه و الحمد للّه و لا اله الّا اللّه و اللّه اکبر، و لکن إذا ورد علی ما یحرم علیه خاف اللّه عزّ و جلّ عنده و ترکه»[۲۳۴].

و

قال الامام علی علیه السّلام: «الذکر ذکران: ذکر اللّه عزّ و جلّ عند المصیبة، و أفضل من ذلک ذکر اللّه عند ما حرّم اللّه علیک فیکون حاجزا»[۲۳۵].

و لهذا السبب اعتبرت بعض الرّوایات الذکر وقایة و وسیلة دفاعیة، کما

ورد عن الامـام الصادق علیه السّـلام قال: «انّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم خاطب أصـحابه یوما فقال لهم: اتّخـذوا جننا، فقالوا یا رسول اللّه امن عدو و قد أظلنا؟ قال: لا، و لکن من النار، قولوا:

سبحان اللّه و الحمد للّه و لا اله الّا اللّه و اللّه اکبر»[۲۳۶].

و إذا ما رأینا انّ بعض الرّوایات تتحـدّث عن «ذکر اللّه» انّه رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فـذلک لانّه صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم یذکّر الناس باللّه تعالی، و

قـد روی عن الامـام الصـادق علیه السّـلام فی تفسـیر الآیـة أَلا بِذِکْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ قال: «بمحمّـد تطمئن القلوب و هو ذکر اللّه و حجابه».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۲

الآیات [سورة الرعد (۱۳): الآیات ۳۰ الی ۳۲]

اشارة

کَذلِکَ أَرْسَـلْناکَ فِی أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَیْهِمُ الَّذِی أَوْحَیْنا إِلَیْکَ وَ هُمْ یَکْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ مَتابِ (۳۰) وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنـاً سُـیِّرَتْ بِهِ الْجِبـالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ کُلِّمَ بِهِ الْمَوْتی بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِیعاً أَ فَلَمْ یَیْأَسِ الَّذِینَ آمَنُوا أَنْ لَوْ یَشاءُ اللَّهُ لَهَدَی النَّاسَ جَمِیعاً وَ لا یَزالُ الَّذِینَ کَفَرُوا تُصِـیبُهُمْ بِما صَـنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِیباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّی یَأْتِیَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا یُخْلِفُ الْمِیعادَ (۳۱) وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِکَ فَأَمْلَیْتُ لِلَّذِینَ کَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَکَیْفَ کانَ عِقابِ (۳۲)

اسباب النّزول

قال بعض المفسّرین: انّ الآیة الاولی نزلت فی صلح الحدیبیّة فی السنة السادسة للهجرة، و ذلک عند ما أرادوا کتابة معاهدة الصلح، قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۳

علیه السّلام: «اکتب: بسم اللّه الرّحمن الرّحیم ...»

قال سهیل بن عمرو و معه المشرکون:

نحن لا نعرف الرّحمان! و انّما هناک رحمان واحد فی الیمامة «و کان قصدهم مسـیلمة الکذّاب» بل اکتب «باسـمک اللّهم» کما کانوا یکتبونه فی الجاهلیة، ثمّ

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لعلى عليه السّلام: «اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد رسول اللّه ...»

فقال المشركون: إذا كنت رسول اللّه فإنّه لظلم كبير ان نقاتلك و نمنعك من الحجّ، و لكن اكتب: هذا ما اتّفق عليه محمّد بن عبد اللّه! ...

و فى هذه الأثناء غضب صحابة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: دعنا نقاتل هؤلاء المشركين، و لكنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا، اكتب كما يشاءون» و فى هذه الأثناء نزلت الآية أعلاه، و هى توبّخ المشركين على عنادهم و مخالفتهم فى اسم الرّحمن الذى هو واحد من صفات اللّه جلّ و علا.

هذا السبب فى النّزول يمكن ان يكون صحيحا فى حالة اعتقادنا بأنّ السورة مدنيّة حتّى توافق حادثة صلح الحديبيّة، و لكنّ المشهور انّها مكيّة. الّا إذا اعتبرنا انّ سبب النّزول هو ردّ على المشركين كما فى الآية (۶۰) من سورة الفرقان اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ و على ايّة حال، و بغضّ النظر عن سبب النزول، فإنّ الآية لها مفهوم واضح سوف نتطرّق اليه فى تفسيرنا لها.

و قال بعض المفسّرين فى سبب نزول الآية الثّانية: انّها جواب لمجموعة من مشركى مكّة، حيث كانوا جالسين خلف الكعبة و طلبوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فجاءهم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «على امل هدايتهم» قالوا: إذا كنت تحبّ ان نكون من أصحابك فأبعد هذه الجبال قليلا الى الوراء حتّى تتّسع لنا الأرض! و شقّ الأرض لكى تتفجّر العيون و الأنهار حتّى نغرس الأشجار و نقوم بالزراعة! الم تعتقد بأنّك لا تقلّ عن داود الذى سخّر اللّه له الجبال تسبح معه؟ او انّ تسخّر لنا الرّيح حتّى نسافر عليها الى الشام و نحلّ مشاكلنا التجارية و ما نحتاج اليه ثمّ نعود فى نفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۴

ذلك اليوم! كما كانت مسخّرة لسليمان عليه السّلام، الم تعتقد انّك لا تقلّ عن سليمان، أو احيى لنا جدّك «قصى» او اى واحد من موتانا كى نسأله هل انّ ما تقوله حقّ ام باطل، او ليس عيسى كان يحيى الموتى! و فى هذه الأثناء نزلت الآية الثانية تذكرهم بأنّ كلّ ما يقولونه سببه الخصومة و العناد لا لكى يؤمنوا، و الّا فهناك معاجز كثيرة حصلت لهم.

التّفسير

لا امل فى ايمان اهل العناد:

تبحث هذه الآيات مرّة ثانية مسألة النّبوة، و الآيات أعلاه تكشف عن قسم آخر من جدال المشركين فى النبوّة و جواب القرآن عليهم فيقول الآية: كما انّنا أرسلنا رسلا الى الأقوام السالفة لهدايتهم: كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ و الهدف من ذلك لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ فى الوقت الذى وَ هُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ يكفرون باللّه الذى عمّت رحمته كلّ مكان، و شمل فيضه المؤمن و الكافر.

ثمّ قل لهم: انّ الرّحمن الذى عمّ فضله هو ربّى قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ مَتابِ

ثمّ يجيب أولئك الذين يتشبّثون دائما بالحجج الواهية فيقول: لو انّ الجبال تحرّكت من مكانها بواسطة القرآن: وَ لَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فمع ذلك لا يؤمنون به.

و لكنّ كلّ هذه الأفعال بيد اللّه و يفعل ما يريد متى يشاء بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً.

و لكنّكم لا تطلبون الحقّ، و إذا كنتم تطلبونه فهذا المقدار من المعجزة التى صدرت من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كاف لايمانكم.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أ فَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَهَدَى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۵

النَّاسَ جَمِيعاً[۲۳۷] و هـذه اشارة الى انّ اللّه سبحانه و تعالى يستطيع ان يجبر الناس و حتّى المعانـدين على ان يؤمنوا، لانّه القادر على كـلّ شـىء، و لكنّه لاـ يفعل ذلك ابـدا، لانّ هـذا الايمان الاجبارى لا قيمـة له و هو فاقـد للمعنى و التكامل الـذى يحتاجه الإنسان فى حياته.

ثمّ تضـيف الآيـة وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ و هـذه مصائب تنزل عليهم بشـكل ابتلاءات مختلفة او على شـكل هجوم المسـلمين عليهم. و هـذه المصائب انّ لم تنزل فى دارهم فهى أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ لكى يعتبروا بها و يرجعوا الى اللّه جلّ و علا.

و هذا الإنذار مستمر حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ

و هذا الوعد الأخير قد يشير الى الموت، او الى يوم القيامة، او على قول البعض الى فتح مكّة التى سحقت آخر معقل للعدو.

و على ايّة حال فالوعد الالهى اكيد: إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ.

الآية الاخيرة من هذه المجموعة تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول له: لست الوحيد من بين الأنبياء تعرّض لطلب المعاجز الاقتراحية و الاستهزاء من الكفّار، بل وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ و لكن لم نعاقب هؤلاء الكفّار فورا، بل فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لكى يستيقظوا و يعودوا الى طريق الحقّ، او نلقى عليهم الحجّة الكافية على الأقل. لانّ هؤلاء إذا كانوا مذنبين فإنّ لطف اللّه و كرمه و حكمته لا تتأثّر بأفعال هؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۶

و على ايّة حال فهذا التأخير ليس بمعنى نسيان العقاب، بل ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ و هذا المصير ينتظر قومك المعاندين ايضا.

بحوث

۱- لماذا التركيز على كلمة «الرّحمان»

؟ توضّح الآية أعلاه، و ما ذكرناه فى اسباب النّزول، انّ كفّار قريش لم يوافقوا على وصف اللّه بالرحمن، و بما انّ ذلك لم يكن سائدا لديهم، فانّهم كانوا يستهزئون به، فى الوقت الذى نرى فيه الآيات السابقة تصرّ و تؤكّد على ذلك، لانّ فى هذه الكلمة لطفا خاصّا، و نحن نعلم انّ صفة الرّحمانية تعمّ و تشمل المؤمن و الكافر، الصديق و العدو، فى الوقت نفسه فانّ صفة الرّحيم خاصّة بعباده المؤمنين. فكيف لا تؤمنون باللّه الذى هو اصل اللطف و الكرم حتّى شمل أعداءه بلطفه و رحمته، فهذا منتهى الجهل.

۲- لماذا لم يستجب النّبى لمطاليبهم

و مرّة اخرى نواجه هنا ما يقوله البعض من انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم تكن لديه معجزة غير القرآن الكريم، و يستندون فى ذلك الى الآية أعلاه و أمثالها، لانّ ظاهر هذه الآيات انّ النّبى لم يستجب الى طلبهم فى اظهار المعاجز المختلفة من قبيل تسيير الجبال او شقّ الأرض و اظهار العيون و احياء الموتى و التكلّم معهم.

و لكن- كما قلنا مرارا- الاعجاز يتمّ لإظهار الحقيقة فقط، و لأولئك الذين يطلبون الحقّ، فليس النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل

سحر حتّى ينفّذ لهم كلّ ما يطلبونه منه او

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۷

يقترحونه عليه ثمّ بعد ذلك لا يقبلون منه.

إنّ مثل هـذا الطلب للمعاجز (المعاجز الاقتراحيـة) كان يصدر- فقط- من الافراد المعاندين و الجاهليين الذين لم يستجيبوا لاىّ حقّ. و الآيات أعلاه تشـير الى ذلك بوضوح، ففى الآية الاخيرة تتحدّث عن استهزائهم بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هذا يعنى انّهم لم يطلبوا المعجزة من اجل الحقّ، بل كان طلبهم استهزاء بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بالاضافة الى ما ذكرناه من اسـباب النّزول فى بداية التّفسير لهذه الآيات، يمكن ان نستفيد من خلال طلبهم من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم احياء واحد من أجدادهم لكى يسألوه: هل انّ ما تقوله حقّ ام باطل؟

فلو استجاب لهم النّبى هذا الطلب فما معنى سؤالهم انّ النّبى على حقّ ام باطل؟ و هذا يوضّح انّ هؤلاء هم افراد متعصّبون و معاندون و هدفهم ليس البحث عن الحقيقة، (و لنا توضيح آخر من هذا الموضوع فى ذيل الآية ۹۰ من سورة الاسراء).

۳- ما هى القارعة

؟ «القارعة» مأخوذة من مادّة «قرع» بمعنى طرق، و على ذلك تكون القارعة بمعنى الطارقة، و تشير هنا الى الاحداث التى تقرع الإنسان و تنذره و إذا كان مستعدّا للنهوض أيقظته.

و فى الحقيقة انّ للقارعة معنى واسعا، فهى تشمل كلّ مصيبة و مشكلة و حادثة تحيط بالإنسان.

و لـذلك يعتقد بعض المفسّـرين انّها تعنى الحروب و الجفاف و القتل و الأسـر، و يرى آخرون انّها تشـير الى الحروب التى كانت تقع فى صدر الإسلام تحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۸

عنوان «السـرية» التى لم يكن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يشترك فيهـا، بل كان يأمر أصـحابه بها، و لكن معنى القارعـة يشـمل جميع هذه الاحداث.

و من الطريف انّ الآيات أعلاه تشـير الى انّ الحوادث هـذه امّا ان تنزّل عليهم او تقع قريبا من دارهم، و هذا يعنى: إذا لم تصـيبهم هذه الحوادث فى دارهم، فانّها سوف تقع قريبة منهم، فهل لا تكفى هذه الحوادث لايقاظهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۱۹

الآيتان [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (۳۴)

التّفسير

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۴۱۹

كيف تجعلون الأصنام شركاء مع اللّه

؟! نعود مرّة اخرى فى هذه الآيات الى البحث حول التوحيد و الشرك، و هى تخاطب الناس من خلال دليل واضح حيث يقول تعالى: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ ۲۳۸] و هذه الجملة تريد ان تقول بوضوح انّ اللّه سبحانه و تعالى و كأنّه واقف على راس كلّ شخص و يعلم بما يفعلونه و يجازى عليه و بيده تدبير الأمور، و لذلك فإنّ كلمة «قائم» لها معنى واسع يشمل كلّ هذه الأمور، مع انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۰

مجموعة من المفسّرين يرى لها ابعادا خاصّة.

و لإتمام البحث السابق، و مقدّمة للبحث الآتى، يقول تعالى: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ.

ثمّ يجيبهم بلا فاصلة و بعدّة طرق:

يقول اوّلا: قُلْ سَمُّوهُمْ

و المقصود من تسميتهم هو امّا ان يكونوا ليست لهم ايّة قيمة بحيث لا تستطيعون تسميتهم، فكيف تجعلون هذه الموجودات التى لا تستحق حتّى الأسماء و التى لا قيمة لها، فى عداد الخالق القادر المتعال؟

او يكون المقصود: بيّنوا صفاتهم لكى نرى هل يستحقّون العبادة، فنحن نقول فى صفات اللّه جلّ و علا ـ بأنّه الخالق، و الرازق، و المحيى و العالم و القادر، فهل تستطيعون ان تمنحوا هذه الصفات للأصنام؟! او بالعكس إذا أردنا تسميتها نقول بأنّها أحجار و أخشاب ساكنة و فاقدة للعقل و الشعور، و محتاجة لمن يعبدها، و خلاصة القول انّها فاقدة لكلّ شىء! فكيف نجعلها سواء مع اللّه؟ أ فلا تعقلون؟! او يكون المقصود: عدّوا لنا اعمالهم، فهل كشفوا الضرّ لأحد او منحوا الخير لأحد؟ و هل حلّوا العقد و المشاكل؟! و مع هذا الوضع فأى عقل يجيز لكم ان تجعلوهم قرناء مع اللّه جلّ و علا و هو مصدر الخير و البركة و النافع و الضارّ و المثيب و المعاقب!.

طبعا لا مانع من ان تجتمع كلّ هذه المعانى فى جملة سَمُّوهُمْ و يقول ثانيا: أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ

و هذا التعبير فى الحقيقة أفضل أسلوب للجواب على حديثهم الواهى، و كمثال على ذلك يقول لك احد الأشخاص: انّ فلانا كان ضيفا عندكم البارحة، فتقول له: هل تخبرنى عن ضيف لا علم لى به؟! يعنى هل من الممكن ان أحدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۱

يكون ضيفى و لا اعلم به و أنت تعلم بذلك؟! ثالثا: حتّى أنتم فى الواقع لا تؤمنون بذلك فى قرارة أنفسكم، بل أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ

و لهذا السبب نرى المشركين عند ما تضيق بهم المشاكل الحياتية يلوذون باللّه، لانّهم يعلمون فى قلوبهم انّ الأصنام لا يمكن ان تعمل لهم شيئا، كما بيّن القرآن الكريم حالهم فى الآية (۶۵) من سورة العنكبوت حيث يقول تعالى: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ

رابعا: انّ المشركين ليس لهم ادراك صحيح، و بما انّهم تابعين لاهوائهم و تقليدهم الأعمى، فإنّهم غير قادرين على ان يقضوا بالحقّ و بشكل صحيح، و لهذا السبب ضلّوا الطريق، يقول تعالى: بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ

هادٍ.

و قد قلنا مرارا: انّ هذا الضلال ليس جبرا، و لا- هو اعتباطا و بدون حساب، بل الإضلال الالهى انعكاس لما يقوم به الإنسان من الأعمال السيّئة التى تجرّه الى الضياع، و بما انّ هذه الخاصيّة قد جعلها اللّه سبحانه و تعالى لمثل هذه الأعمال فلذلك نسب هذا العمل اليه.

و يشير القرآن الكريم فى الآية الاخيرة من هذه المجموعة الى العقاب الأليم الذى يشملهم فى الدنيا و الآخرة، الشقاء و الهزيمة و الحرمان و غيرها، حيث تقول: لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُ لانّها دائمة و مستمرة، جسدية و روحية، و فيها انواع الآلام.

و إذا اعتقدوا بأنّ لهم طريقا للفرار او سبيلا للدفاع فى مقابل ذلك، فإنّهم فى اشتباه كبير، لان وَ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۲

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۳۵]

اشارة

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (۳۵)

التّفسير

بالنظر الى تناوب آيات هذه السورة فى بيان التوحيد و المعاد و سائر المعارف الاسلامية الاخرى، تحدّثت هذه الآية مرّة اخرى حول المعاد و خصوصا نعم الجنّة و عذاب الجحيم. يقول تعالى اوّلا: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ[۲۳۹].

قد يكون التعبير ب «مثل» اشارة الى هذه النكتة، و هى انّ الجنّة و سائر النعم الاخروية غير قابلة للوصف بالنسبة الى الساكنين فى هذا العالم المحدود الذى هو فى مقابل عالم بعد الموت يعتبر صغيرا جدّا، و لذلك نستطيع ان نضرب لهم مثلا او صورة عن ذلك، كما انّ الجنين فى بطن امّه لو كان يعقل لا يمكن ان نصوّر له كلّ نعم الدنيا، الّا من خلال أمثال ناقصة و شاحبة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۳

الوصف الثّانى للجنّة هو أُكُلُها دائِمٌ

فهى ليست كفاكهة الدنيا فصلية و تظهر فى وقت معيّن من السنة، بل فى بعض الأحيان و بسبب الآفات الزراعية تنقطع تماما، لكن ثمار الجنّة ليست فصلية و لا موسمية و غير مصابة بآفة، بل كإيمان المؤمنين المخلصين دائمة و ثابتة.

و كذلك وَ ظِلُّها ليس كظلّ أشجار الدنيا التى يظهر ظلّها إذا كانت الشمس افقية و يزول او يقل إذا صارت عمودية، او يظهر فى الربيع و الصيف عند ما تكون الأشجار مورقة، و يزول فى الخريف و الشتاء عند تساقط الأوراق، (بالطبع هناك أشجار قليلة تعطى ثمارا و ازهارا على مدار السنة، و هذه تكون فى المناطق المعتدلة التى ليس فيها شتاء).

الخلاصة: ظلال الجنّة كبقيّة النعم الاخرى خالدة، و دائمة، و من هذا يتّضح ان ليس فى الجنّة فصل لتساقط الأوراق، و نعلم من ذلك- ايضا- انّ شعاع الشمس موجود فى الجنّة، و الّا كان التعبير بالظل هناك بدون شعاع الشمس ليس له اى مفهوم، و امّا ما جاء فى الآية (۱۳) من سورة الدهر لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً قد تكون اشارة الى اعتدال الهواء، فلا الشمس محرقة و لا البرد قارس، و هذا لا يعنى ان لا تكون هناك شمس أصلا.

انّ انطفاء الشمس ليس دليلا على زوالها ابدا، لانّ القرآن الكريم يقول:

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ ۲۴۰] تكون أوسع و بهيئة جديدة.

و إذا قيل: ان كانت شمس الجنّة غير محرقة، فعلام الظلّ؟

نقول فى جوابهم: انّ الظلّ ليس مانعا لحرارة الشمس فقط، بل انّ الرطوبة المعتدلة الصادرة من الأوراق باتّحادها مع الاوكسجين تعطى نشاطا و لطافة خاصّة للظلّ، و لذلك كان ظلّ الأشجار مختلفا عن ظلّ السقوف الجافّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۴

و بعد بيان هذه الصفات الثلاث قال تعالى فى آخر الآية: تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ عُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ.

لقد بيّن و فصّل فى هذه العبارة نعم الجنّة، و لكن بالنسبة الى اصحاب النّار ذكر جملة قصيرة و بعنف حيث ذكر انّ عاقبة أمرهم الى النار!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۵

الآية [سورة الرعد (۱۳): آية ۳۶]

اشارة

وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ (۳۶)

التّفسير

المؤمنون و الأحزاب

! اشارت هذه الآية الى ردّ الفعل المتفاوت للناس فى مقابل نزول الآيات القرآنية، فالأفراد الذين يبحثون عن الحقيقة يفرحون بما انزل على الرّسول، بينما المعاندون يخالفون ذلك.

يقول تعالى اوّلا: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ

انّ الوصف ب آتَيْناهُمُ الْكِتابَ اشارة الى اليهود و النصارى و أمثالهم ممّن لهم كتاب سماوى و قد ذكرهم القرآن فى مواطن كثيرة، فكان الأشخاص الطالبون للحقّ من اليهود و النصارى و أمثالهم يفرحون عند نزول الآيات على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لانّهم كانوا من جهة يرونها مطابقة لما فى أيديهم من العلامات، و من جهة اخرى كان سببا لحريتهم و نجاتهم من شرّ الخرافات و من علماء اليهود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۶

و المسيحيّة الذين كانوا يستعبدونهم، و كانوا محرومين من حرية الفكر و التكامل الانسانى.

و امّا ما قاله بعض المفسّرين الكبار من انّ المقصود من الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ هم اصحاب النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فبعيد جدّا، لانّ هذا الوصف ليس معهودا بالنسبة للمسلمين، بالاضافة الى ذلك فإنّها غير موافقة مع جملة بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ ۲۴۱].

و بما انّ سورة الرّعد مكية فهى غير منافية لما قلناه آنفا، مع انّ المركز الاصلى لليهود فى الجزيرة العربية كان المدينة و خيبر، و المركز الاصلى للمسيحيين هو نجران و أمثالها، و لكنّهم كانوا يتردّدون على مكّة و يعكسون افكارهم و معتقداتهم فيها، و لهذا السبب كان اهل مكّة يعرفون علامات آخر نبى مرسل و كانوا ينتظرونه (قصّة ورقة بن نوفل و أمثالها معروفة).

و هناك شواهد لهذا الموضوع فى آيات اخرى من القرآن الكريم و التى كان يفرح المؤمنين من اهل الكتاب عند نزول الآيات على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فمثلا الآية (۵۲) من سورة القصص تقول: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ

ثمّ تضيف الآية وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ المقصود من هذه المجموعة هى نفس جماعة اليهود و النصارى الذين غلبهم التعصّب الطائفى و أمثاله، و لذلك لم يعبّر القرآن الكريم عنهم بأهل الكتاب، لانّهم لم يتّبعوا كتبهم السّماوية. بل كانوا فى الحقيقة أحزابا و كتلا تابعين لخطّهم الحزبى، و هذه المجموعة كانت تنكر كلّ ما خالف ميلهم و لم يطابق أهواءهم.

و يحتمل ايضا انّ كلمة «الأحزاب» اشارة الى المشركين، لانّ سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۷

الأحزاب ذكرتهم بهذا التعبير، و هؤلاء فى الحقيقة ليس لهم دين و لا مذهب بل كانوا على شكل احزاب و كتل متفرّقة اتّحدوا فى مخالفتهم للقرآن و الإسلام.

و نقل العلّامة الطبرسى و بعض آخر من المفسّرين الكبار عن ابن عبّاس، انّ هذه الآية اشارة الى المشركين الذين كانوا يخالفون وصف اللّه بالرحمن، و اهل الكتاب- خصوصا اليهود- يفرحون بهذا الوصف «الرحمان» فى الآيات القرآنية، و مشركى مكّة كانوا يسخرون منه بسبب عدم معرفتهم به.

و فى آخر الآية يأمر اللّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ان لا يعتنى بهذا و ذلك من المخالفين، بل يدعوه الى الثبات على الخطّ الأصيل و الصراط المستقيم حيث يقول تعالى: قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَ لا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَ إِلَيْهِ مَآبِ و تلك دعوة للموحّدين الصادقين و المؤمنين الرّساليين ان يسلّموا امام الأوامر الالهيّة، فالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان خاضعا لكلّ ما انزل عليه، فلا يأخذ ما كان يوافق ميله و يترك غيره.

بحث

الايمان و الائتلاف الحزبى:

رأينا فى الآية كيف انّ اللّه سبحانه و تعالى عبّر عن المؤمنين من اليهود و النصارى بأهل الكتاب، و عبّر عن أولئك التابعين للعصبية و الأهواء بالأحزاب، و هذا غير منحصر فى تاريخ صدر الإسلام، بل انّ هذا التفاوت موجود دائما بين المؤمنين الحقيقيين و الذين يدّعون الايمان، فالمؤمنون الحقيقيون يقولون بالتسليم المطلق لكلّ الأوامر الالهية، و لا يقولون بالتبعيض، و يجعلون ميلهم تحت ذاك الشعاع، فهم اهل لان يسمّيهم القرآن اهل الكتاب و الايمان.

بينما أولئك فهم مصداق الآية نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ و معناه كلّ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۸

طابق خطّهم الفكرى و ميلهم الشخصى و أهواءهم يقبلونه، و كلّ ما خالف منافعهم الشخصيّة ينكرونه، فهؤلاء ليسوا بمسلمين و لا مؤمنين، بل احزاب و كتل يبحثون عن مصالحهم فى الدين، و لذلك كانوا يقولون بالتبعيض فى التعاليم الاسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۲۹

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ (۳۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (۳۸) يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (۳۹) وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (۴۰)

التّفسير

الحوادث «الثّابتة» و «المتغيّرة»:

تتابع هذه الآيات المسائل المتعلّقة بالنبوّة، ففى الآية الاولى يقول تعالى:

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا.

«العربى» كما يقول الرّاغب فى مفرداته «الفصيح البيّن من الكلام» و لذلك يقال للمراة العفيفة و الشريفة: انّها «امراة عروبة» ثمّ تضيف الآية حُكْماً عَرَبِيًّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۰

قيل معناه مفصحا يحقّ الحقّ و يبطل الباطل.

و يحتمل فى «العربى» انّ معناه «الشريف» لانّها جاءت فى اللغة بهذا المعنى. و على هذا فوصف القرآن بالعربى لانّ احكامه واضحة و بيّنة. و لذلك وردت فى عدّة آيات اخرى بعد «عربيا» مسألة الاستقامة و عدم الاعوجاج او العلم، منها فى الآية (۲۸) من سورة الزمر قوله تعالى قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ و فى الآية (۳) من سورة فصلت يقول تعالى: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ و على هذا فما قبل هذه الآية و ما بعدها يؤيّدان انّ المراد من «عربيا» هو الفصاحة و الوضوح فى البيان و خلوّه من الاعوجاج و الالتواء.

و هذه العبارة وردت فى سبع سور من القرآن الكريم، و لكن ذكرت فى عدّة موارد بشكل لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ و التى يمكن ان يكون لها نفس المعنى. و يمكن ان يكون هذا الموضع الخاص اشارة الى اللسان العربى، لانّ اللّه سبحانه و تعالى بعث كلّ نبى بلسان قومه، حتّى يهدى قومه اوّلا، ثمّ تنتشر دعوته فى المناطق الاخرى.

ثمّ يخاطب القرآن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بلحن التهديد و بشكل قاطع حيث يقول:

وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا واقٍ و بما انّ احتمال الانحراف غير موجود إطلاقا فى شخصيّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما يتميّز به من مقام العصمة و المعرفة، فهذا التعبير- اوّلا- يوضّح انّ اللّه سبحانه و تعالى ليس له ارتباط خاص مع اى احد حتّى لو كان نبيّا، فمقام الأنبياء الشامخ انّما هو بسبب عبوديتهم و تسليمهم و استقامتهم.

و ثانيا: تأكيد و إنذار للآخرين، لانّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا لم يكن مصونا من العقوبات الالهيّة فى حالة انحرافه عن مسيرة الحقّ و اتّجاهه صوب الباطل، فما بال الآخرين؟

و لا بدّ من ذكر هذه النقطة، و هى انّ «ولى» و «واق» مع انّهما متشابهان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۱

المعنى، و لكن هناك تفاوت بينهما و هو انّ أحدهما يبيّن جانب الإثبات و الآخر جانب النفى، فواحد بمعنى النصرة و الدعم، و الآخر بمعنى الدفاع و الحفظ.

الآية الاخرى- فى الواقع- جواب لما كان يستشكله اعداء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و من جملة هذه الإشكالات:

اوّلا: كان البعض يقول: هل من الممكن ان يكون الرّسول من جنس البشر، يتزوّج و تكون له ذرّيـة؟ فالآيـة تجيبهم و تقول ليس هـذا بالأمر الغريب: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَ جَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَ ذُرِّيَّةً[۲۴۲].

و يتبيّن من اشكالهم انّهم امّا ان يكونوا غير عالمين بتاريخ الأنبياء، او انّهم يتجاهلون ذلك و الّا لم يوردوا هذا الاشكال.

ثانيـا: كـان ينتظر هؤلاـء من الرّسول ان يجيبهم على كـلّ معجزة يقترحونها عليه بما تقتضـيه اهواؤهم، سواء آمنوا او لم يؤمنوا، و لكن يجب ان يعلم هؤلاء انّ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

ثالثـا: لمـاذا جـاء نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و غيّر احكـام التوراة و الإنجيـل، ا و ليست هـذه كتب سـماوية؟ و هـل من الممكن ان ينقض اللّه أوامره؟ (هذا الاشكال كان يطابق ما يقوله اليهود من عدم نسخ الأحكام).

و تجيب الجملة الاخيرة من الآية فتقول: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ كيما تبلغ البشـرية المرحلة النهائية من الرّشد و التكامل فليس من العجيب ان ينزّل يوما التوراة، و يوما آخر الإنجيل، ثمّ القرآن، لانّ البشرية فى تحوّلها و تكاملها بحاجة الى البرامج المتغيّرة و المتفاوتة.

و يحتمل انّ جملة لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ جواب لمن كان يقول: إذا كان الرّسول صادقا، لماذا لا ينزل اللّه عذابه و سـخطه على المخالفين و المعاندين؟ فيجيبهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۲

القرآن بأنّ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ و ليس بدون حساب و كتاب، و سوف يصل الوقت المعلوم للعقاب ۲۴۳].

الآيـة الاخرى بمنزلـة التأكيـد و الاسـتدلال لما ورد فى ذيل الآيـة السابقة، و هو انّ لكلّ حدث و حكم زمن معيّن كما يقال: انّ الأمور مرهونـة بأوقاتها، و إذا رأيت انّ بعض الكتب السّـماوية تأخذ مكان البعض الآخر و ذلك بسـبب يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ فيحذف بعض الأمور بمقتضى حكمته و ارادته و يثبت أمورا اخرى، و لكن الكتاب الأصل عنده.

و فى النّهايـة و للتأكيـد اكثر بالنسـبة للعقوبـات التى كـان يوعـدهم النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بهـا و كانوا ينتظرونها حتّى انّهم يقولون: لماذا لا تصبح هـذه الوعود عمليـة؟ يقول تعالى وَ إِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ (من انتصارك عليهم و هزيمتهم و تحرير اتباعك و أسر اتباعهم فى حياتك) أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ

نقطتان

اشارة

يجب الانتباه الى هاتين النقطتين:

۱- لوح المحو و الإثبات و امّ الكتاب

مع انّ جملة يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ... نزلت فى مجال المعاجز و الكتب السّـماوية الى الأنبياء، لكنّها تبيّن قانونا عامّا و شاملا و قد أشير اليه فى مختلف المصادر الاسـلامية، و هو انّ تحقّق و صيرورة الحوادث المختلفة للعالم لها مرحلتين: الاولى المرحلة القطعيّة او الثابتة، و لا سبيل للتغيير فيها (و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۳

اشارت إليها الآيـة أعلاه بأمّ الكتاب) و الاخرى المرحلـة المتغيّرة او بعبارة اخرى «المشـروطة» و التى يجـد التغيير سبيلا إليها، و قد عبّر

عنها بالمحو و الإثبات.

و أحيانـا يقال عن المرحلتين: «اللوح المحفوظ» و «لوح المحو و الإثبات» كأنّ ما كتب فى اللوح الاوّل محفوظ لا يتغيّر، امّا الثّانى فمن الممكن محو ما كتب فيه و تغييره.

و امّا حقيقة الأمر فإنّنا- أحيانا- ننظر الى الحوادث بأسباب و علل ناقصة، فمثلا إذا أخذنا بنظر الاعتبار السّمّ الذى بمقتضى طبعه يؤدّى الى قتل الإنسان و كلّ من يتناوله سوف يموت، بـدون علم مسبق انّ لهـذا السّمّ ترياق آخر ضـدّه لو شـربناه بعـده سوف يبطل مفعول الاوّل (و قد نكون على علم به لكن لا نريد ان نتحدّث لسبب او لآخر عن الترياق) لاحظوا هنا انّ هذه الحادثة (الموت بسبب استعمال السّمّ) ليس لهـا جـانب قطعى، و ببيـان آخر انّ مكانها فى (لوح المحو و الإثبات) و يجـد التغيير سبيلا اليه بالنظر الى الأسـباب الاخرى المرتبطة به.

و لكن لو نظرنا الى الحادثة من خلال العلّة التامّة لها، يعنى توفّر الشـروط اللازمة و ازالة الموانع (استعمال السّمّ بدون استعمال الترياق) تكون الحادثة هنا قطعيّة و ببيان آخر: انّ مكانها فى [اللوح المحفوظ و امّ الكتاب و لا سبيل للتغيير فيها.

و يمكن ان نوضّح هذا الحديث بشـكل آخر، و هو: انّ للعلم الالهى مرحلتين (علم بالمقتضـيات و العلل الناقصّة) و (علم بالعلل التامّة) فما ارتبط بالمرحلـة الثانية نعبّر عنها ب (امّ الكتاب و اللوح المحفوظ) و ما ارتبط بالمرحلة الاولى نعبّر عنها ب (لوح المحو و الإثبات) و الّا فليس اللوح موضوعا فى زاوية من السّماء حتى يكتبوا او يمحوا فيه شيئا و يثبتوا بدله شيئا آخر.

و من هنـا تتضـح الاجابـة على كثير من الاسـئلة فى ضوء ما ورد فى المصادر الاصـليّة فى الإسـلام، لانّنا نقرا مرّة فى الرّوايات او بعض الآيات القرآنية، انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۴

العمل الفلانى له الأثر الكذائى، لكنّنا فى بعض الأحيان لا نرى هذه النتيجة، و ذلك بسبب انّ تحقّق تلك النتيجة يعتمد على شرائط او موانع لم تتحقّق.

و هنـاك روايات كثيرة فى باب (اللوح المحفوظ) و (لوح المحو و الإثبات) و علم الأنبياء و الائمّـة عليهم السّـلام، و على سبيل المثال نذكر قسما منها:

۱-

اخرج ابن مردويه و ابن عسـاكر عن على عليه السّـلام انّه سـأل رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عن هـذه الآيـة فقـال له: «لاقرنّ عينيك بتفسـيرها و لاقرّنّ عين امّتى بعدى بتفسـيرها، الصدقة على وجهها، و برّ الوالدين، و اصـطناع المعروف، يحول الشـقاء سعادة و يزيد فى العمر و يقى مصارع السّوء»[۲۴۴].

و هذه اشارة الى انّ الشـقاء و السّـعادة ليست أمورا حتمية، حتّى إذا ارتكب الإنسان إثما و عدّ من الأشـقياء فإنّ باسـتطاعته ان يغيّر من سلوكه و يتّجه صوب الخير، و خصوصا مساعدة و خدمة عباد اللّه، لانّ هذه الأمور مكانها فى (لوح المحو و الإثبات) لا (امّ الكتاب).

و يجب الالتفات الى انّ ما جاء فى هذا الحديث يبيّن قسما من مفهوم الآية.

۲-

عن الفضـيل بن يسار قال: سـمعت أبا جعفر عليه السّـلام يقول: «من الأمور امور محتومـة كائنة لا محالة، و من الأمور امور موقوفة عند اللّه يقدّم فيها ما يشاء و يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء[۲۴۵].

و

عن الامام على بن الحسـين عليه السـلام قال: «لولا آيـة فى كتاب اللّه لحـدّثتكم بما كان و ما يكون الى يوم القيامة، فقلت له: ايّة آية؟ فقال: قال اللّه يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ۲۴۶].

و هذا الحديث دليل على انّ اللوح المحفوظ و لوح المحو و الإثبات بكلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۵

خصوصياتها مختصّة باللّه جلّ و علا، و هناك قسم منها يعلم بها الخواص من عباده إذا اقتضت الضرورة.

و نقرا فى ادعية ليالى شهر رمضان المبارك:

«و ان كنت من الأشقياء فاكتبنى عندك من السعداء».

و على ايّة حال فالمحو و الإثبات بهذا الشكل الذى قلناه له معنى جامع يشمل كلّ تغيير فى الحال بسبب تغيير الشروط و حدوث الموانع، و امّا ما قاله بعض المفسّرين من انّ هذه الجملة اشارة الى مسألة محو الذنوب بسبب التوبة، او زيادة و نقصان الرزق على اثر تغيير الشروط، ليس صحيحا، الّا إذا اعتبروها واحدا من مصاديقها.

۲- ما هو البداء

؟ «البداء» احد البحوث العويصة بين الشيعة و السنّة.

يقول الرازى فى تفسيره الكبير فى ذيل الآية- محلّ البحث-: «يعتقد الشيعة انّ البداء جائز على اللّه، و حقيقة البداء عندهم انّ الشخص يعتقد بشىء ثمّ يظهر له خلاف ذلك الاعتقاد، و لاثبات ذلك يتمسكون بالآية يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ ثمّ يضيف الرازى: انّ هذه العقيدة باطلة، لانّ علم اللّه من لوازم ذاته، و محال التغيير و التبديل فيه».

و ممّا يؤسف له حقّا عدم المعرفة بعقيدة الشيعة فى مسألة البداء ادّت الى ان ينسب كثيرون تهما غير صحيحة الى الشيعة الاماميّة.

و لتوضيح ذلك نقول:

«البداء» فى اللغة بمعنى الظهور و الوضوح الكامل، و له معنى آخر هو الندم، لانّ الشخص النادم قد ظهرت له- حتما- امور جديدة.

لا شكّ، انّ هذا المعنى الأخير بالنسبة الى اللّه تعالى مستحيل، و لا يمكن لاى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۶

عاقل و عارف ان يحتمل انّ هناك أمورا خافية على اللّه ثمّ تظهر له بمرور الايّام، فهذا القول هو الكفر بعينه، و لازمه نسبة الجهل و عدم المعرفة الى ذاته المقدّسة، و انّ ذاته محلّا للتغيير و الحوادث.

و حاشا للشيعة الاماميّة ان يحتملوا ذلك بالنسبة لذات اللّه المقدّسة! انّ ما يعتقده الشيعة من معنى البداء و يصرّون عليه، هو طبقا لما جاء فى روايات اهل البيت عليهم السّلام: ما عرف اللّه حقّ معرفته

من لم يعرفه بالبداء.

كثيرا ما يكون- و طبقا لظواهر العلل و الأسباب- ان نشعر انّ حادثة ما سوف تقع او انّ وقوع مثل هذه الحادثة قد اخبر عنه النّبى، فى الوقت الذى نرى انّ هذه الحادثة لم تقع، فنقول حينها: انّ «البداء» قد حصل، و هذا يعنى انّ الذى كنّا نراه بحسب الظاهر سوف يقع و اعتقدنا تحقّقه بشكل قاطع قد ظهر خلافه.

و الأصل فى هذا المعنى هو ما قلناه فى بحثنا السابق، و هو انّ معرفتنا مرّة تكون فقط بالعلل الناقصة، و لا نرى الشروط و الموانع و نقضى طبقا لذلك، و لكن بعد ان نواجه فقدان الشرط او وجود المانع و يتحقّق خلاف ما كنّا نتوقّعه سوف ننتبه الى هذه المسائل. و كذلك قد يعلم النّبى او الامام بأمور مكتوبة فى لوح المحو و الإثبات القابل للتغيير طبعا، فقد لا تتحقّق أحيانا لمواجهتها بالموانع و فقدان الشروط.

و لكى تتّضح هذه الحقيقة لا بدّ من مقايسة بين «النسخ» و «البداء»: نحن نعلم انّ النسخ جائز عند جميع المسلمين، يعنى من الممكن

ان ينزل حكم فى الشريعة فيتصوّر الناس انّ هذا الحكم دائمى، لكى بعد مدّة يعلن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تغيير هذا الحكم و ينسخه، و يحلّ محلّه حكما آخر (كما قرانا فى حادثة تغيير القبلة).

انّ هذا فى الحقيقة نوع من «البداء» و لكن فى القضايا التشريعيّة و القوانين و الأحكام يسمّونه ب «النسخ» و فى الأمور التكوينيّة يسمّى ب «البداء» و يقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۷

أحيانا: (النسخ فى الأحكام نوع من البداء، و البداء فى الأمور التكوينيّة نوع من النسخ).

فهل يستطيع احد ان ينكر هذا الأمر المنطقى؟ الّا إذا كان لا يفرّق بين العلّة التامّة و العلل الناقصة، او كان واقعا تحت تأثير الدعايات المغرضة ضدّ شيعة اهل البيت عليهم السّلام، و لا يجيز له تعصّبه الأعمى ان يطالع عقائد الشيعة من نفس كتبهم، و العجيب انّ الرازى قد ذكر مسألة «البداء» عند الشيعة فى ذيل الآية يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ بدون ان يلتفت الى انّ البداء ليس اكثر من المحو و الإثبات، و هجم على الشيعة بعصبيته المعروفة و استنكر عليهم قولهم بالبداء.

اسمحوا لنا هنا ان نذكر امثلة مقبولة عند الجميع:

۱- نقرا فى قصّة «يونس» انّ عدم طاعة قومه ادّت الى ان ينزل العذاب الالهى عليهم، و قد تركهم النّبى لعدم هدايتهم و استحقاقهم العذاب، لكن فجأة وقع البداء حيث راى احد علمائهم آثار العذاب، فجمعهم و دعاهم الى التوبة، فقبل الجميع و رفع العذاب فَلَوْ لا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ ۲۴۷].

۲- و جاء فى التأريخ الاسلامى انّ السيّد المسيح عليه السّلام اخبر عن عروس انّها سوف تموت فى ليلة زفافها، لكنّها بقيت سالمة! و عند ما سألوه عن الحادثة قال:

هل تصدّقتم فى هذا اليوم؟ قالوا: نعم. قال: الصدقة تدفع البلاء المبرم ۲۴۸]!.

لقد اخبر السيّد المسيح عليه السّلام عن هذه الحادثة بسبب ارتباطه بلوح المحو و الإثبات، فى الوقت الذى كانت هذه الحادثة مشروطة (مشروطة بأن لا يكون هناك مانع مثل الصدقة) و بما انّها واجهت المانع أصبحت النتيجة شيئا آخر.

۳- و نقرا فى قصّة ابراهيم عليه السّلام- محطّم الأصنام- فى القرآن الكريم انّه امر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۸

بذبح إسماعيل، و ذهب بابنه الى المذبح و تلّه للجبين، فعند ما اظهر إسماعيل استعداده للذبح ظهر البداء الالهى و ظهر انّ هذا الأمر امتحان لكى يرى اللّه تعالى مستوى الطاعة و التسليم عند ابراهيم عليه السّلام.

۴- و نقرا فى سيرة موسى عليه السّلام انّه امر ان يترك قومه اوّلا ثلاثين يوما و يذهب الى مكان الوعد الالهى لاستلام احكام التوراة، لكن المدّة زادت عليها عشرة ايّام اخرى (و ذلك امتحانا لبنى إسرائيل).

هنا يأتى هذا السؤال: ما هى الفائدة من هذه البداءات؟

الجواب على هذا السؤال ليس صعبا بالنظر الى ما قلناه سابقا، لانّه تحدث مسائل مهمّة- أحيانا- مثل امتحان شخص مع قومه، او تأثير التوبة و الرجوع الى اللّه (كما فى قصّة يونس) او تأثير الصدقة و مساعدة المحتاجين و عمل الخير، كلّ ذلك يؤدّى الى دفع الحوادث المفجعة و أمثالها، و هذا يعنى انّ الحوادث المستقبلية قد نظّمت بشكل خاص ثمّ تغيّرت الشرائط فأصبحت شيئا آخر، حتّى يعلم الناس انّ مصيرهم بأيديهم، و هم قادرون ان يغيّروا مصيرهم من خلال تغيير سيرتهم و سلوكهم، و هذه اكبر فائدة نلمسها من البداء «فتدبّر».

فما ورد من انّ أحدا إذا لم يعرف اللّه بالبداء لم يعرفه معرفة كاملة، فهى اشارة لتلك الحقائق.

عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «ما بعث اللّه عزّ و جلّ نبيّا حتّى يأخذ عليه ثلاث خصال: الإقرار بالعبودية، و خلع الأنداد، و انّ اللّه

يقدّم ما يشاء و يؤخّر ما يشاء»[۲۴۹].

و فى الحقيقة انّ اوّل عهد مرتبط بالطاعة و التسليم للّه. و ثانى عهد محاربة الشرك، و الثّالث مرتبط بمسألة البداء، و نتيجته انّ مصيره بيده، فيستطيع ان يغيّر الشروط فيشمله اللطف او العذاب الالهى.

الملاحظة الاخيرة فى هذا المجال .. يقول علماء الشيعة: انّنا حينما ننسب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۳۹

البداء الى اللّه جلّ و علا فإنّه يكون بمعنى «الإبداء» بمعنى اظهار الشىء الذى لم يكن ظاهرا لنا من قبل و لم يكن متوقّعا.

و انّ ما ينسب الى الشيعة بأنّهم يعتقدون انّ اللّه يندم على عمله أحيانا، او يخبر عن شىء لم يعلمه سابقا، فهذه من اكبر التّهم و لا يمكن الصفح عنها ابدا.

لذلك

نقل عن الائمّة عليهم السّلام انّهم قالوا: «من زعم ان اللّه عزّ و جلّ يبدو له فى شىء لم يعلمه أمس فابرءوا منه»[۲۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۰

الآيات [سورة الرعد (۱۳): الآيات ۴۱ الى ۴۳]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۴۱) وَ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَ سَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (۴۲) وَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (۴۳)

التّفسير

البشرية فانية و وجه اللّه باق:

بما انّ الآيات السابقة كانت تتحدّث مع منكرى رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقد تابعت هذه الآيات كذلك نفس البحث. و الهدف هو دعوتهم الى التفكّر، ثمّ الإصلاح عن طريق الإنذار و الاستدلال و غيرها.

يقول تعالى اوّلا: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها من الواضح انّ المقصود من الأرض هنا هم اهل الأرض، يعنى انّ هؤلاء لا ينظرون الى هذا الواقع من انّ الأقوام و الحضارات و الحكومات فى حال الزوال و الابادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۱

الأقوام الذين كانوا اكثر منهم قوّة و آثارا قد ألحدوا تحت الثرى حتّى العلماء و العظماء- الذين هم قوام الأرض- التحقوا بالرفيق الأعلى.

فهل انّ هذا القانون العامّ للحياة الذى يسرى على جميع الافراد و كلّ المجتمع البشرى صغيره و كبيره، غير كاف لايقاظهم و تفهيمهم انّ هذه الايّام القلائل للحياة ليست ابدية؟! ثمّ يضيف: وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَ هُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ و لذلك فإنّ قانون الفناء مكتوب على جبين كلّ الافراد و الأمم من جهة، و من جهة اخرى لا يستطيع احد ان يغيّر هذا الحكم و لا الأحكام الاخرى، و من جهة ثالثة انّ حساب العباد سريع جدّا، و بهذا الترتيب يكون جزاؤه قاطعا.

و قد جاءت فی روایات متعدّدة فی تفسیر «البرهان» و «نور الثقلین» و سائر منابع الحدیث، انّ تفسیر الآیة أعلاه هو «فقدان العلماء» لانّ فقدهم نقصان الأرض و نقص المجتمع الانسانی.

و

نقل المفسّر الکبیر الطبرسی عن الامام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة قال: «ننقصها بذهاب علمائها و فقهائها و خیارها»[۲۵۱].

و نقرا فی حدیث آخر انّ «عبد اللّه بن عمر» تلا هذه الآیة حین استشهد امیر المؤمنین علی علیه السّلام أَنَّا نَأْتِی الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها.

ثمّ قال: «یا امیر المؤمنین، لقد کنت الطرف الأکبر فی العلم، الیوم نقص علم الإسلام و مضی رکن الایمان».

انّ للآیة- بدون شکّ- معنی واسعا کما قلنا، و هی تشمل کلّ نقص فی ذهاب الافراد و المجتمع و اهل الأرض، و إنذار لکلّ الناس، الصالح منهم و الطالح، حتّی العلماء الذین یشکّلون ارکان المجتمع البشری یکون موت أحدهم أحیانا نقصانا للدنیا، فهذا إنذار بلیغ و ساطع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۲

و امّا ما احتمله بعض المفسّرین من انّ المقصود بالنقصان هو نقض ارض الکفّار و اضافتها الی ارض المسلمین، فلا نراه صحیحا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار انّ السورة مکّیة، لانّ الفتوحات فی ذلک الوقت لم تکن موجودة حتّی یراها الکفّار او یشیر إلیها القرآن الکریم.

و امّا ما قاله بعض المفسّرین الذین غرقوا فی العلوم الطبیعیّة، من انّ الآیة أعلاه تشیر الی نقص الأرض من ناحیة القطبین و استواؤها فی خطّ الاستواء، فهذا کذلک نراه بعیدا عن الواقع، لانّ القرآن الکریم لیس فی مقام الاشارة الی ذلک.

ثمّ یستمرّ البحث فی الآیة الثانیة و یقول: لیست هذه الفئة فقط نهضت بمکرها و محاربتها لک، بل وَ قَدْ مَکَرَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ لکن خططهم کشفت، و أجهضت مؤامرتهم بأمر من اللّه، لانّه اعلم الموجودات بهذه المسائل فَلِلَّهِ الْمَکْرُ جَمِیعاً ذاک هو العالم بکلّ شیء و یَعْلَمُ ما تَکْسِبُ کُلُّ نَفْسٍ ثمّ یحذرهم بصیغة التهدید من عاقبة عملهم و یقول: وَ سَیَعْلَمُ الْکُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَی الدَّارِ.

الآیة الاخیرة من هذا البحث (کما بدأت هذه السورة بکتاب اللّه و القرآن) تنهی سورة الرعد فی التأکید اکثر علی معجزة القرآن یقول تعالی: وَ یَقُولُ الَّذِینَ کَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا.

فهم یصطنعون کلّ یوم عذرا، و یطلبون فی کلّ وقت المعاجز، ثمّ آخر الأمر یقولون: لست بنبی! قل فی جوابهم قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ فاللّه سبحانه و تعالی یعلم بأنّی رسوله، و کذلک هؤلاء لهم المعرفة الکافیة بأنّ القرآن هو کتاب سماوی، فهم یعلمون جیّدا انّ هذا الکتاب لیس من صنع البشر، و لا یمکن نزوله الّا من قبل اللّه.

و هذا تأکید جدید علی اعجاز القرآن بمختلف جوانبه و قد ذکرنا ذلک فی أماکن اخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۳

و بناء علی ما قلناه أعلاه فإنّ المقصود ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ هم العالمون بمحتوی القرآن الکریم.

و احتمل بعض المفسّرین انّها تشیر الی علماء اهل الکتاب الذین قرءوا علائم نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتبهم السّماویة، و من جهة حبّهم و معرفتهم آمنوا به.

لکن التّفسیر الاوّل نراه اقرب الی الصحّة.

و قد ذکرت کثیر من الرّوایات انّ المقصود ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ هو علی بن أبی طالب علیه السّلام و ائمّة الهدی، و هذه الرّوایات جمعت فی تفسیر نور الثقلین و البرهان.

و هذه الرّوایات غیر دالّة علی الحصر، و کما قلنا مرارا فإنّها تشیر الی مصداق او مصادیق تامّة و کاملة، و علی ایّة حال فالتّفسیر الاوّل

الذی ذکرناه یؤیّد ذلک.

و من المناسب ان ننهی حدیثنا هنا بهذه الرّوایة

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

عن أبی سعید الخدری قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن قول اللّه جلّ ثناؤه:

قالَ الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ قال: «ذاک وصی اخی سلیمان بن داود» فقلت له: یا رسول اللّه: قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ قال: «ذاک علی بن أبی طالب»[۲۵۲].

اللهمّ افتح لنا أبواب رحمتک و ألهمنا من علم الکتاب.

ربّنا أنر قلوبنا بمعرفة القرآن و احبس افکارنا علی الحاجة إلیک حتّی لا نتوجّه لغیرک فی مسائلنا، انّک موضع الحاجات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۵

سورة ابراهیم

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها اثنان و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۷

سورة ابراهیم تحتوی علی (۵۲) آیة، السورة مکّیة باستثناء الآیات (۲۸) و (۲۹) طبقا لما قاله کثیر من المفسّرین انّها نزلت بالمدینة فی قتلی المشرکین فی بدر.

محتوی السورة

المعلوم من اسم السورة انّ قسما منها نازل بشأن بطل التوحید و محطّم الأصنام سیّدنا ابراهیم علیه السّلام (قسم من ادعیته).

و القسم الآخر من هذه السورة یشیر الی تاریخ الأنبیاء السابقین أمثال نوح و موسی، و قوم عاد و ثمود، و ما تحتوی من دروس و عبر فیها.

و تکمل هذه المجموعة من البحوث فی السورة آیات الموعظة و النصیحة و البشارة و الإنذار.

کما نقرا فی اغلب السور المکّیة انّ قسما کبیرا منها ایضا یبحث مواضیع «المبدإ» و «المعاد» و التی تعمّق الایمان فی قلب الإنسان و فی روحه و نفسه ثمّ فی قوله و فعله، فیظهر له نور آخر فی مسیرة الحقّ و الدعوة الی اللّه.

و خلاصة هذه السورة انّها تبیّن عقائد و نصائح و مواعظ سیرة الأقوام الماضیة، و الهدف من رسالة الأنبیاء و نزول الکتب السّماویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۸

فضیلة السورة

روی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرا سورة ابراهیم و الحجر اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام و بعدد من لم یعبدها»[۲۵۳].

و کما أسلفنا مرارا فإنّ ما ورد من الثواب حول قراءة السور القرآنیة یلازمه التفکّر و من ثمّ العمل، و لمّا کانت هذه السورة و سورة الحجر تبحثان موضوع التوحید و الشرک و أصولهما و فروعهما، فإنّ من البدیهی انّ العمل بمضمونهما له نفس الفضیلة، أی انّهما

تصيغان الإنسان بصياغتهما حتّى توصلاه الى مثل هذا الثواب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۴۹

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۱) اللَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ (۲) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ (۳)

التّفسير

الخروج من الظّلمات الى النّور

! شرعت هذه السورة- كبعض السور القرآنية الاخرى- بالحروف المقطّعة، التى ذكرنا تفسيرها فى بداية سورة البقرة و آل عمران، و النقطة التى يجب ملاحظتها هنا انّ من بين ۲۹ موردا لسور القرآن التى ابتدأت بالحروف المقطّعة هناك ۲۴ مورد ذكر بعدها مباشرة القرآن الكريم، و التى تبيّن انّ هناك علاقة بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۰

الاثنين، اى بين الحروف المقطّعة و القرآن، و لعلّ هذه العلاقة هى نفسها التى ذكرناها فى بداية سورة البقرة، فاللّه سبحانه و تعالى يريد ان يوضّح من خلال هذا البيان انّ هذا الكتاب السّماوى العظيم المتعهّد لقيادة الانسانيّة يتكوّن من مواد بسيطة تسمّى بحروف الالفباء، و هذه تشير الى اهميّة هذا الاعجاز، حيث يوجد اصدق بيان من ابسط بيان.

و على ايّة حال فبعد ذكر الحروف (الف لام راء) يقول تعالى: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

فى الواقع انّ جميع الاهداف التربوية و الانسانية، المعنوية و المادية من نزول القرآن قد جمعت فى هذه الجملة (الخروج من الظّلمات الى النّور) اى الخروج من ظلام الجهل الى نور المعرفة، و من ظلام الكفر الى نور الايمان، من ظلم الظالمين الى نور العدالة، و من الفساد الى الصلاح، و من الذنوب الى الطهارة و التقوى، و من التفرقة و النفاق الى نور الوحدة.

و من الطريف انّ «الظّلمات» هنا (كما فى بعض السور الاخرى) جاءت بصيغة الجمع و «النّور» بصيغة المفرد، و هذه اشارة الى انّ كلّ الحسنات و الطيّبات و الايمان و التقوى لها حالة واحدة فى ظلّ التوحيد و نوره، فهى مترابطة و متّحدة فيما بينها، فتصنع مجتمعا واحدا متّحدا و طاهرا من كلّ جهة.

بينما الظّلمات تعنى التشتّت و تفرقة الصفوف، و حتّى الطواغيت و المذنبين و المفسدين و المنحرفين فى مسيرتهم الانحرافية نراهم غير متوحّدين غالبا، و فى حالة حرب فيما بينهم.

و من هنا لمّا كان مصدر كلّ الخير هى الذات الالهيّة المقدّسة، و الشرط الأساس لدرك التوحيد هو الالتفات الى هذه الحقيقة، فإنّه يضيف بلا فاصلة بِإِذْنِ رَبِّهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۱

و لكى يبيّن اكثر ما هو النّور يقول تعالى: إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ[۲۵۴] فعزّته دالّة على قدرته، لانّه لا يستطيع احد ان يغلبه، و الحميد دالّة على نعمه و مواهبه غير المتناهية، لانّ الحمد و الثناء دائما تكون فى مقابل النعم و المواهب.

الآية الثانية و لكى تعرّف اللّه بصفاته، تبيّن درسا من دروس التوحيد حيث تقول: اللَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ ۲۵۵] فله كلّ شىء، لانّه خالق جميع الموجودات، و لهذا السبب هو القادر و العزيز و واهب النعم و الحميد.

ثمّ يتطرّق فى نهاية الآية الى مسألة المعاد (بعد ان ذكر المبدإ) فتقول الآية:

وَ وَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ.

ثمّ يعرّف القرآن الكريم الكفّار فى الآية الاخرى، و يذكر لهم ثلاث صفات كيما نستطيع ان نعرّفهم من اوّل وهلة، يقول تعالى اوّلا: الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ[۲۵۶] فهم يضحّون بالايمان و الحقّ و العدالة و الشرف التى هى من خصائص محبّى الآخرة، من اجل منافعهم الشخصيّة و شهواتهم.

ثمّ يبيّن تعالى انّ هؤلاء غير قانعين بهذا المقدار من الضلال، بل يسعون فى ان يضلّوا الآخرين وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فهم فى الواقع يوجدون الموانع المختلفة فى طريق الفطرة الالهيّة فيزيّنون الهوى، و يدعون الناس الى الذنوب، و يخوّفونهم من الصدق و الإخلاص.

و لا يقتصر عملهم على ذلك فحسب، بل وَ يَبْغُونَها عِوَجاً ثمّ يحاولون ان يصبغوا الآخرين بصبغتهم، و يسعون فى ان يحرفوا السبيل للوصول الى هدفهم من خلال نشر الخرافات و ابتداع السنن الخبيثة أُولئِكَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۲

و هذا الضلال قد أوجد بعد المسافة بينهم و بين الحقّ فكان من العسير جدّا عودتهم الى طريق الحقّ، و لكن ذلك كان نتيجة لاعمالهم.

ملاحظات

۱- مثل الإيمان و طريق اللّه مثل النّور

بالنظر الى انّ النّور الطف الموجودات الماديّة فى العالم، و سرعة مسيره أعلى سرعة، و بركته من اكبر البركات، و يمكن ان يقال انّه اصل لكلّ المواهب و البركات، فإنّه يتّضح الى اى مدى يشتمل النّور على معنى كبير بحيث انّ القرآن شبّه الايمان و السير فى طريق اللّه بالنّور.

و النّور اصل التجمّع بينما الظلمة عامل للتفرّق، النّور علامة الحياة و الظلمة علامة الموت.

و لهذا السبب شبّه القرآن الكريم كثيرا من الأمور القيّمة بالنّور، و من جملتها العمل الصالح يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ ۲۵۷].

و كذلك الايمان و التوحيد، قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۲۵۸].

و قد شبّه القرآن الكريم بالنّور فى قوله تعالى: فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۲۵۹].

و كذلك الذين يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ [۲۶۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۳

بل اكثر من ذلك عبّر عن ذاته المقدّسة التى هى أفضل و اسمى ما فى الوجود بالنّور اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [۲۶۱] و مع انّ كلّ

هـذه الأمور تعود الى تلك الحقيقة، لانّها من اللّه، و من الايمان به، فإنّها وردت بصـيغة المفرد، و على عكس الظّلمات التى هى عامل التشتّت لذلك وردت بصيغة الجمع التى تبيّن الكثرة و التعدّد.

و بما انّ الايمان باللّه و السير فى طريقه باعث على الحركة و موجبا لليقظة، و عامل للاجتماع و الوحدة، و وسيلة للتقدّم و الكمال، فإنّ هذا التشبيه على كلّ حال اكثر محتوى و دلالة تربوية.

۲- التعبير ب «لتخرج» فى الآية الاولى تشير الى نقطتين:

الاـولى: بما انّ القرآن الكريم كتاب هدايـة و نجاة للبشـر، لكنّه بحاجـة الى من يطبقه و يجريه، فيجب ان يكون هناك قائـد كالرّسول لكى يسـتطيع ان يخرج الضالّين عن الحقيقة من ظلمات الشـقاء و هدايتهم الى نور السعادة، و لهذا فالقرآن الكريم بعظمته لا يمكن له ان يحلّ جميع المشاكل بدون وجود القائد و المنفّذ لهذه الأحكام.

الثانيـة: انّ صـيغة الإـخراج فى الواقع دليـل على التحرّك المشـفوع بـالتغيّر و التحوّل، و كأنّ غير المؤمنين موجودون فى محيط مغلق و مظلم، و الرّسول- او القائد- يأخذ بأيديهم و يدخلهم الى جوّ واسع و منير.

۳- الملفت للنظر انّ بداية هذه السورة شرعت بمسألة هداية الناس من الظّلمات الى النّور، و نهايتها ختمت بمسألة إبلاغ و إنذار الناس، و هذه توضّح انّ الهدف الاصلى فى كلّ الأحوال هو الناس و مصيرهم و هدايتهم، فإنزال الكتب السّماوية و بعث الأنبياء فى الواقع هو للوصول الى هذا الهدف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۴

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۵) وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (۶) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (۷)

التّفسير

الايّام الحسّاسة فى الحياة:

كان الحديث فى الآيات السابقة عن القرآن الكريم و آثاره الروحية، و تتابع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۵

الآية الاولى من هذه المجموعة نفس الموضوع، لكن فى بعد خاص و هو انّ دعوة الأنبياء و كتبهم السّماوية نزلت بلسان اوّل قوم بعثوا إليهم. يقول تعالى:

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ

لانّ الأنبياء يرتبطون فى الدرجة الاولى مع قومهم، و اوّل نور الوحى يشعّ من بينهم، و اوّل الصحابة و الأنصار ينتخبون منهم، لذلك فإنّ الرّسول يجب ان يحدّثهم بلغتهم و بلسانهم لِيُبَيِّنَ لَهُمْ

و فى الحقيقة فإنّ هذه الجملة تشير الى انّ دعوة الأنبياء لا تنعكس فى قلوب اتباعهم بأسلوب مرموز و غير معروف، بل كانت توضّح لهم من خلال التبيين و التعليم و التربية و بلسانهم الرائج.

ثمّ يضيف القرآن الكريم بعد ان بيّن لهم الدعوة الالهيّة فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فليست الهداية و الضلال من عمل الأنبياء، بل عملهم الإبلاغ و التبيين، اللّه سبحانه و تعالى هو الموجّه و الهادى الحقيقى لعباده.

و لكى لا يتصوّر احد انّ هذا القول بمعنى الجبر و سلب الحريّات، فيضيف القرآن مباشرة وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و بمقتضى عزّته و قدرته فإنّه قادر على كلّ شىء، و لا احد له قدرة على المقاومة فى مقابل ارادته تعالى، و لكن بمقتضى حكمته لا يهدى و لا يضلّ أحدا بدون سبب و دليل، بل الخطوة الاولى تبدا من قبل العباد و بكامل الحرية فى السير الى اللّه، ثمّ يشعّ نور الهداية و فيض الحقّ فى قلوبهم، كما فى سورة العنكبوت الآية (۶۹) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا.

و كذلك حال الذين تاهوا فى وادى الضلالة و حرموا من فيض الهداية، فهو نتيجة لتعصّبهم الأعمى و محاربتهم للحقّ، و غرقهم فى الشّهوات، و تلوّثهم بالظلم و الجور. كما يقول تعالى: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ [۲۶۲] و يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۶

ايضا: وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ [۲۶۳] و قوله تعالى: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۲۶۴].

و على هذا النحو فإنّ محور الهداية و الضلال فى ايدى الناس أنفسهم.

تشير الآية الأخرى الى واحدة من نماذج إرسال الأنبياء فى مقابل طواغيت عصرهم، ليخرجوهم من الظّلمات الى النّور: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۲۶۵].

و كما قرانا فى الآية الاولى من هذه السورة فإنّ خلاصة دعوة رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى إخراج الناس من الظّلمات الى النّور، فهذه دعوة كلّ الأنبياء، بل جميع القادة الروحيين للبشر، فهل الظلم غير الضلال و الانحراف و الذلّ و العبوديّة و الفساد و الظلم؟! و هل النّور غير الايمان و التقوى و الحرية و الاستقلال و العزّة و الشرف؟! لذلك فإنّها تمثّل الخطّ المشترك و الجامع بين كلّ دعوات القادة الإلهيين.

ثمّ يشير القرآن الكريم الى واحدة من اكبر مسئوليات موسى عليه السّلام حيث يقول تعالى: وَ ذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ

من المتيقّن انّ كلّ الايّام هى ايّام اللّه، كما انّ كلّ الأماكن متعلّقة باللّه جلّ و علا، و إذا كانت هناك نقطة خاصّة تسمّى (بيت اللّه) فذلك بدليل ميزاتها، كذلك ايّام اللّه تشير الى ايّام مميّزة لها خصائص منقطعة النظير.

و لهذا السبب اختلف المفسّرون فى تفسيرها:

قال البعض: انّها تشير الى ايّام النصر للأنبياء السابقين و أممهم و الايّام التى شملتهم النعم الالهيّة فيها على اثر استحقاقهم لها.

و قال البعض الآخر: انّها تشير الى العذاب الالهى الذى شمل الأقوام الطاغين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۷

و العاصين لأمر اللّه.

و قال آخرون: انّها تشير الى المعنيين السابقين معا.

لكنّنا- حقّا- لا نستطيع ان نجعل هذه العبارة البليغة و الواضحة محدودة، فأيّام اللّه هى جميع الايّام العظيمة فى تاريخ الانسانيّة. فكلّ يوم سطعت فيه الأوامر الالهيّة و جعلت بقيّة الأمور تابعة لها، هى من ايّام اللّه، و كلّ يوم يفتح فيه فصل جديد من حياة الناس فيه درس و عبرة، او ظهور نبى فيه، او سقوط جبّار و فرعون- او كلّ طاغ- و محوه من الوجود. خلاصة القول: كلّ يوم يعمل فيه بالحقّ و العدالة و يقع فى الظلم و تطفأ فيه بدعة، هو من ايّام اللّه.

و كما سوف نرى انّ روايات الائمّة عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية تشير الى هذه الايّام الحسّاسة.

و فى آخر الآية يقول تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

«صبّار» و «شكور» صيغة مبالغة فأحدهما تشير الى شدّة الصبر، و الاخرى الى زيادة الشكر، و تعنى انّ المؤمنين كما لا يستسلمون للحوادث و المشاكل التى تصيبهم فى حياتهم، كذلك لا يغترّون و لا يغفلون فى ايّام النصر و النعم، و ذكر هاتين الصفتين بعد الاشارة الى ايّام اللّه دليل على ما قلناه.

تشير الآية الاخرى الى احد هذه الايّام التى كانت ساطعة و مثمرة فى تاريخ بنى إسرائيل، و ذكرها تذكرة للمسلمين حيث يقول تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ هؤلاء الفراعنة الذين كانوا يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَ يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

اى يوم اكثر بركة من ذلك اليوم حيث أزال اللّه عنكم فيه شرّ المتكبرين و المستعمرين، الذين كانوا يرتكبون أفظع الجرائم بحقّكم، و اى جريمة أعظم من ذبح أبنائكم كالحيوانات (انتبه الى انّ القرآن عبّر بالذبح لا بالقتل) و اهمّ من ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۸

فإنّ نواميسكم كانت خدما فى ايدى الطامعين.

و ليس هذا المورد خاصّ ببنى إسرائيل، بل فى جميع الأمم و الأقوام. فإنّ يوم الوصول الى الاستقلال و الحرية و قطع ايدى الطواغيت يوم من ايّام اللّه الذى يجب ان نتذكّره دوما حتّى لا نعود الى ما كنّا عليه فى الايّام الماضية.

«يسومونكم» من مادّة (سوم) على وزن (صوم) بمعنى البحث عن الشىء، و تأتى بمعنى فرض عمل على الآخرين ۲۶۶]، و لهذا فإنّ معنى جملة يسومونكم سوء العذاب: انّ أولئك كانوا يفرضون عليكم اسوا الأعمال و أكثرها تعذيبا. و هل انّ تجميد و ابادة الكتلة الفعّالة فى المجتمع و استخدام نسائهم و اذلالهنّ على يد فئة ظالمة و طاغية يعتبر امرا هيّنا؟! ثمّ انّ التعبير بفعل المضارع «يسومون» اشارة الى انّ هذا العمل كان مستمرّا لمدّة طويلة.

و جملة يُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ ... معطوفة على «سُوءَ الْعَذابِ» و فى عين الوقت هى من مصاديق سوء العذاب، و ذلك بسبب اهميّة هذين العذابين، و هذا توضيح انّ فرعون و قومه الظالمين فرضوا على بنى إسرائيل احكاما جائرة اخرى، الّا انّ هذين العذابين كانا اشدّ و أصعب.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ[۲۶۷] يمكن ان تكون هذه الآية من كلام موسى لبنى إسرائيل التى دعاهم فيها الى الشكر فى مقابل ذلك النجاة و النصر و النعم الكثيرة، و وعدهم بزيادة النعم، و فى حالة كفرهم هدّدهم بالعذاب، و يمكن ان تكون جملة مستقلّة و خطابا للمسلمين، و لكن على ايّة حال فالنتيجة واحدة، لانّه حتّى إذا كان الخطاب موجّها لبنى إسرائيل وروده فى القرآن الكريم ليكون درسا بنّاء لنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۵۹

و من الطريف انّه فى حالة الشكر يقول بصراحة لَأَزِيدَنَّكُمْ امّا فى حالة كفران النعم فلا يقول (اعذّبكم) بل يقول: إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ و هذا التفاوت دليل على سموّ اللطف الالهى.

بحوث

۱- التذكّر لايام اللّه

كما قلنا فى تفسير الآية أعلاه، فإنّ اضافة «ايّام» الى «اللّه» اشارة الى الايّام المصيرية و المهمّة فى حياة الناس، فإنّها بسبب عظمتها

أضیفت إلیها کلمة «اللّه»، و کذلک لانّ واحدة من النعم الالهیّة الکبیرة شملت حال قوم او امّة، او احدی العقوبات الکبری أصابت قوما طاغین بالعذاب الالهی، و قد أراد اللّه تعالی ان یجعل هذه الایّام تذکرة باقیة للناس.

الرّوایات الواردة من اهل البیت علیهم السّلام تشیر انّهم فسّروا «ایّام اللّه» بأیّام مختلفة،

فعن الامام الباقر علیه السّلام قال «ایّام اللّه، یوم یقوم القائم علیه السّلام و یوم الکرّة[۲۶۸]، و یوم القیامة»[۲۶۹].

و

جاء فی تفسیر علی بن ابراهیم «ایّام اللّه ثلاثة ایّام، یوم قیام المهدی علیه السّلام و یوم الموت، و یوم القیامة».

و

عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال «ایّام اللّه نعماؤه و بلاؤه ببلائه سبحانه»[۲۷۰].

و کما قلنا سابقا فإنّ مثل هذه الأحادیث غیر دالّة علی الحصر إطلاقا، بل هی بیان لقسم من مصادیقها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۰

و علی ایّة حال فتذکر الایّام العظیمة (من ایّام النصر او من ایّام الشدّة) له دور مؤثّر فی یقظة الشعوب، و بالإلهام من هذا النداء السّماوی سوف نحیی الایّام العظیمة فی التاریخ الاسلامی، و نخصّص لها ایّاما معیّنة فی السنة لتجدید ذکراها، لکی نتعلّم منها الدروس التی لها اثر مهمّ فی یومنا هذا.

و فی تاریخنا المعاصر- خصوصا فی تأریخ الثورة الاسلامیة فی ایران- توجد ایّام مثیرة جدّا و التی هی بحقّ مصداق ل «ایّام اللّه» و یجب ان نذکرها فی کلّ سنة، و هی التی امتزجت بذکری الشهداء، المقاتلین، المجاهدین الکبار، و من ثمّ نستلهم منها و نحفظ میراثهم الکبیر.

و علی هذا الأساس یجب ان ندخل هذه الایّام العظام ضمن برامج الکتب الدراسیّة فی مدارسنا، و ضمن التعلیم و التربیة لأبنائنا، و لکی نعلم مسئولیتنا «و ذکّرهم» فی مقابل الأجیال القادمة.

لقد أشار القرآن الکریم مرارا الی «ایّام اللّه» فنسبها لبنی إسرائیل مرّة، و اخری للمسلمین، و ذکّرهم بأیّام النعم و العذاب.

۲- طریقة الجبّارین فی التعامل

نقرا مرارا فی آیات القرآن الکریم انّ الفراعنة کانوا یذبحون أبناء بنی إسرائیل و یحتفظون بنسائهم، و هذا العمل لا یقتصر علی فرعون، بل کان علی طول التاریخ طریقة کلّ المستعمرین حیث کانوا یبیدون قسما من القوی الفاعلة و المقاومة، و یضعفون قسما آخر منها و یستخدمونها فی منافعهم الخاصّة، و بدون هذا العمل لا یمکنهم الاستمرار فی استعمارهم.

و المهمّ یجب ان نعلم انّهم کانوا یذبحون الأبناء مباشرة مرّة (کالفراعنة) و أحیانا یبیدوهم بالادمان علی المخدّرات و المشروبات الکحولیة، و إغراقهم فی دوّامة الفحشاء لذلک یجب ان ینتبه المسلمون الی هذه المسألة، فإذا سلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۱

جیل الشباب هذه المسالک المهلکة و فقد سلاح الایمان و مقدرته الجسدیة، فیجب ان یعلم عبودیته للأجانب حتمیة.

۳- الحریة من أفضل النعم

من الطریف انّ الآیة أعلاه بعد ان ذکرت «ایّام اللّه» اشارت بصراحة الی یوم واحد منها، و هو یوم نجاة بنی إسرائیل من قبضة الفراعنة

إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ انّ تاریخ بنی إسرائیل ملیء بالایّام العظیمة التی وهبهم اللّه فیها النعم الکبیرة تحت ظلّ هدایة موسی، و لکن ذکر (یوم النجاة) فی الآیة أعلاه دلیل علی اهمیّة الحریة و الاستقلال فی مصیر الأمم.

نعم لا تستطیع ای امّة ان تظهر نبوغها و استعدادها الّا من خلال قطع التبعیة للاجنبی و التحرّر من قبضة الاستعمار و اسره. و لا یمکن ان ترفع قدما فی سبیل اللّه الّا من خلال محاربة الشرک و الظلم.

و لهذا السبب کان العمل الاوّل للقادة الإلهیین هو تحریر الشعوب من التبعیّة الفکریة و الثقافیة و السیاسیّة و الاقتصادیة، ثمّ العمل فی إیجاد البرامج التوحیدیّة و الانسانیّة لهم.

۴- الشکر سبب لزیادة النعم و الکفر سبب للفناء

ممّا لا شکّ فیه انّ اللّه سبحانه و تعالی لیس بحاجة الی شکرنا فی مقابل نعمه علینا، و إذا أمرنا بالشکر فذاک لنستوجب نعمة اخری و هی واحدة من المبادئ السامیة فی التربیة.

المهمّ ان نعرف ما هی حقیقة الشکر؟ لکی یتّضح علاقته فی زیادة النعمة من این؟ و کیف تستطیع ان تکون عاملا مهمّا للتربیة؟

انّ حقیقة الشکر لیس فقط ما یقوله الإنسان (الحمد للّه) او الشکر اللفظی، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۲

هناک ثلاث مراحل للشکر:

الاولی: یجب ان نعلم من هو الواهب للنعم؟ هذا العلم و الایمان الرکن الاوّل للشکر.

و الثّانیة: الشکر باللسان.

و الثّالثة: و هی الاهمّ الشکر العملی، ای ان نعلم الهدف من منحنا للنعمة، و فی ایّ مورد نصرفها، و الّا کفرنا بها، کما قال العظماء: (الشکر صرف العبد جمیع ما أنعمه اللّه تعالی فیما خلق لأجله).

لماذا أعطانا اللّه تعالی العین؟ و لماذا وهبنا السمع و النطق؟ فهل کان السبب غیر ان نری عظمته فی هذا العالم، و نتعرّف علی الحیاة؟ و بهذه الوسائل نخطو الی التکامل، ندرک الحقّ و ندافع عنه و نحارب الباطل، فإذا صرفنا النعم الالهیّة فی هذا المسیر کان ذلک هو الشکر العملی له، و إذا أصبحت هذه الأدوات وسیلة للطغیان و الغرور و الغفلة و الابتعاد عن اللّه فهذا هو عین الکفران!

یروی عن الامام الصادق علیه السّلام انّه قال: «ادنی الشکر رؤیة النعمة من اللّه من غیر علّة یتعلّق القلب بها دون اللّه، و الرضا بما أعطاه، و انّ لا تعصیه بنعمة و تخالفه بشیء من امره و نهیه بسبب من نعمته»[۲۷۱].

و هنا یتّضح انّ شکر العلم و المعرفة و الفکر و المال و السلامة، کلّ واحد منها من ای طریق یتمّ؟ و کیف یکون کفرانها؟

الحدیث الوارد عن الامام الصادق علیه السّلام دلیل واضح علی هذه التّفسیرات حیث یقول: «شکر النعمة اجتناب المحارم»[۲۷۲].

و تتّضح ایضا هذه العلاقة بین الشکر و زیادة النعمة، لانّ الناس لو صرفوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۳

النعم الالهیّة فی هدفها الحقیقی، فسوف یثبتون عملیّا استحقاقهم لها و تکون سببا فی زیادة الفیوضات الالهیّة علیهم.

من الثابت انّ هناک نوعین من الشکر، (شکر تکوینی) و (شکر تشریعی).

«الشکر التکوینی» هو ان یستفید الکائن الحی من مواهبه فی نموّه و رشده، فمثلا یری المزارع انّ القسم الفلانی من مزرعته تنمو فیه الأشجار بشکل جید، و کلّما یخدمها اکثر تنتج اکثر، فهذا الأمر سوف یؤدّی الی ان یقوم المزارع علی خدمة و تربیة ذلک القسم بشکل اکبر، و یوصی مساعدیه بها، لانّ الأشجار تنادیه بلسان حالها: ایّها المزارع، نحن لائقون مناسبون، افض علینا من النعم، و هو

يجيبهم بالاثبات.

امّا إذا راى فى قسم آخر أشجارا ذابلة و يابسة و ليس لها ثمر، فكفران النعمة من قبلها بهذه الصورة يسبّب عدم اعتناء المزارع بها، و إذا استمرّ الوضع بهذا الحال سوف يقوم بقلعها.

و هذه الحالة موجودة فى عالم الانسانيّة بهذا التفاوت، و هو انّ الأشجار ليس لها الاختيار، بل هى خاضعة للقوانين التكوينيّة، امّا الإنسان فباستفادته فى ارادته و اختياره و تربيته التشريعيّة يستطيع ان يخطو فى هذا المجال خطوات واثقة.

و لذلك فمن يستخدم نعمة القوّة فى الظلم، ينادى بلسان حاله: الهى، انا غير لائق لهذه النعمة، و من يستخدمها لاقامة الحقّ و العدالة يقول بلسان حاله: الهى، انا مناسب و لائق فزد نعمتك علىّ! و هناك حقيقة غير قابلة- ايضا- للترديد، و هى انّنا فى كلّ مرحلة من مراحل الشكر الالهى- ان كان باللسان او العمل- سوف نحتاج الى شكر جديد لمواهب و عطايا جديدة، و لذلك فلسنا قادرين ان نؤدّى حقّ الشكر، كما نقرا

فى مناجاة الشاكرين للإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام: «كيف لى بتحصيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۴

الشكر و شكرى ايّاك يفتقر الى شكر، فكلّما قلت لك الحمد وجب علىّ لذلك ان أقول لك الحمد»!

و لهذا فإنّ أعلى مراحل الشكر ان يظهر الإنسان عجزه امام شكر نعمائه تعالى، كما

جاء فى الحديث عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «فيما اوحى اللّه عزّ و جلّ الى موسى: اشكرنى حقّ شكرى، فقال: يا ربّ، و كيف أشكرك حقّ شكرك، و ليس من شكر أشكرك به الّا و أنت أنعمت به علىّ؟ قال: يا موسى، الآن شكرتنى حين علمت انّ ذلك منى»[۲۷۳].

هناك عدّة نقاط فى مجال شكر النعمة:

۱-

قال الامام على عليه السّلام فى احدى حكمه: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر»[۲۷۴].

۲- يجب الالتفات الى هذا الموضوع، و هو انّ الشكر و الحمد ليس كافيا فى مقابل نعمائه تعالى، بل يجب ان نشكر- كذلك- الأشخاص الذين كانوا وسيلة لهذه المواهب و نؤدّى حقوقهم من هذا الطريق، و نشوّقهم اكثر بالخدمة فى هذا السبيل، كما نقرا

فى الحديث عن الامام على بن الحسين عليه السّلام قال: «و انّ اللّه يحبّ كلّ قلب حزين و يحبّ كلّ عبد شكور، يقول اللّه تبارك و تعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أ شكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرنى إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم للّه أشكركم للناس»[۲۷۵].

۳- انّ الوعد فى زيادة نعم الشاكرين لا ينحصر فى النعم المادية فقط، بل الشكر نفسه مصحوبا بالتوجّه الخاص للّه و الحبّ لساحته المقدّسة هو واحد من النعم الالهيّة الروحيّة الكبيرة، و التى لها تأثير كبير فى تربية نفوس الناس،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۵

و دعوتهم لطاعة الأوامر الالهيّة، بل الشكر ذاته طريق الى معرفة اللّه، و لهذا السبب ورد عن علماء العقائد فى علم الكلام انّ وجوب شكر المنعم طريق الى اثبات وجوب معرفة اللّه.

۴- انّ احياء روح الشكر فى المجتمع و تقديمه الى مستحقّيه و تقديرهم و حمدهم و ثنائهم على خدمتهم فى طريق تحقيق الاهداف الاجتماعية بعلمهم و معرفتهم و إيثارهم و استشهادهم، هو عامل مهمّ فى حركة و رقىّ المجتمع.

ففى المجتمع الفاقد للشكر و التقدير نجد القليل جدّا ممّن يريد الخدمة، و على العكس فالمجتمع الذى يقيّم و يثنى على خدمات الأشخاص، يكون اكثر نشاطا و حيوية.

و الالتفات الى هـذه الحقيقـة ادّى الى ان تقام فى عصـرنا مراسـيم احتفال لتقـدير و شـكر الأساطين فى الـذكرى المئويـة، او الـذكرى الالفية، و ضمن هذا الشكر لخدماتهم يدعى الناس الى الحركة و السعى بشكل اكبر.

احيـاء هـذه الـذكريات يساعـد على ترشـيد الإيثار و التفانى لـدى الآخرين، فيرتفع المسـتوى الثقافى و الاخلاقى لـدى الناس، و بتعبير القرآن فـإنّ شـكر هـذه النعمـة سـوف يبعث على الزيـادة، و من دم شـهيد واحـد يبعث آلاـف المجاهـدين، و يكـون مصـداقا حيّا ل لَأَزِيدَنَّكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (۸) أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (۹) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۰)

التّفسير

أ فى اللّه شكّ

؟ الآية الاولى من هذه المجموعة تؤيّد و تكمل البحث السابق فى الشكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۷

و الكفران، و ذلك ضـمن الكلام الذى نقل عن لسان موسى عليه السّلام وَ قالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ[۲۷۶].

انّ الشـكر و الايمـان بـاللّه- فى الواقع- سـبب فى زيادة النعم و التكامل الانسانى، و الّا فاللّه عزّ و جلّ ليس بحاجـة الى اى شـىء، و لو كفرت جميع الكائنات و لم تحمده لا تمسّ كبرياءه بأدنى ضرر، لانّه حميد فى ذاته.

و لو كان محتاجا لم يكن واجب الوجود، و على هـذا فمفهوم الغنى هو اشـتماله لجميع الكمالات، و إذا كان كـذلك فهو محمود فى ذاته، لانّ «الحميد» من استحقّ الحمد.

ثمّ يشـرح مصـير الفئات من الأقوام السابقة ضمن عدّة آيات، الفئات التى كفرت بأنعم اللّه و خالفت الدعوة الالهيّة، و هى تأكيد للآية السابقة يقول تعالى:

أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

يمكن ان تكون هذه الجملة تعقيبا على كلام موسـى، او بيان مسـتقلّ يخاطب به المسـلمين، لكن النتيجة غير متفاوتة كثيرا، ثمّ يضيف تعالى: قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ فهؤلاء لم يطّلع على اخبارهم الّا اللّه لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ۲۷۷].

ممّا لا شكّ فيه انّ قسما من اخبار قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم قد وصلتنا، و لكن لم يصلنا القسم الأكبر منها و لا يعلمها الّا اللّه، فتاريـخ الأـقوام الماضـية ملىء بالاسـرار و الخصوصـيّات بحيث لم يصـل إلينـا منهـا الّا القليـل. و لكى يوضّـح القرآن الكريم

مصيرهم يقول: جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ اى وضعوا أيديهم على أفواههم من التعجّب و الإنكار وَ قالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۸

. لماذا؟ بسبب وَ إِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ و معه كيف يمكننا ان نؤمن بما تدعونا اليه؟

و يرد هنا سؤال، و هو انّهم أظهروا الكفر و عدم الايمان بالرّسول فى البداية، و لكن بعد ذلك أظهروا الشكّ و الريب، فكيف ينطبق الاثنان؟

الجواب: انّ بيان الشكّ و الترديد- فى الحقيقة- علّة لعدم الايمان، لانّ الايمان بحاجة الى اليقين، و الشكّ مانع لذلك.

و بما انّ الآية السابقة بيّنت قول المشركين و الكفّار فى عدم ايمانهم بسبب شكّهم و ترديدهم، فالآية بعدها تنفى هذا الشكّ من خلال دليل واضح و عبارة قصيرة حيث يقول تعالى: قالَتْ رُسُلُهُمْ أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

مع انّ «فاطر» من «فطر» و هى فى الأصل بمعنى «شقّ» الّا انّه هنا كناية عن «الخلق» فالخالق هو الموجد للأشياء على أساس نظام دقيق ثمّ يحفظها و يحميها، كأنّ ظلمة العدم شقّت بنور الوجود، و كما يطلع الفجر من عتمة الليل، و كما يتشقّق التمر من غلافه.

و لعلّ «فاطر» تشير الى تشقّق المادّة الاوّلية للعالم. كما نقرأ فى العلوم الحديثة انّ مجموع مادّة العالم كانت واحدة مترابطة ثمّ انشقّت الى كراة مختلفة.

و على ايّة حال، فالقرآن الكريم هنا- كما فى اغلب الموارد الاخرى- يستند لاثبات وجود الخالق و صفاته الى نظام الوجود و خلق السّماوات و الأرض، و نحن نعلم انّه ليس هناك أوضح من هذا الدليل لمعرفة اللّه، لانّ هذا النظام العجيب ملىء بالاسرار فى كلّ زواياه، و ينادى بلسان حاله: ليس هناك من له القدرة على هذه الهندسة الّا القادر الحكيم و العالم المطلق، و لهذا السبب فكلّما تقدّمت العلوم ظهرت اسرار تدلّ على الخالق اكثر من السابق و تقرّبنا من اللّه فى كلّ لحظة.

و ما اكثر العجائب فى القرآن؟ فكلّ بحوث معرفة اللّه و التوحيد- و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۶۹

وردت بصيغة الاستفهام الانكارى- اشارت إليها هذه العبارة: أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و هذه العبارة إذا أردنا تجزئتها و تحليلها بشكل موسّع لا تكفيها آلاف الكتب.

انّ مطالعتنا لاسرار الوجود و نظام الخلقة لا تهدينا الى وجود اللّه فحسب، بل الى صفاته الكمالية ايضا كعلمه و قدرته و حكمته.

ثمّ يجيب القرآن الكريم على ثانى اعتراض للمخالفين، و هو اعتراضهم على مسألة الرسالة (لانّ شكّهم كان فى اللّه و فى دعوة الرّسول) و يقول انّ من المسلّم انّ اللّه القادر و الحكيم لا يترك عباده بدون قائد، بل انّه بإرسال الرسل: يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ۲۷۸].

و زيادة على ذلك فإنّه وَ يُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى كيما تسلكوا سبيل التكامل و تستفيدوا من موهبة الحياة بأقصى ما يمكنكم.

انّ غاية دعوة الأنبياء أمران: أحدهما غفران الذنوب، بمعنى تطهير الروح و الجسم و المحيط الانسانى، و الثّانى استمرار الحياة الى الوقت المعلوم، و الاثنان علّة و معلول، فالمجتمع الذى يستمرّ فى وجوده هو المجتمع النقى من الظلم و الذنوب.

ففى طول التاريخ أبيدت مجتمعات كثيرة بسبب الظلم و الذنوب و اتّباع الهوى، و بتعبير القرآن لم يصلوا إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

روى فى حديث جامع عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «من يموت بالذّنوب اكثر ممّن يموت بالآجال، و من يعيش بالإحسان اكثر ممّن يعيش بالأعمال»[۲۷۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۰

و

عن الامام الصادق ايضا: «انّ الرجل يذنب فيحرم صلاة الليل، و انّ العمل السيء اسرع فى صاحبه من السكّين فى اللحم»[۲۸۰].

و نستفيد من هذه الآية- ضمنيا- انّ الايمان بدعوة الأنبياء و العمل بأحكامها يأخذ طابع الأجل المعلّق، و تستمرّ حياة الإنسان الى «اجل مسمّى» (لانّنا نعلم انّ للإنسان نوعين من الآجال، اجل محتوم و يكون بانتهاء الحياة فى جسم الإنسان، و أجل معلّق و يكون بفناء الإنسان على اثر عوامل و موانع فى وسط العمر، و هذا غالبا ما يكون بسبب اللامبالاة و ارتكاب الذنوب، و قد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآية (۲) من سورة الانعام).

و مع كلّ ذلك لم يقبل الكفّار المعاندون دعوة الحقّ المصحوبة بوضوح منطق التوحيد، و من خلال بيانهم المشوب بالعناد و عدم التسليم كانوا يجيبون الأنبياء بهذا القول: قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا علاوة على ذلك تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا و اكثر من ذلك فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و قد ذكرنا مرارا (كما صرّح القرآن بذلك) انّ كون الأنبياء بشرا ليس مانعا لنبوّتهم، بل هو مكمّل لها، و لكن أولئك الأقوام يوردون هذه الحجّة دليلا لانكار الرسالة، و الهدف- غالبا- هو التبرير و العناد.

و كذلك الحال فى الاستنان بسنّة الأجداد، فإنّها و بالنظر الى هذه الحقيقة و هى انّ معرفة الأجيال القادمة اكثر من الماضين، لا تعدو سوى خرافة و جهل.

و يتّضح من هنا انّ طلبهم لم يكن لاقامة البرهان الواضح، بل لهروبهم من الحقيقة، لانّ القرآن الكريم- كما قرانا مرارا- انّ هؤلاء المعاندين أنكروا الآيات الواضحة و الدلائل البيّنة، و كانوا يقترحون فى كلّ مرّة معجزة و دليلا للتهرّب من الأمر الواقع.

و على كلّ حال نقرا فى الآيات القادمة كيف أجابهم الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۱

الآيتان [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۱) وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (۱۲)

التّفسير

التوكّل على اللّه وحده:

نقرا فى هاتين الآيتين جواب الرسل على حجج المخالفين المعاندين، و اعتراضهم على بشرية الرسل، فكان جوابهم: قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ يعنى لو افترضنا انّ اللّه تعالى أرسل لكم ملائكة بدل البشر، فهى لا تمتلك شيئا لذاتها، فكلّ المواهب و من جملتها موهبة الرسالة و القيادة هى من عند اللّه، فالذى يستطيع ان يهب الملائكة هذا المقام قادر ان يعطيها للإنسان.

و بديهى انّ هذه المنح من قبل اللّه ليست بدون حساب، و قد قلنا مرارا: انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۲

المشيئة الالهيّة تساير حكمته تعالى، فعند ما نسمع قول القائل: «انّ اللّه إذا أراد بعبد خيرا ...» يكون المراد العبد المستعدّ لهذه الموهبة.

و من المعلوم انّ مقام الرسالة موهبة الهيّة، و نحن نرى انّ الأنبياء بالاضافة الى الرسالة الالهيّة لهم استعداد و اهلية لتحمّلها.

ثمّ يجيب على السؤال الثّالث دون ان يجيب على الثانى، و كأنّ الاعتراض الثّانى الذى هو الاستنان بسنّة الأجداد ليس له اى اهميّة و فارغ من المحتوى بحيث انّ اىّ انسان عاقل- بأقلّ تأمّل- يفهم جوابه، بالاضافة الى انّ القرآن الكريم قد أجاب عنه فى آيات أخر.

و جواب السؤال الثّالث هو انّ عملنا ليس الإتيان بالمعاجز، فنحن لا نجلس فى مكان و نلبّى لكم المعاجز الاقتراحية و كلّ ما سوّلت لكم أنفسكم، بل ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

و مع ذلك فإنّ كلّ نبى كان يظهر لقومه المعاجز بمقدار كاف بدون ان يطلبها الناس منه، و ذلك لكى يثبت الأنبياء احقّيتهم و لتكون المعاجز سندا لصدقهم، مع انّ مطالعة دعوتهم وحدها اكبر اعجاز لهم، و لكن المعترضين غالبا لم يصغوا لذلك، و هم يقترحون كلّ يوم شيئا جديدا، فإن لم يستجب لهم الرّسول، يقيموا الدنيا و يقعدوها. و لكى يردّ الرسل على تهديداتهم المختلفة يقولون: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و بعد ذلك استدلّ الأنبياء على مسألة التوكّل حيث قالوا: وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا فالذى منحنا أفضل المواهب، يعنى موهبة الهداية الى طرق السعادة، سوف يقوم بحمايتنا فى مقابل اى هجوم او مشكلة تعترضنا.

ثمّ أضافوا: انّ ملاذنا هو اللّه، ملاذ لا يقهر و هو فوق كلّ شىء: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا و أخيرا انهوا كلامهم بهذه الجملة: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۳

ملاحظات

۱- ما هو معنى التوكّل

؟ قرانا فى الآية الاولى فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ و فى الآية الثانية فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ و كأنّ الجملة الثانية تشير الى مرحلة أوسع و اعمّ من الجملة الاولى، يعنى انّ توكّل المؤمنون ممّا لا شكّ فيه- لانّ الايمان باللّه غير منفصل عن الايمان بقدرته و حمايته و التوكّل عليه- بل حتّى غير المؤمنين ملجأهم الى اللّه و لا يجدون سبيلا غيره، لانّ غيره فاقد للأشياء، و كلّ ما فى الوجود ملك لذاته المقدّسة، و لذلك يجب ان يجعلوه وليّا لهم، و يطلبوا منه ان يهديهم توكّلهم هذا للايمان باللّه.

۲- المعاجز بيد اللّه تعالى

أجابت الآيات أعلاه- بشكل واضح- الأشخاص الذين كانوا ينكرون اعجاز الرسل. او ينكرون معاجز رسول الإسلام غير القرآن، و تعلّمنا هذه الآيات انّ الرسل لم يقولوا ابدا: نحن لا نأتى بالمعاجز، بل انّ الأوامر الالهيّة كانت تمنعهم من ذلك، لانّ الاعجاز بيده و فى اختياره، و كلّ ما يراه مصلحة يأمرنا به.

۳- ما هى حقيقة و فلسفة التوكّل

؟ «التوكّل» فى الأصل من «الوكالة» و كما قال الراغب: التوكيل ان تعتمد على غيرك و تجعله نائبا عنك. و نحن نعلم انّ الوكيل الصالح له اربع خصال رئيسيّة:

العلم الكافى، و الامانة، و القدرة، و المبالغة فى رعاية مصلحة موكّله. فانتخاب الوكيل المحامى يتمّ فى الأعمال التى لا يستطيع الإنسان نفسه ان يدافع عنها، فيستفيد من مساعدة قوّة الآخرين فى حلّ مشاكله.

و على ذلك فالتوكّل على اللّه يتمّ فى حالة عدم استطاعة الإنسان من حلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۴

المشاكل الحياتية و فى مقابل الأعداء و إصرار المخالفين، و أحيانا فى الطرق المسدودة التى تواجهه فى مسيرة اهدافه. و لذلك فهو يستند الى اللّه جلّ و علا و يستمر فى سعيه، بل حتّى لو كان مستطيعا فى أداء اعماله، فيجب ان يعلم انّ اللّه هو المؤثّر الاصلى، لانّ اللّه تعالى فى نظر المؤمن هو منبع لكلّ القدرات.

و النقطة التى تقابل التوكّل على اللّه هى التوكّل على غيره، يعنى الاتّكالية فى الحياة و التبعية للآخرين، و عدم الاستقلاليّة، يقول علماء الأخلاق: التوكّل الثمرة المباشرة لتوحيد افعال اللّه، لانّه- و كما قلنا- من وجهة نظر المؤمن يرتبط كلّ ما فى الكون بالنهاية بذات اللّه المقدّسة، و لذلك فالموحّد يرى انّ جميع اسباب القدرة و النصر من عند اللّه.

فلسفة التوكّل

نستفيد ممّا ذكرناه انّه:

اوّلا: انّ الإنسان سوف تزداد مقاومته للمشاكل الصعبة لتوكّله على اللّه الذى هو منبع جميع القدرات و الاستطاعات.

و لهذا السبب فعند ما انهزم المسلمون فى «احد» يقول تعالى: الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً وَ قالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ [۲۸۱].

و هناك نماذج اخرى للمقاومة و الثبات فى ظلّ التوكّل، و من جملتها الآية ۱۲۲ من آل عمران يقول تعالى: إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

و فى الآية (۱۲) من سورة ابراهيم يقول تعالى: وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۵

و فى الآية (۱۵۹) آل عمران فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

و كذلك يقول القرآن الكريم: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [۲۸۲] نستفيد من مجموع هذه الآيات انّ القصد من التوكّل ان لا يحسّ الإنسان بالضعف فى مقابل المشكلات العظيمة، بل بتوكّله على قدرة اللّه المطلقة يرى نفسه فاتحا و منتصرا، و بهذا الترتيب فالتوكّل عامل من عوامل القوّة و استمداد الطاقة و سبب فى زيادة المقاومة و الثبات. و إذا كان التوكّل يعنى الجلوس فى زاوية و وضع احدى اليدين على الاخرى، فلا معنى لأن يذكره القرآن بالنسبة للمجاهدين و أمثالهم.

و إذا اعتقد البعض انّ التوكّل لا ينسجم مع التوجه الى العلل و الأسباب و العوامل الطبيعيّة، فهو فى خطأ كبير، لانّ فصل العوامل الطبيعيّة عن الارادة الالهيّة يعتبر شركا باللّه، او ليست هذه العوامل تسير بأوامر و مشيئة اللّه؟

نعم إذا اعتقدنا انّ العوامل مستقلّة عن ارادته فهى لا تتناسب مع روح التوكّل. فهل من الصحيح ان نفسّر التوكّل بهذا التّفسير، مع انّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى هو راس المتوكّلين لم يغفل من استخدام الخطط الصحيحة و الاستفادة من الفرص المتاحة و انواع الوسائل و الأسباب الظاهرية لتحقيق اهدافه، انّ هذا يثبت انّ التوكّل ليس له مفهوم سلبى.

ثانيا: انّ التوكّل ينجّى الإنسان من التبعية التى هى اصل الذلّ و العبودية، و يمنحه الحرية و الاعتماد على النفس.

«التوكّل» و «القناعة» لهما جذور مشتركة، و فلسفتهما متشابهة، و فى نفس الوقت متفاوتة، و لا بأس هنا ان نذكر عدّة روايات فى مجال التوكّل و أصله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۶

و جذوره:

عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «انّ الغنا و العزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا»[۲۸۳]

و قد عرّف الامام التوكّل بأنّه موطن العزّة و عدم الحاجة للآخرين.

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: سألت جبرئيل: ما هو التوكّل؟ قال: (العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ و لا ينفع، و لا يعطى و لا يمنع، و استعمال اليأس من الخلق فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى اللّه و لم يطمع فى احد سوى اللّه فهذا هو التوكّل)[۲۸۴].

و

سئل الامام الرضا عليه السّلام: ما حدّ التوكّل؟ فقال: «ان لا تخاف مع اللّه أحدا»[۲۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۷

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۳ الى ۱۷]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (۱۳) وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ (۱۴) وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (۱۵) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (۱۶) يَتَجَرَّعُهُ وَ لا يَكادُ يُسِيغُهُ وَ يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ما هُوَ بِمَيِّتٍ وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (۱۷)

التّفسير

خطط الجبّارين المعاندين و مصيرهم

! عند ما يعلم الظالمون بضعف منطقهم و عقيدتهم، يتركون الاستدلال، و يلجأون الى القوّة و العنف، و نقرا هنا انّ الأقوام الكافرة العنيدة عند ما سمعوا منطق الأنبياء المتين و الواضح قالوا لرسلهم: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا و كأنّ هؤلاء القوم يعتبرون جميع ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۸

فى الأرض ملكهم، حتّى انّهم لم يمنحوا لرسلهم حقوق المواطنة، و لذلك يقولون «أرضنا». و فى الحقيقة فإنّ اللّه سبحانه و تعالى خلق الأرض و كلّ مواهبها للصالحين، و هؤلاء الجبابرة فى الواقع ليس لهم اى حقّ فيها.

و قد يتوهّم البعض انّ جملة لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا اشارة الى انّ الأنبياء السابقين كانوا من أنصار عبادة الأصنام، مع انّ الحقيقة ليست كذلك، لانّهم- و بصرف النظر عن كونهم معصومين حتّى قبل نبوّتهم- فعقلهم و درايتهم كان اكبر من ان يفعلوا هذا العمل غير

الحكيم، فيسجدوا امام الأحجار و الأخشاب.

و يمكن ان يكون هذا التعبير بسبب انّ الأنبياء قبل بعثهم لم يؤمروا بالتبليغ، فسكوتهم أوجد هذا الوهم بأنّهم من المشركين.

بالاضافة الى انّ الخطاب و ان كان موجّها للرسل، الّا انّه فى الواقع يشمل حتّى الاصحاب، و نعلم انّهم كانوا مع المشركين من قبل، فنظر المشركين كان منصرفا الى الاصحاب فقط، و تعبير «لتعودنّ» من باب التغليب (يعنى حكم الاكثرية يسرى على العموم).

و هناك جواب آخر لهذا الوهم و هو انّ «عود» إذا عدّيت ب «الى» يكون معناها الرجوع، و إذا عديت ب «فى» فتفيد تغيير الحال .. لذلك فمعنى الآية لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا يكون مفهومها ان تغيّروا من حالكم و تدخلوا فى ملّتنا، و قد اختار هذا المعنى العلّامة الطباطبائى فى الميزان، و لكن عند مراجعتنا لبعض الآيات و منها كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها تبيّن ان «عود» حتّى لو عدّيت ب «فى» فمعناها الرجوع ايضا (فتدبّر).

ثمّ يضيف القرآن الكريم لتسلية قلوب الأنبياء فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ فلا تخافوا من وعيدهم، و لا تظهروا الضعف فى ارادتكم.

و بما انّ الظالمين كانوا يهدّدون الأنبياء بالتبعيد عن أرضهم، فإنّ اللّه فى مقابل ذلك كان يعد الأنبياء وَ لَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ و لكن هذا النصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۷۹

و التوفيق لا يناله الّا ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَ خافَ وَعِيدِ فلطفه و منّه ليس بدون حساب و دليل، و لا يناله الّا من احسّ بمسؤوليته فى مقابل العدل الالهى، لا الظالمين و المعاندين لطريق الحقّ.

و حين انقطعت الأسباب بالأنبياء من كلّ جانب، و ادّوا جميع وظائفهم فى قومهم، فآمن منهم من آمن، و بقى على الكفر من بقى، و بلغ ظلم الظالمين مداه، فى هذه الأثناء طلبوا النصر من اللّه تعالى وَ اسْتَفْتَحُوا ... و قد استجاب اللّه عزّ و جلّ دعاء المجاهدين المخلصين وَ خابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ.

«خاب» من الخيبة بمعنى فقدان المطلوب.

و «جبّار» بمعنى المتكبّر هنا،

ورد فى الحديث انّ امراة جاءت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمرها بشىء، فلم تطعه فقال النّبى: دعوها فإنّها جبّارة[۲۸۶].

و تطلق هذه الكلمة أحيانا على اللّه جلّ و علا فتعطى معنى آخر، و هو (جبر و إصلاح من هو بحاجة الى الإصلاح) او بمعنى (المتسلّط على كلّ شىء)[۲۸۷].

و «العنيد» فى الأصل من «العند» على وزن (رند) بمعنى الاتّجاه، و جاءت هنا بمعنى الانحراف عن طريق الحقّ.

و لذلك نقرا

فى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «كلّ جبّار عنيد من ابى ان يقول لا اله الّا اللّه».[۲۸۸]

و

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «العنيد المعرض عن الحقّ».[۲۸۹]

و من الطريف انّ «جبّار» تشير الى صفة نفسانية بمعنى روح العصيان، و «عنيد» تشير الى آثار تلك الصفة فى افعال الإنسان حيث تصرفه عن طريق الحقّ. ثمّ يبيّن نتيجة عمل الجبّارين فى الآخرة ضمن آيتين فى خمسة مواضع:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۰

۱- على اثر هذه الخيبة، او انّ مثل هذا الشخص: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ

مع انّ كلمة «وراء» بمعنى «الخلف» فى مقابل امام، الّا انّها فى هذه الموارد تعنى نتيجة و عاقبة العمل.

۲- امّا فی جهنّم فإنّه وَ یُسْقی مِنْ ماءٍ صَدِیدٍ.

«الصدید» القیح المتجمّع بین اللحم و الجلد، و هو بیان للماء المتعفّن الکریه الذی یسقونه.

۳- فهذا المجرم المذنب عند ما یری نفسه فی مقابل هذا الشراب یَتَجَرَّعُهُ وَ لا یَکادُ یُسِیغُهُ یسیغه: من اساغة، و هی وضع الشراب فی الحلق.

۴- و وسائل التعذیب کثیرة بحیث وَ یَأْتِیهِ الْمَوْتُ مِنْ کُلِّ مَکانٍ وَ ما هُوَ بِمَیِّتٍ حتّی یذوق وبال عمله و سیّئاته.

۵- و قد یتصوّر ان لیس هناک عقابا اکثر من ذلک، و لکن وَ مِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِیظٌ.

و بهذا الترتیب فإنّ کلّ ما یخطر فی ذهن الإنسان و ما لا یخطر من شدّة العقاب هو فی انتظار هؤلاء الظالمین و الجبّارین و المذنبین، أسوؤها الشراب المتعفّن الکریه، و العقوبات المختلفة من کلّ طرف، و فی نفس الوقت عدم الموت، بل الاستمرار فی الحیاة و ادامة العذاب.

و لکن لا یتصوّر انّ هذا العقاب غیر عادل، لانّه- و کما قلنا مرارا- النتیجة الطبیعیّة لعمل الإنسان، بل تجسیم أفعالهم فی الآخرة، فکلّ عمل یجسّم بشکل مناسب، و إذا ما شاهدنا جنایات بعض المجرمین فی عصرنا او فی التاریخ القدیم لقلنا: حتّی هذه العقوبات قلیلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۱

بحوث

۱- ماذا یعنی مقام الربّ

؟ قرانا فی الآیات أعلاه انّ النصر علی الظالمین و اسکان الأرض للذین یخافون مقام ربّهم، فما هو المقصود من «المقام»؟ هناک عدّة احتمالات:

الف:- المقصود هو مقام الربّ عند الحساب، کما ذکرت بعض الآیات الاخری وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی ...، [۲۹۰] وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ ۲۹۱].

باء:- المقام بمعنی القیام ای المراقبة، و معناه الشخص الذی یخاف من مراقبة اللّه له، و یحسّ بالمسؤولیة.

ج:- و المقام بمعنی «القیام لإجراء العدالة و احقاق الحقّ».

و علی ایّة حال، فلا مانع ان تکون الآیة الشریفة متضمّنة لکلّ هذه المفاهیم، فالذین یرون مراقبة اللّه لهم، یخافون من حسابه و اجراء عدالته، خوفا بنّاء یجعلهم یحسّون بمسؤولیاتهم فی کلّ عمل یقومون به، و یبعدهم عن الظلم و الذنوب، فالغلبة و حکومة الأرض من نصیبهم.

۲- هناک جدل بین المفسّرین حول جملة «و استفتحوا» حیث اعتقد البعض بأنّها بمعنی طلب الفتح و النصر، کما ذکرناه سابقا، و شاهدهم الآیة (۱۹) من سورة الأنفال إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَکُمُ الْفَتْحُ

و قال بعض آخر: انّها بمعنی القضاء و الحکومة، یعنی انّ الأنبیاء طلبوا من اللّه ان یحکم بینهم و بین الکفّار، و شاهدهم الآیة (۸۹) من سورة الأعراف رَبَّنَا افْتَحْ بَیْنَنا وَ بَیْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَیْرُ الْفاتِحِینَ

۳- جاء فی التأریخ و التّفسیر انّ الولید بن یزید بن عبد الملک الحاکم الاموی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۲

الجبّار تفأّل بالقرآن یوما لکی یری حظّه فی المستقبل، فظهرت قوله تعالی وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خابَ کُلُّ جَبَّارٍ عَنِیدٍ فی بدایة الصفحة،

فاستوحش و أخذته العصبية بحيث مزّق القرآن الكريم ثمّ انشد:

اتوعد كلّ جبّار عنيد؟فها انا ذاك جبّار عنيد؟

إذا ما جئت ربّك يوم حشرفقل يا ربّ مزّقنى الوليد

و لكن لم يمض وقت طويل حتّى قتل اسوا قتلة من قبل أعدائه، و قطعوا رأسه و علّقوه فوق سطح قصره، و من ثمّ نقلوه الى باب المدينة[۲۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۳

الآية [سورة إبراهيم (۱۴): آية ۱۸]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (۱۸)

التّفسير

رماد اشتدّت به الريح:

ضربت هذه الآية مثالا واضحا و بليغا لاعمال الكفّار، و بذلك تكمل بحث الآيات السابقة فى مجال عاقبة أمرهم.

يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ فيتناثر الرماد فى الريح العاصف بحيث لا يستطيع احد جمعه، كذلك منكرو الحقّ ليست باستطاعتهم ان يجمعوا ما كسبوا لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۴

بحوث

۱- لماذا شبّهت اعمالهم كرماد اشتدّت به الريح؟ الجواب:

۱- التشبيه بالرماد (مع إمكان الاستفادة من التراب و الغبار فى ذلك) لانّه عبارة عن بقايا الاحتراق، و الآية توضّح انّ اعمالهم ظاهرية فقط و ليس لها اى محتوى، فيمكن ان تنمو وردة جميلة فى حفنة من التراب، و لكن لا يمكن ان ينمو فى الرماد حتّى العلف الرّدىء.

۲- ان ذرّات الرماد غير متلاصقة، و حتّى بمساعدة الماء لا يمكن ترابطها فالذرّات تنفصل عن بعضها البعض بسرعة، و كأنّ ذلك يشير الى انّ اعمال الكفّار غير منسجمة و لا موحّدة، على العكس من اعمال المؤمنين حيث نراها منسجمة و موحّدة و مترابطة و كلّ عمل يكمل العمل الآخر، فروح التوحيد و الوحدة لا تقتصر على توحيد الجماعة المؤمنة فى ما بينهم بل تنعكس حتّى فى اعمال الفرد المسلم.

۳- بالرغم من تناثر الرماد فى اشتداد الريح، الّا انّه يؤكّده فى يوم عاصف، لانّ الرياح إذا كانت محدودة و آنيّة فمن الممكن ان ينتقل الرماد من مكان الى مكان ليس بالبعيد، و لكن إذا كان يوم عاصف فمن البديهى ان يتناثر الرماد بشكل واسع، و تنتشر ذرّاته و لا

یمکن لایّة قدرة جمعها.

۴- إذا کانت العاصفة تهبّ علی التبن و أوراق الشجر و تنتشرها فی أماکن بعیدة الّا انّه یمکن تشخیصها، و لکن ذرّات الرماد من الصغر بحیث لو انتثرت لا یبقی لها ای اثر و کأنّ لیس لها وجود سابق.

۵- انّ الریاح و حتّی العواصف لها فوائد جمّة فی الطبیعة بغضّ النظر عن آثارها المدمّرة فی بعض الأحیان، و فوائدها هی:

الف:- تقوم بنشر بذور النباتات فی کلّ مکان من الکرة الارضیّة، کالمزارع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۴۸۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۵

و الفلاح.

ب:- تلقّح الأشجار بنقل حبوب اللقاح من الذکور الی الإناث.

ج:- تقوم بتحریک السحاب من المحیطات الی الاراضی الیابسة.

د:- تحکّ الجبال العالیة و تحوّلها الی تراب ناعم و مفید.

ه:- تنقل الهواء من المناطق القطبیة الی المناطق الاستوائیة و بالعکس، حیث تقوم بدور فعّال فی تعدیل درجات الحرارة.

و:- انّ حرکة الریاح تثیر البحار فتجعلها متلاطمة و موّاجة کی یدخل فیها الهواء، لانّها إذا رکدت سوف تتعفّن، و هکذا نجد انّ کلّ ما فی الوجود من الأشجار و الکائنات الحیّة قد استفاد من هبوب الریاح کلّ علی قدره.

و لکن «الرماد» الخفیف الوزن و التافه و عدیم الفائدة و الذی لا یمکن لای موجود ان یعیش فیه، هذا الرماد المتناثر یتلاشی بسرعة حینما تهبّ الریح علیه، و یزول حتّی ظاهره غیر المفید.

۲- لماذا فرغت اعمالهم من المحتوی

؟ یجب ان نری لماذا کانت اعمال الکفّار غیر ذات قیمة و غیر ثابتة؟ و لماذا لا یستطیع الکفّار الاستفادة من نتائج اعمالهم؟

و یتّضح الجواب علی هذا السؤال لو درسنا المسألة من ناحیة النظرة التوحیدیّة للعالم، لانّ النیّة و الهدف و المنهجیة هی التی تعطی للعمل شکله و مضمونه، فإذا کانت الخطّة و النیّة و الغایة سالمة و جدیرة بالاهتمام فسوف یکون العمل کذلک، و لکن لو قمنا بأحسن الأعمال بنیّة غیر صادقة و خطّة سقیمة و هدف شیطانی، فإنّ ذلک العمل یکون ممسوخا و یفقد محتواه و یزول کلیّا کالرماد إذا اشتدّت به الریح! و لا بأس هنا ان نذکر مثالا حیّا لذلک، نشاهد الآن برامجا تحت عنوان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۶

حقوق الإنسان فی العالم الغربی و من قبل القوی المستکبرة، هذه البرامج نفسها کانت تجری من قبل الأنبیاء ایضا، و لکن حصیلة الاثنین متفاوتة کما بین الأرض و السّماء. فالقوی الاستکباریة عند ما تنادی بحقوق الإنسان فمن المسلّم انّ اهدافها غیر انسانیة و غیر أخلاقیة، بل التغطیة علی جرائمهم و استعمارهم بشکل اکثر، لذلک و علی سبیل المثال لو اعتقل احد جواسیسهم فی مکان ما، فسوف یملا عویلهم و صراخهم الدنیا بالدفاع، عن حقوق الإنسان، و لکن عند ما تلطّخت أیدیهم بدماء آلاف الناس فی فیتنام، و ارتکبوا الفجائع فی الدول الاسلامیة، و نسیت فیه حقوق الإنسان، بل انّهم استغلّوا حقوق الإنسان لمساعدة الانظمة الجائرة و العمیلة! و لکن الأنبیاء علیهم السّلام او أوصیاءهم ینادون بحقوق البشر لتحریر الإنسان من القیود و الأغلال و الظلم، و عند ما یرون إنسانا مظلوما نراهم یهبون للدفاع عنه بالقول و العمل.

و بهذا النحو يكون الاوّل رماد اشتدّت به الريح، و الثّانى ارض مباركة طيّبة لنمو النباتات و الثمار و الأوراد.

و يتّضح من هنا ما دار بين المفسّرين من المقصود من العمل فى الآية أعلاه، و هو انّ مراد الآية جميع اعمال الكفّار حتّى اعمالهم الحسنة فى الظاهر، الّا انّها مبطّنة بالشرك و الإلحاد.

۳- مسألة الإحباط

هناك جدل كبير بين علماء المسلمين فى مسألة «حبط الأعمال» فهل معناه ذهاب عمل الخير بسبب عمل الشرّ، او بسبب الكفر و عدم الايمان، و لكن الحقّ ما قلناه فى ذيل الآية (۲۱۷) من سورة البقرة، من انّ الإصرار على الكفر و العناد و ايضا بعض الأعمال الاخرى كالحسد و الغيبة و قتل النفس لها آثار سيّئة كبيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۷

بحيث تذهب بأعمال الخير و الحسنات.

و الآية أعلاه دليل آخر فى إمكان حبط الأعمال ۲۹۳].

۴- هل للمخترعين و المكتشفين ثواب الهى

؟ بالنظر للبحوث الآنفة الذكر يرد سؤال مهمّ، و هو انّنا من خلال مطالعتنا فى تأريخ العلوم و الاختراعات و الاكتشافات نرى انّ هناك مجموعة من العلماء استطاعوا ان يقدّموا خدمات جليلة للبشرية و تحمّلوا فى سبيل خدمة البشرية منتهى الشدّة و الصعوبة ليقدّموا اختراعاتهم و اكتشافاتهم للناس، فعلى سبيل المثال مخترع الكهرباء «اديسون» تحمّل الصعاب و يقال فقد حياته فى هذا الطريق لكنّه أضاء العالم، و حرّك المعامل، و ببركة اختراعه وجدت الآبار العميقة حيث اخضّرت الأرض و تغيّرت الدنيا. و «باستور» الذى اكتشف المكروب، و أنقذ ملايين الناس من الموت المحتوم .. فهؤلاء و عشرات مثلهم كيف يجعلهم اللّه فى جهنّم لكونهم غير مؤمنين؟ مع انّ هناك افرادا لم يقدّموا ايّة خدمة للانسانية طول حياتهم، و يدخلون الجنّة! الجواب: انّ العمل فى حدّ ذاته ليس كافيا من وجهة نظر العقيدة الاسلامية، بل قيمته فى النيّة و القوى المحرّكة له، فكثيرا ما نشاهد من اعمال الخير كبناء مدرسة او مستشفى او اى عمل آخر و هدف صاحبه فى الظاهر هو خدمة المجتمع الانسانى، الّا انّه تحت هذا الغطاء شىء آخر و ذاك هو حفظ جاهه او ماله او جلب انظار الناس اليه، و تحكيم منافعه المادية، او حتّى ستر خيانته بعيدا عن انظار الآخرين! و على العكس، فمن الممكن ان يعمل شخص عملا صغيرا، الّا انّه مخلص فى نيّته صادق، و الآن يجب ان نحقّق فى ملفات هؤلاء الرجال العظام من وجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۸

نظر عملهم و كذلك الأسباب و الدوافع، و هى لا تخرج من احد امور:

الف:- يكون الهدف من الاختراع أحيانا عملا تخريبيّا (كما فى اكتشاف الطاقة النووية حيث كان الهدف الاوّل منها صناعة القنابل النووية) و يمكن الاستفادة منها لخدمة الإنسان، الّا انّه لم يكن الهدف الاصلى من اختراعها، فقيمة عمل هذه المجموعة من المخترعين واضح تماما.

ب:- و قد يكون هدف المخترع او المكتشف الربح المادّى او الشهرة، فحكمه- فى الحقيقة- حكم التاجر الذى يقوم بتأسيس الخدمات العامّة لكى يحصل على أرباح اكثر، و يقوم بتشغيل العمّال و انتاج المحاصيل الزراعية للبلد، فالهدف من كلّ ذلك هو الحصول على اكبر وارد ممكن، و لو كان هناك عمل اكثر ربحا لركض وراءه.

بالطبع فإنّ هذه التجارة لو كانت طبقا للموازين الشرعيّة، فإنّها ليست حراما، الّا انّها لا تحتسب عملا مقدّسا و مهمّا.

و مثل هؤلاء المخترعين و المكتشفين ليسوا قليلين على طول التاريخ، فطريقة تفكيرهم ان يقدّموا العمل الأكثر ربحا- حتّى لو كان مضرّا بالمجتمع- (فمثلا صناعة الادوية لها من الفوائد ۲۰٪ بينما فى صناعة الهيروئين ۵۰٪ فهم يرجّحون الثّانى على الاوّل) فحكم هذه المجموعة واضح ايضا، حيث لم يطلبوا من اللّه و لا من الناس اى شىء و جزاؤهم الربح و الشهرة فقط.

ج:- هناك مجموعة ثالثة لا شكّ فى انّ دوافعها انسانية، او الهيّة إذا كانت الجماعة مؤمنة، و أحيانا يمضون سنين طويلة فى زوايا المختبرات بكامل الفاقة و الحرمان على امل ان يقدّموا خدمة لبنى جنسهم، او هديّة للعالم، ليحلّوا أغلال المتعبين، و يمسحوا التراب من وجوب المعذّبين. فإذا كان هؤلاء الافراد مؤمنين و دوافعهم الهيّة فمصيرهم واضح.

و امّا إذا كانوا غير مؤمنين و دوافعهم انسانيّة، فسوف يحصلون على الجزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۸۹

المناسب من اللّه بلا ادنى شكّ، هذا الجزاء يمكن ان يكون فى الدنيا او الآخرة، فاللّه عزّ و جلّ عالم و عادل لا يحرمهم من ذلك، و لكن كيف؟ تفاصيله غير واضحة لنا، و يمكن ان نقول: (انّ اللّه لا يضيع اجر هؤلاء المحسنين فيما إذا كانوا غير مقصّرين لعدم ايمانهم).

و ليس عندنا اى دليل من انّ الآية إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ لا تشمل هؤلاء الافراد، فإطلاق المحسنين فى القرآن ليس خاصّا بالمؤمنين فقط، و لذلك نرى انّ اخوة يوسف لما حضروا عنده و هم لا يعرفوه و يظنّون انّه عزيز مصر قالوا: إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [۲۹۴] و كذلك الآية فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ تشمل هؤلاء الافراد.

عن على بن يقطين عن الامام الكاظم عليه السّلام قال: «كان فى بنى إسرائيل رجل مؤمن و جاره كافر، و كان هذا الجار الكافر يحسن الى جاره المؤمن، فعند ما ارتحل من الدنيا بنى له اللّه بيتا يمنعه من نار جهنّم. و قيل له: انّ هذا بسبب حسن سيرتك مع جارك المؤمن»[۲۹۵].

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «انّ ابن جدعان اقلّ اهل جهنّم عذابا» قالوا: لماذا يا رسول اللّه؟ قال «انّه كان يطعم الطعام» و عبد اللّه بن جدعان احد مشركى مكّة المعروفين و من زعماء قريش ۲۹۶].

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعدى بن حاتم الطائى «رفع عن أبيك العذاب الشديد بسخاء نفسه»[۲۹۷].

و

عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «أتى رسول اللّه وفد من اليمن و كان فيهم رجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۰

أعظمهم كلاما و اشدّهم فى محاجة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فغضب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى التوى عرق الغضب بين عينيه، و تغيّر وجهه و اطرق الى الأرض فأتاه جبرئيل فقال:

ربّك يقرئك السّلام و يقول لك: هذا رجل سخى يطعم الطعام، فسكن عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الغضب و رفع رأسه و قال: لولا انّ جبرئيل اخبرنى عن اللّه عزّ و جلّ انّك سخى تطعم الطعام، لشدوت بك و جعلتك حديثا لمن خلفك، فقال له الرجل: و انّ ربّك ليحبّ السخاء؟ فقال: نعم، قال: انّى اشهد ان لا اله الّا اللّه و انّك رسول اللّه و الذى بعثك بالحقّ لا رددت عن مالى أحدا»[۲۹۸].

و هنا يأتى هذا السؤال و الذى يمكن ان نستفيده من بعض الآيات و كثير من الرّوايات، و هو: هل انّ الايمان و الولاية شرط لقبول الأعمال و الدخول الى الجنّة؟ فإذا كان كذلك فإنّ أفضل اعمال الكفّار ليس مقبولا عند اللّه.

و يمكن ان نجيب على هذا السؤال بأنّ مسألة «قبول الأعمال» شىء، و «الجزاء المناسب» شىء آخر، فمثلا ـ المشهور بين علماء المسلمين انّ الصلاة بدون حضور القلب او مع ارتكاب بعض الذنوب كالغيبة غير مقبولة عند اللّه، و نحن نعلم انّ مثل هذه الصلوات صحيحة شرعا، و تحتسب طاعة لاوامر اللّه و تفرغ بها ذمّة المصلّى و الطاعة لا تكون بدون اجر. و لذلك فقبول العمل هو الدرجة العالية للعمل، و نحن نقول هذا ايضا: إذا كانت الخدمات الانسانية مصاحبة للايمان فلها أعلى المضامين، و لكن فى غير هذه الصورة لا تكون بدون مضمون و جزاء، و جزاء العمل لا ينحصر بدخول الجنّة. (هذه عصارة الفكرة بما يتناسب و هذا التّفسير، و تفصيل ذلك فى الأبحاث الفقهيّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۱

الآيتان [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۹) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۲۰)

التّفسير

الخلق على أساس الحقّ:

بعد ما بحثنا عن الباطل و انّه كالرماد المتناثر إذا اشتدّت به الريح، نبحث فى هذه الآية عن الحقّ و استقراره. يقول اللّه تعالى مخاطبا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره الاسوة لكلّ دعاة الحقّ أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

«الحقّ» كما يقول الراغب فى مفرداته «المطابقة و التنسيق» و له استعمالات اخرى: فتارة يستعمل الحقّ فى العمل الصادر وفقا للحكمة و النظام كما فى قوله تعالى: هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَ الْقَمَرَ نُوراً ... ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ [۲۹۹] و تارة يطلق على الشخص الذى قام بهذا العمل المحكم، كما نطلقها على اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۲

عزّ و جلّ فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُ [۳۰۰] و تارة اخرى يطلق على الاعتقاد الذى يطابق الواقع كما فى قوله تعالى:

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِ [۳۰۱] و مرّة يقال للقول و العمل الذى يتحقّق فى الوقت المناسب كما فى قوله تعالى: حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ [۳۰۲] و على ايّة الحال فمقابل «الحقّ» الباطل و الضلال و اللعب و أمثالهما.

لكنّ الآية التى نحن بصددها تشير الى المعنى الاوّل، و هو إنشاء عالم الخلق.

حيث توضّح السّماء و الأرض انّ فى الهدف من خلقها الحكمة و النظام و الحساب. فاللّه تعالى ليس محتاجا فى خلقها و لا ناقصا لكى يسدّ نقصه بها، بل هو الغنى عن كلّ شىء، و هذا العالم الواسع دار لنمو المخلوقات و تكاملها.

ثمّ يضيف: انّ الدليل فى عدم الحاجة إليكم و لا الى ايمانكم هو: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

و هذا العمل ليس صعبا عند اللّه وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ.

و الشاهد على هذا القول فى سورة النساء وَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً ... إِنْ يَشَأْ

یُذْهِبْکُمْ أَیُّهَا النَّاسُ وَ یَأْتِ بِآخَرِینَ وَ کانَ اللَّهُ عَلی ذلِکَ قَدِیراً.[۳۰۳] و هذا التّفسیر بخصوص الآیة أعلاه منقول عن ابن عبّاس.

و هناک احتمال آخر، و هو انّ الجملة أعلاه تشیر الی مسألة المعاد و انّ اللّه قادرا علی ان یفنی جمیع الناس و یأت بخلق آخر، فهل تشکّون فی مسألة المعاد و بعثکم من جدید؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۳

الآیات [سورة إبراهیم (۱۴): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشارة

وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَیْناکُمْ سَواءٌ عَلَیْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِیصٍ (۲۱) وَ قالَ الشَّیْطانُ لَمَّا قُضِیَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَکُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُکُمْ فَأَخْلَفْتُکُمْ وَ ما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِکُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِیَّ إِنِّی کَفَرْتُ بِما أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۲۲) وَ أُدْخِلَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِیَّتُهُمْ فِیها سَلامٌ (۲۳)

التّفسیر

المحادثة الصریحة بین الشیطان و اتباعه:

اشارت الآیات السابقة الی العقاب الشدید للمخالفین و المعاندین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۴

و الکافرین، و هذه الآیات تکمل ذاک البحث.

یقول تعالی اوّلا: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً[۳۰۴].

و فی هذه الأثناء یقول الضعفاء الذین تاهوا فی وادی الضلالة للمستکبرین الذین کانوا سبب ضلالهم فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِینَ اسْتَکْبَرُوا إِنَّا کُنَّا لَکُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَیْءٍ فیجیبونهم بدون توقّف قالُوا لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَیْناکُمْ

و لکن للأسف فالمسألة منتهیة سَواءٌ عَلَیْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِیصٍ

ملاحظات

۱- ما هو المراد من وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً

؟ أوّل سؤال یطرح بخصوص هذه الآیة هو: هل أنّ الناس فی هذه الدنیا غیر ظاهرین فی علم اللّه لکی تقول الآیة: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِیعاً؟

فی الجواب علی هذا السؤال قال کثیر من المفسّرین: انّ المقصود عدم احساس الناس بهذا الظهور و البروز امام اللّه فی هذه الدنیا، فیکون احساسهم ظاهرا لهم فی الآخرة.

و قال بعض ایضا: المقصود هو البروز و الظهور من القبور فی ساحة العدل الالهی للحساب.

هذان التّفسيران جيدان و ليس هناك مانع من ان تجمعا فى مفهوم الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۵

۲- ما هو المقصود من جملة لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ

؟ يعتقد كثير من المفسّرين انّ المقصود الهداية عن طريق النجاة من العقاب الالهى فى ذلك العالم، لانّ هذا الحديث قاله المستكبرون لاتباعهم حينما طلبوا منهم ان يغنوا عنهم قسما من العذاب، فالسؤال و الجواب متناسبان و يوحيان انّ المقصود هو هدايتهم للنجاة من العذاب.

و قد استخدم القرآن هذه الكلمة «الهداية» بخصوص الوصول الى نعم الجنّة، كما يقول اهل الجنّة: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدانا لِهذا وَ ما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْ لا أَنْ هَدانَا اللَّهُ [۳۰۵] و هناك احتمال انّ «قادة الضلالة» حينما يرون أنفسهم امام طلب اتباعهم، و لكى يتنصّلوا من الذنب و يلقوا باللائمة على الغير، كما هى طريقة كلّ المستكبرين- يقولون بكلّ وقاحة: ماذا نعمل؟ فلو كان اللّه قد هدانا الى الطريق الصحيح لهديناكم اليه! و معناه انّنا مجبورون على ذلك و ليست لنا ارادة حرّة.

و هذا هو منطق الشيطان بعينه، او ليس هو القائل فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيمَ و لكن يجب ان يعلم المستكبرون انّهم يتحمّلون مسئولية ذنوب اتباعهم شاؤوا ام أبوا، طبقا لصريح القرآن و الرّوايات، لانّهم المؤسّسون للانحراف و الضلال دون ان ينقص اى شىء من عذاب اتباعهم.

۳- أوضح بيان فى ذمّ التقليد الأعمى

يتّضح لنا من الآية أعلاه ما يلى:

اوّلا: الأشخاص الذين يضعون زمام أمورهم بيد الآخرين هم ضعفاء الشخصيّة، و قد عبّر عنهم القرآن الكريم ب الضُّعَفاءُ.

ثانيا: انّ مصيرهم و مصير قادتهم واحد، و هؤلاء البؤساء لا يستطيعون حتّى فى احلك الظروف ان يستفيدوا من حماية قادتهم المضلّين، او ان يخفّفوا عنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۶

قليلا من العذاب، بل يسخرون منهم و يقولون لهم: لا تجزعوا و لا تفزعوا فلا طريق للخلاص و النجاة من العذاب! ثالثا: «برزوا» فى الأصل من مادّة «البروز» اى الظهور او الخروج من الصفّ فى مقابل الخصم فى ساحة القتال، و تأتى ايضا بمعنى المقاتلة.

«المحيص» من «المحص» بمعنى التخلّص من العيوب او الألم.

ثمّ يشير القرآن الكريم الى موقف آخر من مواقف القيامة و العقاب النفسى للجبّارين و المذنبين و اتباعهم الشياطين، حيث يقول تعالى: وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ و بهذا الترتيب فالشيطان و جميع المستكبرين الذين هم قادة طرق الضلال، أصبحوا يلومون و يوبّخون تابعيهم البؤساء.

ثمّ يضيف وَ ما كانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى و يستمرّ فى القول فَلا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ أنتم فعلتم فاللعنة عليكم!! و على كلّ حال فلا انا أستطيع انقاذكم من العذاب و لا أنتم تستطيعون انقاذى: ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَ ما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَ و الآن أعلمكم بأنّى أتبرّأ من شرككم و إطاعتكم لى إِنِّى كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ فقد فهمت الآن انّ الشرك فى الطاعة ادّى الى شقائى و شقائكم، و هذه التعاسة ليس لها طريق للنجاة، و اعلموا إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

بحوث

۱- جواب الشيطان الحاسم لاتباعه

مع انّ كلمة «الشيطان»[۳۰۶] لها مفهوم واسع و تشمل كلّ الطواغيت و وساوس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۷

الجنّ و الانس، و لكن فى قراءتنا لهذه الآية و ما قبلها علمنا انّ المقصود هنا هو شخص إبليس الذى يعتبر رئيسا للشياطين، و لذلك انتخب جميع المفسّرين هذا التّفسير ايضا.

و نستفيد بشكل اكيد من هذه الآية انّ وساوس الشيطان لا تسلب الإنسان اختياره و حرية ارادته، بل هى مجرّد دعوة ليس اكثر، فالناس هم الذين يلبّون دعوته بإرادتهم، و قد تصل الارضيّة السابقة و الدوام على الخلاف بالإنسان الى حالة من سلب الاختيار فى مقابل وساوسه، كما نشاهد بعض المدمنين على المخدرات، و لكن نعلم انّ السبب الاوّل كان هو الاختيار. يقول تعالى فى الآية (۱۰۰) من سورة النحل: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

و على هذا فالشيطان يجيب بشكل قاطع على الذين يعتبرونه العامل الاوّل فى انحرافهم و ضلالهم، و ما يقوله بعض الجهلاء لتبرئتهم من ذنوبهم، فإنّ السلطان الحقيقى على الإنسان هو ارادته و عمله و لا شىء غيره.

۲- كيف استطاع الشيطان ان يلتقى باتّباعه و يلومهم فى ذاك الموقف الكبير؟

الجواب: هو انّ اللّه تعالى يمنحه القدرة على ذلك، و هذا فى الواقع نوع من العقاب النفسى لاتباع الشيطان، و إنذار لكلّ السائرين فى طريقه فى هذه الدنيا، لكى يعلموا من الآن مصيرهم و مصير قادتهم، و على ايّة حال فاللّه تعالى بطريقة ما يهيئ وسيلة الارتباط بين الشيطان و اتباعه.

و من الطّريف انّ هذه المواجهة غير منحصرة بالشيطان و اتباعه، بل انّ جميع ائمّة الضلالة فى هذا العالم لهم نفس البرنامج ايضا، يأخذون بأيدى اتباعهم (بموافقتهم طبعا) و يذهبون بهم الى أمواج العذاب و البلاء، و حينما يرون الأوضاع سيّئة يتركونهم و شأنهم حتّى انّهم يلومونهم و يوبّخونهم فى خسران

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۸

الدنيا و الآخرة.

۳- «المصرخ» من مادّة «اصراخ» و فى الأصل من مادّة «صرخ»، و هى بمعنى الاغاثة و طلب المساعدة، و لذلك فالمصرخ بمعنى المغيث، و المستصرخ طالب الاستغاثة.

۴- القصد من اتّخاذ الكفّار الشيطان شريكا فى الآية أعلاه شرك الطاعة و ليس شرك العبادة.

۵- فى انّ جملة إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ تابعة لحديث الشيطان ام كلام مستقل من اللّه تعالى، هناك آراء مختلفة عند المفسّرين، لكن التّفسير الأقرب هو انّ الجملة مستقلّة و من كلام اللّه حيث قالها فى نهاية حديث الشيطان مع اتباعه لتكون درسا تربويّا.

و بعد بيان حال الجبّارين و الظالمين و مصيرهم المؤلم، تتطرّق الآية الاخيرة من هذا البحث الى حال المؤمنين و عاقبتهم حيث يقول تعالى: وَ أُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ الى آخر الآية.

«التحيّة» فى الأصل «الحياة» و تستعمل لسلامة و حياة الافراد، و تطلق لكلّ تحيّة و سلام و دعاء فى بداية اللقاء.

قال بعض المفسّرين: «التحية» هنا من اللّه للمؤمنين قرينة على نعمهم و سلامتهم من كلّ أذى و نزاع (لذلك فتحيّتهم اضافة لمفعول، و فاعله اللّه).

و قال البعض الآخر: انّ القصد هو تحيّة المؤمنين فيما بينهم، او تحيّة الملائكة لهم، و على ايّة حال ف «سلام» التى قيلت بشكل مطلق لها من المفهوم الواسع بحيث يشمل كلّ سلامة من اى نوع من انواع العذاب الروحى و الجسمى ۳۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۴۹۹

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۴ الى ۲۷]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ (۲۴) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۵) وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (۲۶) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ (۲۷)

التّفسير

الشّجرة الطيّبة و الشّجرة الخبيثة

! هنا مشهد آخر فى تجسيم الحقّ و الباطل، الكفر و الايمان، الطيّب و الخبيث ضمن مثال واحد جميل و عميق المعنى ... يكمل البحوث السابقة فى هذا الباب.

يقول تعالى اوّلا: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ثمّ يشير الى خصائص هذه الشجرة الطيّبة فى جميع ابعادها ضمن عبارات قصيرة.

و لكن قبل ان نستعرض هذه الخصائص يجب ان نعرف ما المقصود من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۰

«الكلمة الطيّبة»؟

قال بعض المفسّرين: انّها كلمة التوحيد (لا اله الّا اللّه).

و قال آخرون: انّها تشير الى الأوامر الالهيّة.

و قال البعض الآخر: انّه الايمان الذى محتواه و مفهومه (لا اله الّا اللّه).

و قال آخرون فى تفسيرها: انّها شخص المؤمن.

و أخيرا قال بعضهم: انّها الطريقة و البرامج العمليّة.

و لكن بالنظر الى سعة مفهوم و محتوى الكلمة الطيّبة نستطيع ان نقول: انّها تشمل جميع هذه الأقوال، لانّ «الكلمة» فى معناها الواسع تشمل جميع الموجودات، و لهذا السبب يقال للمخلوقات «كلمة اللّه».

و «الطيّب» كلّ طاهر و نظيف، فالنتيجة من هذا المثال انّه يشمل كلّ سنّة و دستور و برنامج و طريقة، و كلّ عمل، و كلّ انسان .. و الخلاصة: كلّ موجود طاهر و نظيف و ذى بركة، و جميعها كشجرة طيّبة فيها الخصائص التالية:

۱- كائن يمتلك الحركة و النمو، و ليس جامدا و لا خاملا، بل ثابت و فاعل و مبدع للآخرين و لنفسه (التعبير ب «الشجرة» بيان لهذه الحقيقة).

۲- هذه الشجرة طيّبة، و لكن من ايّة جهة؟ بما انّه لم يذكر لها قسم خاص بها، فإنّها طيّبة من كلّ جهة .. منظرها، ثمارها، ازهارها،

ظلالها، و نسيمها جميعها طيب و طاهر.

۳- لهذه الشجرة نظام دقيق، لها جذور و أغصان، و كلّ واحد له وظيفته الخاصّة، فوجود الأصل و الفرع فيها دليل على سيادة النظام الدقيق عليها.

۴- أصلها ثابت محكم بشكل لا يمكن ان يقلعها الطوفان و لا العواصف.

و باستطاعتها ان تحفظ أغصانها العالية فى الفضاء و تحت نور الشمس، لانّ الغصن كلّما كان عاليا يحتاج الى جذور قوّية أَصْلُها ثابِتٌ

۵- انّ أغصان هذه الشجرة الطيّبة ليست فى محيط ضيّق و لا رديء، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۱

مقرّها فى عنان السّماء، و هذه الاغصان و الفروع تشقّ الهواء و تصعد فيه عاليا وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ.

و من الواضح انّ الاغصان كلّما كانت عالية و سامقة تكون بعيدة عن التلوّث و الغبار و تصبح ثمارها نظيفة، و تستفيد اكثر من نور الشمس و الهواء الطلق، فتكون ثمارها طيّبة جدّا[۳۰۸].

۶- هذه الشجرة كثيرة الثمر لا كالأشجار الذابلة العديمة الثمر، و لذلك فهى كثيرة العطاء تُؤْتِي أُكُلَها.

۷- و ثمارها ليست فصلية، بل فى كلّ فصل و زمان، فإذا أردنا ان نمدّ يدنا الى أغصانها فى اى وقت لم نرجع خائبين كُلَّ حِينٍ

۸- انّ إنتاجها من الثمار يكون وفق قوانين الخلقة و السنن الالهيّة و ليس بدون حساب بِإِذْنِ رَبِّها.

و الآن يجب ان نفتّش، اين نجد هذه الخصائص و البركات؟

نجدها بالتأكيد فى كلمة التوحيد و محتواها، و فى الإنسان الموحّد ذى المعرفة، و فى البرامج الحيّة النظيفة، و جميعها نامية و متحرّكة و لها اصول ثابتة و محكمة و فروع كثيرة و عالية بعيدة عن التلوّث بالادران الجسديّة و الدنيوية، و كلّها مثمرة و فيّاضة.

و ما من احد يأتى إليها و يمدّ يده الى فروعها الّا و يستفيد من ثمارها اللذيذة العطرة، و تتحقّق فيه الخصال المذكورة، فعواصف الاحداث الصعبة و المشاكل الكبيرة لا تزحزحه من مكانه، و لا يتحدد، وافق تفكيره فى هذه الدنيا الصغيرة، بل يشقّ حجب الزمان و المكان و يسير نحو المطلق اللامتناهى.

سلوكهم و برامجهم ليست تابعة للهوى و الهوس، بل طبقا للأوامر الالهيّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۲

و بإذن ربّهم، و هذا هو مصدر الحركة و النمو فى حركتهم.

الرجال العظام من المؤمنين هم كلمة اللّه الطيّبة، و حياتهم اصل البركة، دعوتهم توجب الحركة، آثارهم و كلماتهم و أقوالهم و كتبهم و تلاميذهم و تاريخهم .. و حتّى قبورهم جميعها ملهمة و حيّة و مربّية.

نعم وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و هناك سؤال مطروح بين المفسّرين و هو: هل لوجود هذه الشجرة و صفاتها واقع خارجى؟

يعتقد البعض بوجودها و هى النخلة، و لذلك اضطروا الى ان يفسّروا كُلَّ حِينٍ بستّة أشهر.

و لكن لا حاجة الى الإصرار فى وجود مثل هذه الشجرة، بل هناك تشبيهات كثيرة و ليس لها وجود خارجى أصلا.

و على ايّة حال، فالهدف من التشبيه هو تجسيم الحقائق و المسائل العقليّة و صبّها فى قالب الحواس، و هذه الأمثال ليس فيها اى إبهام، بل هى مقبولة و مؤثّرة و جذّابة.

و فى عين الحال هناك أشجارا فى هذه الدنيا ثمارها لا تنقطع على طول السنة، و قد رأينا بعض الأشجار فى المناطق الحارّة و كانت مثمرة و فى نفس الوقت لها ازهار جديدة للثمار المقبلة! و بما انّ احد أفضل الطرق لتوضيح المسائل هو الاستفادة من طريق المقابلة و المقايسة، فقد جعلت النقطة المقابلة للشجرة الطيّبة، الشجرة الخبيثة وَ مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ

قَرارٍ.

و الكلمة «الخبيثة» هى كلمة الكفر و الشرك، و هى القول السيء و الرديء، و هى البرنامج الضالّ و المنحرف، و الناس الخبثاء، و الخلاصة: هى كلّ خبيث و نجس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۳

و من البديهى انّ مثل هذه الشجرة ليس لها اصل، و لا نمو و لا تكامل و لا ثمار و لا ظلّ و لا ثبات و لا استقرار، بل هى قطعة خشبيّة لا تصلح الّا للاشتعال ...

بل اكثر من ذلك هى قاطعة للطريق و تزاحم السائرين و أحيانا تؤذى الناس! و من الطريف انّ القرآن الكريم فصل الحديث فى وصف الشجرة الطيّبة بينما اكتفى فى وصف الشجرة الخبيثة بجملة قصيرة واحدة اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ، و هذا نوع من لطافة البيان ان يتابع الإنسان جميع خصوصيات ذكر «المحبوب» بينما يمرّ بسرعة فى جملة واحدة بذكر «المبغوض»! و مرّة اخرى نجد المفسّرين اختلفوا فى تفسير الشجرة الخبيثة، و هل لها واقع خارجى؟

قال البعض: انّها شجرة «الحنظل» و التى لها ثمار مرّة و رديئة.

و اعتقد آخرون انّها «الكشوت» و هى نوع من الاعشاب المعقّدة التى تنبت فى الصحراء و لها اشواك قصيرة تلتفّ حولها و ليس لها جذر و لا أوراق.

و كما قلنا فى تفسير الشجرة الطيّبة، ليس من اللازم ان يكون للشجرة الخبيثة وجود خارجى فى جميع صفاتها، بل الهدف هو تجسيم الوجه الحقيقى لكلمة الشرك و البرامج المنحرفة و الناس الخبثاء، و هؤلاء كالشجرة الخبيثة ليس لها ثمار و لا فائدة ... الّا المتاعب و المشاكل. مضافا الى انّ الأشجار و النّباتات الخبيثة التى قلعتها الأعاصير ليست قليلة.

و بما انّ الآيات السابقة جسّدت حال الايمان و الكفر، الطيّب و الخبيث من خلال مثالين صريحين، فإنّ الآية الاخيرة تبحث نتيجة عملهم و مصيرهم النهائى، يقول تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ لانّ ايمانهم لم يكن ايمانا سطحيا و شخصيتهم لم تكن كاذبة و متلوّنة، بل كانت شجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها فى السّماء، و بما انّ ليس هناك من لا يحتاج الى اللطف الالهى، و بعبارة اخرى: كلّ المواهب تعود لذاته المقدّسة، فالمؤمنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۴

المخلصون الثابتون بالاستناد الى اللطف الالهى يستقيمون كالجبال فى مقابل ايّة حادثة. و اللّه تعالى يحفظهم من الزلّات التى تعتريهم فى حياتهم. و من الشياطين الذين يوسوسون لهم زخرف الحياة ليزلّوهم عن الطريق.

و كذلك فاللّه تعالى يثبّتهم امام القوى الجهنّمية للظالمين القساة، الذين يسعون لاخضاعهم بأنواع التهديد و الوعيد.

و من الطريف انّ هذا الحفظ و التثبت الإلهيين يستوعبان كلّ حياتهم فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فهنا يثبّتون بالايمان و يبرؤون من الذنوب، و هناك يخلدون فى النعيم المقيم.

ثمّ يشير الى النقطة المقابلة لهم وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ.

قلنا مرارا: انّ الهداية و الضلال التى تنسب الى اللّه عزّ و جلّ لا تتحقّقان الّا بأن يرفع الإنسان القدم الاوّل لها، فاللّه عزّ و جلّ عند ما يسلب المواهب و النعم من العبد او يمنحها له يكون ذلك بسبب استحقاقه او عدم استحقاقه.

و وصف «الظالمين» بعد جملة «يُضِلُّ اللَّهُ» أفضل قرينة لهذا الموضوع، يعنى ما دام الإنسان غير ملوّث بالظلم لا تسلب الهداية منه، امّا إذا تلوّث بالظلم و عمّت وجوده الذنوب، فسوف يخرج من قلبه نور الهداية الالهيّة، و هذه عين الارادة الحرّة. و بالطبع إذا غيّر مسيره بسرعة فطريق النجاة مفتوح له، و لكن إذا استحكم الذنب فإنّ طريق العودة يكون صعبا جدّا.

بحوث

۱- هل القصد من الآخرة فى الآية هو القبر

؟ نقرا فى روايات متعدّدة انّ اللّه يثبت الإنسان على خطّ الايمان عند ما يواجه اسئلة الملائكة فى القبر، و هذا معنى الآية يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۵

فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ.

و لقد وردت كلمة «القبر» بصراحة فى بعض هذه الرّوايات ۳۰۹].

و لكن هناك

رواية شريفة عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «انّ الشيطان ليأتى الرجل من أوليائنا عند موته عن يمينه و عن شماله ليضلّه عمّا هو عليه، فيأبى اللّه عزّ و جلّ له ذلك، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ[۳۱۰].

و اكثر المفسّرين يميلون الى هذا التّفسير، طبقا لما نقله المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان و لعلّ ذلك يعود الى انّ الآخرة ليست محلا للأعمال و لا للانحراف، بل هى محلّ الحصول على النتائج فحسب و لكن عند وقوع الموت و حتّى فى البرزخ (الذى هو عالم بين الدنيا و الآخرة) قد تحصل بعض الهفوات، فهنا يكون اللطف الالهى عاملا فى حفظ و ثبات الإنسان.

۲- دور الثبات و الاستقامة

من بين جميع الصفات التى ذكرتها الآيات أعلاه للشجرة الطيّبة و الخبيثة، وردت مسألة الثبات و عدم الثبات بشكل اكثر، و حتّى فى بيان ثمار هذه الشجرة يقول تعالى: يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا و بهذا الترتيب تتّضح لنا اهميّة الثبات و دوره فى حياة الإنسان.

فكثير من الأشخاص من ذوى القابليات المتوسطة، الّا انّهم ينالون انتصارات كبيرة فى حياتهم، ثمّ إذا حقّقنا فى الأمر لم نجد دليلا الّا الثبات و الاستقامة لديهم.

و من جهة اجتماعية لا يتحقّق اى تقدّم فى البرامج الّا فى ظلّ الثبات، و لهذا السبب نجد المخرّبين يسعون فى تدمير الاستقامة، و لا نعرف المؤمنين الصادقين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۶

الّا من خلال استقامتهم و ثباتهم فى مقابل الحوادث الصعبة.

۳- الشجرة الطيّبة و الخبيثة فى الرّوايات الاسلامية

كما قلنا أعلاه فإنّ كلمة «الطيّبة» و «الخبيثة» التى شبّهت الشجرتان بها، لها مفهوم واسع بحيث تشمل كلّ شخص و برنامج و مبدا و فكر و علم و قول و عمل، و لكن وردت فى بعض الرّوايات فى موارد خاصّة و لكن لا تنحصر بها.

و من جملتها ما

ورد فى الكافى عن الامام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ قال: «رسول اللّه أصلها و

امير المؤمنين فرعها، و الائمّة من ذرّيتهما أغصانها، و علم الائمّة ثمرها، و شيعتهم المؤمنون ورقها، هل فيها فضل؟» (اى هل يبقى شىء) قال قلت: لا و اللّه، قال:

«و اللّه انّ المؤمن ليولد فتورق ورقة فيها، و انّ المؤمن ليموت فتسقط ورقة منها»[۳۱۱].

و

عنه ايضا عليه السّلام حينما سأله سائل عن معنى الآية تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها قال: «ذاك علم الائمّة يأتيكم كلّ عام من كلّ المناطق»[۳۱۲].

و

فى رواية اخرى: «الشجرة الطيّبة رسول اللّه و على و فاطمة و بنوها، و الشجرة الخبيثة بنو اميّة»[۳۱۳].

و فى بعضها الآخر فسّرت الشجرة الطيّبة بالنخل و الخبيثة بالحنظلة.

و على ايّة حال ليس هناك من تضادّ بين هذه التفاسير، بل بينها و بين ما قلناه أعلاه ترابط و تنسق، لانّها مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (۲۸) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (۲۹) وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (۳۰)

التّفسير

نهاية كفران النعم:

الخطاب فى هذه الآيات موجّه للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى الحقيقة عرض لواحد من موارد «الشجرة الخبيثة».

يقول تعالى اوّلا: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ... الى نهاية الآية. هؤلاء هم جذور الشّجرة الخبيثة و قادة الكفر و الانحراف، لديهم أفضل نعمة و هو رسول اللّه، و باستطاعتهم ان يستفيدوا منه فى الطريق الى السعادة، الّا انّ تعصّبهم الأعمى و عنادهم و حقدهم صارت سببا فى تركهم هذه النعمة الكبيرة، و لم يقتصروا على تركها فحسب. بل اضلّوا قومهم ايضا ممّا جعلهم يسلكون هذا السلوك.

مع انّ بعض المفسّرين الكبار عند متابعتهم للروايات الاسلامية فسّروا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۸

أحيانا- هذه النعمة بوجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أحيانا أخرى بالأئمة عليهم السّلام، و فسّروا الكافرين بهذه النعمة «بنى اميّة» و «بنى المغيرة» مرّة، و مرّة اخرى جميع الكفّار الذين عاصروا عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن من المسلّم به انّ للآية مفهوما أوسع من هذا، و ليس مختصّا بمجموعة معيّنة، بل تشمل جميع الافراد الذين يكفرون بالنعم الالهيّة.

و تثبت الآية ضمنا هذه الحقيقة، و هى انّ الاستفادة من وجود القادة العظام تعود لنفس الإنسان، كما انّ الكفر بهذه النعمة العظيمة يؤدّى الى الهلاك و البوار.

ثمّ انّ القرآن الكريم يفسّر دار البوار بقوله تعالى: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ[۳۱۴].

ثمّ يشير فى الآية الاخرى الى واحدة من أسوإ انواع كفران النعم وَ جَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ لكى يستفيدوا عدّة ايّام من حياتهم الماديّة و من رئاستهم و حكومتهم فى ظلّ الشرك و الكفر لإضلال الناس عن طريق الحقّ.

ايّها النّبى قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ.

فحياتكم هذه شقاء و رئاستكم فاسدة، و مع ذلك فانّها تعدّ حياة لذيذة و سعيدة بالنسبة للنهاية التى تنتظرهم، كما نقرا فى آية اخرى قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ.[۳۱۵].

بحوث

۱- يقال فى العبارات الدارجة: انّ الشخص الفلانى كفر بنعمة اللّه، و لكن الآية أعلاه تقول: الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً انّ هذا التعبير الخاص يدلّ على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۰۹

احد أمرين:

الف: المراد من تبديل «النعمة» الى «كفران» هو عدم شكرهم لهذه النعم، فبدّلوا الشكر بالكفران (فى الحقيقة كلمة الشكر مقدّرة، ففى التقدير: الذين بدّلوا شكر نعمة اللّه كفرا).

ب:- انّ المقصود هو تبديلهم نفس «النعمة» «كفرا»، و فى الحقيقة فإنّ النعم الالهيّة وسائل، و طريقة استعمالها مرتبطة بإرادة الإنسان، فمثلما يمكن ان نستفيد منها فى طريق السعادة و الايمان و العمل الصالح، يمكن ان نستعملها كذلك فى مسير الكفر و الظلم و الفساد، فهى كالمواد الاوّلية التى يمكن بمساعدتها الحصول على انواع مختلفة من الانتاج، الّا انّها خلقت فى الأصل للخير و السعادة.

۲- ليس «كفران النعم» عدم الشكر اللسانى فقط، بل كلّ استفادة غير صحيحة و منحرفة للنعم، تلك هى حقيقة الكفران، و امّا عدم الشكر باللسان ففى الدرجة الثانية، و كما قلنا سابقا فإنّ شكر النعمة تعنى صرفها فى الهدف الذى خلقت من اجله، و الشكر عليها باللسان يأتى فى الدرجة الثانية، فإذا قلنا آلاف المرّات: الحمد للّه، و لكنّنا اسأنا عمليّا الاستفادة من النعم، فذلك كفران للنعم.

و فى عصرنا الحاضر أفضل نموذج لتبديل النعم بالكفران هو استخدام الإنسان لمواهب الطبيعة بفكره و مهارته التى منحها اللّه للإنسان لخدمة منافعه الخاصّة. فالاكتشافات العلميّة و الخبرات الصناعية غيّرت وجه العالم و رفعت عن كاهل الإنسان عبئا ثقيلا و وضعته على عجلات المعامل. فالمواهب و النعم الالهيّة اكثر من اى زمن آخر، و وسائل نشر المعارف و انتشار العلوم و معرفة جميع اخبار العالم متوفّرة فى ايدى الجميع، فيجب على الناس فى هذا العصر ان يكونوا سعداء من الناحية الماديّة و المعنوية.

و لكن بسبب تبديل النعم الالهيّة الكبيرة الى كفران، و صرف القوى الطبيعيّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۰

فى طريق الظلم و الطغيان و استخدام الاختراعات و الاكتشافات فى طريق الاهداف المخربة بحيث انّ كلّ تطور صناعى يستخدم اوّلا فى عمليات التدمير.

و خلاصة القول: انّ عدم الشكر هذا و الذى هو بعيد عن التعاليم الصالحة للأنبياء ادّى الى ان يجرّوا قومهم و مجتمعهم الى دار البوار.

و دار البوار هذه هى مجموعة من الحروب الاقليميّة و العالميّة بكلّ آثارها التخريبيّة، و كذلك عدم الأمن و الظلم و الفساد و الاستعمار حيث يبتلى بها فى النهاية المؤسّسون لها ايضا، كما رأينا فى السابق و نراه اليوم.

و ما الطف تصوير القرآن حيث جعل مصير كلّ الأقوام و الأمم التى كفرت بأنعم اللّه الى دار البوار.

۳- «أنداد» جمع «ندّ» بمعنى «المثل» و لكن الراغب فى مفرداته و الزبيدى فى تاج العروس قالا: انّ «الندّ» يقال للشىء الذى يشابه الشىء الآخر جوهريا، و «المثل» يطلق على كلّ شىء شبيه لشىء، و لذلك فالندّ له معنى اعمق و ادقّ من المثل.

و طبقا لهـذا المعنى نسـتفيد من الآيـة أعلاه انّ ائمّة الكفر كانوا يسـعون لان يجعلوا للّه شـركاء و يشـبهوهم فى جوهر ذاتهم باللّه عزّ و جلّ، لكى يضلّوا الناس عن عبادة اللّه و يحصلوا على مقاصدهم الشريرة.

فتارة يقرّبون لهؤلاء الشـركاء القرابين، و اخرى يجعلون قسـما من النعم الالهيّة (كبعض الانعام) مخصوصة للأصـنام، و يعتقدون أحيانا بعبادتها. و اوقح من ذلك كلّه كانوا يقولون أثناء حجّهم فى عصـر الجاهلية: (لبّيك لا شـريك لك- الا شريك هو لك- تملكه و ما ملك)[۳۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۱

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۳۱ الى ۳۴]

اشارة

قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ (۳۱) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (۳۲) وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ (۳۳) وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (۳۴)

التّفسير

عظمة الإنسان من وجهة نظر القرآن:

تعقيبا للآيات السابقة فى الحديث عن برنامج المشـركين و الذين كفروا بأنعم اللّه و كون مصيرهم الى دار البوار، تتحدّث هذه الآيات عن برنامج عباد اللّه المخلصين و النعم النازلة عليهم، يقول تعالى: قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۲

الصَّلاةَ وَ يُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً قبل ان يأتى ذلك اليوم الذى لا يستطيع فيه الإنسان من التخلّص من العذاب بشراء السعادة و النعيم الخالد، و لا تنفع الصداقة حينئذ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خِلالٌ

ثمّ تتطرّق الآيـة الى معرفة اللّه عن طريق نعمه، معرفة تؤدّى الى احياء ذكره فى القلوب، و تحثّ الإنسان على تعظيمه فى مقابل لطفه و قدرته، لانّ من الأمور الفطرية ان يشعر الإنسان فى قلبه بالحبّ و الودّ لمن أعانه و احسن اليه.

و يبيّن هذا الموضوع من خلال عدّة آيات اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ثمّ انّه وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ سواء من جهة موادّها الاوّلية المتوفّرة فى الطبيعة، او من جهة القوّة المحرّكة لها و هى الرياح التى تهب على البحار و المحيطات بصورة منتظمـة لتسـيير هـذه السـفن فتنقل الإنسان و ما يحتاج اليه من منطقة الى اخرى بيسـر و سـهولة: لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ

وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ كى تسـقوا من مائها زروعكم، و تشـربوا أنتم و انعامكم، و فى كثير من الأحيان تكون طريقا للسفن و القوارب، و تستفيدون منها فى صيد الأسماك.

و ليست موجودات الأرض- فقط- مسخّرة لكم، بل وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ ۳۱۷].

و ليست مخلوقات العالم بـذاتها فقط، بل حتّى الحالات العرضـية لها هى فى خـدمتكم: وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما

سَأَلْتُمُوهُ من احتياجاتكم البدنيّة و الاجتماعية و جميع وسائل السعادة و الرفاه وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها لانّ النعم المادية و المعنوية للخالق شملت جميع وجودكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۳

و هى غير قابلة للاحصاء، و علاوة على ذلك فإنّ ما تعلمونه من النعم بالنسبة لما تجهلونه كقطرة فى مقابل البحر.

و على الرغم من كلّ هذه الألطاف و النعم ف إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

فلو كان الإنسان يستفيد من هذه النعم بشكلها الصحيح لاستطاع ان يجعل الدنيا حديقة غنّاء و لنفّذ مشروع المدينة الفاضلة، و لكن بسبب عدم الاستفادة الصحيحة لها أصبحت حياته مظلمة، و اهدافه غير سامية، فتراكمت عليه المشاكل و الصعاب و قيّدته بالسلاسل و الأغلال.

بحوث

۱- الصلة بالخالق و الصلة بالخلق

نواجه فى هذه الآيات مرّة اخرى و فى تنظيم برنامج المؤمنين الصادقين مسألة «الصلاة» و «الإنفاق»، و فى البداية قد يطرح هذا السؤال، و هو: كيف أشار القرآن الكريم لهاتين المسألتين من بين جميع البرامج العمليّة للإسلام؟ العلّة فى ذلك انّ للإسلام ابعاد مختلفة يمكن تلخيصها فى ثلاث نقاط: علاقة الإنسان بربّه، و علاقته بخلق اللّه، و علاقته بنفسه، و هذا القسم الأخير فى الحقيقة نتيجة للقسم الاوّل و الثانى، فالصلاة و الإنفاق كلّ واحدة منهما رمز للعلاقة الاولى و الثانية.

و الصلاة مظهر لصلة الإنسان بربّه و هذه الصلة تظهر فى الصلاة بشكل أوضح من اى عمل آخر، و الإنفاق رمز للصلة بين المخلوقين، فالرزق فى مفهومه الواسع يشمل كلّ نعمة مادية و معنوية.

و بالنظر الى انّ هذه السورة مكّية، و أثناء نزولها لم يكن حكم الزكاة نازلا بعد، لا نستطيع القول: انّ هذا الإنفاق مرتبط بالزكاة، بل له معنى واسع بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۴

يشمل حتّى الزكاة بعد نزولها.

و على ايّة حال إذا تأصّل الايمان فسوف يتجلّى بالعمل فيقرب الإنسان الى ربّه من جانب، الى عباده من جانب آخر.

۲- لماذا السرّ و العلانية

؟ نقرا مرارا فى آيات القرآن انّ المؤمنين ينفقون او يتصدّقون فى السرّ و العلانية، و بهذا الترتيب فإنّه تعالى مع ذكره للإنفاق يذكر كيفيّة الإنفاق، لانّه يكون مرّة فى السرّ اكثر تأثيرا و كرامة، و يكون مرّة اخرى فى الجهر سببا فى تشجيع الآخرين و اقتدائهم فى اقامة الشعائر الدينيّة.

و لو قامت حرب بين دولة اسلامية و اخرى كافرة لرأينا الناس المؤمنين يحملون كلّ يوم مقادير كبيرة من التبرعات الى المناطق المنكوبة لمساعدة المتضرّرين بالحرب، او الجرحى و المعوّقين او المقاتلين، و من المعلوم انّ نشر اخبار هذه التبرّعات مفيد جدّا و لتكون دليلا على مواساتهم، و دعمهم لمقاتليهم، و إحياء لروح الانسانيّة فى عامّة الناس، و تشجيعا للذين تخلّفوا عن هذه القافلة لكى

یوصلوا أنفسهم بها، و من البدیهی انّ الإنفاق هنا فی العلانیة اکثر تأثیرا.

و یقول بعض المفسّرین: انّ الفرق بین الانفاقین هو انّ الإنفاق العلنی مرتبط بالواجبات، فلا یخشی علیه من الریاء، لان العمل بالواجبات لازم للجمیع و لا داعی لاخفائه، و امّا الإنفاق المستحبّ- و لانّه زائد عن الوظیفة الواجبة- فمن الممکن ان تتخلّله حالة من التظاهر و الریاء و لذلک کان إخفاؤه أفضل.

و لکن الظاهر انّ هذا التّفسیر لیس أصلا کلّیا علی حدة. بل هو فرع من التّفسیر الاوّل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۵

۳- یوم لا بیع فیه و لا خلال

من المعلوم انّ یوم القیامة هو یوم استلام النتائج و متابعة جزاء الأعمال، و بهذا الترتیب لا یستطیع احد هناک ان ینجو من العذاب بفدیة، حتّی لو افترضنا انّه ینفق جمیع ما فی الأرض فإنّه لا یمکن ان یمحو ذرّة من جزاء اعماله، لانّ صحیفته فی «دار العمل» ای الدنیا ملیئة بالاخطاء و الذنوب و هناک «دار الحساب».

و کذلک لا تستطیع العلاقة المادیة للصداقة مع ای شخص کان ان تنجیه من العذاب، و بعبارة اخری: انّ الإنسان غالبا ما یلجأ الی المال او الواسطة (الرشوة، العلاقات) فی نجاته من المصاعب فی هذه الدنیا، فإذا کان تصوّرهم انّ الآخرة کذلک فهذا دلیل و همّهم و جهلهم.

و من هنا یتّضح انّ نفی وجود الخلّة و الصداقة فی هذه الآیة لا یتنافی مع صداقة المؤمنین بعضهم لبعض فی الآخرة و التی اشارت إلیها بعض الآیات، لانّها صداقة مودّة معنویة فی ظلّ الایمان.

و امّا مسألة «الشفاعة» فقد قلنا کرارا انّها تخلو من ای مفهوم مادّی، بل بالنظر الی ما صرّحت به بعض الآیات فإنّها فی ظلّ العلاقات المعنویة و صلاحیة البعض بسبب اعمال الخیر (و قد شرحنا هذا الموضوع فی ذیل الآیة ۲۵۴ من سورة البقرة).

۴- کلّ الموجودات تحت امرة الإنسان

! نواجه فی هذه الآیات مرّة اخری تسخیر مختلف الموجودات فی الأرض و السّماء للإنسان، و قد قسمت الی ستّة اقسام: تسخیر الفلک، و الأنهار، و الشمس، و القمر، و اللیل، و النهار. و نری انّ قسما من هذه المسخّرات من السّماء، و قسما آخر من الأرض، و قسما ثالثا من الظواهر بین الاثنین (اللیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۶

و النهار).

و قلنا سابقا، و نکرّر هنا للتذکرة: انّ الإنسان من وجهة نظر القرآن له من العظمة بحیث سخّر اللّه له جمیع ما فی الوجود، امّا ان یکون زمام أمورها بیده او تتحرّک ضمن منافعه، و علی ایّة حال فهذه العظمة جعلته من اشرف الموجودات.

«فالشمس»: تسطع له بالنّور، و تعطیه الحرارة، و تساعد علی نمو النباتات له، و تطهّر محیطه من الأمراض، و تخلق له البهجة و السرور، و تعلّمه الحیاة.

و امّا «القمر»: فمصباح فی لیله المظلم، و مفکرة طبیعیّة دائمة، و من آثاره تتکوّن ظاهرة الجزر و المدّ لتحلّ کثیرا من مشاکله، فتسقی الأشجار (بسبب ارتفاع منسوب المیاه فی الأنهار المجاورة للبحار) و تتحرّک میاه البحار الراکدة کی لا تتعفّن، و لیدخل الاوکسجین

فيها بسبب الأمواج ليكون تحت تصرّف الكائنات الحيّة.

«الرياح»: تؤدّى الى حركة السفن فى المحيطات حيث تشكّل اكبر واسطة نقل و فى أوسع طريق للإنسان، بحيث تستطيع- أحيانا- ان تدفع سفينة بحجم مدينة صغيرة بكامل افرادها و تنقلها فى المحيطات.

«الأنهار»: تجرى فى خدمة الإنسان، تسقى زرعه، و تروى مواشيه، و تجعل محيطة ذا طراوة، و تربّى له الأسماك لتغذيته.

«ظلام الليل»: حيث هو سكن للإنسان، و يمنحه الطمأنينة و الراحة، و يخفّف من حرارة الجو الملتهبة فى النهار.

و أخيرا «ضياء النهار»: يدعوه الى الحركة و السعى، و يخلق له الدفء و الحرارة.

و الخلاصة: انّ كلّ ما على الأرض و حولها لنفع الإنسان، و بيان هذه النعم و شرحها يمنح الإنسان شخصية جديدة، و تفهمه عظمة مقامه و تبعث فيه الاحساس بالشكر اكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۷

و نستفيد ايضا من هذا البيان انّ للتسخير فى لغة القرآن معنيان:

الاوّل: التسخير لخدمة الإنسان و تحقيق منافعه و مصالحه (كتسخير الشمس و القمر).

و الثّانى: التسخير الذى يكون زمام أموره بيد الإنسان (كتسخير الفلك و البحار).

و امّا ما اعتقده البعض من انّ هذه الآيات اشارة الى تسخير الإنسان للقمر و غيره فى عصرنا الحاضر فإنّنا لا نراه صحيحا، لانّ هناك بعض الآيات تقول:

وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ۳۱۸]، فلا يستطيع الإنسان ان يصل الى جميع الكرات السّماوية بتاتا.

نعم هناك بعض الآيات قد تشير الى هذا النوع من التسخير، و سوف نبحث هذا الموضوع بإذن اللّه فى تفسير سورة الرحمن (و سبق لنا بحث فى تسخير الموجودات للإنسان فى ذيل الآية (۲) من سورة الرعد).

۵- دائبين

قلنا انّ «دائب» من مادّة «الدؤوب» بمعنى استمرار العمل طبقا للعادة و السنّة، فالشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرض تدور حول الشمس، و نحن نظنّ انّ الشمس تدور حولنا، و هذه الحركة ليست المقصودة فى معنى «دائب» بل الاستمرار فى انجاز العمل يدخل فى مفهوم الدؤوب، و نحن نعلم انّ الشمس و القمر لهما برنامج فى انبعاث النّور و ما يتبعه من توقّف الحياة على الأرض عليه بشكل مستمر و فى غاية من الدقّة (و هناك حركات اخرى للشمس كما يقوله العلماء، منها الحركة حول نفسها، و حركتها مع المجموعة الشمسية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۸

۶- هل يعطينا اللّه كلّ ما نطلب منه

؟ قرانا فى الآيات أعلاه انّ اللّه عزّ و جلّ لطف بكم و أعطاكم من كلّ ما سألتموه («من» فى الآية تبعيضيّة) و ذلك بسبب انّ كثيرا ممّا يطلبه الإنسان من ربّه قد يعود عليه بالضرر و الهلاك، و لكنّ اللّه حكيم و عالم و رحيم فلا يستجيب لمثل هذه الطلبات، و فى المقابل نرى فى اكثر الأحيان انّ الإنسان لا يطلب شيئا بلسانه، و لكن يتمنّاه بفطرته و وجدانه فيستجيب اللّه له، و ليس هناك مانع من ان يكون السؤال فى جملة ما سَأَلْتُمُوهُ شاملا للسؤال باللسان و السؤال بالفطرة و الوجدان.

۷- لماذا لا تحصى نعماؤه

؟ نعم اللّه- فى الحقيقة- تعمّ كلّ وجودنا، و إذا ما طالعنا الكتب المختلفة فى العلوم الطبيعيّة و الانسانيّة و النفسيّة و أمثالها فسوف نرى الى اى مدى تتّسع أطراف هذه النعم، و فى الحقيقة انّ لكلّ نفس يتنفّسه الإنسان نعمتان، و لكلّ نعمة شكر واجب.

و اكثر من ذلك فنحن نعلم بأنّ متوسّط عدد الخلايا الحيّة فى جسم الإنسان نحو العشرة ملايين ميليارد، و كلّ مجموعة تشكّل قسما فعّالا فى الجسم، و هذا العدد كبير جدّا بحيث لو أردنا إحصاءه نحتاج الى مئات السنين! فهذا قسم من نعمه علينا، و لذلك- حقّا- لا نستطيع عدّ نعمه، وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوها.

و يوجد فى دم الإنسان مجموعتان من الكريّات (و هى خلايا صغيرة سابحة فى الدم و لها وظائف حياتية مهمّة) ملايين من «الكريّات الحمراء» وظيفتها إيصال الاوكسجين لأجل الاحتراق و صنع خلايا الجسم، و ملايين من «الكريات البيض» وظيفتها حفظ سلامة الإنسان مقابل هجوم المكروبات، و العجيب انّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۱۹

هذه الكريات فى حالة حركة مستمرّة لخدمة الإنسان.

فهل نستطيع فى هذه الأحوال ان نحصى نعمه تعالى غير المتناهية؟!

۸- أسفا .. انّ الإنسان ظلوم و كفّار

توصّلنا فى البحوث السابقة الى هذه الحقيقة، و هى انّ اللّه سخّر للإنسان جميع الموجودات، و هيّأ له كلّ هذه النعم بحيث سدّ جميع احتياجاته، و لكن الإنسان بسبب ابتعاده عن نور الايمان و التربية، نراه يخطو فى طريق الظلم و الطغيان و يكفر بالنعم.

و يسعى المحتكرون فى احتكار النعم الالهيّة الواسعة و السيطرة على منابعها الحياتية، مع انّهم لا يستهلكون الّا الشىء القليل و يحرمون الآخرين منها، و يظهر هذا الظلم بأشكال مختلفة من السيطرة على الشعوب الضعيفة و استعمارها و التجاوز على حقوق الآخرين، فيعرّض الإنسان حياته الهادئة الى الهلاك، يخلق الحروب، و يسفك الدماء، و يقضى على الأموال و الأنفس.

و فى الحقيقة فإنّ القرآن الكريم يناديه: ايّها الإنسان، كلّ شىء بالقدر الكافى تحت تصرّفك، بشرط ان لا تكون ظلوما كفّارا، عليك ان تقنع بحقّك و لا تتجاوز على حقوق الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۰

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۳۵ الى ۴۱]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (۳۵) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۶) رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (۳۷) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (۳۸) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (۳۹) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ (۴۰) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (۴۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۱

التّفسير

دعاء ابراهيم عليه السّلام:

لمّا كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين الصادقين و الشاكرين لأنعم اللّه، عقّبت هذه الآيات فى بحث بعض ادعية و طلبات العبد المجاهد و الشاكر للّه ابراهيم عليه السّلام ليكون هذا البحث تكملة للبحث السابق و نموذجا حيّا للذين يريدون ان يستفيدوا من النعم الالهيّة أفضل استفادة.

يقول تعالى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ لانّه عليه السّلام كان يعلم حجم البلاء الكبير الكامن فى عبادة الأصنام، و يعلم كثرة الذين ذهبوا ضحيّة فى هذا الطريق رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فأىّ ضلال اكبر من هذا الضلال الذى يفقد الإنسان فيه حتّى عقله و حكمته.

الهى انّنى ادعو الى توحيدك، و ادعو الجميع الى عبادتك فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

فى الحقيقة انّ ابراهيم عليه السّلام أراد بهذه العبارة ان يقول للّه تعالى: انّه حتّى لو انحرف ابنائى عن مسيرة التوحيد و اتّجهوا الى عبادة الأصنام فإنّهم ليسوا منّى، و لو كان غيرهم فى مسيرة التوحيد فهم ابنائى و إخوانى.

انّ تعبير ابراهيم المؤدّب و العطوف جدير بالملاحظة، فهو لم يقل: و من عصانى فإنّه ليس منّى و سأعاقبه عقابا شديدا، بل يقول: وَ مَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

ثمّ يستمر بدعائه و مناجاته رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ.

و كان ذلك عند ما رزقه اللّه إسماعيل من جاريته «هاجر» فأثار ذلك حسد زوجته الاولى «سارة» و لم تستطع تحمّل وجود هاجر و ابنها، فطلبت من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۲

ابراهيم ان يذهب بهما الى مكان آخر، فاستجاب لها ابراهيم طبقا للأوامر الالهيّة، و جاء بإسماعيل و امّه الى صحراء مكّة القاحلة، ثمّ ودّعهم و ذهب.

و لم يمض قليل من الوقت حتّى عطشت الامّ و ابنها فى تلك الشمس المحرقة، وسعت هاجر كثيرا فى انقاذ ابنها، و لكنّ اللّه تعالى أراد ان تكون تلك الأرض قاعدة عظيمة للعبادة فأظهر عين زمزم، و لم يمض وقت حتّى علمت قبيلة «جرهم» البدوية التى كانت قريبة منهم بالأمر، فرحلوا و أقاموا عندهم، فأخذت مكّة بالتحضّر شيئا فشيئا.

ثمّ يتابع ابراهيم عليه السّلام دعاءه: الهى، انّ اهلى قد سكنوا فى هذه الصحراء المحرقة احتراما لبيتك المحرّم: فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ

و من هنا لمّا كان الإنسان الموحّد و العارف يعلم بمحدودية علمه فى مقابل علم اللّه، و انّه يعلم مصلحته الّا اللّه تعالى، فما اكثر ما يطلب شيئا من اللّه و ليس فيه صلاحه، او لا يطلبه و فيه صلاحه، و أحيانا لا يستطيع ان يقوله بلسانه فيضمره فى اعماق قلبه، و لذلك يعقّب على ما مضى من دعائه و يقول: رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَ ما نُعْلِنُ وَ ما يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ.

فان كنت مغتمّا لفراق ابنى و زوجتى فأنت تعلم بذلك .. و ترى دموع عينى المنهملة. و ان كان قلبى قد ملأه همّ الفراق، و امتزج بفرح العمل بالتكليف و الطاعة لاوامرك فأنت اعلم بذلك ..

و عند ما فارقت زوجتى و قالت لى: «الى من تكلنى» فأنت أدرى بها و بمستقبلها و مستقبل هذه الأرض.

ثمّ يشير القرآن الى شكر ابراهيم عليه السّلام لنعمه تعالى و التى هى من اهمّ ما امتاز به عليه السّلام .. شكره على منحه ولدين بارّين إسماعيل و إسحاق و ذلك فى سنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۳

الشيخوخة الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ ۳۱۹] نعم إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعاءِ.

ثمّ يستمرّ بدعائه و مناجاته ايضا فيقول: رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاةِ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنا وَ تَقَبَّلْ دُعاءِ.

ثمّ يختم دعاءه هنا فيقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَ لِوالِدَىَّ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ

بحوث

۱- هل كانت مكّة فى ذلك الوقت مدينة

؟ رأينا فى الآيات السابقة انّ ابراهيم قال: رَبَّنا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ و هذه اشارة الى اوّل دخوله ارض مكّة و التى كانت غير مزروعة و لا معمورة و لا ساكن فيها سوى اسّس بيت اللّه الحرام، و مجموعة من الجبال الجرداء.

و لكنّنا نعلم انّها لم تكن رحلته الوحيدة الى مكّة، بل وطأت قدمه عدّة مرّات تلك الأرض، و فى الوقت نفسه كانت مكّة تأخذ طابع المدينة، و سكنتها قبيلة «جرهم» و بظهور عين زمزم أصبحت صالحة للسكن.

و المعتقد انّ ادعية ابراهيم هذه كانت فى احدى رحلاته، و لذلك عبّر عنها بالبلد، اى المدينة فقال: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً.

و امّا قوله: بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ فقد تكون اشارة الى رحلته الاولى او اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۴

الى ارض مكّة بعد ان أخذت طابع المدينة، فإنّها لا زالت غير صالحة للزراعة، لانّها من الناحية الجغرافية تقع بين جبال يابسة و قليلة المياه.

۲- أمان ارض مكّة

من الطريف انّ اوّل ما سأل ابراهيم من ربّه فى هذه الأرض هو الامان، و هذا يوضّح انّ نعمة الأمن هى من الشروط الاولى لحياة الإنسان و سكنه فى منطقة ما، فالمكان غير الآمن لا يمكن السكن فيه، حتّى لو اجتمعت كلّ النعم الدنيويّة فيه، و فى الحقيقة اى مدينة او بلد فاقد لنعمة الأمن سوف يفقد جميع النعم! و لا بدّ هنا من الالتفات الى هذه النقطة، و هى انّ استجابة اللّه لدعاء ابراهيم بخصوص امن مكّة له جهتان: فمن جهة منحها امنا تكوينيّا، و لذلك لم تشهد فى تاريخها الّا النزر القليل من إخلال الأمن، و من جهة ثانية منحها الأمن التشريعى، اى انّ اللّه اقرّ ان يأمن جميع الناس- و حتّى الحيوانات- فى هذه الأرض. و منع صيد الحيوانات، و عدم متابعة المجرمين الذين يلجأون الى حرم الكعبة، و نستطيع- فقط- ان نمنع عليهم الغذاء لكى يخرجوا، و من ثمّ تطبيق العدالة فى حقّهم.

۳- دعاء ابراهيم لاجتناب عبادة الأصنام

؟ ممّا لا شکّ فیه انّ ابراهیم علیه السّلام کان نبیّا معصوما، و کذلک ابناه إسماعیل و إسحاق کانا نبیّین معصومین، لانّهما داخلان فی کلمة «بنیّ» فی الآیة قطعا، و مع ذلک یدعو اللّه ان یجنّبهم عبادة الأصنام! و هذا دلیل فی التأکید علی محاربة عبادة الأصنام بحیث کان یطلب هذا الأمر من اللّه حتّی للأنبیاء المعصومون و محطّمو الأصنام، و هذا نظیر اهتمام النّبی فی وصایاه لعلی- او الائمّة الآخرین بالنسبة لاوصیائهم- فی امر الصلاة، و التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۵

لا یمکن احتمال ترکها من قبلهم ابدا، بل انّ الصلاة أساسا قامت ببرکة سعیهم و جهودهم.

و هنا یطرح هذا السؤال: کیف قال ابراهیم رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ فی حین انّ الأصنام لیست سوی أحجارا و خشبا و لا استطاعة لهنّ فی إضلال الناس.

و یمکن الجواب علی هذا السؤال من جهتین:

اوّلا- لم تکن الأصنام من الأحجار و الخشب دائما، بل هناک الفراعنة و أمثال نمرود الذین کانوا یدعون الناس لعبادتهم و یسمّون أنفسهم بالربّ الأعلی و المحی و الممیت.

ثانیا: و أحیانا یکون القائمون بأمر الأصنام مظهرین تعظیمها و تزیینها بالشکل الذی تکون حقّا مضلّة لعوام الناس.

۴- من هم اتباع ابراهیم

؟ قرانا فی الآیات انّ ابراهیم قال: فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی فهل انّ اتباع ابراهیم من کان فی عصره فقط، ام الذین کانوا علی دینه فی العصور اللاحقة، او یشمل کلّ الموحدین و المؤمنین فی العالم- باعتبار ابراهیم علیه السّلام مثالا فی التوحید و محطّما للأصنام-؟

نستفید من الآیات القرآنیة- و من ضمنها الآیة ۷۸ من سورة الحج- انّ دعاء ابراهیم یشمل جمیع الموحدین و المجاهدین فی طریق التوحید. و یؤیّد هذا التّفسیر ما ورد عن اهل البیت علیهم السّلام ایضا:

فعن الباقر علیه السّلام قال «من احبّنا فهو منّا اهل البیت. قلت، جعلت فداک: منکم؟ قال منّا و اللّه، اما سمعت قول ابراهیم فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی ۳۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۶

و یوضّح هذا الحدیث صیرورة الفرد من اهل البیت معنویا ان سار علی خطّهم و تابع منهجهم.

و

عن الامام علی علیه السّلام قال: «نحن آل ابراهیم، أ فترغبون عن ملّة ابراهیم! و قد قال اللّه تعالی: فَمَنْ تَبِعَنِی فَإِنَّهُ مِنِّی

۵- واد غیر ذی زرع و الحرم الآمن

الذین سافروا الی مکّة یعلمون جیدا انّها تقع بین جبال صخریة یابسة لا ماء فیها و لا کلا، و کأنّ الصخور وضعت فی افران حارّة ثمّ صبّت فی أماکنها. و فی نفس الوقت فهی اکبر مرکز للعبادة و اقدم قاعدة للتوحید علی وجه المعمورة، و کذلک هی حرم اللّه الآمن.

و هنا قد یرد هذا السؤال فی أذهان الکثیرین و هو: لماذا جعل اللّه هذا المرکز المهمّ فی مثل هذه الأرض؟

یجیب الامام علی علیه السّلام علی هذا السؤال من خلال أوضح العبارات و أجمل التعابیر الفلسفیّة خطبته القاصعة حیث

یقول: «وضعه بأوعر بقاع الأرض صخرا و اقلّ نتائق الدنیا مدرا ... بین جبال خشنة و رمال دمثة ... و لو أراد سبحانه ان یضع بیته الحرام

و مشاعره العظام بين جنّات و انهار و سهل و قرار، جمّ الأشجار، دانى الثمار، ملتفّ البنا، متّصل القوى، بين برّة سمراء و روضة خضراء، و أرياف محدقة، و عراص مغدقة و رياض ناظرة و طرق عامرة، لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء، و لو كان الأساس المحمول عليها و الأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء، و ياقوتة حمراء، و نور و ضياء، لخفّف ذلك مصارعة الشكّ فى الصدور، و لوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، و لنفى معتلج الريب من الناس، و لكنّ اللّه يختبر عباده بأنواع الشدائد، و يتعبّدهم بأنواع المجاهد، و يبتليهم بضروب المكاره، إخراجا للتكبّر من قلوبهم، و إسكانا للتذلّل فى نفوسهم و ليجعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۷

ذلك أبوابا فتحا الى فضله، و أسبابا ذللا لعفوه»[۳۲۱].

۶- الدعوات السبعة لإبراهيم

اشارة

دعا ابراهيم عليه السّلام فى هذه الآيات سبع دعوات فى مجال التوحيد و المناجاة و محاربة الأصنام و عبادتها و محاربة الظالمين:

اوّل هذه الدعوات هو أمان مكّة القاعدة العظيمة لمجتمع التوحيد (و ما اعمق مغزى هذا الطلب).

الثّانى: دعاؤه فى الاجتناب عن عبادة الأصنام و التى هى الأساس و القاعدة لجميع العقائد و البرامج الدينيّة.

الثّالث: دعاؤه فى تمايل قلوب المؤمنين و ارتباطهم العاطفى بالنسبة لأبنائه و التابعين لدينه.

دعاؤه الرابع: ان يرزقهم اللّه من انواع الثمرات، لتكون عنوانا للشكر و الالتفات بشكل اعمق لخالق النعم.

الدعاء الخامس: التوفيق لاقامة الصلاة و التى هى أقوى صلة بين الإنسان و ربّه، و دعاؤه عليه السّلام ليس له فقط، بل حتّى لأبنائه.

دعاؤه السادس: قبول دعائه، و نحن نعلم انّ اللّه يقبل الدعاء من مواقع الإخلاص و القلوب الطاهرة و الأرواح السامية، و فى الواقع انّ هذا الطلب من ابراهيم عليه السّلام يحتوى ضمنا الحصول على القلب الطاهر و الروح السامية.

و آخر دعائه عليه السّلام: ان يشمله اللّه بلطفه و رحمته فيما إذا صدر منه ذنب او خطيئة، و ان يرحم امّه و أباه و جميع المؤمنين فى يوم القيامة.

و بهذا الترتيب فإن دعواته تبدا بالأمن و تنتهى بالعفو و الغفران، و من الطريف انّه لم يطلبها لنفسه فقط، بل للآخرين كذلك، لانّ عباد الرحمن ليسوا انانيّين!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۸

-۷

هل يدعو ابراهيم لأبيه

؟ ممّا لا شكّ فيه انّ «آزر» كان يعبد الأصنام، و كما يشير اليه القرآن فإنّ ابراهيم سعى جاهدا لان يهديه لكن خاب سعيه، و إذا سلّمنا انّ آزر كان أبا لإبراهيم، فلما ذا يدعو ابراهيم ان يغفر اللّه له فى الوقت الذى نرى انّ القرآن يقول:

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ [۳۲۲] و من هنا يتّضح انّ آزر لم يكن أبا لإبراهيم، و انّ كلمة أب تطلق أحيانا على العمّ، و كثيرا ما يستعملها العرب كذلك، بينما (الوالد) خاصّة بالأب الحقيقى و التى جاءت فى الآيات أعلاه. امّا كلمة أب و التى وردت بخصوص آزر فمن الممكن انّ المراد بها العمّ.

و نستنتج من الآيات أعلاه و ممّا ورد فى سورة التوبة من النهى عن الاستغفار للمشركين انّ «آزر» لم يكن أبا لإبراهيم حتما. (و

للتوضيح اكثر راجع تفسير الآية ۷۴ من سورة الانعام و ۳۶ من سورة الأعراف فى تفسيرنا هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۲۹

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۲ الى ۴۵]

اشارة

وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (۴۲) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (۴۳) وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (۴۴) وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (۴۵)

التّفسير

اليوم الذى تشخّص فيه الأبصار

! كان الحديث فى الآيات السابقة عن يوم الحساب، و بهذه المناسبة تجسّم هذه الآيات حال الظالمين و المتجبّرين فى ذلك اليوم، ثمّ تبيّن المسائل المتعلّقة بالمعاد و تكمل الحديث السابق حول التوحيد و تبدا فى تهديد الظالمين: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۰

و هذا فى الواقع جواب لأولئك الذين يقولون: إذا كان لهذا العالم اله عادل فلما ذا يترك الظالمين و حالهم؟ هل هو غافل عنهم ام لا يستطيع ان يمنعهم و هو يعلم بظلمهم؟

فيجيب القرآن الكريم على ذلك بأنّ اللّه ليس غافلا عنهم ابدا، لانّ عدم عقابهم مباشرة هو انّ هذا العالم محلّ الامتحان و الاختبار و تربية الناس، و هذا لا يتمّ الّا فى ظلّ الحرية، و سوف يأتى يوم حسابهم إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَ أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ.

«تشخص» من مادّة «الشخوص» بمعنى توقّف العين عن الحركة و النظر الى نقطة بدهشة.

«مهطعين» من مادّة «إهطاع» بمعنى رفع الرقبة، و يعتقد البعض انّها بمعنى «السرعة» و قال آخرون: تعنى «النظر بذلّة و خشوع». و لكن بالنظر الى الجمل الاخرى يكون المعنى الاوّل اقرب الى الصحّة.

«مقنعى» من مادّة «الاقناع» بمعنى رفع الراس عاليا.

و مفهوم جملة لا- يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ لا- يقدرون على ان يطرفوا من شدّة الهول، و كأنّ أعينهم كأعين الأموات عاطلة عن العمل! و جملة أَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ بمعنى قلوبهم خالية و مضطربة بحيث ينسون كلّ شىء حتّى أنفسهم و فقدت قلوبهم و أنفسهم كلّ ادراك و علم، و فقدوا كلّ قواهم.

انّ بيان هذه الصفات الخمس: تشخص الأبصار، مهطعين، مقنعى رؤوسهم، لا يرتدّ إليهم طرفهم، افئدتهم هواء، صورة بليغة لهول و شدّة ذلك اليوم على الظالمين الذين كانوا يستهزئون بكلّ شىء، و أصبحوا فى هذا اليوم لا يستطيعون حتّى تحريك أجفان أعينهم.

و لكى لا- يشاهدوا هذه المناظر المفجعة ينظرون الى الأعلى فقط، فهؤلاء كانوا يعتقدون بكمال عقولهم و يعدّون الآخرين من

الحمقى، فأصبحوا اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۱

مدهوشين لدرجة انّ نظرهم نظر المجانين. بل الأموات نظر جاف عديم الروح و ملىء بالرعب و الفزع ..

نعم، عند ما يريد القرآن الكريم ان يصوّر منظرا او يجسّم موقفا يستخدم اقصر العبارات فى أكمل بيان كما فى الآية أعلاه.

و لكى لا يعتقد احد انّ هذه المجازات تتعلّق بمجموعة معيّنة، يقول تعالى لنبيّه الكريم: وَ أَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ حتّى نستفيد من هذه الفرصة ثمّ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَ نَتَّبِعِ الرُّسُلَ و لكن هيهات انّ ذلك محال أ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ فكلّ هذه الدروس لم تؤثّر بكم و أدمتم ظلمكم و جوركم، و الآن و بعد ان وقعتم فى يد العدالة تطلبون تمديد المدّة، اى مدّة؟ لقد انتهى كلّ شىء!

بحوث

۱- لماذا وجّه الخطاب هنا الى الرّسول الأكرم

؟ ممّا لا شكّ فيه انّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يتصوّر ابدا انّ اللّه غافلا عن الظالمين، و مع ذلك نرى الآيات أعلاه توجّه خطابها الى النّبى و تقول له: وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

انّه- فى الواقع- إيصال الخطاب بشكل غير مباشر الى الآخرين، و الذى هو احد فنون الفصاحة، كما نقول: ايّاك اعنى و اسمعى يا جارة.

و بالاضافة الى ذلك فإنّ هذا التعبير كناية عن التهديد، كما نقول فى بعض الأحيان للشخص المقصّر «لا تعتقد انّنا غافلون عن افعالك» يعنى سوف نحاسبك على ما فعلت!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۲

و على اى حال فأساس الحياة يقوم على إعطاء المهلة الكافية للافراد حتّى ينفقوا ممّا عندهم، و لكى لا يبقى عذر لأحد تعطى المهلة الكافية قبل ساعة الامتحان، و إعطاء المهلة الكافية للرجوع و الإصلاح للجميع.

۲- ما هو المقصود من يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ

؟ لقد امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ان ينذر الناس بهذا اليوم الذى ينزل عليهم فيه العذاب الالهى، و لكن اى يوم هذا؟ ذكر المفسّرون له ثلاث احتمالات:

الاوّل: يوم القيامة.

الثّانى: يوم وقوع الموت، حيث تبدا مقدّمة العذاب الالهى للظالمين.

الثّالث: المقصود هو نزول جزء من العذاب و البلاء الدنيوى، كعذاب قوم لوط و عاد و ثمود و قوم نوح و فرعون، و الذى تمّ من خلال الطوفان او الزلازل و العواطف و الريح و غيرها.

و مع انّ كثير من المفسّرين رجّحوا التّفسير الاوّل، الّا انّ الآيات التى تليها تشير الى قوّة الاحتمال الثّالث، و التى توضّح انّ المقصود هو

العقاب الدنيوى لانّنا نقرا بعد هذه الآية رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ

فالتعبير «اخّرنا» قرينة واضحة فى الطلب لاستمرار الحياة فى الدنيا، لانّه لو كان فى الآخرة لقالوا: ربّنا ارجعنا الى الدنيا، كما نقرا فى الآية (۲۷) من سورة الانعام وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ حيث يردّ عليهم القرآن الكريم و يقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

و قد يسأل سائل: إذا كانت هذه الآية تشير الى عذاب الدنيا، و الآية ما قبلها وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا تشير الى عذاب الآخرة، فكيف يمكن ان تتوافق هاتان الآيتان، بالنظر الى انّ كلمة «انّما» دالّة على عقابهم فى الآخرة فقط و ليس فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۳

الدنيا.

و يتّضح الجواب بملاحظة انّ العقاب الاخروى الذى يشمل جميع الظالمين، ليس له اى تبديل و تغيير، بينما الجزاء الدنيوى- بالاضافة الى انّه غير شامل- فهو قابل للتبديل.

و لا بدّ من ذكر هذه النقطة ايضا و هو انّ العقاب الدنيوى- كعقاب قوم نوح و فرعون و أمثالهم- إذا حلّ بهم سوف تغلق أبواب التوبة كليّا و ليس لهم طريق للرجوع و التوبة، لانّ اغلب المذنبين عند ما يرون العذاب يندمون على ما فعلوا، و هذا الندم اضطرارى و ليس له اى قيمة، و لذلك يجب عليهم ان يتوبوا قبل نزول العذاب ۳۲۳].

۳- لماذا لا تقبل المهلة

؟ نقرا فى آيات مختلفة من القرآن الكريم انّ الظالمين و المذنبين فى مواقف متعدّدة، يطلبون الرجوع الى الحياة لتصحيح مسيرتهم، فبعض هذه المواقف مرتبط بيوم القيامة كما أشرنا فى الآية (۲۸) من سورة الانعام، و بعض آخر مرتبط بساعة الموت كما تشير اليه الآية (۹۹) من سورة المؤمنون حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ و البعض الآخر يطلب الرجوع عند نزول العذاب المهلك- كما فى هذه الآية- حيث يقول الظالمون عند رؤيتهم للعذاب رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ و من الطريف انّ الجواب فى جميع هذه المواقف يكون بالنفى.

و دليله واضح، لانّ اى واحد من هذه الامنيات لا يمثّل حقيقة واقعيّة و لا جديّة، و رجاؤهم هذا هو حالة اضطرارية تظهر حتّى عند أسوإ الأشخاص، و ليست حالة دالّة على التغيّر الذاتى و التصميم الواقعى الصادق لتصحيح مسيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۴

حياتهم، كالمشركين عند ما يأخذهم الطوفان يسألون اللّه النجاة، و عند ما ينجيهم الى الساحل ينكثون عهودهم كأن لم يكن يحدث شىء إطلاقا.

و لذلك يقول القرآن الكريم فى بعض آياته- كما أشرنا اليه أعلاه- وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۵

الآيات [سورة إبراهيم (۱۴): الآيات ۴۶ الى ۵۲]

اشارة

وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (۴۶) فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو

انتِقام (۴۷) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۴۸) وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (۴۹) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (۵۰)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۵۱) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۵۲)

التّفسير

لا فائدة من مكرهم

! اشارت الآيات السابقة الى نوع من عقاب الظالمين، و فى هذه الآيات ايضا اشارت- اوّلا- الى جزء من أفعالهم، و من ثمّ الى قسم آخر من جزائهم الشديد و عقابهم الأليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۶

تقول الآية الاولى: وَ قَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ

لقد عملوا كلّ ما بوسعهم من اجل طمس حقائق الإسلام، بدء من الترغيب و التهديد و حتّى الأذى و محاولات القتل و الاغتيال و بثّ الشائعات، و مع كلّ ذلك فإنّ اللّه مطّلع على جميع مؤامراتهم و قد احصى اعمالهم: وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ و على اى حال فلا تقلق فانّهم لا يستطيعون بمكرهم هذا ان يصيبوك بسوء حتّى وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ

«المكر»- و كما أشرنا اليه سابقا- بمعنى الاحتيال، فمرّة يلازمه الفساد و مرّة اخرى لا يلازمه، و فى تفسير جملة وَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ رأيان:

يقول البعض و من جملتهم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان: المراد بكون مكرهم عند اللّه احاطته تعالى به بعلمه و قدرته.

و يقول البعض الآخر، كالعلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: انّ المراد هو ثبوت جزاء مكرهم عند اللّه تعالى (و على هذا التّفسير يكون تقدير الآية: عند اللّه جزاء مكرهم) فكلمة الجزاء محذوفة.

و ممّا لا شكّ فيه انّ التّفسير الاوّل اقرب الى الصحّة، لانّه يوافق ظاهر الآية و لا يحتاج الى الحذف و التقدير، و تؤيّده جملة وَ إِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ اى انّ مكرهم مهما كان قويّا. و مهما كانت لديهم قدرة على المؤامرة، فإنّ اللّه اعلم بهم و اقدر عليهم و سيدمر كلّ ما مكروا.

ثمّ يتوعّد اللّه الظالمين و المسيئين مرّة اخرى من خلال مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ لانّ الأخلاف يصدر من الذى ليست له قدرة و استطاعة، و لكن: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقام

و هذه الآية- فى الواقع- مكمّلة للآية التى قبلها وَ لا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ

و تعنى انّ المهلة التى أعطيت للظالمين ليست بسبب انّ اللّه غافل عنهم و عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۷

اعمالهم و لا مخلف لوعده، بل سينتقم منهم فى اليوم المعلوم. و الانتقام لا يراد به ما كان مصحوبا بالحقد و الثأر كما يستخدم عادة فى اعمال البشر، بل هو الجزاء و العقاب و اقامة العدالة بحقّ الظالمين، بل انّها نتيجة عمل الإنسان نفسه، و لا حاجة الى القول بأنّ اللّه تعالى لو لم ينتقم من الظالمين لكان ذلك خلافا لعدله و حكمته.

ثمّ يضيف تعالى يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ و سوف يتجدّد كلّ شىء بعد الدمار، و يبعث الإنسان فى خلق جديد و

عـالم جديـد يختلف فى كـلّ شـىء عن هـذا العـالم، فى سـعته، فى نعيمه و عقابه و سـيظهر الإنسان بكلّ وجوده للّه تعالى: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و «البروز» من مادّة «البراز» على وزن «فراز» بمعنى الفضاء و المحلّ الواسع، و غالبا ما تأتى بمعنى الظهور، لانّ وجود الشىء فى الفضاء الواسع بمعنى ظهوره، و هناك آراء مختلفة للمفسّرين فى معنى بروز الناس للّه تعالى، الكثير يرى انّها تعنى الخروج من القبر.

و يحتمـل ان يكـون المعنى انكشـاف بواطن و ظواهر جميع النـاس فى يوم المحشـر، كمـا نقرا فى الآيـة (۱۶) من سـورة غـافر يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ و كذلك الآية (۹) من سورة الطارق يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ و على اى حال فوصـفه بالقهّار دليل على تسلطه على كلّ الأشياء و سيطرته على ظاهرها و باطنها.

و هنا يأتى هذا السؤال، و هو: هل انّ شيئا خفى على اللّه فى هذه الدنيا لكى يظهر فى الآخرة؟ ام انّ اللّه لا يعلم بما فى القبور و لا يعلم بأسرار الناس؟

و يتّضـح الجـواب من الالتفـات الى هـذه النقطـة، و هى انّ لنـا ظـاهرا و باطنـا فى هـذه الـدنيا، و قـد يشـتبه على البعض- بسـبب علمنا المحدود- انّ اللّه لا يرى باطننا، و لكن سوف يظهر كلّ شىء فى الآخرة و لا وجود للظاهر و الباطن هناك، و بعبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۸

اخرى فالظهور بالقياس الى علمنا و ليس الى علم اللّه المطلق.

و تصوّر الآية التالية كيفيّة بروزهم الى اللّه فنقول: وَ تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ.

«الأصفاد» جمع «صفد» بمعنى الغلّ، و قال البعض هو الغلّ و السلاسل التى تجمع اليد الى العنق.

«مقرنين» من مادّة «القرن و الاقتران» و هى بنفس المعنى، لكن لو اسـتخدمت من باب التفعيل يسـتفاد منها التكثير، و على ذلك فكلمة مقرّنين بمعنى الأشخاص المتقاربين مع بعضهم البعض.

و للمفسّرين ثلاث آراء حول المقصود من هذه الكلمة:

الاوّل: هو تقييد المجرمين بالسلاسل و الأغلال بعضهم مع البعض الآخر و ظهورهم بهذه الصورة فى يوم القيامة، انّ هذا الغل هو عبارة عن تجسـيد للروابط العمليـة و الفكريـة بين المجرمين فى هذه الدنيا، حيث كان يساعد بعضـهم البعض على الظلم و الفساد، و تتجسّـد هذه العلاقة فى الآخرة بصورة سلاسل تربطهم فيما بينهم.

الثّانى: انّ المجرمين يقرّنون مع الشياطين بالسلاسل فى يوم القيامة بسبب علاقتهم الباطنية معهم فى هذه الدنيا.

الثّالث: ان تقيّد أيديهم برقابهم فى الآخرة.

و لا مانع هناك من ان تجمع هذه الصفات للمجرمين، لكن المعنى الاوّل الذى ذكرناه يوافق ظاهر الآية.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم الى لباسهم و الذى هو احد افراد المجازاة الشديدة سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ.

«سـرابيل» جمع (سـربال) على وزن (مثقـال) بمعنى القميص من اى قماش كان، و يقول البعض بأنّه كلّ انواع اللباس، لكن الاوّل اقرب الى المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۳۹

«قطران» بفتـح القـاف و سـكون الطاء او بكسـر القاف و سـكون الطاء، و هى مادّة تؤخـذ من شـجرة الأبهل ثمّ تغلى فتثخن و تطلى بها الإبـل عنـد اصابتها بمرض الجرب، و كانوا يعتقـدون انّ المرض يزول بسـبب وجود الحرقـة فى هـذه المادّة، و على اى حال فهى مادّة سوداء نتنة و قابلة للاشتغال [۳۲۴].

فيكون معنى الجملـة سَـرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ انّهم يلبسون ثيابا من مادّة سوداء و نتنـة و قابلـة للاشـتعال، حيث تمثّل اسوا الالبسة لما كانوا يعملونه فى هـذه الدنيا من ارتكاب الذنوب و الفواحش. و سوادها يشـير إلى أنّ الذنوب تؤدّى إلى ان يكون الإنسان مسودّ الوجه امام

ربّه، و تعفّنها يشير الى تلوّث المجتمع بهم و مساعدتهم على إشعال نار الفساد، و كأنّ القطران تجسيد لاعمالهم فى الدنيا.

وَ تَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ بسبب لباسهم الذى هو من قطران، لانّه عند اشتعاله لا يحرق جسمهم فقط، بل يصل لهيبه الى وجوههم. كلّ ذلك لأجل لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ

و من الطريف انّه لم يقل انّ الجزاء بما كسبت أنفسهم، بل يقول: «ما كسبت» ليكون تجسيدا حيّا لاعمالهم، و هذه الآية بهذا التعبير الخاص دليل آخر على تجسّم الأشياء.

و فى الختام يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ و هذا واضح تماما لانّ كلّ انسان حسابه معه! و نقرا فى بعض الرّوايات: انّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر. و لا ريب انّ اللّه تعالى لا يحتاج الى وقت لمحاسبة الافراد، و ما جاء فى الرّواية أعلاه اشارة الى اقصر الفترات. (للتوضيح اكثر راجع تفسير الآية ۲۰۲ من سورة البقرة من تفسيرنا هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۰

و بما انّ آيات هذه السورة- و كذلك جميع الآيات- لها جانب الدعوة الى التوحيد و إبلاغ الأحكام الالهيّة الى الناس و إنذارهم، يقول تعالى فى آخر آية من هذه السورة: هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ

بحوث

۱- تبديل الأرض غير الأرض و السماوات

قرانا فى الآيات أعلاه انّ فى يوم القيامة تبدّل الأرض غير هذه الأرض و كذلك السّماوات، فهل التبديل تبديل ذاتى، اى ان تفنى هذه الأرض و تخلق مكانها ارض اخرى للقيامة؟ ام المقصود هو تبديل الصفات، يعنى دمار ما فى الأرض و السّماوات و خلق ارض و سماوات جديدة على انقاضها؟ حيث تكون النسبة بينهما انّ الثانية أكمل من الاولى.

الظاهر فى كثير من الآيات القرآنية أنّها تشير الى المعنى الثانى، ففى الآية (۲۱) من سورة الفجر يقول تعالى: كَلَّا إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا و فى الآية الاولى من سورة الزلزال يقول تعالى: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها و فى الآية (۱۵) من سورة الحاقة وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ و قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً- لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً- يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً، [۳۲۵] و قوله تعالى: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ و قوله تعالى فى سورة الانفطار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۱

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ

يستفاد من مجموع هذه الآيات و الآيات الاخرى التى تتحدّث عن بعث الناس من القبور، انّ النظام الحالى للعالم لا يبقى بهذه الصورة التى هو عليها، و لا يفنى فناء تامّا، بل تتغيّر صورة العالم و تعود الأرض مسطّحة مستوية و يبعث الناس فى ارض جديدة (بالطبع تكون الأرض اكثر كمالا لانّ الآخرة كلّ ما فيها أوسع و أكمل).

و من الطبيعى انّ عالمنا اليوم ليس له الاستعداد لتقبّل مشاهد الآخرة، و هو محدود المجال بالنسبة لحياتنا الاخروية و كما قلنا مرارا: انّ نسبة عالم الآخرة الى عالم الدنيا كنسبة عالم الجنين فى الرحم الى الدنيا.

و الآيات التى تقول: يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ دليل واضح على هذه الحقيقة.

من الطبيعى انّنا لا نستطيع ان نصوّر الآخرة و خصائصها بشكل دقيق- كما هو حال الجنين فى بطن امّه لو افترضنا انّ له عقلا كاملا،

فإنّه لا یستطیع ان یتصوّر عالم الدنیا- الّا انّنا نعلم انّه سوف یحدث تغییر عظیم لهذا العالم، حیث یتمّ تدمیره و تبدیله بعالم جدید، و من الطریف ما ورد فی الرّوایات من انّ الأرض تبدّل بخبزة نقیّة بیضاء یأکل الناس منها حتّی یفرغ من الحساب.

و قد وردت هذه الرّوایات بطرق مختلفة فی تفسیر نور الثقلین، و أشار إلیها القرطبی فی تفسیره کذلک.

و لیس من المستبعد ان یکون المقصود من هذه الرّوایات انّ الأرض سوف تغطّیها مادّة غذائیة یمکن للإنسان ان یستعملها بسهولة، و وصفها بالخبز لانّه الأکثر احتواء لهذه المادّة الغذائیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۲

۲- بدایة و ختام سورة ابراهیم

و کما رأینا فإنّ سورة ابراهیم ابتدأت فی بیان دور القرآن الکریم فی إخراج الناس من الظّلمات الی نور العلم و التوحید، و انتهت فی بیان دور القرآن فی إنذار الناس و تعلیمهم التوحید.

انّ هذه البدایة و النهایة تبیّن هذه الحقیقة، و هو انّ کلّ ما نحتاجه موجود فی هذا القرآن، حیث

یقول الامام علی علیه السّلام: «فیه ربیع القلوب و ینابیع العلم، فاستشفوه من أدوائکم»

و هذا البیان دلیل علی خلاف ما یراه بعض المسلمین من انّ القرآن الکریم کتاب مقدّس یقتصر وجوده فی ترتّب الثواب لقارئه. بل هو کتاب شامل لجمیع مراحل الحیاة الانسانیة.

کتاب رشد و هدایة و دستور للعمل، فهو یذکّر العالم و یستلهم منه عموم الناس.

انّ مثل هذا الکتاب یجب ان یأخذ موقعه فی قلوب المسلمین، و یشکّل قانونا و نظاما اساسیا فی حیاتهم، و یجب علیهم ان یطالعوه و یبحثوا مضامینه بدقّة فی تطبیقاتهم العملیّة.

انّ هجران القرآن الکریم و اتّخاذ المبادئ المنحرفة الشرقیّة منها و الغربیة، احد العوامل المهمّة فی تأخّر المسلمین.

و ما أروع ما

قاله الامام علی علیه السّلام «و اعلموا انّه لیس علی احد بعد القرآن من فاقة، و لا لأحد قبل القرآن من غنی».[۳۲۶]

و ما اشدّ مصیبتنا فی غربتنا عن القرآن، و معرفة الغرباء به! و من المؤلم ان تکون وسیلة السعادة فی دارنا و نحن نبحث عنها فی دور الناس! و ما أعظم المصاب حین نکون الی جانب نبع ماء الحیاة، عطاشی، ظمأی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۳

او نهرول فی الصحاری حفاة وراء السراب! اللهمّ ارزقنا العقل و الهدایة و الایمان حتّی لا نفقد وسیلة السعادة هذه، التی هی من ثمار دماء الشهداء فی سبیلک! و الطف علینا بالجدّ حتّی نعلم ضالّتنا فی هذا الکتاب العظیم و لا نمدّ أیدینا الی الآخرین.

۳- التوحید هو البدایة و النهایة

الفائدة الاخری التی علّمتنا ایّاها الآیة أعلاه، هی التأکید علی التوحید بعنوان الحدیث الأخیر، و علی اولی الألباب بعنوان التذکّر الأخیر.

نعم، فالتوحید اعمق اصل اسلامی حیث تنتهی الیه جمیع خطوط التربیة و التعلیم فی الإسلام، و یجب ان نبتدئ به و ننتهی الیه لانّه العمود الفقری للإسلام. و لیس توحید اللّه فی العبادة فقط، بل التوحید فی الهدف، و التوحید فی صفوف القتال، و التوحید فی

البرامـج العمليـة و التنفيذيّة، فكلّها توضّح الأركان الاصـليّة للدين، و سـبب وجود المشاكل الكثيرة فى مجتمعاتنا الاسـلامية هو حذف التوحيد من واقعنا العملى.

و مع الأسف الشديد نلاحظ انّ الدول العربية و التى هى مهد الإسلام قد اقترنت برامجها و اهدافها بالشرك و القومية و تكالبت خلف أمجاد العروبـة و عظمـة العرب و أمثال ذلك من الاهـداف و الغايات الوهميّـة، و اتّخذت الدول الاخرى لها أصـناما من هذا القبيل، و بذلك قطعوا أواصـر التوحيد الاسـلامى التى كانت تربط فى ما مضى شرق العالم و غربه، و تغرّبوا عن مبادئهم السّماوية الى درجة انّ الحرب و الاقتتال فيما بينهم اكثر و اشدّ من حربهم مع أعدائهم!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۴

حياة النّبى ابراهيم عليه السّلام

اشارة

مع انّ سورة ابراهيم هى السورة الوحيـدة فى القرآن سـمّيت بهذا الاسم، رأينا من المناسب ان نفهرس حياة هذا الرجل العظيم و محطّم الأصـنام فى نهايتها- مع العلم انّها لا تـذكر حالات ابراهيم الاخرى التى وردت فى آيات اخرى من القرآن- لكى يكون القارئ العزيز على علم كاف بحياة هذا الرجل العظيم التى تذكرها الآيات الاخرى ان شاء تعالى.

و نستطيع ان نقسّم مراحل حياته الشريفة الى ثلاث فترات:

۱- فترة ما قبل النبوّة.

۲- فترة نبوّته و محاربته للأصنام فى بابل.

۳- فترة الهجرة من بابل و تجواله فى ارض مصر و فلسطين و مكّة.

ولادته و طفولته

ولـد ابراهيم عليه السّـلام فى ارض «بابل» التى كانت من بلدان العالم المهمّة، و تحكّمها حكومة قويّة و جائرة، و فتح عينيه على العالم فى الوقت الذى كان نمرود بن كنعان الملك الجبّار الظالم يحكم ارض بابل و يعتبر نفسه الربّ الأعلى ۳۲۷].

بـالطبع لم يكن للنـاس فى ذلك الوقت هـذا الصـنم فقط، بل كانت لهم أصـنام مختلفـة يعبـدونها و يتقرّبون إليها. و الدولـة فى ذلك الوقت كانت تدافع بقوّة عن الأصـنام، لانّها الوسيلة المؤثّرة فى تخدير و تسخيف المجتمع، بحيث لو صدرت اى اهانة من احد تجاهها يعتبرونها خيانة عظمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۵

و قد نقل المؤرّخون قصّة عجيبة حول ولادة ابراهيم عليه السّلام و خلاصتها هى:

توقّع المنجّمون انّه سوف يولد شخص و يحارب نمرود بكلّ قوّة، و لذلك فقد سعى جاهدا لان يوقف ولادة هذا الشخص او ان يقتله حين ولادته، الّا انّه لم يتمكّن من ذلك و ولد المولود.

و استطاعت امّه ان تحفظه عبر تربيته فى زوايا الغار القريب من مولده، بالشكل الذى امضى ثلاثة عشر عاما هناك.

و فى النهايـة و بعـد ان ترعرع فى مخفاه بعيدا عن انظار شـرطة نمرود، و وصل الى سنّ الشـباب، صـمّم على الخروج منه و النّزول الى المجتمع ليشرح لهم دروس التوحيد التى استلهمها من دخيلة نفسه و تأمّلاته الفكرية.

محاربته للمجامیع المختلفة من الوثنیین

و فی هـذه الأثنـاء التی کان یعبـد فیها شـعب بابل- بالاضافـة الی الأصـنام- الموجودات السّـماویة کالشـمس و القمر و النّجوم، صـمّم ابراهیم علیه السّـلام علی ان یوقظ وجدانهم عن طریق المنطق و الادلّة الواضحة، و یزیل عن فطرتهم النقیّة ستار الظّلمات حتّی یشعّ فی نفوسهم نور الفطرة و یسلکوا فی طریق التوحید.

و کان یتفکّر فی خلق السّماوات و الأرض حتّی شعّ نور الیقین فی قلبه [۷۵- الانعام .

الجهاد المنطقی مع الوثنیین

واجه ابراهیم اوّلا عبّاد النّجوم و وقف مع مجموعة ممّن یعبدون الزهرة، التی تظهر بعد غروب الشمس مباشرة، حیث کانوا منشغلین فی عبادتها، نادی ابراهیم- امّا من باب الاسـتفهام الانکاری، او من باب التنسیق مع الطرف المقابل بعنوان المقدّمة، لاثبات اشتباههم- هذا رَبِّی فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۶

الْآفِلِینَ

فَلَمَّا رَأَی الْقَمَرَ بازِغاً و بدا عبدة القمر مراسم دعائهم قالَ هذا رَبِّی

فَلَمَّا أَفَلَ قالَ: لَئِنْ لَمْ یَهْدِنِی رَبِّی لَأَکُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّینَ

فَلَمَّا رَأَی الشَّمْسَ بازِغَةً و قد نشـرت اشعّتها الذهبیة علی السهول الخضراء، و بدا عبّاد الشمس تضرّعهم و عبادتهم لها قال ابراهیم هذا رَبِّی هذا أَکْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ یا قَوْمِ إِنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ ۳۲۸]. انّ هذه الآلهة دائمة الأفول و الغروب، فلا اختیار لها إطلاقا، بل هی اسیرة القوانین الطبیعیة فکیف تکون خالقه للکون؟

و انهی علیه السّـلام هـذه الفـترة مع الوثنیین علی أفضـل صورة و اسـتطاع ان یوقـظ جماعـة منهم و یجعـل مجموعـة اخری تشـکّ فی عقیدتها.

و لم یمض وقت طویل حتّی شاع صیته .. هذا الشاب الذی أنار قلوب الناس بمنطقه و بیانه البلیغین!

الحدیث مع آزر

و فی مرحلـة اخری بـدا حـدیثه مع عمّه آزر بعبارات محکمـة جـدّا و واضـحة مقترنـة بالمحبّـة، و أحیانا یوبّخه و ینذره من مغبّة عبادة الأصنام و یقول له: لماذا تعبد شیئا لا یسمع و لا یری و لا یغنی عنک شیئا؟

فَاتَّبِعْنِی أَهْدِکَ صِراطاً سَوِیًّا، إِنِّی أَخافُ أَنْ یَمَسَّکَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَکُونَ لِلشَّیْطانِ وَلِیًّا الّا انّ عمّه لم یسـتجب له و هدّده بالرجم إذا لم یرجع عن مساره هذا، لکن ابراهیم بقلبه الواسع قال: سَلامٌ عَلَیْکَ سَأَسْتَغْفِرُ لَکَ رَبِّی ۴۷- مریم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۷

نبوّة ابراهیم علیه السّلام

لیس عنـدنا دلیـل واضـح علی عمر ابراهیم علیه السّـلام حینمـا تقلّـد مقـام النبـوّة، و لکن نسـتفید من الآیـات فی سورة مریم، انّه أثنـاء محـاورته لعمّه کـان من الأنبیـاء، حیث یقول تعـالی: وَ اذْکُرْ فِی الْکِتـابِ إِبْراهِیمَ إِنَّهُ کانَ صِـدِّیقاً نَبِیًّا إِذْ قالَ لِأَبِیهِ یا أَبَتِ لِمَ تَعْبُـدُ ما لا یَسْمَعُ وَ لا یُبْصِرُ وَ لا یُغْنِی عَنْکَ شَیْئاً.

و نعلم انّ هـذه الحادثـة کانت قبل القائه فی النار، و إذا ما أخـذنا بنظر الاعتبار ما قاله بعض المؤرّخین من انّ عمره أثناء القائه فی النّار

کان ۱۶ عاما سوف یثبت لدینا انّه تحمّل اعباء الرسالة منذ صباه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۷ ؛ ص۵۴۷

الجهاد العملی مع الوثنیین

علی أی حال ازداد صدامه مع الوثنیین یوما بعد یوم حتّی انتهی إلی قیامه بکسر الأصنام فی معبد بابل (الّا کبیرهم) بالاستفادة من الفرصة الملائمة!

الحدیث مع الحاکم المتجبّر!

لقد وصلت هذه الاحداث الی اسماع نمرود فأمر بإحضاره لیطفئ هذا النّور من خلال النصیحة و التهدید. و کان ماهرا فی الدجل، فسأل ابراهیم: إذا کنت لا تعبد الأصنام، فمن هو إلهک؟

قال: ربّی الذی یحیی و یمیت.

قال: انا احیی و أمیت، الا تری انّی اطلق سراح المحکوم بالاعدام، و اعدم من أرید اعدامه؟

فأجابه ابراهیم علیه السّلام بکلام حاسم و قاطع: فَإِنَّ اللَّهَ یَأْتِی بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِی کَفَرَ.[۳۲۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۸

و ممّا لا شکّ فیه انّ ابراهیم کان یعلم انّ نمرود لا یستطیع ان یحیی الموتی، و لکن مهارته فی الدجل جعلت ابراهیم یأتیه بسؤال لا قدرة له علی جوابه.

هجرة ابراهیم

لقد احسّت حکومة نمرود الجبّارة بخطر هذا الشاب علی دولته و انّ من الممکن ان یسبّب یقظة الشعب الرازح تحت ظلمه، و ان یحطّم القیود الاستعماریة المتسلّطة علی رقاب الشعب، فصمّم علی الإیقاع بإبراهیم من خلال إحراقه بالنّار التی اجّجها جهل الناس و إرهاب النظام الحاکم.

و حینما أصبحت النّار بردا و سلاما بأمر من اللّه تعالی و خرج ابراهیم سالما منها، أصابت نمرود و حکومته الدهشة، و فقدوا معنویاتهم لانّهم کانوا یصوّرون ابراهیم علی انّه شاب مغامر یرید تفرقة الناس، لکنّه ظهر قائدا الهیّا و بطلا شجاعا یستطیع ان یقارع الجبّارین لوحده.

و لهذا السبب صمّم نمرود و أعوانه- الذین کانوا یمتصّون قوّتهم من دماء الناس البؤساء- علی ان یقفوا بوجه ابراهیم بکلّ قواهم.

و من جهة اخری فإنّ ابراهیم قد ادّی دوره فی هذا المجتمع، حیث جعل القلوب المستعدّة تمیل الیه و تؤمن بدعوته، و لذلک رای من الأفضل ان یترک ارض بابل هو و التابعون له، و لأجل نشر دعوته سافر الی بلاد الشام و فلسطین و مصر، و استطاع هناک ان یدعو کثیرا من الناس الی التوحید و عبادة الواحد القهّار.

المرحلة الاخیرة للرسالة

امضی ابراهیم علیه السّلام عمره فی جهاد الوثنیین و خصوصا صنمیة الإنسان، و استطاع ان ینیر قلوب المؤمنین بنور التوحید، و یبعث فیهم روحا جدیدة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۴۹

و یحرّر مجامیع اخری من قیود المتسلّطین.

و الآن یجب ان یصل الی ذروة عبودیته للّه و یبذل کلّ ما عنده فی هذا الطریق بإخلاص، و یصل الی مرحلة الامامة بقفزة روحیة کبیرة من خلال الامتحانات الالهیّة الکثیرة، و فی نفس الوقت یقوم ببناء القواعد للکعبة حتّی تکون اکبر قاعدة للعبادة التوحیدیّة، و یدعو جمیع المؤمنین لهذا المؤتمر العظیم الی جانب هذا البیت الکریم.

و قد ادّی حسد سارة زوجته الاولی لهاجر التی کانت جاریة و اختارها زوجة له و ولدت له إسماعیل .. ادّی الی ان یأتی بها من فلسطین بأمر اللّه الی مکّة و یترکها و ابنها بین الصحاری و الجبال الیابسة، بدون مأوی و لا قطرة ماء، و یعود ثانیة الی فلسطین.

انّ ظهور عین زمزم و مجیء قبیلة جرهم و السّماح لها بالسکن کلّ ذلک ادّی لان تعمّر هذه الأرض. رَبَّنا إِنِّی أَسْکَنْتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِیُقِیمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَ ارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ

و من الطریف ان یقول بعض المؤرّخین: حینما وضع ابراهیم زوجته هاجر و ابنه الرضیع إسماعیل فی مکّة و أراد الرجوع، نادته: یا ابراهیم، من أمرک ان تضعنا فی ارض قاحلة لا نبات فیها و لا ماء و لا انسان؟ فأجابها بجملة قصیرة:

ربّی امرنی بذلک، قالت: ما دام کذلک فإنّ اللّه لا یترکنا.

و قد سافر إبراهیم علیه السّلام مرارا الی مکّة بقصد زیارة ابنه إسماعیل، و فی واحدة من هذه السفرات ادّی مراسم الحجّ، و جاء بإسماعیل الذی کان شابّا قویا و مؤمنا صادقا الی المذبح لیفتدی به بأمر من اللّه و عند ما لبّی امر ربّه و خرج من هذا الامتحان العظیم بأفضل صورة، قبل اللّه سبحانه و تعالی فدیته، و حفظ له إسماعیل، و بعث له کبشا لیفتدی به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۰

و فی النهایة و بعد ان ابلی بلاء حسنا نال کبیر درجة من المقامات التی یمکن للإنسان ان یصل إلیها حیث یقول القرآن الکریم: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِی قالَ لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ

منزلته علیه السّلام فی القرآن

توضّح الآیات القرآنیة انّ اللّه سبحانه و تعالی اعطی لإبراهیم مقاما لم یعطه لأحد من الأنبیاء من قبله، و یمکن ترتیب الآیات کما یلی:

۱- انّ اللّه تعالی ذکره بعنوان انّه «امّة»: إِنَّ إِبْراهِیمَ کانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِیفاً وَ لَمْ یَکُ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ۳۳۰].

۲- مقام الخلّة وَ اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِیمَ خَلِیلًا.[۳۳۱] و قد جاء فی بعض الرّوایات: (انّما اتّخذ اللّه ابراهیم خلیلا لانّه لم یردّ أحدا و لم یسأل أحدا قطّ غیر اللّه تعالی)[۳۳۲].

۳- و کان من الْمُصْطَفَیْنَ الْأَخْیارِ[۳۳۳]، و لَمِنَ الصَّالِحِینَ ۳۳۴]، وَ الْقانِتِینَ ۳۳۵]، وَ الصِّدِّیقِینَ ۳۳۶]، و کان لَأَوَّاهٌ حَلِیمٌ ۳۳۷]، و من الْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ ۳۳۸].

۴- انّ ابراهیم کان محبّا للضیوف، و قد ورد فی بعض الرّوایات انّه کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۱

یلقّب ب «أبی الأضیاف».[۳۳۹] ۵- و کان من المتوکّلین علی اللّه، و لا یطلب حاجة الّا منه، و قد ورد فی التاریخ انّه کان معلّقا بین السّماء و الأرض أثناء قذفه بالمنجنیق سأله جبرئیل:

هل لک حاجة؟ قال: نعم، و لکن لیست منک بل من اللّه![۳۴۰].

۶- و کان شجاعا مقداما حیث وقف وحیدا بوجه التعصّبات الوثنیّة، و لم یظهر ای خوف فی مقابلتهم، کسّر أصنامهم و جعلها رکاما، و تحدّث مع نمرود و أعوانه بکلّ شجاعة.

۷- کـان لإبـراهیم علیه السّـلام منطق قوی و اسـتطاع من خلال عباراته و جمله القصـیرة المحکمـة ان یبطل اقوال المضـلّین. و لم یثنه بأسهم عن مواصلة الطریق، بل کان یواجه الأمور بالصبر و الحلم المعبّرین عن روحه الکبیرة، کما جاء فی محاجته مع نمرود و مع عمّه آزر و مع القضاة أثناء محاکمته حیث قالوا له: أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هـذا بِآلِهَتِنا یا إِبْراهِیمُ، قالَ بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هـذا فَسْـئَلُوهُمْ إِنْ کانُوا یَنْطِقُونَ لقد استطاع من خلال هذه الجملة ان یفحمهم و یسدّ علیهم طریق الردّ علیه، فإذا قالوا: آلهتنا لا تسمع و لا تنطق. فتبّا لهذه الآلهة! و إذا قالوا: تنطق.

فلمـا ذا لا یتکلّمون؟! فَرَجَعُوا إِلی أَنْفُسِـهِمْ فَقالُوا إِنَّکُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ای قالت لهم أنفسـهم: انّکم ظالمون، و علی ای حال کان علیهم ان یجیبـوا ثُمَّ نُکِسُوا عَلی رُؤُسِـهِمْ لَقَـدْ عَلِمْتَ مـا هؤُلاـءِ یَنْطِقُونَ هکـذا کـان جواب ابراهیم کالصاعقـة علی رؤوسـهم أُفٍّ لَکُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و عند ما رأوا انّهم لا یستطیعون مقاومة هذا المنطق الرصین قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ فاعِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۷، ص: ۵۵۲

هذا نموذج من المنطق الواضح المبیّن و الذی کان ابراهیم فیه هو الفائز.

۸- لقد عدّ القرآن الکریم الحنیفیّة الابراهیمیّة واحدة من مفاخر المسلمین ۳۴۱] و انه هو الذی سَمَّاکُمُ الْمُسْلِمِینَ ۳۴۲].

۹- وضع مناسک الحـجّ بأمر من اللّه، و لـذلک امتزج اسـمه فی جمیع مراسـیم الحجّ، حیث یتذکّر کلّ مسـلم أثناء ادائه للفرائض هذه الشخصیّة العظیمة و یحسّ بعظمة نبوّته فی قلبه، انّ أداء فریضة الحجّ بدون ذکر ابراهیم تصبح خاویة المعنی.

۱۰- لقد حاولت کلّ المذاهب ان تنسب ابراهیم لنفسها، فالیهودیة و النصرانیة تؤکّدان علی صلتهما به بسبب شخصیته الکبیرة، و لکن القرآن الکریم ینفی هذه الصلة حیث یقول تعالی: ما کانَ إِبْراهِیمُ یَهُودِیًّا وَ لا نَصْرانِیًّا وَ لکِنْ کانَ حَنِیفاً مُسْلِماً وَ ما کانَ مِنَ الْمُشْرِکِینَ ۳۴۳] آمین ربّ العالمین نهایة المجلد السّابع

---

[۱] (۱)- انّ جملة\i« رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَکـاتُهُ عَلَیْکُمْ أَهْـلَ الْبَیْتِ\»E یمکن ان تکون خبریـة، و هی حـال، کمـا یمکن ان تکون بمعنی الدعاء ایضا، و لکن الاحتمال الاوّل اقرب.

[۲] (۱)- کلمـة« روع» علی وزن« نوع» معناها« الخوف و الوحشة» و کلمة« روع» علی وزن« نوح» معناها« الروح» او قسم منها الذی هو محل الخوف و مرکزه، لمزید الإیضاح تراجع المعاجم اللغویة.

[۳] (۱)-« الحلیم» مشـتق من« الحلم» و هو: الاناة و الصبر فی سبیل الوصول الی هدف مقدس، و الأواه فی الأصل: کثیر التحسر و الآه سواء من الخوف من المسؤلیة التی یحملها او من المصائب، و المنیب من الانابة ای الرجوع.

[۴] (۱)- راجع تفسیر البرهان، ص ۲۲۶، ج ۲.

[۵] (۱)- مجمع البیان، فی شرح الآیة آنفة الذکر.

[۶] (۲)- المیزان، ج ۱۰، ص ۳۶۲.

[۷] (۳)-« یهرعون» مشتقة من الاهراع و معناها السیاقة الشدیدة، فکأنما تسوق غریزة هؤلاء إیاهم بشدة الی أضیافه.

[۸] (۱) انظر الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، و تفسیر مجمع البیان فی هذا الصدد.

[۹] (۲) وسائل الشیعة، الجزء ۷، ص ۹۵، کتاب الصوم باب ۵۷.

[۱۰] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۲۸.

[۱۱] (۱)« أسـر» مشتق من« الاسراء» و هو المسير ليلا، و ذكر الليل فى الآية من باب توكيد الموضوع، و القطع معناه ظلمة الليل، اشارة الى ان يتحرك و الناس نيام او مشغولون عنه بالشراب و حلك الليل ليخرج وهم فى غفلة عنه.

[۱۲] (۱) فى قوله i إِلَّا امْرَأَتَكَ E هذا الاسـتثناء من اى جملة هو؟ للمفسّـرين احتمالان:« الاوّل» انّه يعدّ اسـتثناء من i لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ\E و مفهومها انّ لوطا و اهله بما فيهم امرأته تحركوا للخروج من المدينـة و لم يلتفت منهم احد كما أمرهم الرسل، الا امراة لوط فإنّهـا بحكم علاقتهـا بقـوم لـوط و تأثرهـا على مصـيرهم، وقفت لحظـة و نظرت الى الوراء، و طبقـا لبعض الرّوايـات أصابهـا حجر من الأحجار التى كانت تهوى على المدينة فقتلت به.« الثانى» انّه استثناء من جملة\i فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ E فيكون معناها انّ جميع اهله ذهبوا معه و لكن امرأته بقيت فى المدينة و لم يأخذها لوط معه، و لكن الاحتمال الاوّل انسب.

[۱۳] (۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۳۱.

[۱۴] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۴۹.

[۱۵] (۲) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۳.

[۱۶] (۳) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۵.

[۱۷] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۴، ص ۲۵۲.

[۱۸] (۱) البحار، ج ۱۲، ص ۱۴۷.

[۱۹] (۲) سفينة البحار، ص ۵۱۷.

[۲۰] (۱) أعلام القرآن، ص ۵۷۳.

[۲۱] (۱) نقلا عن تفسير الصافى، فى شرح المتقدمة.

[۲۲] (۱) ينبغى الالتفات الى انّ جزاء الجملـة الشـرطية محذوف هنا و تقديره هكذا، أ فأعدل مع ذلك عمّا انا عليه من عبادته و تبليغ دينه.

[۲۳] (۱) ينبغى ذكر هذه المسألة ايضا و هى انّ جملة\i لا يَجْرِمَنَّكُمْ E ذات احتمالين:

الاوّل: بمعنى لا يحملنكم، ففى هـذه الصورة تكون على النحو التالى لا يجرمن فعل و(شـقاقى) فاعله، و« كم» الضـمير المتصل بالفعل مفعول به اوّل و\i أَنْ يُصِيبَكُمْ E مصدر مؤول مفعول ثان فيكون معنى الآية: يا قوم لا يحملنكم شـقاقى(مخالفتكم اياى) ان يصيبكم مصير كمصير قوم نوح و أمثالهم من الأقوام المذكورين.

الاحتمـال الثّانى: انّ i لا ـ يَجْرِمَنَّكُمْ E اى لا ـ يجرنكم الى الـذنب و الاـجرام، ففى هـذه الصورة تكون الجملـة على النحو التـالى، و« لا يجرمن» فعل و« شقاقى» فاعله و« كم» مفعوله و« انى يصيبكم» نتيجته، و يكون معنى الآية كما ذكرناه فى المتن.

[۲۴] (۱) سفينة البحار، مادة: شعيب.

[۲۵] (۱) هناك فى اللغة العربية أسـلوب يسـتعمل عند عدم الاعتناء بشىء ما و ذلك على نحو الكناية فيقال مثلا« جعلته تحت قدمى» او يقال مثلا« جعلته دبر اذنى» او« جعلته وراء ظهرى» او« جعلته ظهريا» و« الظهر» على زنـة« قهر»، و الياء بعده ياء النسـبة و انّما كسـرت الظاء فذلك لما يطرأ على الاسم المنسوب من تغيرات.

[۲۶] (۲) المكانة: مصدر او اسم مصدر و معناه القدرة على الشىء.

[۲۷] (۳) الرقيب: معناه الحافظ و المراقب و هو مشـتق فى الأصل من الرقبة و انّما سمّى بذلك لانّه يكون حافظا على رقبة شخص ما« كناية عن انّه مراقب على روحه» او يحرك الرقبة ليؤدى دور الرقابة و الحفظ.

[۲۸] (۱) الأعراف، ۱۱۰.

[۲۹] (۲) غافر، ۲۶.

[۳۰] (۳) هـذا الجملـة من حیث الترکیب النحوی یکون اعرابها کالتالی:« بئس» من افعال الـذم، و فاعله« الورد» و« المورود» صـفة، و المخصوص بالـذم« النار» التی حـذفت من الجملـة، و احتمل البعض انّ المخصوص بالذم هو کلمة« المورود» فعلی هذا لم یحذف من الجملة شیء، الّا انّ الاوّل أقوی کما یبدو.

[۳۱] (۱) اعراب هذه الجملة کإعراب أختها السابقة.

[۳۲] (۱)« التتبیب» مشتق من مادة« تبّ» و معناه الاستمرار فی الضرر، و قد یأتی بمعنی الهلاک ایضا.

[۳۳] (۱)« سـعدوا» من مادة(سـعد) و حسب رأی اصحاب اللغة فإنّ هذا الفعل لازم و لا یتعدّی الی مفعول، فعلی هذا لیست له صیغة للمجهول، فاضـطروا ان یقولوا: انّه مخفّف من(اسـعدوا) و بـابه(الأفعال) و لکن کما ینقل الآلوسـی فی کتاب روح المعانی فی شـرح الآیة عن بعض اهل اللغة، انّ الفعل الثلاثی من« سـعد» یتعدّی الی المفعول ایضا- قالوا: سعده اللّه و هو مسعود، فعلی هذا لا حاجة الی ان نقول بأنّ(سعدوا) مخفف من« اسعدوا»« فتدبّر».

[۳۴] (۱) کما فی سورة ابراهیم، الآیة(۴۸)، و الأنبیاء، الآیة(۱۰۴).

[۳۵] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

[۳۶] (۳) نور الأبصار للشبلنجی، ص ۱۴۰ و کتاب الغدیر، و کتب أخری.

[۳۷] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۹۸.

[۳۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۳۹] (۲) مکارم الأخلاق، ص ۶۵.

[۴۰] (۳) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۹۸.

[۴۱] (۱)« المریة» علی وزن« جزیة» کما تأتی علی وزن« قریة» و معناها التردد فی التصمیم علی امر ما ... و قد قال البعض:

انّها تعنی الشکّ المقترن بالتهمة، و الجذر الاصـلی لهذه الکلمة معناه عصـر ثدی الناقة بعد احتلابها. علی امل ان یکون شیء من اللبن لا یزال باقیا فی الثدی، و لانّ هذا العمل منشؤه التردد و الشک فلذلک أطلقت الکلمة علی کل ما فیه شکّ و تردد.

[۴۲] (۲) هناک کلام بین المفسّـرین فی عودة الضمیرین« هم» و« منه» علی ایة کلمتین فی الآیة؟! فقال بعضهم: انّ هذا الضمیر هم« و انهم» یعود علی قوم موسـی و« منه» یعود علی کتاب(التوراة) فمعنی الآیة: ان هؤلاء القوم لا یزالون یشـکّون فی کتاب موسـی، و لکن قال آخرون: ان الضـمیر فی(انهم) یعود علی مشـرکی مکـة و« منه» یعود علی القرآن، و بملاحظـة ان الآیات جاءت لتسـلیة قلب النبی فیکون التفسیر الثانی اقرب للنظر.

[۴۳] (۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۵، ص ۱۹۹.

[۴۴] (۲) الدر المنثور فی تفسیر الآیة هذه.

[۴۵] (۱) الآیة، ۷۸.

[۴۶] (۲) الآیة، ۲۳۸.

[۴۷] (۱) مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۴۸] (۲) المصدر السّابق.

[۴۹] (۳) المصدر السّابق.

[۵۰] (۴) المصدر السّابق.

[۵۱] (۱) المصدر السابق.

[۵۲] (۱) الأنفال، ۶۵.

[۵۳] (۲) سورة الإنسان، ۱۲.

[۵۴] (۱) سوره البقرة، الآیة ۲۴۸.

[۵۵] (۱) هود، ۸۶.

[۵۶] (۱) اللیل، ۱۲.

[۵۷] (۲) الغاشیة، ۲۱.

[۵۸] (۳) الشمس، ۸.

[۵۹] (۴) الذاریات، ۵۶.

[۶۰] (۱) الملک، ۲.

[۶۱] (۱) ممّا ذکر فی المتن یتّضح انّ مرجع الضمیر فی« هذه» یعود علی i« أَنْباءِ الرُّسُلِ\»E و عودة الضمیر علی هذه الکلمة لقربها و تناسبها مع البحوث الواردة فی هذه الآیة واضح جدّا، لکنّ الاحتمالات الاخری بأنّ المشار الیه هو« الدنیا» او« خصوص الآیات السابقة» فبعید، کما یبدو، و ما قاله کثیر من المفسّرین من انّ المشار الیه هو« السورة» فقابل للمطابقة مع ما ذکرنا، لانّ القسم الاهمّ من السورة یتناول قصص الأنبیاء السابقین.

[۶۲] (۱) فصّلت، ۴۰.

[۶۳] (۲) الاسراء، ۶۴.

[۶۴] (۱) القصص، ۷.

[۶۵] (۱) الآیة ۱۰۰.

[۶۶] (۱) مجمع البیان فی تفسیر الآیة.

[۶۷] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۹.

[۶۸] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۹.

[۶۹] (۱) نهج البلاغة، من کتاب له علیه السّلام لولده الحسن المجتبی علیه السّلام.

[۷۰] (۱)« التأویل» فی الأصل إرجاع الشیء، و کل عمل او کل حدیث یصل الی الهدف النهائی یطلق علیه« تأویل» و تحقق الرؤیا فی الخارج مصداق للتأویل ... و« الأحادیث» جمع الحدیث، و هو نقل ما یجری، و الحدیث هنا کنایة عن الرؤیا لان الإنسان ینقلها للمعبرین.

[۷۱] (۱) بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۴۴ و یضیف بعض العلماء قسما رابعا علی هذه الأقسام، هو الرؤیا التی تکون نتیجة مباشرة عن الوضع المزاجی و الجسمانی للإنسان، و سیشار إلیها فی البحوث المقبلة ... ان شاء اللّه.

[۷۲] (۱) بحار الأنوار، ط جدیدة، ج ۷۸، ص ۳۳۴.

[۷۳] (۲) سفینة البحار، مادة: کتم.

[۷۴] (۱)« العصبة» معناها الجماعة المتفقون علی الأمر، و هذه الکلمة معناها الجمع الّا لا مفرد لها من جنسها.

[۷۵] (۱) مقتبس من تفسیر المنار فی تفسیر الآیة.

[۷۶] (۱) اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۰۷.

[۷۷] (۱) المصدر نفسه.

[۷۸] (۱) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۷۸.

[۷۹] (۱)« یرتع» من مادهٔ« رتع» علی وزن« قطع» و معناه فی الأصل رعی الأغنام و الانعام بصورهٔ عامّهٔ للنباتات و شبعها منها، و لکن قد یطلق هذا اللفظ(رتع، یرتع) و یراد به تنزّه الإنسان و کثرهٔ الاکل و الشرب ایضا.

[۸۰] (۱) نهج البلاغهٔ، الکلمات القصار: رقم الکلمهٔ ۳۹۰.

[۸۱] (۱) سفینهٔ البحار، ج ۱، ص ۵۹۶.

[۸۲] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۱۵.

[۸۳] (۱) فی العبارهٔ المتقدمهٔ حذف جواب« لما» و التقدیر کما یلی: فلما ذهبوا به و اجمعوا ان یجعلوه فی غیابهٔ الجبّ عظمت فتنتهم(تفسیر القرطبی) و لعل هذا الحذف اقتضی لعظم هذه الحادثهٔ المؤلمهٔ ان یسکت عنه المتکلم، و هو بنفسه من فنون البلاغهٔ العربیهٔ(تفسیر المیزان).

[۸۴] (۱) تفسیر الآلوسی: ذیل الآیهٔ.

[۸۵] (۲) صبر جمیل(صفهٔ و موصوف) خبر لمبتدإ محذوف، و تقدیر الکلام: صبری صبر جمیل.

[۸۶] (۱) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۲۴۳ و نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۱۱.

[۸۷] (۲) المصدر السّابق.

[۸۸] (۱) تفسیر القرطبی، ج ۵، ص ۳۳۷.

[۸۹] (۱) المصدر السابق، ص ۴۱۶.

[۹۰] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۲۱۶.

[۹۱] (۱) بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۱۵۷ و ۱۵۸.

[۹۲] (۱) سمّیت القافلهٔ« سیارهٔ» لانّها فی سیر و حرکهٔ دائمین.

[۹۳] (۱)« الوارد» فی الأصل من« الورود» و هو من یأتی بالماء، ثمّ توسع استعمال الکلمهٔ و أطلقت علی کل ورود و دخول.

[۹۴] (۲)« البضاعهٔ» فی الأصل من مادهٔ« بضع» علی وزن« نذر» و معناها: القطعهٔ من اللحم، ثمّ توسعوا فی المعنی و أطلقوا هذا اللفظ علی القطعهٔ المهمّهٔ، من المال. و البضعهٔ هی القطعهٔ من الجسد، و حسن البضع معناه: الإنسان المکتنز لحمه، و« بضع» علی وزن« حزب» معناه العدد من ثلاثهٔ الی عشرهٔ(راجع المفردات للراغب).

[۹۵] (۱) هود، ۸۵.

[۹۶] (۱)« المثوی» من مادهٔ(ثوی) و معناه المقام، و لکن معناه هنا الموقعیهٔ و المنزلهٔ و المقام کذلک.

[۹۷] (۱) راجع التفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۱۸، ص ۱۱۱.

[۹۸] (۱) سورهٔ الاسراء، الآیهٔ ۳۴.

[۹۹] (۱) سورهٔ الأحقاف، الآیهٔ ۱۵.

[۱۰۰] (۲) سورهٔ غافر، ۶۷.

[۱۰۱] (۱) تفسیر الفخر الرازی، ج ۱۸، ص ۱۱۱.

[۱۰۲] (۱) تفسیر نور الثقلین ج ۲ ص ۴۲۱.

[۱۰۳] (۱) مقتبس من تفسیر« فی ظلال القرآن» لسیّد قطب ذیل الآیهٔ ج ۴ ص ۷۱۱.

[۱۰۴] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۲۲، و تفسیر القرطبی، ص ۳۹۸، ج ۵.

[۱۰۵] (۱) وسائل الشیعهٔ، ج ۱۱، ص ۱۲۲.

[۱۰۶] (۲) المصدر السابق، ص ۱۲۴.

[۱۰۷] (۳) المصدر نفسه، ص ۱۲۳.

[۱۰۸] (۱) العنکبوت، ۶۵.

[۱۰۹] (۲) البینة، ۵.

[۱۱۰] (۱) سورة ص، الآیة ۸۳.

[۱۱۱] (۱) مجمع البیان: ذیل الآیة.

[۱۱۲] (۱) الزخرف، ۵۱.

[۱۱۳] (۲) سورة طه، ۶۳.

[۱۱۴] (۳) فی المراد من« ما» من قولها\i« ما جَزاءُ\»E أ هی نافیة ام استفهامیة، هناک اختلاف بین المفسّرین، و النتیجة واحدة.

[۱۱۵] (۱) ورد التعبیر بالخاطئین و هو جمع مـذکّر، و لم یرد التعبیر بالخاطئات الـذی هو جمع مؤنث، لانّ جمع المـذکّر السالم یغلّب فی کثیر من الموارد و یطلق علی جماعة الذکور و الإناث ای« انّک فی زمرة الخاطئین».

[۱۱۶] (۱) تفسیر المنار، ج ۱۲، ص ۲۸۷.

[۱۱۷] (۲) تفسیر نور الثقلین، ج ۱۲، ص ۴۲۲.

[۱۱۸] (۱) تفسیر(روح المعانی) ج ۱۲ ص ۲۰۳.

[۱۱۹] (۲)« المتّکأ» ما یتکأ علیه کالکراسی و الاسرة، و ما یوضع خلف الظهر کما هو معروف فی القصور، و لکن البعض قال: انّ المتّکأ هو نوع من الفواکه المعروفـة« بالاترنـج» و الـذین فسّـروا المتّکأ بالمعنی المتقدّم قالوا ایضا: انّها فاکهة« الأترنج» و هی فاکهة من فصائل الحمضیات لها قشر ضخم یستعمل فی المربیات، و هذه الفاکهة فی مصر خفیفة الحموضة الحموضة و تؤکل!

[۱۲۰] (۱)« حاش لله» من مادة« حشـی» معناها الطرف او الناحیة .. و التحاشـی الابتعاد و مفهوم جملة« حاش لله» ای ان الله منزه، و هی اشارة الی ان یوسف عبد منزه و طاهر.

[۱۲۱] (۱) سفینة البحار، ج ۱، ص ۵۹۵، مادّة« ظلّ».

[۱۲۲] (۱) مجمع البیان، ج ۵، ص ۲۳۲.

[۱۲۳] (۱) مجمع البیان فی تفسیر الآیة، الجزء ۳، ص ۲۳۵.

[۱۲۴] (۱) لزیادة الإیضاح فی سنوات سجن یوسف یراجع تفسیر المنار، و القرطبی، و المیزان، و الفخر الرازی.

[۱۲۵] (۱) کلمة« داب» علی وزن« ادب» تعنی فی الأصل ادامة الحرکة، کما انّها بمعنی العادة المستمرة، فیکون معنی الکلام: علیکم ان تزرعوا تبعا لعادتکم المسـتمرة فی مصر و لکن ینبغی ان تقتصدوا فی مصرفه .. و یحتمل ان یکون المراد منه ان تزرعوا بجد و جهد اکثر فأکثر لانّ دأبا و دؤوبا بمعنی الجدّ و التعب ایضا، ای اعملوا حتّی تتعبوا.

[۱۲۶] (۱) سفینة البحار ج ۱ ص ۵۵۴.

[۱۲۷] (۱) وسائل الشیعة، ج ۱۲، ۱۳۹.

[۱۲۸] (۱) نطالع

\i\i فی روایـات عدیـدة عن الإمام علی بن موسـی الرضا علیه السّـلام E انّ بعض الجـاهلین بالمعـایر الاسـلامیة کانوا یعترضون علی الامام أحیانا، بأنّه لماذا قبلت ولایـة عهد المأمون مع کلّ زهدک فی الدنیا و اعراضک عنها؟ فکان الامام علیه السّـلام یجیبهم:« یا هذا ایّما أفضل النّبی ام الوصـی»؟ فقالوا: لا بل النّبی، فقال: ایّهما أفضل مسـلم ام مشرک»؟ فقالوا: لا بل مسلم فقال:« فإنّ العزیز عزیز مصر کان مشـرکا، و کان یوسف علیه السّـلام نبیّا، و انّ المأمون مسـلم» و انا وصـی، و یوسف سأل العزیز ان یولّیه حین قال\i: اجْعَلْنِی عَلی خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّی حَفِیظٌ عَلِیمٌ E، و انا أجبرت علی ذلک\i» وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۱۴۶.\E\E

[۱۲۹] (۱) مجمع البیان، المجلّد الثّالث، صفحة ۲۴۴، تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۳۵.

[۱۳۰] (۲) تفسیر نور الثّقلین، ج ۲، ص ۴۳۳.

[۱۳۱] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۳۲.

[۱۳۲] (۲) نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۳۲.

[۱۳۳] (۱) سورة ن و القلم، ۲۵.

[۱۳۴] (۱) مجمع البیان، ج ۵، ص ۲۵۳ ذیل الآیة.

[۱۳۵] (۱) یقول الطبرسی فی مجمع البیان- ذیل الآیة- انّ السنّة المتّبعة لدی بعض المجتمعات فی ذلک الزمان هو ان یصیر السارق عبدا لمدّة سنة کاملة، و ذکر ایضا انّ اسرة یعقوب کانت تری عبودیة السارق بمقدار ما سرق(ای یعمل عندهم بذلک المقدار).

[۱۳۶] (۱)(فرّطتم) من مادّة تفریط و أصله من(فروط) علی وزن شروط، و معناه التقدّم، و لکن حینما یکون من باب التفعیل یأخذ معنی القصور فی التقدّم، و حینما یکون من باب الأفعال(افراط) یأخذ معنی الإسراف فی التقدّم و التجاوز عنه.

[۱۳۷] (۱)(القریة) لا تطلق عند العرب علی القری و الأریاف خاصّة، بل یشمل جمیع الأریاف و المدن و القری، الصغیرة منها و الکبیرة- و المقصود منها فی الآیة هی مصر.

[۱۳۸] (۲)« عیر» کما یقول الراغب فی المفردات- تعنی الجماعة التی تصحب معها الإبل و الدواب المحمّلة بالغذاء، ای یطلق علی المجموع« عیر» فعلی هذا یکون السؤال منهم ممکنا لانّ الکلمة تشمل الأشخاص ایضا و لا حاجة للتقدیر، و لکن بعض المفسّرین ذهب الی انّ« العیر» یطلق علی الدواب فقط فلا بدّ من التقدیر کما هو الحال فی« القریة».

[۱۳۹] (۱) احتمل بعض المفسّرین انّ هذه الآیة لعلّها اشارة الی قصّة یوسف، لکنّه بعید عن الواقع، لانّ الآیات السابقة لا تبحث عن قضیّة یوسف و فراقه عن أبویه.

[۱۴۰] (۱)(حرض) علی وزن مرض بمعنی الشیء الفاسد و المؤلم، و المقصود منه هنا هو المریض الذی ضعف جسمه و صار مشرفا علی الموت.

[۱۴۱] (۲)(بثّ) بمعنی التفرقة و الشیء الذی لا یمکن إخفاؤه، و المقصود منه هنا هو الألم و الحزن الظاهر الذی لا یخفی علی احد.

[۱۴۲] (۱)(البضاعة) أصلها(البضع) علی وزن جزء، و هی بمعنی القطعة من اللحم المقطوعة من الجسم، کما یطلق علی جزء من المال الذی یقتطع منه ثمنا لشیء(مزجاة) من(الإزجاء) بمعنی الدفع، و بما انّ الشیء التافه و القلیل الثمن یدفعه الآخذ عن نفسه، اطلق علیه(مزجاة).

[۱۴۳] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة الشریفة.

[۱۴۴] (۱) مجمع البیان فی ذیل الآیة الشریفة.

[۱۴۵] (۱)(آثرک) أصله من(الإیثار) و فی الأصل بمعنی البحث عن اثر الشیء، و بما انّه یقال للفضل و الخیر: اثر، فقد استعملت هذه الکلمة للدلالة علی الفضیلة و العلو، فبناء علی هذا یکون معنی قوله i آثَرَکَ اللَّهُ عَلَیْنا\E ای انّ اللّه سبحانه و تعالی قد أکرمک و فضّلک علینا لما قمت به من الأعمال الخیّرة.

[۱۴۶] (۲) یری الفخر الرازی فی تفسیره انّ الفرق بین الخاطئ و المخطئ هو انّ الخاطئ یقال لمن تعمّد الخطأ، و المخطئ لمن اخطأ عن سهو.

[۱۴۷] (۱)« تثریب» أصله من مادّة(ثرب) و هو شحمة رقیقة تغطّی المعدة و الأمعاء، و التثریب بمعنی رفع هذا الغطاء، ثمّ بمعنی العتاب و الملامة فکان المعاقب قد رفع بعتابه غطاء الذنب عن وجه المذنب(راجع القاموس و مفردات الراغب و تفسیر الرازی و روح المعانی).

[۱۴۸] (۱) مجمع البیان ذیل الآیة الشریفة.

[۱۴۹] (۱) تفسیر فخر الرازی، ج ۱۸، ص ۲۰۶.

[۱۵۰] (۱) تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۲۵۸.

[۱۵۱] (۲) نهج البلاغة- الکلمات القصار- جملة ۱۱.

[۱۵۲] (۱)(تفنّدون) من مادّة(الفند) علی زنة(الرمد) و معناها العجز الفکری و السفاهة، و مضی بعض اللغویین الی انّ معناها الکذب و معناها فی الأصل الفساد. فبناء علی ذلک فإنّ جملة(لو لا ان تفنّدون) معناها إذا لم تتّهمونی بالسفاهة و فساد العقل.

[۱۵۳] (۱) اصول الکافی، ج ۲، ص ۱۲۳« و السائل هو جابر الجعفی».

[۱۵۴] (۲) لمزید الاطلاع علی هذه الرّوایات یراجع المجلد الثّانی من تفسیر نور الثقلین، ص ۴۶۴.

[۱۵۵] (۱) شرح نهج البلاغة، للخوئی، ج ۵، ص ۲۰۰.

[۱۵۶] (۱) نقرا فی تفسیر القرطبی انّ هدفه کان الاستغفار لهم فی لیلة الجمعة الموافقة لیوم عاشوراء« لمزید الاطلاع یراجع تفسیر القرطبی، ج ۶، ص ۳۴۹۱».

[۱۵۷] (۱) راجع تفسیر المیزان، و تفسیر الفخر الرازی ذیل الآیة محل البحث.

[۱۵۸] (۲) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۶۷.

[۱۵۹] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۶۸.

[۱۶۰] (۱) البقرة، ۱۳۲.

[۱۶۱] (۱) مجمع البیان، ج ۵، ص ۲۶۵.

[۱۶۲] (۱) سفینة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۹۷.

[۱۶۳] (۲) فی ظلال القرآن، المجلّد الخامس، صفحة ۵۳.

[۱۶۴] (۳) نور الثقلین، ج ۲، صفحة ۲۷۵- اصول الکافی، المجلّد الثّانی، صفحة ۲۹۲.

[۱۶۵] (۱) غاشیة مؤنثة لانّها صفة« للعقوبة» التی هی مقدّرة.

[۱۶۶] (۱) استخدام تلک للبعید- و کما قلنا سابقا- کنایة عن عظمة القرآن و اعجازه.

[۱۶۷] (۱)(عمد) علی وزن(صمد)« و عمد» علی وزن(زحل) و الاثنان جمع عمود، فالاوّل جمع، و الثّانی اسم الجمع(مجمع البیان ذیل الآیة).

[۱۶۸] (۲) الحدیث فی تفسیر البرهان، عن علی بن ابراهیم عن العیاشی(البرهان، المجلّد الثّانی، ص ۲۷۸).

[۱۶۹] (۱) سفینة البحار، المجلد الثانی، ص ۵۷۴ نقلا من تفسیر علی بن ابراهیم القمی.

[۱۷۰] (۱) متجاور بمعنی الجار و ما یکون قریبا، فقوله\i:(قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ)E\ یقصد منه انّ هذه القطع مختلفة و لیست متساویة، و الّا لم یکن للجملة معنی.

[۱۷۱] (۱)« أعناب» جمع عنب و« النخیل» جمع نخلة، و یحتمل انّهما ذکرتا بصیغة الجمع للدلالة علی الأنواع المختلفة للعنب و التمر و التی قد تصل الی مئات الأنواع فی العالم.

[۱۷۲] (۲) و قد ذکروا معنی آخر لصنو، و هو الشبیه، و لکن یحتمل انّ هذا المعنی مأخوذ من نفس المعنی الذی ذکرناه آنفا.

[۱۷۳] (۱) للمطالعة اکثر راجع کتاب المعاد و العالم بعد الموت .

[۱۷۴] (۱) ابراهیم، ۳۲.

[۱۷۵] (۲) ابراهیم، ۳۲.

[۱۷۶] (۳) النحل، ۱۲.

[۱۷۷] (۴) ابراهيم، ۳۳.

[۱۷۸] (۱) النحل، ۱۴.

[۱۷۹] (۲) الحجّ، ۶۵.

[۱۸۰] (۳) الجاثية، ۱۳.

[۱۸۱] (۱) و يحتمل فى تفسير جملة\i إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ E انّ المقصود منه ان تعجب من عبادتهم للأصنام فالأعجب ان ينكروا المعاد، و لكن هذا الاحتمال غير وارد، و الصحيح ما هو ظاهر الآية المذكور فى المتن.

[۱۸۲] (۱) المثلات جمع« مثلة» بفتح الميم و ضم الثاء و معناها العقوبات النازلة على الأمم الماضية.

[۱۸۳] (۱) مجمع البيان، المجلد ۵ و ۶، ص ۲۷۸- تفسير القرطبى، المجلّد السّادس، ص ۳۵۱۴.

[۱۸۴] (۱) للمزيد من الاطلاع راجع كتاب احقاق الحقّ، المجلّد الثّالث، ص ۸۷ و ما بعدها.

[۱۸۵] (۱)« تغيض» أصلها الغيض بمعنى ابتلاع السائل و هبوط مستوى الماء. و تأتى بمعنى النقصان و الفساد، و« الغيضة» المكان الذى يقف فيه الماء فيبتلعه، و« ليلة غائضة» اى مظلمة.

[۱۸۶] (۲) يقول صاحب الميزان مؤيّدا هذا الراى: إنّ بعض روايات ائمّة اهل البيت يؤيّد هذا الراى. و ابن عبّاس ممّن يؤيّد هذا الراى ايضا، و لكن بالنظر الى الرّوايات المنقولة فى تفسير نور الثقلين فى ذيل الآية فإنّ أكثرها يؤيّد ما قلناه فى الراى الاوّل.

[۱۸۷] (۱) نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۴۸۵.

[۱۸۸] (۲)« سارب» من سرب على وزن ضرر، بمعنى الماء الجارى، و يقال للشخص الذاهب الى عمل ايضا.

[۱۸۹] (۱) هناك حديث بين المفسرين فى ان الضمير(له) لمن يعود، و كما تشير الآية فإنه يعود للإنسان كما تؤكد عليه الآيات السابقة، و لكن بعضهم قال: يعود للنبى او لله. و هذا يخالف ما جاء فى ذيل الآية[فتأمل .

[۱۹۰] (۱) للتوضيح اكثر فى معنيى التسبيح و التقديس للكائنات سيأتى فى ذيل الآية\i وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ E الاسراء، ۴۴.

[۱۹۱] (۲) يقول الشيخ الطوسى رحمه اللّه فى تفسيره التبيان: الخيفة بيان لحالة الشخص امّا الخوف فمصدر.

[۱۹۲] (۱) فسر البعض« المحال» من« المحل، الماحل» بمعنى المكر و الجدال و التصميم على العقوبة، و لكن ما أشرنا اليه أعلاه هو الصحيح، و التفسيران قريبا المعنى.

[۱۹۳] (۱) تشير هذه الآية الى الافران التى تستعمل لصهر الفلزان، فهذه الافران تتميّز بوجود النّار من تحتها و من فوقها يعنى نار تحت الفلز و نار فوقه، و هذه من أفضل انواع الافران حيث تحيط بها النّار من كلّ جانب.

[۱۹۴] (۱)

\i\i يقول الامام على عليه السّلام فى وصفه أصحابه يوم الجمل E« و قد ارعدوا و ابرقوا و مع هذين الأمرين الفشل، و لسنا نرعد حتّى نوقع و لا نسيل حتّى نمطر\».E

[۱۹۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۵۰.

[۱۹۶] (۱) آل عمران، ۵۹.

[۱۹۷] (۱) البقرة، ۲۰.

[۱۹۸] (۲) البقرة، ۲۶۱.

[۱۹۹] (۳) البقرة، ۲۶۴.

[۲۰۰] (۱) الاحتجاج، ص ۳۵۴.

[۲۰۱] (۱) تفسير البرهان، المجلّد الثّانى، صفحة ۲۸۸.

[۲۰۲] (۲) الانشقاق، ۸.

[۲۰۳] (۱) الطلاق، ۸.

[۲۰۴] (۱) نور الثقلين، ج ۲، صفحة ۴۹۴.

[۲۰۵] (۱) المصدر السابق، صفحة ۴۹۵.

[۲۰۶] (۱) ليس الصبر على الطاعة و المعصية و المصيبة فقط بل الصبر على النعم كذلك حتّى لا يصيب الإنسان الغرور.

[۲۰۷] (۱) مجمع البيان ذيل الآية أعلاه.

[۲۰۸] (۲) الكلمات القصار فى نهج البلاغة، الكلمة ۱۵۸.

[۲۰۹] (۳)« العقبى» بمعنى العاقبة او نهاية العمل خيرا كان او شرّا، و لكن بالنظر الى قرينة الحال فى الآية أعلاه تشير الى العاقبة الحسنة.

[۲۱۰] (۱) منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، المجلّد الثّالث، ص ۹۹۵.

[۲۱۱] (۲) الخصال للصدوق، الباب الثانى.

[۲۱۲] (۳) الحجر، ۴۴.

[۲۱۳] (۱) للتوضيح اكثر راجع ما ذكر ذيل الآية(۷۲) من سورة التوبة.

[۲۱۴] (۱) يقول الراغب فى مفرداته: اللعن بمعنى الطرد مع الغضب، و اللعن فى الآخرة تشير الى العقوبة و فى الدنيا الابتعاد من رحمة اللّه، و إذا كان من قبل الناس فمعناه دعاء السوء.

[۲۱۵] (۱) الشعراء، ۱۵۲.

[۲۱۶] (۲) البقرة، ۲۲۰.

[۲۱۷] (۳) الأعراف، ۱۴۲.

[۲۱۸] (۴) سورة ص، ۲۸.

[۲۱۹] (۱) المائدة، ۳۳.

[۲۲۰] (۲) البقرة، ۲۰۵.

[۲۲۱] (۳) البقرة، ۲۷.

[۲۲۲] (۴) القصص، ۸۳.

[۲۲۳] (۵) يونس، ۹۱.

[۲۲۴] (۶) يوسف، ۷۳.

[۲۲۵] (۷) هود، ۸۵.

[۲۲۶] (۸) الأنبياء، ۲۲.

[۲۲۷] (۱) و نحن أشرنا اليه بشكل مفصّل فى ذيل الآية(۳۳) من سورة المائدة.

[۲۲۸] (۱) وسائل الشيعة، المجلّد ۱۲، صفحة ۳۷.

[۲۲۹] (۱) وسائل الشيعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۷ و ۳۸.

[۲۳۰] (۲) وسائل الشيعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۸.

[۲۳۱] (۳) وسائل الشیعة المجلّد ۱۲ صفحة ۳۷ و ۳۸.

[۲۳۲] (۱) للاستفادة اکثر راجع کتاب(طرق التغلّب علی الاضطراب و القلق).

[۲۳۳] (۱) و قد أشرنا الی هذه المسألة من تفسیر الأمثل ذیل الآیة(۲) من سورة الأنفال.

[۲۳۴] (۱) سفینة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۴۸۴.

[۲۳۵] (۲) المصدر السّابق.

[۲۳۶] (۳) المصدر السّابق.

[۲۳۷] (۱)« ییأس» مأخوذة من مادّة الیأس، و لکن یقول جمهور من المفسّرین: انّها جاءت هنا بمعنی العلم، و امّا ما یقوله البعض طبقا لما نقله الفخر الرّازی ان« یئست» لا تأتی بمعنی« علمت» إطلاقا، و یری الرّاغب فی مفرداته انّ الیأس هنا هو نفس معناه، و لکن یحتاج لتحقّقه الی العلم بعدم تحقّق الموضوع، و علی هذا یکون ثبوت یأسهم یتوقّف علی علمهم و تکون نتیجته انّ الیأس هنا لیس العلم بالوجود، بل العلم بالعدم، و هو مخالف لمفهوم الآیة، و علی ذلک فالحقّ ما قاله جمهور المفسّرین، و ما ذکروه من شواهد فی قول العرب علی ذلک، و قد ذکر الفخر الرّازی فی تفسیره امثلة من هذه الشواهد[دقّقوا النظر].

[۲۳۸] (۱) الجملة أعلاه مبتدا لخبر محذوف تقدیره i أ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلی کُلِّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ E کمن لیس کذلک.

[۲۳۹] (۱) هناک نقاش بین المفسّرین حول ترکیب هذه الجملة فقال البعض: انّ« مثل» مبتدا و« تجری» خبرها، و قال بعض آخر: انّ« مثل» مبتدا و خبره محذوف تقدیره« فیما نقص علیکم مثل الجنّة».

[۲۴۰] (۱) ابراهیم، ۴۸.

[۲۴۱] (۱) لانّه یلازم هذا الحدیث ان یکون ما انزل إلیک هو نفس« الکتاب» فالاثنان یشیران الی القرآن، فی الوقت الذی نری فیه من قرینة المقابلة انّ المقصود من« الکتاب» غیر ما انزل إلیک.

[۲۴۲] (۱) یقول بعض المفسّرین فی سبب نزول هذه الآیة: انّها جواب لما کان یورده البعض من تعدّد ازواج الرّسول، فی الوقت الذی نری انّ سورة الرّعد مکّیة و تعدّد الزوجات لم یکن حینذاک.

[۲۴۳] (۱) و لتطابق هذا المعنی یجب ان یکون هناک تقدیم و تأخیر فی الجملة أعلاه، و یقال فی تقدیره لکل کتاب اجل کما قاله بعض المفسّرین.

[۲۴۴] (۱) تفسیر المیزان، المجلّد ۱۱، ص ۴۱۹.

[۲۴۵] (۲) المصدر السّابق.

[۲۴۶] (۳) نور الثقلین، ج ۲، صفحة ۵۱۲.

[۲۴۷] (۱) یونس، ۹۸.

[۲۴۸] (۲) بحار الأنوار الطبعة القدیمة المجلّد الثّانی صفحة ۱۳۱- عن امالی الصدوق.

[۲۴۹] (۱) اصول الکافی، المجلّد الاوّل، صفحة ۱۱۴- سفینة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۱.

[۲۵۰] (۱) سفینة البحار، المجلّد الاوّل، صفحة ۶۱.

[۲۵۱] (۱) تفسیر البرهان، المجلّد الثّانی، صفحة ۳۰۱.

[۲۵۲] (۱) المیزان، المجلّد ۱۱، الصفحة ۴۲۷.

[۲۵۳] (۱) مجمع البیان، و نور الثقلین، فی بدایة السورة.

[۲۵۴] (۱)« الی صراط اللّه» فی الواقع بدل من« الی النّور» فالمقصود من الهدایة الی النّور هو الهدایة الی صراط العزیز الحمید، و« کتاب أنزلناه» خبر لمبتدأ محذوف تقدیره: هذا کتاب أنزلناه.

[۲۵۵] (۲)(اللّه): بالكسر لانّه بدل من i(الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ\)E.

[۲۵۶] (۳) يقول الراغب فى مفرداته: استحبّ الكفر على الايمان، و الاستحباب هو سعى الإنسان لان يحبّ شيئا، و إذا ما تعدّى ب(على) فسوف يصرف عنه المعنى المتقدّم كما فى i أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى E.

[۲۵۷] (۱) الحديد، ۱۲.

[۲۵۸] (۲) البقرة، ۲۵۷.

[۲۵۹] (۳) الأعراف، ۱۵۷.

[۲۶۰] (۴) التوبة، ۳۲.

[۲۶۱] (۱) النّور، ۳۵.

[۲۶۲] (۱) غافر، ۳۴.

[۲۶۳] (۱) البقرة، ۲۶.

[۲۶۴] (۲) ابراهيم، ۲۷.

[۲۶۵] (۳) المعجزات التى ظهرت من موسى بن عمران اشارت إليها الآية أعلاه بلفظ الآيات، و هى ۹ معاجز مهمّة طبقا للآية(۱۰۱) من سورة الاسراء، و التى سوف تأتى ان شاء اللّه فى تفسير تلك الآية.

[۲۶۶] (۱) راجع المفردات للراغب، و تفسير المنار،[المجلّد الاوّل، ص ۳۰۸] و تفسير الرازى المجلّد السابع، ص ۷].

[۲۶۷] (۲)« تأذّن» من باب« تفعّل» بمعنى الاعلام للتأكيد، لانّ مادة افعال من(إيذان) بمعنى أعلام، و لمّا يصبح من باب تفعّل يستفاد منه الاضافة و التأكيد.

[۲۶۸] (۱) يوم الكرّة- اى يوم الرجعة.

[۲۶۹] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ۵۲۶.

[۲۷۰] (۳) المصدر السّابق.

[۲۷۱] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ۷۱۰.

[۲۷۲] (۲) نور الثقلين، ج ۲، ۵۲۹.

[۲۷۳] (۱) اصول الكافى، المجلّد الرابع، صفحة ۸۰ باب الشكر.

[۲۷۴] (۲) نهج البلاغة الكلمات القصار، رقم ۱۳.

[۲۷۵] (۳) اصول الكافى، الجزء الثّانى- ص ۹۹- ح ۳۰.

[۲۷۶] (۱)i(\« إِنْ تَكْفُرُوا\»E جملة شرطيّة تقديرها محذوف، و جملة« انّ اللّه لغنى حميد» تدلّ على ذلك و كان التقدير« ان تكفروا ... لا تضرّوا اللّه شيئا».

[۲۷۷] (۲)- جملةi\ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ E قد تكون معطوفة على ما قبلها و الواو محذوفة، و قد تكون جملة وصفية للجملة السابقة.

[۲۷۸] (۱) هناك جدل بين المفسّرين فى معنى« من»، فقال بعضهم بالتبعيض، اى يغفر قسما من ذنوبكم، و هذا الاحتمال ضعيف لانّ الايمان يؤدّى الى غفران الذنوب كلّها(الإسلام يجب ما قبله) و احتمل البعض الآخر انّ« من» بدل، فيكون معنى الجملة يدعوكم ليغفر ذنوبكم بدل الايمان، و قال آخرون: انّ« من» هنا زائدة للتأكيد، و معناه: انّ اللّه تعالى يدعوكم للايمان ليغفر لكم ذنوبكم، و هذا التّفسير نراه اقرب الى الصحّة.

[۲۷۹] (۲) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ص ۴۸۸.

[۲۸۰] (۱) سفينة البحار، المجلّد الاوّل، ص ۴۸۸.

[۲۸۱] (۱) آل عمران، ۱۷۳.

[۲۸۲] (۱) النحل، ۹۹.

[۲۸۳] (۱) اصول الکافی، المجلّد الثّانی، باب التفویض الی اللّه و التوکّل علیه حدیث- ۳.

[۲۸۴] (۲) بحار الأنوار، ج ۱۵ القسم الثّانی فی الأخلاق، ص ۱۴ الطبعة القدیمة.

[۲۸۵] (۳) سفینة البحار، المجلد الثّانی، ص ۶۸۲.

[۲۸۶] (۱) تفسیر الفخر الرازی ذیل الآیة.

[۲۸۷] (۲) للتوضیح اکثر راجع تفسیر الآیة(۴۳) من سورة المائدة من تفسیرنا هذا.

[۲۸۸] (۳) نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۳۲.

[۲۸۹] (۴) المصدر السابق.

[۲۹۰] (۱) النازعات، ۴۰.

[۲۹۱] (۲) الرحمان، ۴۶.

[۲۹۲] (۱) تفسیر القرطبی، ص ۳۵۷۹.

[۲۹۳] (۱) للاطلاع اکثر راجع تفسیر الآیة(۲۱۷) من سورة البقرة من تفسیرنا هذا.

[۲۹۴] (۱) یوسف، ۹۰.

[۲۹۵] (۲) البحار، ج ۳، مطبعة کمبانی ص ۳۷۷.

[۲۹۶] (۳) المصدر السابق، ص ۳۸۲.

[۲۹۷] (۴) البحار، ج ۲، ص ۶۰۷.

[۲۹۸] (۱) البحار، ج ۲.

[۲۹۹] (۱) یونس، ۵.

[۳۰۰] (۱) یونس، ۳۲.

[۳۰۱] (۲) البقرة، ۲۱۳.

[۳۰۲] (۳) السجدة، ۱۳.

[۳۰۳] (۴) النساء، ۱۳۱ الی ۱۳۳.

[۳۰۴] (۱) یجب الانتباه الی انّ« برزوا» فعل ماضی، الّا انّه جاء هنا بصیغة المستقبل، لانّ المسائل المتعلّقة بالقیامة قطعیّة و غیر قابلة للنقاش، و لذلک وردت فی کثیر من الآیات بصیغة الماضی.

[۳۰۵] (۱) الأعراف، ۴۳.

[۳۰۶] (۱) للتوضیح اکثر فی معنی الشیطان فی القرآن راجع تفسیر الآیة ۳۶ من سورة البقرة من تفسیرنا هذا.

[۳۰۷] (۱) بحثنا هذا الموضوع« السّلام و التحیّة» فی المجلد الثّانی، ذیل الآیة(۸۶): من سورة النساء من تفسیرنا هذا.

[۳۰۸] (۱) و یظهر هذا الأمر بشکل واضح فی ثمار الأشجار، فثمار الاغصان العالیة تکون انضج و أطیب طعما من ثمار الاغصان الواطئة.

[۳۰۹] (۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، صفحة ۵۴۰- ۵۴۱.

[۳۱۰] (۲) المصدر السابق.

[۳۱۱] (۱) نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۳۵.

[۳۱۲] (۲) المصدر السابق.

[۳۱۳] (۳) المصدر السابق.

[۳۱۴] (۱)« يصلون» من« الصلى» بمعنى الاشتعال و الاحتراق بالنار.

[۳۱۵] (۲) الزمر، ۸.

[۳۱۶] (۱) تفسير الفخر الرازى ذيل الآية أعلاه.

[۳۱۷] (۱)« دائبين» من مادّة« الدؤوب» بمعنى ادامة العمل طبقا للسنّة الثابتة، و بما انّ الشمس و القمر مستمرّان بشكل ثابت من ملايين السنين، و ما لها من فوائد عظيمة للكائنات، لا نجد هناك عبارة لهما أفضل من دائبين.

[۳۱۸] (۱) الجاثية، ۱۳.

[۳۱۹] (۱) هناك اختلاف بين المفسّرين فى سنّ ابراهيم عند ولادة إسماعيل و إسحاق، فمنهم من قال: كان عمره عند ولادة إسماعيل ۹۹ عاما و عند ولادة إسحاق ۱۱۲ عام، و منهم من يقول اكثر من ذلك و اقل، و لكن القدر المسلّم به انّ عمره كان فى سن يصعب ان يولد منه الأبناء.

[۳۲۰] (۱) نور الثقلين ج ۴ ص ۵۴۸.

[۳۲۱] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۲(القاصعة).

[۳۲۲] (۱) التوبة، ۱۱۳.

[۳۲۳] (۱) للمطالعة اكثر راجع ذيل الآية(۱۸) من سورة النساء.

[۳۲۴] (۱) يقول فريد وجدى فى دائرة المعارف فى مادّة(القطران) مائع ناتج من تقطير الفحم الحجرى، و القطران النباتى يتمّ الحصول عليه من بعض الأشجار.

[۳۲۵] (۱) سورة طه، ۱۰۸۱۰۵-.

[۳۲۶] (۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۳۲۷] (۱) ذكر بعض المؤرّخين انّ ولادته عليه السّلام- فى مدينة(اور) التابعة لدولة بابل.

[۳۲۸] (۱) الانعام، ۹۷۵- ۷.

[۳۲۹] (۱) البقرة، ۲۵۸.

[۳۳۰] (۱) النحل، ۱۲۰.

[۳۳۱] (۲) النساء، ۱۲۵.

[۳۳۲] (۳) سفينة البحار، ج ۱، ص ۷۴.

[۳۳۳] (۴) سورة ص، ۴۷.

[۳۳۴] (۵) النحل، ۱۲۲.

[۳۳۵] (۶) النحل، ۱۲۰.

[۳۳۶] (۷) مريم، ۴۱.

[۳۳۷] (۸) التوبة، ۱۱۴.

[۳۳۸] (۹) النجم، ۳۷.

[۳۳۹] (۱) سفينة البحار، ج ۱، ص ۷۴.

[۳۴۰] (۲) الكامل لابن الأثير ج ۱- ص ۹۹.

[۳۴۱] (۱) سورة الأنبياء، ۷۶۳- ۶، و سورة الحجّ، ۷۸\i مِلَّةَ أَبِيكَمْ إِبْراهِيمَ E.

[۳۴۲] (۲) الممتحنة، ۴.

[۳۴۳] (۳) آل عمران، ۶۷.

الجزء الثامن

سورة الحجر

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع و تسعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷

«سورة الحجر»

محتوى السّورة:

المشهور عند جل المفسّرين أنّ سورة الحجر مكّية، و هى السورة الثّانية و الخمسون من السور التى نزلت على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة المكرمة على ما ذكره ابن النديم فى فهرسته تحت موضوع تاريخ القرآن، و عدد آياتها تسع و تسعون آية باتفاق كل المفسّرين.

و لم تشذ السورة فى سياقها و مضامينها عن السور المكّية السابقة لها، و كما ذكرنا سابقا فإنّ السور المكّية تشتمل على جمل من الكلام حول أصول الدين كالتوحيد و المعاد، و إنذار المشركين و العاصين و الظالمين، بالإضافة إلى ما يحمله تاريخ الأقوام السالفة من دروس العبرة للاعتبار.

و يمكننا تلخيص ما حوته السورة فى سبع نقاط:

۱- الآيات المتعلقة بمبدإ عالم الوجود، و الإيمان به بالتدبر فى أسرار الإيجاد.

۲- الآيات المتعلقة بالمعاد و عقاب الفجرة الفسقة.

۳- أهمية القرآن باعتباره كتابا سماويا.

۴- محاولة إيقاظ و تنبيه البشر من خلال طرح قصّة خلق آدم، و تمرد إبليس، و تبيان عاقبة التمرد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸

۵- زيادة فى محاولة الإيقاظ و التنبيه من خلال عرض القصص القرآنى لما جرى لأقوام لوط و صالح و شعيب عليهم السّلام.

۶- إنذار و بشارة، مواعظ لطيفة و تهديدات عنيفة، إضافة إلى المرغبات المشوقة.

۷- مخاطبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتقوية صبره و ثباته قبال ما يحاك من دسائس، و بالذات ما كان يجرى داخل إطار مكّة.

و قد اختير اسم السورة من الآية الثمانين التى ذكرت قوم صالح بأصحاب الحجر، علما بأنّ السورة تناولت ذلك فى خمس آيات، و هى السورة الوحيدة فى القرآن التى ذكرتهم بهذه التسمية، و سيأتى ذلك مفصلا فى تفسير الآيات (۸۰- ۸۴) إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ (۱) رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ (۲) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۳) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ (۴)
ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ (۵)

التّفسير

الأمانى الزّائفة!

سورة أخرى تفتتح بالحروف المقطعة (ألف، لام، وراء) لتبيّن من جديد أنّ مفردات كتاب نور السماء إلى ظلام أهل الأرض، ما هى إلّا عين تلك الأبجدية التى تلوك ألفاظها ألسن كل البشر، صغيرهم و كبيرهم، بين مختلف اللغات، و مع ذلك فلا يستطيع أى مخلوق الوصول لبناء و تركيب كلام القرآن، و هو ذروة التحدى الربانى المعجز، و عليه فقد جاءت تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ مباشرة.

كما نعلم أنّ «تلك» اسم إشارة للبعيد، و المفروض فى هذا الموضع استعمال اسم الإشارة (هذه) باعتباره يدل على القرب، لأنّ القرآن كتاب بين أيدينا، إلّا إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰

لغة العرب- كما بيّنا سابقا- تسمح بذلك لبيان عظمة المشار إليه، فالمراد أنّ لشأن القرآن عظمة، و كأنّه فى موضع بعيد جدّا بين طيات السماء، لا يناله إلّا من ملك مستلزمات التحليق إليه. و يقارب ذلك ما نتداوله فيما بيّننا عند تعظيم شخص معين فنقول له مثلا: (إن سمح لنا ذلك السّيد أن ...) فنستعمل (ذلك) مع كون الشخص مخاطبا.

و أمّا بشأن مجىء صيغة «قرآن» نكرة فلبيان عظمته أيضا، و ذكر «القرآن» بعد «الكتاب» تأكيد، و وصفه بال «مبين» لأنّه يظهر الحقائق و يبيّن الحق من الباطل.

و أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد بكلمة «الكتاب» إشارة إلى التوراة و الإنجيل، فهو كما يبدو بعيد جدّا و يفتقد الى الدليل.

ثمّ يحذر الذين يصرون على الفساد و مخالفة آيات اللّه الجلية، و يخبر بأنّهم سوف يندمون حين ينكشف الغطاء يوم القيامة بما كسبت أيديهم من كفر و تعصب أعمى و عناد. و يقول: رُبَما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ

فالمراد بكلمة «يود» التمنى حسب ما ورد فى تفسير الميزان، و ذكر كلمة «لو» للدلالة على تمنيهم الإسلام فى وقت لا يمكنهم فيه العودة إلى ما كانوا ينكرون، و هذه إشارة إلى أن تمنيهم سيكون فى العالم الآخر و بعد معاينة نتائج الأعمال.

و يؤيد هذا المعنى و ما

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام قوله: «ينادى مناد يوم القيامة يسمع الخلائق إنّه لا يدخل الجنّة إلا مسلم، فثمّ يود سائر الخلائق أنّهم كانوا مسلمين».[۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱

و

روى أيضا عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا اجتمع أهل النّار فى النّار و معهم من يشاء اللّه من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين، قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم و قد صرتم معنا فى النّار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب (كبائر) فأخذنا بها (و هذا الاعتراف بالذنب و التقصير و لوم الأعداء يكون سببا لأن) يسمع اللّه عزّ و جلّ ما قالوا فأمر من كان فى النّار من أهل الإسلام فأخرجوا منها فحينئذ يقول الكفار: يا ليتنا كنّا مسلمين».[۲]

و ربّما كان ظاهر الآية يوحى إلى أولئك الكفرة الذين ما زالت جذوة الفطرة تسرى فى أعماق وجدانهم، و حينما لمسوا من نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تلك الآيات الرّبانية التى تناغى أوتار القلوب، لانت قلوبهم و تمنوا أن لو يكونوا مسلمين، إلّا أنّ تعصبهم الأعمى و عنادهم القائم، أو قل منافعهم المادية حجبتهم عن قبول دعوة الحق، و بذلك بقوا بين قضبان كفرهم و استحوذت عليهم أحابيل الكفر و الضلال.

ذكر لنا أحد الأصدقاء من المؤمنين المجاهدين و كان قد سافر إلى أوروبا قائلا: ذات مرّة التقيت بأحد المسيحيين- و كان رجلا منصفا- و بعد أن بيّنت له بعض خصال ديننا، استهوته و مال إليها قائلا: أهنئكم من أعماقى على عظمة معتقدكم، و لكن- ما ذا نصنع مع الظروف الاجتماعية التى أجبرتنا على أن لا نحيد عنها! و من تاريخ الإسلام نطالع ما حصل لقيصر الروم عند ما وصله رسول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يذكر بأنّ القيصر قد أظهر الإيمان سرّا للرسول حتى أنّه رغب فى دعوة قومه لدين التوحيد إلّا أنّه خاف قومه و فكر بامتحانهم ف (أمر مناديا ينادى:

ألا إنّ هرقل قد ترك النصرانيّة و اتبع دين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فأقبل جنده بأسلحتهم حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲

طافوا بقصره، فأمر مناديه فنادى: ألا- إنّ قيصر إنّما أراد أن يجرّبكم كيف صبركم على دينكم، فارجعوا فقد رضى عنكم. ثمّ قال للرسول: إنّى أخاف على ملكى. و إنّى لأعلم أنّ صاحبك نبىّ مرسل، و الذى كنّا ننتظره و نجده فى كتابنا، و لكنّى أخاف الروم على نفسى، و لو لا ذلك لاتبعته).[۳] و على أية حال، ينبغى التنويه بعدم وجود تعارض بين أىّ من التّفسيرين، فيمكن حمل الآية على ندم بعض من الكافرين فى كلا- العالمين (الدنيا و الآخرة)، و اعتبار عدم استطاعتهم العودة إلى الإسلام فى حياتهم الدنيا و فى الآخرة لجهات مختلفة- فتأمل.

ثمّ يأتى نداء السماء بلهجة لاذعة، يا محمّد ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ فهم كالأنعام التى لا تعرف سوى الحقل و العلف، و لا تفهم سوى اللّذات المادية، و كل ما تريده لا يتعدى إطار ما تعرف و تفهم.

إنّهم لا يدركون فقه الحقائق، لأنّ حجب الغرور و الغفلة و الأمانى الزائفة ختمت على قلوبهم.

و لكن، عند ما يصفع الأجل وجوههم و ترتفع تلك الحجب عن أعينهم، و حينما يجدون أنفسهم أمام الموت أو فى عرصة يوم القيامة، هنالك سيدركون عظمة حجم غفلتهم و مدى خسرانهم، و كيف أنّهم قد ضيعوا أغلى ما كانوا يملكون! الآية التالية توضح محدودية اللذائذ الدنيوية لكى لا يظن أحد إنّما خالدة فتقول: وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَ لَها كِتابٌ مَعْلُومٌ ثمّ يقول تعالى: ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ

فقد سرت سنّة البارى جل شأنه بأن يعطى المدّة الكافية لرجوع المضللين إلى بارئهم، من خلال ابتلائهم بالشدائد الصعبة تارة، و بفيوضات رحمة الرخاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳

تارة أخرى، فمن لا تنفعه البشارة يأتيه الإنذار و هكذا، كل ذلك إتماما للحجة عليهم.

صحيح أنّ المصلحة الموجبة للتربية الربانية تقتضى (بعلم ربّ الأرباب) أن يمهل و لكنّه سبحانه لا يهمل، و عاجلا أم آجلا سينال كلّ نصيبه بما كسبت يداه.

من الآيتين الأخيرتين، تتّضح لنا فلسفة تكرار آيات القرآن لذكر تأريخ الأمم السابقة.

أ فلا تكفينا قصص السابقين عبرة لإصلاح أنفسنا و الرجوع إلى اللّه تعالى؟

بل كيف نسترخى بالقعود حتى يقدّر علينا ما كتب على الذين ضلوا و ظلموا من قبلنا؟ اذن و علينا الإعتبار، و إلّا فسنكون عبرة لمن سيأتى بعدنا.

ملاحظة:

الغفلة و طول الأمل

ممّا لا شك فيه أن الأمل بمثابة العامل المحرك لعجلة حياة الإنسان، فلو ارتفع الأمل يوما من قلوب الناس لارتبكت مسيرة الحياة و لا تجد إلّا القليل ممن يجد فى نفسه دافعا لمواجهة صراع الحياة معه، و الحديث النبوى الشريف: «الأمل رحمة لأمتى، و لو لا الأمل ما رضعت والدة ولدها، و لا غرس غارس شجرا»[۴] يشير لهذه الحقيقة.

و إذا ما تجاوز الأمل حده المعقول فإنّه سيتحول إلى (طول أمل) و هو ما ينذر بالانحراف و الهلاك، و مثله كمثل ماء المطر الذى يمثل عامل الحياة الفياض للأرض و النبات و الحيوان، فلو زاد عن حدّ الحاجة إليه، أصبح عاملا للغرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴

و الهلاك.

و هذا الأمل القاتل هو أساس الجهل باللّه و عدم معرفة الحق و الابتعاد عن الحقيقة، و يؤدى الى تقوقع الإنسان فى دائرته الفردية بما ينسجه الخيال الواسع و يبتعد عن هدف وجود الإنسان على الأرض و المصير الذى يصبو إليه.

و

يحدثنا أمير المؤمنين على عليه السّلام عن هذا المضمون بقوله: «يا أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة»[۵].

حقا، كم هم أولئك الذين امتازوا بالملكات الفائقة و الكفاءات اللائقة، و لكنّهم سقطوا فى شباك فخ طول الأمل فتحولوا إلى موجودات ضعيفة، بل و ممسوخة! و أصبحوا لا يستطيعون تقديم شىء لمجتمعهم، بل ضيّعوا حتى ما ينفع أنفسهم و أثقلوا عمّا يسمون به إلى التكامل.

و هذه الصورة نتلمس ملامحها بجلاء

فى دعاء كميل: «و حبسنى عن نفعى بعد أملى».

بديهى أنّ الأمل الذى يتجاوز الحد المعقول، يجعل الإنسان عرضة للانهماك و العجز و الاضطراب، و يصوّر لصاحبه أنّ هذه الحال ستوصله إلى السعادة و الرفاه، و ما يدرى أنّه يخطو صوب جرف الشقاء و النكد.

و غالبا ما تطوى صفحات هؤلاء بالدمعة الجارية و الحسرة لما آل إليه المآل ليكونوا عبرة لكل ذى عين بصيرة و أذن سميعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (۶) لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۷) ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ (۸)

التّفسير

طلب نزول الملائكة:

تبتدئ الآيات بتبيان موقف العداء الأعمى و التعصب الأصم للقرآن الحكيم و النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الكفار، فتقول: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

و من خلال كلامهم يظهر بجلاء مدى وقاحتهم و سوء الأدب الذى امتازوا به حين مخاطبتهم للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتارة يقولون: يا أَيُّهَا الَّذِي و أخرى: نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بصيغة الهزؤ و الإنكار لآيات اللّه سبحانه، و ثالثة: يستعملون أدوات التوكيد «إن» و لام القسم ليتّهموا أشرف خلق اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالجنون! نعم، الخصم ينطلق المريض الجاهل حينما يقابل حكيما لا نظير له، فأوّل ما يرميه بالجنون، لأنّه ينطلق من جهله الذى لا يستوعب الحكمة و المعقول، فيرى كل ما فوق تصوره القاصر غير معقول، و يوصم خصمه بالمجنون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶

هؤلاء الأشخاص لديهم تعصب خاص نحو كل ما ألفوه فى محيطهم الاجتماعى حتى و إن كان ضلالا و انحرافا، لذا تراهم يواجهون كل دعوة جديدة على أساس أنّها غير معقولة، فهم يخشون من كل جديد، و يتمسكون بشدّة بالعادات و التقاليد القديمة.

أضف إلى ذلك، أن من استهوته الدنيا و عاش لها لا يفقه المعانى الروحية و القيم الإنسانية و يوزن كل شىء بالمعايير المادية، فإذا شاهد شخصا يضحى بكل شىء و حتى بنفسه لأجل أن يصل إلى هدف معنوى، فسوف لا يصدّق بأنّه عاقل، لأن العقل فى عرفهم هو ما يصيب: المال الوافر، الزوجة الجميلة، الحياة المرفهة، و الوجاهة الكاذبة! و عليه، فحينما يرون رجلا قد عرضت عليه الدنيا بكل ما يحملون به فأبى أن يقبلها بقوله: «و اللّه لو وضعتم الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى على أن أترك هذا الأمر ما تركته» فسيقولون عنه: إنّه لمجنون! الملفت فى التهم الموجهة إلى أنبياء اللّه تعالى أنّها تحمل بين طياتها تضادا واضحا يلمس بأدنى تدبر، ففى الوقت الذى يرمون النّبى بالمجنون يعودون و يقولون عنه: إنّه لساحر، فمع أن الساحر لا بدّ له من الذكاء و النباهة، فهل يعقل أن يكون الساحر، مجنونا؟! إنّهم لم يكتفوا بنسبة الجنون إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل تحججوا قائلين: لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فيجيبهم البارى جل شأنه: ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ فلو تمّ إنزال الملائكة و شاهدوا الحقيقة بأعينهم ثمّ لم يؤمنوا بما فسوف يحيق بهم، العذاب الالهى دون إمهال.

و للمفسّرين وجوها متباينة فى تفسير ما نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِ

۱- يرى البعض، أن أمر تنزيل الملائكة لا يتعلق بما يتقوله القائلون تحججا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷

بل هو إعجاز ربانى لإظهار الحق و إحقاقه.

و بعبارة أخرى، فالإعجاز ليس أمرا ترفيهيا يناغى تصورات الآخرين بقدر ما هو حجة إلهية لإثبات الحق و إماطة الباطل.

و قد أشبعت هذه الحقيقة بما فيه الكفاية لمن يرى النّور نورا و الظلام ظلاما من خلال ما أوصله نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم عن طريق القرآن و المعاجز الأخرى.

۲- المقصود من كلمة «الحق» هو العقاب الدنيوى بالبلاء المهلك، و بعبارة أخرى (عذاب الاستئصال).

أى ... فى حال عدم إيمان الكفار المعاندين بعد نزول الملائكة على ضوء اقتراحهم فهم هالكون قطعا.

و بهذا تكون جملة وَ ما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ مؤكّدة لهذا المعنى، و أمّا على التّفسير الأوّل فإنّها تتناول موضوعا جديدا.

۳- و قيل المراد بالحق فى الآية الموت، إى أنّ الملائكة لا تنزل إلّا لقبض الأرواح.

لكنّ هذا المعنى بعيد جدّا أمام ما يحفل به القرآن من ذكر نزول الملائكة فى قصتى إبراهيم و لوط عليهما السّلام و معركة بدر ... إلخ.

۴- و قيل المراد بالحق الشهادة (المشاهدة).

أى ... ما دام الإنسان يعيش فى عالم الدنيا فهو عاجز عن رؤية ما وراء هذا العالم حيث هناك تسبح الملائكة بحمد ربّها، لأنّ الحجب المادية قد أفسدت رؤيته و لا يتسنى له ذلك إلّا بعد الرحيل إلى العالم الآخر، و حين ذلك ينتهى مفعول الماديات فتزال الحجب و يرى الملائكة.

يواجه هذا التّفسير نفس ما واجهه التّفسير الثّالث من إشكال، فقوم لوط مثلا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸

على ما كانوا عليه من كفر و انحراف فقد رأوا ملائكة العذاب فى دنياهم ۶].

من خلال ما تقدم يتبيّن لنا أن التّفسيرين الأوّل و الثّانى ينسجمان مع ظاهر الآية دون الآخرين.

أمّا ما ورد فى ذيل الآية من عدم الامهال بعد استجابة مطاليبهم فى رؤية المعاجز الحسيّة و عدم إيمانهم بها، فلأنه قد تمّت الحجة عليهم و انتفت جميع اعذارهم و تبريراتهم، و بما أن استدامة الحياة إنّما هو لأجل إتمام الحجة و احتمال توبة و رجوع الافراد المنحرفين الى الصراط المستقيم، و هذا الأمر لا موضوع له فى مثل هؤلاء الأشخاص، فلذلك يحين أجلهم و ينالون جزاءهم الذى يستحقونه.

(فتدبّر)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹

الآية [سورة الحجر (۱۵): آية ۹]

اشارة

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹)

التّفسير

حفظ القرآن من التحريف:

بعد أن استعرضت الآيات السابقة تحجج الكفار و استهزاءهم بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، تأتى هذه الآية المباركة لتواسى قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة و لتطمئن قلوب المؤمنين المخلصين من جهة أخرى، من خلال طرح مسألة حيوية ذات أهمية بالغة لحياة الرسالة، ألا و هى .. حفظ القرآن من أيادى التلاعب و التحريف إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ...

فبناء هـذا القرآن مستحكم و شـمس وجوده لا يغطيها غبار الضـلال، و مصـباح هـديه أبـدى الإنارة، و لو اتحد أعتى جبابرة التاريخ و طغاته و حكامه الظلمة، محفوفين بعلماء السوء، و مزودين بأقوى الجيوش عدّة و عتادا، على أن يخمدوا نور القرآن، فلن يستطيعوا، لأنّ الحكيم الجبار سبحانه تعهد بحفظه و صيانته ..

و قد اختلف المفسّرون فى دلالة (حفظ القرآن) فى هذه الآية المباركة:

۱- قال بعضهم: الحفظ من التحريف و التغيير، و الزيادة و النقصان.

۲- و قال البعض الآخر: حفظ القرآن من الضياع و الفناء إلى يوم قيام الساعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰

۳- و قال غيرهم: حفظه أمام المعتقدات المضلة المخالفة له.

بمـا أنّه لا يوجـد أى تضاد بين هـذه التفاسـير و تـدخل ضـمن المفهوم العام لعبارة إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ فلا داعى لحصـر مصاديقها فى بعد واحد، خصوصا و إن «لحافظون» ذكرت بصيغة مطلقة و ليس هناك ما يخصصها.

و الصـحيح، وفقا لظاهر الآية المذكورة، أنّ اللّه تعالى وعد بحفظ القرآن من جميع النواحى: من التحريف، من التلف و الضـياع، و من سفسطات الأعداء المزاجية و وساوسهم الشيطانية.

أمّا ما احتمله بعض قدماء المفسّـرين بأنّه الحفظ على شـخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتبار أن ضمير «له» فى الآية يعود إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بدلالة إطلاق لفظة «الذكر» على شـخص النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بعض الآيات ۷]، فهو احتمال يتعارض مع سياق الآيات السابقة التى عنت ب «الذكر» «القرآن»، بالإضافة إلى إشارة الآية المقبلة لهذا المعنى.

بحث

فى عدم تحريف القرآن:

المشـهور بين أوساط جلّ علماء المسـلمين شـيعة و سـنة، أنّ القرآن لم يتعرض لأى نوع من التحريف، و أن الـذى بين أيـدينا هو عين القرآن الـذى نزل على صـدر الحبيب محمّـد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم. فلا زيادة أو نقصان، حتى و لو بكلمـة واحـدة، أو قل بحرف واحد.

و من جملة من صرح بهذا من العلماء الأعلام الشيعة (من المتقدمين و المتأخرين) تغمّدهم اللّه برحمته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱

۱- الشّيخ الطوسى المعروف بشيخ الطائفة (۴۶۰ ه- ق)، و له بحث صريح و قاطع بهذا الشأن فى أوّل تفسيره المعروف ب (التبيان).

۲- الشريف المرتضى، و يعتبر من كبار علماء الإمامية فى القرن الرّابع الهجرى.

۳- الشّـيخ الصـدوق محمد بن على بن بابويه المعروف برئيس المحدثين، حيث يقول فى بيان عقائد الإمامية: (إن اعتقادنا بالقرآن أنّه سالم من أى تحريف).

۴- المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسى، و له فى مقدمة تفسيره بحث مفصل بهذا الشأن.

۵- المرحوم الشّيخ محمد حسين كاشف الغطاء، من كبار العلماء المتأخرين.

۶- المرحوم المحقق اليزدى، و قد نقل فى كتابه (العروة الوثقى) مسألة عدم تحريف القرآن عن جمهور مجتهدى الشيعة.

۷- بالإضافة إلى جمع من العلماء الآخرين، أمثال: الشّيخ المفيد، الشّيخ البهائى، القاضى نور اللّه مع سائر محققى الشيعة.

و قد نحی هذا المنحی علماء و محققوا أهل السنة.

و قد نقل عن بعض محدّثی الشیعة و بعض أهل السنة، اعتقادهم بوقوع التحریف فی القرآن. إلّا أن کبار علماء الفریقین بأدلتهم القاطعة قد أبطلوا زعم هؤلاء و أدخلوه فی حیز النسیان.

و أفاد العلّامة الشریف المرتضی فی جواب (المسائل الطرابلسیات) «إن صحة نقل القرآن واضحة و بیّنة کمعرفتنا لعواصم العالم و الحوادث المهمّة فی التأریخ و الکتب الشهیرة» فهل هناک من یشک فی وجود مدن کمکّة و المدینة أو لندن و باریس و إن لم یزرها؟! أو هل هناک من ینکر وقوع الهجوم المغولی علی الشرق، الثورة الفرنسیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲

الحرب العالمیة الأولی أو الثّانیة؟! فإنّ لم یکن هناک من یشک أو ینکر، بسبب تواتر ذکر وجودها، فکذلک آیات القرآن الکریم، و هذا ما سیأتی بیانه إن شاء اللّه.

و إذا کان بعض المغرضین قد نسبوا للشیعة اعتقادهم بتحریف القرآن، فغایتهم إشعال فتیل التفرقة و الفتنة بین الشیعة و السنة، و قد فندت کتب کبار علماء الشیعة هذه الأباطیل الفاقدة لأی دلیل منطقی.

و لا نستغرب من الفخر الرازی قوله فی ذیل الآیة مورد البحث: (إنّ الآیة:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ دلیل علی بطلان قول الشیعة فی حصول التغییر و الزیادة و النقصان فی القرآن)، ممّا نعلمه عن هذا الرجل من حساسیة و تعصب تجاه الشیعة.

و هنا .. لا بدّ من کلمة: إن کان یقصد بالشیعة کبار علمائهم و محققیهم، فلیس هناک من یعتقد بذلک.

و إن کان یقصد بوجود قول ضعیف بهذا الشأن بین أوساط الشیعة، فإنّ نظیره موجود فی أوساط السنة أیضا، و هو ما لم یعتن به من قبل الطرفین.

و قد تطرق لذلک بوضوح المحقق الشّیخ جعفر المعروف بکاشف الغطاء فی کتابه (کشف الغطاء) بقوله: لا ریب أنّه (أی القرآن) محفوظ من النقصان بحفظ الملک الدیان، کما دل علیه صریح القرآن، و إجماع العلماء فی کل زمان، و لا عبرة بنادر[۸].

إنّ التأریخ الإسلامی مزدحم بالتهم الباطلة المتغذیة من ثدی العصبیة المقیتة، مع علمنا القاطع بأنّ أعداء الإسلام یقفون وراء حیاکة و نشر هذه التهم لإیقاع البغضاء بین أبناء الدین الواحد، و أنّ غایة ما یسعون إلیه أن یروا المسلمین أمّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳

مفککة غیر قادرة علی القیام بمهامها الوحدویة التوحیدیة.

تری کاتبا معروفا (من أهل الحجاز) فی عرض ذمّه للشیعة من خلال کتابه (الصراع) یقول: (و الشیعة هم أبدا أعداء المساجد)[۹].

و الحال لو أجرینا إحصاء لعدد المساجد فی شوارع و أسواق و أزقة المدن الشیعیة لأخذ منّا الوقت الطویل لکثرتها، لدرجة أنّ بعضا من الشیعة بات یشکل علی کثرة المساجد فی المنطقة الواحدة و یری لو یلتفت المحسنون لدور الأیتام و المستشفیات الخیریة و ما شاکلها، بدلا من بنایة المساجد لکفایة الموجود و مع هذا تری کاتبا معروفا یتحدث بصراحة عن أمر یدعو إلی الضحک.

و علیه فلا ینبغی الاستغراب لما افتراه الفخر الرازی.

أدلة عدم تحریف القرآن:

۱- أدلة عدم تحریف القرآن کثیرة- فبالإضافة الی الآیة محل البحث و آیات أخر- کیفیة تعامل الناس مع هذا الکتاب السماوی العظیم عبّر التأریخ.

و قبل البداء ینبغی التنویه بأنّ من احتمل التحریف فی القرآن، إنّما أراد بذلک حصول النقص فیه، و لم نر من احتمل الزیادة فی القرآن.

و نظرة فاحصة إلی تاریخ حیاة المسلمین نری من خلالها أنّهم کانوا یعایشون القرآن فی کافة مرافق حیاتهم، فهو القانون و الدستور الحاکم، و نظام الدولة، و هو الکتاب المقدس السماوی و رمز العبادة .. و بعد هذا کله هل یحتمل أن تطرأ علیه الزیادة أو النقصان؟! یحدثنا التأریخ بأنّ القرآن ما کان لیفارق الإنسان المسلم فی: صلاته، المسجد، البیت، میدان الحرب عند مواجهة الأعداء، بل إنّ المسلمین کانوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴

یجعلون تعلیم القرآن مهورا للنساء. فکان للقرآن الحضور الفاعل فی کل صغیرة و کبیرة من شؤون المسلمین، حتی أن الطفل ینمو علی هدیه.

و مرّة أخری نقول: أو یعقل أن یصاب هذا الکتاب السماوی المقدس بسهام التحریف و التغییر و هو محفوظ فی قلوب و سلوک المسلمین علی مرّ التأریخ؟! لقد تمّ جمع القرآن- کما ذکرنا فی المجلد الأوّل من هذا التّفسیر- فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و اهتمّ به المسلمون الأوائل أقصی درجات الاهتمام، فی مجال تعلم أحکامه، و حفظه، لدرجة أصبحت فیها مکانة الفرد الاجتماعیة تقاس بقدر حفظه من سور القرآن الکریم، حتی أصبح عدد حفاظ القرآن من الکثرة بحیث أنّه فی إحدی المعارک قتل فیها أربعة آلاف منهم ۱۰].

و کذلک الحال فی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حینما استشهد سبعون رجلا من الصحابة الذین حفظوا القرآن فی معرکة بئر معونة- و هی إحدی المناطق المجاورة للمدینة-[۱۱].

من هذین المثلین (و أمثالهما کثیر) یتّضح لنا أن حفظة و قراء و معلمی القرآن الکریم من الکثیرة بحیث یستشهد منهم فی معرکة واحدة ذلک العدد الضخم.

و هذا طبیعی جدا إذا ما نظرنا إلی طریقة تعامل المسلمین مع القرآن، باعتباره القانون الحاکم النافذ، و الکتاب المقدس الذی لا یوجد سواه.

لم یکن القرآن الکریم کتابا مهملا فی زوایا البیوت و المساجد یعلوه غبار النسیان حتی تسنح الفرصة لمن یرید أن یزید فیه أو ینقص، بل إنّ مسألة حفظه کانت و ما زالت عبادة عظیمة و سنّة متبعة تمتد جذورها فی عمق التاریخ الإسلامی.

و بعد أن ظهرت الطباعة کان القرآن الکریم أکثر الکتب من حیث الطبع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵

و الانتشار بین صفوف المسلمین فی کافة بلدانهم، و لا تخلو مدینة إسلامیة من حفاظ للقرآن. و الأمثلة أکثر من أن تقال، ففی البلدان الإسلامیة هناک مدارس خاصة لقراءة و حفظ القرآن و ذکر أحد المطلعین: أنّه یوجد فی بعض بلاد الإسلامیة ما یقرب من ملیون و نصف الملیون حافظ للقرآن.

و بناء علی ما ذکره فرید و جدی فی کتابه (دائرة المعارف): إن من شروط امتحان القبول فی کلیة الأزهر فی مصر، هو حفظ القرآن الکریم کاملا و درجة النجاح فی ذلک (۲۰) من (۴۰) کحد أدنی.

خلاصة القول: إنّ حفظ القرآن منذ عصر ظهور الإسلام أصبح سنّة حیة فی حیاة المسلمین، من خلال ما أمر و أکّد علیه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (و هو ما تعضده الرّوایات الکثیرة)، و إلی هنا نعاود طرح السؤال: هل هناک مجال لاحتمال وجود التحریف فی القرآن؟! ۲- بالإضافة إلی ما تقدم تواجهنا مسألة (کتّاب الوحی) و هم الأشخاص الذین أو کل إلیهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مهمّة تسجیل الآیات القرآنیة بعد نزولها، و یذکر أن عددهم کان بین ۱۴- ۴۳ رجلا.

یقول أبو عبد اللّه الزنجانی فی کتابه القّیم (تأریخ القرآن): (کان للنبی کتّاب یکتبون الوحی و هم ثلاثة و أربعون، أشهرهم الخلفاء الأربعة، و کان ألزمهم للنّبی زید بن ثابت و علی بن أبی طالب علیه السّلام) فکیف لکتاب له کل هؤلاء الکتّاب أن تمتد إلیه ید التحریف؟! ۳- دعوة الأئمّة المعصومین علیهم السلام للعمل بالقرآن الموجود بین أیدینا. و لو تفحصنا کلامهم علیهم السلام لوجدنا أنّهم قد دعوا الناس لتلاوة و دراسة القرآن و العمل علی هدیه منذ صدر الإسلام و علی امتداد وجودهم المبارک بین الناس، و هذا دلیل علی أن الأیادی المفسدة ما استطاعت النیل من هذا الکتاب السماوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶

و خطب الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة خیر شاهد ینطق بهذا الادعاء: فنقرأ

فی الخطبة (۱۳۳): «و کتاب اللّه بین أظهرکم، ناطق لا یعیا لسانه، و بیت لا تهدم أرکانه، و عز لا تهزم أعوانه».

و

یقول فی الخطبة (۱۷۶): «و اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذی لا یغش، و الهادی الذی لا یضل ...».

و نطالع

قوله علیه السّلام فی نفس الخطبة المذکورة: «و ما جالس هذا القرآن أحد إلّا قام عنه بزیادة أو نقصان: زیادة فی هدی، أو نقصان من عمی».

و نتابع ذات الخطبة حتی نصل

لقوله علیه السّلام: «و إنّ اللّه سبحانه لم یعط أحدا بمثل هذا القرآن، فإنّه حبل اللّه المتین، و سببه الأمین».

و نقرأ

فی الخطبة (۱۹۸): «ثمّ أنزل علیه الکتاب نورا لا تطفأ مصابیحه، و سراجا لا یخبو توقده، ...، و منهاجا لا یضل نهجه، ...، و فرقانا لا یخمد برهانه»

و أمثال ذلک کثیر فی کلام علی و الأئمّة علیهم السّلام.

و لو فرضنا أنّ ید التحریف قد طالت کتاب السماء، فهل من الممکن أن یدعو إلیه الأئمّة علیهم السلام بهذه القوة؟ و یصفونه بأنّه: صراط هدایة، وسیلة التفریق بین الحق و الباطل، النّور الذی لا یطفأ أبدا، مصباح هدایة لا یخبو، حبل اللّه المتین و العروة الوثقی.

۴- و إذا ما سلمنا ب (خاتمیة) النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ الدین الإسلامی هو خاتم الأدیان الإلهیة، و إنّ رسالة القرآن باقیة إلی یوم القیامة.

فهل یصدق أنّ اللّه سبحانه سوف لا یحفظ دلیل دینه و حجّة نبیّه الخاتم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم؟ و هل یجتمع تحریف القرآن مع بقاء الإسلام عبر آلاف السنین و دوامه حتی نهایة العالم؟! ۵- و هناک دلیل آخر علی أصالة القرآن و حفظه من أیة شائبة نتلمسه فی روایات الثقلین المرویة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بطرق متعددة معتبرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّی تارک فیکم الثقلین، کتاب اللّه و عترتی، ما إن تمسکتم بهما لن تضلوا بعدی أبدا»[۱۲].

فهل یصح هذا التعبیر عن کتاب تطاله ید التحریف؟! ۶- بالإضافة إلی کل ذلک فالقرآن طرح علی المسلمین باعتباره الحد الفاصل المأمون الجانب فی تمییز الأحادیث الصادقة من الکاذبة، و تشیر کثیر من الرّوایات الواردة عن أهل البیت علیهم السلام إلی أن صدق أو کذب أی حدیث یتبیّن من خلال عرضه علی القرآن، فما وافق القرآن فهو حق و ما خالفه فهو باطل.

فلو افترضنا أنّ تحریفا قد طرأ علی القرآن (و لو بصورة نقصان) فهل یمکن اعتباره فاصلا بین الحق و الباطل، أو معیارا دقیقا لتمییز

الحديث الصحيح من السقيم؟!

روايات التّحريف:

يستند القائلون بتحريف القرآن مرّة على روايات قد أسيء فهمها نتيجة عدم الوصول لما كانت ترمز إليه من معنى، و أخرى على روايات ضعيفة السند و يمكن تقسيم روايات التحريف إلى ثلاثة أقسام:

۱- الرّوايات القائلة: إنّ عليّا عليه السّلام شرع بجمع القرآن بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عند ما تمّ جمعه عرضه على جمع من الصحابة ممن تربعوا فى مقام الخلافة فلم يقبلوه منه،

فقال على عليه السّلام: إنّكم لن تروه بعد الآن أبدا.

و بنظرة فاحصة إلى تلك الرّوايات نصل إلى أن القرآن الذى كان عند على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸

عليه السّلام لا يختلف مع بقية النسخ من حيث المضمون، سوى اختلافه من حيث العرض و الترتيب فى ثلاثة أمور:

الأوّل: أن آياته و سوره كانت مرتبة حسب تأريخ النّزول.

الثّانى: تثبيت سبب النّزول لكل آية و سورة.

الثّالث: تضمن تفسير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للآيات بالإضافة إلى ذكر الناسخ و المنسوخ.

فالقرآن الذى جمعه أمير المؤمنين عليه السّلام ليس إلّا عين القرآن الموجود سوى أنّه أضاف إليه: (التّفسير) و (التأويل) و (سبب النّزول) و (تبيان الناسخ و المنسوخ) و ما شابه ذلك. و بعبارة أخرى، و كان قرآنا مع تفسيره الأصيل.

كما أنّه

ورد فى كتاب سليم بن قيس: (إنّ أمير المؤمنين عليه السّلام لما رأى غدر الصحابة و قلّة وفائهم لزم بيته، و أقبل على القرآن، فلما جمعه كله، و كتابه بيده، و تأويله الناسخ و المنسوخ، بعث إليه أن أخرج فبايع، فبعث إليه إنى مشغول فقد آليت على نفسى لا أرتدى بردائى إلا لصلاة حتى أؤلف القرآن و أجمعه)[۱۳].

۲- الرّوايات المشيرة إلى «التحريف المعنوى» للقرآن.

إنّ التحريف- كما نعلم- على ثلاثة ضروب: لفظى، معنوى، و عملى.

فالتحريف اللفظى: هو تغيير ألفاظ و عبارات القرآن و حصول الزيادة و النقصان فيها. (و هذا ما نرفضه بشدة- و جميع محققى الإسلام- و ننكره إنكارا قاطعا).

و التحريف المعنوى: هو تفسير الآية خلافا لمفهومها و معناها الحقيقى.

أمّا التحريف العملى: فهو العمل على خلاف المقتضى.

ففى تفسير على بن إبراهيم عن أبى ذر رضى اللّه عنه أنّه قال: لما نزلت هذه الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ترد علىّ أمتى يوم القيامة على خمس رايات، فراية مع عجل هذه الأمة، فأسألهم: ما ذا فعلتم بالثقلين من بعدى؟ فيقولون: أمّا الأكبر فحرفناه و نبذناه وراء ظهورنا ...»[۱۴].

و واضح أن التحريف هنا يقصد به التحريف المعنوى للقرآن و نبذه وراء الظهور.

۳- الرّوايات المختلفة:

فقد سعى أعداء الدين و المنحرفون عن الصراط المستقيم، و تبعهم الجهلة، فى اختلاق بعض الرّوايات للحطّ من شرف القرآن و قدسيته، و منها الرّوايات التى رواها أحمد بن محمّد بن السيارى و البالغة (۱۸۸) رواية[۱۵]، و قد استدل العلّامة الشّيخ النّورى بكثير من هذه الرّوايات فى كتابه (فصل الخطاب).

و السيارى هذا مطعون عند كثير من علماء (علم الرجال) و يقولون عليه كان:

فاسد المذهب، لا يعتمد عليه، و ضعيف الحديث.

و على قول بعضهم: إنّه من أهل الغلو، منحرف، معروف بالتقول بالتناسخ، و كذاب، و يقول عنه الكشى (صاحب كتاب الرجال المعروف): إنّ الإمام الجواد عليه السّلام وصف ادعاءات السيارى فى رسالته بأنّها باطلة.

مع أنّ روايات التحريف غير مقتصرة على السيارى، إلّا أنّ أكثرها و أهمها تعود إليه.

و بين هذه الرّوايات المزيفة ما تضحك الثكلى، و ينكرها كل ذى لب لبيب، و على سبيل المثال ما جاء فى إحداها بخصوص الآية الثّالثة من سورة النساء وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتامى فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ أنّه: قد سقط بين شرطها و جزاءها ثلث القرآن!!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰

و قد ذكرنا فى تفسير الآية المذكورة، أن الشرط و الجزاء فى الآية مرتبطان ارتباطا تاما، و لم يسقط من بينهما و لو كلمة واحدة.

أضف إلى ذلك، أن ثلث القرآن ما يعادل أربعة عشر جزء منه تقريبا، فكيف يدعى هذا المدعى مع ما للقرآن من كتّاب وحى و حفاظ و قراء منذ عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هل يعقل أن يحصل ذلك دون أن يلتفت إليه أحد؟! و كأنّ هؤلاء لم يعيشوا و يعايشوا التاريخ بواقعيته و جلاءه، ألم يثبت التأريخ بأنّ الشىء الأساسى فى حياة المسلمين هو القرآن؟ أو لم يكن القرآن يتلى فى آناء الليل و أطراف النهار فى جميع البيوت و المساجد؟ إذن .. فكيف يحتمل إسقاط كلمة واحدة دون أن يلتفت إليه أحد، فضلا عن كون السقط ثلث القرآن؟! لا يسعنا إلّا أن نقول: إنّ كذبه بهذه المواصفات لدليل جلى على سذاجة واضعى مثل هذه الأحاديث.

و قد اعتمد الكثير من المتذرعين فى إثبات تحريف القرآن على كتاب (فصل الخطاب) المشار إليه آنفا.

و لا بدّ من الإشارة إلى غرض و غاية هذا الكتاب من خلال ما كتبه تلميذ المؤلف العلّامة الشيخ آغا بزرگ الطهرانى فى الجزء الأوّل من كتاب (مستدرك الوسائل)، حيث يذكر أنّه سمع من استاذه مرارا: إنّ ما فى كتاب فصل الخطاب لا يمثل عقيدتى الشخصية، إنّما ألفته للبحث و المناقشة، و أشرت فيه إلى عقيدتى فى عدم تحريف القرآن دون أن أصرح، و كان من الأفضل أن أسميه (فصل الخطاب فى عدم تحريف الكتاب).

ثمّ يقول المحدث الطهرانى: هذا ما سمعناه من قول شيخنا نفسه، و أمّا عمله فقد رأيناه يقيم وزنا لما ورد فى مضامين الأخبار، و يراها أخبار آحاد لا بدّ أن تضرب عرض الحائط، و لا أحد يستطيع نسبة التحريف إلى أستاذنا إلّا من هو غير عارف بعقيدته و مرامه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱

و أخيرا .. فالأيادى المغلولة لا يسعها فى هذا المجال إلّا أن تبذل كل جهودها للنيل من أصالة و عظمة و قدسية كتاب السماء عند المسلمين عن طريق بث الخرافات و الأباطيل.

و طالعتنا الصحف من مدّة ليست بالبعيدة بأنّ أياد إسرائيلية صهيونية قامت بطبع نسخة جديدة للقرآن غيروا فيها كثيرا من الآيات القرآنية، و كما هو معهود فقد انتبه علماء المسلمين بسرعة لهذه الدسيسة الخبيثة و جمعوا تلك النسخ، فباءت محاولتهم بالفشل و الخذلان.

وفات هؤلاء الأعداء من أصحاب القلوب الداكنة، أن نقطة واحدة لو غيّرت فى القرآن فسيعيدها إلى نصابها المفسّرون و الحفاظ و قراء هذا الكتاب العظيم يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ ۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۰ الى ۱۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (۱۰) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۱) كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۱۲) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (۱۴)
لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (۱۵)

التّفسير

العناد و التعصب:

تواسى الآيات قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قلوب المؤمنين لما كانوا يواجهونه من صعاب فى طريق دعوتهم، من خلال الإشارة إلى صراع الأنبياء السابقين مع أقوامهم الضالة و المتعصبة.

فتقول أوّلا: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ

و لكنّهم من العناد و التعصب لدرجة وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

ذلك الاستهزاء و تلك السخرية لاعتبارات عدّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳

- مرة، يريدون بالسخرية إسقاط شخصية النّبى كى لا يؤثر فى أوساط الفئة الواعية.
- و أخرى، يحاولون بالاستهزاء تغطية ضعفهم و عجزهم أمام المنطق القوى و الحجج الدامغة لرسل اللّه عزّ و جلّ.
- و تارة، يأخذهم الاستغراب لدعوات الأنبياء الثورية ضد طريقة حياتهم الموبوءة و تقاليدهم البالية، و لما كانوا مكيفين لها و مسترخين بين أجوائها، فيدفعهم جهلهم و تعصبهم الأعمى لما هو سائد، لأنّ يستهزءوا.
- و أخرى، محاولة تخدير وجدانهم السارح فى المتاهات كى لا يصحوا على حين غرّة فيعتنق الحق و ينهض بأعباء مسئوليته.
- و قد يكون الاستهزاء بسبب خطل مقياسهم و معيارهم للقدوة و القائد فما تعارفوا عليه فى مواصفات الزعيم أو القائد، أن يكون من الطبقة الثرية المرفهة، و قيمة الإنسان عندهم من خلال: لباسه الأنيق، مركبة الفاره، بيته الفخم، و حياته المحفوفة بالزخارف و إذا نهض بدعوة الحق إنسان فقير لا يمتلك من حطام الدنيا شيئا، فسيكون موضع سخريتهم!- و أخيرا، فقبولهم لدعوة الأنبياء عليهم السلام- حسب تصورهم- يستلزم تقويضا لكل شهواتهم الدنيوية، و تحميلهم وظائف جديدة لا يطيقونها، فليجؤون للاستهزاء لتبرير إعراضهم و انكارهم و إراحة ضمائرهم.

ثمّ يقول جلّ و علا: كَذلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ أى نوصل الآيات القرآنية الى اعماق وجدانهم و عقولهم.

و مع وضوح البلاغ و التأكيد و بيان المنطق الربانى و إظهار المعجزات، ترى المتعصبين المستهزئين لا يُؤْمِنُونَ بِهِ و هو ليس بجديد وَ قَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ

و يصل أمر الغارقين فى شهواتهم و المصرين فى عنادهم على الباطل إلى أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴

لا يؤمنون حتى وَ لَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ و مع ذلك لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ عجبا، أن يصل الإنسان لهذا الدرك من العناد و التعصب! إن الذنوب و الجهل و معاداة الحق تؤثر على الروح الطاهرة و الفطرة السليمة، فتحجبهما عن رؤية وجه الحقيقة الناصع، و تمنعهما من إدراك الحقائق، و إذا لم يتمكن الإنسان من رفع تلك الحجب و إزالة الموانع، فإنّ صورة الحق ستتلوّث فى نظره فينكر كل ما هو معقول و محسوس معا، و من الممكن تطهير الفطرة فى المراحل الأولى، و لكن إذا رسخت فى قلبه هذه الحالة و تجذرت و أمست «ملكة» و صفة أخلاقية، فلا يمكن إزالتها بسهولة، و عندها سوف لا تترك أقوى الأدلة العقلية و لا أوضح الأدلة الحسية أى تأثير فى قلبه.

ملاحظات

اشارة

۱- (شيع) جمع (شيعة)، و يطلق على المجموعة و الفرقة التى تمتلك نهجا مشتركا.

يقول الراغب الأصفهانى فى كتاب (المفردات)- باب شيع: الشياع الانتشار و التقوية، يقال شاع الخبر أى كثر و قوى، و شاع القوم انتشروا و كثروا، و شيعت النّار بالحطب قويتها، و الشيعة: من يتقوى بهم الإنسان.

أمّا العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) فيعتبر أنّ أصلها من المشايعة، و هى المتابعة، يقال شايع فلان فلانا على أمره أى تابعه عليه، و منه شيعة على عليه السّلام و هم الذين تابعوه على أمره و دانوا بإمامته، و

فى حديث أم سلمة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «شيعة على هم الفائزون يوم القيامة»

إشارة لهذا المعنى.

و على أية حال ... فالشياع بمعنى الانتشار و التقوية، أو المشايعة بمعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵

المتابعة، كلاهما دليل على وجود نوع من الاتحاد و الارتباط الفكرى و الدينى فى مفهوم (الشيعة) و (التشيع).

و إطلاق لفظ (شيع) على الأقوام السابقة يدل على أنّهم فى قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام كانوا متحدين فى توجههم و متآزرين متعاضدين فى عملهم.

فإن كان لأهل الضلال هذا الاتحاد و التنسيق أ فلا ينبغى لأتباع الحق أن يسيروا على نور هدية متكاتفين و متآزرين؟

۲- مرجع الضمير فى «نسلكه»:

من لطف البارى جلّ شأنه أن يوصل و يفهم آياته للمجرمين و المخالفين بطرق شتى، عسى أن تستقر فى قلوبهم، و لكنّ عدم صلاحية و لياقة المحل يكون سببا لخروجها من تلك الأجواف النتنة، فتبقى قلوبا غير متأثرة، شبيها بمرور الغذاء النافع فى معدة مريضة فلا تتقبله و تقذفه إلى الخارج. (و يستفاد هذا المعنى من (السلوك) المادة الأصلية لعبارة «نسلكه»).

و على هذا الأساس فضمير «نسلكه» يعود إلى «الذكر» أى القرآن كما ورد فى الآيات المتقدمة، و كذلك حال الضمير فى لا يُؤْمِنُونَ بِهِ يعود إليه أيضا، أى:

إنّهم مع كل ذلك لا يؤمنون بالذكر.

فنلحظ التوافق التام بين الضميرين بالضبط كما جاء فى سورة الشعراء فى الآيتين ۲۰۰ و ۲۰۱.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أن ضمير «نسلكه» يعود إلى الاستهزاء المذكور فى الآية المتقدمة لها، فيكون المعنى: إنّا ندخل الاستهزاء و السخرية فى قلوبهم نتيجة لذنوبهم و عنادهم.

و يكفينا لتضعيف هذا التّفسير أن نقول: إنّه يذهب بالتناسق بين الضميرين.

و نستفيد كذلك من عبارة «نسلكه» أنّ على المبلغ و المرشد أن لا يكتفى فى أداء وظيفته بإيصال صوته الى أسماع الناس، بل عليه أن يطرق كل الآفاق حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶

يوصل صوت الحق إلى القلوب ليقرّ فيها.

و بعبارة أخرى، ينبغى الاستفادة من جميع الوسائل ... السمعية و البصرية، البرامج العملية، الأدب- شعرا و قصة- و الفن الأصيل الهادف. لتكون كلمة الحق واضحة لذوى القلوب الواعية، و الحجة تامة على من ظلم و عاند.

-۳

سنّة الأولين:

تفيدنا الآية الآنفة الذكر بأنّ أساليب أهل الضلال الرامية لتخدير الناس و محاولة تفريقهم و إبعادهم عن أولياء اللّه لا تختص بزمان و مكان معينين، بل هى ممارسة موجودة منذ القدم و باقية ما بقى صراع الحق ضد الباطل على الأرض و لهذا لا ينبغى أن نستوحش من ذلك و نتراجع امام المشاكل و العراقيل التى يدبرها الأعداء.

و لا نسمح لليأس من أن يدخل قلوبنا، و لا لأساليب الأعداء من أن تفقدنا الثّقة بالنفس فذكر سنن الأولين فى القرآن ما هى إلّا مواساة و تسلية مؤثرة لقلوب دعاة الإيمان.

و إذا ما تصورنا يوما أن نشر دعوة الحق و رفع راية العدل و الهداية لا يواجهان برد فعل الأعداء، فإنّنا فى خطأ كبير، و أقل ما فيه أننا سنصاب بحالة اليأس المهلكة، و ما علينا إلّا أن نستوعب مسير خط الأنبياء عليهم السّلام فى مواجهاتهم لأعداء اللّه، و أن نجسد ذلك الإستيعاب فى سلوكنا، بل و علينا أن نزداد فى كل يوم عمقا فى دعوتنا.

۴- تفسير فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ

يظهر هذا المقطع القرآنى- بوضوح- تصويرا لحال المعاندين، فلو أنّ بابا من السماء فتحت لهم و ظلوا يصعدون و ينزلون من خلاله، لقالوا: سحرت عيوننا و حجبت عن رؤية الواقع! (يبدو أنّ المراد من السماء هنا: الفضاء الخارجى الذى لا يمكن النفوذ منه بسهولة).

علما بأنّ كلمة «ظلوا» تستعمل لاستمرار العمل فى النهار و تقابلها كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷

(باتوا) من البيتوتة اللّيل.

و يميل إلى هذا المعنى غالب المفسّرين و لكن العجيب أن بعض المفسّرين احتملوا عودة ضمير «ظلّوا» إلى الملائكة، فيكون المعنى: أنّهم لو رأوا الملائكة تصعد و تنزل من السماء بأمّ أعينهم لما آمنوا أيضا.

و لكن إضافة لعدم انسجام هذا الاحتمال مع تسلسل الآيات السابقة و اللاحقة التى تتحدث عن المشركين، أن ذكر الملائكة إنّما ورد قبل ست آيات (فعودة الضمير إلى الملائكة بعيد جدّا) فإنّ هذا المعنى يقلل من بلاغة العبارة القرآنية، لأنّ القرآن يريد أن يقول أنّ المشركين لا يستسلمون للحق حتى لو صعدوا و هبطوا من السماء مرارا فى ساعات النهار.

۵- معنى عبارة سُكِّرَتْ أَبْصارُنا.

جمله «سكّرت» من مادة (سكر) أى: التغطية.

و يراد بها: أنّ الكافرين المعاندين يقولون: قد غطيت عيوننا عن رؤية الواقعيات، و إذا رأينا أنفسنا نصعد إلى السماء و ننزل إلى الأرض سنحكم على ذلك بأنّه و هم و خيال، كما فى ما يسمّى بالشعوذة التى يستفيد صاحبها من خفة حركة يده فيخدع أنظار الحاضرين بها.

و يضيفون القول: بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ فبالرغم من أنّ الشعوذة هى لون من ألوان السحر، لكنّهم ربما يشيرون إلى ما هو أشد من الشعوذة التى تختص بخداع البصر فقط، ألا و هو السحر الكامل الذى يغطى على كل وجود الإنسان و يفقد معه الإحساس بكل ما هو واقع! فلو أغلقنا عين انسان ما فإنّه لا يفقد الشعور فيما لو أنّه يصعّد به إلى الأعلى أو ينزّل إلى الأسفل.

فمعنى الآية: لو أخذنا المشركين إلى أقطار السماوات لقالوا أوّلا: إنّنا أصبنا بالشعوذة، و بعد أن يجدوا أنّ هذه العملية لا تتوقف على العين فقط فسيقولون حينها: إنّنا مسحورون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ (۱۶) وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (۱۷) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ (۱۸)

التّفسير

تشير الآيات إلى جانب من عالم المخلوقات للدلالة على معرفة توحيد اللّه، و بسياقها جاءت تكملة لبحثى القرآن و النّبوة المذكورين فى الآيات السابقة.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً.

«البروج»: جمع «برج» و يعنى «الظهور»، و لهذا يطلق على البيت الذى يبنى فى سور المدينة أو على سور الحصن الذى يعتصم به المقاتلون، و ذلك لما له من بروز و ارتفاع خاص. و يقال كذلك (تبرجت) للمرأة التى تظهر زينتها.

و البروج السماوية: هى منازل الشمس و القمر. و بعبارة أقرب إلى الذهن: لو نظرنا إلى الشمس و القمر بإمعان فسنراها فى كل فصل من فصول السنة و لفترة زمنية معينة يقابلان أحد الصور الفلكية (الصور الفلكية: مجموعة نجوم على هيئة خاصة) فنقول: إنّ الشمس فى برج الحمل ۱۷]- مثلا- أو الثور أو الميزان أو العقرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹

أو القوس.

و يعتبر وجود الأبراج السماوية، و كذلك النظام الدقيق فى حركة منازل الشمس و القمر ضمن هذه البروج (و هو التقويم المجسّم لعالم وجودنا)، يعتبر من الأدلة الواضحة على علم و قدرة الخالق جل و علا.

إنّ هذا النظام العجيب بما يحمل من دقة فى حساب تشكيله يكشف لنا وجود هدف لخلق هذا العالم، و كلما أمعنا النظر فى خلق اللّه ازددنا مقربة من معرفة الخالق الجليل.

ثمّ يضيف: زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ ۱۸].

انظروا لإحدى الليالى المظلمة ذات النجوم الكثيرة فسترون مجموعات نجمية ائتلفت فيما بينها فى كل زاوية من زوايا السماء، و كأنّها حلقات تنظيمية تتجاذب أطراف الحديث، و ترى تلك كأنّها ترمقنا شابحة، و أخرى تغمزنا باستمرار و كأنّها تدعونا إليها، و يخال من بعضها و كأنّها تقترب منّا لشدة تلألئها، و تلك التى تنادينا بخافت ضوئها و ينطق لسان حالها من أعماق السماء و جوفها المتباعد .. إنّنى هنا! هذه اللوحة الشاعرية الرائعة ربّما ألفها البعض على أنّها عادية نتيجة لتكرار المشاهدة، و مع ذلك فلها جذب خاص و هى جديرة بالتأمل.

و حينما يبزغ القمر (و بأشكاله المختلفة) وسط تلك المجاميع، يضيف إلى سحرها و جمالها رونقا جديدا.

و تراها خجلة، لا- تقوى على أن ترفع رأسها إلّا بعد غروب الشمس، فتتلألأ الواحدة تلو الأخرى، كأنّهن يخرجن على استحياء من خلف ستار .. و ما إن يحل الطلوع حتى نراها تفر فرارا لتختفى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰

و مضافا الى ذلك فإنّ لها من الجمالية العلمية و الأسرار المخفية ما لا يصدق، و يكفيك لجماليتها أنّها جعلت أنظار العلماء تشخص إليها منذ آلاف السنين حتى زماننا الذى ما توصل العلماء إلى صناعة المرقبات (التلسكوبات)، إلّا للوصول لاكتشاف أسرار جديدة عن هذا العالم الدائب الملتهب رغم صمته.

و يضيف فى الآية التالية: وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ

الآية المذكورة، من الآيات التى أشبعت شرحا و تفسيرا من قبل المفسّرين، و كلّ منهم قد نحى منحى خاصا فى فهم معناها.

و قد ورد ذات المضمون فى سورة الصافات (الآيتان ۶ و ۷) و كذلك فى سورة الجن الآية (۹).

و ربّما ارتسمت فى أذهان البعض أسئلة لم يسعفوا بالإجابة عنها، فكان لزاما علينا فى بادئ الأمر أن نلقى نظرة إلى آراء كبار المفسّرين فيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده، و من ثمّ نعرج إلى ما نراه راجحا من هذه الآراء:

۱- بعض المفسّرين و منهم صاحب تفسير (فى ظلال القرآن) قد اكتفوا بالتّفسير الإجمالى و لم يغوصوا إلى كثير من التفاصيل، و لم يعيروا أهمية لكثير من المسائل على اعتبار أنّها حقائق فوق البشر و لا يمكننا إدراكها، و ما علينا إلّا أن نهتم بالآيات التى ترتب الآثار على حياتنا العملية و تنظم لنا السلوك و التوجه الى الحق.

فكتب يقول: و ما الشيطان؟ و كيف يحاول استراق السمع؟ و أى شىء يسترق؟ ..

كل هذا غيب من غيب اللّه لا سبيل لنا إليه إلّا من خلال النصوص، و لا جدوى فى الخوض فيه، لأنّه لا يزيد شيئا فى العقيدة و لا يثمر إلّا انشغال العقل البشرى بما ليس من اختصاصه، و بما يعطله عن عمله الحقيقى فى هذه الحياة، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱

لا يضيف إليه إدراكا جديدا لحقيقة جديدة[۱۹].

و ينبغى التنويه هنا إلى أنّ القرآن كتاب سماوى جاء لتوجيه الإنسان إلى الحق، و هو كتاب حياة و تربية، فإن كان فيه ما لا يخص الحياة الإنسانية فمن الأولى أن لا يطرح أصلا، و هذا خلاف التخطيط و المنهج الرّبانى، و كلّ ما فيه دروس لنا و منهج قويم للحياة.

و التسليم بوجود حقائق غامضة فى القرآن أمر مرفوض .. أو ليس القرآن كتاب نور، و كتابا مبينا؟! أو لم ينزل كى يفهمه الناس و يسيروا بهديه؟! فكيف إذن .. لا يهمنا فهم بعض آياته؟! و بكلمة: فإنّ هذا التّفسير مرفوض.

۲- يصرّ جمع لا بأس به من المفسّرين (و خصوصا القدماء منهم) على الوقوف عند المعنى الظاهرى لهذه الآيات.

فالسماء هى هذه السماء، و الشهاب هو ما نراه و نسميه شهابا (أى الكرات الصغيرة التى تسبح فى الفضاء، و تخترق بين الحين و الآخر جاذبية الأرض فتنطلق نحوها بسرعة فتحترق نتيجة لاحتكاكها بالهواء المسبب لزيادة حرارتها).

و الشیطان هو ذلک الموجود الخبیث المتمرد الذی یحاول أن یخترق أعماق السماوات لیطلع علی أخبار ذلک العالم لیوصل تلک الأخبار إلی أولیائه الأشرار علی الأرض من خلال استراقه السمع، و لکنّه یمنع من الوصول إلی هدفه برمیه بالشهب ۲۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲

۳- و ذهب جمع من المفسّرین مثل العلّامة الطّباطبائی فی (تفسیر المیزان) و الطنطاوی فی تفسیر (الجواهر) إلی حمل هذه الآیات علی التشبیه و الکنایة و ضرب الأمثال، أو ما یسمّی ب (البیان الرمزی) ثمّ شرحوا ذلک بصور عدّة:

ألف: نقرأ فی تفسیر المیزان: (أورد المفسّرون أنواعا من التوجیه لتصویر استراق السمع من الشیاطین و رمیهم بالشهب، و هی مبینة علی ما سبق إلی الذهن من ظاهر الآیات و الأخبار، إنّ هناک أفلاکا محیطة بالأرض تسکنها جماعات من الملائکة و لها أبواب لا یلج فیها شیء إلّا منها، و إنّ فی السماء الأولی جمعا من الملائکة بأیدیهم الشهب یرصدون المسترقین للسمع من الشیاطین فیقذفونهم بالشهب.

و قد اتّضح الیوم اتضاح عیان بطلان هذه الآراء.

و یحتمل- و اللّه العالم- أنّ هذه البیانات فی کلامه تعالی من قبیل الأمثال المضروبة تصور بها الحقائق الخارجة عن الحس فی صورة المحسوس لتقریبها من الحس، و هو القائل عزّ و جلّ فی سورة العنکبوت (۴۳): وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ و هو کثیر فی کلامه تعالی و منه العرش و الکرسی و اللوح و الکتاب.

و علی هذا یکون المراد من السماء التی تسکنها الملائکة عالما ملکوتیا ذا أفق أعلی، نسبته إلی هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلی الأرض، و المراد لاقتراب الشیاطین من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائکة للاطلاع علی أسرار الخلقة و الحوادث المستقبلة و رمیهم بما لا یطیقونه من نور الملکوت ۲۱].

ب- و الطنطاوی فی تفسیره المعروف، هکذا یری: (إنّ العلماء المحتالین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳

المرائین الذین یتبعهم عوام الناس دون أن تکون لهم الأهلیة لأن یطلعوا علی عجائب السماوات و بدائع العالم العلوی و أجرامه غیر المحدودة، و ما یحکمها من نظم و حساب دقیق، فإنّ اللّه تعالی یمنع عنهم هذا العلم و یجعل هذه السماء المليئة بالنجوم الوضاءة بکل أسرارها فی اختیار من له عقل و نباهة و إخلاص و إیمان، و من الطبیعی أن یمنع هذا الصنف من العلماء من النفوذ فی أسرار هذه السماء، فکل شیطان یطرد عن الحضرة الإلهیة سواء کان من البشر أو من غیرهم، و لیس له حق الوصول إلی هذه الحقائق، و متی ما اقترب منها طرد عنها، فیمکن أن یعیش هکذا أشخاص سنوات کثیرة ثمّ یموتون و لکنّهم لا یدرکون هذه الأسرار أبدا، لهم أبصار ینظرون بها و لکن لا تستطیع رؤیة هذه الحقائق، ألیس العلم لا یناله إلّا عشاقه و لا یدرک جماله و لا ینظر إلیه إلّا عرفاؤه ۲۲]؟! و یقول فی مکان آخر: ما المانع أن تکون هذه التعبیرات کنایة، فیکون المنع الحسی رمزا للمنع العقلی، و الکنایة من أجمل أنواع البلاغة، ألّا تری أن کثیرا من الناس حولک محبوسون فی هذه الأرض، غائبة أبصارهم، لا یسمعون إلی الملأ الأعلی و لا یفهمون رموز هذه الدنیا و عجائبها و قد قذفوا من کل جانب، مطرودین حیث طردتهم شهواتهم و عداواتهم و کبریاؤهم و حروبهم و طمعهم و شرهم عن تلک المعانی العالیة[۲۳]، و إن أصیب أحد بهذه الأهواء یوما بسبب التلوثات التی تملأ قلبه و روحه فإنّه سیطرد أیضا.

ج- و له کلام فی مکان آخر، خلاصته: تبقی قائمة بین أرواح البشر المنتقلة إلی عالم البرزخ مع الأرواح التی ما زالت مع البشر فی الحیاة الدنیا، و إذا ما توفر التشابه و السنخیة فیما بینها فیمکن و الحال هذه إحضارها و التکلم معها فتطلعها علی أمور واقعة و دقیقة جدّا، و لا تتمکن من أن تعطی الصورة الحقیقیة لبعض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴

الأمور، لأنها لا تنقل بدقة إلا ما هو ضمن عالمها المحدود، و لا یمکنها أن تصل إلی عالم أعلی منها، فکما أنّ الأسماک لا تتمکن

من اختراق عالمها المائى، كذلك هذه الأرواح فإنّها لا تقوى على الخروج لأكثر من حدود عالمها.

د- و قال بعض آخر: أظهرت الاكتشافات الأخيرة وجود أشعة قوية تنبعث باستمرار من الفضاء البعيد، و يمكن استلامها على الأرض بوضوح بواسطة أجهزة استقبال خاصة، و إنّ مصدر هذه الأمواج لا زال مجهولا، إلّا أن بعض العلماء يحتملون وجود كائنات حية كثيرة تعيش على الأجرام السماوية البعيدة و ربّما كانت متفوقة علينا مدنيا فيرسلون هذه الأمواج ليخبرونا عن وجودهم و بعض أخبارهم، و فى تلك الأخبار مسائل جديدة علينا، و لكنّ الجن تسعى للاستفادة من تلك المسائل فتطرد بتلك الأشعة القوية المقتدرة على أن لا تصل لفهم ما أرسل إلى أهل الأرض ۲۴].

كانت هذه آراء المفسّرين و العلماء و أقوالهم المختلفة.

نتيجة البحث:

طال بنا البحث فى تفسير الآيات الآنفة الذكر، و قبل الخروج بمحصلة البحث لا بدّ من ذكر بعض الملاحظات:

۱- أشار القرآن الكريم بكلمة «السماء» إلى نفس هذه السماء التى يتبادر الذهن إليها تارة، و إلى السمو المعنوى و المقام العلوى تارة أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآية (۴۰) من سورة الأعراف إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ.

فمن الممكن حمل معنى السماء هنا على الكناية عن مقام القرب من اللّه عزّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵

و جلّ، كما نقرأ فى الآية العاشرة من سورة فاطر إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

و كما هو بيّن أن كلا من الحكم الطيب و العمل الصالح ليسا من الأشياء التى يقال عنها ذلك، بل المراد هو الارتفاع إلى مقام القرب الإلهى و التشرف بالسمو و الرفعة المعنوية.

و المقصود من تعبير «أنزل» و «نزل» فى آيات القرآن هو النّزول من الساحة الإلهية المقدسة على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قرأنا فى تفسير الآية (۲۴) من سورة إبراهيم أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ إنّ أصل الشجرة الطيبة المشار إليها فى الآية هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الفرع على عليه السّلام (و الفرع هنا هو الأصل الثانوى الذى يرتفع فى السماء) و الأئمّة عليهم السلام هم الفروع الأصغر[۲۵].

و كذلك ما نقرؤه

فى أحد الأحاديث: «كذلك الكافرون لا تصعد أعمالهم إلى السماء.

لا ريب أنّ «السماء» المستعملة هنا ليست السماء المشاهدة.

نستنتج ممّا سبق أنّ «السماء» قد استعملت بمفهوميها المادى و المعنوى أو الحقيقى و المجازى.

۲- و «النجوم» كذلك، بمفهومها المادى .. هذه الأجرام السماوية التى تشاهد فى السماء. و مفهومها المعنوى .. أولئك العلماء و الأشخاص الذين ينيرون درب المجتمعات البشرية.

فكما أنّ سالك الصحراء و عابر البحر يستهديان بالنجوم و الليالى الحالكة الداكنة، فكذلك المجتمعات البشرية، فإنّها تسلك الطريق السليمة لترشيد حياتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶

و نيل سعادتها بنور أولئك المؤمنين الواعين من العلماء و الصالحين.

و

فى الحديث المعروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «مثل أصحابى فيكم كمثل النجوم بأيّها اقتديتم اهتديتم»[۲۶]

و هو إشارة جلية لهذا المعنى.

كما نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل الآية وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ[۲۷] ..

إنّ الإمام عليه السّلام قال: «النجوم آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۲۸].

۳- يستفاد من الرّوايات العديدة التى وردت فى تفسير الآيات المبحوثة، أن منع الشياطين من الصعود إلى السماوات و طردها بالشهب تمّ حين ولادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يستفاد من بعضها أنّ ذلك حدث أثناء ولادة عيسى بن مريم عليه السّلام كذلك و لكن لفترة معينة، و أمّا عند ولادة نبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد تمّ المنع بشكل كامل ۲۹].

و من كل ما تقدم يمكننا القول: إن «السماء» كناية عن سماء الحق و الإيمان، و الشياطين تسعى أبدا لاختراق هذه السماء و التسلل إلى قلوب المؤمنين المخلصين عن طريق تخدير حمارة الحق بأنواع الوساوس لصرعهم.

و لكن علم و تقوى أولياء اللّه و قادة دعوة الحق من الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام و العلماء العاملين كفيل بأن يبعد عبدة الجبت و الطاغوت عن هذه السماء.

و هذا ما يساعدنا على فهم ذلك الترابط بين ولادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو ولادة المسيح عليه السّلام، و بين طرد الشياطين عن السماء.

و يساعدنا كذلك على أن نفهم تلك الرابطة بين الصعود إلى السماء و الاطلاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷

على الأسرار، لتيقننا بعدم وجود أخبار خاصّة بين طبقات هذه السماء المشاهدة، و كل ما هناك لا يتعدى عجائب الخلقة التى صورها البارى جل شأنه و التى يمكن دراسة الكثير منها على سطح الأرض، و الذى ربما أصبح شبيه بالبديهى من أن الأجرام السماوية المنتشرة فى الفضاء اللامتناهى بعضها أجرام فاقدة للحياة و أخرى حية، و لكنّ حياتها ليست كحياتنا.

و لا بدّ من الالتفات إلى أنّ مسألة وجود الشهب منحصرة ضمن منطقة الغلاف الجوى للأرض فقط، و ذلك حينما تلتهب تلك الصخور المتساقطة صوب الأرض من خلال احتكاكها بالهواء، أمّا خارج منطقة الغلاف الجوى فخال من الشهب.

نعم، هناك صخور و كرات تسبح فى الفضاء إلّا أنّها لا تسمى شهبا إلّا بعد دخولها فى منطقة الغلاف الجوى فتلتهب و تظهر للعيان على هيئة خط نارى واضح تخيل للناظر أنّها نجمة متحركة بسرعة.

و كما هو معلوم، فإنّ إنسان العصر الحديث قد نفذ مرارا من هذه المنطقة، بل و غالى فى نفوذه حتى وطأت قدماه سطح القمر (علما بأنّ سمك الغلاف الجوى يبلغ من مائة إلى مائتى كيلومتر طولا .. و أنّ القمر يبعد عن الأرض بأكثر من ثلاثمائة ألف كيلومتر).

فإنّ كان المقصود من الشهب فى الآية عين الشهب المشاهدة لنا، فيمكن القول: إنّ علماء البشر قد اكتشفوا هذه المنطقة و لم يجدوا الأسرار الخاصة المدعاة.

و الخلاصة: يظهر لنا من خلال ما ذكر من قرائن و شواهد كثيرة أن المقصود من السماء هو .. سماء الحق و الحقيقة، و أنّ الشياطين ذوى الوساوس يحاولون أن يجدوا لهم سبيلا لاختراق السماء و استراق السمع، ليتمكنوا من إغواء الناس بذلك، و لكنّ النجوم و الشهب (و هم القادة الربانيون من الأنبياء و الأئمّة و العلماء) يبعدونهم و يطردونهم بالعلم و التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸

و لكن .. بما أن القرآن الكريم بحر غير متناه، فلا ينبغى البناء القطعى على هذا التأويل، و ربّما المستقبل سيحفل بتفسير آخر لهذه الآيات مستندا على حقائق لم نصل لها فى زماننا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۹

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۱۹ الى ۲۱]

اشارة

وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (۱۹) وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (۲۰) وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۱)

التّفسير

و إتماما لما سبق يتناول القرآن بعض آيات الخلق، و مظاهر عظمة البارى على وجه البسيطة، و يبدأ بنفس الأرض وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها.

«المد»، فى الأصل بمعنى: التوسعة و البسط، و من المحتمل أن يراد به إخراج القسم اليابس من الأرض من تحت الماء، لأنّ سطح الأرض (كما هو معلوم) كان مغطى بالمياه بشكل كامل نتيجة للأمطار الغزيرة، و استقرت المياه على سطح الأرض بعد أن مرّت السنين الطويلة على انقطاع الأمطار، و بشكل تدريجى ظهرت اليابسة من تحت الماء، و هو ما تسمّيه الرّوايات ب «دحو الأرض».

ثمّ يتطرق إلى خلق الجبال بما تحمله من منافع جمّة كآية من آيات التوحيد وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۰

عبّر سبحانه عن خلق الجبال بالإلقاء، و لعل المراد ب «إلقاء» هنا بمعنى (إيجاد) لأنّ الجبال هى الارتفاعات الشاخصة على سطح الأرض الناشئة من برودة قشرة الأرض التدريجى، أو من المواد البركانية.

و من بديع خلق الجبال إضافة إلى كونها أوتادا لتثبيت الأرض و حفظها من التزلزل نتيجة الضغط الداخلى، فإنّها تقف كالدرع الحصين فى مواجهة قوّة العواصف، بل و تعمل على تنظيم حركة الهواء و تعيين اتجاهه، و مع ذلك فهى المحل الأنسب لتخزين المياه على صورة ثلوج و عيون.

و استعمال كلمة «رواسى» جمع (راسية) بمعنى الثابت و الراسخ، إشارة لطيفة لما ذكرناه.

فهى: ثابتة بنفسها، و سبب لثبات قشرة الأرض و ثبات الحياة الإنسانية عليها.

ثمّ ينتقل إلى العامل الحيوى الفعال فى وجود الحياة البشرية و الحيوانية، ألا و هو النبات وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ

ما أجمل هذا التعبير و أبلغه! «موزون» من مادة (وزن)[۳۰]، و يشير بذلك إلى:

الحساب الدقيق، النظام العجيب، و التناسق فى التقدير فى جميع شؤون النباتات، و كل أجزائها تخضع لحساب معين لا يقبل التخلخل من السارق، الغصن، الورقة، الوردة، الحبة و حتى الثمرة.

يتنوع على وجه البسيطة مئات الآلاف من النباتات، و كل تحمل خواصا معينة و لها من الآثار ما يميزها عن غيرها، و هى باب بمعرفة واسع وصولا لمعرفة البارئ المصور جل شأنه، و كل ورقة منها كتاب ينطق بعرفة الخالق.

و قد ذهب البعض إلى أن المقصود هو إحداث المعادن و المناجم المختلفة فى الجبال، لأنّ كلمة «إنبات» تستعمل فى اللغة العربية للمعادن أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۱

و قد وردت الإشارة فى بعض الرّوايات لهذا المعنى،

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام عند ما سئل عن تفسير هذه الآية أنبتنا فيها من كل شىء موزون، أنّه قال: «فإنّ اللّه تبارك و

تعالى أنبت فى الجبال الذهب و الفضة و الجوهر و الصفر و النحاس و الرصاص و الكحل و الزرنيغ و أشباه هذه لا يباع إلّا وزنا»[۳۱].

و هناك من ذهب إلى أن المقصود من الإنبات فى الآية إلى معنى أوسع يشمل جميع المخلوقات على هذه الأرض، كما يشير إلى ذلك نوح عليه السّلام حين مخاطبته قومه وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً[۳۲].

و عليه، فليس هناك ما يمنع من إطلاق مفهوم الإنبات فى الآية ليشمل النبات و البشر و المعادن ... إلخ.

و بما أنّ وسائل و عوامل حيازة الإنسان غير منحصرة بالنبات و المعادن فقط، ففى الآية التالية يشير القرآن الكريم إلى جميع المواهب بقوله: وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ

ليس لكم فقط، بل لجميع الكائنات الحية حتى الخارجة عن مسئوليتكم وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ

نعم، لقد كفينا الجميع احتياجاتهم.

«معايش» جمع «معيشة»، و هى: الوسائل و المستلزمات التى تتطلبها حياة الإنسان، و التى يحصل عليها بالسعى تارة، و تأتيه بنفسها تارة أخرى.

و مع أن بعض المفسّرين قد حصر كلمة «معايش» بالزراعة و النبات أو الأكل و الشرب فقط، و لكنّ مفهومها اللغوى أوسع من أن يخصص، و يطلق ليشمل كل ما يرتبط بالحياة من وسائل العيش.

و انقسم المفسّرون فى تفسير مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ إلى قسمين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۲

الأوّل: أنّ اللّه تعالى يريد أن يبيّن مواهبه و نعمه الشاملة للبشر و الحيوان و الكائنات الحية الأخرى التى لا يملك الإنسان أمر تغذيتها و لا يستطيعه.

الثّانى: أنّ اللّه تعالى يريد تذكير الإنسان بأنّه سبحانه هو الرازق، و قد تكفل بإيصال رزقه إلى كل محتاج له سواء كان بواسطة الإنسان أو بواسطة أخرى ۳۳].

و يبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل أكثر صوابا، و يعزز ذلك الحديث المروى فى تفسير علىّ بن إبراهيم، حيث يتناول معنى وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ على أنّه:

(لكل ضرب من الحيوان قدّرنا له مقدرا)[۳۴].

أمّا آخر آية من الآيات المبحوثة، فتحوى جوابا لسؤال طالما تردد على أذهان كثير من الناس، و هو: لماذا لم تهيأ النعم و الأرزاق بما لا يحتاج إلى سعى و كدح؟! فتنطق الحكمة الإلهية جوابا: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ فليست قدرتنا محدودة حتى نخاف نفاذ ما نملك، و إنّما منبع و مخزن و أصل كل شىء تحت أيدينا، و ليس من الصعب علينا خلق أى شىء و بأى وقت يكون، و لكنّ الحكمة اقتضت أن يكون كل شىء فى هذا الوجود خاضعا لحساب دقيق، حتى الأرزاق إنّما تنزل إليكم بقدر.

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ[۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۳

إنّ السعى و الكدح فى صراع الحياة يضفى على حركة الإنسان الحيوية و النشاط، و هو بقدر ما يعتبر وسيلة سليمة و مشروعة لتشغيل العقول و تحريك الأبدان، فإنه يطرد الكسل و يمنع العجز و يحيى القلب للتحرك و التفاعل مع الآخرين ... و إذا ما جعلت الأرزاق تحت اختيار الإنسان بما يرغب هو لا حسب التقدير الربانى، فهل يستطيع أحد أن يتكهن بما سيؤول إليه مصير البشرية؟

فيكفى لحفنة ضئيلة من العاطلين، ذوى البطون المنتفخة، و بدون أىّ وازع انضباطى، يكفيهم لأن يعيثوا فى الأرض الفساد، لماذا؟

لأنّ الناس ليسوا كالملائكة، بل هناك الأهواء التى تلعب بالقلوب و المغريات التى تدنى إلى الانحراف.

لقد اقتضت الحكمة الرّبانية أن يكون الإنسان حاملا لجميع الصفات الحسنة و السيئة، و يمتحن على هذه الأرض بما يحمل، و بما ذا

یعمل، و عن ماذا یتجاوز؟ ...

و السعی و الحرکة لما هو مشروع، المجال الأمثل للامتحان.

و الفقر و الغنی من البلاء الذی یدخل ضمن مخطط التمحیص و الامتحان، فکما أنّ الفقر و العوز قد یجران الإنسان نحو هاویة السقوط فی مهالک الانحراف، فکذلک الغنی فی کثیر من حالاته یکون منشأ للفساد و الطغیان.

بحوث

۱- ما هی خزائن اللّه تعالی؟

نقرأ فی آیات القرآن أن: للّه عزّ و جلّ خزائن، للّه خزائن السماوات و الأرض، بیده خزائن کل شیء .. فما هی خزائنه تعالی؟

«الخزائن» لغة جمع «خزانة»: و هی المکان المخصص لحفظ و تجمیع المال.

و هی من مادة (خزن) علی وزن (وزن) بمعنی: حفظ الشیء و حبسه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۴

بدیهی، أن من کانت قدرته محدودة و غیر قادر علی أن یهیء لنفسه کل ما یحتاج إلیه علی الدوام، یبدأ بجمع ما یملک و خزنه لوقت الحاجة إلیه مستقبلا.

و هل یمکن تصور ذلک فی شأنه سبحانه!؟ الجواب بالنفی قطعا .. و لهذا فسّر جمع من المفسّرین أمثال العلّامة الطبرسی فی (مجمع البیان) و الفخر الرازی فی (تفسیره الکبیر) و الراغب فی (المفردات)، فسّروا خزائن اللّه بمعنی (مقدورات اللّه)، یعنی: أنّ کل شیء جمع فی خزانة قدرة اللّه، و کل ما یخطه ضرورة أو صلاحا لمخلوقه یخلقه بقدرته.

و قد فسّر بعض کبار المفسّرین «خزائن اللّه» بأنّها: (مجموع ما فی الکون من أصوله و عناصره و أسبابه العامّة المادیة، و مجموع الشیء موجود فی مجموع خزائنه لا فی کل واحد منها)[۳۶].

هذا التّفسیر و إن کان مقبولا من الناحیة الأصولیة و لکنّ تعبیر «عندنا» ینسجم أکثر مع التّفسیر الأوّل.

و انّ عبارة «خزائن اللّه» و ما شابهها لا تصف مقام الرب و شأنه الجلیل، و لا یصح أن نعتبرها بعین معناها، و إنّما استعملت للتقریب، من باب تکلم الناس بلسانهم، لیکونوا أکثر قربا للسمع و أشد فهما للمعنی.

و ذکر بعض المفسّرین أنّ «خزائن» تختص بالماء و المطر، و لکن من الواضح حصر مفهوم «خزائن» بهذا المصداق المحدد تقیید بلا مقید لإطلاق مفهوم الآیة، و هو خال من أیّ دلیل أو قرینة.

۲- النّزول مکانیّ و مقامی

کما بیّنا سابقا أن النّزول لا یرمز إلی الحالة المکانیة دوما (أی النّزول من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۵

مکان عال إلی أسفل)، بل یرمز إلی النّزول المقامی فی بعض الموارد، فمثلا .. فی حال وصول نعمة من شخص ذی شأن إلی من هم أقل منه شأنا، فإنّه یعبر عنها بالنّزول.

و قد استعملت هذه الکلمة فی القرآن الکریم فی مورد النعم الإلهیة، سواء کانت نازلة من السماء إلی الأرض کالمطر، أو ما یتوالد

على الأرض كالحيوانات، و هـذا ما نلاحظه فى الآيـة السادسـة من سورة الزمر وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و كذلك فى الآية الخامسة و العشرين من سورة الحديد، بشأن الحديد، وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ... إلخ.

خلاصة القول:

إنّ (نزول) و (إنزال) هنا بمعنى وجود و إيجاد و خلق، و ما استعمال هذا اللفظ إلّا لأنّها نعم اللّه عزّ و جلّ التى وهبها لعباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۲۲ الى ۲۵]

اشارة

وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ (۲۲) وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ (۲۳) وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (۲۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (۲۵)

التّفسير

دور الرّياح و الأمطار:

بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة قسما من أسرار الخليقة و النعم الإلهية كخلق الأرض و الجبال و النباتات و ما تحتاجه الحياة من مستلزمات، يشير فى أولى الآيات المبحوثة إلى حركة الرياح و مالها من آثار فى عملية نزول المطر، فيقول: وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسْقَيْناكُمُوهُ وَ ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ

«لواقح» جمع «لاقح» ... و هى تشير هنا إلى دور الرياح فى تجميع قطع الحساب مع بعضها لتهيئة عملية سقوط الأمطار.

و قد ذهب بعض العلماء المعاصرين إلى أن الآية تشير إلى عملية تلقيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۷

النباتات بواسطة الرياح، و بها يستدلون على الإعجاز العلمى للقرآن، على اعتبار أن عصر نزول القرآن ما كان يحظى بما وصل إليه عصرنا من العلوم الحديثة، و أنّ إخبار القرآن بهذه الحقيقة العلمية (علمية التلقيح) من ذلك الوقت لدليل على إعجازه العلمى.

مع قبولنا بحقيقة تلقيح النباتات و دور الرياح فيها، إلّا أنّنا لا نرى ما يشير لما ذهب إليه علماء اليوم لسببين:

الأوّل: وجود قرينة نزول المطر بعد كلمة لواقح مباشرة.

ثانيا: وجود فاء السببية بينها (بين لواقح و نزول المطر).

ممّا يبيّن بشكل جلى أن تلقيح الرياح يعقبه نزول المطر.

و يعتبر ما جاء فى الآية المباركة من روائع الكلم، حيث شبّه قطع الحساب بالآباء و الأمهات يتم تزاوجهم بأثر الرياح، فتحمل الأمهات، ثمّ تلقى بما حملت (قطرات المطر) إلى الأرض.

و يمكن حمل ما أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ على أنّها إشارة لخزن ماء المطر فى السحب قبل نزوله، أى إنّكم لا تستطيعون استملاك السحب التى هى المصدر الأصلى للأمطار.

و يمكن حملها على أنّها إشارة إلى جمع و خزن الأمطار بعد نزولها، أى إنّكم لا تقدرون على جمع مياه الأمطار بمقادير كبيرة حتى بعد نزوله، و أنّ اللّه عزّ و جلّ هو الذى يحفظها و يخزنها على قمم الجبال بهيئة ثلوج، أو ينزلها فى أعماق الأرض لتكون بعد ذلك

عيونا و آبارا.

ثمّ ينتقل من مظاهر توحيد اللّه إلى المعاد و مقدماته: وَ إِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ نَحْنُ الْوارِثُونَ فيذكر مسألة الحياة و الموت التى تعتبر من أهم المقدمات لبحث موضوع المعاد، إضافة لكون هذه المسألة من مكملات موضوع التوحيد، باعتبار مسألة الحياة منذ بدايتها و حتى انتهائها بالموت تشكل نظاما مترابطا فى عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۸

الوجود لا يمكن تصور تشكيله إلّا بوجود علم و قدرة مطلقين، بالإضافة إلى أن وجود الحياة و الموت بحد ذاته دليل على أنّ موجودات هذا العالم لا تملك زمام أنفسها ناهيك عمّا هو بأيديها، و أنّ الوارث الحقيقى لكل شىء هو اللّه تعالى.

ثمّ يضيف: وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ

أى، نحن على علم بهم و بما يعملون، و إن أمر محاسبتهم و جزائهم فى المعاد علينا سهل يسير.

و لهذا، نرى الآية التى تليها: وَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ مرتبطة تماما مع ما قبلها و متممة من خلال طرحها مسألة ما سيكون بعد الموت .. فحكمة البارى أوجبت أن لا يكون الموت نهاية لكل شىء.

فلو أنّ الحياة انحصرت بهذه الفترة الزمنية المحدودة و ينتهى كل شىء بالموت لكانت عملية الخلق عبثا، و هذا غير معقول، لأنّه تعالى منزّه عن العبث.

فالحكمة الإلهية اقتضت من «حياة الدنيا أن تكون مرحلة استعداد لمسيرة دائمة نحو المطلق»، و بتعبير آخر. مقدمة الحياة أبدية خالدة.

و أمّا كونه سبحانه عليما .. فهو عليم بصحائف أعمال الجميع المثبتة فى قلب هذا العالم الطبيعى من جهة، و كذلك فى اعماق وجود الإنسان من جهة أخرى، و لا تخفى عليه خافية يوم يقوم الحساب.

و كونه سبحانه الحكيم العليم فى هذا المورد دليل قوى و عميق الغور على مسألة الحشر و المعاد.

بحث

من هم المستقدمون و المستأخرون؟

ذكر المفسّرون فى تفسير وَ لَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَ لَقَدْ عَلِمْنَا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۵۹

الْمُسْتَأْخِرِينَ احتمالات كثيرة، فذكر العلامة الطبرسى فى (مجمع البيان) ستة احتمالات، و القرطبى ثمانية احتمالات، و أبو الفتوح الرازى بحدود العشرة احتمالات، و الملاحظة الدقيقة تظهر أنّه يمكن لنا أن نجمع كل ما ذكروه فى تفسير واحد، لأن كلمة «المستقدمين» و «المستأخرين» لهما معنيان واسعان يشملان المتقدمين و المتأخرين من حيث الزمان، و كذلك من حيث أعمال الخير و الجهاد و حتى الحضور فى الصفوف المتقدمة لصلاة الجماعة و ما شابهها. و إذا ما أخذنا بهذا المعنى الجامع فيمكننا جمع كل الاحتمالات الواردة فى «تقدم» و «تأخر» المذكورتين فى الآية فى تفسير واحد.

و فيما

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الحث على الاشتراك فى الصف الأوّل من صفوف صلاة الجماعة أنّه قال: «إنّ اللّه و ملائكته يصلون على الصف المتقدم»

فازدحم الناس و كانت دور بنى عذرة بعيدة عن المسجد فقالوا: «لنبيعنّ دورنا و لنشترينّ دورا قريبة من المسجد حتى ندرك الصف

المقدم»، فنزلت هذه الآية.

(و أفهمتهم على أنّ اللّه تعالى عليم بنيّاتكم، فحتى لو كنتم فى الصف الأخير فإنّه يكتب لكم ثواب الصف الأوّل حسب نيّتكم و عزمكم على ذلك).

فمحدودية شأن نزول الآية لا يكون أبدا سببا لحصر مفهومها الواسع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۲۶ الى ۴۴]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۶) وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ (۲۷) وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۲۸) فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ (۲۹) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۳۰)

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۱) قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (۳۲) قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (۳۳) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (۳۴) وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ (۳۵)

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۳۶) قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (۳۷) إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۳۸) قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۳۹) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (۴۰)

قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (۴۱) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ (۴۲) وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۳) لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (۴۴)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۱

التّفسير

خلق الإنسان:

بعد ذكر خلق نماذج من مخلوقات اللّه فى الآيات السابقة، تأتى هذه الآيات لتبيّن أن الهدف الأساسى من إيجاد كل الخليقة إنّما هو خلق الإنسان. و تتطرق الآيات إلى جزئيات عديدة فى شأن الخلق، زاخرة بالمعانى.

و قبل الدخول فى بحوث مفصلة حول بعض المسائل التى ذكرت فى الآيات المباركات نشرع بتفسير إجمالى ..

يقول تعالى فى البداية: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ «الصلصال» هو التراب اليابس الذى لو اصطدم به شىء أحدث صوتا ... و «الحمأ المسنون» هو طين متعفن.

وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ

«السّموم» لغة: الهواء الحارق، و سمّى بالسموم لأنّه يخترق جميع مسامات بدن الإنسان، و كذلك يطلق على المادة القاتلة (السم) لأنّها تنفذ فى بدن الإنسان و تقتله.

ثمّ يعود القرآن الكريم إلى خلق الإنسان مرّة أخرى فيتعرض إلى كلام اللّه تعالى مع الملائكة قبل خلق الإنسان: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي و هى روح شريفة طاهرة جليلة فَقَعُوا لَهُ

ساجِدِينَ

و بعد أن تمّ خلق الإنسان من الجسم و الروح المناسبين فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۲

و لم يعص هذا الأمر إلّا إبليس: إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ

و هنا سأل اللّه إبليس: قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ

فأجاب إبليس بعد أن كان غارقا فى بحر الغرور المظلم، و تائها فى حب النفس المقتم، و بعد أن غطى حجاب الخسران عقله .. أجاب بوقاحة قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ .. فأين النّار المضيئة من التراب الأسود المتعفن! و هل لموجود شريف مثلى أن يتواضع و يخضع لموجود أدنى منه! أىّ قانون هذا؟! ..

و نتيجة للغرور و حب النفس، فقد جهل أسرار الخليقة، و نسى بركات التراب الذى هو منبع كل خير و بركة، و الأهم من ذلك كله .. فقد تجاهل شرافة تلك الروح التى أودعها الرّب فى آدم .. و كنتيجة طبيعية لهذا السلوك المنحرف فقد هوى من ذلك المقام المرموق بعد أن أصبح غير لائق لأن يكون فى درجة الملائكة و بين صفوفهم، فجاء الأمر الإلهى مقرعا: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ أى أخرج من الجنّة، أو من السماوات أو اخرج من بين صفوف الملائكة.

و اعلم يا إبليس بأنّ غرورك أصبح سببا لكفرك، و كفرك قد أوجب طردك الأبدى وَ إِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلى يَوْمِ الدِّينِ أى، إلى يوم القيامة.

و هنا .. حينما وجد إبليس نفسه مطرودا من الساحة الإلهية، ساوره إحساس بأنّ خلق الإنسان هو سبب شقائه فاشتعلت نار الحقد و الضغينة فى قلبه لينتقم لنفسه من أولاد آدم عليه السّلام.

فبالرغم من أنّ السبب الحقيقى يرجع إلى إبليس نفسه و ليس لآدم دخل فى ذلك، إلّا أن غروره و حبّه لنفسه و عناده المستحكم لم يعطياه الفرصة لدرك حقيقة شقاءه، و لهذا قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ليركز عناده و عداءه! و قبل اللّه تعالى طلبه: قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

و لكن ليس إلى يوم يبعثون كما أراد، بل إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ فما هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۳

يوم الوقت المعلوم؟

قال بعض المفسّرين: هو نهاية هذا العالم و انتهاء التكليف، لأنّ بعد ذلك (كما يفهم من ظاهر الآيات القرآنية) تحلّ نهاية حياة جميع الكائنات، و لا يبقى حى إلّا الذات الإلهية المقدسة، و من هذا نفهم حصول الموافقة على بعض طلب إبليس.

و قال بعض آخر: هو زمان معين لا يعلمه إلّا اللّه، لأنّه لو أظهره عزّ و جلّ لكان لإبليس ذريعة فى المزيد من التمرد و المعاصى.

و ثمة من قال: إنّه يوم القيامة، لأنّ إبليس أراد أن يكون حيا إلى ذلك اليوم ليكون بذلك من الخالدين فى الحياة، و إن يوم الوقت المعلوم قد ورد بمعنى يوم القيامة فى سورة الواقعة (الآية/ ۵۰)، و هو ما يعزز هذا القول.

و يبدو أن هذا الاحتمال بعيد جدا لأنه يتضمن الموافقة الإلهية على كل طلب إبليس، و الحال أن ظاهر الآيات المذكورة لا تعطى هذا المعنى، فلم تبيّن الآيات أن اللّه استجاب لطلبه بالكامل، بل يوم الوقت المعلوم ... و من هنا يكون التّفسير الأوّل أكثر توافقا مع روح و ظاهر الآية، و كذلك ينسجم مع بعض الرّوايات عن الإمام الصّادق عليه السّلام بهذا الخصوص ۳۷].

و هنا أظهر إبليس نيته الباطنية قالَ رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي و كان هذا الإنسان سببا لشقائى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ نعمها المادية وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ بإلهائهم بتلك النعم.

إلّا أنّه يعلم جيدا بأن وساوسه سوف لن تؤثر فى قلوب عباد اللّه المخلصين، و أنّهم متحصنون من الوقوع فى شباكه، لأنّ قوة الإيمان و

درجة الإخلاص عندهم بمكان يكفى لدرء الخطر عنهم بتحطيم قيود الشيطان عن أنفسهم .. و لهذا نراه قد استثنى فى طلبه إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۴

من البديهى أنّ اللّه سبحانه منزّه عن تضليل خلقه، إلّا أنّ محاولة إبليس لتبرير ضلاله و تبرئة نفسه جعلته ينسب ذلك إلى اللّه سبحانه و تعالى. هذا الموقف هو ديدن جميع الأبالسة و الشياطين، فهم يلقون تبعة ذنوبهم على الآخرين أوّلا و من ثمّ يسعون لتبرير أعمالهم القبيحة بمنطق مغلوط ثانيا، و المصيبة أن مواقفهم تلك إنّما يواجهون بها ربّ العزة و الجبروت، و كأنّهم لا يعلمون أنّه لا تخفى عليه خافية.

و ينبغى ملاحظة أن «المخلصين» جمع مخلص (بفتح اللام) و هو- كما بيّناه فى تفسير سورة يوسف- المؤمن الذى وصل إلى مرحلة عالية من الإيمان و العمل بعد تعلم و تربية و مجاهدة مع النفس، فيكون ممتنعا من نفوذ وساوس الشيطان و أىّ وسواس آخر.

ثمّ قال تعالى تحقيرا للشيطان و تقوية لقلوب العباد المؤمنين السالكين درب التوحيد الخالص: قالَ هذا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ

يعنى، يا إبليس ليس لك القدرة على إضلال الناس، لكن الذين يتبعونك إن هم إلّا المنحرفين عن الصراط المستقيم و المستجيبين لدواعى رغباتهم و ميولهم.

و بعبارة أخرى ... إنّ الإنسان حر الإرادة، و إنّ إبليس و جنوده لا يقوون على أن يجبروا إنسانا واحدا على السير فى طريق الفساد و الضلال، لكنّه الإنسان هو الذى يلبى دعوتهم و يفتح قلبه أمامهم و يأذن لهم فى الدخول فيه! و خلاصة القول: إنّ الوساوس الشيطانية و إن كانت لا تخلو من أثر فى تضليل و انحراف الإنسان، إلّا أنّ القرار الفعلى للانصياع للوساوس أو رفضها يرجع بالكامل إلى الإنسان، و لا يستطيع الشيطان و جنوده مهما بلغوا من مكر أن يدخلوا قلب إنسان صاحب إرادة موجهة صوب الإيمان المخلص.

و أراد اللّه سبحانه بهذا القول نزع الخيال الباطل و الغرور الساذج من فكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۵

الشيطان من أنّه سيجد سلطة فائقة على الناس و بلا منازع، يمكنه من خلالها إغواء من يريد.

ثمّ يهدد اللّه بشدّة أتباع الشيطان: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ و أن ليس هناك وسيلة للفرار، و الكل سيحاسب فى مكان واحد.

لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ

هى أبواب للذنوب التى يدخلون جهنم بسببها، و كل يحاسب بذنبه .. كما هو الحال فى أبواب الجنّة التى هى عبارة عن طاعات و أعمال صالحة و مجاهدة للنفس يدخل بها المؤمنون الجنّة.

بحوث

۱- التكبر و الغرور من المهالك العظام:

المستفاد تربويا من قصة إبليس فى القرآن هو أن الكبر و الغرور من الأسباب الخطيرة فى عملية الانهيار و السقوط من المكانة المحترمة الوسيط المرموقة إلى مدارك الدون و الخسران.

فكما هو معلوم أنّ إبليس لم يكن من الملائكة (كما تشير إلى ذلك الآية الخمسون من سورة الكهف) إلّا أنّه ارتقى الدرجات العلا و نال شرف العيش بين صفوف الملائكة نتيجة لطاعته السابقة للّه عزّ و جلّ، حتى أنّ البعض قال عنه: إنّه كان معلما للملائكة، و يستفاد

من الخطبة القاصعة فی (نهج البلاغة) أنّه عبد اللّه عزّ و جلّ آلاف السنین.

لکن شراک التعصب الأعمی و عبادة هوی النفس المهلک قد أدّیا الی خسرانه کل ذلک فی لحظة تکبر و غرور.

بل إنّ حب الذات و الغرور و التعصب و التکبر قد جعلته یستمر فی موقفه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۶

المریض و یوغل قدمه فی وحل الإصرار علی الإثمّ و السیر المتخبط فی جادة العناد، فنسی أو تناسی ما للتوبة و الاستغفار من أثر إیجابی، حتی دعته الحال لأن یشارک کل الظلمة و المذنبین من بنی آدم فی جرائمهم و ذنوبهم بوسوسته لهم ...

و بات علیه أن یتحمل نصیبه من عذاب الجمیع یوم الفزع الأکبر.

و لیس إبلیس فحسب، بل إنّ التأریخ یحدثنا عن أصحاب النفوس المریضة ممن رکبهم الغرور و الکبر فعاثوا فی الأرض فسادا بعد أن غطت العصبیة رؤاهم، و حجب الجهل بصیرتهم، و سلکوا طریق الظلم و الاستبداد و سادوا علی الرقاب بکل جنون فهبطوا إلی أدنی درجات الرذیلة و الانحراف عن الطریق القویم.

إنّ هاتین السمتین الأخلاقیتین (التکبر و الغرور) فی الواقع .. نار رهیبة محرقة. فکما أن من صرف و طرأ من عمره فی بناء و تأنیث دار، لربّما فی لحظات معدودات یتحول إلی هباء منثور بسبب شرارة صغیرة .. فالتکبر و الغرور یفعل فعل النّار فی الحطب و لا تنفع معه تلک السنین المعمورة بالطاعة و البناء.

فأیّ درس أنطق من قصة إبلیس و أبلغ؟! إنّ إبلیس قد اختلطت علیه معانی الأشیاء فراح یضع المعانی حسب تصوراته الخادعة المحدودة و لم یدرک أن النّار لیست أفضل و أشرف من التراب، و التراب مصدر جمیع البرکات کالنباتات و الحیوانات و المعادن و هو محل حفظ المیاه، و بعبارة اشمل هو منبع و أصل کل الکائنات الحیة، و ما عمل النّار إلّا الإحراق و کثیرا ما تکون مخربة و مهلکة.

و یصف أمیر المؤمنین علیه السّلام إبلیس بأنّه

«عدو للّه، إمام المتعصبین و سلف المستکبرین»

ثمّ

یقول: «ألا ترون کیف صغّره اللّه بتکبره و وضعه بترفعه، فجعله فی الدنیا مدحورا و أعد له فی الآخرة سعیرا»[۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۷

و کما أشرنا سابقا أنّ إبلیس کان أوّل من وضع أسس مذهب الجبر الذی ینکره وجدان أی إنسان. حیث أنّ الدافع المهم لأصحاب هذا المذهب تبرئة ساحة المذنبین من أعمالهم المخالفة لشرع اللّه، و کما قرأنا فی الآیات مورد البحث من أنّ إبلیس تذرع بتلک الکذبة الکبیرة لأجل تبرئة نفسه، و أنّه علی حق فی إضلاله لبنی آدم حین قال: رَبِّ بِما أَغْوَیْتَنِی لَأُزَیِّنَنَّ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ

۲- علی من یتسلط الشیطان؟

نری من الضروری أن نکرر القول بأنّ نفوذ الوساوس الشیطانیة فی قلب الإنسان لا تأتی فجأة أو إجبارا، و إنما بوجود الرغبة الکافیة عند الإنسان بفسح المجال أمام دخول الوساوس إلی دواخله، و علی هذا فالشیطان یعلم تماما بأن لیس له سبیل علی المخلصین الذین طهّروا أنفسهم فی ظل التربیة الخالصة من الشوائب و الأدران و غسلوا قلوبهم من صدأ الشرک و الضلال. و بتعبیر القرآن الکریم إنّ رابطة الشیطان مع الضالین هی رابطة التابع و المتبوع و لیس رابطة المجبر و المجبور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۶۷

۳- أبواب جهنم!

قرأنا فی الآیات مورد البحث أن لجهنم سبعة أبواب (و لیس بعیدا أن یکون ذکر العدد فی هذا المورد للکثرة کما ورد هذا العدد فی الآیة السابعة و العشرین من سورة لقمان بهذا المعنی أیضا).

و من الواضح أنّ تعدد أبواب جهنم (کما هو تعدد أبواب الجنّة) لم یکن لتسهیل أمر دخول الواردین نتیجة لکثرتهم، بل هی إشارة إلی الأسباب و العوامل المتعددة التی تؤدی لدخول الناس فی جهنم، و أنّ لکل من هذه الذنوب باب معین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۸

یؤدی إلی مدرکه.

ففی نهج البلاغة: «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه اللّه لخاصّة أولیائه»[۳۹]،

و

فی الحدیث المعروف: «إن السیوف مقالید الجنّة» ..

فهذه التعبیرات تبیّن لنا بوضوح ما المقصود من تعدد أبواب الجنّة و النّار.

و ثمة نکتة لطیفة فی ما

روی عن الإمام الباقر علیه السّلام: «إنّ للجنة ثمانیة أبواب»[۴۰]،

فی حین أن الآیات تذکر أن لجهنم سبعة أبواب، و هذا الاختلاف فی العددین إشارة إلی أنّه مع کثرة أبواب العذاب و الهلاک إلّا أن أبواب الوصول إلی السعادة و النعیم أکثر، (و قد تحدثنا عن ذلک فی تفسیر الآیة الثّالثة و العشرین من سورة الرعد).

۴- (الحمأ المسنون) و (روح اللّه):

یستفاد من الآیات أن خلق الإنسان تمّ بشیئین متغایرین، أحدهما فی أعلی درجات الشرف و الآخر فی أدنی الدرجات (بقیاس ظاهر القیمة).

فالطین المتعفن خلق منه الجانب المادی منه الإنسان، فی حین جانبه الروحی و المعنوی خلق بشیء سمی (روح اللّه).

و بدیهی أنّ اللّه سبحانه منزّه عن الجسیمة و لیس له روح، و إنّما أضیف الروح إلی لفظ الجلالة لإضفاء التشریف علیها و للدلالة علی أنّها روح ذات شأن جلیل قد أودعت فی بدن الإنسان، بالضبط کما تسمّی الکعبة (بیت اللّه) لجلالة قدرها، و شهر رمضان المبارک (شهر اللّه) لبرکته.

و لهذا السبب نری أن الخط التصاعدی الإنسان یتساهی فی العلو حتی یصل الی أن لا یری سوی اللّه عزّ و جلّ، و خط تسافله من الانحطاط حتی یرکد فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۶۹

أدنی مرتبة من الحیوانات بَلْ هُمْ أَضَلُ و هذا البون الشاسع بین الخطین التصاعدی و التنازلی بحد ذاته دلیل علی الأهمیة الاستثنائیة لهذا المخلوق.

إنّ شرف مقام الإنسان و تکریمه یأتی من خلال هذا الترکیب الخاص، و لکن لیس بفضل جنبته المادیة لأنّه لیس سوی (حمأ مسنون)

و إنّما بفضل الروح الإلهيـة المودعة فيه، بما تحمل من استعدادات و لياقة لأن تكون منعكسا للأنوار الإلهية، تلك الأنوار التى استمد منها الإنسان شرف قدره و مقامه .. و لا ـ سبيل لتكامل الإنسان إلّا ببنائه الروحى و وضع بعده المادى فى خدمة طريق التكامل و الوصول لساحة رضوانه جل شأنه.

و المستفاد من الآيات المتعلقة بخلق آدم فى أوائل سورة البقرة أنّ مسألة سجود الملائكة لآدم، كان لما أودع فيه من العلم الإلهى الخاص.

و قد أجبنا على سؤال: كيف يصحّ السجود لغير اللّه؟ و هل أنّ سجود الملائكة كان فى حقيقة للّه عزّ و جلّ لأجل هذا الخلق العجيب؟ أم كان لآدم؟ .. فى تفسير الآيات المتعلقة بخلق آدم سورة البقرة.

۵- ما هو الجان؟

إنّ كلمة (الجن) فى الأصل بمعنى: الشىء الذى يستر عن حس الإنسان، فمثلا نقول (جنّه الليل) أو (فلما جنّ عليه الليل) أى عند ما غطته ستارة الليل السوداء، و يقال (مجنون) لمن فقد عقله أى ستر، و (الجنين) للطفل المستور فى رحم أمّه، و (الجنّة) للبستان الذى تغطى أشجاره أرضه، و (الجنان) للقلب الذى ستر داخل صدر الإنسان، و (الجنّه) للدرع الذى يحمى الإنسان من ضربات الأعداد.

و المستفاد من آيات القرآن أن «الجنّ» نوع من الموجودات العاقلة قد سترت عن حس الإنسان، و خلقت من النّار، أو من مارج من نار، أى من صافى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۰

شعلتها، و إبليس من هذا الصنف.

و قد عبّر بعض العلماء عن الجن بأنّها: نوع من الأرواح العاقلة المجردة من المادة (و واضح أن تجردها ليس كاملا، فما يخلق من المادة فهو مادى، و لكن يمكن أن يكون نصف تجرد لأنه لا يدرك بحواسنا، و بتعبير آخر: إنّه نوع من الجسم اللطيف).

و يستفاد من الآيات القرآنية أيضا أنّ الجن فيهم المؤمن المطيع و الكافر العاصى، و أنّهم مكلفون شرعا، و مسئولون.

و من الطبيعى أنّ شرح هذه الأمور و مسألة انسجامها مع العلم الحديث يتطلب منا بحثا مطولا، و سنتناوله إن شاء اللّه فى تفسير سورة الجن.

و ممّا ينبغى الإشارة إليه فى هذا الصدد .. أنّ كلمة «الجان» الواردة فى الآيات مورد البحث هى من مادة (الجن) و لكن .. هل ترمزان إلى معنى واحد؟ فقد ذهب بعض المفسّرين إلى أن الجان نوع خاص من الجن، و لكننا لا نرى ذلك.

فلو جمعنا الآيات القرآنية الواردة بهذا الشأن مع بعضها البعض لا تضح أن كلا المعنيين واحد، لأن الآيات القرآنية وضعت «الجن» فى قبال الإنسان تارة، و وضعت «الجان» تارة أخرى.

فمثلا نقرأ فى الآية (۸۸) من سورة الإسراء قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُ

و فى بعض الآية (۵۶) من سورة الذاريات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

فى حين نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة الرحمن خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

و فى الآية (۳۹) من نفس السورة فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌ

فمن مجموع الآيات أعلاه و الآيات القرآنية الأخرى يستفاد بوضوح أن الجنّ و الجان لفظان لمعنى واحد، و لهذا وردت فى الآيات السابقة كلمة «الجن»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۱

فی مقابل الإنسان، و کذا الحال بالنسبة «للجان».

و ینبغی التنویه إلی أن القرآن الکریم قد ذکر «الجان» و یرید به نوعا من الأفاعی کما جاء فی قصة موسی علیه السّلام کَأَنَّها جَانٌ فی سورة القصص- ۳۱، إلّا أنّ ذلک خارج نطاق بحثنا.

۶- القرآن و خلق الإنسان:

شاهدنا فی الآیات الأنفة أن القرآن قد تناول مسألة خلق الإنسان بشکل مختصر و مکثف تقریبا، لأنّ الهدف الأساسی من التناول هو الجانب التربوی فی الخلق، و ورد نظیر ذلک فی أماکن أخری من القرآن، کما فی سورة السجدة، و المؤمنون، و سورة ص، و غیرها.

و بما أنّ القرآن الکریم لیس کتابا للعلوم الطبیعیة بقدر ما هو کتاب حیاة الإنسان یرسم له فیه أسالیب التربیة و أسس التکامل. فلا ینتظره منه أن یتناول جزئیات هذه العلوم من قبیل تفاصیل: النمو، التشریح، علم الأجنّة، علم النبات و ما شابه ذلک، إلّا أنّه لا یمنع من أن یتطرق بإشارات مختصرة إلی قسم من هذه العلوم بما یتناسب مع البحث التربوی المراد طرحه.

بعد هذه المقدمة نشرع بالموضوع من خلال بحثین:

۱- التکامل النوعی من الناحیة العلمیة.

۲- التکامل النوعی وفق المنظور القرآنی.

فی البدء، نتناول البحث الأوّل و ندرس المسألة وفق المقاییس الخاصة للمعلوم الطبیعیة بعیدا عن الآیات و الرّوایات:

ثمة فرضیتان مطروحتان فی أوساط علماء الطبیعة بشأن خلق الکائنات الحیة بما فیها الحیوانات و النباتات:

ألف: فرضیة تطوّر الأنواع (ترانسفورمیسم) و التی تقول: إنّ الکائنات الحیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۲

لم تکن فی البدایة علی ما هی علیه الآن، و إنّما کانت علی هیئة موجودات ذات خلیة واحدة تعیش فی میاه المحیطات، و ظهرت بطفرة خاصة من تعرقات طین أعماق البحار.

أیّ أنّها کانت موجودات عدیمة الروح، و قد تولدت منها أوّل خلیة حیة نتیجة لظروف خاصّة.

و هذه الکائنات الحیة لصغرها لا تری بالعین المجرّدة و قد مرت بمراحل التکامل التدریجی و تحولت من نوع إلی آخر.

و تمّ انتقالها من البحار إلی الصحاری و منها إلی الهواء ... فتکونت بذلک أنواع النباتات و الحیوانات المائیة و البریة و الطیور.

و إن أکمل مرحلة و أتمّ حلقه لهذا التکامل هو الإنسان الذی نراه الیوم، الذی تحول من موجودات تشبه القرود إلی القرود التی تشبه الإنسان ثمّ وصل إلی صورته الحالیة.

ب- فرضیة ثبوت الأنواع (فیکنسیسم)، و التی تقول: إنّ أنواع الکائنات الحیة منذ بدایتها و ما زالت تحمل ذات الأشکال و الخواص، و لم یتغیر أیّ من الأنواع إلی نوع آخر، و من جملتها الإنسان فکان له صورته الخاصّة به منذ بدایة خلقه.

و قد کتب علماء کلا الفریقین بحوثا مطولة لإثبات عقیدتهم، و جرت مناظرات و منازعات کثیرة فی المحافل العلمیة حول هذه المسألة، و قد اشتد النزاع عند ما عرض کل من (لامارک) العالم الفرنسی المعروف المتخصص بعلوم الأحیاء و الذی عاش بین أوخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر، و (داروین) عالم الأحیاء الإنکلیزی الذی عاش فی القرن التاسع عشر نظراتهما فی مسألة تطوّر الأنواع بأدلة جدیدة.

و ممّا ینبغی التنویة إلیه، هو أنّ معظم علماء الیوم یمیلون إلی فریضة تطوّر أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۳

تكامل الأنواع هذه خصوصا فى محافل العلوم الطبيعية.

أدلة القائلين بالتكامل:

يمكننا تلخيص أدلتهم بثلاثة أقسام:

الأوّل: الأدلة المأخوذة من الهياكل العظيمة المتحجرة للكائنات الحيّة القديمة فإن الدراسات لطبقات الأرض المختلفة (حسب اعتقادهم) تظهر أن الكائنات الحيّة قد تحولت من صور بسيطة إلى أخرى أكمل و أكثر تعقيدا، و لا يمكن تفسير ما عثر عليه من متحجرات الكائنات الحية إلّا بفرضية التكامل هذه.

الثّانى: مجموع القرائن التى جمعت فى (التشريح المقارن).

و يؤكّد هؤلاء العلماء عبر بحوثهم المطولة المفصلة: إنّنا عند ما نشرّح الهياكل العظيمة للحيوانات المختلفة و نقارنها فيما بينها، نجد أن ثمّة تشابها كبيرا فيما بينها، ممّا يشير إلى أنّها جاءت من أصل واحد.

الثّالث: مجموع القرائن التى حصل عليها من (علم الأجنّة).

فيقولون: إنّنا لو وضعنا جميع الحيوانات فى حالتها الجنينية- قبل أن تأخذ شكلها الكامل- مع بعضها، فسنرى أنّ الأجنّة قبل أن تتكامل فى رحم أمهاتها أو فى داخل البيوض تتشابه إلى حد كبير .. و هذا ما يؤكّد على أنّها قد جاءت فى الأصل من شىء واحد.

أجوبة القائلين بثبوت الأنواع:

إلّا أن القائلين بفرضية ثبوت الأنواع لديهم جواب واحد لجميع أدلة القائلين بالتكامل و هو: أن القرائن المذكورة لا تملك قوّة الإقناع، و الذى لا يمكن إنكاره أن الأدلة الثلاثة توجد فى الذهن احتمالا ظنيا لمسألة التكامل، إلّا أنّها لا تقوى أن تصل إلى حال اليقين أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۴

و بعبارة أوضح: إنّ إثبات فرضية التكامل و انتقالها من صورة فرض علمى إلى قانون علمى قطعى .. إمّا أن يكون عن طريق الدليل العقلى، أو عن طريق الحس و التجربة و الإختيار، و لا ثالث لها.

أمّا الأدلة العقلية و الفلسفية فليس لها طريق إلى هذه المسائل كما نعلم، و أما يد التجربة و الإختيار فأقصر من أن تمتد إلى مسائل قد امتدت جذورها إلى ملايين السنين.

إنّ ما ندركه بالحس و التجربة لا يتعدى بعض الحالات السطحية، و لفترة زمنية متباعدة، على شكل طفرة وراثية (موتاسيون) فى كل من الحيوان و النبات.

فمثلا ... نرى أحيانا فى نسل الأغنام العادية ولادة مفاجئة لخروف ذى صوف يختلف عن صوف الخراف العادية، فيكون أنعم و أكثر لينا من العادية بكثير، فيكون بداية لظهور نسل جديد يسمّى (أغنام مرينوس).

أو أنّ حيوانات تحصل فيها الطفرة الوارثية فيتغير لون عيونها أو أظفارها أو شكل جلودها و ما شابه ذلك .. لكنّه لم يشاهد لحدّ الآن طفرة تؤدى إلى حصول تغيير مهم فى الأعضاء الأصلية لبدن أىّ حيوان، أو يتبدل نوع منها إلى نوع آخر.

بناء على ذلك .. يمكننا أن نتخيل أنّ نوعا من الحيوان يتحول إلى نوع آخر بطريق تراكم الطفرة الوراثية، كأن تتحول الزواحف الى طيور و لكنّ ذلك ليس سوى حدس و مجرّد تخيل لا غير، و لم نر الطفرات الوارثية قد غيرت عضوا أصليا لحيوان ما إلى صورة أخرى.

نخلص ممّا تقدم إلی النتیجة التالیة: إن الأدلة التی یطرحها أنصار فرضیة (الترانسفورمیسم) لا تتجاوز کونها فرضا لا غیر، لذا نری أنصارها یعبرون عنها ب (فرضیة تطوّر الأنواع) و لم یجرأ أیّ منهم من تسمیتها بالقانون أو الحقیقة العلمیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۵

نظریة التکامل و .. الإیمان باللّه:

الکثیر ممّن یحاولون تصویر نوع من التضاد بین هذه الفرضیة و مسألة الإیمان باللّه، و لعل الحق یعطی لهم من جهة، حیث أنّ العقیدة الداروینیة فی واقعها قد أوجدت حربا شعواء بین أصحاب الکنیسة من جانب و مؤیدی داروین من جانب آخر، حتی وصل الصراع ذروته بین الطرفین فی تلک الفترة بعد ما لعب الظرف السیاسی و کذا الاجتماعی دورهما (ممّا لا یسع المجال لشرح ذلک هنا)، فکانت النتیجة أن اتهم أصحاب الکنیسة الداروینیة بأنّها لا تنسجم مع الإیمان باللّه.

و قد کشفت الأیّام عن عدم وجود تضاد بین الأمرین، فإنّنا سواء قبلنا بفرضیة التکامل أو نفیناها لفقدانها الدلیل، فلا یمنع من الإیمان باللّه بکلا الاحتمالین.

فإذا قبلنا بالفرضیة فلکونها قانونا علمیا مبنیا علی العلة و المعلول، و لا فرق فی العلاقة بین العلة و المعلول فی عالم الکائنات الحیة و بقیة الموجودات، فهل یعتبر اکتشاف العلل الطبیعیة من قبیل نزول الأمطار، المد و الجزر فی البحار، الزلازل و ما شابهها، مانعا من الإیمان باللّه؟ الجواب بالنفی قطعا. إذن فاکتشاف وجود رابطة و علاقة تکاملیة بین أنواع الموجودات الحیة لا یؤدی إلی تعارض مع مسألة الإیمان باللّه کذلک.

إذن، فالأشخاص الذین یتصورون أن کشف العلل الطبیعیة ینافی الإیمان بوجود اللّه هم الذین یذهبون هذا المذهب و إلّا فإنّ کشف هذه العلل لیس- فقط- لا یتعارض مع التوحید، و إنّما سیعطینا أدلة جدیدة من عالم الخلیقة لإثبات وجوده سبحانه و تعالی.

و ممّا ینبغی ذکره: أنّ داروین قد تبرأ من تهمة الإلحاد و صرح فی کتابه (أصل الأنواع) قائلا: إنّنی مع قبولی لتکامل الأنواع فإنّی اعتقد بوجود اللّه، و أساسا فإنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۶

بدون الاعتقاد بوجود اللّه لا یمکن توجیه مسألة التکامل.

و قد کتب عن داروین بما نصه: (إنّه بقی مؤمنا باللّه الواحد رغم قبوله بالعلل الطبیعیة فی ظهور الأنواع المختلفة من الأحیاء، و قد کان إحساسه بوجود قدرة ما فوق البشر یشتد فی أعماقه کلما تقدم فی السن، معتبرا أن لغز الخلق یبقی لغزا محیرا للإنسان)[۴۱].

کان یعتقد أن توجیه هذا التکامل النوعی المعقد و العجیب، و تحویل کائن حی بسیط جدّا إلی کل هذه الأنواع المختلفة من الأحیاء لا یتمّ إلّا بوجود خطة دقیقة یضعها و یسیرها عقل کلی.

و هو کذلک .. إذ کیف یمکن إیجاد کل هذه الأنواع العجیبة و المحیرة و التی لکل منها تفصیلات و شؤون واسعة، من مادة واحدة بسیطة جدا و حقیرة .. کیف یمکن ذلک بدون الاستناد علی علم و قدرة مطلقین؟! النتیجة: إنّ الضجّة المفتعلة فی وجود تضاد بین عقیدة التکامل النوعی و بین مسألة الإیمان باللّه إنّما هی بلا أساس و فاقدة للدلیل (سواء قبلنا بالفرضیة أو لم نقبلها).

تبقی أمامنا مسألة جدیرة بالبحث و هی: هل أنّ فرضیة تطور الأنواع تتعارض مع ما ذکره القرآن حول قصة خلق آدم، أو لا؟

القرآن و مسألة التکامل:

الجدير بالذكر أن كلّا من مؤيدى و منكرى فرضية التكامل النوعى- نعنى المسلمين منهم- قد استدل بآيات القرآن الكريم لإثبات مقصوده، و لكنّهما فى بعض الأحيان و تحت تأثير موقفهما قد استدلا بآيات لا ترتبط بمقصودهما إلّا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۷

بعيد، و لذلك سنتطرق إلى الآيات القابلة للبحث و المناقشة.

أهم آية يتمسك بها مؤيد و الفرضية، الآية الثّالثة و الثلاثون من سورة آل عمران إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ، وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ

فيقولون: كما أنّ نوحا و آل إبراهيم و آل عمران كانوا يعيشون ضمن أممهم فاصطفاهم اللّه من بينهم فكذلك آدم، أى ينبغى أنّه كان فى عصره و زمانه أناس باسم «العالمين» فاصطفاه اللّه من بينهم، و هذا يشير إلى أن آدم لم يكن أوّل إنسان على وجه الأرض، بل كان قبله أناس آخرون، ثمّ امتاز آدم من بينهم بالطفرة الفكرية و الروحية فكانت سببا لاصطفائه من دونهم.

هذا و ذكروا آيات أخر و لكنّها من حيث الأصل لا ترتبط بمسألة البحث، و لا يعدو تفسيرها بالتكامل أن يكون تفسيرا بالرأى، و بالبعض الآخر مع كونه ينسجم مع التكامل النوعى إلّا أنّه ينسجم مع الثبوت النوعى و الخلق المستقل لآدم كذلك، و لهذا ارتأينا صرف النظر عنها.

أمّا ما يؤخذ على هذا الاستدلال فهو أنّ كلمة «العالمين» إن كانت بمعنى الناس المعاصرين لآدم عليه السّلام و أنّ الاصطفاء كان من بينهم، كان ذلك مقبولا، أمّا لو اعتبرنا «العالمين» أعم من المعاصرين لآدم، حيث تشمل حتى غير المعاصرين، كما

روى فى الحديث المعروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى فضل فاطمة عليها السّلام حيث قال: «أمّا ابنتى فاطمة فهى سيدة نساء العالمين من الأولين و الآخرين»،

ففى هذه الحال سوف لا تكون لهذه الآية دلالة على مقصودهم، و هو شبيه بقول قائل: إنّ اللّه تعالى اصطفى عدّة أشخاص من بين الناس جميعا فى كل القرون و الأزمان، و آدم عليه السّلام أحدهم، و عندها سوف لا يكون لازما وجود أناس فى زمان آدم كى يطلق عليهم اسم «العالمين» أو يصطفى آدم من بينهم، و خصوصا أن الاصطفاء إلهى، و اللّه عزّ و جلّ مطلع على المستقبل و على كافة الأجيال فى كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۸

الأزمان ۴۲].

و أمّا مؤيد و ثبوت الأنواع فقد اختاروا الآيات مورد البحث و ما شابهها، حيث نقول إنّ اللّه تعالى خلق الإنسان من تراب من طين متعفن.

و من الملفت للنظر أن هذا التعبير قد ورد فى صفة خلق «الإنسان» وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ الآية السادسة و العشرون من سورة الحجر- و أيضا فى صفة خلق «البشر» وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ الآية الثامنة و العشرون من سورة الحجر- و فى مسألة سجود الملائكة بعد خلق شخص آدم أيضا (لاحظ الآيات ۲۹، ۳۰، ۳۱ من سورة الحجر).

عند الملاحظة الأولى للآيات يظهر أن خلق آدم كان من الحمأ المسنون أوّلا، و من ثمّ اكتملت هيئته بنفخ الروح الإلهية فيه فسجد له الملائكة إلّا إبليس.

ثمّ إنّ أسلوب تتابع الآيات لا ينم عن وجود أىّ من الأنواع الأخرى منذ أن خلق آدم من تراب حتى الصورة الحالية لبنيه.

و على الرغم من استعمال الحرف «ثمّ» فى بعض من هذه الآيات لبيان الفاصلة بين الأمرين، إلّا أنّه لا يدل أبدا على مرور ملايين السنين و وجود آلاف الأنواع خلال تلك الفاصلة.

بل لا مانع إطلاقا من كونه إشارة إلى نفس مرحلة خلق آدم من الحمأ المسنون، ثمّ مرحلة خلقه من الصلصال، فخلق بدن آدم، و نفخ الروح فيه.

و ذلك ما ملاحظه فى استعمال «ثمّ» فى مسألة خلق الإنسان فى عالم الجنين و المراحل التى يطويها .. يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ ... ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۷۹

[۴۳].

فهذه الآية المباركة تدلل على أن استعمال «ثم» يعبر عن وجود فاصلة ليس من الضرورى أن تكون طويلة، فيمكن كونها فاصلة طويلة أو قصيرة.

و خلاصة ما ذكر: أن الآيات القرآنية و إن لم تتطرق مباشرة لمسألة التكامل النوعى أو ثبوت الأنواع، لكنّ ظاهرها (فى خصوص الإنسان) ينسجم مع مسألة الخلق المستقل، و إن لم يكن بالتصريح المفصل، لأنّ أكثر ما يدور ظاهر الآيات حول الخلق المستقل المباشر، أمّا ما يتعلق بخلق سائر الأحياء (من غير الإنسان) فقد سكت القرآن عنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۴۵) ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ (۴۶) وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۷) لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ (۴۸) نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۴۹)

وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ (۵۰)

التّفسير

نعم الجنّة الثّمان:

رأينا فى الآيات السابقة كيف وصف اللّه تعالى عاقبة أمر الشيطان و أنصاره و أتباعه، و أنّ جهنم بأبوابها السبعة مفتحة لهم.

و جريا على أسلوب القرآن فى التربية و التعليم جاءت هذه الآيات المباركات (و من باب المقارنة) لترفع الستار عن حال الجنّة و أهلها و ما ترفل به من نعم مادية و معنوية، جسدية و روحية.

و قد عرضت الآيات ثمانية نعم كبيرة (مادية و معنوية) بما يساوى عدد أبواب الجنّة.

۱- أشارت فى البدء إلى نعمة جسمانية مهمّة حيث: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ و يلاحظ أنّ هذه الآية قد اتخذت من صفة (التقوى) أساسا لها، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۱

الخوف من اللّه و الورع و الالتزام، فهى إذن ... جامعة لكافة صفات الكمال الإنسانى.

إنّ ذكر الجنات و العيون بصيغة الجمع إشارة إلى تنوع رياض الجنّة و كثرة عيونها، و التى لكل منها لذة مميزة و طعم خاص.

۲ و ۳- ثمّ تشير الآيات إلى نعمتين معنويتين مهمّتين أخيرتين (السلامة) و (الأمن) .. السلامة من أىّ أذى و ألم، و الأمن من كل خطر،

فتقول- على لسان الملائكة مرحبة بهم-: ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ

و فى الآية التّالية بيان لثلاث نعم معنوية أخرى:

۴- وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍ أى: الحسد و الحقد و العداوة و الخيانة[۴۴].

۵- إِخْواناً تربطهم أقوى صلات المحبة.

۶- عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ۴۵].

إن جلساتهم الاجتماعية خالية من القيود المتعبة التى يعانى منها عالمنا الدنيوى، فلا طبقية و لا ترجيح بدون مرجح و الكل إخوان، يجلسون متقابلين فى صف واحد و مستوى واحد.

و بطبيعة الحال، فهذا لا ينافى تفاوت مقاماتهم و درجاتهم الحاصلة من درجة الإيمان و التقوى فى الحياة الدنيا، و لكنّ ذلك التساوى إنما يرتبط بجلساتهم الاجتماعية.

۷- ثمّ تأتى الإشارة إلى النعمة المادية و المعنوية السابعة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۲

لا- يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ إنّه ليس كيوم استراحة بهذه الدنيا يقع بين تعب و نصب قبله و بعده، و لا- يدع الإنسان يجد طعم الراحة و الاستقرار.

۸- و لا يشغلهم همّ فناء أو انتهاء نعم وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ

بعد أن عرض القرآن الكريم النعم الجليلة التى ينالها المتقون فى الجنّة بذلك الرونق المؤثر الذى يوقع المذنبين و العاصين فى بحار لجية من الغم و الحسرة و يجعلهم يقولون: يا ليتنا نصيب بعض هذه المواهب، فهناك، يفتح اللّه الرحمن الرحيم أبواب الجنّة لهم و لكن بشرط، فيقول لهم بلهجة ملؤها المحبّة و العطف و الرحمة و على لسان نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

إنّ كلمة «عبادى» لها من اللطافة ما يجذب كل إنسان، و حينما يختم الكلام ب الْغَفُورُ الرَّحِيمُ يصل ذلك الجذب إلى أوج شدته المؤثرة.

و كما هو معهود من الأسلوب القرآنى، تأتى العبارات العنيفة حين تتحدث عن الغضب و العذاب الإلهى لتمنع من سوء الاستفادة من الرحمة الإلهية، و لتوجد التعادل بين مسألتى الخوف و الرجاء، الذى يعتبر رمز التكامل و التربية فيقول و بدون فاصلة: وَ أَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ

بحوث

۱- رياض و عيون الجنّة:

إنّ فهم و استيعاب أبعاد النعم الإلهية التى تزخر بها الجنّة و نحن نعيش فى هذا العالم الدنيوى المحدود، يعتبر أمرا صعبا جدا، بل و من غير الممكن، لأنّ نعم هذا العالم بالنسبة لمنعم الآخرة كنسبة الصفر إلى رقم كبير جدّا .. و مع ذلك فلا يمنع من أن نحس ببعض أشعتها بفكرنا و روحنا.

إنّ القدر المسلم بهذا الخصوص، هو أنّ النعم الأخروية متنوعة جدّا، و ينطق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۳

بهذه الحقيقة التعبير بال «جنات» فى الآيات المتقدمة و غيرها من الآيات الأخر، و كذلك التعبير بال «عيون».

لقد ورد فى القرآن الكريم (فى سور الإنسان، الرحمن، الدخان، محمد و غيرها) إشارة إلى أنواع مختلفة من هذه العيون، و أشير الى تنوعها بإشارات صغيرة. و لعل ذلك تصوير لأنواع الأعمال الصالحة فى هذا العالم، و سنشير إلى هذا الأمر إن شاء اللّه عند تفسيرنا لهذه السور.

۲- النّعم المادية و غير المادية:

على خلاف ما يتصور البعض .. فإنّ القرآن لم يبشر الناس دائما بالنعم المادية للجنّة فقط، بل تحدث مرارا عن النعم المعنوية أيضا، و الآيات مورد البحث نموذج واضح لذلك حيث نرى أن أول ما يواجه أهل الجنّة هناك هو الترحيب و البشارة من الملائكة لأهل الجنّة عند دخولهم فيها ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ

و من النعم الروحية الأخرى التى أشارت إليها هذه الآيات .. تطهير الصدور من الأحقاد و كل الصفات المذمومة كالحسد و الخيانة و ما شابهها، و التى تذهب بروح الأخوة.

و كذلك حذف الاعتبارات و الامتيازات الاجتماعية المغلوطة التى تخدش استقرار فكر و روح الإنسان، و هو ما ذكره فى وصف جلساتهم.

و من نافلة القول .. أن (السلامة) و (الأمن) المجعولتين على رأس النعم الأخروى، هما أساس لكل نعمة أخرى، و لا يمكن الاستفادة الكاملة من أية نعمة بدونهما و هذا ما ينطبق حتى على الحياة الدنيا، فالأمن و السلام أساس لكل نعيم و رخاء و إلّا فلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۴

۳- الحقد و الحسد عدوّا الأخوة:

من لطيف ما يلاحظ فى هذه الآيات أنّها بعد أن ذكرت نعمة السلامة و الأمن، و قبل أن تتعرض لبيان حال الأخوّة و الألفة التى سيكون عليها أهل الجنّة، أشارت إلى مسألة نزع الصفات المانعة للأخوّة، كالحقد و الحسد و الغرور و الخيانة، جامعة كل ذلك بكلمة «الغل» ذات المفهوم الواسع.

و فى الحقيقة، إنّ قلب الإنسان ما لم يطهر من هذا «الغل» فسوف لا تتحقق نعمة السلامة و الأمن و لا الأخوّة و المحبّة، بل الحروب و المظالم و المجابهات و الصراعات على الدوام، و هو ما يؤدى إلى قلع جذور الأخوّة و السلامة و الأمن من الحياة.

۴- الجزاء الكامل:

يقول بعض المفسّرين: إنّ الجزاء لا يكتمل إلّا بأربعة أمور: منافع و خيرة، أن تكون مقرونة بالاحترام، خالية من أىّ ألم، دائمة و خالدة.

و قد أشارت الآيات مورد البحث إلى هذه الأمور الأربعة ...

فعبارة إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ إشارة إلى المنفعة الأولى.

و عبارة ادْخُلُوها بِسَلامٍ آمِنِينَ دليل على الاحترام و التقدير.

و عبارة وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ إشارة إلى نفى أى نوع من الآلام و المعاناة الروحية (النفسية).

و عبارة لا يَمَسُّهُمْ فِيها نَصَبٌ إشارة إلى نفى الآلام الجسمانية.

أمّا عبارة وَ ما هُمْ مِنْها بِمُخْرَجِينَ فهى حاكية عن آخر شرط، و هو دوام و بقاء النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۵

و بهذا يكون هذا الجزاء و الثواب كاملا من كل الجهات ۴۶].

۵- تعالوا لنجعل من هذه الدنيا جنّة:

إنّ النعم المادية و الروحية الأخروية التى صورتها الآيات السابقة فى حقيقتها تشكل أصول النعم لهذا العالم، و لعل القرآن الكريم يريد أن يفهمنا بأنّنا يمكن أن نوجد جنّة صغيرة فى حياتنا تكون شبيهة بتلك الجنّة الكبيرة، فيما لو استطعنا أن نوفر شرائطها المطلوبة اللازمة.

فلو طهرنا قلوبنا من الحقد و العداوة.

و قوّينا بيننا روابط الأخوّة و المحبّة.

و حذفنا من حياتنا تلك الاعتبارات و اشكال الترف الزائدة و المفرقة.

و إذا ما عملنا لتحقيق الأمن و السلام فى مجتمعنا.

و إذا أدرك الناس بأنّه لا استعباد و لا استغلال و لا طبقية فيما بينهم ... فإنّنا- و الحال هذه- سنكون فى جنّة الحياة الدنيا!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۵۱ الى ۶۰]

اشارة

وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (۵۵)
قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (۶۰)

التّفسير

الضّيوف الغرباء ..!

تتحدث هذه الآيات المباركات و ما بعدها عن الجنبة التربوية فى تاريخ حياة الأنبياء عليهم السلام و ما جرى لهم مع العصاة من أقوامهم، و تطرح الآيات نماذج حيّة للاعتبار، لكلا الطرفين (عباد اللّه المخلصين من طرف و أتباع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۷

الشيطان من طرف آخر).

و من لطيف البيان القرآنى شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم (و هم الملائكة الذين جاؤوا بهيئة البشر و بشروه بولد جليل الشأن، و من ثمّ أخبروه عن أمر عذاب قوم لوط).

فقد جاء فى الآيتين السابقتين أمر اللّه إلى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتبيان سعة رحمة اللّه للناس مع تبيان أليم عذابه، و يطرح فى هذه القصة نموذجين حيين لهاتين الصفتين، و بذلك تتبيّن صلة الربط بين هذه الآيات.

فتقول أوّلا: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ

فكلمة «ضيف» جاءت بصيغة المفرد، و لا مانع من ذلك حيث ذهب بعض كبار المفسّرين إلى أن «ضيف» تستعمل مفردا و جمعا.

و هؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم عليه السّلام بوجوه خالية من الابتسامة، فابتدءوه بالسلام إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً.

فقام إبراهيم عليه السّلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيأ لهم طعاما و وضعه أمامهم، إلّا أنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال فى خاطره قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۴۷].

و كان مصدر خوف إبراهيم عليه السّلام ممّا كان عليه متعارفا فى مسألة رد الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلى وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

و لكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم فى هذا الحال حتى: قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ

من هو المقصود بالغلام العليم؟

يبدو من خلال متابعة الآيات القرآنية أنّ المقصود هو (إسحاق)، حيث نقرأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۸۸

فى سورة هود، الآية (۷۱) أن امرأة إبراهيم كانت واقفة بقربه عند ما بشرته الملائكة، و يظهر كذلك أنّها كانت امرأة عاقرا فبشروها أيضا وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ

و كما هو معروف فإنّ سارة، هى أم إسحاق، و لإبراهيم عليه السّلام ولد آخر أكبر من إسحاق و اسمه (إسماعيل) من (هاجر)- الأمّة التى تزوجها إبراهيم.

كان إبراهيم يعلم جيدا أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (و مع أن كل شىء مقدورا للّه عز و جلّ)، و لهذا أجابهم بصيغة التعجب:

قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ .. هل البشارة منكم أم من اللّه عزّ و جلّ و بأمره، أجيبونى كى أزداد اطمئنانا؟

إنّ تعبير «مسّنى الكبر» إشارة إلى ما كان يجده من بياض فى شعره و تجاعيد فى وجهه و بقية آثار الكبر فيه.

و يمكن لأحد أن يشكل: بأنّ إبراهيم عليه السّلام قد سبق بحالة مشابهة حينما ولد له إسماعيل عليه السّلام و هو فى الكبر .. فلم التعجب من تكرار ذلك؟

و الجواب: أوّلا- كان بين ولادة إسماعيل و إسحاق (على ما يقول بعض المفسّرين) أكثر من عشر سنوات، و بذلك يكون تكرار الولادة مع مضى هذه المدّة ضعيف الاحتمال.

و ثانيا: إنّ حدوث و وقوع حالة مخالفة للموازين الطبيعية مدعاة للتعجب، و إذا ما تكررت فلا يمنع من التعجب لحدوثها و تكرارها مرّة أخرى.

فولادة مولود جديد فى هكذا سن أمر غير متوقع، و إذا ما وقع فهو غريب و عجيب فى كل الأحوال ۴۸].

و على أية حال .. لم يدع الملائكة مجالا- لشك أو تعجب إبراهيم حيث قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِ فهى بشارة من اللّه و بأمره، فهى حقّ مسلّم به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۸۹

و تأكيدا للأمر و دفعا لأى احتمال فى غلبة اليأس على إبراهيم، قالت الملائكة: فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ

لكنّ إبراهيم عليه السّلام طمأنهم بعدم دخول اليأس من رحمة اللّه إليه، و إنّما هو فى أمر تلك القدرة التى تجعل من اختراق النواميس الطبيعية أمر حاصل و بدون الخلل فى الموازنة، قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ

إنّ الضالين هم الذين لا يعرفون اللّه و قدرته المطلقة، اللّه الذى خلق الإنسان ببنائه العجيب المحير من ذرة تراب و من نطفة حقيرة ليخرجه ولدا سويا، اللّه الذى حوّل نخلة يابسة الى حاملة للثمر بإذنه، اللّه الذى جعل النّار بردا و سلاما .. هل من شك بأنّه سبحانه قادر على كل شىء، بل و هل يصح ممن آمن به و عرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته!؟! و راود إبراهيم عليه السّلام- بعد سماعه البشارة- أنّ الملائكة قد تنزلت لأمر ما غير البشارة، و ما البشارة إلّا مهمّة عرضية ضمن مهمّتهم الرئيسية، و لهذا قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ

و مع علم الملائكة بإحساس إبراهيم عليه السّلام المرهف و أنّه دقيق فى كل شىء و لا يقنع بالعموميات، فبينوا له أمر نزول العذاب على قوم لوط المجرمين باستثناء أهله إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ

إنّ ظاهر تعبير «آل لوط» و ما ورد من تأكيد بكلمة «أجمعين» سيشمل امرأة لوط الضالة التى وقفت فى صف المشركين، و لعل إبراهيم كان مطلعا على ذلك، و لذا أضافوا قائلين: إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ

و «قدّرنا» إشارة إلى المهمّة التى كلفوا بها من اللّه عزّ و جلّ.

هذا و قد بحثنا قصة نزول الملائكة على إبراهيم عليه السّلام و تبشيره بإسحاق عليه السّلام و حديثهم معه بشأن قوم لوط عليه السّلام مفصلا فى تفسيرنا للآيتين (۶۹ و ۷۰) من سورة هود من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۹۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۶۱ الى ۷۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵)

وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (۷۰)

قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵)

وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۹۱

التّفسير

عاقبة مذنبى قوم لوط:

طالعتنا الآيات السابقة بقصة اللقاء بين ملائكة العذاب هؤلاء و بين إبراهيم عليه السّلام، و هذه الآيات تكمل لنا سير أحداث القصّة فتبتدأ من خروجهم من عند إبراهيم حتى لقائهم بلوط عليه السّلام.

فنقرأ أوّلا فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ

فالتفت إليهم لوط قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ

يقول المفسّرون: قال لهم ذلك لما كانوا عليه من جمال الصورة ريعان الشباب، و هو يعلم ما كان متفشيا بين قومه من الانحراف الجنسى .. فمن جهة، هم ضيوفه و مقدمهم مبارك و لا بد من إكرامهم و احترامهم، و لكنّ المحيط الذى يعيشه لوط عليه السّلام مريض و ملوث.

و لهذا ورد تعبير «سىء بهم» فى الآيات المتعرضة لقصة قوم لوط فى سورة هود، أى إنّ هذا الموضوع كان صعبا على نبىّ اللّه و قد اغتم لقدومهم لتوقعه يوما عصيبا! و لكنّ الملائكة لم يتركوه و هذه الهواجس طويلا حتى سارعوا الى القول:

قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ أى إنّنا جئنا بالعذاب الذى واعدتهم به كثيرا، و ذلك لأنّهم لم يعتنوا و لم يصدقوا بما ذكرته لهم.

ثمّ أكّدوا له قائلين: وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِ أى العذاب الحتمى الجزاء الحاسم لقومك الضالين.

ثمّ أضافوا لزيادة التأكيد: وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

فهؤلاء القوم قد قطعوا كل جسور العودة و لم يبق فى شأنهم محلا للشفاعة و المناقشة، كى لا يفكر لوط فى التشفع لهم و ليعلم أنّهم لا يستحقونها أبدا.

ثمّ قال الملائكة للوط: أخرج و أهلك من المدينة ليلا حين ينام القوم أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۲

ينشغلوا بشرابهم و شهواتهم، لأجل نجاة الثلة المؤمنة من قومه (و هم أهله ما عدا زوجته).

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ و كن خلفهم كى لا يتخلف أحد منهم و لتكون محافظا و رقيبا لهم وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ و على أن يكون نظركم إلى الأمام وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ أى إلى أرض الشام، أو أىّ مكان آخر يكون فيه الناس مطهرين من هذه الآثام.

ثمّ ينتقل مجرى الحديث حيث يقول تعالى: وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ أى سوف لا يبقى منهم أحد عند الصباح.

و من الملفت للنظر، أن القرآن قد ترك القصّة عند هذا الحد و عاد إلى بدايتها ليعرض ما ترك القول فيه- لسبب سنشير إليه فيما بعد- فيقول: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ أى إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط! إنّ تعبير أَهْلُ الْمَدِينَةِ ليوحى إلى أن الذين تحركوا صوب منزل لوط عليه السّلام كانوا جمعا كبيرا، و هو ما يوضح بجلاء تلك الوقاحة و القبح و الجسارة التى كانوا عليها، و خصوصا قوله يَسْتَبْشِرُونَ التى تحكى عمق تلوثهم بذلك الدرك السافل، مع أنّ مثل هذا الفعل القبيح ربّما لا يشاهد حتى بين الحيوانات، و إذا ما ابتلى به إنسان (و العياذ باللّه) فإنّه سوف يحاول كتمه و إخفاؤه، حيث أن الإتيان به مدعاة للتحقير و الازدراء من قبل الآخرين .. أمّا قوم لوط، فكانوا مستبشرين بذلك الصيد الجديد و كل يهنئ الآخر على ما سيصيبه من نصيب!! و حينما سمع لوط أصواتهم و ضجيجهم أغتم غمّا شديدا لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدرى أنّهم ملائكة العذاب الى ذلك الوقت و لهذا قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ

أى .. إن كنتم لا تؤمنون باللّه و لا تصدقون بالنّبى و لا تعتقدون بثواب و عقاب، فراعوا حق الضيافة التى هى من السنن المتعارف عليها عند كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۳

المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أىّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحرارا فى دنياكم! ثمّ أضاف قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ ۴۹] أمام ضيفى.

و لكنّهم من الوقاحة و الإصرار على الانحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطا و يحاسبونه، و كأنّه ارتكب جرما فى استضافته لهؤلاء القوم قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ باستضافتهم! فلما ذا خالفت أمرنا؟! و كان قوم لوط من البخل بحيث أنّهم لا- يحبون الضيافة، و كانت مدينتهم على طريق القوافل، و يبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لأجل أن لا ينزل عندهم أحد من القوافل المارة، و تعارفوا على ذلك حتى أصبح عندهم عادة.

و كما يبدو أنّ لوطا كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفا عليه من عمل قومه الخبيث، و لما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين و نهوه عن أن يستضيف أحدا مستقبلا.

عليه، فكلمة «العالمين» فى الآية أعلاه- ما يبدو- إشارة إلى عابرى السبيل، و من هم ليسوا من أهل تلك المدينة.

و عند ما رآهم لوط على تلك الحال من الوقاحة و الجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم و سكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلما ذا تسلكون سبيل الانحراف و لا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۴

ممّا لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره، و لكن لوطا الذى كان يهدف إلى إلقاء الحجّة عليهم أراد أن يقول لهم:

اننى مستعد الى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، و كذلك لأجل إنقاذكم من الفساد و نجاتهم من الانحراف.

و ذهب البعض إلى أنّ المقصود من هؤُلاءِ بَناتِي كل بنات المدينة، باعتباره أبا روحيا للجميع. (إلّا أنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآية).

و ليس نجاف أنّ لوطا ما كان ليزوج بناته من أولئك المشركين الضالين، و لكنّه أراد أن يقول لهم: تعالوا آمنوا لأزوجكم بناتى.

لكنّ الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الانحراف الغرور و العناد .. التى مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية و أفرغتهم من العواطف البشرية، و التى بها يحسون بالخجل و الحياء أمام منطق لوط عليه السّلام، أو أن يتركوا بيت لوط و ينسحبوا عن موقفهم، و لكنّ أنّى لهم ذلك، و الأكثرية بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا فى غيهم و أرادوا أن يمدوا أيديهم إلى الضيوف.

و هنا يخاطب اللّه تعالى نبيّه قائلا: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ

و قرأنا فى سورة هود- فيما يتعلق بهذه القصّة- أنّ ملائكة العذاب قد كشفوا عن أمرهم و قالوا للوط: لا تخف إنّهم لن يصلوا إليك.

و فى الآية السابعة و الثلاثين من سورة القمر نقرأ وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ

و فى بعض الرّوايات: إنّ أحد هؤلاء الضيوف أخذ قبضة من تراب فرماها فى وجوه القوم فأصبحوا لا يبصرون جميعا.

و بعد ذلك يبلغ كلام اللّه تعالى عن هؤلاء القوم الذروة حينما يبيّن عاقبتهم السيئة فى آيتين قصيرتين و بشكل حدّى ملىء بالدروس و العبر بقوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ أى صوت شديد عند شروق الشمس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۵

و يمكن حمل «الصيحة» على أنّها صاعقة عظيمة أو صوت زلزلة رهيب، و المهم أنّه كان صوتا مرعبا أسقط الجميع مغميا عليهم أو ميتين.

و المعلوم أنّ الأمواج الصوتية إذا ما تعدت حدّا معينا فستكون مرعبة مخيفة تهز فرائص الإنسان، و إذا ما ازدادت شدتها فستبهت

الإنسان و تشلّه عن الحركة و ربّما تودى بحياته، بل و من الممكن لها أن تهدم الأبنية، و هذا ما تفعله المتفجرات.

و لم يكتف بذلك بل شمل العذاب المدينة أيضا فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها.

و زيد فى التنكيل بهم وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ

إنّ سقوط الحجارة على رؤوسهم ربّما كان يستهدف من لم يمت من الصيحة المرعبة و لم يصبح تحت الأنقاض، و ربّما لأجل محو أجسادهم، و جثثهم من على الأرض كى لا- يبقى أثر لهؤلاء القوم المجرمين، حتى أنّ المار على تلك الديار بعد نزول الأحجار لا يصدق بسهولة أنّها كانت مدينة معمورة! ثمّ إنّ نزول هذا العذاب ذو المراحل الثلاث (الصيحة الرهيبة، قلب المدينة، المطر الحجرى)- رغم أن كل واحدة منهن كانت تكفى لقطع دابر القوم- كان لمضاعفة عذابهم لشدّة فسادهم و جسارتهم و إصرارهم على إدامة التلوّث بتلك القبائح الشنيعة، و كى يكون عبرة لمن يعتبر.

و هنا يخلص القرآن الكريم إلى النتائج الأخلاقية و التربية فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ۵۰] العقلاء الذين يفهمون الأحداث بفراستهم و ذكائهم و نظرهم الثاقب و يحملون من كل إشارة حقيقة و من كل تنبيه درسا.

و لا تتصوروا أن آثارهم ذهبت تماما، بل هى باقية على طريق القوافل و المارة وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۶

و إن لم تصدقوا فاذهبوا لرؤية آثار المدن المعذبة الواقعة على طريق المسافرين إلى الشام (من المدينة) فانظروا و فكروا و اعتبروا، و عودوا إلى اللّه، و اسلكوا طريق التوبة، و طهّروا نفوسكم من الآثام و الذنوب.

ثمّ تدعوا الآية المؤمنين إلى التفكر مليا فى هذه القصة و استخلاص العبر منها:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

فكيف يمكن للمؤمن أن لا يعتبر و لا يهتز عند ما يطالع خبر هذه الواقعة؟! بحثنا بشىء من التفصيل فى الآيات المتعلقة بقوم لوط فى سورة هود من هذا التفسير، فبحثنا فى معنى «سجيل»، و لما ذا أمطر على هؤلاء القوم المنحرفين بالحجارة، و لماذا قلبت مدينتهم، و لما ذا كان العذاب صباحا، و لما ذا أمر لوط و أهله أن لا يلتفتوا إلى الوراء، و كذلك بحثنا مسألة تحريم الشذوذ الجنسى فى الأديان السماوية و فلسفة التحريم، بالإضافة إلى بحث فى أخلاق قوم لوط ...

و سنبحث هنا بعض ما تبقى من الإشارات المتعلقة بهذه القصّة.

بحوث

۱- ما المقصود ب بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ

«القطع» بمعنى سواد الليل، يقول المرحوم الطبرسى فى (مجمع البيان): القطع كأنّه جمع قطعة، و معناه: سر بأهلك بعد ما يمضى أكثر الليل و تبقى قطعة منه.

و لكنّ الراغب الأصفهانى فى مفرداته يعتبر كلمة «قطع» بمعنى قطعة على صيغة المفرد، مع أن كثيرا من المفسّرين فسّروها بأواخر الليل و عند السحر، و لعل تفسيرهم يعود إلى الآيات الأخرى التى تحدد هذا الوقت فى قصّة آل لوط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۷

نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ[۵۱].

أى إنّهم خرجوا عند ما كان عبّاد الشهوة غارقين فى نوم غفلتهم و قد أفسد وجودهم سكر الشراب و الغرور و الشهوات، فكانت

المدینة مهیئة لآل لوط فی الخروج بسلام.

ثمّ إنّ نزول العقاب کان فی الصباح عند شروق الشمس، و لعل انتخاب هذا الوقت کان لإعطاء المهلة لقوم لوط بعد أن فقدوا أبصارهم، عسی أن یتفکروا فی أمرهم فیعیدوا النظر فی شرکهم و عصیانهم، فکانت تلک اللیلة آخر فرصة لهم.

و یستفاد من بعض الرّوایات .. أنّ بعضا منهم عند ما کانوا فی طریق عودتهم إلی دورهم أقسموا أن لا یدعوا أحدا من آل لوط حیا عند الصباح، و لهذا نزل علیهم العذاب الإلهیة فی ذلک الوقت ۵۲].

۲- تفسیر قوله تعالی: وَ امْضُوا حَیْثُ تُؤْمَرُونَ

ذکرنا أنّ الملائکة أوصت آل لوط بالخروج آخر اللیل إلی المکان الذی عین لهم، إلّا أن الآیات القرآنیة لم تدخل فی تفاصیل ذلک السفر و لم تعین المنطقة التی سیذهبون إلیها، لذلک عرض المفسّرون جملة آراء بهذا الخصوص.

فمنهم من قال: أمروا بالسیر نحو الشام لأنّ محیطها أکثر طهارة.

و قال بعض آخر: إنّ الملائکة عینت لهم قریة و طلبت منهم الذهاب إلیها.

و اکتفی تفسیر المیزان بعبارة: کان لدیهم نوع من الهدیة الإلهیة و الدلالة العلمیة فی سلوک طریقهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۸

۳- علاقة الرّبط بین «المتوسم» و «المؤمن».

لاحظنا تعبیر إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ و إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِلْمُؤْمِنِینَ فی الآیات الحاکیة عن قصّة قوم لوط، و الجمع بین التعبیرین یعطینا: أنّ المؤمن الحقیقی هو المتوسم الذی ذو الفراسة و النباهة.

و

فی روایة عن الإمام الباقر علیه السّلام عند ما سئل عن تفسیر قوله تعالی: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ قال: هم الأمّة، ثمّ قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنّه ینظر بنور اللّه عزّ و جلّ»[۵۳].

و

فی روایة أخری عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «هم الأئمّة»[۵۴].

و

روی أن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قال: «کان رسول اللّه المتوسم، و أنا من بعده، و الأئمّة من ذریتی المتوسمون»[۵۵].

۴- سکر الشّهوة و الغرور!

إن سکر الخمر معروف، و ثمة سکر أشد منه آثارا کسکر المنصب و سکر الشهوة، و قرأنا فی الآیات السابقة کیف أن اللّه یقسم بروح نبیّه لَعَمْرُکَ إِنَّهُمْ لَفِی سَکْرَتِهِمْ یَعْمَهُونَ و لهذا فإنّهم لا یبصرون أوضح طرق النجاة، و بلغ بهم الحال أن یردوا ما عرض علیهم نبیّهم علیهم السّلام أن یشبعوا شهواتهم بالطریق الصحیح المشروع لیتخلصوا من الذنوب و التلوثات و قبائح الأفعال! و الذی نستفیده من موقف لوط علیه السّلام هو أنّ مکافحة الفساد لا یتم بالنهی عنه فقط، بل لا بدّ من تهیئة و تعبید الطریق المعبدة البدلیة، لینتقل الضال

أو المضلل به من جادة الفساد إلى جادة الصلاح، فلا بد من تهيئة الأوضاع و الأجواء السليمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۹۹

للناس مع وجود البرامج المؤثرة الهادفة.

و من غريب ما نطالعه فى بعض الرّوايات .. أنّ لوطا (هذا النّبى الجليل) قد قضى بين قومه ثلاثين عاما و هو يدعوهم إلى الهدى و يحذرهم من مغبة الانغماس فى متاهات الضلال، و مع ذلك لم يؤمن به إلّا أهل بيته (ما عدا زوجته)[۵۶].

ما أعظم ثباته عليه السّلام! مع منحرفين لدرجة لا يطيق أىّ إنسان العيش معهم حتى و لو لساعة واحدة! بل و ما أصعب العيش مع تلك الزوجة! و نقرأ فى الآيتين الخامسة و الثلاثين و السادسة و الثلاثين من سورة الذاريات: فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

فيتّضح لنا .. أنّ العقاب الإلهى لا يكون عشوائيا، بل لا يشمل إلّا المستحقين له و لو كان هناك مؤمن واحد عامل بواجباته لا نقذه اللّه تعالى من بينهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۰

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۷۸ الى ۸۴]

اشارة

وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ (۷۸) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ (۷۹) وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (۸۰) وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۸۱) وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (۸۲)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (۸۳) فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۴)

التّفسير

خاتمة أصحاب الأيكة و أصحاب الحجر:

يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى قصّتين من قصص الأمم السالفة، و هما (أصحاب الأيكة) و (أصحاب الحجر) ليكمل البحث الذى عرضه فى الآيات السابقة حول قوم لوط.

يقول أوّلا: وَ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ ۵۷].

فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ و عاقبناهم على ظلمهم و استبدادهم ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۱

و جعلنا أرضهم و أرض قوم لوط- المتقدمة قصّتهم- على طريقكم وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ فانظروا إليها و إلى عاقبة أمرهم، و اعتبروا يا أولى الألباب.

من هم أصحاب الأيكة؟

قال جمع من المفسّرين، بالإضافة إلى أرباب اللغة: «الأيكة»: هى الأشجار المتشابكة مع بعضها، و «أصحاب الأيكة»: هم قوم «شعيب»

الذين عاشوا فى بلدة مليئة بالماء و الأشجار بين الحجاز و الشام و كانت حياتهم مرفهة ثرية فأصيبوا بالغرور و الغفلة، فأدى ذلك إلى الاحتكار و الفساد فى الأرض.

و قد دعاهم شعيب عليه السّلام إلى التوحيد و نهج طريق الحق، مع تحذيره المكرر لهم من عاقبة أعمالهم السيئة فيما لو استمروا على الحال التى هى عليها.

و من خلال ما بيّنته الآيات فى سورة هود، فإنّهم لم ينصاعوا للحق و لم ينصتوا لداعيه حتى جاءهم عذاب اللّه المهلك.

فبعد أن يئس من إصلاحهم أصابهم حرّ شديد استمر لعدّة أيّام متصلة، و فى اليوم الأخير ظهرت سحابة فى السماء اجتمعوا فى ظلها، ليتفيئوا من حر ذلك اليوم، فنزلت عليهم صاعقة مهلكة فقطعت دابرهم عن آخرهم.

و لعل استعمال القرآن لعبارة «أصحاب الأيكة» فى تسميتهم، إشارة إلى النعم التى أعطاها اللّه لهم، و لكنّهم استبدلوا الشكر بالكفر، فأقاموا صرح الظلم و الاستبداد، فحقّت عليهم كلمة اللّه فأهلكوا بالصاعقة هم و أشجارهم.

و ورد ذكرهم مفصلا- مع التصريح باسم شعيب- فى الآيات (۱۷۶) حتى (۱۹۰) من سورة الشعراء.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ عبارة فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ يمكن أن تشمل قوم لوط و أصحاب الأيكة معا، بدليل ما يأتى بعدها مباشرة وَ إِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ

و المشهور عند المفسّرين أنّ الآية تشير إلى مدينة قوم لوط و مدينة أصحاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۲

الأيكة.

و كلمة «إمام» بمعنى طريق و جادة، لأنّها من مادة. «أمّ»، بمعنى القصد، حيث أنّ الإنسان حينما يسير فى طريق ما إنّما يسير لأجل الوصول إلى غاية معينة أو قصد معين.

و احتمل البعض أنّ الإمام المبين هو اللوح المحفوظ، بدلالة الآية (۱۲) من سورة يس.

و لكن هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ القرآن هنا فى صدد إعطاء درس العبرة للاعتبار، و وجود اسم هذين البلدين فى اللوح المحفوظ سيكون بعيدا عن التأثير فى اعتبار الناس و تذكيرهم، فى حين أن وجود هذين البلدين على طريق القوافل و المارة يمكن أن يكون له الأثر البالغ فيهم.

فعند وقوف الناس قرب تلك الآثار و تذكر خبر أهلها و ما جرى لهم من سوء العاقبة، ربّما سيهمل دموع العابرين عند أرض قوم لوط مرّة، و عند أرض أصحاب الأيكة مرّة أخرى .. فتكون تلك اللحظات لحظات اعتبار، بعد ما عرفوا أو استذكروا ما حل بالقومين من دمار و هلاك نتيجة ظلمهم و ظلالهم.

أمّا «أصحاب الحجر» فهم قوم عصاة عاشوا مرفهين فى بلدة تدعى «الحجر» و قد بعث اللّه إليهم نبيّه صالح عليه السّلام لهدايتهم.

و يقول القرآن عنهم: وَ لَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ و لكن أين تقع هذه البلدة؟

يذكر بعض المفسّرين و المؤرخين: أنّها كانت على طريق القوافل بين المدينة و الشام فى منزل يسمى (وادى القرى) فى جنوب (تيماء) و لا أثر لها اليوم- تقريبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۳

و يذكرون أنّها كانت إحدى المدن التجارية فى الجزيرة العربية، و لها من الأهمية بحيث ذكرها (بطليموس) فى مذكراتها لكنها إحدى المدن التجارية.

و كذلك ذكرها العالم الجغرافى (بلين) باسم (حجرى).

و نستشف من بعض الرّوايات أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما قاد جيشا لدفع جيش الروم فى السنة التاسعة للهجرة، أراد

الجنود أن يتوقفوا فى هذا المكان، فمنعهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و

قال: هنا نزل عذاب اللّه على قوم ثمود[۵۸].

و من الجدير ذكره أنّ القرآن الكريم ذكر مسألة تكذيب الأنبياء فى خبر أصحاب الحجر (و كذلك قوم نوح و قوم شعيب و قوم لوط فى الآيات (۱۰۵ و ۱۲۳ و ۱۶۰) من سورة الشعراء) بالإضافة إلى أقوام أخر كذبت الأنبياء عليهم السّلام، و الواضح من خلال ظاهر القصص أن لكل قوم كان نبىّ واحد لا أكثر.

و لعل مجىء هذا التعبير فى هذه الآية (المرسلين)، باعتبار أنّ الأنبياء لهم برنامج واحد و هدف واحد، و بينهم من درجة من الصلة بحيث أن تكذيب أىّ منهم هو تكذيب للجميع.

و احتمل آخرون وجود أكثر من نبى وسط الأمّة الواحدة، و ذكر اسم أحدهم لأنّه أكثر شهرة.

و كما يبدو فإنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى الصواب منه إلى الثّانى.

و يستمر القرآن بالحديث عن «أصحاب الحجر»: وَ آتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ و موقف الأعراض المشار إليه- كما يبدو- هو عدم استعدادهم لسماع الآيات و التفكر بها.

و تشير الآية إلى أنّهم كانوا من الجد و الدقّة فى أمور معاشهم و حياتهم الدنيوية حتى أنّهم وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۴

و هو ما يبيّن لنا أنّ منطقتهم كانت جبلية، بالإضافة إلى ما توصلوا إليه من مدنية متقدمة، حيث أصبحوا يبنون بيوتهم داخل الجبال ليأمنوا من السيول و العواصف و الزلازل.

و العجيب من أمر الإنسان، أنّه يحزم أمره لتجهيز و تحصين مستلزمات حياته الفانية، و لا يعير أىّ اهتمام لحياته الباقية، حتى يصل به المال لأن لا يكلف نفسه بسماع آيات اللّه و التفكر بها!!.

و أىّ عاقبة ينتظرون بعد عنادهم و كفرهم غير أن يطبق عليهم القانون الإلهى الموعدين به (البقاء للإصلاح) و عدم إعطاء حق إدامة الحياة لأقوام فاسدين و مفسدين .. فليس لهؤلاء سوى البلاء المهلك، و لهذا يقول القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ

و كانت «الصيحة» عبارة عن صوت صاعق مدمر نزل على دورهم و كان من القّوة و الرهبة بحيث جعل أجسادهم تتناثر على الأرض.

و الشاهد على ما قلناه ما تحدثنا به الآية الثّالثة عشر من سورة فصلت: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ.

فالعذاب الإلهى لا تقف أمامه الجبال الشاهقة، و لا البيوت المحصنة، و لا الأبدان القوية أو الأموال الوافرة، و لهذا يأتى فى نهاية قصتهم فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ

و جاءت الآيات (۱۴۱ إلى ۱۵۸) من سورة الشعراء بتفصيل أكثر، و هو ما سيأتى فى محله إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۸۵ الى ۹۱]

اشارة

وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (۸۵) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۶) وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (۸۷) لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (۸۸) وَ قُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (۸۹)

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (۹۰) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (۹۱)

التّفسير

يعود القرآن بعد طرح قصص الأقوام السالفة- كقوم لوط و قوم شعيب و صالح- إلى مسألة التوحيد و المعاد، لأنّ سبب ضلال الإنسان يعود إلى عدم اعتناقه عقيدة صحيحة، و لعدم ارتباطه بمسألة المبدأ و المعاد، فيشير إليهما معا فى آية واحدة وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ

فنظامها محسوب و محكم و هو حق، و كذا هدف خلقها حقّ.

فيكون هذا النظام البديع و الخلق الدقيق المنظم دليلا واضحا على الخالق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۶

العالم القادر جلّ و علا، و هو حق أيضا، بل هو حقيقة الحق، و كل حق بما هو متصل بوجوده المطلق فهو حق، و كل شىء لا يرتبط به سبحانه فهو باطل .. و هذا ما يخصّ التوحيد أمّا فى المعاد فيقول: وَ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ .. و إن تأخرت فإنّها آتية بالنتيجة.

و لا يبعد أن تكون الفقرة الأولى بمنزلة الدال على الفقرة الثّانية، لأنّ هذا العالم إنّما يكون حقا عند ما يكون لهذه الأيام الدنيوية المليئة بالآلام و المتاعب هدف عال يبرر خلق هذا الوجود الكبير- فليست الدنيا لنحياها و تنتهى- و لهذا فمسألة خلق السماوات و الأرض و ما بينهما حقّ يدل على وجود يوم القيامة و الحساب، و إلّا لكان الخلق عبثا و ليس حقّا- فتأمل.

و بعد ذلك .. يأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقابل عناد قومه و جهلهم و تعصبهم و عداءهم بالمحبّة و العفو و غض النظر عن الذنوب، و الصفح عنهم بالصفح الجميل، أى غير مصحوب بملامة فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ

لأنّك تملك الدليل الواضح على ما أمرت بالدعوة إليه، فلا تحتاج و إيّاهم إلى الخشونة لتثبيت عقيدة المبدأ و المعاد فى قلوب الناس، فالعقل و المنطق السليم معك.

بالإضافة إلى أنّ الخشونة مع الجهلة غالبا ما تؤدى بهم إلى الرد بالمثل، بل و بأشد من ذلك.

الصفح: هو وجه كل شىء، كوجه الصورة[۵۹]، و لهذا فقد جاءت كلمة «فاصفح» بمعنى أدر وجهك و غض النظر عنهم.

و بما أنّ إدارة الوجه و صرفه عن الشىء قد تعطى معنى عدم الاهتمام و النفرة و ما شابه ذلك بالإضافة لمعنى العفو و الصفح، فقد ذكرت الآية المتقدمة كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۷

«الجميل» بعد «الصفح» لكى تحدد المعنى الثّانى.

و

فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: العفو من غير عتاب ۶۰].

و روى مثل ذلك عن الإمام زين العابدين عليه السّلام ۶۱].

الآية التالية- كما يقول جمع من المفسّرين- بمنزلة الدليل على وجوب العفو و الصفح الجميل، حيث يقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

فاللّه يعلم بأنّ الناس ليسوا سواسية من جهة الطبائع و المستويات الفكرية و العاطفية و هو سبحانه مطلع على ما تخفيه صدورهم، و ينبغى معاملتهم بروحية العفو و المسامحة ليهتدوا إلى طريق الحق بأسلوب الإصلاح المرحلى أو التدريجى.

و لا يرمز ذلك إلى الجبر فى أعمال الناس و سلوكهم، بقدر ما هو إشارة إلى أمر تربوى يأخذ بنظر الاعتبار اختلاف الناس فى القابليات.

و ممّا يجدر ذكره .. تصور البعض أنّ الأمر الإلهى مختص بفترة حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة قبل الهجرة، و عند ما هاجر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة أصبح للمسلمين القدرة و القوّة فنسخ هذا الأمر و جاء الجهاد بدله.

و لكننا نجد ورود هذا الأمر فى السور المدنية أيضا (كسورة البقرة و سورة النّور و التغابن و المائدة)، فبعض منها يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعفو و الصفح، و البعض الآخر يأمر المؤمنين بذلك.

فيتّضح لنا أنّ أمر الصفح عام و دائم، و هو لا يعارض أمر الجهاد أبدا، فلكلّ محله الخاص به.

فإذا كان الموقف يستدعى العفو و التسامح، فلم لا يؤخذ به! و إذا كان مدعاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۸

للتجرؤ و الجسارة من قبل الأعداء و لا ينفع معهم إلّا الشدة، فلا مناص حينئذ من الأخذ بأمر الجهاد.

ثمّ يواسى اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. أن لا تقلق من وحشية الأعداء و كثرتهم و ما يملكون من إمكانات مادية واسعة، لأنّ اللّه أعطاك ما لا يقف أمامه شىء وَ لَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ

و كما هو معلوم، فإنّ «السبع» هم العدد سبعة، و «المثانى» هو العدد اثنان، و لهذا اعتبر أكثر المفسّرون أنّ «سبعا من المثانى» كناية عن سورة الحمد، و الرّوايات كذلك تشير لهذا المعنى.

و الداعى لذلك كونها تتألف من سبع آيات، لأهميتها و عظمة محتواها فقد نزلت مرتين على النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو لأنّها تتكون من قسمين (فنصفها حمد و ثناء للّه عزّ و جلّ و النصف الآخر دعاء عبادة)، أو لأنّها تقرأ مرّتين فى كل صلاة[۶۲].

و احتمل بعض المفسّرين أن «السبع» إشارة إلى السور السبع الطول التى ابتدأ بها القرآن، و «المثانى» كناية عن نفس القرآن، لأنّه نزل مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة بصورة كاملة، و أخرى نزل نزولا تدريجيا حسب الاحتياج إليه فى أزمنة مختلفة.

و على هذا يكون معنى سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي سبع سور مهمات من القرآن.

و دليلهم فى ذلك الآية الثّالثة و العشرون من سورة الزمر، حيث يقول تعالى:

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ أى مرتين على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لكنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا، خصوصا و أنّ روايات أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى أنّ «السبع المثانى» هى سورة الحمد.

و اعتبر الراغب فى مفرداته أنّ كلمة «المثانى» أطلقت على القرآن لما يتكرر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۰۹

من قراءة آياته، و هذا التكرار هو الذى يحفظه من التلاعب و التحريف (إضافة إلى أنّ حقائق القرآن تتجلى فى كل زمان بشكل جديد ينبغى له أن يوصف بالمثانى).

و على أية حال، فذكر عبارة «القرآن العظيم» بعد ذكر سورة الحمد، بالرغم من أنّها جزء منه، دليل آخر على شرف و أهمية هذه السورة المباركة، و كثيرا ما يذكر الجزء مقابل الكل لأهميته، و هو كثير الاستعمال فى الأدب العربى و غيره.

و خلاصة المطاف أنّ اللّه تعالى قد صرّح لنبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك قد ملكت سندا عظيما (القرآن)، و لا تستطيع أى قوة فى عالم الوجود أن تصرعه.

سندا كلّه نور، بركة، دروس تربوية، برامج عملية، هداية و تسديد، و بالذات سورة الفاتحة منه التى لها من المحتوى و الأثر بحيث لو ارتبط العبد بربّه و لو للحظة واحدة لحلّقت روحه لساحة قدس الربّ، و هى تعيش حال التعظيم و التسليم و المناجاة و الدّعاء.

و بعد هذه الهبة العظيمة بأمر اللّه تعالى نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأربعة أوامر فيقول له أوّلا: لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ ۶۳].

فمتع الحياة الدنيا ليست دائمة و لا خالية من التبعات، و الحفاظ عليها أمر صعب فى أحسن الحالات.

و لهذا، لا تستحق الاهتمام بها مقابل ما أعطاك اللّه عزّ و جلّ من العطاء المعنوى الجزيل (أى القرآن).

ثمّ يقول فى الأمر الثّانى: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ لما عندهم من أموال و نعم مادية.

فالأمر الأوّل فى الحقيقة يتعلق بعدم الاهتمام و التوجه نحو النعم المادية، و الأمر الثّانى يتعلق بعدم التأثر لفقدانها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۰

و قد جاء ما يشبه هذا المضمون فى الآية (۱۳۱) من سورة طه حيث يقول جل و علا بتفصيل أكثر: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى

و الأمر الثّالث: جاء بخصوص ضرورة اللين و التواضع مع المؤمنين حيث يقول: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ

إنّ هذا التعبير، كناية جميلة عن التواضع و المحبّة و الملاطفة، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفظها، فتجسّم بذلك أعلى صور العاطفة و الحنان و تحفظهم من الحوادث و الأعداء، و تحميهم من التشتت.

و التعبير المذكور عبارة عن كناية مختصرة بليغة ذات مغزى و معان كثيرة جدّا.

و يمكن أن يحمل ذكر هذه الجملة بعد الأوامر الثلاثة المتقدمة إشارة تحذير بعدم إظهار التواضع و الانكسار أمام الكفار المتنعمين بزهو الحياة الدنيا، بل لا بدّ للتواضع و الحب و العاطفة الفياضة لمن آمن و إن كان محروما من مال الدنيا.

و نصل إلى الأمر الرّابع: و قل لهؤلاء الكفرة المنعمين بكل حزم إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ

قل: أنذركم من أمر اللّه بنزول عذابه عليكم كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۶۴]، أى الذين قسّموا الآيات القرآنية أصنافا، فما كان ينفعهم أخذوه، و ما لا ينسجم و مشتهياتهم تركوه.

فبدل أن يتخذوا كتاب اللّه هاديا و قائدا لهم، جعلوه كآلة بأيديهم و وسيلة للوصول لأهدافهم الشريرة، فلو وجدوا فيه كلمة واحدة تنفعهم لتمسكوا بها، و لو وجدوا ألف كلمة لا تنسجم مع منافعهم الدنيوية لتركوها بأجمعها!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۱

بحوث

۱- القرآن .. عطاء إلهى عظيم

يخبر اللّه تعالى فى الآيات المذكورة نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بعنوان تنبيه لجميع مسلمى العالم، أن هذا القرآن جعل فى اختياركم، و فيه من العطاء ما لا يعد، و ليكن رأس مالكم الذى تتعاملون فيه فى حياتكم، و لو عملتم به لجعلتم دنياكم كلها سعادة و رفاه و أمن و صلاح.

و هذه حقيقة يعترف بها حتى غير المسلمين، فهم يعتقدون بأنّ المسلمين إذا أخذوا القرآن و جعلوه أساس حياتهم، و عملوا بأحكامه و هديه، فسيكونون من القوّة و التقدم بحيث لا يسبقهم فى ذلك أحد.

فنرى مثلا، سورة الحمد «سبعا من المثانى» و التى تسمّى «خاتمة الكتاب» لوحدها تمثل مدرسة كاملة للحياة:

فأوّلها ... يشير إلى خالق الوجود الذى يربى جميع أهل العالم فى مسيرة تكاملية شاملة، هذا الخالق الذى وسعت رحمته «خاصّة» و عامّة كل شىء .. ثمّ تشير إلى محكمة العدل الإلهية التى يكفل الإيمان بها خلق رقابة دقيقة على جميع سلوكيات الإنسان و نواياه.

ثمّ الإشارة إلى عدم الاتكال على غير اللّه، و عدم الخضوع و التسليم لغيره لتتهيأ الأرضية الصالحة للسير على صراطه المستقيم الذى لا عوج فيه و لا ميل له إلى شرق و لا إلى غرب، كما أنّه ليس فيه إفراط و لا تفريط، و كذلك ليس فيه ضلال و لا غضب من اللّه عزّ و جلّ.

إنّها جملة أمور، لو تمثلها الإنسان و بنى عليها كيانه، لكانت كفيلة بأن تجعل له شخصية سامية متكاملة.

و للأسف الشديد فقد وقع هذا العطاء الإلهى بأيدى أناس لم يعرفوا جلالة قدره، و لم يغور و العمق معناه، بل إنّهم من الجهل بمكان حتى وصل بهم الأمر أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۲

تركوا تلك الآيات الرّبانية المنجية من التيه و الضلال و الجهل، و ركضوا لاهثين وراء من ملكته شهواته و من لم يصل إلى أدنى درجات النضج الفكرى، ليستجدوا منهم القوانين و البرامج التربوية التى صنعها جهلهم المتلبس بلباس العلم و التقدم! فهؤلاء المساكين يبيعون أغلى ما عندهم بثمن بخس، و يشترون به ما يبعدهم عن بناء أخراهم! و لا يعنى هذا بأنّا ضد التقدم التقنى، بل علينا أن لا نحصر كل أنفسنا فى هذا الجانب من الحياة الإنسانية .. ففى الوقت الذى نجد فى القرآن تلك العيون الفياضة بالمعنويات، نراه كذلك صاحب برامج حيوية فى مجالات التقدم و الرفاه الماديين، و هذا ما أوضحناه فى الآيات المتقدمة و ما سنزيد فيه فى الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

۲- الطمع بما عند الغير .. مصدر الانحطاط

هناك الكثير من أصحاب العيون الضيقة الذين يلاحظون هذا و ذاك باستمرار بعيون ملؤها الطمع و الجشع! لقد دأب هؤلاء على قياس حالهم و حال الآخرين و يغتمون غما شديدا فيما لو وجدوا أن شيئا من الحاجات المادية الحياتية ناقصا عندهم، فيبذلون كل شىء فى سبيل الحصول عليها حتى و إن كلفهم ذلك خسارة القيم الإنسانية و بيع كرامتهم! هذا نمط من التفكير ينم عن حالة التخلف، و يكشف عن الشعور بعقدة الحقارة و نقص الهمة. و هو من العوامل الفاعلة فى تخلف الإنسان فى حياته، و على كافّة الأصعدة.

و الشخص المستقل لا يتعامل مع مجريات الحياة بذلك النمط من التفكير المتخلف، و إنّما يستعمل قواه الفكرية و الجسمانية فى طريق رشده و تكامله، فهو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۳

كمن يحدث نفسه قائلا: بما أنّه لا ينقصنى عن الآخرين شىء، و لا يوجد دليل على عدم استطاعتى التقدم أكثر منهم أو الوصول لمصافهم .. فلما ذا أمد عينى لما متع به الآخرين من مال و جاه و ما شاكل ...

فصاحب الشخصية المستقلة لا يربط هدفه و مقصده من الحياة بالجوانب المادية البحتة فقط، بل يطلبها لإشباع ما يحتاجه روحيا و تربويا، و يطلبها لكى يحفظ بها استقلاله و حريته، و لكى لا يكون عالة على الآخرين، فهو لا يطلبها بحرص، و لا يطلبها بكل ما يملك، لأنّ ذلك ليس بيع الأحرار، و لا هو بيع عباد اللّه الصالحين.

و نختم الحديث بالحديث النّبوى الشريف: «من رمى ببصره ما فى يد غيره كثر همّه و لم يشف غيظه»[۶۵].

۳- تواضع القائد

لقد أوصى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرارا من خلال القرآن أن يكون مع المؤمنين متواضعا، محبّا، سهلا و رحيما، و الوصايا ليست منحصرة بخصوص نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هى عامّة لكل قائد و موجّه، سواء كانت دائرة قيادته واسعة أم محدودة، فعليه أن يأخذ بهذا الأصل الأساسى فى الإدارة و القيادة الصحيحة.

إنّ حبّ و تعلق الأفراد بقائدهم من الأسس الفاعلية لنجاح القائد، و هذا ما لا يتحقق من دون تواضعه و طلاقه وجهه و حبّه لخير أفراده.

أمّا خشونة و قساوة القائد فلا تؤدى إلّا إلى فصم رابطة الالتحام بينه و بين الأفراد ممّا يؤدى إلى تفرق و تشتت الناس عن قائدهم.

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى رسالته إلى محمّد بن أبى بكر: «فاخفض لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۴

جناحك و أن لهم جانبك و ابسط لهم وجهك و آس بينهم فى اللحظة و النظرة»[۶۶].

۴- من هم المقتسمون؟

إنّ التوجيهات الإلهية بلا شك تراعى فيها المصلحة العامّة و مصلحة الأفراد بصورة عامة، و لكن البعض منها قد يوافق مصالحنا الشخصية بحسب الظاهر و البعض الآخر على خلافها. و من خلال قبول أو رفض ما يدعونا إليه اللّه يمحص المؤمن الخالص من المدعى للإيمان، فالذى يقبل كل شىء نازل من اللّه و يسلم له، حتى و إنّ ظاهرة لا يتوافق مع مصلحته، و يقول «كل من عند ربّنا» و لا يجرأ على تجزئه أو تقسيم أو تبعيض الأحكام الإلهية .. فذلك هو المؤمن حقّا.

أمّا الذين استفحل المرض فى قلوبهم فيحاولون تسخير دين اللّه و أحكامه لخدمة مصالحهم الشخصية، فيقبلون ما يدعم منافعهم و يتركون غيره، فتراهم يجزؤون الآيات القرآنية، بل و تراهم فى بعض الأحيان يجزؤون الآية الواحدة، فما يوافق ميولهم احتذوا به و يتركون القسم الباقى من الآية! و لكن من القبح أن نردد ما قاله بعض الأقوام السابقة نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ فهذا شأن عبيد الدنيا.

أمّا معيار تشخيص أتباع الحق من أتباع الباطل فمن خلال التسليم للأوامر و التوجيهات الإلهية التى لا تنسجم مع الميول و الأهواء و المنافع الدنيوية، فمن هنا يعرف الصادق من الكذاب و المؤمن من المنافق.

و تجدر الإشارة هنا إلى وجود تفاسير أخرى لمعنى المقتسمين (غير ما ذكرناه)، حتى أنّ القرطبى قد ذكر فى تفسيره سبعة آراء فى معنى هذه الكلمة، إلّا أنّ أكثرها خال من القرينة، و البعض الآخر لا يخلو من مناسبة و هو ما سنذكره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۵

أدناه:

فمنها .. أنّ جمعا من رؤوس المشركين كانوا يقفون فى أيّام الحج على رؤوس طرق و أزقة مكّة، و يشرع كل واحد منهم بالسخرية و الاستهزاء بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن لينفروا الناس عنه.

فبعض يقول: إنّه «مجنون» فإنّ ما يقوله ليس بموزون ..

و بعض يقول: إنّه «ساحر» و قرآنه نوع من السحر ..

و بعض يقول: إنّه «شاعر» و النغمة البلاغية للآيات السماوية هى شعر ..

و بعض يقول: إنّه «كاهن» و إنّ أخبار القرآن الغيبية هى نوع من الكهانة.

و قد سمى هؤلاء بالمقتسمين لتقسيمهم شوارع و أزقة مكّة و معابرها بينهم ضمن خطة دقيقة و محسوبة.

و لا مانع من دخول هذا التّفسير و ما ذكرناه معا ضمن مفهوم الآية المبحوثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة الحجر (۱۵): الآيات ۹۲ الى ۹۹]

اشارة

فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (۹۲) عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۳) فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (۹۴) إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (۹۵) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۹۶)

وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّکَ يَضِيقُ صَدْرُکَ بِما يَقُولُونَ (۹۷) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّکَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (۹۸) وَ اعْبُدْ رَبَّکَ حَتَّى يَأْتِيَکَ الْيَقِينُ (۹۹)

التّفسير

فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ!

يبيّن القرآن فى أواخر سورة الحجر مصير المقتسمين الذين ذكروا فى الآيات السابقة فيقول: فَوَ رَبِّکَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ عالم السر و العلن و من لا يخفى عليه ذرة ما فى السماوات و الأرضين لا يسأل لكشف أمر خفى عليه (سبحانه و تعالى عن ذلك)، و إنّما السؤال لتفهيم المسؤول قبح فعله، أو كون السؤال نوعا من العقاب الروحى، لأنّ الجواب سيكون عن أمور قبيحة و مصحوبا باللوم و التوبيخ، و ذلك ما يكون له بالغ الأثر فى ذلك المقام، حيث أنّ الإنسان عندها أقرب ما يكون إلى الحقائق و إدراكها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۷

و على هذا الأساس فالسؤال قسم من العقاب الروحى.

و عموم قوله تعالى: عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ يرشدنا إلى أنّ السؤال سيكون عن جميع أفعال الإنسان بلا استثناء، و هو درس بليغ كى لا نغفل عن أفعالنا.

أمّا ما اعتبره بعض المفسّرين من اختصاص السؤال عن التوحيد و الإيمان بالأنبياء، أو هو مرتبط بما يعبد المشركون .. فهو كلام بلا دليل، و مفهوم الآية عام.

و قد يشكل البعض من كون الآية المتقدمة تؤكّد على أنّ اللّه تعالى سيسأل عباده، فى حين نقرأ فى الآية التاسعة و الثلاثين من سورة الرحمن فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جانٌّ

و قد أجبنا عن ذلك سابقا، و خلاصته: فى القيامة مراحل، يسأل فى بعضها و لا يسأل فى البعض الآخر حيث تكون الأمور من الوضوح بحيث لا تستوجب السؤال، أو أن لا يكون السؤال باللسان، و هذا ما نستنتجه من الآية الخامسة و الستين من سورة يس حيث تشير إلى غلق الأفواه و بدأ أعضاء البدن- حتى الجلد- بالسؤال.[۶۷] ثمّ يأمر اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ، أى لا تخف من ضوضاء المشركين و المجرمين، و لا تضعف أو تتردد أو تسكت، بل أدعهم إلى رسالتك جهارا.

وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ و لا تعتن بهم.

«فاصدع»، من مادة (صدع) و هى لغة بمعنى «الشق» بشكل مطلق، أو شق الأجسام المحكمة بما يكشف عمّا فى داخلها، و يقال أيضا لألم الرأس الشديد (صداع) و كأنّه من شدته يريد أن يشق الرأس! و هى هنا ... بمعنى: الإظهار و الإعلان و الإفشاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۸

و على أية حال ... فالإعراض عن المشركين هنا بمعنى الإهمال، أو ترك مجاهدتهم و حربهم، لأنّ المسلمين فى ذلك الوقت لم تصل قدرتهم- بعد- لمستوى المواجهة مع الأعداء و حربهم.

ثمّ يطمئن اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تقوية لقلبه: إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ

أنّ مجيء الفعل بصيغة الماضى فى هذه الآية مع أنّ المراد المستقبل يشير إلى حتمية الحماية الرّبانية، أىّ: سندفع عنك شهر المستهزئين، حتما مقضيا.

و قد ذكر المفسّرون رواية تتحدث عن ست جماعات (أو أقل) كان منهم يمارس نوعا من الاستهزاء تجاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فكلما صدع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالدعوة قاموا بالاستهزاء تفريقا للناس من حوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلا أنّ اللّه تعالى ابتلى كلا منهم بنوع من البلاء، حتى شغلهم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، (و قد ورد تفصيل تلك الابتلاءات فى بعض التفاسير).

ثمّ يصف المستهزئين: الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

كأن القرآن يريد أن يقول: إنّ أفكار و أعمال هؤلاء بنفسها عبث سخف حيث يعبدون ما ينحتونه بأيديهم من حجر و خشب، و دفعهم جهلهم لأن يجعلوا مع اللّه ما صنعوا بأيديهم آلهة! و مع ذلك .. يستهزءون بك! و لمزيد من التأكيد على اطمئنان قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يضيف تعالى قائلا: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فروحك اللطيفة و قلبك الطيب الرقيق لا يتحملان تلك الأقوال السيئة و أحاديث الكفر و الشرك، و لذلك يضيق صدرك.

و لكن لا تحزن من قبح أقوالهم فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

لأنّ تسبيح اللّه يذهب أثر أقوالهم القبيحة من قلوب أحباء اللّه، هذا أوّلا ..

و ثانيا، يعطيك قدرة و قوّة و نورا و صفاء، و يخلق فيك تجليا و انفتاحا، و يقوى ارتباطك مع اللّه، و يقوى إرادتك و يثبت فيك قدرة أكبر للتحمل و الثبات و المجاهدة فى قبال أعداء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۱۹

و لهذا نقرأ

فى رواية نقلا عن ابن عبّاس أنّه قال: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أحزنه أمر فزع إلى الصلاة.

ثمّ يعطى اللّه نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آخر أمر فى هذا الشأن: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ المقصود من «اليقين» هنا الموت، و سمّى باليقين لحتميته، فربما يشك الإنسان فى كل شىء، إلّا الموت فلا يشك فيه أحد قط.

أو لأنّ الحجب تزال عن عين الإنسان عند الموت فتتّضح الحقائق أمامه و يحصل له اليقين.

و فى الآيتين السادسة و الأربعين و السابعة و الأربعين من سورة المدّثر نقرأ عن لسان أهل جهنم: وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ أى الموت.

و من هنا يتّضح خطأ ما نقل عن بعض الصوفية من أنّ الآية أعلاه دليل على ترك العبادة. فقالوا: أعبد اللّه حتى تحصل على درجة اليقين، فإذا حصلت عليها فلا حاجة للعبادة بعدها! و نقول:

أوّلا: اليقين هنا بمعنى الموت بشهادة الآيات القرآنية المشار إليها، و هو ما يحصل للمؤمن و الكافر سواء.

ثانيا: المخاطب بهذه الاية هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مقام اليقين للنّبى من المسلمات، و هل يجرأ أحد أن يدّعى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يصل لدرجة اليقين، حتى يخاطب بالآية المذكورة؟!! ثانيا: المقطوع به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يترك العبادة حتى آخر لحظات عمره الشريف، و كذا الحال بالنسبة لأمير المؤمنين على عليه السّلام و هو المستشهد فى المحراب، و هو ما سار عليه بقية الأئمّة عليهم السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۰

بحوث

۱- بداية الدعوة العلنية للإسلام

المستفاد من بعض الرّوايات أنّ الآيتين: فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْناكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ نزلتا فى مكّة بعد أن قضى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثلاث سنوات فى الدعوة السرية لرسالته، و لم يؤمن به إلّا القليل من المقربين إليه، و أول من آمن من النساء خديجة عليها السّلام و من الرجال على عليه السّلام.

من البديهى، أنّ الدعوة إلى التوحيد الخالص المصاحبة لتحطيم نظام الشرك و عبادة الأصنام فى تلك البيئة و فترتها كانت فى الواقع عملا عجيبا و مخيفا، و استهزاء المشركين و سخريتهم كان معلوما عند اللّه من قبل أن يمارس، و لهذا أراد اللّه تعالى تقوية قلب نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كى لا يخشى المستهزئين، و يعلن رسالته بكل قوّة على الملأ و يشرع بجهاد منطقى معهم ۶۸].

۲- الأثر الرّوحى لذكر اللّه

إنّ حياة الإنسان (كانت و ما زالت) زاخرة بالمشاكل بحسب ما تقتضيه طبيعة الحياة الدنيا، و كلما علا الإنسان درجة كثرت مشاكله و تعددت، و من هنا نفهم شدة ما واجهه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مشاكل و صعاب فى طريق دعوته الكبيرة.

و يكون العلاج الرّبانى لتجاوز العقبات عبارة عن محاولة تحصيل القوة من مصدرها الحق مع التحلى بسعة الصدر، فيأمر نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتسبيح و الذكر و الدعاء و السجود، لما للعبادة من أثر عميق فى تقوية روح الإنسان و إيمانه و إرادته.

و نستفيد من روايات مختلفة أنّ الأئمّة عليهم السّلام إذا واجهتهم المصاعب الشداد و البلاء، لجؤوا إلى اللّه و شرعوا بالعبادة و الدعاء، كى يستمدوا القوة من معينها الأصيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۱

۳- العبادة و التكامل

و كما هو معلوم فإنّ الإنسان قد بدأ انطلاقته فى الحياة من نقطة العدم و لا يزال يسير نحو المطلق، و لن تتوقف عجلة تكامله (ما دام مداوما على الطريق) كما أنّه يمتلك مقومات السير و يمتاز بقابلية فائقة و استعداد كامل فى طلبه للتكامل، هذا من جهة.

و من جهة أخرى- تعتبر العبادة مدرسة عالية للتربية، لأنّها توقظ عقل الإنسان، و توجه فكره نحو المطلق، و تغسل غبار الذنوب و الغفلة من قلبه و روحه، و تنمى فيه الصفات الإنسانية الرفيعة، و تقوى إيمانه و تجعله أكثر و عيا و اكبر مسئولية.

فلا يمكن للإنسان الواقعى أن يستغنى عن هذه المدرسة الراقية، أمّا الذين يعتقدون بأنّ الإنسان قد يصل إلى درجة معينة لا يحتاج عندها إلى العبادة، فأولئك إمّا أنّهم يعتبرون عملية تكامل الإنسان محدودة و تنتهى بحدّ معين، أو أنّهم لم يدركوا معنى العبادة حقّا.

و للعلّامة الطّباطبائى رحمه اللّه فى تفسير الميزان بيان بهذا الشأن، إليك ملخصه، (إن كل نوع من أنواع الموجودات له غاية كمالية، و كذلك الإنسان له غاية تكاملية لا ينالها إلّا بالاجتماع المدنى، و لهذا فهو اجتماعى بالطبع، و إن تحقق هذا الاجتماع فسيحتاج أفراد

المجتمع إلى أحكام و قوانين ينتظم باحترامها و العمل بها شتات أمورهم، و ترتفع بهذا اختلافاتهم الضرورية، و يقف بها كل منهم فى موقفه الذى ينبغى له، و يحوز بها سعادته و كماله الوجودية.

و بعبارة أخرى: إن كان المجتمع الإنسانى صالحا أمكن لأفراده الوصول إلى هدفهم النهائى فى الكمال، و إن فسد المجتمع تخلف أفراده عن هذا التكامل.

و إنّ هذه الأحكام و القوانين سواء كانت اجتماعية أو عبادية، لا تكون مؤثرة إلّا إذا أخذت من طريق النّبوة و الوحى السماوى لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۲

و نعلم أيضا أنّ الأحكام العبادية تشكل جزءا من هذا التكامل الفردى و الاجتماعى.

و بهذا يتبيّن أنّ التكليف الإلهى يلازم الإنسان ما عاش فى هذه النشأة الدنيوية، و أن تجويز ارتفاع التكليف ملازم لتجويز تخلفه عن الأحكام و القوانين، و هذا يوجب فساد المجتمع! و من الجدير بالملاحظة أنّ الأعمال الصالحة و العبادات منبع للملكات النفسانية الفاضلة فإذا أديت هذه الأعمال بقدر كاف، و قويت تلك الملكات الفاضلة فى نفس الإنسان، فستكون نفسها منبعا جديدا لأعمال صالحة أكثر و طاعات و عبادات أفضل.

و من هنا يظهر فساد ما ربّما يتوهّم أنّ الغرض من التكليف هو تكميل الإنسان فإذا كمل لم يكن لبقاء التكليف معنى، و ما ذلك إلّا مغالطة ليس أكثر، لأنّ الإنسان لو تخلف عن التكليف الإلهى فإنّ المجتمع سيسير نحو الفساد فورا، فكيف يتسنى للفرد الكامل أن يعيش فى هكذا مجتمع! و كذلك فرضية تخلف الإنسان عند امتلاكه الملكات الفاضلة عن العبادات و طاعة اللّه، فإنّها تعنى تخلف هذه الملكات عن آثارها[۶۹]- فتأمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۳

سورة النّحل

اشارة

مكّية و عدد آياتها مائة و ثمان و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۵

«سورة النحل»

محتويات السّورة:

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ قسما من آيات هذه السورة مكيّة، و قسمها الآخر آيات مدنيّة، فى حين يعتبر بعضهم أنّ آياتها مكية على الإطلاق. و عند ملاحظة طبيعة السورة المكية و المدنية يتبيّن لنا أنّ الرأى الأوّل أكثر صوابا، و يعزز ذلك ما تبحثه الآية (۴۱) وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي اللَّهِ ...، و الآية (۱۱۰) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا ... حيث أنّها تناولت بوضوح موضوع الهجرة و الجهاد معا .. و كما هو بيّن فإنّ الموضوعين يتناسبان مع الحوادث التى جرت بعد هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة.

و إذا اعتبرنا الهجرة المشار إليها فى الآية (۴۱) هى هجرة المسلمين الأولى حين هاجر جمع منهم من مكّة إلى الحبشة برئاسة جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه، فيستبعد أن تكون الهجرة و الجهاد المشار إليهما فى الآية (۱۱۰) الهجرة الأولى، و لا تنطبق الآية المباركة إلّا على هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة.

بالإضافة إلى أنّ الآية (۱۲۶) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ ... قد نزلت فى غزوة أحد التى وقعت بعد الهجرة الثّانية، و هذا معروف عند المفسّرين.

و قال بعض المفسّرين: إنّ الآيات الأربعين الأوّل من السورة نزلت فى مكّة و بقية الآيات نزلت فى المدينة، فى حين يعتبر البعض الآخر منهم جميع آياتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۶

مكّية سوى الآيات المتعلقة بغزوة أحد (الآيات الثلاثة الأخيرة).

فالمتيقن بخصوص السورة أنّ آياتها مكّية و مدينة، إلّا أنّه لا يمكن تشخيص ما هو مكى أو مدنى بالدقة الكافية سوى الموارد المذكورة.

و على أية حال، فمن خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أنّ بحوثها تتناول ما تتناوله الآيات المكّية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك و عبادة الأصنام، و تارة أخرى ما تتناوله الآيات المدينة مثل: الأحكام الاجتماعية و مسائل الجهاد و الهجرة.

و يمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية و إحكام بما يلى:

۱- ذكر النعم الإلهية، و تفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم و واهبها.

و من النعم المذكورة فى السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات و الثمار، المواد الغذائية الأخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات و منافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة و حتى نعمة الولد و الزوجة، و بعبارة شاملة (أنواع الطيبات).

و لهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

و عرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانى الجليلة و العجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، و بخصوص اعتبار النحل مصدرا لغذاء مهم من أغذية الإنسان، و باعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد اللّه.

۲- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمة ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين و المجرمين.

۳- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة، من قبيل: الأمر بالعدل و الإحسان، الهجرة و الجهاد، النهى عن الفحشاء و المنكر و الظلم و الاستبداد و خلف العهد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۷

بالإضافة إلى الدعوة لشكر اللّه تعالى على نعمة الجزيلة، و تأتى الإشارة فى آيات عديدة إلى أنّ إبراهيم عليه السّلام رجل التوحيد لأنه كان من الشاكرين.

۴- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۱۲۷

و أخيرا تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى فضل سورة النحل، أنّه قال: «من قرأها لم يحاسبه اللّه تعالى بالنعم التى أنعمها عليه من دار الدنيا»[۷۰].

فقراءة الآيات- التى تتناول جانبا كبيرا من النعم الإلهية- بتدبر و تفكر مع وجود العزم على العمل و السير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلا لأن يستعمل الإنسان كل نعمة بما ينبغى عليه أن يستعمل، فلا يحبس و لا يهمل، و يكون من الشاكرين .. فإن أصبح كذلك

فهل سيتعرض لمحاسبة بعد؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۸

الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۱) يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (۲)

التّفسير

أَتى أَمْرُ اللَّهِ:

ذكرنا سابقا أن قسما مهمّا من الآيات التى جاءت فى أوّل السورة هى آيات مكّية نزلت حينما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخوض صراعا مشتدا مع المشركين و عبدة الأصنام، و ما يمر يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهة جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنّها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

و من جملة مواجهاتهم اليائسة قولهم للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يهددهم و ينذرهم بعذاب اللّه: إن كان ذلك حقا فلم لا يحل العذاب و العقاب بنا إذن؟! و لعلهم يضيفون: و حتى لو نزل العذاب فسنلتجئ إلى الأصنام لتشفع لنا عند اللّه فى رفع العذاب .. و لم لا يكون ذلك، أو لسن شفيعات؟! ...

و أوّل آية من السورة تبطل أوهام أولئك بقوله تعالى: أَتى أَمْرُ اللَّهِ فَلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۲۹

تَسْتَعْجِلُوهُ و إن اعتقدتم أنّ الأصنام شافعة لكم عند اللّه فقد أخطأتم الظن سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

ف «أمر اللّه» هنا: أمر العذاب للمشركين، أمّا الفعل «أتى» فالمراد منه المستقبل الحتمى الوقوع على الرّغم من وقوعه بصيغة الماضى، و مثل هذا كثير فى الأسلوب البلاغى للقرآن.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ «أمر اللّه» إشارة إلى نفس العذاب و ليس الأمر به.

و احتمل بعض آخر أنّ المراد به يوم القيامة.

و يبدو لنا أنّ التّفسير الذى ذكرناه أقرب من غيره، و اللّه العالم.

و بما أنّ مستلزمات العدل الإلهى اقتضت عدم العقاب إلّا بعد البيان الكافى و الحجّة التامة، فقد أضاف سبحانه: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ ۷۱] عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا بناء على هذا الإنذار و التذكير فَاتَّقُونِ

أمّا المقصود من «الروح» فى الآية فهناك كلام كثير بين المفسّرين فى ذلك إلّا أنّ الظاهر منها هو: الوحى و القرآن و النّبوة .. و التى هى مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

و قد فصل بعض المفسّرين الوحى عن القرآن و عن النّبوة، معتبرا ذلك ثلاثة تفاسير مستقلة للكلمة و لكنّ الظاهر رجوع الجميع إلى حقيقة واحدة.

و على أيـة حال فكلمة «الروح» فى هذا الموضوع ذات جانب معنوى و إشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب و تهذيب النفوس و هداية العقول، كما نقرأ فى الآية الرّابعة و العشرين من سورة الأنفال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۰

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ .. و فى الآية الخامسة عشر من سورة غافر: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ .. و فى الآية و الثانية الخمسين من سورة الشورى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ

و جلىّ أنّ «الرّوح» فى الآيات المتقدمة ترمز إلى «القرآن» و «الوحى» و «أمر النّبوة».

و قـد وردت «الرّوح» بمعانى أخر فى مواضع من القرآن الكريم، و لكن مع الأخذ بنظر الإعتبار ما ذكر من قرائن نخلص إلى أنّ المراد من مفهوم «الروح» فى الآية مورد البحث هو القرآن و ما تضمنه الوحى.

و جـدير بالملاحظـة أنّ عبـارة عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لا تعنى أن هدايـة الوحى و النّبوة لا حساب فيها، لأنّه لا انفصام و لا ضديـة بين مشيئة اللّه و حكمته، كما تحدثنا فى ذلك الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

و لا ينبغى غض الطرف من كون الإنـذار من أوائل الأوامر الربانيـة الموجهـة إلى الأنبياء عليهم السّلام بدليل عبارة أَنْ أَنْذِرُوا، لأنّ من طبيعة الإنذار أن يعقبه انتباه فنهوض و حركة.

صحيح أنّ الإنسان طالب للمنفعة و دافع للضرر، و لكنّ التجربة أظهرت أنّ للترغيب أثر بالغ لمن يمتلك أسس و شرائط قبول الهداية، أما من أعمت بصيرتهم ملهيات الحياة الـدنيا فلا ينفع معهم إلّا التهديد و الوعيد، و فى بداية دعوة النّبى كان من الضـرورى استخدام أسلوب الإنذار الشديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳ الى ۸]

اشارة

خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۳) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۴) وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۵) وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ (۶) وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ إِلى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۷)

وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ (۸)

التّفسير

الحيوان ذلك المخلوق المعطاء:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفى الشرك، جاءت هذه الآيات لتقلع جذوره بالكامل، و توجه الإنسان نحو خالقة بطريقين:

الأوّل: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم و محاولة استيعاب ما فى الخلائق من نظام عجيب.

الثّانى: عن طريق العاطفة ببيان نعم اللّه الواسعة على الإنسان، عسى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۲

يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

و تتّضح حقّانيّة السماوات و الأرض من نظامها المحكم و خلقها المنظم و كذلك من هدف خلقها و ما فيها من منافع.

ثمّ يضيف: تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده اللّه؟! بل هل تستطيع أن تخلق بعوضة صغيرة أو ذرة تراب؟! فكيف إذن جعلوها شريكة اللّه سبحانه!! ..

و المضحك المبكى فى حال المشركين أنّهم يعتبرون اللّه هو الخالق عن علم و قدرة لهذا النظام العجيب و الخلق البديع .. و مع ذلك فهم يسجدون للأصنام! و بعد الإشارة إلى خلق السماوات و الأرض و ما فيها من أسرار لا متناهية يعرّج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

«النطفة» (فى الأصل) بمعنى: الماء القليل، أو الماء الصافى، ثمّ أطلقت على قطرات الماء التى تكون سببا لوجود الإنسان بعد تلقيحها.

و حقيقة التعبير يراد به تبيان عظمة و قدرة اللّه عزّ و جلّ، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة و تكريم و شرف بين باقى المخلوقات و عند اللّه أيضا.

هذا إذا ما اعتبرنا «الخصيم» بمعنى المدافع و المعبر عمّا فى نفسه، كما تخبرنا الآية (۱۰۵) من سورة النساء بذلك: وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً كما ذهب إليه جمع من المفسّرين.

و هناك من يذهب إلى تفسير آخر، خلاصته: بقدرة اللّه التامة خلق الإنسان من نطفة حقيرة، و لكنّ هذا المخلوق غير الشكور يقف فى كثير من المواضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۳

مجادلا خصيما أمام خالقه، و اعتبروا الآية السابعة و السبعين من سورة يس شاهدا على ما ذهبوا إليه.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل كما يبدو- أقرب من الثّانى، لأنّ الآيات أعلاه فى مقام بيان عظمة اللّه و قدرته، و تتبيّن عظمته بشكل جلى حين يخلق كائنا شريفا جدا من مادة ليست بذى شأن فى ظاهرها.

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم: (خلقه من قطرة من ماء منتن فيكون خصيما متكلما بليغا)[۷۲].

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى نعمة خلق الحيوانات و ما تدر من فوائد كثير للإنسان فيقول: وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ وَ مَنافِعُ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ

فخلق الأنعام الدال على علم و قدرة البارى سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان، و قد أشارت الآية إلى ثلاث فوائد:

أوّلا: «الدفء» و يشمل كل ما يتغطى به (بالاستفادة من وبرها و جلودها) كاللباس و الأغطية و الأخذية و الأخبية.

ثانيا: «المنافع» إشارة إلى اللبن و مشتقاته.

ثالثا: «منها تأكلون» أى، اللحم.

و يلاحظ تقديم الملابس و الأغطية و المسكن، فى عرض منافع الأنعام دون المنافع الأخرى، و هذا دليل على أهميتها و ضروريتها فى الحياة.

و يلاحظ أيضا مجىء كلمة «الدفء» قبل «المنافع» إشارة إلى أنّ ما تدفع به الضرر مقدم على ما يجلب لك فيه المنفعة.

و يمكن للبعض ممن يخالفون أكل اللحوم أن يستدلوا بظاهر هذه الآية، حيث لم يعتبر البارى جل شأنه مسألة أكل لحومها ضمن منافعها، و لهذا نرى قد جاءت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۴

وَ مِنْها تَأْكُلُونَ بعد ذكر كلمة «المنافع»، و أقل ما يستنتج من الآية اعتبارها لأهمية الألبان أكثر بكثير من اللحوم.

و لم يكتف بـذكر منافعها الماديـة، بل أشار إلى المنافع النفسـية و المعنويـة كـذلك حين قال: وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَ حِينَ تَسْرَحُونَ

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل استراحتها، و لهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح).

و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحا إلى مراعيها.

عبّر القرآن بكلمـة «جمـال» عن تلـك الحركـة الجماليـة للأنعام حين تسـرع إلى مراعيها و تعود إلى مراحها، لما لها من جمال و رونق خاص يغبط الإنسان، و المعبر عن حقيقة راسخة فى عمق المجتمع.

فحركة الإبل إضافة إلى روعتها فإنّها تطمئن المجتمع بأنّ ما تحتاجه من مستلزمات حياتك ها هو يسير بين عينيك، فتمتع به و خذ منه ما تحتاجه، و لا داعى لأن ترتبط بهذا أو ذاك فتسضعف، و كأنّها تخاطبه: فأنت مكتف ذاتيا بواسطتى.

ف «الجمال» جمال اسـتغناء و اكتفاء ذاتى، و جمال إنتاج و تأمين متطلبات أمّـة كاملة، و بعبارة أوضح: جمال الاسـتقلال الاقتصادى و قطع كل تبعيـة للغير! و الحقيقة التى يدركها القرويون و أبناء الريف أكثر من غيرهم، هى ما تعطيه حركة تلك الأنعام من راحة نفسـية للإنسان، راحة الإحساس بعدم الحاجة و الاستغناء، راحة تأدية إحدى الوظائف الاجتماعية الهامة.

و من لطيف الإشارة أنّ بـدأت الآيـة أعلاه بـذكر عودة الأنعام إلى مراحلها، حيث الملاحظ عليها فى هـذه الحال أثديتها ملأى باللبن، بطونها ممتلئة، يشاهد على وجوهها علائم الرضا و الارتياح و لا يرى فيها ذلك الحرص و الولع و العجلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۵

التى تظهر عليهـا حين خروجهـا فى الصـباح، بـل تسـير هادئـة مطمئنـة نحو محـل استراحتها، و يكفيك الشـعور بالغنى من خلال رؤية أثدائها.

ثمّ يشير تعالى فى الآية التى تليها إلى إحدى المنافع المهمّة الأخرى فيقول:

وَ تَحْمِـلُ أَثْقـالَكُمْ إِلى بَلَـدٍ لَمْ تَكُونُوا بـالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ و هـذا مظهر من مظاهر رحمـة اللّه عزّ و جلّ و رأفته حيث سـخر لنا هـذه الحيوانات مع ما تملك من قدرة و قوّة إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

«الشق»: (من مـادة المشـقة)، و لكنّ بعض المفسّـرين احتمـل أنّهـا بمعنى الشق و القطع، أى أنّكم لاـ تسـتطيعون حمـل هـذه الأثقال و إيصالها إلى مقاصدكم إلّا بعد أن تخسروا نصف قوتكم.

و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب من الثّانى.

فالأنعام إذن: تعطى للإنسان ما يلبسه و يـدفع عنه الحر و البرد. و كذلك تعطيه الألبان و اللحوم ليتقوت بها. و تترك فى نفس الإنسان آثارا نفسية طيبة. و أخيرا تحمل أثقاله.

و بالرغم ممّا وصل إليه التقـدم التقنى فى مدنيـة الإنسان و تهيئـة وسائل النقل الحديثة، إلّا أن سـلوك كثير من الطرق لا زال منحصـرا بالدواب.

ثمّ يعرج على نوح آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها فى تنقلاته، فيقول: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً.

و «زينة» هنا ليست كلمة زائدة أو عابرة بقدر ما تعبر عن واقع الزينة فى مفهومها الصحيح، و ما لها من أثر على ظاهر الحياة الاجتماعية.

و لأجل الإيضاح بشـكل أقرب نقول: لو قطع شـخص طريقا صـحراويا طويلا مشـيا على الأقدام، فكيف سـيصل مقصده؟ سيصـله و هو متعب خائر القوى، و لا يقوى على القيام بأى نشاط.

أمّا إذا ما استعمل وسيلة مريحة سريعة فى سفره، فإنّه- و الحال هذه- سيصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۶

إلی مقصده و قد کسب الوقت، و لم یهدر طاقاته، و حافظ علی النشاط و القدرة علی قضاء حوائجه ... بعد کل هذا، أو لیس ذلک زینة؟! و تأتی الإشارة فی ذیل الآیة إلی ما سیصل إلیه مآل الإنسان فی الحصول علی الوسائط النقلیة المدنیة من غیر الحیوانات، فیقول: وَ یَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ من المراکب و وسائل النقل.

و بعض قدماء المفسّرین اعتبر هذا المقطع من الآیة إشارة إلی الحیوانات ستخلق فی المستقبل لیستعملها الإنسان فی تنقلاته.

و ورد فی تفسیر (المراغی) و تفسیر (فی ظلال القرآن) أنّ درک مفهوم هذه الجملة أسهل لنا و نحن نعیش فی عصر السیارة و وسائل النقل السریعة الأخری.

و عند ما تعبّر الآیة بکلمة «یخلق» فذلک لأنّ الإنسان فی اختراعه لتلک الوسائل لیس هو الخالق لها، بل إنّ المواد الأولیة اللازمة للاختراعات، مخلوقة و موجودة بین أیدینا و ما علی الإنسان إلّا أن یستعمل ما وهبه اللّه من قدرة علی الاختراع لما أودع فیه من استعداد و قابلیة بتشکیل و ترکیب تلک المواد علی هیئة یمکن من خلالها أن تعطی شیئا آخر یفید الإنسان.

أهمیة الزراعة و الثروة الحیوانیة:

علی الرغم من انتشار الآلات الإنتاجیة فی جمیع مرافق الحیاة، کما هو حاصل فی یومنا، إلّا أن الزراعة و تربیة الحیوانات تبقی متصدرة لقائمة المنتوجات من حیث الأهمیة فی حیاة الإنسان، لأنّها مصدر الغذاء، و لا حیاة بدونه.

حتی أنّ الاکتفاء الذاتی فی مجالی الزراعة و الثروة الحیوانیة یعتبر الدعامة الرئیسیة لضمان الاستقلالین الاقتصادی و السیاسی إلی حدّ کبیر.

و لذلک نری شعوب العالم تسعی جاهدة لإیصال زراعتها و ثروتها الحیوانیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۷

لأعلی المستویات مستفیدة من التقدم التقنی الحاصل.

و الحاجة لأی من هذین الإنتاجین الأساسیین من الخطورة و الأهمیة البالغة ما یجعل دولة عظمی کروسیا تمدید العوز و تعطی بعض التنازلات السیاسیة لدول متباینة معها فی الخط السیاسی العقائدی لاضطرارها لتأمین احتیاجاتها! و أعطت التعالیم الإسلامیة أهمیة خاصة للإنتاج الحیوانی و الزراعة بالحث و الترغیب لغور غمار هذه العملیة المعطاءة.

فقد رأینا کیف عرضت الآیات السابقة و بلحن مشوق حرکة الأنعام و منافعها للترغیب فیها.

و سیأتی الحدیث إن شاء اللّه فی الآیات القادمة عن أهمیة الزراعة و منافع الثمار المختلفة.

و نورد هنا (و من مصادر مختلفة) بعض الرّوایات التی تخص موضوعنا و ما جاءت به من تعبیرات جمیلة.

۱-

عن أبی جعفر علیه السّلام أنّه قال: «قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعمته: ما یمنعک من أن تتخذی فی بیتک ببرکة؟

فقالت: یا رسول اللّه ما البرکة؟

فقال: شاة تحلب، فإنّه من کانت فی داره شاة تحلب أو نجعة أو بقرة فبرکات کلّهن»[۷۳].

۲- و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی الغنم: «نعم المال الشاة»[۷۴].

۳- و

فى تفسير نور الثقلين، فى تفسير الآيات مورد البحث، روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «أفضل ما يتخذه الرجل فى منزله لعياله الشاة، فمن كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۸

فى منزلة شاة قدست عليه الملائكة مرّتين فى كل يوم».

و لا ينبغى الغفلة عن أنّ الكثير من بيوت المدن غير صالحة لتربية الأغنام، و الهدف الأصلى من إشارة الرّوايات هو إنتاج ما يحتاج إليه الناس على الدوام- فتأمل.

۴- و يكفينا ما

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى أهمية الزّراعة: «من وجد ماء و ترابا ثمّ افتقر فأبعده اللّه»[۷۵].

و بديهى انطباق هذا الحديث على الفرد و الأمّة معا، فالشعب الذى لديه مستلزمات الزراعة بشكل كاف و مع ذلك يمد يده لطلب المساعدة إلى الآخرين، فهو مبعد عن رحمة اللّه بلا إشكال.

۵-

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «عليكم بالغنم و الحرث فإنّهما يروحان بخير و يغدوان بخير»[۷۶].

۶- و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «ما فى الأعمال شىء أحبّ إلى اللّه من الزراعة»[۷۷].

۷- و أخيرا نقرأ

فى حديث روى عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يلى: «الزارعون كنوز الأنام يزرعون طيبا أخرجه اللّه عزّ و جلّ، و هم يوم القيامة أحسن الناس مقاما و أقربهم منزلة، يدعون المباركين»[۷۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۳۹

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹ الى ۱۳]

اشارة

وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْها جائِرٌ وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ (۹) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (۱۰) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۱) وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۱۲) وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۳)

التّفسير

كل شىء فى خدمة الإنسان!

بعد ذكر مختلف النعم فى الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم أخرى ...

فتشير أوّلا إلى نعمة معنوية عالية فى مرماها وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ أى عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم و هو الحافظ له من كل

انحراف، و قد وضعه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۰

متناول الإنسان.

«القصد»: بمعنى صفاء و استواء الطريق، فيكون معنى «قصد السبيل» الصراط المستقيم الذى ليس فيه ضلال و لا انحراف ۷۹].

و لكن أى النحوين من الصراط المستقيم هو المراد، التكوينى أم التشريعى؟

اختلف المفسّرون فى ذلك، إلّا أنّه لا مانع من قصد الجانبين معا.

توضيح:

جهّز اللّه الإنسان بقوى متنوعة و أعطاه من القوى و القابليات المختلفة ما يعينه على سلوكه نحو الكمال الذى هو الهدف من خلقه.

و كما أنّ بقيـة المخلوقات قـد أودعت فيها قوى و غرائز توصـلها إلى هـدفها، إلّا أنّ الإنسان يمتاز عليها بالإرادة و بحريـة الإختيار فيما يريده، و لهذا فلا قياس بين الخط التصاعدى لتكامل الإنسان و بقية الأحياء الأخرى.

فقد هدى اللّه الإنسان بالعقل و القدرة و بقية القوى التكوينية التى تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء و الوحى السـماوى و أعطاه التعليمات الكافيـة و القوانين اللازمة للمضـى بهدى التشـريع الرّبانى فى تكملة مشوار المسيرة، و ترك باقى السبل المنحرفة.

و من لطيف الأسـلوب القرآنى جعل الأمر المـذكور فى الآية فريضة عليه جل شأنه فقال: عَلَى اللَّهِ و كثيرا ما نجد مثل هذه الصـيغة فى الآيات القرآنية، كما فى الآية (۱۲) من سورة الليل إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى و لو دققنا النظر فى سعة مدلول عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ و ما أودع فى الإنسان من هدى تكوينى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۱

و تشريعى لأجل ذلك لأدركنا عظمة هذه النعمة و ما لها من الفضل على بقية النعم.

ثمّ يحذر البارى جعل شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: وَ مِنْها جائِرٌ[۸۰].

و بما أن نعمـة الإرادة و حرية الإختيار فى الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملته قصـيرة: وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ و لا تستطيعون عندها غير ما يريد اللّه.

إلّا أنّه سـبحانه لم يفعل ذلك، لأنّ الهدايـة الجبريـة لا تسـمو بالإنسان إلى درجات التكامل و الفخر، فأعطاه حريـة الإختيار ليسـير فى الطريق بنفسه كى يصل لأعلى ما يمكن الوصول إليه من درجات الرفعة و الكمال.

كما تشير الآية إلى حقيقة أخرى مفادها أنّ سلوك البعض للطريق الجائز و الصراط المنحرف ينبغى أن لا يوجد عند البعض توهما أنّ اللّه مغلوب (سـبحانه و تعالى) أمام هؤلاء، بل إنّ مشـيئته جل اسـمه و مقتضى حكمته دعت لأن يكون الإنسان حرا فى اختياره ما يريد من السبل.

و فى الآيـة التاليـة يعود إلى الجانب المادى بما يثير حسّ الشـكر للمنعم عنـد الناس، و يوقـد نار عشق اللّه فى قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر و أكثر لمعرفـة المنعم الحق، فيقول: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمـاءِ ماءً ماء فيه سـبب الحياة، و زلالا شـفافا خال من أى تلوّث لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ و تخرج به النباتات و الأشجار فترعى أنعامكم وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

«تسـيمون»: (من مادة الإسامة) بمعنى رعى الحيوانات، و كما هو معلوم فإنّ الحيوانات تسـتفيد من النباتات الأرضية و ورق الأشجار، و «الشجر» لغة: ذو معنى واسع يشمل إطلاقه الأشجار و غيرها من النباتات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۲

و ممّا لا شک فیه أیضا أنّ ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان و إرواء النباتات، بل و من فوائده أیضا: تطهیر الأرض، تصفیة الهواء، إیجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان و تنفسه براحة، و ما شابه ذلک .. فالمذکور من فوائده فی هذه الآیة لا حصرا و إنّما من باب الأهم.

فیکمل الموضوع بقوله: یُنْبِتُ لَکُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّیْتُونَ وَ النَّخِیلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ

و لا شک أنّ خلق هذه الثمار المتنوعة و کل ما هو موجود من المحاصیل الزراعیة لآیة للمتفکرین إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ

«الزرع»: یشمل کل مزروع و «الزیتون» اسم لشجرة معروفة و اسم لثمرها أیضا.

إلّا أنّ بعض المفسّرین یذهبون إلی أنّ «الزیتون» هو اسم الشجرة فقط، و اسم ثمرتها «زیتونة». فی حین أنّ الآیة الخامسة و الثلاثین من سورة النّور تطلق کلمة «الزینونة» علی الشجرة.

و «النخیل» تستعمل للمفرد و الجمع ... و «الأعناب» جمع أعنبة، و هی ثمرة معروفة.

و هنا یرد سؤال و هو: لما ذا اختار القرآن ذکر هذه الثمار دون غیرها (الزیتون، التمر، العنب)؟ ستقرأ توضیح ذلک فی البحوث التّفسیریة لهذه الآیات إن شاء اللّه.

ثمّ یشیر إلی نعمة تسخیر الموجودات المختلفة فی العالم للإنسان بقوله:

وَ سَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ علی عظمة و قدرة اللّه و عظمة ما خلق.

قلنا فی تفسیرنا لآیات سورتی الرعد و إبراهیم، أنّ المفهوم الواقعی لتسخیر الموجودات للإنسان أن تکون فی منفعته، و یکون ذلک من شأنها و وظیفتها مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۳

تمکین الإنسان من الاستفادة منها.

فکل من الشمس و القمر و اللیل و النهار و النجوم له نوع و أثر خاص فی حیاة الإنسان، و ما أجمل عبارة (تسخیر الموجودات للإنسان بأمر اللّه) فبالإضافة لما تظهره من شرف و رفعة شخصیة الإنسان بنظر الإسلام و القرآن، و إعطائه من الجلال ما یجعله مؤهلا لمقام خلیفة اللّه، فهی تذکرة للإنسان بأن لا یغفل عمّا أنعم اللّه علیه، و باعثة فیه شعور لزوم الشکر للّه تعالی من خلال ما یلمس و یری، عسی أن یتقرب لحالقه فینال حسن مآبه.

و لهذا یقول تعالی فی ذیل الآیة: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ

راجع تفسیرنا للآیتین (۳۲ و ۳۳) من سورة إبراهیم للاستزادة فی معرفة أسرار التسخیر المذکور.

و إضافة لکل ما تقدم وَ ما ذَرَأَ لَکُمْ فِی الْأَرْضِ من مخلوقات سخرها لکم و مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ من الأغطیة و الملابس و الأغذیة و الزوجات العفیفات و وسائل الترفیه، حتی أنواع المعادن و کنوز الأرض و سائر النعم الأخری إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ

البحوث

۱- النعم المادیة و المعنویة

احتوت الآیات مورد البحث علی ذکر النعم المادیة و المعنویة بشکل مترابط لا یقبل الفصل، إلّا أن أسلوب و لحن التعبیر یختلف بین

النعم المادية و المعنوية، فبالنسبة للنعم المادية لا ـ نجد موردا يقول فيه القرآن الكريم: إنّ على اللّه رزقكم، لكنّه فى مورد الهداية يقول: عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ فيعطيكم كل ما تحتاجونه تكوينيا و تشريعيا للسير باقتدار فى الطريق الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۴

و حينما يتحدث عن خلق الأشجار و الفواكه و عن تسخير الشمس و القمر نراه سبحانه يضعها فى مسير هدف معنوى ... إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ و ذلك لإنّ الأسلوب القرآنى- كما هو معروف- لا يتخذ بعدا واحدا فى خطابه للناس.

۲- لما ذا الزّيتون و النخيل و الأعناب دون غيرها؟!

يمكننا للوهلة الأولى أن نتصور أنّ ذكر القرآن للزيتون و التمر و العنب، فى الآيات مورد البحث، لوجودها فى المنطقة التى نزل فيها القرآن .. و لكن بملاحظة الجانب العالمى لرسالة القرآن و مع الإعتقاد ببقائها و استمرارها بالإضافة إلى التوجه لعمق التعبير القرآنى .. يتّضح لنا خطل ذلك التصور.

يقول العلماء المتخصصون بالأغذية (ممن صرفوا السنين الطول فى البحث عن فوائد و خواص الأغذية): إنّ القليل من الفواكه التى تنفع بدن الإنسان من الناحية الغذائية هى بمستوى هذه الثمار الثلاث.

و يقولون: إنّ (زيت الزيتون) له قيمة عالية جدا لتأمين السعرات الحرارية اللازمة للبدن، و لذلك يعتبر من الأغذية المقوية للبدن، و على الذين يريدون حفظ سلامتهم أن يواظبوا على تناول هذا الإكسير.

إنّ زيت الزيتون ملائم لكبد الإنسان، مؤثر فعال فى رفع عوارض الكلى، و القولنج الكلوى و الكبدى و اليبوسة.

و لهذا نجد له مدحا كثيرا فى الرّوايات،

ففى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال عن الزيتون: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، و يذهب البلغم، و يصفى اللون، و يشد العصب، و يذهب بالوصب، و يطفئ الغضب»[۸۱].

و الأهم من ذلك كله تسمية القرآن لشجرة الزيتون ب «الشجرة المباركة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۵

و للتمر حديث أيضا حيث ثبتت الأهميتين العلاجية و الغذائية له من خلال ما بيّنه علماء الطب و الأغذية .. فقد اتّضح وجود الكالسيوم فيه الذى يعتبر العامل الأساسى لبناء و تقوية العظام، و كذلك الفسفور الذى يعتبر من العناصر الأساسية فى تكوّن الدماغ، بالإضافة إلى أن التمر يمنع ضعف الأعصاب و مزيل للتعب، كما أنّ له دورا فى حدة البصر.

و فيه البوتاسيوم الذى له الأهمية البالغة فى بناء خلايا الجسم، علاوة على أن فقدانه بسبب قرحة المعدة.

كما بات من المعروف عند المتخصصين فى علم الأغذية أن التمر له الدور الفعال فى عدم الإصابة بمرض السرطان.

و أظهرت الإحصائيات أنّ المناطق التى يكثر فيها تناول التمر هى أقل المناطق إصابة بهذا المرض الفتاك. و لهذا نجد أن البدو فى الصحارى العربية مع ما يعانونه من فقر غذائى إلّا أنّهم لا يصابون بمرض السرطان. و يعزى سبب ذلك إلى وجود المغنيسيوم فى التمر غذائهم الأول.

أمّا السكر الموجود فى التمر فيعتبر من أفضل أنواع السكريات، حتى أنّه لا يسبب ضررا لكثير من المصابين بمرض السكر عند تناوله.

و قد اكتشف العلماء لحدّ الآن ثلاث عشرة مادة حياتية و خمسة أنواع من الفيتامينات فى التمر، تجعله مصدرا غذائيا غنيا و ذا قيمة عالية جدّا[۸۲].

و لهذا ورد تأكيد واسع على أهمية هذه المادة الغذائية فى الرّوايات، و ممّا

روی عن علی علیه السّلام أنّه قال: «کل التمر فإنّ فیه شفاء من الأدواء».

و

قد روی أیضا أنّ طعام أمیر المؤمنین علیه السّلام کثیرا ما کان الخبز و التمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۶

و

فی روی أخری: «بیت لا تمر فیه جیاع أهله»[۸۳].

و فی سورة مریم أن اللّه أطعم مریم عند ما ولدت عیسی علیه السّلام، الرطب، و هو إشارة إلی أن أفضل غذاء للمرأة حدیثة الولادة التمر، و علیه کان تأکید الرّوایات بخصوص تفسیر هذه الآیة .. إنّ أفضل طعام لها هو التمر[۸۴].

أمّا العنب .. فیقول عنه علماء الأغذیة: إنّ ما فیه الفوائد تدعونا إلی القول بأنّه صیدلیة طبیعیة متکاملة.

إضافة إلی أنّ خواص العنب شبیهة جدا بخواص حلیب الأم (أی أنّه غذاء کامل)، و فائدته ضعف فائدة اللحم، و هو ذو سعرة حراریة عالیة، و مقاوم للسموم، و له أثر علاجی قطعی فی تصفیة الدم و الوقایة من الروماتیزم و النقرس، و یزید فی الدم، و ینظف المعدة و الأمعاء، و هو: منشط، مزیل للتعب، مقو للأعصاب، و تعطی الفیتامینات المختلفة التی یحتویها قوة للإنسان.

و إضافة لکونه مادة غذائیة مهمّة فله القدرة علی مکافحة المیکروبات بدرجة ملحوظة، حتی أعتبر من العوامل المهمّة فی مکافحة مرض السرطان و الوقایة منه ۸۵].

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «خیر طعامکم الخبز، و خیر فاکهتکم العنب»[۸۶].

و لو أردنا ذکر کل ما أورده علماء التغذیة بخصوص الفواکه الثلاث و ضمّناها ما جاء بصددها من روایات لخرجنا عن طبیعة التّفسیر، و إنّما کان القصد من هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۷

الإطالة بیان السبب العلمی الدقیق وراء ذکر هذه الفواکه فی الآیة المشار إلیها، و لعل أکثر ما ذکر من فوائد کان خافیا علی أهل زمان نزول الآیة.

۳- التفکر و التعقل و التذکر:

رأینا فی الآیات المبحوثة أنّ القرآن دعا الناس بعد ذکر ثلاثة أقسام من النعم الإلهیة إلی التأمل فی ذلک، فقال فی المورد الأوّل: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ و فی المورد الثّانی: لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ و فی الثّالث: لِقَوْمٍ یَذَّکَّرُونَ

إن الاختلاف الوارد لیس للتصویر الفنی فی عبارات القرآن، لأن المعروف عن الأسلوب القرآنی إشارته لکل معنی برمز خاص.

و لعل المقصود من ذلک أنّ النعم الإلهیة الموجودة فی الأرض من الوضوح ما یکفی معها التذکر.

أمّا فیما یخص الزراعة و الزیتون و النخیل و الأعناب و الفاکهة فتحتاج إلی ترکیز الفکر لمعرفة خواصها الغذائیة و العلاجیة، و لهذا ورد التعبیر بالتفکر فیها.

و أمّا تسخیر الشمس و القمر و اللیل و النهار و النجوم فیحتاج إلی تفکیر أشد و أعمق من الحالة الأولی، فورد التعبیر بالتعقل.

و علی أیة حال، فالقرآن- دوما- یخاطب العلماء و المفکرین و العقلاء، بالرغم من أنّ المحیط الذی نزل فیه کان متخوما بالجهل، و من هنا تتضح لنا عظمة عبارات القرآن بشکل جلی.

و القرآن بما يحمله يمثل ضربة قاصمة لضيقى الأفق من الذين رفضوا الأديان كلها لأنّهم اصطدموا بوجود أديان خرافية، و على أساسها الهش بنوا بنيانهم المهزوز على اعتبار أنّ الدين معطل للعقل و العلم و أنّ الإيمان باللّه عزّ و جلّ ناتج عن جهل الإنسان و ضعفه!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۸

و من هذه النداءات الرّبانية ما نجده فى جميع السور القرآنية تقريبا، التى تتحدث بكل وضوح عن: أنّ الدين الحق هو وليد التعقل و التفكر و ليس وليد الخيال السارح و الجهل الدامس.

و خطاب الإسلام موجه باستمرار إلى علماء و أولى الألباب و ليس إلى الجهلة و ذوى الخرافات الباطلة أو إلى أدعياء الثقافة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۴۹

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۴ الى ۱۸]

اشارة

وَ هُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۴) وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ أَنْهاراً وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۵) وَ عَلاماتٍ وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (۱۶) أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۷) وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۸)

التّفسير

نعمة الجبال و البحار و النجوم:

تبيّن هذه الآيات قسما آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التى تفضل بها اللّه عزّ و جلّ على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياة، فيقول: وَ هُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ.

و كما هو معلوم أنّ البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، و أن الماء أساس الحياة، و لا زالت البحار باعتبارها المنبع المهم فى إدامة الحياة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۰

البشرية و حياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار فى خدمة الإنسان ...

ثمّ يشير البارى سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا فقد جعل اللّه فى البحار لحما ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد فى تربية، بل أوجدته و نمّته يد القدرة الإلهية، و قد خصه بالطراوة، فمع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ اللحوم غير الطازجة متوفرة فى ذلك الزمان و فى هذا الزمان على السّواء ندرك جيدا أهمية هذه النعمة، و فى ذلك إشارة أيضا الى أهمية اللحوم الطازجة.

و مع ما شهدته الحياة البشرية من التقدم و التمدن المدنى فى كافّة أصعدة الحياة لا زال البحر أحد المصادر الرئيسية للتغذية، و يصاد سنويا مئات الآلاف من الأطنان من الأسماك الطرية التى أوجدتها و رعتها يد اللطف الإلهية لأجل الإنسان.

و نجد أنظار العلماء متجهة صوب البحار فى قبال ما سيهدد البشرية من خطر نقص المواد الغذائية فى المستقبل جراء الزيادة السكانية

الهائلة، آملين خيرا بأنّ البحار ستسد مقدارا ملحوظا من ذلك النقص، بواسطة تربية و تكثير أنواع الأسماك.

و من جهة أخرى وضعوا عدّة مقررات لمنع تلوّث مياه البحار للحد من تلف نسل الحيوانات البحرية، و كل ذلك يوضح ما فى الآية المذكورة من مسائل علمية طرحت على البشرية قبل أربعة عشر قرنا.

و من فوائد البحار أيضا تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه:

وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها.

الحس الجمالى من الأمور الفطرية التى فطر الإنسان عليها و هو الباعث على إثارة الشعر و الفن الأصيل و ما شاكلها عنده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۱

و بلا شك، يلعب هذا البعد دورا مهمّا فى حياة البشر، و ينبغى العمل على إشباعه بشكل صحيح و سالم بعيدا عن أى نوع من الإفراط و التفريط.

فلا فرق بالنتيجة بين من غرق فى عبادة التجميل و الزينة، و بين من أهملها و عاش حالة الجفاف الجمالى، لأنّ الأوّل مارس الإفراط الباعث على تلف رأسماله و بات سببا فى إيجاد الفواصل الطبقية المصاحب لقتل كل ما يمت للمعنويات بصلة، و الثّانى مارس التفريط الباعث على الخمود و الركود. فالإثنان معا عملا بما لا ينبغى أن يعمله أى إنسان ذو فطرة سليمة بكافة أبعادها.

و لهذا أوصى الإسلام كثيرا بالتزين المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعطور، استعمال الأحجار الكريمة ... إلخ.

ثمّ يتطرق القرآن إلى الفائدة الثّالثة فى البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمّة لتنقل الإنسان و نقل ما يحتاجه، فيقول: وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ و ما أجمل ما تقع عليه أنظار راكبى السفينة حين حركتها على سطح البحار و المحيطات.

و أعطاكم اللّه هذه النعمة لتستفيدوا منها فى التجارة أيضا وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۸۷].

و بعد ذكر هذه النعم التى تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتى فى ذيل الآية: وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

«الفلك»: أى السفينة، و تأتى بصيغتى المفرد و الجمع.

«مواخر» جمع «ماخرة» (من مادة مخر) على وزن (فخر) بمعنى شق الماء يمينا و شمالا، و تطلق على صوت الرياح الشديد أيضا، و باعتبار السفن عند حركتها تشق الماء بمقدمتها فيطلق عليها اسم (الماخر) أو الماخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۲

و نتساءل: من الذى أعطى المواد التى تصنع منها السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

فالسفينة بما تحمل أثقل من الماء بكثير، و لو لم تكن تلك القوّة الدافعة للماء، هل بإمكاننا العوم على سطح المياه؟

و من الذى يحرك الرياح على سطح البحر؟

بل من أعطى البحار القوّة لتحريك السفينة فى مسيرها على سطح الماء؟

أو ليس ذلك كله من نعم اللّه تعالى؟

و ممّا يكشف عن عظم نعمة البحار أنّها: أوسع بكثير من الطرق البرية، أقلّ كلفة، أكثر أهلية للحركة، أعظم وسيلة نقلية للبشر، و ذلك بملاحظة كبر السفن المستخدمة فى النقل و ضخامة ما تحمله.

ثمّ يأتى الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۸۸].

كما قلنا سابقا فإنّ الجبال متصلة من جذورها و تقوم بتثبيت الأرض ممّا يجعلها مانعا حصينا من الزلازل الأرضية الشديدة الناشئة من الغازات الكامنة فى باطن الأرض و المهددة بالخروج فى أية لحظة على شكل زلزال.

إضافة لخاصية الجبال فى مد القشرة الأرضية بالمقاومة اللازمة أمام جاذبية القمر (التى تسبب ظاهرة المد و الجزر) و يقلل من أثرها

إلى حد كبير.

و للجبال من جانب ثالث القدرة على تقليل شدة حركة الرياح و توجيه حركتها، و لو لم تكن الجبال لكن سطح الأرض عرضة للعواصف الشديدة المستمرة.

ثمّ يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمة الأنهار، لما بين الجبال و الأنهار من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۳

علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: وَ أَنْهاراً.

ثمّ يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين ارتباط الأراضى فيما بينها بالإضافة لكونها مانعا رهيبا أمام حركة النقل، فيقول وَ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۸۹].

و هذه المسألة ملفتة للنظر حقا، حيث نجد طرق عبور يستطيع أن يتخذها الإنسان سبيلا لتنقلاته بين أكبر السلاسل الجبلية و عورة فى العالم، و قليلا ما يكون هناك قطع كامل بين المناطق بسبب الجبال.

ثمّ يضيف قائلا: وَ عَلاماتٍ لأنّ الطريق لوحدها لا يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة و مميزات شاخصة يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، و لذا ذكر هذه النعمة.

و من تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الارتفاع و الانخفاض، لون الأرض و الجبال و حتى طبيعة حركة الهواء.

و لمعرفة ما لوجود هذه العلامات من أهمية، يكفينا أن نلقى نظره إلى حال الصحارى الواسعة ذات الصفة الواحدة الموجودة فى بعض مناطق العالم، حيث عملية التنقل فيها أمر صعب مستصعب إلى حد كبير، إضافة لخطورته الكبيرة، و كم هناك من مسافر دخل فيها و لم يعد ...

فلو كان سطح الأرض كله على شاكلة الصحارى، كأن تكون الجبال كلها بشكل و حجم واحد، و حقولها بلون واحد، و أوديتها متشابهة تماما .. فهل كان من اليسير على الإنسان أن يسير عليها؟! و أمّا فى حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل فى أىّ من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۴

سفر البر أو البحر، فقد جعل اللّه تعالى علامات فى السماء تعوض عن علامات الأرض فى تلك الحال: وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ

بطبيعة الحال فهذه إحدى الفوائد الجملة للنجوم، و لو لم يكن لها سوى هذه الفائدة لكان كافيا لوجودها، خصوصا فى زمن لا أسطرلاب فيه و لا مؤشرات قطبية تعين السفن فى تحديد مسيرها وفق خرائط أعدت لذلك الغرض، و قديما كانت الرحلات تتوقف إذا ما غطيت السماء بالسّحب و تلبدت بالغيوم، و من يجرأ على تكملة السفر فسيواجه خطر الموت.

و كما هو معلوم اليوم، فإنّ النجوم التى تبدو لنا متحركة فى السماء عبارة عن خمسة كواكب، و يطلق عليها اسم السيارات، و السيارات أكثر من خمسة، إلّا أنّ البقية لا يمكن تشخيصها بالعين المجرّدة بسهولة، أمّا بقية النجوم فإنّها تحتفظ بمكانها النسبى، و كأنّها لآلئ خيطت على قطعة قماش أسود، و هذه القطعة كأنّها تسحب من إحدى جهاتها فتتحرك بكاملها.

و بعبارة أخرى: إنّ حركة النجوم الثوابت جمعية، و حركة السيارات انفرادية، حيث تتغير المسافات بينها و بين الثوابت باستمرار.

إضافة لذلك، فالنجوم الثوابت تشكل فيما بينها أشكالا معينة تعرف ب (الصور الفلكية) و لها الأثر الكبير فى معرفة الاتجاهات الأربعة (الشمال، الجنوب، الشرق، و الغرب).

و بعد أن بيّن القرآن كل هذه النعم الجليلة و الألطاف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنسانى للحكم فى ذلك أَ فَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ! و كما اعتدنا عليه من القرآن فى أسلوبه التربوى الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاججة بصيغة السؤال يترك الجواب عنه فى عهدة الوجدان الحى للإنسان، مستعينا بتحريك الإحساس الباطنى ليجيب من أعماق روحه، و لينشد عشقا

بخالقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۵

و الثابت فى الواقع النفسى للإنسان، أن التعليم و التربية السليمة يستلزمان بذل أقصى سعى ممكن لإقناع المقابل بقبول ما يوجد إليه عن قناعة ذاتية، أى ينبغى إشعاره بأن ما يعطى إليه ما هو فى حقيقته إلّا انبعاث من داخله و ليس فرضا عليه من الخارج ليتقبلها بكل وجوده و يتبناها و يدافع عنها.

و نجد من الضرورة إعادة ما قلناه سابقا من أن المشركين الذين كانوا يسجدون للأصنام كانوا يعتقدون أنّ اللّه عزّ و جلّ هو الخالق، و لهذا يتساءل القرآن الكريم .. من أحق بالسجود .. خالق كل شىء أم المخلوق؟! و فى نهاية المطاف، يفند البارى سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها.

إنّكم غارقون فى النعم الإلهية و فى كل نفس يصعد و ينزل آلاف النعم (و لكل نعمة شكر واجب).

إنّ كل دقيقة تمر من عمرنا نكون فيها مدينين لفعاليات ملايين الموجودات الحيّة فى داخل بدننا و ملايين الموجودات الحية و غير الحية فى خارجة، و التى لا يمكننا أن نحيا و لو للحظة واحدة بدونها.

و لكنّ ضبابية الغفلة حالت دون معرفتنا لهذه النعم الجمة التى كلّما خطا العلم الحديث خطوة إلى الإمام اتّضحت لنا أبعاد واسعة و انفتحت لنا آفاقا جديدة فى معرفة النعم الإلهية، و كل ما ندركه فى هذا المجال قليل جدّا ممّا قدّره البارى لنا، فهل بإمكان المحدود أن يعد ما أعطاه المطلق؟! و نواجه فى هذا المقام سؤالا و استفسارا: كيف إذن نؤدى حق الشكر للّه؟ و ..

ألسنا مع ما نحن فيه زمرّة الجاحدين؟

و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ خير جواب لما واجهنا به.

نعم، فهو سبحانه أرحم و أرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة فى أداء أتمّ الشكر على نعمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۶

و يكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين فى حال اعتذرنا له و اعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

و لكن هذا لا يمنع من أن نتتبع و نحصى النعم الرّبانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفة اللّه، و علما بعالم الخليقة، و آفاق التوحيد الرحبة، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه فى أعماق قلوبنا، و كذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضرورة و وجوب شكر المنعم جل و علا.

و لهذا نجد أنّ الأئمّة عليهم السّلام يتطرقون فى أقوالهم و أدعيتهم و مناجاتهم إلى النعم الإلهية و يعدون جوانب منها، عبادة للّه و تذكيرا و درسا للآخرين.

(و قد تناولنا مسألة شكر النعمة و عدم قدرة الإنسان على إحصاء النعم الإلهية عند بحث الآية الرّابعة و الثّلاثين من سورة إبراهيم).

بحث

الطريق، العلامة، القائد:

تحدثت الآيات أعلاه عن الطرق الأرضية بكونها إحدى النعم الإلهية باعتبارها من أهم وسائل الارتباط فى طريق التمدن الإنسانى.

و لهذا عند وضع الخطط العمرانية لا بد معها من رسم و بناء خطوط الطرق المناسبة للمكان المقصود، و إلّا لا يمكن أن يقام عمران.

و مع هذا، فلا يمكننا حصر البيان القرآنى بهذا الجانب فحسب، بل يمكننا القول بأنّه يشمل حتى جوانب الحياة المعنوية للبشرية أيضا،

لأنّ الوصول إلى هدف مقدس يستلزم سلوك الطريق الصحيح لذلك الهدف.

بالإضافة إلى الأهمية الحيوية الوجود العلامات فى تشخيص السبيل من بين كثرة السبل و تشابكها، فإضاعة السبيل الأصلى ممكن فى حال عدم وجود ما يدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۷

عليه من «علامات».

و خصوصا، ورود تسمية المؤمنين فى الآيات القرآنية بالمتوسمين للتأكيد على ضرورة الانتباه إلى هذه العلامات.

فلكى يستطيعوا تشخيص الحق من الباطل لا بد من معرفة المذاهب و السنن و الدعوات المختلفة، بل حتى الأشخاص، و ذلك من خلال (العلامات).

و أمّا مسألة وجود القائد فلا تحتاج لتوضيح و بيان (الموضح لا يوضح).

و قد فسرت «النجم» برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و «العلامات» بالأئمّة عليهم السلام فى روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السّلام .. و فى بعضها فسّر «النعم» و «العلامات» كلاهما بالأئمّة عليهم السّلام، و نشير هنا إلى نماذج من الرّوايات:

۱-

فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «النجم رسول اللّه، و العلامات الأئمّة عليهم السّلام»[۹۰] و ورد مثله عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام.

۲- و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية أعلاه أنّه قال: «نحن النجم»[۹۱].

۳- و

روى كذلك عن الإمام الرضا عليه السّلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «أنت نجم بنى هاشم»[۹۲].

۴- و

فى رواية أخرى: «أنت أحد العلامات»[۹۳].

و كل ذلك يشير إلى التّفسير المعنوى لهذه الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۸

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۹ الى ۲۳]

اشارة

وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۱۹) وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ (۲۰) أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۲۱) إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (۲۲) لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (۲۳)

التّفسير

آلهة لا تشعر!

تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أية منها على الأصنام و سائر المعبودات الأخرى غير اللّه تعالى و هما: (خلق الموجودات، إعطاء النعم)، أمّا الآية الأولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثّالثة للمعبود الحقيقى (و هى العلم)، فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ

فلما ذا تسجدون للأصنام التى لم تكن هى الخالقة لكم، و لم تمنّ عليكم بأية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۵۹

نعمة، و لا تعرف عن علنكم شيئا مضافا إلى سرّكم؟! فهل يصح عبادة من لا يمتلك مستلزمات المعبود؟! ثمّ يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بأفق أوسع من الآية السابقة: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ

و قد بحث لحد الآن فى عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنّها ليست خالقة. بل و الأكثر من ذلك أنّها إضافة لكونها مخلوقة فهى فقيرة و محتاجة فى وجودها، فكيف يلجأ إليها الإنسان لسد حوائجه؟! أو ليس ذلك السخف بعينه؟

و مع ذلك كلّه، فإنّها أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ.

أو ليس ينبغى أن يكون المعبود حيا (على أقل التقادير) ليكون مطلعا على حاجات عباده؟

إذن ... يلزم توفر صفة «الحياة» للمعبود الحقيقى، و هذا ما لا يتوفر فى الأصنام.

ثمّ يضيف قائلا عنها: وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ

فإذا كان الثواب و العقاب بيد الأصنام. فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، و مع جهلها بيوم البعث و الحساب كيف تكون لائقة للعبادة؟! و هذه هى الصفة الخامسة التى يجب توفرها فى المعبود الحقيقى و تفتقدها الأصنام.

و قلنا مرارا فيما سبق أن مفهوم الصنم و عبادة الأصنام فى المنطق القرآنى أوسع من أنّ يحدد بالآلهة المصنوعة من الحجر و الخشب و المعادن. فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل اللّه عزّ و جلّ، و نسلم له أمر مصائرنا، فهو صنم و إنّ كان بشرا.

و لهذا فكل ما جاء فى الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون اللّه بألسنتهم، و لكن فى واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، و قد تبعوه لكونه المخلص لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۰

من دون اللّه، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

أولئك الذين يعتقدون أن القوى العالمية الكبرى يمكن أن تكون ملجأ لهم فى حياتهم، و إن كانت كافرة باللّه و جهنمية فهم من الناحية العملية الواقعية عبدة للأصنام و مشركين باللّه عزّ و جلّ، و ينبغى محاججتهم ب:

هل خلقت لكم هذه المعبودات شيئا؟

هل هى مصدر النعمة؟

أ هى مطلعة على شؤونكم الظاهرة و الخفية؟

و هل تعلم متى ستبعثون؟

هل بيدها الثواب و العقاب؟

و إن كانت الإجابة بالنفى، فلم تعبدونها من دون اللّه؟! و بعد هذه الاستدلالات الحية و الواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

و بما أنّ العلاقة بين المبدأ و المعاد مترابطة ربطا لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: فَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۹۴].

فأدلة التوحيد و المعاد قائمة لمن أراد الحق و طلب الحقيقة، إلّا أن سبب عدم قبول الحق و إنكاره يرجع إلى حالة الاستكبار و عدم

التسليم له، و يصبح ملكة فى وجود المنكرين خصوصا بعد أن يصل بهم الحال إلى إنكار الحقائق الحسيّة المتوفرة لديهم، و عندها فلا ينفع معهم كلام حق أو دليل شاخص أو منطق سليم.

فالأدلة الحية التى ذكرتها الآيات السابقة بعدم صلاحية الأصنام للعبادة كافية لكل ذى لب رشيد، إلّا أنّ هناك الكثير ممن لا يقبلها مع مالها من حقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۱

و وضوح!!! ثمّ تتطرق فى الآية الأخيرة إلى علم اللّه فى الغيب و الشهادة: لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ

و الآية فى واقعها تهديد للكفار و أعداء الحق، بأنّ اللّه عزّ و جلّ ليس بغافل عنهم، سرهم و علانيتهم، و كل سينال جزاءه بما غرفت يداه.

فهم مستكبرون و إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ و الاستكبار على الحق من علامات الجهل باللّه عزّ و جلّ.

إنّ كلمة «لا جرم» متكون من «لا» و «جرم» و تستعمل عادة للتأكيد بمعنى (قطعا)، و أحيانا بمعنى (لا بد)، و فى بعض الأحيان تستعمل كقسم مثل: (لا جرم لأفعلن).

أمّا كيف أمكن استخراج هذه المعانى من كلمة «لا جرم» فذلك لأنّ «جرم» فى الأصل بمعنى القطف و قطع الثمار من الأشجار، و عند ما تدخل عليها «لا» يكون مفهومها: أن لا شىء يستطيع قطع هذا الموضوع و منعه من التحقق، و لهذا يستفاد منها معانى: قطعا، و لا بدّ، و أحيانا القسم.

بحث

من هم المستكبرون؟

وردت كلمة الاستكبار فى آيات كثيرة من القرآن الكريم باعتبارها إحدى الصفات الذميمة الخاصّة بالكفار، و لتعطى معنى التكبر عن قبول الحق.

ففى الآية السابقة من سورة نوح: وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

و فى الآية الخامسة من سورة المنافقين: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۲

رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

و كذلك فى الآية الثّامنة من سورة الجاثية: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها.

و من أقبح ألوان التكبر ذلك الذى يقف أمام قبول الحق فيرفضه، لأنّه يغلق على الإنسان جميع سبل الهداية و يتركه يتخبط فى متاهات المعاصى و الضلال.

و يصف أمير المؤمنين عليه السّلام الشيطان بأنّه:

«سلف المستكبرين»[۹۵]

لأنه أوّل من خطا فى طريق مخالفة الحق بعدم تسليمه للحقيقة الرّبانية التى تقول: إنّ أدم أكمل منه.

صحيح أنّ زهو المال قد يوقع الإنسان فى حالة الاستكبار، إلّا أنّ المسألة أكبر من ذلك و أشمل، فكل رافض لقبول الحق مستكبر و

إن كان فقيرا.

و نختم البحث

بروايـة عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّه قال: «و من ذهب يرى أنّ له على الآخر فضـلا فهو المسـتكبرين، فقلت: إنّما يرى أن له عليه فضلا بالعافية إذا رآه مرتكبا للمعاصى؟ فقال: هيهات هيهات! فلعله أن يكون قد غفر له ما أتى و أنت موقوف تحاسب، أما تلوت قصّة سحرة موسى عليهم السّلام»[۹۶].

(حين وقف السـحرة يومـا فى مقابـل موسـى عليه السّـلام إرضاء لفرعون و طمعا فى جوائزه، و لكنّهم انقلبوا فجأة لما تبيّن لهم الحق و اعتنقوه و ما هابوا تهديد فرعون، و بقوا على رفضهم فى عديم التسليم للطاغية، فكانت النتيجة أن عفا اللّه عنهم و رحمهم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۲۴ الى ۲۹]

اشارة

وَ إِذا قِيـلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۲۴) لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَـةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِـلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ (۲۵) قَـدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِـدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَـذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۶) ثُمَّ يَـوْمَ الْقِيامَـةِ يُخْزِيهِمْ وَ يَقُـولُ أَيْنَ شُـرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَـاقُّونَ فِيهِمْ قـالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ (۲۷) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۲۹)

سبب النّزول

جاء فى تفسير مجمع البيان: يروى أنّها نزلت فى المقتسمين و هم ستة عشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۴

رجلا خرجوا إلى عقاب مكّة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبـة أربعـة منهم ليصدوا الناس عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قالوا: أحاديث الأولين و أباطيلهم.

التّفسير

حمل أوزار الآخرين:

دار الحـديث فى الآيات السابقـة حول عناد المسـتكبرين و اسـتكبارهم أمام الحق، و سـعيهم الحثيث فى التنصل عن المسؤوليـة و عدم التسليم للحق.

أمّا فى هـذه الآيات فيـدور الحديث حول منطق المسـتكبرين الدائم، فيقول القرآن: وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فليس هو وحى الهى، بل أكاذيب القدماء.

و كانوا يرمون بكلامهم المؤدى هذا إلى أمرين:

الأوّل: الإيحاء بأن مستوى تفكيرهم و علميتهم أرقى ممّا أنزل اللّه! الثّانى: ما جاء به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إن هو إلّا أساطير الأولين قد صيغت بعبارات جذابة لتنطلى على عوام الناس، و هذا ليس بالجديد، و ما محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا معيد لما جاء به الأوّلون من أساطير.

«الأساطير»[۹۷]: جمع أسطورة، و تطلق على الحكايات و القصص الخرافية و الكاذبة، و قد وردت هذه الكلمة تسع مرات فى القرآن الكريم نقلا عن لسان الكفار ضد الأنبياء تبريرا لمخالفتهم الدعوة إلى اللّه عزّ و جلّ.

و فى جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأوّلين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة و أنّ الأيّام ستتجاوزها! حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۵

لسانهم فى الآية (۳۱) من سورة الأنفال: قَدْ سَمِعْنا لَوْ نَشاءُ لَقُلْنا مِثْلَ هذا.

و الملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروبا من الحق و إضلالا للآخرين، و وصلت بهم الحماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، و ما الآراء الدينية إلّا أساطير و خرافات! حتى أنّهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع و دوّنوه بصياغة (علمية) كما يدّعون).

أمّا لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أخرى: فهم لم يحاربوا الأديان و المذاهب الخرافية المجعولة أبدا، فهم مؤسسوها و الداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة و الدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى و يحطم الأغلال الاستعمارية و يقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

إنهم يرون عدم انسجام دعوة الدين إلى الأخلاق الحميدة، لأنّها تعارض أهواءهم الطائشة و رغباتهم غير المشروعة.

لذلك يجدون فى دعوة الحق مانعا أمام ما يطمحون الحصول عليه، و نراهم يستعملون مختلف الأساليب لتوهين هذا الدين القيم و إسقاطه من أنظار الآخرين كى تخلو الساحة لهم ليفعلوا ما يشاءون.

و من المؤسف أنّ طرح بعض الخرافات و الأفكار الخاطئة فى قالب دينى من قبل الجهلة، كان بمثابة العامل المساعد فى تجرّى هؤلاء و دفعهم لإلصاق تهمة الخرافات بالدين. و لا بدّ للمؤمنين الواعين أمام هذه الحال من الوقوف بكل صلابة أمام الخرافات ليبطلوا هذا السلاح فى أيدى أعدائهم و يذكروا هذه الحقيقة فى كل مكان و أن هذه الخرافات لا ترتبط بالدين الحق أبدا و لا ينبغى للداعية المخلص أن يجعل الخرافات ذريعة لأعداء الدين فى محاربته و محاربتنا، لأنّ عملية انسجام التعليمات الربانية مع العقل بحدّ من المتانة و الوضوح لا يفسح أىّ مجال لأنّ توجه إليه هكذا أباطيل.

توضح الآية الأخرى أعمالهم بالقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۶

وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ

لأنّ أقوالهم الباطلة لها الأثر السلبى بتضليل أعداد كبيرة من الآخرين. فمن أسوأ ممن حمّل أوزار آلاف البشر إلى وزره! و الأكثر من ذلك أن أقوالهم ستركد فى مخيلة من يأتى بعدهم من الأجيال لتكون منبعا لإضلالهم، ممّا يزيد فى حمل الأوزار باطراد.

و قد جاءت عبارة «ليحملوا» بصيغة الأمر، أمّا مفهومها فلبيان نتيجة و عاقبة أعمال أولئك المظلين، كما نقول لشخص ما: لكونك قمت بهذا العمل غير المشروع فعليك أن تتحمل عاقبة ما فعلت بتذوقك لمرارة عملك القبيح. (و احتمل بعض المفسّرين أن لام (ليحملوا، لام نتيجة).

و الأوزار: جمع وزر، بمعنى الحمل الثقيل، و جاءت بمعنى الذنب أيضا، و يقال للوزير لعظم ما يحمل من مسئولية.

و يواجهنا السؤال التالى .. لما ذا قال القرآن: يحملون من أوزار الذين يضلونهم و لم يقل كل أوزارهم، فى حين أن الرّوايات تؤكد ..

أن

«من سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة»؟

أجاب بعض المفسّرين بوجود نوعين من الذنوب عند المضلّلين، نوع ناتج من أتباعهم لأئمّة الضلال، و النوع الآخر من أنفسهم، فما يحمله أئمّتهم، و قادتهم هو من النوع الأوّل دون الثّانى.

و اعتبر البعض الآخر من المفسّرين أنّ «من» فى هذه الجملة ليست تبعيضية، بل جاءت لبيان أنّ ذنوب الأتباع على عاتق المتبوعين.

و ثمّة تفسير آخر قد يكون أقرب إلى القبول من غيره، يقول: إنّ الاتباع الضالين لهم حالتان من التبعية ...

فتارة يكونون أتباعا للمنحرفين على علم و بيّنة منهم، و التأريخ حافل بهكذا صور، فيكون سبب الذنب أوامر القادة من جهة، و تصميم الأتباع من جهة أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۷

فيقع على عاتق القادة قسم من المسؤولية المترتبة على هذه الذنوب «و لا يقلل من وزر الأتباع شىء».

و تارة أخرى تكون التبعية نتيجة الاستغفال و الوقوع تحت شراك وساوس المنحرفين من دون حصول الرغبة عند المتبوعين فيما لو أدركوا حقيقة الأمر، و هو ما يشاهد فى عوام الناس عند الكثير من المجتمعات البشرية، (و قد يسلك طريق الضلال بعنوان التقرب إلى اللّه) .. و فى هذه الحال يكون وزر ذنوبهم على عاتق مضلّيهم بالكامل، و لا وزر عليهم إن لم يقصّروا بالتحقق من الأمر.

و لا شك أنّ المجموعة الأولى التى سارت فى طريق الضلال عن علم و بيّنة من أمرها سوف لا يخفف من ذنوبهم شىء مع ما يلحق أئمّتهم من ذنوبهم.

و هنا يلزم ملاحظة أنّ التعبير «بغير علم» فى الآية ليس دليلا على الغفلة الدائمة للمضلّلين، و لا يعبّر عن سقوط المسؤولية- فى جميع الحالات- على غير المطلعين بحال و شأن أئمّة السوء و الضلالة بل يشير إلى سقوط عوام الناس لجهلهم بشكل أسرع من علمائهم فى شراك أو شباك المضلّلين.

و لهذا نرى القرآن فى آيات أخرى لا يبرئ هؤلاء الأتباع و يحملهم قسطا من المسؤولية كما فى الآيتين (۴۷ و ۴۸) من سورة غافر: وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ.

ثمّ تذكر الآية الأخرى أن تهمة وصف الوحى الإلهى بأساطير الأوّلين ليست بالأمر المستجد: قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَواعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ أَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ

مع أنّ بعض المفسّرين قد ذهب بالآية إلى قصة «النمرود» و صرحه الذى أراد من خلاله محاربة رب السماء! و البعض الآخر فسرها بقصة «بخت نصر» .. إلّا أن الظاهر من مفهوم الآية شمول جميع مؤامرات و دسائس المستكبرين و أئمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۸

الضلال.

و من لطيف دقّة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ اللّه عزّ و جلّ لا يدمّر البناء العلوى للمستكبرين فحسب، بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

و قد يكون تخريب القواعد و إسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل و الصواعق لتنهار على رؤوسهم، و قد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم و أحزابهم بأمر اللّه عزّ و جلّ، بل لا مانع من شمول الأمرين معا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن ذكر كلمة «السقف» بعد ذكر «من فوقهم»، ف «السقف» عادة فى الطرف الأعلى من البناء، فما الذى استلزم ذكر «من فوقهم»؟ و يمكن حمله للتأكيد، و كذلك لبيان أنّ السقوط سيتحقق بوجودهم أسفله لهلاكهم، حيث أنّ السقوط قد

يحدث بوجود أصحاب الدار أو عدم وجودهم.

و قدم لنا التأريخ قديمه و حديثه بوضوح صورا شتى للعقاب الإلهى، فإحكام الطغاة و الجبابرة لما يعيشون و يتمتعون فى كنفه من حصون و قلاع، إضافة لخططهم المحبوكة كى يستمر لهم و لنسلهم الحال، و ما قاموا به من تهيئة و إعداد كل مستلزمات بقاء قدرة التسلط و دوام نظام الحكم .. كل ذلك لا يعبر فى الحقيقة إلّا عن ظواهر خاوية من كل معانى القدرة و الاقتدار و الدوام، حيث تحكى لنا قصص التاريخ أنّ هؤلاء يأتيهم العذاب الإلهى و هم بذروة ما يتمتعون به، و إذا بالقلاع و الحصون تتهاوى على رؤوسهم فيفنون و لا تبقى لهم باقية.

و عذابهم فى الحياة الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ

فيسألهم اللّه تعالى: وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ أى تجادلون و تعادون فيهم ۹۸]، فلا يتمكنون من الإجابة، و لكن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۶۹

قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ السُّوءَ عَلَى الْكافِرِينَ

و يظهر من خلال ذلك أنّ المتحدثين يوم القيامة هم العلماء، و لا ينبغى فى ذلك المحضر المقدس الحديث بالباطل.

و إذا رأينا فى بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام التأكيد على أنّ العلماء فى ذلك المحضر هم الأئمّة المعصومون عليهم السّلام لأنّهم أفضل و أكمل مصداق لذلك ۹۹].

و نعاود الذكر لنقول: إنّ المقصود من السؤال و الجواب فى يوم القيامة ليس لكشف أمر خفى، بل هو نوع من العذاب الروحى، و ذلك إحقاقا للمؤمنين الذين لاقوا اللوم و التوبيخ الشديدين فى الحياة الدنيا من المشركين المغرورين.

و يصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ

لأنّ ممارسة الظلم فى حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، و يهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

بالإضافة إلى أنّ الظلم متى ما شاع و انتشر فى أى مجتمع، فالنتيجة الطبيعية له أن يعود على الظالمين أنفسهم ليشملهم الحال.

أمّا حين تحين ساعة الموت و يزول حجاب الغفلة عن العيون فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ.

لما ذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل يكذبون لأنّ الكذب أصبح صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إننا نعلم سوء أعمالنا، و لكننا أخطأنا و لم تكن لدينا نوايا سيئة فيه؟؟.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

و لكن الجواب يأتيهم فورا: إنّكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوبا كثيرة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۰

بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ حتى بنيّاتكم.

و ليس المقام محلا للإنكار أو التبرير .. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

بحثان

۱- السنّة سنتان .. حسنة و سيئة:

القيام بأى عمل يحتاج بلا شك إلى مقدمات كثيرة، و تعتبر السنن السائدة فى المجتمع سواء كانت حسنة أم سيئة من ممهدات

الأرضیة الفکریة و الاجتماعیة التی تساعد القائد (سواء کان مرشدا أم مضلا) للقیام بدوره بکل فاعلیة، و حتی أنّه قد یفوق دور الموجهین و واضعی السنن علی جمیع العاملین فی بضع الأحیان.

و لهذا لا یمکن فصل دور واضعی السنن عن العاملین بتلک السنن، فهم شرکاء فی العمل الصالح إذا ما سنوا سنة حسنة، و شرکاء فی جرم المنحرفین إذا ما سنوا لهم سنة سیئة.

و قد اهتم القرآن الکریم، و کذا الأحادیث الشریفة کثیرا بمسألة السنّة الحسنة و السنّة السیئة و واضعیها.

کما طالعتنا الآیات أعلاه بأنّ المستکبرین المضلّین یحملون أوزارهم و أوزار الذین یضلونهم (دون أن ینتقص من أوزارهم شیء).

و هذا الأمر من الأهمیة بمکان حتی

قال عنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الدال علی الخیر کفاعله»[۱۰۰].

و

فی تفسیر هذه الآیة روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أیما داع دعا إلی الهدی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۱

فاتبع، فله مثل أجورهم، من غیر أن ینقص من أجورهم شیئا، و أیما داع دعا إلی ضلالة فاتبع علیه، فإنّ علیه مثل أوزار من اتبعه، من غیر أن ینقص من أوزارهم شیئا»[۱۰۱].

و کذلک

روی عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من استنّ بسنّة عدل فاتبع کان له أجر من عمل بها، من غیر أن ینتقص من أجورهم شیء، و من استنّ سنّة جور فاتبع کان علیه مثل وزر من عمل به، من غیر أن ینتقص من أوزارهم شیء»[۱۰۲].

و ثمّة روایات أخری تحمل نفس هذا المضمون رویت عن الأئمّة الأطهار علیهم السّلام و قد جمعها الشّیخ الحر العاملی قدّس سره، فی المجلد الحادی عشر من کتابه الموسوم بالوسائل (کتاب الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، الباب السّادس عشر).

و

فی صحیح مسلم ورد حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرفوعا عن المنذر بن جریر عن أبیه قال: کنّا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی صدر النهار قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابی النمار أو العباء و متقلدی السیوف ... فتمعر وجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لما رأی بهم من الفاقة، فدخل ثمّ خرج فأمر بلالا فأذّن و أقام فصلّی و خطب فقال: یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمُ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ... إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلَیْکُمْ رَقِیباً و الآیة التی فی الحشر اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ تصدق رجل من دیناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره (حتی قال) و لو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصرّة کادت کفّه تعجز عنها بل قد عجزت، قال:

ثمّ تتابع الناس حتی رأیت کومین من طعام ثیاب حتی رأیت وجه رسول اللّه یتهلل کأنّه مذهبة، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من سنّ فی الإسلام سنّة حسنة فله أجرها و أجر من عمل بها بعده من غیر أن ینقص من أجورهم شیء، و من سنّ فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۲

الإسلام سنّة سیئة کان علیه وزرها و وزر من عمل بها من بعده من غیر أن ینقص من أوزارهم شیء»[۱۰۳].

و هنا، یواجهنا سؤال .. کیف تنسجم هذه الرّوایات مع ما یعاضدها من آیات مع الآیة (۱۶۴) من سورة الأنعام وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری

و تتّضح الإجابة من خلال ملاحظة أنّ هؤلاء ليسوا عن ذنوب الأخرى بل عن ذنوبهم فقط، و لكنّهم من خلال اشتراكهم فى تحقق ذنوب الآخرين يشاركوهم فيها، اى ان تلك الذنوب تعتبر من ذنوبهم بهذا اللحاظ.

۲- التّسليم بعد فوات الأوان:

قليل أولئك الذين ينكرون الحقيقة بعد رؤيتها فى مرحلة الشهود، و لهذا نجد المذنبين و الظالمين يظهرون الإيمان فورا بعد أن تزال عن أعينهم حجب الغفلة و الغرور و حصول العين البرزخية فى حال ما بعد الموت، كما بيّنت لنا الآيات السابقة فَأَلْقَوُا السَّلَمَ

و غاية ما فى الأمر أنّ الكلّ مستسلم، و لكنّ الحديث يختلف من بعض إلى بعض، فقسم منهم يتبرأ من أعماله القبيحة بقولهم: ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ أى إنّهم من كثرة ممارستهم للكذب فقد اختلط بلحمهم و دمهم و التبس عليهم الأمر تماما، فمع علمهم بعدم فائدة الكذب فى ذلك المشهد العظيم و لكنّهم يكذبون! و يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ هناك من يكذب حتى فى يوم القيامة، كما فى الآية الثّالثة و العشرين من سورة الأنعام: قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و قسم آخر يظهر الندامة و يطلب العودة إلى لحياة الدنيا لإصلاح أمره، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۳

جاء فى الآية (۱۲) من سورة السجدة.

و قسم يكتفى بإظهار الإيمان كفرعون، كما جاء فى الآية (۹۰) من سورة يونس.

و على أيّة حال .. سوف لا تقبل كل تلك الأقوال لأنها قد جاءت فى غير وقتها بعد أن انتهت مدّتها، و لا أثر لهكذا إيمان صادر عن اضطرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۴

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۰ الى ۳۲]

اشارة

وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ (۳۰) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ كَذلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (۳۱) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۲)

التّفسير

عاقبة المتقين و المحسنين:

قرأنا فى الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن و عاقبة ذلك، و الآن فندخل مع المؤمنين فى اعتقادهم و عاقبته .. فيقول القرآن: وَ قِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قالُوا خَيْراً.

و روى فى تفسير القرطبى: كان يرد الرجل من العرب مكّة فى أيّام الموسم فيسأل المشركين عن محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقولون: ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۵

و يسأل المؤمنين فيقولون: أنزل اللّه عليه الخير و الهدى.

ما أجمل هذا التعبير و أكمله «خيرا» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادى و معنوى، خير للدنيا و الآخرة، خير للإنسان الفرد و المجتمع، و خير فى: التربية و التعليم، السياسة و الإقتصاد، الأمن و الحرية ... و الخلاصة: خير فى كل شىء (لأنّ حذف المتعلق يوجب عموم المفهوم).

و قد وصفت الآيات القرآنية القرآن الكريم بأوصاف كثيرة مثل: النّور، الشفاء، الهداية، الفرقان (يفرق الحق عن الباطل)، الحق، التذكرة، و ما شابه ذلك ..

و لكن فى هذه الآية وردت صفة «الخير» التى يمكن أن تكون مفهوما عاما جامعا لكل تلك المفاهيم الخاصة.

و الفرق واضح فى نعت القرآن بين المشركين و المؤمنين، فالمؤمنون قالوا:

«خيرا» أى أنزل اللّه خيرا، و بذلك يظهر اعتقادهم بأنّ القرآن وحى إلهى ۱۰۴].

بينما نجد المشركين عند ما قِيلَ لَهُمْ ما ذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ و هذا إنكار واضح لكون القرآن وحى إلهى ۱۰۵].

و تبيّن الآية مورد البحث نتيجة و عاقبة ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت الآيات السابقة عاقبة ما قاله المشركين من عقاب دنيوى و أخروى، و مادى و معنوى مضاعف: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ.

و قد أطلق الجزاء بال «حسنة» كما أطلقوا القول «خيرا»، ليشمل كل أنواع الحسنات و النعم فى الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: وَ لَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَ لَنِعْمَ دارُ الْمُتَّقِينَ

و تشارك عبارة «نعم دار المتقين» الإطلاق مرّة أخرى و كلمة «خيرا»، لأنّ الجزاء بمقدار العمل كمّا و كيفا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۶

فيتّضح لنا ممّا قلنا إنّ الآية لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا إلى آخرها تعبر عن كلام اللّه عزّ و جلّ، و يقوى هذا المعنى عند مقابلتها مع الآيات السابقة.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ الظاهر من الكلام يتضمّن احتمالين:

الأوّل: أنّه كلام اللّه.

الثّانى: أنّه استمرار لقول المتقين.

ثمّ تصف الآية التالية- بشكل عام- محل المتقين فى الآخرة بالقول: جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ فهل ثمّة أوسع وصفا من هذا أم أشمل مفهوما لبيان نعم الجنّة.

حتى أنّ التعبير يبدو أوسع ممّا ورد فى الآية (۷۱) من سورة الزخرف وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ فالحديث فى الآية عن ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ فى حين الحديث فى الآية مورد البحث عن مطلق الإشاءة ما يَشاؤُنَ

و استفاد بعض المفسّرين من تقديم لَهُمْ فِيها على ما يَشاؤُنَ الحصر، أى يمكن للإنسان أن يحصل على كل ما يشاء فى الجنّة فقط دون الدنيا.

و قلنا أنّ الآيات مورد البحث توضح كيفية حياة و موت المتقين مقارنة مع ما ورد فى الآيات السابقة حول المشركين و المستكبرين، و قد مرّ علينا هناك أنّ الملائكة عند ما تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب و المشقة، ثمّ يقال لهم «ادخلوا أبواب جهنم ..».

و أمّا عن المتقين: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ طاهرين من كل تلوثات الشرك و الظلم و الاستكبار، و مخلصين من كل ذنب- يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ السّلام الذى هو رمز الأمن و النجاة.

ثمّ يقال لهم: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و التعبير عن موتهم ب تَتَوَفَّاهُمُ يحمل بين طياته اللطف، و يشير إلى أن الموت لا يعنى الفناء و العدم أو نهاية كل شىء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۷

آخر.

و فى تفسير الميزان: أنّ فى هذه الآية ثلاثة مسائل:

۱- طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

۲- يقولون لهم سَلامٌ عَلَيْكُمْ و هو تأمين قولى لهم.

۳- ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و هو هداية لهم إليها.

و هذه المواهب الثلاث هى التى ذكرت فى الآية (۸۲) من سورة الأنعام الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۳ الى ۳۷]

اشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۳۳) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۴) وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۳۵) وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۳۶) إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۷)

التّفسير

البلاغ المبين .. وظيفة الأنبياء:

يعود القرآن الكريم مرّة أخرى ليعرض لنا واقع و أفكار المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۷۹

و المستكبرين و يقول بلهجة وعيد و تهديد: ما ذا ينتظرون؟ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أى ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال! أو هل ينتظرون أن يأتى أمر اللّه بعذابهم: أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ حيث تغلق أبواب التوبة أيضا و لا سبيل عندها للإصلاح.

فأى فكر يسيرهم، و أى عناد و لجاجة تحكمهم؟! كلمة «الملائكة» و إن كانت ترمز إلى عنوان عام، إلّا أنّها فى هذا الموقع يقصد منها ملائكة قبض الأرواح انسجاما مع الآيات السابقة التى كانت تتحدث عنهم.

أمّا عبارة يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ فمع قبولها لاحتمالات كثيرة فى تفسيرها، إلّا أنّ المعنى الراجح هو نزول العذاب، لورود هذا المعنى بالخصوص فى آيات مختلفة من القرآن.

و مجموع الجملتين يعنى تقريع المستكبرين بأنّ المواعظ الإلهية و تذكير الأنبياء إن كانت لا توقظكم من غفلتكم فإنّ الموت و العذاب الإلهى سيوقظكم، و لكن حينئذ لا ينفعكم ذلك الإيقاظ.

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء ليس أوّل من كانوا على هذه الحال و الصفة و إنّما كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و سوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال.

و الآية تؤكد مرّة أخرى على حقيقة عود الظلم و الاستبداد و الشر على الظالم المستبد الشرير فى آخر المطاف، لأنّ الفعل القبيح يترك آثاره السيئة على روح و نفسية فاعله، فيسوّد قبله و يلوّث روحه فيفقده الأمان و الاطمئنان.

ثمّ يذكر عاقبة أمرهم بقوله: فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

«حاق بهم»: بمعنى أصابهم، إلّا أنّ بعض المفسّرين كالقرطبى و فريد و جدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۰

فى تفسير لهذه الآية اعتبر معناها (أحاط بهم).

و يمكن الجمع بين المعنيين، فيكون المعنى: نزول العذاب عليهم، و كذلك محيطا بهم.

و على أية حال، فتعبير الآية ب فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا يؤكد مرّة أخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء فى الدنيا أو فى الآخرة، و تتجسم له بصور شتى، و تعذبه و تؤلمه و ليس غير ذلك ۱۰۶].

و تشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ.

إنّ قولهم وَ لا حَرَّمْنا إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التى حرّم لحومها المشركون فى عصر الجاهلية، و التى أنكرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشدة.

و الخلاصة: أنّهم أرادوا الادعاء بأنّ كلّ ما عملوه من عبادة للأصنام إلى تحليل و تحريم الأشياء، إنما كان وفقا لرضا اللّه تعالى و بإذنه! و لعل قولهم يكشف عن وجود عقيدة (الجبر) ضمن ما كانوا به يعتقدون، معتبرين كل ما يصدر منهم إن هو إلّا من القضاء المحتوم عليهم (كما فهم ذلك جمع كثير من المفسّرين).

و ثمّة احتمال آخر: إنّهم لم يقولوا ذلك اعتقادا منهم بالجبر، و إنّما أرادوا الإحتجاج على اللّه سبحانه، و كأنّهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى اللّه تعالى فلما ذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عمّا نقوم به، فسكوته و عدم منعه ما كنّا نعمل دليل على رضاه.

و هذا الاحتمال ينسجم مع ذيل الآية و الآيات التالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۱

و لهذا يقول تعالى مباشرة: كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ... يعنى.

أوّلا: أن تقولوا أنّ اللّه سكت عن أعمالنا! فإنّ اللّه قد بعث إليكم الأنبياء، و دعوكم إلى التوحيد و نفى الشرك.

ثانيا: إنّ وظيفة اللّه تعالى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس هى هدايتكم بالجبر، بل بإراءتكم السبيل الحق و الطريق المستقيم، و هذا ما حصل فعلا.

أمّا عبارة كَذلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فمواساة لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بأن لا يحزن و يثبت فى قبال ما يواجه من قبل المشركين، و أنّ اللّه معه و ناصره.

و بعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا.

«الأمّة»: من الأم بمعنى الوالدة، أو بمعنى: كل ما يتضمّن شيئا آخر فى دخله، (و من هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «أمّة».

و يتأكد هذا المعنى من خلال دراسة جميع موارد استعمال هذه الكلمة فى القرآن و البالغة (۶۴) موردا.

و يبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السّلام، بالقول: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۱۰۷].

فأساس دعوة جميع الأنبياء و اللبنة الأولى لتحركهم هى الدعوة إلى التوحيد و محاربة الطاغوت، و ذلك لأنّ أسس التوحيد إذا لم تحكم و لم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أىّ برنامج إصلاحى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص ۱۸۱

الطاغوت»: (كما قلنا سابقا) صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز و التعدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۲

و عبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سببا لتجاوز الحد المعقول، و لهذا يطلق اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر و على كل مسير يؤدى إلى غير طريق الحق.

و تستعمل الكلمة للمفرد و الجمع أيضا و إن جمعت أحيانا ب (الطواغيت).

و نعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السّلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ.

و هنا علت أصوات من يعتقد بالجبر استنادا إلى هذه الآية باعتبارها المؤيدة لعقيدتهم! و لكن قلنا مرارا إنّ آيات الهداية و الضلال إذا جمعت و ربط فيما بينها فلن يبقى هناك أىّ إبهام فيها، و يرتفع الالتباس من أنّها تشير إلى الجبر و يتّضح تماما أن الإنسان مختار فى تحكيم إرادته و حريته فى سلوكه أى طريق شاء.

فالهداية و الإضلال الإلهيين إنّما يكونا بعد توفر مقدمات الأهلية للهداية أو عدمها فى أفكار و ممارسة الإنسان نفسه، و هو ما تؤكّده الكثير من آيات القرآن الكريم.

فاللّه عزّ و جلّ (وفق صريح آيات القرآن) لا يهدى الظالمين و المسرفين و الكاذبين و من شابههم، أما الذين يجاهدون فى سبيل اللّه و يستجيبون للأنبياء عليهم السّلام فمشمولون بألطافه عزّ و جلّ و يهديهم إلى صراطه المستقيم و يوفقهم إلى السير فى طريق التكامل، بينما يوكل القسم الأوّل إلى أنفسهم حتى تصيبهم نتائج أعمالهم بضلالهم عن السبيل.

و حيث أنّ خواص الأفعال و آثارها- الحسنة منها أو القبيحة- من اللّه عزّ و جلّ، فيمكن نسبة نتائجها إليه سبحانه، فتكون الهداية و الإضلال إلهيين.

فالسنّة الإلهية اقتضت فى البداية جعل الهداية التشريعية ببعث الأنبياء ليدعوا الناس إلى التوحيد و رفض الطاغوت تماشيا مع الفطرة الإنسانية، و من ثمّ فمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۳

يبدى اللياقة و التجاوب مع الدعوة فردا كان أم جماعة يكون جديرا باللطف الإلهى و تدركه الهداية التكوينية.

نعم، فها هى السنّة الإلهية، لا كما ذهب إليه الفخر الرازى و أمثاله من أنصار مذهب الجبر من أنّ اللّه يدعوا الناس بواسطة الأنبياء، و من ثمّ يخلق الإيمان و الكفر جبرا فى قلوب الأفراد (من دون أىّ سبب) و العجيب أنّه لإجمال للتساؤل و لا يسمح فى الاستفهام عن سبب ذلك من اللّه عزّ و جلّ.

فما أوحش ما نسبوا اليه سبحانه .. إنّما صورة لا تتفق مع العقل و العاطفة و المنطق؟! و التعبير الموارد فى الآية مورد البحث يختلف فى

مورد الهداية و الضلال، ففى مسألة الهداية، يقول: فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ أمّا بالنسبة للقسم الثّانى، فلا يقول: إنّ اللّه أضلهم، بل إنّ الضلالة ثبتت عليهم و التصقت بهم: وَ مِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ.

و هذا الاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون الإشارة لما فى بعض الآيات الأخرى، و المنسجم مع ما ورد من روايات .. و خلاصته:

إنّ القسم الأعظم من هداية الإنسان يتعلق بالمقدمات التى خلقها اللّه تعالى لذلك، فقد أعطى تعالى: العقل، و فطرة التوحيد، و بعث الأنبياء، و إظهار الآيات التشريعية و التكوينية، و يكفى الإنسان أن يتخذ قراره بحرية وصولا للهدف المنشود.

أمّا فى حال الضلال فالأمر كلّه يرجع إلى الضالين أنفسهم، لأنّهم اختاروا السير خلاف الوضعين التشريعى و التكوينى الذى جعلهم اللّه عليه، و جعلوا حول الفطرة حجابا داكنا و أغفلوا قوانينها، و جعلوا الآيات التشريعية و التكوينية وراء ظهورهم، و أغلقوا أعينهم و صموا أذانهم أمام دعوة الأنبياء عليهم السّلام، فكان أن آل المآل بهم إلى وادى التيه و الضلال .. أو ليس كل ذلك منهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۴

و الآية (۷۹) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ

و

روى فى أصول الكافى عن الأمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، فى إجابته على سؤال لأحد أصحابه حول مسألة الجبر و الإختيار، أنّه قال: «أكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم قال على بن الحسين، قال اللّه عزّ و جلّ: يا ابن آدم بمشيئتى كنت أنت الذى تشاء، و بقوتى أديت فرائضى، و بنعمتى قويت على معصيتى، جعلتك سميعا بصيرا، ما أصابك من حسنة فمن اللّه و ما أصابك من سيئة فمن نفسك، و ذلك أنّى أولى بحسناتك منك، و أنت أولى بسيئاتك منّى»[۱۰۸].

و فى نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين و تقوية روحية المهتدين، بالقول: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإن كانت الهداية و الضلال أمرين إجباريين، لم يكن هناك معنى للسير فى الأرض و النظر إلى عاقبة المكذبين، فالأمر بالسير بحد ذاته تأكيد على اختيار الإنسان فى تعيين مصيره بنفسه و ليس هو مجبر على ذلك.

و ثمّة بحوث كثيرة و شيقة فى القرآن الكريم بخصوص مسألة السير فى الأرض مع التأمل فى عاقبة الأمور، و قد شرح ذلك مفصلا فى تفسيرنا للآية (۱۳۷) من سورة آل عمران.

الآية الأخير من الآيات مورد البحث تؤكّد التسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتبيان ما وصلت إليه حال الضّالين: إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ

«تحرص» من مادة (حرص)، و هو طلب الشىء بجدّية و سعى شديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۵

بديهى، أنّ الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأنّ الشمول يتعارض مع وظيفة النّبى (هداية و تبليغ)، و للتاريخ شواهد كثيرة على ما لهداية الناس و إرشادهم من أثر بالغ، و كم أولئك الذين انتشلوا من و حل الضلال ليصبحوا من خلص أنصار الحق، بل و دعاته.

فعليه .. تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد و اللجاجة فى الباطل لأقصى درجات الضلال، و أصبحوا غرقى فى بحر الاستكبار و الغرور و الغفلة و المعصية فأغلقت أمامهم أبواب الهداية، فهؤلاء لا ينفع معهم محاولات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهديهم حتى و إن طالت المدّة لأنّهم قد انحرفوا عن الحق بسبب أعمالهم الى درجة أنّهم باتوا غير قابلين للهداية.

و من الطبيعى أن لا يكون لهكذا أناس من ناصرين و أعوان، لأنّ الناصر لا يتمكن من تقديم نصرته و عونه إلّا فى أرضية مناسبة و مساعدة.

و هـذا التعبير أيضـا دليـل على نفى الجبر، لأنّ الناصـر إنّمـا ينفع سـعيه فيمـا لو كـان هناك تحرك من داخل الإنسان نحو الصـلاح و الهداية فيعينه و يأخذ بيده- فتأمل.

و لعل اسـتعمال «ناصـرين» بصيغة الجمع للإشارة إلى أنّ المؤمنين على العكس من الضالين، لهم أكثر من ناصر، فاللّه تعالى ناصرهم و .. الأنبياء، و عباد اللّه الصالحين، و ملائكة الرحمة كذلك.

و يشـير القرآن الكريم إلى هـذه النصـرة فى الآية (۵۱) من سورة المؤمن: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

و كـذلك فى الآية (۳۰) من سورة فصـلت: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۶

بحثان

۱- ما هو البلاغ المبين؟

رأينا فى الآيات مورد البحث أنّ الوظيفة الرئيسية للأنبياء هى البلاغ المبين فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

أى لا بـدّ من الـدعوة علنا، و إذا كانت ثمّة ظروف موضوعية تستدعى من الأنبياء أن تكون دعوتهم سرية، فهـذا لا يكون إلّا لمـدّة محدودة، لإنّ الأسـلوب السرى فى عصر دعوة الأنبياء عليهم السّلام غير مستساغ من قبل المجتمع، فلا يكون له الأثر المطلوب و الحال هذه.

فلا بدّ للدعوة إذن من الإعلان السليم القاطع المصحوب بالتخطيط و التدبير كشرط أساسى فى إنجاح الدعوة بين المجتمع.

و بمطالعـة تأريـخ جميع الأنبيـاء عليهم السّـلام نرى أنّهم كـانوا يعلنون دعوتهم ببيـان صـريح معلن، بـالرغم من قلـة الناصـر من قومهم بالذات.

و هـذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء و غيرهم) .. فهم: لا يـداهنون فى دعوتهم أبـدا و لا يجاملون الباطل و أهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة و القاطعية.

۲- لكل أمّة رسول

عند قوله عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا يواجهنا السؤال التالى: لو كان لكل أمّة رسول لظهر الأنبياء فى جميع مناطق العالم، و لكنّ التأريـخ لا يحكى لنا ذلك، فيكف التوجيه؟! و تتضـح الإجابة من خلال الالتفات إلى أن الهدف من بعث الأنبياء لإيصال الدعوة الإلهيـة إلى أسـماع كل الأمم، فعلى سبيل المثال .. عند ما بعث النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى مكّة أو المدينة لم يكن فى بقية مدن الحجاز الأخرى نبى، و لكنّ رسل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۷

كـانوا يصـلون إليها و بوصولهم يصل صوت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إليها أسـماع الجميع، بالإضافـة إلى كتبه و رسائله العديدة التى أرسلها إلى الدول المختلفة (إيران، الروم، الحبشة) ليبلغهم الرسالة الإلهية.

و ها نحن اليوم كأمّة قد سمعنا دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالرغم من بعد الشقّة التاريخية بيننا و بينه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ذلك بواسطة العلماء الرساليين الذين حملوا رسالته إلينا عبر القرون .. و لا يقصد من بعثة رسول لكل أمّة إلّا هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۸

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۸) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ (۳۹) إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۴۰)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون فى شأن نزول الآية الأولى (الآية ۳۸) أنّ رجلا- من المسلمين كان له دين على مشترك فتقاضاه فكان تتعلل فى بتسديده، فتأثر المسلم بذلك، فوقع فى كلامه القسم بيوم القيامة و قال: و الذى أرجوه بعد الموت إنّه لكذا، فقال المشرك: و إنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت و أقسم باللّه، لا يبعث اللّه من يموت.

فأنزل اللّه الآية[۱۰۹].

فأجاب اللّه فيها الرجل المشرك و أمثاله، و عرض المعاد بدليل واضح، و كان حديث الرجلين سببا لطرح هذه المسألة من جديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۸۹

التّفسير

المعاد و .. نهاية الاختلافات:

تعرض الآيات أعلاه جانبا من موضوع «المعاد» تكميلا لما بحث فى الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد و رسالة الأنبياء.

فتقول الآية الأولى: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ

و هذا الإنكار الخالى من الدليل و الذى ابتدءوه بالقسم المؤكّد، ليؤكّد بكل وضوح على جهلهم، و لهذا يجيبهم القرآن بقوله: بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

إنّ الكلمات الواردة فى المقطع القرآنى مثل «بلى»، «وعدا»، «حقّا» لتظهر بكل تأكيد حتمية المعاد.

و عموما- ينبغى مواجهة من ينكر الحقّ بحجم ما أنكر بل و أقوى، كى يمحو الأثر النفسى السيء للنفى القاطع، و لا بدّ من إظهار أن نكران الحق جهل حتى يمحى أثره تماما وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

ثمّ يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد و قدرة اللّه عزّ و جلّ على ذلك، ليرد الاشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعيشة المعاد ..

فيقول: لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ فى إنكارهم للمعاد و بأنّ اللّه لا- يبعث من يموت! لأنّ ذلك عالم الشهود، عالم رفع الحجب و كشف الغطاء، عالم تجلى الحقائق، كما نقرأ فى الآية (۲۲) من سورة ق: لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ

مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

و فى الآية (۹) من سورة الطارق: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ أى تظهر و تعلن.

و كذا الآية (۴۸) من سورة إبراهيم: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

ففى يوم الشهود و كشف السرائر و إظهارها لا معنى فيه لاختلاف العقيدة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۰

و إن كان من الممكن أن يقوم بعض المنكرين اللجوجين بإطلاق الأكاذيب فى بعض مواقف يوم القيامة لأجل تبرئة أنفسهم، إلّا أنّ ذلك سيكون أمرا استثنائيا عابرا.

و هذا يشبه إلى حد ما إنكار المجرم لجريمته ابتداء عند المحاكمة، و لكنّه سرعان ما ينهار و يرضخ للحقيقة عند ما تعرض عليه مستمسكات جريمته المادية التى لا تقبل إدانة غيره أبدا، و هكذا فإنّ ظهور الحقائق فى يوم القيامة يكون أوضح و أجلى من ذلك.

و مع أنّ أهداف حياة ما بعد الموت (عالم الآخرة) عديدة و قد ذكرتها الآيات القرآنية بشكل متفرق مثل: تكامل الإنسان، إجراء العدالة الإلهية، تجسيد هدف الحياة الدنيا، الفيض و اللطف الإلهيين و ما شابه ذلك .. إلّا أنّ الآية مورد البحث أشارت إلى هدف آخر غير الذى ذكر و هو: رفع الاختلافات و عودة الجميع إلى التوحيد.

و نعتقد أنّ أصل التوحيد من أهم الأصول التى تحكم العالم، و هو شامل يصدق على: ذات و صفات و أفعال اللّه عزّ و جلّ، عالم الخليقة و القوانين التى تحكمه، و كل شىء فى النهاية يجب أن يعود إلى هذا الأصل.

و لهذا فنحن نعتقد بوجود نهاية لكل ما تعانيه البشرية على الأرض- الناشئة من الاختلافات المنتجة للحروب و الصدامات- من خلال قيام حكومة واحدة تحت ظلال قيادة الإمام المهدى «عجل اللّه تعالى فرجه الشريف» لأنّه يجب فى نهاية الأمر رفع ما يخالف روح عالم الوجود (التوحيد).

أمّا اختلاف العقيدة فسوف لا يرتفع من هذه الدنيا تماما لوجود عالم الحجب و الأستار، و لا ينتهى إلّا يوم البروز و الظهور (يوم القيامة).

فالرجوع إلى الوحدة و انتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد الذى أشارت إليه الآية مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۱

و ثمّة آيات قرآنية كثيرة كررت مسألة أنّ اللّه عزّ و جلّ سيحكم بين الناس يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ۱۱۰].

ثمّ يشير القرآن إلى الفقرة الثّانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

فمع هذه القدرة التامّة .. هل ثمّة شك أو ترديد فى قدرته عزّ و جلّ على إحياء الموتى؟! و لعل لا حاجة لتبيان أنّ «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، و إلّا لا حاجة فى أمر اللّه ل «كن» أيضا، فإرادته سبحانه و تعالى كافية فى تحقق ما يريد.

و لو أردنا أن نضرب مثلا صغيرا ناقصا من حياتنا (و للّه المثل الأعلى)، فنستطيع أن نشبهه بانطباع صورة الشىء فى أذهاننا لمجرد إرادته، فإنّنا لا نعانى من أية مشكلة فى تصور جبل شامخ أو بحر متلاطم أو روضة غناء، و لا نحتاج فى ذلك لجملة أو كلمة نطلقها حتى نتخيل ما نريد، فبمجرّد إرادة التصور تظهر الصورة فى ذهننا.

و نقرأ سوية

الحديث المروى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام .. إنّ صفوان بن يحيى سأله: أخبرنى عن الإرادة من اللّه تعالى و من الخلق، فقال: «الإرادة من المخلوق الضمير و ما يبدو له بعد ذلك من الفعل، و أمّا من اللّه عزّ و جلّ فإرادته إحداثه لا غير ذلك، لأنّه لا يروّى و لا يهم و لا يتفكر، و هذه الصفات منفية عنه و هى من صفات الخلق، فإرادة اللّه تعالى هى الفعل لا غير ذلك، يقول له:

کن فیکون، بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همة و لا تفکر و لا کیف کذلک کما أنّه بلا کیف»[۱۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۲

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۴۱ الی ۴۲]

اشارة

وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۴۱) الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۴۲)

سبب النّزول

ذکر بعض المفسّرین فی شأن نزول الآیة الأولی (۴۱): نزلت فی المعذبین بمکّة مثل صهیب و عمار و بلال و خباب و غیرهم مکّنهم اللّه فی المدینة، و ذکر أن صهیبا قال لأهل مکّة: أنا رجل کبیر إن کنت معکم لم أنفعکم و إن کنت علیکم لم أضرکم فخذوا مالی و دعونی، فأعطاهم ماله و هاجر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له أحدهم: ربح البیع یا صهیب.

و یروی أنّ أحد الخلفاء کان إذا أعطی أحدا من المهاجرین عطاء قال له:

خذ هذا ما وعدک اللّه فی الدنیا، و ما أخّره لک أفضل. ثمّ تلی هذه الآیة[۱۱۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۳

التّفسیر

ثواب المهاجرین:

قلنا مرارا: إنّ القرآن الکریم یستخدم أسلوب المقایسة و المقارنة کأهم أسلوب للتربیة و التوجیه، فما یرید أن یعرضه للناس یطرح معه ما یقابله لتتشخص الفروق و یستوعب الناس معناه بشکل أکثر وضوحا.

فنری فی الآیات السابقة الحدیث عن المشرکین و منکری یوم القیامة، و ینقل الحدیث فی الآیات مورد البحث إلی المهاجرین المخلصین، لیقارن بین المجموعتین و یبیّن طبیعتهما ..

فیقول أوّلا: وَ الَّذِینَ هاجَرُوا فِی اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِی الدُّنْیا حَسَنَةً أمّا فی الآخرة وَ لَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَکْبَرُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ

ثمّ یصف فی الآیة التالیة المهاجرین المؤمنین الصالحین بصفتین، فیقول:

الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ

بحوث

۱- کما هو معروف فإنّ للمسلمین هجرتین، الأولی: کانت محدودة نسبیا (هجرة جمع من المسلمین علی رأسهم جعفر بن أبی طالب إلی الحبشة)، و الثّانیة:

الهجرة العامة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین من مکّة إلی المدینة.

و ظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثّانية، كما يؤيد ذلك شأن النّزول.

و قد بحثنا أهمية دور الهجرة فى حياة المسلمين فى الماضى و الحاضر و استمرار هذا الأمر فى كل عصر و زمان بشكل مفصل ضمن تفسيرنا للآية (۱۰۰) من سورة النساء، و الآية (۷۵) من سورة الأنفال.

و على أية حال، فللمهاجرين مقام سام فى الإسلام، و قد اهتم النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۴

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهم كثيرا و كذا المسلمون من بعد، و ذلك لأنّهم جعلوا حياتهم المادية و ما يملكون فى خدمة الدعوة الإسلامية المباركة، ممّا حدا بالبعض أن يعرض حياته للمخاطر، و البعض الآخر ترك كل أمواله (كصهيب) معتبرا نفسه رابحا فى هذه الصفقة المباركة.

و لو لم تكن تلك التضحيات لأولئك المهاجرين لما سمح المحيط الفاسد فى مكّة و تحكم الشياطين عليها بأن يخرج صوت الإسلام ليعم أسماع الجميع، و لكتم الصوت و قبر فى صدور المؤمنين إلى الأبد، و لكنّ المهاجرين بتحولهم المدروس الواعى و هجرتهم المباركة لم يفتحوا مكّة فحسب، و إنّما أوصلوا صوت الإسلام إلى أسماع العالم، فأصبحت الهجرة سنّة إسلامية تجرى على مرّ التأريخ إذا ما واجهت ما يشبه ظروف مكّة قبل الهجرة.

۲- التعبير ب هاجَرُوا فِي اللَّهِ من دون ذكر كلمة «سبيل» إشارة إلى ذروة الإخلاص الذى كان يحملونه أولئك المهاجرون الأول، فهم هاجروا للّه و فى سبيله و طلبا لرضاه و حماية لدينه و دفاعا عنه، و ليس لنجاتهم من القتل أو طلبا لمكاسب مادية أخرى.

۳- و تظهر لنا جملة مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا عدم ترك الميدان فورا، بل لا بدّ من الصبر و التحمل قدر الإمكان.

أمّا عند ما يصبح تحمل العذاب من العدو باعثا على زيادة جرأته و جسارته، و إضعاف المؤمنين .. فهنا تجب الهجرة لأجل كسب القدرة اللازمة و تهيئة خنادق المواجهة المحكمة، و يستمر بالجهاد على كافة الأصعدة من موقع أفضل، حتى تنتهى الحال إلى نصر أهل الحق فى الساحات العسكرية و العلمية و التبليغية ...

۴- أمّا قوله تعالى: لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً «نبوئنهم» من (بوأت له مكانا) أى هيأته له و وضعته فيه- فيشير إلى أن المهاجرين فى اللّه و إن كانوا ابتداء يفتقدون إلى الإمكانيات المادية المستلزمة للمواجهة، إلّا أنّهم فى النهاية- حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۵

فى الجانب الدنيوى- منتصرون ۱۱۳].

فلما ذا بعد ذلك يتحمل الإنسان ضربات الأعداء المتوالية و يموت منها ذليلا؟! لما ذا لا يهاجر و بكل شجاعة ليجاهد عدوّه من موضع جديد فيأخذ منه حقّه؟! و قد عرض هذا الموضوع بوضوح أكثر فى الآية (۱۰۰) من سورة النساء، حيث تقول: وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً.

۵- إن سبب انتخاب صفتين للمهاجرين «الصبر» و «التوكل» واضح، لما يواجه من ظروف صعبة و متعبة، تحتاج الثبات و الصبر على مرارة تلك الظروف فى الدرجة الأولى، ثمّ الاعتماد الكامل على اللّه سبحانه و تعالى. و أساسا فإنّ الإنسان لو افتقد فى الحوادث العصبية و الشدائد القاسية المعتمد المطمئن و السند المعنوى المحكم، فإنّ الصبر و الاستقامة و الثبات تكون مستحيلة.

و قال البعض: إنّ انتخاب «الصبر» هنا، لأنّ ابتداء السير فى طريق الهجرة إلى اللّه يحتاج إلى المقاومة و الثبات أمام رغبات النفس، أما انتخاب «التوكل» فلأجل أنّ نهاية السير هى الانقطاع عن كل شىء غير اللّه عزّ و جلّ و الارتباط به.

و على هذا، تكون الصفة الأولى لأوّل الطريق و الثانية لآخره ۱۱۴].

و على أية حال .. فلا سبيل الى الهجرة الخارجية دون الهجرة الباطنية، فعلى الإنسان أن يقطع علائقة المادية الباطنية أوّلا بهجرته نحو الفضائل الأخلاقية، ليستطيع أن يهاجر و يترك دار الكفر- مع كل ما له فيها- منتقلا إلى دار الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۶

الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۳ الى ۴۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۴۳) بِالْبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۴۴)

التّفسير

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ! بعد أن عرض القرآن فى الآيتين السابقتين حال المهاجرين فى سياق حديثه عن المشركين، يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق بأصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة، حين يتقول المشركون: لماذا لم ينزل اللّه ملائكة لإبلاغ رسالته؟ ... أو يقولون: لم لم يجهز النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقدرة خارقة ليجبرنا على ترك أعمالنا!؟ ..

فيجيبهم اللّه عزّ و جلّ بقوله: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ

نعم. فإنّ أنبياء اللّه عليهم السّلام جميعهم من البشر، و بكل ما يحمل البشر من غرائز و عواطف إنسانيته، حتى يحس بالألم و يدرك الحاجة كما يحس و يدرك الآخرون.

فى حين أن الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الأمور جيدا و الاطلاع على ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۷

يدور فى أعماق الإنسان بوضوح.

إنّ وظيفة الأنبياء إبلاغ رسالة السماء و الوحى الإلهى، و إيصال دعوة اللّه إلى الناس و السعى الحثيث و بالوسائل الطبيعية لتحقيق أهداف الوحى، و ليس باستعمال قوى إلهية خارقة للسنن الطبيعية لإجبار الناس بقبول الدعوة و ترك الانحرافات، و إلّا فما كان هناك فخر للإيمان و لا كان هناك تكامل.

ثمّ يضيف القول (تأكيدا لهذه الحقيقة): فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

«الذكر»: بمعنى العلم و الاطلاع، و «أهل الذكر» له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين و العارفين فى كافة المجالات. و إذا فسّر البعض كلمة «أهل الذكر» فى هذا المورد بمعنى (أهل الكتاب)، فهو لا يعنى حصر هذا المصطلح بمفهوم معين، و ما تفسيرهم فى واقعة إلّا تطبيق لعنوان كلى على أحد مصاديقه.

لأنّ السؤال عن الأنبياء و المرسلين السابقين و هل أنّهم من جنس البشر و ذوى رسالات و وظائف ربانية، يجب أن يكون من علماء أهل الكتاب.

و بالرّغم من عدم وجود الوفاق التام بين علماء اليهود و النصارى من جهة و المشركين من جهة أخرى، إلّا أنّهم مشتركون فى مخالفتهم للإسلام، و لهذا فيمكن أن يكون علماء أهل الكتاب مصدرا جيدا بالنسبة للمشركين فى معرفة أحوال الأنبياء السابقين.

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ الذكر على معنيين، الأوّل: الحفظ. و الثّانى:

التذكر و استحضار الشىء فى القلب. و لذلك قيل: الذكر ذكران، ذكر بالقلب و ذكر باللسان .. و لذا رأينا أنّ الذكر يطلق على القرآن لأنّه يعرض الحقائق و يكشفها.

ثمّ تقول الآیة التالیة: بِالْبَیِّناتِ وَ الزُّبُرِ[۱۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۸

«البینات»: جمع بیّنة، بمعنی الدلائل الواضحة. و یمکن أن تکون هنا إشارة إلی معاجز و أدلة إثبات صدق الأنبیاء علیهم السّلام فی دعوتهم.

«الزبر»: جمع زبور، بمعنی الکتاب.

فالبینات تتحدث عن دلائل إثبات النّبوة، و الزّبر إشارة إلی الکتب التی جمعت فیها تعلیمات الأنبیاء.

و من ثمّ یتوجه الخطاب إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: وَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الذِّکْرَ لِتُبَیِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَیْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ یَتَفَکَّرُونَ لیبیّن للناس مسئولیتهم تجاه آیات ربّهم الحق.

فدعوتک و رسالتک لیست بجدیدة من الناحیة الأساسیة، و کما أنزلنا علی الذین من قبلک من الرسل کتبا لیعلموا الناس تکالیفهم الشرعیة، فقد أنزلنا علیک القرآن لتبیّن تعالیمه و مفاهیمه، و توقظ به الفکر الإنسانی لیسیروا فی طریق الحق بعد شعورهم بالمسؤولیة الملقاة علی عاتقهم، و لیتجهوا صوب الکمال (و لیس بطریق الجبر و القوة).

بحث

من هم أهل الذکر؟

ذکرت الرّوایات الکثیرة المرویة عن أهل البیت علیهم السّلام أنّ «أهل الذکر» هم الأئمّة المعصومون علیهم السّلام، و من هذه الرّوایات:

روی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام فی جوابه عن معنی الآیة أنّه قال: «نحن أهل الذکر و نحن المسؤولون»[۱۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۱۹۹

و

عن الإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیة أنّه قال: «الذکر القرآن و آل الرّسول أهل الذکر و هم المسؤولون»[۱۱۷].

و

فی روایات أخری: أنّ «الذکر» هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و «أهل الذکر» هم أهل البیت علیهم السّلام ۱۱۸].

و ثمّة روایات متعددة أخری تحمل نفس هذا المعنی.

و فی تفاسیر و کتب أهل السنّة روایات تحمل نفس المعنی أیضا، منها:

ما فی التّفسیر الاثنی عشری: روی عن ابن عباس فی تفسیر هذه الآیة، قال:

هو محمد و علی و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام هم أهل الذکر و العقل و البیان ۱۱۹].

فهذه لیست هی المرّة الأولی فی تفسیر الرّوایات للآیات القرآنیة ببیان أحد مصادیقها دون أن تقید مفهوم الآیة المطلق.

و کما قلنا ف «الذکر» یعنی کل أنواع العلم و المعرفة و الاطلاع، و «أهل الذکر» هم العلماء و العارفون فی مختلف المجالات، و باعتبار أن القرآن نموذج کامل و بارز للعلم و المعرفة أطلق علیه اسم «الذکر»، و کذلک شخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهو مصداق واضح «للذکر» و الأئمّة المعصومون باعتبارهم أهل بیت النّبوة و وارثو علمه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فهم علیهم السّلام أفضل مصداق ل «أهل الذکر».

و هـذا لا ـ ينـافى عموميـة مفهوم الآيـة، و لا ينافى مورد نزولها أيضا (علماء أهل الكتاب) و لهـذا اتجه علماؤنا فى الفقه و الأصول عند بحثهم موضوع الاجتهاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۰

و التقليـد إلى ضـرورة و وجوب أتباع العلماء لمن ليست له القدرة على اسـتنباط الأحكام الشـرعية، و يسـتدلون بهذه الآية على صـحة منحاهم.

و قد يتساءل فيما

ورد عن الإمـام على بن موسـى الرضـا عليه السّـلام فى كتـاب (عيون أخبار الرضا عليه السّـلام): أنّ علماء فى مجلس المأمون قالوا فى تفسـير الآيـة: إنمـا عنى بـذلك اليهود و النصـارى، فقـال الرضا عليه السّـلام: «سـبحان اللّه و هل يجوز ذلك، إذا يـدعونا إلى دينهم و يقولون: إنّه أفضل من الإسلام ...» ثمّ قال: «الذكر رسول اللّه و نحن أهله»[۱۲۰].

و تتخلص الإجابـة بقولنا: إنّ الإمام قال ذلك لمن كان يعتقـد أن تفسـير الآيـة منحصـر بمعنى الرجوع إلى علماء أهل الكتاب فى كل عصـر و زمان، و بدون شك أنّه خلاف الواقع، فليس المقصود بالرجوع إليهم على مر العصور و الأيّام، بل لكل مقام مقال، ففى عصـر الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام لا بدّ من الرجوع إليه على أساس إنّه مرجع علماء الإسلام و رأسهم.

و بعبـارة أخرى: إذا كـانت وظيفـة المشـركين فى صـدر الإسـلام لـدى سؤالهم عن الأنبيـاء السابقين، و هل أنّهم من جنس البشـر هى الرجوع إلى علماء أهل الكتاب لا إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، فهـذا لا يعنى أن على جميع الناس فى أى عصـر و مصـر أن يرجعوا إليهم، بل يجب الرجوع إلى علماء كل زمان.

و على أية حال .. فالآية مبيّنة لأصل إسـلامى يتعيّن الأخذ به فى كل مجالات الحياة المادية و المعنوية، و تؤكّد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، و أن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

و على هـذا فـإنّ «مسألـة التخصـص» لم يقررهـا القرآن الكريم و يحصـرها فى المسائل الدينيـة بل هى شاملـة لكل المواضـيع و العلوم المختلفة، و يجب أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۱

من بين المسلمين علماء فى كافة التخصصات للرجوع إليهم.

و ينبغى التنويه هنـا إلى ضـرورة الرجوع إلى المتخصـص الثابت علمه و تمكنه فى اختصاصه، بالإضافـة إلى توفر عنصـر الإخلاص فى عمله فهل يصح أن نراجع طبيبا متخصـصا- على سبيل المثال- غير مخلص فى علمه؟! و لهذا وضع شرط العدالة فى مسائل التقليد إلى جانب الاجتهاد و الأعلمية، أى لا بدّ لمرجع التقليد من أن يكون تقيا ورعا بالإضافة إلى علميته فى المسائل الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۲

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

أَ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۴۵) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۴۶) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۴۷)

التّفسير

لكلّ ذنب عقابه:

ثمّة ربط فى كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية و المسائل الوجدانية بشكل مؤثر فى نفوس السامعين، و الآيات أعلاه نموذج لهذا الأسلوب.

فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقى مع المشركين فى شأن النّبوة و المعاد، فى حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة و الطغاة و المذنبين.

فتبتدأ القول: أ فَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ من الذين حاكوا الدسائس المتعددة حسبا منهم لإطفاء نور الحق و الإيمان أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ

فهل ببعيد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتنشق القشرة الأرضية لتبتلعهم و ما يملكون، كما حصل مرارا لأقوام سابقة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۳

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس و الخطط وصولا لأهدافهم المشؤمة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن و محاولة قتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما مارسوه من إيذاء و تعذيب للمؤمنين المخلصين.

«يخسف»: من مادة «خسف»، بمعنى الاختفاء، و لهذا يطلق على اختفاء نور القمر فى ظل الأرض اسم (الخسوف)، يقال (بئر مخسوف) للذى اختفى ماؤه، و على هذا يسمّى اختفاء الناس و البيوت فى شق الأرض الناتج من الزلزلة خسفا.

ثمّ يضيف: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ أى عند ذهابهم و مجيئهم و حركتهم فى اكتساب الأموال و جمع الثروات. فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ

و كما قلنا سابقا، فإنّ «معجزين» من الإعجاز بمعنى ازالة قدرة الطرف الآخر، و هى هنا بمعنى الفرار من العذاب و مقاومته.

أو أنّ العذاب الإلهى لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجى و مقرونا بالأنذار المتكرر: أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ

فاليوم مثلا يصاب جارهم ببلاء، و غدا يصاب أحد أقربائهم، و فى يوم آخر تتلف بعض أموالهم ... و الخلاصة، تأتيهم تنبيهات و تذكيرات الواحدة تلو الأخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، و إلّا فسيصيبهم العقاب الإلهى و يهلكهم.

إنّ العذاب التدريجى فى هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعة، و اللّه عزّ و جلّ لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

و من الملفت للنظر فى الآيات مورد البحث، ذكرها لأربعة أنواع من العذاب الإلهى:

الأوّل: الخسف.

الثّانى: العقاب المفاجئ الذى يأتى الإنسان على حين غرة من أمره.

الثّالث: العذاب الذى يأتى الإنسان و هو غارق فى جمع الأموال و تقلبه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۴

ذلك.

الرّابع: العذاب و العقاب التدريجى.

و المسلم به أنّ نوع العذاب يتناسب و نوع الذنب المقترف، و إن وردت جميعها بخصوص الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ لعلمنا أنّ أفعال اللّه لا تكون إلّا بحكمة و عدل.

و هنا .. لم نجد رأيا للمفسّرين- فى حدود بحثنا- حول هذا الموضوع، و لكن يبدو أنّ النوع الأوّل من العقاب يختص بأولئك

المتآمرين الذين هم فى صف الجبارين و المستكبرين كقارون الذى خسف اللّه تعالى به الأرض و جعله عبرة للناس، مع ما كان يتمتع به من قدرة و ثروة.

أمّا النوع الثّانى فيخص المتآمرين الغارقين بملذات معاشهم و أهوائهم، فيأتيهم العذاب الإلهى بغتة و هم لا يشعرون.

و النوع الثّالث يخص عبدة الدنيا المشغولين فى دنياهم ليل نهار ليضيفوا ثروة إلى ثروتهم مهما كانت الوسيلة، حتى و إن كانت بارتكاب الجرائم و الجنايات وصولا لما يطمحون له! فيعذبهم اللّه تعالى و هم على تلك الحالة[۱۲۱].

و أمّا النوع الرّابع من العذاب فيخص الذين لم يصلوا فى طغيانهم و مكرهم و ذنوبهم إلى حيث اللارجعة، فيعذبهم اللّه بالتخويف. أى يحذرهم بإنزال العذاب الأليم فى أطرافهم فإن استيقظوا فهو المطلوب، و إلّا فسينزل العذاب عليهم و يهلكهم.

و على هذا، فإنّ ذكر الرأفة و الرحمة الإلهية ترتبط بالنوع الرّابع من الذين مكروا السّيئات، الذين لم يقطعوا كل علائقهم مع اللّه و لم يخربوا جميع جسور العودة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۴۸ الى ۵۰]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ (۴۸) وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (۴۹) يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (۵۰)

التّفسير

سجود الكائنات للّه عزّ و جلّ:

تعود هذه الآيات مرّة أخرى إلى التوحيد بادئة ب: أَ وَ لَمْ يَرَوْا إِلى ما خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَ الشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَ هُمْ داخِرُونَ ۱۲۲].

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات اللّه يمينا و شمالا لتعبر عن خضوعها و سجودها له سبحانه؟! و يقول البعض: إنّ العرب تطلق على الظلال صباحا اسم (الظل) و عصرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۶

(الفيء)، و إذا ما نظرنا إلى تسمية (الفيء) لقسم من الأموال و الغنائم لوجدنا إشارة لطيفة لحقيقة .. إنّ أفضل غنائم و أموال الدنيا لا تلبث أن تزول و لا يعدو كونها كالظل عند العصر.

و مع ملاحظة ما اقترن بذكر الظلال فى هذه الآية من يمين و شمال، و إنّ كلمة الفيء استعملت للجميع .. فيستفاد من ذلك: أن الفيء هنا ذو معنى واسع يشمل كل أنواع الظلال.

فعند ما يقف الإنسان وقت طلوع الشمس متجها نحو الجنوب فإنّه سيرى شروق قرص الشمس من الجهة اليسرى لأفق الشرق، فتقع ظلال جميع الأشياء المجسمة على يمينه (جهة الغرب)، و يستمر هذا الأمر حتى تقترب الظلال نحو الجهة اليمنى لحين وقت الظهر، و عندها ستتحول الظلال إلى الجهة المعاكسة (اليسرى) و تستمر فى ذلك حتى وقت الغروب فتصبح طويلة و ممتدة نحو الشرق، ثمّ تغيب و تنعدم عند غروب الشمس.

و هنا .. يعرض البارى سبحانه حركة ظلال الأجسام يمينا و شمالا بعنوانها مظهرا لعظمته جل و علا واصفا حركتها بالسجود و الخضوع.

أثر الظلال فى حياتنا:

ممّا لا شك فيه أنّ لظلال الأجسام دور مؤثر فى حياتنا، و لعل الكثير منّا غير ملتفت إلى هذه الحقيقة، فوضع القرآن الكريم إصبعه على هذه المسألة ليسترعى الانتباه لها.

للظلال (التى هى ليست سوى عدم النّور) فوائد جمّة:

۱- كما أنّ لأشعة الشمس دور أساسى فى حياتنا، فكذلك الظلال، لأنّها تقوم بعملية تعديل شدّة الحرارة لأشعة الشمس.

إنّ الحركة المتناوبة للظلال تحفظ حرارة الشمس لحد متعادل و مؤثر، و بدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۷

الظلال فسيحترق كل شىء أمام حرارة الشمس الثابتة و بدرجة واحدة و لمدّة طويلة.

۲- و ثمّة موضوع مهم آخر و ربّما على خلاف تصور معظم الناس، ألا و هو:

إنّ النّور ليس هو السبب الوحيد فى رؤية الأشياء، بل لا بدّ من اقتران الظل بالنّور لتحقيق الرؤية بشكل طبيعى.

و بعبارة أخرى: إنّ النّور لو كان يحيط بجسم ما و يشع عليه باستمرار بما لا يكون هناك مجالا للظل أو نصف الظل، فإنّه و الحال هذه لا يمكن رؤية ذلك الجسم و هو غارق بالنّور.، أى: كما أنّه لا يمكن رؤية الأشياء فى الظلمة القائمة، فكذا الحال بالنسبة للنور التام، و يمكن رؤية الأشياء بوجود النّور و الظلمة (النّور و الظلال).

و على هذا يكون للظلال دور مؤثر جدّا فى مشاهدة و تشخيص و معرفة الأشياء و تمييزها- فتأمل.

و ثمّة ملاحظة أخرى فى الآية: و هى: ورود «اليمين» بصيغة المفرد فى حين جاءت الشمال بصيغة الجمع «شمائل».

فالاختلاف فى التعبير يمكن أن يكون لوقوع الظل فى الصباح على يمين الذى يقف مواجها للجنوب ثمّ يتحرك باستمرار نحو الشمال حتى وقت الغروب حين يختفى فى أفق الشرق ۱۲۳].

و احتمل المفسّرون أيضا: مع أن كلمة (اليمين) مفردا إلّا أنّه يمكن أن يراد بها الجمع فى بعض الحالات، و هى فى هذه الآية تدل على الجمع ۱۲۴].

و جاء فى الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أما فى الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجا عاما شاملا لكل الموجودات المادية و غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۸

المادية، و فى أى مكان، فيقول: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ مسلمين للّه و لأوامره تسليما كاملا.

و حقيقة السجود نهاية الخضوع و التواضع و العبادة، و ما نؤديه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّا مصداق لهذا المفهوم العام و لا ينحصر به.

و بما أنّ جميع مخلوقات اللّه فى عالم التكوين و الخلق مسلمة للقوانين العامّة لعالم الوجود، التى أفاضتها الإرادة الإلهية فإنّ جميع المخلوقات فى حالة سجود له جلّ و علا، و لا ينبغى لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، و كلها مظهرة لعظمة و علم و قدرة البارى عزّ و جلّ، و لتدلل على أنّها آية على غناه و جلاله .. و الخلاصة:

كلها دليل على ذاته المقدسة.

«الدابة»: بمعنى الموجودات الحية، و يستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحية فى السماوات و الأرض على وجود كائنات حية فى الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

و قد احتمل البعض: عبارة «من دابة» قيد ل «ما فى الأرض» فقط، أى: إنّ الحديث يختص بالكائنات الحية الموجودة على الأرض.

و يبدو ذلك بعيدا بناء على ما جاء فى الآية (۲۹) من سورة الشورى وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ.

صحيح أنّ السجود و الخضوع التكوينى لا ينحصر بالكائنات الحية، و لكنّ تخصيص الإشارة بها لما تحمله من أسرار و عظمة الخلق أكثر من غيرها.

و بما أنّ مفهوم الآية يشمل كلا من: الإنسان العاقل المؤمن، و الملائكة، و الحيوانات الأخرى، فقد استعمل لفظ السجود بمعناه العام الذى يشمل السجود الاختيارى و التشريعى و كذا التكوينى الاضطرارى.

أمّا الإشارة إلى الملائكة بشكل منفصل فى الآية فلأنّ الدابة تطلق على الكائنات الحيّة ذات الجسم المادى فقط، بينما للملائكة حركة و حضور و غياب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۰۹

و لكن ليس بالمعنى المادى الجسمانى كى تدخل ضمن مفهوم «الدابة».

و

روى فى حديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ للّه تعالى ملائكة فى السماء السابعة سجودا منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافة اللّه تعالى، لا تقطر من دموعهم قطرة إلّا صارت ملكا، فإذا كان يوم القيامة رفعوا رؤوسهم و قالوا: ما عبدناك حق عبادتك»[۱۲۵].

أمّا جملة وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ فإشارة لحال و شأن الملائكة التى لا يداخلها أىّ استكبار عند سجودها و خضوعها للّه عزّ و جلّ.

و لهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرة و تأكيدا لنفى حالة الاستكبار عنهم: يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ كما جاء فى الآية (۶) من سورة التحريم فى وصف جمع من الملائكة: لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ

و يستفاد من هذه الآية بوضوح .. أنّ علامة نفى الاستكبار شيئان:

أ- الشعور بالمسؤولية و إطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض، و هو وصف للحالة النفسية لغير المستكبرين.

ب- ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغى و العمل وفق القوانين المعدة لذلك ..

و هذا انعكاس للأول، و هو التحقيق العينى له.

و ممّا لا ريب فيه أنّ عبارة مِنْ فَوْقِهِمْ ليست إشارة إلى العلو الحسى و المكانى، بل المراد منها العلو المقامى، لأنّ اللّه عزّ و جلّ فوق كل شى مقاما.

كما نقرأ فى الآية (۶۱) من سورة الأنعام: وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ و كذلك فى الآية (۱۲۷) من سورة الأعراف: وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ حينما أراد فرعون أن يظهر قدرته و قوته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۰

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۵۱ الى ۵۵]

اشارة

وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (۵۱) وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً أَ فَغَيْرَ اللَّهِ

تَتَّقُونَ (۵۲) وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ (۵۳) ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۵۴) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۵۵)

التّفسير

دين حق و معبود واحد:

تتناول هذه الآيات موضوع نفى الشرك تعقيبا لبحث التوحيد و معرفة اللّه عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقة، لتتّضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، و يبتدأ ب: وَ قالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

و تقديم كلمة «إيّاى» يراد بها الحصر كما فى «إيّاك نعبد» أى: يجب الخوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۱

من عقابى لا غير.

و من الملفت للنظر أنّ الآية أشارت إلى نفى وجود معبودين فى حين أن المشركين كانوا يعبدون أصناما متعددة.

و يمكن أن يكون ذلك إشارة إلى إحدى النقاط التالية أو إلى جميعها:

۱- إنّ الآية نفت عبادة اثنين، فكيف بالأكثر؟! و بعبارة أخرى: إنّها بيّنت الحد الأدنى للمسألة ليتأكّد نفى الأكثر، و أىّ عدد ننتخبه (أكثر من واحد) لا بدّ له أن يمر بالإثنين.

۲- كل ما يعبد من دون اللّه جمع فى واحد، فتقول الآية: أن لا تعبدوها مع اللّه، و لا تعبدوا إلهين (الحق و الباطل).

۳- كان العرب فى الجاهلية قد انتخبوا معبودين:

الأوّل: خالق العالم، أى اللّه عزّ و جلّ و كانوا يؤمنون به.

و الثّانى: الأصنام، و اعتبروها واسطة بينهم و بين اللّه، و اعتبروها كذلك منبعا للخير و البركة و النعمة.

۴- يمكن أن تكون الآية ناظرة إلى نفى عقيدة (الثنويين) القائلين بوجود إله للخير و آخر للشر، و مع انتخابهم لأنفسهم هذا المنطق الضعيف الخاطئ، إلّا إنّ عبدة الأصنام قد غالوا حتى فى هذا المنطق و تجاوزوه لمجموعة من الآلهة! و ينقل المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى فى تفسير هذه الآية عبارة لطيفة نقلها عن بعض الحكماء: (نهاك ربك أن تتخذ إلهين فاتخذت آلهة، عبدت: نفسك و هواك، و طبعك و مرادك، و عبدت الخلق فأنّى تكون موحدا).

ثمّ يوضح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات ...

فيقول أوّلا وَ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئا، أم لمن له ما فى السموات و الأرض؟

ثمّ يضيف: وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۲

فعند ما يثبت أن عالم الوجود منه، و هو الذى أوجد جميع قوانينه التكوينية فينبغى أن تكون القوانين التشريعية من وضعه أيضا، و لا تكون طاعة إلّا له سبحانه.

«واصب»: من «الوصوب»، بمعنى الدوام. و فسّرها البعض بمعنى (الخالص) (و من الطبيعى أن ما لم يكن خالصا لم يكن له الدوام. أما الذين اعتبروا «الدين» هنا بمعنى الطّاعة، فقد فسّروا «واصبا» بمعنى الواجب، أى: يجب إطاعة اللّه فقط.

و نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ شخصا سأله عن قول اللّه وَ لَهُ الدِّينُ واصِباً قال: «واجبا»[۱۲۶].

و الواضح أنّ هذه المعانى متلازمة جميعها.

ثمّ يقول فى نهاية الآية: أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمة حتى تتقوها و تواظبوا على عبادتها؟! هذا .. وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

فهذه الآية تحمل لبيان الثّالث بخصوص لزوم عبادة اللّه الواحد جلّ و علا، و أنّ عبادة الأصنام إن كانت شكرا على نعمة فهى ليست بمنعمة، بل الكل بلا استثناء منّعمون فى نعم اللّه تعالى، و هو الأحق بالعبادة لا غيره.

و علاوة على ذلك ... ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعا للضر و حلا للمعضلات، فهذا من اللّه و ليس من غيره، و هو ما تظهره ممارستكم عمليا حين إصابتكم بالضر، فلمن تلتجئون؟

إنّكم تتركون كل شىء و تتجهون إلى اللّه.

و هذا البيان الرّابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۳

«تجئرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات و الوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثمّ استعملت كناية فى كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

إنّ اختيار هذه العبارة هنا إشارة إلى أنّه عند ما تتراكم عليكم الويلات و يحل بكم البلاء الشديد تطلقون حينها صرخات الإستغاثة اللااختيارية .. و أنتم بهذه الحال، أ توجهون النداء لغيره سبحانه و تعالى؟! فلما ذا إذن فى حياتكم الاعتيادية و عند ما تواجهون المشاكل اليسيرة تلتجئون إلى الأصنام؟! نعم. فاللّه سبحانه يسمع نداءكم فى كل الحالات و يغيثكم و يرفع عنكم البلاء ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ بالعود إلى الأصنام! و فى الحقيقة ... فالقرآن فى الآية يشير إلى فطرة التوحيد فى جميع الناس، إلّا أنّ حجب الغفلة و الغرور و الجهل و التعصب و الخرافات تغطيها فى الأحوال الاعتيادية.

و لكن، عند ما تهب عواصف البلاء تنقلع تلك الحجب فيظهر نور الفطرة براقا من جديد ليرى الناس لمن يتوجهون، فيدعون اللّه مخلصين بكامل وجودهم، فيرفع عنهم أغطية البلاء المتأتية من تلك الحجب، (لاحظوا أنّ الآية قالت:

كَشَفَ الضُّرَّ أى: رفع أغطية البلاء).

و لكن .. عند ما تهدأ العاصفة و يرتفع البلاء و تعودون إلى شاطئ الأمان، تعاودون من جديد على الغفلة و الغرور، و تظهرون الشرك بعبادتكم للأصنام مجددا! و فى آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتى التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

و يشبّه ذلك بتوجيه النصائح و الإرشادات لمنحرف متخلف لا يفيد معه هذا الأسلوب المنطقى فيقطع معه الحديث باللين ليواجه بالتهديد عسى أن يرعوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۴

فيقال له: مع كل ما قلنا لك ... افعل ما شئت و لكن سترى نتيجة عملك عاجلا أم آجلا.

و على هذا فتكون اللام فى «ليكفروا» يراد به التهديد، و كذا «تمتعوا» أمر يراد به التهديد أيضا، أمّا مجىء الفعل الأوّل بصيغة الغائب «ليكفروا» و الثّانى بصيغة المخاطب «تمتعوا»، فكأنه افترض غيابهم أوّلا فقال: ليذهبوا و يكفروا بهذه النعم، و عند تهديدهم يلتفت إليهم و يقول: تمتعوا بهذه النعم الدنيوية قليلا فسيأتى اليوم الذى تدركون فيه عظم خطئكم و سترون عاقبة أعمالكم.

و الآية (۳۰) من سورة إبراهيم تشابه الآية المذكورة من حيث الغرض: قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ[۱۲۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشارة

وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (۵۶) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ (۵۷) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۵۸) يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۵۹) لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۶۰)

التّفسير

عند ما كانت ولادة البنت عارا!

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحوثا استدلالية فى نفى الشرك و عبادة الأصنام، تأتى هذه الآيات لتتناول قسما من بدع المشركين و صورا من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلا آخرا على بطلان الشرك و عبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع و عادات المشركين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۶

و تقول أوّلا: وَ يَجْعَلُونَ لِما لا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْناهُمْ ۱۲۸].

و كان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، و هو ما تشير إليه الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام:

وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: تَاللَّهِ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ

و سيكون بعد السؤال اعتراف لا مفر منه ثمّ الجزاء و العقاب، و عليه فما تقومون به له ضرر مادى من خلال ما تعملونه بلا فائدة، و له عقاب أخروى لأنّكم أسأتم الظن باللّه و اتجهتم إلى غيره.

أمّا البدعة الثّانية فكانت: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَناتِ سُبْحانَهُ من التجسم و من هذه النسبة. وَ لَهُمْ ما يَشْتَهُونَ أى: إنّهم لم يكونوا ليقبلوا لأنفسهم ما نسبوا إلى اللّه، و يعتبرون البنات عارا و سببا للشقاء! و إكمالا للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثّالثة: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ [۱۲۹] و لا ينتهى الأمر إلى هذا الحد بل يَتَوارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ

و لم ينته المطاف بعد، و يغوص فى فكر عميق: أَ يُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۷

و فى ذيل الآية، يستنكر البارى حكمهم الظالم الشقى بقوله: أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ

و أخيرا يشير تعالى إلى السبب الحقيقى وراء تلك التلوثات، ألا هو عدم الإيمان بالآخرة: لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فكلّما اقترب الإنسان من العزيز الحكيم انعكس فى روحه نور صفاته العليا من العلم و القدرة و الحكمة و ابتعد عن الخرافات و البدع و الأفعال القبيحة.

و كلما ابتعد عنه تعالى غرق بقدر ذلك البعد فى ظلمات الجهل و الضعف و الذلة و القبائح.

فالسبب الرئيسى لكل انحراف و قبح و خرافة هو الغفلة عن ذكر اللّه و عن محكمته العادلة فى الآخرة، أمّا ذكر اللّه و الآخرة فدافع أصيل للإحساس بالمسؤولية و محاربة الجهل و الخرافة، و عامل قدرة و قوة و علم للإنسان.

بحوث

۱- لماذا اعتبروا الملائكة بناتا للّه؟

تطالعنا الكثير من آيات القرآن الكريم بأنّ المشركين كانوا يقولون بأنّ الملائكة بنات اللّه جلّ و علا، أو أنّهم كانوا يعتبرون الملائكة إناثا دون نسبتها إلى اللّه ..

كما فى الآية (۱۹) من سورة الزخرف: وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً، و فى الآية (۴۰) من سورة الإسراء: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۸

يمكن أن تكون هذه الإعتقادات بقايا خرافات الأقوام السابقة التى وصلت عرب الجاهلية، أو ربما يحصل هذا الوهم بسبب ستر الملائكة عنهم و حال الاستتار أكثر ما يختص بحال النساء، و لهذا تعتبر العرب الشمس مؤنثا مجازيا و القمر مذكرا مجازيا أيضا، على اعتبار أنّ قرص الشمس لا يمكن للناظر إليه أن يديم النظر لأنه يستر نفسه بقوة نوره، أمّا قرص القمر فظاهر للعين و يسمح للنظر إليه مهما طالت المدّة.

و ثمّة احتمال آخر يذهب إلى الكناية عن لطافة الملائكة، و الإناث أكثر من الذكور لطافة.

و على أية حال .. فهذه إحدى ترسبات الخرافات القديمة التى تكلست فى مخيلة البشرية حتى وصلت للبعض ممن يعيش فى يومنا هذا، و لا- تختص هذه الخرافة بقوم دون آخر لأنّنا نلاحظ وجودها فى أدبيات عدد من لغات العالم! فنرى الأديب مثلا حينما يريد وصف جمال امرأة ينعتها بالملائكة، و ذاك الفنان الذى يريد أن يعبر عن الملائكة فيجعلها بهيئة النساء، فى حين أن الملائكة لا تملك جسما ماديا حتى يمكننا أن نصفه بالمذكر أو المؤنث.

۲- لما ذا شاع وأد البنات فى الجاهلية؟

الوأد فى واقعة أمر رهيب، لأنّ الفاعل يقوم بسحق كل ما بين جوانحه من عطف و رحمة، ليتمكن من قتل إنسان برىء ربّما هو من أقرب الأشياء إليه من نفسه! و الأقبح من ذلك افتخاره بعمله الشنيع هذا! فأين الفخر من قتل إنسان ضعيف لا يقوى حتى للدفاع عن نفسه؟ بل كيف يدفن الإنسان فلذة كبده و هى حية؟! و هذا ليس بالأمر الهيّن، فأىّ إنسان و مهما بلغت به الوحشية لا يقدم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۱۹

هكذا جريمة بشعة من غير أن تكون لها مقدمات اجتماعية و نفسية و اقتصادية عميقة الأثر و التأثير تدعوه لذلك ..

يقول المؤرخون: إنّ بداية وقوع هذا العمل القبيح كانت على أثر حرب جرت بين فريقين منهم فى ذلك الوقت، فأسر الغالب منهم

نساء و بنات المغلوب، و بعد مضى فترة من الزمن تمّ الصلح بينهم فأراد المغلوبون استرجاع أسراهم إلّا أنّ بعضا من الأسيرات ممن تزوجن من رجال القبيلة الغالبة اخترن البقاء مع الأعداء و رفضن الرجوع إلى قبيلتهن، فصعب الأمر على آبائهن بعد أن أصبحوا محلا للوم و الشماتة، حتى أقسم بعضهم أن يقتل كل بنت تولد له كى لا تقع مستقبلا أسيرة بيد الأعداء! و يلاحظ بوضوح ارتكاب أفظع جناية ترتكب تحت ذريعة الدفاع عن الشرف و الناموس و حيثية العائلة الكاذبة .. فكانت النتيجة: ظهور بدعة و أد البنات القبيحة و انتشارها بين جمع منهم حتى أصبحت سنّة جاهلية، و لفظاعتها فقد أنكرها القرآن الكريم بشدّة بقوله: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۱۳۰].

و ثمّة احتمال آخر يذهب إلى دور الطبيعة الإنتاجية للأولاد الذكور، و النزوع إلى الطبيعة الاستهلاكية عند الإناث، و ما له من أثر على الحياة الاجتماعية و الاقتصادية، فالولد الذكر بالنسبة لهم ذخر مهم ينفعهم فى القتال و الغارات و فى حفظ الماشية و ما شابه ذلك من الفوائد، فى حين أنّ البنات لسن كذلك.

و من جانب آخر .. فقد سببت الحروب و النزاعات القبلية قتل الكثير من الرجال و الأولاد ممّا أدى لاختلال التوازن فى نسبة الإناث إلى الذكور، حتى وصل وجود الولد الذكر عزيزا و دفع الرجل لأن يتباهى بين قومه حين يولد له مولود ذكرا، و ينزعج و يتألم عند ولادة البنت .. و وصل حالهم لحد (كما يقول عنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۰

بعض المفسّرون) أنّ الرجل فى الجاهلية يغيّب نفسه عن داره عند قرب وضع زوجته لئلا تأتيه بنت و هو فى الدار! و إذا ما أخبروه بأنّ المولود ذكر فيرجع إلى بيته و بشائر الفرح تتعالى وجنتيه، و لكنّ الويل كل الويل و الثبور فيما لو أخبروه بأنّ المولود بنتا و يمتلئ غيظا و غضبا[۱۳۱].

و قصّة «الوأد» ملأى بالحوادث المؤلمة ...

منها: ما

روى أنّ رجلا جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأعلن إسلامه، و جاءه يوما فسأله: إنّى أذنبت ذنبا عظيما فهل لى من توبة؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه تواب رحيم». قال: يا رسول اللّه إنّ ذنبى عظيم قال: «ويلك مهما كان ذنبك عظيما فعفو اللّه أعظم منه»، قال: لقد سافرت فى الجاهلية سفرا بعيدا و كانت زوجتى حبلى و عند ما عدت بعد أربع سنوات استقبلتنى زوجتى فرأيت بنتا فى الدار، فقلت لها: ابنة من هذه؟ قالت: ابنة جازنا. فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعة، فلم تفعل، ثمّ قلت لزوجتى: أصدقينى من هذه البنت؟ قالت: ألا تذكر أنّى كنت حاملة عند ما سافرت، إنّها ابنتك. فنمت تلك الليلة مغتما، أنام و استيقظ، حتى اقترب وقت الصباح نهضت من فراشى و ذهبت إلى فراش ابنتى فأخرجتها و أيقظتها و طلبت منها أن تصحبنى إلى حائط النخل، فتبعتنى حتى اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفيرة و هى تعيننى على ذلك، و عند ما انتهيت من ذلك وضعتها فى وسط الحفرة .. و هنا فاضت عينا رسول اللّه بالدمع .. ثمّ وضعت يدى اليسرى على كتفها و أخذت أهيل التراب عليها بيدى اليمنى، فأخذت تصرخ و تدافع بيديها و رجليها و تقول: أبى ما تصنع بى!؟ ثمّ أصاب لحيتى بعض التراب فرفعت يدها تمسحه عنها، و أدمت ذلك حتى دفنتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۱

فقال رسول اللّه و هو يمسح دموعه: «لو لا أن سبقت رحمة اللّه غضبه لعجل اللّه لك العذاب»[۱۳۲].

و كذلك ما

روى فى (قيس بن عاصم) أحد أشرف و رؤساء قبيلة بنى تميم فى الجاهلية، و قد أسلم عند ظهور النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم،

جاء یوما إلی النّبی و قال له: أنّ آباءنا کانوا یدفنون بناتهم أحیاء، و قد دفنت أنا (۱۲) بنتا، و عند ما ولدت لی زوجتی البنت الثّالثة عشر أخفت أمرها و ادّعت أنّها ماتت عند الولادة، ثمّ أودعتها آخرین، و عند ما علمت بذلک بعد مدّة، أخذتها إلی مکان بعید و دفنتها حیّة دون أن أعتنی ببکائها و تضرعها.

فتأذی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من ذلک فقال و دموعه جاریة: «من لا یرحم لا یرحم» ثمّ التفت إلی قیس و قال: «إنّ لک یوما سیئا»، فقال قیس: ما أفعل لتکفیر ذنبی؟ فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «حرر من العبید بعدد ما و أدت»[۱۳۳].

و روی أیضا أن (صعصعة بن ناجیة) جد الفرزدق الشاعر المعروف، و کان رجلا شریفا حرّا فقیل: إنّه کان فی الجاهلیة یحارب الکثیر من العادات القبیحة حتی أنّه اشتری (۳۶۰) بنتا من آبائهن کی ینقذهن من القتل، و قد أعطی یوما دابته مع بعیرین لأب کان یرید قتل ابنته.

و

قال له الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذات مرّة (فی ما معناه): ما أحسن ما صنعت و أجرک عند اللّه.

و قال الفرزدق فخرا بعمل جده:

و منّا الذی منع الوائداتفأحیا الوئید فلم توئد[۱۳۴]

و سنری کیف أنّ الإسلام قد أصم تلک الفواجع العظام، و اعتبر للمرأة مکانة ما کانت تحظی بها من قبل علی مر العصور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۲

۳- دور الإسلام فی إعادة اعتبار المرأة:

لم یکن احتقار المرأة مختصا بعرب الجاهلیة، فلم تلق المرأة أدنی درجات الاحترام و التقدیر حتی فی أکثر الأمم تمدنا فی ذلک الزمان، و کانت المرأة غالبا ما یتعامل معها باعتبارها بضاعة و لیست إنسانا محترما، و لکنّ عرب الجاهلیة جسدوا تحقیر المرأة بأشکال أکثر قباحة و وحشیة من غیرهم، حتی أنّهم ما کانوا یدخلونهن فی الأنساب کما نقرأ ذلک فی الشعر الجاهلی المعروف:

بنونا بنو ءابائنا و بناتنابنوهن أبناء الرجال الأباعد

و کانوا أیضا لا یورثون النساء، و لم یجعلوا لتعدد الزوجات حدّا، و عملیة الزواج أو الطلاق أسهل من شربة الماء عندهم.

و عند ما ظهر الإسلام حارب بشدّة هذه المهانة من کافة أبعادها، و بالخصوص مسألة اعتبار ولادة البنت عارا، حتی وردت الرّوایات الکثیرة التی تؤکّد علی أنّ البنت باب من أبواب رحمة اللّه للعائلة.

و أولی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ابنته فاطمة الزهراء علیها السّلام من الاحترام ما جعل الناس فی عجب من أمره، حیث کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع ما یحظی به من شرف و مقام، کان یقبل ید الزهراء علیها السّلام، و عند ما یعود من السفر یذهب إلیها قبل أی أحد. و عند ما یرید السفر کان بیت فاطمة الزهراء علیها السّلام آخر بیت یودّعه.

و حینما أخبر بولادة الزهراء علیها السّلام، رأی الانقباض فی وجوه أصحابه

فقال علی الفور: «ما لکم! ریحانة أشمها، و رزقها علی اللّه عزّ و جل»[۱۳۵].

و

فی حدیث أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «نعم الولد البنات ملطفات، مجهزات، مؤنسات، مفلیات»[۱۳۶].

و

فی حدیث آخر: «من دخل السوق فاشتری تحفة فحملها إلی عیاله کان کحامل الصدقة إلی قوم محاویج، و لیبدأ بالإناث قبل الذکور،

فإنّه من فرّح ابنته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۳

فكأنّما أعتق رقبة من ولد إسماعيل»[۱۳۷].

فالاحترام الـذى أولاه الإسـلام للمرأة قـد أعاد لها شخصـيتها الضائعـة بين حولك الجاهلية، و حررها من العادات البالية، و أنهى عصـر تحقيرها.

و إن كـان غور هـذا الموضوع يسـتلزم التفصـيل فسـتنطرق إلى ذلـك فى تفسـيرنا للآيات المناسـبة له، و لكنّ ما يحز فى النفوس و لا يمكن السـكوت عنه مـا يشاهـد فى كثير من مجتمعاتنـا الإسـلامية من آثار لنفس ذلك التوجه الجاهلى الموبوء، فإلى الآن نرى الكثير من العوائل تفرح و تسـر عند ما يأتيها مولود ذكر، و تتأسف و تتأفف عند ما تكون المولودة بنتا! و على أقل التقادير ترجح ولادة الولد على البنت!.

من الممكن أن تكون الظروف الخاصـة اقتصاديـا و اجتماعيا، المرتبطـة بوضع المرأة فى مجتمعاتنا، عاملا على وجود عادات و حالات خاطئـة، إلّا أنّه ينبغى على المؤمنين المخلصـين مكافحـة هـذا النمط من التفكير و اقتلاع جـذوره الاجتماعية و الاقتصادية، فالإسـلام لا يقبل من أتباعه بعد (۱۴) قرن العود إلى أفكار الجاهلية المقيتة .. فهذا السلوك فى واقعة نوع من الجاهلية الثّانية.

و لا ينبغى أن تأخـذنا التصورات السارحة فنرى عن بعد أن المرأة قد نالت مناها فى عالم الغرب و أنّها تحظى من الاحترام و التحرر ما تحسـد عليه! فالحياة العمليـة فى الغرب تؤكّـد بما لا يقبل الشك أنّ المرأة هناك محتقرة، و قـد جعلت لعبـة مبتذلة و وسـيلة رخيصـة لإشباع الشهوات أو وسيلة إعلان للبضائع و المنتوجات ۱۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۴

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۱ الى ۶۴]

اشارة

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ (۶۱) وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (۶۲) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۶۴)

التّفسير

وسعت رحمته غضبه:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن جرائم المشـركين البشعة فى وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالى: لما ذا لم يعذب اللّه المذنبين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح و ظلم فجيع؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۵

و الآية الأولى (۶۱) تجيب بالقول: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ[۱۳۹].

«الدابة»: يراد بها كل كائن حى، و يمكن أن يراد بها هنا (الإنسان) خاصّة بقرينة (بظلمهم).

أى: إنّ اللّه لو يؤاخذ الناس على ما ارتكبوه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

و يحتمل أيضا إرادة جميع الكائنات الحيّة، لعلمنا بأنّ هذه الكائنات إنّما خلقت و سخرت للإنسان كما يقول القرآن فى الآية (۲۹) من سورة البقرة: هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً، فعند ما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الأخرى و ينقطع نسلها.

و هنا يواجهنا السؤال التالى: لو نظرنا إلى سعة مفهوم الآية و عموميتها فإنّها تدل فى النتيجة على أنّه لا يوجد على الأرض إنسان غير ظالم، فالكلّ ظالم كلّ حسب قدره و شأنه، و لو نزل العذاب الفورى السريع و الحال هذه لما بقى إنسان على سطح الأرض ... مع إنّنا نعلم أنّ هناك من لا يصدق عليه هذا المعنى، فالأنبياء و الأئمّة المعصومون عليهم السّلام خارجون عن شمولية هذا المعنى، بل فى كل زمان و مكان ثمة من تزيد حسناته على سيئاته من الصالحين المخلصين و المجاهدين ممن لا يستحقون العذاب المهلك أبدا ..

و الجواب على ذلك أنّ الآية تبيّن حكما نوعيا و ليس حكما عاما شاملا للجميع و نظير ذلك كثير فى الأدب العربى.

و من الشواهد على ذلك: الآية (۳۲) من سورة فاطر حيث تقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۶

. فنرى الآية تتطرق إلى ثلاثة أقسام: ظالم، صاحب ذنوب خفيفة، و سابق بالخيرات .. و من المسلم به أنّ القسم الأوّل هو المقصود فى الآية مورد البحث دون القسمين الآخرين، و لا عجب من تعميم الآية، لأنّ هذا القسم يشكل القسم الأكبر من المجتمعات البشرية.

و يتّضح من خلال ما ذكر أنّ الآية لا تنفى عصمة الأنبياء، أمّا من يعتقد بخلاف ذلك فقد غفل عن القرائن الموجودة فى العبارة من جهة، و لم يلتفت إلى ما توحى إليه بقية الآيات القرآنية بهذا الخصوص.

و يضيف القرآن الكريم قائلا: وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ

بل يدركهم الموت فى نفس اللحظة المقررة.

بحث

ما هو الأجل المسمى؟

للمفسّرين بيانات كثيرة بشأن المراد من «الأجل المسمى» و لكن بملاحظة سائر الآيات القرآنية، و من جملتها الآية (۲) من سورة الأنعام، و الآية (۳۴) من سورة الأعراف، يبدو أنّ المراد منه وقت حلول الموت، أى: إنّ اللّه عزّ و جلّ يمهل الناس إلى آخر عمرهم المقرر لهم إتماما للحجة عليهم، و لعل من ظلم يعود إلى رشده و يصلح شأنه فيكون ذلك العود سببا لرجوعه إلى بارئه الحق و إلى العدالة.

و يصدر أمر الموت بمجرّد انتهاء المهلة المقررة، فيبدأ بعقابهم من بداية اللحظات الأولى لما بعد الموت.

و لأجل المزيد من الإيضاح حول مسألة (الأجل المسمى) راجع ذيل الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۷

رقم (۲) من سورة الأنعام و كذا ذيل الآية (۳۴) من سورة الأعراف.

و يعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين و خرافاتهم فى الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى و الإعتقاد بأنّ الملائكة إناثا، فيقول: وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ

فهـذا تناقض عجيب- و كما جاء فى الآية (۲۲) من سورة النجم تِلْكَ إِذاً قِسْـمَةٌ ضِـيزى فإن كانت الملائكة بنات اللّه سبحانه و تعالى فينبغى أن تكون البنـات أمرا حسـنا، فلمـا ذا تكرهون ولادتهـا؟! و إن كانت شـيئا سـيئا فلما ذا تنسـبونها إلى اللّه؟! و مع كل ذلك .. وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟! أ بوأدكم بناتكم؟! أم بافترائكم على اللّه؟! ..

و جـاءت «الحسـنى» (و هى مؤنث أحسن) هنـا بمعنى أفضـل الثواب أو أفضل العواقب، و ذلك ما يـدعيه أولئك المغرورون الضالون لأنفسهم مع كل ما جاؤوا به من جرائم! و هنا يطرح السؤال التالى نفسه: كيف يقول عرب الجاهلية بذلك و هم لا يؤمنون بالمعاد؟

و الجواب: أنّهم لم ينكروا المعاد مطلقا، و إنّما كانوا ينكرون المعاد الجسمانى، و يستوعبون مسألة عودة الإنسان إلى حياته المادية مرّة أخرى.

إضافة إلى إمكان اعتبار قولهم قضية شرطية، أى: إن كان هناك معاد حقّا فسيكون لنا فى عالمه أفضل الجزاء! و هكذا هو تصور كثير مـن الجبـابرة و المنحرفيـن فبـالرغم من بعـدهم عن اللّه تعـالى يعتـبرون أنفسـهم أقرب النـاس إليه، و يتشـدّقون بادّعـاءة هزيلـة مـدعاة للسخرية!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۸

و احتمل بعض المفسّرين أيضا أنّ «الحسنى» تعنى نعمة الأولاد الذكور، لأنّهم يعتبرون البنات سوءا و شرّا، و البنين نعمة و حسنى.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صوابا، و لهذا يقول القرآن، و بلا فاصلة:

لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ، أى: أنّهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و «لهم النّار» وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ أى: من المتقدمين فى دخول النّار.

و المفرط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

و ربّما يراود البعض منّا الاسـتغراب عنـد سـماعة لقصة عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، و يسأل: كيف يصدّق أن نسـمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده و هى على قيد الحياة؟! ..

و كأنّ الآية التالية تجيب على ذلك: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَم مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ

نعم، فللشـيطان وساوس يتمكن من خلالها أن يصور أقبـح الأعمال و أشـنعها جميلـة فى نظر البعض بحيث يعتبرها مجالا للتفاخر! كما كانوا يعتبرون وأد البنات شـرفا و فخرا و حفظا لناموس و كرامـة القبيلـة! ممّا يحدو ببعض المغفلين لأن يتفاخر بالقول: لقد دفنت ابنتى اليوم بيـدى كى لا تقع غـدا أسـيرة فى يد الأعداء! فإنّ كان الشـيطان يزيّن أقبح الأعمال مثل وأد البنات بنظر بعض الناس بهذه الحال، فحال بقية الأعمال معلوم.

و نرى فى يومنـا الكثير من أعمـال الناس التى سـيطر عليها زخرف الشـيطان، فراحوا ينعتون سـرقاتهم و جرائمهم بعبارات تبـدو مقبولة فيخفون حقيقتها فى طى زخرف القول.

ثمّ يضـيف القرآن: إن مشـركى اليوم على سـنّة من سـبقهم من الماضـين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشـيطان فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ يستفيدون ممّا يعطيهم إيّاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۲۹

و لهذا .. وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و للمفسّـرين بيانات كثيرة فى تفسير فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ و لعل أوضحها ما قلناه أعلاه، أى: إنّها إشارة إلى أنّ المشركين فى عصر الجاهلية إنّما هم على خطى الأمم المنحرفة السابقة، و الشيطان رائد مسيرتهم و الموجه لهم كما كان للماضين ۱۴۰].

و يحتمل تفسـيرها أيضا بأنّ المقصود من فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ أنّه لا تزال بقايا الأمم المنحرفـة السابقة موجودة إلى اليوم، و لا زالوا يعملون بطريقتهم المنحرفة، و الشيطان وليهم كما كان سابقا.

و تبيّن آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، و لتؤكّد حقيقة:

أنّ الأقوام و الأمم لو اتبعت الأنبياء و تخلت عن أهوائها و رغباتها الشخصية لما بقى أثر لأى خرافة و انحراف، و لزالت تناقضات الأعمال، فتقول: وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ليخرج وساوس الشيطان من قلوبهم، و يزيل حجاب النفس الأمارة بالسوء عن الحقائق لتظهر ناصعة براقة، و يفضح الجنايات و الجرائم المختفية تحت زخرف القول، و يمحو أىّ أثر للاختلافات الناشئة من الأهواء، فيقضى على القساوة بنشر نور الرحمة و الهداية ليعم الجميع فى كل مكان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۰

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۵ الى ۶۷]

اشارة

وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۶۵) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ (۶۶) وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۶۷)

التّفسير

المياه، الثمار، الأنعام:

مرّة أخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم و العطايا الإلهية الكثيرة، تأكيدا لمسألة التوحيد و معرفة اللّه، و إشارة إلى مسألة المعاد، و تحريكا لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، و من خلال هذا التوجيه الرّبانى تتّضح علاقة الربط بين هذه الآيات و ما سبقها من آيات.

فالآية الأخيرة من الآيات السابقة تناولت مسألة نزول القرآن و ما فيه من حياة لروح الإنسان، و بنفس السياق تأتى الآية الأولى من الآيات مورد البحث لتتناول نزول الأمطار و ما فيها من حياة لجسم الإنسان: وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۱

فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

لقد تناولت آيات قرآنية كثيرة مسألة إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار من السماء، فكم من أرض يابسة أو ميتة أحيانا أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفادة من قبل الإنسان، و نتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيل للإنسان أنّها أرض غير منبتة أصلا، و لا يصدّق بأنّها ستكون أرض معطاء مستقبلا- و لكنّ، بتوالى سقوط المطر عليها و ما يثبت عليها من أشعة الشمس، ترى و كأنّها ميت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسرى فى عروقها دماء المطر و تعادلها الحياة، فتعمل بحيويه و نشاط و تقدم أنواع الورود و النباتات، و من ثمّ تتجه إليها الحشرات و الطيور و أنواع الحيوانات الأخرى من كل جانب، و بذلك ... تبدأ عجلة الحياة على ظهرها بالدوران من جديد.

و خلاصة المقال أنّه سيبقى الإنسان مبهوتا أمام تحول الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياة، و هذا بحق من أعظم عجائب الخلقة.

و هذا المظهر من مظاهر قدرة و عظمة الخالق عزّ و جلّ يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، و ما ارتداء الأموات لباس الحياة

الجديد إلّا أمر خاضع لقدرته سبحانه.

و إنّ نعمة الأمطار (التى لا يتحمل الإنسان أى قسط من أمر إيجادها) دليل آخر على قدرة و عظمة الخالق سبحانه.

و بعد ذكر نعمة الماء (الذى يعتبر الخطوة الأولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، و بخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً.

و أية عبرة أكثر من أن: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ

«الفرث» لغة: بمعنى الأغذية المهضومة فى المعدة و التى بمجرّد وصولها إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۲

الأمعاء تزود البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج .. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثا» و ما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثا).

و نعلم بأنّ جدار المعدة لا يمتص إلّا مقدارا قليلا من الغذاء (كبعض المواد السكرية) و القسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كى يمتص الدم ما يحتاجه منه.

و كما نعلم أيضا بأنّ اللبن يترشح من غدد خاصّة داخل ثدى الإناث، و مادته الأصلية تؤخذ من الدم و الغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البياض ذات القوّة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، و من الدم.

و العجب يمكن فى استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثة! و بعد حديثه عن الأنعام و ألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول:

وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

«السكر» لغة، له معانى مختلفة، إلّا أنّه هنا بمعنى: المسكرات و المشروبات الكحولية (و هو المعنى المشهور من تلك المعانى).

و ممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن لا يجيز فى هذه الآية صنع المسكرات من التمر و العنب أبدا، و إنّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته ب رِزْقاً حَسَناً و كإشارة صغير لتحريم الخمر و نبذه. و على هذا .. فلا حاجة للقول بأنّ هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر أو أنّها تشير إلى تحليله، بل حقيقة التعبير القرآنى يشير إلى التحريم، و لعل الآية كانت تمثل الإنذار الأوّل للتحريم.

و قد تبدو العبارة و كأنّها جملة اعتراضية بين قوسين داخل الآية القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۳

بحوث

۱- كيف يتكوّن اللبن؟

يقول القرآن الكريم فى ذلك كما فى الآيات أعلاه: إنّه يخرج من بين «فرث»- الأغذية المهضومة داخل المعدة- و «دم».

و قد أثبت ذلك فيزيولوجيا: حيث أنّه عند ما يتمّ هضم الغذاء داخل المعدة و يكون جاهزا للامتصاص ينتشر داخل المعدة و الأمعاء بشكل واسع و أمام الملايين من العروق الشعيرية، فتمتص منه العناصر المفيدة المطلوبة لتوصلها إلى تلك الشجرة ذات الجذور التى تنتهى عروقها عند عروق الثدى.

عند ما تتناول المرأة الحامل الغذاء تنتقل عصارته إلى الدم الذى يجرى فى عروقها حتى يصل نهاية العروق المجاورة لعروق الجنين ليتغذى الجنين بهذه الطريقة ما دام فى بطن أمه، و عند ما ينفصل عن أمّه يتحول طريق تغذيته إلى الثدى .. و هنا لا تستطيع الأم أن

تصل دمها إلی دم ولدها، و لذلک ینبغی تصفیة الغذاء و تغییر حالته بما ینسجم و الوضع الجدید للطفل، و هنا ... یتکون اللبن من بین فرث و دم، أی: من بین ما تتناوله الأم الذی یتحول إلی فرث و ما ینتقل من مواده إلی الدم لیتکون منه اللبن.

فاللبن فی حقیقة .. شیء وسط بین الفرث و الدم، فلا هو دم مصفی و لا هو غذاء مهضوم، و هو أعلی من الثّانی و دون الأوّل! علما بأنّ الثدی یستفید من الحوامض الأمینیة المخزونة فی البدن فقط فی صناعة المواد البروتینیة للبن.

و ثمّة مکونات أخری للبن لا توجد فی الدم و إنّما تنتجها غدد خاصّة فی الثدی (کالکازوئین).

و البعض الآخر من المکونات یأتی من ترشح بلازما الدم مباشرة: و یدخل فی تکوین اللبن من دون أی تغییر (کالفیتامینات و ملح الطعام و الفوسفات).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۴

أمّا سکر اللاکتوز الموجود فی اللبن فیؤخذ من السکر الموجود فی الدم بعد أن تجری علیه الغدد الخاصّة فی الثدی التغییرات اللازمة لتحویله إلی نوع جدید من السکر.

و مع أنّ إنتاج اللبن یکون عن طریق جذب المواد الغذائیة بواسطة الدم، و من خلال الارتباط المباشر بین الدم و غدد الثدی، إلّا أنّنا لا نلاحظ أیّ أثر لرائحة الفرث أو لون الدم فیه، بل یبدأ اللبن بالترشح من ثدی الأم بلون جدید و رائحة خاصّة به.

و من لطیف ما ینقل عن العلماء المتخصصین أنّ إنتاج لتر واحد من اللبن فی الثدی یحتاج بما لا یقل عن عبور (۵۰۰) لتر من الدم خلال الثدی لیستطیع من امتصاص المواد اللازمة لإنتاج اللبن، کما یلزم لإنتاج لتر واحد من الدم عبور مواد غذائیة کثیرة من الأمعاء ... و بهذا یتّضح لنا معنی مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ کاملا[۱۴۱].

۲- أهم ما فی اللبن من مواد غذائیة

اللبن ملیء بالمواد الغذائیة المختلفة التی تشکل مع بعضها مجموعة عذائیة کاملة.

فالمواد المعدنیة فی اللبن، عبارة عن: الصودیوم، البوتاسیوم، الکالسیوم، المغنیسیوم، النحاس، قلیل من الحدید بالإضافة إلی الفسفور و الکلور و غیرها.

و یوجد فی اللبن کذلک غاز الأوکسجین و حامض الکاربونیک.

أمّا المواد السکریة فموجودة بکمیة کافیة علی شکل (لاکتوز).

و الفیتامینات المحلولة فی اللبن عبارة عن: فیتامین ب، پ، آ، د.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۵

و قد أثبت العلم الحدیث أنّ الحیوان الذی یتغذی بشکل جید یکون لبنه حاویا لکافة أنواع الفیتامینات، و أصبح بدیهیا أنّ اللبن الطازج یعتبر غذاء کاملا.

و لا یمکن لنا تفصیل ذلک فی هذا البحث المختصر.

و لعل ما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قوله: «لیس یجزی مکان الطعام و الشراب إلّا اللبن»

إشارة لهذا السبب.

و نقرأ فی روایات أخری عن اللبن أنّه یزید فی عقل الإنسان، و یحد النظر، و یرفع النسیان، و یقوی القلب و الظهر (کما أصبح معلوما أن هذه الآثار لها ارتباط وثیق بما فی اللبن من مواد حیاتیة)[۱۴۲].

۳- اللبن .. غذاء خالص و سهل الهضم

لقد أكّدت الآيات أعلاه على ميزتين مهمتين للبن- كونه «خالصا»، و «سائغا» أى لذيذا و سريع الهضم- و كما هو المعروف عن اللبن من كونه غذاء كثير الفائدة على الرغم من قلّة حجمه. و «خالص» أى خال من المواد الزائدة و بذات الوقت فهو سهل الهضم بالشكل الذى جعل ملائما لأى إنسان و على مختلف الأعمار- منذ الطفولة حتى الشيخوخة- و لهذا يعتمده المرضى كغذاء ملائم و مفيد و مقبول، و بالخصوص ما له من أثر فعال بالنسبة لنمو العظام، و لهذا يوصى بالإكثار من تناوله فى حالات كسور العظام و ما شابهها.

و من جملة معانى الخلوص هو (الربط)، و لعل البعض اعتمد على هذا المعنى فيما جاء فى التعبير القرآنى «خالصا»، و اعتبارهم من كون «خالصا» إشارة إلى تأثير اللبن الخالص فى بناء و ربط العظام.

و كذا نجد فى الإحكام الإسلامية الواردة حول الرضاعة ما يشير إلى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۶

المعنى بوضوح.

و يقول الفقهاء: إنّ الطفل لو رضع من غير أمّه حتى اشتدت عظامه و زاد لحمه فإنّ مرضعته ستحرم عليه (و ما يتبع ذلك فى من يعود إليه النسب).

و يقولون أيضا: إن (۱۵) رضاعة متوالية، أو رضاعة يوم و ليلة متصلة، يؤدى إلى هذه الحرمة أيضا.

و لو جمعنا القولين، ألا ينتج أن التغذية باللبن يوم و ليلة لها أثر فى تقوية العظام و زيادة اللحم!؟

و ينبغى الالتفات إلى أن التوجيهات الإسلامية أكّدت كثيرا على لبن «اللباء» هو أو ما ينزل من اللبن بعد الولادة، حتى لتقول بعض كتب الفقه إنّ حياة الطفل مرهونة به، و لهذا اعتبر إعطاء الطفل من حليب اللباء واجبا[۱۴۳].

و لعل ما فى الآية (۷) من سورة القصص حول موسى عليه السّلام يتعلق بهذا الموضوع أيضا وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۷

الآيتان [سورة النحل (۱۶): الآيات ۶۸ الى ۶۹]

اشارة

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹)

التّفسير

وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

اشارة

انتقل الأسلوب القرآنى بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة و بيان أسرار الخليقة إلى الحديث عن «النحل» و ما يدره من

منتوج (العسل) و رمز إلى ذلك الإلهام الخفى بالوحى الإلهى إلى النحل: أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ و فى الآية المباركة جملة تعبيرات تستدعى التوقف و الدقّة:

۱- ما هو «الوحى»

«الوحى» فى الأصل (كما يقول الراغب فى مفرداته) بمعنى الإشارة السريعة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۸

ثمّ بمعنى الإلقاء الخفى.

و قد جاءت كلمة «الوحى» فى القرآن الكريم لترمز إلى عدّة أشياء، و لكنّها بالنتيجة تعود لذلك المعنى، منها:

وحى النّبوة: حيث نلاحظ وروده فى القرآن بهذا المعنى كثيرا. كما فى الآية (۵۱) من سورة الشورى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً ....

و منها: الوحى بمعنى «الإلهام» سواء كان الملهم منتبها لذلك (كما فى الإنسان وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ ۱۴۴]، أو مع عدم انتباه الملهم كالإلهام الغريزى (كما فى النحل) و هو ما ورد فى الآية مورد البحث.

و من المعروف أنّ الوحى فى هذا المورد يعنى الأمر الغريزى و الباعث الباطنى الذى أودعه اللّه فى الكائنات الحيّة.

و منها: أنّ الوحى بمعنى الإشارة، كما ورد فى قصّة زكريا فى الآية (۱۱) من سورة مريم فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

و منها أيضا: إيصال الرسالة بشكل خفى، كما فى الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

۲- هل يختص الإلهام الغريزى بالنحل؟

و إذا كان وجود الغرائز (الإلهام الغريزى) غير منحصر بالنحل دون جميع الحيوانات، فلما ذا ورد ذكره فى الآية فى النحل خاصّة؟

و الإجابة على السؤال تتّضح من خلال المقدمة التالية: إنّ الدراسة الدقيقة التى قام بها العلماء بخصوص حياة النحل، قد أثبتت أنّ هذه الحشرة العجيبة لها من التمدن و الحياة الاجتماعية المدهشة ما يشبه لحد كبير الجانب التمدنى عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۳۹

الإنسان و حياته الاجتماعية، من عدّة جهات.

و قد توصل العلماء اليوم لاكتشاف الكثير من أسرار حياة هذه الحشرة و التى أوصلتهم بقناعة تامة إلى توحيد الخالق و الإذعان لربوبيته سبحانه و تعالى.

و أشار القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز بكلمة «الوحى» ليبيّن أنّ حياة النحل لا تقاس بحياة الأنعام، و ليدفعنا للتعمق فى عالم أسرار هذه الحشرة العجيبة، و لنتعرف من خلالها على عظمة و قدرة خالقها، و لعل «الوحى» هو التعبير الرمزى الذى اختصت به هذه الآية نسبة إلى الآيات السابقة.

۳- المهمّة الأولى فى حياة النحل:

و أوّل مهمّة أمر بها النحل فى هذه الآية هى: بناء البيت، و لعل ذلك إشارة إلى أن اتّخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأوّل للحياة، و من ثمّ القيام ببقية الفعاليات، أو لعله إشارة إلى ما فى بيوت النحل من دقة و متانة، حيث أن بناء البيوت الشمعية و السداسية الأضلاع، و التى كانت منذ ملايين السنين و فى أماكن متعددة و مختلفة، قد يكون أعجب حتى من عملية صنع العسل ۱۴۵].

فكيف تضع هذه المادة الشمعية الخاصة؟ و كيف تبنى الخلايا السداسية بتلك الهندسة الدقيقة؟ و بيوت النحل ذات هيئة و أبعاد

محسوبة بدقة فائقة و ذات زوایا متساویة تماما، و مواصفاتها تخلو من أیة زیادة أو نقصان ..

فقد اقتضت الحکمة الربانیة من جعل بیوت النحل فی أفضل صورة و أحسن اختیار و أحکم طبیعة، و سبحان اللّه خالق کل شیء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۰

۴- این مکان النحل:

و قد عیّنت الآیة المبارکة مکان بناء الخلایا فی الجبال، و بین الصخور و انعطافاتها المناسبة، و بین أغصان الأشجار، و أحیانا فی البیوت التی یصنعها لها الإنسان.

و یستفاد من تعبیر الآیة أن خلایا النحل یجب أن تکون فی نقطة مرتفعة من الجبل أو الشجرة أو البیوت الصناعیة لیستفاد منها بشکل أحسن.

و یذکر القرآن الکریم فی الآیة التالیة المهمّة الثّانیة للنحل: ثُمَّ کُلِی مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُکِی سُبُلَ رَبِّکِ ذُلُلًا.

«الذلل»: (جمع ذلول) بمعنی التسلیم و الانقیاد.

و وصف الطرق بالذلل لأنّها قد عینت بدقّة لتکون مسلمة و منقادة للنحل فی تنقله، و سنشیر إلی کیفیة ذلک قریبا.

و أخیرا یعرض القرآن المهمّة الأخیرة للنحل (کنتیجة لما قامت به من مهام سابقة): یَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِیهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ فی طبیعة حیاتها و ما تعطیه من غذاء للإنسان (فیه شفاء)، و هو دلیل علی عظمة و قدرة الباری عزّ و جلّ.

بحوث

اشارة

و فی الآیة جملة بحوث قیمة أخری:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص ۲۴۰

۱- مم یتکون العسل؟

یمتص النحل بعض المواد السکریة الخاصّة الموجودة فی میاسم الأوراد، و یقول خبراء النحل: إنّ عمل النحل فی واقعة لا ینحصر بأخذ المادة السکریة فقط، بل یتعدی ذلک فی بعض الأحیان للاستفادة من بعض أجزاء الورود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۱

الأخری، و کذا الحال مع الأثمار، و هو ما یشیر إلیه القرآن بقوله: مِنْ کُلِّ الثَّمَراتِ

و قد نقل قول عالم البیئة (مترلینک) بما یوضح التعبیر القرآنی بشکل أوضح:

(لو قدّر أن تفنی أنواع النحل- الوحشی و الأهلی- فإنّ مائة ألف نوع من النباتات و الثمار و الأوراد ستفنی، أی أنّ تمدننا سیفنی أیضا)[۱۴۶]. ذلک لأنّ دور النحل فی نقل حبوب اللقاح من ذکر الأشجار إلی میاسم إناثها من الأهمیة بحیث یجعل بعض العلماء

يعتقدون أن ذلك أهم من إنتاج العسل نفسه.

و الحقيقـة أنّ ما يتناوله النحل من أنواع الثمار إنّما هو بالقوّة لا بالفعل، و لهـذا فهو يساهم فى عملية تكوينها، فما أشـمل و أدق التعبير القرآنى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

۲- السّبل المذللة!

لقد توصل العلماء المتخصـصون بدراسة حياة النحل إلى ما يلى: تخرج فى كل صباح مجموعة من النحل لمعرفة أماكن وجود الأوراد و تعيينهـا، ثمّ تعود إلى الخليـة لتخبر بقيـة النحـل عن أماكن الورود و الجهات التى ينبغى التوجه إليها، و مقـدار الفاصـلة بين الورود و الخلية.

و يستعمل النحل أحيانا لأجل تعيين طرق وصوله إلى الأوراد علامات خاصّة كأن يشخص طبيعة الروائح المنتشرة على طول الطريق أو ما شابه ذلك، و ذلك لضمان عدم إضاعة الطريق ذهابا و إيابا.

و لعل عبارة فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا إشارة لهذه الحركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۲

۳- أين يصنع العسل؟

ربّمـا، إلى الآن يوجـد من يتصور بأنّ النحل يمتص رحيق الأوراد و يجمعه فى فمه ثمّ يخزنه فى الخليـة، و هـذا خلاف الواقع، فالنحلة تجمـع الرحيق فى حفر خاصّـيـة داخـل بـدنها يطلق عليهـا علميـا اسم (الحوصـلة) و هى بمثابـة معامـل مختـبرات كيمياويـة خاصّـيـة تقوم بعمليات تحويل و تغيير مختلفة لرحيق الأزهار، حتى يصل إلى إنتاج العسل، الذى تقوم النحلة بإخراجه و جمعه فى الخلية.

و المدهش أن سورة النحل مكية، و كما هو معلوم بأنّ مكّة منطقة جافة ليس فيها نحل لعدم توفر النباتات و الأوراد التى يحتاجها و مع ذلك فالقرآن الكريم يتحدث بكل دقة عن النحل و يشير إلى أدق أعماله (إنتاج العسل): يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ

۴- ألوان العسل المختلفة

تتفاوت ألوان العسل وفقا لتنوع الأوراد التى يؤخذ رحيقها منها .. فيبدو أحيانا بلون اللبن القاتم، و أحيانا أخرى يكون أصـفر اللون، أو أبيض فضـى، أو ليس له لون، و تـارة تراه شـفافا، و تـارة أخرى ذهبى أو تمرى و قـد تراه مائلاـ إلى السواد! و لهـذا التفاوت فى اللون حكمة بالغة قد تبيّنت أخيرا مفادها: إنّ للون الغذاء أثّر بالغ فى تحريك رغبة الإنسان إليه.

و هـذه الحقيقـة ما كانت خافيـة على القـدماء أيضا، فكانوا يعتنون بإظهار لون الغذاء المشـهى لدرجة كانوا يضـيفون إليه بعض المواد تحصيلا لما يريدون كإضافة الزعفران و ما شابهه.

و لهذا الموضوع بحوث مفصلة فى كتب التغذية لا يسمح لنا المجال بعرضها كاملة خوفا من الابتعاد عن مجال التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۳

۵- العسل .. و الشفاء من الأمراض:

كما نعلم بأنّ للنباتات و الأوراد استعمالات علاجية فعالة لكثير من الأمراض، و لا زلنا نجهل الكثير من فوائدها على الرغم من كثرة ما عرفناه، و الشيء المهم فى موضوعنا ما توصل إليه العلماء من خلال تجاربهم التى أكّدت على أنّ للنحل من المهارة بحيث أنّه فى علمية صنعه للعسل لم يبذر فيما تحويه النباتات و الأوراد من خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل و يجعلها فى العسل! و قد صرّح العلماء بكثير من تلك الخواص الوقائية و العلاجية و المقوية.

فالعسل: سريع الامتصاص من قبل الدم، و لهذا فهو غذاء مقوّ و مؤثر جدّا فى تكوين الدم.

و العسل: ينقى المعدة و الأمعاء من العفونة.

و العسل: رافع لليبوسة.

و هو علاج ضد الأرق (على أن لا يتناول الكثير منه، لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل: رافع لليبوسة.

و هو علاج ضد الأرق (على أن لا يتناول الكثير منه، لأن الإكثار منه يقلل النوم).

و للعسل: أثر مهم فى رفع التعب و تشنج العضلات.

و العسل: يقوى الشبكية العصبية للأطفال (إذا ما أطعمت الأم أثناء الحمل).

و يرفع نسبة الكالسيوم فى الدم.

و نافع لتقوية الجهاز الهضمى (و بالخصوص لمن أبتلى بنفخ البطن).

و بما أنّه سريع الاحتراق فهو يعمل على توليد الطاقة بسرعة فائقة بالإضافة لترميمه للقوى.

و العسل أيضا: مقوّ للقلب، مساعد فى علاج أمراض الرئة، نافع للإسهال لخاصيته فى قتل المكروبات.

و يعتبر العسل عاملا مهما من عوامل معالجة قرحة المعدة و الاثنى عشرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۴

و هو دواء نافع لعلاج الروماتيزم، و نقصان قوّة نمو العضلات، و رفع الآلام العصبية.

و بالإضافة إلى ذلك فهو نافع فى رفع السعال و عامل مهم لتصفية الصوت.

و الخلاصة: إنّ خواص العسل العلاجية أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر.

و مع ذلك كله فإنّه يدخل فى صناعة الأدوية لتلطيف الجلد و للتجميل، و يستعمل لطول العمر، و لعلاج و رم الفم و اللسان و العين، و يستعمل أيضا لمعالجة الإرهاق، و تشقق الجلد، و ما شابه ذلك.

أمّا المواد و الفيتامينات الموجودة فى العسل فكثيرة جدّا. و فيه من المواد المعدنية: الحديد، الفسفور، البوتاسيوم، اليود، المغنيسيوم، الرصاص، النحاس، السلفور، النيكل، الصوديوم و غيرها.

و من المواد الآلية فيه: الصمغ، حامض اللاكتيك، حامض الفورميك، حامض السيتريك و التاتاريك و الدهون العطرية.

أمّا ما يحويه من الفيتامينات، ففيه، فيتامينات (أ، ب، ث، د، ك) (A ,B ,C ,D ,K).

و يعتقد البعض باحتوائه على فيتامين (پ ب) (B P) أيضا.

و أخيرا: فالعسل علاج لصحة و جمال الإنسان.

و صرحت الرّوايات كذلك بخواص العسل العلاجية، و

ورد الكثير عن أمير المؤمنين عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام و بعض الأئمّة المعصومين عليهم السّلام من أنّهم قالوا: «ما استشفى الناس بمثل العسل»[۱۴۷].

و

بروایة أخری: «لم یستشف مریض بمثل شربة عسل»[۱۴۸].

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من شرب العسل فی کل شهر مرّة یرید ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۵

جاء به القرآن، عوفی من سبعة و سبعین داء»[۱۴۹].

و ثمّة أحادیث أخری حول أهمیة العسل فی علاج آلام البطن.

و نذکر أنّ لکل حکم عام أو قاعدة کلیة استثناء، و لهذا فقد ورد النهی عن تناول العسل فی بعض الحالات النادرة.

۶- لِلنَّاسِ

و ممّا یجذب النظر أن خبراء النحل یرون کفایة امتصاص وردتین أو ثلاث لسد جوع النحلة، إلّا أنّها تحط علی (۲۵۰) وردة فی کل ساعة (کمعدل) و لأجل ذلک تقطع مسافة کیلومترات، و علی الرغم من قصر عمر النحلة، إلّا أنّها تنتج کمیة لا بأس بها من العسل، و قد لا یصدق کثرة ما تنتجه قیاسا لما تعیشه من عمر، و لکنّ ما تقوم به من مثابرة و عمل دؤوب لا یعرف الکلل و الملل قد هیأها لأن تقوم بهذا العمل الکبیر العجیب.

و کل ذلک السعی و تلک المثابرة لیس فی واقعه لملء بطنها بقدر ما عبّر عنه القرآن الکریم ب لِلنَّاسِ

۷- ملاحظات مهمّة بخصوص العسل:

أثبت العلم الحدیث أنّ العسل من المواد الغذائیة التی تبقی علی الدوام طازجة و سالمة و محافظة علی کل ما تحویه فی فیتامینات مهما طالت المدّة لأنّه من المواد غیر القابلة للفساد.

و یعزو العلماء سبب ذلک لوجود نسبة البوتاسیوم الوافیة فیه المانع من نمو الجراثیم، بالإضافة لاحتوائه علی بعض المواد المقاومة للعفونة کحامض الفورمیک فمضافا لکون العسل مانع من نمو الجراثیم، فهو قاتل لها أیضا و لهذا السبب فقد استعمله المصریون القدماء فی عملیة التحنیط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۶

و یقول العلماء: لا ینبغی حفظ العسل فی أوانی فلزیة.

و یقول القرآن فی هذا الجانب: ... مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا یَعْرِشُونَ أی: إنّ بیوت النحل لا ینبغی أن تکون إلّا بین الأحجار و الأخشاب.

و ملاحظة مهمّة أخری: للاستفادة من خواصه الصّحیحة و العلاجیة ینبغی عدم تعریضه لحرارة الطبخ. یعتقد البعض أنّ تعبیر القرآن بکلمة «شراب» إشارة لهذه المسألة، فهو من المشروبات و لیس من المأکولات کی یعرض لحرارة الطبخ.

و ثمة ملاحظة أخری: علی الرغم ممّا تسببه لسعة النحل من الألم، إلّا أن لهذا أثر علاجی أیضا، و مع ذلک و نتیجة لطبع النحل اللطیف فإنّه لا یلسع أحدا بلا سبب، بل نحن ندفعه إلی ذلک و نضطره لیلسعنا عن علم أو جهل.

و من الأسباب التی تدفع النحل للسع الإنسان: عدم ارتیاحه للروائح الکریهة، و عند ما یقترب الإنسان من الخلیة لجنی نتاج النحل فهی لا تلسعه إلّا إذا کانت یده ملوّثة أو أن فی لباسه رائحة کریهة، أو عند ما یمدّ الإنسان یده إلی خلیة ما و بدون أن یغسل یده یمدّها إلی خلیة أخری، فإن نحل الثّانیة ستسرع فی لسعه لأنه قد نقل إلیها رائحة خلیة أجنبیة! و علی الرغم من أنّ اللسع یحمل أهدافا دفاعیة، إلّا أنّه بالنسبة للنحل یعنی الانتحار لأنّه بمجرّد أن تقوم النحلة باللسع فإنّها قد کتبت علی نفسها مصیر الموت! و قد وضع العلماء المتخصصون برنامجا معینا لمعالجة الأمراض کالروماتیزم و المالاریا و الآلام العصبیة و غیرها عن طریق لسعات النحل، و إلّا فإنّ لسع النحل قد یؤدی إلی آلام مؤذیة تصل فی بعض حالاتها إلی مخاطر کبیرة.

و قد یتحمل الإنسان لسعة أو عدّة لسعات، و لکنّ الأمر حینما یصل إلی (۲۰۰ - ۳۰۰) لسعة فإنّ ذلک سیؤدی إلی التسمم و اضطرابات فی القلب، و إذا ما وصل العدد إلی (۵۰۰) لسعة فسوف یؤدی إلی شلل الجهاز التنفسی، و ربّما یؤدی إلی الموت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۷

۸- عجائب حیاة النحل

کان القدماء یعرفون القدر الیسیر عن حیاة النحل، أمّا الیوم و نتیجة لدراسات العلماء الواسعة فقد تبیّن أن للنحل حیاة منظمة جدّا و یتخللها: تقسیم أعمال، توزیع مسئولیات و برنامج عمل دقیق جدّا.

و مدینة النحل: أکثر المدن نظافة، و أکثرها نظاما، کلّها عمل .. إنّها مدینة علی خلاف کل مدن البشر، فلیس فیها بطالة و لا فقر، و الکل یعیش حیاة تمدن جمیل ...

و کل أفراد المدینة یخضعون لقوانینها و لا تری مخالفا للضوابط القانونیة و لا مقصرا فی عمله إلّا ما ندر، و إذا ما حدث ذلک کأن تذهب إحدی النحلات إلی وردة کریهة الرائحة و تمتص رحیقها، فإنّها ستخضع للتفتیش عند أعتاب المدینة ثمّ تحاکم فی محکمة صحراویة، و الإعدام بالموت هو المعروف عن ارتکاب مثل هذه الأخطاء! یقول (مترلینک) عالم البیئة البلجیکی الذی أجری العدید من الدراسات حول حیاة النحل و النظام العجیب الذی یحکم مدنها: إنّ ملکة النحل (أو علی الأصح أمّ الخلیة) لا تعیش فی مدینتها، کما نتصور من سلطتها و إصدارها الأوامر، بل هی کسائر أفراد هذه المدینة فی إطاعتها للقواعد و الأنظمة الکلیة السائدة إنّنا لا نعلم کیف وضعت هذه القوانین و الأنظمة، و ننتظر أن نفهم هذا الأمر یوما ما، و نعرف واضع هذه المقررات، إلّا أنّنا نسمیه مؤقتا (روح الخلیة)!! إنّ الملکة تطیع روح الخلیة شأنها شأن بقیة الأفراد.

إنّنا لا نعلم أین توجد روح هذه الخلیة؟ و فی أی فرد من سکنة مدینة النحل قد حلّت؟

إلّا أنّنا نعلم أن روح الخلیة لیست شبیهة بغریزة الطیور، و نعلم أیضا أنّ روح الخلیة لیست عادة و إرادة عمیاء تحکم عنصر و نوع النحل، إنّ روح الخلیة تقوم بتحدید وظیفة کل فرد من أفراد الخلیة وفق استعداده، و توجه کل واحد منها نحو عمل معین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۸

إنّ روح الخلیة تأمر النحل المهندس و البناء و العامل ببناء البیوت، و هی التی تأمر سکنة المدینة جمیعا بالهجرة منها فی یوم معین و ساعة معینة، و تتجه نحو حوادث و مشاق غیر معلومة من أجل تحصیل مسکن و مأوی جدید! إنّنا لا نستطیع أن نفهم فی أی مجمع شوری قد طرحت قوانین مدینة النحل التی وضعتها روح الخلیة و اتخذ قرارها بتنفیذها، من یصدر الأمر بالحرکة فی الیوم المعین؟

نعم، إنّ فی الخلیة مقدمات هجرة من أجل إطاعة الإله الذی بیده مصیر النحل ۱۵۰].

إنّ العالم المذکور قد واجه الإبهام فی فهم هذه المسألة، لما علقت فی ذهنه من ترسبات الفکر المادی! و لکننا نفهم بیسر من أین جاءت تلک القوانین و البرامج؟ و من الآمر بها؟

و ذلك من خلال الاستهداء بنور القرآن.

ما أجمل ما عبّر عنه القرآن حين قوله: وَ أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أو هل ثمة تعبير أوسع و أشمل و أنطق من هذا؟! لم نذكر فيما قلناه عن النحل إلّا النزر اليسير لأنّ منهج التّفسير لا يسمح لذا بمواصلة هذا الموضوع ۱۵۱].

و نظن كفاية هذا القدر للمتفكر السائر نحو معرفة عظمة اللّه: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۴۹

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۰ الى ۷۲]

اشارة

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۷۰) وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۷۱) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (۷۲)

التّفسير

سبب اختلاف الأرزاق:

بيّنت الآيات السابقة قسما من النعم الإلهية المجعولة فى عالمى النبات و الحيوان، لتكون دليلا حسيا لمعرفته جل شأنه، و تواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جل و علا بأسلوب آخر، و ذلك بأن تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، و ذلك كاشف بقليل من الدقة و التأمل على وجود المقدّر لذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۰

فيبتدأ القول ب وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ

فمنه الممات كما كانت الحياة منه، و لتعلموا بأنّكم لستم خالقين لأى من الطرفين (الحياة و الموت).

و مقدار عمركم ليس باختياركم أيضا، فمنكم من يموت فى شبابه أو فى كهولته وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ[۱۵۲].

و نتيجة هذا العمر الموغل فى سنى الحياة لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً[۱۵۳].

فيكون كما كان فى مرحلة الطفولة من الغفلة و النسيان و عدم الفهم .. نعم ف إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ فكل القدرات بيده جل و علا، و عطاؤه بما يوافق الحكمة و المصلحة، و كذا أخذه لا يكون إلّا عند ما يلزم ذلك.

و يواصل القرآن الكريم استدلاله فى الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان و إنّما .. وَ اللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فأصحاب الثروة و الطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها و مشاركتهم فيها خوفا أن يكونوا معهم على قدم المساواة: فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلى ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَواءٌ.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية تشير إلى بعض أعمال المشركين الناتجة عن حماقتهم، حينما كانوا يجعلون لآلهتهم من الأصنام سهما من مواشيهم و محاصيلهم الزراعية، بالرغم من عدم وجود أىّ أثر لتلك الأحجار و الأخشاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۱

على حياتهم! بل كان الأولى بهم لو التفتوا إلى خدمهم و عبيدهم ليعطوهم شيئا جزاء ما يقدمونه لهم من خدمات ليل نهار! ...

هل التفاضل فى الرّزق من العدالة؟! ...

و هنا يواجهنا سؤال يطرح نفسه: هل أنّ إيجاد التفاوت و الاختلاف فى الأرزاق بين الناس، ينسجم مع عدالة اللّه عزّ و جلّ و مساواته بين خلقه، التى ينبغى أن تحكم نظام المجتمع البشرى؟

لأجل الإجابة، ينبغى الالتفات إلى الملاحظتين التاليتين:

۱- إنّ الاختلاف الموجود بين البشر فى جانب الموارد المادية يرتبط بالتباين الناشئ بين الناس جزاء اختلاف استعداداتهم و قابليتهم من واحد لآخر.

و التفاوت فى الاستعدادين الجسمى و الروحى يستلزم الاختلاف فى مقدار و نوعية الفعالية الاقتصادية للأفراد، ممّا يؤدى إلى زيادة وارد بعض و قلّة وارد البعض الآخر.

و لا شك أنّ بعض الحوادث و الاتفاقات لها دخل فى اشراء بعض الناس، الّا أنّه لا يمكن أن نعوّل عليها عند البحث لأنّها ليست أكثر من استثناء، أمّا الضابط فى أكثر الحالات فهو التفاوت الموجود فى كمية و كيفية السعى (و من الطبيعى أن بحثنا يتناول المجتمع السليم و البعيد عن الظلم و الاستغلال، و لا نقصد به تلك المجتمعات المنحرفة التى تركت قوانين التكوين و النظام الإنسانى جانبا و انزلقت فى طرق الظلم و الاستغلال).

و قد يساورنا التعجب حينما نجد بعض الفاقدين لأى مؤهل أو استعداد يتمتعون برزق وافر و جيد، و لكننا عند ما نتجرّد عن الحكم من خلال الظواهر و نتوغل فى أعماق مميزات ذلك البعض جسميا و نفسيا و أخلاقيا، نجد أنّهم يتمتعون بنقاط قوة أوصلتهم إلى ذلك (و نكرر القول بأنّ بحثنا ضمن إطار مجتمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۲

سليم خال من الاستغلال).

و على أية حال .. فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالاستعدادات، و هو من المواهب و النعم الإلهية أيضا، و إن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابيا، فالبعض الآخر غير اكتسابى قطعا. فإذن وجود التفاوت فى الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، و يتمّ ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة .. إلّا إذا افترضنا وجود مجموعة أفراد كلهم فى هيئة واحدة من حيث: الشكل، اللون، الاستعداد و لا يعتريهم أىّ اختلاف! و إذا ما افترضنا حدوث ذلك فإنّه بداية المشاكل و الويلات! ۲- لو نظرنا إلى بدن إنسان ما، أو إلى هيكل شجرة أو باقة ورد، فهل سنجد التساوى بين أجزاء كل منها و من جميع الجهات؟

و هل أنّ قدرة و مقاومة و استعداد جذور الشجرة مساوية لقدرة و مقاومة و استعداد أوراق الوردة الظريفة؟ و هل أن عظم قدم الإنسان لا يختلف عن شبكية عينه؟

و هل من الصواب أن نعبر كل ذلك شيئا واحدا؟! و لو تركنا الشعارات الكاذبة و الفارغة من أىّ معنى، و افترضنا تساوى الناس من جميع النواحى، فنملأ الأرض بخمسة مليارات من الأفراد ذوى: الشكل الواحد، الذوق الواحد، الفكر الواحد، بل و المتحدين فى كل شىء كعلبة السجائر ..

فهل نستطيع أن نضمن أنّ حياة هؤلاء ستكون جيدة؟ ستكون الإجابة بالنفى قطعا، و سيحرق الجميع بنار التشابه المفرط و الرتيب الكئيب، لأنّ الكل يتحرك فى جهة واحدة، و الكل يريد شيئا واحدا، و يحبون غذاء واحدا، و لا يرغبون إلّا بعمل واحد! و بديهيا ستكون حياة كهذه سريعة الانقراض، و لو افترض لها الدوام، فإنّها ستكون متعبة و رتيبة و فاقدة لكل روح. و بعبارة أشمل سوف لا يبعدها عن الموت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۳

بون شاسع.

و علی هـذا فحکمـة وجود التفـاوت فی الاسـتعدادات المسـتتبعة لهـذا التفـاوت قـد ألزمتهـا ضـرورة حفظ النظام الاجتماعی، و لیکون التفـاوت فی الاسـتعدادات دافعـا لتربیـة و إنماء الاسـتعدادات المختلفـة للأفراد. و لا یمکن للشـعارات الکاذبـة أن تقف فی وجه هـذه الحقیقة التی یفرضها الواقع الموضوعی أبدا.

و لاـ ینبغی أن نفهـم مـن هـذا الکلاـم أنّنـا نریـد منه إیجـاد مجتمع طبقی أو نظـام اسـتغلالی و اسـتعماری، لاـ أبـدا .. و إنّمـا نقصـد بالاختلافـات التفـاوت الطبیعی بین الأفراد (و لیس المصـطنع) الـذی یعاضـد بعضه الآخر و یکمله (و لیس الـذی یکون حجر عثرة فی طریق تقدم الأفراد و یدعو إلی التجاوز و التعدی علی الحقوق).

إنّ الاختلاـف الطبقی (و المقصود من الطبقات هنا: ذلک المفهوم الاصـطلاحی الـذی یعنی وجود طبقـة مسـتغلة و أخری مسـتغلة) لا ینسـجم مع نظام الخلیقـة أبـدا، و لکنّ الموافق لنظام الخلیقـة هو ذلک التفاوت فی الاسـتعدادات و السـعی و بذل الجهد، و الفرق بین الأمرین کالفرق بین السماء و الأرض- فتأمل.

و بعبارة أخری، إن الاختلاف فی الاسـتعدادات ینبغی أن یوظف لخدمـة مسـیرة البناء، کما فی اختلاف طبیعـة أعضاء بـدن الإنسان أو أجزاء الوردة، فمع تفاوتها إلّا أنّها لیست متزاحمة، بل إنّ البعض یعاضد البعض الآخر وصولا للعمل التام علی أکمل وجه.

و خلاصـة القول: ینبغی أن لا یکون وجود التفاوت و الاختلاف فی الاسـتعدادات و فی الـدخل الیومی للأفراد دافعا لسوء الاسـتفادة و ذلک بتشکیل مجتمع طبی ۱۵۴].

و لهذا یقول القرآن الکریم فی ذیل الآیة مورد البحث:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۴

أَ فَبِنِعْمَةِ اللَّهِ یَجْحَدُونَ

و ذلک إشارة إلی أن هـذه الاختلافات فی حالتها الطبیعیـة (و لیس الظالمـة المصـطنعة) إنّما هی من النعم الإلهیـة التی أوجدها لحفظ النظام الاجتماعی البشری.

و تبـدأ الآیـة الأخیرة من الآیات مورد البحث بلفظ الجلالـة «اللّه» کما کان فی الآیتین السابقتین، و لتتحدث عن النعم الإلهیة فی إیجاد القوی البشـریة، و لتتحـدث عن الأرزاق الطیبـة أیضا تکمیلا للحلقات الثلاثـة من النعم المذکورة فی آخر ثلاث آیات، حیث اسـتهلت البحث بنظـام الحیـاة و الموت، ثمّ التفاوت فی الأرزاق و الاسـتعدادات الکاشف لنظام (تنوع الحیاة) لتنتهی بالآیـة مورد البحث، حیث النظر إلی نظام تکثیر النسل البشری و .. الأرزاق الطیبة.

و تقول الآیة: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لتکون سکنا لأرواحکم و أجسادکم و سببا لبقاء النسل البشری.

و لهذا تقول و بلا فاصلة: وَ جَعَلَ لَکُمْ مِنْ أَزْواجِکُمْ بَنِینَ وَ حَفَدَةً.

«الحفـدة» بمعنی (حافـد) و هی فی الأصل بمعنی الإنسان الـذی یعمل بسـرعة و نشاط دون انتظار أجر و جزاء، أمّا فی هذه الآیة- کما ذهب إلی ذلک أکثر المفسّرین- فالمقصود منها أولاد الأولاد، و اعتبرها بعض المفسّرین بأنّها خاصّة بالإناث دون الذکور من الأولاد.

و یعتقـد قسم آخر من المفسّـرین: أن «بنون» تطلق علی الأولاد الصـغار، و «الحفدة» تطلق علی الأولاد الکبار الذین یسـتطیعون إعانة و مساعدة آبائهم.

و اعتبر بعض المفسّرین أنّها شاملة لکل معین و مساعد، من الأبناء کان أم من غیرهم ۱۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۵

و یبدو أن المعنی الأوّل (أولاد الأولاد) أقرب من غیره، بالرغم ممّا تقدم من سعة مفهوم «حفدة» فی الأصل.

و على أيـة حـال فوجود القوى الإنسانيـة من الأبنـاء و الأحفـاد و الأزواج للإنسان من النعم الإلهيـة الكبيرة التى أنعمها جل اسـمه على الإنسان، لأنّهم يعينون ماديا و معنويا فى حياته الدنيا.

ثمّ يقول القرآن الكريم: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ

«الطيبات» هنا لها من سعة المفهوم بحيث تشمل كل رزق طاهر نظيف، سواء كان ماديا أو معنويا، فرديا أو اجتماعيا.

و بعـد كل العرض القرآنى لآثار و عظمـة قـدرة اللّه، و مع كل ما أفاض على البشـرية من نعم، نرى المشـركين بالرغم من مشاهـدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام و يتركون السبيل التى توصلهم إلى جادة الحق أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ

فمـا أعجب هـذا الزيغ! و أيـة حـال بـاتوا عليها! عجبا لهم و تعسا لنسـيانهم مسـبب الأسـباب، و ذهابهم لما لا ينفع و لا يضـر ليقـدسوه معبودا!!!

بحثان

۱- أسباب الرزق:

اشارة

على الرغم ممّا ذكر بخصوص التفاوت من حيث الاسـتعداد و المواهب عند الناس، إلّا أنّ أساس النجاح يمكن فى السـعى و المثابرة و الجد، فالأكثر سعيا أكثر نجاحا فى الحياة و العكس صحيح.

و لهذا جعل القرآن الكريم ارتباطا بين ما يحصل عليه الإنسان و بين سعيه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۶

فقال بوضوح: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ۱۵۶].

و من الأمور المهمّـة و المؤثرة فى مسألـة اسـتحصال الرزق الالتزام بالمبادى من قبيل: التقوى، الأمانـة، إطاعة القوانين الإلهية و الالتزام بأصول العدل، كما أشارت إلى ذلك الآية (۹۶) من سورة الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

و كما فى الآيتين (۲ و ۳) من سورة الطلاق: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ

و كما أشارت الآية (۱۷) من سورة التغابن بخصوص أثر الإنفاق فى سعة الرزق-: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ

و لعلنا لا حاجة لنا بالتذكير أن فقدان فرد أو جمع من الناس يضر بالمجتمع و لهذا فحفظ سلامة الأفراد و إعانتهم يعود بالنفع على كل الناس (بغض النظر عن الجوانب الإنسانية و الروحية لذلك).

و خلاصة القول إنّ اقتصاد المجتمع إن بنى على أسـس التقوى و الصـلاح و التعاون و الإنفاق فالنتيجة أن ذلك المجتمع سـيكون قويا مرفوع الرأس، أمّا لو بنى على الاسـتغلال و الظلم و الاعتداء و عدم الاهتمام بالآخرين، فسـيكون المجتمع متخلفا اقتصاديا و تتلاش فيه أواصر الحياة و الاجتماعية.

و لذلك فقد أعطت الأحاديث و الرّوايات أهمية استثنائية للسعى فى طلب الرزق المصحوب بالتقوى، و حتى

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تكسلوا فى طلب معايشكم، فإن أباءنا كانوا يركضون فيها و يطلبونها»[۱۵۷].

و

روی عنه أیضا: «الکاد علی عیاله کالمجاهد فی سبیل اللّه»[۱۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۷

و حتی أنّ الأمر قد وجّه إلی المسلمین بالتبکیر فی الخروج لطلب الرزق ۱۵۹] و ذکر أنّ من جملة من لا یستجاب لهم الدعاء أولئک الذین ترکوا طلب الرزق علی ما لهم من استطاعة، انزووا فی زوایا بیوتهم یدعون اللّه أن یرزقهم! و هنا یتبادر الی الذهن تساؤل عن الآیات القرآنیة و الرّوایات التی تؤکد علی أنّ الرزق بید اللّه، و ذم السعی فیه، فکیف یتمّ تفسیر ذلک؟!

و للاجابة نذکر الملاحظتین التالیتین:

۱- دقة النظر و التحقق فی المصادر الإسلامیة یوضح أنّ الآیات أو الرّوایات التی یبدو التضاد فی ظاهر ألفاظها- سواء فی هذا الموضوع أو غیره- إنّما ینتج من النظرة البسیطة السطحیة، لأنّ حقیقة تناولها لموضوع ما إنّما یشمل جوانب متعددة من الموضوع، فکل آیة أو روایة إنّما تنظر إلی بعد معین من أبعاد الموضوع، فتوهم غیر المتابع بوجود التضاد.

فحیث یسعی الناس بولع و حرص نحو الدنیا و زخرف الحیاة المادیة، و یقومون بارتکاب کل منکر للوصول إلی ما یریدونه، تأتی الآیات و الرّوایات لتوضح لهم تفاهة الدنیا و عدم أهمیة المال.

و إذا ما ترک الناس السعی فی طلب الرزق بحجة الزهد، تأتیهم الآیات و الرّوایات لتبیّن لهم أهمیة السعی و ضرورته.

فالقائد الناجح و المرشد الرشید هو الذی یتمکن من منع انتشار حالتی الإفراط و التفریط فی مجتمعه.

فغایة الآیات و الرّوایات التی تؤکّد علی أنّ الرزق بید اللّه هی غلق أبواب الحرص و الشر و حبّ الدنیا و السعی بلا ضوابط شرعیة، و لیس هدفها إطفاء شعلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۸

الحیویة و النشاط فی الإعمال و الاکتساب وصولا لحیاة کریمة و مستقلة.

و بهذا یتّضح تفسیر الرّوایات التی تقول: إنّ کثیرا من الأرزاق إن لم تطلبوها تطلبکم.

۲- إنّ کلّ شیء من الناحیة العقائدیة تنتهی نسبته إلی اللّه عزّ و جلّ، و کل موحد یعتقد أن منبع و أصل کل شیء منه سبحانه و تعالی، و یردد ما تقوله الآیة (۲۶) من سورة آل عمران: بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

و ینبغی عدم الغفلة عن هذه الحقیقة و هی أنّ کل شیء من سعی و نشاط و فکر و خلاقیة الإنسان إنّما هی فی حقیقتها من اللّه عزّ و جلّ.

و لو توقف لطف اللّه (فرضا) عن الإنسان- و لو للحظة واحدة- لما کان ثمّة شیء اسمه الإنسان.

و یقول الإنسان الموحد حینما یرکب وسیلة: «سبحان الذی سخر لنا هذا».

و عند ما یحصل علی نعمة ما، یقول:

«و ما بنا من نعمة فمنک»[۱۶۰].

و یقول عند ما یخطو فی سبیل الإصلاح- کما هو حال الأنبیاء فی طریق هدایتهم للناس-: وَ ما تَوْفِیقِی إِلَّا بِاللَّهِ عَلَیْهِ تَوَکَّلْتُ وَ إِلَیْهِ أُنِیبُ ۱۶۱].

و إلی جانب کل ما ذکر فالسعی و العمل الصحیح البعید عن أی إفراط أو تفریط، هو أساس کسب الرزق، و ما یوصل إلی الإنسان من رزق بغیر سعی و عمل إنّما هو ثانوی فرعی و لیس بأساسی، و لعل هذا الأمر هو الذی دفع أمیر المؤمنین علیه السّلام فی کلماته القصار فی تقدیم ذکر الرزق الذی یطلبه الإنسان علی الرزق الذی یطلب الإنسان، حیث

قال: «یا ابن آدم، الرزق رزقان: رزق تطلبه، و رزق یطلبک»[۱۶۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۵۹

۲- مواساة الآخرین:

أشارت الآیات إلی بخل کثیر من الناس ممن لم یتّبعوا سلوک و هدی الأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام، و قد أکّدت الرّوایات فی تفسیرها لهذه الآیات علی المساواة و المواساة و منها: ما جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم فی ذیل الآیة: «لا یجوز الرجل أن یخص نفسه بشیء من المأکول دون عیاله»[۱۶۳].

و

روی أیضا عن أبی ذر أنّه سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول عن العبید: «إنّما هم إخوانکم فاکسوهم ممّا تکسون و أطعموهم ممّا تطعمون»

فما رؤی عبده بعد ذلک إلّا و رداؤه و إزاره من غیر تفاوت ۱۶۴].

و الذی نستفیده من الرّوایات المذکورة و الآیة المبحوثة حین تقول: فَهُمْ فِیهِ سَواءٌ أنّ الإسلام یوصی بمراعاة المساواة کبرنامج أخلاقی بین أفراد العائلة الواحدة و من یکون تحت التکفل قدر الإمکان، و أن لا یجعلوا لأنفسهم فضلا علیهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۰

الآیتان [سورة النحل (۱۶): الآیات ۷۳ الی ۷۴]

اشارة

وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً وَ لا یَسْتَطِیعُونَ (۷۳) فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ إِنَّ اللَّهَ یَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷۴)

التّفسیر

لا تجعلوا للّه شبیها:

تواصل هاتان الآیتان بحوث التوحید السابقة، و تشیر إلی موضوع الشرک، و تقول بلهجة شدیدة ملؤها اللوم و التوبیخ: وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَمْلِکُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَیْئاً.

و لیس لا یملک شیئا فقط، بل وَ لا یَسْتَطِیعُونَ أن یخلقوا شیئا.

و هذه إشارة إلی المشرکین بأن لا أمل لکم فی عبادتکم للأصنام، لأنّها لا تضرّکم و لا تنفعکم و لیس لها أیّ أثر علی مصیرکم، فالرزق مثلا- و الذی به تدور عجلة الحیاة سواء کان من السماء (کقطرات المطر و أشعة الشمس و غیر ذلک) أو ما یستخرج من الأرض، إنّما هو خارج عن اختیار الأصنام، لأنّها موجودات فاقدة لأیة قیمة و لا تملک الإرادة، و إن هی إلّا خرافات صنعتها العصبیة الجاهلیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۱

لیس إلّا.

و جملة لا يَسْتَطِيعُونَ سبب لجملة «لا يملكون» أى: إنّها لا تملك شيئا من الأرزاق لعدم استطاعتها الملك، فكيف بالخلق! ثمّ تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ و ذلك إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

قال بعض المفسّرين: إنّ عبارة فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ تشير إلى منطق المشركين فى عصر الجاهلية (و لا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه أولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إنّما نعبد الأصنام لأنّنا لا نتملك الأهلية لعبادة اللّه، فنعبدها لتقربنا إلى اللّه! و إنّ اللّه مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلّا الوزراء و الخواص، و ما على عوام الناس إلّا أن تتقرب للحاشية و الخواص لتصل إلى خدمة اللّه!! هذا الانحراف فى التوجه و التفكير، و الذى قد يتجسم أحيانا على هيئة أمثال منحرفة، إنّما هو من الخطورة بمكان بحيث يطغى على كل الانحرافات الفكرية.

و لذا يجيبهم القرآن الكريم قائلا: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ التى هى من صنع أفكاركم المحدودة و من صنع موجودات (ممكنة الوجود) و مليئة بالنواقص.

و إنّكم لو أحطتم علما بعظمة وجوده الكريم و بلطفه و رحمته المطلقة، لعرفتم أنّه أقرب إليكم من أنفسكم و لما جعلتم بينكم و بينه سبحانه من واسطة أبدا.

فاللّه الذى دعاكم لأن تدعوه و تناجوه، و فتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لا ينبغى أن تشبّهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أىّ أحد من الوصول إليه و دخول قصره إلّا بعض الخواص فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ

لقد أكّدنا فى بحوثنا السابقة حول صفات اللّه عزّ و جلّ: أنّ منزلق التشبيه يعتبر من أخطر المزلقات فى طريق معرفة صفاته سبحانه و تعالى، و لا ينبغى مقايسة صفاته سبحانه بصفات العباد، لأنّ البارى جلت عظمته وجود مطلق، و كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۲

الموجودات بما فيها الإنسان محدودة، فهل يمكن تشبيه المطلق بالمحدود؟! و إذا ما اضطررنا إلى تشبيه ذاته المقدسة بالنّور و ما شابه ذلك فينبغى أن لا يغيب عن علمنا بأنّ هذا التشبيه ناقص على أيّة حال، و أنّه لا يصدق إلّا من جهة واحدة دون بقية الجهات- فتأمل.

و بما أنّ أكثر الناس قد غفلوا عن هذه الحقيقة، و كثيرا ما يقعون فى وادى التشبيه الباطل و القياس المرفوض فيبتعدون عن حقيقة التوحيد، فلذا نجد القرآن الكريم كثيرا ما يؤكّد على هذه المسألة، فمرّة يقول كما فى الآية (۴) من سورة التوحيد، وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، و أخرى كما فى الآية (۱۱) من سورة الشورى:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، و ثالثة كما فى الآية مورد البحث: فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثالَ

و لعل عبارة إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ فى ذيل الآية مورد البحث، تشير إلى أنّ أغلب الناس فى غفلة عن أسرار صفات اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۵ الى ۷۷]

اشارة

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۷۵) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۶) وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۷۷)

التّفسير

مثلان للمؤمن و الكافر!

ضمن التعقيب على الآيات السابقة التى تحدثت عن: الإيمان، الفكر، المؤمنين، الكافرين و المشركين، تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين و الكافرين) بضرب مثلين حيين و واضحين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۴

يشبه المثال الأوّل المشركين بعبد مملوك لا- يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، و يشبه المؤمنين بإنسان غنى، يستفيد الجميع من إمكانياته .. ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ.

و العبد ليس له قدرة تكوينية لأنّه أسير بين قبضة مولاه و محدود الحال فى كل شىء، و ليس له قدرة تشريعية أيضا لأنّ حق التصرف بأمواله (إن كان له مال) و كل ما يتعلق به هو بيد مولاه، و بعبارة أخرى إنّه: عبد للمخلوق، و لا يعنى ذلك إلّا الأسر و المحدودية فى كل شىء.

أمّا ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذى يتمتع بأنواع المواهب و الرزق الحسن: وَ مَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً و الإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَ جَهْراً فاحكموا: هَلْ يَسْتَوُونَ

قطعا، لا ... فإذن: الْحَمْدُ لِلَّهِ

اللّه الذى يكون عبده حرّ و قادر و منفق، و ليس الأصنام التى عبادها أسرى و عديمو القدرة و محددون بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۱۶۵].

ثمّ يضرب مثلا آخر لعبدة الأصنام و المؤمنين و الصادقين، فيشبه الأوّل بالعبد الأبكم الذى لا يقدر على شىء، و يشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل و هو على صراط مستقيم: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلى شَيْءٍ وَ هُوَ كَلٌّ عَلى مَوْلاهُ ۱۶۶] و لهذا ... أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ.

و على هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

أبكم (لا ينطق و لا يسمع و لا يبصر منذ الولادة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۵

و عاجز لا يقدر على شىء.

و كلّ على مولاه.

و أينما يوجهه لا يأت بخير.

مع أنّ الصفات المذكورة علة و معلول لبعضها الآخر و لكنّها ترسم صورة إنسان سلبى مائة فى المائة حيث أن وجوده لا ينم عن أى خير أو بركة إضافة لكونه «كلّ» على أهله و مجتمعه.

ف هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَ مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ هُوَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ! و أمّا الرجل الآخر فى مثل الآية فهو صاحب دعوة مستمرّة إلى العدل و سائر على الصراط المستقيم، و ما هاتان الصفتان إلّا مفتاح لصفات أخرى متضمنة لها، فصاحب هاتين الصفتين: لسانه ناطق، منطقه محكم، إرادته قوية، شجاع و شهم، لأنّه لا يمكن أن يتصور لداعية العدل أن يكون: أبكم، جبانا و ضعيفا! و لا يمكن أن يكون من هو على صراط مستقيم إنسانا عاجزا أبله و ضعيف العقل، بل ينبغى أن يكون ذكيا، نبيها، حكيما و ثابتا.

و تظهر المقايسة بين هذين الرجلين ذلك البون الشاسع بين الاتجاهين الفكريين المختلفين لعبدة الأصنام من جهة، و عباد اللّه عزّ و جلّ من جهة أخرى، و ما بينهم من تفاوت تربوى و عقائدى.

كما رأينا من ربط القرآن فى بحوثه المتعلقة بالتوحيد و محاربة الشرك مع بحث المعاد و محكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول

الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و كأن الآية جواب على الإشكال العالق فى أذهان و ألسنة منكرى المعاد الجسمانى بقولهم: إنّنا إذا متنا و تبعثرت ذرات أجسامنا بين التراب، فمن يقدر على جمعها؟! و إذا ما افترضنا أنّ هذه الذرات قد جمعت وعدنا إلى الحياة، فمن سيعلم بأعمالنا التى طوتها يد النسيان فنحاسب عليها؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۶

و بعبارة مختصرة تجيب الآية على كل أبعاد السؤال، فاللّه عزّ و جلّ «يعلم غيب السماوات و الأرض» فهو حاضر فى كل زمان و مكان، و عليه فلا- يخفى عليه شىء أبدا، و لا- مفهوم لقولهم إطلاقا، و كل شىء يعلمه تعالى شهودا، و أمّا تلك العبارات و الأحوال فإنّما تناسب وجودنا الناقص لا غير.

ثمّ يضيف قائلا: وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۱۶۷].

و هذا المقطع القرآنى يشير إلى رد إشكال آخر كان يطرحه منكر و المعاد بقولهم: من له القدرة على المعاد و من يتمكن من انجاز هذا الأمر العسير؟! فيجيبهم القرآن، بأن هذا الأمر يبدو لكم صعبا لأنّكم ضعفاء، أمّا لصاحب القدرة المطلقة فهو من السهولة و السرعة بحيث يكون أسرع ممّا تتصورون، و إن هو إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ منكم.

و بعد أن شبّه قيام الساعة بلمح البصر، قال: أَوْ هُوَ أَقْرَبُ أى: إنّ التشبيه بلمح البصر جاء لضيق العبارة و اللغة، و إنّما هو من السرعة بما لا يلحظ فيه الزمان أساسا، و ما ذلك الوصف إلّا لتقريبه لأذهانكم من حيث أنّ لمح البصر هو أقصر زمان فى منطقكم.

و على أيّة حال، فالعبارتان إشارة حيّة لقدرة اللّه عزّ و جلّ المطلقة، و بخصوص مسألتى المعاد و القيامة، و لهذا يقول البارى فى ذيل الآية: إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بحوث

۱- الإنسان بين الحرية و الأسر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۷

إنّ مسألة التوحيد و الشرك ليست مسألة عقائدية ذهنية صرفة كما يتوهم البعض و ذلك لما لها من آثار بالغة على كافة أصعدة الحياة، بل و أنّ بصماتها لتراها شاخصة على كافة مرافق و مناحى الحياة- فالتوحيد إذا دخل قلبا أحياه و غرس فيه عوامل الرّشد و الكمال، لأنّه بتوسيع أفق نظر و تفكير الإنسان بشكل يجعله مرتبطا بالمطلق.

و الشرك على العكس من ذلك تماما، حيث يجعل الإنسان يعيش فى دوامة عالم محدود، و تتقاذف كيانه تلك الأصنام الحجرية و الخشبية، أو ميول و شهوات الأصنام البشرية الضعيفة، فيختزل فكر و إدراك و قدرة و سعى الإنسان فى دائرة تلك الأبعاد الضيقة التقاذف.

و قد صورت الآيات تصويرا دقيقا لهذا الواقع، و جمعته فى مثال تقريبا للأذهان و قالت: إنّ المشرك فى حقيقة أبكم و ممارساته تنم عن خطل تفكيره و فقدانه للمنطق السليم، و قد قيد الشرك إمكانياته فجعله خواء لا يقوى على القيام بأى شىء فانسلخت منه حريته بعد أن أسلم نفسه أسيرا فى يد الخرافات و الأوهام.

و بسبب هذه الصفات المذمومة فهو كلّ على المجتمع، لأنّه يستهين بكرامة و عزّة المجتمع من خلال تسليم مقدراته بيد الأصنام أو المستعمرين.

و هو تابع أبدا ما دام لم يتحرر من ربقة الشرك، و لن يذوق طعم الحرية و الاستقلال الحق إلّا بعد أن يتوجه إلى التوحيد بصدق.

و نتيجة لمتبنياته الفكرية الضالة فلن يخترق طريقا إلّا ضاع به، و لن يجد الخير أينما حط أَيْنَما يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ.

فكم هى الفاصلة بين ذلك الخرافى، ضيق الأفق، الأسير، العاجز .. و بين هذا الحر، الشجاع، الذى لا يكتفى بنهج خط العدل، بل يدعو إليه ليعم كل الناس؟! الشخص الذى يمتلك الفكر المنطقى المنسجم مع نظام التوحيد الحاكم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۸

الخليقة يسير دوما على صراط مستقيم، و هذا السير سيوصله بأقرب و أسرع طريق إلى الهدف المنشود دون أن يفنى ذخائر وجوده فى طرق الضلال و الانحراف.

و خلاصة القول: فالتوحيد و الشرك ليسا أمرا عقائديا ذهنيا بحتا، بل نظام كامل لكل الحياة، و برنامج واسع يشمل: فكر، أخلاق و عواطف الإنسان و يتناول كذلك حياته الفردية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية و الثقافية.

لو وضعنا مقايسة بين عرب الجاهلية المشركين و المسلمين فى صدر الإسلام لوجدنا الفرق الواضح بين المسيرين ...

الأشخاص الذين كانوا فى: جهل، تفرقة، انحطاط، و لا يعرفون إلّا محيطا محدودا مملوءا بالفقر و الفساد، نراهم قد أصبحوا و كلهم: وحدة، علم، قدرة ... حتى أصبح العالم المتمدن فى ذلك الزمان تحت تأثيرهم و قدرتهم .. كل ذلك بسبب تغيير سير خطواتهم من الشرك إلى التوحيد.

۲- دور العدل و الاستقامة فى حياة الإنسان

من الملفت للنظر اشارة الآيات إلى الدعوة للعدل و السير على الصراط المستقيم من بين صفات و شؤون الموحدين، لتبيان ما لهذين الأمرين من أهمية فى خصوص الوصول إلى المجتمع الإنسانى السعيد، و هو ما يتم من خلال امتلاك برنامج صحيح بعيد عن أى انحراف يمينا أو شمالا (لا- شرقى و لا غربى)، و من ثمّ الدعوة لتنفيذ ذلك البرنامج المبنى على أصول العدل، كما و ينبغى أن لا يكون البرنامج وقتيا ينتهى بانقضاء المدّة، بل كما يقول القرآن: يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ (حيث يعطى الفعل المضارع معنى الاستمرار) برنامج مستمر و دائمى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۶۹

۳- أمّا الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام

الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآية تذكر أنّ:

«الذى يأمر بعدل أمير المؤمنين و الأئمّة صلوات اللّه عليهم».

و ذكر بعض المفسّرين: أنّ جملة مَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ نزلت فى: حمزة و عثمان بن مظعون أو فى عمار.

و «أبكم» فى: أبى بن مخلف و أبى جهل و من شابههم.

و كل ذلك إنّما هو من جهة بيان مصاديق مهمّة و واضحة للآية، و لا يمكن بأية حال أن يكون سببا للحصر، مع ملاحظة أنّ التفاسير التى تناولت الآيات المبحوثة مبينة على أساس بيان الفرق بين المشركين و المؤمنين، و ليس بين الأصنام و بين اللّه عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۰

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۷۸ الى ۸۳]

اشارة

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۸) أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۷۹) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۸۰) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (۸۱) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۸۲)
يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ (۸۳)

التّفسير

أنواع النعم المادية و المعنوية:

يعود القرآن الكريم مرّة أخرى بعرض جملة أخرى من النعم الإلهية كدرس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۱

فى التوحيد و معرفة اللّه، و أوّل ما يشير فى هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم و المعرفة و وسائل تحصيله .. و يقول: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً.

فمن الطبيعى أنّكم فى ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شىء، و لكن عند ما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، و لهذا فقد زودكم البارى سبحانه بوسائل إدراك الحقائق و معرفة الموجودات وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ. لكى يتحرك حس الشكر للمنعم فى أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

ملاحظات

اشارة

و هنا نطرح الملاحظات التالية:

۱- بداية الإدراك عند الإنسان

تصرّح الآية بوضوح بأنّ الإنسان حين يولد فإنّه لا يدرك من الأشياء شيئا، و كل ما يدركه إنّما هو بعد الولادة و بواسطة الحواس التى منحه اللّه إيّاه.

و يواجهنا الإشكال التالى: إنّ الإنسان مزود بجملة من العلوم الفطرية كالتوحيد و معرفة اللّه، بالإضافة إلى بعض البديهيات مثل (عدم اجتماع النقيضين، الكل أكبر من الجزء، حسن العدل، قبح الظلم ... إلخ) و كل هذه العلوم قد أودعت فى قلوبنا و تولدت معنا ..

فكيف يقول القرآن إنّ الإنسان حين يخرج من محيط الجنين ليس له من العلم شيئا؟

و هل علمنا بوجودنا (و الذى هو علم حضورى) لم يكن فينا و إنّما نكتسبه عن طريق السمع و البصر و الفؤاد؟

و للإجابة على هذا الإشكال، نقول: إنّ العلوم البديهية و الضرورية و الفطرية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۲

لم تكن فى الإنسان بصورة فعلية حين ولادته، و إنّما على شكل استعداد و وجود بالقوّة.

و بعبارة أخرى: إنّنا عند الولادة نكون فى غفلة عن كل شىء حتى عن أنفسنا التى بين جنبينا، إلّا أن مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوّة لا ـ الفعل، و بالتدريج تحصل لأعيننا قوّة النظر و لآذاننا قوة السمع و لعقولنا القدرة على الإدراك و التجزئة و التحليل، فنعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التى بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيرا من التصورات و نودعها فى العقل لكى ننشئ منها مفاهيم كلية، و من ثمّ نصل إلى الحقائق العقلية بطريق (التعميم) و (التجريد).

و تصل قدرتنا الفكرية إلى إدراك أنفسنا (باعتبارها علما حضوريا) و من ثمّ تتحرر العلوم التى أودعت فينا قوة لتصبح علوما بالفعل، و نجعل بعد ذلك من العلوم البديهية و الضرورية سلّما للوصول إلى العلوم النظرية و غير البديهية.

و على هذا .. فالعموم و الكلية التى نطقت بها الآية (من أنّنا لا نعلم شيئا عند الولادة) ليس لها استثناء و لا تخصيص.

۲- نعمة وسائل المعرفة

ممّا لا شك فيه عدم امكانية استيعاب و دخول العالم الخارجى فى وجودنا، و الحاصل الفعلى هو رسم صورة الشىء الخارجى المراد فى الذهن و بواسطة الوسائل المعينة لذلك، و عليه .. فمعرفتنا بالعالم الخارجى تكون عن طريق أجهزة خاصّة منها السمع و البصر.

و تنقل هذه الآلات و الأجهزة كل ما تلتقطه من الخارج لتودعه فى أذهاننا و عقولنا، و نقوم بواسطة العقل و الفكر بعملية التجزئة و التحليل ..

و لذلك بيّنت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ لكى تحصلوا على حقائق الوجود و تدركوها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۳

و نشاهد تقديم ذكر السمع على البصر فى الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، و لعل ذلك لسبق الأذن فى العمل على العين بعد الولادة، حيث أنّ العين كانت فى ظلام دامس (فى رحم الأم) و نتيجة لشدّة أشعة النّور (بعد الولادة) فإنّها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، و إنّما تتدرج فى اعتيادها على مواجهة النّور حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، و لذا نجد الوليد فى بداية أيّامه الأولى مغلق العين. أمّا بخصوص الأذن .. فثمة من يعتقد بأنّ لها القدرة على السماع (قليلا أو كثيرا) و هى فى عالم الأجنّة و أنّها تسمع دقات قلب الأم و تعتاد عليها! أضف إلى ذلك أنّ الإنسان إنّما يرى بعينه الأشياء الحسيّة فقط، فى حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية و التعليم فى جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق سواء ما كان منها فى دائرة الحس أو ما كان خارجها، و ليس للعين هذه السعة، و صحيح أنّ الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلّا أنّ القراءة ليست عامّة لكل الناس و سماع الكلمات أمر عام.

أمّا سبب ورود «السمع» بصيغة المفرد و «الأبصار» بصيغة الجمع، فقد بيّناه عند تفسيرنا للآية (۷) من سورة البقرة.

و ثمّة ملاحظة أخرى ينبغى ذكرها تتعلق بكلمة «الفؤاد»، فقد جاءت هنا بمعنى القلب (العقل) الذى يعيش حالة التوقد، و بعبارة أخرى: يعيش حالة التّفسير و التحليل و الابتكار.

يقول الراغب فى مفرداته: (الفؤاد كـالقلب، لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى الفؤاد أى التوقـد). و من المسـلّم به أن هـذا الموضوع يحصل للإنسان بعد حصوله على تجارب كافية.

و على أية حال، فآلات المعرفة و إن لم تنحصر بهذه الأجهزة الثلاث، إلّا أنّها أفضل الأجهزة جميعا، لأنّ علم الإنسان إمّا أن يكون عن طريق التجربة أو عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۴

طريق الاستدلالات العقلية، و لا تجربة بدون السمع و البصر، و لا استدلالات عقلية من غير الفؤاد (العقل).

۳- لعلكم تشكرون

تعتبر نعمـة أجهزة تحصـيل العلم من أفضل النعم التى وهبها اللّه للإنسان، فلا يقتصـر دور العين و الأذن (مثلا) على النظر إلى آثار اللّه فى خلقه، و الاسـتماع إلى أحاديث أنبياء اللّه و أوليائه، و تفهم ذلك و تـدركه بالتحليل و الاسـتنتاج، بل إنّ كل خطوة نحو التكامل و التقدم مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذه الوسائل الثلاثة.

و غاية إعطاء هذه الوسائل إنّما تسـتوجب شكر الواهب، لأنّه من خلالها يمكن الحصول على العلم و المعرفة اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات.

و ممّا لا شك فيه أنّ الإنسان ليقف عاجزا أمام حق شكر المولى و ليس له إلّا الاعتذار.

و تستمر الآية التالية فى بيان أسرار عظمة اللّه عزّ و جلّ فى علم الوجود، و تقول: أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ.

«الجو» لغة: هو الهواء (كما ذكره الراغب فى مفرداته)، أو ذلك الجزء من الهواء البعيد عن الأرض (كما ورد فى تفسـير مجمع البيان و تفسير الميزان و كذلك تفسير الآلوسى).

و بما أنّ الأجسام تنجـذب إلى الأرض طبيعيا فقـد وصف القرآن الكريم حركة الطيور فى الهواء بالتسـخير، أى: أنّ البارى سـبحانه قد جعل فى أجنحة الطيور قوّة، و فى الهواء خاصية، تمكنان الطيور من الطيران فى الجو على رغم قانون الجاذبية.

و يضيف قائلا: ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ

صحيح أنّ ثمّة أمور مجتمعة تعطى للطيور إمكانية التحليق و الطيران، مثل:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۵

الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدرة عضلات الطيور، هيكل الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة .. و لكن، من الذى خلق هذه الهيئة و تلك الخواص؟

و من الذى أقرّ هذا النظام الدقيق؟

فهل هى الطبيعة العمياء، أم من يعلم بجميع الخواص الفيزيائية للأجسام و أحاط علمه المطلق بكل هذه الأمور؟؟

فـإذا مـا رأينا نسـبة هـذه الأمور إلى اللّه، لأنّ منبع وجودها منه تعالى، و أمثال هـذا التعبير فى نسـبة الأسـباب و العلل إلى اللّه كثيرة فى القرآن الكريم.

و فى نهاية الآية، يأتى قوله عزّ من قائل: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ أى إنّهم ينظرون إلى هذه الأمور بعين باصرة و أذن سميعة و يتفكرون فيما يرون و يسمعون، و بذلك يقوى إيمانهم و يرسخ أكثر فأكثر.

بحوث

۱- أسرار تحليق الطيور فى السماء

إنّنا لا نشعر بأهمية الكثير من عجائب عالم الوجود لاعتيادنا على كثرة مشاهدتها، و لعدم انشغالنا بالتدقيق العلمى عند المشاهدة، حتى باتت هذه العادة كحجاب يغطى تلك العظمة، و لو استطاع أىّ منّا رفع ذلك الحجاب عن ذهنه لرأى العجائب الكثيرة من حوله.

و تحليق الطيور فى السماء لا تبتعد عن هذه الحقيقة، فحركة جسم ثقيل بخلاف قانون الجاذبية من دون أية صعوبة، و ارتفاعه بسرعة حتى ليغيب عن أعيننا فى لحظات لأمر يدعو إلى التأمل و الدراسة.

و لو دققنا النظر فى بناء جسم الطائر لوجدنا ذلك الترابط الدقيق بين كل صفاته و حالاته التى تساعده على الطيران، فهيكله العام مدبب ليقلل من مقاومة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۶

الهواء على بدنه لأقصى حد ممكن، و ريشه خفيف مجوف، و صدره مسطح يمكنه من ركوب أمواج الهواء، و طبيعة أجنحته الخاصّة تمنحه القوة الرافعة[۱۶۸] التى تساعده على الارتفاع، و كذلك الطبيعة الخاصّة لذيل الطائر التى تعينه على تغيير اتجاه طيرانه و سرعة التحوّل يمينا و شمالا و أعلى و أسفل (كذيل الطائرة)، و ذلك التناسق الموجود بين النظر و بقية الحواس التى تشترك جميعا فى عملية الطيران ... و كل ذلك يعطى للطائر إمكانية الطيران السريع.

ثمّ إنّ طريقة تناسل الطير (وضع البيض)، و عملية تربية الجنين و نموه تجرى خارج رحم الأم ممّا يرفع عنها حالة الحمل و التى تعيق (بلا شك) عملية الطيران ..

و ثمّة أمور كثيرة تعتبر من العوامل المؤثرة فيزيائيا فى عملية الطيران.

و كل ما ذكر يكشف عن وجود علم و قدرة فائقين لخالق و منظم بناء و حركة هذه الكائنات الحية، و كما يقول القرآن: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

إنّ عجائب الطيور لأكثر من أن تسطر فى كتاب أو عدّة كتب، فهناك مثلا الطيور المهاجرة و ما يكتنف رحلاتها من عجائب، و حياة هذه الطيور مبنية على التنقل بين أرجاء المعمورة المختلفة حتى أنّها لتقطع المسافة ما بين القطبين الشمالى و الجنوبى على طولها، و تعتمد فى تعيين اتجاهات رحلاتها على إشارات رمزية تمكنها من عبور الجبال و الأودية و البحار، و لا يعيق تحركها رداءة الجو أو حلكة الظلام فى الليالى التى يتيه فيها حتى الإنسان و بما يملك.

و من غريب ما يحدث فى رجلاتها أنّها: قد تنام أحيانا بين عباب السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۷

و هى طائرة! و قد تستغرق بعض رحلاتها عدّة أسابيع دون توقف ليل نهار و بدون أن يتخلل تلك المدّة أية فترة لتناول الطعام! حيث أنّها تناولت الطعام الكافى قبل بدءها حركة الرحيل (بإلهام داخلى) و يتحول ذلك الطعام إلى دهون تدخرها فى أطراف بدنها! و ثمّة أسرار كثيرة تتعلق فى: بناء الطير لعشه، تربية أفراخه، كيفية التحصن من الأعداء، كيفية تحصيل الغذاء اللازم، تعاون الطيور فيما بينها بل و مع غير جنسها أيضا ... إلخ، و لكل ممّا ذكر قصّة طويلة.

نعم، و كما تقول الآية المباركة: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

۲- ترابط الآيات:

لا شك أنّ هناك ترابطا بين الآية أعلاه و التى تتحدث عن كيفية طيران الطيور و ما قبلها من الآيات يتمثل فى الحديث عن نعم اللّه

عزّ و جلّ فى عالم الخليقة، و عن أبعاد عظمته و قدرته سبحانه و تعالى، و لكن لا يبعد أن يكون ذكر تحليق الطيور بعد ذكر آلات المعرفة يحمل بين طياته إشارة لطيفة فى تشبيه تحليق هذه الطيور فى العالم المحسوس بتحليق الأفكار فى العالم غير المحسوس، فكلّ منها يحلق فى فضائه الخاص و بما لديه من آلات.

يقول الإمام على عليه السّلام فى خطبته الشقشقية: «ينحدر عنّى السيل و لا يرقى إلىّ الطير».

و كذا

فى كلماته عليه السّلام القصار فى بيان فضيلة مالك الأشتر رحمه اللّه، ذلك القائد الشجاع: «لا يرتقيه الحافر، و لا يوفى عليه الطائر»[۱۶۹].

و عدّ فى هذه السورة خمسين نعمة كلها تدعو إلى معرفة اللّه جل و علا و تدفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۸

إلى شكره، و لذلك ذهب البعض لتسميتها ب (سورة النعم).

و تستمر الآيات فى الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثّالثة (مورد البحث) لتقول: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً.

و حقّا إنّ هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من (البيتوتة): و هى فى الأصل بمعنى التوقف ليلا، و أطلقت كلمة (بيت) على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلا.

و يلزمنا هنا التنويه بالملاحظة التالية: إنّ القرآن الكريم لم يقل: إنّ اللّه جعل بيوتكم سكنا لكم، و إنّما ذكر كلمة (من) التبعيضية أوّلا و قال: مِنْ بُيُوتِكُمْ و ذلك لدقة كلام اللّه التامة فى التعبير، حيث أنّ الدار أو الحجرة الواحدة تلحقها مرافق أخرى كالمخزن و الحمام و غيرها.

و بعد أن تطرق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً[۱۷۰].

و هى من الخفة بحيث تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أى رحيلكم- وَ يَوْمَ إِقامَتِكُمْ

بل و جعل لكم: وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ

و كما هو معلوم فإنّ الشعر الذى يحمله بدن الحيوان بعضه خشن تماما كشعر الماعز و يطلق عليه (شعر)، و جمعه (أشعار)، و بعضه الآخر أقل خشونة بقليل و هو (الصوف) و جمعه (أصواف)، (و الوبر) أقل نعومة من الصوف و جمعه (أوبار)، و بديهى أنّ الاختلاف الحاصل فى طبيعته و خشونته يؤدى إلى تنوع الاستفادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۷۹

منها، فمن بعضها تصنع الخيام، و من البعض الآخر يصنع اللباس، و من الثّالث الفرش و هكذا ..

أمّا عن المقصود ب «الأثاث» و «المتاع» فى الآية فقد ذكر المفسّرون لذلك جملة احتمالات.

قال بعضهم: «الأثاث» بمعنى الوسائل المنزلية، و هى فى الأصل من (أثّ) بمعنى الكثرة و التجمع، و أطلقت على الوسائل و الأدوات المنزلية لكثرتها عادة.

و يطلق «المتاع» على كل ما يتمتع به الإنسان و يستفيد منه (فالمصطلحان إشارة إلى شىء واحد من جهتين مختلفتين).

و مع ملاحظة ما ذكر فاستعمال المصطلحين على التوالى يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنّكم تستطيعون أن تهيئوا من أصوافها و أوبارها و أشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

و احتمل البعض و منهم «الفخر الرازى»: «الأثاث» بمعنى الأغطية و الملابس، و «المتاع بمعنى الفرش، إلّا أنّه لم يذكر أىّ دليل لتفسيره.

و احتمل «الآلوسى» فى (روح المعانى): «الأثاث» إشارة إلى الوسائل المنزلية، و «المتاع» إشارة إلى الوسائل المستخدمة فى التجارة.

و يبدو أنّ ما قلناه أوّلا أقرب من الجميع.

و ذكرت وجوه عديدة فى تفسير إِلى حِينٍ و لكنّ الظاهر من مقصودها هو:

استفيدوا من هذه الوسائل فى هذا العالم حتى نهاية الحياة فيه، و هو إشارة إلى عدم خلود الحياة فى هذا العالم و ما فيه من وسائل و لوازم و أنّ كل ما فيه محدود.

۳- الظلال، المساكن، الأغطية:

و يشير القرآن الكريم إلى نعمة أخرى بقوله: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۰

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية و الحفظ، و لهذا فقد أطلقت على المغارات و أماكن الاختفاء و فى الجبال.

و نرى إطلاق كلمة «الظلال» فى الآية لتشمل كل الظلال، سواء كانت ظلال الأشجار أو المغارات الجبلية أو ظل أى شىء آخر، باعتبارها إحدى النعم الإلهية (و حقيقة الأمر كذلك)، فكما يحتاج الإنسان إلى النّور فى حياته فكثيرا ما يحتاج إلى الظلل كذلك، لأنّ النّور إذا ما استمر فى اشراقه فسوف تكون الحياة مستحيلة، و يكفينا أن نلمس ما لظل الكرة الأرضية (و المسمى بالليل) على حياتنا، و كذلك دور الظلال الأخرى خلال النهار فى مختلف الأمكنة و الحالات.

و كأن ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» فى الآية السابقة، للإشارة إلى: أنّ طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة .. واحدة تعيش فى المدن و القرى و تستفيد من بناء البيوت لسكناها، و أخرى تعيش الترحال و التنقل فتحمل معها الخيام، و ثالثة أولئك الذين يسافرون و ليس معهم مستلزمات المأوى .. و لم يترك البارى جل شأنه المجموعة الثّالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل فى طريقهم الظلال و المغارات لتقيهم.

و قد لا يدرك سكنة المدن ما لوجود المغارات الجبلية من أهمية، و لكنّ عابرى الصحارى و المسافرين العزل و الرعاة و كل من حرم من نعمة البيوت الثابتة أو السيارة (مؤقتا أو دائما) عند ما يكونون تحت سطوة حرارة الصيف اللاهبة أو تحت وطأة زمهرير الشتاء القارص، سيعرفون عندها أهمية تلك المغارات، و خصوصا كونها باردة فى الصيف و دافئة فى الشتاء، و هى ملاذ ينجى من موت قريب- فى بعض الأحيان- للإنسان أو الحيوانات.

و بعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية و الصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، و ثمّة ألبسة أخرى تستعمل لحفظ أبدانكم فى الحروب وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۱

«السرابيل»: جمع «سربال» (على وزن مثقال)، بمعنى الثوب من أىّ جنس كان (على ما يقول الراغب فى مفرداته)، و يؤيده فى ذلك أكثر المفسّرين، و لكنّ البعض منهم قد اعتبر معنى السربال هو: لباس و غطاء لبدن الإنسان، إلّا أنّ المشهور هو المعنى الأوّل.

و كما هو معلوم، فإنّ فائدة الألبسة لا تنحصر فى حفظ الإنسان من الحر و البرد، بل تلبس الإنسان ثوب الكرامة و تقى بدنه من الأخطار الموجهة إليه، فلو تعرى الإنسان لكان أكثر عرضه للجراحات و ما شابهها، و استناد الآية المباركة على الخاصية الأولى دون غيرها لأهميتها المميزة.

و لعل ذكر خصوص الحر فى الآية جاء تماشيا مع ما شاع فى لغة العرب من ذكر أحد المتضادين اختصارا، فيكون الثّانى واضحا بقرينة وجود الأوّل، أو لأنّ المنطقة التى نزل فيها القرآن الكريم كان دفع الحرّ فيها ذا أهمية بالغة عند أهلها.

و ثمّة احتمال آخر: أن يكون ذلك بلحاظ خطورة الإصابة بمرض ضربة الشمس المعروفة، و بتعبير آخر: إنّ تحمل الإنسان لحر أشعة الشمس الشديدة أقل من تحمله و مقاومته للبرد، لأنّ حرارة البدن الداخلية يمكن لها أن تعين الإنسان على تحمل البرودة لحد ما.

و فى ذيل الآية .. يقول القرآن مذكّرا: كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ أى تطيعون أمره.

و طبيعى جدّا أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصا عند تنبّهه للنعم المختلفة التى تحيط بوجوده، و أنّ ضميره سيستيقظ و يتجه نحو المنعم قاصدا زيادة معرفته به إذا ما امتلك أدنى درجات حسن الشكر.

و مع أنّ بعض المفسّرين قد حصروا لكلمة «النعمة» فى الآية ببعض النعم:

كنعمة الخلق، و تكامل العقل، أو التوحيد، أو نعمة وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ معنى الكلمة أوسع من ذلك، ليشمل كل النعم (المذكور منها أو غير المذكور)، و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۲

التخصيص فى حقيقته إلّا من قبيل التّفسير بالمصداق الواضح.

و بعد ذكر هذه النعم الجليلة .. يقول عزّ و جلّ أنّهم لو اعرضوا و لم يسلموا للحق فلا تحزن و لا تقلق، لأنّ وظيفتك إبلاغهم: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ

و مع كل ما يمتلكه المتكلم من منطق سليم و مدعّم بالاستدلال الحق و الجاذبية، إلّا أنّه لا يؤثر فى المخاطب ما لم يكن مستعدا لاستماع و قبول كلام المتكلم، و بعبارة أخرى: إنّ (قابلية المحل) شرط فى حصول التأثر.

و على هذا، فإن لم يسلم لك أصحاب القلوب العمياء و من امتاز بالتعصب و العناد، فذلك ليس بالأمر الجديد، و ما عليك إلّا أن تصدع ببلاغ مبين و أن لا تقصر فى ذلك و المراد من هذا المقطع القرآنى هو مواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تسليته.

و تكميلا للحديث .. يضيف القرآن الكريم القول: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها.

فعلّة كفرهم ليست فى عدم معرفتهم بالنعم الإلهية و إنّما بحملهم تلك الصفات القبيحة التى تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى و العناد فى معاداة الحق، و تقديم منافعهم المادية على كل شىء، و تلوّثهم بمختلف الشهوات، بالإضافة إلى مرض التكبّر الغرور.

و لعل ما جاء فى آخر الآية وَ أَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

و قد جذبت كلمة «أكثرهم» انتباه و اهتمام المفسّرين و راحوا يبحثون فى سبب ذكرها ... حتى توصل المفسّرون إلى أسباب كثيرة كلّ حسب زاوية اهتمامه فى البحث، و لكنّ ما ذكرناه يبدو أقرب من كلّ ما ذكروه، و خلاصته: إنّ أكثرية الكفار هم من أهل التعصب و العناد، و الذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم فهم القلّة قياسا إلى أولئك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۳

و يشاهد فى القرآن الكريم مقاطع قرآنية تطلق الكفر على ذلك النوع الناشئ من التكّبر و العناد، و منها ما يتحدث عن الشيطان كما جاء فى الآية (۳۴) من سورة البقرة أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

و احتمل البعض: أنّ المقصودين ب «أكثرهم» من تمّت عليهم الحجّة فى قبال أقلية لم تتم عليهم الحجّة بعد، و هذا المعنى يمكن أن يعود إلى المعنى الأوّل.

بحثان

۱- كلمات المفسّرين

ما نطالعه فى كلمات المفسّرين المتعددة بخصوص تفسير نِعْمَتَ اللَّهِ فى الآية لا يعدو غالبا من قبيل التّفسير بالمصداق، فى حين أنّ مفهوم «نعمة اللّه» من السعة بحيث يشمل جميع النعم المادية و المعنوية، حتى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعتبر أحد المصاديق الحيّة لنعمه سبحانه و تعالى.

و روايات أهل البيت عليهم السّلام تؤكّد على أنّ المقصود ب «نعمة اللّه» هو وجود الأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

و

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «نحن و اللّه نعمة اللّه التى أنعم بها على عباده، و بنا فاز من فاز»[۱۷۱].

فواضحّ أنّ السعادة و النجاح لا يمكن إدراكهما إلّا عن طريق قادة الحق و هم الأئمّة عليهم السّلام فوجودهم إذن من أوضح و أفضل النعم الإلهية (و قد ذكر هنا لأنّه أحد المصاديق الجلية لنعم اللّه سبحانه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۴

۲- صراع الحقّ مع الباطل

لقد توقف بعض المفسّرين عند كلمة «ثمّ» من قوله تعالى: يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَها، لأنّ استعمالها عادة كأداة عطف مع وجود فاصلة بين أمرين، و لذلك فثمّة فاصلة بين معرفتهم لنعم اللّه و بين إنكارهم للنعم، فقالوا: إنّ الهدف من هذا التعبير تبيان ما ينبغى عليهم من الاعتراف بالتوحيد بعد معرفتهم بنعمة اللّه، و كان عليهم أن يذعنوا لذلك الاعتراف، إلّا أنّهم ساروا فى طريق الباطل! فاستبعد القرآن عملهم و عبر عن ذلك بكلمة «ثمّ».

و نحتمل أنّ «ثمّ» هنا إشارة إلى معنى خفى، خلاصته: أنّ دعوة الحقّ عند ما تتوغل إلى دواخل الروح الإنسانية عن طريق أصولها المنطقية السليمة، فإنّها ستصطدم مع عوامل السلب و الإنكار الموجود فيه أحيانا، فيستغرق ذلك الجدال أو الصراع الداخلى مدّة تتناسب مع حجم قوّة و ضعف تلك العوامل، فإن كانت عوامل النهى و الإنكار أقوى فإنّها ستغلبها بعد مدّة .. و عبّر القرآن عن تلك الحالة بكلمة «ثمّ».

و الآيتان (۶۴ و ۶۵)، من سورة الأنبياء ضمن عرضهما لقصة إبراهيم عليه السّلام تتحدثان عن قوّة احتجاج نبى اللّه إبراهيم عليه السّلام بعد أن حطم أصنامهم جميعها إلّا كبيرها ممّا تركهم فى الوهلة الأولى يغوصون فى تفكير عميق، ممّا حدا بهم لأنّ يلوموا أنفسهم و كادوا أن يهتدوا إلى الحقّ لو لا- وجود تلك الرواسب من العوامل السلبية فى نفوسهم (التعصب، الكبر، العناد) التى أمالت كفة انحرافهم على قبول دعوة الحق، فعادوا من جديد إلى ما كانوا عليه، و لوصف تلك الحالة نرى القرآن قد استعمل كلمة «ثم» أيضا:

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ

و على هذا فمعنى «الكافرون» يتوضح بشكل أدق عند وجود كلمة «ثم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۸۴ الى ۸۹]

اشارة

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۸۴) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۸۵) وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ

لَكاذِبُونَ (۸۶) وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۸۷) الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ (۸۸)

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (۸۹)

التّفسير

عند ما تغلق الأبواب أمام المجرمين:

بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآيات السابقة جحود منكرى الحق و عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۶

اعترافهم بالنعم الإلهيـة، يتطرق فى هـذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهى الشديـد الذى ينتظر أولئك فى عالم الآخرة، لينبه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر فى مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أوّلا: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً[۱۷۲].

و هل ثمّة حاجة إلى شاهد مع وجود علم اللّه المطلق؟

قد يتبادر إلى الأذهان هذا السؤال عند قراءة الآية، و تتّضح الإجابة على ذلك من خلال التدقيق فى الملاحظة التالية: إنّ الأمور غالبا ما يقصد فيها الجانب النفسى و الروحى، و الإنسان كلما أيقن بوجود الشهود و المراقبين عليه من قبل اللّه سبحانه ازداد فى محاسبة نفسه، و أقلّ ما يمكن أن يذكر بهذا الصدد ما سيصيبه من خجل يوم مواجهتهم مع ما اقترفت يداه.

و بخصوص تلك المحكمة، تأتى الآية لتقول: ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا.

و هل من الممكن أن لا يأذن اللّه للمجرمين فى الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، و ذلك لعدم الحاجة للسان فى ذلك اليوم العظيم، لأنّ الجوارح من رجل و أذن و عين و كذلك الجلد، بل و حتى الأرض التى أطاع الإنسان عليها أو عصـى، كلها ستشـهد عليه، و يمكن اسـتفادة هـذا المعنى من آيات قرآنيـة أخرى كالآية (۶۵) من سـورة يس و الآية (۳۶) من سورة المرسلات.

بل و يزداد على عدم السماح لهم بالكلام ب وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۱۷۳].

لأنّ هناك محل مواجهة نتائج الأعمال و ليس يوم العمل و الإصلاح، و هم حينها كالثمرة المقطوفة التى انتهى زمن نموها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۷

و تشـرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم و دخولهم فى العذاب، و كيف أنّهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارة، و يطلبون إمهالهم مدّة تارة أخرى، فتقول: وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ

و الآيتان أشارتا إلى أربع مراحل لأهوال المجرمين (و هو ما نشاهد شبيهه فى حياتنا الدنيا):

المرحلة الأولى: سعى المجرم للتنصل و التزوير لتبرئة نفسه، و إن لم يحصل على هدفه يسعى إلى المرحلة التالية.

المرحلة الثّانية: يستعتب صاحب الحق و يمتص غضبه وصولا لرضاه، و إذا لم ينفعه ذلك يتنقل إلى المرحلة الثّالثة.

المرحلة الثّالثة: يطلب تخفيف العذاب، فيقول: عاقبنى و لكن خفف العذاب! و إن لم يستجاب له لعظم ذنبه فإنّه سيطلب الطلب الأخير ...

المرحلة الرّابعة: يطلب الإمهال و التأجيل، و هو المحاولة الأخيرة للنجاة من العقاب ...

إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب عن طلبات المجرمين بعدم حصول إذن الدفاع عنهم، و لا يمكنهم تحصيل رضا المولى جل و علا، و لا يخفف عنهم العذاب، و لا هم ينظرون، لأن أعمالهم من القباحة و ذنوبهم من العظمة تسد كل أبواب الاستجابة.

و فى الآية التالية .. يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، و كيف أنّهم سيحشرون فى جهنّم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية و البشرية، فتقول الآية المباركة واصفة حالهم: وَ إِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فهذه المعبودات هى التى وسوست لنا للوقوع فى درك العمل القبيح، و هى شريكنا فى الجرم أيضا، فارفع عنّا بعض العذاب و اجعله لها!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۸

و عندها ... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن اللّه): فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ فلم نكن شركاء للّه، و مهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

و هنا ينبغى التذكير ببعض الملاحظات:

۱- إنّ استعمال كلمة «شركاءهم» بدلا من «شركاء اللّه» للدلالة على أنّ الأصنام ما كانت فى حقيقتها شريكة للّه عزّ و جلّ، بل إنّ عبدة الأصنام و المشركين هم الذين نسبوها بهذا النسب خيالا و كذبا، فمن الحرى أن تنسب لهم و ليس إلى اللّه سبحانه.

و يؤيد ذلك ما مرّ علينا فيما سبق من تخصيص عبدة الأصنام بعض مواشيهم و محصولاتهم الزراعية مشاركة بينهم و بين الأصنام أى أنّهم جعلوا الأصنام شريكة لهم فى هذه الأنعام.

۲- يستفاد من الآية أنّ الأصنام تحضر عرصة يوم القيامة أيضا، و ليس المعبودات البشرية فقط كفرعون و النمرود.

و الآية (۹۸) من سورة الأنبياء: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ تؤيد ذلك.

۳- و تظهر الآية قول المشركين يوم القيامة من أنّهم كانوا يعبدون هذه الأصنام: هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ و هذا القول يتضمن صدقهم فى قولهم فلا معنى لتكذيب الأصنام لهم فى هذه المقولة.

و لكن من الممكن أن يكون التكذيب بمعنى عدم لياقة الأصنام لأن تكون معبودة من دون اللّه. أو أنّ المشركين قد أضافوا جملة أخرى مفادها أنّ هذه المعبودات قد دعتنا و وسوست لنا لنعبدها، فتكذبهم الأصنام بأنّها لا تملك القدرة أصلا على الوسوسة و الإيحاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۸۹

۴- لعل ورود جملة فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ بدل «قالوا لهم» لعدم قدرة الأصنام على التكلم بنفسها، فيكون قولها عبارة عن إلقاء من قبل اللّه فيها، أى أنّ اللّه عزّ و جلّ يلقى إليها، و هى بدورها تلقية إلى المشركين.

و تأتى الآية التالية لتبيّن أنّ الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، و يسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة أخرى ... وَ أَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۱۷۴] مسلمين للّه، مذعنين لعظمته جل و علا، لأنّ غرور و تعصب الجاهلين قد أزيل برؤية الحق الذى لا مفرّ من تصديقه و الإذعان إليه.

و فى هذه الأثناء، و حيث كل شىء جلى كوضوح الشمس .. وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ فتبطل كذبتهم بوجود شريك للّه، و كذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعة الأصنام لهم عند اللّه، عند ما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأى عمل، بل و يرونها محشورة معهم فى نار جهنم!.

و بهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصبا حول انحراف المشركين الضالين و غرقهم فى درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين

إلى ما هم فيه .. و بعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، و إنّما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْناهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ بِما كانُوا يُفْسِدُونَ

فهم شركاء فى جرم الآخرين إضافة لما عليهم من تبعات أعمالهم، لأنّهم كانوا عاملا مؤثرا للفساد على الأرض و إضلال خلق اللّه بالصد عن سبيله.

و ذكرنا مرارا و انطلاقا من منطق الاجتماع الإسلامى أنّ من يسن سنّة (حسنة أم سيئة) فهو شريك العاملين بها ثوابا أو عقابا، و الحديث المشهور يبيّن لنا هذا المعنى بوضوح:

«من استن بسنّة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۰

ينتقص من أجورهم شىء و من استن سنّة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شىء».

و على أيّة حال، فالآيات القرآنية و الأحاديث الشريفة توضح مسئولية الرؤساء و الموجهين أمام اللّه و أمام الناس.

و تتناول الآية أيضا مسألة وجود الشهيد فى كل أمّة (و الذى ذكر قبل آيات معدودة)، و لمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ

و وجود هؤلاء الشهود، و على الخصوص من الأشخاص الذين ينهضون لهذه المهمّة من وسط نفس الأمم، لا يتعارض مع علم اللّه تعالى و إحاطته بكل شىء، بل هو للتأكيد على مراقبة أعمال الناس، و للتنبيه على وجود المراقبة الدائمة بشكل قطعى.

و مع أنّ عموم الحكم فى هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ القرآن الكريم فى مقام التأكيد قال: وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ.

و قيل إنّ المقصود ب «هؤلاء» المسلمون الذين يعيشون فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الرقيب و الناظر و الشاهد على أعمالهم، و من الطبيعى أن يكون ثمّة شخص آخر يأتى بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليكمل طريقه فيكون شهيدا على الأمّة (و هو من وسطها)، و ينبغى أن يكون طاهرا من كل ذنب و خطيئة، ليتمكن من إعطاء الشهادة حقّها.

و لهذا .. اعتمد بعض المفسّرين (من علماء الشيعة و السنّة) على كون الآية بمثابة الدليل على وجود شاهد، حجّة، عادل، فى كل عصر و زمان. و ضرورة وجود الإمام المعصوم فى كل زمان، و هذا المنطق يتفق مع مذهب أهل البيت عليهم السّلام دون غيرهم من المذاهب الإسلامية.

و لعل لهذا السبب عرض الفخر الرازى فى تفسيره عند مواجهته لهذا الإشكال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۱

توجيها لا يخلو من إشكال أيضا حيث قال: (فحصل من هذا أن عصرا من الأعصار لا يخلو من شهيد على الناس، و ذلك الشهيد لا بدّ أن يكون غير جائز الخطاء و إلّا لافتقر إلى شهيد آخر، و يمتد ذلك إلى غير النهاية، و ذلك باطل، فيثبت أنّه لا بدّ فى كل عصر من أقوام تقوم الحجّة بقولهم، و ذلك يقتضى أن يكون إجماع الأمّة حجّة)[۱۷۵].

لو أنّ الفخر الرازى تجاوز قليلا حدود عقائده لم يكن ليسقط فى هكذا تناقض و عناد فاحش. لأنّ القرآن يقول: يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ و ليس مجموع الأمّة شاهدا على كل فرد من أفراد الأمّة.

و كما ذكرنا عند تفسيرنا للآية (۴۱) من سورة النساء أنّ هناك احتمالين آخرين فى تفسير «هؤلاء»:

الأوّل: أنّ «هؤلاء» إشارة إلى شهداء الأمم السابقة من الأنبياء عليهم السّلام و الأوصياء، فيكون النّبى شاهدا على هذه الأمة و شاهدا

على الأنبياء السابقين أيضا.

الثّانى: المقصود من الشاهد هنا هو الشاهد العملى، أى: شخص يكون وجوده قدوة و ميزانا لتمييز الحق من الباطل.

(و المزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآية (۴۱) من سورة النساء).

و بما أنّ جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل و جامع للناس بما تتم فيه الحجّة عليهم، و يصح فيه مفهوم النظارة و المراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۲

بحثان

۱- القرآن تبيان لكل شىء:

من أهم ما تطرقت له الآيات المباركات هو أنّ القرآن مبين لكل شىء.

«تبيان» (بكسر التاء أو فتحها) له معنى مصدرى ۱۷۶]، و يمكن الاستدلال بوضوح على كون القرآن بيانا لكل شىء من خلال ملاحظة سعة مفهوم «كل شىء»، و لكن بملاحظة أن القرآن كتاب تربية و هداية للإنسان و قد نزل للوصول بالفرد و المجتمع- على كافة الأصعدة المادية و المعنوية- إلى حال التكامل و الرقى، يتّضح لنا أنّ المقصود من كل «شىء» هو كل الأمور اللازمة للوصول إلى طريق التكامل، و القرآن ليس بدائرة معارف كبيرة و حاوية لكل جزئيات العلوم الرياضية و الجغرافية و الكيميائية و الفيزيائية ... إلخ، و إنّما القرآن دعوة حق لبناء الإنسان، و صحيح أنّه وجه دعوته للناس لتحصيل كل ما يحتاجونه من العلوم، و صحيح أيضا أنّه قد كشف الستار عن الكثير من الأجزاء الحساسة فى جوانب علمية مختلفة ضمن بحوثه التوحيدية و التربية، و لكن ليس ذلك الكشف هو المراد، و إنّما توجيه الناس نحو التوحيد و التربية الربانية التى توصل الإنسان إلى شاطئ السعادة الحقة من خلال الوصول لرضوانه سبحانه.

و يشير القرآن الكريم تارة إلى جزئيات الأمور و المسائل، كما فى بيانه لأحكم كتابة العقود التجارية و سندات القرض، حيث ذكر (۱۸) حكما فى أطول أية قرآنية و هى الآية (۲۸۲) من سورة البقرة[۱۷۷].

و تارة أخرى يعرض القرآن المسائل الحياتية للإنسان بصورها الكلية، كما فى الآية التى ستأتى قريبا، حيث يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۳

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِى الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ

و كذلك عموم مفهوم الوفاء بالعهد فى الآية (۳۴) من سورة الإسراء: إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا، و عموم مفهوم الوفاء بالعقد فى الآية الأولى من سورة المائدة: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ، و لزوم أداء حق الجهاد كما جاء فى الآية (۷۸) من سورة الحج: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ و كمفهوم إقامة القسط و العدل كما جاء فى الآية (۴۵) من سورة الحديد: لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ، و عموم مفهوم رعاية النظم فى كل الأمور فى الآيات (۷، ۸، ۹) من سورة الرحمن: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم الميزان أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ و عموم مفهوم الامتناع عن فعل الفساد فى الأرض كما فى الآية (۸۵) من سورة الأعراف: وَ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها، بالإضافة إلى الدعوة للتدبر و التفكر و التعقل التى وردت فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم، و أمثال هذه التوجيهات العامة كثيرة فى القرآن، لتكون للإنسان نبراسا وهاجا فى كافة مجالات الفكر و الحياة و الإنسان .. و كل ذلك يدلل بما لا يقبل التردد أو الشك على أنّ القرآن الكريم «فيه تبيان لكل

شیء».

بل و حتی فروع هـذه الأوامر الکلیة لم یهملها الباری سبحانه، و إنّما عیّن لها من یؤخذ منه التفاصیل، کما تبیّن لنا ذلک الآیة (۷) من سورة الحشر: وَ ما آتاکُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاکُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.

و الإنسان کلما سبح فی بحر القرآن الکریم و توغّل فی أعماقه، و استخرج برامجا و توجیهات توصله إلی السعادة، اتّضحت له عظمة هذا الکتاب السماوی و شموله.

و لهذا، فمن استجدی القوانین من ذا و ذاک و ترک القرآن، فهو لم یعرف القرآن، و طلب من الغیر ما هو موجود عنده.

و إضافة لتشخیص الآیة المبارکة مسألة أصالة و استقلال تعالیم الإسلام فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۴

کل الأمور، فقد حمّلت المسلمین مسئولیة البحث و الدراسة فی القرآن الکریم باستمرار لیتوصلوا لاستخراج کل ما یحتاجونه.

و قد أکّدت الرّوایات الکثیرة علی مسألة شمول القرآن ضمن تطرقها لهذه الآیة و ما شابهها من آیات.

منها: ما

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی أنزل فی القرآن تبیان کل شیء حتی و اللّه ما ترک شیئا تحتاج إلیه العباد، حتی لا یستطیع عبد یقول: لو کان هذا أنزل فی القرآن، إلّا و قد أنزله اللّه فیه»[۱۷۸].

و

فی روایة أخری عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی لم یدع شیئا تحتاج إلیه الأمّة إلّا أنزله فی کتابه و بیّنه لرسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جعل لکل شیء حدا، و جعل علیه دلیلا یدل علیه، و جعل علی من تعدی ذلک الحد حدا»[۱۷۹].

و جاء فی الرّوایات الشریفة الإشارة الی هذه المسألة أیضا. و هی أنّه مضافا الی ظواهر القرآن و ما یفهمه منها العلماء و سائر الناس، فإنّ باطن القرآن بمثابة البحر الذی لا یدرک غوره، و فیه من المسائل و العلوم ما لا یدرکها إلّا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أوصیاؤه بالحق، و من هذه الرّوایات ما

ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «ما من أمر یختلف فیه اثنان إلّا و له أصل فی کتاب اللّه عزّ و جلّ، و لکن لا تبلغه عقول الرجال»[۱۸۰].

إنّ عدم إدراک العامة لهذا القسم من العلوم القرآنیة الذی یمکننا تشبیهه ب (عالم اللاشعور) لا یمنع من التحرک فی ضوء (عالم الشعور) و علی ضوء ظاهرة و الاستفادة منه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۵

۲- مراحل الهدایة الأربع

إنّ الآیة أعلاه ذکرت أربعة تعابیر متلازمة حسب تسلسلها لتوضیح الهدف من نزول القرآن:

۱- تبیانا لکل شیء.

۲- هدی.

۳- رحمة.

۴- بشری للمسلمین.

و لو أمعنا النظر لوجدنا ثمّة ارتباطا منطقيا واضحا بين هذه التعابير، فكلّ منها يرمز إلى مرحلة معينة، المرحلة الأولى فى مسير الهداية تستلزم البيان و التعليم، و بعدها تأتى مرحلة الهداية، و من ثمّ تأتى العمل الموجب للرحمة، و أخيرا البشرى بثواب اللّه لمن آمن و عمل صالحا و سرور جميع السائرين على طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۶

الآية [سورة النحل (۱۶): آية ۹۰]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۹۰)

التّفسير

أكمل برنامج اجتماعى:

بعد أن ذكرت الآيات السابقة أنّ القرآن فيه تبيان لكل شىء، جاءت هذه الآية المباركة لتقدم نموذجا من التعليمات الإسلامية فى شأن المسائل الاجتماعية و الإنسانية و الأخلاقية، و قد تضمّنت الآية ستة أصول مهمّة، الثلاث الأوّل منها ذات طبيعة إيجابية و مأمور بالعمل بها، و البقية ذات صفة سلبية منهى عن ارتكابها.

فتقول فى البدء: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى

و هل يمكن تصور وجود قانون أوسع و أشمل من «العدل»؟! فالعدل هو القانون الذى تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود، و حتى السماوات و الأرض فهى قائمة على أساس العدل «بالعدل قامت السماوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۷

و الأرض».

و المجتمع الإنسانى الذى هو جزء صغير فى كيان هذا الوجود الكبير، لا يقوى أن يخرج عن قانون العدل، و لا يمكن تصور مجتمع ينشد السّلام يحظى بذلك دون أن تستند أركان حياته على أسس العدل فى جميع المجالات.

و لما كان المعنى الواقعى للعدل يتجسد فى جعل كل شىء فى مكانه المناسب، فالانحراف و الإفراط و التفريط و تجاوز الحد و التعدى على حقوق الآخرين، ما هى إلّا صور لخلاف أصل العدل.

فالإنسان السليم هو ذلك الذى تعمل جميع أعضاء جسمه بالشكل الصحيح (بدون أية زيادة أو نقصان). و يحل المرض فيه و تتبيّن عليه علائم الضعف و الخوار بمجرّد تعطيل أحد الأعضاء، أو تقصيره فى أداء وظيفته.

و يمكن تشبيه المجتمع ببدن إنسان واحد، فإنّه سيمرض و يعتل إن لم يراع فيه العدل.

و مع ما للعدالة من قدرة و جلال و تأثير عميق فى كل الأوقات- الطبيعية و الاستثنائية- فى عملية بناء المجتمع السليم، إلّا أنّها، ليست العامل الوحيد الذى يقوم بهذه المهمّة، و لذلك جاء الأمر ب «الإحسان» بعد «العدل» مباشرة و من غير فاصلة.

و بعبارة أوضح: قد تحصل فى حياة البشرية حالات حسّاسة لا يمكن معها حل المشكلات بالاستعانة بأصل العدالة فقط، و إنّما تحتاج إلى إيثار و عفو و تضحية، و ذلك ما يتحقق برعاية أصل «الإحسان».

و على سبيل المثال: لو أنّ عدوا غدّارا هجم على مجتمع ما، أو وقعت زلزلة أو فيضان أو عواصف فى بعض مناطق البلاد، فهل من

الممكن معالجة ذلك بالتقسيم العادل لجميع الطاقات و الأموال، و تنفيذ سائر القوانين العادية؟! هنا لا بدّ من تقديم التضحية و البذل و الإيثار لكل من يملك القدرة المالية، الجسمية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۸

الفكرية، لمواجهة الخطر و إزالته، و إلّا فالطريق مهيأ أمام العدو لإهلاك المجتمع كله، أو أنّ الحوادث الطبيعية ستدمر أكبر قدر من الناس و الممتلكات.

و الأصلان يحكمان نظام بدن الإنسان أيضا بشكل طبيعى، ففى الأحوال العادية تقوم جميع الأعضاء بالتعاضد فيما بينها، و كلّ منها يؤدى ما عليه من وظائف بالاستعانة بما تقوم به بقية الأعضاء (و هذا هو أصل العدالة).

و لكن .. عند ما يصاب أحد الأعضاء بجرح أو عطل يسبب فى فقدانه القدرة على أداء وظيفته، فإنّ بقية الأعضاء سوف لن تنساه، لأنّه توقف عن عمله، بل تستمر فى تغذيته و دعمه ... إلخ، (و هذا هو الإحسان).

و فى المجتمع كذلك، حيث ينبغى للمجتمع السليم أن يحكمه هذان الأصلان.

و ما جاء فى الرّوايات و فى أقوال المفسّرين، من بيانات مختلفة فى الفرق بين العدل و الإحسان، لعل أغلبها يشير إلى ما قلناه أعلاه.

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «العدل: الإنصاف، و الإحسان: التفضل»[۱۸۱]

و هذا ما أشرنا إليه.

و قال البعض: إنّ العدل: أداء الواجبات، و الإحسان: أداء المستحبات.

و قال آخرون: إنّ العدل: هو التوحيد، و الإحسان: هو أداء الواجبات.

(و على هذا التّفسير يكون العدل إشارة إلى الإعتقاد، و الإحسان إشارة إلى العمل).

و قال بعض: العدالة: هى التوافق بين الظاهر و الباطن، و الإحسان: هو أن يكون باطن الإنسان أفضل من ظاهره.

و اعتبر آخرون: أنّ العدالة ترتبط بالأمور العمليّة، و الإحسان بالأمور، الكلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۲۹۹

و كما قلنا فإنّ بعض هذه التفاسير ينسجم تماما مع التّفسير الذى قدّمناه أعلاه، و بما أنّ البعض الآخر لا ينافيه فيمكن و الحال هذه الجمع بينهما.

أمّا مسألة إِيتاءِ ذِى الْقُرْبى فتندرج ضمن مسألة «الإحسان» حيث أن الإحسان يشمل جميع المجتمع، بينما يخص هذا الأمر جماعة صغيرة من المجتمع الكبير و هم ذوو القربى، و بلحاظ أنّ المجتمع الكبير يتألف من مجموعات، فكلما حصل فى هذه المجموعات انسجام أكثر، فإنّ أثره سيظهر على كل المجتمع، و المسألة تعتبر تقسيما صحيحا للوظائف و المسؤوليات بين الناس، لأنّ ذلك يستلزم من كل مجموعة أن تمديد العون إلى أقربائها (بالدرجة الأولى) ممّا سيؤدى لشمول جميع الضعفاء و المعوزين برعاية و اهتمام المتمكنين من أقربائهم.

و على ما نجده فى بعض الأحاديث من أنّ المقصود ب «ذى القربى» هم أهل بيت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذريته من الأئمّة عليهم السّلام، و المقصود ب إِيتاءِ ذِى الْقُرْبى هو أداء الخمس، فإنّه لا يقصد منه تحديد مفهوم الآية أبدا، بل هو أحد مصاديق المفهوم الواضحة، و لا يمنع إطلاقا من شمول مفهوم الآية الواسع.

لو اعتبرنا مفهوم «ذى القربى» بمعنى مطلق الأقرباء، سواء كانوا أقرباء العائلة و النسب، أو أقرباء من وجوه أخرى، فسيكون للآية مفهوم أوسع ليشمل حتى الجار و الأصدقاء و ما شابه ذلك (و لكنّ المعروف فى ذلك قربى النسب).

و لإعانة المجموعات الصغيرة (الأقرباء) بناء محكم من الناحية العاطفية، إضافة لما لها من ضمانة تنفيذية.

و بعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ الْبَغْيِ

و تحدث المفسّرون كثيرا حول المصطلحات الثلاثة «الفحشاء»، «المنكر»، «البغى»، إلّا أنّ ما يناسب معانيها اللغوية بقرينة مقابلة الصفات مع بعضها الآخر يظهر أنّ «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفية، و «المنكر»: إشارة إلى الذنوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۰

العلنية، و «البغى»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، و ظلم الآخرين و الاستعلاء عليهم.

قال بعض المفسّرون ۱۸۲]: إنّ منشأ الانحرافات الأخلاقية ثلاث قوى: القوّة الشهوانية، القوّة الغضبية، و القوة الوهمية الشيطانية.

أمّا القوّة الشهوانية فإنما ترغّب فى تحصيل اللذائذ الشهوانية و الغرق فى الفحشاء، و القوة الغضبية تدفع الإنسان إلى فعل المنكرات و إيذاء سائر الناس، و أمّا القوّة الوهمية الشيطانية فتوجد فى الإنسان الاستعلاء على الناس و الترفع و حبّ الرياسة و التقدم و التعدى على حقوق الآخرين.

و أشار البارى سبحانه فى المصطلحات الثلاثة أعلاه إلى طغيان غرائز الإنسان، و دعا إلى طريق الحق و الهداية ببيان جامع لكل الانحرافات الأخلاقية.

و فى آخر الآية المباركة يأتى التأكيد مجددا على أهمية هذه الأصول الستة:

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

أشمل آيات الخير و الشر:

إنّ محتوى هذه الآية المباركة له من قوّة التأثير ما جعل كثيرا من الناس يصبحون مسلمين على بيّنة من أمرهم، و ها هو «عثمان بن مظعون» أحد أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: (كنت أسلمت استحياء من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكثرة ما كان يعرض علىّ الإسلام، و لم يقر الإسلام فى قلبى، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنّه يستفهم شيئا، فلمّا سرّى عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بيّنا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل فى الهواء فأتانى بهذه الآية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ و قرأها علىّ إلى آخرها، فقّر الإسلام فى قلبى. و أتيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۳۰۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۱

عمّه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش، اتبعوا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ترشدوا، فإنّه لا يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق، و أتيت الوليد بن المغيرة و قرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمّد قاله فنعم ما قال، و إن قاله ربّه فنعم ما قال)[۱۸۳].

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة فقال: (يا ابن أخى ۱۸۴] أعد، فأعاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال الوليد: إنّ له الحلاوة، و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر، و إنّ أسلفه لمغدق، و ما هو قول البشر)[۱۸۵].

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «جماع التقوى فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ ۱۸۶].

و نستفيد من هذه الأحاديث- و أحاديث أخرى أنّ الآية تعتبر دستور عمل إسلامى عام، و تمثل أحد مواد القانون الأساسى للإسلام فى كل زمان و مكان، حتى

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه كان يقرأ الآية المباركة قبل الانتهاء من خطبة الجمعة ثمّ يقول بعدها: «اللّهم اجعلنا ممن يذكر

فتنفعه الذكرى»[۱۸۷] ثمّ ينزل من على المنبر.

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، و الإحسان، و إيتاء ذى القربى»، و مكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء و المنكر، و البغى» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرّة بالخير، و هادئة من كل اضطراب، و خالية من أى سوء و فساد، و إذا روى عن ابن مسعود (الصحابى المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية فى كتاب اللّه للخير و الشر) فهو للسبب الذى ذكرناه.

و يذكرنا محتوى الآية المباركة بالحديث

المروى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۲

«صنفان من أمّتى إذا صلحا صلحت أمتى، و إذا فسدا فسدت أمتى، فقيل: يا رسول اللّه، من هما؟ قال: الفقهاء و الأمراء».

و

ذكر المحدّث القمّى فى (سفينة البحار) حديثا بعد نقله لهذا الحديث مرويا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «تكلم النّار يوم القيامة ثلاثة: أميرا، و قارئا، و ذا ثروة من المال، فتقول للأمير: يا من وهب اللّه له سلطانا فلم يعدل، فتزدرده كما تزدرد الطير حبّ السمسم، و تقول للقارئ: يا من تزين للناس و بارز اللّه بالمعاصى، فتزدرده، و تقول للغنى: يا من وهب اللّه له دنيا كثيرة واسعة فيضا و سأله الحقير اليسير قرضا، فأبى إلّا بخلا، فتزدرد؟

و قد بحثنا موضوع العدالة باعتبارها ركنا إسلاميا مهمّا جدّا ضمن تفسيرنا للآية (۸) من سورة المائدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۱ الى ۹۴]

اشارة

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۹۱) وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۹۲) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۳) وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۹۴)

سبب النّزول

يقول المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) فى شأن نزول أوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۴

آية من هذه الآيات أنّها نزلت فى الذين بايعوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على الإسلام (و كان من المحتمل أن ينقض بعضهم البيعة لقلّة المسلمين و كثرة الأعداء)، فقال سبحانه مخاطبا لهم لا يحملنّكم قلّة المسلمين و كثرة المشركين على نقض البيعة.

التّفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان:

بعد أن عرض القرآن الكريم فى الآية السابقة بعض أصول الإسلام الأساسية (العدل، و الإحسان، و ما شابههما)، يتناول فى هذه الآيات قسما آخر من تعاليم الإسلام المهمّة (الوفاء بالعهد و الأيمان).

يقول أوّلا: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ثمّ يضيف: وَ لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ

إنّ ظاهر معنى «عهد اللّه»- مع كثرة ما قال المفسّرون فيه- و هو: العهود التى يبرمها الناس مع اللّه تعالى (و بديهى أنّ العهد مع النّبى عهد مع اللّه أيضا)، و عليه فهو يشمل كل عهد إلهى و بيعة فى طريق الإيمان و الجهاد و غير ذلك.

بل إنّ التكاليف الشرعية التى يعلنها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم هى من نوع من العهد الإلهى الضمنى، و كذا الحال بالنسبة للتكاليف العقلية، لأنّ إعطاء العقل و الإدراك من اللّه عزّ و جلّ للإنسان إنّما يرافقه عهد ضمنى، و هكذا يدخل الجميع فى المفهوم الواسع لعهد اللّه.

أمّا مسألة «الأيمان» (جمع يمين، أىّ: القسم) التى وردت فى الآية- و التى عرض فيها المفسّرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، و يتّضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث أنّه يشمل العهود التى يعقدها الإنسان مع اللّه عزّ و جلّ، بالإضافة إلى ما يستعمله من أيمان فى تعامله مع خلق اللّه.

و بعبارة أخرى: يدخل بين إطار هذه الجملة كل عهد يبرم تحت اسم اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۵

و باستعمال صيغة القسم، و ما يؤكّد ذلك ما تبعها من عبارة تفسيرية تأكيدية وَ قَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا.

و نتيجة القول: أنّ جملة أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ خاصّة، و جملة لا تَنْقُضُوا الْأَيْمانَ عامّة.

و حيث أنّ الوفاء بالعهد أهم الأسس فى ثبات أىّ مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره بأسلوب يتسم بنوع من اللوم و التوبيخ، فتقول: وَ لا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكاثاً[۱۸۸].

و الآية تشير إلى (رابطة) تلك المرأة التى عاشت فى قريش زمن الجاهلية، و كانت هى و عاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار فى غزل ما عندهن من الصوف و الشعر، و بعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، و لهذا عرفت بين قومها ب (الحمقاء).

فما كانت تقوم به (رابطة) لا يمثل عملا بالا ثمر- فحسب- بل هو الحماقة بعينها، و كذا الحال بالنسبة لمن يبرم عهدا مع اللّه و باسمه، ثمّ يعمل على نقضه، فهو ليس بعابث فقط، و إنّما هو دليل على انحطاطه و سقوط شخصيته.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: تَتَّخِذُونَ أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّةٍ[۱۸۹]، أى لا تنقضوا عهودكم مع اللّه بسبب أنّ تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانة الفساد.

و هذا دليل على ضعف شخصية الفرد، أو نفاقه و خيانته حينما يرى كثرة أتباع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۶

المخالفين فيترك دينه القويم و ينخرط فى المسالك الباطلة التى يتبعها الأكثرية.

و اعلموا إِنَّما يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ

و اليوم الذى تكونون فيه كثرة و أعداءكم قلة ليس بيوم اختبار و امتحان، بل امتحانكم فى ذلك اليوم الذى يقف فيه عدوكم أمامكم و هو يزيدكم عددا بأضعاف مضاعفة و أنتم قلّة.

و على أية حال .. ستتّضح النتيجة فى الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل:

وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ من هذا الأمر و غيره.

و الآية التالية تجيب على توهم غالبا ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهى و التأكيد على الالتزام بالعهود و الوظائف، و خلاصته: هل أنّ اللّه لا يقدر على إجبار الناس جميعا على قبول الحق؟ فتقول: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً.

«أمّة واحدة» من حيث الإيمان و العمل على الحق بشكل إجبارى، و لكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل و التسامى و لا فيه أفضلية للإنسان فى قبوله الحق، و عليه فقد جرت سنّة اللّه بترك الناس أحرارا ليسيروا على طريق الحق مختارين.

و لا تعنى هذه الحرية بأنّ اللّه سيترك عباده و لا يعينهم فى سيرهم، و إنّما بقدر ما يقدمون على السير و المجاهدة سيحصلون على التوفيق و الهداية و السداد منه جل شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الرّبانية، فتراهم كلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالا.

و لهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ.

و لكنّ الهداية الإلهية أو الإضلال لا تسلب المسؤولية عنكم، حيث أنّ الخطوات الأولى على عواتقكم، و لهذا يأتى النداء الربانى: وَ لَتُسْئَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۷

تَعْمَلُونَ

و تشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، و تؤكّد على تحميلهم مسئولية تلك الأعمال، و تعتبر من القرائن الواضحة فى تفسير مفهوم الهداية و الإضلال الإلهيين و أن أيّا منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبدا.

و قد بحثنا هذا الموضوع سابقا (راجع تفسير الآية (۲۶) من سورة البقرة).

و تأكيدا على مسألة الوفاء بالعهد و الثبات فى الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمّة فى ثبات المجتمع) يقول القرآن: وَ لا تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أى وسيلة للخداع و النفاق، لأنّ فى ذلك خطرين كبيرين:

الأوّل: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها، لأنّ من يبرم عهدا أو يطلق قسما و نيته أن لا يفى بذلك فسوف لا يعول عليه الناس و لا يثقون به، و مثله كمن وضع قدمه على أرض قد بدت له أنّها صلبة و محكمة، إلّا أنّها زلقة فى الواقع، و ستكون سببا فى انزلاقه و سقوطه.

الثّانى: وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فى هذه الدنيا وَ لَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ فى الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود و الأيمان شياع سوء ظن الناس و تنفرهم من الدين الحق، و تشتت الصفوف و فقدان الثقة حتى لا يرغب الناس فى الإسلام، و إن عقدوا معكم عهدا فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، و هذا ما يؤدى لمساوى، و مفاسد كثيرة و بروز حالة التخلف فى الحياة الدنيا.

و أمّا على صعيد الحياة الأخرى فإنه سيكون سببا للعقاب بالعذاب الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۸

بحثان

۱- فلسفة احترام العهد

كما هو معلوم فإنّ الثقة المتبادلة بين أفراد المجتمع تمثل أهم دعائم رسوخ المجتمع، بل من دعائم تشكيل المجتمع و إخراجه من

حالـة الآحاد المتفرقـة و إعطائه صـفة التجمع، و بالإضافـة لكون أصل الثقـة المتبادلة يعتبر السـند القويم للقيام بالفعاليات الاجتماعية و التعاون على مستوى واسع.

و العهـد و القسم من مؤكـدات حفظ هـذا الارتباط و هـذه الثقـة، و إذا تصورنا مجتمعا كان نقض العهـد فيه هو السائـد، فمعنى ذلك انعـدام الثقـة بشـكل عـام فى ذلـك المجتمع، و عنـدها سوف يتحول المجتمع الى آحـاد متنـاثرة تفتقـد الارتبـاط و القـدرة و الفاعلية الاجتماعية.

و لهـذا نجـد أنّ الآيات القرآنيـة و الأحاديث الشـريفة تؤكّـد باهتمام بالغ على مسألـة الوفاء بالعهد و الأيمان، و تعتبر نقضـها من كبائر الذنوب.

و قد أشار أمير المؤمنين عليه السّلام إلى أهمية هذا الموضوع فى الإسلام و الجاهلية و اعتبره من أهم المواضيع فى

قوله عنـد عهده لمالك الأشتر «فإنّه ليس من فرائض اللّه شـىء الناس أشد عليه اجتماعا من تفرق أهوائهم و تشـتت آرائهم، من تعظيم الوفاء بالعهود، و قد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر»[۱۹۰].

و نجد فى أحكام الحرب الإسـلامية أنّ إعطاه الأمان من قبل فرد واحد من جيش المسـلمين لشخص أو كتيبة من كتائب العدو يوجب مراعاة ذلك على كل المسلمين! يقول المؤرخون و المفسّرون: من جملة الأمور التى جعلت الكثير من الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۰۹

فى صدر الإسلام يعتنقون هذا الدين الإلهى العظيم هو التزام المسلمين الراسخ بالعهود و المواثيق و رعايتهم لأيمانهم.

و ما لهذا الأمر من أهمية بحيث دفع سلمان الفارسى لأن يقول: (تهلك هذه الأمّة بنقض مواثيقها)[۱۹۱].

أى أنّ الوفاء بالعهد و الميثاق كما أنّه يوجب القدرة و النعمة و التقدم، فنقضهما يؤدى إلى الضعف و العجز و الهلاك.

و نجد فى التأريخ الإسـلامى أنّ المسلمين عند ما غلبوا جيش الساسانيين فى عهد الخليفة الثّانى و أسروا الهرمزان قائد جيش فارس، و جاؤوا به إلى عمر، قال له عمر: ما حجتك و ما عذرك فى انتقاضك مرّة بعد أخرى؟

فقال: أخاف أن تقتلنى قبل أن أخبرك.

قال: لا تخف ذلك، و استسقى ماء فأتى به فى قدح غليظ.

فقال: لو مت عطشا لم أستطع أن أشرب فى مثل هذا! فأتى به فى إناء يرضاه ..

فقال: إنّى أخاف أن أقتل و أنا أشرب.

فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه، فأكفأه ...

فقال عمر: أعيدوا عليه و لا تجمعوا عليه بين القتل و العطش ..

فقال: لا حاجة لى فى الماء، إنّما أردت أن أستأمن به.

فقال عمر له: إنّى قاتلك.

فقال: قد أمنتنى.

فقال: كذبت.

قال أنس: صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته.

فقال عمر: يا أنس، أنا أؤمن قالت مجزأة بن ثور، و البراء بن مالك! و للّه لتأتّين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۰

بمخرج أو لأعاقبنّك.

قال: قلت له: لا بأس عليك حتى تخبرنى، و لا بأس عليك حتى تشربه ..

و قال له من حوله مثل ذلك ...

فأقبل على الهرمزان و قال: خدعتنى، و اللّه لا أنخدع إلّا أن تسلم فأسلم ۱۹۲].

۲- ما لا يقبل فى نقض العهود:

إنّ قبح نقض العهد الشناعة بحيث لا أحدا على استعداد لأن يتحمل مسئولية بصراحة إلّا النادر من الناس حتى أن ناقض العهد يلتمس لذلك اعذارا و تبريرات مهما كانت واهية لتبرير فعلته. و قد ذكرت لنا الآيات أعلاه نموذجا لذلك .. فبعض المسلمين يتذرعون بحجج واهية ككثرة الأعداء و قلة المؤمنين للتنصل من عهودهم مع اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتكون مواقفهم متزلزلة، فى حين أنّ الأكثرية من حيث العدد لا تمثل القدرة و القوة فى واقع الحال، و انتصار القلّة المؤمنة على الكثرة غير المؤمنة من الشواهد المعروفة فى تأريخ البشرية، ثمّ إنّ حصول القدرة و القوة للأعداء- على فرض حصولها- لا- تسوغ لأن تكون مبررا مقبولا- لنقض العهد، و لو دققنا النظر فى الإمر لرأينا فى واقعة أنّه نوع من الشرك و الجهل باللّه عزّ و جلّ.

و قد تجسّد هذا الموضوع بعينه فى عصرنا الحاضر و لكن بصورة أخرى ..

فقسم من الدول الإسلامية الصغيرة فى الظاهر قد تنصلت عن أداء وظائفها فى نصرة المؤمنين لخوفها من الدول الاستعمارية الكبرى، فتقدم فى حساباتها قدرة البشر الهزيلة على قدرة اللّه المطلقة، و تلتجئ إلى غير اللّه و تخشى غيره، و تنقض عهدها مع بارئها، و كل ذلك من بقايا الشرك و عبادة الأصنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۱

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۵ الى ۹۷]

اشارة

وَ لا- تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹۵) ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۶) مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۹۷)

سبب النّزول

نقل المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى عن ابن عباس قوله: إنّ رجلا من حضر موت يقال له عيدان الأشرع قال: يا رسول اللّه، إنّ امرأ القيس الكندى جاورنى فى أرضى فاقتطع من أرضى فذهب بها منّى، و القوم يعلمون إنّى لصادق، و لكنّه أكرم عليهم منّى، فسأل رسول اللّه أمرا القيس عنه فقال: لا- أدرى ما يقول، فأمره أن يحلف. فقال عيدان: إنّه فاجر لا يبالى أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه، فلما ذا قال ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله:

وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ... الآيتان فلمّا قرأهما رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال امرؤ القيس: أمّا ما عندى فينفد و هو صادق فيما يقول، لقد اقتطعت أرضه و لم أدركم هى، فليأخذ من أرضى ما شاء و مثلها معها بما أكلت من ثمرها، فنزل فيه مَنْ عَمِلَ صالِحاً ... الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۲

التّفسير

ثمن الحياة الطيبة:

جاءت الآيـة الأولى من هـذه الآيات لتؤكّـد على قبـح نقض العهد مرّة أخرى و لتبيّن عذرا آخرا من أعذار نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقـة إلى عـذر الخوف من كثرة الأعـداء تأتى هذه الآية لتطرح ما للمصـلحة الشخصـية (المادية) من أثر سـلبى على حياة الإنسان.

و لهذا تقول: وَ لا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلًا.

أى إنّ قيمة الوفاء بعهد اللّه لا تدانيها قيمة، و لو استلمتم زمام ملك الدنيا بأسرها فإنّه لا يساوى قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد اللّه.

و تضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: إِنَّما عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و يبيّن القرآن فى الآيـة التالية سـبب الأفضـلية بقوله: ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ لأنّ المنافع المادية و إن بدت كبيرة فى الظاهرة، إلّـا أنّهـا لاـ تعـدو أن تكون فقاعات على سـطح ماء، فى حين أنّ الجزاء و الثواب الإلهى النابع من ذات اللّه المطلقـة المقدسـة أعلى و أفضل من كل شىء.

ثمّ يضيف قائلا: وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ و على الأخص فى الثبات على العهد و الأيمان- بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير ب «أحسن» دليـل على أنّ أعمـالهم الحسـنة ليست بدرجـة واحـدة، فبعضـها حسن و البعض الآخر أحسن، و لكنّ اللّه تعالى يجزى الجميع بـأحسن مـا كانوا يعملون، و هو ذروة اللطف و الرحمـة الربانيـة، كما لو مثلنا لـذلك فى مثل من حياتنا كأن يعرض بائع أنواعـا من البضائع المتفاوتـة فى النوعيـة، فقسم منها بضائع جيـدة، و قسم آخر بضائع رديئـة، و البقيـة بين الإثنين، فيأتى مشترى ليأخذ الجميع بسعر النوعية الجيدة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۳

و لاـ تخلو جملـة وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ... من الإشارة إلى أنّ الصبر و الثبات فى السـير على طريق الطاعـة، و خصوصا حفظ العهود و الإيمان هى من أفضل أعمال الإنسان.

و

قـد روى عن على عليه السّـلام قوله: «الصبر من الإيمـان كـالرأس من الجسـد، و لاـ خير فى جسـد لا رأس معه، و لا فى إيمان لا صبر معه»[۱۹۳].

ثمّ يبيّن القرآن الكريم بعـد ذلك- على صورة قانون عام- نتائـج الأعمال الصالحـة المرافقـة للإيمان التى يؤديها الإنسان و بأية صورة كانت فى هـذه الدنيا و فى الآخرة، فيقول: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و عليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحة الناتجة عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانة الاجتماعية أو ما شابه ذلك فى هذا الأمر.

و «الحياة الطيبـة» فى هذه الدنيا هى النتاج الطبيعى للعمل الصالح النابع من الإيمان، أى أنّ المجتمع البشـرى سـيعيش حينها حياة هادئة مطمئنـة ملؤها الرفاه و السـلم و المحبّـة و التعاون، بل و كل ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانيـة، و فى أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار و الظلم و الطغيان و عبادة الأهواء و الأنانية التى تملأ الدنيا ظلاما و ظلامات.

و علاوة على كل ما تقدم فإنّ اللّه سيجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون (كما تقدم تفسيره).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۴

بحوث

۱- منابع الخلود

إنّ طبیعة الحیاة فی هذا العالم المادی هی الفناء و الهلاک، فأقوی الأبنیة و أکثر الحکومات دواما و أشد البشر قدرة لا یعدون أن یصیروا فی نهایة أمرهم إلی الضعف فالفناء، و کل شیء معرض للتلف بلا استثناء فی هذا الأمر.

أمّا لو تمکنت الکائنات من أن توجد لها ارتباطا علی نحو ما مع الذات الإلهیة المقدسة، و تبقی تعمل لأجلها و فی سبیلها، فإنّها و الحال هذه ستصطبغ بصبغة الخلود، لأنّ ذات اللّه المقدسة أبدیة و أزلیة و کل من ینتسب الیه یحصل علی صبغة الأبدیة.

فالأعمال الصالحة أبدیة، الشهداء لهم حیاة أبدیة، و الأنبیاء و العلماء المخلصون و المجاهدون فی سبیل اللّه یبقی ذکرهم خالدا فی ذاکرة التاریخ ..

لأنّهم یحملون الصبغة الإلهیة.

و لهذا، تذکّرنا الآیات أعلاه و تدعونا لأن ننفذ ذخائر وجودنا من الفناء، و نودعها فی صندوق لا تطاله ید الزمان و لا تفنیه اللیالی و الأیّام.

فهلموا لبذل الطاقات فی سبیل اللّه و فی خدمة خلق اللّه، و کسب رضا الباری، لتصبح من مصادیق «عند الله» و لتکون باقیة بمقتضی ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ

و

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث:

صدقة جاریة، علم ینتفع به، و ولد صالح یدعو له»[۱۹۴].

و

عن علی علیه السّلام أنّه قال: «شتّان ما بین عملین: عمل تذهب لذته و تبقی تبعته، و عمل تذهب مؤنته و یبقی أجره»[۱۹۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۵

۲- التساوی بین الرجل و المرأة

ممّا لا شک فیه أنّ بین الرجل و المرأة تفاوت و اختلاف من الناحیتین الجسمیة و الروحیة، و هذا الفرق هو الذی جعلهما مختلفین فی وظائفها و شؤونهما الاجتماعیة، إلّا أنّ طبیعة الاختلاف الموجود لا تنعکس علی الشخصیة الإنسانیة، و لا توجد اختلافا فی مقامهما عند اللّه عزّ و جل، فهما فی هذا الجانب متساویان و متکافئان، و یحکم شخصیة أی منهما مقیاس واحد ألا و هو الإیمان و العمل الصالح و التقوی، و إمکانیة تحصیل ذلک لأیّ منهما متساویة.

إنّ الآیات أعلاه قد بیّنت هذه الحقیقة بکل وضوح لتخرس الأفواه المشککة فی الطبیعة الإنسانیة للمرأة فی الماضی و الحاضر، و لترد بقوّة أولئک الذین یعطون للمرأة مقاما أقل و رتبة أنزل من الناحیة الإنسانیة نسبة إلی الرجل، و قد أعلنت الآیات المنطق الإسلامی فی هذه المسألة الاجتماعیة المهمّة، فقالت: إنّ الإسلام خلافا لقاصری الفکر لیس دین الرجال، فهو یخص المرأة بنفس القدر الذی

يخص الرجل.

فمن عمل صالحا و هو مؤمن رجلا ـ كان أو امرأة، فله الحياة الطيبة: و سينال ثواب اللّه تعالى من غير تمايز فى الجنس، و لا تفاضل بينهما إلّا من خلال ما يتفوق أىّ منهما على الآخر من حيث الإيمان و العمل الصالح.

۳- جذور العمل الصالح ترتوى من الإيمان

العمل الصالح: مصطلح له من سعة المفهوم ما يضم بين طياته جميع الأعمال الإيجابية و المفيدة و البناءة على كافة أصعدة الحياة العلمية و الثقافية و الاقتصادية و السياسية و العسكرية ... إلخ.

و يشمل: الاختراع الذى يبذل فيه العالم جهده سنوات طويلة من أجل خدمة الإنسانية .. جهاد الشهيد الذى حمل روحه على كفه و خاض ساحة الصراع بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۶

الحق و الباطل فبذل دمه الشريف فى سبيل اللّه .. الآلام التى تتحملها الأمّ المؤمنة عند الولادة و ما تواجه من صعاب فى تربية أبنائها .. و تشمل ما يعانيه العلماء فى تحرير كتبهم الثمينة.

و تشمل أيضا: أعظم الأعمال، كحمل رسالة النبوة .. و أقل و أصغر الأعمال، كرفع حجر صغير من طريق المارة، نعم، فكل ما ذكره يدخل ضمن مفهوم العمل الصالح.

و الحال هذه .. يواجهنا «السؤال» الآتى: لما ذا قيّد العمل الصالح بشرط الإيمان، فى حين يمكن أداؤه بدون هذا الشرط، و الساحة البشرية فيها كثير من الشواهد التى تحكى ذلك؟

و «الجواب» ينصب على تبيان مسألة واحدة، ألا ـ و هى (الباعث الإيمانى)، فإن لم يحرز هذا الباعث فغالبا ما تكون الأعمال المنجزة ملوّثة (و قد تشد عن هذه القاعدة العامّة بعض المتفرقات هنا و هناك)، و أمّا إذا ارتوت جذور شجرة العمل الصالح من ماء التوحيد و الإيمان باللّه، فنادرا ما يصيب هذا العمل آفات مثل: العجب، و الرياء، الغرور، التقلب، المنّة .. إلخ، و لذلك نرى القرآن الكريم غالبا ما يربط بين هذين الأمرين، لما لارتباطهما من واقعية.

و نوضح المسألة فى مثال: لو افترضنا أنّ شخصين أرادا بناء مستشفى، أحدهما يدفعه الباعث الإلهى لخدمة خلق اللّه، و الآخر هدفه التظاهر بالعمل الصالح و الحصول على السمعة و المكانة الاجتماعية المرموقة.

و فى النظرة الأولى و بتفكير سطحى يمكننا أن نقول- إنّ المستشفى ستقام، و سيستفيد الناس من عملهما على السواء، و صحيح أن أحدهما سيحصل على الثواب، الإلهى و الآخر لا يحصل عليه، و لكنّ ظاهر عمليهما لا اختلاف فيه.

و كما قلنا فإنّ هذا القول ناتج عن رؤية سطحية للموضوع، أمّا لو أمعنا النظر لرأينا أنّهما مختلفان من جهات متعددة، فعلى سبيل المثال: إنّ الشخص الأوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۷

سينتخب مكانا لمستشفاه يكون قريبا من أكثر طبقات المنطقة فقرا و حرمانا، و لربّما تكون فى محلة غير معروفة و منزوية، أمّا الشخص الثّانى فإنّه سيبحث عن منطقة أكثر شهرة حتى و إن كانت حاجتها للمستشفى قليلة جدّا.

و سيسعى الشخص الأوّل فى انتخاب مواد البناء و طريقته بما يلحظ فيه المستقبل البعيد، و يحكم أساس البناء ليصمد البناء لسنين طويلة، أمّا الشخص الآخر فإنّه سيحاول أن يسرع فى البناء و تعجيل افتتاح المستشفى و يكثر الضجيج و الإعلام لينال مراده. و سيجدّ الأوّل فى إحكام باطن العمل فى حين أنّ الثّانى سيهتم بمظهره و رونقه. و عند انتخاب الأقسام الطبية، الأطباء، الممرضين و سائر

احتياجات المستشفى، فثمّة اختلاف كبير بين الشخصين، فاختلاف النيّة يترك أثره على جميع مراحل و شؤون العمل و بعبارة أخرى: إنّ العمل يصطبغ بصبغة النيّة.

۴- ما هى الحياة الطيبة؟

لقد ذكر المفسّرون فى معنى الحياة الطيبة تفاسير عديدة:

فبعض فسرها ب: الرّزق الحلال.

و بعض ب: القناعة و الرضا بالنصيب.

و بعض ب: الرزق اليومى.

و بعض ب: العبادة مع الرزق الحلال.

و بعض ب: التوفيق لطاعة أوامر اللّه ... و ما شابه ذلك.

و لعله لا حاجة بنا للتذكير بأن مفهوم الحياة الطيبة من السعة بحيث يشمل كل ما ذكروه و غيره، فالحياة الطيبة بجميع جهاتها، و خالية من التلوثات و الظلم و الخيانة و العداوة و الذل و كل ألوان الآلام و الهموم، و فيها ما يجعل حياة الإنسان صافية كماء زلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۸

و بملاحظة تعبير الآية عن الجزاء الإلهى وفق أحسن الأعمال، ليفهم من ذلك أنّ الحياة الطيبة ترتبط بعالم الدنيا بينما يرتبط الجزاء بالأحسن بعالم الآخرة.

و

عند ما سئل أمير المؤمنين عليه السّلام عن قوله تعالى: فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً، قال:

«هى القناعة»[۱۹۶].

و لا شك أنّ هذا التّفسير لا يعنى حصر معنى الحياة الطيبة بالقناعة، بل هو بيان لأحد مصاديقها الواضحة جدّا، حيث أنّ الإنسان لو أعطيت له الدنيا بكاملها و سلبت منه روح القناعة فإنه- و الحال هذه- سيعيش دائما فى عذاب و ألم و حسرة، و بعكس ذلك، فإذا امتلك الإنسان القناعة و ترك الحرص و الطمع، فإنّه سيعيش مطمئنا راضيا على الدوام.

و قد ورد فى روايات أخرى تفسير الحياة الطيبة بمعنى الرضا بقسم اللّه، و هذا المعنى قريب الأفق مع القناعة.

و ينبغى أن لا نعطى لهذه المفاهيم صفة تخديرية أبدا، و إنّما الهدف الواقعى من بيان الرضا و القناعة هو القضاء على الحرص و الطمع و اتباع الهوى فى نفس الإنسان، التى تعتبر من العوامل المؤثرة فى إيجاد الاعتداءات و الاستغلال و الحروب و إراقة الدماء، و المسببة للذل و الأسر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰]

اشارة

فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (۹۸) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۹۹) إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (۱۰۰)

التّفسير

اقرأ القرآن هكذا:

لم يفت ذاكرتنا ما ورد قبل عدّة آيات أنّ القرآن تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ ثمّ تمّ البحث عن قسم من أهم الأوامر الإلهية فى القرآن.

و تبيّن الآيات مورد البحث طريقة الاستفادة من القرآن و تتطرق إلى كيفية تلاوته، فكثافة المحتوى القرآنى لا تكفى وحدها لتوجيهنا، و لا بد من رفع الحجب المخيمة على وجودنا و إزالتها عن محيط فكرنا و روحنا، كى نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغنى.

و لهذا يقول القرآن: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ

و لا يقصد من الاستعاذة الاكتفاء بذكر بل ينبغى لها أن تكون مقدمة لتحقيق و إيجاد الحالة الروحية المطلوبة .. حالة: التوجه إلى اللّه عزّ و جلّ، الانفصال عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۰

هوى النفس و العناد المانع للفهم و الدرك الصحيح للإنسان، البعد عن التعصبات و الغرور و حبّ الذات و محورية الذات التى تضغط على الإنسان ليسخر كل شىء (حتى كلام اللّه) فى تحقيق رغباته المنحرفة.

و إن لم تتحقق للإنسان هذه الحالة فسيتعذر عليه إدراك الحقائق القرآنية، و ربّما سيجعل القرآن وسيلة لتبرير آرائه و رغباته الملوّثة بالشرك بواسطة «تفسير بالرأى».

و تأتى الآية التالية لتكون دليلا على ما جاء فى الآية التى قبلها: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ لأنّهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعة دون أمر اللّه!

***

بحوث

۱- موانع المعرفة

مع كل ما للحقيقة من ظهور و وضوح فإنّها لا تلحظ إلّا بعين باصرة، و بعبارة أخرى، ثمة شرطان لمعرفة الحقائق:

الأوّل: وضوح الحقيقة.

الثّانى: وجود وسيلة للنظر إليها و إدراكها.

فهل يمكن للأعمى أن يرى قرص الشمس يوما ما مع البقاء على حالة العمى؟ و هل يمكن للأصم أن يسمع نغمات هذا العالم الجميلة؟ فكذا الحال بالنسبة لفاقد البصيرة الثاقبة و الأذن السميعة، فإنّه محروم من رؤية جلال الحق، و محروم من سماع آياته الرائعة.

و لكن، لما ذا يفقد الإنسان قدرته على المعرفة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۱

لأنّه قد أوجد الأحكام المسبقة الخاطئة عنده، و سمح للأهواء النفسية.

و التعصبات العمياء المتطرفة أن تتغلب على توجهه، و وقع فى أسر الذات و الغرور، و لوث صفاء قلبه و طهارة روحه بأمور قد جعلها موانع أمام فهم و إدراك الحقائق.

و

جاء فی الحدیث الشریف: «لو لا أنّ الشیاطین یحومون حول قلوب بنی آدم لنظروا إلی ملکوت السماوات».

فأوّل شرط ینبغی تحقیقه لمن رام السیر علی طریق الحق هو تهذیب النفس و امتلاک التقوی، و بدون ذلک یقع الإنسان فی ظلمات الوهم فیضل الطریق.

و یشیر القرآن الکریم لهذه الحقیقة ب هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

و کم من أناس طلبوا آیات القرآن بتعصب و عناد و أحکام مسبقة (فردیة أو اجتماعیة) و حملوا القرآن بما یریدون لا بما یریده القرآن، فازدادوا ضلالا بدلا من أن یکون القرآن هادیا لهم (و طبیعی أنّ القرآن بآیاته و حقائقه الناصعة لا یکون وسیلة للإضلال، و لکنّ أهواءهم و عنادهم هو الذی جرّهم لذلک) و الآیتان (۱۲۴ و ۱۲۵) من سورة التوبة تبیّن لنا هذه الحالة بکل وضوح: فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِیماناً وَ هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ وَ أَمَّا الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَی رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ کافِرُونَ

فالمقصود بالآیة عدم الاکتفاء بذکر (أعوذ باللّه من الشیطان الرجیم) بل ینبغی أن نجعل من هذا الذکر فکرا، و من الفکر حالة داخلیة، و عند ما نقرأ آیّة نستعیذ باللّه من أن تستحوذ وساوس الشیطان علینا، أو أن تحول بیننا و بین کلام اللّه جل و علا.

۲- لما ذا یکون التعوذ «من الشیطان الرجیم»؟

«الرجیم»: من (رجم)، بمعنی الطرد، و هو فی الأصل بمعنی الرمی بالحجر ثمّ استعمل فی الطرد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۲

و نلاحظ ذکر صفة طرد الشیطان من دون جمیع صفاته، للتذکیر بتکبّره علی أمر اللّه حین أمره بالسجود و الخضوع لآدم، و إنّ ذلک التکبّر الذی دخل الشیطان بات بمثابة حجاب بینه و بین إدراک الحقائق، حتی سولت له نفسه أن یعتقد بأفضلیته علی آدم و قال: أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ

فکان ذلک العناد و الغرور سببا لتمرده علی أمر اللّه عزّ و جلّ ممّا أدی لکفره و من ثمّ طرده من الجنّة.

و کأنّ القرآن الکریم یرید أن یفهمنا باستخدامه کلمة «الرجیم» بضرورة الاحتیاط و الحذر من الوقوع فی حالة التکبّر و الغرور و التعصب عند تلاوة آیات اللّه الحکیم، لکی لا نقع بما وقع به الشیطان من قبل، فنهوی فی وحل الکفر بدلا من إدراک و فهم الحقائق القرآنیة.

۳- بین لوائی الحقّ و الباطل

قسمت الآیات أعلاه الناس إلی قسمین: قسم یرزح تحت سلطة الشیطان و قسم خارج عن هذه السلطة، و بیّنت صفتین لکلّ من هذین القسمین:

فالذین هم خارج سلطة الشیطان: مؤمنون و متوکلون علی اللّه عزّ و جلّ، أی أنّهم من الناحیة الاعتقادیة عباد للّه، و من الناحیة العملیة یعیشون مستقلین عن کل شیء سوی اللّه، و یتوکلون علیه لا علی البشر أو علی الأهواء و التعصبات.

أمّا الذین یرزحون تحت سلطة الشیطان، فقائدهم الشیطان یَتَوَلَّوْنَهُ و هو مشرکون، لأنّ أعمالهم تشیر إلی تبعیتهم للشیطان و أوامره کشریک للّه جل و علا.

و ثمة من یسعی لأن یکون من القسم الأوّل، و لکنّ ابتعاده عن المربّین الإلهیین، أو الضیاع فی محیط فاسد، أو أیّ أسباب أخری،

تؤدی الی سقوطه فی وحل القسم الثّانی.

و علی أیّة حال، فالآیة تؤکّد حقیقة أنّ سلطة الشیطان لیست إجباریة علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۳

الإنسان، و لا یتمکن من التأثیر علی الإنسان من دون أن یمهد الإنسان السبیل لدخول الشیطان فی نفسه، و یعطیه إجازة المرور من بوابة قلبه.

۴- آداب تلاوة القرآن:

کل شیء یحتاج الی برنامج معین و لا یستثنی کتاب عظیم- کالقرآن الکریم- من هذه القاعدة، لذلک فقد ذکر فی القرآن بعض الآداب و الشروط لتلاوة کلام اللّه و الاستفادة من آیاته:

۱- یقول تعالی أوّلا: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و یمکن أن یشیر هذا التعبیر إلی الطهارة الظاهریة، کأن یکون مس کتابة القرآن مشروط بالطهارة و الوضوء، و کذا الإشارة إلی إمکان تیسر الوصول لفهم محتوی آیات القرآن من خلال تطهیر النفس من الرذائل الأخلاقیة، لأنّ الصفات القبیحة تمنع من مشاهدة جمال الحق باعتبارها حجابا مظلما بین الإنسان و الحقائق.

۲- یجب الاستعاذة باللّه من الشیطان الرجیم قبل الشروع بتلاوة آیات اللّه فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّیْطانِ الرَّجِیمِ

و عند ما سئل الإمام الصادق علیه السّلام عن طریقة العمل بهذا القول،

یروی أنّه قال: «قل أستعیذ بالسمیع العلیم من الشیطان الرجیم».

و

فی روایة أخری، عند تلاوته علیه السّلام لسورة الحمد قال: «أعوذ باللّه السمیع العلیم من الشیطان الرجیم و أعوذ باللّه أن یحضرون».

و کما قلنا، فإنّ التلفظ- فقط- فی الاستعاذة لا یغنی من الحق شیئا، ما لم تنفذ الاستعاذة إلی أعماق الروح بشکل ینفصل فیه الإنسان عند التلاوة عن إرادة الشیطان، و یقترب من الصفات الإلهیة، لترتفع عن فکره موانع فهم کلام الحق، و لیری جمال الحقیقة بوضوح تام.

فالاستعاذة باللّه من الشیطان- إذن- لازمة قبل الشروع بالتلاوة، و مستمرّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۴

مع التلاوة إلی آخرها و إن لم یکن ذلک باللسان.

۳- تجب القراءة ترتیلا، أی مع التفکّر و التأمّل وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِیلًا[۱۹۷].

و

فی تفسیر هذه الآیة روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ القرآن لا یقرأ هزرمة و لکن یرتل ترتیلا، إذا مررت بآیة فیها ذکر النّار وقفت عندها و تعوّذت باللّه من النّار»[۱۹۸].

۴- و قد ورد الأمر بالتدبّر و التفکّر فی القرآن إضافة إلی الترتیل. حیث جاء فی الآیة (۸۲) من سورة النساء: أ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

و عن أبی عبد الرحمن السلمی قال: حدثنا من کان یقرئنا من الصحابة أنّهم کانوا یأخذون من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عشر آیات، فلا یأخذون فی العشر الأخر حتی یعلموا ما فی هذه من العلم و العمل.

و

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه»[۱۹۹].

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لقد تجلّى اللّه لخلقه فى كلامه و لكنّهم لا يبصرون»[۲۰۰].

(و لكنّ ذوى الضمائر الحيّة و العلماء المؤمنين، يستطيعون رؤية جماله المتجلّى فى كلامه جل و علا).

۵- على الذين يستمعون إلى تلاوة القرآن أن ينصتوا إليه بتفكّر و تأمّل وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۲۰۱].

و ثمة أحاديث شريفة تحث على قراءة القرآن بصوت حسن، لما له من فعل مؤثر فى تحسّس مفاهيمه، و لكنّ المجال لا يسمح لنا بتفصيل ذلك ۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۵]

اشارة

وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۰۱) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ (۱۰۲) وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۰۴) إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۰۵)

سبب النّزول

يقول ابن عباس: (كانوا يقولون: يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر و غدا يأمرهم بأمر، و إنّه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه).

التّفسير

الافتراء

تحدثت الآيات السابقة أسلوب الاستفادة من القرآن الكريم، و تتناول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۶

الآيات مورد البحث جوانب أخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، و تبتدئ ببعض الشبهات التى كانت عالقة فى أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ فهذا التغيير و التبديل يخضع لحكمة اللّه، فهو أعلم بما ينزل، و كيف ينزل، و لكن المشركين لجهلهم قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

و حقيقة الأمر أنّ المشركين لم يتوصلوا بعد لإدراك وظيفة القرآن و ما يحمل من رسالة، و لم يدخل فى تصوراتهم و أذهانهم أنّ القرآن فى صدد بناء مجتمع إنسانى جديد يسوده التطور و التقدم و الحرية و المعنوية العالية ... نعم، فأكثرهم لا يعلمون.

فبديهى و الحال هذه أن يطرأ على و صفة الدواء الإلهى لنجاة هؤلاء المرضى التغيير و التبديل تدرجا مع ما يعيشونه، فما يعطون اليوم يكمله الغد .. و هكذا حتى تتمّ الوصفة الشاملة.

فغفلة المشركين عن هذه الحقائق و ابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للاعتقاد بأنّ أقوال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تحمل بين ثناياها التناقض أو الافتراء على اللّه عزّ و جلّ! و إلّا لعلموا أنّ النسخ فى الأحكام جزء من أوامر و آيات القرآن المنظمة على شكل برنامج تربوى دقيق لا يمكن الوصول للهدف النهائى لنيل التكامل إلّا به.

فالنسخ فى أحكام مجتمع يعيش حالة انتقالية بين مرحلتين يعتبر من الضروريات العملية و الواقعية، فالتحول و الانتقال بالناس من مرحلة إلى أخرى لا يتم دفعة واحدة، بل ينبغى أنّ يمر بمراحل انتقالية دقيقة.

أ يمكن معالجة مريض مزمن فى يوم واحد؟

أو شفاء رجل مدمن على المخدرات لسنوات عديدة فى يوم واحد؟ أو ليس التدرج فى المعالجة من أسلم الأساليب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۷

و بعد الإجابة على هذه الأسئلة لا يبقى لنا إلّا أن نقول: ليس النسخ سوى برنامج مؤقت فى مراحل انتقالية.

(لقد بحثنا موضوع النسخ فى تفسير الآية (۳۶) من سورة البقرة- فراجع).

و تستمر الآية التالية بنفس الموضوع، و للتأكيد عليه تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ «روح القدس» أو (الرّوح المقدسة) هو أمين الوحى الإلهى «جبرائيل الأمين»، و بواسطته كانت الآيات القرآنية تتنزّل بأمر اللّه تعالى على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سواء الناسخ منها أو المنسوخ.

فكل الآيات حق، و هدفها واحد يتركز فى توجيه الإنسان ضمن التربية الرّبانية له، و ظروف و تركيبة الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة و المنسوخة فى العملية التربوية.

و لهذا، جاء فى تكملة الآية المباركة: لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ

يقول صاحب تفسير الميزان: إنّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين و الهدى و البشرى للمسلمين إنّما هو لما بين الإيمان و الإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب و نصيبه التثبيت فى العلم و الإذعان، و الإسلام فى ظاهر العمل و مرحلة الجوارح و نصيبها الاهتداء إلى واجب العمل و البشرى بأنّ الغاية هى الجنّة و السعادة.

و على أيّة حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية و السير فى طريق الهدى و البشرى لا بدّ من برامج قصيرة الأمد و مؤقتة، و بالتدريج يحل البرنامج النهائى الثابت محلها، و هو سبب وجود الناسخ و المنسوخ فى الآيات الإلهية.

و بعد أن فنّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة أخرى، أو على الأصح لذكر افتراء آخر لمخالفى نبى الرحمة صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۸

يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.

اختلف المفسّرون فى ذكر اسم الشخص الذى ادّعى المشركون أنّه كان يعلّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

فعن ابن عباس: أنّه رجل يدعى (بلعام) كان يصنع السيوف فى مكّة: و هو من أصل رومى و كان نصرانيا.

و اعتبره بعضهم: غلاما روميا لدى بنى حضرم و اسمه (يعيش) أو (عائش) و قد أسلم و أصبح من أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قال آخرون: إنّ معلّمه غلامين نصرانيين أحدهما اسمه (يسار) و الآخر (جبر) و كان لهما كتاب بلغتهما يقرءانه بين مدّة و أخرى بصوت عال.

و احتمل بعضهم: أنّه (سلمان الفارسى)، فى حين أن سلمان الفارسى التحق بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة و أسلم على يديه هناك، و أنّ هذه التهم التى أطلقها المشركون كانت فى مكّة، أضف إلى ذلك كون القسم الأعظم من سورة النحل مكى و

ليس مدنيا.

و على أيّة حال، فالقرآن أجابهم بقوة و أبطل كل ما كانوا يفترون، بقوله:

لِسانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ ۲۰۳] إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌ ۲۰۴] وَ هذا لِسانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ

فإن كان مقصودهم فى تهمتهم و افترائهم أنّ معلّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لألفاظ القرآن هو شخص أجنبى لا- يفقه من العربية و بلاغتها شيئا فهذا فى منتهى السفه، إذ كيف يمكن لفاقد ملكة البيان العربى أن يعلّم هذه البلاغة و الفصاحة التى عجز أمامها أصحاب اللغة أنفسهم، حتى أنّ القرآن تحداهم بإتيان سورة من مثله فما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۲۹

استطاعوا ناهيك عن عدد الآيات؟! و إن كانوا يقصدون أنّ المحتوى القرآنى هو من معلّم أجنبى .. فردّ ذلك أهون من الأوّل و أيسر، إذ أن المحتوى القرآنى قد صبّ فى قالب كل عباراته و ألفاظه من القوة بحيث خضع لبلاغته و إعجازه جميع فطاحل فصحاء العرب، و هذا ما يرشدنا لكون الواضع يملك من القدرة على البيان ما تعلو و قدرة و ملكة أىّ إنسان، و ليس لذلك أهلا سوى اللّه عزّ و جلّ و سبحانه عمّا يشركون.

و بنظرة تأمّلية فاحصة نجد فى محتوى القرآن أنّه يمتلك المنطق الفلسفى العميق فى إثبات عقائده، و كذا الحال بالنسبة لتعاليمه الأخلاقية فى تربية روح الإنسان و قوانينه الاجتماعية المتكاملة، و أنّ كلّ ما فى القرآن هو فرق طاقة المستوى الفكرى البشرى حقّا .. و يبدو لنا أن مطلقى الافتراءات المذكورة هم أنفسهم لا يعتقدون بما يقولون، و لكنّها شيطنة و وسوسة يدخلونها فى نفوس البسطاء من الناس ليس إلّا.

و الحقيقة أنّ المشركين لم يجدوا من بينهم من ينسبون إليه القرآن، و لهذا حاولوا اختلاق شخص مجهول لا يعرف الناس عنه شيئا و نسبوا إليه القرآن، عسى بفعلهم هذا أن يتمكنوا من استغفال أكبر قدر ممكن من البسطاء.

أضف إلى ذلك كله أن تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يسجل له اتصالات دائمة مع هذه النوعيات من البشر، و إن كان (على سبيل الفرض) صاحب القرآن موجودا ألا يستلزم ذلك اتصال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به و باستمرار؟ إنّهم حاولوا التشبث لا أكثر، و كما قيل: (الغريق يتشبّث بكل حشيش).

إنّ نزول القرآن فى البيئة الجاهلية و تفوقه الإعجازى أمر واضح، و لم يتوقف تفوقه حتى فى عصرنا الحاضر حيث التقدم الذى حصل فى مختلف مجالات التمدّن الإنسانى، و التأليفات المتعمقة التى عكست مدى قوّة الفكر البشرى المعاصر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۰

نعم، فمع كل ما وصلت إليه البشرية من قوانين و أنظمة ما زال القرآن هو المتفوق و سيبقى.

و ذكر سيد قطب فى تفسيره: أنّ جمعا من الماديين فى روسيا عند ما أرادوا الانتقاض من القرآن فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى سنة (۱۹۵۴ م) قالوا: إنّ هذا الكتاب لا يمكن أن ينتج من ذهن إنسان واحد «محمّد» بل يجب أن يكون حاصل سعى جمع كثير من الناس بما لا يصدق كونهم جميعا من جزيرة العرب، و إنّما يقطع باشتراك جمع منهم من خارج الجزيرة[۲۰۵].

و لقد كانوا يبحثون- وفقا لمنطقهم الإلحادى- عن تفسير مادى لهذا الأمر من جهة، و ما كانوا يعقلون أن القرآن نتاج إشراقة عقلية لإنسان يعيش فى شبه الجزيرة العربية من جهة أخرى، ممّا اضطرّهم لأن يطرحوا تفسيرا مضحكا و هو:

اشتراك جمع كثير من الناس- فى تأليف القرآن- من داخل شبه الجزيرة العربية و خارجها!! على أنّ التاريخ ينفى ما ذهبوا إليه جملة و تفصيلا.

و على أيّة حال، فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآنى من حيث اللفظ و المضمون، فحلاوة القرآن و بلاغته و جاذبيته و التناسق الخاص فى ألفاظه و عباراته ما يفوق قدرة أىّ إنسان. (قد كان لنا بحث مفصل فى الإعجاز القرآنى تناولناه فى تفسير الآية (۲۳) من

سورة البقرة- فراجع).

و بلهجة المهدد المتوعّد يبيّن القرآن الكريم أنّ حقيقة هذه الاتهامات و الانحرافات ناشئة من عدم انطباع الإيمان فى نفوس هؤلاء، فيقول: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

لأنّهم غير لائقين للهداية و لا يناسبهم إلّا العذاب الإلهى، لما باتوا عليه من التعصب و العناد و العداء للحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۱

و فى آخر الآية يقول: إنّ الأشخاص الذين يتّهمون أولياء اللّه هم الكفار: إِنَّما يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْكاذِبُونَ فهم الكاذبون و ليس أنت يا محمّد، لأنهم مع ما جاءهم من آيات بينات و أدلة قاطعة واضحة و لكنّهم يستمرون فى إطلاق الافتراءات و الأكاذيب.

فأيّة أكاذيب أكبر من تلك التى تطلق على رجال الحق لتحول بينهم و بين المتعطشين للحقائق!

***

بحوث

۱- قبح الكذب فى المنظور الإسلامى

الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، و قد جعلت الكاذبين بدرجة الكافرين و المنكرين للآيات الإلهية.

و مع أنّ موضوع الآية هو الكذب و الافتراء على اللّه و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الآية تناولت قبح الكذب بصورة إجمالية.

و لأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصّة لمسألة الصدق و النهى عن الكذب، و إليكم نماذج مختصرة و مفهرسة لجوانب الموضوع:

الصدق و الأمانة من علائم الإيمان و كمال الإنسان، حتى أنّ دلالتهما على الإيمان أرقى من دلالة الصلاة.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل و سجوده، فإنّ ذلك شىء قد اعتاده و لو تركه استوحش لذلك، و لكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته»[۲۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۲

فذكر الصدق مع الأمانة لاشتراكهما فى جذر واحد، و ما الصدق إلّا الأمانة فى الحديث، و ما الأمانة إلّا الصدق فى العمل.

۲- الكذب منشأ جميع الذنوب:

و قد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب ..

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «الصدق يهدى إلى البر و البر يهدى إلى الجنّة»[۲۰۷].

و

عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ جعل للبشر أقفالا و جعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، و الكذب شر من

الشراب»[۲۰۸].

و

عن الإمام العسکری علیه السّلام أنّه قال: «جعلت الخبائث کلها فی بیت و جعل مفتاحها الکذب»[۲۰۹].

فالعلاقة بین الکذب و بقیة الذنوب تتلخص فی کون الکاذب لا یتمکن من الصدق، لأنّه سیکون موجبا لفضحه، فتراه یتوسّل بالکذب عادة لتغطیة آثار ذنوبه.

و بعبارة أخری: إنّ الکذب یطلق العنان للإنسان للوقوع فی الذنوب، و الصدق یحدّه.

و

قد جسد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هذه الحقیقة بکل وضوح عند ما جاءه رجل و قال له: یا رسول اللّه، إنّی لا أصلی و أرتکب القبائح و أکذب، فأیّها أترک أوّلا؟.

فقال له رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الکذب»، فتعهد الرجل للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن لا یکذب أبدا.

فلمّا خرج عرضت له نیّة منکر فقال فی نفسه: إن سألنی رسول اللّه غدا عن أمری، ما ذا أقول له! فإن أنکرت کان کاذبا، و إن صدقت جری علیّ الحد. و هکذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۳

ترک الکذب فی جمیع أفعاله القبیحة حتی تورّع عنها جمیعا.

و لذا .. فترک الکذب طریق لترک الذنوب.

۳- الکذب منشأ للنفاق:

لأنّ الصدق یعنی تطابق اللسان مع القلب، فی حین أنّ الکذب یعنی عدم تطابق اللسان مع القلب، و ما النفاق إلّا الاختلاف بین الظاهر و الباطن.

و الآیة (۷۷) من سورة التوبة تبیّن لنا ذلک بوضوح: فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِی قُلُوبِهِمْ إِلی یَوْمِ یَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَ بِما کانُوا یَکْذِبُونَ

۴- لا انسجام بین الکذب و الإیمان:

و إضافة إلی الآیة المبارکة فثمة أحادیث کثیرة تعکس لنا هذه الحقیقة الجلیّة ...

فقد روی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سئل: یکون المؤمن جبانا؟ قال: «نعم»، قیل:

و یکون بخیلا؟ قال: «نعم»، قیل: یکون کذّابا؟ قال: «لا»[۲۱۰].

ذلک لأنّ الکذب من علائم النفاق، و هو لا یتفق مع الإیمان.

و بهذا المعنی نقل عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه أشار لهذا المعنی و استدل علیه بالآیة مورد البحث.

۵- الکذب یرفع الاطمئنان:

إنّ وجود الثقة و الاطمئنان المتبادل من أهم ما يربط الناس فيما بينهم، و الكذب من الأمور المؤثرة فى تفكيك هذه الرابطة لما يشبعه من خيانة و تقلب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۴

و لذلك كان تأكيد الإسلام على أهمية الالتزام بالصدق و ترك الكذب.

و من خلال الأحاديث الشريفة نلمس بكل جلاء نهى الأئمّة عليهم السّلام عن مصاحبة مجموعة معينة من الناس، منهم الكذّابون لعدم الثقة بهم.

فعن على عليه السّلام أنّه قال: «إيّاك و مصادقة الكذّاب، فإنّه كالسراب يقرّب عليك البعيد و يبعد عليك القريب»[۲۱۱].

و الحديث عن قبح الكذب و فلسفته، و الأسباب الداعية إليه من الناحية النفسية، و طرق مكافحته، كل ذلك يحتاج إلى تفصيل طويل لا يمكن لبحثنا استيعابه، و لمزيد من الاطلاع راجع كتب الأخلاق ۲۱۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۵

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۰۶ الى ۱۱۱]

اشارة

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰۶) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (۱۰۷) أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (۱۰۸) لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۰۹) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۰)

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۱۱۱)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرون فى شأن نزول الآية الأولى من هذه الآيات أنّها: نزلت فى جماعة أكرهوا- و هو: عمار و أبوه ياسر و أمّة سمية و صهيب و بلال و خبّاب- عذّبوا و قتل أبو عمار و أمّه و أعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه، ثمّ أخبر سبحانه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۶

بذلك رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقال قوم: كفر عمّار.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلا: «إنّ عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه و اختلط الإيمان بلحمه دمه» ..

و

جاء عمّار إلى رسول اللّه و هو يبكى، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما وراءك»؟ فقال: شرّ يا رسول اللّه، ما تركت حتى نلت منك و ذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يمسح عينيه و يقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت»، فنزلت الآية.

التّفسير

المرتدون عن الإسلام:

تكمل هـذه الآيات ما شـرعت به الآيات السابقـة من الحديث عن المشـركين و الكفار و ما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة أخرى من الكفرة و هم المرتدون.

حيث تقول الآيـة الأولى: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ وَ لكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ، وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

و تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

النوع الأوّل: هم الـذين يقعون فى قبضـة العـدو الغاشم و يتحملون أذاه و تعذيبه، و لكنّهم لا يصبرون تحت ضـغط ما يلاقوه من أعداء الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام و ولاءهم للكفر، على أنّ ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، و أمّا قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشـمولا بالعفو الإلهى بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنّهم قد ما رسوا التقية التى أحلها الإسـلام لحفظ النفس و حفظ الطاقات للاستفادة منها فى طريق خدمة دين اللّه عزّ و جلّ.

النوع الثّانى: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقة، و يغيّرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۷

مسيرتهم و يتخلّون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب اللّه عزّ و جلّ و عذابه العظيم.

و يمكن أن يكون «غضب اللّه» إشارة إلى حرمانهم من الرحمة الإلهية و الهداية فى الحياة الدنيا، و «العذاب العظيم» إشارة إلى عقابهم فى الحياة الأخرى .. و على أيّة حال، فما جاء فى الآية من وعيد للمرتدين هو فى غاية الشدة.

و تتطرق الآيـة التالية إلى أسـباب ارتداد هؤلاء، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ الذين يصرّون على كفرهم و عنادهم.

و خلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية و تعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدّة حبّهم لدنياهم، و عادوا خاسئين إلى كفرهم.

و بـديهى أن من لا ـ يرغب فى الإيمـان و لا ـ يسـمح له بالـدخول إلى أعماق نفسه، لا تشـمله الهدايـة الإلهيـة، لأنّ الهدايـة تحتاج إلى مقدمات كالسـعى للحصول على رضوانه سبحانه و الجهاد فى سبيله، و هذا مصداق لقوله عزّ و جلّ فى آخر سورة العنكبوت: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا.

و تأتى الآية الأخرى لتبيّن سـبب عدم هدايتهم، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ سَمْعِهِمْ وَ أَبْصارِهِمْ بحيث أنّهم حرموا من نعمة الرؤية و السمع و ادراك الحقائق: وَ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ

و كما قلنا سابقا فإنّ ارتكاب الـذنوب و فعل القبائـح يترك أثره السـلبى على إدراك الإنسان للحقائق و على عقله و رؤيته السـليمة، و تدريجيا يسـلب منه سـلامة الفكر، و كلما ازداد فى غيه كلّما اشـتدت حجب الغفلة على قلبه و سمعه و بصره، حتى يؤول به المآل إلى أن يصبح ذا عين و لكن لا يرى بها، و ذا أذن و كأنّه لا يسمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۸

بها، و تغلق أبواب روحه من تقبّل أيّة حقيقة، فيخسر الحس التشخيصى و القدرة على التمييز، و التى تعتبر من النعم الإلهى العالية.

«الطبع» هنا: بمعنى «الختم»، و هو إشارة إلى حالـة الإحكام المطلق، فلو أراد شـخص مثلا أن يغلق صـندوقا معينا بشـكل محكم كى لا تصـل إليه الأيـدى فـإنّه يقـوم بربطه بالحبـال و غيرهـا، و من ثمّ يقوم بوضع ختم من الشـمع على بـاب الصـندوق للاطمئنـان من عبث العابثين.

ثمّ تعرض الآية التالية عاقبة أمرهم، فتقول: لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخاسِرُونَ

و هل هناك من هو أتعس حالا من هذا الإنسان الذى خسر جميع طاقاته و امكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس.

و بعد ذكر الفئتين السابقتين، أى الذين يتلفظون بكلمات الكفر و قلوبهم ملأى بالإيمان، و الذين ينقلبون إلى الكفر مرّة أخرى بكامل اختيارهم و رغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة و هم البسطاء المخدعون فى دينهم، فتقول:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۲۱۳].

فالآية دليل واضح على قبول توبة المرتد، و لكنّ الآية تشير إلى من كان مشركا فى البداية ثم أسلم، فعليه يكون المقصود به هو (المرتد الملّى) و ليس (المرتد الفطرى).[۲۱۴] و تأتى الآية الأخيرة لتقدم تذكيرا عاما بقولها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۳۹

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها[۲۱۵] لتنقذها من العقاب و العذاب.

فالمذنبون أحيانا ينكرون ما ارتكبوه من ذنوب إنكارا تاما فرارا من الجزاء و العقاب، و الآية (۲۳) من سورة الأنعام تنقل لنا قولهم: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ و عند ما لا يلمسون أيّة فائدة لإنكارهم يتجهون بإلقاء اللوم على أئمتهم و قادتهم، و يقولون: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ[۲۱۶].

و لكن .. لا فائدة من كل ذلك .. وَ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

بحثان

۱- التقية و فلسفتها:

امتاز المسلمون الأوائل الذين تربّوا على يد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بروح مقاومة عظيمة أمام أعدائهم، و سجل لنا التأريخ صورا فريدة للصمود و التحدى، و ها هو «ياسر» لم يلن و لم يدخل حتى الغبطة الكاذبة على شفاه الأعداء، و ما تلفظ حتى بعبارة خالية من أىّ أثر على قلبه ممّا يطمخ الأعداء أن يسمعوها منه، مع أنّ قلبه مملوءا ولاء و إيمانا باللّه تعالى و حبّا و إخلاصا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صبر على حاله رغم مرارتها فنال شرف الشهادة، و رحلت روحه الطاهرة إلى بارئها صابرة محتسبة تشكو إليه ظلم و جور أعداء دين اللّه.

و ها هو ولدة «عمّار» الذى خرجت منه كلمة بين صفير الأسواط و شدّة الآلام تنم عن حالة الضعف ظاهرا، و بالرغم من اطمئنانه بإيمانه و تصديقه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۰

أنّه اغتمّ كثيرا و ارتعدت فرائصه حتى طمأنه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحلّيّة ما فعل به حفظا للنفس، فهذا.

و يطالعنا تأريخ (بلال) عند ما اعتنق الإسلام راح يدعو له و يدافع عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فشدّ عليه المشركون حتى أنّهم طرحوه أرضا تحت لهيب الشمس الحارقة، و ما اكتفوا بذلك حتى وضعوا صخرة كبيرة على صدره و هو بتلك الحال، و طلبوا منه أن يكفر باللّه و لكنّه أبى أن يستجيب لطلبهم و بقى يردد: أحد أحد، ثمّ قال: أقسم باللّه لو علمت قولا أشد عليكم من هذا لقلته.

و نقرأ فى تاريخ (حبيب بن زيد) أنّه لما أسره مسيلمة الكذاب فقد سأله: هل تشهد أنّ محمّدا رسول اللّه؟

قال: نعم.

ثمّ سأله: أتشهد أنّى رسول اللّه؟

فأجابه ساخرا: إنّى لا أسمع ما تقول! فقطعوه إربا إربا[۲۱۷].

و التأريخ الإسلامى حافل بصور كهذه، خصوصا تأريخ المسلمين الأوائل و تأريخ أصحاب الأئمّة عليهم السّلام.

و لهذا قال المحققون: إنّ ترك التقية و عدم التسليم للأعداء فى حالات كهذه، عمل جائز حتى لو أدى الأمر إلى الشهادة، فالهدف سام و هو رفع لواء التوحيد و إعلاء كملة الإسلام، و خاصة فى بداية دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث كان لهذا الأمر أهمية خاصّة.

و مع هذا، فالتقية جائزة فى موارد، و واجبة فى موارد أخرى، و خلافا لما يعتقده البعض فإنّ التقية (فى مكانها المناسب) ليست علامة للضعف، و لا هى مؤشر للخوف من تسلط الأعداء، و لا هى تسليم لهم بقدر ما هى نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۱

المراوغة المحسوبة لحفظ الطاقات الإنسانية و عدم التفريط بالأفراد المؤمنين مقابل موضوعات صغيرة و قليلة الأهمية.

و ممّا تعارف عليه عند كل الشعوب أن تلجأ الأقليات المجاهدة و المحاربة إلى أسلوب العمل السرّى غالبا، و ذلك لحفظ حياة الأفراد و تهيئة الظروف لإكثارهم، فتشكّل مجموعات سرّية و تضع لأنفسها برامجا غير معلنة على غيرهم، حتى أنّ البعض من أفرادهم يحاول أن يتنكر حتى فى زيه، و إذا ما تمّ اعتقالهم من قبل السلطة المعادية لمبادئهم فيحاولون جهد الإمكان إخفاء حقيقة أمرهم كى لا تخسر المجموعة كل طاقاتها، و لتكون قادرة على مواصلة الطريق بالبقية المتبقية منهم.

و العقل لا يجيز فى ظروف كهذه أن تعلن المجموعة المجاهدة قليلة العدد عن نفسها، لكى لا يعرفها العدو بسهولة و هو القادر على القضاء عليها بما يملك من بطش و تسلط.

فالتقية قبل أن تكون برنامجا إسلاميا هى أسلوب عقلانى و منطقى، ينفذه و يعمل به من يعيش صراعا مع عدو قوّى متمكن منه.

و لذا فقد ورد تعبير (الترس) عن التقية فى الأحاديث الشريفة،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «التقية ترس المؤمن، و التقية حرز المؤمن»[۲۱۸].

(لاحظوا أنّ التقية هنا شبّهت بالترس، و الترس إنّما يستعمل فى ميادين الحرب و القتال مع الأعداء لحفظ القوى الثائرة.

و إذا رأينا أنّ الأحاديث الشريفة تعتبر التقية علامة للدين و الإيمان و تقدرها بتسعة أعشار الدين، فإنّما هو للسبب المذكور.

و المجال- فى هذا الكتاب- لا يسع للخوض فى تفصيل موضوع التقية، و كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۲

ما أردنا هو أنّ من يستنكر التقية و يذمها إنّما هو جاهل بشروطها و فلسفتها.

و ثمة حالات تحرم فيها التقية، حينما يكون حفظ النفس فيها سببا لزوال الدين نفسه، أو قد تؤدى التقية لحدوث فساد عظيم، فيجب و الحال هذه كسر طوق التقية و استقبال كل خطر يترتب على ذلك ۲۱۹].

۲- المرتد الفطرى و الملى و .. المخدوعين:

لا- يواجه الإسلام الذين لا- يعتنقون الإسلام من (أهل الكتاب) بالشدّة و القسوة و إنّما يدعوهم باستمرار و يتحدث معهم بالمنطق السليم، فإذا لم يقتنعوا و راموا البقاء على ديانتهم فيعطون الأمان و التعهد بحفظ أموالهم و أرواحهم و مصالحهم المشروعة بعد أن يعلنوا قبول شرط أهل الذمة فى عهدهم مع المسلمين.

أمّا الذين يقبلون الإسلام و من ثمّ يرتدون عنه فيواجهون بشدّة و عنف، لأنّ عملا كهذا يؤدى إلى أضرار فادحة تصيب المجتمع الإسلامى، و هو بمثابة نوع من الحرب ضد الحكومة الإسلامية، و غالبا ما يصدر مثل هذا العمل مستبطنا النية السيئة بإيصال أسرار

المجتمع الإسلامى (و نقاط القوة و الضعف) ليد الأعداء المتربصين للمسلمين الدوائر.

فلهذا، من انعقدت نطفته و كان أبواه مسلمين عند انعقاد النطفة (مسلم الولادة) ثمّ تثبت المحكمة الإسلامية بأنّه قد ارتد عن الإسلام يباح دمه، تقسّم أمواله على ورثته، تبيّن عنه زوجته، و ظاهرا لا تقبل توبته، أى أنّ هذه الأحكام الثلاثة تجرى فى حقه على كل حال، و لكن إذا ندم و تاب صادقا، فإنّ توبته ستقبل عند اللّه تعالى (و توبة المرأة تقبل على الإطلاق).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۳

و إذا ارتدّ إنسان ما عن الإسلام و لم يكن مسلما بالولادة، يتعيّن عليه التوبة، فإن تاب قبلت توبته و ينجو من العقاب.

و قد ينظر للحكم السياسى الصادر بحقّ المرتدّ الفطرى على أنّ فيه نوعا من الخشونة و القسوة و فرضا للعقيدة و سلبا لحرية الفكر، و لكنّ حقيقة هذه الأحكام تختص بمن يظهر عقائده المخالفة أو يدعو لها و لا تطال من يعتقد باعتقادات مخالفة و لكنّه لم يظهرها للناس، لأنّ الدعوة للعقائد المخالفة تمثل فى واقعها حربا للنظام الاجتماعى الموجود، و عليه فلا تكون الخشونة و الحال هذه عبثا، و لا تتنافى و حرية الفكر و الإعتقاد، و كما قلنا فإنّ شبيه هذا القانون موجود فى كثر من دول الغرب و الشرق مع بعض الاختلافات.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ قبول الإسلام يجب أن يكون طبقا للمنطق، و الذى يولد من أبوين مسلمين و ينشأ بين أحضان بيئة إسلامية، فمن البعيد عدم إدراكه محتوى الإسلام، و لهذا يكون ارتداده و عدوله عن الإسلام أشبه بالخيانة منه من عدم إدراك الحقيقة، و لذلك فهو يستحق ما خطّ فى حقه من عقاب.

على أنّ الأحكام عادة لا تخصص لشخص أو شخصين و إنّما يلحظ فيها المجموع العام ۲۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۴]

اشارة

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ (۱۱۲) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۱۳) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۱۱۴)

التّفسير

الذين كفروا فأصابهم العذاب

قلنا مرارا: إنّ هذه السورة هى سورة النعم، النعم المادية و المعنوية و على كافة الأصعدة، و قد مرّ ذكر فى آيات متعددة من هذه السورة المباركة.

و تصور لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعى.

و يبتدأ التصوير القرآنى بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة اللّه عليه: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش فى أمن و أمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۵

(مطمئنة) و مضافا الى ذلك يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ

و لكنّ حالها قد تبدّل فى النهاية فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِما كانُوا يَصْنَعُونَ

و إضافة لاستكمال نعم اللّه المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، و يدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل و أنبياء و أرسلت إليهم التعاليم السماوية وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ

فكانت النتيجة أن: فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ وَ هُمْ ظالِمُونَ

و إنّكم حين تطلعون على هذه النماذج الواقعية من الأمم السابقة، فاعتبروا بها و لا تنهجوا طريق أولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم اللّه فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّباً وَ اشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

بحوث

۱- أهو مثال أم حدث تاريخى؟

لقد عبّرت الآيات أعلاه عند حديثها عن تلك المنطقة العامرّة بكثرة النعم، و التى أصاب أهلها بلاء الجوع و الخوف نتيجة كفرهم بأنعم اللّه، عبّرت عن ذلك بكلمة «مثلا» و بذات الوقت فإنّ الآية استخدمت الأفعال بصيغة الماضى، ممّا يشير إلى وقوع ما حدث فعلا فى زمن ماض، و هنا حصل اختلاف بين المفسّرين فى الهدف من البيان القرآنى، فقسم قد احتمل أنّ الهدف هو ضرب مثال عام، و ذهب القسم الثّانى إلى أنّه لبيان واقعة تأريخية معيّنة.

و تطرّق مؤيد و الاحتمال الثّانى إلى تحديد المنطقة التى حدثت فيها هذه الواقعة. فذهب بعضهم أنّها أرض مكّة، و لعل يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ تدعو إلى تقوية هذا الاحتمال، لأنّه دليل على أنّ هذه المنطقة مجدبة، و ما تحتاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۶

إليه يأتيها من خارجها، و ما جاء فى الآية (۵۷) من سورة القصص يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ يعضد هذا المعنى، خصوصا و أنّ المفسّرين قد قطعوا بأنّها إشارة إلى مكّة المكرمة.

و يردّ هذا الزعم بعدم معرفة حادثة كهذه فى تأريخ مكّة على ما للحادثة من وضوح، فغير معروف عن مكّة أنّها عاشت أيّاما رغيدة و من ثمّ جاءها القحط و الجوع! و قال بعض آخر: حدثت هذه القصّة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، و أنّهم ابتلوا بالقحط و الخوف على أثر كفرانهم بنعم اللّه.

و ما يؤيد ذلك ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ قوما فى بنى إسرائيل تؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت فى بلادهم يستنجون بها فلم يزل اللّه بهم حتى اضطرّوا إلى التماثيل يبيعونها و يأكلونها و هو قول اللّه» ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ...[۲۲۱].

و رويت روايات أخرى قريبة من هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السّلام و تفسير على بن إبراهيم ممّا لا يمكن الاعتماد الكامل على أسانيدها، و إلّا لكانت المسألة واضحة[۲۲۲].

و ثمّة احتمال آخر و هو أنّ الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا فى اليمن، و قد ذكر القرآن الكريم قصتهم فى الآيات (۱۵- ۱۹) من سورة سبأ، و كيف أنّهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار و الخيرات فى أمن و سلام، حتى أصابهم الغرور و الطغيان و الاستكبار و كفران النعم الإلهية، فأهلكهم اللّه و شتّت جمعهم و جعلهم عبرة للآخرين.

و جملة يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكانٍ ليست دليلا قاطعا على أنّها لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۷

تكن عامرّة بـذاتها، لأنّه من الممكن أن يقصـد ب «كل مكان» أطرافها و ضواحيها، و كما هو معروف فإنّ المحاصـيل الزراعيـة لإقليم كبير تنتقل إلى المدينة أو القرية المركزية فى تلك المنطقة.

و ينبغى التذكير مرّة أخرى بعدم وجود المانع من شمولة إشارة الآية إلى كل ما ذكر من احتمالات.

و على أيّة حال، فليس ثمّة مشكلة مهمّة فى تفسير هذه الآية و ذلك لكثرة المناطق التى أصابها مثل هذه العاقبة عبر التاريخ.

و إذا كان عـدم الاطمئنان الكافى فى تعيين محل المنطقـة قد دفع بعض المفسّـرين إلى اعتبار الموضوع مثالا عامّا مجرّدا و ليس منطقة معينة، فظاهر الآيات مورد البحث لا يناسب ذلك التّفسير، بل يشير إلى وجود منطقة معينة و حادثة تأريخية.

۲- الرابطة ما بين الأمن و الرّزق الكثير

ذكرت الآيات ثلاث خصائص لهذه المنطقة العامرّة المباركة:

الخاصية الأولى: الأمن.

الخاصية الثّانية: الاطمئنان فى إدامة الحياة.

الخاصية الثّالثة: جلب الأرزاق و المواد الغذائية الكثيرة إليها.

و ترتبـط هـذه الخواص فيمـا بينهـا ترابطا علّيا و حسب تسلسـلها، فكل خاصـية ترتبط بما قبلها ارتباط علـة و معلول، فلو فقـد الأمن لما اطمأن الإنسان على إدامـة حياته فى مكانه المعيّن، و إذا فقـد الاثنان فلا رغبـة حقيقيـة لأحـد على الإنتاج و تحسـين الوضع الاقتصادى هناك.

فالآية تقدم درسا عمليا لمن يرغب فى بلاد عامرّة و حرّة و مستقلة، فقبل كل شىء لا بدّ من توفير حالة الأمن، و من ثمّ بعث الاطمئنان فى قلوب الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۸

بخصوص مستقبل وجودهم فى تلك المنطقة، و من بعد ذلك يأتى دور تحريك عجلة الإقتصاد.

فبهـذه النعم المادية الثلاثة تصل المجتمعات إلى درجة تكامل حياتها المادية فقط، و وصولا للحياة المتكاملة من كافة الجوانب (ماديا و معنويا) تحتاج المجتمعات إلى نعمة الإيمان و التوحيد، و لهذا فقد جاء بعد ذكر هذه النعم: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ

۳- لباس الجوع و الخوف

ذكرت الآيات فى بيان عاقبة الكافرين بنعم اللّه، قائلة: فَأَذاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ فمن جهة: شـبّهت الجوع و الخوف باللباس، و من جهة أخرى:

عبّرت ب «أذاقها» بدلا من (ألبسها).

و حمل هذا التفاوت فى التعبير المفسّرين إلى التوقف و التأمل فى الآية ...

فالتعبير يحمل بين طياته إشارة لطيفة، فمثلا:

قال ابن الراوندى لابن الأعرابى الأديب: هل يذاق اللباس؟

قال ابن الأعرابى: لا بأس و لا لباس يا أيّها النسناس، هب أنّك تشكّ أنّ محمّدا ما كان نبيّا أمّا كان عربيا!![۲۲۳].

و على أيّة حال، فالتعبير إشارة إلى أن القحط و الخوف كانا من الشـدة و كأنّهما لباس قـد أحاط بأبدانهم من كل الجهات، و أبدانهم

فى تماس معه، و من جهة أخرى فقد وصلت حالة لمسهم للخوف و القحط كأنّهم يتذوقونه بألسنتهم.

و هو تعبير عن أشدّ حالات الخوف و منتهى حالات الفقر و الذى يمكن أنّ يصيب جميع وجود الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۴۹

فكما أنّ نعمة الأمن و الرفاة قد غطّت كامل وجودهم فى البداية، فها هم و قد حال بهم الأمر لأن يحل الفقر و الخوف محلّها فى آخر مطافهم نتيجة لكفرانهم بنعم اللّه سبحانه.

۴- أثر كفران النعمة فى تضييع المواهب الإلهية

رأينا فى الرّواية المتقدمة كيف راح أولئك المرفهون بتطهير أجسادهم بواسطة المواد الغذائية بعد أن تسلطت عليهم الغفلة و ساورهم الغرور، حتى ابتلاهم اللّه بالقحط و الخوف.

و عرض الحادثة ما هو إلّا تنبيه للناس و لكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أنّ الإسراف و التبذير و تضييع النعم لا ينجو من عقوبة و غرامة ثقيلة الوقع.

و هو تنبيه أيضا للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) فى أكياس الأوساخ دائما.

و هو تنبيه كذلك لأولئك الذين يهيئون غذاء يكفى لعشرين شخصا، و ليس لهم من الضيوف إلّا أربعة، و لا يصل الزائد منه إلى بطون الجياع من الناس.

و هو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية فى بيوتهم لاستعمالهم الخاص، و يملؤون مخازنهم انتظارا لارتفاع سعرها فى الأسواق حتى يفسد و يذهب هباء من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أىّ عمل ممّا ذكر من عقوبة إلهية، و أقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

و تتّضح أهمية المسألة إذا علمنا أنّ المواد الغذائية على سطح الكرة الأرضية محددة بنسبة، فأىّ إفراط فى أىّ نوع من المواد يؤدى إلى حرمان نسبة من البشر من تلك المواد.

و لذلك جاء التأكيد الشديد حول هذه المسألة فى الأحاديث الشريفة، حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۰

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «كان أبى يكره أن يمسح يده فى المنديل و فيه شىء من الطعام تعظيما له، إلّا أن يمصها، أو يكون إلى جانبه صبى فيمصها، قال:

فإنّى أجد اليسير يقع من الخوان فأتفقده فيضحك الخادم، ثمّ قال: إنّ أهل قرية ممن كان قبلكم كان اللّه قد وسّع عليهم حتى طغوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شىء من هذا النقى فجعلناه نستنجى به كان ألين علينا من الحجارة، قال عليه السّلام: فلما فعلوا ذلك بعث اللّه على أرضهم دوابا أصغر من الجراد فلم تدع لهم شيئا خلقه اللّه إلّا أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أنّ أقبلوا على الذى كانوا يستنجون به، فأكلوه، و هى القرية التى قال اللّه تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً إلى قوله: بِما كانُوا يَصْنَعُونَ ۲۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۱

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۱۵ الى ۱۱۹]

اشارة

إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۵) وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (۱۱۶) مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۱۷) وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۱۱۸) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۱۹)

التّفسير

لا يفلح الكاذبون:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهية و مسألة شكر النعمة، تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع و تطرح مسألة المحرمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۲

الواقعية و غير الواقعية لتفصل بين الدين الحق و بين البدع التى أحدثت فى دين اللّه، و تشرع بالقول: إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۲۲۵].

و قد بحثنا موضوع تحريم الميتة و الدم و لحم الخنزير بالتفصيل فى تفسيرنا للآية (۱۷۳) من سورة البقرة.

إنّ تلوّث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافيا على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، و الدم من أكثر مكونات البدن تقبلا للتلوّث بالجراثيم، و أمّا لحم الخنزير فيعتبر سببا للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة، و فوق كل ذلك (و كما قلنا فى تفسيرنا لسورة البقرة) فتناول لحم الخنزير و الدم له الأثر الخطير على الحالة النفسية و الأخلاقية للإنسان، بسبب التأثير الحاصل منهما على هرمونات البدن، (و الميتة بسبب عدم ذبحها و خروج دمها فإنّ أضرار التلوّث تتضاعف فيها).

أمّا فلسفة تحريم ما يذبح لغير اللّه (حيث كانوا بدلا من ذكر اسم اللّه عند الذبح يذكرون أسماء أصنامهم أو لا يتلفظون بشىء) فليست صحيحة، بل هى أخلاقية و معنوية، حيث نعلم بعدم كفاية علّة التحليل و التحريم فى الإسلام بملاحظة الجانب الصحى للموضوع، بل من المحرمات ذات جانب معنوى صرف، و حرمت بلحاظ تهذيب الروح و النظر إلى الجنبة الأخلاقية، و قد يأتى التحريم فى بعض الحالات حفظا للنظام الاجتماعى.

فتحريم أكل لحم ما لم يذكر عليه اسم اللّه إنّما كان بلحاظ أخلاقى. فمن جهة يكون التحريم حربا على الشرك و عبادة الأصنام، و من جهة أخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۳

و يستفاد من المحتوى العام للآية و الآيات التالية أنّ الإسلام يوصى بالاعتدال فى تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم و اكتفوا بالأغذية النباتية، و لا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحوم أيّا كانت كأهل الجاهلية و البعض ممن يدّعى التمدّن فى عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالى و السرطان و أنواع الديدان).

جواب على سؤال:

و هنا يأتى السؤال التالى .. ذكرت الآية المباركة أربعة أقسام من الحيوانات المحرمة الأكل أو أجزائها، و الذى نعلمه أنّ المحرم من

اللحوم أكثر ممّا ذكر، حتى أنّ بعض السور القرآنية ذكرت من المحرمات أكثر من أربعة أقسام (كما فى الآية (۳) من سورة المائدة). فلما ذا حددت الآية أربعة أشياء فقط؟

و جواب السؤال- كما قلنا فى تفسير الآية (۱۴۵) من سورة الأنعام-: أنّ الحصر الموجود فى الآية هو حصر إضافى، أى أنّ المقصود من استعمال «إنّما» فى هذه الآيات لنفى و إبطال البدع التى كان يقول بها المشركون فى تحريم بعض الحيوانات، و كأنّ القرآن يقول لهم: هذه الأشياء حرام، لا ما تقولون! و ثمّة احتمال آخر، و هو أن تكون هذه المحرمات الأربعة هى المحرمات الأصلية أو الأساسية، حيث أنّ «المنخنقة» المذكورة فى آية (۳) من سورة المائدة داخلة فى إحدى الأقسام الأربعة (الميتة).

أمّا المحرمات الأخرى من أجزاء الحيوانات أو أنواعها- كالوحوش- فتأتى فى الدرجة الثّانية، و لذا أتى حكم تحريمها بطريق سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عليه فيمكن أن يكون الحصر فى الآية حصرا حقيقيا- فتأمل.

و فى نهاية الآية سياقا مع الأسلوب القرآنى عند تناوله ذكرت الحالات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۴

و الموارد الاستثنائية، يقول: فَمَنِ اضْطُرَّ كأن يكون فى صحراء و لا يملك غذاء غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

«باغ» أو الباغى: (من البغى) بمعنى «الطلب»، و يأتى هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرم اللّه.

«عاد» أو العادى، (من العدو) أى «التجاوز»، و يأتى هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضرورة.

و ورد تفسير (الباغى) فى أحاديث أهل البيت عليهم السّلام بأنّه (الظالم)، و (العادى) بمعنى (الغاصب)، و جاء- أيضا- الباغى: هو الذى يخرج على إمام زمانه، و العادى، هو السارق.

و إشارة الرّوايات المذكورة يمكن حملها على الاضطرار الحاصل عند السفر، فإذا سافر شخص ما طلبا للظلم و الغصب و السرقة ثمّ اضطر إلى أكل هذه اللحوم المحرمة فسوف لا يغفر له ذنبه، حتى و إن كان لحفظ حياته من الهلاك المحتم.

و على أيّة حال، فلا تنافى بين ما ذهبت إليه التفاسير و بين المفهوم العام للآية، حيث يمكن جمعها.

و تأتى الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، و الذى تطرق القرآن إليه سابقا بشكل غير مباشر، فتأتى الآية لتطرحه صراحة حيث تقول: وَ لا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هذا حَلالٌ وَ هذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۲۲۶].

أى إنّ ما جئتم به ليس إلّا كذبة صريحة أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، و تحريمكم لأخرى! (أشارة إلى الأنعام التى حرمها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۵

البعض على نفسه، و البعض الآخر حللها لنفسه بعد أن جعل قسما منها لأصنامه).

فهل أعطاكم اللّه حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة و تقاليدكم العمياء هى التى دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ .. أو ليس هذا كذبا و افتراءا على اللّه؟! و جاء فى الآية (۱۳۶) من سورة الأنعام بوضوح: وَ جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَ الْأَنْعامِ نَصِيباً فَقالُوا هذا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هذا لِشُرَكائِنا فَما كانَ لِشُرَكائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ ما كانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلى شُرَكائِهِمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ

و يستفاد كذلك من الآية (۱۴۸) من سورة الأنعام: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ أنّهم كانوا يجعلون لأنفسهم حق التشريع فى التحليل و التحريم، و يظنون أنّ اللّه يؤيد بدعهم! (و على هذا فكانوا يضعون البدعة أوّلا و يحللون و يحرمون ثمّ ينسبون ذلك إلى اللّه فيكون افتراء آخر)[۲۲۷].

و يحذر القرآن فى آخر الآية بقوله: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب و الافتراء على أىّ إنسان، فكيف به إذا كان على اللّه عزّ و جلّ!؟ فلا أقل و الحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

و توضح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: مَتاعٌ قَلِيلٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

و يمكن أن تكون مَتاعٌ قَلِيلٌ إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التى كانوا يحللونها لأنفسهم و يأكلون لحومها، أو إشارة إلى إشباعهم حب الذات و عبادتها بواسطة جعل البدع، أو أنّهم بتثبيت الشرك و عبادة الأصنام فى مجتمعهم يتمكنون أن يحكموا على الناس مدّة من الزمن، و كل ذلك مَتاعٌ قَلِيلٌ سيعقبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۶

عَذابٌ أَلِيمٌ

و يطرح السؤال التالى: لما ذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۳۵۶

يه التالية كأنها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

و هو إشارة إلى ما ذكر من الآية (۱۴۶) من سورة الأنعام: وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

ذِى ظُفُرٍ: هى الحيوانات ذات الظفر الواحد كالخيل.

ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما: الشحوم التى فى منطقة الظهر منها.

الْحَوايا: الشحوم التى على أطراف الأمعاء و الخاصرتين.

و حقيقة هذه المحرمات الإضافية العقاب و الجزاء لليهود جراء ظلمهم، و لذلك يقول القرآن الكريم فى آخر الآيات مورد البحث: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و كذلك ما جاء فى الآيتين (۱۶۰ و ۱۶۱) من سورة النساء: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً وَ أَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَ قَدْ نُهُوا عَنْهُ وَ أَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ

فكان تحريما قسما من اللحوم على اليهود ذا جنبة عقابيّة دون أن يكون للمشركين القدرة على الإحتجاج فى ذلك.

و ما حرّمه المشركون إن هو إلّا بدعة نشأت من خرافاتهم و أباطيلهم، لأنّ ما فعلوه ما كان جاريا لا عند اليهود و لا عند المسلمين (و يمكن أن تكون إشارة الآية تؤدى إلى هذا المعنى و هو إنّكم فعلتم ما لا يتفق مع أىّ كتاب سماوى).

و فى آخر آية من الآيات مورد البحث، و تمشيا مع الأسلوب القرآنى، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس و النادمين من ضلالهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۷

فيقول: ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

و يلاحظ فى هذه الآية جملة أمور:

أوّلا: اعتبرت علّة ارتكاب الذنب «الجهالة»، و الجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل، و هؤلاء غير الذين ينهجون جادة الضلال على علم و استكبار و غرور و تعصب و عناد منهم.

ثانيا: إنّ الآية لا تحدّد موضوع بالتوبة القلبية و الندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية و تعتبر الإصلاح مكملا للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر اللّه»، و تؤكّد على وجوب إصلاح الأمور عمليا، و ترميم ما أفسد من روح الإنسان أو المجتمع بارتكاب تلك الذنوب، للدلالة إلى التوبة الحقيقية لا توبة لقلقة اللسان.

ثالثا: التأكيد على شمول الرحمة الإلهية و المغفرة لهم، و لكن بعد التوبة و الإصلاح: إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ

و بعبارة أخرى إنّ مسألة قبول التوبة لا يكون إلّا بعد الندم و الإصلاح، و قد ذكر ذلك فى ثلاثة تعابير:

أوّلا: باستعمال الحرف «ثمّ».

ثانيا: «من بعد ذلك».

ثالثا: «من بعدها».

لكى يلتفت المذنبون إلى أنفسهم و يتركوا ذلك التفكير الخاطئ بأن يقولوا:

نرجو لطف اللّه و غفرانه و رحمته، و هم على ارتكاب الذنوب دائمون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۸

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۰ الى ۱۲۴]

اشارة

إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۰) شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۱۲۱) وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۱۲۲) ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۱۲۳) إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۲۴)

التّفسير

كان إبراهيم لوحده أمّة!

كما قلنا مرارا بأنّ هذه السورة هى سورة النعم، و هدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق و واهب هذه النعم.

و الآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور للّه، ألا و هو «إبراهيم» بطل التوحيد، و أوّل قدوة للمسلمين عامة و للعرب خاصة.

و الآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التى كان يتحلى بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۵۹

إبراهيم عليه السّلام.

۱- إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً.

و قد ذكر المفسّرون أسبابا كثيرة للتعبير عن إبراهيم عليه السّلام بأنّه «أمّة» و أهمها أربع:

الأوّل: كان لإبراهيم شخصية متكاملة جعلته أن يكون أمّة بذاته، و شعاع شخصية الإنسان فى بعض الأحيان يزداد حتى ليتعدى الفرد و الفردين و المجموعة فتصبح شخصيته تعادل شخصية أمّة بكاملها.

الثّانى: كان إبراهيم عليه السّلام قائدا و قدوة حسنة و معلما كبيرا للإنسانية، و لذلك أطلق عليه أُمَّةً لأنّ «أمّة» اسم مفعول يطلق على الذى تقتدى به الناس و تنصاع له.

و ثمّة ارتباط معنوى خاص بين المعنيين الأوّل و الثانى، حيث أنّ الذى يكون بمرتبة إمام صدق و استقامة لأمّة ما، يكون شريكا لهم فى أعمالهم و كأنّه نفس تلك الأمّة.

الثّالث: كان إبراهيم عليه السّلام موحدا فى محيط خال من أىّ موحد، فالجميع كانوا يخوضون فى وحل الشرك و عبادة الأصنام، فهو و الحال هذه «أمّة» فى قبال أمّة المشركين (الذين حوله).

الرّابع: كان إبراهيم عليه السّلام منبعا لوجود أمّة، و لهذا أطلق القرآن عليه كلمة «أمّة».

و لا مانع من أن تحمل هذه الكلمة القصيرة الموجزة كل ما ذكر ما معان كبيرة.

نعم فقد كان إبراهيم أمّة و كان إماما عظيما، و كان رجلا صانع أمّة، و كان مناديا بالتوحيد وسط بيئة اجتماعية خالية من أىّ موحد[۲۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۰

و قال الشاعر:

ليس على اللّه بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

۲- صفته الثّانية فى هذه الآيات: أنّه كان قانِتاً لِلَّهِ

۳- و كان دائما على الصراط المستقيم سائرا على طريق اللّه، طريق الحق حَنِيفاً.

۴- وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بل كان نور اللّه يملأ كل حياته و فكره، و يشغل كل زوايا قلبه.

۵- و بعد كل هذه الصفات، فقد كان شاكِراً لِأَنْعُمِهِ

و بعد عرض الصفات الخمسة يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمّة لها، فيقول:

۱- اجْتَباهُ للنّبوة و إبلاغ دعوته.

۲- وَ هَداهُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و حفظه من كل انحراف، لأنّ الهداية لا تأتى لأحد عبثا، بل لا بدّ من توفر الاستعداد و الأهلية لذلك.

۳- وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً.

«الحسنة» فى معناها العام كل خير و إحسان، من قبيل منح مقام النّبوة مرورا بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد و ما شابهها.

۴- وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

و مع أنّ إبراهيم كان على رأس الصالحين فى الدنيا، فإنّه سيكون منهم فى الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، و هذه دلالة على عظمة مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السّلام على ما له من مقام سام كأحدهم فى دار الآخرة، و لم لا يكون ذلك و قد طلب إبراهيم عليه السّلام ذلك من ربّه حين قال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۲۲۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۱

۵- و ختمت عطايا اللّه عزّ و جلّ لإبراهيم عليه السّلام لما ظهر منه من صفات متكاملة بأن جعل دينه عاما و شاملا لكل ما سيأتى بعده من زمان- و خصوصا للمسلمين- و لم يجعل دينه مختصا بعض أهل زمانه، فقال اللّه عزّ و جلّ: ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً[۲۳۰].

و يأتى التأكيد مرّة أخرى: وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

و بملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم و أنّ المسلمين يتبعون سنن إبراهيم عليه السّلام فى كثير من المسائل و منها احترام يوم الجمعة، فلما ذا اتّخذ اليهود يوم السبت عيدا لهم بدلا من الجمعة و يعطلون فيه أعمالهم؟

إنّ آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول:

إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ أى أنّ السبت و ما حرم فى السبت كان عقوبة لليهود، و قد اختلفوا فيه أيضا، فمنهم من قبله و منهم من أهمله.

و تقول بعض الرّوايات: أنّ موسى عليه السّلام دعا قومه بنى إسرائيل لاحترام يوم الجمعة و تعطيل أعمالهم فيه، و هو دين إبراهيم عليه السّلام، إلّا إنّهم تعلّلوا، و اختاروا يوم السبت، فجعله اللّه عطلة لهم و لكن بضيق و شدّة، و لهذا لا ينبغى الاعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنّه إنّما كان استثنائيا و ذا طابع جزائى، و أفضل دليل على هذا الأمر أنّ اليهود أنفسهم اختلفوا فى يومهم المنتخب هذا، فبعض احترمه و بعض آخر خالف ذلك و أدام العمل و الكسب فيه حتى أصابهم عذاب اللّه.

و ثمّة احتمال آخر أن تكون إشارة الآية مرتبطة ببدع المشركين فى موضوع الأغذية الحيوانية، لأنّ الآيات السابقة تطرقت لذلك من خلال إجابتها على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۲

تساؤل: لما ذا لم يحرم فى الإسلام ما كان محرما فى دين اليهود؟ فجاء الجواب أنّ ذلك كان عقابا لهم، فيطرح السؤال مرّة أخرى حول عدم حرمة صيد الأسماك يوم السبت فى الأحكام الإسلامية فى حين أنّه محرم على اليهود .. فيكون الجواب بأنّه كان عقابا لليهود أيضا.

و على أيّة حال، فثمّة ارتباط بين هذه الآيات و الآيات (۱۶۳- ۱۶۶) من سورة الأعراف التى تتحدث الحديث عن «أصحاب السبت»، حيث عرضت قصتهم، و كيف أنّ صيد السمك قد حرّم عليهم فى يوم السبت، و مخالفة قسم منهم لهذا الأمر، و العقاب الشديد الذى نزل عليهم بعد ذلك الامتحان الإلهى.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ «السبت» فى الأصل بمعنى تعطيل الأعمال للاستراحة، و لذلك سمى يوم السبت، لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فيه، و بقى هذا الاسم مستعملا حتى بعد مجىء الإسلام، إلّا أنّه لا عطلة فيه.

و يقول القرآن الكريم فى آخر الآية: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

و كما أشرنا سابقا فإنّ إحدى خصائص يوم القيامة إنهاء الاختلافات على كافة الأصعدة، و العودة إلى التوحيد المطلق، لأنّ يوم القيامة هو يوم: البروز، الظهور، كشف السرائر و البواطن، و كشف الغطاء و يوم رفع الحجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۳

الآيات [سورة النحل (۱۶): الآيات ۱۲۵ الى ۱۲۸]

اشارة

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵) وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (۱۲۶) وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۱۲۷) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (۱۲۸)

التّفسير

عشرة قواعد أخلاقية .. سلاح داعية الحق:

حملت آيات السورة بين طياتها أحاديث كثيرة و متنوعة، فقد تناولت المشركين و اليهود و أصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة لينة و أخرى بأسلوب تقريع شدة، و خصوصا الآيات السابقة لما لها من عمق و شدة أكثر ممّا سبقها من الآيات المباركات.

أمّا الآيات أعلاه و التى تمثل خاتمة بحوث و أحاديث سورة النحل، فتبيّن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۴

أهم الأوامر الأخلاقیة الأساسیة التی ینبغی التحصن بها عند مواجهة المخالفین علی أساس منطقی، کما و تبیّن کیفیة العقاب و العفو و أسلوب الصمود أمام مؤامرتهم و ما شابه ذلک.

و یمکن تسمیة ذلک بالأصول التکتیکیة و منهج المواجهة فی الإسلام ضد المخالفین، کما و ینبغی العمل به کقانون کلی شامل لکل زمان و مکان.

و یتلخص هذا البرنامج الرّبانی بعشرة أصول، تم ترتیبها وفقا لتسلسل الآیات مورد البحث:

۱- ادْعُ إِلی سَبِیلِ رَبِّکَ بِالْحِکْمَةِ:

«الحکمة»: بمعنی العلم و المنطق و الاستدلال، و هی فی الأصل بمعنی (المنع) و قد أطلقت علی العلم و المنطق و الاستدلال لقدرتها علی منع الإنسان من الفساد و الانحراف ...

فأوّل خطوة علی طریق الدعوة إلی الحقّ هی التمکن من الاستدلال وفق المنطق السلیم، أو النفوذ إلی داخل فکر الناس و محاولة تحریک و إیقاظ عقولهم، کخطوة أولی فی هذا الطریق.

۲- وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ:

و هی الخطوة الثّانیة فی طریق الدعوة إلی اللّه، بالاستفادة من عملیة تحریک الوجدان الإنسانی، و ذلک لما للموعظة الحسنة من أثر دقیق و فاعل علی عاطفة الإنسان و أحاسیسه، و توجیه مختلف طبقات الناس نحو الحقّ.

و فی الحقیقة فإنّ «الحکمة» تستثمر البعد العقلی للإنسان، و «الموعظة الحسنة» تتعامل مع البعد العاطفی له ۲۳۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۵

إنّ تقیید «الموعظة» بقید «الحسنة» لعلّه إشارة إلی أنّ النصیحة و الموعظة إنّما تؤدی فعلها علی الطرف المقابل إذا خلیت من أیّة خشونة أو استعلاء و تحقیر التی تثیر فیه حسّ العناد و اللجاجة و ما شابه ذلک.

فکم من موعظة أعطت عکس ما کان یؤمّل بها بسبب أسلوب طرحها الذی یشعر الطرف المقابل بالحقارة و الإهانة کأن تکون الموعظة امام الآخرین و مقرونة بالتحقیر، أو یستشمّ منها رائحة الاستعلاء فی الواعظ، فتأخذ الطرف المقابل العزة بالإثم و لا یتجاوب مع تلک الموعظة.

و هکذا یترتب الأثر الإیجابی العمیق للموعظة إذا کانت «حسنة».

۳- وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ

الخطوة الثّالثة تختص بتخلیة أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فیه و الأفکار المغلوطة لیکون مستعدا لتلقی الحق عند المناظرة.

و بدیهی أن تکون المجادلة و المناظرة ذات جدوی إذا کانت بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ أی أن یحکمها الحق و العدل و الصحة و الأمانة و الصدق، و تکون خالیة من أیّة إهانة أو تحقیر أو تکبر أو مغالطة، و بعبارة شاملة: أن تحافظ علی کل الأبعاد الإنسانیة السلیمة عند المناظرة.

و فی ذیل الآیة الأولی، یقول القرآن: إِنَّ رَبَّکَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِیلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ

فالآیة تشیر إلی أنّ وظیفتکم هی الدعوة إلی طریق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أمّا مسألة من الذی سیهتدی و من سیبقی علی ضلاله، فعلم ذلک عند اللّه وحده سبحانه.

و ثمة احتمال آخر فی مقصود هذه الجملة و هو بیان دلیل للتوجیهات الثلاث المتقدمة، أی: إنّما أمر سبحانه بهذه الأوامر الثلاثة لأنّه یعلم الکیفیة التی تؤثر بالضالین لأجل توجیههم و هدایتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۶۶

۴- انصب الحدیث فی الأصول الثلاثة حول البحث المنطقی و الأسلوب العاطفی و المناقشة المعقولة مع المخالفین، و إذا حصلت المواجهة معهم و لم یتقبلوا الحق و راحوا یعتدون، فهنا یأتی الأصل الرابع: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ

۵- وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصَّابِرِینَ

و تقول الرّوایات: إنّ الآیة نزلت فی معرکة (أحد) عند ما شاهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شهادة عمّه حمزّة بن عبد المطلب المؤلمة (حیث لم یکتف العدو بقتله بل شقّ صدره بوحشیة و قساوة فظیعة و أخرج کبده أو قلبه و قطع أذنه و أنفه) و تأذی النّبی لذلک کثیرا و

قال: «اللّهم لک الحمد و إلیک و أنت المستعان علی ما أری»

ثمّ

قال: «لئن ظفرت لأمثّلن و لأمثّلن و لأمثّلن»

و

علی روایة أخری أنّه قال: «لأمثّلن بسبعین منهم» فنزلت الآیة: وَ إِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَیْرٌ لِلصَّابِرِینَ فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أصبر أصبر»[۲۳۲].

ربّما کانت تلک اللحظة من أشد لحظات حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّه تمالک زمام أمور نفسه و اختار الطریق الثّانی، طریق العفو و الصبر.

ربّما کانت تلک اللحظة من أشد لحظات حیاة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکنّه تمالک زمام أمور نفسه و اختار الطریق الثّانی، طریق العفو و الصبر.

و یحکی لنا التأریخ ما قام به الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حین فتح مکّة، فما أن وطأت أقدام المسلمین المنتصرة أرض مکّة حتی أصدر نبی الرحمة صلّی اللّه علیه و آله و سلّم العفو العام عن أولئک الجفاة، فوفی بوعده الذی قطعه علی نفسه فی معرکة أحد[۲۳۳].

و حری بالإنسان إذا أراد أن ینظر إلی أعلی نموذج حی فی العواطف الإنسانیة، أن یضع قصتی أحد و فتح مکّة نصب عینیة لیقارن و یربط بینهما.

و لعل التأریخ لا یشهد لأیّة أمّة منتصرة عوملت بمثل ما عمل به النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸ ص: ۳۶۷

و المسلمون مشرکی مکّة عند انتصارهم علیهم، علی الرغم من أن المسلمین کانوا من أبناء تلک البیئة التی نفذ شعور الانتقام و الحقد فیها لیتوغل و یرکد فی أعماق المجتمع، بل و کانت الأحقاد تتوارث جیلا بعد جیل إلی حدّ کان عدم الانتقام یعدّ عیبا کبیرا لا یمکن ستره! و من ثمار عفو و سماحة الإسلام أن اهتزت تلک الأمّة الجاهلة العنیدة من أعماقها و استیقظت من نوم غفلتها، و راح أفرادها کما یقول عنهم القرآن الکریم:

یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللَّهِ أَفْواجاً.

۶- وَ اصْبِرْ وَ ما صَبْرُکَ إِلَّا بِاللَّهِ

و الصبر إنّما یکون مؤثرا و فاعلا إذا قصد به رضوانه تعالی و لا یلحظ فیه أیّ شیء دون ذلک.

و هل یتمکن أیّ إنسان من الصبر علی الکوارث المقطعة للقلب من غیر هدف معنوی و بدون قوة إلهیة و یتحمل الآلام دون فقدان الاتزان!؟ .. نعم، ففی سبیل رضوان اللّه کل شیء یهون و ما التوفیق إلّا منه عزّ و جلّ.

۷- و إذا لم ينفع الصبر فى التبليغ و الـدعوة إلى اللّه، و لا العفو و التسامح، فلا ينبغى أن يحل اليأس فى قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار فى التبليغ بسعة صدر و هدوء أعصاب أكثر، و لهذا يقول القرآن الكريم فى الأصل السابع:

وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

لأنّ الحزن و التأسف على عـدم إيمان المعانـدين يترك أحـد أثرين على الإنسان، فإمّا أن يصـيبه اليأس الدائم، أو يدفعه إلى الجزع و الغضب و ضـعف التحمل، فالنهى عن الحزن عليهم يحمل فى واقعة نهيا للأمرين معا، فينبغى للعاملين فى طريق الدعوة إلى اللّه .. عدم الجزع و عدم اليأس.

۸- وَ لا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ

فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة و دقيقة و خطرة فلا ينبغى لك ترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۸

الميـدان، لظنك أن قـد وقعت فى زاويـة ضـيقة و حصار محكم، بل لا بـدّ من التوكل على اللّه، و سوف تفشل كل الـدسائس و تبطل مفعولها بقوة الإيمان و الثبات و المثابرة و العقل و الحكمة.

و آخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع و العاشر، حيث تقول:

۹- إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا:

التقوى فى جميع أبعادها و بمفهومها الواسع، و منها: التقوى فى مواجهـة المخالفين بمراعاة أصول الأخلاق الإسـلامية عنـد المواجهـة، فمع الأسـير لا بدّ من مراعاة أصول المعاملة الإسـلامية، و مع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف و الأدب و التورع عن الكذب و الاتهام، و فى ميدان القتال لا بدّ من التعامل على ضوء التعليمات العسـكرية وفق الموازين و الضوابط الإسلامية، فمثلا: ينبغى عدم الهجوم على العزل من الأعداء، عدم التعرض للأطفال و النساء و العجزة، و لا التعرض للمواشـى و المزارع لأجل إتلافها، و لا يقطع الماء على العدو ... و خلاصـة القول: تجب مراعاة أصول العـدل مع العـدو و الصديق (و طبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم اسـتثناء و ليس قاعدة).

۱۰- وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ

أكّد القرآن الكريم فى كثير من آياته البيّنات بأن يقابل المؤمن إساءة الجاهل بالإحسان، عسـى أن يخجل الطرف المقابل أو يسـتحى من موقفه المتشـنج، و بهـذه السـلوكية الرائعـة قـد ينتقـل ذلـك الجاهـل من أَلَدُّ الْخِصامِ إلى أحسن الأصـدقاء وَلِيٌّ حَمِيمٌ و إذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنّه أفضل أسـلوب للمواجهـة، و التأريخ الإسـلامى يرفدنا بعيّنات رائعة فى هذا المجال .. و منها: موقف معاملة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مع مشركى مكّة بعد الفتح، معاملة النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ل (وحشى) قاتل حمزّة، معاملته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأسرى معركة بدر الكبرى، معاملته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع من كان يؤذيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۶۹

بمختلف السبل من يهود زمانه .. و نجد شبيه معاملة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع الآخرين قد تجسدت عمليا فى حياة على عليه السّلام و سائر الأئمّة عليهم السّلام، و كل ذلك يكشف لنا بوضوح أهمية الإحسان فى حياة الإنسان من وجهة نظر الإسلام.

و من دقيق العبارة فى هـذا المجال ما نجده فى نهج البلاغة ضـمن الخطبة المعروفة بخطبة همّام، ذلك الرجل الزاهد العابد الذى طلب من أمير المؤمنين عليه السّـلام أن يصف له المتقين، حيث اكتفى أمير المؤمنين عليه السّـلام بـذكر الآية المباركة من مجموع القرآن و قال: اتق الله و أحسن إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ۲۳۴].

و لكنّ السائـل العـاشق للحقّ لم يرو عطشـة بهـذا البيـان المختصـر، ممّا اضـطر الإمام عليه السّـلام أن يعرض له بيانا أكثر تفصـيلا حتى اسـتخرجت من فمه الشـريف أكمل خطبة فى وصف المتقين، حوت على أكثر من مائة صفة لهم، إلّا أنّ جوابه المختصر يبيّن أنّ الآية

المباركة مختصر جامع لكل صفات المتقين.

و بنظرة تأمليّة ممعنة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبيّن لنا جميع الخطوط الأصليّة و الفرعية لأسلوب مواجهة المخالفين، و أنّ هذه الأصول إنّما احتوت كل الأسس المنطقية و العاطفية و النفسية و التكتيكية، و كل ما يؤدى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الإيجابى فيها.

و مع ذلك ... فالاكتفاء بالمنطق و الاستدلال فى مواجهة الأعداء و فى كل الظروف لا يقول به الإسلام و لا يقرّه، بل كثيرا ما تدعو الضرورة لدخول الميدان عمليا فى مواجهة الأعداء حتى يلزم الأمر فى بعض الأحيان المقابلة بالمثل و التوسل بالقوّة فى قبال استعمال القوة من قبل الأعداء، و بالتدابير المبيتة فى قبال ما يبيتون أمور، و لكن أصول العدل و التقوى و الأخلاق و الإسلامية يجب أن تراعى فى جميع الحالات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۰

و لو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

خاتمة مقال سورة النحل «سورة النعم»:

ممّا يلفت النظر فى السورة المباركة- كما قلنا سابقا- ذكرها لكثير من النعم الإلهية، المادية منها و المعنوية، الظاهرية و الباطنية، الفردية و الاجتماعية، ممّا دعت المفسّرين لأن يطلقوا عليهم اسم (سورة النعم).

و بملاحظة و دراسة آيات السورة تظهر لنا فى حدود الأربعين نعمة من النعم الكبيرة و الصغيرة متوزعة بين طياتها، و سنذكر أدناه فهرسا لهذه النعم مع التأكيد على أنّ الهدف من ذكرها إنّما هو لأمرين:

الأوّل: تعليم درس التوحيد و بيان عظمة الخالق.

الثّانى: تقوية حب و تعلق الإنسان بخالقه و تحريك غريزة الشكر لديه.

۱- خَلَقَ السَّماواتِ

۲- وَ الْأَرْضَ

۳- وَ الْأَنْعامَ خَلَقَها.

۴- الاستفادة من صوفها و جلدها لَكُمْ فِيها دِفْءٌ.

۵- وَ مَنافِعُ

۶- مِنْها تَأْكُلُونَ

۷- الاستفادة من جمال الاستقلال الاقتصادى وَ لَكُمْ فِيها جَمالٌ

۸- وَ تَحْمِلُ أَثْقالَكُمْ وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها.

۹- الهداية إلى الصراط المستقيم وَ عَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ

۱۰- هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ

۱۱- إنشاء المراعى وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۱

۱۲- يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ

۱۳- وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ.

۱۴- وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ.

۱۵- وَ النُّجُومُ

۱۶- وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ

۱۷- وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها.

۱۸- وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ

۱۹- وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ

۲۰- وَ أَنْهاراً.

۲۱- وَ سُبُلًا.

۲۲- وَ عَلاماتٍ لمعرفة الطرق.

۲۳- وَ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ فى معرفة الطرق ليلا.

۲۴- وَ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

۲۵- نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ

۲۶- وَ مِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَ رِزْقاً حَسَناً.

۲۷- العسل فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ

۲۸- وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً.

۲۹- وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَنِينَ وَ حَفَدَةً.

۳۰- وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ بمعناها الواسع.

۳۱- وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

۳۲- وَ الْأَبْصارَ.

۳۳- وَ الْأَفْئِدَةَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۲

۳۴- وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً و هى البيوت الثابتة.

۳۵- وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعامِ بُيُوتاً و هى البيوت المتحركة.

۳۶- وَ مِنْ أَصْوافِها وَ أَوْبارِها وَ أَشْعارِها أَثاثاً وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ

۳۷- نعمة الظلال وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالًا.

۳۸- نعمة وجود الملاجئ الآمنة فى الجبال وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً.

۳۹- وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ.

۴۰- وَ سَرابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ أى: فى الحروب.

و جاء فى خاتمة هذه النعم: كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ

الهدف من ذكر النعم:

لا حاجة للتنبيه على أنّ ذكر النعم الإلهية الواردة فى القرآن الكريم لا يقصد منها إلقاء المنّة أو كسب الوجاهة و ما شابه ذلك، فشأن

البارى أجلّ و أسمى من ذلك و هو الغنى و لا غنى سواه. و لكنّ ذكرها جاء ضمن أسلوب تربوى مبرمج يهدف لإيصال الإنسان إلى أرقى درجات الكمال الممكنة من الناحيتين المادية و المعنوية. و أقوى دليل على ذلك ما جاء فى أواخر كثير من الآيات السابقة من عبارات و التى تصب- مع كثرتها و تنوعها- فى نفس الاتجاه التربوى المطلوب.

فبعد ذكر نعمة تسخير البحار، يقول القرآن فى الآية (۱۴): لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

و بعد بيان نعمة الجبال و الأنهار و السبل، يقول فى الآية (۱۵): لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

و بعد بيان أعظم النعم المعنوية (نعمة نزول القرآن) تأتى الآية (۴۴) لتقول: لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

و بعد ذكر نعمة آلات المعرفة المهمّة (السمع و البصر و الفؤاد)، تقول الآية (۷۸): لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۳

و بعد الإشارة إلى إكمال النعم الإلهية، تقول الآية (۸۱): لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ

و بعد ذكر جملة أمور فى مجال العدل و الإحسان و محاربة الفحشاء و المنكر و الظلم، تأتى الآية (۹۰) لتقول: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

و الحقيقة أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى خمسة أهداف من خلال ما ذكر فى الموارد الستة أعلاه:

۱- الشكر.

۲- الهداية.

۳- التفكّر.

۴- التسليم للحق.

۵- التذكّر.

و ممّا لا شك فيه أنّ الأهداف الخمسة مترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا فالإنسان يبدأ بالتفكر، و إذا نسى تذكّر، ثمّ يتحرك فيه حس الشكر لواهب النعم عليه، فيفتح الطريق إليه ليهتدى، و أخيرا يسلّم لأوامر مولاه.

و عليه، فالأهداف الخمسة حلقات مترابطة فى طريق التكامل، و إذا سلك السالك ضمن الضوابط المعطاة لحصل على نتائج مثمرة و عالية.

و ثمّة ملاحظة، هى أنّ ذكر النعم الإلهية بشكليها الجمعى و الفردى إنّما يراد بها بناء الإنسان الكامل.

إلهى! أحاطت نعمك بكل وجودنا، فغرقنا فى بحر عطاياك، و لكننا لم نعرفك بعد.

إلهى! هب لنا بصرا و بصيرة نرى بهما طريق معرفتك و حبّك، و وفقنا للسير فى مراضيك و أوصلنا إلى منزل الشاكرين حقا.

اللّهم! أنت تعلم بحوائجنا دون غيرك، و تعلم أكثر منّا لما نريد، فمنّ علينا لنكون كما تحب، و اجعلنا خيرا ممّا يظن الناس إنّك سميع مجيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۵

سورة الإسراء

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائة و إحدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۷

«سورة الإسراء» قبل الدّخول فى تفسير هذه السورة من المفيد الانتباه إلى النقاط الآتية:

أوّلا: أسماء السّورة و مكان النّزول:

بالرّغم من أنّ الاسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلّا أنّ لها أسماء أخرى مثل «الإسراء» و «سبحان»[۲۳۵].

و من الواضح أنّ ثمّة علاقة تصل بين أى اسم من أسماء السورة و بين محتواها و مضمونها، فهى «بنى إسرائيل» لأنّ هناك قسما مهمّا فى بداية السورة و نهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

و إذا قلنا أنّها سورة «الإسراء» فإنّ ذلك يعود إلى الآية الأولى فيها التى تتحدث عن إسراء (و معراج) النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أمّا تسميتها ب «سبحان» فإنّ ذلك يعود إلى الكلمة الأولى فى السورة المباركة.

و لكن الرّوايات التى تتحدّث عن فضيلة هذه السورة، تطلق عليها «بنى إسرائيل» فقط. و لهذا السبب فإنّ معظم المفسّرين يقتصرون على هذا الاسم، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۸

اختاروه دون غيره.

و بالنسبة لمكان نزول السورة، فمن المشهور أنّ جميع آياتها مكيّة، و ممّا يؤيد ذلك أنّ مضمون السورة و مفاهيمها يناسب بشكل كامل مضمون و محتوى و سياق السور المكّية، هذا بالرغم من أنّ المفسّرين يعتقد بأنّ هناك مقطعا من السورة قد نزل فى المدينة، و لكن المشهور ما شاع بين المفسّرين من مكية تمام السورة.

ثانيا: فضيلة سورة الإسراء:

وردت فى فضيلة سورة الإسراء و أجرها أحاديث كثيرة عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن الإمام الصادق عليه السّلام.

فعن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «من قرأ سورة بنى إسرائيل فى كل ليلة جمعة لم يمت حتى يدرك القائم و يكون من أصحابه».

و بالنسبة لثواب قراءة سور القرآن الكريم و الرّوايات التى تتحدث عن فضائلها، ينبغى أن يلاحظ أنّ ملاك الأمر لا يتعلق بمجرّد القراءة و حسب، و إنّما- كما قلنا مرارا- أنّ التلاوة ينبغى أن تقترن بالتفكر فى معانيها و التأمّل فى مفاهيمها، و ينبغى أن يعقب ذلك جميعا العمل بها، و تحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم فى سلوكه.

خصوصا و إنّنا نقرأ فى واحدة من الرّوايات التى تتحدث عن فضيلة هذه السورة ما نصه:

«فرق قلبه عند ذكر الوالدين».

أى أنّ هناك أثر ترتّب على القراءة، و قد تمثل هنا بموجة من الأحاسيس النّبيلة و الحبّ و المودّة للوالدين.

إذا، ألفاظ القرآن تملك و لا شك قيمة و احتراما بحدّ ذاتها، إلّا أنّ هذه الألفاظ هى مقدمة للوعى الفكرى الصحيح، كما أنّ الوعى الفكرى الإيمانى الصحيح هو مقدمة للعمل الصالح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۷۹

ثالثا: خطوط عامّة فى محتوى السورة:

لقد أشرنا إلى مكيّة السورة وفق القول المشهور بين المفسّرين، لذا فإنّ محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكّية، من قبيل تركيزها على قضية التوحيد و المعاد، و مواجهة إشكاليات الشرك و الظلم و الانحراف.

و بالإمكان فرز المحاور المهمّة الآتية التى يدور حولها مضمون السورة:

أوّلا: الإشارة إلى أدلة النّبوة الخاتمة و براهينها، و فى مقدمتها معجزة القرآن و قضية المعراج.

ثانيا: ثمّة بحوث فى السورة ترتبط بقضية المعاد و ما يرتبط به من حديث عن صحيفة الأعمال، و قضية الثواب و العقاب المترتب على نتيجة الجزاء.

ثالثا: تتحدّث السورة فى بدايتها و نهايتها عن قسم من تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث.

رابعا: تتعرض السورة إلى حرية الإختيار لدى الإنسان و أنّ الإنسان غير مجبر فى أعماله، و بالتالى فإنّ على الإنسان أن يتحمل مسئولية تلك الحرية من خلال تحمله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.

خامسا: تبحث السورة قضية الحساب و الكتاب فى هذه الدنيا، لكى يعى الإنسان قضية الحساب و الكتاب على أعماله و أقواله فى اليوم الآخر.

سادسا: تشير إلى الحقوق فى المستويات المختلفة، خصوصا فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، و بالأخص منهم الأم و الأب! سابعا: تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و «التبذير»، و «البخل»، و «قتل الأبناء»، و «الزنا»، و «أكل مال اليتيم»، و «البخس فى المكيال»، و «التكبّر»، و «إراقة الدماء».

ثامنا: فى السورة بحوث حول التوحيد و معرفة اللّه تعالى.

تاسعا: تواجه السورة مواقف العناد المكابرة إزاء الحق، و أنّ الذنوب تتحوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۰

إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.

عاشرا: تركز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.

أحد عشر: تؤكّد السورة على تأثير القرآن الكريم فى معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية و الاجتماعية.

ثانى عشر: تبحث السّورة فى المعجزة القرآنية و عدم تمكن الخصوم و عجزهم عن مواجهة هذه المعجزة.

ثالث عشر: تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان و إغواءاته، و تنبههم إلى المسالك التى ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.

رابع عشر: تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا و المفاهيم و التعاليم الأخلاقية.

خامس عشر: أخيرا تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السّلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس و العبر من هذه القصص.

فى كل الأحوال تعكس سورة الإسراء فى مضمونها و محتواها العقائدى و الأخلاقى و الاجتماعى لوحة متكاملة و متنافسة لسمو و تكامل البشر فى المجالات المختلفة.

و الجميل فى السورة أنّها تبدأ ب «تسبيح اللّه»- جلّ جلاله- و تنتهى ب «الحمد و التكبير». و التسبيح هو تنزيه عن كل عيب و نقص، و الحمد علامة على تحقق صفات الفضيلة و تمثّلها فى ذاته العليا المقدّسة، بينما التكبير هو رمز الشرف و العظمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۱

الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱)

التّفسير

معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الآية الأولى فى سورة الإسراء تتحدّث عن إسراء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى سفره ليلا من المسجد الحرام فى مكّة المكرمة إلى المسجد الأقصى (فى القدس الشريف).

و قد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى السماء. و قد لو حظ فى هذا السفر أنّه تمّ فى زمن قياسى حيث أنّه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن و لهذا كان أمرا اعجازيا و خارقا للعادة.

السّورة المباركة تبدأ بالقول: سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى

و قد كان القصد من هذا السفر الليلى الإعجازى هو لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا.

ثمّ ختمت الآية بالقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. و هذه إشارة إلى أنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۲

تبارك و تعالى لم يختر رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يصطفه لشرف الإسراء و المعراج إلا بعد أن اختبر استعداده صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهذا الشرف و لياقته لهذا المقام، فاللّه تبارك و تعالى سمع قول رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و رأى عمله و سلوكه فاصطفاه للمقام السامى الذى اختاره له فى الإسراء و المعراج.

و احتمل بعض المفسّرين فى قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ أن يكون تهديدا لمنكرى هذا الإعجاز، و أنّ اللّه تبارك و تعالى محيط بما يقولون و بما يفعلون، و بما يمكرون! و بالرغم من أنّ هذه الآية تنطوى على اختصار شديد، إلّا أنّها تكشف عن مواصفات هذا السفر الليلى «الإسراء» الإعجازى من خلال ما ترسمه له من أفق عام يمكن تفصيله بالشكل الآتى:

أوّلا: إنّ تعبير «أسرى» فى الآية يشير إلى وقوع السفر ليلا، لأنّ «الإسراء» فى لغة العرب يستخدم للدلالة على السفر الليلى، فيما يطلق على السفر النهارى كلمة «سير».

ثانيا: بالرغم من أنّ كلمة «ليلا» جاءت فى الآية تأكيدا لكلمة «أسرى» إلّا أنّها تريد أن تبيّن أن سفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد تمّ فى ليلة واحدة فقط على الرغم من أنّ المسافة بين المسجد الحرام و بيت المقدس تقدّر بأكثر من مائة فرسخ، و بشروط مواصلات ذلك الزمان، كان إنجاز هذا السفر يتطلب أيّاما بل و أسابيع، لا أن يقع فى ليلة واحدة فقط! ثالثا: إذا كان مقام العبودية هو أسمى مقام يبلغه الإنسان فى حياته، فإنّ الآية قد كرّمت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإطلاق وصف العبودية عليه، فقالت «عبده» للدلالة على مراقى الطاعة و العبودية التى قطعها الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للّه تبارك و تعالى حتى استحق شرف «الإسراء» حيث لم يسجد جبين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لشىء سوى اللّه، و لم يطع صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما عداه، و قد بذل كل وسعه، و خطا كل خطوة فى سبيل مرضاته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۳

تعالى.

رابعا: تفيد كلمة «عبد» فى الآية، أنّ سفر الإسراء قد وقع فى اليقظة، و أنّ رسول اللّه سافر بجسمه و روحه معا، و أنّ الإسراء لم يكن سفرا روحانيا معنويا و حسب، لأنّ الإسراء إذا كان بالروح- و حسب- فهو لا يعدو أن يكون رؤيا فى المنام، أو أى وضع شبيه بهذه الحالة، و لكن كلمة «عبد» فى الآية تدلّل على أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد سافر بجسمه و روحه، لأنّ «عبد» معنى يطلق على الروح و الجسد معا.

أمّا الأشخاص الذين لا يستطيعون هضم معجزة الإسراء و المعراج، و لم تستطع عقولهم أن تتعامل مع هذه المعجزة كما هى، فقد عمدوا إلى توجيهها بعنوان الإسراء الروحى فى حين أنّه لو قال شخص لآخر: إنى نقلتك إلى المكان الفلانى فإنّ المفهوم الصريح للمعنى لا يمكن تأويله باحتمال أنّ هذا الأمر قد تمّ فى حالة النوم، أو أنّه تعبير عن حالة معنوية تمتزج بأبعاد من الوهم و التخيّل.

خامسا: لقد كان مبتدأ هذا السفر (الذى كان مقدمة للمعراج كما سنثبت ذلك فى محلّه) هو المسجد الحرام فى مكّة المكرمة، و منتهاه المسجد الأقصى فى القدس الشريف.

بالطبع هناك كلام كثير للمفسّرين عن المكان الدقيق الذى انطلق منه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فيما إذا كان هذا المكان بيت أحد أقربائه (باعتبار أنّ المسجد الحرام قد يطلق أحيانا و من باب التعظيم على مكّة المكرمة بأجمعها) أو أنّه انطلق من جوار الكعبة، و لكن ظاهر الآية بلا شك يفيد أنّ المنطلق فى سفر الإسراء كان من المسجد الحرام.

سادسا: لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازى أن يشاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آيات العظمة الإلهية، و قد استمرّ سفر الإسراء إلى المعراج صعودا فى السماوات لتحقيق هذا الغرض، و هو أن تمتلئ روح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أكثر بدلائل العظمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۴

الرّبانية، و آيات اللّه فى السماوات، و لتجد روحه السامية فى هذه الآيات زخما إضافيا يوظّفه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هداية الناس إلى ربّ السماوات و الأرض! و بذلك فإنّ سفر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى رحلة الإسراء و المعراج لم يكن- كما يتصوّر البعض ذلك- بهدف رؤية اللّه تبارك و تعالى- ظنّا منهم أنّه تعالى يشغل مكانا فى السماوات!!! و بالرغم من أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان عارفا بعظمة اللّه سبحانه، و كان عارفا أيضا بعظمة خلقه، و لكن «متى كان السماع كالرؤية؟!».

و نقرأ فى سورة (النّجم التى تلت سورة الإسراء و تحدثت عن المعراج قوله تعالى: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

سابعا: إنّ تعبير الآية بارَكْنا حَوْلَهُ تفيد بأنّه علاوة على قدسية المسجد الأقصى، فإنّ أطرافه أيضا تمتاز بالبركة و الأفضلية على ما سواها.

و يمكن أن يكون مراد الآية البركة الظاهرية المتمثلة بها تهبه هذه الأرض الخصبة الخضراء من مزايا العمران و الأنهار و الزراعة.

و يمكن أن تحمل البركة على قواعد الفهم المعنوى فتشير حين ذاك إلى ما تمثّله هذه الأرض فى طول التأريخ، من كونها مركزا للنبوات الإلهية، و منطلقا لنور التوحيد، و أرضا خصبة للدعوة إلى عبودية اللّه.

ثامنا: إنّ تعبير إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ إشارة إلى أنّ إكرام اللّه لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمعجزة الإسراء و المعراج لم يكن أمرا عفويا عابرا، بل هو بسبب استعدادات رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قابلياته العظيمة التى تجلت فى أقواله و أفعاله، هذه الأقوال و الأفعال التى يعرفها اللّه و يحيط بها.

تاسعا: إنّ كلمة «سبحان» إشارة إلى أنّ سفر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسراء و المعراج دليل آخر على تنزيه اللّه تبارك و تعالى من كل عيب و نقص.

عاشرا: كلمة «من» فى قوله تعالى: مِنْ آياتِنا إشارة إلى عظمة آيات اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۵

بحيث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- على علو مقامه و استعداده الكبير- لم ير من هذه الآيات خلال سفره الإعجازى سوى جزء معين منها.

المعراج:

اشارة

من المعروف و المشهور بين علماء الإسلام أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كان فى مكّة! أسرى به اللّه تبارك و تعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، و من هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الرّبانية و آيات اللّه الكبرى فى فضاء السماوات، ثمّ عاد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى نفس الليلة إلى مكّة المكرمة.

و المعروف المشهور أيضا أنّ سفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسراء و المعراج قد تمّ بجسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و روحه معا.

و لكن العجيب ما يحاوله البعض من توجيه معراج الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالمعراج الروحى و الذى هو حالة شبيهة بالنوم أو «المكاشفة الروحية» و لكن هذا التوجيه- كما أشرنا- لا ينسجم إطلاقا مع ظواهر الآيات، بل هو مخالف لها، إذ يدل الظاهر على أنّ القضية تمت بشكل جسمى حسى.

فى كل الأحوال تبقى هناك مجموعة أسئلة تثار حول قضية المعراج يمكن أن نلخصها بالشكل الآتى:

۱- كيفية المعراج من وجهة نظر القرآن و التأريخ و الحديث.

۲- آراء علماء الإسلام شيعة و سنة حول هذه القضية.

۳- الهدف من المعراج.

۴- إمكانية المعراج من وجهة نظر العلوم المعاصرة.

بالرغم من أنّ الإجابة المفصّلة على هذه الأسئلة هى خارج نطاق بحثنا التّفسيرى، إلّا أننا سنعالج هذه النقاط باختصار يناسب ذوق القارئ الكريم. إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۶

شاء اللّه:

المعراج فى القرآن و الحديث:

فى كتاب اللّه سورتان تتحدثان عن المعراج:

السورة الأولى هى سورة «الإسراء» التى نحن الآن بصددها، و قد أشارت إلى القسم الأوّل من سفر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (أى أشارت لإسرائه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) و قد استتبع الإسراء بالمعراج.

السورة الثّانية التى أشارت للمعراج هى سورة «النجم» التى تحدثت عنه فى ست آيات هى: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

هذه الآيات تفيد حسب أقوال المفسّرين أنّ الإسراء و المعراج تمّا فى حالة اليقظة، و إنّ قوله تعالى: ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى هو إثبات آخر لصحة هذا القول.

فى الكتب الإسلامية المعروفة هناك عدد كبير جدّا من الأحاديث و الرّوايات التى جاءت حول قضية المعراج، حتى أنّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى «تواتر» حديث المعراج أو اشتهاره، و على سبيل المثال نعرض للنماذج الآتية:

يقول الشيخ «الطوسى» فى تفسير (التبيان) ما نصّه: «إنّه عرج به فى تلك الليلة إلى السماوات حتى بلغ سدرة المنتهى فى السماء السابعة، و أراه اللّه من آيات السماوات و الأرض ما ازداد به معرفة و يقينا، و كان ذلك فى يقظته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دون منامه»[۲۳۶].

أمّا العلّامة «الطبرسى» فى تفسيره المعروف «مجمع البيان» فيقول: «و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۷

قاله بعضهم أنّ ذلک کان فی النوم فظاهر البطلان إذ لا معجز یکون فیه و لا برهان، و قد وردت روایات کثیرة فی قصّة المعراج، فی عروج نبیّنا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی السماء، و رواها کثیر من الصحابة .. [إذ أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم صلّی المغرب فی المسجد الحرام ثمّ أسری به فی لیلته ثمّ رجع فصلّی الصبح فی المسجد الحرام. و قال الأکثرون و هو الظاهر من مذاهب أصحابنا و المشهور فی أخبارهم، أنّ اللّه تعالی صعد بجسمه إلی السماء حیا سلیما حتی رأی ما رأی من ملکوت السماوات بعینه، و لم یکن ذلک فی المنام»[۲۳۷].

أمّا العلّامة «المجلسی» فیقول فی (بحار الأنوار) ما نصه: «أعلم أنّ عروجه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی بیت المقدس ثمّ إلی السماء فی لیلة واحدة بجسده الشریف، ممّا دلّت علیه الآیات و الأخبار المتواترة من طرق الخاصّة و العامّة، و إنکار أمثال ذلک أو تأویلها بالعروج الروحانی أو بکونه فی المنام ینشأ إمّا من قلّة التتبع فی آثار الأئمّة الطاهرین أو من ضعف الیقین»[۲۳۸].

ثمّ یردف العلّامة المجلسی قائلا: «لو أردت استیفاء الأخبار الواردة فی هذا الباب لصار مجلدا کبیرا»[۲۳۹].

و من علماء السنة قام منصور علی ناصف الأزهری المعاصر بجمع أحادیث المعراج فی کتابه المعروف باسم «التاج».

أمّا الفخر الرازی- المفسّر الإسلامی المعروف- فیقول بعد ذکره لسلسلة من الاستدلالات علی إمکان الوقوع العقلی للمعراج، ما یلی: «من وجهة نظر الحدیث تعتبر أحادیث المعراج من الرّوایات المشهورة فی صحاح أهل السنّة، و مفاد هذه الأحادیث إسراء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من مکّة إلی بیت المقدس، و عروجه من بیت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۸

المقدس إلی السماء».

أمّا الشیخ عبد العزیز بن عبد اللّه بن باز و هو من متعصبی علماء الوهابیة و الذی یشغل الآن منصب رئیس إدارات البحوث العلمیة و الإفتاء و الدعوة و الإرشاد، فیقول فی کتابه «التحذیر من البدع»: «لیس من شک فی أنّ الإسراء و المعراج هی من العلامات الکبیرة علی صدق النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علو مقامه و منزلته» إلی أن یقول: «نقلت أخبار متواترة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ اللّه تبارک و تعالی أخذ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و فتح له أبواب السماء»[۲۴۰].

و لکن ینبغی أن نلاحظ هنا أن من بین الرّوایات الواردة فی قضیة المعراج ثمّة أحادیث ضعیفة و مجعولة لا یمکن القبول بها مطلقا.

لذلک نری أن المفسّر الإسلامی الکبیر، الشیخ الطبرسی عمد فی ذیل تفسیر هذه الآیة مورد البحث إلی تقسیم الأحادیث الواردة فی المعراج إلی أربع فئات هی:

۱- ما یقطع بصحته لتواتر الأخبار به و إحاطة العلم بصحته، و مثله أنّه أسری به علی الجملة.

۲- ما ورد فی ذلک ممّا تجوزه العقول و لا تأباه الأصول، فنحن نجوزه ثمّ نقطع علی أنّ ذلک کان فی یقظته دون منامه، و مثله ما شاهده من آیات ربّه فی السماوات.

۳- ما یکون ظاهره مخالفا لبعض الأصول إلّا أنّه یمکن تأویلها علی وجه یوافق المعقول، نحو ما روی أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی قوما فی الجنّة یتنعمون فیها، و قوما فی النّار یعذبون فیها، فهو یحمل علی أنّه رأی صفتهم أو أسماءهم.

۴- ما لا یصح ظاهره و لا یمکن تأویله إلّا علی التعسف البعید فالأولی أن لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۸۹

نقبله، نحو ما قیل من أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کلّم اللّه سبحانه جهرة، و رآه و قعد معه علی سریره ... ممّا یوجب ظاهره التشبیه و اللّه سبحانه و تعالی یتقدّس عن ذلک ۲۴۱].

هناک أیضا اختلافات بین المؤرخین المسلمین حول تاریخ وقوع المعراج، إذ یقول البعض: أنّه حصل فی السنة العاشرة للبعثة فی لیلة

السابع و العشرین من شهر رجب، و البعض یقول: إنّه عرج به صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی (۱۷) رمضان من السنة الثّانیة عشرة للبعثة المبارکة. و بعض ثالث قال: إنّ المعراج وقع فی أوائل البعثة.

و لکن فی کل الأحوال، فإنّ الاختلاف فی تأریخ وقوع المعراج لا ینفی أصل الحادثة.

من المفید أیضا أن نذکر أنّ عقیدة المعراج لا تقتصر علی المسلمین، بل هناک ما یشابهها فی الأدیان الأخری، بل إنا نری فی المسیحیة أکثر ممّا قیل فی معراج النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إذ یقول أولئک کما فی الباب السّادس من إنجیل «مرقس» و الباب (۲۴) من إنجیل «لوقا» و الباب (۲۱) من إنجیل (یوحنّا) أن عیسی بعد أن صلب و قتل و دفن نهض من مدفنه و عاش بین الناس أربعین یوما قبل أن یعرج إلی السماء لیبقی هناک فی عروج دائم! و نستفید من مؤدّی بعض الرّوایات أنّ بعض الأنبیاء السابقین عرج بهم إلی السماء أیضا.

هل کان المعراج جسدیا أم روحیا؟

إن ظاهر الآیات القرآنیة الواردة فی أوائل سورة الإسراء، و کذلک سورة النجم (کما فصلنا أعلاه) تدلل علی وقوع المعراج فی الیقظة، و یؤکّد هذا الأمر کبار علماء الإسلام من الشیعة و السنة.

و تشهد التواریخ الإسلامیة أیضا علی صدق هذا الموضوع، و نقرأ فی التأریخ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۰

أن المشرکین أنکروا بشدّة قضیة المعراج عند ما تحدث بها الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أخذوها علیه ذریعة للاستهزاء به، ممّا یدل بوضوح علی أنّ الرّسول لم یدّع الرؤیة أو المکاشفة الروحیة أبدا، و إلّا لما استتبع القضیة کل هذا الضجیج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصری أنّه (کان فی المنام رؤیا رآها) أو عن عائشة أنّه: (و اللّه ما فقد جسد رسول اللّه و لکن عرج بروحه)، فیبدو أنّ لذلک منظور سیاسی، لإخماد الضجّة التی أثیرت حول قضیة المعراج.

هدف المعراج:

اتّضح لنا من خلال البحوث الماضیة، أنّ هدف المعراج لم یکن تجوالا للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی السماوات للقاء اللّه کما یعتقد السذج، و کما نقل بعض العلماء الغربیین- و مع الأسف- لجهلهم أو لمحاولتهم تحریف الإسلام أمام الآخرین، و منهم (غیور غیف) الذی یقول فی کتاب (محمد رسول ینبغی معرفته من جدید، ص ۱۲۰)، (بلغ محمد فی سفر معراجه إلی مکان کان یسمع فیه صوت قلم اللّه، و یفهم أنّ اللّه منهمک فی تدوین حساب البشر! و مع أنّه کان یسمع صوت قلم اللّه إلّا أنّه لم یکن یراه! لأنّ أحدا لا یستطیع رؤیة اللّه و إن کان رسولا).

و هذا یظهر أن القلم کان من النوع الخشبی! الذی یهتز و یولد أصواتا عند حرکته علی الورق!! و أمثال هذه الخرافات و الأوهام.

کلا. فالهدف کان مشاهدة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأسرار العظمة الإلهیة فی أرجاء عالم الوجود، لا سیما العالم العلوی الذی یشکل مجموعة من براهین عظمته، و تتغذی بها روحه الکریمة و تحصل علی نظرة و إدراک جدیدین لهدایة البشریة و قیادتها.

و یتّضح هذا الهدف بشکل صریح فی الآیة الأولی من سورة الإسراء، و الآیة (۱۸) من سورة النجم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۱

و هناک روایة أیضا منقولة عن الإمام الصادق علیه السّلام فی جوابه علی سبب المعراج. أنّه

قال علیه السّلام: «إنّ اللّه لا یوصف بمکان، و لا یجری علیه زمان، و لکنّه عزّ و جلّ أراد أن یشرف به ملائکته و سکان سماواته، و یکرمهم بمشاهدته، و یریه من عجائب عظمته ما یخبر به بعد هبوطه»[۲۴۲].

المعراج و العلوم العصریة:

کان بعض الفلاسفة القدماء یعتقد بنظریة «الأفلاک البطلیموسیة التسعة» و التی تکون علی شکل طبقات البصل فی إحاطتها بالأرض، لذلک فقد أنکر المعراج بمزاعم علمیة تقوم علی أساس الإیمان بنظریة الهیئة البطلیموسیة و التی بموجبها یلزم خرق هذه الأفلاک و من ثمّ التئامها لیکون المعراج ممکنا[۲۴۳].

و لکن مع انهیار قواعد نظریة الهیئة البطلیموسیة أصبحت شبهة خرق و التئام الأفلاک فی خبر کان، و ضمتها ید النسیان، و لکن التطوّر المعاصر فی علم الأفلاک أدّی إلی إثارة مجموعة من الشبهات العلمیة التی تقف دون إمکانیة المعراج علمیا، و هذه الشبهات یمکن تلخیصها کما یلی:

أوّلا: إنّ أوّل ما تواجه الذی یرید أن یجتاز المحیط الفضائی للأرض إلی عمق الفضاء هو وجوب الانفلات من قوة الجاذبیة الأرضیة، و یحتاج الإنسان للتخلّص من الجاذبیة إلی وسائل استثنائیة تکون معدّل سرعتها علی الأقل (۴۰) ألف کیلومتر فی الساعة.

ثانیا: المانع الآخر یتمثل فی خلو الفضاء الخارجی من الهواء، الذی هو القوام فی حیاة الإنسان.

ثالثا: المانع الثّالث یتمثل بالحرارة الشدیدة الحارقة (للشمس) و البرودة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۲

القاتلة، و ذلک بحسب موقع الإنسان فی الفضاء من الشمس.

رابعا: هناک خطر الإشاعات الفضائیة القاتلة کالأشعة الکونیة و الأشعة ما وراء البنفسجیة و أشعة إکس، إذ من المعروف أنّ الجسم یحتاج إلی کمیات ضئیلة من هذه الإشعاعات، و هی بهذا الحجم لا تشکّل ضررا علی جسم الإنسان و وجود طبقة الغلاف الجوی یمنع من تسر بها بکثرة إلی الأرض.، و لکن خارج محیط الغلاف الجوّی تکثر هذه الإشاعات إلی درجة تکون قاتلة.

خامسا: هناک مشکلة فقدان الوزن التی یتعرض لها الإنسان فی الفضاء الخارجی، فمن الممکن للإنسان أن یتعوّد تدریجیا علی الحیاة فی أجواء انعدام الوزن، إلّا أنّ انتقاله مرّة واحدة إلی الفضاء الخارجی- کما فی المعراج- هو أمر صعب للغایة، بل غیر ممکن.

سادسا: المشکلة الأخیرة هی مشکلة الزمان، حیث تؤکد علوم الیوم علی أنّه لیست هناک وسیلة تسیر أسرع من سرعة الضوء، و الذی یرید أن یجول فی سماوات الفضاء الخارجی یحتاج إلی سرعة تکون أسرع من سرعة الضوء!.

فی مواجهة هذه الأسئلة:

أوّلا: فی عصرنا الحاضر، و بعد أن أصبحت الرحلات الفضائیة بالاستفادة من معطیات العلوم أمرا عادیا، فإنّ خمسا من المشاکل الست الآنفة تنتفی، و تبقی- فقط- مشکلة الزمن. و هذه المشکلة تثار فقط عند الحدیث عن المناطق الفضائیة البعیدة جدا.

ثانیا: إنّ المعراج لم یکن حدثا عادیا، بل أمر إعجازی خارق للعادة ثمّ بالقدرة الإلهیة. و کذلک الحال فی کافة معجزات الأنبیاء و هذا یعنی عدم استحالة المعجزة عقلا، أمّا الأمور الأخری فتتم بالاستناد إلی القدرات الإلهیة.

و إذا کان الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطیات العلوم الحدیثة أن یوفّر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۳

حلولا للمشکلات الآنفة الذکر، مثل مشکلة الجاذبیة و الأشعة و انعدام الوزن و ما إلی ذلک، حتی أصبح بمستطاعه السفر إلی الفضاء الخارجی .. فألا یمکن للّه- خالق الکون، صاحب القدرات المطلقة- أن یوفّر وسیلة تتجاوز المشکلات المذکورة؟! إنّنا علی یقین من أنّ اللّه تبارک و تعالی وضع فی متناول رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرکبا مناسبا صانه فیه عن کل المخاطر و الأضرار فی معراجه نحو السماوات، و لکن ما اسم هذا المرکب هل هو «البراق» أو «رفرف»؟ و علی أی شکل و هیئة کان؟ کل هذه أمور غامضة

بالنسبة لنا، و لكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمّ، و إذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأمور فإنّ مشكلة السرعة التى بقيت- لوحدها- تحتاج إلى حل، فإنّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكلة بعد أن وجدت لها حلولا مناسبة بالرغم ممّا يؤكّده «إنشتاين» فى نظريته من أن سرعة الضوء هى أقصى سرعة معروفة اليوم.

إنّ علماء اليوم يؤكدون أنّ الأمواج الجاذبة لا تحتاج إلى الزمن، و هى تنتقل فى آن واحد من طرف من العالم إلى الطرف الآخر منه و هناك احتمال مطروح بالنسبة للحركة المرتبطة بتوسّع الكون (من المعروف أنّ الكون فى حالة اتساع و أنّ النجوم و المنظومات السماوية تبتعد عن بعضها البعض بحركة سريعة) إذ يلاحظ أنّ الأفلاك و النجوم و المنظومات الفضائية تبتعد عن بعضها البعض و عن مركز الكون إلى أطرافه، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء! إذن، بكلام مختصر نقول: إنّ المشكلات الآنفة ليس فيها ما يحول عقلا دون وقوع المعراج، و دون التصديق به، و المعراج بذلك لا يعتبر من المحالات العقلية، بل بالإمكان تذيل المشكلات المثارة حوله بتوظيف الوسائل و القدرات المناسبة.

و بذلك فالمعراج لا يعتبر أمرا غير ممكن لا من وجهة الأدلة العقلية، و لا من وجهة معطيات و موازين العلوم المعاصرة. و هو بالإضافة إلى ذلك أمر إعجازى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۴

خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلى السليم عليه فينبغى قبوله و الإيمان به ۲۴۴].

و أخيرا .. هناك إشارة أخرى حول المعراج سنقف عليها أثناء الحديث عن سورة النجم إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۵

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۲ الى ۸]

اشارة

وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (۲) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً (۳) وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً (۴) فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولاً (۵) ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً (۶)

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً (۷) عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً (۸)

التّفسير

بعد أن أشارت الآية الأولى فى السورة إلى معجزة إسراء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۶

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كشفت آيات السورة الأخرى، عن موقف المشركين و المعارضين لمثل هذه الأحداث، و أبانت استنكارهم لها، و عنادهم إزاء الحق، فى هذه الاتجاه انعطفت الآية الأولى- من الآيات مورد البحث- على قوم موسى، ليقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّ تأريخ النبوات واحد، و إنّ موقف المعاندين واحد أيضا، و أنّه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشى موقفه هذا منك، و بين يديك الآن تأريخ بنى إسرائيل فى موقفهم من موسى عليه السّلام.

تقول الآية أوّلا: وَ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ

و صفة هذا الكتاب أنّه: وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ و الكتاب الذى تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذى نزل على موسى عليه السّلام هدى لبنى إسرائيل.

ثمّ تشير الآية إلى الهدف من بعثة الأنبياء بما فيهم موسى عليه السّلام فتقول:

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا[۲۴۵].

إنّ التوحيد فى العمل هو واحد من معالم أصل التوحيد، و هو علامة على التوحيد العقائدى. الآية تقول: لا تتكئ على أحد سوى اللّه، و إنّ أى اعتماد على غيره دلالة على ضعف الإيمان بأصل التوحيد. إنّ أسمى معانى التجلّى فى هداية الكتب السماوية، هو اشتعال نور التوحيد فى القلوب و الانقطاع عن الجميع و الاتصال باللّه تعالى.

و من أجل أن تحرّك الآية التالية عواطف بنى إسرائيل و تحفّزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصا نعمة نزول الكتاب السماوى، فإنّها تضع لهم نموذجا للعبد الشكور فتقول: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ۲۴۶] و لا تنسوا: إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۷

و الآية تخاطب بنى إسرائيل بأنّهم أولاد من كان مع نوح، و عليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم و آبائهم فى الشكر لأنعم اللّه.

«شكور» صيغة مبالغة بمعنى «كثير الشكر»، و أمّا كون بنى إسرائيل ذرية من كان مع نوح، فإنّ ذلك قد يعود إلى أنّ من فى الأرض جميعا، بعد طوفان نوح، و منهم بنو إسرائيل، هم كلّهم من سلالة الأبناء الثلاثة لنوح، أى «سام» و «حام» و «يافث» كما ورد فى كتب التاريخ، و ممّا لا شك فيه أنّ كل أنبياء اللّه شكورون، و لكنّ الأحاديث تعطى ميزة خاصّة لنوح الذى كان دائم الشكر على كل نعمة ففى كل شربة ماء، أو وجبة غذاء، أو وصول نعمة أخرى له فإنّه يذكر اللّه فورا و يشكره على نعمائه.

و

فى حديث عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام نقرأ قولهما إنّ نوحا كان يقرأ هذا الدعاء فى كل صباح و مساء، «اللّهم إنّى أشهدك أنّ ما أصبح أو أمس بى من نعمة فى دين أو دنيا فمنك، وحدك لا شريك لك، لك الحمد و لك الشكر بها علىّ حتى ترضى، و بعد الرضا».

ثمّ أضاف الإمام: «هكذا كان شكر نوح»[۲۴۷].

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث، فتقول: وَ قَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيراً.

كلمة «قضاء» لها عدّة معان، إلّا أنّها استخدمت هنا بمعنى «إعلام» أمّا المقصود من «الأرض» فى الآية- بقرينة الآيات الأخرى هى ارض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآية التى تليها تفصل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبيرين لبنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۸

إسرائيل و الحوادث التى تلى ذلك على أنّها عقوبة الهية فتقول: فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولاهُما و ارتكبتم ألوان الفساد و الظلم و العدوان بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ.

و هؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ.

و هذا الأمر لا مناصّ منه: وَ كانَ وَعْداً مَفْعُولًا.

ثمّ تشير بعد ذلك إلى أنّ الإلطاف الإلهية ستعود لتشملكم، و سوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً[۲۴۸].

و هـذه المنّة و اللطف الإلهى بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم و تصلحوا أعمالكم و تتركوا القبائح و الذنوب لأنّه: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

إنّ الآيـة تعبّر عن سنّة ثابتـة، إذ أن محصلـة مـا يعمله الإنسـان من سـوء أو خير تعود إليه نفسه، فالإنسـان عنـد مـا يلحق أذى أو سوءا بالآخرين، فهو فى الواقع يلحقه بنفسه، و إذا عمل للآخرين، فإنّما فعل الخير لنفسه، أمّا بنو إسـرائيل، فهم مع الأسف لم توقظهم العقوبة الأولى، و لا نبهتهم عودة النعم الإلهيـة مجـددا، بل تحركوا باتجاه الإفساد الثّانى فى الأرض و سـلكوا طريق الظلم و الجور و الغرور و التكبّر.

تقول الآيـة فى وصف المشـهد الثّانى أنّه حين يحين الوعـد الإلهى سوف تغطيكم جحافل من المحاربين و يحيق بكم البلاء الى درجة أنّ آثار الحزن و الغم تظهر على وجوهكم: فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ

بل و يأخذون منكم حتى بيت المقدس: وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۳۹۹

و هم لا يعكفون بذلك، بل سيحتلّون جميع بلادكم و يدمرّونا عن آخرها:

وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً و فى هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهية مفتوحة:

عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ

وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا أى إن عـدتم لنـا بالتوبـة فسوف نعود عليكم بالرحمـة، و إن عـدتم للإفسـاد عـدنا عليكم بالعقوبـة. و إذا كـان هـذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخرة مصيركم جهنم: وَ جَعَلْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ حَصِيراً[۲۴۹].

***

ملاحظات

الأولى: الإفسادان التأريخيان لبنى إسرائيل:

تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبنى إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان و العلو، و قد لاحظنا أنّ اللّه سلّط على بنى إسـرائيل عقب كل فساد رجال أشـدّاء شـجعانا يذيقونهم جزاء فسادهم و علوهم و طغيانهم، هذا مع اسـتثناء الجزاء الأخروى الذى أعدّه اللّه لهم.

و بـالرغم من اتسـاع تاريـخ بنى إسـرائيل، و تنوّع الأحـداث و المواقف فيه، إلّا أنّ المفسّـرين يختلفون فى كـل المرّات الـتى يتحـدّث القرآن فيها عن حدث أو موقف من تاريخ بنى إسرائيل و على سبيل التدليل على هذه الحقيقة تتعرّض فيما يلى للنماذج الآتية:

أوّلا: يستفاد من تاريخ بنى إسرائيل بأنّ أول من هجم على بيت المقدس و خرّبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقى الخراب ضاربا فيه لسبعين عاما، إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۰

أن نهض اليهود بعـد ذلـك لإعمـاره و بنائه. أمّا الهجوم الثّانى الـذى تعرّض له، فقـد كان من قبل قيصـر الروم «أسـيبانوس» الـذى أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس و قتل بنى إسرائيل. و قد تمّ ذلك فى حدود مائة سنة قبل الميلاد.

و بـذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتى «نبوخـذ نصـر» و «أسـيبانوس» لأنّ الأحداث الأخرى فى تاريخ بنى إسـرائيل لم تفن جمعهم، و لم تذهب بملكهم و استقلالهم بالمرّة، و لكن نازلة (نبوخذ نصر) ذهبت بجمعهم و

سؤددهم إلى زمن «كورش» حيث اجتمع شملهم مجددا و حررهم من أسر بابل و أعادهم إلى بلادهم و أعانهم فى تعمير بيت المقدس، إلى أن غلبتهم الروم و ظهرت عليهم، و ذهبت قوتهم و شوكتهم ۲۵۰].

لقد استمر بنو إسرائيل فى مرحلة الشتات و التشرّد إلى أن أعانتهم القوى الدولية الاستعمارية المعاصرة فى بناء كيان سياسى لهم من جديد.

ثانيا: أمّا «الطبرى» فينقل فى تفسيره عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ المراد فى الفساد الأوّل هو قتل بنى إسرائيل لزكريا عليه السّلام و مجموعة أخرى من الأنبياء عليهم السّلام، و أنّ المقصود من الوعد الأول، هو الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل بواسطة (نبوخذ نصر) و أمّا المراد من الفساد الثّانى فهو الفوضى و الاضطراب الذى قام به «بنو إسرائيل» بعد تحريرهم من بابل بمساعدة أحد ملوك فارس، و ما قاموا به من فساد. أمّا الوعد الثّانى، فهو هجوم «أنطياخوس» ملك الروم عليهم.

و بالرغم من انطباق بعض جوانب هذا التّفسير مع التّفسير الأوّل، إلّا أنّ راوى الحديث الذى يعتمد عليه «الطبرى» غير ثقة، بالإضافة إلى عدم تطابق تاريخ «زكريا» و «يحيى» مع تاريخ «نبوخذ نصر» و «أسيبانوس أو أنطياخوس» إذا يلاحظ أن «نبوخذ نصر» عاصر «أرميا» أو «دانيال» النّبى كما يرى بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۱

المؤرخين، و قيامه قد تمّ فى حدود (۶۰۰) سنة قبل زمان يحيى عليه السّلام، لذلك كيف يقال: إنّ قيام نبوخذ نصر كان للانتقام من دم يحيى عليه السّلام؟! ثالثا: و قال آخرون: إنّ بيت المقدس شيّد فى زمن داود و سليمان عليهما السّلام، و قد هدمه «نبوخذ نصر» و هذا هو المقصود من إشارة القرآن إلى الوعد الأوّل. أمّا المرّة الثّانية، فقد بنى فيها بيت المقدس على عهد ملوك الأخمنيين ليقوم بعد ذلك «طيطوس» الرومى بهدمه و خرابه (الملاحظ أن «طيطوس» يطابق «طرطوز» الذى ذكر فى التّفسير السابق) و قد بقى على خرابه إلى عصر الخليفة الثّانى عند ما فتح المسلمون فلسطين ۲۵۱]. و الملاحظ فى هذا التّفسير أنّه لا يفترق كثيرا عمّا ورد فى مضمون التفسيرين أعلاه.

رابعا: فى مقابل التفاسير الآنفة و التفاسير الأخرى التى تتشابه فى مضمون آرائها مع هذه التفاسير، نلاحظ أنّ هناك تفسيرا آخر يورده «سيد قطب» فى تفسير «فى ظلال القرآن» يختلف فيه مع كل ما ورد، حيث يرى أن الحادثتين لم تقعا فى الماضى، بل تتعلقان فى المستقبل، فيقول: «فأمّا إذا عاد بنو إسرائيل إلى الإفساد فى الأرض فالجزاء حاضر و السنة ماضية وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنا ثمّ يقول:

«و لقد عادوا إلى الإفساد فسلّط اللّه عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلّها. ثمّ عادوا إلى الإفساد و سلّط اللّه عليهم عبادا آخرين، حتى كان العصر الحديث فسلط عليهم «هتلر» و لقد عادوا اليوم إلى الإفساد فى صورة «إسرائيل» التى أذاقت العرب أصحاب الأرض الويلات. و ليسلطنّ اللّه عليهم من يسومهم سوء العذاب، تصديقا لوعد اللّه القاطع، وفاقا لسنته التى لا تتخلف ... و إنّ غدا لناظرة قريب!)[۲۵۲].

و لكن الاعتراض الأساسى الذى يرد على هذا التّفسير، هو أنّ أيّا منهما لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۲

ينته بدخول القوم المنتصرين (على اليهود) إلى بيت المقدس حتى يخرّبوه؟

خامسا: الاحتمال الأخير الذى ورده البعض فى تفسير الإفسادين الكبيرين لبنى إسرائيل، يرتبط بأحداث ما بعد الحرب العالمية الثّانية، حيث يقول هؤلاء: إن قيام الحزب الصهيونى و تشكيل دولة لليهود باسم «إسرائيل» فى قلب العالم الإسلامى مثّل الإفساد و الطغيان و العلو الأوّل لهم، و بذلك فإنّ وعى البلاد الإسلامية لخطر هؤلاء الشعوب الإسلامية فى ذلك الوقت إلى التوحدّ و تطهير بيت المقدس و قسما آخر من مدن و قرى فلسطين، حتى أصبح المسجد الأقصى خارج نطاق احتلالهم بشكل كامل.

أمّا المقصود من الإفساد الثّانى حسب هذا التّفسير، فهو احتلال اليهود مجددا للمسجد الأقصى بعد أن حشدت «إسرائيل» قواها و

استعانت بالقوى الدولية الاستعمارية فى شن هجومها الغادر (عام ۱۹۶۷).

و بهذا الشكل يكون المسلمون اليوم فى انتظار النصر الثّانى على بنى إسرائيل، ليخلّصوا المسجد الأقصى من دنس هؤلاء و يقطعوا دابرهم عن كل الأرض الإسلامية. و هذا ما وعد به المسلمون من فتح و نصر آت بلا ريب ۲۵۳].

بالطبع هناك تفاسير و آراء أخرى فى الموضوع صرفنا النظر عنها، و لكن ينبغى أن يلاحظ أنّ فى حال اعتماد التفسيرين الرّابع و الخامس، ينبغى أن نحمل الأفعال الماضية فى الآية على معنى الفعل المضارع. و هذا ممكن فى أدب اللغة العربية، و ذلك إذا جاء الفعل بعد حرف من حروف الشرط.

و لكن يستفاد من ظاهر قوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إنّ الإفساد الأوّل على الأقل- و الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل كان قد وقع فى الماضى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۳

و إذا أردنا أن نتجاوز كل ذلك، فينبغى أن نلتفت إلى أنّ قوله تعالى: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تفيد فى أنّ الرجال الذين سيؤدبون «بنى إسرائيل» على فسادهم و علوّهم و طغيانهم، هم رجال مؤمنون، شجعان حتى استحقوا لقب العبودية. و ممّا يؤكّد هذا المعنى الذى غفلت عنه معظم التفاسير، هو كلمة «و بعثنا» و «لنا».

و لكنّا مع ذلك، لا نستطيع الادّعاء أن كلمة «بعث» تستخدم فقط فى مورد خطاب الأنبياء و المؤمنين، بل هى تستخدم فى غير هذه الموارد أيضا، ففى قصّة هابيل و قابيل يقول القرآن الكريم: فَبَعَثَ اللَّهُ غُراباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ ۲۵۴].

و كذلك الحال فى كلمة «عباد» أو «عبد» فهى تطلق فى بعض الأحيان على الأفراد غير الصالحين من المذنبين و غيرهم، كما فى الآية (۵۸) من الفرقان فى قوله تعالى: وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً و الآية (۲۷) من سورة الشورى، حيث يقول تعالى: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ و فى خصوص المخطئين و المنحرفين نقرأ فى الآية (۱۱۸) من سورة المائدة قوله تعالى: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ

و لكنّا مع ذلك لا نستطيع أن ننكر- و إن لم تقم قرينة خلاف ذلك- أنّ العباد الذين بعثهم اللّه للانتقام من بنى إسرائيل هم من العباد المؤمنين الصالحين.

و خلاصة البحث: إنّ هذه الآيات تتحدث عن فسادين كبيرين لبنى إسرائيل، و كيف أنّ اللّه تبارك و تعالى لم يهمل هؤلاء، بل أذاقهم جزاءهم فى الدنيا، و بقى عليهم جزاء الآخرة و حسابها، و الدرس الذى نستفيده و الإنسانية جمعا هو أنّ اللّه تعالى لا يهمل الظالمين و لا يسكت على ظلمهم بل علينا أن نعتبر و نتعظ من دروس التاريخ و أحوال الأمم الماضية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۴

الثّانية: تحمّل الإنسان لتبعات أعماله:

الآيات الآنفة تشير إلى قاعدة مهمّة، و هى أنّ أعمال الإنسان سواء كانت حسنة أم قبيحة فإنّ مردودها يعود إليه، صحيح أنّ الآيات تتحدّث عن بنى إسرائيل، و لكن القاعدة من الشمول و العموم بحيث تشمل كافة البشر على مر التاريخ ۲۵۵].

إنّ الحياة و التاريخ يعكسان لنا الكثير من تلك النماذج التى أسست أعمالا و سننا سيئة، و سنّت قوانين ظالمة و مبتدعة، و لكنّها فى النهاية، كانت ضحية ما سنّت و ابتدعت و أسست، و كانت نهايتها و نهاية من يلوذ بها الوقوع فى نفس الحفرة التى حفرتها للآخرين، و بذلك نالت جزاءها بما اقترفت أيديها. إنّ خصوصية هذا الأمر تتّضح أكثر بالنسبة لأعمال الفساد و على الأخص العلو و الاستكبار، فإنّ الإنسان لا بدّ و أن يذوق فى هذه الدنيا جزاء ما اقترف من أسباب العلو و الاستكبار و الإفساد.

و لهذا السبب بالذات رأينا أنّ بنى إسرائيل لاقوا جزاءهم السريع فى الدنيا، من دون أن يعنى ذلك انتفاء العقاب الأخروى إذ عاشوا طويلا ـ واقع الشتات و التشرّد، و ذاقوا الكثير من السوء و المصائب. إنّنا اليوم نعيش مظاهر من فساد بنى إسرائيل و علوهم و طغيانهم، فهم قد اغتصبوا أرض الآخرين و طردوهم منها، و أذاقوا أهلها ألوان القتل و البطش و الإرهاب، و روعوا الأبناء و سبوا النساء، بل لم يحترموا حتى بيوت اللّه فى بيت المقدس! إنّ هؤلاء يتعاملون مع العالم بدون رعاية أى شكل من أشكال القانون أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۵

الضوابط و المعايير الدولية، فإذا قام- مثلا- فدائى فلسطينى بإطلاق رصاصة عليهم، فإنّهم بدلا عنها يقومون بقصف و تخريب المخيمات السكنية للاجئين، و مدارس الأطفال، و المستشفيات. و هم فى مقابل خسارتهم لقتيل واحد، يقومون يحصد المئات من الأنفس البريئة و يفجّرون عددا كبيرا من البيوت.

إنّ هؤلاء يتجاهرون بعدم التزامهم، بل بعدائهم لكل قرارات المنظمات الدولية، و الكل يعرف أنّ جرأتهم فى مواجهة العالم إنّما كانت و ما زالت مستمدة من دعم القوى الاستعمارية الدولية لهم- و فى الطليعة منها أمريكا- من دون أن يعنى دعم هذه القوى لهم تبريرا لما يمتازون هم به من خصائص انحرافية ذاتية فى الفكر و الأخلاق، و استعداد قبلى للعلو و الطغيان و الفساد.

إنّهم بعلوّهم و فسادهم عليهم أن ينتظروا أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله:

عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ حيث ينالون جزاءهم، و هو وعد الهى قاطع فى قرآنه الكريم.

الثّالثة: تطبيق الآيات على أحداث التاريخ الإسلامى:

فى روايات عدّة نرى انطباق الآيات أعلاه على بعض أحداث التاريخ الإسلامى حيث يشير بعضها إلى أنّ الفساد الأوّل و الثّانى هو قتل الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام، و العدوان على جنازة الإمام الحسن عليه السّلام. و بعضها تشير إلى أنّ المقصود من قوله تعالى: بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ هو الإشارة إلى الإمام المهدى عليه السّلام و أصحابه.

و فى روايات أخرى نقرأ أنّ المقصود، هو نهضة مجموعة من المسلمين قبل ظهور الإمام المهدى عليه السّلام ۲۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۶

من الواضح أنّ هذه الأحاديث لا تفسّر الآيات تفسيرا لفظيا، لأنّ الآيات تتحدث بصراحة عن بنى إسرائيل، و لكنّها تتحدث عن التشابه بين نهج هؤلاء (بنى إسرائيل) و نهج ما يقع على شبههم و حالتهم فى أحداث التأريخ الإسلامى.

و هكذا ننتهى إلى نتيجة مؤدّاها أنّ الآيات و إن تحدّثت عن خصوصيات بنى إسرائيل، إلّا أنّها تتسع فى مفهومها لترتفع إلى مستوى القاعدة الكلية، و السنّة المستمرّة فى تأريخ البشرية بما يطويه من حياة شعوب و أمم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً (۹) وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۰) وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولاً (۱۱) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا (۱۲)

التّفسير

أقصر الطرق للهداية و السعادة:

الآيات السابقة تحدّثت عن بنى إسرائيل و كتابهم السماوى «التوراة» و كيف تخلفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياة الدنيا، و الباقى مدخر ليوم القيامة.

و فى هذا المقطع من الآيات، انتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۸

السماوى للمسلمين، و آخر حلقة فى الكتب السماوية، فقال تعالى أوّلا: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ

«أقوم» صيغة تفضيل مشتقة من «قيام» حيث يكون الإنسان فيها على أحسن حالاته حينما يريد أن يشرع بعمل ما، لذلك فإنّ «القيام» كناية عن أفضل الصيغ التى ينجز فيها الإنسان الأعمال التى يباشرها، أو يستعد لمباشرتها.

«الاستقامة» مشتقّة أيضا من مادة «قيّم» و هى بمعنى الاعتدال و الإستواء و الثبات.

و بما أنّ «أقوم» هى «أفعل تفضيل» بمعنى الأكثر ثباتا و استقامة و اعتدالا، فإنّ معنى الآية أعلاه، هو أنّ القرآن الكريم يمثل أقصر و أفضل طرق الاستقامة و الثبات و الهداية و بهذا فإنّ الطريق القويم.

من وجهة نظر العقائد و الأفكار، يتمثل بالعقائد الواضحة، القابلة للهضم و الإدراك و الفهم، و التى تكون أساسا للعمل، و تعبئة الطاقات الإنسانية باتجاه الإعمار و البناء. العقيدة الأقوم هى العقيدة الخالية من الخرافات و الأوهام، و هى التى توائم بين الإنسان و عالم الوجود و الطبيعة من حوله.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هى التى توافق بين الإعتقاد و العمل، و الظاهر و الباطن، الفكر و المنهج، و تدفع الإنسان و الجميع نحو اللّه.

أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية و الاقتصادية و العسكرية و السياسية، التى تسود المجتمع، فهى تلك التى تربّى فى المجتمع الإنسانى الجوانب المادية و المعنوية و تدفع الجميع نحو التكامل و الاتساق.

و الأقوم من وجهة النظر العبادية و الأخلاقية، هو كل ما يجعل الإنسان فى المركز الوسط بين الإفراط و التفريط، و يجعله فى موقع الاعتدال بين الإسراف و البخل، بين الاستضعاف و الاستكبار.

و أخيرا فإنّ المنهج الأقوم بالنسبة للنظم و السلطات الحاكمة، هو كل ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۰۹

يدفعها إلى إقامة العدل، و الدعوة إلى إشاعة الإنصاف، و مواجهة الظلم و الظالمين.

نعم، إنّ القرآن هو الطريق الأقوم فى كل تلك المستويات الآنفة الذكر، و هو الأسلوب الأقوم فى كل جوانب الحياة و الوجود، و على كافة القضايا و الصعد.

و لكنّا هنا نقف مع نقطة حساسة، و هى إذا كان القرآن هو الأقوم، أى «أفعل تفضيل» فمعنى ذلك تفوقه فى ميزات العدل و صفات الهداية و الاستقامة ليس على سائر المذاهب و العقائد الوضعية و حسب، و إنّما على سائر الأديان و الشرائع السابقة عليه أيضا.

و إزاء المفهوم الذى تطرحه هذه النقطة نرى أنفسنا بحاجة إلى إثارة الحديث على النحو الآتى.

أوّلا: إذ كانت أطراف المقايسة هى الأديان السماوية الأخرى، فلا شك أنّ كل دين و شريعة منها كانت أفضل و أقوم لوقتها و زمانها، و لكن وفق قانون التكامل الذى وصلت البشرية بمقتضاه إلى أقصى حالات رشدها و تكاملها، فى زمن الرسالة الإسلامية الخاتمة و

النّبوة الخاتمة، فإنّ القرآن الكريم يعبّر تبعا لذلك عن أرقى و أقوم مضامين الهداية و الاستقامة الاعتدال.

ثانيا: أمّا إذا كان طرف المقايسة هو المذاهب و العقائد الوضعية، فمن الطبيعى جدّا أن يكون القرآن كتاب السماء الواصل إلينا من اللّه ذى العلم المطلق، هو الأقوم و الأظهر عليها، لأنّ العقائد الوضعية مهما بلغت مزاياها فهى نتاج الفهم المحدود للبشر.

ثالثا: أشرنا فى غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسة، كما فى قوله تعالى: أ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدى ۲۵۷].

ثالثا: أشرنا فى غير مكان إلى أن «أفعل تفضيل» لا يدلّ دائما على أنّ الموضوع لا بدّ و أن يكون طرفا للمقايسة، كما فى قوله تعالى: أ فَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدى ۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۰

و على هامش هذه النقطة ينبغى أن لا يفوتنا أن تعبير «أقوم» فى الآية الآنفة يشير إلى أنّ الإسلام هو آخر أديان السماء، و أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو آخر الأنبياء.

و كيفية ذلك، هو أنّ أقوم بوصفها أفعل تفضيل، تمثل أعلى درجات التفضيل، و لأنّ الآية لا تذكر الطرف الآخر فى المقايسة و الذى يكون القرآن أقوم بالنسبة إليه، و طالما أنّ حذف المتعلق يدل على العموم كما يقول الأصوليون، فينتج أنّ الإسلام آخر الأديان، و أنّ محمدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاتم الرسل، لأنّه ليس بعد صيغة تفضيل «أقوم» من درجة فى التفضيل.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالأولى يكون حالها كما يقول تعالى:

وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً.

أمّا الفئة الثّانية فيكون مصيرها تبعا لموقفها كما يقول تعالى: وَ أَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

و إذا كان استخدم «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية و الاستهزاء، أو أنّه بشارة للمؤمنين أيضا تخبرهم عن حال غير المؤمنين ۲۵۹].

ضمنا الآية تشير باختصار بليغ إلى جزاء المؤمنين و ثوابهم فتقول: أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً أمّا غير المؤمنين فإنّ لهم بنفس صورة الإيجاز القرآنى البليغ عَذاباً أَلِيماً و هذا الاختصار البليغ يطوى فى كلا مجاليه صورا تفصيلية من الثواب و العقاب.

أمّا لماذا اقتصرت الآية فى غير المؤمنين على صفة عدم إيمانهم بالآخرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۱

دون غيرها من الصفات و الأعمال. فى الواقع يمكن أن يكون ذلك بسبب أنّ الإيمان بالآخرة هو صمام أمان يضبط الإنسان عن ارتكاب المعاصى و الذنوب.

ثمّ إنّ إنكار القيامة يعتبر إنكارا لوجود اللّه تعالى، و إلّا كيف يستقيم للإنسان أن يؤمن باللّه العادل الحكيم و لا يؤمن بوجود آخرة يحاسب فيها الإنسان على أعماله و ينال حسابه العادل!؟

ثمّ إنّ حديث الآية هو عن العقاب و الثواب و هو يتناسب مع الحديث عن الإيمان باليوم الآخر.

الآية التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث و تشير إلى احدى العلل المهمّة لعدم الإيمان و تقول بأنّ عجلة الإنسان و تسرعه و عدم اطلاعه على الأمور و إحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير و طلبه، و بين دعائه بالشر و طلبه له! تقول الآية: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ.

لما ذا؟: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

إنّ كلمة «دعا» هنا تنطوى على معنى واسع يشمل كل طلب و رغبة للإنسان، سواء أعلن عنها بلسانه و كلامه، أو سعى إليها بعمله و

جهده و سلوكه.

إنّ استعجال الإنسان و اندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأمور بحيث أنّه لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة المعمّقة ممّا يفوّت عليه تشخيص خيره الحقيقى و منفعته الواقعية، و هكذا بنتيجة تعجّله و اندفاعه المضطرب يضيع عليه وجه الحقيقة، و يتغيّر مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر و الأعمال السيئة الضارّة.

و هكذا ينتهى الإنسان- نتيجة سوء تشخيصه و اضطراب مقياسه فى رؤية الخير و الحقيقة- إلى أن يطلب من اللّه الشر، تماما كما يطلب منه الخير، و أن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة. و هذا الاضطراب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۲

و فقدان الموازين هى أسوأ بلا يصاب به الإنسان و يحول بينه و بين السعادة الحقيقية.

ما أكثر الناس الذين يضعون أنفسهم- بسبب من عجلتهم و اندفاعاتهم المضطربة- على حافة الخطر و مشارف الضلال، و هم يظنون أنّهم يسيرون نحو الأمن و الاستقرار و الهداية. إنّ مثل هؤلاء كمن هو غارق بالسوء و القبائح و هو يفتخر بما هو فيه!! إنّ نتيجة العجلة و التسرّع و الاندفاع الأهوج لن تكون أحسن من هذه العاقبة.

من هنا يتّضح- كما أشرنا سابقا- أنّ معنى «دعا» لا يقتصر لا على الرغبات التى يظهرها الإنسان على لسانه، و لا على تلك الرغبات التى يسعى لتحقيقها بسلوكه و بما يبذل لها من جهد، و إنّما المعنى يشمل محصلة الإثنين معا. و أمّا ما ذهب إليه بعض المفسّرين من حصر المعنى فى أحدهما فليس ثمّة دليل عليه.

أمّا ما يظهر من بعض الرّوايات من اقتصار المعنى على الدعاء اللفظى، فإنّ ذلك من قبيل بيان المصداق لا كل المفهوم من قبيل الرّواية التى

يقول فيها الإمام الصادق عليه السّلام: «و أعرف طريق نجاتك و هلاكك، كى لا تدعو اللّه بشىء عسى فيه هلاكك، و أنت تظن أنّ فيه نجاتك، قال اللّه تعالى: وَ يَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعاءَهُ بِالْخَيْرِ وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا.

من هنا يتبيّن أنّ أفضل طريق لوصول الإنسان إلى الخير و السعادة، هو أن يكون الفرد فى كل خطوة و موقف على غاية قصوى من الدقّة و الحيطة و الحذر، و أن يتجنب الاندفاع و العجلة و التسرّع، و يدرس الموقف من جميع جوانبه، و بجانب الأحكام المتعجّلة الممزوجة بالهوى و العاطفة، و أن يستعين باللّه العزيز و يستمده القوة و العون.

الآية التى بعدها تتحدث عن تعاقب الليل و النهار و منافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثالا على معرفة اللّه و التمعّن بآياته، و المثال أيضا يفيد معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۳

التأمّل و الهدوء و يدعو إلى محاذرة التعجّل و التسرّع.

الآية تقول أوّلا: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ ثمّ: فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَ جَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً. و لنا فى ذلك هدفان: الأوّل: لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ حيث تنطلقون نهارا فى الكسب و العمل و المعاش مستثمرين العطايا الإلهية، و تنعمون ليلا بالراحة و الهدوء و الاستقرار. و الهدف الثّانى فهو: وَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسابَ لكى لا تبقى شبهة لأحد وَ كُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصِيلًا.

بين المفسّرين كلام كثير حول المقصود من «آية الليل» و «آية النهار» و فيما إذا كان ذلك كناية عن نفس الليل و النهار، أم أنّ المقصود من «آية الليل» القمر، و من «آية النهار» الشمس ۲۶۰].

و لكن التدقيق فى الآية يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل، خصوصا و أنّ المقصود من قوله تعالى: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ وَ النَّهارَ آيَتَيْنِ هو أنّ كل واحد منهما علامة على إثبات وجود اللّه، أمّا محو آية الليل فهو تمزيق ظلمة الليل و حجب الظلمة فيه بواسطة نور النهار، الذى يكشف ما كان مستورا بظلمة الليل.

و إذا كانت آيات أخرى فى القرآن [آية (۵) من سورة يونس تفيد أنّ الغاية من خلق الشمس و القمر هو تنظيم الحساب إلى سنين و أشهر، فليس ثمّة تنافى بين الآيتين، إذ من الممكن أن تنتظم حياة الإنسان و حسابه على أساس الليل و النهار، و على أساس الشمس و القمر من دون أى تناف بين الإثنين.

فى نهج البلاغة نقرأ للإمام أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام، قوله: «و جعل شمسها آية مبصرة لنهارها، و قمرها آية ممحوة من ليلها، و أجراهما فى مناقل مجراهما، و قدّر سيرهما فى مدارج درجهما، ليميز بين الليل و النهار بهما، و ليعلم عدد السنين و الحساب بمقاديرهما»[۲۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۴

إنّ كلام الإمام هنا لا ينافى التّفسير الأوّل، لأنّ حساب السنين يمكن أن يكون على أساس الأيّام و الليالى، كما يمكن أن يتم ذلك على أساس الشمس و القمر.

***

بحوث

أوّلا: هل الإنسان عجول ذاتا؟

إنّ الإنسان لا يوصف فى القرآن بوصف «العجول» و حسب، و إنّما هناك أوصاف أخرى أطلقها على الإنسان مثل «ظلوم» و «جهول» و «كفور» و «هلوع» و «مغرور».

و لكن السؤال هنا، هو أنّ هذه الأوصاف تتعارض مع التعليمات القرآنية التى تتحدّث عن الفطرة النظيفة الطاهرة للإنسان، فكيف إذن نوائم بين الحالتين؟

بعبارة أخرى: إنّ الإنسان من وجهة نظر الإسلام هو أفضل الموجودات و أكرمها حتى أنّه استحق مقام الخلافة عن اللّه، فى الأرض، و هو معلّم الملائكة و أفضل منها، فكيف- إذن- يتسق هذا الطرح مع الأوصاف السيئة الآنفة التى نقرؤها عن الإنسان فى القرآن؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال يمكن أن نختصرها بجملة واحدة، و هى أنّ شخصية الإنسان هى كما تقوم آنفا من السمو و الرفعة، و لكن بشرط أن تتم تربيته و تكون رعايته من قبل القادة الرّبانيين، و إلّا ففى غير هذه الصورة، فسيتسافل نحو أسوأ الأحوال، و يغرق فى الهوى و الشهوات، و يخسر القابليات العظيمة الموجودة فيه بالقوة لتظهر بدلا عنها الجوانب السلبية.

لذلك إذا تحقق الشرط السابق (تربية الإنسان على يد القادة الإلهيين) فإنّ الجوانب الإيجابية فى الإنسان هى التى تظهر، و هى التى تطبعه بطابعها و بعكس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۵

ذلك تظهر الصفات السلبية، لذلك نقرأ فى الآيات ۱۹- ۲۴ من سورة المعارج قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ و يمكن للقارئ أن يعود إلى تفسير الآية (۱۲) من سورة يونس لأجل المزيد من التفاصيل حول الموضوع.

ثانيا: أضرار العجلة

إنّ تعلق الإنسان و اندفاعه نحو موضوع معين، و التفكير السطحى المحدود، و الهوى و الاضطراب، و حسن الظن أكثر من الحد الطبيعى إزاء أمر ما، كلّها عوامل للعجلة فى الأعمال. ثمّ إنّ الاقتصار على بحث المقدمات بشكل سطحى سريع و مرتجل لا يكفى فى التوصل إلى حقيقة الأمر، و عادة تؤدى العجلة و التسرع فى الأعمال إلى الخسران و الندامة! و قد قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ عجلة الإنسان تقوده إلى أن يطلب الشر لنفسه و يسعى إليه، بنفس الحالة و السرعة التى يطلب فيها الخير و يسعى إليه! إنّنا لا نستطيع أن نحصى ما أصاب الإنسان على طول التاريخ جرّاء استعجاله و تسرّعه، و فى التجربة الحياتية الخاصّة لأى واحد منّا ثمّة ما يكفى لنتعلّم دروس العجلة و التسرّع من خلال النتائج المرّة التى جنيناها.

إنّ «التثبت» و «التأنّى» هى الصفات التى تقابل العجلة، ففى حديث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّما أهلك الناس العجلة، و لو أنّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد»[۲۶۲].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السّلام: «مع التثبت تكون السلامة، و مع العجلة تكون الندامة»[۲۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۶

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إنّ الأناة من اللّه و العجلة من الشيطان»[۲۶۴][۲۶۵].

طبعا هناك باب فى الرّوايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» ففى حديث عن رسول اللّه نقرأ

قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه يحب من الخير ما يعجل»[۲۶۶].

إنّ الرّوايات فى هذا المجال كثيرة، و المقصود منها هى السرعة فى مقابل الإهمال و التأخير غير الموّجه، و الاتكاء إلى الأعذار و التسويف باليوم و غدا، التى غالبا ما تؤدى إلى ظهور المشاكل فى الأعمال، و شاهد هذا الكلام هو الحديث الوارد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۴۱۶

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من همّ بشىء من الخير فليعجله فإنّ كل شىء فيه تأخير فإنّ للشيطان فيه نظرة»[۲۶۷].

لذلك نقول: نعم للجدية و السرعة فى الأعمال، و لكن لا .. للعجلة و التسرّع.

و بعبارة أخرى: إنّ العجلة المذمومة هى التى تكون أثناء البحث و الدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة و العجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، و التصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ فى الرّوايات «سارعوا فى عمل الخير» أى بعد أن يثبت أن هذا العمل خير فلا مجال للتأخير و التسويف.

ثالثا: دور العدد و الحساب فى حياة الإنسان:

كل عالم الوجود يدور حول محور العدد و الحساب، و لا نظام فى هذا العالم بدون حساب، و طبيعى أنّ الإنسان الذى هو جزء من هذه المجموعة لا يستطيع العيش من دون حساب و كتاب.

لهذا السبب تعتبر الآيات القرآنية وجود الشمس و القمر أو الليل و النهار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۷

واحدة من نعم اللّه تعالى، لأنّها الأساس فى تنظيم الحساب فى حياة الإنسان، إنّ شيوع الفوضى و فقدان الحياة للاتساق و النظم يؤدى إلى دمار الحياة و فنائها.

و الظريف أنّ الآيـة تتحـدّث عن فائـدتين لنعمـة الليل و النهار، الأولى: ابتغاء فضل اللّه و التى تعنى التكسّب و العمل المفيـد المثمر. و الثّانية: معرفة عدد السنين و الحساب.

و قـد يكون الهـدف من ذكر الإثنين إلى جنب بعضـهما البعض يعود إلى أنّ (ابتغاء فضل اللّه) لا يتم بـدون الاسـتفادة من (الحساب و الكتاب) و قد لا يكون هذا المعنى واضحا فى العصور الماضية، أمّا فى عصرنا فهو واضح كالشمس.

إنّ عالمنا اليوم، هو عالم الأرقام و الأعداد و الإحصاء، فإلى جانب كل مؤسسة و منظمة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو عسكرية أو عملية أو ثقافية، ثمّة مؤسسة إحصائية.

و هكذا نستفيد من الإشارة القرآنية أنّ القرآن لا يبلى بالزمان، بل كلّما مرّ عليه الزمان تجددت معانيه و تجلّت آفاقه ۲۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۳ الى ۱۵]

اشارة

وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً (۱۳) اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (۱۴) مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (۱۵)

التّفسير

أربعة أصول إسلامية مهمّة:

لقـد تحدّثت الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التى تتصل بالمعاد و الحساب، لذلك فإنّ الآيات التى نبحثها الآن تتحدّث عن قضـية «حساب الأعمال» التى يتعرض لها البشـر، و كيفية و مراحل إنجاز ذلك فى يوم المعاد و القيامة حيث يقول تعالى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ

«الطـائر» يعنى الطير. و لكن الكلمـة هنـا تشـير إلى معنى آخر كان سائـدا و معروفا بين العرب، إذ كانوا يتفألون بواسـطة الطير، و كانوا يعتمدون فى ذلك على طبيعة الحركة التى يقوم بها الطير. فمثلا إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۱۹

يعتبرون ذلـك فألا حسـنا و جميلا. أمّا إذا تحرّك الطير من اليسـرى فإنّ ذلك فى عرفهم و عاداتهم علامـة الفأل السـيء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطيّر، من هنا فإنّ هذه الكلمة غالبا ما كانت تعنى الفأل السـيء فى حين أنّ كلمة التفؤل (عكس التطيّر) كانت تشير إلى الفأل الجميل الحسن.

و فى الآيات القرآنيـة ورد مرارا أنّ «التطيّر» هو بمعنى الفأل السـيء حيث يقول تعالى فى الآية (۱۳۱) من سورة الأعراف: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسـى وَ مَنْ مَعَهُ و فى الآيـة (۴۷) من سورة النمـل نقرأ أيضـا: قـالُوا اطَّيَّرْنـا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ و الآيـة تحكى خطاب المشركين من قوم صالح عليه السّلام لنبيّهم.

بـالطبع عنـد ما نقرأ الأحاديث و الرّوايات الإسـلامية نراها تنهى عن «التطيّر» و تجعل «التوكل على اللّه» طريقا و أسـلوبا لمواجهـة هـذه العادة.

و فى كلّ الأحوال فإنّ كلمـة «طائر» فى الآيـة التى نبحثها، تشـير إلى هـذا المعنى بالـذات، أو أنّها على الأقل تشـير إلى مسألة «الحظ و

حسن الطالع» التى تقترب فى أفق واحد مع قضية التفؤل الحسن و السىء، إنّ القرآن- فى الحقيقة- يبيّن أنّ التفؤل الحسن و السىء أو الحظ النحس و الجميل، إنّما هى أعمالكم لا غير، و التى ترجع عهدتها إليكم و تتحملون على عاتقكم مسئولياتها.

إنّ تعبير الآية الكريمة، بكلمتى «ألزمناه» و «فى عنقه» تدلان بشكل قاطع على أنّ أعمال الإنسان و النتائج الحاصلة عن هذه الأعمال لا تنفصل عنه فى الدنيا و لا فى الآخرة، و هو بالتالى، و فى كل الأحوال عليه أن يكون مسئولا عنها، إذ أنّ الملاك هو العمل دون غيره.

بعض المفسّرين ذكروا فى إطلاق معنى كلمة «طائر» على الأعمال الإنسانية أنّها تعنى أنّ الأعمال الحسنة و الأعمال القبيحة للإنسان كالطير الذى يطير من بين جنباته، لذلك شبهوها (أى الأعمال) بالطائر.

و فى كل الأحوال، اختلف المفسّرون فى معنى كلمة طائِرٍ فى هذه الآية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۰

و قد أوردوا فى ذلك مجموعة احتمالات منها أنّ «الطائر» بمعنى «حصيلة ما يجنيه الإنسان من أعماله الحسنة و السيئة»، أو أنّ الطائر بمعنى «الدليل و العلامة»، و بعضهم قال: إن معناه «صحيفة أعمال الإنسان» بينما ذهب البعض الآخر إلى أنّ معنى «الطائر» هو «اليمن و الشؤم».

و لكن الملاحظ فى هذه التّفسيرات جميعا، أنّ بعضها يرجع إلى نفس التّفسير الذى ذكرناه فى البداية، كما أن بعضها الآخر بعيد عن معنى الآية.

يقول القرآن بعد ذلك: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً. و من الواضح أنّ المقصود من «الكتاب» فى الآية الكريمة هى صحيفة الأعمال لا غير.

و هى نفس الصحيفة الموجودة فى هذه الدنيا و التى تثبّت فيها الأعمال، و لكنّها هنا (فى الدنيا) مخفية عنّا و مكتومة، بينما فى الآخرة مكشوفة و معروفة.

إنّ التعبير القرآنى فى كلمتى «نخرج» و «منشورا» يشير إلى هذا المعنى، إذ نخرج و ننشر ما كان مخفيا و مكتوما.

و بالنسبة الصحيفة الأعمال و حقيقتها و ما يتعلق بها، فسيأتى البحث عنها فى نهاية هذه الآيات.

فى هذه اللحظة يقال للإنسان: اقْرَأْ كِتابَكَ، كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً يعنى أنّ المسألة- مسألة المصير- بدرجة من الوضوح و العلنية و الانكشاف، بحيث أن كل من يرى صحيفة الأعمال هذه سيحكم فيها على الفور- مهما كان مجرما- لماذا؟ لأنّ صحيفة الأعمال هذه- كما سيأتى- هى مجموعة من آثار الأعمال أو هى نفس الأعمال، و بالتالى فلا مجال لانكارها فإذا سمعت- أنا- صوتى من شريط مسجّل، أو رأيت صورتى و هى تضبط قيامى ببعض الأعمال الحسنة أو السيئة، فهل أستطيع أن أنكر ذلك؟ كذلك صحيفة الأعمال فى يوم القيامة، بل هى أكثر حيوتة و دقة من الصورة و الصوت! الآية التى بعدها توضح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۱

و الجزاء على الأعمال، و هذه الأحكام هى:

۱- أوّلا تقرّر أنّ مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ حيث تعود النتيجة عليه.

۲- ثمّ تقرّر أيضا أنّ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها.

و قرأنا نظير هذين الحكمين فى الآية السابعة من هذه السورة فى قوله تعالى:

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها.

۳- ثمّ تنتقل الآية لتقول: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

«الوزر» بمعنى الحمل الثقيل. و أيضا تأتى بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضا- حمل معنوى ثقيل على عاتق الإنسان، فإذا قيل

للوزير وزيرا، فإنّما هو لتحمله المسؤولية الثقيلة على عاتقه من قبل الناس أو الأمير و الحاكم.

طبعا هذا القانون الكلّى الذى تقرّره آية وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (۲۵) من سورة النحل التى تقول: لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنب أيضا، أو يعتبرون بحكم الفاعلين له، و لذلك فهم فى واقع الأمر يتحملون أوزارهم و ذنوبهم، و بتعبير آخر:

فإنّ «السبب» هنا هو فى حكم «الفاعل» أو «المباشر».

كذلك مرّت علينا روايات متعدّدة حول مسألة السنّة السيئة و السنّة الحسنة، و التى كان مؤدّاها يعنى أنّ من سنّ سنة سيئة أو حسنة فإنّه سيكون له أجر من نصيب العاملين بها، و هو شريكهم فى جزائها و عواقبها، و هذا الأمر هو الآخر لا يتنافى مع قاعدة وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى لأنّ المؤسس للسنّة، يعتبر فى الحقيقة أحد اجزاء العلة التامّة للعمل، و هو بالتالى شريك فى العمل و الجزاء.

۴- الحكم الرّابع يتمثل فى قوله تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا يقوم ببيان التكليف و إلقاء الحجة.

هناك نقاش بين المفسّرين حول نوع العذاب المقصود هنا، و هل هو نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۲

أنواع العذاب الذى يقع فى الدنيا أو فى الآخرة، أم المقصود به هو عذاب «الاستيصال» الذى يعنى العذاب الشامل المدمّر كطوفان نوح مثلا؟

إنّ ظاهر الآية الكريمة يدل على الإطلاق، و هو بالتالى يشمل كل أنواع العذاب.

و هناك نقاش آخر- أيضا- بين المفسّرين حول قاعدة وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا و هل أنّ الحكم فيها يخص المسائل الشرعية التى يعتمد فهمها على الأدلة النقلية فقط، أو أنّه يشمل جميع المسائل العقلية و النقلية فى الأصول و الفروع؟

فى الواقع، إذا أردنا العمل بظاهر الآية الذى يفيد الإطلاق، فينبغى القول أنّها تشمل جميع الأحكام العقلية و النقلية، سواء ارتبطت بأصول أو فروع الدين.

و مفهوم هذا الكلام أنّه حتى فى المسائل العقلية البحتة التى يقطع «العقل المستقل» بحسنها و قبحها مثل حسن العدل و قبح الظلم، فإنّه ما لم يأت الأنبياء، و يؤيدون حكم العقل بحكم النقل، فإنّ اللّه تبارك و تعالى لا يجازى أحدا بالعذاب. للطفه و رحمته بالعباد.

و لكن هذا الموضوع مستبعد و ضعيف الاحتمال، لأنّه يصطدم مع قاعدة أنّ المستقلات العقلية لا تحتاج إلى بيان الشرع، و حكم العقل فى إتمام الحجة فى هذه الموارد يعتبر كافيا و مجزيا، لذلك فلا طريق أمامنا إلّا أن نستثنى المستقلات العقلية عن مجال عمل القاعدة المذكورة.

و إذا لم نستثن ذلك فسيكون معنى العذاب فى هذه الآية هو «عذاب الاستيصال» و سيكون المفاد الأخير للمعنى هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى لرحمته و لطفه بالعباد لا يهلك الظالمين و المنحرفين إلّا بعد أن يبعث الأنبياء، و تستبين جميع طرق السعادة و الهداية، حتى تطابق حجّة الشرع حجّة العقل المستقل، و تتم الحجة بذلك من طريقى العقل و النقل (فتأمّل ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۳

بحوث

۱- التفؤل و التطير

التفؤل و التطيّر كانا موجودين بين جميع الأمم و لا يزالان كذلك. و يظهر أنّ مصدرهما هو عدم القدرة على اكتشاف الحقائق، و

الغفلة عن علل الحوادث.

و على أيـة حال، ليست هناك آثار طبيعيـة فعليـة لهذين الأمرين، و لكن لهما آثارا نفسـية، إذ (التفاؤل) يبعث على الأمل بينما «التطيّر» يؤدى إلى اليأس و العجز.

و لأنّ الإسـلام يؤكّد دائما على الأمور الإيجابية، و يدفعها مشجعا إيّاها، لذا فإنّه لم ينه عن (التفاؤل) و لكنّه أدان و بشدّة «التطيّر» حتى أنّه فى بعض الرّوايات اعتبر ذلك من الشرك، إذ جاء الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

قوله: «الطيرة شرك»

و قد بحثنا هذا الموضوع بشكل مفصّل فى نهاية الآية (۱۳۱) من سورة الأعراف ۲۶۹].

الظريف فى الأـمر أنّ الإسـلام يقوم دائما بتوجيه مثل هـذه الأمور الوهميـة و يحاول توظيفها فى مجراها الصـحيح و البنّاء، حتى يمكن الاستفادة منها.

فمثلاـ ممّـا هو شـائع بين الناس أنّ الزوجـة الفلانيـة قـدمها خير، بينما الأخرى قـدمها فى بيت زوجها شـرّ و نحس، و كـذلك شائع أن الزوجـة الفلانيـة و منـذ أن دخلت بيت زوجها حصل كـذا و كـذا (خيرا أم شـرا) بينما واقع الحال إنّ هـذه الأمور خرافيـة وهميـة، لكن الإسلام أعطى بعضها- من خلال توجيهه- شكلا بناء و مضمونا تربويا،

فعن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ: «من شؤم المرأة غلاء مهرها و شدّة مؤنتها»[۲۷۰].

و

فى حديث آخر عن رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ: «أمّا الدار فشؤمها ضيقها و خبث جيرانها»[۲۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۴

لاحظوا بدقة كيف يسـتخدم الإسـلام نفس الألفاظ التى كان الناس يستخدمونها فى مفاهيم خرافية و وهمية، يوظفها فى مفاهيم واقعية و بأسـلوب تربوى بنّاء، و لاحظوا أيضا، كيف أنّ الأفكار التى كانت تنتهى إلى طريق مغلق، جاء الإسلام و وجهها نحو طريق الهداية و الإصلاح.

أخيرا و قبل أن ننتقل إلى الملاحظة الثّانية نختم حديثنا بكلام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطابق ما قلناه آنفا؟ إذا روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «اللهمّ لا خير إلّا خيرك، و لا طير إلّا طيرك و لا ربّ غيرك».

۲- صحيفة أعمال الإنسان العجيبة:

لقـد تحـدّثت آيات قرآنية و روايات عديدة عن صـحيفة أعمال الإنسان. و كلّ هذه الآيات و الرّوايات تؤكّد على أنّ جميع الأعمال و جزئياتها و تفصيلاتها تكون مدوّنة فى صحيفة الأعمال، و فى يوم البعث و القيامة، يستلم الإنسان صحيفة عمله بيمينه إذا كان محسنا و يتناولها بشماله إذا كان مسيئا. ففى الآية (۱۹) من سورة الحاقة نقرأ! فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ و فى الآية (۲۵) من نفس السورة نقرأ قوله تعـالى حكايـة عن الإنسـان الخاسـر: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتـابَهُ بِشِـمالِهِ فَيَقُولُ يـا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ و فى الآية (۴۹) من سورة الكهف نقرأ قوله تعـالى: وَ وُضِعَ الْكِتـابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْـفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يـا وَيْلَتَنا ما لِهـذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها، وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً.

و فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام، يتعلق بالآية- مورد البحث- اقْرَأْ كِتابَكَ ...

قال: «يـذكر العبد جميع ما عمل، و ما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صـغيرة و لا كبيرة إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۵

أحصاها»[۲۷۲].

و هنا یطرح هذا السؤال؛ عن ماهیة هذه الصحیفة و کیفیتها؟

ممّا لا شک فیه أنّها لیست من جنس الکتب و الورق و الصحف العادیة، لذا فإنّ بعض المفسّرین قالوا بأنّ صحیفة الأعمال لیست سوی «روح الإنسان» و التی تکون جمیع الأعمال مثبتة فیها[۲۷۳] لأنّ أی عمل نعمله سیکون له أثر فی روحنا شئنا أم أبینا.

و قد تکون صحیفة الأعمال، هی أعضاء جسمنا و جلودنا، و الأعظم من ذلک هو أنّ الصحیفة قد تکون متضمّنة فی الأرض و الهواء و الفضاء الذی یحیطنا و الذی نعیش فیه، لأنّ هذه المفردات هی و وعاء أعمالنا، فترتسم الأعمال فی أفق الأرض الهواء و الوجود الذی حولنا، هذا الوجود الذی تنحت فی ذراته أعمالنا أو آثارها و علی الأقل.

و إذا کانت هذه الآثار غیر محسوسة الیوم، و لا یمکن درکها فی الحیاة الدنیا هذه، إلّا أنّ ذلک- بدون شک- لا یعنی عدم وجودها؛ فعند ما نرزق بصرا جدیدا آخر (فی یوم القیامة) فسوف یکون بإمکاننا أن نری جمیع هذه الأمور، و نقرؤها.

علی أنّ استخدام الآیة الکریمة لتعبیر (اقرأ) ینبغی أن لا یغیّر من تفکیرنا شیئا إزاء ما ذهبنا إلیه آنفا، لأنّ کلمة «اقرأ» تتضمّن مفهوما واسعا، و تدخل الرؤیا بمفهومها الواسع هذا، فنحن مثلا و فی تعابیرنا العادیة التی نستخدمها یومیا نقول:

قرأت فی عینی فلان ما الذی یرید أن یفعله، کما أنّنا فی عالم الیوم أخذنا نستخدم کلمة «اقرأ» بخصوص الأشعة التی تؤخذ للمرضی، هذا بالرغم من أنّ الأشعة، هی صورة تخضع للمشاهدة لا للقراءة، و هذا المثال و الأمثلة التی سبقته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۶

تؤکد ما ذهبنا إلیه أنّ المشاهدة تدخل فی إطار المعنی الواسع للقراءة.

و قد تقدم فی الآیات السابقة أنّ تفصیلات صحیفة الأعمال هذه، لا یمکن إنکارها بأی وجه، لأنّ الآثار الحقیقیة الموضوعیة (أی الخارجیة) و التکوینیة للعمل تشبه کثیرا الصوت المسجّل للإنسان، أو الصورة المأخوذة له، أو بصمات أصابعه، و أیّا من هذه الآثار لا یجد الإنسان إلی نکرانها سبیلا!

۳- البریء لا یؤخذ بجریرة المذنب:

فی منطق العقل و توجیهات الأنبیاء علیهم السّلام لا یمکن معاقبة البریء بسبب جریمة المذنب، و هذا تماما عکس ما هو شائع بین عامّة الناس من خلال المثل الذی یقول (یحرق الأخضر و الیابس معا)، و کمثل علی ذلک، نری أنّ فی کل المدن و المناطق التی کانت فی حدود نبوّة النّبی لوط علیه السّلام، لم تکن هناک سوی عائلة مؤمنة واحدة، و لکن عند ما نزل العذاب علی قوم لوط علیه السّلام أنجی اللّه تلک العائلة، و کتب لها سبیل الخلاص من العذاب العام، و هکذا لم تؤخذ هذه العائلة المؤمنة البریئة بجریرة القوم المذنبین.

و تتحدث الآیة، من مجموع الآیات التی نحن بصددها، بصراحة عن هذه القاعدة، فتقول: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْری و إذا صادف أن وجدنا من بین الأحادیث غیر المعتبرة، أمورا تعارض هذا القانون الإسلامی العام. فیجب ترک تلک الأحادیث أو توجیهها.

و فی هذه الاتجاه، أمامنا روایة تقول: إنّ الشخص المیت یتعذب ببکاء الحیّ، (و هنا یحتمل، و من باب توجیه الحدیث، أن یکون الغرض من العذاب، هو لیس العذاب الإلهی، بل الأذی الذی یصیب المیت من ذلک عند ما تطّلع روحه علی جزع الأهل و الأقرباء).

و یتّضح هنا- أیضا- مصیر عقیدة الأشخاص الذین یقولون: إنّ أبناء الکفّار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۷

يحشرون مع آبائهم فى نار جهنّم لبطلانه إسلاميا و لمنافاته لقاعدة وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى و إنّ الذرية لا تؤاخذ بجريرة الآباء، و هى بالتالى لا تعاقب بسبب ذنوب الأب و الأم. و لهذا السبب بالذات، فقد قلنا بأنّ الأبناء غير الشرعيين (أولاد الزنا) ليست لهم من جريرة غيرهم عليهم شىء، و أنّهم بمنأى عن الذنب و أنّ أبواب السعادة أمامهم مفتوحة، إذا أرادوهم ذلك، بالرغم من اعترافنا بصعوبة تربيتهم!

۴- قاعدة «أصل البراءة» و آية! ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ:

فى علم الأصول، و فى بحث «البراءة» استدلوا بقوله تعالى: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى ... على أن فهم الآية يوضّح أنّ المسائل التى لا يمكن للعقل إدراكها أو القطع بها، لا يعاقب عليها الإنسان حتى يبعث اللّه الرسل و الأنبياء ليبيّنوا الأحكام و التكاليف و الوظائف. و هذا بحد ذاته دليل على عدم العقاب فى الأمور التى لم تقم الحجة عليها، و قاعدة «أصل البراءة» لا تعنى شيئا غير هذا؛ أى لا عقاب بدون حجة من العقل أو النقل.

أمّا قول البعض: إنّ مفاد «العذاب» فى الآية أعلاه، هو «عذاب الاستئصال» مثل طوفان نوح، فلا دليل على ذلك، بل- كما قلنا- إنّ اطلاق الآية ينفى ذلك، و هى تشمل بالتالى كلّ عذاب و عقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۸

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۶ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً (۱۶) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۱۷)

التّفسير

مراحل العقاب الإلهى:

إنّ موضوع البحث فى هذه الآيات يكمّل ما كنّا بصدد بحثه فى نهاية الآيات السابقة، و لكن بصورة أخرى، إذ تقول الآية الكريمة: وَ إِذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْناها تَدْمِيراً[۲۷۴]. إنّ الآيات التى كنّا قبل قليل بصدد بحثها، كانت تتحدّث عن أنّ العقاب الإلهى لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أمّة، من دون أن تكون هناك حجة و بيان للتكليف من قبل الرسل و الأنبياء عليهم السّلام، و الآية التى نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل، و لكن بطريقة أخرى.

صحيح أنّ المفسّرين وضعوا احتمالات متعددة لتفسير هذه الآية، إلّا أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۲۹

نعتقد بأنّه لا يوجد سوى تفسير واحد واضح لهذه الآية، يمكن تبيانه من مؤدّى ظاهرها، و هذا التّفسير هو: إنّ اللّه لا يعاقب أو يؤاخذ أحدا بالعذاب، قبل أن يتمّ الحجّة عليه، و قبل أن يتّضح و يستبين تكليفه، ففى البداية يضع اللّه تعليماته و أوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها و أطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا و الآخرة. أمّا إذا عصوا و خالفوا و لم يلتزموا الأوامر و النواهى الربانية، فسيحيق بهم العذاب،

و يؤدى إلى هلاكهم.

و إذا تأملنا الآية، و دققنا النظر فيها بشكل صحيح، فسنرى أنّ هناك أربع مراحل لهذا البرنامج الربانى، هى:

۱- مرحلة الأوامر و النواهى.

۲- مرحلة الفسق و المخالفة.

۳- مرحلة استحقاق المجازاة.

۴- مرحلة الهلاك.

و الملاحظ هنا، أنّ المراحل الأربع هذه، معطوفة على بعضها البعض بواسطة «فاء» التفريع.

هنا يطرح هذا السؤال: لماذا كان المأمورون فى الآية الكريمة هم المترفين دون غيرهم؟[۲۷۵].

فى الإجابة على السؤال المثار، لا بدّ من الإشارة إلى ملاحظة تعتبر مهمّة فى توضيح المعنى، و هى أنّ المترفين هم وجهاء القوم، و رؤساء المجتمع- طبعا هذه القاعدة تخص المجتمعات المريضة- و الآخرون تبع لهم.

إضافة إلى ذلك، فإنّ التعبير فى الآية الكريمة ينطوى على إشارة مهمّة، هى أنّ أغلب المفاسد الاجتماعية تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۰

اللّه تعالى، و الذين يعيشون حياة مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء و المفاسد، و هم بذلك لا يفقهون شيئا عن تلك المفردات التى تتحدث عن الأخلاق و الإنسانية و الإصلاح. و لهذا السبب بالذات، و بحكم موقعهم، كان المترفون دائما فى الصفوف الأولى، فى مواجهة دعوات الأنبياء و الرسل، و كانوا يعتبرون دعوات الأنبياء- القائمة على أساس العدل و حماية المستضعفين- ضدّهم.

لهذه الأسباب ذكر هؤلاء بالخصوص لأنّهم أساس الفساد. على أية حال، هذه الآية بمثابة تحذير لكل المؤمنين كى ينتبهوا، و لا يسلموا زمام أمورهم و حكوماتهم بيد المترفين و الأغنياء الغارقين بالشهوات، و ألّا يتبعونهم، لأنّ هؤلاء يجرون مجتمعهم نحو الهلاك.

الآية التى بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنّها أصل عام، و قاعدة سارية، إذ تقول: وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وفقا لهذه القاعدة و السنّة، ثمّ تضيف بعد ذلك: وَ كَفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً أى إنّ ظلم و ذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التى لا تنام لربّ العالمين.

«قرون» جمع «قرن» و هى تعنى الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، ثمّ أطلقت فيما بعد على مجموع العصر الواحد.

أمّا بصدد عدد سنين القرن الواحد، فهناك آراء مختلفة، فقسم أعتبر القرن (۴۰) سنة، و آخرون قالوا: ثمانين، و البعض الثالث، قال: إنّ القرن مائة عام، أخيرا فقد اعتبر البعض أنّ القرن هو مائة و عشرون عاما. و فى كلّ الأحوال لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الحكم فى هذه القضية يخضع لطبيعة الاتفاق العرفى الذى ينعقد حولها. و من هنا فقد اتفق فى عصرنا الراهن على أنّ كل مائة سنة تعتبر قرنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۱

واحدا[۲۷۶].

أمّا لماذا أكدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السّلام فقد يكون ذلك بسبب أنّ الحياة قبل نوح عليه السّلام كانت حياة بسيطة، و الاختلافات التى تقسّم المجتمعات إلى مترف و مستضعف، كانت بسيطة و ضئيلة، لذلك فالعذاب الإلهى لم يشملهم بكثرة.

أمّا عن سبب ذكر كلمتى «خبير» و «بصير» معا، فإنّ ذلك يعود إلى المعنى المراد، إذ «الخبير» تعنى العلم و الإحاطة بالنية و العقيدة، أمّا «بصير» فدلالة على رؤية الأعمال. لذلك فإنّ اللّه تبارك و تعالى يعلم بواطن الأعمال و النيات، و يحيط بنفس الأعمال، و مثل هذه القدرة لا يمكنها بحال أن تظلم أحدا، و لا أن يضيع حق أحد فى ظل حكومتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۲

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۸ الى ۲۱]

اشارة

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً (۱۸) وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (۱۹) كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (۲۰) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا (۲۱)

التّفسير

طلاب الدنيا و الآخرة:

لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر اللّه تعالى، و كيفية هلاكهم، لذا فإنّ هذه الآيات- التى نحن بصددها الآن- تشير إلى سبب التمرّد على شريعة اللّه، و العصيان لأوامره، و هذا السبب هو حب الدنيا، إذ يقول تعالى:

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۳

«العاجلة» تعنى النعم الزائلة، أو الدنيا الزائلة.

و الظريف فى الآية، أنّها لا تقول: إنّ من يسعى وراء الدنيا، و يجعلها كلّ همه، يحصل على كلّ ما يريد، بل هى قيّدت ذلك بشرطين هما:

أوّلا: سيحصل على جزء ممّا يريده، و أنّ هذا الجزء هو المقدار الذى نريده نحن، أى (ما نشاء).

و الشرط الثّانى الذى يقيّد رغبة الساعى إلى الدنيا، فهو: إنّ جميع الأشخاص- رغم سعيهم الدنيوى- لا يحصلون على هذا المقدار، و إنما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. و هذا معنى قوله: لِمَنْ نُرِيدُ.

و بناء على ذلك، فلا كلّ طلّاب الدنيا يحصلون عليها، و لا أولئك الذين يحصلون على شىء منها، يحصلون على ما يريدون. و مسير الحياة اليومية يوضح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكدون ليلا و نهارا و لكنّهم لا يحصلون على شىء.

و ما أكثر الذين لهم أمنيات كبيرة و طموحات متعددة و مشاريع بعيدة، و لكن لا يحصلون إلّا على القليل منها.

و فى هذا تحذير الدنيا إنّكم إذا تصورتم بأنّكم ستصلون إلى أهدافكم عن طريق بيع الآخرة بالدنيا، فهذا خطاء و اشتباه كبير، حيث أنّكم فى بعض الأحيان قد لا تحققون أى هدف، و فى أحيان أخرى قد تحققون بعض أهدافكم.

و عادة ما تكون للإنسان آمال كبيرة و متعدّدة، لا يمكن إشباعها فى هذه الدنيا المادية المحدودة، فلو أعطيت الدنيا كلّها إلى شخص واحد، فقد لا يقتنع بها! أمّا الأشخاص الذين يكدّون و لا يصلون إلى شىء، فلذلك أسباب مختلفة، إذ قد يكون هناك أمل فى إنقاذهم، و اللّه بذلك يحبهم و ييسر سبل الهداية لهم. أو يكون السبب أنّهم إذا وصلوا إلى مرحلة ما من أهدافهم و رغباتهم، فسيطغون و يؤذون خلق اللّه، و يضيقون عليهم الخناق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۴

«يصلى» مشتقة من «صلى» و هى تعنى إشعال النّار، و أيضا تعنى الحرق بالنّار، و المقصود منها هنا هو المعنى الثانى.

و الجدير بالانتباه هنا، أنّ عاقبة هذه المجموعة من الناس، و التى هى نار جهنّم، قد تمّ تأكيدها فى الآية، بكلمتى مَذْمُوماً و مَدْحُوراً إذ التعبير الأوّل يأتى بمعنى اللوم، بينما الثّانى يعنى الابتعاد عن رحمة الخالق، و فى الحقيقة إنّ نار جهنّم تمثل العقاب الجسدى لهم، أمّا «مذموم» و «مدحور» فهما عقاب الروح، لأنّ المعاد هو للروح و للجسد، و الجزاء و العقاب يكون للإثنين معا.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثّانية و مصيرها، و بقرينة المقابلة و هى أسلوب قرآنى مميّز- يتوضح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

بناء على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هى:

أوّلا: إرادة الإنسان: و هى الإرادة التى ترتبط بالحياة الأبدية، و لا تكون مرتبطة باللذات الزائلة و النعم غير الثابتة، و الأهداف المادية، فالإرادة القوية و الروحية العالية تجعلان من الإنسان حرّا طليقا غير مرتبط بالدنيا.

ثانيا: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة و قاصرة فى المجال الفكرى و الروحى للإنسان، بل إنّها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، و تدفعه للحركة، و يبذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال (يجب الملاحظة، بأنّ كلمة «سعيها» قد جاءت فى الآية الكريمة للتأكيد. و هى تعنى أنّ على الإنسان أن يبذل أقصى ما يستطيع من السعى فى سبيل الآخرة).

ثالثا: إنّ كل ما سبق من حيث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان، الإيمان الثابت القوى، لأنّ أى تصميم و جهد، إذا أريد له أن يثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، و مصدر هذه الأهداف هو الإيمان باللّه لا غير.

صحيح أنّ السعى و بذل الجهد للآخرة لا يمكن أن يكون بدون إيمان، حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۵

أنّ مفهوم الإيمان داخل ضمنه، و لكن يجب عدم الاكتفاء بهذا المقدار من الدلالة الالتزامية للإيمان، بل و ينبغى التوسع فى شرط الإيمان، بحكم أنّ (الإيمان) يعتبر أمرا أساسيا، و ركنا مهمّا فى هذا الطريق.

و الملاحظ هنا، أنّ الآية تخاطب عبيد الدنيا بالقول: جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ بينما عند ما تنتقل إلى طلّاب الآخرة و عشّاقها و مريدها، فهى تخاطبهم بالقول:

فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً. إنّ استخدام هذا التعبير أشمل و أجمل من استخدام أى تعبير آخر، مثل (جزاءهم الجنّة) لأنّ الشكر من أى شخص هو بمقدار شخصيته و مكانته لا بمقدار العمل الذى تمّ، لذا فإنّ شكر اللّه لسعى عباده يتناسب مع ذاته اللامتناهية، و نعمه المادية و المعنوية و ما نتصوره و ما نعجز عن تصوّره.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد فسّروا كلمة «مشكورا» فى هذه الآية بمعنى «الأجر المضاعف»[۲۷۷]. أو بمعنى «قبول العمل»[۲۷۸]، إلّا أنّه من الواضح أن كلمة «مشكورا» لها معنى أوسع من هذه المعانى جميعا.

و قد يتوهم البعض و يلتبس عليه الأمر، ظنا أنّ نعم الدنيا هى من نصيب عبيدها و طلابها فقط، و أنّ طلّاب الآخرة و أهلها محرومون منها. لذلك فإنّ الآية التى بعدها تقف أمام هذا اللبس، و تمنع هذا الظن، عند ما تقول: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ لتضيف بعدها بقليل: وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً.

نمدّ هنا من «الإمداد» بمعنى الزيادة.

الآية التى بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص و تقول: كما أن السعى فى هذه الدنيا متفاوت، و تتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر فى الآخرة: و لكن التفاوت الدنيوى محدود، لأنّ الدنيا هى نفسها محدودة، و أمّا الآخرة- و لكونها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۶

غير محدودة- فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ وَ لَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَ أَكْبَرُ تَفْضِيلًا.

قد يقول قائل هنا: إنّنا نرى فى هذه الدنيا أفرادا يحصلون على أرباح كثيرة بدون أى سعى أو جهد.

الجواب: إنّ وجود هؤلاء يعبّر عن حالات استثنائية لا يمكن اعتبارها قاعدة فی مقابل الأصل الكلی، المتمثل فی الجهد و السعی و دورهما فی نجاح الإنسان و توفيقه. و بذلك فإنّ هذه الاستثناءات الثانوية لا تنافی الأصل الأساسی.

و أخيرا، و قبل أن ننتقل إلى الملاحظات، ينبغی أن ننّبه إلى أنّ السعی و بذل الجهد لا يتعلقان بالكمية و المقدار فقط، ففی بعض الأحيان يكون السعی القليل ذو الكيفية العالية أكثر أثرا من السعی الكثير و الكيفية الدانية.

***

بحوث

أوّلا: هل الدنيا و الآخرة تقعان على طرفی نقيض؟

فی الواقع إنّنا نری فی كثير من الآيات القرآنية مدحا و تمجيدا للدنيا و بإمكانها المادية، ففی بعض الآيات اعتبر المال خيرا (سورة البقرة آية ۱۸۰).

و فی آيات كثيرة وصفت العطايا و المواهب المادية بأنّها فضل اللّه وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ۲۷۹]. و فی مكان آخر نقرأ قوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ ما فِی الْأَرْضِ جَمِيعاً[۲۸۰]. و فی آيات كثيرة أخرى وصفت نعم الدنيا بأنها مسخّرة لنا سَخَّرَ لَكُمُ

و إذا أردنا أن نجمع كل الآيات التی تهتم بالإمكانات المادية و تؤكد عليها،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۷

و تجعلها فی سياق واحد، فستكون أمامنا مجموعة كبيرة منها.

و لكن، و برغم الأهمية الكبرى التی تختص بها النعم المادية، فإنّ القرآن الكريم استخدم تعابير أخرى تحقّرها و تحطّ منها بقوة، إذ نقرأ فی سورة النساء، آية (۹۴)، قوله تعالى: تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا و فی مكان آخر نقرأ قوله تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ[۲۸۱]. و فی سورة العنكبوت آية (۶۴)، نقرأ وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ أمّا فی الآية (۳۷) من سورة النّور، فإنا نلتقی مع قوله تعالى: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

هذه المعانی المزدوجة إزاء النعم و المواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضا فی الأحاديث و الرّوايات الإسلامية، فالدنيا فی وصف لأمير المؤمنين على عليه السّلام هی

«مسجد أحباء اللّه، و مصلى ملائكة اللّه، و مهبط وحی اللّه، و متجر أولياء اللّه»[۲۸۲].

و فی جانب آخر، نری أنّ الأحاديث و الرّوايات الإسلامية تعتبر الدنيا دار الغفلة و الغرور، و ما شابه ذلك.

و السؤال هنا: هل تتعارض هذه المجاميع من الآيات و الرّوايات فيما بينها؟

فی الواقع، عند ما تلام الدنيا، فإنّ اللوم ينصب على أولئك الناس الذين لا هدف لهم و لا همّ سواها. من هنا نقرأ فی الآية (۲۹) من سورة النجم قوله تعالى:

وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا. و بعبارة أخرى: فإنّ الذم الذی يرد للدنيا يقصد به الأشخاص الذين باعوا آخرتهم بدنياهم. و لا يتناهون عن أی منكر و جريمة فی سبيل الوصول إلى أهدافهم المادية، و فی هذا السياق نقرأ فی الآية (۳۸) من سورة التوبة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ.

ثمّ إنّ الآيات التی نبحثها تشهد على ما نقول، إذ أنّ قوله تعالى:

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۸

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ ... هو خطاب لأولئك الذين يستهدفون هذه الحياة العادية الزائلة، و يقفون عندها.

و عادة فإن استخدام تعابير «المزرعة» أو «المتجر» و ما شاكلهما فى تشبيه الحياة الدنيا و وصفها، يعتبر دليلا حيا على هذا الموضوع.

و خلاصة القول: إنّه إذا تمت الاستفادة من مواهب الدنيا و عطاياها التى تعتبر من النعم الإلهية، و يعتبر وجودها ضروريا فى نظام الخلق و الوجود، و تمت الاستفادة فى سعادة الإنسان الأخروية و تكامله المعنوى، فإنّ ذلك يعتبر أمرا جيدا، و تمتدح معه الدنيا. أمّا إذا اعتبرناها هدفا لا وسيلة، و أبعدناها عن القيم المعنوية و الإنسانية، عندها سيصاب الإنسان بالغرور و الغفلة و الطغيان و البغى و الظلم.

و ما أجمل وصف

الإمام على عليه السّلام للدنيا حينما يقول: «من أبصر بها بصرته، و من أبصر إليها أعمته»[۲۸۳].

و فى أنّ الفرق بين الدنيا المذمومة و الدنيا الممدوحة، هو نفس الفرق الذى نستفيده، بين «إليها» و «بها»، إذ تعنى الأولى أنّ الدنيا هدف، بينما تعنى الثّانى أنّها مجرد وسيلة!

ثانيا: دور السعى فى تحقيق المكاسب:

هذه ليست المرّة الأولى التى يشيد فيها القرآن بالسعى و الجهد و دورهما فى تحقيق المكاسب، و بعكسه يحذّر الأشخاص العاطلين و الكسالى بأنّ السعادة الأخروية لا يمكن ضمانها بالكلام المجرد، و التظاهر بالإيمان، بل الطريق يتمثل بالسعى و بذل الجهود.

و هذه الحقيقة واضح مفادها فى الكثير من الآيات القرآنية. ففى سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۳۹

المدثر. آية (۳۸) نقرأ كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ و آية أخرى تقول: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى و فى آيات كثيرة أخرى، يأتى العمل الصالح بعد ذكر الإيمان حتى لا يتوهم أحد و يظنّ بأنّه يستطيع الوصول إلى مرحلة ما بدون سعى و جهد، فمواهب الدنيا المادية لا يمكن استحصالها بدون سعى و جهد، فكيف إذن بالسعادة الأخروية الخالدة!!؟

ثالثا: الإمدادات الإلهية:

«نمدّ» مشتقّة من كلمة «إمداد» و هى تعنى إيصال المعونة، يقول الراغب الأصفهانى فى كتاب «المفردات» أن: كلمة «إمداد» غالبا ما تستعمل فى المساعدات المفيدة و المؤثّرة. أما كلمة «مدّ» فإنها تستعمل فى الأشياء المكروهة و غير المقبولة.

على أية حال، نقرأ فى الآيات التى نبحثها، أنّ اللّه سبحانه و تعالى يضع جزءا من نعمه فى خدمة الجميع، إذ يستفيد منها المحسنون و المسيئون، و هذه النعم غالبا ما تكون من النوع الذى يتوقف استمرار الحياة عليه.

بتعبير آخر: هذه النعم هى تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التى تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن و الكافر. و لكن ما وراء ذلك هناك نعم لا تحصى تختص بالمؤمنين و المحسنين دون غيرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۰

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۲۲ الى ۲۵]

اشارة

لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً (۲۲) وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما وَ قُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً (۲۳) وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً (۲۴) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (۲۵)

التّفسير

أحكام إسلامية مهمّة:

الآيات التى نحن بصدد بحثها هى بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، و التى تبدأ بالدعوة إلى التوحيد و الإيمان، التوحيد الذى يعتبر الأساس و الأصل لكل النشاطات الإيمانية، و الأعمال الحسنة و البناءة. و الآيات عند ما تنحو هذا المنحى فهى بذلك تتصل مع مضمون البحث فى الآيات السابقة، التى كانت تتحدث عن الناس السعداء الذين أقاموا حياتهم على دعائم ثلاث هى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۱

الإيمان، السعى و العمل و وضع الآخرة و منازلها نصب أعينهم.

و تعتبر هذه الآيات- أيضا- تأكيدا ثانيا لدعوة القرآن إلى أفضل السبل و أكثرها استقامة. فى البداية تبدأ هذه الآيات بالتوحيد و تقول: لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إنّها لم تقل: لا تعبد مع اللّه إلها آخر، بل تقول: لا تَجْعَلْ هذا اللفظ أشمل و أوسع، إذ هو يعنى: لا تجعل معبودا آخر مع اللّه لا فى العقيدة، و لا فى العمل، و لا فى الدعاء، و لا فى العبودية. بعد ذلك توضح الآية النتيجة القاتلة للشرك: فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولًا.

إنّ استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف و العجز، فمثلا يقال: قعد به الضعف عن القتال. و من هذا التعبير يمكن أن نستفيد أنّ للشرك ثلاثة آثار سيئة جدّا فى وجود الإنسان، هى:

۱- الشرك يؤدى إلى الضعف و العجز و الذّلة، فى حين أنّ التوحيد هو أساس الحركة و النهوض و الرفعة.

۲- الشرك موجب للذم و اللوم، لأنّه خط انحرافى واضح فى قبال منطق العقل، و يعتبر كفرا واضحا بالنعم الإلهية، لذا فالشخص الذى يسمح لنفسه بهذا الانحراف يستحق الذم.

۳- الشرك يكون سببا فى أن يترك اللّه سبحانه و تعالى الإنسان إلى الأشياء التى يعبدها، و يمنع عنه حمايته، و بما أنّ هذه المعبودات المختلفة و المصطنعة لا تملك حماية أى إنسان أو دفع الضرر عنه، و لأنّ اللّه لا يحمى مثل هؤلاء، لذا فإنهم يصبحون «مخذولين» أى بدون ناصر و معين.

إنّ هذا المعنى يتّضح بشكل آخر فى آيات قرآنية أخرى، إذ نقرأ مثلا فى الآية (۴۱) من سورة العنكبوت: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً، وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدى، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۲

الأنبياء عليهم السّلام للإنسان، فالآية- بعد أن تؤكد مرّة أخرى على التوحيد- تقول:

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

كلمة «قضاء» لهم مفهوم توكيدى أكثر من كلمة «أمر» و هى تعنى القرار و الأمر المحكم الذى لا نقاش فيه. و هذا أوّل تأكيد فى هذه القضية. أما التأكيد الثّانى الذى يدل على أهمية هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان

إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثّالث و الرّابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «إحسان» و التى تشمل كل أنواع الإحسان. و كذلك معنى الإطلاق الذى تفيده كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم و الأب، سواء كانا مسلمين أو كافرين.

أمّا التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحسانا» نكرة لتأكيد أهميتها و عظمتها[۲۸۴].

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظة، و هى أنّ الأمر عادة ما ينصبّ على الأمور الإيجابية، بينما جاء هنا فى مفاد السلب و النفى (و قضى ... ألا تعبدوا ...) فما هو يا ترى سبب ذلك؟

من الممكن أن نقول: إنّ جملة وَ قَضى ... تتضمن تقديرا جملة إيجابية، يمكن أن نقدرها بالقول: و قضى ربّك أن تعبده، و لا تعبد أى شىء سواه. أو من الممكن أن تكون جملة أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ التى تتضمن «النفى و الإثبات» جملة إيجابية واحدة، إذ هى تحصر العبادة باللّه دون غيره ثمّ تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلا بالإحسان إلى الوالدين فتقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما بحيث يحتاجان الى الرعاية و الاهتمام الدائم. فلا تبخل عليها بأى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۳

شكل من إشكال المحبّة و اللطف و لا تؤذيهما أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «أف»: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما[۲۸۵] بل: وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً و كن أمامهما فى غاية التواضع وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً.

الأهمية الاستثنائية لاحترام الوالدين:

إنّ الآيتين السابقتين توضحان جانبا من التعامل الأخلاقى الدقيق، و الاحترام الذى ينبغى أن يؤدّيه الأبناء للوالدين:

۱- من جانب أشارت الآية إلى فترة الشيخوخة، و حاجة الوالدين فى هذه الفترة إلى المحبّة و الاحترام أكثر من أى فترة سابقة، إذ الآية تقول: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ من الممكن أن يصل الوالدان إلى مرحلة يكونان فيها غير قادرين على الحركة دون مساعدة الآخرين، و قد لا يستطيعون بسبب الكهولة رفع الخبائث عنهم، و هنا يبدأ الاختبار العظيم للأبناء، فهل يعتبرون وجود مثل هذين الوالدين دليل الرحمة، أو أنّهم يحسبون ذلك بلاء و مصيبة و عذابا .. هل عندهم الصبر الكافى لاحترام مثل هؤلاء الآباء و الأمهات، أم أنّهم يوجهون الإهانات و يسيئون الأدب لهم، و يتمنون موتهم؟! ۲- من جانب آخر .. تقول الآية: فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍ بمعنى لا تظهر عدم ارتياحك أو تنفرك منهم وَ لا تَنْهَرْهُما ثمّ تؤكّد مرّة أخرى على ضرورة التحدّث معهم بالقول الكريم، إذ اللسان مفتاح إلى القلب وَ قُلْ لَهُما قَوْلًا كَرِيماً.

۳- من جانب ثالث تأمر الآية بالتواضع لهم، هذا التواضع الذى يكون علامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۴

المحبة، و دليل الود لهم: وَ اخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ.

۴- أخيرا تنتهى الآيات، إلى توجيه الإنسان نحو الدعاء لوالديه و ذكرهم بالخير سواء كانا أمواتا أم أحياء، و طلب الرحمة الرّبانية لهما جزاء لما قاما به من تربية وَ قُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً.

إضافة إلى ما ذكرناه، فثمّة ملاحظة لطيفة أخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مسنّين و ضعيفين و كهلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنّك عند ما كنت صغيرا كنت على هذه الشاكلة أيضا، و لكن والديك لم يقصرا فى مداراتك و العناية بك، لذا فلا تقصّر أنت فى مداراتهم و محبتهم.

و قد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين و احترامهم و التواضع لهم، و قد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، و عن قصد و علم فى أحيان أخرى، لذا فإنّ الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما فِي نُفُوسِكُمْ و هذه إشارة إلى أنّ علم اللّه ثابت و أزلى و أبدى و بعيد عن الاشتباهات، بينما علمكم أيّها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان و عصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين و الإحسان إليهم، و لكن بدون قصد و عن جهل، ثمّ تاب بعد ذلك و أناب، و ندم على ما فعل و أصلح، فإنّه سيكون مشمولا لعفو اللّه تعالى: إِنْ تَكُونُوا صالِحِينَ فَإِنَّهُ كانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً.

«أوّاب» مشتقة من «أوب» على وزن «قوم» و هى تعنى الرجوع مع الإرادة، فى حين أن كلمة «رجع» تقال للرجوع مع الإرادة أو بدونها، لهذا السبب يقال للتوبة «أوبة» لأنّ حقيقة التوبة تنطوى على الرجوع عن الأمر (المنكر)، إلى اللّه، مع الإرادة.

و بما أنّ كلمة «أوّاب» هى صيغة مبالغة، لذا فإنّها تقال للأشخاص الذين كلما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۵

أذنبوا رجعوا إلى خالقهم. و قد تكون صيغة المبالغة فى «أوّاب» هى إشارة إلى تعدّد عوامل العودة و الرجوع إلى اللّه. فالإيمان باللّه أوّلا، و التفكير بحكمة يوم الجزاء و القيامة ثانيا، و الضمير الحى ثالثا، و التفكير بعواقب و نتائج الذنوب رابعا، كل هذه العوامل تعمل سوية لأجل عودة الإنسان من طريق الانحراف، نحو اللّه.

بحوث

أوّلا: احترام الوالدين فى المنطق الإسلامى

بالرغم من أنّ العاطفة الإنسانية و معرفة الحقائق، يكفيان لوحدهما لاحترام و رعاية حقوق الوالدين، إلّا أنّ الإسلام لا يلتزم الصمت فى القضايا التى يمكن للعقل أن يتوصل فيها بشكل مستقل، أو أن تدلّ عليها العاطفة الإنسانية المحضة، لذلك تراه يعطى التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين و رعاية حقوقهما، بحيث لا يمكن لنا أن نلمس مثل هذه التأكيدات فى الإسلام إلّا فى قضايا نادرة أخرى.

و على سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

ألف: فى أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، و هذا الاقتران يدل على مدى الأهمية يوليها الإسلام للوالدين.

ففى سورة البقرة آية (۸۳) نقرأ: لا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

و فى سورة النساء آية (۳۶) نقرأ قوله تعالى: وَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً. أما الآية (۱۵۱) من سورة الأنعام فإنّها تقول: أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً. و فى الآية التى نبحثها نقرأ قوله تعالى:

وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً.

ب- إنّ مسألة احترام الوالدين و رعاية حقّهما من المنزلة بمكان، حتى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۶

القرآن و الأحاديث و الرّوايات الإسلامية، تؤكدان معا على الإحسان للوالدين حتى و لو كانا مشركين، إذ نقرأ فى الآية (۱۵) من سورة لقمان: وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً.

ج- رفع القرآن الکریم منزلة شکر الوالدین إلی منزلة شکر اللّه تعالی، إذ تقول الآیة (۱۴) من سورة لقمان: أَنِ اشْکُرْ لِی وَ لِوالِدَیْکَ و هـذا دلیل علی عمق و أهمیـة حقوق الوالدین فی منطق الإسـلام و شـریعته، بالرغم من أن نعم اللّه التی یشـکرها الإنسان لا تعدّ و لا تحصی.

د- القرآن الکریم لا یسمح بأدنی إهانة للوالدین، و لا یجیز ذلک، ففی حدیث

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «لو علم اللّه شیئا هو أدنی من أف لنهی عنه، و هو من أدنی العقوق، و من العقوق أن ینظر الرجل إلی والدیه فیحدّ النظر إلیهما»[۲۸۶].

ه- بـالرغم من أنّ الجهـاد یعتبر من أهم التعـالیم الإسـلامیة، إلّا أنّ رعایـة الوالـدین تعتبر أهم منه، بل لا یجوز إذا أدّی الأمر إلی أذیة الوالدین، بالطبع هذا إذا لم یکن الجهاد واجبا عینیا، و إذ توفرّ العدد الکافی من المتطوعین له.

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ رجلا جاء إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال له، إنّی أحبّ الجهاد، و صحتی جیـدة، و لکن لی أمّ لا ترتاح لذلک، فما ذا أفعل، فأجابه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم: «إرجع فکن مع والدتک فو الذی بعثنی بالحق لأنسها بک لیلة خیر من جهاد فی سبیل اللّه سنة»[۲۸۷].

و لکن عنـد ما یجب الجهاد وجوبا عینیا، و تصـبح بلاد الإسـلام فی خطر یلزم الجمیع بالحضور و لا تقبل جمیع الاعذار حینئذ بما فیها عدم رضاء الوالدین.

و ما قلناه عن الجهاد ینطبق کذلک علی الواجبات الکفائیة الأخری، و کذلک المستحبات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۷

و-

عن الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قـال: «إیّـاک و عقـوق الوالـدین فـإنّ ریـح الجنّـة توجـد من میسـرة ألـف عـام و لا یجـدها عاقّ»[۲۸۸].

هذا التعبیر ینطوی علی إشارة لطیفة، إذ أن مثل هؤلاء الأشـخاص (العاقین) لیسوا لا یدخلون الجنّة و حسب، بل إنّهم یبقون علی مسافة بعیدة جدا منها و لا یستطیعون الاقتراب منها.

و ینقل «سید قطب»

حـدیثا عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم جاء فیه: «عن بریدة عن أبیه، أنّ رجلا کان فی الطواف حاملا أمّه یطوف بها، فرأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسأله: هل أدیت حقّها؟ فأجابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا، و لا بزفرة واحدة».

و یقصد بالزفرة الواحدة الوجعة الواحدة، أو الطلقة الواحدة، التی تغشی الأم حین الولادة و الوضع ۲۸۹].

إذا أردنا نطلق العنان للقلم فی هذا المجال، فسیطول بنا المقام و نبتعد عن التّفسیر، لکن- بصـراحة- یجب أن نعترف بأنّ کل ما یقال فی هذا المجال فهو قلیل، لأنّ الوالدین حق العیش و الحیاة علی الولد.

فی نهایـة هذه الفقرة، أشـیر إلی أنّ الوالدین- فی بعض الأحیان- یقترحان علی الأبناء أشـیاء غیر منطقیة و حتی- غیر شـرعیة، طبعا فی مثـل هـذه الحالاـت لا تجب الطاعـة، و لکن من الأفضل أن یتسم التعامل معهما بالهـدوء و المنطق، و أن تتم عملیـة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر بأحسن وجه.

أخیرا نختم الکلام بحدیث

عن الإمـام الکـاظم علیه السّلام قال فیه: إنّ رجلا جاء النّبی الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم یسأله عن حق الأدب علی ابنه، فأجابه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بقوله: «لا یسمیه باسمه، و لا یمشی بین یدیه، و لا یجلس قبله، و لا یستسب له»[۲۹۰]

(ای لا یفعل شیئا یؤدی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۸

الی أن یسبّ الناس والدیه).

ثانیا: بحث حول کلمة «قضی»:

«قضی» أصلها من کلمة «قضاء» بمعنی الفصل فی شیء ما، إمّا بالعمل و إمّا بالکلام. و قال بعض: إنّ معناها هو وضع نهایة لشیء ما، و فی الواقع فإنّ المعنیین متقاربان. و بما أنّ الفصل و وضع النهایة لهما معانی واسعة، لذا فإنّ هذه الکلمة لها استخدامات فی مفاهیم مختلفة، فالقرطبی فی تفسیره مثلا ذکر لها ستة معان هی:

* «قضی» بمعنی «أمر» کما فی قوله تعالی: وَ قَضی رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِیَّاهُ

* «قضی» بمعنی «خلق» کما فی قوله آیة (۱۲) من سورة فصلت فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی یَوْمَیْنِ

* «قضی» بمعنی «حکم» کما فی الآیة (۷۲) من سورة طه فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ

* «قضی» بمعنی الانتهاء من شیء، و مثله الآیة (۴۱) من سورة یوسف قُضِیَ الْأَمْرُ الَّذِی فِیهِ تَسْتَفْتِیانِ

* «قضی» بمعنی «أراد» کما فی سورة آل عمران آیة (۴۷): إِذا قَضی أَمْراً فَإِنَّما یَقُولُ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ

* «قضی» بمعنی «عهد» کما فی الآیة (۴۴) من القصص: إِذْ قَضَیْنا إِلی مُوسَی الْأَمْرَ[۲۹۱].

و قد أضاف أبو الفتوح الرازی إلی هذه المعانی قوله:

* «قضی» بمعنی «الإخبار و الإعلام» مثل قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۴۹

وَ قَضَیْنا إِلی بَنِی إِسْرائِیلَ فِی الْکِتابِ ۲۹۲].

و نستطیع أن نضیف إلی هذا المعنی، معنی آخر تکون فیه «قضی» بمعنی «الموت» کما فی آیة (۱۵) من سورة القصص فَوَکَزَهُ مُوسی فَقَضی عَلَیْهِ

المهم هنا، أنّ بعض المفسّرین وضع أکثر من (۱۳) معنی لکلمة فی القرآن الکریم ۲۹۳].

و لکن لا یمکن اعتبار کل هذه معانی متعدّدة لکلمة «قضی» لأنها تنتهی إلی مفهوم واحد. لذلک فإنّ أغلب المعانی المذکورة أعلاه هی من باب اختلاط المصداق بالمفهوم. لأنّ کل واحدة منها، ما هی فی واقعها إلّا مصداقا للمفهوم الکلّی و الجامع المتمثل فی «الفصل و وضع النهایة» فالقاضی بحکمه یضع نهایة للدعوی، و الخالق یضع نهایة لما خلق، و المخبر بأخباره یضع نهایة لما یرید أن یوضحه. و لکن لا یمکن الإنکار أنّ بعض هذه المصادیق، و من کثرة الاستخدام قد وضعت معان جدیدة لکلمة «قضاء» مثل الحکم أو إعطاء الأوامر.

ثالثا: بحث حول معنی کلمة «أف»:

أصل «أف» کلّ مستقذر من وسخ و قلامة ظفر و ما یجری مجراهما، و یقال ذلک لکلّ مستخف به استقذارا له. و یمکن أن نشتق منه فعلا، کمثل قولنا: قد أففت لکذا، إذا قلت ذلک استقذارا له. (مفردات الراغب صفحة ۱۹).

بعض المفسّرین مثل «القرطبی» فی الجامع، و «الطبرسی» فی «مجمع البیان» قالوا: «أف» و «تف» فی الأصل بمعنی وسخ الظفر حیث أنّه ملوّث و تافة أیضا، و ینقل الرازی عن الأصمعی أنّ «الأف» وسخ الأذن، و «التف» وسخ الظفر، حتی توسع المعنی لیشمل کل ما یتأذی

منه، و تذکر اللفظة أیضا عند کل مکروه یصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۰

إلیهم ۲۹۴].

و هناک معان أخری لکلمة «أف» منها أنّها تعنی الشیء القلیل، أو الأذی من الرائحة الکریهة.

البعض الآخر قال: إنّ أصل هذه الکلمة مأخوذ من «الصوت» الذی یخرج من الفم عند ما ینفخ الإنسان لتنظیف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود علیها، و هذا الصوت یشبه کلمة «أوف» أو «أف» و قد أستفید منها فیما بعد للتعبیر عن التنفّر و عدم الراحة من الأشیاء الصغیرة بالخصوص.

و خلاصة الذی ذکرناه أعلاه، و بالإضافة إلی قرائن أخری یمکن القول بأنّ هذه الکلمة هی فی الأصل «اسم صوت» و المقصود بالصوت هنا ما یصدره الإنسان من فمه عند ما یتذمّر أو ینفخ لإزالة شیء ما. ثمّ بعد ذلک تحول «اسم الصوت» إلی کلمة یمکن اشتقاق الأفعال منها، و بذلک تکون المعانی التی ذکرناها مصادیق لهذا المفهوم العام و الشامل.

و منتهی الکلام هنا، أنّ الآیة ترید أن تقول بعبارة قصیرة و فصیحة و بلیغة، إنّ احترام الوالدین و رعایة حقوقهما مهمان للغایة، بحیث لا یجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إیذاؤهما حتی بمستوی ما تحمله کلمة «أف» من معنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۱

الآیات [سورة الإسراء (۱۷): الآیات ۲۶ الی ۳۰]

اشارة

وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً (۲۶) إِنَّ الْمُبَذِّرِینَ کانُوا إِخْوانَ الشَّیاطِینِ وَ کانَ الشَّیْطانُ لِرَبِّهِ کَفُوراً (۲۷) وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّکَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَیْسُوراً (۲۸) وَ لا تَجْعَلْ یَدَکَ مَغْلُولَةً إِلی عُنُقِکَ وَ لا تَبْسُطْها کُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (۲۹) إِنَّ رَبَّکَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ وَ یَقْدِرُ إِنَّهُ کانَ بِعِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۳۰)

التّفسیر

رعایة الاعتدال فی الإنفاق و الهبات:

مع هذه الآیات یبدأ الحدیث عن فصل آخر من سلسلة الأحکام الإسلامیة الأساسیة، التی لها علاقة بحقوق القربی و الفقراء و المساکین، و الإنفاق بشکل عام ینبغی أن یکون بعیدا عن کل نوع من أنواع الإسراف و التبذیر، حیث تقول الآیة وَ آتِ ذَا الْقُرْبی حَقَّهُ وَ الْمِسْکِینَ وَ ابْنَ السَّبِیلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِیراً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۲

«تبذیر» من «بذر» و هی تعنی بذر البذور، إلّا أنّها هنا تخص الحالات التی یصرف فیها الإنسان أمواله بشکل غیر منطقی و فاسد. بتعبیر آخر: إنّ التبذیر هو هدر المال فی غیر موقعه و لو کان قلیلا، بینما إذا صرف فی محلّه فلا یعتبر تبذیرا و لو کان کثیرا. ففی تفسیر العیاشی، عن الإمام الصادق علیه السّلام، نقرأ

قوله: «من أنفق شیئا فی غیر طاعة اللّه فهو مبذر و من أنفق فی سبیل اللّه فهو مقتصد»[۲۹۵].

و ینقل

عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا أنّه دعا برطب (لضيوفه) فاقبل بعضهم يرمى بالنوى، فقال: «لا تفعل إن هذا من التبذير، و إنّ اللّه لا يحب الفساد»[۲۹۶].

و فى مكان آخر نقرأ،

أنّ رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ بسعد و هو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ قال: أفى الوضوء سرف؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعم و إن كنت على نهر جار»[۲۹۷].

و بالنسبة لذوى القربى هناك كلام كثير بين المفسّرين، هل هم عموم القربى؟

أو المقصود بهم قربى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره هو المخاطب بالآية؟

فى الأحاديث الكثيرة التى سنقرؤها و فى الملاحظات التى سنقف عندها سنعرف بأنّ ذوى القربى هم قربى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بعض الرّوايات تشير إلى أنّ الآية تتحدث عن قصّة فدك التى أعطاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بنته فاطمة الزهراء عليها السّلام.

و لكن مخاطبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كلمة «و آت» لا تعتبر دليلا على اختصاص هذا الحكم به، لأنّ جميع الأحكام الواردة فى هذه المجموعة من الآيات كالنهى عن الإسراف و مداراة السائل و المسكين، و النهى عن البخل، هى أحكام عامّة بالرغم من أنّها تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هناك نقطة ينبغى الالتفات إليها، و هى مجىء النهى عن التبذير و الإسراف،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۳

بعد إعطاء الأمر بأداء حق الأقرباء و المساكين حتى لا يقع الإنسان تحت تأثير عاطفة القرابة أو الصدقة فيعطى لهذا المسكين أو ابن السبيل أو القريب أكثر ممّا يستحق أو يتحمل، فيعتبر ذلك إسرافا و تبذيرا، و هما مذمومان دائما.

الآية التى بعدها هى لتأكيد النهى عن التبذير إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ، وَ كانَ الشَّيْطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً.

أمّا كيف كفر الشيطان بنعم ربّه، فهذا واضح، لأنّ اللّه أعطاه قدرة و قوة و استعدادا و ذكاء خارقا للعادة، و لكن الشيطان استفاد من هذه الأمور فى غير محلّها، أى فى طريق إغواء الناس و إبعادهم عن الصراط المستقيم.

أما كون المبذرين إخوان الشياطين، فذلك لأنّهم كفروا بنعم اللّه، إذ وضعوها فى غير مواضعها. ثمّ إنّ استخدام «إخوان» تعنى أنّ أعمالهم متطابقة و متناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهة، أو أنّهم قرناء و جلساء للشيطان فى الجحيم، كما توضح ذلك الآية (۳۹) من سورة الزخوف بعد أن تشرك الشيطان و المذنب فى العذاب: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ

أمّا لما ذا جاءت كلمة الشيطان هنا بصيغة الجمع «شياطين»؟ قد يعود ذلك إلى أنّ لكل إنسان غافل عن خالقه و ربّه، شيطان قرين له، كما نرى هذا المعنى واضحا فى الآية (۳۶) و (۳۸) من الزخرف: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .. حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ

ثمّ أنّ الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحيانا، و فى هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقة التصرّف بالنحو الآتى: إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً.

«ميسور» مشتقّة من «يسر» و هى بمعنى الراحة و السهولة، أمّا هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل و سلوك مقرون بالاحترام و المحبّة، و إذا فسّرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۴

البعض بمعنى الوعد للمستقبل فإنّ ذلك أحد مصاديقها.

نقرأ فى الرّوايات، أنّه بعد نزول هذه الآية، كان إذا جاء شخص محتاج إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الرّسول لا يملك شيئا لإعطائه،

قال له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يرزقنا اللّه و إيّاكم من فضله»[۲۹۸].

و قديما عند ما كان السائل يطرق الباب، و يطلب منّا شيئا لا نستطيع إعطاءه إيّاه، نقول له «العفو» و ذلك تأكيدا على أنّ لهذا السائل حق علينا يطالبنا به، و إذا كنّا لا نملك قضاء حاجته و إعطاءه حقّه، فإننا نطلب منه العفو.

الاعتدال هو شرط فى كل الأمور بما فيها الإنفاق و المساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: وَ لا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ و هذا تعبير جميل يفيد أنّ الإنسان ينبغى أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء و كأنّ أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بخلا و خشية من الإنفاق. و لكن فى نفس الوقت تقرّر الآية أنّ بسط اليد لا ينبغى أن يتجاوز الحد المقرر و المعقول فى الصرف و البذل و العطاء، حتى لا ينتهى المصير إلى الملامة و الابتعاد عن الناس: وَ لا تَبْسُطْها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً.

و «تقعد» مشقّة من «قعود» و هى كناية عن التوقف عن العمل. أمّا تعبير «ملوم» فهو يشير إلى أنّ عاقبة الإسراف لا تؤدى إلى توقف الإنسان عن عمله و نشاطه و حسب، و إنّما تؤدى إلى إيقاع لوم الناس عليه.

«محسور» مشتقّة من كلمة «حسر» و هى فى الأصل تعنى خلع الملابس رفع الثوب و إظهار بعض البدن من تحته، لذا يقال للمقابل الذى لم يلبس الخوذة و الدرع، بأنه «حاسر». و أيضا يقال للحيوان الذى يتعب من كثرة المشى بأنّه «حسير» أو «حاسر» بسبب استنفاذ طاقته و قدرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۵

و قد توسع هذا المفهوم فيما بعد بحيث أصبح يطلق على كل إنسان عاجز عن الوصول إلى هدفه بأنّه «حسير» أو «محسور» أو «حاسر».

أمّا كلمة «الحسرة» و التى تعنى الغم و الحزن، فهى مشتقة من هذه الكلمة، و تطلق على الإنسان الفاقد لقابلية حل المشاكل بسبب الضعف.

و كذلك بالنسبة للإنفاق، فهو إذا تجاوز الحد المقرّر بحيث يستنفذ طاقة الإنسان، فإنّه يؤدى إلى أن يصاب صاحبه بالغم و الحزن بسبب الضعف عن أداء واجباته و مسئولياته، و ينقطع اتصاله و ارتباطه بالناس.

و بعض الرّوايات التى تتحدث عن سبب نزول الآية تؤكّد هذا المعنى، إذ أنّها تتحدث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يوما فى بيته فجاءه سائل يسأله إعطاءه ملابس، و لمّا لم يكن مع الرّسول ما يعطى السائل، فقد خلع لباسه و أعطاه إيّاه، الأمر الذى أدّى إلى بقاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى البيت و عدم خروجه فى ذلك الوقت للصلاة.

و قد كان هذا الحادث سببا لتقولات الكفار المنافقين، الذين قالوا: إنّ الرّسول نائم، أو إنّه فى لهو أنساه صلاته. و بذلك أدّى هذا العمل إلى إيقاع اللوم شماتة الأعداء و الانقطاع عن الأصحاب، و أصبح بذلك مصداقا للملوم و المحسور، عندها نزلت الآية أعلاه تنهى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تكرار هذا العمل.

أمّا عن التضاد القائم بين هذا الأمر و مسألة «الإيثار» فسنبحثه فى الملاحظات القادمة إن شاء اللّه.

بعض الرّوايات تتحدث عن أنّ سبب نزول الآية، هو أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعطى ما يوجد فى بيت المال إلى المحتاج بحيث إذا جاءه محتاج آخر، فلن يجد شيئا يعطيه له، فيلوم ذلك المحتاج الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يؤذيه، لذلك صدرت التعليمات بأن لا ينفق كل ما فى بيت المال لمواجهة هذه المشكلات.

سؤال: لما ذا يجب أن يكون هناك مساكين و فقراء و محرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الأفضل أن يعطيهم اللّه ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۶

الجواب: تعتبر الآيـة الأخيرة بمثابـة جواب على هـذا السؤال: إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً. إنّه اختبار لنا، فاللّه قادر على كل شيء، و لكنّه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء و التضحية و العطاء.

إضافـة إلى ذلك، إذا أصـبح أكثر الناس فى حالـة الكفايـة و عـدم الحاجة فإنّ ذلك يقود إلى الطغيان و التمرد إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى لذلك من المفيد أن يبقوا فى حد معين من الحاجة. هذا الحد لا يسبب الفقر و لا الطغيان. من ناحية أخرى يرتبط التقدير و البسط فى رزق الإنسان بمقدار السـعى و بذل الجهد (باسـتثناء بعض الموارد من قبيل العجزة و المعلولين)، و هكذا تقتضـى المشـيئة الإلهيـة ببسط الرزق و تقـديره لمن يشاء، و هـذا دليل الحكمة، إذ تقضـى الحكمة بزيادة رزق من يسـعى و يبذل الجهد، بينما تقضـى بتضييقه لمن هو أقل جهدا و سعيا.

العلّامـة الطباطبائى ينظر للعلاقـة بين هذه الآية و التى قبلها فى ضوء احتمال آخر فيقول فى تفسـير الميزان: «إنّ هذا دأب ربّك و سـنته الجاريـة، يبسـط الرزق لمن يشاء و يقـدر لمن يشاء، فلا يبسـطه كل البسط، و لا يمسك عنه كل الإمساك رعايـة لمصـلحة العباد، إنّه كان بعباده خبيرا بصيرا أو ينبغى لك أن تتخلق بخلق اللّه و تتخذ طريق الاعتدال و تتجنب الإفراط و التفريط»[۲۹۹].

***

بحوث

أوّلا: من هم المقصودون بذى القربى؟

كلمة «ذى القربى» تعنى الأرحام و المقربين، و هناك كلام بين المفسّرين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۷

حول المقصود بها، إذ هل هو المعنى العام أو الخاص؟ و يمكن أن نلاحظ هنا بعض هذه الآراء:

* البعض يعتقد أنّ المخاطب بالآية جميع المؤمنين و المسلمين، و الغرض هو الحث على أداء حقوق الأقرباء.

* البعض الآخر يرى أنّ المخاطب فى الآية هو الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و الغرض هو إيصال حقوق أقرباء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كخمس الغنائم، أو غيرها ممّا يتعلق بها الخمس.

أو بصورة عامّة تأدية كل الحقوق التى لهم فى بيت المال.

لذلك نرى فى روايات عديدة عند الشـيعة و السـنّة إنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بعث إلى فاطمة عليها السّـلام بعد نزول هذه الآية، و وهبها فدكا[۳۰۰].

ففى مصادر السـنة مثلا نقرأ عن أبى سـعيد الخـدرى الصـحابى المعروف: «لما نزل قوله تعالى: وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فاطمة فدكا»[۳۰۱].

و يسـتفاد من بعض الرّوايات، أنّ الإمام زين العابدين عليه السّـلام أثناء سـيره إلى الشام بعد واقعة كربلاء، اسـتدلّ بهذه الآية وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ فى التعريف بنفسه و أهل بيته و عيال أبيه الحسـين عليه السّلام، بأنّهم المعنيين بقوله تعالى: فيما كان أهل الشام يغمطونهم هذا الحق![۳۰۲].

و لكن- كما أشـرنا سابقا- ليس هناك تعارض بين هـذين التّفسـيرين، فالكل مكلفون بإيتاء حقوق ذوى القربى، و الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى اعتبر قائدا للأمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۸

الإسلامية مكلّف أيضا بالعمل بهذه المسؤولية الكبيرة، فأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هم فى الواقع من أوضح مصاديق القربى له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى طليعة المخاطبين بالآية الكريمة. لهذا السبب و هب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حقوق ذوى القربى لهم، فأعطى فاطمة فدكا، و أجرى عليهم الأخماس و غير ذلك، حيث كانت الزكاة أموالا عامّة محرمة على أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرباه.

ثانيا: مصائب الإسراف و التبذير:

لا ـ ريب فى أنّ النعم الموجودة على الكرة الأرضية كافية لساكنيها، بشرط واحد، هو أن لا ـ يبذروا هذه النعم بلا سبب، بل عليهم استثمارها بشكل معقول و بلا إفراط أو تفريط، و الّا فإنّ هذه النعم ليست غير متناهية حتى لو أسىء استثمارها و التصرف بها. و قد يؤدى الإسراف و التبذير فى منطقة معينة الى الفقر فى منطقة أخرى، أو إنّ إسراف و تبذير الناس فى هذا الزمان يسبّب فقر الأجيال القادمة.

و فى ذلك اليوم الذى لم تكن فيه الأرقام و الإحصاءات فى متناول الإنسان، حذّر الإسلام من مغبة الإسراف و التبذير فى نعم اللّه على الأرض، لذلك فالقرآن أدان فى أماكن كثيرة و بشدّة المسرفين و المبذرين.

ففى الآيتين (۱۴۱) من الأنعام و (۳۱) من الأعراف نقرأ قوله تعالى وَ لا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

أمّا فى غافر (۴۳) فنقرأ: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

و الآية (۱۵۱) من الشعراء تنهى عن طاعة المسرفين: وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ

أمّا الآية (۸۳) من يونس فتجعل الإسراف صفة فرعونية: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ

و الهداية ممنوعة عن المسرفين كما هو مفاد الآية (۲۸) من سورة غافر: إِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۵۹

اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

و أخيرا تتحدث الآية (۹) من سورة الأنبياء عن مصيرهم: وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ

و قد رأينا فى الآية التى نبحثها أن اللّه تعالى جعل المسرفين إخوان الشياطين. و الإسراف بمعناه الواسع هو الخروج و تجاوز الحد فى أى عمل يقوم به الإنسان، و لكنّها عادة تستخدم فى المصروفات.

و من آيات القرآن نفسها نستفيد أنّ الإسراف هو فى مقابل التقتير، بينما هناك طريق ثالث هو منزلة بين الأمرين، كما فى الآية (۶۷) من سورة الفرقان: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

ثالثا: الفرق بين الإسراف و التبذير:

فى الواقع لا يوجد هناك بحث واضح عند المفسّرين فى التفاوت الموجود بين الإسراف و التبذير، و لكن عند التأمّل بأصل هذه الكلمات فى اللغة، يتبيّن أنّ الإسراف هو الخروج عن حدّ الاعتدال، و لكن دون أن نسخر شيئا، فمثلا نلبس ثيابا ثمينا بحيث أنّ ثمنه يعادل أضعاف سعر الملبس الذى نحتاجه، أو أنّنا نأكل طعاما غاليا بحيث يمكننا إطعام عدد كبير من الفقراء بثمنه. كل هذه أمثلة على الإسراف، و هى تمثّل خروجنا عن حدّ الاعتدال، و لكن من دون أن نخسر شيئا.

أمّا كلمة «تبذير» فهى تعنى الصرف الكثير، بحيث يؤدى إلى إتلاف الشىء و تضييعه، فمثلا نهيّئ طعام عشرة أشخاص لشخصين، كما

يفعل ذلك بعض الجهلاء و يعتبرون ذلك فخرا، حيث يرمون الزائد فى المزابل.

و لكن بالرغم من هـذا التمييز، لا بـدّ من القول بأنّ كثيرا ما تستخدم هاتين الكلمتين للتدليل على معنى واحد، و قد تتابعان فى الجملة الواحدة لغرض التأكيد.

فالإمام على فى نهج البلاغة يقول: «ألا إنّ إعطاء المال فى غير حقّه تبذير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۰

و إسراف و هو يرفع صاحبه فى الدنيا و يضعه فى الآخرة، و يكرمه فى الناس و يهينه عند اللّه».

و فى الآيات التى بحثناها رأينا أن الإسـلام بحيث كثيرا على عـدم الإسـراف و التبذير إلى درجة أنّه نهى عن الإسـراف فى ماء الوضوء حتى إذا كان ذلك قرب نهر جار، و حتى فى نوى التمر. و عالم اليوم الـذى بـدأ يتحسّـس الضائقـة فى بعض الموارد. أخذ يهتم بهذه الفكرة، حتى بات يستفيد من كلّ شىء، فهو مثلا يستفيد من فضولات المنازل فى صنع السماد، و من ماء المجارى لسقى المزروعات، لأنّه أحسّ أنّ المصـادر الطبيعيـة محـدودة، لـذا لا يمكن التفريط بها بسـهولة، و إنّما ينبغى الاسـتفادة منها ضـمن ما يعرف ب «دورة المصادر الطبيعية».

رابعا: هل ثمّة تعارض بين الاعتدال فى الإنفاق و الإيثار؟

مع الأخـذ- بنظر الإعتبار- الآيات أعلاه و التى تؤكّـد ضـرورة الاعتدال فى الإنفاق، يثار سؤال مؤدّاه، إنّ فى سورة الدهر مثلا، و آيات أخرى، و فى مجموعة من الأحاديث و الرّوايات، ثمّة إشادة بالمؤثرين الذين يؤثرون غيرهم على أنفسـهم فى أحلك الساعات و أشـدّ الظروف و يعطون ما يملكون للآخرين، فكيف يا ترى نوفّق بين هذين المفهومين؟

إنّ الدقـة فى سـبب نزول هـذه الآيات مع قرائن أخرى تفيـدنا فى الوقوف على جواب هذا السؤال، إذ يكون الأمر بمراعاة الاعتدال فى المجالاـت التى يكون فيها العطاء و الهبات الكثيرة سـببا لاضـطراب الإنسان فى حياته أو بمصـطلح القرآن يصـبح فيها مَلُوماً مَحْسُوراً و كذلك إذا كان الإيثار سـببا فى التضييق على أبنائه أو أنّه يهدّد تركيبة عائلته. و إذا لم يقع أى من هذين المحذورين، فإنّ الإيثار يعتبر أفضـل السـبل، نضـيف إلى ذلك أنّ الاعتـدال فى الإنفاق يعتبر حكما عاما، بينما الإيثار يعتبر حكما خاصا يرتبط بمصاديق خاصّـة، و ليس ثمّة تضاد بين الاثنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۱

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۳۱ الى ۳۵]

اشارة

وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَ إِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً (۳۱) وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا (۳۲) وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً (۳۳) وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا (۳۴) وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (۳۵)

التّفسير

ستة أحكام مهمّة:

فى متابعة للأحكام الإسلامية التى أثارتها الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات عن ستة أحكام إسلامية أخرى وردت فى ست آيات، بعبارات قصيرة و معان كبيرة، تأخذ بلباب القلوب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۲

أوّلا: تشير الآية إلى عمل قبيح و جاهلى هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه:

وَ لا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ فرزق هؤلاء ليس عليكم نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيَّاهُمْ أمّا علّة الحكم فهى: إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً.

هذه الآية تفيد أنّ الوضع الاقتصادى للعرب فى الجاهلية كان صعبا و سيئا.

بحيث أنّهم كانوا يتقلون أبناءهم فى بعض الأحيان خوف العيلة و الفقر.

و هناك كلام بين المفسّرين فيما إذا كان العرب فى الجاهلية يدفنون البنات أحياء و حسب، أو أنّهم كانوا يقتلون الأبناء أيضا خوفا من الفقر! البعض يعتقد أنّ الآيات تتحدث عن دفن البنت و هى حيّة، هذا العمل الذى كان شائعا فى الجاهلية لسببين:

الأوّل: يتمثل فى الخوف من وقوعهن فى الأسر أثناء الحروب، الأمر الذى يجعل الأعراض و النواميس تحت رحمة العدو.

أمّا الثّانى: فيعود إلى خوفهم من الفقر و عدم تمكنهم من توفير المؤونة للبنات اللاتى لا يقمن بعمل إنتاجى، و يقتصر دورهن على الاستهلاك فقط. صحيح أنّ الولد فى مطلع حياته لا ينتج، لكنّه فى عرف عرب الجاهلية يعتبر رأسمالا ثمينا، لا يمكن التفريط به.

البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أن هناك نوعين من القتل، النوع الأوّل يشمل البنات، لحفظ الناموس حسب اعتقادهم الخاطئ. أمّا النوع الثّانى فسببه الفقر. و هو يشمل البنات و البنين معا.

ظاهر الآية يدل على هذا المعنى، لوجود ضمير الجمع المذكر فى الآية فى «قتلهم» و هذا الضمير يطلق فى اللغة العربية على الولد و البنت معا، و بالتالى فإنّه يستبعد اختصاصه بالبنات وحدهن.

أمّا ما يقال من أنّ الولد قادر على الإنتاج، و يعتبر وجوده رأسمالا للمستقبل، فهذا صحيح فى حال وجود القدرة المالية، أمّا فى حالة عدم القدرة على تأمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۳

حياة هؤلاء الأولاد فالراى الثّانى هو الأصح لهذا الدليل.

المهم أنّ هذا التصرف الجاهلى يرتبط بعقيدة وهمية تقول: إنّ الأب و الأم هما الرازقان، بينما اللّه سبحانه و تعالى يقول: اطردوا هذا التفكير الشيطانى من أذهانكم و ابذلوا سعيكم و وسعكم و اللّه يؤمن رزقكم و رزقهم.

و فى الوقت الذى تستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشرى، فإنّ عصرنا الحاضر- و فى أكثر مجتمعاته رقيا و تقدما- يعيد تكرار هذه الجريمة و لكن بأسلوب آخر، إذ أنّ العمليات الواسعة فى إسقاط الجنين و قتله خوفا من الضائقة المالية و ازدياد عدد السكان، هى نموذج آخر للقتل، (للمزيد راجع تفسير الآية (۱۵۱) من سورة الإنعام).

إنّ تعبير «خشية إملاق» إشارة لطيفة إلى الدافع الوهمى الشيطانى و رفضه، حيث يفيد التعبير أنّ الوهم و مجرّد الخوف هو الذى يتحكم بهذا السلوك المحرم، لا الدوافع الحقيقية.

كما يجب الانتباه إلى أنّ «كان» فى كانَ خِطْأً كَبِيراً هى فعل ماض، يفيد هنا التأكيد على أنّ قتل الأبناء يعتبر من الذنوب العظيمة التى كانت معروفة، منذ القدم بين البشر، و أنّ الفطرة الإنسانية السليمة تحمل دوافع الرفض و الإدانة لمثل هذا السلوك الذى لا يختص بزمان معين دون غيره.

ثانيا: الآية التى بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا وَ لا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَ ساءَ سَبِيلًا و فى هذا التعبير القرآنى تمت

الإشارة إلى ثلاث نقاط:

ألف- لم تقل الآية: لا تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، و هذا الأسلوب فى النهى فضلا عمّا يحمله من تأكيد، فإنّه يوضح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغى تجنبها و عدم مقاربتها، فخيانة العين تعتبر واحدة من المقدمات، و السفور و التعرى مقدمة أخرى، الكتب السيئة و الأفلام الملوّثة و المجلات الفاسدة و مراكز الفساد كل واحدة منها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۴

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعنى خلوة المرأة و الرجل الأجنبى عليها فى مكان واحد و لوحدهما) يعتبر عاملا فى إثارة الشهوة.

و أخيرا فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعة أمام الطرفين، هى من العوامل التى قد تؤدى إلى الزنا.

و الآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، و لكنّا نرى فى الأحاديث و الرّوايات نهيا مفصلا عن كل واحدة من هذه المقدمات.

ب- إنّ جملة إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً بتأكيداتها الثلاثة المستفادة من «إن» و الفعل الماضى «كان» و كلمة «فاحشة» تكشف عن فظاعة هذا الذنب.

ج- إنّ جملة ساءَ سَبِيلًا توضح حقيقة أنّ هذا العمل «الزنا» يؤدى إلى مفاسد أخرى فى المجتمع.

فلسفة تحريم الزنا:

يمكن الإشارة إلى خمسة عوامل فى فلسفة تحريم الزنا، و هى:

۱- شياع حالة الفوضى فى النظام العائلى، و انقطاع العلاقة بين الأبناء و الآباء. هذه الرابطة التى تختص بكونها سببا للتعارف الاجتماعى، بل إنّها تكون سببا لصيانة الأبناء، و وضع أسس المحبّة الدائمة فى مراحل العمر المختلفة، و التى هى ضمانة الحفاظ على الأبناء.

إنّ العلاقات الاجتماعية القائمة فى أساس العلاقات العائلية ستتعرض للانهيار و التصدّع إذا شاع وجود الأبناء غير الشرعيين «أبناء الزنا»، و للمرء أن يتصوّر مصير الأبناء فيما إذا كانوا ثمرة للزنا، و مقدار العناء الذى يتحملونه فى حياتهم من لحظة الولادة و حتى الكبر.

و علاوة على ذلك، فإنّهم سيحرمون من الحبّ الأسرى الذى يعتبر عاملا فى الحدّ الجريمة من فى المجتمع الإسلامى، و حينئذ يتحول المجتمع الإنسانى بالزنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۵

إلى مجتمع حيوانى تغزوه الجريمة و القساوة من كل جانب.

۲- إنّ إشاعة الزنا فى جماعة ما، ستقود إلى سلسلة واسعة من الانحرافات أساسها التصرفات الفردية و الاجتماعية المنحرفة لذوى الشهوات الجامحة. و ما ذكر فى هذا الصدد من القصص عن الجرائم و الانحرافات المنبعثة عن مراكز الفحشاء و الزنا فى المجتمعات يوضح هذه الحقيقة، و هى أنّ الانحرافات الجنسية تقترن عادة بأبشع ألوان الجرائم و الجنايات.

۳- لقد أثبت العلم و دلّت التجارب على أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض و المآسى الصحية و كل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا أصلا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز فى المجتمعات المعاصرة، و نتائجها الصحية و النفسية المدمّرة).

۴- إنّ شياع الزنا غالبا ما يؤدى إلى محاولة إسقاط الجنين و قطع النسل، لأنّ مثل هؤلاء النساء «الزانيات» لا يرضين بتربية الأطفال، و عادة ما يكون الطفل عائقا كبيرا أمام الانطلاق فى ممارسة هذه الأعمال المنحرفة، لذلك فهن يحاولن إسقاط الجنين و قطع النسل.

أمّا النظرية التى تقول، بأنّ الدولة يمكنها- من خلال مؤسسات خاصّة- جمع الأولاد غير الشرعيين و تربيتهم و العناية بهم، فإنّ

التجارب أثبتت فشل هذه المؤسسات فى تأدية أهدافها، إذ هناك صعوبات التربية، و هناك النظرة الاجتماعية لهؤلاء، ثمّ هناك ضغوطات العزلة و الوحدة و فقدان محبّة الوالدين و عطفهما، كل هذه العوامل تؤدى إلى تحويل هذه الطبقة من الأولاد الى قساة و جناة و فاقدى الشخصية.

۵- يجب أن لا ننسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية و حسب، بل المشاركة فى تأسيس الحياة على أساس تحقيق الاستقرار الفكرى و الأنس الروحى للزوجين. و أمّا تربية الأبناء و التعامل مع قضايا الحياة، فهى آثار طبيعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۶

للزواج، و كل هذه الأمور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل و قطع دابر الزنا و أشكال المشاعية الجنسية.

فى حديث عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام يقول: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «فى الزنا ست خصال: ثلاث فى الدنيا و ثلاث فى الآخرة. فأمّا اللاتى فى الدنيا، فيذهب بنور الوجه، و يقطع الرزق، و يسرع الفناء. و أمّا اللّواتى فى الآخرة، فغضب الرب، و سوء الحساب، و الدخول فى النّار، أو الخلود فى النّار»[۳۰۳].

ثالثا: الحكم الآخر الذى تشير إليه الآية التى بعدها، هو احترام دماء البشر، و تحريم قتل النفس حيث تقول: وَ لا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ

إنّ احترام دماء البشر و حرمة قتل النفس تعتبر من المسائل المتفق عليها فى كل الشرائع السماوية و قوانين البشر، فقتل النفس المحترمة لدى الجميع من الذنوب الكبيرة، إلّا أنّ الإسلام أعطى أهمية استثنائية لهذه المسألة بحيث اعتبر من يقتل إنسانا فكأنّما قتل الناس جميعا، كما فى الآية (۳۲) من سورة المائدة مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً. بل نستفيد من بعض الآيات القرآنية أنّ جزاء قتل النفس بغير حق هو الخلود فى النّار، و أنّ هؤلاء الذين يتورطون فى دم الأبرياء يخرجون عن ربقة الإيمان، و لا يمكن أن يخرجوا من هذه الدنيا مؤمنين: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها[۳۰۴]. و حتى فى الإسلام فإنّ الذين يشهرون السلاح بوجه الناس ينطبق عليهم عنوان «محارب» و هذا الصنف له عقوبات شديدة مفصّلة فى المصنفات الفقهية، و قد أشرنا إلى بعضها أثناء الحديث عن الآية (۳۳) من سورة المائدة.

إنّ الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل و إراقة الدماء؟! و هنا نستطيع أن نقول- باطمئنان-: إننا لا نرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۷

أىّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفى معها احترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إنزال العقوبة به، لذلك فإنّ الآية بعد أن تثبت حرمة الدم كأصل، تشير للاستثناء بالقول: إِلَّا بِالْحَقِ

و

فى حديث معروف عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّ محمدا رسول اللّه إلّا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، و الزانى المحصن، و التارك لدينه المفارق للجماعة»[۳۰۵].

أمّا القاتل فتكون نهايته معلومة بالقصاص، الذى يؤمّن استمرار الحياة و استقرارها. و إذا لم يعط الحق لأولياء دم المقتول بالقصاص من القاتل، فإنّ القتلة سيتجرءون على المزيد من القتل و الإخلال بالأمن الاجتماعى.

أمّا الزانى المحصن، فإنّ قتله فى قبال واحد من أعظم الذنوب قباحة، و هو يساوى سفك الدم الحرام فى المرتبة.

أمّا قتل المرتد فيمنع الفوضى و الإخلال فى المجتمع الإسلامى، و هذا الحكم- كما أشرنا سابقا- هو حكم سياسى، لأجل حفظ النظام الاجتماعى فى قبال الأخطار التى تهدّد كيان النظام الإسلامى و وحدة أمنه الاجتماعى، و الإسلام- عادة- لا يفرض على أحد قبول الانتماء إليه، و لكن إذا اقتنع أحد بالإسلام و اعتنقه، و أصبح جزاء من المجتمع الإسلامى، و اطلع على أسرار المسلمين، ثمّ أراد بعد

ذلك الارتداد عن الإسلام ممّا يؤدى عملا الى تضعيف و ضرب قواعد المجتمع الإسلامى، فإن حكمه سيكون القتل ۳۰۶] بالشرائط المذكورة فى الكتب الفقهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۸

إنّ حرمة دم الإنسان فى الإسلام لا تختص بالمسلمين و حسب، بل تشمل غير المسلمين أيضا من غير المحاربين، و الذين يعيشون مع المسلمين عيشة مسالمة، فإنّ دماءهم- أيضا- و أعراضهم و أرواحهم مصونة و يحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتيل فتقول:

وَ مَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنا لِوَلِيِّهِ سُلْطاناً. و لكن فى نفس الوقت ينبغى لولى المقتول أن يلتزم حد الاعتدال و لا يسرف فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً إذا ما دام ولى الدم يتحرك فى الحدود الشرعية فإنّه سيكون موردا لنصرة اللّه تعالى.

و النهى عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائدا فى الجاهلية، و اليوم أيضا يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يقتل فرد من قبيلة معينة، فإنّها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم. كأن يكون المقتول شخصا معروفا و ذا منزلة اجتماعية. فإنّ أهله وفق الأعراف الجاهلية، سوف لن يكتفوا بحدّ القصاص الشرعى، بل يقتلون فردا معروفا و مكافئا فى منزلته الاجتماعية للمقتول من قبيلة القاتل، حتى و إن لم يكن له أى دور فى عملية القتل.[۳۰۷].

و عصرنا الحاضر، شهد من التجاوز فى الإسراف و هدر دماء الأبرياء ما غسل معه عار أهل الجاهلية، فهذه إسرائيل اليوم تقوم بحجة قتل أحد جنودها بإلقاء القنابل و الصواريخ على رؤوس النساء و الأطفال الفلسطنيين الأبرياء، و تعمد إلى هدم ديارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۶۹

كذلك شهدت سنوات الحرب الظالمة التى شنّها النظام البعثى على الجمهورية الإسلامية أسواء أنواع العدوان على دماء الأبرياء و الإسراف فى القتل.

إنّ رعاية العدالة- حتى فى عقاب القاتل- تعتبر مهمّة إسلاميا، لذلك نقرأ فى وصية الإمام على عليه السّلام، بعد أن اغتاله عبد الرحمن بن ملجم المرادى

قوله: «يا بنى عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا تقتلن بى إلّا قاتلى، انظروا إذا أنا مت من ضربته هذه، فاضربوه، ضربة بضربة، و لا تمثلوا بالرجل»[۳۰۸].

رابعا: الآية التى بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، و الملاحظ أنّ الآية استخدمت نفس أسلوب الآية التى سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم و حسب، و إنّما قالت: وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ

و فى هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. و لكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يهدر و يكون عرضة للحوادث بدون أن يكون عليه قيّم، لذلك استثنت بقوله: إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ و بناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، و تنميتها و تكثيرها. و هذا الوضع يستمر الى أن يبلغ اليتيم سنّ الرشد و يستطيع فكريا و اقتصاديا أن يكون قيما على نفسه و أمواله حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ

«أشدّ» مأخوذة من «شدّ» على وزن «جدّ» و هى بمعنى «العقدة المحكمة» ثمّ توسع المعنى فيما بعد ليشمل أى نوع من القوة الروحية و الجسمية. و المقصود من كلمة «أشد» فى الآية هو الوصول إلى مرحلة البلوغ. و لكن ليس البلوغ الجسمى و حسب، و إنّما الرشد الفكرى و القدرة الاقتصادية التى تؤهل اليتيم لأن يحفظ أمواله. اختيار كلمة «أشد» فى الآية هو لتحقيق كل هذه المعانى مجتمعة، و التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۰

يمكن اختيارها بالتجربة.

الأيتام ظاهرة طبيعية فى أى مجتمع، و وجودهم يكون تبعا لحوادث مختلفة يمر بها المجتمع، و الدوافع الإنسانية تفرض رعاية هؤلاء اليتامى من قبل الخيّرين و المحسنين فى المجتمع، و الإسلام يحث على رعاية الأيتام، و قد تحدثنا عن هذا الأمر مفصلا فى الآية (۲) من سورة النساء.

و الشىء الذى نريد أن نضيفه هنا هو أن بعض الرّوايات و الأحاديث الإسلامية وسّعت فى مفهوم اليتيم ليشمل الأفراد الذين انقطعوا عن إمامهم و قائدهم، و لا يصل صوت الحق إليهم. و هذا المعنى نوع من التوسع فى المفهوم و استفادة معنوية من حكم مادى.

خامسا: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فتقول: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلًا. إنّ الكثير من العلاقات الاجتماعية و خطوط النظام الاقتصادى و المسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور و انهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعى و ستحل الفوضى، و لهذا السبب تؤكّد الآيات القرآنية- بقوّة- على قضية الوفاء بالعهود.

«العهد» له معان واسعة، فهو يشمل العهود و المواثيق الخاصة بين الأفراد فى القضايا الاقتصادية و المعاشية، و فى العمل و الزواج، و هو يشمل أيضا المواثيق و المعاهدات بين الحكومات و الشعوب، و فوق ذلك فإنّ العهد يشير إلى ميثاق الأمم مع اللّه و رسوله و كتبه، و كذلك العكس، أى التزام هؤلاء بالعهد أمام الناس ۳۰۹].

سادسا: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل فى الوزن و الكيل و رعاية حقوق الناس فى ذلك و محاربة التطفيف فى الميزان حيث تقول الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۱

الكريمة: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ، وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ، ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا.

***

ملاحظات

۱- أضرار التطفيف فى الكيل:

أوّل ملاحظة ينبغى الانتباه إليها هنا، هى أنّ القرآن الكريم أكدّ مرارا على ضرورة الوزن للناس بالقسطاس، و حذّر من البخس و التطفيف فى الميزان حتى أنّه اعتبر ذلك فى موضع، مرادفا لنظام الخلق فى عالم الوجود، حيث نقرأ فى الآيتين (۷، ۸) من سورة الرحمن، قوله تعالى: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ و الآية تشير إلى أنّ مسألة بخس الناس و التطفيف فى الميزان ليست مسألة صغيرة، بل هى كبيرة و تدخل فى صميم أصول العدالة و النظام المهيمن على عالم الوجود برمته.

فى مكان آخر، و بأسلوب أكثر قوّة، يهدّد القرآن المطففين، بقوله، كما فى سورة المطففين (۱- ۴): وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ، أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

بعض الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى القرآن كانوا يحاربون التطفيف بعد الشرك مباشرة، كما حصل لشعيب مع قومه، و لمّا لم يلتفتوا إلى تعليمات نبيّهم نالهم العذاب الأليم. (تراجع القصة فى نهاية آية ۸۵ من سورة آل عمران).

و عادة، فإنّ الحق و العدل و النظام و الحساب، كل هذه الأمور تعتبر أصولا أساسية للحياة، بل و تدخل فى نظام الوجود و الخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل- خصوصا بالنسبة لبخس الكيل و التطفيف فى الميزان- يؤدى إلى إنزال ضربة شديدة بالثقة التى تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادى بين الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۲

و مع الأسف فإنّنا نرى- فى بعض الأحيان- أنّ غير المسلمين، و لأغراض كسب الثقة بأنفسهم و تجارتهم، يلتزمون بشكل دقيق بالمواصفات و الأرقام المتفق عليها، بينما يتجاوز بعض المسلمين هذه الحدود! و هذه إشارة على أنّ طريق الدنيا أيضا يمر من خلال عدم الخيانة و الغش.

و ينبغى أن يلاحظ هنا أنّ هؤلاء الذين يخلّون بالميزان و يطففون الكيل مسئولون أمام المشترى مسئولية حقوقية، لذلك فإنّ توبتهم لا تتم إلّا برد الحقوق المغصوبة إلى أهلها، و إذا تعذّر عليهم ذلك، فينبغى لهم إعطاء ما يساويها إلى الفقراء و المحتاجين بعنوان رد مظالم عن الأصحاب الحقيقيين.

۲- ما هو حكم التطفيف و بخس الكيل؟

الجدير بالملاحظة أن حكم التطفيف و بخس الكيل، قد يعمّم بحيث يشمل كل أشكال التقصير المتعمد فى الأعمال و الوظائف المختلفة، فمن التطفيف من لا ينجز عمله كاملا، و المعلم الذى لا يدرّس بشكل جيد، و الموظف الذى لا يلتزم بأوقات عمله و هو غير حريص عليه. و لكن الألفاظ المستخدمة فى هذه الآية لا تفيد معنى هذا التعميم، فهى من التوسعة العقلية إلّا أنّ قوله تعالى: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ يشير إلى هذا التعميم.

۳- ما هو معنى «قسطاس»؟

«قسطاس» بكسر القاف أو ضمها على وزن «مقياس» و أحيانا تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» و البعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنّها كلمة عربية. و هناك من يقول بأنّها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفة الميزان.

أمّا البعض الآخر فيقول بأنّ كلمة «قسطاس» تطلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۳

على الميزان الكبير، بينما كلمة «ميزان» تطلق على الموازين الصغيرة[۳۱۰].

و فى كل الأحوال، فإنّ (القسطاس المستقيم) تعنى الميزان الصحيح و السالم و العادل بدون نقيصة أو زيادة.

و الطريف هو أنّ هناك رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام، تفسر هذه الكلمة بقوله:

«هو الميزان الذى له لسان»[۳۱۱].

و ذلك لأنّه مع عدم وجود اللسان لا يستطيع الميزان أن يوضح حركة الكفتين بشكل دقيق، أمّا مع وجوده فإنّ أقل حركة للكفتين تنعكس على اللسان، و بهذا الشكل يمكن رعاية العدل كاملا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا (۳۶) وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ

الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً (۳۷) كُلُّ ذلِكَ كانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (۳۸) ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتُلْقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً (۳۹) أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً (۴۰)

التّفسير

الانقياد للعلم:

فى الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الأصول و الأحكام الإسلامية التى بدأت بالتوحيد بوصفه أساس هذه التعاليم، و انتهت بالأحكام التى تشمل الحياة الفردية و الجماعية للإنسان.

و فى الآيات التى نبحثها الآن نلتقى مع آخر مجموعة من سلسلة هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۵

الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه الى عدّة احكام مهمّة:

أوّلا: فى البداية ينبغى للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة فى كل الأمور و يجعل العلم رائده وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فى شؤونك الشخصية و فى القضاوة بين الناس، و فى إعطاء الشهادة، و حتى فى الأعمال الشخصية ليكن رائدك الدائم هو العلم دون غيره.

و على هذا الأساس يكون مورد الآية شاملا لمعان واسعة، و لا دليل على ما يذهب إليه بعض المفسّرين من تقييد المعنى ببعض ما ورد أعلاه من الموارد و الذى يؤيد ذلك أن لا تَقْفُ مأخوذة من «قفو» على وزن «عفو» و هى تعنى متابعة شىء ما، و من المعلوم أنّ الأمور التى نتابعها هى أمور لا تقف عند حد، لذلك فإنّ النهى الوارد فى الآية يشملها جميعا.

بناء على ذلك، يتّضح أنّ (العلم و اليقين) هما أساس المعرفة فى كلّ شىء، و أن لا شىء من «الظن» أو «التخمين» أو «الشك» يسد مسد العلم و اليقين، و من يعتمد على ما دون العلم فإنّه بذلك يخالف القانون الإسلامى الصريح.

و بعبارة أخرى: لا الشائعة يمكن أن تكون مقياسا للقضاء و الشهادة و العمل، و لا القرائن الظنية، و لا الأخبار غير القطعية المشكوك فى مصادرها. و فى النهاية تعلّل الآية عدم اتباع ما دون العلم، فتقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا.

و السّؤال الذى تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسئولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسئول عن الكلام المشكوك غير الموثق، و البصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة و الرؤية مع أنّه لم يشاهد أو يرى، و الفؤاد يسأل عن الأفكار الخاطئة التى تدخل فى الأحكام الخاطئة. و إذا كان بعض المفسّرين يرى أنّ المسؤولية التى تتحدث عنها الآية تقع على عاتق صاحبها لا عليها- أى الأعضاء- بالذات، إلّا أنّ هناك الكثير من الآيات تصرّح بأنّ الأعضاء نفسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۶

تسأل يوم القيامة (مثل الآية ۲۱ من سورة فصّلت) و تجيب عمّا اقترفت. لذلك لا معنى لتوجيه المسؤولية فى الآية من الأعضاء المذكورة إلى صاحبها.

أمّا لما ذا أشارت الآية- من بين كل حواس الإنسان- إلى السمع و البصر بالذات؟ فسبب ذلك واضح، إذ أنّ معظم المعلومات الحسية للإنسان يكون مصدرها السمع و البصر.

درس فى استقرار النظام الاجتماعى:

الآيـة المـذكورة آنفا تشير إلى أحـد المبادى و الأصول المهمّـة فى الحياة الاجتماعية الذى لو طبّق فى المجتمع البشـرى بشـكل دقيق لأمكن اجتثاث جـذور الفساد من الشايعات و الأحكام القضائيـة المتسـرعة و الظنون العائمـة و الأكاذيب و أمثال ذلك، و فى غير هذه الصورة فإنّ حالـة من الفوضـى ستضـرب العلاقات الاجتماعيـة، إذ سوف لا يبقى أى شـخص بمنأى عن الشك و الريبـة، و بمأمن عن سوء الظن و ستنعدم الثقة بين الأفراد. و تكون مكانة الفرد فى المجتمع فى خطر دائم.

لذلك نرى الآيات و الأحاديث الإسلامية تؤكّد بكثرة على هذه الفكرة، و بين يدينا الآن ما يلى:

* الآية (۳۶) من سورة يونس تنتقـد بشـدة الأفراد الـذين يتبعون الظن و يجعلونه مقاسا لقناعاتهم وَ ما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

* أمّا الآية (۲۳) من النجم، فإنها اعتبرت الظن فى مرتبة إتباع هوى النفس إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ

* و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ: «إنّ من حقيقة الإيمان أن لا يجوز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۷

منطقك علمك»[۳۱۲].

* و

فى حديث عن الإمام موسـى بن جعفر عليه السّلام نقل عن آبائه عليهم السّلام، قوله: «ليس لك أن تتكلم بما شئت، لأنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۳۱۳].

* و

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إيّاكم و الظن فإنّ الظن أكذب الكذب»[۳۱۴].

* و

فى من لا يحضـره الفقيه: «قـال رجـل للصـادق عليه السّـلام: إنّ لى جيرانـا و لهم جوار يتغنين و يضـربن بالعود، فربما دخلت المخرج فأطيل الجلوس استماعا منّى لهن؟

قال له الصادق عليه السّلام: «تاللّه أنت! أما سمعت اللّه يقول: إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا فقال الرجل: كأنّى لم أسمع بهذه الآية من كتاب اللّه عزّ و جلّ من عربى و لا عجمى، و لا جرم أنى قد تركتها و أنا أستغفر اللّه تعالى»[۳۱۵].

و فى بعض المصادر الحديثيـة نقرأ أنّ الإمام الصادق عليه السّـلام أمر الرجل أن ينهض و يغسل غسل التوبـة، و أن يصـلّى ما اسـتطاع، لأنّه قد ارتكب عملا سـيئا لو قبض عليه لكانت مسـئولية عظيمة! من خلال مجموع هذه الآيات و الرّوايات تتّضح مدى المسؤولية التى تقع على العين و الأذن، و كيف أنّ الإسـلام ينهى عن أن يقول الإنسان ما لم يسـمع، أو ما لا يقوم على العلم، أو يتحدث عن أشياء لم يرها، إذا العلم وحـده هو الميزان دون إتباع الظن و الوهم و الحـدس أو الاعتماد على الشك و الإشاعـة، لأنّ سبيل الاعتماد على هـذه المصادر يؤدى إلى آثار خطرة على حياة الفرد و المجتمع، هذه الآثار يمكن أن نلخصها كما يلى:

۱- إنّ اعتماد ما هو دون العلم، يؤدى إلى هضم حقوق الأفراد و إعطاء الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۸

لغير صاحبه.

۲- الاعتماد على الظن و ما شابهه يؤدى إلى تعريض كرامة الإنسان المؤمن للخطر، و يقلّل أيضا من حماس و اندفاع المخلصين.

۳- اعتماد ما هو دون العلم، يؤدى إلى انتشار الشائعات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۸ ؛ ص۴۷۸

اعتماد الظن و غیره یقضی علی ملاکات الدقة و البحث و التحقیق عند الإنسان و یجعله ساذجا سریع التصدیق.

۵- إنّ الاعتماد علی غیر العلم ینقض العلائق الودیة الحمیمة القائمة بین الناس فی البیت و السوق و محل العمل، و یجعل بعضهم یسیء الظن بالبعض الآخر.

۶- اعتماد غیر العلم یفسد فی الإنسان قابلیة الاستقلال الفکری و یجعله عرضة للأفکار الفاسدة.

۷- إنّ اعتماد غیر العالم یکون قاعدة للتعجّل فی انتخاب الأشیاء و الحکم علی الأشخاص ممّا یسبّب الندامة و الفشل فیما بعد.

الأوهام و سبل مکافحتها

السؤال الذی یرد هنا، هو کیف نصون أنفسنا و مجتمعنا من الانجرار إلی هذه العادة الخاطئة (إتباع الظن) ذات العواقب الوخیمة؟

و الجواب علی السؤال یحتاج إلی بحث طویل، و لکنّا لانعدم ثلاث إشارات سریعة هی:

ألف- یجب أن ننبّه الناس إلی العواقب الخطیرة لاتباع الظن دون العلم، و نحذّرهم من مغبة النتائج الوخیمة لذلک.

ب- یجب تکریس طریقة التفکیر الإسلامی، و جعلها حیّة فی حیاة الإنسان، هذه الطریقة التی یؤکّد علی أنّ الإنسان مراقب دوما من قبل اللّه تعالی، إذ هو سمیع و بصیر، و خبیر بالنوایا و البواطن، إذا جاء فی الآیة (۱۹) من غافر قوله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۷۹

تعالی: یَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْیُنِ وَ ما تُخْفِی الصُّدُورُ.

ج- ینبغی ترشید المستوی الفکری و الثقافی فی حیاة الإنسان المسلم لأنّ إتباع غیر العلم هو سمة یختص بها الجهلاء الذین ما إن یستمعوا إلی إشاعة معینة حتی یصدّقوا بها، و یجعلوا منها قاعدة للحکم علی القضایا و مقیاسا لآرائهم.

ثانیا: الکبر و الغرور:

الآیة التی بعدها تدعو إلی محاربة الکبر و الغرور، و بتعبیر واضح و لطیف تنهی المؤمنین عن هاتین الصفتین حیث تخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالقول: وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً[۳۱۶]. لما ذا؟ إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. و هذه إشارة إلی سلوک المتکبرین و المغرورین الذی یضربون الأرض بعنف أثناء مشیهم لکی یلتفت الناس إلیهم، و یرفعون رؤوسهم فی السماء علامة علی أفضلیتهم المزعومة بین الناس، لهؤلاء تقول الآیة: إِنَّکَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا. إذ مثل هؤلاء کالنملة التی تمشی علی صخرة کبیرة و تضرب برجلها علیها، إلّا أن الصخرة تسخر من حماقتها. ثمّ أنت أیّها المتکبر هل تستطیع- مهما رفعت رأسک فی السماء- أن تکون مثل الجبال علوا، إنّک مهما تفعل لا ترتفع سوی سنتیمترات قلیلة، و حتی هذه الجبال لن تکون شیئا إزاء الکرة الأرضیة، و الکرة الأرضیة تعتبر ذرّة سابحة فی عالم الوجود! إذن فما هذا الکبر و الغرور الموجود عندک أیّها الإنسان؟!

الظریف فی الأمر، أنّ القرآن لم یبحث مباشرة هذه الصفات الداخلیة الخطرة فی ترکیب الإنسان و وجوده (أی التکبر و الغرور) و إنّما أشار إلیها من خلال آثارها و الظواهر السلوکیة التی تنتج عنها، حیث تحدّث القرآن عن مشیة المتکبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۰

و المغرور، و هذه إشارة إلی أنّ التکبر و الغرور، حتی فی أهون الصور و أقل الحالات، یعتبر مذموما مخجلا مهما کانت آثاره جزئیة و صغیرة.

و فی الآیة- أیضا- إشارة إلی أنّ الصفات الداخلیة- الباطنیة- للإنسان تظهر- شاء أم أبی- من خلال الأعمال و التصرفات، من خلال المشی مثلا، أو النظر أو الکلام و أمثال ذلک. لهذا السبب ینبغی علینا إذا ما واجهتنا أدنی ظاهرة أو أثر لهذه الصفات، أن نعرف أنّ الخطر أصبح قریبا، و أنّ هذه الصفة المذمومة (التکبر و الغرور) قد عششت فی روحنا و یجب علینا مجاهدتها فورا.

و یمکن أن نفهم من خلال هذه الآیة، و ما ذکر فی القرآن الکریم (و من خلال سورة لقمان و سور أخری) أنّ التکبر و الغرور مرفوضان بشکل عام. لماذا؟ لأنّ الغرور هو مصدر الغربة عن اللّه و عن النفس السلیمة، و هو سبب الخطأ فی الحکم و القضاء، و سبیل ضیاع الحق و الارتباط بخط الشیطان و التلوث بأنواع الذنوب.

فالإمام علی علیه السّلام یقول فی صفات المتقین فی حدیثه إلی «همام»:

«و مشیهم التواضع»[۳۱۷].

و المقصود بالمشی هنا لیس التجوال فی السوق و الشارع، و إنّما هی کنایة عن أسلوب المشی و التعامل فی جمیع الأمور الحیاتیة، بما فی ذلک خطوطهم الفکریة إذ هم متواضعون فی تفکیرهم.

البرنامج الحیاتی العملی لقادة الإسلام یعتبر درسا مفیدا لکل مسلم حقیقی فی هذا المجال. ففی سیرة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نری أنّه لم یکن یسمح لأحد أن یمشی بین یدیه و هو راکب، بل کان یقول: اذهب أنت إلی المکان الفلانی و أنا سآتیک إلی نفس المکان، حیث أنّ المشی بین یدی الراکب یؤدی إلی غرور الراکب و ذلة الماشی.

و نقرأ- أیضا- أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یجلس علی التراب تواضعا، و یأکل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۱

الطعام کما یأکله العبید، و کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحلب الماعز بنفسه، و یرکب الدابة دون غطاء.

و قد کان الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یلتزم هذا السلوک فی کل مواقفه حتی عند فتح مکّة، حتی لا یفکر الناس بأنّهم إذا وصلوا إلی منصب مهم، أو أحرزوا إنجازا ما، فإنّ ذلک مدعاة لهم بأن یصابوا بالتکبر و الغرور و یکونوا بالتالی بعیدین و غرباء عن الناس و المستضعفین.

و فی سیرة الإمام علی علیه السّلام، نقرأ أنّه کان یجلب الماء إلی البیت، و فی بعض الأحیان کان ینظّف البیت.

أمّا فی سیرة الإمام الحسن علیه السّلام، فنقرأ أنّه علیه السّلام، حجّ إلی بیت اللّه عشرین مرّة مشیا علی الأقدام، و النجائب (المحامل و الدواب) تقاد بین یدیه، و کان علیه السّلام یبیّن أن هذا العمل تواضع للّه تعالی ۳۱۸].

أمّا الآیة التی بعدها فهی تؤکّد علی ما تمّ تحریمه فی الآیات السابقة کالشرک و قتل النفس و الزنا و قتل الأولاد و التصرف فی مال الیتیم و إیذاء الوالدین و ما شابه ذلک، حیث تقول الآیة: کُلُّ ذلِکَ کانَ سَیِّئُهُ عِنْدَ رَبِّکَ مَکْرُوهاً[۳۱۹].

و من هذا التعبیر یتّضح أنّ اللّه سبحانه و تعالی لیس فقط لا یجبر الإنسان علی الذنب، و إنّما لا یرید له (بمعنی لا یرغب و لا یوّد) أن یرتکب الذنب أیضا، و إلّا لو کان الأمر کما یقول أصحاب مذهب الجبر، لما أکّد اللّه سبحانه و تعالی علی کراهیة هذه الذنوب.

و یتّضح من التعبیر- أیضا- أنّ القرآن استخدم کلمة «مکروه» اتجاه أعظم الذنوب و أکبرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۲

ثالثا: لا تکن مشرکا:

من أجل التأکید أکثر علی أنّ کل هذه التعلیمات إنّما تصدر من الوحی و تتسم بالحکمة، تقول الآیة: ذلِکَ مِمَّا أَوْحی إِلَیْکَ رَبُّکَ مِنَ الْحِکْمَةِ.

إنّ استخدام كلمة «الحكمة» هى إشارة إلى أنّ هذه التعاليم و النواهى برغم كونها وحيا سماويا إلهيا، إلّا أنّها فى نفس الوقت يمكن إدراكها بميزان العقل.

و إلّا فمن يستطيع أن ينكر- عقلا- قباحة الشرك أو القتل أو إيذاء الوالدين أو قبح الزنا و التكبر و الغرور، و ظلم اليتامى و العواقب السيئة لنقض العهود و ما إلى ذلك؟

بتعبير آخر، إنّ هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هى ثابتة عن طريق الوحى الإلهى. و عادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أنّ الإنسان لا يستطيع فى كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، و يبقى بعد ذلك الوحى هو المجال الوحيد لمصداقية دركها و الإيمان بها.

بعض المفسّرين استفادوا من كلمة «حكمة» على أساس أنّ الأحكام المتعدّدة فى الآيات السابقة تعتبر من الأحكام الثابتة التى لا تقبل النسخ فى جميع الأديان السماوية، إذ لا يمكن- فى أى شريعة إلهية- اعتبار الشرك و قتل النفس و الزنا و نقض العهود أمورا جائزة. لذلك فإنّ هذه الأحكام تعتبر من المحكمات و القوانين الثابتة.

بعد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التى انطلق منها، حيث يقول تعالى: وَ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ. لما ذا؟ لأنّ المصير سيكون فَتُلْقى فِى جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً.

و فى الحقيقة: إنّ الشرك هو أساس جميع الانحرافات و الجرائم و الذنوب، لذلك فإنّ هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك و انتهت به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۳

بنات اللّه!!

آخر آية- من الآيات التى نبحثها- تشير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأنّ الملائكة هم بنات اللّه، فى حين أنّهم كانوا يعتبرون البنت عارا و شنارا، و ولادتها فى بيت يؤدى إلى سوء الحظ. القرآن يساير هذا المنطق فيقول لهم: أَ فَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِناثاً.

إنّ البنات- بدون شك- كالبنين، هم عطايا الإله و مواهبه، و لا يوجد أى تفاوت بينهم فى القيمة الإنسانية. و عادة لا يمكن الحفاظ على الأصل البشرى من دونهما معا، لذلك فإن تحقير البنات تعتبر عادة جاهلية كانت تعيشها تلك المجتمعات، كما أشرنا إلى ذلك سابقا[۳۲۰]. و لكن هدف القرآن هو مقابلهم بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربّكم ما تحسبوه عارا لكم؟! بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً إذ هذا الكلام لا يتلاءم مع أى منطق و يعتبر ضعيفا من عدّة جهات، هى:

۱- إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدّس، لأنّه سبحانه و تعالى ليس بجسم، و ليست فيه الصفات الجسمانية، و لا يحتاج فى بقائه إلى النسل. لذا فالاعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

۲- كيف تعتقدون بأنّ أولاد اللّه كلّهم بنات، فى حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانة و احتراما من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفيه يعتبر إهانة أخرى ألى مقام اللّه تبارك و تعالى.

۳- هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة اللّه الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرّد سماع كلمة «بنت»، فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثا؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۸، ص: ۴۸۴

من الالتفات إلى هذه الأمور يتّضح أنّ هذا الكلام يعتبر انحرافا عظيما و كبيرا .. إنّه كبير من حيث الانحراف عن الحقائق و كبير من

حیث استحقاق صاحبه العقاب العظیم، و هو أیضا کبیر قیاسا لأعراف أهل الجاهلیة و عاداتهم، هذه العادات التی کانت تقوم علی أساس تحقیر البنات.

أمّا لما ذا یعتبر مشرکو العرب الملائکة إناثا؟ و لما ذا کان عرب الجاهلیة یئدون البنات أحیاء و یفزعون من مجرّد ذکرهن؟ .. ثمّ دور الإسلام فی إعادة بناء موقع المرأة داخل مجتمعهم، کل هذه الأمور بحثناها مفصلا أثناء الحدیث عن الآیات (۵۷- ۵۹) من سورة النحل. و ننصح هنا بالعودة لها مجددا. نهایة المجلد الثّامن

---

[۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۳، ص ۳۲۸، کذلک ورد الحدیث الأوّل فی تفسیر الثقلین عن تفسیر العیاشی، و أورد الفخر الرازی فی تفسیره حدیثا یشابه الحدیث الثّانی مع تفاوت یسیر، و ذکر فی تفسیر الطبری أیضا عدّة أحادیث فی مضمون الحدیث الثّانی ضمن تفسیر الآیة المذکورة.

[۲] (۱)- المصدر السّابق.

[۳] (۱)- مکاتیب الرّسول، ج ۱، ص ۱۱۲.

[۴] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ۳۰(أمل).

[۵] (۱)- نهج البلاغة، من الخطبة ۴۲.

[۶] (۱)- راجع سورة هود، ۸۱.

[۷] (۱)- راجع سورة الطلاق، الآیة العاشرة.

[۸] (۱)- تفسیر آلاء الرحمن، ۳۵.

[۹] (۱)- الصراع، لعبد اللّه علی القصیمی، ج ۲، ص ۲۳، علی ما نقل عنه العلّامة الأمینی فی الغدیر، ج ۳، ص ۳۰۰.

[۱۰] (۱)- منتخب کنز العمال، کما نقل عنه(البیان فی تفسیر القرآن)، ص ۲۶۰.

[۱۱] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۵۷.

[۱۲] (۱)- حدیث الثقلین من الأحادیث المتواترة، رواه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم جمع من الصحابة مثل: أبو سعید الخدری، زید بن أرقم، زید بن ثابت، أبو هریرة، حذیفة بن أسید، جابر بن عبد اللّه الأنصاری، عبد اللّه حنطب، عبد بن حمید، جبیر بن مطعم، ضمّرة الأسلمی، أبو ذر الغفاری، أبو رافع، أم سلمة و غیرهم.

[۱۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۴۱.

[۱۴] (۱)- تفسیر البرهان، ذیل الآیة(۱۰۶) من سورة آل عمران.

[۱۵] (۲)- أورد هذا الإحصاء مؤلف کتاب(البرهان المبین).

[۱۶] (۱)- التوبة، ۳۲.

[۱۷] (۱)- الحمل: مجموع شمسیة تظهر فی السماء علی هیئة الحمل تقریبا. و کذلک الثور و المیزان و غیرها.

[۱۸] (۱)- ضمیر« زیناها» یعود إلی« السماء» لأنّها مؤنث مجازی.

[۱۹] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۹۶.

[۲۰] (۲)- ذکر هذا التّفسیر الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، و کذلک الآلوسی فی(روح المعانی) بعد طرح الإشکالات المختلفة فی

الموضوع اعتمادا على علم الهيئة و الطبقات الفلكية القديم و أمثال ذلك. و أكثر العلماء فيه البيان من خلال الإجابة على تلك التساؤلات. و لا ضرورة لذكرها لما وصل إليه علم الفلك فى يومنا.

[۲۱] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۱۲۴(فى تفسير الآيات من سورة الصافات).

[۲۲] (۱)- تفسير الجواهر، ج ۸، ص ۱۱.

[۲۳] (۲)- تفسير الجواهر، ج ۱۸، ص ۱۰.

[۲۴] (۱)- القرآن على مر العصور، ع. نوفل.

[۲۵] (۱)- راجع تفسير البرهان، ج ۲، ص ۳۱۰.

[۲۶] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۹.

[۲۷] (۲)- الأنعام، ۹۷.

[۲۸] (۳)- نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۵۰.

[۲۹] (۴)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۵- تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۶۲۶.

[۳۰] (۱)- الوزن: معرفة قدر الشيء- مفردات الراغب.

[۳۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۶(يعود ضمير« فيما» بناء على هذا التّفسير إلى الجبال).

[۳۲] (۲)- سورة نوح، ۱۷.

[۳۳] (۱)- بناء على التّفسير الأوّل يكون الاسم الموصول« من» فى« من لستم له برازقين» عطفا على ضمير« لكم» و بناء على التّفسير الثّانى عطفا على« معايش»، و بعض المفسّرين اعترض على التّفسير الأوّل بأنّ الاسم الصريح المجرور لا يعطف على ضمير مجرور إلّا بإعادة ذكر حرف الجر، أىّ .. دخول اللام على« من» هنا واجبا، و ثمة اعتراض آخر يقول: كيف يطلق الاسم الموصول« من» على غير العاقل؟

و الاعتراضان مردودان، لأنّ عدم تكرار حرف الجر جار على لسان العرب، و كذا الحال بالنسبة لاستعمال« من» لغير العاقل.

بل التّفسير الثّانى يواجهه ما لسعة المفهوم« للمعايش»، حيث يشمل جميع وسائل الحياة حتى الحيوانات الداجنة و ما شابهها .. و على هذا الأساس رجحنا التّفسير الأوّل.

[۳۴] (۲)- تفسير نور الثّقلين، ج ۳، ص ۶.

[۳۵] (۳)- الشورى، ۲۷.

[۳۶] (۱)- الميزان، ج ۱۲، ص ۱۴۲.

[۳۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۳، الحديث ۴۵.

[۳۸] (۱)- نهج البلاغة، من الخطبة ۱۹۲.

[۳۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

[۴۰] (۲)- الخصال للشيخ الصدوق- باب الثمانية.

[۴۱] (۱)- الداروينية، تأليف محمود بهزاد، الصفحة ۷۵ و ۷۶.

[۴۲] (۱)- و هناك احتمال آخر و هو: أن اصطفاء آدم من بين أولاده بعد أن مرت عليهم مدة ليست بالطويلة فتشكل من بينهم مجتمع صغير.

[۴۳] (۱)- سورة الحج، ۵.

[۴۴] (۱)- الغل: فى الأصل بمعنى النفوذ الخفى للشيء، و لهذا يطلق على الحسد و الحقد و العداوة التى تنفذ بخفاء فى نفس

الإنسان، فالغل مفهوم واسع یشمل الکثیر من الصفات الأخلاقیة القبیحة.

[۴۵] (۲)- السرر: جمع سریر، و هی المقاعد التی یجلسون علیها فی جلسات سمرهم.(علما بأن کلا من سرر و سریر من مادة واحدة).

[۴۶] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۱۹، ص ۱۹۳.

[۴۷] (۱)- إنّ الآیات مورد البحث لم تذکر هذا التفصیل فی تهیئة الطعام و عدم مد أیدیهم إلیه، إلّا أنّ ذلک ورد فی الآیة(۶۹) و(۷۰) من سورة هود فلیراجع.

[۴۸] (۱)- یذکر بعض المفسّرین أن عمر إبراهیم علیه السلام عند ولادة ابنه إسماعیل کان(۹۹) عاما، و عند ولادة إسحاق کان عمره(۱۱۲) عاما.

[۴۹] (۱)- نری فی هذه الآیات أن لوطا یطلب من قومه أن لا یفضحوه تارة و ألّا یخزوه تارة أخری، الفضیحة لغة بمعنی:

انکشاف شیء، و ظهور العیب أیضا(و أراد لوط أنّه یفهمهم بأن عملکم القبیح هذا سیخجلنی أمام ضیوفی و یعرفوا مدی خباثة أهل مدینتی).

أمّا الخزی: فهو بمعنی الإبعاد و کذلک بمعنی الخجل(و أراد لوط أن یقول لهم: لا تخجلونی أمام ضیوفی و تباعدوا بینی و بینهم).

[۵۰] (۱)- متوسم: من مادة(وسم)- علی وزن رسم- أی ترک أثرا، و یقال لمن یخلص من أثر صغیر إلی نتائج و حقائق کبیره(متوسم).

[۵۱] (۱)- سورة القمر، ۳۴.

[۵۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۲، ص ۳۵۸.

[۵۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۳.

[۵۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۸۲.

[۵۷] (۱)- إنّ کلمة« إنّ» فی هذه الآیة لیست شرطیة و إنّما هی مخففة، فیکون تقدیر الکلام(إنه کان أصحاب الأیکة لضالمین).

[۵۸] (۱)- أعلام القرآن، الخزائلی، الصفحة ۲۹۲.

[۵۹] (۱)- یقول الفیروزآبادی، فی القاموس، ج ۱، ص ۲۴۲: الصفح: الجانب، و من الجبل مضطجعه، و منک جنبک، و من الوجه و السیف عرضه.

[۶۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۷.

[۶۱] (۲)- المصدر السّابق.

[۶۲] (۱)- و

\i'i فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم\:E« إنّ اللّه عزّ و جلّ قال: قسّمت الصلاة بینی و بین عبدی نصفین، نصفها لی و نصفها لعبدی\»i مجمع البیان، ج ۱، ص ۱۷، و راجع کذلک تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۸ و ۲۹\.E\E

[۶۳] (۱)- أزواجا: مفعول(متعنا). و منهم: جار و مجرور متعلق بفعل مقدر. فیکون المعنی إجمالا: مجموعات مختلفة من الکفار.

[۶۴] (۱)- عضین:(جمع عضة) أی التفریق، و یقال لکل جزء ممّا قسم عضین أیضا.

[۶۵] (۱)- تفسیر الصافی، فی تفسیر الآیات مورد البحث.

[۶۶] (۱)- نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة ۲۷.

[۶۷] (۱)- لمزید من الإیضاح، راجع ذیل تفسیر الآیة(۷) من سورة الأعراف.

[۶۸] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۲.

[۶۹] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۲، ص ۱۹۹.

[۷۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۶، ص ۳۲۷.

[۷۱] (۱)-« من» فی عبارة« من أمره» جاءت بمعنی« ب» السببیة.

[۷۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۹.

[۷۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۴، ص ۱۳۰، ورد ذکر النجعة(فی هذا الحدیث) إضافة إلی الشاة و البقرة، و هی فی اللغة: البقر الوحشی و الأغنام الجبلیة و أنثی الغنم.

[۷۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۴، ص ۱۲۹.

[۷۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۱۹.

[۷۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۳۰۴.

[۷۷] (۳)- بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۲۰.

[۷۸] (۴)- وسائل الشیعة، ج ۱۳، ص ۱۹۴.

[۷۹] (۱)- ذکر بعض کبار المفسّرین کالعلّامة الطباطبائی فی المیزان أن« القصد» بمعنی(القاصد) فی قبال« الجائر» أی المنحرف عن الحق.

[۸۰] (۱)- ضمیر« منها» یعود إلی السبیل. و السبیل مؤنث مجازی.

[۸۱] (۱)- البحار: ۶۶/ ۱۸۳.

[۸۲] (۱)- أول جامعة و آخر نبی، الجزء السابع، و یختص هذا الجزء بشرح الخواص الغذائیة و الصحیة و العلاجیة للتمر و العنب و یطلع الإنسان من خلاله علی أهمیة هذین الغذائین.

[۸۳] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۲۴.

[۸۴] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۲۴ کذلک.

[۸۵] (۳)- أول جامعة و آخر نبی، الجزء السابع.

[۸۶] (۴)- الإسلام طبیب بلا دواء.

[۸۷] (۱)- ابتدأت عبارة\i وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ E بواو العطف بما یستوجب تقدم المعطوف و هو هنا مقدرا، تقدیره« لتنتفعوا بها و لتبتغوا من فضله».

[۸۸] (۱)-i أَنْ تَمِیدَ بِکُمْ E علی تقدیر(لئلا تمید بکم) أو(کراهة أن تمید بکم).

[۸۹] (۱)- تعتبر هذه الآیة إحدی المعجزات العلمیة للقرآن الکریم، حیث ذکرت هذا الأمر و بما یحمل من ظواهر علمیة فی زمن لم یصل الإنسان لاکتشافه بعد.

و لأجل مزید من التوضیح راجع کتابنا(القرآن و آخر نبی)- فصل المعجزات العلمیة للقرآن.

[۹۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۵.

[۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۹۲] (۳)- المصدر السابق.

[۹۳] (۴)- المصدر السابق.

[۹۴] (۱)- إنّ حرف الفاء فی کلمة« فالذین» للتفریع کما هو معلوم، فیکون المراد: إنّ إنکار القیامة فرع لإنکار المبدأ.

[۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة القاصعة.

[۹۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۸ عن(روضة الکافی).

[۹۷] (۱)- یعتبرها البعض جمع الجمع، فالأساطیر جمع أسطار، و الأساطیر جمع سطر .. و یعتبرها البعض الآخر جمعا لیس له مفرد من جنسه .. إلّا أنّ المشهور ما ذکرناه أعلاه.

[۹۸] (۱)- تشاقون: من مادة الشقاق، بمعنی المخالفة و العداء، و أصلها من(شق، أی قطعه نصفین).

[۹۹] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۵۰.

[۱۰۰] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۱، ص ۴۳۶.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة مورد البحث.

[۱۰۲] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۱، ص ۴۳۷.

[۱۰۳] (۱)- صحیح مسلم، ج ۲، ص ۷۰۴(باب الحث علی الصدقة و لو بشق تمرة).

[۱۰۴] (۱)- خیرا: مفعول لفعل محذوف تقدیره(أنزل اللّه).

[۱۰۵] (۲)- أساطیر الأولین: خبر لمبتدأ محذوف، تقدیره(هذه أساطیر الأولین).

[۱۰۶] (۱)- و علی هذا، فلا داعی لتقدیر کلمة« جزاء» قبل« سیئات» فی الآیة.

[۱۰۷] (۱)- تقدیر هذه الجملة: لیقولوا لهم اعبدوا ..

[۱۰۸] (۱)- أصول الکافی، ج ۱، ص ۱۶۰(باب الجبر و القدر- الحدیث ۱۲).

[۱۰۹] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۱۰] (۱)- راجع الآیات:(۵۵) آل عمران،(۴۸) المائدة،(۱۶۴) الأنعام،(۹۲) النحل و(۶۹) الحج.

[۱۱۱] (۲)- عیون الأخبار، ج ۱، ص ۱۱۹.

[۱۱۲] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة ۴۱.

[۱۱۳] (۱)-« لنبوئنهم»: فی الأصل من(بوأ) بمعنی تساوی أجزاء مکان ما .. علی عکس« نبوء» علی وزن(مبدأ) بمعنی عدم تساوی أجزاء المکان. و علی هذا ف« بوّأت له مکانا» أی ساویت له مکانا، ثمّ بمعنی هیأته له.

[۱۱۴] (۲)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، فی تفسیر الآیة مورد البحث.

[۱۱۵] (۱)- أعطی المفسّرون احتمالات متعددة فی الفعل الذی تتعلق به عبارة\i بِالْبَیِّناتِ وَ الزُّبُرِ\E ... فقال بعضهم: إنّها متعلقة ب« لا- تعلمون» کما قلنا و هو ینسجم مع ظاهر الآیات، و بملاحظة أن الفعل(علم) یتعدی بالباء و بدونها، و قال بعض آخر: أنّها متعلقة بجملة تقدیرها« أرسلنا» و هی فی الأصل« أرسلناهم بالبینات و الزبر». و قال آخرون: إنّها متعلقة بجملة« و ما أرسلنا» فی الآیة السابقة، و قال غیرهم: إنّها متعلقة بجملة« نوحی إلیهم»، و الواضح أنّ جمیع الآراء المطروحة کل منها یحدد مفهوما معینا للآیة، و لکنّها فی المجموع العام فالتفاوت غیر کبیر فیما بینها.

[۱۱۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۵۵.

[۱۱۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۵۶.

[۱۱۸] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳ ص ۵۵ و ۵۶.

[۱۱۹] (۳)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۲۸- و المقصود من تفسیر الاثنی عشر، هو تفاسیر کل من: أبی یوسف، ابن حجر، مقاتل بن سلیمان، وکیع بن جراح، یوسف بن موسی، قتادة، حرب الطائی، السدی، مجاهد، مقاتل بن حیان، أبی صالح و محمد بن موسی

الشیرازی.

و

\i\i روی حدیث آخر عن جابر الجعفی فی تفسیر الآیة، فی کتاب الثعلبی أنّه قال\:E لما نزلت هذه الآیة قال علی علیه السّلام:« نحن أهل الذکر\»-E

راجع المصدر أعلاه-.

[۱۲۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۵۷.

[۱۲۱] (۱)- مع أنّ« التقلب» لغة، بمعنی التردد و الذهاب و المجیء، مطلقا و لکن فی هکذا موارد- کما قال أکثر المفسّرین و تأیید الرّوایات لذلک- بمعنی التردد فی طریق التجارة و کسب المال- فتأمل.

[۱۲۲] (۱)- داخر: فی الأصل من مادة(دخور) أی: التواضع.

[۱۲۳] (۱)- تفسیر القرطبی، ضمن تفسیر الآیة.

[۱۲۴] (۲)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۷، ص ۱۱۰.

[۱۲۵] (۱)- مجمع ذیل البیان، ذیل الآیة المبحوثة.

[۱۲۶] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۳۷۳.

[۱۲۷] (۱)- احتمل جمع من المفسّرین: أنّ« لیکفروا» غایة و نتیجة للشرک و الکفر الذی نسب إلیهم فی الآیة التی قبلها، فیکون المعنی أنّهم بعد إنجائهم من الضر ترکوا طریق التوحید و ساروا فی طریق الشرک لیکفروا بنعم اللّه و ینکرونها.

[۱۲۸] (۱)- ذکر المفسرون رأیین فی تفسیر« ما لا یعلمون» و ضمیرها:

الأول: أن ضمیر« لا یعلمون» یعود إلی المشرکین أی أن المشرکین یجعلون للأصنام نصیبا و هم لا یعلمون لها خیرا و شرا(و هذا ما انتخبناه من تفسیر).

و الثانی: إن الضمیر یعود إلی نفس الأصنام، أی یجعلون للأصنام نصیبا فی حین أنها لا تدرک، لا تعقل، لا تعلم! و التفسیر الثانی یظهر نوعا من التضاد بین عبارات الآیة، لأن« ما» تستعمل عادة لغیر العاقل و« یعلمون» تستعمل للعاقل عادة.

أما فی التفسیر الأول ف« ما» تعود علی الأصنام و« یعلمون» علی عبدتها.

[۱۲۹] (۲)- الکظیم: تطلق علی الإنسان الممتلئ غضبا.

[۱۳۰] (۱)- سورة التکویر، ۹.

[۱۳۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۰، ص ۵۵.

[۱۳۲] (۱)- القرآن یواکب الدهر، ج ۲، ص ۳۱۴(مضمونا).

[۱۳۳] (۲)- الجاهلیة و الإسلام، ص ۶۳۲.

[۱۳۴] (۳)- قاموس الرجال، ج ۵، ص ۱۲۵(مضمونا).

[۱۳۵] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۵ ص ۱۰۲.

[۱۳۶] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۵، ص ۱۰۰.

[۱۳۷] (۱)- مکارم الأخلاق، ص ۵۴.

[۱۳۸] (۲)- و من جمیل الصدف أن کتب هذا البحث فی الیوم العشرین من جمادی الثّانیة سنة ۱۴۰۱، و هو یوم ولادة فاطمة الزّهراء علیها السّلام.

[۱۳۹] (۱)- إن ضمیر« علیها» یعود إلی« الأرض» و إن لم یرد لها ذکر فی الآیات المتقدمة لوضوح الأمر، و نظائر ذلک کثیرة فی لغة

العرب.

[۱۴۰] (۱)- و لكن لازم هذا التّفسير وجود اختلاف فى ضمير\i أَعْمالَهُمْ E و ضمير\i وَلِيُّهُمُ E، فالأوّل يعود إلى الأمم السالفة، و الثّانى إلى المشركين فى صدر الإسلام. و يمكن حل هذا المشكل بتقدير جملة، و هى ان تقول: هؤلاء يتبعون الأمم الماضية.(فتأمل).

[۱۴۱] (۱)- مقتبس من كتابى: الكيمياء الحياتية و الطبية، و أوّل جامعة و آخر نبى، الجزء السادس.

[۱۴۲] (۱)- لزيادة التفصيل، يراجع كتاب أول جامعة و آخر نبى- الجزء السادس.

[۱۴۳] (۱)- شرح اللمعة، كتاب النكاح، أحكام الأولاد و منها الرضاع.

[۱۴۴] (۱)- القصص، ۷.

[۱۴۵] (۱)- عرف لحد الآن(۴۵۰۰) نوعا من النحل الوحشى، و العجيب أنّها فى حال واحدة من حيث: الهجرة، بناء الخلايا، المكان، تناول رحيق الأزهار، أوّل جامعة، الجزء الخامس.

[۱۴۶] (۱)- أول جامعة، الجز الخامس، ص ۵۵.

[۱۴۷] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ۷۳، إلى ۷۵.

[۱۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۹] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۹۰.

[۱۵۰] (۱)- تلخيص من كتاب(النحل)، تأليف مترلينك.

[۱۵۱] (۲)- اعتمدنا فى بحثنا عن النحل و خواص العسل على جملة كتب منها: أوّل جامعة و آخر نبى، و النحل، تأليف مترلينك، و عجائب عالم الحيوانات.

[۱۵۲] (۱)-« أرذل»: من(رذل) بمعنى الحقارة و عدم المرغوبية، و المقصود من« أرذل العمر»: السنين المتقدمة جدّا من عمر الإنسان حيث الضعف و النسيان، و لا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، و لهذا سماها القرآن بأرذل العمر، و قد اعتبر بعض المفسّرين أنّها تبدأ من عمر(۷۵) عامّا، و بعض آخر من(۹۰) و آخرون اعتبروها من(۹۵) .. و الحق أنّها لا تحدد بعمر، و إنّما تختلف من شخص لآخر.

[۱۵۳] (۲)- عبارة\i لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً\E يمكن أن تكون غاية و نتيجة للسنين المتقدمة من حياة الإنسان، فيكون مفهومها أنّ دماغ الإنسان و أعصابه فى هذه السنين تفقد القدرة على التركيز و الحفظ فيسيطر على الإنسان النسيان و الغفلة. و يمكن أن يكون معناها العلّة، أى أنّ اللّه تعالى يوصل الإنسان إلى هذا العمر لكى يصاب بالنسيان، فيفهم الناس بأنّهم لا يملكون شيئا من أنفسهم.

[۱۵۴] (۱)- لقد بحثنا بشكل مفصل موضوع فلسفة الاختلاف فى الاستعدادات و الفوائد الناتجة عن ذلك فى ذيل الآية(۳۲) من سورة النساء- فيراجع.

[۱۵۵] (۱)- و فى هذه الحال يجب أن لا تكون« حفدة» معطوفة على« بنين» بل على« أزواجا»، و لكنّ هذا العطف خلاف الظاهر الذى يشير إلى عطفها على« بنين»- فتأمل.

[۱۵۶] (۱)- سورة النجم، ۳۹.

[۱۵۷] (۲)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۴۸.

[۱۵۸] (۳)- الوسائل ج ۱۲، ص ۴۳.

[۱۵۹] (۱)- الوسائل، ج ۱۲، ص ۵۰.

[۱۶۰] (۱)- من أدعية التعقيبات لصلاة العصر، كما فى كتب الدعاء.

[۱۶۱] (۲)- سورة هود، ۸۸.

[۱۶۲] (۳)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۳۷۹.

[۱۶۳] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۶۸.

[۱۶۴] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۶۸

[۱۶۵] (۱)- المثال المذکور عبارة عن تشبیه للمؤمن و الکافر(علی ضوء تفسیرنا)، إلّا أنّ جمعا من المفسّرین ذهب إلی أنّ العبد المملوک یرمز إلی الأصنام، و أنّ المؤمن الحر المنفق إشارة إلی اللّه سبحانه و تعالی(و یبدو لنا أنّ هذا التشبیه بعید).

[۱۶۶] (۲)- یقول الراغب فی مفرداته: الأبکم هو الذی یولد أخرس، فکل أبکم أخرس و لیس کل أخرس أبکم، و یقال: بکم عن الکلام، إذا أضعف عنه لضعف عقله فصار کالأبکم.

[۱۶۷] (۱)- لمح:(علی وزن مسح) بمعنی ظهور البرق، ثمّ جاءت بمعنی النظر السریع، و ینبغی الانتباه إلی أنّ« أو» هنا بمعنی(بل).

[۱۶۸] (۱)-« القوة الرافعة»: اصطلاح فیزیائی حدیث یستعمل فی حقل الطائرات، و خلاصته: أنّ الجسم إذا کان له سطحین متفاوتین بالاستواء(کجناح الطائرة حیث سطحه الأسفل مستویا و الأعلی محدبا) و تحرک أفقیا فستتولد فیه قوة خاصّة ترفعه إلی الأعلی، تنشأ من ضغط الهواء علی سطحه الأسفل و الذی یکون أکثر منه علی السطح الأعلی، لأنّ الأسفل مساحته أصغر، و السطح العلوی أوسع مساحة، و هذا ما تعتمد علیه حرکة الطائرات .. و إذا ما دققنا النظر فی اجنحة الطیور فسنری هذه الظاهرة بوضوح- فتأمل.

و عموما، ینبغی القول: ما بناء الطائرات إلّا تقلید لأجسام الطیور فی جوانب مختلفة!

[۱۶۹] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۴۴۳.

[۱۷۰] (۱)- إنّ صناعة الخیام من الجلود قلیلة فی عصرنا المعاش، و لکنّ الآیة المبارکة أرادت أن تظهر أن هذا النوع من الخیام کان من أفضل الأنواع فی تلک الأزمان، و اختص بالذکر دون بقیة الأنواع ربما لکونها أکثر مأمنا أمام عواصف الصحراء الحارقة فی الحجاز.

[۱۷۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۷۲.

[۱۷۲] (۱)- أل« یوم» هنا ظرف متعلق بفعل مقدّر، و أصل العبارة:(و لیذکروا) أو(و اذکروا).

[۱۷۳] (۲)- یستعتبون: من الاستعتاب، و هی فی الأصل من(العتاب) و هو التحدث بلهجة شدیدة و لوم، فیکون مفهوم الاستعتاب: أن یطلب المذنب من صاحب الحق عقابه فیصبح سببا لسکون غضبه و حصول رضاه، و لهذا اعتبر البعض، أنّ الاستعتاب بمعنی الاسترضاء .. فی حین أنّ حقیقة مفهومه لیس الاسترضاء، و إنّما هو لازم له.

[۱۷۴] (۱)- احتمل بعض المفسّرین کصاحب المیزان: أنّ إظهار التسلیم هنا کان من جانب عبدة الأصنام فقط دون الأصنام، و یؤید ذلک ما ورد فی ذیل الآیة.

[۱۷۵] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۹۸.

[۱۷۶] (۱)- نقل« الآلوسی» فی(روح المعانی) عن بعض الأدباء: أن جمیع المصادر علی وزن(تفعال) تفتح تاؤها إلا مصدرین« تبیان» و« تلقاء». و یعتبرها بعض مصدرا، و بعض آخر یعتبرها اسم مصدر.

[۱۷۷] (۲)- راجع ذیل تفسیر الآیة(۲۸۲) من سورة البقرة.

[۱۷۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۷۴.

[۱۷۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۸۰] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۷۵.

[۱۸۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۳۱.

[۱۸۲] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۲۰، ص ۱۰۴.

[۱۸۳] (۱)- مجمع البیان، ذیل تفسیر الآیة مورد البحث.

[۱۸۴] (۲)- قال هذا لأنه عم أبی جهل و کلاهما من قریش.

[۱۸۵] (۳)- مجمع البیان: ذیل تفسیر الآیة مورد البحث.

[۱۸۶] (۴)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۷۸.

[۱۸۷] (۵)- الکافی علی ما نقل عنه تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۷۷.

[۱۸۸] (۱)-« أنکاث»: جمع(نکث) علی وزن(قسط) بمعنی حل خیوطه الصوف و الشعر بعد برمها، و تطلق أیضا علی اللباس الذی یصنع من الصوف و الشعر، و أمّا محل إعرابها فی الآیة فهو(حال) للتأکید علی قول البعض، فیما اعتبرها آخرون(مفعولا ثانیا) لفعل« نقضت» أی(جعلت غزلها أنکاثا).

[۱۸۹] (۲)-« الدّخل»:(علی وزن الدغل)، بمعنی الفساد و التقلب و منها أخذ معنی(الداخل)، و ینبغی الالتفات إلی أنّ جملة\i تَتَّخِذُونَ أَیْمانَکُمْ E- علی ما قلناه من تفسیر- جملة حالیّة، إلّا أنّ بعض المفسّرین اعتبرها جملة استفهامیة، و التّفسیر الأوّل یوافق ظاهر الآیة.

[۱۹۰] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۱۹۱] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة(۹۴).

[۱۹۲] (۱)- الکامل فی التاریخ، ج ۲، ص ۵۹۴.

[۱۹۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۸۲.

[۱۹۴] (۱)- إرشاد الدیلمی.

[۱۹۵] (۲)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۱۲۱.

[۱۹۶] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۲۹.

[۱۹۷] (۱)- سورة المزمل، ۴.

[۱۹۸] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۰۶.

[۱۹۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۰] (۴)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۱۰۷.

[۲۰۱] (۵)- الأعراف، ۲۰۴.

[۲۰۲] (۶)- مزید من الاطلاع .. راجع بحار الأنوار، ج ۹، ص ۱۹۰ و ما بعدها.

[۲۰۳] (۱)- یلحدون: من الإلحاد بمعنی الانحراف عن الحق إلی الباطل، و قد یطلق علی أیّ انحراف، و المراد هنا: إنّ الکاذبین یریدون نسبة القرآن إلی إنسان و یدعون بأنّه معلم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم!

[۲۰۴] (۲)- الإعجام و العجمة لغة: بمعنی الإبهام، و یطلق الأعجمی علی الذی فی بیانه لحن(نقص) سواء کان من العرب أو من غیرهم، و باعتبر أنّ العرب ما کانوا یفهمون لغة غیرهم فقد استعملوا اسم(العجم) علی غیر العرب.

[۲۰۵] (۱)- فی ضلال القرآن، ج ۵، ص ۲۸۲.

[۲۰۶] (۱)- سفینة البحار، مادة(صدق)، نقلا عن الکافی.

[۲۰۷] (۱)- مشکاة الأنوار للطبرسی، ص ۱۵۷.

[۲۰۸] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۲۵۴.

[۲۰۹] (۳)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۳۳.

[۲۱۰] (۱)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۳۲۲.

[۲۱۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، قم ۳۷.

[۲۱۲] (۲)- راجع کتابنا(الحیاة علی ضوء الأخلاق).

[۲۱۳] (۱)- ضمیر« بعدها»- و کما یقول کثیر من المفسرین- یعود إلی« الفتنة»، فی حین ذهب البعض من المفسرین إلی أنه یعود إلی الهجرة و الجهاد و الصبر المذکورة سابقا.

[۲۱۴] (۲)- المرتد الفطری: هو الذی یولد من أبوین مسلمین ثم یرتد عن الإسلام بعد قبوله إیاه، و المرتد الملی: یطلق علی من انعقدت نطفته من أبوین غیر مسلمین ثم قبل الإسلام، و ارتد عنه بعد ذلک.

[۲۱۵] (۱)- اختلاف القول بخصوص متعلق« یوم» جار بین المفسّرین .. فبعضهم یذهب إلی أنّه متعلق بفاعل مستتر و التقدیر هو« ذکرهم یوم القیامة»، و اعتبره آخرون متعلقا بفعل الغفران و الرحمة المأخوذان من« الغفور الرحیم» فی الآیة السابقة،(و لکنّنا نرجح التّفسیر الاحتمال الأوّل لشموله).

[۲۱۶] (۲)- الأعراف، ۳۸.

[۲۱۷] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۲۸۴.

[۲۱۸] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۱، الحدیث(۶) من الباب(۲۴) من أبواب الأمر بالمعروف.

[۲۱۹] (۱)- لأجل المزید من الإیضاح فی مسألة التقیة و أحکامها و فلسفتها و أدلتها، راجعوا کتابنا(القواعد الفقهیة)، الجزء الثالث.

[۲۲۰] (۱)- اختلف المفسّرون بخصوص جملة« من کفر باللّه ...»، فاعتبرها بعضهم: شرحا و توضیحا للجملة السابقة لها و أنّها بدل لعبارة« الذین لا یؤمنون بآیات اللّه»، فیما اعتبرها آخرون: بدلا لکلمة« کاذبون»، و قال بعضهم: أنّها مبتدأ محذوف الخبر و یقدروها ب« من کفر باللّه من بعد إیمانه فعلیهم غضب من اللّه و لهم عذاب ألیم»، فجزاء الشرط محذوف لدلالة الجملة التالیة علی ذلک.

و ثمّة احتمال رابع(و یبدو أفضل الاحتمالات) و هو: أنّها مبتدأ، و خبرها فی نفس الآیة و غیر محذوف، أمّا عبارة« لکن من شرح للکفر صدرا» فهی توضیح جدید للمبتدأ لوقوع جملة استثنائیة بینها و بین خبرها، و هذا النوع من التعبیر کثیر الاستعمال حتی فی غیر اللغة العربیة- فتأمل.

[۲۲۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۹۱(لا حظ بأن الرّوایة عن تفسیر العیاشی، و أحادیثه مرسلة).

[۲۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۲۳] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۰، ص ۱۲۸.

[۲۲۴] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۹۱ و ۹۲.

[۲۲۵] (۱)- أهلّ: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنی إعلاء الصوت عند رؤیة الهلال، و باعتبار أنّ المشرکین کانوا إذا ذبحوا حیواناتهم للأصنام صرخوا عالیا بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب« أهلّ».

[۲۲۶] (۱)- و هکذا أصل ترکیب جملة« و لا تقولوا لما تصف ألسنتکم الکذب»: اللام: .. لام التعلیل،« ما» فی« لما تصف» .. مصدریة، و« الکذب» .. مفعول ل« تصف» .. فتکون العبارة:(لا تقولوا هذا حلال و هذا حرام لتوصیف ألسنتکم الکذب).

[۲۲۷] (۱)- و لذا جاء ذکر افتراءهم فی الآیة مسبوقا باللام لیکون نتیجة و غایة لبدعهم- فتأمل.

[۲۲۸] (۱)- و فی الرّوایات عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن عبد المطلب:« یبعث یوم القیامة أمّة وحده، علیه بهاء الملوک و سیماء الأنبیاء» لأنّه کان مدافعا عن التوحید فی بیئة الشرک و عبادة الأصنام.(سفینة البحار، ج ۲، ص ۱۳۹).

[۲۲۹] (۱)- سورة الشعراء، ۸۳.

[۲۳۰] (۱)-« الحنیف»: بمعنی الذی یترک الانحراف و یتجه إلی الاستقامة و الصلاح، و بعبارة أخری، یغض نظره عن الأدیان و الأوضاع المنحرفة و یتوجه نحو صراط اللّه المستقیم، الدین الموافق للفطرة، و لهذا یسمی الصراط المستقیم، فالتعبیر بالحنیف یحمل

بین طیاته إشارة خفیّة إلی أنّ التوحید هو دین الفطرة.

[۲۳۱] (۱)- قال بعض المفسّرین فی الفرق ما بین الحکمة، و الموعظة الحسنة، المجادلة بالتی هی أحسن: أنّ الحکمة إشارة إلی الأدلة القطعیة .. الموعظة الحسنة إشارة إلی الأدلة الظنیة .. و المجادلة بالتی هی أحسن إشارة إلی الأدلة التی تهدف إلی إفحام المخالفین من خلال إلزامهم بما به یقبلون.(إلّا أنّ ما أوردناه أعلاه یبدو أکثر مناسبة للمقصود).

[۲۳۲] (۱)- تفسیر العیاشی، و تفسیر الدرر المنثور فی تفسیر الآیة(علی ما ذکره تفسیر المیزان).

[۲۳۳] (۲)- یلاحظ فی بعض الرّوایات إنّ القول بالمثلة بأکثر من واحد عند الظفر کان من بعض المسلمین(راجع تفسیر التبیان، ج ۶، ص ۴۴۰).

[۲۳۴] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۳.

[۲۳۵] (۱)- تفسیر الآلوسی، ج ۱۵، ص ۲.

[۲۳۶] (۱)- تفسیر« التبیان»، للشیخ الطوسی، المجلد السادس، ص ۴۴۶.

[۲۳۷] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثالث، ص ۳۹۵.

[۲۳۸] (۲)- بحار الأنوار، الطبعة الحدیثة المجلد ۱۸، ص ۲۸۹.

[۲۳۹] (۳)- المصدر السابق، ص ۲۹۱.

[۲۴۰] (۱)- التخذیر من البدع، ص ۷.

[۲۴۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثالث، ص ۳۹۵.

[۲۴۲] (۱)- تفسیر البرهان، المجلد ۲، ص ۲۰۰.

[۲۴۳] (۲)- بعض القدماء یعتقد بعدم إمکان خرق هذه الأفلاک ثمّ التئامها.

[۲۴۴] (۱)- للمزید من التفاصیل یمکن مراجعة کتاب:« لکل یرید أن یعرف» و الذی یبحث فی قضیة المعراج و شق القمر بالإضافة إلی قضایا أخری.

[۲۴۵] (۱)- من وجهة الترکیب النحوی یقول بعض المفسّرین: إنّ تقدیر جملة\i أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِی وَکِیلًا\E هو: لئلا تتخذوا .. و بعضهم قال:« أن» زائدة، و جملة« قلنا لهم» تقدیرها:« و قلنا لهم لا تتخذوا من دونی وکیلا».

[۲۴۶] (۲)- إنّ جملة\i:ذُرِّیَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ E جملة ندائیة و فی التقدیر تکون: یا ذریة من حملنا مع نوح. أمّا ما احتمله البعض من أنّ« ذریة» هی بدل عن« وکیلا» أو مفعول ثان ل« تتخذوا» فهو بعید، و لا یتسق مع جملة\i إِنَّهُ کانَ عَبْداً شَکُوراً\E.

[۲۴۷] (۱)- یراجع تفسیر مجمع البیان أثناء تفسیر الآیة.

[۲۴۸] (۱)-« نفیر» اسم جمع و هی بمعنی مجموعة من الرجال، و قال بعض: هی من« نفر». و« نفر» فی الأصل علی وزن« عفو» تعنی الارتحال و الإقبال علی شیء. و لذلک یطلق علی الجماعة المستعدة للتحرک باتجاه شیء بأنها فی حالة« نفیر».

[۲۴۹] (۱)-« حصیر» مشتقة من« حصر» بمعنی الحبس، و کل شیء لیس له منفذ للخروج یطلق علیه اسم« حصیر». و یقال للحصیر العادیة حصیرا لأنّ خیوطها و موادها نسجت إلی بعضها البعض.

[۲۵۰] (۱)- یراجع تفسیر المیزان، ج ۱۳، ص ۴۴ فما فوق.

[۲۵۱] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۷، ص ۲۰۹.

[۲۵۲] (۲)- سید قطب، فی ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۲۱۴ الطبعة العاشرة.

[۲۵۳] (۱)- یلاحظ هذا الرأی العدد(۱۲) السنة(۱۲) من جملة« عقیدة الإسلام» و قد کتب البحث فی عددین إبراهیم الأنصاری.

[۲۵۴] (۱)- المائدة، ۳۱.

[۲۵۵] (۱)- نقرأ فى الآية\:i إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها\E بينما كان ينبغى أن يكون التعبير« عليها» لأنّ الإساءة لا تكون فى فائدة و نفع الإنسان بل هى فى ضرره! إنّ السبب فى ذلك يعود إلى ضروريات التنسيق بين قسمى الجملة، أو قد يكون ذلك بسبب أنّ اللام هنا استخدمت بمعنى التخصيص لا بمعنى النفع و الضرر. بعض المفسّرين احتمل أيضا أن تكون اللام بمعنى« إلى».

[۲۵۶] (۱)- يلاحظ نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۳۸.

[۲۵۷] (۱، ۲)- يونس، ۳۵.

[۲۵۸] (۱، ۲)- يونس، ۳۵.

[۲۵۹] (۱)- فى نهاية الآية(۱۳۸) من سورة النساء قلنا: إنّ« البشارة» مشتقّة أصلا من« البشرة» بمعنى الوجه. و الملاحظ أنّ صحيفة الوجه و بشرته كالمرآة تعكس كل خبر إذا كان سارا أو سيئا بشكل إيحاءات معينة.

[۲۶۰] (۱)- فى الحالة الأولى تكون الإضافة« إضافية بيانية» أما فى الثّالثة فتكون الإضافة« إضافة اختصاصية».

[۲۶۱] (۲)- نهج البلاغة، خطبة الأشباح، رقم(۹۱).

[۲۶۲] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۲۹.

[۲۶۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۴] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۲۹.

[۲۶۵] (۲، ۳) أصول الكافى، ج ۱، كتاب الإيمان و الكفر، باب تعجيل فعل الخير.

[۲۶۶] (۲، ۳) أصول الكافى، ج ۱، كتاب الإيمان و الكفر، باب تعجيل فعل الخير.

[۲۶۷] (۴)- المصدر السابق.

[۲۶۸] (۱)- لنا كلام مفصّل حول الموضوع أثناء الحديث عن الآية(۵) من سورة يونس.

[۲۶۹] (۱)- يراجع التّفسير« الأمثل» عند تفسير قوله تعالى\:i فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ، وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ، أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ E،(الأعراف ۱۳۱).

[۲۷۰] (۲)- راجع وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۱۰۴.

[۲۷۱] (۳)- راجع سفينة البحار، ج ۱، ص ۶۸۰.

[۲۷۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۴۴.

[۲۷۳] (۲)- يراجع تفسير الصافى فى شأن تفسير هذه الآية.

[۲۷۴] (۱)- بالرغم من أنّ كلمة« قول» لها معنى واسع، و لكنّها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

[۲۷۵] (۱)- مترفون، من مادة رفاه، و تعنى المتنعمين و ذوى الأموال الكثيرة الناسين للّه تعالى.

[۲۷۶] (۱)- فى نهاية الآية(۱۳) من سورة يونس أشرنا إلى هذا الموضوع.

[۲۷۷] (۱)- يراجع فى هذا الشأن تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۸۵۲.

[۲۷۸] (۲)- راجع تفسير الصافى عند الحديث عن هذه الآية.

[۲۷۹] (۱)- الجمعة، ۱۰.

[۲۸۰] (۲)- البقرة. ۲۹.

[۲۸۱] (۱)- الحديد، ۲۰.

[۲۸۲] (۲)- نهج البلاغة، باب الكلمات القصار، جملة رقم ۱۳۱.

[۲۸۳] (۱)- یراجع نهج البلاغة، الخطبة رقم(۸۲).

[۲۸۴] (۱)- یعتقد البعض أنّ کلمة« إحسان» تتعدی غالبا ب« إلی» مثل قولنا« أحسن إلیه». و فی بعض الأحیان قد تتعدی بالباء. و قد یکون هذا التعبیر لإظهار المباشرة، أی إظهار المحبّة و الاحترام مباشرة و بدون أی واسطة. و هذا فی الواقع تأکید سادس فی هذه القضیة.

[۲۸۵] (۱)- هناک قولان حول« إما» فی جملة« إما یبلغنّ» فالفخر الرازی فی تفسیره یذهب إلی أنّها مرکّبة من« إن» الشرطیة و« ما» الشرطیة، و هی بذلک تفید التأکید. أما البعض الآخر کصاحب« المیزان» مثلا، فیری أنّها مرکبة من« إن» الشرطیة و« ما» الزائدة، التی جاءت هنا لتسمع ل« إن» الشرطیة بالدخول علی الفعل المؤکد بنون التأکید.

[۲۸۶] (۱)- یلاحظ: جامع السعادات، النراقی، ج ۲، ص ۲۵۸.

[۲۸۷] (۲)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۲۸۸] (۱)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۵۷.

[۲۸۹] (۲)- فی ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۲۲۲، الطبعة العاشرة.

[۲۹۰] (۳)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۴۹.

[۲۹۱] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۶، ص ۳۸۵۳.

[۲۹۲] (۱)- تفسیره أبو الفتوح الرازی، ج ۷، ص ۱۸۸.

[۲۹۳] (۲)- وجوه القرآن للتفلیسی، ص ۲۳۵.

[۲۹۴] (۱)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، ج ۲، ص ۱۸۸.

[۲۹۵] (۱)- یراجع تفسیر الصافی عند بحث هذه الآیة.

[۲۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۹۸] (۱)- یراجع تفسیر مجمع البیان، عند تفسیر الآیة.

[۲۹۹] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۳، ص ۸۴.

[۳۰۰] (۱)- فدک أرض معمورة و خصبة، کانت بالقرب من خیبر و علی بعد(۱۴۰) کم عن المدینة المنورة، و فدک بعد خیبر کانت مرکزا لاستقرار یهود الحجاز[یراجع کتاب: مراصد الاطّلاع. موضوع فدک . و بعد أن استسلم الیهود للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدون حرب، أعطی الرّسول هذه الأرض إلی فاطمة الزّهراء علیها السّلام و ذلک وفقا للوقائع التأریخیة الثابتة لدی الجمیع، لکنّها صودرت بعد وفاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لأسباب سیاسیة و بقیت فی أیدی الخلفاء إلی أن أعادها عمر بن عبد العزیز أیّام خلافته إلی العلویین.

[۳۰۱] (۲)- نقل هذا الحدیث« البذار» و« أبو یعلی» و« ابن أبی حاتم» و« ابن مردویة» عن« أبی سعید»[لا حظ کتاب میزان الاعتدال المجلد الثّانی صفحة(۲۸۸) و کنز العمال المجلد الثّانی صفحة(۱۵۸)] و قد ورد هذا الحدیث أیضا فی تفسیر مجمع البیان للشیخ الطبرسی عند حدیثه عن هذه الآیة، و فی الدر المنثور أیضا و قد أخرجه عن طریق السنة و الشیعة معا.

[۳۰۲] (۳)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۵۵.

[۳۰۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۶، ص ۴۱۴.

[۳۰۴] (۲)- النساء، ۹۳.

[۳۰۵] (۱)- صحیح البخاری و مسلم نقلا عن تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۲۳.

[۳۰۶] (۲)- هناك بحث مفصل فى نهاية الآية(۱۰۶) من سورة النحل، من التّفسير الأمثل حول الارتداد، و فلسفة العقوبات الشديدة للمرتد.

[۳۰۷] (۱)- يراجع تفسير الآلوسى(روح المعانى) أثناء حديثه عن هذه الآية.

[۳۰۸] (۱)- نهج البلاغة، مجموعة الرسائل، الرقم(۴۷).

[۳۰۹] (۱)- بالنسبة لأهمية الوفاء بالعهد و القسم لدينا بحث مفصل حول الموضوع يمكن مراجعته فى بحث الآيات ۹۱- ۹۴ من سورة النحل.

[۳۱۰] (۱)- تلاحظ تفاسير الميزان، و الفخر الرازى، و مجمع البيان فى تفسير الآية مورد البحث.

[۳۱۱] (۲)- يراجع تفسير الصافى، أثناء تفسير هذه الآية.

[۳۱۲] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۶.

[۳۱۳] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۷.

[۳۱۴] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۳۸.

[۳۱۵] (۴)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۶۴.

[۳۱۶] (۱)-« مرح» على وزن فرح، و هى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

[۳۱۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة(۱۹۳).

[۳۱۸] (۱)- لقد تحدّثنا عن التكبر و الغرور و آثارهما السيئة فى المجلد الرّابع فى تفسير الأمثل لدى تفسير الآية ۱۲ من سورة الأعراف.

[۳۱۹] (۲)- ضمير« سيئه» يعود على« ذلك» أو« كل» و سبب كونه مفردا لأنّ كلا- من هاتين الكلمتين مفردتين بالرغم من أنّهما تعطيان معنى الجمع.

[۳۲۰] (۱)- انظر تفسير الآيتين ۵۸ و ۵۹ من سورة النحل فى هذا التّفسير.

الجزء التاسع

[تتمة سورة الاسراء]

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً (۴۱) قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (۴۲) سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً (۴۳) تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۴)

التّفسير

كيف يفرّون من الحق؟

كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلّق بقضيتى التوحيد و الشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح و قاطعية أكبر. ففى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين و عنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

«صرّف» مشتقّة من «تصريف» و هى تعنى التغيير و التحويل، و كونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة. و لأنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة و فنونا كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶

و الفطرى أو التهديد و الترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوّع فى هذا المقام.

القرآن الكريم يريد أن يقول: إنّنا سلكنا مختلف الطرق، و فتحنا مختلف الأبواب من أجل أن ننير قلوب هؤلاء العميان بضياء التوحيد، و لكن مجموعة من هؤلاء وصل بهم التعصب و العناد و اللجاجة إلى درجة أنّ كل هذه الوسائل لم تؤثر فى جذبهم إلى الحقيقة، بل إنّها زادت فى ابتعادهم و نفورهم.

و هنا قد يطرح هذا السؤال: إذا ما الفائدة من ذكر كلّ ذلك، إذا كانت النتائج.

معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصّة، و لكنّه للمجتمع كافّة، و طبيعى أن جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتبع طريق الحق إذا استبانت له أدلته من هذا النوع من الأدلّة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدى بمجموعة أخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

إضافة إلى أنّ وجود هؤلاء المعاندين مفيد للمجموعة الأخرى التى تقبل الحق و تنصاع إليه، إذ يستبيّن من ينصاع للحق طريقة من خلال النظر إلى سلوك المعاندين إذ أنّ تقابل الظّلمة و النّور يوضح قيمة النور أكثر (الأشياء تعرف بأضدادها) كما أن تعلم الأخلاق و الآداب يمكن أن يتمّ- أحيانا- بتوسط عديمى الأدب و الخلق.

و هذا فى الواقع درس مفيد فى القضايا التربوية و التبليغية، إذ يمكن أن نستفيد من هذه الآية ضرورة سلوك طرق مختلفة و وسائل متعدّدة لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة، حيث أنّ الاقتصار على طريق واحد يخالف التنوع الكبير فى أذواق الناس و مؤهلاتهم، و بالتالى يجافى الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يتّبع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷

دليل التمانع:

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد و الذى يعرف بين العلماء و الفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قل لهم: قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا.

و بالرغم من أنّ جملة إِذاً لَابْتَغَوْا إِلى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا تفيد أنّهم لا بدّ أن يجدوا طريقا يؤدى بهم إلى صاحب العرش، و لكن طبيعة الكلام توضح بأنّ الهدف هو العثور على سبيل للانتصار عليه (على ذى العرش) خاصّة و أنّ كلمة ذِي الْعَرْشِ التى استخدمت بدلا من «اللّه» تشير إلى هذا الموضوع و تؤكّده. إذ تعنى أنّهم أرادوا أن يكونوا مالكى العرش و حكومة عالم الوجود، لذلك فإنّهم سيحاولون منازلة ذى العرش.

و من الطبيعى هنا أنّ كل صاحب قدرة يسعى لمدّ قدرته و تكميلها، لذا فإنّ وجود عدّة آلهة يؤدى إلى التنازع و التمانع فيما بينهم حول الحكم و السلطة فى عالم الوجود.[۱] هنا قد يقال: إن من الممكن تصوّر وجود عدّة آلهة يحكمون العالم من خلال التعاون و

التنسيق فيما بينهم، لـذلك فليس ثمّـة من سبب للتنازع بينهم؟! فى الإجابـة على هـذا السؤال نقول: بصـرف النظر عن أنّ كل موجود يسعى نحو توسيع قدرته بشكل طبيعى، و بصرف النظر أيضا عن الآلهة التى يعتقد بها المشركون تحمل العديد من الصفات البشرية، و التى تعتبر أوضـحها جميعـا هى الرغبـة فى السـيطرة و الحكم و توسـيع نطـاق القـدرة ... بغض النظر عن كـلّ ذلـك نقول: إنّ اللاـزمة الضرورية لتعدّد الوجود هى الاختلاف، و حيث لا يوجد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸

اختلاف بين وجودين إطلاقا، فلا معنى لوجود التعدّد!! (دقق جيدا).

و نظير هـذا البحث ورد فى الآية (۲۲) من سورة الأنبيـاء حيث قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَـةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتا. و منعا للالتباس ينبغى أن نقول: هناك اختلاف بين الدليلين بالرغم من التشابه بينهما:

الأوّل يدلّ على فساد العالم و نظام الوجود بسبب تعدّد الآلهة.

أمّا الثّانى فيتحـدّث- بغض النظر عن النظم فى عالم الوجود- عن حالـة التنازع و التمانع التى سوف تقوم بين الآلهـة المتعـدّدة. (سوف نبحث هذه الأمور مفصلا أثناء تفسير الآية (۲۲) من سورة الأنبياء).

و بما أنّ كلام المشركين و عباراتهم توحى بأنّهم نزلوا فى إدراكهم للّه عزّ و جل إلى مستوى أن يكون طرفا للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيراً.

فى الواقع إنّ هـذا التعبير القرآنى القصـير، يوضـح- من خلال أربعـة تعابير- علو الكبرياء الإلهيـة و نزاهتها عن مثل هـذه التخيلات، إذ تقول:

۱- استخدام كلمة سُبْحانَهُ بمعنى التنزيه للذات الإلهية.

۲- ثمّ تعبير وَ تَعالى عَمَّا يَقُولُونَ

۳- ثمّ استخدام عُلُوًّا و هى مفعول مطلق يفيد التأكيد.

۴- أخيرا، جاءت كلمة كَبِيراً للتأكيد مجددا على معانى التنزيه و العلو.

و بعد ذلك فإنّ جملة عَمَّا يَقُولُونَ لها معنى واسع حيث أنّها تنفى كل أشكال التهم الباطلة و لوازمها.

ثمّ لأجل إثبات عظمـة الخالق و أنّه منزّه عن خيالات و اعتقادات و أوهام المشـركين، تتحـدث الآيـة التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدسة إذ تقول: تُسَـبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ ثمّ تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود فى السماوات و الأرض، و إنّما ليس هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹

موجود إلّا و يسبّح و يحمد اللّه، و لكن لا تدركون تسبيحهم: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ و مع ذلك: إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

أى لا يؤاخـذكم و لا يعاقبكم بسـبب كفركم و شـرككم مباشـرة، و لكن يمهلكم بالقـدر الكافى، و يفتـح لكم أبواب التوبة و يتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

بتعبير آخر: إنّكم تملكون القدرة على إدراك تسبيح ذرات الوجود و الكائنات جميعا للّه القادر المتعال، و تدركون وجوده عزّ و جلّ، و لكنّكم مع ذلـك تقصّـرون، و اللّه سـبحانه و تعـالى لاـ يؤاخـذكم مباشـرة على هـذا التقصـير، و لا يجازيكم به فورا و لكن يعطيكم الفرصة الكافية لمعرفة التوحيد و ترك الشرك.

تسبيح الكائنات:

تـذكر الآيات القرآنيـة المختلفة تسبيح و حمد جميع موجودات عالم الوجود للّه تعالى، و إنّ أكثر الآيات صـراحة بهذا الخصوص هى الآيـة التى نبحثهـا و التى تـذكر لنـا- بـدون اسـتثناء- أنّ جميع الموجودات فى العـالم، الأـرض و السـماء، النجوم و الفضـاء، الأناس و الحيوانات و أوراق الشجر، و حتى الذرات الصغيرة، تشترك جميعا فى هذا التسبيح و الحمد العام.

يبيّن القرآن الكريم أنّ عالم الوجود قطعـة واحـدة من التسبيح و الحمد، و أنّ كل موجود يؤدى هذا التسبيح و يقوم به بشـكل معين و يثنى على البارى عزّ و جلّ، و أنّ أزير هـذا التسبيح و الحمد يملأ عالم الوجود المترامى الأطراف، و لكن الجهلاء لا يسـتطيعون سـماع هـذا الأزيز، بعكس المستبصـرين المتأملين و العلماء الذين أضاء اللّه قلوبهم و أرواحهم بنور الإيمان، فإنّ هؤلاء يسـمعون هذا الصوت من جميع الجهات بشكل جيّد.

هناك كلام كثير بين العلماء و المفسّـرين و الفلاسـفة حول تفسير حقيقة هذا الحمد و التسبيح، فبعضهم اعتبر الحمد و التسبيح (حالا) و البعض الآخر (قولا)،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰

أمّا خلاصة أقوالهم فهى:

۱- البعض يعتقـد أنّ جميع ذرات الوجود فى هـذا العـالم لها نوع من الإدراك و الشـعور، سواء كانت هـذه الموجودات عاقلـة أو غير عاقلـة. و هى تقوم بالتسبيـح و الحمـد فى نطـاق عالمهـا الخاص، بالرغم من أنّنا لا نسـتطيع إدراك ذلك أو الإحساس بهـذا الحمـد و التسبيح و سـماعه. آيات كثيرة تؤكّد هذا المعنى منها الآية رقم (۷۴) من سورة البقرة واصـفة الحجارة أو نوع منها: وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ثمّ قوله تعالى فى الآية (۱۱) من سورة فصّلت: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

۲- الكثير يعتقـد أنّ هـذا التسبيـح و الحمـد هو على شاكلـة ما نسـميه ب «لسان الحال» و هو حقيقى غير مجازى إلّا أنّه بلسان الحال و ليس بالقول. (تأمّل ذلك).

و لتوضيح ذلك تقول: قد يحدث أن نشاهد آثار عدم الارتياح و الألم، و عدم النوم فى وجه أو عينى شخص ما و نقول له: بالرغم من أنّـك لم تتحـدث عن شـىء من هـذا القبيل، إلّا أن عينيك تقولان بأنّك لم تنم الليلـة الماضـية، و وجهك يؤكّـد بأنّك غير مرتاح و متألم! و قد يكون لسان الحال من الوضوح بدرجة بحيث أنّه يغطى على لسان القول لو حاول التستر عليها قولا.

و هذا هو المعنى الذى صرّح به

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام بقوله: «ما أضمر أحد شيئا إلّا ظهر فى فلتات لسانه و صفحات وجهه»[۲].

من جانب آخر هل يمكن التصـديق بأنّ لوحـة فنيـة جميلة للغاية تدل على ذوق و مهارة رسامها، لا تمدحه أو تثنى عليه؟ و هل يمكن انكار ثناء دواوين أشـعار أساطين الشعر و الأدب و تمجيدها لقرائحهم و اذواقهم الرفيعة؟ أو يمكن انكار أن بناء عظيما أو مصنعا كبيرا أو عقولا الكترونية معقدة أو أمثالها، أنّها تمدح صانعها و مبتكرها بلسان حالها غير الناطق؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱

لذا يجب التصديق و التسليم بأنّ عالم الوجود العجيب ذا الأسرار المتعدّدة و العظمة الكبيرة، و الجزئيات العديدة المحيّرة، يقوم بتسبيح و حمد الخالق عزّ و جلّ، و إلّا فهل «التسبيح» سوى التنزيه عن جميع العيوب؟ فنظام عالم الوجود ناطق بأنّ خالقه ليس فيه أى نقص أو عيب:

ثمّ هـل «الحمـد» سوى بيـان الصـفات الكماليـة؟ فنظـام الخلق و الوجود كلّه يتحـدث عن الصـفات الكماليـة للخـالق و علمه و قـدرته اللامتناهية و حكمته الوسيعة.

خاصّـة و أنّ تقـدم العلوم البشـرية و كشف بعض أسـرار و خفايا هـذا العالم الواسع، توضـح هـذا الحمد و التسبيح العام بصورة أجلى.

فاليوم مثلا ألّف علماء النبات المؤلفات العديدة عن أوراق الأشجار، و خلايا هذه الأوراق، و الطبقات السبع الداخلة فى تكوينها، و الجهاز التنفسى لها، و طريقة التغذية و سائر الأمور الأخرى التى تتصل بهذا العالم.

لذلك، فإنّ كل ورقة توحد اللّه ليلا و نهارا، و ينتشر صوت تسبيحها فى البساتين و الغابات، و فوق الجبال و فى الوديان، إلّا أنّ الجهلاء لا يفقهون ذلك، و يعتبرونها جامدة لا تنطق.

إنّ هذا المعنى للتسبيح و الحمد السارى فى جميع الكائنات يمكن دركه تماما، و ليست هناك حاجة لأن نعتقد بوجود إدراك و شعور لكل ذرات الوجود، لأنّه لا يوجد دليل قاطع على ذلك، و الآيات السابقة يحتمل أن يكون مقصودها التسبيح و الحمد بلسان الحال.

الجواب على سؤال:

يبقى سؤال واحد، و هو إذا كان الغرض من الحمد و التسبيح هو تعبير نظام الكون عن نزاهة و عظمة و قدرة الخالق عزّ و جلّ، و تبيان الصفات السلبية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲

و الثبوتية، فلما ذا يقول القرآن: لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ لأنّه إذا كان البعض لا يفقه، فإنّ العلماء يفقهون و يعلمون؟.

هناك جوابان على هذا السؤال هما:

الأوّل: إنّ الآية توجّه خطابها إلى الأكثرية الجاهلة من عموم الناس، خصوصا إلى المشركين، حيث أنّ العلماء المؤمنين قلّة و هم مستثنون من هذا التعميم، وفقا لقاعدة ما من عام إلّا و فيه استثناء.

الثّانى: هو أنّ ما نعلمه من أسرار و خفايا العالم فى مقابل ما لا نعلمه كالقطرة فى قبال البحر، و كالذرة فى قبال الجبل العظيم. و إذا فكرنا بشكل صحيح فلا نستطيع أن نسمّى الذى نعرفه بأنّه (علم). إنّنا فى الواقع لا نستطيع أن نسمع تسبيح و حمد هذه الموجودات الكونية مهما أوتينا من العلم، لأنّ ما نسمعه هو كلمة واحدة فقط من هذا الكتاب العظيم!! و على هذا الأساس تستطيع الآية أن تخاطب العالم بأجمعه و تقول لهم: إنّكم لا تفقهون تسبيح و حمد الموجودات بلسان حالها، أمّا الشىء الذى تفقهوه فهو لا يساوى شيئا بالنسبة إلى ما تجهلون.

۳- بعض المفسّرين يحتمل أنّ الحمد و التسبيح هو تركيب من لسان:

«الحال» و «القول». و بعبارة أخرى: يعتقدون بأنّه تسبيح تكوينى و تشريعى، لأنّ أكثر البشر و كل الملائكة يحمدون اللّه عن إدراك و شعور؛ و كل ذرات الوجود نتحدّث عن عظمة الخالق بلسان حالها. و بالرغم من أنّ هذين النوعين من الحمد و التسبيح مختلفين، إلّا أنّهما يشتركان فى المفهوم الواسع لكلمتى الحمد و التسبيح.

و لكن التّفسير الثّانى- حسب الظاهر- أكثر قبولا للنفس من التّفسيرين الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳

جانب من روايات العترة الطاهرة:

هناك تعابير لطيفة فى هذا المجال وردت فى أحاديث الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أهل البيت عليهم السّلام، منها:

* أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام يقول: سألت الإمام عن تفسير قوله تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ فقال عليه السّلام:

«كل شىء يسبّح بحمده و إنّا لنرى أن ينقض الجدار و هو تسبيحها»[۳].

* و

عن الإمام محمّد الباقر عليه السّلام قال: «نهى رسول اللّه أن توسم البهائم فى وجوهها، و أن تضرب وجوهها لأنّها تسبّح بحمد ربّها»[۴].

* و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «ما من طير يصاد فى بر و لا بحر، و لا شىء يصاد من الوحش إلّا بتضييعه التسبيح»[۵].

* أمّا الإمام الباقر عليه السّلام، فعند ما سمع يوما صوت عصفور،

فقال لأبى حمزة الثمالى- و كان من خاصّة أصحابه-: «يسبحن ربّهنّ عزّ و جلّ و يسألن قوت يومهن»[۶].

* و

فى حديث آخر نقرأ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أتى إلى عائشة، و قال لها:

«اغسلى هذين الثوبين» فقالت: يا رسول اللّه، لقد غسلتهما أمس، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أمّا علمت أنّ الثوب يسبّح فإذا اتسخ انقطع عن تسبيحه»[۷].

* فى حديث آخر عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السّلام: «للدابة على صاحبها ستة حقوق: لا يحملها فوق طاقتها، و لا يتخذ ظهرها مجلسا يتحدث عليها، و يبدأ بعلفها إذا نزل، و لا يسمها فى وجهها، و لا يضربها فإنّها تسبح، و يعرض عليها الماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴

إذا مرّ بها»[۸].

إنّ هذه المجموعة من الأحاديث و الرّوايات و التى لبعضها معانى دقيقة، تظهر أنّ التسبيح العام للموجودات يشمل كل شىء بدون استثناء، و كل هذا يتطابق مع ما ذكرناه فى التّفسير الثّانى (أى إن التسبيح هو تسبيح تكوينى أو تسبيح بلسان الحال).

أمّا ما قرأناه فى هذه الأحاديث من أنّ اللباس إذا توسخ ينقطع تسبيحه، فهو كناية عن أنّ المخلوقات إذا كانت محافظة على نظافتها الطبيعية فسوف تذكّر الإنسان بخالقه، أمّا إذا فقدت نظافتها الطبيعية فسوف لا تقوم بالتذكير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً (۴۵) وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً (۴۶) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَ إِذْ هُمْ نَجْوى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (۴۷) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۴۸)

سبب النّزول

تحدّث مجموعة من المفسّرين مثل الطبرسى فى «مجمع البيان» و الفخر الرازى فى «التّفسير الكبير» و آخرون، فى شأن نزول هذه الآيات، فقالوا: إنّها نزلت فى مجموعة من المشركين كانوا يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالليل إذا تلا القرآن و صلّى عند

الكعبة، و كانوا يرمونه بالحجارة و يمنعونه عن دعوة الناس إلى الدين، فحال اللّه سبحانه بينه و بينهم حتى لا يؤذوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶

و قد احتمل الطبرسى أن يكون اللّه منع المشركين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن طريق إلقاء الخوف و الرعب فى قلوبهم ۹].

أمّا الرازى فيقول فى ذلك: «إنّ هذه الآية نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا قرأ القرآن على الناس. روى أنّه عليه الصلاة و السّلام كان كلّما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان و عن يساره آخران من ولد قصى يصفقون و يصفرون و يخلطون عليه بالأشعار».

ثمّ أضاف: «و روى عن ابن عباس، أنّ أبا سفيان و النضر بن الحرث و أبا جهل و غيرهم كانوا يجالسون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوما: ما أدرى ما يقول محمّد غير أنّى أرى شفتيه تتحركان بشىء. و قال أبو سفيان: إنّى لأرى بعض ما يقوله حقّا، و قال أبو جهل: هو مجنون. و قال أبو لهب: هو كاهن. (!!!) و قال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر، فنزلت الآية أعلاه:

وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ ...[۱۰].

التّفسير

المغرورون و موانع المعرفة:

بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث أنّ جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلما ذا- اذن- لا يقبل المشركون هذه الحقيقة و لا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟

الآيات التى نبحثها يمكن أن تكون جوابا على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأولى فيها: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً. و هذا الحجاب و الساتر هو نفسه التعصّب و اللجاجة و الغرور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷

و الجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصد حقائق القرآن عن أفكارهم و عقولهم و لا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد و المعاد و صدق الرّسول فى دعوته و غير ذلك.

و فيما يخص كلمة «مستور» هل أنّها صفة للحجاب، أو لشخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو للحقائق القرآنية؟ فإنّ البحث عن ذلك سنشير إليه فى البحوث.

و سنتناول فى البحوث- أيضا- كيفية نسبة الحجاب للخالق جلّ و علا.

أمّا الآية التى بعدها فتقول: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِى آذانِهِمْ وَقْراً أى أنّنا غطّينا قلوبهم بأستار لكى لا يفهموا معناه، و جعلنا فى آذانهم ثقلا، لذلك فإنّهم إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً.

حقّا ما أعجب الهروب من الحق؛ الهرب من السعادة و النجاة، من النصر و الفهم! إنّ شبيه هذا المعنى نجده- أيضا- فى الآية (۵۰- ۵۱) من سورة المدثر:

كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ أى كالحمير الهاربة من الأسد.

ثمّ يضيف اللّه تبارك و تعالى مرّة أخرى: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أى أنّ اللّه تعالى يعلم الغرض من استماعهم

لكلامك و حضورهم فى مجلسك و إِذْ هُمْ نَجْوى يتشاورون و يتناجون إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. إذ- فى الحقيقة- إنّهم لا- يأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم و أرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، و تصيّد الأخطاء (بزعمهم و دعواهم) حتى يحرفوا المؤمنين عن طريقهم إذا استطاعوا. و عادة يكون مثل هؤلاء الأشخاص و بمثل نواياهم، قلوبهم موصدة، و فى آذانهم وقر، لذلك لا يجالسون رجال الحق إلّا لتحقيق أهداف شيطانية.

الآية الأخيرة خطاب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالرغم من أنّ عبارة الآية قصيرة، إلّا أنّها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا. و الآية لا تعنى أنّ الطريق غير واضح و الحق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸

خاف، بل على أبصارهم غشاوة، و قلوبهم مغلقة دون الاستجابة للحق، و عقولهم معطّلة عن الهدى بسبب الجهل و الحقد و التعصب و العناد.

بحوث

۱- خلاصة عامّة للآيات

الآيات الآنفة ترسم لنا بدقة أحوال الضالين و الموانع التى تحول دون معرفتهم للهدى، و بشكل عام تقول الآيات: إنّ ثمّة ثلاثة موانع لمعرفة هؤلاء للحق، بالرغم من سهولة رؤية طريق الحق، هذه الموانع هى:

أ- وجود الحجاب بينك و بينهم، و هذا الحجاب فى حقيقته إن هو إلّا أحقادهم و حسدهم و بغضهم و العداوة التى يضمرونها نحوك، فهذا الحجاب بمكوناته هو الذى يمنعهم من النظر إلى شخصيتك الرسالية، أو أن يدركوا كلامك، حتى أنّ الحسنات تتحول فى نظرهم إلى سيئات.

ب- سيطرة الجهل و التقليد الأعمى على قلوبهم بحيث أنّهم غير مستعدين لسماع كلمة الحق من أى شخص كان.

ج- إنّ حواس المعرفة لدى هؤلاء، كالأذن- مثلا- تنفر من كلام الحق، و تكون كأنّها صمّاء، أمّا الكلام الباطل فإنّهم يتذوقونه و يفرحون به، و ينفذ إلى أعماقهم بسرعة، خاصّة و أن التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا لم يكن راغبا بشىء فسوف لا يسمعه بسهولة. أمّا إذا كان راغبا فيه، فإنّه سيدركه بسرعة، و هذا يدل على أنّ الإحساسات الداخلية لها تأثيرها على الحواس الظاهرة، بل و تستطيع أن تطبعها بالشكل الذى تريده.

أمّا نتيجة هذه الموانع الثلاثة فهى:

أوّلا- الهروب من سماع الحق، خاص عند ما يكون الحديث عن وحدانية الخالق، لأنّ هذه الوحدانية تتناقض مع أصول اعتقادات المشركين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹

ثانيا: اللجوء إلى توجيهات خاطئة لتبرير انحرافهم، حيث كانوا يصفون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بتهم مختلفة كالساحر و الشاعر و المجنون. و بذلك تكون عاقبة كل أعداء الحق أنّ أعمالهم الرذيلة تكون حجابا لهم دون الحق و الهدى.

و هنا ينبغى القول بأنّ من يريد أن يسلك الصراط المستقيم و أن يأمن من الانحراف يجب عليه أوّلا و قبل كل شىء إصلاح نفسه. يجب تطهير القلب من البغض و الحسد و العناد، و تطهير الروح من التكبر و الغرور، و بشكل عام تطهير النفس من جميع الصفات الرذيلة، لأنّ القلب إذا تطهّر من هذه الرذائل و أصبح نظيفا نقيّا، فسوف يدرك جميع الحقائق. لهذا السبب نرى أنّ الأميين و أصحاب

القلوب النقية يدركون الحقائق أسرع من العالم الذى لم يقم بتهذيب نفسه.

۲- لماذا تنسب الحجب للخالق؟

الآيات تنسب الحجب إلى الخالق، حيث قوله تعالى: وَ جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً. كذلك هناك آيات قرآنية أخرى بنفس المضمون. و هذه التعابير قد يستشم منها رائحة «الجبر» فى حين أنّها لم تكن سوى صدى لأعمالهم. و لكن هذه الحجب- فى الواقع- هى بسبب الذنوب و الصفات الرّذيلة لنفس الإنسان، و إن هى إلّا آثار الأعمال. و نسبة هذه الأمور إلى الخالق يعود إلى أنّه سبحانه و تعالى هو الذى خلق خواص الأمور، فإنّ تلك الأعمال الرّذيلة و الصفات القبيحة لها هذه الخواص. و قد تحدّثنا عن هذه الفكرة فى البحوث السابقة مستفيدين من الشواهد القرآنية الكثيرة.

۳- ما معنى الحجاب المستور؟!

هناك آراء كثيرة للمفسّرين حول الحجاب المستور، منها:

أ- (مستور) صفة للحجاب، و نستفيد من ظاهر التعبير القرآنى أنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰

الحجاب مخفى عن الأنظار. و فى الواقع إنّ حجاب الحقد و العداوة و الحسد لا يمكن رؤيته بالعين، لأنّها فى نفس الوقت تضع حجابا سميكا بين الإنسان و الشخص الذى يقوم بحسده و الحقد عليه.

ب- البعض الآخر فسّر (مستور) بمعنى «الساتر» (لأنّ اسم المفعول قد يأتى بمعنى الفاعل كما فسّر بعض المفسّرين كلمة «مسحور» فى هذه الآيات بمعنى الساحر)[۱۱].

ج- القسم الثّالث من المفسّرين اعتبر (مستور) وصفا مجازيا، أى أنّه لا يعنى أنّ الحجاب مستور، بل إنّ الحقائق الموجودة خلف هذا الحجاب هى المستورة (مثل شخصية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و صدق دعوته و عظمة أحاديثه).

و عند التدقيق فى هذه التفاسير الثّلاثة يظهر أنّ التّفسير الأوّل يتلائم أكثر مع ظاهر الآية.

و فى بعض الرّوايات نقرأ أنّ أعداء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يأتونه و هو مع أصحابه يتلو القرآن، إلّا أنّهم لم يكونوا يرونه، و كأن عظمة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تمنعهم من رؤيته و معرفته، و بذلك يكون بعيدا عن أذاهم.

۴- «أكنّة» و «وقر» ماذا يعنيان؟

(أكنّة) جمع «كنان» و هى على وزن «لسان» و فى الأصل تعنى أى غطاء يمكن أن يستر شيئا ما، أمّا «كن» على وزن «جن» فتعنى الوعاء الذى يمكن أن نحفظ فى داخله شيئا ما. أمّا جمع «كن» فهو «أكنان» و قد توسع هذا المعنى ليشمل أى شىء يؤدى إلى التستّر، كالأستار و البيت و الأجسام التى يتستر الإنسان خلفها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱

أمّا «وقر» على وزن «جبر» فتعنى ثقل السمع، و «وقر» على وزن «رزق» تعنى الحمل الثقيل.

۵- تفسير جملة بِما يَسْتَمِعُونَ بِهِ

فى معنى هذه الجملة ذكر تفسيرين:

الأوّل: الذى يذهب إليه العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الرازى فى التّفسير الكبير، إذ قالا بأنّها تعنى «غرض الاستماع» يعنى نحن نعلم الغرض من استماعهم لك، فهو ليس لسماع الحق، بل للاستهزاء و إلصاق التهم و تضليل الآخرين.

أمّا الثّانى: (كما ذهب إليه العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان) فقد اعتبرها «وسيلة الاستماع» بمعنى نحن نعلم بأى مسمع و أذن يستمعون إليك، و نعلم ما فى قلوبهم و نعلم نجواهم. (و يظهر أنّ التّفسير الأوّل أقرب).

۶- لماذا اتهموا النّبى بأنّه مسحور؟

إنّ اتّهام النّبى العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل المشركين بأنّه (مسحور) لأنّهم أرادوا رميه بالجنون، و أنّ السحرة أثروا على عقله و فكره بحيث أصيب فى حواسه، و أخذ يظهر ما يظهر- العياذ باللّه!! بعض المفسّرين احتملوا أن تكون كلمة (مسحور) بمعنى الساحر (لأنّه- كما أشرنا قبلا- فإنّ اسم المفعول قد يأتى فى بعض الأحيان بمعنى اسم الفاعل) و بهذا الأسلوب أرادوا إعطاء صفة السحر لكلام الرّسول حتى يحولوا دون تأثيره فى النفوس و القلوب. و هذا الاتهام بحدّ ذاته يعتبر اعترافا ضمنيا على مدى تأثير دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقواله على الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲

۷- تخوّف المشركين من نداء التوحيد

فى الآيات السابقة عرفنا كيف أنّ المشركين كانوا يتخوفون من نداء التوحيد و كانوا يفرون منه، لأنّ أساس حياتهم قائم على الشرك و عبادة الأصنام، و كل النظم التى كانت تحكم مجتمعاتهم كانت تقوم على أساس قواعد الشرك و أصوله.

إذن، فالتوحيد لا ينسف عقائدهم المذهبية و حسب، بل يهدم نظامهم الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى و الثقافى الذى يقوم على أساس الشرك.

فالحكومة مثلا ستكون بيد المستضعفين، و ستسقط حكومة المستكبرين، و سينتهى التقسيم الطبقى، و الاستغلال و غيرها من الظواهر السلبية التى تعتبر بأجمعها نتائج للأنظمة الكافرة. لذا فإنّ زعماء الشرك كانوا يحاولون- بقوة- ألّا يصل صوت التوحيد إلى آذان الآخرين، و لكنّهم- كما تشير الآيات القرآنية- كانوا يظلمون المستضعفين و كانوا يظلمون أنفسهم أيضا، لأنّ أى ظالم و منحرف إنّما يحفر قبره بيده.

و الطّريف أن القرآن يقول: إنّ هؤلاء المشركين، و لأجل تبرير فجورهم و استمرار كفرهم كانوا يسألون دوما عن موعد يوم القيامة متى تقوم: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ[۱۲] و هذه إشارة إلى تهربهم من تحمّل المسؤولية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

اشارة

وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۴۹) قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً (۵۰) أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً (۵۱) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (۵۲)

التّفسير

حتمية البعث و يوم الحساب

الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد و حاربت الشرك، أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدّث عن المعاد و الذى يعتبر مكملا للتوحيد.

لقد قلنا سابقا: إنّ أهم العقائد الإسلامية تتمثل فى الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و الإعتقاد بهذين الأصلين يربيّان الإنسان عمليا و أخلاقيا، و يصدّانه عن الذنوب و يدعوانه لأداء مسئولياته و يرشدانه إلى طريق التكامل.

الآيات التى نحن بصددها أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴

منكر و المعاد، ففى البداية تحكى الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً[۱۳]. يقول هؤلاء: هل يمكن أن تجتمع هذه العظام المتلاشية الداثرة المتناثرة فى كل مكان؟ و هل يمكن أن تعاد لها الحياة مرّة أخرى؟!. ثمّ أين هذه العظام النخرة المتناثرة فى كل حدب و صوب من هذا الإنسان الحى القوى العاقل؟

إنّ التعبير القرآنى فى هذه الآية الكريمة يدلل على أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يبيّن فى دعوته (المعاد الجسمانى) بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين و المنكرين.

القرآن فى إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة و ممكنة، بل و أكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديدا: قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً و حتى لو كنتم أشدّ من الحجر و الحديد و أبعد منهما من الحياة: أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فإنّ البعث سيكون مصيركم.

من الواضح أنّ العظام بعد أن تندثر و تتلاشى تتحول إلى تراب، و التراب فيه دائما آثار الحياة، إذ النباتات تنمو فى التربة، و الأحياء تنمو فى التراب، و أصل خلقه الإنسان هى من التراب، و هذا كلام مختصر على أنّ التراب هو أساس الحياة.

أمّا الحجارة أو الحديد أو ما هو أكبر منهما تحدّى به القرآن منكرى المعاد، فإنّ كل هذه أمور بينها و بين الحياة بون شاسع، إذ لا يمكن للنبات مثلا- أن ينبت فى الحديد أو الصخور أمّا القرآن فيبيّن أن لا- فرق عند الخالق جلّ و علا- من أى مادة كنتم، إذ أنّ عودتكم إلى الحياة بعد الموت تبقى ممكنة، بل و هى المصير الذى لا بدّ و أن تنتهون إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵

إنّ الأحجار تتلاشى و تتحول إلى تراب، و أصل الحياة ينبع من هذا التراب.

الحديد هو الآخر يتلاشى و يتفاعل مع باقى الموجودات على الكرة الأرضية ليدخل فى أصل مادتها و فى تركيبها الترابى الذى هو أيضا أصل الحياة الذى تنبع من داخله و من مادته الموجودات الحيّة. و هكذا تحتوى جميع موجودات الكرة الأرضية بما فيها الإنسان، فى بنائها و تركيبها على خليط من الفلزات و اللافلزات. و هذا التحوّل و التغيّر فى حركة الموجودات، دليل على أنّ جميع مخلوقات عالم الوجود لها قابلية التحوّل إلى موجود حىّ باختلاف واحد يقع فى الدرجة و المرحلة، إذ بعضها يكون فى مرتبة أقرب إلى الحياة مثل التراب، بينما بعضها الآخر يكون فى مرتبة أبعد مثل الحجارة و الحديد.

السؤال التشكيكى الآخر الذى يثيره منكر و المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المندثرة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهذا الأمر؛ و من الذى له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟

هذا السؤال تصوغه الآية بالقول على لسان المنكرين: فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

إذا كان شككم فى (القابلية) فقد كنتم ترابا فى أوّل الأمر، فما المانع أن تصيرون ترابا، ثمّ يعيدكم مرّة أخرى إلى الحياة من نفس التراب؟! و إذا كان شككم فى (الفاعلية) فإنّ الخالق الذى خلقكم فى البداية من تراب يستطيع مرّة أخرى أن يكرّر هذا العمل لأنّ: «حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز سواء».

بعد الانتهاء من الشك الأوّل و الثّانى الذى يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثّالث الذى تصوغه على لسانهم بهذا السؤال: فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَ يَقُولُونَ مَتى هُوَ.

«سينغضون» مشتقّة من مادة «انغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶

بسبب التعجّب.

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم- فى الواقع- هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقى مجرّد وعد لا ندرى متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا فى آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره فى يومنا هذا ... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!! و يجيب القرآن بقوله: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً إن يوم المعاد- طبعا- قريب، لأنّ عمر العالم و الحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها فى قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شىء، إذ هى مجرّد لحظات سريعة و عابرة و سرعان ما تنتهى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت فى تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمة القيامة و التى هى الموت، تعتبر قريبة منّا جميعا، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، و لكنّه علامة عليها و مذكّر بها.

كما إنّ استخدام كلمة «عسى» فى الآية الشريفة هو إشارة إلى أنّ لا أحد يعرف- و بدقة- متى تقوم القيامة؟ حتى شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هذا الأمر هو من أسرار الكون و الخليفة التى لا يعلمها سوى اللّه تبارك و تعالى.

فى الآية التى بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة فى قوله تعالى:

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ أى إن بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمتثلون لأمره طوعا أو كرها، و الآية- بالطبع- تتحدث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

فى ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلا فى عالم ما بعد الموت (البرزخ) و هو قوله تعالى: وَ تَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا إنّ هذا الإحساس سيطغى على الإنسان فى يوم القيامة، و هو يظن أنّه لم يلبث فى عالم البرزخ إلّا قليلا، بالرغم من طول الفترة التى قضاها هناك، و هذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر فى مدتها شيئا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷

فى قبال عالم الخلود الاخروى.

بعض المفسّرين يحتمل أنّ الغرض من الآية هو الإشارة إلى حياة الإنسان فى الدنيا، و المعنى أنّ الإنسان سيدرك فى يوم القيامة أنّ الحياة الدنيوية لم تكن إلّا وقفة، أو يوم، بل و ساعات قصار سريعة الزوال فى مقابل الحياة الآخر الأبدية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۳ الى ۵۷]

اشارة

وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً (۵۳) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (۵۴) وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً (۵۵) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَ لا تَحْوِيلًا (۵۶) أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً (۵۷)

التّفسير

التعامل المنطقى مع المعارضين:

الآيات السابقة عرضت لقضية المبدأ و المعاد، أمّا الآيات التى نحن بصددها فهى توضح أسلوب المحادثة و الاستدلال مع المعارضين و خصوصا المشركين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹

لأنّه مهما كان المذهب عالى المستوى، و المنطق قويا، فإنّ ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع أسلوب صحيح للبحث و المجادلة مرفقا بالمحبّة بدلا من الخشونة.

لذا فإنّ أوّل آية من هذه المجموعة تقول: وَ قُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

الأحسن من حيث المحتوى و البيان، و الأحسن من حيث التلازم بين الدليل و مكارم الأخلاق و الأساليب الإنسانية، و لكن لماذا يستعمل هذا الأسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن و اتبعوا الخشونة فى الكلام و المجادلة ف إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ و يثير بينهم الفتنة و الفساد، فلا تنسوا: إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوًّا مُبِيناً.

أمّا من هم (العباد) المقصودون فى هذه الآية؟

فى صدد الجواب هناك رأيان مختلفان بين المفسّرين، و كل رأى مدعم بالقرآئن التى تؤيده؛ هذان الرأيان هما:

أوّلا: المقصود من (عبادى) هم عبيده المشركون، إذ بالرغم من أنّهم سلكوا طريقا خاطئا، إلّا أنّ اللّه تبارك و تعالى يناديهم (عبادى) و ذلك من أجل إثارة عواطفهم الإنسانية، و يدعوهم إلى (القول الأحسن) و يعنى هنا كلمة التوحيد و ترك الشرك و مراقبة أنفسهم من وسواس الشيطان، و هكذا يكون الهدف من هذه الآيات- بعد ذكر أدلة التوحيد و المعاد- هو النفوذ إلى قلوب المشركين حتى يستيقظ ذوى الاستعداد منهم.

الآيات التى تلى هذه الآية- كما سيأتى- تناسب هذا المعنى، و كون هذه السورة مكّية يرجح هذا الرأى، إذ لم يكن الجهاد قد فرض بعد و كانت الدعوة بالمنطق و الأسلوب الحسن فقط هى المأمور بها.

ثانيا: كلمة (عبادى) خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية أسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث فى بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰

معارضى عقيدتهم و يقولون لهم بأنّهم من أهل النّار و العذاب، و أنّهم ضالون، و يعتبرون أنفسهم من الناجين، قد يكون هذا الموقف سببا فى أن يقف المعارضون موقفا سلبيا إزاء دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

اضافة لذلك، فإنّ الاتهامات التى يطلقها المشركون ضدّ شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتهمونه فيها بالسحر و الجنون و الكهانة و الشعر، قد تكون سببا فى أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم و يبدأوا بالتشاجر مع المشركين و يستخدموا الألفاظ الخشنة ضدّهم ... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل و يدعوهم إلى التزام اللين و التلطّف بالكلام و اختيار أفضل الكلمات فى أسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

كلمة (بينهم) وفقا لهذا الرأى توضح أنّ الشيطان يحاول زرع الفساد بين المؤمنين و من يخالفهم؛ أو أنّه يحاول النفوذ إلى قلوب المؤمنين لإفسادها «ينزغ» مشتقة من «نزغ» و تعنى الدخول إلى عمل بنيّة الإفساد.

بملاحظة مجموع هذه القرائن يتبيّن لنا أنّ التّفسير الثّانى ينطبق مع ظاهر الآية الكريمة أكثر من التّفسير الأوّل، لأنّ كلمة (عبادى) فى القرآن تستخدم عادة لمخاطبة المؤمنين، إضافة إلى أنّ سبب نزول الآية يؤيد هذا المعنى و يدعم هذا التّفسير، إذ ينقل بعض المفسّرين أنّ المشركين كانوا يؤذون أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة و يضيّقون عليهم، و فى أثناء ذلك كان بعضهم يأتى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستأذنه و يلح عليه فى مواجهة المشركين بالمثل (على الأقل الرد عليهم بألفاظ شديدة تناسب ألفاظ المشركين) و البعض يطلب الإذن بالجهاد، و لكن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يبيّن لهم بأنّه لم يؤذن له بعد القيام بهذه الأعمال. و فى هذه الأثناء نزلت الآيات أعلاه تؤكّد بأن التكليف ما زال يتمثل فى استمرار الدعوة بالكلام، و المجادلة باللطف و بالتى هى أحسن ۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱

الآية التى بعدها تضيف: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ بناء على الرأيين السابقين فى تفسير من المخاطب فى تعبير (عبادى) فإنّ هذه الآية أيضا- و تبعا لما سبق- تحتمل تفسيرين هما:

الأوّل: أيّها المشركون؛ إنّ ربّكم ذو رحمة واسعة، و ذو عقاب اليم، و سيشملكم منهما ما يلائم أعمالكم، و لكن الأفضل أن تتوسلوا برحمته الواسعة و تحذروا عذابه.

الثّانى: لا تظنوا أيّها المؤمنون بأنّكم وحدكم الناجون، و أن غيركم سيكون مصيره النّار، فاللّه أعلم بأعمالكم و نواياكم، و لو أراد عزّ و جلّ لأخذكم بذنوبكم، و لو شاء لشملكم برحمته، ففكروا قليلا فى أنفسكم و ليكن حكمكم على أنفسكم و الآخرين بالانصاف.

و فى آخر الآية مواساة للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان يتأذى و يتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا. إنّ مسئوليتك- يا رسول اللّه- هى الإبلاغ الواضح، و الدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذ آمنوا فهو الأفضل، أمّا إن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر، لأنك أنجزت مسئوليتك و قمت بواجبك.

و بالرغم من أنّ المخاطب فى الآية هو الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ من غير المستبعد أن يكون هدف الخطاب جميع المؤمنين. و هذا دليل آخر على التّفسير الثّانى للمعنى من خطاب (عبادى)، إذ يقول القرآن للمؤمنين: إنّ مسئوليتكم هى الدعوة سواء آمنوا أم لم يؤمنوا. لذا لا داعى لعدم ارتياحكم الذى قد يؤدى بكم إلى اتباع الخشونة مع غير المؤمنين، و الخروج بالتالى عن طريق التى هى أحسن، ممّا يؤدى إلى نزغ الشيطان.

الآية التّالية ذهبت أكثر من الآية السابقة فى التعبير عن إحاطه اللّه تبارك و تعالى و علمه بأعمال و نيّات عباده، فقالت: وَ رَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّماواتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲

وَ الْأَرْضِ ثمّ أضافت: وَ لَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً.

هذا التعبير القرآنى جواب على أحد أسئلة المشركين و شكوكهم، حيث كانوا يقولون- بأسلوب استهزائى- لماذا انتخب اللّه للنّبوة محمّد اليتيم، ثمّ ما الذى حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبيّا و حسب، و إنّما خاتم الأنبياء؟

القرآن یقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلک، لأنّ اللّه علیم بقیمة کل إنسان، و هو سبحانه و تعالی ینتخب أنبیاءه من بین عامّة الناس، و یفضل بعضهم علی بعض، إذ جعل أحدهم (خلیل اللّه) و الآخر (کلیم اللّه) و الثّالث (روح اللّه)، أمّا نبیّنا فقد انتخبه بعنوان (حبیب اللّه). و باختصار: لقد فضل اللّه بعض النّبیین علی بعض لموازین یعلمها هو و تختص بها حکمته جلّ و علا.

أمّا لماذا اختار تبارک و تعالی (داود) من بین جمیع الأنبیاء، و ذکر (الزبور) من دون الکتب السماویة الأخری؟ ... قد یکون السبب ما یلی:

أوّلا: یختص زبور داود علیه السّلام من بین جمیع کتب الأنبیاء بأنّ جمیعه علی شکل مناجاة و دعاء، و ذکره هنا یتلائم أکثر مع موقع هذه الآیات و حدیثها عن القول الحسن و الکلام الجمیل.

ثانیا: فی زبور داود إخبار عن حکومة الصالحین الذین هم ظاهرا أناس فقراء و یتامی. و هذا الإخبار یتناسب مع دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین الذین یکونوا عادة فی زمرة الفقراء، و هو رد علی إشکال المشرکین و أسئلتهم و شکوکهم ۱۵].

ثالثا: بالرّغم من أنّ داود علیه السّلام کان له حکم عظیم و دولة کبیرة و ملک واسع، إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳

أنّ اللّه سبحانه لم یجعل هذه الأمور سببا لافتخاره، بل اعتبر کتاب الزّبور فخره، حتی یدرک المشرکون أنّ عظمة الإنسان، لیس لها علاقة بالمال و الثروة و وجود الحکومة و السلطة، کما أنّ الیتم و الفقر لیس مدعاة للذل أو دلیلا علی الحقارة.

رابعا: بعض الیهود قالوا: لا یمکن نزول کتاب سماوی آخر بعد موسی علیه السّلام، و القرآن یقول لهم: إنّنا أعطینا داود زبورا، فلما ذا تتعجبون من نزول القرآن؟

(بالطبع کتاب داود کان کتابا للأخلاق و لیس للأحکام، و لکنّه نزل من اللّه سبحانه و تعالی بعد التّوراة).

فی کل الأحوال، لیس هناک من مانع أن تکون النقاط الأربع أعلاه سببا لانتخاب داود و زبوره من بین جمیع الأنبیاء، و جمیع الکتب السماویة.

الآیة التی تلیها تستمر فی اتجاه الآیات السابقة، إذ تقول للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یخاطب المشرکین بقوله تعالی: قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا یَمْلِکُونَ کَشْفَ الضُّرِّ عَنْکُمْ وَ لا تَحْوِیلًا.

إنّ هذه الآیة- فی الحقیقة، کما فی آیات أخری کثیرة- تبطل منطق المشرکین و تضرب، صمیم عقیدتهم من هذا الطریق، و هو أنّ عبادة الآلهة من دون اللّه، إمّا بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، فی حین أنّ الآلهة التی یعبدونها لیس لها القدرة علی حل مشکلة معینة أو حتی تحریکها؛ أی نقل المشکلة من مستوی معین إلی مستوی أقل.

لذا فإنّ ذکر جملة وَ لا تَحْوِیلًا بعد قوله فَلا یَمْلِکُونَ کَشْفَ الضُّرِّ إشارة إلی أنّ هؤلاء لیست لهم القدرة للتأثیر الکامل فی حل المشاکل بشکل نهائی، و لا القدرة للتأثیر الناقص فی تغییر هذه المشاکل و حلّها بشکل جزئی.

«زعمتم» مأخوذة من «زعم» و هی عادة ما تعنی المعنی الناقص، لذا نقل عن ابن عباس أنّه متی ما جاءت کلمة (زعم) فی القرآن فإنّها تعنی الکذب و العقائد الباطلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴

أمّا الراغب الأصفهانی فی کتاب المفردات فیقول: «الزعم حکایة قول یکون مظنّة للکذب». لذا فإنّ هذه الکلمة وردت مذمومة فی جمیع الموارد التی ذکرت فی القرآن الکریم.

أمّا کلمة (کشف) ففی الأصل تعنی إبعاد الستار أو اللباس أو ما شابهه عن شی معین. و إذا استخدمت فی تعبیر (کشف الضر) فتعنی إبعاد الحزن و الغم و المرض؛ و السبب فی ذلک أنّ هذه الأمور تعتبر کالستار التی یغطی وجه الإنسان و جسمه، إذ تغطی الوجه الحقیقی الذی هو عبارة عن السلامة و الراحة و الهدوء، لذلک فإنّ إزالة هذا الغم و الحزن یعتبر (کشفا للضر).

من الضرورى أيضا الالتفات هنا إلى ملاحظة مهمّة هى أنّ استخدام تعبير «الذين» فى هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التى يشركها الإنسان مع اللّه (كالأصنام و غيرها) بل يشمل الملائكة و المسيح و أمثالهم، لأنّ (الذين) فى اللغة العربية هى اسم إشارة يستخدم عادة للعاقل.

بعد ذلك تؤكّد الآية التالية على ما ذكرناه فى الآية السّابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون اللّه أن يحلّوا مشاكلكم، أو أن يجيبوا لكم طلباتكم بدون إذن اللّه سبحانه و تعالى؟

الآية تجيب على ذلك بأنّ هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت اللّه، و يلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدّسة لقضاء حوائجهم و حل مشاكلهم و تحقيق ما يريدونه: أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَ يَخافُونَ عَذابَهُ إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ كانَ مَحْذُوراً.

فى تفسير قوله تعالى أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لمفسرى القرآن العظيم آراء مختلفة فى ذلك، نحاول استعراضها فيما يلى:

ذهب بعض كبار مفسرى الإسلام إلى: أنّ التعبير القرآنى يشير إلى أنّ أولياء اللّه يذهبون إلى الملائكة و الأنبياء (الذين يعبدهم المشركون من دون اللّه)، أيّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵

أقرب إلى اللّه فيقربون إليه أكثر. و هؤلاء لا يملكون شيئا من عندهم، بل كل ما يملكونه هو من اللّه، و كلما يرتفعون فى المقام تزداد طاعتهم و عبوديتهم ۱۶].

البعض الآخر من المفسّرين يعتقد بأنّ مفهوم التعبير القرآنى هو أنّهم يحاولون التسابق فى التقرّب من الخالق، ففى طريق طاعة اللّه و التقرب من ذاته المقدّسة اشترك هؤلاء فى مسابقة معنوية، حيث يحاول كل واحد منهم أن يتقدم على الآخر فى الميدان.

و الآية- بعد ذلك- تقول: الذين يتصفون بهذه الصفات هل يمكن عبادتهم من دون اللّه، و هل هم مستقلون ۱۷]؟

أمّا التّفسير الذى يقول: إنّهم يسلكون أى وسيلة تقربهم من اللّه، فاحتماله بعيد جدّا، لأنّ ضمير (هم) فى «أيّهم» و الذى يستخدم لجمع المذكر، لا يتلائم مع هذا المعنى، بل كان يجب أن يكون «أيّها» ليستقيم الرأى و بالإضافة إلى ذلك فإنّ جملة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ تقع على شكل مبتدأ و خبر، فى حين أنّها وفقا لهذا المعنى يجب أن تكون على شكل مفعول أو بدلا عن المفعول.

ما هى الوسيلة؟

هذه الكلمة استخدمت فى موضعين فى القرآن الكريم، الموضع الأوّل فى هذه الآية، و الآخر فى الآية (۳۵) من سورة المائدة فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَ جاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و قد قلنا هناك: إنّ (الوسيلة) تعنى (التقرب) أو الشىء الذى يبعث على التقرّب (أو النتيجة التى يمكن الحصول عليها من التقرّب).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶

على هذا الأساس فإنّ هناك مفهوما واسعا جدّا لكلمة (الوسيلة) يشمل كل عمل جميل و لائق، و تدخل فى مفهومها كل صفة بارزة أخرى، لأنّ كل هذه الأمور تكون سببا فى التقرب من اللّه.

و نقرأ

فى الكلمات الحكيمة للإمام على عليه السّلام فى الخطبة (۱۱۰) من نهج البلاغة قوله عليه السّلام: «إنّ أفضل ما توسل به المتوسلون إلى اللّه سبحانه و تعالى، الإيمان به و برسوله، و الجهاد فى سبيله، و أقام الصلاة، و إيتاء الزكاة، و صوم شهر رمضان، و حج البيت و اعتماره، وصلة الرحم، و صدقة السّر، و صدقة العلانية، و صنائع المعروف فإنّها تقى مصارع الهوان»[۱۸].

شفاعة الأنبياء و الصالحين و المقرّبين التى تكون مقبولة فى حضرة اللّه تبارك و تعالى، كما تصرح بذلك الآيات القرآنية، تعتبر أيضا من وسائل التقرّب.

و ينبغى هنا عدم التباس الأمور، إذ أنّ التوسّل بالمقربين من اللّه تعالى لا يعنى أنّ الإنسان يريد شيئا من النّبى أو الإمام بشكل مستقل، أو أنّهم يقومون بحل مشاكله بشكل مستقل عن اللّه، بل الهدف هو أن يضع الإنسان نفسه فى خطّهم و يطبق برامجهم، ثمّ يطلب من اللّه بحقهم، حتى يعطى اللّه إذن الشفاعة لهم. (لمزيد من التفاصيل يراجع التّفسير الأمثل، الآية (۵۳: من سورة المائدة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

اشارة

وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (۵۸) وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِها وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً (۵۹) وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً (۶۰)

التّفسير

بعد أنّ تحدثت الآيات السابقة مع المشركين فى قضايا التوحيد و المعاد، تبدأ أوّل آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسّم هذه الآية النهائية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أنّ هذه الدنيا دار زوال و أنّ البقاء الأبدى فى مكان آخر، لذلك ما عليهم إلّا تهيئة أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: وَ إِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸

الْقِيامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوها عَذاباً شَدِيداً.

فالطغاة و الظالمون نبيدهم بواسطة العذاب، أمّا الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

و أخيرا، فإنّ هذه الدنيا زائلة و الكل يسلك طريق الفناء كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً. و الكتاب هنا هو نفس اللوح المحفوظ و هو العلم اللامتناهى للخالق جلا و علا، و مجموعة القوانين الإلهية التى لا يمكن التخلّف عنها فى عالم الوجود هذا.

و نظرا لهذا القانون الحتمى الذى لا يمكن تغييره يجب على المشركين و الظالمين و المنحرفين- من الآن- أن يحاسبوا أنفسهم لأنّهم حتى لو بقوا أحياء حتى نهاية هذه الدنيا، فإنّ عاقبتهم ستكون الفناء ثمّ الحساب و الجزاء.

و هنا قد يقول المشركون: نحن لا مانع لدينا من الإيمان و لكن بشرط أن يقوم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بجميع المعجزات التى نقترحها عليه، أى أن يستسلم لحججنا.

القرآن يجيب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ

الآية تشير إلى أنّ اللّه تبارك أرسل معجزات كثيرة و كافية لدلالة على صدق الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا ما تقترحونه من معجزات فهى غير مقبولة، لأنّكم بعد وقوعها و مشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أنّ الأمم السابقة و التى كانت أوضاعها و حالاتها مماثلة لأوضاعكم و حالاتكم، اقترحت نفس الاقتراحات ثمّ لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: وَ آتَيْنا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً لقد طلب قوم صالح الناقة فأخرجها اللّه لهم من الجبل، و أجيبت بذلك المعجزة التى طلبوها، و قد كانت معجزة واضحة و موضّحة! و لكن بالرغم من كل ذلك فَظَلَمُوا بِها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹

و عادة فإنّه ليس من مقتضيات البرنامج الإلهى أن يستجيب لأى معجزة يقترحها إنسان، أو أن ينصاع إلى تنفيذها الرّسول، و لكن الهدف هو: وَ ما نُرْسِلُ بِالْآياتِ إِلَّا تَخْوِيفاً. إنّ أنبياء اللّه ليسوا أفرادا خارقى العادة حتى يجلسوا و ينفذوا أىّ اقتراح يقترح عليهم و إنّما مسئوليتهم إبلاغ دعوة اللّه و التعليم و التربية و إقامة الحكومة العادلة، إلّا أنّهم يظهرون المعجزات من أجل إثبات علاقتهم بالخالق جلّ و علا، و بالقدر الذى يناسب هذا الإثبات ليس أكثر.

ثمّ يواسى اللّه تبارك و تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقابل عناد المشركين و إلحاحهم بالباطل، إذ يبيّن له أن ليس هذا بالشىء الجديد: وَ إِذْ قُلْنا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحاطَ بِالنَّاسِ ففى قبال دعوة الأنبياء عليهم السّلام هناك دائما مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقية السريرة، صافية الفطرة، فى مقابل مجموعة أخرى معاندة مكابرة لجوجة تتحجج و تجد لنفسها المعاذير فى معاداة الدعوات و إيذاء الأنبياء. و هكذا يتشابه الحال بين الأمس و اليوم.

ثمّ يضيف تعالى: وَ ما جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْناكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ و امتحانا لهم، و كذلك الشجرة الملعونة هى أيضا امتحان و فتنة للناس: وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ

فيما يخص المقصود من (الرؤيا) و (الشجرة الملعونة) فسنبحث ذلك فى مجموعة الملاحظات التى ستأتى بعد قليل إن شاء اللّه.

و فى الختام يأتى قوله تعالى: وَ نُخَوِّفُهُمْ فَما يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْياناً كَبِيراً.

لماذا؟ لأنّه ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق و التسليم له، فإنّ الكلام ليس لا يؤثر فيه و حسب، بل إنّ له آثارا معكوسة، حيث يزيد فى ضلال هؤلاء و عنادهم بسبب تعصبهم و مقاومتهم السلبية و انغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمّل ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰

بحوث

۱- رؤيا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الشّجرة الملعونة

كثر الكلام بين المفسّرين عن المقصود بالرؤيا و نجمل هذه الأقوال بما يلى:

أ: بعض المفسّرين قالوا: إنّ هذه الرؤيا لا تعنى رؤيا المنام، بل تعنى المشاهدة الحيّة الحقيقية للعين، و يعتبرونها (أى الرؤيا) إشارة إلى قصّة المعراج التى ورد ذكرها فى بداية هذه السورة.

فالقرآن و وفقا لهذا التّفسير يقول: إنّ حادثة المعراج هى بمثابة اختبار للناس، لأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما إن شرع بذكر قصّة المعراج و الإخبار عنها، حتى ارتفعت أصوات الناس، بآراء مختلفة حولها، فالأعداء استهزؤا بها، و ضعيفو الإيمان نظروا إليها بشىء من التردّد و الشك، أمّا المؤمنون الحقيقيون فقد صدّقوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما أخبر، و اعتقدوا بالمعراج بشكل كامل، لأنّ مثل هذه الأمور تعتبر بسيطة فى مقابل القدرة المطلقة للخالق جلّ و علا.

الملاحظة الوحيدة التى يمكن درجها على هذا التّفسير، هى أنّ الرؤيا عادة ما تطلق على رؤيا المنام، لا الرؤيا فى اليقظة.

ب: نقل عن ابن عباس، أنّ المقصود بالرؤيا، هى الرؤيا التى رآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى السّنة السّادسة من الهجرة المباركة (أى عام الحديبية) فى المدينة، و بشرّ بها الناس أنّهم سينتصرون على قريش قريبا و سيدخلون المسجد الحرام آمنين.

و من المعلوم أنّ هذه الرؤيا لم تتحقق فى تلك السنة، بل تحققت بعد سنتين أى فى عام فتح مكّة. و هذا المقدار من التأخير جعل أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقعون فى بوتقة الاختبار، إذ أصيب ضعيفو الإيمان بالشك و الريبة من رؤيا الرّسول و

قوله، فى حين أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيّن لهم- بصراحة- بأنّنى لم أقل لكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱

بأنّنا سنذهب إلى مكّة هذا العام، بل فى المستقبل القريب. (و هذا ما حصل بالفعل).

الاعتراض الذى يمكن أن يرد على هذا التّفسير، هو أنّ سورة بنى إسرائيل من السور المكّية، بينما حادثة الحديبية وقعت فى العام السّادس للهجرة المباركة!! ج: مجموعة من المفسّرين الشيعة و السنة، نقلوا أنّ هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة و التى رأى فيها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المنام أن عددا من القرود تصعد منبره و تنزل منه (تنزو على منبره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)، و قد حزن صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كثيرا لهذا الأمر بحيث لم ير ضاحكا من بعدها إلّا قليلا (و قد تمّ تفسير هذه القرود التى تنزو على منبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ببنى أمية الذين جلسوا مكان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الواحد تلو الآخر، يقلّد بعضهم بعضا، و كانوا ممسوخى الشخصية، و قد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، و خلافة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و نقل هذه الرّواية (الفخر الرازى) فى التّفسير الكبير، و (القرطبى) فى تفسيره الجامع و (الطبرسى) فى مجمع البيان، و غيرهم.

و يقول الفيض الكاشانى فى تفسير الصافى، بأنّ هذه الرّواية من الرّوايات المعروفة فى أوساط العامّة و الخاصّة.

ثمة إشارة نلاحظ فيها، إنّ التفاسير الثلاثة هذه فى «الرؤيا» من الممكن أن تشترك جميعا فى تفسير الآية، و لكن التّفسير الثّانى كما أشرنا- لا ينطبق مع مكّية السورة. و بالنسبة للمقصود من الشجرة الملعونة فقد واجهتنا أيضا مجموعة من التفاسير التى يمكن أن نجمل القول بها فى الآراء الآتية:

أ: الشجرة الملعونة التى ورد ذكرها فى القرآن هى (شجرة الزقوم) و هى الشّجرة التى تنمو فى الجحيم طبقا للآية (۶۴) من سورة الصافات فى قوله تعالى إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ و لهذه الشجرة طعم مج و مؤذ، و ثمارها طعام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲

للمذنبين طبقا للآيات ۴۳- ۴۶ من سورة الدخان إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ و طعامها ليس كطعام الدنيا بل يشبه المعدن المذاب بالحرارة و الذى يغلى فى الأحشاء. و سيرد تفسيرها بشكل كامل فى تفسير الآيات من سورة الدخان إن شاء اللّه.

إنّ شجرة الزقوم- بدون شك- لا تشبه أشجار الدنيا أبدا، و لهذا السبب فإنّها تنمو فى النار، و طبيعى أنّنا لا ندرك هذه الأمور المتعلقة بالعالم الآخر إلّا على شكل أشباح و تصورات ذهنية.

لقد استهزأ المشركون بهذه التعابير و الأوصاف القرآنية بسبب من جهلهم و عدم معرفتهم و عنادهم، فأبو جهل- مثلا- كان يقول: إنّ محمّدا يهددكم بنار تحرق الأحجار، ثمّ يقول بعد ذلك بأنّ فى النار أشجارا تنمو! و ينقل عن أبى جهل- أيضا- أنّه كان يهيئ التمر و السمن و يأكل منه ثمّ يقول لأصحابه: كلوا من هذا فإنّه الزقوم. (نقلا عن روح المعانى فى تفسير الآية).

لهذا السبب فإنّ القرآن يعتبر الشجرة الملعونة فى الآيات التى نبحثها، وسيلة لاختبار الناس، إذ كان المشركون يستهزئون بها، بينما استيقنها المؤمنون الحقيقيون الذين كانوا يؤمنون بها.

و يمكن أن يطرح على هذا التّفسير السؤال الآتى: إنّ شجرة الزقوم لم تطرح فى القرآن بعنوان الشجرة المعلونة؟

فى الإجابة على ذلك نقول: يمكن أن يكون المقصود هو اللعن آكليها.

بالإضافة إلى ذلك إنّه ما من شىء بعد رحمة اللّه سوى اللعن، و طبيعى جدا أنّ مثل هذه الشجرة بعيدة جدّا عن رحمة اللّه.

ب: الشجرة الملعونة، هم اليهود البغاة، إذ أنّهم يشبهون الشجرة ذات الفروع و الأوراق الكثيرة، و لكنّهم مطرودون من مقام الرحمة الإلهية.

ج: جاء فى الكثير من تفاسير الشيعة و السنة أنّ الشجرة الملعونة هم بنو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳

أمیة.

ینقل الفخر الرازی فی تفسیره روایة فی هذا المجال عن ابن عباس الذی أدرک الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و اشتهر فی التاریخ الإسلامی بکونه مفسرا للقرآن الکریم.

هذا التّفسیر یتلاءم من جهة مع الرّوایة التی ذکرناها أعلاه بخصوص رؤیا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و هو أیضا یتلاءم مع الحدیث المنقول عن عائشة و التی التفتت فیه إلی مروان و قالت له: «لعن اللّه أباک و أنت فی صلبه، فأنت بعض من لعنه اللّه»[۱۹].

و لکن مرّة أخری یطرح هذا السؤال: فی أی مکان من القرآن تمّ لعن بنی أمیة باعتبارهم الشجرة الخبیثة؟

فی الجواب نقول: لقد تمّ ذلک فی الآیة (۲۶) من سورة إبراهیم عند الحدیث عن الشجرة الخبیثة وَ مَثَلُ کَلِمَةٍ خَبِیثَةٍ کَشَجَرَةٍ خَبِیثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ. و ذلک للمفهوم الواسع للشجرة الخبیثة، و لما ورد من روایات فی تفسیرها بأنّ المقصود منها هم بنو أمیّة، ثمّ إنّ (الخبیثة) تقترن من حیث المعنی ب (الملعونة)[۲۰].

و جدیر بالذکر هنا، أنّ الکثیر من هذه التّفاسیر أو کلّها لا تتعارض فیما بینها، و من الممکن أن تکون (الشجرة الملعونة) فی القرآن إشارة إلی أی مجموعة منافقة و خبیثة و مطرودة من رحمة اللّه تعالی و مقام الربوبیة، خصوصا تلک المجامیع مثل بنی أمیة و الیهود قساة القلب، و المعاندین و کل الذین یسیرون علی خطاهم. و شجرة الزقوم فی القیامة تمثل الأشجار الخبیثة فی العالم الآخر، و کل هذه الأشجار الخبیثة (المجامیع المعنیة) هی لاختبار و تمحیص المؤمنین الصادقین فی الحیاة الدنیا.

إنّ الیهود الذین سیطروا الیوم- زورا و غصبا- علی المقدسات الإسلامیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴

و الذین یشعلون نار الفتنة و الحرب فی کل زاویة من زوایا العالم، و یفتعلون العدید من الجرائم و المظالم بحق الشعوب، إضافة إلی المنافقین الذین یتعاملون معهم تعاملا سیاسیا و غیر سیاسی، و کذلک کل المتسلطین الذین یسیرون علی خطی بنی أمیة فی البلاد الإسلامیة، و یقفون ضدّ الإسلام، و یبعدون المخلصین و المؤمنین من حرکه المجتمع، و یقومون بتسلیط المجرمین و الخبثاء علی رقاب الناس، و یقتلون أهل الحق و المجاهدین، و یفتحون المجال لبقایا الجاهلیة فی استلام الأمور و التحکّم بالمقدرات ... إنّ هؤلاء جمیعا هم فروع و أغصان و أوراق هذه الشجرة الخبیثة المعلونة، و هم علامات اختبار و مواقع امتحان للمؤمنین و لعامّة الناس فی هذه الحیاة الدنیا.

۲- أعذار منکری الإعجاز

إنّ بعض الجهلة و الغافلین فی عصرنا الحاضر، یقولون: إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم تکن لدیه من معجزة سوی القرآن الکریم، و یقدمون مختلف الحجج من أجل إثبات أقوالهم و دعاواهم، و ممّا یحتجون به قوله تعالی: وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآیاتِ إِلَّا أَنْ کَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ حیث یعتبرونها دلیلا علی أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یأت بمعجزة، بخلاف باقی الأنبیاء السابقین.

و لکن العجیب فی أمر هؤلاء أنّهم التزموا بأوّل الآیة و ترکوا آخرها، حیث تقول نهایة الآیة وَ ما نُرْسِلُ بِالْآیاتِ إِلَّا تَخْوِیفاً هذا التعبیر القرآنی یوضح أنّ المعجزات تقع علی نوعین:

القسم الأوّل: المعجزات التی لها ضرورة لإثبات صدق دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تشوق المؤمنین، و تخوّف المنکرین للنّبوة.

القسم الثّانی: المعجزات التی لها جانب اقتراحی، أی إنّها تصدر من اقتراحات المعاندین و تنطلق من أمزجة ذوی الأعذار، و فی تأریخ الأنبیاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵

نماذج عدیدة لهذه المعجزات، التی وقع بعضها فعلا، إلّا أنّ المنکرین و الذین سبق لهم اقتراح هذه المعجزات کشرط لإیمانهم، بقوا علی إنکارهم و لم یؤمنوا بعد وقوع المعجزة، لذلک أصیبوا بالبلاء و العذاب الإلهی. (لأنّه وقعت المعجزة المقترحة و لم یؤمن بها من اقترحها و طلبها فإنّه سیستحق العقاب الإلهی السریع).

بناء علی ذلک، فما نشاهده فی الآیة أعلاه و التی تخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إنّما هی نفی للنوع الثّانی من المعجزات، و لیس للنوع الأوّل، الذی یعتبر ملازما للنّبوة و ضروریا لها.

صحیح أنّ القرآن یعتبر لوحده معجزة خالدة، و یمکنه لوحده اثبات دعوی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم (إذا لم تکن معه معجزة أخری)، و لکن- بدون شک- فإنّ القرآن یعتبر معجزة معنویة، و هو أفضل شاهد بالنسبة لأهل الفکر، و لکن لا یمکن إنکار أهمیة أن تکون مع هذه المعجزة، معجزات مادیة محسوسة بالنسبة للأفراد العادیین و عموم الناس، خاصّة و أن القرآن یتحدث مرارا عن مثل هذه المعجزات التی وقعت للأنبیاء السابقین، و هذا الحدیث یعتبر- بحدّ ذاته- سببا فی أن یطالب الناس رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتقدیم المعجزات التی تقع علی منوال معجزات الأنبیاء السابقین، خصوصا و أنّ الناس کانوا یقولون لرسول الإسلام: کیف تدعی بأنّک أفضل الأنبیاء و خاتمهم و لا تستطیع أن تقدّم لنا أصغر معجزة من معجزاتهم. (!!!)؟

إنّ أفضل جواب لهذا التساؤل هو مجیء رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بنماذج من معجزات الأنبیاء السابقین، و التواریخ الإسلامیة المتواترة تؤکّد بأنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد جاء بمثل هذه المعجزات.

ففی القرآن تواجهنا نماذج لهذه المعجزات، مثل التنبؤ بحوادث مختلفة، أو نصرة الملائکة لجیش الإسلام علی الأعداء، و أمور خارقة أخری لا سیما ما کان یقع فی الحروب الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶

۳- ما العلاقة بین المنکرین سابقا و المنکرین لا حقا؟

قد یطرح أحیانا هذا السؤال حیث یبیّن القرآن- فی الآیات أعلاه- أنّ السابقین اقترحوا معجزات معیّنة ثمّ لم یؤمنوا بعد وقوعها، بل استمروا فی تکذیبهم و إنکارهم و عنادهم، لذا فقد أصبح هذا سببا لعدم إجابة مقترحاتکم.

و السؤال هنا: هل أنّ تکذیب السابقین یکون سببا لحرمان الأجیال اللاحقة، أی کیف یؤخذ هؤلاء بجریرة أولئک؟

الجواب علی هذا السؤال واضح من خلال ما ذکرناه أعلاه، حیث یسود هذا التعبیر و یروج فی أوساطنا، إذ نقول- مثلا- لأحدهم: لا نستطیع أن نسلّم بحججک، فإذا سأل الطرف الآخر: لماذا؟ فإنّنا نقول له: إنّ هناک سوابق کثیرة لهذا العمل، فهناک من قدّم اقتراحات إلّا أنّهم لم یستسلموا للحق لما جاءهم، لذا فإنّ وضعکم و ظروفکم تشابه أولئک. إضافة لذلک، فإنّکم توافقون أولئک الأقوام علی أسالیبهم، بل و تدعمونها، و أثبتم عملیا أنّکم لا ترغبون فی البحث عن الحق و الحقیقة، بل إنّ هدفکم هو مجرّد العناد و التحجج و البقاء فی طور المعاذیر، ثمّ تتبعون ذلک کلّه بالعناد و المکابرة و الإنکار، لذا فإنّ الرضوخ إلی مقترحاتکم و إجابتها لا معنی له.

فهؤلاء القوم- مثلا- عند ما أخبرهم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّ أهل النّار یأکلون من شجرة تسمّی (زقوم) و تخرج فی أصل الجحیم و لها أوصاف معینة، بدأوا بالسخریة و الاستهزاء- کما ذکرنا سابقا- فالبعض منهم کان یقول: إنّ الزقوم هو التمر و السمن، و بعض کان یقول: کیف تنمو الأشجار فی الجحیم المستعر من الحجارة؟ فی حین أن المعنی واضح و لا یحتاج إلی مثل هذه

المكابرة و العناد، إذ أنّ الشجرة المقصودة لا تشبه أشجار هذه الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۱ الى ۶۵]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (۶۱) قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (۶۲) قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً (۶۳) وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ وَ عِدْهُمْ وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً (۶۴) إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (۶۵)

التّفسير

مكر إبليس:

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر اللّه فى السجود لآدم عليه السّلام، و العاقبة السيئة التى انتهى إليها.

إنّ طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸

الواقع- إلى أنّ الشيطان يعتبر نموذجا كاملا للاستكبار و الكفر و العصيان. ثمّ انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإنّ من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة.

إضافة إلى ذلك، فإنّ إصرار الضالين عميان القلوب على مخالفة الحق، لا يعتبر مدعاة للعجب و الدهشة، لأنّ الشيطان استطاع- وفقا لما يستفاد من هذه الآيات- أن يغويهم بواسطة عدّة طرق، و فى الواقع حقق فيهم قولته لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ الآية تقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لقد قلنا سابقا فى نهاية الآيات الخاصّة بخلق آدم عليه السّلام: إنّ هذه السجدة التى أمر اللّه تعالى بها هى فى الحقيقة نوع من الخضوع و التواضع بسبب عظمة خلق آدم عليه السّلام و تميزه عن سائر الموجودات، أو هى سجود للخالق جلّ و علا فى قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

و قلنا هناك أيضا: إنّ إبليس و برغم ذكره هنا- استثناء- مع الملائكة، إلّا أنّه- بشهادة القرآن- لم يكن من الملائكة، بل كان مخلوقا ماديا و من الجن، و قد أصبح فى صف الملائكة بسبب عبادته للّه.

على كل حال، فقد سيطر الكبر و الغرور على إبليس و تحكّمت الأنانية فى عقله، ظنا منه بأنّ التراب و الطين اللذان يعتبران مصدرا لكل الخيرات و منبعا للحياة أقل شأنا و أهمية عن النّار، لذا اعترض على الخالق جلّ و علا و قال: قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً.

و لكنّه عند ما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره و طغيانه فى مقابل أمر اللّه له، قال: قالَ أَ رَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا.[۲۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹

«أحتنكن» مشتقّة من «احتناك» و هى تعنى قطع جذور شىء ما، لذا فعند ما يأكل الجراد المزروعات تقول العرب: احتنك الجراد الزرع، لذا فإنّ هذا القول يشير إلى أن إبليس سيحرف كل بنى آدم عن طريق اللّه و طاعته، إلّا القليل منهم.

و يحتمل أن تكون كلمـة (احتنكن) مشـتقة من (حنك) و هى المنطقـة التى تحت البلعوم، فعند ما يوضع الحبل فى رقبة الحيوان تقول العرب (احتنك الدابة)، و فى الواقع، فإنّ الشيطان يريد أن يقول بأنّه سيضع حبل الوسوسة فى أعناق الناس و يجرهم إلى طريق الغواية و الضلال.

و هكـذا كـان، فقـد أعطى الشـيطان إمكانيـة البقـاء و الفعاليـة حـتى يتحقق الاختبـار للجميع، و يكون وجوده سـببا لتمحيص و اختبـار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشـتدّ عزمه عنـد ما تهاجمه الحوادث و يقوى عوده فى مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً. و بهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح فى الامتحان الإلهى الكبير.

ثمّ ذكرت الآيات بعد ذلك- بأسلوب جميل- الطرق التى ينفذ منها الشيطان و الأساليب التى يستخدمها فى الوسوسة و الإغواء فقالت:

وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ...

وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجِلِكَ ...

وَ شارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ ..

وَ عِدْهُمْ ...

ثمّ يجىء التحذير الإلهى: وَ ما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰

ثمّ اعلم أيّها الشيطان: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ... وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

بحوث

۱- فى معانى الكلمات

«اسـتفزز» مشتقة من «استفزاز» و هى تعنى الإثارة؛ الإثارة السريعة و العادية، و لكنّ الكلمة فى الأصل تعنى قطع شىء ما، فالعرب تقول «تفزّز الثوب» إذا تقطّع أو انفصلت منه قطعة.

و استعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص و إثارته لينقطع عن الحق يتوجه نحو الباطل.

«اجلب» مأخوذ من «إجلاب» و فى الأصل من «جلبة» و هى تعنى الصـرخة الشديدة، و الإجلاب تعنى الطرد مع الأصوات و الصرخات.

و أمّـا النهى عن «الجلب» الوارد فى الرّوايـات فهو إمّـا أن يعنى أنّ الـذى يـذهب إلى المزارع لجمع الزكـاة يجب عليه أن لا ـ يصـيح و يصـرخ بحيث يخيف الأحيـاء، أو أنّه يعنى أنّ على المتسـابقين عنـد سـباق الخيـل أن لا يصـرخوا فى وجوه الخيل الأخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل» لها معنيان، فهى تعنى «الخيول» و أيضا تعنى (الخيالة)، أمّا فى هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثّانى.

أمّا «رجل» فهى تعنى معكوس (الخيالة) أى (جيش الرجّالة و المشاة) و بهذا يتكون جيش الشيطان من (الخيالة و الرجّالة) من جنسه أو من غير جنسه، و هذا يعنى أنّ البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان و يصبح من أعوانه و مساعديه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱

فهؤلاء كالخيّالة. أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء و على مهل كالمشاة و الرجّالة[۲۲]!

۲- وسائل الشيطان المختلفة فى الوسوسة و الإغواء

بالرغم من أنّ المخاطب فى الآيات أعلاه هو الشيطان، و أنّ اللّه جلّ جلاله يتوعده و يقول له: افعل كل ما تريده فى سبيل غواية الناس، و استخدم كل طرقك فى ذلك، إلّا أنّ هذا الوعيد- فى الواقع- هو تهديد و تنبيه لنا نحن بنى الإنسان حتى نعرف الطرق التى ينفذ منها الشيطان و الوسائل التى يستخدمها فى وساوسه و إغوائه.

الطريف فى الأمر أنّ الآيات القرآنية أعلاه تشير إلى أربعة طرق و أساليب مهمّة و أساسية من أساليب الشيطان، و تقول للإنسان: عليك بمراقبة نفسك من خلال الجوانب الأربعة هذه:

أ: البرامج التبليغية التى تجد دلالتها فى التعبير القرآنى وَ اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ حيث اعتبر بعض المفسّرين أنّها تعنى- فقط- أنغام الموسيقى الشهوانية المثيرة، و الأغانى المبتذلة، و لكن هذا المعنى يتسع حتى يشمل جميع البرامج الدعائية التى تقود للانحراف و التى تستخدم- عادة- الأجهزة الصوتية و السمعية.

لهذا فإنّ أوّل برامج الشيطان هو الاستفادة من هذه الأجهزة. هذه القضية تتوضح فى زماننا هذا أكثر، لأنّ عالمنا اليوم هو عالم الأمواج الراديوية، و عالم الدعاية و التبليغ الواسع، سواء كان على الصعيد السمعى أو البصرى. حيث أنّ الشياطين و أحزابهم فى الشرق و الغرب يعتمدون على هذه الأجهزة و يخصصون قسما كبيرا من ميزانيتهم للصرف فى هذا الطريق حتى يستعمروا عبيد اللّه، و يحرفوهم عن طريق الحق و الاستقلال، و يزيغوا بهم عن طريق الهداية و الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲

و التقوى، و يجعلون منهم عبيدا تابعين لا حول لهم و لا قوة.

ب: الاستفادة من القوة العسكرية: و هذا لا يخص زماننا حيث أنّ الشياطين يستخدمون القوّة العسكرية لأجل الحصول على مناطق للنفوذ. إنّ الأداة العسكرية تعتبر أداة خطرة لكل الظالمين و المستكبرين فى العالم. فهؤلاء و فى لحظة واحدة يصرخون فى قواتهم العسكرية و يرسلونها إلى المناطق التى تحاول الحصول على حريتها و استقلالها و تسعى إلى الاعتماد بقوات على قدراتها الخاصّة.

و فى عصرنا الحاضر نرى أنّهم نظّموا ما يسمونه بقوات (التدخل السريع) و الذى هو نفس مفهوم (الإجلاب) القرآنى، و هذا يعنى أنّهم جعلوا جزءا من قواتهم العسكرية على شكل قوات خاصّة كى يستطيعوا إرسالها فى أسرع وقت إلى أى منطقة من مناطق العالم تتعرض فيها مصالحهم غير المشروعة للخطر، لكى يقضوا بواسطة هذه القوات على أى حركة تطالب بالحق و تنادى بالاستقلال.

و قبل أن تصل القوات السريعة الخاصّة هذه، يكون هؤلاء قد هيأوا الأرضية بواسطة جواسيسهم الماهرين، و الذين هم فى الواقع كناية عن جيش المشاة (الرجّالة).

إنّ هؤلاء فى مخططاتهم هذه قد غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد وعد أولياءه الحقيقيين- فى نفس هذه الآيات- بأنّ الشيطان و جيشه لا يستطيع أن يسيطر عليهم.

ج: البرامج الاقتصادية ذات الظاهر الإنسانى: من أساليب الشيطان الأخرى المؤثرة فى النفوذ و الغواية، هى المشاركة فى الأموال و الأنفس، و هنا نرى أيضا:

أنّ بعض المفسّرين يخصص هذه المشاركة ب (الربا). أمّا المشاركة فى الأولاد فيحصر معناها ب «الأولاد غير الشرعين»[۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳

فى حين أنّ هاتين الكلمتين لهما معانى أوسع، إذ تشمل جميع الأموال المستحصلة عن طريق الحرام، و الأبناء غير الشرعيين و غيرهم. فمثلا- فى زماننا الحاضر نشاهد أنّ الشياطين المستكبرين يقترحون دائما استثمار و تأسيس الشركات، و إيجاد مختلف المصانع و المصالح الاقتصادية فى الدول الضعيفة، و تحت غطاء هذه الشركات تتم مختلف أشكال النشاطات الخطرة و الضارّة بالبلد المستضعف، حيث يرسل الشياطين جواسيسهم تحت عنوان خبراء فنيين أو مستشارين اقتصاديين أو مهندسين تقنيين، و يقوم هؤلاء جميعا بامتصاص خيرات البلد الذين هم فيه بأبرع الحيل و أظرفها، و يقفون حائلا بين البلد و بين تحقيقه لاستقلاله الاقتصادى على

بنية اقتصادية تحتية حقيقية.

و عن طريق تأسيس المدارس و الجامعات و المكتبات و المستشفيات و المراكز السياحية، فإنّهم يشاركون هذه الدول الضعيفة فى أبنائها حيث يحاولون أن يستميلوا هؤلاء نحوهم، و أحيانا عن طريق توفير (المنح الدراسية) لشباب، فإنّهم يقومون (بجلبهم) نحو ثقافتهم و يشاركونهم فى أفكارهم، و ما يترتب على ذلك من فساد العقيدة.

و من الأساليب الرائجة و المخربة لهؤلاء الشياطين إيجاد مراكز الفساد تحت غطاء الفنادق العالمية و إيجاد المناطق الترفيهية و دور السينما و الافلام المبتذلة و أمثال ذلك، حيث لا تكون هذه الوسائل أدوات لترويج الفحشاء و زيادة أولاد الزنا فحسب، بل تؤدى إلى انحراف جيل الشباب و تميّعهم و تغرّبهم، و تصنع منهم أشخاصا فاقدين للإرادة. و كلما أمعنا النظر فى دسائسهم و مكرهم تكشفت لنا الأخطار الكبيرة الكامنة فى هذه الوساوس الشيطانية.

د: برامج التخريب النفسى: من البرامج الأخرى التى يتبعها الشياطين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴

الاستفادة من الوعود و الأمنيات الكاذبة التى يطلقونها بمختلف الحيل، فهؤلاء الشياطين يعدّون مجموعة ماهرة و متمكنة من علماء النفس لغواية الناس البسطاء منهم و الأذكياء، كلا بما يناسب وضعه، ففى بعض الأحيان يصورون لهم حالهم بأنّهم سيصبحون قريبا من الدول المتمدنة و الكبيرة، أو أنّ شبابهم لا مثيل له، و يستطيع الشباب فى بلدانهم أن يصل من خلال إتباعه برامجهم إلى أوج العظمة، و هكذا فى بلدانهم يغرقوهم فى هذه الخيالات الواهية التى تتلخّص فى جملة وَ عِدْهُمْ

فى أحيان أخرى يسلك الشياطين طريقا معكوسة، إذ يصوّرون للبلد بأنّه لا يستطيع مطلقا مواجهة القوى الكبرى، و أنّهم متأخرون عن هذه القوى بمائة عام أو أكثر، و بهذا الأسلوب تزرع المبررات النفسية لاستمرار التخلف و عدم انطلاق جهود البلد الضعيف نحو العمل و البناء الحقيقى.

بالطبع هذه القصّة لها بدايات بعيدة، و طرق نفوذ الشيطان فيها لا تنحصر بواحد أو اثنتين.

و لكنّ (عباد اللّه) الحقيقيين و المخلصين، و بالاتكاء على الوعد القرآنى القاطع بالنصر، و الذى تضمنته هذه الآيات، سيقومون بمحاربة الشياطين و لا يسمحون بالتردد يساور أنفسهم، و هم يعلمون- برغم الأصوات الكثيرة للشياطين- أنّهم سينتصرون، و إنّهم بصبرهم و صمودهم و بإيمانهم و توكلهم على اللّه سوف يفشلون الخطط الشيطانية، و ذلك قوله تعالى: وَ كَفى بِرَبِّكَ وَكِيلًا.

۳- أمّا لماذا خلق اللّه الشيطان؟ فقد بحثنا ذلك فى الآية (۳۹) من سورة البقرة. و فيما يخص وساوس الشيطان و أشكالها و لبوساتها، و معنى الشيطان فى القرآن، فقد بحثنا كل ذلك فى ذيل الآية (۱۳) من سورة الأعراف. و الآية (۳۹) من سورة البقرة من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۶۶ الى ۶۹]

اشارة

رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً (۶۶) وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً (۶۷) أَ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (۶۸) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً (۶۹)

التّفسير

لماذا الكفران مع كلّ هذه النعم؟

هـذه الآيات تابعت البحوث السابقـة فى مجال التوحيد و محاربة الشـرك، و دخلت فى البحث من خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال و البرهان، و طريق الوجدان و مخاطبة الإنسان من الداخل.

ففى البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالى فتقول: رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۶

لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ.

طبعا هناك أنظمة لأجل حركة الفلك فى البحار، فمن جانب ينبغى وجود الماء بشكل يصلح لمسير السفن، و من جانب آخر لا بدّ من توفر بعض الأشياء التى تكون أخف من الماء كى يمكن لها أن تطفو على سطحه، و إذا كانت أثقل فيمكن صناعتها بشكل بحيث تكون أخف من الماء و تستطيع أن تتحمّل وزن الأحمال الثقيلة و الأعداد الكثيرة من البشر. و من جانب ثالث يلزم وجود القوّة المحرّكة و الّتى كان الهواء يمثلها فى السابق، حيث كان البحّارة يستفيدون من حركة التيارات الهوائية فوق المحيطات و البحار لتحديد أوقات و سرعة و اتجاه السفن، و اليوم يستفاد من طاقة البخار و أشكال الطاقة الأخرى فى حركة السفن.

من جانب آخر ينبغى وجود أسلوب لتحديد الطرق، و هذا الأسلوب كان سابقا يعتمد على الشمس و النجوم فى السماء، أمّا اليوم فإنّ السفن تستفيد من البوصلات و الخرائط و الإحداثيات الدقيقة. على أى حال، إذا لم تتوافر هذه الشروط الأربعة و لم يكن ثمّة تنسيق بينها فإنّ حركة السفن تصبح أمرا مستحيلا، و لا يكون الإنسان قادرا على الاستفادة من هذه الوسيلة المهمّة.

تعلمون- طبعا- بأنّ السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، و اليوم فإنّ هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثمّ يضيف تعالى: لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ حتى تساعدكم فى أسفاركم و نقل أموالكم و تجارتكم و تعينكم فى كل ما يخص أمور دنياكم و دينكم. أمّا لماذا؟

فلأنّ اللّه تبارك و تعالى إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً.

من هـذا التوحيد الاستدلالى و الذى يعكس جانبا صغيرا من نظام الخلق، و علم و قدرة و حكمة الخالق جلّ و علا، تنتقل الآية إلى أسلوب الاستدلال الفطرى فتقول: لا تنسوا وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِى الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ

أن يضل أى شىء من دون اللّه، لأنّ ضرر البحر إذا وقع، كالطوفان و غيره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۷

يذهب بكل الحواجز و أستار التقليد و التعصّب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة الذى هو نور التوحيد و الإيمان و العبودية للّه دون غيره.

نعم فى هذه اللحظات، فى لحظات الضرّ ينقطع الإنسان عن جميع المعبودات التصورية و الوهمية و الخيالية التى سبق و أن أعطاها قوّة بسبب أوهامه، و تمحى من ذهنه فاعليتها و وجودها و تتلاشى و تذوب تماما كما يذوب الجليد فى شمس الصيف و لا يبقى حين ذاك سوى نور الأنوار ... نور اللّه جلّ جلاله.

إنّ الآية تعبّر عن قانون عام، عرفه كلّ من جرّب ذلك، حيث تؤدى المشاكل و الصعوبات الحادة التى يمرّ بها الإنسان- و يصل السكين العظم- إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التى كان يتعلق بها الإنسان، و تنعدم فاعلية العلل المادية التى كان يتشبث بها، و تنقطع كل الأسباب، إلّا السبب الذى يصل الإنسان بمصدر العلم و القدرة المطلقتين، و الذى هو- لوحده سبحانه و تعالى- قادر على حال

أعقد المشكلات ... ليس مهمّا هنا ما الذى نسمّى فيه هذه الحالة، و إنّما المهم أنّ نعلم أن قلب الإنسان فى هذه الحالة ينفتح على الأمل بالخلاص، و تغمر القلب بنور خاص لطيف. و هذه المنعطفات هى واحدة من أقرب الطرق إلى اللّه، إنّها طريق ينبع من داخل الروح و من سويداء القلب.[۲۴] ثمّ تضيف الآية: فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً.

مرّة أخرى تغطى حجب الغرور و الغفلة و التعصب هذا النور الإلهى، و يغطى غبار العصيان و الذنوب و ملاهى الحياة المادية فطرة الإنسان و وجدانه.

و لكن هل تظنون أنّ اللّه لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد و أنتم على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۸

اليابسة و فى قلب الحصارى و البرارى؟

لذلك تقول الآية أ فَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ ثمّ أضافت: أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا، حيث تغشيكم عاصفة محمّلة بالحصى و الحجارة و تدفنكم تحتها و لا تجدون من ينقذكم منها (و فى ذلك من العذاب ما هو أشدّ من الغرق فى البحر).

إنّ المتجولين فى الصحارى و أهل البوادى يدركون أكثر من غيرهم رهبة هذا التهديد الرّبانى و الوعيد القرآنى، إذ يعرفون كيف تؤدى ثورة الكثبان الرملية فى الصحراء إلى دفع الرمال و الأحجار إلى غير مواقعها لتشكّل تلالا تدفن فى ثناياها و بطونها قوافل الجمال و من عليها.

بعد ذلك تضيف الآية مذكّرة أمثال هؤلاء بأنّكم هل تظنون أنّ هذه هى المرّة الأخيرة التى تحتاجون فيها إلى السفر فى البحر: أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً، أى لا أحد حينئذ يطالب بدمكم و يثأر لكم منّا.

بحوث

۱- الشّخصية المتقلّبة

إنّ الكثير من الناس لا يذكرون اللّه إلّا عند بروز المشاكل. و ينسونه فى الرخاء، إنّ نسيان اللّه فى حياة هؤلاء هو القاعدة و الأصل، أى أنّه صار طبيعة، ثانية لهؤلاء، لذا فإنّ ذكر اللّه بالنسبة لهؤلاء و الالتفات إلى وقائع الحياة الحقّة تعتبر حالة استثنائية فى وجودهم، تحتاج فى حضورها إلى عوامل إضافية، فما دامت هذه العوامل الإضافية موجودة فهم يذكرون اللّه، أمّا إذا زالت فسوف يرجعون إلى طبيعتهم المنحرفة و ينسون اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۹

و الخلاصة، أنّنا لا نجد من الناس بصورة عامّة من لا يلجأ إلى اللّه و لا يخضع له عند ما تضغطه المشاكل الحادّة و الصعبة، و لكن ينبغى أن نعرف أن الوعى و ذكر اللّه تعالى فى مثل هذه الظروف فى مثل هذه و الذى نستطيع أن نصفه بالوعى الإجبارى، هو وعى عديم الفائدة.

إنّ المؤمنين و المسلمين الحقيقيين، يذكرون اللّه فى الراحة و البلاء و السلامة و المرض و الفقر و الغنى، فى السجن و على كرسى الحكم، و فى أى وضع كان. إنّ تغيير الأوضاع و تبدّل الحالات لا يغيّر هؤلاء. إنّ أرواحهم كبيرة بحيث تستوعب كل هذه الأمور، مثلهم فى ذلك على بن أبى طالب عليه السّلام، حيث كانت عبادته و زهده و متابعته لأمور الفقراء لا تختلف عند وجوده فى السلطة،

أو عند ما كان جليس بيته.

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام- يقول فى وصف المتقين: «نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء»[۲۵].

و خلاصة القول: إنّ الإيمان و الارتباط باللّه و عبادته و التوسل به و التوبة إليه و التسليم له سبحانه و تعالى، كل هذه الأمور تكون مهمّة و ثمينة و ذات أثر عند ما تكون دائمية و ثابتة، أمّا الإيمان الموسمى و التوبة و العبادات الموسمية، و التى تفرضها حالات خاصّة يمرّ بها الإنسان و يبغى من خلالها جلب بعض المنافع له، فليس لها أثر و لا قيمة. و الآيات القرآنية توبخ أمثال هؤلاء الأشخاص دائما.

۲- لا يمكن الهروب من حكومة اللّه

البعض يتوجه إلى اللّه (مثل عبدة الأصنام فى الجاهلية) عند ما يكون فى وسط البحر أو عند ما يكون على هاوية السقوط و الخطر أو فى حال مرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۰

شديد، فى حين أنّنا إذا فكّرنا بشكل صحيح نرى أنّ الإنسان معرض للخطر و الضرر فى كل الأزمنة و الحالات و الأوقات، فالبحر و البر و الصحراء و المرض و الهاوية و غيرها، هى فى الواقع متساوية الخطورة. إنّ هزة أرضية واحدة يمكنها أن تدمّر بيتنا الآمن الهادىء، و إنّ تخثرا بسيطا فى الدم يمكنه أن يغلق مسير الدم فى الشريان الأبهر فيؤثر على القلب أو على الدماغ فتحدث السكتة القلبية أو الدماغية، و بعد ثانية واحدة يكون الموت هو المصير المحتوم. مع وجود كل هذه الأمور نعلم أنّ الغفلة عن اللّه تعالى كم هى مجانبة للصواب!! قد يقوم هنا أنصار نظرية تعليل الإيمان- و الدين بشكل عام- على أساس الخوف، بتبرير هذه الحالة بقولهم: طالما أنّ الخوف فى الإنسان غريزى و فطرى، فإنّ خوفه من العوامل الطبيعية يجعل الإنسان يتوجه نحو الخالق. و مثل هذه الحالات و الأوضاع التى تحدثت عنها الآيات تدعم هذا التصوّر و تعضده.

الآيات القرآنية أجابت على هذه الأوهام، إذ أبانت أنّ القرآن لم يجعل- أبدا- معرفة الخالق قائمة على هذه الأمور، بل إنّ الأساس هو قراءة فى نظام الكون و الوجود و معرفة اللّه تعالى من خلال هذا الخلق. و حتى فى الآيات أعلاه نرى أنّها ذكرت أوّلا- الإيمان الاستدلالى قبل ذكر التوحيد و الإيمان الفطرى، و فى الواقع فإنّها تعتبر هذه الحوادث بمثابة تذكير بالخالق لا من أجل معرفته، إذ أن معرفته لطلاب الحق تتوضح من خلال أسلوب الاستدلال و عن طريق الفطرة.

ثالثا: معانى الكلمات

«يزجى» مأخوذة من «إزجاء» و هى تعنى تحريك شىء ما بشكل مستمر.

«حاصب» تعنى الهواء الذى يحرّك معه الأحجار الصغيرة ثمّ تضرب الواحدة بعد الأخرى مكانا معينا، و هى مشتقّة أصلا من (حصباء) التى تعنى الأحجار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۱

الصغيرة (الحصى).

«قاصف» بمعنى المحطّم، و هى هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التى تقلع كل شىء من مكانه.

«تبيع» بمعنى تابع، و هى تشير هنا إلى الشخص الذى ينهض للمطالبة بالدم، و ثمن الدم و الثأر و يستمر فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۲

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۰ الى ۷۲]

اشارة

وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا (۷۰) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (۷۱) وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى وَ أَضَلُّ سَبِيلًا (۷۲)

التّفسير

الإنسان سيّد الموجودات:

إنّ واحدة من أبرز طرق الهداية و التربية، هى التنويه بشخصية الإنسان و مكانته و مواهبه، لذا فإنّ القرآن الكريم و بعد بحوثه عن المشركين و المنحرفين فى الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان و المواهب التى منحها إيّاها ربّ العالمين، لكى لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، و لا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ

ثمّ تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التى حباها اللّه لبنى البشر، هذه المواهب هى أوّلا: وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۳

ثمّ قوله تعالى: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ و مع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذى يشمل كل موجود طيب و طاهر تتّضح عظمة و شمولية هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أمّا القسم الثّالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

بحوث

أوّلا: وسيلة النقل أوّل نعمة للإنسان

الملاحظة التى تلفت النظر هنا، هى: لماذا اختار اللّه قضية الحركة على اليابسة و فى البحار، و أشار إليها أوّلا من بين جميع المواهب الأخرى التى وهبها للإنسان؟

قد يكون ذلك بسبب أنّ الاستفادة من الطيبات و أنواع الأرزاق لا يحدث بدون الحركة، حيث أنّ حركة الإنسان على سطح الكرة الأرضية تحتاج إلى وسيلة نقل، إذ أنّ الحركة هى مقدمة لأى بركة.

أو أنّ السبب قد يكون لإظهار سلطة الإنسان على الكرة الأرضية الواسعة بما فى ذلك البحار و الصحارى. إذ أنّ لكل نوع من أنواع الموجودات سلطة على جزء محدود من الأرض، أمّا الإنسان فإنّه يحكم الكرة الأرضية ببحارها و صحاريها و هوائها.

ثانيا، تكريم الإنسان من قبل الخالق

بأى شىء كرّم اللّه الإنسان؟ الآية تقول بشكل مجمل وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ

بين المفسّرين كلام كثير عن مصداق هذا التكريم، فالبعض يعز و السبب لقوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۴

العقل و المنطق و الاستعدادات المختلفة و حرية الإرادة. أمّا البعض الآخر فيعز و ذلك إلى الجسم المتزن و الجسد العمودى، و البعض يربط ذلك بالأصابع التى يستطيع الإنسان القيام بواسطتها بمختلف الأعمال الدقيقة، و أيضا تمنحه القدرة على الكتابة.

و البعض يعتقد أنّ التكريم يعود إلى أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يأكل طعامه بيده.

و هناك من يقول: إنّ السبب يعود إلى سلطة الإنسان على جميع الكائنات الأرضية.

و هناك من المفسّرين من يعزو التكريم إلى قدرة الإنسان على معرفة اللّه، و القدرة أيضا على إطاعة أوامره.

لكن من الواضح أنّ جميع هذه المواهب موجودة فى الإنسان و لا يوجد تضاد بينها، لذا فإنّ تكريم الخالق لهذا المخلوق الكريم يتجلّى من خلال جميع هذه المواهب و غيرها.

خلاصة القول: إنّ الإنسان له امتيازات كثيرة على باقى المخلوقات، و هذه الامتيازات الواحدة منها أعظم من الأخرى، فمضافا إلى الامتيازات الجسمية، فإنّ روح الإنسان لها مجموعة واسعة من الاستعدادات و القدرات الكبيرة التى توهله لطى مسيرة التكامل بشكل غير محدود.

ثالثا: الفرق بين (كرّمنا) و (فضّلنا)

هناك آراء كثيرة حول التفاوت بين (كرّمنا) و (فضّلنا) فالبعض يقول: إنّ (كرّمنا) هى إشارة إلى المواهب التى أعطاها اللّه ذاتا للإنسان، بينما (فضّلنا) إشارة إلى الفضائل التى اكتسبها الإنسان بسبب توفيق اللّه.

هناك احتمال قوى بأنّ (كرّمنا) إشارة إلى الجوانب المادية، أمّا (فضّلنا) فهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۵

إشارة إلى المواهب المعنوية، لأنّ كلمة (فضّلنا) غالبا ما تأتى فى القرآن بهذا المعنى.

رابعا: ما معنى كلمة (كثير) فى الآية؟

بعض المفسّرين يعتبرون الآية الآنفة دليلا على أفضلية الملائكة على بنى الإنسان، فالقرآن يقول بأنّ الإنسان مفضّل على أكثر المخلوقات، و تبقى مجموعة لا يكون الإنسان أفضل منها، و هذه المجموعة ليست سوى الملائكة.

و لكن بملاحظة آيات خلق آدم و سجود الملائكة و تعليمهم (الأسماء) من قبل آدم، لا يبقى شك فى أنّ الإنسان أفضل من الملائكة.

لذا فإنّ كلمة (كثير) تعنى هنا (جميع). و كما يقول المفسّر الكبير الشّيخ الطبرسى فى مجمع البيان، فإنّ استخدام كلمة (كثير) بمعنى (جميع) يعتبر عاديا و واردا فى القرآن الكريم و فى لغة العرب.

و هكذا يكون معنى الجملة حسب تفسير الطبرسى لها هو: «إنّا فضلناهم على من خلقناهم، و هم كثير».

فالقرآن يقول عن الشياطين فى الآية (۲۲۳) من سورة الشعراء: وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ بينما من البديهى أنّ كل الشياطين كاذبين و ليس أكثرهم، و إنّما استخدمت الآية (كثير) بمعنى (الجميع).

على أى حال، إذا اعتبرنا المعنى خلافا للظاهر، فإنّ آيات خلق الإنسان ستكون قرينة واضحة لذلك.

خامسا: لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟

لا ـ يعد الجواب على هذا السؤال معقدا، إذ أنّنا نعلم أنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكون من قوى مختلفة، مادية و معنوية، جسمية و روحية، و ينمو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۶

وسط المتضادات، و له استعدادات غير محدودة للتكامل و التقدّم.

و هناك حديث معروف للإمام على عليه السّلام و هو شاهد على ما نقول، إذ

يقول فيه عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ ركّب فى الملائكة عقلا بلا شهوة، و ركّب فى البهائم شهوة بلا عقل، و ركّب فى بنى آدم كلتيهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، و من غلبت شهوته عقله فهو شرّ من البهائم»[۲۶].

و هنا يبقى سؤال واحد: هل أنّ جميع البشر أفضل من الملائكة، فى حين يوجد بين البشر الكفار و المجرمون و الظالمون، و هؤلاء يعتبرون من أسوأ خلق اللّه ... بعبارة أخرى: هل أنّ كلمة (بنى آدم) فى الآية تنطبق على جميع البشر أم على قسم منهم؟

يمكن تلخيص الإجابة على هذا السؤال فى جملة واحدة هى: نعم جميع البشر أفضل، و لكن بالقوة و الاستعداد، يعنى أنّ الجميع يملك الأرضية ليكون أفضل، و لكنّهم إذا لم يستفيدوا من هذه الأرضية و القابلية المودعة فيهم، و سقطوا فى الهاوية، فإنّ ذلك يكون بسببهم و يعود عليهم فقط.

و بالرغم من أنّ أفضلية الإنسان هى فى المجالات المعنوية و الإنسانية، و لكن بعض العلماء ذكر أنّ الإنسان قد يكون أقوى من سائر الإحياء حتى من جهة القوّة الجسمية بالرغم من أنّه يعتبر ضعيفا فى مناحى أخرى.

«الكسيس كاريل» مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول) يقول فى كتابه واصفا قدرات الإنسان: «انّ جسم الإنسان من المتانة و الإحكام و الدّقة بحيث أنّه يقاوم كل أشكال التعب و العقبات التى يتعرض لها الوجود الإنسانى من قلّة غذاء، و سهر و تعب، و هموم زائدة، و أشكال المرض و الألم و المعاناة، و هو فى ثباته و مقاومته للأشكال الآنفة يبدى استعدادا استثنائيا يبعث على الحيرة و العجب، حتى أنّنا نستطيع أن نقول: إنّ الوجود الإنسانى فى تكوينه الروحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۷

و الجسدى هو أثبت الموجودات من ذوى الأرواح و أكثرها نشاطا و استعدادا فى مضمار الفاعلية الفكرية و الجسدية التى يتضمّنها و التى أدّت إلى تشييد المدنية الراهنة بكل مظاهرها»[۲۷].

الآية التى بعدها تشير إلى موهبة أخرى من المواهب الإلهية التى حباها اللّه للإنسان، و رتّبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب.

ففى البداية تشير الآية إلى قضية القيادة و دورها فى مستقبل البشر فتقول:

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ يعنى أنّ الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء و أوصيائهم و من ينوب عنهم فى كل زمان و عصر، سوف يكونون مع قادتهم و يحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان و أئمّة الضلال و الظالمين و المستكبرين قادة لهم، فإنّهم سيكونون معهم و يحشرون معهم.

خلاصة القول: إنّ الارتباط بين القيادة و الأتباع فى هذا العالم سوف ينعكس بشكل كامل فى العالم الآخر، و طبقا لهذا الأمر سيتم تحديد الفرق الناجية، و الأخرى التى تستحق العذاب.

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد حصر كلمة (إمام) ب (الأنبياء) و البعض الآخر حصرها بمعنى (الكتب السماوية) و البعض الثّالث ب (العلماء)، إلّا أنّ من الواضح أنّ كلمة (إمام) فى هذا المكان لها معنى أوسع، و تشمل أية قيادة سواء تمثّلت بالأنبياء أو أئمّة الهدى أو العلماء أو الكتاب و السنة. و يدخل فى معنى الكلمة أيضا أئمّة الكفر و الضلال، و بهذا الترتيب فإنّ كل إنسان سيسلك فى الاخرة مسار القائد الذى انتخبه لنفسه فى الدنيا اماما و قائدا.

هذا التعبير و الإشارة إلى دور الإمامة و كونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر فى نفس الوقت تحذيرا لكل البشرية كى تدقق فى انتخاب القيادة، و لا تعطى أزمّة وجودها الفكرى و الحياتى بيد أى شخص كان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۸

ثمّ تقسم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۲۸]. أمّا القسم الآخر فهو: من كان فى الدنيا أعمى القلب: وَ مَنْ كانَ فِي هذِهِ أَعْمى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمى و طبيعى أن يكون هؤلاء العميان القلب أضل من جميع المخلوقات وَ أَضَلُّ سَبِيلًا فهؤلاء لا يوفقون فى هذه الدنيا لسلوك طريق الهداية، و لا هم فى الآخرة من أصحاب الجنّة و السعادة، لأنّهم أغمضوا عيونهم عن جميع الحقائق و حرّموا أنفسهم من رؤية الحق و آيات اللّه و كل ما يؤدى إلى هدايتهم، و يقود إلى خلاصهم من المواهب العظيمة التى أعطاهم اللّه إيّاها، و لأنّ الآخرة هى صورة منعكسة لوجود الإنسان فى هذه الدنيا، إذن ليس ثمّة من عجب فى أن يحشر هؤلاء العميان بنفس الصورة فى يوم الحشر و القيامة.

بحوث

۱- دور القيادة فى حياة البشر

الحياة الاجتماعية للبشر فى الدنيا لا يمكن أن تنفصل عن القيادة أو أن تستغنى عنها، لأنّ تحديد مسير مجموعة معينة يحتاج دائما إلى قيادة، و عادة لا يمكن سلوك طريق التكامل بدون وجود قيادة، و هذا هو سر إرسال الأنبياء و انتخاب الأوصياء لهم.

و فى علوم العقائد و الكلام، يستفاد أيضا من (قاعدة اللطف) فى إثبات لزوم بعث الأنبياء و لزوم وجود الإمام فى كل زمان، و ذلك لأهمية دور القائد فى تنظيم المجتمع، و منع الانحرافات، و بنفس المقدار الذى يقوم به القائد الإلهى و العالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۶۹

و الصالح بإيصال الإنسان إلى هدفه النهائى بشكل سهل و سريع، فإنّ التسليم لقيادة أئمّة الكفر و الضلال و الانقياد لهم يؤديان بالإنسان إلى الهاوية و الشقاء.

و فى تفسير هذه الآية تتضمّن المصادر الإسلامية أحاديث متعدّدة توضح مفهومها و تبيّن الغرض من الإمامة.

ففى حديث تنقله الشيعة و السنة عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السّلام بأسناد صحيحة أنّه نقل عن آبائه عن جدّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حول تفسير هذه الآية قوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يدعى كل أناس بإمام زمانهم و كتاب ربّهم و سنة نبيّهم».[۲۹]

و نقرأ

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قوله: «ألا تحمدون اللّه! إذا كان يوم القيامة فدعى كل قوم إلى من يتولونه و دعينا إلى رسول اللّه و فزعتم إلينا فإلى أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنّة و ربّ الكعبة- قالها ثلاثا».[۳۰]

۲- تکریم بنی آدم

(بنی آدم) وردت فی القرآن الکریم کعنوان للإنسان مقرونة بالمدح و الاحترام، فی حین أنّ کلمة (إنسان) ذکرت مع صفات مثل: ظلوم، جهول، هلوع، ضعیف، طاغی، و ما شابهها من الأوصاف. و هذا یدل علی أن بنی آدم صفة للإنسان المتربی، أو علی الأقل الذی له استعدادات إیجابیة (إن افتخار آدم و تفضیله علی الملائکة یؤید هذا المعنی لبنی آدم). فی حین أنّ کلمة (إنسان) وردت بشکل مطلق، و أحیانا تشیر إلی الصفات السلبیة.

لذا فإنّ الآیات التی نبحثها استخدمت کلمة (بنی آدم) لأنّ الحدیث فیها هو عن الکرامة و أفضلیة الإنسان. (هناک بحث مفصل حول معنی الإنسان فی القرآن الکریم یمکن مراجعته فی تفسیرنا هذا ذیل الآیة ۱۱ من سورة یونس).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۰

۳- دور القیادة فی الإسلام

فی الحدیث المعروف عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیهما السّلام ینقل أنّه عند ما کان یتحدث عن الأرکان الأساسیة فی الإسلام ذکر (الولایة) کخامس و أهم رکن، فی حین الصلاة التی توضح العلاقة بین الخالق و الخلق، و الصیام الذی هو رمز محاربة الشهوات، و الزکاة التی تحدّد العلاقة بین الخلق و الخالق، و الحج الذی یکشف الجانب الاجتماعی فی الإسلام، اعتبرت الأرکان الأربعة الأساسیة الأخری. ثمّ یضیف

الإمام الباقر علیه السّلام «و لم یناد بشیء کما نودی بالولایة»

لماذا؟

لأنّ تنفید الأرکان الأخری لن یتحقق إلّا فی ظل هذا الأصل، أی فی ظل الولایة[۳۱].

و لهذا السبب بالذات روی عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله «من مات بغیر إمام مات میتة الجاهلیة»[۳۲].

التأریخ یشهد أنّ بعض الأمم تکون فی الصف الأوّل بین دول العالم و أممه بسبب قیادتها العظیمة و الکفوءة، و لکن نفس الأمّة تنهار و تسقط فی الهاویة، برغم امتلاکها لنفس القوی البشریة و المصادر الأخری، إذا کانت قیادتها ضعیفة و غیر کفوءة.

ثمّ ألم یکن عرب الجاهلیة غارقین فی جهلهم و فسادهم و ذلتهم و انحطاطهم، و کانوا نهشة الآکل، بسبب عدم امتلاکهم لقائد کفوء، و لکن ما إن ظهرت القیادة الإلهیة الرّبانیة المتمثلة بالهادی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حتی سلک نفس القوم طریق العظمة و التکامل بسرعة کبیرة بحیث أدهش العالم، و هذا یکشف عن دور القائد فی ذلک الزمان و هذا الزمان و فی کل زمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۱

طبعا لقد جعل اللّه للبشریة قائدا لإنقاذ و هدایة البشر فی کل عصر و زمان، حیث تقتضی حکمته أن لا تطبّق السعادة إلّا مع وجود ضامن تنفیذی لها. و المهم أن تتعرف المجتمعات علی قیادتها و أن لا یقعوا فی شباک القادة الضالین و الفاسدین، حیث تکون النجاة من مخالبهم أمرا صعبا للغایة.

و هذه هی فلسفة عقیدة الشیعة بضرورة وجود إمام معصوم فی کل زمان، کما

یقول الإمام علی علیه السّلام: «اللّهم بلی لا تخلوا الأرض من قائم للّه بحجّة، إمّا ظاهرا مشهورا و إمّا خائفا مغمورا، لئلا تبطل حجج اللّه و بیناته»[۳۳].

و هناک بحث فی نهایة الآیة (۱۲۴) من سورة البقرة، حول معنی الإمامة و أهمیتها فی دنیا الإنسان.

۴- عميان القلوب

فى القرآن الكريم تعابير لطيفة فى وصف المشركين و الظالمين، حيث يصفهم هنا ب (الأعمى) و هذا الوصف كناية عن الحقيقة التى تقول بأنّ الحق يكون واضحا دوما و فى متناول البصر إذا كانت هناك عين بصيرة تنظر، العين التى تشاهد آيات اللّه فى هذا العالم الواسع، العين التى تعتبر الدروس المكتوبة على صفحات التأريخ؛ العين التى تشاهد عاقبة الظالمين و المستكبرين، العين التى تنظر الحق دون غيره.

أمّا عند ما تكون هناك ستائر و حجب الجهل و الغرور و التعصّب و العناد و الشهوة أمام هذه العين، فإنّها لا تستطيع مشاهدة جمال الحق بالرغم من أنّه غير محجوب بستار.

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية نقرأ: «من لم يدله خلق السماوات و الأرض، و اختلاف الليل و النهار، و دوران الفلك و الشمس و القمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۲

و الآيات العجيبات، على أن وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو فى الآخرة أعمى و أضل سبيلا»[۳۴].

و جاء فى روايات مختلفة فى تفسير هذه الآية أنّها تعنى الشخص الذى يكون مستطيعا للحج و لكنّه لا يؤديه حتى نهاية عمره ۳۵].

و بدون شك فإنّ هذا المعنى هو أحد مصاديق الآية و ليس كلّها. و قد يكون ذكر هذا المصداق و التأكيد عليه من زاوية دفع المسلمين للمشاركة فيه لمشاهدة هذا الاجتماع الإسلامى العظيم، بما يحويه من أسرار عبادية و مصالح سياسية تتجلى لعين الإنسان يحضر الموسم، و يتعلم الحقائق الكثيرة و المتعدّدة منه.

و

فى روايات أخرى ورد أنّ «شرّ العمى عمى القلب»[۳۶].

على أى حال- كما قلنا سابقا- فإنّ عالم القيامة، هو انعكاس لهذا العالم فى كل ما يحويه وجودنا من أفكار و مواقف و مشاعر و أعمال. لذلك نقرأ فى الآيات ۱۲۴- ۱۲۶ من سورة طه، قوله تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً. قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۳

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۳ الى ۷۵]

اشارة

وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (۷۳) وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا (۷۴) إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً (۷۵)

سبب النّزول

لقد ذكرت أسباب مختلفة لنزول هذه الآيات، إلّا أنّ بعض هذه الأسباب لا يتلائم مع تأريخ النّزول، و بما أن أسباب النّزول هذه قد أفاد منها بعض المنحرفين لأغراض خاصّة، لذلك سوف نقوم هنا بذكرها جميعا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۷۳

ر العلّامة الطبرسی فی (مجمع البيان) خمسة آراء فی هذا المجال، و هی:

الرأی الأوّل: قالت قريش للرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم: لا ندعك تلمس الحجر الأسود حتی تحترم آلهتنا، و قال الرّسول فی قلبه: إنّ اللّه يعلم نفرتی من أصنامهم و إنكاری لها، فما المانع من أن أنظر إلی هذه الآلة باحترام ظاهرا حتی يسمحوا لی باستلام الحجر الأسود. و هنا أنزل اللّه تبارك و تعالی الآيات أعلاه التی نهت الرّسول عن هذا الأمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۴

الرأی الثّانی: اقترحت قريش علی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أن يترك الاستهانة بآلهتهم و الاستخفاف بعقولهم، و أن يبعد عنه العبيد من أصحابه و ذوی الأصول المتواضعة، و الرائحة الكريهة، لكی تحضر قريش مجلسه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و يستمعون إليه، فطمع الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی إسلامهم، فنزلت الآيات أعلاه تحذّر من هذا الأمر.

الرأی الثّالث: عند ما حطّم الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم الأصنام التی كانت موجودة فی المسجد الحرام، اقترحت قريش عليه أن يبقی الصنم الموضوع علی جبل المروة قرب بيت اللّه، فوافق الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی البداية علی هذه الاقتراح لكی يحقق من خلاله بعض مصالح الدعوة، إلّا أنّه بعد ذلك عدل عن هذا الأمر و أعطی أوامره صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بتحطيم هذا الصنم، و عند ما نزلت الآيات أعلاه.

الرأی الرّابع: إنّ مجموعة من قبيلة (ثقيف) و فدت علی النّبی الأكرم صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و عرضت عليه ثلاثة شروط لمبايعته، و كان شرطهم، الأوّل: أن لا يركعوا و لا يسجدوا عند الصلاة، و ثانيا: أن لا يحطموا أصنامهم بأيديهم بل يقوم الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بذلك. أمّا الشرط الثّالث: فقد طلبوا فيه من رسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أن يسمح لهم ببقاء صنم (اللات) بينهم لمدّة سنة.

و قد أجابهم الرّسول صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بأن لا فائدة فی دين لا ركوع و لا سجود فيه، و أمّا تحطيم الأصنام فإذا كنتم ترغبون فی القيام بذلك فافعلوا، و إلّا فنحن نقوم به، أمّا الاستمرار فی عبادة اللات لسنة أخری، فلا أسمح بذلك.

بعد ذلك قام رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و توضأ، فالتفت عمر بن الخطاب و قال: ما بالكم آذيتم رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم إنّه لا يدع الأصنام فی أرض العرب. إلّا أنّ ثقيف أصرّت علی مطالبها، حتی نزلت الآيات الآنفة.

الرأی الخامس: إنّ وفد ثقيف طلب من رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم أن يمهلهم سنة حتی يستلموا الهدايا المرسلة إلی الأصنام، و بعد ذلك يكسرون الأصنام و يسلمون، فهمّ رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم بإمهالهم و إجابتهم إلی ما أرادوا لو لا نزول الآيات أعلاه التی نهت عن إجابة طلبهم بشدّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۵

و هناك أسباب أخری للنزول تشبه الآراء التی ذكرناها.

أقول: لا حاجة لبيان ضعف هذه الآراء إذ أنّ بطلان أكثر هذه الآراء كامن فيها، لأنّ مجیء وفود القبائل إلی رسول اللّه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم و طلباتهم و تحطيم الأصنام، كل هذه الأمور إنّما تمّت بعد فتح مكّة فی العام الثّامن للهجرة، فی حين أنّ هذه السورة نزلت قبل هجرة الرّسول، و فی وقت لم يكن فيه صلّی اللّه عليه و آله و سلّم يمتلك القدرة الظاهرية التی تفرض علی المشركين التواضع لمقامه، و سوف نقوم بتوضيح أكثر لا حقّا.

التّفسير

بما أنّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك و المشركين، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تحذّر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من وساوس و إغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدى أدنى ضعف فى محاربة الشرك و عبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابة أكبر.

فى البداية تقول الآية أنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثر فيك: وَ إِنْ كادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنا غَيْرَهُ وَ إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا.

ثمّ بعد ذلك تضيف أنّه لو لا نور العصمة و أنّ اللّه تعالى ثبّتك على الحق:

وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا.

و أخيرا لو أنّك ركنت إليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين فى الحياة الدنيا، و ضعف عذابهم فى الآخرة: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۶

بحوث

۱- هل أبدى الرّسول ليونة إزاء المشركين؟

بالرغم من أنّ بعض السطحيين أرادوا الاستفادة من هذه الآيات لنفى العصمة عن الأنبياء، و قالوا أنّه طبقا للآيات أعلاه و أسباب النّزول المرتبطة بها إنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أبدى ليونة إزاء عبدة الأصنام، و أنّ اللّه عاتبه على ذلك. إلّا أنّ هذه الآيات صريحة فى افهام مقصودها بحيث لا- تحتاج إلى شواهد أخرى على بطلان هذا النوع من التفكير، لأنّ الآية الثّانية تقول و بصراحة: وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا. و مفهوم التثبيت الإلهى (و الذى نعتبره بأنّه العصمة) أنّه منع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من التوجه إلى مزالق عبدة الأصنام، و لا يعنى ظاهر الآية- فى حال- أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مال إلى المشركين، ثمّ نهى عن ذلك بوحى من اللّه تعالى.

و توضيح ذلك، إن الآية الأولى و الثّانية هما فى الحقيقة إشارة إلى حالتين مختلفتين للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، الحالة الأولى هى الحالة البشرية و الإنسانية و التى تجلّت بشكل واضح فى الآية الأولى، و بمقتضى هذه الحالة يمكن تأثير وساوس الأعداء فى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصّة إذا كانت ثمّة مرجحات فى إظهار الليونة و التوجّه إليهم، من قبيل رغبته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أن يسلم زعماء الشرك بعد إظهار الليونة، أو أن يمنع بذلك سفك الدماء، و الآية تكشف عن احتمال وقوع الإنسان العادى و مهما كان قويا تحت تأثير الأعداء.

أمّا الآية الثّانية فهى ذات طبيعة معنوية، إذ هى تبيّن العصمة الإلهية و لطفه الخاص سبحانه و تعالى الذى يشمل به الأنبياء خصوصا نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يمر بمنعطفات و مزالق دقيقة.

و النتيجة أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالطبع البشرى قد وصل إلى حافة القبول ببعض وساوس الأعداء، إلّا أن التأييد الإلهى (العصمة) ثبته و حفظه و أنقذه من الانزلاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۷

و هـذا التعبير نفسه نقرأه فى سورة يوسف حيث جـاء البرهـان الإلـهى فى أدق اللحظـات و أخطرهـا، فى مقابـل الإغواء الخطير و غير الاعتيادى لامرأة العزيز، حيث قوله تعالى فى الآيـة (۲۴) من سورة يوسف: وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ، كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ

و فى اعتقادنـا أنّ الآيـات أعلاه ليست لا تصـلح أن تكون دليلا على نفى العصـمة و حسب، بل هى واحـدة من الآيات التى تـدل على العصـمة، لأنّ التثبيت الإلهى هـذا (و الـذى هو كناية عن العصـمة أو التثبيت أو التثبيت الفكرى و العاطفى و السـلوكى) لا يخص فقط هذه الحالة، و هذا الموقف، بل هو يشمل الحالات المشابهة الأخرى، و على هذا الأساس تعتبر الآية شاهدا على عصمة الأنبياء و القادة الإلهيين.

أمّا الآية الثالثة التى نبحثها و التى تقول: إِذاً لَأَذَقْناكَ ضِعْفَ الْحَياةِ وَ ضِعْفَ الْمَماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنا نَصِيراً فهى دليل على صحة البحوث الخاصّة بعصـمة الأنبياء، حيث أنّ العصمة ليست حالة جبرية يلتزم فيها النّبى بلا ارادة منه أو وعى، و إنّما هى توأم مع نوع من الوعى الـذاتى و التى تنفـذ مع الحريـة، لـذا فـإنّ ارتكـاب ذنب فى مثـل هـذه الحالات ليس محالا عقلا، و لكن هـذا الإيمان و الوعى الخاص سوف يمنعان صدور الذنب، فلا تتحقق المعصـية عملا، و لو فرضنا تحققها فى الخارج فإنّه سينال عقوبات الجزاء الإلهى (دقق فى ذلك)[۳۷].

۲- لماذا العذاب المضاعف؟

من الواضـح أنّه كلما زاد مقام الإنسان من حيث العلم و الوعى و المعرفة و الإيمان، ازدادت قيمة و عمق الأعمال الخيرة التى يقوم بها، و بدرجة نسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۸

الوعى العلم و المعرفة، و طبعا سيكون ثوابها أكثر، لذا فإنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات: (إنّ الثواب على قدر العقل)[۳۸].

أمّا الثواب و العقاب فسوف يزداد تبعا لهـذه النسـبة، فإذا ارتكب إنسان أمّى و ضـعيف الإيمان ذنبا كبيرا، فهـذا ليس بالأمر العجيب، و لهذا السـبب سيكون جزاؤه أخف، أمّا إذا قام عالم مؤمن بارتكاب ذنب صغير فإنّ جزاءه فى مقابل ذلك سيكون أشد من جزاء الأمى فى قبال ذنبه الكبير.

لهـذا السـبب بالذات نقرأ فى الآيتين (۳۰- ۳۱) من سورة الأحزاب خطابا بهـذا المضـمون إلى نساء النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم حيث يقول تعـالى: يـا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً.

و

فى الرّوايات نقرأ هذا المفهوم: «يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[۳۹].

هـذه الآيـات تشـير إلى هـذه الحقيقـة، فهى تقـول للرسـول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: إذا أظهرت ميلا (و حاشـاه) نحـو الشـرك و المشركين فإنّ عقابك سيتضاعف فى هذه الدنيا و فى الآخرة.

۳- معنى (الضعف)

يجب الانتباه إلى هذه الملاحظة، و هى أن كلمة (ضعف) فى اللغة العربية ليس المقصود بها مرّتين فقط، بل مرّتان و عدّة مرّات أيضا.

يقول الفيروزآبادى، (العالم اللغوى المعروف فى القرن الثّامن الهجرى) فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۷۹

القاموس: يقال فى بعض الأحيان «ضعف شىء معين» و هى تعنى المرّتين و الثلاث مرّات و ما شابهها، لأنّ هذه الكلمة تعنى الإضافة غير المحدودة.

الدليل على هذا القول، أنّ الآيات القرآنية- و فى خصوص الحسنات- تقول: إِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها[۴۰] و فى موقع آخر تقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها[۴۱].

و

فى الرّوايات الإسلامية ورد عن الإمام جعفر الصّادق عليه السّلام قوله فى تفسير الآية (۲۶۱) من سورة البقرة: «إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف اللّه عمله بكل حسنة سبعمائة ضعف، و ذلك قول اللّه وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ[۴۲].

و لكن هذا الكلام لا يمنع من أن تطلق هذه الكلمة على «التثنية» بمعنى الضعفين. أو عند ما تذكر على شكل مضاف فإنّها تعنى ثلاثة أضعاف مثلا نقول:

ضعف الواحد.

۴- تفسير جملة إِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا

المشهور بين المفسّرين أنّ القرآن يعنى بالآية هذه أنّك إذا أظهرت توجها للمشركين فسوف يعتبرونك صديقا لهم. إلّا أنّ بعض المفسّرين يعتبر أنّ معنى الجملة، أن المشركين سيعتبرونك- يا رسول اللّه- فقيرا لهم و محتاجا إليهم. إذ فى المعنى الأوّل (خليل) مأخوذة من (خلّة) على وزن (قلّة) و تعنى الصداقة. أمّا فى المعنى الثّانى فإنّ (خلّة) على وزن (غلّة) و تعنى العوز و الفقر و الحاجة. لكن من الواضح أنّ الصحيح هو المعنى الأوّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۰

۵- إلهى لا تكلنى إلى نفسى

فى المصادر الإسلامية نقرأ

أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما نزلت هذه الآيات قرأ هذا الدعاء «اللّهم لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين أبدا».

و هذا الدعاء المهم لرسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعطينا درسا مهمّا، و هو أنّه يجب أن نذكر اللّه دائما و نلتجئ إليه، و نعتمد على لطفه، حيث أنّ الأنبياء المعصومين لم يسلموا من المزالق بدون نصرة اللّه و تثبيته لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كل ما يحيطنا من أشكال الوسوسة و الإغواء الشيطانى!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۱

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۶ الى ۷۷]

اشارة

وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها وَ إِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاّ قَلِيلًا (۷۶) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا (۷۷)

أسباب النّزول

المشهور أنّ هذه الآيات نزلت فى أهل مكّة بعد أن قرروا إخراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منها. ثمّ بدّلوا رأيهم بعد ذلك و قرروا قتله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فحاصروا بيته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّ اللّه أنجاه من هذه المكيدة بشكل إعجازى و استطاع أن يهاجر إلى المدينة المنوّرة.

البعض يرى أنّ هذه الآيات نزلت بشأن اقتراح يهود المدينة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أن يخرج منها إلى بلاد الشام باعتبار أنّ المدينة ليست أرض الأنبياء، بل إنّ أرض الأنبياء هى الشام، لذلك قال اليهود لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا كنت ترغب بانتشار دعوتك فهاجر إلى هناك، إلى بلاد الشام.

و لكن لمّا كانت هذه السورة مكّية فيتّضح عدم صحّة هذا السبب للنزول، فضلا عن أنّنا سوف نرى أثناء الحديث عن الآيات أنّها- أيضا- لا تتوافق مع السبب المذكور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۲

التّفسير

مؤامرة خبيثة أخرى:

فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الطريق المستقيم، لكن اللّه أنجاه بلطفه له و رعايته إيّاه، و بذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، و طبقا للآيات التى بين أيدينا، وضع المشركون خطّة أخرى للقضاء على دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هذه الخطّة تقضى بإبعاد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن مسقط رأسه (مكّة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولا و بعيدا عن الأنظار. إلّا أنّ هذه الخطّة فشلت أيضا بلطف اللّه أيضا.

الآية الأولى تقول: وَ إِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْها بخطة دقيقة.

و بما أنّ كلمة «يستفزونك» مشتقة من «استفزاز» التى تأتى فى بعض الأحيان بمعنى قطع الجذور، و فى أحيان أخرى بمعنى الإثارة مع السرعة و المهارة، فإنّنا نفهم من ذلك أنّ المشركين وضعوا خطّة محكمة تجعل الوسط المحيط بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم غير مناسب له، و تثير عامّة الناس ضدّه كى يخرجوه بسهولة من مكّة. لكن هؤلاء لا يعرفون أنّ هناك قوّة أعظم من قوّتهم، و هى قوّة الخالق الكبير حيث تتلاشى إرادتهم دون إرادته عزّ و جلّ.

ثمّ يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: وَ إِذاً لا- يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم فى إخراج القائد الكفوء- الذى تذهب نفسه حسرات على العباد- من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، و مثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة و يستحقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا الأمر لا يخص مشركى العرب و حسب، بل هو سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلًا. و هذه السنة تنبع من منطق واضح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۳

حيث أنّ هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، و يحطمون مصباح هدايتهم و منبع النور إليهم بأيديهم، إنّ مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، و إنّ العقاب سيشملهم. و نعلم هنا أنّ اللّه تبارك و تعالى لا يفرق بين عباده، و بذلك فإنّ الأعمال المتشابهة فى الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، و هذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ و علا.

إنّ السنن الإلهية هى عكس السنن و القوانين التى يضعها البشر حيث تقتضى مصالحهم فى يوم أن تكون هناك سنة أو قانون معين، و فى يوم آخر يمكن أن تنقلب هذه السنّة أو القانون إلى عكسه تماما.

و نعرف هنا أنّ اختلاف السنن و القوانين البشرية إمّا أن يعود إلى عدم وضوح الأمور، و التى عادة ما تتوضح بمرور الزمن، و تنكشف للإنسان اشتباهاته و أخطاؤه، أو أنّ السبب فى ذلك يعود إلى مقتضيات المصالح الخاصّة و شروط الحياة التى تتحوّل و تتغيّر فى كل وقت. و لمّا كانت هذه الأمور لا تؤثّر على الإرادة الإلهية، فإنّ ما يصدر عن الحكمة الإلهية من سنن تكون ثابتة فى جميع الحالات و الشرائط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۴

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۷۸ الى ۸۱]

اشارة

أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً (۷۸) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً (۷۹) وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (۸۰) وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً (۸۱)

التّفسير

الفناء نهاية الباطل:

بعد سلسلة الآيات التى تحدثت عن التوحيد و الشرك و عن مكائد المشركين و مؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة و الدعاء و الارتباط باللّه و التى تعتبر عوامل مؤثّرة فى مجاهدة الشرك، و وسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب و روح الإنسان، إذ تقول الآيات فى البداية أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً.

«دلوك الشمس» يعنى زوال الشمس من دائرة نصف النهار و التى يتحدّد معها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۵

وقت الظهر. و فى الأصل فإنّ (دلوك) مأخوذة من (دلك) حيث أنّ الإنسان يقوم بدلك عينيه فى ذلك الوقت لشدّة ضوء لشمس. أو أنّ كلمة (دلك) تعنى (الميل) حيث أنّ الشمس تميل من دائرة نصف النهار من طرف المغرب. أو أنّها تعنى أنّ الإنسان يضع يده فى قبال الشمس حيث يقال بأنّ الشخص يمنع النور عن عينيه و يميله عنه.

على أى حال، فى الرّواية التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام توضح لنا أنّ معنى (دلوك) هو زوال الشمس.

فقد روى العاملى فى (وسائل الشيعة) أنّ عبيد بن زرارة سأل الإمام الصادق عليه السّلام عن تفسير الآية فقال عليه السّلام: «إنّ اللّه افترض أربع صلوات أوّل وقتها زوال الشمس إلى انتصاف الليل، منها صلاتان أوّل وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروب الشمس،

إلّا أنّ هذه قبل هذه، و منها صلاتان أوّل وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل إلّا أنّ هذه قبل هذه»[۴۳].

و

فی روایة أخری رواها المحدّث الکبیر (زرارة بن أعین) عن الإمام الباقر علیه السّلام، فی تفسیر الآیة قال علیه السّلام: «دلوکها زوالها، و غسق اللیل إلی نصف اللیل، ذلک أربع صلوات وضعهنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و وقتهنّ للناس، و قرآن الفجر صلاة الغداة»[۴۴].

لکن وضع بعض المفسّرین احتمالات أخری لمعنی (دلوک) إلّا أنّا آثرنا ترکها لأنّها لا تستحق الذکر.

و أمّا (غسق اللیل) فإنّها تعنی منتصف اللیل، حیث أنّ (غسق) تعنی الظلمة الشدیدة، و أکثر ما یکون اللیل ظلمة فی منتصفه.

أمّا (قرآن) فهی تعنی کلاما یقرأ. و (قرآن الفجر) هنا تعنی صلاة الفجر.

و بهذا الدلیل تعتبر هذه الآیة من الآیات التی تشیر بشکل إجمالی إلی أوقات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۶

الصلوات الخمس. و مع أخذ الآیات القرآنیة الأخری بنظر الإعتبار فی مجال وقت الصلوات و الرّوایات الکثیرة الواردة فی هذا الشأن، یمکن تحدید أوقات الصلوات الخمس بشکل دقیق.

و یجب الانتباه هنا إلی أنّ بعض الآیات تشیر إلی صلاة واحدة فقط، کقوله تعالی: حافِظُوا عَلَی الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطی ۴۵]. حیث (الصلاة الوسطی) وفقا لأصح التفاسیر هی صلاة الظهر.

و فی بعض الأحیان تشیر الآیة إلی ثلاث صلوات من الصلوات الخمس کما فی الآیة (۱۱۴) من سورة هود، فی قوله تعالی: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَیِ النَّهارِ وَ زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ حیث یشیر تعبیر طَرَفَیِ النَّهارِ إلی صلاتی الصبح و المغرب، و أمّا زُلَفاً مِنَ اللَّیْلِ فهی إشارة إلی صلاة العشاء.

و فی بعض الأحیان تشیر الآیة إلی الصلوات الخمس بشکل إجمالی، کما فی الآیة التی نبحثها (راجع للمزید من التوضیح نهایة تفسیر الآیة (۱۱۴) من سورة هود).

علی أی حال، لا یوجد ثمّة شک فی أنّ هذه الآیات لم توّضح جزئیات أوقات الصلاة، بل تشیر إلی الکلیات و الخطوط العامّة، مثلها مثل الکثیر من الأحکام الإسلامیة الأخری، أمّا التفاصیل فإنّها وردت فی سنة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة الصادقین من أهل بیته علیهم السّلام.

الآیة بعد ذلک تقول: إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ کانَ مَشْهُوداً و هنا یطرح سؤال حول هویة الذی یقوم بالمشاهدة، من هو یا تری؟ الرّوایات الواردة فی تفسیر هذه الآیة تقول إنّ ملائکة اللیل و النهار هی التی تشاهد، لأنّه فی بدایة الصباح تأتی ملائکة النهار لتحل محل ملائکة اللیل التی کانت تراقب العباد، و حیث أنّ صلاة الصبح هی فی أوّل وقت الطلوع، لذلک فإنّ المجموعتین من الملائکة تشاهدها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۷

و تشهد علیها.

و الرّوایات فی هذه المجال نقلها علماء الشیعة و السنّة.

فمثلا ینقل أحمد و النسائی و ابن ماجه و الترمذی و الحاکم عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، وفقا لما نقله عنهم صاحب تفسیر (روح المعانی) أثناء تفسیر الآیة قولهم

عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تشهده ملائکة اللیل و ملائکة النهار»[۴۶].

أمّا البخاری و مسلم فقد نقلا نفس هذا المعنی فی صحیحیهما وفقا لما نقله عنهم صاحب تفسیر (روح المعانی) فی المجلد الخامس

عشر، صفحة (۱۲۶) من تفسيره.

و لمزيد الاطلاع على الأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا المورد يمكن مراجعة المجلد الثّالث من تفسير (نور الثقلين) فى نهاية حديثه عن الآية الكريمة.

و من هنا يتّضح أنّ أفضل وقت لأداء صلاة الصبح هى اللحظات الأولى لطلوع الفجر.

و بعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التى بعدها إلى قوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ ۴۷] المفسّرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التى وردت روايات عديدة فى فضيلتها، و بالرغم من أنّ الآية لا تصرّح بهذا الأمر، إلّا أن هناك قرائن مختلفة ترجح هذا التّفسير.

ثمّ تقول الآية نافِلَةً لَكَ أى برنامج إضافى علاوة على الفرائض اليومية.

و هذا التعبير اعتبره الكثير بأنّه دليل على وجوب صلاة الليل على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث أنّ هذه (النافلة) و التى هى بمعنى (زيادة فى الفريضة)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۸

تخصك أنت دون غيرك يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

أمّا البعض الآخر فيعتقد بأنّ صلاة الليل كانت بالأصل واجبة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقرينة آيات سورة المزمّل، إلّا أنّ هذه الآية نسخت الوجوب و أبدلته بالاستحباب.

و لكن هذا التّفسير ضعيف، لأنّ النافلة لم تكن تعنى (الصلاة المستحبّة) كما نسميها اليوم، بل تعنى الزيادة و الإضافة، و نعلم أنّ صلاة الليل كانت واجبة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لذلك فهى إضافية على الفرائض اليومية.

على أية حال فى ختام الآية تتوضح نتيجة هذا البرنامج الإلهى الروحانى الرفيع حيث تقول: عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً.

و لا ريب فإنّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جدّا يستثير الحمد، حيث أن (محمود) مأخوذة من (الحمد). و بما أنّ هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أنّ حمد الأوّلين و الآخرين يشملك.

الرّوايات الإسلامية الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السّلام أو عن طريق أهل السنة، تشير إلى أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أكبر الشفعاء فى ذلك العالم، و شفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أمّا الآية التى بعدها فإنّها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية و الذى ينبع من روح التوحيد و الإيمان: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ۴۸]. فأى عمل فردى أو اجتماعى لا أبدؤه إلّا بالصدق و لا أنهيه إلّا بالصدق، فالصدق و الإخلاص و الأمانة هى الخط الأساس لبداية و نهاية مسيرتى.

بعض المفسّرين أراد تحديد المعنى الواسع لهذه الآية فى مصداق أو مصاديق معنية، فمثلا قال بعضهم: إنّ الآية تعنى الدخول إلى المدينة و الخروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۸۹

منها إلى مكّة المكرّمة، أو الدخول إلى القبر و الخروج منه يوم البعث، و أمثال هذه الأمور، و لكن من الواضح جدا أنّ التعبير القرآنى الجامع فى الآية الكريمة لا يمكن تحديده، فهو طلب فى الدخول و الخروج الصادق من جميع الأمور و فى كل الأعمال و المواقف و البرامج.

و فى الحقيقة فإنّ سر الإنتصار يكمن هنا، و هذا هو طريق الأنبياء و الأولياء الرّبانيين حيث كانوا يتجنّبون كل غش و خداع و حيلة فى أفكارهم و أقوالهم و أعمالهم و كل ما يتعارض مع الصدق.

و عادة فإنّ المصائب التى نشاهدها اليوم و التى تصيب الأفراد و المجتمعات و الأقوام و الشعوب، إنّما هى بسبب الانحرافات عن هذا

الأساس، ففى بعض الأحيان يكون أساس علمهم قائما على الكذب و الغش و الحيلة، و فى بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق و لكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. و هذا هو سبب الفشل و الهزيمة.

أمّا الأصل الثّانى الذى يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، و من ناحية أخرى نتيجة للدخول و الخروج الصادق فى الأعمال، فهو ما ذكرته الآية فى نهايتها: وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً لماذا؟ لأنّنى وحيد، و الإنسان الوحيد لا يستطيع أن ينجز عملا، و لا يستطيع أن ينتصر فى مقابل جميع هذه المشاكل فيما إذا اعتمد على قوته وحدها، لذلك فسؤاله من اللّه تبارك و تعالى، هو انصرنى و اجعل لى نصيرا.

أعطنى يا إلهى، لسانا ناطقا، و أدلة قوية فى مقابل الأعداء، و أتباعا يضحّون بأنفسهم، و إرادة قوية، و فكرا وضّاء، و عقلا واسعا بحيث تقوم كل هذه الأمور بنصرتى، فغيرك لا يستطيع إعطائى هذه الأشياء كلها.

و بعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و (التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائى، و الذى يعتبر بحدّ ذاته عاملا للتوفيق فى الأعمال، إذ خاطبت الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۰

الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بوعد اللّه تعالى: وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ ۴۹]، لأنّ طبيعة الباطل الفناء و الدمار: إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً. فللباطل جولة، إلّا أنّه لا يدوم و العاقبة تكون لانتصار الحق و أصحابه و أنصاره.

بحوث

۱- صلاة اللّيل عبادة روحية عظيمة

إنّ التأثيرات المختلفة لضوضاء الحياة اليومية تؤثر على الإنسان و على أفكاره و تجرّه إلى وديان مختلفة بحيث يصعب معها تهدئة الخاطر، و صفاء الذهن، و الحضور الكامل للقلب فى مثل هذا الوضع. أمّا فى منتصف الليل و عند السحر عند ما تهدأ هذه ضوضاء حياتية المادية، و يرتاح جسم الإنسان، و تهدأ روحه بعد فترة من النوم، فإنّ حالة من التوّجه و النشاط الخاص تخالج الإنسان، فى مثل هذا المحيط الهادىء و البعيد عن كل أنواع الرياء، مع حضور القلب، يعيش الإنسان حالة خاصّة قادرة على تربيته و تكامل روحه.

لهذا السبب نرى أن عباد اللّه و محبيه يتوقون إلى التعبّد منتصف الليل، لأنّه يزكّى أرواحهم، و يحيى قلوبهم، و يقوى إرادتهم، و يكمل إخلاصهم.

و فى بداية عصر الإسلام كان الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يستفيد من هذا البرنامج الروحى فى تربية المسلمين، و كانت يبنى شخصياتهم بحيث كانوا يتغيّرون تماما عمّا كانوا عليه فى السابق، يعنى أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يجعل منهم شخصيات جديدة ذات إرادة قوية و شجاعة، و مؤمنين ذوى إخلاص و نقاء.

و قد يكون (المقام المحمود) الذى ورد ذكره فى الآيات أعلاه نتيجة لصلاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۱

الليل، إشارة لهذه الحقيقة.

و عند ما نبحث الرّوايات الواردة فى المصادر الإسلامية عن فضيلة صلاة الليل، نرى أنّها توضح هذه الحقيقة. و على سبيل المثال يمكن أن نقف مع هذه النماذج:

۱-

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «خیرکم من أطاب الکلام و أطعم الطعام و صلّی باللیل و الناس نیام»[۵۰].

۲- و

عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، أنّه علیه السّلام قال: «قیام اللیل مصحة للبدن، و مرضاة للرّب عزّ و جلّ، و تعرّض للرحمة، و تمسک بأخلاق النّبیین»[۵۱].

۳- و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه أوصی أحد أصحابه بقوله: «لا تدع قیام اللیل فإنّ المغبون من حرم قیام اللیل»[۵۲].

۴- و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من صلّی باللیل حسن وجهه بالنهار»[۵۳].

و نقرأ فی بعض الرّوایات أنّ هذه العبادة (صلاة اللیل) علی قدر من الأهمیة بحیث أنّ غیر الطاهرین و المحسنین لا یوفقون إلیها.

۵-

جاء رجل إلی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام و قال له: إنّی محروم من صلاة اللیل، فأجابه علیه السّلام: «أنت رجل قد قیدتک ذنوبک»[۵۴].

۶-

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ الرجل لیکذب الکذبة و یحرم بها صلاة اللیل، فإذا حرم بها صلاة اللیل حرم بها الرّزق»[۵۵].

۷- و بالرغم من أننا نعلم أن شخصا مثل علی بن أبی طالب لا یترک صلاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۲

اللیل أبدا، و نظرا لأهمیة هذه الصلاة نری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أوصاه بها فی جملة من وصایاه له، إذ

قال له صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أوصیک فی نفسک بخصال فاحفظها، ثمّ قال: اللهم أعنه ... و علیک بصلاة اللیل، و علیک بصلاة اللیل، و علیک بصلاة اللیل!»[۵۶].

۸- و

عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال لجبرئیل علیه السّلام: عظنی، فقال جبرائیل لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا محمّد، عش ما شئت فإنّک میت، و أحبب ما شئت فإنّک مفارقه، و اعمل ما شئت فإنّک ملاقیه، و اعلم أنّ شرف المؤمن صلاته باللیل، و عزّه کفّه عن أعراض النّاس»[۵۷].

إنّ هذه الوصایا الملکوتیة لجبرائیل تدل علی أنّ صلاة اللیل تضفی علی الإنسان من الإیمان و الروحانیة و قوة الشخصیة ما یکون سببا فی شرفه کما أن کفّه الأذی عن الآخرین یکون سببا فی عزته.

۹-

عن الإمام الصّادق علیه السّلام قال: «ثلاثة هنّ فخر المؤمن و زینة فی الدنیا و الآخرة، الصّلاة فی آخر اللیل و یأسه ممّا فی ایدی الناس و و الآیة الإمام من آل محمّد».

۱۰-

عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «ما من عمل حسن یعمله العبد إلّا و له ثواب فی القرآن إلّا صلاة اللیل، فإنّ اللّه لم یبیّن ثوابها لعظیم خطرها عنده فقال:

تتجافی جنوبهم عن المضاجع یدعون ربّهم خوفا و طمعا وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ* فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ جَزاءً بِما

کانُوا یَعْمَلُونَ ۵۸].

و لصلاة اللّیل- بالطبع- آداب کثیرة، و لکن لا بأس أن نذکر هنا أبسط شکل لها، حتی یستطیع عشاق و محبّو هذه العبادة الروحیة بها و الاستفادة منها:

و إنّ صلاة اللیل تتکون بأبسط صورها من (۸۵) رکعة، و هی مقسمة إلی ثلاثة أقسام هی:

أ- أربع صلوات، ذات رکعتین، یکون مجموعها ثمانی رکعات و تسمّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۳

(نافلة اللیل).

ب- صلاة واحدة ذات رکعتین، و تسمّی ب (الشفع).

ج- صلاة واحدة ذات رکعة واحدة، و تسمّی ب (الوتر).

أمّا طریقة أداء هذه الصلاة فهی لا تختلف عن صلاة الصبح، إلّا أنّها لا تحتوی علی الأذان و الإقامة، و الأفضل إطالة قنوت رکعة الوتر[۵۹].

۲- ما هو المقام المحمود؟

المقام المحمود- کما هو واضح من اسمه- له معنی واسع بحیث یشمل کل مقام یستحق الحمد، و لکن من المسلّم بأن المقصود به هنا، هو الإشارة إلی المقام الممتاز و الخاص الذی اختص به رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بسبب عباداته اللیلیة و دعائه فی وقت السحر.

و المعروف بین المفسّرین- کما قلنا سابقا- أنّ هذا المقام هو مقام الشفاعة الکبری للرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. و هذا التّفسیر ورد فی روایات متعدّدة، ففی تفسیر العیاشی عن الإمام الصادق أو الباقر علیهما السّلام، نقرأ فی تفسیر قوله تعالی: عَسی أَنْ یَبْعَثَکَ رَبُّکَ مَقاماً مَحْمُوداً أنّه قال: «هی الشّفاعة».

و قد حاول بعض المفسّرین الوصول إلی هذه الحقیقة من مفهوم الآیة نفسها، فهم یعتقدون أنّ جملة عَسی أَنْ یَبْعَثَکَ دلیل علی أنّ اللّه سوف یعطیک هذا المقام فی المستقبل. المقام الذی سوف یحمده الجمیع، لأنّ فائدته سوف تنال الجمیع (لأنّ محمود فی الجملة أعلاه جاءت مطلقة غیر مقیدة بشرط). إضافة إلی ذلک فإنّ الحمد فی مقابل عمل معین هو أمر اختیاری، و الشیء الذی یحتوی علی جمیع هذه الصفات لا یمکن أن یکون سوی الشفاعة الکبری و العامّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۴

لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۶۰].

و هناک احتمال أن یکون المقام المحمود هو أقصی القرب من الخالق عزّ و جلّ، و الذی تکون إحدی آثاره هی الشفاعة الکبری. (فتأمل ذلک).

و بالرغم من أنّ المخاطب فی هذه الآیة- ظاهرا- هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّه یمکن تعمیم الحکم و القول بأنّ جمیع الأشخاص المؤمنین الذین یقومون ببرنامج التلاوة و صلاة اللیل لهم نصیب فی هذا المقام المحمود، و سوف یقتربون من الساحة الإلهیة بمقدار إیمانهم و عملهم، و بنفس المقدار سوف یقیمون بالشفاعة للآخرین.

إنّنا نعلم أنّ أی مؤمن و بمقدار إیمانه له نصیب من مقام الشفاعة، إلّا أنّ المصداق الأتم و الأکمل لهذه الآیة هو شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- العوامل الثّلاثة للانتصار

فی میادین الصراع بین الحق و الباطل یکون جیش الباطل- عادة- ذا عدّة و عدد أکثر، إلّا أن جیش الحق- بالرغم من قلّة أفراده و وسائله الظاهریة- یحصل علی انتصارات عظیمة. و یمکن مشاهدة نماذج من ذلک فی غزوات بدر و الأحزاب و حنین، و فی عصرنا الحاضر یمکن مشاهدة ذلک فی الثورات المنتصرة للأمم المستضعفة فی مقابل الدول المستکبرة.

و هذا الأمر یکون سبب تحلّی أنصار الحق بقوّة معنویة خاصّة بحیث تصنع من (الإنسان) أمّة. و فی الآیات أعلاه تمت الإشارة إلی ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التی ابتعد عنها مسلمو الیوم، و لهذا السبب نری هزائمهم المتکرّرة فی مقابل الأعداء و المستکبرین.

و العوامل الثلاثة هی: الدخول الصادق و الخالص فی الأعمال، و الاستمرار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۵

علی هذه الحالة الصادقة حتی النهایة رَبِّ أَدْخِلْنِی مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِی مُخْرَجَ صِدْقٍ ثمّ الاعتماد علی قدرة الخالق جلّ و علا، و الاعتماد علی النفس، و ترک أی اعتماد أو تبعیة للأجانب وَ اجْعَلْ لِی مِنْ لَدُنْکَ سُلْطاناً نَصِیراً.

و بهذا الشکل فلیست هناک أیة سیاسیة تؤثر فی الإنتصار کما فی الصدق و الإخلاص، لیس هناک أی اعتماد أفضل من الاعتماد علی الخالق و الاستقلال و عدم التبعیة.

کیف یرید المسلمون أن ینتصروا علی الأعداء الذین قاموا بغصب أراضیهم و صادروا مصادرهم الحیاتیة فی حین أنّهم مرتبطون بأعدائهم فی المجالات السیاسیة و العسکریة و الاقتصادیة؟ هل نستطیع أن ننتصر علی العدو بواسطة السلاح الذی نشتریه منه؟

۴- حتمیة انتصار الحق و هزیمة الباطل

نواجه فی الآیات أعلاه أصلا تاما، و أساسا آخر، و سنة إلهیة خالدة تزرع الأمل فی قلوب أنصار الحق، هذا الأصل هو أنّ عاقبة الحق الإنتصار، و عاقبة الباطل الاندحار، و أنّ للباطل صولة و برق و رعد، و له کر و فر، إلّا أن عمره قصیر، و فی النهایة یکون مآله السقوط و الزوال .. الباطل کما یقول القرآن: فَأَمَّا الزَّبَدُ فَیَذْهَبُ جُفاءً وَ أَمَّا ما یَنْفَعُ النَّاسَ فَیَمْکُثُ فِی الْأَرْضِ ۶۱].

و الدلیل علی هذا الموضوع کامن فی باطن کلمة الباطل، حیث أنّه لا یتفق مع القوانین العامّة للوجود، و لیس له من رصید من الواقعیة و الحقیقة.

إنّ الباطل شیء مصنوع و مزوّر، لیست له جذور، أجوف، و الأشیاء التی لها صفات کهذه- عادة- لا یمکنها البقاء طویلا.

أمّا الحق فله أبعاد و جذور متناسقة مع قوانین الخلق و الوجود، و مثله ینبغی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۶

أن یبقی.

أنصار الحق یعتمدون سلاح الإیمان، منطقهم الوفاء بالعهد، و صدق الکلام، و التضحیة، و هم مستعدون أن یضحوا بأنفسهم و الاستشهاد فی سبیل اللّه، قلوبهم منوّرة بنور المعرفة، لا یخافون أحدا سوی اللّه، و لا یعتمدون إلّا علیه، و هذا هو سر انتصارهم.

۵- آیة جاء الحق ... و قیام المهدی علیه السّلام

فی بعض الرّوایات تمّ تفسیر قوله جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ بقیام دولة المهدی علیه السّلام، فالإمام الباقر یبیّن أنّ مفهوم الکلام الإلهی هو:

«إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»[۶۲].

و فی روایة أخری نقرأ أنّه حینما ولد المهدی علیه السّلام کان مکتوبا علی عضده قوله تعالی جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً[۶۳].

إنّ مفهوم هذه الأحادیث لا یحصر المعنی الواسع للآیة بهذا المصداق، بل إنّ ثورة المهدی علیه السّلام و نهضته هی من أوضح المصادیق حیث تکون نتیجتها الإنتصار النهائی للحق علی الباطل فی کل العالم.

و بالنسبة للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دخل فی یوم فتح مکّة، المسجد الحرام و حطم (۳۶۰) صنما کانت لقبائل العرب، و کانت موضوعة حول فناء الکعبة، و کان صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یحطمها الواحد تلو الآخر بعصاه، و هو یقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ کانَ زَهُوقاً.

و خلاصة القول: إنّ حقیقة انتصار الحق و انهزام الباطل هی تعبیر عن قانون عام یجری فی مختلف العصور، و انتصار الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی الشرک و الأصنام،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۷

و نهضة المهدی علیه السّلام الموعودة و انتصاره علی الظالمین فی العالم، هما من أوضح المصادیق لهذا القانون العام.

و هذا القانون یبعث الأمل فی نفوس أهل الحق، و یعطیهم القوة علی مواجهة مشاکل الطریق فی عملهم و مسیرهم الإسلامی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۸

الآیة [سورة الإسراء (۱۷): آیة ۸۲]

اشارة

وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ لا یَزِیدُ الظَّالِمِینَ إِلَّا خَساراً (۸۲)

التّفسیر

القرآن و صفة للشفاء

الآیة التی نبحثها الآن تشیر إلی التأثیر الکبیر للقرآن الکریم و دوره البنّاء فی هذا المجال حیث تقول: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِینَ أمّا الظالمون فإنّهم بدلا من أن یستفیدوا من هذا الکتاب العظیم، فإنّهم یتمسکون بما لا ینتج لهم سوی الذل و الهوان وَ لا یَزِیدُ الظَّالِمِینَ إِلَّا خَساراً.

بحوث

۱- مفهوم کلمة (من) فی مِنَ الْقُرْآنِ

نعرف أنّ كلمة (من) فى مثل هذه الموارد تأتى للتبعيض، إلّا أنّ الشفاء و الرحمة لا تخص قسما من القرآن، بل هى صفة لكل آياته، لذا فإنّ كبار المفسّرين يميلون إلى اعتبار (من) هنا بيانية. و لكن البعض احتمل أن تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۹۹

تبعيضية كذلك، و هى بذلك تشير إلى النزول التدريجى للقرآن- خاصّة و أنّ (ننزل) فعل مضارع- لذا فإنّ معنى الجملة يكون: (إنّنا ننزل القرآن و كل قسم ينزل منه، هو بحدّ ذاته و لوحده يعتبر شفاء و رحمة) (فتدبرّ جيدا).

۲- الفرق بين الشّفاء و الرّحمة

إنّ (الشفاء) هو فى مقابل الأمراض و العيوب و النواقص، لذا فإنّ أوّل عمل يقوم به القرآن فى وجود الإنسان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية و الأخلاقية الفردية منها و الجماعية.

ثمّ تأتى بعدها مرحلة (الرحمة) و هى مرحلة التخلّق بأخلاق اللّه، و تفتّح براعم الفضائل الإنسانية فى أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

بعبارة أخرى: إنّ الشفاء إشارة إلى (التطهير) و (الرحمة) إشارة إلى (البناء الجديد). أو بتعبير الفلاسفة و العارفين، فإنّ الأولى تشير إلى مقام (التخلية) بينما الثّانية تشير إلى مقام (التحلية).

۳- الظّالمون و نصيبهم من القرآن

ليس فى هذه الآية القرآنية و حسب، بل فى الكثير من الآيات الأخرى، نقرأ أنّ الظالمين يزداد جهلهم و بؤس حالهم، بدل الاستفادة من نور الآيات الإلهية!! إنّ ذلك يعود إلى أنّ وجودهم قائم بالأساس على قواعد الكفر و الظلم و النفاق، لذلك فإنّهم أين ما يجدون الحق يحاربونه، و هذه الحرب للحق و أهله تزيد فى بؤسهم و تقوى روح الطغيان و التمرّد عندهم.

فإذا أعطينا- مثلا- وجبة طعام متكاملة لعالم مجاهد، فإنّه سيستفيد من تلك الطاقة لأجل التربية و التعليم و الجهاد فى طريق الحق، أمّا إذا أعطينا نفس وجبة الطعام هذه إلى شخص ظالم، فأنّه سيستفيد من هذه الطاقة فى تموين قدرة الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۰

لديه أكثر، و هذا المثال يكشف عن أنّه لا يوجد اختلاف فى المادة الإلهية نفسها (المعنى هنا القرآن الكريم) بل الاختلاف فى أمزجة و أفكار و استعداد الإنسان المتلقى.

فالآيات القرآنية طبقا للمثال، هى كقطرات الماء التى تكون سببا فى إنبات الورود فى البساتين، بينما تنبت الأشواك فى الأرض السبخة.

و لهذا السبب ينبغى أن تتهيأ مسبقا الأرضية حتى تتم الاستفادة من القرآن، إضافة إلى أنّ فاعلية الفاعل يشترط فيها قابلية المحل كما يصطلح.

و هنا تتّضح الإجابة على السؤال الذى يقول: كيف لا يهدى القرآن أمثال هؤلاء الأشخاص فى حين أنّه كتاب هداية؟ إذ لا ريب أنّ القرآن قادر على هداية الضالين، و لكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، و يكونوا فى مستوى قبوله و الإذعان له. أمّا واقع المعاندين و أعداء الحق فإنّه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبيا مع القرآن، و لذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم و كفرهم، لأنّ تكرار الذنب يكرس فى روح الإنسان حالة الكفر و العناد.

۴- القرآن دواء ناجع لكل الأمراض الاجتماعية و الأخلاقية

إنّ الأمراض الروحية و الأخلاقية لها شبه كبير بالأمراض الجسمية للإنسان، فالإثنان يقتلان، و الاثنان يحتاجان إلى طبيب و علاج و وقاية، و الاثنان قد يسريان للآخرين، و يجب فى كل منهما معرفة الأسباب الرئيسة ثمّ معالجتها.

و فى كل منهما قد يصل الحال بالمصاب الى عدم امكانية العلاج، و لكن فى أكثر الأحيان يتم علاجها و الشفاء منها، إلّا أنّ العلاج قد لا ينفع فى أحيان أخرى.

إنّه شبه جميل و ذو معانى متعدّدة؛ فالقرآن يعتبر و صفة شفاء للذين يريدون محاربة الجهل و الكبر و الغرور و الحسد و النفاق ... القرآن و صفة شفاء لمعالجة الضعف و الذّلة و الخوف و الاختلاف و الفرقة. و كتاب اللّه الأعظم و صفة شفاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۱

للذين يئنّون من مرض حبّ الدنيا و الارتباط بالمادة و الشهوة. و القرآن و صفة شفاء لهذه الدنيا التى تشتعل فيها النيران فى كل زاوية، و تئن من وطأة السباق فى تطوير الأسحلة المدمرة و خزنها، حيث وضعت رأس مالها الاقتصادى و الإنسانى فى خدمة الحرب و تجارة السلاح.

و أخيرا فإنّ كتاب اللّه و صفة شفاء لإزالة حجب الشهوات المظلمة التى تمنع من التقرب نحو الخالق عزّ و جلّ.

نقرأ فى الآية (۵۷) من سوره يونس قوله تعالى: قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ.

و فى الآية (۴۴) من سورة فصّلت نقرأ قوله تعالى: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ.

و لإمام المتقين على بن أبى طالب عليه السّلام قول جامع فى هذا المجال، حيث

يقول عليه السّلام فى نهج البلاغة: «فاستشفوه من أدوائكم و استعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاء من أكبر الداء، و هو الكفر و النفاق و الغى و الضلال»[۶۴].

و

فى مكان آخر نقرأ لإمام المتقين على عليه السّلام قوله واصفا كتاب اللّه: «ألا إنّ فيه علم ما يأتى و الحديث عن الماضى و دواء دائكم و نظم ما بينكم».[۶۵]

و فى مقطع آخر يضمّه نهج على عليه السّلام، نقرأ وصفا لكتاب اللّه

يقول فيه عليه السّلام: «و عليكم بكتاب اللّه فإنّه الحبل المتين، و النور المبين، و الشفاء النافع، و الرى الناقع، و العصمة للمتمسك، و النجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، و لا يزيغ فيستعتب، و لا تخلقه كثرة الرد و ولوج السمع، من قال به صدق، و من عمل به سبق»[۶۶].

هذه التعابير العظيمة و البليغة، و التى نجد لها أشباها كثيرة فى أقوال النّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى كلمات الإمام على عليه السّلام الأخرى و الأئمّة الصادقين عليهم السّلام، هى دليل يثبت بدقة و وضوح أنّ القرآن و صفة لمعالجة كل المشاكل و الصعوبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۲

و الأمراض، و لشفاء الفرد و المجتمع من أشكال الأمراض الأخلاقية و الاجتماعية.

إنّ أفضل دليل لإثبات هذه الحقيقة هى مقايسة وضع العرب فى الجاهلية مع وضع الذين تربوا فى مدرسة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مطلع الإسلام. إنّ المقايسة بين الوضعين ترينا كيف أنّ أولئك القوم المتعطشون للدماء، و المصابون بأنواع الأمراض الاجتماعية و الأخلاقية، قد تمّ شفاؤهم ممّا هم فيه بالهداية القرآنية، و أصبحوا برحمة كتاب اللّه من القوّة و العظمة بحيث أنّ القوى

السياسية المستكبرة آنذاك خضعت لهم أعنّتها، و ذلت لهم رقابها.

و هـذه هى نفس الحقيقة التى تناساها مسلمو اليوم، و أصبحوا على ما هم عليه من واقع بائس مرير غارق بالأمراض و المشاكل ... إنّ الفرقة قد اشتدت بينهم، و الناهبين سيطروا على مقدراتهم و ثرواتهم، مستقبلهم أصبح رهينة بيد الآخرين بعد أن أصيبوا بالضعف و الهوان بسبب الارتباط بالقوى الدولية و التبعية الذليلة لها.

و هـذه هى عاقبة من يستجدى دواء علّته من الآخرين الذين هم اسوأ حالا منه، فى حين أن الآخرين، ليأخذ منهم علاج الدواء حاضر بين يديه و موجود فى منزله! القرآن لا يشفى من الأمراض و حسب، بل إنّه يساعد المرضى على تجاوز دور النقاهة إلى مرحلة القوّة و النشاط و الانطلاق، حيث تكون (الرحمة) مرحلة لا حقة لمرحلة (الشفاء).

الظريف فى الأمر أنّ الأدوية التى تستخدم لشفاء الإنسان لها نتائج و تأثيرات عرضية حتمية لا يمكن توقيها أو الفرار منها، حتى أنّ الحديث المأثور يقول: «ما من دواء إلّا و يهيج داء»[۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۳

أمّا هـذا الـدواء الشافى، كتاب اللّه الأعظم، فليست له أى آثار عرضـية على الروح و الأفكار الإنسانية، بل على عكس ذلك كله خير و بركة و رحمة.

و فى واحدة من عبارات نهج البلاغة نقرأ فى وصف هذا المعنى

قول على عليه السّلام: «شفاء لا تخشى أسقامه»

واصفا بذلك القرآن الكريم ۶۸].

يكفى أن نتعهد باتباع هـذه الوصـفة لمـدّة شـهر، نطيع الأوامر فى مجالات العلم و الوعى و العدل و التقوى و الصدق و بذل النفس و الجهاد ... عندها سنرى كيف ستحل مشاكلنا بسرعة.

و أخيرا ينبغى القول: إنّ الوصـفة القرآنيـة حالهـا حـال الوصـفات الأـخرى، لا يمكن أن تعطى ثمارها و أكلها من دون أن نعمل بها و نلتزمها بدقة، و إلّا فإنّ قراءة و صفة الدواء مائة مرّة لا تغنى عن العمل بها شيئا!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۴

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۳ الى ۸۴]

اشارة

وَ إِذا أَنْعَمْنـا عَلَى الْإِنْسـانِ أَعْرَضَ وَ نَـأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً (۸۳) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْـدى سَبِيلًا (۸۴)

التّفسير

كل يتصرف وفق فطرته:

بعـد أن تحـدّثت الآيـة السابقـة عن شـفاء القرآن، تشـير الآيـة التى بين أيـدينا إلى أحـد أكثر الأمراض تجذرا فتقول: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ و لكن عند ما نسلب منه النعمة و يتضرر من ذلك و لو قليلا: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً.

(أعرض) مشتقة من (إعراض) و هى تعنى عدم الالتفات، و المقصود منها هنا هو عدم الالتفات للخالق عزّ و جلّ، و إعراض الوجه عنه

و عن الحق.

(نأی) مشتقّة من (نأی) و هی علی وزن (رأی) و هی بمعنی الابتعاد، و عند إضافة کلمة (بجانبه) إلیها یکون المعنی التکبر و الغرور و التزام المواقف المعادیة.

و یمکن الاستفادة من مجموع هذه الجملة الأشخاص الدنیویین یصابون بالغرور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۵

عند مجیء النعم، بحیث أنّهم ینسون واهب و معطی هذه النعم، و لا یقتصر الأمر علی النسیان و حسب، بل ینتقل إلی الاعتراض التکبر و عدم الالتفات للخالق.

جملة مَسَّهُ الشَّرُّ تشیر إلی أدنی سوء یصیب الإنسان. و المعنی أنّ هؤلاء من الضعف و عدم التحمّل بحیث أنّهم ینسون أنفسهم و یغرقون فی دوّامة الیأس بمجرّد أن تصیبهم أبسط مشکلة.

الآیة الثّانیة تخاطب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول: قُلْ کُلٌّ یَعْمَلُ عَلی شاکِلَتِهِ

فالمؤمنون یطلبون الرحمة و الشفاء من آیات القرآن الکریم، و الظالمون لا یستفیدون من القرآن سوی مزید من الخسران، أمّا الأفراد الضعفاء فیصابون بالغرور فی حال النعمة. و یصابون بالیأس فی حال ظهور المشاکل ... هؤلاء جمیعا یتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التی تتغیّر وفق التربیة و التعلیم و الأعمال المتکررة للإنسان نفسه.

و فی هذه الأحوال جمیعا فإنّ هناک علم اللّه الشاهد و المحیط بالجمیع و خاصّة بالأشخاص المهتدین: فَرَبُّکُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدی سَبِیلًا.

بحوث

۱- الغرور و الیأس

یتداول علی ألسنتنا أنّ فلانا أصبح بعیدا عن اللّه، أو أنّه نسی اللّه بعد أن تحسنت أموره. و رأینا أنّ أمثال هؤلاء الأشخاص الذین نسوا اللّه کیف یصابون بالیأس الذلة و الهلع عند ما تنزل بهم أبسط الشدائد، بحیث لا نکاد نصدّق بأنّهم سبق و أن کانوا علی غیر هذه الحال! أجل، هکذا حال هؤلاء الجماعة من ضیقی التفکیر و ضعیفی الإیمان، و علی العکس من ذلک حال أولیاء اللّه، حیث تکون نفوسهم واسعة و أرواحهم وضاءة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۶

نیّرة إزاء المؤثرات التی تحیط بهم و لو بلغت فی عتوها و ضغطها مبلغا شدیدا، إنّهم کالجبال فی مقابل الصعوبات و الشدائد، إذا وهبتهم الدنیا فلا یؤثر ذلک فیهم، و إذا أخذت منهم العالم أجمع لا یتأثرون.

و العجیب فی الأمر أنّ هؤلاء القوم الذی یخسرون أنفسهم و الذین تذکرهم السور القرآنیة فی آیات متعدّدة (مثل یونس- آیة ۱۲، لقمان- آیة ۳۲، الفجر- آیة ۱۴، ۱۵، فصلت- الآیة ۴۸، ۴۹) هم أنفسهم یعودون إلی اللّه، و یستجیبون لنداء الفطرة عند ما تنزل بهم النوازل و تقع بساحتهم الشدائد، و لکنّهم عند ما تهدأ أمواج الحوادث و الضواغط یتغیرون، أو فی الواقع یعودون إلی ما کانوا علیه سابقا و یکون مثلهم کمن لم یسمع باللّه الذی خلقه و أنقذه! إنّ العلاج الوحید لهذا المرض هو رفع مستوی الفکر فی ظل العلم و الإیمان، و ترک العبودیة لما هو دون اللّه و سواه، و فک الارتباط مع الشهوة و المادة، و العیش فی إطار من القناعة و الزهد البنّاء.

و ممّا ذکرنا تظهر الإجابة علی سؤال، و هو: إنّ الآیات التی نبحثها تصف حال مثل هؤلاء الأشخاص عند الصعوبات و الشدائد ب

«یؤوس» فی حین أنّ آیات أخری مثل الآیـة (۶۵) من سورة العنکبوت تصـفهم بأنّهم مُخْلِصِـینَ لَهُ الدِّینَ و هی دلالة علی غایة التوّجه نحو الخالق عزّ و جلّ؟

فی الواقع لیس ثمّـة من تضـاد بین هـاتین الحـالتین، بل إنّ إحـداهما هی بمثابـة مقدمـة للأخری، فهؤلاء الأشـخاص عنـد ما تصادفهم المشکلات ییأسون من الحیاة، و هذا الیأس یکون سببا لأنّ تزول الحجب عن فطرتهم و یلتفتون لخالقهم العظیم.

إنّ هـذا التوّجه الاضـطراری إلی الخـالق عزّ و جـلّ- طبعـا- لیس فخرا لأمثال هؤلاء و لیس دلیلا علی یقظتهم، لأنّهم بمجرّد انصـراف المشاکل عنهم یعودون إلی حالتهم السابقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۷

أمّـا أولیاء الحق و عباد اللّه المخلصون الحقیقیون فلا ییأسون عنـد ما یقعون فی المشاکل و المحن، بل تزیـدهم الصـعوبات اسـتقامة و صلابـة علی طریق الهـدی، و بسـبب اعتمـادهم علی اللّه و علی أنفسـهم فـإنّهم یتمتعون بقوّة لمواجهـة المشاکـل و لا ـ معنی للیأس فی وجودهم.

إنّ هؤلاء لیسوا علی صـلة بالخالق فی أوقات المشـکلات و حسب، و إنّما فی اتصال دائم معه فی کل الحالات إذ یستمدون العون منه تعالی، و تکون قلوبهم منیرة برحمته و هدایته.

۲- ما معنی (شاکلة)؟

«شاکلـة» فی الأصـل مشـتقة من (شـکل) و هی تعنی وضع الزمـام و الربـاط للحیوان. و (شـکال) تقـال لنفس الزمـام؛ و بما أنّ طبائع و عادات کل إنسان تقیّده بصفات معینة لذا یقال لذلک «شاکلة». أمّا کلمة «إشکال» فتقال للاستفسار و السؤال و سائر الأمور التی تحدّد الإنسان نوعا ما[۶۹].

لهـذا فإنّ مفهوم الشاکلة لا یختص بالطبیعة الإنسانیة، لذلک ذکر العلّامة الطبرسـی فی مجمع البیان لهذه الکلمة معنیین، هما: الطبیعة و الخلقة، ثمّ الطریقة و المذهب و السنّة، علی اعتبار أنّ کل واحدة من هذه الأمور تحدّد الإنسان من حیث العمل.

و من هنا یتّضح خطأ أولئک الذین اعتبروا الآیة أعلاه دلیلا علی إلزامیة الصفات الذاتیة للإنسان بشکل یخرج عن إرادته، و هو دلیلهم علی عقیدة الجبر، و إذ أنکروا قیمة التربیة و التزکیة.

هذا النوع من التفکیر الذی یخضع فی أسـبابه إلی عوامل سیاسیة و اجتماعیة و نفسیة- و التی ذکرناها فی بحوثنا عن الجبر و الإختیار- له هیمنة علی ثقافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۸

و أدب الکثیر من المجتمعات و النظم، حیث تستخدم هذه الثقافة لتبریر النواقص.

إنّ هذه الثقافة تعتبر من أخطر الإعتقادات التی یمکن أن تجر المجتمع سنین بل قرون إلی الذلة و التأخّر.

بناء علی ما ذکرنا نعتقد أن عقیدة الجبر هی دوما ذریعة للتسـلط الاسـتعماری، لکی تبقی القوّة المسیطرة فی ظل ثقافة الجبر بمنأی عن ردود الفعل المقاومة للسیطرة و التی یمکن أن تنطلق من صفوف المسحوقین المستضعفین.

و التعبیر المشهور هنا، یوضح هذه الحقیقة بشکل دقیق، إذ یقول: «الجبر و التشبیه أمویان و العدل و التوحید علویان».

و خلاصـة القول هنا: إنّ الشاکلـة لا تعنی أبـدا الطبیعة الذاتیة، بل هی تطلق علی کلّ عادة و طریقة و مذهب و أسـلوب یعطی للإنسان اتجاها معینا.

لـذا فـإنّ العـادات و الصـفات التی یکتسـبها الإنسان بتکرار الأعمال اختیاریا و إرادیا، و کـذلک الإعتقادات التی یقتنع بها و یعتمـدها

بسبب الاستدلال أو التعصب لرأى معين يطلق عليها كلّها كلمة «شاكلة».

و عادة ما تكون الملكات الإنسانية لها صفة اختيارية، لأنّ الإنسان عند ما يكرّر عملا ما ففى البداية يقال له (حالة) ثمّ تتحوّل الحالة إلى (عادة) و العادة إلى (ملكة) و هذه الملكات نفسها تعطى شكلا معينا لأعمال الإنسان و تحدّد خطّه فى الحياة، و هى عادة ما تظهر بفعل العوامل الاختيارية و الإرادية.

و فى بعض الرّوايات تمّ تفسير «الشاكلة» بأنّها النيّة،

فقد ورد فى أصول الكافى عن الإمام الصّادق عليه السّلام، قوله: «النّية أفضل من العمل، ألا و إنّ النّية هى العمل، ثمّ تلا قوله عزّ و جلّ: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ يعنى على نيّته»[۷۰].

هذا التّفسير ينطوى على ملاحظة لطيفة، و هى أنّ الإنسان و التى تنبع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۰۹

اعتقاداته تغطى شكلا لعمله، و عادة فإنّ النيّة هى نوع من الشاكلة، بمعنى الأمر المقيّد. لذا تفسّر النيّة أحيانا بأنّها نفس العمل. و فى أحيان أخرى بأنّها أفضل من العمل، لأنّه- فى كل الأحوال- يكون خط العمل و اتجاهه ناتجا عن خط النيّة و اتجاهها.

و

فى رواية «من لا يحضره الفقيه» عن صالح بن الحكم، قال: سئل الصّادق عليه السّلام عن الصلاة فى البيع و الكنائس، فقال عليه السّلام: «صلّ فيها» قلت: أصلى فيها و إن كانوا يصلون فيها؟ قال: «نعم. أمّا تقرأ القرآن»: قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلى شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدى سَبِيلًا صلّ على القبلة و دعهم»[۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۰

الآية [سورة الإسراء (۱۷): آية ۸۵]

اشارة

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (۸۵)

التّفسير

ما هى الرّوح؟

تبدأ هذه الآية فى الإجابة على بعض الأسئلة المهمّة للمشركين و لأهل الكتاب، إذ تقول: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

مفسّر و الإسلام الكبار- السابقون منهم و اللاحقون- لهم كلام كثير عن الروح و معناها، و نحن فى البداية سنشير إلى معنى كلمة (روح) فى اللغة، ثمّ موارد استعمالها فى القرآن، و أخيرا تفسير الآية و الرّوايات الواردة فى هذا المجال.

و فى هذا الصدد يمكن ملاحظة النقاط الآتية:

۱- (الرّوح) فى الأصل اللغوى تعنى (النفس) و البعض يرى بأنّ (الروح) و (الرّيح) مشتقّتان من معنى واحد، و إذ تمّ تسمية روح الإنسان- التى هى جوهرة مستقلة- بهذا الاسم فذلك لأنّها تشبه النفس و الريح من حيث الحركة و الحياة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۱

و كونها غير مرئية مثل النفس و الريح.

۲- استخدمت كلمة (الرّوح) فى القرآن الكريم فى موارد و معانى متعدّدة، فهى فى بعض الأحيان تعنى الروح المقدّسة التى تساعد الأنبياء على أداء رسالتهم كما فى الآية (۲۵۳) من سورة البقرة و التى تقول: وَ آتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَ أَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

و فى بعض الأحيان تطلق على القوّة الإلهية المعنوية التى تقوى المؤمنين و تدفعهم، كما فى قوله تعالى فى الآية (۲۲) من سورة المجادلة: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ

و فى موارد أخرى تأتى للدلالة على (الملك الخاص بالوحى) و يوصف ب (الأمين)، كما فى الآية (۱۹۳) من سورة الشعراء: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ

و فى مكان آخر وردت بمعنى (الملك الكبير) من ملائكة اللّه الخاصين، أو مخلوق أفضل من الملائكة كما فى الآية (۴) من سورة القدر: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ. و فى الآية (۳۸) من سورة النباء: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا.

و وردت- أيضا- بمعنى القرآن أو الوحى السماوى، كما فى الآية (۵۲) من سورة الشورى فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا.

و أخيرا وردت الروح فى القرآن الكريم بمعنى الروح الإنسانية، كما فى آيات خلق آدم: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۷۲]. و كذلك قوله تعالى فى الآية (۲۹) من سورة الحجر: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۲

۳- و الآن لنر من خلال هذه النقطة ما هو المقصود بالروح فى الآية التى نبحثها؟

ما هى الرّوح التى سأل عنها جماعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأجابهم بقوله تعالى:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا؟

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة فى الآية أنّ المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التى تميّز الإنسان عن الحيوان، و قد شرفتنا بأفضل الشرف، حيث تنبع كل نشاطاتنا و فعالياتنا منها، و بمساعدتها نجول فى الأرض و نتأمّل السماء، نكتشف أسرار العلوم، و نتوغل فى أعماق الموجودات إنّهم أرادوا معرفة حقيقة أعجوبة عالم الخلق!! و لأنّ الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، و لها أصول تحكمها تختلف عن الأصول التى تحكم المادة فى خواصها الفيزيائية و الكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء فى جملة قصيرة قاطعة: قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي و لكى لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية:

وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنّها أقرب شىء إليكم.

و

فى تفسير العياشى نقل الإمام الباقر و الصّادق عليهما السّلام أنّهما قالا فى تفسير آية يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ما نصّه: «إنّما الروح خلق من خلقه، له بصر و قوّة و تأييد، يجعله فى قلوب الرسل و المؤمنين»[۷۴].

و

فى حديث آخر عن الإمامين الباقر و الصادق أنّهما عليهما السّلام قالا: «هى من الملكوت، من القدرة»[۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۳

و فى الرّوايات المتعدّدة التى بين أيدينا من طرق الشيعة و أهل السنّة نقرأ أنّ هذا السؤال عن الروح أخذه المشركون من علماء أهل الكتاب الذين يعيشون مع قريش، كى يختبروا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذ قالوا لهم: إذا أعطاكم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معلومات كثيرة عن الروح فهذا دليل على عدم صدقه، لذلك نراهم قد تعجبوا من إجابة الرّسول صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم المليئة بالمعانى رغم قصرها و قلّة كلماتها.

و لكن نقرأ فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، فى تفسير هذه الآية، أنّ الروح مخلوق أفضل من جبرائيل و ميكائيل، و كان هذا المخلوق برفقة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و برفقة الأئمّة الصادقين عليهم السّلام من أهل بيته من بعده، حيث كان يعصمهم من أى انحراف أو زلل خلال مسيرتهم ۷۶].

إنّ هذه الرّوايات لا تعارض التّفسير الذى قلناه، بل هى متناسقة معه و داعمة له، لأنّ الروح الإنسانية لها مراتب و درجات، فتلك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء و الأئمة عليهم السّلام، هى فى مرتبة و درجة عالية جدّا، و من آثارها العصمة من الخطأ و الذنب و كذلك يترتب عليها العلم الخارق. و بالطبع فإنّ روحا مثل هذه هى أفضل من الملائكة بما فى ذلك جبرئيل و ميكائيل. (فتدبّر)

أصالة و استقلال الرّوح:

يظهر تأريخ العلم و المعرفة الإنسانية أنّ قضية الروح و أسرارها الخاصّة كانت محط توجّه العلماء، حيث حاول كل عالم الوصول إلى محيط الروح السرى. و لهذا السبب ذكر العلماء آراء مختلفة و كثيرة حول الروح.

و من الممكن أن تكون علومنا و معارفنا اليوم- و كذلك فى المستقبل- قاصرة عن التعرف على جميع أسرار الروح و الإحاطة بتفصيلاتها، بالرغم من أنّ روحنا هى أقرب شىء لدينا من جميع ما حولنا. و بسبب الفوارق التى تفصل بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۴

جوهرة الروح و بين ما نأنس به من عوالم المادة، فإنّنا لن نحيط بأسرار و كنه الروح، أعجوبة الخلق، و المخلوق الذى يتسامى على المادة.

و لكن كل هذا لا يمنعنا من رؤية أبعاد الروح بعين العقل، و أن نتعرف على النظم و الأصول العامّة الحاكمة عليها.

إنّ أهم أصل يجب أن نعرفه هو قضية أصالة و استقلال الروح، فى مقابل آراء المذاهب الوضعية التى تذهب إلى مادية الروح، و أنّها من افرازات الذهن و الخلايا العصبية و لا شىء غير ذلك! و سنبحث هذا الموضوع هنا و نتوسع فيه، لأنّ مسألة (بقاء الروح) و قضية (التجرد المطلق أو عالم البرزخ) يعتمدان على هذا الأمر.

و لكن قبل الورود فى البحث لا بدّ من ذكر ملاحظة هامّة، و هى أن تعلق الروح بجسم الإنسان ليست- و كما يظن البعض- من نوع الحلول، و إنّما هى نوع من الارتباط و العلاقة القائمة على أساس حاكمية الروح على الجسم و تصرفها و تحكمها به، حيث يشبهها البعض بعلاقة تعلق المعنى و ارتباطه باللفظ.

هذه المسألة- طبعا- ستتوضح أكثر ضمن حديثنا عن استقلال الروح.

و الآن لنرجع إلى أصل الموضوع.

لا يشك أحد فى أنّ الإنسان يختلف عن الحجارة و الخشب، لأنّنا نشعر- بشكل جيّد- بأنّنا نختلف عن الجمادات، بل و حتى عن النباتات، فنحن نفهم و نتصوّر و نصمّم، و نريد، و نحب، و نكره، و ... الخ.

إلّا أنّ الجمادات و النباتات ليس لها أىّ من هذه الإحساسات، لذلك فثمّة فرق أساسى بيننا و بينها و يتمثل فى امتلاكنا للروح الإنسانية.

ثمّ إنّه لا الماديون و لا أى مجموعة فكرية مذهبية أخرى تنكر أصل وجود الروح، و لذلك يعتبرون علوما مثل علم النفس (سيكولوجيا)، و علم العلاج النفسى (بسيكاناليزم) من العلوم المفيدة و الواقعية، و هذين العلمين بالرغم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۵

أنّهما يعيشان مراحل طفولتهما بلحاظ بعض العوامل و القضايا، و لكنّهما مع ذلك يدخلان اليوم ضمن المناهج الدراسية فى الجامعات، حيث يقوم أساتذة كبار بالبحث و التحقيق فيهما، و كما سنلاحظ، فإنّ النفس و الروح ليستا حقيقتين منفصلتين، بل هما مراحل مختلفة لحقيقة واحدة.

و إنّنا هنا سنطلق كلمة (النفس) عند ما يتعلق الحديث بالارتباط بين الروح و الجسم و التأثير المتبادل لكل منهما على الآخر. أمّا عند ما يكون الحديث عن الظواهر الروحية مع غض النظر عن البدن فإنّنا سنطلق عليها كلمة (الروح).

و خلاصة القول: أنّه أحد يستطيع أن ينكر حقيقة وجود الروح و النفس عندنا.

و الآن ينبغى أن نتفحّص مجالات السجال و الحرب بين المذاهب المادية من جهة، و بين مجموع هذه المذاهب و تيارات و مذاهب الفلاسفة الروحيين و الميتافيزيقيين من جهة أخرى.

إنّ العلماء الإلهيين و الفلاسفة الروحيين يعتقدون بأنّ الإنسان و بالإضافة إلى المواد التى تدخل فى تشكيل جسمه، ينطوى وجوده على حقيقة جوهرية أخرى لا تتجلى فيها صفات المادة، و إن جسم الإنسان يخضع لتأثيرها بشكل مباشر و فاعل.

و بعبارة أخرى، فإنّ الروح هى حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة (أى ميتافيزيقية) حيث أنّ تركيبها و فعاليتها تختلف عن تركيب و فاعلية عالم المادة؛ صحيح أنّها مرتبطة مع عالم المادة، إلّا أنّها ليست مادة و لا تملك خواص المادة.

فى المقابل هناك الفلاسفة الماديون الذين يقولون: إنّنا لا نعرف موجودا مستقلا عن المادة يسمى بالروح، أو أى اسم آخر، و إنّ كل ما موجود هو هذه المادة الجسمية و آثارها الفيزيائية أو الكيميائية.

إنّنا نملك جهازا يسمّى (الذهن و الأعصاب) و هو يقوم بقسم مهم من أعمالنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۶

الحياتية، و هو مثل باقى الأجهزة المادية حيث يخضع فى نشاطه لقوانين المادة.

إنّنا نملك غددا تحت اللسان تسمّى الغدد اللعابية و التى تقوم بفاعلية فيزيائية و كيميائية، فعند ما يدخل الطعام إلى الفم تقوم هذه الغدد بالعمل بشكل أوتوماتيكى حيث تقوم بإفراز السائل بالمقدار الذى يحتاجه الطعام حتى يلين و يمضغ بشكل جيّد، فهناك- أطعمة تحتوى على سوائل و هناك أطعمة قليلة السوائل أو جافّة، و كل نوع من هذه الأطعمة يحتاج إلى مقدار معين من هذه السوائل (اللعاب).

المواد الحامضية تزيد من عمل هذه الغدد، خاصّة عند ما تكون كثافة الطعام كبيرة، حتى يحصل الطعام على كميّة أكبر من السوائل ليلين، و من ثمّ لا تصاب جدران المعدة بضرر.

عند ما نبلع الطعام ينتهى عمل هذه الغدد و القنوات. و خلاصة القول: إنّ هناك نظاما عجيبا يتحكم بهذه الغدد و القنوات بحيث أنّها إذا فقدت تعادلها لمدّة ساعة، فإمّا أن يسيل اللعاب بشكل دائم عبر الشفتين، أو أن يكون الفم جافا بحيث لا يمكن ابتلاع الطعام. هذا هو العمل الفيزيائى للعاب، إلّا أنّنا نعلم أنّ العمل الأهم للعاب هو عمله الكيمياوى، فهناك مواد متنوعة متداخلة معه حيث تتفاعل مع الطعام و تقلل من تعب المعدة.

الماديون يقولون: إن عقلنا و أعصابنا يشبهان عمل الغدد اللعابية و ما شابهها من أجهزة الجسم من حيث العمل الفيزيائى و الكيميائى (حيث يسمّى المجموع فيزيوكيميائى) و هذا العمل الفيزيوكيميائى نحن نسمّيه ب «الظواهر الرّوحية أو «الرّوح».

الماديون يقولون: عند ما نفكّر تصدر سلسلة من الأمواج الكهربائية من عقلنا، هذه الأمواج يمكن التقاطها اليوم بواسطة أجهزة خاصّة و تدوينها على الأوراق و دراستها، خاصّة فى مستشفيات الأعصاب، حيث يتمّ تشخيص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۷

الأمراض العصبية و معالجتها، و هذه هى الفعالية الفيزيائية لعقلنا.

إضافة إلى هذا، فإنّ خلايا العقل عند التفكير، و كذلك عند النشاطات العصبية المختلفة، تقوم بمجموعة من الأفعال و الانفعالات الكيمياوية.

لذلك فإنّ الروح و الصفات الروحية ليست سوى الخواص الفيزيائية و الأفعال الكيميائية للخلايا العقلية و العصبية.

إنّ الماديين يستفيدون من كل هذا العرض لبلورة النتائج التالية:

۱- بما أنّ نشاط الغدد اللعابية و آثارها المختلفة لم تكن موجودة قبل وجود جسم الإنسان، بل إنّها وجدت بعد وجوده، لذا فإنّ النشاطات الروحية تظهر بعد ظهور الدماغ و الجهاز العصبى، و تموت هذه الفعاليات بموت الإنسان.

۲- الروح من خواص الجسم، إذن فهى مادية و ليس لها أى صفات ميتافيزيقية.

۳- الروح خاضعة لجميع القوانين التى تحكم جسم الإنسان.

۴- ليس هناك وجود مستقل للروح بدون جسم، و لا يمكن أن يكون ذلك.

دلائل الماديين على عدم استقلال الروح

لقد أورد الماديون شواهد لإثبات دعواهم بأنّ الروح و الفكر و سائر الظواهر الروحية هى قضايا مادية، أى تكون انعكاسا للخواص الفيزيائية و الكيميائية للخلايا العصبية و الدماغية، و نستطيع أن نشير هنا إلى هذه الشواهد من خلال هذه النقاط:

۱- «يمكن الإشارة و بسهولة إلى تعطّل قسم من الأغراض الروحية عند عطل أو إصابة قسم من المراكز العصبية أو سلسلة من الأعصاب»[۷۷].

فمثلا تمّ اختبار حالة رفع فيها قسم من دماغ الطير، و لم يؤد ذلك إلى موته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۸

بل إنّه فقد قسما كبيرا من معلوماته، مثلا يفقد شهيته للطعام فإذا أعطيناه طعاما فإنّه يأكله و يهضمه، و لكنّا إذا لم نعطه و وضعنا الحب أمامه فإنّه لا يأكل و سيموت من الجوع.

كما شوهد أنّ إصابة دماغ الإنسان نتيجة للحوادث أو الأمراض ببعض الضربات أو الصدمات، يؤدى إلى فقدان الدماغ لجزء كبير من نشاطه، حيث ينسى الإنسان جانبا من معلوماته.

و قد قرأنا قبل فترة فى الصحف أنّ شابا مثقفا من مدينة (الأهواز) الايرانية تعرض لضربة على دماغه فى حادثة، فنسى جميع أحداث حياته الماضية حتى أنّه نسى أمّه و أخته و نسى نفسه و عند ما جاؤوا به إلى بيته و المكان الذى ولد و ترعرع فيه، فإنّه لم يعرف هذا المكان و بدا فيه غريبا.

إنّ هذه الأمور و ما شابهها تثبت وجود علاقة قريبة بين نشاطات الخلايا الدماغية و الظواهر الروحية.

۲- «عند ما نفكر تكثر التغييرات المادية على سطح الدماغ .. الدماغ يحتاج إلى طعام أكثر، و يطرح مواد فسفورية أكثر. و لكن عند النوم فإنّ الدماغ لا يقوم بالتفكير، لذا فإنّه يحتاج إلى طعام قليل، و هذا يعتبر دليلا على أنّ الآثار الفكرية للإنسان تترشح من فعاليات مادية»[۷۸].

۳- تظهر التجارب أن وزن أدمغة المفكرين هى أكثر من الحد المتوسط (الحد المتوسط لدماغ الرجل فى حدود (۱۴۰۰) غرام، و الحد المتوسط لدماغ المرأة أقل من هذا بقليل)، و هذا دليل آخر- بزعم الماديين- على مادية الروح.

۴- إذا كانت قوة التفكير و الظواهر الروحية دليلا على الوجود المستقل للروح، فيجب أن نقبل ذلك أيضا فى الحيوانات، لأنّها تملك

قدرة الإدراك.

و الخلاصة: إنّ الماديين فى أدلتهم بأننا ندرك و نحس بأنّ روحنا ليست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۱۹

موجودا مستقلا، و التطورات المتعلقة بمعرفة الإنسان و دراسته تؤيد هذه الحقيقة.

و من مجموع هذه الاستدلالات، يستنتج هؤلاء أنّ التقدم الفيزيولوجى الإنسانى و الحيوانى يوضحان يوما بعد آخر حقيقة وجود العلاقة القريبة بين الظواهر الروحية و الخلايا الدماغية.

نقد هذه النظرية:

الخطأ الكبير الذى وقع فيه الماديون فى أدلتهم و استنتاجاتهم، أنّهم خلطوا بين (وسائل العمل) و (القائم بالعمل).

و لأجل معرفة هذا الخلط نذكر هنا مثالا للتوضيح نرجو أن يدقق فيه القارئ الكريم جيدا:

منذ زمان غاليلو و حتى يومنا الحاضر، حصل تحوّل كبير فى دراسة حركة الأفلاك و الأجرام السماوية، فغاليلو الإيطالى استطاع و بمعونة أحد صانعى العوينات الزجاجية من صناعة مجهر صغير، فطار غاليلو به فرحا، بحيث أنّه شرع عند المساء بدراسة نجوم السماء بواسطة مجهره الذى أظهر له أوضاعا عجيبة إذ أنّه شاهد عالم لم يستطيع أى إنسان مشاهدته حتى ذلك اليوم. لقد فهم غاليلو أنّه توصّل إلى اكتشاف مهم، و منذ ذلك اليوم أصبحت دراسة أسرار العالم الأعلى فى متناول الإنسان.

لقد كان الإنسان حتى ذلك اليوم مثل الفراشة التى لم تكن ترى من حولها سوى بعض سيقان الشجر، أمّا عند ما صنع الإنسان التلسكوب فإنّه استطاع أن يشاهد من حوله مقدارا من أشجار الغابة الكبيرة.

لقد تطور العمل فى التلسكوب حتى وصل إلى وضعه الراهن حيث بنيت مختبرات كبيرة و مراصد جبارة يبلغ قطر عدساتها عدّة امتار لقد نصبت هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۰

المراصد فى أعالى الجبال المرتفعة حيث يتميز الأفق بصفاء خاص ممّا يسهل على الفلكيين دراسة النجوم، و بواسطة هذه المراصد الجبارة استطاع الإنسان أن يشاهد عوالم أخرى كان عاجزا عن مشاهدتها بالعين المجرّدة قبل ذلك.

و الآن لنتصوّر أن الإنسان يكون بمقدوره مستقبلا أن يتوصل إلى صناعة مرصد بقطر (۱۰۰) متر بحيث يكون حجم الأجهزة المستخدمة فيه بحجم مدينة بكاملها، فما هى يا ترى العوالم التى سوف تنكشف له بواسطة ذلك؟

و الآن نطرح هذا السؤال: لو أخذت منّا هذه المجاهر و العدسات، أ فلا يتعطّل قسم من معلوماتنا و معارفنا حول السماوات ... و هل الناظر الأصلى نحن أم التلسكوب و المجهر؟

هل المجهر و التلسكوب وسيلة نستطيع بواسطتها الرؤيا و المشاهدة، أم أنّها هى التى تقوم بالعمل و النظر الحقيقى؟

و فيما يخص الدماغ لا يستطيع أى شخص أن ينكر أنّه بدون الخلايا الدماغية لا يمكن أن تتمّ عملية التفكير، و لكن هل الدماغ هو وسيلة عمل للروح، أم أنّه هو الروح؟

و خلاصة القول: إنّ جميع الأدلة التى ذكرها الماديون تثبت وجود الارتباط بين خلايا العقل و الدّماغ و بين إدراكاتنا، إلّا أنّ أيا منها لا يثبت أنّ الدماغ يقوم بالإدراك، بل أنّه مجرّد وسيلة لذلك.

و هنا يتّضح لماذا لا يفهم الموتى شيئا، إذ أنّهم و بسبب عدم وجود الارتباط بين الروح و البدن يعجزون عن ذلك، و بالتالى فإنّ الموت لا يعنى فناء الروح و انعدامها، و مثل الميت مثل السفينة أو الطائرة التى عطّل فيها جهاز اتصالها (اللاسلكى) فالسفينة و الطائرة

بمن فیهما موجودون إلّا أنّ اتصالهم مع الساحل أو المطار مقطوع بسبب فقدانهم لوسیلة الارتباط و الاتصال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۱

أدلة استقلال الروح

اشارة

کان الکلام حتی الآن عن الماديين الـذين يصـرّون على أنّ الظواهر الروحيـة هی افرازات لخلايا الـدماغ، و يعتبرون الفكر و الإبداع و الحب و التنفر و الغضب و جميع العلوم، مثـل القضايـا الماديـة التی تخضع لأسـلوب العمـل المختبری و تشـملها قوانين المـادة، إلّـا أنّ الفلاسفة الذی يعتقدون باستقلالية الروح ذكروا أدلة قاطعة على نفی هذه العقيدة، منها:

أوّلا: ادراک الواقع الخارجی

إنّ أوّل سؤال يمكن أن نطرحه على الماديين، هو أنّه إذا كانت الأفكار و الظواهر الروحية هی نفسها الخواص (الفيزيكيميائية) للدماغ، ففی مثل هذه الحالة ينبغی أن تنعدم الخلافات و الفروق بين عمل الدماغ و بين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد، حيث أنّ عمل المعدة هو التركيب الأساس و مجموعة من الفعاليات الفيزيائية و الكيميائية، إذ بواسـطة نشاط معين و إفرازات حامضية تتم عملية هضم الطعام و يصـبح جـاهزا للامتصاص من قبل الجسم. و إذا كان إفراز اللعاب عملا فيزيائيا و كيميائيا فی آن واحـد، فإنّنا نری أنّ العمل الروحی يختلف عن هذه الأعمال.

إن كـل أعمال أجهزة الجسم لها تشابه بدرجـة معينـة مع بعضـها البعض، ما عـدا (الـدماغ) الـذی له وضع اسـتثنائی، إنّ أجهزة الجسـم مرتبطة جميعا بجوانب داخلية، فی حين أنّ الظواهر الروحية لها جهة خارجية و تخبرنا عن الواقع الخارجی المحيط بنا.

و لأجل توضيح هذا الكلام يجب ذكر بعض الملاحظات:

الملاحظة الأولی: هل هناك عالم خارج وجودنا؟

من البديهی وجود مثل هذا العالم، أمّا المثاليين الذين ينكرون وجود العالم

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۲

الخارجی و يقولون بأنّ كل ما وجود هو (نحن) و (تصوراتنا) و يعتبرون العالم الخارجی مجموعة من التصورات و الأحلام التی تشاهد فی النوم، فهؤلاء على خطأ، و قـد أثبتنا خطأهم هذا فی أحد الأبحاث، و أثبتنا أنّه كيف يتحول هؤلاء المثاليون إلی واقعيين فی العمل، إذ أن ما يفكرون به فی محيط مكتباتهم ينسونه عند ما يتجولون فی الشارع و يتنقلون من مكان إلی آخر.

الملاحظة الثّانية: هل ندرک و نعلم بوجود العالم الخارجی، أم لا؟

بـالطبع الجواب على هـذا السؤال بالإيجـاب، لأنّنـا نملـک معرفـة كبيرة عن العـالم الخارجی، و عنـدنا معلومات كثيرة عن الموجودات المحيطة بنا.

و الآـن نصـل إلی هـذا السؤال: هـل هناک وجود للعالم الخارجی فی داخل وجودنا؟ طبعا لا، و لكن ارتساماته و صورته منعكسـة فی أذهاننا حيث نستفيد من خاصية (انعكاس الواقع الخارجی) لإدراک العالم الخارجی.

هـذا الإدراک الـذهنی للعالم الخارجی- فی الحقيقـة- ليس من الخواص الفيزيكيميائيـة للـدماغ لوحـدها، إذ أنّ هـذه الخواص وليـدة إحساسـنا و تأثرنا بالعالم الخارجی، و فی الاصـطلاح: فإنّها معلولة لها. و نفس الشـیء يقال بالنسـبة لتأثير الطعام على معدتنا، فهل تأثير الطعام على معدتنا و النشاطات الفيزيائية و الكيميائية تكون سببا لمعرفة المعدة بالأطعمة؟

إذن كيف يستطيع الدماغ أن يتعرف على عالمه الخارجي؟

بعبارة أخرى نقول: فى التعرف على الموجودات الخارجية هناك حاجة إلى نوع من الإحاطة بها، و هذه الإحاطة ليست من عمل الخلايا الدماغية، إذ الخلايا الدماغية تتأثر بالخارج فقط، و هذا التأثر مثله كمثل سائر أجهزة الجسم، و هذا الموضوع ندركه نحن بشكل جيد.

و إذا كان مجرّد التأثّر بالخارج دليلا على إدراكنا و معرفتنا بالواقع الموضوعى الخارجى، فيجب أن تتساوى فى ذلك معدتنا و لساننا و أن يكون لها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۳

نفس قابلية الفهم، فى حين أنّنا نعرف أنّ واقع الحال ليس كذلك. و خلاصة القول:

إنّ الوضع الاستثنائى لإدراكنا دليل على أنّ هناك حقيقة أخرى كامنة فيها، بحيث أنّ نظامها و القوانين المتحكمة فيه تختلف عن القوانين و النظم الفيزيائية و الكيميائية. (فتدبّر ذلك).

ثانيا: وحدة الشخصية

اشارة

الدليل الآخر على استقلال الروح و تمايزها هو مسألة وحدة الشخصية فى طول عمر الإنسان.

إذا أردنا نشك فى كل شىء، فإنّنا لا نستطيع أن نشك فى موضوع وجودنا (أى مقولة: أنا موجود) و ليس ثمّة شك فى وجودى و فى علمى بوجودى أو ما يصطلح عليه ب «العلم الحضورى» و ليس «العلم الحصولى» أى أنّنى موجود عند نفسى و غير منفصل عنها.

على أى حال إنّ معرفتنا بأنفسنا من أوضح معلوماتنا، و لا تحتاج إلى استدلال و إثبات.

أمّا بالنسبة للاستدلال المشهور الذى استدلّ به الفيلسوف الفرنسى ديكارت حول وجوده، و الذى يقول فيه (بما أنّنى أفكر فإذن أنا موجود) فهو استدلال زائد و غير صحيح، لأنّه قبل أن يثبت وجوده اعترف مرّتين بوجوده (المرّة الأولى عند ما يقول: إنّنى، و الثّانية عند ما يقول: أنا) هذا من جانب.

و من جانب ثان فإنّ (إنّنى) هذه منذ بداية العمر حتى نهايته واحدة ف (إنّنى اليوم) هى نفسها (إنّنى بالأمس) و هى نفسها (إنّنى منذ عشرين عاما) ف (أنا) منذ الطفولة و حتى الآن تعبير عن شخص واحد لا أكثر، إنّنى نفس ذلك الشخص الذى كنت و سأبقى إلى آخر عمرى نفس ذلك الشخص، و ليس شخصا آخر، طبعا خلال هذه الفترة يكون الإنسان قد درس و تعلم و وصل إلى مراحل عالية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۴

فى العلم، و لكن فى جميع الأحوال يبقى هو هو، و لا يصبح إنسانا آخر، و هكذا فى تعامل الآخرين معه حيث يعتبره الآخرون شخصية واحدة منذ أوّل حياته و إلى آخر لحظة فيها باسم واحد و جنسية معينة.

و الآن لنرى ما هو هذا الكائن المتوغّل فى اعماقنا؟ فهل هو ذرات و خلايا جسدنا و مجموعة الخلايا الدماغية و تأثيراتها؟ إنّ كل هذه الأمور قد تغيّرت على مدى عمرنا عدّة مرّات، تقريبا فى كل سبع سنوات مرّة واحدة، حيث نعرف أنّه فى كل يوم تموت ملايين الخلايا فى جسدنا لتحل محلها ملايين أخرى جديدة، و مثلها فى ذلك مثل البناء الذى يتمّ إخراج الطابوق القديم منه و وضع طابوق جديد فى مكانه فلو استمر التعمير فى هذا البناء فإنّ البنية الأساسية لن تتغير، و لكن يبقى البيت هو نفس ذاك البيت برغم أنّ الناس السطحيين لا يلتفتون لذلك. و مثل خلايا الجسم التى تموت و تحيا كمثل المسبح الكبير الذى يدخله الماء ببطء و يخرج من طرف آخر. طبيعى أنّ ماء هذا المسبح سيتغير بعد مدّة بشكل كامل بالرغم من عدم التفات الناس إلى ذلك، إذ يظنون أنّ ماء المسبح ما زال على حاله لم يتغيّر.

و بشکل عام، إنّ کل موجود یحصل علی الطعام و من جانب ثان یستهلک هذا الطعام، فإنّه فی الواقع یتجدّد و یتغّیر بالتدریج.

لذا فإنّ إنسانا فی السبعین من عمره لا یبعد أن یکون جسمه قد تغّیر عشر مرات، و إذا کان الأمر کما یقول الماديون، من أنّ الإنسان هو نفس جسمه و أجهزته الدماغیة و العصبیة و خواصه الفیزیائیة و الکیمیائیة، ففی هذه الحالة یجب أن یکون ال (أنا) قد تغیّر عشر مرات خلال هذه السنوات السبعین! و لهذا یکون هذا الإنسان لیس الإنسان السابق، إلّا أنّ هذا الکلام لا یقبله أی وجدان.

و من هنا یتّضح أن ثمّة حقیقة واحدة ثابتة علی طول العمر، هی غیر الأجزاء المادیة، هذه الحقیقة لا تتغّیر کالأجزاء المادیة، و هی أساس وجودنا و تتحکم فی حیاتنا و هی سبب وحدة شخصیتنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۵

الحذر من هذا الاشتباه!

البعض یتصوّر أن الخلایا الدماغیة لا تتغّیر، و یقولون: لقد قرأنا فی الکتب الفسیولوجیة أنّ عدد الخلایا الدماغیة واحد و ثابت منذ البدایة و حتی نهایة العمر، و هی لا تزید و لا تنقص و إنّما تکبر. لذلک إذا أصیبت بخلل فلن تکون قابلة للعلاج. و علی هذا الأساس فإنّنا نملک وحدة ثابتة فی مجموع بدننا، هذه الوحدة هی الخلایا الدماغیة التی تحفظ لنا وحدة شخصیتنا.

إنّ هذا الکلام- فی الواقع- یمثل اشتباها کبیرا، فهو خلط بین مسألتین، إذ أن ما أثبته العلم من ثبات عدد الخلایا الدماغیة منذ البدایة حتی النهایة و أنّها غیر قابلة للزیادة و النقصان، لا یعنی أنّ الذرات المکوّنة لهذه الخلایا لا تتغیّر، فکما قلنا: إنّ خلایا الجسم التی تأخذ الطعام و تطرد الذرات القدیمة بالتدریج تکون خاضعة للتغییر، مثلها فی ذلک مثل ذلک الشخص الذی یأخذ المال من طرف و ینفقه من طرف آخر، فهذا الشخص سیتغیر رأس ماله بالتدریج، بالرغم من أن مقدار رأس المال لم یتغیّر. و کذلک یمکن أن نذکّر بمثال ماء المسبح.

لذلک، یتبیّن أنّ الخلایا الدماغیة لیست ثابتة، بل متغیّرة مثل سائر خلایا الجسم.

ثالثا: عدم تطابق الکبیر مع الصغیر

اشارة

افترضوا أنّنا جلسنا علی ساحل البحر، و شاهدنا أمامنا عددا من الزوارق مع باخرة کبیرة، ثمّ نظرنا إلی جانب الشمس فرأیناها تمیل للغروب، بینما القمر بدأ یبزغ من الجانب الآخر. و علی الشاطئ هناک صفوف من طیور الماء الجمیلة و قد اقترب بعضها نحو الماء. و نشاهد علی الطرف الآخر جبلا عظیما تناطح قمته السماء علوا. و الآن، إزاء هذا المنظر، لنغمض عیوننا برهة من الزمن و نتخیل ما شاهدناه: جبل عظیم، بحر واسع، سفینة کبیرة، کل هذه الأمور ترتسم فی مخیلتنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۶

کاللوحة الکبیرة للغایة فی مقابل روحنا، أو فی داخل روحنا.

و السؤال هنا: أین مکان هذا المخطط فی وجودنا ... هل تستطیع الخلایا الدماغیة الصغیرة و المحدودة للغایة أن تستوعب حجم اللوحة الکبیرة و المخطط الکبیر؟ الإجابة- طبعا- هی النفی، و لذلک لا بدّ أنّنا نمتلک قسما آخر فی وجودنا یکون فوق المادة الجسمیة، و هو من السعة بمقدار بحیث یستوعب کل هذه المناظر و المخططات و اللوحات.

و إلّا فهل نستطیع تنفیذ مخطط لبنایة ذات مساحة (۵۰۰) متر علی قطعة أرض ذات مساحة بضعة میلی‌مترات؟

الجواب- طبعا- سیکون بالنفی، لأنّ موجودا أکبر لا یمکنه الانطباق علی موجود أصغر مع احتفاظه بکبره وسعته، إذ من ضرورات الانطباق أن یکونا متساویین، أو أن یکون أحدهما أصغر من الثّانی، فیمکن حینذاک تنفیذ الصغیر علی الکبیر.

مع هذا الوضع كيف يمكن لخلايا دماغنا الصغيرة استيعاب الصور الذهنية الكبيرة؟

إنّنا نستطيع تصوّر الكرة الأرضية بحزامها الذى يبلغ أربعين مليون متر فى أذهاننا، و نستطيع أن نتصوّر ذهنيا كرة الشمس التى تكبر الأرض بمقدار مليون و مائتى ألف مرّة، و كذلك يمكننا تصوّر المجرات و التى هى أكبر من الشمس بملايين المرّات. و لكن كل هذه الصور لا يمكن ارتسامها عمليا فى خلايا الدماغ الصغيرة، و ذلك وفقا لقاعدة عدم انطباق الكبير على الصغير.

إذن يجب أن نعترف و نقرّ بوجود كامن فينا هو أكبر من جسمنا فى قدرة استيعابه و إحاطته بالأشياء و المخطوطات و الموجودات الكبيرة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۷

سؤال مهم:

يمكن أن يقول البعض: إن تصوراتنا الذهنية هى مثل المايكرو فيلم أو الخرائط الجغرافية التى تحتوى على مقياس للرسم مثل ۱۰۰۰۰۰۰/ (۱) أو ۱۰۰۰۰۰۰۰۰/ (۱) حيث يرمز هذا المقياس إلى مقدار التصغير و كذلك كثيرا ما يحدث لادراك عظمة باخرة كبيرة جدا و تصوير حجمها أن أحد الأشخاص يقف على عرشتها و يؤخذ لهما صورة لكى يعرف الناظر لها عظمة حجمها من خلال رؤية الشخص الواقف عليها.

و تصوراتنا الذهنية على منوال الصور المصغّرة و ذات مقايس رسم معينة، و عند ما نكبّرها بنفس المقدار فإنّنا نحصل على المخطط أو الحجم الصحيح و الواقعى. و بالطبع فإنّ المخططات و الأحجام الصغيرة يمكن أن تستوعبها الخلايا الدماغية.

فى الجواب نقول: إنّ المايكرو فيلم يتمّ تكبيرة بواسطة (البرجكتر و الشاشة الكبيرة التى تنعكس عليها الصور) كما أنّ الخرائط الجغرافية نستطيع التعرّف على ما تطويه من أحجام حقيقية بواسطة الأرقام الموجودة تحت الخرائط، فعند ما نضرب المساحات بهذا الرقم نحصل على الخريطة الكبيرة الواقعية مجسمة فى أذهاننا.

و الآن نطرح هذا السؤال: أين هى هذه الشاشة أو الصفحة العظيمة التى ينعكس عليها مايكروفيلم الذهن؟ هل تمثل الخلايا الدماغية الصفحة أو الشاشة المعنية؟

بالطبع لا، لأنّ الخريطة الجغرافية الصغيرة التى نضربها بمقياس الرسم لتتحوّل إلى حجمها الحقيقى، لا يمكن أن يكون مكانها الخلايا الدماغية الصغيرة فى حجمها.

و بعبارة أوضح نقول: بالنسبة إلى المايكرو فيلم و الخارطة الجغرافية، فإنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۸

نرى أنّ الشىء الموجود فى الخارج هو الفيلم و الخارطة الصغيرة، إلّا أنّه فى صورنا و إدراكاتنا الذهنية تكون الصور بمقدار وجودها الخارجى، و لا بدّ بالتالى من مكان يستوعبها، فهل يمكن للخلايا الدماغية و هى بمساحتها و حجمها المعروف أن تستوعب كل هذه الأحجام العظيمة؟

و خلاصة القول: إنّنا نتصوّر الصور الذهنية للأشياء بنفس أحجامها وسعتها فى موضوعاتها الخارجية، و هذا التصوّر العظيم لا يمكن أن ينعكس فى الخلايا الدماغية، لذلك فهى تحتاج إلى مكان و محل خاص، و هكذا ندرك أن فينا وجودا حقيقيا أكبر من هذه الخلايا و فوقها جميعا.

رابعا: عدم تشابه الظواهر الروحية مع الأوضاع المادية

هناك دليل آخر على استقلال الروح و عدم ماديتها، ففى الظواهر الروحية نشاهد خواصا و أوضاعا معينة تختلف عن الخواص و

الأوضاع المادية، و ليس ثمّة تشابه بينهما. و مثال ذلك ما يلى:

۱- الموجودات المادية تحتاج إلى الزمان و لها بعد تدريجى.

۲- بمرور الزمن تبلى هذه الموجودات المادية.

۳- من صفاتها أنّها قابلة للتقسيم إلى أجزاء متعدّدة.

و لكن الظواهر الذهنية ليست لها هذه الآثار و الخواص، حيث أنّنا نستطيع أن نتصوّر عالما كعالمنا الحالى فى ذهننا دون الحاجة إلى مرور الزمن و التدرّج.

و إضافة إلى ذلك، فإنّ اللقطات الموجودة فى الذهن منذ عهد الطفولة لا تصبح قديمة و لا تستهلك أو تبلى بمرور الزمن، بل تحتفظ بنفس شكلها، و يمكن أن يستهلك دماغ الإنسان، إلّا أنّ صورة البيت المتجسّدة فى الدماغ منذ عشرين عامّا ثابتة فيه لا تتغيّر و لا تستهلك و لها نوع من الثبات الذى هو صفة عالم ما وراء الطبيعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۲۹

إنّ روحنا تظهر خلاقية عجيبة اتجاه الصور، و فى لحظة واحدة و بدون أى مقدمة يمكن رسم صور معينة فى أذهاننا كالكرات السماوية و المجرات و الكائنات الأرضية و الجبال و ما شابهها. إنّ هذه الخاصية ليست لكائن مادى، بل هى دليل لكائن ما فوق المادة.

إضافة إلى ذلك فإنّنا لا نشك فى أن (۲+ ۲ ۴) حيث يمكن تجزئة طرفى المعادلة، مثلا تجزئة الرقم (۲) أو الرقم (۴) إلّا أنّ هذا مفهوم التساوى هذا لا يمكن تجزئته، فنقول مثلا: إنّ التساوى له نصفان و كل نصف هو غير النصف الآخر، فالتساوى مفهوم لا يقبل التجزئة، فإمّا أن يكون موجود أو غير موجود، إذ لا يمكن تنصيفه أبدا.

لذا فإنّ هذا النوع من المفاهيم الذهنية غير قابل للتقسيم، و لهذا السبب فهى ليست مادية، إذ لو كانت مادية لكان يمكن تجزئتها، و لهذا السبب فإنّ روحنا التى هى مركز للمفاهيم غير المادية لا يمكن أن تكون مادية، لذا فإنّها فوق المادة.

(فدقق فى ذلك)[۷۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۰

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۶ الى ۸۷]

اشارة

وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا (۸۶) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (۸۷)

التّفسير

ما عندك هو من رحمته و بركته:

تحدثت الآيات السابقة عن القرآن، أمّا الآيتان اللتان نبحثهما الآن فهما أيضا ينصبان فى نفس الاتجاه.

ففى البداية تقول الآية: وَ لَئِنْ شِئْنا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ و بعد ذلك:

ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنا وَكِيلًا إنّنا نحن الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائدا و هاديا للناس، و نحن الذين إذا شئنا استرجعناها منك، و ليس لأحد أن يعترض على ذلك.

و عنـد ربط هـذه الآيات بالآيـة السابقـة التى كانت تقول: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا فإنّنا نعرف أنّ اللّه إذا شاء يأخذ حتى هذا العلم الذى أعطاه لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآيـة التى بعـدها جاءت لتسـتثنى، فهى تبيّن أنّنا إذا لم نأخـذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمـة من عنـدنا، حيث يقول تعالى: إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ و هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۱

الرحمة لأجل هدايتك و إنقاذك، و كذلك لهداية و إنقاذ العالم البشرى، و هذه الرحمة- فى الواقع- مكمّلة لرحمة الخلق.

إنّ اللّه الـذى خلق البشـر بمقتضـى رحمته الخاصّة و العامّة، و ألبسـهم لباس الوجود الذى هو أفضل الألبسة، هو نفسه الذى بعث إليهم قادة و أعين معصومين و حريصـين رؤوفين .. ذوى اسـتقامة و قدرة لهداية الناس، لأنّ من مقتضـيات رحمة اللّه أن لا تخلو الأرض من حجّة له عزّ و جلّ.

و فى نهاية الآية و لأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: إِنَّ فَضْلَهُ كانَ عَلَيْكَ كَبِيراً.

إنّ وجود القابليـة لهـذا الفضل فى قلبك الكبير بجهادك و عبادتك من جهـة، و حاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة أخرى، جعلا فضل اللّه عليك كبيرا للغاية فقد فتح اللّه أمامك أبواب العلم، و أنبأك بأسرار هداية الإنسان، و عصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة و قدرة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

كما أنّه ينبغى أن نشـير إلى أنّ الجملـة الاسـتثنائية الواردة هنا ترتبط مع الآية السابقة، و مفهوم المسـتثنى و المسـتثنى منه هو هكذا: إذا أردنا فإنّنا نستطيع أن نمنع عنك هذا الوحى الذى أرسلناه لك، إلّا أنّنا لا نفعل، لأنّ الرحمة الإلهية شملتك و تشمل جميع الناس ۸۰].

و من الواضح أنّ هذا الاسـتثناء لا يعنى أنّ اللّه يحجب فى يوم من الأيّام رحمته عن نبيّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل هو دليل على أنّ الرّسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يملك شيئا من عنده، فعلمه و وحيه السماوى هو من اللّه و مرتبط بمشيئته و إرادته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۲

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۸۸ الى ۸۹]

اشارة

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (۸۸) وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۸۹)

التّفسير

معجزة القرآن:

الآيات التى بين أيدينا تتحدث عن إعجاز القرآن، و لأنّ الآيات اللاحقة تتحدّث عن حجج المشـركين فى مجال المعجزات، فإنّ الآية التى بين أيدينا- فى الحقيقة- مقدمة للبحث القادم حول المعجزات.

إنّ أهم و أقوى دليل و معجزة لرسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و التى هى معجزته الدائمـة على طول التأريـخ، هو القرآن الكريم الذى بوجوده تبطل حجج المشركين.

بعض المفسّرين أراد أن يؤكّد ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة من خلال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۳

مجهولیة الروح و أسرارها و قیاسها بمجهولیة القرآن و أسراره. و لکن العلاقة التی أشرنا إلیها آنفا تبدو أکثر من هذا الربط[۸۱].

علی أیة حال فإنّ اللّه یخاطب رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یقول له: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلی أَنْ یَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً.

إنّ هذه الآیة دعت- بصراحة- العالمین جمیعهم، صغارا و کبارا، عربا و غیر عرب، الإنسان أو أی کائن عاقل آخر، العلماء و الفلاسفة و الأدباء و المؤرخین و النوابغ و غیرهم ... لقد دعتهم جمیعا لمواجهة القرآن، و تحدّیه الکبیر لهم، و قالت لهم: إذا کنتم تظنون أنّ هذا الکلام لیس من الخالق و أنّه من صنع الإنسان، فأنتم أیضا بشر، فأتوا إذا بمثله، و إذا لم تستطیعوا ذلک بأجمعکم، فهذا العجز أفضل دلیل علی إعجاز القرآن.

إنّ هذه الدّعوة للمقابلة و التی یصطلح علیها علماء العقائد ب «التحدّی» هی أحد أرکان المعجزة، و عند ما یرد هذا التعبیر فی أی مکان، نفهم بوضوح أنّ هذا الموضوع هو من المعجزات.

و نلاحظ فی هذه الآیة عدّة نقاط ملفتة للنظر:

۱- عمومیة دعوة التحدّی و التی تشمل کل البشر و الموجودات العاقلة الأخری.

۲- خلود دعوة التحدّی و استمرارها، إذ هی غیر مقیّدة بزمان، و علی هذا الأساس فإنّ هذا التحدّی الیوم جار مثلما کان فی أیّام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و سیبقی کذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۴

فی المستقبل.

۳- استخدام کلمة «اجتمعت» إشارة لأشکال التعاون و التعاضد و التساند الفکری و العملی، الذی یضاعف حتما من نتائج أعمال الأفراد مئات، بل آلاف المرّات.

۴- إنّ تعبیر وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً تأکید مجدّد علی قضیة التعاون و التعاضد، و هی أیضا إشارة ضمنیة إلی قیمة هذا العمل و تأثیره علی صعید تحقق الأهداف و تنجزها.

۵- إنّ تعبیر بِمِثْلِ هـذَا الْقُرْآنِ دلالة علی الشمول و العموم، و هو یعنی (المثل) فی جمیع النواحی و الأمور، من حیث الفصاحة و البلاغة و المحتوی، و من حیث تربیة الإنسان، و البحوث العلمیة و القوانین الاجتماعیة، و عرض التأریخ، و التنبؤات الغیبیة المرتبطة بالمستقبل ... إلی آخر ما فی القرآن من أمور.

۶- إنّ دعوة جمیع الناس للتحدّی دلیل علی أنّ الإعجاز لا ینحصر فی ألفاظ القرآن و فصاحته و بلاغته و حسب، و إلّا لو کان کذلک، لکانت دعوة غیر العرب عدیمة الفائدة.

۷- المعجزة تکون قویة عند ما یقوم صاحب المعجزة بإثارة و تحدّی أعدائه و مخالفیه، و بتعبیرنا تقول: یستفزهم، ثمّ تظهر عظمة الإعجاز عند ما یظهر عجز أولئک و فشلهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۱۳۴

فی الآیة التی نبحثها یتجلی هذا الأمر واضحا، فمن جانب دعت جمیع الناس، و من جانب آخر تستفزهم بصراحة فی قولها لا یَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ثمّ تحرضهم و تدفعهم للتحدی بالقول وَ لَوْ کانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِیراً.

الآية التى بعدها- فى الواقع- توضيح لجانب من جوانب الإعجاز القرآنى، متمثلا فى شموليته و إحاطته بكل شىء، إذ يقول تعالى: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۵

هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ و لكن بالرغم من ذلك: فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً.

«صرّفنا» من «تصريف» بمعنى التغيير أو التبديل.

أمّا «كفورا» فتعنى إنكار الحق.

حقّا إنّ التنوع الذى يتضمّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصّة و أنّه صدر من شخص لا يعرف القراءة و الكتابة، ففى هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصّة حول قضايا العقائد، و ذكرت- أيضا- الأحكام المتعلقة بحاجات البشر فى المجالات كافة. و تعرّض القرآن- أيضا- إلى قضايا و أحداث تأريخية تعتبر فريدة فى نوعها و مثيرة فى بابها، و خالية من الخرافات.

و تعرض إلى البحوث الأخلاقية التى تؤثّر فى القلوب المستعدّة كتأثير المطر فى الأرض الميتة.

القضايا العلمية ورد ذكرها فى القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التى لم تكن تعرف فى ذلك الزمان من قبل أى عالم.

و الخلاصة: إنّ القرآن سلك كل واد و تناول فى آياته أفضل النماذج.

و إذا توجهنا إلى حقيقة محدودية معلومات الإنسان كائنا من كان (كما تشير إلى ذلك أيضا الآيات القرآنية) و أنّ رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد ترعرع فى بيئة محدودة فى القضايا العلمية و المعرفية حتى أنّها لم تبلغ من معلومات و معارف الإنسان فى زمانها إلّا مبلغا يكاد لا يذكر ... وسط كل ذلك، ألا يعتبر التنوع فى القرآن فى قضايا التوحيد و الأخلاق و الاجتماع و السياسة و الأمور العسكرية و غيرها، دليلا على أنّ هذا القرآن ليس من صنع عقل بشرى، بل من الخالق جلّ و علا؟

و لهذا السبب إذا اجتمعت الجن و الإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۶

لنفترض أنّ جميع العلماء و المتخصصين يجتمعون اليوم لتأليف دائرة معارف، و ينظموها بأفضل ما لديهم من خبرات فنية و معرفية، فإنّ النتيجة ستكون عملا يلقى صداه الحسن فى مجتمع اليوم، أمّا بعد خمسين عاما فسيعتبر هذا العمل ناقصا و قديما.

أمّا القرآن ففى أى عصر و زمان يقرأ، و خاصّة فى زماننا الحاضر، فإنّه يبدو كأنّه نزل ليومنا هذا، و لا يوجد فيه أى أثر يدل على أنّه قديم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۰ الى ۹۳]

اشارة

وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً (۹۰) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً (۹۱) أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا (۹۲) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا (۹۳)

سبب النّزول

لقد ذكر المفسّرون استنادا للروايات الواردة أسبابا عديدة لنزول هذه الآيات، و فيما يلى سنتعرض بشكل موجز إلى هذه الأسباب

معتمدین بشکل مباشر علی تفسیر مجمع البیان الذی قال:

إنّ جماعة من وجهاء قریش- و فیهم الولید بن المغیرة و أبو جهل- اجتمعوا عند الکعبة، و قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلی محمّد فکلّموه و خاصموه. فبعثوا إلیه:

إنّ أشراف قومک قد اجتمعوا لک. فبادر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیهم ظنّا منه، أنّهم بدا لهم فی أمره، و کان حریصا علی رشدهم، فجلس إلیهم، فقالوا: یا محمّد إنا دعوناک لنعذر إلیک،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۸

فلا نعلم أحدا أدخل علی قومه ما أدخلت علی قومک، شتمت الآلهة، و عبت الدین و سفهت الأحکام، و فرقت الجماعة، فإن کنت جئت بهذا لتطلب مالا أعطیناک، و إن کنت تطلب الشرف سوّدناک علینا، و إن کانت علّة غلبت علیک طلبنا لک الأطباء.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لیس شیء من ذلک، بل بعثنی اللّه إلیکم رسولا، و أنزل کتابا، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظکم فی الدنیا و الآخرة، و إن تردّوه أصبر حتی یحکم اللّه بیننا».

قالوا: فإذن لیس أحد أضیق بلدا منّا فاسأل ربّک أن یسیّر هذه الجبال، و یجری لنا أنهارا کأنهار الشام و العراق، و أن یبعث لنا من مضی و لیکن فیهم قصیّ فإنّه شیخ صدوق لنسألهم عمّا تقول أحق أم باطل.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما بهذا بعثت».

قالوا: فإن لم تفعل ذلک فاسأل ربّک أن یبعث ملکا یصدقک و یجعل لنا جنات و کنوزا و قصورا من ذهب.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما بهذا بعثت، و قد جئتکم بما بعثنی اللّه به، فإن قبلتم و إلّا فهو یحکم بینی و بینکم».

قالوا: فأسقط علینا السماء کما زعمت، إن ربّک إن شاء فعل ذلک.

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ذاک إلی اللّه إن شاء فعل».

و قال قائل منهم: لا نؤمن حتی تأتی باللّه و الملائکة قبیلا.

فقام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قام معه عبد اللّه بن أبی أمیة المخزومی ابن عمته عاتکة بنت عبد المطلب، فقال: یا محمّد عرض علیک قومک ما عرضوا فلم تقبله، ثمّ سألوک لأنفسهم أمورا فلم تفعل، ثمّ سألوک أن تعجّل ما تخوفهم به فلم تفعل، فو اللّه لا أؤمن بک أبدا حتی تتخذ سلّما إلی السماء ثمّ ترقی فیه و أنا أنظر، و یأتی معک نفر من الملائکة یشهدون لک، و کتاب یشهد لک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۳۹

و قال أبو جهل: إنّه أبی إلّا سبّ الآلهة و شتم الآباء، و أنا أعاهد اللّه لأحملن حجرا فإذا سجد ضربت به رأسه.

فانصرف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حزینا لما رأی من قوله، فأنزل اللّه سبحانه الآیات أعلاه ۸۲].

التّفسیر

أعذار و ذرائع مختلفة:

بعد الآیات السابقة التی تحدثت عن عظمة و إعجاز القرآن، جاءت هذه الآیات تشیر إلی ذرائع المشرکین، هذه الذرائع تثبت أنّ مواقف هؤلاء المشرکین إزاء دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم التی جاءت أصلا لإحیائهم، لم تکن إلّا للعناد و المکابرة، حیث أنّهم کانوا یطالبون بأشیاء غیر معقولة فی مقابل اقتراح الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المنطقی و إعجاز القوی.

هذه الطلبات وردت على ستة أقسام هى:

۱- فى البداية يقولون: وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً.

«فجور و تفجير» بمعنى الشق. و هى عامّة، سواء كان شق الأرض بواسطة العيون أو شق الأفق بواسطة نور الصباح (مع الأخذ بنظر الإعتبار أن تفجير هى صيغة مبالغة لفجور).

«ينبوع» مأخوذة من «نبع» و هو محل فوران الماء، و البعض قالوا بأنّ الينبوع هى عين الماء التى لا تنتهى أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۰

۲- قولهم كما فى الآية: أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً.

۳- أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً.

۴- أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا.

«قبيل» تعنى فى بعض الأحيان «الكفيل و الضامن» و تعنى- فى أحيان أخرى- الشىء الذى يوضع قبال الإنسان و فى مواجهته، و قال بعضهم بأنّها جمع (قبيلة) أى الجماعة من الناس.

و طبقا للمعنى الأوّل يكون معنى الآية أن تأتى باللّه و الملائكة كضامنين على صدقك! و أمّا طبقا للمعنى الثّانى فيكون المعنى أن تأتى باللّه و الملائكة و تضعهما فى مقابلنا! و أمّا طبقا للمعنى الثّالث فيكون معنى الآية أن تأتى باللّه و الملائكة على شكل مجموعة مجموعة! و يجب الانتباه إلى أنّ هذه المفاهيم الثلاثة لا تتعارض فيما بينها، و يمكن أن تكون مجتمعة فى مفهوم الآية، لأنّ استخدام كلمة واحدة لأكثر من معنى ممكن عندنا.

۵- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ

«زخرف» فى الأصل تعنى (الزينة)، و يقال للذهب «زخرف» لأنّه من الفلزات المعروفة و المستخدمة لأغراض الزينة، و يقال للبيوت المزيّنة و الملونة أنّها (مزخرفة)، كما يقال للكلام المزوّق و المخادع بأنّه «كلام مزخرف».

۶- أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ

ثمّ يصدر الأمر من الخالق جلّ و علا لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول لهؤلاء فى مقابل اقتراحاتهم هذه: قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۱

بحوث

۱- جواب الرّسول للمتذرعين

لقد تبيّن من خلال الآيات أعلاه و الحديث الوارد فى أسباب النّزول، أنّ طلبات المشركين العجيبة و الغريبة لم تكن تنع من روح نشدان الحقيقة، بل كان هدفهم البقاء على الشرك و عبادة الأصنام لأنّه كان يمثل الدعامة الأساسية و القوّة المادية لزعماء مكّة، و كذلك منع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الاستمرار فى طريق الدعوة الى التوحيد بأى صورة ممكنة.

إلّا أنّ الرّسول الهادى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أجابهم بجوابين منطقيين و فى جملة واحدة و قصيرة:

الجواب الأوّل: إنّ الخالق جلّ و علا منزّه عن هذه الأمور، منزّه التأثّر بهذا و ذاك، و منزّه من أن يستسلم للاقتراحات الباطلة و الواهية لأصحاب العقول السخيفة: سُبْحانَ رَبِّي

الجواب الثّانی: بغض النظر عمّا مضی فإنّ الإتیان بالمعجزات لیس من عملی، فأنا بشر مثلکم، إلّا أنّنی رسول اللّه، و القیام بالمعاجز من عمل الخالق و بإرادته تتمّ، و بأمره تنجز، فأنا لا أستطیع أن أطلب مثل هذه الأمور من الخالق و لا یحق لی أن أتدخل فی مثل الأمور، فمتی شاء سبحانه فسیبعث بالمعجزات الإثبات صدق دعوة رسوله: هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

صحیح أنّ هناک ترابط بین هذین الجوابین، إلّا أنّهما یعتبران جوابین منفصلین، فأحدهما یثبت ضعف البشر فی مقابل هذه الأمور، و الثّانی تنزیه ربّ البشر عن القبول بهذه المعجزات المقترحة.

و عادة فإنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس إنسانا استثنائیا یجلس فی مکان معین، و یأتی الأشخاص یقترحون علیه المعجزات کیفما یشاءون، و یتلاعبون بقوانین و سنن الخلق و الوجود، و إذا لم تعجبهم معجزة معینة یطلبون غیرها ... و هکذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۲

إنّ مسئولیة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هی إثبات ارتباطه بالخالق عن طریق المعجزة، و عند ما یأتی بالقدر الکافی من المعاجز، فلیست علیه أیة مسئولیة أخری.

إنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد لا یعرف بزمان نزول المعجزات، و قد یطلب المعجزة من ربّه عند ما یعلم بأنّ الإتیان بها یرضی اللّه تعالی.

۲- الأفکار المحدودة و الطلبات غیر المعقولة

کل إنسان یتکلم بحدود فکره، و لهذا السبب فإنّ حدیث أی شخص هو دلیل علی مقدار عمق أفکاره.

الأفراد الذی لا یفکرون إلا بالمال و الجاه یتصورون أنّ کل من یتحدث عن شیء إنّما یقصد هذا المجال.

لهذا السبب کان مشرکو مکّة یقترحون- بسبب قصور تفکیرهم- علی رسول اللّه اقتراحات تتصل بالمال و قضایاه، یطلبون منه أن یترک دعوته مقابل المال، إنّهم یقیسون الروح الواسعة لرسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بضیق أفکارهم.

إنّ هؤلاء کانوا یعتقدون بأنّ من لا یجاهد فی سبیل المال أو المقام مجنون حتما، و مثلهم کمثل المسجون فی غرفة صغیرة لا یری السماء الواسعة و الشمس العظیمة و الجبال الشامخة و البحار الواسعة و لا یحس بعظمة عالم الوجود. لقد أرادوا مقایسة الروح السمحة العظیمة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بمقاییسهم.

إضافة لذلک، لنر ما هی الأشیاء التی أرادوها من الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لم تکن موجودة فی الإسلام، لقد أرادوا الأراضی المزروعة و العیون المتفجّرة، و بساتین النخیل و الأعناب، و البیوت المزخرفة. و نحن نعلم أنّ الإسلام قد فتح أبواب التقدّم و التکنولوجیا بحیث یمکن فی ظل التقدم الاقتصادی تحقیق الکثیر من هذه الأمور، بل و نلاحظ بأنّ المسلمین فی ظل البرامج القرآنیة و صلوا إلی تحقیق تقدّم أکثر ممّا کان یدور فی عقول المشرکین ذوی الأفق الضیق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۳

فهؤلاء لو کانوا ینظرون بعین الحقیقة لکانوا قد شاهدوا هذا التطوّر المعنوی العظیم فی هذا الدین، و کذلک الانتصارات المادیة المنظورة حیث یضمن القرآن سعادة الإنسان فی المجالین الدنیوی و الأخروی.

بالإضافة إلی ذلک، فإنّ اقتراحاتهم السفیهة الأخری تدل علی مدی التکبّر و الغرور و الجهل المسیطر علی عقولهم .. کقولهم: أو تسقط السماء علینا ..

و قولهم: أن تضع سلما و تصعد الی السماء.

و قولهم: أن تحضر أمّامنا اللّه و الملائکة!! حتی أنّهم لم یطلبوا منه أن یأخذهم الی اللّه تعالی .. فما اشدّ هذا الجهل و الغرور و التکبر!!

۳- ذریعة أخری لنفی الإعجاز

بالرغم من وضوح الآیات أعلاه، و أنّها غیر معقّدة، و أنّ طلبات المشرکین من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم واضحة، و کذلک سبب تعامل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم السلبی مع هؤلاء معلوم أیضا، إلّا أنّ الآیات أصبحت ذریعة بید بعض المتذرعین فی عصرنا الذین یصرّون علی نفی أی معجزة لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و هؤلاء یعتبرون هذه الآیات من أوضح الأدلة علی نفی الإعجاز عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث طلب المشرکون منه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یأتی ستة أنواع من المعاجز سواء من الأرض أو السماء و سواء کانت مفیدة لهم أو قاضیة بموتهم، إلّا أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لم یستطیع تنفیذ أیّ منها، جوابه الوحید لهم کان سُبْحانَ رَبِّی هَلْ کُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

نحن نقول: إذا لم یکن متذرعو الیوم کأسلافهم، فإنّ ما ورد فی الآیات یکفیهم جوابا علی ما أوردوا، إذ ینبغی أن نلاحظ ما یلی:

۱- البعض من الطلبات الهزیلة، کمثل طلبهم إحضار الخالق جلّ و علا و الملائکة، أو المجیء برسالة من السماء فیها أسماؤهم و عناوینهم! البعض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۴

الآخر مما طلبوا، فیها أجابهم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیه، سوف لن یبقی أثر لهم، و بالتالی لن تکون قضیة المعجزة ذات أثر فی إیمانهم أو عدمه، مثل قولهم أن یسقط علیهم کسفا من السماء، أی أن تنزل علیهم صخور من السماء.

أمّا بقیة الطالبات المقترحة فتشمل الحصول علی المزید من وسائل الحیاة المرفّهة و الأموال و الثروات الکبیرة، فی حین أنّ الأنبیاء لم یأتوا لتحقیق هذه الأمور.

و إذا افترضنا خلو ما اقترحه المشرکون من المآخذ، فإنّنا نعلم- کما تخبر بذلک الآیات- أنّ ما طلبوه کان من نمط التحجّج و التذرّع أمام دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لیس من مسئولیة رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن یجیبهم إلی ذرائعهم و تحججاتهم هذه، بل إنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقدّم المعجزة بمقدار ما یثبت صدق دعوته، و لا شیء أکثر من ذلک.

۲- بعض تعابیر هذه الآیات توضح بنفسها- بصراحة شدیدة- مدی عناد و تذرّع هؤلاء بمثل هذه الطلبات، فمثلا هم یقترحون علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الصعود الی السماء، و لکنّهم یقولون له، بأنّنا لا نصدّق صعودک إن لم تأتنا برسالة من السماء.

إذا کان هؤلاء طلّاب معجزة- فقط- فلما ذا لا یکفیهم صعود الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم السماء، ثمّ هل هناک دلیل أوضح من هذا علی عدم واقعیة هؤلاء القوم و عدم منطقیة عروضاتهم؟

۳- إضافة إلی کلّ ما مر، فإنّنا نعلم أنّ المعجزة من عمل الخالق جلّ و علا و لیست من عمل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فی حین یظهر واضحا من کلامهم أنّهم کانوا یعتبرون المعجزة من فعله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لذا کانوا ینسبون جمیع الأعمال إلیه مثل قولهم:

تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ یَنْبُوعاً ... أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ کَما زَعَمْتَ عَلَیْنا کِسَفاً، أَوْ تَأْتِیَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِکَةِ و ما إلی ذلک من طلبات.

الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یعتقد بأنّ علیه أن یزیل هذه الأوهام من عقولهم، و یثبت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۵

لهم بأنّه لیس هو اللّه و لا هو شریکه، و المعجزة من اللّه دون سواه، فأنا بشر مثلکم، و الفارق أنّ الوحی ینزل علیّ، و بمقدار ما یلزم الأمر فإنّ اللّه ینزل المعاجز علی یدی، و لا أستطیع أن أفعل أکثر من هذا، و قوله سُبْحانَ رَبِّی شاهد علی هذا المعنی، إذا أنّ الخالق منزّه عن أی شریک و شبیه.

و بالرغم من أنّ القرآن ذكر معاجز متعدّدة لعيسى عليه السّلام مثل إحياء الموتى و شفاء المرضى و غير ذلك، إلّا أنّ هذه المعجزات جميعا كانت ملحقة بكلمة «بإذنى» أو «بإذن اللّه» أى إنّها تتم- فقط- بإذن الخالق، و أجريت على يد المسيح عليه السّلام ۸۳].

۴- أىّ إنسان يصدّق بأنّ إنسانا يدّعى النّبوة، بل يعتبر نفسه خاتم النّبيين، و يذكر فى كتابه المعاجز الكثيرة للأنبياء السابقين، إلّا أنّه نفسه لا يستطيع أن يأتى بمعجزة؟! ثمّ إنّ الناس على هذا الفرض، ألا يعترضون على مثل هذا النّبى و يقولون له:

كيف تكون نبيّا فى حين أنّك تعجز عن القيام بمعاجز مثل معاجز الأنبياء الآخرين ... فإن كنت تدّعى أنّك أفضل منهم جميعا و خاتمهم، فكيف إذن تستقيم الدعوة مع عدم الإتيان بالمعجزات؟

إنّ هذا الواقع- بحدّ ذاته- دليل على أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد جاء- عند الضرورة و اللزوم- بالمعجزات، و من هنا يتّضح أن عدم استسلام رسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لطلبات المشركين الآنفة إنّما يعود لعلمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعدم جدواها فى إثبات ما يلزم من نبوته، و أنّها انطلقت- فقط- على سبيل التحجج و التذرّع من قبل عتاة قريش و كبرائها، لذلك أهمل صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الكلام و لم يستجب لاقتراحاتهم غير المنطقية و غير المعقولة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۶

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۴ الى ۹۵]

اشارة

وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً (۹۴) قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً (۹۵)

التّفسير

ذريعة عامّة:

اشارة

الآيات السابقة تحدّثت عن تذرّع المشركين- أو قسم منهم- فى قضية التوحيد، أمّا الآيات التى نبحثها فإنّها تشير إلى ذريعة عامّة فى مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى إِلَّا أَنْ قالُوا أَ بَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا.

هل يمكن التصديق بأنّ هذه المهمّة و المنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان ... ثمّ و الكلام للمشركين- ألم يكن الأولى و الأجدر أن تقع هذه المهمّة- و هذه المسؤولية- على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة- مثلا- كى يستطيعوا أداء هذه المهمّة بجدارة ... إذ أين الإنسان الترابى و الرسالة الإلهية؟! إنّ هذا المنطق الواهى الذى تحكيه الآية على لسان المشركين لا يخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۷

مجموعة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس و فى امتداد تأريخ النّبوات قد تذرّعوا به فى مقابل الأنبياء و الرّسل.

قوم نوح عليه السّلام- مثلا- كانوا يعارضون نبيّهم بمثل هذا المنطق و يصرّحون: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ كما حكت ذلك الآية (۲۴) من سورة المؤمنون.

أمّا قوم هود فقد كانوا يواجهون نبيّهم بالقول: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ كما ورد فى الآية (۳۳)

من سورة المؤمنون. ثمّ أضافت الآية (۳۴) من نفس السورة قولهم: وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

نفس هـذه الذريعة تمسّك بها المشـركون ضد رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أمام دعوة الإسـلام التى جاء بها، إذ قالوا: ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً[۸۴].

القرآن الكريم أجـاب هؤلاـء جميعـا فى جملـة قصـيرة واحـدة مليئـة بالمعـانى و الـدلالات، قـال تعالى: قُلْ لَوْ كانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولًا.

يعنى أنّ القائد يجب أن يكون من سنخ من بعث إليه، و من جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، و الملك لجماعة الملائكة.

و دليل هـذا التجانس و التطابق بين القائـد و أتباعه واضـح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملى أهم وظيفـة فى عمل القائد من خلال كونه قـدوة و أسوة، و هـذا لاـ يتمّ إلّـا أن يكون القائـد من جنسـهم، يمتلـك نفس الغرائز و الأحاسـيس، و نفس مكونات البناء الجسـمى و الروحى الذى يملكه كل فرد من أفراد جماعته، فلو كان الرّسول إلى البشـر من جنس الملائكة الذين لا يملكون الشهوة و لا يحتاجون إلى الطعام و المسكن و الملبس، فلا يستطيع أن يتمثل معنى الأسوة و القدوة لمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۸

بعث إليهم، بل إنّ الناس سوف يقولون: إنّ هذا النّبى المرسل لا يعرف ما فى قلوبنا و ضمائرنا، و لا يدرك ما تنطوى عليه أرواحنا من عوامل الشـهوة و الغضب و ما إلى ذلك، إنّ مثل هذا الرّسول سوف يتحدث إلى نفسه فقط، إذ لو كان مثلنا يملك نفس أحاسيسـنا و مشاعرنا لكان مثل حالنا أو أسوأ، لذا لا اعتبار لكلامه.

أمّا عند ما يكون القائد مثل

أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام الذى يقول: «إنّما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى أمنة يوم الخوف الأكبر»[۸۵].

فإنّ مثله يصلح أن يكون الأسوة و القدوة لمن يقودهم.

من جانب آخر ينبغى للقائد أن يدرك جميع احتياجات و مشاكل أتباعه كى يكون قادرا على علاجهم، و الإجابة على أسـئلتهم، لهذا السـبب نرى أنّ الأنبيـاء برزوا من بين عامّـة الناس، و عانوا فى حياتهم كما يعانى الناس، و ذاقوا جميع مرارات الحياة، و لمسوا الحقائق المؤلمة بأنفسهم و هيأوا أنفسهم لمعالجتها و مصابرة مشكلات الحياة.

المهتدون الحقيقيون:

بعـد أن قطعت الآيات السابقـة أشواطا فى مجال التوحيد و النّبوة و عرض حديث المعارضـين و المشـركين، فإنّ هذه الآيات عبارة عن خاتمـة المطاف فى هـذا الحـديث، إذ تضع النتيجـة الأخيرة لكل ذلك. ففى البدايـة تقول الآيـة إذا لم يقبل أولئك أدلتك الواضـحة حول التوحيد و النّبوة و المعاد فقل لهم: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً[۸۶].

إنّ هذه الآية تستهدف أمرين فهى أوّلا: تهدّد المعارضين المتعصبين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۱

و المعانـدين، بـأنّ اللّه خبير و بصـير و يشـهد أعمالنـا و أعمالكم، فلا تظنوا بأنّكم خارجون عن محيط قـدرته أو أنّ شـيئا من أعمالكم خاف عنه.

الأـمر الثّـانى: هو أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث أنّ ايمان المتحـدّث القوى بما يقول له أثر نفسى عميق فى المستمع، و عسى أن يكون هذا التعبير القاطع و الحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثرا فيهم، و يهز وجودهم، و يوقظ فكرهم و وجدانهم و يهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكّد على أن الشـخص المهتدى هو الذى قذف اللّه تعالى بنور الإيمان فى قلبه: وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ أمّا من أظلّه اللّه

بسوء أعماله:

وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه و يطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوى و القاطع لا يكفى للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهى لا يستقر الإيمان أبدا.

هذا التعبير يشبه دعوتنا لمجموعة لأن تفعل الخير بعد أن نشرح لهم أهمية الموضوع بواسطة الأدلة المختلفة، إلّا أنّ الحصيلة العملية ستكون موافقة البعض، و امتناع البعض الآخر عن فعل الخير برغم صحة الأدلة. و بذلك لا يكون كل واحد لائقا لفعل الخير.

و هذه حقيقة فليس كل قلب يليق لأن ينال نور الحق، إضافة إلى أنّ الكلام يثير المستمع، و قد يحدث أن يترك الشخص بتأثير هذا الكلام عناده و لجاجته ليثبت لياقته للحق و يستسلم له.

و قلنا مرارا: إنّ الهداية و الضلالة الإلهيتين ليستا شيئين جبريين، بل تخضعان للأثر المباشر لأعمال الإنسان و صفاته، فالأشخاص الذين جاهدوا أنفسهم وسعوا بجدية فى طريق القرب الإلهى، فمن البديهى أن اللّه سيوفّقهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۲

و يهديهم: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۸۷].

أمّا أولئك الذين يسلكون طريق العناد و المكابرة و تتلوّث فطرتهم و قلوبهم بأنواع الذنوب و المفاسد و المظالم، فإنّهم قد قضوا على أى استعداد أو جدارة لديهم فى قبول الحق بالتالى مستحق للضلالة: وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۸۸]. وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ ۸۹]. كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ۹۰].

أمّا عن سبب مجىء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدّد الآلهة الوهمية أو تنوع الوسائل التى يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل و جميع البشر و غير البشر، و كل ما تؤلهون من آلهة من دون اللّه، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة و سوء العاقبة.

ثمّ تذكر الآيات- بصيغة التهديد القاطع- جانبا من مصيرهم بسبب أعمالهم فى يوم القيامة فتقول: وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ فبدلا من الدخول بشكل عادى و بقامة منتصبة، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنّم على وجوهم تعذيبا لهم.

البعض يعتقد أنّ هؤلاء يسبحون يوم القيامة بسبب عجزهم فى ذلك اليوم عن المشى، لذلك فإنّهم يزحفون كالزواحف على وجوههم و صدورهم بشكل ذليل و مؤلم.

نعم، فأولئك محرومون من نعمة كبيرة، هى نعمة المشى على الأرجل، لأنّهم لم يستفيدوا من هذه الوسيلة فى هذه الدنيا فى سلوك طريق السعادة و الهداية، بل خصصوها لسلوك طرق الذنوب و المعاصى.

ثمّ هم يحشرون: عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا. و هنا قد يطرح هذا السؤال، و هو: إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۳

المجرمين و أهل الجحيم ينظرون و يسمعون و يتكلمون، فكيف تقول هذه الآية عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا[۹۱]؟

للمفسّرين أقوال متعدّدة فى الإجابة على هذا السؤال، إلّا أن أفضلها جوابان نستطيع إجمالهما فيما يلى:

أوّلا: إنّ مراحل و مواقف يوم القيامة متعدّدة، ففى بعض المراحل و المواقف يكون هؤلاء صما و بكما و عميا، و هذا نوع من العقاب لهم، لأنّهم لم يستفيدوا من هذه النعم الإلهية بصورة صحيحة فى حياتهم الدنيا. إلّا أنّه- فى مراحل لاحقة- فإنّ عيونهم تبدأ بالنظر، و آذانهم بالسماع، و ألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب و يسمعون كلام الشامتين، و يبدأون بالتأوه و الصراخ و إظهار ضعفهم، حيث أن كل هذه الأمور هى نوع آخر من العقاب لهم.

ثانيا: إنّ المجرمين و أهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ و من سماع أمور تبعث على الفرح، و من قول كلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون و لا يسمعون و لا يقولون إلّا ما يؤذى و يؤلم.

فى الختام تقول الآية: مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ

لكن لا تظنّوا أنّ نارها كنار الدنيا تنطفى فى النهاية، بل هى: كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۴

ملاحظات

۱- قوله تعالى: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ ... يعنى إن سبب عدم إيمانهم هو هذا التذرّع، إلّا أنّ هذا التعبير ليس دليلا على الحصر، بل هو للتأكيد و بيان أهمية الموضوع.

۲- عبارة: مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ موضع اختلاف فى أقوال و آراء المفسّرين، فالبعض يعتبرها إشارة إلى قول عرب الجاهلية الذين كانوا يقولون بأنّنا كنّا نعيش فى هذه الجزيرة حياة هادئة، و قد جاء محمّد ليجلب الفوضى و القلق، إلّا أنّهم جوبهوا بقول القرآن لهم بأنّه حتى لو كانت الملائكة تسكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۴۹

الأرض و كانوا يعيشون حياة هادئة- كما تدّعون- فإنّنا كنّا سنرسل لهم رسولا من جنسهم و صنفهم.

البعض الآخر من المفسّرين فسّرها بأنّها «اطمئنان إلى الدنيا و لذاتها و الابتعاد عن أى مذهب و دين».

و أخيرا فسّرها بعضهم بمعنى (السكن و التوطّن) فى الأرض.

لكن الاحتمال الأقوى هو أن يكون هدف الآية: لو كانت الملائكة ساكنة فى الأرض، و كانوا يعيشون حياة هادئة و خالية من الصراع و النزاع، فرغم ذلك كانوا سيشعرون بالحاجة إلى قائد من جنسهم، حيث أنّ الهدف من إرسال الأنبياء و بعثهم ليس لإنهاء الصراع و النزاع و إيجاد أسباب الحياة المادية الهادئة و حسب، بل إنّ هذه الأمور هى مقدمة لطى سبيل التكامل و التربية فى المجالات المعنوية و الإنسانية، و مثل هذا الهدف يحتاج إلى قائد إلهى.

۳- يستفيد العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان من كلمة «أرض» فى الآية أعلاه، أنّ طبيعة الحياة المادية على الأرض تحتاج إلى نبى، و بدونه لا يمكن الحياة.

إضافة الى ذلك فإنّه يرى أنّ هذه الكلمة إشارة لطيفة إلى جاذبية الأرض حيث أنّ التحرّك بهدوء و اطمئنان بدون وجود الجاذبية يعتبر أمرا محالا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۰

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۶ الى ۹۷]

اشارة

قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِى وَ بَيْنَكُمْ إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (۹۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَ بُكْماً وَ صُمًّا مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْناهُمْ سَعِيراً (۹۷)

التّفسير

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۹۸ الى ۱۰۰]

اشارة

ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً (۹۸) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (۹۹) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً (۱۰۰)

التّفسير

كيف يكون المعاد ممكنا؟

فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ يوما سيئا ينتظر المجرمين فى العالم الآخر.

هذه العاقبة التى تجعل أى عاقل يفكّر فى هذا المصير، لذلك فإنّ الآيات التى بين أيدينا تقف على هذه الموضوع بشكل آخر.

فى البداية تقول: ذلِكَ جَزاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآياتِنا وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً.

«رفات» كما يقول الراغب فى «المفردات» هى قطع من (التبن) لا تتهشم بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۵

تنتشر و تتناثر هنا و هناك. و الأمر لا يحتاج إلى مزيد توضيح، فالإنسان يتحول تحت التراب إلى عظام نخرة ثمّ إلى تراب، ثمّ تتلاشى ذرات التراب هذه و تنتشر.

و بعد تعجبهم من المعاد الجسمانى و اعتبارهم ذلك أمرا غير ممكن، يقول القرآن بأسلوب واضح و مباشر و بلا فصل: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ قادِرٌ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ و على هؤلاء أن لا يعجلوا فإنّ القيامة و إن تأخّرت، إلّا أنّها سوف تتحقق بلا ريب: وَ جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ

و لكن هؤلاء الظالمين و المعادين مستمرون على ما هم فيه رغم سماعهم هذه الآيات: فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً.

و حيث أنّهم كانوا يصرخون و يصّرون على أن لا يكون النّبى من البشر حسدا من عند أنفسهم و جهلا و ضلالا، و قد منعهم هذا الحسد و الجهل من التصديق بإمكانية أن يعطى اللّه كل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ و علا يخاطبهم بقوله: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ ثمّ يقول: وَ كانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً.

«قتور» من «قتر» على وزن «قتل» و هى تعنى الإمساك فى الصرف، و بما أنّ (قتور) صيغة مبالغة فإنّها تعنى شدّة الإمساك و ضيق النظر.

ملاحظات

۱- المعاد الجسمانى

الآيات أعلاه من أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسمانى، فالمشركين كانوا يعجبون من إمكانية عودة الحياة إلى العظام النخرة، و القرآن يجيبهم بأنّ القادر على خلق السماوات و الأرض، لديه القدرة على جمع الأجزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۶

المتناثرة للإنسان و أن يهبها الحياة مرّة أخرى.

و لا ندرى كيف ينكر بعض من يدعى الإسلام قضية المعاد الجسمانى، و يقتصرون فى إيمانهم على المعاد الروحى برغم الدلالات الواضحة لهذه الآيات و غيرها؟

كما إنّ الاستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ و جلّ فى إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التى يذكرها القرآن مرارا و يعتمد عليها كثيرا. و يظهر مثل هذا النمط من الاستدلال بالقدرة الكلية على المعاد فى الآية الأخيرة من سورة (يس) و التى تتضمّن عدّة أدلة لإثبات المعاد الجسمانى ۹۲].

۲- أىّ الآيات؟

هناك احتمالات عديدة فى أنّ الغرض من هذه (الآيات) فى جملة كَفَرُوا بِآياتِنا هى آيات التوحيد أو أدلة النّبوة، أو الآيات المرتبطة بالمعاد. و لكن وقوع الجملة فى بحث المعاد، ترجح اعتقادنا بأنّها إشارة إلى آيات المعاد، و هى فى الحقيقة مقدمة للردّ على منكرى المعاد.

۳- ما هو الغرض من «مثلهم»؟

إنّنا نعرف أنّ اللّه- بسبب قدرته العظيمة- قادر فى يوم القيامة على إرجاع الناس، فى حين أنّنا نقرأ فى الآيات أعلاه أنّه يستطيع أن يخلق مثلهم. و قد يكون هذا التعبير مدعاة لاشتباه أو استفسار البعض عمّا إذا كان الناس الذين يردون القيامة هم ليسوا هؤلاء الناس أنفسهم؟

بعض المفسّرين يرى أن الغرض من (مثل) هنا هو (عين) ففى بعض الأحيان نقول (مثلك يجب ألّا يقوم بهذا العمل) إلّا أنّنا نقصد أنّك أنت الذى يجب أن لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۷

تقوم بهذا العمل، لكن هذا التّفسير بعيد، لأنّ مثل هذه التعابير لها محل آخر لا يتناسب مع ما نبحثه الآن.

الظاهر أنّ الغرض من استخدام تعبير (مثل) فى هذه الآية هو إعادة الحياة.

فإعادة الخلق مرّة ثانية لا تكون حتما كالمرّة الأولى، حيث هناك على الأقل زمان آخر و ظروف أخرى، و صورة جديدة بالرغم من أنّ المادة هى نفس المادة القديمة. و كمثال لذلك إذا جمعنا اجزاء متناثرة لقطعة من الآجر و وضعناها فى قالبها القديم، فإنّنا لا نستطيع أن نقول عن الآجر الجديد أنّه نفس قطعة الآجر القديمة، بالرغم من أنّه ليس إلّا الطين السابق. بل نقول: إنّه مثله. و هذا دليل على التعابير المختارة و المنتخبة فى القرآن الكريم.

و من المسلّم به أنّ روح الإنسان تحدّد شخصيته، و نحن نعلم أنّ الروح الأولى هى التى عند البعث، إلّا أنّ المعاد الجسمانى يقول لنا: إنّ الروح ستكون مع نفس المادة الأولى، يعنى أنّ تلك المادة المتلاشية ستتجمّع مرّة أخرى و تندمج مع روحها، و فى موضوع المعاد أثبتنا أن روح الإنسان بعد أن تتخذ شكلا معينا لا يمكنها أن تنسجم مع غير جسدها الأصلى الذى تربت و عاشت معه. و هذا هو السر فى البعث الروحى و الجسدى معا.

۴- ما هو (الأجل)؟

إنّ (الأجل) هو نهايـة العمر. و لكن هل (الأجل) فى هـذه الآيات إشارة إلى نهايـة العمر ... أو هو إشارة إلى نهايـة عمر الـدنيا و بـداية البعث؟

و بمـا أنّ الحـديث يـدور حول المعـاد، لـذا فـإنّ المعنى الثّانى أكثر صـحة. و أمّا ما قاله بعض المفسّـرين الكبار من أنّ هـذا الكلام لا يتناسب مع جملة لا رَيْبَ فِيهِ لأنّ منكرى المعاد كانوا يشكّون حتما فى قضية المعاد. فإنّ ذلك غير صحيح، لأنّ مفهوم مثل هذا التعبير هو أنّه يجب أن لا نسمح للشك بأنّ يدخل إلى أنفسنا نحن،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۸

لا أنّ أحـدا لا يشك بـذلك! لذا فإنّ المفهوم الكلى للآية يصبح على هذه الصورة. إنّ اللّه الذى خلق السـماوات و الأرض يسـتطيع- حتما- أن يعيد الحياة لهؤلاء البشـر، أمّا إذا لم يحدث هذا الأمر بسرعة، فذلك بسبب أنّ السنة الإلهية لها أجل محدود و حتمى بحيث لا مجال للشك فيها.

و تصبح النتيجة: إنّ الدليل القاطع فى قبال منكرى المعاد هى هذه القدرة، و أمّا قوله: جَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لا رَيْبَ فِيهِ فهو جواب على سؤال حول سبب تأخير القيامة. (فدقق فى ذلك).

۵- الترابط بين الآيات

عند مطالعة هذه الآيات يثار سؤال حول كيفية الارتباط و الصـلة بين كلمة (قتورا) التى هى بمعنى (بخيل) الواردة فى آخر الآية، و بين ما نبحثه؟

بعض المفسّـرين قالوا: إنّ هذه الجملة إشارة إلى موضوع طرح قبل عدّة آيات من قبل عبدة الأصـنام، فقد طلبوا من الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يملأ أرض مكّة بالعيون و البساتين. أمّا القرآن فيقول فى جواب هؤلاء: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذاً ...

إلّا أنّ هذا التّفسـير مستبعد لأنّ كلام المشركين لم يكن عن مالكية هذه العيون و البساتين، بل إنّهم طالبوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأصل هذا العمل و الذى يعتبر عملا إعجازيا.

التّفسير الآخر الذى ذكر فى بيان الصلة و هو أفضل من التّفسير الأوّل، هو أنّهم- بسبب بخلهم و ضيق أنفسهم- كانوا يتعجبون من منح هـذه الموهبـة (النّبوة) للإنسان، و هـذه الآيـة بمثابـة ردّ عليهم حيث تقول لهم: إن بخلكم بلغ درجة بحيث أنّكم لو ملكتم جميع الدنيا فسوف لا تتركون صفاتكم السيئة و القبيحة هذه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۵۹

۶- هل أن جميع البشر بخلاء؟

لقد قلنا- لمرّات عديدة- إنّ القرآن يذكر الإنسان بشـكل عام، و يلومه بأنواع اللوم، و يصـفه بصـفات كالبخل و الجهل .. و العجول و الظلوم و ما شابهها.

إنّ هـذه التعـابير لاـ تتنافى مع كون المؤمنين و الصالحين يتحلّون بضـد هـذه الصـفات، حيث يشـير التعبير إلى أنّ الطبيعـة الآدميـة هى هكـذا، و إذا لم يخضع الإنسـان لتربيـة القـادة الإلهيين، و ترك لشأنه كالنباتات المتروكـة فسـيكون مسـتعدا للاتصاف بهـذه الصـفات

السيئة. و هذا لا يعنى أنّ ذاته خلقت هكذا، أو أنّ عاقبة الجميع كذلك ۹۳].

۷- استخدام تعبير خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ

يعنى الخوف من الفقر، ذلك الفقر الذى يكون سببه كثرة الإنفاق، كما يظنون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۰

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (۱۰۱) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (۱۰۳) وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (۱۰۴)

التّفسير

لم يؤمنوا رغم الآيات:

قبل بضعة آيات عرفنا كيف أنّ المشركين طلبوا أمورا عجيبة غريبة من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بما أنّ هدفهم- باعترافهم هم أنفسهم- لم يكن لأجل الحق و طلبا له، بل لأجل التذرّع و التحجج و التعجيز، لذا فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ردّ عليهم و رفض الانصياع إلى طلباتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۱

و هذه الآيات- التى نبحثها- فى الحقيقة تقف على نماذج للأمم السابقة ممّن شاهدوا أنواع المعاجز و الأعمال غير العادية، إلّا أنّهم استمروا فى الإنكار و عدم الإيمان.

فى البدء يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ سنشير فى نهاية هذا البحث إلى هذه الآيات التسع و ماهيتها.

و لأجل التأكيد على الموضوع اسأل- و الخطاب موّجه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين و المنكرين: فَسْئَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ

إلّا أنّ الطاغية الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك اتّهم موسى فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً.

و فى بيان معنى «مسحور» ذكر المفسّرون تفسيرين، فالبعض قالوا: إنّها تعنى الساحر بشهادة آيات قرآنية أخرى، تقول بأنّ فرعون و قومه اتّهموا موسى بالساحر، و مثل هذا الاستخدام وارد و له نظائر فى اللغة العربية، حيث يكون اسم المفعول بمعنى الفاعل، كما فى (مشؤوم) التى يمكن أن تأتى بمعنى «شائم» و (ميمون) بمعنى «يامن».

و لكن قسم آخر من المفسّرين أبقى كلمة «مسحور» بمعناها المفعولى و التى تعنى الشخص الذى أثّر فيه الساحر، كما يستفاد من الآية (۳۹) من سورة الذاريات التى نسبت السحر إليه، و الجنون أيضا، فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

على أى حال، فإنّ التعبير القرآنى يكشف عن الأسلوب الدعائى التحريضى الذى يستخدمه المستكبرون و يتهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصلاحية الربانية ضدّ الفساد و الظلم، إذ يصف الظالمون و الطغاة معجزاتهم بالسحر أو ينعتونهم بالجنون كى يؤثروا من هذا الطريق فى قلوب الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۲

و يفرّقوهم عن الأنبياء.

و لكن موسى عليه السّلام لم يسكت أمام اتّهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ.

لذا فإنّك- يا فرعون- تعلم بوضوح أنّك تتنكر للحقائق، برغم علمك بأنّها من اللّه! فهذه «بصائر» أى أدلة واضحة للناس كى يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق. و عند ما سيسلكون طريق السعادة. و بما أنّك- يا فرعون- تعرف الحق و تنكره، لذا: وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً.

(مثبور) من (ثبور) و تعنى الهلاك.

و لأنّ فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدلالات موسى القوية، فإنّه سلك طريقا يسلكه جميع الطواغيت عديمى المنطق فى جميع القرون و كافة الأعصار، و ذاك قوله تعالى: فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً.

«يستفز» من «استفزاز» و تعنى الإخراج بقوة و عنف.

و من بعد هذا النصر العظيم: وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً. فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف» من مادة «لفّ» و هنا تعنى المجموعة المتداخلة المعقّدة بحيث لا يعرف الأشخاص، و لا من أى قبيلة هم!

بحوث

۱- المقصود من الآيات التسع

لقد ذكر القرآن الكريم آيات و معجزات كثيرة لموسى عليه السّلام منها ما يلى:

۱- تحوّل العصا إلى ثعبان عظيم يلقف أدوات الساحرين، كما فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۳

(۲۰) من سورة طه: فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى

۲- اليد البيضاء لموسى عليه السّلام و التى تشع نورا: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى ۹۴].

۳- الطوفان: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ ۹۵].

۴- الجراد الذى أباد زراعتهم و أشجارهم وَ الْجَرادَ[۹۶].

۵- و القمل الذى هو نوع من الأمراض و الآفات التى تصيب النبات:

و الْقُمَّلَ ۹۷].

۶- (الضفادع) التى جاءت من النيل و تكاثرت و أصبحت وبالا على حياتهم: وَ الضَّفادِعَ ۹۸].

۷- الدم، أو الابتلاء العام بالرعاف، أو تبدّل نهر النيل إلى لون الدم، بحيث أصبح ماؤه غير صالح لا للشرب و لا للزراعة: وَ الدَّمَ آياتٍ

مُفَصَّلاتٍ ۹۹].

۸- فتح طریق فی البحر بحیث استطاع بنو إسرائیل العبور منه: وَ إِذْ فَرَقْنا بِكُمُ الْبَحْرَ[۱۰۰].

۹- نزول ال (منّ) و (السلوی) من السماء، و قد شرحنا ذلک فی نهایة الآیة (۵۷) من سورة البقرة وَ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى ۱۰۱].

۱۰- انفجار العیون من الأحجار: فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً[۱۰۲].

۱۱- انفصال جزء من الجبل لیظلّلهم: وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۴

[۱۰۳].

۱۲- الجفاف و نقص الثمرات: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ ۱۰۴].

۱۳- عودة الحیاة إلی المقتول و الذی أصبح قتله سببا للاختلاف بین بنی إسرائیل: فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى ۱۰۵].

۱۴- الاستفادة من ظل الغمام فی الاحتماء من حرارة الصحراء بشکل إعجازی: وَ ظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمامَ ۱۰۶].

و لکن الکلام هنا هو: ما هو المقصود من (الآیات التسع) المذکورة فی الآیات التی نبحثها؟

یظهر من خلال التعابیر المستخدمة فی هذه الآیات أنّ المقصود هو المعاجز المرتبطة بفرعون و أصحابه، و لیست تلک المتعلقة ببنی إسرائیل من قبیل نزول المنّ و السلوی و تفجّر العیون من الصخور و أمثال ذلک.

لذا یمکن القول أنّ الآیة (۱۳۳) من سورة الأعراف تتعرض إلی خمسة مواضیع من الآیات التسع و هی: (الطوفان، القمّل، الجراد، الضفادع، و الدم).

کذلک الید البیضاء و العصا تدخل فی الآیات التسع، یؤید ذلک ورود تعبیر (الآیات التسع) فی الآیات (۱۰- ۱۲) من سورة النمل بعد ذکر هاتین المعجزتین الکبیرتین.

و بذلک یصبح مجموع هذه المعاجز- الآیات- سبعا، فما هی الآیتان الأخیرتان؟

بلا شک إنّنا لا نستطیع اعتبار غرق فرعون و قومه فی عداد الآیات التسع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۵

لأنّ الهدف من الآیات أن تکون دافعا لهدایتهم و سببا لقبولهم بنبوة موسی علیه السّلام، لا أن تقوم بهلاک فرعون و قومه.

عند التدقیق فی آیات سورة الأعراف التی جاء فیها ذکر العدید من هذه الآیات یظهر أنّ الآیتین الأخریتین هما: (الجفاف) و (نقص الثمرات) حیث أننا نقرأ بعد معجزة العصا و الید البیضاء و قبل تبیان الآیات الخمس (الجراد، و القمل ...) قوله تعالی: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

و بالرغم من أنّ البعض یتصوّر أنّ الجفاف لا یمکن فصله عن نقص الثمرات و بذا تعتبر الآیتان آیة واحدة، إلّا أنّ الجفاف المؤقت و المحدود- کما قلنا فی تفسیر الآیة (۱۳۰) من سورة الأعراف- لا یؤثّر تأثیرا کبیرا فی الأشجار، أمّا عند ما یکون جفافا طویلا فإنّه سیؤدی إلی إبادة الأشجار، لذا فإنّ الجفاف لوحده لا یؤدی دائما إلی نقص الثمرات.

إضافة إلی ما سبق یمکن أن یکون السبب فی نقص الثمرات هو الأمراض و الآفات و لیس الجفاف.

و النتیجة أنّ الآیات التسع التی وردت الإشارة إلیها فی الآیات التی نبحثها هی: العصا، الید البیضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، و نقص الثمرات.

و من نفس سورة الأعراف نعرف أنّ هؤلاء- برغم الآیات التسع هذه- لم یؤمنوا، لذلک انتقمنا منهم و أغرقناهم فی الیم بسبب تکذیبهم ۱۰۷].

هناك روايات عديدة وردت فى مصادرنا حول تفسير هذه الآية، و لاختلافها فيما بينها لا يمكن الاعتماد عليها فى إصدار الحكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۶

۲- هل أنّ السائل هو الرّسول نفسه؟

ظاهر الآيات أعلاه يدل على أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد أمر بسؤال بنى إسرائيل حول الآيات التسع التى نزلت على موسى، و كيف أنّ فرعون و قومه صدّوا عن حقانية موسى عليه السّلام بمختلف الذرائع رغم الآيات.

و لكن بما أنّ لدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من العلم و العقل بحيث أنّه لا يحتاج إلى السؤال، لذا فإنّ بعض المفسّرين ذهب الى أن المأمور بالسؤال هم المخاطبون الآخرون.

و لكن يمكن أن يقال: إنّ سؤال الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يكن لنفسه، بل للمشركين، لذلك فما المانع من أن يكون شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى يسأل حتى يعلم المشركون أنّه عند ما لم يوافق على اقتراحاتهم، فذلك لأنّها اقتراحات باطلة قائمة على التعصّب و العناد، كما قرأنا فى قصّة موسى و فرعون و نظير ذلك.

۳- ما المراد ب (الأرض) المذكورة فى الآيات؟

قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ اللّه أمر بنى إسرائيل بعد أن انتصروا على فرعون و جنوده أن يسكنوا الأرض، فهل الغرض من الأرض هى مصر (نفس الكلمة وردت فى الآية السابقة و التى بيّنت أنّ فرعون أراد أن يخرجهم من تلك الأرض.

و بنفس المعنى أشارت آيات أخرى إلى أنّ بنى إسرائيل ورثوا فرعون و قومه) أو أنّها إشارة إلى الأرض المقدّسة فلسطين، لأنّ بنى إسرائيل بعد هذه الحادثة اتجهوا نحو أرض فلسطين و أمروا أن يدخلوها.

بالنسبة لنا فإنّنا لا نستبعد أيّا من الاحتمالين، لأنّ بنى إسرائيل- بشهادة الآيات القرآنية- ورثوا أراضى فرعون و قومه، و امتلكوا أرض فلسطين أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۷

۴- هل تعنى كلمة (وعد الآخرة) يوم البعث و الآخرة؟

ظاهرا ... إنّ الإجابة بالإيجاب، حيث أنّ جملة جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً قرينة على هذا الموضوع، و مؤيّدة لهذا الرأى. إلّا أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ (وعد الآخرة) إشارة إلى ما أشرنا إليه فى بداية هذه السورة، من أنّ اللّه تبارك و تعالى قد توعّد بنى إسرائيل بالنصر و الهزيمة مرّتين، و قد سمى الأولى ب «وعد الأولى» و الثّانية ب «وعد الآخرة»، إلّا أنّ هذا الاحتمال ضعيف مع وجود قوله تعالى: جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (فدقق فى ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۸

الآيات [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۹]

اشارة

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۱۰۵) وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا (۱۰۶) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً (۱۰۷) وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا (۱۰۸) وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (۱۰۹)

التّفسير

عشاق الحق

مرّة أخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية و عظمة هذا الكتاب السماوى و يجيب على بعض ذرائع المعارضين.

فى البداية تقول الآيات: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ ثمّ تضيف بلا أدنى فاصلة وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ

ثمّ تقول: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۶۹

لقد ذكر المفسّرون آراء مختلفة فى الفرق بين الجملة الأولى: وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ و الجملة الثّانية: وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ منها:

۱- المراد من الجملة الأولى: إنّنا قدّرنا أن ينزل القرآن بالحق. بينما تضيف الجملة الثّانية أنّ هذا الأمر أو التقدير قد تحقق، لذا فإنّ التعبير الأوّل يشير إلى التقدير، بينما يشير الثّانى إلى مرحلة الفعل و التحقق ۱۰۸].

۲- الجملة الأولى تشير إلى أنّ مادة القرآن و محتواه هو الحق، أمّا التعبير الثّانى فانّه يبيّن أن نتيجته و ثمرته هى الحق أيضا[۱۰۹].

۳- الرأى الثّالث يرى أنّ الجملة الأولى تقول: إنّنا نزّلنا هذا القرآن بالحق بينما الثّانية تقول: إنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يتدخل فى الحق و لم يتصرف به، لذا فقد نزل الحقّ.

و ثمّة احتمال آخر قد يكون أوضح من هذه التّفاسير، و هو أنّ الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، و لكنّه لا يستطيع إتمامه بشكل صحيح و ذلك بسبب من ضعفه، أمّا بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شىء و يقدر على كل شىء، فإنّه يبدأ بداية صحيحة، و ينهى العمل نهاية صحيحة. و كمثال على ذلك الشخص الذى يخرج ماء صافيا من أحد العيون، و لكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء و نظافته أو يمنعه من التلوث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين و هو ملوّث. إلّا أنّ الشخص القادر و المحيط بالأمور، يحافظ على بقاء الماء صافيا و بعيدا عن عوامل التلوث حتى يصل إلى العطاشى و المحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، و هو محفوظ فى جميع مراحله سواء فى المرحلة التى كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التى كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۰

الرّسول فيها هو المتلقى، و بمرور الزمن له تستطيع يد التحريف و التزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ فاللّه هو الذى يتكفل حمايته و حراسته.

لذا فإنّ هذا الماء النقى الصافى الوحى الإلهى القويم لم تناله يد التحريف و التبديل منذ عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حتى نهاية العالم.

الآية التى تليها ترد على واحدة من ذرائع المعارضين و حججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لماذا كان نزوله تدريجيا؟ كما تشير إلى ذلك الآية (۳۲) من سورة الفرقان التى تقول: وَ قالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً، كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا فيقول اللّه فى جواب هؤلاء: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ ۱۱۰] حتى يدخل القلوب و الأفكار و يترجم عمليا بشكل كامل.

و من أجل التأكيد أكثر تبيّن الآية- بشكل قاطع- أنّ جميع هذا القرآن أنزلناه نحن: وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا.

إنّ القرآن كتاب السماء إلى الأرض، و هو أساس الإسلام و دليل لجميع البشر، و القاعدة المتينة لجميع الشرائع القانونية و الاجتماعية و السياسية و العبادية لدنيا المسلمين، لذلك فإنّ شبهة هؤلاء فى عدم نزوله دفعة واحدة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجاب عليها من خلال النقاط الآتية:

أوّلا- بالرغم من أنّ القرآن هو كتاب، إلّا أنّه ليس ككتب الإنسان المؤلّفة حيث يجلس المؤلّف و يفكّر و يكتب موضوعا، ثمّ ينظّم فصول الكتاب و أبوابه لينتهى من تحرير الكتاب، بل القرآن له ارتباط دقيق بعصره، أى ارتباط ب (۲۳) سنة، هى عصر نبوة نبى الإسلام بكل ما كانت تتمخض به من حوادث و قضايا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۱

لذا كيف يمكن لكتاب يتحدث عن حوادث (۲۳) سنة متزامنا لها أن ينزل فى يوم واحد؟

هل يمكن جمع حوادث (۲۳) سنة نفسها فى يوم واحد، حتى ينزل القرآن فى يوم واحد؟

إنّ فى القرآن آيات تتعلق بالغزوات الإسلامية، و آيات تختص بالمنافقين، و أخرى ترتبط بالوفود التى كانت تفد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فهل يمكن أن يكتب مجموع كل ذلك منذ اليوم الأوّل؟

ثانيا: ليس القرآن كتابا ذا طابع تعليمى و حسب، بل ينبغى لكل آية فيه أن تنفّذ بعد نزولها، فإذا كان القرآن قد نزل مرّة واحدة، فينبغى أن يتمّ العمل به مرّة واحدة أيضا، و نعلم بأنّ هذا محال، لأنّ إصلاح مجتمع ملىء بالفساد لا يتمّ فى يوم واحد، إذ لا يمكن إرسال الطفل الأمى دفعة واحدة من الصف الأوّل إلى الصفوف المتقدمة فى الجامعة فى يوم واحد. لهذا السبب نزل القرآن نجوما- أى بشكل تدريجى- كى ينفذ بشكل جيّد و يستوعبه الجميع و كى يكون للمجتمع قابلية قبوله و استيعابه و تمثله عمليا.

ثالثا: بدون شك، إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كقائد هذه النهضة العظيمة سيكون ذا قدرات و إمكانيات أكبر عند ما يقوم بتطبيق القرآن جزءا جزءا، بدلا من تنفيذه دفعة واحدة. صحيح أنّه مرسل من الخالق و ذو عقل و استعداد كبيرين ليس لهما مثيل، إلّا أنّه برغم ذلك فإنّ تقبّل الناس للقرآن و تنفيذ تعاليمه بصورة تدريجية سيكون أكمل و أفضل ممّا لو نزل دفعة واحدة.

رابعا: النّزول التدريجى يعنى الارتباط الدائمى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع مصدر الوحى، إلّا أنّ النّزول الدفعى يتمّ بمرحلة واحدة لا يتسنى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الارتباط بمصدر الوحى لأكثر من مرّة واحدة.

آخر الآية (۳۲) من سورة الفرقان تقول: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۲

تَرْتِيلًا و هى إشارة إلى السبب الثّالث، بينما الآية التى نبحثها تشير إلى السبب الثّانى من مجموع الأسباب الأربعة التى أوردناها. و لكن الحصيلة أنّ مجموع هذه العوامل تكشف بشكل حى و واضح أسباب و ثمار النّزول التدريجى للقرآن.

الآية التى تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً.

ملاحظات

فى هذه الآية ينبغى الالتفات إلى الملاحظات الآتية:

أوّلا: يعتقد المفسّرون أنّ جملة آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا يتبعها جملة محذوفة قدّروها بأوجه متعدّدة، إذ قال بعضهم: إن المعنى هو: سواء آمنتم أم لم تؤمنوا فلا يضر ذلك بإعجاز القرآن و نسبته إلى الخالق.

بينما قال البعض: إنّ التقدير يكون: سواء آمنتم به أو لم تؤمنوا فإنّ نفع ذلك و ضرره سيقع عليكم.

لكن يحتمل أن تكون الجملة التى بعدها مكمّلة لها، و هى كناية عن أنّ عدم الإيمان هو سبب عدم العلم و المعرفة، فلو كنتم تعلمون لآمنتم به. و بعبارة أخرى:

يكون المعنى: إذا لم تؤمنوا به فإنّ الأفراد الواعين و ذوى العلم يؤمنون به.

ثانيا: إنّ المقصود من الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ هم مجموعة من علماء اليهود و النصارى من الذين آمنوا بعد أن سمعوا آيات القرآن، و شاهدوا العلائم التى قرءوها فى التوراة و الإنجيل، و التحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، و أصبحوا من علماء الإسلام.

و فى آيات أخرى من القرآن تمت الإشارة إلى هذا الموضوع، كما فى قوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۳

تعالى فى الآية (۱۱۳) من سورة آل عمران: لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ

ثالثا: «يخرّون» بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، و استخدام هذه الكلمة بدلا من السجود ينطوى على إشارة لطيفة، هى أنّ الواعين و ذوى القلوب اليقظة عند ما يسمعون آيات القرآن و كلام الخالق عزّ و جلّ ينجذبون إليه و يولهون به الى درجة أنّهم يسقطون على الأرض و يسجدون خشية بدون وعى و اختيار[۱۱۱].

رابعا: (أذقان) جمع (ذقن) و من المعلوم أن ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلّا أن تعبير الآية إشارة إلى أنّ هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أنّ ذقنهم قد يلمس الأرض عند السجود.

بعض المفسّرين احتمل أنّ الإنسان عند سجوده يضع أوّلا جبهته على الأرض، و لكن الشخص المدهوش عند ما يسقط على الأرض يضع ذقنه أولا، فيكون استخدام هذا التعبير فى الآية تأكيدا لمعنى (يخرون)[۱۱۲].

الاية التى بعدها توضح قولهم عند ما يسجدون: وَ يَقُولُونَ سُبْحانَ رَبِّنا إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولًا[۱۱۳]. هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم و اعتقادهم باللّه و بصفاته و بوعده. فهذا الكلام يشمل الإيمان بالتوحيد و الصفات الحقة و الإيمان بنبوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بالمعاد. و الكلام على هذا الأساس يجمع أصول الدين فى جملة واحدة.

و للتأكيد- أكثر- على تأثّر هؤلاء بآيات ربّهم، و على سجدة الحب التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۴

يسجدونها تقول الآية التى بعدها: وَ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ يَبْكُونَ وَ يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً.

إنّ تكرار جملة يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ دليل على التأكيد، و على الاستمرار أيضا.

الفعل المضارع (يبكون) دليل على استمرار البكاء بسبب حبّهم و عشقهم لخالقهم.

و استخدام الفعل المضارع فى جملة يَزِيدُهُمْ خُشُوعاً دليل على أنّهم لا يتوقفون أبدا على حالة واحدة، بل يتوجهون باستمرار نحو ذروة التكامل، و خشوعهم دائما فى زيادة (الخشوع هو حالة من التواضع و الأدب الجسدى و الروحى للإنسان فى مقابل شخصية معينة أو حقيقة معينة).

بحثان:

۱- التخطيط للتربية و التعلم

من الـدروس المهمّـة التى نسـتفيدها من الآيات أعلاه، هو ضـرورة التخطيط لأى ثورة أو نهضة ثقافية أو فكرية أو اجتماعية أو تربوية، فإذا لم يتمّ تنظيم مثل هذا البرنامج فالفشل سيكون النتيجة الحتمية لمثل هذه الجهود. إنّ القرآن الكريم لم ينزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرّة واحـدة بالرغم من أنّه كان موجودا فى مخزون علم اللّه كاملا، و قد تمّ عرضه فى ليلة القدر على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دفعة واحـدة، إلّا أنّ النّزول التـدريجى اسـتمرّ طوال (۲۳) سـنة، و ضـمن مراحل زمنيـة مختلفة و فى إطار برنامج عملى دقيق.

و عنـد ما يقوم الخالق جلّ و علا بهـذا العمل بالرغم من عمله و قـدرته المطلقـة و غير المتناهيـة ... عند ذلك سيّتضح دورنا و تكليفنا نحن إزاء هذا المبدأ. و عادة ما يكون هذا قانونا و تكليفا إلهيا، حيث أنّ وجوده العينى لا يختص بعالم التشريع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۵

و حسب، بل فى عالم التكوين أيضا. إنّه من غير المتوقع أن تنصـلح أمور مجتمع فى مرحلة البناء خلال ليلة واحدة لأنّ البناء الحضارى الفكرى و الثقافى و الاقتصادى و السياسى يحتاج إلى المزيد من الوقت.

و هـذا الكلام يعنى أنّنا إذا لم نصل إلى النتيجـة المطلوبة فى وقت قصـير فعلينا أن لا نيأس و نترك بذل الجهد أو المثابرة. و ينبغى أن نلتفت إلى أنّ الانتصارات النهائية و الكاملة تكون عادة لأصحاب النفس الطويل.

۲- علاقة العلم بالإيمان

الموضوع الآـخر الـذى يمكن أن نسـتفيده من الآيـات أعلاـه هو علاقـة العلم بالإيمـان، إذ تقول الآيـات: إنّكم سواء آمنتم بـاللّه أو لم تؤمنوا فإنّ العلماء سيؤمنون باللّه إلى درجـة أنّهم يعشـقون الخالق و يسـقطون أرضا ساجدين من شدّة الوله و الحبّ، و تجرى الدّموع من أعينهم، و إنّ هذا الخشوع و التأدّب يتصف بالاستمرار فى كل عصر و زمان.

إنّ الجهلة- فقط- هم الذين لا يعيرون أهمية للحقائق و يواجهونها بالاسـتهزاء و السخرية، و إذا أثّر فيهم الإيمان فى بعض الأحيان فإنّه سيكون تأثيرا ضعيفا خاليا من الحبّ و الحرارة.

إضافـة إلى ذلك، فإنّ فى الآيـة ما يؤكّـد خطأ و خطل النظريـة التى تربط بين الدين و الجهل أو الخوف من المجهول. أمّا القرآن فإنّه يؤكّـد على عكس ذلك تماما، إذ يقول فى مواقع متعـدّدة: إنّ العلم و الإيمان توأمان، إذ لا يمكن أن يكون هناك إيمان عميق ثابت من دون علم، و العلم فى مراحلة المتقدمة يحتاج إلى الإيمان. (فدقق فى ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۶

الآيتان [سورة الإسراء (۱۷): الآيات ۱۱۰ الى ۱۱۱]

اشارة

قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَـدْعُوا فَلَهُ الْأَسْـماءُ الْحُسْـنى وَ لا تَجْهَرْ بِصَـلاتِكَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا (۱۱۰) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً (۱۱۱)

سبب النّزول

وردت آراء متعدّدة فی سبب نزول هاتین الآیتین منها ما

نقله صاحب مجمع البیان عن ابن عباس الذی قال: کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ساجدا ذات لیلة بمکّة یدعو: یا رحمن یا رحیم، فقال المشرکون متهمین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّه یدعونا إلی إله واحد، بینما یدعو هو مثنی مثنی. یقصدون بذلک قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: یا رحمن یا رحیم. فنزلت الآیة الکریمة أعلاه ۱۱۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۷

التّفسیر

آخر الذرائع و الأغذار

بعد سلسلة من الذرائع التی تشبث بها المشرکون امام دعوة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، نصل مع الآیات التی بین أیدینا إلی آخر ذریعة لهم، و هی قولهم: لماذا یذکر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الخالق بأسماء متعدّدة بالرغم من أنّه یدّعی التوحید. القرآن ردّ علی هؤلاء بقوله: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی إنّ هؤلاء عمیان البصیرة و القلب، غافلون عن أحداث و وقائع حیاتهم الیومیة حیث کانوا یذکرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمکان واحد، و کل اسم من هذه الأسماء کان یعرّف بشطر أو بصفة من صفات ذلک الشخص أو المکان.

بعد ذلک، هل من العجیب أن تکون للخالق أسماء متعدّدة تتناسب مع أفعاله و کمالاته و هو المطلق فی وجوده و فی صفاته و المنبع لکل صفات الکمال و جمیع النعم، و هو وحده عزّ و جلّ الذی یدیر دفة هذا العالم و الوجود؟

أساسا، فانّ اللّه تعالی لا یمکن معرفته و مناجاته باسم واحد إذ ینبغی أن تکون أسماؤه مثل صفاته غیر محدودة حتی تعبّر عن ذاته، و لکن لمحدودیة ألفاظنا- کما هی أشیاؤنا الأخری أیضا- لا نستطیع سوی ذکر أسماء محدودة له، و إنّ معرفتنا مهما بلغت فهی محدودة أیضا، حتی أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو من هو فی منزلته و روحه و علو شأنه، نراه

یقول: «ما عرفناک حق معرفتک».

إنّ اللّه تعالی فی قضیة معرفتنا إیّاه لم یترکنا فی أفق عقولنا و درایتنا الخاصّة، بل ساعدنا کثیرا فی معرفة ذاته، و ذکر نفسه بأسماء متعدّدة فی کتابه العظیم، و من خلال کلمات أولیائه تصل أسماؤه- تقدس و تعالی- إلی ألف اسم.

و طبیعی أنّ کل هذه أسماء اللّه، و أحد معانی الأسماء العلّامة، لذا فإنّ هذه علامات علی ذاته الطاهرة، و جمیع هذه الخطوط و العلامات تنتهی إلی نقطة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۸

واحدة، و هی لا تقلّل من شأن توحید الذات و الصفات.

و هناک قسم من هذه الأسماء ذو أهمیة و عظمة أکثر، حیث تعطینا معرفة و وعیا أعظم، تسمی فی القرآن الکریم و فی الرّوایات الإسلامیة، بالأسماء الحسنی، و هناک روایة معروفة عن رسول الهدی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما مضمونها:

«إن اللّه تسعا و تسعین اسما، من أحصاها دخل الجنّة».

و هناک شرح مفصل للأسماء الحسنی، و الأسماء التسعة و التسعین بالذات، أوردناه فی نهایة الحدیث عن الآیة (۱۸۰) من سورة الأعراف، فی قوله تعالی:

وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنی فَادْعُوهُ بِها.

لکن علینا أن نفهم أنّ الغرض من عد الأسماء الحسنی لیس ذکرها علی اللسان و حسب، حتی یصبح الإنسان من أهل الجنّة و مستجاب الدعوة، بل إنّ الهدف هو التخلّق بهذه الأسماء و تطبیق شذرات من هذه الأسماء، مثل (العالم، و الرحمن، و الرحیم، و الجواد، و الکریم) فی وجودنا حتی نصبح من أهل الجنّة و مستجابی الدعوة.

و هناک کلام

ینقله الشیخ الصدوق رحمه اللّه فی کتاب التوحید عن هشام بن الحکم جاء فیه: یقول هشام بن الحکم: سألت أبا عبد اللّه الصادق علیه السّلام عن أسماء اللّه عزّ ذکره و اشتقاقها فقلت: اللّه ممّا هو مشتق؟

قال علیه السّلام: «یا هشام، اللّه مشتق من إله، و إله یقتضی مألوها، و الاسم غیر المسمّی، فمن عبد الاسم دون المعنی فقد کفر و لم یعبد شیئا، و من عبد الاسم و المعنی فقد أشرک و عبد الاثنین، و من عبد المعنی دون الاسم فذاک التوحید.

أ فهمت یا هشام؟».

قال هشام: قلت: زدنی.

قال علیه السّلام: «للّه عزّ و جلّ تسعة و تسعون اسما، فلو کان الاسم هو المسمی لکان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۷۹

کلّ اسم منها هو إلها، و لکن اللّه عزّ و جلّ معنی یدلّ علیه بهذه الأسماء و کلّها غیره.

یا هشام، الخبز اسم للمأکول، و الماء اسم للمشروب، و الثوب اسم للملبوس، و النار اسم للمحرق»[۱۱۵].

و الآن لنعد إلی الآیات. ففی نهایة الآیة التی نبحثها نری المشرکین یتحدّثون عن صلاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یقولون: إنّه یؤذینا بصوته المرتفع فی صلاته و عبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعلیمات لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عبر قوله تعالی: وَ لا تَجْهَرْ بِصَلاتِکَ وَ لا تُخافِتْ بِها وَ ابْتَغِ بَیْنَ ذلِکَ سَبِیلًا.

لذلک فإنّ الآیة أعلاه لا علاقة لها بالصلوات الجهریة و الإخفاتیة فی اصطلاح الفقهاء، بل إنّ المقصود منها یتعلق بالإفراط و التفریط فی الجهر و الإخفات، فهی تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحیث یشبه الصراخ، و لا أقل من الحد الطبیعی بحیث تکون حرکة شفاه و حسب و لا صوت فیها.

أسباب النّزول الواردة- حول الآیة- التی یرویها الکثیر من المفسّرین نقلا عن ابن عباس تؤیّد هذا المعنی.[۱۱۶] و هناک آیات عدیدة من طرق أهل البیت نقلا عن الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام و تؤید هذا المعنی و تشیر إلیه ۱۱۷].

لذا فإنا نستبعد التفاسیر الأخری الواردة حول الآیة.

أمّا ما هو حد الاعتدال، و ما هو الجهر و الإخفات المنهی عنهما؟ الظاهر أنّ الجهر هو بمعنی (الصراخ)، و (الإخفات) هو من السکون بحیث لا یسمعه حتی فاعله.

و

فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال فی تفسیر الآیة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۰

«الجهر بها رفع الصوت، و التخافت بها ما لم تسع نفسک، و اقرأ بین ذلک»[۱۱۸].

أمّا الإخفات و الجهر فی الصلوات الیومیة، فهو- کما أشرنا لذلک- له حکم آخر، أو مفهوم آخر، أی له أدلة منفصلة، حیث ذکرها فقهاؤنا رضوان اللّه علیهم فی (کتاب الصلاة) و بحثوا عنها.

ملاحظة

هذا الحكم الإسلامى فى الدعوة إلى الاعتدال بين الجهر و الإخفات يعطينا فهما و إدراكا من جهتين:

الأولى: لا تؤدوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء و التحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونة بالوقار و الهدوء و الأدب، كى تعكس بذلك نموذجا لعظمة الأدب الإسلامى و منهج العبادة فى الإسلام.

فالذين يقومون فى أوقات استراحة الناس بإلقاء المحاضرات الدينية بواسطة مكبرات الصوت، و يعتقدون أنّهم بذلك يوصلون صوتهم إلى الآخرين، هم على خطأ، و عملهم هذا لا يعكس أدب الإسلام فى العبادات، و ستكون النتيجة عكسية على قضية التبليغ الدينى.

الثّانية: يجب أن يكون هذ التوجيه مبدأ لنا فى جميع أعمالنا و برامجنا الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية، و تكون جميع هذه الأمور بعيدة عن الإفراط و التفريط، إذ الأساس هو: وَ ابْتَغِ بَيْنَ ذلِكَ سَبِيلًا.

أخيرا نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد اللّه، كما افتتحت بتسبيحه و تنزيه ذاته عزّ و جلّ. إنّ هذه الآية- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۱

الواقع- هى خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التى وردت فى السورة، و هى ثمرة لمفاهيمها جميعا، إذ هى تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ

و مثل هذا الرّب فى مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكّر به: وَ كَبِّرْهُ تَكْبِيراً.

و نلاحظ فى هذه الآية عدة أمور:

۱- تناسب الصفات الثلاثية

فى الآيات أعلاه تمّت الإشارة إلى ثلاث صفات من صفات اللّه، ثمّ بملاحظة الأمر الوارد فى نهاية الآية تكتمل الى اربع صفات.

أوّلا: نفى الولد، لأنّ امتلاك الولد دليل على الحاجة، و أنّه جسمانى، و له شبيه و نظير، و الخالق جلّ و علا ليس بجسم و لا يحتاج لولد، و ليس له شبيه و نظير.

الثّانى: نفى الشريك وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ حيث أن وجود الشريك دليل محدودية القدرة و الحكومة و السلطة، و هو دليل العجز و الضعف، و يقتضى وجود الشبيه و النظير. و الخالق جلّ و علا منزّه عن هذه الصفات، فقدرته كما هى حكومته غير محدودة، و ليس له أى شبيه.

الثّالث: نفى الولى و الحامى عند التعرّض للمشاكل و الهزائم وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ

و نفى هذه الصفة عن الخالق يعتبر أمر بديهى .. إنّ الآية تنفى أى مساعد للخالق أو شبيه له، سواء كان ذلك فى مرحلة أدنى (كالولد) أو فى مرحلة مساوية (كالشريك) أو أفضل منه (كالولى).

نقل العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان) عن بعض المفسّرين الذين لم يذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۲

أسماءهم بصراحة قولهم: «إنّ هذه الآية تنفى ثلاثة اعتقادات منحرفة لثلاث مجاميع: المجموعة الأولى هم المسيحيون و اليهود الذين يقولون بوجود الولد للخالق، و الثّانية مجموعة مشركى العرب الذين قالوا بوجود الشريك له سبحانه، لذلك فإنّهم كانوا يقولون عند

کل صباح و فی طقوس خاصّة: لبیک لا شریک لک، إلّا شریکا هو لک! أمّا المجموعة الثّالثة، فهم عبدة النجوم و المجوس الذین یقولون بوجود الولی و الحامی للخالق».

۲- ما هو التکبیر؟

القرآن یؤکّد علی رسوله أن یکبّر اللّه، و هذا تعنی أنّ الغرض من ذلک هو الإعتقاد بهذا الأمر، و لیس فقد ذکر (اللّه أکبر) علی اللسان.

إنّ معنی الإعتقاد بأنّ (اللّه أکبر) أن لا نقیسه مع المخلوقات الأخری، و نقول بأنّه أعظم و أکبر منها، لأنّ مثل هذه المقایسة خطأ من الأساس. إنّنا یجب أن نعتبره أعظم و أکبر من أن نقیسه بشیء، کما یعلمنا ذلک الإمام الصادق علیه السّلام فی مقولته القصیرة اللفظ و الکبیرة المعنی، حیث نقرأ فیها ما نصّه:

قال رجل عند الإمام الصادق علیه السّلام: اللّه أکبر.

فقال علیه السّلام: «اللّه أکبر من أی شیء؟».

قال الرجل: من کل شیء.

فقال علیه السّلام: «حددته».

فقال الرجل: کیف أقول؟

قال علیه السّلام: قل: «اللّه أکبر من أن یوصف»[۱۱۹].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا نقرأ عن جمیع بن عمیر قال:

قال أبو عبد اللّه علیه السّلام: «أی شیء، اللّه أکبر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۳

فقلت: اللّه أکبر من کل شیء.

فقال: «و کان ثمّ شیء فیکون أکبر منه».

فقلت: فما هو؟

قال علیه السّلام: «أکبر من أن یوصف»[۱۲۰].

۳- الإجابة علی هذا السؤال

قد یطرح هنا هذا السؤال: کیف یکون حمد الخالق فی الآیة أعلاه فی قبال الصفات السلبیة، فی حین أنّنا نعلم بأنّ (الحمد) هو فی قبال الصفات الثبوتیة کالعلم و القدرة، أمّا صفات مثل نفی الولد و الشریک و الولی فهی تتلاءم مع التسبیح فکیف مع الحمد؟

فی الجواب علی هذا السؤال نقول: بالرغم من أنّ طبیعة الصفات السلبیة و الثبوتیة تختلف بضعها عن بعض و إنّ إحداهما تتلاءم مع التسبیح و الأخری تتلاءم مع الحمد، إلّا أنّه فی الوجود الخارجی (العینی) یکون الاثنان لازمین و ملزومین، فنفی الجهل عن الخالق یکون ملازما لإثبات العلم له، کما أنّ إثبات العلم لذاته جلّ و علا ملازم لنفی الجهل.

و علی هذا الأساس فلا مانع تارة من ذکر اللازم و أخری من ذکر الملزوم.

کما ذکر التسبیح فی بدایة هذه السورة لأمر فی قوله: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی

دعاء الختام: إلهی املأ قلوبنا بنور العلم حتی نخضع لعظمتک، و نؤمن بما وعدت، و نلتزم ما أمرت، لا نعبد غیرک، و لا نتوکل إلّا علیک.

إلهنا، وفقنا فی حیاتنا الیومیة فی أن لا نخرج عن حدّ الاعتدال، و أن نبتعد عن کل إفراط و تفریط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۴

إلهنا، لک الحمد و لک الشکر، و أنت الواحد الکبیر، أکبر من أن تحدّ فی وصف، فاغفر لنا، و ثبتنا فی خطواتنا، و انصرنا علی أعدائنا، و أوصل انتصاراتنا بالانتصار النهائی للمصلح المهدی علیه السّلام، و وفقنا لتکمیل هذا التّفسیر و ارحمنا برحمتک و تقبلنا فی رضاک.

نهایة سورة الإسراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۵

سورة الکهف

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها مائة و عشر آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۷

سورة الکهف

فضیلة سورة الکهف

۱-

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «ألا أدلکم علی سورة شیعها سبعون ألف ملک، حین نزلت ملأت عظمتها ما بین السماء و الأرض؟ قالوا: بلی.

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: سورة أصحاب الکهف من قرأها یوم الجمعة غفر اللّه له إلی الجمعة الأخری، و زیادة ثلاثة أیّام، و أعطی نورا یبلغ السماء، و وقی فتنة الدجّال»[۱۲۱].

۲- و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من حفظ عشر آیات من أوّل سورة الکهف، ثمّ أدرک الدجّال لم یضره. و من حفظ خواتیم سورة الکهف کانت له نورا یوم القیامة»[۱۲۲].

۳- و

عن الإمام أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام قال فی فضل سورة الکهف: «من قرأ سورة الکهف فی کلّ لیلة جمعة لم یمت إلّا شهیدا، و بعثه اللّه مع الشهداء، و وقف یوم القیامة مع الشهداء»[۱۲۳].

لقد قلنا مرارا: إنّ عظمة السور القرآنیة و تأثیرها المعنوی، و برکاتها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۸

الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها و العمل وفقا لمضامينها.

و بما أنّ قسما مهمّا من هذه السورة يتعرض إلى قصّة تحرك مجموعة من الفتية ضدّ طاغوت عصرهم، و دجّال زمانهم، هذا التحّرك الذى عرّض حياتهم و وجودهم للخطر و للموت لولا عناية البارى بهم و رعايته لهم. لذا فإنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة ينير القلب بنور الإيمان، و يحفظه من الذنوب و إغواءات الدجالين، و يعصمه من الذوبان فى المحيط الفاسد.

إنّ ممّا يساعد على تكميل هذا الأثر النفوس و القلوب هو ما تثيره السورة من أوصاف الآخرة و يوم الحساب، و المستقبل المشؤوم الذى ينتظر المستكبرين، و ضرورة الالتفات إلى علم الخالق المطلق و إحاطته بكل شىء.

إنّ كل ذلك ممّا يحفظ الإنسان من فتن الشيطان، و يجعل نور الإيمان يشع فيه، و يغرس العصمة فى قلبه، و تكون عاقبته مع الشهداء و الصدقين.

محتوى سورة الكهف

تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ و علا، و تنتهى بالتوحيد و الإيمان و العمل الصالح.

يشير محتوى السورة- كما فى أغلب السور المكّية- إلى قضية المبدأ و المعاد و الترغيب و الإنذار. و تشير أيضا إلى قضية مهمّة كان المسلمون يحتاجونها فى تلك الأيّام بشدّة، و هى عدم استسلام الأقلية- مهما كانت صغيرة- إلى الأكثرية مهما كانت قوية فى المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يبتعدوا عن المحيط الفاسد و يتحركوا ضدّه.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد و الصراع، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۸۹

عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

من قصص هذه السورة أيضا قصّة شخصين، أحدهما غنىّ مرفه إلّا أنّه غير مؤمن، و الآخر فقير مستضعف و لكنّه مؤمن. و قد صمد الفقير المستضعف المؤمن و لم يفقد شرفه عزته و إيمانه أمام الغنى، بل قام بنصيحته و إرشاده، و لمّا لم ينفع معه تبرأ منه، و قد انتهت المواجهة إلى انتصاره.

و هذه القصّة تذكر المسلمين و خاصّة فى بداية عصر الإسلام و تقول لهم: إنّ من سنة الأغنياء أن يكون لهم فورة من حركة و نشاط مؤقت سرعان ما ينطفئ لتكون العاقبة للمؤمنين.

كما يشير جانب آخر من هذه السورة إلى قصة موسى و الخضر عليهما السّلام لم يستطع الصبر فى مقابل أعمال كان ظاهرها يبدو مضرا، و لكنّها فى الواقع كانت مليئة بالأهداف و المصالح، إذ تبيّنت لموسى عليه السّلام و بعد توضيحات الخضر مصالح تلك الأعمال، فندم على تعجله.

و فى هذا درس للجميع أن لا ينظروا إلى ظاهر الحوادث و الأمور، و ليتبصروا بما يكمن خلف هذه الظواهر من بواطن عميقة و ذات معنى.

قسم آخر من السورة يشرح أحوال (ذى القرنين) و كيف استطاع أن يطوى العالم شرقه و غربه، ليواجه أقواما مختلفة بآداب و سنن مختلفة، و أخيرا استطاع بمساعدة بعض الناس أن يقف بوجه مؤامرة (يأجوج) و (مأجوج) و أقام سدا حديديا فى طريقهم ليقطع دابرهم (تفصيل كل هذه الإشارات المختصرة سيأتى لاحقا إن شاء اللّه تعالى) حتى تكون دلالة هذه القصة بالنسبة للمسلمين، هو أن يهيئوا أنفسهم- بأفق أوسع- لنفوذ إلى الشرق و الغرب بعد أن يتحدوا و يتحصنوا ضدّ أمثال يأجوج و مأجوج.

الظريف أنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۰

موسی و الخضر، و قصة ذی القرنین) حیث أنّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنیة لم تکرّر فی مکان آخر من القرآن (أشارت الآیة (۹۶) من سورة الأنبیاء إلی یأجوج و مأجوج دون ذکر ذی القرنین). و هذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المبارکة.

و خلاصة الکلام أن السورة تحتوی علی مفاهیم تربویة مؤثرة فی جمیع الأحوال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۱

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (۱) قَیِّماً لِیُنْذِرَ بَأْساً شَدِیداً مِنْ لَدُنْهُ وَ یُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (۲) ماکِثِینَ فِیهِ أَبَداً (۳) وَ یُنْذِرَ الَّذِینَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً (۴)

ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ کَبُرَتْ کَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ یَقُولُونَ إِلَّا کَذِباً (۵)

التّفسیر

البدایة باسم اللّه، و القرآن:

تبدأ سورة الکهف- کما فی بعض السور الأخری- بحمد اللّه، و بما أنّ الحمد یکون لأجل عمل أو صفة معینة مهمّة و مطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالی من کل اعوجاج، فتقول الآیة: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْکِتابَ وَ لَمْ یَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً.

هذا الکتاب هو کتاب ثابت و محکم و معتدل و مستقیم، و هو یحفظ المجتمع الإنسانی و یحمی سائر الکتب السماویة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۲

قَیِّماً و ینذر الظالمین من عذاب شدید: لِیُنْذِرَ بَأْساً شَدِیداً مِنْ لَدُنْهُ

و فی نفس الوقت فهو: وَ یُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِینَ الَّذِینَ یَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً. و هؤلاء فی نعیمهم ماکِثِینَ فِیهِ أَبَداً.

ثمّ تشیر الآیات إلی واحدة من انحرافات المعارضین، سواء کانوا نصاری أو یهود أو مشرکین، حیث تنذرهم هذا الأمر فتقول: وَ یُنْذِرَ الَّذِینَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً فهی تحذر النصاری بسبب اعتقادهم بأنّ المسیح ابن اللّه، و تحذر الیهود لأنّهم اعتقدوا بأنّ عزیر ابن اللّه، و تحذّر المشرکین لظّنهم بأنّ الملائکة بنات اللّه.

ثمّ تشیر الآیات إلی أصل أساسی فی إبطال هذه الادعاءات الفارغة فتقول:

إنّ هؤلاء لا علم لهم و لا یقین بهذا الکلام، و إنّما هم مقلدون فیه للآباء، و إنّ آباءهم علی شاکلتهم فی الجهل و عدم العلم: ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ بل: ولد؟

أو أن یحتاج إلی الصفات المادیة و أن یکون محدودا ... إنّه کلام رهیب، و مثل هؤلاء الذین یتفوهون به لا ینطقون إلّا کذبا: إِنْ یَقُولُونَ إِلَّا کَذِباً.

بحوث

۱- افتتاح السورة بحمد اللّه سبحانه و تعالى

هناك خمس سور فى القرآن الكريم تبدأ بحمد اللّه، ثمّ تعرج بعد الحمد و الثناء على قضايا خلق السموات و الأرض (أو ملكية اللّه سبحانه و تعالى لها) أو هداية العالمين، عدا هذه السورة التى تتناول بعد الحمد و الثناء مسألة نزول القرآن على نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى حقيقة الأمر إنّ السور الأربع «الأنعام- سبأ- فاطر- الحمد» تتناول القرآن التكوينى، فيما تتطرق سورة الكهف إلى القرآن التدوينى، و كما هو معلوم فإنّ الكتابين، أى (القرآن التدوينى) و خلق الكون و ما فيه (القرآن التكوينى) كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۳

منهما مكمّل للآخر، و هذا يوضح أنّ للقرآن وزن يعادل الخلق. و أساسا فإنّ تربية الخلائق الواردة فى الآية الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ غير ممكنة، ما لم يستفاد بصورة تامة من الكتاب السماوى العظيم، أى القرآن.

۲- القرآن كتاب ثابت و مستقيم و حافظ

كلمة «قيّم» على وزن كلمة «سيّد» و مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتى بمعنى (الثبات و الصمود) إضافة إلى أنّها تعنى المدبّر و الحافظ لبقية الكتب السماوية، كما تعنى كلمة «قيّم» فى نفس الوقت الاعتدال و الاستقامة التى لا اعوجاج فيها و إضافة إلى أنّ كلمة «قيم» هى وصف للقرآن فى عدم وجود أى اعوجاج فى آياته، بل إنّ فى مضمونها تأكيد على استقامة و اعتدال القرآن، و خلوّه من أى شكل من أشكال التناقض، و إشارة إلى أبدية و خلود هذا الكتاب السماوى العظيم، و كونه أسوة لحفظ الأصالة، و إصلاح الخلل، و حفظ الأحكام الإلهية و العدل و الفضائل البشرية.

صفة (القيّم) مشتقة من (قيمومة) البارى عزّ و جلّ التى تعنى اهتمام البارى عزّ و جلّ و حفظه جميع الكائنات، و القرآن الذى هو كلام اللّه له نفس الصفة أيضا.

كما وصف اللّه سبحانه و تعالى دينه فى عدّة آيات قرآنية بأنّه (القيّم) حتى أنّه أمر نبيّه الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالعمل وفق ما يمليه الدين القيّم و المستقيم: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ۱۲۴].

و ما ذكر أعلاه بشأن تفسير كلمة «قيّم»، أخذ من عدّة تفاسير مختلفة، و هو خلاصة لما قاله المفسّرون من أنّ كلمة «قيّم» تعنى الكتاب الباقى الذى لا ينسخ، أو الكتاب الحافظ للكتب السابقة، أو الكتاب القيّم على الدين، أو الخالى من الاختلافات و التناقضات، و كل هذه المعانى انصبت فى المفهوم الذى ذكرناه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۴

و اعتبر بعض المفسّرين أنّ جملة لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً تعنى فصاحة ألفاظ القرآن و كلمة «قيما» تعنى البلاغة و الاستقامة بالرغم من عدم امتلاكهم لأى دليل واضح على هذا التباين ۱۲۵]، و الظاهر أنّ الكلمتين تؤكّد كل منهما الأخرى، مع فرق أن كلمة «قيّم» لها مفهوم واسع، و تعنى اضافة إلى معنى الاستقامة، المحافظ و المصلح للكتب المساوية الأخرى ۱۲۶].

۳- انذارين شديدين عام و خاص:

بعد الإنذار العام الذى وجهته الآيات فى البداية لكافة البشر، وجهت الآيات المذكورة آنفا إنذارا خاصّا للذين ادّعوا بأنّ للّه ولدا و هذا ما يوضح خطورة الانحراف العقائدى الذى أصاب المسيحيين و اليهود و المشركين، و انتشر بصورة واسعة فى الأجواء التى نزل القرآن، و من الطبيعى فإنّ انتشار مثل هذه الأفكار يقضى على روح التوحيد فى ذلك المجتمع، إذ حدّوا اللّه سبحانه و تعالى بحدود مادية و جسمية، و أنّه يمتلك عواطف و أحاسيس بشرية، إضافة إلى وجود أكفاء و شركاء له، و أنّه يحتاج إلى الآخرين.

و بسبب هذه المعتقدات نزلت آيات عديدة للردّ على تلك الشبهات، و منها الآية (۶۸) فى سورة يونس: قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُ و الآيات من (۸۸) إلى (۹۱) فى سورة مريم: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا، تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

و ما جاء فى هذه الآيات المباركة يوضح قوّة الرّد الإلهى على تلك الادعاءات، حيث أكّدت على العقاب الشديد الذى ينتظر من يعتقدون بمثل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۵

الخرافة، لأنّ من يدّعى باتّخاذ اللّه سبحانه و تعالى ولدا، إنّما يمس كبرياء البارى عزّ و جلّ و عظمته، و ينزله إلى المستوى البشرى المادى ۱۲۷].

۴- الادعاء الفارغ

إنّ البحث فى المعتقدات و المبادئ المنحرفة، كشف عن أنّ أغلبها ليس له أى دليل واقعى، و لكن بعض الأشخاص يتخذها كشعار كاذب كى يتبعه الآخرون، و تنتقل أحيانا من جيل إلى آخر كعادة. و القرآن هنا يلقى علينا دروسا فى تجنب الادعاءات التى ليس لها أى دليل أو سند قوى، و يأمرنا بعدم إعارة أية أهمية لناقلها و مروجها، و قد اعتبر اللّه تبارك و تعالى تلك الأعمال من الكبائر، وعدّها مصدرا للكذب و الدجل.

و لو اتّخذ المسلمون هذا الأصل منهجا فى حياتهم، أى عدم التحدّث بشىء من دون التأكيد منه، و رفض أى شىء ليس له دليل، و عدم الاهتمام بالإشاعات الفارغة، لتحسن الكثير من أمورهم و تصرفاتهم الخاطئة.

۵- العمل الصالح برنامج مستمر

الآيات المذكورة أعلاه عند ما تتحدّث عن المؤمنين، تعتبر العمل الصالح بمثابة برنامج مستمر، إذ أنّ كلمة (يعملون فى قوله تعالى: يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ فعل مضارع، و الفعل المضارع يدل على الاستمرارية، فالعمل الصالح يمكن أن يصدر صدفة أو بسبب ما عن أى شخص، فلا يكون حينئذ دليلا على الإيمان الصادق، لكن استدامة العمل الصالح دليل الإيمان الصادق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۶

۶- صفة العبد أرقى و سام للإنسان

و أخيرا، إنّ القرآن عند ما يتحدّث فى آياته عن قضية نزول الكتاب السماوى يقول: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ و هذا يعنى أن صفة «العبد» هى أرقى و سام و أعلى مرتبة ينالها الإنسان فى معراج تكامله المعنوى، فإذا نال الإنسان و سام العبودية للّه

تعالى، فإنّه يرى أن كل شـىء فى العالم ملكا للّه، و عملا يسلك سبيل الطاعة لأوامر اللّه و التمسك بالنهج الذى رسمه و حدّده تعالى للإنسان، و لا يفكر فى سواه و يرى أنّ خير شرف للإنسان أن يكون عبدا صالحا و ملتزما بأوامر و نواهى البارى عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (۶) إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (۷) وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً (۸)

التّفسير

العالم ساحة اختبار:

الآيات السابقـة كانت تتحدّث عن الرسالة و قيادة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها الآن، تشـير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا و هى الإشفاق على الأمّة فتقول: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً.

و هنا يجب الانتباه إلى بعض الملاحظات:

أوّلا: «باخع» من «بخع» على وزن، «نخل» و هى بمعنى إهلاك النفس من شدّة الحزن و الغم.

ثانيا: كلمة «أسفا» و التى تبيّن شدّة الحزن و الغم، هى تأكيد على هذا الموضوع.

ثالثا: «آثار» جمع «أثر» و هى فى الأصل تعنى محل موضع القدم، إلّا أنّ أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۸

علامة تدل على شىء معين تسمّى أثرا.

إنّ الاسـتفادة من هـذا التعبير فى الآيات أعلاه تشـير إلى ملاحظة لطيفة، و هى أنّ الإنسان قد يغادر فى بعض الأحيان مكانا ما، و لكنّ آثاره سـتبقى بعـده، و تزول إذا طال زمن المغادرة. فالآيـة تريد أن تقول: أنّك على قدر من الحزن و الغم و لعدم إيمانهم بحيث تريد أن تهلك نفسك من شدّة الحزن قبل أن تمحى آثارهم.

و يحتمل أن يكون الغرض من الآثار أعمالهم و تصرفاتهم.

رابعا: اسـتخدام كلمة (حديث) للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة فى هذا الكتاب السـماوى الكبير، يعنى أنّ هؤلاء لم يفكروا فى أن يستفيدوا و يبحثوا فى هذا الكتاب الجديد ذى المحتويات المستجدّة. و هذا دليل على عدم المعرفة، بحيث أنّ الإنسان بقدر قربه من هذا الكتاب، إلّا أنّه لا يلتفت إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۱۹۸

مسا: صفة الإشفاق لدى القادة الإلهيين.

نسـتفيد من الآيـات القرآنيـة و تأريـخ النبوات، أنّ القـادة الإلـهيين كانوا يتألمون أكثر ممّا نتصور لضـلال الناس، و كانوا يريـدون لهم الإيمان و الهدايـة. و يألمون عنـد ما يشاهـدون العطاشـى جالسـين بجوار النبع الصافى، و يأنون من شـدّة العطش، الأنبياء يبكون لهم و

يجهدون أنفسهم ليلاـ و نهارا، و يبلغون سرّا و جهارا، و ينادون فى المجتمع من أجل هداية الناس. إنّهم يألمون بسبب ترك الناس للطريق الواضح الى الطرق المسدودة، هذا الألم يكاد يوصلهم فى بعض الأحيان إلى حدّ الموت. و لو لم يكن القادة بهذه الدرجة من الاهتمام لما انطبق عليهم المفهوم العميق للقائد.

و بالنسبة لرسول الهدى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت تصل به حالة الحزن و الشفقة إلى مرحلة خطرة على حياته بحيث أنّ اللّه تبارك و تعالى يسلّيه.

فى سورة الشعراء نقرأ فى الآيتين (۳، ۴) قوله تعالى لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۱۹۹

يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ

الآية التى بعدها تجسّد وضع هذا العالم و تكشف عن أنّه ساحة للاختبار و التمحيص و البلاء، و توضح الخط الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها.

لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث أنّ كلّ جانب فيه يذهب بالقلب، و يحيّر الأبصار، و يشير الدوافع الداخلية فى الإنسان، كيما يتسنى امتحانه فى ظل هذه الإحساسات و المشاعر و وسط أنواع الزينة و أشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، و مؤهلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

أراد بعض المفسّرين حصر معنى ما عَلَى الْأَرْضِ بالعلماء أو بالرجال فقط، و يقولوا: إنّ هؤلاء هم زينة الأرض، فى حين أنّ لهذه الكلمة مفهوما واسعا يشمل كل الموجودات على الكرة الأرضية.

و الظّريف هنا استخدام الآية لتعبير أَحْسَنُ عَمَلًا و ليس (أكثر عملاـ) و هى إشارة إلى أنّ حسن العمل و كيفيته العالية هما اللذان يحدّدان قيمته عند ربّ العالمين، و ليس كثرة العمل أو كميته.

على أى حال فإنّ هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كى لا ينخدعوا فى ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، و بدلا من ذلك عليهم أن يفكروا بتحسين أعمالهم.

ثمّ يبيّن تعالى أنّ أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة و لا دائمة، بل مصيرها إلى المحو و الزوال: وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً.

«صعيد» مشتقّة من «صعود» و هى هنا تعنى وجه الأرض، الوجه الذى يتّضح فيه التراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۰

و «جرز» تعنى الأرض التى لاـ ينبت فيها الكلأـ و كأنّما هى تأكل نباتها، و بعبارة أخرى فإنّ «جرز» تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف و قلّة المطر.

إنّ المنظر الذى نشاهده فى الربيع فى الصحارى و الجبال عند ما تبتسم الورود و تتفتح النباتات، و حيث تتناجى الأوراق، و حيث خرير الماء فى الجداول ... إنّ هذه الحالة سوف لا تدوم و لا تبقى، إذ لا بدّ أن يأتى الخريف، حيث تتعرى الأغصان و تنطفئ البسمة من شفاه الورود، و تذبل البراعم، و تجف الجداول، و تموت الأوراق، و تسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحوّل، فلا بدّ أن يأتى ذلك اليوم الذى يضع نهاية للقصور التى تناطح السماء، و لملابس الباذخة و النعم الكثيرة التى يرفل بها الإنسان، كذلك تنتهى المناصب و المواقع و الاعتبارات، و سوف لن يبقى شىء من المجتمعات البشرية سوى القبور الساكنة اليابسة، و هذا درس عظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۱

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (۹) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً (۱۰) فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً (۱۱) ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً (۱۲)

أسباب النّزول

لقد أورد المفسّرون قصّة لسبب نزول الآيات خلاصتها أنّ سادة قريش اجتمعوا ليبحثوا فى أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرروا إرسال اثنين منهم إلى أحبار اليهود فى المدينة، و الاثنان هما النضر بن الحرث بن كلدة و عقبة بن أبى معيط.

قال زعماء قريش لهؤلاء: سلوا أحبار اليهود عن محمّد وصفا له صفته، و خبراهم بقوله فإنّهم أهل الكتاب الأوّل و عندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا.

فخرجا حتى قدما المدينة. فسألا أحبار اليهود عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالا لهم ما قالت قريش.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۲

فقال لهما أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، و إن لم يفعل فهو رجل متقوّل فروا فيه أريكم. سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأوّل ما كان من أمرهم، فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. و سلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض و مغاربها ما كان نبؤه. و سلوه عن الروح ما هو.

و فى رواية أخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين و لم يخبركم بالروح فهو نبى.

فانصرفا إلى مكّة فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم و بين محمّد. و قصّا عليهم القصة.

فجاءوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسألوه.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أخبركم بما سألتم غدا و لم يستثن- أى لم يقل إن اللّه- فانصرفوا عنه،

و مكث صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّه إليه فى ذلك و حيا، و لا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكّة و تكلموا فى ذلك. فشق على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما يتكلم به أهل مكّة، ثمّ جاءه جبرائيل عليه السّلام عن اللّه بسورة الكهف، و فيها ما سألوه عنه من أمر الفتية و الرجل الطوّاف. و أنزل عليه آية وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ

و

قد سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبرائيل حين جاءه: «لقد احتبست عنّى يا جبرائيل» فقال له جبرائيل عليه السّلام وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا الآية.

(من الجدير بالذكر هنا أنّ سورة الكهف تضمنت الجواب على سؤالين من الأسئلة الثلاثة. إلّا أنّ الآية التى تتحدث عن الروح قد مرّت علينا فى سورة الإسراء. و هذا أمر لا يندر حدوثه فى القرآن، إذ تنزل آية فى مناسبة معينة، ثمّ توضع بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى سورة أخرى).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۳

التّفسير

بداية قصّة أصحاب الكهف

فى الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، و كيفية اختبار الناس فيها، و مسير حياتهم عليها، و لأنّ القرآن غالبا ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحسّاسة، أو أنّه يذكر نماذج من التأريخ لتجسيد الوعى بالقضية، لذا قام فى هذه السورة بتوضيح قصّة أصحاب الكهف، و عبرّت عنهم الآيات بأنّهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنّهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون فى ظل حياة مترفة بالزّينة و أنواع النعم، إلّا أنّهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم و للصراع ضدّ الطاغوت؛ طاغوت زمانهم، و ذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزّينة و النعم، و قد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم فى سبيل الإيمان و الثبات عليه.

الملفت للنظر أنّ القرآن ذكر فى البداية قصّة هذه المجموعة من الفتية بشكل مجمل، موظفا بذلك أحد أصول فن الفصاحة و البلاغة، و ذلك لتهيئة أذهان المستمعين ضمن أربع آيات، ثمّ بعد ذلك ذكر التفاصيل فى (۱۴) آية.

فى البداية يقول تعالى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً. إنّ لنا آيات أكثر عجبا فى السموات و الأرض، و إن كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ و علا، و فى حياتكم- أيضا- أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، و فى كتابك السماوى الكبير هذه آيات عجيبة كثيرة، و بالطبع فإنّ قصّة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

أمّا لماذا سميت هذه المجموعة بأصحاب الكهف؟ فذلك يعود إلى لجوئهم إلى الغار كى ينقذوا أنفسهم، كما سيأتى ذلك لاحقا إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۴

أمّا «الرقيم» ففى الأصل مأخوذة من (رقم) و تعنى الكتابة[۱۲۸]، و حسب اعتقاد أغلب المفسّرين فإنّ هذا هو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنّه فى النهاية تمت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أنّ «الرقيم» اسم الجبل الذى كان فيه الغار.

و البعض الآخر اعتبر ذلك اسما للمنطقة التى كان الجبل يقع فيها.

أمّا بعضهم فقد اعتبر ذلك اسما للمدينة التى خرج منها أصحاب الكهف، إلّا أنّ المعنى الأوّل أكثر صحة كما يظهر.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ أصحاب الرقيم هم مجموعة أخرى غير أصحاب الكهف، و تنقل بعض المرويات قصّة تختص بهم، فالظاهر أنّ هذا الرّاى لا يتناسب مع الآية، لأنّ ظاهر الآية يدل على أنّ أصحاب الكهف و الرقيم كانوا مجموعة واحدة، لذلك و بعد ذكر العنوانين تذكر السورة قصّة أصحاب الكهف و لا تذكر غيرهم. و هذا بنفسه دليل على الوحدة.

و فى الرّوايات المعروفة الواردة فى تفسير نور الثقلين فى ذيل الحديث عن الآية، نرى أنّ الأشخاص الثلاثة الذين دخلوا الغار قد دعوا اللّه بأخلص ما عملوه لوجهه تعالى أن ينجيهم من محنتهم، و لكن هذه الرّوايات لا تتحدث عن أصحاب الرقيم بالرغم من أنّ بعض كتب التّفسير قد تعرّضت لهم.

على أية حال يجب أن لا نتردّد فى أنّ هاتين المجموعتين (أصحاب الكهف و الرقيم) هم مجموعة واحدة، و أنّ سبب نزول الآيات يعضد هذه الحقيقة.

ثمّ تقول الآيات بعد ذلك: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ و عند ما انقطعوا عن كل أمل توجهوا نحو خالقهم: فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ثم: وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً. أى أرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق و يقربنا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۵

مرضاتك و سعادتك، الطريق الذى فيه الخير و السعادة و إطاعة أوامر اللّه تعالى.

و قد استجيبت دعوتهم: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً.

ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً.

ملاحظات

۱- جملة أَوَى الْفِتْيَةُ من مادة (مأوى) و تعنى المكان الآمن، و هو إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسّوا بالأمن عند ما وصلوا إلى الغار.

۲- (فتية) جمع (فتى) و هو الشاب الحدث، و لكنها تطلق أحيانا على الأشخاص الكبار و المسنين الذين يملكون روحية شابّة، و قد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة و المدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة و الشهامة و التسليم فى مقابل الحق.

و الشاهد على هذا الكلام ما

نقل عن الإمام الصادق فى أصحاب الكهف إذ قال: «أمّا علمت أنّ أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولا فسمّاهم اللّه فتية بإيمانهم».

بعد ذلك

أضاف الإمام الصادق فى معنى الفتوة قوله عليه السّلام: «من آمن باللّه و اتقى فهو الفتى»[۱۲۹].

و قد نقل عن الإمام الصادق ما يشبه هذا الحديث فى (روضة الكافى)[۱۳۰] أيضا.

۳- استخدام تعبير مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إشارة إلى أنّ هؤلاء الفتية عند ما لجأوا إلى الغار تركوا جميع الوسائل و الأسباب الظاهرية، و كانوا لا يأملون سوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۶

رحمة اللّه.

۴- جملة فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنّما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أى شىء، و هو ستار النوم.

و لهذا فإنّ النوم الحقيقى هو النوم الذى يطغى على السمع، و كذلك إذا أردنا أن نوقظ شخصا من نومه، فإنّنا نصيح به و نناديه حتى ينفذ الصوت إلى مسامعه.

۵- إنّ استخدام تعبير سِنِينَ عَدَداً إشارة إلى أنّ نومهم قد استمرّ لعدّة سنين كما سيأتى تفسير ذلك فى الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

۶- إنّ استخدام تعبير بَعَثْناهُمْ ليقظتهم من النوم، قد يكون لأنّ نومهم أصبح من الطول بمقدار بحيث كانوا كالموتى. فيقظتهم من النوم كبعثهم إلى الحياة مرّة أخرى.

۷- جملة لِنَعْلَمَ ... لا- تعنى أنّ اللّه يريد أن يعلم شيئا جديدا. و يكثر استخدام هذا التعبير فى القرآن، و الغرض منه هو تحقق العلم الإلهى، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

۸- عبارة أَيُّ الْحِزْبَيْنِ إشارة لما سنتحدث عنه أثناء تفسير الآيات اللاحقة، حيث أنّهم بعد يقظتهم اختلفوا فى مقدار نومهم، فالبعض قال: يوما، و البعض الآخر قال: نصف يوم، فى حين أنّهم كانوا نائمين لسنين طويلة.

أمّا قول البعض بأنّ هذا التعبير هو شاهد على أنّ أصحاب الكهف هم غير أصحاب الرقيم، فهذا كلام بعيد للغاية و لا يحتاج لمزيد توضيح ۱۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۷

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۳ الى ۱۶]

اشارة

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً (۱۳) وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً (۱۴) هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۱۵) وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً (۱۶)

التّفسير

القصّة المفصّلة لأصحاب الكهف:

بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصّة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصّل لها ضمن (۱۴) آية و كان المنطلق فى ذلك قوله تعالى:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ كلام خال من أى شكل من أشكال الخرافة و التزوير. إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً و كما قلنا فإنّ (فتية) جمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۸

(فتى) و هى تعنى الشاب الحدث. و بما أنّ الجسم يكون قويا فى مرحلة الشباب، فهو على استعداد لقبول نور الحق، و منبع للحب و السخاء و العفة. و لذا كثيرا ما تستخدم كلمة (الفتى و الفتوة) للتدليل على مجموع هذه الصفات حتى لو كان أصحابها من المسنّين.

و تشير الآيات القرآنية- و ما هو ثابت فى التأريخ- إلى أنّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئة فاسدة و زمان شاعت فيه عبادة الأصنام و الكفر، و كانت هناك حكومة ظالمة تحتمى مظاهر الشرك و الكفر و الانحراف.

مجموعة أهل الكهف- الذين كانوا على مستوى من العقل و الصدق- أحسّوا بالفساد و قرروا القيام ضدّ هذا المجتمع، و فى حال عدم تمكنهم من المواجهة و التغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع و المحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً.

فإذا عبدنا غيره: لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً.

نستفيد من تعبير رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أنّ بذرة التوحيد و فكرته كانت منذ البداية مرتكزة فى قلوبهم، إلّا أنّهم لم تكن لديهم القدرة على إظهارها و التجاهر بها. و لكن اللّه بتقوية قلوبهم أعطاهم القدرة على أن ينهضوا و يعلنوا علانية نداء التوحيد.

و ليس من الواضح فيما إذا كان هذا الإعلان قد تمّ أوّلا أمام ملك زمانهم الظالم (دقيانوس) أو أنّه تمّ أمام الناس، أو أمام الاثنين معا (الحاكم الظالم و الناس) أو أنّهم تجاهروا به فيما بينهم أنفسهم؟

لكن يظهر من كلمة (قاموا) أنّ إعلانهم كان وسط الناس، أو أمام السلطان الظالم.

(شطط) على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد و الإفراط فى الابتعاد لذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۰۹

فإنّ (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، و يقال لحواشى و ضفاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، و كونها ذات جدران مرتفعة.

و فى الواقع، إنّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلا واضحا لإثبات التوحيد و نفى الآلهة. و هو قولهم: إنّنا نرى و بوضوح أنّ لهذه السماوات و الأرض خالقا واحدا، و أنّ نظام الخلق دليل على وجوده، و ما نحن إلّا جزء من هذا الوجود، لذا فإنّ ربّنا هو نفسه ربّ

السماوات و الأرض.

ثمّ ذكروا دليلا آخر و هو: هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً.

فهل يمكن الإعتقاد بشىء بدون دليل و برهان؟: لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ

و هل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلا على مثل هذا الإعتقاد؟

ما هذا الظلم الفاحش و الانحراف الكبير: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

و هذا الافتراء هو ظلم للنفس، لأنّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط و الشقاء، و هو أيضا ظلم بحق المجتمع الذى تسرى فيه هذه الانحرافات، و أخيرا هو ظلم للّه و تعرض لمقامه العظيم سبحانه و تعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس، و زرع غرسة التوحيد فى مكانها، إلّا أنّ ضجة عبادة الأصنام فى ذلك المحيط الفاسد، و ظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة اللّه فى صدورهم و انكمشت همهمات التوحيد فى حناجرهم.

و هكذا اضطروا للهجرة لانقاذ أنفسهم و الحصول على محيط أكثر استعدادا و قد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذى سيذهبون إليه ثمّ كان قرارهم: وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ حتى: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً.

«يهيّئ» مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۰

«مرفق» تعنى الوسيلة التى تكون سببا للطف و الرفق و الراحة، و بذا يكون معنى الجملة وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً أنّ الخالق سبحانه و تعالى سيرتب لكم وسيلة للرفق و الراحة.

و ليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد فى الجملة الأولى إشارة إلى الألطاف المعنوية للّه تبارك و تعالى، فى حين أنّ الجملة الثّانية تشير إلى الجوانب المادية التى تؤدى إلى خلاصهم و نجاتهم.

ملاحظات

۱- الفتوة و الإيمان

تتزامن روح التوحيد دائما مع سلسلة من الصفات الإنسانية العالية، فهى تنبع منها و تؤثّر فيها أيضا، و يكون التأثير فيما بينهما متبادلا. و لهذا السبب فإننا نقرأ فى قصّة أصحاب الكهف أنّهم كانوا فتية آمنوا بربّهم.

و على هذا الأساس قال بعض العلماء: رأس الفتوة الإيمان.

و قال البعض الآخر منهم: الفتوة بذل الندى، و كف الأذى، و ترك الشكوى.

و البعض الثّالث فسّر الفتوة بقوله: هى اجتناب المحارم و استعمال المكارم.

۲- الإيمان و الإمداد الإلهى

فى عدّة مواقع من الآيات أعلاه تنعكس بوضوح حقيقة الإمداد الإلهى للمؤمنين، فإذا وضع الإنسان خطواته فى طريق اللّه، و نهض

لأجله فإنّ الإمداد الإلهى سيشمله، ففى مكان تقول الآية: إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً

و فى مكان آخر تقول: وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ و فى نهاية الآيات كانوا بانتظار رحمة الخالق: يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۱

الآيات القرآنية الأخرى تؤيد هذه الحقيقة بوضوح، فعند ما يجاهد الإنسان من أجل اللّه، فإنّ اللّه يهديه إلى طريق الحق: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۱۳۲] و فى سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آية (۱۷) نقرأ قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً إنّ طريق الحق ملىء بالموانع و الصعوبات، و من العسير على الإنسان طى هذا الطريق و الوصول إلى الأهداف من دون لطف اللّه و عنايته.

و نعلم أيضا إنّ لطف اللّه أكبر من أن يترك العبد فى طريق الحق لوحده.

۳- ملجأ باسم الغار

إنّ وجود (أل) التعريف فى كلمة «الكهف» قد تكون إشارة إلى أنّهم (أصحاب الكهف) كانوا مصممين على الذهاب إلى مكان معين فى حال عدم نجاح دعوتهم التوحيدية، و ذلك لإنقاذ أنفسهم من ذلك المحيط الملوّث.

(الكهف) كلمة ذات مفهوم واسع، و تذكرنا بنمط الحياة الابتدائية للإنسان، حيث ينعدم فيه الضوء، و لياليه مظلمة و باردة، و تذكرنا بآلام المحرومين، إذ ليس ثمّة شىء من زينة الحياة المادية، أو الحياة الناعمة المرفّهة.

و يتّضح الأمر أكثر إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار أنّ التأريخ ينقل لنا أنّ أصحاب الكهف كانوا من الوزراء و أصحاب المناصب الكبيرة داخل الحكم. و قد نهضوا ضدّ الحاكم و ضدّ مذهبه، و كان اختيار حياة الكهوف على هذه الحياة قرارا يحتاج إلى المزيد من الشهامة و الهمّة و الروح و الإيمان العالى.

و فى هذا الغار البارد المظلم الذى قد يتضّمن خطر الحيوانات المؤذية، هناك عالم من النور و الإخلاص و التوحيد و المعانى السامية.

إنّ خطوط الرحمة الإلهية متجلية على جدران هذا الغار، و أمواج لطف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۲

الخالق تسبح فى فضائه، ليس هناك وجود للأصنام من أى نوع كانت، و لا يصل طوفان ظلم الجبارين إلى هذا الكهف.

هؤلاء الفتية الموحدون تركوا الدنيا الملوثة الواسعة و التى كان سجنا لأرواحهم و ذهبوا إلى غار مظلم جاف. و فعلهم هذا يشبه فعل النّبى يوسف عليه السّلام حين أصروا عليه أن يستسلم لشهوة امرأة العزيز الجميلة، و إلّا فالسجن الموحش المظلم سيكون فى انتظاره، لكن هذا الضغط زاد فى صموده و قال متوجها إلى ربّه العظيم: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَ إِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَ ۱۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۳

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً (۱۷) وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ

كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (۱۸)

التّفسير

مكان أصحاب الكهف:

يشير القرآن فى الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف فى الغار، و كأنّها تحكى على لسان شخص جالس فى مقابل الغار ينظر إليهم.

فى هاتين الآيتين إشارة إلى ست خصوصيات هى:

أوّلا: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، و لكونه فى الجزء الشمالى من الكرة الأرضية، فإنّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكل مباشر، فالقرآن يقول إنّك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۴

إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، و تغرب من جهة الشمال: وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ

و على هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، و هو أمر لو حصل فقد يؤدى إلى تلف أجسادهم، و لكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنّ عبارة (تزاور) التى تعنى (التمايل) تؤكّد على هذا المعنى، و كأنّ الشمس كانت مأمورة بأن تمرّ من اليمين (يمين الغار). و كلمة (تقرض) التى تعنى (القطع) تؤكّد نفس مفهوم السابق، و إضافة إلى هذا فإنّ كلمة «تزاور» المشتقّة من كلمة (الزيارة) المقارنة لبداية الشيء تناسب مفهوم طلوع الشمس. (و تقرض) تعنى القطع و النهاية و هو معنى يتجلى فى غروب الشمس.

و لأنّ فتحة الغار كانت إلى الشمال فإنّ الرياح اللطيفة و المعتدلة كانت تهب من طرف الشمال و كانت تدخل بسهولة إلى داخل الغار، و تؤدى الى تلطيف الهواء فى جميع زوايا الغار.

ثانيا: وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ لقد كان أولئك فى مكان واسع من الغار، و هذا يدل على أنّهم لم يأخذوا مستقرّهم فى فتحة الغار التى تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقرا لهم كى يكونوا بعيدين عن الأنظار، و بعيدين أيضا عن الأشعة المباشر لضوء الشمس.

و هنا يقطع القرآن تسلسل الكلام و يستنتج نتيجة معنوية، حيث يبيّن أنّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۵

نعم، إنّ الذين يضعون أقدامهم فى طريق اللّه، و يجاهدون لأجله فإنّ اللّه سيشملهم بلطفه فى كل خطوة و ليس فى بداية العمل فقط. إنّ اللّه يرعى هؤلاء حتى فى أدق التفاصيل.

ثالثا: إنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوما عاديا: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ. و هذا يدل على أنّ أجفانهم كانت مفتوحة بالضبط مثل الإنسان اليقظ، و قد تكون هذه الحالة الاستثنائية لكى لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التى تخاف الإنسان اليقظ. أو لكى يكون شكلهم مرعبا كى لا يتجرأ إنسان على الاقتراب منهم. و هذا بنفسه أسلوب للحفاظ عليهم.

رابعا: و حتى لا تتهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التى مكثوا فيها نياما فى الكهف، فإنّ اللّه تبارك و تعالى يقول: وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ

حتى لا يتركز الدم فى مكان معين، و لا تكون هناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدّة طويلة.

خامسا: فى وصف جديد يقول تعالى: وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ.

كلمة «وصيد» و كما يقول الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل الغرفة أو المخزن الذى يتمّ إيجاده فى الجبال لأجل خزن الأموال، إلّا أنّ المقصود به هنا هو فتحة الغار.

برغم أنّ الآيات القرآنية لم تتحدث حتى الآن عن كلب أصحاب الكهف، إلّا أنّ القرآن يذكر هنا تعابير خاصّة تتضح من خلالها بعض المسائل، فمثلا ذكر حالة كلب أصحاب الكهف يفيد أنّه كان معهم كلب يتبعهم أينما ذهبوا و يقوم بحراستهم.

أمّا متى التحق هذا الكلب بهم، و هل كان كلب صيدهم، أو أنّه كلب ذلك الراعى الذى التقى بهم فى منتصف الطريق، و عند ما عرف حقيقتهم أرسل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۶

حيواناته إلى القرية و التحق بهم، لأنّه كان يبحث عن الحقيقة مثلهم و قد رفض هذا الكلب أن يتركهم و استمرّ معهم.

ألا يعنى هذا الكلام أنّ جميع المحبّين- لأجل الوصول إلى الحق- يستطيعون سلوك هذا الطريق، و أنّ الأبواب غير مغلقة أمام أحد سواء كانوا وزراء عند الملك الظالم ثمّ تابوا، أو كان راعيا، بل و حتى كلبه؟! ألم يؤكّد القرآن أن جميع ذرات الوجود فى الأرض و السماء، و جميع الأشجار و الأحياء تذكر اللّه، و تحبّ اللّه فى قلوبها و صميم وجودها؟ (راجع سورة الإسراء- الآية ۴۴).

سادسا: قوله تعالى: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً.

إنّها ليست المرّة الأولى و لا الأخيرة التى يحفظ فيها اللّه تبارك و تعالى عباده المؤمنين بالرعب و الخوف، فقد واجهتنا فى الآية (۱۵۱) من سورة آل عمران صورة مماثلة جسّدها قول اللّه تبارك و تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۱۳۴].

و فى دعاء الندبة نقرأ كلاما حول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«ثمّ نصرته بالرعب».

أو ما هو سبب الرعب فى مشاهدة أهل الكهف، و هل يعود ذلك لظاهرهم الجسمانى، أو بسبب قوّة معنوية سرية؟

الآيات القرآنية لم تتحدّث عن ذلك، و لكن المفسّرين ذكروا بحوثا مفصّلة فى هذا المجال، و لعدم قيام الدليل عليها صرفنا النظر عن ذكرها.

كما أنّ قوله تعالى: وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً فى الحقيقة علّة لقوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۷

لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً يعنى لكنت تهرب بسبب الخوف الذى يملأ قلبك، و كأنّ قلبك مملوء بالخوف، و ينفذ إلى ذرّات وجودك بحيث أنّ جميع وجود الإنسان يصاب بالوحشة و الخوف. على أى حال، إذا أراد اللّه شيئا فإنّه يحقق أهم النتائج من خلال أبسط الطرق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۸

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (۱۹) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (۲۰)

التّفسير

اليقظة بعد نوم طويل:

سوف نقرأ فى الآيات القادمة- إن شاء اللّه تعالى- أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلا للغاية بحيث استمر (۳۰۹) سنة، و على هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، و يقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنّ القرآن يقول فى الآيات التى نبحثها وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ

يعنى مثلما كنّا قادرين على إنامتهم نوما طويلا فإنّنا أيضا قادرون على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۱۹

إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم: لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۱۳۵].

قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

لعل التردّد و الشك هنا يعود- كما يقول المفسّرون- إلى أن أصحاب الكهف دخلوا الغار فى بداية اليوم، ثمّ ناموا، و فى نهاية اليوم استيقظوا من نومهم، و لهذا السبب اعتقدوا فى بادئ الأمر بأنّهم ناموا يوما واحدا، و بعد أن رأوا حالة الشمس، قالوا: بل بَعْضَ يَوْمٍ

و أخيرا، بسبب عدم معرفته لمقدار نومهم قالوا: قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ

قال بعضهم: إنّ قائل هذا الكلام هو كبيرهم المسمى (تلميخا) و بالنسبة لاستخدام صيغة الجمع على لسانه (قالوا) فهو متعارف فى مثل هذه الموارد.

و قد يكون كلامهم هذا بسبب شكّهم فى أنّ نومهم لم يكن نوما عاديا، و ذلك عند ما شاهدوا هندامهم و شعرهم و أظفارهم و ما حلّ بملابسهم.

و لكنّهم- فى كل الأحوال- كانوا يحسّون بالجوع و بالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأنّ المخزون الحيوى فى جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود و مسكوكات فضية لشراء الغذاء: فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ

ثمّ أردفوا: وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً. لماذا هذا التلطّف: إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ

ثمّ: وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۰

بحوث

۱- أزكى الطعام

اشارة

مع أنّ أصحاب الكهف كانوا بعد يقظتهم بحاجة شديدة إلى الطعام، إلّا أنّهم قالوا للشخص الذى كلّفوه بشراء الطعام: لا تشتر الطعام من أىّ كان، و إنّما انظر أيّهم أزكى و أطهر طعاما فأتنا منه.

بعض المفسّرين تأولوا المعنى و قالوا: إنّ المقصود من (أزكى) هو ما يعود إلى الحيوانات المذبوحة، إذ أنّهم كانوا يعلمون أنّ فى تلك المدينة من يبيع لحم الميتة (أى غير المذبوح على الطريقة الشرعية) و أنّ البعض يتكسّب بالحرام، لذلك أوصوا صاحبهم

بضرورة أن يتجنب مثل هؤلاء الأشخاص عند ما يحاول شراء الطعام.

و لكن يظهر أنّ لهذه الجملة مفهوما واسعا يشمل كافة أشكال الطهارات الظاهرية و الباطنية (المعنوية)، و كلامهم و توصيتهم هى توصية لكافة أنصار الحق، فى أن لا يفكروا بطهارة غذائهم المعنوى و حسب، بل عليهم أيضا الاهتمام بطهارة طعام الأجسام كى يكون زكيا نقيا من جميع الأرجاس و الشبهات. و إنّ هذا الأمر ينبغى أن يلازمهم حتى فى أصعب لحظات الحياة و أشدّها عسرا، لأنّ هذا المعنى هو تعبير عن أصل فى وجود المؤمن.

اليوم يسعى معظم أفراد عالمنا للاهتمام بجانب من هذا الأمر، و هو الجانب المتعلق بالحفاظ على الطعام من أشكال التلوث الظاهرى، إذ يضعون الطعام فى أوانى مغطاة بعيدة عن الأيدى الملوّثة، و عن الأتربة و الغبار. و هذا العمل بحدّ ذاته جيد جدّا، إلّا أنّ علينا أن لا نكتفى بهذا المقدار، بل ينبغى تزكية الطعام و تطهيره من لوثة الشبهة و الحرام و الرّبا و الغش و أى شكل من أشكال التلوّث المعنوى.

و فى الرّوايات الإسلامية هناك تأكيد كبير على الطعام الحلال النقى الزاكى و أثره فى صفاء القلب و استجابة الدعاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۱

ففى رواية نقرأ أنّه جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سأله قائلا: أحبّ أن يستجاب دعائى.

فقال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «طهّر مأكلك و لا تدخل بطنك الحرام»[۱۳۶].

ثانيا: التقية البنّاءة

نستفيد من تعبير الآيات أعلاه أنّ أصحاب الكهف كانوا يصرّون على أن لا يعرف أحد مكانهم حتى لا يجبرون على عبادة الأصنام، أو يقتلون بأفجع طريقة من خلال رميهم بالحجارة. إنّهم كانوا يرغبون فى أن يبقوا غير معروفين حتى يستطيعوا بهذا الأسلوب الاحتفاظ بقوّتهم للصراع المقبل، أو على الأقل حتى يستطيعوا أن يحتفظوا بإيمانهم.

و هذا المعنى تعبير عن أحد أقسام «التقية البنّاءة» حيث أنّ حقيقة التقية هو أن يحفظ الإنسان طاقته من الهدر بإخفاء نفسه أو عقيدته. يحفظ نفسه و يصونها حتى يستطيع- فى مواقع الضرورة- الاستمرار فى جهاده المؤثّر. و طبيعى عند ما تكون التقية و إخفاء العقيدة سببا لتصدّع الأهداف و البرنامج الكبرى، فإنّها تكون ممنوعة و ينبغى الجهر بالحق و الصدع به بالغا ما بلغ الضرر.

ثالثا: اللطف مركز القرآن

إنّ قوله تعالى: لْيَتَلَطَّفْ كما هو مشهور- هى نقطة الفصل بين نصفى القرآن من حيث عدد الكلمات. و هذا بنفسه يشير إلى معنى لطيف للغاية، لأنّ الكلمة مشتقّة من اللطف، و اللطافة و التى تعنى هنا الدقة. بمعنى أنّ المرسل لتهيئة الطعام عليه أن يذهب و يرجع بحيث لا يشعر أحد بقصتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۲

بعض المفسّرين قالوا: إنّ الغرض من التلطّف فى شراء الطعام هو أن لا يتصعّب فى التعامل، و يبتعد عن النزاع الضوضاء و ينتخب أفضل البضاعة.

و هذا بذاته لطف أن تشكّل كلمة اللطف وسط القرآن و نقطة النصف بين كلماته الهادية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۳

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (۲۱) سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲۲) وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً (۲۳) إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً (۲۴)

التّفسير

نهاية قصّة أصحاب الكهف:

لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرّجال المتشخّصين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۴

إلى كلّ مكان و أغاظت بشدّة الملك الظالم، حيث قدّر أن تكون هذه الهجرة مقدّمة ليقظة و وعى الناس، أو قد يذهب أصحاب الكهف إلى مناطق بعيدة أو قريبة و يقومون بتبليغ مذهب التوحيد و الدعوة إليه، و محاربة الشرك و عبادة الأصنام.

لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف فى كل مكان، و عليهم أن يتبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم و معاقبتهم.

و لكن كلما بحثوا لم يعثروا على شىء، و هذا الأمر أصبح بحدّ ذاته لغزا للناس، و نقطة انعطاف فى أفكارهم، و قد يكون هذا الأمر- و هو قيام مجموعة من ذوى المناصب فى الدولة بترك مواقعهم العالية فى الدولة و تعريض أنفسهم للخطر- هو بحدّ ذاته سببا ليقظة الناس و مصدرا لوعيهم، أو لوعى قسم منهم على الأقل.

و لكن فى كل الأحوال، فإنّ قصّة هؤلاء النفر قد استقرت فى صفحات التأريخ و أخذت الأجيال و الأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

و الآن لنعد إلى الشخص المكلّف بشراء الطعام و لننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة و لكنّه فغرفاه من شدّة التعجّب، فالشكل العام للبناء قد تغيّر، هندام الجميع و لباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحولت إلى قصور، و قصور الأمس تحوّلت إلى خرائب! لقد ظنّ- للحظة واحدة- أنّه لا يزال نائما، و أنّ ما يشاهده ليس سوى أحلام، فرك عينيه، إلّا أنّه التفت إلى ما يراه، و هو عين الحقيقة، و إن كانت عجيبة و لا يمكن تصديقها.

إنّه لا يزال يعتقد بأنّ نومهم فى الغار كان ليوم أو بعض يوم، فلما ذا هذا الاختلاف، و كيف تمّت كل هذه التغييرات الكبيرة و الواسعة فى ظرف يوم واحد؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۵

و من جانب آخر كان منظره هو عجيبا للناس و غير مألوف. ملابسه، كلامه، شكله كل شىء فيه بدا غريبا للناس، و قد يكون هذا الوضع قد لفت أنظارهم إليه، لذا قام بعضهم بمتابعته.

لقد انتهى عجبه عند ما مدّ يده إلى جيبه ليسدّد مبلغ الطعام الذى اشتراه، فالبائع وقع نظره على قطعة نقود ترجع فى قدمها إلى (۳۰۰) سنة، و قد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوبا عليها، و عند ما طلب منه توضيحا قال له بأنّه حصل عليها حديثا.

و قد عرف الناس تدريجيا من خلال سلسلة من القرائن أنّ هذا الشخص هو واحد من أفراد المجموعة الذين قرءوا عن قصّتهم العجيبة و التأريخية التى وقعت قبل (۳۰۰) سنة، و أنّ قصّتهم كانت تدور على الألسن فى اجتماعات الناس و ندواتهم، و هنا أحسّ الشخص

بأنّه و أصحابه كانوا فى نوم عميق و طويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة فى المدينة، و قد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن.

قال بعض المؤرّخين: إنّ حكومة المدينة كانت بيد حاكم صالح و مؤمن، إلّا أنّ استيعاب و فهم قضية المعاد الجسمانى و إحياء الموتى بعد الموت كان صعبا جدّا على أفراد ذلك المجتمع، فقسم منهم لم يكن قادرا على التصديق بأنّ الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلّا أنّ قصّة أصحاب الكهف أصبحت دليلا قاطعا لأولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسمانى.

و لذا فإنّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس: وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ثمّ أضاف تعالى: وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها.

حيث أنّ هذا النوم الطويل الذى استمرّ لمئات السنين كان يشبه الموت، و أن إيقاظهم يشبه البعث. بل يمكن أن نقول: إنّ هذه الإنامة و الإيقاظ هى أكثر إثارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۶

للعجب من الموت و الحياة فى بعض جوانبها، فمن جهة قد مرّت عليهم مئات السنين و هم نيام و أجسامهم لم تفن أو تتأثّر، و قد بقوا طوال هذه المدّة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياء طيلة هذه المدّة؟

أ ليس هذا دليلا قاطعا على قدرة اللّه على كل شىء، فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة حتما.

بعض المؤرّخين كتب يقول: إنّ الشخص الذى أرسل لتهيئة الطعام و شرائه، عاد بسرعة إلى الكهف و أخبر رفقاءه بما جرى، و قد تعجب كل منهم، و بعد أن علموا بفقدان الأهل و الأولاد و الأصدقاء و الإخوان، و لم يبق من أصحابهم أحد، أصبحت الحياة بالنسبة إليهم صعبة للغاية، فطلبوا من الخالق جلّ و علا أن يميتهم، و ينتقلون بذلك إلى جوار رحمته. و هذا ما حدث.

لقد ماتوا و مضوا إلى رحمة ربّهم، و بقيت أجسادهم فى الكهف عند ما وصله الناس.

و هنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسمانى و بين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسى قضية نوم و يقظة أصحاب الكهف بسرعة، كى يسلبوا أنصار المعاد الجسمانى هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافيا إلى الأبد عن أنظار الناس.

قال تعالى: إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً.

و لأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيرا، إنّ قضيتهم معقدة و مصيرهم محاط بالألغاز!! لذلك فإن: رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ أى اتركوهم و شأنهم و اتركوا الحديث فى قصّتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر و اعتبروه دليلا حيّا لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جهدوا على أن لا تنسى القصة أبدا لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجدا، و بقرينة وجود المسجد فإنّ الناس سوف لن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۷

ينسوهم أبدا، بالإضافة إلى ما يتبرك به الناس من آثارهم: قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً.

و فى تفسير الآية ذكرت احتمالات أخرى سنقف على بعضها فى البحوث.

الآية التى بعدها تشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلا تتحدث الآية عن اختلافهم فى عددهم فتقول: سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ و بعضهم وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ و ذلك منهم رَجْماً بِالْغَيْبِ و بعضهم وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ أمّا الحقيقة فهى:

قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ و لذلك لأنّه ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ

و بالرغم من أنّ القرآن لم يشر إلى عددهم بصراحة، لكن نفهم من العلامات الموجودة فى الآية أنّ القول الثّالث هو الصحيح المطابق

للواقع، حيث أنّ كلمة رَجْماً بِالْغَيْبِ وردت بعد القول الأوّل و الثّانى، و هى إشارة إلى بطلان هذين القولين، إلّا أنّ القول الثّالث لم يتبع بمثل الاستنكار بل استتبع بقوله تعالى: قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ و أيضا بقوله ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ و هذا بحدّ ذاته دليل على صحة هذا القول (الثّالث).

و فى كل الأحوال فإنّ الآية تنتهى بنصيحة تحث على عدم الجدال حولهم إلّا الجدل القائم على أساس المنطق و الدليل: فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً.

(مراء) كما يقول الراغب فى مفرداته، مأخوذة فى الأصل من (مريت الناقة) بمعنى قبضت على (ضرع) الناقة لأحلبها، ثمّ أطلق المعنى بعد ذلك ليشمل الأشياء الخاضعة للشك و الترديد.

و قد تستخدم كثيرا فى المجادلات و الدفاع عن الباطل، إلّا أنّ أصلها لا يختص بهذا المعنى، بل تتسع لكل أنواع البحوث و المفاوضات حول أى موضوع كان موضعا للشك.

«ظاهر» تعنى غالب و مسيطر و منتصر. لذا فالآية تقول: فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۸

مِراءً ظاهِراً بمعنى قل لهم قولا منطقيا بحيث تتوضح رجحان منطقك.

و قد احتمل البعض أن تفسير هذه الآية هو: لا تتحدّث حديثا خاصّا مع المعارضين و المعاندين حيث أنّهم يحرّفون كلّ ما تقول، بل تحدّث معهم علانية و أمام النّاس كى لا يستطيعوا أن يحرفوا حقيقة ما تقول، و لا يستطيعوا إنكارها.

التّفسير الأوّل أكثر صحّة.

و على أى حال فإنّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدّث معهم بالاعتماد على الوحى الإلهى، لأنّ أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحى دون غيره: وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً.

الآية التى بعدها تعطى توجيها عاما لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فاعِلٌ ذلِكَ غَداً.

إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ يعنى يجب أن تقول (إن شاء اللّه) لكل ما يخص أخبار المستقبل و أحداثه و لكل تصميم تتخذه، لأنّك أوّلا غير مستقل فى اتّخاذ القرارات، و إذا لم يشأ اللّه فإنّ كائنا من كان لا يستطيع القيام بأىّ عمل، لذا و لأجل أن تثبت أنّ قوّتك قبس من قوّة اللّه الأزلية، و أنّها مرتبطة بقدرته، أضف عبارة (إن شاء اللّه) إلى كلامك.

ثانيا: لا يصح للإنسان- من الوجهة المنطقية- أن يقطع فى أخباره المستقبلية و مواقفه و تصميماته، لأنّ قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة (إن شاء اللّه) مع كل تصميم لفعل شىء.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون مراد الآية هو أن تنفى استقلال الإنسان فى إنجاز الأعمال، حيث يصبح مفهوم الآية: إنّك لا تستطيع أن تقول: إنّك ستقوم بالعمل الفلانى غدا إلّا أن يشاء اللّه ذلك.

بالطبع فإنّ لازم هذا القول أن الكلام سيكون تاما مع اضافة (ان شاء اللّه)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۲۹

و لكن هذا اللزوم سيكون للجملة لا للمتن كما هو الحال فى التّفسير الأوّل ۱۳۷].

سبب النّزول الذى أوردناه فى بداية الآيات يؤيد التّفسير الأوّل، حيث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد وعد بالإجابة على أسئلة قريش حول أصحاب الكهف و غيرها بدون ذكر جملة (إن شاء اللّه) لذلك تأخّر عنه الوحى فترة، لكى يكون ذلك تحذيرا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يكون عبرة لجميع الناس.

و بعد ذلك يقول القرآن: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ و هذه إشارة إلى أنّ الإنسان إذا نسى قول (إن شاء اللّه) و هو يتحدّث عن أمر مستقبلى، فعليه أن يقولها فور تذكره، حيث يعوّض بذلك عمّا مضى منه.

و بعد ذلك جاء قوله تعالى: وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً.

بحوث

۱- قوله تعالى: رَجْماً بِالْغَيْبِ

كلمة (رجم) تعنى فى الأصل الحجارة أو رمى الحجارة، ثمّ أطلقت بعد ذلك على أى نوع من أنواع الرمى. و تستخدم فى بعض الأحيان كناية عن (الاتهام) أو (الحكم استنادا إلى الظن و الحدس). و كلمة (بالغيب) تأكيدا لهذا المعنى، يعنى لا تحكم بدون الاستناد على مصدر أو علم.

۲- الواو فى قوله: وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

فى الآيات أعلاه وردت جملة رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ و سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ بدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۰

(واو) فى حين أنّ جملة وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ بدأت بالواو. و لأنّ جميع تعابير القرآن تنطوى على ملاحظات و مغاز، لذلك نرى أنّ المفسّرين بحثوا كثيرا فى معنى هذه الواو.

و لعل أفضل تفسير لها هو ما قيل من أنّ هذه (الواو) تشير إلى آخر الكلام و آخر الحديث، كما هو شائع استخدامه فى أسلوب التعبير الحديث، إذ توضع الواو لآخر شىء من مجموعة الأشياء التى تذكر مثلا نقول (جاء زيد، عمر، حسن، و محمّد) فهذه الواو إشارة إلى آخر الكلام و تبيّن الموضوع و المصداق الأخير.

هذا الكلام منقول عن المفسّر المعروف (ابن عبّاس)، و قد أيده بعض المفسّرين، و استفادوا من هذه (الواو) لتأييد القول فى أنّ عدد أصحاب الكهف الحقيقى هو سبعة، حيث أنّ القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبان فى الأخير العدد الحقيقى لهم.

البعض الآخر من المفسّرين كالقرطبى و الفخر الرازى ذكروا رأيا آخر فى تفسير هذه (الواو) و خلاصته: «إنّ العدد سبعة عند العرب عدد كامل، و لذلك فإنّهم يعدّون حتى السبعة بدون واو. أمّا بمجرّد أن يتجاوزوا هذا العدد فإنّهم يأتون بالواو التى هى دليل على بداية الكلام و الاستئناف. لذلك تعرف (الواو) هذه عند الأدباء العرب بأنّها (واو الثمانية)».

و فى الآيات القرآنية غالبا ما يواجهنا هذا الموضوع، فمثلا الآية (۱۱۲) من سورة التوبة عند ما تعدّد صفات المجاهدين فى سبيل اللّه تذكر سبع صفات بدون واو و عند ما تذكر الصفة الثامنة فإنّها تذكرها مع الواو فتقول: وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ و فى الآية (۵) من سورة التحريم، تذكر الآية فى وصف نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سبع صفات ثمّ تذكر الثّامنة مع الواو حيث تقول: ثَيِّباتٍ وَ أَبْكاراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۱

و فى الآية (۷۱) من سورة الزمر التى تتحدّث عن أبواب جهنّم تقول:

فُتِحَتْ أَبْوابُها إلّا أنّها و بعد آيتين و عند الحديث عن أبواب الجنة تقول الآية:

وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها. أليس ذلك بسبب أنّ أبواب النار سبعة، و أبواب الجنّة ثمانية؟

طبعا قد لا يكون هذا تعبيرا عن قانون كلّى، و لكنّه- فى الأغلب- يعبّر عن ذلك. فى كل الأحوال يظهر من ذلك أنّ حرف (الواو) و

هو مجرّد حرف، له حساب خاص فى الاستعمال و يظهر حقيقة معينة.

۳- المسجد إلى جوار المقبرة

ظاهر تعبير القرآن أنّ أصحاب الكهف ماتوا أخيرا و دفنوا، و كلمة «عليهم» تؤيّد هذا القول. بعد ذلك قرّر محبّوهم بناء مسجد بجوار مقبرتهم، و قد ذكر القرآن هذا الموضوع فى الآيات أعلاه بلهجة تنم عن الموافقة، و هذا الأمر يدل على أنّ بناء المساجد لاحترام قبور عظماء الدين ليس أمرا محرما- كما يظن ذلك الوهابيون- بل هو عمل حلال و محبّذ و مطلوب.

و عادة فإنّ بناء الأضرحة التى تخلّد الأشخاص الكبار أمر شائع بين أمم العالم و شعوبه، و يبيّن جانب الاحترام لمثل هؤلاء الأشخاص، و تشجيع لمن يأتى بعدهم، و الإسلام لم ينه عن هذا العمل، بل أجازه و أقرّه.

إنّ وجود مثل هذه الأبنية سند تأريخى للتدليل على وجود هذه الشخصيات و الرموز و على منهجها و مواقفها، و لهذا السبب فإنّ الأنبياء و الشخصيات الذين هجرت قبورهم فإنّ تأريخهم أمسى موضعا للشك و الاستفهام.

و يتّضح من ذلك أيضا أن ليس هناك تضاد بين بناء المساجد و الأضرخة و بين قضية التوحيد و اختصاص العبادة باللّه تعالى، بل هما موضوعان مختلفان.

بالطبع هناك بحوث كثيرة حول هذا الموضوع فليراجع إلى مظانها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۲

۴- كل شيء يعتمد على مشيئته تعالى

إنّ ذكر جملة (إن شاء اللّه) عند اتّخاذ القرارات المرتبطة بالمستقبل ليس نوعا من الأدب فى محضر الخالق جلّ و علا و حسب، بل هو بيان لحقيقة أنّنا لا نملك شيئا من عندنا، بل هو من عنده تعالى، و كلنا نعتمد و نستند إليه لأنّه هو المستقل بالذات فقط، فلو تحركت كل السكاكين و الشفرات فى العالم لتقطع عرقا واحدا فإنّها لا تستطيع من دون إذنه تعالى.

إنّ هذه الحقيقة هى نفسها (توحيد الأفعال) ففى الوقت الذى يملك الإنسان حريته و إرادته، فإنّ تحقق أى شيء و أى عمل إنّما يرتبط بمشيئة الخالق جلّ و علا.

إنّ تعبير (إن شاء اللّه) يزيد من توجهنا نحو اللّه تبارك و تعالى، و يمنحنا القوّة و القدرة على الإنجاز، و هو مدعاة إلى تزكية و طهارة و صحة الأعمال أيضا.

و نستفيد من بعض الرّوايات أنّ الإنسان إذا ذكر كلاما عن المستقبل بدون ذكر (إن شاء اللّه) فإنّ اللّه سوف يكله إلى نفسه و يخرجه من مظلة حمايته ۱۳۸].

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ أنّه عليه السّلام أمر يوما بكتابة رسالة، و عند ما جاؤوا بالرسالة إليه وجدها خالية من كلمة (إن شاء اللّه) فقال عليه السّلام: «كيف رجوتم أن يتمّ هذا و ليس فيه استثناء، انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه».

۵- الإجابة على سؤال

قرأنا فى الآيات- محل البحث- أنّ اللّه يخاطب رسوله بقوله: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ ۱۳۹] و هى إشارة إلى أنك عند ما تنسى ذكر (إن شاء اللّه) و تتذكر بعد ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۳

فعليك باستدراك الأمر بذكر (إن شاء اللّه).

و فى الأحاديث العديدة الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام- فى تفسير الآية- هناك تأكيد على هذا الموضوع حتى بعد مرور سنة إذا تذكرت فعليك أن تقول (إن شاء اللّه) عوضا عمّا فاتك و عمّا نسيته ۱۴۰].

و الآن قد يطرح هذا السؤال و هو: إذا جاز نسبة النسيان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حين أنّ الناس يعتمدون على أقواله و أعماله، فكيف يستقيم ذلك مع دليل عصمة الأنبياء و الرسل و الأئمّة من الخطأ و النسيان؟

و لكن ينبغى الالتفات الى أنّ الكثير من الآيات القرآنية يكون الحديث فيها موجها إلى الرسل فى حين أنّ المعنىّ بها عامّة الناس، و هى كما يقول المثل العربى، «إياك أعنى و اسمعى يا جارة».

بعض المفكرين الكبار ذكروا جوابا على هذا السؤال أوردناه فى نهاية الحديث عن الآية (۶۸) من سورة الأنعام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۵ الى ۲۷]

اشارة

وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً (۲۵) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (۲۶) وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۷)

التّفسير

نوم أصحاب الكهف:

من القرائن الموجودة فى الآيات السابقة نفهم إجمالا أنّ نوم أصحاب الكهف كان طويلا جدّا. هذا الموضوع يثير غريزة الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمرّ نومهم؟

فى المقطع الأخير من مجموعة الآيات التى تتحدث عن أصحاب الكهف، تبعد الآيات الشك عن المستمع و تقول له:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۵

وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً[۱۴۱].

و وفقا للآية فإنّ مجموع نومهم و بقائهم فى الكهف هو (۳۰۹) سنة. و البعض يرى أن ذكر ثلاثمائة و تسعة مفصولة بدلا عن ذكرها فى جملة واحدة، يعود إلى الفرق بين السنين الشمسية و السنين القمرية حيث أنّهم ناموا (۳۰۰) سنة شمسية، و بالقمرى تعادل (۳۰۹).

و هذا من لطائف التعبير حيث أوجز القرآن بعبارة واحدة صغيرة، حقيقة كبيرة تحتاج إلى شرح واسع ۱۴۲].

و من أجل وضع حد لأقاويل الناس حول مكثهم فى الكهف تؤكّد الآية: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لماذا؟ لأن: لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و الذى يعرف خفايا و ظواهر عالم الوجود و يحيط بها جميعا، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف: أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ ۱۴۳] و

لهذا السبب فإنّ سكان السماوات و الأرض: ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍ

أمّا من هو المقصود بالضمير (هم) فى (مالهم) فقد ذكر المفسّرون أقوالا كثيرة، إذا يعتقد البعض أنّها اشارة إلى سكان السماوات و الأرض، أمّا البعض الآخر فيعتقد أن الضمير إشارة إلى أصحاب الكهف، بمعنى أنّ أصحاب الكهف لا يملكون وليا من دون اللّه، فهو الذى تولاهم فى حادثة الكهف، و قام بحمايتهم.

و لكن بالنظر إلى الجملة التى قبلها، يكون التّفسير الأوّل أقرب.

و فى نهاية الآية يأتى قوله تعالى: وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً. هذا الكلام هو فى الحقيقة تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلّ و علا، إذ ليس هناك قدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۶

أخرى لها حق الولاية المطلقة على العالمين، و لا يوجد شريك له تعالى فى ولايته، يعنى ليس ثمّة قدرة أخرى غير اللّه لها حق الولاية فى العالم، لا بالاستقلال و لا بالاشتراك.

و فى آخر آية يتوجّه الخطاب إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول اللّه له: وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ أى لا تعر أية أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب و الخرافة و الوضع، يجب أن يكون اعتمادك فى هذه الأمور على الوحى الإلهى فقط. لأنّه لا يوجد شيء يستطيع أن يغيّر كلامه تعالى: لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ

فكلام اللّه تعالى و علمه ليس من سنخ علم الإنسان الذى يخضع يوميا للتغيّر و التبديل بسبب الاكتشافات الجديدة و المعرفة الحديثة. لذلك لا يمكن الاعتماد عليها و الركون إليها مائة فى المائة، و لهذه الأسباب: وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً.

«ملتحد» مشتقّة من «لحد» على وزن «مهد» و هى الحفرة التى يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كاللحد الذى يحفر لقبر الإنسان).

و لهذا السبب يقال للمكان الذى يميل إليه الإنسان (ملتحد)، ثمّ استخدمت بعد ذلك بمعنى «ملجأ».

و من المهم أن نلاحظ أنّ الآيتين الأخيرتين بينتا إحاطة علم الخالق جلّ و علا بجميع كائنات الوجود، و ذلك من خلال عدّة طرق.

* فى البداية تبيّن الآيات: أنّ غيب السماوات و الأرض من عنده، و لهذا فهو تعالى محيط بها جميعا.

* ثمّ تضيف: إنّه سميع و بصير لأقصى حد و لأبلغ غاية.

* مرّة أخرى تقول: إنّه الولى المطلق، و إنّه أعلم الجميع.

* ثمّ تضيف مرّة أخرى: لا يشاركه أحد فى حكمه حتى يتحدّد علمه أو معرفته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۷

* ثمّ تقول: لا يتغيّر و لا يتبدّل علمه و كلامه.

* و فى آخر جملة تقول الآية: أنّه تعالى هو الملجأ الوحيد فى الوجود لا سواه نعلمه محيط بكلّ اللاجئين إليه سبحانه و تعالى.

بحوث

۱- قصّة أصحاب الكهف فى الرّوايات الإسلامية

هناك روايات كثيرة فى المصادر الإسلامية حول أهل الكهف، و لكن بعضها لا يعتمد عليها لضعف فى سندها، و البعض الآخر تتضاد و تختلف فيما بينها.

و من الرّوايات المختلفة اخترنا رواية على بن إبراهيم القمى التى ينقلها فى تفسيره، و قد لاحظنا فى هذه الرّواية أنّها الأفضل من حيث

المتن و المضمون الذى يتناسق مع الآيات القرآنية.

فى رواية على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ أصحاب الكهف و الرقيم كانوا فى زمن ملك جبّار عات، و كان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله، و كانوا هؤلاء قوما مؤمنين يعبدون اللّه عزّ و جلّ، و وكل الملك بباب المدينة و كلاء و لم يدع أحدا يخرج حتى يسجد للأصنام، فخرج هؤلاء بعلة الصيد، و ذلك أنّهم مرّوا براع فى طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم و كان مع الراعى كلب، فأجابهم الكلب و خرج معهم، فقال الصادق عليه السّلام: لا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاثة حمار بلعم بن باعور، و ذئب يوسف عليه السّلام و كلب أصحاب الكهف.

فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلّة الصيد هربا من دين ذلك الملك، فلمّا أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف، و الكلب معهم فألقى اللّه عزّ و جلّ عليهم النعاس، كما قال اللّه تبارك و تعالى: فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً فناموا حتى أهلك اللّه عزّ و جلّ الملك و أهل مملكته و ذهب ذلك الزمان، و جاء زمان آخر و قوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۸

آخرون ثمّ انتبهوا، فقال بعضهم لبعض: كما نمناها هنا فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوما أو بعض يوم. ثمّ قالوا لواحد منهم: خذ هذه الورق و ادخل فى المدينة متنكرا لا يعرفوك فاشتر لنا، فإنّهم إن علموا بنا و عرفونا قتلونا أو ردّونا فى دينهم، فجاء ذلك الرجل فرأى المدينة بخلاف الذى عهدها، و رأى قوما بخلاف أولئك لم يعرفهم و لم يعرفوا لغتهم، و لم يعرف لغتهم، فقالوا له: من أنت و من أين جئت، فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه، و الرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف، فأقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم: هؤلاء ثلاثة و رابعهم كلبهم، و قال بعضهم: هم خمسة و سادسهم كلبهم، و قال بعضهم: هم خمسة و سادسهم كلبهم، و قال بعضهم: هم سبعة و ثامنهم كلبهم، و حجبهم اللّه عزّ و جلّ بحجاب من الرعب فلم يكن أحد يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنّه لمّا دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكون أصحاب [الملك «دقيانوس» شعروا بهم، فأخبرهم صاحبهم أنّهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل، و أنّهم آية للناس، فبكوا و سألوا اللّه تعالى أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا، ثمّ قال الملك: «ينبغى أن يبنى هنا مسجد و نزوره، فإنّ هؤلاء قوم مؤمنون».

و هنا أضاف الإمام عليه السّلام: فلهم فى كل سنة نقلة، نقلتان، ينامون ستة أشهر على جنبهم الأيمن، و ستة أشهر على جنبهم الأيسر، و الكلب معهم قد بسط ذراعيه بفناء الكهف»[۱۴۴].

و

فى رواية أخرى عن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام ورد حديث مفصّل عن قصّة أصحاب الكهف مفاده ما يلى: لقد كان هؤلاء فى الأصل ستة نفر اتّخذهم (ديقيانوس) وزراءه، فأقام ثلاثة عن يمينه و ثلاثة عن يساره، و اتّخذ لهم عيدا فى كل سنة مرّة، فبينا هم ذات يوم فى عيد و البطارقة عن يمينه و الهراقلة عن يساره، إذ أتاه بطريق فأخبره أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۳۹

عساكر الفرس قد غشيته، فاغتمّ لذلك حتى سقط التاج عن رأسه، فنظر إليه أحد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه و يقال له (تلميخا) فقال فى نفسه: لو كان (ديقيانوس) إلها كما يزعم إذا ما كان يغتم و ما كان يبول و لا يتغوّط، و ما كان ينام، و ليس هذا من فعل الإله.

و قد كان هؤلاء الوزراء الستة يجتمعون كل يوم عند أحدهم، و كانوا ذلك اليوم عند (تلميخا) فاتّخذ لهم من طيّب الطعام ثمّ قال لهم: يا إخوتاه، قد وقع فى قلبى شىء منعنى الطعام و الشراب و المنام. قالوا: و ما ذاك يا تلميخا؟ قال: أطلت فكرى فى هذه السماء فقلت من رفع سقفها محفوظة بلا عمد و لا علاقة من فوقها، و من أجرى فيها شمسا و قمرا، آيتين مبصرتين، و من زيّنها بالنجوم! ثمّ أطلت الفكر فى الأرض فقلت: من سطحها على صميم الماء الزخّار، و من حبسها بالجبال أن تميد على كل شىء؟ و أطلت فكرى فى

نفسی من أخرجنی جنینا من بطن أمی و من غذّانی و من ربّانی؟ إنّ لها صانعا و مدبرا غیر (دیقیانوس الملک)، و ما هو إلّا ملک الملوک و جبّار السماوات.

فانکب الفتیة (الوزراء) علی رجلیه یقبلونها و قالوا: بک هدانا اللّه تعالی من الضلالة إلی الهدی فأشر علینا. وهنا وثب (تملیخا) فباع تمرا من حائط له بثلاثة آلاف درهم و صرّها فی ردائه و رکبوا خیولهم و خرجوا من المدینة، فلما ساروا ثلاثة أمیال قال لهم تملیخا: یا إخوتاه جاءت مسکنة الآخرة و ذهب ملک الدنیا، انزلوا عن خیولکم و امشوا علی أرجلکم لعلّ اللّه أن یجعل لکم من أمرکم فرجا و مخرجا، فنزلوا عن خیولهم و مشوا علی أرجلهم سبعة فراسخ فی ذلک الیوم، فجعلت أرجلهم تقطر دما.

و هنا استقبلهم راع، فقالوا: یا أیّها الراعی هل من شربة لبن أو ماء؟ فقال الراعی: عندی ما تحبّون، و لکن أری وجوهکم وجوه الملوک، و ما أظنّکم إلّا هرّابا من «دیقیانوس» الملک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۰

قالوا: یا أیّها الراعی لا یحلّ لنا الکذب أ فینجینا منک الصدق؟ فأخبروه بقصّتهم، فانکب الراعی علی أرجلهم یقبلها و یقول: یا قوم لقد وقع فی قلبی ما وقع فی قلوبکم، و لکن أمهلونی حتی أردّ الأغنام علی أربابها و ألحق بکم، فتوقفوا له، فردّ الأغنام، و أقبل یسعی یتبعه الکلب ... فنظر الفتیة (الوزراء) إلی الکب و قال بعضهم: إنّا نخاف أن یفضحنا بنباحه، فألحّوا علیه بالحجارة، فأنطق اللّه تعالی جلّ ذکره، الکلب [قائلا]: ذرونی حتی أحرسکم من عدوّکم.

فلم یزل الراعی یسیر بهم حتی علا بهم جبلا، فانحطّ بهم علی کهف یقال له (الوصید) فإذا بفناء الکهف عیون أشجار مثمرة فأکلوا من الثمر، و شربوا من الماء، و جنّهم اللیل، فآووا إلی الکهف و ربض الکلب علی باب الکهف و مدّ یدیه علیه، فأوحی اللّه تعالی إلی ملک الموت بقبض أرواحهم. (فأنامهم اللّه نوما طویلا و عمیقا)[۱۴۵].

و فیما یخص دیقیانوس قال بعض المفسّرین: إنّه کان امبراطور الروم و حکم منذ عام ۲۴۹- ۲۵۱ میلادی، و قد کان عدوا شدیدا للمسیحیین، و کان یؤذیهم و یعذبهم، و ذلک قبل اعتناق ملک الروم لدین المسیحیة.

۲- أین کان الکهف؟

للمفسّرین و العلماء کلام کثیر حول أصحاب الکهف، أین کانت منطقتهم؟

و أین یقع الکهف الذی مکثوا فیه؟

و هنا ینبغی أن نلاحظ أنّه بالرغم من أنّ العثور علی المکان الدقیق لهذه الحادثة لا یؤثّر کثیرا علی أصل القصّة و دروسها التربویة و أهمیتها التأریخیة، و بالرغم من أنّ هذه القصّة لیست الوحیدة التی نعرف أصلها و لا نعرف بعض جزئیاتها و تفصیلاتها، إلّا أنّ معرفة محل الحادث یساعدنا حتما فی فهم أکثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۱

لخصوصیات هذه القصّة.

علی أیة حال هناک قولان راجحان من بین الاحتمالات الکثیرة المطروحة عن مکان الکهف، یمکن أن نجملهما بما یلی:

أوّلا: إنّ هذه الحادثة وقعت فی مدینة (أفسوس) و هذا الکهف کان یقع بالقرب منها.

و یمکن فی الوقت الحاضر مشاهدة خرائب هذه المدینة بالقرب من مدینة (أزمیر) الترکیة، و بالقرب من قریة (أیاصولوک) فی جبال (ینایرداغ) حیث یوجد کهف لا یبتعد کثیرا عن (أفسوس).

إنّ هذا الکهف هو غار وسیع، و یقال بأنّه یمکن فی داخله مشاهدة آثار مئات القبور، و یعتقد الکثیرون بأنّ هذا الغار هو غار أصحاب

الکهف.

و قد نقل من شاهد الکهف أنّ فتحة الغار باتجاه الشمال الشرقی، و قد کان هذا الموقع سببا فی ترجیح شک بعض المفسّرین الکبار بکون هذا المکان هو غیر غار أصحاب الکهف، فی حین أنّ هذا الوضع یؤید صحة الموضوع و یرجح کون الغار هو الکهف المقصود لأنّ دلالة أن تکون الشمس عند الشروق علی یمین الغار، و عند الغروب علی یساره، هو أن تکون فتحة الغار باتجاه الشمال أو تمیل قلیلا نحو الشمال الشرقی.

بالطبع لا یقلّل من صحة الموضوع عدم وجود مسجد أو معبد إلی جانبه، حیث یمکن أن تکون آثاره قد اندثرت بعد مرور حوالی (۱۷) قرن علی الحادث.

ثانیا: یقع الغار بالقرب من (عمّان) عاصمة الأردن، و بالقرب من قریة تسمّی «رجیب».

و یمکن مشاهدة آثار صومعة فوق الغار تعود- وفقا لبعض القرائن- إلی القرن الخامس المیلادی، حیث تحوّلت إلی مسجد ذی محراب و مئذنة بعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۲

سیطرة المسلمین علی ذلک المکان.

۳- الجوانب التربویة لقصّة أهل الکهف

هذه القصّة التأریخیة العجیبة التی یذکرها القرآن خالیة من أی خرافة أو وضع، و فیها العدید من الدروس التربویة البنّاءة، تماما کما فی قصص القرآن الأخری، و إذا کنّا قد أشرنا إلی هذه الدروس ضمن تفسیر الآیات، فإنّنا نری من الضروری الآن أن نشیر إلیها بشکل مجمل حتی نقترب أکثر من الهدف الأساس للقرآن، و فیما یلی أبرز هذه الدروس:

أ: إنّ أول دروس هذه القصّة هو تحطیم حاجز التقلید، و الابتعاد عن التلوّن بلون المجتمع الفاسد. فهؤلاء الفتیة حافظوا- کما لا حظنا- علی استقلالهم الفکری فی قبال الأکثریة المنحرفة المحیطة بهم، و هذا الأمر أصبح سببا فی نجاتهم و تحرّرهم.

و ینبغی للإنسان أن یکون له تأثیر بناء علی مجتمعه لا أن یکون مسایرا له.

ب: الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر فی هذه القصّة ذات العبر، فهم قد ترکوا بیوتهم و حیاتهم المرفّهة المملیئة بألوان النعم المادیة، و ترکوا مناصبهم، و رضوا بأنواع الصعوبات و أشکال الحرمان- فی الغار الذی کان یفتقد کل شیء- لکی یحفظوا إیمانهم، و لا یکونوا من عوامل و أعوان جهاز الظلم و الجور و الکفر و الشرک ۱۴۶].

ج: التقیة بمعناها البنّاء درس آخر نستفیده من هذه القصّة، لقد کانوا یصرون علی عدم اطّلاع أهل المدینة علی حالهم و خبرهم، و احتاطوا لیبقی أمرهم و حالهم مخفیا، حتی لا یخسروا أنفسهم بدون سبب، و کی یتجنبوا أن یجبروا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۳

علی الرجوع إلی المحیط المنحرف الذی تخلّصوا منه.

و نحن نعرف أنّ التقیة لیست سوی أن یتکتم الإنسان علی حقیقة أمره فی الأماکن و المواقف التی لا یرتجی منها فائدة فی ذکر الحقیقة، بل تکون سببا للضرر. و التقیة وقایة للنفس و احتفاظ بقوّة الإنسان لوقت جهاد العدو حیث لا تقیة[۱۴۷].

د: عدم وجود تفاوت بین الناس و هم فی طریق اللّه، فالوزیر کان إلی جانب الراعی، بل کان الاثنان إلی جانب الکلب کان یقوم بالحراسة. و هذا درس آخر یتّضح من خلاله أنّ امتیازات الدنیا المادیة، و المناصب المختلفة لیس لها أدنی نصیب أو تأثیر علی تصنیف الناس من أهل الحق و سالکیة، إذ الکل فیه سواء ..

إنّ طريق الحق هو طريق التوحيد، و طريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

ه: الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هى نتيجة أخرى يجب الاعتبار بها، فقد رأينا كيف قام الخالق جلّ و علا بإنامة أصحاب الكهف كل تلك المدّة الطويلة، من أجل إنقاذهم من تلك الظروف الاجتماعية الصعبة التى كانت تحيط بهم.

و قد أيقظهم جلّ و علا فى الوقت المناسب، أى فى الوقت الذى أصبحوا رمزا من رموز التوحيد، و قد رأينا- كشكل من أشكال العناية- كيف أنّ اللّه تعالى حفظ أجسادهم خلال هذه المدّة من تأثيرات الأحداث و العوامل المختلفة، و جعل من الرعب و الخوف أسلوبا للحفاظ عليهم فى قبال أعدائهم.

و: لقد تعلّمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى فى أصعب الظروف و أدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة فى روحه و فكره و قلبه، و عند ما يختلط الطعام بالحرام و النجاسة، يبتعد الإنسان عن طريق اللّه؛ طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۴

التقوى.

ز: ضرورة الاعتماد على مشيئة اللّه و طلب العون من لطفه تعالى: و قول (إن شاء اللّه) فى كل ما يتعلق بأمور المستقبل .. درس آخر نتعلمه من قصّة أصحاب الكهف.

ح: لقد رأينا أنّ القرآن سمّاهم: ب (الفتية) فى حين أنّهم- طبقا للرّوايات- لم يكونوا شبابا من حيث العمر، و إذا عرفنا أنّهم كانوا فى البداية وزراء الملك الجبار، يتأكد لنا أنّهم لم يكونوا صغارا من حيث العمر. و لكن تسمية القرآن لهم ب (الفتية) للدلالة على صفات الشهامة و الرشد و الطهر و الفتوة العفو و التسامح.

ط: ضرورة النقاش المنطقى مع المعارضين درس آخر نستفيده من قصّة أصحاب الكهف، حيث إنّهم عند ما أرادوا دحض الشرك الذى عليه مجتمعهم، ذكروا أدلة منطقية قرأنا نماذج لها فى الآيات (۱۵- ۱۶) من هذه السورة.

إنّ أساس عمل جميع الأنبياء و القادة الإلهيين مع أعدائهم و معارضين يستند- فى العادة- إلى قاعدة الحوار المنطقى و النقاش الحر. أمّا استخدام القوة لأجل القضاء على الفتنة فهو أمر يلجأ إليه عند ما تفشل الحجة فى أداء وظيفتها، أو عند ما يقوم الخصم بعرقلة النقاش المنطقى.

ى: و أخيرا، فإنّ إمكانية المعاد الجسمانى و عودة الناس إلى الحياة مرّة أخرى عند البعث، يعتبر عاشر و آخر درس نستفيده من هذه القصّة، و سنقرأ عنه تفصيلا فى بحوث قادمة إن شاء اللّه تعالى.

إنّنا لا نستطيع القول بأنّ الدروس التربوية فى قصّة أصحاب الكهف تقتصر على ما ذكرناه، و لكنّا نعتقد أنّه حتى لو كان هناك درس واحد نستفيده من هذه القصة لكفانا ذلك، فكيف بنا و أمامنا هذه الدروس الكثيرة؟! على أية حال، إنّ هدف القرآن ليس قص القصص لغرض التسلية، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، و أحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التأريخ البشرى الملىء بالحوادث و المواقف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۵

۴- هل أنّ قصّة أصحاب الكهف علمية؟

من المسلّم به أنّ قصّة أصحاب الكهف لم تكن مذكورة فى أى من الكتب السماوية السابقة (سواء الكتب الأصلية أو المحرّفة الموجودة الآن) و يجب أن لا تذكر، لأنّ الحادثة- طبقا للتأريخ العام- كانت قد وقعت فى القرون التى تلت ظهور المسيح عيسى عليه السّلام.

إنّ حادثة أصحاب الكهف وقعت فى زمان «دكيوس» (التى تعرّب بديقيانوس) حيث تعرّض المسيحيون فى عصره إلى تعذيب شديد.

و يقول المؤرخون الأوربيون: إنّ هذه الحادثة وقعت فى الفترة من ۴۹- ۲۵۱ ميلادى، و بذلك يرى هؤلاء المؤرخون أنّ مدّة نوم أصحاب الكهف لم تستغرق سوى (۱۵۷) سنة، و يطلقون عليهم لقب (النائمون السبعة لأفسوس) فى حين أنّهم يعرفون بيننا بأصحاب الكهف ۱۴۸].

و الآن لنتعرف أين تقع (أفسوس) هذه؟ و من أوّل عالم كتب كتابا عن قصّة هؤلاء السبعة النائمين؟ و فى أى قرن حصل ذلك؟

(أفسوس) أو (أفسس) بضم الألف و السين، هى واحدة من مدن آسيا الصغرى (تركيا الحالية التى هى جزء من مملكة الروم الشرقية القديمة) و تقع بالقرب من نهر (كاستر) و على بعد (۴۰) ميلا تقريبا جنوب شرقى (أزمير) حيث كانت عاصمة الملك (الونى).

و قد اشتهرت (أفسوس) بسبب معبدها الوثنى المعروف ب «أرطاميس» الذى يعتبر أحد عجائب الدنيا السبع ۱۴۹].

و يقولون: إنّ قصة أصحاب الكهف شرحت لأول مرّة فى رسالة باللغة السريانية كتبها عالم مسيحى يسمى (جاك) الذى كان رئيسا للكنيسة السورية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۶

و ذلك فى القرن الخامس الميلادى، ثمّ شخص آخر يسمّى «جوجويوس» بترجمة تلك الرسالة إلى اللاتينية و سمّها ب «جلال الشهداء»[۱۵۰]. و هذا الأمر يبيّن أنّ الحادثة كانت معروفة بين المسيحيين قبل قرن أو قرنين من ظهور الإسلام، و كانت الكنائس تهتم بها.

بالطبع بعض أحداث هذه القصّة- مثل مدّة نوم أصحاب الكهف- تختلف عمّا ورد فى المصادر الإسلامية، فالقرآن يقول- و بصراحة- بأنّ نومهم كان (۳۰۹) سنة.

من جانب ثان و طبقا لما ينقله ياقوت الحموى فى معجم البلدان (المجلد الثّانى ص ۸۰۶) و طبقا لما ينقله «ابن خردادبه» فى كتاب «المسالك و الممالك» (صفحة ۱۰۶- ۱۱۰) و طبقا- أيضا- لما يقوله ابو ريحان البيرونى فى الصفحة (۲۹۰) من كتاب «الآثار الباقية»: إنّ مجموعة من السوّاح القدماء قد وجدوا غارا فى مدينة (آبس) فيه بعض الأجساد المتيبسة، و قد احتملوا أن هذه الآثار تتعلق بقصّة أصحاب الكهف.

من سياق الآيات القرآنية فى سورة الكهف، و أسباب النّزول المذكورة فى المصادر الإسلامية، نستفيد أنّ الحادثة كانت أيضا معروفة بين علماء اليهود، و أنّها كانت عندهم حادثة تأريخية مشهورة. و بذلك يتّضح- بدقة- أنّ قصّة النوم الطويل لأصحاب الكهف وردت فى المصادر التأريخية للأقوام المختلفة[۱۵۱].

و هنا قد يشك البعض فى طول المدة التى قضاها أصحاب الكهف فى نومهم، و يعتبر أنّ ذلك لا ينطق مع المعايير العلمية، لذلك يضعها فى قسم الأساطير و القصص الخرافية (!!) و الذرائع التى يستند إليها هؤلاء هى:

أوّلا: إنّ هذا العمر الطويل أمر غير مألوف فى حياة الأشخاص العاديين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۷

المستيقظين، فكيف يصح تصوره لناس نيام؟! ثانيا: إذا اقتنعنا بهذا العمر الطويل بالنسبة للأشخاص العاديين الذين يمارسون الحياة بشكل طبيعى، فإنّ ذلك غير ممكن بالنسبة للنائمين، لأنّ هناك مشكلة الطعام و الشراب، إذ كيف يمكن للإنسان أن يبقى طيلة هذه المدّة بدون طعام أو شراب، و إذا افترضنا مثلا- أنّ الإنسان يحتاج يوميا إلى كيلو غرام واحد من الطعام أو لتر واحد من الماء، فإنّ أصحاب الكهف كانوا بحاجة، أثناء نومهم، إلى (۱۰۰) طن من الطعام و (۱۰۰۰۰۰) لتر من الماء، و من الطبيعى أنّ الجسم لا يستطيع خزن كل هذه الأحجام و الكميات من الماء و الطعام.

ثالثا: إذا تجاوزنا كل الأمور السابقة، فسوف تكون أمامنا مشكلة جديدة، و هى أن جسم الإنسان لا يستطيع أن يبقى كل هذه الفترة

الطويلة من دون أن تتأثّر أجهزته و تتضرّر بأضرار فادحة.

إنّ هـذه الأمور قـد تبـدو للوهلـة الأولى مانعا من التصـديق بقصّة أصـحاب الكهف، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، إذ يمكن مناقشـة الأمور السابقة وفقا لما يلى:

أوّلا: لا تعتبر قضـية العمر الطويل قضـية غير علميـة، حيث أنّنا نعلم أنّ طول عمر أى كائن حى ليس لها من الوجهة العلمية ميزان ثابت من حيث المدّة و العمر، بحيث يكون موت الكائن عند هذا الحد المفترض أمرا حتميا.

بعبـارة أخرى: صـحيح أنّ الطاقـة الجسـمية للإنسـان مهمّا بلغت فهى محـدودة و لا بـدّ أن تنتهى، إلّا أنّ هـذا الكلام لا يعنى أنّ جسـم الإنسان- أو أى كائن حى آخر- ليست له قابلية البقاء أكثر من المقدار المألوف و المتعارف عليه.

أى إن المسألـة ليست كالقوانين الطبيعيـة، فمثلا الماء يغلى فى درجة حرارة (۱۰۰) مئوية و يتجمد فى درجة الصـفر المئوى، فكذلك الإنسان إذا وصل إلى عمر المائة سنة أو المائة و خمسين سنة فإنّ قلبه سيتوقف عن العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۸

إنّ المسألـة ليست على هـذه الشاكلـة، بـل إنّ ميزان طول عمر الكائنـات الحيـة يرتبـط ارتباطا كبيرا بوضـعهم المعيشـى، فعنـد ما تتغيّر الظروف بالكامل تكون الموازين قابلة للتغيير هى الأخرى.

و الـدليل على مـا نقول، هو أنّنـا لم نر أحـدا من علمـاء العالم قـد حـدّد ميزانا معينا لعمر الإنسان، و من جانب ثان اسـتطاعوا من خلال تجـارب مختبريـة من زيـادة عمر بعض الكائنـات إلى الضـعفين، أو الثلاثـة فى بعض الأحيـان، و اسـتطاعوا فى أحيان أخرى أن يفعلوا ذلك بنسبة (۱۲) مرّة أو أكثر قياسا للعمر المألوف.

و اليوم فإنّ هؤلاء العلماء يأملون بأن الإنسان يمكنه- فى المسـتقبل و مع ظهور أساليب علميـة جديـدة- أن يعيش عدّة أضـعاف عمره الطبيعى.

هذا فيما يخص أصل قضية طول العمر.

ثانيا: أمّا فيما يخص الطعام و الشـراب أثناء فترة النوم الطويل، فنقول: إنّ نوم أصحاب الكهف لو كان عاديا و طبيعيا فنستطيع عندها أن نقبل بالإشـكالات و الاعتراضات السابقـة. أمّا من الوجهـة العلميـة فإنّ الأصول العلميـة تقول: إنّ حاجة الجسم إلى الطاقة الغذائيه أثناء النوم أقـل من حـاجته إليهـا اليقظـة، إلّا أنّ الجسم مع ذلك لا يسـتطيع أن يـدّخر ما يلزمه من طاقـة غذائيـة لنوم طويل كنوم أصـحاب الكهف.

و هنـا ينبغى الالتفـات إلى أنّ هنـاك أنواعا من النوم فى عالم الطبيعـة تكون فيها حاجـة الجسم إلى الغـذاء قليلـة للغايـة، كما فى حالة السبات مثلا.

حالة السبات:

هناك العديد من الأحياء تنام فى فصل الشتاء و يسمّى نومها علميا ب «السبات».

فى هذا النوع من النوم تتوقف فعاليات الحياة تقريبا، و تكون بأضعف حالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۴۹

فالقلب يتوقف عن العمل تقريبا، و بعبارة أصح تكون ضرباته قليلة للغاية بحيث لا يمكن الإحساس بها أبدا.

فى هذه الحالات يمكن تشبيه الجسم بالفرن العظيم الذى لا تبقى فيه بعد انطفائه سوى شـعلة أو شـمعة صغيرة دائبة الإشتغال. و واضح أنّ الطاقة التى تحتاجها هذه الأفران (من النفط أو غير) للاشتعال الطبيعى يعادل ما تحتاجه الشمعة الصغيرة من طاقة للاشتعال، لعشرات

أو مئات السنين. (يمكن أن نطبّق المثال على ما نحن فيه فتكون حالة اشتعال الفرن الطبيعى فى شبيهة بحالة اليقظة، أمّا حاله اشتعال الفرن على الشعلة الصغيرة فقط فهى شبيهة بحالة السبات و النوم الطويل).

من جهة أخرى يقول العلماء عن سبات بعض الأحياء: إنّنا إذا أخرجنا إحدى الزواحف و هى فى حالة سبات، فسوف نراها و كأنّها ميتة، فلا هواء فى رئتيها، و ضربات القلب ضعيفة بحيث لا يمكن الإحساس بها. و من بين الحيوانات ذات الدم البارد نستطيع أن نعدّد الفراشات و الحشرات و الحلزون و الزحافات و كلها تقوم بحاله السبات. كما أنّ بعض الحيوانات ذات الأثدية (ذات الدم الحار) تقوم بالسبات أيضا. و فى فترة السبات تكون الفعاليات الحياتية ضعيفة للغاية، و تقوم الحيوانات السابتة باستهلاك المواد الدهنية المخزونة بالجسم بالتدريج»[۱۵۲].

المقصود من كل هذا العرض هو أن نقول: إنّ هناك نوعا من النوم تكون الحاجة فيه إلى الطعام قليلة جدّا، و قد تصل النشاطات الحياتية فى مثل هذه الحالة إلى درجة الصفر.

و بالمناسبة، نذكر هنا أنّ هذا الأمر يساعد فى منع تلاشى أعضاء الجسم أو تضرّر الأجهزة الجسمية، و يعين- أيضا- على طول عمر الكائن الحى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۰

إنّ السبات بالنسبة للحيوانات التى لا تستطيع الحصول على غذائها فرصة ثمينة للغاية لكى تديم حياتها عن هذا الطريق.

نموذج آخر: دفن المرتاضين

فيما يخص المرتاضين يشاهد أنّ بعضهم يتمّ وضعه بالتابوت و يدفن أحيانا تحت التراب لمدّة أسبوع، و ذلك أمام عيون المشاهدين الحيارى التى لا تكاد تصدّق ما ترى، و بعد أن تنتهى المدّة المقرّرة يتمّ إخراجه و يجرى له التدليك و التنفس الاصطناعى حتى يعود إلى حالته الطبيعية.

و حتى لو افترضنا أن حاجة أجسادهم إلى الطعام غير ملحّة، فإنّ الحاجة إلى الأوكسجين حاجة مهمّة للغاية و لا يمكن للجسم التخلّى عنها، إذا نعرف هنا أنّ حساسية الخلايا المخية للاوكسجين و حاجتها إليه كبيرة للغاية، بحيث إذا حرمت منها لبضعة دقائق فإنّها ستتلف.

و الآن يتساءل: كيف يتحمّل الشخص المرتاض قلّة الأوكسجين مثلا لمدّة قد تصل إلى حدود الأسبوع؟

الجواب على هذا السؤال- و مع مراعاة ما ذكرناه قبل قليل- ليس بالأمر الصعب، ففى هذه المدّة تتوقف (تقريبا) الفعاليات الحياتية لجسم المرتاض، لذا فإنّ حاجة الخلايا للأوكسجين و استهلاكها لها ستقل بشدّة، بحيث أنّ الهواء الموجود فى فضاء التابوت يكفى فى هذه المدّة لتغذية الخلايا.

تجميد جسم الإنسان و هو حى:

اليوم ثمّة نظريات كثيرة حول تجميد جسم الأحياء بما فيهم الإنسان (لزيادة العمر) و قد تمّ تنفيذ قسم من هذه النظريات فى الوقت الحاضر.

طبقا لهذه النظريات، فإنّه عند وضع جسم الإنسان أو أى حيوان فى درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۱

حرارة تحت الصفر- بأسلوب خاص- فإنّ حياته ستتوقف بدون أن يموت. و بعد مدّة معينة يوضع الكائن فى درجة حرارية معينة حيث يرجع إلى الحالة العادية.

و قد تمّ اقتراح مجموعة حالات من هذه الحالة للإفادة منها فى الرحلات الفضائية إلى الكواكب البعيدة التى يستغرق الوصول إليها مئات أو آلاف السنين، حيث يتمّ تجميد أجسام روّاد الفضاء فى محفظة خاصّة، و بعد سنين طويلة، و عند الاقتراب من الكواكب المعنية ترجع الحرارة العادية إلى تلك المحفظة بشكل أوتوماتيكى، و عندها سيعود هؤلاء الروّاد إلى حالتهم العادية دون أن يحدث أى ضرر لهم.

ذكرت إحدى المجلات العلمية أنّ كتابا صدر مؤخرا حول تجميد جسم الإنسان بهدف إطالة عمره بقلم «روبرت نيلسون» و كان لهذا الكتاب صدى واسعا فى عالم المعرفة. ففى المقالة التى نشرتها تلك المجلة فى هذا المجال، ذكر الكاتب أنّه تمّ أخيرا إضافة فرع علمى جديد إلى الفروع العلمية الأخرى، يتكفل التخصص فى هذا المجال.

و نقرأ فى تلك المقالة أيضا: «لقد كانت الحياة الأبدية- على طول التأريخ- حلما من الأحلام الذهبية و القديمة للإنسان، و فى الوقت الحاضر فقد تحقق هذا الحلم، و السبب يعود إلى التقدّم العجيب لعلم حديث يسمّى (كريونيك) و هو علم يرسل الإنسان إلى عوالم الانجماد، و يحفظه على شكل جسد منجمد على أمل أن يستطيع العلماء إعادته يوما إلى الحياة مرّة أخرى.

هل يمكن تصديق هذا الكلام؟ هناك العديد من العلماء البارزين الذين يقومون بالتفكير فى هذا الأمر من جوانبه المختلفة. و هناك نشريات كثيرة تقوم ببحث هذا الموضوع مثل (لايف) و (اسكواير) و الصحف العالمية فى مختلف أنحاء العالم. و الأهم من ذلك أنّ هناك برنامج فى هذا المجال هو قيد التنفيذ فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۲

الوقت الحاضر[۱۵۳].

لقد أعلنت الصحف قبل مدّة عن اكتشاف سمكّة منجمدة بين ثلوج القطب الشمالى يعود عمرها إلى آلاف السنين، كما تبيّن ذلك من طبقات الثلج القشرية، و بعد أن وضعت السمكّة فى ماء معتدل عادت إلى حياتها الطبيعية و بدأت بالحركة وسط دهشة الجميع.

و يتّضح من ذلك أنّ الأجهزة الحياتية لا تتوقف بالكامل فى حالات الانجماد، و لكن فى هذه الظروف التى لا يمكن معها ممارسة الحياة الطبيعية يصبح عمل تلك الأجهزة بطيئا للغاية.

و من مجموع هذه الأحاديث يتبيّن أنّه بالإمكان إيقاف الحياة أو تعويق حركتها بشدة و البحوث العلمية دعمت إمكانية ذلك من جوانب مختلفة. و فى مثل هذه الحالة يصل استهلاك البدن للطعام لدرجة الصفر تقريبا، و بذا يكفيه المخزون القليل المدّخر فى الجسم لإدامة الحياة البطيئة لسنوات طويلة.

و يجب أن لا يفسّر كلامنا هذا بأنّنا نستهدف انكار الجانب الإعجازى فى نوم أصحاب الكهف، بل نريد أن نقرّب الأمر للأذهان من وجهة نظر العلم. إذ من المحتم أنّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوما عاديا كمنامنا فى الليل، لقد كان نومهم ذا جنبة استثنائية، لذلك فلا عجب فى نوم هؤلاء هذه المدّة الطويلة (بإرادة اللّه) من دون أن يكونوا بحاجة إلى الشراب و الطعام، و من دون أن تتضرّر أجسامهم و أجهزتهم الحيويه.

و الطريف فى الأمر أنّنا نستفيد من آيات سورة الكهف أنّ طبيعة نومهم كانت تختلف عن النوم العادى: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ ... لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً[۱۵۴]. إنّ هذه الآية تدل على أن نومهم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۳

يكن نوما عاديا، بل هو أشبه ما يكون بحالة الميت. (ذى العيون المفتوحة).

إضافة إلى ذلك تفيد آيات السورة أنّ نور الشمس لم يكن يشع داخل كهفهم، و لأنّه من المحتمل أن يكون الكهف فى جبال آسيا

الصغرى، و فى منطقة باردة، فإنّ ذلك يعدّ مؤشرا على الحالة الاستثنائية لنومهم، و من جانب آخر فإنّ القرآن يقول: وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ ۱۵۵].

و من الآية يتبيّن أنّهم لم يكونوا على حالة واحدة، و أنّ هناك عوامل و قوى غيبية خفية غير واضحة لنا كانت تقلبهم نحو اليمين و اليسار (احتمالا فى كل سنة مرّة واحدة) حتى لا تتضرّر أجسامهم.

و الآن و بعد أن اتّضحت الجوانب العلمية فى هذا البحث، فإنّ المعاد لم يعد يحتاج إلى كلام كثير، لأنّ اليقظة بعد ذلك النوم الطويل تشبه الحياة بعد الموت و تقرّب إلى الأذهان قضية المعاد[۱۵۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۲۸ الى ۳۱]

اشارة

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (۲۸) وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً (۲۹) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (۳۰) أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (۳۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۵

سبب النّزول

يروى المفسّرون فى سبب نزول الآيات الأولى فى هذا المقطع من سورة الكهف المباركة وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ... أنّ مجموعة من أشراف قريش و من المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا له: يا رسول اللّه، إن جلست فى صدر المجلس و نحّيت عنّا هؤلاء و روائح صنانهم (كانت عليهم جباب الصوف)[۱۵۷] جلسنا نحن إليك، و أخذنا عنك، لأنّه لا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء.

لقد كان هؤلاء الأشراف و المؤلفة قلوبهم يقصدون فى كلامهم المستضعفين و الفقراء من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أمثال سلمان الفارسى و أبى ذر الغفارى و صهيب و عمّار بن ياسر و خباب و غيرهم ممن كان على شاكلتهم، إذ كان هؤلاء ممن التفّ حول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ممن قربه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليه.

لذلك اشترط الأشراف على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يطرد أمثال هؤلاء الفقراء عن مجلسه و نعتوهم بشتى النعوت.

و هنا نزلت الآية الكريمة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ ... فلمّا نزلت الآية قام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يلتمسهم فأصابهم فى مؤخّر المسجد يذكرون اللّه عزّ و جلّ، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «الحمد اللّه الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى. معكم المحيا و معكم الممات».

التّفسير

الحفاة الأطهار!

من الدروس التى نستفيدها من قصّة أصحاب الكهف أنّ مقياس قيمة البشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۶

ليست بالمنصب الظاهرى أو بالثروة، بل عند ما يكون المسير فى سبيل اللّه يتساوى الوزير و الراعى، و الآيات التى نبحثها تؤكّد هذه الحقيقة المهمّة و تعطى للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا الأمر: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ إنّ استخدام تعبير اصْبِرْ نَفْسَكَ هو إشارة إلى حقيقة أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد تعرّض إلى ضغط الأعداء المستكبرين و المشركين حتى يبعد عنه مجموع المؤمنين الفقراء، لذلك جاءه الأمر الإلهى بالصبر و الاستقامة أمام هذا الضغط المتزايد و أن لا يستسلم له. إنّ استخدام تعبير بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِ إشارة إلى أنّهم كانوا دائما و أبدا يذكرون اللّه.

أمّا استخدام مصطلح يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۱۵۸] فهو دليل على إخلاصهم و إشارة إلى أنّهم يعبدون اللّه لذاته لا طمعا بالجنة (بالرغم من نعمها الكبيرة و الثمينة) و لا خوفا من الجحيم و عذابه (بالرغم من شدّة عذابها) بل يعبدون اللّه لأجل ذاته المنزّهة، و هذه أعلى مرتبة فى الطاعة و العبودية و الحبّ و الإيمان باللّه تعالى.

ثمّ تستمر الآيات مؤكّدة خطابها للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا[۱۵۹] فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا و زخارفها.

ثمّ من أجل التأكيد مجددا يقول تعالى: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا.

وَ اتَّبَعَ هَواهُ و المطيع لاهوائه النّفسية، و المفرط فى أفعاله دائما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۷

وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً[۱۶۰].

الطريف هنا أنّ القرآن وضع هاتين المجموعتين فى مقابل بعضهما من حيث الصفات، و كان الأمر كما يلى:

مؤمنون حقيقيون إلّا أنّهم فقراء، و لهم قلوب مملوءة بحبّ اللّه، يذكرونه باستمرار و يسعون إليه.

الأغنياء المستكبرون الغافلون عن ذكر اللّه، و الذين لا يتبعون سوى هواهم، و خارجون عن حدّ الاعتدال فى كل أمورهم و يفرطون و يسرفون.

إنّ الموضوع- أعلاه- من الأهمية بمكان، بحيث أنّ القرآن يقول للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بصراحة- فى الآية التى بعدها: وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

و لكن اعلموا أنّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التى يرتديها أمثال سلمان و أبى ذر خاصّة، و الذين يعيشون حياة مرفهة باذخة و مليئة بالزينة، ستنتهى عاقبهم إلى سوء و ظلام و عذاب: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها.

نعم، إنّهم كانوا اعطشوا فى هذه الدّنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، و لكنّهم عند ما يطلبون الماء فى جهنّم يؤتى إليهم بماء كالمهل: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ۱۶۱].

بِئْسَ الشَّرابُ

ثمّ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً[۱۶۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۸

تصوروا هل يمكن شرب الماء الذى إذا اقترب من الوجه فإنّ حرارته ستشوى الوجه؟ إن ذلك بسبب أنّهم شربوا فى الدنيا أنواع المشروبات المنعشة و الباردة، فى حين أنّهم أجّجوا فى قلوب المحرومين نيرانا، إنّ هذه النار هى نفسها التى تجسدت فى الآخرة بهذا

الشكل.

و الطريف فى أمر هؤلاء أنّ القرآن ذكر لهم بعض «التشريفات» و هم فى جهنّم. لقد كان لهؤلاء فى حياتهم الدنيا (سرادق) عالية و باذخة ليس فيها نصيب للفقراء، و هذه السرادق ستتحوّل إلى خيام عظيمة من لهيب نار جهنّم! و فى هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التى تحضر بين أيديهم بمجرّد مناداة الساقى، و فى جهنّم يوجد أيضا ساق و أشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنّه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى و آهات المستضعفين و الفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء! نعم، إنّ كل ما هو موجود هناك (فى الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (فى الدنيا).

و بما أنّ أسلوب القرآن أسلوب تربوى و تطبيقى، فإنّه بعد ما بيّن أوصاف و جزاء عبيد الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين و جوائزهم الثمينة الغالية التى تنتظرهم جزاء ما فعلوا. لقد أجملت الآية كل ذلك بشكل مختصر، ثمّ بشكل تفصيلى نوعا ما.

ففى البدء قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا أى إنّنا لا نضيع أعمال العاملين قليلة كانت أو كثيرة، كلية أو جزئية، و من أى شخص و فى أى عمر كان:

أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ (الجنات الخالدة).

تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ (من تحت الأشجار و القصور).

يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ۱۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۵۹

وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ (من حرير ناعم و سميك).

مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ ۱۶۴].

نِعْمَ الثَّوابُ

وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً (و حسنت مجمعا للأحبّة).

بحوث

۱- الرّوح الطبقية مشكلة اجتماعية كبيرة

ليست الآيات الآنفة الذكر- وحدها- تحارب تقسيم المجتمع إلى مجموعتين من الأغنياء و الفقراء، بل إنّنا نجد الكثير من الآيات القرآنية الأخرى، ممّا ذكرنا سابقا أو سنذكرها لاحقا، تؤكّد جمعها على هذا الموضوع.

إنّ المجتمع الذى تكون فيه مجموعة (و هى أقلية فى الغالب) مرفهة و غارقة فى الإسراف و التبذير و ملوّثة بأنواع المفاسد، سيكون فى مقابل هؤلاء مجموعة أخرى، هم الأكثرية التى لا تملك أبسط وسائل الحياة الإنسانية. و مثل هذا المجتمع يرفضه الإسلام و ليس مجتمعا إنسانيا.

مثل هذا المجتمع سوف لا يرى الاستقرار أبدا، و سوف يلقى الاستعمار و الاستكبار و أشكال الظلم و العبودية بضلال عليه. و غالبا ما تقوم الحروب الدامية فى مثل هذه المجتمعات و لا تنتهى الاضطرابات فيها أبدا.

و من الطبيعى أن يتساءل المرء عن أسباب تكدّس النعم الإلهية بيد حفنة معدودة من الناس و بدون سبب، بينما الأكثرية تعيش الفقر و الألم و العذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۰

و المرض؟

إنّ مثل هـذا المجتمع يكون مملوءا- حتمـا- بالكراهيـة و الحسـد و الكـبر و العـداء و الغرور و الظلم و التكّبر، و كـل عوامـل الفسـاد الأخرى.

و لو دققنـا النظر فى تأريـخ النّبوات لرأينـا أنّ الأنبيـاء عليهم السّـلام بأجمعهم، و خصوصا رسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم واجهوا هذا النظام المنحرف و الظالم و رموزه من الأغنياء الظالمين من أجل تأمين عوامل الاستقرار داخل المجتمع.

فى مثل هـذه المجتمعات الطبقيـة تكون جلسات و اجتماعات المترفين منفصـلة عن مجالس الفقراء، و أماكنهم، و كـذا الحال بالنسـبة لمراكز الـترفيه و مـا إلى ذلـك. (هـذا إذا كـان الفقراء يملكـون فى الأصـل مراكز للـترفيه). ثـمّ إنّ العـادات و التقاليـد تختلـف بين المجموعتين تماما.

إنّ هـذا الانفصـال المجـافى للروح الإنسانيـة، و روح كـل القوانين السـماوية، لن يتحملها أى رجل إلهى. و قـد كان مثل هـذا الوضـع حاكمـا بشـدّة فى المجتمع العربى الجاهلى، حتى كان هؤلاء يعتبرون التفاف الفقراء من أمثال سـلمان و أبو ذر حول رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من أكبر العيوب (!!) و لكن لم يعلم هؤلاء الأغنياء أن قلوب الفقراء هؤلاء مملوءة بحب اللّه و الإيمان و بصفات الشهامة و الإيثار.

فى المجتمع الجاهلى الذى عاصـر النّبى المصـلح نوح عليه السّلام، قال المترفون من الملأ عبيد الدنيا مخاطبين نوحا عليه السّلام: لماذا اتبعك الـذين هم أراذلنا (على حدّ قولهم) و لقد حكى القرآن اعتراضـهم هذا فى الآية (۲۷) من سورة هود فى قوله تعالى: فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا.

و هكذا نرى أنّ عبيد الدنيا و أتباع الهوى هؤلاء يرفضون الجلوس- حتى للحظات- قرب الفقراء المؤمنين! و لاحظنا- أيضا- كيف أن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطرده للمجموعة الأولى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۱

(الأغنـاء المترفين) و تقريبه للمجموعـة الثّانيـة (الفقراء المؤمنين) شـكّل مجتمعـا توحيـديا بمعنى الكلمـة، مجتمعا تفجّرت فيه الطاقات الكامنة، و أصبحت فيه معايير الشخصية و القيم و النبوغ، هى التقوى و العلم و الإيمان و الجهاد و العمل الصالح.

و اليوم ما لم نسع لبناء مثل هذا المجتمع و الاقتداء بالنموذج الإسـلامى الذى شـيّده رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى عهده، و بدون نبذ الفكر الطبقى من العقول عن طريق التعليم و التربية و تدوين القوانين الصـحيحة و السهر على تنفيذها بدقّة- بالرغم من رفض الاستكبار العالمى و تعويقه لذلك- فسوف لن نملك مجتمعا إنسانيا سليما أبدا.

۲- المقارنة بين الحياة فى هذا العالم و عالم الآخرة:

لقـد قلنـا مرارا: إنّ تجسّـد الأعمـال هو من أهم القضايـا المرتبطـة بالمعاد. يجب أن نعلم أنّ ما هو موجود فى ذلك العالم هو انعكاس واسع و متكامـل لهـذا العالم، فأعمالنا و أفكارنا و أساليبنا الاجتماعيـة و صـفاتنا الأخلاقيـة المختلفـة سوف تتجسّم و تتجسّـد أمامنا فى ذلك العالم و ستبقى قرينة لنا دائما.

الآيات- أعلاه- دليل حى على هـذه الحقيقـة، فالمترفون الظالمون الـذين كانوا يعيشون فى هـذه الـدنيا فى ظل سـرادق عالية، و كانوا سكارى بهواهم، وسـعوا إلى فصل كل شـىء يخصّهم عن المؤمنين الفقراء، هؤلاء يملكون فى ذلك العالم أيضا (سرادق) و لكنّها من النار الحارقة، لأنّ الظلم فى حقيقته نار حارقة تحرق الحياة و تذروا آمال المستضعفين المظلومين.

هناك يشربون من شراب يجسّد باطن شراب الدنيا، و هو بالنسبة للظالمين الطغاة شراب من دماء قلوب المحرومين، و مثل هذا الشراب

يقدّم للظالمين فى ذلك العالم، و هو لا يحرق أمعاءهم و أحشاءهم فحسب، بل يكون كالمعدن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۲

المذاب الذى يشوى الوجوه قبل شربه من شدّة حرارته.

و على العكس من ذلك أولئك الذين تركوا الشهوات فى سبيل حفظ طهارة وجودهم و رعاية أصول العدالة، و الذين اقتنعوا بحياة بسيطة، و تحمّلوا كل الصعوبات و المنغصات فى هذه الدنيا من أجل تنفيذ أصول العدالة .. هؤلاء تنتظرهم هناك بساتين الجنّة مع الأنهار الجارية، و أفضل أنواع الزينة و أفخر الألبسة، و أحبّ المجالس. و هذا فى الواقع تجسيد لنياتهم النزيهة حيث كانوا يريدون كل الخير لجميع عباد اللّه.

۳- العلاقة بين عبادة الهوى و الغفلة عن اللّه

الروح الإنسانية تخضع إمّا للّه تعالى أو للأهواء، حيث لا يمكن الجمع بين الإثنين، فعبادة الأهواء أساس الغفلة عن اللّه و عبادة اللّه، عبادة الهوى هى سبب الابتعاد عن جميع الأصول الأخلاقية؛ و أخيرا فإنّ عبادة الهوى تدخل الإنسان فى ذاته و تبعده عن جميع حقائق العالم.

إنّ الإنسان الذى يعبد هواه لا يفكّر إلّا فى إشباع شهواته، و لا يوجد لديه معنى للفتوّة و العفو و الإيثار و التضحية و الشيم المعنوية الأخرى.

و قد أوضحت الآيات محل البحث الربط و العلاقة بين الإثنين بشكل جلى فى قوله تعالى: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

لقد طرحت الآية أوّلا (الغفلة) عن اللّه تعالى، ثمّ ذكرت بعدها (أتباع الهوى)، و الطريف أنّ نتيجة هذا الأمر هو الإفراط و بالشكل المطلق الذى ذكرته الآية.

لماذا يكون عابد الهوى مصابا بالإفراط دائما؟

قد يكون السبب أنّ الطبيعة الإنسانية تتجه فى الملذات المادية نحو الزيادة دوما، فالذى كان يشعر بالنشوة بمقدار معين من المخدرات، لا يكفيه نفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۳

المقدار فى اليوم التالى لبلوغ نفس درجة النشوة، بل عليه زيادة الكمية بالتدريج، و الشخص الذى كان يكفيه فى السابق قصر واحد مجهّز بجميع الإمكانات و بمساحه عدة آلاف بين الأمتار، يصبح اليوم إحساسه بهذا القصر عاديا، فينشد الزيادة. و هكذا فى جميع مصاديق الهوى و الشهوة حيث أنّها دائما تنشد الزيادة حتى تهلك الإنسان نفسه.

۴- ملابس الزينة فى العالم الآخر

قد يطرح البعض هذا السؤال: لقد ذمّ اللّه تعالى الزينة و التزيّن فى القرآن بالنسبة لهذه الحياة، إلّا أنّه يعد المؤمنين بمثل هذه الأمور فى ذلك العالم، إذ تنص الآيات على الذهب و ملابس الحرير و الإستبرق و السرر المساند الجميلة؟

قبل الإجابة على هذا السؤال ينبغى أن نوضّح بأنّنا لا نوافق على توجيه هذه الكلمات على أنّها كناية عن مفاهيم معنوية و يفسّرون الآيات على هذا الأساس، لقد تعلمنا من القرآن الكريم أنّ المعاد ذو جانبين: معاد روحانى و معاد جسمانى.

و على هـذا الأسـاس، فـإنّ لـذات ذلـك العـالم يجب أن تكون موجودة فى المجـالين، و اللـذات الروحيـة- طبعا- لا يمكن مقايسـتها باللذات الجسمية. و لكن لا بدّ من الاعتراف بأنّنا لا نعرف من نعم ذلك العالم سوى أشباح بعيدة، و نسمع كلاما يشير إليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۲۶۳

اذا؟ لأنّ نسـبة ذلك العالم إلى عالمنا هذا كنسبة عالمنا إلى عالم الجنين فى بطن الأم، فإذا قدّر للأم أن تقيم رابطة بينها و بين الجنين، فلا يسعها إلّا أن توضح للجنين بالإشارات جمال هذه الدنيا بشمسها الساطعة و قمرها المنير، و العيون الفوّارة، و البساتين و الورود و ما شابهها، حيث لا توجد ألفاظ كافية لتبيان كل هذه المفاهيم للجنين فى رحم الأم كى يفهمها و يستوعبها.

كذلك فإنّ النعم المادية و المعنوية لعالم الآخرة لا يمكن توضيحها لنا بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۴

كامل و نحن محاصرون فى أبعاد رحم هذه الدنيا.

و مع وضوح هـذه المقدمـة نجيب على السؤال و نقول: إن ذم اللّه عز اسـمه لحياة الزينة و الترف فى هذه الدنيا يعود إلى أن محدودية هذا العالم تسبب أن تقترن الزينة و الترف مع أنواع الظلم و الانحراف الذى يكون بدوره سببا للغفلة و الانقطاع عن اللّه.

إنّ الاختلافات التى تبرز خلال هذا الطريق ستكون سببا للحقد و الحسد و العداوة و البغضاء، و أخيرا إراقة الدماء و الحروب.

أمّا فى ذلك العالم اللامحدود من جميع الجهات، فإنّ الحصول على هذه الزينة لا يسبّب مشكلة و لا يكون سببا للتمييز و الحرمان، و لا للحقد و النفرة، و لا يبعد الإنسان عن اللّه فى ذلك المحيط المملوء بالمعنويات حيث لا حسد و لا تنافس و لا كبر و لا غرور تؤدى ابتعاد خلق اللّه عن اللّه، كما فى زينة الحياة الدنيا.

فإذا كان الحال كـذلك فلما ذا يحرم أهل الجنـة من هـذه المواهب و العطايا الإلهيـة التى هى لذّات جسـمية إلى جانب كونها مواهب معنوية كبيرة!

۵- الاقتراب من الأثرياء بسبب ثروتهم:

الدرس الآخر الذى نتعلمه من الآيات الآنفة، هو أنّه يجب علينا أن لا نمتنع عن إرشاد و توجيه هذه المجموعة- أو تلك- بسبب كونها ثريـة أو ذات حياة مرّفهـة، بل إنّ الشـىء المـذموم هو أن نذهب لهؤلاء لأجل ثروتهم و دنياهم المادية، و نصـبح مصداقا لقوله تعالى: تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا أمّا إذا كان الهدف هو الهداية و الإرشاد، أو حتى الاستفادة من إمكانياتهم من أجل تنفيذ النشاطات الإيجابية و المهمّة اجتماعيا، فانّ مثل هذا الهدف لا يعتبر غير مذموم و حسب، بل هو واجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۵

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۳۲ الى ۳۶]

اشارة

وَ اضْـرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَـدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (۳۲) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (۳۳) وَ كـانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً (۳۴) وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (۳۵) وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (۳۶)

التّفسير

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين:

فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ عبيد الدنيا كانوا يحاولون الابتعاد فى كل شىء عن رجال الحق و أهله المستضعفين، ثمّ عرّفتنا الآيات جزاءهم فى الحياة الأخرى.

الآيات التى نبحثها تشير إلى حادثة اثنين من الأصدقاء أو الإخوة الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۶

يعتبر كل واحد منهم نموذجا لإحدى المجموعتين، و يوضحان طريقة تفكير و قول و عمل هاتين المجموعتين.

فى البداية تخاطب الآيات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً.

البستان و المزرعة كان فيهما كل شىء: العنب و التمر و الحنطة و باقى الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة و مكفية من كل شىء: كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً.

و الأهم من ذلك هو توفّر الماء الذى يعتبر سر الحياة، و أمرا مهمّا لا غنى للبستان و المزرعة عنه، و قد كان الماء بقدر كاف: وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً.

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ.

و لأنّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته و رأى أن الإحساس العميق بالأفضلية و التعالى على الآخرين، حيث التفت و هو بهذه الحالة إلى صاحبه: فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

بناء على هذا فأنا أملك قوّة إنسانية كبيرة و عندى مال و ثروة، و أنا أملك- أيضا- نفوذا و موقعا اجتماعيا، أمّا أنت (و الخطاب لصاحبه) فما ذا تستطيع أن تقول، و هل لديك ما تتكلم عنه؟! لقد تضخّم هذا الإحساس و نما تدريجيا- كما هو حاله- و وصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة و المال و الجاه و النفوذ إنّما هى أمور أبديّة، فدخل بغرور إلى بستانه (فى حين أنّه لا يعلم بأنّه يظلم نفسه) و نظر إلى أشجاره الخضراء التى كادت أغصانها أن تنحنى من شدّة ثقل الثمر، و سمع صوت الماء الذى يجرى فى النهر القريب من البستان و الذى كان يسقى أشجاره، و بغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، و بلسان الآية و تصوير القرآن الكريم:

وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۷

بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أنّ الخلود فى هذا العالم بتعارض مع البعث و المعاد، لذا فقد فكّر فى إنكار القيامة و قال: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً و هذا كلام يعكس و هم قائلة و تمنياته! ثمّ أضاف! حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنّى بموقعى و وجاهتى سأحصل عند ربّى- إذا ذهبت إليه- على مقام و موقع أفضل. لقد كان غارقا فى أوهامه وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً.

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التى يعيشها و التى صورها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه فى كل فترة و هما بعد آخر من أمثال ما حكت عنه الآيات آنفا، و عند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن و أجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۸

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۳۷ الى ۴۱]

اشارة

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (۳۷) لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (۳۸) وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً (۳۹) فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (۴۰) أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (۴۱)

التّفسير

جواب المؤمن:

هذه الآيات هى ردّ على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن.

لقد بدأ الكلام بعد أن ظلّ صامتا يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيق و الفكر المحدود، حتى ينتهى من كلامه، ثمّ قال له:

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۶۹

يُحاوِرُهُ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.

و هنا قد يثار هذا السؤال، و هو: إنّ كلام ذلك الرجل المغرور المتكبر الذى مرّ ذكره فى الآيات الآنفة، لم يصرّح فيه بإنكار الحق جلّ و علا، فى حين أنّ جواب الإنسان المؤمن ركزّ فيه أوّلا على إنكاره للخالق!؟ لذلك فإنّه وجّه نظره أوّلا إلى قضية خلق الإنسان التى هى من أبرز أدلة التوحيد و التوجّه نحو الخالق العالم القادر. اللّه الذى خلق الإنسان من تراب، حيث امتصت جذور الأشجار المواد الغذائية الموجودة فى الأرض، و الأشجار بدورها أصبحت طعاما للحيوانات، و الإنسان استفاد من هذا النبات و لحم الحيوان، و انعقدت نطفته من هذه المواد، ثمّ سلكت النطفة طريق التكامل فى رحم الأم حتى تحوّلت إلى إنسان كامل، الإنسان الذى هو أفضل من جميع موجودات الأرض، فهو يفكّر و يصمّم و يسخّر كلّ شىء لأجله.

نعم، إنّ هذا التراب عديم الأهمية يتحوّل إلى هذا الموجود العجيب، مع هذه الأجهزة المعقدة الموجودة فى جسم الإنسان و روحه، و هذا من الدلائل العظيمة على التوحيد.

و فى الجواب على السؤال المثار ذكر المفسّرون تفاسير معتدّدة نجملها فيما يلى:

۱- قالت مجموعة منهم: بما أنّ هذا الرجل المغرور أنكر بصراحة المعاد و البعث أو شككك فيه، فإنّه يلزم من ذلك إنكار الخالق، لأنّ منكر المعاد الجسمانى ينكر فى الواقع قدرة اللّه، و لا يصدّق بأنّ هذا التراب المتلاشى سوف تعود له الحياة مرّة أخرى، لذا فإنّ الرجل المؤمن مع ذكره للخلق الأوّل من تراب، ثمّ من نطفة، ثمّ بإشارته للمراحل الأخرى- أراد أن يلفت نظره إلى القدرة غير المتناهية للخالق حتى يعلم بأنّ قضية المعاد يمكن مشاهدتها هنا و تمثّلها بأعيننا فى واقع هذه الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۰

۲- و قال آخرون: إنّ شركه و كفره كانا بسبب ما رآه لنفسه من استقلال فى المالكية و ما تصوره من دوام و أبدية هذه الملكية.

۳- الاحتمال الثّالث أنّه لا يبعد أن يكون الرجل قد أنكر الخالق فى بعض كلامه و لم يذكر القرآن هذا المقطع من كلامه. و قد يتوضح الأمر بقرينة جواب الرجل المؤمن، لذا نرى فى الآية التى بعدها أنّ الرجل المؤمن قال لصاحب البستان ما مضمونه: إن كنت أنكرت وجود خالقك و سلكت طريق الشرك، إلّا أنّنى لا أفعل ذلك أبدا.

على أى حال، ثمّة علاقة واضحة تربط بين الاحتمالات الثلاثة، و يمكن أن يكون كلام الرجل المؤمن الموحّد إشارة الى هذه الاحتمالات جميعا.

ثمّ عمد الرجل الموحّد المؤمن إلى تحطيم كفر و غرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّى ۱۶۵]. و إنّى أفتخر بهذا الإعتقاد و أتباهى به، إنّك تفتخر بأنّك تملك بستانا و مزرعة و فواكه و ماءا كثيرا؛ إلّا أنّنى أفتخر بأنّ اللّه ربّى، إنّه خالقى و رازقى؛ إنّك تتباهى بدنياك و أنا أفتخر بعقيدتى و إيمانى و توحيدى:

وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَداً.

و بعد أن أشار إلى قضية التوحيد و الشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدّد لومه لصاحبه قائلا: وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ ۱۶۶].

فلما ذا لا تعتبر كل هذه النعم من الخالق جلّ و علا، و لماذا لم تشكره عليها.

و لماذا لم تقل: لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ

فإذا كنت قد هيّأت الأرض و بذرت البذور و زرعت الغرس و ربيت الأشجار، و فعلت كلّ شىء فى وقته المناسب حتى وصل الأمر إلى ما وصل إليه؛

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۱

فإنّ كل هذه الأمور هى من قدرة الخالق جلّ و علا، و قد وضع سبحانه و تعالى الوسائل و الإمكانات تحت تصرفك، حيث أنّك لا تملك شيئا من عندك، و بدونه تكون لا شىء! ثمّ يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالا و ولدا: إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً.

فَعَسى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ

و ليس فقط أن يعطينى أفضل ممّا عندك، بل و يرسل صاعقة من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً.

أو أنّه سبحانه و تعالى يعطى أوامره إلى الأرض كى تمنعك الماء: أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً.

«حسبان» على وزن «لقمان» و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثمّ وردت بعد ذلك بمعنى السهام التى تحسب عند رميها، و تأتى أيضا بمعنى الجزاء المرتبط بحساب الأشخاص، و هذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد» تعنى القشرة التى فوق الأرض. و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق» بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث أنّ قدم الإنسان تنزلق عليها (الطريف ما يقوم به الإنسان اليوم حيث تتمّ عملية تثبيت الأرض و الرمال المتحركة، و منع القرى من الاندثار تحت هذه الرمال عند هبوب العواصف الرملية، و ذلك من خلال زراعتها بالنباتات و الأشجار، أو- كما يصطلح عليه- إخراجها من حال الزلق و الانزلاق).

فى الواقع، إنّ الرجل المؤمن و الموحّد حذّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنّها جميعا فى طريقها إلى الزوال و هى غير قابلة للاعتماد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۲

إنّه أراد أن يقول لصاحبه: لقد رأيت بعينيك- أو على الأقل سمعت بأذنك- كيف أنّ الصواعق السماوية جعلت من البساتين و البيوت و المزروعات- و خلال لحظة واحدة- تلّا من التراب و الدمار و أصبحت أرضهم يابسة عديمة الماء و الكلأ.

و أيضا سمعت أو رأيت بقيام هزة أرضية تطمس الأنهار و تجفّف العيون، بحيث تكون غير قابلة للإصلاح و الترميم.

و بمعرفتك لكل هذ الأمور فلم هذا الغرور؟! أنت الذى شاهدت أو سمعت كل هذا، فلم هذا الانشداد للأرض و الهوى؟

ثمّ لماذا تقول: لا أعتقد أن تزول هذه النعم و أنّها باقية و خالدة؛ فلما ذا هذا الجهل و البلاهة!!!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۳

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (۴۲) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً (۴۳) هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً (۴۴)

التّفسير

العاقبة السوداء:

أخيرا انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثر الشخص الموحّد المؤمن فى أعماق الغنى المغرور، الذين رجع إلى بيته و هو يعيش نفس الحالة الروحية و الفكرية، و غافل أنّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه و مزروعاته الخضراء، و أنّه وجب أن ينال جزاء غروره و شركه فى هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

و يحتمل أنّ العذاب الإلهى قد نزل فى تلك اللحظة من الليل عند ما خيّم الظلام، على شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هو جاء مخيفة، أو على شكل زلزال مخرّب و مدمّر. و أيّا كان فقد دمّرت هذه البساتين الجميلة و الأشجار العالية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۴

و الزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهى بتلك المحصولات من كل جانب:

وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ

«أحيط» مشتقّة من «إحاطة» و هى فى هذه الموارد تأتى بمعنى (العذاب الشامل) الذى تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

و عند الصباح جاء صاحب البستان و تدور فى رأسه الأحلام العديدة ليتفقد و يستفيد من محصولات البستان، و لكنّه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش و موحش، بحيث أنّ فمه بقى مفتوحا من شدة التعجّب، و عيناه توقفتا عن الحركة و الاستدارة.

لم يكن يعلم بأنّ هذا المنظر يشاهده فى النوم أم فى اليقظة! الأشجار جميعها ساقطة على التراب، النباتات مدمّرة، و ليس ثمّة أى أثر للحياة هناك! كان الأمر بشكل و كأنّه لم يكن هناك بستان و لا أراضى مزروعة، كانت أصوات (البوم)- فقط- تدوى فى هذه الخرائب، قلبه بدأ ينبض بقوّة، بهت لونه، يبس الماء فى فمه، و تحطّم الكبرياء و الغرور اللذان كانا يثقلان نفسه و عقله.

كأنّه صحا من نوم عميق: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها.

و فى هذه اللحظة ندم على أقواله و أفكاره الباطلة: وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً.

و الأكثر حزنا و أسفا بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة فى مقابل كل هذه المصائب و الابتلاءات: وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

و لأنّه فقد ما كان يملكه من رأس المال و لم يبقى لديه شىء آخر، فإنّ مصيره: وَ ما كانَ مُنْتَصِراً.

لقد انهارت جميع آماله و ظنونه الممزوجة بالغرور، لقد أدت الحادثة إلى انتهاء كل شىء، فهو من جانب كان يقول: إنّى لا أصدق بأنّ هذه الثروة العظيمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۵

من الممكن أن تفنى، إلّا أنّنى رأيت فناءها بعينى! و من جانب آخر فقد كان يتعامل مع رفيقه المؤمن بكبر و يقول: إنّنى أقوى منك و أكثر أنصارا و مالا، و لكنّه بعد هذه الحادثة اكتشف أن لا أحد ينصره! و من جانب ثالث فإنّه كان يعتمد على قوته و قدرته الذاتية، و يعتقد بأنّ غير قدرته محدودة، لكنّه بعد هذه الحادثة، و بعد أن لم يكن بمقدوره الحصول على شىء، انتبه إلى خطئه الكبير، لأنّه لم يعد يتملك شيئا يعوضه جانبا من تلك الخسارة الكبرى.

و عادة، فإنّ الأصدقاء الذين يلتفون حول الإنسان لأجل المال و الثروة مثلهم كمثل الذباب حول الحلوى، و قد يفكّر الإنسان أحيانا بالاعتماد عليهم فى الأيّام الصعبة، و لكن عند ما يصاب فيما يملك يتفرق هؤلاء الخلّان من حوله، لأنّ صداقتهم له لم تكن لرابط معنوى، بل كانت لأسباب مادية، فإذا زالت هذه الأسباب انتفت الرفقة! و هكذا انتهى كل شىء و لا ينفع الندم، لأنّ مثل هذه اليقظة الإجبارية التى تحدث عند نزول الابتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون و نمرود، و هى بلا قيمة، لهذا فإنّها لا تؤثّر على حال من ينتبه.

صحيح أنّه ذكر عبارة لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً و هى نفس الجملة التى كان قد قالها له صديقه المؤمن، إلّا أنّ المؤمن قالها فى حالة السلامة و عدم الابتلاء، بينما ردّدها صاحب البستان فى وقت الضيق و البلاء.

هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِ نعم، لقد اتضح أنّ جميع النعم منه تعالى، و أنّ كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، و أنّه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً.

إذن، لو أراد الإنسان أن يحب أحدا و يعتمد على شىء ما، أو يأمل بهديه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۶

شخص ما، فمن الأفضل أن يكون اللّه سبحانه محط أنظاره، و موقع آماله، و من الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى و إحسانه.

بحثان

۱- غرور الثروة

فى هذه القصّة نشاهد تجسيدا حيا لما نطلق عليه اسم غرور الثروة، و قد عرفنا أنّ هذا الغرور ينتهى أخيرا إلى الشرك و الكفر. فعند ما يصل الأفراد الذين يعيشون حياتهم بلا غاية و هدف إيمانى إلى منزلة معينة من القدرة المالية أو الوجاهة الاجتماعية، فإنّهم فى الغالب يصابون بالغرور. و فى البداية يسعون إلى التفاخر بإمكاناتهم على الآخرين و يعتبرونها وسيلة تفوّق، و يرون من التفاف أصحاب المصالح حولهم دليلا على محبوبيتهم، و قد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

و يتبدّل حبّ هؤلاء للدنيا تدريجيا بفكرة الخلود فيها: ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً.

إنّ ظنّهم بخلود ثرواتهم المادية يجعلهم ينكرون المعاد للتضاد الواضح بين ما هم فيه و بين مبدأ البعث و المعاد، فيكون لسان حالهم: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً.

و الأنكى من ذلك هو أنّهم يعتبرون مقامهم و وجاهتهم فى هذه الدنيا دليلا على قرب مقامهم من محضر القدس الإلهى، فيقولون: وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً.

هذه المراحل الأربع نجدها واضحة فى حياة أصحاب القدرة من عبيد الدنيا، مع فوارق نسبية فيما بينهم، فيبدأ مسيرهم الانحرافى من الاغترار بما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۷

لـدیهم من قوة و قـدرة، و یتصاعـد انحرافهم إلی الشـرک و عبـادة الأصـنام و الکفر و إنکـار المعاد، لأنّهم یعبـدون القـدرة المادیـة و یجعلونها صنما دون سواها.

۲-

دروس و عبر

هذا المصیر المقترن بالعبرة و الذی ذکر هنا بشـکل سریع یتضمّن بالإضافة إلی الدرس الآنف، دروسا أخری ینبغی أن نتعلمها، و هذه الدروس هی:

أ: مهما کانت نعم الدنیا المادیة کبیرة و واسعة، فإنّها غیر مطمئنة و غیر ثابتة، فصاعقة واحدة تستطیع فی لیلة أو فی لحظات معدودة أن تبید البساتین و المزارع التی یکمن فیها جهد سنین طویلة من عمر الإنسان، و تحیلها إلی تل من تراب و رماد و أرض یابسة زلقة.

إنّ زلزلة واحدة خفیفة یمکن أن تقضی علی العیون الفّوارة التی هی الأصل فی هذه الحیاة، بالشکل الذی لا یمکن معه ترمیمها أبدا.

ب: إنّ الأصدقاء الذین یلتفون حول الإنسان بغرض الإفادة من إمکاناته المادیة هم بدرجة من اللامبالاة و علی قدر من الغدر و الخیانة بحیث أنّهم یتخلّون عنه فی نفس اللحظـة التی تزول فیها إمکاناته المادیة و یترکونه وحیدا لهمومه: وَ لَمْ تَکُنْ لَهُ فِئَةٌ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

هـذا النوع من الأحـداث الـذی طالما سـمعنا و رأینا له نماذج تبرهن علی أنّ الإنسان لا یملک سوی التعلق باللّه وحده، و أنّ الأصدقاء الحقیقیین و الأوفیاء للإنسان هم الـذین تصـنعهم الروابط و العلائق المعنویة، إذ یسـتمر ودّ هؤلاء فی حال الفقر و الثروة، فی الشـباب و الشیبة، فی الصحة و المرض، فی العز و الذلة، بل و تستمر مودّة هؤلاء إلی ما بعد الموت! ج: لا فائدة من الصحوة بعد نزول البلاء:

لقد أشرنا مرارا إلیّ أنّ الیقظة الإجباریة لدی الإنسان لیست دلیلا علی یقظة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۸

داخلیـة حقیقیـة هادیة، و لیست علامة علی تغییر مسـیر الإنسان، أو ندمه علی أعماله السابقة و علی ما کان فیها من معصـیة و انحراف، بـل کـل ما فی الأمر هو أنّ الإنسان عنـد ما ینزل بساحته البلاء أو یری عمود المشـنقة، أو تحیط به أمواج البلاء و العواصف، فهو یتأثر للحظـات لاـ تتعـدی مـدة البلاـء و یتخـذ قرارا بتغییر مصـیره، و لکن لأـنّه لا یملک أساسا متینا فی أعماقه، فإنّه بانتهاء البلاء یغفل عن صحوته هذه و یعود إلی خطّة و مسیره الأوّل.

لو تأملنا الآیة (۱۸) من سورة النساء لرأینا من خلالها أنّ أبواب التوبـة تغلق أمام الإنسان عند رؤیة علائم الموت، و سـبب هذا الأمر هو ما ذکرناه أعلاه.

و فی الآیات (۹۰- ۹۱) من سورة یونس یقول القرآن حول فرعون عند ما صار مصـیره إلی الغرق و عصفت به الأمواج، فإذا به یصرخ و یقول: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ إلّا أنّ هذه التوبة ترد علیه و لا تقبل منه:

آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ د: لا الفقر دلیل الذلة و لا الثروة دلیل العزة:

و هـذا درس آخر نتعلمه من الآیات أعلاه، طبیعی أنّ المجتمعات المادیة و المذاهب النفعیة غالبا ما تتوهم بأنّ الفقر و الثروة هما دلیل الذلـة و العزة، لهـذا السـبب لاحظنا أنّ مشـرکی العصـر الجاهلی یعجبون من یتمّ رسول الإسـلام صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و فقره و یقولون: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلی رَجُلٍ مِنَ الْقَرْیَتَیْنِ عَظِیمٍ ۱۶۷].

ه: أسلوب تحطیم الغرور:

عند ما تبدأ بواعث الغرور تقترب من الإنسان و تناجى أعماقه بسبب المال و المنصب، فيجب عليه أن يقطع تلك الوسوسة من جذورها، عليه أن يتذكر ذلك اليوم الذى كان فيه ترابا لا قيمة له، و ذلك اليوم الذى كان فيه نطفة لا قيمة لها، عليه أن يعى اللحظة التى كان فيها وليدا ضعيفا لا يقدر على الحركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۷۹

لاحظنا القرآن فى الآيات الآنفة كيف يعيد من خلال خطاب الرجل المؤمن، صاحب البستان إلى وضعه العادى: أَ كَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.

و: درس من عالم الطبيعة:

القرآن عند ما يصف البساتين المثمرة يقول: وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً و لكنّه عند ما يتحدث عن صاحب البستان يقول: وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ

يعنى: أيّها الإنسان، أنظر إلى الوجود من حولك، و لا حظ أنّ هذه الأشجار المثمرة و الزراعة المباركة كيف آتت كل ما عندها بأمانة و قدمته لك، فلا مجال عندها للاحتكار و الحسد و البخل، فعالم الوجود هو ساحة للإيثار و البذل و العفو، فما تمتلكه الأرض تقدمه بإيثار إلى الحيوانات و النباتات، و تضع الأشجار و النباتات كل ثمارها و مواهبها فى إختيار الإنسان و الأحياء الأخرى، و قرص الشمس يضعف يوما بعد آخر و هو يشع النور و الدفء و الحرارة، الغيوم تمطر و الرياح تهب، لتتسع أمواج الحياة فى كل مكان.

هذا هو نظام الوجود، و لكنّك أيّها الإنسان تريد أن تكون سيد الوجود و مع ذلك تسحق قوانينه الثابتة البيّنة. فتكون رقعة نشاز غير متناسقة فى عالم الوجود تريد أن تستحوذ على كل شىء و تصادر حقوق الآخرين!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۰

الآيتان [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۵ الى ۴۶]

اشارة

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (۴۵) الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا (۴۶)

التّفسير

بداية و نهاية الحياة فى لوحة حيّة:

الآيات السابقة تحدّثت عن عدم دوام نعم الدنيا، و لأنّ إدراك هذه الحقيقة لعمر بطول (۶۰- ۸۰) سنة يعتبر أمرا صعبا بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإنّ القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حى و معبّر كى يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم و نومهم عند ما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدّة مرّات خلال عمرهم.

يقول تعالى: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال و الصحراء، و تعيد الحياة للبذور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۱

المستعدة الكامنة فى الأرض المستعدّة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إنّ الطبقـة الخارجيـة السـميكة للبـذور تلين قبال المطر، و تسـمح للبراعم فى الخروج منها، و أخيرا تشق هـذه البراعم التراب و تخترقه، الشـمس تشع، النسـيم يهب، المواد الغذائيـة فى الأـرض تقـدّم ما تسـتطيع، تتقوى البراعم بسـبب عوامل الحياة هـذه ثمّ تواصل نموها، بحيث- بعد فترة- نرى أن نباتات الأرض تتشابك فيما بينها: فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ

الجبـل و الصـحراء يتحولـن إلى قوّة حياتيـة دافعـة، أمّـا الـبراعم و الفواكه و الأـوراد فإنّهـا تزيّن الأغصـان، و كـأنّ الجميع يضـحك، يصـرخون صـراخ الفرح، يرقصون فرحا! لكن هـذا الواقع الجـذّاب لا يدوم طويلا، حيث تهب رياح الخريف و تلقى بغبار الموت على النباتـات، يبرد الهواء، و تشـح الميـاه، و لاـ تمضـى مـدّة حتى يمسـى ذلك الزرع الجميل الأخضـر ذو الأغصان المورقـة، ميتا و يابسا: فَأَصْبَحَ هَشِيماً[۱۶۸].

تلك الأوراق التى لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان فى فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث أنّ أى نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان و يرسلها إلى أى مكان شاء: تَذْرُوهُ الرِّياحُ ۱۶۹].

نعم: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً.

الآية التى بعدها تذكر وضع المال و الثروة و القوة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين فى الحياة الدنيا، حيث تقول: الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا.

إنّ هـذه الآيـة- فى الحقيقـة- تشـير إلى أهـم قسـمين فى رأسـمال الحيـاة حيث ترتبـط الأشـياء الأـخرى بهمـا، إنّهـا تشـير إلى (القـوّة الاقتصادية) و (القوّة الإنسانية)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۲

لأـنّ وجودهمـا ضـرورى لتحقيق أى هـدف مـادى، خاصّـة فى الأزمنـة السابقـة إذ كان من يملك أبناء أكثر يعتبر نفسه أكثر قوة، لأنّ الأبناء هم ركن القوّة، و قـد وجـدنا فى الآيات السابقة أنّ صاحب البسـتان الغنى كان يتباهى بأمواله و أعوانه على الآخرين و يقول: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.

لذا فإنّهم كانوا يعتمدون على «البنين» جمع (ابن) و المقصود به الولد الذكر، حيث كانوا يعتبرون الولد رأسـمال القوّة الفعّالة للإنسان، و بالطبع ليس للبنات نفس المركز أو المقام.

المهم أنّ الْمالُ وَ الْبَنُونَ بمثابة الورد و البراعم الموجودة على أغصان الشـجر، إنّها تزول بسـرعة و لا تستمر طويلا، و إذا لم تستثمر فى طريق المسير إلى (اللّه) فلا يكتب لها الخلود، و لا يكون لها أدنى اعتبار.

و رأينا أنّ أكثر الأموال ثباتا و دواما و المتمثلة فى البستان و الأرض الزراعية و عين الماء قد أبيدت خلال لحظات.

و فيمـا يخص الأبنـاء، فبالإضافـة إلى أنّ حيـاتهم و سـلامتهم معرّضـة للخطر دائما، فهم يكونون فى بعض الأحيان أعـداء بـدلا من أن يكونوا عونا فى اجتياز المشاكل و الصعوبات.

ثمّ يضيف القرآن: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا.

بالرغم من أنّ بعض المفسّـرين أرادوا حصـر مفهوم (الباقيات الصالحات) فى دائرة خاصّة مثل الصلوات الخمس أو ذكر: سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، و أمثال هذه الأمور، إلّا أنّ الواضح أنّ هذا التغيير هو من السـعة بحيث يشـمل كل فكره و قول و عمل صالح تدوم و تبقى آثاره و بركاته بين الأفراد و المجتمعات.

فـإذا رأينـا فى بعض الرّوايـات أنّ الباقيات الصالحات تفسّـر بصـلاة الليل، أو مودة أهل البيت عليهم السّـلام، فإن الغرض من ذلك هو بيان المصداق البارز، و ليس تحديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۳

المفهوم، خاصّة و إن بعض هذه الرّوايات استخدمت فيها كلمة (من) التى تدل على التبعيض.

فمثلا

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «لا تستصغر مودّتنا فإنّها من الباقيات الصالحات».

و

فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ قوله: «لا تتركوا التسبيحات الأربع فإنّها من الباقيات الصالحات».

و حتى الأموال المتزلزلة أو الأبناء الذين يكونون أحيانا فتنة و اختبارا، إذ استخدمت فى مسير اللّه تبارك و تعالى فإنّها ستكون من الباقيات الصالحات، لأنّ الذات المقدسة الإلهية ذات أبدية، فكل ما يرتبط بها و يسير نحوها سيكتب له البقاء و الابدية.

بحوث

۱- المغريات

مرّة أخرى توظّف الآيات أعلاه دور المثال فى تجسيد المعانى و استيعابها.

إنّ القرآن- من خلال مثل واحد- يعكس مجموعة من الحقائق العقلية التى قد يكون من الصعب دركها من قبل الكثير من الناس.

يقول للناس: إنّ دورة حياة النبات و موته تتكرّر أمّا أعينكم فى كل سنة مرّة، فإذا كان عمر الإنسان (۶۰) سنة فإنّ هذا المشهد يتكرر أمامكم (۶۰) مرّة.

إذا ذهبتم فى الربيع إلى الصحراء فستشاهدون تلك المناظر الجميلة و التى يدل كل ما فيها على الحياة، و لكن لو ذهبتم فى الخريف إلى نفس تلك الأماكن فسوف ترون الموت ينشر أجنحته فى كل مكان.

إنّ مثل الإنسان فى حياته كمثل النبتة، فهو فى يوم كان طفلا كالبرعم، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۴

أصبح شابا كالوردة المملوءة طراوة، ثمّ يصبح كهلا ضعيفا كالنبتة الذابلة اليابسة ذات الأوراق الصفراء، ثمّ إنّ عاصفة الموت تحصد هذا الإنسان لينتشر بعد فترة تراب جسده المتهرئ- بواسطة العواصف- إلى مختلف الاتجاهات و الأماكن.

و لكن قد تنتهى دورة الحياة بصورة غير طبيعية، بمعنى أنّها لا ترتقى إلى نهاية شوطها، إذ من الممكن أن تنتهى فى منتصف الشوط بواسطة صاعقة أو عاصفة كما فى قوله تعالى فى الآية (۲۴) من سورة يونس: إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَ ازَّيَّنَتْ وَ ظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلًا أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ

و فى بعض الأحيان لا تكون الحوادث سببا لفناء الحياة فى منتصف دورة الحياة، بل يستمر السير الطبيعى حتى النهاية، أى وصولا إلى مرحلة الذبول و التشتت و الفناء كما أشارت إلى ذلك الآية التى نبحثها.

فى كل الأحوال تنتهى الحياة الدنيا- سواء فى الطريق الطبيعى أو غير الطبيعى- إلى الفناء الذى يحل بساحة الإنسان عاجلا أم آجلا.

۲- عوامل تحطيم الغرور

قلنا: إنّ الكثير من الناس عند ما يحصلون على الإمكانات المادية و المناصب يصابون بالغرور، و هذا الغرور هو العدو اللدود لسعادة الإنسان، و فى الآيات السابقة رأينا كيف أنّ الغرور يؤدى إلى الشرك و الكفر.

و لأنّ القرآن كتاب تربوى عظيم، فهو يستفيد من عدة طرق لتحطيم الغرور.

ففى بعض الأحيان يجسّد لنا أنّ الفناء هو نهاية الثروات المادية كما فى الآيات أعلاه.

و فى أحيان أخرى يحذّر من إمكانية تحوّل الثروات و الأولاد إلى عدو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۵

للإنسان (كما فى الآية ۵۵ من سورة التوبة).

و فى مرّات يحذّر الناس و يوقظ فيهم حسهم الوجدانى، عند ما يستعرض أمامهم عاقبة المغرورين فى التأريخ من أمثال فرعون و قارون.

و قد رأينا القرآن يعالج إحساس الإنسان بالغرور من خلال تذكيره بماضيه، عند ما كان نطفة عديمة الأهمية أو ترابا لا يذكر، ثمّ يجسّد له مستقبله و ما هو صائر إليه كى يعرف أنّ الغرور بين حدّى الضعف هذين يعتبر عملا جنونيا (كما فى الآية ۶ من سورة الطارق، و الآية ۸ من سورة السجدة، و الآية ۳۸ من سورة القيامة).

و بهذه الصورة حاول القرآن توظيف أى أسلوب و وسيلة لمعالجة عوامل الغرور فى شخصية الإنسان، هذه الصفة الشيطانية التى هى مصدر الكثير من الجرائم فى طول التأريخ.

و لكن من المسلّم به أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يصابون بهذه الخصلة القبيحة عند الوصول إلى منصب أو ثروة، ليس هذا و حسب، بل ترى أنّه لا يحدث أدنى تغيير فى برنامج حياتهم، إذ يعتبرون كل هذه الأمور عبارة عن زينة عابرة، و بضاعة زائلة، و مصيرها إلى فناء عند ما تهب أدنى عاصفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۴۷ الى ۴۹]

اشارة

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً (۴۸) وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً (۴۹)

التّفسير

يا ويلتاه من هذا الكتاب!

تعقيبا لما كانت تتحدث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان و إعجابه بنفسه، و ما تؤدى إليه هذه الصفات من إنكار للبعث و المعاد، ينصب المقطع الراهن من الآيات التى بين أيدينا على تبيان المراحل الممهدة للقيامة وفق الترتيب الآتى:

۱- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

۲- مرحلة البعث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۷

۳- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الأولى تذكّر الإنسان بمقدمات البعث و القيامة فتقول: إنّ انهيار معالم الشكل الراهن للعالم هى أوّل مقدمات البعث، و سيتمّ هذا التغيير لشكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، فى الطليعة منها تسيير الجبال الرواسى و كل ما يمسك الأرض و يبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أىّ من المظاهر السابقة:

وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً.

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، و هى حوادث كثيرة جدّا.

و الملاحظ أنّ السور القصار تتحدث عنها بشكل بارز فى إطار حديثها عمّا بات يعرف اصطلاحا ب «أشراط الساعة».

إنّ المستفاد من مجموعة تلك السور أنّ وجه العالم الراهن يتغيّر بشكل كلىّ حيث تتلاشى الجبال، و تنهار الأبنية و الأشجار، ثمّ تضرب الأرض سلسلة من الزلازل، و تنطفئ الشمس، و يخمد نور القمر، و تظلم النجوم. و على حطام كل ذلك تظهر إلى الوجود سماء جديدة، و أرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الأخرى فى مرحلة البعث و الحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً.

«نغادر» من «غدر» بمعنى الترك. و لذلك يقال للذى يخلف الوعد و الميثاق و يتركه بأنّه «غدر» و يقال لمياه الأمطار المتجمعة فى مكان واحد ب «الغدير» لأنّها قد تركت هناك.

فى كل الأحوال، تؤكّد الآية الآنفة الذكر على أنّ المعاد هو حالة عامّة لا يستثنى منها أحد.

الآية التى بعدها تتحدّث عن كيفية بعث الناس فتقول: وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا. إنّ استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه فى أعمالها فى صف واحد؛ أو أنّ الجميع سيكونون فى صف واحد دون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۸

أية امتيازات أو تفاوت، و سوف يقال لهم: لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

فليس ثمّة كلام عن الأموال و الثروات، و لا الذهب و الزينة، و لا الامتيازات و المناصب المادية، و لا الملابس المختلفة، و ليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثل الحالة التى خلقناكم فيها أوّل مرّة، بالرغم من أنّكم كنتم تتوهمون عدم إمكان ذلك: بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً.

و ذلك فى وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانات مادية غفلتم معها عن الآخرة، و أصبحتم تفكرون فى حياتكم الدنيا و خلودها، و غفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثمّ تشير الآيات إلى مراحل أخرى من يوم البعث و المعاد فتقول: وَ وُضِعَ الْكِتابُ هذا الكتاب الذى يحتوى على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ و ذلك عند ما يطّلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف و الوحشة على وجوههم.

فى هذه الأثناء يصرخون و يقولون: وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.

الجميع مدعوون للحساب عن كل شىء مهما دنا و صغر، إنّه موقف موحش .. لقد نسينا بعض أعمالنا و كأن لم نفعلها، حتى كنّا نظن بأنّنا لم نقم بعمل مخالف، لكن نرى اليوم أنّ مسئوليتنا أصبحت ثقيلة جدّا و مصيرنا مظلم.

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً. وجدوا الحسنات و السيئات؛ الظلم و العدل، السلبيات و الخيانات، كل هذه و غيرها وجدوها متجسّدة أمامهم.

فى الواقع إنّهم يلاقون مصير أعمالهم: وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً. الذى سيشملهم هناك، هو- لا محالة- ما قاموا به فى هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحدا سوى أنفسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۸۹

بحوث

۱- سر انهدام الجبال

قلنا: إنّه فى يوم الحشر و النشور سيتغير نظام العالم المادى، و قد وردت صياغات مختلفة حول انهدام الجبال فى القرآن الكريم، يمكن أن تقف عليها من خلال ما يلى:

فى الآيات التى نبحثها قرأنا تعبير نُسَيِّرُ الْجِبالَ و إنّ نفس هـذه الصيغة التعبيرية يمكن ملاحظتها فى الآية (۲۰) من سورة النبأ. و الآية (۳) من سورة التكوير.

و لكنّنا نقرأ فى الآية (۱۰) من سورة المرسلات قوله تعالى: وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ

فى حين أنّنا نقرأ فى الآية (۱۴) من سورة الحاقة قوله تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً.

و فى الآية (۱۴) من سورة المزمّل قوله تعالى: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا.

و فى الآية (۵) من سورة الواقعة قوله تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا.

أخيرا نقرأ قوله تعالى فى الآية (۵) من سورة القارعة: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

و من الواضح أن ليس هناك تناف أو تضاد بين مجموع الآيات أعلاه، بل هى صيغ لمراحل مختلفة لزوال جبال العالم و دمارها، هذه الجبال التى تعتبر أكثر أجزاء الأرض ثباتا و استقرارا، حيث تبدأ العملية من نقطة حركة الجبال حتى نقطة تحوّلها إلى غبار و تراب بحيث لا يرى فى الفضاء سوى لونها! ترى ما هى أسباب هذه الحركة العظيمة المخفية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۰

إنّها غير معلومة لدينا، إذ قد يكون السبب فى ذلك هو الزوال المؤقت لظاهرة الجاذبية حيث تكون الحركة الدورانية للأرض سببا فى أن تتصادم الجبال فيما بينها ثمّ حركتها باتجاه الفضاء. و قد يكون السبب هو الإنفجارات الذرية العظيمة فى النّواة المركزية للأرض، و بسببها تحدث هذه الحركة العظيمة و الموحشة.

و على كل حال، فهذه الأمور تدلّ على أنّ حالة البعث و النشور هى ثورة عظيمة فى عالم المادة الميت، أيضا فى تجديد حياة الناس، حيث تكون كل هذه المظاهر هى بداية لعالم جديد يكون فى مستوى أعلى و أفضل، إذ بالرغم من أنّ الروح و الجسم هما اللذان يحكمان طبيعة ذلك العالم، إلّا أنّ جميع الأمور ستكون أكمل و أوسع و أفضل.

إنّ التعبير القرآنى يتضمّن هذه الحقيقة أيضا، و هى أنّ عملية فناء عيون الماء و دمار البساتين هى أمور سهلة فى مقابل الحدث الأعظم الذى ستتلاشى عنده الجبال الراسيات، و يشمل الفناء كل الموجودات بما فى ذلك أعظمها و أشدّها.

۲- صحيفة الأعمال

يرى العلّامة الطباطبائى فى تفسير (الميزان) أنّ فى يوم القيامة ثلاثة كتب، أو ثلاثة أنواع من صحف الأعمال:

أوّلا: كتاب واحد يوضع لحساب أعمال جميع البشر، و يشير لذلك قوله تعالى فى الآية التى نحن بصددها وَ وُضِعَ الْكِتابُ

الثّانى: كتاب يختص بكل أمّة، إذ لكل أمة كتاب قد كتب فيه أعمالها كما يصرّح بذلك قول الحق سبحانه و تعالى فى الآيتين ۲۸، ۲۹ من سورة الجاثية فى قوله تعالى: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.

الثّالث: كتاب لكل انسان بصورة مستقلة كما ورد فى سورة الأسراء: الآية (۱۳) وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

الْقِیامَةِ کِتاباً ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۱

و طبیعی أنّه لا یوجد أی تعارض بین هذه الآیات، لأنّه لیس ثمّة مانع من أن تدوّن أعمال الإنسان فی عدّة کتب، کما نشاهد نظیر ذلک فی برامج دنیا الیوم، إذ من أجل التنظیم الدقیق لتشکیلات دولة ما، هناک نظام و حساب لکل قسم، ثمّ إنّ هذه الأقسام و فی ظل أقسام أکبر لها حساب جدید.

و لکن یجب الانتباه إلی أنّ صحیفة أعمال الناس فی یوم القیامة لا تشبه الدفتر و الکتاب العادی فی هذا العالم، فهی مجموعة ناطقة غیر قابلة للنکران، و قد تکون الناتج الطبیعی لأعمال الإنسان نفسه.

فی کل الأحوال، نری أنّ الآیات التی نبحثها تظهر أنّه علاوة علی تدوین أعمال الناس فی الکتب الخاصّة، فإنّ نفس الأعمال ستتجسّد هناک و ستحضر:

وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً.

فالأعمال التی تکون شکل طاقات متناثرة فی هذا العالم و تکون محجوبة عن الأنظار و تبدو و کأنّها قد تلاشت و انتهت، هی فی الحقیقة لم تنته (و قد أثبت العلم الیوم أنّ أی مادی أو طاقة لا یمکن أن تفنی، بل یتغیر شکلها دائما).

ففی ذلک الیوم تتحوّل هذه الطاقة الضائعة بإذن اللّه إلی مادة، و تتجسّد علی شکل صور مناسبة، فالأعمال الحسنة علی شکل صور لطیفة و جمیلة، و الأعمال السیئة علی شکل صور قبیحة، و هذه الأعمال ستکون معنا، و لهذا السبب نری أنّ آخر جملة فی الآیات أعلاه تقول: وَ لا یَظْلِمُ رَبُّکَ أَحَداً لأنّ الثواب و العقاب یترتبان علی نفس أعمال الإنسان.

بعض المفسّرین اعتبر جملة وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً تأکیدا علی قضیة صحیفة الأعمال، و قالوا: إنّ معنی الجملة هو أنّنا سنجد جمیع أعمالنا مدوّنة فی ذلک الکتاب [۱۷۰].

البعض الآخر اعتبر کلمة (جزاء) فی هذه الآیة مقدّرة و قالوا: إنّ المعنی هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۲

أنّهم فی ذلک الیوم «سیشاهدون جزاء أعمالهم جاهزا»[۱۷۱].

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أکثر ملاءمة مع ظاهر الآیات.

أمّا فیما یخص تجسّد الأعمال فقد ذکرنا شرحا مفصلا لذلک فی نهایة الآیة (۳۰) من سورة آل عمران، و سنبحثه أکثر مرّة أخری أثناء الحدیث عن الآیات التی تناسب الموضوع.

۳- الإیمان بالمعاد و دوره فی تربیة الناس

حقّا إنّ القرآن کتاب تربوی عجیب، فعند ما یذکر للناس جانبا من مشاهد القیامة یقول: إنّ الجمیع سیعرضون علی محکمة الخالق العادلة علی شکل صفوف منظمة، فی حین أن تشابه عقائدهم و أعمالهم هو المعیار فی الفرز بین صفوفهم! إنّ أیدیهم هناک فارغة من کل شیء، فقد ترکوا کل متعلقات الدنیا، فهم فی جمعهم فرادی، و فی فردیتهم مجموعین، تعرض صحائف أعمالهم.

هناک یذکر کل شیء، صغائر و کبائر الناس، و الأکثر من ذلک أنّ الأعمال و الأفکار نفسها تحیا .. تتجسّد .. تحیط الأعمال المتجسّدة بأطراف کل شیء، فالناس مشغولون بأنفسهم بحیث أنّ الأم تنسی ولدها، و الابن ینسی الأب و الأم بشکل کامل.

هذه المحکمة الإلهیة- و الجزاء العظیم- التی تنتظر المسیئین، ستلقی بظلها الثقیل و الموحش علی جمیع الناس، حیث تحبس الأنفاس فی الصدور، و تتوقف العیون عن الحرکة! تری ما مقدار ما یعکسه الإیمان بهذا الیوم- بهذه المحکمة بکل ما تتخلله من مشاهد و

مواقف- على قضية تربية الإنسان و دفعه لمسك زمام شهواته!؟

فى حديث عن الإمام الصادق نقرأ وصفه عليه السّلام لهذا اليوم: «إذا كان يوم القيامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۳

دفع للإنسان كتاب، ثمّ قيل له: اقرأ» قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: «إنّه يذكره، فما من لحظة و لا كلمة و لا نقل قدم و لا شىء فعله إلّا ذكره، كأنّه فعله تلك الساعة، و لذلك قالوا: يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها»[۱۷۲].

من هنا يتّضح الدور المؤثر للإيمان بالقيامة فى تربية الإنسان، و إلّا فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، و بين إيمانه و يقينه بهذا اليوم!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۰ الى ۵۳]

اشارة

وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (۵۰) ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً (۵۱) وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (۵۲) وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً (۵۳)

التّفسير

لا تتخذوا الشياطين أولياء:

لقد تحدثت الآيات مرّات عدّة عن خلق آدم و سجود الملائكة له، و عدم انصياع إبليس. و قد قلنا: إنّ هذا التكرار يطوى دروس متعدّدة، و فى كل مقطع مكرّر هناك دروس و عبر جديدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۵

بعبارة أخرى نقول: إنّ للحادثة المهمّة عدّة أبعاد، و فى كل مرّة تذكر فيها يتجلى واحد من أبعادها.

و لأنّ الآيات السابقة ذكرت مثالا واقعيا عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين و المغرورين فى مقابل الفقراء المستضعفين و تجسّد عاقبة عملهم، و لأنّ الغرور كان هو السبب الأصلى لانحراف هؤلاء و انجرارهم إلى الكفر و الطغيان، لذا فإنّ الآيات تعطف الكلام على قصة إبليس و كيف أبى السجود لآدم غرورا منه و علوا، و كيف قاده هذا الغرور و العلو إلى الكفر و الطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصّة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان، كم تكشف أنّ الاستسلام إلى وساوس الشيطان الذى أصرّ على عناده و عداوته للحق تعالى يعدّ غاية الجنون و الحمق.

فى البداية تقول الآيات: تذكروا ذلك اليوم الذى فيه: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، فى حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس- إذا- طريق الطغيان و الكفر إذا كان من جملتهم؟

لذلك فإنّ الآيات- منعا لهذا الوهم- تقول مباشرة إنّه: كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

إنّه إذا لم يكن من الملائكة، لكنّه- بسبب عبوديته و طاعته للخالق جلّ و علا- قرّب و كان فى صف الملائكة، بل و كان معلما لهم، إلّا أنّه- بسبب لحظة من الغرور و الكبر- سقط سقوطا بحيث أنّه فقد معه كل ملاكاته المعنوية، و أصبح أكثر الموجودات نفرة و ابتعادا عن اللّه تبارك و تعالى.

ثمّ تقول الآية: أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي

و العجب أنّهم: وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ.

و هذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم على ضلالكم و أن يوردكم سوء العاقبة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۶

و قد أظهر عدوانه منذ اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السّلام.

فاتّخاذ الشيطان و أولاده. بدلا من الخالق المتعال أمر قبيح: بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا[۱۷۳].

حقّا إنّه لأمر قبيح أن يترك الإنسان الإله العالم الرحيم العطوف ذا الفيوضات و الرحمات و الألطاف، و يتمسك بالشيطان و أصحابه، إنّه أقبح إختيار، فأى عاقل يقبل أن يتخذ من عدوّه الذى ناصبه العداء- منذ اليوم الأوّل وليا و قائدا و دليلا و معتمدا؟! الآية التى بعدها هى دليل آخر على إبطال هذا التصوّر الخاطئ، إذ تقول:

عن إبليس و ابنائه أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق السماوات و الأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ حتى نطلب العون منهم فى خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

لذا فإنّ الشخص الذى ليس له أى دور فى خلق العالم، و حتى فى خلق من يقع على شاكلته و من هو من نوعه، و لا يعرف شيئا من أسرار الخلق، كيف يكون مستحقا للولاية، أو العبادة، و أى قدرة أو دور يملك؟

إنّه كائن ضعيف و جاهل حتى بقضاياه الذاتية، فكيف يستطيع أن يقود الآخرين، أو أن ينقذهم من المشاكل و الصعوبات؟

ثمّ تقول: وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً.

يعنى أنّ الخلق قائم على أساس الصدق و الصحة و الهداية، أمّا الكائن الذى يقوم منهج حياته على الإضلال و الإفساد، فليس له مكان فى إدارة هذا النظام، لأنّه يسير فى اتجاه معاكس لنظام الخلق و الوجود؛ إنّه مخرّب و مدمّر و ليس مصلحا متكاملا.

آخر آية من الآيات التى نبحثها، تحذّر مرّة أخرى، و تقول: تذكروا يوما يأتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۷

فيه النداء الإلهى: وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

لقد كنتم تنادونهم عمرا كاملا، و كنتم تسجدون لهم، و اليوم و بعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب فى ساحة الجزاء، نادوهم ليأتوا لمساعدتكم و لو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادى الأشخاص الذين لا تزال ترسبات أفكار الدنيا فى عقولهم:

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ فلم يجيبوا على ندائهم، فكيف بمساعدتهم و انقاذهم!! وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً[۱۷۴].

ثمّ تقول الآية التى بعدها موضحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان و المشركين:

وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ.

لقد انكشفت لهم النّار التى لم يكونوا يصدّقون بها أبدا، و ظهرت أمام أعينهم، و حينئذ يشعرون بأخطائهم، و يتيقنون بأنّهم سيدخلون النّار و ستدخلهم:

فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها.

ثمّ يتيقنون أيضا أنّ لا منقذ لهم منها: وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً.

فلا تنقذهم اليوم منها لا معبوداتهم و لا شفاعة الشفعاء، و لا الكذب أو التوسّل بالذهب و القوّة، إنّها النّار التى يزداد سعيرها بسبب أعمالهم.

ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ جملة «ظنّوا» بالرغم من أنّها مشتقّة من «الظن» إلّا أنّها فى هذا المورد، و فى موارد أخرى تأتى بمعنى اليقين، لذا فإنّ الآية (۲۴۹) من سورة البقرة تستخدم نفس التعبير بالرغم من أنّها تتحدث عن المؤمنين الحقيقيين و المجاهدين المرابطين الذين كانوا مع طالوت لقتال جالوت الجبّار الظالم، إذ تقول: قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۸

فإنّ كلمة «موقعوها» مشتقّة من «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، و هى إشارة إلى أنّهم يقعون على النّار، و أنّ النّار تقع عليهم؛ فالنّار تنفذ فيهم و هم ينفذون فى النّار، و قد قرأنا فى الآية (۲۴) من سورة البقرة قوله تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

بحثان

۱- هل كان الشيطان ملكا؟

كما نعلم أنّ الملائكة أطهار و معصومون كما صرّح بذلك القرآن الكريم: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۱۷۵].

و يعود سبب عدم وجود التكبر و الغرور و دوافع ارتكاب الذنوب لدى الملائكة، إلى أن العقل لا الشهوة يتحكم فى أعماقهم.

من ناحية ثانية، يتداعى إلى الذهن من خلال استثناء إبليس فى الآيات المذكورة أعلاه (و آيات أخرى فى القرآن الكريم) أنّه من صنف الملائكة، بأنّه كان منهم. و هنا يرد على عصيانه و تمرده و الإشكال التالى: كيف تصدر ذنوب كبيرة عن ملك من الملائكة؟ و قد جاء فى نهج البلاغة «ما كان اللّه سبحانه ليدخل الجنة بشرا بأمر أخراج به منها ملكا»[۱۷۶].

الآيات المذكورة تحل لنا رموز هذه المشكلة حينما تقول: كانَ مِنَ الْجِنِ و الجن كائنات خفية عن أنظارنا لها عقل و إحساس و غضب و شهوة، و متى ما وردت فى القرآن كلمة «الجن» فإنّها تعنى هذه الكائنات ... لكن من يعتقد من المفسّرين بأن إبليس كان من الملائكة، فإنّما يفسر الآية المذكورة آنفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۲۹۹

بمفهومها اللغوى، و يقول: إنّه يفهم من عبارة كانَ مِنَ الْجِنِ أنّه كان خفيا عن الأنظار كسائر الملائكة، و هذا المعنى خلاف الظاهر تماما.

و من الدلائل الواضحة التى تؤكّد ما ذهبنا إليه من المعنى، أنّ القرآن الكريم يقول فى الآية (۱۵) من سورة الرحمن: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ أى من نيران مختلطة و من جانب آخر كان منطق إبليس عند ما امتنع عن السجود لآدم:

خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۱۷۷].

هذا بالإضافة إلى أن الآيات الشريفة أعلاه أشارت إلى أن لإبليس (ذرية) فى حين أن الملائكة لا ذرية لهم.

إن ما ذكرناه آنفا، مضافا إليه التركيبة الجوهرية للملائكة تثبت أن إبليس لم يكن ملكا، لكن آية السجود لآدم شملته- أيضا- لانضمامه إلى صفوف الملائكة، و كثرة عبادته للّه و طموحه للوصول إلى منزلة الملائكة المقربين.

و إنّما بيّن القرآن امتناع إبليس عن السجود بشكل استثنائى، و أطلق عليه الأمام علىّ عليه السّلام فى الخطبة القاصعة فى نهج البلاغة كلمة (الملك) كتعبير مجازى.

و

جاء فى كتاب (عيون الأخبار) عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام: «إنّ الملائكة معصومون و محفوظون من الكفر بلطف اللّه تعالى» قالا: قلنا له: فعلى هذا لم يكن إبليس أيضا ملكا؟، فقال: «لا، بل كان من الجن، أما تسمعان اللّه تعالى يقول: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِ فأخبر عزّ و جل أنّه من الجن، ...»[۱۷۸]

و

فى حديث آخر نقل عن الإمام الصادق عليه السّلام، بأن أحد أصحابه المخلصين و هو جميل بن دراج قال: سألته عن إبليس كان من الملائكة و هل كان يلى من أمر السماء شيئا؟ قال: «لم يكن من الملائكة و لم يكن يلى من السماء شيئا، أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۰

كان من الجن و كان مع الملائكة، و كانت الملائكة تراه أنّه منها، و كان اللّه يعلم أنّه ليس منها، فلمّا أمر بالسجود كان منه الذى كان»[۱۷۹].

و عند ما صدر أمر السجود تحقق الشىء الذى نعرفه (كشفت الأستار و اتضحت ماهية إبليس).

و هناك بحوث تفصيلية ذكرناها حول إبليس و الشيطان بشكل عام فى ذيل الآيات (۱۱- ۱۸) من سورة الأعراف، و فى ذيل الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام، و فى ذيل الآية (۳۴) من سورة البقرة.

۲- لا تستعينوا بالضالّين

مع أن هذه الآيات، صادرة عنه تعالى و تنفى وجود عضد له من الضالين، و نعلم أنّه تعالى ليس بحاجة إلى من يعينه سواء كان المعين ضالا أم لم يكن، لكنها تقدم لنا درسا كبيرا للعمل الجماعى، حيث يجب أن يكون الشخص المنتخب للنصرة و العون سائرا على منهج الحق و العدالة و يدعو إليها، و ما أكثر ما رأينا أشخاصا طاهرين قد ابتلوا بمختلف أنواع الانحرافات و المشاكل و أصيبوا بالخيبة و سوء الحظ جراء عدم الدقّة فى انتخاب الأعوان، حيث التفّ حولهم عدد من الضالّين و المضلّين حتى تلفت أعمالهم، و كانت خاتمة أمرهم أن فقدوا كل ملكاتهم الإنسانية و الاجتماعية.

إنّنا نقرأ فى تاريخ كربلاء أن سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السّلام قام يتمشى إلى (عبيد اللّه بن الحر الجعفى) و هو فى فسطاطه حتى دخل عليه و سلم عليه، فقام ابن الحر و أخلى له المجلس، فجلس و دعاه إلى نصرته، فقال عبيد اللّه بن الحر: و اللّه ما خرجت من الكوفة إلّا مخافة أن تدخلها، و لا أقاتل معك، و لو قاتلت لكنت أوّل مقتول، و لكن هذا سيفى و فرسى فخذهما ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۱

فأعرض الإمام عنه بوجهه

فقال: «إذا بخلت علينا بنفسك فلا حاجة لنا فى مالك، و تلا الآية وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[۱۸۰].

إشارة إلى أنّك ضال و مضل، و لا تستحق أن تكون نصيرا.

و على أية حال، فإن البقاء دون نصير و معين أفضل من طلب معونة الأشخاص الملوثين و الضالين و اتّخاذهم عضدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۴ الى ۵۶]

اشارة

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (۵۴) وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا (۵۵) وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً (۵۶)

التّفسير

فى انتظار العقاب:

تنطوى هذه الآيات على تلخيص و استنتاج لما ورد فى الآيات السابقة، و هى تشير- أيضا- إلى بحوث قادمة.

الآية الأولى تقول: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

لقد ذكرنا نماذج من تأريخ الماضين الملىء، بالإثارة، و قد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحياة و اللحظات الحلوة فى التأريخ، و قد قلّبنا بيان هذه الأمور بحيث تتقبلها القلوب المستعدّة للحق، و تكون الحجة على الآخرين تامّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۳

و لا يبقى ثمّة مجال للشك.

و لكن بالرغم من هذا فإنّ مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبدا: وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا.

«صرّفنا» من «تصريف» و تعنى التغيير و التحوّل من حال إلى حال. الهدف من هذا التعبير فى الآية أعلاه هو أنّنا تحدثنا مع الناس بكل لسان يمكن التأثير به عليهم.

«جدل» تعنى محادثة الآخرين على أساس المنازعة و إظهار نزعة التسلّط على الآخرين. و لهذا فإنّ (المجادلة) تعنى قيام شخصين بإطالة الحديث فى حالة من التشاجر، و هذه الكلمة فى الأصل مأخوذة- و كما يقول الراغب فى المفردات- من (جدلت الحبل) أى ربطت الحبل بقوّة، و هى كناية عن أنّ الشخص المجادل يستهدف من خلال جدله أن يحرف الشخص الآخر- بالقوّة- عن أفكاره.

و قال آخرون: إنّ أصل (الجدال) هو بمعنى المصارعة و إسقاط الآخر على الأرض. و هى تستعمل أيضا فى الدلالة على الشجار اللفظى.

فى كل الأحوال، يكون المقصود بالناس فى الآية هم تلك الفئة التى لا تقوم فى وجودها و ممارساتها على أصول التربية الإسلامية و قواعدها، و قد أكثر القرآن فى استعمال هذه التعابير، و قد شرحنا هذه الحالة مفصلا فى نهاية الحديث عن الآية (۱۲) من سورة يونس.

الآية التى بعدها تقول: إنّه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة و التوضيحات المثيرة و الأساليب المختلفة التى ينبغى أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإنّ هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أى مصير الأمم السالفة: أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا[۱۸۱] فيرونه بامّ أعينهم.

إنّ هذه الآية- فى الحقيقة- إشارة الى أنّ هذه المجموعة المعاندة و المغرورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۴

لا تؤمن بإرادتها و بشكل طبيعى أبدا، بل هم يؤمنون فى حالتين فقط:

أوّلا: عند ما يصيبهم العذاب الأليم الذى نزل مثله فى الأقوام و الأمم السابقة.

ثانيا: عند ما يشاهدون العذاب الإلهى بأعينهم على الأقل و قد أشرنا مرارا إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

و من الضرورى الانتباه هنا إلى أنّ مثل هؤلاء الناس لم يكونوا ينظرون مثل هذه العاقبة أبدا، أمّا لأنّ هذه العاقبة كانت حتمية بالنسبة لهم و هى الشىء الوحيد الذى ينتهى إليه مصيرهم، لذا نرى القرآن قد طرحها على شكل انتظار، و هذا نوع من الكناية اللطيفة. و مثله أن تقول للشخص العاصى: إنّ أمامك- فقط- أن تنتظر لحظة الحساب، بمعنى أنّ الحساب و العقاب أمر حتمى بالنسبة له، و هو بذلك يعيش حالة انتظار للمصير المحتوم.

إنّ بعض حالات العصيان و الغرور التى يصاب بها الإنسان قد تتسلّط عليه بحيث لا يؤثّر فيه لا الوحى الإلهى، و لا دعوات الأنبياء الهادية، و لا رؤية دروس و عبر الحياة الاجتماعية، و لا مطالعة تأريخ الأمم السابقة. إنّ الذى ينفع مع هذه الفئة من الناس هو العذاب الإلهى الذى يعيد الإنسان إلى رشده، و لكن عند نزول العذاب تغلق أبواب التوبة، و لا يوجد ثمّة طريق للرجعة و الاستغفار.

و من أجل طمأنة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقابل صلافة و عناد أمثال هؤلاء، تقول الآية: وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ

ثمّ تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة و الاستهزاء بآيات اللّه: وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۵

لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً[۱۸۲].

و هذه الآية تشبه الآيات (۴۲- ۴۵) من سورة الحج التى تقول: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ ... إلى آخر الآيات.

و يحتمل فى تفسير الآية أنّ اللّه تبارك و تعالى يريد أن يقول: إنّ عمل الأنبياء لا يقوم على الإجبار و الإكراه، بل إنّ مسئوليتهم التبشير و الإنذار، و القرار النهائى مرتبط بنفس الناس كى يفكروا بعواقب الكفر و الإيمان معا، و حتى يؤمنوا عن تصميم و إرادة و بيّنة، لا أن يلجأوا إلى الإيمان الاضطرارى عند نزول العذاب الإلهى.

لكن، مع الأسف أن يساء استخدم حرية الإختيار هذه و التى هى وسيلة لتكامل الإنسان و رقيّه، عند ما يقوم أنصار الباطل بالجدال فى مقابل أنصار الحق، إذ يريدون القضاء على الحق عن طريق الاستهزاء أو المغالطة. و لكن هناك قلوبا مستعدة لقبول الحق دوما و التسليم له، و إنّ هذا الصراع بين الحق و الباطل كان و سيبقى على مدى الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۵۷ الى ۵۹]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً (۵۷) وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (۵۸) وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (۵۹)

التّفسير

لا استعجال فى العقاب الإلهى:

الآيات السابقة كانت تتحدّث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين و المظلمة قلوبهم؛ و الآيات التى بين أيدينا تستمر فى نفس البحث.

ففى البداية قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ

إنّ استخدم تعبير (ذكّر) يوحى إلى أنّ تعليمات الأنبياء عليهم السّلام هى بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطرى فى أعماق الإنسان، و إنّ مهمّة الأنبياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۷

هى رفع الحجب عن نقاء و شفافية هذه الفطرة.

هذا المعنى

ورد فى الخطبة الأولى من خطب نهج البلاغة حيث يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكروهم منسى نعمته، و يحتجوا إليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول».

الطريف فى الأمر أنّ الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء و إعادتهم إلى نور الهداية، هى:

أوّلا: إنّ هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون فى فطرتكم و وجدانكم و أرواحكم.

ثانيا: إنّها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثا: عليكم أن لا تنسوا أنّكم اقترفتم الذنوب، و أنّ منهاج عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب و الهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً[۱۸۳] و بذلك لا تنفع معهم دعوتك: وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً.

و لا نعتقد أننا بحاجة إلى أن نوضح أن سبب انعدام قابلية التشخيص و القدرة و الإحساس و السمع لدى هؤلاء، إنّما كان من عند اللّه، و لكن بسبب ما قَدَّمَتْ يَداهُ و بسبب الأعمال التى قاموا بها سابقا، و هذا هو الجزاء المباشر لأعمالهم و لما كسبت أيديهم. بعبارة أخرى: إنّ الأعمال القبيحة السيئة و المخزية تحوّلت إلى ستار و ثقل، أى (كنان و وقر) على قلوبهم و آذانهم، و هذه الحقيقة تذكرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۸

الكثير من الآيات القرآنية، إذ نقرأ على سبيل المثال قوله تعالى فى الآية (۱۵۵) من سورة النساء: بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

و لكن هناك من يتذرّع بشتى الحجج و الذرائع لإثبات فكرة الجبر و دعم مذهبه فى ذلك، دون أن يأخذ بنظر الاعتبار بقية هذه الآية، و سائر الآيات القرآنية الأخرى التى تفسرها، بل يعتمد على ظواهر ألفاظ الآيات و يتخذها سندا لإثبات مقولة الجبر، فى حين أنّ الجواب على ذلك- كما أسلفنا- واضح بدرجة كبيرة.

إنّ البرنامج التربوى للخالق جلّ و علا هو أن يعطى لعباده الفرصة بعد الأخرى، و هو جلّ و علا لا يعاقب بشكل فورى مثل الجبارين و الظالمين، بل إنّ رحمته الواسعة تقتضى دوما إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإنّ الآية التى بعدها تقول: وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ. لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ فإذا كانت الإرادة الإلهية تقتضى إنزال العذاب بسبب ارتكابهم للذنوب لتحقّق ذلك فورا. بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا[۱۸۴].

فغفرانه تعالى يقضى أن يرحم التوابين، و رحمته تقضى أن لا يعجّل عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصفوف

التوابين، إلّا أن عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عند ما يصل طغيانهم و تمردهم إلى أقصى درجاته، و عند ما يكون بقاء مثل هؤلاء الأفراد الفاسدين المفسدين الذين لا يوجد أمل فى إصلاحهم، عبثا و بدون فائدة، لذا ينبغى تطهير الأرض منهم، و من لوث وجودهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۰۹

و أخيرا تنتهى هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إنّ هذه المدن و القرى أمامكم، و لكم أن تشاهدا خرائبها و الدمار و الذى حلّ فيها، و قد أهلكنا أهلها بما ارتكبوا من ظلم، فى نفس الوقت الذى لم نعجّل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعدا لمهلكهم: وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (۶۰) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (۶۲) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (۶۴)

التّفسير

لقاء موسى و الخضر عليهما السّلام:

ذكر المفسّرون فى سبب نزول هذه الآيات أنّ مجموعة من قريش جاؤوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سألوه عن عالم كان موسى عليه السّلام مأمورا باتباعه، و فى الجواب على ذلك نزلت هذه الآيات.

لقد ذكرت فى سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة و هذه القصص هى: قصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۱

أصحاب الكهف التى انتهينا منها؛ و قصّة موسى و الخضر عليهما السّلام؛ و قصّة ذى القرنين التى سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود فى حياتنا و ما تعدونا عليه و ألفناه، و تبيّن لنا أن حدود العالم لا تنحصر فى نطاق ما نرى و ما نشاهد، و أنّ الشكل العالم للحوادث و الأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الأولى.

و إذا كانت قصّة أصحاب الكهف تتحدث عن فتية تركوا كلّ شىء من أجل أن يحافظوا على إيمانهم، و قد أدى بهم ذلك إلى حوادث عظيمة ذات أبعاد تربوية لجميع الناس، فإنّ قصّة موسى و الخضر لها أبعاد عجيبة أخرى. ففى القصّة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبيّا من أولى العزم بكل وعيه و مكانته فى زمانه يعيش محدودية فى علمه و معرفته من بعض النواحى، و هو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس و يتعلم على يديه، و نرى أنّ المعلم يقوم بتعليمه دروسا يكون الواحد منها أعجب من الآخر. ثمّ إنّ هذه القصّة تنطوى- كما سنرى- على ملاحظات مهمّة جدّا.

فى أوّل آية نقرأ قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً.

إنّ المعنى بالآيـة هو بلاـ شـك موسـى بن عمران النّبى المعروف من أولى العزم، بـالرغم ممّـا احتمله بعض المفسّـرين من أنّ موسـى المـذكور فى الآيـة هو غير موسـى بن عمران عليه السّـلام، و سوف نرى- فيما بعد- أنّ اعتماد هذا الرأى كان بسـبب عدم اسـتطاعتهم حل بعض الإشكالات الواردة فى القصّة، فى حين أنّه كلما ورد اسم (موسى) فى القرآن فالمراد به موسى بن عمران.

أمّا المعنى من (فتاه) فهو كما يقول أكثر المفسّـرين؛ كما تشـير إلى ذلك العديـد من الرّوايات: يوشع بن نون، الرجل الشـجاع الرشـيد المؤمن من بنى إسرائيل.

و استخدام كلمة (فتى) فى وصفه قد يكون بسبب هذه الصفات البارزة، أو بسبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۲

خدمته لموسى عليه السّلام و مرافقته له.

(مجمع البحرين) بمعنى محل التقاء البحرين، و هناك كلام كثير بين المفسّـرين عن اسم هذين البحرين، و لكن- بشـكل عام- يمكن إجمال الحديث بثلاثة احتمالات هى:

أوّلاـ: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليـج العقبـة» مع «خليـج السويس» (إذا المعروف أنّ البحر الأحمر يتفرع شـمالا إلى فرعين: فرع نحو الشـمال الشـرقى حيث يشـكّل خليـج العقبـة، و الثّانى نحو الشـمال الغربى و يسـمى خليج السويس، و هذان الخليجان يرتبطان جنوبا و يتصلان بالبحر الأحمر).

ثانيا: المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال المحيط الهندى بالبحر الأحمر فى منطقة «باب المندب».

ثالثـا: محـل اتصال البحر المتوسط (الـذى يسـمّى- أيضا- ببحر الروم و البحر الأبيض) مع المحيط الأطلسـى، يعنى نفس المكان الـذى يطلق عليه اسم (مضيق جبل طارق) قرب مدينة «طنجة».

الاحتمال الثّالث مسـتبعد بحكم بعـد مكان موسـى عليه السّـلام عن جبل طارق الـذى يبعد عنه مسافة كبيرة جدّا، قد تصل فترة وصوله عليه السّلام إليه عدّة أشهر إذا انتقل بالوسائل العادية.

أمّـا الاحتمـال الثّانى، فمع أنّ المسافـة ما بينه و بين مكان موسـى عليه السّـلام أقرب، إلّا أنّه مسـتبعد- أيضا- بحكم الفاصل الكبير بين الشام و جنوب اليمن.

يبقى الاحتمال الأوّل هو الأقرب من حيث قربه إلى مكان موسـى عليه السّلام. و ما يرجح هذا الرأى هو ما نستفيده من الآيات- بشكل عام- من أنّ موسـى عليه السّـلام لم يسـلك طريقا طويلا بالرغم من أنّه كان مسـتعدا للسفر إلى أى مكان لأجل الوصول إلى مقصوده (فدقق فى ذلك).

و فى بعض الرّوايات إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۳

كلمـة «حقب» تعنى المـدّة الطويلـة و التى فسّـرها البعض بثمانين عاما، و غرض موسـى عليه السّـلام من هذه الكلمة، هو أنّنى سوف لا أترك الجهد و المحاولة للعثور على ما ضيعته و لو أدّى ذلك أن أسير عدّة سنين.

و من مجموع ما ذكرنا أعلاه يتبيّن لنا أن موسـى عليه السّـلام كان يبحث عن شـىء مهم و قـد أقام عزمه و رسّـخ تصـميمه للعثور على مقصوده و عدم التهاون فى ذلك إطلاقا.

إنّ الشىء الذى كان موسى عليه السّلام مأمورا بالبحث عنه له أثر كبير فى مستقبله، و بالعثور عليه سوف يفتتح فصل جديد فى حياته.

نعم، إنّه عليه السّـلام كـان يبحث عن عـالم يزيـل الحجب من أمـام عينيه و يريه حقائق جديـدة، و يفتـح باب العلوم أمامه، و سـنعرف سريعا أنّ موسى عليه السّلام كان يملك علامة للعثور على محل هذا العالم الكبير، و كان عليه السّلام يتحرك باتجاه تلك العلامة.

قوله تعالى: فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما أى السمكّة التى كانت معهما، أمّا العجيب فى الأمر فإنّ الحوت: فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ

سَرَباً[۱۸۵].

و هناك كلام كثير بين المفسّرين عن نوعية السمك الذى كان معدا للغذاء ظاهرا هل كانت سمكّة مشوية، أو مملّحة أو سمكّة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازى و قفزت الى الماء و غاصت فيه، هناك كلام كثير بين المفسّرين.

و فى بعض كتب التّفسير نرى أنّ هناك حديثا عن عين تهب الحياة، و أنّ السمكة عند ما أصابها مقدار من ماء تلك العين عادت إليها الحياة.

و هناك احتمال آخر و هو أن السمكّة كانت حيّة، بمعنى أنّها لم تكن قد ماتت بالكامل، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۴

من الماء، و يعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد فى هذه الفترة إلى الماء.

و فى تتمة القصّة، نقرأ أنّ موسى و صاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، و فى هذه الأثناء تذكّر موسى عليه السّلام أنّه قد جلب معه طعاما، و عند ذلك قال لصاحبه: فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً.

(غداء) يقال للطعام الذى يتمّ تناوله فى أوّل اليوم أو فى منتصفه. و لكنّا نستفيد من التعابير الواردة فى كتب اللغة أنّهم فى الأزمنة السابقة كانوا يطلقون كلمة (غداء) على الطعام الذى يتمّ تناوله فى أوّل اليوم (لأنّها مأخوذة من كلمة «غدوة» و التى تعنى بداية اليوم) فى حين أنّ كلمة «غداء» و «تغدّى» تطلق اليوم على تناول الطعام فى وقت الظهيرة.

على أى حال، إنّ هذه الجملة تظهر أنّ موسى و يوشع قد سلكا طريقا يمكن أن نسميه بالسفر، إلّا أنّ نفس هذه التعابير تفيد أنّ هذا السفر لم يكن طويلا.

و فى هذه الأثناء قال له صاحبه: قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً[۱۸۶].

و لأنّ هذا الحادث و الموضوع- بشكل عام- كان علامة لموسى عليه السّلام، لكى يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذى خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ

و هنا رجعا فى نفس الطريق: فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً.

و هنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبى مثل موسى عليه السّلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن نَسِيا حُوتَهُما ثمّ لماذا نسب صاحب موسى عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۵

نسيانه إلى الشيطان؟

فى الجواب نقول: إنّه لا يوجد ثمّة مانع من الإصابة بالنسيان فى المسائل و الموارد التى لا ترتبط بالأحكام الإلهية و الأمور التبليغية، أى فى مسائل الحياة العادية (خاصّة فى المواقع التى لها طابع اختبار، كما هو الحال فى موسى هنا، و سوف نشرح ذلك فيما بعد).

أمّا ربط نسيان صاحبه بالشيطان، فيمكن أن يكون ذلك بسبب أن قضية السمكة ترتبط بالعثور على ذلك الرجل العالم، و بما أنّ الشيطان يقوم بالغواية، لذا فإنّه أراد من خلال هذا العمل (النسيان) أن يصلا متأخرين إلى ذلك العالم، و قد تكون مقدمات النسيان قد بدأت من (يوشع) نفسه حيث أنّه لم يدقق و يهتم بالأمر كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

اشارة

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (۶۵) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (۶۶) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۶۷) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (۶۸) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (۶۹)

قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (۷۰)

التّفسير

رؤية المعلم الكبير:

عند ما رجع موسى عليه السّلام و صاحبه إلى المكان الأوّل، أى قرب الصخرة و قرب (مجمع البحرين)، فجأة: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً.

إنّ استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنّهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، و قد وجداه أخيرا.

أمّا استخدام عبارة عَبْداً مِنْ عِبادِنا فهى تبيّن أن أفضل فخر للإنسان هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۷

أن يكون عبدا حقيقيا للخالق جلّ و علا، و إنّ مقام العبودية هذا يكون سببا فى شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، و فتح أبواب المعرفة و العلم فى قلبه.

كما أنّ استخدام عبارة مِنْ لَدُنَّا تبيّن أنّ علم ذلك العالم لم يكن علما عاديا، بل كان يعرف جزءا من أسرار هذا العالم، و أسرار الحوادث التى لا يعلمها سوى اللّه تعالى.

أمّا استخدام (علما) بصيغة النكرة فهو للتعظيم، و يتبيّن من ذلك أنّ ذلك الرجل العالم قد حصل من علمه على فوائد عظيمة.

أمّا ما هو المقصود من عبارة رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا فقد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة، فقال بعضهم: إنّها إشارة إلى مقام النبوة، و البعض الآخر اعتبرها إشارة للعمر الطويل. و لكن يحتمل أن يكون المقصود هو الاستعداد الكبير و الروح الواسعة، وسعة الصدر التى وهبها اللّه تعالى لهذا الرجل كى يكون قادرا على استقبال العلم الإلهى.

أمّا ما ذكر من أنّ هذا الرجل اسمه (الخضر) و فيما إذا كان نبيّا أم لا، فسوف نبحث كل ذلك فى البحوث القادمة.

فى هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام و بأدب كبير: قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً.

و نستفيد من عبارة «رشدا» أنّ العلم ليس هدفا، بل هو وسيلة للعثور على طريق الخير و الهداية و الصلاح، و أنّ هذا العلم يجب أن يتعلّم، و أن يفتخر به.

فى معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم مع كامل العجب لموسى عليه السّلام قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

ثمّ بيّن سبب ذلك مباشرة و قال: وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً.

و كما سنرى فيما بعد، فإنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التى تخص أسرار و بواطن الأحداث، فى حين أنّ موسى عليه السّلام لم يكن مأمورا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۸

بمعرفة البواطن، و بالتالى لم يكن يعرف عنها الكثير، و فى مثل هذه الموارد يحدث كثيرا أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام

الاختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحا أو غير هادف فى حين أنّ الباطن مفيد و مقدّس و هادف لأقصى غاية.

فى مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذى ينظر إلى الظاهر صبره و تماسكه فيقوم بالاعتراض و حتى بالتشاجر.

و لكن الأستاذ العالم و الخبير بالأسرار بقى ينظر إلى بواطن الأعمال، و استمر بعمله ببرود، و لم يعر أى أهمية إلى اعتراضات موسى و صيحاته، بل كان فى انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلّا أنّ التلميذ كان مستمرا فى الإلحاح، و لكنّه ندم حين توضحت و انكشفت له الأسرار.

و قد يكون موسى عليه السّلام اضطرب عند ما سمع هذا الكلام و خشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث و قال: قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً.

مرّة أخرى كشف موسى عليه السّلام عن قمة أدبه فى هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّى صابر، بل قال: إن شاء اللّه ستجدنى صابرا.

و لأنّ الصبر على حوادث غريبة و سيئة فى الظاهر و التى لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السّلام أن يتعهد له مرّة أخرى، و حذّره: قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً[۱۸۷]. و قد أعطى موسى العهد مجددا و انطلق مع العالم الأستاذ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۷۱ الى ۷۸]

اشارة

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (۷۱) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۲) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (۷۴) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۵)

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (۷۷) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۷۸)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۰

التّفسير

المعلم الإلهى و الأفعال المنكرة!!

نعم، لقد ذهب موسى و صاحبه و ركبا السفينة: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ.

من الآن فصاعدا نرى القرآن يستخدم ضمير المثنّى فى جميع الموارد، و الضمير إشارة إلى موسى و العالم الرّبانى، و هذه إشارة إلى انتهاء مهمّة صاحب موسى عليه السّلام (يوشع) و رجوعه، أو أنّه لم يكن معنيا بالحوادث بالرغم من أنّه قد حضرها جميعا. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأقوى.

عند ما ركبا السفينة قام العالم بثقبها: «خرقها».

«خرق» كما يقول الراغب فى المفردات: الخرق، قطع الشىء على سبيل الإفساد بلا تدبّر و لا تفكر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

و بحكم كون موسى عليه السّلام نبيّا إلهيا كبيرا فقد كان من جانب يرى أن من واجبه الحفاظ على أرواح و أموال الناس، و أن يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر، و من جانب آخر كان وجدانه الإنسانى يضغط عليه و لا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التى يبدو ظاهرها سيئا قبيحا، لذا فقد نسى العهد الذى قطعه للخضر (العالم) فاعترض و قال: قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً.

لا ريب إنّ هدف العالم (الخضر) لم يكن إغراق من فى السفينة، و لكنّ النتيجة النهائية لخرق السفينة لم يكن سوى غرق من فى السفينة، لذا فقد استخدم موسى عليه السّلام (اللام الغائية) لبيان الهدف.

مثل ذلك ما نقوله للشخص الذى يأكل كثيرا، عند ما نقول له: أ تريد أن تقتل نفسك؟! بالطبع مثل هذا لا يريد قتل نفسه بكثرة الطعام، إلّا أنّ نتيجة عمله قد تكون هكذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۱

«إمر» على وزن «شمر» و تطلق على العمل المهم العجيب أو القبيح للغاية.

و حقا، لقد كان ظاهر عمل الرجل العالم عجيبا و سيئا للغاية، فهل هناك عمل أخطر من أن يثقب شخص سفينة تحمل عددا من المسافرين! و فى بعض الرّوايات نقرأ أنّ أهل السفينة انتبهوا إلى الخطر بسرعة و قاموا بإصلاح الثقب (الخرق) مؤقتا، و لكن السفينة أصبحت بعد ذلك معيبة و غير سالمة.

و فى هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السّلام نظرة خاصّة و خاطبة: قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

أمّا موسى الذى ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذى قطعة لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلا: قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً. يعنى لقد أخطأت و نسيت الوعد فلا تؤاخذنى بهذا الاشتباه.

«لا ترهقنى» مشتقّة من «إرهاق» و تعنى تغطية شىء ما بالقهر و الغلبة، و تأتى فى بعض الأحيان بمعنى التكليف، و فى الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعّب الأمور علىّ، و لا تقطع فيضك عنّى بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحرية و ترجلوا من السفينة: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ و قد تمّ ذلك بدون أى مقدمات! و هنا ثار موسى عليه السّلام مرّة أخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل برىء بدون أى سبب، و ظهرت آثار الغضب على وجهه و ملأ الحزن و عدم الرضا عينيه و نسى وعده مرّة أخرى، فقام للاعتراض، و كان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه فى المرّة الأولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الأولى، فقال عليه السّلام: قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ أى إنّك قتلت إنسانا بريئا من دون أن يرتكب جريمة قتل، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۲

كلمة «غلام» تعنى الفتى الحدث، أى الصبى سواء كان بالغا أو غير بالغ.

و بين المفسّرين ثمّة كلام كثير عن الغلام المقتول، و فيما إذا كان بالغا أم لا، فالبعض استدل بعبارة نَفْساً زَكِيَّةً على أنّ الفتى لم يكن بالغا. و البعض الآخر اعتبر عبارة بِغَيْرِ نَفْسٍ دليلا على أنّ الفتى كان بالغا، ذلك لأنّ القصاص يجوز بحق البالغ فقط، و لكن لا يمكن القطع فى هذا المجال بالنسبة لنفس الآية.

«نكر» تعنى القبيح و المنكر، و أثرها أقوى من كلمة «إمر» التى وردت فى حادثة ثقب السفينة، و السبب فى ذلك واضح، فالأمر الأوّل قد أوجد الخطر لمجموعة من الناس، إلّا أنّهم تداركوه بسرعة، لكن ظاهر العمل الثّانى يدل على إرتكاب جريمة.

و مرّة أخرى كرّر العالم الكبير جملته السابقة التى اتسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السّلام: قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

و الاختلاف الوحيد مع الجملة السابقة هو إضافة كلمة «لك» التى تفيد التأكيد الأكثر؛ يعنى: إنّنى قلت هذا الكلام لشخصك! تذكر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك و هو خجل، حيث أخلّ بالعهد مرّتين- و لو بسبب النسيان- و بدأ تدريجيا يشعر بصدق عبارة الأستاذ فى أنّ موسى لا يستطيع تحمّل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قال له عند ما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر الى الاعتذار و قال: إذا اعترضت عليك مرّة أخرى فلا تصاحبنى و أنت فى حل منّى: قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً. صيغة العذر هنا تدل على انصاف موسى عليه السّلام و رؤيته البعيدة للأمور، و تبيّن أنّه عليه السّلام كان يستسلم للحقائق و لو كانت مرّة؛ بعبارة أخرى:

إنّ الجملة توضح و بعد ثلاث مراحل للاختبار أنّ مهمّة هذين الرجلين كانت مختلفة.

بعد هذا الكلام و العهد الجديد: فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۳

أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما.

لا ريب، إنّ موسى و صاحبه لم يكونا ممّن يلقى بكلّه على الناس و لكن يتّضح أنّ زادهم و أموالهم قد نفدت فى تلك السفرة، لذا فقد رغبا أن يضيفهما أهل تلك المدينة (و يحتمل أنّ الرجل العالم تعمد طرح هذا الاقتراح كى يعطى موسى درسا بليغا آخر).

و يجب أن نلتفت إلى أنّ (قرية) فى لغة القرآن تنطوى على مفهوم عام، و تشمل المناطق السكنية فى الريف و المدينة، أمّا المقصود منها فى الآية فهو المدينة لا القرية، كما تصرح بعد ذلك الآيات اللاحقة.

و ذكر المفسّرون نقلا عن ابن عباس أنّ المقصود بهذه المدينة، هو (أنطاكية)[۱۸۸].

و ذكر آخرون: إنّ المقصود منها هو مدينة «أيلة» التى تسمى اليوم ميناء (أيلات) المعروف و الذى يقع على البحر الأحمر قرب خليج العقبة. أمّا البعض الثّالث فيرى بأنّها مدينة (الناصرة) الواقعة شمال فلسطين، و هى محل ولادة السيّد المسيح عليه السّلام. و قد نقل العلّامة الطبرسى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يدعم صحة هذا الاحتمال.

و رجوعا إلى ما قلناه فى المقصود من (مجمع البحرين) إذ قلنا: إنّه كناية عن محل التقاء خليج العقبة و خليج السويس، يتّضح أنّ مدينة (الناصرة) أو ميناء (أيلة) أقرب إلى هذا المكان من انطاكية.

المهم فى الأمر، أنّنا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السّلام و صاحبه من أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاما دنيئى الهمّة، لذا نقرأ فى رواية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۴

قوله فى وصف أهل هذه المدينة: «كانوا أهل قرية لئام»[۱۸۹].

ثمّ يضيف القرآن: فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ ۱۹۰] و قد كان موسى عليه السّلام يشعر بالتعب و الجوع، و الأهم من ذلك أنّه كان يشعر بأنّ كرامته و كرامة أستاذه قد أهينت من أهل هذه القرية التى أبت أن نضيفهما؛ و من جانب آخر شاهد كيف أنّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، و كأنّه بذلك أراد أن يجازى أهل القرية بفعالهم السيئة، و كان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يعدّا طعاما لهما.

لذا فقد نسى موسى عليه السّلام عهده مرّة أخرى و بدأ بالاعتراض، إلّا أنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفيفا فقال: قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً.

و فى الواقع فإنّ موسى يعتقد بأنّ قيام الإنسان بالتضحية فى سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة؛ بعبارة أخرى: إنّ الجميل جيّد و حسن، بشرط أن يكون فى محلّه.

صحيح أنّ الجزاء الجميل فى مقابل العمل القبيح هو من صفات الناس الإلهيين، إلّا أنّ ذلك ينبغى أن لا يكون سببا فى دفع المسيئين

للقيام بالمزيد من الأعمال السيئة.

و هنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى، بأنّك و من خلال حوادث مختلفة، لا تستطيع معى صبرا، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً.

موسى عليه السّلام لم يعترض على القرار- طبعا- لأنّه هو الذى كان قد اقترحه عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۵

وقوع الحادثة السابقة، و هكذا ثبت لموسى أنّه لا يستطيع الاستمرار مع هذا الرجل العالم. و لكن برغم كل ذلك، فإنّ خبر الفراق قد نزل بوقع شديد على قلب موسى عليه السّلام، إذا يعنى فراق أستاذ قلبه مملوء بالأسرار، و مفارقة صحبة مليئة بالبركة، إذ كان كلام الأستاذ درسا، و تعامله يتسّم بالإلهام؛ نور اللّه يشع من جبينه، و قلبه مخزن للعلم الإلهى.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمر صعب للغاية، لكن على موسى عليه السّلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المرّة.

المفسّر المعروف أبو الفتوح الرازى يقول:

ورد فى الخبر، أنّ موسى عليه السّلام عند ما سئل عن أصعب ما لاقى من مشكلات فى طول حياته، أجاب قائلا: لقد واجهت الكثير من المشاكل و الصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السّلام من فرعون، و ما عاناه من بنى إسرائيل) و لكن لم يكن أيّا منها أصعب و أكثر ألما على قلبى من قرار الخضر فى فراقى إيّاه»[۱۹۱].

«تأويل» من «أول» على وزن «قول» و تعنى الإرجاع، لذا فإنّ أى عمل أو كلام يرجعنا إلى الهدف الأصلى يسمّى «تأويل» كما أنّ رفع الحجب عن أسرار شىء هو نوع من التأويل.

اطلاق كلمة (التأويل) على تفسير الأحلام يعود لهذا السبب بالذات، كما ورد فى سورة يوسف هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ ۱۹۲][۱۹۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۷۹ الى ۸۲]

اشارة

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (۸۰) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۸۲)

التّفسير

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث:

بعد أن أصبح الفراق بين موسى و الخضر عليهما السّلام أمرا حتميا، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهى بتوضيح أسرار أعماله التى لم يستطع موسى أن يصبر عليها، و فى الواقع فإنّ استفادة موسى من صحبته تتمثل فى معرفة أسرار هذه الحوادث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۷

الثلاثة العجيبة، و التى يمكن أن تكون مفتاحا للعديد من المسائل، و جوابا لكثير من الأسئلة.

ففى البدايـة ذكر قصّـة السـفينة و قال: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً.

و بهـذا الترتيب كـان ثمّـة هـدف خيّر وراء ثقب السـفينة الـذى بـدأ فى حينه عملا مشـينا سـيئا، و الهـدف هو نجاتهم من قبضـة ملك غـاصب، و كـان هـذا الملك يترك السـفينة المعيبـة و يصـرف النظر عنها. إذا خلاصـة المقصود فى الحادثـة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعنى هنا الجانب المكانى، و إنّما هى كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، و بما أنّ الإنسان لا يحيط بالحوادث التى سوف تصيبه لاحقا، لذا استخدمت الآية التعبير الآنف الذكر.

إضافة إلى ذلـك فـإنّ الإنسـان عنـد مـا يخضع لضـغط فرد أو مجموعـة فـإنّه يسـتخدم تعبير (وراء) كقوله مثلاـ الـدّيانون ورائى و لا يتركونى؛ و فى الآيـة (۱۶) من سـورة إبراهيم نقرأ قـوله تعـالى: مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَ يُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ و كـأنّ جهنّم تلاـحق و تتبع المذنبين، لذا فقد استخدمت كلمة وراء[۱۹۴].

و يفيـد اسـتخدام كلمة (مسـكين) أنّ «المسـكين» ليس هو الشـخص الذى لا يملك شـيئا مطلقا، بل هى وصف يطلق على الأشـخاص الذين يملكون أموالا و ثروة لكنّها لا تفى بحاجاتهم.

و يحتمل أيضا أن يكون السـبب فى إطلاق وصف (المساكين) عليهم ليس بسـبب الفقر المالى، بل بسـبب افتقارهم للقوّة و القدرة، و هذا التعبير يستخدم فى لغة العرب، كما و أنّه يتلاءم مع الجذور الأصلية لمعنى مسكين لغويا، و الذى يعنى السكون و الضعف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۸

و

فى نهج البلاغة نقرأ قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «مسكين ابن آدم .. تؤلمه البقة، و تقتله الشرقة، و تنتنه العرقة»[۱۹۵].

بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثّانية التى قتل فيها الفتى فيقول:

وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً.

تحتمـل مجموعـة من المفسّـرين أنّ المقصود من الآيـة ليس مـا يتـبيّن من ظاهرهـا من أنّ الفتى الكـافر و العاصـى قـد يكون سـببا فى انحراف أبويه، و إنّما المقصود أنّه بسبب من طغيانه و كفره يؤذى أبويه كثيرا[۱۹۶]؛ و لكن التّفسير الأوّل أقرب للصحة.

فى كل الأحوال، فإنّ الرجل العالم قام بقتل هذا الفتى، و اعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب و الأم المؤمنين فى حال بقاء الابن على قيد الحياة.

و سوف نجيب فى فقرة البحوث على شبهة (القصاص قبل الجناية) التى ترد على أعمال الخضر هذه.

كلمـة (خشـينا) تسـتبطن معنى كبيرا، فهـذا التعبير يوضـح أنّ هـذا الرجل العالم كان يعتبر نفسه مسـئولا عن مسـتقبل الناس، و لم يكن مستعدا لأن تصاب أم أو أب مؤمنان بسوء بسبب انحراف ابنهم.

كما إنّ تعبير (خشـينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، و إلّا لا معنى للخوف فى هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم و الوعى و القدرة.

و بعبارة أخرى، فإنّ الهدف هو الاتقاء من حادث سىء نرغب أن نقى الأبوين منه على أساس المودّة لهما.

و يحتمل أن يكون التعبير بمعنى (علمنا) كما ينقل عن ابن عباس، يعنى أنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۲۹

كنّا نعلم أنّ الفتى- فى حال بقائه- سوف يكون سببا لأحداث أليمة تقع لأبيه و أمه فى المستقبل.

أمّا لماذا اسـتخدم ضمير المتكلّم فى حالة الجمع، بينما كان المتكلّم فردا واحدا، فإنّ سبب ذلك واضح، حيث أنّها ليست المرّة الأولى

التى يستخدم القرآن هذه الصيغة، ففى كلام العرب عند ما يتحدث الأشخاص الكبار عن أنفسهم فإنّهم يستخدمون ضمير الجمع. و السبب فى ذلك أنّ هؤلاء الأشخاص يملكون أشخاصا تحت أيديهم و يعطونهم الأوامر لتنفيذ الأعمال، فاللّه يعطى الأوامر للملائكة، و الإنسان يعطى الأوامر للذين هم تحت يديه.

ثمّ تحكى الآيات على لسان العالم قوله: فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً.

إنّ تعبير (أردنا) و (ربّهما) يطوى معانى كبيرة سوف نقف عليها بعد قليل.

(زكاة) هنا بمعنى الطهارة و النظافة، و لها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان و العمل الصالح، و تتسع للأمور الدينية و المادية، و قد يكون فى هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السّلام الذى قال: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ... فقال له العالم فى الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، و أردنا أن يبدلهما ربّهما ابنا طاهرا بدلا عن ذلك.

و فى روايات عديدة نقرأ

«أبدلهما اللّه به جارية ولدت سبعين نبيّا»[۱۹۷].

فى آخر آية من الآيات التى نبحثها، كشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذى دعاه إلى بناء الجدار فقال: وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۳۲۹

فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما.

رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۰

و أنا كنت مأمورا ببناء هذا الجدار بسبب جميل و إحسان أبوى هذين اليتيمين، كى لا يسقط و ينكشف الكنز و يكون معرّضا للخطر.

و فى خاتمة الحديث، و لأجل أن تنتفى أى شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السّلام، و لكى يكون على يقين بأنّ هذه الأعمال كانت طبقا لمخطط و توجيه أعلى خاص، قال العالم: وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى بل بأمر من اللّه.

و ذلك سر ما لم يستطع موسى عليه السّلام صبرا، إذ قال: ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً.

بحوث

۱- هل كانت مهمّة الخضر فى اطار النظام التشريعى أم التكوينى!؟

إنّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الكبار، و أثارت بينهم الكثير من الكلام و الاستفهامات.

و السؤال الأوّل هو: هل يمكن إتلاف جزء من أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنّ هناك غاصبا يريد أن يصادرها؟

و هل يمكن معاقبة فتى بذريعة الأعمال التى سيقوم بها فى المستقبل؟

ثمّ هل هناك ضرورة للعمل المجانى بهدف الحفاظ على أموال شخص معين؟

لقد رأينا من سياق القصّة القرآنية أنّ موسى اعتراض على الرجل العالم، و لكنّه بعد أن استمع للتوضيحات و أحاط ببواطن الأمور عاد و اقتنع.

أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة على الأسئلة، نعرضها بالتفصيل الآتى:

الطريق الأوّل: أن نطابق الحوادث و تصرفات الرجل العالم مع الموازين الفقهيـة، و قوانين الشـرع، و قـد قامت مجموعة من المفسّـرين بسلوك هذا الطريق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۱

فالحادثـة الأـولى اعتبروها منطبقـة مع قانون الأهم و المهم؛ و قالوا بأنّ حفظ مجموع السـفينة عمل أهم حتما من الضـرر الجزئى الـذى لحقها بالخرق؛ و بعبارة أخرى، فإنّ الخضـر قام هنا (بـدفع الأفسـد بالفاسد) خاصّة و أنّه كان يمكن تقدير الرضا الباطنى لأهل السـفينة فيما إذا علموا بهذه الحادثة. (أى أنّ الخضر قد حصل من وجهة الإحكام و القواعد الشرعية على إذن الفحوى).

و فيما يتعلق بالغلام فقد أصرّ المفسّـرون ممن سـلك هذا الطريق، على أنّ الفتى كان بالغا و أنّه كان مرتدا أو مفسدا، و بسبب أعماله الفعلية فإنّه من الجائز أن يقتل.

و أمّـا حـديث الخضـر عن جرائم الغلاـم المسـتقبلية، فـإنّه بـذلك أراد أن يقول بأن جرائم هـذا الغلام لا تقتصـر على إفساده الراهن و جرائمه الحالية، بل سيقوم بالمستقبل بجرائم أكبر، لذا فإنّ قتله طبقا للموازين الشرعية و بسبب ما اقترفه من جرائم فعلية يكون جائزا.

أمّا ما يخص الحادثـة الثّالثـة، فلا أحد يسـتطيع أن يعترض على الآخرين فيما لو قاموا بالتضـحية و الإيثار من أجل الآخرين، و من أجل أن لا تضـيع أموالهم دون أن يتقاضوا أجرا على أعمالهم، و هو بالضـبط ما قام به الخضر، و قد لا تصل هذه الأفعال إلى حدّ الوجوب، إلّا أنّها تعتبر- حتما- من السلوك الحسن.

بل قد يقال من الوجهة الفقهية أنّ الإيثار و التضحية فى بعض الموارد من الأمور الواجبة، مثل أن تكون أموال كثيرة لطفل يتيم معرضة للتلف، و يمكن المحافظة عليها بجهد قليل فلا يستبعد وجوب بذل الجهد.

الطريق الثّانى: تتمّ فيه مناقشـة بعض عناصـر الاسـتدلال الفقهيـة التى وردت فى الطريق الأوّل، فإذا كانت التوضـيحات الآنفة مقنعة فيما يخص الكنز و الحائط، إلّا أنّها فى قضـية قتل الغلام لا تتلاءم مع ظاهر الآيـة، الـذى اعتبر علّة قتل الغلام هو ما سـيقوم به من أعمال فى المستقبل، و ليس أعماله الفعلية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۲

أمّا الدليل الوارد حول خرق السـفينة، فهو أيضا لا يخلو من تأمل فهل نستطيع مثلا- و من الوجهة الفقهية- أن نتلف جزءا من أموال أو بيت شـخص معين بـدون علمه لانقاذهـا من خطر مـا، حتى لو علمنـا و تيقنـا بأنّه سـيتمّ غصب تلك الأموال فى المسـتقبل ... ترى هل يسمح الفقهاء بمثل هذا الحكم؟! و على هذا الأساس يجب علينا أن نسلك طريقا آخر:

الطريق الثّالث: إنّ فى هذا العالم ثمّة نظامان هما: «النظام التكوينى، و النظام التشـريعى»، و بالرغم من أنّ هذين النظامين متناسـقين فيما بينهما فى الأصول الكلية، و لكنها قد ينفصلان و يفترقان فى الجزئيات.

على سبيل المثال، يقوم اللّه سـبحانه و تعالى و من أجل اختبار العباد، بابتلائهم بالخوف و نقص فى الأموال و الثمرات و موت الأعزّة و فقدانهم حتى يتبيّن الصابر من غيره تجاه هذه الحوادث و البلاءات.

و السؤال هنـا هو: هـل يسـتطيع أى فقيه أو حتى نبى أن يقوم بهـذا العمل، أى ابتلاء العباد بنقص الأموال و الثمرات و فقـدان الأعزة، و فقدان الأمن و الاستقرار بهدف اختبار الناس و ابتلائهم؟

و نرى أنّ اللّه سـبحانه و تعالى يقوم بتحـذير و تربية بعض أنبيائه و عباده الصالحين، و ذلك بابتلائهم بمصائب بسـبب تركهم للأولى، مثـل ما ابتلى به يعقوب عليه السّـلام بسـبب قلّـة توجهه إلى المساكين، أو ما ابتلى به يونس عليه السّـلام بسـبب تركه الأولى من بعض الأـمور و لو لفـترة قصـيرة ... فهـل يـا ترى يحق لأحـد أن يقوم بهـذه الأعمـال بعنوان الجزاء و العقـاب لهؤلاـء الرسـل الكرام و العبـاد الصالحين؟

و نرى أنّ اللّه سـبحانه و تعالى يقوم فى بعض الأحيان، بسـلب النعمة من الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله فى البحر- مثلا-

يخسر هذه الأموال، أو يصاب بالمرض بسبب عدم شكره لربّه على نعمة السلامة ...

و السؤال هنا: هل يستطيع أحد من الناحية الفقهية و التشريعية أن يسلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۳

النعمة من الآخرين، أو ينزل الضرر بسلامتهم و صحتهم بسبب عدم شكرهم و بدعوى ابتلائهم؟

إنّ أمثال هذه الأمور كثير للغاية، و هى تظهر- بشكل عام- أنّ عالم الوجود، و خصوصا خلق الإنسان، قد قام على النظام الأحسن، حيث وضع اللّه تعالى مجموعة من القوانين و المقررات التكوينية حتى يسلك الإنسان طريق التكامل، و عند ما يتخلف عنها فسيصاب بردود فعل مختلفة.

و لكنّا من وجهة قوانين الشرع و ضوابط الأحكام لا نستطيع أن نصنّف الأمور فى إطار هذه القوانين التكوينية.

على سبيل المثال نرى أنّ الطبيب يستطيع أن يقطع إصبع شخص معين بحجّة عدم سراية السم إلى قلبه، و لكن هل يستطيع أى شخص أن يقطع إصبع شخص آخر بحجّة تربيته على الصبر أو عقابا له على كفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق يستطيع القيام بذلك حتما لأنّه يلائم النظام الأحسن).

و الآن بعد أن ثبت و توضح أنّ فى العالم نظامان (تكوينى و تشريعى)، و أنّ اللّه هو الحاكم و المسيطر على هذين النظامين، لذا فلا مانع فى أن يأمر تعالى مجموعة بأن تطبّق النظام التشريعى، بينما يأمر مجموعة من الملائكة أو بعض البشر (كالخضر مثلا) بأن يطبقوا النظام التكوينى.

و من وجهة النظام التكوينى لا يوجد أى مانع فى أن يبتلى اللّه طفلا غير بالغ بحادثة معينة، ثمّ يموت ذلك الطفل بسبب هذه الحادثة، و ذلك لعلم اللّه تعالى بأنّ أخطارا كبيرة كامنة لهذا الطفل فى المستقبل كما أنّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص و بقاءهم يتمّ لمصلحة معينة كالامتحان و الابتلاء و غير ذلك.

و أيضا لا مانع فى أن يبتلينى اللّه اليوم بمرض صعب يقعدنى الفراش لعلمه تعالى بأنّ خروجى من البيت لو تمّ فسأتعرض لحادثة خطيرة لا أستحقها، لذا فهو تعالى يمنعنى منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۴

بعبارة أخرى: إنّ مجموعة من أوليائه و عباده مكلّفون فى هذا العالم بالبواطن، بينما المجموعة الأخرى مكلّفون بالظواهر. و المكلّفون بالبواطن لهم ضوابط و أصول و برامج خاصّة بهم، مثلما للمكلّفين بالظواهر ضوابطهم و أصولهم الخاصّة بهم أيضا.

صحيح أنّ الخط العام لهذين البرنامجين يوصل الإنسان إلى الكمال؛ و صحيح أنّ البرنامجين متناسقين من حيث القواعد الكلية، إلّا أنّهما يفترقان فى التفاصيل و الجزئيات كما لاحظنا ذلك فى الأمثلة.

بالطبع لا يستطيع أحد أن يعمل كما يحلو له ضمن هذين الخطين، بل يجب أن يحصل على إجازة المالك القادر الحكيم الخالق جلّ و علا، لذا رأينا الخضر (العالم الكبير) يوضح هذه الحقيقة بصراحة قائلا، (ما فعلته عن أمرى) بل إنّى خطوت الخطوات وفقا للبرنامج الإلهى و الضوابط التى كانت موضوعة لى.

و هكذا سيزول التعارض و التضاد و تنتفى الأسئلة و المشكلات المثارة حول مواقف الخضر فى الحوادث الثلاث.

و سبب عدم تحمّل موسى عليه السّلام لأعمال الخضر يعود إلى مهمّة موسى التى كانت تختلف عن مهمّة الخضر فى العالم، لذا فقد كان موسى عليه السّلام يبادر إلى الاعتراض على مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشريعة بينما كان الخضر مستمرا فى طريق ببرود، لأنّ وظيفة كل من هذين المبعوثين الإلهيين تختلف عن وظيفة الآخر و دوره المرسوم له إلهيا، لذلك لم يستطيعا العيش سوية، لذا قال الخضر لموسى عليه السّلام: هذا فِراقُ بَيْنِى وَ بَيْنِكَ

۲- من هو الخضر؟

لقد رأينا القرآن الكريم يتحدّث عن العالم من دون أن يسميّه بالخضر و قد عبّر عن معلّم موسى عليه السّلام بقوله: عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۵

مِنْ لَدُنَّا عِلْماً و الآية توضح المقام الخاص للعبودية و العلم و المعرفة، لذا فإنّنا غالبا ما نصفه بالرجل العالم.

أمّا الرّوايات الإسلامية و فى مختلف مصادرها عرّفت هذا الرجل باسم (الخضر) و من بعض هذه الرّوايات نستفيد بأنّ اسمه الحقيقى كان (بليا بن ملكان) أمّا الخضر فهو لقب له، حيث أنّه أينما كان يطأ الأرض فإنّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

البعض احتمل أنّ اسم الرجل العالم هذا هو (إلياس) و من هنا ظهرت فكرة أن الياس و الخضر هما اسمان لشخص واحد.

و لكن المشهور المعروف بين المفسّرين و الرواة هو الأوّل.

و طبيعى أن نقول: إنّ اسم الرجل العالم أيّا كان فهو غير مهم لا لمضمون القصّة و لا لقصدها، إذ المهم أن نعرف أنّه كان عالما إلهيا، شملته الرحمة الإلهية الخاصّة، و كان مكلّفا بالباطن و النظام التكوينى للعالم، و يعرف بعض الأسرار، و كان معلّم موسى بن عمران بالرغم من أنّ موسى عليه السّلام كان أفضل منه من بعض الجوانب.

و هناك أيضا آراء و روايات مختلفة فيما إذا كان الخضر نبيّا أم لا.

ففى المجلد الأوّل من أصول الكافى وردت روايات عديدة تدل على أنّ هذا الرجل لم يكن نبيّا، بل كان عالما مثل (ذو القرنين) و (آصف بن برخيا)[۱۹۸].

فى حين نستفيد من روايات أخرى أنّه كان نبيّا، و ظاهر بعض الآيات أعلاه يدل على هذا المعنى، لأنّها تقول على لسانه: وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى و فى مكان آخر قوله: فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ ....

و نستفيد من روايات أخرى أنّ الخضر عمّر طويلا.

و هنا قد يطرح هذا السؤال: هل ذكرت قصّة موسى و هذا العالم الكبير فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۶

مصادر اليهود و المسيح؟

فى الجواب نقول: إذا كان المقصود هو كتب العهدين (التوراة و الإنجيل) فإنّ ذلك غير مذكور فيهما، أمّا بعض كتب علماء اليهود التى تمّ تدوينها فى القرن الحادى عشر الميلادى، ففيها قصّة تشبه إلى حد كبير حادثة موسى عليه السّلام و عالم زمانه، بالرغم من أنّها تذكر أنّ أبطال تلك القصّة هما (إلياس) و (يوشع بن لاوى) و هما من مفسّرى (التلمود) فى القرن الثّالث الميلادى، و تختلف من خلال عدّة أمور عن قصّة موسى و الخضر، و القصة هذه هى:

«و هو (اى يوشع) يطلب من اللّه أن يلقى الياس، و بمجردّ أن يستجاب دعاؤه و يحظى بلقاء الياس فإنّه يرجوه أن يطلعه على بعض الأسرار. فيجيبه الياس: إنّك لا طاقة لك على تحمّل ذلك، إلّا أن يوشع يصّر و يلحّ فى طلبه فيستجيب له الياس مشترطا عليه أن لا يسأل عن أىّ شىء يراه، و إذا تخلّف يوشع عن هذا الشرط فإنّ الياس حرّ فى الانفصال عنه و تركه، و على أساس هذا الاتّفاق يترافق يوشع و الياس فى السفر.

و أثناء سفرهما يدخلان إلى بيت فيستقبلهما صاحب البيت أحرّ استقبال و يكرم وفادهما. و كان لأهل ذلك البيت بقرة هى كلّ ما يملكون من حطام الدنيا حيث كانوا يوفّرون لأنفسهم لقمة العيش من بيع لبنها. فيأمر الياس صاحب البيت أن يذبح تلك البقرة، و يستولى على يوشع العجب و الاستغراب من هذا التصّرف و يدفعه ذلك لأن يسأله عن المبرّر لهذا الفعل. فيذكّره الياس بما اتّفقا عليه

و يهدّه بمفارقته له فيصمت يوشع و لا ينبس بكلمة.

و من هناك يواصلان سفرهما إلى قرية أخرى فيدخلان إلى بيت شخص ثرىّ و ينهض الياس إلى جدار فى ذلك البيت يشرف على السقوط فيرمّمه و يقيمه. و فى قرية أخرى يواجهان عددا من سكان تلك القرية مجتمعين فى مكان معيّن و لا يعيرون هذين الشخصين بالا و لا يواجهونهما باحترام. فيقوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۷

الياس بالدعاء لهم أن يصلوا جميعا إلى الرئاسة. و فى قرية رابعة يواجههما سكّانها باحترام فائق فيدعو لهم الياس بأن يصل شخص واحد منهم فحسب إلى الرئاسة. و بالتالى فإنّ يوشع بن لاوى لا يطيق الصبر فيسأل عن الوقايع الأربع، و يجيبه الياس: بأنّه فى البيت الأوّل كانت زوجة ربّ الدار مريضة و لو أنّ تلك البقرة لم تذبح بعنوان الصدقة فإنّ تلك المرأة تموت و يصاب صاحب الدار بخسارة أفدح من الخسارة التى تلحقه نتيجة لذبح البقرة، و فى البيت الثّانى كان هناك كنز ينبغى الاحتفاظ به لطفل يتيم، و أمّا إنّه قد دعوت لأهل القرية الثّالثة بأن يصلوا إلى الرئاسة جميعا فذلك لكى تضطرب أمورهم و يختلّ النظام عندهم.

على العكس من أهل القرية الرّابعة فإنّهم إذا أسندوا زمام أمورهم إلى شخص واحد فإنّ أمورهم سوف تنتظم و تسير على ما يرام»[۱۹۹].

و يجب عدم التوهّم أنّنا نرى بأنّ القصتين هما قصة واحدة، بل إنّ غرضنا الإشارة إلى أنّ القصة التى يذكرها علماء اليهود يمكن أن تكون قصة مشابهة أو محرّفة لما حصل أصلا لموسى عليه السّلام و الخضر، و قد تغيرت بسبب طول الزمان و أصبحت على هذا الشكل.

۳- الأساطير الموضوعة

إنّ الأساس فى قصّة موسى و الخضر عليهما السّلام هو ما ذكر فى القرآن، و لكن مع الأسف هناك أساطير كثيرة قيلت حول القصّة و حول رمزيها (موسى و الخضر) حتى أنّ بعض الإضافات تعطى للقصّة طابعا خرافيا. و ينبغى أن نعرف أنّ مصير كثير من القصص لم يختلف عن مصير هذه القصة، إذ لم تنج قصة من الوضع و التحريف و التقوّل.

مقياسنا فى واقعية القصّة هو أن نضع الآيات الثلاث و العشرون أعلاه كمعيار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۸

أمامنا، و حتى بالنسبة للأحاديث و الرّوايات فإنّنا نقبلها فى حال كونها مطابقة للآيات، فإذا كان هناك حديث لا يطابق الآيات فسنرفضه حتما و من حسن الحظ لم يرد فى هذه الأحاديث حديث معتبر.

۴- هل يمكن أن يصاب الأنبياء بالنسيان؟

لقد واجهتنا- أعلاه، و لعدّة مرّات- قضية نسيان موسى عليه السّلام، فمرّة فى قضية تلك السمكّة المعدّة لطعامهم؛ و ثلاث مرّات أخرى خلال الحوادث الثلاث التى وقعت عند مرافقته للخضر، حينما نسى تعهده! إذن، نحن أمام هذا السؤال: هل يقع النسيان بالنسبة للأنبياء؟

البعض يعتقد بصدور و وقوع مثل هذا النسيان بالنسبة للأنبياء، لأنّه لا يرتبط بأساس دعوة النّبوة و لا بفروعها و لا بتبليغ الدعوة، بل يقع فى قضية عادية تخص الحياة اليومية، فالمسلّم به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يصاب بالنسيان فى أصل دعوة النّبوة، و لا

یخطأ أو یشتبه فی التبلیغ، حیث أن عنایة اللّه تعصمه فی مثل هذه الأمور.

و لکن ما المانع أن ینسی موسی علیه السّلام طعامه، خصوصا و أن هذا النسیان أمر طبیعی عند ما یکون موسی متوجها بحواسه فی البحث عن الرجل العالم؟

ثمّ ما المانع من أن یصاب بالهیجان بحیث ینسی تعهد الذی قطعه مع صاحبه العالم، و ذلک عند ما شاهد هذه الحوادث العظیمة التی مرّت به کقتل الفتی و خرق السفینة و بناء الجدار فی مدینة البخلاء؟

إنّ موارد النسیان هذه لا تتعارض مع مقام العصمة، و لا هی مستبعدة عن أی نبی.

بعض المفسّرین احتملوا أن یکون النسیان هنا بمعنی مجازی، و یعنی الترک، لأنّ الإنسان عند ما یترک شیئا فهو کمن قد نسیه؛ أمّا لماذا ترک موسی طعامه، فقد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۳۹

یعود ذلک إلی عدم اهتمامه بمثل هذا الأمر. و فیما یتعلق بتعهده اتجاه صاحبه العالم، فذاک منه لأنّه کان ینظر إلی ظواهر الأمور، إذ من غیر المألوف أن یعرّض أحد أرواح و أموال الناس إلی الضرر، فضلا عن أن یکون ذلک الشخص هو العالم الکبیر، لذا فإنّ موسی علیه السّلام کان یعتبر نفسه مکلفا بالاعتراض، و کان یعتقد بأنّ هذا الأمر لا یقیّد بالتعهد.

لکن من الواضح أنّ هذه التفاسیر و الآراء لا تتسق مع ظواهر الآیات.

۵- لماذا ذهب موسی لرؤیة الخضر؟

فی حدیث عن ابن عباس قال: أخبرنی أبی بن کعب قال: خطبنا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «إنّ موسی علیه السّلام قام خطیبا فی بنی إسرائیل، فسئل أی الناس أعلم؟

قال: أنا.

فعتب اللّه علیه إذ لم یرد العلم إلیه. فأوحی إلیه: إنّ لی عبدا بمجمع البحرین هو أعلم منک.

قال موسی: یا ربّ فکیف لی به؟

قال: تأخذ معک حوتا ...»[۲۰۰] إلخ الرّوایة حیث أرشد تعالی نبیّه موسی للوصول إلی الرجل العالم.

کما روی ما یشابه هذا الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام ۲۰۱].

إنّ مفاد هذه الواقعة هو تحذیر لموسی علیه السّلام حتی لا یعتبر نفسه- برغم علمه و معرفته- أفضل الأشخاص.

و لکن هنا یثار هذا السؤال: ألا یجب أن یکون النّبی- و هو هنا من أولی العزم و صاحب رسالة- أعلم أهل زمانه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۰

فی معرض الجواب نقول: نعم، ینبغی أن یکون أعلم فیما یتعلق بمهمّته، یعنی الأعلم بالنظام التشریعی، و موسی علیه السّلام کان کذلک. أمّا الرجل العالم (الخضر) فهو کما قلنا سابقا، کانت له مهمّة تختلف عن مهمّة موسی علیه السّلام و لا ترتبط بعالم التشریع.

بعبارة أخری: إنّ الرجل العالم کان یعرف من الأسرار ما لا تعتمد علیه دعوة النّبوة.

و

فی حدیث جاء عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله علیه السّلام: «کان موسی أعلم من الخضر»[۲۰۲].

أی أعلم منه فی علم الشرع.

و هنا نلاحظ أنّ هذه الشبهة و قضیة نسیان موسی علیه السّلام هما اللتان دفعتا البعض إلی القول أنّ موسی المذکور فی القصة لیس

هو موسی بن عمران، بل هو شخص آخر. لکن مع حل هاتین المشکلتین لا یبقی مجال لهذا الکلام.

و فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام نری إشارة صریحة إلی أن مهمّة و وظیفة کلّ من موسی و الخضر کانت تختلف عن الآخر، فقد کتب أحدهم إلی الإمام الرضا علیه السّلام یسأله عن العالم الذی أتاه موسی، أیّهما کان أعلم؟ فکان ممّا أجاب به الإمام

قوله علیه السّلام: «أتی موسی العالم فأصابه فی جزیرة من جزائر البحر إمّا جالسا و إمّا متکئا فسلّم علیه موسی، فأنکر السلام، إذ کانت الأرض لیس بها سلام.

قال: من أنت؟ قال: أنا موسی بن عمران. قال: أنت موسی بن عمران الذی کلمه اللّه تکلیما؟ قال: نعم، قال: فما حاجتک؟ قال: جئت لتعلمنی ممّا علمت رشدا. قال: إنّی وکلت بأمر لا تطیقه، و وکلت بأمر لا أطیقه»[۲۰۳].

و من المناسب هنا أن نختم هذه الفقرة بما

رواه صاحب «الدر المنثور» عن «الحاکم» النیسابوری من أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «لما لقی موسی الخضر، جاء طیر فألقی منقاره فی الماء، فقال الخضر لموسی: تدری ما یقول هذا الطائر؟ قال: و ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۱

یقول؟ قال: یقول: ما علمک و علم موسی فی علم اللّه إلّا کما أخذ منقاری من الماء»[۲۰۴].

۶- ماذا کان الکنز؟

من الأسئلة التی تثار حول هذه القصّة، هی عن ماهیة الکنز الوارد فی الآیة، ماذا کان؟ و لماذا کان صاحب موسی یصر علی إخفائه؟ و لماذا قام الرجل المؤمن، یعنی أ بالأیتام یتجمع هذا الکنز و إخفائه؟

یری بعض المفسّرین أن الکنز یرمز إلی شیء معنوی، قبل أن یکون له مفهوم مادی.

إذ أنّ هذا الکنز- طبقا لروایات عدیدة تنقل من طرق السنة و الشیعة- لم یکن سوی لوح منقوش علیه مجموعة من الحکم.

أمّا ما هی هذه الحکم؟ فثمة کلام کثیر للمفسّرین فی ذلک.

ففی کتاب الکافی نقلا عن الإمام حیث قال فی جوابه علی سؤال یتعلق بماهیة الکنز: «أمّا إنّه ما کان ذهبا و لا فضة، و إنّما کان أربع کلمات: لا إله إلّا اللّه، من أیقن بالموت لم یضحک، و من أیقن بالحساب لم یفرح قلبه، و من أیقن بالقدر لم یخش إلّا اللّه»[۲۰۵].

و فی روایات أخری، ورد أنّ اللوح کان من ذهب. الظاهر أنّه لیس هناک تعارض بین الاثنین، لأنّ هدف الرّوایة الأولی أن تبیّن أنّ الکنز لم یکن دراهم و دنانیر.

و لو فرضنا أنّنا التزمنا المعنی الظاهر لکلمة کنز، و فسرناه علی أنّه کمیة من الذهب، فإنّنا لا نواجه مشکلة أیضا، لأنّ الکنز المحرم شرعا هو أن یقوم الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۲

بتجمیع و ادخار أموال و ثروة کبیرة لمدّة طویلة فی حین أن المجتمع بحاجة إلیها، و لکن لو قام أحد الأشخاص بدفن ماله لیوم أو عدّة أیّام (کما هو المتعارف فی الازمنة السابقة بسبب عدم الأمن) ثمّ توفی هذا الشخص بسبب حادثة، فلا یوجد أی إشکال فی مثل هذا الکنز.

۷- دروس هذه القصّة

هناك جملة دروس يمكن أن نستفيدها من القصّة، و يمكن لنا أن ندرجها كما يلى:

أ: أهمية العثور على قائد عالم و الاستفادة من علمه، بحيث رأينا أنّ نبيّا من أولى العزم مثل موسى عليه السّلام يسلك هذا الطريق الطويل، و قد بذل ما بذل لتحقيقه.

و هذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم و فى أى عمر كانوا.

ب: جوهرة العلم الإلهى تنبع من العبودية للّه تعالى، كما قرأنا فى الآيات أعلاه فى قوله تعالى: عَبْداً مِنْ عِبادِنا عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً.

ج: يجب تعلم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السّلام لصاحبه مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً أى علمنى عملا يقربنى من هدفى و مقصدى، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الاستعجال فى الأعمال، إذ العديد من الأمور تحتاج إلى الفرص المناسبة (الأمور مرهونة بأوقاتها) خاصّة فى القضايا المهمّة، و لهذا السبب، فإنّ الرجل العالم قد ذكر سرّ أعماله لموسى فى الفرصة المناسبة.

ه: الظاهر و الباطن من المسائل المهمّة الأخرى التى نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن لا نصدر أحكاما سريعة تجاه الحوادث التى تقع فى مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا. إذ ما أكثر الحوادث التى نكرهها، و لكن يتّضح بعد مدّة أنّ هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألطاف الخفية الإلهية. و القرآن يصرّح بمضمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۳

هذه الحقيقة فى قوله تعالى: عَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ عَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَ هُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ [۲۰۶].

إنّ المستفاد من هذه القضية أن لا يصاب الإنسان باليأس عند ما تهجم عليه الحوادث، و فى هذا الصدد نقرأ

فى حديث طريف ينقله عبد اللّه بن المحدّث و الفقيه المعروف زرارة بن أعين، و يقول فيه عبد اللّه: قال لى أبو عبد اللّه عليه السّلام: «اقرأ منى على والدك السلام، و قل له: إنّى إنّما أعيبك دفاعا منّى عنك، فإنّ الناس و العدوّ يسارعون إلى كلّ من قرّبناه و حمدنا مكانه لإدخال الأذى فى من نحبه و نقرّبه، و يرمونه لمحبتنا له و قربه و دنوه منّا، و يرون إدخال الأذى عليه و قتله و يحمدون كل من عبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجل اشتهرت منّا، و بميلك إلينا، و أنت فى ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا و لميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك فى الدين بعيبك و نقصك، و يكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك. يقول اللّه عزّ و جلّ: أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً هذا التنزيل من عند اللّه، صالحة، لا و اللّه ما عابها إلا لكى تسلم من الملك، و لا تعطب على يديه، و لقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مساغ و الحمد للّه، فافهم المثل يرحمك اللّه، فإنّك و اللّه أحبّ الناس إلىّ، و أحبّ أصحاب أبى حيا و ميتا. فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، و إن من ورائك ملكا ظلوما غصوبا يرقب عبور كل سفينة صالحة ترد بحر الهدى ليأخذها غصبا، ثمّ يغصبها و أهلها و رحمة اللّه عليك حيا و رحمته و رضوانه عليك ميتا»[۲۰۷].

و: من دروس القصة الاعتراف بالحقائق و اتخاذ المواقف المطابقة لها، فعند ما تخلف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۴

لا يستطيع الاستمرار معه فى الصحبة، و بالرغم من أنّ فراق هذا الأستاذ كان أمرا صعبا على موسى عليه السّلام، إلّا أنّه عليه السّلام لم يكابر و أنصف العالم بإعطائه الحق، و فارقة عن إخلاص بعد أن حصل على حقائق عظمية و كنوز معنوية كبيرة من هذه الصحبة

القصیرة.

یجب علی الإنسان أن لا یستمر إلی آخر عمره فی اختبار نفسه، بحیث تتحوّل حیاته إلی مختبر للأمور المستقبلیة التی قد لا تحصل أبدا، إذ علیه عند ما یختبر موضوعا ما عدّة مرّات، أن یلتزم العمل بنتائج الاختبار و أن یقتنع به.

ز: تأثیر إیمان الآباء علی الأبناء لقد تحمّل الخضر مسئولیة حمایة الأبناء فی المقدار الذی کان یستطیعه، و ذلک بسبب الأب الصالح الملتزم. بمعنی أنّ الابن یستطیع أن یسعد فی ظل الإیمان و أمانة و التزام الأب، و إنّ نتیجة العمل الصالح الذی یلتزمه الأب تعود علی الابن أیضا.

و فی بعض الرّوایات نقرأ أنّ ذلک الرجل الصالح لم یکن الأب المباشر للیتامی، بل هو من أجدادهم البعیدین جدا. (و هکذا یکون للعمل الصالح تأثیره)[۲۰۸]. و إنّ من علائم صلاح هذا الأب هو ما ترکه من الکنوز المعنویة، و من الحکم لأبنائه.

ح: قصر العمر بسبب إیذاء الوالدین عند ما یطال الموت الابن بسبب ما یلحقه من أذی بوالدیه فی مستقبل حیاته، و بسبب ما یرهقهما به من أذی و طغیان و کفر، قد یحرفهم به عن الطریق الإلهی، کما رأینا ذلک فی القصّة التی بین أیدینا، فإنّ الرّوایات الإسلامیة تربط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۵

بین قصر العمر و ترک صلة الرحم (و بالأخص أذیة الوالدین و عقوقهما) و قد أشرنا إلی بعضها فی نهایة الحدیث عن الآیة (۲۳) من سورة الإسراء.

و ینبغی هنا أن نستوعب الدرس علی صعید هذا الجانب من القصة، إذا کان الولد یقتل لما یلحقه بأبویه من ضرر و أذی فی مستقبل حیاته، تری فما حال الذی یمارس الأذی فعلا بحق والدیه و یرهقهما بالعقوق؟

ط: الناس أعداء ما جهلوا قد یحدث أن یقوم شخص بالإحسان إلینا، إلّا أنّنا نتصوره عدوّا لنا، لأنّنا لا نعرف بواطن الأمور، و نتسرع و نفقد الصبر، خصوصا إزاء الأحداث و الأمور التی نجهلها و لا نحیط بأسبابها علما. من الطبیعی أن یفقد الإنسان صبره إزاء ما لا یحیط به علما من الأحداث و القضایا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصّة هو أن لا نتسرع فی إصدار الأحکام علی مثل هذه القضایا حتی تکتمل لدینا الرؤیة التی نحیط من خلالها بجوانب و زوایا الموضوع المختلفة.

ففی حدیث عن أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب، نقرأ قوله علیه السّلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[۲۰۹]،

لذا فإنّه کلّما یرتفع الوعی لدی الإنسان فإنّ تعامله یکون أکثر منطقیة، و بعبارة أخری إنّ أساس الصبر هو الوعی.

و کان لانزعاج موسی علیه السّلام- بالطبع- ما یبرره، إذ کان یری تجاوزا عن حدود الشرع فی الأحداث التی وقعت علی ید صاحبه بحیث تعرض القسم الأعظم للشریعة الی الخطر، ففی الحادثة الأولی تعرضت مصونیة أموال الناس إلی الخطر؛ و فی الثّانیة تعرضت أرواحهم إلی خطر، أمّا فی الثّالثة، فکان اعتراضه ینصب علی ضرورة التعامل المنطقی مع حقوق الناس، لذلک فقد اعترض و نسی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۶

عهده الذی قطعه لصاحبه العالم، و لکن ما إن اطّلع علی بواطن الأمور هدأ و کفّ عن الاعتراض. و هذا الأمر یدل علی أنّ عدم الاطلاع هو أمر مقلق بحدّ ذاته.

ی: أدب التلمیذ و الأستاذ ثمّة ملاحظات لطیفة حول أدب التلمیذ و الأستاذ ظهرت فی مقاطع الحدیث بین موسی علیه السّلام و الرجل الربّانی العالم، فمن ذلک مثلا:

۱- اعتبار موسی علیه السّلام لنفسه تابعا للخضر قوله: أَتَّبِعُکَ

۲- لقد أعلن موسی علیه السّلام هذا الإتباع علی شکل استئذان فقال: هَلْ أَتَّبِعُکَ

۳- إقراره علیه السّلام بعلم أستاذه و بحاجته للتعلّم فقال: عَلی أَنْ تُعَلِّمَنِ

۴- و للتواضع فقد اعتبر علم أستاذه کثیرا، و هو یطلب جانبا من هذا العلم، فقال: مِمَّا.

۵- يصف علم أستاذه بأنّه علم إلهى فيقول: عُلِّمْتَ

۶- يطلب من أستاذه الهداية و الرشاد فقال عليه السّلام: رُشْداً.

۷- يقول لأستاذه بشكل لطيف خفى، بأنّ اللّه قد تلطّف عليك و علّمك، فتلطّف أنت علىّ، و حيث قال عليه السّلام: «تعلمن ممّا علمت».

۸- إنّ جملة هَلْ أَتَّبِعُكَ تكشف حقيقة أن يكون التلميذ فى طلب الأستاذ، و فى أتباعه، إذ ليس من وظيفة الأستاذ اتباع تلميذه إلّا فى حالات و موارد خاصّة.

۹- برغم ما كان يتمتع موسى عليه السّلام بمنصب كبير (حيث كان نبيّا من أولى العزم و صاحب رسالة و كتاب) إلّا أنّه تواضع، و هذا يعنى أنّك و مهما كنت و فى أى مقام أصبحت، يجب عليك أن تتواضع فى مقام طلب العلم و المعرفة.

۱۰- إنّ موسى عليه السّلام لم يذكر عبارة جازمة فى معرض تعهده لأستاذه، بل قال:

سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً و هذه الصيغة فى التعبير مملوءة أدبا إزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۷

الخالق جلّ و علا، و اتجاه الأستاذ أيضا، حتى إذا تخلّف عنها لا يكون ثمّة نوع من هتك الحرمة إزاء الأستاذ.

و ضرورى أن نذكر فى خاتمة هذا الحديث أنّ العالم الربانى قد استخدم إزاء موسى عليه السّلام منتهى الحلم فى مقام التعليم و التربية، فعند ما كان موسى عليه السّلام ينسى تعهده و تثور ثائرته و يعترض عليه، يجيبه الأستاذ بهدوء و برود، و لكن على شكل استفهام: أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۸

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۸۳ الى ۹۱]

اشارة

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (۸۳) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (۸۴) فَأَتْبَعَ سَبَباً (۸۵) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً (۸۶) قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً (۸۷)

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً (۸۸) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۸۹) حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً (۹۰) كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً (۹۱)

التّفسير

قصّة «ذو القرنين» العجيبة:

قلنا فى بداية حديثنا عن أصحاب الكهف: إنّ مجموعة من قريش قرّرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۴۹

اختبار الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود و استشارتهم بطرح ثلاث قضايا هى: تأريخ الفتية من أصحاب الكهف.

السؤال عن ماهية الروح، أمّا القضية الثّالثة فقد كانت حول «ذو القرنين».

و فى القرآن، جاء الردّ على قضية الروح فى سورة الإسراء، أمّا الإجابة على السؤالين الآخرين فقد جاءت فى سورة الكهف.

و نحن الآن بصدد قصّة «ذو القرنين»:

و أشرنا سابقا إلى أنّ سورة الكهف أشارت إلى ثلاث قصص تختلف فى الظاهر عن بعضها، و لكنّها تشترك فى جوانب معينة، و القصص الثلاث هى قصّة أصحاب الكهف، و موسى و الخضر، و قصّة «ذو القرنين».

إنّ فى القصص الثلاث هذه مضامين تنقلنا من حياتنا العادية إلى أفق آخر، يكشف لنا أنّ العالم فى حقائقه و أسراره لا يحدّ فيما ألفناه منه، و فيما يحيطنا منه، و اعتدنا عليه.

إنّ قصة «ذو القرنين» تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة و الباحثين منذ القدم. و قد بذلت جهود و مساعى كثيرة للتعرّف على هذه الشخصية.

و سنقوم أوّلا بتفسير الآيات الست عشرة الخاصّة بذى القرنين حيث أن حياته مع قطع النظر عن جوانبها التاريخية بمثابة درس كبير و ملىء بالعبر، ثمّ ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصية ذى القرنين نفسه مستفيدين فى ذلك من الرّوايات الإسلامية، و ممّا أشار إليه المؤرّخون فى هذا الصدد.

بتعبير آخر: إنّ ما يهمنا أوّلا ـ هو الحديث عن شخصية ذى القرنين، و هو ما فعله القرآن، حيث يقول تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ

فيكون الجواب على لسان الرّسول المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۰

و لأنّ «السين» فى (سأتلوا) تستخدم عادة للمستقبل القريب، و الرّسول هنا يتحدّث مباشرة إليهم عن ذى القرنين، فمن المحتمل أن يكون ذلك منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم احتراما و مراعاة للأدب؛ الأدب الممزوج بالهدوء و التروى، الأدب الذى يعنى استلهامه للعلم من اللّه تبارك و تعالى، و نقله إلى الناس.

إنّ بداية الآية تبيّن لنا أنّ قصة «ذو القرنين» كانت متداولة و معروفة بين الناس، و لكنّها كانت محاطة بالغموض و الإبهام، لهذا السبب طالبوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

و فى استئناف الحديث عن ذى القرنين يقول تعالى: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الْأَرْضِ أى منحناه سبل القوة و القدرة و الحكم.

وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً.

بالرغم من أنّ مفهوم (السبب) يعنى الحبل المستخدم فى تسلّق النخيل، الّا أن بعض المفسّرين يحصره فى الوسائل المستخدمة فى إنجاز الأعمال، إلّا أنّ الواضح من مفهوم الآية أنّ الكلمة المذكورة يراد منها معناها و مفهومها الواسع، حيث أنّ اللّه تبارك و تعالى منح «ذو القرنين» أسباب الوصول لكل الأشياء: العقل، العلم الكافى، الإدارة السليمة، القوّة و القدرة، الجيوش و القوى البشرية، بالإضافة إلى الإمكانات المادية. أى إنّه منح كل الأسباب و السبل المادية و المعنوية الكفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة.

ثمّ يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذى القرنين من هذه الأسباب و السبل فيقول: فَأَتْبَعَ سَبَباً.

ثمّ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ

فرأى أنّها تغرب فى بحر غامق أو عين ذات ماء آجن: وَجَدَها تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[۲۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۱

وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً أى مجموعة من الناس فيهم الصالح و الطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب اللّه ذا القرنين فى شأنهم: قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً[۲۱۱].

و يرى بعض المفسّرين فى كلمة (قلنا) دليلا على نبوة ذى القرنين. و لكن من المحتمل أن يكون المقصود بهذا التعبير هو الإلهام القلبى الذى يمنحه الخالق جلّ و علا لغير الأنبياء أيضا، هذا و ليس بالإمكان انكار أنّ التعبير الآنف الذكر يشير بالفعل إلى معنى النّبوة.

بعد ذلك تحكى الآيات جواب «ذى القرنين» الذى قال: قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً[۲۱۲]. أى إنّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوى و الأخروى معا.

وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى

وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً.

أى أنّنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلا عن أنّنا سنخفف عنه و لا نجعله يواجه المشاكل و الصعاب، بالإضافة إلى أنّنا سوف لن نجبى منه ضرائب كثيرة.

و الظاهر أنّ ذا القرنين أراد من ذلك أن الناس سينقسمون مقابل دعوتى الى التوحيد و الإيمان و النهى عن الظلم و الفساد إلى مجموعتين، الأولى: هى المجموعة التى سترحب ببرنامجه الإلهى و دعوته للتوحيد و الإيمان و هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۲

ستجزى بالحسنى و ستعيش حياة آمنة و مطمئنة. أمّا الثّانية: فستتخذ موقفا عدائيا من دعوة ذى القرنين و تقف فى الجبهة المناوئة، و تستمر فى شركها و ظلمها، و تواصل فسادها. و هى لذلك ستعاقب نتيجة موقفها هذا أشدّ العقاب.

و بمقارنة قوله: مَنْ ظَلَمَ و قوله: مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً يتبيّن لنا أنّ الظلم يعنى هنا الشرك و العمل غير الصالح الذى يعدّ من ثمار شجرة الشرك المشؤومة.

و عند ما انتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن فى ذلك: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً أى استخدم الوسائل و الإمكانات التى كانت بحوزته.

حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ و هنا رأى أنّها: وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً. و فى اللفظ كناية عن أنّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّا، و لا يملكون سوى القليل من الملابس التى لا تكفى لتغطية أبدانهم من الشمس.

أمّا بعض المفسّرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التى تحميهم من الشمس ۲۱۳].

و هناك احتمال آخر يطرحه البعض، و يرى أن يكون هؤلاء القوم فى أرض صحراوية تفتقر للجبال و الأشجار و الملاجئ، و أن ليس فى تلك الصحراء ما يمكّن هؤلاء القوم من حماية أنفسهم من الشمس من غطاء أو غير ذلك ۲۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۳

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً. هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» و نحن نعلم جيدا بإمكاناته.

بعض المفسّرين قال: إنّ هذه الآية تشير إلى الهداية الإلهية لذى القرنين فى برامجه و مساعيه ۲۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۴

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۹۲ الى ۹۸]

اشارة

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً (۹۲) حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (۹۳) قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ

مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا (۹۴) قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً (۹۵) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً (۹۶) فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً (۹۷) قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (۹۸)

التّفسير

كيف تمّ بناء سد ذى القرنين؟

الآيات أعلاه تشير إلى سفرة أخرى من أسفار ذى القرنين حيث تقول: ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۵

أى بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمّة التى كانت تحت تصرفه و مضى فى سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا.

و الآية إشارة إلى أنّه وصل إلى منطقة جبلية، و هناك وجد أناسا (غير المجموعتين اللتين عثر عليهما فى الشرق و الغرب) كانوا على مستوى دان من المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدّن لدى البشر.

البعض احتمل أنّ جملة لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا لا تعنى أنّهم لم يكونوا يعرفون اللغات، بل كانوا لا يفهمون محتوى الكلام، أى كانوا متخلفين فكريا.

أمّا عن مكان الجبل و الجوانب التأريخية و الجغرافية لهذه الحادثة، و سنذكر فى نهاية البحث التّفسيرى، حديثا مفصلا عن ذلك.

فى هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذى القرنين، لأنّهم كانوا فى عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج و مأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا.

قد يكون كلامهم هذا تمّ عن طريق تبادل العلامات و الإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذى القرنين، أو أنّهم تحدثوا معه بعبارات ناقصة لا يمكن الاعتداد بها.

و يحتمل أن يكون التفاهيم بينهم تمّ عن طريق المترجمين، أو بأسلوب الإلهام الإلهى، مثل تحدّث بعض الطيور مع سليمان عليه السّلام.

فى كل الأحوال، يمكن أن نستفيد من الآية الشريفة أنّ تلك المجموعة من الناس كانت ذات وضع جيّد من حيث الإمكانات الاقتصادية، إلّا أنّهم كانوا ضعفاء فى المجال الصناعى و الفكرى و التخطيطى، لذا فقد تقبلوا بتكاليف بناء هذا السد المهم، بشرط أن يتكفل ذو القرنين ببنائه و هندسته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۶

و فيما يخص يأجوج و مأجوج سنتحدث عنهم فى نهاية هذا البحث إن شاء اللّه.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ، و أنّى لا أحتاج إلى مساعدتكم المالية و إنّما: فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً.

كلمة «ردم» على وزن «طرد» و هى فى الأصل تعنى ملء الشق بالأحجار، إلّا أنّها فيما بعد أخذت معنى واسعا بحيث شمل كل سد، بل و شمل حتى ترقيع الملابس.

يعتقد بعض المفسّرين أنّ كلمة «ردم» تقال للسد القوى ۲۱۶]، و وفقا لهذا التّفسير فإنّ ذا القرنين قد وعدهم بأكثر ممّا كانوا ينتظرونه.

كما أنّه يجب الانتباه إلى أنّ «سد» على وزن «قد»، و «سدّ» على وزن «قفل» هما بمعنى واحد، و هو الحائل الذى يفصل بين شيئين، إلّا أنّ البعض- كما يقول الراغب- وضع فرقا بين الإثنين، فالأوّل هو من صناعة الإنسان، و الثّانى هو الحائل الطبيعى.

ثمّ أمر ذو القرنين فقال: آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ.

«زبر» جمع «زبرة» على وزن (غرفة)، و تعنى القطع الكبيرة و الضخيمة من الحديد.

و عند ما تهيأت قطع الحديد أعطى أمرا بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطّى بين الجبلين بشكل كامل: حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ

«صدف» تعنى هنا حافة الجبل، و يتّضح من هذا التعبير أنّ هناك شقا بين حافتى الجبل حيث كان يأجوج و مأجوج يدخلان منه، و قد صمم ذو القرنين ملأ هذا الشق.

الأمر الثّالث لذى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب و ما شابهه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۷

و وضعه على جانبى هذا السد، و أشعل النار فيه ثمّ أمرهم بالنفخ فيه حتى احمرّ الحديد من شدة النّار: قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً.

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدا من قطعة واحدة، و عن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذى يقام به اليوم فى ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيرا أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: قالَ آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً.

و بهذا الشكل قام بتغطية هذا السد الحديدى بطبقة النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء و يحفظ من التآكل.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ علوم اليوم أثبتت أنّه عند إضافة مقدار من النحاس إلى الحديد فإنّ ذلك سيزيد من مقدار مقاومته، و لأنّ «ذا القرنين» كان عالما بهذه الحقيقة فقد أقدم على تنفيذه.

إنّ المشهور فى معنى «قطر» هو ما قلناه (أى النحاس المذاب)، إلّا أنّ بعض المفسّرين فسّر ذلك ب «الخارصين المذاب» و هو خلاف المتعارف عليه.

و أخيرا، أصبح هذا السد بقدر من القوّة و الإحكام بحيث: فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً.

لقد كان عمل ذى القرنين عظيما و مهما، و كان له وفقا لمنطق المستكبرين و نهجهم أن يتباهى به أو يمنّ به، إلّا أنّه قال بأدب كامل: قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى لأنّ أخلاقه كانت أخلاقا إلهية.

إنّه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم و المعرفة و أستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنّ كل ذلك إنما كان من قبل الخالق جلّ و علا، و إذا كنت أملك قابلية الكلام و الحديث المؤثّر فذلك أيضا من الخالق جلّ و علا.

و إذا كانت مثل هذه الوسائل و الأفكار فى اختيارى فإنّ ذلك من بركة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۸

و رحمته الخالق الواسعة.

أراد ذو القرنين أن يقول: إنّنى لا أملك شيئا من عندى كى أفتخر به، و لم أعمل عملا مهما كى أمنّ على عباد اللّه.

ثمّ استطرد قائلا: لا تظنوا أنّ هذا السد سيكون أبديا و خالدا: فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ.

وَ كانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا.

لقد أشار ذو القرنين فى كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا و تحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

لكن بعض المفسّرين اعتبر الوعد الإلهى إشارة إلى التقدم العلمى للبشر و الذى بواسطته لا يبقى معنى لسد غير قابل للاختراق و العبور، فالطائرات و ما شابهها تستطيع أن تعبر جميع هذه الموانع. و لكن هذا التّفسير بعيد حسب الظاهر.

بحوث

أولا- الملاحظات التربوية فى هذه القصة التأريخية

سنبحث فيما بعد- إن شاء اللّه- ما يتعلق بذى القرنين؛ من هو؟ و كيف تمّ سفره للشرق و الغرب؛ و أين كان السد الذى أنشأه؟ و غير ذلك، و لكن بصرف النظر عن الجوانب التأريخية، فإنّ القصّة بشكل عام تحوى على دروس تربوية كثيرة من الضرورى الالتفات إليها و الإفادة منها، و فى الواقع أنّها هى الهدف القرآنى من إيرادها. و يمكن تلخيص هذه الدروس بالشكل الآتى:

١- إنّ أوّل درس تعلمنا إيّاه أنّ عمل هذه الدنيا لا يتمّ دون توفير أسبابه، لذا فإنّ اللّه تبارك و تعالى وهب الوسائل و الأسباب لتقدم و انتصار ذى القرنين فى علمه: وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً. و فى نفس الوقت استفاد «ذو القرنين» من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۵۹

هذه الأسباب و الوسائل بأفضل وجه ممكن: فَأَتْبَعَ سَبَباً.

لذلك فإنّ من يظن أنّه سيحصل على النصر من دون تهيئة أسبابه و مقدماته، فإنّه لا يصل إلى مرامه حتى لو كان ذا القرنين نفسه! ٢- بالرغم من أنّ غروب الشمس فى عين من ماء آسن سببه خطأ فى الباصرة و اشتباه منها، إلّا أنّ المعنى الذى نلمحه من هذا المثال هو إمكان تغطية الشمس مع عظمتها بالعين الآسنة و مثلها فى ذلك مثل ذلك الإنسان العظيم الذى يسقط و ينهار بسبب خطأ واحد فتغرب شخصيته من انظار الناس.

٣- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار و الأتباع، و معاقبة المذنبين و المخطئين، و هذا هو نفس الأساس الذى اعتمد عليه ذو القرنين حيث قال: قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ... وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى

و الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام بلور هذا المعنى فى رسالته إلى مالك الأشتر و التى هى برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السّلام: «و لا يكونن المحسن و المسىء عندك بمنزلة سواء، فإنّ فى ذلك تزهيدا لأهل الإحسان فى الإحسان، و تدريبا لأهل الإساءة على الإساءة»[۲۱۷].

۴- التكليف الشاق و التصعّب فى الأمور و تحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الأمور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبدا، و لهذا السبب فإنّ ذا القرنين بعد أن صرّح بمعاقبة الظالمين و تشويق الصالحين، أضاف: وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً حتى يمكن إنجاز الأعمال عن شوق و رغبة.

۵- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت و الاختلاف القائم فى حياة الناس و تراعى شرائط حياتهم المختلفة، و لهذا السبب فإنّ «ذو القرنين» صاحب الحكومة الإلهية و الذى واجهته أقوام مختلفة، كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۰

يتعامل مع كل مجموعة بما يناسب حياتها الخاصّة، و بذلك كان الجميع منضوين تحت لوائه.

۶- إنّ «ذو القرنين» لم يستعبد حتى تلك المجموعة التى لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا بل إنّه استمع إلى مشاكلهم، و دأب على رفع احتياجاتهم بأى أسلوب كان، و بنى لهم سدا محكما بينهم و بين أعدائهم اللدودين (يأجوج و مأجوج) و قد قام بإنجاز أمورهم بدون أن يفرّق بينهم (رغم أنّه كان يظهر أنّ مثل هؤلاء الناس عديمى الفهم لا ينفعون الحكومة بأى شىء).

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ قوله: إسماع الأصم من غير تصعرّ صدقة هنيئة»[۲۱۸].

۷- الأمن هو أوّل و أهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمّل «ذو القرنين» أصعب الأعمال و أشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم، و قد استفاد من أقوى السدود و أمنعها الذى أصبح مضرب الأمثال فى التأريخ و رمزا للاستحكام و الدوام و البقاء، حيث يقال لبناء القوى «إنّه مثل سدّ الإسكندر» بالرغم من أن «ذو القرنين» غير الإسكندر.

و عادة لا يسعد المجتمع من دون قطع الطريق على المفسدين، و لهذا فإنّ أوّل شىء طلبه إبراهيم عليه السّلام عند بناء الكعبة هو الأمن: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً[۲۱۹].

و لهذا السبب أيضا فإنّ الفقه الإسلامى وضع أقسى العقوبات للذين يعرضون أمن المجتمع إلى الخطر (راجع فى ذلك تفسير الآية (۳۳) من سورة المائدة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۱

۸- الدرس الآخر الذى يمكن أن نتعلمه من هذه القصّة، هو أنّ أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الأولى فى الاشتراك فى الجهد المبذول لحل مشكلتهم، لذا فإنّ «ذو القرنين» أعطى أمرا إلى الفئة التى اشتكت إليه أمر يأجوج و مأجوج بأن يجلبوا قطع الحديد، ثمّ أعطاهم الأمر بإشعال النار فى أطراف السد لدمج القطع فيما بينها، ثمّ أمرهم بتهيئة النحاس المذاب. و عادة فإن العمل الذى يتمّ بمساهمة و حضور الأطراف الأصليين فى المشكلة يؤدى إلى إظهار استعداداتهم و يعطى قيمة خاصّة للنتائج الحاصلة منه، و للجهود المبذولة فيه، و من ثمّ يحرص الجميع للحفاظ عليه و إدامته بحكم تحملهم لمجهودات إنشائه.

كما يتّضح من هذه النقطة أن، المجتمع المتخلف و المتأخّر يستطيع أن ينجز أعمالا مهمّة و عظيمة إذا تمتع ببرنامج صحيح و إدارة مخلصة.

۹- الزعيم الإلهى و القائد الرّبانى لا يلتفت إلى الجزاء المادى و النفع المالى و إنّما يقتنع بما حباه اللّه، لذا رأينا «ذو القرنين» عند ما اقترحوا عليه الأموال قال:

ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ و هذا النمط من السلوك يخالف أساليب السلاطين و ولعهم العجيب بجمع الثروة و الأموال.

و فى القرآن الكريم نقرأ مرارا فى قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاء لأعمالهم و دعواتهم.

و يمكن مشاهدة هذا الموضوع فى (۱۱) موردا من القرآن الكريم، سواء ما يخص نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الأنبياء السابقين، ففى بعض الأحيان يذكر القرآن تعبير: إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ و فى أحيان أخرى يضع القرآن محبّة أهل البيت عليهم السّلام و الذين هم ركن القيادة المستقبلية أساسا للجزاء فيقول: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى

۱۰- إحكام الأمور هو درس آخر نستفيده من هذه القصّة، فذو القرنين استفاد من القطع الحديدية الكبرى فى بناء السد، و قد وصلها بالنّار، ثمّ غطّاها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۲

بالنحاس المذاب كى تمتنع عن التلف و الصدأ إذا تعرضت للهواء و الرطوبة.

۱۱- مهما كان الإنسان قويا و متمكنا و صاحب قدرة و استطاعة فى إنجاز الأعمال، فعليه، أن لا يغتر بنفسه، و هذا هو درس آخر نتعلمه من قصة «ذو القرنين». فقد اعتمد فى جميع شؤونه على قدرة الخالق جلّ و علا، و قال بعد إتمام السد: هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى و عند ما اقترحوا عليه المساعدة المالية قال:

ما مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ. و أخيرا عند ما يتحدث عن فناء هذا السد المحكم، فإنّه لا ينسى أن ينسب موعد ذلك إلى اللّه تعالى.

۱۲- كل شى إلى زوال مهما كان محكما و صلدا. هذا هو الدرس الأخير فى هذه القصة، و هو درس للذين يتمنون أو يظنون خلود المال أو المنصب و الجاه.

إنّ سد ذى القرنين أمر هيّن قياسا إلى انطفاء الشمس و فناء الجبال الراسيات، إذا فكيف بالإنسان المعرّض للأضرار أكثر من غيره!؟

ألا يكفى التفكير بهذه الحقائق حافزا على الوقوف بوجه الاستبداد؟

ثانيا: من هو ذو القرنين؟

ذكر المفسّرون كلاما كثيرا عن شخصية ذى القرنين الوارد فى القرآن الكريم، فمن هو؟ و على أى واحد من الشخصيات التأريخية المعروفة تنطبق أوصافه و يمكن أن نرجع الآراء إلى ثلاث نظريات أساسية هى:

النظرية الأولى: يرى البعض أنّ «ذو القرنين» ليس سوى «الإسكندر المقدونى»، لذا فإنّهم يسمونه «الإسكندر ذو القرنين» و يعتقد هؤلاء بأنّه سيطر بعد وفاة أبيه على دول الروم و المغرب و المصر، و بنى مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك على الشام و بيت المقدس، ثمّ ذهب من هناك إلى «أرمينيا»، و فتح العراق و بلاد فارس، ثمّ قصد الهند و الصين، و من هناك رجع إلى خراسان، و قد بنى مدنا كثيرة، ثمّ جاء إلى العراق و مرض فى مدينة «زور» و توفى فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۳

و يقول البعض: إنّه لم يعمّر أكثر من (۳۶) سنة، أمّا جسده فقد ذهبوا به إلى الإسكندرية و دفنوه هناك ۲۲۰].

النظرية الثّانية: و يرى جمع من المؤرخين أنّ «ذو القرنين» كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون ب «تبّع» و جمع ذلك «تبايعه») و قد دافع عن هذه النظرية «الأصمعى» فى تأريخ العرب قبل الإسلام، و «ابن هشام» فى تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و «أبو ريحان البيرونى» فى كتاب «الآثار الباقية».

و يمكن لنا أن نلمح فى شعر شعراء (الحميرية) و هم من أقوام اليمن، و بعضا من شعراء الجاهلية تفاخرا بكون «ذو القرنين» من قومهم ۲۲۱].

وفقا لهذه النظرية يكون سد ذو القرنين هو سد «مأرب» المعروف.

النظرية الثّالثة: و هى أحدث النظريات فى هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامى المعروف (أبو الكلام آزاد) الذى شغل يوما منصب وزير الثقافة فى الهند. و قد أورد رأيه فى كتاب حققه فى هذا المجال.

و طبقا لهذه النظرية فإنّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخمينى.

أمّا النظريتان الأولى و الثّانية فإنّها لا تدعمها أدلة قوية، و مضافا إلى ذلك فإنّ صفات الإسكندر المقدونى أو ملوك اليمن لا تنطبق مع الصفات الذى ذكرها القرآن لذى القرنين.

من ناحية ثالثة فإنّ الإسكندر لم يبن سدا معروفا. أمّا سد مأرب فى اليمن فإنّه لا يتطابق مع الصفات الواردة فى سدّ «ذو القرنين». الذى بنى من الحديد و النحاس، و قد أنشئ لصد هجوم الأقوام الهمجية، فى حين أنّ سد مأرب مكوّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۴

من المواد العادية، و وظيفته خزن المياه و منعها من الطغيان و الفيضان، و قد ذكر القرآن شرحا لذلك فى سورة «سبأ».

لكل هذه الأسباب سنركز البحث على النظرية الثّالثة، و نرى من الضرورى- هنا- الانتباه بدقة إلى الأمور التالية:

أ: لماذا سمى ذو القرنين بهذا الاسم؟

البعض يعتقد أن سبب التسمية تعود إلى وصوله للشرق و الغرب، حيث يعبّر العرب عن ذلك بقرنى الشمس.

البعض الآخر يرى بأنّه عاش قرنين أو أنّه حكم قرنين، و أمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مختلفة فى ذلك.

البعض الثّالث يقول: كان يوجد على طرفى رأسه بروز (قرن)، و لهذا السبب سمّى بذى القرنين.

و أخيرا فإنّ البعض يعتقد بأنّ تاجه الخاص كان يحتوى على قرنين.

بالطبع هناك آراء أخرى فى ذلك، إلّا أنّ ذكرها جميعا يطيل بنا المقام؛ و سوف نرى أنّ مبتكر النظرية الثّالثة (أبو الكلام آزاد) استفاد كثيرا من هذا اللقب لإثبات نظريته.

ب: لو لاحظنا بدقة من آيات القرآن الكريم لاستفدنا أنّ ذا القرنين كانت له صفات ممتازة هى:

* هيّأ له اللّه جلّ و علا أسباب القوّة و مقدمات الإنتصار، و جعلها تحت تصرفه و فى متناول يده.

* لقد جهز ثلاثة جيوش مهمّة: الأوّل إلى الغرب، و الثّانى إلى الشرق؛ و الثّالث إلى المنطقة التى تضم المضيق الجبلى، و فى كل هذه الأسفار كان له تعامل خاص مع الأقوام المختلفة حيث ورد تفصيل ذلك فى الآيات السابقة.

* كان رجلا مؤمنا تتجلى فيه صفات التوحيد و العطف، و لم ينحرف عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۵

طريق العدل، و لهذا السبب فقد شمله اللطف الإلهى الخاص، إذ كان ناصرا للمحسنين و عدوّا للظالمين، و لم يكن يرغب أو يطمع بمال الدنيا كثيرا.

* كان مؤمنا باللّه و باليوم الآخر.

* لقد صنع واحدا من أهم و أقوى السدود، السد الذى استفاد لصنعه من الحديد و النحاس بدلا من الطابوق و الحجارة. (و إذا كانت هناك مواد أخرى مستخدمة فيه، فهى لا يعتبر شيئا بالقياس الى الحديد و النحاس) أمّا هدفه من بنائه فقد فى مساعدة المستضعفين فى قبال ظلم يأجوج و مأجوج.

* كان شخصا مشهورا بين مجموعة من الناس، و ذلك قبل نزول القرآن، لذا فإنّ قريش أو اليهود سألوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عنه، كما يصرح بذلك الكتاب العزيز فى قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ

و لا يمكن الاستفادة بشىء من صريح القرآن للدلالة على أنّه كان نبيّا، بالرغم من وجود تعابير تشعر بهذا المعنى، كما مرّ ذلك فى تفسير الآيات السابقة.

و نقرأ فى العديد من الرّوايات الإسلامية الواردة عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام

أنّه: لم يكن نبيّا بل عبدا صالحا»[۲۲۲].

ج: أساس القول فى النظرية الثّالثة (فى أنّ ذا القرنين هو كورش الكبير) قائم على أصلين و هما:

الأصل الأوّل: وفق العديد من الرّوايات الواردة فى سبب نزول هذه الآيات فإنّ الذى سأل عن «ذو القرنين» هم قوم من اليهود، أو أنّ قريشا قامت بالأمر بتحريض من اليهود، لذا يجب العثور على أصل هذا الموضوع فى كتاب اليهود.

و من الكتب المعروفة عند اليهود، هو كتاب «دانيال» حيث نقرأ فى الفصل الثامن منه، ما يلى: «حينما ملك (بل شصّر) عرضت لى و أنا دانيال رؤيا بعد الرؤيا الأولى التى شاهدتها، و ذلك حينما كنت أسكن قصر (شوشان) فى بلاد (عيلام)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۶

فقد رأيت و أنا فى المنام بأنّى على مقربة من نهر (أولاى) و أن كبشا يقف قرب النهر و كان له قرنان طويلان، و وجدته يضرب بقرنيه غربا و شمالا و جنوبا، و لم يتقدم أحد أمامه، و لأنّه لم يكن يوجد أحد أمامه، لذا فإنّه كان يتصرف وفقا لما يريد، و كان يكبر»[۲۲۳].

و بعد ذلك نقل عن دانيال فى هذا الكتاب قوله: «و قد تجلّى له جبرائيل (أى لدانيال) و فسّر منامه هكذا: إنّ الكبش ذا القرنين الذى رأيته فإنّه من ملوك المدائن و فارس (أو ملوك ماد و فارس).

لقد استبشر اليهود من رؤيا دانيال و علموا بأنّ فترة عبوديتهم ستنتهى من قبضة البابليين.

و لم تمض مدّة طويلة حتى ظهر (كورش) على مسرح الحكم فى إيران و وحّد بلاد (ماد و فارس) و شكّل منهما مملكة كبيرة؛ و كما

قال دانيال، فإنّ الكبش كان يضرب بقرنه الغرب و الشرق، فإنّ كورش قام بالفتوحات الكبيرة فى الجهات الثلاث، و حرّر اليهود و سمح لهم بالعودة إلى فلسطين ..

و الطريف ما نقرؤه فى التوراة فى كتاب «أشعيا» فصل (۴۴) رقم (۲۸): «ثمّ يقول بخصوص كورش: إنّه كان راعيا عندى (أى عند الرب) و سيقوم بتنفيذ مشيئتى».

يجب الانتباه إلى أنّ وصف كورش ورد فى بعض تعبيرات التوراة على أنّه «عقاب المشرق» و الرجل المدبّر الذى يأتى من مكان بعيد. (كتاب أشعيا فصل ۴۶ رقم ۱۱).

الأصل الثّانى: لقد تمّ العثور فى القرن التاسع عشر الميلادى على تمثال لكورش فى طول إنسان تقريبا، و ذلك بالقرب من مدينة «إصطخر» بجوار نهر «المرغاب» و يظهر من هذا التمثال أنّ لكورش جناحين من الجانبين يشبهان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۷

جناح العقاب، و على رأسه تاج يشاهد فيه قرنان يشبهان قرنا الكبش.

فضلا عمّا يطويه هذا التمثال من نموذج قيّم لفن النحت القديم، فقد جلب انتباه العلماء، حتى أنّ مجموعة من العلماء الألمان سافروا إلى إيران لأجل رؤيته فقط.

عند تطبيق ما ورد فى التوراة على مواصفات التمثال تبلور فى ذهن العلّامة (أبو الكلام آزاد) احتمال فى وجود اشتراك بين «ذو القرنين» و كورش، و أنّ الأخير لم يكن سوى «ذو القرنين» نفسه. فتمثال كورش له جناحان كجناحى العقاب، و هكذا توضحت شخصية «ذو القرنين» التأريخية لمجموعة من العلماء.

و ممّا يؤيّر هذه النظرية الأوصاف الأخلاقية المذكورة لكورش فى التأريخ.

يقول «هرودوت»، المؤرخ اليونانى: لقد أعطى كورش أمرا إلى قواته بألّا يضربوا بسيوفهم سوى المحاربين، و أن لا يقتلوا أى جندى للعدوّ إذا انحنى. و قد أطاع جيشه أوامره، بحيث أنّ عامّة الناس لم تشعر بمصائب الحرب و مآسيها.

و يكتب عنه «هرودوت» أيضا: لقد كان كورش ملكا كريما، و سخيا عطوفا، و لم يكن مثل بقية الملوك فى حرصهم على المال، بل كان حريصا على إفشاء العدل، و كان يتسم بالعطاء و الكرم، و كان ينصف المظلومين و يحب الخير.

و يقول مؤرّخ آخر هو (ذينوفن): لقد كان كورش ملكا عادلا و عطوفا، و قد اجتمعت فيه فضائل الحكماء، و شرف الملوك؛ فالهمة الفائقة كانت تغلب على وجوده، و كان شعاره خدمة الإنسانية، و أخلاقه إفشاء العدل، كما أنّ التواضع و السماحة كانا يغلبان الكبر و العجب فى وجوده.

الطريف فى الأمر أنّ هؤلاء المؤرّخين الذين ذكروا كورش فى الأوصاف الآنفة الذكر، كانوا من كتاب التأريخ الغرباء عن قوم كورش، و من غير أبناء وطنه، حيث كانوا من (اليونان)، و المعروف أنّ أهل اليونان تعرضوا لهزيمة منكرة على يد كورش عند ما فتح «ليديا»!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۸

ثمّ إنّ أنصار هذا الرأى يقولون: إنّ الأوصاف المذكورة فى القرآن الكريم حول «ذو القرنين» تتطابق مع الأوصاف التأريخية لكورش.

و الأهم من ذلك أنّ كورش قد سافر أسفارا نحو الشمال و الشرق و الغرب، و قد وردت قصة هذه الأسفار مفصّلة فى حياته، و هى تتطابق مع الأسفار الثلاثة لذى القرنين الوارد ذكرها فى القرآن الكريم.

فأوّل جيش له كان قد أرسله إلى بلاد «ليديا» الواقعة فى شمال آسيا الصغرى، و هذه البلاد كانت تقع غرب مركز حكومة كورش.

و عند ما نضع خارطة الساحل الغربى لآسيا الصغرى أمامنا، فسوف نرى أنّ القسم الأعظم من الساحل يغرق فى الخلجان الصغيرة و خاصة قرب «أزمير» حيث يكون الخليج بشكل يشبه شكل العين. و القرآن يبيّن أن «ذو القرنين» فى سفره نحو الغرب أحسّ بأنّ

الشمس غرقت فی عین من اللجن.

هـذا المشـهد، هو نفس المنظر الذی شاهده «کورش» حینما تطمس الشـمس فی الخلجان الساحلیة لتبدو لعین الناظر و کأنّها غارقة فی تلک الخلجان الساحلیة.

أمّا الجیش الثّانی فقـد کان باتجاه الشـرق، و فی وصـفه یقول المؤرخ «هرودوت»: إنّ هذا الهجوم الکورشـی فی الشـرق کان بعد فتح «لیدیا» و خاصّة بعد عصیان بعض القبائل الهمجیة التی أجبرت بعصیانها کورش علی هذا الهجوم.

و تعبیر القرآن الذی یقول: حَتَّی إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلی قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً هو إشارة إلی سـفر «کورش» إلی أقصـی الشرق حیث شاهد أنّ الشمس تشرق علی أناس لم یجعلوا لهم ما یظلّهم من حرّ الشمس، و هذه إشارة إلی أنّ القوم کانوا من سکنة الصحاری الرحّل.

أمّـا الجیش الثّـالث فقـد أرسـله نحو الشـمال باتجـاه جبـال القوقاز حیث وصل إلی المضـیق المحصور بین الجبلین، و بنی هناک سـدّا محکما بطلب من أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۶۹

المنطقة، لکی یتحصنوا به عن هجمات القبائل الهمجیة من قوم یأجوج و مأجوج.

المضـیق یسـمی فی الـوقت الحاضـر مضـیق «داریـال» حیـث یمکـن مشاهـدته فی الخرائـط المنتشـرة فی الـوقت الحاضـر، و یقـع بین «والادی کیوکز» و «تفلیس» فی نفس المکان الـذی ما زال یظهر فیه حتی الآن الجـدار الحدیـدی الأثری، و الـذی هو نفس السد الذی بناه «کورش»، إذ ثمّة تطابق واضح بینه و بین ما ذکر القرآن من صفات و خصائص لسدّ ذی القرنین.

هذه هی خلاصة الأدلة التی تدعم صحة النظریة الثّالثة حول شخصیة «ذو القرنین»[۲۲۴].

صحیـح أنّ ثمّـة نقاطا مبهمـة فی هـذه النظریة، إلّا أنّها فی الوقت الحاضـر تعتبر أفضل النظریات فی تشـخیص شخصـیة «ذو القرنین» و تطبیق مواصفاتها القرآنیة علی الشخصیات التأریخیة.

ثالثا: أین یقع سد ذی القرنین؟

بالرغم من محاولـة البعض المطابقـة بین سد ذی القرنین و بین جدار الصـین الذی لا یزال موجودا و یبلغ طوله مئات الکیلو مترات، إلّا أنّ الواضـح أنّ جـدار الصـین لا یـدخل فی بنائه الحدید و لا النحاس، و مضافا إلی ذلک لا یقع فی مضـیق جبلی ضـیق، بل هو جدار مبنی من مواد البناء العادیة و یبلغ طول مئات الکیلو مترات، و ما زال موجودا حتی الآن.

البعض یری فی سـد ذی القرنین أنّه سـد مأرب فی الیمن، و لکن هـذا السد برغم وقوعه فی مضـیق جبلی، إلّا أنّه أنشـئ لمنع السـیل و لخزن المیاه، و لم یدخل النحاس و الحدید فی بنائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۰

و لکن بالاسـتناد إلی شـهادة العلماء و أهل الخبرة فإنّ السد- کما أشرنا لذلک قبل قلیل- یقع فی أرض القوقاز بین بحر الخزر و البحر الأسود، حیث توجـد سلسـلة جبلیـة کالجـدار تفصل الشـمال عن الجنوب، و المضـیق الوحیـد الذی یقع بین هذه الجبال الصـخریة هو مضیق «داریال» المعروف، و یشاهد فیه جدار حدیدی أثری حتی الآن، و لهذه المرجحات یعتقد الکثیرون أنّ سد «ذو القرنین» یقع فی هذا المضیق، و أنّ المتبقی من مواصفات آثاره دلیل مؤیّد لذلک.

الطریـف فی الأـمر أنّه یوجـد نهر علی مقربـة من ذلـک المکـان یسـمی «سـائرس» أی «کـورش» إذ کـان الیونـان یسـمون کورش ب (سائرس).

الآثار الأرمنیـة القدیمـة کانت تطلق علی هـذا الجدار اسم «بهاک کورائی» و التی تعنی «مضـیق کورش» أو «معبر کورش» و هذا دلیل آخر علی أنّ کورش هو الذی بنی السد[۲۲۵].

رابعا: من هم یأجوج و مأجوج؟

ذکر القرآن الکریم یأجوج و مأجوج فی سورتین، إذ وردت المرّة الأولی فی الآیات التی نبحثها، و الثّانیة فی سورة الأنبیاء، آیة (۹۶).
الآیات القرآنیة تؤیّد بوضوح أنّ هذین الاسمین هما لقبیلتین همجیتین کانتا تؤذیان سکان المناطق المحیطة بهم.
و فی کتـاب «حزقیـل» من التوراة، الفصل الثامن و الثلاثین و التاسع و الثلاثین، و فی کتاب رؤیا «یوحنا» الفصل العشـرین، ذکرا بعنوان «کودک» و «ماکوک» التی تعنی بعد التعریب یأجوج و مأجوج.
و یقول العلّامة الطباطبائی، فی تفسـیر المیزان: إنّه یستفاد من مجموع ما ذکر فی التوراة أن مأجوج أو یأجوج و مأجوج هم مجموعة أو مجامیع کبیرة کانت
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۱
تقطن أقصی نقطة فی شمال آسیا، و هم أناس محاربون یغیرون علی الأماکن القریبة منهم ۲۲۶].
البعض یعتقد أنّ هاتین الکلمتین عبریتین، و لکنهما فی الأصل انتقلتا من الیونانیة إلی العبریة، إذ کانتا تلفظان فی الیونانیة ب «کاک» و «ماکاک» ثمّ انتقلتا علی هذا الشکل إلی کافة اللغات الأوروبیة.
ثمّة أدلة تأریخیة علی أنّ منطقة شـمال شـرقی الأرض فی نواحی «مغولسـتان» کانت فی الأزمنة السابقة کثیفة السکان، إذ کانت الناس تتکاثر بسرعة، و بعد أن ازداد عددهم اتجهوا نحو الشرق أو الجنوب، و سیطروا علی هذه الأراضی و سکنوا فیها تدریجیا.
و قـد وردت مقاطع تأریخیـة مختلفـة لحرکة هؤلاء الأقوام و هجراتهم، و قد تمّت واحدة من هذه الهجمات فی القرن الرابع المیلادی، بقیادة «آتیلا» و قد قضت هذه الهجمة علی حضارة الإمبراطوریة الرومانیة.
و کان آخر مقطع تأریخی لهجومهم فی القرن الثّانی عشر المیلادی بقیادة جنگیزخان، حیث هاجم شرق البلاد الإسلامیة و دمّر العدید من المدن، و فی طلیعتها مدینة بغداد حاضرة الخلافة العباسیة، و فی عصر کورش فی حوالی عام (۵۰۰) قبل المیلاد قامت هذه الأقوام بعـدة هجمات، لکن موقف حکومـة «ماد و فارس» إزاءهم أدّی إلی تعتبر الأوضاع و اسـتتباب الهـدوء فی آسـیا الغربیـة التی نجت من حملات هذه القبائل.
و بهـذا یظهر أنّ یأجوج و مأجوج هم من هذه القبائل الوحشـیة، حیث طلب أهل القفقاز من «کورش» عند سـفره إلیهم أن ینقذهم من هجمات هذه القبائل، لذلک أقدم علی تأسیس السد المعروف بسدّ ذی القرنین ۲۲۷].
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۲

الآیات [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۹۹ الی ۱۰۲]

اشارة

وَ تَرَکْنـا بَعْضَـهُمْ یَوْمَئِـذٍ یَمُوجُ فِی بَعْضٍ وَ نُفِـخَ فِی الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً (۹۹) وَ عَرَضْـنا جَهَنَّمَ یَوْمَئِـذٍ لِلْکافِرِینَ عَرْضاً (۱۰۰) الَّذِینَ کـانَتْ أَعْیُنُهُمْ فِی غِطـاءٍ عَنْ ذِکْرِی وَ کانُوا لا یَسْـتَطِیعُونَ سَـمْعاً (۱۰۱) أَ فَحَسِـبَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنْ یَتَّخِـذُوا عِبـادِی مِنْ دُونِی أَوْلِیـاءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْکافِرِینَ نُزُلاً (۱۰۲)

التّفسير

عاقبة الكافرين:

لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج و مأجوج و انهدامه عند البعث، و هذه الآيات تستمر فى قضايا القيامة، فتقول أوّلا: إنّنا سنترك فى ذلك اليوم- الذى ينتهى فيه العالم- بعضهم يموج ببعض: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس فى تلك الواقعة، و شبيه له ما نقوله من أنّ الناس فى القضية الفلانية يموجون، كناية عن كثرتهم، أو بسبب الاضطراب الخوف الذى يصيب الناس فى ذلك اليوم، و كأنّما أجسادهم تهتز كأمواج الماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۳

طبعا لا يوجد تناقض بين المعنيين، و يمكن أن يشمل تعبير الآية كلا الحالتين.

بعد ذلك تضيف الآيات: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً و بلا شك فإنّ كافة الناس سيجمعون فى تلك الساحة و لن يستثنى منهم أحد، و تعبير فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمّة تحولان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم و بداية العالم الجديد:

الأوّل: فناء الموجودات و الناس بشكل آنى.

و الثّانى: إحياء الموتى بشكل آنى أيضا.

و لا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، و لكنّ القرآن يعبّر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور)، و سنشرح ما يعينه ذلك فى نهاية الآية (۶۸) من سورة الزمر إن شاء اللّه.

و هناك رواية ينقلها «أصبغ بن نباتة» عن الإمام الصادق عليه السّلام، يبيّن فيها عليه السّلام أنّ المقصود من قوله تعالى: وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ هو يوم القيامة[۲۲۸].

و قد يتصّور البعض أنّ هناك تعارضا بين الرّواية و بين ما ذكرناه أعلاه فى تفسير الآية، حيث قلنا: إنّها تعنى مرحلة فناء الدنيا، كما يظهر من الآيات التى تسبقها و التى تليها. لكن هذا التعارض سيزول إذا التفتنا إلى ملاحظة و هى أنّه يتمّ استخدام يوم القيامة- فى بعض الأحيان- بمعناه الواسع الذى يشتمل على المقدمات) أى مقدمات القيامة) و نحن نعرف: أنّ الفناء السريع للدنيا هو أحد المقدمات.

ثمّ تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضح عاقبة أعمالهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۴

و الصفات التى تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً.

إنّ جهنّم ستظهر لهم، و تتضح لهم الأنواع المختلفة من عذابها، و هذا هو بحدّ ذاته عذاب أليم موجع، فكيف إذا ولجوها!؟ من هم الكافرون؟ و لماذا يصابون بمثل هذه العاقبة؟

الآية تعرّف هؤلاء بجملة قصيرة واحدة بقولها: الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي و بالرغم من أنّهم يمتكون آذانا، إلّا أنّهم يفقدون القدرة على السماع: وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً.

فهؤلاء أسقطوا فى الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق و إدراكه، و أهملوا و الوسيلة الهامة فى شقاء أو سعادة الإنسان، يعنى أنّهم غطّوا أعينهم و أسماعهم بحجاب و ستار بسبب أفكارهم الخاطئة و تعصبهم و حقدهم و صفاتهم القبيحة الأخرى.

الطريف فى الأمر أنّ الآية تقول فيما يخص العين: إنّها كانت مغطاة و بعيدة عن ذكرى، و هذه إشارة إلى أنّهم لم يستطيعوا أن

يشاهـدوا آثار الخالق جلّ و علا، لأنّهم كانوا فى سـتار و حجاب من الغفلـة، و لأنّهم لم يشاهـدوا الحقائق فقد اختلفوا الأساطير و نسوا اللّه.

نعم، إنّ الحق الواضـح، و كل شـىء فى هذا الوجود يتحدث مع الإنسان، و المطلوب أن تكون للإنسان عين تنظر و أذن تسـمع! بعبارة أخرى: إنّ ذكر اللّه ليس شيئا يمكن رؤيته بالعين، فما يشاهد هو آثاره، إلّا أنّ آثاره هى التى تذكّر الإنسان بخالقه.

الآيـة التى بعـدها تشـير إلى نقطـة انحراف فكريـة لـدى هؤلاء هى أصل انحرافاتهم الأخرى، فتقول: أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِى مِنْ دُونِى أَوْلِياءَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۵

هل يملك هؤلاء المعبودون- كالمسـيح و الملائكة- شـيئا للدفاع عن الآخرين بالرغم من مكانتهم العالية، أو أنّ الأمر بالعكس إذ كل ما عند هؤلاء هو من اللّه، و أنّهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟

إنّ هذه حقيقة واضحة، و لكنّ هؤلاء تناسوها و تورطوا فى شراك الشرك.

فى ختام الآية و للمزيد من التأكيد، تقول الآية: إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا.

«نزل» على وزن «رسل» بمعنى الإقامة، و تعنى أيضا الشـىء الذى يهيّأ لتقديمه للضيوف، و ذهب البعض إلى أن هذه الكلمة تطلق على أوّل شىء يقدم للضيف عند وروده كالفواكه و الشراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۶

الآيات [سورة الكهف (۱۸): الآيات ۱۰۳ الى ۱۰۸]

اشارة

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَـرِينَ أَعْمالاً (۱۰۳) الَّذِينَ ضَلَّ سَـعْيُهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَـبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِـنُونَ صُنْعاً (۱۰۴) أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيـاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقـائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمـالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَـةِ وَزْناً (۱۰۵) ذلِـكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَـذُوا آياتِى وَ رُسُلِى هُزُواً (۱۰۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (۱۰۷)

خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً (۱۰۸)

التّفسير

أخسر الناس:

هـذه الآيات و الآيات اللاحقة- إلى نهاية السورة المباركة- فى الوقت الذى تتحدّث فيه عن صـفات غير المؤمنين، فإنّها تعتبر نوعا من التلخيص لكافة البحوث التى وردت فى هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصحاب الكهف و موسى و الخضر و ذى القرنين، و ما بذلوه من جهود إزاء معارضيهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۷

فالآيات تكشف أوّلا عن أخسـر الناس، و لكنّها- بهدف إثارة حب الاسـتطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضية- تعمد إلى إثارتها على شكل سؤال موّجه إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا.

ثمّ يأتى الجواب بدون أى توقف حتى لا يبقى المستمع فى حيرة، فتقول:

الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح و حسب، بل إنّ الخسران الواقعى هو خسران أصل رأس المال، و هل هناك رأس مال أربح و أفضل و أحسن من العقل و الذكاء و الطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر و شباب و صحة؟

إنّ نتاج كل هذه المواهب هى أعمال الإنسان، و أعمال الإنسان هى فى الواقع انعكاس و تجسيد لطاقاتنا و قدراتنا.

عند ما تتحوّل هذه الطاقات إلى أعمال مخرّبة أو غير هادفة، فكأنّها قد فنيت أو ضاعت، فهى كمثل الإنسان الذى يحمل ثروة عظيمة معه، و لكنّه أثناء ذهابه إلى السوق يفقد هذه الثروة و يعود بيد خالية.

و قد لا يكون الخسران خسرانا خطيرا عند ما يتعلّم الإنسان من فقدان الثروة دروسا كبيرة قد تكون فى قيمتها مساويه للثروة التى فقدها، أو أكثر قيمة منها فى بعض الأحيان، فكأنّه لم يخسر شيئا.

إلّا أنّ الخسران الحقيقى و المضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادى و المعنوى فى مسالك خاطئة و مجالات منحرفة و يظن أنّه أحسن العمل، فهو فى هذه الحالة لم يحصل على ثمرة لعمله، و فى نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيكرّر العمل.

الجميل هنا، إنّ القرآن الكريم استخدم تعبير بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا فى حين أنّ المفروض هو القول: «الأخسرين عملا» (لأنّ التمييز مفرد عادة) و لكن لعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۸

هذه الصياغة القرآنية بسبب أنّهم لم يخسروا فى عمل معين، بل إنّ جهلهم المركب كان سببا للخسران فى جميع البرامج الحياتية و فى جميع أعمالهم.

بعبارة أخرى: إنّ الإنسان قد يربح فى تجارة معينة و يخسر فى أخرى، إلّا أنّ المحصلة فى نهاية السنة هى أنّه لا توجد خسارة كبيرة، و لكن من سوء حظ الإنسان أن يخسر فى جميع الأعمال التى اشترك فيها.

استخدم كلمة «ضلّ» لعله إشارة إلى هذه الحقيقة؛ و هى أنّ أعمال الإنسان لا تفنى فى هذا العالم بأى صورة من الصور، كما أنّ المادة و الطاقة تتبدّل و تتغيّر و لكنّها لا تفنى، و لكن قد تختفى أحيانا، لأنّه لا يمكن مشاهدة آثارها بالعين، و لا يمكن الاستفادة منها بأى شكل من الاشكال و مثلها فى ذلك مثل رأس المال الضائع و الذى لا هو فى حوزتنا فنستفيد منه، و لا هو فان.

أمّا لماذا يصاب الإنسان نفسيا بمثل هذه الحالات؟ فهو أمر سنبحث فيه مفصلا فى فقرة البحوث.

الآيات الأخرى تذكر صفات و معتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التى تكون أساسا فى مصائبهم فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ إنّهم كفروا بالآيات التى تفتح الأبصار و المسامع؛ الآيات التى ترفع حجب الغرور و تجسّد الحقائق أمام الإنسان، و أخيرا فإنّها آيات النور و الضياء التى تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام و التصورات الخاطئة و ترشده إلى عالم الحقائق.

ثمّ إنّهم بعد ذلك نسوا اللّه و كفروا بالمعاد و بلقاء اللّه وَ لِقائِهِ

نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، و ما لم يحس الإنسان بأنّ هناك قوّة تراقب أعماله و تحتفظ بكل شىء إلى لحظة انعقاد المحكمة الكبيرة الدقيقة و القاسية، فإنّ الإنسان سوف لا يعير أهمية إلى أعماله و سوف لا يصلح نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۷۹

ثمّ تضيف الآية أنّهم بسبب من كفرهم بالمبدأ و المعاد فإنّ أعمالهم قد حبطت و ضاعت: فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ و غدت تماما كالرماد فى مقابل العاصفة الهوجاء.

و لأنّهم لا يملكون عملا قيما ثمينا لذا: فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.

لأنّ الوزن يخص الأمور الموجودة، أمّا هؤلاء فلا يملكون شيئا من الأعمال، و لذلك ليس لهم وزن و لا قيمة؟ و فى إطار بيان جزاء

هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب فى انحراف و خسران هؤلاء، و هو الاستهزاء بما انزل اللّه فتقول: ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً[۲۲۹].

و بـذلك فـإنّ هؤلاء انتهوا إلى إنكـار الأصول الأساسـية الثلاثـة فى الإعتقاد الـدينى (المبـدأ، و المعاد، و رسالـة الأنبياء) و الأكثر من الإنكار أنّهم اسـتهزءوا بهذه الأمور! و الآن بعد أن عرفنا علامات الكفار و الأخسـرين أعمالا، و بعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجه الآيـات إلى المؤمنين فتبيّن عـاقبتهم، و بمقايسـة بين الاثنين نسـتطيع تشـخيص كل طرف بشـكل كامل. تقول الآيـة: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا.

«الفردوس» بقول كبار المفسّـرين (البسـتان) الـذى يشـتمل على كل النعم و المواهب اللازمـة، و بـذلك فالفردوس هو أفضل و أكمل البساتين فى الجنّة.

و بما أنّ كمال النعم بدوامها و أن لا تطالها يد الزوال، لذا فإنّ الآية تقول بلا فصل: خالِدِينَ فِيها.

و بالرغم من أنّ طبع الإنسان قائم على التغيّر و التنوّع، إلّا أنّ سكان الجنّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۰

لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبدا: لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا. ذلك لأنّهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع و التكامل كما سـيأتى شرح ذلك.

بحوث

۱- من هم الأخسرون أعمالا؟

نلاحظ فى حياتنا و حياة الآخرين، أنّ الإنسان عنـد ما يقوم بعمل خاطئ و يعتقد أنّه صـحيح، فإنّ جهله المركب هذا لا يدوم أكثر من لحظة أو موقف أو حتى سنة، أمّا أن يدوم على امتداد عمره فذلك هو سوء الحظ و هو الخسران المبين.

لهذا وجدنا القرآن الكريم يسـمى مثل هؤلاء الأشـخاص بالأخسـرين، لأنّ الذى يرتكب الذنب و هو يعلم بذلك، فإنّه سيضع حدا لما هو فيه و يعوّض عن الـذنب بالتوبـة و العمـل الصالـح، أمّـا أولئك الـذين يظنون أن ذنوبهم عبادة و أعمالهم السـيئة أعمالا صالحـة، و انحرافهم اسـتقامة، فـإنّ مثـل هؤلاء لا يسـتطيعون التعويض عن ذنوبهم، بل يسـتمرون فيما هم فيه إلى نقطـة النهايـة، فيكونون كما عبّر عنهم القرآن: بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا.

و فى الرّوايات و الأحاديث الإسـلامية تفاسـير متعدّدة للأخسرين أعمالا، و إنّ كل واحد منها إشارة إلى أحد المصاديق الواضحة لهذا المفهوم الواسع من دون أن تحدّده،

ففى حديث «أصـبغ بن نباتة» أنّه سأل الإمام على عليه السّلام عن تفسير الآية، فقال الإمام: «كفرة أهل الكتاب، اليهود و النصارى، و قد كانوا على الحق فابتدعوا فى أديانهم و هم يحسبون أنّهم يحسبون صنعا»[۲۳۰].

و

فى حديث آخر عن الإمام على عليه السّلام أيضا، قوله بعد ذكر الجواب الآنف:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۱

«و ما أهل النهر منهم ببعيد»

يعنى عليه السّلام الخوارج ۲۳۱].

و فى حديث ثالث هنا إشارة خاصّة إلى الرهبان (الرجال و النساء الذين يتركون الدنيا) و المجاميع التى ابتدعت البدع من المسلمين ۲۳۲].

و هناك قسم من الرّوايات تفسّر الآية ب (الذين ينكرون ولاية أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام)[۲۳۳].

أليس الرهبان الذى يعيشون كل عمرهم فى زاوية من الزوايا (فى الدير مثلا) و يعانون أنواع الحرمان، و يمتنعون عن الزواج و الأكل و الملابس الجيدة، و يفضلون سكنى الدير على كل شىء و هم يظنون أنّ هذه الحياة تقرّبهم إلى اللّه، أليس هؤلاء مصداقا واضحا للأخسرين أعمالا؟! هل هناك مذهب أو دين إلهى يمكن أن يدعو إلى خلاف قانون العقل و الفطرة، أى يدعو الإنسان الاجتماعى إلى الابتعاد عن الحياة، و يعتبر هذا العمل مصدرا للتقرب إلى اللّه تعالى؟! إنّ الذين أوجدوا البدع فى دين اللّه من قبيل التثليث فى مقابل توحيد اللّه الواحد الأحد، و اعتبروا المسيح بن مريم ابن اللّه، و أدخلوا خرافات أخرى فى دين اللّه، ظنا منهم بأنّهم يحسنون صنعا، أليس هؤلاء و أمثالهم هم أخسر الناس؟! ألا يعتبر خوارج «النهروان» من أخسر الناس، و هم المجموعة الجاهلة التى ارتكبت أعظم الذنوب (مثل قتل الإمام على عليه السّلام) ظنا منهم أنّ هذا الأمر سيقربهم من اللّه، بل و اعتبروا أنّ الجنّة مخصوصة لهم؟!

الخلاصة: إنّ الآية لها مفهوم واسع، إذ تشمل أقواما كثيرين فى السابق و الحاضر و المستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۲

و الآن نصل إلى هذا السؤال: ما هو مصدر هذا الانحراف الخطير؟

إنّ التعصب القوى و الغرور و التكبير و حب الذات، هى من أهم العوامل التى تقود إلى مثل هذه التصورات الخاطئة. و فى بعض الأحيان يكون التملق، أو الانطواء على النفس لفترة معينة سببا لظهور هذه الحالة، حيث يتصوّر الإنسان أنّ كل أعماله الخاطئة المنحرفة هى أعمال جميلة، بحيث يشعر بالفخر و الغرور و المباهاة بدلا من إحساس الخجل و الشعور بالعار بسبب أعماله القبيحة. يقول القرآن فى مكان آخر واصفا هذه الحالة: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً[۲۳۴] و فى آيات أخرى، نقرأ أنّ الشيطان هو الذى يزيّن للإنسان سيئاته حسنات، و يمنيهم بالغلبة و النصر، كما فى قوله تعالى: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّى جارٌ لَكُمْ ۲۳۵].

و يقول القرآن بعد قصّة برج فرعون المعروف: وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ و الآية تعليق على عمل فرعون عند ما طلب من هامان أن يبنى له برجا ليطّلع بزعمه إلى إله موسى كما فى الآيتين (۳۶- ۳۷) من سورة غافر.

۲- ماذا يعنى لقاء اللّه؟

بالرغم من أنّ بعض أشباه العلماء يستفيدون من أمثال هذه الآيات إمكانية رؤية الخالق جلّ و علا فى العالم الآخر، و يفسّرون لقاء اللّه باللقاء الحسى، إلّا أنّه من المعلوم بداهة أنّ اللقاء الحسى يقتضى تجسيم الخالق جلّ و علا، و التجسيم يقتضى التحديد و الحاجة، و المحدود المحتاج يكون قابلا للفناء، و الكل يعرف و يؤمن بأنّ هذه الصفات لا تنطبق على اللّه تعالى.

لذا فإنّ القصد من اللقاء أو الرؤيا فى الآيات القرآنية ليس الرؤية الحسية، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۳

الرؤية الباطنية المعنوية.

يعنى أنّ الإنسان فى يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر و أفضل من أى زمان، لذا فإنّه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعى البصير. لهذا السبب- و وفقا للآيات القرآنية- فإنّه حتى أشد الناس إنكارا للخالق و أكثرهم عنادا، سوف يقر يوم القيامة بوجود الخالق، و أنّه

لا مجال لإنکاره ۲۳۶].

بعض المفسّرین اعتبر هذا المفهوم (لقاء اللّه) مشاهدة النعم و الثواب، و أیضا العذاب و العقاب الإلهی و فی ذلک تکون کلمة الثواب و العقاب مقدّرة فی الآیة.

و بالرغم من أن هذان التّفسیران لا تعارض بینهما، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو أظهر و أوضح.

۳- وزن الأعمال

لیس بنا حاجة إلی أن نفسّر قضیة وزن الأعمال عن طریق تجسیم الأعمال و القول بأنّ عمل الإنسان سیتحوّل هناک إلی جسم و له وزن، ذلک لأنّ الوزن له معنی واسع یشمل أیة مقایسة، فمثلا نقول للأشخاص عدیمی الشخصیة أنّهم أشخاص لا وزن لهم، أو أنّهم أشخاص خفیفون، و نعنی بذلک ضعف شخصیتهم و لیس القلّة فی وزنهم الجسمی.

و الجمیل هنا أنّ الایة تصف الأخسرین أعمالا بأنّنا لم نضع لهم یوم القیامة میزانا للقیاس. و لکن هل تتعارض هذه الآیة مع قوله تعالی فی الآیة (۸) من سورة الأعراف: وَ الْوَزْنُ یَوْمَئِذٍ الْحَقُ

طبعا لا، لأنّ الوزن یخصّ الأشخاص الذین قاموا بأعمال تستحق الوزن، أمّا الشخص الذی لا یساوی وجوده و أعماله و أفکاره حتی جناح بعوضة، فهل هو بحاجة إلی الوزن؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۴

لهذا السبب نقرأ

فی روایة معروفة عن النّبی قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّه لیأتی الرجل العظیم السمین یوم القیامة لا یزن جناح بعوضة»[۲۳۷].

لماذا؟ لأنّ أعمال مثل هؤلاء و أفکارهم و شخصیتهم کانت فی الحیاة الدنیا عدیمة الأهمیة و الفائدة.

و من هنا یتّضح أنّ الناس هناک علی عدّة أنواع هی:

۱- مجموعة تکون مثقلة بالحسنات و الأعمال الصالحة بحیث لا تحتاج إلی الوزن و الحساب فی أعمالها، بل تدخل الجنّة بدون حساب.

۲- مجموعة ثانیة من الذین حبطت أعمالهم، أو لیس لهم أی عمل الصالح، و هذه لا تحتاج إلی وزن أیضا، بل تدخل النّار بدون حساب.

۳- أمّا المجموعة الثّالثة، فهی التی تملک السیئات و الحسنات، و هذه یشملها الوزن و الحساب. و قد یکون أکثر الناس من هذه الفئة.

۴- تفسیر قوله تعالی: لا یَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا

(حول) علی وزن (علل) لها معنی مصدری و تعنی التحوّل و نقل المکان، و کما قلنا فی تفسیر الآیات، فإنّ الفردوس بستان الجنة توجد فیه أفضل النعم و المواهب الإلهیة، و لهذا السبب فإنّها تعتبر أفضل مناطق ذلک العالم، حیث أنّ الساکنین فیها لا یتمنون أبدا الانتقال منها إلی مکان آخر.

و قد یقول البعض: إنّ الحیاة قد تکون هناک رتیبة و راکدة، و هذا بحد ذاته نقص و عیب کبیر فیها؟! فی الجواب نقول: لیس ثمة مانع من أن یکون التحوّل و التکامل فی نفس المکان، إذا توافرت أسباب التکامل و اجتمعت هناک، و هی- قطعا- متوافرة.

و فی ظل الأعمال التی قام بها الإنسان فی هذه الدنیا، فإنّ الإنسان- من خلال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۵

المواهب الإلهیة هناک- سوف یستمر فی طریق تکامله بشکل دائم و مستمر.

و سنقوم إن شاء اللّه بشرح أفضل لتکامل الإنسان حتی فی الجنّة، و ذلک فی نهایة الآیات التی تناسب الموضوع.

۵- الفردوس لمن؟

قلنا: إنّ «الفردوس»[۲۳۸] أفضل مناطق الجنة، و لا یسکنه سوی المؤمنین و ذوی الأعمال الصالحة، إذا سیکون السؤال: من یسکن الأقسام الأخری فی الجنة، إذا کانت الجنة مکانا للمؤمنین و حسب و ممنوعة علی غیرهم؟

فی الجواب نقول: إنّ الفردوس لا تشمل کل مؤمن ذی عمل الصالح، بل هی لمن بلغ درجة عالیة من الإیمان و العمل الصالح، و هذه المرتبة هی المعیار للوصول إلی الفردوس بالرغم من أنّ ظاهر الآیة مطلق، إلّا أنّ الانتباه إلی معنی الفردوس یقیّد الإطلاق المذکور.

لذلک عند ما تتحدث سورة المؤمنون عن صفات ورثة الفردوس فإنّها تبیّن الحد الأعلی لصفات المؤمنین و الذی لا یکون موجودا عند جمیع الأفراد. و هذا دلیل آخر علی أنّ سکنة الفردوس یملکون صفات ممتازة بالإضافة إلی شرطی الإیمان و العمل الصالح.

لذلک رأینا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی حدیث سابق، یعلمنا بأنّنا عند ما نطلب الجنّة، فعلینا أن ندعو لنیل الفردوس بالخصوص، لأنّها أکمل و أفضل منازل الجنّة.

و هذه إشارة إلی ضرورة أن تنصرف همة المؤمن- فی کل الأمور- إلی أعلی حد، و حتی فی الجنة علیه أن لا یقنع بمراحلها الدنیا بالرغم ممّا فی هذه المراحل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۶

من نعم و مواهب.

و طبیعی أنّ الذی یطلب هذه المنزلة من اللّه لا بدّ و أن یکون قد أعدّ نفسه لها، و علیه أن یبذل کل سعیه و جهده لکسب أفضل الصفات و أرضی الأعمال.

و من ذلک یعلم أن من یقول بأن المهم هو أن أدخل الجنّة حتی فی أدنی درجة منها هو شخص یفتقد للهمة العالیة للمؤمنین الحقیقیین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۷

الآیتان [سورة الکهف (۱۸): الآیات ۱۰۹ الی ۱۱۰]

اشارة

قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ کَلِماتُ رَبِّی وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً (۱۰۹) قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ یُوحی إِلَیَّ أَنَّما إِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ کانَ یَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا یُشْرِکْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً (۱۱۰)

سبب النّزول

عن ابن عباس قال: «قالت الیهود لما قال لهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم وَ ما أُوتِیتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِیلًا قالوا: و کیف و قد أوتینا التوراة و من أوتی التوراة فقد أوتی خیرا کثیرا؟ فنزل قوله تعالی: قُلْ لَوْ کانَ الْبَحْرُ مِداداً لِکَلِماتِ رَبِّی لَنَفِدَ الْبَحْرُ.

و قيل أيضا: قالت اليهود: إنّك أوتيت الحكمة، و من أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، ثمّ زعمت- و المخاطب هنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أنّك لا علم لك بالروح؟

فأمره اللّه تعالى أن يجيبهم بأنّى و إن أوتيت القرآن و أوتيتم التوراة فهى بالنسبة إلى كلمات اللّه تعالى قليلة»[۲۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۸

التّفسير

الذين يأملون لقاء اللّه:

الآيات أعلاه فى نفس الوقت الذى تبحث بحثا مستقلا، إلّا أنّها متصلة مع بحوث هذه السورة، حيث أنّ كل قصة من القصص الثلاث الواردة فى السورة، تكشف الستار عن مواضيع جديدة و عجيبة، و كأنّما القرآن يريد أن يقول فى هذه الآيات: إنّ الاطلاع على قصّة أصحاب الكهف، و موسى و الخضر، و ذى القرنين، يعتبر لا شىء إزاء علم اللّه غير المحدود، لأنّ علمه سبحانه و تعالى و معرفته تشمل كافة الكائنات و عالم الوجود فى الماضى و الحاضر و المستقبل.

القرآن الكريم يخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أوّل آية نبحثها بقوله: قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّى وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً.

«مداد» تعنى الحبر، أو أى مادة ملونة تساعد فى الكتابة، و هى فى الأصل مأخوذة من «مدّ» بمعنى السحب، حيث تتوضح خطوط الكتابة بسحب القلم ۲۴۰].

(كلمات) جمع كلمة، و هى فى الأصل تعنى الألفاظ التى يتمّ التحدّث بها، أو بعبارة أخرى: الكلمة لفظ يدل على المعنى، و بما أنّ كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم و قدرة الخالق، لذا فإنّه يطلق فى بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمة اللّه) و يختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمّة العظيمة.، فبالنسبة للمسيح عيسى عليه السّلام يقول القرآن الكريم: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ ۲۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۸۹

و فى الآية التى نبحثها فإنّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى، أى إشارة إلى موجودات عالم الوجود التى تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة للّه تبارك و تعالى.

و فى الحقيقة إن القرآن يلفت أنظارنا فى هذه الآية إلى هذه الحقيقة و هى:

لا تظنّوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر من السعة و العظمة بحيث لو أنّ البحار تتحول إلى حبر، و تكتب صفاته و خصائصه، فإنّها- أى البحار- ستجف قبل أن تحصى موجودات عالم الوجود.

و من الضرورى الالتفات هنا إلى أنّ كلمة البحر يراد بها الجنس و كذلك كلمة (مثل) فى قوله: وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً فإنّه يراد بها الجنس أيضا، و هذه إشارة إلى أنّنا مهما أضفنا من أمثال هذه البحار إليها فإنّ الكلمات الإلهية لا تنتهى و لا تنفد.

و لهذا السبب فليس ثمّة تعارض بين هذه الآية و ما ورد فى سورة لقمان حيث قوله تعالى فى الآية (۲۷): وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ يعنى أنّ هذه الأقلام ستتكسر و المحابر ستجف حتى آخر قطرة، و مع ذلك فإنّ أسرار المخلوقات و حقائق عالم الوجود لا تنتهى.

و ينبغى الانتباه هنا إلى أنّ الآية أعلاه فى الوقت الذى تجسّد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية فى الماضى و الحاضر و المستقبل، فإنّها

توضّح- أیضا- العلم المطلق و غیر المحدود للخالق جلّ و علا، لأنّنا نعلم أنّ اللّه سبحانه و تعالی یحیط علمه بما کان موجودا فی عالم الوجود، و بما سیکون موجودا. و فی الوقت الذی یعتبر فیه علم اللّه تعالی «علما حضوریا» فإنّه لا یفترق عن وجود هذه الموجودات. (فدقق فی ذلک).

إذن نستطیع أن نقول: لو أنّ جمیع المحیطات و بحار الأرض تحولت إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۰

حبر و مداد، و لو أنّ کافة الأشجار تحولت إلی أقلام، فإنّ ذلک کلّه لا یستطیع الإحاطة بما موجود فی عالم الخالق جلّ و علا.

توضیح لمفهوم اللانهایة:

یقوم القرآن الکریم بتجسید العدد اللانهائی و یقرب معنی العلم المطلق غیر المحدود للّه تعالی، و یقرب سعة عالم الوجود العظیم إلی أفکارنا. و قد استخدم القرآن فی ذلک توضیحا بلیغا للغایة، و ذکر أرقاما حیّة و ذات روح.

تری هل هناک أعداد حیّة و أخری میتة؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۳۹۰

م، ففی الریاضیات إذا وضعت الأصفار إلی یمین العدد الصحیح فهی لا تعبّر فی الواقع سوی عن أعداد میتة لا تستطیع أن تجسّد عظمة شیء معین.

الأشخاص الذین یهتمون بالقضایا الریاضیة و الحسابیة یعرفون أنّ العدد الواحد (کرقم واحد مثلا) لو وضع أمامه من الجهة الیمنی أصفارا بطول کیلومتر واحد، فسیکون عدد عظیم جدّا و محیّر و لا یمکن تصوّر عظمته، و لکن لمن؟

للاشخاص الریاضیین لا عامّة الناس الذین لا یستطیعون تصور العظمة فی هذا الرقم.

العدد الحی هو العدد الذی تنشغل أفکارنا به، و یجسّد الحقائق کما هی و یملک روحا و لسانا و عظمة.

و القرآن الکریم بدلا من أن یقول: إنّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز فی کثرتها الرقم الذی تقع علی یمینه مئات الکیلو مترات من الأصفار، یقول: إذا تحولت جمیع الأشجار إلی أقلام، و کل البحار إلی مواد و حبر، فإنّ الأقلام ستتکسر و میاه البحار ستنتهی، و لا تنتهی أسرار و رموز و حقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التی یحیط بها جمیعا علم اللّه تعالی.

فکروا جیدا و تأملوا المقدار الذی یستطیع أن یکتبه القلم، ثمّ ما هو عدد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۱

الأقلام التی یمکن صناعتها من غصن واحد صغیر من شجرة معینة؟

و معلوم أن باستطاعتنا صناعة آلاف بل حتی ملایین الأقلام من شجرة کبیرة عظیمة، و لنا أن نتصوّر الکمیة من الأقلام التی یمکن صنعها من أشجار الأرض جمیعا و غاباتها! من الجهة الثّانیة لنا أن نتصوّر عدد الکلمات التی یمکن کتابتها من قطرة حبر واحدة، ثمّ علینا أن نتصوّر ما نستطیع کتابته من حوض واحد، فبحیرة واحدة، فبحر واحد، فمحیط، و من ثمّ جمیع بحار الأرض و محیطاتها! إنّ الحصیلة- بلا شک- ستکون رقما عجیبا و خیالیا!! و تتوضح عظمة المثال القرآنی إذا عرفنا أنّ رقم (سبع) لیس للتحدید، بل هو إشارة للکثرة، و معنی هذا الکلام أنّنا لو أضفنا لهذا العدد أضعافه من البحار، فإنّ کلمات اللّه لا تنفد.

و الآن لنتصور الحیویة و الروح الدافقة فی هذا العدد، و الشاهد الحی الذی یبعث الیقظة فی روح الإنسان، و یشغل فکره و یجعله یفکّر فی آفاق اللانهایة! إنّ العدد الذی یتضمنه المثال القرآنی یحس بعظمته الجمیع سواء کانوا ریاضیین أو أمیین.

نعم، إنّ علم اللّه تعالى هو أعلى و أوسع من هذا العدد.

علم غير محدود و لا متناهى.

علم يشمل كل الوجود، سابقا و حاضرا و مستقبلا، و هو يضم فى طياته كل الأسرار و الحقائق! الآية الثّانية فى البحث و التى هى آخر آية فى سورة الكهف، عبارة عن مجموعة من الأسس و الأصول للاعتقادات الدينية، التى تتركز فى التوحيد و المعاد و رسالة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و الآية فى مضمونها إشارة إلى نفس المضمون الذى ورد فى بداية السورة المباركة. ففى البداية تحدّثت السورة عن اللّه و الوحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۲

و الجزاء و القيامة، و الآية الأخيرة هى خلاصة لمجموع ما ورد فى السورة، التى اشتملت فى قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفة باعتبارها محاور للسورة.

و لأنّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو و المبالغة على طول التأريخ، لذا فإنّ الآية تقول: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ

و هذا التعبير القرآنى نسف جميع الامتيازات المقرونة بالشرك التى تخرج الأنبياء من صفة البشرية إلى صفة الألوهية.

ثمّ تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الأخرى فى و الوحى الالهى حيث تقول: أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

أمّا لماذا تمت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، و غاية كل البرامج الفردية و الاجتماعية التى تجلب السعادة للإنسان.

و فى مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلا من أصول الدين و حسب، و إنّما هو خلاصة لجميع أصول و فروع الإسلام.

لو أردنا- على سبيل المثال- أن نشبّه التعليمات الإسلامية من الأصول و الفروع على أنّها قطع من الجواهر، عندها نستطيع أن نقول: إنّ التوحيد هو السلك و الخيط الذى يربط جميع هذه القطع إلى بعضها البعض ليتشكّل من المجموع قلادة جميلة و ثمينة.

و إذا أردنا أن نشبّه التعليمات الإسلامية أصولا- و فروعا بأعضاء الجسم، فإنّ التوحيد سيكون روح الإنسان التى تهب الحياة لكافة الأعضاء.

و قد أثبتنا فى بحوثنا حول المعاد و النبوة أنّ هذين الأصلين لا ينفصلان عن التوحيد. يعنى: عند ما نعرف الخالق بجميع صفاته، فإنّنا نعلم أنّ مثل هذا الخالق يجب أن يرسل الأنبياء، و تقتضى حكمته و عدالته أن توجد محكمة عادلة و أن يكون هناك بعثا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۳

و المسائل الاجتماعية، و كل المجتمع الإنسانى و ما يرتبط به، ينبغى أن يكون فيه شعاع من التوحيد حتى يتوحد و ينتظم و يستقر.

لهذا السبب نقرأ فى الأحاديث القدسية إن: «كلمة لا اله إلّا اللّه حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى».

و كل منّا قد سمع أيضا أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فى بداية الإسلام: (قولوا لا إله إلّا اللّه تفلحوا).

الجملة الثّالثة فى الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث و تربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفريع) حيث تقول: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً.

بالرغم من أن لقاء اللّه بمعنى المشاهدة الباطنية و رؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن فى هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلّا أنّ هذه القضية تكتسب جانبا عاما يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة و الواضحة و الصريحة للخالق تبارك و تعالى. لذا فإنّ القرآن استخدام هذا التعبير فى خصوص يوم القيامة.

من جانب آخر، فإنّ الإنسان الذى ينتظر أمرا معينا، و يأمل شيئا ما، فمن الطبيعى أن يهيء نفسه و يعدّها لاستقبال ذلك الأمر. أمّا الشخص الذى يدّعى و لا يستعد، و ينتظر و لا يعمل، فهو فى الواقع مدع كاذب لا غير.

لهذا السبب فإنّ الآية أعلاه تقول: فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وردت بصيغة الأمر، الأمر الذى يلازمه الرجاء و الأمل بانتظار لقاء اللّه.

و فى آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح فى جملة قصيرة، هى قوله تعالى: وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً.

بعبارة أخرى: لا يكون العمل صالحا ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

فالهدف الإلهى يعطى لعمل الإنسان عمقا و نورانية خاصّة، و يوجهه الوجهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۴

الصحيحة، و عند ما نفقد الإخلاص يكون العمل ذا جنبة ظاهرية حيث يشير إلى المنافع الخاصّة، و يفقد عمقه و أصالته و وجهته الصحيحة.

فى الحقيقة إنّ العمل الصالح الذى ينبع من أهداف إلهية، و يمتزج بالإخلاص و يتفاعل معه، هو الذى يكون جوازا للقاء اللّه تبارك و تعالى.

و قد أشرنا سابقا إلى أنّ العمل الصالح له مفهوم واسع للغاية، و هو يشمل أى برنامج مفيد و بنّاء، فردى و اجتماعى، و فى أى قضية من قضايا الحياة.

الإخلاص أو روح العمل الصالح:

أعطت الرّوايات الإسلامية مكانة خاصّة لقضية «النية»، و الإسلام فى العادة يقر بقبول الأعمال بملاحظة النية و الهدف من العمل.

الحديث المشهور

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا عمل إلّا بنية»

بيان واضح لهذه الحقيقة.

و بعد (النية) هناك (الإخلاص)، فلو اقترن العمل بالإخلاص فسيكون عملا ثمينا للغاية، و بدون الإخلاص هو لا قيمة له. و الإخلاص هو أن تكون الدوافع الإنسانية خالية من أى نوع من أنواع الشوائب، و يمكن أن نسمّى الإخلاص ب «توحيد النية» يعنى التفكير باللّه و برضاه فى جميع الأمور و الحالات.

و الطريف فى الأمر هنا هو ما

ورد فى سبب نزول هذه الآية من أنّ رجلا جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: إنّى أتصدق و أصل الرحم، و لا أصنع ذلك إلّا للّه، فيذكر ذلك منّى، و أحمد عليه فيسرّنى ذلك، و أعجب به. فسكت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لم يقل شيئا، فنزلت الآية: فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً[۲۴۲].

إنّ المقصود من هذه الرّواية ليس الفرح أو السرور اللاإرادى، بل هى الحالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۵

التى يكون فيها الفرح و السرور هدفا لعمل الإنسان، أو الحالة التى تؤدى إلى عدم خلوص النية.

فالعمل الخالص يعتبر مهما فى الإسلام إلى الحد الذى

يقول فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من أخلص للّه أربعين يوما فجّر اللّه ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[۲۴۳].

دعاء الختام:

إلهى، اجعل نياتنا خالصة فى جميع أعمالنا بحيث لا نفكّر بأحد سواك، و لا نعدوك إلى غيرك ... و اجعل ما نريده و ما لا نريده

تبعا لطاعتک و رضاک ... آمین ربّ العالمین.

نهایة سورة الکهف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۷

سورة مریم

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ثمان و تسعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۳۹۹

«سورة مریم»

محتوی السورة:

لهذه السورة من جهة المحتوی عدة أقسام مهمّة:

۱- یشکل القسم الذی یتحدث عن قصص زکریا و مریم و المسیح علیهم السّلام و یحیی و إبراهیم علیهما السّلام بطل التوحید، و ولده إسماعیل، و إدریس و بعض آخر من کبار أنبیاء اللّه، الجزء الأهم فی هذه السورة، و یحتوی علی أمور تربویة لها خصوصیات مهمّة.

۲- الجزء الثّانی من هذه السورة- و الذی یأتی بعد القسم الأوّل من حیث الاهمیة- عبارة عن المسائل المرتبطة بالقیامة، و کیفیة البعث، و مصیر المجرمین، و ثواب المتقین، و أمثال ذلک.

۳- القسم الثّالث، و هو المواعظ و النصائح التی تکمل- فی الواقع- الأقسام السابقة.

۴- و أخیرا، فإنّ آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، و نفی الولد عن اللّه سبحانه، و مسألة الشفاعة، و تشکل بمجموعها برنامجا تربویا مؤثرا من أجل دفع النفوس الإنسانیة إلی الإیمان و الطهارة و التقوی.

فضل السورة:

روی عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأها أعطی من الأجر بعدد من صدّق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۰

بزکریا و کذب به، و یحیی و مریم و موسی و عیسی و هارون و إبراهیم و إسحاق و یعقوب و إسماعیل عشر حسنات، و بعدد من ادعی للّه ولدا، و بعدد من لم یدع ولدا»[۲۴۴].

إن هذا الحدیث- فی الحقیقة- دعوة إلی السعی ت و الجد فی خطین مختلفین: خط مساندة و دعم النّبی و الطاهرین و الخیرین، و خط محاربة المشرکین و المنحرفین و الفاسقین، لأنا نعلم أن هذه المکافئات و العطایا الجزیلة لا تعطی لمن یتلفظ کلمات السورة بلسانه فقط، و لا یعمل بأوامرها، بل إن هذه الألفاظ المقدسة مقدمة للعمل.

و نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من أدمن قراءة سورة مریم لم یمت فی الدنیا حتی یصیب منها ما یغنیه فی نفسه و ماله و ولده»[۲۴۵].

إن هذا الغنی و عدم الاحتیاج- حتما- قبس من وجود محتوی السورة و سریانها فی أعماق روح الإنسان، و انعکاسها من خلال أعماله و أقواله و سلوکه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۱

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

کهیعص (۱) ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا (۲) إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا (۳) قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً وَ لَمْ أَکُنْ بِدُعائِکَ رَبِّ شَقِیًّا (۴)

وَ إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا (۵) یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا (۶)

التّفسیر

دعاء زکریا المستجاب:

مرّة أخری نواجه الحروف المقطعة فی بدایة هذه السورة، و لما کنّا قد بحثنا تفسیر هذه الحروف المقطعة بصورة مفصلة فی بدایة ثلاث سور مختلفة فیما سبق- سورة البقرة و آل عمران و الأعراف- فلا نری حاجة للتکرار هنا.

و لکن ما ینبغی اضافته هنا هو وجود طائفتین من الرّوایات فی المصادر الإسلامیة تتعلق بالحروف المقطعة فی هذه السورة.

الأولی: تقول بأن کل حرف من هذه الحروف یشیر إلی اسم من أسماء اللّه الحسنی، فالکاف یشیر إلی الکافی، و هو من أسماء اللّه الحسنی، و الهاء تشیر إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۲

الهادی، و الیاء إشارة إلی الولی، و العین إشارة إلی العالم، و الصاد إشارة إلی صادق الوعد[۲۴۶].

الثّانیة: تفسر هذه الحروف المقطعة بحادثة ثورة الإمام الحسین علیه السّلام فی کربلاء، فالکاف إشارة إلی کربلاء، و الهاء إشارة إلی هلاک عترة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الیاء إشارة إلی یزید، و العین إشارة إلی مسألة العطش، و الصاد إشارة إلی صبر و ثبات الحسین و أصحابه المضحین ۲۴۷].

و کما قلنا مرارا، فإن لآیات القرآن أنوار معان مختلفة، و تبیّن أحیانا مفاهیم من الماضی و المستقبل، و مع تنوعها و اختلافها فإنّه لا یوجد تناقض بینها، فی حین أننا إذا حصرنا المعنی و فسّرناه تفسیرا واحدا، فمن الممکن أن نبتلی بإشکالات من ناحیة وضع و سبب نزول الآیة و زمانه.

و بعد ذکر الحروف المقطعة، تشرع الکلمات الأولی من قصّة زکریا علیه السّلام فتقول: ذِکْرُ رَحْمَتِ رَبِّکَ عَبْدَهُ زَکَرِیَّا[۲۴۸]. و فی ذلک الوقت الذی کان زکریا علیه السّلام مغتما و متألما فیه من عدم إنجاب الولد، توجه إلی رحمة ربّه: إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا بحیث لم یسمعه أحد، و ذکر فی دعائه و هن و ضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان و دعامته و أقوی جزء من اجزائه: قالَ رَبِّ إِنِّی وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّی وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَیْباً.

إن تشبیه آثار الکبر بالشعلة التی عمت کل الرأس تشبیه جمیل، لأنّ خاصیة شعلة النّار أنّها تتسع بسرعة، و تلتهم کل ما یحیط بها.

و من جهة ثانية فإنّ شعلة النّار لها بريق و ضياء يجلب الانتباه من بعيد.

و من ناحية ثالثة، فإنّ النّار إذا اشتعلت فى محل له، فإنّ الشىء الذى يبقى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۳

منه هو الرماد فقط.

لقد شبه زكريا نزول الكبر، و بياض كل شعر رأسه باشتعال النّار، و الرماد الأبيض الذى تتركه، و هذا التشبيه جميل و بليغ جدا.

ثمّ يضيف: وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا فقد عودتنى دائما- فيما مضى- على استجابة أدعيتى، و لم تحرمنى منها أبدا، و الآن و قد أصبحت كبيرا و عاجزا فأجدنى أحوج من السابق إلى أن تستجيب دعائى و لا تخيّبنى.

إنّ الشقاء هنا بمعنى التعب و الأذى أى إنّى لم أتعب و لم أتأذّ فى طلباتى منك، لأنّك كنت تقضيها بسرعة.

ثمّ يبيّن حاجته: وَ إِنِّى خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِى أى إنّى أخشى من أقربائى أن يسلكوا سبيل الانحراف و الظلم وَ كانَتِ امْرَأَتِى عاقِراً فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا أى مرضيا عندك.

بحوث

۱- المراد من الإرث

لقد قدم المفسّرون الإسلاميون بحوثا كثيرة حول الإجابة عن هذا السؤال، فالبعض يعتقد أنّ الإرث هنا يعنى الإرث فى الأموال، و البعض اعتبره إشارة إلى مقام النبوة، و بعض آخر احتمل أن يكون المراد معنى جامعا شاملا لكلا الرأيين السابقين.

و قد اختار كثير من علماء الشيعة المعنى الأوّل، فى حين ذهب جماعة من علماء العامّة إلى المعنى الثّانى، و البعض الآخر- كسيد قطب فى (فى ظلال القرآن)، و الآلوسى فى روح المعانى- اختاروا المعنى الثّالث.

إنّ الذين حصروا المراد فى الإرث فى المال استندوا إلى ظهور كلمة الإرث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۴

فى هذا المعنى، لأن هذه الكلمة إذا كانت مجرّدة عن القرائن الأخرى، فإنّها تعنى إرث الأموال، أمّا فى موارد استعمالها فى بعض آيات القرآن فى الأمور المعنوية، كالآية (۳۲) من سورة فاطر: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فلوجود القرائن فى مثل هذه الموارد.

إضافة إلى أنّه يستفاد من قسم من الرّوايات أن هدايا و نذورا كثيرة كانت تجلب إلى الأحبار- و هم علماء اليهود- فى زمان بنى إسرائيل، و كان زكريا رئيس الأحبار[۲۴۹].

و إذا تجاوزنا ذلك، فإن زوجة زكريا كانت من أسرة سليمان بن داود، و بملاحظة الثروة الطائلة لسليمان بن داود، فقد كان لها نصيب منها.

لقد كان زكريا خائفا من وقوع هذه الأموال بأيدى أناس غير صالحين، و انتهازيين، أو أن تقع بأيدى الفساق و الفجرة، فتكون بنفسها سببا لنشوء و انتشار الفساد فى المجتمع، لذلك طلب من ربّه أن يرزقه ولدا صالحا ليرث هذه الأموال و ينظر فيها، و يصرفها فى أفضل الموارد.

الرّواية المعروفة المروية عن فاطمة الزهراء عليها السّلام، و التى استدلت فيها بهذه الآية من أجل استرجاع فدك، هى شاهد آخر على هذا المدعى.

ینقل العلّامة الطبرسی فی کتاب الإحتجاج عن سیدة النساء علیها السّلام: إنّه عند ما صمم الخلیفة الأوّل علی منع فاطمة الزهراء علیها السّلام فدکا، و بلغ ذلک فاطمة، حضرت عنده و

قالت: «یا أبا بکر! أ فی کتاب اللّه أن ترث أباک و لا أرث أبی؟ لقد جئت شیئا فریا! أ فعلی عمد ترکتم کتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهورکم إذ یقول فیما اقتص من خبر یحیی بن زکریا: إذ قال رب هب لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ؟[۲۵۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۵

أمّا الذین یعتقدون بأن الإرث هنا هو الإرث المعنوی، فقد تمسکوا بقرائن فی نفس الآیة، أو خارجة عنها، مثل:

۱- یبدو من البعید أن نبیّا کبیرا کزکریا، و فی ذلک السن الکبیر، یمکن أن تشغل فکره مسألة میراث ثروته، خاصّة و أنّه یضیف بعد جملة یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ جملة وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا، و لا شک أن هذه الجملة إشارة إلی الصفات المعنویة لذلک الوارث.

۲- إنّ اللّه سبحانه لما بشره بولادة یحیی فی الآیات القادمة، فإنّه ذکر صفات و مقامات معنویة عظیمة، و من جملتها مقام النبوة.

۳- إن الآیة (۳۸) من سورة آل عمران بینت السبب الذی دفع زکریا إلی هذا الطلب و الدعاء، و أنّه فکر فی ذلک عند ما شاهد مقامات مریم حیث کان یأتیها رزقها من طعام الجنّة فی محرابها بلطف اللّه: هُنالِکَ دَعا زَکَرِیَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ ذُرِّیَّةً طَیِّبَةً إِنَّکَ سَمِیعُ الدُّعاءِ.

۴- ورد فی بعض الأحادیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما یؤید أن الإرث هنا یراد به الإرث المعنوی، و خلاصة الحدیث أنّ الإمام الصادق علیه السّلام روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: إنّ عیسی بن مریم مرّ علی قبر کان صاحبه یعذب، و مرّ علیه فی العام الثّانی فرأی صاحب ذلک القبر لا یعذب، فسأله ربّه عن ذلک، فأوحی اللّه إلیه أنّه لصاحب هذا القبر ولد صالح قد أصلح طریقا و آوی یتیما، فغفر اللّه له بعمل ولده. ثمّ قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «میراث اللّه من عبده المؤمن ولد یعبده من بعده»، ثمّ تلا الإمام الصادق عند نقله هذا الحدیث الآیة المرتبطة بزکریا: فَهَبْ لِی مِنْ لَدُنْکَ وَلِیًّا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِیًّا[۲۵۱].

فإن قیل: إن ظاهر کلمة الإرث هو إرث الأموال.

فیقال فی الجواب: إن هذا الظهور لیس قطعیا، لأنّ هذه الکلمة قد استعملت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۶

فی القرآن مرارا فی الإرث المعنوی، کالآیة (۳۲) من سورة فاطر، و الآیة (۵۳) من سورة المؤمن. إضافة إلی أنّنا لو فرضنا أنّها خلاف الظاهر، فإنّ هذا الإشکال سیزول بوجود القرائن.

إلّا أنّ أنصار الرأی الأوّل یستطیعون أن یناقشوا هذه الاستدلالات، بأنّ ما کان یشغل فکر زکریا- نبی اللّه الکبیر- هی مسألة الأموال، و لم تکن تشغله کمسألة شخصیة، بل باعتبارها مصدرا لفساد أو صلاح المجتمع؛ لأنّ بنی إسرائیل- و کما قیل أعلاه- کانوا یأتون بالهدایا و النذور الکثیرة إلی الأحبار فکانت تودع عند زکریا، و ربما کانت هناک أموالا متبقیة من قبل زوجته التی کانت من أسرة سلیمان، و من البدیهی أن وجود شخص غیر صالح یتولی هذه الأموال قد یؤدی إلی مفاسد عظیمة، و هذا هو الذی کان یقلق زکریا.

و أمّا الصفات المعنویة التی ذکرت لیحیی فی هذه الآیات و الآیات الأخری، فإنّها تؤید ما ذکرنا، و تنسجم معه، لأنّه أراد أن تقع هذه الثروة العظیمة بید رجل صالح یستفید منها فی سبیل المجتمع.

إلّا أنّنا نعتقد بأنا إذا توصلنا من مجموع المباحث أعلاه إلی هذه النتیجة، و هی أن للإرث هنا مفهوما و معنی واسعا یشمل إرث الأموال کما یشمل إرث المقامات المعنویة، فسوف لا یکون هناک مورد خلاف، لأنّ لکل رأی قرائنه، و إذ لاحظنا الآیات السابقة و اللاحقة و مجموع الرّوایات، فإنّ هذا التّفسیر یبدو أقرب للصواب.

أمّا جملة إِنِّی خِفْتُ الْمَوالِیَ مِنْ وَرائِی فإنّها مناسبة لکلا المعنیین، لأنّ الأشخاص الفاسدین إذ تولوا أمر هذه الأموال، فإنّهم سیکونون

مصدر قلق حقا، و إذا وقعت زمام الأمور و قیادة الناس المعنویة بید أناس منحرفین، فإنّ ذلک أیضا یثیر المخاوف، و علی هذا فإنّ خوف زکریا یمکن توجیهه فی کلا الصورتین.

و حدیث فاطمة الزهراء علیها السّلام یناسب هذا المعنی أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۷

۲- ماذا تعنی کلمة «نادی»؟

فی قوله تعالی إِذْ نادی رَبَّهُ نِداءً خَفِیًّا طرح هذا السؤال بین المفسّرین، و هو أن «نادی» تعنی الدعاء بصوت عال، فی حین أن «خفیا» تعنی الإخفات و خفض الصوت، و هذان المعنیان لا یناسب أحدهما الآخر.

إلا أننا إذا علمنا أن «خفیا» لا تعنی الإخفات، بل تعنی الإخفاء، فسیکون من الممکن أن زکریا حین خلوته، حیث لا یوجد أحد سواه، کان ینادی و یدعو اللّه بصوت عال.

و البعض قال: إن طلبه هذا کان فی جوف اللیل حیث کان الناس یغطون فی النوم ۲۵۲].

و البعض الآخر اعتبر قوله تعالی: فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ التی ستأتی فی الآیات التالیة، دلیلا علی وقوع هذا الدعاء فی الخلوة[۲۵۳].

۳- وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ

إنّ زکریا قال: وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ و ذلک لأنّ زوجته کانت خالة مریم أو عیسی، و یتصل نسبها بیعقوب، لأنّها کانت من أسرة سلیمان بن داود، و هو من أولاد یهودا بن یعقوب ۲۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۸

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷ الی ۱۱]

اشارة

یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا (۷) قالَ رَبِّ أَنَّی یَکُونُ لِی غُلامٌ وَ کانَتِ امْرَأَتِی عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْکِبَرِ عِتِیًّا (۸) قالَ کَذلِکَ قالَ رَبُّکَ هُوَ عَلَیَّ هَیِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُکَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَکُ شَیْئاً (۹) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِی آیَةً قالَ آیَتُکَ أَلاَّ تُکَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَیالٍ سَوِیًّا (۱۰) فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا (۱۱)

التّفسیر

بلوغ زکریا أمله:

تبیّن هذه الآیات استجابة دعاء زکریا علیه السّلام من قبل اللّه تعالی استجابة ممزوجة بلطفه الکریم و عنایته الخاصّة، و تبدأ بهذه الجملة: یا زَکَرِیَّا إِنَّا نُبَشِّرُکَ بِغُلامٍ اسْمُهُ یَحْیی لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِیًّا.

كم هو رائع و جميل أن يستجيب اللّه دعاء عبده بهذه الصورة، و يطلعه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۰۹

ببشارته على تحقيق مراده، و فى مقابل طلب الولد فإنّه يعطيه مولدا ذكرا، و يسميه أيضا بنفسه، و يضيف إلى ذلك أنّ هذا الولد قد تفرد بأمور لم يسبقه أحد بها. لأنّ قوله: لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا و إن كانت تعنى ظاهرا بأن أحدا لم يسم باسمه لحد ولادته، لكن لما لم يكن الاسم لوحده دليلا على شخصية أحد، فسيصبح من المعلوم أنّ المراد من الاسم هنا هو المسمّى، أى أحدا قبله لم يكن يمتلك هذه الامتيازات، كما ذهب الراغب الأصفهانى إلى هذا المعنى- بصراحة- فى مفرداته.

لا شك فى وجود أنبياء كبار قبل يحيى، بل و أسمى منه، إلّا أنّه لا مانع مطلقا من أن يكون ليحيى خصوصيات تختص به، كما ستأتى الإشارة إلى ذلك فيما بعد.

أمّا زكريا الذى كان يرى أن الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنّه طلب توضيحا لهذه الحالة من اللّه سبحانه: قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.

«عاقر» فى الأصل من لفظة «عقر» بمعنى الجذر و النهاية، أو بمعنى الحبس، و إنّما يقال للمرأة: عاقر، لأنّ قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأنّ إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتىّ» تعنى الشخص الذى نحل جسمه و ضعف هيكله، و هى الحالة التى تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلّا أنّ زكريا سمع فى جواب سؤاله قول اللّه سبحانه: قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۲۵۵].

إن هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن فى السن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۰

مثلك، و امرأة عقيم ظاهرا وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً، فإنّ اللّه قادر على أن يخلق كل شىء من العدم، فلا عجب أن يتلطف عليك بولد فى هذا السن و فى هذه الظروف.

و لا شك أنّ المبشر و المتكلم فى الآية الأولى هو اللّه سبحانه، إلّا أن البحث فى أنّه هو المتكلم فى الآية الثّالثة: قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ

ذهب البعض بأنّ المتكلم هم الملائكة الذين كانوا واسطة لتبشير زكريا، و الآية (۳۹) من سورة آل عمران يمكن أن تكون شاهدا على ذلك: فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى

لكن الظاهر هو أنّ المتكلم فى كل هذه الأحوال هو اللّه سبحانه، و لا- دليل- أو سبب- يدفعنا إلى تغييره عن ظاهره، و إذا كانت الملائكة وسائط لنقل البشارة، فلا مانع- أبدا- من أن ينسب اللّه أصل هذا الإعلان و البشارة إلى نفسه، خاصّة و أنّنا نقرأ فى الآية (۴۰) من سورة آل عمران: قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ.

و قد سرّ زكريا و فرح كثيرا لدى سماعه هذه البشارة، و غمر نفسه نور الأمل، لكن لما كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيريا و مهما جدا، فإنّه طلب من ربّه آية على هذا العمل: قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً.

لا شك أنّ زكريا كان مؤمنا بوعد اللّه، و كان مطمئنا لذلك، إلّا أنّه لزيادة الاطمئنان- كما أنّ إبراهيم الذى كان مؤمنا بالمعاد طلب مشاهدة صورة و كيفية المعاد فى هذه الحياة ليطمئن قلبه- طلب من ربّه مثل هذه العلامة و الآية، فخاطبه اللّه: قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا و اشغل لسانك بذكر اللّه و مناجاته.

لكن، أية آية عجيبة هذه! آية تنسجم من جهة مع حال مناجاته و دعائه، و من جهة أخرى فإنّها تعزله عن جميع الخلائق و تقطعه إلى اللّه حتى يشكر اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۱

على هذه النعمة الكبيرة، و يتوجه إلى مناجاة اللّه أكثر فأكثر.

إن هذه آية واضحة على أن إنسانا يمتلك لسانا سليما، و قدرة على كل نوع من المناجاة مع اللّه، و مع ذلك لا تكون له القدرة على التحدث أمام الناس! بعد هذه البشارة و الآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلّمهم بالإشارة: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا لأنّ النعمة الكبيرة التى منّ اللّه بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، و كان لها تأثير على مصير و مستقبل كل هؤلاء، و لهذا فقد كان من المناسب أن يهبّ الجميع لشكر اللّه بتسبيحه و مدحه و ثنائه.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ بإمكان هذه الموهبة التى تعتبر إعجازا أن تحكّم أسس الإيمان فى قلوب الناس، و كانت هذه أيضا موهبة أخرى.

بحثان

۱- يحيى عليه السّلام النّبى المتألّه الورع

لقد ورد اسم «يحيى» فى القرآن الكريم خمس مرات- فى سور آل عمران، و الأنعام، و مريم، و الأنبياء- فهو واحد من أنبياء اللّه الكبار، و من جملة امتيازاته و مختصاته أنّه وصل إلى مقام النّبوة فى مرحلة الطفولة، فإنّ اللّه سبحانه قد أعطاه عقلا و ذكاء وقّادا و دراية واسعة فى هذا العمر بحيث أصبح مؤهلا لتقبل هذا المنصب.

و من خصائص هذا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى أشار إليها القرآن فى الآية (۳۹) من سورة آل عمران، وصفه بالحصور، كما قلنا فى ذيل تلك الآية، فإنّ «الحصور» من مادة الحصر، بمعنى وقوع الشخص فى المحاصرة، و هى تعنى هنا- طبقا لبعض الرّوايات- الامتناع عن الزواج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۲

لقد كان هذا العمل امتيازا بالنسبة له، من جهة أنّه يبيّن نهاية العفة و الطهارة، أو أنّه كان- نتيجة ظروف الحياة الخاصّة- مضطرا إلى الأسفار المتعددة من أجل نشر الدين الإلهى و الدعوة إليه، و اضطر كذلك إلى أن يعيش حياة العزوبة كعيسى بن مريم عليه السّلام.

و هناك تفسير قريب من الصواب أيضا، و هو أن الحصور- فى الآية المذكورة- تعنى الشخص الذى ترك شهوات الدنيا و ملذاتها، و هذا فى الواقع مرتبة عالية من الزهد[۲۵۶].

على كل حال، فإنّ المستفاد من المصادر الإسلامية و المسيحية أن يحيى كان بن خالة عيسى.

فقد صرّحت المصادر المسيحية بأنّ يحيى غسل المسيح عليه السّلام غسل التعميد، و لذلك يسمّونه (يحيى المعمد)- و غسل التعميد غسل خاص يغسل المسيحيون أولادهم به، و يعتقدون أنّه يطهرهم من الذنوب- و لما أظهر المسيح نبوته آمن به يحيى.

لا شك أن يحيى لم يكن له كتاب سماوى خاص، و ما نقرأه فى الآيات التالية من أنّه يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ إشارة إلى التوراة، و هى كتاب موسى عليه السّلام.

و هناك جماعة يتبعون يحيى، و ينسبون له كتابا، و ربما كان (الصابئون الموحدون) من أتباع يحيى ۲۵۷].

لقد كان بين يحيى و عيسى جوانب مشتركة، كالزهد الخارق غير المألوف، و ترك الزواج للأسباب التى ذكرت، و ولادتهما التى تحمل طابع الإعجاز، و كذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۳

النسب القريب جدّا.

و یستفاد من الرّوایات الإسلامیة، أن بین الحسین علیه السّلام و یحیی علیه السّلام جهات مشترکة، و لذلک

فقد روی الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام أنّه قال: «خرجنا مع الحسین بن علی علیه السّلام، فما نزل منزلا و لا رحل منه إلّا ذکر یحیی بن زکریا و قتله، و قال: و من هو ان الدنیا علی اللّه أنّ رأس یحیی بن زکریا أهدی إلی بغی من بغایا بنی إسرائیل»[۲۵۸].

کما أن شهادة الحسین علیه السّلام تشبه شهادة یحیی علیه السّلام من عدّة جهات أیضا، و سنذکر کیفیة قتل یحیی فیما بعد.

و کذلک فإنّ اسم الحسین علیه السّلام کاسم یحیی علیه السّلام لم یسبقه به أحد، و مدّة حملهما کانت أقل من المعتاد.

۲- ما معنی کلمة «المحراب»؟

«المحراب» محل خاص فی مکان العبادة یجعل للإمام أو الوجهاء و المبرزین، و قد ذکروا علتین لهذه التسمیة:

الأولی: أنّها من مادة «حرب»، لأنّ المحراب فی الحقیقة محل لمحاربة الشیطان و هوی النفس.

و الثّانیة: أنّ المحراب فی اللغة بمعنی مکان الصدارة فی المجلس، و لما کان مکان المحراب فی صدر المعبد فقد سمی بهذا الاسم.

یقول البعض: إنّ المحراب کان عند بنی إسرائیل بعکس ما هو المتعارف عندنا، حیث کان فی مکان أعلی من سطح الأرض حیث یرتقی الیه بعدّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۴

درجات. و کانوا یحیطونه بالجدران بحیث تصعب رؤیة الذین یتعبدون فی داخل المحراب، و یؤید ذلک ما ورد فی الآیة: فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ و التی قرأناها فی الآیات محل البحث، و مع ملاحظة کلمة «علی» التی تستعمل عادة للدلالة علی الجهة العلیا یتّضح هذا المطلب أکثر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۵

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

یا یَحْیی خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَیْناهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا (۱۲) وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَکاةً وَ کانَ تَقِیًّا (۱۳) وَ بَرًّا بِوالِدَیْهِ وَ لَمْ یَکُنْ جَبَّاراً عَصِیًّا (۱۴) وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا (۱۵)

التّفسیر

صفات یحیی علیه السّلام البارزة:

رأینا فی الآیات السابقة کیف أنّ اللّه سبحانه منّ علی زکریا عند کبره بیحیی، و بعد ذلک فإنّ أوّل ما نلاحظه فی هذه الآیات هو الأمر الإلهی المهم الذی یخاطب یحیی: یا یَحْیی خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّةٍ.

المشهور بین المفسّرین أنّ المراد من الکتاب هنا هو التوراة، حتی ادعوا الإجماع علی ذلک ۲۵۹].

إلّا أنّ البعض احتمل أن یکون له کتاب خاص کزبور داود، و هو طبعا لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۶

کتابا متضمنا لدین جدید و مذهب مستحدث ۲۶۰]. غیر أن الاحتمال الأوّل هو الأقوی کما یبدو.

و علی أی حال، فإنّ المراد من أخذ الکتاب بقوة هو إجراء و تنفیذ ما جاء فی کتاب التوراة السماوی بکل حزم و اقتدار و تصمیم راسخ، و إرادة حدیدیة، و أن یعمل بکل ما فیه، و أن یستعین بکل القوی المادیة و المعنویة فی سبیل نشره و تعمیمه.

إنّ من القواعد المسلّمة أنّه لا یمکن تطبیق أی کتاب و دین بدون قوة و قدرة و حزن أتباعه و أنصاره، و هذا درس لکل المؤمنین، و کل السالکین و السائرین فی طریق اللّه.

یحیی و صفاته العشرة:

ثمّ أشار القرآن الکریم إلی المواهب العشرة التی منحها اللّه لیحیی و التی اکتسبها بتوفیق اللّه:

۱- وَ آتَیْناهُ الْحُکْمَ صَبِیًّا. و هو أمر النّبوة و العقل و الذکاء و الدرایة.

۲- وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا و الحنان فی الأصل بمعنی الرحمة و الشفقة و المحبّة و إظهار العلاقة و المودّة للآخرین.

۳- وَ زَکاةً أی أعطیناه روحا طاهرة و زکیة، و بالرغم من أنّ المفسّرین فسروا الزکاة بمعان مختلفة، فبعضهم فسّرها بالعمل الصالح، و آخر بالطاعة و الإخلاص، و ثالث ببر الوالدین و الإحسان إلیهما، و رابع بحسن السمعة و الذکر، و خامس بطهارة الأنصار، إلّا أنّ الظاهر هو أنّ للزکاة معنی واسعا و شاملا یتضمن کل هذه الأعمال و الصفات الطاهرة الصالحة.

۴- وَ کانَ تَقِیًّا فکان یجتنب کل ما یخالف الأوامر الالهیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۷

۵- وَ بَرًّا بِوالِدَیْهِ

۶- وَ لَمْ یَکُنْ جَبَّاراً فلم یکن رجلا ظالما و متکبرا و انانیّا.

۷- و لم یکن عَصِیًّا و لم یقترف ذنبا و معصیة.

۸، ۹، ۱۰- و لما کان جامعا لکل هذه الصفات البارزة، و الأوسمة الکبیرة، فإن اللّه سبحانه قد سلّم علیه فی ثلاثة مواطن: وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ، وَ یَوْمَ یَمُوتُ، وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا.

بحوث

۱- خذ الکتاب السماوی بقوة و اقتدار!

إنّ لکلمة «قوة» فی قوله: یا یَحْیی خُذِ الْکِتابَ بِقُوَّةٍ- کما تقدم- معنی واسعا جمعت فیه کل القدرات و الطاقات المادیة و المعنویة، الروحیة الجسمیة، و هذا بحد ذاته یبیّن و یوضح هذه الحقیقة، و هی أنّ الدین الإلهی و الإسلام و القرآن لا یمکن أن تحفظ بالضعف و التخاذل و المهادنة اللین، بل یجب أن تصان بقوّة و تجعل فی قلعة القدرة المنیعة.

إنّ المخاطب هنا و إن کان یحیی، إلّا أنّه قد ورد هذا التعبیر بالنسبة إلی غیره من الأنبیاء فی موارد أخری من القرآن المجید، ففی الآیة (۱۴۵) من سورة الأعراف أمر موسی بأن یأخذ التوراة بقوة: فَخُذْها بِقُوَّةٍ.

و فی الآیة (۶۳ و ۹۳) من سورة البقرة یلاحظ أنّ الخطاب موجه لجمیع بنی إسرائیل: خُذُوا ما آتَیْناکُمْ بِقُوَّةٍ و هو یوحی بأن هذا

الحكم عام يشمل الجميع، و لا يخص شخصا أو أشخاصا معينين.

و قد ورد هذا المفهوم بتعبير آخر فى الآية (۶۰) من سورة الأنفال: وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۸

و على كل حال، فإنّ هذه الآية تعتبر جوابا لمن يظن أنّه بالإمكان تنفيذ عمل أو تحقيق غاية من موقعه الضعف، أو يريد حل المشاكل عن طريق المساومة فى كل الظروف.

۲- ثلاثة أيّام صعبة فى مصير الإنسان

إنّ التعبير ب سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا يبيّن أن فى تاريخ حياة الإنسان و انتقاله من عالم إلى عالم آخر ثلاثة أيّام صعبة: يوم يضع قدمه فى هذه الدنيا: يَوْمَ وُلِدَ و يوم موته و انتقاله إلى عالم البرزخ وَ يَوْمَ يَمُوتُ و يوم بعثه فى العالم الآخر وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا و لما كان من الطبيعى أن تكون هذه الأيّام مرافقة للاضطرابات و القلق، فإنّ اللّه سبحانه يكتنف خاصّة عباده بسلامه و عافيته، و يجعل هؤلاء فى ظل حمايته و منعته فى هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

و بالرغم من أنّ هذا التعبير قد ورد فى القرآن فى موردين فقط، فى حق يحيى و فى حق عيسى عليه السّلام، إلّا أنّ التعبير القرآن فى شأن يحيى امتيازا خاصّا، لأنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللّه سبحانه، فى حين أنّ المسيح عليه السّلام هو المتكلم فى حق نفسه.

و من الواضح أنّ الأفراد الذين يكونون فى أوضاع و أحوال تشابه أحوال هذين العظيمين ستعمهم و تظللهم هذه السلامة.

و من البديع أن نقرأ

فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام: «إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يلد و يخرج من بطن أمه فيرى الدنيا، و يوم يموت فيعاين الآخرة و أهلها، و يوم يبعث حيا فيرى أحكاما لم يرها فى دار الدنيا، و قد سلم اللّه على يحيى عليه السّلام فى هذه الثلاثة مواطن و آمن روعته، فقال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۱۹

و سلام عليه ...»[۲۶۱].

۳- النّبوة فى الطفولة

صحيح أنّ مرحلة النضج العقلى للإنسان لها حدّ معين عادة، إلّا أنّه يوجد أفراد استثنائيون بين البشر دائما، فأى مانع من أن يختصر اللّه هذه المرحلة لبعض عباده لمصالح ما، و يجعلها تتلخص فى سنوات أقل؟ كما أن مرور سنة أو سنتين على الولادة أمر محتم من أجل التمكن من النطق عادة، فى حين أنّنا نعلم أنّ عيسى عليه السّلام قد تكلم فى أيّامه الأولى، و كان كلاما عميق المحتوى من شأنه أن يصدر- عادة عن أناس كبار فى السن، كما سيأتى فى تفسير الآيات القادمة إن شاء اللّه تعالى.

من هنا يتّضح عدم صحة الإشكال الذى طرحه بعض الأفراد حول بعض أئمة الشيعة، بأنّه كيف تسلّم بعضهم أمور الإمامة فى سن صغيرة؟

نطالع

فى رواية عن على بن أسباط، أحد أصحاب الإمام الجواد محمّد بن على النقى عليه السّلام أنّه قال: رأيت أبا جعفر عليه السّلام و قد خرج علىّ، فأجدت النظر إليه، و جعلت أنظر إلى رأسه و رجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك قعد فقال: «يا علىّ، إنّ

اللّه احتـج فى الإمامة بمثل ما احتج به فى النّبوة، قد يقول وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا، و قد يقول وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ و بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً فقد يجوز أن يؤتى الحكمة و هو صبى، و يجوز أن يؤتى الحكمة و هو ابن أربعين»[۲۶۲].

كما أنّ هذه الآية تتضـمن جوابا مفحما لأولئك المعترضـين الذين يقولون: إنّ عليا عليه السّـلام لم يكن أوّل من آمن بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الرجال، لأنّه كان ابن عشر سنين فى ذلك اليوم، و لا يقبل إيمان صبى فى العاشرة من عمره!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۰

و لا بأس من ذكر الرّواية الشريفة

عن الإمام على بن موسـى الرضا عليه السّـلام، و هى أن جماعـة من الأطفال قالوا للرضا عليه السّـلام أيّام طفولته: أذهب بنا نلعب، قال: «ما للعب خلقنا» و هذا ما أنزل اللّه تعالى وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا[۲۶۳].

يجب الالتفات إلى أن اللعب هنا هو الإشتغال بما لا فائدة فيه، و بتعبير آخر لا هدف يطلب منه، لكن قد يستتبع اللعب و اللهو- أحيانا- هدفا منطقيا و عقلائيا و يسعى إليه، فمن البديهى أن لهذا اللعب حكما مستثنى.

۴- شهادة يحيى

لم تكن ولادة يحيى عجيبـة و مذهلـة لوحـدها، بل إنّ موته أيضا كان عجيبا من عدّة جهات، و قد ذكر أغلب المؤرخين المسـلمين، و كذلك المصادر المسيحية، مجرى هذه الشهادة على هذه النحو، بالرغم من وجود اختلاف يسير فى خصوصياتها بين هذه المراجع:

لقـد أصـبح يحيى ضـحية للعلاقات غير الشـرعية لأحـد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلق «هروديس» ملك فلسـطين اللاهث وراء شـهواته ببنت أخته «هروديـا» و هام فى غرامها، و ألهب جمالها قلبه بنار العشق، و لـذلك صـمم على الزواج منها! فبلغ هـذا الخبر نبى اللّه العظيم يحيى عليه السّلام، فأعلن بصراحة أنّ هذا الزواج غير شرعى و مخالف لتعليمات التوراة، و سأقف امام مثل هذا العمل.

لقد انتشـر صخب و ضوضاء هذه المسألة فى كل أرجاء المدينة، و سمعت تلك الفتاة (هيروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق فى طريقها، و لذلك صـممت على الانتقام منه فى فرصة مناسـبة لترفع هذا المانع من طريق شهواتها و ميولها، فعمقت علاقتها بخالها و وطدتها، و جعلت من جمالها مصيدة له، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۱

ملكت عليه كل مشاعره و أحاسـيسه، إلى أن قال لها هيروديس يوما: اطلبى منّى كل ما تريدين فسأحققه لك قطعا، فقالت هيروديا: لا أريـد منك إلّا رأس يحيى! لأنّه قـد شوّه سـمعتى و سـمعتك، و قـد أصـبح كل الناس يعيروننا، فإنّ كنت تريـد أن يهـدأ قلبى و يسـر خاطرى فيجب أن تقوم بهذا العمل! فسـلّم هيروديس- الذى أصبح مجنونا لا يعقل من عشق هذه المرأة- لما أرادت من دون أن يفكر و يتنبه إلى عاقبـة هـذا العمل، و لم يمض قليل من الزمن حتى أحضـر رأس يحيى عنـد تلك المرأة الفاجرة، إلّا أنّ عواقب هـذا العمل الشنيع قد أحاطت به، و أخذت بأطرافه فى النهاية[۲۶۴].

و نقرأ

فى الرّوايات أن سـيد الشـهداء الإمام الحسين عليه السّلام كان يقول: «إنّ من هو ان الدنيا أن يهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل»

أى إن ظروفى تشابه من هذه الناحية ظروف و أحوال يحيى، لأنّ أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۲

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۱۶ الى ۲۱]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا (۱۶) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا (۱۷) قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (۱۸) قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا (۱۹) قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا (۲۰)

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا (۲۱)

التّفسير

ولادة عيسى عليه السّلام:

بعد ذكر قصّة يحيى عليه السّلام، حولت الآيات مجرى الحديث إلى قصّة عيسى عليه السّلام لوجود علاقة قوية و تقارب واضح جدا بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإنّ كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن فى السن و أم عقيم عجيبة، فإن ولادة عيسى من أم دون أب أعجب!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۳

و إن كان الوصول إلى مقام النّبوة و بلوغ العقل الكامل- فى مرحلة الطفولة- باعثا على الحيرة و معجزا، فإنّ التحدث فى المهد عن الكتاب و النّبوة أبعث على التعجب و الحيرة، و أكثر إعجازا.

و على كل حال، فإنّ كلا الأمرين آيتان على قدرة اللّه الكبير المتعال، إحداهما أكبر من الأخرى، و قد صادف أن تكون كلا الآيتين مرتبطتان بشخصين تربطهما أواصر نسب قوية، فكل منهما قريب للآخر من ناحية النسب، حيث أن أم يحيى كانت أخت أم مريم، و كانت كلاهما عقيمتين و تعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الأولى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا فقد كانت تبحث عن مكان خال من كل نوع من التشويش و الضوضاء حتى لا- يشغلها شيء عن مناجاتها و يصرفها- و لو حينا- عن ذكر المحبوب، و لذلك اختارت شرقى بيت المقدس، ذلك المعبد الكبير، لعله يكون مكانا أكثر هدوءا، أو أنّه كان أنظف و أنسب من جهة أشعة الشمس و نورها.

كلمة «انتبذت» أخذت من مادة (نبذ) على قول الراغب، و هى تعنى إلقاء و إبعاد الأشياء التى لا تسترعى الانتباه، و ربّما كان هذا التعبير فى الآية إشارة إلى أنّ مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة و مجهولة و خالية من كل ما يجلب الانتباه، و اختارت ذلك المكان من بيت اللّه للعبادة.

فى هذه الأثناء من أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها و اعتكافها من كل جهة، فإنّها فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً و لم تصرح الآية بالهدف من اتّخاذ هذا الحجاب، فهل أنّه كان من أجل أن تناجى ربّها بحرية أكبر، و تستطيع عند خلو هذا المكان من كل ما يشغل القلب و الحواس أن تتوجه إلى العبادة و الدعاء؟ أو أنّها كانت تريد اتخاذه من أجل الغسل و الاغتسال؟ الآية ساكتة من هذه الجهة.

على كل حال، فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا و الروح أحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۴

الملائكة العظام حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه و لا نقص.

إنّ الحالة التى اعترت مريم فى تلك اللحظة واضحة جدّا، فمريم التى عاشت دائما نقية الجيب، و تربّت فى أحضان الطاهرين، و كان

يضرب بها المثل بين الناس فى العفة و التقوى ... كم داخلها من الرعب و الاضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، و هو دخول رجل أجنبى جميل فى محل خلوتها! و لذلك فإنّها مباشرة قالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا و كانت هذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، و وصفه برحمته العامّة من جهة، و ترغيب الرجل فى التقوى و الامتناع عن المعصية من جهة أخرى، كان من أجل أن يرتدع هذا الشخص المجهول إن كانت له نيّة سيئة فى ارتكاب المعصية، و الأهم من ذلك كله هو الالتجاء إلى اللّه، فاللّه الذى يلتجئ إليه الإنسان فى أحلك الظروف، و لا تقف أية قدرة أمام قدرته، هو الذى سيحل المعضلات.

لقد كانت مريم تنتظر رد فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوهت بهذه الكلمات انتظارا مشوبا بالاضطراب و القلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلمها ذلك الشخص، و وضّح مهمته و رسالته العظيمة قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذى يلقى على النار، فقد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الاطمئنان لم يدم طويلا؛ لأنّه أضاف مباشرة لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا.

لقد اهتز كيان و وجود مريم لدى سماع هذا الكلام، و غاصت مرّة أخرى فى قلق شديد قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا.

لقد كانت تفكر فى تلك الحالة فى الأسباب الطبيعية فقط، و كانت تظن أن المرأة يمكن أن يكون لها ولد عن طريقين لا ثالث لهما: إمّا الزواج أو التلوّث بالرذيلة و الانحراف، و إنّى أعرف نفسى أكثر من أى شخص آخر، فإنّى لم أختر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۵

زوجا لحد الآن، و لم أكن امرأة منحرفة قط، و لم يسمع لحد الآن أنّ شخصا يولد له ولد من غير هذين الطريقين! إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول اللّه إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ فأنت الواقفة على قدرتى و العالمة بها جيدا .. أنت التى رأيت ثمر الجنّة فى فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهة فى الدنيا جنب محراب عبادتك. أنت التى سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفتك و طهارتك .. أنت التى تعلمين أنّ جدك آدم قد خلق من التراب، فلما ذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثمّ أضاف: وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، و نجعله معجزة، و على كل حال وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا. فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

بحثان

۱- ما هو المراد من روح اللّه؟

إنّ كل المفسّرين المعروفين تقريبا فسّروا الروح هنا بأنّه جبرئيل ملك اللّه العظيم، و التعبير عنه الروح لأنّه روحانى، و وجود مفيض للحياة، لأنّه حامل الرسالة الإلهية إلى الأنبياء و فيها حياة جميع البشر اللائقين، و إضافة الروح هنا إلى اللّه دليل على عظمة و شرف هذا الروح، حيث أنّ من أقسام الإضافة هى (الإضافة التشريفية).

و يستفاد من هذه الآية بصورة ضمنية أنّ نزول جبرئيل لم يكن مختصا بالأنبياء، و إن كان نزوله بالوحى و الشريعة و الكتب السماوية منحصرا فيه، إلّا أنّه لا مانع من أن يواجه غير الأنبياء من أجل تبليغ رسائل و أوامر أخرى، كرسالته المذكورة إلى مريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۶

۲- ما هو التمثل؟

«التمثل» فى الأصل من «المثول»، أى الوقوف مقابل شخص أو شىء، و يقولون للشىء الذى يظهر بصورة أخرى: ممثلا، و على هذا فإنّ قوله: فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا تعنى أن ذلك الملك قد ظهر بصورة إنسان.

و لا شك أنّ هذا الكلام لا يعنى أن جبرئيل قد تبدل إلى إنسان شكلا و سيرة، لأنّ مثل هذا التحول و التبدل أمر غير ممكن، بل المراد أنّه ظهر بصورة إنسان بالرغم من أنّ سلوكه كان نفس ذلك السلوك الملائكى، إلّا أنّ مريم التى لم تكن تعلم بالأمر فى البداية، كانت تظن أن فى مقابلها إنسانا سيرة و صورة.

و تلاحظ كثيرا فى الرّوايات و التواريخ كلمة «تمثل» بمعناها الواسع، و من جملتها: إنّ إبليس لما اجتمع المشركون فى «دار الندوة» و كانوا يخططون لقتل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ظهر بصورة شيخ كبير حصيف الرأى، يهدف إلى الخير و شرع بإغواء رؤساء قريش.

أو أنّ الدنيا و باطنها تمثلت للإمام على عليه السّلام على شكل امرأة فى غاية الجمال و الجذابية و لم تستطع أن تنفذ إليه، و قصتها مفصّلة معروفة.

و نقرأ أيضا فى الرّوايات أنّ مال الإنسان و ولده و عمله تتجسم أمامه عند الموت بصورة مختلفة و خاصّة.

أو أنّ أعمال الإنسان تتجسم فى القبر و يوم القيامة، و يظهر كل منها بشكل خاص.

إن التمثّل فى جميع هذه الوارد يعنى أن شيئا أو شخصا يظهر بشكل آخر من ناحية الصورة و الشكل فقط، لا أن تتبدّل ماهيته و باطنة[۲۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۲۲ الى ۲۶]

اشارة

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا (۲۲) فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا (۲۳) فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (۲۴) وَ هُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا (۲۵) فَكُلِى وَ اشْرَبِى وَ قَرِّى عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِى إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (۲۶)

التّفسير

مريم فى عاصفة:

و أخيرا حملت مريم، و استقر ذلك الولد الموعود فى رحمها: فَحَمَلَتْهُ و لم يتحدث القرآن عن كيفية نشوء و تكوّن هذا المولود، فهل أنّ جبرئيل قد نفخ فى ثوبها، أم فى فمها؟ و ذلك لعدم الحاجة إلى هذا البحث، بالرغم من أنّ كلمات المفسّرين مختلفة فى هذا الشأن.

و على كل حال، فإنّ هذا الأمر قد تسبب فى أن تبتعد عن بيت المقدس فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۸

لقد کانت تعیش فی حالة بین الخوف و الأمل، حالة من القلق و الاضطراب المشوب بالسرور، فهی تفکر أحیانا بأن هذا الحمل سیفشو أمره فی النهایـة، فالأفضل أن أبقی بعیـدة عن أولئک الـذین یعرفوننی عـدّة أیّام أو أشـهر، و أعیش فی هذا المکان بصورة مجهولة، و ماذا سیحدث فی النهایة؟

فمن الذی سیقتنع بأنّ امرأة لا زوج لها تحمل دون أن تکون قد تلوثت بالرذیلة؟ فما ذا سأفعل تجاه هذا الاتهام؟ و الحق أنّ من المؤلم جـدّا بالنسـبة لفتاة کانت لسـنین طویلة نموذجا و قدوة للطهارة و العفة و التقوی و الورع، و مثالا فی العبادة و العبودیة للّه، و کان زهاد بنی إسـرائیل یفتخرون بکفالتها منذ الطفولة، و قد تربت و ترعرعت فی ظل نبی کبیر، و قد شاع أمر سجایاها و قداستها فی کل مکان، أن تحس فی یوم ما أن کل هذا الرصید المعنوی مهدد بالخطر، و ستکون غرضا و مرمی لاتهام یعتبر أسوء و أقبح اتهام، و کانت هذه هی المصیبة الثّالثة التی وقعت لها.

إلّا أنّها من جهة أخری کانت تحس أنّ هذا المولود، نبی اللّه الموعود، تحفة سـماویة نفیسة، فإنّ اللّه الذی بشـرنی بمثل هذا الغلام، و خلقه بهـذه الصورة الإعجازیـة کیف سیذرنی وحیـدة؟ فهل من المعقول أن لا یدافع عنی فی مقابل مثل هذا الاتهام؟ أنا التی رأیت و جربت لطفه علی الدوام، و أحسست بید رحمته علی رأسی.

و هناک بحث بین المفسّرین فی مدّة حمل مریم، بالرغم من أنّه ذکر فی القرآن بصورة مخفیة و مبهمة، فبعضـهم حسبه ساعة واحدة، و آخر تسع ساعات، و ثالث سـتة أشـهر، و رابع سـبعة، و آخر ثمانیـة، و آخر تسـعة أشـهر کسائر النساء، إلّا أن هـذا الموضوع لیس له ذلک التأثیر فی هدف هذه القصّة. و الرّوایات الواردة فی هذا المجال مختلفة أیضا.

و قد اعتقد الکثیرون أنّ المکان «القصی» هو مدینة «الناصرة» و ربّما بقیت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۲۹

فی تلک المدینة بصورة دائما و قلّما خرجت منها.

و مهما کان فقد انتهت مدّة الحمل، و بدأت لحظات تلاطم أمواج حیاة مریم، و قد دفعها ألم الولادة الشدید الذی هاج فیها إلی ترک الأماکن المعمورة و التوجه إلی الصحاری الخالیة من البشر، و القاحلة التی لا عشب فیها و لا ماء و لا مأوی.

و مع أن النساء یلجأن عادة فی مثل هذه الحالة إلی المعارف و الأصدقاء لیساعدوهنّ علی الولادة، إلّا أن وضع مریم لما کان اسـتثنائیا، و لم تکن تریـد أن یری أحـد وضع حملهـا مطلقا، فإنّها اتّخـذت طریق الصـحراء بمجرّد أن بـدأ ألم الولادة و یقول القرآن فی ذلک: فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلی جِذْعِ النَّخْلَةِ.

إنّ التعبیر بجـذع النخلـة، و بملاحظـة أن الجـذع یعنی بـدن الشـجرة، یوحی بأنّه لم یبق من تلک الشـجرة إلّا جـذعها و بـدنها، أی إنّ الشجرة کانت یابسة[۲۶۶].

فی هـذا الحال غمر کل وجود مریم الطاهر سـیل من الغم و الحزن، و أحسـست بأنّ اللحظة التی کانت تخشاها قد حانت، اللحظة التی مهما أخفیت فإنّها ستتضح هناک، و سیتجه نحوها سیل سهام الاتهام التی سیرشقها بها الناس.

لقد کان هذا الاضـطراب و الصـراع صـعبا جدّا، و قد أثقل کاهلها إلی الحد الذی تکلمت فیه بلا إرادة و قالَتْ یا لَیْتَنِی مِتُّ قَبْلَ هذا وَ کُنْتُ نَسْیاً مَنْسِیًّا.

إنّ مـن البـدیهی أنّ الخـوف مـن التهم فی المسـتقبل لم یکن الشـیء الوحیـد الـذی کـان یعصـر قلب مریم و یقلقهـا، و إن کـان هـذا الموضوع یشـغل فکر مریم أکثر من أیـة مسألـة أخری، إلّا أنّ مشاکل و مصائب أخری کوضع الحمل لوحـدها بـدون قابلة و صدیق و معین فی الصـحاری الخالیـة، و عدم وجود مکان للاستراحة، و عدم وجود الماء للشـرب، و الطعام للأکل، و عدم وجود وسـیلة لحفظ المولود الجدید، و غیر هذه الأمور کانت تهزّها من الأعماق بشدّة.

قد يتساءل البعض باعتراض: كيف أنّ مريم المؤمنة و العارفة بالتوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۰

حيث رأت كل ذلك اللطف و الإحسان الإلهى، أجرت مثل هذه الجملة على لسانها و قالت: يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا، إلّا أنّ هؤلاء لم يدركوا أبدا حال مريم فى تلك الساعة، و لو أنّهم أصابهم شىء قليل من هذه المشاكل فإنّهم سينسون حتى أنفسهم.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلا، فقد سطعت ومضة الأمل التى كانت موجودة دائما فى أعماق قلبها، و طرق سمعها صوت فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا و انظرى إلى الأعلى كيف أن هذا الجذع اليابس قد تحول إلى نخلة مثمرة وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً بالمولود الجديد فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. و هذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت.

و خلاصة الأمر، إنّك لا تحتاجين إلى الدفاع عن نفسك، فإنّ الذى وهبك هذا الوليد قد تعهد بمهمّة الدفاع عنك أيضا، و على هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، و لا تدعى للهم طريقا إلى نفسك.

إن هذه الحوادث المتلاحقة التى سطعت كالشرر المضىء الوهاج فى الظلام الدامس، قد أضاءت كل أرجاء قلبها، و ألقت عليها الهدوء و الاطمئنان.

بحوث

۱- ازدياد قوة مريم عند تراكم المشاكل

إنّ الحوادث التى مرّت على مريم فى هذه المدّة القصيرة، و المشاهد و المواقف التى تثير الإعجاب، و التى حدثت لها بلطف اللّه، كانت تهيؤها و تعدها من أجل تربية نبى من أولى العزم، و لتستطيع أن تؤدى وظيفة الأمومة من خلال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۱

هذا الأمر الخطير على أحسن وجه.

إنّ سير الأحداث صاحبها حتى آخر مرحلة، بحيث لم يبق بينها و بين الموت إلّا خطوة واحدة، لكن فجأة يرجع كل شىء إلى وضعه، و يهّب كل شىء لمساعدتها، و تخطو فى محيط هادئ مطمئن من كل الجهات.

جملة وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ التى تأمر مريم بتحريك النخلة لتستفيد من ثمرها، أعطت درسا لها و لكل البشر، بأن لا يكفوا عن الجد و السعى حتى فى أشد لحظات الحياة و أصعبها.

إنّه جواب لأولئك الذين يسألون عن الحاجة بأنّ مريم التى وضعت حملها لتوها تقوم و تهزّ النخلة، ألم يكن من الأولى أن يرسل اللّه- الذى- بعث عين الماء العذب قرب مريم تلك الشجرة اليابسة- نسمة و ريحا تهزّ النخلة و تسقط الثمر قرب مريم؟ فما الذى حدث، حيث أن مريم عند ما كانت سالمة صحيحة كانت تحضر الفاكهة جنب محرابها، أمّا الآن و قد ابتليت بكل هذه المشاكل فإنّ عليها أن تقطف الثمر بنفسها؟

أجل، إن هذا الأمر الإلهى لمريم يوضح أنّه لا بركة بدون حركة، و بتعبير آخر، فإن على كل إنسان أن يبذل قصارى جهده عند ظهور المشاكل، و ما وراء ذلك فعلى اللّه.

۲- لماذا طلبت مريم الموت من اللّه؟

لا ـ شک أن طلب الموت من اللّه عمل غیر صحیح، إلّا أنّه قد تقع حوادث فی حیاة الإنسان یصبح فیها طعم الحیاة مرّا، و خاصّة إذا رأی الإنسان أهدافه المقدسة أو شرفه و شخصیته مهددة بالخطر، و لا یملک قدرة الدفاع عن نفسه أمامها، و فی مثل هذه الظروف یتمنی الإنسان الموت للخلاص من العذاب الروحی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۲

لقد خطرت فی ذهن مریم فی اللحظات الأولی هذه الأفکار، و تصورت بأن کل وجودها و کیانها و ماء وجهها مهدد بالخطر أمام هؤلاء الناس الجهلاء نتیجة ولادة هذا المولود، و فی هذه اللحظات تمنت الموت، و هذا بحد ذاته دلیل علی أنّها کانت تحب عفتها و طهارتها و تهتم بهما أکثر من روحها، و تعتبر حفظ ماء وجهها أغلی من حیاتها.

إلّا أنّ مثل هذه الأفکار ربّما لم تدم إلّا لحظات قصیرة جدّا، و لما رأت ذینک المعجزتین الإلهیتین- انبعاث عین الماء، و حمل النخلة الیابسة- زالت کل تلک الأفکار عن روحها، و غمر قلبها نور الاطمئنان الهدوء.

۳- سؤال و جواب

یسأل البعض: إنّ المعجزة إذا کانت مختصة بالأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام، فکیف ظهرت مثل هذه المعجزات لمریم؟

و قد اعتبر بعض المفسّرین- حلا ـ لهذا الإشکال- هذه المعاجز جزءا من معاجز عیسی تحققت کمقدمة، و یعبرون عن ذلک بالإرهاص.

إلّا أنّه لا ـ حاجة لجواب کهذا أبدا، لأنّه لا مانع مطلقا من ظهور الأمور الخارقة للعادة لغیر الأنبیاء و الأئمّة، و هذا هو الذی نسمیه بالکرامة.

إنّ المعجزة هی عمل یقترن بالتحدی، و تکون مقترنة بادعاء النّبوة و الإمامة.

۴- صوم الصمت

یدل ظاهر الآیات أعلاه علی أنّ مریم کانت مأمورة بالسکوت لمصلحة، و أن تمتنع عن الکلام بأمر اللّه فی هذه المدّة المعینة، حیت تتحرک شفتا ولیدها عیسی بالکلام و یدافع عن عفتها، و هذا أکثر تأثیرا من کل الجهات.

و یظهر من تعبیر الآیة أن نذر السکوت کان أمرا معروفا فی ذلک المجتمع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۳

و لهذا لم یعترضوا علیها علی هذا العمل. غیر أنّ هذا النوع من الصوم غیر جائز فی شریعتنا.

ورد عن علی بن الحسین علیه السّلام فی حدیث: «صوم السکوت حرام»

[۲۶۷]، و ذلک لاختلاف الظروف فی ذلک الزمان عن ظروف زمن ظهور الإسلام.

إلّا أن أحد آداب الصوم الکامل فی الإسلام أن یحفظ الإنسان لسانه من التلوّث بالمعاصی و المکروهات خلال صیامه، و کذلک یصون عینه من الزلل و الذنب، کما نقرأ ذلک

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: إنّ الصوم لیس من الطعام و الشراب وحده، إن مریم قالت: إنّی نذرت للرحمن صوما، أی صمتا، فاحفظوا ألسنتکم، و غضوا أبصارکم، و لا تحاسدوا و لا تنازعوا»[۲۶۸].

۵- غذاء مولد للطاقة

استفاد المفسّرون ممّا جاء صریحا فی هذه الآیات، أنّ اللّه سبحانه قد جعل غذاء مریم حین ولادة مولودها الرطب، فهو من أفضل الأغذیة للنساء بعد وضع الحمل، و فی الأحادیث الإسلامیة إشارة صریحة إلی ذلک أیضا:

فیروی أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لیکن أول ما تأکل النفساء الرطب، فإن اللّه عزّ و جلّ قال لمریم علیها السّلام: وَ هُزِّی إِلَیْکِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَیْکِ رُطَباً جَنِیًّا[۲۶۹].

و یستفاد من آخر الحدیث أن تناول هذا الغذاء لا یؤثر و یفید الأم فقط، بل إنّه سیؤثر حتی فی لبنها، و حتی أن بعض الرّوایات تؤکّد علی أن أفضل غذاء و دواء للحامل هو الرطب:

«ما تأکل الحامل من شیء و لا تتداوی به أفضل من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۴

الرطب».[۲۷۰]

إلّا أن من المسلّم أن الاعتدال و التوسط فی کل شیء یجب أن یراعی حتی فی هذه المسألة، کما یستفاد ذلک من بعض الرّوایات الواردة فی هذا المجال.

و یستفاد أیضا أنّ الرطب إن لم یکن موجودا، فلا بأس بأکل التمر المتعارف.

یقول علماء التغذیة: إنّ السکر الکثیر الموجود فی التمر من أصح السکریات و أسلمها، و حتی المبتلین بمرض السکر فإنّهم یستطیعون تناول التمر.

و یقول هؤلاء العلماء: إنّ فی التمر (۱۳) مادة حیویة، و اکتشفوا خمسة أنواع من الفیتامینات، جمعها التمر و أظهرها علی هیئة مصدر غذائی غنی ۲۷۱]، و نحن نعلم أن النساء فی مثل هذه الأوضاع بحاجة شدیدة إلی غذاء یولد الطاقة و ملیء بالفیتامینات.

لقد ثبتت أهمیة التمر بتقدم علم الطب، ففی التمر یوجد «الکالسیوم»، و هو عامل مهم فی تقویة العظام، و کذلک یوجد «الفسفور» و هو من العناصر الأساسیة فی تکوین المخ، و یمنع من ضعف الأعصاب و التعب، و کذلک یوجد «البوتاسیوم» الذی یسبب فقدانه فی قرحة المعدة[۲۷۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۵

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۲۷ الی ۳۳]

اشارة

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا یا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیًّا (۲۷) یا أُخْتَ هارُونَ ما کانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما کانَتْ أُمُّکِ بَغِیًّا (۲۸) فَأَشارَتْ إِلَیْهِ قالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا (۲۹) قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ آتانِیَ الْکِتابَ وَ جَعَلَنِی نَبِیًّا (۳۰) وَ جَعَلَنِی مُبارَکاً أَیْنَ ما کُنْتُ وَ أَوْصانِی بِالصَّلاةِ وَ الزَّکاةِ ما دُمْتُ حَیًّا (۳۱)

وَ بَرًّا بِوالِدَتِی وَ لَمْ یَجْعَلْنِی جَبَّاراً شَقِیًّا (۳۲) وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا (۳۳)

التّفسیر

المسیح یتکلم فی المهد:

و أخیرا رجعت مریم علیها السّلام من الصحراء إلی المدینة و قد احتضنت طفلها فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ فلمّا رأوا طفلا حدیث الولادة بین یدیها فغروا أفواههم تعجبا، فقد کانوا یعرفون ماضی مریم الطاهر، و کانوا قد سمعوا بتقواها و کرامتها، فقلقوا لذلک بشدّة، حیث وقع شک بعضهم و تعجّل آخرون فی القضاء و الحکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۶

و أطلق العنان للسانه فی توبیخها و ملامتها، و قالوا: إن من المؤسف هذا الانحدار مع ذلک الماضی المضیء، و مع الأسف علی تلوّث سمعه تلک الأسرة الطاهرة قالُوا یا مَرْیَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَیْئاً فَرِیًّا[۲۷۳].

و البعض الآخر واجهها، بالقول: یا أُخْتَ هارُونَ ما کانَ أَبُوکِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما کانَتْ أُمُّکِ بَغِیًّا فمع وجود مثل هذا الأب و الأم الطاهرین، ما هذا الوضع الذی نراک علیه؟ فأی سوء رأیت فی سلوک الأب و خلق الأم حتی تحیدی عن هذا الطریق؟

قولهم لمریم: یا أُخْتَ هارُونَ وقع مثار الاختلاف بین المفسّرین، لکن یبدو أنّ الأصح هو أنّ هارون رجل طاهر صالح إلی الدرجة التی یضرب به المثل بین بنی إسرائیل، فإذا أرادوا أن یصفوا شخصا بالطهارة و النزاهة، کانوا یقولون:

إنّه أخو أو أخت هارون، و قد نقل العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان هذا المعنی فی حدیث قصیر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم [۲۷۴].

و فی حدیث آخر ورد کتاب سعد السعود، عن المغیرة، أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعثه إلی نجران لدعوتهم الی الإسلام فقالوا (معترضین علی القرآن): ألستم تقرؤون یا أُخْتَ هارُونَ و بینهما کذا و کذا» (حیث تصوروا أنّ المراد هو هارون أخو موسی) فلمّا لم یستطع المغیرة جوابهم ذکر ذلک للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

فقال: «ألا قلت لهم:

إنّهم کانوا یسمّون بأنبیائهم و الصالحین منهم»[۲۷۵]

أی ینسبون الأشخاص الصالحین منهم الی الأنبیاء.

فی هذه الساعة، سکتت مریم بأمر اللّه، و العمل الوحید الذی قامت به، هو أنّها أشارت إلی ولیدها فَأَشارَتْ إِلَیْهِ إلّا أنّ هذا العمل جعل هؤلاء یتعجبون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۷

أکثر، و ربما حمل بعضها علی السخریة، ثمّ غضبوا فقالوا: مع قیامک بهذا العمل تسخرین من قومک أیضا؟ قالُوا کَیْفَ نُکَلِّمُ مَنْ کانَ فِی الْمَهْدِ صَبِیًّا.

لقد بحث المفسّرون هنا و تناقشوا کثیرا فی شأن کلمة «کان» الدالة علی الماضی، إلّا أنّ الظاهر هو أن هذه الکلمة تشیر هنا إلی ثبوت و لزوم وصف موجود، و بتعبیر أوضح: إنّ هؤلاء قالوا لمریم: کیف نکلم طفلا کان و لا یزال فی المهد؟

و الشاهد علی هذا المعنی آیات أخری من القرآن، مثل کُنْتُمْ خَیْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ سورة آل عمران/ ۱۱۰، فمن المسلم أن «کنتم» لا تعنی الماضی هنا، بل هی بیان لثبوت و استمرار هذه الصفات للمجتمع الإسلامی.

و کذلک بحثوا حول «المهد»، فإنّ عیسی لم یکن قد وضع فی المهد، بل إنّ ظاهر الآیات هو أن مریم بمجرّد أن حضرت بین الناس، و فی الوقت الذی کان عیسی علی یدیها، جری هذا الحوار بینها و بینهم.

إلّا أنّ الالتفات إلی معنی کلمة «المهد» فی لغة العرب سیوضح جواب هذا السؤال، فإنّ کلمة المهد تعنی- کما یقول الراغب فی مفرداته- المکان الذی یهیئونه للطفل، سواء کان المهد، أو حجر الأم، أو الفراش، و المهد و المهاد ورد کلاهما فی اللغة بمعنی:

المكان الممهد الموطأ، أى: للاستراحة و النوم.

على كل حال، فإنّ الناس قلقوا و اضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل و ربما غضبوا و قالوا لبعضهم البعض- حسب بعض الرّوايات-: إنّ استهزاءها و سخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة! إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلا، لأن ذلك الطفل الذى ولد حديثا قد فتح فاه و تكلم: قالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِى نَبِيًّا وَ جَعَلَنِى مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ و مفيدا من كل الجهات للعباد وَ أَوْصانِى بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۸

و كذلك جعلنى مطيعا و وفيا لأمى وَ بَرًّا بِوالِدَتِى ۲۷۶] وَ لَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِيًّا.

كلمة «جبار» تطلق على الشخص الذى يعتقد بأنّ له كل الحق على الناس و لا يعتقد بأنّ لأحد عليه حقا.

و كذلك يطلقونها على الذى يضرب الناس و يقتلهم إذا غضب، و لا يتبع ما يأمر به العقل، أو أنّه يريد أن يسد نقصه و يغطيه بادعاء العظمة و التكبر، و هذه كلها صفات بارزة للطواغيت المستكبرين فى كل زمان ۲۷۷].

و «الشقى» تقال للشخص الذى يهيء أسباب البلاء و العقاب لنفسه، و بعضهم فسر ذلك بالذى لا يقبل النصيحة، و من المعلوم أن هذين المعنيين لا ينفصلان عن بضعهما.

و نقرأ

فى رواية، أن عيسى عليه السّلام يقول «قلبى رقيق و أنا صغير فى نفسى»[۲۷۸]

و هو إشارة إلى أن هذين الوصفين يقعان فى مقابل الجبار و الشقى.

و فى النهاية يقول هذا المولود- أى المسيح- وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا و كما قلنا فى شرح الآيات المتعلقة بيحيى عليه السّلام، فإنّ هذه الأيّام الثلاثة فى حياة الإنسان أيّام مصيرية خطرة، لا تتيسر السلامة فيها إلّا بلطف اللّه، و لذلك جاءت هذه الآية فى حق يحيى عليه السّلام كما وردت فى شأن المسيح عليه السّلام، مع الاختلاف بأنّ اللّه هو الذى قالها فى المورد الأوّل، أمّا فى المورد الثّانى فإنّ المسيح قد طلب ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۳۹

بحوث

۱- أوضح تصوير عن ولادة عيسى عليه السّلام

يمكن إدراك فصاحة و بلاغة القرآن الكريم، و خاصّة فى مثل هذه الموارد، و ذلك عند ملاحظة طريقة طرحه لمسألة مهمّة اختلطت بكل تلك الخرافات، فى عبارات قصيرة و عميقة، و حية، و غنية المحتوى، و ناطقة تماما، بحيث تطرح جانبا كل أنواع الخرافات.

الملفت للنظر أنّ الآيات المذكورة ذكرت «سبع صفات» ممتازة و «برنامجان» و «دعاء واحد».

فالصفات السبعة عبارة عن كونه «عبدا للّه» و ذكرها فى بداية كل الصفات إشارة إلى أن أعلى و أكبر مقام يصله الإنسان هو مقام العبودية.

و بعد ذلك، كونه «صاحب كتاب سماوى» ثمّ «مقام النبوة» (مع العلم أن مقام النبوة لا يقترن دائما بالمجيء بكتاب سماوى).

و بعد مقام العبودية و الإرشاد، ذكر كونه «مباركا» أى مفيدا لوضع المجتمع، و فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام نقرأ أن معنى المبارك: «النفّاع»، أى كثير المنفعة.

ثمّ ذکرت الآیات کونه «بارا بأمه» و فی النهایة أنّه «لم یکن جبارا شقیا» بل کان متواضعا، عارفا بالحق، و سعیدا.

و من بین جمیع البرنامج الالهی للإنسان تؤکّد الآیة علی وصیة اللّه سبحانه بالصلاة و الزکاة، و ذلک للأهمیة الفائقة لهذین الأمرین، لأنّهما رمز الارتباط بالخالق و الخلق، و یمکن تلخیص کل البرامج و الأهداف الدینیة و المذهبیة فیهما، لأن أحدهما یشخصّ ارتباط الإنسان بالخلق، و الآخر یشخصّ ارتباطه بالخالق.

و أمّا الدعاء الذی دعاه لنفسه، و یرجوه فیه من ربّه فی بدایة عمره، فهو أن یجعل هذه الأیّام الثلاثة سلاما علیه: یوم الولادة، و یوم الموت، و الیوم الذی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۰

یبعث فیه، و أن یمن علیه فی هذه المراحل الثلاثة بالشعور بالأمن و الطمأنینة!

۲- منزلة الأم

بالرغم من أنّ المسیح علیه السّلام قد ولد بأمر اللّه النافذ من امرأة بدون زوج، إلّا أنّ ما نقرأه فی الآیات- محل البحث- عن لسانه، و الذی یعدّ فیه «ضمن تعداده لمیزاته و أوسمته» برّه بأمه، دلیل واضح علی أهمیة مقام الأم، و هی توضح بصورة ضمنیة أنّ هذا الطفل الصغیر- الذی نطق بالإعجاز- کان عالما و مطلعا علی أنّه ولد نموذجی بین البشر، و أنّه ولد من أمه فقط دون أن یکون للأب دخل فی تکونه و ولادته.

و علی کل حال، فبالرغم من أنّ ثقافة العصر الحاضر فیها الکثیر من الحدیث عن مقام و مکانة الأم، حتی أنّه خصص یوما و سمی ب (یوم الأم)، إلّا أن التطور الآلی- و للأسف الشدید- یقطع بسرعة علاقة الآباء و الأمهات بالأولاد بحیث یلاحظ ضعف الروابط العاطفیة بین هؤلاء فی السنین المتقدمة من أعمارهم.

و لدینا فی الإسلام روایات تثیر العجب و الحیرة فی هذا الباب، توصی المسلمین بالأم و تشید بمکانتها الفائقة الأهمیة، و تأمرهم أن یسعوا عملیا- و لیس فی الکلام و حسب- فی برّ الوالدین، فنطالع

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إن رجلا أتی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: یا رسول اللّه، من أبرّ؟ قال: أمک، قال:

ثمّ من؟ قال: أمک، قال: ثمّ من؟ قال: أمک، قال: ثمّ من؟ قال: أباک»[۲۷۹]!

و

فی حدیث آخر: أن رجلا أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للجهاد- حیث لم یکن الجهاد واجبا عینیا- فقال: «أ لک والدة»؟ قال: نعم، قال: «فألزمها فإنّ الجنّة تحت قدمها»[۲۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۱

لا شک أنّنا إذا لاحظنا و دققنا فی المشقات و المتاعب التی تتقبلها و تتحملها الأم من حین الحمل إلی الوضع، و فی مرحلة الرضاعة إلی أن یکبر الطفل، و کذلک العذاب و الأتعاب و السهر فی اللیالی، و التمریض و الرعایة، کل ذلک تقبلته بکل رحابة صدر و أنس فی سبیل ولدها .. إذا لاحظنا ذلک فسنری أن الإنسان مهما سعی وجدّ فی هذا الطریق، فإنّه سیبقی مدینا للام.

و الجمیل فی الأمر نطالع فی حدیث، أن أم سلمة قالت: یا رسول اللّه، ذهب الرجال بکل خیر، فأی شیء للنساء؟

قال: النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «بلی، إذ حملت المرأة کانت بمنزلة الصائم القائم المجاهد بنفسه و ماله فی سبیل اللّه، فإذا وضعت کان لها من الأجر ما لا یدری أحد ما هو لعظمه، فإذا أرضعت کان لها بکل مصة کعدل عتق محرر من ولد إسماعیل، فإذا

فرغت من رضاعه ضرب ملك كريم على جنبها و قال: استأنفى العمل فقد غفر لك»[۲۸۱]!

و كأن صحيفة عملك ستبدأ من جديد.

۳- إنجاب البكر

من جملة الأسئلة التى تثيرها هذه الآيات، هو: هل يمكن من الناحية العلمية أن يولد ولد من دون أب؟ و هل أن مسألة ولادة عيسى عليه السّلام دون أب تخالف تحقيقات العلماء فى هذا المجال، أو لا؟

مما لا شك فيه أنّ هذه المسألة قد تمت عن طريق الإعجاز، إلّا أنّ العلم اليوم لا ينفى إمكان وقوع مثل هذا الأمر أيضا، بل صرح بإمكان ذلك، خاصّة و أن موضوع إنجاب البكر قد لوحظ بين كثير من الحيوانات، و إذا علمنا أن مسألة انعقاد النطفة لا تختص بالإنسان، فإنّ هذا يثبت إمكان حدوث هذا الأمر بصورة عامّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۲

لقد كتب الدكتور «الكسيس كارل»، الفيزيائى و عالم الحياة الفرنسى المعروف، فى كتاب «الإنسان ذلك المجهول»، عند ما نفكر فى مقدار مساهمة كل من الأب و الأم فى تكوين أمثالهما، فيجب أن نتذكر تجارب (لوب) و (باتايون) بأنّه يمكن إنتاج ضفدعة جديدة من بيضة ضفدعة غير ملقحة بدون تدخل الحيامن، بل بواسطة أساليب خاصّة.

و على هذا فإنّ من الممكن أن يحل عامل كيمياوى أو فيزياوى محل حيمن الذكر، و لكن لا بدّ على كل حال من وجود أحد العوامل كمادة ضرورية دائما.

بناء على هذا، فإنّ المؤكّد من الناحية العلمية لتكوّن الجنين هو وجود نطفة الأم (البيضة)، و إلّا فإنّ نطفة الذكر (الحيمن) يمكن أن يقوم مقامها عامل آخر، و لهذا فإن مسألة حمل و ولادة البكر من المسائل الواقعية التى يتقبلها و يعترف بها الأطباء فى عالمنا المعاصر، و إن كانت نادرة الحدوث.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ هذه المسألة فى مقابل قوانين الخلقة و قدرة اللّه، هى كما يصورها القرآن حيث يقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۲۸۲]، أى إنّ خرق العادة هذا ليس بأهم من خرق العادة الأوّل ذاك.

۴- كيف يتكلم الصبى؟

لا يخفى أنّ أى طفل حديث الولادة لا يتكلم فى الساعات أو الأيّام الأولى لولادته حسب الوضع الطبيعى المتعارف، فإنّ النطق يحتاج إلى نمو المخ بالقدر الكافى، ثمّ تقوية عضلات اللسان و الحنجرة، و انسجام أجهزة الجسم المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۳

مع بعضها، و هذه الأمور عادة تستغرق عدّة أشهر حتى تتهيأ تدريجيا عند الطفل.

إلّا أنّنا فى المقابل لا نمتلك أى دليل علمى على استحالة هذا الأمر، غاية ما فى الأمر أنّه خارق للعادة، و كل المعجزات تتصف بهذه الصفة، أى أنّها كلها خارقة للعادة، لا أنّها مستحيلة الوقوع، و قد ذكرنا تفصيل هذا الموضوع فى بحث معجزات الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۴

الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (۳۴) ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۳۵)

التّفسير

أ يمكن أن يكون للّه ولد!؟

بعد تجسيد القرآن الكريم فى الآيات السابقة حادثة ولادة المسيح عليه السّلام بصورة حية و واضحة جدّا، انتقل إلى نفى الخرافات و كلمات الشرك التى قالوها فى شأن عيسى، فيقول: ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خاصّة و أنّه يؤكّد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمة لنفى بنوته للّه سبحانه.

ثمّ يضيف: قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ۲۸۳] و هذه العبارة فى الحقيقة تأكيد على صحة جميع ما ذكرته الآيات السابقة فى حق عيسى عليه السّلام و لا يوجد أدنى ريب فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۵

أمّا ما يذكره القرآن من أنّ هؤلاء فى شك و تردد من هذه المسألة، فربّما كان إشارة إلى أنصار و أعداء المسيح عليه السّلام، و بتعبير آخر: إشارة إلى اليهود و النصارى، فمن جهة شككت جماعة ضالة بطهارة أمّه و عفتها، و من جهة أخرى شك قوم فى كونه إنسانا، حتى أنّ هذه الفئة قد انقسمت إلى مذاهب متعددة، فالبعض اعتقد بصراحة أن ابن اللّه- الابن الروحى و الجسمى الحقيقى لا المجازى!- و من ثمّ نشأت مسألة التثليث و الأقانيم الثلاثة.

و البعض اعتبر مسأله التثليث غير مفهومة و واضحة من الناحية العقلية، و اعتقدوا بوجوب قبولها تعبدا، و البعض الآخر تخبط بكلام لا أساس له فى سبيل توجيه المسألة منطقيا. و الخلاصة: فإنّ هؤلاء جميعا لما لم يروا الحقيقة- أو أنّهم لم يطلبوها و لم يريدوها- سلكوا طريق الخرافات و الأساطير[۲۸۴]! و تقول الآية التالية بصراحة: ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و هذا إشارة إلى أن اتخاذ الولد- كما يظن المسيحيون فى شأن اللّه- لا يناسب قداسة مقام الألوهية و الربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، و من جانب آخر المحدودية، و من جهة ثالثة الاحتياج، و خلاصة القول: تنزيل اللّه سبحانه من مقام قدسه إلى إطار قوانين عالم المادة، و جعله فى حدود موجود مادى ضعيف و محدود.

اللّه الذى له من القوّة و القدرة ما إذا أراد فإن آلاف العوالم كعالمنا المترامى الأطراف ستتحقق بأمر و إشارة منه، ألا يعتبر شركا و انحرافا عن أصول التوحيد و معرفة اللّه بأن نجعله سبحانه كإنسان له ولد؟ و ولد أيضا الولد فى مرتبة و درجة الأب، و من نفس طرازه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۶

إنّ تعبير كُنْ فَيَكُونُ الذى جاء فى ثمانية موارد من القرآن، تجسيد حى جدّا عن مدى سعة قدرة اللّه، و تسلطه و حاكميته فى أمر الخلقة، و لا يمكن تصور تعبير عن الأمر أقصر و أوجز من كُنْ و لا نتيجة أوسع و أجمع من فَيَكُونُ خاصّة مع ملاحظة «فاء التفريع» التى تعطى معنى الفورية هنا، فإنّها لا تدل هنا على التأخير الزمانى بتعبير الفلاسفة، بل تدل على التأخير الرتبى، أى تبيّن ترتب المعلوم على العلة. دققوا جيدا.

نفى الولد يعنى نفى الاحتياج عن اللّه:

لماذا تحتاج الكائنات الحية إلى الولد عادة؟ لأنّ عمرها محدود، و لكى لا ينقرض نسلها، و من أجل أن تستمر حياتها النوعية؟! و من الناحية الاجتماعية، فإنّ حاجة الأعمال الجماعية إلى طاقة إنسانية أكبر أدّت الى زيادة علاقة الإنسان بالولد. إضافة إلى أنّ الحاجات العاطفية و النفسية، و إزالة و دفع وحشة الوحدة، كلها تدعوه إلى هذا العمل.

لكن، هل تتصور مثل هذه الأمور فى حق اللّه الأزلى الأبدى الذى لا- تنتهى قدرته، و لا سبيل لمسألة الحاجة العاطفية إلى ذاته المقدسة أبدا؟! و هل تنج ذلك إلّا عن أن هؤلاء الذين يقولون: إنّ للّه ولدا، قد قاسوا اللّه سبحانه على أنفسهم، و رأوا فيه ما رأوا فى أنفسهم؟ فى حين أنّه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[۲۸۵].

ملاحظة تاريخية هامة حول الهجرة الأولى

إنّ أوّل هجزة وقعت فى الإسلام كانت هجرة مجموعة كبيرة من المسلمين-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۷

ضمت النساء و الرجال- إلى أرض الحبشة، فقد ترك هؤلاء مكّة للخلاص من قبضة مشركى قريش، و تنظيم أمرهم و التهيؤ بأقصى درجات الاستعداد للبرامج و المشاريع الإسلامية المستقبلية و كما توقعوا من قبل، فإنّهم استطاعوا أن يعيشوا هناك فى طمأنينة و استقرار، و يشتغلوا بتربية أنفسهم و تزكيتها و نشر الدين الحنيف.

لقد طرق هذا الخبر أسماع زعماء قريش، فاعتبروا هذه القضية ناقوس خطر بالنسبة إليهم، و أحسوا بأنّ الحبشة ستكون مأوى و ملجأ للمسلمين، و ربّما يرجعون إلى مكّة بعد أن تقوى شوكتهم، و بالتالى سيخلقون للمشركين مشاكل و عراقيل عظيمة.

و بعد التشاور استقر رأيهم على انتخاب رجلين من رجال قريش النشيطين، و إرسالهما إلى النجاشى حتى يبيّنوا للنجاشى الأخطار التى تنجم عن وجود المسلمين هناك كى يطرد هؤلاء من هذه الأرض المطمئنة. فأرسلوا «عمرو بن العاص» و «عبد اللّه بن أبى ربيعة» مع هدايا كثيرة إلى النجاشى و قواد جيشه.

تقول «أم سلمة» زوجة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لما دخلنا أرض الحبشة رأينا حسن استقبال و معاملة النجاشى، فلم نمنع من شعائر ديننا، و لم يكن يؤذينا أحد، إلّا أنّ قريش بعد علمها بهذه المسألة، و إرسالها الرجلين مع الهدايا الكثيرة، كانت قد أمرت هؤلاء أن يلتقوا بقادة الحبشة قبل لقائه، و أن يسلموهم هداياهم، ثمّ يقدمون هدايا النجاشى إليه، و يطلبون منه أن يسلم المسلمين إليهم قبل أن ينبسوا ببنت شفة! و قد نفذ هؤلاء هذه الخطة بدقة، و قالوا مقدما لقواد و أمراء جيش النجاشى:

إنّ جماعة من الشباب الحمقى قد لجؤوا إلى أرضكم، و قد ابتعد هؤلاء عن دينهم، و لم يعتنقوا دينكم أيضا، و قد ابتدعوا دينا جديدا لا نعرفه، و لا أنتم تعرفونه، و قد أرسلنا أشراف قريش إليكم حتى نقطع شرّهم عن هذه البلاد، و نعيدهم إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۸

قومهم، فأخذوا من حاشية النجاشى عهدا بأنّهم متى ما استشارهم النجاشى فإنّه سيؤيدون هذه الفكرة و يقولون: إن قوم هؤلاء أعلم بحالهم. ثمّ أدخلوا على الملك و كرروا ما توطئوا عليه.

لقد كانت هذه الخطة تسير خطواتها بدقة نحو الأمام، و قد أصبحت هذه الكلمات الخداعة، مع تلك الهدايا الكثيرة سببا فى أن تصدق حاشية النجاشى هؤلاء.

و بعد أن سمع النجاشى أقوالهم غضب و قال: لا و اللّه، لا أسلم قوما جاورونى و نزلوا بلادى و اختارونى على من سواى حتى أدعوهم و أسألهم عمّا يقول هذا، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما، و إن كانوا على غير ما يذكر هذان منعتهم و أحسنت جوارهم.

تقول أم سلمة: فبعث النجاشى إلى المسلمين، فتشاوروا فيما بينهم فيما يقولون، و استقر رأيهم على أن يقولوا الحقيقة، و يشرحوا تعليمات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و برنامج الإسلام، و ليكن ما يكون! لقد كان ذلك اليوم الذى عيّن لهذه الدعوة يوما عصيبا، فإنّ كبار النصارى و علماءهم كانوا قد دعوا إلى ذلك المجلس، و كانت الكتب المقدسة فى أيديهم، فاستقبل النجاشى المسلمين و سألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم و لم تدخلوا فى دينى و لا دين أحد من الملل؟

فتصدى جعفر بن أبى طالب عليه السّلام للجواب و قال:

«أيّها الملك كنّا أهل جاهلية نعبد الأصنام و نأكل الميتة و نأتى الفواحش و نقطع الأرحام و نسىء الجوار و يأكل القوى منّا الضعيف حتى بعث اللّه إلينا رسولا منّا نعرف نسبه و صدقه و أمانته و عفافه فدعانا لتوحيد اللّه و أن لا نشرك به شيئا و نخلع ما كنّا نعبد من الأصنام و أمرنا بصدق الحديث و أداء الأمانة و صلة الرحم و حسن الجوار و الكف عن المحارم و الدماء، و نهانا عن الفواحش و قول الزور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۴۹

و أكل مال اليتيم و أمرنا بالصلاة و الصيام».

و عدد عليه أمور الإسلام قال: فآمنا به و صدقناه و حرمنا ما حرم علينا و حللنا ما أحل لنا فتعدى علينا قومنا فعذبونا و فتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان فلمّا قهرونا و ظلمونا و حالوا بيننا و بين ديننا خرجنا إلى بلادك و اخترناك على من سواك و رجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك.

فقال النجاشى: هل معك ممّا جاء به عن اللّه شىء؟ قال: نعم، فقرأ عليه سطرا من «كهيعص».

فلمّا قرأ جعفر هذه الآيات بقراءته المؤثرة النابعة من صفاء القلب، أثرت فى روح النجاشى و علماء النصارى الكبار إلى الحد الذى كانت تنهمر دموعهم على وجوههم بدون إرادة، فتوجه إليهم النجاشى و قال: «إن هذا و الذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا و اللّه لا أسلمهم إليكما أبدا».

ثمّ سعى رسولا قريش مساعى أخرى لتغيير نظرة النجاشى تجاه المسلمين، إلّا أنّها لم تؤثر فى روحه السامية الواعية، فرجعا يائسين من هناك، و أرجعوا إليهم هداياهم ۲۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۰

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۳۶) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۳۷) أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۳۸) وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِى غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۹) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ (۴۰)

التّفسير

يوم القيامة .. يوم الحسرة و الأسف:

إنّ آخر كلام لعيسى عليه السّلام بعد تعريفه لنفسه بالصفات التى ذكرت، هو التأكيد على مسألة التوحيد، و خاصّة فى مجال العبادة،

فيقول: وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ ۲۸۷].

و على هذا فإنّ عيسى عليه السّلام بدأ بمحاربة كل أنواع الشرك و عبادة الآلهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۱

المزدوجة و المتعددة منذ بداية حياته، و كان يؤكّد أينما كان على التوحيد، و بناء على هذا، فإنّ ما يلاحظ اليوم بين المسيحيين بعنوان التثليث بدعة محضة ابتدعت بعد عيسى قطعا، و قد بينا تفصيل ذلك فى آخر الآية (۱۷۱) من سورة النساء[۲۸۸].

و بالرغم من أن بعض المفسّرين احتمل أن تكون هذه الجملة من كلام نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّ اللّه سبحانه أمره أن يدعو الناس إلى التوحيد فى العبادة، و قد وصف ذلك بأنّه الصراط المستقيم، إلّا أن آيات القرآن الأخرى شاهدة على أن هذه الجملة من قول المسيح عليه السّلام و تابعة للكلام السابق، فنقرأ فى سورة الزخرف/ الآية ۶۳- ۶۴: وَ لَمَّا جاءَ عِیسی بِالْبَیِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُکُمْ بِالْحِکْمَةِ وَ لِأُبَیِّنَ لَکُمْ بَعْضَ الَّذِی تَخْتَلِفُونَ فِیهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّی وَ رَبُّکُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِیمٌ و هنا نرى نفس الجملة تقريبا نقلت عن لسان عيسى، و كذلك ورد هذا المضمون فى سورة آل عمران/ الآية ۵۰- ۵۱.

غير أنّه بالرغم من كل هذه التأكيدات التى أكّد عليها المسيح عليه السّلام فى مجال التوحيد و عبادة اللّه، فقد اختلفت الفئات، و أظهروا اعتقادات مختلفة، و خاصّة فى شأن المسيح فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَیْنِهِمْ فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ یَوْمٍ عَظِیمٍ

إنّ تاريخ المسيحية يشهد بوضوح على مدى الاختلاف الذى حصل بعد المسيح عليه السّلام فى شأنه، و حول مسألة التوحيد، هذه الاختلافات التى ازدادت حدتها، فشكل «قسطنطين» إمبراطور الروم مجمعا للأساقفة- علماء النصارى الكبار- و كان واحدا من المجامع التأريخية المعروفة، و وصل عدد أعضاء هذا المجمع إلى ألفين و مائة و سبعين عضوا، و عند ما طرحت مسألة المسيح للبحث أظهر العلماء الحاضرون و جهات نظر مختلفة تماما، و كان لكل مجموعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۲

عقيدتها.

فذهب البعض: إنّ المسيح هو اللّه الذى نزل إلى الأرض! فأحيى جماعة، و أمات أخرى، ثمّ صعد إلى السماء! و قال البعض الآخر: إنّه ابن اللّه! و رأى آخرون: إنّه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب و الابن و روح القدس، اللّه الأب، و اللّه الابن و روح القدس.

و آخرون قالوا: إنّه ثالث ثلاثة: فاللّه معبود، و هو معبود، و أمّه معبودة! و أخيرا قال البعض: إنّه عبد اللّه و رسوله.

و قال آخرون أقوالا أخرى، و لم تتفق الآراء على أى من هذه العقائد، و كان أكبر عدد من الأصوات حازت عليه عقيدة من العقائد المذكورة آنفا هو (۳۰۸) فرد، و قبله الإمبراطور كرأى حصل على أكثرية نسبية، و دافع عنه باعتباره الدين الرسمى، و طرح الباقى جانبا، أمّا عقيدة التوحيد فقد بقيت فى الأقلية لقلّة ناصريها مع الأسف ۲۸۹].

و لما كان الانحراف عن أصل التوحيد يعتبر أكبر انحراف للمسيحيين، فقد رأينا كيف أن اللّه قد هدد هؤلاء فى ذيل الآية بأنّهم سيكون لهم مصير مؤلم مشؤوم فى يوم القيامة، فى ذلك المشهد العام، و أمام محكمة اللّه العادلة[۲۹۰].

ثمّ تبيّن الآية التالية وضع أولئك فى عرصات القيامة، فتقول عند ما يقدمون علينا يوم القيامة فسوف تكون لهم اسماع قوية و ابصار حادّه فيسمعون و يرون جميع الحقائق التى كانت خافية عليهم فى هذه الدنيا، و لكن الظالمين اليوم، أى فى هذه الدنيا غافلون عن هذه العاقبة: أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ یَوْمَ یَأْتُونَنا لکِنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۳

الظَّالِمُونَ الْیَوْمَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ

إنّ من الواضح أن الحجب سترتفع فى النشأة الآخرة، لأنّ آثار الحق هناك أوضح من آثاره فى عالم الدنيا بمراتب و من الطبيعى أن

تسلب المحكمة و آثار الأعمال نوم الغفلة من العين و الأذن، و حتى عمى القلوب فإنّهم سيعون الأمر و يعلمون الحق، إلّا أن هذا الوعى و العلم لا ينفعهم شيئا.

و فسّر بعض المفسّرين كلمة (اليوم) فى جملة لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ بيوم القيامة، أى إن معنى الآية: إنّهم سيصبحون ناظرين سامعين، إلّا أنّ هذا النظر و السمع سوف لا ينفعهم فى ذلك اليوم، و سيكونون فى ضلال مبين.

لكن يبدو أن التّفسير الأوّل أصح ۲۹۱].

ثمّ تؤكّد الآية التالية مرّة أخرى على مصير المنحرفين و الظالمين فى ذلك اليوم، فتقول: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ

من المعلوم أنّ ليوم القيامة أسماء مختلفة فى القرآن المجيد، و من جملتها يَوْمَ الْحَسْرَةِ حيث يتحسر المؤمنون المحسنون على قلّة عملهم، و يا ليتهم كانوا قد عملوا أكثر، و كذلك يتحسر المسيئون، لأنّ الحجب تزول، و تتضح حقائق الأعمال و نتائجها للجميع.

و اعتبر البعض جملة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ مرتبطة بانتهاء برامج و وقائع الحساب و الجزاء و التكليف فى يوم القيامة، و اعتبرها بعضهم إشارة إلى فناء الدنيا، و على هذا التّفسير فإنّ الآية تحذر هؤلاء و تخيفهم من يوم الحسرة، ذلك الحين الذى تفنى فيه الدنيا و هم فى حالة الغفلة و عدم الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۴

إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأصح كما يبدو، خاصّة و أنّه

قد روى فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جملة إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ أنّه قال: «أى قضى على أهل الجنّة بالخلود فيها، و قضى على أهل النّار بالخلود فيها»[۲۹۲].

ثمّ تحذر الآية الأخيرة- من آيات البحث- كل الظالمين و الجائرين، و تذكرهم بأن هذه الأموال التى تحت تصرفهم الآن ليست خالدة، كما أن حياتهم ليست خالدة، بل إنّ الوارث الأخير لكل شىء هو اللّه سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ [۲۹۳] إن هذه الآية- فى الحقيقة- تتناغم مع الآية ۱۶/ سورة المؤمن، و التى تقول:

لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ فإذا آمن شخص و اعتقد بهذه الحقيقة، فلما ذا يبيح التعدى و الظلم و سحق الحقيقة، و هضم حقوق الناس، أمن أجل الأموال و اللذائذ المادية التى أودعت فى أيدينا لعدّة أيّام و ستخرج من أيدينا بسرعة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۵

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۴۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (۴۲) يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا (۴۳) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (۴۴) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (۴۵)

التّفسير

إبراهيم و منطقه المؤثر و القاطع:

انتهت قصّة ولادة المسيح عليه السّلام و قد تضمنت جانبا من حياة أمّه مريم، و بعدها تزيح هذه الآيات- و الآيات الآتية- الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السّلام، و تؤكّد على أنّ دعوة هذا النّبى الكبير- كسائر المرشدين الإلهيين- تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أوّلا: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا.

كلمة (الصدّيق) صيغة مبالغة من الصدق، و تعنى الشخص الصادق جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۶

و ذهب البعض الى أنّه الشخص الذى لا يكذب مطلقا، بل و أسمى من ذلك، و هو أنّه لا يملك القدرة على الكذب، لأنّه اعتاد طيلة حياته على الصدق. و يرى آخرون أن معناها الشخص الذى يصدق عمله كلامه و اعتقاده. إلّا أن من الواضح أن جميع هذه المعانى- تقريبا- ترجع إلى معنى واحد.

على كل حال، فإنّ هذه الصفة مهمّة إلى حدّ أنّها ذكرت فى الآية- محل البحث- قبل صفة النّبوة، و لعلها بذلك تكون ممهدة لتلقى النّبوة، و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ أبرز صفة يلزم وجودها فى كل الأنبياء و حملة الوحى الإلهى أن يوصلوا أوامر اللّه إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثمّ تتطرق الآية التى بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر- و الأب هنا إشارة إلى العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقا، ترد أحيانا فى لغة العرب بمعنى الأب، و أحيانا بمعنى العم ۲۹۴]- فتقول: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً.

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفى الشرك و عبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان فى معرفة الرب هو باعث الربح و الخسارة، و الضر و النفع، و الذى يعبر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتجه إلى معبود ليس عاجزا عن حل مشكلة من مشاكلك و حسب، بل إنّه لا يملك أصلا القدرة على السمع و البصر. و بتعبير آخر: إن العبادة يجب أن تكون لمن له القدرة على حل المشاكل، و يدرك عباده و حاجاتهم، سميع بصير، إلّا أنّ هذه الأصنام فاقدة لكل ذلك.

إن إبراهيم يبدأ فى دعوته العامّة بأبيه، و ذلك لأنّ النفوذ فى الأقربين أهم و أولى، كما أن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر أولا بدعوة عشيرته الأقربين كما جاء فى ذلك فى الآية (۲۱۴) من سورة الشعراء: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۷

بعد ذلك دعاه- عن طريق المنطق الواضح- إلى اتباعه، فقال: يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا فإنّى قد وعيت أمورا كثيرة عن طريق الوحى، و أستطيع أن أقول باطمئنان: إنّى سوف لا أسلك طريق الضلال و الخطأ، و لا أدعوك أبدا إلى هذا الطريق المعوج، فإنّى أريد سعادتك و فلاحك، فاقبل منّى لتنجو و تخلص من العذاب و تصل بطيّك هذا الصراط المستقيم إلى المحل المقصود.

ثمّ يعطف نظره إلى الجانب السلبى من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابى و يشير إلى الآثار التى تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا.

من الواضح أنّ العبادة هنا لا تعنى السجود و الصلاة و الصوم للشيطان، بل بمعنى الطاعة و اتباع الأوامر، و هذا بنفسه يعتبر نوعا من العبادة.

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن اللّه فقد عبد اللّه، و إن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس»[۲۹۵].

إن إبراهيم يريد أن يعلّم أباه هذه الحقيقة، و هى أن الإنسان لا يمكن أن يكون فاقدا لخط و منهج فى حياته، فإمّا سبيل اللّه و الصراط المستقيم، و إمّا طريق الشيطان العاصى الضال، فيجب عليه أن يفكر بصورة صحيحة و يصمم، و أن يختار ما فيه خيره و صلاحه بعيدا عن العصبية و التقاليد العمياء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۴۵۷

ّ یذکره و ینبه مرّة أخری بعواقب الشرک و عبادة الأصنام المشؤومة، و یقول: یا أَبَتِ إِنِّی أَخافُ أَنْ یَمَسَّکَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَکُونَ لِلشَّیْطانِ وَلِیًّا.

إنّ تعبیر إبراهیم هـذا رائع جـدّا، فهو من جانب یخاطب عمّه دائما ب یا أَبَتِ و هـذا یدل علی الأدب و احترام المخاطب، و من جانب آخر فإنّ قوله أَنْ یَمَسَّکَ توحی بأنّ إبراهیم کان قلقا و متأثرا من وصول أدنی أذی إلی آزر، و من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۸

جهـة ثالثة فإنّ التعبیر ب عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ یشـیر إلی أن أمرک نتیجة هذا الشـرک و عبادة الأصـنام قد بلغ حدّا بحیث أن اللّه- الذی عمت رحمته الأرجاء- سیغضب علیک و یعاقبک، فانظر إلی عملک الذی تقوم به کم هو خطیر و کبیر! و من جهة رابعة، فإنّ عملک سیؤدی بک فی النهایة أن تستظل بولایة الشیطان.

بحوث

۱- طریق النفوذ إلی الآخرین

إنّ طریقـة محاورة إبراهیم لآزر- الـذی کان- طبقا للرّوایات- من عبدة الأصـنام، حیث کان یصـنعها و یبیعها، و کان یعتبر عاملا مهمّا فی ترویج الشـرک- تبیّن لنا بأنّه یجب اسـتخدم المنطق الممتزج بالاحترام و المحبة و الحرص علی الهدایة، مقترنا بالحزم قبل التوسـل بـالقوة، للنفوذ إلی نفوس الأـفراد المنحرفین، لأنّ الکثیر سـیذعنون للحق عن هـذا الطریق، و هناک جماعـة سـیظهرون مقاومتهم لهـذا الأسلوب، و من الطبیعی أن حساب هؤلاء یختلف، و یجب أن یعاملوا بأسلوب آخر.

۲- دلیل اتباع العالم

قرأنـا فی الآیـات- محل البحث- أن إبراهیم دعا عمه آزر لاتباعه، مع کبر سـنة و شـهرته فی المجتمع. و یـذکر دلیله علی دعوته هـذه فیقول: إِنِّی قَدْ جاءَنِی مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ یَأْتِکَ

إنّ هـذا قانون عام فی أن الـذین لا یعلمون یتبعون العالمین فیما یجهلونه، و هذا فی الواقع هو منهج الرجوع إلی المتخصصـین فی کل فن، و من ذلک مسألة تقلید المجتهد فی فروع الأحکام الإسلامیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۵۹

من الواضـح أنّ بحث إبراهیم لم یکن فی المسائـل المرتبطـة بفروع الـدین، بل کان یتحـدث عن أهم أصل من أصول الـدین، و لکن حتی فی مثـل هـذه المسائـل أیضـا یجب الاسـتعانة و الاسـتفادة من إرشـادات العالم، لتحصل الهدایـة إلی الصـراط السوی، الـذی هو الصراط المستقیم.

۳- سوره الرحمة و التذکیر

لقد وردت جملة (و اذكر) خمس مرات عند الشروع بذكر قصص الأنبياء العظام و مريم، و لهذا السبب يمكن تسمية هذه السورة بسورة (التذكير) .. ذكر الأنبياء، و الرجال و النساء العظام؛ و حركتهم التوحيدية، و جهودهم فى طريق محاربة الشرك و عبادة الأصنام و الظلم و الجور.

و لما كان الذكر عادة بعد النسيان، فمن الممكن أن يكون إشارة إلى أن جذور التوحيد و عشق رجال الحق و الإيمان بجهادهم من أجل إحقاق الحق حية فى أعماق روح كل إنسان، و إن الكلام عن هؤلاء فى الحقيقة نوع من الذكر.

و قد ورد وصف اللّه ب «الرحمان» ست عشرة مرّة فى هذه السورة، فإنّ السورة تبدأ بالرحمة، رحمه اللّه بزكريا، رحمة اللّه بمريم و المسيح، و كذلك تنتهى السورة بهذه الرحمة حيث تقول فى أواخرها: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا»[۲۹۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۰

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا (۴۶) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (۴۷) وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (۴۸) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (۴۹) وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (۵۰)

التّفسير

نتيجة البعد عن الشرك و المشركين:

مرّت فى الآيات السابقة كلمات إبراهيم عليه السّلام التى كانت ممتزجة باللطف و المحبّة فى طريق الهداية، و الآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكلى تتضح الحقيقة و الواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما.

يقول القرآن الكريم: إنّ حرص و تحرّق إبراهيم، و بيانه الغنى العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۱

الملفت للنظر، أنّ آزر لم يكن راغبا حتى فى أن يجرى إنكار الأصنام أو مخالفتها و تحقيرها على لسانه، بل إنّه قال: أ راغب أنت عن هذه الآلهة؟ حتى لا تهان الأصنام! هذا أولا.

ثانيا: إنّه عند ما هدد إبراهيم، هدده بالرجم، ذلك التهديد المؤكّد الذى يستفاد من لام و نون التوكيد الثقيلة فى «لأرجمنّك» و من المعلوم أن الرجم من أشد و أسوء أنواع القتل.

ثالثا: إنّه لم يكتف بهذا التهديد المشروط، بل إنّه اعتبر إبراهيم فى تلك الحال وجودا لا يحتمل، و قال له اهْجُرْنِي مَلِيًّا أى ابتعد عنى دائما، و إلى الأبد (كلمة «مليا»- حسب قول الراغب فى المفردات- أخذت من مادة الإملاء، أى الإمهال الطويل، و هى تعنى هنا أن ابتعد عنى لمدّة طويلة، أو على الدوام).

و هذا التعبير المحقّر جدّا لا يستعمله إلّا الأشخاص الأجلاف و القساة ضد مخالفيهم.

بعض المفسّرين لا يرى أن جملة «لأرجمنّك» تعنى الرمى بالحجارة، بل اعتقد أنّها تعنى تشويه السمعة و الاتهام، إلّا أن هذا التّفسير يبدو بعيدا، و ملاحظة سائر آيات القرآن- التى وردت بهذا التعبير- شاهد على ما قلناه.

لكن، و رغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء و القادة الإلهيين، و مقابل هذه الغلظة و الحدّة وقف بكل سمو و عظمة، و قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، و أن إبراهيم بقوله: سَلامٌ عَلَيْكَ و ما يأتى بعده من كلام يقصد ترك آزر. و يمكن أن يكون سلاما يقال لفض النزاع، كما نقرأ ذلك فى الآية (۵۵) من سورة القصص: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ

ثمّ أضاف: سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا. إن إبراهيم فى الواقع قابل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۲

خشونة و تهديد آزر بالعكس، و وعده بالاستغفار و طلب مغفرة اللّه له.

و هنا يطرح سؤال، و هو: لماذا وعد إبراهيم آزر بالاستغفار مع أنا نعلم أن آزر لم يؤمن أبدا، و لا يجوز الاستغفار للمشركين طبقا لصريح الآية (۱۱۳) من سورة التوبة؟

و قد ذكرنا جواب هذا السؤال بصورة مفصلة فى ذيل تلك الآية فى سورة التوبة.

ثمّ يقول: وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أى الأصنام وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا.

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم فى مقابل آزر الذى قال: «اهجرنى» فقبل إبراهيم ذلك. و من جهة أخرى فإنّها تبيّن حزمه فى عقيدته، فإنّ ابتعادى هذا عنك لم يكن من أجل حيادى عن اعتقادى الراسخ بالتوحيد، بل لأنّك لا تملك الأهلية لتقبل الحق، و لذلك فإنى سأثبت على اعتقادى.

و يقول بصورة ضمنية بأنّى إذا دعوت ربّى فإنّه سيجيب دعوتى، أمّا أنتم المساكين الذين تدعون من هو أكثر مسكنة منكم، فلا يستجاب دعاؤكم مطلقا، بل و لا يسمع كلامكم أبدا.

لقد و فى إبراهيم بقوله، و ثبت على عقيدته بكل صلابة و صمود، و كان دائما ينادى بالتوحيد، بالرغم من أن كل ذلك المجتمع الفاسد فى ذلك اليوم قد وقف ضده و ثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده فى النهاية، فقد وجد أتباعا كثيرين على مر القرون و الأعصار، بحيث أنّ كل الموحدين و عباد اللّه فى العالم يفتخرون بوجوده.

يقول القرآن الكريم: فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا فالبرغم من أن الفترة التى وهب اللّه بها لإبراهيم إسحاق، ثمّ يعقوب- ابن إسحاق- قد استغرقت زمنا طويلا، إلّا أنّ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۳

الموهبة العظيمة- حيث وهبه ولدا كإسحاق، و حفيدا كيعقوب، و كل منهما كان نبيّا سامى المقام- كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السّلام و استقامته التى أظهرها فى طريق محاربة الأصنام، و اعتزال المنهج الباطل و الابتعاد عنه.

و إضافة إلى ذلك وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا تلك الرحمة الخاصّة بالمخلصين و المخلصين، و الرجال المجاهدين فى سبيل اللّه. و أخيرا وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا.

إنّ هذا فى الحقيقة إجابة لطلب و دعاء إبراهيم الذى جاء فى الآية (۸۴) من سورة الشعراء: وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ فإنّ أولئك كانوا يريدون طرد و إبعاد إبراهيم و أسرته من المجتمع الإنسانى، بحيث لا يبقى لهم أى أثر أو خبر، و ينسون إلى الأبد. إلّا أن الذى حدث بالعكس، فإنّ اللّه سبحانه قد رفع ذكرهم نتيجة إيثارهم و تضحيتهم و استقامتهم فى أداء الرسالة التى كانت ملقاة على عاتقهم، و جعل أسماءهم تجرى على ألسنة شعوب العالم، و يعرفون كأسوة و نموذج فى معرفة اللّه و الجهاد و الطهارة و التقوى و

المقارعة للباطل.

إنّ «اللسان» فى مثل هـذه الموارد يعنى الـذكر الـذى يـذكر به الإنسان بين الناس، و عنـد ما نضـيف إليه كلمـة صـدق، و نقول: «لسان صدق» فإنّه يعنى الذكر الحسن و الذكرى الطيبة بين الناس، و إذا ما ضممنا إليها «عليّا» التى تعنى العالى و البارز، فإنّها ستعنى الذكرى الجميلة جدّا التى تبقى بين الناس عن شخص ما.

و من المعلوم أن إبراهيم لا يريد بهذا الطلب أن يحقق أمنية فى قلبه، بل كان هدفه أن لا يستطيع الأعداء أن يجعلوا تاريخ حياته، الذى كان تربويا خارقا للعادة، فى بوتقة النسيان، و أن يمحوا ذكره من الأذهان إلى الأبد، و هو الأنموذج و الأسوة الدائمة للبشرية.

و نقرأ

فى رواية عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «لسان الصدق للمرء يجعله اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۴

فى الناس، خير من المال يأكله و يورثه»[۲۹۷]

و بغض النظر عن الجوانب المعنويـة، فـإنّ حسن السـمعة و الـذكر الحسن بين الناس يمكن أن يكون أحيانا رأس مال عظيم للإنسان و لأولاده، و أمامنا شواهد حية على ذلك.

و هنا يمكن أن يبرز سؤال، و هو: كيف لم تذكر هنا موهبة وجود إسماعيل، مع أن اسم يعقوب، حفيد إبراهيم، قد ذكر صريحا؟ و فى مكان آخر من القرآن ذكر وجود إسـماعيل ضـمن مواهب إبراهيم، هناك حيث تقول الآيـة على لسان إبراهيم: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ ۲۹۸].

الجواب أنّه بالإضافة إلى أن اسم إسـماعيل قـد ورد مسـتقلا بعد آيتين أو ثلاث، و قد ذكر فيها بعض صـفاته البارزة، إلّا أنّ المقصود هذه الآية هو بيان اسـتمرار النّبوة فى أسـرة إبراهيم، و توضح كيف أن حسن سمعته و ذكره الحسن و تاريخه الحافل قد تحقق بواسطة الأنبيـاء من أسـرته، و الـذين جـاؤوا الواحـد تلو الآـخرين، و من المعلوم أن كـثيرا من الأنبيـاء هم من أسـرة إسـحاق و يعقوب على مر الأعصار و القرون، و إن كان قـد ولـد من ذرية إسـماعيل أعظم الأنبياء، أى نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، إلّا أن اسـتمرار النبوة كان فى أولاد يعقوب، و لـذلك نقرأ فى الآية (۲۷) من سورة العنكبوت، وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْـحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِى ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۵

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۱ الى ۵۳]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِى الْكِتـابِ مُوسـى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۱) وَ نادَيْنـاهُ مِنْ جـانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (۵۲) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳)

التّفسير

موسى النّبى المخلص:

فى هـذه الآيات الثلاث إشارة قصـيرة إلى موسـى عليه السّـلام- و هو من ذريـة إبراهيم عليه السّـلام و موهبـة من مواهب ذلك الرجل

العظیم- حیث سار علی خطاه.

و توجه الآیـة الخطاب إلی الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و تقول: وَ اذْکُرْ فِی الْکِتابِ مُوسـی ثمّ تـذکر خمس مواهب و صفات من المواهب التی أعطیت لهذا النّبی الکبیر:

۱- إنّه وصـل فی طـاعته و عبودیته للّه إلی حـد إِنَّهُ کـانَ مُخْلَصـاً و لا ریب أن الـذی یصل إلی هـذه المرتبـة سـیکون مصونا من خطر الانحراف و التلوث، لأنّ الشـیطان رغم کل إصـراره علی إضـلال عباد اللّه، یعترف هو نفسه بعدم قدرته علی إضـلال المخلصـین: قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۶

الْمُخْلَصِینَ ۲۹۹].

۲- وَ کـانَ رَسُولًا نَبِیًّا فحقیقـة الرسالـة أن تلقی مهمّـة علی عاتق شـخص، و هو مسـئول عن أدائها و إبلاغها، و هـذا المقام کان لجمیع الأنبیاء المأمورین بالدعوة.

إن ذکر کونه «نبیّا» هنـا إشارة إلی علو مقام و رفعـة شأن هـذا النّبی العظیم، لأنّ هـذه اللفظـة فی الأصل مأخوذة من (النّبوة) علی وزن (نغمة) و تعنی رفعة المقام و علوه. و لها- طبعا- أصل آخر من (نبأ) بمعنی الخبر، لأنّ النّبی یتلقی الخبر الإلهی، و یخبر به الآخرین، إلّا أن المعنی الأوّل هو الأنسب هنا.

۳- و أشارت الآیـة التالیـة إلی بدایـة رسالـة موسـی، فقالت: وَ نادَیْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَیْمَنِ ففی تلک اللیلة المظلمة الموحشة، حیث قطع موسـی صـحاری مدین متوجها إلی مصر، أخذ زوجته الطلق و ألم الولادة، و کان البرد شدیدا، فکان یبحث عن شعلة نار، و فجأة سطع نور من بعید، و سمع نداء یبلغه رسالة اللّه، و کان هذا أعظم و سام و ألذ لحظة فی حیاته.

۴- إضافة إلی ذلک وَ قَرَّبْناهُ نَجِیًّا[۳۰۰] فإنّ النداء کان موهبة، و التکلم موهبة أخری.

۵- و أخیرا وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِیًّا لیکون معینه و نصیره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۷

بحثان

۱- من هو المخلص؟

قرأنا فی الآیات السابقة أنّ اللّه سـبحانه جعل موسـی من العباد المخلصـین- بفتح اللام- و هذا المقام عظیم جدّا کما أشرنا إلی ذلک، مقام مقترن بالضـمان الإلهی عن الانحراف، مقام محکم لا یسـتطیع الشـیطان اختراقه، و لا یمکن تحصـیله إلّا بالجهاد الدائم للنفس، و الطاعة المستمرة المتلاحقة لأوامر اللّه سبحانه.

إنّ کبار علماء الأخلاق یعتبرون هـذا المقام مقاما سامیا جـدّا، و یسـتفاد من آیات القرآن أنّ للمخلصـین امتیازات و خصائص خاصّـة، سنتطرق إلیها إن شاء اللّه تعالی.

۲- الفرق بین الرّسول و النّبی

الرّسول هو الشـخص الذی ألقیت علی عاتقه مهمّة أو رسالة لیبلغها، و النّبی- بناء علی أحد التفاسـیر- هو الشخص المطلع علی الوحی

الإلهى و الذى يخبر بما يوحى إليه، و بناء على تفسير آخر هو الشخص العالى المقام و السامى المرتبة، و قد بيّنا اشتقاق كلا الكلمتين ما مادتيهما. هذا من جهة اللغة.

أمّا من جهة التعبيرات القرآنية و لسان الرّوايات، فالبعض يرى أن «الرّسول» صاحب شريعة و مأمور بابلاغها، أى يتلقى الوحى الإلهى ثمّ يبلغه للناس، أمّا «النّبى» فإنّه يتلقى الوحى، إلّا أنّه ليس مكلفا بإبلاغه، بل مكلف بأداء واجبه فقط، أو الإجابة على أسئلة من سأله.

و بتعبير آخر فإنّ النّبى مثله كالطبيب الواعى الذى جلس فى محله مستعدا لاستقبال المرضى، فهو لا يذهب إلى المرضى، أمّا إذا راجعه مريض فإنّه لا يمتنع عن معالجته و أداء النصح إليه. أمّا الرّسول فإنّه كالطبيب السيّار، و بتعبير

الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۸

على عليه السّلام فى نهج البلاغة عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «طبيب دوّار بطبه»[۳۰۱]

، فهو يدور فى كل مكان، يذهب إلى المدن و القرى، الجبال و الصحارى ليجد المرضى و يشرع بعلاجهم، فهو عين تنبع بالماء العذب و تجرى نحو العطاشى، و ليس عينا يبحث عنها العطاشى.

و يستفاد من الرّوايات التى وصلت إلينا فى هذا الباب، و أوردها العلّامة الكلينى فى كتاب (أصول الكافى) فى باب (طبقات الأنبياء و الرسل) و باب (الفرق بين النّبى و الرسول) أنّ «النّبى» هو الشخص الذى يرى حقائق الوحى فى حال النوم فقط، كرؤيا إبراهيم، أو أنّه إضافة إلى النوم، فإنّه يسمع فى اليقظة أيضا صوت ملك الوحى. أمّا الرّسول فإنّه علاوة على تلقى الوحى فى المنام، و سماع صوت الملك، فإنّه يراه أيضا[۳۰۲].

و لا تنافى بين ما ورد فى هذه الرّوايات و التّفسير الذى قلناه، لأن من الممكن أن يكون للمهمات و المسؤوليات المتفاوتة للنبى و الرّسول تأثير فى طريقة تلقى الوحى، و بتعبير آخر فإنّ كل مرحلة من المهمّة تساير مرحلة خاصّة من الوحى. (دققوا جيدا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۶۹

الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۴ الى ۵۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولاً نَبِيًّا (۵۴) وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (۵۵)

التّفسير

إسماعيل نبى صادق الوعد:

بعد ذكر إبراهيم عليه السّلام و تضحيته، و بعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السّلام المتسامية، يأتى الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، و يكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، و برامجه ببرامج ولده، و يبيّن القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التى يمكن أن تكون قدوة للجميع.

و يبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا.

لقد عدّت هاتان الآيتان كونه صادق الوعد، نبيّا عالى المرتبة، أمره بالصلاة و الارتباط بالخالق، و أمره بالزكاة و تحكيم الروابط و العلاقات بخلق اللّه، و أخيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۰

القيام بالأعمال التى تجلب رضى اللّه سبحانه من صفات هذا النّبى العظيم.

و تؤكّد الآيتان على الوفاء بالعهد، و الاهتمام بتربية العائلة، و تشيران إلى الأهمية الخاصّة لهذين التكليفين، اللذين ذكر أحدهما قبل النّبوة و الأخر بعدها مباشرة.

إنّ الإنسان- فى الواقع- ما لم يكن صادقا، فمن المستحيل أن يصل إلى مقام الرسالة السامى، لأنّ أوّل شرط لهذه الرتبة أن يبلغ الوحى الإلهى إلى العباد بدون زيادة أو نقصان، و لذلك فحتى الأفراد المعدودون الذين ينكرون عصمة الأنبياء فى بعض الأحوال، فإنّهم اعترفوا و أقروا بأنّ مسألة صدق النّبى شرط أساسى، الصدق فى الأخبار، و فى الوعود، و فى كل شىء.

و نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّما سمّى إسماعيل صادق الوعد، لأنّه وعد رجلا فى مكان فانتظره فى ذلك المكان سنة، فسمّاه اللّه عزّ و جل صادق الوعد. ثمّ قال: إنّ الرجل أتاه بعد ذلك فقال له إسماعيل: ما زلت منتظرا لك»[۳۰۳].

من البديهى أنّه ليس المراد أنّ إسماعيل قد ترك عمله و أمور حياته، بل المراد أنّه فى الوقت الذى كان يمارس أعماله كان يراقب مجىء الشخص المذكور. و قد بحثنا فى مجال الوفاء بالعهد بصورة مفصلة فى ذيل أوّل آية من سورة المائدة.

و من جهة أخرى فإنّ المرحلة الأولى لتبليغ الرسالة هى الشروع من عائلة المبلغ الذين هم أقرب الناس إليه، و لهذا فإنّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بدأ دعوته أيضا بزوجته الغالية خديجة عليها السّلام، و ابن عمّه على عليه السّلام، ثمّ و حسب أمر وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۳۰۴] توجه إلى أقربائه.

و فى الآية (۱۳۲) من سورة طه نقرأ أيضا: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۱

. النقطة الأخرى التى تستحق الذكر هنا، أن وصف إسماعيل بكونه مرضيا، إشارة فى الواقع إلى هذه الحقيقة، و هى أنّه قد حاز رضى اللّه فى كل أعماله، و لا توجد نعمة أجلّ من أن يرضى المعبود و المولى و الخالق عنه، و لهذا تقول الآية (۱۱۹) من سورة المائدة بعد أن بينت نعمة الجنة الخالدة لعباد اللّه المخلصين:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۲

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشارة

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا (۵۶) وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا (۵۷) أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا (۵۸) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (۵۹) إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً (۶۰)

التّفسير

هؤلاء أنبياء اللّه، و لكن ..

فى آخر قسم من تـذكيرات هـذه السورة، جـاء الحـديث عن «إدريس» النّبى، فقـالت الآيـة أوّلاـ: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتـابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا و «الصديق»- كما قلنا سابقا- هو الشخص الصادق جدّا، و المصدق بآيات اللّه سبحانه، و المذعن للحق و الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۳

ثمّ تشـير الآيـة إلى مقـامه العـالى و تقول: وَ رَفَعْنـاهُ مَكاناً عَلِيًّا. و هناك بحث بين المفسّـرين فى أن المراد هل هو عظمـة مقام إدريس المعنوية، أم الارتفاع المكانى بين المفسّرين فى أنّ المراد هل هو عظمة مقام إدريس المعنوية، أم الارتفاع المكانى الحسى؟ فالبعض اعتبر ذلك- كما ذهبنا إليه- إشارة إلى المقامات المعنوية و الدرجات الروحية لهذا النّبى الكبير، و البعض الآخر يعتقد أن اللّه سبحانه قد رفع إدريس كالمسيح إلى السماء، و اعتبروا التعبير ب (مكان علىّ) إشارة إلى هذا.

إلّا أنّ إطلاق كلمة المكان على المقامات المعنوية أمر متداول و طبيعى، فنحن نرى فى الآية (۷۷) من سورة يوسف أنّ يوسف قد قال لإخوته العاصين:

أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً.

و على كل حال، فإنّ إدريس واحد من أنبياء اللّه المكرمين، و سيأتى شرح حاله فى البحوث القادمة إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تبيّن الآيـة التاليـة بصورة جماعيـة عن كـل الامتيـازات و الخصائص التى مرت فى الآيات السابقـة حول الأنبياء العظام و صـفاتهم و حالاـتهم و المواهب التى أعطـاهم اللّه إياها، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ

و مع أن كل هؤلاء الأنبياء كانوا من ذرية آدم، غير أنّهم لقربهم من أحد الأنبياء الكبار فقد سمّوا بذرية إبراهيم و إسرائيل، و على هذا فإنّ المراد من ذريـة آدم فى هـذه الآية هو إدريس، حيث كان- حسب المشـهور- جدّ النّبى نوح، و المراد من الذرية هم الذين ركبوا مع نوح فى السفينة، لأنّ إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح.

و المراد من ذرية إبراهيم إسحاق و إسماعيل و يعقوب، و المراد من ذرية إسرائيل: موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى، و الذين أشير فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۴

السابقة إلى حالاتهم و كثير من صفاتهم البارزة المعروفة.

ثمّ تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول:

وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا[۳۰۶].

لقد اعتبر بعض المفسّـرين جملة وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا .. بيانا آخر لنفس هؤلاء الأنبياء الذين أشـير إليهم فى بداية هذه الآية. إلّا أنّ ما قلنا أعلاه يبدو أنّه أقرب للصواب ۳۰۷]. و الشاهد على هذا الكلام

الحديث المروى عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام، إذ قال أثناء تلاوة هذه الآية: «نحن عنينا بها»[۳۰۸].

و ليس المراد من هـذه الجملـة هو الحصـر مطلقـا، بـل هى مصـداق واضـح لمتبعى و أولياء الأنبياء الواقعيين، و قـد مرت بنا نماذج من مصاديق هذا البحث فى التّفسـير الأمثل هذا. إلّا أنّ عدم الالتفات إلى هذه الحقيقة سـبب أن يقع بعض المفسّرين- كالآلوسى فى روح المعـانى- فى خطأ حيث طعن فى هـذا الحـديث، و عـدّه دليلا على كون أحاديث الشـيعة غير معتبرة! و هـذه هى نتيجـة عـدم الإحاطة بالمفهوم الواقعى للروايات الواردة فى تفسير الآيات.

و ممّا يستحق الانتباه أن الحديث فى الآيات السابقة كان عن مريم، فى حين أنّها لم تكن من الأنبياء، بل كانت داخلة فى جملة مِمَّنْ هَدَيْنا و تعتبر من مصاديقها، و لها فى كل زمان و مكان مصداق أو مصاديق، و من هنا نرى أن الآية (۶۹) من سورة النساء لم تحصر المشمولين بنعم اللّه بالأنبياء، بل أضافت إليهم الصديقين و الشهداء: فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ و كذلك عبرت الآية (۷۵) من سورة المائدة عن مريم أم عيسى بالصديقة، فقالت: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۵

ثمّ تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المربى للإنسان، و كانوا خلفا سيئا لم ينفذوا ما أريد منهم، و تعدد الآية قسما من أعمالهم القبيحة، فتقول: فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا.

(خلف) بمعنى الأولاد الطالحين، و (خلف) بمعنى الأولاد الصالحين.

و هذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل ساروا فى طريق الضلال، فنسوا اللّه، و رجحوا اتباع الشهوات على ذكر اللّه، و ملؤوا الدنيا فسادا، و أخيرا ذاقوا و بال أعمالهم السيئة فى الدنيا، و سيذوقونه فى الآخرة أيضا.

و احتمل المفسّرون احتمالات عديدة فى أنّ المراد من (إضاعة الصلاة) هنا هل هو ترك الصلاة، أم تأخيرها عن وقتها، أم القيام بأعمال تضيع الصلاة فى المجتمع؟ إن المعنى الأخير- كما يبدو- هو الأصح.

لماذا كان التأكيد على الصلاة- هنا- من بين كل العبادات؟

قد يكون السبب أن الصلاة- كما نعلم- سدّ يحول بين الإنسان و المعاصى، فإذا كسر هذا السد فإن الغرق فى الشهوات هو النتيجة القطعية لذلك، و بتعبير آخر، فكما أن الأنبياء يبدؤون فى ارتقاء مراتبهم و مقاماتهم من ذكر اللّه، و عند ما كانت تتلى عليهم آيات اللّه كانوا يخرون سجدا و يبكون، فإن هذا الخلف الطالح بدأ انحرافهم و سقوطهم من نسيانهم ذكر اللّه.

و لما كان منهج القرآن فى كل موضع هو فتح أبواب الرجوع إلى الإيمان و الحق دائما، فإنّه يقول هنا أيضا بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، و على هذا فلا يعنى أن الإنسان إذا غاص يوما فى الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة اللّه، بل إن طريق التوبة و الرجوع مفتوح ما بقى نفس يتردد فى صدر الإنسان، و ما دام الإنسان على قيد الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۶

بحثان

۱- من هو إدريس؟

طبقا لنقل كثير من المفسّرين، فإنّ إدريس جدّ سيدنا نوح عليه السّلام و اسمه فى التوراة (أخنوخ) و فى العربية (إدريس)، و ذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النّبوة عالما بالنجوم و الحساب و الهيئة، و كان أوّل من علم البشر خياطة الملابس.

لقد تحدث القرآن عن هذا النّبى الكبير مرّتين فقط، و بإشارة خاطفة:

إحداهما هنا فى هذه الآيات، و الأخرى فى سورة الأنبياء الآية ۸۵- ۸۶، و قد ذكرت حياته بصورة مفصلة فى روايات مختلفة نشك فى صحة أكثرها، و لهذا السبب اكتفينا بالإشارة أعلاه.

۲- من هم الذين أَضاعُوا الصَّلاةَ

نقرأ

فى حديث ورد فى كثير من كتب علماء أهل السنة، أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما تلا هذه الآية قال: «يكون خلف من بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة و اتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا، ثمّ يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم، و يقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، منافق، و فاجر»[۳۰۹].

ينبغى الالتفات إلى أنّنا إذا اعتبرنا هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبدأ الستين سنة، فإنّه ينطبق تماما على الزمن الذى تربع فيه يزيد على كرسى الحكم، و استشهد فيه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السّلام و أصحابه، و يشير الحديث بعد ذلك إلى بقية فترة بنى أمية و فترة بنى العباس الذين كانوا قد اقتنعوا من الإسلام بالاسم، و من القرآن باللفظ، و نعوذ باللّه أن نكون من هذا الخلف المنحرف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۱ الى ۶۳]

اشارة

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (۶۱) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا (۶۲) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا (۶۳)

التّفسير

بعض صفات الجنّة:

وصفت الجنّة و نعمها فى هذه الآيات حيث جاء ذكرها فى الآيات السابقة، فهى تصف الجنّة الموعودة بأنّها جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا.

ممّا يستحق الاهتمام و يسترعى الانتباه أن الآيات السابقة التى تحدثت عن التوبة و الإيمان و العمل الصالح، جاء الوعد فيها بالجنّة بصيغة المفرد (جنة)، أمّا هنا فقد ورد بصيغة الجمع (جنات) لأنّ الجنّة فى الحقيقة متكونة من حدائق متعددة و غنية بالنعم جدّا، و ستكون تحت تصرف المؤمنين الصالحين.

إنّ وصف الجنّة ب (عدن) التى تعنى الدوام و الخلود، دليل على أنّ الجنّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۸

ليست كحدائق و بساتين هذه الدنيا و نعمها الزائلة، لأنّ الشىء الذى يقلق الإنسان فيما يتعلق بنعم هذه الدنيا الكثيرة هو زوالها فى النهاية، إلّا أن مثل هذا القلق بالنسبة لنعم الجنّة لا معنى له ۳۱۰].

كلمة (عباده) تعنى عباد اللّه المؤمنين، لا جميع العباد، و التعبير (بالغيب) الذى جاء بعدها يعنى غيبته و اختفاءه عن نظرهم إلّا أنّهم يؤمنون به. و فى الآية (۳۰) من سورة الفجر نقرأ أيضا: فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي

و يحتمل أيضا فى معنى الغيب أنّ نعم الجنّة على هيئة لم ترها عين، و لم تسمع بها أذن، و لم تخطر على فكر و قلب بشر، و بكلمة

واحدة: إنّها غائبة عن حسنا و إدراكنا، عالم أسمى و أوسع من هذا العالم، و نحن لا نرى منها إلا شبحا من بعيد بعين الروح و القلب.

ثمّ تشير بعد ذلك إلى نعمة أخرى من أكبر نعم الجنّة فتقول: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً فلا كذب، و لا عداء، لا تهمة و لا جرح لسان، لا سخرية و لا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذى يسمعونه هو السلام إِلَّا سَلاماً.

«السلام» بالمعنى الواسع للكلمة، و الذى يدل على سلامة الروح و الفكر و اللسان و السلوك و العمل.

السلام الذى جعل ذلك الجو و تلك البيئة جنة، و اقتلع كل نوع من الأذى منها.

السلام الذى هو علامة على المحيط الآمن، المحيط الملى بالصفاء و العلاقة الحميمة و الطهارة و التقوى الصلح و الهدوء و الاطمئنان.

و فى آيات أخرى من القرآن جاءت هذه الحقيقة أيضا بتعبيرات مختلفة، ففى الآية (۷۳) من سورة الزمر نقرأ: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ و فى الآية (۳۴) من سورة ق: ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۷۹

. و ليست الملائكة وحدها التى تحييهم، و ليسوا لوحدهم يحيى بعضهم بعضا، بل إنّ اللّه سبحانه يحييهم أيضا، كما حياتهم فى الآية (۵۷) من سورة يس: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فهل يوجد محيط أصفى و أجمل من هذا الجوّ الملىء بالسلام و السلامة؟

و بعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة أخرى فتقول: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا.

إنّ هذه الجملة تثير سؤالين:

أحدهما: هل يوجد فى الجنّة صبح و ليل؟

و قد جاء جواب هذا السؤال فى الرّوايات هكذا: إنّ الجنّة و إن كانت دائما منيرة مضيئة، إلّا أنّ أهلها يميزون الليل و النهار من قلة النور و زيادته.

و السؤال الآخر هو: إنّه يستفاد من آيات القرآن بوضوح أن كل ما يريده أهل الجنة من الهبات و الأرزاق موجود تحت تصرفهم دائما و فى أى ساعة، فأى رزق هذا الذى يأتيهم فى الصبح و المساء فقط؟

و يمكن استخلاص جواب هذا السؤال من

حديث جميل روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «و تعطيهم طرف الهدايا من اللّه لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا»[۳۱۱].

و يستفاد من هذا الحديث أن هذه الهدايا الممتازة التى لا يمكن بيان ماهيتها حتى بالحدس و التخمين، نعم قيمة جدا، تهدى إلى هؤلاء بكرة و عشيا مضافا إلى سائر نعم الجنّة.

ألا يدل تعبير الآية، و الحديث الذى ذكر، على أنّ حياة أهل الجنّة ليست على وتيرة واحدة، بل إن لهم فى كل صباح و مساء موهبة جديدة و لطف جديد يعمهم و يشملهم!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۰

أ ليس معنى هذا الكلام أنّ السير التكاملى للإنسان سيستمر هناك، بالرغم من أنّه لا يعمل عملا، غير أنّه سيديم سيره التكاملى بواسطة معتقداته و أعماله فى هذه الدنيا؟! و بعد الوصف الإجمالى للجنّة و نعمها المادية و المعنوية، تعرّف الآية أهل الجنّة فى جمله قصيرة، فتقول: تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا و على هذا فإن مفتاح باب الجنّة مع كل تلك النعم التى مرت ليس إلّا «التقوى».

و بالرغم من أنّ التعبير ب «عبادنا» فيه إشارة إجمالية إلى الإيمان و التقوى، غير أنّ المحل هنا لا يكتفى فيه بالإشارة الإجمالية، بل لا بدّ من بيان هذه الحقيقة بصراحة، بأن الجنة محل المتقين فقط.

و نواجه هنا مرّة أخرى كلمة الإرث، و التى تطلق عادة على الأموال التى تنتقل من شخص إلى آخر بعد موته، فى حين أنّ الجنّة ليست مملوكة لأحد حتى يمكن توريثها للآخرين.

و يمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

۱- إنّ الإرث من الناحية اللغوية جاء بمعنى التمليك، و لا ينحصر بالانتقال المالى من الميت إلى الورثة.

۲- إنّنا نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما من أحد إلّا و له منزل فى الجنّة و منزل فى النّار، فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار، و المؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة»[۳۱۲].

و يلزم هنا أيضا ذكر هذه النكتة، و هى أن الوارثة التى وردت بذلك المعنى فى الحديث ليست على أساس العلاقة النسبية، بل على أساس التقوى الدينية و العملية.

و يستفاد هذا المعنى أيضا من سبب النّزول الذى ذكره بعض المفسّرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۱

للآية، بأن أحد المشركين- و اسمه العاص بن وائل- قد منع أجيره أجره- و الظاهر أنّه كان مسلما- و قال متهكما: إن كان ما يقوله محمّد حقا فنحن أولى من غيرنا بنعم الجنّة، و سندفع أجر هذا العامل بالكامل هناك! فنزلت هذه الآية و قالت: إنّ الجنّة مختصة بمن كان تقيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۲

الآيتان [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۴ الى ۶۵]

اشارة

وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (۶۴) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (۶۵)

سبب النّزول

ذكر جماعة من المفسّرين فى سبب نزول هاتين الآيتين، أنّ الوحى انقطع أيّاما، و لم يأت جبرئيل رسول الوحى الإلهى إلى النّبى، فلمّا انقضت هذه المدّة قال له: قال عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما منعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا»، فنزلت الآية: وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۳۱۳].

التّفسير

الطاعة التّامة:

بالرّغم من أن لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلّا أنّ هذا لا يكون مانعا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۳

أن يكون لها ارتباطا منطقيا بالآيات السابقة، لأنّها تأكيد على أنّ كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلغه عن اللّه بدون زيادة أو نقصان، و لا شىء من عنده، فتتحدث الآية الأولى على لسان رسول الوحى فتقول: وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ فكل شىء منه، و نحن

عباد وضعنا أرواحنا و قلوبنا على الأكف لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ و الخلاصة: فإنّ الماضى و الحاضر و المستقبل، و هنا و هناك و كل مكان، و الدنيا و الآخرة و البرزخ، كل ذلك متعلق بذات اللّه المقدسة.

و قد ذكر بعض المفسّرين لجملة لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ آراء عديدة بلغت أحيانا أحد عشر قولا ما ذكرنا أعلاه هو أنسبها جميعا كما يبدو ..

ثمّ تضيف الآية: إن كل ذلك بأمر ربّك رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فإذا كان الأمر كذلك، و كل الخطوط تنتهى إليه فَاعْبُدْهُ عبادة مقترنة بالتوحيد و الإخلاص. و لما كان هذا الطريق- طريق العبودية و الطاعة و عبادة اللّه الخالصة- ملىء بالمشاكل و المصاعب، فقد أضافت وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ و تقول فى آخر جملة: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا.

و هذه الجملة فى الواقع، دليل على ما جاء فى الجملة السابقة، يعنى: هل لذاته المقدسة شريك و مثيل حتى تمد يدك اليه و تعبده؟

إنّ كلمة (سمى) و إن كانت تعنى «المشترك فى الاسم»، إلّا أن من الواضح أنّ المراد هنا ليس الاسم فقط، بل محتوى الاسم، أى: هل تعلم أحدا غير اللّه خالقا رازقا، محييا مميتا، قادرا على كل شىء، و ظاهرا على كل شىء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۴

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۶۶ الى ۷۰]

اشارة

وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (۶۶) أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً (۶۷) فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (۶۸) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا (۶۹) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا (۷۰)

سبب النّزول

الآيات الأولى- على رأى جماعة من المفسّرين- نزلت فى شأن «أبى بن خلف»، أو «الوليد بن المغيرة»، حيث أخذوا قطعة من عظم منخور، ففتوه بأيديهم و نثروه فى الهواء حتى تطايرت كل ذرة منه إلى جهة، و قالوا انظروا إلى محمّد الذى يظن أن اللّه يحيينا بعد موتنا و تلاشى عظامنا مثل هذا العظم! إن هذا شىء غير ممكن أبدا. فنزلت هذه الآيات و أجابتهم، جوابا قاطعا، جوابا مفيدا و معلما لكل البشر، و فى جميع القرون و الأعصار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۵

التّفسير

حال أهل النّار:

مرّت فى الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة و الجنّة و الجحيم، و تتحدث هذه الآيات التى نبحثها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الأولى أقوال منكرى المعاد، فتقول: وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا.

هذا الاستفهام استفهام إنكارى طبعا، أى إنّ هذا الشىء غير ممكن. أمّا التعبير بالإنسان (و خاصّة مع ألف و لام الجنس)، مع أنّه كان

من المناسب أن يذكر الكافر محله- فربّما كان من جهة أن هذا السؤال مخفى فى طبع كل إنسان فى البداية بزيادة و نقيصة، و بسماع مسألة الحياة بعد الموت سترتسم فى ذهنه علامة الاستفهام فورا.

ثمّ يجيبهم مباشرة بنفس التعبير أ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً. و يمكن أن يكون التعبير ب «الإنسان» هنا أيضا إشارة إلى أن الإنسان مع ذلك الاستعداد و الذكاء الذى منحه اللّه إيّاه، يجب أن لا- يجلس ساكتا أمام هذا السؤال، بل يجب أن يجيب عليه بتذكر الخلق الأوّل، و إلّا فإنّه لم يستعمل حقيقة إنسانيته.

إنّ هذه الآيات- ككثير من الآيات المرتبطة بالمعاد- تؤكّد على المعنى الجسمانى، و إلّا فإذا كان القرار أن تبقى الروح فقط، و لا وجود لرجوع الجسم إلى الحياة، فلا مكان و لا معنى لذلك السؤال، و لا لهذا الجواب.

على كل حال، فقد استعمل القرآن هذا المنطق لإثبات المعاد هنا، و قد جاء فى مواضع أخرى من القرآن أيضا، و من جملتها فى أواخر سورة يس، حيث طرح الأمر بنفس تعبير الإنسان: أ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ. قُلْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۶

يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۳۱۴][۳۱۵].

بعض المفسّرين طرح هنا سؤالا، و هو أن هذا الدليل إذا كان صحيحا، بأنّ كل شخص إذا ما عمل عملا فإنّه قادر على إعادته، فلما ذا نقوم بأعمال ثمّ نعجز عن تكرارها أحيانا؟ فمثلا قد ننشد قطعة شعرية رائعة جدّا، أو نكتب بخط جميل جدّا، غير أنّنا بعد ذلك نجتهد فى الإتيان بمثله و لكن دون جدوى.

الجواب هو: صحيح أنّنا نقوم بأعمالنا بإرادة و اختيار، إلّا أن هناك سلسلة من الأمور غير الإرادية تؤثر فى أفعالنا الخاصّة أحيانا، فإنّ حركة و اهتزاز يدنا غير المحسوس يؤثر أحيانا فى دقة شكل الحروف. إضافة إلى أن قدرتنا و استعدادنا ليسا متساويين دائما، فقد تعرض أحيانا عوامل تعبئ كل قوانا الداخلية، و نستطيع أن نبدع فى الأعمال و نأتى بأعلاها، إلّا أنّ هذه الدوافع تكون ضعيفة أحيانا، فلا تستجمع كل الطاقات، و لذلك فإن العمل الثّانى لا ينفذ بدقة وجودة العمل الأوّل.

إلّا أنّ اللّه الذى لا تنتهى قدرته، لا تثار حوله هذه المسائل، و لا تقاس قدرته على أعمالنا و قدراتنا، فإنّه إذا عمل عملا فإنّه يستطيع إعادته بعينه بدون زيادة أو نقصان.

ثمّ تهدد الآية التالية منكرى المعاد، و المجرمين الكافرين: فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا.

إنّ هذه الآية توحى بأنّ محكمة الأفراد الكافرين و المجرمين قريبة من جهنم! و التعبير ب «جثيا»- مع العلم أن جثى جمع جاثى، و هو الذى يجثو على ركبتيه- ربّما كان إشارة إلى ضعف و عجز و ذلة هؤلاء، حتى أنّهم لا قدرة لهم على الوقوف أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۷

و لهذه الكلمة معانى أخرى أيضا، فمن جملتها أنّهم فسروا «جثيا» بمعنى جماعة جماعة، و بعضهم فسّرها بمعنى الكثرة و ازدحام بعضهم على بعض كتراكم التراب و الحجارة، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

و لما كانت الأولويات تلاحظ فى تلك المحكمة العادلة، فإنّ الآية التالية تقول: ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا[۳۱۶] و نبدأ بحسابهم أوّلا- فإنّهم عتوا عتوا نسوا معه كل مواهب اللّه الرحمان، و جنحوا إلى التمرد و العصيان و إظهار الوقاحة أمام ولى نعمتهم! أجل، إن هؤلاء أحق من الجميع بالجحيم.

ثمّ تؤكّد على هذا المعنى مرّة أخرى فتقول: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا فسنختار هؤلاء بدقة، و سوف لا يقع أى اشتباه فى هذا الإختيار.

(صلى) مصدر يعطى معنى إشعال النار و إيقادها، كما يعنى حرق الشىء بالنّار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۸

الآیتان [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷۱ الی ۷۲]

اشارة

وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا (۷۱) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا (۷۲)

التّفسير

الجميع يردون جهنم!

تستمر الآيات فی بحث خصائص القيامة و الثواب و العقاب، و أشارت فی البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة و العجب لدى أغلب الناس، فتقول: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا فجميع الناس سيدخلون جهنم بدون استثناء لأنّه أمر حتمی.

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا فنتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف و الذّل.

و هناك بحث مفصل بين المفسّرين فی تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» فی جملة وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها.

فيری بعض المفسّرين أنّ «الورود» هنا بمعنى الاقتراب و الإشراف، أی إن جميع الناس بدون استثناء- المحسن منهم و المسیء- يأتون إلى جانب جهنم للحساب، أو لمشاهدة مصير المسيئين النهائی، ثمّ ينجی اللّه المتقين، و يدع

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۸۹

الظالمين فيها. و قد استدل هؤلاء لدعم هذا التّفسير بالآية (۲۳) من سورة القصص: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ .. حيث أن للورود هنا نفس المعنى.

و التّفسير الثّانی الذی اختاره أكثر المفسّرين، هو أن الورود هنا بمعنى الدخول، و على هذا الأساس فإنّ كل الناس بدون استثناء- محسنهم و مسيئهم- يدخلون جهنم، إلّا أنّها ستكون بردا و سلاما على المحسنين، كحال نار نمرود على إبراهيم يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ لأنّ النّار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفر منهم و تبتعد عنهم، إلّا أنّها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للجحيم كالمادة القابلة للاشتعال، فما أن تمسهم النار حتى يشتعلوا.

و بغض النظر عن فلسفة هذا العمل، و التی سنشرحها فيما بعد- إن شاء اللّه تعالى- فإنّ ممّا لا شك فی أنّ ظاهر الآية يلائم و ينسجم مع التّفسير الثانی، لأنّ المعنى الأصلی للورود هو الدخول، و غيره يحتاج إلى قرينة. إضافة إلى أن جملة ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا و كذلك جملة وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها كلتاهما شاهدتان على هذا المعنى. علاوة على الرّوايات المتعددة الواصلة إلينا فی تفسير الآية التی تؤيد هذا المعنى، و من جملتها:

روی عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری أنّ رجلا سأله عن هذه الآية، فأشار جابر بإصبعيه إلى أذنيه و قال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول:

«الورود الدّخول، لا يبقى بر و لا فاجر إلّا يدخلها، فتكون على المؤمنين بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم، حتى أن للنّار- أو قال لجهنم- ضجيجا من بردها، ثمّ ينجی اللّه الذين اتقوا و يذر الظالمين فيها جثيا»[۳۱۷].

و

فی حديث آخر عن النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تقول النّار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبی»[۳۱۸]!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۰

و یستفاد هذا المعنی أیضا من بعض الرّوایات الأخری. و کذلک التعبیر العمیق المعنی للصراط، و الذی ورد فی روایات متعددة بأنّه جسر علی جهنم، و أنّه أدق من الشعرة و أحد من السیف، هذا التعبیر شاهد آخر علی هذا التّفسیر[۳۱۹].

أمّا ما یقوله البعض من أن الآیة (۱۰۱) من سورة الأنبیاء: أُولئِکَ عَنْها مُبْعَدُونَ دلیل علی التّفسیر الأوّل، فلا یبدو صحیحا، لأن هذه الآیة مرتبطة بمحل إقامة و مقر المؤمنین الدائمی، حتی أنّنا نقرأ فی الآیة التالیة لهذه الآیة:

لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها فإذا کان الورود فی آیة البحث بمعنی الاقتراب، فهی غیر مناسبة لکلمة مُبْعَدُونَ و لا لجملة لا یَسْمَعُونَ حَسِیسَها.

جواب عن سؤال:

السؤال الوحید الذی یبقی هنا، هو: ما هی الحکمة هذا العمل؟ و هل أن المؤمنین لا یرون أذی و لا عذابا من هذا العمل؟

إنّ الإجابة علی هذا السؤال- التی وردت فی الرّوایات حول کلا الشقین- ستتضح بقلیل من الدقة.

إنّ مشاهدة جهنم و عذابها فی الحقیقة، ستکون مقدمة لکی یلتذ المؤمنون بنعم الجنة بأعلی مراتب اللذة، لأن أحدا لا یعرف قدر العافیة حتی یبتلی بمصیبة (و بضدها تتمایز الأشیاء) فهناک لا یبتلی المؤمنون بمصیبة، بل یشاهدون المصیبة علی المسرح فقط، و کما قرأنا فی الرّوایات السابقة، فإنّ النّار تصبح بردا و سلاما علی هؤلاء، و یطغی نورهم علی نورها و یخمده.

إضافة إلی أنّ هؤلاء یمرون علی النار بکل سرعة بحیث لا یری علیهم أدنی أثر، کما

روی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال فی حدیث: «یرد الناس ثمّ یصدون بأعمالهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۱

فأوّلهم کلمع البرق، ثمّ کمر الریح، ثمّ کحضر الفرس، ثمّ کالراکب، ثمّ کشد الرجل، ثمّ کمشیه»[۳۲۰].

و إذا تجاوزنا ذلک، فإنّ أهل النّار أیضا سیلقون عذابا أشد من رؤیة هذا المشهد، و أن أهل الجنّة یمرون بتلک السرعة و هم یبقون فی النّار، و بهذا سیتّضح جواب کلا السؤالین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۲

الآیات [سورة مریم (۱۹): الآیات ۷۳ الی ۷۶]

اشارة

وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا أَیُّ الْفَرِیقَیْنِ خَیْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِیًّا (۷۳) وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْیاً (۷۴) قُلْ مَنْ کانَ فِی الضَّلالَةِ فَلْیَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّی إِذا رَأَوْا ما یُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَیَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً (۷۵) وَ یَزِیدُ اللَّهُ الَّذِینَ اهْتَدَوْا هُدیً وَ الْباقِیاتُ الصَّالِحاتُ خَیْرٌ عِنْدَ رَبِّکَ ثَواباً وَ خَیْرٌ مَرَدًّا (۷۶)

التّفسیر

هذه الآیات تتابع ما مر فی الآیات السابقة فی الحدیث عن الظالمین الذین لا- إیمان لهم، و تتعرض لجانب آخر من منطق هؤلاء الظالمین و مصیرهم.

و من المعلوم أنّ أوّل جماعة آمنت بالرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا من المستضعفين الطاهرى القلوب، و الذين خلت أيديهم من مال الدنيا و مغرياتها ..

هؤلاء المحرومون هم الذين جاءت الأديان الإلهية من أجل إنقاذهم من قبضة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۳

الظالمين الجائرين بلال و سلمان، و عمار، و خباب، و سمية، و أمثالهم مصاديق بارزة لهؤلاء المؤمنين المظلومين.

و لما كان المعيار فى المجتمع الجاهلى فى ذلك الزمان- و كذا فى كل مجتمع جاهلى آخر- هو الذهب و الزينة و المال و المقام و المنصب و الهيئة الظاهرية، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث و أمثاله يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك و يقولون: إنّ علامة شخصيتنا معنا، و علامة عدم شخصيتكم فقركم و محروميتكم، و هذا بنفسه دليل على أحقيتنا و باطلكم! كما يقول القرآن الكريم فى أول آيه من الآيات مورد البحث: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا.

خاصّة و أنّنا نقرأ فى الرّوايات الإسلامية أن هؤلاء الأشراف المترفين كانوا يلبسون أجمل ملابسهم، و يتزينون بأبهى زينة، و يتبخترون أمام أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانوا ينظرون إليهم نظرة تحقير و استهزاء .. نعم، هذه طريقة هذه الطبقة فى كل عصر و زمان.

«النديّ» أخذت فى الأصل من (الندى) أى الرطوبة، ثمّ جاءت بمعنى الأفراد الفصحاء و الخطباء، لأن أحد شروط القدرة على التكلم امتلاك القدر الكافى من اللعاب، و لذلك فإن (نديّ) تعنى المجالسة و التحدث، بل يقال للمجلس الذى يجتمعون فيه للأنس و السمر، أو يجلسون فيه للتشاور: نادى، و من هذا أخذت (دار الندوة) و هى المحل الذى كان فى مكّة، و كان يجتمع فيه زعماؤها للتشاور.

و قد يعبر عن السخاء و البذل و العطاء ب (الندى)[۳۲۱] و هذه الآية يمكن أن تكون إشارة إلى كل هذه المعانى، أى: إنّ مجلس أنسنا أجمل من مجلسكم، و إن مالنا و ثروتنا و زينتنا و لباسنا أبهى و أروع، و إن كلامنا و أشعارنا الفصيحة و البليغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۴

أبلغ و أحسن! إلّا أنّ القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقى و مستدل تماما، و فى الوقت نفسه قاطع و مفحم، فيقول: كأن هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، و لم ينظروا كم دمرنا من الأقوام السابقين عند تمردهم و عصيانهم: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً[۳۲۲] فهل استطاعت أموالهم و ثروتهم، و مجالسهم الفاسقة، و ملابسهم الفاخرة، و صورهم الجميلة أن تمنع العذاب الإلهى و تقف أمامه؟ و إذا كانت هذه الأمور دليلا على شخصيتهم و منزلتهم عند اللّه، فلما ذا ابتلوا بهذا المصير المشؤوم؟

إنّ زخارف الدنيا و بهارجها متزلزلة إلى حدّ أنّها تتلاشى و تزول بمجرّد أن يهب عليها أدنى نسيم هادئ.

«القرن»- كما قلنا سابقا فى ما مرّ فى ذيل الآية (۶) من سورة الأنعام- تعنى عادة الزمان الطويل، لكن لما كانت قد أخذت من مادة الاقتران، أى الاقتراب، فإنّها تقال أيضا للقوم و الأناس المجتمعين فى زمان واحد.

ثمّ تحذرهم تحذيرا آخر، بأن لا تظنوا أيّها الظالمون الكافرون أنّ مالكم و ثروتكم هذه رحمة، بل كثيرا ما تكون دليلا على العذاب الإلهى: قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا. حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ إى إمّا العذاب فى هذه الدنيا، و إمّا عذاب الآخرة فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً.

فى الحقيقة، إنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين لا يمكن هدايتهم (و الملاحظ أن القرآن يقول: مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ و هو إشارة إلى الاستمرار فى الضلال) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۵

أجل أن يروا العقاب الإلهى الشديد، فإنّ اللّه سبحانه يجعلهم أحيانا يغوصون و يغرقون فى النعم لتصبح سببا لغرورهم، كما تكون سببا لنزول العذاب عليهم، فإنّ سلب النعم عنهم حينئذ سيجعل لوعة العذاب أشد. و هذا هو ما ذكر فى بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الاستدراج»[۳۲۳].

جملة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا و إن كانت بصيغة الأمر، إلّا أنّها بمعنى الخبر، فمعناها: إنّ اللّه يمهل هؤلاء و يديهم عليهم النعم.

و قد فسرها بعض المفسّرين بنفس معنى الأمر أيضا، و أنّه يعنى هنا اللعنة، أو وجوب مثل هذا العمل و المعاملة على اللّه. إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأقرب.

و كلمة (العذاب) بقرينة وقوعها فى مقابل (الساعة) فإنّها إشارة إلى العقوبات الإلهية فى عالم الدنيا، عقوبات كطوفان نوح، و الزلزلة، و الحجارة السماوية التى نزلت على قوم لوط. أو العقوبات التى أصيبوا بها على يد المؤمنين و المقاتلين فى جبهات الحق، كما نقرأ فى الآية (۱۴) من سورة التوبة: قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

«الساعة» هنا إمّا بمعنى نهاية الدنيا، أو العذاب الإلهى فى القيامة. و يبدو لنا أن المعنى الثّانى هو الأنسب.

هذه عاقبة و مصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا و زبرجها، أمّا أولئك الذين آمنوا و اهتدوا، فإنّ اللّه يزيدهم هدى و إيمانا وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً

من البديهى أن للهداية درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الأولى فإنّ اللّه يأخذه بيده و يرفعه إلى درجات أعلى، و كما أنّ الشجرة المثمرة تقطع كل يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۶

مرحلة جديدة إلى التكامل و الإيناع، فكذلك المهتدون يرتقون كل يوم مراق أعلى فى ظل الإيمان و الأعمال الصالحة التى يعملونها.

و فى النهاية تجيب الآية هؤلاء الذين اعتمدوا على زينة الدنيا السريعة الزوال، و جعلوها وسيلة للتفاخر على الآخرين، فتقول: وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا[۳۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۷۷ الى ۸۲]

اشارة

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَ وَلَداً (۷۷) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۷۸) كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا (۷۹) وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً (۸۰) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (۸۱)
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (۸۲)

التّفسير

تفكير خرافى و منحرف:

يعتقد بعض الناس أنّ الإيمان و الطهارة و التقوى لا تناسبهم، و أنّها السبب فى أن تدبر الدنيا عنهم، أمّا إذا خرجوا من دائرة الإيمان و التقوى فإنّ الدنيا ستقبل عليهم، و تزيد ثروتهم و أموالهم! إنّ هذا النوع من التفكير، سواء كان نابعا من البساطة و اتباع الخرافات، أو أنّه غطاء و تستّر للفرار من تحمل المسؤوليات و التعهدات الإلهية، فهو تفكير خاطئ و خطير.

لقد رأينا عبدة الأوهام هؤلاء يجعلون أحيانا من كثرة أموال و ثروات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۸

الأفراد غير المؤمنين، و فقر و حرمان جماعة من المؤمنين، دليلا لإثبات هذه الخرفة، فى حين أنّه لا الأموال التى تصل إلى الإنسان عن طريق الظلم و الكفر و ترك أسس التقوى تبعث على الفخر، و لا الإيمان و التقوى يكونان سدا و مانعا فى طريق النشاطات المشروعة و المباحة مطلقا.

على كل حال، فقد كان فى عصر النّبى- و كذلك فى عصرنا- أفراد جاهلون يظنون هذه الظنون و الأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدث القرآن- كمواصلة للبحث الذى بيّنه سابقا حول مصير الكفار و الظالمين- فى الآيات مورد البحث عن طريقة التفكير هذه و عاقبتها، فيقول فى أوّل آية من هذه الآيات:

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً[۳۲۵].

ثمّ يجيبهم القرآن الكريم: أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فإنّ الذى يستطيع أن يتكهن بمثل هذا التكهن، و يقول بوجود علاقة بين الكفر و الغنى و امتلاك الأموال و الأولاد، مطّلع على الغيب، لأنا لا نرى أىّ علاقة بين هاتين المسألتين، أو يكون قد أخذ عهدا من اللّه سبحانه، و هذا الكلام أيضا لا معنى له.

ثمّ يضيف بلهجة حادة: إنّ الأمر ليس كذلك، و لا يمكن أن يكون الكفر أساسا لزيادة مال و ولد أحد مطلقا: كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ أجل، فإنّ هذا الكلام الذى لا أساس له قد يكون سببا فى انحراف بعض البسطاء، و سيثبت كل ذلك فى صحيفة أعمال هؤلاء وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا.

هذه الجملة قد تكون إشارة إلى العذاب المستمر الخالد، كما يحتمل أيضا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۴۹۹

تكون إشارة إلى العقوبات التى تحيط بهم فى هذه الدنيا نتيجة للكفر و عدم الإيمان. و يحتمل أيضا أنّ هذه الأموال و الأولاد التى هى أساس الغرور و الضلال هى بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء! وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ من الأموال و الأولاد وَ يَأْتِينا فَرْداً.

نعم، إنّه سيترك فى النهاية كل هذه الإمكانيات و الأملاك المادية و يرحل، و يحضر فى محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، و فى الوقت الذى اسودت فيه صحيفة أعماله من الذنوب و المعاصى، و خلت من الحسنات .. هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء فى دار الدنيا.

و تشير الآية التالية إلى علّة أخرى فى عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا و ليشفعوا لهم عند اللّه، و يعينوهم فى حل مشاكلهم، لكن، أى ظن خاطئ و خيال ساذج هذا؟! ليس الأمر كما يظن هؤلاء أبدا، فليست الأصنام سوف لا تكون لهم عزّا و حسب، بل ستكون منبعا لذلتهم و عذابهم، و لهذا فإنّهم سوف ينكرون عبادتهم لها فى يوم القيامة: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

إن هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذى نقرؤه فى الآية (۱۴) من سورة فاطر: وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ ... وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ و كذلك ما نلاحظه فى الآية (۶) من سورة الأحقاف: وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً.

و قد احتمل بعض كبار المفسّرين أن المراد من الآية: إنّ عبدة الأصنام عند ما ترفع الحجب فى القيامة، و تتضح كل الحقائق، و يرون أنفسهم قد فضحوا و خزوا، فإنّهم ينكرون عبادة الأصنام، و سيقفون ضدها، كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۳) من سورة الأنعام: وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب مع ظاهر الآية، لأن عبّاد الأصنام كانوا يريدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۰

أن تكون آلهتهم و معبوداتهم عزّا لهم، إلّا أنّهم يصبحون ضدها فى النهاية.

و من الطبيعى أن تكلم المعبودات التى لها عقل و إدراك كالملائكة و الشياطين و الجن واضح و معلوم، إلّا أنّ الآلهة الميتة التى لا روح لها، من الممكن أن تتكلم بإذن اللّه و تعلن تنفرها و اشمئزازها من عبدتها و من الممكن أن يستفاد هذا التّفسير من

حديث مروى عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث قال فى تفسير هذه الآية: يكون هؤلاء الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ضدا يوم القيامة و يتبرءون منهم و من عبادتهم إلى يوم القيامة.

و الجميل فى الأمر أننا نقرأ فى ذيل الحديث جملة قصيرة عميقة المحتوى حول العبادة: ليس العبادة هى السجود و لا الركوع، و إنّما هى طاعة الرجال، من أطاع مخلوقا فى معصية الخالق فقد عبده»[۳۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۱

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۸۳ الى ۸۷]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (۸۳) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (۸۴) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً (۸۵) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً (۸۶) لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً (۸۷)

التّفسير

من هم الذين لهم أهلية الشفاعة؟

بملاحظة البحث فى الآيات السابقة الذى كان حول المشركين، فإنّ البحث فى هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثمّ تبيّن الآيات فى النهاية عاقبتهم المشؤومة، و تثبت هذه الحقيقة، و هى أنّ هذه الآلهة لم تكن سبب عزتهم بل أصبحت سبب ذلهم و شقائهم، فتقول أولا: أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا.

«الأزّ» فى الأصل- كما يقول الراغب فى المفردات- يعنى غليان القدر، و تقلب محتواه عند شدة غليانه، و هو هنا كناية عن مدى تسلط الشياطين على هؤلاء، بحيث أنّهم يوجهونهم بالصورة التى يريدونها، و فى المسير الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۲

يشاءون، و يقلبونهم كيف يشتهون! و من البديهى- كما قلنا ذلك مرارا- أن تسلّط الشياطين على بنى آدم ليس تسلطا إجباريا، بل إنّ الإنسان الذى يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه و روحه، هو الذى يطوق رقبته بقيد العبودية لهم، و يقبل بطاعتهم، كما يقول القرآن فى الآية (۱۰۰) من سورة النحل: إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ

ثمّ يوجه القرآن المجيد الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا و سنسجل كل شىء لذلك اليوم الذى تشكل فيه محكمة العدل الإلهى.

و هناك احتمال آخر فى تفسير الآية، و هو أنّ المراد من عدّ أيّام عمر- بل أنفاس- هؤلاء، أنّ مدّة بقائهم قصيرة و داخلة تحت إمكان الحساب و العد، لأنّ حساب الشىء و عدّه كناية عادة عن قلته و قصره.

و نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا أنّه سأل أحد أصحابه، قال: «ما هو عندك؟» قال: عدد الأيّام، قال: «إنّ الآباء و الأمهات يحصون ذلك، و لكنه عدد الأنفاس»[۳۲۷].

إنّ تعبير الإمام هذا يمكن أن يكون إشارة إلى التّفسير الأوّل، أو إلى التّفسير الثّانى، أو إلى كلا التّفسيرين.

و على كل حال، فإنّ دقة محتوى هذه الآية يهز الإنسان، لأنّها تثبيت أن كل شىء- حتى أنفاسنا- خاضعة للحساب و العد، و يجب أن نجيب يوما على كل هذه الأشياء و الأعمال.

ثمّ تبيّن المسير النهائى للمتقين و المجرمين فى عبارات موجزة، فتقول: إنّ كل هذه الأعمال جمعناها و ادخرناها له: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۳

«الوفد»- على وزن وعد- فى الأصل بمعنى الجماعة الذين يذهبون إلى الكبار لحل مشاكلهم، و يكونون مورد احترام و تقدير، و على هذا فإنّ الكلمة تتضمن معنى الاحترام و التكريم، و ربّما كان ما نقرؤه فى بعض الرّوايات من أن المتقين يركبون مراكب سريعة السير، و يدخلون الجنة باحترام بالغ، لهذا السبب.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «سأل على عليه السّلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تفسير قوله عزّ و جلّ: يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً فقال: يا على، الوفد لا يكون إلا ركبانا، أولئك رجال اتقوا اللّه عزّ و جلّ، فأحبّهم و اختصهم و رضى أعمالهم فسمّاهم المتقين»[۳۲۸].

الملفت للنظر أنّنا نقرأ فى الآية: أنّ المتقين يحشرون إلى الرحمن، فى حين أنّ الكلام فى الآية التالية عن سوق المجرمين إلى جهنم، و على هذا ألم يكن من المناسب أن يقال: (الجنة) هنا بدل (الرحمن)؟

إلّا أنّ هذا التعبير- فى الحقيقة- يشير إلى نكتة مهمة، و هى أن المتقين يحصلون هناك على ما هو أسمى من الجنّة، فهم يقتربون من اللّه و تجلياته الخالصة، و يدركون رضاه الذى هو أسمى و أغلى من الجنّة. و تعبيرات الحديث الذى قرأناه من قبل عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشير إلى هذا المعنى أيضا.

ثمّ تقول فى المقابل: وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّا أنّه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

ينبغى الالتفات إلى أن كلمة (ورد) تعنى مجموعة من البشر أو الحيوانات التى ترد المياه، و لما كان هؤلاء الجماعة عطاشى حتما، فإن المفسّرين فسروا هذا التعبير هنا بأنّهم يردونها عطاشى.

كم هو الفرق بين أولئك الذين يذهبون بهم إلى الرحمن بكل عزة و احترام، تهب الملائكة لاستقبالهم، و يحيوهم بالسلام، و بين أولئك الذين يساقون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۴

كالحيوانات العطشى إلى نار جهنم، و هم مطأطئو الرؤوس، خجلون، مفتضحون و لا أهمية و لا قيمة لهم.

و إذا كانوا يتصورون أنّهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنّهم يجب أن يعلموا أن هؤلاء الذين يرجونهم لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدروا على الشفاعة لأحد إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم و تشملهم شفاعة الشافعين، أو أن مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضا، و لهم القدرة و الصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

ما معنى العهد؟

لقد بحث المفسّرون بحوثا كثيرة فى المراد من العهد فى الآية الشريفة التى تقول: لا يَمْلِكونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً.

فقال بعضهم: إنّ العهد هو الإيمان باللّه، و الإقرار بوحدانيته، و تصديق أنبياء اللّه.

و قال البعض الآخر: إنّ العهد هنا يعنى الشهادة بوحدانية الحق تعالى، و البراءة ممن يعتقد بقدرة غير اللّه، و كذلك لا يرجو الا اللّه تعالى.

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال فى جواب سؤال أحد أصحابه عن تفسير هذه الآية: «من دان بولاية أمير المؤمنين و الأئمّة من بعده فهو العهد عند اللّه»[۳۲۹].

و

فى رواية أخرى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أدخل على مؤمن سرورا فقد سرنى، و من سرنى فقد اتّخذ عند اللّه عهدا»[۳۳۰].

و

فى حديث آخر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ المحافظة على العهد هى المحافظة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۵

على الصلوات الخمس ۳۳۱].

و من تحقيق الرّوايات أعلاه، و التى وردت فى المصادر الإسلامية المختلفة، و كذلك كلمات كبار المفسّرين المسلمين، نحصل على هذه النتيجة، و هى أن للعهد عند اللّه- كما يستفاد ذلك من معناه اللغوى- معنى واسعا جمع فيه كل نوع من أنواع الارتباط باللّه و معرفته و طاعته، و كذلك الارتباط بمذهب أولياء الحق، و كل عمل صالح، و إن كان كل رواية قد أشارت إلى جانب من ذلك، أو إلى مصداق معين.

و لذلك نقرأ فى حديث آخر ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان كيفية الوصية، و قد جمعت فيه كل المسائل الاعتقادية تقريبا، حيث

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا حضرته- أى المسلم- الوفاة و اجتمع الناس إليه قال: اللهم فاطر السماوات و الأرض، عالم الغيب و الشهادة، الرحمن الرحيم، إنى أعهد إليك فى دار الدنيا، أنى أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، و أن محمّدا عبدك و رسولك، و أن الجنة حق، و أن النار حق، و أن البعث حق، و الحساب حق، و القدر و الميزان حق، و أن الدين كما وصفت، و الإسلام كما شرعت، و أن القول كما حدثت، و أن القرآن كما أنزلت، و أنك أنت اللّه الحق المبين. جزى اللّه محمّدا عنا خير الجزاء، و حيا اللّه محمّدا و آله بالسلام.

اللهم يا عدتى عند كربتى، و يا صاحبى عند شدتى، و يا ولى نعمتى، إلهى و إله آبائى، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين، فإنّك إن تكلنى إلى نفسى أقرب من الشر، و أبعد من الخير. و آنس فى القبر وحشتى، و اجعل لى عهدا يوم ألقاك منشورا. ثمّ يوصى بحاجته.

و تصديق هذه الوصية فى سورة مريم فى قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۶

لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً، فهذا عهد الميت و الوصية حق ...»[۳۳۲].

و من البديهى أنّ المراد ليس هو قراءة أو كتابة هذه المطالب المذكورة أعلاه بالعربية أو بغيرها من اللغات، بل المراد الإيمان بها من

صميم القلب لتبدو آثاره واضحة فى كل نشاطات حياة الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۷

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۸۸ الى ۹۵]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً (۸۸) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا (۸۹) تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا (۹۰) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً (۹۱) وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً (۹۲)

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً (۹۳) لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا (۹۴) وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً (۹۵)

التّفسير

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، و عاقبة عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات فى نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أى الاعتقاد بوجود ولد للّه سبحانه، و تبيّن مرّة أخرى قبح هذا الكلام بأشد و أحدّ بيان، فتقول:

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأنّ «المسيح» هو الابن الحقيقة للّه سبحانه، بل إن اليهود كانوا يعتقدون أيضا مثل هذا الإعتقاد فى (عزير)، و كذلك عبدة الأصنام فى (الملائكة) فكانوا يظنون أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۸

بنات اللّه ۳۳۳].

عند ذلك قالت الآية بلهجة شديدة: لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا و الإدّ- على وزن ضد- معناه فى الأصل الصوت القبيح المضطرب الذى يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأمواج الصوتية فى حنجرة البعير، ثمّ أطلق على الأعمال القبيحة و الموحشة جدا.

و لما كانت مثل هذه النسبة غير الصحيحة مخالفة لأصل التوحيد- لأنّ اللّه سبحانه لا شبيه له و لا مثيل، و لا حاجة له إلى الولد، و لا هو جسم و لا تعرض عليه العوارض الجسمية- فكأنّ كل عالم الوجود، الذى بنى على أساس التوحيد، قد اضطرب و تصدع إثر هذه النسبة الكاذبة، و لذلك تضيف الآية التالية:

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا! و من أجل تأكيد و بيان أهمية الموضوع فإنّها تقول: إن كل ذلك من أجل أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

إنّ هؤلاء- فى الحقيقة- لم يعرفوا اللّه قط، لأنّه: وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً فإنّ الإنسان يطلب الولد لواحد من عدّة أشياء:

إمّا لأنّ عمره ينتهى فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته ليبقى نسله و ذكره.

أو لأنّه يطلب الصديق و الرفيق لأنّ قوته محدودة.

أو لأنّه يستوحش من الوحدة، فيبحث عن مؤنس لوحدته.

أو لأنّه يحتاج عند كبره و عجزه إلى مساعد و معين شاب.

لكن أيّا من هذه المعانى لا ينطبق على اللّه سبحانه، و لا يصح، فلا قدرته محدودة، و لا حياته تنتهى، و لا يعتريه الضعف و الوهن، و لا يحس بالوحدة و الحاجة، إضافة إلى أن امتلاك الولد دليل على الجسمية، و وجود الزوجة، و كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۰۹

هذه المعانى بعيدة عن ذاته المقدسة. و لذلك قالت الآية الأخرى: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً، فمع أن

كل العباد مطيعون له، و قد وضعوا أرواحهم و قلوبهم على الأكف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.
ثمّ تقول الآية التالية: لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا أى لا تتصور بأنّ محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، و عسير عليه سبحانه، فإنّ علمه واسع إلى الحد الذى ليس يحصى عدد هؤلاء و حسب، بل إنّه عالم و مطلع على كل خصوصياتهم، فلا هم يستطيعون الفرار من حكومته، و لا يخفى عليه شيء من أعمالهم.
وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً و بناء على هذا فإنّ المسيح و عزير و الملائكة و كل البشر يشملهم حكمه و لا يستثنى منه أحد، و مع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد و نقول بوجود ولد له، و كم ننقص من قدر ذاته المقدسة و ننزلها من أوج العظمة و قمتها، و ننكر صفاته الجلالية و الجمالية حينما ندعى أن له ولدا[۳۳۴]

ملاحظتان

۱- إلى الآن يظنون أنّه ابن اللّه!

إنّ ما قرأناه فى الآيات السابقة ينفى الولد عن اللّه بكل جزم و قطع، و إنّ هذه الآيات مرتبطة بزمان مرّ عليه أربعة عشر قرنا، فى حين أنّنا لا نزال نرى اليوم كثيرا من المسيحيين- و نحن فى عصر العلم- يعتقدون أنّ المسيح ابن اللّه، لا نبوة مجازية، بل هو الابن الحقيقى! و إذا ما ذكر فى بعض الكتابات التى لها صفة التبشير، و كتبت بصورة خاصّة للأوساط الإسلامية، إن هذا الابن ابن مجازى،
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۰
فإنّه لا يناسب و لا يوافق المتون الأصلية لكتبهم الاعتقادية بأى وجه من الوجوه.
و لا ينحصر هذا الأمر فى كون المسيح عليه السّلام أبنا، فإنّهم فيما يتعلق بمسألة التثليث التى تعنى الأرباب الثلاثة (هى جزء من الإعتقادات الأساسية لهم) و لما كان المسلمون يتنفرون من هذا الكلام الممتزج بالشرك، غيّروا نبرتهم فى الأوساط الإسلامية، و وجهوا كلامهم بأنّه نوع من التشبيه و المجاز. و من أجل زيادة التوضيح راجع قاموس الكتاب المقدس فى شأن المسيح و الأقانيم الثلاثة.

۲- كيف تفنى السماوات و تتلاشى؟

ما قرأناه فى الآية: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا إمّا أن يكون إشارة إلى أن مجموعة عالم الوجود- على أساس مفاهيم القرآن المجيد- تمتلك نوعا من الحياة و الإدراك و الشعور، و الآيات، كالآية (۷۴) من سورة البقرة: وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ و الآية (۲۱) من سورة الحشر: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ شاهدة على ذلك، فيكون المراد أنّ هذه النسبة غير الصحيحة إلى الساحة الإلهية المقدسة، قد أرعبت و أقلقت كل العالم.
أو أن يكون كناية عن شدة قبح هذا القول، و نظائر هذه الكناية ليست قليلة فى لسان العرب، و سنبحث- إن شاء اللّه تعالى- عن ذلك فى ذيل الآيات المناسبة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۱

الآيات [سورة مريم (۱۹): الآيات ۹۶ الى ۹۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا (۹۶) فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا (۹۷) وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً (۹۸)

التّفسير

الإيمان و المحبوبية:

هـذه الآيـات الثلاـث نهايـة سورة مريم، و الكلاـم فيهـا أيضا عن المؤمنين، و الظالمين الكافرين، و عن القرآن و بشاراته و انـذاراته، و هى- فى الحقيقة- عصارة البحوث السابقة بملاحظات و نكات جديدة.

تقول أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا.

لقد اعتبر بعض المفسّرين هذه الآية خاصّة بأمير المؤمنين عليه السّلام، و البعض اعتبرها شاملة لكل المؤمنين.

و قال آخرون: إنّ المراد أنّ اللّه سبحانه يلقى محبّة هؤلاء فى قلوب أعـدائهم، و تصبح هـذه المحبّة رباطا و لجاما فى رقابهم تجرهم إلى الإيمان.

و ذهب البعض بأنّها تعنى محبة المؤمنين بعضهم لبعض، و التى تكون سببا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۲

فى قوتهم و زيادة قدرتهم، و وحدة كلمتهم.

و اعتبرهـا بعضـهم إشـارة إلى محبّة المؤمنين و إخوتهم لبعضـهم فى الآـخرة، و قالوا: بأنّ هؤلاء سـيعيشون نوعا من العلاقـة فيما بينهم بحيث يكونون فى أعلى درجات السعادة و السرور.

غير أننا إذا فكرنا و تـدبرنا بسـعة نظر فى المفاهيم الواسـعة للآيـة، فسـنرى أن جميع هـذه التفاسـير قـد جمعت فى معنى الآية بدون أن تتضاد مع بعضها.

و النقطـة الرئيسـية للآيـة، هى أنّ للإيمان و العمل الصالـح جاذبيـة خارقة، فإنّ الإعتقاد بوحدانية اللّه، و الإيمان بدعوة الأنبياء، و الذى يتجلى نوره فى روح الإنسان و فكره، و قوله و عمله، بصورة أخلاق إنسانيـة عالية، و كذلك يتجلى فى التقوى و الطهارة، و الصدق و الأمانة، و الشجاعة و الإيثار، فيها قوة مغناطيسية عظيمة جاذبة و خاطفة.

و حتى الأـفراد الملوثون، فإنّهم يرتاحون للطاهرين الصالحين، و يتنفرون من القـذرين أمثالهم، و لـذلك فإنا نراهم- مثلا- إذا أقـدموا على الزواج فإنّهم يؤكّدون على توفر جانب العفة و الطاهرة و الأمانة و الصدق فى الزوجة.

و هذا أمر طبيعى، و هو فى الحقيقة أوّل مكافأة يعطيها اللّه للمؤمنين و الصالحين فى هذه الدنيا و تصحبهم إلى عالم الآخرة أيضا.

لقـد رأينـا بـأم أعيننا كثيرا من هؤلاء الأتقياء عنـد ما يحين أجلهم و يرتحلون عن هـذه الـدنيا، فإنّ الناس يبكونهم، بالرغم من أنّهم لم يكن لهم منصب و لا مركز اجتماعى، و لكن الناس يشعرون يفقدهم، و يعتبرون أنفسهم شركاء فى مصاب هؤلاء و عزائهم.

أمّا ما اعتقـده البعض من أنّ ذلك فى شأن أمير المؤمنين عليه السّـلام، و قـد أشـير إلى ذلك فى روايات عديدة، فإنّ الدرجة العالية و المرحلة السامية منه مختصة بإمام المتقين- و سنبحث بعض هذه الرّوايات مفصلا فى الملاحظات الآتية- إلّا أنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۳

لا يكون مانعا من أن يـذوق و يتمتع كل المؤمنون و الصالحون فى المراتب الأخرى بطعم المحبّة هذا، و يحظون به لدى عامّة الناس،

و أن یفوزوا بسهم من هذه المودّة الإلهیة. و سوف لا یکون مانعا من أن یضمر الأعداء- أیضا- فی داخلهم المحبّة و الاحترام تجاه هؤلاء.

و هناک نکتة لطیفة نقرؤها

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ اللّه إذا أحبّ عبدا دعا جبرئیل، فقال: یا جبرئیل، إنّی أحب فلانا فأحبّه، قال: فیحبّه جبرئیل، ثمّ ینادی فی أهل السماء: إن اللّه یحب فلانا فأحبّوه، قال: فیحبّه أهل السماء، ثمّ یوضع له القبول فی الأرض.

و إن اللّه إذا أبغض عبدا دعا جبرئیل، فقال: یا جبرئیل، إنّی أبغض فلانا فابغضه، قال: فیبغضه جبرئیل، ثمّ ینادی فی أهل السماء: إنّ اللّه یبغض فلانا فأبغضوه، قال:

فیبغضه أهل السماء، ثمّ یوضع له البغضاء فی الأرض»[۳۳۵].

إنّ هذا الحدیث العمیق المحتوی یبیّن أن للإیمان و العمل الصالح نورا و ضیاء بسعة عالم الوجود، و یعم نور المحبة الحاصل منهما کل أرجاء عالم الخلقة، و إن الذات الإلهیة المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عن کل أهل السماء، و تقذف هذه المحبّة فی قلوب أهل الأرض.

حقا، أی لذة أکبر من أن یحس الإنسان بأنّه محبوب من قبل کل الطاهرین و الصالحین فی عالم الوجود؟ و أی عذاب أشد من أن یشعر الإنسان بأن الأرض و السماء و الملائکة و المؤمنین جمیعا متنفرون و مشمئزون منه؟! ثمّ تشیر الآیة التالیة إلی القرآن الذی هو منبع و مصدر تنمیة الإیمان و العمل الصالح، فتقول: فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا.

«اللّد»- بضم اللام و تشدید الدال- جمع ألدّ- علی وزن معدّ- بمعنی العدو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۴

الشدید العداوة، و تطلق علی المتعصب العنود فی عداوته، و لا منطق له.

و تقول الآیة الأخیرة کتهدئة لخاطر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المؤمنین، و تسلیة لهم، خاصّة مع ملاحظة أنّ هذه السورة نزلت فی مکّة، و کان المسلمون یومذاک تحت ضغط شدید جدّا. و کذلک تقول بنبرة التهدید و التحذیر لکل الأعداء اللجوجین العنودین: وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِکْزاً.

«الرکز» بمعنی الصوت الهادیء، و یقال للأشیاء التی یخفونها تحت الأرض:

«رکاز»، أی إنّ هؤلاء الأقوام الظالمین، و أعداء الحق و الحقیقة المتعصبین، قد تمّ تدمیرهم و سیحقهم الی حدّ لا یسمع صوت خفی منهم.

بحثان

۱- محبّة علی علیه السّلام فی قلوب المؤمنین

لقد صدرت روایات عدیدة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی سبب نزول قوله تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا فی کثیر من کتب الحدیث و تفسیر السنة و الشیعة، و هی تبیّن أنّ هذه الآیة نزلت لأول مرّة فی حق علی علیه السّلام، و من جملة من یمکن ذکرهم: العلّامة الزمخشری فی الکشاف، و سبط ابن الجوزی فی التذکرة، و الکنجی الشافعی، و القرطبی فی تفسیره المشهور، و محب الدین الطبری فی ذخائر العقبی، و النیسابوری فی تفسیره المعروف، و ابن الصباغ المالکی فی الفصول المهمة، و السیوطی فی الدر المنثور، و الهیثمی فی الصواعق المحرقة، و الآلوسی فی روح المعانی. و من جملة الأحادیث:

۱-

یروی الثعلبی فی تفسیره عن البراء بن عازب: إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال لعلی علیه السّلام: «قل: اللّهم اجعل لی عندک عهدا، و اجعل لی فی قلوب المؤمنین مودّة»،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۵

فأنزل اللّه تعالی: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا[۳۳۶].

و قد وردت نفس هذه العبارة باختلاف یسیر فی کثیر من الکتب الأخری.

۲- و قد نقل عن ابن عباس- فی کثیر من المصادر الإسلامیة- أنّه قال:

نزلت فی علی بن أبی طالب: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا قال: محبة فی قلوب المؤمنین ۳۳۷].

۳- روی فی کتاب «الصواعق» عن محمّد بن الحنفیة فی تفسیر هذه الآیة:

لا یبقی مؤمن إلّا و فی قلبه ودّ لعلی و لأهل بیته ۳۳۸].

۴- و ربّما روی لهذا السبب

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام نفسه فی روایة صحیحة معتبرة أنّه قال: «لو ضربت خیشوم المؤمن بسیفی هذا علی أن یبغضنی ما أبغضنی، و لو صببت الدنیا بجماتها علی المنافق علی أن یحبنی ما أحبنی، و ذلک أنّه قضی فانقضی علی لسان النّبی الأمی أنّه قال: لا یبغضک مؤمن، و لا یحبّک منافق»[۳۳۹].

۵- و نقرأ

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «و دعا رسول اللّه لأمیر المؤمنین فی آخر صلاته، رافعا بها صوته لیسمع الناس: «اللّهم هب لعلی المودة فی صدور المؤمنین، و الهیبة و العظمة فی صدور المنافقین، فأنزل اللّه: إن الذین آمنوا ...» الآیة[۳۴۰].

علی کل حال- و کما قلنا فی تفسیر الآیات أعلاه- فإنّ نزول هذه الآیة فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۶

علی علیه السّلام لأنّه المصداق الأتم و الأکمل، و لا یمنع من تعمیمها فی شأن کل المؤمنین علی اختلاف المراتب.

۲- تفسیر جملة: یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ

«یسّرناه»، من مادة التیسیر، أی التسهیل، و اللّه سبحانه یقول: فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِینَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا، فیمکن أن یکون هذا التسهیل من جوانب مختلفة:

۱- من جهة أن القرآن عربی فصیح، عذب سلس العبارة، و له نغمة تفرح القلب، و تلاوته سهلة علی اللسان.

۲- من جهة أن سبحانه قد سلط نبیّه و مکنه من آیات القرآن، بحیث کان یستفید منها بکل بساطة فی کل مکان، و لحل أیة مشکلة، و کان یتلوها دائما علی المؤمنین، و بلا انقطاع.

۳- من جهة المحتوی، برغم عمق معانیه و کثرة ما یستنبط منه، فإن إدراکه سهل و بسیط فی الوقت نفسه، و لا ریب أن کل هذه الحقائق الکبیرة و المهمة التی صبت فی قالب هذه الألفاظ المحدودة، سهلة الإدراک، و هی بذاتها دلیل علی إعجاز القرآن. و قد تکررت هذه الجملة فی عدة آیات من سورة القمر: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ.

إلهنا، نوّر قلوبنا بنور الإیمان، و وجودنا بنور العمل الصالح، و اجعلنا من محبی المؤمنین و الصالحین، و خاصّة إمام المتقین، و أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، و ألق محبتنا فی قلوب کل المؤمنین.

اللّهم، اجمع شمل مجتمعنا الإسلامی الکبیر الذی وقع فی قبضة» الأعداء- مع کل ماله من کثرة العدد وسعة الإمکانیات المادیة و المعنویة- و الضعف و العجز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۷

الذی اعتراه نتیجة تبعثر و تفرقة الصفوف ... اللهم ألف شمله و اجمعه حول مشعل الإیمان و العمل الصالح.

ربّنا، کما أهلکت الجبارین المتمردین السابقین حتی لا یسمع لهم حس و لا صوت، فامح جبابرة زماننا أیضا، و ادفع شرّهم عن المستضعفین، و منّ بالنصر النهائی علی المؤمنین فی ثورتهم ضد المستکبرین.

آمین یا رب العالمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۱۹

سورة طه مکّیة و عدد آیاتها مائة و خمس و ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۱

«سورة طه»

فضل سورة طه

وردت روایات عدیدة حول عظمة و أهمیة هذه السورة فی المصادر الإسلامیة.

فعن النّبی الأکرم اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن اللّه تعالی قرأ طه و یس قبل أن یخلق آدم بألفی عام، فلمّا سمعت الملائکة القرآن قالوا: طوبی لأمّة ینزل هذا علیها، و طوبی لأجواف تحمل هذا، و طوبی لألسن تکلّم بهذا»[۳۴۱].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإنّ اللّه یحبّها، و یحبّ من قرأها، و من أدمن قراءتها أعطاه اللّه یوم القیامة کتابه بیمینه، و لم یحاسبه بما عمل فی الإسلام، و أعطی فی الآخرة من الأجر حتی یرضی»[۳۴۲].

و

فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأها أعطی یوم القیامة ثواب المهاجرین و الأنصار»[۳۴۳].

و نری من اللازم أن نکرر هذه الحقیقة، و هی أنّ کل هذه المکافئات و الهبات العظیمة التی وصلت إلینا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام مقابل تلاوة سور القرآن، لا تعنی و لا ترید أن کل هذه النتائج تعود علی الإنسان بالتلاوة فقط، بل المراد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۲

تکون التلاوة مقدمة للتفکر و التدبر، التفکر الذی تتجلی آثاره فی کل أعمال و أقوال الإنسان، و إذا أخذنا المحتوی الإجمالی لهذه السورة بنظر الإعتبار، فإننا سنری أنّ للرّوایات تناسبا کاملا مع محتوی هذه السورة.

محتوی السّورة

إنّ سورة (طه) برأی جمیع المفسّرین نزلت فی مکّة، و أکثر ما یتحدث محتواها عن المبدأ و المعاد کسائر السور المکّیة، و یذکر نتائج التوحید و تعاسات الشرک.

فی القسم الأوّل، تشیر هذه السورة إشارة قصیرة إلی عظمة القرآن، و بعض صفات اللّه الجلالیة و الجمالیة.

أمّا قسم الثّانى الـذى يتضـمّن أكثر من ثمانين آية- فيتحدث عن قصة موسـى عليه السّـلام، من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار و أعوانه، إلى مواجهة السحرة و إيمانهم. ثمّ إغراق اللّه فرعون و أتباعه بصورة إعجازية، و نجاة موسى و الذين آمنوا به.

ثمّ تبيّن حادثة عبادة بنى إسرائيل للعجل، و المواجهة بين هارون و موسى و بين بنى إسرائيل.

و فى القسم الثّالث جاءت بعض المسائل حول المعاد، و جانب من خصوصيات القيامة.

و فى القسم الرّابع الحديث عن القرآن و عظمته.

و فى القسم الخامس تصف الآيات قصّة آدم و حواء فى الجنّة، ثمّ حادثة وسوسة إبليس، و أخيرا هبوطهما إلى الأرض.

و فى القسم الأخير، تبيّن السورة المواعظ و النصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب فى كثير من الآيات إلى نبى الإسـلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۳

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طه (۱) ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى (۲) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى (۳) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى (۴) الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى (۵) لَهُ مـا فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى (۶) وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى (۷) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى (۸)

سبب النّزول

وردت روايـات كثيرة فى سـبب نزول الآيات الأولى من هـذه السورة، يسـتفاد من مجموعها أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بعد نزول الوحى و القرآن كـان يعبـد اللّه كثيرا، و خاصّـة أنّه كـان يكثر القيـام و الوقوف فى العبادة حتى تورمت قـدماه، و كان من شـدّة التعب أحيانا يسـتند فى وقوفه على أحـدى قـدميه، ثمّ يسـتند على الأخرى حينا آخر، و حينا على كعب قدمه، و آخر على أصابع رجله ۳۴۴]، فنزلت الآيات المذكورة و أمرت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يحمل نفسه كل هذا التعب و المشقّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۴

التّفسير

لا تجهد نفسك إلى هذا الحد:

مرّة أخرى نواجه الحروف المقطعة فى بداية هذه السورة، و التى تثير حبّ الاستطاع لدى الإنسان:

لقد بحثنا فى تفسـير الحروف المقطعة فى القرآن فى بداية ثلاث سور بحثا كافيا[۳۴۵]، غير أنّنا نرى أن من اللازم أن نضـيف هنا هذا المبحث، و هو أن من الممكن أن يكون لكل هذه الحروف المقطعة- أو على الأقل لقسم منها- معان و مفاهيم خاصّة، تماما كالكلمة الواحدة التى تتضمّن محتوى معينا.

إنّنا نلاقى فى كثير من الرّوايات و كلمات المفسّرين فى بدايـة هذه السورة و سورة «يس» هذا البحث، و هو أن «طه» تعنى: يا رجل، و نرى كلمة «طه» فى بعض شعر العرب أيضا، و لها معنى شبيه ب (يا رجل) أو قريب منه، و يمكن أن تعود هذه الأشعار إلى بداية ظهور الإسلام، أو إلى ما قبل الإسلام ۳۴۶].

و قـد نقل لنا أحد المطلعين أن بعض علماء الغرب الملمين بالدراسات الإسـلامية، يعممون هذه النظرية على كل الحروف المقطعة فى القرآن، و يعتقدون أن الحروف المقطعة فى بداية كل سورة هى كلمة لها معنى خاص، أصـبح بعضها متروكا مع مرور الزمن، و وصل إلينا البعض، و إلّا فإنّ من المستبعد أن مشركى العرب يسمعون الحروف المقطعة و لا يفهمون منها شيئا، و لا يدركون لها معنى، ثمّ لا نراهم يسـخرون و لا- يسـتهزءون منهـا، فى حين أنّه لا- يرى و لا- يلاحـظ فى أى من التواريـخ أنّ هؤلاـء الحمقى المتتبعين للعيـوب و الهفوات قد اتخذوا الحروف المقطعة وسيلة للقيام بردود فعل ضدها و ضد الإسلام.

و طبعا من الصعب قبول هذا الرأى بصورة عامّة، و بالنسبة إلى كل حروف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۵

القرآن المقطعة، إلّا أنّه يمكن قبوله فى البعض منها، و قد بحث هذا الموضوع أيضا فى الكتب الإسلامية.

و ممّا يلفت النظر، و هو أنّنا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ طه من أسماء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و معناه: يا طالب الحق الهادى إليه»

و يظهر من هـذا الحـديث أنّ طه مركب من حرفين رمزيين، فالطـاء إشـارة إلى طـالب الحق، و الهـاء إلى الهـادى إليه، و نحن نعلم أن اسـتعمال الحروف الرمزية و علامات الاختصار فيما مضـى و فى يومنا هذا أمر طبيعى و كثير الاستعمال، خاصّة فى عصرنا الحاضر فإنّه كثير التداول و الاستعمال جدّا.

و آخر كلام فى هذا الباب هو أنّ (طه) ك (يس) قد أصـبحت تدريجيا و بمرور الزمان اسـما خاصا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى أنّهم يسـمون آل النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم آل طه أيضا، و عبّر عن الإمام المهدى عجل اللّه فرجه فى دعاء الندبة ب (يا بن طه).

ثمّ تقول الآيـة: ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْـقى فصـحيح أن العبادة و التقرب إلى اللّه عن طريق مناجاته من أفضل العبادات، إلّا أنّ لكل عمل حسابا و مقـدارا، و للعبادة أيضا مقـدارها، فلا يجب أن تجهـد نفسك بالعبادة حتى تتورم قدماك، و بالتالى ستضـعف قوتك و تعجز عن التبليغ و الجهاد.

و ينبغى الالتفـات إلى أن «تشـقى» مأخوذة من مادة الشـقاء ضـد السـعادة، إلّا أنّ هـذه المادة، و كما يقول الراغب فى المفردات، تأتى أحيانا بمعنى المشقّة و التعب، و المراد فى الآية هذا المعنى، كما يحكون ذلك أيضا فى أسباب النّزول.

ثمّ تبيّن الآية الأخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشى

إنّ التعبير ب «تذكرة» من جهة، و ب «من يخشـى» من جهة أخرى يشير إلى واقع لا يمكن إنكاره، و هو: إن التذكرة توحى بأن أسس و مقومـات كـل التعليمـات الإلهيـة موجودة فى أعمـاق روح الإنسـان و طبيعته، و تعليمـات الأنبيـاء تجعلهـا مثمرة، و توصـلها إلى حد النضج، كما نذكّر أحيانا بمطلب و أمر ما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۶

لا نقول: إنّ الإنسان كان يعلم كل العلوم من قبل و زالت من ذاكرته، و إن أثر التعليم فى هـذا العالم هو التـذكير فحسب- كما ينقلون ذلك عن أفلاطون- بل نقول: إنّ مادتها الأصلية قد أخفيت فى طينة الآدمى (دققوا ذلك).

إنّ تعبير «من يخشى» يبيّن أن نوعا من الإحساس بالمسؤولية، و الذى سمّاه القرآن بالخشية، إذا لم يكن موجودا فى الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق، لأنّ قابليـة القابل شـرط فى حمل و نمو كل بـذرة و حبـة. و هـذا التعبير فى الحقيقة شبيه بما نقرؤه فى أوّل سورة البقرة:

هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

ثمّ تتطرق الآيات إلى التعريف باللّه تعالى المنزل للقرآن، لتتضح عظمة القرآن من خلال معرفته، فتقول: تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَ السَّماواتِ الْعُلى ۳۴۷].

إنّ هذا التعبير فى الحقيقة إشارة إلى ابتداء و انتهاء نزول القرآن، انتهاؤه إلى الأرض و ابتداؤه من السماوات، و إذا لم تصف هنا كلمة «و ما بينهما»- كما فى بعض الآيات الأخرى من القرآن- فربّما كان لهذا السبب، و هو أنّ الهدف كان بيان الابتداء و الانتهاء.

على كل حال، فإنّ من المعلوم أنّ اللّه الذى عمت قدرته و تدبيره و حكمته كل أرجاء الأرض السماء، إذا أنزل كتابا، فكم سيكون غنى المحتوى، و جنىّ الثمر؟! ثمّ تستمر فى تعريف اللّه المنزل للقرآن فتقول: الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى و كما قلنا سابقا فى تفسير الآية: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ۳۴۸]، فإنّ كلمة عرش تقال للشىء الذى له سقف، و أحيانا تطلق على نفس السقف، أو على الأسرة المرتفعة القوائم كأسرة و كراسى السلاطين، و فى قصة سليمان نقرأ:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۷

أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِها[۳۴۹].

من البديهى أنّ اللّه سبحانه ليس له عرش، و لا محكومة كحكام البشر، بل المراد من عرش اللّه كل عالم الوجود الذى يعتبر عرشه، و بناء على هذا فإنّ قوله تعالى: اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ كناية عن تسلط اللّه، و إحاطته الكاملة بعالم الوجود، و نفوذ أمره و تدبيره فى جميع أنحاء العالم.

و أساسا فإنّ كلمة «عرش» فى لغة العرب، كناية عن القدرة غالبا، فنقول مثلا: إن فلانا قد أنزلوه من العرش، أو أزاحوه عنه، فهذا يعنى أنّهم قد أنهوا حكمه و قدرته، أو نقول: ثل عرشه.

و على كل حال، فإنّ من السخف أن يتوهم الإنسان من هذا التعبير جسمية اللّه سبحانه.

ثمّ تتحدث عن مالكية اللّه بعد حاكميته فتقول: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ ما تَحْتَ الثَّرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۹ ؛ ص۵۲۷

الثرى» فى الأصل بمعنى التراب الرطب، و لما كانت قشرة الأرض- فقط- هى التى تجف نتيجة لأشعة الشمس و هبوب الرياح، و تبقى الطبقة السفلى- غالبا- رطبة، فإنّه يقال لهذه الطبقة: ثرى، و على هذا فإن وَ ما تَحْتَ الثَّرى تعنى أعماق الأرض و جوفها، و كلها مملوكة لمالك الملك و خالق عالم الوجود.

إلى هنا بينت ثلاثة أركان من أركان صفات اللّه: الركن الأوّل: «خالقيته»، و الثّانى: «حاكميته»، و الثّالث: «مالكيته».

و أشارت الآية التالية إلى الرّكن الرّابع، أى: «العالمية»، فقالت: «وَ إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى و هناك نقاش و بحث بين المفسّرين فى المراد من «أخفى» هنا:

فذهب بعضهم إلى أنّ السر هو أن يتحدث إنسان مع آخر بصورة خفية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۸

و أخفى: هو أن يحتفظ الإنسان بذلك القول و الأمر فى قلبه و لا يحدث به أحدا.

و ذهب آخرون: إن «السر» هو ما أضمره الإنسان فى قلبه، و «أخفى» هو الذى لم يخطر على باله، إلّا أنّ اللّه سبحانه مطلع عليه و عالم به.

و قال ثالث: إنّ «السر» هو ما يقوم به الإنسان من عمل فى الخفاء، و أخفى:

هى النية التى فى قلبه.

و قال رابع: إن (السر) يعنى أسرار الناس، و (أخفى) هى الأسرار التى فى ذات اللّه المقدسة.

فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام: «السر ما أخفيته فى نفسك، و أخفى ما خطر ببالك ثمّ أنسيته»[۳۵۰].

إنّ هذه الحديث يمكن أن يكون إشارة إلى أن ما يتعلمه الإنسان يودع فى مخزن الحافظة، غاية الأمر أن ارتباط الإنسان قد ينقطع أحيانا مع زاوية من هذا المخزن، فتنتج حالة النسيان، و لذلك فإنّه إذا ما تذكر ذلك المنسى بطريقة ما، فسيرى هذا المطلب واضحا و معروفا لديه، و بناء على هذا فإن ما ينساه الإنسان هو أخفى أسراره التى أخفيت فى زوايا الحافظة، و قطع ارتباطه بها بصورة مؤقتة، أو دائمة.

و لكن لا مانع على كل حال من أن تجمع كل هذه التفاسير التى ذكرت أعلاه فى مفهوم الكلمة و معناها الواسع. و على هذا فقد رسمت صورة واضحة عن علم اللّه اللامتناهى، و عرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفة إجمالية فى الأبعاد الأربعة: الخلقة، و الحكومة، و المالكية، و العلم.

و الآية التالية ربّما تشير إلى ما ذكرنا: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى

و كما قلنا فى تفسير الآية (۸۰) من سورة الأعراف، فإنّ التعبير بالأسماء الحسنى قد ورد مرارا و تكرارا فى الآيات القرآنية، و فى كتب الحديث و من البديهى أن كل أسماء اللّه حسنة، و لكن لما كانت لبعض أسماء اللّه و صفاته أهمية أكبر، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۲۹

سمّيت بالأسماء الحسنى.

و نقرأ فى كثير من الرّوايات التى وصلتنا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهم السّلام أن للّه (۹۹) اسما، و كل من دعاه بهذه الأسماء يستجاب دعاؤه، و كل من أحصاها فهو من أهل الجنّة. و يلاحظ هذا المضمون أيضا فى مراجع الحديث المعروفة عند أهل السنة أيضا.

و يبدو أنّ المراد من إحصاء هذه الأسماء هو التخلق بصفاتها، لا مجرّد ذكر ألفاظها، و لا شك أن من تخلق بصفة العالم و القادر، أو الرحيم و الغفور و أمثالها، و سطعت فى وجوده أشعة و قبسات من هذه الصفات الإلهية العظيمة، فإنّه من أهل الجنة، و ممن يستجاب دعاؤه.

و لمزيد الإيضاح راجع الآية (۱۸۰) من سورة الأعراف من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۰

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹ الى ۱۶]

اشارة

وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۹) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (۱۰) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى (۱۱) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (۱۳) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (۱۴) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (۱۵) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (۱۶)

التّفسير

نار فى الجانب الآخر من الصحراء!

من هنا تبدأ قصّة نبى اللّه الكبير موسى عليه السّلام، و تفصيل الجوانب المهمّة من هذه القصة المليئة بالأحداث سيأتى فى أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة و مواساة و تسلية لخاطر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۱

مكّة ضغوطا شديدة من الأعداء، ليعلموا أن هذه القوى الشيطانية لا طاقة لها فى مقاومة قدرة اللّه، و أنّ كل هذه الخطط و المؤامرات رسم على الماء.

و كذلك ليعتبروا بهذه الواقعة المليئة بالعبر و المواعظ، و يستمروا فى طريقهم فى توحيد اللّه و عبادته، و محاربة فراعنة و سحرة كل عصر و زمان، و كذلك مجاهدة الانحرافات الداخلية و الرغبات المنحرفة .. تلك العبر التى تستطيع أن يكون دليلا و مرشدا لهم فى مسيرتهم الجهادية.

و يمكن تقسيم مجموع الآيات التى تحدثت عن موسى و بنى إسرائيل و الفراعنة فى هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن بداية نبوة موسى و بعثته، و أوّل و مضات الوحى، و بتعبير آخر: فإنّ البحث يدور حول مرحلة قصيرة المدة غنية المحتوى و قضاها موسى فى الوادى المقدس فى تلك الصحراء المظلمة المقفرة.

القسم الثّانى: يتحدث عن دعوة موسى و أخيه هارون لفرعون- و ملئه- إلى دين التوحيد، ثمّ اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثّالث: يبحث عن خروج موسى و بنى إسرائيل من مصر، و كيفية نجاتهم من قبضة فرعون و أتباعه، و غرق هؤلاء و هلاكهم.

القسم الرّابع: و يتحدث حول الاتجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، و قبول وساوس السامرى، و مواجهة موسى الحازمة لهذا الانحراف.

و نعود الآن إلى الآيات مورد البحث، و التى ترتبط بالقسم الأوّل. فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق و جذاب: وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى و من البديهى أن هذا الاستفهام ليس هدفه تحصيل الخبر، فهو سبحانه مطلع على جميع الأسرار، بل هو «استفهام تقريرى»، و بتعبير آخر فإنّ هذا الاستفهام، مقدمة لبيان خبر مهم، كما نقول فى مكالماتنا اليومية حينما نريد أن نبدأ بذكر خبر مهم: أسمعت هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۲

الخبر الذى ...؟

ثمّ تقول: إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً فبملاحظة أن «القبس» يعنى الشعلة القليلة التى تؤخذ من النار، و بملاحظة أن مشاهدة النار فى الصحارى تدل عادة على أن جماعة قد اجتمعوا حولها، أو أنّهم وضعوها على مرتفع حتى لا تضل القوافل الطريق فى الليل، و أيضا بملاحظة أن «مكثوا»- من مادة مكث- تعنى التوقف القصير، فمن مجموع هذه التعابير يستفاد أن موسى و زوجته و ابنه كانوا يقطعون الصحراء فى ليلة ظلماء .. ليلة كانت مظلمة و باردة كان موسى قد ضل الطريق فيها، فجلبت انتباهه شعلة نار من بعيد، و بمجرد رؤيتها قال لأهله: قفوا هنا قليلا فقد رأيت نارا سأذهب إليها حتى آتيكم منها بقبس، أو أجد الطريق بواسطة النار أو من اجتمع حولها.

و نقرأ فى التواريخ أنّ موسى عليه السّلام عند ما انتهت مدّة عقده مع «شعيب» فى «مدين»، حمل زوجته و ابنه و أغنامه و سار من مدين إلى مصر، فضلّ الطريق، و كانت ليلة مظلمة، فتفرقت أغنامه فى الصحراء، فأراد أن يشعل نارا فى ذلك الليل البارد ليتدفأ هو و أهله، و حاول إشعال النار فلم يفلح، و فى هذه الأثناء عصفت بزوجته آلام الوضع! لقد حاصره سيل من الحوادث الصعبة .. و فى هذه الأثناء لاح لعينيه ضياء من بعيد، إلّا أنّه لم يكن نارا، بل كان نورا إلهيا، و ظن موسى أنّه نار، فسعى نحوها علّه يجد من يهديه فى تلك الصحراء إلى الطريق، أو يأخذ لأهله جذوة منها[۳۵۱].

و الآن لنسمع بقية الحادثة من القرآن الكريم:

فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ يا مُوسى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً و يستفاد من الآية (۳۰) من سورة القصص، أن موسى قد سمع هذا النداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۳

من جهة شجرة كانت هناك: نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ يستفاد من مجموع هذين التعبيرين أن موسى لما اقترب شاهد النار فى داخل الشجرة- و يقول المفسّرون أنّها كانت شجرة العناب- و هذا بنفسه كان قرينة واضحة على أن هذه النار ليست نارا عادية، بل إنّ هذا النور الإلهى الذى ليس لم يحترق الشجرة و حسب، بل إنّه منسجم معها و معروف، ألا و هو نور الحياة! و قد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيى للروح: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ و أحاطت بكل وجوده لذة لا يمكن وصفها، فمن هذا الذى يتحدث معى؟ إنّه ربّى الذى جللنى بالفخر الكلمة رَبُّكَ ليعلمنى بأنّى قد تربيت و ترعرعت منذ نعومة أظفارى و إلى الآن فى ظل رحمته و عنايته، و أصبحت مهيئا لرحمة عظيمة.

لقد أمر أن يخلع نعليه، لأنّه قد وضع قدمه فى أرض مقدسة .. الأرض التى تجلى فيها النور الإلهى، و يسمع فيها نداء اللّه، و يتحمل مسئولية الرسالة، فيجب أن يخطو فى الأرض بمنتهى الخضوع و التواضع، و هذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

بناء على هذا، فإنّ البحث المفصل الذى بحثه بعض المفسّرين حول خلع النعل- و نقلوا أقوالا عن المفسّرين- يبدو زائدا. طبعا لقد نقلت روايات فى باب تأويل هذه الآية سنبحثها فى مقطع البحوث.

إنّ التعبير ب (طوى) إمّا لأنّ اسم تلك الأرض كان أرض طوى، كما قال ذلك أغلب المفسّرين، و لأن «طوى» فى الأصل بمعنى الإحاطة، و هنا كناية عن أن البركات المعنوية التى أحاطت هذه الأرض من كل جانب، و لهذا عبر عنها فى الآية (۳۰) من سورة القصص بأنّها «البقعة المباركة».

ثمّ سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى و من بعدها تلقى موسى أوّل جمله من الوحى على شكل ثلاثة أمور: إِنَّنِي أَنَا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۴

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي شرعت هذه الآية فى بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء فى هذه الآية، ألا و هو مسألة التوحيد، و بعدها ذكرت موضوع عبادة اللّه الواحد كثمرة لشجرة الإيمان و التوحيد، ثمّ أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، و هى تعنى أكبر عبادة و أهم ارتباط بين الخلق و الخالق، و أكثر الطرق تأثيرا فى عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

إنّ هذه الأوامر الثلاثة، مع أمر الرسالة الذى ورد فى الآية السابقة، و مسألة المعاد التى تأتى فى الآية التالية، تشكّل مجموعة كامله و مضغوطة من أصول الدين و فروعه، و تكملها بالأمر بالاستقامة الذى سيأتى فى آخر الآيات مورد البحث.

و لما كان المعاد هو الأصل و الأساس الثّانى، فبعد ذكر التوحيد و أغصانه و فروعه، أضافت الآية التالية: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى

فى هذه الجملة نقطتان يجب الالتفات إليهما:

الأولى: إن معنى جملة أَكادُ أُخْفِيها: يقرب أن أخفى تاريخ قيام القيامة، و لازم هذا التعبير أنّى لم أخفه من قبل، و نحن نعلم بصريح كثير من آيات القرآن، أن أحدا لم يطلع على تاريخ القيامة، كما فى الآية (۱۸۷) من سورة الأعراف حيث نقرأ: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي

لقد بحث المفسّرون هذا الموضوع، فالكثير منهم يعتقد أن هذا التعبير نوع من المبالغة و معناه: إن وقت بدء و قيام القيامة مخفى و مجهول إلى الحد الذى أكاد أخفيه حتى عن نفسى. و قد وردت فى هذا الباب رواية أيضا، و يحتمل أن هذه الفئة من المفسّرين قد

اقتبسوا رأيهم من تلك الرّواية.

و التّفسير الآخر هو أن مشتقات (كاد) لا تعنى دائما الاقتراب، بل تأتى أحيانا بمعنى التأكيد، و لذلك فإنّ بعض المفسّرين فسر (أكاد) ب (أريد) و قد جاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۵

هذا المعنى صريحا فى بعض متون اللغة[۳۵۲].

و النقطة الأخرى: إنّ علّة إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هى: لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى و بتعبير آخر: فإنّ كون الساعة مخفية سيوجد نوعا من حرية العمل للجميع. و من جهة أخرى فإن وقتها لما لم يكن معلوما بدقة، و يحتمل أن يكون فى أى وقت و ساعة، فإنّ نتيجة هذا الخفاء هى حالة الاستعداد الدائم و التقبل السريع للبرامج التربوية، كما قالوا فى فلسفة إخفاء ليلة القدر: إن المراد أن يحيى الناس كل ليالى السنة، أو كل ليالى شهر رمضان المبارك، و يتوجهوا إلى اللّه سبحانه.

و أشارت الآية الأخيرة إلى أصل أساس يضمن نتفيذ كل البرامج العقائدية و التربوية، فتقول: فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ و الّا فسوف تملك فَتَرْدى فأصمد فى مقابل الكافرين و وساوسهم و عراقيلهم، و لا تدع للخوف من كثرتهم و مؤامرتهم و خططهم الخبيثة إلى قبلك سبيلا، و لا تشك مطلقا فى أحقية دعوتك و أصالة دينك نتيجة هذه الضوضاء.

الملفت للنظر أنّ جملة «لا يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، و جملة «و اتبع هواه» بصيغة الماضى، و هى فى الحقيقة أشارت إلى هذه النكتة، و هى أن عدم إيمان منكرى القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحرارا و يفعلون ما تشتهى أنفسهم، فأى شىء أحسن من أن ينكروا القيامة حتى لا تخدش حرية ميولهم و أهوائهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۶

بحوث

۱- المراد من قوله تعالى: فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ

و كما قلنا، فإن ظاهر الآية أنّ موسى عليه السّلام قد أمر بخلع نعليه احتراما لتلك الأرض المقدسة، و أن يسير بكل خضوع و تواضع فى ذلك الوادى ليسمع كلام الحق، و أمر الرسالة.

إلّا أنّ بعض المفسّرين قالوا تبعا لبعض الرّوايات: إنّ سبب ذلك هو أن جلد ذلك النعل كان من جلد حيوان ميت.

إنّ هذا الكلام إضافة إلى أنّه يبدو بعيدا بحد ذاته، لأنّه لا دليل على أن موسى عليه السّلام كان يستعمل مثل هذه الجلود و النعال الملوثة، فإن الرّواية التى رويت عن الناحية المقدسة، صاحب الزمان- أرواحنا له الفداء- تنفى هذا التّفسير نفيا شديدا[۳۵۳]. و يلاحظ فى التوراة الحالية أيضا، سفر الخروج، الفصل الثّالث، نفس التعبير الذى يوجد فى القرآن.

البعض الآخر من الرّوايات يشير إلى تأويل الآية و بطونها: «فاخلع نعليك:

أى خوفيك: خوفك من ضياع أهلك، و خوفك من فرعون»[۳۵۴].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فيما يتعلق بهذا الجانب و الزمن من حياة موسى عليه السّلام حيث يقول: «كن لما لا ترجوا أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج ليقبس لأهله نارا فرجع إليهم و هو رسول نبى»[۳۵۵]!

و هى إشارة إلى أن الإنسان كثيرا ما يأمل أن يصل إلى شىء لكنه لا يصل إليه، إلّا أن أشياء أهم لا أمل له فى نيلها تتهيأ له بفضل

اللّه.

و قد نقل هذا المعنى أيضا عن أمير المؤمنين على عليه السّلام ۳۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۷

۲- جواب عن سؤال،

يطرح بعض المفسّرين هنا سؤالا، و هو: كيف و من أين علم موسى أنّ الصوت الذى يسمعه صادر من اللّه سبحانه و تعالى؟ و من أين تيقن أن اللّه كلّفه بهذه المهمّة؟

و هذا السؤال يمكن طرحه فى شأن سائر الأنبياء أيضا، و يمكن الإجابة عنه بطريقين:

الأوّل: إنّه يحصل للأنبياء فى تلك الحالة نوع من المكاشفة الباطنية و الإحساس الداخلى تبلغهم و توصلهم إلى القطع و اليقين الكامل، و تزيل عنهم كل أنواع الشك و الشبهة.

و الثّانى: إنّ من الممكن أن تكون بداية الوحى مقترنة بأمور خارقة للعادة، لا يمكن أن تقع و تتمّ إلا بقوة اللّه، كما أن موسى عليه السّلام شاهد النار فى الشجرة الخضراء، و من هذا فهم أن المسألة إلهية و إعجازية.

و ينبغى أن نذكّر بهذا الموضوع أيضا، و هو أن سماع كلام اللّه سبحانه و بلا واسطة، لا يعنى أن للّه حنجرة و صوتا، بل إنّه يخلق بقدرته الكاملة أمواج الصوت فى الفضاء، و يتكلم مع أنبيائه عن هذا الطريق، و لما كانت نبوة موسى عليه السّلام قد بدأت بهذه الكيفية، فقد لقب ب (كليم اللّه).

۳- الصلاة أفضل وسيلة لذكر اللّه

أشير فى الآيات- محل البحث- إلى واحدة من أهم أسرار الصلاة، و هى أن الإنسان يحتاج فى حياته فى هذا العالم- و بسبب العوامل المؤدية إلى الغفلة- إلى عمل يذكّره باللّه و القيامة و دعوة الأنبياء و هدف الخلق فى فترات زمنية مختلفة، كى يحفظه من الغرق فى دوامة الغفلة و الجهل، و تقوم الصلاة بهذه الوظيفة المهمّة.

إنّ الإنسان يستيقظ فى الصباح من النوم ... ذلك النوم الذى عزله عن كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۸

موجودات العالم، و يريد أن يبدأ نشاطه الحياتى، فقبل كل شىء يتوجه إلى الصلاة، و يصفى قلبه و روحه بذكر اللّه، و يستمد منه القوّة و المدد، و يستعد للجد و السعى الممتزج بالصدق و المودة.

و عند ما يغرق فى زحمة الأعمال اليومية، و تمضى عدة ساعات و قد نسى ذكر اللّه، و فجأة يحين الظهر، و يسمع صوت المؤذن: اللّه أكبر! حى على الصلاة! فيتوجه إلى الصلاة و يقف بين يدى ربّه و يناجيه، و إذا كان غبار الغفلة قد استقر على قلبه فإنّه يغسله بهذه الصلاة، و من هنا يقول اللّه سبحانه لموسى فى أوّل الأوامر فى بداية الوحى: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى

و ممّا يجلب الانتباه أنّ هذه الآية تقول: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى أمّا الآية (۲۸) من سورة الرعد فتقول: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و الآيات (۲۷- ۳۰) من سورة الفجر تقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبادِى وَ ادْخُلِى جَنَّتِى و إذا جعلنا هذه الآيات الثلاثة جنبا إلى جنب فسنفهم جيدا أن الصلاة تذكر الإنسان باللّه، و ذكر اللّه يجعل نفسه مطمئنة، و نفسه المطمئنة ستوصله إلى مقام العباد المخلصين و الجنّة الخالدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۳۹

الآیات [سورة طه (۲۰): الآیات ۱۷ الی ۲۳]

اشارة

وَ ما تِلْکَ بِیَمِینِکَ یا مُوسی (۱۷) قالَ هِیَ عَصایَ أَتَوَکَّؤُا عَلَیْها وَ أَهُشُّ بِها عَلی غَنَمِی وَ لِیَ فِیها مَآرِبُ أُخْری (۱۸) قالَ أَلْقِها یا مُوسی (۱۹) فَأَلْقاها فَإِذا هِیَ حَیَّةٌ تَسْعی (۲۰) قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِیدُها سِیرَتَهَا الْأُولی (۲۱)
وَ اضْمُمْ یَدَکَ إِلی جَناحِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ آیَةً أُخْری (۲۲) لِنُرِیَکَ مِنْ آیاتِنَا الْکُبْری (۲۳)

التّفسیر

عصا موسی و الید البیضاء:

لا شک أنّ الأنبیاء یحتاجون إلی المعجزة لإثبات ارتباطهم باللّه، و إلّا فإنّ أی واحد یستطیع أن یدعی النّبوة، و بناء علی هذا فإن معرفة الأنبیاء الحقیقیین من المزیفین لا ـ یتیسر إلّا عن طریق المعجزة. و هذه المعجزة یمکن أن تکون بذاتها دعوة و کتابا سماویا للنّبی، و یمکن أن تکون أمورا أخری من قبیل المعجزات الحسیة و الجسمیة، إضافة إلی أن المعجزة مؤثرة فی نفس النّبی، فهی تزید من عزیمته و إیمانه و ثباته.

علی کل حال، فإن موسی علیه السّلام بعد تلقیه أمر النّبوة، یجب أن یتلقی دلیلها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۰

و سندها أیضا، و هکذا تلقّی موسی علیه السّلام فی تلک اللیلة المملیئة بالذکریات و الحوادث معجزتین کبیرتین من اللّه، و یبیّن القرآن الکریم هذه الحادثة فیقول:

وَ ما تِلْکَ بِیَمِینِکَ یا مُوسی

إنّ هذا السؤال البسیط المقترن باللطف و المحبة، إضافة إلی أنّه بثّ الطمانینة فی نفس موسی علیه السّلام الذی کان غارقا حینئذ فی دوامة من الاضطراب و الهیجان فإنّه کان مقدمة لحادثة مهمّة.

فأجاب موسی: قالَ هِیَ عَصایَ و لما کان راغبا فی أن یستمر فی حدیثه مع محبوبه الذی فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، و ربّما کان یظن أیضا أن قوله: هِیَ عَصایَ غیر کاف، فأراد أن یبیّن آثارها و فوائدها فأضاف: أَتَوَکَّؤُا عَلَیْها وَ أَهُشُ ۳۵۷] بِها عَلی غَنَمِی أی أضرب بها علی أغصان الشجر فتتساقط أوراقها لتأکلها الأغنام وَ لِیَ فِیها مَآرِبُ ۳۵۸] أُخْری

من المعلوم ما للعصا لأصحابها من فوائد، فهم یستعملونها أحیانا کسلاح للدفاع عن أنفسهم أمام الحیوانات المؤذیة و الأعداء، و أحیانا یصنعون منها مظلة فی الصحراء تقیهم حرّ الشمس، و أحیانا أخری یربطون بها وعاء أو دلوا و یسحبون الماء من البئر العمیق.

علی کل حال، فإنّ موسی غط فی تفکیر عمیق: أی سؤال هذا فی هذا المجلس العظیم، و أی جواب أعطیه؟ و ماذا کانت تلک الأوامر؟ و لماذا هذا السؤال؟

و فجأة قالَ أَلْقِها یا مُوسی فَأَلْقاها فَإِذا هِیَ حَیَّةٌ تَسْعی «تسعی» من مادة السعی أی المشی السریع الذی لا یصل إلی الرکض.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۱

و هنا صدر الأمر لموسی قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِیدُها سِیرَتَهَا الْأُولی ۳۵۹].

و فى الآية (۳۱) من سورة القصص نقرأ: وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ

و بالرغم من أن خوف موسى هنا قد أثار التساؤل لدى بعض المفسّرين بأن هذه الحالة كيف تناسب موسى مع الشجاعة التى عهدنا لدى موسى، و أثبتها عمليا طوال عمره عند محاربته الفراعنة؟ إضافة إلى صفات و شروط الأنبياء بصورة عامّة.

إلّا أنّ الجواب عن هذا السؤال يتّضح بملاحظة نكتة واحدة، و هى أن من الطبيعى أن كل إنسان، مهما كان شجاعا و غير هياب، إذا رأى فجأة قطعة خشب تتحول إلى حية عظيمة و تتحرك بسرعة، فلا بدّ أن يرتبك و يخاف و لو لمدّة قصيرة و يسحب نفسه جانبا توقيا، إلّا أن يكون هذا المشهد قد تكرر أمامه مرارا، ورد الفعل الطبيعى هذا لا يكون نقطة ضعف ضد موسى أبدا. و لا تنافى الآية (۳۹) من سورة الأحزاب حيث تقول: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ فإن هذا الخوف طبيعى و مؤقت و سريع الزوال أمام حادثة لم تحدث من قبل قط، و خارق للعادة.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى المعجزة المهمّة الثّانية لموسى، فأمرته: وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى [۳۶۰].

و بالرغم من أنّ للمفسّرين فى تفسير جملة وَ اضْمُمْ يَدَكَ إِلى جَناحِكَ ...

أقوالا مختلفة، إلّا أنّه بملاحظة الآية (۳۲) من سورة القصص، و التى تقول:

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ و الآية (۱۲) من سورة النمل، و التى تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۲

وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ سيستفاد أن موسى كان مأمورا أن يدخل يده فى جيبه و يوصلها إلى تحت إبطه، لأنّ الجناح فى الأصل جناح الطير، و يمكن أن تكون هنا إشارة إلى تحت الإبط.

كلمة (بيضاء) من البياض، و جملة مِنْ غَيْرِ سُوءٍ إشارة إلى أن بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص و أمثاله، بدليل أن لها لمعانا و بريقا خاصا يظهر فى لحظة و يختفى فى لحظة أخرى.

إلّا أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أنّ يد موسى قد صارت فى تلك الحالة نورانية بشكل عجيب، و إذا كان كذلك فيجب أن نقبل أن لجملة مِنْ غَيْرِ سُوءٍ معنى آخر غير الذى قلناه، أى إن لها نورانية لا ـ عيب فيها، فلا ـ تؤذى عينا، و لا يرى فيها بقعة سوداء، و لا غير ذلك.

و تقول الآية الأخيرة، و كنتيجة لما مر بيانه فى الآيات السابقة: لِنُرِيَكَ مِنْ آياتِنَا الْكُبْرى و من المعلوم أن المراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه، و ما احتمله بعض المفسّرين من أنّها إشارة إلى المعجزات التى سيضعها اللّه سبحانه تحت تصرف موسى فيما بعد يبدو بعيدا جدا.

بحوث

۱- معجزتان كبيرتان

لا شك أنّ ما ذكر أعلاه من تبدل عصا موسى إلى حية عظيمة تسعى، و قد عبرت الآية (۱۰۷) من سورة الأعراف عنها ب (ثعبان) و كذلك البريق الخاص لليد فى لحظة قصيرة ثمّ رجوعها إلى الحالة الأولى، ليس أمرا طبيعيا، أو نادرا، أو قليل الوقوع، بل إن كلا الأمرين يعتبر خارقا للعادة لا يمكن أن يقع بدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۳

الاستناد إلى قوة فوق قوة البشر، أى قوة اللّه عزّ و جلّ.

إنّ من يؤمن باللّه، و يعتقد أن علمه و قدرته غير محدودة، لا يقدر على إنكار هذه الأمور، أو ينسبها إلى الخرافة كالماديين.

المهم فى المعجزة هو عدم استحالتها عقلا، و هذا الأمر يصدق هنا كاملا، فلا يوجد أى دليل عقلى على نفى تبدل العصا إلى ثعبان عظيم.

أليس العصا و الحية العظيمة كانتا ترابا فى الماضى السحيق؟ من الطبيعى أن المدة قد استغرقت ملايين أو مئات الملايين من السنين حتى ظهرت على شكل هذه الموجودات. لا ـ تفاوت فى هذه المسألة سواء قلنا بتكامل الأنواع أو ثبوتها، لأن أخشاب الأشجار و الحيوانات قد خلقت جميعا من التراب على كل حال.

غاية ما فى الأمر أن العمل الإعجازى هنا اختصر كل تلك المراحل التى كان يجب أن تطوى خلال سنين طويلة فى لحظة واحدة، و فى مدّة قصيرة جدّا، فهل يبدو مثل هذا الأمر محالا؟

من الممكن أن أكتب باليد كتابا ضخما فى سنة، فإذا وجد شخص يستند و يعتمد على الإعجاز و يؤدى هذا العمل فى ساعة أو أقل، فإنّ هذا ليس محالا عقليا، بل هو خارق للعادة. (دققوا ذلك).

على كل حال، فإنّ القضاء العجول حول المعجزات، و نسبتها- لا ـ سمح اللّه- إلى الخرافات أمر بعيد عن المنطق و العقل. الشىء الوحيد الذى يحفز و يثير هذه الأفكار أحيانا، هو أنّنا قد اعتدنا على العلل و المعلولات الطبيعية، إلى الحد الذى اعتقدنا أنّها من الضروريات، و كل ما يخالفها فهو مخالف للضرورة، فى حين أن هذه العلاقة بين العلة و المعلول أمر طبيعى، و ليس له صفة الضرورية، و لا مانع من أن يظهرها عامل أقوى من الطبيعة بشكل آخر[۳۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۴

۲- قابليات الأشياء الخارقة

من المسلّم أن موسى الذى اختار لنفسه عصا الرعى تلك، لم يكن يصدق أن هذا الموجود البسيط يستطيع القيام بمثل هذا العمل العظيم بأمر اللّه، و يحطم قوّة الفراعنة، إلّا أنّ اللّه سبحانه قد أراه أن نفس هذه الآلة البسيطة تستطيع أن توجد مثل تلك القوة الخارقة.

إنّ هذا- فى الواقع- درس لكل البشر بأن لا يستصغروا أى شىء، فإن كثيرا من الموجودات التى ننظر إليها باحتقار تحتوى فى باطنها على قدرات عظيمة نحن غافلون عنها و غير مطلعين عليها.

۳- ماذا تقول التوراة حول هذا الموضوع؟

فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ موسى عليه السّلام عند ما أخرج يده من جيبه كانت بيضاء مضيئة لا عيب فيها، و يمكن أن تكون هذه الجملة من أجل نفى التعبير الذى يلاحظ فى التوراة المحرفة، فقد ورد فى التوراة: (و قال اللّه له أيضا: الآن ضع يدك إلى جنبك، فوضع يد إلى جنبه، و أخرجها فإذا يده مبروصة كالثلج)[۳۶۲].

إن كلمة «المبروص» مأخوذة من البرص، و هو نوع من الأمراض، و من المسلم أن استعمال هذا التعبير هنا خطأ و غير مناسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۵

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۲۴ الى ۳۶]

اشارة

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۲۴) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (۲۵) وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي (۲۶) وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي (۲۷) يَفْقَهُوا قَوْلِي (۲۸)

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي (۲۹) هارُونَ أَخِي (۳۰) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (۳۱) وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (۳۲) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (۳۳) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (۳۴) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (۳۵) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (۳۶)

التّفسير

موسى و طلباته القيمة:

إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، و تلقى معاجز مهمّة تسترعى الانتباه، إلّا أنّه من الآن فصاعدا صدر له أمر الرسالة .. رسالة عظيمة و ثقيلة جدّا ..

الرسالة التى تبدأ بإبلاغ أعتى و أخطر شخص فى ذلك المحيط، فتقول الآية:

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى

أجل .. فمن أجل إصلاح بيئة فاسدة، و إيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد و أئمّة الكفر .. أولئك الذين لهم تأثر فى جميع أركان المجتمع، و لهم حضور فى كل مكان، بأنفسهم أو أفكارهم أو أنصارهم .. أولئك الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۶

تركزت كل الوسائل و المنظمات الإعلامية و الاقتصادية و السياسية فى قبضتهم، فإذا ما أصلح هؤلاء، أو قلعت جذورهم عند عدم التمكن من إصلاحهم، فيمكن أن يؤمن خلاص و نجاة المجتمع، و إلّا فإنّ أى إصلاح يحدث فإنّه سطحى و مؤقت و زائل.

و الملفت للنظر أن دليل وجوب الابتداء بفرعون ذكر فى جملة قصيرة: إِنَّهُ طَغى حيث جمع فى كلمة (طغيان) كل شىء .. الطغيان و تجاوز الحدود فى كل أبعاد الحياة، و لذلك يقال هؤلاء الأفراد: طاغوت.

و مضافا إلى أنّ موسى عليه السّلام لم يستوحش و لم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، و لم يطلب من اللّه أى تخفيف فى هذه المهمة، فإنّه قد تقبلها بصدر رحب، غاية ما فى الأمر أنّه طلب من اللّه أسباب النصر فى هذه المهمة. و لما كان أهم و أول أسباب النصر الروح الكبيرة، و الفكر الوقاد، و العقل المقتدر، و بعبارة أخرى: رحابة الصدر، فقد قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي

نعم إنّ أوّل رأسمال لقائد ثورى هو رحابة الصدر، و الصبر الطويل، و الصمود و الثبات، و الشهامة و تحمل المشاكل و المصاعب، و لذلك فإنّنا نقرأ

فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «آلة الرياسة سعة الصدر»[۳۶۳].

و قد بحثنا الصدر و معناه فى ذيل الآية (۱۲۵) من سورة الأنعام.

و لما كان هذا الطريق مليئا بالمشاكل و المصاعب التى لا يمكن تجاوزها إلّا بلطف اللّه، فقد طلب موسى من اللّه فى المرحلة الثّانية أن تيسر له أموره و أعماله، و أن تذلل هذه العقبات التى تعترضه، فقال: وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي

ثمّ طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي فصحيح أن امتلاك الصدر الرحب أهم الأمور و الأسس، إلّا أنّ بلورة هذا الأساس تتمّ إذا وجدت القدرة على إراءته و إظهاره بصورة كاملة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۷

و لذلك فإنّ موسى بعد طلب انشرح الصدر، و رفع الموانع و العقبات، طلب من اللّه حل العقدة من لسانه.

خاصّة و أنّه بيّن علة هذا الطلب فقال: يَفْقَهُوا قَوْلِي فهذه الجملة فى الحقيقة تفسير للآية التى قبلها، و منها يتّضح أنّ المراد من حلّ عقدة اللسان لم يكن هو التلكؤ و بعض العسر فى النطق الذى أصاب لسان موسى عليه السّلام نتيجة احتراقه فى مرحلة الطفولة- كما نقل ذلك بعض المفسّرين عن ابن عباس- بل المراد عقد اللسان المانعة من إدراك و فهم السامع، أى أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة و البلاغة و التعبير بحيث يدرك أى سامع مرادى من الكلام جيدا.

و الشاهد الآخر على هذا التعبير هى الآية (۳۴) من سورة القصص: وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً. و اللطيف فى الأمر أن «أفصح» من مادة فصيح، و هى فى الأصل كون الشىء خالصا من الشوائب، ثمّ أطلقت على الكلام البليغ المعبر الخالى من الحشو و الزيادات.

و على كل حال، فإنّ القائد و القدوة و الموفق و المنتصر هو الذى يمتلك إضافة إلى سعة الفكر و قدرة الروح، بيانا أخاذا بليغا خاليا من كل أنواع الإبهام و القصور.

و لما كان إيصال هذا الحمل الثقيل- حمل رسالة اللّه، و قيادة البشر و هدايتهم، و محاربة الطواغيت و الجبابرة- إلى المحل المقصود يحتاج إلى معين و مساعد، و لا يمكن أن يقوم به إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من اللّه هو:

وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي

«الوزير» من مادة الوزر، و هى فى الأصل تعنى الحمل الثقيل، و لما كان الوزراء يتحملون كثيرا من الأحمال الثقيلة على عاتقهم، فقد أطلق عليهم هذا الاسم، و كذلك تطلق كلمة الوزير على المعاون و المساعد.

أمّا لماذا طلب موسى أن يكون هذا الوزير من أهله؟ فسببه واضح، لأنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۸

يعرفه جيدا، و من جهة أخرى فإنّه أحرص من غيره، فكم هو جيد و جميل أن يستطيع الإنسان أن يتعاون مع شخص تربطه به علائق روحية و جسمية؟! ثمّ يشير إلى أخيه، فيقول: هارُونَ أَخِي و هارون- حسب نقل بعض المفسّرين- كان الأخ الأكبر لموسى، و كان يكبره بثلاث سنين، و كان طويل القامة، جميلا بليغا، عالى الإدراك و الفهم، و قد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين [۳۶۴].

و قد كان نبيّا مرسلا كما يظهر من الآية (۴۵) من سورة المؤمنون: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ و كذلك كانت له بصيرة بالأمور و ميزانا باطنيا لتمييز الحق من الباطل، كما ورد فى الآية (۴۸) من سورة الأنبياء:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً. و أخيرا فقد كان نبيّا وهبه اللّه لموسى من رحمته: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا[۳۶۵]، فقد كان يسعى جنبا إلى جنب مع أخيه فى أداء هذه الرسالة الثقيلة.

صحيح أن موسى عليه السّلام عند ما طلب ذلك من اللّه فى تلك الليلة المظلمة فى الوادى المقدس حيث حمّل الرسالة، كان قد مضى عليه أكثر من عشر سنين بعيدا عن وطنه، إلّا أنّ ارتباطه- عادة- بأخيه لم يقطع بصورة كاملة، بحيث أنّه يتحدث بهذه الصراحة عنه، و يطلب من اللّه أن يشاركه فى هذا البرنامج الكبير.

ثمّ يبيّن موسى عليه السّلام هدفه من تعيين هارون للوزارة و المعونة فيقول: اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي و «الأزر» أخذت فى الأصل من مادة الإزار، أى اللباس، و تطلق خاصّة على اللباس الذى يشد و يعقد وسطه، و لذلك قد تطلق هذه الكلمة على الظهر أو القوّة و القدرة لهذا السبب و يطلب، من أجل تكميل هذا المقصد و المطلب: وَ أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۴۹

فيكون شريكا فى مقام الرسالة، و فى إجراء و تنفيذ هذا البرنامج الكبير، إلّا أنّه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه و مقتداه.

و فى النهاية يبيّن نتيجة هذه المطالب فيقول: كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً و تعلم حاجاتنا جيدا، و مطّلع على مصاعب هذا الطريق أكثر من الجميع، فنحن نطلب منك أن تعيننا على طاعتك، و أن توفقنا و تؤيدنا فى أداء واجباتنا و

مسئولیاتنا الملقاة علی عاتقنا.

و لما کان موسی لم یهدف من طلباته المخلصة هذه إلّا الخدمة الأکثر و الأکمل، فإنّ اللّه سبحانه قد لبی طلباته فی نفس الوقت قالَ قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسی

إنّ موسی فی الواقع طلب کل ما کان یلزمه فی هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التی یجلس فیها لأوّل مرّة علی مائدة الضیافة الإلهیة و یطأ بساطها، و اللّه سبحانه کان یحب ضیفه أیضا، حیث لبّی کل طلباته و أجابه فیها فی جملة قصیرة تبعث الحیاة، و بدون قید و شرط ثمّ و بتکرار اسم موسی أکمل له الاستجابة و حلاوتها و أنزال کل إبهام عن قلبه، و أی تشویق و افتخار أن یکرر المولی اسم العبد؟

بحوث

۱- شروط قیادة الثورة

لا شک أنّ تبدیل البنیة فی نظام المجتمعات البشریة، و تغییر القیم المادیة و الملحدة إلی القیم المعنویة و الإنسانیة، و خاصّة إذا کان الطریق یقع فی طریق الفراعنة العنودین، لیس بالعمل الهین، بل یحتاج إلی استعداد روحی و جسمی، و قدرة علی التفکیر، و قوة فی البیان، و استمرار الإمدادات الإلهیة، و وجود

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۰

الصاحب الذی یطمأن إلیه. و هذه هی الأمور التی طلبها موسی علیه السّلام فی بدایة الرسالة من ربّه.

إن هذه المطالب تبیّن بنفسها أنّ موسی علیه السّلام کان یمتلک روح الوعی و الاستعداد حتی قبل النّبوة، و تبیّن أیضا هذه الحقیقة، و هی أنّه کان واقفا علی أبعاد مسئولیته جیدا، و کان یعلم بأنّه ماذا یجب أن یستعمل فی الساحة فی تلک الظروف، و أی سلاح هو الأمضی، لیمتلک القدرة علی مقارعة الاجهزة الفرعونیة، و هذا نموذج و قدوة لکل القادة الربانیین فی کل عصر و زمان، و لکل السائرین فی هذا الطریق.

۲- مقارعة الطغاة

لا شک أنّ لفرعون نقاطا و صفات منحرفة کثیرة، فقد کان کافرا، عابدا للأصنام، ظالما، مستبدا و و ... إلّا أنّ القرآن طرح من بین کل هذه الانحرافات مسألة الطغیان إِنَّهُ طَغی لأن روح الطغیان و التمرد فی مقابل أمر الحق عصارة و خلاصة کل هذه الانحرافات و جامع لها.

و یتّضح بصورة ضمنیة أنّ هدف الأنبیاء فی الدرجة الأولی هو مقارعة الطواغیت و المستکبرین، و هذا فی الواقع عکس التحلیل الذی یذکره الماورکسیون حول الدین تماما، حیث زعموا أنّ الدین فی خدمة الطغاة و المستعمرین الماضین.

إنّ کلام هؤلاء قد یصح فی شأنه المذاهب المصطنعة التخدیریة، إلّا أنّ تاریخ الأنبیاء الحقیقیین ینفی بصراحة تامة ظنون هؤلاء الواهیة فی شأن الأدیان و المذاهب، خاصّة و إن ثورة موسی بن عمران شاهد ناطق فی هذا المجال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۱

۳- کل عمل یحتاج إلی تخطیط و وسائل

الدرس الآخر الذی نستفید من حیاة موسی و جهاده العظیم، هو أنّه حتی الأنبیاء، و مع امتلاکهم للمعجزات، کانوا یستعینون بالوسائل العادیة الطبیعیة، من البیان البلیغ و المؤثر، و من طاقات المؤمنین بهم الفکریة و الجسمیة، فی سبیل تقدم عملهم و تطوره، فلیس صحیحا أن ننتظر المعاجز فی حیاتنا دائما، بل یجب تهیئة البرامج و أدوات العمل، و الاستمرار فی التقدم بالطرق و الوسائل الطبیعیة، فإذا ما واجهتنا عقدة و معضلة، فیجب أن ننتظر اللطف الإلهی هناک.

۴- التسبیح و الذکر

لقد جعل موسی الهدف النهائی من طلباته- کما فی الآیات محل البحث- هو: کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً و معلوم أنّ التسبیح یعنی تنزیه اللّه عن تهمة الشرک و النواقص الإمکانیة، و معلوم أیضا أنّ مراد موسی علیه السّلام لم یکن تکرار جملة «سبحان اللّه» مرارا، بل کان الهدف إیجاد حقیقة التسبیح فی ذلک المجتمع الملوث فی ذلک الزمان، فیقتلعوا الأصنام، و یهدموا معابد الأوثان، و تغسل الأدمغة من أفکار الشرک، و ترفع النواقص المادیة و المعنویة.

و بعد تنزیه المجتمع عن هذه المفاسد، علیهم أن یحیوا فی القلوب ذکره تعالی و ذکر صفاته، و یجعلون الصفات الإلهیة تشع فی أرجاء المجتمع، و التأکید علی کلمة «کثیرا» توحی بأنّه کان یرید أن یجعل هذا الأمر عاما، و أن یخرجه من الإختصاص بدائرة محدودة.

۵- الرّسول الأعظم یکرر مطالب موسی

یستفاد من الرّوایات الواردة فی کتب أهل السنة و الشیعة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قد طلب من اللّه نفس تلک المطالب التی طلبها موسی علیه السّلام من اللّه من أجل تقدم عمله،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۲

مع فارق، هو أنّه وضع اسم علی علیه السّلام مکان اسم هارون، و قال: «اللهم إنّی أسألک بما سألک أخی موسی أن تشرح لی صدری، و أن تیسر لی أمری، و أن تحل عقدة من لسانی، یفقهوا قولی، و اجعل لی وزیرا من أهلی، علیا أخی، أشدد به أزری، و أشرکه فی أمری، کی نسبحک کثیرا، و نذکرک کثیرا».

و قد نقل هذا الحدیث السیوطی فی تفسیر «الدر المنثور»، و العلّامة الطبرسی فی «مجمع البیان»، و کثیرون و غیرهم من کبار علماء الفریقین باختلاف فی العبارات.

و هذا الحدیث یشبه حدیث المنزلة، حیث

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لعلی علیه السّلام: «ألا ترضی أن تکون منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی».

و هذا الحدیث قد ورد فی کتب العامّة المعتمدة، و کما قال المحدث البحرانی فی کتابه «غایة المرام»؛ إنّ هذا الحدیث قد ورد بمائة طریق عن أهل السنة، و بسبعین طریق من طرق الشیعة»، فهو معتبر إلی الحدّ الذی لا یدع أی مجال للشک فیه، أو لإنکاره.

و قد بحثنا حول حدیث المنزلة بحثا ضافیا فی ذیل الآیة (۱۴۲) من سورة الأعراف، و الذی نعتبر ذکره ضروریا هنا، هو أن بعض المفسّرین- کالآلوسی فی «روح المعانی»- مع قبوله أصل الرّوایة، إلّا أنّه أشکل فی دلالتها، و قالوا: إن جملة أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِی لا تثبت غیر الاشتراک فی أمر إرشاد و دعوة الناس إلی الحق! إلّا أنّ من الواضح أن مسألة الاشتراک فی الإرشاد، و بتعبیر آخر: الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، و نشر الدین، واجب علی کل فرد من المسلمین، و هذا لم یکن شیئا یطلبه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و

سلّم لعلى عليه السّلام .. إن هذا توضيح للواضحات، و لا يمكن تفسير دعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك مطلقا.

و من جهة أخرى، فإنّا نعلم أن الأمر لم يكن الاشتراك فى النّبوة، و بناء على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۳

هـذا نخلص إلى هـذه النتيجـة، و هى أن المطلوب مقام خاص غير النّبوة، و هل يمكن أن يكون إلّا الولايـة الخاصّـة؟! أليس ذلك هو الخلافة بالمفهوم الخاص الذى تقول به الشيعة؟ و جملة «وزيرا» أيضا تؤيد و تقوى ذلك.

و بتعبير آخر، فإنّ هناك واجبات لا يقوم بها كل الأفراد، و هى حفظ دين النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم من كل أنواع التحريف و الانحراف، و تفسير أى إبهام يبـديه البعض فى محتوى الـدين، و قيـادة الأمّـة فى غيبـة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و بعـده، و المساعدة المؤثرة جدا فى تحقيق أهدافه.

إن هذا هو الشىء الذى طلبه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

بقوله: «أشركه فى أمرى»

لعلى عليه السّلام من اللّه سبحانه.

و من هنا يتّضح أن وفاة هارون قبل موسى لا توجد إشكالا فى هذا البحث، لأنّ الخلافة و النيابة تكون أحيانا فى زمان غيبة القائد كما تولاها هارون عنـد غياب موسـى، و تكون أحيانا بعـد وفاته كما كان على عليه السّـلام بعـد وفاة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و كلاهما لهما نفس القدر المشترك و الجامع الواحد، و إن كانت المصاديق متفاوتة.

(دققوا ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۴

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۳۷ الى ۴۱]

اشارة

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (۳۷) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (۳۸) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي (۳۹) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (۴۰) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (۴۱)

التّفسير

الربّ الرحيم:

يشـير اللّه سـبحانه فى هذه الآيات إلى فصل آخر من فصول حياة موسـى عليه السّلام، و الذى يرتبط بمرحلة الطفولة و نجاته من قبضة الفراعنة. و هذا الفصل و إن كان من ناحية التسلسل التاريخى قبل فصل الرسالة و النّبوة، إلّا أنّه ذكر كشاهد على شمول عناية اللّه عزّ و جل لموسى عليه السّلام من بداية عمره، و هى فى الدرجة الثّانية من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۵

الأهمية بالنسبة إلى الرسالة، فيقول أوّلا: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى ۳۶۶].

و بعد ذکر هذا الإجمال تتطرق الآیات إلی الشرح و التفصیل، فتقول: إِذْ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّکَ ما یُوحی و هو إشارة إلی أنّنا قد علّمنا أمّه کل الطرق التی تنتهی إلی نجاة موسی علیه السّلام من قبضة الفراعنة، لأنّه یستفاد من سائر آیات القرآن أن فرعون شدّد ارهابه علی بنی إسرائیل للتصدّی لقوتهم و عصیانهم المحتمل، أو أنّه- علی رأی بعض المفسّرین و المؤرخین- کان قد أمر بقتل أبنائهم و إبقاء البنات للخدمة، لکی یمنع ولادة ولد من بنی إسرائیل کان قد أخبره المنجمون أنّه یثور علیه و یزیل ملکه.

من الطبیعی أن جواسیس و عیون فرعون کانوا یراقبون بشدة محلات بنی إسرائیل و بیوتهم، و کانوا لا یدعون ذکرا یولد إلّا و قتلوه.

و ذهب بعض المفسّرین إلی أن فرعون کان یرید تحطیم قوّة بنی إسرائیل من جهة، و کان من جهة أخری غیر راغب فی انقراض نسلهم تماما، لأنّه کان یعتبرهم عبیدا یصلحون للخدمة، و لذلک کان قد أمر بأنّ یترکوا الأولاد سنة و یذبحونهم سنة أخری، فکان أن ولد موسی فی العام الذی یقتل فیه الأولاد! علی کل حال، فإنّ هذه الأم أحسّت بأن حیاة ولیدها فی خطر، و إخفاؤه مؤقتا سوف لا یحل المشکلة .. فی هذه الأثناء ألهمها اللّه- الذی رشّح هذا الطفل لثورة کبیرة- أن أودعیه عندنا، و انظری کیف سنحافظ علیه، و کیف سنرده إلیک؟

فألقی فی قلب الأمّ: أَنِ اقْذِفِیهِ فِی التَّابُوتِ فَاقْذِفِیهِ فِی الْیَمِ

«الیم» هنا یعنی نهر النیل العظیم الذی یطلق علیه أحیانا اسم البحر لسعته و کثرة میاهه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۶

و التعبیر ب اقْذِفِیهِ فِی التَّابُوتِ ربما کان إشارة إلیها أن ارفعی ولدک بکل شجاعة و بدون أی خوف أو ارتیاب، و ضعیه فی الصندوق، و ألقیه فی نهر النیل، و لا تدعی للخوف سبیلا إلی نفسک.

کلمة «التابوت» تعنی الصندوق الخشبی، و لا یعنی دائما الصندوق الذی توضع فیه الأموات کما یظن البعض، بل إنّه له معنی واسعا، حیث تطلق أحیانا علی الصنادیق الأخری أیضا، کما قرأنا ذلک فی قصة طالوت و جالوت فی ذیل الآیة (۲۴۸) من سورة البقرة[۳۶۷].

ثمّ تضیف: فَلْیُلْقِهِ الْیَمُّ بِالسَّاحِلِ یَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِی وَ عَدُوٌّ لَهُ و الملفت أن کلمة «عدو» قد تکررت هنا، و هذا فی الحقیقة تأکید علی عداء فرعون للّه، و لموسی و بنی إسرائیل، و أشارت إلی أن الشخص الذی انغمس إلی هذا الحد فی العداء هو الذی سیتولی فی النهایة تربیة موسی لیعلم البشر الضعیف أنّه لیس عاجزا عن التمرد علی أمر اللّه و حسب، بل إنّ اللّه سیربیه علی ید عدوه و فی أحضانه! و عند ما یرید أن یفنی المتمردین الظالمین فسیفنیهم و یبیدهم بأیدیهم، و یحرقهم بالنار التی یوقدونها بأنفسهم، فأی قدرة عجیبة قدرته تعالی؟! و لما کان موسی علیه السّلام یجب أن یحفظ فی حصن أمین فی هذا الطریق الملیء بالمخاطر، فقد ألقی اللّه قبسا من محبّة علیه، إلی الحد الذی لم ینظر إلیه أحد إلا و یعشقه، فلا یکف عن قتله و حسب، بل لا یرضی أن تنقص شعرة من رأسه، کما یقول القرآن فی بقیة هذه الآیات: وَ أَلْقَیْتُ عَلَیْکَ مَحَبَّةً مِنِّی فأی درع عجیب هذا الحب! إنّه لا یری بالعین، و لکنه أقوی من الحدید و الفولاذ!! یقولون: إنّ قابلة موسی کانت من الفراعنة، و کانت مصممة علی رفع خبر ولادته إلی فرعون، إلّا أنّه لما وقعت عینها علی عین المولود الجدید، فکأن ومضة برقت من عینه و أضاءت أعماق قلبها، و طوّقت محبته رقبتها، و ابتعدت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۷

عن رأسها کل الأفکار السیئة.

و نقرأ

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام فی هذا الباب: «فلمّا وضعت أم موسی موسی نظرت إلیه و حزنت علیه و اغتمت و بکت و قالت: تذبح الساعة، فعطف اللّه الموکلة بها علیه، فقالت لأم موسی: مالک قد اصفر لونک؟ فقالت: أخاف أن یذبح ولدی، فقالت: لا تخافی و کان موسی لا یراه أحد إلا أحبه»[۳۶۸]،

و کان درع المحبة هذا هو الذی حفظه تماما فی بلاط فرعون.

و تقول الآية فى النهاية: وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى فلا شك فى أنّه لا تخفى ذرة عن علم اللّه فى السماء و لا فى الأرض، و كل شىء حاضر بين يديه، إلّا أنّ هذا التعبير إشارة إلى العناية الخاصّة التى أولاها اللّه سبحانه لموسى و تربيته.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين اعتقد أنّ جملة وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِى مقصورة على مرحلة رضاعة موسى و أمثالها، إلّا أنّ من المعلوم أن لهذه الجملة معنى واسعا، تدخل فيه كل أنواع التربية و العناية، و صنع موسى عليه السّلام من أجل حمل راية الرسالة مع عناية اللّه الخاصّة.

و يستفاد بوضوح من القرائن الموجودة فى هذه الآيات، و الآيات المشابهة لها فى القرآن، و ممّا جاء فى الرّوايات و التواريخ، أنّ أمّ موسى عليه السّلام قد ألقت الصندوق الذى كان فيه موسى و هى فى حالة من الخوف و القلق، و حملته أمواج النيل، و أخذ قلب أم موسى يخفق من مشاهدة هذا المنظر، إلّا أنّ اللّه قد ألهم قلبها أن لا يدع للهم و الحزن إليه طريقا، فهو سبحانه سيعيده إليها فى النهاية سالما.

و كان قصر فرعون قد بنى على جانب شط النيل، و يحتمل أن فرعا من هذا النهر العظيم كان يمر داخل قصره، فحملت أمواج المياه الصندوق إلى ذلك الفرع الصغير، و بينما كان فرعون و زوجته على حافة الماء ينظرون إلى الأمواج، و إذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۸

الماء، فلمّا فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولودا جميلا فيه، و هو شىء لم يكن بالحسبان.

و هنا تنبه فرعون إلى أن هذا الوليد ينبغى أن يكون من بنى إسرائيل، و إنما لاقى هذا المصير خوفا من جلاوزته، فأمر بقتله، إلّا أنّ زوجته- التى كانت عقيما- تعلقت جدّا بالطفل، فقد نفذ النور الذى كان ينبعث من عينى الطفل إلى زوايا قلبها، و جذبها إليه، فضربت على يد فرعون و طلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، و عبرت عن هذا الطفل بأنّه قُرَّتُ عَيْنٍ بل و تمادت فى طلبها، فطلبت منه أن يتخذاه ولدا ليكون مبعث أمل لهما، و يكبر فى أحضانهما، و أصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، و حققت ما تصبو إليه.

غير أن الطفل جاع، و أراد لبنا، فأخذ يبكى و يذرف الدموع، فرق قلب امرأة فرعون لهذه الدموع و البكاء و اهتز، و لا محيص من أن يبحث الخدم عن مرضعة له، إلّا أنّهم كلما جاؤوه بمرضعة لم يقبل ثديها، لأن اللّه سبحانه كان قد قدر أن يعيده إلى أمّه، فهب المأمورون للبحث من جديد، و كانوا يطرقون الأبواب بحثا عن مرضع جديدة.

و الآن نقرأ بقية القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإنّا كنّا قدرنا أن تتربى بأعيننا و علمنا إِذْ تَمْشِى أُخْتُكَ بأمر أمك لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ و ربّما أضافت بأن هذه المرأة لها لبن نظيف، و أنا مطمئنة بأن هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت أخت موسى- و التى كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب و المجهول- أمّها على الأمر، فجاءت أمّه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أن أمواجا من الحب و الأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، و احتضنت الطفل، فلمّا شم الطفل رائحة أمّه، و كانت رائحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۵۹

مألوفة لديه، التقم ثديها كأنّه تضمن لذة الروح و حلاوتها، و اشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة و عشق شديدين، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين، و بدت آثار الفرح و السرور على زوجة فرعون.

يقول البعض: إنّ فرعون تعجب من هذه الحادثة، و قال: من أنت إذ قبل هذا الطفل لبنك فى حين أنّه ردّ جميع الأخريات؟ فقالت الأم: إنّى امرأة طيبة الريح و اللبن، و لا يرفض لبنى أى طفل! عل كل حال فقد أمرها فرعون بالاهتمام بالطفل، و أكدت زوجته كثيرا على حفظه و حراسته، و أمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة و أخرى.

هنا تحقق ما قاله القرآن: فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ و لتستطيع تربيته بدون خوف من جلاوزة فرعون. و يستفاد من هـذه العبارة أن فرعون أودع الطفل أمه لتذهب به إلى بيتها، إلّا أنّ من الطبيعى أن ابن عائلة فرعون! الذى تعلقت به امرأته و أحبته حبا شديدا، يجب أن يعرض عليها بين فترة و أخرى.

و مرّت السنون و الأعوام، و تربى موسى عليه السّلام وسط هالة من لطف اللّه و محبته، و فى محيط آمن، و شيئا فشيئا أصبح شابا. و كان ذات يوم يمر من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل و الآخر من الأقباط- (و هم المصريون قوم فرعون)- و لما كان بنو إسرائيل يعيشون دائما تحت ضغط الأقباط الظالمين و أذاهم، هبّ موسى لمعونة المظلوم الذى كان من بنى إسرائيل، و من أجل الدفاع عنه وجه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطى، فقضت عليه.

فتأثر موسى مما حدث و قلق، لأن حراس فرعون علموا فى النهاية من الذى قام بعملية القتل هذه، فنشطوا للبحث عنه و مطاردته. إلّا أنّ موسى، و حسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفيا من مصر، و توجه إلى مدين، فوجد محيطا و جوا آمنا فى ظل النّبى «شعيب»، و الذى سيأتى شرح حاله فى تفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۹، ص: ۵۶۰

سورة القصص إن شاء اللّه تعالى هنا حيث يقول القرآن الكريم: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فبعد حادثة القتل اختبرناك كثيرا و القينا بك فى اتون الحوادث و الشدائد فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ و بعد اجتياز هذا الطريق الطويل، و الاستعداد الروحى و الجسمى، و الخروج من دوامة الأحداث بشموخ و انتصار فقد جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى أى حيث لاستلام مهمّة الرسالة فى زمان مقدّر إلى هذا المكان.

إن كلمة «قدر»- برأى كثير من المفسّرين- تعنى الزمان الذى قدر فيه أن ينتخب موسى للرسالة. إلّا أنّ البعض اعتبرها بمعنى المقدار، كما جاء هذا المعنى فى بعض الآيات القرآنية، الآية (۲۱) من سورة الحجر، و طبقا لهذا التّفسير سيكون معنى الآية: يا موسى إنّك قد نشأت و أصبحت- بعد تحمل هذه المصاعب و الامتحانات و عشت سنين فى بيت نبى كبير كشعيب- ذا قدر و مقام و شخصية، و حصلت على استعداد لتلقى الوحى.

ثمّ يضيف: وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي فمن أجل مهمّة تلقى الوحى الصعبة، و من أجل قبول الرسالة، و من أجل هداية العباد و إرشادهم ربّيتك و اختبرتك فى الحوادث الصعبة و مشاقّها، و منحتك القوة و القدرة، و الآن حيث ألقيت هذه المهمّة الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهل من جميع الجوانب.

«اصطناع» من مادة «صنع» بمعنى الإصرار و الاقدام الأكيد على إصلاح شيء (كما يراه الراغب فى مفرداته). و يعنى إنّنى قد اصلحتك من كل الجهات و كأننى أريدك لى و هذا الكلام هو أكثر ما يمكن أن يقال فى تصوير محبّة اللّه لهذا النّبى العظيم، و ذهب البعض أنّه يشبه ما قاله الحكماء من: إنّ اللّه إذا أحبّ عبدا تفقده كما يتفقد الصديق صديقه.

نهاية المجلد التّاسع

---

[۱] (۱) بعض المفسّرين قال: إنّ هذا الجزء من الآية يعنى أنّ هناك آلهة أخرى تحاول أن تقرب نفسها إلى اللّه. و هذا يعنى أنّ هذه الآلهة(الأصنام و غيرها) الوهمية عند ما لا تستطيع أن تقرّب نفسها للّه فكيف تستطيع أن تقربكم أنتم؟

و لكن سياق هذه الآية التى بعدها لا يتواءمان مع هذا التّفسير.

[۲] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۲۶.

[۳] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة(۱۶۸).

[۴] (۲)- نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة(۱۶۸).

[۵] (۳)- المصدر السابق.

[۶] (۴)- عن أبو نعیم الإصفهانی فی حلیة الأولیاء(نقلا عن تفسیر المیزان).

[۷] (۵)- المصدر السابق.

[۸] (۱)- عن« الکافی» طبقا لما ذکره صاحب المیزان.

[۹] (۱)- مجمع البیان، المجلد الثّالث، صفحة ۴۱۸.

[۱۰] (۲)- التّفسیر الکبیر، المجلد ۲۰، صفحة ۲۲۰- ۲۲۱.

[۱۱] (۱)- نقل عن الأخفش، أنّ اسم المفعول قد یأتی فی بعض الأحیان بمعنی اسم الفاعل مثل میمون بمعنی یامن، و مشئوم بمعنی شائم.

[۱۲] (۱)- سورة القیامة، الآیتان ۵، ۶.

[۱۳] (۱)-« رفات» علی وزن« کرات» و هو معنی یطلق علی کلّ شیء قدیم و متلاش.

[۱۴] (۱)- إلی هذا الرأی یذهب الشّیخ الطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره. یراجح تفسیرهما للآیة الکریمة.

[۱۵] (۱)- فی کتاب مزامیر داود(الزّبور) و الذی بین أیدینا الآن، نقرأ فی الزبور(۲۷):« لأنّ الشریرین سوف ینقطعون، أمّا المتوکلون علی اللّه فسیرثون الأرض، و بعد مدّة سوف لا یکون هناک شریرین، أمّا الحکماء و الصالحون فسیرثون الأرض». و فی المزمور فی الجملة(۲۲) و(۲۹) نقرأ تعابیر مشابهة. و هذا ینطبق مع ما جاء فی القرآن الکریم فی الآیة(۱۰۵) من سورة الأنبیاء\i: وَ لَقَدْ کَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّکْرِ أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ E.

[۱۶] (۱)- وفقا لهذا التّفسیر تکون« أیّهم» بدل من ضمیر« یبتغون»، أو مبتدأ لخبر محذوف، و فی التقدیر تکون الآیة:

\i أَیُّهُمْ أَقْرَبُ E أیّهم أکثر دعاء و ابتغاء للوسیلة.

[۱۷] (۲)- فی هذه الحالة« أیّهم» من حیث التر کیب النحوی یمکن أن تکون- فقط- بدلا من ضمیر(یبتغون).

[۱۸] (۱)- ملخص من الخطبة(۱۱۰) من نهج البلاغة. و قد شرحنا هذه الخطبة فی تفسیرنا هذا، ذیل الآیة(۱۳) من سورة المائدة.

[۱۹] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد السّادس، ص ۳۹۰۲؛ و تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۰، ص ۲۳۷.

[۲۰] (۲)- یراجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثانی، ص ۵۳۸.

[۲۱] (۱)- ذهب المفسّرین إلی إنّ حرف الکاف فی کلمة(أ رأیتک) زائد، أو هو حرف للخطاب و قد جاء للتأکید، و جملة(أ رأیتک) بمعنی(أخبرنی) جوابها محذوف و تقدیرها(أخبرنی عن هذا الذی کرمته علیّ، لم کرمته علیّ و قد خلقتنی من نار؟). و لکن هناک احتمال آخر، و هو أنّ(أ رأیت) هی فی نفس معناها الأصلی و لا یوجد محذوف فی الجملة، و بشکل عام تعطی هذا المعنی: هل لاحظت هذا الموجود الذی فضلته علیّ، فإذا أبقیتنی علی قید الحیاة سترى بأنّی سأضل أکثر أبنائه.(احتمال الثّانی أوفق فی ترکیب الآیة و معناها).

[۲۲] (۱)- فی معانی المفردات تراجع مفردات الراغب، و مجمع البیان.

[۲۳] (۱)- وردت روایات متعدّدة فی أنّ مشارکة الشیطان فی الأولاد تعنی الأبناء غیر الشرعیین، أو المنعقدة نطفتهم من مال حرام، أو انعقاد النطفة فی لحظة غفلة الوالدین عن الخالق، و لکن- کما قلنا مرّات- إنّ هذه التفاسیر تبیّن جانبا من المصداق الواضح و هی لیست دلیلا علی حصر المعنی.(راجع تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۱۸۴).

[۲۴] (۱) طالع الشّرح الكامل للتوحيد الفطرى فى كتاب(خالق العالم)، و لا حظه أيضا فى نهاية الآية(۱۴) من سورة النحل حيث أشرنا إلى هذه المسألة.

[۲۵] (۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۹۳.

[۲۶] (۱) نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۱۸۸.

[۲۷] (۱)- الإنسان ذلك المجهول، الكسيس كارل، ص ۷۳- ۷۴.

[۲۸] (۱)-(فتيل) تعنى الخيط الرقيق الموجود فى شق نوى التمر، و فى المقابل فإن(نقير) تعنى مؤخرة نوى التمر، بينما تعنى(قطمير) الطبقة الرقيقة التى تغطى نوى التمر. و كل هذه التعابير كناية عن الشىء الصغير جدّا و الحقير.

[۲۹] (۱)- مجمع البيان عند تفسير الآية.

[۳۰] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۱] (۱)-

\i\i قال الباقر عليه السّلام E« بنى الإسلام على خمس، على الصلاة، و الزكاة، و الصوم، و الحج، و الولاية، و لم يناد بشىء كما نودى بالولاية\»i عن أصول الكافى، ج ۲، ص ۱۵\.E\E

[۳۲] (۲)- عن نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۱۹۴، و كذلك مصادر أخرى.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار ۱۴۷.

[۳۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹۶.

[۳۵] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹۶- ۱۹۷.

[۳۶] (۳)- المصدر السابق.

[۳۷] (۱)- يمكن ملاحظة المزيد من التفاصيل عن الموضوع فى كتاب(القادة الكبار).

[۳۸] (۱)- أصول الكافى، ج ۱، كتاب العقل و الجهل، ص ۹، حديث ۸.

[۳۹] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، ص ۳۷.

[۴۰] (۱)- النساء، ۴۰.

[۴۱] (۲)- الأنعام، ۱۶۰.

[۴۲] (۳)- تفسير العياشى وفقا لما نقله صاحب الميزان، ج ۲، ص ۴۲۴.

[۴۳] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۱۱۵.

[۴۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۰۵.

[۴۵] (۱)- روح المعانى، ج ۱۵، ص ۱۲۶.

[۴۶] (۱)- روح المعانى، ج ۱۵، ص ۱۲۶.

[۴۷] (۲)-« تهجّد» مأخوذة من(هجود) و هى تعنى فى الأصل: النوم، حسبما يقول الراغب فى المفردات. و لكن عند ما تكون على وزن(تفعل» فإنّها تعنى إزالة النوم و الانتقال إلى حالة اليقظة. أمّا الضمير فى كلمة« تهجّد به» فإنّه يدل على القرآن. و لكن هذه الكلمة استخدمت عند أهل الشرع بمعنى صلاة الليل. و يقال للذى يصلّى الليل(المتهجّد).

[۴۸] (۱)-(مدخل) و(مخرج) هى تعنى الإدخال و الإخراج، تؤدى هنا المعنى المصدرى.

[۴۹] (۱)-(زهق) من مادة« زهوق» بمعنى الاضمحلال و الهلاك و الإبادة، و(زهوق) على وزن« قبول» صيغة مبالغة و هى تعنى الشىء الذى تمت إبادته بالكامل.

[۵۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۲- ۱۴۸.

[۵۱] (۲)- المصدر السّابق.

[۵۲] (۳)- المصدر السّابق.

[۵۳] (۴)- المصدر السّابق.

[۵۴] (۵)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۲- ۱۴۸.

[۵۵] (۶)- المصدر السّابق.

[۵۶] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۲۶۸.

[۵۷] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۲۶۹.

[۵۸] (۳)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۰.

[۵۹] (۱)- بعض الفقهاء یحتاطون بعدم قراءة القنوت فی رکعتی الشفع أو قراءتها بأمل الرجاء.

[۶۰] (۱)- المیزان، ج ۱، ص ۱۷۸.

[۶۱] (۱) الرعد، ۱۷.

[۶۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۲ و ۲۱۳.

[۶۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۶۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۶۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۵۸.

[۶۶] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۵۸.

[۶۷] (۱)- سفینة البحار.

[۶۸] (۱) نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۹۸.

[۶۹] (۱)- مفردات الراغب مادة« شکل».

[۷۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۴.

[۷۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۴.

[۷۲] (۱)- السجدة، ۹.

[۷۳] (۲)- قلنا سابقا: إنّ إضافة(روح) إلی اللّه هی إضافة تشریفیة، و الهدف هو الروح الکبیرة التی و هبها اللّه تبارک و تعالی للآدمیین.

[۷۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۶.

[۷۵] (۲)- المصدر السّابق.

[۷۶] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۲۱۵.

[۷۷] (۱)- پیسیکولوجی دکتور آرانی، ص ۲۳.

[۷۸] (۱)- البشر فی النظرة المادیة، دکتور آرانی، ص ۲.

[۷۹] (۱)- عرض و تلخیص عن کتاب: المعاد و عالم ما بعد الموت، الفصل المتعلق باستقلال الروح.

[۸۰] (۱)- فی الحقیقة إنّ مفهوم الجملة هو هکذا:« و لکن لا نشاء أن نذهب بالذی أوحینا إلیک رحمة من ربّک».

[۸۱] (۱)- یراجع فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۵۸.

[۸۲] (۱)- یراجع تفسیر مجمع البیان أثناء تفسیر الآیات. و کذلک جاء مثله مع تفاوت فی الدر المنثور للسیوطی أثناء تفسیر الآیات.

[۸۳] (۱)- یمکن فی هذا الصدد مراجعة الآیات(۱۱۰) من سورة المائدة، و(۴۹) من سورة آل عمران.

[۸۴] (۱)- الفرقان، ۷.

[۸۵] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة رقم ۴۵.

[۸۶] (۱)- من حیث الترکیب: إنّ« الباء» فی i کَفی بِاللَّهِ E زائدة، و« اللّه» فاعل« کفی» و« شهیدا» تمییز، أو حال کما یقول البعض.

[۸۷] (۱)- العنکبوت، ۶۹.

[۸۸] (۲)- إبراهیم، ۲۷.

[۸۹] (۳)- البقرة، ۲۶.

[۹۰] (۴)- غافر، ۳۴.

[۹۱] (۱)- فی الآیة(۵۳) من سورة الکهف نقرأ قوله تعالی\:i وَ رَأَی الْمُجْرِمُونَ النَّارَ\E و فی الآیة(۱۳) من سورة الفرقان قوله تعالی\:i دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً\E و فی الآیة(۱۲) من الفرقان نقرأ\:i سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً\E.

[۹۲] (۱)- لمزید من التفاصیل یراجع کتاب:« العالم و المعاد بعد الموت».

[۹۳] (۱)- فی البحوث السابقة تعرضنا لهذه القضیة تفصیلا.

[۹۴] (۱)- طه، ۲۲.

[۹۵] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۶] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۷] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۸] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۹۹] (۲، ۳، ۴، ۵، ۶)- الأعراف، ۱۳۳.

[۱۰۰] (۷)- البقرة، ۵۰.

[۱۰۱] (۸)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۲] (۹)- البقرة، ۶۰.

[۱۰۳] (۱)- الأعراف، ۱۷۱.

[۱۰۴] (۲)- الأعراف، ۱۳۰.

[۱۰۵] (۳)- البقرة، ۷۳.

[۱۰۶] (۴)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۷] (۱)- الأعراف، ۱۳۶.

[۱۰۸] (۱)- یراجع تفسیر القرطبی، ج ۶، ص ۳۹۵۵.

[۱۰۹] (۲)- فی ظلال القرآن، أننا تفسیر الآیة.

[۱۱۰] (۱)- مجیء کلمة(قرآن) منصوبة فی الآیة أعلاه یفسّره المفسّرین بأنّه مفعول لفعل مقدّر تقدیره(فرقناه)، و بذلک تصبح الجملة هکذا:(و فرقناه قرآنا).

[۱۱۱] (۱)- یقول الراغب فی(المفردات):« یخرون» من مادة« خریر» و یقال لصوت الماء و الریح و غیر ذلک ممّا یسقط من علّو. و قوله تعالی\:i خَرُّوا لَهُ سُجَّداً\E تنبیه علی اجتماع أمرین: السقوط و حصول الصوت منهم بالتسبیح، و التنبیه أنّ ذلک الخریر کان

صوت تسبيحهم بحمد اللّه لا بشيء آخر. و دليله قوله تعالى فيما بعد\:i وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ E.

[۱۱۲] (۲)- تفسير المعانى، ج ۱۵، ص ۱۷۵.

[۱۱۳] (۳)-(إنّ) فى قوله\:i إِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا\E غير شرطية، بل هى تأكيدية، و هى مخففة من الثقيلة.

[۱۱۴] (۱)- يراجع مجمع البيان أثناء تفسير الآية.

[۱۱۵] (۱)- توحيد الصدوق نقلا عن تفسير الميزان أثناء تفسير الآية.

[۱۱۶] (۲، ۳)- يمكن مراجعة نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۳ فما بعد.

[۱۱۷] (۲، ۳)- يمكن مراجعة نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۳ فما بعد.

[۱۱۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۴.

[۱۱۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۳۹.

[۱۲۰] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۲۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۳ ص ۴۴۷.

[۱۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۳)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۴۴۷.

[۱۲۴] (۱)- الروم، ۴۳.

[۱۲۵] (۱)- روح المعانى، المجلد ۱۵، أثناء تفسير الآية.

[۱۲۶] (۲)-« قيم» من الناحية اللغوية« حال» و عامله« أنزل».

[۱۲۷] (۱)- حول عقيدة التثليث و اعتقاد المسيحيين بأنّ المسيح ابن اللّه يمكن مراجعة ما جاء فى ذيل الآية(۱۷۱) من سورة النساء فى تفسيرنا هذا.

[۱۲۸] (۱)- يقول الراغب فى المفردات: إنّ رقم(على وزن زخم) تعنى الخط الخشن و الواضح، و البعض اعتبره النقطة فى خط. و فى كل الأحوال إنّ(رقيم) تعنى الكتاب أو اللوح أو الرسالة التى يكتب فيها شيئا.

[۱۲۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۴۴ و ۲۴۵.

[۱۳۰] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳۱] (۱)- ذهب إلى هذا الرأى صاحب كتاب(أعلام القرآن) فى صفحة ۱۷۹ من كتابه.

[۱۳۲] (۱)- العنكبوت، الآية الأخيرة.

[۱۳۳] (۱)- يوسف، ۳۳.

[۱۳۴] (۱)- لأجل التوضيح أكثر يمكن مراجعة ما جاء فى ذيل الآية(۱۴۸) من سورة آل عمران و الآية(۱۲) من سورة الأنفال من تفسيرنا هذا.

[۱۳۵] (۱)- اللام فى« ليتساءلوا» هى لام العاقبة و ليست للعلّة. يعنى أنّ نتيجة يقظتهم هو أن سأل أحدهم الآخر عن طول مدّة نومهم.

[۱۳۶] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرابع، أبواب الدعاء، باب(۶۷) الحديث الرابع. و لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۱۳۷] (۱)- يجب الانتباه إلى أنّه طبقا للتفسير الأوّل فإنّ هناك جملة مقدّرة و هى(أن تقول) و يصبح المعنى بعد التقدير(إلّا أن تقول إن شاء اللّه) أمّا وفقا للتفسير الثّانى فليس ثمّة حاجة لهذا التقدير.

[۱۳۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۵۳ و ۲۵۴.

[۱۳۹] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۴۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۵۴ فما بعد.

[۱۴۱] (۱)- طبقا للقواعد النحوية يجب أن تأتى كلمة(سنة) و التى هى مفرد بدلا من(سنين) التى هى جمع، و لكن بما أن النوم كان طويلا للغاية، و عدد السنوات كثيرا، لذا ذكرت الكلمة بصيغة الجمع حتى توضّح الموضوع و تبيّن كثرته.

[۱۴۲] (۲)- الفرق بين السنة الشمسية و القمرية هو(۱۱) يوم تقريبا، فإذا ضربنا ذلك(۳۰۰) و قسمنا الناتج على عدد أيّام السنة القمريّة أى على(۳۵۴) يكون العدد(۹) طبعا يبقى باق قليل، أهمل لأنّه لا يصل إلى السنة الكاملة.

[۱۴۳] (۳)- جملة\i أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ E هى صيغة تعجّب، تبيّن لنا عظمة علم الخالق جلّ و علا، و المعنى أنّه بصير سميع بحيث أنّ الإنسان يعجب من ذلك.

[۱۴۴] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۴۷- ۲۴۸.

[۱۴۵] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۸۲ مادة فكر.

[۱۴۶] (۱)- من أجل المزيد من التفاصيل حول مسألة الهجرة و فلسفتها فى الإسلام يمكن مراجعة ما جاء فى تفسير الآية(۱۰۰) من سورة النساء من تفسيرنا هذا.

[۱۴۷] (۱)- حول كون التقية أسلوبا للدفاع و الوقاية، يمكن مراجعة ما ذكرناه لدى تفسير الآية(۶۲) من سورة يونس من تفسيرنا هذا، و كذلك ملاحظة الملاكات الفقهية لهذه المسألة فى كتابنا« القواعد الفقهية».

[۱۴۸] (۱)- أعلام القرآن، ص ۱۵۳.

[۱۴۹] (۲)- الكلام مقتبس من كتاب« قاموس الكتاب المقدّس»، ص ۸۷.

[۱۵۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۱۵۴.

[۱۵۱] (۲)- المعاد و العالم بعد الموت، ص ۱۶۳- ۱۶۵.

[۱۵۲] (۱)- اقتباس عن دائرة المعارف الفارسية الجديدة، مادة(سبات).

[۱۵۳] (۱)- مجلة« دانشمند»، عدد ۴۷، ص ۴.

[۱۵۴] (۲)- الكهف، ۱۸.

[۱۵۵] (۱)- الكهف، ۱۸.

[۱۵۶] (۲)- لتفاصيل أكثر يراجع كتاب: المعاد و الحياة بعد الموت.

[۱۵۷] (۱)- هذه الصفات أطلقها أشراف قريش و المؤلفة قلوبهم على المستضعفين من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كأبى ذر و غيره.

[۱۵۸] (۱)- فيما يخص معنى(وجه) و أنها تأتى فى بعض الأحيان بمعنى(الذات) و أحيانا بمعنى(وجه الإنسان) و فى سبب انتخاب ذلك فى هذه الموارد .. فيما يخص كل ذلك يمكن مراجعة ما كتبناه مفصلا لدى تفسير الآية(۲۷۲) من سورة البقرة فى تفسيرنا هذا.

[۱۵۹] (۲)-(لا تعد) مأخوذة من كلمة« عدا يعدو و ...» و هى بمعنى تجاوز الشىء و بذا يصبح مفهوم الجملة(لا تبعد عينيك عنهم كى تنظر إلى الآخرين).

[۱۶۰] (۱)-« فرط» تعنى التجاوز عن الحد، و كل شىء يخرج عن حدّه و يتحول إلى إسراف يقال له(فرط).

[۱۶۱] (۲)-« مهل» على وزن« قفل» و هى تعنى كما يقول الراغب فى المفردات: هى المقدار المترسب من الدهن و الذى يكون عادة ملوثا بأشياء وسخة و رديئة الطعم، إلّا أنّ بعضا آخر من المفسّرين يقولون بأنّها تعنى أى معدن مذاب.

و الظاهر أنّ تعبير(يشوى الوجوه) يرجّح المعنى الثّانى.

[۱۶۲] (۳)-« مرتفق» من كلمة« رفق و رفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

[۱۶۳] (۱)-« أساور» جمع« أسورة» على وزن« مشورة» و هى بدورها جمع(سوار) على وزن(غبار) و(كتاب) و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة فارسية عرّبت و اشتقت منها الأفعال العربية.

[۱۶۴] (۱)-« أرائك» جمع« أريكة» و تطلق على السرير الذى تكون جوانبه جميعا مغطاة، و هى فى الأصل- كما يقول الراغب- مأخوذة من(أراك) و هى شجرة معروفة كان العرب يصنعون منها مظلّة؛ أو من(أروك) بمعنى الإقامة و التوّقف.

[۱۶۵] (۱)- كلمة(لكنّا) فى الأصل كانت(لكن إنّ) ثمّ دمجت و أصبحت هكذا.

[۱۶۶] (۲)- جمله i ما شاءَ اللَّهُ E لها محذوف إذ تكون مع التقدير: ما شاء اللّه كان، أو: ما شاء اللّه، فإنّ هذا هو الشىء الذى يريده اللّه.

[۱۶۷] (۱)- الزخرف، ۳۱.

[۱۶۸] (۱)-« هشيم» من« هشم» بمعنى محطّم، و هى هنا تطلق على النباتات المتيبسة و المتحطّمة.

[۱۶۹] (۲)-« تذروه» من« ذرو» و تعنى التشتيت.

[۱۷۰] (۱)- الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و القرطبى فى التّفسير الجامع.

[۱۷۱] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۷۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۷.

[۱۷۳] (۱)-« بدلا» من حيث التركيب اللغوى، تمييز. و فاعل« بئس» هو الشيطان و عصابته، أو عباد الشيطان و عصابته.

[۱۷۴] (۱)-« موبق» من« وبوق» على وزن« نبوغ» و هى تعنى الهلاك، و(موبق) تقال للمهلكة.

[۱۷۵] (۱)- الأنبياء، ۲۶- ۲۷.

[۱۷۶] (۲)- نهج البلاغة الخطبة(۱۹۲)« الخطبة القاصعة».

[۱۷۷] (۱)- الأعراف، ۱۲.

[۱۷۸] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۷.

[۱۷۹] (۱)- المصدر السّابق.

[۱۸۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۸

[۱۸۱] (۱)-(قبل) تعنى(التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهى بالعين، بعض المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان، و أبى الفتوح فى روح الجنان، و الآلوسى فى روح المعانى احتملوا أن تكون(قبل) جمع(قبيل) و هى إشارة إلى الأنواع المختلفة من العذاب، إلّا أنّ المعنى الأوّل أقرب حسب الظاهر.

[۱۸۲] (۱)-(يدحضوا) مشتقة من(إدحاض) بمعنى الإبطال و الإزالة، و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة(دحض) بمعنى الانزلاق.

[۱۸۳] (۱)- كما قلنا سابقا(أكنة) جمع(كنان) على وزن كتاب، و تعنى الستار أو الحجاب و(وقر) تعنى ثقل الأذن عن السماع.

[۱۸۴] (۱)-(موئل) من كلمة(وئل) و تعنى الملجأ و وسيلة النجاة.

[۱۸۵] (۱)-(سرب) على وزن(جرب) كما يقول الراغب فى مفرداته، و هى تعنى السير فى الطريق المنحدر، و(سرب) على وزن(حرب) تعنى الطريق المنحدر.

[۱۸۶] (۱)- إن جملة\i وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ E جملة اعتراضية تقع فى وسط الكلام، و لأنّ هذه الجملة تذكر- فى الواقع- سبب النسيان، لذا فقد وقعت فى وسط الكلام، و هذا الأسلوب شائع خصوصا للأشخاص الذين يكونون موضع عتاب شخص

أكبر، حيث أنّهم يذكرون العلة الأصلية ضمن الكلام بشكل اعتراضى، حتى يكون الاعتراض عليهم أقل.

[۱۸۷] (۱)- إن عبارة\i أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً\E يكون مفهوما بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة(أحدث) هو: إنّى أنا الذى أبدأ بالكلام و أكشف للمرّة الأولى؛ أمّا أنت فلا تتكلم.

[۱۸۸] (۱)- أنطاكية من المدن السورية القديمة التى تقع على بعد(۹۶) كم من حلب، و(۵۹) كم عن الإسكندرونة، تشتهر المدينة بالحبوب الغذائية، و الحبوب الدهنية، فيها ميناء يسمى« سويدية» و يبعد عن مركزها(۲۷) كيلومتر.(يراجع فى ذلك دائرة فريد وجدى، ج ۱، ص ۸۳۵).

[۱۸۹] (۱)- مجمع البيان فى تفسير الآية.

[۱۹۰] (۲)- إنّ نسبة(الإرادة» إلى الجدار هو استخدام مجازى، و مفهوم ذلك أنّ الجدار كان ضعيفا للغاية و هو على مشارف الانهيار.

[۱۹۱] (۱)- أبو الفتوح الرازى فى(روح الجنان)، ج ۳، أثناء تفسير الآية.

[۱۹۲] (۲)- للتوضيح أكثر يمكن مراجعة الآية(۷) من سورة آل عمران.

[۱۹۳] (۳)- يوسف، ۱۰۰.

[۱۹۴] (۱)- فى معنى(وراء) يمكن مراجعة البحث الوارد فى ذيل الآية(۱۶) من سورة إبراهيم فى تفسيرنا هذا.

[۱۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار الجملة رقم ۴۱۹.

[۱۹۶] (۲)- وفق التّفسير الأوّل يكون الفعل« يرهق» متعديا إلى مفعولين: الأوّل(هما)، و المفعول الثّانى(طغيانا)، أمّا وفق التّفسير الثّانى فإن(طغيانا) و(كفرا) يكونان مفعولا لأجله.

[۱۹۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۶ و ۲۸۷.

[۱۹۸] (۱)- أصول الكافى، المجلد الأوّل، باب« إنّ الأئمّة بمن يشبهون فيمن مضى»، ص ۲۱۰.

[۱۹۹] (۱)- ما ورد أعلاه منقول عن كتاب(أعلام القرآن)، ص ۲۱۳.

[۲۰۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۴۸۱.

[۲۰۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۷۵.

[۲۰۲] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۳] (۲)- مجمع البيان، ج ۶، ص ۴۸۰. و الميزان، ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۴] (۱)- الدر المنثور و مصادر أخرى طبقا لما نقله صاحب الميزان فى ج ۱۳، ص ۳۵۶.

[۲۰۵] (۲)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۷.

[۲۰۶] (۱)- البقرة، ۲۱۶.

[۲۰۷] (۲)- معجم رجال الحديث، ج ۷، ص ۲۲۶.

[۲۰۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۸۹.

[۲۰۹] (۱)- نهج البلاغة- الحكمة رقم ۴۳۸.

[۲۱۰] (۱)-(حمئة) تعنى فى الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة؛ أو الماء الآسن الموجود فى المستنقعات. و هذا الوصف يبيّن لنا بأنّ الأرض التى بلغها« ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأنّ الشمس كانت تغرب فى هذه المستنقعات، تماما كما يشعر بذلك مسافر البحر، و سكّان السواحل الذين يشعرون بأنّ الشمس قد غابت فى البحر أو خرجت منه!

[۲۱۱] (۱)- يظهر أن جملة\i إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ\ ...E استفهامية بالرغم من أنّ ظاهرها أنّها جملة خبرية.

[۲۱۲] (۲)-« نكر» مشتقة من« منكر» بمعنى الشىء المجهول؛ أى العذاب المجهول الذى لم يمكن تصوره.

[۲۱۳] (۱)- أشارت بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام إلى التّفسير الأوّل، فيما أشارت روايات أخرى إلى التّفسير الثّانى. و ليس ثمّة تناقض بين الإثنين(يراجع نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۰۶).

[۲۱۴] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، و الفخر الرازى أثناء تفسير الآية.

[۲۱۵] (۱)- الميزان، ج ۱۳، ص ۳۹۱.

[۲۱۶] (۱)-« الآلوسى» فى« روح المعانى»، و الفيض الكاشانى فى تفسير« الصافى»، و الفخر الرازى فى« التّفسير الكبير».

[۲۱۷] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة رقم ۵۳.

[۲۱۸] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، مادة« صمم».

[۲۱۹] (۲)- سورة إبراهيم، ۳۵.

[۲۲۰] (۱)- يمكن ملاحظة ذلك فى تفسير الفخر الرازى، و الكامل لابن الأثير(المجلد الأوّل صفحة ۲۸۷). و يعتقد البعض أن أوّل من قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا فى كتابه الشفاء.

[۲۲۱] (۲)- الميزان، ج ۱۳، ص ۴۱۴.

[۲۲۲] (۱)- يراجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۹۴ و ۲۹۵.

[۲۲۳] (۱)- كتاب دانيال، الفصل الثامن، الجمل ۱- ۴.

[۲۲۴] (۱)- لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب« ذو القرنين أو كورش الكبير».

[۲۲۵] (۱)- للمزيد من التفاصيل يراجع المصدرين السابقين.

[۲۲۶] (۱)- يلاحظ المجلد ۱۳، من تفسير الميزان، ص ۴۱۱.

[۲۲۷] (۲)- لمزيد من التفاصيل يراجع كتاب(ذو القرنين أو كورش الكبير).

[۲۲۸] (۱)- تفسير العياشى، نقلا عن الميزان فى تفسير الآية.

[۲۲۹] (۱)- هناك كلام بين المفسّرين حول تركيب جملة\i ذلِكَ جَزاؤُهُمْ E فالبعض اعتبر« ذلك» مبتدأ و« جزاؤهم» خبرا و« جهنم» بدلا، فى حين أنّ البعض الآخر اعتبر أنّ المبتدأ محذوف و« ذلك» خبرا له، و« جزاؤهم جهنم» مبتدأ لخبر آخر تقديره: الأمر ذلك جزاؤهم جهنم. إلّا أنّهم يظهر أنّ الرأى الأوّل أكثر تناسبا من غيره.

[۲۳۰] (۱)- يراجع نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۱۱- ۳۱۲.

[۲۳۱] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۳۲] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۳۳] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۳۴] (۱)- فاطر، ۸.

[۲۳۵] (۲)- الأنفال، ۴۸.

[۲۳۶] (۱)- يمكن مراجعة سورة المؤمنون، الآية ۱۰۶ فما فوق.

[۲۳۷] (۱)- عن تفسير مجمع البيان، فى تفسيره للآية.

[۲۳۸] (۱)- ذهب بعض إلى أن هذه الكلمة مأخوذة من اللغة الرومية فى الأصل، و ذهب آخرون الى أن جذورها حبشية انتقلت الى العربية(تفسير الفخر الرازى و تفسير مجمع البيان).

[۲۳۹] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد ۱۱- ۱۲، صفحة ۶۸- ۶۹. و كذلك تفسير الصافى أثناء الحديث عن الآية.

[۲۴۰] (۱)- نقل الفخر الرازی فی معنی(مـداد) إضافة إلی ما ذکر معنی آخر، و هو« الزیت» الذی یوضع فی المصـباح و یکون سـببا للنور، و الاثنان یرجعان إلی معنی واحد.

[۲۴۱] (۲)- النساء، ۱۷۱.

[۲۴۲] (۱)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة. و کذلک تفسیر القرطبی.

[۲۴۳] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۰۸.

[۲۴۴] (۱)- مجمع البیان الجزء ۳، ص ۵۰۰.

[۲۴۵] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۶] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۰.

[۲۴۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۴۸] (۳)- کلمة« ذکر» خبر لمبتدأ محذوف، و علیه فالتقدیر: هذا ذکر رحمة ربّک.

[۲۴۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۲۳.

[۲۵۰] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۴(نقلا عن الإحتجاج).

[۲۵۱] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۳ و ۳۲۴.

[۲۵۲] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۶، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۵۳] (۲)- تفسیر المیزان الجزء ۱۴، ذیل الآیة.

[۲۵۴] (۳)- مجمع البیان، الجزء ۶، ذیل الآیة.

[۲۵۵] (۱)- المعروف بین المفسّـرین أن عبارة(کـذلک) هی فی تقـدیر(الأمر کـذلک). و یحتمل کـذلک أن(کذلک) متعلقة بما بعدها و یصبح معناها: کذلک قال ربّک.

[۲۵۶] (۱)- لقد بحثنا مفصـلا فی أنّ ترک الزواج لا یمکن أن یکون فضـیلة لوحده، و أنّ قانون الإسـلام یؤکّد فی هذا المجال علی الزواج، فی الجزء الثّانی ذیل الآیة(۳۹) من آل عمران من هذا التّفسیر.

[۲۵۷] (۲)- أعلام القرآن، ص ۶۶۷.

[۲۵۸] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۴.

[۲۵۹] (۱)- یراجع تفسیر القرطبی و الآلوسی فی تفسیر هذه الآیة.

[۲۶۰] (۱)- یراجع تفسیر المیزان فی ذیل الآیة.

[۲۶۱] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۷.

[۲۶۲] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۵.

[۲۶۳] (۱)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۲۵.

[۲۶۴] (۱)- یستفاد من بعض الأناجیل و قسم من الرّوایات أنّ هیرودیس قد تزوج امرأة أخیه، و قد کان هذا الزواج ممنوعا فی قانون التوراة، و قـد لامـه یحیی علی هـذا العمل بشـدّة، ثمّ أن تلک المرأة حملت هیرودیس علی قتل یحیی بإغرائه بجمال بنتها. إنجیل متی باب ۱۴، إنجیل مرقس باب ۶، الفقرة ۱۷ و ما بعدها.

[۲۶۵] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۴، ص ۳۷.

[۲۶۶] (۱)-« جذع» علی وزن« ذبح» فی الأصل من مادة« جذع» علی وزن« منع» بمعنی القطع.

[۲۶۷] (۱)- وسائل الشیعة، الجزء ۷، ص ۳۹۰.

[۲۶۸] (۲)- من لا یحضره الفقیه، حسب نقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۳۲.

[۲۶۹] (۳)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۳۰.

[۲۷۰] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۷۱] (۲)- من کتاب أول جامعة و آخر نبی، الجزء ۷، ص ۶۵.

[۲۷۲] (۳)- المصدر السابق.

[۲۷۳] (۱)-« فریا» بناء علی قول الراغب فی المفردات- جاءت بمعنی العظیم أو العجیب، و فی الأصل من مادة فری، أی قص و قطع الجلد إمّا لإصلاحه أو إفساده.

[۲۷۴] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۳۳.

[۲۷۵] (۳)- المصدر السّابق.

[۲۷۶] (۱)- البر- بالفتح- بمعنی الشخص المحسن، فی حین أن البر- بالکسر- بمعنی صفة الإنسان، و ینبغی الالتفات إلی أن هذه الکلمة فی الآیة عطف علی(مبارکا) لا علی الصلاة و الزکاة، و المعنی فی الواقع: جعلنی برا بوالدتی.

[۲۷۷] (۲)- لزیادة التوضیح حول(جبار)، و جواب هذا السؤال، و هو أنّه کیف تکون إحدی صفات اللّه سبحانه أنّه جبار؟ یراجع ذیل الآیة(۵۹) من سورة هود من هذا التّفسیر.

[۲۷۸] (۳)- تفسیر الفخر الرازی، آخر الآیة.

[۲۷۹] (۱)- وسائل الشیعة، الجزء ۱۵، ص ۲۰۷.

[۲۸۰] (۲)- جامع السعادات، ج ۲، ص ۲۶۱.

[۲۸۱] (۱)- الوسائل، الجزء ۱۵ ص ۱۷۵.

[۲۸۲] (۱)- آل عمران، ۵۹.

[۲۸۳] (۱)- لقد بحث المفسّرون فی ترکیب هذه الجملة کثیرا، إلّا أن أصحها علی ما یبدو، من الناحیة الأدبیة، و بملاحظة الآیات السابقة، هو أنّ« قول الحق» مفعول لفعل محذوف، و\i الَّذِی فِیهِ یَمْتَرُونَ E صفة له، و کان التقدیر هکذا: أقول قو الحق الذی فیه یمترون.

[۲۸۴] (۱)- من أجل زیادة الإیضاح فی مسألة تثلیث النصاری، و ما حاکوه و نسجوه من الخرافات حولها، راجع ذیل الآیة(۱۷۱) من سورة النساء.

[۲۸۵] (۱)- لقد بحثنا فی معنی(کن فیکون)، و أدلة نفی الولد عن اللّه المجلد الأوّل من هذا التّفسیر، فی ذیل الآیتین ۱۱۶، ۱۱۷ من سورة البقرة.

[۲۸۶] (۱)- اقتبس من سیرة ابن هشام، المجلد الأوّل، الصفحة ۳۵۶- ۳۶۱.

[۲۸۷] (۱)- إنّ هذه الآیة من جهة الترکیب، عطف علی کلام عیسی الذی مر آنفا، و الذی ابتدأ بقوله i قالَ إِنِّی عَبْدُ اللَّهِ E و انتهی بهذه الجملة.

[۲۸۸] (۱)- یراجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۱۷۱) من سورة النساء.

[۲۸۹] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۵، ص ۴۳۶، بتصرف.

[۲۹۰] (۲)- یمکن أن یکون(مشهد) مصدرا میمیا بمعنی الشهود، أو أن یکون اسم مکان أو زمان بمعنی محل أو زمن الشهود، و بالرغم من اختلاف هذه المعانی، إلّا أنّها لا تختلف کثیرا من ناحیة النتیجة.

[۲۹۱] (۱)- الألف و اللام فی کلمة(الیوم) هی ألف و لام العهد، إلا أنّه طبقا للتفسیر الأوّل العهد الحضوری، و علی التّفسیر الثّانی

العهد الذكرى.

[۲۹۲] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية أعلاه.

[۲۹۳] (۲)- هل أن هذه الآية إشارة إلى القيامة، أو إلى زمان فناء الدنيا، فإن كانت إشارة إلى القيامة، فإنّها لا تناسب ظاهرا جملة\i وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ E و إن كانت إشارة إلى زمان فناء الدنيا، فإنّها لا تناسب جملة\i وَ مَنْ عَلَيْها\E لأنّه لا يوجد أى حى عند فناء الدنيا حتى يصدق عليه تعبير(من عليها) و ربّما فسّر بعض المفسّرين- كالعلّامة الطباطبائى- هذه الجملة هكذا: إنا نحن نرث عنهم الأرض، لهذا السبب. إلا أن هذا التّفسير أيضا يخالف الظاهر قليلا لأن i وَ مَنْ عَلَيْها\E عطفت بالواو.

و هنا- أيضا- احتمال آخر، و هو أن مفعول i نَرِثُ E تارة يكون الشخص الذى يترك الأموال، مثل\i: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ\E، و تارة أخرى الأموال التى بقيت للإرث، مثل\i: نَرِثُ الْأَرْضَ E و فى الآية أعلاه ورد كلا التعبيرين.

[۲۹۴] (۱)- لقد بحث هذا الموضوع مفصلا ذيل الآية(۷۴) من سورة الأنعام.

[۲۹۵] (۱)- سفينة البحار، الجزء ۲، ص ۱۱۵ مادة(عبد).

[۲۹۶] (۱)- مريم، ۹۶.

[۲۹۷] (۱)- أصول الكافى، حسب نقل تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۳۹.

[۲۹۸] (۲)- إبراهيم، ۳۹.

[۲۹۹] (۱)- سورة ص، ۸۲- ۸۳.

[۳۰۰] (۲)-« النجى» بمعنى المناجى، أى الشخص الذى يهمس فى أذن الآخر، و هنا ينادى اللّه موسى من بعيد، و لما اقترب ناجاه. و من المعلوم أن اللّه سبحانه ليس له لسان و لا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية فى الفضاء، و يتكلم مع عبد كموسى.

[۳۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۸.

[۳۰۲] (۲)- أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۳۳- ۱۳۴، طبعة دار الكتب الإسلامية.

[۳۰۳] (۱)- أصول الكافى، ج ۲، ص ۸۶.

[۳۰۴] (۲)- سورة الشعراء، ۲۱۴.

[۳۰۵] (۱)- كان لنا بحث أكثر تفصيلا حول هذا الموضوع ذيل الآية(۱۱۹) من سورة المائدة من هذا التّفسير.

[۳۰۶] (۱)- سجد جمع ساجد، و بكى جمع باك.

[۳۰۷] (۲)- لأنّها إذا كانت إشارة للأنبياء السابقين، فإنّها لا تناسب الفعل المضارع(تتلى) الذى يتعلق بالمستقبل، إلّا أن نقدر جملة(كانوا) و أمثالها، و هى خلاف الظاهر أيضا.

[۳۰۸] (۳)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۰۹] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۸۴.

[۳۱۰] (۱)-(عدن) فى اللغة بمعنى الإقامة، و هنا تعطى هذا المعنى، بأن ساكنى تلك الجنان سيكونون مقيمين فيها دائما.

[۳۱۱] (۱)- تفسير روح المعانى، الجزء ۱۶، ص ۱۰۳.

[۳۱۲] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۲، ص ۳۱. و قد بحثنا فى هذا الباب ذيل الآية(۴۲) من سورة الأعراف من هذا التّفسير.

[۳۱۳] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۵۲، عن مجمع البيان، و تفسير القرطبى، الجزء ۱۱، ص ۴۱۶، و ذيل الآية مورد البحث باختلاف يسير.

[۳۱۴] (۱)- يس، ۷۷- ۷۹.

[۳۱۵] (۲)- لقد بحثنا حول هذا الدليل فى ذيل الآية(۲۹) من الأعراف تحت عنوان(أقصر دليل لإثبات المعاد).

[۳۱۶] (۱)-« الشيعة» فى الأصل بمعنى الجماعة التى يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، و انتخاب هذا التعبير فى الآية يمكن أن يكون إشارة إلى أن العتاة المردة و الضالين الكافرين كانوا يتعاونون فى طريق الطغيان، و نحن سنحاسب هؤلاء أوّلا، لأنّهم أكثر تمردا و عصيانا من الجميع.

[۳۱۷] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۵۳.

[۳۱۸] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۱۹] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۷۲ ذيل آية\i إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ\E الفجر، ۱۴.

[۳۲۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۵۳.

[۳۲۱] (۱)- مفردات الراغب، مادة(ندى).

[۳۲۲] (۱)-(الأثاث) بمعنى المتاع و زينة الدنيا، و(رئى) بمعنى الهيئة و المنظر.

[۳۲۳] (۱)- راجع ذيل الآيات ۱۸۲، ۱۸۳ من سورة الأعراف.

[۳۲۴] (۱)-« مردّ»- على وزن نمدّ بتشديد الدال- إمّا مصدر بمعنى الرّد و الإرجاع، أو اسم مكان بمعنى محل الرجوع، و المراد منه هنا الجنّة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أوفق لمعنى الآية.

[۳۲۵] (۱)- نقل بعض المفسّرين سببا لنزول الآية و هو: إنّ أحد المؤمنين- و اسمه خباب- كان يطلب أحد المشركين- و اسمه العاص بن وائل، فقال المدين مستهزئا: إذا وجدت مالا و ولدا فى عالم الآخرة فسأؤدى دينك.

إلّا أنّ سبب النّزول هذا لا يناسب الآية التى نبحثها ظاهرا، خاصّة و أنّ الكلام عن الولد هنا، و نحن نعلم أنّ الولد فى عالم الآخرة غير مطروح للبحث. إضافة إلى أن الآيات التالية تقول بصراحة\:i نَرِثُهُ ما يَقُولُ E و يتّضح من هذا التعبير أنّ المقصود أموال الدنيا لا الأموال فى الآخرة.

و على كل حال، فإنّ جماعة من المفسّرين اعتبروا هذه الآية- بناء على سبب النّزول هذا- إشارة إلى الآخرة، إلّا أنّ الحق ما قيل.

[۳۲۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۵۷.

[۳۲۷] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۵۷.

[۳۲۸] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۵۹.

[۳۲۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۶۲.

[۳۳۰] (۲)- الدر المنثور(حسب نقل الميزان فى ذيل الآية مورد البحث).

[۳۳۱] (۱)- المصادر السابقة.

[۳۳۲] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۳۳۳] (۱)- لقد تمّ الحديث عن« عزير» فى الآية(۳۰) من سورة التوبة، و عن(الملائكة) فى ذيل الآية(۱۹) من سورة الزخرف.

[۳۳۴] (۱)- بحثنا حول نفى الولد عن اللّه فى الجزء الأوّل ذيل الآية(۱۱۶) من سورة البقرة، ذيل الآية(۶۸) من سورة يونس.

[۳۳۵] (۱)- لقد ورد هذا الحديث فى كثير من المصادر الحديثية المعروفة، و كذلك فى كثير من كتب التّفسير، إلّا أنّنا اخترنا المتن الذى نقل فى تفسير(فى ظلال القرآن)، ج ۵، ص ۲۵۴ عن أحمد و مسلم و البخارى.

[۳۳۶] (۱)- نقلا عن إحقاق الحق، الجزء ۳، ص ۸۳- ۸۶.

[۳۳۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۳۳۸] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۹] (۴)- روح المعانى الجزء ۱۶، ص ۱۳۰، و مجمع البيان الجزء ۶، ص ۵۳۳، و كذلك نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة

۴۵.

[۳۴۰] (۵)- نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۶۳.

[۳۴۱] (۱)- مجمع البیان، الجزء ۷، ص ۱.

[۳۴۲] (۲)- تفسیر النور الثقلین، الجزء ۳، ص ۳۶۷.

[۳۴۳] (۳)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۱.

[۳۴۴] (۱)- لمزید الاطلاع علی هذه الرّوایات، راجع: تفسیر نور الثقلین، و الدر المنثور، بدایة سورة طه.

[۳۴۵] (۱)- بدایة سورة البقرة و آل عمران و الأعراف من التّفسیر الأمثل.

[۳۴۶] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۴۷] (۱)- هناک بحث بین المفسّرین فی محل(تنزیلا) من الإعراب، غیر أن الأصح أنّها مفعول مطلق لفعل مجهول محذوف، و کان التقدیر: نزل تنزیلا ممن خلق الأرض.

[۳۴۸] (۲)- الأعراف، ۵۴.

[۳۴۹] (۱)- النمل، ۳۸.

[۳۵۰] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۵۱] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۵۲] (۱)- نقرأ فی قاموس اللغة، مادة کاد: و تکون بمعنی أراد، أکاد أخفیها: أرید.

[۳۵۳] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۷۳.

[۳۵۴] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۷۴.

[۳۵۵] (۳)- المصدر السابق.

[۳۵۶] (۴)- سفینة البحار، الجزء الأول، ص ۵۱۳.

[۳۵۷] (۱)-« أهش» من مادة هشّ- بفتح الهاء- أی ضرب أوراق الشجر و تساقطها.

[۳۵۸] (۲)-« مآرب» جمع مأربة، أی الحاجة و المقصد.

[۳۵۹] (۱)-« السیرة»- کما یقول الراغب فی المفردات- بمعنی الحالة الباطنیة، سواء غریزیة أو اکتسابیة و البعض فسرها هنا بمعنی الهیئة و الصورة.

[۳۶۰] (۲)- آیة منصوبة علی أنها اسم حال محل الحال، و الحال لضمیر مستتر فی(تخرج).

[۳۶۱] (۱)- تحدثنا أیضا حول هذا الموضوع ذیل الآیة(۱۰۷) من سورة الأعراف.

[۳۶۲] (۱)- التوراة، سفر الخروج، الفصل الرابع، الجملة ۶.

[۳۶۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الحکمة ۱۷۶.

[۳۶۴] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیة.

[۳۶۵] (۲)- مریم، ۵۳.

[۳۶۶] (۱)- کما قلنا سابقا أیضا فإنّ« المنة» فی الأصل من المن، و هو یعنی الأحجار الکبیرة التی کانوا یزنون بها، و لذلک فإن کل نعمة کبیرة و نفیسة یقال عنها: إنّها منة. و المراد فی الآیة هو هذا المعنی، و هذا المعنی مفهوم جمیل و ایجابی للمنّة، إلّا أنّ الإنسان إذا عظّم عمله الصغیر بکلامه، و ذکرّ الطرف الآخر به، فإنّه مصداق حی للمنة السلبیة المذمومة.

[۳۶۷] (۱)- راجع المجلد الثّانی من التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۲۴۸) من سورة البقرة.

[۳۶۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۷۸.

الجزء العاشر

[تتمة سورة طه

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۴۲ الى ۴۸]

اشارة

اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۴۳) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۴۴) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (۴۵) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى (۴۶)
فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (۴۷) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۴۸)

التّفسير

أوّل لقاء مع فرعون الجبّار:

الآن و قد أصبح كلّ شيء مهيّا، و كلّ الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب اللّه سبحانه موسى و هارون. بقوله: اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي الآيات التى تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السّلام، كما تشمل كلّ آيات اللّه و تعليماته التى هى بذاتها دليل على أحقّية دعوته، خاصّة و أنّ هذه التعليمات العظيمة المحتوى ظهرت على يد رجل قضى أهمّ سنىّ حياته فى «رعى الأغنام»!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶

و من أجل رفع معنوياتهما، و التأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعى و الجهود، فقد أضاف سبحانه قائلا: وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي و تنفيذ أوامرى، لأنّ الضعف و اللين و ترك الحزم سيذهب بكلّ جهود كما أدراج الرياح، فأثبتا و لا تخافا من أى حادثة، و لا تهنا أمام أى قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأصل لهذه الحركة، و النقطة التى يجب أن تكون هدفا لتشخيص المسار، فيقول: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فإنّه سبب كلّ الشقاء و التعاسة فى هذه المنطقة الواسعة، و ما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أى عمل، لأنّ عامل تقدّم الأمّة أو تخلّفها، سعادتها أو شقائها و بؤسها هو قادتها و حكّامها، و لذلك يجب أن يكونوا هدفكما قبل الجميع.

صحيح أنّ هارون لم يكن فى ذلك الحين حاضرا فى تلك الصحراء، و لكن اللّه أطلعه على هذه الحوادث كما ذكر المفسّرون، و قد خرج من مصر لاستقبال أخيه موسى لأداء هذه المهمّة، إلّا أنّه لا مانع مطلقا من أن يخاطبا معا، و توجّه إليهما مأمورية تبليغ الرسالة، فى الوقت الذى لم يحضر غير أحدهما.

ثمّ بيّنت الآية طريقة التعامل المؤثّرة مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه و تؤثرا فيه فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى و الفرق بين «يتذكّر» و «يخشى» هنا هو أنّكما إذا واجهتماه بكلام لطيف، رقيق، ملائم، و تبيّنان فى الوقت ذاته المطالب بصراحة و حزم، فيحصل أحد الاحتمالين: أن يقبل من صميم قلبه أدلتكما المنطقيّة و يؤمن، و الاحتمال الآخر هو أن يخاف على الأقل من العقاب الإلهى فى

الدنيا أو الآخرة، و من زوال ملكه و قدرته، فيذعن و يسلم و لا يخالفكما.

و يوجد احتمال ثالث أيضا، و هو أنّه لا يتذكّر و لا يخشى، بل سيستمر فى طريق المخالفة و المجابهة، و قد أشير إلى ذلك بكلمة «لعلّ» و فى هذه الصورة فإنّ الحجّة قد تمّت عليه، و على كلّ حال فإنّ القيام بهذا العمل لا يخلو من فائدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷

لا شكّ أنّ اللّه تعالى يعلم عاقبة عمله، إلّا أنّ التعبيرات المذكورة آنفا درس لموسى و هارون و كلّ المصلحين و المرشدين إلى طريق اللّه ۱].

و مع هذه الحال، فقد كان موسى و هارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوى المتغطرس المستكبر، الذى عمّ رعبه و خشونته كلّ مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلّغ موسى عليه السّلام و هارون عليه السّلام الدعوة، و يهلكهما، لذلك قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى

«يفرط» من مادّة فرط- على وزن شرط- أى السبق و العجلة، و لذلك يقال للشخص الذى يردّ محلّ الماء أوّلا: فارط، و نقرأ فى كلام الإمام على عليه السّلام أمّا قبور الموتى بجبانة الكوفة: «أنتم لنا فرط سابق»[۲].

على كلّ حال، فإنّ موسى و هارون كانا مشفقين من شيئين: فإمّا أن يقسو فرعون و يستخدم القوّة قبل أن يسمع كلامهما، أو أنّه يقدم على هذا العمل بعد سماعه هذا الكلام مباشرة، و كلتا الحالين تهدّد مهمّتهما بالخطر.

إلّا أنّ اللّه سبحانه قد أجابهما بحزم: ف قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى و بناء على هذا، فمع وجود اللّه القادر معكما فى كلّ مكان، اللّه الذّى يسمع كلّ شىء، و يرى كلّ شىء، و هو حاميكما و سندكما، فلا معنى للخوف و الرعب.

ثمّ يبيّن لهما بدقّة كيفية إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعة غنيّة المحتوى، ترتبط أوّلها بأصل المهمّة، و الثّانية ببيان محتوى المهمّة، و الثّالثة بذكر الدليل و السند، و الرّابعة بترغيب الذين يقبلونها، و أخيرا فإنّ الخامسة تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أوّلا: فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ و الجميل هنا أنّهما بدل أن يقولا:

(ربّنا) فإنّهما يقولان (ربّك) ليثيروا عواطف فرعون و إحساساته تجاه هذه النقطة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸

بأنّ له ربّا، و أنّهما رسولاه، و يكونان قد أفهماه بصورة ضمنيّة أن ادّعاء الرّبوبية لا يصحّ من أى أحد، فهى مختصّة باللّه.

ثمّ تقول: فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ الصحيح أنّ دعوة موسى لم تكن من أجل نجاة بنى إسرائيل من قبضة الفراعنة فقط، بل كانت- و بشهادة سائر آيات القرآن- تهدف أيضا إلى نجاة فرعون و الفراعنة أنفسهم من قبضة الشرك و عبادة الأوثان. إلّا أنّ أهميّة هذا الموضوع، و ارتباطه المنطقى بموسى كان السبب فى أن يضع إصبعه على هذه المسألة بنفسه، لأنّ استغلال و استعباد بنى إسرائيل مع كلّ ذلك التعذيب و الأذى لم يكن أمرا يمكن توجيهه.

ثمّ أشارت إلى دليلهما و وثيقتهما، فتقول: قولا له: قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ فإنّا لا نتكلم اعتباطا أو جزافا، و لا نتحدّث من دون أن نمتلك الدليل، و بناء على هذا، فإنّ العقل يحكم بأن تفكّر فى كلامنا على الأقل، و أنّ تقبله إن كان صحيحا و منطقيّا.

ثمّ تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى

و هذه الجملة يمكن أن تشير أيضا إلى معنى آخر، و هو أنّ السلامة فى هذه الدنيا، و العالم الآخر من الآلام و العذاب الإلهى الأليم، و من مشاكل الحياة الفردية و الاجتماعية، من نصيب أولئك الذين يتّبعون الهدى الإلهى، و هذه فى الحقيقة هى النتيجة النهائية لدعوة موسى.

و أخيرا، فإنّ اللّه يأمرهما أن يفهماه العاقبة المشؤومة للتمرّد على هذه الدعوة و عصيانها، بقولهما له: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى

مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

من الممكن أن يتوهّم متوهّم عدم تناسب هذه العبارة و الحوار الملائم اللذين كانا قد امرا بهما. إلّا أنّ هذا خطأ محض، فأى مانع من أن يقول طبيب حريص بأسلوب مناسب لمريضه: كلّ من يستعمل هذا الدواء سيشفى و ينجو، و كلّ من يتركه فسينزل به الموت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹

إنّ هذا بيان لنتيجة التعامل غير المناسب مع واقع ما، و لا يوجد فيه تهديد خاص، و لا شدّة فى التعامل. و بتعبير آخر: فإنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ و دوران، و بدون أى تغطية و تورية.

بحوث

۱- قدرة اللّه العجيبة

لقد رأينا كثيرا- على مرّ التاريخ- أناسا أقوياء هبّوا للوقوف بوجه الحقّ، إلّا أنّ اللّه سبحانه لم يستخدم و يعبّئ جنود الأرض و السّماء من أجل سحقهم و تدميرهم فى أى مورد من الموارد، بل إنّه يغلبهم بسهولة و بساطة، و بصورة لا تخطر على ذهن أحد، خاصة و أنّه فى كثير من الموارد يبعث هؤلاء نحو أسباب موتهم، و يؤكل مهمّة إعدامهم إليهم أنفسهم! و نرى فى قصّة فرعون هذه، أنّ عدوّه الأصلى- أى موسى- قد تربّى فى أحضانه، و هو الذى رعاه، و نشأ فى كنفه! و من الطبيعى أنّ ذلك كان بتخطيط اللّه سبحانه.

و الأروع من ذلك أنّ قابلة موسى عليه السّلام- طبقا لنقل التواريخ- كانت من الأقباط، و النجّار الذى صنع صندوق نجاته كان من الأقباط أيضا، و الذين أخرجوا الصندوق من الماء كانوا من حرّاس فرعون، و الذى فتح الصندوق كانت امرأة فرعون، و استدعيت أمّ موسى من قبل أتباع فرعون لتكون مرضعة له، و كانت مطاردة موسى عليه السّلام بعد حادثة قتل الرجل القبطى قد تمّت من قبل الفراعنة، و كانت سبب هجرته إلى مدين ليقضى فترة من التعليم و التكامل فى مدرسة النّبى «شعيب» نعم، عند ما يريد اللّه سبحانه أن يظهر قوّته فهكذا يفعل، ليعلم كلّ العصاة و المتمرّدين أنّهم أصغر من أن يقفوا أمام إرادة اللّه و مشيئته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰

۲- التعامل المناسب مع الأعداء

إنّ أوّل أوامر القرآن من أجل النفوذ إلى قلوب الناس- مهما كانوا ضالّين و منحطّين- هو التعامل المناسب المقترن بالمحبّة و العواطف الإنسانية، أمّا التوسّل بالعنف فإنّه يتعلّق بالمراحل التالية حينما لا يؤثّر التعامل برفق، فالهدف هو جذب الناس ليتذكّروا، و ليبصروا طريقهم، أو أن يخافوا من العواقب المشؤومة للعمل السيء لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى

إنّ كلّ عقيدة يجب أن تمتلك جاذبية، و لا تبعد الأفراد عنها بدون مبرّر، و قصص و وقائع الأنبياء و أئمّة الدين عليهم السّلام تبيّن بوضوح أنّهم لم ينحرفوا عن هذا المنهج و المسير أبدا طوال حياتهم.

نعم، من الممكن أن لا تؤثّر أساليب المحبّة و اللطف فى القلوب الداكنة عند بعض الناس، و يكون الطريق مقتصرا على استعمال العنف فى المكان المناسب، إلّا أنّه ليس قانونا عامّا و أساسيّا للبدء فى العمل، فإنّ المحبّة هى البداية و المسلك الأوّل، و هذا هو الدرس الذى تذكره لنا الآية آنفة الذكر.

ممّا يلفت النظر أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات: إنّ موسى كان مأمورا بأن ينادى فرعون بأحسن أسمائه، فربّما يؤثّر ذلك فى قلبه المظلم.

۳- هل يوحى إلى غير الأنبياء؟

لا شكّ أنّ للوحى فى القرآن الكريم معانى مختلفة: فقد جاء أحيانا بمعنى الصوت الواطئ، أو القول همسا. و هذا هو المعنى الأصلى لهذا اللفظ فى اللغة العربية.

و جاء أحيانا بمعنى الإشارة الرمزية إلى شىء ما، مثل: فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱

سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا[۳].

و أحيانا بمعنى الإلهام الغريزى، مثل أَوْحى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ۴].

و أحيانا بمعنى الأمر التكوينى، الأمر الذى يصدر بلسان الخلقة، مثل يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها[۵].

و ورد أحيانا بمعنى الإلهام الذى يلقى فى قلوب المؤمنين، و إن لم يكونوا أنبياء أو أئمّة، مثل: إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى ۶].

إلّا أنّ أهمّ موارد استعماله فى القرآن المجيد هى النداءات الإلهيّة الخاصّة بالأنبياء، مثل: إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۷].

فبناء على هذا، فإنّ لكلمة الوحى معنى واسعا و جامعا يشمل هذه الموارد، و لهذا فسوف لا نعجب من استعمال كلمة الوحى فى شأن أمّ موسى.

۴- سؤال و جواب

من الممكن أن يتساءل البعض عند قراءة هذه الآيات، و هو: لماذا يقلق موسى و يضطرب و يتردّد مع تلك الوعود الإلهيّة، إلى أن يقول اللّه سبحانه له بصراحة: اذهبا فإنّنى معكما أسمع كلّ الكلام، و أرى كلّ شىء، و لا مجال للقلق مطلقا؟

و يتّضح جواب هذا السؤال من أنّ هذه المهمّة كانت ثقيلة جدّا، فإنّ موسى عليه السّلام- الذى كان راعيا للأغنام- يريد أن يذهب مع أخيه فقط إلى حرب رجل قوى مقتدر، و متمرّد عاص، و الذى يحكم بلدا قويّا فى ذلك الزمان. ثمّ إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲

هذه الدعوة تبدأ من دعوة فرعون نفسه، لا أن يذهبا أوّلا إلى الآخرين ليعدّا الأنصار و الجيوش، بل يجب أن يقدحوا أوّل شرارة فى قلب فرعون، و هذه فى الحقيقة مهمّة معقّدة جدّا، و صعبة للغاية.

إضافة إلى أنّ للعلم و المعرفة درجات و مراتب، فكثيرا ما يعلم الإنسان بشىء يقينا، إلّا أنّه يرغب أن يصل إلى مرحلة علم اليقين و الاطمئنان المطلق، كما أنّ إبراهيم مع إيمانه القطعى بالمعاد، فإنّه طلب من اللّه أن يريه مشهدا من إحياء الموتى فى هذه الدنيا، ليطمئن أكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۴۹ الى ۵۵]

اشارة

قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (۵۰) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (۵۱) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى

فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى (۵۲) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (۵۳)

كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (۵۴) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (۵۵)

التّفسير

من ربّكما؟

لقد حذف القرآن المجيد هنا- و كما هى طريقته- بعض المطالب التى يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، و توجّه مباشرة إلى محاورة موسى و هارون مع فرعون، و المبحث فى الواقع هكذا:

إنّ موسى بعد تلقّى الوحى و الرسالة، و خطّة عمل كاملة فى كيفيّة التعامل مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴

فرعون، تحرّك من تلك الأرض المقدّسة، و التقى أخاه هارون- على حدّ قول المفسّرين- قرب مصر، ثمّ توجّها معا نحو فرعون، و تمكّنا من الدخول إلى قصر فرعون الأسطورى برغم المشاكل الكثيرة.

فلمّا أصبح موسى أمام فرعون وجها لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثّرة التى علّمه اللّه إيّاها أثناء الأمر بالرسالة: إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى و اعلم أيضا إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

فلمّا سمع فرعون هذا الكلام، كان أوّل ردّ فعله أن قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى

و العجيب أنّ فرعون المغرور و المعجب بنفسه لم يكن مستعدا حتّى أن يقول: من ربّى الذى تدّعيانه؟ بل قال: من ربّكما؟! فأجابه موسى مباشرة بجواب جامع جدّا، و قصير فى الوقت نفسه، عن اللّه:

قالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى ففى هذه العبارة الموجزة إشارة إلى أصلين أساسيين من الخلقة و الوجود، و كلّ واحد منهما دليل و برهان مستقل يوصل إلى معرفة اللّه:

الأوّل: إنّ اللّه سبحانه قد وهب لكلّ موجود ما يحتاجه، و هذا أمر فى غاية الأهمّيّة ممّا يقتضى تأليف عدّة كتب، بل إنّ كثيرا من الكتب قد الّفت فى هذا المجال.

إنّنا إذا دقّقنا قليلا فى النباتات و الحيوانات التى تعيش فى كلّ منطقة، سواء الطيور، أو الحيوانات البحرية، أو الحشرات و الزواحف، فسنرى أنّ لكلّ منها انسجاما تامّا مع محيطها الذى تعيش فيه، و كلّ ما تحتاجه فهو موجود تحت تصرّفها، فإنّ هيكل الطيور قد هيّئها للطيران من ناحية شكلها و وزنها و حواسها المختلفة، و كذلك تكوين و بناء الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار.

و الثّانى: مسألة هداية و إرشاد الموجودات، و قد جعلها القرآن باستعماله (ثمّ)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵

فى الدرجة الثّانية بعد تأمين الاحتياجات.

إنّ من الممكن أن يمتلك الإنسان أى شىء من أسباب الحياة، إلّا أنّه يجهل كيفيّة الاستفادة منها، و المهمّ أن يعرف طريقة استعمالها، و هذا هو الشىء الذى نراه فى الموجودات المختلفة بوضوح، و كيف أنّ كلّا منها يستغلّ طاقته بصورة دقيقة فى إدامة حياته، كيف يبنى بيتا، و كيف يتكاثر، و كيف يربىّ أولاده و يخفيهم و يبعدهم عن متناول الأعداء، أو يعلمهم كيف يواجهون الأعداء؟

و البشر- أيضا- لديهم هذه الهداية التكوينيّة، إلّا أنّ الإنسان لمّا كان موجودا يمتلك عقلا و شعورا، فقد جعل اللّه سبحانه هدايته التكوينيّة مع هدايته التشريعيّة بواسطة الأنبياء متلازمة و متزامنة، بحيث إنّه إذا لم ينحرف عن ذلك الطريق، فإنّه سيصل حتما إلى مقصده. و بتعبير آخر فإنّ الإنسان نتيجة لامتلاكه العقل و الإرادة، فإنّ له واجبات و مسئوليات، و بعد ذلك مناهج تكامليّة ليس للحيوانات مثلها، و لذلك فإنّه إضافة إلى الهداية التكوينيّة محتاج إلى الهداية التشريعيّة.

و خلاصة القول: إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يفهم فرعون أنّ عالم الوجود هذا غير منحصر فيك، و لا فى أرض مصر، و لا يختص بالحاضر أو الماضى، فإنّ لهذا العالم ماضيا و مستقبلا لم أكن و لم تكن فيه، و تلاحظ مسألتان أساسيتان فى هذا العالم:

تأمين الحاجات، ثمّ استغلال الطاقات و القوى فى طريق رقى الموجودات، فإنّها تستطيع جيدا أن تدلّك على ربّنا، و تعرّفك به، و كلّما أمعنت النظر فى هذا المجال فستحصل على دلالات و براهين كثيرة على عظمته و قدرته.

فلمّا سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالا آخر قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى و هناك بحث بين المفسّرين فى مراد فرعون من هذه الجملة، فقد أظهروا وجهات نظر مختلفة! ۱- فقال بعضهم: إنّ موسى عليه السّلام لمّا ذكر فى آخر جملة من كلامه شمول العذاب الإلهى للمكذّبين بالتوحيد، فإنّ فرعون سأل: إذن فلما ذا لم يبتل أولئك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶

الأقوام المشركين الماضين، بمثل هذا العذاب؟

۲- و قال بعض: إنّ موسى لمّا قال: إنّ ربّ العالم هو ربّ الجميع، سأل فرعون: فلما ذا كان الأسلاف من قومنا و كلّ الأقوام الماضية مشركين؟ فهذا يبيّن أنّ الشرك و عبادة الأصنام ليس عملا خاطئا! ۳- و قال آخرون: لمّا كان معنى كلام موسى هو أنّ الجميع سينال نتيجة أعماله فى النهاية، و سيعاقب أولئك الذين عصوا الأوامر الإلهيّة، فسأل فرعون:

فما هو مصير الأقوال الماضية الذين هلكوا و اندثروا؟

على كلّ حال، أجابه موسى عليه السّلام بقوله: قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى ۸] و بناء على هذا فإنّ حساب هؤلاء و كتبهم محفوظة، و سينالون فى النهاية ثواب و عقاب أعمالهم، فإنّ الحافظ لهذا الحساب هو اللّه الذى لا يخطئ و لا ينسى، و بملاحظة ما بيّنه موسى من أصل التوحيد و التعريف باللّه، فإنّ من الواضح جدّا أنّ حفظ هذا الحساب لدى من أعطى كلّ موجود حاجته بدقّة، ثمّ هداه ليس أمرا صعبا.

و للمفسّرين آراء مختلفة فى الفرق بين (لا يضلّ) و (لا ينسى) إلّا أنّ الظاهر هو أن (لا يضلّ) إشارة إلى نفى أى نوع من الخطأ من قبل اللّه سبحانه، و (لا ينسى) إشارة إلى نفى النسيان، أى أنّه سبحانه لا يشتبه فى حساب الأفراد عند بداية العمل، و لا يبتلى بنسيان حفظ حسابهم و أعمالهم، و على هذا فإنّ موسى قد نبّه بصورة ضمنيّة على إحاطة علم اللّه بكلّ شىء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ أى شىء من عمله لا يخفى على اللّه و إن كان بمقدار رأس الإبرة، و سوف ينال عقابه أو ثوابه.

فى الحقيقة، إنّ الإحاطة العلمية للّه هى نتيجة الكلام الذى قاله موسى من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷

قبل، و هو أنّ اللّه الذى أعطى كلّ موجود حاجته ثمّ هداه، مطّلع على حال كلّ أحد، و كلّ شىء.

و لمّا كان جانب من حديث موسى عليه السّلام حول مسألة التوحيد و معرفة اللّه، فإنّه يبيّن هنا فصلا آخر فى هذا المجال، فيقول: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى و فى مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم اللّه الكبرى.

۱- الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و مهاده، و يستطيع الإنسان العيش عليها براحة و أمان ببركة قانون الجاذبية، و كذلك الطبقة الغازية العظيمة التى تحيط بالأرض.

۲- الطرق و السبل التى أوجدها اللّه فى الأرض، و التى تربط جميع مناطقها بعضها بالبعض الآخر، كما رأينا غالبا وجود طرق و وديان بين سلسلة الجبال التى تناطح السّماء يستطيع الإنسان أن يمرّ من خلالها و يصل إلى مقصده.

۳- الماء الذى هو أساس الحياة، و مصدر كلّ البركات، و الذى أنزل من السّماء ۴- الأعشاب و النباتات المختلفة التى تخرج من الأرض بفعل هذا الماء، و يشكل قسم منها المواد الغذائية للإنسان، و قسم يستفيد منه الإنسان فى صنع الأدوية، و قسم آخر يصنع ملابسه، و قسم آخر لوسائل الحياة كالأبواب، و حتّى البيوت التى تبنى من الخشب، و السفن، و كثير من وسائط النقل الأخرى، بل يمكن القول: إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكل حسب الترتيب الذى ورد فى الآية أولويّات حياة الإنسان، فقبل كلّ شىء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن و هدوء، و بعده إلى طرق المواصلات، ثمّ الماء، ثمّ المحاصيل الزراعية.

ثمّ أشار إلى خامس النعم و آخرها من سلسلة النعم الإلهيّة هذه، فقال: كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ و هو إشارة إلى ثرواتكم و منتوجاتكم الحيوانيّة، و التى تشكّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸

جانبا مهمّا من المواد الغذائية و الملابس و وسائل الحياة، هى أيضا من بركات هذه الأرض و ذلك الماء النازل من السّماء.

و فى النهاية، و بعد أن أشار إلى كلّ هذه النعم، قال: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى

ممّا يستحقّ الانتباه أنّ «النهى» جمع «نهية» و هى فى الأصل مأخوذة من مادّة «نهى» مقابل الأمر، و تعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائح و السيّئات، و هذه إشارة إلى أنّ كلّ تدبّر و تفكّر من أجل فهم أهميّة هذه الآيات ليس كافيا، بل إنّ العقل و الفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك و يطلع على هذه الحقيقة.

و بما أنّ هذه الآيات دلّت على التوحيد بخلق الأرض و نعمها، فقد بيّنت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض فى آخر آية من هذه الآيات أيضا فقالت:

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى و إنّه لتعبير بليغ حقّا، و مختصر أيضا، عن ماضى البشر و حاضره و مستقبله، فكلّنا قد جئنا من التراب، و كلّنا نرجع إلى التراب، و منه نبعث مرّة أخرى! إنّ رجوعنا إلى التراب، أو بعثنا منه أمر واضح تماما، لكن فى كيفيّة بدايتنا من التراب تفسيران: الأوّل: إنّنا جميعا من آدم و آدم من تراب. و الآخر: إنّنا أنفسنا قد خلقنا من التراب، لأنّ كلّ المواد الغذائية التى كوّنت أجسام آبائنا و أمهاتنا قد أخذت من هذا التراب.

ثمّ إنّ هذا التعبير ينبّه كلّ العتاة المتمردّين، و المتّصفين بصفات فرعون، كى لا ينسوا من أين أتوا، و إلى أين يذهبون؟ فلما ذا كلّ هذا الغرور و العصيان و الطغيان من موجود كان بالأمس ترابا، و سيكون غدا ترابا أيضا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹

ملاحظات

۱- كلمتى «المهد» و «المهاد» تعنيان المكان المهيّأ للجلوس و المنام و الاستراحة، و فى الأصل تطلق كلمة المهد على المكان الذى ينام فيه الطفل، فكأنّ الإنسان طفل وضع فى مهد الأرض، و قد توفّرت فى هذا المهد كلّ وسائل الحياة.

۲- كلمة «أزواجا» التى أخذت من مادّة «زوج» يمكن أن تكون إشارة إلى أصناف و أنواع النباتات، كما يمكن أن تكون إشارة خفيّة إلى مسألة الزوجيّة فى عالم النباتات، و التى سنتحدّث عنها فى ذيل آية مناسبة إن شاء اللّه تعالى.

۳-

ورد عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم حديث فى اصول الكافى فى تفسير (أولو النهى)، جاء فيه: «إنّ خياركم أولو النهى» قيل: يا رسول اللّه، و من أولو النهى؟ قال: «هم أولو الأخلاق الحسنة، و الأحلام الرزينة، و صلة الأرحام، و البررة بالأمّهات و الآباء، و

المتعاهدين للفقراء و الجيران و اليتامى، و يطعمون الطعام، و يفشون السلام فى العالم، و يصلّون و الناس نيام غافلون»[۹].

و

فى حديث آخر نقل عن أمير المؤمنين عليه السّلام، أنّ رجلا سأله: يا ابن عمّ خير خلق اللّه، ما معنى السجدة الأولى؟ فقال: «تأويله: اللّهمّ إنّك منها خلقتنى- يعنى من الأرض- و رفع رأسك و منها أخرجتنا، و السجدة الثّانية و إليها تعيدنا، و رفع رأسك من الثّانية و منها تخرجنا تارة أخرى»[۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۵۶ الى ۶۴]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى (۵۶) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (۵۸) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (۶۰)

قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴)

التّفسير

فرعون يهيء نفسه للجولة الأخيرة:

تعكس هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة بين موسى و فرعون، و يبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱

القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى و من المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هنا ليس كلّ المعجزات التى ظهرت على يد موسى عليه السّلام طيلة حياته فى مصر. بل مرتبطة بالمعجزات التى أراها فرعون فى بداية دعوته، معجزة العصا، و اليد البيضاء، و محتوى دعوته السماوية الجامعة، و التى كانت بنفسها دليلا حيّا على أحقّيته، و لذلك تطالعنا بعد هذه الحادثة مسألة المواجهة بين السّحرة و موسى عليه السّلام و معجزاته الجديدة.

و الآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى و معجزاته، و كيف اتّهمه كما هى عادة كلّ المتسلّطين و الحكّام المتعنّتين: قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى و هو إشارة إلى أنّنا نعلم أنّ مسألة النبوّة و الدعوة إلى التوحيد، و إظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّة منسّقة للانتصار علينا، و بالتالى إخراجنا مع الأقباط من أرض آبائنا و أجدادنا، فليس هدفك الدعوة إلى التوحيد، و لا نجاة و تخليص بنى إسرائيل، بل هدفك الوصول إلى الحكم و السيطرة على هذه الأرض، و إخراج المعارضين! إنّ هذه التهمة هى نفس الحربة التى يستخدمها الطواغيت و المستعمرون على امتداد التاريخ، و يلوحون بها و يشهرونها كلّما رأوا أنفسهم فى خطر، و من أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومة هؤلاء العتاة، و وجوده يعنى وجودهم! و يعتقد بعض المفسّرين أنّ الهدف من جلب بنى إسرائيل إلى مصر، و الاحتفاظ بهم فى هذه الأرض

لم يكن من أجل استغلال قواهم كعبيد و حسب، بل إنّهم فى الوقت نفسه كانوا لا يريدون لبنى إسرائيل، الذين كانوا قوما أقوياء، أن يتحوّلوا إلى قوّة و مصدر خطر. و كذلك لم يكن الأمر بقتل الذكور للخوف من ولادة موسى فقط، بل للوقوف أمام قوّتهم و الحدّ منها، و هذا عمل يقوم به كلّ الأقوياء الظالمين، و بناء على هذا فإنّ خروج بنى إسرائيل- حسب طلب موسى-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲

يعنى اقتدار هذه الأمّة، و فى هذه الحالة سيتعرّض سلطان الفراعنة و عرشهم إلى الخطر.

و النقطة الأخرى فى هذه العبارة القصيرة، هى أنّ فرعون قد اتّهم موسى بالسحر، و هذا هو ما اتّهم به كلّ الأنبياء عند إظهار معجزاتهم البيّنة، كما نقرأ ذلك فى الآيتين (۵۲- ۵۳) من سورة الذاريات: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ

و تجدر الإشارة إلى هذه المسألة أيضا، و هى أنّ إثارة المشاعر الوطنية وحبّ الوطن فى مثل هذه المواضع أمر مدروس بدقّة كاملة، لأنّ أغلب الناس يحبّون أرضهم و وطنهم كحبّهم أنفسهم و أرواحهم، و لذلك جعلوا هذين الأمرين فى مرتبة واحدة، كما فى بعض آيات القرآن: وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ ۱۱].

ثمّ أضاف فرعون بأن لا تظن بأنّنا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ و لكى يظهر حزما أكثر فإنّه قال: فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً

و ذكر البعض فى تفسير مَكاناً سُوىً إنّ المراد هو أن تكون فاصلته عنّا و عنك متساوية، و قال بعضهم: أن تكون فاصلته متساوية بالنسبة إلى الناس، أى أن يكون المكان فى وسط المدينة تماما، و قال بعض: المراد أن تكون الأرض أرضا مكشوفة و مسطّحة يشرف عليها الجميع، و أن يتساوى فى ذلك العالى و الدانى. و يمكن أن تعتبر كلّ هذه المعانى مجتمعة فيها.

و ينبغى التذكير بأنّ الحكّام الطغاة، و من أجل أن يهزموا خصمهم فى المعركة، و يرفعوا معنويات أتباعهم و أعوانهم الذين ربّما وقعوا تحت تأثيره (كما فى قصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳

موسى و معجزاته فلا- يبعد أن يكونوا قد وقعوا تحت تأثيره) فإنّهم يعيدون إليهم المعنويات و القوّة، و يتعاملون فى الظاهر مع أمثال هذه المسائل بصرامة و شدّة، و يثيرون الصخب حولها! إلّا أنّ موسى لم يفقد هدوء أعصابه، و لم يدع للخوف من عنجهيّة فرعون إلى قلبه طريقا، بل قال بحزم: قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۱۲].

إنّ التعبير ب يَوْمُ الزِّينَةِ إشارة إلى يوم عيد كان عندهم لا نستطيع تعيينه بدقّة، إلّا أنّ المهمّ هو أنّ الناس كانوا يعطّلون أعمالهم فيه، و كانوا حتما مستعدّين للمشاركة فى مثل هذا «المشهد».

على كلّ حال، فإنّ فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، و تأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السّلام بالاستعانة بالسّحرة، و لذلك وضع الاتّفاق المذكور مع موسى فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى

فى هذه الجملة القصيرة تلخّصت حوادث جمّة جاءت بشكل مفصّل فى سورتى الأعراف و الشعراء، لأنّ فرعون بعد تركه ذلك المجلس و مفارقة موسى و هارون، عقد اجتماعات عديدة مع مستشاريه الخاصّين، و أتباعه المستكبرين، ثمّ دعا السّحرة من جميع أنحاء البلاد إلى الحضور فى العاصمة، و رغّبهم بمرغّبات كثيرة من أجل مواجهة موسى عليه السّلام، و امور أخرى ليس هنا مجال بحثها، إلّا أنّ القرآن الكريم قد جمّعها كلّها فى هذه الجمل الثلاث: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ، فَجَمَعَ كَيْدَهُ، ثُمَّ أَتى ۱۳].

و أخيرا حلّ اليوم الموعود، و وقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم السّحرة، و كان عددهم- على رأى بعض المفسّرين- إثنين و سبعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴

ساحرا، و قال آخرون إنّهم بلغوا أربعمائة، و ذكر البعض أعدادا أكبر أيضا. و كان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون و أنصاره و حاشيته، و أخيرا القسم الثّالث الذى كان يشكّل الأكثرية، و هم الناس المتفرّجون.

هنا توجّه موسى إلى السّحرة، أو إلى الفراعنة، و السّحرة، و قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى و واضح أنّ مراد موسى من الافتراء على اللّه سبحانه هو أن يجعلوا شخصا أو شيئا شريكا له، أو ينسبوا معجزات رسول اللّه إلى السحر، و يظنّوا أنّ فرعون إلههم و معبودهم، و من المحتّم أنّ اللّه سبحانه سوف لا يدع من ينسبون هذه الأكاذيب إلى اللّه، و يسعون بكلّ قواهم لإطفاء نور الحقّ، بدون عقاب.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السّحرة بوجه، بل إنّ نبرته كانت نبرة دعوة كلّ الأنبياء الحقيقيين، و نابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثّرت على بعض القلوب، و أوجدت اختلافا بين ذلك الحشد من السّحرة، فبعض كان يناصر المواجهة و المبارزة، و بعض تردّد فى الأمر، و احتمل أن يكون موسى عليه السّلام نبيّا إليها، و أثّرت فيهم تهديداته، خاصّة و أنّ لباس موسى و هارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، و عدم مشاهدة الضعف و التراجع على محيّاهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلا آخر على أصالة أقوالهما و صدق نواياهما، و لذلك فإنّ القرآن يقول: فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى

إنّ من الممكن أن تكون هذه المسارّة و النجوى أمام فرعون، و يحتمل أيضا أن لا تكون أمامه، و هناك احتمال آخر، و هو أنّ القائمين على إدارة هذا المشهد قد تناجوا فى خفاء عن الناس.

إلّا أنّ أنصار الاستمرار فى المواجهة انتصروا أخيرا و أخذوا زمام المبادرة بيدهم، و شرعوا فى تحريك السّحرة بطرق مختلفة، فأوّلا قالُوا إِنْ هذانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵

لَساحِرانِ ۱۴] و بناء على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنّكم كبار و أساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، و لأنّ قوتكم و قدرتكم أكبر منهما! ثمّ إنّهما يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما الوطن الذى هو أعزّ من أنفسكم، إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنّهما يريدان أيضا أن يجعلا مقدّساتكم أضحوكة و محلّا للسخرية وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى ۱۵].

و الآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردّد إلى أنفسكم طريقا مطلقا، بل فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا لأنّ الوحدة رمز انتصاركم فى هذه المعركة المصيريّة الحاسمة وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۶۵ الى ۶۹]

اشارة

قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹)

التّفسير

موسى عليه السّلام ينزل إلى الساحة:

لقد اتّحد السّحرة ظاهرا، و عزموا على محاربة موسى عليه السّلام و مواجهته، فلمّا نزلوا إلى الميدان قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى

قال بعض المفسّرين: إنّ اقتراح السّحرة، هذا إمّا أن يكون من أجل أن يسبقهم موسى عليه السّلام، أو إنّه كان احتراما منهم لموسى، و ربّما كان هذا الأمر هو الذى هيّأ السبيل إلى أن يذعنوا لموسى عليه السّلام و يؤمنوا به بعد هذه الحادثة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷

إلّا أنّ هذا الموضوع يبد و بعيدا جدّا، لأنّ هؤلاء كانوا يسعون بكلّ ما أوتوا من قوّة لأن يسحقوا و يحطّموا موسى و معجزته، و بناء على هذا فإنّ التعبير آنف الذكر ربّما كان لإظهار اعتمادهم على أنفسهم أمام الناس.

غير أنّ موسى عليه السّلام بدون أن يبدى عجلة، لاطمئنانه بأنّ النصر سوف يكون حليفه، بل و بغضّ النظر عن أنّ الذى يسبق إلى الحلبة فى هذه المجابهات هو الذى يفوز قالَ بَلْ أَلْقُوا. و لا شكّ أنّ دعوة موسى عليه السّلام هؤلاء إلى المواجهة و عمل السحر كانت مقدّمة لإظهار الحقّ، و لم يكن من وجهة نظر موسى عليه السّلام أمرا مستهجنا، بل كان يعتبره مقدّمة لواجب.

فقبل السّحرة ذلك أيضا، و ألقوا كلّ ما جلبوه معهم من عصى و حبال للسحر فى وسط الساحة دفعة واحدة، و إذا قبلنا الرّواية التى تقول: إنّهم كانوا آلاف الأفراد، فإنّ معناها أنّ فى لحظة واحدة ألقيت فى وسط الميدان آلاف العصى و الحبال التى ملئت أجوافها بمواد خاصة فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى أجل، لقد ظهرت بصورة أفاع و حيّات صغيرة و كبيرة متنوّعة، و فى أشكال مختلفة و مخيفة، و نقرأ فى الآيات الأخرى، من القرآن الكريم فى هذا الباب:

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ۱۶] و بتعبير الآية (۴۴) من سورة الشعراء: وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ

لقد ذكر كثير من المفسّرين أنّ هؤلاء كانوا قد جعلوا فى هذه الحبال و العصى موادا كالزئبق الذى إذا مسّته أشعّة الشمس و ارتفعت حرارته و سخن، فإنّه يولّد لهؤلاء- نتيجة لشدّة فورانه- حركات مختلفة و سريعة «إنّ هذه الحركات لم تكن سيرا و سعيا حتما، إلّا أن إيحاءات السّحرة التى كانوا يلقنونها الناس، و المشهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸

الخاص الذّى ظهر هناك، كان يظهر لأعين الناس و يجسّد لهم أنّ هذه الجمادات قد و لجتها الروح، و هى تتحرّك الآن. (و تعبير سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ إشارة إلى هذا المعنى أيضا، و كذلك تعبير يُخَيَّلُ إِلَيْهِ يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى أيضا).

على كلّ حال، فإنّ المشهد كان عجيبا جدّا، فإنّ السّحرة الذين كان عددهم كبيرا، و تمرسهم و اطلاعهم فى هذا الفن عميقا، و كانوا يعرفون جيدا طريقة الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية و الكيميائية الخفيّة، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كلّ هذه الأشياء الميتة قد ولجتها الروح.

فعلت صرخات السرور من الفراعنة، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف و الرعب، و يتراجعون إلى الخلف.

فى هذه الأثناء فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى و كلمة «أوجس» أخذت من مادّة (إيجاس) و فى الأصل من (وجس) على وزن (حبس) بمعنى الصوت الخفى، و بناء على هذا فإنّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى و الداخلى، و هذا يوحى بأنّ خوف موسى الداخلى كان سطحيّا و خفيفا، و لم يكن يعنى أنّه أولى اهتماما لهذا المنظر المرعب لسحر السّحرة، بل كان خائفا من أن يقع الناس تحت تأثير هذا المنظر بصورة يصعب معها إرجاعهم إلى الحقّ.

أو أن يترك جماعة من الناس الميدان قبل أن تتهيّأ الفرصة لموسى لإظهار معجزته، أو أن يخرجوهم من الميدان و لا يتضح الحقّ لهم، كما نقرأ

فى خطبة الإمام على عليه السّلام الرقم (۶) من نهج البلاغة: «لم يوجس موسى عليه السّلام خيفة على نفسه، بل أشفق من غلبة الجهّال و دول الضلال»[۱۷].

و مع ما قيل لا نرى ضرورة لذكر الأجوبة الأخرى التى قيلت فى باب خوف موسى عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹

على كلّ حال، فقد نزل النصر و المدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، و بيّن له الوحى الإلهى أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى

إنّ هذه الجملة و بتعبيرها المؤكّد قد أثلجت قلب موسى بنصره المحتّم- فإنّ (إنّ) و تكرار الضمير، كلّ منهما تأكيد مستقل على هذا المعنى، و كذلك كون الجملة اسميّة- و بهذه الكيفيّة، فقد أرجعت لموسى اطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.

و خاطبه اللّه مرّة أخرى بقوله تعالى: وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى

«تلقف» من مادة «لقف» بمعنى البلع، إلّا أنّ الراغب يقول فى مفرداته: إنّ معناها فى الأصل تناول الشىء بحذق، سواء فى ذلك تناوله باليد أو الفمّ. و فسّرها بعض اللغويين بأنّها التناول بسرعة.

و ممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (الق عصاك) بل يقول (الق ما فى يمينك) و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الاهتمام بالعصا، و إشارة إلى أنّ العصا ليست مسألة مهمّة، بل المهم إرادة اللّه و أمره، فإنّه إذا أراد اللّه شيئا، فليست العصا فقط، بل أقل و أصغر منها قادر على إظهار مثل هذه المقدّرة! و هنا نقطة تستحقّ الذكر أيضا و هى: إنّ كلمة (ساحر) فى الآية وردت أوّلا نكرة، و بعدها معرفة بألف و لام الجنس، و ربّما كان هذا الاختلاف لأنّ الهدف فى المرتبة الأولى هو عدم الاهتمام بعمل هؤلاء السّحرة، و معنى الجملة: إنّ العمل الذى قام به هؤلاء ليس إلّا مكر ساحر. أمّا فى المورد الثّانى فقد أرادت التأكيد على أصل عام، و هو أنّه ليس هؤلاء السّحرة فقط، بل كلّ ساحر فى كلّ زمان و مكان و أينما وجد سوف لا ينتصر و لا يفلح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰

بحثان

۱- ما هى حقيقة السحر؟

بالرغم من أنّنا تحدّثنا بصورة مفصّلة فيما مضى عن هذا الموضوع، إلّا أنّنا نرى أن نذكر على سبيل الإيضاح باختصار أنّ «السحر» فى الأصل يعنى كلّ عمل و كلّ شىء يكون مأخذه خفيا، إلّا أنّه يقال فى التعبير المألوف للأعمال الخارقة للعادة التى تؤدّى باستعمال الوسائل المختلفة. فتسمّى سحرا أيضا فأحيانا يتخذ جانب الحيلة و المكر و خداع النظر و الشعوذة.

و أحيانا يستفاد من عوامل التلقين و الإيحاء.

و أحيانا يستفاد من خواص الأجسام و المواد الفيزيائية و الكيميائية المجهولة.

و أحيانا بالاستعانة بالشياطين.

و كلّ هذه الأمور جمعت و اندرجت فى ذلك المفهوم اللغوى الجامع.

إنّنا نواجه على طول التاريخ قصصا كثيرة حول السحر و السّحرة، و فى عصرنا الحاضر فإنّ الذين يقومون بهذه الأعمال ليسوا بالقليلين، إلّا أنّ كثيرا من خواص الأجسام و الموجودات التى كانت خافية على الناس فيما مضى، قد اتّضحت فى زماننا الحاضر، بل كتبوا كتبا فى مجال آثار الموجودات المختلفة العجيبة، فكشفت كثيرا من سحر السّاحرين و سلبته من أيديهم.

فمثلا إنّنا نعرف فى علم الكيمياء الحديثة أجساما كثيرة وزنها أخفّ من الهواء، و إذا ما وضعت داخل جسم فإنّ من الممكن أن يتحرّك ذلك الجسم، و لا يتعجّب من ذلك أحد، فحتّى الكثير من وسائل لعب الأطفال اليوم ربّما كانت تبدو سحرا فى الماضى!

اليوم يعرضون فى «السيرك» فعاليّات تشبه سحر السّحرة الماضين بالاستفادة من كيفيّة الإضاءة و توليد النور، و المرايا، و خواص الأجسام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱

الفيزياوية و الكيمياوية، و يحدثون مشاهد غريبة و عجيبة بحيث يفتح المتفرجون أفواههم أحيانا من التعجّب.

طبعا، إنّ أعمال المرتاضين الخارقة للعادة لها قصّة أخرى عجيبة جدّا.

و على كلّ حال، فانّه لا مجال لإنكار وجود السحر، أو اعتباره خرافة سواء فى الأزمنة الماضية أو هذه الأيّام.

و الملاحظة التى تستحقّ الانتباه، هى أنّ السحر ممنوع فى الإسلام، و يعدّ من الذنوب الكبيرة، لأنّه فى كثير من الأحيان سبب لضلال الناس، و تحريف الحقائق، و تزلزل عقائد السذج. و من الطبيعى أنّ لهذا الحكم الإسلامى- ككثير من الأحكام الاخرى- موارد استثناء، و من جملتها تعلّم السحر لإبطال ادّعاء المدّعين للنبوّة، أو لإزالة أثره ممّن رأوا منه الضرر و الأذى. و قد تحدّثنا حول هذه المسألة بصورة مفصّلة فى ذيل الآيتين ۱۰۲- ۱۰۳ من سورة البقرة.

۲- السّاحر لا يفلح أبدا

يسأل الكثيرون: إنّ السّحرة إذا كانوا يقدرون على القيام بأعمال خارقة للعادة و شبيهة بالمعجزة، فكيف يمكن التفريق و التمييز بين أعمال هؤلاء و بين المعجزة؟

و الجواب عن هذا السؤال بملاحظة نقطة واحدة، و هى: إنّ عمل السّاحر يعتمد على قوّة الإنسان المحدودة، و المعجزة تستمدّ قوتها و تنبع من قدرة اللّه الأزليّة غير المتناهية، و لذلك فإنّ أى ساحر يستطيع أن يقوم بأعمال محدودة، و إذا أراد ما هو أعظم منها فسيعجز، فهو يستطيع أن يؤدّى ما تمرّن عليه كثيرا من قبل، و تمكّن منه و سيطر عليه، و أصبح مطّلعا و عارفا بكلّ دقائق و زوايا و عقد ذلك العمل، إلّا أنّه سيكون عاجزا فيما عداه، فى حين أنّ الأنبياء لمّا كانوا يستمدّون العون من قدرة اللّه الأزليّة، فإنّهم قادرون على القيام بأى عمل خارق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲

للعادة، فى الأرض، و السّماء، و من كلّ نوع و شكل.

السّاحر لا يستطيع أن يقوم بالعمل الخارق وفق اقتراح الناس، إلّا أن يكون ذلك الاقتراح مطابقا لما تمرّن عليه (و أحيانا يتفقون مع أصدقائهم بأن ينهضوا من بين الناس و يقترحوا ابتداء القيام بالعمل المتفق عليه سابقا) إلّا أنّ الأنبياء كانوا يقومون مرارا و تكرارا بمعاجز مهمّة كان يطلبها أناس يبتغون الحقّ دعما للنبوّة و دليلا على صحتها، كما سنلاحظ ذلك أيضا فى قصّة موسى هذه.

و مع ما مرّ، فإنّ السحر لما كان عملا منحرفا، و نوعا من الخدعة و المكر، فإنّه يحتاج إلى وضع روحى ينسجم معه، و السّحرة- بدون استثناء- أفراد خدّاعون ماكرون يمكن معرفتهم بسرعة من خلال مطالعة نفسياتهم، فى حين أنّ إخلاص و طهارة و صدق الأنبياء عليهم السّلام أمور مقرونة بمعاجزهم، و تضاعف من تأثيرها.

(دقّقوا ذلك).

و ربّما لهذه الأسباب تقول الآية: وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى لأنّ قوّته محدودة، و أفكاره و صفاته منحرفة.

إنّ هذا الموضوع لا يختص بالسّحرة الذين هبّوا لمحاربة الأنبياء، بل هو صادق فى شأن السّحرة بصورة عامّة، لأنّهم سوف يفتضحون بسرعة، و لا يفلحون فى عملهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۰ الى ۷۶]

اشارة

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى (۷۰) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى (۷۱) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِي فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا (۷۲) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۷۳) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (۷۴)

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (۷۵) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (۷۶)

التّفسير

الإنتصار العظيم لموسى عليه السّلام:

انتهينا فى الآيات السابقة إلى أنّ موسى أمر أن يلقى عصاه ليبطل سحر السّاحرين، و قد عقبت هذه المسألة فى هذه الآية، غاية الأمر أنّ العبارات و الجمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴

التى كانت واضحة قد حذفت، و هى (أنّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة عظيمة لقفت كلّ آلات و أدوات سحر السّحرة، فعلت الصيحة و الغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون و ارتبك، و فغر أتباعه أفواههم من العجب.

فأيقن السّحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، و كانوا يفرّقون جيدا بين السحر و غيره، إنّ هذا الأمر ليس إلّا معجزة إلهيّة، و إنّ هذا الرجل الذى يدعوهم إلى ربّهم هو رسول اللّه، فاضطربت قلوبهم، و تبيّن التحوّل العظيم فى أرواحهم و وجودهم).

و الآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسى إنّ التعبير ب (القى)- و هو فعل مبنى للمجهول- ربّما كان إشارة إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، و تأثّروا بمعجزته إلى الحدّ الذى سجدوا معه دون إرادة.

و نقطة أخرى يلزم ذكرها و تستحقّ الالتفات، و هى أنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الإيمان القلبى، بل رأوا أنّ من واجبهم إظهار هذا الإيمان بصورة جليّة، بتعابير لا يشوبها أى إبهام، أى التأكيد على ربوبية ربّ موسى و هارون، حتّى يرجع أولئك الذين ضلّوا بسبب سحرهم، و لا تبقى على عاتقهم مسئولية من هذه الجهة.

من البديهى أنّ عمل السّحرة هذا قد وجّه صفعة قويّة إلى فرعون و حكومته الجبّارة المستبدّة الظالمة، و هزّ كلّ أركانها، لأنّ الإعلام كان قد ركّز على هذه المسألة مدّة طويلة فى جميع أنحاء مصر، و كانوا قد جلبوا السّحرة من كلّ أرجاء البلاد، و وعد هؤلاء بكلّ نوع من المكافئات و الجوائز و الامتيازات إذا ما غلبوا و انتصروا فى المعركة! إلّا أنّه يرى الآن أنّ أولئك الذين كانوا فى الصفّ الأوّل من المعركة، قد استسلموا فجأة للعدو بصورة جماعية، و لم يسلموا و حسب، بل أصبحوا من المدافعين الصلبين عنه، و لم تكن هذه المسألة فى حسبان فرعون أبدا، و لا شكّ أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵

جمعا من الناس قد اتّبعوا السّحرة و آمنوا بدين موسى. و لذلك لم ير فرعون بدّا إلّا أن يجمع كيانه و يلملم ما تبقى من هيبته و سلطانه عن طريق الصراخ و التهديد و الوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السّحرة و قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

إنّ هذا الجبّار المستكبر لم يكن يدّعى الحكومة على أجسام و أرواح الناس و حسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرّفى أيضا، و يجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذننى، و هذا هو العمل الذى يؤكّد عليه كلّ الفراعنة على امتداد العصور.

فالبعض- كفرعون مصر- يجريها على لسانه حمقا عند اضطرابه و قلقه، و البعض احتفظ بهذا الحقّ لنفسه و يبيّنه بصورة غير مباشرة عن طريق وسائل الإعلام، و طوابير العملاء، و يعتقد بأنّ الناس يجب أن لا يعطوا الاستقلالية فى التفكير، بل إنّه فى بعض الأحيان قد يسلب الناس الحرية باسم حرية التفكير.

و على كلّ حال، فإنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالسّاحرين التهمة و قال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.

لا شكّ أنّ فرعون كان على يقين و معرفة تامّة بكذب كلامه و بطلانه، و لم يكن بالإمكان أن تحدث مثل هذه المؤامرة فى جميع أنحاء مصر و يجهل جنوده و شرطته بالأمر، و كان فرعون قد ربّى موسى عليه السّلام فى أحضانه، و غيبته عن مصر كانت من المسلّمات لديه، فلو كان كبير سحرة مصر لكان معروفا بذلك فى كلّ مكان، و لا يمكن أن يخفى أمره. إلّا أنّا نعلم أنّ الطغاة لا يتورّعون عن إلصاق أى كذب و تهمة بخصومهم عند ما يرون مركزهم الذى حصلوا عليه بغير حقّ يتعرّض للخطر.

ثمّ إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السّحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال:

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶

أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى ۱۸].

فى الحقيقة إنّ جملة أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً إشارة إلى تهديد موسى عليه السّلام له من قبل، و كذلك تهديده للسحرة فى البداية وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ و التعبير ب مِنْ خِلافٍ إشارة إلى قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس، و ربّما كان إختيار هذا النوع من التعذيب للسحرة، لأنّ موت الإنسان يكون أكثر بطأ و أشدّ عذابا فى هذه الحالة، أى أنّ النزيف سيكون أبطأ، و سيعانون عذابا أشدّ، و ربّما أراد أن يقول: سأجعل بدنكم ناقصا من جانبيه.

أمّا التهديد بالصلب على جذوع النخل، فربّما كان لأنّ النخلة تعدّ من الأشجار العالية، و كلّ شخص- سواء البعيد أو القريب- يرى المعلّق عليها.

و الملاحظة التى تستحقّ الذكر أنّ الصلب فى عرف ذلك الزمان لم يكن كما هو المتعارف عليه اليوم، فلم يكونوا يضعون حبل الإعدام فى رقبة من يريدون صلبه، بل كانوا يشدّون به الأيادى أو الأكتاف حتّى يموت المصلوب بعد تحمّل العذاب الشديد.

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السّحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنّهم لم يخافوا و لم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم فى الميدان بصورة قاطعة، و قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ وَ الَّذِى فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ لكن، ينبغى أن تعلم بأنّك تقدر على القضاء فى هذه الدنيا، أمّا فى الآخرة فنحن المنتصرون، و ستلاقى أنت أشدّ العقاب إِنَّما تَقْضِى هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا.

و على هذا، فإنّهم قد بيّنوا هذه الجمل الثلاث الراسخة أمام فرعون:

الأولى: إنّنا قد عرفنا الحقّ و اهتدينا، و لا نستبدله بأى شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷

و الأخرى: إنّنا لا نخاف من تهديداتك مطلقا.

و الثّالثة: حكومتك و سعيك سوف يدومان إلّا أيّاما قليلة من الدينا! ثمّ أضافوا بأنّا قد ارتكبنا ذنوبا كثيرة نتيجة السحر، ف إِنَّا آمَنَّا

بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى و خلاصة القول: إنّ هدفنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، و من جملتها محاربة نبى اللّه الحقيقى، فنحن نريد أن نصل عن هذا الطريق إلى السعادة الأبدية، فإذا كنت تهدّدنا بالموت فى الدنيا، فإنّنا نتقبّل هذا الضرر القليل فى مقابل ذلك الخير العظيم! و هنا ينقدح سؤال، و هو: إنّ السّحرة قد أتوا بأنفسهم إلى حلبة الصراع ظاهرا، بالرغم من أنّ فرعون قد وعدهم وعودا كبيرة، فكيف عبّرت الآية بالإكراه؟

و نقول فى الجواب: إنّنا لا نملك أى دليل على أنّ السّحرة لم يكونوا مجبورين منذ البداية، بل إنّ ظاهر جملة يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ ۱۹]، أنّ السّحرة العلماء بالفنّ كانوا ملزمين بقبول الدعوة، و من الطبيعى أنّ هذا الأمر يبدو طبيعيّا فى ظلّ حكومة فرعون المستبدّة، بأن يجبر أفرادا فى طريق تحقيق نيّاته، و وضع الجوائز و أمثال ذلك لا ينافى هذا المفهوم، لأنّنا رأينا- كثيرا- حكومات ظالمة مستبدّة تتوسّل بالترغيبات المادية إلى جانب استعمال القوّة.

و يحتمل أيضا أنّ السّحرة عند أوّل مواجهة لهم مع موسى عليه السّلام تبيّن لهم من خلال القرائن أنّ موسى عليه السّلام على الحقّ، أو أنّهم على أقل تقدير وقعوا فى شكّ، و نشب بينهم نزاع و جدال، كما نقرأ ذلك فى الآية (۶۲) من هذه السورة:

فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فأطلع فرعون و أجهزته على ما جرى، فأجبروهم على الاستمرار فى المجابهة.

ثمّ و اصل السّحرة قولهم بأنّنا إذا كنّا قد آمنا فإنّ سبب ذلك واضح ف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ و مصيبته الكبرى فى الجحيم هى أنّه لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى بل إنّه يتقلّب دائما بين الموت و الحياة، تلك الحياة التى هى أمر من الموت، و أكثر مشقّة منه.

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى

و هناك بحث بين المفسّرين فى أنّ الجمل الثلاث الأخيرة تابعة لكلام السّحرة أمام فرعون، أم أنّها جمل مستقلّة من جانب اللّه سبحانه جاءت تتمّة لكلامهم؟

فبعضهم اعتبرها تابعة لكلام السّحرة، و ربّما كان الابتداء ب (انّه) التى هى فى الواقع لبيان العلّة، يؤيّد وجهة النظر هذه.

إلّا أنّ التفصيل الذى جاء فى هذه الآيات الثلاث حول مصير المؤمنين الصالحين، و الكافرين المجرمين، الذى ينتهى بجملة وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى و كذلك الأوصاف التى جاءت فيها حول الجنّة و النّار، تؤيّد الرأى الثّانى، و هو أنّها من كلام اللّه، لأنّ السّحرة ينبغى أن يكونوا قد تلّقوا حظّا وافرا من المعرفة و العلوم الإلهيّة فى هذه الفترة القصيرة بحيث يستطيعون أن يقضوا بهذا الجزم و القطع، و عن علم و اطّلاع و وعى من أمر الجنّة و النّار و مصير المؤمنين و المجرمين. إلّا أن نقول: إنّ اللّه سبحانه قد أجرى هذا الكلام على ألسنتهم لإيمانهم، و إن كان هذا لا يفرّق عندنا و لا يختلف من ناحية التربية الإلهيّة و النتيجة سواء كان اللّه تعالى قد قال ذلك، أو أنّ السّحرة قد تعلّموه من اللّه، خاصة و أنّ القرآن ينقل كلّ ذلك بنغمة متناسقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹

بحوث

۱- العلم أساس الإيمان و الوعى

إنّ أهمّ مسألة تلاحظ فى الآيات- محلّ البحث- هى تحوّل السّحرة السريع العميق قبال موسى عليه السّلام، فإنّهم عند ما وقفوا بوجه

موسى عليه السّلام كانوا أعداء ألدّاء، إلّا أنّهم اهتزّوا بشدّة عند مشاهدة أوّل معجزة من موسى، فانتبهوا و غيّروا مسيرهم حتّى أثاروا دهشة الجميع.

إنّ هذا التغيير السريع من الكفر إلى الإيمان، و من الانحراف إلى الاستقامة، و من الاعوجاج إلى الطريق المستقيم، و من الظلمة إلى النور، قد جعل الجميع فى دهشة، و ربّما كان هذا الأمر غير قابل للتصديق حتّى من قبل فرعون نفسه، و لذا سعى إلى إيهام الناس بأنّ هذا الأمر قد دبّر من قبل، و اتّفق عليه مسبقا، فى حين أنّه كان يعلم فى أعماقه أنّ هذا الاتّهام كذب محض.

أى عامل كان السبب فى هذا التّحول العميق السريع؟ و أى عامل أضاء قلوبهم بنور الإيمان الوهّاج، إلى درجة أبدوا استعدادهم فيها لأن يضعوا كلّ وجودهم فى خدمة هذا العمل، بل وضعوه فعلا على ما نقل التاريخ، لأنّ فرعون قد نفّذ تهديده، و قتل هؤلاء بطريقة وحشيّة؟

هل نجد هنا عاملا غير العلم و الوعى؟ إنّ هؤلاء لمّا كانوا عالمين بفنون السحر و أسراره، و أيقنوا بوضوح تامّ أنّ عمل موسى لم يكن سحرا، بل هو معجزة إلهيّة، غيّروا مسيرهم بتلك الشجاعة و الحزم، و من هنا نعلم جيدا أنّه من أجل تغيير الأفراد المنحرفين، أو المجتمع المنحرف، و إيجاد انقلاب فى المسيرة ينبغى توعيتهم قبل كلّ شىء[۲۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰

۲- لن نؤثرك على البيّنات

ممّا يلفت النظر أنّ هؤلاء اختاروا أكثر التعابير منطقيّة إزاء فرعون و كلامه غير المنطقى، فقالوا أوّلا: إنّنا قد رأينا أدلّة واضحة على أحقيّة موسى و دعوته الإلهيّة، و سوف لا نكترث بأى شىء و لا نقدّمه على هذه الدلالات البيّنة، و أكّدوا هذا الأمر فيما بعد بجملة وَ الَّذِى فَطَرَنا و ربّما كان هذا التعبير بحدّ ذاته- مع ملاحظة كلمة (فطرنا)- إشارة إلى ما هم عليه من الفطرة التوحيديّة، فكأنّهم قالوا: إنّنا نشاهد نور التوحيد من أعماق وجودنا و أرواحنا، و كذلك بالدليل العقلى، و مع هذه الآيات البيّنات كيف نستطيع أن نترك هذا الصراط المستقيم، و نسير فى طريقك المنحرف؟

و يلزم الالتفات إلى هذه النكتة أيضا، و هى أنّ جمعا من المفسّرين لم يعتبروا جملة وَ الَّذِى فَطَرَنا قسما، بل عدّوها عطفا على ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ و بناء على هذا سيصبح معنى الجملة: إنّنا سوف لن نؤثرك أبدا على هذه الأدلّة الجلية، و على اللّه الذى خلقنا.

غير أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصحّة، لأنّ عطف هاتين الجملتين بعضهما على بعض غير مناسب. «فلاحظوا بدقّة»!

۳- من هو المجرم؟

بملاحظة الآيات الشريفة التى تقول: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ و التى يظهر منها خلود العذاب، يتبادر هذا السؤال: ترى هل لكلّ مجرم هذا المصير؟

إلّا أنّه بالالتفات إلى أنّ الآية التالية قد بيّنت النقطة المقابلة لذلك، و جاءت فيها كلمة «المؤمن» يتّضح أنّ المراد من المجرم هنا هو الكافر، إضافة إلى أنّه ورد فى القرآن كثيرا استعمال هذه الكلمة بمعنى الكافر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱

فمثلا نقرأ فى شأن قوم لوط الذين لم يؤمنوا بنبيّهم أبدا: وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ۲۱] و نقرأ فى سورة الفرقان فى الآية ۳۱:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

۴- جبر البيئة خرافة

تبيّن قصّة السّحرة فى الآيات المذكورة أنّ القول بأنّ البيئة تملى أو تفرض على صاحبها مساره فى الحياة ليس سوى و هم فارغ، فإنّ الإنسان فاعل مختار، و صاحب إرادة حرّة، فإذا صمّم فى أى وقت فإنّه يستطيع أن يغيّر مسيره من الباطل إلى الحقّ، حتّى لو كان كلّ الناس فى تلك البيئة غارقين فى الذنوب و الضلال، فالسّحرة الذين كانوا لسنين طويلة فى ذلك المحيط الملوّث بالشرك، و كانوا يرتكبون بأنفسهم و يعملون الأعمال المتوغّلة فى الشرك عند ما صمّموا على قبول الحقّ و الثبات عليه بعشق، لم يخافوا أى تهديد، و حقّقوا هدفهم، و على قول المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى: (كانوا أوّل النهار كفّارا سحرة، و آخر النهار شهداء بررة)[۲۲].

و من هنا يتّضح- أيضا- مدى ضعف و عدم واقعيّة أساطير الماديين، و خاصة الماركسيين حول نشأة الدين و تكوّنه، فإنّهم اعتبروا أساس كلّ حركة هو العامل الاقتصادى، فى حين أنّ الأمر هنا كان بالعكس تماما، لأنّ السّحرة قد حضروا حلبة الصراع نتيجة ضغط أجهزة فرعون من جانب، و الإغراءات الاقتصادية من جانب آخر، إلّا أنّ الإيمان باللّه قد محا كلّ هذه الأمور، فقد انهار المال و الجاه الذى وعدهم فرعون به عند أعتاب إيمانهم، و وضعوا أرواحهم العزيزة هديّة لهذا العشق!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى (۷۹)

التّفسير

نجاة بنى إسرائيل و غرق الفراعنة:

بعد حادثة المجابهة بين موسى و السّحرة، و انتصاره الباهر عليهم، و إيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السّلام و دينه أفكار الناس فى مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّا أنّ هذا كان ديدنهم دائما، و كان بنو إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّة من المصريين فى حالة صراع دائم مع الفراعنة، و مرّت أعوام على هذا المنوال، و حدثت حوادث مرّة موحشة و حوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم فى الآية (۱۲۷) و ما بعدها من سورة الأعراف.

و تشير الآيات التى نبحثها إلى آخر فصل من هذه القصّة، أى خروج بنى إسرائيل من مصر، فنقول: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فتهيّأ بنو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳

إسرائيل للتوجّه إلى الوطن الموعود (فلسطين)، إلّا أنّهم لمّا وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقّبهم فرعون فى جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل أنفسهم محاصرين بين البحر و العدو، فمن جهة نهر النيل العظيم، و من جهة أخرى العدوّ القوى السّفاك

الغاضب.

إلّا أنّ اللّه الـذى كان يريـد إنقاذ هذه الأمّة المظلومة المحرومة المؤمنة من قبضة الظالمين، و أن يهلك الظالمين فى البحر، أمر موسـى أن امض بقومك فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً طريقا متى ما مضيت فيه ف لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى

الطريف هنا أنّ الطريق لم يفتح و حسب، بل كان طريقا يابسا صـلبا بأمر اللّه، مع أنّ مياه النهر أو البحر إذا ما انحسرت جانبا فإنّ قيعانها تبقى عادة غير قابلة للعبر عليها.

يقول الراغب فى مفرداته: «الـدّرك» أقصـى عمق البحر، و يقال للحبل الـذى يوصل به حبل آخر ليـدرك به الماء «درك»، و كذلك يقال للخسارة التى تصيب الإنسان «درك» و يقال «دركات النّار»- فى مقابل درجات الجنّة أى حدودها و طبقاتها السفلى.

و لكن مع ملاحظـة أنّ بنى إسـرائيل- و طبقـا للآيـة (۶۱) من سورة الشـعراء- لمّـا علموا بخبر مجىء جيش فرعون، قـالوا لموسـى: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ و هـذا يعنى أنّ المراد من الـدرك فى الآيـة هنـا، أنّ جيش فرعون سوف لن يصل إليكم، و المراد من (لا تخشـى) أنّ أى خطر لا يهدّدكم من ناحية البحر.

و بذلك فإنّ موسى و بنى إسرائيل قد ساروا فى تلك الطرق التى فتحت فى أعماق البحر بعد انحسار المياه عنها. فى هذه الأثناء وصل فرعون و جنوده إلى ساحل البحر فدهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقّع، و لذلك أعطى فرعون أمرا لجنوده باتّباعهم، و سار هو أيضا فى نفس الطريق: فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴

بِجُنُودِهِ ۲۳].

ممّا لا ريب أنّ جيش فرعون كان مكرها فى البدايـة على أن يسير فى هـذا المكان الخطير المجهول، و يتعقّب بنى إسـرائيل، و كانت مشاهـدة مثـل هـذه المعجزة العجيبـة كافيـة على الأقل أن يمتنعوا عن الاسـتمرار فى السير فى هـذا الطريق، إلّا أنّ فرعون الـذى ركب الغرور و العصبية رأسه، و غرق فى بحر العناد و الحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، و أمر جيشه فى المسـير فى هذه الطرق البحرية المربية حتّى دخل من هذه الجهة آخر جندى فرعونى، فى وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل.

فى هـذه الأثنـاء صـدر الأمر لأمواج المياه أن ترجع إلى حالتها الأولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسـقط البنايـة الشامخـة إذا هـدّمت قواعدها فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ ۲۴]. و بـذلك فقـد غـاص ملـك جبّـار ظـالم مع جنوده و جيشه القهّـار فى وسط أمواج الماء، و أصبحوا طعمة جاهزة لسمك البحر!.

أجل، وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى

صحيـح أنّ جملـة (أضـلّ) و جملـة (ما هـدى) تعطى معنى واحـدا تقريبا، و ربّما كان هـذا هو السـبب فى أن يعتبرها بعض المفسّـرين تأكيـدا، إلّـا أنّ الظـاهر أنّ هنـاك تفاوتـا فيما بينهما، و هو أنّ (أضلّ) إشارة إلى الإضـلال، و (ما هـدى) إشارة إلى عـدم الهدايـة بعد وضوح الضلالة.

و توضيح ذلـك: إنّ القائـد قـد يخطئ أحيانـا، و يجرّ أتبـاعه إلى طريق منحرف، إلّا أنّه بمجرّد أن ينتبه إلى خطئه يعيـدهم إلى طريق الصواب. إلّا أنّ فرعون كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵

عنيدا إلى الحدّ الذى لم يبيّن لقومه الحقيقة حتّى بعد وضوح الضلال، و مشاهدته، و استمرّ فى توجيه هؤلاء إلى المتاهات حتّى هلك و إيّاهم.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تنفى كلام فرعون الوارد فى الآية (۲۹) من سورة غافر حيث يقول: وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ فإنّ هذه الحوادث بيّنت أنّ هذه الجملة كذبة كبيرة كأكاذيبه الأخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۰ الى ۸۲]

اشارة

يـا بَنِى إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَ واعَدْناكُمْ جـانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَ نَزَّلْنـا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى (۸۰) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى (۸۱) وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تـابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى (۸۲)

التّفسير

طريق النجاة الوحيد:

تعقيبا على البحث السابق فى نجاة بنى إسرائيل بصورة إعجازيـة من قبضـة الفراعنـة، خاطبت هـذه الآيات الثلاث بنى إسـرائيل بصورة عامّة، و فى كلّ عصر و زمان، و ذكرتهم بالنعم الكبيرة التى منحها اللّه إيّاهم، و أوضحت طريق نجاتهم.

فقـالت أوّلا: يـا بَنِى إِسْرائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنـاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ و من البـديهى أنّ أساس كلّ نشاط و مجهود إيجابى هو التخلّص من قبضـة المتسلّطين، و الحصول على الحرية و الاستقلال، و لذلك أشير إلى هذه المسألة قبل كلّ شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷

ثمّ تشـير إلى واحـدة من النعم المعنويـة المهمّـة، فتقول: وَ واعَدْناكُمْ جانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ و هـذه إشارة إلى حادثة ذهاب موسـى عليه السّلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم فى الطور، ففى ذلك المكان أنزل اللّه سبحانه ألواح التوراة على موسى و كلّمه، و شاهدوا جميعا تجلّى اللّه سبحانه ۲۵].

و أخيرا أشارت إلى نعمة ماديّة مهمّة من نعم اللّه الخاصّة ببنى إسرائيل، فتقول: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوى ففى تلك الصحراء كنتم حيـارى، و لم يكن عنـدكم شـىء من الطعام المناسب، فأدرككم لطف اللّه، و رزقكم من الطعام الطيّب اللذيـذ ما كنتم بأمسّ الحاجة إليه.

و للمفسّـرين بحوث كثيرة فيمـا هو المراد من (المنّ و السـلوى)، بيّناهـا فى ذيل الآيـة (۵۷) من سورة البقرة، بعـد ذكر آراء المفسّـرين الآخرين و قلنا: إنّه ليس من البعيد أن يكون «المنّ» نوعا من العسل الطبيعى كان موجودا فى الجبال المجاورة لتلك الصـحراء، أو نوعا من السـكريات المولدة للطاقة من نباتات خاصّة كانت تنمو فى أطراف تلك الصـحراء. و السـلوى نوع من الطيور المحلّلة اللحم شبيها بالحمام. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآية (۵۷) من سورة البقرة.

ثمّ تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ لا تَطْغَوْا فِيهِ

الطغيان فى النعمة هو أن يتّخذ الإنسان هذه النعم وسـيلة للذنب و الجحود و الكفران و التمرّد و العصيان، بدل أن يستغلّها فى طاعة اللّه و سـعادته، تماما كما فعل بنو إسـرائيل حيث تمتّعوا بكلّ هذه النعم ثمّ ساروا فى طريق الكفر و الطغيان و المعصـية. و لذلك حذّرتهم الآية بعد ذلك فقالت:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸

فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَ مَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوى

«هوى» فى الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، و الذّى تكون نتيجته الهلاك عادة، إضافة إلى أنّه هنا إشارة إلى السقوط الرتبى و البعد عن قرب اللّه، و الطرد من رحمته.

و لمّا كان من الضرورى أن يقترن التحذير و التهديد بالترغيب و البشارة دائما، لتتساوى كفّتا الخوف و الرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسى فى تكامل الإنسان، و لتفتح أبواب التوبة و الرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية:

وَ إِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى

كلمة (غفّار)، صيغة مبالغة، و توحى أنّ اللّه سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين و يشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمّهم عفوه و مغفرته مرّات و مرّات.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ أوّل شرط للتوبة هو ترك المعصية، و بعد أن تتطهّر روح الإنسان من هذه التلوّث، فإنّ الشرط الثّانى هو أن يغمرها نور الإيمان باللّه و التوحيد، و فى المرحلة الثّالثة يجب أن تظهر بر أعم الإيمان و التوحيد- و التى هى الأعمال الصالحة و المناسبة- على أغصان وجود الإنسان.

و بخلاف سائر آيات القرآن التى تتحدّث عن التوبة و الإيمان و العمل الصالح فقط فقد أضافت هذه الآية شرط رابع، و هو قوله: ثُمَّ اهْتَدى و قد ذكر المفسّرون لهذه الجملة تفسيرات عديدة، يبدو أنّ اثنين منها هما الأوفق و الأدقّ:

الأوّل: إنّها إشارة إلى أنّ الاستمرار فى طريق الإيمان و التقوى و العمل الصالح، يعنى أنّ التوبة تمحو ما مضى و تكون سببا للنجاة، و هى مشروطة بأن لا يسقط النائب مرّة أخرى فى هاوية الشرك و المعصية، و أن يراقب نفسه دائما كيلا تعيده الوساوس الشيطانيّة و أهواؤه إلى مسلكه السابق.

و الثّانى: هذه الجملة إشارة إلى لزوم قبول الولاية، و الالتزام بقيادة القادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹

الربّانيين، أى أنّ التوبة و الإيمان و العمل الصالح كلّ ذلك سيكون سببا للنجاة و الفلاح إذا كان فى ظلّ هداية القادة الربّانيين، ففى زمان تحت قيادة موسى عليه السّلام، و فى زمن آخر تحت لواء نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلم، و مرّة تحت لواء أمير المؤمنين على عليه السّلام، أمّا اليوم فينبغى أن ننضوى تحت لواء الإمام المهدى عليه السّلام لأنّ أحد أركان الدين قبول دعوة النّبى و الانضواء تحت قيادته ثمّ قبول قيادة خليفته و نائبه.

ينقل العلامة الطبرسى فى ذيل هذه الآية عن الإمام الباقر أنّه قال: «ثمّ اهتدى إلى و لا يتنا أهل البيت» ثمّ أضاف: «فو اللّه لو أنّ رجلا عبد اللّه عمره ما بين الركن و المقام، ثمّ مات و لم يجىء بولايتنا لأكبّه اللّه فى النّار على وجهه».

و قد نقلها العلّامة الحاكم «أبو القاسم الحسكانى»- من كبار محدّثى أهل السنّة[۲۶] و قد رويت روايات عديدة فى هذا الباب عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم و عن الإمام زين العابدين عليه السّلام، و الإمام الصادق عليه السّلام.

و لكى نعلم أنّ ترك هذا الأصل- إلى أى حدّ هو- مهلك لتاركيه، يكفى أن نبحث الآيات التالية، و كيف أنّ بنى إسرائيل قد ابتلوا بعبادة العجل و الشرك و الكفر نتيجة تركهم ولاية موسى عليه السّلام و خروجهم عن نهجه و نهج خليفته هارون عليه السّلام.

و من هنا يتّضح أنّ ما قاله العلّامة الآلوسى فى تفسير روح المعانى بعد ذكر جملة من هذه الرّوايات:

«لا شكّ عندنا فى وجوب محبّة أهل البيت، و لكن هذا لا يرتبط ببنى إسرائيل و عصر موسى» كلام واه، لأنّ البحث أوّلا ليس حول المحبّة، بل حول قبول الولاية و القيادة و ثانيا: ليس المراد من انحصار الولاية بأهل البيت عليهم السّلام، بل فى عصر موسى كان هو و أخوه قائدين، فكان يلزم قبول ولايتهما، أمّا فى عصر النّبى فتلزم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰

قبول ولايته، و فى عصر أئمّة أهل البيت يلزم قبول ولايتهم عليهم السّلام.

و يتّضح أيضا أنّ المخاطب فى هذه الآية و إن كانوا بنى إسرائيل، إلّا أنّه لا ينحصر فيهم و لا يختّص بهم، فإنّ كلّ فرد أو جماعة تطوى هذه المراحل الأربعة فستشملها مغفرة اللّه سبحانه و عفوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۸۳ الى ۹۱]

اشارة

وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (۸۳) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (۸۴) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى (۸۶) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷)

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (۸۸) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِى وَ أَطِيعُوا أَمْرِى (۹۰) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (۹۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲

التّفسير

صخب السامرى:

ذكر فى هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل، و يتعلّق بذهاب موسى عليه السّلام مع و كلاء و ممثّلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثمّ عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرّر أن يذهب موسى عليه السّلام إلى «الطور» لتلقّى أحكام التوراة، و يصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل لتتّضح لهم خلال هذه الرحلة حقائق جديدة حول معرفة اللّه و الوحى.

غير أنّ شوق موسى عليه السّلام إلى المناجاة مع اللّه و سماع ترتيل الوحى كان قد بلغ حدّا بحيث نسى فى هذا الطريق- حسب الرّوايات- كلّ شىء حتّى الأكل و الشرب و الاستراحة، فطوى هذا الطريق بسرعة، و وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات اللّه و ميعاده. هنا نزل عليه الوحى: وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى

فأجاب موسى على الفور: قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى فليس شوق المناجاة و سماع كلامك لوحده قد سلب قرارى، بل كنت مشتاقا إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لأؤدّيها إلى عبادك، و لأنال رضاك عنّى بذلك ... أجل إنّى عاشق لرضاك، و مشتاق لسماع أمرك.

و فى هذا اللقاء امتدّت مدّة الإشراقات و التجليّات المعنوية الإلهيّة من ثلاثين ليلة إلى أربعين، و أدّت الأجواء المهيأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامرى، ذلك الرجل الفطن و المنحرف صنع باستعماله الوسائل التى سنشير إليها فيما بعد عجلا، و دعا تلك الجماعة إلى عبادته، و أوقعهم فيها.

لا شكّ فى أنّ الأرضيات، كمشاهدة عبادة المصريين للعجل، أو مشاهدة مشهد عبادة الأصنام- العجل بعد عبور نهر النيل، و طلب

صنع صنم كهؤلاء، و كذلك تمديد مدّة ميعاد موسى، و انتشار شائعة موته من قبل المنافقين، و أخيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳

جهل هـذه الامّـة، كلّ ذلك كان له أثر فى ظهور هـذه الحادثـة و الانحراف الكبير عن التوحيـد، لأنّ الحوادث الاجتماعية لا تقع عادة بدون مقدّمات، غاية ما هناك أنّ هذه المقدّمات تكون تارة واضحة و علنية، و أخرى مستورة و خفيّة.

على كـلّ حـال، فإنّ الشـرك فى أسوأ صورة قـد أحاط ببنى إسـرائيل، و أخـذ بأطرافهم، خاصـة و أنّ كبار القوم كانوا مع موسـى فى الجبل، و كان زعيم الأمّة هارون وحيدا دون أن يكون له مساعدون أكفّاء مؤثّرون.

و أخيرا أخبر اللّه موسـى فى الميعاد بما جرى لقومه و السامرى إذ تحكى الآية التالية ذلك فتقول: قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُ

غضب موسـى عنـد سـماعه هـذه الكلمات غضـبا التهب معه كلّ وجوده، و ربّما كان يقول لنفسه: لقـد تحمّلت المصائب و المصاعب خلال هذه السـنين الطويلة، و أرهقت نفسـى و واجهت كلّ الأخطار فى سبيل أن تركن هذه الامّة إلى التوحيد، فكيف ذهبت جهودى أدراج الرياح بمجرّد أن غبت عنها عدّة أيّام فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً.

و ما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيـح، منظر عبادة العجل قال أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً. و هذا الوعد الحسن إمّا أن يكون وعـد بنى إسـرائيل بنزول التوراة و بيان الأحكام السـماوية فيها، أو الوعـد بالنجاة و الإنتصار على الفراعنـة و وراثـة حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة و العفو للذين يتوبون و يؤمنون و يعملون الصالحات، أو أنّه كلّ هذه الأمور.

ثمّ أضاف: أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ و هو يشـير إلى أنّه: هبوا أنّ مـدّة رجوعى قـد طالت من ثلاثين إلى أربعين يوما، فإنّ هذا الزمن ليس طويلا، ألا يجب عليكم أن تحفظوا أنفسـكم فى هـذه المـدّة القصـيرة؟ و حتّى لو نأيت عنكم سـنين طويلـة فينبغى أن تلتزموا بالتعاليم الإلهيّة التى تعلمّتموها و تؤمنوا بالمعجزات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۴

رأيتموهـا: أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى ۲۷] فقـد عاهـدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيـد و طريق طاعة اللّه الخالصة، و أن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلّا أنّكم نسيتم كلّ كلامى فى غيابى، و كذلك تمردّتم على طاعة أمر أخى هارون و عصيتموه.

فلمّا رأى بنو إسـرائيل أنّ موسـى عليه السّلام قد عنّفهم بشدّة و لا مهم على فعلهم و تنبّهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للاعتذار ف قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا[۲۸] فلم نكن فى الواقع قـد رغبنـا و صـمّمنا على عبـادة العجل وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ

و للمفسّـرين آراء فيما فعله بنو إسرائيل، و ما فعله السامرى، و ما هو معنى الآيات- محلّ البحث- على نحو الدقّة، و لا يبدو هناك فرق كبير فى النتيجة بين هذه الاختلافات.

فـذهب بعضـهم: إن «قـذفناها» تعنى أنّنا ألقينا أدوات الزينة التى كنّا قد أخذناها من الفراعنة قبل الحركة من مصـر فى النّار، و كذلك ألقى السامرى ما كان معه أيضا فى النّار حتّى ذاب و صنع منه عجلا.

و قال آخرون: إنّ معنى الجملة أنّنا ألقينا أدوات الزينة بعيدا عنّا، فجمعها السامرى و ألقاها فى النّار ليصنع منها العجل.

و يحتمل أيضا أن تكون جملة فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُ إشارة إلى مجموع الخطّة التى نفذّها السامرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۵

و على كلّ حال، فإنّ كبير القوم إذا لام من تحت إمرته على ارتكابهم ذنبا ما، فإنّهم يسعون إلى نفى ذلك الذنب عنهم، و يلقونه على عـاتق غيرهم، و كـذلك عبّاد العجل من بنى إسـرائيل، فإنّهم كانوا قـد انحرفوا بإرادتهم و رغبتهم عن التوحيـد إلى الشـرك، إلّا أنّهم

أرادوا أن يلقوا كلّ التبعة على السامرى.

على كلّ، فإنّ السامرى ألقى كلّ أدوات زينة الفراعنة و حليهم التى كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم و المعصية- و لم يكن لها قيمة إلّا أن تصرف فى مثل هذا العمل المحرّم- فى النّار فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ[۲۹] فلمّا رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأة كلّ تعليمات موسى التوحيديّة فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى

و يحتمل أيضا أن يكون قائل هذا الكلام هو السامرى و أنصاره و المؤمنون به.

و بهذا فإنّ السامرى قد نسى عهده و ميثاقه مع موسى، بل مع إله موسى، و جرّ الناس إلى طريق الضلال: «فنسى».

و لكن بعض المفسّرين فسّروا «النسيان» بالضلال و الانحراف، أو أنّهم اعتبروا فاعل النسيان موسى عليه السّلام و قالوا: إنّ هذا كلام السامرى، و هو يريد أن يقول: إنّ موسى نسى أنّ هذا العجل هو ربّكم، إلّا أنّ كلّ ذلك مخالف لظاهر الآية، و ظاهرها هو ما قلناه من أنّ المراد هو أنّ السامرى قد أودع عهده و ميثاقه مع موسى و ربّ موسى فى يد النسيان، و أتّخذ طريق عبادة الأصنام.

و هنا قال اللّه سبحانه توبيخا و ملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً فإنّ المعبود الواقعى يستطيع على الأقل أن يلبىّ طلبات عباده و يجيب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبى لوحده، ذلك الصوت الذى لا يشعر بأيّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۶

إرادة، دليلا على جواز عبادة العجل، و صحّة تلك العبادة؟

و على فرض أنّه أجابهم عن أسئلتهم، فإنّه لا يعدو أن يكون كإنسان عاجز لا يملك نفع غيره و لا ضرّه، بل و حتّى نفسه، فهل يمكن أن يكون معبودا و هو على هذا الحال؟

أى عقل يسمح بأن يعبد الإنسان تمثالا لا روح له يظهر منه بين الحين و الآخر صوت غير مفهوم، و يعظمه و يخضع أمامه؟

و لا شكّ أنّ هارون، خليفة موسى و نبى اللّه الكبير، لم يرفع يده عن رسالته فى هذا الصخب و الغوغاء، و أدّى واجبه فى محاربة الانحراف و الفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ ثمّ أضاف: وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ

لقد كنتم عبيدا فحرّركم، و كنتم أسرى فأطلقكم، و كنتم ضالّين فهداكم، و كنتم متفرّقين مبعثرين فجمعكم و وحدّكم تحت راية رجل ربّانى، و كنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم و هداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي

أنسيتم أنّ أخى موسى قد نصّبنى خليفة له و فرض عليكم طاعتى؟ فلما ذا تنقضون الميثاق؟ و لماذا ترمون بأنفسكم فى هاوية الفناء؟

إلّا أنّ بنى إسرائيل تمسكوا بهذا العجل عنادا، و لم يؤثّر فيهم المنطق السليم القوى لهذا الرجل، و لا أدلّة هذا القائد الحريص، و أعلنوا مخالفتهم بصراحة:

قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى ۳۰].

و الخلاصة: إنّهم ركبوا رؤوسهم و قالوا: الأمر هو هذا و لا شىء سواه، و يجب أن نعبد العجل حتّى يرجع موسى و نطلب منه الحكم و القضاء، فلعلّه يسجد معنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۷

للعجل! و على هذا فلا تتعب نفسك كثيرا، و كفّ عنّا يدك! و بهذا لم يذعن بنو إسرائيل لأمر العقل و لا لأمر خليفة قائدهم و زعيمهم أيضا.

و لكن، كما كتب المفسّرون- و القاعدة تقتضى ذلك أيضا- فإنّ هارون لمّا أدّى رسالته فى هذه المواجهة، و لم يقبل أكثر بنى إسرائيل كلامه، ابتعد عنهم بصحبة القلّة الذين اتّبعوه، لئلّا يكون اختلاطهم بهؤلاء دليلا على إمضاء طريقهم المنحرف.

و العجیب أنّ بعض المفسرین ذکروا أنّ هذا التبدّل و الانحراف فی بنی إسرائیل قد حدث فی أیّام قلیلة فحسب، فبعد أن مضت (۳۵) یوما علی ذهاب موسی علیه السّلام إلی میقات ربّه، شرع السامری بعمله، و طلب من بنی إسرائیل أن یجمعوا کلّ أدوات الزینة التی أخذوها کعاریة من الفراعنة و ما أخذوه منهم بعد غرقهم، و وضعوها جمیعا فی الیوم السادس و الثلاثین و السابع و الثلاثین و الثامن و الثلاثین فی موقد النّار، و أذابوها ثمّ صنعوا منها تمثال العجل، و فی الیوم التاسع و الثلاثین دعاهم السامری إلی عبادته، فقبلها جماعة عظیمة- و علی بعض الرّوایات ستمائة ألف شخص- و فی الیوم التالی، أی فی نهایة الأربعین یوما، رجع موسی ۳۱].

و لکن افترق عنهم هارون مع القلّة من المؤمنین الثابتین، و الذین کان عددهم قرابة اثنی عشر ألفا، فی حین أنّ الأغلبیة الجاهلة کادوا أن یقتلوه!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۸

بحوث

۱- شوق اللقاء!

قد یکون قول موسی علیه السّلام فی جواب سؤال اللّه تعالی له حول استعجاله إلی المیقات حیث قال: وَ عَجِلْتُ إِلَیْکَ رَبِّ لِتَرْضی عجیبا لدی من لم یعرف شأن جاذبیة عشق اللّه، إلّا أن الذین أدرکوا هذه الحقیقة بکلّ وجودهم، و الذین إذا اقترب موعد الوصال اشتدّ لهیب العشق فی أفئدتهم، یعلمون جیدا أیّة قوّة خفیّة کانت تجرّ موسی علیه السّلام إلی میقات اللّه، و کان یسیر سریعا بحیث تخلّف عنه قومه الذین کانوا معه.

لقد کان موسی علیه السّلام قد تذوق حلاوة الوصال و الحبّ و المناجاة مع اللّه مرارا، فکان یعلم أنّ کلّ الدنیا لا تعدل لحظة من هذه المناجاة.

أجل ... هذا هو طریق الذین تجاوزوا مرحلة العشق المجازی نحو مرحلة العشق الحقیقی ... عشق المعبود الأزلی المقدّس و الکمال المطلق، و الحسن و اللطف الذی لا نهایة له، و کلّ ما عند المحسنین الصالحین جمیعا عنده بمفرده، بل إنّ جمال و حسن المحسنین کلّه ومضة بسیطة من إحسانه الدائم الخالد. فیا إلهنا الکبیر من علینا بذرّة من هذا العشق المقدّس.

یقول الإمام الصادق علیه السّلام- کما روی عنه- «المشتاق لا یشتهی طعاما، و لا یلتذّ شرابا، و لا یستطیب رقادا، و لا یأنس حمیما، و لا یأویّ دارا ... و یعبد اللّه لیلا و نهارا، راجیا بأن یصل إلی ما یشتاق إلیه ... کما أخبر اللّه عن موسی بن عمران فی میعاد ربّه بقوله: و عجّلت إلیک ربّ لترضی»[۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۹

۲- الحرکات المناوئة لنهضة الأنبیاء!

من الطبیعی أن توجد فی مقابل کلّ ثورة حرکة مضادّة تسعی إلی تحطیم نتائج الثورة، و إلی إرجاع المجتمع إلی مرحلة ما قبل الثورة، و لیس سبب ذلک معقّدا و لا غامضا، لأنّ انتصار ثورة ما لا یعنی فناء کلّ العناصر الفاسدة من الفترة السابقة دفعة واحدة، بل تبقی حثالات منهم تبدأ نشاطها من أجل الحفاظ علی وجودها و کیانها، و مع اختلاف ظروف و مقدار و کیفیّة هؤلاء، فإنّهم یقومون بأعمال تناهض الثورة سرّا أمّ علانیة.

و فى حركة موسى بن عمران الثورية نحو توحيد و استقلال و حرية بنى إسرائيل، كان السامرى زعيم هذه الحركة الرجعيّة المضادّة، فقد كان عالما- كبقيّة قادة الحركات الرجعيّة- بنقاط ضعف قومه جيدا، و كان يعلم أنّه قادر على أن يستغلّ هذه النقاط فيثير الفتنة فيهم، فسعى أن يصنع من أدوات الزينة و الذهب التى هى آلهة عبيد الدنيا، و تجلب اهتمام عوام الناس، عجلا على هيئة خاصة، و جعله فى مسير حركة الريح- أو بالاستعانة بأيّة وسيلة أخرى- ليخرج منه صوت. و ذلك بانتهاز فرصة مناسبة- و هى غيبة موسى لعدّة أيّام- و نظرا إلى أنّ بنى إسرائيل بعد النجاة من الغرق، و مرورهم على قوم يعبدون الأصنام، طلبوا من موسى صنما، و الخلاصة أنّه استغلّ كلّ نقاط الضعف النفسى، و الفرض المكانية و الزمانية المناسبة، و بدأ خطّته المضادّة للتوحيد. و قد نظّم هذه المواد بمهارة فائقة بحيث حرّف فى مدّة قصيرة أغلبية الجهلة من بنى إسرائيل عن خطّ التوحيد إلى طريق الشرك.

و بالرغم من أنّ هذه الخطّة قد أحبطت بمجرّد رجوع موسى و قوّة إيمانه و منطقه بنور الوحى، و لكن إذا لم يرجع موسى فما ذا كان سيحدث؟ إنّهم إمّا كانوا سيقتلون أخاه هارون حتما، أو سيحجمونه بحيث لا يصل صوته إلى أحد.

أجل ... إنّ كلّ ثورة تحارب فى البداية بهذه الصورة، فيجب الحذر دائما،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۰

و مراقبة تحرّكات الشرك الرجعية، و القضاء على المؤامرات و هى فى و كرها و مهدها.

و كذلك يجب الالتفات إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ كثيرا من الثورات الحقيقيّة تعتمد فى البداية- و لأسباب مختلفة- على فرد أو أفراد معينين، بحيث أنّهم إذا فقدوا و غابوا عن الساحة سيعود الخطر و يهدّد الثورة من جديد، و لذلك يجب السعى من أجل خلق الموازين الثقافية الثورية فى عمق المجتمع بأسرع ما يمكن، و كذلك تربية الناس بشكل لا تهزّهم العواصف المضادّة للثورة، بل يقفون كالجبل الأصمّ أمام كلّ حركة رجعيّة متخلّفة.

و بتعبير آخر، فإنّ واحدة من وظائف القادة المخلصين أن ينقلوا الموازين و المعايير منهم إلى المجتمع، و لا شكّ أنّ هذا الأمر المهمّ يحتاج إلى مضى زمان، إلّا أنّه يجب السعى لاختصار هذا الزمن إلى أقلّ ما يمكن.

أمّا من كان السامرى؟ و كيف كانت عاقبة أمره؟ فسنتحدّث عنه فى الآيات المقبلة إن شاء اللّه تعالى.

۳- مراحل القيادة

لا شكّ أنّ هارون عليه السّلام لم يأل جهدا فى أداء رسالته عند غياب موسى عليه السّلام، إلّا أنّ جهل الناس من جهة، و ترسّبات مرحلة العبودية و الرقّ و عبادة الأصنام من جهة أخرى، قد أفشلت جهوده، فهو قد نفّذ واجبه- حسب الآيات محل البحث- على أربع مراحل:

الأولى: إنّه نبّه هؤلاء و أعلمهم أنّ هذا العمل يشكّل تيار انحرافى، و هو موضع اختبار خطير للجميع لتصحو العقول الغافلة، و ليعى الناس و يفكّروا لئلّا يغلبوا على أمرهم، إذ قال لهم: يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ

الثّانية: إنّه ذكرهم بنعم اللّه المختلفة عليهم منذ بدء ثورة موسى عليه السّلام إلى زمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۱

نجاتهم من قبضة الفراعنة، خاصّة و إنّه وصف اللّه بصفة رحمته العامّة، ليكون الأثر أعمق، و ليؤمل هؤلاء فى غفران هذا الذنب الكبير: وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ

الثّالثة: إنّه نبّههم على مقام نبوّته و خلافته لأخيه موسى فَاتَّبِعُونِى

و أخيرا فإنّه عرفهم بواجباتهم الإلهيّة وَ أَطِيعُوا أَمْرِى

۴- سؤال و جواب؟

لقد أورد المفسّر المعروف «الفخر الرازى» هنا إشكالا و هو ينتظر جوابه و الرّد عليه و هو أنّه قال: إنّ الرافضة تمسّكوا بقوله صلى اللّه عليه و آله و سلم لعلى «أنت منّى بمنزلة هارون من موسى»

ثمّ إنّ هارون ما منعته التقيّة فى مثل هذا الجمع، بل صعد المنبر و صرّح بالحقّ و دعا الناس إلى مبايعة نفسه و المنع من متابعة غيره، فلو كانت أمّة محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلم على الخطأ لكان يجب على على عليه السّلام أن يفعل ما فعله هارون و أن يصعد على المنبر من غير تقيّة و لا خوف و أن يقول: فاتّبعونى و أطيعوا أمرى. فلمّا لم يفعل ذلك علمنا أنّ الأمّة كانت على الصواب.

إلّا أنّ الرازى غفل فى هذا الباب عن مسألتين أساسيتين:

۱- إنّ ما يقوله من أنّ عليا عليه السّلام لم يقل شيئا فى شأن خلافته التى لا ينازع فيها خطأ محض، لأنّ فى أيدينا وثائق كثيرة تؤكّد أنّ الإمام قد بيّن هذا الموضوع فى موارد مختلفة، تارة بصراحة، و أخرى تلميحا، و تلاحظ فى نهج البلاغة أمثلة مختلفة كالخطبة الشقشقية- الخطبة الثّالثة- و الخطبة ۸۷، ۹۴، ۱۵۴، ۱۴۷، و كلّها تتحدّث فى هذا المجال.

و قد ذكرنا فى تفسيرنا هذا ذيل الآية (۶۷) من سورة المائدة بعد ذكر قصّة الغدير، روايات عديدة، و أنّ عليّا عليه السّلام قد استدلّ و استند إلى حديث الغدير مرارا لإثبات موقعه و خلافته. و لمزيد التوضيح راجع ذيل الآية (۶۷) من سورة المائدة.

۲- لقد كانت هناك ظروف خاصّة بعد وفاة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، فإنّ المنافقين الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۲

كانوا يعدّون الأيّام يوما بعد يوم و هم يترقّبون وفاة النّبى و كانوا قد أعدّوا أنفسهم ليطعنوا الإسلام الفتىّ طعنة نجلاء، و لذا نرى أنّ أصحاب الردّة- المناوئين للإسلام- قد ثاروا مباشرة فى زمان أبى بكر، و لولا اتّحاد المسلمين و فطنتهم و حذرهم لكان من الممكن أن ينزلوا بالإسلام ضربات قاسية، و من أجل ذلك سكت على عليه السّلام عن حقّه لئلّا يستغلّ العدو هذا الأمر.

ثمّ إنّ هارون- مع أنّ موسى كان على قيد الحياة- قال بصراحة ردّا على ملامة أخيه له على تقصيره: إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرائِيلَ ۳۳] و هو يوحى بأنّه أيضا قد تراجع بعض الشىء نتيجة الخوف من الاختلاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۳

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹۲ الى ۹۸]

اشارة

قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِى (۹۳) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَ لا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (۹۴) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (۹۵) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (۹۶)

قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (۹۸)

التّفسير

نهاية السّامرى المريرة:

تعقيبا على البحث الـذى تناولته الآيات السابقـة حول تقريع موسـى و ملامته لبنى إسـرائيل الشديـدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التى نبحثها- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۴

البداية- محاورة موسى عليه السّلام مع أخيه هارون عليه السّلام، ثمّ مع السامرى.

فخاطب أوّلا أخاه هارون قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أ فلم أقل لك أن اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ۳۴]؟ فلما ذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

بناء على هذا، فإنّ المراد من جملة أَلَّا تَتَّبِعَنِ هو: لماذا لم تتّبع طريقة عملى فى شدّة مواجهة عبادة الأصـنام؟ أمّا ما قاله بعض المفسّرين من أنّ المراد هو: لماذا لم تثبت معى على التوحيـد مع الذين ثبتوا، و لم تأت معى إلى جبل الطور، فيبدو بعيدا جدّا، و لا يتناسب كثيرا و الجواب الذى سيبديه هارون فى الآيات التالية.

ثمّ أضـاف: أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِي لقـد كـان موسـى عليه السّـلام يتحـدّث بهـذا الكلام مع أخيه و هو فى فورة و سورة من الغضب، و كان يصرخ فى وجهه، و قد أخذ برأسه و لحيته يجرّه إليه. فلمّا رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له- من أجل تهدئته و ليقلّل من فورته، و كذلك ليبيّن عذره و حجّته فى هذه الحادثة ضـمنا ... قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَ لا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي

كـان هـارون فى الحقيقـة يشـير إلى كلام موسـى عليه السّـلام الـذى وجّهه إليه عنـد توجّهه إلى الميقات، و كان محتواه الـدعوة إلى الإصـلاح- الآية (۱۴۲) من سورة الأعراف- فهو يريـد أن يقول: إنّى إذا كنت قـد أقـدمت على الاشـتباك معهم كـان ذلـك خلاف أمرك، و كان من حقّك أن تؤاخـذنى. و بهـذا أثبت هارون براءته، و خاصّـة مع ملاحظة الجملة الأخرى التى وردت الآية (۱۵۰) من سورة الأعراف: إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۵

و هنـا ينقـدح السؤال التـالى و هو: لا شـكّ أنّ كلّـا من موسـى و هارون نبى، فكيف يوجّه موسـى عليه السّـلام هـذا العتاب و اللهجة الشديدة إلى أخيه، و كيف نفسّر دفاع هارون عن نفسه؟! و يمكن القول فى الجواب: إنّ موسى عليه السّلام كان متيقّنا من براءة أخيه، إلّا أنّه أراد أن يثبت أمرين بهذا العمل.

الأوّل: أراد أن يفهم بنى إسـرائيل أنّهم قـد ارتكبوا ذنبا عظيما جـدّا، و أى ذنب؟! الـذنب الـذى ساق هارون الذى كان نبيّا عظيما إلى المحكمـة، و بتلـك الشـدّة من المعاملـة، أى إنّ المسألـة لم تكن بتلـك البساطـة التى كـان يتصوّرهـا بنو إسـرائيل. فإنّ الانحراف عن التوحيـد و الرجوع إلى الشـرك، و ذلك بعـد كلّ هـذه التعليمات، و بعـد رؤية كلّ تلك المعجزات و آثار عظمة الحقّ، أمر لا يمكن تصديقه، و يجب الوقوف أمامه بكلّ حزم و شدّة.

قـد يشقّ الإنسان جيبه، و يلطم على رأسه عنـد ما تقع حادثة عظيمة أحيانا، فكيف إذا وصل الأمر إلى عتاب أخيه و ملامته، و لا شـكّ أنّ هذا الأسـلوب مؤثّر فى حفظ الهدف و ترك الأثر النفسـى فى الأناس المنحرفين، و بيان عظمة الذنب الذى ارتكبوه. كما لا شـكّ فى أنّ هارون- أيضا- كان راضيا كلّ الرضى عن هذا العمل.

الثّانى: هو أن تثبت للجميع براءة هارون من خلال التوضيحات التى يبديها، حتّى لا يتّهموه فيما بعد بالتهاون فى أداء رسالته.

و بعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون و تبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامرى:

لماذا فعلت ما فعلت، و ما هـدفك من ذلك؟: قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ فأجابه و قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ

الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي

ترى ما كان مقصود السامرى من كلامه هذا؟! للمفسّرين قولان مشهوران ...

الأوّل: إنّ مراده هو: إنّنى رأيت جبرئيل على فرس، عند مجىء جيش

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۶

فرعون إلى ساحل البحر، يرغّب ذلك الجيش فى المسير فى تلك الطرق اليابسة فى البحر، و كان يسير أمامهم، فقبضت شيئا من تراب قدمه، أو «مركبه» و أدّخرته لهذا اليوم، فألقيته داخل العجل الذهبى، و ما هذا الصوت إلّا من أثر ذلك التراب الذى أخذته.

الثّانى: إنّنى آمنت- بداية الأمر- بقسم من آثار الرّسول (موسى)، ثمّ شككت فيها فألقيتها بعيدا و ملت إلى عبادة الأصنام، و كان هذا عندى أجمل و أحلى.

فعلى التّفسير الأوّل فإنّ كلمة «الرسول» تعنى جبرئيل، و على التّفسير الثّانى تعنى «موسى» عليه السّلام. «و الأثر» فى التّفسير الأوّل بمعنى تراب القدم، و فى الثّانى يعنى بعض تعليمات موسى عليه السّلام. و «نبذتها» على التّفسير الأوّل بمعنى إلقاء التراب داخل العجل، و على الثّانى ترك تعليمات موسى عليه السّلام. و أخيرا فإن بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا تشير- طبق التّفسير الأوّل إلى جبرئيل الذى كان قد تجلّى فى هيئته فارس- و ربّما رآه بعض آخر لكنّهم لم يعرفوه- إلّا أنّها تشير- وفقا للتفسير الثّانى إلى ما كان لديه من معلومات خاصّة عن دين موسى عليه السّلام.

و على كلّ حال، فإنّ لكلّ واحد من هذين التّفسيرين أنصارا، و له نقاط واضحة أو مبهمة، لكن- كمحصّلة نهائية- يبدو أنّ التّفسير الثّانى هو الأفضل و الأنسب من عدّة جهات، خاصّة و أنّا نقرأ

فى حديث ورد فى كتاب (الإحتجاج) إنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام لمّا فتح البصرة أحاط الناس به- و كان من بينهم «الحسن البصرى» و قد جلبوا معهم ألواحا يكتبون فيها ما يقوله أمير المؤمنين على عليه السّلام، فقال له أمير المؤمنين بأعلى صوته: «ما تصنع؟» قال: أكتب آثاركم لنحدّث بها بعدكم، فقال أمير المؤمنين: «أما إنّ لكلّ قوم سامريا، و هذا سامرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۷

هذه الامّة! إلّا أنّه لا يقول: لا مساس، و لكنّه يقول: لا قتال»[۳۵].

و يستفاد من هذا الحديث أنّ السامرى كان رجلا منافقا، فإن توسّل لإغواء الناس و إضلالهم ببعض المطالب و المقولات الصحيحة التى تعلّمها سابقا، و هذا المعنى ينسجم و التّفسير الثّانى أكثر.

من الواضح أنّ جواب السامرى عن سؤال موسى عليه السّلام لم يكن مقبولا بأى وجه، و لذلك فإنّ موسى عليه السّلام أصدر قرار الحكم فى هذه المحكمة، و حكم بثلاثة أحكام عليه و على عجله، فأوّلا: قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ أى يجب عليك الابتعاد عن الناس و عدم الاتّصال بهم إلى آخر العمر، فكلّما أراد شخص الاقتراب منك، فعليك أن تقول له: لا تتّصل بى و لا تقربنى.

و بهذا الحكم الحازم طرد السامرى من المجتمع و جعله فى عزلة تامّة. منزويا بعيدا عنهم! قال بعض المفسّرين: إنّ جملة لا مِساسَ إشارة إلى أحد القوانين الجزائية فى شريعة موسى عليه السّلام التى كانت تصدر فى حقّ من يرتكب جريمة كبيرة، و كان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قذر، فلا يقربه أحد و لا يقرب أحدا[۳۶].

فاضطرّ السامرى بعد هذه الحادثة أن يخرج من جماعة بنى إسرائيل و يترك دياره و أهله، و يتوارى فى الصحراء، و هذا هو جزاء الإنسان الذى يطلب الجاه و يريد إغواء جماعة عظيمة من المجتمع ببدعه و أفكاره الضّالة، و يجمعهم حوله، و يجب أن يحرم مثل هذا و يعزل، و لا يتّصل به أىّ شخص، فإنّ هذا الطرد و هذه العزلة أشدّ من الموت و الإعدام على مثل السامرى و أضرابه. لأنّه يعامل معاملة النجس الملوّث فيطرد من كلّ مكان.

و قال بعض المفسّرين: إنّ موسى دعا على السامرى و لعنه بعد ثبوت جرمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۸

و خطئه، فابتلاه اللّه بمرض غامض خفى جعله ما دام حيّا لا يمكن لأحد أن يمسّه، و إذا مسّه فسيبتلى بالمرض. أو أنّ السامرى قد ابتلى بمرض نفسى و وسواس شديد، و الخوف من كلّ إنسان، إذ كان بمجرّد أن يقترب منه أى إنسان يصرخ (لا تمسّنى)[۳۷].

و العقاب الثّانى: إنّ موسى عليه السّلام قد أسمعه و أعلمه بجزائه فى القيامة فقال:

وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ ۳۸].

و الثالث: وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً.

و هنا يأتى سؤالان:

الأوّل: إنّ جملة لَنُحَرِّقَنَّهُ تدلّ على أنّ العجل كان جسما قابلا للاشتعال، و هذا يؤيّد عقيدة من يقولون: إنّ العجل لم يكن ذهبيّا، بل تبدّل إلى موجود حى بسبب تراب قدم جبرئيل.

و نقول فى الجواب: إنّ ظاهر جملة جَسَداً لَهُ خُوارٌ هو أنّ العجل كان جسدا لا روح فيه، كان يخرج منه صوت يشبه خوار العجل، بالطريقة التى قلناها سابقا. أمّا مسألة الإحراق فمن الممكن أن تكون لأحد سببين:

أحدهما: إنّ هذا التمثال لم يكن ذهبيّا خالصا، بل يحتمل أن يكون من الخشب، ثمّ إلى بالذهب.

و الآخر: إنّه على فرض أنّه كان من الذهب فقط، فإنّ إحراقه كان للتحقير و الإهانة و تعرية شكله الظاهرى و إسقاطه، كما تكرّر هذا الأمر فى تماثيل الملوك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۶۹

المستكبرين الجبابرة فى عصرنا! بناء على هذا فإنّهم بعد حرقه كسروه قطعا صغيرة بآلات معيّنة، ثمّ ألقوا ذرّاته فى البحر.

و السؤال الآخر هو: هل يجوز إلقاء كلّ هذا الذهب فى البحر، ألا يعدّ إسرافا؟

و الجواب: قد يكون مثل هذا التعامل مع الأصنام واجبا فى بعض الأحيان، إذا أريد منه تحقيق هدف أهمّ و أسمى، كتحطيم و سحق فكرة عبادة الأصنام، لئلّا يبقى بين الناس مادّة الفساد، و تكون باعثا للوسوسة فى صدور بعض الناس.

و بعبارة أوضح: فإنّ موسى عليه السّلام لو أبقى الذهب الذى استعمل فى صناعة العجل، أو قسّمه بين الناس بالسويّة، فربّما نظر إليه الجاهلون يوما ما نظرة تقديس، و تحيا فيهم من جديد فكرة عبادة العجل، فيجب أن تتلف هذه المادّة الغالية الثمن فداء لحفظ عقيدة الناس، و ليس هناك أسلوب آخر لذلك و بهذا فإنّ موسى بطريقته الحازمة و تعامله الجازم الذى اتّخذه مع السامرى و عجله استطاع أن يقطع مادّة عبادة العجل، و أن يمحو آثارها من العقول، و سنرى فيما بعد كيف أثّر هذا التعامل القاطع مع عبّاد العجل فى عقول بنى إسرائيل ۳۹].

و شخص موسى فى آخر جملة، و مع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، حاكمية نهج اللّه، فقال: إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً فليس هو كالأوثان المصنوعة التى لا تسمع كلاما، و لا تجيب سائلا، و لا تحلّ مشكلة، و لا تدفع ضرّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۰

فى الواقع، إنّ جملة وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً جاءت فى مقابل وصف العجل و جهله و عجزه الذى ذكر قبل عدّة آيات.

بحثان

۱- يجب الثبات أمام الحوادث الصعبة

إنّ طريقة موسى عليه السّلام فى مقابلة انحراف بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، يمكن أن تكون مثلا يقتدى به فى كلّ زمان و مكان فى مجال مكافحة الانحرافات الصعبة المعقّدة.

فلو أنّ موسى عليه السّلام كان يريد أن يقف أمام مئات الآلاف من عبدة العجل و يواجههم بالموعظة و النصيحة و قدر من الاستدلال فقط لما حالفه الفوز و النجاح، فقد كان عليه أن يقف بحزم هنا أمام ثلاثة أمور: أمام أخيه، و السامرى، و عبدة العجل، فبدأ أوّلا بأخيه فأخذ بمحاسنه و جرّه إليه و صرخ فى وجهه، فهو فى الحقيقة قد شكّل محكمة له- و إن كانت قد ثبتت برائته فى النهاية- حتّى يحسب الآخرون حسابهم.

ثمّ توجّه إلى المسبّب الأصلى لهذه المؤامرة- أى السامرى- فحكمه بحكم كان أشدّ من القتل، و هو الطرد من المجتمع و عزله و تبديله إلى موجود نجس ملوّث يجب أن يبتعد عنه الجميع، ثمّ تهديده بعقاب اللّه الأليم.

ثمّ جاء إلى عبدة العجل من بنى إسرائيل، و وضّح لهم بأنّ ذنبكم كبير لا توبة منه إلّا أن تشهر السيوف و يقتل بعضكم بعضا ليتطهّر هذا المجتمع من الدماء الفاسدة، و بهذه الطريقة يعدم جماعة من المذنبين بأيديهم، ليتوارى هذا الفكر الخطر المنحرف عن عقول هؤلاء، و قد بيّنا شرح هذه الحادثة فى ذيل الآيات ۵۱- ۵۴ من سورة البقرة تحت عنوان: «توبة لم يسبق لها مثيل».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۱

و هكذا فإنّه توجّه أوّلا إلى قائد المجتمع ليرى هل كان فى عمله قصور أولا؟

و بعد ثبوت براءته توجّه إلى سبب الفساد، ثمّ إلى أنصار الفساد و مبتغيه!

۲- من هو السامرى؟

إنّ أصل لفظ (سامرى) فى اللغة العبرية (شمرى) و لمّا كان المعتاد أن يبدّل حرف الشين إلى السين عند تعريب الألفاظ العبرية كما فى تبديل «موشى» إلى «موسى»، و «يشوع» إلى «يسوع»، نفهم من ذلك أنّ السامرى كان منسوبا إلى «شمرون»، و شمرون هو ابن يشاكر النسل الرّابع ليعقوب.

و من هنا يتّضح أنّ اعتراض بعض المسيحيين على القرآن المجيد- بأنّ القرآن قد عرّف شخصا كان يعيش فى زمان موسى و أصبح زعيما و مروّجا لعبادة العجل باسم السامرى المنسوب إلى «السامرة»، فى حين أنّ السامرة لم يكن لها وجود أصلا فى ذلك الزمان- لا أساس له، لأنّه كما قلنا منسوب إلى شمرون لا السامرة[۴۰].

على كلّ حال، فإنّ السامرى كان رجلا أنانيا منحرفا و ذكيا فى الوقت نفسه، حيث استطاع أن يستغلّ نقاط ضعف بنى إسرائيل و أن يوجد- بجرأة و مهارة خاصّة- تلك الفتنة العظيمة التى سبّبت ميل الأغلبية الساحقة إلى عبادة الأصنام، و كذلك رأينا أيضا أنّه لاقى جزاء هذه الأنانيّة و الفتنة فى هذه الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۲

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۹۹ الى ۱۰۴]

اشارة

كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً (۹۹) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً (۱۰۰) خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا (۱۰۱) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً (۱۰۲) يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً

(۱۰۳)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً (۱۰۴)

التّفسير

أسوأ ما يحملون على عاتقهم!

مع أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث حول تاريخ موسى و بنى إسرائيل و الفراعنة و السامرى الملىء بالحوادث، و قد بيّنت فى أيّاتها بحوثا مختلفة، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامّة فيقول: كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ ثمّ يضيف وَ قَدْ آتَيْناكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً قرآنا مليئا بالدروس و العبر، و الأدلّة العقليّة، و أخبار الماضين و ما يتبّه المقبلين و يحذّرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۳

إنّ قسما مهمّا من القرآن المجيد يبيّن تاريخ و قصص الماضين، و ذكر كلّ هذه الوقائع التاريخيّة التى جرت على السابقين فى القرآن الذى هو كتاب يهتمّ بتربية الإنسان ليس أمرا اعتباطيّا عبثيّا، بل الغاية منه الاستفادة من الأبعاد المختلفة فى تأريخ هؤلاء، عوامل الإنتصار و الهزيمة، و الساعدة و الشقاء، و الاستفادة من التجارب الكثيرة المخفية فى طيّات تاريخ أولئك السابقين.

و بصورة عامّة، فإنّ من أكثر العلوم اطمئنانا و واقعيّة هى العلوم التجريبيّة التى تخضع للتجارب فى المختبر، و تظهر نتائجها الدقيقة. و التأريخ مختبر كبير لحياة البشر، و فى هذا المختبر سرّ شموخ الأمم و سقوطها، نجاحها و فشلها، سعادتها و تعاستها، فكلّها وضعت تحت التجربة و ظهرت نتائجها أمام أعيننا، و نحن نستطيع بالاستفادة من تلك التجارب أن نتعلّم قسما من معارفنا الأكثر اطمئنانا فى مجال أمور حياتنا.

و بتعبير آخر، فإنّ حاصل حياة الإنسان- من جهة- هو التجربة، و لا شىء غيرها، و التاريخ- إذا كان خاليا من كلّ أشكال التحريف- هو حاصل حياة آلاف السنين من عمر البشر جمعت فى مكان واحد فى متناول الباحثين و الدارسين.

و لهذا السبب يؤكّد أمير المؤمنين على عليه السّلام فى مواعظه الحكيمة لولده الإمام الحسن عليه السّلام على هذه النقطة بالذات، فيقول: «أى بنى، إنّى و إن لم أكن عمرت عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم، و فكّرت فى أخبارهم، و سرت فى آثارهم حتّى عدت كأحدهم، بل كأنّى بما أنتهى إليه من أمورهم قد عمّرت مع أوّلهم إلى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره، و نفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيله»[۴۱].

بناء على هذا، فإنّ التاريخ مرآة يعكس الماضى، و حلقة تربط الحاضر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۴

بالماضى، و يوسّع و يطيل من عمر الإنسان بمقداره.

التأريخ معلّم يحكى لنا عن سرّ و رمز عزّة الأمم و سقوطها، فيحذر الظالمين، و يجسّد المصير المشؤوم للظالمين السابقين الذين كانوا أشدّ منهم قوّة، و يبشّر رجال الحقّ و يدعوهم للاستقامة و الثبات، و يحمسهم و يحفّزهم على المضى فى مسيرهم.

التأريخ هو المشعل الذى يضىء مسير حياة البشر، و يفتح الطرق و يعبّدها لحركة الجيل الحاضر.

التأريخ مربّى الجيل الحاضر، و هم سيصنعون تأريخ الغدّ.

و الخلاصة، فإنّ التأريخ أحد أسباب الهداية الإلهية.

و لكن ينبغى الانتباه جيدا، فبمقدار ما يكون التأريخ الصحيح بنّاء ملهما مربّيا نجد أنّ التواريخ المزيّفة مدعاة للضلال و الانحراف، و

من هـذا المنطلق فإنّ مرضـى القلوب سـعوا دائما إلى تضـليل البشـر و صدّهم عن سبيل اللّه، بتحريف التأريخ، و ينبغى أن لا ننسـى أنّ التحريف فى التأريخ كثير[۴۲].

و يلزم بيان هذه الملاحظة أيضا، و هى أنّ كلمة (ذكر) هنا، و فى آيات كثيرة أخرى من آيات القرآن الكريم تشـير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر و تذكير البشر، و الوعى و الحذر.

و لهذا السـبب فإنّ الآية التالية تتحدّث عن الذين ينسون حقائق القرآن و دروس التأريخ و عبره، فتقول: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وِزْراً.

نعم ... إنّ الإعراض عن اللّه سبحانه يجرّ الإنسـان إلى مثـل هـذه المتاهـات التى تحمله أعبـاءا ثقيلـة من أنواع الـذنوب و الانحرافـات الفكريّة و العقائدية و كلمة (وزر) عادة تعنى بحدّ ذاتها الحمل الثقيل، و ذكرها نكرة يؤكّد تأكيدا أكبر على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۵

هذه المسألة.

ثمّ تضـيف: خالِدِينَ فِيهِ وَ ساءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ حِمْلًا و الملفت للنظر هنا أنّ ضـمير (فيه) فى هـذه الآية يعود إلى (الوزر) أى أنّ هؤلاء سيبقون دائما فى وزرهم و مسئوليتهم و حملهم الثقيل (و لا دليل لدينا كى نقدّر شـيئا هنا و نقول: إنّ هؤلاء سـيخلدون فى العذاب أو فى الجحيم) و هـذا بنفسه إشارة إلى مسألـة تجسّم الأعمال، و إنّ الإنسان يرى الجزاء الحسن أو العقاب فى القيامة طبقا لتلك الأعمال التى قام بها فى هذه الدنيا.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى وصف يوم القيامـة و بـدايته، فتقول: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً و كما أشـرنا سابقا، فإنّه يسـتفاد من آيات القرآن أنّ نهايـة هـذا العالم و بدايـة العالم الآخر سـتتمّان بحركتين عنيفتين فجائيتين، و عبّر عن كلّ منهما ب (نفخة الصور)، و سنبيّن ذلك فى سورة الزمر ذيل الآية ۶۸ إن شاء اللّه تعالى.

لفظـة «زرق» جمع «أزرق» تأتى عادة بمعنى زرقـة العين، إلّا أنّها تطلق أحيانا على القاتم جسـده بسـبب الشـدّة و الألم، فإنّ البـدن عند تحمّل الألم و التعب و العذاب يضعف، و يفقد طراوته، فيبدو قاتما و كأنّه أزرق.

و فسّـر بعضـهم هذه الكلمة بمعنى «العمى»، لأنّ الأشـخاص زرق العيون يعانون و يبتلون عادة بضعف شديد فى البصر، و ذلك يقترن عادة بكون كلّ شعر بدنهم أبيضا. إلّا أنّما ذكرناه آنفا من تفسير ربّما كان هو الأنسب.

فى هذه الحال يتحدّث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم و بقائهم فى عالم البرزخ، فبعضـهم يقول: لم تلبثوا إلّا عشـر ليال، أو عشرة أيّام بلياليها: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً[۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۶

لا شكّ أنّ مدّة توقّف هؤلاء كانت طويلة، إلّا أنّها تبدو قصـيرة جدّا فى مقابل عمر القيامة. و إنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب و الخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنّه نتيجة شدّة ضعفهم و عجزهم.

و احتمـل بعض المفسّـرين أن تكون هـذه الجملـة إشـارة إلى مكثهم فى الـدنيا، و الـذى يعـدّ أيّامـا قلائـل بالنسـبة للآـخرة و حوادثها المخفية.

ثمّ يضيف: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ سواء تكلّموا بهمس أم بصراخ، و بصوت خفى أم عال إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً.

و من المسـلّم به أنّه: لا العشـر مـدّة طويلـة، و لا اليوم كـذلك، إلّا أنّ هناك تفاوتا بينهما، و هو أنّ اليوم الواحد إشارة إلى أقل أعداد الآحاد، و العشـرة إشارة إلى أقلّ أعـداد العشـرات، و لذلك فإنّ الأوّل يشـير إلى مدّة أقل، و لذلك عبّر القرآن عمّن قال به ب أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً لأنّ قصـر عمر الـدنيا أو البرزخ فى مقابل عمر الآخرة، و كذلك كون كيفيتهما و حالهما لا شـىء أمام كيفيّة و حال الآخرة، و يكون أنسب مع أقل الأعداد. (فلاحظوا بدقّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۷

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۲]

اشارة

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً (۱۰۵) فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً (۱۰۶) لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً (۱۰۷) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ لَهُ وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً (۱۰۸) يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِىَ لَهُ قَوْلاً (۱۰۹)

يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً (۱۱۰) وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (۱۱۱) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً (۱۱۲)

التّفسير

مشهد القيامة المهول:

تتابع هذه الآيات الكلام فى الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا و بداية القيامة.

و يظهر من الآية الأولى أنّ الناس كانوا قد سألوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم عن مصير الجبال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۸

عند انتهاء الدنيا، و ربّما كان ذلك لأنّهم لم يكونوا يصدّقون إمكانية تصدّع و زوال هذه الجبال العظيمة التى امتدّت جذورها فى أعماق الأرض و شمخت رؤوسها إلى السّماء، و إذا كان بالإمكان قلعها من مكانها فأى هواء أو طوفان له مثل هذه القدرة، و لذلك يقول: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ و الجواب: فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً[۴۴].

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنّها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فى ترجف و تهتزّ أوّلا: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ ۴۵].

ثمّ تتحرّك: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً[۴۶].

و فى المرحلة الثّالثة تتلاشى و تتحوّل إلى كثبان من الرمل: وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا[۴۷].

و فى المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء و الطوفان من مكانها و يبعثرها فى الهواء و تبدو كالصوف المنفوش: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۴۸] ثمّ تقول الآية: إنّ اللّه سبحانه بعد تلاشى الجبال و تطاير ذرّاتها يأتى أمره إلى الأرض فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۴۹] لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً[۵۰] و فى ذلك الحين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۷۹

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۷۹

يدعو الداعى الإلهى جميع البشر إلى الحياة و الاجتماع فى المحشر للحساب فيلبّى الجميع دعوته و يتّبعونه يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ لَهُ

هل إنّ هذا الداعى (إسرافيل) أم ملك آخر من ملائكة اللّه المقرّبين؟ القرآن لم يشخّص و يحدّد ذلك بدقة، و كائنا من كان فإنّ

أمره نافذ لا يقدر أى أحد على التخلّف عنه.

و جملة «لا عوج» أ يمكن أن تكون وصفا لدعوة هذا الداعى، أو وصفا لاتّباع المدعوين، أو لكليهما. و ممّا يلفت النظر أنّه كما أنّ سطح الأرض يصبح صافيا و مستويا بحيث لا يبقى فيه أى اعوجاج، فإنّ أمر اللّه و الداعى أيضا كلّ منهما صاف و مستقيم جلى، و اتّباعه واضح لا سبيل لأى انحراف و اعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً»[۵۱]. إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو لهيمنة العظمة الإلهيّة على عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفا من الحساب و نتيجة الأعمال، أو لكليهما.

و بما أنّ بعض الغارقين فى الذنوب و المعاصى قد يحتمل أن تنالهم شفاعة الشافعين و تنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا و هذا إشارة إلى أنّ الشفاعة هناك ليست اعتباطية و عشوائية، بل إنّ هناك تخطيطا دقيقا لها، سواء ما يتعلّق بالشافعين أو المشفوع لهم، و ما دام الأفراد لا يملكون الأهلية و الاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

و الحقيقة هى أنّ جماعة ينظرون إلى الشفاعة بمنظار خاطئ، فهم يتصورون أنّها لا تختلف عن أساليب الدنيا و مراوغاتها، فى حين أنّ الشفاعة فى منطق الإسلام مرحلة تربوية متقدّمة، و عامل مساعد لهؤلاء الذين يطوون طريق الحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۰

بجدّ و سعى إلّا أنّهم يبتلون أحيانا بالنقائص و الزلّات، و لعلّ من الممكن أن يعلو غبار اليأس و القنوط قلوبهم نتيجة هذه الزلّات و الهفوات، هنا تأتى إليهم الشفاعة كقوّة محرّكة و تقول: لا تيأسوا، و استمروا فى طريقكم، و لا تكفوا أيديكم عن السعى و الاجتهاد فى هذا المسير، و إذا ما بدر منكم زلل و هفوات فإنّ هناك شفعاء سيشفعون لكم عند اللّه الرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شىء فيأذن لهم بالشفاعة.

أنّ الشفاعة ليست دعوة للتقاعس، أو الفرار من تحمّل المسؤولية، أو أنّها ضوء أخضر لارتكاب المعاصى، بل هى دعوة إلى الاستقامة فى طريق الحقّ، و اجتناب الذنوب قدر الإمكان.

و مع أنّنا قد أوردنا بحث الشفاعة بصورة مفصّلة فى ذيل الآية (۴۷- ۴۸) من سورة البقرة، و فى ذيل الآية (۲۵۵) من سورة البقرة، لكن لا بأس من أن نضيف هنا قصّة جميلة:

فقد روى العالم الرّبانى المرحوم «ياسرى»- أحد علماء طهران المحترمين- أنّ شاعرا يسمّى «حاجبا» كان قد ابتلى بأفكار العوام فى مسألة الشفاعة، فنظّم شعرا قال فيه:

يا حاجب إن كانت معاملتك مع على فى المحشر، فأنا ضامن لك النجاة و اعمل ما شئت من الذنوب.

فرأى أمير المؤمنين عليا عليه السّلام فى المنام، و كان مغضبا، و قال له: لم تحسن قول الشعر، فقال: فما ذا أقول؟ فقال: أصلح شعرك و قل: يا حاجب: إن كانت معاملتك مع على فى المحشر فاستح منه و قلّل من ذنوبك و معاصيك.

و لمّا كان حضور الناس فى عرصات القيامة للحساب و الجزاء لا بدّ معه من علم اللّه سبحانه بأعمالهم و سلوكهم و معاملاتهم، فإنّ الآية التالية تضيف: يَعْلَمُ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۱

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً[۵۲] فهو يعلم ما قدّم المجرمون و ما فعلوه فى الدنيا، و هو مطّلع على كلّ أفعالهم و أقوالهم و نيّاتهم فى الماضى و ما سيلاقونه من الجزء فى المستقبل، إلّا أنّهم لا يحيطون بعلم اللّه. و بهذا فإنّ إحاطة علم اللّه سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء و بجزائهم، و هذان الركنان فى الحقيقة هما دعامة القضاء التامّ العادل، و هو أن يكون القاضى عالما و مطّلعا تماما على الحوادث التى وقعت، و كذلك يعلم بحكمها و جزائها.

فى ذلك اليوم: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ

«العنت» من مادة العنوة، و قد وردت بمعنى الخضوع و الذلّة، و لذلك يقال للأسير: «عانى»، لأنّه خاضع و ذليل فى يد الأسر. و إذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنّ كلّ الإحساسات النفسية، و من جملتها الخضوع، تظهر آثارها أوّلا على وجه الإنسان.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ الوجوه هنا تعنى الرؤساء و الزعماء و أولياء الأمور الذين يقفون فى ذلك اليوم أذلّاء خاضعين للّه. إلّا أنّ التّفسير الأوّل أقرب و أنسب.

إنّ انتخاب صفتى «الحى و القيّوم» هنا من بين صفات اللّه سبحانه، لأنّهما يناسبان النشور أو الحياة و قيام الناس جميعا من قبورهم «يوم القيامة».

و تختتم الآية بالقول: وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً فالظلم و الجور كالحمل العظيم الذى يثقل كاهل الإنسان، و يمنعه من السير و الرقى إلى نعم اللّه الخالدة، و إنّ الظالمين- سواء منهم من ظلم نفسه أو ظلم الآخرين- لما يرون بأعينهم فى ذلك اليوم خفيفى الأحمال يهرعون إلى الجنّة، و هم قد جثوا حول جهنّم ينظرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۲

إلى أهل الجنّة يتملّكهم اليأس و الخيبة و الحسرة.

و لمّا كانت طريقة القرآن غالبا هى بيان تطبيقى للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين فى ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَ لا هَضْماً[۵۳].

التعبير ب مِنَ الصَّالِحاتِ إشارة إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كلّ الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدّة أيّام لكنّها تجفّ آخر الأمر، و لذلك ورد قيد وَ هُوَ مُؤْمِنٌ بعد ذكر العمل الصالح فى الآية.

قاعدة: لا يمكن أن يوجد العمل الصالح بدون إيمان، و لو قام بعض الأفراد غير المؤمنين- أحيانا- بأعمال صالحة، فلا شكّ أنّها ستكون ضئيلة و محدودة و استثنائية، و بتعبير آخر: فإنّ العمل الصالح من أجل أن يستمر و يتأصّل و يتعمّق يجب أن يروى من عقيدة سالمة و إعتقاد صحيح.

بحثان

۱- الفرق بين الظلم و الهضم

قرأنا فى الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث أنّ المؤمنين الصالحين لا يخافون ظلما و لا هضما، و قال بعض المفسّرين: إنّ «الظلم» إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يخافون مطلقا من أن يظلموا فى تلك المحكمة العادلة و يؤاخذوا على ذنوب لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۳

يرتكبوها و «الهضم» إشارة إلى أنّهم لا يخافون- أيضا- نقصان ثوابهم، لأنّهم يعلمون أنّ ما يستحقّونه من الثواب يصل إليهم دون زيادة أو نقصان.

و احتمل بعضهم أنّ الأوّل يعنى أنّهم لا يخافون من محو حسناتهم، و الثّانى إشارة إلى أنّهم لا يخافون نقصان حتّى مقدار قليل منها، لأنّ الحساب الإلهى دقيق جدّا.

و يحتمل أيضا أنّ للمؤمنين الصالحين زلّات و هفوات أيضا، و أنّ الكاتبين لا يكتبون أكثر ممّا صدر منهم، و لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم الصالحة.

إنّ التفاسير المتقدّمة لا تتقاط فيما بينها، و يمكن أن تكون الجملة آنفة الذكر إشارة إلى كلّ هذه المعانى أيضا.

۲- مراحل القيامة

وردت الإشارة فى الآيات- محلّ البحث- إلى سلسلة من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة و بعدها:

۱- رجوع الأموات إلى الحياة: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ.

۲- جميع المجرمين و حشرهم: نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ

۳- تلاشى جبال الأرض، ثمّ تبعثرها فى كلّ مكان، و استواء سطح الأرض تماما: يَنْسِفُها رَبِّي نَسْفاً.

۴- استماع الجميع لدعوة داعى اللّه، و انقطاع جميع الأصوات: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ....

۵- عدم تأثير الشفاعة فى ذلك اليوم بدون إذن اللّه: يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ ....

۶- إعداد اللّه تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى يَعْلَمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۴

ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ....

۷- خضوع الجميع فى مقابل حكمه: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ....

۸- يأس الظالمين: وَ قَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً.

۹- رجاء المؤمنين لطف اللّه و رحمته: وَ مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۵

الآيتان [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۳ الى ۱۱۴]

اشارة

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً (۱۱۳) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً (۱۱۴)

التّفسير

قل: رَبِّ زِدْنِي عِلْماً الآيات محلّ البحث- فى الواقع- إشارة إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة و الوعد و الوعيد، فتقول:

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا وَ صَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً.

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التى بيّنت قبل هذه الآية، و هذا يشبه تماما أن يذكر إنسان لآخر أمورا من شأنها التوعية و العبرة، ثمّ يضيف: هكذا ينبغى التذكير و الوعظ، و على هذا فلا حاجة إلى التفاسير التى ذكرت و البعيدة هنا عن معنى الآية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۶

كلمة «عربى» و إن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّا أنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن و بلاغته و سرعة إيصاله للمفهوم و المراد من جهتين:

الأولى: إنّ اللغة العربية- بشهادة علماء اللغة فى العالم- واحدة من أبلغ لغات العالم، و أدبها من أقوى الآداب.

و الثّانية: إنّ جملة (صرفنا) أحيانا تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثة واحدة، فمثلا نراه يبيّن مسألة الوعيد و عقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الأمم السابقة و حوادثها تارة، و تارة أخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، و ثالثة بتجسيد حالهم فى مشهد القيامة، و هكذا.

إنّ اختلاف جملة لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ مع جملة يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً قد يكون من جهة أنّ الجملة الأولى تقول: إنّ الهدف هو إيجاد و غرس التقوى بصورة كاملة.

و فى الجملة الثّانية: إنّ الهدف هو أنّ التقوى و إن لم تحصل كاملة، فليحصل على الأقل الوعى و العلم فعلا، ثمّ تكون فى المستقبل مصدرا و ينبوعا للحركة نحو الكمال.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة الأولى إشارة إلى إيجاد و تحقيق التقوى بالنسبة لغير المتّقين، و الثّانية إلى التذكّر و التذكير بالنسبة للمتقين، كما نقرأ فى الآية (۲) من سورة الأنفال: إِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زادَتْهُمْ إِيماناً.

فى الآية آنفة الذكر إشارة إلى أصلين مهمّين من أصول التعليم و التربية المؤثّرة:

أحدهما: مسألة الصراحة فى البيان، و كون العبارات بليغة واضحة تستقرّ فى القلب.

و الآخر: بيان المطالب بأساليب متنوعة، لئلّا تكون سببا للتكرار و الملل، و لتنفذ إلى القلوب.

أمّا الآية التّالية فتضيف قائلة: فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُ و من المحتمل أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۷

يكون ذكر كلمة «الحقّ» بعد كلمة «الملك»، هو أنّ الناس ينظرون إلى الملك بمنظار سيء و تتداعى فى أذهانهم صور الظلم و الطغيان و الجور و الاستعلاء و التجبّر التى تكون فى الملوك غالبا، و لذا فإنّ الآية تصف اللّه الملك سبحانه مباشرة ب «الحقّ».

و بما أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كان يعجّل فى إبلاغ الوحى و ما ينزل به من القرآن لاهتمامه به و تعشّقه أن يحفظه المسلمون و يستظهروه، و لم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحى فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكّره بأنّ يتمهّل فتقول: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً.

و يستشفّ من بعض آيات القرآن الأخرى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كانت تنتابه حالة نفسيّة خاصّة من الشوق عند نزول الوحى، فكانت سببا فى تعجّله كما فى قوله تعالى: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۵۴].

بحثان

۱- لا تعجل حتّى فى تلقّى الوحى!

لقد تضمّنت الآيات الأخيرة دروسا تعليميّة، و من جملتها النهى عن العجلة عند تلقّى الوحى، و كثيرا ما لوحظ بعض المستمعين يقفون كلام المتحدّث أو يكملونه قبل أن يتمّه هو، و هذا الأمر ناشئ عن قلّة الصبر أحيانا، أو ناشئ عن الغرور و إثبات وجود أيضا، و قد يكون العشق و التعلّق الشديدة بشيء يدفع الإنسان- أحيانا- إلى هذا العمل، و فى هذه الحالة ينبعث عن حافر مقدّس، غير أنّ هذا الفعل نفسه- أى العجلة- قد يحدث مشاكل أحيانا، و لذلك فقد نهت الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۸

آنفة الذكر عن العجلة حتّى و لو كان المراد أو الهدف من هذا الفعل صحيحا، و أساسا لا تخلو الأعمال التى تنجز باستعجال من

العيب و النقص غالبا. و من المسلّم به أنّ فعل النّبى لمّا كان عليه من مقام العصمة- كان مصونا من الخطأ، إلّا أنّه ينبغى عليه أن يكون فى كلّ شىء مثلا- و قدوة للناس، ليفهم الناس أنّه إذا كان الاستعجال فى تلقّى الوحى غير محبّذ، فلا ينبغى الاستعجال فى الأمور الأخرى من باب أولى أيضا.

و لا ينبغى أن نخلط بين السرعة و العجلة طبعا- فالسرعة تعنى أنّ الخطّة قد نظمت بدقّة كاملة، و حسبت جميع مسائلها، ثمّ تجرى بنودها بدون فوات وقت.

أمّا العجلة فتعنى أنّ الخطّة لم تنضج تماما بعد، و تحتاج إلى تحقيق و تدقيق، و على هذا فإنّ السرعة مطلوبة، و العجلة أمر غير مطلوب.

و قد ذكرت احتمالات أخرى فى تفسير هذه الجملة، و منها أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كان لا يطيق تأخّر الوحى، فعلّمته الآية أن يتمهّل فإنّ اللّه ينزل عليه وحيه عند الاقتضاء و الحاجة إليه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ آيات القرآن نزلت على قلب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فى ليلة القدر دفعة واحدة، و نزلت مرّة أخرى بصورة تدريجيّة على مدى (۲۳) سنة، و لذلك فإنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم كان يسبق جبرئيل عند النّزول التدريجى للآيات، فأمره القرآن أن لا تعجل فى هذا الأمر، ودع الآيات تنزل نزولا تدريجيّا كلّ فى موقعها و زمانها.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

۲- أطلب المزيد من العلم

لمّا كان النهى عن العجلة عند تلقّى الوحى موهما النهى عن الاستزادة فى طلب العلم، فقد عقّبت الآية بعد ذلك بالقول مباشرة: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً لتقف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۸۹

أما هذا التصوّر الخاطئ، أى أنّ العجلة ليست صحيحة، لكن من الضرورى الجدّ و السعى من أجل الارتواء من منهل العلم! و قال بعض المفسّرين: إنّ الجملة الأولى أمرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم ألّا يعجل فى فهم كلّ جوانب الآيات قبل تبيينها فى الآيات الاخرى، و فى الجملة الثّانية صدر الأمر بأن يطلب من اللّه سبحانه علما أكثر فيما يتعلّق بأبعاد آيات القرآن المختلفة.

و على كلّ حال، فإذا كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم مأمورا أن يطلب زيادة العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، و روحه المليئة و عيا و علما، فإنّ واجب الآخرين واضح جدّا، و فى الحقيقة، فإنّ العلم من وجهة نظر الإسلام لا يعرف حدّا، و زيادة الطلب فى كثير من الأمور مذمومة إلّا فى طلب العلم فانّها ممدوحة، و الإفراط قبيح فى كلّ شىء إلّا فى طلب العلم.

فالعلم ليس له حدّ مكانى، فيجب الاجتهاد لتحصيله و لو كان فى الصين أو الثريا، و ليس له حدّ زمانى فهو يستمرّ من المهد إلى اللحد.

و لا- يعرف حدّا من جهة المعلّم، فإنّ الحكمة ضالّة المؤمن أينما وجدها أخذها، و إذا ما سقطت جوهرة من فم ملوّث فاسق فإنّه يلتقطها.

و لا حدّ فى الإسلام لمقدار السعى و الاجتهاد، فهو يغوص فى أعماق البحر ليكتسب العلم، و قد يضحّى بروحه فى طريق تحصيل العلم. و على هذا فإنّ كلمة (خرّيج) أو (أنهى دراسته) لا معنى لها فى منطق الإسلام، فإنّ المسلم الحقيقى لا يعرف نهاية فى تحصيله للعلوم، فهو دائما طالب جامعى، و طالب علم، حتّى لو أصبح أكثر الأساتذة تفوّقا و أفضلهم.

الطريف أنّنا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: «إنّ لنا فى كلّ جمعة سرورا» قال: قلت: و ما ذاك؟ قال: «إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم العرش، و وافى الأئمّة عليهم السّلام و وافينا معهم، فلا ترد أرواحنا بأبداننا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۰

إلّا بعلم مستفاد، و لو لا ذلك لأنفذنا»[۵۵].

و قد ورد هذا المضمون فى روايات عديدة بعبارات، مختلفة، و هو يوضّح أنّ النّبى و الأئمّة يضاف و يزاد على علمهم إلى نهاية العالم: و نقرأ

فى رواية أخرى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى اللّه فلا بارك اللّه لى فى طلوع شمسه»[۵۶].

و كذلك نقرأ

فى حديث آخر عنه صلى اللّه عليه و آله و سلم: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، و أكثر الناس قيمة أكثرهم علما، و أقلّ الناس قيمة أقلّهم علما»[۵۷].

و هذا هو قدر العلم و قيمته فى منظار التعليمات الإسلامية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۱

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۱۵ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (۱۱۵) وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى (۱۱۶) فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى (۱۱۷) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى (۱۱۸) وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى (۱۱۹)

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى (۱۲۰) فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى (۱۲۱) ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى (۱۲۲)

التّفسير

آدم و مكر الشّيطان:

كان القسم الأهمّ من هذه السورة فى بيان قصّة موسى عليه السّلام و بنى إسرائيل، و المواجهة بينهم و بين فرعون و أنصاره، إلّا أنّ هذه الآيات و ما بعدها تتحدّث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۲

قصّة آدم و حواء، و عداء و محاربة إبليس لهما. و ربّما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحقّ و الباطل لا ينحصر بأمس و اليوم، و موسى عليه السّلام و فرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم و سيستمر كذلك.

و بالرغم من أنّ قصّة آدم و إبليس قد وردت مرارا فى القرآن، إلّا أنّها تمتزج فى كلّ مورد بملاحظات و مسائل جديدة، و هنا تتحدّث أوّلا عن عهد اللّه إلى آدم فتقول: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً.

هناك عدّة آراء فى ماهيّة العهد المذكور، فقال البعض: إنّه أمر اللّه بعدم الاقتراب من الشجرة الممنوعة، و هناك روايات متعدّدة تؤيّد هذا المعنى. فى حين أنّ بعض المفسّرين احتملوا احتمالات أخرى يمكن اعتبارها بمثابة الأغصان و الأوراق لهذا المعنى، كإخطار اللّه لآدم بأنّ الشيطان عدوّ مبين له، و يجب أن لا يتبعه.

و أمّا «النسيان» هنا فمن المسلم أنّه ليس بالمعنى المطلق، لأنّه لا معنى للعتاب و الملامة فى النسيان المطلق، بل إنّه إمّا بمعنى الترك كما نستعمل ذلك فى مكالماتنا اليوميّة، فقد نقول لمن لم يف بعهده: أنسيت عهدك؟ أى إنّك كالناسى. أو أنّه بمعنى النسيان الذى يطرأ نتيجة قلّة الانتباه و شرود الذهن.

و المراد من «العزم» هنا هو التصميم و الإرادة القويّة الصلبة التى تحفظ الإنسان من الوقوع تحت تأثير وساوس الشيطان القويّة.

و على كلّ حال، فلا شكّ أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى، أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم فى الجنّة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبيّة للاستعداد للحياة فى هذه الدنيا و تقبل المسؤولية، خاصة و إن نهى اللّه هنا كان نهيا إرشاديا، لأنّه قد أخبره بأنّه إن أكل من الشجرة الممنوعة فسيبتلى بالشقاء. و قد أوردنا تفصيل كلّ ذلك، و كذلك المراد من الشجرة الممنوعة و أمثال ذلك فى ذيل الآيات ۱۹- ۲۲ من سورة الأعراف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۳

ثمّ أشارت إلى جانب آخر من هذه القصّة، فقالت: وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبى و من هنا يتّضح مقام آدم العظيم، آدم الذى سجدت له الملائكة، و أبدت هذه المخلوقات العظيمة احترامها إيّاه. كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمنا من أوّل الأمر إذ لم يخضع لآدم و لم يعظمه.

لا شكّ أنّ السجدة لا تعنى السجدة الخاصّة بعبادة اللّه، و لا أحد أو موجود يستحقّ أن يكون معبودا من دون اللّه سبحانه، و بناء على هذا فإنّ هذه السجدة كانت للّه، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. أو أنّ السجدة هنا تعنى الخضوع و التواضع.

على كلّ حال، فإنّ اللّه سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله فَقُلْنا يا آدَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقى

من الواضح أنّ الجنّة هنا لا يراد منها جنّة الخلود فى العالم الآخر، و التى هى نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستانا فيه كلّ شىء ممّا فى بساتين هذه الدنيا، و لم يكن فيها نصب و لا غصّة بلطف اللّه، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أنذر آدم بأنّك إن خرجت من هذا النعيم فإنّك ستشقى. و كلمة «تشقى» من مادّة الشقاء، و أحد معانيها الألم و المشقّة.

سؤال: لماذا خاطب اللّه الإثنين معا- أى آدم و حواء- فى بداية الأمر فقال:

فَلا يُخْرِجَنَّكُما إلّا أنّه ذكر نتيجة الخروج بصيغة المفرد فى شأن آدم فقط فقال:

فَتَشْقى

و الجواب هو: إنّ هذا الاختلاف فى التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ الآلام و الأتعاب كانت تصيب آدم فى الدرجة الأولى، فإنّه كان مأمورا بتحمّل مسئوليات زوجته أيضا، و هكذا كانت مسئولية الرجال من بداية الأمر. أو أنّ العهد لما كان من البداية على عاتق آدم، فإنّ النهاية أيضا ترتبط به.

ثمّ يبيّن اللّه لآدم راحة الجنّة و هدوأها، و ألم و مشقّة الخروج منها، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۴

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى

و هنا سؤال يوجّه للمفسّرين، و هو: لماذا اقترن ذكر الظمأ بضحى الشمس، و الجوع بالعرى، فى حين أنّ المعتاد ذكر العطش مع الجوع؟

قيل فى الجواب: إنّ بين العطش و أشعّة الشمس علاقة لا يمكن إنكارها.

(«تضحى» من مادّة «ضحى» أى إشراق الشمس من دون أن يحجبها حاجب من سحاب و أمثاله).

و أمّا الجمع بين الجوع و العرى فقد يكون بسبب أنّ الجوع نوع من عراء الجوف و خلوّه من الغذاء! و الأفضل أن يقال: إنّ هذين الوصفين- الجوع و العرى- علامتان واضحتان للفقر تأتيان معا عادة.

و على كلّ حال، فقد أشير فى هاتين الآيتين إلى أربع احتياجات أصلية و ابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، و الماء، و اللباس- للحماية من حرارة الشمس- و المسكن، و كان تأمين هذه الحاجات نتيجة توفّر النعمة، و ذكر هذه الأمور فى الواقع توضيح لما جاء فى جملة «فتشقى».

لكن، و مع كلّ ذلك، فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، و لهذا لم يهدأ له بال: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطانُ قالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لا يَبْلى

«الوسوسة» فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جدّا، ثمّ قيلت لخطور الأفكار السافلة و الخواطر السيّئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجة.

إنّ الشيطان تتبّع رغبة آدم و أنّها فى أى شىء، فوجد أنّ رغبته فى الحياة الخالدة و الوصول إلى القدرة الأزليّة، و لذلك جاء إليه عن هذين العاملين و استغلّهما فى سبيل جرّه إلى مخالفة أمر اللّه. و بتعبير آخر: فكما أنّ اللّه قد وعد آدم بأنّك إن تجنّبت الشيطان و خالفته فستحظى بالتنّعم فى الجنّة دائما، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۵

الشيطان قد وسوس إليه عن هذا الطريق «أى أنّه سيخلد فى الجنّة أيضا».

أجل ... إنّ الشياطين يبدؤون دائما فى بادية خططهم من نفس النقاط و الطرق التى يبدأ منها المرشدون إلى طريق الحقّ، لكن لا تمرّ الأيّام حتّى يجروهم إلى هاوية الانحراف، و يجعلون جاذبية طريق الحقّ وسيلة للوصول إلى المتاهات.

و أخيرا وقع المحذور، و أكل آدم و حواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنّة، فبدت أعضاؤهما: فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما[۵۸] فلمّا رأى آدم و حواء ذلك استحييا وَ طَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ[۵۹]. نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة وَ عَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى

«غوى» أخذت من مادّة الغى، أى العمل الصبيانى الناشئ من إعتقاد خاطئ، و لمّا كان آدم هنا قد أكل- جهلا و اشتباها- من الشجرة المحرّمة، نتيجة للظنّ الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عبّر عن عمله ب (غوى).

و فسّره بعض المفسّرين بأنّه الجهل الناشئ عن الغفلة، و البعض فسّرها بالمحرومين، و البعض الآخر بالفساد فى الحياة.

و على كلّ حال فإنّ «الغى» يقابل «الرشد»، و الرشد هو أن يسلك الإنسان طريقا يوصله إلى هدفه و مقصده، أمّا الغى فهو عدم الوصول إلى المقصود.

و لكن لمّا كان آدم نقيّا و مؤمنا فى ذاته، و كان يسير فى طريق رضى اللّه سبحانه، و كان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ اللّه سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۶

هل ارتكب آدم معصية؟

مع أنّ العصيان يأتى فى عرف اليوم- عادة- بمعنى الذنب و المعصية، إلّا أنّه فى اللغة يعنى الخروج عن الطاعة و عدم تنفيذ الأمر سواء

كان الأمر واجبا أو مستحبّا، و بناء على هذا فإنّ استعمال كلمة العصيان لا يعنى بالضرورة ترك واجب أو ارتكاب محرّم، بل يمكن أن يكون ترك أمر مستحبّ أو ارتكاب مكروه.

إضافة لما مرّ، فإنّ الأمر و النهى يكون إرشاديا، كأمر و نهى الطبيب حيث يأمر المريض أن يتناول الدواء الفلانى، و أن يجتنب الغذاء الفلانى غير المناسب، و لا شكّ أنّ المريض إذا خالف أمر الطبيب فإنّه لا يضرّ إلّا نفسه، لأنّه لم يعبأ بإرشاد الطبيب و نصيحته. و كذلك كان اللّه قد أمر آدم أن لا تأكل من ثمرة الشجرة الممنوعة، فإنّك إن أكلت ستخرج من الجنّة، و ستبتلى بالألم و المشقّة الكبيرة فى الأرض، فخالف هذا الأمر الإرشادى، و رأى نتيجة مخالفته أيضا. و إذا لا حظنا أنّ هذا الكلام كان فى مرحلة وجود آدم فى الجنّة، و هى مرحلة اختبار لا تكليف، فسيتّضح معناه بصورة أجلى.

و إضافة لما مرّ، فإنّ العصيان أو الذنب يكون أحيانا متّصفا بالإطلاق، أى إنّه يعدّ ذنبا من قبل مرتكبيه جميعا و بدون استثناء كالكذب و الظلم و أكل المال الحرام، و يكون أحيانا نسبيّا، أى العمل الذى إن بدر من شخص ما فقد لا يكون ذنبا، بل قد يعتبر أحيانا عملا مطلوبا و لائقا لصدوره من مثله، أمّا إذا صدر من آخر فإنّه لا يناسبه نظرا إلى مكانته و منزلته.

فمثلا: تطلب المساعدة من قبل بعض الناس لبناء مستشفى، فيعطى العامل أجرة يوم من عمله و التى لا تتجاوز أحيانا أكثر من عدّة دراهم. إنّ هذا الفعل الصادر من مثل هذا الشخص يعدّ إيثارا و حسنة و هو مطلوب تماما، أمّا إذا أعطى رجل ثرى هذا المقدار من المال مثلا فإنّه لا يناسبه و لا يليق به فحسب، بل سيكون موضع ملامة و مذمّة و تعنيف مع أنّه أساسا لم يرتكب حراما، بل ساهم و لو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۷

بمقدار يسير فى عمل الخير و البرّ.

إنّ هذا هو ما نعبّر عنه ب (حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين) و هو المعروف بترك الأولى، و نحن نعبر عنه بالذنب النسبى الذى لا يعدّ ذنبا، و لا يخالف مقام العصمة.

و فى الأحاديث الإسلامية أيضا أطلقت المعصية على مخالفة المستحبّات، فنرى

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال فى النوافل اليوميّة: «و إنّما هذا كلّه تطوّع و ليس بمفروض ... و لكنّها معصية، لأنّه يستحبّ إذا عمل الرجل عملا من الخير أن يدوم عليه»[۶۰].

و قد بحثنا هذا الموضوع و سائر المسائل المرتبطة بآدم و خروجه من الجنّة فى سورة الأعراف ذيل الآية ۱۹ و ما بعدها، و فى سورة البقرة ذيل الآية ۳۰- ۳۸، و لا حاجة إلى التكرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۸

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۳ الى ۱۲۷]

اشارة

قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُداىَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى (۱۲۳) وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى (۱۲۴) قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً (۱۲۵) قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى (۱۲۶) وَ كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى (۱۲۷)

التّفسير

المعيشة الضنكا:

مع أنّ توبـة آدم قـد قبلت، إلّا أنّ عمله أدّى إلى عـدم اسـتطاعته الرجوع إلى الحالـة الأولى، و لـذا فإنّ اللّه سـبحانه أصدر أمره لآدم و حواء كليهما و كذلك الشيطان أن يهبطوا جميعا من الجنّة: قالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

إلّا أنّى أعلمكم بأنّ طريق النجاة و السعادة مفتوح أمامكم فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۹۹

فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَ لا يَشْقى

و من أجل أن يتّضح أيضا مصير الذين ينسون أمر الحقّ، فقد أضاف تعالى وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى

هنا قالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِى أَعْمى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟ فيسمع الجواب مباشرة:

قالَ كَذلِكَ أَتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وَ كَذلِكَ الْيَوْمَ تُنْسى و تعمى عينك عن رؤية نعم اللّه و مقام قربه.

أمّا الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث فهى بمثابة الاستنتاج و الخلاصة إذ تقول: وَ كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآياتِ رَبِّهِ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقى

بحوث

۱- الغفلة عن ذكر الحقّ و آثارها

قـد توصـد أحيانا كلّ أبواب الحياة بوجه الإنسان، فكلّما أقـدم على عمل يجـد الأبواب المغلقة، و قد تنعكس الصورة فأينما اتّجه يرى الأبواب مفتّحـة فى وجهه، و قـد تهيأت له مقدّمات العمل، و لا يواجه عقبات فى طريقه، فيعبّر عن هذه الحالة بسـعة العيش و رغده، و عن الأولى بضيق المعيشة و شظفها، و المراد من قوله تعالى:

مَعِيشَةً ضَنْكاً[۶۱] الوارد فى الآيات محلّ البحث هو هذا المعنى أيضا.

و قد يكون ضـيق العيش ناتجا أحيانا من قلّة المورد، و قد يكون المرء كثير المال موفور الثراء. إلّا أنّ البخل و الحرص و الطمع يضـيق عليه معاشه، فلا يميل إلى فتح باب داره للآخرين لمشاركته نعيمه، بل و لا يميل إلى الإنفاق على نفسه أيضا، و على

قول الإمام على عليه السّلام: «يعيش عيش الفقراء و يحاسب حساب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۰

الأغنياء».

حقّا، لماذا يبتلى الإنسان بهذه الضائقات؟

القرآن يقول: إنّ العامل الأساس هو الإعراض عن ذكر اللّه، فإنّ ذكر اللّه يبعث على اطمئنان الروح و التقوى و الشهامة، و نسيانه مبعث الاضطراب و الخوف و القلق.

عند ما ينسـى الإنسان مسـئولياته بعد أن ينسـى ذكر اللّه، فإنّه سيغرق فى خضمّ الشهوات و الحرص و الطمع، و من الوضوح بمكان أنّ نصيبه سيكون المعيشة الضنك، فلا قناعة تملأ عينه، و لا اهتمام بالمعنويات تغنى روحه، و لا أخلاق تمنعه أمام طغيان الشهوات.

و أساسـا فـانّ ضـيق الحيـاة ينشأ فى الغالب من النقائص المعنويـة و انعـدام الغنى الروحى ... ينشأ من عـدم الاطمئنان إلى المسـتقبل، و

الخوف من نفاد الإمكانيات الموجودة، و العلاقة المفرطة بعالم المادّة، بينما نجد أنّ الإنسان الذى يؤمن باللّه، و تعلّق قلبه بذاته المقدّسة، يعيش بعيدا عن كلّ هذه الاضطرابات، و فى مأمن منها.

إلى هنا كان الكلام عن الفرد، و عند ما نأتى إلى المجتمعات التى أعرضت عن ذكر اللّه، فإنّ المسألة ستكون أشدّ رعبا و خطرا، فإنّ المجتمعات البشرية على رغم تقدّمها الصناعى المذهل، و بالرغم من توفّر كلّ وسائل الحياة، فهى تعيش فى حالة اضطراب و قلق شديد، و مبتلاة بضائقات عجيبة و ترى نفسها سجينة.

فكلّ فرد يخاف من الآخرين، و لا يعتمد أحد على الآخر، و الروابط و العلاقات تتمحور حول محور المصالح الشخصيّة، و سبّاق التسلح- نتيجة الخوف من الحرب- يلتهم و يستهلك أغلب إمكانياتهم الاقتصادية.

السجون مليئة بالمجرمين، و تقع فى كلّ ساعة و دقيقة- و طبقا للإحصاءات الرسميّة- حوادث قتل و جرائم مرعبة ... التلوّث بالفحشاء، و الإدمان على المواد المخدّرة قد استعبد هؤلاء، و لا يوجد فى عوائلهم نسمة حبّ، و لا ارتباط عاطفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۱

يبعث على النشاط ... أجل هذه هى حياتهم القاسية، و معيشتهم الضنك.

لقد اعترف ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية- بلد الشيطان الأكبر- بهذا الواقع فى خطابه الرئاسى الأوّل إذ قال: (إنّنا نرى حولنا دائما حياة جوفاء، و نحن نأمل أن نرضى، و لكنّنا لا نرضى)! رجل آخر من رجال المعروفين كانت مهمّته إيجاد السرور و الفرح فى المجتمع، يقول: إنّى أرى الإنسانية تعدو فى زقاق مظلم لا شىء فى نهايته إلّا القلق المطلق.

و من الطريف أن نقرأ

فى الرّوايات الإسلامية أنّه سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن المراد من الآية: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً؟ قال: «يعنى [الإعراض عن ولاية أمير المؤمنين»[۶۲].

أجل ... فإنّ الذى يستلهم العبرة من حياة على عليه السّلام، ذلك الرجل العظيم الذى كانت الدنيا فى نظره لا تساوى عفطة عنز، و الذى انقطع إلى اللّه حتّى صغرت الدنيا فى عينه إلى هذا الحدّ، فمن يكن كذلك فستكون حياته فى سعة و رفاه، أمّا أولئك الذين ينسون المثل و القدوة فإنّهم فى ضنك العيش فى كلّ الأحوال.

و قد فسّر الإعراض عن ذكر اللّه- فى الآية- بترك الحجّ من قبل القادرين عليه، و ذلك لأنّ مراسم الحج تهزّ الإنسان، و توجد ارتباطا و علاقة جديدة بين الإنسان و ربّه بحيث يكون هذا الارتباط هو مفتاح حياته، فى حين أنّ عكس هذا الأمر يؤدّى إلى الارتباط الشديد بالماديات التى هى أساس المعيشة الضنكا.

۲- عمى البصر و عمى البصيرة!

لقد حدّدت عقوبتان لأولئك الذين يعرضون عن ذكر اللّه: إحداهما: المعيشة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۲

الضنك فى هذه الدنيا، و التى أشير إليها فى الملاحظة السابقة، و الأخرى: العمى فى الآخرة.

و قلنا مرارا: إنّ عالم الآخرة هو تجسّم أوسع لعالم الدنيا، و كلّ حقائق هذا العالم تتجسّد هناك بما يناسبها هنا، فأولئك الذين عميت بصيرتهم عن مشاهدة الحقائق فى هذه الدنيا، ستعمى هناك عيون أجسامهم، و لذلك فإنّهم حين يتساءلون بأنّا كنّا قبل هذا صحيحى البصر، فلما ذا حشرنا عميا؟ يقال لهم: لأنّكم قد نسيتم آيات اللّه، و هذه الحالة انعكاس لتلك الحالة.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: إنّ ظاهر بعض الآيات القرآنية هو أنّ كلّ الناس يبصرون فى يوم القيامة، و يقال لهم: اقرؤوا صحيفة

أعمالكم اقْرَأْ كِتابَكَ ...[۶۳]، أو أنّ المجرمين يرون نـار جهنّم بـأعينهم: وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ...[۶۴]، فكيف تناسب هذه التعبيرات كون جماعة عميا؟

قـال بعض المفسّـرين إنّ حال ذلك العالم تختلف عن حال هـذا العالم، فربّما كان بعض الأفراد مبصـرين فى مشاهـدة بعض الأمور، و عميانا عن مشاهـدة البعض الآخر، و على ما ينقل العلّامـة الطبرسـى عن بعض المفسّـرين: إنّه أعمى عن جهات الخير لا يهتـدى لشـىء منها، لأنّ نظام ذلك العالم يختلف عن نظام هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن يكون هؤلاء فى بعض المنازل و المواقف عميا، و فى بعضها مبصرين.

ثمّ إنّ المراد من نسـيان المجرمين فى العـالم الآـخر ليس هو نسـيان اللّه سـبحانه لهم، بـل من الواضـح أنّ المراد معاملـة هؤلاـء معاملة الناسى، كما نستعمل ذلك فى محاوراتنا اليوميّة، فإذا لم يهتمّ شخص بآخر، فإنّ الثّانى يقول له: لماذا نسيتنى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۳

۳- الإسراف فى المعصية

ممّا يلفت النظر أنّه قد ذكرت فى الآيات- محلّ البحث- هذه العقوبات المؤلمة للأفراد الذين يسرفون و لا يؤمنون بآيات اللّه.

إنّ التعبير ب «الإسـراف» هنـا قـد يكون إشـارة إلى أنّهم قـد اسـتعملوا تلك النعم و العطايا الإلهيّـة، كالعين و الاذن و العقل، فى طرق الشّر، و ليس الإسراف إلّا أن يتلف الإنسان هذه النعم من غير هدف.

أو أن يكون إشارة إلى أنّ المذنبين قسـمان: قسم لهم ذنوب محدودة، و فى قلوبهم خوف اللّه، أى أنّهم لم يقطعوا ارتباطهم و صلتهم باللّه تماما، فإذا ما ظلموا- على سبيل الفرض- يتيما أو ضريرا فإنّهم لا يستبيحون ذلك العمل، بل يعدّون أنفسهم مقصّرين أمام اللّه. و لاـ شكّ أنّ مثل هـذا الفرد عاص يسـتحقّ العقاب، إلّا أنّ بينه و بين من يقترف الـذنوب بلا حساب- و لا يعتبر ذلك ذنبا، و لا يعترف بمعيار للـذنب و عـدمه، بل و يفتخر أحيانا بارتكابه المعاصـى، أو يحتقر الـذنب و يستصـغره- فرقا شاسـعا، لأنّ القسم الأوّل يمكن أن يتوبوا فى النهاية و يجبروا ما صدر عنهم من ذنوب، أمّا أولئك الذين يسرفون فى الذنوب فلا توبة لهم.

۴- ما هو الهبوط؟

«الهبوط» فى اللغـة بمعنى النّزول الإجبـارى، كسـقوط الصـخرة من مرتفع مـا، و عنـد مـا تسـتعمل فى حقّ الإنسـان فإنّها تعنى الإبعاد و الإنزال عقابا له.

و بملاحظـة أنّ أدم قد خلق للحياة على وجه الأرض، و كانت الجنّة أيضا بقعة خضـراء و فيرة النعمة من هذا العالم، فإنّ هبوط و نزول آدم هنـا يعنى النّزول المقـامى لاـ المكـانى، أى إنّ اللّه سـبحانه قـد نزّل مقامه لتركه الأولى، و حرمه من كلّ نعم الجنّـة تلك، و ابتلاه بمصائب هذه الدنيا و متاعبها.

و ممّا يستحقّ الالتفات أنّ المخاطب هنا قد ذكر بصيغة المثنّى (اهبطا) أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۴

اهبطا كلاكما، و من الممكن أن يكون المراد آدم و حواء، و إذا كان المخاطب قد ورد بصيغة الجمع (اهبطوا) فى بعض آيات القرآن الاخرى، فلأنّ الشيطان قد أشرك معهما فى الخطاب، لأنّه هو الآخر قد طرد من الجنّة.

و يحتمل أيضا أن يكون المخاطب آدم و الشيطان، لأنّ الجملة التى تلى هذه الجملة تقول: بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جملة بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ و التى ورد الخطاب فيها بصيغة الجمع، هو تولّد العداوة بين أدم و حواء من جهة، و بين الشيطان من جهة أخرى، و تولّد العداوة بين آدم و أولاده من جهة و الشيطان و ذريته من جانب آخر.

و على كلّ حال، فإنّ المخاطب فى جملة: فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً هم أولاد آدم و حواء حتما، لأنّ هداية اللّه مختصة بهم، أمّا الشيطان و ذريته الذين أعرضوا عن منهج الهداية الإلهيّة، فإنّ الخطاب لا يشملهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۲۸ الى ۱۳۰]

اشارة

أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى (۱۲۸) وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى (۱۲۹) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى (۱۳۰)

التّفسير

اعتبروا بتاريخ الماضين:

لمّا كانت عدّة بحوث فى الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الأولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية و أكثرها تأثيرا، و هو مطالعة تأريخ الماضين، فتقول: أَ فَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ۶۵] أولئك الذين عمّهم العذاب الإلهى الأليم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۶

إنّ هؤلاء يمرّون فى مسيرهم و ذهابهم و إيّابهم على منازل قوم عاد- فى أسفارهم إلى اليمن- و على مساكن ثمود المتهدّمة الخربة- فى سفرهم إلى الشام- و على منازل قوم لوط التى جعل عاليها سافلها- فى سفرهم إلى فلسطين- و يرون آثارهم، إلّا أنّهم لا يعتبرون، فإنّ الخرائب و الأطلال تتكلّم بلسان الحال و تخبر عن قصص السابقين و تحذّر أبناء اليوم و أبناء الغد و تعول صارخة أنّ هذه عاقبة الظلم و الكفر و الفساد.

نعم .. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهى ۶۶].

إنّ موضوع أخذ العبرة من تأريخ الماضين من الأمور التى يؤكّد عليها القرآن و الأحاديث الإسلامية كثيرا، و هو حقّا معلم مذكّر منبّه، فما أكثر أولئك الأشخاص الذين لا يتأثّرون بأيّة موعظة، و لا يعتبرون بها، إلّا أنّ رؤية مشاهد من آثار الماضين المعبّرة تهزّهم، و كثيرا ما تغيّر مسير حياتهم.

و نقرأ

فى حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم: «أغفل الناس من لم يتّعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال»[۶۷]

و لا يفكّر فى تقلّب الليل و النهار و تعاقبهما.

الآية التالية فى الحقيقة جواب عن سؤال يثار هنا، و هو: لماذا لا يجرى اللّه سبحانه على هذا القسم من المجرمين ما أجراه على المجرمين السابقين، فيقول القرآن: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكانَ لِزاماً وَ أَجَلٌ مُسَمًّى

إنّ هذه السنّة الإلهيّة التى ذكرت فى مواضع عديدة من القرآن باسم (كلمة) إشارة إلى قانون الخلقة المبتنى على حريّة البشر، لأنّ كلّ مجرم إذا عوقب مباشرة و بدون أن يمهل، فإنّ الإيمان و العمل الصالح سيتّصف بالجبر تقريبا، و سيكون على الأغلب خوفا من العقاب الآنى، و بناء على هذا فسوف لا يكون وسيلة للتكامل الذى هو الهدف الأصلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

إضافة إلى أنّه إذا تقرّر أن يعاقب جميع المجرمين فورا، فسوف لا يبقى أحد حيّا على وجه الأرض: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ[۶۸].

و بناء على هذا فيجب أن تكون هناك مهلة و فترة تعطى لكلّ المرتبطين بطريق الحقّ حتّى يرجع المجرمون إلى أنفسهم و يسلكوا سبيل الصلاح، و لتكون كذلك فرصة لتهذيب النفس.

إنّ التعبير ب (أجل مسمّى) بالشكل الذى يفهم من مجموع آيات القرآن، إشارة إلى الزمان الحتمى لنهاية حياة الإنسان ۶۹].

و على كلّ حال، فإنّ الظالمين الذين لا- إيمان لهم و المجرمين يجب أن لا يغترّوا بتأخير العذاب الإلهى، و أن لا يغفلوا عن هذه الحقيقة، و هى أنّ لطف اللّه و سنّته فى الحياة، و قانون التكامل هذا، هو الذى يفسح المجال لهؤلاء.

ثمّ يوجّه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، فيقول: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ و من أجل رفع معنويات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و تقوية قلبه، و تسلية خاطره، فإنّه يؤمر بمناجاة اللّه و الصلاة و التسبيح فيقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى و لا يتأثّر قلبك جرّاء كلامهم المؤلم.

لا شكّ أنّ هذا الحمد و التسبيح محاربة للشرك و عبادة الأصنام، و فى الوقت نفسه صبر و تحمّل أمام أقوال المشركين السيّئة، و كلامهم الخشن. إلّا أنّ هناك بحثا بين المفسّرين فى أنّ المقصود من الحمد و التسبيح هل الحمد و التسبيح المطلق، أم أنّه إشارة إلى خصوص الصلوات الخمس اليوميّة؟ فجماعة يعتقدون بأنّه يجب أن يبقى ظاهر العبارات على معناه الواسع، و من ذلك يستفاد أنّ المراد هو التسبيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

و الحمد المطلق.

فى حين أنّ جماعة أخرى ترى أنّه إشارة إلى الصلوات الخمس، و هى على النحو التالى.

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ و هى إشارة إلى صلاة الصبح.

وَ قَبْلَ غُرُوبِها و هى إشارة إلى صلاة العصر، أو أنّها إشارة إلى صلاتى الظهر و العصر، و اللتان يمتدّ وقتهما إلى الغروب.

وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ و هى إشارة إلى صلاتى المغرب و العشاء، و كذلك صلاة الليل.

أمّا التعبير ب أَطْرافَ النَّهارِ فهو إمّا إشارة إلى صلاة الظهر، لأنّ أطراف جمع طرف، و هو يعنى الجانب، و إذا قسّمنا اليوم نصفين، فإنّ صلاة الظهر ستكون فى أحد طرفى النصف الثّانى.

و يستفاد من بعض الرّوايات- أيضا- أنّ أَطْرافَ النَّهارِ إشارة إلى الصلوات المستحبّة التى يستطيع الإنسان أو يؤدّيها فى الأوقات المختلفة، لأنّ أطراف النهار هنا قد وقعت فى مقابل آناء الليل، و هى تتضمّن كلّ ساعات اليوم.

و خاصّة أنّنا إذا لاحظنا أنّ كلمة أطراف قد وردت بصيغة الجمع، فى حين أنّ لليوم طرفين لا أكثر، فسيتّضح أنّ للأطراف معنى واسعا يشمل ساعات اليوم المختلفة.

و هناك احتمال ثالث أيضا، و هو أنّه إشارة إلى الأذكار الخاصّة التى وردت فى الرّوايات الإسلامية فى هذه الساعات المخصوصة، فمثلا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية محل البحث أنّه قال: «فريضة على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس

عشر مرّات و قبل غروبها عشر مرّات: لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، يحيى و يميت، و هو حى لا يموت، بيده الخير، و هو على كلّ شىء قدير».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۰۹

إلّا أنّ هذه التفاسير لا منافاة بينها على كلّ حال، و يمكن أن تكون الآية إشارة إلى التسبيحات و إلى الصلوات الواجبة و المستحبّة فى الليل و النهار، و بهذا فسوف لا يكون هناك تضادّ بين الرّوايات الواصلة فى هذا الباب، لأنّ الجملة فسّرت فى بعض الرّوايات بالأذكار الخاصّة، و فى بعضها بالصلاة.

و الجدير بالذكر أنّ جملة «لعلّك ترضى» فى الحقيقة نتيجة حمد اللّه و تسبيحه، و الصبر و التحمّل فى مقابل قول أولئك، لأنّ هذا الحمد و التسبيح و صلوات الليل و النهار تحكم الرابطة بين الإنسان و ربّه إلى درجة لا يفكّر فيها بأى شىء سواه، فلا يخاف من الحوادث الصعبة، و لا يخشى عدوّا باعتماده على هذا السند و العماد القوى، و بهذا سيملأ الهدوء و الاطمئنان وجوده.

و لعلّ التعبير ب (لعلّ) إشارة إلى ذلك المطلب الذى قلناه فيما مضى فى تفسير هذه الكلمة، و هو أنّ (لعلّ) عادة إشارة إلى الشروط التى تكون لازمة لتحصيل النتيجة، فمثلا ـ لكى تكون الصلاة و ذكر اللّه سببا لحصول الاطمئنان، يجب أن تقام مع حضور القلب و آدابها الكاملة.

ثمّ إنّ المخاطب فى هذه الآية و إن كان النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم، إلّا أنّ القرائن تدلّ على أنّ هذا الحكم يتّصف بالعموم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۰

الآيات [سورة طه (۲۰): الآيات ۱۳۱ الى ۱۳۵]

اشارة

وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱۳۱) وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى (۱۳۲) وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى (۱۳۳) وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى (۱۳۴) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى (۱۳۵)

التّفسير

لقد أصدرت فى هذه الآيات أوامر و توجيهات للنبى، و المراد منها و المخاطب فيها عموم المسلمين، و هى تتمّة للبحث الذى قرأناه آنفا حول الصبر و التحمّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۱

فتقول أوّلا: وَ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ فإنّ هذه النعم المتزلزلة الزائلة ما هى إلّا زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا، تلك الأزهار التى تقطع بسرعة و تذبل و تتناثر على الأرض، و لا تبقى إلّا أيّاما معدودات.

فى الوقت الذى أمددناهم بها لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقى فإنّ اللّه سبحانه وهب لك مواهب و نعما متنوّعة، فأعطاك الإيمان و الإسلام، و القرآن و الآيات الإلهيّة و الرزق الحلال الطاهر، و أخيرا نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات و العطايا المستمرّة الدائمة.

و تقول الآية التالية تلطيفا لنفس النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و تقوية لروحه: وَ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْها لأنّ هذه الصلاة

بالنسبة لك و لأهلك أساس العفّة و الطهارة و صفاء القلب و سمو الروح و دوام ذكر اللّه.

لا شكّ أنّ ظاهر (أهلك) هنا هو أسرة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بصورة عامّة، إلّا أنّ هذه السورة لمّا كانت قد نزلت فى مكّة، فإنّ مصداق الأهل فى ذلك الزمان كان (خديجة و عليا عليهما السّلام) و ربّما شملت بعضا من أقارب النّبى الآخرين، إلّا أنّ مصطلح أهل بيت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثمّ تضيف بأنّه إذا كان قد صدر الأمر لك و لأهلك بالصلاة فإنّ نفعها و بركاتها إنّما يعود كلّ ذلك عليكم، فإنّا لا نَسْئَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ فإنّ هذه الصلاة لا تزيد شيئا من عظمة اللّه، بل هى رأس مال عظيم لتكامل البشر و ارتقائهم و درس تعليمى و تربوى عال، إنّ اللّه سبحانه ليس كباقى الملوك و الأمراء الذين يأخذون الضرائب من شعوبهم ليديروا بها حياتهم و حياة مقرّبيهم، فإنّ اللّه غنى عن الجميع و يحتاجه الجميع و يفتقرون إليه.

إنّ هذا التعبير فى الحقيقة يشبه ما ورد فى سورة الذاريات- الآية (۵۶- ۵۸): وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۲

يُطْعِمُونِ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ و على هذا، فإنّ نتيجة العبادات ترجع مباشرة إلى نفس العابدين.

و تضعيف الآية فى النهاية: وَ الْعاقِبَةُ لِلتَّقْوى فإنّ ما يبقى و يفيد فى نهاية الأمر هو التقوى، و المتّقون هم الفائزون فى النهاية، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمة و الانكسار.

و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ هدفها هو التأكيد فى مجال الروح و التقوى و الإخلاص فى العبادات، لأنّ هذا أساس العبادة، و فى الآية (۳۷) منسورة الحجّ نقرأ: لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فليس ظاهر الأعمال و قشورها هو الذى يوصلكم إلى مقام القرب من اللّه، بل إنّ الواقع و الإخلاص و الباطن الذى فيها هو الذى يفتح الطريق إلى مقام القرب منه.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفّار الواهية فقالت: وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ و اجابتهم مباشرة: أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى حيث كانوا يشكّكون و يطلبون الأعذار بصورة متلاحقة من أجل الإتيان بالمعجزات، و بعد رؤية و مشاهدة تلك المعاجز استمرّوا فى كفرهم و إنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهى، أ فلا يعلمون بأنّهم إذا ساروا فى نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه؟

و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ المراد من «البيّنة» نفس القرآن الذى يبيّن حقائق الكتب السماوية السابقة على مستوى أعلى، فالآية تقول: لماذا يطلب هؤلاء معجزة، و يتذرّعون بالأعذار الواهية؟ أليس هذا القرآن مع هذه الامتيازات الكبيرة التى تحتوى على حقائق الكتب السماوية السابقة كافيا لهؤلاء؟

و قد ذكر تفسير آخر لهذه الآية، و هو: إنّ الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلم- مع أنّه لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۳

يكن قد درس و تعلّم- فقد جاء بكتاب واضح جلى ينسجم مع ما كان فى متون الكتب السماوية، و هذا بنفسه دليل على الإعجاز. إضافة إلى أنّ صفات النّبى و صفات كتابه تنطبق تماما على العلامات التى جاءت فى الكتب السماوية السابقة، و هذا دليل أحقيّته [۷۰].

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء المتذرّعين ليسوا أناسا طلّاب حقّ، بل إنّهم دائما فى صدد إيجاد أعذار و تبريرات جديدة، فحتّى وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى إلّا أنّهم الآن و قد جاءهم هذا النّبى الكريم بهذا الكتاب العظيم، يقولون كلّ يوم كلاما، و يختلفون الأعذار للفرار من الحقّ.

و قالت الآية التالية: أنذر هؤلاء و قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فنحن بانتظار الوعود الإلهيّة فى حقّكم، و أنتم بانتظار أن تحيط بنا المشاكل و

المصائب فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ وَ مَنِ اهْتَدى و بهذه الجملة الحاسمة العميقة المعنى تنتهى المحاورة مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذرّعين.

و خلاصة القول: فإنّ هذه السورة لمّا كانت قد نزلت فى مكّة، و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و المسلمون تحت ضغط شديد من قبل الأعداد، فإنّ اللّه قد واساهم و سرّى عن نفوسهم فى نهاية هذه السورة، فتارة ينهاهم عن أن تأخذهم و تبهرهم أموال المنكرين الزائلة و ثرواتهم، إذ هى للامتحان و الابتلاء و تارة يأمرهم بالصلاة و الاستقامة لتقوى قواهم المعنوية أمام كثرة الأعداء. و أخيرا يبشّر المسلمين بأنّ هؤلاء إن لم يؤمنوا فإنّ لهم مصيرا أسود مشؤوما يجب أن يكونوا فى انتظاره.

اللّهم اجعلنا من المهتدين و أصحاب الصراط المستقيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۴

اللهم ألهمنا تلك الشهامة التى لا نرهب معها كثرة الأعداء، و لا نضعف عند الحوادث الصعبة.

و اخلع عنّا أطمار العناد و اللجاجة، و وفّقنا لقبول الحقّ.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة طه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

سورة الأنبياء

اشارة

مكّية و عدد آياتها مائة و اثنتا عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۷

سورة الأنبياء

فضل سورة الأنبياء:

روى عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم فى فضل تلاوة هذه السورة أنّه قال صلى اللّه عليه و آله و سلم: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه اللّه حسابا يسيرا، و صافحه و سلّم عليه كلّ نبى ذكر اسمه فى القرآن»[۷۱].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ سورة الأنبياء حبّا لها كان كمن رافق النبيّين أجمعين فى جنّات النعيم، و كان مهيبا فى أعين الناس حياة الدنيا»[۷۲].

إنّ جملة «حبّا لها» مفتاح فى الواقع لفهم معنى الرّوايات التى وصلتنا فى مجال فضل سورة القرآن، و هى تعنى أنّ الهدف ليس هو التلاوة و تلفّظ الكلمات فقط، بل عشق المحتوى، و من المسلّم أنّ عشق المحتوى بلا عمل لا معنى له، و إذا ما ادّعى شخص أنّه يعشق السورة الفلانيّة، و يخالف عمله مفاهيمها، فإنّه يكذب.

و قد قلنا مرارا: إنّ القرآن كتاب عقيدة و عمل، و القراءة مقدّمة للتفكير و التدبّر، و هو مقدّمة للإيمان و العمل!.

محتوى السورة:

۱- إنّ هذه السورة كما تدلّ عليها تسميتها هى سورة الأنبياء، لأنّ اسم ستّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۸

عشر نبیّا قد جاء فی هذه السورة، بعضهم بذکر نماذج و صور من حالاتهم، و البعض کإشارة، و هم:

موسی- هارون- إبراهیم- لوط- إسحاق- یعقوب- نوح- داود- سلیمان- أیّوب- إسماعیل- إدریس- ذو الکفل- ذو النون (یونس)- زکریا- یحیی علیهم السّلام، و بناء علی هذا فإنّ عمدة البحوث المهمّة فی هذه السورة تدور حول مناهج الأنبیاء.

و إضافة إلی هؤلاء الأنبیاء، فإنّ هناک أنبیاء آخرین لم تذکر أسماؤهم صریحا فی هذه السورة، لکن قد ورد الکلام حولهم، کرسول اللّه محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلم و المسیح عیسی بن مریم علیهما السّلام.

۲- إضافة إلی ما مرّ، فإنّ خاصیة السورة المکیّة التی تتحدّث عن العقائد الدینیّة، و بالأخصّ المبدأ و المعاد، منعکسة تماما فی هذه السورة.

۳- بحثت هذه السورة کذلک عن توحید الخالق، و أنّه لا خالق و لا معبود سواه، و کذلک عن خلق العالم علی أساس الهدف و التخطیط، و وحدة القوانین الحاکمة علی هذا العالم، و کذلک وحدة مصدر و منبع الحیاة و الوجود، و کذلک اشتراک الموجودات فی مسألة الفناء و الموت.

۴- و تحدث جانب آخر من هذه السورة عن انتصار الحقّ علی الباطل، و التوحید علی الشرک، و جنود الحقّ علی جنود إبلیس.

۵- و الذی یلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدئ بتهدید الناس الغافلین الجاهلین بالحساب الشدید، و تنتهی بتهدیدات أخری فی هذا المجال أیضا.

إنّ الأنبیاء الذین وردت أسماؤهم فی هذه السورة، ذکر تفصیل حیاة و نشاطات بعضهم فی سورة أخری، إلّا أنّ التأکید فی هذه السورة کان أغلبه علی أنّ هؤلاء العظام عند ما کانوا یبتلون بالضائقات و المواقف الصعبة، کانوا یمدّون ید التوسّل و الاستعانة نحو لطف اللّه و عونه، و کیف أنّ اللّه سبحانه کان یفتح أمامهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۱۹

الطرق المغلقة، و ینجّیهم من الدوامات و تلاطم أمواج البلایا.

فإبراهیم حین ابتلی بنار نمرود.

و یونس حینما حلّ فی بطن الحوت.

و زکریا عند ما رأی أنّ شمس عمره قد أوشکت علی الغروب و لا خلیفة له یکمل مسیره.

کما أنّها تتکلّم علی سائر الأنبیاء عند وقوعهم فی المشاکل الصعبة العسیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۰

الآیات [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِی غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (۱) ما یَأْتِیهِمْ مِنْ ذِکْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ یَلْعَبُونَ (۲) لاهِیَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَی الَّذِینَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُکُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۳) قالَ رَبِّی یَعْلَمُ الْقَوْلَ فِی السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۴)

بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْیَأْتِنا بِآیَةٍ کَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (۵)

التّفسير

أعذار متنوّعة:

تبدأ هذه السورة- كما أشرنا- بتحذير قوى شديد موجّه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان و يوقظ الغافلين، فتقول: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسابُهُمْ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۱

مُعْرِضُونَ

إنّ عمل هؤلاء يدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت كلّ وجودهم، و إلّا فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن باقتراب الحساب .. الحساب الدقيق المتناهى فى الدقّة، و مع كلّ ذلك لا يكترث بالأمور و يرتكب أنواع الذنوب!! كلمة (اقترب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) و هى إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قريبا جدّا.

و التعبير ب (الناس) و إن كان يشمل عموم الناس ظاهرا، و هو يدلّ على أنّ الجميع فى غفلة، إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ الذين لهم قلوب واعية يقظة على الدوام، و يفكّرون بالحساب و يعملون له فهم مستثنون من هذا العموم.

و الجميل فى الأمر أنّه يقول: اقترب الحساب للناس، لا أنّ الناس اقتربوا للحساب، فكأنّ الحساب يسرع لاستقبال الناس.

ثمّ إنّ الفرق بين «الغفلة» و «الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن اقتراب الحساب، و هذه الغفلة هى تسبّب الإعراض عن آيات اللّه سبحانه، ف «الغفلة عن الحساب» علّة فى الحقيقة، و «الإعراض عن الحقّ» معلول لتلك العلّة. أو أنّ المراد هو الإعراض عن نفس الحساب، و عن الاستعداد للإجابة فى تلك المحكمة الكبرى، أى إنّهم لمّا كانوا غافلين، فإنّهم لا يهيّؤون أنفسهم لذلك و يعرضون عنه.

و هنا يأتى سؤال، و هو: ما معنى اقتراب الحساب و القيامة؟

لقد قال البعض: إنّ المراد منه هو أنّ ما بقى من الدنيا قليل فى مقابل ما مضى منها، و لهذا فإنّ القيامة ستكون قريبة- قربا نسبيّا- خاصة و أنّه

قد روى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعة كهاتين»[۷۳]

و أشار إلى السبابة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۲

و الوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الأخرى.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا التعبير لكون القيامة موجودة، كما نرى ذلك فى المثل السائر كلّ ما هو آت قريب.

و لا منافاة بين هذين التّفسيرين و يمكن أن تكون الآية إشارة إلى كلا الأمرين.

و احتمل بعض المفسّرين- كالقرطبى- أن يكون الحساب هنا إشارة إلى «القيامة الصغرى»، أى الموت، لأنّ جزءا من المحاسبة و جزاء الأعمال يصل إلى الإنسان حين الموت ۷۴] إلّا أنّ ظاهر الآية ناظر إلى القيامة الكبرى.

ثمّ تبيّن الآية التالية علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فلم يتّفق لهم أن يتدبّروا ساعة فى كلام اللّه المجيد، و يتأمّلوا فى آياته بجدّية، و يحتملوا- على الأقل- أن تكون مؤثّرة فى حياتهم و عاقبة أمرهم و مصيرهم. فهم لا يفكّرون فى الحساب الإلهى، و لا فى تحذيرات اللّه سبحانه.

و أساسا فإنّ أحد أسباب شقاء الجهلة و المتكبّرين هو اتّخاذهم النصائح و مواعظ الأخيار لهوا و لعبا دائما، و هذا هو السبب فى عدم

تنبّههم من غفلتهم، فى حين أنّهم لو تعاملوا بصورة جديّة مع تلك النصائح و لو مرّة واحدة، فربّما تغيّر مسير حياتهم فى تلك اللحظة! كلمة «ذكر» فى الآية إشارة إلى كلّ كلام منبّه يوقظ الغافلين، و التعبير ب (محدث) إشارة إلى أنّ الكتب السماوية كانت تنزل الواحد تلو الآخر، و تحتوى كلّ سورة من سور القرآن، و كلّ آية من آياته محتوى جديدا ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفة، لكن أى فائدة مع من يتّخذ كلّ ذلك هزوا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

و أساسا، فإنّ هؤلاء يفرقون من كلّ جديد، و يتمسكّون و يفرحون لكلّ الخرافات القديمة التى ورثوها من الآباء و الأجداد، و كأنّهم قد تعاهدوا عهدا دائما على أن يخالفوا كلّ حقيقة جديدة، مع أنّ أساس تكامل الإنسان مبتن على أن يواجه الإنسان كلّ يوم مسائل جديدة.

ثمّ تقول من أجل زيادة التأكيد: لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ لأنّهم فى الظاهر يتّخذون كلّ المسائل الجديّة لهوا و لعبا- كما تشير جملة «يلعبون» إلى ذلك، حيث وردت بصيغة فعل مضارع مطلق- و هم فى الباطن مشغولون باللهو و المسائل التى لا قيمة لها، و التى تجعلهم فى غفلة عن الواقع. و من الطبيعى أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعادة، و لا يوفّقون إليه.

ثمّ تشير إلى جانب من الخطط الشيطانيّة فتقول: وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ۷۵] و إذا لم يكن سوى بشر اعتيادى، فلا بدّ أن تكون أعماله الخارقة و نفوذ كلامه سحرا، و لا يمكن أن يكون شيئا آخر: أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ

قلنا: إنّ هذه السورة نزلت فى مكّة، و فى تلك الأيّام التىّ كان فيها أعداء الإسلام فى غاية القوّة و المنعة، فأى داع يدعوهم لإخفاء كلامهم، بل و حتّى نجواهم؟ (و ينبغى الالتفات إلى أنّ القرآن يقول إنّهم كانوا يخفون حتّى مناجاتهم).

قد يكون ذلك من أجل أنّ هؤلاء كانوا يتشاورون فى المسائل التى تتّصف بالتخطيط و التآمر، حتّى يظهروا أمام عامّة الناس موقفا واحدا ضدّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم.

إضافة إلى أنّ هؤلاء كانوا من ناحية القوّة متفوّقين حتما، إلّا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم و المسلمين كانوا من ناحية المنطق و القوّة و نفوذ الكلام أكثر تفوّقا، و هذا التفوّق هو الذى دفع هؤلاء إلى أن يتشاوروا فى الخفاء لانتخاب الأجوبة المصطنعة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

مقابل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد أكّدوا على مسألتين فى أقوالهم: إحداهما: كون النّبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلم بشرا، و الأخرى: تهمة السحر، و ستأتى الاتّهامات الاخرى فى الآيات التالية أيضا، و يتصدّى القرآن الكريم لجوابها.

إلّا أنّ القرآن يجيبهم بصورة عامّة على لسان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فيقول: قالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّماءِ وَ الْأَرْضِ فلا تتصوّروا أنّ نجواكم و مؤامراتكم المخفيّة تخفى عليه وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يعلم كلّ شىء، و مطّلع على كلّ شىء، فلا يسمع كلامكم و حسب، بل هو مطّلع حتى على الأفكار التّى تمرّ فى أذهانكم، و القرارات التى فى صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرّعات المخالفين، يتطرّق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع أخرى منها، فيقول: بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ ۷۶] و هم يعتقدون أنّها حقيقة.

و قد يغيّرون كلامهم هذا أحيانا فيقولون: بَلِ افْتَراهُ و نسبه إلى اللّه.

و يقولون أحيانا: بَلْ هُوَ شاعِرٌ، و هذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

و فى المرحلة الرّابعة يقولون: إنّا نتجاوز عن كلّ ذلك فإذا كان مرسلا من اللّه حقّا فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ

إنّ التحقيق فى هذه الادّعاءات المتضادّة المتناقضة فى حقّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم سيوضّح أنّها بنفسها دليل على أنّهم لم يكونوا طلّاب حقّ، بل كان هدفهم خلق الأعذار، و إخراج خصمهم من الحلبة بأيّة قيمة و ثمن، و بأى صورة كانت.

فهم يعتبرونه ساحرا تارة، و أخرى شاعرا، و ثالثة مفتريا، و أخرى إنسانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

يختلط الأمر عليه و يهجر- و العياذ باللّه- فهو يحسب مناماته المضطربة وحيا! و يقولون حينا: لماذا أنت بشر؟ و يتذرّعون أحيانا بطلب معجزة جديدة مع كلّ تلك المعاجز.

إذا لم يكن لدينا دليل على بطلان كلامهم إلّا هذا الاضطراب و التمزّق، فإنّه كاف لوحده، و لكنّنا سنرى فى الآيات التالية أنّ القرآن سيجيبهم جوابا حاسما من طرق أخرى أيضا.

ملاحظة:

هل القرآن محدث؟

لقد أورد جمع من المفسّرين فى ذيل الآيات- لوجود كلمة (محدث) فى الآية الثّانية من الآيات محلّ البحث- بحوثا جمّة حول كون كلام اللّه حادثا أم قديما؟ و هى نفس المسألة التى أثيرت فى زمن خلفاء بنى العبّاس و صارت مثارا للجدل لسنين طويلة، و كانت قد لفتت انتباه و أفكار جماعة من العلماء.

إلّا أنّنا نعلم اليوم جيدا أنّ معظم هذا الموضوع كان يراد منه الإشغال السياسى ليهتمّ به علماء الإسلام، و ينصرفوا عن المسائل الضروريّة و الأساسيّة التى تتعلّق بشؤون الحكومة و كيفيّة حياة الناس، و حقائق الإسلام الأصيلة.

و اليوم اتّضح لنا تماما أنّ المراد من كلام اللّه محتواه و مضمونه، و هو قديم قطعا، أى إنّه كان دائما فى علم اللّه، و إنّ علم اللّه الواسع كان محيطا بالقرآن على الدوام. و إذا كان المراد منه هذه الألفاظ و الكلمات، و هذا الوحى الذى نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فلا شكّ فى أنّه حادث.

أى عاقل يقول: إنّ ألفاظ القرآن و كلماته أزليّة؟ أو أنّ نزول الوحى على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم لم يكن من بداية أمر الرسالة؟ و بناء على هذا فأنتم تلاحظون بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

المسألة واضحة وضوح الشمس فى جميع أبعادها.

و بتعبير آخر فإنّ القرآن يحتوى على ألفاظ و معان: فألفاظه حادثة قطعا، و معانية قديمة قطعا، و على هذا فلا مجال للبحث و المناقشة.

ثمّ إنّ أىّ مشكلة علميّة و اجتماعية و سياسيّة و أخلاقية فى المجتمع الإسلامى يحلّها هذا البحث آنذاك؟ و لماذا خدع بعض العلماء السابقين بأساليب الحكّام المكرة المتآمرين الخداعة؟

و لهذا نرى أنّ بعض أئمّة أهل البيت عليهم السّلام بعد بيان هذه المسألة، قد حذّروا هؤلاء من هذه البحوث، و دعوهم إلى الابتعاد و الامتناع عنها[۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ (۶) وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۷)

وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ (۸) ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (۹) لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۰)

التّفسير

كلّ الأنبياء كانوا بشرا:

قلنا: إنّ ستّة إشكالات و إيرادات قد أعيد ذكرها فى الآيات السابقة، و هذه الآيات التى نبحثها تجيب عنها، تارة بصورة عامّة جامعة، و أخرى تجيب عن بعضها بالخصوص.

أشارت الآية الأولى إلى المعجزات المقترحة لأولئك، و نقصد منها:

المعجزات المقترحة حسب أهوائهم تذرّعا، فنقول: إنّ جميع المدن و القرى التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۸

أهلكناها سابقا كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، و لكن لمّا استجيب طلبهم كذّبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: ما آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَ فَهُمْ يُؤْمِنُونَ و هى تنذرهم بصورة ضمنيّة بأنّ الآيات لو تحقّقت على ما اقترحتم ثمّ لم تؤمنوا، فإنّ فناءكم حتمى! و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآية أنّ القرآن يشير- فى هذه الآية- إلى كلّ إشكالات هؤلاء المتناقضة و يقول: إنّ هذا التعامل مع دعوة الأنبياء الحقيقيين ليس جديدا، فإنّ الأفراد العنودين كانوا يتوسّلون دائما بهذه الأساليب، و لم تكن عاقبة عملهم و أمرهم إلّا الكفر، ثمّ الهلاك و العذاب الأليم.

ثمّ تطرّقت الآية التالية إلى جواب الإشكال الأوّل- خاصة- حول كون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بشرا، فتقول: إنّك لست الوحيد فى كونك نبيّا، و فى نفس الوقت أنت بشر وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ إِلَّا رِجالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فإنّ هذه حقيقة تاريخيّة يعرفها الجميع فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

من هم أهل الذكر؟

لا شكّ أنّ أَهْلَ الذِّكْرِ تشمل من الناحية اللغوية كلّ العلماء و المطّلعين، و الآية أعلاه تبيّن قانونا عقلائيّا عامّا فى مسألة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإنّ مورد و مصداق الآية و إن كان علماء أهل الكتاب، إلّا أنّ هذا لا يمنع من عمومية القانون. و لهذه العلّة استدلّ علماء و فقهاء الإسلام بهذه الآية فى مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

و إذا رأينا فى بعض الرّوايات التى وصلتنا عن أهل البيت عليهم السّلام بأنّ أَهْلَ الذِّكْرِ قد فسّرت بعلى عليه السّلام أو سائر الأئمّة عليهم السّلام، فلا يعنى ذلك الحصر، بل هو بيان لأوضح مصاديق هذا القانون الكلّى. و لزيادة الإيضاح حول هذا الموضوع، اقرأ تفسير الآية (۴۳) من سورة النحل من هذا الكتاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۲۹

ثمّ تعطى الآية التالية توضيحا أكثر حول كون الأنبياء بشرا، فتقول: وَ ما جَعَلْناهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ ما كانُوا خالِدِينَ و جملة لا يَأْكُلُونَ الطَّعامَ إشارة إلى ما جاء فى موضع آخر من القرآن فى نفس هذا الموضوع: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ۷۸].

و جملة ما كانُوا خالِدِينَ أيضا تكملة لنفس هذا المعنى، لأنّ المشركين كانوا يقولون: كان من الأفضل أن يرسل ملك مكان البشر، ملك له الخلود، و لا تمتدّ إليه يد الموت! فأجابهم القرآن بأنّ أيّا من الأنبياء السابقين لم يكتب له الخلود حتّى يكتب لرسول اللّه (محمّد) الخلود و «البقاء فى هذه الدنيا».

على كلّ حال، فلا شكّ- كما قلنا ذلك مرارا- فى أنّه يجب أن يكون قائد البشر و مرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز و العواطف و الأحاسيس و الحاجات و العلاقات حتّى يحسّ بآلامهم و عذابهم، و لينتخب أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة و أسوة لكلّ البشر، و يقيم الحجّة على الجميع.

ثمّ تحذّر الآية و تهدّد المنكرين المتعصّبين العنودين، فتقول: إنّا كنا قد وعدنا رسلنا بل ننقذهم من قبضة الأعداء، و نبطل كيد أولئك الأشرار ثُمَّ صَدَقْناهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْناهُمْ وَ مَنْ نَشاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ

أجل، فكما أنّ سنّتنا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشر، كذلك كانت سنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، و إذا لم تؤثّر المواعظ و النصائح المتلاحقة أثرها فى المخالفين، فإنّنا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

و من المعلوم أنّ المراد من «و من نشاء»: الإرادة التى تدور حول معيار الإيمان و العمل الصالح، كما أنّ من الواضح أيضا أنّ المراد من «المسرفين» هنا هم الذين أسرفوا فى حقّ أنفسهم و مجتمعهم الذى يعيشون فيه عن طريق إنكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۰

الآيات الإلهيّة و تكذيب الأنبياء، و لهذا نرى القرآن فى موضع آخر يقول: كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ۷۹].

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب- مرّة أخرى- فى جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ فإنّ كلّ من يتدبّر آيات هذا الكتاب الذى هو أساس التذكّر و حياة القلب، و حركة الفكر، و طهارة المجتمع، سيعلم جيدا أنّه معجزة واضحة و خالدة، و مع وجود هذه المعجزة البيّنة التى تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفة ... من جهة الجاذبيّة الخارقة، و من جهة المحتوى، الأحكام و القوانين، العقائد و المعارف، و و .. فهل لا زلتم بانتظار معجزة أخرى؟ أى معجزة تقدر أن تثبت أحقّية دعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم أحسن من هذه المعجزة؟

و فضلا عمّا مرّ، فإنّ آيات هذا الكتاب تصرخ بأنّها ليست سحرا، بل هى حقائق و تعليمات غنيّة المحتوى و جذّابة، أ تقولون بعد ذلك أنّها سحر؟

هل يمكن أن توصف هذه الآيات بأنّها أضغاث أحلام؟ فأين هى الأحلام المضطربة التى لا معنى لها من هذا الكلام المنسجم الموزون؟ و أين الثرى من الثريّا؟

هل يمكن أن تعتبر تلك الآيات كذبا و افتراء مع أنّ آثار الصدق بادية فى كلّ مكان منها؟

أم أنّ من جاء بها كان شاعرا، فى حين أنّ الشعر يدور حول محور الخيال، و آيات هذا الكتاب تدور كلّها حول محور الواقعيّات و الحقائق؟

و بكلمة قصيرة، إنّ الدقّة و البحث فى هذا الكتاب يثبت أنّ هذه الادّعاءات متضادّة متناقضة غير منسجمة، و هى كلام المغرضين الجهلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۱

و اختلف المفسّرون فى معنى كلمة «ذكركم» فى الآية آنفة الذكر، و ذكروا لها تفاسير مختلفة.

فذهب بعضهم: إنّ المراد هو أنّ آيات القرآن منبع الوعى و التذكّر بين أفراد المجتمع، كما يقول القرآن فى موضع آخر: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ[۸۰].

و قال آخرون: إنّ المراد أنّ هذا القرآن سيرفع اسمكم و مكانتكم فى الدنيا، أى إنّه أساس عزّكم و شرفكم أيّها المؤمنون و

المسلمون، أو أنتم أيّها العرب الذين نزل القرآن بلسانكم، و إذا أخذ منكم فسوف لا يكون لكم اسم و لا رسم فى العالم.

و البعض الآخر قالوا: إنّ المقصود هو أنّه قد ذكر فى هذا القرآن كلّ ما تحتاجون إليه فى أمور الدين و الدنيا، أو فى مجال مكارم الأخلاق.

و بالرغم من أنّ هذه التفاسير لا ينافى بعضها بعضا، و يمكن أن تكون مجتمعة فى تعبير «ذكركم»، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأظهر.

فإن قيل: كيف يكون هذا القرآن أساس الوعى و اليقظة، فى حين أنّ كثيرا من المشركين قد سمعوه فلم ينتبهوا؟

قلنا: إنّ كون القرآن موقظا و منبّها لا يعنى إجباره الناس على هذا الوعى، بل إنّ الوعى مشروط بأن يريد الإنسان و يصمّم، و أن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ (۱۱) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (۱۲) لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (۱۳) قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۱۴) فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً خامِدِينَ (۱۵)

التّفسير

كيف وقع الظّالمون فى قبضة العذاب؟

تبيّن هذه الآيات مصير المشركين و الكافرين مع مقارنته بمصير الأقوام الماضين، و ذلك بعد البحث الذى مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الاولى: وَ كَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ

فمع ملاحظة أنّ «القسم» يعنى الكسر المقترن بالشدّة، بل ورد أحيانا بمعنى التفتيت و التقطيع، و مع ملاحظة التأكيد على ظلم هذه الأقوام و جورها، فإنّها توحى بأنّ اللّه سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب و الانتقام للأقوام الظالمين الجائرين.

و تشير الآية ضمنا إلى أنّكم إذا درستم تاريخ السابقين و بحثتم فيه فستعلمون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۳

بأنّ تهديدات نبى الإسلام لم تكن مزاحا أو اعتباطا، بل هى حقيقة مرّة يجب أن تفكّروا فيها.

عند ذلك توضّح الآية حال هؤلاء عند ما تتّسع دائرة العذاب لتشمل ديارهم العامرة، و عجزهم أمام العقاب الإلهى، فتقول: فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ ۸۱] تماما كفلول جيش منهزم يرون سيوف العدو مسلولة وراءهم فيتفرقّون فى كلّ جانب.

إلّا أنّه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ و التقريع: لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ

إنّ هذه العبارة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين فى تلك النعمة الوفيرة، كان السائلون و طالبو الحاجات يتردّدون دائما إلى أبوابهم، يأتون و الأمل يقدمهم، و يرجعون بالخيبة و الحرمان، فالآية تقول لهم: ارجعوا و أعيدوا ذلك المشهد اللعين. و هذا فى الحقيقة نوع من الاستهزاء و الملامة.

و احتمل بعض المفسّرين أن تكون جملة لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ إشارة إلى قدرة و ثروة هؤلاء فى الدنيا، حيث كانوا يجلسون فى زاوية و علائم الابّهة و الكبرياء بادية عليهم، و كان الخدم يأتون إليهم و يحضرون عندهم بصورة متوالية و يسألون إن كان لديهم أمر أو عمل يقومون به.

أمّا من هو قائل هذا الكلام؟ فلم تصرّح الآية به، فمن الممكن أن يكون نداء بواسطة ملائكة اللّه، أو أنبيائه و رسله، أو نداء صادر من داخل ضميرهم الخفى و وجدانهم.

فى الحقيقة إنّه نداء إلهى يقول لهؤلاء: لا تفرّوا و ارجعوا، و كان يصل إليهم بإحدى هذه الطرق الثلاث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۴

و الجميل هنا أنّه قد ركّز على المسكن خاصّة من بين كلّ النعم الماديّة، و ربّما كان ذلك بسبب أنّ أوّل وسائل استقرار الإنسان هو وجود سكن مناسب. أو أنّ الإنسان يصرف أكثر مورد حياته فى بيته، و كذلك فإنّ أشدّ تعلّقه إنّما يكون بمسكنه.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء يعون فى هذا الوقت حقيقة الأمر، و يرون ما كانوا يظنّونه مزاحا من قبل قد تجلّى أمامهم بصورة جديّة تماما، فتعلو صرختهم:

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ

إلّا أنّ هذا الوعى الاضطرارى للإنسان عند ما يواجه مشاهد العذاب لا قيمة له، و لا يؤثّر فى تغيير مصير هؤلاء، و لذلك فإنّ القرآن فى آخر آية من الآيات محلّ البحث يضيف: فَما زالَتْ تِلْكَ دَعْواهُمْ حَتَّى جَعَلْناهُمْ حَصِيداً فيلقونهم على الأرض كالزرع المحصود، و تبدّل مدينتهم التى غمرتها الحياة و الحركة و العمران إلى قبور مهدّمة مظلمة، فيصبحوا خامِدِينَ ۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۵

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۱۶) لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ (۱۷) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (۱۸)

التّفسير

خلق السّماء و الأرض ليس لهوا:

لمّا كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة و هى: إنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف و غاية من خلقهم إلّا الأكل و الشرب و الملذّات، و يظنّون أنّ العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول فى الآيات التى نبحثها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، و إثبات وجود هدف عال و سام من وراء خلق كلّ العالم، و خاصّة البشر: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ

إنّ هذه الأرض الواسعة، و هذه السّماء المترامية الأطراف، و كلّ هذه الموجودات المتنوعة البديعة التى توجد فى ساحتها تبيّن أنّ هدفا مهمّا فى خلقها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۶

... نعم، إنّ الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، و إبراز جانب من عظمته من جهة، و من جهة أخرى ليكون دليلا على المعاد، و إلّا

فإنّ كلّ هذه الضجّة و الغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

هل يمكن أن يبنى الإنسان قصرا فى وسط صحراء، و يجهّزه بكلّ الوسائل، و ذلك من أجل أن يستريح فيه ساعة واحدة- طول عمره- عند مروره عليه؟

بعبارة موجزة: إذا نظرنا إلى هذا العالم العظيم من منظار الكفّار، فسنراه لا فائدة فيه و لا هدف منه، و الإيمان بالمبدأ و المعاد هو الذى يجعل له معنى و غاية.

ثمّ تقول الآية التالية: الآن و قد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب فى أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو اللّه سبحانه و تعالى عن ذلك، فإنّ هذا اللهو غير معقول، ف لَوْ أَرَدْنا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لَاتَّخَذْناهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فاعِلِينَ

«اللعب» يعنى العمل الغير هادف، و «اللهو» إشارة إلى الأهداف غير المعقولة و الملاهى.

هذه الآية تبيّن حقيقتين:

الأولى: أنّه بملاحظة كلمة (لو)، و هى فى لغة العرب للامتناع، فهى تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف اللّه هو اللهو.

و الأخرى: إنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهوا مناسبا لذاته، كأن يكون من عالم المجردات و أمثال ذلك، لا من عالم المادّة المحدود[۸۳].

ثمّ تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنّون عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۷

هدفيّة الدنيا، بل هى للهو و اللعب فقط: إنّ هذا العالم مجموعة من الحقّ و الواقع، و لم يقم أساسه على الباطل بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ

و تقول فى النهاية: وَ لَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ و تتحدّثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إنّنا نجعل الأدلّة العقليّة و الاستدلالات الواضحة و المعجزات البيّنة إلى جانب ظنون و أوهام اللاهدفيين، لتتبخّر و تتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء و أصحاب الفكر و الرأى.

إنّ أدلّة معرفة اللّه واضحة، و أدلّة وجود المعاد بيّنة، و براهين أحقيّة الأنبياء جليّة، و الحقّ يمكن تمييزه عن الباطل تماما إذا لم يكن الشخص من المعاندين.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ جملة «نقذف» من مادّة (قذف) بمعنى الإلقاء، و خاصّية الإلقاء من طريق بعيد، و لمّا كان للقذف من بعيد سرعة و قوّة أكثر، فإنّ هذا التعبير يبيّن قدرة انتصار الحقّ على الباطل. و كلمة «على» أيضا مؤيّدة لهذا المعنى.

و جملة «يدمغه» على قول الراغب كسر «الجمجمة و الدماغ»، و تعتبر أكثر نقطة فى بدن الإنسان حسّاسيّة، و هو تعبير بليغ عن غلبة جند الحقّ غلبة واضحة قاطعة.

و التعبير ب (إذا) توحى بأنّا حتّى فى الموارد التى لا ينتظر و لا يتوقّع انتصار الحقّ فيها، فإنّنا سنجرى هذه السنّة. و التعبير ب «زاهق» و الذى يعنى الشىء المضمحل، تأكيد على هذا المقصود.

و أمّا أنّ جملتى (نقذف) و (يدمغ) قد جاء تا بصيغة الفعل المضارع، فهو دليل على استمرار هذه السنّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۸

بحث

الهدف من الخلق:

فى الوقت الذى لا يعترف المادّيون بهدف للخلق، لأنّهم يعتقدون أنّ الطبيعة الفاقدة للعقل و الشعور و الهدف هى التى ابتدأت الخلق، و لهذا فإنّهم يؤيّدون اللغوية و عدم الفائدة فى مجموعة الوجود، فإنّ الفلاسفة الإلهيين و إتباع الأديان جميعا يعتقدون بوجود هدف سام للمخلوقات، لأنّ المبدئ للخلق قادر و حكيم و عالم، فمن المستحيل أن يقوم بعمل لا فائدة فيه.

و هنا ينقدح هذا السؤال: ما هو الهدف؟

قد نتوهّم أحيانا نتيجة قياس اللّه سبحانه على ذواتنا و أنفسنا و نتساءل: هل كان اللّه محتاجا و ينقصه شىء، و كان يريد بخلق الوجود، و من جملته الإنسان، أن يسدّ ذلك النقص و يرفع تلك الحاجة؟

هل هو محتاج لعبادتنا و دعائنا و مناجاتنا؟ هل كان يريد أن يعرف فخلق الخلق ليعرف؟

إلّا أنّ هذا كما قلنا خطأ كبير ناشئ من المقارنة بين اللّه و خلقه، فى حين أنّ هذه المقارنة و القياس غير الصحيح هو أكبر سدّ و مانع فى بحث معرفة صفات اللّه، و لذلك فإنّ أوّل أصل فى هذا البحث هو أن نعلم أنّ اللّه سبحانه لا يشبهنا فى أى شىء.

فالإنسان موجود محدود من كلّ النواحى، و لذلك فإنّ كلّ مساعينا هى من أجل رفع نواقصنا و احتياجاتنا، ندرس لنتعلّم فنمحو نقص جهلنا، و نسعى للعمل و الكسب لدفع الفقر و نكسب الثروة، نهيّئ الجيوش و القوى لنسدّ النقص فى قوانا أمام العدوّ، و حتّى فى الأمور المعنوية أو تهذيب النفس أو التكامل المعنوى و الروحى، فإنّ السعى و الجدّ فى كلّ ذلك من أجل رفع النواقص ...

و لكن، هل من المعقول أن يقوم الوجود المطلق غير المتناهى فى كلّ الجهات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۳۹

(فعلمه و قدرته و قوّته غير محدودة، و لا يعانى أى نقص فى الوجود) بعمل لرفع حاجته؟

يتّضح من هذا التحليل أنّ الخلق ليس عبثا من جهة، و من جهة أخرى فإنّ الهدف من الخلق لا يعود إلى الخالق. و هنا يمكن أن نصل ببساطة إلى نتيجة، و هى: أنّ الهدف، حتما و بلا شكّ، أمر يرتبط بنا.

و مع ملاحظة هذه المقدّمة يمكن التوصّل إلى أنّ هدف الخلقة هو تكاملنا و ارتقاؤنا و لا شىء سواه.

و بتعبير آخر فإنّ عالم الوجود بمثابة مدرسة لتكاملنا فى مجال العلم.

و دار حضانة لتربية و تهذيب نفوسنا.

و متجر لكسب الموارد المعنوية، و أرض زراعية غنيّة صالحة لإنتاج أنواع المحصولات الإنسانية.

أجل

«الدنيا مزرعة الآخرة ... الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها»[۸۴].

إنّ هذه القافلة قد تحركت من عالم العدم، و هى تسير دائما إلى ما لا نهاية له.

و يشير القرآن المجيد إشارات قصيرة عميقة المعنى جدّا فى آيات مختلفة إلى وجود هدف معيّن من الخلق من جهة، و من جهة أخرى فإنّه يشخّص هذا الهدف و يوضّحه.

فيقول فى الجانب الأوّل: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ۸۵].

أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۰

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا[۸۷].

و فى الجانب الآخر، فإنّه جعل هدف الخلق فى بعض الآيات عبودية اللّه و عبادته: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۸۸]، و من البديهى أنّ العبادة منهج لتربية الإنسان فى الأبعاد المختلفة ... العبادة بمعناها الشمولى التى هى التسليم لأمر اللّه ستهب روح الإنسان تكاملا فى الأبعاد المختلفة، و قد بيّنا تفصيله فى ذيل الآيات المرتبطة بالعبادات المختلفة.

و يقول: أحيانا إنّ الهدف من الخلقة هو إيقاظكم و توعيتكم و تقوية إيمانكم و اعتقادكم: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[۸۹].

و يقول تارة: إنّ الهدف من الخلق هو اختبار حسن عملكم: الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا[۹۰].

إنّ الآيات الثلاث آنفة الذكر و التى يشير كلّ منها إلى بعد من أبعاد وجود الإنسان الثلاث- بعد الوعى و الإيمان، و بعد الأخلاق، و بعد العمل- تبيّن هدف الخلق التكاملى الذى يعود على الإنسان نفسه.

و يجدر أن نشير إلى هذه «اللطيفة»، و هى أنّه لمّا كانت آيات القرآن غير حاوية لكلمة التكامل، فإنّ بعضا يتصوّر أنّها من الأفكار المستوردة، إلّا أنّ الردّ على مثل هذا التصّور أو الإشكال واضح، لأنّنا لسنا فى صدد الألفاظ الخاصّة، فمفهوم التكامل و مصاديقه جليّة فى الآيات آنفة الذكر، ترى ألم يكن العلم مصداقه الواضح .. أم لم يكن الارتقاء فى العبودية و حسن العمل من مصاديقه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

فنحن نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة محمّد قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً فهل يدلّ التعبير بالزيادة إلّا على التكامل؟

و هنا ينقدح سؤال، و هو: إذا كان الهدف هو التكامل، فلما ذا لم يخلق اللّه الإنسان كاملا منذ البداية حتّى لا يكون محتاجا إلى طىّ مراحل التكامل؟

إنّ أساس هذا الإشكال هو الغفلة عن هذه النقطة، و هى أنّ العنصر الأصلى للتكامل هو التكامل الاختيارى، و بتعبير آخر فإنّ التكامل يعنى أن يطوى الإنسان الطريق بنفسه و إرادته و تصميمه، فإذا أخذوا بيده و أوصلوه بالقوّة و الجبر فليس هذا افتخارا و لا تكاملا.

فمثلا: لو أنفق الإنسان فلسا واحدا من ماله بإرادته و تصميمه، فقد طوى من طريق الكمال الأخلاقى بتلك النسبة، فى حين أنّه لو أجبر على إنفاق الملايين من ثروته، فإنّه لم يتقدّم خطوة واحدة فى ذلك الطريق، و لذلك صرّح القرآن بهذه الحقيقة فى الآيات المختلفة، و هى أنّ اللّه سبحانه لو شاء لأجبر الناس على أن يؤمنوا، إلّا أنّ هذا الإيمان لا نفع فيه لهؤلاء: وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً[۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ (۱۹) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ (۲۰) أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (۲۱) لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۲۲) لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ (۲۳)

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (۲۴) وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (۲۵)

التّفسير

الشرك ينبع من الظنّ:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أنّ عالم الوجود ليس عبثيّا لا هدف من ورائه، فلا مزاح و لا عبث، و لا لهو و لا لعب، بل له هدف

تكاملى دقيق للبشر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

و لمّا كان من الممكن أن يوجد هذا التوهّم، و هو: ما حاجة اللّه إلى إيماننا و عبادتنا؟

فإنّ الآيات التى نبحثها تجيب أوّلا عن هـذا التوهّم، و تقول: وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ، وَ مَنْ عِنْدَهُ (أى الملائكة) لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ لا يَسْتَحْسِرُونَ ۹۲] يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لا يَفْتُرُونَ

و مع هـذا الحال فأى حاجـة لطاعتكم و عبادتكم؟ فكلّ هؤلاء الملائكة المقرّبين مشـغولون بالتسبيح ليلا و نهارا، و هو تعالى لا يحتاج حتّى لعبادة هؤلاء، فإذا كنتم قد أمرتم بالإيمان و العمل الصالح و العبودية فإنّ كلّ ذلك سيعود بالنفع عليكم.

و هنـا نقطـة تلفت الانتبـاه أيضـا، و هى أنّه فى نظـام العبيـد و الموالى الظـاهرى، كلّمـا تقرّب العبـد من مولاه يقلّ خضوعه أمامه، لأن يختصّ به أكثر، فيحتاجه المولى أكثر. أمّا فى نظام عبوديّة الخلق و الخالق فالأمر على العكس، فكلّما اقتربت الملائكة و أولياء اللّه من اللّه سبحانه زادت عبوديتهم ۹۳].

و بعـد أن نفت فى الآيات السابقـة عبثيّـة و لا هدفيّـة عالم الوجود، و أصـبح من المسـلّم أنّ لهـذا العالم هـدفا مقدّسا، فإنّ هذه الآيات تتطرّق إلى بحث مسألة وحدة المعبود و مدبّر هذا العالم، فتقول: أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ۹۴].

و هـذه الجملـة فى الحقيقـة إشارة إلى أنّ المعبود يجب أن يكون خالقا، و خاصّة خلق الحياة، لأنّها أوضح مظاهر الخلق و مصاديقه. و هذا فى الحقيقة يشبه ما نقرؤه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۴

فى الآية (۷۳) من سورة الحـجّ: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ و مع هذا الحال كيف يكون هؤلاء أهلا للعبادة؟

التعبير ب آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ إشارة إلى الأصـنام و المعبودات التى كانوا يصـنعونها من الحجارة و الخشب، و كانوا يظنّونها حاكمة على السماوات.

و تبيّن الآية التالية أحد الأدلّة الواضـحة على نفى آلهة و أرباب المشـركين، فتقول: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ

هـذه الادّعاءات غير الصـحيحة و هـذه الأرباب المصـنوعة و الآلهـة المظنونـة ليست إلّا أوهاما، و ساحـة كبرياء ذاته المقدّسة لا تتلوّث بهذه النسب المغلوطة.

برهان التمانع:

إنّ الـدليل الوارد فى الآيـة آنفـة الذكر و لإثبات التوحيد و نفى الآلهة، فى الوقت الذى هو بسـيط و واضح، فإنّه من البراهين الفلسـفيّة الدقيقة فى هذا الباب، و يذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). و يمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلى:

إنّنا نرى- بـدون شكّ- نظاما واحـدا حاكما فى هـذا العالم، ذلك النظام المتناسق من جميع جهاته، فقوانينه ثابتـة تجرى فى الأرض و السّماء، و مناهجه متطابقة بعضها مع بعضها، و أجزاؤه متناسبة.

إنّ انسـجام القوانين و أنظمـة الخلقة هذا يحكى أنّها تنبع من عين واحدة، لأنّ البدايات إن كانت متعدّدة، و الإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الانسجام مطلقا، و هذا الشىء الذى يعبّر عنه القرآن ب (الفساد) يلاحظ فى العالم بوضوح.

إذا كنّا من أهل التحقيق و المطالعة- و لو قليلا- فإنّا نسـتطيع أن نفهم جيدا من خلال تحقيق كتاب ما، أنّ كاتبه شـخص واحد أم عدّة

أشخاص؟ فإنّ الكتاب الذى يؤلّفه شخص واحد يوجد انسجام خاص بين عباراته، ترتيب جمله، تعبيراته المختلفة، كناياته و إشاراته، عناوينه و رؤوس مطالبه، طريقة الدخول فى البحوث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۵

و الخروج منها، و الخلاصة: إنّ كلّ أقسامه متحدّة متناسقة لأنّها وليدة فكر واحد، و ترشّح قلم واحد.

أمّا إذا تعهّد شخصان أو عدّة أشخاص بأن يؤلّف كلّ منهم جزءا من الكتاب- و إن كان الجميع علماء متقاربين فى الروح و التفكير- فستظهر آثار هذه الازدواجية أو الكثرة فى العبارات و الألفاظ، و طريقة الأبحاث. و سبب ذلك واضح، لأنّ الفردين مهما كانا منسجمين فى الفكر و الذوق، فإنّهما فى النتيجة فردان، فلو كانت كلّ أشيائهما واحدة لأصبحا فردا واحدا، فبناء على هذا فيجب أن يكون هناك تفاوت فيما بينهما قطعا ليتمكّنا أن يكونا فردين، و هذا الاختلاف سيؤثّر أثره فى النتيجة، و سيبدى آثاره فى كتاباتهما.

و كلّما كان هذا الكتاب أكبر و أكثر تفصيلا، و يبحث مواضيع متنوّعة، فإنّ عدم الانسجام يلمس فيه أوضح. و كتاب عالم الخلقة الكبير، الذى نضيّع بكلّ وجودنا فى طيّات عباراته لعظمته يشمله هذا القانون أيضا.

حقّا إنّنا لا نستطيع مطالعة كلّ هذا الكتاب حتّى لو صرفنا كلّ عمرنا فى مطالعته، إلّا أنّ هذا القدر الذى وفّقنا نحن- و جميع العلماء- لمطالعته منسجم إلى الحدّ الذى يدلّ تماما على وحدة مؤلّفه ... إنّنا كلّما تصفّحنا هذا الكتاب العجيب فستظهر بين كلماته و سطوره و صفحاته آثار تنظيم عال و انسجام منقطع النظير.

فإذا كانت هناك إرادات و بدايات متعدّدة تتدخّل فى إدارة هذا العالم و تنظيمه، فهل كان بالإمكان أن يوجد مثل هذا الانسجام؟

و لو فكّرنا: لماذا يستطيع علماء الفضاء أن يرسلوا السفن الفضائية إلى الفضاء بدقّة كاملة، و ينزلوا العربة على القمر فى المحلّ الذى قدروه من الناحية العلمية بدقّة متناهية، ثمّ يحرّكونها من هناك و ينزلونها إلى الأرض فى المحل الذى توقّعوه؟

ألم تكن هذه الدقّة فى الحسابات لكون النظام الحاكم على كلّ الوجود الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۶

هو أساس حسابات هؤلاء العلماء- دقيقا و منسجما، بحيث إذا كان هناك شىء من عدم الانسجام- و من الناحية الزمنيّة جزء من مائة من الثّانية- فستضطرب جميع حساباتهم؟

و نقول باختصار: إذا كانت هناك إرادتان أو عدّة إرادات حاكمة فى العالم، فإنّ لكلّ واحدة قضاء، و كانت الاخرى تمحو أثر الأولى، و سيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

سؤال:

و هنا يثار سؤال يمكن استلهام جوابه من التوضيحات السابقة، و هو: إنّ تعدّد الآلهة يكون منشأ للفساد عند ما يحارب أحدها الآخر، أمّا إذا اعتقدنا بأنّ هؤلاء أفراد حكماء عالمون، فإنّهم يتعاونون فيما بينهم و يديرون العالم.

و جواب هذا السؤال لا لبس فيه: فإنّ كونهم حكماء لا يزيل تعدّدهم، فعند ما نقول: إنّهم متعدّدون، فإنّ معناه إنّهم ليسوا متحدّين من جميع الجهات، لأنّهم إن اتّحدوا من كلّ الجوانب أصبحوا إلها واحدا، و بناء على ذلك فأينما وجد التعدّد وجد الاختلاف الذى يؤثّر فى الإدارة و العمل شئنا أم أبينا، و هذا سيجرّ عالم الوجود إلى الهرج و المرج.

و قد استند فى بعض هذه الاستدلالات إلى أنّه لو كان هناك إرادتان حاكمتان على الخلق، لما كان هناك عالم أصلا. فى حين أنّ هذه الآية تتحدّث عن فساد العالم و اختلال النظام، لا عن عدم وجود العالم.

و من اللطيف أن نقرأ فى حديث يرويه هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب الرجل الملحد الذى كان يتحدّث

عن تعدّد الآلهة، أنّه

قال: «لا يخلو قولك أنّهما اثنان من أن يكونا قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويّا و الآخر ضعيفا، فإن كانا قويّين فلم لا يدفع كلّ واحد منهما صاحبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۱۴۷

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

و ينفرد بالتدبير، و إن زعمت أنّ أحدهما قوى و الآخر ضعيف ثبت أنّه واحد كما تقول، للعجز الظاهر فى الثّانى، و إن قلت: إنّهما اثنان، لا يخلو من أن يكونا متّفقين من كلّ جهة أو متفرّقين من كلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظما، و الفلك جاريا، و اختلاف الليل و النهار، و الشمس و القمر، دلّ صحّة الأمر و التدبير و ائتلاف الأمر أنّ المدبّر واحد.

ثمّ يلزمك إن ادّعيت إثنين فلا بدّ من فرجة بينهما حتّى يكونا إثنين، فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثة، فإن ادّعيت ثلاثة لزمك ما قلنا فى الإثنين حتّى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسا، ثمّ يتناهى فى العدد إلى ما لا نهاية فى الكثرة»[۹۵].

إنّ بداية هذا الحديث إشارة إلى برهان التمانع، و نهايته إشارة إلى برهان آخر يسمّى ب (برهان الفرجة).

و

فى حديث آخر: إنّ هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السّلام: ما الدليل على أنّ اللّه واحد؟ قال: «اتّصال التدبير، و تمام الصنع، كما قال اللّه عزّ و جلّ: لو كان فيهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا»[۹۶].

و بعد أن ثبت بالاستدلال الذى ورد فى الآية توحيد مدبّر و مدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنّه قد نظّم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال و الانتقاص و لا أحد يعترض عليه فى خلقه: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ

و بالرغم من أنّ المفسّرين قد تكلّموا كثيرا حول تفسير هذه الآية، إلّا أنّ ما ذكرناه أعلاه يبدو هو الأقرب.

و توضيح ذلك: أنّ لدينا نوعين من الأسئلة:

الأوّل: السؤال التوضيحى، و هو أن يكون الإنسان جاهلا ببعض المسائل،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۸

و يرغب فى أن يدرك حقيقتها، و حتى إذا علم و آمن بأنّ هذا العمل الذى تمّ كان صحيحا، فإنّه يريد أن يعلم النقطة الأصليّة و الهدف الحقيقى منه، و مثل هذا السؤال جائز حتّى حول أفعال اللّه، بل إنّ هذا السؤال يعتبر أساس و مصدر الفحص و التحقيق فى عالم المخلقة و المسائل العلميّة، و قد كان لأصحاب النّبى و الأئمّة كثير من هذه الأسئلة سواء فيما يتعلّق بعالم التكوين أو التشريع.

أمّا النوع الثّانى: فهو السؤال الاعتراضى، و الذى يعنى أنّ العمل الذى تمّ كان خطأ، كأن ينقض إنسان عهده بلا سبب، فنقول: لماذا نقضت عهدك؟ فليس الهدف طلب التوضيح، بل الهدف الاعتراض و التخطئة.

من المسلّم أنّ هذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال اللّه الحكيم، و إذا ما اعترض أحد أحيانا فلجهله، إلّا أنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى جواب سؤال جابر الجعفرى عن هذه الآية أنّه قال: «لأنّه لا يفعل إلّا ما كان حكمة و صوابا»[۹۷].

و يمكن أن تستخلص نتيجة من هذا الكلام، و هى: إنّ أحدا إذا سأل سؤالا من النوع الثّانى، فهو دليل على أنّه لم يعرف اللّه معرفة صحيحة لحدّ الآن، و هو جاهل بكونه حكيما.

و تشتمل الآية التالية على دليلين آخرين فى مجال نفى الشرك، فمضافا إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلّة.

تقول الآيـة أوّلا: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ و هو إشارة إلى أنّكم إذا صرفتم النظر عن الـدليل السابق القائم على أنّ نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنّه لا يوجد أى دليل- على الأقل- على إثبات الشرك و الوهيّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۴۹

هذه الآلهة، فكيف يتقبّل إنسان عاقل مطلبا لا دليل عليه؟

ثمّ تشير إلى الدليل الأخير فتقول: هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرُ مَنْ قَبْلِي و هذا هو الدليل الذى ذكره علماء العقائد تحت عنوان (إجماع و اتّفاق الأنبياء على التوحيد).

و لمّا كانت كثرة المشركين (و خاصّة فى ظرف حياة المسلمين فى مكّة، و التى نزلت فيها هذه السورة) مانعا أحيانا من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهى تضيف: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ

لقد كانت مخالفة الأكثرية الجاهلة فى كثير من المجتمعات دليل و حجّة لإعراض الغافلين الجاهلين دائما، و قد انتقد القرآن الاستناد إلى هذه الأكثرية بشدّة فى كثير من الآيات، سواء التى نزلت فى مكّة أو المدينة، و لم يعرها أيّة أهميّة، بل اعتبر المعيار هو الدليل و المنطق.

و لمّا كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلة الغافلين أنّ لدينا أنبياء كعيسى مثلا دعوا إلى آلهة متعدّدة، فإنّ القرآن الكريم يقول فى آخر آيـة من الآيات محلّ البحث بصراحة تامّة: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ و بهذا يثبت أنّه لا عيسى و لا غيره قد دعا إلى الشرك، و مثل هذه النسبة إليه تهمة و افتراء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ (۲۶) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (۲۷) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (۲۸) وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (۲۹)

التّفسير

الملائكة عباد مكرمون مطيعون:

لمّا كان الكلام فى آخر آية عن الأنبياء، و نفى كلّ أنواع الشرك، و نفى كون المسيح عليه السّلام ولدا، فإنّ كلّ الآيات محلّ البحث تتحدّث حول نفى كون الملائكة أولادا.

و توضيح ذلك أنّ كثيرا من مشركى العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه، و لهذا السبب كانوا يعبدونها أحيانا، و القرآن الكريم انتقد هذه العقيدة الخرافية التى لا أساس لها، و بيّن بطلانها بالأدلّة المختلفة.

يقول أوّلا: وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً فإن كان مرادهم الولد الحقيقى، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

يلزم من هـذا الجسـميّة، و إن كـان المراد التبنّى- و الـذى كـان اعتياديـا و متـداولا بين العرب- فـإنّ ذلك أيضا دليل على الضـعف و الاحتياج، و فوق كلّ ذلك فإنّ الـذى يحتاج إلى الولد هو الذى يفنى، و يجب أن يديم ابنه حياته على المدى البعيد، و كذلك ليبقى نسـله و كيانه و آثاره، أو لإبعاد الإحساس بالوحـدة و الحاجة إلى المؤنس، أو ليكتسب القدرة و القوّة. إلّا أنّ الوجود الأزلى الأبدى و غير الجسمانى، و غير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له. و لذلك فإنّ القرآن يقول مباشرة: سُبْحانَهُ

ثمّ تبيّن أوصاف الملائكة فى ستّة أقسام تشكّل بمجموعها دليلا واضحا على نفى كونهم أولادا:

۱- بل عباد.

۲- مكرمون.

فليس هؤلاء عبادا هاربين خضـعوا للخدمة تحت ضـغط المولى، بل هم عباد لائقون يعرفون طريق العبودية و أصولها و يفتخرون بها، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أحبّهم، و أفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم فى العبودية.

۳- إنّ هؤلاء على درجة من الأدب و الخضوع و الطاعة للّه بحيث لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ

۴- و كذلك من ناحية العمل أيضا فهم مطيعون وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثمّ أشارت إلى إحاطة علم اللّه بهؤلاء فتقول: إنّ اللّه تعالى يعلم أعمالهم الحاضـرة و فى المستقبل، و كذلك أعمالهم السالفة، و أيضا يعلم دنياهم و آخرتهم و قبل وجودهم و بعده: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ ۹۸] و من المسلّم أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۲

الملائكة مطّلعون على هذا الموضوع، و هو أنّ للّه إحاطة علمية بهم، و هذا العرفان هو السبب فى أنّهم لا يسبقونه بالقول، و لا يعصون أمره، و لهذا فإنّ هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

۵- و لا شكّ أنّ هؤلاء الذين هم عباد اللّه المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ هؤلاء وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضـى و من المسـلّم أنّ رضـى اللّه و إذنه فى الشـفاعة لا- يمكن أن يكون أى منهمـا اعتباطيـا، بـل لا بـدّ أن يكون من أجل الإيمان الحقيقى، أو الأعمال التى تحفظ علاقة الإنسان باللّه.

و بتعبير آخر، فإنّ من الممكن أن يتلوّث الإنسان بالمعصية، إلّا أنّه إذا لم يقطع علاقته باللّه و أوليائه تماما، فإنّ الشفاعة تؤمّل فى حقّه. أمّـا إذا قطع علاقته تماما من ناحيـة الاتّجاه الفكرى و العقائـدى، أو أنّه غرق فى المعاصـى و الانحراف من الناحيـة العمليـة، إلى الحدّ الذى يفقد معه لياقة الشفاعة أو استحقاقها، ففى هذه الحال سوف لا يشفع له أى نبى مرسل أو ملك مقرّب.

إنّ هـذا هو نفس المطلب الـذى أوردناه فى بحث فلسـفة الشـفاعة ضـمن البحوث السابقـة، بأنّ الشـفاعة هى طريق لتهذيب الإنسان، و وسـيلة لإرجاع المذنبين إلى الصراط المستقيم، و المنع من اليأس أو القنوط، و الذى هو بنفسه عامل للانزلاق و الغرق فى الانحراف و المعصية.

إنّ الإيمان بمثل هـذه الشـفاعة يبعث على بقاء ارتباط المذنبين باللّه و رسـله و الأئمّة، و لا يهدموا كلّ الجسور خلفهم، و يحفظوا خطّ الرجعة[۹۹].

ثمّ إنّ هـذه الجملـة تجيب ضـمنا أولئك الذين يقولون: إنّنا نعبد الملائكة لتشـفع لنا عند اللّه، فيقول القرآن لهم: إنّ هؤلاء لا يقدرون على فعل شىء من تلقاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۳

أنفسهم، و كلّ ما تريدونه يجب أن تطلبوه من اللّه مباشرة، و حتّى إذن شفاعة الشافعين.

۶- و نتيجة لهذه المعرفة و الوعى وَ هُمْ مِنْ خَشْـيَتِهِ مُشْفِقُونَ فهم لا يخشون من أن يكونوا قد أذنبوا، بل يخافون من التقصير فى العبادة

أو ترك الأولى.

و من بديع اللغة العربية، أنّ «الخشية» من ناحية الأصل اللغوى لا تعنى كلّ خوف، بل الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام.

و كلمة «مشفق» من مادّة الإشفاق، بمعنى التوجّه الممتزج بالخوف، لأنّها فى الأصل مأخوذة من الشفق، و هو الضياء الممتزج بالظلمة.

فبناء على هذا، فإنّ خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثة مرعبة مخيفة، و كذلك إشفاقهم فإنّه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إنّ خوفهم و إشفاقهم ممزوجان بالاحترام، و العناية و التوجّه، و المعرفة و الإحساس بالمسؤولية[۱۰۰].

من الواضح أنّ الملائكة مع هذه الصفات البارزة و الممتازة، و مقام العبودية الخالصة لا يدّعون الالوهية مطلقا، أمّا إذا فرضنا ذلك وَ مَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلهٌ مِنْ دُونِهِ فَذلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ إنّ ادّعاء الالوهية فى الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس و المجتمع، و يندرج فى القانون العامّ كَذلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ (۳۰) وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۳۱) وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ (۳۲) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۳۳)

التّفسير

علامات أخرى للّه فى عالم الوجود:

تعقيبا على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، و الأدلّة التى ذكرت على التوحيد، فإنّ فى هذه الآيات سلسلة من براهين اللّه فى عالم الوجود، و تدبيره المنظّم، و تأكيدا على هذه البحوث تقول أوّلا: أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَ فَلا يُؤْمِنُونَ

لقد ذكر المفسّرون أقوالا كثيرة فيما هو المراد من «الرتق» و «الفتق»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

المذكورين هنا فى شأن السماوات و الأرض؟ و يبدو أنّ الأقرب من بينها ثلاثة تفاسير، و يحتمل أن تكون جميعا داخلة فى مفهوم الآية[۱۰۱].

۱- إنّ رتق السّماء و الأرض إشارة إلى بداية الخلقة، حيث يرى العلماء أنّ كلّ هذا العالم كان كتلة واحدة عظيمة من البخار المحترق، و تجزّأ تدريجيّا نتيجة الإنفجارات الداخلية و الحركة، فتولّدت الكواكب و النجوم، و من جملتها المنظومة الشمسية و الكرة الأرضية، و لا يزال العالم فى توسّع دائب.

۲- المراد من الرتق هو كون مواد العالم متّحدة، بحيث تداخلت فيما بينها و كانت تبدو و كأنّها مادّة واحدة، إلّا أنّها انفصلت عن بعضها بمرور الزمان، فأوجدت تركيبات جديدة، و ظهرت أنواع مختلفة من النباتات و الحيوانات و الموجودات الأخرى فى السّماء و الأرض، موجودات كلّ منها نظام خاص و آثار و خواص تختص بها، و كلّ منها آية على عظمة اللّه و علمه و قدرته غير

المتناهية[۱۰۲].

۳- إنّ المراد من رتق السّماء هو أنّها لم تكن تمطر فى البداية، و المراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلّا أنّ اللّه سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السّماء المطر، و أخرج من الأرض أنواع النباتات. و الرّوايات المتعدّدة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى المعنى الأخير، و بعضها يشير إلى التّفسير الأوّل ۱۰۳].

لا شكّ أنّ التّفسير الأخير شىء يمكن رؤيته بالعين، و كيف أنّ المطر ينزل من السّماء، و كيف تنفتق الأرض و تنمو النباتات، و هو يناسب تماما قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا و كذلك ينسجم و قوله تعالى: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

إلّا أنّ التّفسيرين الأوّل و الثّانى أيضا لا يخالفان المعنى الواسع لهذه الآية، لأنّ الرؤية تأتى أحيانا بمعنى العلم. صحيح أنّ هذا العلم و الوعى ليس للجميع، بل إنّ العلماء وحدهم الذين يستطيعون أن يكتسبوا العلوم حول ماضى الأرض و السّماء، و اتّصالهما ثمّ انفصالهما، إلّا أنّنا نعلم أنّ القرآن ليس كتابا مختصا بعصر و زمان معيّن، بل هو مرشد و دليل للبشر فى كلّ القرون و الأعصار.

من هذا يظهر أنّ له محتوى عميقا يستفيد منه كلّ قوم و فى كلّ زمان، و لهذا نعتقد أنّه لا مانع من أن تجتمع للآية التفاسير الثلاثة، فكلّ فى محلّه كامل و صحيح و قد قلنا مرارا: إنّ استعمال لفظ واحد فى أكثر من معنى ليس جائزا فحسب، بل قد يكون أحيانا دليلا على كمال الفصاحة، و إنّ ما نقرؤه فى الرّوايات من أنّ للقرآن بطونا مختلفة يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى.

و أمّا فيما يتعلّق بإيجاد كلّ الكائنات الحيّة من الماء الذى أشير إليه فى ذيل الآية، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إنّ حياة كلّ الكائنات الحيّة- سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هذا الماء الذى كان مبدؤه- المطر الذى نزل من السّماء.

و الآخر: إنّ الماء هنا إشارة إلى النطفة التى تتولّد منها الكائنات الحيّة عادة.

و ما يلفت النظر أنّ علماء عصرنا الحديث يعتقدون أنّ أوّل انبثاقة للحياة وجدت فى أعماق البحار، و ذلك يرون أنّ بداية الحياة من الماء. و إذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء و التراب.

و الجدير بالذكر أيضا أنّه طبقا لتحقيقات العلماء، فإنّ الماء يشكّل الجزء الأكبر من بدن الإنسان و كثير من الحيوانات، و هو فى حدود ۷۰٪! و ما يورده البعض من أنّ خلق الملائكة و الجنّ ليس من الماء، مع أنّها كائنات حيّة، فجوابه واضح، لأنّ المراد هو الموجودات الحيّة المحسوسة بالنسبة لنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رجلا سأله: ما طعم الماء؟ فقال الإمام أوّلا: «سل تفقّها و لا تسأل تعنّتا» ثمّ أضاف: «طعم الماء طعم الحياة! قال اللّه سبحانه: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ

و خاصة عند ما يصل الإنسان إلى الماء السائغ بعد عطش طويل فى الصيف، و فى ذلك الهواء المحرق، فإنّه حينما تدخل أوّل جرعة ماء إلى جوفه يشعر أنّ الروح قد دبّت فى بدنه، و فى الواقع أراد الإمام أن يجسّد الارتباط و العلاقة بين الحياة و الماء بهذا التعبير الجميل.

و أشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد و نعم اللّه الكبيرة، فقالت: وَ جَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ۱۰۴] و قلنا فيما مضى: إنّ الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، و هذا هو الذى يمنع- إلى حدّ كبير- من الزلازل الأرضيّة الشديدة التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية. إضافة إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشرة الأرضيّة أمام ظاهرة المدّ و الجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحدّ الأدنى.

و من جهة أخرى فلو لا الجبال، فإنّ سطح الأرض سيكون معرّضا للرياح القويّة دائما، و سوف لا تستقرّ على حال أبدا، كما هى حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثمّ أشارت الآية إلى نعمة أخرى، و هى أيضا من آيات عظمة اللّه، فقالت:

وَ جَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

و لو لم تكن هذه الوديان و الفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمة الموجودة فى المناطق المختلفة من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۸

ارتباطها تماما، و هذا يدلّ انّ هذه الظواهر الكونيّة كلّها وفق حساب دقيق.

و لمّا كان استقرار الأرض لا يكفى لوحده لاستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمنا ممّا فوقه، فإنّ الآية التالية تضيف: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ هُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ

المراد من السّماء هنا- كما قلنا سابقا- هو الجوّ الذى يحيط بالأرض دائما، و تبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء و هذه الطبقة رقيقة ظاهرا، و تتكوّن من الهواء و الغازات، و هى محكمة و منيعة إلى الحدّ الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا و يفنى و يتحطّم، فهى تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب و النيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشدّ خطرا حتّى من القذائف العسكرية.

إضافة إلى أنّ هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفية أشعّة الشمس التى تحتوى على أشعّة قاتلة و تمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة. أجل، إنّ هذه السّماء سقف متين منيع حفظه اللّه من الهدم و السقوط[۱۰۵].

و تطرّقت الآية الأخيرة إلى خلق الليل و النهار و الشمس و القمر، فقالت:

وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

بحثان

۱- تفسير قوله تعالى: كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

اختلف المفسّرون فى تفسير هذه الآية، أمّا ما يناسب تحقيقات علماء الفلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۵۹

الثابتة، فهو أنّ المراد من حركة الشمس فى الآية إمّا الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسيّة.

و لا بدّ من الإشارة إلى أنّ كلمة (كل) يمكن أن تكون إشارة إلى الشمس و القمر، و كذلك النجوم، و التى تستفاد من كلمة «الليل».

و احتمل بعض المفسّرين أن تكون إشارة إلى كلّ من الليل و النهار و الشمس و القمر، لأنّ «الليل»- و الذى هو الظّل المخروطى للأرض- له مدار خاص، فإذا نظر إنسان- خارج الكرة الأرضية- من بعيد إليه، فسيرى أنّ هذا الظل المخروطى فى حركة مستمرة حول الأرض، و سيرى نور الشمس الذى يشعّ على الأرض و يشكّل فى النهار كالأسطوانة التى تنتقل دائما حول هذه الكرة، و بناء على هذا فإنّ لكلّ من الليل و النهار مدارا و مكانا خاصا به ۱۰۶].

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من حركة الشمس حركتها فى إحساسنا، لأنّ كلّا من الشمس و القمر فى دوران مستمر فى نظر الناظرين من أهل الأرض ..

۲- السّماء سقف محكم

قلنا فيما مضى: إنّ (السّماء) وردت فى القرآن بمعان مختلفة، فجاءت تارة بمعنى الجو، أىّ الطبقة الضخمة من الهواء (الغلاف الغازى) الذى يحيط بالأرض، كالآية آنفة الذكر. و لا بأس أن نسمع هنا توضيحا أكثر حول إحكام هذا السقف العظيم من لسان العلماء:

كتب (فرانك ألن) أستاذ الفيزياء الحياتية يقول: إنّ الجو الذى يتكوّن من الغازات التى تحفظ الحياة على سطح الأرض ضخم إلى الحدّ الذى يستطيع أن يكون كالدرع الذى يحفظ الأرض من شرّ المجموعة القاتلة المتكوّنة من عشرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۰

مليون شهاب سماوى تسير بسرعة ۵۰ كيلومتر فى الثّانية لتتساقط يوميا على الأرض.

إنّ الغلاف الجوى إضافة إلى فوائده الأخرى، فإنّه يحفظ درجة الحرارة على سطح الأرض فى حدود مناسبة تساعد على الحياة، و هو ذخيرة مهمّة جدّا لنقل الماء و البخار من المحيطات إلى اليابسة، و لو لم يكن كذلك لكانت كلّ القارات صحارى يابسة لا يمكن الحياة فيها، و على هذا فيجب القول بأنّ المحيطات و الغلاف الجوّى هى التى تحفظ للأرض توازنها و ثباتها فى مدارها.

إنّ وزن بعض هذه الشهب التى تسقط على الأرض يبلغ جزءا من ألف من الغرام، إلّا أنّ قوته نتيجة تلك السرعة الخارقة يعادل قوّة الأجزاء الذرية التى فى القنبلة المخرّبة! و قد يكون حجم تلك الشهب بمقدار ذرّة الرمل أحيانا! فى كلّ يوم تحترق ملايين من هذه الشهب قبل وصولها إلى سطح الأرض، أو تتحوّل إلى بخار، إلّا أنّ حجم و وزن بعض الشهب كبير إلى حدّ تخترق معه الغلاف الجوى و تصيب سطح الأرض.

و من جملة الشهب التى عبرت الغلاف الغازى و وصلت إلى الأرض، هو الشهاب العظيم المعروف ب (سيبرى)، و الذى أصاب الأرض سنة ۱۹۰۸ و كان قطره بشكل أنّه شغل مكانا من الأرض بمقدار (۴۰) كيلومترا تقريبا و سبّب خسائر كبيرة.

و الشهاب الآخر الذى سقط فى (أريزونا) فى أمريكا، و الذى كان بقطر كيلومتر واحد و عمق (۲۰۰) متر، أحدث عند سقوطه على الأرض حفرة عميقة فيها، و تولّدت منه شهب صغيرة كثيرة نتيجة انفجاره شغلت مساحة كبيرة نسبيّا من الأرض.

و يكتب (كرسى موريسن): إنّ الهواء المحيط بالأرض لو كان أقل قليلا ممّا عليه، فإنّ الأجرام السماوية و الشهب الثاقبة التى ترده بمقدار عدّة ملايين شهاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۱

فى اليوم، و تتلاشى فى الفضاء الخارجى، فإنّها كانت تصل إلى الأرض دائما و تصيبها.

إنّ هذه الأجرام الفلكيّة تتحرّك بسرعة ۶- ۴۰ ميل فى الثّانية! و هى تنفجر و تحترق عند اصطدامها بأى شىء، و لو كانت سرعة هذه الأجرام أقل ممّا هى عليه- مثلا بسرعة الطلقة- فإنّها كانت تسقط على الأرض جميعا، و يتّضح مقدار تدميرها فيما لو أنّ إنسانا تعرّض لسقوط أصغر جرم من هذه الأجرام السماوية عليه، فإنّها كانت ستمزّقه إربا إربا و تفنيه لشدّة حرارتها، لأنّها تتحرّك بسرعة تعادل سرعة الطلقة (۹۰) مرّة! إنّ سمك الهواء المحيط بالأرض يبلغ مقدارا يسمح أن يمرّ من خلاله إلى الأرض المقدار اللازم من الأشعّة الكونية لنمو النباتات، و يقتل كلّ الجراثيم المضرّة فى ذلك الفضاء، و يوجد الفيتامينات المفيدة[۱۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۲

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ (۳۴) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۳۵)

التّفسير

الموت يتربّص بالجميع:

قرأنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسألة كون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بشرا من أجل التشكيك بنبوّته، و كانوا يعتقدون أنّ النّبى يجيب أن يكون ملكا و خاليا من كلّ العوارض البشريّة.

إنّ الآيات- محلّ البحث- أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارة أنّ انتفاضة النّبى (و فى نظرهم شاعر) لا دوام لها، و سينتهى بموته كلّ شىء، كما جاء فى الآية (۳۰) من سورة الطور، أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

و كانوا يظنّون تارة أخرى أنّ هذا الرجل لمّا كان يعتقد أنّه خاتم النبيّين، فيجب أن لا يموت أبدا ليحفظ دينه، و بناء على هذا فإنّ موته فى المستقبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

سيكون دليلا على بطلان ادّعائه. فيجيبهم القرآن فى أوّل آية بجملة قصيرة فيقول:

وَ ما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ.

إنّ قانون الخلقة هذا لا يقبل التغيير، أى أنّه لا يكتب لأحد الخلود، و إذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ

ربّما لا نحتاج إلى توضيح أنّ بقاء الشريعة و الدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول. فإنّ شرائع إبراهيم و موسى و عيسى عليه السّلام و إن لم تكن خالدة، إلّا أنّها بقيت بعد وفاة هؤلاء الأنبياء العظام (و بالنسبة لعيسى فإنّ شريعته استمرت بعد صعوده إلى السّماء) لقرون طويلة. و بناء على هذا فإنّ خلود المذهب لا يحتاج إلى حراسة النّبى الدائمة له، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه فى إقامة دينه و السير على خطاه.

و أمّا ما تصوّره أولئك من أنّ كلّ شىء سينتهى بموت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فإنّهم أخطأوا فى ظنّهم، لأنّ هذا الكلام يصحّ فى المسائل التى تقوم بالشخص.

و الإسلام لم يكن قائما بالنّبى و لا بأصحابه. فقد كان دينا حيّا- ينطلق متقدّما بحركة الذاتية الداخلية و يخترق حدود الزمان و المكان و يواصل طريقه! ثمّ يذكر قانون الموت العامّ الذى يصيب كلّ النفوس بدون استثناء فيقول:

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ

و يجب أن نذكّر بأنّ لفظة (النفس) قد استعملت فى القرآن بمعان مختلفة، فأوّل معنى للنفس هو الذات، و هذا المعنى واسع يطلق حتّى على ذات اللّه المقدّسة، كما نقرأ: كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ[۱۰۸].

ثمّ استعملت هذه الكلمة فى الإنسان، أى مجموع جسمه و روحه، مثل:

مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً[۱۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

و استعملت أحيانا فى خصوص روح الإنسان كما فى أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ ۱۱۰].

و من الواضح أنّ المراد من النفس فى الآيات التى نبحثها هو المعنى الثّانى، و بناء على هذا فإنّ المراد هو بيان قانون الموت العام فى

حقّ البشر، و بذلك لا يبقى مجال للإشكال على الآية بأنّ التعبير بالنفس يشمل اللّه أو الملائكة أيضا فكيف نخصّص الآية و نخرج اللّه و الملائكة منها؟[۱۱۱].

و بعد ذكر قانون الموت الكلّى يطرح هذا السؤال، و هو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ و أى فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ أى إنّ مكانكم الأصلى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، و إنّما تأتون هنا لتؤدّوا الاختبار و «الامتحان»، و بعد اكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلى و هو الدار الآخرة.

و ممّا يسترعى النظر أنّ «الشرّ» مقدّم على «الخير» من بين المواد الامتحانية، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الامتحان الإلهى و إن كان تارة بالنعمة و أخرى بالبلاء، إلّا أنّ من المسلّم أنّ الامتحان بالبلاء أشدّ و أصعب.

و أمّا «الشرّ» فإنّه لا يعنى مطلق الشرّ، لأنّ الفرض أنّ هذا الشرّ عبارة عن وسيلة للاختبار و التكامل، و بناء على هذا فإنّ المراد هو الشرّ النسبى، و أساسا لا يوجد شرّ مطلق فى مجموع عالم الوجود بالنظرة التوحيديّة الصحيحة! و لذلك نقرأ

فى حديث أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام مرض يوما فجاء جمع من أصحابه لعيادته، فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «بشرّ»! قالوا: ما هذا كلام مثلك؟! قال: «إنّ اللّه تعالى يقول: و نبلوكم بالشرّ و الخير فتنة، فالخير الصحّة و الغنى، و الشرّ المرض و الفقر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

و يبقى هنا سؤال مهمّ، و هو: لماذا يختبر اللّه عباده؟ و ماذا يعنى الاختبار من قبل اللّه؟ و قد ذكرنا جواب هذا السؤال فى ذيل الآية (۱۵۵) من سورة البقرة، و قلنا: إنّ الامتحان من اللّه تعالى لعباده يعنى تربيتهم. طالعوا التّفصيل الكامل لهذا الموضوع هناك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۶

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۳۶ الى ۴۰]

اشارة

وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ (۳۶) خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آياتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (۳۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۸) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۳۹) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۴۰)

التّفسير

خلق الإنسان من عجل!

نواجه فى هذه الآيات مرّة أخرى، بحوثا أخرى حول موقف المشركين من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، حيث يتّضح نمط تفكيرهم المنحرف فى المسائل الأصولية، فتقول أوّلا: وَ إِذا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً فهؤلاء لا عمل لهم إلّا السخرية و الاستهزاء، و يشيرون إليك بعدم اكتراث و يقولون: أَ هذَا الَّذِى يَذْكُرُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۷

آلِهَتَكُمْ ۱۱۲] وَ هُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ

ممّا يثير العجب هو إنّه لو ازدرى أحد هذه الأصنام الخشبية و الحجرية (و ما هو بمزدر لها، بل يفصح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هذه

موجودات لا ـ روح فيها و لا ـ شعور و لا ـ قيمة لها، لتعجبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذى عمّت آثار رحمته و عظمته الأرض و السّماء و ما من شىء إلّا و فيه دليل على عظمته و رحمته، لما أثار إعجابهم!! نعم، إنّ الإنسان إذا إعتاد أمرا و تطبّع عليه و تعصّب له فإنّه سيتقدّس فى نظره و إن كان أسوء الأمور، و إذا عادى شيئا فسيبدو سيّئا فى نظره تدريجيّا و إن كان أجمل الأمور و أحبّها.

ثمّ تشير إلى أمر آخر من الأمور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فتقول:

خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ و بالرغم من اختلاف المفسّرين فى تفسير كلمتى (إنسان) و (عجل)، و لكن من المعلوم أنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان- طبعا الإنسان المتحلّل و الخارج عن هداية القادة الإلهيين و حكومتهم- و المراد من «عجل» هى العجلة و التعجيل، كما تشهد الآيات التالية على هذا المعنى، و كما نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ كانَ الْإِنْسانُ عَجُولًا[۱۱۳].

إنّ تعبير خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ فى الحقيقة نوع من التأكيد، أى إنّ الإنسان عجول إلى درجة كأنّه خلق من العجلة، و تشكّلت أنسجته و وجوده منها! و فى الواقع، فإنّ كثيرا من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون فى الخير و فى الشرّ، و حتّى حين يقال لهم: إذا ارتكبتم المعاصى و كفرتم سيأخذكم العذاب الإلهى، فإنّهم يقولون: فلما ذا لا يأتى هذا العذاب أسرع؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۸

و تضيف الآية فى النهاية: سَأُرِيكُمْ آياتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

التعبير ب (آياتى) هنا يمكن أن يكون إشارة إلى آيات العذاب و علاماته و البلاء الذى كان يهدّد به النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم مخالفيه، و لكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مرارا: فأين تلك الابتلاءات و المصائب التى تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول:

لا تعجلوا فلا يمضى زمن طويل حتّى تحيط بكم.

و قد يكون إشارة إلى المعجزات التى تؤيّد صدق نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلم، أى أنّكم لو صبرتم قليلا فستظهر لكم معجزات كافية.

و لا منافاة بين هذين التّفسيرين، لأنّ المشركين كانوا عجولين فى كليهما، و قد أراهم اللّه كليهما، و إن كان التّفسير بالأوّل يبدو هو الأقرب و الأنسب مع الآيات التالية.

ثمّ يشير القرآن إلى إحدى مطالب أولئك المستعجلين فيقول: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فهؤلاء كانوا ينتظرون قيام القيامة بفارغ الصبر، و هم غافلون عن أنّ قيام القيامة يعنى تعاستهم و شقاءهم المرير، و لكن ماذا يمكن فعله؟ فإنّ الإنسان العجول يعجّل حتّى فى قضيّة تعاسته و فنائه؟

و التعبير ب إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ بصيغة الجمع مع أنّ المخاطب رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، من أجل أنّهم أشركوا أنصاره و أتباعه الحقيقيّين فى الخطاب، فكأنّهم أرادوا أن يقولوا: إنّ عدم قيام القيامة دليل على أنّكم كاذبون جميعا.

و تجيبهم الآية التالية فتقول: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَ لا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

إنّ التعبير ب «الوجوه» و «الظهور» فى الآية محلّ البحث إشارة إلى أنّ جهنّم ليست نارا تحرقهم من جهة واحدة، بل إنّ وجوه هؤلاء و ظهورهم فى النّار، فكأنّهم غرقوا و دفنوا فى وسط النّار! و جملة وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ إشارة إلى أنّ هذه الأصنام التى يظنّون أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۶۹

ستكون شفيعة لهم و ناصرة، لا تقدر على أى شىء.

ممّا يلفت النظر أنّ العقوبة الإلهيّة لا يعيّن وقتها دائما بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّها و حتّى إذا استمهلوا، و طلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ

ملاحظتان

۱- بملاحظة الآيات آنفات الذكر يثار هذا السؤال، و هو: إذا كان الإنسان عجولا بطبيعته، فلما ذا ينهى اللّه- سبحانه عن العجلة و يقول: فَلا تَسْتَعْجِلُونِ

أليس هذا تناقضا بين الإثنين؟

و نقول فى الجواب: إنّنا إذا لا حظنا أصل إختيار و حرية إرادة الإنسان، و كون صفاته و معنوياته و خصائصه الأخلاقية قابلة للتغيير، فسيتّضح أن لا تضادّ فى الأمر، حيث يمكن تغيير هذه الحالة بالتربية و تزكية النفس.

۲- جملة بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ قد تشير إلى أنّ عذاب القيامة و عقوباتها تختلف جميعها عن عذاب الدنيا، فنقرأ مثلا حول النّار: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ[۱۱۴]، أو نقرأ فى شأن وقود النّار: وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ[۱۱۵].

و مثل هذه التعبيرات توحى بأنّ نار جهنّم تأتى على حين غفلة فتبهت الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۰

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

وَ لَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۱) قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (۴۳) بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ (۴۴) قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ (۴۵)

التّفسير

لا حظنا فى الآيات السابقة أنّ المشركين و الكفّار كانوا يستهزءون برسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم، و هذا دأب كلّ الجهّال المغرورين، إنّهم يأخذون الحقائق المهمّة الجديّة مأخذ الهزل و الاستهزاء.

فتقول الآية الأولى تسلية للنّبى: لست الوحيد الذى يستهزأ به وَ لَقَدِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ و لكن فى النهاية نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزؤن به فَحاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ و بناء على هذا فلا تدع للغمّ و الحزن إلى نفسك طريقا، و ينبغى أن لا تترك مثل أعمال الجاهلين هذه أدنى أثر فى روحك الكبيرة، أو تخلّ بإرادتك الحديديّة الصلبة.

و تقول الآية التالية: قل لهم إنّ أحدا لا يدافع عنكم أمام عذاب اللّه فى القيامة، بل و فى هذه الدنيا: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ أى من عذابه، فلو أنّ اللّه سبحانه لم يجعل السّماء- أى الجوّ المحيط بالأرض سقفا محفوظا كما مرّ فى الآيات السابقة- لكان هذا وحده كافيا أن تتهاوى النيازك و تمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

إنّ اللّه الرحمن قد أولاكم من محبّته أن جعل جنودا متعدّدين لحفظكم و حراستكم، بحيث لو غفلوا عنكم لحظة واحدة لصبّ عليكم سيل البلاء.

ممّا يستحقّ الانتباه أنّ كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (اللّه) فى هذه الآية، أى انظروا إلى أنفسكم كم اقترفتم من الذنوب حتّى أغضبتم اللّه الذى هو مصدر الرحمة العامّة؟! ثمّ تضيف: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ فلا هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء و نصحهم، و لا تهزّ قلوبهم نعم اللّه و ذكره، و لا يستعملون عقولهم لحظة فى هذا السبيل.

ثمّ يسأل القرآن الكريم: أى شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين و المجرمين فى مقابل العقوبات الإلهيّة؟ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَ لا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ۱۱۶] فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

العذاب، و لا تكون مصحوبة بتأييدنا و رحمتنا.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرّد و عصيان الكافرين المهمّة، فتقول:

بَلْ مَتَّعْنا هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى طالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ إلّا أنّ هذا العمر الطويل و النعم الوفيرة بدل أن تحرّك فيهم حسّ الشكر و الحمد، و يطأطئوا رؤوسهم لعبودية اللّه، فإنّها أصبحت سبب غرورهم و طغيانهم.

و لكن ألا يرى هؤلاء أنّ هذا العالم و نعمه زائلة؟ أَ فَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها؟ فإنّ الأقوام و القبائل تأتى الواحدة تلو الاخرى و تذهب، و ليس للأفراد الصغار و الكبار عمر خالد، و الجميع سيصيبهم الفناء، و الأقوام الذين كانوا أشدّ منهم و أقوى و أكثر تمرّدا و عصيانا أودعوا تحت التراب، و فى ظلام القبور، و حتّى العلماء و العظماء الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم و ودّعوا الدنيا! و مع هذا الحال أَ فَهُمُ الْغالِبُونَ

و قد اختلف المفسّرون فى المراد من جملة أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها:

۱- فقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ اللّه ينقص تدريجيّا من أراضى المشركين و يضيفها على بلاد المسلمين. إلّا أنّه بملاحظة كون هذه السورة نزلت فى مكّة، و لم يكن للمسلمين تلك الفتوحات، فإنّ هذا التّفسير يبدو غير مناسب.

۲- و قال بعض آخر: إنّ المقصود هو خراب و انهدام الأراضى بصورة تدريجيّة.

۳- و بعض يعتبرونها إشارة إلى سكّان الأرض.

۴- و ذكر بعض أنّ المراد من أطراف الأرض هو العلماء خاصّة.

إلّا أنّ الأنسب من كلّ ذلك، أنّ المراد من الأرض هو شعوب بلدان العالم المختلفة، و الأقوام و الأفراد الذين يسيرون نحو ديار العدم بصورة تدريجيّة و دائمة، و يودعون الحياة الدنيا، و بهذا فإنّه ينقص دائما من أطراف الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

و قد فسّرت هذه الآية فى بعض الرّوايات التى رويت عن أهل البيت عليهم السّلام بموت العلماء،

فيقول الإمام الصادق عليه السّلام: «نقصانها ذهاب عالمها».

و من المعلوم أنّ هذه الرّوايات- عادة- تبيّن مصاديق واضحة، لا أنّها تحصر مفهوم الآية فى أفراد معينين. و بهذا فإنّ الآية تريد أن تبيّن أنّ موت الكبار و العظماء و الأقوام درس و عبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربة اللّه تعالى لا تنتج سوى الاندحار.

ثمّ تقرّر الآية حقيقة أنّ وظيفة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم هى إنذار الناس عن طريق الوحى الإلهى، فتوجّه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، فتقول: قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ و إذا لم يؤثّر فى قلوبكم القاسية، فلا عجب من ذلك، و ليس ذلك دليلا على نقص الوحى الإلهى، بل السبب هو وَ لا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعاءَ إِذا ما يُنْذَرُونَ

إنّ الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام اللّه، أمّا الآذان التى أصمّتها حجب الذنوب و الغفلة و الغرور فلا تسمع الحقّ مطلقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

الآیتان [سورة الأنبیاء (۲۱): الآیات ۴۶ الی ۴۷]

اشارة

وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ (۴۶) وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً وَ إِنْ کانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنا بِها وَ کَفی بِنا حاسِبِینَ (۴۷)

التّفسیر

موازین العدل فی القیامة:

بعد أن کانت الآیات السابقة تعکس حالة غرور و غفلة الأفراد الکافرین، تقول الآیة الأولی أعلاه: إنّ هؤلاء المغرورین لم یذکروا اللّه یوما فی الرخاء، و لکن: وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ یا وَیْلَنا إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ

کلمة (نفحة) تعنی برأی المفسّرین و أرباب اللغة: الشیء القلیل، أو النسیم اللطیف، و بالرغم من أنّ هذه الکلمة تستعمل غالبا فی نسمات الرحمة و النعمة غالبا، إلّا أنّها تستعمل فی مورد العذاب أیضا[۱۱۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

و علی قول تفسیر الکشّاف فإنّ جملة وَ لَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ... تتضمّن ثلاثة تعابیر کلّها تشیر إلی القلّة: التعبیر بالمسّ، و التعبیر بالنفحة، من ناحیة اللغة، و من ناحیة الوزن و الصیغة أیضا[۱۱۸].

و الخلاصة: إنّ ما یرید أن یقوله القرآن الکریم هو: إنّ هؤلاء الذین عمیت قلوبهم یسمعون کلام النّبی و منطق الوحی سنین طویلة، و لا یؤثّر فیهم أدنی تأثیر، إلّا أنّهم عند ما تلهب ظهورهم سیاط العذاب- و إن کانت خفیفة یسیرة- سیصرخون إِنَّا کُنَّا ظالِمِینَ ألا ینبغی لهؤلاء أن ینتبهوا قبل أن تصیبهم سیاط العذاب؟

و لو انتبهوا حینئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه الیقظة الاضطراریة لا تنفعهم، و إذا ما هدأت فورة العذاب و اطمأنّوا فإنّهم سیعودون إلی ما کانوا علیه! أمّا الآیة الأخیرة التی نبحثها فتشیر إلی حساب القیامة الدقیق، و جزائها العادل، لیعلم الکافرون و الظالمون أنّ العذاب علی فرض أنّه لم یعمّهم فی هذه الدنیا، فإنّ عذاب الآخرة حتمی، و سیحاسبون علی جمیع أعمالهم بدقّة، فتقول:

وَ نَضَعُ الْمَوازِینَ الْقِسْطَ لِیَوْمِ الْقِیامَةِ.

«القسط» یعنی أحیانا عدم التبعیض، و أحیانا یأتی بمعنی العدالة بصورة مطلقة، و ما یناسب المقام هو المعنی الثّانی.

و ممّا یلفت النظر أنّ «القسط» هنا ذکر کصفة للموازین، و هذه الموازین دقیقة و منظّمة إلی الحدّ الذی تبدو و کأنّها عین العدالة[۱۱۹].

و لهذا تضیف مباشرة: فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَیْئاً فلا ینقص من ثواب المحسنین شیء، و لا یضاف إلی عقاب المسیئین شیء.

إلّا أنّ نفی الظلم و الجور هذا لا یعنی عدم الدقّة فی الحساب، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

وَ إِنْ کانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَیْنا بِها وَ کَفی بِنا حاسِبِینَ

«الخردل» نبات له حبّة صغیرة جدّا یضرب المثل بها فی الصغر و الحقارة.

و جاء نظیر هذا التعبیر فی موضع آخر من القرآن بتعبیر مِثْقالَ ذَرَّةٍ[۱۲۰].

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه قد عبّر فى ستّ مواضع من القرآن ب مِثْقالَ ذَرَّةٍ و فى موضعين ب مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ و فى الحقيقة فإنّ الآية آنفة الذكر مع التعابير الست المختلفة تأكيد على مسألة المحاسبة الدقيقة فى يوم القيامة.

إنّ كلمة «موازين»، و بصيغة الجمع، و بعدها ذكر وصف «القسط»، و بعده التأكيد على نفى الظلم فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً و بعد ذلك ذكر كلمة «شيئا» ثمّ التمثيل بحبّة الخردل، و أخيرا جملة وَ كَفى بِنا حاسِبِينَ كلّ هذه أدلّة على أنّ حساب يوم القيامة دقيق جدّا، و خال من أى نوع من الظلم و الجور.

أمّا ما المراد من الموازين؟

بعض المفسّرين ظنّوا أنّ هناك موازين كموازين هذه الدنيا تنصب، ثمّ فرضوا بعد ذلك أنّ لأعمال الإنسان هناك و زنا و ثقلا ليمكن وزنها بتلك الموازين.

إلّا أنّ الصحيح هو أنّ الميزان هنا يعنى وسيلة قياس الوزن، و من المعلوم أنّ لكلّ شىء مقياس وزن متناسب معه، كميزان الحرارة، و ميزان الهواء، و الموازين الاخرى الذى يتناسب كلّ منها مع الموضوع الذى يريدون قياسه بها.

و نقرأ فى الرّوايات الإسلامية أنّ موازين الحساب فى القيامة هم الأنبياء و الأئمّة و الصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء فى صحيفة أعمالهم ۱۲۱]. فنقرأ:

«السلام على ميزان الأعمال»! و تجد التوضيح و التفصيل بصورة أوسع حول هذا الموضوع ذيل الآية (۸) من سورة الأعراف.

إنّ ذكر الموازين بصيغة الجمع لعلّه إشارة إلى هذا المعنى أيضا، لأنّ رجال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

الحقّ كلّ منهم ميزان لأعمال البشر، فمضافا إلى أنّ جميعهم ممتازون، فإنّ لكلّ منهم امتيازا خاصّا بحيث يعتبر فى تلك المرتبة مقياسا و مثلا- و بتعبير آخر: فإنّ كلّ من يشبه هؤلاء إلى حدّ ما، و تنسجم صفاته و أعماله و صفات و أعمال العظماء، فإنّ وزنه سيثقل بذلك المقدار، و كلّما ابتعدت و اختلفت فسيخفّ وزنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۴۸ الى ۵۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (۴۸) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (۴۹) وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۰)

التّفسير

لمحة من قصص الأنبياء:

ذكرت هذه الآيات و ما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بأمور تربوية بالغة الأثر، و توضّح البحوث السابقة حول نبوّة الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم و مواجهته المخالفين بصورة أجلى مع ملاحظة الأصول المشتركة الحاكمة عليها.

تقول الآية الأولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ

«الفرقان» يعنى فى الأصل الشىء الذى يميّز الحقّ عن الباطل، و هو وسيلة لمعرفة الإثنين. و قد ذكروا هنا تفاسير متعدّدة فى المراد من

الفرقان فى هذه الآية.

فقال بعضهم: إنّ المراد التوراة.

و البعض اعتبره انشقاق البحر لبنى إسرائيل، و الذى كان علامة واضحة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۷۹

عظمة الحقّ و أحقيّة موسى. فى حين أنّ البعض اعتبره إشارة إلى سائر المعجزات و الدلائل التى كانت بيد موسى و هارون عليهما السّلام.

غير أنّ هذه التفاسير لا- منافاة بينها مطلقا، لأنّ من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراة، و إلى سائر معجزات و دلائل موسى عليه السّلام.

و قد أطلق الفرقان فى سائر الآيات على نفس القرآن أيضا، مثل: تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً[۱۲۲] و أحيانا يعبّر عن الإنتصار الإعجازى الذى ناله النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم، كما قال فى شأن معركة بدر: يَوْمَ الْفُرْقانِ ۱۲۳] أمّا كلمة «الضياء» فتعنى النور الذى ينبع من ذات الشىء، و من المسلّم أنّ القرآن و التوراة و معجزات الأنبياء كانت كذلك ۱۲۴].

«الذكر» هو كلّ موضوع يبعد الإنسان عن الغفلة، و هذا أيضا من آثار الكتب السماوية و المعجزات الإلهيّة الواضحة.

إنّ ذكر هذه التعابير الثلاثة متعاقبة ربّما كان إشارة إلى أنّ الإنسان من أجل أن يصل إلى هدفه يحتاج أوّلا إلى الفرقان، أى أن يشخّص الطريق الأصلى عند مفترق الطرق، فإذا شخّص طريقه يحتاج إلى ضياء و نور ليتحرّك فى ذلك الطريق و يستمرّ فيه، و قد تعترضه موانع أهمّها الغفلة، فيحتاج إلى ما يذكره و يحذّره دائما.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه ورود لفظ «الفرقان» معرفة، و ورود كلمتى [ضياء و ذكرا] نكرتين فى الآية محلّ البحث، و عدّ أثرهما خاصّا بالمتّقين، و لعلّ هذا التفاوت إشارة إلى أنّ المعجزات و الخطابات السماوية تضىء الطريق للجميع، إلّا أنّ من ينتفع من الضياء و الذكر ليس جميع الناس، بل الذين يحسّون بالمسؤولية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۰

و على جانب من التقوى.

ثمّ تعرف الآية التالية المتّقين بأنّهم الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ

و لكلمة «الغيب» هنا تفسيران: الأوّل: إنّه إشارة إلى ذات اللّه المقدّسة، أى مع أنّ اللّه سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدليل العقل، و يحسّون بالمسؤولية أمام ذاته المقدّسة.

و الآخر: إنّ المتّقين لا يخافون اللّه فى العلانية و بين المجتمع فقط، بل يعلمون أنّه حاضر و ناظر إليهم حتّى فى خلواتهم.

و ممّا يلفت النظر، أنّه عبّر عن الخوف أمام اللّه بالخشية، و فى شأن القيامة بالإشفاق، إنّ هذين اللفظين و إن كان كلاهما بمعنى الخوف، إلّا أنّ «الخشية»- على قول الراغب فى المفردات- تقال فى موضع يمتزج فيه الخوف بالاحترام و التعظيم، كخوف الابن من أبيه الموقّر، و بناء على هذا فإنّ خوف المتّقين ممتزج بالمعرفة.

و أمّا «الإشفاق» فيعنى الاهتمام و الحبّ المقترن بالخوف، و هذا التعبير يستعمل أحيانا فى شأن الأولاد أو الأصدقاء الذين يحبّهم الإنسان، إلّا أنّه يخاف عليهم فى الوقت نفسه من تعرّضهم للبلايا و الأمراض مثلا. و فى الواقع فإنّ المتّقين يحبّون يوم القيامة، لأنّه مكان الثواب و الرحمة، إلّا أنّهم فى الوقت نفسه مشفقون من حساب اللّه فيه.

و يمكن أن تستعمل هاتان الكلمتان أيضا فى معنى واحد.

و قارنت الآية الأخيرة بين القرآن و باقى الكتب السابقة: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ و لماذا الإنكار؟ لأنّه ذكر لكم و مصدر وعيكم و يقظتكم و تذكيرهم؟ أ لأنّه مصدر البركة و فيه خير الدنيا و خير الآخرة، و منبع الانتصارات و السعادات؟ فهل ينكر

مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدلّة أحقيّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

فيه، و قد سطعت نورانيّته، و الذين يسيرون فى طريقه سعداء منتصرون؟! و لكى نعرف مدى أثر القرآن فى التوعية و ما له من البركات، فيكفى أن نرى حال سكّان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون فى جاهلية جهلاء و فقر و تعاسة و تفرّق و تمزّق، ثمّ نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا أسوة و مثلا حسنا للآخرين، و نرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم و بعده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۱ الى ۵۸]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ (۵۱) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ (۵۲) قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ (۵۳) قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۵۴) قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (۵۵)
قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۵۶) وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (۵۷) فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (۵۸)

التّفسير

تخطيط إبراهيم عليه السّلام لتحطيم الأصنام:

قلنا: أنّ هذه السورة تحدّثت- كما هو معلوم من اسمها- عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء- ستّة عشر نبيّا- فقد أشير فى الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالة موسى و هارون عليهما السّلام، و عكست هذه الآيات و بعض الآيات الآتية جانبا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

مهمّا من حياة إبراهيم عليه السّلام و مواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا إِبْراهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ

«الرشد» فى الأصل بمعنى السير إلى المقصد و الغاية، و من الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، و أنّ إبراهيم عرفها و اطّلع عليها منذ سنى الطفولة.

و قد يكون إشارة إلى كلّ خير و صلاح بمعنى الكلمة و الواسع.

و التعبير ب مِنْ قَبْلُ إشارة إلى ما قبل موسى و هارون عليهما السّلام.

و جملة وَ كُنَّا بِهِ عالِمِينَ إشارة إلى مؤهّلات و استعدادات إبراهيم لاكتساب هذه المواهب، و فى الحقيقة إنّ اللّه سبحانه لا يهب موهبة عبثا و بلا حكمة، فإنّ هذه المؤهّلات استعداد لتقبّل المواهب الإلهيّة، و إن كان مقام النبوّة مقاما موهوبا.

ثمّ أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السّلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عند ما قال لأبيه و قومه- و هو إشارة إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّى العمّ أبا- ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ

لقد حقّر إبراهيم عليه السّلام الأصنام التى كان لها قدسيّة فى نظر هؤلاء بتعبير ما هذِهِ ۱۲۵] أوّلا، و ثانيا بتعبير التَّماثِيلُ لأنّ التمثال يعنى الصورة أو المجسّمة التى لا روح لها. و يقول تاريخ عبادة الأصنام: إنّ هذه المجسّمات و الصور كانت فى البداية ذكرى للأنبياء

و العلماء، إلّا أنّها اكتسبت قدسيّة و أصبحت آلهة معبودة بمضى الزمان.

و جملة أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ بملاحظة معنى «العكوف» الذى يعنى الملازمة المقترنة بالاحترام، توحى بأنّ أولئك كانوا يحبّون الأصنام، و يطأطئون رؤوسهم فى حضرتها و يطوفون حولها، و كأنّهم كانوا ملازميها دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

إنّ مقولة إبراهيم عليه السّلام هذه فى الحقيقة استدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنّ ما نراه من الأصنام هو المجسّمة و التمثال، و الباقى خيال و ظنّ و أوهام، فأى إنسان عاقل يسمح لنفسه أن يوجب عليها كلّ هذا التعظيم و الاحترام لقبضة حجر أو كومة خشب؟ لماذا يخضع الإنسان- الذى هو أشرف المخلوقات- أمام ما صنعه بيده، و يطلب منه حلّ مشاكله و معضلاته؟! إلّا أنّ عبدة الأصنام لم يكن عندهم- فى الحقيقة- جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم و يلقوها على عاتق آبائهم، و لهذا قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ

و لمّا كانت حجّتهم بأنّ «هذه العبادة هى سنّة الآباء» غير مجدية نفعا .. و لا نمتلك دليلا على أنّ السابقين من الآباء و الأجداد أعقل و أكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضيّة على العكس غالبا، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرة ف قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

إنّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، و الحاكى عن الحزم التامّ سبّب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلا، و يتوجّهوا إلى التحقّق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم قالُوا أَ جِئْتَنا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ لأنّ أولئك الذين كانوا قد اعتادوا على عبادة الأصنام، و كانوا يظنّون أنّ ذلك حقيقة حتميّة، و لم يكونوا يصدّقون أنّ أحدا يخالفها بصورة جديّة، و لذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجّبا، إلّا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحة: قالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

إنّ إبراهيم عليه السّلام قد بيّن بهذه الكلمات القاطعة أنّ الذى يستحقّ العبادة هو خالقهم و خالق الأرض و كلّ الموجودات، أمّا قطع الحجر و الخشب المصنوعة فهى لا شىء، و ليس لها حقّ العبادة، و خاصة و قد أكّد بجملة وَ أَنَا عَلى ذلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فأنا لست الشاهد الوحيد على هذه الحقيقة، بل إنّ كلّ العقلاء الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

قطعوا حبل التقليد الأعمى شاهدون على هذه الحقيقة.

و من أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هذه المسألة، و أنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، و أنّه يتقبّل كلّ ما يترتّب على ذلك بكلّ وجوده، أضاف: وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

«أكيدنّ» مأخوذة من الكيد، و هو التخطيط السرى، و التفكير المخفى و كان مراده أن يفهمهم بصراحة بأنّنى سأستغلّ فى النهاية فرصة مناسبة و احطّم هذه الأصنام.

إلّا أنّ عظمة و هيبة الأصنام فى نفوسهم ربّما كانت قد بلغت حدّا لم يأخذوا معه كلام إبراهيم مأخذ الجدّ، و لم يظهروا ردّ فعل تجاهه، و ربّما ظنّوا بأنّ أى إنسان لا يسمح لنفسه أن يهزأ و يسخر من مقدّسات قوم تدعم حكومتهم تلك المقدّسات تماما، بأيّة جرأة؟ و بأيّة قوّة؟! و من هنا يتّضح أنّ ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هذه الجملة قد قالها إبراهيم سرّا فى نفسه، أو بيّنها لبعض بصورة خاصّة لا داعى له، خاصّة و أنّه مخالف تماما لظاهر الآية. إضافة إلى أنّنا سنقرأ بعد عدّة آيات أنّ عبّاد الأصنام قد تذكّروا قول إبراهيم، و قالوا: سمعنا فتى كان يتحدّث عن مؤامرة ضدّ الأصنام.

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم نفّذ خطّته فى يوم كان معبد الأوثان خاليا من الناس و لم يكن أحد من الوثنيين حاضرا.

و توضيح ذلك: إنّه طبقا لنقل بعض المفسّرين، فإنّ عبدة الأوثان كانوا قد اتّخذوا يوما خاصّا من كلّ سنة عيدا لأصنامهم، و كانوا يحضرون الأطعمة عند أصنامهم فى المعبد فى ذلك اليوم، ثمّ يخرجون من المدينة أفواجا، و كانوا يرجعون فى آخر النهار، فيأتون

إلى المعبد ليأكلوا من ذلك الطعام الذى نالته البركة فى اعتقادهم.

و كانوا قد عرضوا على إبراهيم أن يخرج معهم، إلّا أنّه اعتذر بالمرض و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۶

يخرج معهم.

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم من دون أن يحذر من مغبّة هذا العمل و ما سيحدث من غضب عبدة الأصنام العارم، دخل الميدان برجولة و توجّه إلى حرب هذه الآلهة الجوفاء- التى لها أنصار متعصّبون جهّال- بشجاعة خارقة و حطّمها بصورة يصفها القرآن فيقول: فَجَعَلَهُمْ جُذاذاً إِلَّا كَبِيراً لَهُمْ و كان هدفه من تركه لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۱۲۶].

ملاحظتان

۱- الصنميّة فى أشكال متعدّدة

صحيح أنّ أذهاننا تنصرف من لفظ عبادة الأصنام إلى الأصنام الحجرية و الخشبية على الأكثر، إلّا أنّ الصنم و الصنمية- من وجهة نظر- لها مفهوم واسع يشمل كلّ ما يبعد الإنسان عن اللّه، بأى شكل و صورة كان، حيث

يقول الحديث المعروف: «كلّما شغلك عن اللّه فهو صنمك».

و

فى حديث عن الأصبغ بن نباته- و هو أحد أصحاب الإمام على عليه السّلام المعروفين أنّه قال: انّ عليا عليه السّلام مرّ بقوم يلعبون الشطرنج، فقال: «ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لقد عصيتم اللّه و رسوله»[۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۷

۲- قول عبدة الأصنام و جواب إبراهيم

ممّا يلفت النظر أنّ عبدة الأصنام قالوا فى جواب إبراهيم عليه السّلام، اعتمادا على كثرتهم، و على طول الزمان: إنّا وجدنا آباءنا على هذا الدين. فأجابهم على كلا الشّقين، بأنّكم كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين دائما. أى إنّ الإنسان العاقل الذى له تفكير مستقل لا يربط نفسه بمثل هذه الأوهام مطلقا، فلا يعتبر كثرة الأنصار للمذهب المتداول دليلا على أصالته، و كذلك لا يعتنى بدوامه و تجذّره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۸

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۵۹ الى ۶۷]

اشارة

قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۵۹) قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ (۶۰) قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (۶۱) قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ (۶۲) قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ (۶۳)

فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (۶۴) ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ (۶۵) قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ (۶۶) أُفٍّ لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۷)

التّفسير

إبراهيم و برهانه المبين:

و أخيرا انتهى يوم العيد، و رجع عبدة الأصنام فرحين إلى المدينة، فأتوا إلى المعبد مباشرة، حتّى يظهروا ولاءهم للأصنام، و ليأكلوا من الأطعمة التى تبرّكت-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

بزعمهم- بمجاورة الأصنام. فما أن دخلوا المعبد حتّى واجهوا منظرا أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلّا من الأيادى و الأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر فى ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا[۱۲۸]؟! و لا ريب أنّ من فعل ذلك ف إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ فقد ظلم آلهتنا و مجتمعنا و نفسه! لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعة منهم تذكّروا ما سمعوه من إبراهيم عليه السّلام و ازدرائه بالأصنام و تهديده لها و طريقة تعامله السلبى لهذه الآلهة المزعومة! قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ ۱۲۹].

صحيح أنّ إبراهيم- طبقا لبعض الرّوايات- كان شابا، و ربّما لم يكن سنّة يتجاوز (۱۶) عاما، و صحيح أنّ كلّ خصائص الرجولة من الشجاعة و الشهامة و الصراحة و الحزم قد جمعت فيه، إلّا أنّه من المسلّم به أنّ مراد عبّاد الأصنام لم يكن سوى التحقير، فبدل أن يقولوا: إنّ إبراهيم قد فعل هذا الفعل، قالوا: إنّ فتى يقال له إبراهيم كان يقول كذا ... أى إنّه فرد مجهول تماما، و لا شخصيّة له فى نظرهم.

إنّ المألوف- عادة- عند ما تقع جريمة فى مكان ما، فإنّه و من أجل كشف الشخص الذى قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة و العداء، و من البديهى أنّه لم يكن هناك شخص فى تلك البيئة من يعادى الأصنام غير إبراهيم، و لذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بالجريمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد مشاهدة منظر عقاب إبراهيم، لا الشهادة على كونه مجرما. غير أنّ الآيات المقبلة التى لها صبغة التحقيق و الاستجواب تنفى هذا الاحتمال، إضافة إلى أنّ التعبير ب «لعلّ» لا يناسب المعنى الثّانى، لأنّ الناس إذا حضروا ساحة العقاب فسيشاهدون ذلك المنظر حتما، فلا معنى ل «لعلّ».

فنادى المنادون فى نواحى المدينة: «ليحضر كلّ من يعلم بعداء إبراهيم و إهانته للأصنام»، فاجتمع كلّ الذين كانوا يعلمون بالموضوع، و كذلك سائر الناس ليروا أين ستصل عاقبة عمل هذا المتّهم؟

لقد حدثت ضجّة و همهمة عجيبة بين الناس، لأنّ هذا العمل كان فى نظرهم جريمة لم يسبق لها نظير من قبل شابّ مثير للفتن و المتاعب، و كانت قد هزّت البناء الدينى للناس.

و أخيرا تشكّلت المحكمة، و كان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك، و يقول بعض المفسّرين: أنّ نمرود نفسه كان مشرفا على هذه المحاكمة، و أوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيم عليه السّلام هو أن: قالُوا أَ أَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ

هؤلاء لم يكونوا مستعدّين حتّى للقول: أ أنت حطّمت آلهتنا و جعلتها قطعا متناثرة؟ بل قالوا فقط: أ أنت فعلت بآلهتنا ذلك؟

فأجابهم إبراهيم جوابا أفحمهم، و جعلهم فى حيرة لم يجدوا منها مخرجا قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ

إنّ من أسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، و الملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت بادية على يد الصنم

الكبير، [وفقا للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير.] لماذا تأتون إليّ؟ و لماذا لا تتّهمون إلهكم الكبير؟ ألا تحتملون أنّه غضب على الآلهة الصغيرة، أو إنّه اعتبرهم منافسيه فى المستقبل فعاقبهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

و لمّا كان ظاهر هذا التعبير لا يطابق الواقع فى نظر المفسّرين، و لمّا كان إبراهيم نبيّا معصوما و لا يكذب أبدا، فقد ذكروا تفاسير مختلفة، و أفضلها كما يبدو هو:

إنّ إبراهيم عليه السّلام قد نسب العمل إلى كبير الأصنام قطعا، إلّا أنّ كلّ القرائن تشهد أنّه لم يكن جادّا فى قصده، بل كان يريد أن يزعزع عقائد الوثنين الخرافية الواهية، و يفنّدها أمامهم، و يفهم هؤلاء أنّ هذه الأحجار و الأخشاب التى لا حياة فيها ذليلة و عاجزة إلى الحدّ الذى لا تستطيع أن تتكلّم بجملة واحدة تستنجد بعبّادها، فكيف يريدون منها أن تحلّ معضلاتهم؟! و نظير هذا التعبير كثير فى محادثاتنا اليوميّة، فنحن إذا أردنا إبطال أقوال الطرف المقابل نضع أمامه مسلّماته على هيئة الأمر أو الإخبار أو الاستفهام، و هذا ليس كذبا أبدا، بل الكذب هو القول الذى لا يمتلك القرينة معه.

و فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب الكافى: «إنّما قال: بل فعله كبيرهم، إرادة الإصلاح، و دلالة على أنّهم لا يفعلون» ثمّ قال: «و اللّه ما فعلوه و ما كذّب».

و احتمل جمع من المفسّرين أنّ إبراهيم قد أدّى هذا المطلب بشكل جملة شرطيّة و قال: إنّ الأصنام إذا كانت تتكلّم فإنّها قد فعلت هذا الفعل، و من المسلّم أنّ هذا التعبير لم يكن خلاف الواقع، لأنّ الأصنام لم تكن تتكلّم، و لم تكن قد أقدمت على مثل هذا العمل، و لم يصدر منها، و وردت رواية فى مضمون هذا التّفسير أيضا.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأقرب، لأنّ الجملة الشرطيّة «إن كانوا ينطقون» جواب الطلب فى «فاسألوهم»، و ليست شرطا لجملة «بل فعله كبيرهم».

(فلاحظوا بدقّة).

و اللطيفة الاخرى التى ينبغى الالتفات إليها هى: إنّ العبارة هى أنّه يجب أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

يسأل من الأصنام المحطّمة الأيدى و الأرجل عمّن فعل بها ذلك، لا من الصنم الكبير لأنّ ضمير (هم)، و كذلك ضمائر «إن كانوا ينطقون» كلّها بصيغة الجمع، و هذا أنسب مع التّفسير الأوّل ۱۳۰].

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين و أيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، و أزاح الرماد عن شعلة النّار فأضاءها، و أنار فطرتهم التوحيديّة من خلف حجب التعصّب و الجهل.

فى لحظة سريعة استيقظوا من هذا النوم العميق و رجعوا إلى فطرتهم و وجدانهم، كما يقول القرآن: فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۱۳۱] فقد ظلمتم أنفسكم و مجتمعكم الذى تنتمون إليه، و كذلك ساحة اللّه واهب النعم المقدّسة.

و الطريف فى الأمر أنّنا قرأنا فى الآيات السابقة أنّهم اتّهموا إبراهيم بكونه ظالما، و هنا قبلوا و اعترفوا فى أنفسهم بأنّ الظالم الأصلى و الحقيقى هو أنفسهم.

و فى الواقع فإنّ كلّ مراد إبراهيم من تحطيم الأصنام تحطيم فكر الوثنية و روح الصنمية، لا تحطيم الأصنام ذاتها، إذ لا جدوى من تحطيمها إذا صنع الوثنيّون العنودون أصناما أكبر منها و جعلوها مكانها، و توجد أمثلة كثيرة لهذه المسألة فى تأريخ الأقوام الجاهلين المتعصّبين.

إلى الآن استطاع إبراهيم أن يجتاز بنجاح مرحلة حسّاسة جدا من طريق تبليغه الرسالة، و هى إيقاظ الضمائر عن طريق إيجاد موجة نفسيّة هائجة.

و لكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل و التعصّب و التقليد الأعمى كان أكبر من أن يصقل و يمحى تماما بنداء بطل التوحيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

و للأسف لم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدّسة، و ثارت فى ضمائرهم الملوّثة المظلمة قوى الشيطان و الجهل ضدّ نور التوحيد هذا، و رجع كلّ شىء إلى حالته الأولى، و كم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ و من أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البكم قالوا: لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ فإنّهم دائما صامتون، و لا يحطّمون حاجز الصمت. و أرادوا بهذا العذر الواهى أن يخفوا ضعف و ذلّة الأصنام.

و هنا فتح أمام إبراهيم الميدان و المجال للاستدلال المنطقى ليوجّه لهم أشدّ هجماته، و ليرمى عقولهم بوابل من التوبيخ و اللوم المنطقى الواعى: قالَ أَ فَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَ لا يَضُرُّكُمْ فما ذا تنفع هذه الآلهة المزعومة الخياليّة التى لا قدرة لها على الكلام، و ليس لها شعور و إدراك، و لا تقدر أن تدافع عن نفسها، و لا تستطيع أن تحمى عبّادها، و لا يصدر عنها أى عمل؟

إنّ عبادة معبود ما إنّما يكون لأهليّته للعبادة، و مثل هذا الأمر لا معنى له فى شأن الأصنام الميتة، أو يعبد رجاء فائدة و نفع تعود عليهم من قبله، أو الخوف من خسارتهم، إلّا أنّ إقدامى على تحطيم الأصنام أوضح أنّها لا تملك أدنى حركة، و مع هذا الحال ألا يعتبر عملكم هذا حمقا و جهالة؟! و وسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، و انهال بسياط التقريع على روحهم التى فقدت الإحساس، فقال: أُفٍ ۱۳۲] لَكُمْ وَ لِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ إلّا أنّه لم يلحّ فى توبيخهم و تقريعهم لئلّا يلجّوا فى عنادهم.

فى الحقيقة، كان إبراهيم يتابع خطّته بدقّة متناهية، فأوّل شىء قام به عند دعوتهم إلى التوحيد هو أن ناداهم قائلا: ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

لا تحسّ و لا تتكلّم و إذا كنتم تقولون: إنّها سنّة آبائكم، فقد كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين.

و فى المرحلة الثّانية أقدم على خطّة عملية ليبيّن أنّ هذه الأصنام ليست لها تلك القدرة على إهلاك كلّ من ينظر إليها نظرة احتقار، خاصة و أنّه ذهب إليها مع سابق إنذار و حطّمها تماما، و ليوضّح أنّ تلك الأوهام التى حاكوها مجتمعين لا فائدة و لا ثمر فيها.

و فى المرحلة الثّالثة أوصلهم فى تلك المحكمة التاريخيّة إلى طريق مسدود، فمرّة دخل إليهم عن طريق فطرتهم، و تارة خاطب عقولهم، و أخرى وعظّهم، و أحيانا وبّخهم و لامهم.

و الخلاصة، فإنّ هذا المعلّم الكبير قد دخل من كلّ الأبواب، و استخدم كلّ طاقته، إلّا أنّ من المسلّم أنّ القابلية شرط فى التأثير، و كان هذا قليل الوجود بين أولئك القوم للأسف.

و لكن لا شكّ أنّ كلمات إبراهيم عليه السّلام و أفعاله بقيت كأرضيّة للتوحيد، أو على الأقل بقيت كعلامات استفهام فى أذهان أولئك، و أصبحت مقدّمة ليقظة و وعى أوسع فى المستقبل. و يستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، و هم و إن قلّوا عددا، إلّا أنّهم كانوا من الأهميّة بمكان، إذ هيّئوا الاستعداد النسبى لفئة أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۵

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۶۸ الى ۷۰]

اشارة

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۶۸) قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ (۶۹) وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ (۷۰)

التّفسير

عند ما تصير النّار جنّة:

مع أنّ عبدة الأوثان أسقط ما فى أيديهم نتيجة استدلالات إبراهيم العمليّة و المنطقيّة، و اعترفوا فى أنفسهم بهذه الهزيمة، إلّا أنّ عنادهم و تعصّبهم الشديد منعهم من قبول الحقّ، و لذلك فلا عجب من أنّ يتّخذوا قرارا صارما و خطيرا فى شأن إبراهيم، و هو قتل إبراهيم بأبشع صورة، أى حرقه و جعله رمادا! هناك علاقة عكسية بين القوّة و المنطق عادة، فكلّ من اشتدّت قوّته ضعف منطقه، إلّا رجال الحقّ فإنّهم كلّما زادت قوتهم يصبحون أكثر تواضعا و منطقا.

و عند ما لا يحقّق المتعصّبون شيئا عن طريق المنطق، فسوف يتوسّلون بالقوّة فورا، و قد طبّقت هذه الخطّة فى حقّ إبراهيم تماما كما يقول القرآن الكريم:

قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۶

إنّ المتسلّطين المتعنّتين يستغلّون نقاط الضعف النفسيّة لدى الغوغاء من الناس لتحريكهم- عادة- لمعرفتهم بالنفسيات و مهارتهم فى عملهم! و كذلك فعلوا فى هذه الحادثة، و أطلقوا شعارات تثير حفيظتهم، فقالوا: إنّ آلهتكم و مقدّساتكم مهدّدة بالخطر، و قد سحقت سنّة آبائكم و أجدادكم، فأين غيرتكم و حميّتكم؟! لماذا أنتم ضعفاء أذلّاء؟ لماذا لا تنصرون آلهتكم؟ احرقوا إبراهيم و انصروا آلهتكم- إذا كنتم لا تقدرون على أى عمل- ما دام فيكم عرق ينبض، و لكم قوّة و قدرة.

أنظروا إلى كلّ الناس يدافعون عن مقدّساتهم، فما بالكم و قد أحدق الخطر بكلّ مقدّساتكم؟! و الخلاصة، فقد قالوا الكثير من أمثال هذه لخزعبلات و أثاروا الناس ضدّ إبراهيم بحيث أنّهم لم يكتفوا بعدّة حزم من الحطب تكفى لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم و ألقوها حتّى صارت جبلا من الحطب ثمّ أشعلوه فاتّقدت منه نار مهولة كأنّها البحر المتلاطم و الدخان يتصاعد إلى عنان السّماء لينتقموا من إبراهيم أوّلا، و ليحفظوا مهابة أصنامهم المزعومة التى حطّمتها خطّته و أسقطت أبّهتها!! لقد كتب المؤرخّون هنا مطالب كثيرة، لا يبدو أى منها بعيدا، و من جملتها قولهم: إنّ الناس سعوا أربعين يوما لجمع الحطب، فجمعوا منه الكثير من كلّ مكان، و قد وصل الأمر إلى أنّ النساء اللآتى كان عملهنّ الحياكة فى البيوت، خرجن و أضفن تلّا من الحطب إلى ذلك الحطب، و وصّى المرضى المشرفون على الموت بمبلغ من أموالهم لشراء الحطب، و كان المحتاجون ينذرون بأنّهم يضيفون مقدارا من الحطب إذا قضيت حوائجهم، و لذلك عند ما أشعلوا النّار فى الحطب من كلّ جانب اشتعلت نار عظيمة بحيث لا تستطيع الطيور أن تمرّ فوقها.

من البديهى أنّ نارا بهذه العظمة لا يمكن الاقتراب منها، فكيف يريدون أن يلقوا إبراهيم فيها، و من هنا اضطروا إلى الاستعانة بالمنجنيق، فوضعوا إبراهيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۷

عليه و ألقوه فى تلك النّار المترامية الأطراف بحركة سريعة[۱۳۳].

و نقرأ فى الرّوايات المنقولة عن طرق الشّيعة و السنّة أنّهم عند ما وضعوا إبراهيم على المنجنيق، و أرادوا أن يلقوه فى النّار، ضجّت السّماء و الأرض و الملائكة، و سألت اللّه سبحانه أن يحفظ هذا الموحد البطل و زعيم الرجال الأحرار.

و نقلوا أيضا أنّ جبرئيل جاء للقاء إبراهيم، و قال له: أ لك حاجة؟ فأجابه إبراهيم بعبارة موجزة: «أمّا إليك فلا» إنّى أحتاج إلى من هو غنى عن الجميع، و رؤوف بالجميع.

و هنا اقترح عليه جبرئيل فقال: فاسأل ربّك، فأجابه:

«حسبى من سؤالى علمه بحالى»[۱۳۴].

و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: إنّ إبراهيم ناجى ربّه فى تلك الساعة:

«يا أحد يا أحد، يا صمد يا صمد، يا من لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، توكّلت على اللّه»[۱۳۵].

كما ورد هذا الدعاء بعبارات مختلفة و فى العديد من المصادر الأخرى.

و على كلّ حال، فقد القى إبراهيم فى النّار وسط زعاريد الناس و سرورهم و صراخهم، و قد أطلقوا أصوات الفرح ظانّين أنّ محطّم الأصنام قد فنى إلى الأبد و أصبح ترابا و رمادا.

لكنّ اللّه الذى بيده كلّ شىء حتّى النّار لا تحرق إلّا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالما من لهب تلك النّار الموقدة ليضيف وثيقة فخر جديدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

إلى سجل افتخاراته، و كما يقول القرآن الكريم: قُلْنا يا نارُ كُونِى بَرْداً وَ سَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ

لا ـ شكّ أنّ أمر اللّه هنا كان أمرا تكوينيّا، كالأمر الذى يصدره فى عالم الوجود إلى الشمس و القمر، و الأرض و السّماء، و الماء و النّار، و النباتات و الطيور.

و المعروف أنّ النّار قد بردت بردا شديدا اصطكّت أسنان إبراهيم منه، و حسب قول بعض المفسّرين: إنّ اللّه سبحانه لو لم يقل: سلاما، لمات إبراهيم من شدّة البرد. و كذلك نقرأ فى رواية مشهورة أنّ نار النمرود قد تحوّلت إلى حديقة غناء[۱۳۶]. حتّى قال بعض المفسّرين إنّ تلك اللحظات التى كان فيها إبراهيم فى النّار، كانت أهدأ و أفضل و أجمل أيّام عمره ۱۳۷].

على كلّ حال، فهناك اختلاف كبير بين المفسّرين فى كيفية عدم إحراق النّار لإبراهيم، إلّا أنّ مجمل الكلام أنّه فى فلسفة التوحيد لا يصدر أى مسبّب عن أى سبب إلّا بأمر اللّه، فيقول يوما للسكّين التى فى يد إبراهيم: لا تقطعى، و يقول يوما آخر للنار: لا تحرقى، و يوما آخر يأمر الماء الذى هو أساس الحياة أن يغرق فرعون و الفراعنة! و يقول اللّه سبحانه فى آخر آية من الآيات محلّ البحث على سبيل الاستنتاج باقتضاب: أنّهم تآمروا عليه ليقتلوه و لكن النتيجة لم تكن فى صالحهم وَ أَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ

لا ـ يخفى أنّ الوضع قد اختلف تماما ببقاء إبراهيم سالما، و خمدت أصوات الفرح، و بقيت الأفواه فاغرة من العجب، و كان جماعة يتهامسون علنا فيما بينهم حول هذه الظاهرة العجيبة، و أصبحت الألسن تلهج بعظمة إبراهيم و ربّه، و أحدق الخطر بوجود نمرود و حكومته، غير أنّ العناد ظلّ مانعا من قبول الحقّ، و إن كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، و زاد إيمانهم مع قلّتهم.

بحوث

۱- السعى للخير و الشرّ

قد يغرق الإنسان أحيانا فى عالم الأسباب حتّى يخيّل إليه أنّ الآثار و الخواص من نفس هذه الموجودات، و يغفل عن المبدأ العظيم الذى وهب هذه الآثار المختلفة لهذه الموجودات، و يغفل عن المبدأ العظيم الذى وهب هذه الآثار المختلفة لهذه الموجودات، و من أجل أن يوقظ اللّه العباد يشير إلى أنّ بعض الموجودات التافهة قد تصبح مصدرا للآثار العظيمة، فيأمر العنكبوت أن تنسج عدّة خيوط

رقیقة ضعیفة علی باب غار ثور، و تجعل الذین کانوا یطاردون النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم و یبحثون عنه فی کلّ مکان یائسین من العثور علیه، و لو ظفروا به لقتلوه، و لتغیّر مجری التأریخ بهذا الأمر الهیّن ..

و علی العکس من ذلک، فإنّه یعطّل الأسباب التی یضرب بها المثل فی عالم المادّة- کالنّار فی الإحراق، و السکّین فی القطع- عن العمل، لیعلم أنّ هذه أیضا لیس لها أمر و قدرة ذاتیة فی العمل، فإنّها تقف عن العمل إذا نهاها ربّها الجلیل فتکفّ حتّی لو أمرها إبراهیم الخلیل علیه السّلام.

إنّ الالتفات إلی هذه الحقائق التی رأینا أمثلة کثیرة لها فی الحیاة، تحیی فی العبد المؤمن روح التوحید و التوکّل حتّی أنّه لا یفکّر إلّا فی اللّه، و لا یطلب العون إلّا منه، فیطلب منه- وحده- إطفاء نار المشاکل و المعضلات، و یسأله أن یدفع کید الأعداء، فلا یری غیره، و لا یرجو شیئا من غیره.

۲- الفتی الشّجاع

جاء فی بعض کتب التّفسیر أنّ إبراهیم لمّا ألقی فی النّار لم یکن عمره یتجاوز

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

ست عشرة سنة[۱۳۸] و ذکر البعض الآخر أنّ عمره عند ذاک کان (۲۶) سنة[۱۳۹].

و علی کلّ حال فإنّه کان فی عمر الشباب، و مع أنّه لم یکن معه أحد یعینه، فإنّه رمی بسهم المواجهة فی وجه طاغوت زمانه الکبیر الذی کان حامیا للطواغیت الآخرین، وهبّ بمفرده لمقارعة الجهل و الخرافات و الشرک، و استهزاء بکلّ مقدّسات المجتمع الخیالیة الواهیة، و لم یدع للخوف من غضب و انتقام الناس أدنی سبیل إلی نفسه، لأنّ قلبه کان مغمورا بعشق اللّه، و کان اعتماده و توکّله علی الذات المقدّسة فحسب.

أجل ... هکذا هو الإیمان، أینما وجد وجدت الشهامة، و کلّ من حلّ فیه فلا یمکن أن یقهر! إنّ أهمّ الاسس التی ینبغی للمسلمین الاهتمام بها لمقارعة القوی الشیطانیة الکبری، فی دنیا الیوم المضطربة، هو هذا الأساس و الرأسمال العظیم، و هو الإیمان،

ففی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحدید، إنّ زبر الحدید إذا دخل النّار تغیّر، و إنّ المؤمن لو قتل ثمّ نشر ثمّ قتل لم یتغیّر قلبه»[۱۴۰].

۳- إبراهیم و نمرود

جاء فی التواریخ أنّه عند ما ألقوا إبراهیم فی النّار، کان نمرود علی یقین من أنّ إبراهیم قد أصبح رمادا، أمّا عند ما دقّق النظر و وجده حیّا، قال لمن حوله: إنّی أری إبراهیم حیّا، لعلّی یخیّل إلیّ! فصعد علی مرتفع و رأی حاله جیدا فصاح نمرود: یا إبراهیم إنّ ربّک عظیم، و قد أوجد بقدرته حائلا بینک و بین النّار! و لذلک فإنّی أرید أن أقدّم قربانا له، و أحضر أربعة آلاف قربان لذلک، فأعاد إبراهیم القول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

علیه بأنّ أی قربان- و أی عمل- لا یتقبّل منک إلّا أن تؤمن أوّلا. غیر أنّ نمرود قال فی الجواب: فسیذهب سلطانی و ملکی سدی إذن، و لیس بإمکانی أن أتحمّل ذلک! علی کلّ حال، فإنّ هذه الحوادث صارت سببا لإیمان جماعة من ذوی القلوب الواعیة بربّ إبراهیم علیه السّلام، أو یزدادوا إیمانا، و ربّما کان هذا هو السبب فی عدم إظهار نمرود ردّ فعل قوی ضدّ إبراهیم، بل اکتفی بإبعاده

عن أرض بابل ۱۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۱ الى ۷۳]

اشارة

وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ (۷۱) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ (۷۲) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ (۷۳)

التّفسير

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين

لقد هزّت قصّة حريق إبراهيم عليه السّلام و نجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، بحيث فقد نمرود معنوياته تماما، لأنّه لم يعد قادرا على أن يظهر إبراهيم بمظهر الشاب المنافق و المثير للمشاكل. فقد عرف بين الناس بأنّه مرشد إلهى و بطل شجاع يقدر على مواجهة جبّار ظالم- بكلّ إمكانياته و قدرته- بمفرده، و أنّه لو بقى فى تلك المدينة و البلاد على هذا الحال، و مع ذلك اللسان المتكلّم و المنطق القوى، و الشهامة و الشجاعة التى لا نظير لها، فمن المحتّم أنّه سيكون خطرا على تلك الحكومة الجبّارة الغاشمة، فلا بدّ أن يخرج من تلك الأرض على أى حال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

و من جهة أخرى، فإنّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته فى الواقع- فى تلك البلاد، و وجّه ضربات ما حقة إلى هيكل و بنيان الشرك، و بذر بذور الإيمان و الوعى فى تلك البلاد، و بقيت المسألة مسألة وقت لتنمو هذه البذور و تبدى ثمارها، و تقلع جذور الأصنام و عبادتها، و تسحب البساط من تحتها.

فلا بدّ من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، و لذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط- و كان ابن أخ إبراهيم- و زوجته سارة، و ربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: وَ نَجَّيْناهُ وَ لُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ

و بالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحا فى القرآن، إلّا أنّه بملاحظة الآية الأولى من سورة الإسراء: سُبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ يتّضح أنّ هذه الأرض هى أرض الشام ذاتها، التى كانت من الناحية الظاهرية أرضا غنيّة مباركة خضراء، و من الجهة المعنوية كانت معهدا لرعاية الأنبياء.

و قد وردت بحوث مختلفة فى التفاسير و الرّوايات فى أنّ إبراهيم عليه السّلام هاجر تلقائيا، أم أبعدته سلطات نمرود، أم أنّ الإثنين اشتركا، و الجمع بينها جميعا هو أنّ نمرود و من حوله كانوا يرون فى إبراهيم خطرا كبيرا عليهم، فأجبروه على الخروج من تلك البلاد، هذا من جهة، و من جهة أخرى، فإنّ إبراهيم كان يرى أنّ رسالته و مهمّته فى تلك الأرض قد انتهت، و كان يبحث عن منطقة أخرى للعمل على توسيع دعوة التوحيد فيها، خاصة و أنّ البقاء فى بابل قد يشكّل خطرا على حياته فتبقى دعوته العالمية ناقصة.

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: إنّ نمرود «أمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده، و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله، فحاجّهم

إبراهيم عند ذلك فقال: إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۴

أخذتم ماشيتى و مالى فحقّى عليكم أن تردّوا علىّ ما ذهب من عمرى فى بلادكم، فاختصموا إلى قاضى نمرود، و قضى على إبراهيم أن يسلّم إليهم جميع ما أصاب فى بلادهم، و قضى على أصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم ما ذهب من عمره فى بلادهم، فأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلّوا سبيله و سبيل ماشيته و ماله، و أن يخرجوه، و قال: إنّه إن بقى فى بلادكم أفسد دينكم و أضرّ بآلهتكم»[۱۴۲].

و أشارت الآية التالية إلى أحد أهمّ مواهب اللّه لإبراهيم، و هى هبته الولد الصالح، و النسل المفيد، فقالت: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ نافِلَةً[۱۴۳] وَ كُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ فقد مرّت أعوام طوال و إبراهيم فى لهفة و انتظار للولد الصالح، و الآية (۱۰۰) من سورة الصافات ناطقة بأمنيته الباطنية هذه: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ و أخيرا استجاب له ربّه، فوهبه إسماعيل أوّلا، و من بعد إسحاق، و كان كلّ منهما نبيّا عظيم الشخصيّة.

إنّ التعبير ب «نافلة»- و الذى يبدو أنّه وصف ليعقوب خاصّة- من جهة أنّ إبراهيم عليه السّلام كان قد طلب الولد الصالح فقد، فأضاف اللّه إلى مراده حفيدا صالحا أيضا، لأنّ النافلة فى الأصل تعنى الهبة أو العمل الإضافى.

و تشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة و قيادة هذا النّبى الكبير، و إلى جانب من صفات الأنبياء و مناهجهم المهمّة القيّمة بصورة جماعية.

لقد عدّت فى هذه الآية ستّة أقسام من هذه الخصائص، و إذا أضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين- و الذى يستفاد من الآية السابقة- فستصبح سبعة.

و يحتمل أيضا أن يكون مجموع الصفات الست التى ذكرت فى هذه الآية تفصيلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

و تبيانا لصلاح أولئك، و الذى ورد فى الآية السابقة.

يقول أوّلا: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً أى إنّنا وهبناهم مقام الإمامة إضافة إلى مقام النّبوّة و الرسالة، و الإمامة- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هى آخر مراحل سير الإنسان التكاملى، و التى تعنى القيادة العامّة الشاملة لكلّ الجوانب الماديّة و المعنوية، و الظاهرية و الباطنية، و الجسميّة و الروحية للناس.

و الفرق بين النبوّة و الرسالة و بين الإمامة، هو أنّ الأنبياء فى مقام النبوّة و الرسالة يتلقّون أوامر اللّه و يبلّغونها الناس إبلاغا مقترنا بالإنذار أو البشارة فقط، أمّا فى مرحلة الإمامة فإنّهم ينفّذون هذا البرنامج الإلهى، سواء كان هذا التنفيذ عن طريق تشكيل حكومة عادلة أو بدون ذلك، فهم فى هذه المرحلة مربّون للناس، و معلّمون لهم، و منفّذون للأحكام و البرامج فى سبيل إيجاد بيئة طاهرة نزيهة إنسانية.

فى الحقيقة، إنّ مقام الإمامة مقام تنفيذ كلّ الخطط و الاطروحات الإلهيّة، و بتعبير آخر: الإيصال إلى المطلوب، و الهداية التشريعيّة و التكوينيّة، فالإمام من هذه الناحية كالشمس التى تنمى الكائنات الحيّة بأشّعتها تماما[۱۴۴].

ثمّ يذكر فى المرحلة التالية ثمرة هذا المقام، فيقول: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا و لا يعنى بالهداية الإرشاد و بيان الطريق الصحيح، و الذى هو من شأن النبوّة و الرسالة، بل يعنى الأخذ باليد و الإيصال إلى المقصود. و هذا بالطبع لمن له الاستعداد و اللياقة و الأهليّة.

أمّا الموهبة الثّالثة الرّابعة و الخامسة فقد عبّر عنها القرآن بقوله: وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ و هذا الوحى يمكن أن يكون وحيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۶

تشريعيّا، أى إنّنا جعلنا كلّ أنواع أعمال الخير و أداء الصلاة و إعطاء الزكاة فى مناهجهم الدينيّة. و يمكن أيضا أن يكون وحيا تكوينيّا،

أى إنّنا وهبنا لهم التوفيق و القدرة و الجاذبية المعنوية من أجل تنفيذ هذه الأمور.

طبعا، ليس لأى من هـذه الأمور صـبغة إجبارية و اضـطرارية، و حتّى مجرّد الأهلية و الاسـتعداد و الأرضـية لوحدها من دون إرادتهم و تصميمهم لا توصل إلى نتيجة.

إنّ ذكر إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ بعـد فعل الخيرات، من أجل أهميّـة هـذين الأمرين اللـذين بيّنا أوّلا بصورة عامّـة فى جملـة وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ ثمّ بصورة خاصّة فى التصريح بهما، و هذا ما يبحثه علماء البلاغة العربية تحت عنوان ذكر الخاص بعد العام ...

و فى آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ ۱۴۵].

و التعبير ب «كانوا» الـذى يـدلّ على الماضـى المسـتمر فى هـذا المنهـج، ربّما كان إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالا صالحين موحّدين مؤهّلين حتّى قبل الوصول إلى مقام النّبوّة و الإمامة، و فى ظلّ ذلك المخطّط و هبهم اللّه سبحانه مواهب جديدة.

و ينبغى التـذكير بهـذه النقطـة، و هىّ أنّ جملـة يَهْـدُونَ بِأَمْرِنا فى الحقيقـة وسـيلة لمعرفـة الأئمّـة و هداة الحقّ، فى مقابل زعماء و قادة الباطل الذين يقوم أساس و معيار أعمالهم على الأهواء و الرغبات الشيطانية. و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الأئمّة فى كتاب اللّه إمامان: قال اللّه تبارك و تعالى:

و جعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، يقدّمون ما أمر اللّه قبل أمرهم، و حكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

اللّه قبـل حكمهم، قـال: و جعلنـا أئمّـة يهـدون إلى النّـار، يقـدّمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حكمهم قبل حكم اللّه، و يأخـذون بأهوائهم خلاف ما فى كتاب اللّه»[۱۴۶].

و هذا هو المعيار و المحك لمعرفة إمام الحقّ من إمام الباطل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۴ الى ۷۵]

اشارة

وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ (۷۴) وَ أَدْخَلْناهُ فِى رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۷۵)

التّفسير

نجاة لوط من أرض الفجّار:

لمّا كان لوط من أقرباء إبراهيم و ذوى أرحامه، و من أوائل من آمن به، فقـد أشارت الآيتان بعـد قصّة إبراهيم عليه السّـلام إلى جانب من اجتهاده و سعيه فى طريق إبلاغ الرسالة، و المواهب التى منحها اللّه سبحانه له، فتقول: وَ لُوطاً آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً[۱۴۷].

لفظـة (الحكم) جـاءت فى بعض الموارد بمعنى أمر النبوّة و الرسالـة، و فى موارد أخرى بمعنى القضاء، و أحيانا، بمعنى العقل، و يبـدو أنّ الأنسب هنا من بين هذه المعانى هو المعنى الأوّل، مع إمكانية الجمع بين هذه المعانى هنا.

و المراد من العلم كلّ العلوم التى لها أثر فى سعادة و مصير الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

لقد كان لوط من الأنبياء العظام و كان معاصرا لإبراهيم، و هاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثمّ فارق إبراهيم، و جاء إلى مدينة (سدوم) لأنّ أهلها كانوا غارقين فى الفساد و المعاصى، و خاصّة الانحرافات الجنسية. و قد سعى كثيرا من أجل هداية هؤلاء القوم، و تحمّل المشاق فى هذا الطريق، إلّا أنّه لم يؤثّر فى أولئك العمى القلوب.

و أخيرا، نعلم أنّ الغضب و العذاب الإلهى قد حلّ بهؤلاء، و قلب عالى مدينتهم سافلها، و أهلكوا جميعا، إلّا عائلة لوط- باستثناء امرأته- و قد بيّنا تفصيل هذه الحادثة فى ذيل الآيات (۷۷) و ما بعدها من سورة هود.

و لذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التى و هبت للوط، و هى وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ

إنّ نسبة الأعمال القبيحة إلى القرية و المدينة بدلا من أهل القرية إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا قد غرقوا فى الفساد و المعاصى إلى درجة حتّى كأنّ أعمال الفساد و الخبائث كانت تقطر من جدران مدينتهم و أبوابها.

و التعبير ب «الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالا قبيحة و خبيثة أخرى، أشرنا إليها فى ذيل الآية (۸) من سورة هود.

و التعبير ب «الفاسقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ أولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهيّة، و حتّى مع قطع النظر عن الدين و الإيمان، فإنّهم كانوا أفرادا حمقى و منحرفين فى نظر المعايير الاجتماعية بين الناس.

ثمّ أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهيّة للنبى لوط، فقالت: وَ أَدْخَلْناهُ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ فهذه الرحمة الإلهيّة الخاصّة لا تعطى لأحد اعتباطا و بدون حساب، بل إنّ أهلّية و صلاحية لوط هى التى جعلته مستحقّا لمثل هذه الرحمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

حقّا، أى عمل أصعب، و أى منهج إصلاحى أجهد من أن يبقى إنسان مدّة طويلة فى مدينة فيها كلّ هذا الفساد و الانحطاط، و يظلّ دائما يبلّغ الناس الضالّين المنحرفين أمر ربّهم و يرشدهم إلى طريق الهدى، و يصل الأمر بهم إلى أنّهم يريدون أن يعتدوا حتّى على ضيفه؟ و الحقّ أنّ مثل هذه الاستقامة و الثبات لا تصدر إلّا من أنبياء اللّه و أتباعهم، فأى واحد منّا يستطيع أن يتحمّل مثل هذا العذاب الروحى المؤلم؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۶ الى ۷۷]

اشارة

وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۷۷)

التّفسير

نجاة نوح من القوم الكافرين:

بعد ذكر جانب من قصّة إبراهيم و قصّة لوط عليهما السّلام، تطرّقت السورة إلى ذكر جانب من قصّة نبى آخر من الأنبياء الكبار- أى

نوح عليه السّلام- فقالت: وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ أى قبل إبراهيم و لوط.

إنّ هـذا النـداء- ظاهرا- إشارة إلى الـدعاء و اللعنـة التى ذكرت فى سورة نوح من القرآن الكريم حيث يقول: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً[۱۴۸]. أو إنّه إشارة إلى الجملة التى وردت فى الآية ۱۰/ سورة القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ.

التعبير ب «نادى» يأتى عادة بمعنى الدعاء بصوت عال، و لعلّه إشارة إلى أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

آذوا هـذا النّبى الجليل إلى درجة جعلته يصـرخ مناديا ربّه ليدركه و ينجّيه من أذاهم و شـرّهم، و لو أمعنا النظر فى أحوال نوح الواردة فى سورة نوح و سورة هود لوجدنا أنّه كان محقّا أن يرفع صوته و يدعو ربّه سبحانه ۱۴۹].

ثمّ تضـيف الآية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و فى الحقيقة فإنّ جملة «فاسـتجبنا» إشارة مجملة إلى استجابة دعوته، و جملة فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ تعتبر شرحا و تفصيلا لها.

و هنـاك اختلاف بين المفسّـرين فى المراد من كلمـة (أهل) هنا، لأنّه إذا كان المراد منها عائلته و أهل بيته فستشـمل بعض أبناء نوح، لأنّ واحدا من أولاده تخلّف عنه مع المسيئين و أضاع بنوته لعائلته، و كذلك لم تكن زوجته مؤمنة به.

و إن كان المراد من الأهل خواص أتباعه و أصحابه المؤمنين، فإنّها على خلاف المعنى المشهور للأهل.

لكن يمكن أن يقـال: أنّ للأهـل- هنا- معنى وسـيعا يشـمل أهله المؤمنين و خواص أصـحابه، لأنّا نقرأ فى حقّ ابنه الـذى لم يتبعه: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۱۵۰] و على هذا فإنّ الذين اعتنقوا دين نوح يعدّون فى الواقع من عائلته و أهله.

و ينبغى ذكر هـذه الملاحظـة أيضـا، و هى: إنّ «الكرب» فى اللغـة تعنى الغمّ الشديـد، و هى فى الأصـل مـأخوذة من تقليب الأـرض و حفرها، لأنّ الغمّ الشديد يقلب قلب الإنسان، و وصفه بالعظيم يكشف عن منتهى كربه و أساه.

و أىّ كرب أعظم من أن يـدعو قومه إلى دين الحقّ (۹۵۰) عاما، كما صـرّح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدّة الطويلة إلّا ثمانون شخصا على المشهور بين المفسّرين ۱۵۱]، و أمّا عمل الآخرين فلم يكن غير السخرية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۳

و الاستهزاء و الأذى.

و تضـيف الآية التالية: وَ نَصَرْناهُ ۱۵۲] مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ إنّ هـذه الجملـة تؤكّد مرّة أخرى على حقيقة أنّ العقوبات الإلهيّة لا تتّصف بصـفة الانتقام مطلقا، بل هى على أساس انتخاب الأصـلح، أى إنّ حقّ الحياة و التنعّم بمواهب الحيـاة لأنـاس يكونون فى طريق التكامـل و السـير إلى اللّه، أو انّهم إذا سـاروا يوما فى طريق الانحراف انتبهوا إلى أنفسـهم و رجعوا إلى جادة الصواب. أمّا أولئك الفاسدون الذين لا أمل مطلقا فى صـلاحهم فى المسـتقبل، فلا مصير و لا جزاء لهم إلّا الموت و الفناء.

ملاحظة

الجـدير بالذكر أنّ هذه السورة ذكرت آنفا قصة «إبراهيم» و «لوط» و كذلك سوف تذكر قصتى «أيّوب» و «يونس»، و قد ذكرت آنفا قصّة نوح عليه السّلام و فى جميعها تذكر مسألة نجاتهم و خلاصهم من الشدائد و المحن و الأعداء.

و كأنّ منهج هذه السورة بيان منتهى رعاية اللّه و حمايته لأنبيائه و إنقاذهم من الكروب، ليكون ذلك تسـلية للرسول الأعظم صـلى اللّه عليه و آله و سلم، و أملا للمؤمنين، و بملاحظة أنّ هذه السورة مكّية، و أنّ المسلمين كانوا حينئذ فى شدّة و كرب فستتجلّى أهميّة هذا الموضوع أكثر ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۴

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۷۸ الى ۸۰]

اشارة

وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ (۷۸) فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ وَ كُنَّا فاعِلِينَ (۷۹) وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ (۸۰)

التّفسير

قضاء داود و سليمان عليهما السّلام:

بعد الحوادث و الوقائع المتعلّقة بموسى و هارون و إبراهيم و نوح و لوط عليهم السّلام، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياة داود و سليمان، و فى البداية أشارت إشارة خفيّة إلى حادث قضاء و حكم صدر من جانب داود و سليمان، فتقول: وَ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ ۱۵۳] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحُكْمِهِمْ شاهِدِينَ

و بالرغم من أنّ القرآن قد ألمح إلى هذه المحكمة لمحة خفيّة، و اكتفى بإشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۵

إجمالية و استخلاص النتيجة الأخلاقية و التربوية لها و التى سنشير إليها فيما بعد، إلّا أنّه وردت بحوث كثيرة حولها فى الرّوايات الإسلامية و أقوال المفسّرين.

فقال جماعة: إنّ القصّة كانت كما يلى: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلا إلى بستان فأكلت أوراقه و عناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كلّ الأغنام لصاحب البستان تعويضا لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان- و الذى كان طفلا آنذاك- لأبيه: يا نبى اللّه العظيم، غيّر هذا الحكم و عدّله! فقال الأدب: و كيف ذاك؟ قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها و لبنها و صوفها، و تودع البستان فى يد صاحب الأغنام ليسعى فى إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يردّ إلى صاحبه، و تردّ الأغنام أيضا إلى صاحبها، و أيّد اللّه حكم سليمان فى الآية التالية.

و قد ورد هذا المضمون فى رواية عن الإمامين الباقر و الصادقين عليهما السّلام ۱۵۴].

و يمكن أن يتصوّر عدم تناسب هذا التّفسير مع كلمة (حرث) التى تعنى الزراعة، و لكن يبدو أنّ للحرث معنى واسعا يشمل الزراعة و البستان، كما يستفاد ذلك من قصّة أصحاب الجنّة فى سورة القلم، الآية ۱۷- ۳۲.

لكن تبقى هنا عدّة استفهامات مهمّة:

۱- ماذا كان أساس و معيار هذين الحكمين؟

۲- كيف اختلف حكم داود عن حكم سليمان؟ فهل كانا يحكمان على أساس الاجتهاد؟

۳- هل المسألة هذه كانت على هيئة تشاور فى الحكم، أم أنّهما حكما بحكمين مستقلّين يختلف كلّ منهما عن الآخر؟! و يمكن الإجابة عن السؤال الأوّل: إنّ المعيار كان جبران الخسارة، فينظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۶

داود إلى أنّ الخسارة التى أصابت الكرم تعادل قيمة الأغنام، و لذلك حكم بوجوب إعطاء الأغنام لصاحب البستان جبرا للخسارة، لأنّ التقصير من جانب صاحب الأغنام.

و ينبغى الالتفات إلى أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ على صاحب الأغنام أن يمنع غنمه من التعدّى على زرع الآخرين فى الليل، كما أنّ من واجب صاحب الزرع حفظ زرعه فى النهار[۱۵۵].

أمّا معيار حكم سليمان عليه السّلام فقد كان يرى أنّ خسارة صاحب البستان تعادل ما سينتفع به من الأغنام لسنة كاملة! بناء على هذا فإنّ الإثنين قد قضيا بالحقّ و العدل، مع فارق أنّ حكم سليمان كان أدقّ، لأنّ الخسارة لا تدفع مرّة واحدة فى مكان واحد، بل تؤدّى بصورة تدريجيّة بحيث لا تثقل على صاحب الغنم أيضا. و إضافة إلى ما مرّ، فقد كان هناك تناسب بين الخسارة و الجبران، لأنّ جذور النباتات لم تتلف، بل ذهبت منافعها المؤقتة، و لذلك فإنّ من الأعدل ألّا تنقل أصول الأغنام إلى ملك صاحب البستان، بل تنقل منافعها فقط.

و نقول فى جواب السؤال الثّانى: لا شكّ أنّ حكم الأنبياء مستند إلى الوحى الإلهى، إلّا أنّ هذا لا يعنى أنّ وحيا خاصّا ينزل فى كلّ مورد من موارد الحكم، بل إنّ الأنبياء يحكمون حسب القواعد الكليّة التى تلقّوها من الوحى.

بناء على هذا فإنّه لا توجد مسألة الاجتهاد النظرى بمعناها الاصطلاحى، و هو الاجتهاد الظنّى، و لكن لا مانع من أن يكون هناك طريقان لإيجاد ضابطة كليّة، و أن يكون نبيّان كلّ منهما يرى أحد الطريقين، و كلاهما صحيح فى الواقع، و كان الموضوع الذى عالجناه فى بحثنا- على سبيل الاتّفاق- من هذا القبيل كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

بيّناه آنفا بتفصيل. و كما أشار القرآن إليه، فإنّ الطريق الذى اختاره سليمان عليه السّلام كان أقرب من الناحية التنفيذيّة، و جملة وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً و التى ستأتى فى الآية التالية، شاهدة على صحّة كلا القضاءين.

و نقول فى جواب السؤال الثّالث: لا يبعد أن يكون الأمر على هيئة تشاور، و هو التشاور الذى يحتمل أن يكون لتعليم سليمان و تأهيله فى أمر القضاء، و التعبير ب (حكمهم) شاهد أيضا على وحدة الحكم النهائى، بالرغم من وجود حكمين مختلفين فى البداية. (فتأمّلوا بدقّة).

و نقرأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۲۱۷

فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «لم يحكما، إنّما كانا يتناظران»[۱۵۶].

و يستفاد من رواية أخرى رويت فى أصول الكافى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ هذه القضيّة حدثت لتعيين وصىّ داود و خليفته و أن يتعلّم أولئك النفر منهما أيضا[۱۵۷].

و على كلّ حال، فإنّ الآية التالية تؤيّد حكم سليمان فى هذه القصّة على هذه الشاكلة: فَفَهَّمْناها سُلَيْمانَ و لكن هذا لا يعنى أنّ حكم داود كان اشتباها و خطأ، لأنّها تضيف مباشرة وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً.

ثمّ تشير إلى إحدى المواهب و الفضائل التى كان اللّه سبحانه قد وهبها لداود عليه السّلام، فتقول: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ فإنّ ذلك ليس شيئا مهمّا أمام قدرتنا وَ كُنَّا فاعِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

بحث

هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه كيف كان تجاوب الجبال و الطير مع داود؟

و ما المراد من قوله تعالى: وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ يُسَبِّحْنَ ! ۱- فاحتمل أحيانا أنّ هذا كان صوت داود الرخيم المؤثّر الجذّاب، و الذى كان ينعكس فى الجبال، و كان يجذب الطيور إليه.

۲- و قالوا حينا آخر: إنّ هذا التسبيح كان تسبيحا مقترنا بالإدراك و الشعور الموجود فى باطن ذرّات العالم، لأنّ كلّ موجودات العالم لها نوع من العقل و الشعور حسب هذه النظرية، و عند ما كانت تسمع صوت داود فى وقت المناجاة و التسبيح كانت تردّد معه، و تمتزج بهمهمة تسبيح منها.

۳- و قال البعض: إنّ المراد هو التسبيح التكوينى الذى يوجد فى موجودات العالم بلسان حالها، لأنّ لكلّ موجود نظاما دقيقا جدّا. و هذا النظام الدقيق يحكى عن طهارة و نزاهة اللّه، و عن أنّ له صفات كمال، و بناء على هذا فإنّ نظام عالم الوجود العجيب فى كلّ زاوية منه تسبيح و حمد، ف «التسبيح» هو التنزيه عن النقائص، و «الحمد» هو الثناء على صفات الكمال ۱۵۸].

فإنّ قيل: إنّ التسبيح التكوينى لا يختّص بالجبال و الطيور، و لا بداود، بل أنّ نغمة هذا التسبيح تنبعث من كلّ الأرجاء و الموجودات على الدوام.

قالوا فى الجواب: صحيح إنّ هذا التسبيح عام، و لكن لا يدركه الجميع، فقد كانت روح داود العظيمة فى هذه الحالة منسجمة مع باطن و داخل عالم الوجود، و كان يحسن جيدا أنّ الجبال و الطير يسبّحن معه.

و ليس لدينا دليل قاطع على أى من هذه التفاسير، و ما نفهمه من ظاهر الآية هو أنّ الجبال و الطير كانت تردّد و تتجاوب مع داود، و كانت تسبّح اللّه، و فى الوقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۱۹

نفسه لا تضادّ بين هذه التفاسير الثلاثة، فالجمع بينهما ممكن.

و أشارت الآية الأخيرة إلى موهبة أخرى من المواهب التى وهبها اللّه لهذا النّبى الجليل، فقالت: وَ عَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شاكِرُونَ

«اللبوس» كما يقول العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان- كلّ نوع من أنواع الأسلحة الدفاعية و الهجومية كالدرع و السيف و الرمح ۱۵۹].

إلّا أنّ القرائن التى فى آيات القرآن توحى بأنّ اللبوس هنا تعنى الدرع التى لها صفة الحفظ فى الحروب.

أمّا كيف ألان اللّه الحديد لداود، و علّمه صنع الدروع، فسنفصّل ذلك فى ذيل الآيات (۱۰- ۱۱) من سورة سبأ إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۰

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۱ الى ۸۲]

اشارة

وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِى بارَكْنا فِيها وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ (۸۱) وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ (۸۲)

التّفسير

الرياح تحت إمرة سليمان:

تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التى منحها اللّه لنبى آخر من الأنبياء- أى سليمان عليه السّلام فتقول الآية الأولى منهما: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ إِلى الْأَرْضِ الَّتِى بارَكْنا فِيها و هذا الأمر ليس عجيبا، لأنّنا عارفون به وَ كُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عالِمِينَ فنحن مطّلعون على أسرار عالم الوجود، و القوانين و الأنظمة الحاكمة عليه، و نعلم كيفية السيطرة عليها، و نعلم كذلك نتيجة و عاقبة هذا العمل، و على كلّ حال فإنّ كلّ شىء خاضع و مسلّم أمام علمنا و قدرتنا.

إنّ جملة وَ لِسُلَيْمانَ ... معطوفة على جملة وَ سَخَّرْنا مَعَ داوُدَ الْجِبالَ أى إنّ قدرتنا عظيمة نقدر معها على أن نسخّر الجبال لعبد من عبادنا أحيانا لتسبّح معه، و أحيانا نجعل الريح تحت إمرة أحد عبادنا ليرسلها حيث شاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

إنّ لفظة (العاصفة) تعنى الرياح القويّة أو الهائجة، فى حين يستفاد من بعض آيات القرآن الاخرى أنّ الرياح الهادئة أيضا كانت تحت إمرة سليمان، كما تصوّر ذلك الآية (۳۶) من سورة ص: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ

إنّ التصريح بالعاصفة هنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهمّ، أى ليست الرياح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتّى العواصف الشديدة كانت رهن إشارته أيضا، لأنّ الثّانية أعجب.

ثمّ إنّ هذه الرياح القويّة التى فى مسير الأرض المباركة (الشام) حيث كان مقرّ سليمان عليه السّلام، لم تكن الوحيدة، بل إنّها كانت تتحرّك حيث أراد، و إلى جميع الأمكنة حسب الآية (۳۶) من سورة ص، و على هذا فإنّ التصريح باسم الأرض المباركة لأنّها كانت مركزا لحكومة سليمان.

أمّا كيف كانت الريح تحت إمرته و تصرّفه؟

و بأيّة سرعة كانت تتحرّك؟

و على أى شىء كان يجلس سليمان و أصحابه و يتحرّكون؟

و أى عامل كان يحفظ هؤلاء عند حركتهم من السقوط أو ضغط الهواء أو المصاعب الأخرى؟

و الخلاصة: أيّة قوّة خفيّة كانت تعطيه القدرة على إمكانية التحرّك بمثل هذه الحركة السريعة فى ذلك العصر و الزمان [۱۶۰]؟

إنّ هذه مسائل لم تتّضح لنا جزئياتها، و الذى نعلمه هو أنّها كانت موهبة إلهيّة خارقة وضعت تحت تصرّف هذا النّبى العظيم، و ما أكثر المسائل التى نعلم بوجودها الإجمالى، و نجهل تفصيلها؟! إنّ معلوماتنا فى مقابل ما نجهله كالقطرة من البحر المحيط، أو كالذرّة مقابل الجبل العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۲

و الخلاصة: فإنّ من وجهة نظر و إعتقاد إنسان موحّد يعبد اللّه، لا يوجد شىء صعب و مستحيل أمام قدرة اللّه سبحانه، فهو قادر على كلّ شىء، و عالم بكلّ شىء.

لقد كتبت حول هذه الفترة من حياة سليمان- كالفترات الأخرى من حياته العجيبة- أساطير كاذبة أو مشكوكة كثيرة لا نقبلها مطلقا، فنحن نكتفى بهذا المقدار الذى بيّنه القرآن هنا.

و يلزم ذكر هذه اللطيفة أيضا، و هى أنّ بعض الكتّاب المتأخرين يعتقدون بأنّ القرآن ليس فيه شىء صريح عن حركة سليمان و البساط، بل أورد الكلام عن تسخير الرياح لسليمان فقط، فربّما كان ذلك إشارة إلى استغلال سليمان لقوّة الهواء فى المسائل المرتبطة بالزراعة، و تلقيح النباتات، و تنقية الحنطة و الشعير، و حركة السفن، خاصّة و أنّ أرض سليمان (الشام) كانت أرضا زراعية من جهة، و من جهة أخرى. فإنّ جانبا مهمّا منها كان على سواحل البحر الأبيض المتوسط، و كان ينتفع منها فى حركة الملاحة[۱۶۱].

إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب كثيرا و آيات سورة سبأ و سورة ص و بعض الرّوايات الواردة فى هذا الباب.

ثمّ تذكر الآية التالية أحد المواهب الخاصّة بسليمان عليه السّلام فتقول: وَ مِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ لاستخراج الجواهر و الأشياء

الثمينة الأخرى وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ من التمرّد و الطغيان على أوامر سليمان عليه السّلام.

إنّ ما ورد فى الآية آنفة الذكر باسم «الشياطين»، جاء فى آيات سورة «سبأ» باسم الجن- الآية (۱۲ و ۱۳) من سورة سبأ- و من الواضح أنّ هذين اللفظين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

لا منافاة بينهما، لأنّا نعلم أنّ الشياطين من طائفة الجنّ.

و على كلّ حال، فقد ذكرنا أنّ الجنّ نوع من المخلوقات التى لها عقل و شعور و استعداد، و عليها تكليف، و هى محجوبة عن أنظارنا نحن البشر، و لذلك سمّيت بالجنّ، و هم- كما يستفاد من آيات سورة الجنّ- كالبشر منهم المؤمنون الصالحون، و منهم الكافرون العصاة، و لا نمتلك أى دليل على نفى مثل هذه الموجودات، و لأنّ المخبر الصادق (القرآن) قد أخبر عنها فنحن نؤمن بها.

و يستفاد من آيات سورة سبأ و سورة ص- و كذلك من الآية محلّ البحث- جيدا أنّ هذه الجماعة من الجنّ التى سخّرت لسليمان، كانوا أفرادا أذكياء نشيطين فنّانين صنّاعا ماهرين فى مجالات مختلفة، و جملة وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ تبيّن إجمالا ما جاء تفصيله فى سورة سبأ من أنّهم كانوا يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ

و يستفاد من جزء من الآيات المتعلّقة بسليمان أنّ جماعة من الشياطين العصاة كانوا موجودين أيضا، و كان سليمان عليه السّلام قد أوثقهم: وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ[۱۶۲]، و ربّما كانت جملة وَ كُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ إشارة إلى هذا المعنى بأنّا كنّا نحفظ تلك المجموعة التى كانت تخدم سليمان من التمرّد و العصيان. و ستطالعون تفصيلا أكثر فى هذا الباب فى تفسير سورة سبأ و سورة ص إن شاء اللّه تعالى.

و نذكر مرّة أخرى أنّ هناك أساطير كاذبة أو مشكوكا فيها كثيرة حول حياة سليمان و جنوده، يجب أن لا تمزج مع ما فى متن القرآن، لئلّا تكون حربة فى يد المتصيدين فى الماء العكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۴

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۳ الى ۸۴]

اشارة

وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۸۳) فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ (۸۴)

التّفسير

أيّوب و نجاته من المصاعب:

تتحدّث الآيتان عن نبى آخر من أنبياء اللّه العظماء و قصّته الملهمة، و هو «أيّوب» و هو عاشر نبى أشير إلى جانب من حياته فى سورة الأنبياء.

إنّ لأيّوب قصّة حزينة، و هى فى نفس الوقت عظيمة سامية، فقد كان صبره و تحمّله عجيبين، خاصّة أمام الحوادث المرّة، بحيث أنّ صبر أيّوب أصبح مضربا للمثل منذ القدم.

غير أنّ هاتين الآيتين تشيران- بصورة خاصّة- إلى مرحلة نجاته و انتصاره على المصاعب، و استعادة ما فقده من المواهب، ليكون

درسا لكلّ المؤمنين على مرّ الدهور ليغوصوا فى المشاكل و يخترقوها، و لا سيّما لمؤمنى مكّة الذين كانوا يعانون ضغوطا من أعدائهم عند نزول هذه الآيات، فتقول: وَ أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

و كلمة «الضرّ». تطلق على كلّ سوء و أذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، و كذلك لنقص عضو، و ذهاب مال، و موت الأعزّة و انهيار الشخصيّة و أمثال ذلك، و كما سنقول فيما بعد، فإنّ أيّوب قد ابتلى بكثير من هذه المصائب.

إنّ أيّوب- كسائر الأنبياء- يظهر أقصى حالات الأدب و الخضوع أمام اللّه عند الدعاء لرفع هذه المشاكل المضنية المجهدة، و لا يعبّر بتعبير تشمّ منه رائحة الشكوى، بل يقول فقط: إنّى ابتليت بهذه المصائب و أنت أرحم الراحمين، فهو حتّى لا يقول: حلّ مشكلتى، لأنّه يعلم أنّه جليل عظيم، و هو يعرف حقّ العظمة.

و تقول الآية التالية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ ذِكْرى لِلْعابِدِينَ ليعلم المسلمون أنّ المشاكل كلّما زادت، و كلّما زادت الابتلاءات، و كلّما زاد الأعداء من ضغوطهم و ضاعفوا قواهم، فإنّها جميعا ترفع و تحلّ بنظرة و منحة من لطف اللّه، فلا تجبر الخسارة و حسب، بل إنّ اللّه سبحانه يعطى الصابرين أكثر ممّا فقدوا جزاء لصبرهم و ثباتهم، و هذا درس و عبرة لكلّ المسلمين، و خاصة المسلمين الذين كانوا تحت محاصرة العدو الشديدة، و تحت ضغط المشاكل عند نزول هذه الآيات.

بحوث

۱- لمحة من قصّة أيّوب

فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام إنّ رجلا سأله عن بليّة أيّوب لأى علّة كانت؟ فأجابه بما ملخّصه. إنّ هذا الابتلاء لم يكن لكفران نعمة، بل على العكس من ذلك، فإنّه كان لشكر نعمة حسده عليها إبليس، فقال لربّه: يا ربّ إنّ أيّوب لم يودّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا، و لو حرمته دنياه ما أدّى إليك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۶

شكرك، فسلّطنى على دنياه حتّى يتبيّن الأمر، فسلّطه اللّه عليه ليكون هذا الحادث سندا لكلّ سالكى طريق الحقّ.

فانحدر إبليس و أهلك أموال أيّوب و أولاده الواحد تلو الآخر، و لكن لم تزد هذه الحوادث أيّوب إلّا ثباتا على الإيمان و خضوعا لقضاء اللّه و قدره.

فسأل الشيطان اللّه سبحانه أن يسلطه على زرعه و غنمه فسلطه، فأحرق كلّ زرعه، و أهلك كلّ غنمه، فلم يزدد أيّوب إلّا حمدا و شكرا.

و أخيرا طلب الشيطان من اللّه أن يسلطه على بدن أيّوب ليكون سبب مرضه، و هكذا كان بحيث لم يكن قادرا على الحركة من شدّة المرض و الجراحات، لكن من دون أن يترك أدنى خلل فى عقله و إدراكه.

و الخلاصة، فقد كانت النعم تسلب من أيّوب الوحدة تلو الاخرى، و لكن شكره كان يزداد فى موازاتها، حتّى جاء جمع من الرهبان لرؤيته و عيادته، فقالوا:

قل لنا أى ذنب عظيم قد اقترفت حتّى ابتليت بمثل هذا الابتلاء؟ و هنا بدأت شماتة هذا و ذاك، و كان هذا الأمر شديدا على أيّوب،

فقال مجيبا: و عزّة ربّى انّى ما أكلت لقمة من طعام إلّا و معى يتيم أو مسكين يأكل على مائدتى، و ما عرض لى أمران كلاهما فيه طاعة للّه إلّا أخذت بأشدّهما علىّ.

عند ذاك كان أيّوب قد اجتاز جميع الامتحانات صابرا شاكرا متجمّلا: و هو يناجى ربّه بلسان مهذّب و دعا أن يكشف عنه ضرّه بتعبير صادق ليس فيه أدنى شكوى- و هو ما ذكرته الآية المتقدّمة: رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ و فى هذه الأثناء فتحت أبواب الرحمة الإلهيّة، و رفع البلاء بسرعة، و انهمرت عليه النعم الإلهيّة أكثر من ذى قبل ۱۶۳].

أجل ... إنّ رجال الحقّ لا تتغير أفكارهم و أعمالهم بتغيّر النعم، فهم يتوجّهون إلى اللّه فى حريتهم و سجنهم و سلامتهم و مرضهم و قوّتهم و ضعفهم، و بكلمة واحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

فى كلّ الأحوال، و لا تغيّرهم حوادث الحياة، فإنّ أرواحهم كالمحيط العظيم لا يؤثّر فى هدوئه تلاطم الرياح العاتية.

كما أنّهم لا- ييأسون لهول الحوادث المرّة و كثرتها، بل يواجهونها و يصمدون لها حتّى تفتح أبواب الرحمة الإلهيّة، لعلمهم أنّ الحوادث و الظروف الصعبة امتحانات إلهيّة يعدّها اللّه لخاصّة عباده ليكونوا أكثر مرانا و مراسا ..

۲- المعروف بين المفسّرين فى تفسير جملة آتَيْناهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ أنّ اللّه سبحانه أرجع أولاده الهلكى إلى حياتهم الأولى و رزقه أولادا آخرين.

و نقرأ فى بعض الرّوايات: إنّ اللّه قد ردّ عليه الأولاد الذين هلكوا فى هذه الحادثة، و أولاده الذين ماتوا قبلها[۱۶۴].

و احتمل بعضهم أنّ اللّه قد وهب أيّوب أولادا و أحفادا جددا ليسدّوا مسدّ الأولاد المفقودين و يملأوا الفراغ الذى تركوه.

۳- نقرأ فى بعض الرّوايات غير المعتبرة أنّ بدن أيّوب قد تعفّن، نتيجة المرض الشديد، إلى درجة أنّه لم يكن بمقدور الناس أن يقتربوا منه، إلّا أنّ الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تنفى هذا المعنى بصراحة، و الدليل العقلى يؤكّد هذا المعنى أيضا، لأنّ النّبى إذا كان فى حال منفّرة، فإنّ ذلك لا يناسب منهج رسالته، فكلّ نبى ينبغى أن يكون على حالة تمكّن الناس من الاتّصال به و ملاقاته ليسمعوا كلام الحقّ، أى إنّ للنّبى جاذبية خاصّة.

و ستطالعون إن شاء اللّه تعالى تفصيلا أكثر حول قصّة أيّوب فى الآية (۴۱- ۴۴) سورة ص.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۸

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۵ الى ۸۶]

اشارة

وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (۸۵) وَ أَدْخَلْناهُمْ فِى رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۸۶)

التّفسير

إسماعيل و إدريس و ذو الكفل عليه السّلام:

تعقيبا على قصّة أيّوب عليه السّلام التربوية، و صبره و ثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان- محلّ البحث- إلى صبر ثلاثة من أنبياء اللّه الآخرين فتقول الأولى:

وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ فكلّ واحد من هؤلاء صبر طوال عمره أمام الأعداء، أو أمام مشاكل الحياة

المجهدة المضنية، و لم يركع أبدا فى مقابل هذه الحوادث، و كان كلّ منهم مثلا أعلى فى الصبر و الاستقامة.

ثمّ تبيّن الآية الاخرى موهبة إلهيّة لهؤلاء مقابل الصبر و الثبات، فتقول:

وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

ممّا يلفت النظر هنا أنّه لم يقل: وهبناهم رحمتنا، بل قال: و أدخلناهم فى رحمتنا، فكأنّ كلّ أجسامهم و أرواحهم أصبحت غارقة فى الرحمة الإلهيّة، بعد أن كانت غارقة فى بحر المشاكل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۲۹

إدريس و ذو الكفل عليهما السّلام:

«إدريس»- نبى اللّه العظيم- و كما تقدّم- هو جدّ والد نوح عليه السّلام وفقا لما رواه أغلب المفسّرين، و اسمه فى التوراة (أخنوخ) و فى العربية (إدريس) و يرى بعضهم أنّ إدريس مشتق من مادّة الدرس، لأنّه كان أوّل من كتب بالقلم، و كان ذا إحاطة بعلم الفلك و النجوم و الحساب و الهيأة بالإضافة إلى كونه نبيّا .. و يقال أنّه أوّل من علّم الناس خياطة الثياب.

و أمّا «ذو الكفل»، فالمشهور أنّه كان من الأنبياء[۱۶۵]، و إن كان بعضهم يعتقد أنّه كان من الصالحين. و ظاهر آيات القرآن التى ذكرته فى عداد الأنبياء يؤيّد أنّه من الأنبياء، و أغلب الظنّ أنّه كان من أنبياء بنى إسرائيل ۱۶۶].

و هناك احتمالات عديدة فى سبب تسميته بهذا الاسم، مع ملاحظة أنّ كلمة «كفل» جاءت بمعنى النصيب، و كذلك بمعنى الكفالة و الضمان و التعهّد.

فقال بعضهم: إنّ اللّه سبحانه لمّا غمره بنصيب وافر من ثوابه و رحمته فى مقابل الأعمال و العبادات الكثيرة التى كان يؤدّيها سمّى ذا الكفل، أى صاحب الحظّ الأوفى.

و قال آخرون: إنّه لمّا تعهّد بأن يحيى الليل فى العبادة و يصوم النهار، و أن لا يغضب عند الحكم، و أن يفى بوعده أبدا، لذلك سمّى بذى الكفل.

و يعتقد بعضهم- أيضا- أنّ «ذا الكفل» لقب «إلياس»، كما أنّ إسرائيل لقب يعقوب، و المسيح لقب عيسى، و ذا النون لقب يونس ۱۶۷]. على نبيّنا و آله و عليهم الصلاة و السلام ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۰

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۷ الى ۸۸]

اشارة

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (۸۷) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (۸۸)

التّفسير

نجاة يونس من السجن المرعب:

تبيّن هاتان الآيتان جانبا من قصّة النّبى الكبير يونس عليه السّلام، حيث تقول الأولى و اذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضبا عليهم: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغاضِباً.

كلمة «النون» فى اللغة تعنى السمكة العظيمة، أو بتعبير آخر تعنى الحوت، و بناء على هذا فإنّ «ذا النون» معناه صاحب الحوت، و إختيار هذا الاسم ليونس بسبب الحادثة التى سنشير إليها فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

و على كلّ حال، فإنّه ذهب مغاضبا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ[۱۶۸] عَلَيْهِ فقد كان يظنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۱

أنّه قد أدّى كلّ رسالته بين قومه العاصين، و لم يترك حتّى «الأولى» فى هذا الشأن، فلو تركهم و شأنهم فلا شىء عليه، مع أنّ الأولى هو بقاؤه بينهم و الصبر و التحمّل و التجلّد، فلعلّهم ينتبهون من غفلتهم و يتّجهون إلى اللّه سبحانه.

و أخيرا، و نتيجة تركه الأولى هذا، ضيّقنا عليه فابتلعه الحوت فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فقد ظلمت نفسى، و ظلمت قومى، فقد كان ينبغى أن أتقبّل و أتحمّل أكثر من هذه الشدائد و المصائب، و أواجه جميع أنواع التعذيب و الآلام منهم فلعلّهم يهتدون.

و تقول الآية التالية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أجل لم يكن هذا الأمر خاصّا بيونس، بل هو لطف اللّه الشامل فكلّ مؤمن يعتذر من ربّه عن تقصيره و يسأله العون و المدد و الرحمة فإنّ اللّه سيستجيب له و يكشف عنه غمّه.

بحوث

۱- قصّة يونس عليه السّلام

ستأتى تفاصيل قصّة يونس فى تفسير سورة الصافات إن شاء اللّه تعالى، أمّا ملخّصها فهو:

إنّ «يونس» كان لسنين طوال مشتغلا بالدعوة و التبليغ بين قومه فى أرض نينوى بالعراق، و لكن رغم كلّ ما بذله من جهود و مساع فإنّ إرشاداته و توجيهاته لم تؤثر فى قلوبهم، فغضب و هجر تلك الأرض، و ذهب باتجاه البحر و ركب السفينة، و أثناء الطريق هاج البحر، فكاد كلّ ركّاب السفينة أن يغرقوا.

و هنا قال ربّان السفينة: إنّى أظنّ أنّ بينكم عبدا هاربا يجب أن يلقى فى البحر- أو إنّه قال: إنّ السفينة ثقيلة جدّا و يجب أن نلقى فردا منّا تخرجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۲

القرعة- فاقترعوا عدّة مرّات، و كان اسم يونس عليه السّلام يخرج فى كلّ مرّة! فعلم أنّ فى هذا الأمر سرّا خفيّا، فسلّم للحوادث، و عند ما ألقوه فى البحر ابتلعه حوت عظيم و أبقاه اللّه فى بطنه حيّا.

و أخيرا انتبه إلى أنّه قد ترك الأولى، فتوجّه إلى اللّه و اعترف بتقصيره، فاستجاب اللّه دعوته و أنجاه من ذلك المكان الضيّق ۱۶۹].

من الممكن أن يتصوّر استحالة هذا الحادث من الناحية العلمية، و لكن لا شكّ أنّ هذا الأمر خارق للعادة، إلّا أنّه ليس بمحال عقلى، كإحياء الموتى فإنّه يعدّ أمرا خارقا للعادة و ليس محالا، و بتعبير آخر: فإنّ وقوعه غير ممكن بالطرق العادية، و لكنّه ليس صعبا مع الاستعانة بقدرة اللّه غير المحدودة.

و ستقرءون تفصيلا أكثر حول هذه الحادثة فى تفسير سورة الصافات إن شاء اللّه تعالى.

۲- ما معنی الظلمات هنا؟

من الممکن أن یکون هذا التعبیر إشارة إلی ظلمة البحر فی أعماق الماء، و ظلمة بطن الحوت، و ظلمة اللیل، و تؤیّد ذلک الرّوایة التی رؤیت عن الإمام الباقر علیه السّلام ۱۷۰].

۳- أی أولی ترکه یونس؟

لا شکّ أنّ تعبیر «مغاضبا» إشارة إلی غضب یونس علی قومه الکافرین، و کان مثل هذا الغضب فی هذه الظروف طبیعیّا تماما، إذ تحمّل هذا النّبی المشفق المشقّة و التعب سنین طویلة من أجل هدایة القوم الضّالین، إلّا إنّهم لم یلبّوا دعوته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۳

الخیّرة ...

و من جهة أخری، فإنّ یونس لمّا کان یعلم أنّ العذاب الإلهی سینزل بهم سریعا، فإنّ ترک تلک المدینة لم یکن معصیة، و لکن کان الأولی لنبی عظیم کیونس ألّا یترکها حتّی آخر لحظة- اللحظة التی سیعقبها العذاب الإلهی- و لذلک آخذه اللّه علی هذه العجلة، و اعتبر عمله ترکا للأولی.

و هذا هو عین ما أشرنا إلیه فی قصّة آدم علیه السّلام من أنّ المعصیة لیست مطلقة، بل نسبیّة، أو بتعبیر آخر هی مصداق «حسنات الأبرار سیّئات المقرّبین». و لمزید الاطّلاع راجع ما ذکرناه ذیل الآیة (۱۹) و ما بعدها من سورة الأعراف.

۴- درس مصیری

جملة کَذلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ العمیقة المعنی توحی بأنّ ما أصاب یونس من البلاء و النجاة لم یکن حکما خاصّا، بل حکم عام مع حفظ تسلسل الدرجات و المراتب.

إنّ کثیرا من الحوادث المؤلمة و الابتلاءات الشدیدة و المصائب نتیجة لذنوبنا و معاصینا، و هی سیاط لتنبیه الأرواح الغافلة، أو هی مواقد لتصفیة معادن أرواح الآدمیین فمتی ما تنبّه الإنسان إلی ثلاثة أمور [التی انتبه إلیها یونس فی مثل هذا الظرف فإنّه سینجو حتما:

۱- التوجّه إلی حقیقة التوحید، و أنّه لا معبود و لا سند إلّا اللّه.

۲- تنزیه اللّه عن کلّ عیب و نقص و ظلم و جور، و تجنّب کلّ سوء ظنّ بذاته المقدّسة.

۳- الاعتراف بذنبه و تقصیره.

و الشاهد علی هذا الکلام

الحدیث المروی فی الدرّ المنثور عن الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلم أنّه قال: «اسم اللّه الذی إذا دعی به أجاب، و إذا سئل به أعطی دعوة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۴

یونس بن متّی» فقال رجل: یا رسول اللّه هی لیونس خاصّة أم لجماعة المسلمین؟

قال: «هی لیونس خاصّة و للمؤمنین إذا دعوا بها، ألم تسمع قول اللّه وَ کَذلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ فهو شرط من اللّه لمن دعاه»[۱۷۱].

و لا یحتاج أن نذکر بأنّ المراد لیس قراءة الألفاظ و الکلمات فقط، بل جریان حقیقتها فی أعماق روح الإنسان، أی أن ینسجم کلّ

وجوده مع معنى تلك الألفاظ حين قراءتها.

و يلزم التذكير بهذه المسألة، و هى أن العقوبات الإلهيّة على نحوين:

أحدهما: عذاب الاستيصال، أى العقوبة النهائية التى تحلّ لمحو الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم، إذ لا ينفعهم أى دعاء حينئذ، لأنّ أعمالهم ذاتها ستكرّر بعد هدوء عاصفة البلاء.

و الآخر: عذاب التنبيه، و الذى له صفة تربوية، و يرتفع مباشرة بمجرّد أن يؤثّر أثره و يتنبّه المخطئ و يثوب إلى رشده. و من هنا يتّضح أنّ إحدى غايات الآفات و الابتلاءات و الحوادث المرّة هى التوعية و التربية.

إنّ حادثة يونس عليه السّلام تحذّر بصورة ضمنيّة جميع قادة الحقّ و المرشدين إليه بأن لا يتصوّروا انتهاء مهمتهم مطلقا، و لا يستصغروا أى جهد و سعى فى هذا الطريق، لأنّ مسئولياتهم ثقيلة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۵

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۸۹ الى ۹۰]

اشارة

وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ (۸۹) فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ (۹۰)

التّفسير

نجاة زكريا من الوحدة:

تبيّن هاتان الآيتان جانبا من قصّة شخصيتين أخريين من أنبياء اللّه العظماء، و هما زكريا و يحيى عليهما السّلام. فتقول الأولى: وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، و اشتعل رأسه شيبا، و لم يرزق الولد حتّى ذلك الحين، ثمّ أنّ زوجته كانت عقيما، و قد كان يأمل أن يرزق ولدا يستطيع أن يكمل مناهجه الإلهيّة و أعماله التبليغيّة، و لئلّا يتسلّط المنتفعون على معبد بنى إسرائيل، فينهبوا منه أمواله و هداياه التى ينبغى إنفاقها فى سبيل اللّه.

و عندئذ توجّه إلى اللّه بكلّ وجوده و سأله ولدا صالحا ... و دعا اللّه دعاء يفيض تأدّبا، فبدأ دعاءه بكلمة «ربّ»، الربّ الذى يشمل الإنسان بلطفه من أوّل لحظة.

ثمّ أكّد زكريا عليه السّلام على هذه الحقيقة، و هى أنّى إن بقيت وحيدا فسأنسى-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۶

و لا أنسى وحدى، بل ستنسى مناهجى و سيرتى أيضا؛ أكدّ كلّ ذلك بتعبير لا تَذَرْنِي من مادّة (وذر) على وزن مرز بمعنى ترك الشىء لقلّة قيمته و عدم أهميّته. و أخيرا فإنّ جملة وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ تعبّر عن حقيقة أنّه يعلم أنّ هذه الدنيا ليست دار بقاء، و نعلم أنّ اللّه خير الوارثين، و لكنّه يبحث- من جهة عالم الأسباب- عن سبب يوصله إلى هذا الهدف ..

فاستجاب اللّه هذا الدعاء الخالص الملىء بعشق الحقيقة، و حقّق أمنيته و ما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى و من أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته و جعلناها قادرة على الإنجاب وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ

ثمّ أشار اللّه سبحانه إلى ثلاث صفات من الصفات البارزة لهذه الأسرة فقال:

إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً[۱۷۲] وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ و الخشوع هو الخضوع المقرون بالاحترام و الأدب، و كذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إنّ ذكر هذه الصفات الثلاث ربّما تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء عند ما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة و الغرور كما فى الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان، فهؤلاء لا ينسون الضعفاء المحتاجين على كلّ حال، و يسارعون فى الخيرات، و يتوجّهون إلى اللّه سبحانه فى حال الفقر و الغنى، و المرض و الصحّة، و أخيرا فإنّهم لا يبتلون بالكبر و الغرور عند إقبال النعمة، بل كانوا خاشعين خاضعين أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

الآية [سورة الأنبياء (۲۱): آية ۹۱]

اشارة

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۹۱)

التّفسير

مريم السيّدة الطاهرة:

أشير فى هذه الآية إلى مقام مريم و عظمتها و عظمة ابنها المسيح عليهما السّلام.

إنّ ذكر مريم فى ثنايا البحوث التى تتكلّم على الأنبياء الكرام؛ إمّا من أجل ولدها عيسى عليه السّلام، أو لأنّ ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا عليهما السّلام من جهات متعدّدة، و قد ذكرنا تفصيل ذلك فى ذيل آيات سورة مريم ۱۷۳]. أو ليوضّح أنّ العظمة غير مختّصة بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يدلّ تاريخهنّ على عظمتهنّ، و كنّ قدوة و مثلا أسمى لنساء العالم.

تقول الآية: و اذكر مريم: وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۸

ملاحظات

۱- «الفرج» معناه فى اللغة الفاصلة و الشقّ، و استعمل كناية عن العضو التناسلى، لا أنّه صريح فى هذا المعنى و يرى البعض انّ كلّ ما ورد فى القرآن فى شأن الأمور الجنسية له طابع كنائى و غير صريح، من قبيل «اللمس» «الدخول» «الغشيان»[۱۷۴] «الإتيان»[۱۷۵] و غير ذلك.

و يلزم ذكر هذه اللطيفة أيضا، و هى: إنّ ظاهر الآية المتقدّمة يقول: إنّ مريم قد حفظت طهارتها و عفّتها من كلّ أشكال التلوّث بما ينافى العفّة. إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل فى معنى هذه الآية أنّها امتنعت من الاتّصال بالرجال، سواء كان ذلك من الحلال أو الحرام ۱۷۶]، كما تقول الآية (۲۰) من سورة مريم: وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا.

إنّ هذه الصفة فى الحقيقة مقدّمة لإثبات إعجاز ولادة عيسى و كونه آية.

۲- إنّ المراد من «روحنا»- كما قلنا سابقا- الإشارة إلى روح عظيمة متعالية، و يقال لمثل هذه الإضافة: «الإضافة التشريفيّة»، حيث

نضيف شيئا إلى اللّه لبيان عظمته، مثل بيت اللّه، و شهر اللّه.

۳- تقول الآيـة آنفـة الـذكر: إنّا جعلنا مريم و ابنها آيـة للعالمين، و لم تقل: آيتين و علامتين، لأنّ وجود مريم و وجود ابنها امتزجا فى هـذه الآيـة الإلهيّة العظيمة امتزاجا لا يمكن معه تجزئه بعضـهما عن بعض، فإنّ ولادة ولد بدون أب إعجاز بنفس المقدار الذى تحمل فيه امرأة بدون زوج. و كذلك معجزات عيسى عليه السّلام فى طفولته و كبره فإنّها تذكر بامّه.

إنّ هذه الأمور الخارقة للعادة، و المخالفة للأسباب الطبيعيّة العادية، يبيّن فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۳۹

الجملة حقيقة أنّ وراء سلسلة الأسباب قدرة قادرة على تغييرها فى أى وقت شاءت.

و على كلّ حال، فإنّ حال السيّد المسيح و امّه مريم عليهما السّلام لم يكن له نظير على طول تأريخ البشر، فلم ير قبله و لا بعده شبيه له و ربّما كان تنكير كلمة (آية) [فى قوله تعالى: وَ جَعَلْناها وَ ابْنَها آيَةً لِلْعالَمِينَ الدالّ على التعظيم هو إشارة إلى هذا المعنى ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۰

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۲ الى ۹۴]

اشارة

إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (۹۲) وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُـلٌّ إِلَيْنـا راجِعُونَ (۹۳) فَمَنْ يَعْمَـلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ (۹۴)

التّفسير

امّة واحدة:

لمّا ورد فى الآيات السابقة أسـماء جمع من أنبياء اللّه، و كذلك مريم، تلك المرأة التى كانت مثلا أسـمى، و جانب من قصصهم، فإنّ هـذه الآيات تسـتخلص نتيجة ممّا مرّ، فتقول: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً فقد كان منهجهم واحدا، و هدفهم واحدا بالرغم من اختلافهم فى الزمـان و المحيـط و الخصـائص و الأسـاليب و الطرائق، فهم كانوا يسـيرون فى منهـج واحـد و يمضون جميعا فى طريق التوحيـد و محاربة الشرك و دعوة الناس إلى الإيمان باللّه و الحقّ و العدالة.

إنّ توحيـد و وحـدة الخطط و الأهـداف هـذه تعود إلى أنّها جميعا تصـدر عن مصـدر واحـد، عن إرادة اللّه الواحد، و لهذا تقول الآية مباشرة: وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۱

إنّ توحيد الأنبياء الاعتقادى فى الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحى، و هذا الكلام يشبه

كلام الإمام على عليه السّـلام فى وصيته لولده الإمام المجتبى عليه السّلام حيث يقول: «و اعلم يا بنى أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، و لعرفت أفعاله و صفاته»[۱۷۷].

«الامّـة»- كما يقول الراغب فى مفرداته- تعنى كلّ جماعـة تربطهم جهـة مشتركـة، الاشتراك فى الدين، أو الزمن و العصـر الواحد، أو المكان المعيّن، سواء كانت هذه الوحدة اختيارية أو بدون إختيار.

و اعتبر بعض المفسّرين الامّة الواحدة هنا بمعنى الدين الواحد، و لكن كما قلنا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب و الأصل اللغوى للامّة.

و قال البعض الآخر: إنّ المراد من الامّة هنا كلّ البشر و فى جميع الأعصار، أى إنّكم أيّها البشر أمّة واحدة، ربّكم واحد، و هدفكم الأخير واحد.

إنّ هذا التّفسير و إن كان أكثر انسجاما من التّفسير السابق، و لكنّه لا يبدو مناسبا بملاحظة ارتباط هذه الآية بالآيات السابقة، بل الأنسب منها جميعا أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم فى الآيات السابقة.

و أشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضدّ بعض، و يلعن بعضهم بعضا و يتبرّأ منه، و لم يكتفوا بذلك، بل شهروا السلاح فيما بينهم، و سفكوا الدماء الكثيرة، و كانت هذه الأحداث نتيجة الانحراف عن أصل التوحيد و دين اللّه الحقّ.

جملة «تقطّعوا»- من مادّة قطع- بمعنى تفريق القطع المتّصلة بموضوع واحد، و إذا لاحظنا أنّها جاءت من باب (تفعّل) الذى يأتى بمعنى القبول، فإنّ معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۲

الجملة هو: إنّ أولئك قد استسلموا أمام عوامل التفرقة و النفاق، و رضوا بأن يبتعد أحدهم عن الآخر، و أنهوا اتّحادهم الفطرى و التوحيدى، فمنوا- نتيجة ذلك- بكلّ تلك الهزائم و الشقاوة! و تضيف فى النهاية: كُلٌّ إِلَيْنا راجِعُونَ فإنّ هذا الاختلاف عرضى يمكن اقتلاعه، و سيسيرون فى طريق الوحدة جميعا فى يوم القيامة، و قد أكّد على هذه المسألة فى كثير من الآيات القرآنية، و هى أنّ واحدة من خصائص يوم القيامة زوال الاختلافات و ذوبانها و الرجوع إلى الوحدة، فنقرأ فى الآية ۴۸/ سورة المائدة: إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و يلاحظ هذا المضمون فى آيات متعدّدة من القرآن الكريم ۱۷۸]، و على هذا فإنّ خلق البشر بدأ من الوحدة، و يرجع إلى الوحدة.

و تبيّن الآية الأخيرة نتيجة الانسجام مع الامّة الواحدة فى طريق عبادة اللّه، أو الانحراف عنها و اتّخاذ طريق التفرقة، فتقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ و من أجل زيادة التأكيد قالت: وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ

و ممّا يستحقّ الانتباه، أنّ الإيمان و العمل الصالح قد ذكرا فى هذه الآية- ككثير من آيات القرآن الاخرى- كركنين أساسيّين لنجاة البشر، غير أنّ كلمة (من) التبعيضيّة تضيف إلى ذلك أنّ القيام بكلّ الأعمال الصالحة ليس شرطا، فإنّ المؤمنين إذا قاموا ببعض الأعمال الصالحة فإنّهم من أهل النجاة و السعادة.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدّت الإيمان شرطا لقبول الأعمال الصالحة.

ذكر جملة فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ فى مقام بيان ثواب مثل هؤلاء الأفراد، هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

تعبير مقترن بتمام اللطف و المحبّة و السماحة، لأنّ اللّه سبحانه هنا فى مقام الشكر و الثناء على عباده، و يشكر لهؤلاء سعيهم.

و هذا التعبير يشبه التعبير الذى ورد فى الآية ۱۹/ سورة الإسراء: وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۵ الى ۹۷]

اشارة

وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (۹۵) حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (۹۶) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ

الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ (۹۷)

التّفسير

الكافرون على أعتاب القيامة:

كـان الكلاـم فى آخر الآيـات السابقـة على المؤمنين العاملين للصالحات، و تشـير الآيـة الأولى من هـذه الآيات إلى الأفراد فى الطرف المقابل لأولئك، و هم الذين استمرّوا فى الضلال و الفساد إلى آخر نفس، فتقول: وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ۱۷۹].

إنّ هؤلاء فى الحقيقة أناس ترفع الحجب عن أعينهم و أنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهى، أو بعد فنائهم و انتقالهم إلى عالم البرزخ، و عندها يأملون أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

يرجعوا إلى الـدنيا ليصـلحوا أخطاءهم و يعملون الصالحات، إلّا أنّ القرآن يقول بصـراحة: إنّ رجوع هؤلاء حرام تماما، و لم يبق طريق لجبران ما صدر منهم.

و هذا يشـبه ما جاء فى الآية (۹۹) من سورة المؤمنون: حَتَّى إِذا جـاءَ أَحَـدَهُمُ الْمَوْتُ قـالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا ...

و قد ذكرت فى تفسير هذه الآية توضيحات أخرى نشير إلى بعضها فى الهامش ۱۸۰].

و على كلّ حال فإنّ هؤلاء المغفّلين فى غرور و غفلـة على الدوام، و تسـتمرّ هذه التعاسة حتّى نهاية العالم، كما يقول القرآن: حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ

لقد بحثنا بصورة مفصّلة حول «يأجوج و مأجوج»، و إنّهما من أيّة طائفة كانا؟

و أين كانا يعيشان؟ و أخيرا ماذا يعملان، و ماذا سـيكونان؟ فى ذيل الآية (۹۴) و ما بعـدها من سورة الكهف، كما تكلّمنا على «السدّ» الذى بناه «ذو القرنين» فى مضيق جبلى ليمنع نفوذهما أيضا ...

هـل المراد من فتـح هـاتين الطائفتين تحطيم السـدّ، و نفوذهما عن هـذا الطريق إلى مناطق العالم الأخرى؟ أم المراد نفوذهما فى الكرة الأرضـية من كلّ حدب و صوب؟ لم تتحدّث الآية عن ذلك بصراحة، بل ذكرت انتشارهم و تفرّقهم فى الكرة الأرضية كعلامة لنهاية العالم و مقدّمة للبعث و القيامة، فتقول مباشرة:

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا. لأنّ الرعب يسيطر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

على وجودهم إلى حدّ أنّ عيونهم تتوقّف عن الحركة و تصبح جاحظة لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

فى هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة و الغرور، فيرتفع صوتهم:

يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هـذا. و لمّا كانوا لا يقـدرون على تغطية ذنبهم بهذا العذر ليبرّئوا أنفسـهم، فإنّهم يقولون بصـراحة: بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ

كيف يمكن عادة مع وجود كلّ هؤلاء الأنبياء، و الكتب السماوية، و كلّ هذه الحوادث المثيرة و العبر و الدروس أن يكونوا فى غفلة؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصير و ظلم لأنفسهم و للآخرين.

معنى بعض الكلمات:

«حدب» على زنة «أدب» معناه ما ارتفع من الأرض بين منخفضاتها، و قد يطلق على ما ارتفع و برز من ظهر الإنسان أيضا.

«ينسلون» من مادّة «نسول» (على وزن فضول)، أى الخروج بسرعة. و ما قيل فى شأن يأجوج و مأجوج إنّهما يمرّان بسرعة على المرتفعات إشارة إلى نفوذهم الخارق فى الكرة الأرضية.

«شاخصة» من الشخوص، و هو فى الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدينة إلى أخرى، و لمّا كانت العين عند التعجّب و الدهشة كأنّها تريد الخروج من الحدقة، فقد قيل لذلك «شخوص» إنّ هذه هى حالة المذنبين العاصين فى القيامة يصبحون حائرين كأنّ أعينهم تريد أن تخرج من أحداقهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۹۸ الى ۱۰۳]

اشارة

إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ (۹۸) لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ (۹۹) لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ (۱۰۰) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ (۱۰۱) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ (۱۰۲)

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۱۰۳)

التّفسير

حصب جهنّم!

متابعة للبحث السابق عن مصير المشركين الظالمين، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب إليهم، و جسّدت مستقبلهم و مستقبل آلهتهم بهذه الصورة: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ «الحصب» فى الأصل يعنى الرمى و الإلقاء، و تقال بالذات لإلقاء قطع الحطب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

فى التنور.

و قال بعضهم: إنّ للحطب- على وزن سبب- فى لغات العرب ألفاظا مختلفة، فبعض القبائل يسمّيه حصبا، و البعض الآخر خضبا، و لمّا كان القرآن يسعى للتأليف بين القبائل و الطوائف و القلوب، فإنّه كان يستعمل لغات مختلفة أحيانا، و من جملة ذلك كلمة «حصب» هذه، و هى لغة أهل اليمن لكلمة حطب ۱۸۱].

و على كلّ حال، فإنّ الآية محلّ البحث تقول للمشركين، إنّكم و آلهتكم ستكوّنون حطب جهنّم، و ستلقون الواحد تلو الآخر فى نار جهنّم كقطع الحطب التى لا قيمة لها، ثمّ تضيف أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ

و هذه الجملة إمّا أن تكون تأكيدا لهذا المطلب، أو إنّها إشارة إلى نكتة جديدة، و هى أنّهم يلقون آلهتكم فى النّار أوّلا، ثمّ تردون عليها، فكأنّ آلهتكم تستقبلكم و تستضيفكم بالنّار المنبعثة من وجودها[۱۸۲].

فإذا سأل سائل ما الهدف من إلقاء الأصنام فى جهنّم؟

يقال فى الجواب: إنّ هذا بنفسه نوع من العذاب بالنسبة لعبدة الأصنام حيث يرون أنّهم يحترقون فى النّار التى تتوقّد من آلهتهم. إضافة إلى أنّه تحقير لأفكارهم حيث كانوا يلتجؤون إلى مثل هذه الموجودات العديمة القيمة و الأهميّة.

طبعا، هـذا فى حالة كون ما تَعْبُدُونَ تعنى الآلهة الميتة التى لا روح لها كالأصـنام الحجرية و الخشبية، كما يستفاد ذلك من (ما) لأنّها تستعمل غالبا لغير العاقل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۴۹

أمّا إذا أخذناها بالمعنى العامّ، بحيث تشـمل الشياطين الذين أصبحوا محلّ عبادة، فإنّ مسألة ورود هذه الآلهة إلى جهنّم واضحة تماما، لأنّهم شركاء فى الجريمة و المعصية.

ثمّ تقول كاسـتخلاص للنتيجـة: لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها و لكن اعلموا أنّهم لا يدخلون جهنّم و حسب، بل وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ و ممّا يلفت النظر هنا أنّ عبّاد الأصـنام سـيبتلون بآلهتهم خالـدين معها، تلك الآلهة التى كانوا يعبدونها دائما، و كانوا يعدّونها درعا واقيا عن البلاء، و كانوا يطلبون منها حلّ مشاكلهم و معضـلاتهم! و لمزيد الإيضاح عن حال هؤلاء «العابدين الضالّين» المؤلمة المخزية قبال «آلهتهم الحقيرة»، تقول الآية محلّ البحث: لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَ شَهِيقٌ

«الزفير» فى الأصل يعنى الصـراخ المقترن بإخراج النفس. و قال بعضهم: إنّ صوت الحمار و صراخه المنكسر يسمّى فى البداية زفيرا، و فى آخره شهيقا.

و على كلّ حال فإنّه استعمل هنا إشارة إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن و شدّة الكرب ۱۸۳].

كما يحتمل أنّ هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصرا على العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشياطين أيضا يصطرخون معهم.

ثمّ تذكّر الجملة التالية أحد العقوبات الاخرى المؤلمة لهؤلاء، و هى وَ هُمْ فِيها لا يَسْمَعُونَ و هذه الجملة قد تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يسمعون الكلام الذى يسرّهم و يبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنّم المؤلم المنغّص و صراخ ملائكة العذاب فقط.

و قال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء يوضعون فى توابيت من نار بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۰

لا ـ يسـمعون صـوت أى أحـد أبـدا، فكـأنّهم لوحـدهم فى العـذاب، و هـذا بنفسه يعتـبر عقوبـة أشـدّ، لأـنّ الإنسـان إذا رأى معه بعض المسجونين فستهون عليه المصيبة، و «البليّة إذا عمّت طابت»، كما فى المثل.

ثمّ تبيّن الآيـة التاليـة حالاـت المؤمنين الحقيقيين من الرجـال و النسـاء ليتبيّن وضع الفريقين من خلاـل المقارنـة بينهما، فتقول أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ و هو إشارة إلى أنّنا سـنفى بكلّ الوعود التى وعدنا بها المؤمنين فى هذه الدنيا، و أحدها إبعادهم عن نار جهنّم.

و بالرغم من أنّ ظاهر الجملة يشـمل كلّ المؤمنين الحقيقيين، إلّا أنّ البعض احتمل أن تكون إشارة إلى من عبد من دون اللّه كالمسيح و مريم عليهما السّلام، الـذين عبـدوا دون إرادتهم، و لمّا كانت الآيات السابقـة تقول: سـتكونون أنتم و آلهتكم فى جهنّم، و كان من الممكن أن يشـمل هـذا التعبير أمثال المسـيح عليه السّلام، فإنّ القرآن يبيّن هـذه الجملة كاسـتثناء بأنّ هذه الفئة سوف لا ترد الجحيم أبدا.

و ذكر بعض المفسّرين سببا لنزول هـذه الآية، و هو يوحى بأنّ البعض قد سأل الرّسول الأعظم صـلى اللّه عليه و آله و سـلم نفس هذا السؤال فنزلت الآيـة تجيبهم. و لكن مع ذلـك فلاـ مـانع من أن تكون الآيـة جوابـا لهـذا السؤال، و أن تكون حكما عامّا لكلّ المؤمنين

الواقعيين.

و تذكر الآيتان الأخيرتان أربع نعم إلهيّة كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالأولى: إنّهم لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها و «الحسيس»- كما قال أرباب اللغة- الصوت المحسوس، و جاءت أيضا بمعنى الحركة، أو الصوت الناشئ من الحركة، و نار الجحيم المشتعلة دائما لها صوت خاصّ، و هذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنّه صوت النّار، و من جهة أنّه صوت حركة النّار و التهامها. و لمّا كان المؤمنون المخلصون بعيدين عن جهنّم، فسوف لا يطرق سمعهم هذا الصوت المرعب مطلقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۱

و الثّانية: إنّهم وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ فليس حالهم كما فى هذه الدنيا المحدودة، حيث أنّ الإنسان يأمل كثيرا من النعم دون أن ينالها، فإنّهم ينالون كلّ نعمة يريدونها، مادية كانت أو معنوية، و ليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على امتداد الخلود.

و الثّالثة: إنّهم لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ. و قد اعتبر بعضهم أنّ هذا الفزع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى هى أكبر من كلّ هول و فزع، و عدّه بعضهم إشارة إلى نفخة الصور و اختلافات الأحوال و تبدّلها عند انتهاء هذه الدنيا، و الزلزال العجيب الذى سيدكّ أركان هذا العالم كما جاء فى الآية (۸۷) من سورة النحل.

و لكن لمّا كان هول يوم القيامة و فزعها أهمّ و أكبر من جميع تلك الأمور، فإنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأصحّ.

و الرّابعة: من ألطاف اللّه تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث:

وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و

فى نهج البلاغة أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام قال: «فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران اللّه فى داره، رافق بهم رسله، و أزارهم ملائكته، و أكرم أسماعهم أن تسمع حسيس جهنّم أبدا»[۱۸۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۲

الآية [سورة الأنبياء (۲۱): آية ۱۰۴]

اشارة

يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (۱۰۴)

التّفسير

يوم تطوى السّماء!

قرأنا فى آخر آية من الآيات السابقة أنّ المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر و همّه، و تجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، و فى الحقيقة تبيّن و تجسّد علّة عظمة و ضخامة هذا الرعب، فتقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۱۸۵].

لقد كان الناس فى الأزمنة الغابرة يستعملون أوراقا كالطومار لكتابة الرسائل و الكتب، و كانوا يطوون هذا الطومار قبل الكتابة، ثمّ أنّ الكاتب يفتح منه تدريجيّا و يكتب عليه ما يريد كتابته، ثمّ يطوى بعد الانتهاء من الكتابة و يضعونه جانبا، و لذلك فقد كانت رسائلهم و مثلها كتبهم أيضا على هيئة الطومار، و كان هذا الطومار يسمّى سجلا، إذ كان يستفاد منه للكتابة.

و فى هذه الآية تشبيه لطيف لطىّ سجل عالم الوجود عند انتهاء الدنيا، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، و تقرأ كلّ رسومه و خطوطه، و كلّ منها فى مكان معيّن، أمّا إذا صدر الأمر الإلهى بقيام القيامة فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكلّ رسومه و خطوطه.

طبعا، لا يعنى طى العالم الفناء كما يتصوّر البعض، بل يعنى تحطّمه و جمعه، و بتعبير آخر: فإنّ شكل العالم و هيئته ستضطرب و يقع بعضه على بعض، لكن لا- تفنى مواده، و هذه الحقيقة تستفاد من التعبيرات المختلفة فى آيات المعاد، و خاصة من آيات رجوع الإنسان من العظام النخرة، و من القبور.

ثمّ تضيف كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ و هذا التعبير يشبه التعبير الذى ورد فى الآية (۲۹) من سورة الأعراف: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ أو أنّه مثل تعبير وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۱۸۶][۱۸۷].

أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد من هذا الرجوع هو الرجوع إلى الفناء و العدم، أو التلاحم و الارتباط كما فى بداية الخلق، فيبدو بعيدا جدّا.

و فى النهاية تقول الآية: وَعْداً[۱۸۸] عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ ۱۸۹].

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ المراد من رجوع الناس إلى الحالة الأولى، هو أنّهم يرجعون حفاة عراة مرّة أخرى كما كانوا فى بداية الخلق. و لكن لا شكّ أنّ هذا لا يعنى انحصار معنى الآية فى ذلك و اقتصاره عليه، بل إنّه أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الأولى ۱۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۴

الآيتان [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۰۵ الى ۱۰۶]

اشارة

وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ (۱۰۵) إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (۱۰۶)

التّفسير

سيحكم الصالحون الأرض:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة فى هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيويّة لهؤلاء، فتقول: وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ

و كلمة «الأرض» تطلق على مجموع الكرة الأرضية، و تشمل كافّة أنحاء العالم إلّا أن تكون هناك قرينة خاصّة فى الأمر، و مع أنّ البعض احتمل أن يكون المراد وراثة كلّ الأرض فى القيامة، إلّا أنّ ظاهر كلمة الأرض عند ما تذكر بشكل مطلق تعنى أرض هذا العالم.

و لفظ «الإرث»- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- يعنى انتقال الشىء إلى شخص بدون معاملة و أخذ و عطاء، و قد استعملت هذه الكلمة فى القرآن أحيانا بمعنى تسلّط و انتصار قوم صالحين على قوم طالحين، و السيطرة على مواهبهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

و إمكانياتهم، كما نقرأ فى الآية (۳۷) من سورة الأعراف فى شأن بنى إسرائيل:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا.

و بالرغم من أنّ «الزبور» فى الأصل يعنى كلّ كتاب و مقال، و مع أنّ موضعين من المواضع الثلاثة التى استعملت فيها هذه الكلمة فى القرآن يشيران إلى زبور داود، فلا يستبعد أن يكون المورد الثّالث، أى ما ورد فى الآية محلّ البحث إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

إنّ زبور داود- أو بتعبير كتب العهد القديم (مزامير داود)- عبارة عن مجموعة أدعية النبىّ داود و مناجاته و نصائحه و مواعظه.

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الزبور هنا كلّ كتب الأنبياء السابقين ۱۹۱].

و لكن يبدو على الأغلب- مع ملاحظة الدليل الذى ذكرناه- أنّ الزبور هو كتاب مزامير داود فقط، خاصة و أنّ فى المزامير الموجودة عبارات تطابق هذه الآية تماما، و سنشير إلى ذلك فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

«و الذكر» فى الأصل يعنى التذكير أو ما يسبّب التذكير و التذكّر، و استعملت هذه الكلمة فى القرآن بهذا المعنى، و أطلقت أحيانا على كتاب موسى السماوى، كالآية (۴۸) من سورة النساء: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ

و استعملت أحيانا فى شأن القرآن، كالآية (۲۷) من سورة التكوير: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ و لذلك قال البعض: إنّ المراد من الذكر- فى الآية مورد البحث- هو القرآن، و الزبور كلّ كتب الأنبياء السابقين، أى إنّنا كتبنا فى كلّ كتب الأنبياء السابقين إضافة إلى القرآن بأنّ الصالحين سيرثون الأرض جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۶

لكن ملاحظة التعبيرات التى استعملت فى الآية توضّح أنّ المراد من الزبور كتاب داود، و الذكر بمعنى التوراة، و مع ملاحظة أنّ الزبور كان بعد التوراة، فإنّ تعبير مِنْ بَعْدِ حقيقى، و على هذا فإنّ معنى الآية: إنّنا كتبنا فى الزبور بعد التوراة أنّنا سنورث العباد الصالحين الأرض.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: لماذا ذكر هذان الكتابان من بين الكتب السماوية؟

ربّما كان هذا التعبير بسبب أنّ داود كان أحد أكبر الأنبياء، و استطاع أن يشكّل حكومة الحقّ و العدل، و كان بنو إسرائيل مصداقا واضحا للقوم المستضعفين الذين ثاروا بوجه المستكبرين و دمّروا دولتهم و استولوا على حكومتهم و ورثوا أرضهم.

و السؤال الآخر الذى يثار هنا هو: من هم عباد اللّه الصالحون؟

إذا لاحظنا إضافة العباد إلى اللّه ستتّضح مسألة إيمان هؤلاء و توحيدهم، و بملاحظة كلمة الصالحين التى لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كلّ المؤهّلات، الأهليّة من ناحية التقوى، و العلم و الوعى، و من جهة القدرة و القوّة، و من جانب التدبير و التنظيم و الإدراك الاجتماعى.

عند ما يهيء العباد المؤمنون هذه المؤهّلات و الأرضيات لأنفسهم، فإنّ اللّه سبحانه يساعدهم و يعينهم ليمرغوا انوف المستكبرين فى التراب، و يقطعوا أيديهم الملوّثة، فلا يحكمون أرضهم بعد، بل تكون للمستضعفين، فيرثونها، فبناء على ذلك فإنّ مجرّد كونهم مستضعفين لا يدلّ على الإنتصار على الأعداء و حكم الأرض، بل إنّ الإيمان لازم من جهة، و اكتساب المؤهّلات من جهة أخرى، و ما دام مستضعفو الأرض لم يحيوا هذين الأصلين فسوف لا يصلون إلى وراثة الأرض و حكمها. و لذلك فإنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدّد: إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ

لقد اعتبر بعض المفسّرين (هذا) إشارة إلى كلّ الوعود و التهديدات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۷

جاءت فى هذه السورة، أو فى كلّ القرآن، و يدخل موضوع بحثنا فى هذا المفهوم الكلىّ أيضا. إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ (هذا) إشارة إلى الوعد الذى أعطى للعباد الصالحين فى الآية السابقة فى شأن الحكومة فى الأرض.

بحوث

۱- روایات حول ثورة المهدی علیه السّلام

لقد فسّرت هذه الآیة فی بعض الرّوایات بأصحاب المهدی علیه السّلام، کما نری
روایة فی تفسیر مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السّلام فی ذیل هذه الآیة: «هم أصحاب المهدی فی آخر الزمان».
و
جاء فی تفسیر القمّی فی ذیل هذه الآیة: أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ قال: «القائم و أصحابه».
لا یخفی أنّ معنی هذه الرّوایات لیس الحصر، بل هو بیان مصداق عال و واضح، و قلنا مرارا: إنّ هذه التفاسیر لا تحدّ من عمومیة مفهوم الآیة مطلقا، و بناء علی هذا ففی کلّ زمان، و فی أی مکان ینهض فیه عباد اللّه الصالحون بوجه الظلم و الفساد فإنّهم سینتصرون عاقبة الأمر، و سیکونون ورثة الأرض و حاکمیها.
و إضافة إلی الرّوایات الواردة آنفا فی تفسیر هذه الآیة، فقد رویت روایات کثیرة جدّا (بلغت حدّ التواتر) عن الرّسول صلی اللّه علیه و آله و سلم و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام، و عن طریق السّنة و الشیعة، فی شأن المهدی علیه السّلام، و کلّها تدلّ علی أنّ حکم الأرض سیقع فی أیدی الصالحین، و إنّ رجلا من أهل بیت النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم یقوم فیملأ الأرض قسطا و عدلا کما ملئت ظلما و جورا.
و من جملة الرّوایات الحدیث المعروف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم، و الذی نقلته أکثر المصادر الإسلامیة:
«لو لم یبق من الدنیا إلّا یوم، لطوّل اللّه ذلک الیوم حتّی یبعث
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۸
رجلا (صالحا) من أهل بیتی یملأ الأرض قسطا و عدلا کما ملئت ظلما و جورا».
و قد ورد هذا الحدیث بهذا التعبیر مع اختلاف یسیر فی کثیر من کتب الشیعة و أهل السّنّة[۱۹۲].
و قد نوّهنا فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة: إنّ جماعة من کبار علماء الإسلام، من أهل السّنّة و الشیعة قدیما و حدیثا قد صرّحوا فی کتبهم بأنّ الأحادیث الواردة فی قیام المهدی علیه السّلام بلغت حدّ التواتر، و لیس لأیّ إنکارها بأی وجه، حتّی أنّ کتبا قد ألّفت فی هذا الصدد بصورة خاصة تستطیع أن تطّلع علی تفصیلها فی ذیل الآیة (۳۳) من سورة التوبة.

۲- بشارة حکومة الصالحین فی مزامیر داود

ممّا یلفت النظر أنّه یلاحظ فی کتاب مزامیر داود- و الذی هو الیوم جزء من کتب العهد القدیم- یلاحظ التعبیر الذی ورد فی الآیة آنفة الذکر- نفسه أو ما یشبهه فی عدّة مواضع، و هذا یوحی بأنّه مع کلّ التحریفات التی وقعت فی هذه الکتب، فقد بقی هذا القسم مصونا من تلاعب الأیدی به.
۱- فنقرأ فی المزمور ۳۷/ جملة ۹: «... لأنّ عاملی الشرّ یقطعون و الذین ینتظرون الربّ هم یرثون الأرض، بعد قلیل لا یکون الشرّیر ...».
۲- و فی مکان آخر فی نفس هذا المزمور/ جملة ۱۱: «أمّا الودعاء فیرثون الأرض و یتلذّذون فی کثرة السلامة».
۳- و کذلک فی نفس المزمور ۳۷/ جملة ۲۷، یلاحظ هذا الموضوع بتعبیر آخر: «لأنّ المتبرکین باللّه سیرثون الأرض، أمّا الملعونون

فسینقطع أثرهم ...» ۴- و جاء فی هذا المزمور/ الجملة ۲۹: «إنّ الصالحین سیرثون الأرض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

و سیسکنون فیها إلی الأبد».

۵- و جاء فی الجملة ۱۸ من نفس المزمور أعلاه: «إنّ اللّه یعلم أیّام الصالحین، و سیکون میراثهم أبدیّا»[۱۹۳].

نلاحظ نلاحظ هنا بصورة جیدة أنّ عنوان «الصالحین» الذی جاء فی القرآن، ورد بنفس هذا التعبیر فی مزامیر داود، إضافة إلی ورود تعابیر أخری کالصدّیقین و المتبرکین و المتوکّلین و المتواضعین أو ما هو قریب من هذه المعانی فی جمل أخری.

إنّ هذه التعبیرات دلیل علی عموم حکومة الصالحین، و تتطابق تماما مع أحادیث قیام المهدی علیه السّلام.

۳- حکم الصالحین قانون تکوینی

بالرغم من أنّه یصعب علی أولئک الذین شهدوا و عاشوا فی ظلّ حکم الطواغیت الظلمة و العتاة المتجبّرین، قبول هذه الحقیقة بسهولة، و هی أنّ کلّ هذه الحکومات علی خلاف نوامیس الخلقة، و قوانین عالم الخلقة، و أنّ ما ینسجم معها هو حکم الصالحین المؤمنین، إلّا أنّ التحلیلات الفلسفیّة تنتهی إلی أنّ هذه حقیقة واقعیّة، و بناء علی هذا فإنّ جملة أَنَّ الْأَرْضَ یَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ قبل أن تکون وعدا إلهیّا، فإنّها تعتبر قانونا تکوینیّا.

توضیح ذلک: إنّ عالم الوجود- علی حدّ علمنا- مجموعة من الأنظمة و القوانین تحکم جمیع أرجاء هذا العالم و هی بذاتها دلیل علی وحدة هذا النظام و ارتباط أجزائه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

وجود النظم و القانون فی عالم الوجود و الخلق تعتبر من أهمّ مسائل هذا العالم، فمثلا: إذا وجدنا مئات العقول الالکترونیة القوّیة قد انضمّ بعضها إلی بعض لإعداد الرحلات الفضائیة لروّاد الفضاء بالمحاسبات الدقیقة، و کانت حساباتها صحیحة تماما حیث تنزل المرکبة الفضائیة فی المکان المقترح لها علی سطح القمر، مع أنّ کوکبی القمر و الأرض یتحرّکان کلاهما بسرعة، فینبغی أن نعرف أنّ هذا الحدث العظیم مدین لنظام المجموعة الشمسیة و أقمارها الدقیق، لأنّهم إذا انحرفوا عن مسیرهم الدقیق المنتظم بمقدار ۱٪ من الثّانیة، لما کان معلوما مصیر رجال الفضاء! و ننتقل من العالم الکبیر إلی عالم أصغر و أصغر و صغیر جدّا، فهنا- و خاصّة فی الکائنات الحیّة- سیتّخذ النظام معنی أکثر حیویّة، و لا محل للفوضی فیه مطلقا، فإنّ اختلال النظام فی خلیة واحدة فی دماغ الإنسان کاف لأن یبدّل نظم حیاته إلی اضطراب مؤسف.

و جاء فی أخبار الصحف: إنّ شابا جامعیا قد نسی کل ماضیه تقریبا علی أثر هزّة دماغیة شدیدة فی حادثة سیر! مع أنّه کان سالما من حیث الجهات الاخری، فلم یعرف أخاه و لا أخته کما کان یتضایق عند ما تحتضنه أمّه و تقبّله، و یتساءل:

ماذا تفعل معی هذه المرأة الأجنبیة؟ فیذهبون به إلی مسقط رأسه، و إلی الغرفة التی نشأ فیها، فکان ینظر إلی أعماله الیدویة، و لوحاته الفنیة، إلّا أنّه یقول: إنّی أری هذه الغرفة و اللوحات لأوّل مرّة! ربّما کان یعتقد أنّه قد قدم من کوکب آخر، فکلّ شیء جدید بالنسبة له.

ربّما توقّفت بعض خلایاه من بین عدّة ملیارات من الخلایا المخیّة، و هی التی تربط ماضیه بحاضره، و لکن أی أثر مرعب ترکه هذا الاختلال الجزئی؟! هل یستطیع المجتمع الإنسانی بانتخابه اللانظام و الفوضی و الظلم و الجور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

و الشقاء أن یعزل نفسه عن تیار نهر عالم الخلقة العظیم، و الذی یسیر کلّه ببرنامج منظّم؟

ألاـ تجعلنا مشاهدة الوضع العام للعالم نفكّر فى أنّ البشر أيضا يجب أن يخضعوا لنظام عالم الوجود، شاؤوا أم أبوا، و يقبلوا القوانين المنتظمة العادلة، و يعودوا إلى مسيرهم الأصيل و يكونوا منسجمين و هذا النظام.

إذا ألقينا نظرة على بناء أجهزة بدن الإنسان المختلفة المعقّدة، ابتداء من القلب و المخ إلى العين و الاذن و اللسان، إلى بصيلة الشعر، سنراها جميعا خاضعة لقوانين و أنظمة و حسابات دقيقة، و إذا كان الأمر كذلك فى البدن، فكيف تقدر البشرية أن تستقرّ بدون اتّباع ضوابط و مقرّرات و نظام صحيح و عادل؟

إنّنا نريد بقاء البشرية، و نسعى لذلك، غاية ما فى الأمر أنّ مستوى وعى مجتمعنا لم يصل إلى ذلك الحدّ بحيث نعلم أنّ استمرارنا فى هذا الطريق الحالى سينتهى إلى فنائنا، و لكن سنثوب إلى عقولنا تدريجيّا، و يحصل لنا هذا الإدراك و الرشد الفكرى.

نحن نريد منافعنا و مصالحنا، و لكنّنا إلى الآن لا نعلم أنّ استمرار الوضع الحالى سيدمّر مصالحنا و يجعلها هباء منثورا، و لكنّا نضع نصب أعيننا الأرقام و الإحصائيات الحيّة الناطقة عن سباق التسلّح مثلا، و سنرى أنّ نصف القوى الفكرية و الجسمية للمجتمع البشرى، و نصف الثروات و رؤوس الأموال الضخمة تهدر فى هذا المجال! و لا تهدر فحسب، بل إنّها تسعى إلى فناء و إتلاف النصف الثّانى!

و تزامنا مع ارتفاع سطح و عينا سنرى بوضوح أنّنا يجب أن نعود إلى نظام عالم الوجود العام، و نضمّ صوتنا إليه، و نتّحد معه.

و كما أنّنا جزء من هذا الكلّ فعلا، فيجب أن نكون كذلك من الناحية العملية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۲

حتّى نستطيع أن نصل إلى أهدافنا فى جميع المجالات.

و النتيجة هى: إنّ نظام الخلقة سيكون دليلا واضحا على قبول نظام اجتماعى صحيح فى المستقبل، فى عالم الإنسانية، و هذا هو الذى يستفاد من الآية مورد البحث، و الأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمى العظيم، المهدى الموعود[۱۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة الأنبياء (۲۱): الآيات ۱۰۷ الى ۱۱۲]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (۱۰۷) قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (۱۰۸) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (۱۰۹) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (۱۱۰) وَ إِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ (۱۱۱)

قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ (۱۱۲)

التّفسير

النّبى رحمة للعالمين:

لمّا كانت الآيات السابقة قد بشّرت العباد الصّالحين بوراثة الأرض و حكمها، و مثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكلّ البشر، فإنّ الآية الأولى أشارت إلى رحمة وجود النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم العامّة، فقالت: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ فإنّ عامّة البشر فى الدنيا، سواء الكافر منهم و المؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنّك تكفّلت بنشر الدين الذى ينقذ الجميع، فإذا كان جماعة قد انتفعوا به و آخرون لم ينتفعوا، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

ذلك يتعلّق بهم أنفسهم، و لا يخدش فى عموميّة الرحمة.

و هذا يشبه تماما أن يؤسّس جماعة مستشفى مجّهزة لعلاج كلّ الأمراض، و فيها الأطباء المهرة، و أنواع الأدوية، و يفتحوا أبوابها بوجه كلّ الناس بدون تمييز، أ ليست هذه المستشفى رحمة لكلّ أفراد المجتمع؟ فإذا امتنع بعض المرضى العنودين من قبول هذا الفيض العام، فسوف لا يؤثّر فى كون تلك المستشفى عامّة.

و بتعبير آخر فإنّ كون وجود النّبى رحمة للعالمين له صفة المقتضى و فاعلية الفاعل، و من المسلّم أنّ فعلية النتيجة لها علاقة بقابلية القابل.

إنّ التعبير ب «العالمين» له إطار واسع يشمل كلّ البشر و على امتداد الأعصار و القرون، و لهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبى الإسلام، لأنّ وجوده رحمة و إمام و قدوة لكلّ الناس إلى نهاية الدنيا، حتّى أنّ هذه الرحمة تشمل الملائكة أيضا:

ففى حديث شريف مروى عنه صلى اللّه عليه و آله و سلم يؤيّد هذه العمومية، إذ نلاحظ فيه إنّ هذه الآية لمّا نزلت سأل النّبى جبرئيل فقال: «هل أصابك من هذه الرحمة شىء؟» فقال جبريل: «نعم إنّى كنت أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لمّا أثنى اللّه علىّ بقوله: عند ذى العرش مكين»[۱۹۵].

و على كلّ حال، ففى دنيا اليوم حيث ينتشر الفساد و الظلم و الاستبداد فى كلّ جانب، و نيران الحروب مستعرة فى كلّ جهة، و أخذت قبضات الجبّارين العتاة بأنفاس المستضعفين المظلومين ... فى الدنيا الغارقة فى الجهل و فساد الأخلاق و الخيانة و الظلم و الجور ... أجل فى مثل هذه الدنيا سيتّضح أكثر فأكثر معنى كون النّبى رحمة للعالمين، و أى رحمة أسمى من أنّه أتى بدين إذا عمل به فإنّه يعنى نهاية كلّ المآسى و النكبات و الأيّام السوداء؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

أجل، إنّه هو و أوامره، و دينه و أخلاقه كلّها رحمة، رحمة للجميع، و ستكون عاقبة استمرار هذه الرحمة حكم الصالحين المؤمنين فى كلّ أرجاء المعمورة.

و لمّا كان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمة، و أثبت دعامة لذلك هى مسألة التوحيد و تجليّاته، فإنّ الآية التالية تقول: قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

و هذه الآية فى الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمّة:

الأولى: إنّ التوحيد هو الدعامة الأساسيّة للرحمة، و حقّا كلّما فكّرنا أكثر فستتّضح هذه العلاقة أقوى، التوحيد فى الإعتقاد، و فى العمل، و التوحيد فى الكلمة، و توحيد الصفوف، و فى القانون و فى كلّ شىء.

الثّانية: إنّه بمقتضى كلمة (أنّما) الدالّة على الحصر، فإنّ كلّ دعوات الأنبياء تتلخّص فى أصل التوحيد، و المطالعات الدقيقة تبيّن أيضا أنّ الأصول، بل و حتّى الفروع و الأحكام ترجع أخيرا إلى أصل التوحيد، و لذلك فإنّ التوحيد- و كما قلنا سابقا- ليس أصلا من الأصول و حسب، بل إنّه كالخيط القوى الذى يربط خرز المسبحة، أو الأصحّ أنّه كالروح السارية فى البدن.

و النقطة الثّالثة: إنّ المشكلة الأساسيّة فى جميع المجتمعات هى التلوّث بالشرك بأشكال مختلفة، لأنّ جملة فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ توحى بأنّ المشكلة الأساسيّة هى الخروج من الشرك و مظاهره، و رفع اليد عن الأصنام و تحطيمها، ليس الأصنام الحجرية و الخشبية فحسب، بل كلّ الأصنام، و فى أى شكل كانت، و خاصّة طواغيت البشر! ثمّ تقول الآية التالية: إنّهم إذا لم يذعنوا و يهتّموا لدعوتنا و نداءاتنا هذه فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ.

«آذنت» من مادّة الإيذان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، و جاء أحيانا بمعنى إعلان الحرب، لكن لمّا كانت هذه السورة قد نزلت فى مكّة، و لم تكن هناك أرضية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

للجهاد، و لم يكن حكم الجهاد قد نزل، فيبدو من البعيد جدّا أن يكون معنى هذه الجملة هنا إعلان الحرب، و الظاهر أنّ النّبى أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره و ابتعاده عن أولئك، و يبيّن بأنّه قد يئس منهم تماما.

و تعبير «على سواء» إمّا أن يكون إشارة إلى أنّى قد أنذرتكم جميعا و حذّرتكم من العذاب الإلهى على حدّ سواء، لئلّا يتصوّروا أنّ أهل مكّة أو قريشا يختلفون عن الآخرين، و أنّ لهم عند اللّه فضلا أو كرامة. أو أنّه إشارة إلى أنّ النّبى قد بلّغهم جميعا و بدون استثناء.

ثمّ يبيّن هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأنّى لا أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: وَ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ فلا تظنّوا أنّ هذا الوعيد بعيد، فربّما كان قريبا و قريبا جدّا.

قد يكون المراد من العذاب و العقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففى الصورة الأولى هو مختص بعلم اللّه، و لا يعلم أى أحد تاريخ وقوع القيامة بدقّة حتّى أنبياء اللّه، و فى الصورة الثّانية و الثّالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته و زمانه، و أنا لا أعلم بجزئياته، لأنّ علم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بمثل هذه الحوادث ليس له صفة فعليّة دائما، بل له صفة إرادية أحيانا، أى ما دام لم يرد فهو لا يعلم ۱۹۶].

ثمّ إنّكم لا ينبغى أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تأخّرت فهذا يعنى أنّ اللّه غير مطّلع على أعمالكم و أقوالكم، فهو يعلم كلّ شىء، ف إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ فإنّ الجهر و الإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث أنّ علمكم محدود عادة، أمّا بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإنّ الغيب و الشهادة، و السرّ و العلن سواء لديه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

و كذلك إذا رأيتم أنّ العقوبة الإلهيّة لا تحيط بكم فورا، فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعلّه إمتحان لكم: وَ إِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتاعٌ إِلى حِينٍ ثمّ يأخذكم أشدّ مأخذ و يعاقبكم أشدّ عقاب! لقد أوضحت الآية فى الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهى:

الأولى: مسألة الامتحان و الاختبار، فإنّ اللّه سبحانه لا يعجّل فى العذاب أبدا حتّى يمتحن الخلق بالقدر الكافى، و يتمّ الحجّة عليهم.

و الثّانية: إنّ هناك أفرادا قد تمّ اختبارهم و حقّت عليهم كلمة العذاب حتما، إلّا أنّ اللّه سبحانه يوسّع عليهم النعمة ليشدّد عليهم العذاب، فإذا ما غرقوا فى النعمة تماما، و غاصوا فى اللذائذ، أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشدّ و آلم، و ليحسّوا جيدا بألم و عذاب المحرومين و المضطهدين.

و تتحدّث آخر آية هنا- و هى آخر آية من سورة الأنبياء- كالآية الأولى من هذه السورة عن غفلة الناس الجهّال، فتقول حكاية عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم فى عبارة تشبه اللعن، و تعكس معاناته صلى اللّه عليه و آله و سلم من كلّ هذا الغرور و الغفلة، و تقول: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بعد مشاهدة كلّ هذا الإعراض قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِ ۱۹۷]. و فى الجملة الثّانية يوجّه الخطاب إلى المخالفين و يقول: وَ رَبُّنَا الرَّحْمنُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ

إنّه فى الحقيقة ينبّه هؤلاء بكلمة (ربّنا) إلى هذه الحقيقة، و هى أنّنا جميعا مربوبون و مخلوقون، و هو ربّنا و خالقنا جميعا.

و التعبير ب «الرحمن»، و الذى يشير إلى الرحمة العامّة، يعيد إلى أسماع هؤلاء أنّ الرحمة الإلهية قد عمّت كلّ وجودنا، فلما ذا لا تفكّروا لحظة فى خالق كلّ هذه النعمة و الرحمة؟

و تعبير الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ يحذّر هؤلاء بأن لا تظنّوا أنّا وحيدون أمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۸

جمعكم و كثرته، و لا تتصوّروا أنّ كلّ اتهاماتكم و أكاذيبكم، سواء كانت على ذات اللّه المقدّسة أو علينا، ستبقى بدون جواب و

جزاء، کلّا مطلقا، فإنّه تعالی سندنا و معتمدنا جمیعا، و هو قادر علی أن یدافع عن عباده المؤمنین أمام کلّ أشکال الکذب و الافتراء و الاتّهام.

نهایة سورة الأنبیاء

اللهمّ لا تدعنا وحدنا قبال الشرق و الغرب اللذین صمّما جمیعا علی إبادتنا، بل نسألک أن تنصرنا کما نصرت نبیّک صلی اللّه علیه و آله و سلم و أصحابه و هم قلّة و لم تدعهم و حدهم قبال کثرة الأعداء.

اللهمّ إنّک قد بیّنت فی هذه السورة المبارکة رحمتک الخاصّة علی الأنبیاء فی الشدائد و الأزمات و عند تقلّبات الحیاة و مصاعبها.

اللّهم و إنّنا مبتلون فی عصرنا و زماننا بمثل تلک الشدائد و الأزمات، و انّا لنرجو رحمتک التی خصّصت بها أنبیاءک و عبادک الصالحین، فارحمنا و فرّج عنّا ...

آمین ربّ العالمین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۶۹

سورة الحجّ

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمان و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۱

«سورة الحجّ»

مضمون سورة الحجّ:

سمّیت هذه السورة ب «سورة الحجّ» لأنّ جزءا من آیاتها تحدّث عن الحجّ.

و هناک اختلاف بین المفسّرین و کتّاب تأریخ القرآن حول مکّیتها أو مدنیّتها.

فالبعض یری أنّها مکیّة باستثناء عدد من آیاتها. فی الوقت الذی یری آخرون أنّها مدنیة عدا بعض آیاتها. و آخرون یرون أنّها مزیجا من الآیات المکیّة و المدنیّة. إلّا أنّنا لو أخذنا بنظر الإعتبار استنتاجاتنا من السور المکیة و المدنیّة، أو بتعبیر آخر:

أجواء هاتین المدینتین و حاجات المسلمین و کیفیة صدور تعالیم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم إلیهم فی کلّ من هاتین المنطقتین، لوجدنا أنّ آیات هذه السورة تشبه السور المدنیّة، فالتعالیم الخاصّة بالحجّ، و کذلک التعالیم الخاصة بالجهاد تناسب أوضاع المسلمین فی المدینة، مع أنّ تأکید آیات فی هذه السورة للمبدأ و المعاد لا تستبعد ملاءمتها للسور المکیّة.

یقول مؤلّف «تأریخ القرآن» استنادا إلی «فهرست ابن الندیم و نظم الدرر»:

إنّ سورة الحجّ نزلت فی المدینة، باستثناء آیات منها و التی نزلت بین مکّة و المدینة، و یضیف: إنّها السورة السادسة بعد المائة التی نزلت علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم.

و تقع بعد سورة النور. و قبل سورة المنافقین.

و علی أی حال فإنّ کون هذه السورة مدنیّة أقوی.

هذا و يمكن تقسيم مواضيعها إلى عدّة أقسام هى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۲

۱- تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» و أدلّته المنطقية، و إنذار الغافلين عن يوم القيامة و نظائر ذلك التى تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءا كبيرا منها.

۲- يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك و المشركين، و جلب انتباه الناس إلى عظمة الخالق بواسطة معاجز الخلق فى عالم الوجود.

۳- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الإعتبار بمصير الأقوام البائدة، و ما لاقت من عذاب إلهى، و من هذه الأقوام قوم نوح، و عاد و ثمود، و قوم إبراهيم و لوط، و قوم شعيب و موسى.

۴- و تناول جزء آخر منها مسألة الحجّ و تاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السّلام، و مسألة القربان و الطواف و أمثالها.

۵- و تضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين و التصدّى لأعداء الإسلام المحاربين.

۶- و احتوى قسم آخر نصائح فى مجالات الحياة المختلفة.

۷- التشجيع على أعمال الصلاة و الزكاة، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و التوكّل و التوجّه إلى اللّه (سبحانه و تعالى).

فضيلة تلاوة سورة الحجّ:

جاء فى حديث للرسول الأكرم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلم «من قرأ سورة الحجّ اعطى من الأجر كحجّة حجّها، و عمرة اعتمرها، بعدد من حجّ و اعتمر فيما مضى و فيما بقى»[۱۹۸]!

و هذا الثواب و الفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظيّة فقط، و إنّما لتلاوة تنير الفكر، و تفكّر يتبعه عمل و تطبيق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۳

و من يجعل هذه السورة و مضمونها من مبدأ و معاد و تعليمات تعبّدية أخلاقية و مسائل خاصّة بالجهاد و مقارعة الظالمين، مصباحا لبصيرته و منهاجا لحياته، سيجد نفسه قد ارتبط بجميع المؤمنين السابقين و اللاحقين- معنويا و روحيّا- ارتباطا يشعره بأنّه شريك فى أعمالهم، و هم شركاء فى أعماله، دون أن ينقص من أجرهم. و أنّه سيكون همزة وصل بين جميع المؤمنين عبر التاريخ.

و على هذا، فلا عجب من مقدار الثواب و الأجر الذى نصّ عليه هذا الحديث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۴

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (۱) يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (۲)

التّفسير

زلزلة البعث العظيمة:

تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث و مقدّماته، و هما آيتان تبعدان الإنسان- دون إرادته- عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكّر بالمستقبل المخيف الذى ينتظره المستقبل الذى سيكون جميلا و سعيدا إن فكّرت فيه اليوم، و لكنّه مخيف حقّا إن لم تعدّ العدّة له، و الآية المباركة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ خطاب للناس جميعا بلا استثناء، فقوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، و اللغة، و الزمان، و الأماكن الجغرافية، و الطوائف، و القبائل. فهو موجّه للجميع: المؤمن و الكافر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۵

و الكبير و الصغير، و الشيخ و الشابّ، و الرجل و المرأة، على امتداد العصور.

و عبارة اتَّقُوا رَبَّكُمْ خلاصة لجميع برامج السعادة، فهى تبيّن التوحيد فى «ربّكم» من جهة و التّقوى من جهة أخرى. و بهذا جمعت البرامج الاعتقادية و العمليّة.

و جملة إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ التى جاءت فى عدد من الآيات القرآنية، تكرّر هنا الحديث عنها بشكل مختصر، هو أنّ البعث يحدث ثورة و تبدّلا حادّا فى عالم الوجود، الجبال تقتلع من مكانها، و تموج البحار، و تنطبق السّماء على الأرض، ثمّ يبدأ عالم جديد و حياة جديدة، و يسيطر ذعر شديد على الناس يفقدهم صوابهم.

ثمّ بيّنت الآية التالية فى عدّة جمل انعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ من شدّة الوحشة و الرعب.

وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها.

و ثالث انعكاس لهذا الذعر الشديد: تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى و علّة ذلك هو شدّة العذاب فى ذلك اليوم وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ هذا العذاب الذى أرعب الناس و أفقدهم صوابهم.

مسائل مهمّة

۱- تحدث هذه الظواهر المذكورة آنفا بشكل يسير فى الزلازل الدنيويّة و الأحداث المرعبة، حيث تنسى الامّهات أطفالهنّ، و تسقط الحوامل حملهنّ، و ترى آخرين كالسكارى قد فقدوا صوابهم، إلّا أنّ هذا لا يتّخذ طابعا عاما. أمّا زلزال البعث فإنّه يصيب الناس جميعا دون استثناء.

۲- قد تكون هذه الآيات إشارة إلى خاتمة العالم التى تعتبر مقدّمة للبعث، و فى هذه الحالة ستأخذ عبارة «كلّ ذات حمل ... و تذهل كلّ مرضعة» مفهومها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۶

الحقيقى، إلّا أنّه يحتمل أنّها تشير إلى زلزال يوم البعث، بدلالة قوله سبحانه:

لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ و العبارات السابقة تكون كأمثلة. أى إنّ الموقف مرعب لدرجة أنّه لو فرض وجود ذات حمل لوضعت حملها، و تغفل الامّهات عن أطفالهنّ- تماما- إن شهدن هذا الموقف.

۳- نعلم أنّ كلمة «المرضع» تطلق فى اللغة العربية على المرأة التى ترضع ولدها[۱۹۹]، إلّا أنّ مجموعة من المفسّرين و بعض اللغويين يقولون: إنّ هذه الكلمة تستخدم بصيغة مؤنثة «مرضعة» لتشير إلى لحظة الإرضاع، أى يطلق على المرأة التى يمكنها إرضاع طفلها كلمة المرضع، و كلمة المرضعة خاصة بالمرأة التى هى فى حالة إرضاع طفلها[۲۰۰].

و لهـذا التعبير فى الآيـة أهميّـة خاصّة، فشدّة زلزال البعث، و رعبه بدرجة كبيرة، يدفعان المرضـعة إلى سـحب ثديها من فم رضـيعها و نسيانه دون وعى منها.

۴- إنّ عبارة تَرَى النَّاسَ سُـكارى إشارة إلى أنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلم هو المخاطب فيها فيقول له: سترى الناس هكذا، أمّا أنت فلست مثلهم، و يحتمـل أن يكون الخطـاب للمؤمنين الراسـخين فى الإيمان الـذين ساروا على خطى النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلم، بأنّهم فى أمان من هذا الخوف الشديد.

۵- نقل كثير من المفسّـرين و رواة الحديث فى خاتمة هذه الآيات حديثا عن الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سـلم و هو أنّ الآيتان من بداية السورة نزلتا ليلا فى غزاة بنى المصـطلق ۲۰۱]- و هم حى من خزاعة- و الناس يسـيرون، فنادى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلم فحثّوا المطى حتّى كانوا حوله صلى اللّه عليه و آله و سلم فقرأها عليهم. فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

أصبحوا لم يحطّوا السرج عن الدواب و لم يضربوا الخيام، و الناس بين باك حزين أو جالس يتفكّر،

فقال رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلم: «أ تدرون أى يوم ذاك؟» قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: «ذاك يوم يدخل الناس من كلّ ألف تسعمائة و تسعة و تسعين إلى النّار، و واحد إلى الجنّة»! فكبر ذلك على المسلمين و بكوا بشدّة! و قالوا: فمن ينجو يا رسول اللّه؟ فأجابهم بأنّ المذنبين الذين يشـكّلون الأكثرية هم غيركم. ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة» فكبّروا، ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنّـة» فكبّروا، ثمّ قال: «إنّى لأرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنّة، و إنّ أهل الجنّة مائة و عشـرون صـفّا، ثمانون منها أمّتى»[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۸

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳ الى ۴]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ (۳) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (۴)

التّفسير

أتباع الشيطان!

بعـد أن أعطت الآيات السابقـة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزلـة القيامة، أوضـحت الآيات اللاحقة حالة أولئك الذين نسوا اللّه، و كيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

نجـد هؤلاء الناس يجادلون مرّة فى أساس التوحيد و وحدانيّة الحقّ تبارك و تعالى، و فى إنكار وجود شـريك له. و مرّة يجادلون فى قدرة اللّه على إحياء الموتى، و فى البعث و النشور، و لا دليل لهم على ما يقولون.

قال بعض المفسّـرين: إنّ هـذه الآيـة نزلت فى «النضـر بن الحارث» الـذى كان من المشـركين المعانـدين، و كان يصـرّ على القول بأنّ الملائكة بنات اللّه، و أنّ القرآن مجموعة من أساطير السلف تنسب إلى اللّه، كما كان ينكر الحياة بعد الموت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۷۹

و البعض الآخر من المفسّرين يعتقد أنّ هذه الآية إشارة إلى جميع المشركين الذين يجادلون فى التوحيد و فى قدرة اللّه.

إلّا أنّ سبب النّزول لا يمكنه أن يضيّق مفهوم هذه الآية، فهذان القولان يصبّان فى معنى واحد، يشمل جميع الذين يشتركون فى جدال مع اللّه تعالى، إمّا عن تقليد أعمى، و إمّا عن عصبية، أو لإتّباع الخرافات، أو الأهواء النفسية.

ثمّ تضيف هذه الآية وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتّبعون منطقا أو علما، و إنّما يتّبعون كلّ شيطان عنيد و متمرّد، و لا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس و الجنّ، الذين لكلّ منهم برنامجه و أحابيله و شراكه.

و كلمة «مريد» مشقّة من «مرد» و أصلها الأرض المرتفعة التى لا نبت فيها.

و تطلق أيضا كلمة «أمرد» على الشجرة الجرداء، و لهذا تطلق أيضا على كلّ صبى لم ينبت الشعر فى وجهه، و هنا يقصد ب «المريد» الشخص الذى خلا من أى خير و سعادة. و طبيعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيدا و ظالما و عاصيا. و بهذا يتّضح مصير الإنسان الذى يتّبع الشيطان الخالى من كلّ خير!! و من هنا كانت الآية اللاحقة كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ[۲۰۳].

ملاحظات

۱- الجدال فى الحقّ و الباطل

رغم أنّ كلمة «المجادلة» تعنى فى عرف الناس البحث غير المنطقى، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۰

أصلها اللغوى ليس كذلك. بل تعنى أى نقاش كان. لهذا نرى القرآن يوصى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بقوله: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۲۰۴] أى جادل مخالفيك بأفضل أسلوب.

۲- جدال الباطل سبيل الشيطان

يرى بعض كبار المفسّرين أنّ عبارة يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ إشارة إلى أقوال المشركين التى تفتقد السند و الدليل. و عبارة وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ إشارة إلى أفعال المشركين الخاطئة.

و يرى آخرون أنّ العبارة الأولى تشير إلى اعتقاداتهم الفاسدة و الخرافية. أمّا العبارة الثّانية فتشير إلى سلوكياتهم الخاطئة و المنحرفة.

و بما أنّ الآية السابقة و التالية هذه الآية، تناولتا الأسس الاعتقادية، فلا يستبعد أن تشير هاتان الجملتان إلى حقيقة واحدة، أو بتعبير آخر: تتضمّنان طرفى موضوع واحد- نفيه و إثباته- فالعبارة الأولى تقول: يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ أى يجادل فى اللّه و قدرته تقليدا لأحد، أو عصبيّة، أو هوى نفس، و العبارة الثّانية تشير إلى أن من لا يتّبع العلم و المعرفة، فمن الطبيعى أنّه يتّبع كلّ شيطان طاغ عنيد.

۳- لماذا أى شيطان كان؟

إنّه ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يقل أنّ هذا الشخص يتّبع الشيطان، بل ذكر.

أنّه يتّبع أى شيطان عنيد كان، و هذا يشير إلى تعدّد مناهج و مكائد الشياطين، فكلّ منهم اختار لنفسه مكيدة خاصّة، و هذه المكائد و الفخاخ متنوّعة و متكثّرة إلى حدّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

یکون من العسیر تشخیصها، إلّا المؤمنین المتوکّلین علی اللّه و المشمولین برحمته و حمایته: إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ ۲۰۵].

و لا بدّ من الانتباه إلی أنّ کلمة الشیطان تستبطن التمرّد و العناد و البعد عن کلّ خیر و برکة. إلّا أنّ ذکر کلمة «مرید» (الفاقد لکلّ خیر و سعادة) بعد کلمة الشیطان مباشرة، هو تأکید لتوضیح مصیر من یتّبعه.

۴- تفسیر عبارة کُتِبَ عَلَیْهِ ۲۰۶].

واضح أنّ هذه العبارة تعنی «الإلزام»، سواء کانت فی عالم الخلق أم فی عالم التشریع. إلّا أنّه یجب أن لا نتصوّر أنّها تعنی «الجبر» و أنّ الشیاطین مجبورون علی إضلال أتباعهم لیرسلوهم إلی دار البوار. بل إنّها نتیجة مؤکّدة لبرنامج اختاروه بمحض إرادتهم. فإبلیس قائد الشیاطین و کبیرهم خالف أمر اللّه و عنده بملء إرادته، حتّی بلغت به الجرأة أن یعترض علی ذات اللّه. فهو ضالّ و مضلّ و کذلک سائر الشیاطین من الجنّ و الإنس. و ذلک کما نقول للمدمن علی المخدرات: کتب علی جبینه سوء الطالع و التعاسة، فهل یعنی ذلک جبرا؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

الآیات [سورة الحج (۲۲): الآیات ۵ الی ۷]

اشارة

یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَیِّنَ لَکُمْ وَ نُقِرُّ فِی الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ نُخْرِجُکُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّکُمْ وَ مِنْکُمْ مَنْ یُتَوَفَّی وَ مِنْکُمْ مَنْ یُرَدُّ إِلی أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِکَیْلا یَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَیْئاً وَ تَرَی الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَیْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ (۵) ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ یُحْیِ الْمَوْتی وَ أَنَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۶) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ أَنَّ اللَّهَ یَبْعَثُ مَنْ فِی الْقُبُورِ (۷)

التّفسیر

دلیل المعاد فی عالم الأجنّة و النّبات:

بما أنّ البحث فی الآیات السابقة کان یدور حول تشکیک المخالفین للمبدأ و المعاد، فالآیات محل البحث طرحت دلیلین منطقیین قویّین لإثبات المعاد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۳

الجسمانی: أحدهما التغیّرات التی تحدث فی مراحل تکوین الجنین، و الآخر هو التغیّرات التی تحدث فی الأرض عند خروج النبات.

و القرآن شرح صورا للمعاد ممّا یلمسه الناس فی هذه الدنیا، و یرونه بامّ أعینهم، إلّا أنّهم لم ینتبهوا لذلک، لیعلموا أنّ الحیاة بعد الموت لیست ضربا من الخیال، بل هی حادثة فعلا مشهودة للعیان، و الخطاب القرآنی یعمّ جمیع الناس بنوره یا أَیُّهَا النَّاسُ إِنْ کُنْتُمْ فِی رَیْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَیْرِ مُخَلَّقَةٍ[۲۰۷] کلّ ذلک من أجل أن نوضّح لکم حقیقة قدرتنا علی القیام بأی عمل لِنُبَیِّنَ لَکُمْ

فتبقى الأجنّة فى الأرحام إلى مدّة معلومة نحن نحدّدها لتمرّ بمراحل تكاملها. و نسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام فى وسط الطريق قبل أن تكمل وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثمّ تبدأ الأجنّة مرحلة تطوّر جديدة. لنخرجكم أطفالا من أرحام أمّهاتكم.

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا و بهذا تنتهى مرحلة حياتكم المحدّدة فى بطون أمّهاتكم.

فتضعون أقدامكم فى محيط أوسع مملوء بالنور و الصفاء، و إمكانات واسعة جدّا، إلّا أنّ تكاملكم يستمرّ فى قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا و هو الرّشد و الكمال الجسمى و العقلى. ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

و هنا يتبدّل الجهل إلى علم، و الضعف إلى قوّة، و التبعيّة إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى و تستمر فبعضكم يودّع الحياة بينما يستمرّ آخرون حتّى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ.

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكّر فيها شيئا، حيث يسيطر عليه النسيان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۴

و يصبح فى وضع و كأنّه طفل لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً و هذا الضعف و الخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة انتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج ممّا يدلّ على وصولها إلى مرحلة الانفصال.

و هذه التغيّرات المدهشة المتلاحقة التى تتحدّث عن قدرة اللّه تعالى غير المحدودة، توضّح أنّ إحياء الموتى يسير على اللّه جلّت عظمته. و هناك بحوث تعرض لمراحل الحياة المختلفة هذه، سنذكرها فى الملاحظات القادمة.

ثمّ تتناول الآية بيان الدليل الثّانى أى حياة النباتات، فتبيّن ما يلى: تنظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّة و ميتة، فإذا سقط المطر و حلّ الربيع، دبّت الحياة و الحركة فيها و نبتت أنواع النباتات فيها و نمت وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۲۰۸].

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصّلنا إليه، و ذلك باستعراض خمس

ملاحظات

۱- إنّ ما استعرضته الآيات الخاصّة بالمراحل التى تسبق مراحل الحياة للإنسان و عالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ اللّه تعالى حقّ ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ و بما أنّه هو الحقّ، فالنظام الذى خلقه حقّ أيضا، لهذا لا يمكن أن يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۵

هذا الخلق دون هدف، كما يذكر القرآن الكريم هذا المعنى فى مورد آخر: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا[۲۰۹].

و بما أنّ هذه الحياة ليست عبثا، و أنّ لها هدفا، و أنّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فى حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد و البعث حتما.

۲- إنّ هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياة يقول لنا وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى

إنّ الذى يلبس الأرض لباس الحياة، و يغيّر النطفة التافهة إلى إنسان كامل، و يمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى، فهل يمكن التردّد فى قبول فكرة المعاد مع وجود كلّ هذه التشكيلات الحيّة الدائمة للخالق جلّ و علا فى هذا العالم ۲۱۰]؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۲۸۵

الهدف الآخر هو أن نعلم وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و لا يستحيل على قدرته شيء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة؟ و يطوّر هذه النطفة التافهة فى مراحل الحياة؟ و يلبسها كلّ يوم لباسا جديدا من الحياة! و يجعل الأرض الجافّة العديمة الروح خضراء زاهية تعلوها بهجة الحياة؟! أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟! ۴- إنّ كلّ هذا لتعلموا أنّ ساعة نهاية هذا العالم و بداية عالم آخر، ستحلّ بلا شكّ فيها وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها.

۵- ثمّ إنّ كلّ هذا مقدّمة لنتيجة أخيرة هى وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۶

و هذه النتائج الخمس بعضها مقدّمة، و بعضها ذو المقدّمة، البعض منها إشارة إلى الإمكان، و الآخر إشارة إلى الوقوع، و مترتّبة بعضها على بعض و كلّ يكمل صاحبه، و جميعها ينتهى إلى نقطة واحدة، هى أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّه سيقع حتما.

فالذين يشكّون فى إمكان الحياة بعد الموت يشاهدون الصور المشابهة لها فى حياة البشر و النباتات بامّ أعينهم. و هى تتكرّر كلّ يوم و كلّ عام.

و إذا شكّوا فى قدرة اللّه فإنّ قدرة اللّه جعلتهم يشاهدون أمثلة بارزة لها بأعينهم. ألم يخلق الإنسان من تراب؟ ألا نشاهد كلّ عام احياء الأرض الميتة؟

فهل عجيب أمر حياة الأموات ثانية و نهوضهم من تراب؟

و إن شكّوا فى وقوع مثل هذه الأمور، فعليهم أن يعلموا أنّ النظام المسيطر على الخلق فى العالم يدلّ على وجود هدف له، و إلّا فإنّه باطل تافه، و الحياة القصيرة المملوءة بالآلام و خيبة الآمال غير جديرة بأن تكون هى الهدف الأخير لعالم الخلق.

و على هذا يجب أن يكون هناك عالم آخر، وسيع، خالد، جدير بأن يعدّ هدفها للخلق.

بحوث

۱- مراحل حياة الإنسان السبع

الآيات السابقة شرحت حركة الإنسان فى مسيرة ذات مراحل سبع، لتبيّن البعث و تثبت إمكانه:

المرحلة الأولى: عند ما كان الإنسان ترابا، و قد يراد به التراب الذى خلق منه آدم عليه السّلام. كما قد يكون إشارة إلى أنّ جميع البشر- من تراب، لأنّ جميع المواد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۷

الغذائية التى تكوّن النطفة و غذاءها- من بعد- من تراب. و لا شكّ فى أنّ الماء يشكّل جزءا ملحوظا من جسم الإنسان، و الجزء الآخر من الأوكسجين و الكاربون، و ليس من التراب، إلّا أنّ العنصر الأساس الذى تتشكّل منه أعضاء الجسم مصدره التراب. إذن عبارة خلق الإنسان من تراب صحيحة حتما.

المرحلة الثّانية: (النطفة): يتحوّل التراب، هذا الموجود البسيط المهمل العديم الحسّ و الحركة، يتحوّل إلى نطفة تتألّف من أحياء مجهولة مثيرة تسمّى عند الرجل «أسپر» أو الحيمن و عند المرأة «أوول» أو البويضة و هى غاية فى الصغر حتّى أنّها تبلغ الملايين فى نطفة الرجل! و المثير أنّ الإنسان يواصل عقب ولادته حركة تدريجيّة هادئة، تأخذ فى الغالب شكل «التكامل الكمّى» فى الوقت الذى كانت حركته فى الرحم «كيفيّة» ترافقها طفرات سريعة مغيّرة. و التغيّرات المتعاقبة للجنين فى الرحم مدهشة إلى درجة يمكن تشبيهها

بحشرة صغيرة بسيطة تتطوّر بعد أشهر قليلة إلى طائرة نفّاثة! و قد تطوّرت و توسّعت الدراسات عن «علم الأجنة» اليوم بحيث تمكّن علماؤه من دراسة الجنين فى مراحله المختلفة، و كشفوا عن أسرار هذه الظاهرة العجيبة فى عالم الوجود. و عرضوا النتائج الباهرة التى توصّلوا إليها فى دراساتهم عن الجنين.

و فى المرحلة الثّالثة يصبح الجنين علقة، و تكون خلاياه كحبّات التوت، بشكل قطعة دم خاثر متلاصقة، يطلق عليها علميّا «مورولا». و بعد مضى مدّة قصيرة تظهر أخاديد التقسيم الصغيرة كبداية لتقسيم أجزاء الجنين، و يطلق على الجنين فى هذه المرحلة اسم «لاستولا».

و فى المرحلة الرّابعة يتّخذ الجنين شكل قطعة لحم ممضوغ، دون أن تتّضح معالم الأعضاء فيه، و فجأة تحدث تغييرات فى قشرة «الجنين» و تتّخذ شكلا يلائم العمل المطلوب منه القيام به، فتظهر أعضاء الجسم تدريجيّا، و يسقط كلّ جنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۸

لا يمكنه المرور بهذه المرحلة، و يمكن أن تكون عبارة مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ إشارة إلى هذه المرحلة، أى أنّ الجنين يكون «كامل الخلقة» أو «ناقص الخلقة».

و من المثير أنّ القرآن المجيد ذكر عبارة لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بعد ذكر هذه المراحل الأربع، مؤكّدا أنّ هذه التغييرات السريعة المدهشة التى تغيّر قطرة ماء صغيرة إلى إنسان كامل، لدليل واضح على أنّ اللّه قادر على كلّ شىء.

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى مرحلة الجنين الخامسة و السّادسة و السّابعة، التى تلى الولادة أى «الطفولة» و «البلوغ» و «الشّيخوخة»[۲۱۱].

و الجدير بالذكر أنّ ولادة الإنسان- من التراب- كائنا حيّا، قفزة كبيرة، و مراحل الجنين المختلفة قفزات متعاقبة، و ولادة الإنسان من بطن أمّه قفزة مهمّة جدّا، و هكذا البلوغ و الشيخوخة.

و تعبير القرآن عن يوم القيامة بالبعث، قد يكون إشارة إلى مفهوم القفزة ذاتها التى تحدث يوم البعث أيضا. و ما أجدرنا بالانتباه إلى أنّ القرآن تحدّث عن مراحل تكوّن الجنين قبل أن يظهر علم الأجنّة، و حديثه عنها فى ذلك الزمن دليل حىّ على أنّ هذا الكتاب العظيم إنّما هو وحى يوحى من قدرة قادرة هى التى أبدعت الطبيعة و ما وراءها.

۲- المعاد الجسمانى

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم أينما تحدث عن البعث قصد بعث الإنسان جسما و روحا فى العالم الأخروى، و الذين حصروا البعث فى الروح و قالوا ببقائها هى وحدها لم يفقهوا آيات القرآن قطّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

فهذه الآيات المباركة كالآية السابقة تصرّح بالمعاد الجسمانى. و إلّا فما هو وجه التشابه بين المعاد الروحى، و مراحل الجنين و إحياء الأرض الموات بنمو النباتات؟ و يؤكّد ذلك ختام الآيات التى نحن بصددها إذ تقول: وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ و القبر موضع جسم الإنسان و ليس روحه.

و أساسا فانّ تعجّب المشركين إنّما هو من البعث الجسمانى، فهم يقولون:

كيف يمكن للإنسان أن يعود للحياة ثانية بعد ما صار ترابا؟ و بقاء الروح لم يكن شيئا عجبا، لأنّه كان موضع قبول و رضى الأقوام الجاهلية.

۳- ما هو «أرذل العمر»؟

«الأرذل» مشتقّة من «رذل» أى المنحطّ و غير المرغوب فيه. و يقصد ب «أرذل العمر» تلك المرحلة من عمر الإنسان التى هى أكثر انحطاطا و غير مرغوب فيها لما يفقده فيها الإنسان من القوّة و الذاكرة، و لما يغلبه فيها من الضعف و الانفعال، حتّى تراه يغتاظ من أدنى شيء، و يرضى و يفرح لا يسر شيء، و يفقد سعة صدره و صبره، و ربّما قام بحركات طفولية. مع فارق بينه و بين الطفل و هو أنّ الناس لا يتوقّعون منه ذلك، لأنّه ليس طفلا مضافا إلى أنّ الطفل يؤمل فى أن يكبر و ينضج جسديّا و نفسيّا و تزول عنه هذه الحركات الصبيانية، لهذا يتركوا أحرارا فى ممارستها، و ليس كذلك فى الفرد المسنّ، أى أنّ الطفل ليس لديه شيء ليفقده، و لكن المسنّ يفقد رأس مال حياته بذلك. و على هذا فإنّ وضع الشيوخ المعمّرين يثير الشفقة و الأسى عند مقارنته بوضع الأطفال.

و جاء فى بعض الأحاديث أنّ أرذل العمر هو الذى يبلغ مائة عام و أكثر[۲۱۲] و قد تعنى هذه العبارة نوع الأشخاص، و إلّا فهناك من يبلغ هذه الحالة و سنّهم أقل من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

مائة عام. كما أنّ هناك أشخاصا تجاوزت أعمارهم مائة عام و هم بكامل وعيهم و ذكائهم. و تندر مشاهدة من يصابون بهذه الحالة بين العلماء الذين شغلتهم المعارف و البحوث.

و ما أولانا بدعاء اللّه تعالى أن يحفظنا من هذه الحالة! و ما أجدرنا أن ننهى غرورنا و غفلتنا بمجرد الفكر بهذه العاقبة! علينا أن نفكّر ماذا كنّا و على ماذا أصبحنا و ماذا سنكون؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (۸) ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ (۹) ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۱۰)

التّفسير

الجدال بالباطل مرّة أخرى:

تتحدّث هذه الآيات أيضا عمّن يجادلون فى المبدأ و المعاد جدالا خاويا لا أساس له، فى البداية يقول القرآن المجيد: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ.

و عبارة وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ هى ذاتها التى ذكرت فى آية سابقة، و إعادتها تبيّن لنا أنّ العبارة الأولى إشارة إلى مجموعة من الناس، و الثّانية إلى مجموعة أخرى. و بعض المفسّرين يرى أنّ الفرق بين هاتين المجموعتين من الناس هو أنّ الآية السابقة الذكر دالّة على وضع الأتباع الضالّين الغافلين، فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

وقت تكون فيه هذه الآية دالّة على قادة هذه المجموعة الضالّة[۲۱۳].

و عبارة لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تبيّن هدف هذه المجموعة، ألّا و هو تضليل الآخرين، و هذا دليل واضح على الفرق بينهما، مثلما توضّح هذا المعنى عبارة يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ فى الآيات السابقة التى تتحدّث عن اتّباع الشياطين.

و لكن ما الفرق بين «العلم» و «الهدى» و «الكتاب المنير»؟

للمفسّرين آراء فى هذا المجال أقربها إلى العقل هو أنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلى. و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الرّبانيين. و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماويّة، أى أنّها تعنى الأدلّة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنّة» و «الدليل العقلى». و أمّا الإجماع فإنّه يعود إلى السنّة طبقا لدراسات العلماء، و قد جمعت هذه الأدلّة الأربعة فى هذه العبارة أيضا.

و يحتمل بعض المفسّرين أنّ «الهدى» إشارة إلى الإرشادات المعنوية التى يكتسبها الإنسان فى ظلّ بناء الذات و تهذيب النفس و تقواه. «و بالطبع يمكن ضمّ هذا المعنى إلى ما تقدّم آنفا».

و يمكن أن يكون الجدال العلمى مثمرا إذا استند إلى أحد الأدلّة: العقل، أو الكتاب، أو السنّة.

ثمّ يتطرّق القرآن المجيد فى جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إنّهم يريدون أن يضلّوا الناس عن سبيل اللّه بغرورهم و عدم اهتمامهم بكلام اللّه و بالأدلّة العقليّة الواضحة.

«ثانى» مشتقّة من «ثنى» بمعنى التواء و «عطف» تعنى «جانب» فالجملة تعنى ثنى الجانب، أى الإعراض عن الشىء و عدم الاهتمام به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۳

و يمكن أن تكون عبارة «ليضلّ» هدف هذا الإعراض، أى إنّهم (قادة الضلال) يستخفّون بآيات اللّه و الهداية الإلهيّة لتضليل الناس. و يمكن أن تكون نتيجة لذلك. أى أنّ محصّلة الإعراض و عدم الاهتمام هو صدّ الناس عن سبيل الحقّ. و يعقب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد فى الدنيا و الآخرة بهذه الصورة:

لَهُ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَذابَ الْحَرِيقِ

و نقول له: ذلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ و أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ لا يعاقب اللّه أحدا بلا ذنب، و لا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه ۲۱۴].

و هذه الآية من الآيات التى تنفى مذهب الجبريّة، و تثبت مبدأ العدالة فى أفعال اللّه تعالى. (للمزيد من التفصيل راجع تفسير الآية (۱۸۲) من سورة آل عمران).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۱) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (۱۲) يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (۱۳) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ (۱۴)

التّفسير

الواقف على حافّة وادى الكفر

تحدّثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالّين، و القادة المضلّين.

أمّا هذه الآيات، فتتحدّث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان. قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى

حَرْفٍ أى إنّ بعض الناس يعبد اللّه بلقلقة لسان، و إنّ إيمانه ضعيف جدّا. و لم يدخل الإيمان إلى قلبه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

و عبارة «على حرف» ربّما تكون إشارة إلى أنّ إيمانهم باللسان فقط، و أنّ قلوبهم لم تر بصيصا من نوره إلّا قليلا، و قد تكون إشارة إلى أنّ هذه المجموعة تحيا على هامش الإيمان و الإسلام و ليس فى عمقه، فأحد معانى «الحرف» هو حافّة الجبل و الأشياء الاخرى. و الذى يقف على الحافّة لا يمكنه أن يستقرّ. فهو قلق فى موقفه هذا، يمكن أن يقع بهزّة خفيفة، و هكذا ضعاف الإيمان الذين يفقدون إيمانهم بأدنى سبب.

ثمّ تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ ۲۱۵] إنّهم يطمئنون إذا ضحكت لهم الدنيا و غمرتهم بخيراتها! و يعتبرون ذلك دليلا على أحقّية الإسلام.

إلّا أنّهم يتغيّرون و يتّجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل و القلق و الفقر، فالدين و الإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون فى هذه الدنيا، فإن تمّ ما يبغونه كان الدين حقّا، و إلّا فلا.

و ذكر «ابن عبّاس» و مفسّرون قدماء سبب نزول هذه الآية: «أنّها نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صحّ بها جسمه و نتجت فرسه مهرا حسنا. و ولدت امرأته غلاما و كثر ماله و ماشيته، رضى به و اطمأنّ إليه، و إن أصابه وجع و ولدت امرأته أنثى أو أجهضت فرسه أو ذهب ماله أو تأخّرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان و قال له: ما جاءتك هذه الشور إلّا بسبب هذا الدين. فينقلب عن دينه»[۲۱۶].

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم يعبّر عن إقبال الدنيا على هؤلاء الأشخاص بالخير. و عن إدبارها بالفتنة (وسيلة الامتحان) و لم يطلق عليها كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

الشّر، إشارة إلى أنّ هذه الأحداث غير المرتقبة ليست شرّا و لا سوءا و إنّما هى وسيلة للامتحان.

و يضيف القرآن المجيد فى الختام- خَسِرَ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةَ و ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ مؤكّدا أنّ أفدح الضرر و أفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه و دنياه. و هؤلاء الأشخاص الذين يقيسون الحقّ بإقبال الدنيا عليهم ينظرون إلى الدين وفق مصالحهم الخاصّة، و هذه الفئة موجودة بكثرة فى كلّ مجتمع، و إيمانها مزيج بالشرك و عبادة الأصنام، إلّا أنّ أصنامهم هى و أزواجهم و أبناؤهم و أموالهم و مواشيهم، و مثل هذا الإيمان أضعف من بيت العنكبوت! و هناك مفسّرون يرون أنّ هذه الآية تشير إلى المنافقين، لكن إذا اعتبرنا أنّ المنافق هو من لا يملك ذرّة من الإيمان، فإنّ ذلك يخالف ظاهر هذه الآية، فعبارة «يعبد اللّه» و «اطمأنّ به» و «انقلب على وجهه» تبيّن أنّه ذو إيمان ضعيف قبل هذا.

أمّا إذا قصد بالمنافق من يملك قليلا من الإيمان، فلا يعارض ما قلناه، و يمكن قبوله.

و تشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الانحراف عن صراط التوحيد و الإيمان باللّه، فتقول: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَ ما لا يَنْفَعُهُ أى إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه الماديّة و الابتعاد عن الخسائر و يرى صحّة الدين فى إقبال الدنيا عليه، و بطلانه فى إدبارها عنه. فلما ذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمّل منها خير، و لا يخاف منها ضرر.

فهى أشياء لا فائدة فيها، و لا أثر لها فى مصير البشر؟! أجل ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. إنّ هؤلاء ليبتعدون عن الصراط المستقيم بعدا حتّى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلّا رجاء ضعيفا جدّا.

و يوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ

لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، و يدفعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۷

نحو الخرافات و الجهل، و يدعهم فى الآخرة فى نار جهنّم، بل هم كما تقول الآية ۹۸ من سورة الأنبياء: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

و تضيف الآية فى الختام لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ فما أسوأه ناصرا و معينا، و ما أسوأه مؤنسا و معاشرا.

و هنا يثار سؤال، فالآية السابقة تنفى كلّ فائدة و نفع من هذه الأصنام و كلّ ضرر، و هذه الآية تقول إنّ ضررها أقرب من نفعها! فكيف ينسجم الحكمان؟

فى الجواب عن ذلك نقول: إنّ ذلك أمر اعتيادى فى المخاطبة، ففى مرحلة لا يعتبرون لشىء فائدة و تأثير يذكر ثمّ يترقّى إلى الحال فى مرحلة أخرى فيعدّونه مصدر الضرر. كأن نقول: لا تصادق فلانا، فلا نفع فيه لدينك و لا لدنياك.

و بعدها نتقدّم فنقول إنّما هو: (أى هذا الصديق) سبب لتعاستك و افتضاحك. و هنا تجد إضافة إلى كون الأصنام لا ضرر فيها لأعداء المشركين، لأنّها غير قادرة على الإضرار بأعدائهم كما يتوقّعون منها، و لكنّها تتضمّن ضررا حتميّا لأتباعها.

كما أنّ صيغة «أفعل التفضيل» فى كلمة «أقرب» كما قلنا سابقا: تعنى عدم اتّصاف طرفى المقارنة بصفة معيّنة. و قد يكون الطرف الأضعف فاقدا لأيّة صفة، كأن نقول: ساعة صبر عن الذنب خير من نار جهنّم (و ليس معنى ذلك أنّ نار جهنّم فيها خير، إلّا أنّ الصبر أفضل منها،) و قد اختار هذا الرأى عدد من كبار المفسّرين كالشيخ الطوسى فى «التبيان» و الطبرسى فى «مجمع البيان».

و احتمل البعض كالفخر الرازى فى تفسير الآية بأنّ كلّ واحدة من هاتين الآيتين إشارة إلى مجموعة من الأصنام، فالآية الأولى تخصّ الأصنام الحجرية و الخشبية، و أمّا الآية الثّانية فتخصّ الطواغيت و البشر المتعالين أشباه الأصنام.

فالمجموعة الأولى لا تضرّ و لا تنفع، بل هى بالتأكيد خالية من أيّة صفة. أمّا المجموعة الثّانية «أئمّة الضلال» فإنّهم يضرّون و لا ينفعون. و إذا كان فيهم خير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۸

قليل فضرّهم كبير جدّا، و عبارة لَبِئْسَ الْمَوْلى وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ تؤكّد ذلك، و عليه فلا تناقض بين الآيتين ۲۱۷].

و ختام الآية المباركة نلحظ مقارنة بين الخير و الشرّ كما هو دأب القرآن الكريم لتتّضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. فعاقبتهم معلومة و منهج تفكير هم و سلوكهم واضح فمولاهم هو اللّه تعالى، و رفاقهم و جلساؤهم فى الآخرة هم الأنبياء و الصالحون و الملائكة، و أنّ اللّه سبحانه يثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنّات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة و السرور جزاء استقامتهم على الحقّ و استجابتهم له فى الحياة الدنيا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ.

و ثوابهم يسير عليه- جلّ و علا- يسر عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحقّ، و بعبادتهم الأصنام من دون اللّه سبحانه.

و فى هذه المقارنة نلاحظ طائفة من الناس لم يؤمنوا إلّا بلسانهم، فهم على جانب من الدين و ينحرفون بأدنى وسوسة، و ليس لهم عمل صالح، أمّا المؤمنون الحقيقيّون فإيمانهم راسخ و لا تزعزعه العواطف و مثمر هذا من جهة .. و من جهة أخرى فلئن كان مولى الخاسرين لا ينفع و لا يضرّ، فإنّ مولى الصالحين على كلّ شىء قدير. و لئن خسر الظالمون كلّ شىء، فقد ربح المهتدون خير الدنيا و سعادة الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ (۱۵) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (۱۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۷)

سبب النّزول

روى بعض المفسّرين حول سبب نزول الآية الأولى من هذه الآيات، أنّها نزلت فى نفر من أسد و غطفان قالوا: نخاف أنّ اللّه لا ينصر محمّدا، فينقطع الذى بيننا و بين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا. فحذّرتهم هذه الآية و وبّختهم بشدّة.

و قال آخرون: إنّها نزلت فى قوم من المسلمين لشدّة غيظهم و حنقهم على المشركين، يستبطئون ما وعد اللّه رسوله من النصر، فنزلت هذه الآية[۲۱۸] تلومهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۰

على عدم صبرهم.

التّفسير

البعث نهاية جميع الخلافات:

بما أنّ الآيات السابقة كانت تتحدّث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة أخرى عن هؤلاء فتقول: مَنْ كانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّماءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يَغِيظُ.

أى من يظنّ أنّ اللّه لا ينصر نبيّه فى الدنيا و الآخرة، و هو غارق فى غضبه، فليعمل ما يشاء، و ليشدّ هذا الشخص حبلا من سقف منزله و يعلّق نفسه حتّى ينقطع نفسه و يبلغ حافّة الموت، فهل ينتهى غضبه؟! لقد اختار هذا التّفسير عدد كبير من المفسّرين، أو ذكروه كاحتمال يستحقّ الاهتمام به ۲۱۹].

الضمير فى قوله سبحانه: لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ بحسب هذا التّفسير يعود إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و «السّماء» تعنى سقف المنزل (لأنّ كلّ شىء فوقنا يطلق عليه سماء). أمّا عبارة «ليقطع» فتعنى قطع النفس و الوصول إلى حافّة الموت.

و احتمل البعض احتمالات أخرى فى تفسير هذه الآية لا حاجة لذكرها، ما عدا تفسيرين منها يستحقّان الاهتمام، و هما:

۱- إنّ السّماء يقصد بها السّماء الحقيقيّة، و بناء على هذا الرأى: فإنّ الأشخاص الذين يظنّون أنّ اللّه لا ينصر نبيّه، ليذهبوا إلى السّماء و ليشدّوا بها حبلا و يعلّقوا أنفسهم بينها و بين الأرض حتّى تنقطع أنفسهم. (أو يقطعوا الحبل الذى تعلّقوا به كى يسقطوا) و لينظروا إلى أنفسهم هل انتهى غضبهم؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۱

۲- إنّ عود الضمير المذكور إلى هؤلاء الأشخاص (ليس إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أى أنّ الذين يظنّون عدم نصر اللّه لهم، و أنّه يقطع رزقهم، عليهم أن يعملوا ما شاءوا، و ليذهبوا إلى السّماء و يعلّقوا أنفسهم بحبل، ثمّ ليقطعوا هذا الحبل حتّى يقعوا على الأرض، فهل ينهى غضبهم؟

و جميع هذه التفاسير تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّى المزاج. و الضعيفى الإيمان الذين يصابون بالهلع و يرتكبون أعمالا جنونية كلّما بلغت أمورهم طريقا مسدودا فى الظاهر، فيضربون الأبواب و الحيطان تارة، و أخرى يودّون أن تبتلعهم الأرض. و

قد يصمّمون على الانتحار لإخماد نيران غضبهم. فى وقت لا ـ تحلّ فيه هذه الأعمال الجنونية مشاكلهم، و لو تريّثوا قليلا، و التزموا بالصبر وسعة الصدر، و نهضوا بعد التوكّل على اللّه و الاعتماد على النفس فى مواجهة مشاكلهم، لأصبح حلّها مؤكّدا.

و أشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ آياتٍ بَيِّناتٍ

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلّة المعاد و البعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى و نموّ النباتات و إحياء الأرض بعد موتها، و أدلّة أخرى على عدم نفع الأصنام و ضرّها، و عرضت أعمال الذين يجعلون الدين وسيلة لبلوغ المنافع التافهة. و لكن هذه الأدلّة الواضحة و البراهين الدامغة لا تكفى لتقبّل الحقّ، بل لا بدّ من استعداد ذاتى لذلك. و لهذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية: وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يُرِيدُ.

و قد قلنا مرارا: إنّ إرادة اللّه ليست بلا حساب، فهو المدبّر الحكيم يهدى من يشاء بآياته البيّنات، خاصّة أولئك المجاهدين فى سبيله، و هم يرجون هدايته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۲

بكلّ مشاعرهم ۲۲۰].

و أشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، و خمس منها غير مسلمة إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ الصَّابِئِينَ وَ النَّصارى وَ الْمَجُوسَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أليس يوم الفصل من أسماء يوم القيامة! حيث يفصل اللّه سبحانه و تعالى، فيه بين الحقّ و الباطل، يوم تبلى فيه السرائر، و تنتهى فيه الخلافات، إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

بحوث

۱- ارتباط الآيات

ترتبط هذه الآية بالآيات التى سبقتها، حيث تناولت الآية التى قبلها الهداية الربّانية لمن كان قابلا للهداية، و لكن بما أنّ قلوب الناس ليست على نمط واحد، بسبب وجود التعقّب و العناد و التقليد الأعمى لا يسمح للقلوب بالاهتداء، لذا يبقى التحزّب و الخلاف إلى يوم القيامة الذى يكشف فيه عن الأسرار و يتجلّى الحقّ للجميع.

مضافا إلى أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن ثلاث فئات: أولاهما تجادل فى اللّه و فى يوم البعث بغير دليل، و ثانيها تضلّل الناس، و ثالثها ضعاف الإيمان الذين يميلون كلّ مرّة إلى جهة. لذا فقد أشارت هذه الآية إلى نماذج من هذه الفئات التى تجابه المؤمنين.

ثمّ أنّ الآيات السابقة تضمّنت سؤالا ـ هو: ما الهدف من المعاد؟ و قد بيّنت الآية- موضع البحث- أحد أهداف المعاد، و هو إنهاء الخلافات و العودة إلى الوحدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۳

۲- من هم المجوس؟

جاءت كلمة «المجوس» مرّة واحدة فى هذه الآيات بجانب الأديان السماوية الاخرى و فى مقابل المشركين، و هذا دليل على أنّ لهم دينا و نبيّا و كتابا.

و تطلق كلمة «المجوس» اليوم على أتباع «زرادشت» أو أنّ أتباع زرادشت يشكّلون جزءا مهمّا منهم، و حياة «زرادشت» ليست واضحة

تماما، فقد قیل: إنّه ظهر فی القرآن الحادی عشر قبل المیلاد، و قیل: فی القرن السادس أو السابع ۲۲۱].

و هذا الاختلاف بخمسة قرون أمر عجیب! یدلّ علی الغموض الذی یحیط بتاریخ زرادشت. و المعروف أنّ له کتابا اسمه «أفستا» تلف إبّان حملة الإسکندر المقدونی علی بلاد فارس. ثمّ أعیدت کتابته علی عهد أحد ملوک الساسانیین ۲۲۲].

و لیس لدینا معلومات کافیة عن عقیدة زرادشت، إلّا ما اشتهر من اعتقاده بمبدإ الخیر و الشرّ و النور و الظلام، فإله الخیر و النور عنده «أهورامزدا» و إله الشرّ و الظلام «أهریمن» و یحترم فکرة العناصر الأربعة و خاصّة «النّار» حتّی أعتبر أتباعه عبدة للنار. و أینما کانوا وجد معهم معبد للنار صغیر أو کبیر.

و یری البعض أنّ کلمة «مجوس» مشتقّة من «مغ» التی کانت تطلق علی قادة و روحانیی هذا الدین. کما أنّ کلمة «مؤبّد» التی تطلق حالیا علی روحانیی هذا الدین، مشتقّة فی الأصل من «مغود».

و روی أنّهم من أتباع أحد أنبیاء الحقّ (إلّا أنّهم انحرفوا بعد توحیدهم اللّه، فأصبحوا علی عقیدة یخالطها الشرک).

و جاء فی روایة أنّ مشرکی مکّة طالبوا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأخذ الجزیة من أتباع زرادشت مقابل السماح لهم بالتزام ما یعتقدون به، فبیّن لهم الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه لا یأخذ الجزیة إلّا من أهل الکتاب، فقالوا: کیف هذا و قد أخذت الجزیة من مجوس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۴

منطقة «هجر»؟! أجاب صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

«إنّ المجوس کان لهم نبی فقتلوه، و کتاب أحرقوه»[۲۲۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن «الأصبغ» بن نباتة» أنّ علیا قال علی المنبر:

سلونی قبل أن تفقدونی، فقام إلیه الأشعث «المنافق المعروف)، فقال:

یا أمیر المؤمنین کیف تؤخذ الجزیة من المجوس و لم ینزل علیهم کتاب و لم یبعث إلیهم نبیّ؟ فقال علیه السّلام: «بلی یا أشعث قد أنزل اللّه علیهم کتابا و بعث إلیهم نبیّا». الحدیث ۲۲۴].

و

فی حدیث عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام قال: «إنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: سنّوا بهم سنّة أهل الکتاب یعنی المجوس»[۲۲۵].

و «المجوس» جمع مفرده «مجوسی».

۳- من هم الصابئة؟

یستفاد من الآیة السابقة، و لا سیّما من ذکر الصابئة بین الیهود و النصاری، أنّ الصابئة أصحاب دین سماوی. و قیل: إنّهم أتباع یحیی بن زکریا علیه السّلام الذی یسمّیه المسیحیون «یحیی المعمدان» و قیل: إنّ الصابئة مزجوا بین العقیدتین الیهودیة و النصرانیة، فعقیدتهم وسط بین أولئک و هؤلاء.

یهتمّ الصابئة بالماء کثیرا، و لهذا تری معظمهم یعیشون علی ضفاف الأنهر الکبیرة، و ذکر أنّهم یقدّسون بعض النجوم، و لهذا اتّهموا بعبادة النجوم. رغم أنّ الآیة السابقة لم تضعهم فی صفّ المشرکین (إیضاحا لذلک یراجع التّفسیر الأمثل فی تفسیر الآیة ۶۲ من سورة البقرة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۵

۴- مجموعة المنحرفین عن التوحید

أشارت الآیات السابقة إلی خمس فئات منحرفة، یحتمل أن یکون ترتیبها هنا بحسب درجة انحرافها عن أصل التوحید، فالیهود أقل انحرافا من الآخرین بشأن التوحید، و الصابئة وسط بین الیهود و النصاری، و یلیهم النصاری لقولهم بالتثلیث أی تألیههم عیسی و أمّه مریم علیهما السّلام أیضا، و بذلک إزداد انحرافهم. أمّا المجوس فهم فی مرحلة رابعة لتقسیمهم العالم قسمین: الخیر و الشرّ، و قولهم بوجود مبدأین منذ الخلیقة. أمّا المشرکون و عبدة الأصنام فهم فی آخر مرحلة، لانحرافهم عن التوحید أکثر من الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۶

الآیة [سورة الحج (۲۲): آیة ۱۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُّ وَ کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ وَ مَنْ یُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ (۱۸)

التّفسیر

الوجود کلّه یسجد للّه:

بما أنّ الحدیث فی الآیات السابقة کان عن المبدأ و المعاد، فإنّ الآیة- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحید، قد أکملت دائرة المبدأ و المعاد، و تخاطب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فتقول أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ وَ النُّجُومُ وَ الْجِبالُ وَ الشَّجَرُ وَ الدَّوَابُ و کَثِیرٌ مِنَ النَّاسِ وَ کَثِیرٌ حَقَّ عَلَیْهِ الْعَذابُ ثمّ تضیف و هؤلاء لیست لهم قیمة عند اللّه تعالی، و من کان کذلک فهو مهان: وَ مَنْ یُهِنِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُکْرِمٍ

أی إنّ من یهینه اللّه لا یکرمه أحد، و لیست له سعادة و لا أجر، حقّا إِنَّ اللَّهَ یَفْعَلُ ما یَشاءُ فهو یکرم المؤمنین به، و یذلّ المنکرین له.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۷

بحثان

۱- فی کیفیة السجود العام!

جاء فی القرآن المجید ذکر «السجود العامّ» لجمیع المخلوقات فی العالم، و کذا «التسبیح» و «الحمد» و «الصلاة»، و أکّد القرآن الکریم علی أنّ هذه العبادات الأربع، لا تختص بالبشر وحدهم، بل یشارکهم فیها حتّی الموجودات التی تبدو عدیمة الشعور. و علی الرغم من أنّنا بحثنا فی ختام الآیة الرّابعة و الأربعین من سورة الإسراء عن حمد الموجودات و تسبیحها بحثا مسهبا، و تناولنا سجود المخلوقات

العامّ للّه فى تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة الرعد، نجد الإشارة إلى هذا الحمد و التسبيح الكونى العامّ ضرورية.

إنّ للموجودات مع ملاحظة ما ورد فى الآية- موضع البحث- شكلين من السجود «سجود تكوينى» و «سجود تشريعى».

فالسجود التكوينى هو الخضوع و التسليم لإرادة اللّه و نواميس الخلق و النظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، و هو يشمل ذرّات المخلوقات كلّها، حتّى أنّه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة و المنكرين العنودين و ذرّات أجسامهم فالجميع يسجدون للّه تعالى تكوينا.

و حسبما يقوله عدد من الباحثين، فإنّ ذرّات العالم كلّها لها نوع من الإدراك و الشعور، و لذا يسبّحون اللّه و يحمدونه و يسجدون له و يصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك فى تفسير الآية الرّابعة و الأربعين من سورة الإسراء) و إذا رفضنا هذا النوع من الإدراك و الشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعا للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كلّه.

أمّا «السجود التشريعى» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين للّه سبحانه. و هنا يثار سؤال، و هو أنّه إذا كان السجود العامّ يشمل المخلوقات و جميع البشر، فلما ذا خصّصته الآية المذكورة أعلاه ببعض البشر لا كلّهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۸

لو دقّقنا فى مفهوم السجود فى هذه الآية لرأيناه يجمع بين المفهومين التشريعى و التكوينى، فتتيسّر الإجابة عن هذا السؤال، لأنّ سجود الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الأشجار و الأحياء تكوينى، و سجود البشر تشريعى يؤدّيه ناس و يأباه آخرون، فصدق فيهم القول: كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذابُ و استخدام لفظ واحد بمفهوم شامل عامّ مع الاحتفاظ بمصاديقه لا يضرّه شيئا، حتّى عند الذين لا يجيزون استخدام كلمة واحدة لعدّة معان. فكيف بنا و نحن نجيز استعمال كلمة واحدة فى معان عديدة؟

۲- هل سجود الملائكة تشريعى؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ عبارة يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ تضمّ الملائكة، و سجودهم تشريعى، لأنّهم عقلاء ذوو أحاسيس و علم و إرادة، أى أنّ سجودهم عبادة و خضوع على وفق إرادتهم و وعيهم، بدلالة ما قاله القرآن الكريم عنهم:

لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ۲۲۶].

أجوبة عن استفسارات

۱- لماذا جاءت عبارة كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بعد وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ التى تضمّ البشر كلّهم؟

يمكن القول أنّ هذه العبارة إيضاح لعبارة مَنْ فِي الْأَرْضِ أى أنّ أهل الأرض فئتان: الأولى مؤمنة خاضعة للّه، و الأخرى كافرة متمرّدة عنيدة.

و قال بعض المفسّرين: إنّ تعبير مَنْ فِي الْأَرْضِ بصيغة العامّة إشارة إلى السجود التكوينى، الذى يشترك فيه جميع الناس بما فيهم الكفرة، حيث تشارك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۰۹

أجزاء أبدانهم فى هذا السجود، و إنّ عبارة كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ ... إشارة إلى السجود التشريعى الذى يختلف فيه الناس. كما يحتمل أنّ عبارة مَنْ فِي الْأَرْضِ إشارة إلى الملائكة الساكنين فى الأرض كعبارة مَنْ فِي السَّماءِ التى تشير إلى الملائكة الساكنين فى السّماء، فى وقت تتحدّث فيه العبارة التى تليها عن البشر الساكنين فى الأرض.

۲- لماذا تحدّثت هذه الآية عن أهل السّماء و الأرض، و ليس عن السّماء و الأرض ذاتهما! فى الجواب نقول: السموات داخلة فى كلمة «النجوم»، مثلما يقصد «بالجبال» التى تشكّل جزءا مهمّا من الكرة الأرضية، الأرض ذاتها.

۳- و أخيرا: لماذا قال سبحانه و تعالى: أَ لَمْ تَرَ، أى: ألم تشاهد بعينيك، رغم أنّ السجود العام من قبل المخلوقات للّه تعالى لا يمكن رؤيته؟

و مع ملاحظة أنّ كلمة «رؤية» فى العربية تعنى أحيانا العلم، يتّضح الجواب.

و إضافة إلى ذلك نعبّر أحيانا عن الواضحات جدّا بكلمة الرؤية، فنقول: ألم تر فلانا حسودا بخيلا؟ أو: ألم تر فلانا عالما و عادلا؟ (رغم أنّ هذه الصفات ليست حسّية) و إنّما نقصد بذلك تأكيد الإدراك و العلم بهذه الصفات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۱۹ الى ۲۴]

اشارة

هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (۱۹) يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (۲۰) وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (۲۱) كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ (۲۲) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (۲۳) وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ (۲۴)

سبب النّزول

ذكر عدد من المفسّرين من الشيعة و السنّة روايات فى سبب نزول أوّل آية من الآيات السالفة الذكر نلخّصها بتركيز: «نزل إلى ساحة الحرب يوم معركة بدر ثلاثة من المسلمين هم (على عليه السّلام و حمزة و عبيدة بن الحارث بن عبد المطّلب)،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۱

فقتلوا بحسب ترتيبهم «الوليد بن عتبة» و «عتبة بن ربيعة» و «شيبة بن ربيعة» فنزلت هذه الآية لتبيّن مصير الذين اشتركوا فى هذه المبارزة.

كما روى أنّ أبا ذر أقسم بأنّ هذه الآية نزلت بحقّ هؤلاء الرجال ۲۲۷]، إلّا أنّنا نكرّر قولنا ثانية بأنّ سبب النّزول الخاصّ بشخص أو جماعة معيّنة لا يمنع أن يكون مضمون الآية عامّا يشمل الجميع.

التّفسير

خصمان متقابلان!

أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين و طوائف مختلفة من الكفّار، و حدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: هذانِ خَصْمانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۲۲۸] أى أنّ الخصام بين مجموعتين، هما: طوائف الكفّار الخمس من جهة، و المؤمنون الحقيقيّون من جهة أخرى. و إذا تفحصنا الأمر وجدنا أساس الخلاف بين الأديان فى ذات اللّه تعالى و صفاته، و هو يمتدّ إلى الخلاف فى النبوّة و المعاد. لهذا لا

ضرورة إلى القول بأنّ الناس مختلفين فى دين اللّه. إذ أنّ أساس الخلاف و جذوره يعود إلى الخلاف فى توحيده تعالى فقط. فجميع الأديان قد حرّفت، و الباطل منها قد اختلط بنوع من الشرك، و بدت دلائله فى جميع اعتقادات أصحاب هذه الأديان.

ثمّ تبيّن الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين للّه تعالى بوعى منهم، و العقاب الأوّل حول لباسهم، فتقول الآية: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ و يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذى أعدّ لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنّم بهم من كلّ جانب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

ثمّ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ ۲۲۹] أى يصبّ على رؤوسهم سائل حارق هو حميم النّار، و هذا الماء الحارق الفوّار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها و ظاهرها يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ[۲۳۰].

و ثالث نوع من العقاب هو وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ[۲۳۱] أى أعدّت لهم أسواط من الحديد المحرق.

و الرابع: كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ أى كلّما أرادوا الخروج من جهنّم و الخلاص من آلامها و همومها أعيدوا إليها، و قيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

و أوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة أسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، و هنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافئات للمؤمنين: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

فخلافا للمجموعة الأولى الذين يتقلّبون فى نار جهنّم، نجد أنّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات يتمتّعون بنعيم رياض الجنّة على ضفاف الأنهر و هذه هى المكافأة الأولى، و أمّا لباسهم و زينتهم فتقول الآية: و يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ[۲۳۲].

و هاتان مكافئتان يمنّ اللّه بهما كذلك على عباده العالمين فى الجنّة، يهبهم أفخر الملابس التى حرموا منها فى الدنيا، و يجمّلهم بزينة الأساور التى منعوا عنها فى الحياة الأولى، لأنّها كانت تؤدّى إلى إصابتهم بالغرور و الغفلة، و تكون سببا لحرمان الآخرين و فقرهم. أمّا فى الجنّة فينتهى هذا المنع و يباح للمؤمنين لباس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

الحرير و الحلى و غيرها. و بالطبع ستكون للحياة الاخروية مفاهيم أسمى ممّا نفكّر به فى هذه الدنيا الدنيّة، لأنّ مبادئ الحياة و مدلولها يختلفان فى الدنيا عمّا هى فى الآخرة (فتأمّلوا جيدا).

و أخيرا الهبة الرّابعة و الخامسة التى يهبها اللّه للمؤمنين الصالحين ذات سمة روحانية وَ هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ حديث ينمى الروح. و ألفاظ تثير حيوية الإنسان، و كلمات ملؤها النقاء و الصفاء التى تبلغ بالروح درجة الكمال و تملأ القلب بهجة و سرورا، وَ هُدُوا إِلى صِراطِ الْحَمِيدِ[۲۳۳] هكذا يهدون إلى طريق اللّه الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة اللّه و التقرّب المعنوى و الروحى إليه، سبيل العشق و العرفان.

حقّا إنّ اللّه يهدى المؤمنين إلى هذا الطريق الذى ينتهى إلى أعلى درجات اللذّة الروحيّة.

و نقرأ فى حديث رواه على بن إبراهيم (المفسّر المعروف) فى تفسيره، أنّ القصد من «الطيب من القول» التوحيد و الإخلاص و يعنى «الصراط الحميد» الولاية و الإقرار بولاية القادة الربانيين (و بالطبع هذا أحد البراهين الواضحة للآية).

كما يستنتج من التعابير المختلفة الواردة فى الآيات السابقة و فى سبب نزولها أنّ هناك عذابا عسيرا صعبا ينتظر مجموعة خاصّة من الكفّار الذين يعاندون اللّه و يحاولون تضليل الآخرين. إنّهم أفراد من قادة الكفر كالذين تقدّموا فى معركة بدر لمبارزة على عليه السّلام و حمزة بن عبد المطّلب و عبيدة بن الحارث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۴

الآية [سورة الحج (۲۲): آية ۲۵]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۲۵)

التّفسير

الذين يصدّون عن بيت اللّه الحرام!

تحدّثت الآيات السابقة عن عامّة الكفّار، و هذه الآية تشير إلى مجموعة خاصة منهم بائت بمخالفات و ذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام و مراسم الحجّ العظيم.

تبدأ هذه الآية ب إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و كذلك يصدّون و يمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِى جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ أى سواء المقيمون فيه و الذين يقصدونه من مكان بعيد.

وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ أى كلّ من أراد الانحراف فى هذه الأرض المقدّسة عن الحقّ و مارس الظلم و الجور أذقناه عذابا أليما.

و هذه الفئة من الكفّار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافة إلى إنكارها الحقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۵

و جرائمها هى:

۱- صدّ الناس عن سبيل اللّه و الإيمان به و الطاعة له.

۲- صدّهم عن حجّ بيت اللّه الحرام، و توهم أنّ لهم امتيازا عن الآخرين.

۳- ممارستهم للظلم و ارتكابهم الإثم فى هذه الأرض المقدّسة، و اللّه يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

ملاحظات

اشارة

۱- جاء «كفر» هؤلاء فى هذه الآية بصيغة الفعل الماضى، و جاء «الصدّ» عن سبيل اللّه بصيغة الفعل المضارع، إشارة إلى كونهم كفّارا من قبل. و إلى أنّ تضليلهم الناس هو عملهم الدائم. و بتعبير آخر: تشير العبارة الأولى إلى اعتقادهم الباطل، و هو أمر ثابت، بينما تشير العبارة الثّانية إلى عملهم الدائم و هو الصدّ عن سبيل اللّه.

۲- يقصد بالصدّ عن سبيل اللّه كلّ عمل يحول دون إيمان الناس و دون قيامهم بالأعمال الصالحة، و هذا المفهوم الواسع يشمل البرامج الإعلامية و العملية التى تتوخّى التضليل عن السبيل السوى و الأعمال الصالحة.

۳- إنّ جميع الناس فی هذا المكان العبادی سواء.

و قد وردت لعبارة سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ عند المفسّرين معان مختلفة، فذهب بعضهم أنّ المراد هو أنّ الناس سواسية فی هذا المكان الذی يوحّد فيه اللّه، و ليس لأحد الحقّ أن يعرقل حجّ الناس و عبادتهم بجوار بيت اللّه الحرام.

و أعطى آخرون لهذه العبارة معنى أوسع، و هو أنّ الناس ليسوا سواسية فقط فی أداء الشعائر و إنّما هم كذلك فی الاستفادة من الأرض و البيوت المحيطة بالكعبة لاستراحتهم و سائر حاجاتهم الاخرى، لهذا حرّم بعض الفقهاء بيع و شراء

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۶

و إيجار البيوت فی مكّة المكرمة، و يتّخذون الآية السابقة دليلا على ما يرون.

كما ذكرت الأحاديث الإسلامية عدم جواز الحيلولة دون سكنى حجّاج بيت اللّه الحرام فی منازل مكّة، حتّى حرّمه قوم، و رآه آخرون مكروها.

جاء فی رسالة بعث بها الإمام على عليه السّلام إلى قثم بن العبّاس والی مكّة آنذاك:

«و أمر أهل مكّة أن لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإنّ اللّه سبحانه يقول: سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَ الْبادِ فالعاكف المقيم به، و البادی الذی يحجّ إليه من غير أهله»[۲۳۴].

و

جاء فی حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فی تفسير هذه الآية: كانت مكّة ليست على شیء منها باب، و كان أوّل من علّق على بابه المصراعين، معاوية بن أبی سفيان، و ليس ينبغی لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها».

و ذكرت أحاديث أنّ الحجّاج بيت اللّه الحقّ فی استخدام البيوت المحيطة بالكعبة، و يرتبط هذا الحكم بشكل كبير ببحثنا المقبل، و هو: هل يقصد بالمسجد الحرام فی هذه الآية المسجد ذاته أو يشمل مكّة كلّها؟

فإذا سلّمنا بالرأی الأوّل فإنّ الآية السابقة لا تشمل منازل مكّة، و على فرض شمولها فإنّ قضيّة حرمة بيع و شراء و إيجار منازل مكّة بالنسبة للحجّاج تكون مطروحة للبحث، إلّا أنّ هذه القضيّة ليست مؤكّدة فی المصادر الفقهيّة و الأحاديث و التفاسير، فإنّ الحكم بحرمتها أمر صعب. و ما أجدر أهل مكّة بأن يقدّموا جميع التسهيلات الممكنة لحجّاج بيت اللّه الحرام! و ألّا يضعوا لأنفسهم امتيازات على الحجّاج حتّى بالنسبة لمنازلهم، و يبدو أنّ الأحاديث التی وردت فی نهج البلاغة و غيره تشير إلى هذه المسألة.

و القول بالتحريم لا يحظى بتأييد واسع من فقهاء الشيعة و السنّة (للاطّلاع أوسع بهذا الصدد يراجع المجلّد العشرين من جواهر الكلام الصفحة الثامنة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

و الأربعين و ما بعدها فی أحكام منى).

و لا يحقّ لأحد باعتبار كونه حامی حرم اللّه- أو أيّة صفة أخرى- مضايقة حجّاج بيت اللّه، أو اتّخاذ الحجّ و البيت قاعدة لإعلامه و تنفيذ مآربه.

۴- ما الذی تعنيه هذه الآية بالمسجد الحرام؟

قال بعض: تعنی الكعبة و جميع أجزاء المسجد الحرام. و قال غيره: تشير إلى جميع أنحاء مكّة، بدلالة الآية الأولى من سورة الإسراء التی تخصّ معراج النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مضمون هذه الآية أنّ بداية المعراج كانت من المسجد الحرام، فی الوقت الذی ذكر المؤرخّون أنّ المعراج بدأ من منزل خديجة أو شعب أبی طالب أو من منزل أم هانئ، و على هذا فإنّ المقصود من المسجد

الحرام مكّة كلّها[۲۳۵].

و لكن بداية معراج النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليست بالتأكيد من خارج المسجد الحرام، و يحتمل أن تكون من المسجد ذاته، فلا دليل لدينا للإعراض عن ظاهر الآية، و عليه فهذه الآية تقصد المسجد الحرام ذاته.

و إذا توصّلنا من مطالعة الأحاديث السابقة إلى أنّها تستدلّ بهذه الآية على مساواة الناس فى منازل مكّة، لأنّ ذلك الحكم استحبابى، فلا مانع من توسعة موضوعه على ما يناسبه (فتأمّلوا جيدا).

۵- ماذا تعنى عبارة (إلحاد بظلم).

تعنى كلمة «الإلحاد» فى اللغة الانحراف عن حدّ الاعتدال، و لهذا أطلقت على الحفرة المجاورة للقبر التى تقع خارج حدّ الوسط كلمة «لحد».

و على هذا فإنّ عبارة (إلحاد بظلم) تعنى الخارجين عن حدّ الاعتدال بممارسة الظلم، فيرتكبون المخالفات فى تلك الأرض المقدّسة، و قد حصر البعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

مفهوم الظلم هنا بالشرك، و قال آخرون: إنّه يعنى إباحة المحرّمات، و قال غيرهم:

إنّ الظلم هنا ذو مدلول واسع يشمل كلّ ذنب و عمل حرام، فيدخل فيه حتّى السبّ للأدنى منه، و قالوا: إنّ ارتكاب أى ذنب فى هذه الأرض المقدّسة له عقاب أشدّ.

و

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام جوابا على سؤال لأحد أصحابه حول هذه الآية: «كلّ ظلم يظلم الرجل نفسه بمكّة من سرقة أو ظلم أحد أو شىء من الظلم فإنّى أراه إلحادا، و لذلك كان ينهى أن يسكن الحرم»[۲۳۶].

و قد رويت أحاديث أخرى تتضمّن هذا المعنى، و تنسجم مع ظاهر الآية.

و على هذا يرى بعض الفقهاء- بالنسبة لمن يرتكب الذنب فى الحرم المكّى- وجوب التعزير أو عقاب آخر إضافة إلى الحدّ الذى نصّ عليه الشارع، و يستدلّون على ذلك بعبارة نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ۲۳۷].

و يتّضح بذلك أنّ حصر هذه الآية بالنهى عن الاحتكار، أو عدم الدخول إلى منطقة الحرم دون إحرام، لم تكن غايتهم إلّا بيان مصداق واضح لهذه الآية فقط، و إلّا فلا دليل لدينا على حصر مفهوم هذه الآية ذات الدلالات الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۲۶) وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۲۷) لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (۲۸)

التّفسير

الدّعوة العامّة للحجّ!

تناولت الآية السابقة قضيّة المسجد الحرام و حجّاج بيت اللّه، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السّلام، و وجوب الحجّ و فلسفته، و بعض أحكام هذه العبادة الجليلة. و بتعبير آخر: كانت الآية السابقة مقدّمة للأبحاث المختلفة التى تناولتها الآيات اللاحقة، إذ بدأت بقصّة تجديد بناء الكعبة:

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أى تذكّر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۰

ليقوم ببنائها.

و كلمة «بوّأ» مشتقة من بواء، أى الأرض المسطّحة، ثمّ أطلقت على إعداد المكان مطلقا.

و تقصد هذه الآية حسبما يراه المفسّرون أنّ اللّه هدى إبراهيم عليه السّلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدمت بطوفان نوح و خفيت معالمها. إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب و كشفت عن أسس البيت، أو بعث اللّه سحابة ظلّلت مكان البيت، أو بأىّ أسلوب آخر كشف اللّه لإبراهيم عليه السّلام أسّس الكعبة، فقام هو و ابنه إسماعيل عليهما السّلام بتجديد بناء بيت اللّه الحرام [۲۳۸].

و تضيف الآية الكريمة أنّه عند ما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السّلام: أَنْ لا تُشْرِكْ بِى شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ[۲۳۹].

فمهمّة إبراهيم عليه السّلام كانت تطهير البيت و ما حوله من أى نجس ظاهر أو باطن، و من أى صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم و أبصارهم إليه تعالى وحده فى هذا المكان الطاهر، و ليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعة المباركة، ألا و هو الطواف و الصلاة فى محيط إيمانىّ لا يخالطه شرك.

و أشارت الآية أيضا إلى ثلاثة من الأركان الأساسيّة فى الصلاة: القيام، و الركوع، و السجود، بالترتيب، لأنّ الأركان الباقية تستظلّ بها، على الرغم من قول بعض المفسّرين: إنّ «القائمين» تعنى هنا المقيمين بمكّة، و مع ملاحظة مسألة الطواف و الركوع و السجود التى جاءت قبل كلمة القائمين و بعدها يتّضح لنا أنّ القيام هنا يعنى قيام الصلاة و قد اختار هذا المعنى عدد كبير من مفسّرى الشيعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۱

و السنّة أو نقلوه باعتباره تفسير لها[۲۴۰].

و كلمتا «ركّع» و هى جمع للراكع، و «السجود» و هى جمع ساجد، لم يرد بينهما واو العطف، بل ذكرتا وصفا لتقارب هاتان العبادتان.

و بعد إعداد البيت للعبادة، أمر اللّه تعالى إبراهيم عليه السّلام: وَ أَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

كلمة «أذّن» مشتقة من «الأذان» أى «الإعلان». و «رجال» جمع «راجل» أى «ماشى». و «الضامر» تعنى الحيوان الضعيف. و «الفجّ» فى الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثمّ أطلقت على الطرق الواسعة و «العميق» تعنى هنا «البعيد».

جاء فى حديث رواه على بن إبراهيم فى تفسيره: عند ما تسلّم إبراهيم عليه السّلام هذا الأمر الربّانى قال: إنّ أذانى لا يصل إلى أسماع الناس، فأجابه سبحانه و تعالى (عليك الأذان و علىّ البلاغ)! فصعد إبراهيم عليه السّلام موضع المقام و وضع إصبعيه فى أذنيه و قال: يا أيّها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم. و أبلغ اللّه عزّ و جلّ نداءه أسماع جميع الناس حتّى الذين فى أصلاب آبائهم و أرحام أمّهاتهم، فردّوا: لبّيك اللهمّ لبّيك! و إنّ جميع الذين يشاركون فى مراسم الحجّ منذ ذلك اليوم و حتّى يوم القيامة، هم من الذين لبّوا دعوة إبراهيم عليه السّلام [۲۴۱].

و قد ذكرت الآية هنا الحجّاج المشاة أوّلا، ثمّ الراكبين، لأنّهم أفضل منزلة عند اللّه، بسبب ما يتحمّلون من صعاب السفر أكثر من غيرهم، و لهذا السبب

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «للحاج الراكب بكلّ خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة، و للحاج الماشى بكلّ خطوة يخطوها سبعمائة حسنة»[۲۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

أو أنّ هذه المنزلة جاءت لتحديد أهميّة حجّ بيت اللّه الحرام، الذى يجب أن يتمّ بأى أسلوب و بأيّة إمكانات. و أن لا ينتظر الحاج مركبا له.

أمّا عبارة «ضامر» فتعنى الحيوان الضعيف، إشارة إلى أنّ هذا الطريق يجعل الحيوان هزيلا، لأنّه يجتاز صحارى جافة محرقة لا زرع فيها و لا ماء، و استعدادا لتحمل الصعاب فى هذا الطريق.

أو يكون المراد أنّ على الحاج إختيار جواد قوى سريع صابر، رشيق ضامر، متدرّب على السير فى مثل هذه الطرق، و لا فائدة ترجى من الحيوان المنعم فى هذا الطريق. (مثلما لا يمكن للرجال المترفين اجتياز هذا الطريق).

أمّا عبارة مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فهى إشارة إلى توجّه الحجاج إلى الكعبة، ليس فقط من الأماكن القريبة، بل يشمل ذلك الحجّاج من الأماكن البعيدة أيضا. كلمة «كلّ» لا تعنى هنا الاستغراق و الشمول، بل الكثرة.

و يذكر المفسّر المشهور أبو الفتوح الرازى فى تفسيره لهذه الآية حياة مثيرة لرجل يدعى «أبو القاسم بشر بن محمّد» فيقول: رأيت حين الطواف شيخا هزيلا بدت عليه آثار السفر، و رسم التعب علائمه على جبينه. تقدّمت إليه و سألته من أين أنت؟ أجاب: من فجّ عميق طال قطعه خمسة أعوام! فأصبحت شيخا هزيلا من شدّة تعب السفر و آلامه، فقلت: و اللّه لهى مشقّة، إلّا أنّها طاعة خالصة و حبّ عميق للّه تعالى.

فسّره ذلك ثمّ أنشد:

زر من هويت و إن شطّت بك الدارو حال من دونه حجب و أستار!

لا يمنعنّك بعد من زيارتهإنّ المحبّ لمن يهواه زوّار!

حقّا إنّ جاذبية بيت اللّه هى بدرجة تجعل القلوب الطافحة بالإيمان تهوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

إليه من جميع الأنحاء، قربت أم بعدت، تجذب الشاب و الشيخ و الصغير و الكبير، من كلّ أمّة و مكان، بعيدا أم قريبا، الكل يلبّون اللّه يأتونه عشّاقا ليروا مظاهر ذات اللّه الطاهرة فى تلك الأرض المقدّسة بأعينهم، و يشعروا برحمته التى لا حدود لها من أعماق وجودهم [۲۴۳].

و تناولت الآية التالية فلسفة الحجّ فى عبارة موجزة ذات دلالات عديدة فقالت: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ أى أنّ على الناس الحجّ إلى هذه الأرض المقدّسة، ليروا منافع لهم بأم أعينهم.

و قد ذكر المفسّرون لكلمة المنافع الواردة فى الآية عدّة معان، إلّا أنّه لا تحديد لمعناها كما يبدو من ظاهر الآية، فهى تشمل جميع المنافع و البركات المعنوية و المكاسب المادية، و كلّ عائد فردى و اجتماعى و فلسفة سياسيّة و اقتصادية و أخلاقية. فما أحرى المسلمين أن يتوجّهوا من أنحاء العالم إلى مكّة ليشهدوا هذه المنافع! إنّها لعبارة جميلة! ما أولاهم أن يجعلهم اللّه شهودا على منافعهم! ليروا بأعينهم ما سمعوه بآذانهم! و على هذا ذكر

فى كتاب الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى الردّ على استفسار ربيع بن خيثم عن كلمة المنافع ...، منافع الدنيا أو منافع الآخرة؟ فقال:

«الكل»[۲۴۴].

و سنتناول بإسهاب شرح هذه المنافع فى ملاحظاتنا على هذه الآية إن شاء اللّه.

ثمّ تضيف الآية: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

أى أنّه على المسلمين أن يحجّوا إلى البيت و يقدّموا القرابين من المواشى التى رزقهم اللّه، و أن يذكروا اسم اللّه عليها حين الذبح فى أيّام محدّدة معروفة. و بما أنّ الاهتمام الأساس فى مراسم الحجّ، ينصب على الحالات التى يرتبط فيها الإنسان بربّه ليعكس جوهر هذه العبادة العظيمة، تقيّد الآية المذكورة تقديم القربان بذكر اسم اللّه على الاضحية فقط، و هو أحد الشروط لقبولها من لدن العلى القدير.

و هذا الذكر إشارة إلى توجّه الحاج إلى اللّه كلّ التوجّه عند تقديم الأضحية، و همّه كسب رضى اللّه و قبوله القربان، كما أنّ الاستفادة من لحم الضحية تقع ضمن هذا التوجّه.

و فى الحقيقة يعتبر تقديم الأضاحى رمزا لإعلان الحاج استعداده للتضحية بنفسه فى سبيل اللّه، على نحو ما ذكر من قصّة إبراهيم عليه السّلام و محاولة التضحية بابنه إسماعيل عليه السّلام. إنّ الحجّاج بعملهم هذا يعلنون استعدادهم للإيثار و التضحية فى سبيل اللّه حتّى بأنفسهم.

و على كلّ حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينفى أسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التى يعبدونها على أضاحيهم، ليحيلوا هذه المراسم التوحيديّة إلى شرك باللّه. و جاء فى ختام الآية: فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ.

كما يمكن أنّ تفسّر هذه الآية بأنّ القصد من ذكر اسم اللّه فى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ هو التكبير و الحمد للّه ربّ العالمين لما أنعم علينا من نعم لا تعدّ و لا تحصى.

خاصة بما رزقنا من بهيمة الأنعام التى نستفيد فى حياتنا من جميع أجزاء أبدانها[۲۴۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

بحوث

۱- ما هى الأيّام المعلومات؟

يأمرنا اللّه سبحانه و تعالى- فى الآيات السابقة- أن نذكره فى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ و جاء ذلك أيضا فى سورة البقرة الآية (۲۰۳) بشكل آخر وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ فما هى الأيّام المعلومات؟ و هل تطابق فى معناها الأيّام المعدودات، أمّ لا؟

اختلف المفسّرون فى هذه الأيّام، كما اختلفت الرّوايات التى ذكرت بهذا الصدد: حيث يرى بعض المفسّرين- و يستندون إلى بعض الأحاديث الإسلامية- أنّه يقصد ب «الأيّام المعلومات» الأيّام العشرة الأولى من ذى الحجّة، و أمّا «الأيّام المعدودات» فهى «أيّام التشريق» أى اليوم الحادى عشر و الثّانى عشر و الثّالث عشر من ذى الحجّة. الأيّام التى تشرق فيها القلوب.

أمّا المجموعة الثّانية من المفسّرين فقد استندوا إلى أحاديث أخرى فقالوا:

إنّ العبارتين تشيران إلى أيّام التشريق التى تعتبر هى الأيّام الثلاثة ذاتها، و أحيانا يضاف إليها اليوم العاشر أى عيد الأضحى.

و عبارة فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ التى جاءت فى سورة البقرة، تدلّ على أنّ أيّام التشريق ليست أكثر من ثلاثة أيّام، لأنّ التعجيل فيها يحدث نقصا فى أيّامها فتصبح يومين.

و مع ملاحظة أنّ التضحية جاءت فى الآيات- موضع البحث- بعد ذكر الأيّام المعلومات. و نعلم أنّ تقديم الأضاحى يتمّ فى اليوم العاشر من ذى الحجّة، فإنّ ذلك يؤكّد أنّ الأيّام المعلومات هى الأيّام العشرة الأولى من ذى الحجّة التى تنتهى بيوم الأضحى. و على هذا يقوى دليل التّفسير الأوّل القائل باختلاف معنى الأيّام المعلومات و الأيّام المعدودات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

و مع الأخذ بوحدة المعانی التی تضمّنتها الآیتان، یبدو أنّ الأرجح فی هذه القضیّة القول بأنّ الآیتین تشیران إلی موضوع واحد، و هدفهما الاهتمام بذکر اللّه فی أیّام معیّنة تبدأ من العاشر من ذی الحجّة و تنتهی بالثّالث عشر منه. و من الطبیعی أن تکون إحدی الحالات التی یجب ذکر اسم اللّه فیها، هی حین تقدیم الأضاحی ۲۴۶].

۲- ذکر اللّه فی أرض «منی»

جاء فی روایات عدیدة أنّ ذکر اللّه فی هذه الأیّام تکبیر خاص یذکر بعد إتمام صلاة ظهر یوم عید الأضحی، و یستمر ذکر هذا التکبیر فی خمس عشرة صلاة (أی ینتهی بعد صلاة صبح الیوم الثّالث عشر) و هو کما یلی:

«اللّه أکبر، اللّه أکبر، لا إله إلّا اللّه و اللّه أکبر، اللّه أکبر، و للّه الحمد، اللّه أکبر علی ما هدانا، و اللّه أکبر علی ما رزقنا من بهیمة الأنعام»[۲۴۷].

کما نصّت بعض الأحادیث علی أنّ التکبیر فی المرّات الخمسة عشر خاص بالذین هم بأرض «منی» فی أیّام الحجّ، أمّا من کانوا فی المناطق الاخری فعلیهم ذکر هذا التکبیر عقب عشر صلوات (یبدأ من بعد صلاة الظهر من یوم العید، و ینتهی بصلاة صبح الیوم الثّانی عشر)[۲۴۸] و الأحادیث الخاصّة بالتکبیر دلیل آخر علی أنّ الذکر فی الآیات السابقة عامّ و لیس محدّدا بتقدیم الأضاحی. رغم أنّ هذا المفهوم الکلّی یشمل هذا المصداق أیضا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

۳- فلسفة الحجّ و أسراره العمیقة!

اشارة

إنّ لشعائر الحجّ- کما هو الحال بالنسبة للعبادات الاخری- برکات کثیرة جدّا فی نفسیّة الفرد و المجتمع الإسلامی. و یمکنها- إن أجریت وفق أسلوب صحیح- أن تحدث فی المجتمعات الإسلامیة تبدّلا جدیدا کلّ عام.

و تمتاز هذه المناسک بأربعة أبعاد مهمّة:

۱- البعد الأخلاقی للحج:

أهمّ جانب فی فلسفة الحجّ التغیّر الأخلاقی نحو الأحسن الذی یحصل عند الناس، فمراسم الإحرام تبعد الإنسان بشکل تامّ عن الأمور المادیة و الامتیازات الظاهریة و الألبسة الفاخرة، و مع تحریم الملذّات، و بناء الذات الذی یعتبر من واجبات المحرم یبتعد الفرد عن عالم المادّة، و یدخل إلی عالم النور و الصفاء و التسامی الروحی. و تری الإنسان قد ارتاح فجأة من عبء الامتیازات الموهومة، و الدرجات و الرتب و النیاشین.

ثمّ تلی عملیّة الإحرام مراسم الحجّ الاخری تباعا، و فیها تتوطّد علاقة الإنسان الروحیّة مع خالقه- لحظة بعد أخری- و تتوثّق. فینقطع عن ماضیه الأسود المملوء آثاما و ذنوبا، و یتّصل بمستقبل واضح کلّه نور و صفاء. خاصّة أنّ مراسم الحجّ تثیر فی الإنسان اهتماما کبیرا- فی کلّ خطوة یخطوها- بإبراهیم علیه السّلام محطّم الأصنام، و إسماعیل علیه السّلام ذبیح اللّه. و أمّه هاجر علیها السّلام. و یتجلّی للحجّاج جهادهم و تضحیاتهم، إضافة إلی کون أرض مکّة عامّة، و المسجد الحرام و بیت الکعبة و محلّ الطواف حولها

خاصّة، تذكر الحاجّ بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قادة الإسلام العظام و جهاد المسلمين فى صدر الإسلام، فيتعمّق أثر هذه الثورة الأخلاقية بدرجة يشاهد فيها الحاج فى كلّ زاوية من زوايا المسجد الحرام و أرض مكّة المقدّسة وجه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و على عليه السّلام، و سائر قادة المسلمين، و يسمع قعقعة سيوفهم و صهيل خيولهم.

أجل، إنّ هذه الأمور كلّها تتّحد و تتضامن لتمهّد لثورة أخلاقية فى القلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

المستعدّة. و بشكل لا يمكن وصفه تفتح فى حياة الفرد صفحة جديدة. و لهذا نصّت الأحاديث الإسلامية على أنّ الذى يؤدّى الحجّ تامّا صحيحا

«يخرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمّه»[۲۴۹]!

فالحجّ ولادة ثانية للمسلم. يستهلّ بها حياة إنسانية جديدة، و لا حاجة هناك لإعادة القول بأنّ هذه البركات و تأثيرها و ما نشير إليه بعد هذا ليست نصيب من اقتنع من مكاسب الحجّ بقشرته و رمى اللب جانبا. كما أنّها ليست نصيب من يعتبر الحجّ سياحة للتنفيس عن الخاطر، أو للتظاهر و الرياء، أو طريقا للحصول على متاع شخصى دنيوى، و هو فى الحقيقة لم يتوصّل إلى معنى الحج الحقيقى، فكان نصيبه ما يستحقّه!

۲- البعد السياسى للحجّ

ذكر أحد كبار فقهاء المسلمين أنّ مراسم الحجّ فى الوقت الذى تستبطن أخلص و أعمق العبادات، هى أكثر الوسائل أثرا فى التقدّم نحو الأهداف السياسيّة الإسلامية. فجوهر العبادة التوجّه إلى اللّه، و جوهر السياسة التوجّه إلى خلق اللّه، و هذان الأمران امتزجا فى الحجّ بدرجة أصبحا كنسيج واحد.

إنّ الحجّ عامل مؤثّر فى وحدة صفوف المسلمين.

الحجّ عامل مهمّ فى مكافحة التعصّب القومى و العنصرى و التقوقع فى حدود جغرافية.

و الحجّ وسيلة لتحطيم الرقابة التى تفرضها الأنظمة الظالمة، و تدمير هذه الأنظمة المتسلّطة على رقاب الشعوب الإسلامية.

و الحجّ وسيلة لنقل الأنباء السياسية للبلدان الإسلامية من نقطة إلى أخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۲۹

و أخيرا الحجّ عامل مؤثّر فى تحطيم قيود العبودية و الاستعمار و تحرير المسلمين.

و لهذا السبب كان موسم الحجّ زمن الجبابرة كبنى أميّة و بنى العبّاس الذين كانوا يسيطرون على الأراضى الإسلامية المقدّسة، و يراقبون كلّ تحرّك تحرّرى إسلامى ليقمعوه بقوّة، كان الموسم متنفّسا للحرية و لاتّصال فئات المجتمع الإسلامى الكبير بعضها مع بعض، لطرح القضايا السياسيّة المختلفة التى تهمّ كلّ مسلم.

و على هذا الأساس قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى معرض حديثه عن فلسفة الفرائض و العبادات

«الحجّ تقوية للدّين»[۲۵۰].

كما أنّ أحد السياسيين الأجانب المشهورين قال: «الويل للمسلمين إن لم يعرفوا معنى الحجّ، و الويل لأعدائهم إذا أدرك المسلمون معنى الحجّ»! و اعتبرت الأحاديث الإسلامية الحجّ جهاد الضعفاء، إذ يمكن للشيوخ و النساء الضعيفات المشاركة فى الحجّ ليظهروا عظمة الامّة الإسلامية. و ليدخلوا الرعب فى قلوب أعداء الإسلام بمشاركتهم فى صفوف المصلّين المتراصّة فى دوائر تحيط ببيت اللّه الحرام. و هى توحّد اللّه و تكبّره.

۳- البعد الثقافى للحجّ

يمكن أن يؤدّى التقاء المسلمين أيّام الحجّ دورا فعّالا فى التبادل الثقافى فى المجتمع الإسلامى، خاصّة إذا لا حظنا أنّ اجتماع الحجّ العظيم يمثّل بشكل حقيقى فئات المسلمين من أنحاء العالم، حيث لا تصنّع فى المشاركة فى حجّ بيت اللّه الحرام، فالحجّاج جاؤوا من شتّى المجموعات و العناصر و القوميات، و قد اجتمعوا رغم اختلاف ألسنتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۰

لهذا ذكرت الأحاديث الإسلامية أنّ من فوائد الحجّ نشر أخبار آثار رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى أنحاء العالم الإسلامى، يقول «هشام بن الحكم» أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام المخلصين نقلا عن هذا الإمام العظيم عليه السّلام أنّه قال حول فلسفة الحجّ و الطواف حول الكعبة: «إنّ اللّه خلق الخلق ... و أمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، و مصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق و الغرب، و ليتعارفوا و لينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد ...، و لتعرف آثار رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تعرف أخباره و يذكر لا ينسى»[۲۵۱].

و لهذا السبب كان المسلمون يجدون فى الحجّ متنفّسا من جور الخلفاء و السلاطين الظلمة الذين منعوا المسلمين من نشر هذه الأحكام، لحلّ مشاكلهم بالاجتماع بأئمّة الهدى عليهم السّلام فى المدينة المنوّرة و مكّة المكرّمة، و بكبار علماء المسلمين، لينهلوا من مناهل القرآن النقيّة و السنّة النبويّة الشريفة.

و من جهة ثانية يمكن أن يكون الحجّ مؤتمرا ثقافيا إسلاميا يحضره مفكّرو العالم الإسلامى فى أيّام الحجّ فى مكّة المكرّمة، ليتحاوروا فيما بينهم و يعرضوا نظرياتهم و أفكارهم على الآخرين.

و قد أصبحت الحدود بين البلدان الإسلامية- الآن- سببا لتشتّت ثقافتهم الأصيلة، و اقتصار تفكير مسلمى كلّ بلد بأنفسهم فقط، حتّى تقطّعت أواصر المجتمع الإسلامى الموحّد. بينما يستطيع الحجّ أن يغيّر هذا الوضع.

و ما أجمل ما

قاله الإمام الصادق عليه السّلام فى ختام الحديث السابق الذى رواه هشام بن الحكم: «و لو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم و ما فيها هلكوا، و خربت البلاد، و سقطت الجلب و الأرباح، و عميت الأخبار»[۲۵۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۱

۴- البعد الاقتصادى للحجّ

خلافا لما يراه البعض، فإنّ مؤتمر الحجّ العظيم يمكن أن يستفاد منه فى تقوية أسس الإقتصاد فى البلدان الإسلامية. بل إنّه وفق أحاديث إسلامية معتبرة يشكّل البعد الاقتصادى جزءا مهمّا من فلسفة الحجّ.

فما المانع من وضع أسس سوق مشتركة إسلامية خلال اجتماع الحجّ العظيم، ليوسّع المسلمون مجال التبادل التجارى فيما بينهم بشكل تعود منافعهم إليهم لا- إلى أعدائهم. و من أجل تحرير اقتصادهم من التبعية الأجنبية، و هذا العمل عبادة و جهاد فى سبيل اللّه، و لا يمكن أن يكون حبّا للدنيا و طمعا فيها.

و لذا أشار الإمام الصادق عليه السّلام فى الحديث السابق خلال شرحه فلسفة الحجّ، إلى هذا الموضوع بصراحة باعتبار أنّ أحد أهداف الحجّ، تقوية العلاقات التجارية بين المسلمين.

و جاء فى حديث آخر للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية (۱۹۸) من سورة البقرة لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ قال عليه السّلام: «فإذا أحلّ الرجل من إحرامه و قضى فليشتر و ليبيع فى الموسم»[۲۵۳].

و كما يبدو فإنّ هذا العمل لا إشكال فيه، بل فيه ثواب و أجر.

و بهذا المعنی

جاء فی نهایة حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام لبیان فلسفة الحجّ بشکل مسهب: (لیشهدوا منافع لهم)[۲۵۴]

إشارة إلی المنافع المعنویة و المادیّة. و الأخیرة علی رأی بعضهم معنویة أیضا.

فالحجّ باختصار عبادة عظیمة لو أستفید منها بشکل صحیح فی تشکیل مؤتمرات متعدّدة سیاسیّة و ثقافیة و اقتصادیة، لحلّ مشاکل العالم الإسلامی، و مفتاحا لحلّ معضلات المسلمین، و قد یکون هو المراد من

حدیث الإمام الصادق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

علیه السّلام حیث قال: «لا یزال الدین قائما ما قامت الکعبة»[۲۵۵].

کما

قال الإمام علی علیه السّلام «اللّه اللّه فی بیت ربّکم، لا تخلوه ما بقیتم فإنّه إن ترک لم تناظروا»[۲۵۶]

أی لا یمهلکم اللّه إن ترکتم بیت ربّکم خالیا.

و لأهمیّة هذا الموضوع الذی خصّص له باب فی الأحادیث الإسلامیة تحت عنوان «وجوب إجبار الوالی الناس علی الحجّ» فإذا أراد المسلمون تعطیل الحجّ فی عام من الأعوام، فعلی الحکومات الإسلامیة أن ترسلهم بالقوّة إلی مکّة[۲۵۷].

۴- ما هو مصیر لحوم الأضاحی فی عصرنا؟

یستفاد من الآیة السالفة الذکر أنّ الهدف من تقدیم الأضحیة، إضافة إلی الجوانب المعنویة و الروحیة و التقرّب إلی اللّه تعالی، یشمل الاستفادة من لحومها و منح قسم منها إلی الفقراء و المحتاجین.

و تحریم الإسراف فی الإسلام لیس خافیا علی أحد، فقد أکدّه القرآن و الحدیث و الدلیل العقلی. و من هذا کلّه نستنتج عدم جواز ترک اللحوم علی الأرض فی «منی» و لا یجوز دفنها، إذ أنّ وجوب تقدیم الأضاحی لا یقصد به هذه الأعمال فیجب نقل لحومها إلی مناطق أخری بحاجة إلیها إن لم نجد محتاجین فی «منی» لیستفاد منها علی أفضل وجه، و هذا هو مقتضی الجمع بین الأدلّة و البراهین.

و لکنّنا نجد- و مع الأسف- أنّ الکثیر من المسلمین عملوا بالحکم الأوّل، و نسوا العمل بالحکم الثّانی، و لذا نشهد فی کلّ عام تلف الآلاف المؤلّفة من لحوم الأضاحی التی بإمکانها أن تکون منبع غذائی مهمّ لشرائح المحرومین فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

المجتمعات الإسلامیة، و لکنّها تترک فی تلک الأرض المقدّسة بحالة سلبیة و مزعجة جدّا. و قد تحدّث لحدّ الآن الکثیر من المفکّرین و علماء المسلمین حول هذا الموضوع مع المسؤولین فی المملکة العربیة السعودیة، و حتّی أنّهم تبرّعوا بتکالیف حفظها و نقلها إلی المؤسّسات المختصّة، و لکن جمود و تحجّر رجال الدین الوهّابیین من جهة، و عدم اهتمام المسؤولین فی الحکومة السعودیة من جهة أخری کانت مانعا لتنفیذ هذا المشروع.

و مع غضّ النظر عن مسألة حرمة الإسراف التی هی من الثوابت فی التفکیر الإسلامی، فإنّ منظر المذابح یوم عید الأضحی فی الحجّ حالیا بشع و غیر منطقی إلی درجة یثیر علامات الاستفهام لدی کلّ ضعیف الإیمان حول شعیرة الحجّ بالکامل، و یعطی للأعداء مبرّرا قویّا للطعن و التقبیح غافلین عن أنّ هذه المسألة هی نتیجة جهل و إهمال رجال الدین الوهّابیین و السلطات السعودیة، فعلی هذا، فإنّ عظمة الإسلام و أصالة مناسک الحجّ توجب علی المسلمین من جمیع مناطق العالم أن یمارسوا الضغط علی المسؤولین فی تلک

الدولة لإنهاء هذه الحالة الموحشة، و تنفيذ الحكم الإسلامى فى هذه المسألة.

و إذا وردت أحاديث إسلامية فى حرمة إخراج لحوم الأضاحى من أرض «منى» أو من «حرم مكّة» فإنّ ذلك يعود إلى زمن كان فيه فى مكّة المكرّمة عدد كاف من المستهلكين و المستحقّين.

و لهذا

ورد فى حديث صحيح الإسناد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله عن هذا الموضوع، فأجاب: «كنّا نقول لا يخرج منها بشىء لحاجة الناس إليه، فأمّا اليوم فقد كثر الناس فلا بأس بإخراجه»[۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۴

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۲۹ الى ۳۰]

اشارة

ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۲۹) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (۳۰)

التّفسير

اشارة

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحجّ مشيرة إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أوّلا: ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ أى ليطّهروا أجسامهم من الأوساخ و التلوّث، ثمّ ليوفوا ما عليهم من نذور. و لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى يطوفوا بذلك البيت الذى صانه اللّه عن المصائب و الكوارث و حرّره.

و كلمة «تفث» تعنى- كما قال كبار اللغويين و المفسّرين- القذارة و ما يلتصق بالجسم و زوائده كالأظافر و الشعر. و يقول البعض: إنّ أصلها يعنى القذارة التى تحت الأظافر و أمثالها[۲۵۹]. و رغم إنكار بعض اللغويين لوجود مثل هذا الاشتقاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۵

فى اللغة العربية، إلّا أنّ الراغب الاصفهانى نقل كلام بدوىّ قاله بحقّ أحد الأشخاص القذرين: «ما أتفثك و أدرنك» دليلا على عربية هذه الكلمة و وجود اشتقاق لها فى اللغة العربية.

و قد فسّرت لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ فى الأحاديث الإسلامية بتقليم الأظافر و تطهير البدن و نزع الإحرام. و بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعدّ من مناسك الحجّ. و جاء فى أحاديث إسلامية أخرى بمعنى حلاقة الرأس التى تعتبر أحد أساليب «التقصير».

كما جاء فى «كنز العرفان» حديث رواه ابن عبّاس فى تفسير هذه الآية:

«القصد إنجاز مشاعر الحجّ كلّها»[۲۶۰] إلّا أنّه لا سند لدينا لحديث ابن عبّاس هذا.

و الذى يلفت النظر فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه فسّر عبارة لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ بلقاء الإمام، و عند ما سأله الراوى عبد اللّه بن سنان عن توضيح لهذه المسألة

قال: «إنّ للقرآن ظاهرا و باطنا»[۲۶۱].

و هـذا الحـديث ربّما كان إشارة إلى ملاحظـة تسـتحقّ الاهتمام. و هى أنّ حجّاج بيت اللّه الحرام يتطهّرون عقب مناسك الحجّ ليزيلوا الأوسـاخ عن أبـدانهم، فعليهم أن يطهّروا أرواحهم أيضـا بلقـاء الإمـام عليه السّـلام، خاصّـة و أنّ الخلفـاء الجبـابرة كـانوا يمنعون لقـاء المسلمين لإمامهم فى الظروف العادية. لهذا تكون أيّام الحجّ خير فرصة للقاء الإمام، و بهذا المعنى نقرأ

حديثا للإمام الباقر عليه السّلام قال فيه: «تمام الحجّ لقاء الإمام»[۲۶۲].

و كلاهمـا- فى الحقيقـة- تطهير، أحـدهما تطهير لظـاهر البـدن من القـذارة و الأوسـاخ، و الآـخر تطهير بـاطنى من الجهـل و المفاسـد الأخلاقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۶

أمّا «الوفاء بالنـذر» فيعنى أنّ كثيرا من الناس ينـذرون تقديم أضاحى إضافيّة فى الحجّ، أو التصدّق بمال، أو القيام بعمل خيرى فى أيّام الحجّ، و لكنّهم ينسون و يغفلون عن كلّ ذلك عند وصولهم إلى مكّة، لهذا أكّد القرآن عليهم الوفاء بالنذور، و إلّا يقصّـروا فى ذلك ۲۶۳].

أمّا لماذا سمّيت الكعبة بالبيت العتيق؟

«العتيق» مشـتقّة من «العتق» أى التحرّر من قيود العبوديـة، و ربّما كان ذلك لأنّ الكعبـة تحرّرت من قيود ملكية عباد اللّه، و لم يكن لها مالك إلّا اللّه، كما حرّرت من قيد سيطرة الجبابرة كأبرهة.

و من معانى «العتيق» أيضا الشـىء الكريم الثمين، و هذا المعنى يتجسّد فى الكعبة بوضوح. و من المعانى الاخرى للعتيق «القديم» يقول الراغب الاصفهانى:

العتيق المتقـدّم فى الزمان أو المكان أو الرتبـة. و هـذا المعنى أيضا واضـح بالنسـبة للكعبة، فهى أقدم مكان يوحّد فيه اللّه. و بحسب ما جـاء فى القرآن إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ۲۶۴] و على كلّ حال فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت اللّه بعـد ملاحظـة ما تتضـمّنه هذه الكلمة من معان، أشار كلّ مفسّر إلى جانب منها. أو ذكرت الأحاديث المختلفة جوانب أخرى من معانيها.

أمّا المراد من «الطواف» الوارد فى آخر الآية المذكور أعلاه فهناك بحث بين المفسّـرين (هناك طوفان- بعد مراسم عيد الأضحى فى منى- على الحجّاج أن يقوموا بهما، الطواف الأوّل يدعى «طواف الزيارة»، و الثّانى «طواف النساء»).

يرى بعض الفقهاء و المفسّرين أنّ مفهوم الطواف عام هنا، لأنّ الآية لم تتضمّن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۷

قيودا أو شرطا ما، فهى تضمّ طواف الحجّ و طواف النساء، حتّى أنّها تشمل طواف العمرة أيضا[۲۶۵].

فى وقت يرى مفسّرون آخرون أنّ الآية تقصد طواف الزيارة فقط، الذى يجب على الحاج بعد إحلاله من إحرام الحجّ ۲۶۶].

إلّا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ القصد هنا طواف النساء،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ قال: «طواف النساء»[۲۶۷].

كما روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام حديث بهذا المعنى ۲۶۸].

و هذا الطواف يسمّى عند أهل السنّة طواف الوداع.

و مع ملاحظة هذه الأحاديث يبدو التّفسـير الأخير هو الأقوى، خاصّة إذا عبّر بهذا المعنى أيضا فى تفسـير ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ حيث يجب إضافـة إلى تطهير البـدن من القذارة و الشـعر الزائد، اسـتعمال العطر أيضا. و من المعلوم أنّه لا يجوز اسـتعمال العطور فى الحجّ إلّا بعد إتمام الطواف و السعى، أو عند ما لا يكون طواف بذمّة الحاج إلّا طواف النساء.

و أشارت الآيـة الأخيرة إلى خلاصـة ما بحثته الآيات السالفة الذكر، حيث تبدأ بكلمة «ذلك» التى لها جملة محذوفة تقديرها «كذلك أمر الحجّ و المناسك» ثمّ تضيف تأكيدا لأهميّة الواجبات التى شرحت وَ مَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ

و المقصود هنا ب «الحرمات»- طبعا- أعمال و مناسك الحجّ، و يمكن أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

يضاف إليها احترام الكعبة خاصة و الحرم المكّى عامّة. و على هذا فإنّ تفسير هذه الآية باختصاصها بالمحرّمات- أى كلّ ما نهى اللّه عنه- أو جميع الواجبات، مخالف لظاهر الآية. كما يجب الانتباه إلى أنّ «حرمات» جمع «حرمة» و هى فى الأصل الشىء الذى يجب أن تحفظ حرمته، و ألّا تنتهك هذه الحرمة أبدا.

ثمّ تشير هذه الآية و تناسبا مع أحكام الإحرام إلى حليّة المواشى، حيث تقول: وَ أُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ

عبارة إِلَّا ما يُتْلى عَلَيْكُمْ يمكن أن تكون إشارة إلى تحريم الصيد على المحرم الذى شرع فى سورة المائدة الآية (۹۵) حيث تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرُمٌ

كما قد تكون إشارة إلى عبارة جاءت فى نهاية الآية- موضع البحث- تخصّ تحريم الأضحية التى تذبح للأصنام التى كانت متداولة زمن الجاهلية. لأنّ تذكية الحيوان يشترط فيها ذكر اسم اللّه عليه عند الذبح، و لا يجوز ذكر اسم الصنم أو أى اسم آخر عليه.

و فى ختام هذه الآية ورد أمران يخصّان مراسم الحجّ و مكافحة العادات الجاهلية:

الأوّل يقول: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ و «الأوثان» جمع «وثن» على و كن «كفن» و تعنى الأحجار التى كانت تعبد زمن الجاهلية، و هنا جاءت كلمة الأوثان إيضاحا لكلمة «رجس» التى ذكرت فى الآية، حيث تقول: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ ثمّ تليها عبارة مِنَ الْأَوْثانِ أى الرجس هو ذاته الأوثان.

كما تجب ملاحظة أنّ عبدة الأوثان زمن الجاهلية كانوا يلطّخونها بدماء الأضاحى، فيحصل مشهد تقشّعر الأبدان من بشاعته، و قد يكون التعبير السابق إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۳۹

و الأمر الثّانى هو وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصحّة.

مسألة: ما معنى قَوْلَ الزُّورِ؟

يرى بعض المفسّرين أنّه إشارة إلى كيفيّة تلبية المشركين فى مراسم الحجّ فى زمن الجاهلية، لأنّهم يلبّون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، و يبعدونه من صورته التوحيديّة، فقد كانوا يردّدون: «لبّيك لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك! تملكه و ما ملك!».

حقّا إنّه كلام باطل و دليل على قَوْلَ الزُّورِ الذى يعنى فى الأصل: الكلام الكاذب، و الباطل، و البعيد عن حدود الاعتدال.

و مع هذا فإنّ اهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين فى مراسم الحجّ على زمن الجاهلية، لا يمنع من تعميمها على بطلان أيّة عبادة للأصنام بأيّة صورة كانت، و اجتناب أى قول باطل مهما كانت صورته.

و لهذا فسّرت بعض الأحاديث الأوثان بلعبة الشطرنج، و قول الزور بالغناء، و الشهادة بالباطل. و فى الحقيقة فإنّ ذلك بيان لبعض أفراد ذلك الكلّى، و ليس القصد منه حصر معنى الآية بهذه المصاديق فقط. و

جاء فى حديث للرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى خطبة ألقاها على المسلمين «أيّها الناس، عدلت شهادة الزور بالشرك باللّه، ثمّ قرأ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ.

إنّ هذا الحديث أيضا إشارة إلى سعة مفهوم هذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۰

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۱ الى ۳۳]

اشارة

حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ (۳۱) ذلِكَ وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (۳۲) لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳)

التّفسير

تعظيم شعائر اللّه دليل على تقوى القلوب:

عقّبت الآيات هنا المسألة التى أكدّها آخر الآيات السابقة، و هى مسألة التوحيد، و اجتناب أى صنم و عبادة الأوثان. حيث تقول حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۲۶۹] أى أقيموا مراسم الحجّ و التلبية فى حالة تخلصون فيها النيّة للّه وحده لا يخالطها أى شرك أبدا.

«حنفاء» جمع «حنيف» أى الذى استقام و ابتعد عن الضلال و الانحراف، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۱

بتعبير آخر: هو الذى سار على الصراط المستقيم، لأنّ «حنف» على وزن «صدف» تعنى الرغبة، و من رغب عن كلّ انحراف فقد سار على الصراط المستقيم.

و على هذا فإنّ الآية السابقة اعتبرت الإخلاص و قصد القربة إلى اللّه محرّكا أساسيّا فى الحجّ و العبادات الاخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة. و المراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أى نوع من الشرك و عبادة غير اللّه.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أجاب فيه مبيّنا معنى كلمة حنيف: «هى الفطرة التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق اللّه، قال: فطرهم اللّه على المعرفة»[۲۷۰].

إنّ التّفسير الذى تضمّنه هذا الحديث، هو فى الواقع إشارة إلى أساس الإخلاص، أى: الفطرة التوحيديّة التى تكون مصدرا لقصد القربة إلى اللّه، و تحريكا ذاتيا من اللّه.

ثمّ ترسم الآية- موضع البحث- صورة حيّة ناطقة عن حال المشركين و سقوطهم و سوء طالعهم، حيث تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكانٍ سَحِيقٍ ۲۷۱].

«السّماء» هنا كناية عن التوحيد، و «الشرك» هو السبب فى السقوط من السّماء هذه.

و من الطبيعى أن تكون فى هذه السّماء نجوما زاهرة و شمسا ساطعة و قمرا منيرا فطوبى لمن يكون شمسا أو قمرا أو فى الأقل نجما متلألئا، و لكن الإنسان عند ما يسقط من هذا المكان العالى يبتلى بأحد أمرين: فإنّما يصبح طعاما للطيور الجوارح أثناء سقوطه و قبل وصوله إلى الأرض، و بعبارة أخرى: يبتلى بفقدانه هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۲

المكان السامى بأهوائه النفسيّة المعاندة. حيث تأكل هذه الأهواء جانبا من وجوده.

و إذا نجا بسلام منها، ابتلى بعاصفة هو جاء تدلّه فى إحدى زوايا الأرض بقوّة تفقده سلامته و حياته، و يتناثر بدنه قطعا صغيرة فى أنحاء المعمورة، و هذه العاصفة الهوجاء قد تكون كناية عن الشيطان الذى نصب شراكه للإنسان! و ممّا لا شكّ فيه أنّ الذى يسقط من السّماء يفقد كلّ قدرة على اتّخاذ قرار ما.

و تزداد سرعة سقوطه لحظة بعد أخرى نحو العدم، و يصبح نسيا منسيا.

حقّا أنّ الذى يفقد قاعدة السّماء التوحيديّة. يفقد القدرة على تقرير مصيره بنفسه. و كلّما سار فى هذا الاتّجاه إزداد سرعة نحو الهاوية، و فقد كلّ ما لديه.

و لا نجد تشبيها للشرك يضاهى فى هذا التشبيه الرائع.

كما تجب ملاحظة ما تأكّد فى هذا الزمان من حالة انعدام الوزن فى السقوط الحرّ. و لهذا تجرى اختبارات على الفضائيين للاستفادة من هذه الحالة ليعدّوا أنفسهم للسفر إلى الفضاء. لأنّ مسألة انعدام الوزن هى التى تؤدّى بالإنسان إلى اضطرابه بشكل خارق أثناء السقوط الحرّ.

و الذى ينتقل من الإيمان إلى الشرك و يفقد قاعدته المطمئنة و أرضه الثابتة تبتلى روحه بمثل حالة انعدام الوزن، و يسيطر عليه اضطراب خارق للعادة.

و أوجزت الآية التالية مسائل الحجّ و تعظيم شعائر اللّه ثانية فتقول ذلِكَ أىّ إنّ الموضوع كما قلناه، و تضيف وَ مَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ

«الشعائر» جمع «شعيرة» بمعنى العلامة و الدليل، و على هذا فالشعائر تعنى علامات اللّه و أدلّته، و هى تضمّ عناوين لأحكامه و تعاليمه العامّة، و أوّل ما يلفت النظر فى هذه المراسم مناسك الحجّ التى تذكّرنا باللّه سبحانه و تعالى.

و من البديهى كون مناسك الحجّ من الشعائر التى قصدتها هذه الآية. خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۳

مسألة الأضحية التى اعتبرتها الآية (۳۶) من نفس السورة- و بصراحة- من شعائر اللّه، إلّا أنّ من الواضح مع كلّ هذا احتفاظ الآية بمفهوم شمولى لجميع الشعائر الإسلامية، و لا دليل على اختصاصها- فقط- بالأضاحى، أو جميع مناسك الحجّ.

خاصّة أنّ القرآن يستعمل «من» التى يستفاد منها التفريق فى مسألة أضحية الحجّ، و هذا دليل على أنّ الأضحية من شعائر اللّه كالصفا و المروة التى تؤكّد الآية (۱۵۸) من سورة البقرة على أنّهما من شعائر اللّه إِنَّ الصَّفا وَ الْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ

و يمكن القول: إنّ شعائر اللّه تشمل جميع الأعمال الدينيّة الّتى تذكّر الإنسان باللّه سبحانه و تعالى و عظمته، و إنّ إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

كما تجب ملاحظة أنّ المراد من عبارة يُعَظِّمْ ليس كما قاله بعض المفسّرين من عظمة جثّة الأضحية و أمثالها، بل حقيقة التعظيم تعنى تسامى مكانة هذه الشعائر فى عقول الناس و بواطنهم، و أن يؤدّوا ما تستحقّه هذه الشعائر من تعظيم و احترام.

كما أنّ العلاقة بين هذا العمل و تقوى القلب واضحة أيضا، فالتعظيم رغم أنّه من عناوين القصد و النيّة، يحدث كثيرا أن يقوم المنافقون بالتظاهر فى تعظيم شعائر اللّه. إلّا أنّ ذلك لا قيمة له، لأنّه لا ينبع من تقوى القلوب. إنّما تجده حقيقة لدى أتقياء القلوب. و نعلم أنّ مركز التقوى و جوهر اجتناب المعاصى و الشعور بالمسؤولية إزاء التعاليم الإلهيّة فى قلب الإنسان و روحه، و منه ينفذ إلى الجسد.

لهذا نقول: إنّ تعظيم الشعائر الإلهيّة من علامات التقوى القلبيّة[۲۷۲].

و

قد جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال و هو يشير إلى صدره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۴

المبارك: «التقوى هاهنا»[۲۷۳].

و يستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الأضحية (الناقة أو ما شابهها) حين

جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الاستفادة منها بأى شكل كان، و لكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

و

جاء فى حديث نبوى أنّ الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم مرّ برجل يسوق بدنة و هو فى جهد، فقال عليه السّلام: «اركبها» فقال: يا رسول اللّه إنّها هدى. فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «اركبها ويلك»[۲۷۴].

كما أكّدت أحاديث عديدة وردتنا عن أهل البيت عليهم السّلام هذا الموضوع و منها

حديث رواه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السّلام فى قوله عزّ و جلّ: لَكُمْ فِيها مَنافِعُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قال: «إن احتاج إلى ظهرها ركبها من غير عنف عليها، و إن كان لها لبن حلبها حلابا لا ينهكها»[۲۷۵].

و الحقيقة أنّ الحكم أعلاه معتدل و حدّ وسط بين عملين يتّصفان بالإفراط و بعيدين عن المنطق.

فمن جهة كان البعض لا يحتفظ بالأضاحى أبدا حيث يذبحها قبل الوصول إلى «منى» و يستفيد من لحومها. و قد نهى القرآن عن ذلك كما جاء فى الآية الثّانية من سورة البقرة لا تُحِلُّوا شَعائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلائِدَ.

و من جهة أخرى كان آخرون يفرطون إلى درجة عدم الاستفادة من الانعام بمجرّد تخصيصها للأضحية، فلا يحلبونها و لا يركبون عليها إن كانت ممّا يركب و إن بعدت المسافة بين موطنهم و مكّة، و قد أجازت الآية موضع البحث ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۵

و النقد الوحيد الذى يمكن أن يوجّه إلى التّفسير السالف الذكر، هو أنّ الآيات السابقة، لم تتطرّق إلى الأضاحى، فكيف يعود ضمير الآية اللاحقة إليها؟

و لكن مع ملاحظة كون حيوان الأضاحى من مصاديق «شعائر اللّه» التى أشير إليها فى الآية السابقة، و سيأتى ذكرها أيضا بعد هذا، يتّضح بذلك الجواب عن هذا الاستفسار[۲۷۶].

و على كلّ حال تذكر الآية فى ختامها نهاية مسار الأضحية: ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ

و على هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصّصة للأضحية ما دامت فى الطريق إلى موضع الذبح، و بعد الوصول يجرى ما يلزم و بالطبع فإنّ المفسّرين يقولون بأنّ الذبح يجب أن يتمّ فى منى إن كانت الأضحية تخصّ الحجّ. أمّا إذا كانت لعمرة مفردة ففى أرض مكّة. و بما أنّ الآيات المذكورة تبحث فى مراسم الحجّ، فيجب أن يكون للبيت العتيق (الكعبة) مفهوم واسع ليشمل بذلك أطراف مكّة (أى منى) أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۶

الآيتان [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (۳۴) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۵)

التّفسير

بشرّ المخبتين:

يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. و منها التعليمات الواردة بخصوص الاضحية، كيف شرّع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى اللّه؟ و هل اللّه سبحانه بحاجة إلى قربان؟ و هل كان ذلك متّبعا فى الأديان الاخرى، أو يخصّ المشركين وحدهم؟

تقول أوّل آية- من الآيات موضع البحث- لإيضاح هذا الموضوع أنّ هذا الأمر لا يختصّ بكم، بل إنّ كلّ أمّة لها قرابين: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۷

يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: «النسك» يعنى العبادة، و الناسك هو العابد، و مناسك الحجّ تعنى المواقف التى تؤدّى فيها هذه العبادة، أو إنّها عبارة عن الأعمال نفسها.

إلّا أنّ العلّامة الطبرسى يقول فى «مجمع البيان» و أبو الفتوح الرازى فى «روح الجنان»: «المنسك» (على وزن منصب) يمكن أن يعنى- على وجه التخصيص- الأضحية، بين عبادات الحجّ الاخرى ۲۷۷].

و لهذا خصّ المنسك- رغم مفهومه العام و شموله أنواع العبادات فى مراسم الحجّ- هنا بتقديم الأضحية بدلالة لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ

و على كلّ حال فإنّ مسألة الأضحية كانت دوما مثار سؤال، لامتزاج التعبّد بها بخرافات المشركين الذين يتقرّبون بها إلى أوثانهم على نهج خاصّ بهم.

ذبح حيوان باسم اللّه و لكسب رضاه يبيّن استعداد الإنسان للتضحية بنفسه فى سبيل اللّه، و الاستفادة من لحم الأضحية و توزيعه على الفقراء أمر منطقى.

و لذا يذكر القرآن فى نهاية هذه الآية فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ و بما أنّه إله واحد فَلَهُ أَسْلِمُوا و بشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربّانية و بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۲۷۸].

ثمّ يوضّح القرآن المجيد فى الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) و هى أربع: اثنتان منها ذات طابع معنوى، و اثنتان ذات طابع جسمانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۳۴۷

ول فى الأوّل: الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ لا يخافون فى غضبه دون سبب و لا يشكّون فى رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التى بذمّتهم، و احتمال تقصيرهم فى أدائها، و ليقينهم بجلال اللّه سبحانه يقفون بين يديه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۸

بكلّ خشوع ۲۷۹].

و الثّانى: وَ الصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه فى حياتهم من مصائب و آلام، و لا يرضخون للمصائب مهما عظمت و إزداد بلاؤها، و يحافظون على اتّزانهم و لا يفرّون من ساحة الامتحان، و لا يصابون باليأس و الخيبة، و لا يكفرون بأنعم اللّه أبدا. و بإيجاز نقول: يستقيمون و ينتصرون.

و الثّالث و الرابع: وَ الْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ فمن جهة توطّدت علاقتهم ببارئ الخلق و ازدادوا تقربا إليه، و من جهة أخرى اشتدّ ارتباطهم بالخلق بالإنفاق.

و بهذا يتّضح جليّا أنّ الإخبات و التسليم و التواضع التى هى من صفات المؤمنين ليست ذات طابع باطنى فقط، بل تظهر و تبرز فى جميع أعمال المؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۴۹

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۳۶) لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (۳۸)

التّفسير

لماذا الأضحية؟

عاد الحديث عن مراسم الحجّ و شعائره الإلهيّة و الأضحية ثانية، ليقول أوّلا:

وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللَّهِ إنّ «البدن» و هى الإبل البدينة تعلّقت بكم من جهة، و من جهة أخرى هى من شعائر اللّه و علائمه فى هذه العبادة العظيمة.

فالاضحية فى الحجّ من المظاهر الجليّة لهذه العبادة التى أشرنا إلى فلسفتها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۰

قبل.

«البدن» على وزن «القدس» جمع ل «البدنة» على وزن «عجلة» و هى الناقة الكبيرة و السمينة. و قد أكّدها لأنّها تناسب إقامة وليمة لإطعام الفقراء و المحتاجين فى مراسم الأضحية، و من المعلوم أنّ سمن الحيوان ليس من الشروط الإلزامية فى الأضحية. و كلّ ما يلزم هو أن لا يكون ضعيفا.

ثمّ تضيف الآية: لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فمن جهة تستفيدون من لحومها و تطعمون الآخرين، و من جهة أخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثاركم و سماحكم و عبادتكم اللّه، و بهذا تتقرّبون إليه سبحانه و تعالى.

ثمّ تبيّن الآية- بعبارة موجزة- كيفية ذبح الحيوان فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْها صَوافَ أى اذكروا اسم اللّه حين ذبح الحيوان و فى حالة وقوفه مع نظائره فى صفوف.

و ليس لذكر اللّه حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصّة. بل يكفى ذكر اسم من أسماء اللّه عليها، كما يبدو و من ظاهر الآية، إلّا أنّ بعض الرّوايات ذكرت صيغة محدّدة، و هى فى الواقع من أعمال الإنسان الكامل، حيث روى عن ابن عبّاس أنّه قال: اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، اللهم منك و لك ۲۸۰].

إلّا أنّه ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عبارات أكثر وضوحا فبعد شراء الأضحية توجّهها إلى القبلة و تقول حين الذبح: «وجّهت وجهى للذى فطر السموات و الأرض حنيفا مسلما و ما أنا من المشركين، إنّ صلاتى و نسكى و محياى و مماتى للّه ربّ العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا من المسلمين، اللهمّ منك و لك بسم اللّه و باللّه و اللّه أكبر، اللهمّ تقبّل منّى»[۲۸۱].

كلمة «صوافّ» جمع «صافّة» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ. و كما ورد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۱

الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميتين معا حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر. و طبيعى

أنّ أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقدارا من الدم، فتتمدّد على الأرض، و يقول القرآن المجيد هنا فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ أى عند ما تستقر و يهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة). فكلوا منها و أطعموا الفقير القانع و السائل المعتر.

الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أنّ القانع يطلق على من يقنع بما يعطى و تبدو عليه علائم الرضى و الارتياح و لا يعترض أو يغضب، أمّا المعترّ فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة و لا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضا.

كلمة «القانع» فمشتقّة من «القناعة»، و «المعترّ» مشتقّة من «عرّ» على وزن (شرّ) و هى فى الأصل تعنى الجرب، و هو مرض عارض تظهر علاماته على جلد الإنسان. ثمّ أطلقت كلمة «المعترّ» على السائل الذى يطلب العون و لكن بلسان معترض. و تقديم القانع على المعترّ إشارة إلى ضرورة الاهتمام أكثر بالمحرومين المتّصفين بالعفّة و عزّة النفس.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ عبارة فَكُلُوا مِنْها توجب أن يأكل الحجّاج من أضاحيهم، و لعلّها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجّاج و الفقراء.

و تنتهى الآية بالقول: كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ و إنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معا ثمّ ينحره.

(و طريقة النحر تتمّ بطعنة سكّين حادّة فى لبّة الناقة، لتنزف دمها، و ليلفظ هذا الحيوان أنفاسه بسرعة).

و لإيضاح أهميّة تسلّط الإنسان على الحيوان فى الذبح، فإنّ اللّه جلّ و علا يسلب أحيانا طاعة هذا الحيوان و انقياده للإنسان، حيث نشاهد هياج البعير و تبدلّه إلى موجود خطر لا يستطيع كبح جماحة عدّة رجال أقوياء بعد ما كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۲

مسخّر حتّى لصبى صغير!! و هناك ثمّة أسئلة، و هى: ما هى حاجة اللّه تعالى للأضحية؟

و ما هى فلسفة الاضحية؟

و هل لهذا العمل فائدة تعود إلى اللّه سبحانه؟

تجيب الآية التالية عن هذه الأسئلة لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها. إنّ اللّه ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، و لا هو بحاجة إلى شىء، و إنّما هو موجد كلّ وجود و موجود. إنّ الغاية من الاضحية كما تقول الآية: وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليبلغوا الكمال و يتقرّبوا إلى اللّه.

إنّ جميع العبادات دروس فى التربية الإسلامية، فتقديم الاضحية- مثلا- فيه درس الإيثار و التضحية و السماح و الاستعداد للشهادة فى سبيل اللّه، و فيه درس مساعدة الفقراء و المحتاجين. و عبارة لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها مع أنّ دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم و أحيانا على الكعبة بدماء هذه القرابين.

و قد أتّبعهم فى ممارسة هذا العمل الخرافى مسلمون جاهلون، حتّى نهتهم هذه الآية المباركة[۲۸۲] و ممّا يؤسف له وجود هذه العادات الجاهلية فى بعض المناطق حيث يرشّون دماء الأضحية على باب و جدران منزلهم الجديد، حتّى أنّهم يمارسون هذا العمل القبيح الخرافى فى المساجد الجديدة العمران أيضا.

و لذا يجب على المسلمين الواعين الوقوف بقوّة ضدّ هذا العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۳

ثمّ تشير الآية ثانية إلى نعمة تسخير الحيوان قائلة: كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلى ما هَداكُمْ

إنّ الهدف الأخير هو التعرّف على عظمة الخالق جلّ و علا الذى هداكم بمنهجه التشريعى و التكوينى إلى تعلّم مناسك الحجّ و التعاليم الخاصّة بطاعته و التعبّد له، هذا من جهة.

و من جهة أخرى جعل هذه الحيوانات الضخمة القويّة طيّعة لكم تقدّمونها أضاحى استجابة للّه تعالى، و تعملون عملا طيّبا يساعد المحتاجين، و تستفيدون من لحومها فى تأمين حياتكم. لهذا تقول الآية فى الختام: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ أولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهيّة فى طاعة اللّه، و أنجزوا واجباتهم على خير وجه، و لم يقصّروا فى الإنفاق فى سبيل اللّه أبدا. و فاعلو الخير هؤلاء لم يحسنوا للآخرين فقط، بل شمل إحسانهم أنفسهم على أفضل وجه أيضا.

و قد تؤدّى مقاومة خرافات المشركين التى أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصّبين المعاندين، و وقوع اشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن اللّه سبحانه و تعالى المؤمنين بنصره إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا.

لتتّحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود و النصارى و المشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكّنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنّ اللّه وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعدا تجلّى صدقه فى دوام الإسلام حتّى يوم القيامة، و لا يختّص الدفاع الإلهى عن المؤمنين فى الصدر الأوّل للإسلام و حسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كنّا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع الإلهى عنّا أكيد. و من ذا الذى لا يلتمس دفاع اللّه سبحانه عن عباده الصالحين؟

و فى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين و أتباعهم بين يدى اللّه بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۴

العبارة الصريحة إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أولئك الذين أشركوا باللّه حتّى أنّهم ذكروا أسماء أوثانهم عن التلبية. فثبتت عليهم الخيانة و الكفر لأنعم اللّه حيث يسمّون أوثانهم عند تقديم الأضاحى، و لا يذكرون اسم اللّه عليها، فكيف يحبّ اللّه قوما كهؤلاء الخونة الكفرة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۳۹ الى ۴۱]

اشارة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (۳۹) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۴۰) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۴۱)

التّفسير

أوّل حكم بالجهاد:

ذكرت روايات أنّ المسلمين عند ما كانوا فى مكّة، كانوا يتعرّضون كثيرا لأذى المشركين، فجاء المسلمون إلى رسول اللّه ما بين مشجوج و مضروب يشكون إليه ما يعانون من قهر و أذى، فكان صلوات اللّه عليه و آله يقول لهم:

«اصبروا فانّى لم أؤمر بالقتال» حتّى هاجر، فأنزل اللّه عليه هذه الآية بالمدينة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۶

و هى أوّل آية نزلت فى القتال ۲۸۳].

هناك اختلاف بين المفسّرين فى كونها أوّل آية نزلت بالجهاد، فهناك من يؤيّد ذلك، و هناك من يرى أنّ أوّل آية نزلت فى

الجهاد هى آيـة قاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقاتِلُونَكُمْ ..[۲۸۴] و عدّ البعض آية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ ...[۲۸۵] هى الأولى ۲۸۶].

إلّا أنّ أسلوب الآيـة يناسب هـذا الموضوع بشكل أفضل لأنّ تعبير «أذن» جاء بصراحة واضحة فيها، و لم يرد فى الآيتين الأخريين، و بتعبير آخر: إنّ الإذن بالجهاد منحصر فى هذه الآية.

و لمّا وعد اللّه المؤمنين بالدفاع عنهم فى الآيـة السابقة يتّضح جيدا الارتباط بين هـذه الآيات .. تقول الآيـة: إنّ اللّه تعالى أذن لمن يتعرّض لقتال الأعداء و عدوانهم بالجهاد، و ذلك بسبب أنّهم ظلموا: أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ثمّ أردفت بنصرة اللّه القادر للمؤمنين وَ إِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ.

إنّ وعد اللّه بالنصر جاء مقرونا ب «قدرة اللّه». و هذا قد يكون إشارة إلى القدرة الإلهيّة التى تنجد الناس حينما ينهضون بأنفسهم للدفاع عن الإسلام، لا أن يجلسوا فى بيوتهم بأمل مساعدة اللّه تعالى لهم، أو بتعبير آخر: عليكم بالجدّ و العمل بكلّ ما تستطيعون من قدرة، و عند ما تستحقّون النصر بإخلاصكم ينجدكم اللّه و ينصركم على أعدائه، و هذا ما حدث للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى جميع حروبه التى كانت تتكلّل بالنصر.

ثمّ توضّح هذه الآيات للمظلومين- الذين أذن لهم بالدفاع عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۷

أنفسهم- بواعث هذا الدفاع، و منطق الإسلام فى هذا القسم من الجهاد فتقول:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ و ذنبهم الوحيد أنّهم موحّدون: إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ

و من البديهى أنّ توحيد اللّه موضع فخر للمرء و ليس ذنبا يبيح للمشركين إخراج المسلمين من بيوتهم و إجبارهم على الهجرة من مكّة إلى المدينة، و تعبير الآية جاء لطيفا- يجلّى إدانة الخصم، فنحن على سبيل المثال نقول لناكر الجميل:

لقد أذنبنا عند ما خدمناك، و هذه كناية عن جهل المخاطب الذى يجازى الخير شرّا[۲۸۷].

ثمّ تستعرض الآية واحدا من جوانب فلسفة تشريع الجهاد فتقول: وَ لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَواتٌ وَ مَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً أى إنّ اللّه إن لم يدافع عن المؤمنين، و يدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد، لهدّمت أديرة و صوامع و معابد اليهود و النصارى و المساجد التى يذكر فيها اسم اللّه كثيرا.

و لو تكاسل المؤمنون و غضّوا الطرف عن فساد الطواغيت و المستكبرين و منحوهم الطاعة، لما أبقى هؤلاء أثرا لمراكز عبادة اللّه، لأنّهم سيجدون الساحة خالية من العوائق، فيعملون على تخريب المعابد، لأنّها تبثّ الوعى فى الناس، و تعبّئ طاقتهم فى مجابهة الظلم و الكفر. و كلّ دعوة لعبادة اللّه و توحيده مضادّة للجبابرة الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبّها منهم باللّه تعالى، لهذا يهدّمون أماكن توحيد اللّه و عبادته، و هذا من أهداف تشريع الجهاد و الإذن بمقاتلة الأعداء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۸

و قد أورد المفسّرون معانى متفاوتة ل «الصوامع» و «البيع» و «الصلوات» و «المساجد» و الفرق بينها، و ما يبدو صحيحا منها هو أنّ:

«الصوامع» جمع «صومعة» و هى عادة مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزّهاد و العبّاد. (و يجب ملاحظة أنّ «الصومعة» فى الأصل تعنى البناء المربّع المسقوف، و يبدو أنّها تطلق على المآذن المربّعة القواعد المخصّصة للرهبان.

و «البيع» جمع بيعة بمعنى معبد النصارى، و يطلق عليها كنيسة أيضا.

و «الصلوات» جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، و يرى البعض أنّها معرّبة لكلمة «صلوتا» العبرية، التى تعنى المكان المخصّص بالصلاة.

و أمّا «المساجد» فجمع مسجد، و هو موضع عبادة المسلمين.

و الصوامع و البيع رغم أنّها تخصّ النصارى، إلّا أنّ إحداهما معبد عامّ و الاخرى لمن ترك الدنيا، و يرى البعض أنّ «البيع» لفظ

مشترك يطلق على معابد اليهود و المسيحيين.

و عبارة يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وصف خاص بمساجد المسلمين حسب الظاهر، لأنّها أكثر ازدحاما من جميع مراكز العبادة الاخرى فى العالم، حيث تجرى فيها الصلوات الخمس فى أيّام السنة كلّها، فى وقت نجد فيه المعابد الاخرى لا تفتح أبوابها للمصلّين إلّا فى يوم واحد من الأسبوع، أو أيّام معدودات فى السنة.

و فى الختام أكّدت هذه الآية ثانية وعد اللّه بالنصر وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و لا شكّ فى إنجاز هذا الوعد، لأنّه من ربّ العزّة القائل: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. من أجل ألّا يتصوّر المدافعون عن خطّ التوحيد أنّهم و وحيدون فى ساحة قتال الحقّ للباطل، و مواجهة جموع كثيرة من الأعداء الأقوياء.

و بنور من هذا الوعد الإلهى انتصر المدافعون عن سبيل اللّه على أعدائهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۵۹

معارك ضارية خاضوها بضالة عدد وعدّة، ذلك النصر الذى لا يمكن أن يقع إلّا بإمداد إلهى.

و آخر آية تفسّر المراد من أنصار اللّه الذين وعدهم بنصره فى الآية السابقة، و تقول: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ.

إنّهم فئة لا تلهو و لا تلعب كالجبابرة بعد انتصارها، و لا يأخذها الكبر و الغرور، إنّما ترى النصر سلّما لارتقاء الفرد و الجماعة. إنّها لن تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لارتباطها القوىّ باللّه، و الصلاة رمز هذا الارتباط بالخالق، و الزكاة رمز للالتحام مع الخلق، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر دعامتان قويتان لبناء مجتمع سليم. و هذه الصفات الأربع تكفى لتعريف هؤلاء الأفراد، ففى ظلّها تتمّ ممارسة سائر العبادات و الأعمال الصالحة، و ترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطور[۲۸۸].

كلمة «مكّنا» مشتقة من «التمكين» الذى يعنى إعداد الأجهزة و المعدّات الخاصّة بالعمل، من عدد و آلات ضرورية و علم و وعى كاف و قدرة جسمية و ذهنية.

و تطلق كلمة «المعروف» على الأعمال الجيدة و الحقّة، و «المنكر» يعنى العمل القبيح، لأنّ الكلمة الأولى تطلق على الأعمال المعروفة بالفطرة، و الكلمة الثّانية على الأعمال المجهولة و المنكرة. أو بتعبير آخر: الأولى تعنى الانسجام مع الفطرة الإنسانية، و الثّانية تعنى عدم الانسجام.

و تقول الآية فى ختامها وَ لِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ و تعنى أنّ بداية أى قدرة و نصر من اللّه تعالى، و تعود كلّها فى الأخير إليه ثانية إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۰

بحوث

۱- فلسفة تشريع الجهاد

رغم أنّنا بحثنا مسألة الجهاد بحثا واسعا[۲۸۹] قبل هذا، إلّا أنّه مع ملاحظة احتمال أن تكون الآيات- موضع البحث- أولى الآيات التى أجازت للمسلمين الجهاد، و احتوت إشارة إلى فلسفة هذا الحكم، وجدنا ضرورة تناولها بإيجاز.

و قد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمّين فى فلسفة الجهاد:

أوّلهما: جهاد المظلوم للظالم، و هو من حقوقه المؤكّدة و الطبيعيّة، التى يؤكّدها عقل الإنسان و فطرته. و ليس له أن يستسلم للظلم، بل

عليه أن ينهض و يصرخ و يتسلّح ليقطع دابر الظالم و يدفعه.

و ثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر اللّه من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبثّ الوعى و إيقاظ الناس، فيجب مناهضة هؤلاء لمنعهم من محو ذكر اللّه بتخديرهم، ثمّ جعلهم عبيدا لها.

و ممّا يلفت النظر أنّ تخريب المعابد و المساجد لا يعنى تخريبها مادّيا فقط، بل قد يكون بأساليب غير مباشرة كثيرة، كإشاعة برامج التسلية و الترفيه المقصودة، و بثّ الدعايات المسمومة، و الإعلام المضادّ لحرف الناس عن المساجد، فتحوّل أماكن العبادة إلى خرائب مهجورة.

و فى هذا جواب لمن يسأل: لماذا أجيز للمسلمين استخدام القوّة و خوض الحرب لتحقيق أهدافهم؟ و لماذا لا يتمّ تحقيق الأهداف الإسلامية باللجوء إلى التعقّل و المنطق؟

و هل يفيد المنطق ذلك الظالم الذى يهجّر المسلمين من ديارهم لا لذنب اقترفوه سوى اعتقادهم بتوحيد اللّه. فتراه يستولى على منازلهم و أموالهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۱

و لا يلتزم بأى قانون و منطق تجاههم؟! فهل يمكن ردع هؤلاء المجانين بغير لغة السلاح و القوّة؟! و هذا ينطبق على من يقول لنا: لماذا لا تساومون الكيان الصهيونى و تفاوضونه؟

الكيان الصهيونى الذى انتهك جميع القوانين الدولية و قرارات المنظمات الدولية التى أقرّتها شعوب العالم، و سحق و يسحق جميع القوانين البشرية و التعاليم السماوية، هل يعترف بالمنطق؟! الكيان الصهيونى الذى قصف المدارس و المستشفيات بالقنابل المحرقة، فقتل آلاف الأطفال و النساء و الشيوخ الآمنين الأبرياء و جعلهم إربا إربا! كيف يخاطب بالمنطق؟

و هكذا الأمر بالنسبة للذين يرون فى المعبد و المسجد الذى يبثّ الوعى بين الناس و يقود حركة الجماهير، منافسا لمصالحه غير المشروعة؟! و يعملون بما لديهم من قوّة لهدمه! فهل يمكن التفاوض سلميّا معهم؟! و إذا نظرنا إلى المجتمع الإنسانى نظرة واقعية و وضعنا القضايا الفكرية جانبا، فلا نجد مفرّا من اللجوء إلى القوّة و السلاح؟! و ليس هذا عجزا فى منطقنا، بل لعدم استعداد الجبابرة لقبول المنطق السليم، و متى وجدنا المنطق فاعلا لجأنا إليه.

۲- من هم الذين وعدهم اللّه بالنصر؟

إنّه لمن الخطأ الإعتقاد بأنّ نصر اللّه المؤمنين و وعدهم بالدفاع عنهم- الذى جاء فى الآيات السابقة و من آيات قرآنية أخرى- بعيد عن سنّة اللّه فى خلقه و قوانين الحياة! ليس الأمر هكذا، فاللّه يعدّ بنصرة الذين يعبئون جميع طاقاتهم ليدخلوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۲

ميدان القتال بكلّ قوّة، و لهذا نطالع فى الآيات السالفة: لَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ فلا يدفع اللّه الظالمين بإمداداته الغيبيّة و بقدرة الصواعق و الزلازل التى يبعثها إلّا فى حالات استثنائية، إنّما يدفع شرّهم عن المؤمنين بمن يدافع عنهم، أى المؤمنين الحقيقيين.

و عليه فلا يعنى الوعد الإلهى بالنصر رفع المسؤولية و التكاسل و التواكل بالاعتماد على ما وعد اللّه للمؤمنين، بل يجب التحرّك الواسع لضمان النصر الإلهى و تهيئة مستلزماته.

و الجدير بالذكر أنّ هذه المجموعة من المؤمنين لا يتوجّهون إلى اللّه قبل النصر فقط، بل بعد النصر أيضا، فهم الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ ... يوطّدون علاقتهم مع اللّه. و النصر لديهم وسيلة لنشر الحقّ و العدل و مكارم الأخلاق.

و خصّصت بعض الرّوايات الآية السابقة بالمهدى (عجّل اللّه فرجه) و أصحابه أو بآل محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل عامّ،

فقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام حين تفسير الآية الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ... قال: إنّ هذه الآية الَّذِينَ إِنْ ...
نزلت فى آل محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المهدى (عج) و أصحابه «يملّكهم اللّه مشارق الأرض و مغاربها، و يظهر الدين و يميت اللّه به و بأصحابه البدع و الباطل، كما أمات الشقاة الحقّ، حتّى لا يرى أين الظلم، و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر»[۲۹۰].
و قد وردت أحاديث أخرى فى هذا المجال، و هى عبارة عن مصاديق بارزة للآية و لا تمنع عموم الآية، لا يمكنها منع، فمفهوم الآية الواسع يشمل جميع المؤمنين و المجاهدين فى سبيل اللّه.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۳

۳- «المحسنين»، «المخبتين»، «أنصار اللّه».

و تأمر الآيات المذكورة أعلاه و التى قبلها أحيانا بتبشير «المحسنين»، ثمّ تعرفّهم أنّهم من المؤمنين، و ليسوا من الخونة الكفّار ..
و أحيانا أخرى تتكلّم حول «المخبتين» (المتواضعين) و تصفهم بأنّهم خشّع فى الصلاة، صابرون على المصائب منفقون ممّا و هبهم اللّه.
و تعدّد هذه الآيات كذلك ميزات «أنصار اللّه» الذين لا يطغون عند انتصارهم، بل يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر.
و خلاصة هذه الآيات تكشف لنا أنّ المؤمنين الصادقين لهم جميع هذه الخصائص، فهم من جهة أقوياء فى عقيدتهم و التزامهم المسؤولية، و من جهة ثانية برهنوا على أنّهم أقوياء و مستقيمون فى علاقتهم مع الخالق و الخلق و فى مكافحة الفساد.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۴

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۲ الى ۴۵]

اشارة

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ (۴۲) وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ (۴۳) وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۴) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ (۴۵)

التّفسير

بئر معطّلة و قصر مشيد!

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- مرارة المحنة التى فرضها عليهم أعداء الإسلام الذين آذوهم و طردوهم من منازلهم لا لذنب ارتكبوه، بل لتوحيدهم اللّه سبحانه و تعالى.
و قد طمأنت الآيات- موضع البحث- الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين و خفّفت عنهم من جهة، و بيّنت لهم أنّ العاقبة السيّئة تنتظر الكفرة من جهة أخرى، فقالت: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ ثَمُودُ.

أى إذا كذّبك هؤلاء القوم فلا تبتئس و لا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذّبت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۵

رسلها أيضا، و أضافت: وَ قَوْمُ إِبْراهِيمَ وَ قَوْمُ لُوطٍ.

و كذلك كذّب أهالى مدينة «مدين» نبيّهم «شعيب»، و كذّب فرعون و قومه نبيّهم «موسى» وَ أَصْحابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسى

و إنّ هذه المعارضة و التكذيب لن تؤثّر فى روحك الطاهرة و نفسك المطمئنة، مثلما لم تؤثّر فى أنبياء كبار قبلك و لم تعق مسيرتهم التوحيديّة و دعوتهم إلى الحقّ و العدل قطّ.

إلّا أنّ هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصوّرون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية. فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أجل، أمهل اللّه الكافرين ليؤدّوا امتحانهم و ليتمّ الحجّة عليهم فأغرقهم بنعمته، ثمّ حاسبهم حسابا عسيرا. فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ[۲۹۱] و رأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، و بيّنت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتى و جعلتهم على أسوأ حال ... سلبتهم سعادتهم الدنيوية و عوّضتهم بالموت.

آخر الآية موضع البحث يبيّن اللّه تعالى كيفيّة عقاب الكفّار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَ هِيَ ظالِمَةٌ و أضافت الآية أنّ سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها.

أى إنّ الواقعة كانت شديدة حتّى أنّ السقوف انهارت أوّلا ثمّ الجدران على السقوف وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ فما أكثر الآبار الرويّة بمياهها العذبة، و لكنّها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطّلة لا نفع فيها.

وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ[۲۹۲] أجل ما أكثر القصور المشيدة التى ارتفعت شاهقة و زينت،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۶

إلّا أنّها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، و النتيجة إنّهم تركوا مساكنهم و قصورهم المجلّلة، و أهملوا مياههم و عيونهم التى كانت مصدر حياتهم و عمران أراضيهم و ذهبوا. و كذلك الآبار الغنيّة بالماء أصبحت معطّلة لا ماء فيها.

ملاحظة

ممّا يلفت النظر التّفسير الذى ورد عن أهل البيت عليهم السّلام حيث فسّروا وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ بالعلماء الذين لا يستفيد منهم المجتمع، فبقيت علومهم معطّلة.

فقد روى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام فى تفسير عبارة وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِيدٍ قوله:

«البئر المعطّلة الإمام الصامت، و القصر المشيد الإمام الناطق»

و بهذا المعنى روى أيضا عن الإمام الصادق عليه السّلام ۲۹۳].

و هذا التّفسير نوع من التشبيه (مثلما يشبه المهدى (عج) ناشر العدل فى العالم بالماء المعيّن) أى إنّ الإمام عند ما يستقرّ فى دست الحكم يكون كالقصر المشيد، يجلب انتباه الدانى و البعيد و يكون ملجأ للجميع. و إذا أبعد عن الحكم و تخلّى الناس عنه، احتلّ مكانه من لا يستحقّه فيكون عندها كبئر امتلأت ماء، إلّا أنّها معطّلة لا يستفاد منها فلا تروى عطشانا و لا تسقى زرعا.

ما أحسن ما أنشد الشاعر العربى:

بئر معطّلة و قصر مشرف‌مثل لآل محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم مستطرف

فالقصر مجدهم الذى لا يرتقى‌و البئر علمهم الذى لا ينزف ۲۹۴]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۷

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۶ الى ۴۸]

اشارة

أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (۴۶) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۴۷) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۴۸)

التّفسير

السير فى الأرض و العبرة:

تحدّثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التى عاقبها اللّه على ما اقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، و أكّدت الآية الأولى هذه القضيّة فقالت: أ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها.

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمة، و منازل الجبابرة المهدّمة، و عبدة الدنيا، فلكلّ واحد منها ألف لسان يحكى لنا بسكونه المسيطر عليه ما حدث فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۸

زواياه من ظلم و فسق و جور، و يحدّثنا عن ألف حادثة و حادثة.

إنّ هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدّث عن ماضى هؤلاء الأقوام، و نتائج أعمالهم و سلوكهم فى الحياة، و عن أعمالهم المشؤومة، و أخيرا عن العقاب الذى صبّه اللّه عليهم! إنّ آثار قصور الجبابرة تبعث فى روح الإنسان التفكّر و الاتّعاظ، حيث يعوّضنا أحيانا عن مطالعة كتاب ضخم، و مع أنّ أصل التاريخ يعيد نفسه، فانّ هذه الآثار تجسّد للإنسان مستقبله أمام عينيه. أجل، إنّ دراسة آثار القدماء تجعل آذاننا صاغية و أنظارنا ثاقبة. و لهذا السبب يحثّ القرآن المجيد- فى كثير من آياته- المؤمنين على السياحة، سياحة إلهيّة أخلاقية فيها عبرة لأنفسنا و عظة نحصّلها من دراسة إيوان المدائن و قصور الفراعنة. فمرّة نمرّ عبر دجلة إلى المدائن، و قد نسكب الدمع بغزارة دجلة على أرض المدائن، لنسمع نصائح جديدة من شقوق خرائب القصور التى كان عمّارها الملوك الجبابرة، و لنأخذ منها الدروس و العبر[۲۹۵].

و لإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحيانا أكثر وعيا من الآخرين. أمّا العمى فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبدا! لهذا

يقول الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «شرّ العمى، عمى القلب! و أعمى العمى عمى القلب»[۲۹۶].

و نطالح

حديثا للرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلم فى كتاب غوالى اللآلى «إذا أراد اللّه بعبد خيرا فتح عين قلبه فيشاهد بها ما كان غائبا عنه»[۲۹۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۶۹

و هنا يثار سؤال: كيف يقال أنّ القلوب التى فى الصدور تدرك الحقائق، فى وقت نعلم فيه أنّ القلب مضخّة للدم ليس إلّا؟! و قد

أجبنا عن هذا فى تفسير الآية السابقة من سورة البقرة، و خلاصته أنّ أحد معانى القلب هو العقل، و من معانى الصدر ذات الإنسان.

إضافة إلى أنّ القلب مظهر العواطف، و كلّما تأثّرت العواطف و الإدراكات الروحيّة فى الإنسان، فإنّ أوّل أثرها ينعكس على القلب فتزداد نبضاته و يسرع الدم فى جريانه، و يمنح الجسم نشاطا و حيوية جديدة، فتنسب الظواهر الروحية إلى القلب، لأنّه أوّل من يتأثّر بها فى جسم الإنسان. (فتأمّلوا جيدا).

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية المذكورة أعلاه نسبت سبل إدراك الإنسان إلى القلب (العقل) و الأذنين، إشارة إلى أنّه لا سبيل ثالث لإدراك الأشياء و الحقائق.

فإمّا أن يتفاعل مع الحدث فى أعماق روحه و يسعى لتحليل المسائل بنفسه فيصل إلى النتيجة المتوخّاة، و إمّا أن يسمع النصيحة من المشفقين الهداة و أنبياء اللّه و أهل الحقّ، أو يصل إلى الحقائق عن طريق هذين السبيلين ۲۹۸].

و ترسم الآية الثّانية- موضع البحث- صورة أخرى لجهل الأغبياء و عديمى الإيمان فتقول: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ فردّ عليهم ألّا تعجلوا وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ و «العجول» هو من يخشى فوات الفرصة من يده، و انتهاء إمكاناتها.

أمّا اللّه القادر على كلّ شىء منذ الأزل، فلا حاجة له بالعجلة، فهو قادر دوما على الوفاء بما عد، فلا فرق عنده بين الساعة و اليوم و السنة: وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

و سواء أ كان حقّا أم باطلا تكرارهم القول: لماذا لم ينزل اللّه علينا البلاء.

فليعلموا أنّ العذاب يترقّبهم و سينزل عليهم قريبا. فإن أمهلهم اللّه، فإنّ ذلك ليعيدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۰

النظر فى أعمالهم، و سيغلق باب التوبة بعد نزول العذاب و لا سبيل للنجاة حينذاك.

و هناك تفاسير أخرى لعبارة وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ غير ما ذكرنا (و هو تساوى اليوم الواحد و الألف سنة بالنسبة إلى قدرته تعالى) منها:

قد يلزم ألف عام لإنجازك عملا ما، و اللّه تعالى ينجزه فى يوم أو بعض يوم، لهذا فإنّ عقابه لا يحتاج إلى مقدّمات كثيرة.

و تفسير آخر يقول: إنّ يوما من أيّام الآخرة كألف عام فى الدنيا، و إنّ جزاء ربّك و عقابه يزداد بهذه النسبة، لهذا نقرأ

فى الحديث التالى: «إنّ الفقراء يدخلون الجنّة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام»[۲۹۹].

و فى آخر آية نجد تأكيدا على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفة الذكر من إنذار الكفّار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى و البلاد التى أمهلناها و لم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، و لمّا لم يفيقوا و ينتبهوا أمهلناهم مرّة أخرى ليغرقوا فى النعيم و الرفاهية، و فجأة نزل عليهم العذاب: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها.

إنّ أولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكّون من تأخّر العذاب عليهم، و يسخرون من وعيد الأنبياء، و لا يرونه إلّا باطلا، إلّا أنّهم ابتلوا بالعذاب أخيرا و لم ينفعهم صراخهم أبدا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ أجل كلّ الأمور تعود إلى اللّه، و تبقى جميع الثروات فيكون اللّه وارثها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۱

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۴۹ الى ۵۱]

اشارة

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۴۹) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۵۰) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۵۱)

التّفسير

الرزق الكريم:

تحدّثت الآيات السابق عن تعجيل الكفر و العذاب الإلهى، و إنّ ذلك ليس من شأن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و إنّما يرتبط بمشيئة اللّه تعالى، فأوّل آية من الآيات أعلاه تقول:

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

يخاطب سبحانه و تعالى الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيأمره أن ينذر الناس بعذاب اللّه إن تخلّفوا عن طاعته.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم نذير بشير، و تأكيد الآية هنا لصفة النذير جاء لملاءمة ذلك مع الخاطبين الكفّار المعاندين الذين يستهزئون بعقاب اللّه.

و ترسم الآيتان التاليتان صورة للبشرى و أخرى للإنذار، لأنّ رحمة اللّه واسعة، فتقدّم على عقاب اللّه. تتحدّث أوّلا عن البشرى فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۲

الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ يتطهّرون بماء المغفرة الإلهيّة أوّلا، فتطمئن ضمائرهم، ثمّ تشملهم نعم اللّه و رحمته.

عبارة «رزق كريم» (مع ملاحظة أنّ كلمة «كريم» تطلق على أى موجود شريف و ثمين) ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية و المعنوية.

أجل، إنّ اللّه الكريم يمنّ على عباده المؤمنين الصالحين بأنواع من الرزق الكريم فى تلك المنازل الكريمة، يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: لا يقال الكرم إلّا فى المحاسن، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل اللّه، أو تحمّل حمالة ترقئ دماء قوم. فعلى هذا لا يطلق الكرم على الإحسان الجزئى.

و فسّر البعض الرزق الكريم بالرزق الدائم الذى لا عيب و لا نقص فيه.

و قال آخرون: إنّه الرزق الذى يليق بالمؤمنين الصالحين، و لا يخفى أنّ المراد من ذلك شامل و يضمّ جميع هذه المعانى. و أضافت الآية السابقة وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ أى إنّ الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهيّة و محوها، و كانوا يعتقدون بأنّ لهم القدرة على مغالبة إرادة اللّه المطلقة، فهم أصحاب الجحيم ۳۰۰].

«جحيم» من مادّة «جحم» بمعنى شدّة توقّد النّار، و تقال كذلك لشدّة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، و هى هنا تشير إلى نار الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۲ الى ۵۴]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۲) لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۵۴)

التّفسير

وساوس الشّياطين فى مساعى الأنبياء:

تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين و الكفرة لمحو التعاليم الإلهيّة و الاستهزاء بها، أمّا الآيات موضع البحث فقد تضمّنت تحذيرا مهمّا حيث قالت:

إنّ هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضدّ الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۴

فى البداية تقول الآية: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أمرا لصالح الدين و المجتمع و فكّر فى خطّة لتطوير العمل أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ إلّا أنّ اللّه لم يترك نبيّه وحده إزاء إلقاءات الشياطين فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ

إنّ هذا العمل يسير على اللّه تعالى، لأنّه عليم بجميع هذه المؤامرات الدنيئة، و يعرف كيف يحبطها وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

إلّا أنّ المؤامرات الشيطانية التى كان يحيكها المشركون و الكفرة، كانت تشكّل ساحة لامتحان المؤمنين و المتآمرين فى آن واحد، إذ تضيف الآية لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ

وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ فهم بعيدون عن الحقّ لشدّة عداوتهم و عنادهم.

و كذلك الهدف من هذا البرنامج: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ و طبيعى أنّ اللّه لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم و المدافعين عن الحقّ وحدهم فى هذا الطريق الوعر وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

بحوث

۱- المراد من إلقاءات الشيطان

ما ذكرناه فى تفسير الآيات المذكورة أعلاه كان تنسيقا مع آراء بعض الباحثين، إلّا أنّ هناك احتمالات أخرى فى تفسير الآية، منها أنّ عبارة «تمنّى» و «أمنية» تعنى التلاوة و القراءة، كما جاءت فى أشعار العرب بهذا المعنى. لهذا فإنّ تفسير آية وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ... كان الشياطين (خاصّة شياطين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۵

الإنس) يلقون بكلمات خلال قراءة كلام اللّه على الناس لتشويش الأفكار، و لإبطال أثر القرآن فى الهداية و النجاة. إلّا أنّ اللّه عزّ و جلّ كان يمحو أثر هذه الإلقاءات و يثبت آياته. و ينسجم هذا التّفسير مع عبارة ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ و كذلك يساير (وفقا لبعض التبريرات) أسطورة الغرانيق التى سيرد ذكرها.

و لم تستعمل «تمنّى، و أمنية» بمعنى التلاوة إلّا نادرا، و لم ترد فى القرآن بهذا المعنى قطّ. «تمنّى» مشتقة من «منى» على وزن «مشى» و أصلها تعنى التقدير و الفرض. و سمّيت نطفة الرجل ب «المنى» لأنّ تقدير كيان الفرد يفرض فيها. و يقال للموت «منيّة» لأنّه يحلّ فيه الأجل المقدّر للإنسان، و لهذا تستعمل كلمة «تمنّى» لما يصوّره الإنسان فى مخيّلته و التى يطمح إلى تحقّقها. و خلاصة القول: إنّ أصل هذه الكلمة هى التقدير و الفرض و التصوّر، أينما استخدمت.

و يمكن ربط معنى التلاوة بهذه الكلمة، فيقال: التلاوة تشمل التقدير و التصوّر للكلمات، إلّا أنّها رابطة بعيدة لا أثر لها فى كلمات العرب.

أمّا المعنى الذى ذكرناه لتفسير الآية (برامج الأنبياء و مخطّطاتهم للوصول إلى الأهداف الإلهيّة) فإنّه يناسب المعنى الأصلى للكلمة «تمنّى».

و ثالث احتمال فى تفسير الآية أعلاه هو ما ذكره بعض المفسّرين و رأى فيه أنّه إشارة إلى بعض الأخطار و الوساوس الشيطانية التى تلقى فى لحظة عبارة فى أذهان الأنبياء الطاهرة النيّرة.

و بما أنّهم معصومون و منصورون بقوّة غيبيّة و إمدادات إلهيّة، فإنّ اللّه يمحو أثر هذه الإلقاءات من أفكارهم و يهديهم إلى الصراط المستقيم.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع الآيتين الثّانية و الثّالثة ممّا نحن بصدده، و القرآن اعتبر هذه الإلقاءات الشيطانية وسيلة إمتحان للكفرة و المؤمنين الواعين على السواء، و لا أثر لها فى قلوب الأنبياء لما يمحو اللّه عنها من إلقاءات الشياطين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۶

و بهذا تتّضح ملاءمة التّفسير الأوّل أكثر من غيره، و هى إشارة إلى نشاط الشياطين و ما يلقونه على الأنبياء لتعويق عملهم البنّاء، غير أنّ اللّه يبطل ما يفعلون و يمحو ما يلقون.

۲- اسطورة الغرانيق المختلفة!

جاء فى بعض كتب السنّة رواية عجيبة تنسب إلى ابن عبّاس، مفادها أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مشغولا بتلاوة سورة «النجم» فى مكّة المكرّمة، و عند ما بلغ الآيات التى جاء فيها ذكر أسماء أصنام المشركين أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ألقى الشيطان على النّبى هاتين الجملتين و جعلهما على لسانه: (تلك الغرانيق العلى و إنّ شفاعتهنّ لترتجى!) أى إنّهن طيور جميلة ذات منزلة رفيعة و منها ترتجى الشفاعة[۳۰۱]! و قد فرح المشركون بذلك، و قالوا: إنّ محمّدا لم يذكر آلهتنا بخير حتّى الآن.

فسجد محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سجدوا هم أيضا، فنزل جبرائيل عليه السّلام على الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم محذّرا من أنّه لم ينزل هاتين الآيتين و أنّهما من إلقاءات الشيطان. و هنا أنزل عليه الآيات موضع البحث وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ... محذّرا الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين ۳۰۲]. و رغم أنّ عددا من أعداء الإسلام نقلوا هذا الحديث و أضافوا عليه ما يحلو لهم للمساس برسالة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن، إلّا أنّه مختلق يبغى النيل من القرآن و أحاديث الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و هناك أدلّة دامغة عديدة تؤكّد اختلاق شياطين الإنس لهذا الحديث:

أوّلا: ذكر الباحثون ضعف رواته و عدم الثقة بهم، و لا دليل على أنّه من رواية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۷

ابن عبّاس. و قد صنّف محمّد بن إسحاق كتابا أكّد فيه اختلاق الزنادقة لهذا الحديث ۳۰۳].

ثانيا: ذكرت الكتب الإسلامية أحاديث عديدة عن نزول سورة النجم و سجود النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين، و لم تذكر شيئا عن هذا الحديث المختلق. و هذا يدلّ على إضافة هذه الجملة إليه فيما بعد[۳۰۴].

ثالثا: تنفى آيات مطلع سورة النجم بصراحة هذه الخرافة وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

كيف تنسجم هذه الاسطورة مع هذه الآية التى نزّهت و عصمت الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟

رابعا: استنكرت الآيات التالية للآية التى سمّت أوثان المشركين و الأصنام، و بيّنت قبحها و سخفها، فقد ذكرت بصراحة إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ و قد جاءهم من ربّهم الهدى، و مع كلّ هذا الذّم للأصنام، كيف يمكن مدحها؟! إضافة إلى أنّ القرآن المجيد ذكر بصراحة أنّ اللّه يحفظه من كلّ تحريف إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ۳۰۵].

خامسا: إنّ جهاد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم للأصنام جهاد مستمر طوال حياته و لم يقبل المساومة قطّ.

و قد رفض الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأوثان، و برهنت سيرته المطهّرة على استنكارها و التصدّى لها، حتّى فى أصعب الظروف، فكيف ينطق بمثل هذه الكلمات؟! سادسا: إنّ الكثير من غير المسلمين الذين لا يعتقدون بأنّ النّبى محمّدا صلى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۸

مرسل من اللّه، يعترفون بأنّه إنسان مفكّر واع حقّق أعظم الانتصارات. فهل يمكن لمن شعاره الأساس «لا إله إلّا اللّه»، و جهاده الرافض لأىّ نوع من أنواع الشرك و الوثنيّة. و حياته برهان على الإباء و رفض الأصنام، يترك فجأة سيرته تلك ليشيد بالأوثان؟! و من كلّ هذا نستنتج أنّ اسطورة الغرانيق من وضع أعداء سذّج و مخالفين لا يخافون اللّه، اختلقوا هذا الحديث لإضعاف منزلة القرآن و الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، لهذا نفى جميع الباحثين الإسلاميين من السنّة و الشيعة هذا الحديث بقوّة و اعتبروه مختلقا[۳۰۶].

و ذكر بعض المفسّرين تبريرا لهذه الإضافة بالقول: على فرض صحّة الحديث، إلّا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يتلو سورة النجم و بلغ أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى استغلّ بعض المشركين المعاندين هذه الفرصة، فنادى بلحن خاص «تلك الغرانيق العلى و إنّ شفاعتهن لترتجى» فأشكلوا على الناس بالتشويش على كلام الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم. إلّا أنّ الآيات اللاحقة ردّتهم بإدانتها الشديدة لعبادة الأصنام ۳۰۷].

و يتّضح أنّ بعضهم وجد فى اسطورة الغرانيق نوعا من الرغبة لدى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى كسب الوثنيين إلى صفوف المسلمين، إلّا أنّ هذا القول يعنى ارتكاب هؤلاء المفسّرين خطأ كبيرا، و يدلّ على أنّ هؤلاء المسوّغين للوثنية لم يدركوا موقف الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إزاءها، رغم أنّ المشهود تاريخيّا هو رفض الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم العطاء السخىّ من المشركين مقابل العدول عن رسالته الإسلامية ...

أو أنّ هؤلاء المبرّرين يتجاهلون ذلك متعمّدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۷۹

۳- الفرق بين الرّسول و النبى!

هناك أقوال كثيرة فى الفرق بين «الرسول» و «النبى»، و أكثرها قبولا- أنّ كلمة الرّسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من اللّه أمروا بنشرها بين الناس، و ألّا يألوا أى جهد فى هذا الطريق، و أن يتحمّلوا الصعاب و لا يبالوا بالتضحية بأرواحهم من أجل رسالتهم.

أمّا كلمة «النبى» فقد اشتّقت من «نبّأ» و هو الذى ينبأ بالوحى الإلهى رغم أنّه لم يكلّف بإبلاغه بشكل واسع. فهو كالطبيب يراجعه المرضى للعلاج و طلب الدواء، و لكلّ نبى مهمّة تختلف عن مهمة الآخر، و ذلك بمقتضى الأحوال و البيئة التى يعيشها كلّ واحد منهم ۳۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۰

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۵۵ الى ۵۹]

اشارة

وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (۵۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۵۶) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۵۷) وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۵۸) لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (۵۹)

التّفسير

الرّزق الحسن:

تحدّثت الآيات السابقة عن محاولات المخالفين فى محو الآيات الإلهيّة، أمّا الآيات التى نقف فى ضوئها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصّبين قساة.

تقول الآية الأولى: وَ لا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۱

بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ بديهى أنّ الآية هنا قصدت فئة من الكفّار لا الكفّار كلّهم، لأنّ الكثير منهم أسلموا و التحقوا بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بصفوف المسلمين.

قصدت الآية زعماء الكفّار و المعاندين و المتعصّبين بقوّة و الحاقدين الذين لم يؤمنوا قطّ، و استمرّوا فى عرقلة المسيرة الإسلامية.

و تعنى كلمة «مرية» الشكّ و الترديد، و تبيّن لنا الآية أنّ هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوما على يقين ببطلان الإسلام و دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالرغم من إظهارهم لذلك فى كلماتهم، بل كانوا فى شكّ من القرآن و الإسلام، إلّا أنّ تعصّبهم كان يحول دون توصّلهم إلى الحقيقة.

أمّا «الساعة» فقد ذهب البعض إلى أنّها تعنى الموت و نظيره، إلّا أنّ الآيات اللاحقة بيّنت أنّ القصد ختام العالم و عشيّة يوم القيامة، و التى رافقت كلمة «بغتة».

و يقصد ب عَذابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ عقاب يوم القيامة، و قد وصف يوم القيامة بالعقم لأنّه لا يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيّرة تعوّض عمّا فاته و تؤثّر فى مصيره.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى السيادة المطلقة لربّ العالمين يوم القيامة الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ و هذا أمر ملازم للّه الحاكم الدائم و المالك المطلق، و ليس ليوم القيامة فقط، بل هو على مدى الزمان، و بما أنّ فى الدنيا مالكين و حكّاما آخرين رغم محدودية ملكياتهم و سلطانهم و رغم أنّها ملكية ظاهرية و سلطان شكلى، إلّا أنّه قد يولد تصوّرا بأنّ هناك حكّاما ملّاكا غير اللّه. و لكنّ كلّ هذا يزول و تتّضح حقيقة وحدانية المالك و الحاكم يومئذ.

و بتعبير آخر: هناك نوعان من السيادة و الملكية: السيادة الحقيقيّة، و هى للخالق على المخلوق، و السيادة الاعتبارية الناتجة عن اتّفاق بين الناس، و يوجد كلا هذا النوعان فى الدنيا، و لكن تزول الحكومات الاعتبارية كلّها يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۲

و تبقى السيادة الحقيقيّة لخالق العالم ۳۰۹].

و على أى حال، فإنّ اللّه هو المالك الحقيقى، فهو إذن الحاكم الحقيقى، و تعمّ حكومته على المؤمنين و الكافرين على السواء، و

نتيجة ذلك كما يقول القرآن المجيد: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الجنّات التّى تتوفّر فيها جميع المواهب و كلّ الخيرات و البركات.

و يضيف القرآن الكريم وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ما أجمل هذا التعبير! عذاب يذلّ الكفرة و الذين كذّبوا بآيات اللّه، أولئك الذين عاندوا اللّه و استكبروا على خلقه يهينهم اللّه. و قد وصف القرآن العذاب ب «الأليم» و «العظيم» و «المهين» فى آيات مختلفة، ليلائم كلّ واحد منه الذنب الذى اقترفه المعاندون!.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن المجيد أشار فى حديثه عن المؤمنين إلى أمرين «الإيمان» و «العمل الصالح»، و فى المقابل أشار فى حديثه عن الكافرين إلى «الكفر» و «التكذيب بآيات اللّه»، و هذا يعنى أنّ كلّ منهما متركّب من إعتقاد داخلى و أثر خارجى يبرز فى عمل الإنسان، حيث إنّ لكلّ عمل إنسانى أساسا فكريا.

و بما أنّ الآيات السابقة تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم و سلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: ربّنا اللّه، و دافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآية التالية مجموعة ممتازة جديرة بالرزق الحسن و قالت: وَ الَّذِينَ هاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ ماتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقاً حَسَناً وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ «الرزق الحسن» هو النعم التى تشدّ نظر الإنسان إليها عند مشاهدته لها فلا يدير طرفه عنها، و إنّ اللّه وحده هو القادر على أن يمنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۳

على الإنسان بهذا النوع من الرزق ...

ذكر بعض المفسّرين سببا لنزول هذه الآية خلاصته: «لمّا مات عثمان بن مظعون و أبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل فى سبيل اللّه أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوّية بينهم، و إنّ اللّه يرزق جميعهم رزقا حسنا، و ظاهر الشريعة يدلّ على أنّ المقتول أفضل. و قد قال بعض أهل العلم: إنّ المقتول فى سبيل اللّه و الميّت فى سبيل اللّه شهيد»[۳۱۰].

و عرضت الآية الأخيرة صورة من هذا الرزق الحسن «لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ» فإذا طردوا من منازلهم فى هذه الدنيا و لاقوا الصعاب، فإنّ اللّه يأويهم فى منازل طيّبة فى الآخرة ترضيهم من جميع الجهات، و تعوّضهم- على أفضل وجه- عمّا ضحّوا به فى سبيل اللّه.

و تنتهى هذه الآية بعبارة وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ أجل، إنّ اللّه عالم بما يقوم به عباده، و هو فى نفس الوقت حليم لا يستعجل فى عقابهم، من أجل تربية المؤمنين فى ساحة الامتحان هذه، و ليخرجوا منها و قد صلب عودهم و ازدادوا تقرّبا إلى اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۴

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۰ الى ۶۲]

اشارة

ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (۶۰) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۶۱) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۶۲)

سبب النّزول

روى أنّ عددا من المشركين من أهل مكّة واجهوا المسلمين و لم يبق لانتهاء شهر المحرّم إلّا يومان. قال المشركون بعضهم لبعض: إنّ أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يحاربون فى شهر المحرّم. و لهذا بدأوا بمهاجمة المسلمين، و رغم إلحاح المسلمين

عليهم بإيقاف القتال، لم يعطوا أذنا صاغية لهذا الطلب، فاضطرّ المسلمون إلى قتالهم ببطولة فريدة فنصرهم اللّه، و هنا نزلت أوّل آية من الآيات المذكورة آنفا[۳۱۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۵

التّفسير

من هم المنتصرون؟

حدّثتنا الآيات السابقة عن المهاجرين فى سبيل اللّه، و ما وعدهم اللّه من رزق حسن يوم القيامة. و من أجل ألّا يتصورّ المرء أنّ الوعد الإلهى يختصّ بالآخرة فحسب، تحدّثت الآية- موضع البحث- فى مطلعها عن انتصارهم فى ظلّ الرحمة الإلهيّة فى هذا العالم: ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إشارة إلى أنّ الدفاع عن النفس و مجابهة الظلم حقّ طبيعى لكلّ إنسان.

و عبارة «بمثل» تأكيد لحقيقة أنّ الدفاع لا يجوز له أن يتعدّى حدوده.

عبارة ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ هى أيضا إشارة إلى وعد اللّه بالانتصار لمن يظلم خلال الدفاع عن نفسه، و على هذا فالساكت عن الحقّ و الذى يقبل الظلم و يرضخ له، لم يعده اللّه بالنصر، فوعد اللّه بالنصر يخصّ الذين يدافعون عن أنفسهم و يجابهون الظالمين و الجائرين، فهم يستعدّون بكلّ ما لديهم من قوّة لمجابهة هذا الظلم.

و يجب أن تمتزج الرحمة و السماح بالقصاص و العقاب لتكسب النادمين و التائبين إلى اللّه، حيث تنتهى الآية ب إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

و تطابق هذه الآية آية القصاص حيث منحت ولى القتيل حقّ القصاص من جهة و أفهمته أنّ العفو فضيلة (للجديرين بها) من جهة أخرى.

و بما أنّ الوعد بالنصر الذى يقوى القلب لا بدّ و أن يصدر من مقتدر على ذلك.

لهذا تستعرض الآية قدرة اللّه فى عالم الوجود التى لا تنتهى، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ فما أن يقل من أحدهما حتّى يزداد فى الآخر وفق نظام مدروس.

كلمة «يولج» مشتقّة من «الإيلاج» و هو فى الأصل من الولوج أى الدخول.

و هذه العبارة- كما قلنا- تشير إلى التغييرات التدريجيّة المنظّمة تنظيما تامّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۶

كمسألة الليل و النهار، فما يقلّ أحدهما إلّا ليزداد الآخر على مدى فصول السنة.

و ربّما تكون إشارة إلى شروق الشمس و غروبها الذى لا يحدث فجأة بسبب الظروف الجويّة الخاصّة (بالهواء المحيط بالأرض) حيث تمتدّ أشعّة الشمس فى البداية نحو طبقات الهواء العليا، ثمّ تنتقل إلى الطبقات السفلى. و كأنّ النهار يلج فى الليل و يطرد جيش قوى الظلام.

و عكس ذلك ما يقع حين الغروب، حيث تلملم أشعّة الشمس خيوطها من الطبقات السفلى للأرض، فيسودها الظلام تدريجيّا حتّى ينتهى آخر خيط من أشعّة الشمس و يسيطر جيش الظلام على الجميع. و لو لا هذه الظاهرة، فسيكون الشروق و الغروب على حين غرّة، فيلحق الأذى بالإنسان جسما و روحا، و يحدث هذا التغيير السريع أيضا مشاكل كثيرة فى النظام الاجتماعى.

و لا مانع من إشارة الآية السالفة الذكر إلى هذين التّفسيرين.

و تنتهى الآية ب وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أجل، إنّ اللّه يلبّى حاجة المؤمنين، و يطّلع على حالهم و أعمالهم، و يعينهم برحمته عند اللزوم.

مثلما يطّلع على أعمال و مقاصد أعداء الحقّ.

و آخر آية من الآيات السالفة الذكر فى الواقع دليل على ما مضى حيث تقول:

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ.

إن شاهدتم انتصار الحقّ و هزيمة الباطل، فإنّ ذلك بلطف اللّه الذى ينجد المؤمنين و يترك الكافرين لوحدهم.

إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامّة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء و العدم بمخالفتهم تلك القوانين. و اللّه حقّ و غيره باطل.

و جميع البشر و المخلوقات التى ترتبط بشكل ما باللّه تعالى هى حقّ أيضا. أمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۷

غيرها فباطل بمقدار ابتعادها عنه عزّ و جلّ ۳۱۲].

و كلمة «علىّ» مشتقّة من «العلو» بمعنى ذى المنزلة الرفيعة، و تطلق أيضا على القادر و القاهر الذى لا تقف أمامه قدرة.

أمّا كلمة «الكبير» فهى إشارة إلى سعة علم اللّه و قدرته، و طبيعى أنّ من يملك هذه الصفات بإمكانه مساعدة أحبّائه و تدمير أعدائه، إذن فليطمئن المؤمنون إلى ما وعدهم اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۸

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۳ الى ۶۶]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۶۳) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ وَ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۶۵) وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ (۶۶)

التّفسير

دلائل اللّه فى ساحة الوجود:

تحدّثت الآيات السابقة عن قدرة اللّه غير المحدودة و أنّه الحقّ المطلق، و بيّنت هذه الآيات الأدلّة المختلفة على هذه القدرة الواسعة و الحقّ المطلق و تقول أوّلا: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً.

لقد اخضّرت الأرض المرتدية رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۸۹

المطر عليها. فأصبحت تسرّ الناظرين. أجل إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. و كلمة «لطيف» مشتقّة من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقّته. و لهذا يطلق على الرحمة الإلهيّة الخاصّة لفظ «اللطف». و كلمة «الخبير» تعنى المطّلع على الأمور الدقيقة.

و بلطف اللّه تنمو البذرة تحت الأرض، ثمّ ترتفع خلافا لقانون جاذبية الأرض، و ترى الشمس و تشمّ نسيم الهواء حتّى تصبح نباتا مثمرا أو شجرة باسقة.

و هو الذى أنزل المطر فمنح التربة الجافّة لطفا و رقة لتسمح للبذرة بالحركة و النمو. و هو خبير بجميع الاحتياجات و المراحل التى تمرّ

بها هـذه البـذرة حتّى ترتفع نحو السّـماء. يرسل اللّه المطر بقـدرة و بخبرة منه، فإن زاده صار سـيلا، و إن نقصه كثيرا ساد الجفاف فى الأرض، و تقول الآية الثامنة عشرة من سورة المؤمنين: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۳۱۳].

الآية التالية تعرض علامة أخرى على قدرة اللّه غير المتناهية، و هو قوله سبحانه و تعالى: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

فهو سـبحانه خالق الجميع و مالكهم، و بهـذا الدليل يكون قادرا عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعا، و لا يحتاج هو إلى شـىء أو إلى أحد.

و يزداد هذا المعنى إشراقا فى قوله سبحانه: وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ و التحام صفتى الغنى و الحمد جاء فى غاية الإحكام:

أوّلا: لأنّ عددا كبيرا من الناس أغنياء، إلّا أنّهم بخلاء يستغلّون الآخرين و يعملون لذاتهم فقط، و قد غرقوا فى الغفلة و الغرور. و تغلّب على أصحاب الثروة الطائلة هذه الصفات. أمّا غنى اللّه سبحانه فهو مزيج من اللطف و السماء و الجود و الكرم، لذا استحقّ الحمد و الثناء من عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۰

ثانيا: إنّ الأغنياء غيّر اللّه تعالى غناهم ظاهرى، و إذا كانوا كرماء فإنّ كرمهم فى الواقع ليس منهم، بل من لطف اللّه سبحانه و قديم إحسانه، فكلّ إمكاناتهم إنّما هى من أنعم اللّه. فاللّه وحده هو الغنى بذاته و الجدير بكلّ حمد و ثناء.

ثالثا: لأنّ الأغنياء يعملون ما يفيدهم أو يتوخّون فائدته، أمّا ربّ العالمين سبحانه و تعالى، فيجود و يرحم و يعفو دون حساب، و لا ابتغاء فائدة، و لا سدّ حاجة، و إنّما يفعل ذلك كرما منه و رحمة، فهو أهل الحمد و الثناء بلا شريك.

و تشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير اللّه تعالى الوجود للإنسان أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ و جعل تحت اختياركم جميع المواهب و الإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأى صورة تريدون، و كذلك جعل السفن و البواخر التى تتحرّك و تمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ إضافة إلى وَ يُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فالكواكب و النجوم تسير فى مدارات محدّدة بأمر اللّه سبحانه و تعالى، كلّ ذلك لتسير فى فاصلة محدّدة لها عن الكواكب الاخرى، و تمنع اصطدام بعضها ببعض.

و خلق اللّه طبقات جويّة حول الأرض لتحول دون وصول الأحجار السائبة فى الفضاء إلى الأرض و إلحاق الضرر بالبشر.

و ذلك من رحمة اللّه لعباده و لطفه بهم، فقد خلق الأرض آمنة لعباده، فلا تصل إليهم الأحجار السائبة فى الفضاء، و لا تصطدم الأجرام الأخرى بالأرض. و هذا ما نلمسه فى ختام الآية المباركة إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

و تتناول الآية الأخيرة أهمّ قضيّة فى الوجود، أى قضيّة الحياة و الموت فتقول:

وَ هُوَ الَّذِي أَحْياكُمْ أى كنتم ترابا لا حياة فيه فألبسكم لباس الحياة ثُمَّ يُمِيتُكُمْ و بعد انقضاء دورة حياتكم يميتكم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ أى يمنحكم حياة جديدة يوم البعث.

و تبيّن الآية ميل الإنسان إلى نكران نعم اللّه عليه قائلة: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۱

فرغم كلّ ما أغدق اللّه على الإنسان من أنعم فى الأرض و السّماء، فى الجسم و الروح، لا يحمده و لا يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. و مع أنّه يرى كلّ الدلائل الواضحة و البراهين المؤكدة لوجود اللّه تبارك و تعالى، و الشاهدة بفضله عليه و إحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه و أجهله!

ملاحظات

۱- الصفات الخاصّة باللّه:

بيّنت الآيات السالفة الذكر و الآيتان اللتان سبقتها، أربع عشرة صفة من صفات اللّه (فى نهاية كلّ آية جاء ذكر صفتين من صفات اللّه) العليم و الحليم- العفو و الغفور- السميع و البصير- العلى و الكبير- اللطيف و الخبير- الغنى و الحميد- الرؤوف و الرحيم. و كلّ صفة تكمل ما يقترن بها. و تنسجم معها و تتناسب مع البحث الذى تناولته الآية، كما مرّ سابقا.

۲- الآيات تدلّ على توحيد اللّه و على المعاد

إنّ الآيات السابقة، مثلما هى دليل على قدرة اللّه تعالى و تأكيد لما وعد من نصر لعباده المؤمنين، و شاهد على حقّانيته المقدّسة التى استندت الآيات السالفة الذكر إليها، فهى دليل على توحيد اللّه و على المعاد، فإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، و نموّ النبات فيها، و كذلك حياة الإنسان و موته شاهد على البعث و النشور.

و معظم الآيات عرضت هذه الأدّلة فى البرهنة على حقيقة المعاد يوم القيامة.

و قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ تأكيد على إصرار المعاندين على الكفر، ففى صيغة المبالغة «كفور» دلالة على هذا العناد، فهذا الإنسان منكر لفضل ربّه مع مشاهدته لآياته العظيمة، و مصرّ على الانحراف عن هداه و نور رحمته الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۲

۳- تسخير الأرض و السّماء للإنسان:

لقد سخّر اللّه هذه الموجودات للإنسان و ذلّلها لمصالحه. (و قد بيّنا هذا الموضوع مفصّلا فى تفسير الآية (۱۲) إلى (۱۴) من سورة النحل، و فى تفسير الآية الثّانية من سورة الرعد).

و جاء ذكر السفن فى البحار و المحيطات بين النعم، لأنّها كانت أهمّ وسيلة للنقل و التجارة، و لم تحلّ محلّها أيّة وسيلة أرخص منها حتّى الآن. و لو توقّفت هذه السفن يوما لا ختلّت منافع البشر، فالطرق البريّة لا تسدّ حاجة الإنسان إلى النقل و الانتقال، خاصّة فى العصر الحاضر الزاخر بالاحتياج إلى النفط المحمول فى السن التى لا تفتر عن الحركة، لتدير عجلة الصناعة فى العالم. و لقد تجلّت هذه النعمة اليوم أكثر، فما تعدل عشرات الآلاف من الصهاريج السيّارة فى البرّ ناقلة نفط عملاقة، و نقل النفط بواسطة الأنابيب النفطيّة لا يستوعب إلّا مناطق محدودة من العالم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۶۷ الى ۷۰]

اشارة

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ (۶۷) وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (۶۸) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۶۹) أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷۰)

التّفسير

لكلّ أمّة عبادة:

تناولت البحوث السابقة المشركين خاصّة، و مخالفى الإسلام عامّة، ممّن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادئ نسخت بعض تعاليم الأديان السابقة.

و كانوا يرون من ذلك ضعفا فى الشريعة الإسلامية، و قوّة فى أديانهم، فى حين أنّ ذلك لا يشكل ضعفا إطلاقا، بل هو نقطة قوّة و منهج لتكامل الأديان و لذا جاء الفصل الربّانى جلّيا لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ ۳۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۴

«المناسك»- كما قلنا سابقا- جمع «منسك» أى مطلق العبادات، و من الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهيّة. لهذا فإنّ الآية تبيّن أنّ لكلّ امّة شرعة و منهاجا يفى بمتطلّباتها بحسب الأحوال التى تعيشها، لكنّ ارتقاءها يستوجب تعاليم جديدة تلبّى مطامحها المترقّية، و هذا ما صدعت به الآية المباركة و أنارته قائلة: فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ. فبما تقدّم لا ينبغى لهم منازعتك فى هذا الأمر.

وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلى هُدىً مُسْتَقِيمٍ تخاطب الآية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يا أيّها النّبى لا يؤثّر هؤلاء فى دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضّالة، فالمهتدى إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب فى التيه.

فوصف «الهدى» بالاستقامة، إمّا تأكيدا لها، و إمّا إشارة إلى أنّها يمكن أن تتحقّق بطرق مختلفة، قريبها و بعيدها، مستقيمها و ملتويها، إلّا أنّ الهداية الإلهيّة أقربها و أكثرها استقامة.

ثمّ أضافت الآية وَ إِنْ جادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ فلو استمرّوا فى جدالهم و منازعتهم معك، و لم يؤثّر فيهم كلامك. فقل لهم: انّ اللّه أعلم بأعمالكم، و ستحشرون إليه فى يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، و تحلّ جميع الاختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ (يَوْمَ الْقِيامَةِ) فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۳۱۵].

و بما أنّ القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم و اطّلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و إِنَّ ذلِكَ فِي كِتابٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۵

أجل، إنّ جميع ذلك قد ثبت فى كتاب علم اللّه الذى لا حدود له، كتاب عالم الوجود و عالم العلّة و المعلول، عالم لا يضيع فيه شىء، فهو فى تغيير دائم، حتّى لو خرجت أمواج صوت ضعيف من حنجرة إنسان قبل ألفى عام فانّها لا- تنعدم، بل تبقى فى هذا الكتاب الجامع لكلّ شىء بدقّة. أى إنّ كلّ ما يجرى فى هذا الكون مسجّل فى لوح محفوظ هو لوح العلم الإلهى، و كلّ هذه الموجودات حاضرة بين يدى اللّه سبحانه بجميع صفاتها و خصائصها. و هذا من معانى القدرة الإلهيّة التى نلمسها فى قوله تعالى: إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۶

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۷۱ الى ۷۴]

اشارة

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۷۱) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي

وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۷۲) يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ (۷۳) ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (۷۴)

التّفسير

معبودات أضعف من ذبابة!

تابعت هـذه الآيات الأبحاث السابقـة عن التوحيـد و الشـرك، فتحـدّثت ثانيـة عن المشـركين و أفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الأولى: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لَمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۷

يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً و هذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ اللّه سمح لهم بعبادة الأوثان و أنّها تشفع لهم عند اللّه. و تضيف الآيـة وَ مـا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أى يعبـدون عبـادة لا ـ يملكون دليلا ـ على صـحّتها لا ـ من طريق الوحى الإلـهى، و لا من طريق الاسـتدلال العقلى، و من لا يعمل بدليل يظلم نفسه و غيره، و لا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية فى ختامها: وَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

قال بعض المفسّرين: إنّ النصير هنا الدليل و البرهان، لأنّ المعيّن الحقيقى هو الدليل ذاته [۳۱۶].

كما يحتمل أن يكون النصـير مرشدا و مكمّلا للبحث السابق، أى أنّ المشركين لا يدعمهم دليل إلهى و لا عقلى، و ليس لهم قائد و لا مرشد و لا معلّم يهديهم و يسدّدهم للحقّ الذى فقدوا حمايته و الاستنارة به، بظلمهم أنفسهم، و لا خلاف بين هذه التفاسير الثلاثة التى يبدو أنّ أوّلها أكثر وضوحا من غيره.

و تشـير الآية الثّانية موضع البحث إلى عناد الوثنيين و اسـتكبارهم عن الاسـتجابة لآيات اللّه تعالى، فى جملة وجيزة لكنّها ذات دلالات كبيرة: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ[۳۱۷].

و هنا يسـفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم و تعصّب الجاهليـة الـذى لا يرضخ للحقّ و لا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيـات ربّهم إلّا ظهرت علائـم الاسـتكبار عنها فى وجوههم حتّى إنّهم يَكادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آياتِنا أى كأنّهم يريـدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات اللّه- عزّ و جلّ- و ضربهم بقبضات أيديهم، تنفيسا عن التكبّر البغيض فى قرارة أنفسهم.

كلمة «يسـطون» مشتقّة من «السطوة» أى رفع اليد و مهاجمة الطرف الآخر، و هى فى الأصل- كما قال الراغب الاصفهانى فى مفرداته- قيام الفرس على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۸

رجليه و رفع يديه، ثمّ استعملت بالمعنى الذى ذكرناه.

و لو فكّر الإنسـان منطقيّا لمـا أغضـبه حـديث لا ـ يرضـاه، و لما ثار مقطّبا متهيّئا للهجوم على محـدّثه مهما خالفه. بل يحاول ردّه ببيان منطقى.

و انفعال المشركين على النحو المتقدّم دليل على انهيار تفكيرهم و غلبة الجهل و الباطل عليهم.

و عبارة يَكادُونَ يَسْطُونَ التى تتألّف من فعلين مضارعين، دليل على استمرار حالة الهجوم و السباب فى ذات المشركين و تأصّلها فيهم، فتارة يفعلونه، و أخرى تبدو علائمه على وجوههم حين لا تسمح به الأحوال.

و قـد أمر القرآن المجيـد الرّسول الأـكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يجبه هؤلاـء المتغطرسـين هاتفـا قُلْ أَ فَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكُمُ

النَّارُ[۳۱۸].

أى إن زعمتم أنّ هـذه الآيات البيّنات شرّ، لأنّها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإنّنى أخبركم بما هو شرّ منها، ألا و هو عقاب اللّه الأليم، النّار التى أعدّها اللّه جزاء وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. أجل، إنّ النّار المحرقة لأسوإ مكان للمتشدّدين الحادّى المزاج الذين أحرقت نار عصبيّتهم و لجاجهم قلوبهم، لأنّ العقاب الإلهى يتناسب دائما مع كيفية الذنب و العصيان.

و ترسم الآية الآتية صورة معبّرة لما كان عليه الوثنيون، و ما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين و عقيدتهم، مخاطبة للناس جميعا خطابا هاديا أن يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ و تدبّروا فيه جيدا إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ

أجل، لو اجتمعت الأوثان كلّها، و حتّى العلماء و المفكّرين و المخترعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۳۹۹

جميعا، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السموات و الأرض و ما فيهنّ من آلاف مؤلّفة من أنواع المخلوقات فى البرّ و البحر، فى الصحارى و الغابات، و فى أعماق الأرض؟ اللّه الذى خلق الحياة فى أشكال مختلفة و صور بديعة و متنوّعة بحيث أنّ كلّ مخلوق من المخلوقات يثير فى الإنسان كلّ الإعجاب و التقدير، فأين هذه الآلهة الضعيفة من اللّه الخالق القادر الحكيم المتعال؟

و تستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان و عجزها المطلق و أنّها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ كأنّ الآية تهتف فيهم: ما الدافع لجعل موجود ضعيف تهزمه الذبابة حاكما عليكم و حلّالا لمشاكلكم؟! و يعلو صدى الحقّ فى تقرير ضعف الوثن و عبدته فى قوله تعالى: ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ

و قد ورد فى الرّوايات أنّ الوثنيين من قريش نصبوا أوثانهم حول الكعبة، و أغرقوها بالمسك و العنبر و أحيانا بالزعفران و العسل، و طافوا حولها و هم يردّدون (لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلّا شريك هو لك تملكه و ما ملك)! و الانحياز عن التوحيد واضح فى هذه التلبية، و الشرك مؤكّد فيها، فقد جعلوا هذه الموجودات التافهة شركاء للّه الواحد الأحد، و هم يرون الذّباب يحوم عليها و يسرق منها العسل و الزعفران و المسك دون أن تستطيع إعادة ما سلب منها! و قد عرض القرآن المجيد هذه الصورة ليكشف عن ضعف هذه الأوثان، و تفاهة منطق المشركين فى تسويغ عبادتهم لهذه الأوثان، و ذكّرهم بعجز آلهتهم عن استعادة ما سرقه الذباب منها و عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها لعلّهم ينتبهون على تفاهة ما يعبدون من دون اللّه تعالى.

أمّا ما المراد من «الطالب» و «المطلوب»؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۰

الصحيح هو ما سبق أن قلناه من أنّ الطالب هو عبدة الأوثان، و المطلوب هو الأوثان ذاتها، و كلاهما لا يقدر على شىء.

و قال البعض: إنّ الطالب هو الذّباب، و المطلوب الأصنام (لأنّ الذباب يجتمع عليها ليسلب منها غذاءه).

و قال الآخرون: الطالب هو الأصنام، و المطلوب هو الذباب (لأنّه لو فكّرت الأصنام فى خلق ذبابة واحدة لما استطاعت ذلك) و أصحّ هذه التفاسير هو الأوّل.

و بعد أن عرض القرآن الكريم هذه المثال الواضح الدافع، قرّر حقيقة مهمّة، و هى ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة باللّه تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة و لما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عمّا يفعلون علوّا كبيرا، و لو كان لديهم أدنى معرفة بقدرة اللّه لضحكوا من أنفسهم و سخروا من أفكارهم. و تقول الآية فى النهاية: إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

أجل، إنّ اللّه قادر على كلّ شىء و لا مثيل لقدرته و لا حدّ، فهو ليس كآلهة المشركين التى لو اجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة،

بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

بحث

مثال واضح لبيان نقاط الضعف:

يرى عـدد من المفسّـرين أنّ القرآن جاء بمثل فى آياته المذكورة آنفا، إلّا أنّه لم يبيّن المثل بصـراحة، بل أشار إلى مواضع أخرى فى القرآن، أو أنّ المثل هنا جاء لإثبات أمر عجيب، و ليس بمعنى المثل المعروف.

و لا شكّ فى أنّ هذا خطأ، لأنّ القرآن دعا عامّة الناس إلى التفكّر فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۱

المثل. و هذا المثل هو ضـعف الذبابة من ناحية، و قدرتها على سـلب ما لدى الأوثان، و عجز هذه الأوثان عن استرداد ما سـلبه الذباب منهـا، و هـذا المثـل ضـرب للمشـركين من العرب، لكنّه يعنى النـاس جميعـا و لا يخصّ الأصـنام، بل يعمّ جميع ما دون اللّه تعالى، من فراعنـة و نمـاردة، و مطامع و أهواء، و جاه و ثروة. فكلّها ينطبق عليها المثل، فلو تكاتفوا و جمعوا عساكرهم و ما يملكون من وسائل و طاقات، لما تمكّنوا من خلق ذبابة، و لا من استعادة ما سلب الذباب منهم.

سؤال و جواب:

قـد يقال: إنّ اختراعات العصـر الحـديث قـد تجاوزت أهميّة خلق ذبابة بمراتب كبيرة! فوسائل النقل السـريعة التى تسـبق الريح و تقطع المسافات الشاسـعة فى طرفة عين، و الأدمغة الألكترونية و أدقّ الأجهزة الحديثة بإمكانها حلّ المعضلات الرياضية بأسرع وقت ممكن، لا تدع قيمة لهذا المثل فى نظر إنسان العصر.

و جواب ذلك هو أنّ صـنع هذه الأجهزة- بلا شكّ- يبهر العقول، و هو دليل على تقدّم الصـناعة البشـرية تقدّما مدهشا، و لكنّه يهون مقابل خلق كائن حى مهما كان صـغيرا، فلو درسـنا حياة حشـرة كالذبابـة و نشاطها البايولوجى بدقّة، لرأينا أنّ بناء مخّ الذبابة و شـبكة أعصابها و جهاز هضمها أعلى بدرجات من أعقد الطائرات، و أكثر تجهيزا منها، و لا يمكن مقارنتها بها.

و مـا زال فى قضـيّة الحيـاة و إحسـاس و حركـة المخلوقات أسـرار غامضـة على العلماء، و هـذه المخلوقات و تركيبها البايولوجى، هى نفسها غوامض لم تحل بعد.

و قد ذكر علماء الطبيعة أنّ عينى هذه المخلوقات الصـغيرة جدّا، كالحشـرات- مثلا- تتركّب من مئات العيون! فالعينان اللتان تبدوان لنا إثنتين لا أكثر، هما مؤلّفتان من مئات العيون الدقيقة جدّا، و يطلق على مجموعها العين المركبة، فلو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۲

فرضـنا أنّ الإنسان صـنع موادّ من أجزاء الخليّة التى لا حياة فيها، فكيف يتمكّن من صـنع مئات العيون الصـغيرة التى لكلّ منها ناظورها الـدقيق، و قـد رصّت طبقاتهـا بعضـها إلى بعض، و ربطت أعصابهـا بمـخّ الحشـرة لتنقـل المعلومات إليها، و لتقوم بردّ فعل مناسب لما يحدث حولها؟

لن يسـتطيع الإنسان خلق مثل هذا الكائن الذى يبدو تافها مع أنّه عالم مفعم بالأسرار البالغة الغموض. و لو فرضنا أنّ الإنسان بلغ ذلك، فلا يسمّى إنجازه المفترض خلقا، لأنّه لم يتعدّ التجميع لأجهزة متوفّرة فى هذا العالم. فمن يركّب قطع السيّارة لا يسمّى مخترعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۳

الآيات [سورة الحج (۲۲): الآيات ۷۵ الى ۷۸]

اشارة

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۷۵) يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۷۶) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۷۷) وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ (۷۸)

سبب النّزول

ذكر بعض المفسّرين أنّ المشركين و على رأسهم «الوليد بن المغيرة»، كانوا عند ما بعث اللّه الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، يقولون مستنكرين: «أ أنزل عليه الذكر من بيننا»؟! فنزلت الآية الأولى من الآيات أعلاه لتردّ عليهم اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۴

وَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[۳۱۹].

التّفسير

خمسة تعاليم بنّاءة و مهمّة:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد و الشرك و آلهة المشركين الوهميّة. و بما أنّ بعض الناس قد اتّخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فانّ أوّل الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد اللّه و تابعون لأمره:

اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَ مِنَ النَّاسِ

أجل، اختار اللّه من الملائكة رسلا كجبرئيل، و من البشر رسلا كأنبياء اللّه الكبار. و «من» هنا للتبعيض، و تدلّ على أنّ جميع ملائكة اللّه لم يكونوا رسلا إلى البشر، و لا يناقض هذا التعبير الآية الأولى من سورة فاطر، و هى جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا لأنّ غاية هذه الآية بيان الجنس لا العموم و الشمولية.

و ختام الآية إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أى إنّ اللّه ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم فى غيابهم، بل إنّه على علم بأخبار رسله لحظة بعد أخرى، يسمع كلامهم و يرى أعمالهم.

و تشير الآية الثّانية إلى مسئولية الأنبياء فى إبلاغ رسالة اللّه من جهة، و مراقبة اللّه لأعمالهم من جهة أخرى، فتقول: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ إنّه يعلم ماضيهم و مستقبلهم وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فالجميع مسئولون فى ساحة قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكة اللّه سبحانه و أنبياءه عليهم السّلام عباد مطيعون له مسئولون بين يديه، لا يملكون إلّا ما وهبهم من لطفه، و قوله تعالى: يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى واجب و مسئولية رسل اللّه و مراقبته سبحانه لأعمالهم، كما جاء فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۵

الآيتين (۲۷) و ۲۸) من سورة الجن فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ ۳۲۰].

و قد اتّضح بهذا أنّ القصد من عبارة ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هو الأحداث المستقبلة و ما خَلْفَهُمْ الأحداث الماضية.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحجّ حيث تخاطبان المؤمنين و تبيّنان مجموعة من التعاليم الشاملة التى تحفظ دينهم و دنياهم و انتصارهم فى جميع الميادين، و بهذه الروعة و الجمال تختتم سورة الحجّ.

فى البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و قد بيّنت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع و السجود لأهميتهما الاستثنائية فى هذه العبادة العظيمة.

و الأمر بعبادة اللّه- بعد الأمر بالركوع و السجود- يشمل جميع العبادات.

و لفظ «ربّكم» إشارة إلى لياقته للعبادة و عدم لياقة غيره لها، لأنّه سبحانه و تعالى مالك عبيده و جميع مخلوقاته و مربيّهم.

و الأمر بفعل الخير يشمل أعمال الخير دون قيد أو شرط، و ما نقل عن ابن عبّاس من أنّ هذه الآية تتناول صلة الرحم و مكارم الأخلاق هو بيان مصداق بارز لمفهوم الآية العامّ.

ثمّ يصدر اللّه أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عزّ من قائل: وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ

و معظم المفسّرين لم يخصّوا هذه الآية بالجهاد المسلّح لأعداء اللّه، بل فسّروها بما هى عليه من معنى لغوى عامّ، بكلّ نوع من الجهاد فى سبيل اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۶

و الاستجابة له و ممارسة أعمال البرّ و الجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) و جهاد الأعداء و الظلمة (الجهاد الأصغر).

نقل العلّامة الطبرسى رحمه اللّه فى «مجمع البيان» عن معظم المفسّرين قولهم: إنّ القصد من «حق الجهاد» الإخلاص فى النيّة و القيام بالأعمال للّه خالصة. و لا شكّ فى أنّ حقّ الجهاد له معنى واسع يشمل الكيف و النوع و المكان و الزمان و سواها، و لكن مرحلة «الإخلاص فى النيّة» هى أصعب مرحلة فى جهاد النفس، لهذا أكّدتها الآية، لأنّ عباد اللّه المخلصين فقط هم الذين لا تنفذ إلى قلوبهم و أعمالهم الوساوس الشيطانية، رغم قوّة نفاذها و خفائها.

و القرآن المجيد يبدأ تعليماته الخمسة من الخاصّ إلى العامّ، فبدأ بالركوع فالسجود، و انتهى بالعبادة بمعناها العامّ الذى يشمل أعمال الخير و الطاعات و العبادات و غيرها. و فى آخر مرحلة تحدّث عن الجهاد و المساعى الفرديّة و الجماعية باطنا و ظاهرا، فى القول و العمل، و فى الأخلاق و النيّة.

و الاستجابة لهذه التعليمات الربّانية مدعاة للفلاح.

و لكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمّل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات و التعليمات الشاملة الوسعة؟ و لهذا تجيب بقيّد الآية الشريفة ضمنا عن هذه الاستفهامات، و انّ هذه التعليمات دليل الألطاف الإلهيّة التى منّها سبحانه و تعالى على المؤمنين لتدلّ على منزلتهم العظيمة عنده سبحانه. فتقول الآية أوّلا:

هُوَ اجْتَباكُمْ

أى حمّلكم هذه المسؤوليات باختياركم من بين خلقه.

و العبارة الاخرى قوله جلّ و علا: وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أى إذا دقّقتم جيدا لم تجدوا صعوبة فى التكاليف الربّانية لانسجامها مع فطرتكم التى فطركم اللّه عليها، و هى الطريق إلى تكاملكم، و هى ألذّ من الشهد، لأنّ كلّ واحدة منها له غاية و منافع تعود عليكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۷

و ثالث عبارة مِلَّةَ أَبِيكَمْ إِبْراهِيمَ إنّ إطلاق كلمة «الأب» على «إبراهيم» عليه السّلام، إمّا بسبب كون العرب و المسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السّلام غالبا، و إمّا لكون إبراهيم عليه السّلام هو الأب الروحى للموحّدين جميعا على الرغم من خلط المشركين دينه الحنيف بأنواع من الخرافات الجاهلية آنذاك.

و يليها تعبير هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة، و فى هذا الكتاب السماوى أيضا (القرآن)، و إنّ المسلم ليفتخر بأنّه قد أسلم نفسه للّه فى جميع أوامره و نواهيه.

و قد اختلف المفسّرون لمن يعود ضمير (هو) فى العبارة السابقة، فقال البعض منهم: إنّه يعود إلى اللّه تعالى، أى إنّ اللّه سمّاكم فى الكتب السماوية السابقة و القرآن بهذا الاسم الذى هو موضع فخركم، و يرى آخرون أنّ ضمير (هو) يعود إلى إبراهيم عليه السّلام و يستدلّون بالآية (۱۲۸) من سورة البقرة حيث نادى إبراهيم عليه السّلام ربّه بعد إتمامه بناء الكعبة قائلا: رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ

و نحن نرى أنّ التّفسير الأوّل أصوب، لأنّه ينسجم مع آخر الآية ذاتها حيث يقول: هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا أى هو سمّاكم المسلمين فى الكتب السماوية السابقة و القرآن المجيد، و هذا القول يناسب اللّه عزّ و جلّ و لا يناسب إبراهيم عليه السّلام [۳۲۱].

و خامس عبارة خصّ بها المسلمين و جعلهم قدوة للأمم الاخرى، هى قوله المبارك: لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ

و «الشهيد» هو الشاهد، و هى كلمة مشتقّة من شهود، بمعنى اطلاع المرء على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۸

أمر أو حدث شهده بنفسه. و كون الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم شاهدا على جميع المسلمين يعنى اطلاعه على أعمال أمّته، و ينسجم هذا المفهوم مع حديث (عرض الأعمال) و بعض الآيات القرآنية التى أشارت إلى ذلك، حيث تعرض أعمال أمّة محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم عليه فى نهاية كل أسبوع فتطلع روحه الطاهرة عليها جميعا، فهو شاهد على أمّته.

و ذكرت بعض الأحاديث أنّ معصومى هذه الامّة الأئمّة الطاهرين عليهم السّلام هم أيضا شهود على أعمال الناس، نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قوله: «نحن حجج اللّه فى خلقه و نحن شهداء اللّه و أعلامه فى بريته»[۳۲۲].

فى الحقيقة إنّ المخاطب فى عبارة «لتكونوا» و حسب ظاهر الكلمة هو الامّة جميعا، و قد يكون المراد قادة هذه الامّة، فمخاطبة الكلّ و إرادة الجزء أمر متعارف فى المحادثة اليومية. و مثال ذلك ما جاء فى الآية (۲۰) من سورة المائدة وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً. حيث نعلم أنّ عددا قليلا منهم أصبحوا ملوكا.

و هناك معنى آخر لكلمة شهود، هى «الشهادة العمليّة» أى كون أعمال الفرد أنموذجا للآخرين و قدوة لهم، و هكذا يكون جميع المسلمين الحقيقيين شهودا، لأنّهم أمّة تقتدى بهم الأمم بما لديهم من دين يمكنهم أن يكونوا مقياسا للسمو و الفضل بين جميع الأمم.

و

جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا بعث اللّه نبيّا جعله شهيدا على قومه، و إنّ اللّه تبارك و تعالى جعل أمّتى شهداء على الخلق، حيث يقول:

ليكون الرّسول شهيدا عليكم، و تكونوا شهداء على الناس»[۳۲۳].

أى كما يكون النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قدوة و أسوة حسنة لامّته، تكونون أنتم أيضا أسوة و قدوة للناس، و هذا التّفسير لا يناقض الحديث السابق فجميع الامّة شهداء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۰۹

و الأئمّة الطاهرين شهود ممتازون على هذه الامّة[۳۲۴].

و إعادة الآيـة فى ختامها بشـكل مركّز الواجبات الخمسـة فى ثلاث جمل هى فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ فانّ اللّه هو قائدكم و ناصركم و معينكم: هُوَ مَوْلاكُمْ و فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ.

و الحقيقـة أنّ جملة فَنِعْمَ الْمَوْلى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ دليل على عبارة وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ أى إنّ اللّه أمركم بالاعتصام به لكونه خير الموالى و أجدر الأعوان.

ربّنا: تفضّل علينا بالتوفيق للاعتصام بـذاتك المقدّسـة، و لنكون أسوة فى الارتباط بالخالق و الخلق، و قـدوة و شاهـدا على الآخرين، و وفّقنا لإكمال هذا التّفسير الجامع و النموذجى لكتابك المنزل.

ربّنا: كما دعوتنا فى قرآنك الكريم و فى كتبك السماوية الاخرى بالمسلمين، فوفّقنا للتسليم لأمرك، و أمحض لنا طاعتك.

ربّنا: انصرنا على أعدائك و أعداء دينك الذين أرادوا بالإسلام و القرآن كيدا، فأنت نعم المولى و نعم النصير.

نهاية سورة الحجّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۱

سورة المؤمنين

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائة و ثمانى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۳

«سورة المؤمنون»

فضيلة سورة المؤمنون:

ذكرت أحاديث مروية عن الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فضائل لهذه السورة.

فعن النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلم «من قرأ سورة المؤمنين، بشّرته الملائكة يوم القيامة بالروح و الريحان و ما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت»[۳۲۵].

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام «من قرأ سورة المؤمنين ختم اللّه له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها فى كلّ جمعة، و كان منزله فى الفردوس الأعلى مع النبيّين و المرسلين»[۳۲۶].

و نؤكّد أنّ فضيلة السورة، ليست فقط فى تلاوتها، و إنّما يجب أن يرافق ذلك التمعّن فى معانيها و العمل بما أوجبته، لأنّ هذا الكتاب يبنى الـذات الإنسانيـة و يربّيهـا، فهو برنامـج عملى لتكامل الإنسان، و لو طابق المرء برنامجه العملى مع محتوى هـذه السورة- حتّى إن طابق مع آياتها الأولى التى تبيّن صفات المؤمنين- لنال النصيب الأوفر من لدن العلى القدير.

لهذا ذكر

فى روايـة عن الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّه قـال حين نزلت الآيات الأولى من هـذه السورة: «لقـد أنزل إلىّ عشـر آيات من أقامهنّ دخل الجنّة»[۳۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۴

عبارة «أقام» التى ذكرت مكان «قرء» تعبّر عن الحقيقة التى ذكرناها أعلاه، فالهدف تطبيق ما تضمنّته هذه الآيات و ليس تلاوتها فقط.

مضمون سورة المؤمنين:

القسم المهمّ من هذه السورة- كما يبدو من اسمها- تحدّث عن صفات المؤمنين البارزة، ثمّ تناولت السورة العقيدة و العمل بها، و هى تتمّة لتلك الصفات.

و يمكن إجمالا تقسيم مواضيع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

القسم الأوّل: يبدأ بالآية قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و ينتهى بعدد من الآيات التى تذكر صفات هى مدعاة لفلاح المؤمنين، و هذه الصفات دقيقة و شاملة تغطّى جوانب الحياة المختلفة للفرد و المجتمع.

و بما أنّ أساسها الإيمان و التوحيد، فقد أشار القسم الثّانى من هذه المواضيع إلى علائم أخرى للمؤمنين، التوحيد و آيات عظمة اللّه و جلاله فى عالم الوجود، فعدّدت نماذج لذلك العالم العجيب فى خلق السّماء و الأرض و الإنسان و الحيوان و النبات.

و لإتمام الجوانب العمليّة، شرح القسم الثّالث ما حدث لعدد من كبار الأنبياء، كنوح و هود و موسى و عيسى عليهم السّلام، و بيّن شرائح من تأريخ حياتهم للعبرة و الموعظة.

و فى القسم الرّابع وجّه الخطاب سبحانه و تعالى إلى المستكبرين يحذّرهم ببراهين منطقيّة تارة، و أخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عزّ و جلّ.

و بيّن القسم الخامس- فى بحث مركّز- المعاد.

و تناول القسم السادس سيادة اللّه على عالم الوجود، و إطاعة العالم و لأوامره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۵

و أخيرا تناول القسم السابع حساب يوم القيامة، و جزاء الخير للمحسنين، و عقاب المذنبين. و ينهى السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان.

فالسورة مجموعة من دروس العقيدة و العمل، و قضايا التوعية و شرح لنهج المؤمنين من البداية حتّى النهاية.

إنّ هذه السورة- كما سبق أن ذكرنا- نزلت فى مكّة، إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكروا أنّ عددا من آياتها نزل فى المدينة، و كان الدافع لذلك وجود آية الزكاة فيها، لأنّ الزكاة شرّعت لأوّل مرّة فى المدينة اثر نزول الآية خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً التوبة (۱۰۳)، حيث أمر الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم بجمع الزكاة من المسلمين.

إلّا أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للزكاة مفهوما واسعا يشمل الواجب و المستحبّ، و لا يتحدّد معناه بالزكاة الواجبة فقط، لهذا نقرأ فى الأحاديث أنّ الصلاة و الزكاة مترادفتان ۳۲۸].

و إضافة إلى ذلك فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ الزكاة كانت واجبة فى مكّة أيضا، غير أنّها كانت بصورة مجملة أوجبت على كلّ مسلم مساعدة المحتاجين بمقدار من ماله، ثمّ أصبحت وفق برنامج محدّد و دقيق بعد تشكيل الحكم الإسلامى فى المدينة، حيث حدّد نصابها، و عيّن العاملين عليها، و بعثهم الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المناطق الإسلامية لجمع الزكاة[۳۲۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۶

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱ الى ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (۱) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ (۲) وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (۳) وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ (۴)
وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۵) إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۶) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ (۷) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۸) وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹)
أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ (۱۰) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۱)

التّفسير

صفات المؤمنين البارزة:

إختيار اسم المؤمنين لهذه السورة- كما تقدّم- لأنّه جاء فى بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبّرة صفات المؤمنين، و ممّا يلفت النظر أنّها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، استنارة للشوق فى قلوب المسلمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۷

للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

كلمة «أفلح» مشتقّة من الفلح و الفلاح، و تعنى فى الأصل الحرث و الشقّ، ثمّ أطلقت على أى نوع من النصر و الوصول إلى الهدف و السعادة بشكل عام، و الحقيقة أنّ المنتصرين يزيلون من طريقهم كلّ الموانع و الحواجز لينالوا الفلاح و السعادة، و يشقّون طريقهم لتحقيق أهدافهم فى الحياة. و لكلمة الفلاح معنى واسعا بضمّ الفلاح المادّى و المعنوى، و يكون الاثنان للمؤمنين.

فالفلاح الدنيوى أن يحيا الإنسان حرّا مرفوع الرّسول عزيز النفس غير محتاج، و لا يمكن تحقيق كلّ ذلك إلّا فى ظلال الإيمان و التمسّك باللّه و برحمته.

أمّا فلاح الآخرة فهو الحياة فى نعيم خالد إلى جانب أصدقاء جديرين طاهرين، حياة العزّ و الرفعة.

و يلخّص الراغب الاصفهانى خلال شرحه هذه المفردة بأنّ الفلاح الدنيوى فى ثلاثة أشياء: البقاء و الغنى و العزّ، و أمّا الفلاح الاخروى ففى أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، و غناء بلا فقر، و عزّ بلا ذلّ، و علم بلا جهل.

ثمّ تشرح الآية هذه الصفات فتؤكّد قبل كلّ شىء على الصلاة فتقول: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ

«خاشعون» مشتقّة من خشوع، بمعنى التواضع و حالة التأدّب يتخذها الإنسان جسما و روحا بين يدى شخصيّة كبيرة، أو حقيقة مهمّة تظهر فى الإنسان و تبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

و القرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، و ليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أنّ الصلاة ليست مجرّد ألفاظ و حركات لا روح فيها و لا معنى، و إنّما تظهر فى المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجّه إلى اللّه تفصله عن الغير و تلحقه بالخالق، و يغوص فى ارتباط مع اللّه، و يدعوه بتضرّع فى حالة تسود جسمه كلّه، فيرى نفسه ذرّة إزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۸

الوجود المطلق لذات اللّه، و قطرة فى محيط لا نهاية له.

لحظات هذه الصلاة درسا للمؤمن فى بناء ذاته و تربيتها، و وسيلة لتهذيب نفسه و سمو روحه.

و

قد جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين شاهد رجلا يلهو بلحيته و هو يصلّى قوله: «أمّا لو خشع قلبه

لخشعت جوارحه»[۳۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۴۱۸

ارة منه صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى أنّ الخشوع الباطنى يؤثّر فى ظاهر الإنسان. و كان كبار قادة المسلمين يؤدّون صلاتهم بخشوع حتّى تحسبهم فى عالم آخر، يذوبون فى اللّه، حيث نقرأ عنهم

فى حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم «إنّه كان يرفع بصره إلى السّماء فى صلاته، فلمّا نزلت الآية طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض»[۳۳۱].

و ثانى صفة للمؤمنين بعد الخشوع ممّا تذكره الآية وَ الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ حقّا نرى جميع حركات و سكنات المؤمنين تتجّه لهدف واحد مفيد و بنّاء، لأنّ «اللغو» يعنى الأعمال التافهة غير المفيدة، و كما قال بعض المفسّرين فإنّ اللغو كلّ قول أو عمل لا فائدة فيه، و إذا فسّر البعض اللغو بالباطل.

و بعض فسّره بالمعاصى كلّها.

و آخر بمعنى الكذب.

و آخر: السباب أو السباب المتقابل.

و البعض الآخر قال: إنّه يعنى الغناء و اللهو و اللعب.

و آخر: إنّه الشرك. فإنّ هذه المعانى مصاديق ذلك المفهوم العام.

و طبيعى أنّ اللغو لا يشمل الأفعال و الكلام التافه فقط، و إنّما يعنى الآراء التافهة التى لا أساس لها، التى تنسى العبد ربّه و تشغله بها دون الأمور المفيدة، إذن فاللغو يتضمّن كلّ هذا، و الحقيقة أنّ المؤمنين لم يخلقوا من أجل الانشغال بآراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۱۹

باطلة أو كلام تافه، بل هم معرضون عنها، كما قال القرآن الكريم.

و تشير الآية الثّالثة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، و هى ذات جانب اجتماعى و مالى حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاةِ فاعِلُونَ ۳۳۲].

ربّما تكون السورة مكّية، كما قلنا سابقا، نزلت فى وقت لم تشرّع فيه الزكاة بعد بمعناها المعروف، لذلك نجد اختلافا بين المفسّرين فى تفسير هذه الآية، و لكن الذى يبدو أصوب هو أنّ الزكاة لا تنحصر بالزكاة الواجبة الأداء، و إنّما هناك أنواع كثيرة منها مستحبّة، فالزكاة الواجبة شرعت فى المدينة، إلّا أنّ الزكاة المستحبّة كانت موجودة قبل هذا.

و ذهب مفسّرون آخرون إلى احتمال أن تكون الزكاة واجبة كحكم شرعى فى مكّة لكن دون تحديد، حيث كان الواجب على كلّ مسلم مساعدة المحتاجين بما يتمكّن، إلّا أنّه أصبح للزكاة أسلوبها الخاص عقب تشكيل الحكم الإسلامى و تأسيس بيت مال المسلمين، حيث تحدّدت أنصبتها من كلّ محصول و مال.

و أصبح لها جباة يجبونها من المسلمين بأمر من الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

أمّا ما يراه بعض المفسّرين أمثال الفخر الرازى و الآلوسى فى «روح المعانى» و الراغب الاصفهانى فى مفرداته من أنّ الزكاة هنا تعنى عمل الخير أو تزكية المال أو تطهير الروح، فبعيد، لأنّ القرآن المجيد كلّما ذكر الصلاة مع الزكاة يقصد بالزكاة الإنفاق المالى، و لو فسّرناه بغير هذا، فذلك يحتاج إلى قرينة واضحة لا توجد فى هذه الآيات.

و رابع صفة من صفات المؤمنين هى الطهارة و العفّة بشكل تامّ، و اجتناب أى معصية جنسية، حيث تقول الآية: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ ۳۳۳] يحفظونها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۰

ممّا يخالف العفّة إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

بما أنّ الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرّدا، و لضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى و الإيمان القوى، لهذا أكدّت الآية التالية على هذه المسألة فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ

إنّ عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أنّ فقدان المراقبة المستمرة فى هذا المجال تؤدّى بالفرد إلى خطر التلوث بالانحرافات الكثيرة.

أمّا عبارة أَزْواجِهِمْ فهى تشمل الزوجين الذكر و الأنثى، رغم أنّ بعض مفسّرى أهل السنّه وقعوا فى خطأ فى تفسير هذه الآية سنشير إليه لا حقا.

و يمكن أن تكون عبارة غَيْرُ مَلُومِينَ إشارة إلى الرأى الخاطئ عند المسيحيين الذى أصبح يشكّل انحرافا فى عقيدتهم، و هو أنّ أى اتّصال جنسى يعتبر فعلا غير لائق بالإنسان و تركه فضيلة له، حتّى نرى القساوسة الكاثوليك- نساء و رجالا- ممّن طلّق الدنيا يحيون عزّابا و يتصوّرون الزواج بأى شكل كان خلافا لمنزلة الإنسان الروحية و هذه القضيّة شكلية فحسب، حيث يختار هؤلاء لإشباع غرائزهم سبلا خفيّة متعدّدة. ذكرتها كتبهم)[۳۳۴].

و على كلّ حال فإنّ اللّه لم يخلق فى الإنسان غريزة كجزء من مكوّناته المثلى، ثمّ يعتبرها تناقض منزلة الإنسان عنده.

و كون الزوجات حلّا للأزواج فى علاقتهنّ الجنسيّة باستثناء أيّام العادة الشهرية و أمثالها، لا تحتاج إلى شرح. و كذلك كون الجوارى حلالا عند ما يكنّ على وفق شروط ذكرتها الكتب الفقهيّة و ليس كما يتصوّر البعض أنّ كلّ واحدة منهنّ و دون شرط حلّ لمالكها، و فى الحقيقة لهنّ شروط الزوجة فى حالات كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۱

و أشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة و السادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ إنّ المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، و كذلك الالتزام بالعهد و الميثاق بين يدى الخالق و الخلق من صفات المؤمنين البارزة. و تعنى الأمانة بمفهومها الواسع أمانة اللّه و رسوله إضافة إلى أمانات الناس، و كذلك ما أنعم اللّه على خلقه.

و تضمّ أيضا أمانة اللّه الدين الحقّ و الكتب السماوية و تعاليم الأنبياء القدماء، و كذلك الأموال و الأبناء و المناصب جميعها أمانات اللّه سبحانه و تعالى بيد البشر، يسعى المؤمنون فى المحافظة عليها و أداء حقّها. و يحرسونها ما داموا أحياء.

و يرثها أبناؤهم الذين تربّوا على أداء الأمانات و الحفاظ عليها.

و الدليل على عموميّة مفهوم الأمانة هنا، إضافة إلى سعة المفهوم اللغوى لهذه الكلمة، هو أحاديث عديدة وردت فى تفسير الأمانة بأنّها (أمانة الأئمّة المعصومين) أى: ينقلها كلّ إمام إلى وارثه ۳۳۵].

و أحيانا تفسير الأمانة بأنّها الولاية بشكل عامّ.

و ممّا يلفت النظر رواية زرارة أحد تلاميذ الإمام الباقر عليه السّلام و الإمام الصادق عليه السّلام عن قوله تعالى أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها[۳۳۶] «أدّوا الولاية إلى أهلها ...»[۳۳۷].

و هكذا يكشف عن أنّ الحكومة وديعة إلهيّة مهمّة جدّا يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

و هناك تعابير قرآنية عديدة تدلّ على عمومية و شمولية العهد، منها: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذا عاهَدْتُمْ ۳۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۲

و الجدير بالملاحظة أنّ بعض آيات القرآن عبّرت عن ذلك العهد بأداء الأمانة و عدم خيانتها و المحافظة عليها، و «رعاية الأمانة» التى استعملت فى الآية السابقة تضمّ معنى الأداء و المحافظة.

فعلى هذا فانّ التفسير فى المحافظة على الأمانة و الذى يؤدّى إلى وقوع ضرر أو تعرّضها للخطر، يوجب على الأمين إصلاحها (و بهذا تترتّب ثلاثة واجبات على الأمين: الأداء، و المحافظة، و الإصلاح) فلا بدّ أن يكون الالتزام بما تعهّد به المرء و المحافظة عليه.

و أداء الأمانة من أهمّ القواعد فى النظام الاجتماعى، و دون ذلك يسود التخبّط فى المجتمع. و لهذا السبب نرى شعوبا لا تتمسّك عامّتها بالدين، إلّا أنّها- سعيا منها لمنع الاضطراب- تفرض على نفسها رعاية العهد و الأمانة، و تعتبر نفسها مسئولة أمام هذين المبدأين- فى أقلّ تقدير- فى القضايا الاجتماعية العامّة (و قد بيّنا بإسهاب أهميّة الأمانة فى تفسير الآية (۵۸) من سورة النساء. و فى تفسير الآية (۲۷) من سورة الأنفال، و شرحنا الوفاء بالعهد فى تفسير الآية الأولى من سورة المائدة و فى تفسير الآية (۹۱) من سورة النحل).

و بيّنت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلَواتِهِمْ يُحافِظُونَ

و ممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفة للمؤمنين كانت الخشوع فى الصلاة، و آخرها المحافظة عليها، بدأت بالصلاة و انتهت به. لماذا؟ لأنّ الصلاة أهمّ رابطة بين الخالق و المخلوق، و أغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

الصلاة وسيلة ليقظة الإنسان و خير وقاية من الذنوب.

و الخلاصة، إنّ الصلاة إن أقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعا.

و جدير بالذكر إلى أنّ الآيتين الأولى و الأخيرة تضمّنت كلّ واحدة منها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۳

موضوعا يختلف عن الآخر، فالآية الأولى تضمّنت الصلاة بصورة مفردة، و الأخيرة بصورة جماعية. الأولى تضمّنت الخشوع و التوجّه الباطنى إلى اللّه. هذا الخشوع الذى يعتبر جوهر الصلاة، لأنّ له تأثيرا فى جميع أعضاء جسم الإنسان، و الآية الأخيرة أشارت إلى آداب و شروط صحّة الصلاة من حيث الزمان و المكان و العدد، فأوضحت للمؤمنين الحقيقيين ضرورة مراعاة هذه الآداب و الشروط فى صلاتهم.

و قد شرحنا أهميّة الصلاة فى المجلّدات المختلفة لهذا التّفسير. فليراجع تفسير الآية (۱۱۴) من سورة هود و كذلك تفسير الآية (۱۰۳) من سورة النساء و فى تفسير الآية (۱۴) من سورة طه.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيّنت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت:

أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ

أولئك الذين يرثون الفردوس و منازل عالية و حياة خالدة الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ

«الفردوس»- على قول- هى مفردة رومية. و ذهب آخرون إلى أنّها عربية، و قيل فارسية بمعنى «البستان». أو بستان خاص اجتمعت فيه جميع تسميتها بالجنّة العالية، و أفضل البساتين.

و يمكن أن تكون عبارة «يرثون» إشارة إلى نيل المؤمنين لها دون تعب مثلما يحصل الوارث الإرث دون تعب. و صحيح أنّ الإنسان يبذل جهودا واسعة و يضحى بوقته و يسلب راحته فى بناء ذاته و التقرّب إلى اللّه، إلّا أنّ هذا الجزاء الجميل أكثر بكثير من قدر هذه الأعمال البسيطة، و كأنّ المؤمن ينال الفردوس دون تعب و مشقّة.

كما يجب ملاحظة حديث

روى عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «ما منكم من أحد إلّا و له منزلان: منزل فى الجنّة، و منزل فى النّار، فإن مات و دخل النّار ورث أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۴

الجنّة منزلة».

كما يمكن أن تكون عبارة «يرثون» فى الآية السابقة إشارة إلى حصيلة عمل المؤمنين، فهى كالميراث يرثونه فى الختام، و على كلّ حال فإنّ هذه المنزلة العالية- حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه- خاصّة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، و نجد أهل الجنّة الآخرين فى منازل أقلّ أهميّة من هؤلاء المؤمنين.

ملاحظات

۱- إختيار الفعل الماضى «أفلح» لنجاح المؤمنين، تأكيد أقوى

أى إنّ نجاحهم طبيعى و كأنّه تحقّق من قبل. و جاءت كلمة (قد) أيضا لتأكيد هذا الموضوع ثانية. و جاءت عبارات (خاشعون) و (معرضون) و (راعون) و (يحافظون) بصيغة اسم فاعل أو فعل مضارع دليلا على أنّ هذه الصفات البارزة ليست مؤقتة فى المؤمنين الحقيقيين، بل هى دائمة فيهم.

۲- الزوجة الدائمة و المؤقتة

يستفاد من الآيات المذكورة أعلاه على أنّ هناك نوعين من النساء يجوز الدخول بهما: الأولى الزوجات، و الثّانية الجوارى (بشروط خاصّة)، لهذا استندت الكتب الفقهيّة على هذه الآية فى مواضيع عديدة خلال بحث النكاح.

و لكن بعض المفسّرين و الفقهاء من أهل السنّة حاولوا الاستفادة من هذه الآية فى إثبات حرمة الزواج المؤقت.

و مع ملاحظة هذه الحقيقة، و هى أنّ من الثابت المسلّم به هو أنّ الزواج المؤقت (المتعة) كان حلالا على عهد الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لم ينكره أحد من المسلمين، إلّا أنّ البعض يرى أنّه كان فى صدر الإسلام و عمل به الكثير من الصحابة، إلّا أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۵

نسخ، و قال آخرون: إنّ عمر بن الخطاب منعه.

و مفهوم كلام هذه المجموعة من المفسّرين السنّة- بعد ملاحظة هذه الحقائق- هو أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم (و العياذ باللّه) أجاز الزنا فى أقلّ تقدير لفترة محدّدة، و هذا غير صحيح أبدا.

إضافة إلى أنّ «المتعة» خلافا لتصوّر هؤلاء، هى نوع من الزواج المؤقت بعظم شروط الزواج الدائم، و على هذا فإنّ عبارة: إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ هى بالتأكيد تتضمّنه. و لهذا السبب تستخدم صيغ الزواج الدائم (أنكحت و زوّجت) مع ذكر مدّة الزواج عند قراءة صيغة الزواج المؤقت، و هذا خير دليل على كون المتعة زواجا.

و قد بيّنا بالتفصيل الأمور المتعلّقة بالزواج المؤقت و أدلّته الشرعيّة فى الإسلام، و عدم نسخ هذا الحكم الإلهى، و كذلك فلسفته الاجتماعية، فى تفسير الآية (۲۴) من سورة النساء.

۳- الخشوع روح الصلاة

إذا اعتبر الركوع و السجود و القراءة و التسبيح جسم الصلاة، فالتوجّه الباطنى إلى حقيقة الصلاة، و إلى من يناجيه المصلّى، هو روح الصلاة. و الخشوع ما هو إلّا توجّه باطنى مع تواضع. و على هذا يتبيّن أنّ المؤمنين لا ينظرون إلى الصلاة كجسم بلا روح، بل إنّ جميع

توجّههم إلى حقيقة الصلاة و باطنها.

و هناك عدد كبير من الناس يودّ بشوق بالغ أن يكون خاشعا فى صلاته، إلّا أنّه لا يتمكّن من تحقيق ذلك.

و لتحقيق الخشوع و التوجّه التامّ إلى اللّه فى الصلاة و فى سائر العبادات، أوصى بما يلى:

۱- نيل معرفة تجعل الدنيا فى عين المرء صغيرة تافهة، و تجعل اللّه كبيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۶

عظيما، حتّى لا تشغله الدنيا بما فيها عن الذوبان فى اللّه عند مناجاته و عبادته.

۲- الاهتمام بالأمور المختلفة يمنع الإنسان من تركيز أفكاره و حواسّه، و كلّما تمكّن الإنسان من التخلّص من مشاغله حصل على توجّه إلى اللّه فى العبادة.

۳- إختيار مكان الصلاة و سائر العبادات له أثر كبير فى هذه المسألة، لهذا فإنّ الصلاة مع انشغال البال بغيرها تعدّ مكروهة، و كذلك فى موضع مرور الناس أو قبال المرآة و الصورة، و لهذا الأسباب تكون المساجد الإسلامية أفضل إن كانت أبسط بناء و أقلّ زخرفة و أبّهة، ليكون التوجّه كلّه للّه فاطر السموات و الأرض.

۴- اجتناب المعاصى عامل مؤثّر فى التوجّه إلى اللّه، لأنّ المعصية و الذنب تبعد الشقّة بين قلب المسلم و خالقه.

۵- معرفة معنى الصلاة و فلسفة حركاتها و الذكر عامل مؤثّر كبير على ذلك.

۶- و يساعد على ذلك أداء المستحبّات، سواء كانت قبل الدخول فى الصلاة أو فى أثنائها.

۷- و على كلّ حال فإنّ هذا العمل هو كبقيّة الأعمال الأخرى يحتاج إلى تمرين متواصل، و يحدث كثيرا أن يحصل الإنسان على قدرة التركيز الفكرى فى لحظة من لحظات الصلاة، و بمواصلة هذا العمل و متابعته يحصل على قدرة ذاتية يمكنه بها إغلاق أبواب فكره فى أثناء الصلاة إلّا على خالقه (فتأمّلوا جيدا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۲ الى ۱۶]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (۱۲) ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ (۱۳) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (۱۴) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ (۱۵) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ (۱۶)

التّفسير

مراحل تكامل الجنين فى الرحم:

إنّ ذكر الآيات السابقة أوصاف المؤمنين الحقيقيين، و ما يمنحهم اللّه من جزاء عظيم يبعث فى القلوب الشوق للالتحاق بصفوفهم، لكن بأى طريق؟

تبيّن الآيات موضع البحث- و قسم من الآيات التالية لها- السبيل لكسب الإيمان و المعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» و ليكشف له أسرار باطنه و هو «السير الأنفسى»، و تثير الآيات التالية لها انتباه الإنسان إلى عالم الظاهر و المخلوقات

المدهشة فى عالم الوجود و سبر عالم الآفاق، و هو «السير الآفاقى».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۸

تقول الآيات أوّلا: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ۳۳۹].

أجل، إنّ هذه الخطوة الأولى التى خلق اللّه فيها الإنسان بكلّ عظمته و استعداده و جدارته و الذى يعتبر أفضل مخلوقاته من تراب مهين لا قدر و لا قيمة له، و هكذا تجلّت قدرته سبحانه و تعالى فى هذا الخلق البديع.

و تضيف الآية التالية ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ

و فى الواقع فانّ الآية الأولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم و أبنائه و أنّهم خلقوا جميعا من التراب، إلّا أنّ الآية التالية تشير إلى تداوم و استمرارية نسل الإنسان بواسطة تركيب نطفة الذكر ببويضة الأنثى فى الرحم.

و هذا البحث يشبه ما جاء فى الآيتين السابعة و الثامنة من سورة السجدة وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ

و التعبير عن الرحم ب «قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشارة إلى أهميّة الرحم فى الجسم، حيث يقع فى مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقرى من جهة، و عظم الحوض القوى من جهة أخرى، و أغشية البطن العديدة من جهة ثالثة، و دفاع اليدين يشكّل حرزا رابعا له. و كلّ ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثمّ تشير الآية الثّالثة إلى المراحل المدهشة و المثيرة لتدرّج النطفة فى مراحلها المختلفة، و اتّخاذها شكلا معيّنا فى كلّ منها فى ذلك القرار المكين، حيث تقول: إنّنا جعلنا من تلك النطفة على شكل قطعة دم متخثّر (علقة) ثمّ بدّلناها على شكل قطعة لحم ممضوغ (مضغة)، ثمّ جعلنا من هذه المضغة عظاما، و أخيرا ألبسنا هذه العظام لحما: ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۲۹

هذه المراحل الأربعة المختلفة مضافا إلى مرحلة النطفة تشكّل خمس مراحل، كلّ منها عالم عجيب بذاته ملى بالعجائب بحثت بدقّة فى على الجنين، و ألّفت بصددها كتب و بحوث عميقة فى عصرنا، إلّا أنّ القرآن تكلّم عن هذه المراحل المختلفة لجنين الإنسان، و بيّن عجائبه يوم لم يولد هذا العلم و لا يكن له أثر.

و فى الختام أشارت الآية إلى آخر مرحلة و التى تعتبر- فى الحقيقة- أهمّ مرحلة فى خلق البشر، بعبارة عميقة و ذات معنى كبير ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ و فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

مرحبا بهذه القدرة الفريدة، التى خلقت فى ظلمات الرحم هذه الصورة البديعة، و صاغت من قطرة ماء كلّ هذه الأمور المدهشة.

طوبى لهذا العلم و الحكمة و التدبير، الذى خلق فى هذا الموجود البسيط كلّ هذه القابليات و الجدارة. تعالى اللّه فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

و جدير بالذكر أنّ كلمة «الخالق» مشتقّة من «الخلق» و تعنى بالأصل التقدير[۳۴۰]، حيث تطلق هذه الكلمة عند ما يراد تقطيع قطعة من الجلد فينبغى على الشخص أن يقيس أبعاد القطعة المطلوبة ثمّ يقطعها، فيستخدم لفظ «الخلق» بمعنى التقدير، لأهميّة تقدير أبعاد الشىء، قبل قطعه.

أمّا عبارة أَحْسَنُ الْخالِقِينَ فتثير هذا التساؤل: هل يوجد خالق غير اللّه؟! وضع بعض المفسّرين تبريرات لهذه الآية فى وقت لا حاجة فيه لهذه التبريرات، لأنّ كلمة «الخلق» بمعنى التقدير و الصنع، و يصحّ ذلك بالنسبة لغير اللّه، إلّا أنّ هناك اختلافا جوهريا بين الخلقين ... يخلق اللّه المواد و صورها، بينما يصنع الإنسان أشياءه ممّا خلق اللّه، فهو يغيّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۰

صورها. كمن يبنى دارا حيث يستخدم موادا أوّلية كالجصّ و الآجر، أو يصنع من الحديد سيارة أو ماكنة.

و من جهة أخرى لا حدود لخلق اللّه اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ سورة الرعد الآية (۱۶) فى وقت نجد ما صنعه الإنسان محدودا جدّا، و فى كثير من الأحيان يجد الإنسان فيما خلقه هو نقصا يجب سدّه فيما بعد، إلّا أنّ اللّه يبدع الخلق دون أى نقص أو عيب.

ثمّ إنّ قدرة الإنسان على صنع الأشياء جاءت بإذن من اللّه، حيث كلّ شىء فى العالم يتحرّك بإذن اللّه، حتّى الورق على الشجر، كما نقرأ فى سورة المائدة الآية (۱۱۰) عن المسيح عليه السّلام وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي

و تنتقل الآية التالية من تناول مسألة التوحيد و معرفة المبدأ- بشكل دقيق و جميل- إلى مسألة المعاد حيث تقول: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذلِكَ لَمَيِّتُونَ

و من أجل أن لا يعتقد المرء بأنّ الموت نهاية كلّ شىء، تقول الآية: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ أى إنّ خلقكم بهذه الصورة المدهشة لم يكن عبثا أو لتعيشوا أيّاما معدودات، فتضيف الآية أنّكم ستبعثون يوم القيامة فى مستوى أعلى و فى عالم أوسع.

بحوث

۱- اتّباع المبدأ و المعاد بدليل واحد

استخدمت الآيات المذكورة أعلاه لإثبات وجود اللّه و قدرته و عظمته نفس الدليل الذى استخدمته سورة الحجّ لإثبات المعاد، و هو مسألة المراحل المختلفة لخلق الإنسان فى علام الجنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۱

كما انتقلت آخر هذه الآيات إلى بحث مسألة المعاد[۳۴۱].

أجل، يمكن أن تعرف عظمة اللّه فى خلق الإنسان فى ظلمات الرحم، و اتّخاذه فى كلّ مرحلة صورة جديدة مدهشة، و كأنّ عشرات الأشخاص من رسّامين و صنّاع مبدعين التفّوا حول هذه القطرة من الماء، و عملوا ليل نهار ليخرجوها بهذه الصورة البديعة، و لتمرّ من صورة إلى أخرى أبدع، حتّى تمرّ فى مختلف مراحل الحياة.

و إذا تمكّنا من تصوير مراحل نمو الجنين بشكل كامل فى فيلم سينمائى، و عرضناها لفهمنا مدى العجائب التى تكمن فى هذا العمل.

و بتقدّم علم الجنين فى عصرنا و دراسات العلماء و تجاربهم المختبرية على هذا الأمر، اتّضحت الكثير من الغوامض التى عند ما يطّلع عليها المرء يصرخ دون إرادته فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ هذا من جهة.

و من جهة ثانية نلاحظ الخلق المتعاقب و اتّخاذه صورة جديدة فى كلّ مرحلة، و بالتالى ظهور إنسان للوجود كامل الخلق من تلك القطرة الصغيرة من الماء ... كلّ ذلك يدلّ على قدرة اللّه على بعث الإنسان ثانية إلى الحياة. و بهذا يمكن البرهنة بدليل واحد على مسألتين ۳۴۲].

۲- آخر مرحلة فى تكامل جنين الإنسان فى الرحم

ممّا يلفت النظر استخدام الآيات السابقة لمراحل الجنين الخمسة تعبير «الخلق»، فى حين استخدمت كلمة «الإنشاء» لآخر مرحلة، و كما ذكر اللغويون فإنّ كلمة «الإنشاء» تعنى (خلق الشىء مع تربيته) و هذا التعبير يدلّ على اختلاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۲

هـذه المرحلـة عن المراحـل السابقـة (مرحلـة النطفـة و العلقـة و المضـغة و اللحم و العظم) اختلافا بيّنا. مرحلـة ذكرها القرآن فى عبارة مؤجزة ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ و يعقّب ذلك مباشرة بالقول: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

ما هذه المرحلة التى تمتاز بهذه الأهميّة؟

إنّها مرحلة يدخل فيها الجنين مرحلة الحياة الإنسانيّة، يكون له إحساس و حركة، و بتعبير الأحاديث الإسلامية «نفخ الروح».

هنا يترك الإنسان حياته النباتية بقفزة واحدة ليدخل عالم الحيوان، و منه إلى عالم الإنسانية، و تتباعد الشـقّة مع المرحلة السابقة بدرجة استخدمت الآيـة لها عبارة (ثمّ أنشأنا) لأنّ عبارة (ثمّ خلقنا) لم تعدّ كافية. حيث يتّخذ الإنسان فى هذه المرحلة شكلا خاصا يرفعه عن المخلوقات الأخرى، ليكون جديرا بخلافة اللّه فى الأرض، و ليحمل الأمانة التى تخلّت عنها الجبال و السموات، لعدم استطاعتها حملها.

و هنا انطوى «العالم الكبير» فى «الجرم الصغير» بكلّ عجائبه، فيكون جديرا حقّا بعبارة فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

۳- كساء اللحم فوق العظام

ذكر مفسّر (فى ضلال القرآن) عند تفسير هذه الآية جملة مدهشة هى أنّ الجنين بعد قطعه مرحلة «العلقة» و «المضغة» تتبدّل خلاياه إلى خلايا عظميّة، ثمّ تكتسى بالتدريج بالعضلات و اللحم. لهذا فإنّ عبارة فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً معجزة علمية تكشف سرّا لم يكن يعلم به أى شخص حتّى ذلك الزمن. لأنّ القرآن لم يقل: أبدلنا المضغة عظما و لحما، بل قال: فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً أى تبدّلت المضغة إلى عظام أوّلا، ثمّ اكتست باللحم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۳

۴- اللباس صيانة للعظام!

إنّ استخدام اللباس للتعبير عن العضلات و اللحم يكشف لنا حقيقة قباحة شكل الإنسان إن فقد هذا اللباس الذى يكسوا العظام (فيصبح هيكلا عظميا مرعبا كما شاهدناه جميعا أو شاهدنا صورته) إضافة إلى ذلك فإنّ اللباس يحمى الجسم، و هكذا اللحم و العضلات تحمى العظام، و بفقدانها تتلقّى العظام ضربات تؤدّى إلى كسرها، و يؤدّى اللحم وظيفة اللباس بالنسبة للعظام فى المحافظة عليها من الحرّ و البرد. و هذا كلّه يبيّن لنا قوّة التعبير القرآنى و دقّته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۴

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۷ الى ۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ (۱۷) وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ (۱۸) فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۱۹) وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ (۲۰) وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۲۱) وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۲۲)

التّفسير

مرّة أخرى مع علائم التوحيد:

قلنا: إنّ القرآن تناول سبل كسب الإيمان بعد ذكر صفات المؤمنين، كما تحدّثت الآيات السابقة عن الآيات اللّه العظيمة فى وجودنا، و تناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر و آفاق الكون، و عظمة خلق الأرض و السموات، حيث قالت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۵

الآية الأولى: وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ

و «الطرائق» جمع «طريقة» بمعنى سبيل أو طبقة، و لو أجزنا المعنى الأوّل للطرائق، يصبح معنى الآية، أنّنا خلقنا فوقكم سبلا سبعة، و يمكن أن تفسّر بأنّها سبل مرور الملائكة، كما يمكن أن تكون مدارات لنجوم السّماء، و بحسب المعنى الثّانى للطرائق، فإنّ الآية تعنى طبقات السّماء السبع.

و قد تحدّثنا عن السماوات السبع قبل هذا كثيرا، و إذا كان القصد من العدد «سبعة» الكثرة، فيكون معنى الآية أنّنا خلقنا فوقكم عوالم كثيرة من النجوم و الكواكب و السيارات، و عبارة الطبقة لا تعنى نظرية «بطلميوس» الذى صوّرها و كأنّها قشرة بصل الواحدة فوق الأخرى. فإنّ القرآن لم يقصد هذا المعنى أبدا، بل يقصد بالطرائق و الطبقات العوالم التى تحيط بالأرض بفواصل محدّدة، و هى بالنسبة لنا الواحدة فوق الاخرى، بعضها قريب و البعض الآخر بعيد عنّا. و إذا كان العدد «سبعة» قد استخدم فى الآية للتعداد، فتعنى الآية أنّنا خلقنا ستّة عوالم فوقكم إضافة إلى عالمكم الذى ترونه (مجموعة الثوابت و السيارات و المجرّات).

و هذه العوالم لم يبلغها الإنسان حتّى الآن.

و لو دقّقنا بخارطة المنظومة الشمسية. و تفحّصنا مواقع السيارات المختلفة حول الشمس، لعثرنا على تفسير آخر لهذه الآية، هو أنّ من هذه السيارات التسع التى تدور حول الشمس، اثنان هما عطارد و الزهرة لهما مداران تحت مدار الأرض، فى الوقت الذى تتّخذ فيه السيارات الست الاخرى مداراتها خارج مدار الأرض، و هى تشبه طبقات ستّ إحداها فوق الاخرى، و إضافة إلى مدار القمر الذى يدور حول الأرض تصبح المدارات سبعة، و كأنّها طبقات سبع ۳۴۳].

و ربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعة و العظمة ألا يوجب أن يغفل اللّه تعالى عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۶

إدارته؟

فتجيب الآية مباشرة وَ ما كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِينَ إنّ الاستناد هنا إلى مسألة الخلق، إشارة إلى أنّ قضيّة خلق الكون بنفسها دليل على علم اللّه تعالى بمخلوقاته و توجّهه إليها: فهل يمكن أن يغفل الخالق عن مخلوقاته؟! و يمكن أن تقصد الآية أنّنا نملك سبلا كثيرة لتردّد الملائكة من فوقكم، و لسنا غافلين عنكم، كما أنّ ملائكتنا مشرفة عليكم و تشهد أعمالكم.

و أشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهيّة، الذى يعتبر من بركات السموات و الأرض، ألا و هو المطر، حيث تقول: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ.

أنزلنا المطر بقدر لا يغرق الأرض من كثرته، و ليس قليلا بحيث لا يكفى لرى النباتات و الحيوانات. أجل لو انتقلنا من البحث حول السّماء إلى الأرض لوجدنا الماء من أهمّ الهبات الإلهيّة، و أصل حياة جميع المخلوقات، و بهذا الصدد أشارت الآية إلى قضيّة أكثر أهميّة، هى قضيّة احتياطى المياه الجوفية فتقول: فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلى ذَهابٍ بِهِ لَقادِرُونَ

نحن نعلم أنّ القشرة السطحيّة من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إحداهما نفوذية و أخرى غير نفوذية. و لو كانت القشرة الأرضية جميعا نفوذية لنفذ المطر إلى جوف الأرض فورا، ثمّ يظهر الجفاف بعد هطول المطر و إن استغرق مدّة طويلة ... حيث لا نعثر على ذرّة من الماء! و لو كان سطح الأرض من طين أحمر لبقى المطر فوق سطح الأرض و تلوّث و تعفّن و شدّة الخناق على الإنسان، و أصبح سببا لموت الإنسان فى الوقت الذى هو أصل الحياة.

إلّا أنّ اللّه الرحيم جعل القشرة الأولى من سطح الأرض نافذة، و تليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفية، فتكون احتياطا للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۷

توجّه للإنسان أقلّ أذى ۳۴۴].

و يحتمل أن يكون هذا الماء الذى نرتوى به بعد إخراجه من أعماق الأرض من قطرات مطر نزل قبل آلاف السنين و خزن فى أعماق الأرض حتّى اليوم، دون أن يتعرّض لتلوّث أو فساد.

و على كلّ حال فإنّ الذى خلق الإنسان ليحيا، و جعل الماء أساسا لحياته، بل أكثرها أهميّة، خلق له مصادر كثيرة من هذه المادّة الحيوية و خزنها له قبل أن يخلقه! و بالطبع هناك احتياطى من هذه المادّة الحيوية فوق قمم الجبال (على شكل ثلوج). تراه يذوب خلال السنة و ينحدر إلى السهور، و قسم آخر لا زال فوق قمم الجبال منذ مئات بل آلاف السنين، ينتظر الأمر بالذوبان على أثر تغيير حرارة الجو لينحدر إلى السهول و الوديان ليروى الأرض و يزل العطش عنها.

و بملاحظة حرف الجر «فى» فى عبارة «فى الأرض» يبدو لنا أنّ الآية تشير إلى مصادر المياه الجوفية و ليس السطحية.

و تشير الآية التالية إلى الخير و البركة فى نعمة المطر، أى المحاصيل الزراعية الناتجة عنه فتقول: فَأَنْشَأْنا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ لَكُمْ فِيها فَواكِهُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ فمضافا إلى التمر و العنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعية فانّ فيها أنواع أخرى من الفواكه كثيرة.

و لعلّ عبارة وَ مِنْها تَأْكُلُونَ إشارة إلى أنّ محاصيل هذه الجنّات ذات الخيرات الواسعة لا تنحصر بالفواكه المأكولة فقط، و أنّ المأكولات تشكّل قسما من خيراتها، فهذه البساتين (و منها بساتين النخيل) لها فوائد كثيرة أخرى لحياة الإنسان، حيث يصنع الإنسان أوراقها حصرا يجلس عليها، و أحيانا يصنع منها لباسا لنفسه، و يعمل من أخشابها منازل لسكناه. و يستخرج دواءه من بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۸

جذورها و أوراقها و فاكهتها. كما يستخدم الكثير منها كعلف لحيواناته، و من أخشابها مادّة للوقود.

و يعطى الفخر الرازى فى تفسيره احتمال قصد الآية مِنْها تَأْكُلُونَ أنّ حياتكم و معيشتكم تعتمد على هذه البساتين، مثلما أنّ فلانا يعتاش على العمل الفلانى، أى إنّ حياته تعتمد على ذلك العمل ۳۴۵].

و ممّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان فى ماء النطفة، و منشأ حياة النبات من ماء المطر، و فى الحقيقة ينبع هذان النموذجان للحياة من الماء. أجل إنّ حكم اللّه و قانونه واحد فى كلّ شىء.

ثمّ تشير الآية التالية إلى شجرة مباركة أخرى نمت من ماء المطر، إضافة إلى بساتين النخيل و الكروم و الأشجار و الفاكهة الاخرى وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۳۴۶].

ماذا يقصد ب طُورِ سَيْناءَ؟

ذكر المفسّرون لهذه الكلمة احتمالين: الأوّل: أنّها إشارة إلى جبل الطور المعروف فى صحراء سيناء. و إذا وصف القرآن المجيد شجرة الزيتون باعتبارها الشجرة التى تنمو فى جبل الطور، لأنّ عرب الحجاز كانوا يمرّون بهذه الأشجار المباركة عند ما كانوا يتوجّهون إلى الشمال، حيث تقع منطقة الطور فى جنوب صحراء سيناء كما يدلّ على ذلك موقعها الجغرافى بوضوح.

و الاحتمال الثّانى: طور سيناء ذات جانب و صفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ

«الطور» يعنى الجبل، و «سيناء» تعنى ذات البركة و الجمال و الشجر).

و كلمة «صبغ» تعنى فى الأصل اللون، و بما أنّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۳۹

لهذا أطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ. و على كلّ حال فكلمة «الصبغ» ربّما تكون إشارة إلى زيت الزيتون الذى يؤكل مع الخبز، أو أنواع الخبز مع المرق الذى يحضر من أشجار أخرى.

و هنا يواجهنا سؤال: لماذا أكّد على ثلاث فواكه هى: التمر و العنب و الزيتون؟

فى الجواب على ذلك لا بدّ من الاهتمام بمسألة علميّة، هى أنّ علماء التغذية أكّدوا أنّه من النّادر أن نجد فاكهة مفيدة لجسم الإنسان بقدر فائدة هذه الفواكه الثلاثة.

فلزيت الزيتون أهميّة فائقة فى إنتاج الطاقة و بناء الجسم، لأنّ الحرارة الناتجة عن تناوله كبيرة، و هو صديق حميم للكبد، و يزيل أمراض الكلية و يحميها، و يقوّى الأعصاب، و أخيرا يعتبر إكسير السلامة.

أمّا التمور فقد و صفت بدرجة لا يسعها هذا الموجز، فسكّرها من أفضل أنواع السكر و أسلمها، و يرى عدد كبير من خبراء التغذية أنّ التمور من الأسباب التى تحول دون الإصابة بالأمراض السرطانية، حيث كشف العلماء فى التمور ثلاث عشرة مادّة حيوية، و خمسة أنواع من الفيتامينات، و بهذا تعتبر مصدرا غنيّا بالمواد الغذائية.

أمّا الأعناب فتعبّر- كما يراه بعض العلماء- صيدلية طبيعيّة، فخواصها تشبه حليب الامّ، و تولّد طاقة حرارية فى الجسم تعادل ضعف ما تولده اللحوم، و تصفّى الدم، و تدفع السموم عن البدن، و تمنح فيتاميناته الإنسان قوّة و طاقة مثلى ۳۴۷].

بعد بيان جانب من أنعم اللّه فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلى ذلك بحث جانب مهمّ من أنعم اللّه و هباته فى عالم الحيوان وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً[۳۴۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۰

ثمّ تشريح الآية «العبرة» فتقول: نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِها. أجل إنّ الحيوان يدرّ حليبا لذيذا يعتبر غذاء كاملا، و يمنح الجسم حرارة كبيرة، و يخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدرة اللّه حيث يتمكّن بها من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوّثة.

ثمّ تضيف الآية وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ كَثِيرَةٌ وَ مِنْها تَأْكُلُونَ إضافة إلى اللحم الذى يعتبر من أجزاء الغذاء الرئيسيّة التى يحتاجها الجسم، يستفاد من جلود الحيوان فى صنع اللباس و الخيم القويّة ذات العمر الطويل. كما يستفاد من صوفها فى صنع الملابس و الفرش و الأغطية. و يصنع من أجزاء بدنها الدواء، و يستفاد حتّى من روثها لتسميد الأشجار و النباتات.

كما يستفاد من الحيوانات فى الركوب فى البرّ، و السفن فى البحر وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۳۴۹].

كلّ هذه الخصائص و الفوائد فى الحيوان تعتبر- حقّا- عبرة لنا، تعرف الإنسان على ما خلق اللّه من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر و الثناء على اللّه ۳۵۰].

السؤال الوحيد المتبقّى هو: كيف أصبحت الدواب و السفن فى مستوى واحد؟

إذا لا حظنا مسألة واحدة فسيكون الردّ واضحا، و هى أنّ الإنسان بحاجة إلى مركب فى حياته، مرّة فى البر، و أخرى فى البحر و هى السفن.

و هذا التعبير هو ذاته الذى استخدم فى الآية (۷۰) من سورة الإسراء حين ذكر ما وهبه اللّه بنى آدم وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۱

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۲۳) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۲۴) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (۲۵)

التّفسير

منطق الجبناء المغرورين:

تحدّثت الآيات السابقة عن التوحيد و معرفة اللّه و أسباب عظمته فى عالم الخليقة، أمّا الآيات- موضوع البحث و الآيات المقبلة- فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء و من خلال تاريخ حياتهم.

حيث بدأت بأوّل الأنبياء أولى العزم و المنادى بالتوحيد «نوح» عليه السّلام وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ و أَ فَلا تَتَّقُونَ أى مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

أمّا الأشراف الأثرياء و المغرورون و الملأ من الناس، و هم اللذين يملأون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۲

العين فى ظاهرهم، و الفارغون فى واقعهم من قوم نوح عليه السّلام فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ

و بهذا اعتبروا أوّل عيب له كونه إنسانا فاتّهموه بالسلطوية، و حديثه عن اللّه و التوحيد و الدين و العقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثمّ أضافوا وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً و لإتمام هذا الاستدلال الخاوى قالوا: ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثّر فى معنويات هذا النّبى الكبير، حيث واصل دعوته إلى اللّه، و لم يكن فى عمله دليل على رغبته فى الحصول على امتياز على الآخرين، أو أن يتسلّط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة أخرى إليه، هى الجنون الذى كان يتّهم به جميع أنبياء اللّه عبر التاريخ، حيث قالوا:

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ

و استخدم المشركون تعبير بِهِ جِنَّةٌ ضدّ هذا النّبى المرسل أى به (نوع من أنواع الجنون) ليغطّوا على حقيقة واضحة، فكلام نوح عليه السّلام خير دليل على رجحان علمه و عقله، و كانوا يبغون- فى الحقيقة- أن يقولوا: كلّ هذه الأمور صحيحة، إلّا أنّ الجنون فنون له صورا متباينة قد يقترن أحدها بالعقل!! أمّا عبارة فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ فقد تكون إشارة إلى انتظار موت نوح عليه السّلام من قبل المخالفين الذين ترقّبوا موته لحظة بعد أخرى ليريحوا أنفسهم، و يمكن أن تعنى تأكيدا منهم لجنونه، فقالوا: انتظروا حتّى يشفى من هذا المرض ۳۵۱].

و على كلّ حال فإنّ المخالفين وجّهوا إلى نوح عليه السّلام ثلاثة اتّهامات واهية متناقضة، و اعتبروا كلّ واحد منها دليلا ينفى رسالته:

الأوّل: إنّ ادّعاء البشر بأنّهم رسل اللّه ادّعاء كاذب، حيث لم يحدث مثل هذا فى السابق، و لو شاء اللّه ذلك لبعث ملائكته رسلا إلى الناس!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۳

و الثّانى: إنّه رجل سلطوى، و كلامه ادّعاء لتحقيق هدفه! و الثّالث: إنّه لا يملك عقلا سليما، و كلّ ما يقوله هو كلام عابر! و بما أنّ جواب هذه الاتّهامات الواهية أمر واضح جدّا، و قد جاء فى آيات قرآنية أخرى، لهذا لم يتطرّق إلى ردّها فى هذه الآيات. لأنّه من المؤكّد- من جهة- أن يكون قائد الناس أحدهم و من جنسهم، ليكون على علم بمشاكلهم و يحسّ بآلامهم، إضافة إلى ذلك فإنّ جميع الأنبياء كانوا من البشر. و من جهة أخرى يتّضح لنا خلال تصفّح تأريخ الأنبياء و استعراض حياتهم، أنّ قضيّة الاخوّة و التواضع، تنفى أيّة صفة سلطوية عنهم، كما ثبت رجحان عقلهم و تدبيرهم حتّى عند أعدائهم، حيث نجدهم يعترفون بذلك خلال أقوالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

قالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِما كَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلاً مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۲۹) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (۳۰)

التّفسير

خاتمة حياة قوم معاندين:

أطّلعنا من الآيات السابقة على التهم التى وجّهها أعداء نوح عليه السّلام إليه. إلّا أنّه يستدلّ من آيات قرآنية أخرى- بشكل واضح- أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السّلام لم يتحدّد بهذه الأمور، بل شمل كلّ وسيلة يمكن بها إيذاؤه، فى حين بذل- سلام اللّه عليه- جميع ما فى وسعه فى سبيل هدايتهم و إنقاذهم من براثن الشرك و الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۵

و عند ما يئس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّا مجموعة صغيرة، دعا اللّه ليعينه، حيث نقرأ فى الآية الأولى قالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِما كَذَّبُونِ ۳۵۲].

هنا نزل الوحى الإلهى، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السّلام و أصحابه القلّة و هلاك المشركين المعاندين فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا.

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك فى هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا، فاعمل باطمئنان و راحة بال و لا تخف من أى شىء.

و استعمال عبارة «و حينا» يكشف لنا أنّ نوحا عليه السّلام تعلّم صنع السفينة بالوحى الإلهى، لأنّ التأريخ لم يذكر أنّ الإنسان استطاع صنع مثل هذه الوسيلة حتّى ذلك الوقت. و لهذا السبب صنع نوح عليه السّلام السفينة بشكل يناسب غايته فى صنعها، و لتكون فى غاية الكمال! ثمّ تواصل الآية بأنّه إذا جاء أمر اللّه، و علامة ذلك فوران الماء فى التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كلّ نوع من الحيوانات زوجا (ذكر و أنثى) و اصعد به إلى السفينة: فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ إشارة إلى زوج نوح عليه السّلام و أحد أبنائه، ثمّ أضافت الآية:

وَ لا تُخاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ و هذا التحذير جاء حتّى لا يقع نوح عليه السّلام تحت تأثير العاطفة الإنسانية، عاطفة الابوّة،

أو عاطفته نحو زوجته ليشفع لهما، فى وقت افتقدا فيه لحقّ الشفاعة.

و تقول الآية التالية: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

و بعد الحمد و الثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالب الظلمة، ادعوه هكذا وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۶

كلمة «منزل» ربّما كانت اسم مكان، أى: بعد الطوفان ندعو اللّه لينزلنا فى أرض ذات خيرات واسعة، لنحيا فيها بسعادة و هدوء.

كما يمكن أن تكون مصدرا ميميّا أى: أنزلنا بشكل لائق، لأنّ هناك أخطارا تهدّد ركّاب هذه السفينة بعد رسوها فى ختام الطوفان، كعدم مكان للسكن، أو النقص فى الغذاء، أو التعرّض للأمراض، لهذا دعا نوح عليه السّلام ربّه لينزله منزلا مباركا.

و قد أشارت الآية الأخيرة- من الآيات موضع البحث- إلى مجمل هذه القصّة فقالت: إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ ففى هذه الحوادث التى جرت على نوح عليه السّلام و انتصاره على أعدائه الظالمين، و نزول أشدّ أنواع العقاب عليهم- آيات و دلائل لأصحاب العقول السليمة.

وَ إِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ أى إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع. و قد تكون هذه الجملة إشارة إلى إمتحان اللّه لقوم نوح مرارا، و عند ما أخفقوا فى الامتحان أهلكهم إلّا المؤمنين.

كما قد تكون إشارة إلى امتحان اللّه لجميع البشر فى كلّ زمان و مكان، و ما جاء فى هذه الآيات لم يكن خاصّا بالناس فى زمن نوح عليه السّلام، بل يشمل الناس فى جميع الدهور. فيهلك من كان عائقا فى طريق تكامل البشرية و ليواصل الأخيار سيرهم الطبيعى.

و اكتفت الآيات هنا بقضيّة بناء السفينة و دخول نوح عليه السّلام و أصحابه إليها، إلّا أنّها لم تشر إلى مصير المذنبين، و لم تتحدّث عنهم بالتفصيل، و إنّما اكتفت بالقول بأنّهم لقوا ما وعدهم اللّه إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ لأنّ هذا الوعد مؤكّد لا يقبل النقض.

و لا بدّ من القول بأنّ هناك حديثا واسعا عن قوم نوح و موقفهم إزاء هذا النّبى الكبير، و مصيرهم المؤلم، و قصّة السفينة، و فوران الماء من التنور، و حدوث الطوفان، و غرق ابن نوح عليه السّلام. و قد بيّنا قسما كبيرا منه فى تفسير سورة هود، و سنذكر قسما آخر فى تفسير سورة نوح إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۳۱ الى ۴۱]

اشارة

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (۳۱) فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۳۲) وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (۳۳) وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ (۳۴) أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ (۳۵)

هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ (۳۶) إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (۳۷) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (۳۸) قالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِما كَذَّبُونِ (۳۹) قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ (۴۰)

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۸

التّفسير

المصير المؤلم لقوم ثمود:

تحدّثت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السّلام. و منطقهم يتناغم و منطق الكفّار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة.

فهى تقول أوّلا: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ

«القرن» مشتقّ من الاقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، كما تطلق هذه الكلمة على عصر هؤلاء، و قياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتّبع ما تعارفته الأقوام المختلفة.

و بما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّانى، فقد بعث اللّه أنبياءه يدعون إلى توحيده و يقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية:

فَأَرْسَلْنا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ

و هذه هى الركيزة الأساسيّة لدعوة الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، اسّ جميع الإصلاحات الفردية و الاجتماعية، و بعدها أكّد رسل اللّه لهم القول: إنّكم و بعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك و عبادة الأوثان: أَ فَلا تَتَّقُونَ

أمّا أىّ قوم كان هؤلاء؟ و من هو نبيّهم؟

قال المفسّرون بعد دراسة الآيات المشابهة لهذه الآية: هناك احتمالان:

الأوّل: أنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، و بعث اللّه النّبى «صالح» عليه السّلام لهدايتهم، إلّا أنّهم كفروا و طغوا فأهلكهم اللّه بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة) و شاهد هذا التّفسير و دليله هو الصيحة التى ذكرت فى ختام الآيات موضع البحث، و التى جاءت فى سورة هود الآية (۶۷) حيث خصّت قوم صالح عليه السّلام.

و الاحتمال الثّانى: خصها بقوم «عاد» الذين كان نبيّهم «هود» عليه السّلام، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۴۹

ذكرتهم آيات قرآنية مباشرة بعد سرد قصّة نوح عليه السّلام، و هذا دليل على صحّة هذا التّفسير[۳۵۳]، إلّا أنّ عقاب قوم عاد كما جاء فى الآيتين السادسة و السابعة من سورة «الحاقة»، كان ريحا شديدا استمرّ سبعة أيّام فدمّرهم عن بكرة أبيهم، إذن فالتّفسير الأوّل هو الأصحّ.

و لننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذى أعلنه هذا النّبى الكبير؟

يقول القرآن فى الآية التالية: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ الْآخِرَةِ وَ أَتْرَفْناهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ

أجل إنّ القوم الذين عاشوا فى رفاه مطلق دعاهم القرآن باسم الملأ (ترى ظاهرهم يملأ العين، إلّا أنّ باطنهم خاو من النور).

و بما أنّهم كانوا يرون فى دعوة نبى اللّه خلافا لأهوائهم و منافسة لمصالحهم العدوانية و تسلّطهم الذى لا مبرّر له، و قد أترفوا فبعدوا عن ذكر اللّه، و أنكروا الآخرة، فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح، فقد رأوا فى بشرية القادة الربانيّين و تناولهم الطعام كباقى الناس دليلا على بطلان نبوّة هؤلاء، فى حين أنّ هذا الأمر بحدّ ذاته مؤيّد على كون هؤلاء الرجال العظام حملة رسالة من اللّه إلى الناس، و لأنّهم نهضوا من بين جماهير الناس بعد أن شعروا بآلامهم و عملوا بما يحتاجونه بشكل جيّد.

ثمّ قال بعضهم للبعض الآخر: وَ لَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ

هؤلاء الحمقى لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، و هى أنّهم يريدون من الناس بهذه الوساوس الشيطانية أن ينقادوا له فى محاربة الأنبياء، فى

الوقت الذى يعيبون فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۰

على الذين يتّبعون من كان يستمدّ العون من مركز الوحى و قد ملىء قلبه نورا و علما إلهيّا. و يرون فى هذا العمل تقييد لحريّة الإنسان. و من ثمّ أنكروا المعاد، الذى كان دوما سدّا منيعا لاتّباع الشهوات و أرباب اللّذّات، و قالوا: أَ يَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ لتعيشون حياة جديدة هَيْهاتَ هَيْهاتَ لِما تُوعَدُونَ فقد تسائل الكفّار: هل يمكن البعث و الناس قد أصبحوا ترابا و تبعثرت ذرّاتهم هنا و هناك؟ إنّ ذلك مستحيل!! و بهذا الكلام ازدادوا إصرارا على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة و ولادة مجموعة أخرى لتحلّ محلّهم، و لا حياة بعد الموت إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

و أخيرا لخصّوا التهم التى وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ ما نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ فلا رسالة إلهيّة، و لا بعث، و لا برنامج سماوى، و عليه لا يتسنّى لعاقل الإيمان به.

و عند ما طغى عناد الكفّار، و زالت آخر قطرة من الحياء منهم، فتجاسروا على اللّه، و أنكروا رسالته إليهم، و أنكروا معاجز أنبيائه بكلّ صلافة، و قد أتمّ اللّه حجّته عليهم، عندها توجّه هذا النّبى الكبير إلى اللّه سبحانه و تعالى و قالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ ربّاه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، و اتّهمونى بما شاؤوا و كذّبوا دعوتى.

فأجابه اللّه عزّ و جلّ كما ذكرت الآية قالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمِينَ ألا إنّهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

و هكذا جرى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِ حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل و دمارها الماحق، و قلبت مساكنهم و نثرتها حطاما، و كانت سريعة خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بيّنت الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۱

الكريمة فَجَعَلْناهُمْ غُثاءً أى جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

تعليقات:

۱- الحياة المترفة و أثرها المشؤوم

بيّنت الآيات السابقة العلاقة بين «الترف» (حياة الأشراف المنّعمين) و بين «الكفر و إنكار لقاء اللّه» و هذه هى الحقيقة بعينها. فالذين يعيشون مترفين يطلقون العنان لشهواتهم الحيوانية. فمن الواضح أنّهم لا يقبلون برقابة إلهيّة، و لا يعترفون بيوم البعث حيث تنتظرهم محكمة العدل الإلهى، و الإقرار بذلك يؤنّب ضمائرهم و يثير الناس عليهم، لهذا فانّ هؤلاء الأشخاص لا يقرّون بالعبودية للّه، و ينكرون المبدأ و المعاد، و يرون الحياة كما ذكرت الآيات السابقة إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

هذا هو شعارهم المعبّر عن فتنتهم و ضلالهم الصارخ: فلنغتنم هذه الفرصة فلا خبر جاء و لا وحى نزل، و من يدّعى ذلك فهو كاذب! و عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجرة ... هكذا كانوا يبرّرون إنكارهم ليوم البعث.

إضافة إلى ذلك فتحقيق مثل هذه الحياة المترفة لا تتمّ بدأ إلّا بسلب حقوق الآخرين و ظلمهم، و هذا لا يكون إلّا بإنكار رسالة الأنبياء و القيامة و لهذا نرى الذين عاشوا فى بذخ مترف يحتقرون كلّ القيم السماوية و ينكرون كلّ شىء إلهى.

هؤلاء الحمقى أصبحوا أسرى لأهوائهم النفسيّة، فخرجوا عن طاعة اللّه و أصبحوا عبيدا لأهوائهم و شهواتهم، بل أصبحوا عبيدا لعبيد آخرين، بنفسيّة وضيعة، و قلوب سوداء قاتمة، و مستقبل موحش، على الرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّهم متنّعمون و سيبقون كذلك، غير أنّ القلق الذى يسيطر عليهم من عقاب اللّه و زوال نعمته و الخوف من الموت لا يدع لهم راحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۲

۲- «التراب» و «العظام»

یتفسّخ جسم الإنسان بعد موته حتّی یتحوّل إلی تراب، إلّا أنّ الآیة السابقة قدّمت التراب علی العظام، لماذا؟
قد یکون ذلک إشارة إلی القسمین المهمّین من مکوّنات الجسم (اللحم و العظم) فاللحم یتفسّخ أوّلا و یصبح ترابا، و تبقی العظام لسنین عدیدة ثمّ تبلی أخیرا و تصبح ترابا أیضا.
و ربّما کان التراب هنا إشارة إلی الأجداد القدماء جدّا الذین أصبحوا ترابا، و العظام إشارة إلی الآباء الذین تفسّخت أجسامهم، و بقیت العظام لم تتحوّل إلی تراب ۳۵۴].

۳- ما معنی الغثاء؟

اطّلعنا علی مصیر قوم ثمود و هو- کما ذکرته الآیات السابقة- أنّهم قد أصبحوا «غثاء». و الغثاء، یعنی النباتات الجافّة المتراکمة، و الطافیة علی میاه السیول، کما یطلق الغثاء علی الزبد المتراکم علی ماء القدر حین الغلیان، و تشبیه الأجسام المیتة بالغثاء دلیل علی منتهی ضعفها و انکسارها و تفاهتها، لأنّ هشیم النبات فوق میاه السیل تافه لا قیمة له، و لا أثر له بعد انتهاء السیل (و قد شرحنا بإسهاب الصیحة السماویة فی تفسیر الآیة ۶۷ من سورة هود) هذا و لم یکن هذا العقاب خاصّا- فقط- بقوم ثمود، حیث هناک أقوام أخری أهلکت به. و قد تمّ شرحه فی حینه.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۳

۴- مصیر عام

و ممّا یلفت النظر أنّ آخر عبارة فی الآیات- موضع البحث- أخرجت القضیّة من إطارها و جعلتها قانونا عامّا، حیث تقول: فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِینَ و هذا استنتاج نهائی من کلّ هذه الآیات، فما قیل بصدد إنکار و تکذیب الآیات الإلهیّة و المعاد و العاقبة المؤلمة و النهایة السیّئة لا تختّص بجماعة معیّنة، بل تشمل جمیع الظلمة عبر التاریخ.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۴

الآیات [سورة المؤمنون (۲۳): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشارة

ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِینَ (۴۲) ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما یَسْتَأْخِرُونَ (۴۳) ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا کُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها کَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِیثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا یُؤْمِنُونَ (۴۴)

التّفسیر

هلاک الأقوام المعاندين الواحد بعد الآخر:

بعد أن تحدّث القرآن عن قصّة قوم نوح، أشار إلى أقوام أخرى جاءت بعدهم، و قبل النّبى موسى عليه السّلام حيث يقول: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ لأنّ هذا أمر اللّه و سنّته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحقهم و دفع هذه المسيرة إلى أمام.

و لهذه الأقوام تأريخ معيّن و أجل محدود ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَ ما يَسْتَأْخِرُونَ فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فورا، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۵

«الأجل» بمعنى العمر و مدّة الشىء، كأن نقول: أجل هذا الصكّ ثلاثة أشهر، أى أنّ مدّته تنتهى بعد ثلاثة أشهر، أو إلى أجل مسمّى أى إلى تاريخ محدّد.

و كما قلنا سابقا فالأجل نوعان: «المحتّم» و «المشروط»، فالأجل المحتّم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، و لا تغيير فيه. أمّا الأجل المشروط فيمكن أن يتغيّر حسب تغيّر الظروف فيزداد أو ينقص، و قد تحدّثنا عن ذلك سابقا بإسهاب ۳۵۵].

و على كلّ حال، فإنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتّم».

و تكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى اللّه حيث تقول: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا تَتْرا.

كلمة «ترا» مشتقّة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، و من مجموعها يتيقّن الإنسان بصدقها، و هذه الكلمة مشتقّة فى الأصل من «الوتر» بمعنى حبل القوس حيث يتّصل الحبل بالقوس من جهتيه و يقع خلفه ليقرب رأس القوس (و من حيث التركيب فإنّ كلمة «ترا» فى الأصل «وترا» تبدّلت الواو فيه تاء).

و على كلّ حال فإنّ معلّمى السّماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقوام المعاندة كانوا يواصلون الكفر و الإنكار، فإنّه: كُلَّ ما جاءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ

و عند ما تجاوز هذا الكفر و التكذيب حدّه و تمّت الحجّة عليهم. فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً.

أى أهلكنا الأمم المعاندة الواحدة بعد الاخرى و محوناهم من الوجود.

و قد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداول الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۶

وَ جَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ إشارة إلى أنّ كلّ أمّة تتعرّض للهلاك، و يبقى منهم بعض الأفراد و الآثار هنا و هناك، و أحيانا لا يبقى منهم أى أثر. و هذه الأمم المعاندة و الطاغية كانت ضمن المجموعة الثّانية[۳۵۶].

و تقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ أجل، إنّ هذا المصير نتيجة لعدم الإيمان باللّه، فكلّ مجموعة لا إيمان لها، معاندة و ظالمة، تبتلى بهذا المصير، فتمحق بشكلٍ لا يبقى إلّا ذكرها فى التاريخ و أحاديث الناس.

و هؤلاء لم يكونوا بعيدين عن رحمة اللّه فى هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضا، لأنّ تعبير الآية جاء عامّا يشمل الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۴۵ الى ۴۹]

اشارة

ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۴۵) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ (۴۶) فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ (۴۷) فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (۴۸) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (۴۹)

التّفسير

قيام موسى و هلاك الفراعنة:

كان الحديث حتّى الآن عن أقوام بعث اللّه لهم رسلا قبل موسى عليه السّلام، و هلكوا.

أمّا الآيات موضع البحث فقد تحدّثت باختصار جدّا عن انتفاضة موسى و هارون على الفراعنة، و مصير هؤلاء القوم المستكبرين فقالت: ثُمَّ أَرْسَلْنا مُوسى وَ أَخاهُ هارُونَ بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

و هناك تفاسير عديدة لما تقصده كلمة «الآيات» و عبارة سُلْطانٍ مُبِينٍ و ما الفرق بينهما؟

۱- قال بعض المفسّرين: إنّ «الآيات» تعنى المعجزات التى أعطاها اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۸

لموسى بن عمران (الآيات التسع). و تقصد عبارة «سلطان مبين» المنطق القوى و البرهان الدافع لموسى عليه السّلام أمام الفراعنة.

۲- التّفسير الثّانى أنّ «الآيات» تعنى جميع معاجز موسى عليه السّلام، و يقصد بعبارة سُلْطانٍ مُبِينٍ بعض معاجز موسى المهمّة كعصاه و اليد البيضاء، لأنّ لهما خصائص ساعدت موسى على الإنتصار على الفراعنة.

۳- و احتمل البعض أنّ كلمة «الآيات» أشارت إلى آيات «التوراة»، و بيان التعاليم و ما شاكل ذلك، و عبارة «سلطان مبين» إشارة إلى معجزات موسى عليه السّلام.

إلّا أنّه لو لا حظنا استعمالات عبارة «سلطان مبين» فى القرآن المجيد لوجدنا التّفسير الأوّل أقرب إلى الصواب، لأنّ كلمة «سلطان» أو «سلطان مبين» وردت فى القرآن بمعنى الدليل و المنطق الواضح ۳۵۷].

أجل بعثنا موسى و أخاه هارون بهذه الآيات و سلطان مبين إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ لماذا تتحدّث الآية فقط عن الملأ (المجتمع المترف المعاند أو ما يسمّى بطبقة الأشراف). و لم تقل أنّ رسالتهما إلى شعب مصر كلّه.

لعلّ ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، و إن صلحوا فالباقون أمرهم سهل. إضافة إلى كونهم قادة البلد، و لا يصلح أى بلد إلّا بصلاح قادته. إلّا أنّهم فَاسْتَكْبَرُوا لأنّهم لم يرضوا لآيات الحقّ و السلطان المبين و الفراعنة كانوا- أساسا- مستكبرين طاغين، كما تقول الآية وَ كانُوا قَوْماً عالِينَ و الفرق بين العبارتين فَاسْتَكْبَرُوا و كانُوا قَوْماً عالِينَ أنّ العبارة الأولى قد تكون إشارة إلى استكبارهم عن دعوة موسى عليه السّلام، و العبارة الثّانية تشير إلى أنّ الاستكبار يشكل دوما برنامجهم و بناءهم الفكرى و الروحى.

و يحتمل أيضا أن تكون العبارة الأولى إشارة إلى تكبر الفراعنة، و الثّانية إلى أنّهم كانوا يتمتّعون بقدرة متعالية و حياة متميّزة. و هذا سبب استكبارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۵۹

و من الدلائل الواضحة على إحساسهم بالاستعلاء، قولهم: فَقالُوا أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ ۳۵۸] فلم يكتفوا بالقول إنّنا لا ينبغى لنا اتّباع موسى و هارون، بل لا بدّ أن يكون موسى و هارون عبدين دائمين لهم. فهؤلاء الذين اتّهموا الأنبياء عليهم السّلام بالتسلّط فى وقت هم أسوأ من كلّ متسلّط، و كلامهم يشهد على ذلك.

و على كلّ حال فقد تصدّوا لموسى و أخيه هارون بهذه الأدلّة الخاوية، مخالفة منهم للحقّ فَكَذَّبُوهُما فَكانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ

و هكذا انتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سدّا مانعا لدعوة موسى و هارون إلى اللّه سبحانه.

و بدأت بعدها مرحلة تعليم و تربية بنى إسرائيل، فأنزل اللّه فى هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للاهتداء بهذا الكتاب و تطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

و الآيات السابقة تحدّثت فى مرحلة موسى و هارون عن الفراعنة مستعملة الضمير المثنّى، و هنا تكلّمت عن نزول الكتاب السماوى (التوراة) فخصّصت الحديث بموسى عليه السّلام. لأنّه النّبى المرسل و صاحب الكتاب و الشريعة. إضافة إلى أنّ (موسى) كان يتعبّد فى جبل الطور حين نزول التوراة، بينما كان هارون بين جموع بنى إسرائيل ۳۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۰

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): آية ۵۰]

اشارة

وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ (۵۰)

التّفسير

آية أخرى من آيات اللّه:

أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيّد المسيح عليه السّلام و أمّه مريم، فقالت: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً. و قد استعملت «الآية» عبارة «ابن مريم» بدلا من ذكر اسم عيسى عليه السّلام، لجلب الانتباه إلى حقيقة ولادته من أمّ دون أب بأمر من اللّه، و هذه الولادة هى بذاتها من آيات اللّه الكبيرة.

و حمل مريم عليهما السّلام من غير أن يمسّها بشر، و انجابها عيسى عليه السّلام وجهان لحقيقة واحدة تشهد بعظمة اللّه سبحانه المبدعة و قدرته.

ثمّ أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسبغها اللّه على هذه الامّ الزكيّة و ابنها فتقول: وَ آوَيْناهُما إِلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَ مَعِينٍ

«الربوة» مشتقّة من «الربا» بمعنى الزيادة و النمو. و تعنى هنا المكان المرتفع.

و «المعين» مشتقّ من «المعن» على وزن «شأن» بمعنى جريان الماء، فالماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۱

المعين هو الماء الجارى. و يرى البعض أنّ «المعين» مشتق من «العين» أى نبع الماء الظاهر الذى يمكن مشاهدته بالعين المجرّدة[۳۶۰].

و فى هذا إشارة مجملة إلى المكان الآمن الوارف البركات و الخيرات، الذى منّ اللّه عزّ و جلّ به على هذه الامّ و ابنها و جعلهما فى أمان من شرّ الأعداء، يؤدّيان واجباتهما باطمئنان.

و اختلف المفسّرون فى هذا المكان، فبعض يرى أنّ مولد السيّد المسيح عليه السّلام كان فى «الناصرة» (من مدن الشام). و قد جعله اللّه و أمّه فى مكان آمن ذى خيرات، و حافظ عليه من شرّ الأعداء الذين أرادوا أن يكيدوا بعد علمهم بولادته و مستقبله.

و يرى آخرون أنّ هذا المكان الآمن هو «مصر»، لأنّ مريم عليها السّلام و ابنها السيّد المسيح عليه السّلام عاشا فترة من حياتهما فى مصر طلبا للنجاة من شرّ الأعداء.

و قال غيرهم: إنّ المسيح عليه السّلام ولد فى «دمشق»، و ذهب سواهم إلى أنّه فى «الرملة» فى الشمال الشرقى من القدس، حيث عاش

المسيح و امّه عليهما السّلام فى كلّ من هذه المناطق فترة من حياتهما. و يحتمل أن يكون مولد السيّد المسيح عليه السّلام فى صحراء القدس، و قد جعله اللّه أمنا لهذه الامّ و الوليد، و فجرّ لهما ماء معينا و رزقهم من النخل الجافّ رطبا جليّا.

و على كلّ حال، فقد كانت الآية دليلا على حماية اللّه تعالى الدائمة لرسله و لمن يدافع عنهم. و تأكيدا على أنّ إرادة اللّه هى الأقوى، فلو أراد الملأ كلّهم قتل رسوله دون إذنه لما تمكّنوا. فالوحدة و قلّة الأنصار و الأتباع لا تكون سببا لهزيمتهم إطلاقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۲

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الرُّسُـلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبـاتِ وَ اعْمَلُوا صالِحـاً إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۵۱) وَ إِنَّ هـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِـدَةً وَ أَنَـا رَبُّكُمْ فَـاتَّقُونِ (۵۲) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۵۳) فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (۵۴)

التّفسير

جميع الامّة يد واحدة:

تحـدّثت الآيات السابقـة عن ماضـى الأنبياء و أممهم، أمّا هـذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّى بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

الفرق بينكم أيّها الأنبياء و بين سواكم من البشـر، ليس فى أنّكم لا تتّصـفون بصفاتهم كالحاجة إلى الطعام و الشراب و النوم و الراحة، و إنّما بسـموّكم، ففيما يتهافت الناس على إشـباع شـهواتهم بما طاب و خبث و قد جعلوا من الأكل هدفهم النهائى، زكت أنفسـكم، و اختارت الطّيبات و صالح الأعمال.

بين عبارتى كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ و اعْمَلُوا صالِحاً ارتباط واضح، فلنوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۳

الغذاء أثر فى نفس الإنسان و عقله و سلوكه. و قد ذكرت الأحاديث الإسلامية أنّ تناول الغذاء الحرام يمنع استجابة الدعاء.

و

روى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله لرجل سأله عن استجابة دعائه «طهّر مأكلك و لا تدخل بطنك الحرام»[۳۶۱] و[۳۶۲].

و قوله تعـالى: إِنِّى بِمـا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ بنفسه دليـل مسـتقبل على وجوب القيـام بالعمل الصالـح، لأنّ الإنسان عنـد ما يعلم بأنّ اللّه يراقب أعماله، و لا يخفى عليه شىء و سوف نحاسبه بدقّة على ذلك، فلا شكّ فى أنّ الالتفات إلى هذا الأمر يساعد فى إصلاح عمله.

مضافا إلى أنّ تعابير الآيـة هـذه تبعث فى الإنسان الشـعور بضـرورة تقـديم الشـكر للّه على ما أنعم عليه من الطيّبات، و بذلك تؤثّر فى عمله أيضا.

و بهذا بيّنت الآية ثلاثة مؤثّرات فى العمل الصالح:

الأوّل: طيب الغذاء الذى يورث صفاء القلب و نقاوته.

و الثّانى: شكر اللّه تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثّالث: الشعور اليقظ بمراقبة اللّه سبحانه للأعمال كلّها.

أمّا كلمة «الطيب» فهى كما قلنا تعنى كلّ شىء نظيف و طاهر. و هى نقيض كلمة «الخبيث» قال الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الطيب يعنى: كلّ ما يسرّ الإنسان حسيّا و روحيا، أمّا من الناحية الشرعية فهو الحلال الطاهر.

و القرآن المجيد ذكر الطيب و الطيبات فى كثير من الموارد:

يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ ۳۶۳]. ثمّ لا يقصر الأمر على الرسل، بل:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۴

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ ۳۶۴] بل إنّ ما يصل إلى مقام القرب هو الطيّب من الأعمال و الأقوال:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۳۶۵].

و أحد امتيازات الإنسان الكبيرة على سائر الموجودات أنّ اللّه تعالى رزقه من الطيّبات: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا[۳۶۶].

كما

جاء فى حديث موجز ثر المعنى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم عرض لهذه الحقيقة «يا أيّها الناس، إنّ اللّه طيّب لا يقبل إلّا طيّبا»[۳۶۷].

ثمّ دعت الآية جميع الأنبياء و أتباعهم إلى توحيد اللّه و التزام تقواه وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً فالاختلافات الموجودة بينكم، و كذلك بين أنبيائكم ليست دليلا على التعدّدية إطلاقا. وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

فنحن بين يدى دعوة واعية إلى وحدة الجماعة و القضاء على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس أمّة واحدة، كما أنّ اللّه ربّهم واحد أحد.

و لهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السّلام إذ دعوا إلى اتّباع تعاليم موحدّة، ذات أساس واحد فى كلّ مكان «توحيد اللّه و معرفة الحقّ، الاهتمام بالمعاد و التكامل فى الحياة، و الاستفادة من الطيّبات و القيام بالأعمال الصالحة.

و الدفاع عن العدل و المبادئ الإنسانيّة».

و يرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «أمّة» تعنى هنا الدين و العقيدة. و ليس المجتمع. إلّا أنّ ضمير الجمع فى جملة أَنَا رَبُّكُمْ دليل على أنّ (الامّة) تعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۵

الناس جميعا.

و قد وردت كلمة «الامّة» فى القرآن المجيد بمعنى «الجماعة» غالبا، و ندر ورودها بمعنى «الدين» مثل إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ ۳۶۸].

و ممّا يلفت النظر أنّ هذا المعنى تضمّنته الآية ۹۲ من سورة الأنبياء مع فارق بسيط إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ فى وقت شرحت الآيات السابقة لهذه الآية حياة كثير من الأنبياء، و «هذه» فى الحقيقة إشارة إلى أمم الأنبياء السابقين، الذين كانوا يشكّلون أمّة واحدة بحسب التعاليم الإلهيّة، حيث تحرّكوا جميعا لتحقيق هدف واحد.

و قد حذّرت الآية التالية البشر من الفرقة و الاختلاف، بعد أن تمّت فى الآية السابقة دعوتهم إلى التمسّك بالواحدة فقالت: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً و ممّا يثير الدهشة أنّ كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

«الزبر» جمع «زبرة» على وزن «لقمة» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه.

يجمعه الراعى ليفصله عن باقى الشعر. ثمّ أطلقت هذه الكلمة على كلّ شىء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً. إشارة منها إلى تفرّق الامّة إلى مجموعات و فئات مختلفة.

و احتمل البعض الآخر أنّ الزبر جمع «زبور» بمعنى كتاب، و تعنى أنّ كلّ فئة منهم كانت تمسك بكتاب منزل و تنفى ما عداه من الكتب السماوية، مع أنّ مصدرها واحد. و لكن عبارة كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ تدعم التّفسير الأوّل، فكلّ حزب يتحدّث بما تشتهى نفسه، و يصرّ على رأيه.

تستعرض الآية حقيقة نفسيّة و اجتماعية هى أنّ التعصّب الجاهلى للأحزاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۶

و الفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة! لأنّ كلّا منها قد اتّخذ سبيلا خاصّا به، و أصبح فى قوقعة لا تسمح لنور جديد بالدخول إلى قلبه، و لا بنسيم معنوى يهبّ على روحه ليكشف لها حقيقة من الحقائق.

و هذه الحالة نتجت عن حبّ الذات المفرط و العناد، و هما أكبر عدوّ للحقيقة، و لوحدة الامّة. إنّ الاعتزاز بالنمط الذى تعيشه كلّ فئة و احتقار سواه يجعل الإنسان يصمّ أذنيه عن كلّ صوت يخالف ما اعتقده. و يغطّى رأسه بثوبه، أو يلجأ إلى الفرار خوفا من تجلّى حقيقة على خلاف ما اعتاد عليه كما يذكر القرآن المجيد عن حال المشركون زمن نوح عليه السّلام و على لسان هذا النّبى المرسل: وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً[۳۶۹].

و لا يمكن للإنسان النجاة بنفسه و الوصول إلى الحقّ إلّا بالتخلّص من هذه الحالة و إنهاء عناده.

و لهذا تقول الآية الأخيرة هنا: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ أى اتركهم على حالهم حتّى يأتى أجلهم، أو يأتيهم اللّه بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصرّوا على البقاء فى جهلهم و متاهتهم.

و كلمة «حين» قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

و أمّا «الغمرة» على وزن «ضربة» فهى بالأصل من «غمر» أى إتلاف كلّ شىء. ثمّ أطلق غمر و غامر على الماء الكثير الذى يزيل كلّ شىء يواجهه و يواصل جريانه، ثمّ أطلق على الجهل و البلايا التى يغرق فيها الإنسان. كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة و الضياع و الجهل و الضلال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۷

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۵۵ الى ۶۱]

اشارة

أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (۵۸) وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (۵۹)

وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ (۶۰) أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ هُمْ لَها سابِقُونَ (۶۱)

التّفسير

المسارعون فى الخيرات:

تعرّض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب و المجموعات المعاندة التى غلب عليها التعصّب و حبّ الذات، و تمسّكوا بأفكارهم الضالّة و فرحوا بما لديهم.

بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانيّة: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ هو من أجل أنّنا: نُسارِعُ لَهُمْ

فِي الْخَيْراتِ

فهل يتصوّرون أنّ أموالهم الوافرة و كثرة أولادهم دليل على أنّهم على حقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۸

و دليل على قرب منزلتهم من اللّه؟ بَلْ لا يَشْعُرُونَ أنّ كثرة أموالهم و أولادهم نوع من العذاب، أو مقدّمة للعذاب و لعقاب اللّه، إنّهم لا يدركون أنّ ما أغدق عليهم ربّهم من نعم إنّما هو من أجل أن يتورّطوا فى العقاب الإلهى. و يمسى عقابهم أشدّ ألما، لأنّ الإنسان إذا أغلقت دونه أبواب النعمة ثمّ حلّ به العذاب، فقد لا يكون بتلك الدرجة موجعا و مؤلما أمّا الذين يعيشون فى أوساط مرفّهة ثمّ يلقى بهم فى دهاليز السجون و الزنزانات المرعبة، فسيكون ألم ذلك شديدا عليهم جدّا.

كما أنّ زيادة النعمة من شأنها أن تزيد حجب الغفلة و الغرور عليهم فتمنعهم من العودة إلى طريق الصواب.

و هذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن فى قضيّة (الاستدراج فى النعم)[۳۷۰].

و كلمة «نمدّ» مشتقة من «الإمداد» و هو إتمام النقص و الحيلولة دون القطع، و إيصال الشىء إلى نهايته.

و بعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين و المسارعين فى الخيرات، و تبيّن صفاتهم الرئيسيّة، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ و الخشية لا تعنى مطلقا الخوف، بل تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و التقديس.

و كلمة «المشفق» مشتقّة من «الإشفاق» و من أصل: الشفق، أى: الضياء المخالط للظلمة، و تعنى الخوف الممزوج بالمحبّة و الإجلال.

و لكون الخشية ذات جانب عاطفى، و الإشفاق ذا جانب عملى، ذكرا معا إيضاحا للعلّة و المعلول فى الآية. فهى تعنى أنّ الخوف المخلوط بتعظيم اللّه قد استقرّ فى قلوبهم، و قد بدت علائمه فى أعمالهم و التزامهم بالتعاليم الإلهيّة. أى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۶۹

الإشفاق مرحلة تكاملية للخشية، و هوما يؤثّر فى عمل الإنسان فيجنّبه ارتكاب الذنوب، و يدفعه إلى القيام بمسؤولياته.

ثمّ تضيف الآية وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

و تأتى بعد مرحلة الإيمان بآيات اللّه، مرحلة تنزيهه عن كلّ شبهة و شريك، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ

و نفى الشرك جاء نتيجة للإيمان بآيات اللّه تعالى، و هو معلول الإيمان، أى أنّ الإيمان باللّه يشير إلى صفاته تعالى الثبوتية، و نفى الشرك يشير إلى صفاته تعالى السلبية. و على كلّ حال فقد تضمّنت هذه العبارة نفى أنواع الشرك، سواء كانت جليّة أم خفيّة.

بعد هذا تأتى مرحلة الإيمان بالمعاد و البعث، و الاهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيّون لهذه القضيّة، التى تساعدهم عمليّا فى السيطرة على أعمالهم و أقوالهم، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَ قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُونَ

إنّهم ليسوا كالشخص الكسول الدنىء الهمّة الذى يأتى بأقلّ الأعمال ثمّ يتصوّر انّه من المقرّبين عند اللّه. و يتملّكه العجب و الغرور بحيث يرى الآخرين صغار و حقراء، بل إنّ هؤلاء لا يطمئنّون و لا يبتهجون بأكبر عمل مهما زكا و سما، بل و ينجزون الأعمال الصالحة التى تعادل عبادة الثقلين. و مع كلّ هذا يقولون: آه من قلّة الزاد و بعد السفر! و بعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: أُولئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ و الأعمال الحسنة، و السعادة الحقيقيّة ليست كما يتصوّرها المترفون الغافلون المغرورون بالحياة الدنيا. إنّما هى فى إنجاز الأعمال الصالحة قربة إلى اللّه كما يفعل المؤمنون الصادقون، المتّصفون بالخصائص الإيمانيّة و الأخلاقية السالفة الذكر الذين يسارعون فى الخيرات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۰

و قد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أوّلا بالخوف الممتزج بتعظيم اللّه، و هو الدافع إلى الإيمان به و نفى الشرك عنه. و انتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمة العدل الإلهى، الذى يشكّل الشعور بالمسؤولية. و يدفع الإنسان إلى كلّ عمل طيّب. فهى تبيّن أربع خصال للمؤمنين و نتيجة واحدة. (فتأمّلوا جيدا).

قوله «يسارعون» من باب «مفاعلة» و تعنى «التسابق»، و هو تعبير جميل يصوّر حال المؤمنين و هم يتسابقون إلى هدف كبير سام. كما يبيّن تنافسهم فى إنجاز الأعمال الصالحة دون ملل و كلل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۱

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۲ الى ۶۷]

اشارة

وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۲) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ (۶۳) حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ (۶۴) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ (۶۵) قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ (۶۶)

مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سامِراً تَهْجُرُونَ (۶۷)

التّفسير

قلوب فى الجهل مغمورة!:

بما أنّ خصال المؤمنين هى سبب القيام بالأعمال الخيّرة التى أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأنّ هذه الخصال و القيام بهذه الأعمال لا تتيسّر لكلّ أحد.

فتجيب أوّل آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: وَ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها و كلّ إنسان يكلّف حسب عقله و طاقته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۲

و هذه إشارة إلى أنّ الواجبات الشرعيّة هى فى حدود طاقة الإنسان. و أنّها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، و كما يقول علماء أصول الفقه: إنّ هذه القاعدة حاكمة على جميع الواجبات الشرعيّة و مقدّمة عليها.

و قد يسأل: كيف يحاسب كلّ البشر على أعمالهم كلّها صغيرها و كبيرها؟

فتجيب الآية وَ لَدَيْنا كِتابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى اللّه العلى القدير. و هى تنطق بالحقّ عمّا اقترفه الإنسان من ذنوب، فلا يمكنه إنكارها[۳۷۱].

و ربّما كان القصد من الكتاب الذى لدى اللّه هو اللوح المحفوظ. و لفظ «لدينا» يؤكّد هذا التّفسير.

و الخلاصة أنّ الآية المذكورة آنفا تؤكّد حفظ الأعمال على أهلها من خير أو شرّ، فهى مسجّلة بدقّة، و الإيمان بهذه الحقيقة يشجّع الصالحين على القيام بأعمال الخير، و اجتناب الأعمال السيّئة.

و تعبير يَنْطِقُ بِالْحَقِ الذى وصف صحيفة أعمال البشر تشبه القول: إنّ الرسالة الفلانية ذات تعبير واضح، أى: لا يحتاج إلى شرح. و كأنّها ناطقة بذاتها، فهى تجلّى الحقيقة.

و عبارة وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ تبيّن أنّه لا ظلم و لا جور و لا غفلة يوم الحساب، فكلّ شىء فى سجلّ معلوم.

و لكون هذه الحقائق مؤثّرة فى الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأنّ هؤلاء الكفّار المعاندين غارقون فى دوّامة الجهل و الغفلة لدرجة أنّهم غافلون عمّا ينتظرهم من الوعيد: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هذا[۳۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۳

و هذا الانغمار فى الجهل لا يسمح بمعرفة هذه الحقائق، و يمنع الضالّين من العودة إلى أنفسهم و إلى اللّه تعالى.

و تضيف هذه الآية وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ هُمْ لَها عامِلُونَ و قد أورد المفسّرون تفاسير لقوله سبحانه: وَ لَهُمْ أَعْمالٌ مِنْ دُونِ ذلِكَ فبعضهم قال: إنّها تعنى الأعمال السيّئة التى يقترفها الناس عن جهالة (فعلى هذا تكون «ذلك» إشارة إلى جهلهم)، و الأعمال هى الذنوب التى يرتكبها الإنسان عن غير علم و وعى و قال آخرون: إنّ المراد هو أنّهم إضافة إلى كفرهم ارتكبوا أنواعا من الأعمال السيّئة.

و احتمل آخرون اختلاف برنامج الكفرة عن برنامج المؤمنين اختلافا كبيرا.

و نحن نرى عدم اختلاف هذه التفاسير فيما بينها فى نهاية الأمر، و يمكن الجمع بينها، المهمّ هو الانتباه إلى أنّ مصدر الأعمال الشريرة يكمن فى انغمار القلوب فى الجهالة.

و لكن هؤلاء المترفين يبقون فى هذه الغفلة ما داموا فى نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدّة العذاب الإلهى، كما تقول الآية: حَتَّى إِذا أَخَذْنا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذابِ إِذا هُمْ يَجْأَرُونَ

فيخاطبون لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لا تُنْصَرُونَ

أمّا لماذا ورد ذكر «المترفين» هنا فحسب مع أنّ المذنبين لا يختصّون بهم؟

السبب هو إمّا لكونهم قادة للضالّين، أو لأنّ عذابهم شديد جدّا.

ثمّ إنّ هذا العذاب يحتمل أن يكون دنيويّا أو اخرويّا أو كليهما. حيث يصيبهم العذاب فى هذه الدنيا أو فى الآخرة فيرتفع صراخهم، و يستغيثون فلا يغاثون.

و تكشف الآية التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۴

قَدْ كانَتْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ تَنْكِصُونَ بدلا من الاستفادة منها و الانتباه للواقع.

كلمة «تنكصون» مشتقّة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

و «أعقاب» جمع «عقب» على وزن «فعل» و تعنى عقب القدم.

و هذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاما غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقرى على عقبى قدميه.

ثمّ إنّه لا يرجع إلى الوراء لمجرد سماعه آيات اللّه، و إنّما يصبح ممّن وصفتهم الآية مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ ۳۷۳].

و إضافة إلى ذلك سامِراً تَهْجُرُونَ أى يتسامرون فى لياليهم و يتحدّثون عن النّبى و القرآن بالباطل.

و كلمة «سامرا» مشتقّة من «سمر» على وزن «نصر» بمعنى التحدّث ليلا.

و قال البعض: إنّها تعنى ظلّ القمر فى الليل حيث يختلط السواد مع البياض فيه، و بما أنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حول الكعبة فى الليالى المقمرة، و جلّ حديثهم يتناول النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالباطل، فوردت هذه الكلمة لهذا الغرض. و يقال «سمراء» لمن اختلط بياضها بشىء من السواد.

و تَهْجُرُونَ مشتقة من «هجر» و تعنى بالأصل الابتعاد و الانفصال، و قد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض. لأنّ كلامه فى تلك الحالة غير سليم.

و يبعث على النفور. كما أنّ الهجر (على وزن كفر) يعنى السباب، و هو أيضا يبعث على الابتعاد و القطيعة.

و قد جاءت كلمة «تهجرون» فى الآية بالمعنى الأخير. فتقول: إنّ المشركين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۵

من العرب كانوا يتسامرون حتّى ساعات متأخّرة من الليل، و هم يهذون و يكيلون السباب و الشتائم كالمرضى.

و هذا الأسلوب أسلوب الجبناء و ضعاف النفوس، الذين يلجأون إلى ظلمة الليل، ليكيلوا السباب، حيث يفتقدون المنطق السليم الذى يمكنهم من التحدّث برجولة فى وضح النهار. إنّهم اختاروا ظلام الليل بعيدين عن أنظار الناس، ليصلوا إلى أهدافهم المشئومة، فلجأوا إلى السباب و الباطل من أجل التنفيس عن أحقادهم الجاهلية. يقول القرآن الكريم: إنّ سبب تعاستكم و ما ستنالون من عذاب اللّه الأليم هو أنّكم استكبرتم عن قبول الحقّ. و لم ترضخوا بتواضع لآيات اللّه. كما لم يكن تعاملكم مع النّبى بشكل منطقى صحيح. و لولا ذلك لاهتديتم إلى طريق الحقّ و السعادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۶

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۶۸ الى ۷۴]

اشارة

أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (۶۸) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۶۹) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۰) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (۷۱) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۷۲)
وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۷۳) وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ (۷۴)

التّفسير

أعذار المنكرين المختلفة:

تحدّثت الآيات السابقة عن إعراض الكفّار و استكبارهم إزاء الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم. و تناولت هذه الآيات أعذارهم فى هذا المجال و الرّد عليهم، و شرحت الدوافع الحقيقيّة لإعراض المشركين عن القرآن و الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۷

و يمكن تلخيصها فى خمس مراحل:

الأول: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ

فأوّل سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكّر فى مضمون دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لو تفكّروا مليّا لما بقيت مشكلة لديهم.

و فى المرحلة الثّانية تقول الآية: أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ سألت الآية مستنكرة: أ كانت الدعوة إلى التوحيد و المعاد، و الهدى إلى الأعمال الصالحة مختصّة بهم دون آبائهم الأوّلين، ليحتجّوا بأنّها بدعوة، و يقولوا: لماذا لم يبعثه اللّه للأوّلين، و هو لطيف بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأنّ الإسلام من حيث المبادئ له مضمون سائر الرسالات التى حملها الأنبياء عليهم السّلام فهذا التبرير غير منطقى و لا معنى له! و فى المرحلة الثّالثة تقول الآية: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ

أى إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول و مشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأنّ كلامه حقّ، إلّا أنّ هذا الرجل مشكوك و غير معروف لدينا، نخدع بكلامه. و لكنّهم يعرفون ماضيك جيدا، و كانوا يدعونك محمّدا الأمين، و يعترفون بعقلك و علمك و أمانك، و يعرفون جيدا و الديك و قبيلتك، فلا حجّة لهم! و فى المرحلة الرّابعة تقول الآية: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ أى انّه مجنون، فبعد

اعترافهم بأنّك لست مجهولا بالنسبة لهم، إلّا أنّهم يشكّكون فى سلامة عقلك و ينسبونك إلى الجنون، لأنّ ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتّخذوا هذا دليلا على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفى هذه الحجّة: بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِ و كلامه شاهد على هذه الحقيقة، و يضيف وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

أجل، إنّ كلمات الرّسول راشدة حكيمة، إلّا أنّهم ينكرونها لعدم انسجامها مع أهوائهم النفسيّة. فألصقوا به تهمة الجنون! فى الوقت الذى لا ضرورة فى توافق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۸

الحقّ مع رغبات الناس وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ

لأنّه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافا إلى أنّها تميل إلى الشرّ و الفساد غالبا، و لو اتّبعتها قوانين الوجود لعمّت الفوضى فى الكون و لفسد العالم.

و تأكيدا لذلك تقول الآية: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ۳۷۴] أى منحناهم القرآن الذى هو أساس للذكر و التوجّه إلى اللّه، و سبب لرفعتهم و شرفهم، إلّا أنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يضىء لهم درب السعادة و الشرف.

و فى المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أنّ عذرهم فى فرارهم من الحقّ هو أنّك تريد منهم أجرا على دعوتك: أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۳۷۵].

فلو طلب قائد دينى أجرا من الناس مقابل و عظهم و دعوتهم إلى الحقّ لأعطى المتعذّرين ذريعة للإعراض عنه و الطعن عليه، فيعرضون عنه بحجّة عدم قدرتهم المالية، و يتّهمونه بأنّه ما دعاهم إلّا ابتغاء منافع خاصّة به.

مضافا إلى أنّ البشر ما يملك من شىء ليمنحه؟ أليس اللّه سبحانه و تعالى رزّاق العباد؟

و القرآن الكريم بإيضاحه هذه المراحل الخمس برهن على أنّ هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحقّ، و أنّ أعذارهم فى إنكار الحقّ أعذار واهية.

و جاءت الآية التالية باستنتاج عام لكلّ ما مضى: وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ صراط مستقيم دلائله واضحة و استقامته معلومة، فالطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۷۹

المستقيم أقصر الطرق بين نقطتين، و هو طريق واحد، و الطريق الملتوية على يساره و يمينه غير متناهية.

و رغم أنّ الرّوايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية على عليه السّلام ۳۷۶] إلّا أنّها تكشف- كما قلنا مرارا- عن المصداق الأكمل لذلك، و لا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالقرآن و الإيمان بالمبدأ و المعاد و التقوى و الجهاد و العدل.

و تستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعيّة لهذا الموضوع، فتقول: وَ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناكِبُونَ

كلمة «ناكب» مشتقّة من «النكب» و «النكوب» أى الانحراف عن الطريق. و «نكبت الدنيا» تقع فى مقابل إقبال الدنيا، و تعنى إدبار الدنيا و إعراضها عن المرء.

و من الواضح أنّ الصراط يقصد به هنا ما فى الآية السابقة، و بديهى أنّ الذى ينحرف عنه فى الآخرة فمكانه النّار و بئس المصير، لأنّ المرء يثاب فى الآخرة على أعماله فى هذه الدنيا.

و عدم إيمان المرء بالآخرة مرتبط بانحرافه عن طريق الحقّ الناجم عن عدم شعوره بالمسؤولية،

فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «إنّ اللّه جعلنا أبوابه و صراطه و سبيله و الوجه الذى يؤتى منه، فمن عدل عن ولايتنا أو فضل علينا غيرنا فإنّهم عن الصراط لناكبون»[۳۷۷].

بحوث

۱- التمسّک بالحقّ أو بالأهواء النفسيّة

أشارت الآيات السابقة- بشكل عابر- إلى التناقض بين التمسّک بالحقّ و بين الأهواء النفسيّة، و هى إشارة ذات مدلول كبير، حيث تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۰

وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَ و تفسير هذه المسألة ليس صعبا للأسباب الآتية:

الف- لا شكّ فى أنّ أهواء الناس متفاوتة، و قد ينقض بعضها بعضا، حتّى بالنسبة لشخص واحد فقد تتناقض أهواؤه.

و لو استسلم الحقّ لهذه الأهواء لنتج عن ذلک الفساد و عمّت الفوضى. لماذا؟

لأنّ كلّ فرد له صنم و معبود، فلو حكمت هذه الآلهة الكثيرة و المتضادّة هذا العالم المترامى الأطراف، لظهر الفساد و تعمّ الفوضى من جرّاء ذلک، و هذا لا يخفى على أحد.

ب- إنّ أهواء الناس مع قطع النظر عن تناقضها، فهى تميل نحو الفساد و الشرّ و لو سادت الوجود و المجتمع البشرى، فالنتيجة لا تكون سوى الفساد و الشرّ.

ج- إنّ الميول و الأهواء ذات بعد واحد، و لا تنظر إلى الأمور إلّا من زاوية واحدة و تغفل عن بقيّة الأبعاد، و من المعلوم أنّ أحد العوامل المهمّة فى الفساد و الخراب هو المنهج ذو البعد الواحد الذى يغفل عن الأبعاد الاخرى.

و الآية محلّ البحث تشبه من بعض جوانبها ما ورد فى الآية الثّانية و العشرين من سورة الأنبياء لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا.

و بديهى أنّ الحقّ كالصراط المستقيم واحد لا نظير له، بينما الأهواء النفسية متعدّدة كأوثان المشركين. فأيّما نتّبع الحقّ أم الهوى؟ أ نتّبع الهوى الذى هو مصدر الفساد فى السّماء و الأرض و فى جميع الموجودات، أم الحقّ الذى هو رمز الواحدة، و التوحيد و النظام و الانسجام؟

الجواب فى غاية الوضوح و الإشراق.

۲- صفات القائد

أوضحت الآيات السابقة عددا من صفات القادة إلى طريق الحقّ، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۱

المعروفون بالصلاح و الاستقامة، فلم يبق اللّه للمشركين ذريعة فى هذا الصدد إذ قال سبحانه: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ فلو كان الرسل مجهولين لتذرّع المنافقون بذلک، و لأنكروا الرسالات السماوية.

و الأمر الآخر أنّ الرسل لا يستسلمون أبدا لأهواء الناس. و لا يقرّون الناس على ما اعتادوه من انحراف، مثلما نشاهده اليوم حيث التأييد المطلق لكلّ الرغبات العامّة (رغم انحراف الكثير منها). و على هذا كان الرسل يواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم و حقدهم عليهم.

و الصفة الاخرى للأنبياء أنّهم لم يطلبوا أجرا من الناس، و لم يأخذوا منهم شيئا فى مقابل نشر الحقّ، فهم لا يرجون غير اللّه، و ظلّوا يتجرّعون الفقر و البأساء دون أن يكون لأحد عليهم منّة قطّ، ليبقوا أحرارا طليقين فى نشر دعوتهم بين الناس.

۳- لماذا لا یمیل أکثر الناس إلی الحقّ؟

لقد استنکرت آیات القرآن الکریم- کالآیات السابقة- «الأکثریة» من الناس، فی حین نری أنّ «الأکثریة» یقرّرون الیوم صلاح الشیء أو عدمه فهم معیار الحسن و القبح فی المجتمع، و هذا یثیر علامة استفهام کبیرة: و لیس الکلام فی الآیات التی تذکر الأکثریة مع إضافة ضمیر (هم) حیث یکون المراد منها أکثر الکافرین و المشرکین و أمثالهم، بل الکلام حول الآیات التی تذکر عنوان (أکثر الناس) من قبیل: وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ ۳۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۲

وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ ۳۷۹].

وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ ۳۸۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۰ ؛ ص۴۸۲

وَ ما أَکْثَرُ النَّاسِ وَ لَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِینَ ۳۸۱].

فَأَبی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلَّا کُفُوراً[۳۸۲].

وَ إِنْ تُطِعْ أَکْثَرَ مَنْ فِی الْأَرْضِ یُضِلُّوکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ ۳۸۳].

و من جهة أخری اهتمت بعض آیات القرآن بمنهج أکثریة المؤمنین باعتباره معیارا صحیحا للآخرین، فقد جاء فی الآیة الخامسة عشرة بعد المائة من سورة النساء: وَ مَنْ یُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَیَّنَ لَهُ الْهُدی وَ یَتَّبِعْ غَیْرَ سَبِیلِ الْمُؤْمِنِینَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّی وَ نُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِیراً و نجد فی الرّوایات الإسلامیة لدی تعارض الرّوایات أنّ أحد المعاییر للترجیح هو الشهرة بین أصحاب أئمّة الهدی و أنصارهم و أتباعهم، کما

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «ینظر إلی ما کان من روایتهما عنّا فی ذلک الذی حکما به المجمع علیه عند أصحابک، فیؤخذ به من حکمنا و یترک الشاذّ الذی لیس بمشهور عند أصحابک فإنّ المجمع علیه لا ریب فیه»[۳۸۴].

و نقرأ

فی نهج البلاغة: «و الزموا السواد الأعظم، فإنّ ید اللّه مع الجماعة، و إیّاکم و الفرقة، فإنّ الشاذّ من الناس للشیطان، کما أنّ الشاذّ من الغنم للذئب»[۳۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۳

و نقرأ أیضا

فی نهج البلاغة: «و الزموا ما عقد علیه حبل الجماعة»[۳۸۶].

و علی هذا قد یتراءی للبعض تناقض بین هاتین المجموعتین من الآیات و الأحادیث.

و من جهة أخری یمکن أن یتصوّر مخالفة الإسلام للدیمقراطیة التی تعتمد علی آراء أکثر الناس، و هذا ما رفضه القرآن بشدّة.

و لکن بالتدقیق فی الآیات و الأحادیث السابقة و مقارنة بعضها ببعض یتّضح المفهوم الحقیقی، و هو أنّ الأکثریة لو کانت من المؤمنین الواعین الذین ینتهجون الحقّ و یرفضون الباطل، لا لاستحقّوا الاحترام، و حظی رأیهم بالتقدیر و القبول.

أمّا إذا کانوا فئة جاهلة أو واعیة لکنّها مستسلمة لرغباتها و شهواتها علی علم منها، فلا طاعة لها و لا رأی. لأنّ اتّباعها یؤدّی إلی الضلالة و الضیاع، کما یقول القرآن المجید.

و علی هذا الأساس فلو أردنا تحقیق «دیمقراطیة سلیمة» لوجب السعی أوّلا لتوعیة الناس و تکوین جماعة مؤمنة واعیة، ثمّ الاستناد علی

رأى أكثريتهم كمعيار لسلامة الأهداف الاجتماعية، و إلّا فإنّ ديمقراطية الأكثرية الضّالة لا تنتج سوى ضلال المجتمع و جرّه إلى جهنّم.

و من الضرورى التنبيه إلى انّنا نعتقد أنّ رأى الأكثرية الواعية المؤمنة إنّما يكون محترما و مقبولا فيما إذا لم يخالف الكتاب و السنّة و الأحكام الإلهيّة.

و لجوء الأمم و الشعوب فى هذا العصر إلى رأى الأكثرية مبعثه انعدام المعيار الموثوق به فى قياس ما ينفع المصلحة العامّة و ما يضرّها، فهذه المجتمعات لا تستنير بكتاب ربّانى و لا تلتزم رسالة نبى كريم، و ليس لديها سوى الرجوع إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۴

رأى العامّة. و بما أنّ المتسلّطين لا يسعون لتوعية رعاياهم، بل يجتهدون فى استدامة غفلة الناس و ضآلة اطّلاعهم على ما ينهض بتقدّمهم و ازدهار حياتهم، ليتسنّى لهؤلاء الاستمرار فى الهيمنة على الناس و العبث بمصيرهم، لذلك جعلوا الأكثرية الكمّية معيارا لإسكات الأصوات المعترضة.

و لو دقّقنا فى وضع المجتمعات المعاصرة و القوانين و الأنظمة السائدة، لوجدنا أكثر مصائبهم نابعة من اللجوء إلى ما يسمّى رأى الأكثرية.

فما أسوأ القوانين و أقبح المقرّرات التى جعلتها «الأكثرية»، و ما أكثر الفتن و الحروب التى اندلعت بسبب رأى الأكثرية الجاهلة، و ما أعظم المظالم و أشكال العدوان التى قرّرت الأكثرية صحّتها و مشروعيتها!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۵

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۷۵ الى ۸۰]

اشارة

وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۵) وَ لَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ (۷۶) حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۷) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (۷۸) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۷۹)

وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۸۰)

التّفسير

طرق التوعية الإلهيّة المختلفة:

عرضت الآيات السابقة الحجج التى يتذرّع بها منكرو الحقّ فى رفض الرسالات و إيذاء الأنبياء عليهم السّلام. و تناولت هذه الآيات إتمام الحجّة عليهم من قبل اللّه تعالى و توعيتهم.

فتقول أوّلا: إنّنا تارة نشملهم برعايتنا و نرزقهم من وفير النعمة لينتبهوا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۶

و لكن: وَ لَوْ رَحِمْناهُمْ وَ كَشَفْنا ما بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ

و اللّه تعالى يبتليهم لعلّهم يعون حين لا- تجدى بهم رحمته سبحانه، لكنّ طائفة غالبة منهم لم يستيقظوا حتّى بالبلاء المذلّ وَ لَقَدْ

أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ فَمَا اسْتَكانُوا لِرَبِّهِمْ وَ ما يَتَضَرَّعُونَ ۳۸۷].

«التضرّع»- كما أسلفنا- مشتقّة من الضرع بمعنى الثدى، فالتضرّع يعنى الحلب، ثمّ استعملت بمعنى التسليم المخالط بالتواضع و الخضوع.

و تعنى هذه الآية أنّ المشركين لم يتخلّوا عن غرورهم و عنادهم و تكبّرهم، و لم يستسلموا للحقّ حتّى و هم يواجهون أشدّ النكبات عصفا بهم.

و إذا ما فسّر التضرّع فى الرّوايات بأنّه رفع اليدين نحو السّماء للدعاء، فهو أحد مصاديق هذا المعنى الواسع.

فاللّه تعالى يواصل هذه الرحمة و النعمة و العقوبات، و المشركون يواصلون طغيانهم و عنادهم حَتَّى إِذا فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ إِذا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۳۸۸].

الواقع، أنّ نوعين من العقاب الإلهى: أوّلهما «عقاب الابتلاء»، و ثانيهما «عقاب الاستيصال» و الاقتلاع من الجذور، و الهدف من العقاب الأوّل وضع الناس فى صعوبات و آلام ليدركوا مدى ضعفهم و ليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثّانى الذى ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياة، و تطهيرها من عراقيلهم، لأنّه لم يبق لهم حقّ الحياة فى نظام الحقّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۷

و لهذا يستوجب اقتلاع هذه الأشواك من طريق تكامل البشر.

و بيّن المفسّرين اختلاف فى قصد الآية من عبارة باباً ذا عَذابٍ شَدِيدٍ.

فالكثيرون يرون أنّه الموت، ثمّ العذاب و عقاب يوم القيامة.

و آخرون يرونه القحط الشديد الذى واجه المشركين سنين عديدة بدعاء من النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فأصبحوا لا يجدون ما يأكلون، حتّى تناولوا ما تشمئز منه الأنفس.

و غيرهم يرونه العقاب الأليم الذى نزل على المشركين بضربات سيوف جند الإسلام فى معركة بدر.

و هناك احتمال أنّ الآية لا تختّص بفئة معيّنة، بل هى استعراض لقانون شامل عامّ للعقوبات الإلهيّة، يبدأ من الرحمة، فالتنبيه و العقاب التربوى، و ينتهى بعذاب الاقتلاع من الجذور و الدمار[۳۸۹].

ثمّ تناول القرآن المجيد القضيّة من باب آخر، فعددّ النعم الإلهيّة لدفع الناس إلى الشكر وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و التأكيد على (الأذن و العين و العقل) لأنّها الأجهزة التى بها يتعرّف الإنسان على المحسوسات و القضايا، فالأشياء الحسيّة يبلغها بالعين و الأذن، و القضايا غير الحسّية يدركها بالعقل.

و معرفة أهميّة حاسّتى النظر و السمع يكفى لتصوّر حالة الإنسان الذى يفقدهما، إذ تظلم الدنيا بعينه. و بفقدان هاتين الحاسّتين بالولادة تفقد حواسّ أخرى عملها. فالأصمّ بالولادة يكون بالبداهة أبكم، فانطلاق اللسان مرتبط بسمع الإنسان و بفقدهما يفقد الإنسان وسيلة ارتباطه مع الآخرين.

و بعد هاتين الحاسّتين اللتين هما مفتاح الإدراك لعالم المادّة، يأتى العقل الذى ينتزع الأفكار ممّا تموّنه به الحواسّ، و يجتاز الطبيعة إلى ما وراءها، و مهمّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۸

النقد و الاستنتاج و الترتيب و التعميم و تحليل محصّلة حاسّتى البصر و السمع و سواهما، أ فلا يستحقّ الذين لا يشكرونه على هذه الأدوات الثلاث للمعرفة الذمّ و اللوم؟ ألا يكفى التدقيق فى تفاصيلها دليلا على معرفة الخالق و عظيم إحسانه للعباد؟

و تقديم ذكر الاذن و العين على العقل فى الآية المذكورة له ما يسوّغه. و لكن لماذا تقدّم السمع على البصر؟ يحتمل- كما يقول

العلماء- أنّ أذن الوليـد تعمل أوّلا، ثمّ عينه، فالعينان مغلقتان فى عالم الرحم و ليست لـديهما أى اسـتعداد و قابلية على مشاهدة أمواج النور، و لذلك تبقيان هكذا بعد الولادة قليلا، ثمّ تتعودان النور تدريجيّا.

و ليست الأذنان هكذا، حتّى أنّ بعضهم يرى أنّها قادرة على السماع حتّى فى الرحم ۳۹۰]. فهى تسمع صوت دقّات قلب الامّ.

إنّ بيان المواهب الثلاث أعلاه يشـكّل دافعا لمعرفة واهب هذه النعم، و هو المنعم الوحيد حقّا (مثلما يرى علماء العقائد فى بعث شـكر المنعم أساسا لوجوب معرفة اللّه عقلا).

و تناولت الآية اللاحقة خلق اللّه سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: وَ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ ۳۹۱].

و بما أنّه- جلّ اسمه- خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّة ثانية، ثمّ يبعثكم: وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

و لـو فكّرتم فى خلقكم من تراب لاـ قيمـة له، لـدلّكم على خـالق الوجود سـبحانه، و عرّفكم على كريم لطفه بكم و إحسـانه إليكم، و قادكم إلى الإيمان به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۸۹

و بالمعاد.

و بعـد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآيـة المـذكورة آنفا دلائل أخرى من بـديع صـنع اللّه تعالى وَ هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

و بهذا الترتيب بدأ البيان القرآنى من الدافع لاستيقاظ القلب و انبعاثه على معرفة ربّه سـبحانه و انتهى بذكر بعض أهمّ الآيات الأنفسـيّة و الآفاقية، فالقول المبارك استعرض مسيرة الإنسان منذ الولادة حتّى الموت و العودة إلى اللّه تعالى، التى تتمّ مراحلها جميعا بإرادة اللّه العزيز الحكيم.

و ممّـا يلفت النظر جعـل اللّه الموت و الحياة إلى جانب اختلاف الليل و النهار، و ذلك لكون النور و الظلام فى عالم الوجود كالموت و الحياة للكائنات، فمثلما يجـد الخلق حركته و نشاطه بين أفواج النور، و يسـتخفى بين أسـتار الظلام، كـذلك تبـدأ الأحياء حركتها و نشاطها فى نور الحياة، و تستخفى فى ظلمة الموت، و لكليهما صفة التدرّج.

و سـبق أن قلنـا بـأنّ «اختلاـف» الليل و النهار قـد يعنى تواليهما حيث يخلف الليل النهار، و يخلف النهار الليل. و قـد يعنى اختلافهما و تفاوتهما التدريجى الذى يوجد الفصول الأربعة، و يقود دورة الحياة فى عالم النبات فى ظلّ نظام دقيق.

و كلّ هذه المسائل يمكن أن تكون السبيل إلى معرفة اللّه، إذا انتبه لها الإنسان و تأمّلها بفطنة.

و لهذا تقول الآية فى النهاية: أَ فَلا تَعْقِلُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۰

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۸۱ الى ۹۰]

اشارة

بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ (۸۱) قـالُوا أَ إِذا مِتْنـا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۸۲) لَقَـدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۸۳) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۴) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۸۵)

قُـلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (۸۶) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ (۸۷) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَـيْءٍ وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۸۸) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (۸۹) بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۹۰)

التّفسير

القرآن يدعو الضمائر إلى التحكيم:

دعت الآيات السابقة منكرى اللّه و المعاد إلى التفكّر فى خلق عالم الوجود و آيات الآفاق و الأنفس، و أضافت هذه الآيات أنّ هؤلاء تركوا عقولهم و اتّبعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۱

أسلافهم و قلّدوهم تقليدا أعمى: بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الْأَوَّلُونَ

ثمّ إنّ هؤلاء ملكهم التعجّب و: قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۳۹۲].

إنّ ذلك لا يصدق! لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَ آباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ فكانت وعودا كاذبة، و إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فإعادة الخلق أسطورة، و الحساب و الكتاب أساطير أخرى، و كذا الجنّة و النّار.

و لكون الكفّار و المشركين أشدّ خوفا من اليوم الآخر و ما فيه من هول الحساب و عدل الكتاب، تذرّعوا بالأوهام لتسويغ إعراضهم عن الحقّ و تمسّكهم بالباطل.

و لهذا سدّدت الآيات موضع البحث ضربة قويّة إلى هذا المنطق الواهى من ثلاث طرق: بتذكيرها الإنسان بمالكية اللّه لعالم الوجود المترامى الأطراف، و ربوبيته له، و سيادته عليه. و تستنتج- من جميع الأبحاث- قدرة اللّه و سهولة المعاد عليه سبحانه، و أنّ عدالته و حكمته تستلزمان أن يعقب هذا العالم عالم آخر و حياة أخرى.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين اعترافا بكلّ مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم.

يقول أوّلا: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

ثمّ تضيف الآية أنّهم يؤمنون باللّه خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، و سيجيبونك و: سَيَقُولُونَ لِلَّهِ فأجبهم: قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ كيف تتصوّرون استحالة إحياء الموتى بعد اعترافكم الصريح؟

ثمّ يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۲

فيأتى الجواب نابعا من الفطرة التى فطرة اللّه الناس عليها، و هى الاعتراف بربوبيّته تعالى سَيَقُولُونَ لِلَّهِ و بعد هذا الاعتراف الواضح فلما ذا لا تخافون اللّه، و لا تعترفون بالمعاد و بعث الإنسان مرّة ثانية: قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ

و اسألهم مرّة أخرى عن سيادة اللّه على السماوات و الأرض قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ. و من الذى يجير اللاجئين و جميع المحرومين و لا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

فيعترفون بأنّ العالم و مالكيته و حكومته و إجارة الآخرين يعود للّه فقط سَيَقُولُونَ لِلَّهِ

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ أى: كيف تقولون: إنّ الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم سحركم رغم كلّ هذا الاعتراف و الإقرار منكم؟! إنّها لحقائق اعترفتم بها فى كلّ مرحلة، فقد أقررتم بأنّه سبحانه مالك الوجود و خالقه، و أنّه المدير و المدبّر و الحاكم و الملجأ، فكيف لا يستطيع من له كلّ هذه القدرة و الحكم و الحكمة، إعادة الإنسان إلى تراب و بعثه ثانية كما خلقه أوّل مرّة؟

لماذا تفرّون من الخضوع للحقيقة؟ و لماذا تتّهمون النّبى الأكرم بالسحر و قلوبكم تعترف بهذه الحقائق؟! و أخيرا يقول القرآن فى عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنّه ليس سحرا و لا شعوذة و لا شىء آخر: بَلْ أَتَيْناهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

لقد بيّن اللّه الحقائق للناس بإرساله الأنبياء و الرسل إليهم و لكنّهم عصوا أمره، و لم يستجيبوا له فيما يحييهم من عبادته و إقامة أحكامه الهادية لكلّ خير، المنقذة من كلّ شرّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۳

ملاحظات

۱- معنی عدد من الکلمات

«الأساطیر» جمع «أسطورة» قال بعض اللغویین: إنّها مشتقّة من «السطر» بمعنی الصف، فیطلق علی الکلمات التی اصطفّت فی خطّ واحد لفظ السطر.

فالأسطورة: الکتابة أو السطور التی ترکها لنا الآخرون، و لأنّ کتابات القدماء تحتوی علی أساطیر خرافیة، تطلق الأساطیر علی الحکایات و القصص الخرافیة الکاذبة. و قد تکرّرت کلمة الأساطیر فی القرآن المجید تسع مرّات. و جمیعها جاء علی لسان الکفّار لتوجیه مخالفتهم لأنبیاء اللّه تعالی.

«الربّ» تعنی- کما قلنا فی تفسیر سورة الحمد- المالک المصلح، و لهذا لا یطلق علی کلّ مالک، و إنّما یختّص بالمالک الذی یسعی لإصلاح و حفظ و إدارة ملکه حفظا جیّدا، و تطلق کلمة «ربّ» أحیانا علی المربّی و المعلّم أیضا.

«الملکوت» مشتقّة من «الملک» (علی وزن کفر)، بمعنی الحکومة و المالکیة، و إضافة الواو و التاء للتأکید و المبالغة.

«العرش» یعنی السریر ذا القوائم العالیة، و یطلق أحیانا علی السقف و شبهه.

و عند ما تتعلّق هذه الکلمة باللّه سبحانه، فإنّها تعنی عالم الوجود کلّه، فهو کلّه دون جلاله المقدّس و حکمه الحکیم.

و قد تطلق أحیانا علی عالم ما وراء الطبیعة (میتافیزیقیا) مقابل «الکرسی» الذی یعنی عالم الطبیعة و المادّة، مثال ذلک وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ۳۹۳][۳۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۴

۲- تأکید المعاد بالاستناد إلی قدرة اللّه الشاملة

یستنتج من آیات القرآن أنّ معظم مخالفة المنکرین للمعاد یدور حول مسألة المعاد الجسمانی، و دهشتهم من عودة الروح و الحیاة ثانیة إلی الإنسان بعد أن یصیر ترابا، من هنا عدّدت الآیات معالم قدرة اللّه فی عالم الوجود، و أکّدت خلقه لکلّ شیء من عدم، لیؤمنوا بالحیاة بعد الموت، و تزول استحالتها من تصوّرهم.

و بحثت هذه الآیات هذه المسألة من خلال بیان قدرة اللّه علی الأرض و سکّانها. و قدرته علی السموات و العرش العظیم، و قدرته علی إدارة عالم الخلق و النشر، و هذه السبل الثلاثة مصادیق لمفهوم واحد. و یحتمل أیضا أنّ کلا من هذه الأبحاث الثلاثة یشیر إلی وجهة نظر المنکرین للمعاد، فلو کان إنکارکم للمعاد یعود إلی أنّ العظام البالیة قد خرجت من دائرة حکومة اللّه و ملکیته، فهذا خطأ، لأنّکم تعترفون أنّ اللّه تعالی هو مالک الأرض و من علیها.

و إنّ کان إنکارکم لأنّ بعث الأموات یحتاج إلی إله مقتدر، فأنتم تعترفون بأنّ اللّه ربّ السماوات و العرش.

و إن کان جحودکم أنّکم فی شکّ من تدبیر العالم بعد الحیاة الجدیدة و بعد بعث الأموات، فهو أیضا فی غیر مورده، لأنّکم قبلتم تدبیره و اعترفتم بقدرته علی إدارة عالم الوجود، و جوار من لا جار له (أی کلّ الموجودات) حیث یتکفّل برعایتها و تدبیر أمورها، فعلی هذا لا مجال لإنکارکم أیضا. و إجابة الکفّار فی الحالات الثلاث بشکل منسجم موحّد سَیَقُولُونَ لِلَّهِ تؤکّد التّفسیر الأوّل.

۳- اختلاف نهايات الآيات

و الجدير بالاهتمام هو أنّه بعد السؤال الأوّل و إجابته جاءت عبارة:

أ فَلا تَذَكَّرُونَ

و بعد السؤال الثّانى و إجابته جاءت عبارة أ فَلا تَتَّقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۵

و بعد السؤال الثّالث و إجابته جاءت عبارة فَأَنَّى تُسْحَرُونَ

و هذه عبارات تنبيه شديدة للكفّار و استنكار لما هم عليه من باطل بشكل متدرّج و مرحلة بعد أخرى، و هو أسلوب متعارف ينسجم مع الأساليب المعروفة فى التعليم و التربية المنطقيّة. فإذا احتاج المربّى إلى إدانة شخص، يبدأ أوّلا بتنبيهه بلطف، ثمّ بحزم، و بعد ذلك يعنّفه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۶

الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۱ الى ۹۲]

اشارة

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۹۱) عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۹۲)

التّفسير

الشرك يجرّ العالم نحو الدمار:

تناولت الآيات السابقة بحوثا فى المعاد و الملك و الحكم و الربوبيّة، أمّا هذه الآيات فقد تناولت نفى الشرك، و استعرضت جانبا من انحرافات المشركين.

وردّتها عليهم بالأدلّة الساطعة، قائلة: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَ ما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ

إنّ الإعتقاد بوجود ابن للّه لا ينحصر فى المسيحيين الذين يرون النّبى عيسى عليه السّلام ابنا حقيقيّا له! فقد كان المشركون يرون الملائكة بنات للّه، و لعلّ المسيحيين أخذوا هذه الفكرة من المشركين القدماء، و على أساس أنّ الولد جزء من الأب، فلذلك اعتقدوا بأنّ الملائكة أو المسيح عليه السّلام لهم حصّة من الالوهيّة، و هذا أوضح مظهر للشرك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۷

ثمّ بيّنت الآية بطلان الشرك: أنّه لو كان هناك آلهة متعدّدة تحكم العالم، فسيكون لكلّ إله مخلوقاته الخاصّة به يحكم عليها و يدبّر أمورها.

و سيكون تبعا لذلك أنظمة متعدّدة للعالم، لأنّ كلّ واحد من الآلهة يدير منطقته بنظام خاص إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ و هذا ينافى وحدة النظام الحاكم فى هذا العالم.

وَ لَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ و هذه نتيجة محتومة لكلّ صراع، إذ يسعى كلّ طرف فيه لغلبة الآخرين و الهيمنة عليهم، و هذا سيكون بذاته سببا آخر لتفكّك النظام الموحّد السائد فى العالم.

و جاء فى ختام الآية تقديس للّه سبحانه سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

و زبدة الكلام ما نجده بوضوح من سيادة نظام موحّد لساحة الوجود كلّه.

فالقوانين السائدة لهذا العالم فى أرضه و سمائه واحدة، و النظام الحاكم لذرّة واحدة هو ذاته يحكم المجموعة الشمسيّة المنظومات الكبيرة، و لو أتيحت لنا صورة مكبّرة لذّرة واحدة لحصّلنا على شكل المنظومة الشمسيّة، و العكس صحيح.

و قد برهن العلماء فى تجاربهم فى مختلف العلوم، باستخدام أدقّ الأجهزة و أحدثها على وحدة النظام السائد لهذا العالم كلّه. هذا من جهة.

و من جهة أخرى إنّ الاختلاف و التباين يلازمان التعدّد دوما. فلو تشابهت صفات شيئين تمام التشابه لكانا شيئا واحدا، إذ لا معنى لثنائيتهما عندئذ، و لو فرضنا لهذا العالم آلهة عديدة لوقع أثر هذا التعدّد على مخلوقات العالم و النظام الحاكم له، و لانتفت وحدة نظام الخلق.

مضافا إلى أنّ كلّ موجود لا بدّ أن يسعى لاستكمال وجوده إلّا الوجود الكامل من كلّ جهة فلا معنى للتكامل فى وجوده حينئذ، فلو فرضنا وجود مناطق خاصّة لكلّ إله من هذه الآلهة المزعومة، و طبعا لا يكون لكلّ منها كمال مطلق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۸

و من الطبيعى أيضا أنّها سوف تسعى لاستكمال ذاتها، و تحاول ضمّ بقيّة المناطق إلى حوزتها، و هذا السعى للتكامل و التنافس فى الاقتدار مدعاة لوقوع العالم فريسة بين مخالب الناقصين الباحثين عن السيطرة على غيرهم، و النتيجة هى فساد العالم و دماره.

و بهذا تكون كلتا الجملتين فى الآية إشارة إلى دليل منطقى واحد، و لا تصل النوبة إلى حصر الجملة فى جهة إقناعية و ليست منطقية.

السؤال الوحيد الباقى فى هذا المورد هو أنّ البرهان المذكور يصحّ فيما لو فرضنا أنّ الآلهة تسعى للتغلّب و السيطرة المطلقة، أمّا لو فرضناها حكيمة و عالمة، فما المانع من أنّ تدير العالم بالتشاور فيما بينها؟

لقد أجبنا عن هذا السؤال فى تفسيرنا للآية الثّانية و العشرين من سورة النساء، فى بحث برهان التمانع، و لا حاجة لتكراره هاهنا.

و الآية التالية تردّ على المشركين المغالطين فتقول: عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أى إنّ اللّه يعلم ظاهر الأشياء و باطنها، فكيف تتصوّرون وجود إله آخر تعرفونه أنتم و لا يعرفه الربّ الذى خلقكم و الذى يعلم الغيب و الشهادة فى هذا العالم؟

هذا البيان يشبه ما ورد فى الآية الثامنة عشرة من سورة يونس قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ ! و بهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافيّة: فَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

و ختام هذه الآية يشبه ختام الآية الثامنة عشرة من سورة يونس و هو سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ و هذا يدلّ على وحدة الموضوع.

كما أنّ هذه العبارة تهديد موجّه للمشركين بأنّ اللّه الّذى يعلم السرّ و العلن، يعلم ما تقولونه. و سيحاسبكم عليه يوم القيامة فى محكمته العادلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۴۹۹

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۳ الى ۹۸]

اشارة

قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ (۹۳) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۹۴) وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ (۹۵) ادْفَعْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ (۹۶) وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (۹۷)
وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (۹۸)

التّفسير

تعوّذوا باللّه من همزات الشياطين:

مع مخاطبة هذه الآيات للرسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، واصلت مقاصد الآيات السابقة فى تهديد الكفّار و المشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهى قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ ۳۹۵].

رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ هاهنا دعاء بالنجاة من الهلاك، و الانفصال من الظالمين الذين ينتظرهم سوء العذاب، و لا شكّ أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۰

يعمل ما يعرضه للعذاب، و ليس من العدل الإلهى أن يأخذ البرىء بالمذنب، بل لو أنّ رجلا كان يعبد اللّه فى قوم لأنقذه اللّه سبحانه ممّا يعمّهم به من البلاء.

فهذا الدعاء من الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما كان بأمر من اللّه تعالى، لهدفين: ليحذّر الكفّار و المشركين من سوء المنقلب الذى يتوجّب أن يسلّم الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه إلى اللّه جلّ و علا و يطلب منه النجاة، و الآخر: ليعلّم أصحابه و أتباعه جميعا التسليم إلى الحقّ، و ألّا يتصوّروا أنّهم فى مأمن من عذابه.

أمّا ماذا يقصد بهذا العذاب؟

يرى معظم المفسّرين أنّه العقاب الدنيوى الذى ابتلى اللّه به المشركين، و منه الهزيمة المرّة التى ألحقها بهم فى معركة بدر[۳۹۶] و مع التوجّه إلى أنّ سورة «المؤمنون» مكّية نزلت يوم مواجهة المؤمنين لضغوط كبيرة. لهذا كانت هذه الآيات بلسم لجراحهم و تسلية لخواطرهم (و جاء بهذا المعنى أيضا فى سورة يونس الآية ۴۶).

إلّا أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّه يشمل العذاب الدنيوى و الاخروى معا[۳۹۷].

و يبدو التّفسير الأوّل أقرب لمراد الآية.

و تأكيدا لهذا الموضوع و لنفى كلّ شكّ لدى الأعداء، و لتسلية خاطر الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، أضافت الآية اللاحقة وَ إِنَّا عَلى أَنْ نُرِيَكَ ما نَعِدُهُمْ لَقادِرُونَ

و لقد تجلّت قدرة اللّه سبحانه فى ساحات مختلفة بعد ذلك- و منها معركة بدر- حيث غلبت قلّة من المؤمنين جموع الأعداء الغفيرة بقوّة الإيمان و بنصر من اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۱

سبحانه و تعالى.

ثمّ يأمر اللّه الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم باتّباع سياسة اللين فى الدعوة إلى الهدى و دين الحقّ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ أى ادفع عدوانهم و سيّئاتهم بالعفو و الصفح و الإحسان، و كلامهم البذىء بالكلام المنطقى الموزون: نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ

و اللّه يعلم أنّ أعمالهم القبيحة و كلامهم البذىء و أذاهم القاسى يؤلم الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّه عزّ و جلّ يدعو إلى عدم الرّد بالمثل، بل يوجب أن يكون الردّ بالتى هى أحسن. و هذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين و المخدوعين.

ثمّ نقرأ أمرا ربّانيا بالاستعاذة باللّه من مكائد الشيطان وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ إنّه دعاء بالإنقاذ من تربّص الشيطان و مكره الخفى، و لا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمرّ فى الاستعاذة من حضورهم عنده وَ أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ أى حضور الشياطين فى اجتماعات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى يؤدّى إلى إغفال المجتمعين و إضلالهم.

ملاحظتان

۱- ما معنى همزات الشياطين؟

«الهمزات» جمع «همزة» بمعنى التحريك بقوّة، و قد أطلقت هذه التسمية على حرف الهمزة، لأنّها تؤدّى إلى حركة قويّة فى نهاية الحلق.

و قال بعض المفسّرين: إنّ «الهمز» و «الغمز» و «الرمز» بمعنى واحد. إلّا أنّ الرمز ذو مرحلة خفيفة، و الغمز أشدّ منها. و الهمز، نهايتها فى الشدّة[۳۹۸].

و بما أنّ الشياطين صيغة جمع، فهى تضمّ شياطين الجنّ و الإنس، ظاهرها و خفيّها. و نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم أنّ الإمام عليه السّلام قال فى معنى الآية: قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ

هو ما يقع فى قلبك من وسوسة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۲

الشيطان»[۳۹۹].

فإذا كان الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع عصمته و منزلته السامية عند اللّه، يدعوه سبحانه بهذا الدعاء، فما بالك بمسؤولية الآخرين؟ يجب أن يدعوا اللّه ألّا يكلهم إلى أنفسهم طرفة عين. و ليس فقط ألّا يقعوا تحت تأثير همزات الشياطين، بل ألّا يحضرهم الشياطين فى مجالسهم. فعلى محبّى الحقّ و الذّابين عنه و ناشديه أن يفوّضوا أمرهم إلى اللّه، ليحفظهم من وساوس الشياطين و مكائدهم.

۲- ردّ السيّئة بالحسنة

من أبرز السبل المؤثّرة فى مكافحة الأعداء الأشدّاء و المعاندين ردّ السيّئة بالحسنة، فذلك يوقظ مشاعرهم، فيحاسبون أنفسهم على ما اقترفوه من أعمال سيّئة، و يعودون للصواب غالبا. و نجد فى سيرة الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة الهدى عليهم السّلام هذا المنهج بشكل واضح، حيث يردّون سيّئات الجنازة بالإحسان إليهم و الإنعام عليهم، فيكسبون ودّهم، و يفجّرون فى جوارحهم استجابة للحقّ، و رفضا للباطل.

و قد ذكر القرآن المجيد هذه السيرة للمسلمين مرارا باعتبارها مبدأ أساسيّا لاقتلاع السيّئات، ففى الآية الرّابعة و الثلاثين من سورة فصّلت نقرأ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

و الجدير بالذكر أنّ هذا الأمر خاص بحالات لا يسىء العدو الاستفادة من هذا المبدأ، و يرى إحسانهم إليه أو عفوهم عنه ضعفا منهم، فيزداد جرأة على العدوان و الظلم.

و هذه السيرة لا تعنى مساومة الأعداء أو التسليم لهم. و هذا قد يكون السبب فى أنّ اللّه عزّ و جلّ أمر الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذكر هذه التوصية مباشرة بالتعوّذ به من همزات الشياطين و حضورهم حوله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۳

الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۹۹ الى ۱۰۰]

اشارة

حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (۹۹) لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۰۰)

التّفسير

طلب المستحيل:

تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين و المذنبين و تمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. و أنّهم يستمرّون فى باطلهم: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ۴۰۰].

حينما يجبر المذنب و المشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة و الغرور، فيرى بأمّ عينه مصيره المؤلم، فلا مال و لا جاه، فقد عاد كلّ ما يعنيه هباء فى هباء، و هو يشاهد اليوم عاقبة أمره، و ما ارتكبه من ذنوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۴

و معاص، فيرتفع صراخه و عويله قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ

ارجعنى يا ربّ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ و لكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العودة، لا يسمح بعودة الصالح و لا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ كَلَّا.

إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها. كلام لم يصدر من أعماقه. لم يصدر بإرادته، إنّه يشبه كلام امرئ مسىء يردّد إذا أحسّ بالعقاب، أو كلام قاتل حين إعدامه. و متى هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحة. و هذا يشبه ما ورد فى الآية الثامنة و العشرين من سورة الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

و تشير الآية فى نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعبارة قصيرة ذات دلالة كبيرة وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

بحوث

۱- من هو المخاطب فى قوله تعالى: رَبِّ ارْجِعُونِ

بملاحظة كلمة «ربّ» التى هى مخفّف «ربّى» بمعنى إلهى، تشير بداية الجملة إلى أنّ المخاطب هو اللّه سبحانه و تعالى، إلّا أنّ مجىء «ارجعون» بصيغة الجمع يمنع أن يكون المخاطب هو اللّه عزّ و جلّ. و هذا التعبيران فى الجملة السابقة يثيران سؤالا و تساؤلا.

يرى عدد من المفسّرين أنّ المخاطب هو اللّه، و صيغة الجمع هنا للاحترام و التعظيم. و لكن استعمال صيغة الجمع فى مخاطبة المفرد

لیس مألوفا فی العربیة، خاصّة فیما مضی، و لا نظیر له فی القرآن المجید، و بهذا یتّضح ضعف هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۵

التّفسیر[۴۰۱].

و قال عدد آخر من المفسّرین: إنّ المخاطب هم الملائکة المکلّفون بقبض الأرواح. و کلمة «ربّ» نوع من الاستعانة باللّه، و هذا مألوف فی حیاتنا الیومیّة حیث یستغیث المرء باللّه فی الشدائد، ثمّ یستنجد الناس و یصرخ: «یا ربّ! یا ربّ! انقذونی، عجّلوا بمساعدتی» و یبدو هذا التّفسیر أقرب إلی الصواب.

۲- تفسیر عبارة فِیما تَرَکْتُ

قرأنا فی الآیات السابقة أنّ الکفّار یستنجدون باللّه لیرجعهم إلی الدنیا لیعملوا صالحا فیما ترکوا من الأعمال.

و یری البعض فی قوله تعالی: فِیما تَرَکْتُ إشارة إلی أموال ترکوها، لاستعمال تعبیر «ترکة المیت» بصورة اعتیادیة.

و

روی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام یؤکّد هذا المعنی إذ یقول: «من منع قیراطا من الزکاة فلیس بمؤمن و لا مسلم، و هو قوله تعالی: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۴۰۲].

بینما یری آخرون أنّ لها معنی أوسع، هو إشارة إلی جمیع الأعمال الصالحة التی ترکها الإنسان. فیکون المعنی: رباه! أرجعنی لاعوّض ما ترکته من عمل صالح.

و لا یناقض الحدیث السابق مع هذا التّفسیر الشامل و هو مصداق واضح له، علما بأنّ هؤلاء الأشخاص یندمون علی ما فاتهم من فرص، لهذا یرغبون فی الرجوع إلی الحیاة لیستفیدوا منها فی العمل الصالح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۶

و یبدو أنّ التّفسیر الثّانی أقرب إلی الصواب، و کلمة «لعلیّ» الواردة فی جملة لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً یمکن أن تکون علامة علی عدم اطمئنان هؤلاء المنحرفین من مستقبلهم، و أنّ الندامة نتیجة لظروف خاصّة، تظهر حین موتهم، و لو عادوا إلی الدنیا لواصلوا أعمالهم ذاتها. و هذا هو عین الحقیقة.

۳- ما الذی تنفیه «کلّا»؟

تأتی «کلّا» فی العربیة بمعنی الحیلولة، و إبطال أثر أقوال المخاطب. و تقابل بالضبط کلمة «أی» التی تستخدم لتصدیق الکلام.

و فی الجواب عن السؤال الوارد آنفا، قال البعض: إنّ «کلّا» تنفی طلب الکفّار الرجوع إلی الحیاة الدنیا، أی إنّ طریق العودة، مغلق، و لا یمکنکم العودة أبدا.

و قال البعض الآخر: إنّ هذه الکلمة جاءت لنفی ادّعاءاتهم القائلة: لو عدنا إلی الدنیا لعوّضنا ما فاتنا من أعمال صالحة، فیقال لهم: ما هذا إلّا ادّعاء باطل، و لو عدتم لواصلتم العمل بنفس نهجکم السابق.

و لا ضیر فی أن تکون هذه الکلمة- فی الوقت ذاته- إشارة إلی نفی إثنین من المعانی. کما یجب ملاحظة أنّ هذا الطلب- رغم وروده فی الآیة محل البحث من قبل المشرکین فقط- لیس خاصّا بهم، بل هو طلب جمیع المذنبین و الظالمین و المنحرفین، إذ یندمون علی ما فاتهم لحظة موتهم، حین یرون مصیرهم الألیم ماثلا لأعینهم، فیرجون اللّه لیعیدهم إلی الحیاة الدنیا، إلّا أنّ اللّه

يزجرهم بقوله:

«كلّا».

۴- ما هو عالم البرزخ؟

و أين هو؟

و ما هو الدليل لإثبات وجود هذا العالم بين الدنيا و الآخرة؟

و هل يكون البرزخ للجميع، أم لمجموعة معيّنة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۷

و أخيرا ماذا سيكون وضع المؤمنين و الصالحين و الكفّار و المسيئين فيه؟

هذه أسئلة أشارت الآيات و الأحاديث السابقة إليها، لهذا نجيب عنها حسبما يسمح به وضع هذا الكتاب.

تعنى كلمة «البرزخ» فى الأصل الشىء الذى يقع حائلا بين شيئين، ثمّ استعملت لكلّ ما يقع بين أمرين. و لهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على عالم يقع بين عالم الدنيا و الآخرة.

و الدليل على وجود عالم البرزخ، أو عالم القبر، أو عالم الأرواح، نجده فى الأدلّة النقلية، فقد دلّ عليه صريح آيات القرآن أحيانا و ظاهرها أحيانا أخرى.

و الآية موضع البحث وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ظاهرة فى وجود عالم البرزخ. رغم أنّ البعث رغب فى القول بأنّ كلمة «البرزخ» فى هذه الآية تعنى العائق و المانع من العودة إلى الدنيا، غير أنّ هذا المعنى يبدو غريبا، لأنّ عبارة إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ دليل على وقوع عالم البرزخ بين الدنيا و الآخرة، و ليس بين الإنسان و الدنيا.

و من الآيات التى تصرّح بوجود مثل هذا العالم، الآيات الخاصّة بحياة الشهداء، مثل وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ الآية (۱۶۹) من سورة آل عمران، و الخطاب فيها موجّه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم. أمّا الآية (۱۵۴) من سورة البقرة فإنّها خطاب لجميع المؤمنين: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ

و عالم «البرزخ» ليس للمؤمنين ذوى الدرجة الرفيعة كالشهداء فقط، بل للكفّار الطغاة كفرعون و أعوانه أيضا، و هذا ما صرّحت به الآية (۴۶) من سورة المؤمن النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ

و ذكرت آيات أخرى عالم البرزخ و لكن لا تصل إلى صراحة و ظهور الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۸

السابقة.

و ما يجب الانتباه إليه فى موضع البرزخ هو أنّ الآيات- باستثناء الآية التى نحن بصددها و التى ذكرته بشكل عامّ- استعرضت البرزخ بشكل خاصّ، كما فى ذكره عن الشهداء أو آل فرعون.

إلّا أنّ الواضح أنّه لا خصوصيّة لآل فرعون لأنّ فى العالم الكثير من أمثالهم، و لا للشهداء، لأنّ القرآن الكريم اعتبر النّبيّين و الصدّيقين و الصالحين مع الشهداء، كما جاء فى الآية (۶۹) من سورة النساء فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ

و لنا حديث عن كون البرزخ لعامّة الناس أو لفئة منهم، سنورده فى ختام هذا البحث إن شاء اللّه.

أمّا الرّوايات: فهناك أحاديث كثيرة فى كتب الفريقين الشيعة و السنّة تتحدّث بعبارات مختلفة عن عالم البرزخ، و عالم القبر، و عالم

الأرواح. أی تتحدّث عن العالم الذی یفصل بین الدنیا و الآخرة، و منها:

۱-

جاء فی حدیث معروف ذکر فی الکلمات القصار فی نهج البلاغة أنّ علیّا علیه السّلام حینما وصل إلی جبانة الکوفة عند عودته من حرب صفین، توجّه إلی القبور و نادی الأموات قائلا: «یا أهل الدیار الموحشة و المحال المقفرة و القبور المظلمة! یا أهل التربة! یا أهل القربة! یا أهل الوحدة! یا أهل الوحشة! أنتم لنا فرط سابق و نحن لکم تبع لا حق! أمّا الدور فقد سکنت، و أمّا الأزواج فقد نکحت، و أمّا الأموال فقد قسّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندکم»؟

ثمّ التفت إلی أصحابه فقال: «أما لو اذن لهم فی الکلام لأخبروکم أنّ خیر الزاد التقوی»[۴۰۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۰۹

و بهذا یتّضح عدم إمکان حمل هذه العبارات علی المجاز و الکنایة، بل هی تخبرنا عن حقیقة وجود حیاة البرزخ بعد الموت، و تمکّن الموتی- لو سمح لهم- من الحدیث إلینا.

۲- و نقرأ حدیثا آخر

رواه الأصبغ بن نباتة یذکر فیه أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه خرج من الکوفة، و مرّ حتّی أتی الغریین فجازه، فلحقناه و هو مستلق علی الأرض بجسده، لیس تحته ثوب.

فقال له: قنبر: یا أمیر المؤمنین ألا أبسط ثوبی تحتک؟

قال: لا، هل هی إلّا تربة مؤمن أو مزاحمته فی مجلسه؟

قال الأصبغ: فقلت: یا أمیر المؤمنین، تربة مؤمن قد عرفناه کانت أو تکون.

فما مزاحمته فی مجلسه؟

فقال: «یا ابن نباتة، لو کشف لکم لرأیتم (فی المختصر المطبوع ص ۴: لألفیتم) أرواح فی هذا الظهر حلقا یتزاورون و یتحدّثون، إنّ فی هذا الظهر روح کلّ مؤمن، و بوادی برهوت نسمة کلّ کافر»[۴۰۴].

۳- و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام قوله: «إنّ القبر إمّا روضة من ریاض الجنّة أو حفرة من حفر النّار»[۴۰۵].

۴- و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام: «البرزخ القبر و هو الثواب و العقاب بین الدنیا و الآخرة ... و اللّه ما نخاف علیکم إلّا البرزخ»[۴۰۶].

۵- و

جاء فی کتاب الکافی أنّه سئل الإمام: و ما البرزخ؟ فأجابه: «القبر من حین موته إلی یوم القیامة»[۴۰۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۰

۶- و

روی الشیخ الکلینی رحمه اللّه فی الکافی عن علی بن إبراهیم، عن أبیه، عن الحسن بن محبوب، عن أبی ولّاد الحنّاط، عن أبی عبد اللّه علیه السّلام، قال: قلت له:

جعلت فداک، یروون أنّ أرواح المؤمنین فی حواصل طیور خضر حول العرش، فقال: «لا، المؤمن أکرم علی اللّه من أن یجعل روحه فی حوصلة طیر، و لکن فی أبدان کأبدانهم»[۴۰۸].

هذا الحدیث یشیر إلی مصیر روح الإنسان، فهی من جهة تشبه هذا الجسم المادّی، إلّا أنّه یمتلک نوعا من التجرّد البرزخی.

۷- کما نقرأ

فی حدیث آخر جاء فی کتاب الکافی عن الإمام الصادق علیه السّلام: سألته عن أرواح المؤمنین فأجاب: «فی حجرات فی الجنّة، یأکلون من طعامها و یشربون من شرابها. و یقولون ربّنا أقم لنا الساعة و أنجز لنا ما وعدتنا»[۴۰۹].

۸-

روی صاحب الکافی عن سهل بن زیاد، عن إسماعیل بن مهران، عن درست بن أبی منصور، عن ابن مسکان، عن أبی بصیر، عن أبی عبد اللّه علیه السّلام، قال: «إنّ الأرواح فی صفة الأجساد فی شجرة فی الجنّة تعارف، فإذا تساءل قدّمت الروح علی الأرواح تقول: دعوها فإنّها قد أفلتت من هول عظیم، ثمّ یسألونها: ما فعل فلان؟ و ما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: ترکته حیّا ارتجوه، و إن قالت لهم: قد هلک، قالوا: قد هوی هوی»[۴۱۰].

تقصد الأحادیث أعلاه بالجنّة و النّار البرزخیتین، و لیس العائدتین لیوم القیامة، و الفرق بینهما کبیر.

و الأحادیث فی هذا المجال عدیدة، و قد رتّبت فی أبواب مختلفة نشیر إلی قسم منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۱

أحادیث تتحدّث عن سؤال القبر و عذابه.

و أحادیث تتناول اتّصال الأرواح مع أسرها و مشاهدة وضعهم.

أحادیث تتحدّث عن لیلة المعراج و اتّصال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مع أرواح الأنبیاء و المرسلین.

أحادیث تنصّ علی ابتلاء الإنسان بنتائج أعماله سواء کانت طیّبة أمّ سیّئة.

بعد موته ... و أمثالها[۴۱۱].

البرزخ و الاتّصال بعالم الأرواح

رغم أنّ الکثیر ممّن یدّعون بأنّهم علی اتّصال بعالم الأرواح کاذبون، أو أنّهم یعانون نوعا من الوهم و الخیال، لکن ثبت أنّ الاتّصال بعالم الأرواح ممکن، و قد تحقّق فعلا لبعض العلماء، حتّی أنّهم توصّلوا إلی بعض الحقائق عن طریق الأرواح.

و هذه القضیّة بذاتها دلیل واضح علی وجود عالم البرزخ و حقیقته، فهی تبیّن أنّ بعد عالم الدنیا و الموت و قبل القیامة فی الآخرة، هناک عالم آخر قائم بذاته ۴۱۲].

کما أنّ الأدلّة العقلیّة لإثبات تجرّد الروح و بقائها بعد فناء الجسم بنفسها دلیل آخر علی وجود عالم البرزخ (فتأمّلوا جیدا).

صورة عن عالم البرزخ

یتّفق علماء الإسلام علی أصل وجود البرزخ و ما یقع فیه من نعمة و نقمة مع بعض اختلافات جزئیّة بین هؤلاء العلماء، و یتّفق علماء السنّة و الشیعة علی وجود البرزخ باستثناء عدد قلیل غیر ملحوظ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۲

و الدلیل علی الاتّفاق بین هؤلاء العلماء واضح، و هو تصریح الآیات القرآنیة بوجود البرزخ و ما فیه من نعمة و عذاب، کما أسلفنا. و منها ما صرّح بذلک فی الحدیث عن الشهداء: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ فَرِحِینَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ یَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِینَ لَمْ یَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَیْهِمْ وَ لا هُمْ یَحْزَنُونَ ۴۱۳] و لیس فقط هذه المجموعة

من الصالحين قد أنعم اللّه عليها، بل إنّ مجموعة من أسوأ الطغاة و المجرمين يعذّبهم اللّه، كما أنّ تعذيب آل فرعون بعد الموت و قبل القيامة قد أشارت إليه الآية ۴۶ من سورة غافر (المؤمن).

و الأحاديث متواترة بهذا الصدد، فلا نقاش فى وجود عالم البرزخ أساسا، و المهمّ أن نعرف حياة البرزخ و شكلها، فقد ذكرت له صورة مختلفة، أوضحها أنّ أرواح البشر بعد ترك هذه الدنيا، تدخل أجساما لطيفة سامية عن آثار هذه المادّة القذرة، إلّا أنّها على شكل أجسامنا، و يقال لكلّ منها (الجسم المثالى) و هو ليس مجردا تمام التجريد، و لا هو مادّيا محضا. إنّه يمتاز بتجرّد برزخى معيّن، و شبّهه بعضهم بما عليه الروح فى أثناء ما يراه النائم، إذ تسرّ الروح رؤية النعم، و تعذّبها مشاهدة المناظر المؤلمة، و لذلك أثّر فى جسمنا هذا، إذ نبكى عند رؤية حلم مزعج، و نفزع مذعورين من هول ما نرى، أو نضحك من أعماقنا من طرافة ما نحلم به فى نومنا.

و يرى جماعة أنّ الروح تقوم بنشاط فى الجسم المثالى، بل يرون أكثر من ذلك، ألا و هو قدرة الأرواح القويّة على اكتساب حالة التجرّد البرزخى فى يقظة الإنسان أيضا. أى تنفصل الروح عن الجسم. و تتحرّك فى الجسم المثالى برغبتها أو بالتنويم المغناطيسى، تتحرّك فى العالم لتطّلع على بعض القضايا[۴۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۳

بل إنّ البعض قال بوجود الجسم المثالى فى جسم كلّ إنسان، و إنّه ينفصل عنه فى بداية الحياة البرزخية، و يمكن أن يقع ذلك كما قلنا فى هذه الدنيا.

و إذا رفضنا جميع هذه الصفات للجسم المثالى، فلا يمكن نفى الموضوع أصلا، بسبب إشارة أحاديث عديدة إليه، و لانعدام المانع العقلى منه.

و بهذا يتّضح جواب الاعتراض القائل بأنّ الإعتقاد بالجسم المثالى يستوجب الإعتقاد بالتناسخ، الذى يعنى انتقال الروح من جسم إلى آخر.

لقد ردّ الشيخ البهائى هذا الإحتجاج بوضوح، فقال: إنّ التناسخ الذى يرى بطلانه جميع المسلمين، هو عودة الروح بعد تفسّخ الجسم الذى كانت فيه إلى جسم آخر فى هذه الدنيا.

أمّا اختصاص الروح بالجسم المثالى فى عالم البرزخ حتّى يوم القيامة، ثمّ عودتها إلى الجسم الأوّل بأمر من اللّه تعالى لا علاقة له بالتناسخ، و السبب أنّنا ننفى التناسخ بشدّة و نكفّر الذى يعتقد به، هو قولهم بأزليّة الأرواح و انتقالها الدائمى من جسم إلى آخر، و إنكارهم المعاد الجسمانى فى عالم الآخرة[۴۱۵].

و القول بوجود الجسم المثالى فى باطن الجسم المادّى يجلى الجواب عن هذا الإشكال، إذ لا تنتقل الروح من جسم إلى آخر، بل تترك بعض قوالبها، و تستمرّ فى قالب آخر فى حياتها البرزخية.

و السؤال الآخر هو أنّه يفهم من آيات قرآنية أن لا حياة برزخية لمجموعة من الناس، كما جاء فى الآية الخامسة و الخمسين و السادسة و الخمسين من سورة الروم! يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ، وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۴

و جواب هذا الاعتراض، جاء فى أحاديث فحواها أنّ الناس ثلاث فئات:

فئة مؤمنة مخلصة فى إيمانها، و فئة مخلصة فى كفرها، و فئة متوسطة و مستضعفة.

و إنّ عالم البرزخ خاص بالفئتين الأولى و الثّانية، أمّا الثّالثة فتعبر عالم البرزخ فى حالة من عدم الاطلاع (لاطلاع أوسع على هذه الأحاديث يراجع المجلّد السادس من بحار الأنوار، بحث أحوال البرزخ و القبر).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۵

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۰۱ الى ۱۰۴]

اشارة

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ (۱۰۱) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۰۲) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۱۰۳) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ (۱۰۴)

التّفسير

جانب من عقاب المسيئين:

تحدّث الآيات السابقة عن عالم البرزخ، و أعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، و تناولت كذلك جانبا من وضع المذنبين فى عالم الآخرة.

فهى تقول أوّلا: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا يَتَساءَلُونَ من المعلوم- بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم- أنّ النفخ فى الصور يجرى مرّتين. أولاهما فى نهاية هذا العالم، حيث يموت من فى الأرض و السماوات.

و فى ثانيتهما يبدأ بعث من فى القبور، ليعودوا لحياة جديدة، و ليستعدّوا للحساب و الجزاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۶

«النفخ فى الصور» يعنى النفخ فى البوق، إلّا أنّ هذه العبارة لها مفهوم خاصّ سنبيّنه إن شاء اللّه فى شرح الآية ۶۸ من سورة الزمر.

و على كلّ حال، فإنّ الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

أولاهما: انتهاء مسألة النسب، لأنّ رابطة الاسرة و القبيلة التى تسود حياة الناس فى هذا العالم تؤدّى فى كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم فى حلّ مشاكلهم. أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كلّ إنسان و عمله، فلا معين له، و لا نفع فى ولده، أو أخيه، أو والده.

و ثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهى، هو يوم كما أطّلعنا عليه فى مطلع سورة الحجّ:

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ كما يحتمل أن تقصد عبارة وَ لا يَتَساءَلُونَ عدم طلب أحدهم العون من الآخر، لأنّهم جميعا يعرفون عدم جدوى ذلك.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذه العبارة هى عدم السؤال عن الأنساب فهى تأكيد لقوله تعالى: فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ

و يبدو التّفسير الأوّل أوضح من غيره، رغم عدم التناقض فيما بينها، و يمكن أن تشير العبارة السابقة إلى هذه المعانى كلّها.

و رأى مفسّرون آخرون أنّه يستفاد من عدّة آيات تساؤل الناس يوم القيامة، كما جاء فى الآية (۲۷) من سورة الصافات، حيث تساءل المذنبون لدى مواجهة النّار وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ كما تحدّثت هذه السورة فى الآية الخمسين عن أهل الجنّة ساعة استقرارهم فى الجنّة متقابلين، فقالت: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ إنّهم تساءلوا عن رفاق لهم فى الحياة الدنيا انحرفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۷

عن السبيل السوى فاقتيدوا إلى النّار.

كما جاء نظير هذا المعنى فى الآية (۲۵) من سورة الطور، فكيف تنسجم هذه الآيات مع الآية موضع البحث، و هى تنصّ على عدم

تساؤل الناس يوم القيامة؟.

لو دقّقنا مليّا فى مضمون الآيات محلّ البحث لاتّضح لنا جواب هذا السؤال، فالآيات الخاصّة بإثبات سؤال بعضهم للآخر إنّما تتحدّث فى حالة استقرارهم فى الجنّة، أو فى النّار. فى وقت تنفى الآيات محل البحث تساؤل الناس حين البعث، حيث يسيطر الرعب على الجميع. حتّى أنّ الناس ينسون جميع من حولهم و يذهلون عنهم من هول الحشر. و بتعبير آخر: للقيامة مواقف و لكلّ موقف شأن معيّن، و الإشكال المذكور نجم عن عدم تشخيص هذه المواقف.

و بعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب و قياس الأعمال بميزان خاصّ بيوم القيامة: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

«الموازين» جمع «ميزان» و هو وسيلة للقياس. و كما قلنا سابقا: إنّ الميزان لا يعنى ما نعرفه فى هذه الدنيا لوزن الموادّ، إنّ الميزان فى هذه الآية يعنى وسيلة ملائمة لقياس قيمة أعمال الإنسان، أى: للميزان مفهوم واسع يشمل جميع وسائل القياس. و كما ورد فى الأحاديث المختلفة أنّه ميزان تقاس به الأعمال و الناس، و هم قادة الإسلام الكبار،

فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين و الأئمّة من ذريته هم الموازين»[۴۱۶].

و على هذا فإنّ الرسل و أوصياءهم هم الذين يقاس الناس و أعمالهم بهم، ليتبيّن إلى أى درجة يشبهونهم. و بهذا يتميّز الناس ثقيلهم من خفيفهم، و ثمينهم من تافههم، و عالمهم من جاهلهم. كما يتّضح لنا سرّ ذكر الموازين بصيغة الجمع، لأنّ قادة الناس الكبار فى السابق- و هم موازين القياس- قد تعدّدوا فى التاريخ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۸

و يمكن أن يكون الأنبياء و الأئمّة و عباد اللّه المخلصون قدوة فى مجال معيّن أو أكثر على وفق الظروف التى مرّوا بها، فاشتهروا ببعض الصفات دون أخرى، فواحدهم ميزان بما اشتهر به من حسنات و خصال حميدة.

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ و هم الذين فقدوا الإيمان و العمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة، لأنّهم خسروا رأسمال وجودهم: فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ عبارة خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكبر رأسمال لهم- أى وجودهم- فى سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

و تشرح الآيات التالية عذابهم الأليم تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ألسنة النّار و لهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف وَ هُمْ فِيها كالِحُونَ و هم من شدّة الألم و عذاب النّار، فى عبوس و اكفهرار.

و كلمة «تلفح» مشتقّة من «لفح» على وزن «فتح» و تعنى فى الأصل ضربة السيف، و قد وردت هنا كناية، لأنّ لهيب النّار، أو نور الشمس المحرقة، و ريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

و أمّا كلمة «كالح» فإنّها مشتقّة من «كلوح» على وزن «فعول» بمعنى التعبيس و اكفهرار الوجه. و قد فسّره عدد كبير من المفسّرين بتقلّص فى جلد الوجه بحيث يبقى الثغر مفتوحا لا يمكن إغلاقه ۴۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۱۹

ملاحظات

۱- اليوم الذى لا يعتنى فيه بالأنساب:

المفاهيم التى تسود حياة الإنسان المادّية فى هذا العالم، ستتغيّر فى عالم الآخرة، و منها العلاقات الودّية، و الأواصر الأسريّة التى تحلّ مشاكل كثيرة فى هذه الحياة، و أحيانا تشكّل النظام الذى يسيطر على سائر العلاقات الاجتماعية.

و إذا كـان الانتسـاب للقبائـل و الأسـر فى الـدنيا لاـ يعـارض الإيمـان بـاللّه تعالى و العمل الصالـح، فإنّه ينتفى يوم القيامـة، فلا انتساب لشـخص أو طائفـة أو قبيلة. و إذا كان الناس هاهنا يساعد أحدهم الآخر، و يحلّ له مشاكله و ينتصـر له و يفخر به، فإنّهم ليسوا كذلك يوم القيامة، فلا خبر عن الأموال الكثيرة، و لا عن الأولاد يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۴۱۸].

حتّى من ينتسـبون إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم خاضعون لهذا الحكم، و لهذا نلاحظ أنّ الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّـة الأطهـار طردوا عنهم من كـان من المقرّبين فى النسب الهاشـمى، إمّـا لعـدم إيمانه، أو لانحرافه عن الإسـلام الأصـيل، و أظهروا تنفّرهم و براءتهم منه. رغم أنّه

روى عن الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «كل حسب ۴۱۹] و نسب منقطع يوم القيامة إلّا حسبى و نسبى»[۴۲۰].

يقول العلّامـة الطباطبائى (رضوان اللّه عليه) فى الميزان: إنّ هـذا الحديث هو نفسه الذى رواه بعض محدّثى أهل السـنّة فى كتبهم، مرّة عن عبد اللّه بن عمر، و أخرى عن عمر بن الخطاب، و أحيانا عن صحابة آخرين للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

فى الوقت الذى نرى أنّ الآية- موضع البحث- ذات طابع عامّ، فهى تتحدّث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۰

عن انقطاع جميع الأنساب يوم القيامة، و هذا ما تؤازره المبادئ القرآنية و سـيرة النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فى معاملة المنحرفين التى تفيد أنّه لا فرق بين الناس فى هذا المجال.

لهذا نقرأ فى حديث رواه ابن شهر آشوب فى كتابه المناقب عن طاووس اليمانى

عن الإمـام زين العابـدين عليه السّـلام أنّه قال: «خلق اللّه الجنّـة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبـدا حبشـيّا، و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّدا قرشيا»[۴۲۱].

و ما ذكر لا ينفى احترام السادة المتّقين من آل الرّسول صـلى اللّه عليه و آله و سلّم، فهذا الاحترام فى حقيقته احترام للرسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما جاء فى القرآن و الحديث فى فضلهم و منزلتهم ناظر حسب الظاهر إلى هذا المعنى.

۲- حكاية الأصمعى المؤثّرة:

و من المناسب هنا ذكر حكاية نقلها «الغزالى» فى كتابه «بحر المحبّة» عن الأصمعى، تؤيّد ما ذهبنا إليه و ذات مسائل جديرة بالاهتمام.

يقول الأصـمعى «كنت أطوف حول الكعبـة فى ليلـة مقمرة، فسـمعت صوتـا حنونـا لرجـل يناجى ربّه. بحثت عن صاحبه و إذا به شاب جميل رشيق القامة يبدو عليه الطيب. و قد تعلّق بأستار الكعبة، و كان يقول فى مناجاته:

يـا سيّدى و مولاـى، نامت العيون و غابت النجوم، و أنت ملك حىّ قيّوم، لا تأخـذك سـنة و لا نوم، غلقت الملوك أبوابها، و أقامت عليهـا حرّاسـها و حجّابهـا، و قـد خلاـ كلّ حبيب بحبيبه، و بابك مفتوح للسائلين، فها أنّا سائلك ببابك مـذنب فقير، خاطئ مسـكين، جئتك أرجو رحمتك يا رحيم، و أن تنظر إلىّ بلطفك يا كريم! ثمّ أنشد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۱

يا من يجيب دعا المضـطر فى الظلم* يا كاشف الكرب و البلوى مع السقم قد نام وفدك حول البيت و انتبهوا* و عين جودك يا قيّوم لم تنم إن كان جودك لا يرجوه ذو سـرف* فمن يجود على العاصين بالنعم هب لى بجودك فضل العفو عن سرف* يا من أشار إليه الخلق فى الحرم ثمّ رفع رأسه إلى السّماء و ناجى:

إلهى سيّدى و مولاى! إن أطعتك بعلمى و معرفتى فلك الحمد و المنّة علىّ، و إن عصيتك بجهلى فلك الحجّة علىّ.

و رفع رأسه ثانيـة إلى السّـماء مناجيـا بـأعلى صوته: يـا إلهى و سـيّدى و مولاـى، مـا طـابت الـدنيا إلّـا بـذكرك، و ما طابت العقبى إلّا بعفوك، و ما طابت الأيّام إلّا بطاعتك، و ما طابت القلوب إلّا بمحبّتك، و ما طاب النعيم إلّا بمغفرتك.

يضـيف الأصـمعى أنّ هـذا الشـاب واصـل مناجـاة ربّه حتّى أغمى عليه، فـدنوت منه و تـأمّلت فى محيّاه فإذا هو على بن الحسـين زين العابـدين، فأخـذت رأسه فى حجرى و بكيت له كثيرا، فأعادته إلى وعيه قطرات دمع سـكبت على وجنتيه، فتـح عينيه و قال: من الـذى شغلنى عن ذكر مولاـى؟ قلت: إنّـك من بيت النبوّة و معـدن الرسالـة. ألم تنزل فيكم آيـة التطهير؟ ألم يقـل اللّه فيكم: إِنَّمـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

نهض الإمام السجّاد و قال: يا أصمعى! هيهات هيهات! خلق اللّه الجنّة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيّا، و خلق النّار لمن عصاه و لو كان سيّدا قرشيا.

ألم تقرأ القرآن؟ ألم تسمع كلام اللّه: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۲

يَتَساءَلُونَ

يقول الأصمعى: عند ما وجدته على هذا الحال، تركته و مضيت لسبيلى ۴۲۲].

۳- تناسب العقاب مع الذنب

أشرنا سابقا إلى العذاب الإلهى فى القيامة، و إلى أنّ الذنوب التى ترتكب تتناسب مع العقاب بدقّة، و قد ذكرت الآيات السابقة احتراق الوجوه الشديـد بلهيب النّـار المحرقـة، حتّى تكون الوجوه معبّسـة و الثغور مفتّحـة. كـلّ ذلـك عقـاب للـذين خفّت موازينهم و انعـدم إيمانهم. و مع التوجّه لهذا المعنى، و هو أنّ هؤلاء كانوا يعبّسون حين سـماع الآيات الإلهيّة و أحيانا يسـخرون بها. و يجلسون يتحدّثون باستهزاء و تهكّم، فإنّ هذا العذاب يناسب أعمالهم هذه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۳

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۱]

اشارة

أَ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۱۰۵) قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ (۱۰۶) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ (۱۰۷) قـالَ اخْسَؤُا فِيهـا وَ لاـ تُكَلِّمُونِ (۱۰۸) إِنَّهُ كـانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبـادِي يَقُولُونَ رَبَّنـا آمَنَّا فَـاغْفِرْ لَنـا وَ ارْحَمْنـا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۰۹)

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (۱۱۰) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ (۱۱۱)

التّفسير

لا تكلّمون!

تحـدّثت الآيات السابقـة عن العذاب الأليم لأهل النّار، و تناولت الآيات- موضع البحث- اسـتعراض جانب من كلام اللّه مع أهل النّار،

إذ خاطبهم سبحانه و تعالى بعتاب أ لَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ ۴۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۴

ألم أرسل إليكم آيات و أدلّة واضحة بواسطة رسلى! ألم أتمّ حجّتى عليكم! و مع كلّ هذا واصلتم تكذيبكم و إنكاركم.

و بملاحظة كون فعلى «تتلى» و «تكذّبون» مضارعان و هما دليل على الاستمرار، فإنّه يتّضح لنا استمرار تلاوة الآيات الإلهيّة عليهم، و كذلك هم يواصلون التكذيب!.

و هم يعترفون فى ردّهم قالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا وَ كُنَّا قَوْماً ضالِّينَ

«الشقوة» و «الشقاوة» نقيض السعادة، و تعنى توفّر وسائل العقاب و البلاء. أو بتعبير آخر: هى الشرّ و البلاء الذى يصيب الإنسان، بينما تعنى السعادة توفّر ظروف النعمة و الطيب.

و الشقاوة و السعادة ليستا إلّا نتيجة لأعمالنا و أقوالنا و مقاصدنا، و الإعتقاد بأنّ السعادة أو الشقاوة ذاتية للإنسان منذ الولادة، ما هو إلّا تصوّر يذكر لتسويغ الفرار من عبء المسؤولية و الاعتذار من الأعمال المخالفة للحقّ، أو هو تفسير لأعمال الجهل.

و لهذا نرى المذنبين أهل النّار يعترفون بصراحة أنّ اللّه أتمّ عليهم الحجّة، و أنّهم كانوا السبب فى تعاسة أنفسهم، لأنّهم قوم ضالّون.

و لعلّهم فى اعترافهم هذا يودّون نيل رضى اللّه و رحمته، لهذا يضيفون مباشرة رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ يقولون ذلك و كأنّهم لا يعلمون أنّ القيامة دار جزاء، و ليست دار عمل، و أنّ العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم اللّه سبحانه و تعالى بقوّة قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ و عبارة «اخسؤا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرد الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعنى تحقيره و معاقبته.

ثمّ يبيّن اللّه عزّ و جلّ دليل ذلك بقوله: هل نسيتم: إِنَّهُ كانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبادِي يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ و لكنّكم كنتم تستهزئون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۵

بهم إلى درجة أنّ كثرة الاستهزاء و السخرية منهم أنساكم ذكرى:

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ على أعمالهم و عقائدهم و أخلاقهم إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ

و أمّا أنتم فقد ابتليتم بأسوأ حالة، و بأكثر العذاب ألما، و لا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقّونه.

و بهذا بيّنت الآيات الأربع الأخيرة السبب الرئيسى لتعاسة أهل النّار، و سبب انتصار و فلاح أهل الجنّة بشكل صريح.

الفئة الضالّة هى التى كانت وراء تعاستها، فقد هانت حتّى لم تخاطب يوم القيامة إلّا بما يخاطب به الكلب، لاستهزائهم بأهل الحقّ و الاستهانة بمعتقداتهم السامية، فما أجدر المستهزئين بالمؤمنين بهذا المصير! و أمّا الفئة الصالحة فقد نالت خير جزاء من اللّه بصبرها و استقامتها فى مواجهة العدو المعاند المغرور المتعنّت، و مواصلتهم الطريق إلى اللّه بإخلاص.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۶

الآيات [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۱۲ الى ۱۱۶]

اشارة

قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (۱۱۲) قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلِ الْعادِّينَ (۱۱۳) قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱۴) أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ (۱۱۵) فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (۱۱۶)

التّفسير

الدنيا، و عمرها القصير:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانبا من عذاب أهل النّار الأليم، عقّبت الآيات- موضع البحث- ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجّه من قبل اللّه تعالى لأهل النّار للاستهانة بهم.

تقول الآية الأولى: قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ يخاطبهم سبحانه و تعالى يوم القيامة قائلا: كم سنة عشتم فوق الأرض؟

كلمة «الأرض» فى هذه الآية و كذلك القرائن التى سوف تأتى لا حقا تدلّ على أنّ السؤال هو عن مقدار عمرهم فى الدنيا بالمقارنة مع أيّام الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۷

فما ذهب إليه بعض المفسّرين: من أنّ المراد من هذا الاستفسار هو عن السؤال مقدار انتظارهم فى عالم البرزخ، بعيد حسب الظاهر، رغم وجود شواهد قليلة على ذلك فى آيات أخرى ۴۲۴].

إلّا أنّهم يرون فى هذه المقارنة أنّ الدنيا قصيرة جدّا جدّا قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ

و الحقيقة أنّ الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابة صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة و العقاب غير المحدود.

و للتأكيد أو للردّ بدقّة قالوا فَسْئَلِ الْعادِّينَ أى: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد و يحسبوها بدقّة حين مقارنة بعضها مع بعض، و يمكن أن يكون القصد من كلمة «العادّين» الملائكة الذين يحسبون أعمار الناس و أعمالهم بدقّة، لأنّ هؤلاء يجيدون الحساب أفضل من غيرهم.

و هنا يؤنّبهم اللّه و يستهزئ بهم قالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فسوف يدركون يوم القيامة مدى قصر عمر الدنيا المحدود بالنسبة لعمر الآخرة الممدود، فالعمر الأوّل ما هو إلّا كلمة بصر، و لكنّهم كانوا يتصوّرونه خالدا، لأنّ حجب الغفلة و آثارها قد أسدلت على قلوبهم، فحجبتها عن رؤية الحقّ، فاستهانوا بالآخرة و حسبوها وعدا آجلا بعيدا، لهذا قال لهم اللّه عزّ و جلّ: لو أنّكم كنتم تعلمون لأدركتم هذه الحقيقة التى توصّلتم إليها يوم القيامة فى دنياكم ۴۲۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۸

و استعملت الآية أسلوبا مؤثّرا آخر لإيقاظ هذه الفئة و تعليمها أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ هذه العبارة الموجزة و العميقة تبيّن واحدا من أقوى الأدلّة على البعث و حساب الأعمال و الجزاء، و تعنى أنّ الحياة الدنيا تصبح عبثا إن لم تكن القيامة و المعاد. فالدنيا بما فيها من مشاكل و ما وضع فيها اللّه من مناهج و مسئوليات و برامج، تكون عبثا و بلا معنى إن كانت لأيّام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك فى المسائل الآتية.

و بما أنّ عدم بثيّة الخلق أمر مهمّ يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ فإنّ الذى يقوم بعمل تافه- فى الواقع- هو الجاهل غير الواعى أو الضعيف غير القادر، أو من هو بالذات تافه خاو.

أمّا «اللّه» الذى جمع الكمال فى صفاته.

و هو «الملك» الذى يملك جميع الكائنات و يحكم عليها و هو «الحقّ» الذى لا يصدر منه غير الحقّ، فكيف يخلق الوجود عبثا بلا غاية.

و لو توهّم أحد الأشخاص بأنّه يمكن أن يوجد من يمنعه من الوصول إلى هدفه، فإنّ عبارة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ تنفى ذلك و تؤكّد ربوبيّته و مفهومها أنّ هذا المالك مصلح و هادف فى خلقه للعالم.

و باختصار نقول: إنّه إضافة إلى ذكر كلمة «اللّه» التى هى إشارة إلى صفاته الكمالية فى ذاته، ذكرت الآية أربع صفات بشكل صريح: مالكية و حاكمية اللّه، ثمّ حقّانيّة وجوده، و كذلك عدم وجود شريك له، و أخيرا مقام ربوبيّته. و هذا كلّه دليل على أنّه تعالى لا يقوم بعمل عبثا، كما أنّه لم يخلق البشر عبثا.

كلمة «العرش» كما أشرنا سابقا، هى إشارة إلى أنّ عالم الوجود كلّه الخاضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۲۹

لحكم اللّه (لأنّ العرش فى اللغة يعنى السرير ذى الأرجل العالية و الخاصّ بالحكّام، و هذه كناية عن حكم اللّه المطلق). و للاطلاع أوسع على معنى العرش فى القرآن المجيد يراجع التّفسير الأمثل تفسير الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و سبب توصيف العرش بالكريم، هو أنّ كلمة «الكريم» تعنى بالأصل الشريف و المفيد و الجيّد، و بما أنّ عرش اللّه سبحانه و تعالى له هذه الصفات، فقد سمّى بالكريم.

و لا بدّ من القول بأنّ صفة الكريم لا تخصّ العاقل فقط، بل تطلق على غيره فى اللغة العربية. كما نشاهد ذلك فى سورة الحجّ الآية ۵۰ الخاصّة بالمؤمنين الصالحين لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ أى رزق ذو بركة. و كما يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الكرم لا يقال إلّا فى المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل اللّه، أو تحمّل حمالة ترقئ دماء قوم.

بحث

الموت ليس نهاية الحياة:

قلنا: إنّ من بين الأدلّة المطروحة لإثبات المعاد و العالم الآخر هى «مطالعة نظام هذا العالم» أو بتعبير آخر: إنّ دراسة «النشأة الأولى» شاهد على وجود «النشأة الاخرى».

و من الضرورى إيضاح ذلك بنحو أوسع هنا.

فمن جهة نرى عالم الوجود بهذه السعة و العظمة و التنظيم المدهش، حتّى اعترف كبار العلماء بأنّ أسرار العالم بقدر يقف الإنسان عاجزا إزاءها، فإنّ معلوماته مهما كانت لا تشكّل سوى صفحة من كتاب كبير جدّا. بل إنّ معلوماتنا عن هذا الوجود ما هى إلّا «ألفباء» لهذا الكتاب العظيم التأليف و الأسرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۰

فكلّ واحدة من هذه المجرّات العظيمة تضمّ مليارات من الكواكب، و عدد المجرات و الفواصل بينها كبير بدرجة تثير الدهشة حين حساب المسافة بينها بسرعة الضوء، علما بأنّ سرعة الضوء تبلغ ثلاثمائة ألف كيلومترا فى الثّانية.

و الدقّة المستخدمة فى بناء أصغر وحدة من هذا العالم هى ذاتها التى استخدمت فى أوسع بناء فيه.

و الإنسان- بحسب علمنا- أكمل المخلوقات التى نعرفها فى الوجود، و هو أسمى نتاج لهذا العالم، و من جهة أخرى يلاقى الآلام و المشاكل الكثيرة خلال عمره القصير حتّى يبلغ أشدّه!! فما يكاد ينهى مرحلة الطفولة بآلامها و مشاكلها و يتنفّس الصعداء منها حتّى يدخل مرحلة الصبا و الشباب بتقلّباتها الشديدة المدمّرة.

و ما يكاد يثبت قدميه بعد فى هذه المرحلة حتّى تدهمه مرحلة جديدة مفعمة بألوان الأذى و أنواع المصاعب، هى مرحلة الكهولة و الشيخوخة، فيتّضح له مدى ضعفه و عجزه.

فهل يصدق أن يكون هدف هذا الكائن العظيم الأعجوبة فى الخلق، الذى يسمّى الإنسان، يأتى هو أن إلى هذا العالم ليقضى عددا من

السنين، و ليمرّ بكلّ هذه المراحل بما فيها من آلام و مصاعب، و ليأكل مقدارا من الطعام و يلبس لباسا و ينام و ينهض ثمّ يموت و ينتهى كلّ شيء. و إذا كانت هذه هى الحقيقة، ألا يعنى هذا عبثا؟

أ تكون كلّ هذه التشكيلات العظيمة من أجل غاية دنيئة كالأكل و الشرب و النوم؟

افرضوا بقاء نوع الإنسان ملايين السنين فى هذه الدنيا، و تتعاقب الأجيال، و ترتقى العلوم الماديّة فتوفّر أفضل المأكل و الملبس و المسكن و أعلى مستوى من الرفاهية للبشر، أ تكون تشكيلات الوجود كلّه من أجل هذه المقاصد الدنيا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۱

و على هذا فإنّ دراسة هذا العالم العظيم لوحده دليل على كونه مقدّمة لعالم أوسع يمتاز بالدوام الخالد، و يعطى الإيمان به حياتنا معناها اللائق بها، و يخلصها من التفاهات. و لهذا لا نستغرب من تصوّر الفلاسفة الماديّين الذين لا يعتقدون بالقيامة و الآخرة أنّ هذا العالم تافه لا هدف له. و لو كنّا نحن نعتقد بمثل هذا فحسب لاتّجهنا نفس اتّجاههم. و لهذا نؤكّد أنّه إذا كان الموت نقطة النهاية فخلق الوجود يصبح أمرا تافها، لهذا نقرأ فى الآية (۶۶) من سورة الواقعة وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۲

الآيتان [سورة المؤمنون (۲۳): الآيات ۱۱۷ الى ۱۱۸]

اشارة

وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۱۱۷) وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (۱۱۸)

التّفسير

المفلحون و الخائبون:

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن قضيّة المعاد، و استعرضت الصفات الإلهيّة، فانّ الآية الأولى أعلاه تناولت التوحيد نافية الشرك مؤكّدة للمبدأ و المعاد.

فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا بُرْهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّما حِسابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۴۲۶].

أجل، إنّ المشركين يستندون إلى الأوهام، فلا دليل على ما يدّعون سوى أنّهم كالببغاء يقلّدون آباءهم فى التمسّك بالخرافات و الأساطير- التى لا أساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۳

لها من الصحّة- و من هنا ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلّته و إشراق حقيقته، و يقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه. و من الطبيعى أن يعاقب مثل هؤلاء الذين داسوا حكم العقل بأقدامهم، و اتّجهوا فى دروب الكفر و الشرك المظلمة بوعى منهم.

و فى النهاية تقول الآية: إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ ما أجمل بداية هذه السورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و ما أجمل نهايتها المؤكّدة لبدايتها لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ هذه هى صورة جامعة لحياة المؤمنين و الكافرين من البداية إلى النهاية.

و ختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجّهت الكلام إلى الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ قُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ

و الآن و قد اختارت فئة الشرك سبيلا، و جارت فئة أخرى و ظلمت، فأنت- أيّها الرّسول و من معك تدعون اللّه ربّكم أن يغفر لكم و يرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

و لا شكّ فى أنّ هذا الأمر بالدعاء شامل لجميع المؤمنين، رغم كون المخاطب به هو النّبى بذاته.

و روى «أنّ أوّل سورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و آخرها من كنوز العرش، و من عمل بثلاث آيات من أوّلها، و اتّعظ بأربع من آخرها فقد نجا و أفلح ۴۲۷]».

و يحتمل أنّه يقصد الآيات الثلاث التى تلت عبارة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و التى تدعو إحداها إلى الخشوع فى الصلاة، و تدعو الأخرى إلى اجتناب اللغو و تدعو الثّالثة إلى الزكاة. فإحداها تنظّم علاقة الإنسان بربّه، و الاخرى تنظّم هذه العلاقة مع الناس، و الثّالثة مع النفس.

و القصد من الآيات الأربع الأخيرة، هى الآية ۱۱۵ و ما يليها التى تحدّثت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۰، ص: ۵۳۴

عن غائيّة الخلق، و المعاد، و التوحيد، و أخيرا الانقطاع إلى اللّه و التوجّه إليه.

ربّاه! ندعوك بحقّ المؤمنين الذين وعدتهم فى هذه السورة بالفلاح. و فى طليعتهم الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام أن تحشرنا مع هذه الفئة الصالحة و أن تكتبنا مع المفلحين.

ربّاه! منّ علينا برحمتك و غفرانك إنّك أرحم الراحمين.

إلهى! اجعل خاتمة أعمالنا خيرا. و احفظنا من كلّ خطأ و انحراف، إنّك على كلّ شىء قدير.

ختام تفسير سورة المؤمنين نهاية المجلّد العاشر

---

[۱] (۱)- لقد بحثنا فى معنى(لعلّ) و بأى معنى وردت فى القرآن بصورة مفصّلة فى ذيل الآية(۸۴) من سورة النساء.

[۲] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار رقم ۱۳۰.

[۳] (۱)- مريم، ۱۱

[۴] (۲)- النحل، ۶۸.

[۵] (۳)- الزلزال، ۵.

[۶] (۴)- سورة طه، ۳۸.

[۷] (۵)- النساء، ۱۶۳.

[۸] (۱)- لقد ذكر« كتاب» هنا بصيغة النكرة، و هذه إشارة إلى عظمة الكتاب الذى تثبت فيه أعمال العباد، كما نقرأ فى آية أخرى: \i لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها\E الكهف- ۴۹.

[۹] (۱)- اصول الكافى، الجزء الثّانى، باب« المؤمن و علاماته و صفاته» الحديث ۳۲.

[۱۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۵، ص ۱۳۲

[۱۱] (۱)- النساء، ۶۶.

[۱۲] (۱)-« الضحى» فى اللغة بمعنى زيادة أشعّة الشمس، أو ارتفاع الشمس، و الواو فى جملة(و أن يحشر الناس) دالّة على المعيّة.

[۱۳] (۲)- بالرغم من أنّ(تولّى) فسّرت هنا بالافتراق عن موسى، أن عن ذلك المجلس، إلّا أنّ من الممكن أن تعكس- مع ملاحظة معناها من الناحية اللغوية- حالة الاعتراض و الغضب لدى فرعون. و موقفه المعادى تجاه موسى.

[۱۴] (۱)- إنّ هذه الجملة من ناحية الإعراب هى:(إن) مخفّفة من(أنّ) و لذلك لم تعمل عملها فيما بعدها، إضافة إلى أنّ رفع اسم(إن) ليس قليلا فى لغة العرب.

[۱۵] (۲)-« الطريقة» تعنى العادة و الأسلوب المتبع، و المراد منها هنا المذهب. و(مثلى) من مادّة(مثل). و هى هنا تعنى العالى و الأفضل، أى الأشبه بالفضيلة.

[۱۶] (۱)- الأعراف، ۱۱۶.

[۱۷] (۱)- لقد قال الإمام على عليه السّلام هذا الكلام فى وقت كان قلقا من انحراف الناس، و يشير إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ قلقى ليس نابعا من شكّى فى الحقّ.

[۱۸] (۱)- من المعلوم أنّ(فى) فى جملة\i وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ E تعنى(على)، أى أعلّقكم على جذوع النخل، إلّا أنّ الفخر الرازى يعتقد أنّ(فى) هنا تعطى نفس معناها، لأنّ(فى) للظرفيّة، و الظرفيّة تناسب كلّ شىء، و نعلم أنّ خشبة الإعدام كالظرف و الوعاء بالنسبة للفرد الذى يعلّق للإعدام. إلّا أنّ هذا التوجيه لا يبدو صحيحا.

[۱۹] (۱)- الأعراف، ۱۱۲.

[۲۰] (۱)- لقد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآيات ۱۲۳- ۱۲۶ من سورة الأعراف.

[۲۱] (۱)- الأعراف، ۸۴.

[۲۲] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۶۴. ذيل الآية(۱۲۶) من سورة الأعراف.

[۲۳] (۱)- و هناك احتمال آخر فى تفسير الجملة آنفة الذكر، و هو أنّ الباء فى(بجنوده) قد تكون بمعنى(مع)، و يصبح مجموع الجملة بهذا المعنى: إنّ فرعون قد عقّب بنى إسرائيل مع جنوده، مع أنّه لا يوجد اختلاف بين هذين التّفسيرين.

[۲۴] (۲)-« اليمّ» يعنى البحر و النهر العظيم. و يعتقد بعض المحقّقين أن هذه لغة مصرية قديمة و ليست عربية. و لمزيد الإيضاح راجع هامش ذيل الآية(۱۳۶) من سورة الأعراف.

[۲۵] (۱)- الشرح المفصل لهذه الحادثة فى سورة الأعراف ذيل الآيتين ۱۵۵- ۱۵۶.

[۲۶] (۱)- مجمع البيان ذيل الآية محلّ البحث.

[۲۷] (۱)- من البديهى أن لا أحد يصمّم على أن يحلّ عليه غضب اللّه، بل المراد من العبارة أنّكم فى وضع كأنّكم قد صمّمتم مثل هذا التصميم فى حقّ أنفسكم.

[۲۸] (۲)-« ملك» و« ملك» كلاهما تعنى تملّك الشىء، و كأنّ مراد بنى إسرائيل أننا لم نتملّك هذا العمل، بل وقعنا تحت تأثيره حتّى اختطف قلوبنا و ديننا من أيدينا. و اعتبر بعض المفسّرين هذه الجملة مرتبطة بجماعة قليلة من بنى إسرائيل لم تعبد العجل، و يقال إنّ ستمائة ألف شخص من هؤلاء أصبحوا من عبدة العجل، و بقى منهم إثنا عشر ألف فقط على التوحيد. لكن يبدو أنّ التّفسير الذى قلنا أعلاه هو الأصحّ.

[۲۹] (۱)-« الخوار» صوت البقرة و العجل، و يطلق أحيانا على صوت البعير.

[۳۰] (۱)-(لن نبرح) من مادّة(برح) بمعنى الزوال، و إنّ ما نراه فى أنّ معنى جملة(برح الخفاء) أى الظهور و الوضوح لأنّ زوال الخفاء ليس إلّا الظهور، و لمّا كانت(لن) تدلّ على النفى، فإنّ معنى جملة(لن نبرح) أننا سنستمر فى هذا العمل.

[۳۱] (۱)- مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث.

[۳۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۸۸.

[۳۳] (۱)- سورة طه، ۹۴.

[۳۴] (۱)- سورة الأعراف، ۱۴۲.

[۳۵] (۱)- نور الثقلین الجزء ۳ ص ۳۹۲.

[۳۶] (۲)- تفسیر فی ظلال القرآن. المجلّد الخامس ص ۴۹۴.

[۳۷] (۱)- تفسیر القرطبی، الجزء ۶، ص ۴۲۸۱.

[۳۸] (۲)-(لن تخلفه) فعل مبنی للمجهول نائب فاعله السامری، و ضمیره مفعول ثان، و فاعل الفعل فی الأصل هو اللّه، و معنی الجملة فی الجملة: إنّ لک موعدا لا یخلفه اللّه لک.

[۳۹] (۱)- نقرأ نظیر هذا التعامل القاطع من أجل قلع جذور الأفکار المنحرفة فی شأن مسجد ضرار فی القرآن کإشارة سریعة، و فی التاریخ و الحدیث بصورة مفصّلة، بأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم قد أمر أوّلا بحرق مسجد ضرار، و أن یهدموا الباقی منه، و یجعلوا مکانه محلّلا لأوساخ و قاذورات و فضلات الناس(و لمزید التوضیح راجع التّفسیر الأمثل فی ذیل الآیات ۱۰۷- ۱۱۰ من سورة التوبة).

[۴۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۳۵۹.

[۴۱] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۳۱. قسم الرسائل.

[۴۲] (۱)- لقد بحثنا فی مجال التاریخ و أهمیته فی بدایة سورة یوسف و نهایتها و کذلک فی ذیل الآیة(۱۲۰) من سورة هود.

[۴۳] (۱)- العدد فی لغة العرب من ۳ إلی ۱۰ یخالف المعدود فی الجنس، فإذا کان العدد مذکّرا کان المعدود مؤنثا، فإنّ(عشرا) لما جاءت هنا بصیغة المذکّر، فإنّ المضاف إلیه هو(لیال) و الذی یجب أن یکون مؤنثا حتما، أمّا لو کان المضاف إلیه(أیّام) فکان یجب أن یقال: عشرة. إلّا أنّ بعض أدباء العرب نقل بأنّ العدد إذا ذکر مطلقا و حذف تمییزه فلا تجری القاعدة السابقة، و بناء علی هذا فإنّ(عشرا) هنا إشارة إلی عشرة أیّام.

[۴۴] (۱)-« نسف» فی اللغة تعنی وضع الحبوب الغذائیة فی الغربال و غربلتها، أو ذرها فی الهواء لینفصل الحبّ عن القشر، و هنا إشارة إلی تلاشی الجبال و تهشّمها، ثمّ تناثرها فی الهواء.

[۴۵] (۲)- سورة المزمل، ۱۴.

[۴۶] (۳)- سورة الطور، ۱۰.

[۴۷] (۴)- سورة المزمل، ۱۴.

[۴۸] (۵)- سورة القارعة، ۵.

[۴۹] (۶)-« القاع»: الأرض المستویة، و فسّره البعض بأنّه المکان الذی یجتمع فیه الماء. و أمّا« الصفصف» فقد فسّرت أحیانا بأنّها الأرض الخالیة من کلّ أنواع النباتات، و أحیانا بمعنی الأرض المستویة. و یستفاد من مجموع هذین الوصفین أنّ کلّ الجبال و النباتات ستمحی من علی وجه الأرض فی ذلک الیوم و ستبقی الأرض مستویة خالیة.

[۵۰] (۷)-« العوج» بمعنی الاعوجاج، و« الأمت» أی الأرض المرتفعة و الربیة، و بناء علی هذا فإنّ معنی الآیة هو أنّه لا یری فی ذلک الیوم أی ارتفاع و انخفاض علی وجه الأرض.

[۵۱] (۱)-« الهمس»- کما یقول الراغب فی مفرداته- یعنی الصوت الخفی و المنخفض. و فسّره بعضهم بأنّه الصوت الخفی للقدم الحافیة، و البعض بحرکة الشفاء من دون أن یسمع معها صوت، و لا یوجد تفاوت کبیر بین هذه المعانی.

[۵۲] (۱)- احتمل بعض المفسّرین أنّ ضمائر الجمع فی الجملة الأولی تعود إلی الشافعین، و احتمل البعض أیضا أنّ الضمیر فی(به) یعود إلی أعمال المجرمین و نتائجها، و لکن ما ذکرناه أعلاه هو الأصحّ کما یبدو. دقّقوا ذلک.

[۵۳] (۱)-« الهضم» فى اللغة بمعنى النقص، و إذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهرا و تبقى فضلاته.

[۵۴] (۱)- سورة القيامة، الآية ۱۵- ۱۶- ۱۷.

[۵۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۳۹۷.

[۵۶] (۲)- تفسير مجمع البيان، و نور الثقلين، و الصافى فى ذيل الآيات مورد البحث.

[۵۷] (۳)- سفينة البحار، الجزء ۲، ص ۲۱۹(مادّة علم).

[۵۸] (۱)-« سوءات» جمع سوءة، و هى فى الأصل كلّ شىء غير سار و يسىء الإنسان، و لذلك تطلق أحيانا على جسد الميّت، و أحيانا على العورة، و المراد هنا هو المعنى الأخير.

[۵۹] (۲)-« يخصفان» من مادّة خصف، و هى هنا تعنى خياطة اللباس.

[۶۰] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۴۰۴.

[۶۱] (۱)- الضنك: المشقّة و الضيق، و هذه الكلمة تأتى دائما بصيغة المفرد، و ليس لها تثنية و لا جمع و لا تأنيث.

[۶۲] (۱)- نور الثقلين، الجزء ۳، ص ۴۰۵.

[۶۳] (۱)- الإسراء، ۱۴.

[۶۴] (۲)- الكهف، ۵۳.

[۶۵] (۱)- كما قلنا سابقا، فإنّ« قرون» جمع قرن، تعنى الناس الذين يعيشون فى عصر ما، و يقال أحيانا لنفس ذلك الزمان: قرن. و هى من مادّة المقارنة.

[۶۶] (۱)-« النهى» من مادّة نهى، و هى هنا بمعنى العقل، لأنّ العقل ينهى الإنسان عن القبائح و السيّئات.

[۶۷] (۲)- سفينة البحار- مادّة عبر- الجزء ۲ ص ۱۴۶.

[۶۸] (۱)- النحل، ۶۱.

[۶۹] (۲)- لمزيد الإيضاح راجع البحث المفصّل الذى ذكرناه فى ذيل الآية(۱ و ۲) من سورة الأنعام. و نذكر فى الضمن أنّ جملة(أجل مسمّى) من ناحية التركيب النحوى عطف على(كلمة).

[۷۰] (۱)- التّفسير الأوّل فى مجمع البيان، و الثّانى فى الظلال، و الثّالث ذكره الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و هذه التفاسير و إن اختلفت إلّا أنّها لا تتضارب فيما بينها، و خاصّة التّفسير الثّانى و الثّالث.

[۷۱] (۱)- تفسير نور الثقلين ج ۳ ص ۴۱۲.

[۷۲] (۲)- المصدر السابق.

[۷۳] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۷۴] (۱)- تفسير القرطبى. الجزء ۶ ص ۴۳۰۷.

[۷۵] (۱)- فى لغة العرب إذا كان الفعل اسما ظاهرا فيؤتى عادة بفعل مفرد، إلّا أنّ هذه ليست قاعدة عامّة و ثابتة، بل يأتون- لعلل خاصّة- بالفعل بصيغة الجمع و بالفاعل اسما ظاهرا و جملةi\ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواE\ من هذا القبيل أيضا.

[۷۶] (۱)-« أضغاث» جمع ضغث، و هو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة و ما شاكل ذلك، و« الأحلام» جمع حلم و هو المنام و الرؤية، و لمّا كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدّة أشياء متفرّقة إلى بعضها، فإنّ هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربة المتفرّقة.

[۷۷] (۱)- نور الثقلين الجزء ۳ ص ۴۱۲.

[۷۸] (۱)- الفرقان، ۷.

[۷۹] (۱)- یونس، ۱۰۳.

[۸۰] (۱)- سورة ق، ۴۵.

[۸۱] (۱)-« الرکض» یأتی بمعنی رکض الإنسان بنفسه، أو بمعنی إرکاض المرکب و الدابّة، و یأتی أحیانا بمعنی ضرب الرجل علی الأرض مثل i ارْکُضْ بِرِجْلِکَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ E سورة ص- ۴۲.

[۸۲] (۱)- خامد من مادّة الخمود، بمعنی انطفاء النّار، ثمّ أطلقت علی کلّ شیء یفقد حرکته و فاعلیّته و نشاطه.

[۸۳] (۱)- اعتبر بعض المفسّرین الآیات إعلاء إشارة إلی نفی عقائد المسیحیین، أی اعتقدوا أنّ اللهو بمعنی الزوج و الزوجة و الولد. و قالوا: إنّ الآیة تجیب هؤلاء و تقول: إنّنا إذا کنّا نرید أن نختار الصاحبة و الولد فلم نکن ننتخبهما من جنس البشر.

إلّا أنّ هذا التّفسیر لا یبدو مناسبا من عدّة جهات، و من جملتها أنّ ارتباط الآیات أعلاه بالآیات السابقة سینقطع، و الأخری أنّ کلمة« اللهو» و خاصة إذا کانت بعد کلمة اللعب، تعنی التسلیّ لا المرأة و الولد.

[۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۱۳۱.

[۸۵] (۲)- القیامة، ۳۶

[۸۶] (۳)- المؤمنون، ۱۱۵

[۸۷] (۱)- سورة ص، ۲۷.

[۸۸] (۲)- الذاریات، ۵۶.

[۸۹] (۳)- الطلاق، ۱۲.

[۹۰] (۴)- الملک. ۲.

[۹۱] (۱)- یونس، ۹۹.

[۹۲] (۱)-« یستحسرون» فی الأصل من مادّة حسر، و فی الأصل تعنی رفع النقاب و الستار عن الشیء المغطّی، ثمّ استعملت بمعنی التعب و الضعف، فکأنّ کلّ قوی الإنسان تصرف فی مثل هذه الحالة، و لا یبقی منها شیء مخفی فی بدنه.

[۹۳] (۲)- المیزان، ذیل الآیات محلّ البحث.

[۹۴] (۳)-« ینشرون» من مادّة نشر، أی فکّ الشیء المعقّد الملفوف، و هو کنایة عن الخلق و انتشار المخلوقات فی أرجاء الأرض و السّماء. و یصرّ بعض المفسّرین علی اعتبار هذه الجملة إشارة إلی المعاد و رجوع الأموات إلی الحیاة من جدید، فی حین أنّه بملاحظة الآیات التالیة سیتّضح أنّ الکلام عن توحید اللّه و أنّه المعبود الحقیقی، و لیس عن المعاد و الحیاة بعد الموت.

[۹۵] (۱)- التوحید،« للصدوق» کما ورد فی تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۱۷- ۴۱۸.

[۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۹۷] (۱)- توحید الصدوق، حسب نقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۱۹.

[۹۸] (۱)- للمفسّرین فی هذه الجملة ثلاثة تفاسیر أوردناها معا فی العبارات أعلاه لعدم المنافاة فیما بینها.

[۹۹] (۱)- بحثنا فی مجال الشفاعة بصورة مفصّلة فی ذیل الآیتین(۴۸ و ۲۵۴) من سورة البقرة فراجع.

[۱۰۰] (۱)- مفردات الراغب مادّة خشیة و شفق، و تفسیر الصافی ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۰۱] (۱)- الفخر الرازی، فی التّفسیر الکبیر، و بعض المفسّرین الآخرین.

[۱۰۲] (۲)- المیزان، ذیل الآیة.

[۱۰۳] (۳)- یراجع تفسیر الصافی، و نور الثقلین، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۰۴] (۱)-« رواسی» جمع راسیة أی الجبال الثابتة، و لمّا کانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فیمکن أن تکون إشارة إلی هذا

الارتباط، و قد ثبت من الناحية العلمية أن لاتصال أصول الجبال أثر عميق فى منع الزلازل الأرضية.« و تميد» من الميد، و هو الهزّة و الحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

[۱۰۵] (۱)- يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية المذكورة تنسجم و الآيات التى وردت فى القرآن المجيد حول حفظ السّماء من صعود الشياطين بواسطة الشهب، مثل i وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ\E الصافات، ۷.

إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التّفسير لا يناسب كلمة« سقف»، لأنّ السقف غطاء لمن تحته، لا لمن فوقه. دقّقوا ذلك.

[۱۰۶] (۱)- اقتباس من الميزان، ذيل الآية.

[۱۰۷] (۱)- من كتاب« سرّ خلق الإنسان»، ص ۳۴- ۳۵.

[۱۰۸] (۱)- الأنعام، ۱۲.

[۱۰۹] (۲)- المائدة، ۳۲

[۱۱۰] (۱)- الأنعام، ۹۳.

[۱۱۱] (۲)- الميزان، الجزء ۱۴، ص ۳۱۲.

[۱۱۲] (۱)- العجيب هنا أنّ هؤلاء كانوا يقولون i أ هـذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ E و لم يرضوا أن يذكروا فى عبارتهم كلمة(سوء) فيقولون:

يذكر آلهتكم بسوء!

[۱۱۳] (۲)- الإسراء، ۱۱.

[۱۱۴] (۱)- سورة الهمزة، ۷.

[۱۱۵] (۲)- البقرة، ۲۴.

[۱۱۶] (۱)-« يصحبون» من باب الأفعال، و فى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئا تحت تصرّفهم بعنوان المساعدة و الحماية، و هو هنا يعنى أنّ هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتيا، و لا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوّة من قبل اللّه تعالى، و نحن نعلم أنّ أيّة قوّة دفاعية فى عالم الوجود إمّا أن تنبع من ذات الشىء، أو تمنح له من قبل اللّه تعالى. أى أنّها إمّا ذاتية أو عرضية.

[۱۱۷] (۱)- تفسير الفخر الرازى، تفسير فى ظلال القرآن، و مفردات الراغب ذيل الآية مادّة(نفحة).

[۱۱۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۱۹] (۲)- مع أن« موازين» جمع، و« قسط» مفرد، إلا أن(القسط) مصدر، و المصدر لا يجمع، فليس هنا إشكال.

[۱۲۰] (۱)- الزلزال، ۷.

[۱۲۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۲.

[۱۲۲] (۱)- الفرقان، ۱.

[۱۲۳] (۲)- الأنفال، ۴۱.

[۱۲۴] (۳)- لقد أوضحنا الفرق بين« الضياء» و« النور» بصورة أكثر تفصيلا فى ذيل الآية(۵) من سورة يونس.

[۱۲۵] (۱)- إنّ التعبير ب(ما) فى مثل هذه الموارد يشير عادة إلى غير العاقل، و اسم الإشارة القريب أيضا يعطى معنى التحقير أيضا، و إلّا كان المناسب الإشارة إلى البعيد.

[۱۲۶] (۱)- قال كثير من المفسّرين: إنّ مرجع ضمير(إليه) إلى إبراهيم، و قال البعض أنّ المراد هو الصنم الكبير، إلّا أنّ الأوّل يبدو هو الأصحّ.

أمّا ما نقرؤه فى الآية آنفة الذكر من أنّه كان أكبرهم، فيمكن أن يكون إشارة إلى كبره الظاهرى، أو إشارة إلى احترامه من قبل عبّاد

الأصنام الخرافيين، أو إلى الإثنين معا.

[۱۲۷] (۲)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۲۸] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين(من) هنا موصولة، إلّا أنّ ملاحظة الآية التالية التى هى فى حكم الجواب، فسيظهر أنّ(من) هنا استفهامية.

[۱۲۹] (۲)- كما أشرنا سابقا: إنّ الوثنيين لم يكونوا مستعدّين للقول: أنّ هذا الفتى كان يعيب الآلهة، بل قالوا فقط: إنّه كان يتحدّث عن الأصنام.

[۱۳۰] (۱)- إضافة إلى أنّ ضمير كبيرهم مع البقيّة متشابه.

[۱۳۱] (۲)- احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من i فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ E أنّهم تحدّثوا بينهم عن ذلك الكلام، و لام بعضهم بعضا.

إلّا أنّ ما قلناه يبدو هو الأصحّ.

[۱۳۲] (۱)- بحثنا فى معنى i أُفٍ E بصورة أكثر تفصيلا فى ذيل الآية(۲۳) من سورة الإسراء

[۱۳۳] (۱)- مجمع البيان، و تفسير الميزان، و تفسير الفخر الرازى، و تفسير القرطبى، فى ذيل الآيات مورد البحث. و كذلك الكامل لابن الأثير المجلّد الأوّل ص ۹۸.

[۱۳۴] (۲)- روضة الكافى، طبقا لنقل الميزان، ج ۱۴، ص ۳۳۶.

[۱۳۵] (۳)- تفسير الفخر الرّازى ذيل الآية.

[۱۳۶] (۱)- تفسير مجمع البيان، ذيل الآية.

[۱۳۷] (۲)- تفسير الفخر الرازى، ذيل الآية.

[۱۳۸] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۳۹] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۶، ص ۴۳۴۴.

[۱۴۰] (۳)- سفينة البحار، مادّة أمن، ج ۱، ص ۳۷.

[۱۴۱] (۱)- الكامل لابن الأثير، المجلد الأوّل، ص ۹۹.

[۱۴۲] (۱)- روضة الكافى، طبقا لنقل الميزان، فى ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۴۳] (۲)- عدم ذكر إسماعيل هنا مع أنّه كان أوّل ولد إبراهيم، ربّما كان من أجل أنّ ولادة إسحاق من أمّ عقيم و عجوز، كانت تبدو مسألة عجيبة للغاية، فى حين أنّ ولادة إسماعيل من أمّه هاجر لم يكن عجيبا.

[۱۴۴] (۱)- لمزيد الاطّلاع فى هذا المجال راجع ذيل الآية(۱۲۴) من سورة البقرة.

[۱۴۵] (۱)- تقديم كلمة(لنا) على(عابدين) يدلّ على الحصر، و إشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدّمين الكبار، أى إنّ هؤلاء كانوا يعبدون اللّه فقط.

[۱۴۶] (۱)- الآية الثّانية- و هى الآية(۴۱) من سورة القصص- تشير إلى فرعون و جنوده، و هذا الحديث جاء فى تفسير الصافى نقلا عن كتاب الكافى.

[۱۴۷] (۱)- لقد نصبت كلمة(لوط) لأنّها مفعول لفعل مقدّر، يمكن أن يكون تقديره:(آتينا) أو(اذكر).

[۱۴۸] (۱)- نوح، ۲۶، ۲۷.

[۱۴۹] (۱)- راجع ما ذكرنا عليه آنفا ذيل الآية(۲۵) سورة هود.

[۱۵۰] (۲)- هود، ۴۶.

[۱۵۱] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة(۴۰) من سورة هود، و نور الثقلین، المجلّد ۲، ص ۳۵۰.

[۱۵۲] (۱)- إن فعل(نصر) یعدّی عادة ب(علی) إلی مفعول ثان، فیقال مثلا: اللّهم انصرنا علیهم. أمّا هنا فقد استعملت کلمة(من)، و ربّما کان ذلک من أجل أنّ المراد النصرة المقترنة بالنجاة، لأنّ مادّة النجاة تتعدّی ب(من).

[۱۵۳] (۱)-« نفشت» من مادّة نفش علی وزن(حرب) أی التفرّق و التبعثر فی اللیل، و لمّا کان تفرّق الأغنام فی اللیل، و فی مزرعة سیقترن بالتهام نباتها حتما لذا قال البعض: إنّها الرعی فی اللیل، و« نقش»(علی وزن علم) تعنی الأغنام التی تتفرّق فی اللیل.

[۱۵۴] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۵۵] (۱)- نقرأ

\i\i فی مجمع البیان فی ذیل الآیة مورد البحث: روی عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلم E أنّه قضی بحفظ المواشی علی أربابها لیلا، و قضی بحفظ الحرث علی أربابه نهارا\.E

و قد نقل هذا المضمون فی تفسیر الصافی نقلا عن کتاب الکافی.

[۱۵۶] (۱)- من لا یحضره الفقیه، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۳، ص ۴۴۳.

[۱۵۷] (۲)- لمزید الاطّلاع راجع تفسیر الصافی ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۵۸] (۱)- لمزید الإیضاح راجع تفسیر الآیة(۴۴) من سورة الإسراء.

[۱۵۹] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۶۰] (۱)- یظهر من الآیة ۱۲/ سورة سبأ\:i وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ\E بصورة مجملة أنّهم کانوا یسیرون صباحا مسافة أمدها شهر و یسیرون عصرا مسافة أمدها شهر« بمقیاس الحرکة فی ذلک الزمان».

[۱۶۱] (۱)- قصص القرآن، ۱۸۵، أعلام القرآن، ۳۸۶.

[۱۶۲] (۱)- سورة ص ۳۸۰.

[۱۶۳] (۱)- تفسیر القمّی، طبقا لنقل تفسیر المیزان.

[۱۶۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۴۸.

[۱۶۵] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۶۶] (۲)- تفسیر فی ظلال القرآن، الجلد ۵، ص ۵۵۶.

[۱۶۷] (۳)- تفسیر الفخر الرازی، ذیل الآیة مورد البحث، و نقرأ فی التأریخ الکامل: إنّ الکفل کان أحد أولاد أیّوب، و کان اسمه الأصلی(بشر) و کان یعیش فی أرض الشام. الکامل لابن الأثیر، ج ۱، ص ۱۳۶.

[۱۶۸] (۱)-« نقدر» من مادّة قدر بمعنی التعسیر و التضییق، لأنّ الإنسان عند التضییق یأخذ من کلّ شیء قدرا محدودا، لا علی نطاق واسع و بدون حساب.

[۱۶۹] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، و مجمع البیان، و نور الثقلین، ذیل الآیة محلّ البحث.

[۱۷۰] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۳۶.

[۱۷۱] (۱)- الدرّ المنثور، طبقا لنقل المیزان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۷۲] (۱)-« رغبا» بمعنی الرغبة و المیل و العلاقة، و« رهبا» بمعنی الخوف و الرعب، و هناک احتمالات متعدّدة فی محلّها من الإعراب، فیمکن أن تکون حالا أو تمییزا أو مفعولا مطلقا، أو ظرفا أی فی حال الرغبة و فی حال الرهبة. و بالرغم من أنّ نتائج هذه الاحتمالات الخمسة تختلف مع بعضها، إلّا أنّ هذا التفاوت فی جزئیات مفهوم الآیة، لا فی أساسها و نتیجتها.

[۱۷۳] (۱)- تراجع الآیات الأولی من سورة مریم.

[۱۷۴] (۱)- الأعراف، ۱۸۹\i فَلَمَّا تَغَشَّاها\E.

[۱۷۵] (۲)- البقرة، ۲۲۲\i فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ E.

[۱۷۶] (۳)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآية محل البحث.

[۱۷۷] (۱)- نهج البلاغة. الرسالة ۳۱.

[۱۷۸] (۱)- آل عمران- ۵۵، و الأنعام- ۱۶۴، و النحل- ۹۲، و الحجّ- ۶۹، و ...

[۱۷۹] (۱)- بناء على هذا التّفسير فإنّ i حَرامٌ E خبر لمبتدأ محذوف، و جملة\i أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ E دليل على ذلك، و التقدير:« حرام على أهل قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا أنهم لا يرجعون»

[۱۸۰] (۱)- اعتبر البعض« الحرام» هنا بمعنى الواجب، و قالوا: إنّ هذه الكلمة قد تأتى أحيانا بهذا المعنى، فتكون(لا) زائدة، و يصبح معنى الآية: إنّ رجوع هؤلاء فى الآخرة واجب.

و قال البعض الآخر: إنّ الحرام هنا يعنى الحرام نفسه، إلّا أنّ(لا) زائدة، فيكون المعنى: إنّ رجوع هؤلاء إلى الدنيا حرام.

و اعتقد البعض الآخر أنّ المعنى عدم التوبة و الرجوع إلى اللّه(تفسير مجمع البيان، و الفخر الرازى، ذيل الآية مورد البحث).

و قال بعض آخر: إنّ هذه الآية من قبيل نفى النفى، فتقول: إنّ من المحال أن لا يرجع هؤلاء فى القيامة، أى إنّهم يرجعون(تفسير منهج الصادقين، ذيل الآية مورد البحث) إلّا أنّ ما أوردناه فى المتن هو الأنسب من الجميع.

[۱۸۱] (۱)- تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۸۲] (۲)- ينبغى الالتفات إلى أنّ اللام فى(لها) بمعنى« إلى»، و ضمير(ها) يعود إلى جهنّم فى الصورة الأولى، أمّا فى التّفسير الثّانى فإنّ اللام تعنى« إلى»، و لكن الضمير يعود إلى الأصنام.

[۱۸۳] (۱)- لمزيد الإيضاح راجع تفسير الآية(۱۰۶) من سورة هود.

[۱۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۳.

[۱۸۵] (۱)- السجل: الدلو العظيمة، و السّجلّ حجر كان يكتب فيه، ثمّ سمّى كلّ ما يكتب فيه سجلا- مفردات الراغب و القاموس- و ينبغى الالتفات إلى أنّه احتملت احتمالات عديدة فى تفسير جملة\i كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ E إلّا أنّ أقربها أنّ« طى» مصدر للسجل الذى أضيف مفعوله، و اللام فى(للكتب) إمّا للإضافة أو لبيان العلّة. دقّقوا ذلك.

[۱۸۶] (۱)- سورة الروم، ۲۷.

[۱۸۷] (۲)- كما قلنا سابقا، فإنّه لا يوجد صعب و سهل بالنسبة إلى قدرة اللّه اللامتناهية، بل كلّ شىء متساو مقابل قدرته، و على هذا فإنّ التعبير المستعمل فى الآية أعلاه إنّما هو بالنسبة لمحدودية فهم البشر، دقّقوا ذلك.

[۱۸۸] (۳)-« وعدا» مفعول لفعل مقدّر تقديره: وعدنا.

[۱۸۹] (۴)- هذه الجملة تتضمّن عدّة تأكيدات، فلفظة الوعد، ثمّ التعبير ب(علينا) و بعدها التأكيد ب(إنّا) ثمّ استعمال الفعل الماضى(كنّا) و كذلك كلمة(فاعلين).

[۱۹۰] (۵)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۹۱] (۱)- نقل هذا الاحتمال فى تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى عن عدّة من المفسّرين.

[۱۹۲] (۱)- لمزيد الاطّلاع راجع(منتخب الأثر) و(نور الأبصار).

[۱۹۳] (۱)- نقلنا هذه الجمل عموما عن الترجمة الفارسية للكتب العهد العتيق المنشورة(سنة ۱۸۷۸ تحت إشراف الكنيسة المعروفة ب مجمع الكتب البريطانية المقدّسة للخارجيين).

[۱۹۴] (۱)- ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذا البحث قد كتب فى ليلة الخامس عشر من شعبان سنة ۱۴۰۲، و المصادف للميلاد السعيد

للإمام المهدى صاحب الزمان عليه السّلام، فالحمد للّه على هذا التقارن.

[۱۹۵] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

[۱۹۶] (۱)- كما ورد فى كتاب الكافى فى باب يتعلّق بهذا الشأن أيضا.

[۱۹۷] (۱)- لا شكّ أنّ حكم اللّه سبحانه بالحقّ دائما، و على هذا فإنّ ذكر كلمة(بالحقّ) هنا له صبغة التوضيح.

[۱۹۸] (۱)- مجمع البيان بداية سورة الحجّ.

[۱۹۹] (۱)- يؤتى بعلامة التأنيث فى حالة أن يكون للكلمة تذكير و تأنيث، إلّا أنّ الحمل و الإرضاع خاصين بالنساء، لهذا لا حاجة لهما بتاء التأنيث و أمثالها.

[۲۰۰] (۲)- يراجع قاموس اللغة، و تفسير الكشّاف، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير الميزان.

[۲۰۱] (۳)- وقعت هذه الغزوة فى شهر شعبان فى السنة السادسة للهجرة.

[۲۰۲] (۱)- بتلخيص عن تفسير مجمع البيان، و تفسير نور الثقلين، و تفاسير أخرى.

[۲۰۳] (۱)-« السعير» مشتقّة من« سعر» بمعنى لهب النّار، و تعنى هنا نار جهنّم الحارقة. التى تمتاز بأنّها أكثر حرقا من أى نار.

[۲۰۴] (۱)- النحل، ۱۲۵.

[۲۰۵] (۱)- سورة الحجر، ۴۰.

[۲۰۶] (۲)- قال البعض: إنّ ضمير« عليه» يعود إلى الشيطان، و قال آخرون: إنّه يعود إلى اتّباع الشيطان. كما يستنتج ذلك من عبارة« و من الناس» أيضا، إلّا أنّ ظاهره يؤكّد أنّه يعود إلى الشيطان، لا سيّما و أنّ الضمير المتّصل ب« من تولّاه» يعود إلى الشيطان أيضا.

[۲۰۷] (۱)-« المضغة» مشتقة من« المضغ» و تعنى مقدارا من اللحم يمكن للإنسان مضغه فى لقمة واحدة. و هذا تشبيه رائع للجنين فى المرحلة التى تعقب مرحلة العلقة.

[۲۰۸] (۱)-« الهامدة» تعنى فى الأصل النّار التى أطفئت، و يطلق على الأرض التى جفّت نباتاتها و أصبحت دون حركة« مفردات الراغب الاصفهانى» و البعض الآخر قال: إنّ كلمة« هامدة» تطلق على الحدّ الفاصل بين الموت و الحياة(تفسير فى ظلال القرآن).

« اهتزّت» مشقّة من« الهزّ» و تعنى تحرّكت بشدّة.

« ربت» مشقّة من« الربو» و تعنى الزيادة و النمو، كما أنّ كلمة« ربا» مشتقّة أيضا من« الربو».

« بهيج» تعنى الجميل السّاحر السارّ.

[۲۰۹] (۱)- سورة ص، ۲۷.

[۲۱۰] (۲)- يرى بعض المفسّرين فى عبارة\i أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى E إشارة إلى حياة الناس فى القيامة. مع أنّ هذا المعنى تضمّنته عبارة\i وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ\E أيضا، مع فارق هو أنّ العبارة الأولى إشارة إلى أصل الحياة، و الثّانية إشارة إلى كيفية إحياء الموتى. إلّا أنّ التّفسير الآخر الذى استندنا إليه بصورة أكثر، هو أنّ عبارة\i أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى E إشارة إلى منح اللّه الحياة بشكل مستمر فى هذه الدنيا، ليكون دليلا على إمكان تحقّق ذلك يوم البعث.

[۲۱۱] (۱)- الذى يثير الانتباه أنّ تعبير القرآن i ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا\E عن ولادة الإنسان لم يرد بصيغة الجمع(أطفال) وفقا للقاعدة، إلّا أنّ هذا التعبير(طفلا) يمكن أن يكون مصدرا يتساوى فيه المفرد و الجمع، أو أن يكون الهدف بيان النوع. و ليس خصائص الأطفال، فالفروق بين البشر فى هذه المرحلة مخفية تبرز فى المراحل اللاحقة.

[۲۱۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، الصفحة ۴۷۲.

[۲۱۳] (۱)- تفسير الميزان، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۲۱۴] (۱)-« ظلّام» صيغة مبالغة تعنى كثير الظلم. و طبيعى أنّ اللّه لا يظلم أبدا لا كثيرا و لا قليلا، و يمكن أن يكون استخدام هذا

التعبير هنا إشارة إلى أنّ العقاب دون مبرّر من قبل اللّه تعالى- جلّ عن ذلك و علا علوّا كبيرا- مصداق ظلم كبير.

[۲۱۵] (۱)- كلمة« انقلب» فى جملة« انقلب على وجهه» تعنى التراجع. و يمكن أن تكون إشارة إلى ترك الإيمان تماما، حتّى إنّه لا يعود إليه. فهو غريب عن الإيمان دوما.

[۲۱۶] (۲)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد الثّالث و العشرون، ص ۱۳، و تفسير القرطبى، المجلّد السادس، ص ۴۴۰۹.

[۲۱۷] (۱)- بعض المفسّرين الأفاضل كمفسّر الميزان فسّر عبارة« يدعو» بمعنى« يقول» إلّا أنّ ذلك لا يطابق ظاهر الآية.

[۲۱۸] (۱)- أبو الفتوح الرازى، و كذلك الفخر الرازى فى تفسير هما الآيات موضع البحث.

[۲۱۹] (۱)- تراجع تفاسير« مجمع البيان» و« التبيان» و« الميزان» و« الفخر الرازى» و« أبو الفتوح الرازى» و« تفسير الصافى» و« القرطبى» فى تفسير الآية التى يدور حولها البحث.

[۲۲۰] (۱)- المبتدأ محذوف فى قوله تعالى\i:أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ\E و تقديره« الأمر أنّ اللّه يهدى من يريد»، و يحتمل أيضا أنّ حرف(أنّ) بالفتح بمعنى(إنّ) بالكسر فلا محذوف فى البين حينئذ.

[۲۲۱] (۱)- أعلام القرآن ص ۵۵.

[۲۲۲] (۲)- تفسير الميزان المجلّد الرّابع عشر صفحة ۳۹۲.

[۲۲۳] (۱)- وسائل الشيعة المجلّد الحادى عشر- أبواب جهاد العدو- الباب ۴۹ صفحة ۹۶.

[۲۲۴] (۲)- وسائل الشّيعة، المجلد الحادى عشر، ص ۹۸، أبواب جهاد العدو الباب ۴۹، الحديث ۷.

[۲۲۵] (۳)- المصدر السابق.

[۲۲۶] (۱)- التحريم، ۶.

[۲۲۷] (۱)- ذكر ذلك الطبرسى فى« مجمع البيان» و الفخر الرازى فى« التّفسير الكبير» و الألوسى فى« روح المعانى» و السيوطى فى« أسباب النّزول» و القرطبى فى تفسيره.

[۲۲۸] (۲)- كلمة« خصمان» مثنّى أمّا فعلها« اختصموا» فجاء بصيغة جمع، و السبب يكمن فى أنّ هذين ليسا شخصين، بل فئتين، إضافة إلى كون الفئتين ليس فى صفّين و إنّما فى صفوف مختلفة، و تنهض كلّ مجموعة لمبارزة الآخرين.

[۲۲۹] (۱)- الحميم: الماء الخارق.

[۲۳۰] (۲)-« يصهر» مشتقّة من« صهر» على وزن« قهر» و تعنى تذويب الشحم. أمّا« الصهر» على وزن« فكر» فتعنى النسيب.

[۲۳۱] (۳)-« المقامع» جمع« مقمع» على وزن« منبر» و تعنى السوط أو العمود الحديدى يضرب به المذنب عقابا له.

[۲۳۲] (۴)-« أساور» جمع« أسورة» على وزن« مشورة» و هى بدورها جمع لكلمة« سوار» على وزن« كتاب» و تعنى المعضد.

[۲۳۳] (۱)- كلمة« الحميد» تعنى المحمود، و تطلق على من يستحقّ الثناء، و هنا يقصد بها اللّه تعالى، و على هذا فإنّ« الصراط الحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرّب من اللّه تعالى. كما قال البعض بأنّ« الحميد» وصف للصراط يشبه الإضافة البيانيّة، و على هذا يكون المعنى: إنّ هؤلاء يرشدون، إلى سبيل جدير بالثناء كلّه.(الآلوسى فى روح البيان)، إلّا أنّ المعنى الأوّل يبدو أصحّ.

[۲۳۴] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة السابعة و السّتّين.

[۲۳۵] (۱)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، الصفحة ۳۳۵.

[۲۳۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، صفحة ۴۸۲ تفسير الآية.

[۲۳۷] (۲)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۳۵.

[۲۳۸] (۱)- يراجع للاطلاع على كيفية بناء الكعبة تفسير الآية(۱۲۷) من سورة البقرة. كما تناولنا ذلك بشرح مسهب فى تفسير الآية(۹۶) من سورة آل عمران.

[۲۳۹] (۲)- فى هذه الآية جملة محذوفة تقديرها« أوحينا» و قد أشار إلى ذلك عدد كبير من المفسّرين.

[۲۴۰] (۱)- يراجع تفسير الآية موضع البحث فى تفاسير الميزان، و فى ظلال القرآن، و التبيان، و مجمع البيان، و التّفسير الكبير للفخر الرازى.

[۲۴۱] (۲)- بتلخيص، عن تفسير على بن إبراهيم حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، ۴۸۸.

و الآلوسى فى روح المعانى، و الفخر الرازى، فى التّفسير الكبير فى تفسير الآية موضع البحث مع بعض الفارق.

[۲۴۲] (۳)- تفسير« روح المعانى»، و« مجمع البيان»، و« الفخر الرازى».

[۲۴۳] (۱)- يقول العالم الفاضل العلامة الشعرانى رضى الله عنه: إن ذلك ليس عجيبا بالنسبة للذين يأتون إلى مكة من الأندلس أو المغرب أو من أنحاء نائية فى الصين أو من استرالية. حيث يستغرق سفرهم زمنا طويلا يصل إلى عدة أشهر نظرا لوسائط النقل التى كانت تستعمل آنذاك و افتقاد الطرق للأمن(إضافة إلى ذلك كان البعض من المتولهين ببيت الله يتعرضون إلى السرقة فى الطريق فيضطرون إلى العمل من أجل إعداد مؤنة باقى الطريق إلى بيت الله الحرام).

[۲۴۴] (۲)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، الصفحة ۴۸۸ نقلا عن كتاب الكافى.

[۲۴۵] (۱)- فى التّفسير الأوّل(أى ذكر اسم اللّه على الأضحية) تكون« على» هنا للاستعلاء، أمّا فى التّفسير الثّانى(أى الذكر المطلق لاسم اللّه تعالى فى هذه الأيّام) فإنّ« على» تعنى« من أجل» فالفرق بين هذين التّفسيرين كبير، سنشير إليه فى الملاحظات.

[۲۴۶] (۱)- و عليه يزول الخلاف بين هاتين المجموعتين من المفسّرين فى تفسير عبارة« و يذكر اسم اللّه» حيث خصّصت أولاها ذكر اسم اللّه بتقديم الأضاحى، و الأخرى جعلت مفهومه عامّا، و بهذا يكون التّفسير الأوّل مصداقا للتفسير الثّانى، و يكون التّفسير الثّانى ذا مفهوم واسع و عام.

[۲۴۷] (۲)- ورد الحديث السابق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام و قد ذكر فى بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، صفحة ۳۰۶.

[۲۴۸] (۳)- بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، صفحة ۳۰۷.

[۲۴۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد ۹۹، الصفحة ۲۶.

[۲۵۰] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۲۵۲.

[۲۵۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلّد الثامن، الصفحة ۹.

[۲۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۵۳] (۱)- تفسير العياشى، حسبما جاء فى تفسير الميزان، المجلّد الثّانى، ص ۸۶.

[۲۵۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۹، ص ۳۲.

[۲۵۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۱۴.

[۲۵۶] (۲)- نهج البلاغة، الوصيّة، ۴۷.

[۲۵۷] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۱۵.

[۲۵۸] (۱)- وسائل الشيعة، المجلّد العاشر، الصفحة ۱۵۰(أبواب الذبح الباب ۴۲ الحديث ۵).

[۲۵۹] (۱)- عن قاموس اللغة، و مفردات الراغب الاصفهانى، و كنز العرفان، و تفسير مجمع البيان، و تفاسير أخرى.

[۲۶۰] (۱)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، ص ۲۷۰.

[۲۶۱] (۲)- نور الثقلين، المجلّد الثّالث، صفحة ۴۹۲.

[۲۶۲] (۳)- وسائل الشيعة المجلّد، العاشر، الصفحة ۲۵۵(أبواب المزار الباب الثّانى الحديث الثّانى عشر).

[۲۶۳] (۱)- احتمل بعض المفسّرين القصد من النذور القيام بمشاعر الحجّ، إلّا أنّه بمراجعة حالات استعمال كلمة النذر فى القرآن

المجيد، يتّضح لنا أنّه يقصد المعنى المتداول من كلمة النذر، لهذا فإنّ استخدامها فى مناسك الحجّ دون دليل، خلافا لمعناها الظاهر.

[۲۶۴] (۲)- آل عمران، ۹۶.

[۲۶۵] (۱)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، الصفحة ۲۷۱.

[۲۶۶] (۲)- مجمع البيان نقلها فى تفسير الآية- موضع البحث- عن بعض المفسّرين لم يذكر أسماءهم.

[۲۶۷] (۳)- وسائل الشيعة المجلّد التاسع الصفحة ۳۹۰ أبواب الطواف الباب الثّانى.

[۲۶۸] (۴)- المصدر السابق.

[۲۶۹] (۱)-« حنفاء» و« غير مشركين». كلاهما حال لضمير« فاجتنبوا»، و« اجتنبوا» فى الآية السابقة.

[۲۷۰] (۱)- توحيد الصدوق، حسبما نقله تفسير الصافى.

[۲۷۱] (۲)-« تخطفه» مشتقّة من« الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشىء، أثناء تحرّكه بسرعة و« سحيق» تعنى« البعيد» و تطلق على النخلة العالية كلمة« سحوق».

[۲۷۲] (۱)- بما أنّ هناك ارتباطا بين الشرط و الجزاء، و كلاهما يخصّان موضوعا واحدا، نجد فى الآية السالفة الذكر محذوفا تقديره(و من يعظّم شعائر اللّه فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب). و يمكن أن يكون الجزاء محذوفا فتكون عبارة« فإنّها من تقوى القلوب» علّة نابت عن معلول تقديره:« و من يعظّم شعائر اللّه فهو خير له فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب».

[۲۷۳] (۱)- تفسير القرطبى، المجلّد السابع، الصفحة ۴۴۸.

[۲۷۴] (۲)- التّفسير الكبير للخفر الرازى، المجلّد الثّالث و العشرين، الصفحة ۳۳.

[۲۷۵] (۳)- نور الثقلين، المجلّد الرّابع، الصفحة ۴۹۷.

[۲۷۶] (۱)- ما ذكر أعلاه هو تفسير واضح للآية موضع البحث، و هنا نذكر تفسيرين آخرين:

الأوّل: إنّ ضمير« فيها» يعود إلى المناسك الحجّ جميعا، و هنا يكون تفسيرها« لكم منافع فى جميع مناسك الحجّ حتّى الزمن المحدّد بانتهاء الحجّ أو نهاية العالم، و من ثمّ تقع آخر مراسم الحجّ حيث يخلع الحاج إحرامه و يصبح مجاورا للكعبة ليؤدّى طوافى الحجّ و النساء» و بهذا تكون هذه الآية شبيهة بالآية التى فسّرناها سابقا\i لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ E.

و التّفسير الثّانى: أن يعود ضمير« فيها» إلى الشعائر الإلهيّة كلّها، إضافة إلى التعاليم الإسلامية العظيمة، و عندها يكون معنى الآية« لكم جزاء جميل و منافع كبيرة فى مجموع التعاليم الإسلامية و الشعائر الإلهيّة حتّى نهاية العالم، و من ثمّ يجزيكم خالق البيت العتيق». إلّا أنّ التّفسير الذى ذكرناه فى متن الكتاب أكثر ملاءمة و أقرب معنى إلى سائر الآيات القرآنية و الأحاديث الإسلامية و أكثر انسجاما معها.

[۲۷۷] (۱)- و لهذا السبب يقال: نسكت الشاة، أى ذبحتها.

[۲۷۸] (۲)-« المخبتين» مشتقّة من« الإخبات» و أصلها« خبت» و هى الأرض المستوية الواسعة التى يمشى الإنسان فيها بكلّ سهولة. كما جاءت بمعنى الاطمئنان و الخضوع، لأنّ السير فى هذه الأرض يلازمه الاطمئنان، و لهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

[۲۷۹] (۱)- بحثنا فى تفسير الآية الثّانية من سورة الأنفال بإسهاب دوافع الخوف من اللّه.

[۲۸۰] (۱)- مجمع البيان فى تفسير ختام الآية، و روح المعانى فى تفسير هذه الآية باختلاف يسير.

[۲۸۱] (۲)- وسائل الشيعة، المجلّد العاشر، صفحة ۱۳۸- أبواب الذبح الباب(۳۷).

[۲۸۲] (۱)- كنز العرفان، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۱۴.

[۲۸۳] (۱)- تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى للآية موضع البحث.

[۲۸۴] (۲)- البقرة، ۱۹۰.

[۲۸۵] (۳)- التوبة، ۱۱۱.

[۲۸۶] (۴)- المیزان، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۴۱۹.

[۲۸۷] (۱)- و بهذا یتّضح أنّ الاستثناء فی الآیة المذکورة متّصل غایة الأمر إنّه کنائی مع ذکر فرد ادّعائی.(فتأمّل).

[۲۸۸] (۱)- تناولنا أهمیّة الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر و مسائل هذین الواجبین الإسلامیین، و الجواب عن استفسارات فی هذا المجال ببحث مسهب فی تفسیر الآیة(۱۰۴) من سورة آل عمران.

[۲۸۹] (۱)- تناولنا فلسفة الجهاد بالبحث فی تفسیر الآیة ۱۹۳ من سورة البقرة.

[۲۹۰] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم(حسبما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۰۶).

[۲۹۱] (۱)- النکیر تعنی الإنکار و هنا تعنی فرض العقاب.

[۲۹۲] (۲)-« المشید» مشتقّة من« شید» علی وزن« عید» ذات معنیین: أوّلهما الارتفاع، و الثّانی الجصّ، فتعنی لفظة« قصر مشید» القصر المرتفع.

و المعنی الثّانی القصر الذی بنی علی أسس ثابتة قویّة لیصان من حوادث الزمان، و بما أنّ معظم منازل ذلک العصر تبنی من اللبن، فإنّ المنزل الذی یبنی بالجصّ یکون أقوی من هذه البیوت و یکون متمیّزا عنها.

[۲۹۳] (۱)- تفسیر البرهان، المجلّد الثّالث، صفحة- ۳۰.

[۲۹۴] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۵] (۱)- شرحنا فی تفسیر الآیة(۱۳۷) من سورة آل عمران بإسهاب دراسة تاریخ القدماء عن طریق السیاحة و السیر فی الأرض.

[۲۹۶] (۲)- نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۰۸.

[۲۹۷] (۳)- المصدر السابق، ص ۵۰۹.

[۲۹۸] (۱)- عن تفسیر المیزان، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۴۲۶.

[۲۹۹] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر هذه الآیة.

[۳۰۰] (۱)-« سعوا» مشتقّة من« السعی» و تعنی فی الأساس الهرولة، و هنا المحاولة فی تخریب الآیات الإلهیة و محوها. أمّا« المعاجزون» فمتشقّة من« العجز» و تعنی هنا الذی یحاول الغلبة علی قدرة اللّه غیر المحدودة.

و تصوّر بعض المفسّرین أنّ هذا الاحتمال لا یمکنه أن یکون لأی أحد یرید تعجیز اللّه و قهر إرادته، و علی هذا فإنّ کلمة« المعاجزین» نسبوها إلی النّبی و المؤمنین. فی الوقت الذی استخدم هذا التعبیر فی آیات قرآنیة أخری للّه، سورة الجن الآیات(۱۲) و التوبة الآیة(۲ و ۳) و تعنی عمل شخص یتظاهر بقدرته لیس إلّا.

[۳۰۱] (۱)-« الغرانیق» جمع غرنوق، علی وزن بهلول، طائر یعیش فی الماء أبیض أو أسود اللون، کما جاء بمعان أخری« قاموس اللغة».

[۳۰۲] (۲)- جاء ذکر هذا الحدیث نقلا عن جماعة من حفّاظ أهل السنّة فی تفسیر المیزان.

[۳۰۳] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، المجلّد الثّالث و العشرون، صفحة ۵۰.

[۳۰۴] (۲)- المصدر السابق.

[۳۰۵] (۳)- سورة الحجر، ۹.

[۳۰۶] (۱)- مجمع البیان، تفسیر الفخر الرازی، القرطبی، فی ظلال القرآن، تفسیر الصافی، روح المعانی، و المیزان، و تفاسیر أخری للآیات موضع البحث.

[۳۰۷] (۲)- تفسیر القرطبی، المجلّد السابع، صفحة ۴۴۷- و المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان ذکره أیضا کأمر محتمل.

[۳۰۸] (۱)- تحدّثنا فى هذا أيضا فى تفسير الآية(۱۲۴) من سورة البقرة.

[۳۰۹] (۱)- الميزان، المجلّد الرّابع عشر، ص ۴۳۳.

[۳۱۰] (۱)-« الجامع لأحكام القرآن» لأبى عبد اللّه محمّد بن أحمد الأنصارى القرطبى، المجلّد ۱۱- ۱۲، ص ۸۸.

[۳۱۱] (۱)-« مجمع البيان» و« الدرّ المنثور» فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۱۲] (۱)- نقرأ فى« الميزان» أنّ إطلاق الحقّ على اللّه و الباطل على غيره، لأنّ الحقّ الذى لم يختلط بباطل أبدا هو اللّه سبحانه و تعالى، أو لكونه عزّ و جلّ مستقلا فى حقّانيته و الآخرون تابعين له.

[۳۱۳] (۱)- بحثنا فى تفسير الآية(۱۰۳) من سورة الأنعام حول لطف اللّه. فعلى الراغب مراجعته.

[۳۱۴] (۱)- يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الآيات تشير إلى ردّ لما أثاره المشركون من اعتراض قائلين: لماذا لا تأكلون الميتة التى قتلها اللّه، فى وقت تأكلون فيه الميتة التى قتلتموها أنتم؟! فنزلت هذه الآيات لتردّ عليهم.

إلّا أنّه يستبعد أن تتضمّن هذه الآيات ذلك. لأنّ أكل الميتة لم تسمح به شريعة- فى الظاهر- لما فيه من ضرر، حتّى يأتى القرآن ليؤيّد ذلك و يقول: لكلّ شريعة تعاليمها.

[۳۱۵] (۱)- هذه الآية قد تخاطب المخالفين للإسلام و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و على هذا فإنّ عبارة\i اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ \...E قول اللّه على لسان نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و يمكن أن تخاطب جميع المسلمين و المخالفين، و على هذا تكون هذه الآية ذات بيان خاص موجّه من اللّه إلى الجميع.

[۳۱۶] (۱)- الميزان، و تفسير الفخر الرازى، فى تفسير الآية موضع البحث.

[۳۱۷] (۲)-« المنكر» مصدر ميمى يعنى الإنكار، و بما أنّ الإنكار أمر باطنى لا يمكن مشاهدته، فالمراد هنا علائمه و نتائجه.

[۳۱۸] (۱)- إنّ« النّار» هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هى النّار، و احتمل البعض أنّ النّار مبتدأ و جملة« وعدها اللّه» خبر لها، إلّا أنّ القول الأوّل هو الأصوب.

و فعل« وعد» أخذ هنا مفعولين، الأوّل« الذين كفروا» الذى تأخّر و الثّانى« الهاء» التى تقدّمت ذلك للتخصيص.

[۳۱۹] (۱)- تفاسير القرطبى، و أبو الفتوح الرازى، و الفخر الرازى، و روح المعانى.

[۳۲۰] (۱)- العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان ذيل الآيات موضع البحث، يعتبر جملة\i يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ E إشارة إلى عصمة الأنبياء و حماية اللّه لهم، و مع ملاحظة ما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا التّفسير يبدو بعيدا نوعا ما.

[۳۲۱] (۱)- إنّ هذا الدين سمّاه القرآن المجيد بصراحة واضحة(الإسلام) كما جاء فى الآية الثّالثة من سورة المائدة\i وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً\E. كما ذكرت آيات عديدة الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلم باعتباره i أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ E الأنعام، ۱۴. الزمر، ۱۲.

[۳۲۲] (۱)- كتاب« إكمال الدين» للشيخ الصدوق حسبما نقل عنه تفسير نور الثقلين، المجلّد الثّالث، صفحة ۵۲۶. كما أكّدت ذلك أحاديث أخرى فى هذا المجال.

[۳۲۳] (۲)- تفسير البرهان، المجلّد الثّالث، صفحة ۱۰۵.

[۳۲۴] (۱)- شرحنا ذلك بإسهاب فى آخر الآية(۱۴۳) من سورة البقرة، و كذلك فى تفسير الآية(۴۱) من سورة النساء.

[۳۲۵] (۱)- تفسير مجمع البيان، المجلّد السابع، صفحة ۹۸.

[۳۲۶] (۲)- روح المعانى، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۲۷] (۳)- روح المعانى، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۲۸] (۱)- جاء فى حديث عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السّلام:« فرض اللّه الزكاة مع الصلاة».

[۳۲۹] (۲)- تفسیر روح المعانی، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۲.

[۳۳۰] (۱)- تفسیر الصافی، و تفسیر مجمع البیان، فی تفسیر الآیة موضع البحث.

[۳۳۱] (۲)- تفسیر مجمع البیان، و تفسیر الفخر الرازی، للآیة موضع البحث.

[۳۳۲] (۱)- الزکاة تعنی هنا أنّ لها مصدرا، و لهذا استعملت عبارة« فاعلون» بعدها. و قال مفسّرون آخرون: إنّه یمکن أن تعنی الزکاة ذلک المعنی المعروف عنها، أی مقدار من المال، و لهذا تکون(فاعلون) بمعنی مؤدّون.

[۳۳۳] (۲)-« الفروج» جمع فرج، و هو کنایة عن الجهاز التناسلی.

[۳۳۴] (۱)- یراجع بهذا المورد قصّة الحضارة لویل دیورانت.

[۳۳۵] (۱)- تفسیر البرهان، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۸۰.

[۳۳۶] (۲)- سورة النساء، ۵۸.

[۳۳۷] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۸] (۴)- النحل، ۹۱.

[۳۳۹] (۱)-« السلالة» علی وزن« عصارة» تعنی الشیء الذی یستخلص من شیء آخر، و هی فی الحقیقة خلاصة و نتیجة منه(مجمع البیان حول الآیة موضع البحث).

[۳۴۰] (۱)- مختار الصحاح.

[۳۴۱] (۱)- تناولنا فی بدایة سورة الحجّ خلال البحث الآیتین الخامسة و السابعة أدلّة المعاد و منها استعراض مراحل الجنین فی الرحم.

[۳۴۲] (۲)- شرحنا مراحل الجنین و عظمة الخلق فیها فی تفسیر الآیة السادسة من سورة آل عمران i هُوَ الَّذِی یُصَوِّرُکُمْ(فِی الْأَرْحامِ) کَیْفَ یَشاءُ\E.

[۳۴۳] (۱)- للاطلاع علی السموات السبع راجع تفسیر الآیة(۲۹) من سورة البقرة.

[۳۴۴] (۱)- و یجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث یصفی عند مروره من القشرة النافذة فی معظم الأوقات!

[۳۴۵] (۱)- إنّ« من» فی التّفسیر الأوّل« تبعیضیّة»، و فی التّفسیر الثّانی« نشویة».

[۳۴۶] (۲)- صبغ الآکلین، غذاء یؤکل مع الخبز.

[۳۴۷] (۱)- للاستزادة فی الاطلاع علی فوائد هذه الفواکه الثلاثة الحیویة یراجع تفسیر الآیة(۱۱) من سورة النحل.

[۳۴۸] (۲)- استخدمت« عبرة» هنا بصیغة نکرة إشارة إلی عظمتها.

[۳۴۹] (۱)- تناولنا بالبحث الاستفادة من الحیوان بشکل مسهب فی تفسیر الآیة(۸۰) من سورة النحل.

[۳۵۰] (۲)- بحثنا فی تفسیر الآیة(۱۴) من سورة النحل و کذلک من تفسیر الآیة(۶۵) من سورة الحجّ، أهمیّة السفن و میزات المواد المختلفة التی تدخل فی استخدام السفن.

[۳۵۱] (۱)- کما قال البعض: إنّ هذه العبارة تشیر إلی قولهم: ارموه فی السجن زمنا و قال آخرون: إنّهم قصدوا أن یترکوه لحاله الآن. إلّا أنّ هذین التّفسیرین لا یبدوان صحیحین.

[۳۵۲] (۱)- الباء فی« بما کذّبون» ربّما کانت سببیّة أو للمقابلة. و أمّا« ما» فیمکن أن تکون مصدریة أو موصولة، و یختلف معنی کلّ منهما. إلّا أنّ هذا الاختلاف لیس مهمّا(فتأمّلوا جیدا).

[۳۵۳] (۱)- یراجع فی ذلک سورة هود الآیة(۵۰) و سورة الأعراف الآیة(۶۵) و سورة الشعراء الآیة(۱۲۳)

[۳۵۴] (۱)- تفسیر روح المعانی حول الآیات موضع البحث.

[۳۵۵] (۱)- للاستزادة يراجع تفسير الآية الثانية من سورة الأنعام.

[۳۵۶] (۱)-« الأحاديث» جمع حديث، و تفسيرها كما مرّ أعلاه، إلّا أن البعض احتمل أن تكون جمع« أحدوثة» و تعنى الأخبار المدهشة التى يتحدّث الناس عنها.(تفسير الفخر الرازى حول الآية موضع البحث).

[۳۵۷] (۱)- نقرأ فى سورة النمل الآية(۲۱\):i لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطانٍ مُبِينٍ E و فى الآية(۲۳) من سورة النجم نقرأi\ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ E.

[۳۵۸] (۱)- يطلق على الإنسان« البشر»، لأنّ بشرته و جلده عارية. خلافا لما عليه الحيوانات من لباس طبيعى خاص بكلّ نوع منهما. و ذلك لعدم قدرتها على إعداد وسائل الحياة فمنح اللّه ذلك لها بشكل طبيعى. أمّا بالنسبة للإنسان فقد أوكل ذلك إلى ذكائه و عقله،

[۳۵۹] (۲)- بحثنا بالتفصيل حول موسى عليه السّلام و كيفية مبعثه و جهاده مع الفراعنة فى تفسير الآيات(۱۰۳) إلى(۱۶۲) من سورة الأعراف و فى تفسير الآيات(۸) إلى(۹۷) من سورة طه.

[۳۶۰] (۱)- فى الحالة الأولى تكون الميم جزءا من الكلمة، و هى على وزن« فعيل»، و فى الثّانية الميم زائدة و هى على وزن مفعول« مثل مبيع».

[۳۶۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلّد الرّابع، الدعاء الباب(۶۷) الحديث(۴).

[۳۶۲] (۲)- تناولنا شرح ذلك فى تفسير الآية(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۳۶۳] (۳)- المؤمنون، ۵۱.

[۳۶۴] (۱)- البقرة، ۱۷۲.

[۳۶۵] (۲)- فاطر، ۱۰.

[۳۶۶] (۳)- الإسراء، ۷۰.

[۳۶۷] (۴)- تفسير القرطبى، المجلّد السابع، صفحة ۴۵۱۹(حول الآية موضع البحث).

[۳۶۸] (۱)- الزخرف، ۲۳.

[۳۶۹] (۱)- سورة نوح، ۷.

[۳۷۰] (۱)- للاطلاع بشكل أوسع على موضوع الاستدراج يراجع تفسير الآية ۱۸۲ من سورة الأعراف.

[۳۷۱] (۱)- لقد شرحنا بإسهاب صحيفة أعمال الإنسان و حقيقتها فى التّفسير الأمثل حين تفسير الآية(۱۳) من سورة الإسراء و كذلك حين تفسير الآية(۴۹) من سورة الكهف.

[۳۷۲] (۲)- يمكن أن تكون كلمة« هذا» إشارة إلى صحيفة الأعمال و يوم الحساب، أو القرآن المجيد، أو أعمال الصالحين التى أشارت الآيات السابقة إليها.

[۳۷۳] (۱)- هناك اختلاف بين المفسّرين فى من يعود إليه الضمير فى(به). فذهب بعض أنّه يعود إلى المسجد الحرام و الحرم المكّى، لأنّ سدنة الكعبة استكبروا لاعتبارهم أنفسهم أصحاب الحرم المكّى، و هذا الاحتمال ضعيف لأنّ الآيات السابقة لم تتناول الكعبة و الحرم. و يبدو أنّ هذا الضمير يعود إلى القرآن المجيد و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فيكون معنى الآية: إنّكم استكبرتم إزاء القرآن و نبى الإسلام. أو أنّها تشير إلى سيرهم المعاكس، فهم استكبروا و لم يهتموا به.

[۳۷۴] (۱)- يمكن أن تفسّر عبارة« ذكرهم» بمعنى تذكّرهم و توقظهم، و يمكن أن تفسر بمعنى شرفهم و حيثيّتهم فى المجتمع البشرى، و فى الوقت ذاته لا تناقض بين هذين المفهومين، و قد استفدنا من كليهما فى تفسير الآية.

[۳۷۵] (۲)- الخرج و الخراج مشتق من الخروج، و يعنى الشىء الذى يستخرج من المال أو من حاصل الأرض الزراعية. إلّا أنّ الخرج

ذو معنى أوسع من الخراج. و كما يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الخرج أعمّ من الخراج، و جعل الخرج بإزاء الدخل، و قال تعالى\:i فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً\E و الخرج مختّص فى الغالب بالضريبة على الأرض أو أجرتها.

[۳۷۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث صفحة ۵۴۸.

[۳۷۷] (۲)- أصول الكافى(وفق ما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۵۴۹).

[۳۷۸] (۱)- البقرة، ۲۴۳.

[۳۷۹] (۱)- الأعراف، ۱۸۷.

[۳۸۰] (۲)- هود، ۱۷.

[۳۸۱] (۳)- يوسف ۱۰۳.

[۳۸۲] (۴)- الإسراء، ۸۹.

[۳۸۳] (۵)- الأنعام، ۱۱۶.

[۳۸۴] (۶)- وسائل الشيعة، المجلّد الثامن عشر، صفحة ۷۲(كتاب القضاء الباب التاسع من أبواب صفات القاضى).

[۳۸۵] (۷)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۷.

[۳۸۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۱.

[۳۸۷] (۱)-« استكانوا» مشتقّة من السكون، بمعنى الصمت فى حالة الخضوع و الخشوع، و بهذه الصورة ستكون من باب« افتعال» التى كانت فى الأصل استكنوا. أشبعت فتحة الكاف و بدّلت إلى ألف. فأصبحت استكانوا. و قال البعض: إنّها مشتقّة من كون، و من باب« استفعال» أى طلب الإقامة فى مكان بخضوع و خشوع. و على كلّ حال فإنّها تبيّن حالة العبد الخاضع لربّه، و قد اعتبرها البعض بمعنى الدعاء بسبب كونه أحد مصاديق الخضوع و التواضع. أمّا الاحتمال الثالث، فهى مشتقّة عن« الكين» على وزن« عين» و من باب الاستفعال، لأنّها تعنى الخضوع أيضا. و جميع هذه المعانى متقاربة.

[۳۸۸] (۲)-« المبلس» كلمة مشتقّة من« الإبلاس». بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدّة أثر الحادثة. و تدفع بالإنسان إلى الصمت و الحيرة و اليأس.

[۳۸۹] (۱)- الآية\i إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ\E التى ذكرت قبل هذه الآيات تؤيّد هذا التّفسير.

[۳۹۰] (۱)- تحدّثنا عن أجهزة التعرّف الثلاثة فى تفسير الآية(۷۸) من سورة النحل.

[۳۹۱] (۲)-« ذرأ» مشتقّة من الذرء(على وزن زرع). و هى فى الأصل بمعنى الخلق و الإيجاد و الإظهار، إلّا أنّ كلمة(ذرو) و هى أيضا على وزن فعل بمعنى البعثرة. الآية الأولى من النوع الأوّل.

[۳۹۲] (۱)- تقديم التراب على العظام إما لعودة التراب إلى الحياة الأولى هى أعجب من عودة العظام، و إما لأن الأجداد أصبحوا ترابا و الآباء عظاما نخرة، و إما لصيرورة لحم الإنسان ترابا قبل العظام، ثم تتحول العظام إلى تراب.

[۳۹۳] (۱)- بحثنا موضوع العرش بإسهاب فى تفسير الآية(۵۴) من سورة الأعراف.

[۳۹۴] (۲)- البقرة، ۲۵۵.

[۳۹۵] (۱)-« إمّا» فى الآية أعلاه مركّبة من« إنّ» الشرطية و« ما» الزائدة. و قد استعملت هنا للتأكيد. و من أجل أن ترد(إنّ الشرطية) على الفعل المقرون بنون التأكيد يجب أن تفصل بينهما« ما».

[۳۹۶] (۱)- يراجع تفاسير مجمع البيان، و الميزان، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازى، و روح المعانى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۹۷] (۲)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۳۹۸] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی.

[۳۹۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثّالث، صفحة ۵۵۲.

[۴۰۰] (۱)-« حتّی» هی فی الواقع غایة لجملة محذوفة، و یفهم من العبارات السابقة أن تقدیرها: إنّهم یستمرّون علی هذا الحال حتّی إذا جاء أحدهم الموت، و یستدلّ علی ذلک من عبارة« نحن أعلم بما یصفون» التی استفید منها فی الآیتین السابقتین(فتأمّلوا جیدا).

[۴۰۱] (۱)- یری بعض المفسّرین فی الآیة التاسعة من سورة القصص فی عبارة زوجة فرعون i قُرَّتُ عَیْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ E التی نطقت بها حین أخرج موسی من الماء نموذجا لهذا التعبیر، حیث فی البدایة کان المخاطب فرعون و آخر العبارة خاطبت حاشیة فرعون و جنوده الذین کلّفوا بقتل أبناء بنی إسرائیل.

[۴۰۲] (۲)- الکافی، و ثواب الأعمال، و من لا یحضره الفقیه(حسبما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۵۲).

[۴۰۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم« ۱۳۰».

[۴۰۴] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۴۳.

[۴۰۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّانی، صفحة ۵۵۳.

[۴۰۶] (۳)- المصدر السابق.

[۴۰۷] (۴)- المصدر السابق، صفحة ۵۵۴.

[۴۰۸] (۱)- کتاب الکافی، حسبما نقله بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۶۸.

[۴۰۹] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد السادس، صفحة ۲۶۹.

[۴۱۰] (۳)- المصدر السابق.

[۴۱۱] (۱)- جمع هذه الأحادیث المرحوم السیّد عبد اللّه شبّر فی کتاب سمّاه« تسلیة الفوائد فی بیان الموت و المعاد».

[۴۱۲] (۲)- للاطلاع أکثر بهذا الصدد، راجع مسألة الاتّصال بالأرواح فی کتاب(عودة الروح و الاتّصال بها) و کتاب(العالم بعد الموت).

[۴۱۳] (۱)- سورة آل عمران، ۱۶۹ و ۱۷۰.

[۴۱۴] (۲)- یصرّح العلّامة المجلسی فی تناوله هذا الموضوع فی بحار الأنوار: إنّ تشبیه البرزخ بالحلم و ما یتراءی للإنسان وارد فی أکثر من الروآیات، و یمکن أن تکون للنفوس القویة السامیة عدة أجسام مثالیة، و بهذا تفسر الأحادیث القائلة بحضور الأئمة المیامین لدی المحتضرین حین نزعهم الأخیر.(بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحة ۲۶۱).

[۴۱۵] (۱)- بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحة ۲۷۷.

[۴۱۶] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد السابع، صفحة ۲۵۱(الطبعة الجدیدة).

[۴۱۷] (۱)- تفسیر القرطبی، و تفسیر الفخر الرازی، و تفسیر مجمع البیان، و تفسیر المیزان، الآیات موضع البحث.

[۴۱۸] (۱)- الشعراء، ۸۹.

[۴۱۹] (۲)- الحسب: کلّ فخر للإنسان، بالآباء و الأجداد. و یعنی أحیانا الخلق السلیم للشخص ذاته، و هنا قصد المعنی الأوّل.(یراجع لسان العرب فی کلمة حسب).

[۴۲۰] (۳)- مجمع البیان آخر الآیة موضع البحث.

[۴۲۱] (۱)- مناقب ابن شهر آشوب(وفق ما نقله تفسیر نور الثقلین، المجلّد الثّالث، ص ۵۶۴).

[۴۲۲] (۱)- بحر المحبّة- للغزالی، صفحة ۴۱ إلی ۴۴(مع التلخیص)

[۴۲۳] (۱)- إنّ هذه الجملة فی الحقیقة فیها محذوف تقدیره(یقول اللّه تعالی ألم تکن ...).

[۴۲۴] (۱)- نقرأ فی سورة الروم الآیة(۵۵) و(۵۶\):i وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَیْرَ ساعَةٍ کَذلِکَ کانُوا یُؤْفَکُونَ، وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِیمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِی کِتابِ اللَّهِ إِلی یَوْمِ الْبَعْثِ، فَهذا یَوْمُ الْبَعْثِ، وَ لکِنَّکُمْ کُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ E تبیّن هاتان الآیتان أنّ الاستفسار و الردّ خاص بالتوقّف فی البرزخ، و إذا جعلناه دلیلاـ علی الآیات موضع البحث، فمفهومها سیکون أیضا التوقّف فی البرزخ، إلّا أنّه کما قلنا: إنّ الدلائل الموجودة- فی الآیات موضع البحث- مقدّمة علیها، و إنّها تبیّن أنّ الاستفسار و جوابه یخصّ التوقّف فی الدنیا.

[۴۲۵] (۲)- إن« لو» فی الآیة السابقة شرطیة کما قلنا سابقا. و هناک جملة تقدیریّة محذوفة فتکون« لو أنّکم کنتم تعلمون» لعلمتم أنّکم ما لبثتم إلّا قلیلا، و قال بعض المفسّرین أن« لو» تعنی هنا« لیت» و بهذا تکون الجملة بهذا الشکل« لیتکم علمتم بهذا الموضوع فی دنیاکم»

[۴۲۶] (۱)- و اعتبر بعض المفسّرین عبارة« فإنّما حسابه عند ربّه» جواب الشرط لعبارة« من یدّع مع اللّه» و یعتبر جملة« لا برهان له به» جملة اعتراضیة جاءت بین سؤال الشرط و جوابه. و هی لتأکید الهدف النهائی. إلّا أنّ البعض الآخر یری أنّ عبارة« لا برهان له» جواب الشرط و جملة« فإنّما حسابه» ... فرع عنها، لکنّ هذا الاحتمال لا ینسجم مع الأدب العربی، إذ یستوجب أن یقترن جواب الشرط بالفاء. أی« فلا برهان له، و ذهب آخرون إلی أنّ هذه الجملة صفة أو حالا. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل یبدو أقرب إلی الصواب رغم أنّه لا فرق فی المعنی یستحقّ الملاحظة».

[۴۲۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی فی آخر الآیات موضع البحث المجلّد ۲۳ و ۲۴ مطبعة البهیّة المصریة- القاهرة- ص ۱۲۸.

الجزء الحادی عشر

«سورة النّور»

فضل سورة النور:

جاء فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «من قرأ سورة النور أعطی من الأجر عشر حسنات بعدد کل مؤمن و مؤمنة فیما مضی و فیما بقی».

و

جاء فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «حصنوا أموالکم و فروجکم بتلاوة سورة النّور و حصّنوا بها نساءکم، فإنّ من أدمن قراءتها فی کل یوم أو فی کل لیلة لم یزن أحد من أهل بیته أبدا حتی یموت»[۱].

و الاهتمام بمضمون السورة الذی دعا بطرق مختلفة إلی مکافحة عناصر الانحراف بالتزام العفّة، یوضح الغایة الاساسیة فی الحدیثین أعلاه و مفهومهما العملی.

محتوی سورة النّور:

اشارة

یمکن اعتبار هذه السورة خاصّة بالطهارة و العفة، و کفاح الانحطاط الخلقی، لأن محور تعالیمها ینصب علی تطهیر المجتمع بطرق مختلفة من الرذائل و الفواحش، و القرآن الکریم یحقق هذا الهدف عبر مراحل، هی:

المرحلة الأولى:

بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية و الرجل الزانى، و هو ما ورد حاسما فى الآية الثّانية من هذه السورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸

المرحلة الثّانية:

بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلّا بشروط مشدّدة للغاية، إذ لا بدّ من أربعة شهود يشهدون أنّهم رأوا بأمّ أعينهم رجلا غريبا يزنى بامرأة غريبة عنه، يفعل بها فعل الزوج بزوجه ساعة مباشرته إيّاها.

و لو شهد الرجل على زوجته بالزّنا للاعن القاضى بينهما، أو يقرّ أحدهما أو كلاهما بالحق.

و من اتّهم محصنة و لم يأت بأربعة شهود جلده القاضى أربعة أخماس حدّ الزّنا، أى ثمانين جلدة، لئلّا يتصوّر أحد أنّ بإمكانه الطّعن على الناس و هتك حرماتهم و هو فى منجّى عن العقاب.

ثمّ طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، و ما فيه من اتّهام إحدى نساء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فعقّب القرآن المجيد على هذه المسألة موضحا للمسلمين مدى بشاعة الافتراء و التهمة، و فظاعة إشاعة الفاحشة عدوانا على الناس، و كاشفا عمّا ينتظر القائم بذلك من عقوبات إلهية.

و فى المرحلة الثّالثة:

تناولت الآية أحد السبل المهمّة لاجتناب التدهور الأخلاقىّ، من أجل ألا يتصوّر أنّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، و حجاب المرأة المسلمة، لأنّ أحد أسباب الانحراف الجنسى المهمّة ناجم عن هاتين المسألتين.

و إذا لم تحل هاتان المسألتان جذريّا، لا يمكن القضاء على الانحطاط و التفسخ.

و فى المرحلة الرّابعة:

كخطوة للنجاة من التلوث بما يخلّ بالشرف- دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف، ليحارب الإشباع الجنسى غير المشروع بإشباع مشروع.

و فى المرحلة الخامسة:

بيّنت الآيات جانبا من آداب المعاملة، و مبادئ تربية الأولاد و عدم دخول الأبناء الغرفة المخصصة للوالدين فى ساعات الخلوة و الاستراحة إلّا بإذن منهما، بغية المحافظة على أفكارهم من الانحراف. كما بيّنت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹

آداب الحياة الأسريّة عامّة.

و فى المرحلة السادسة:

جاء ذكر مسائل خاصّة بالتوحيد و المبدأ و المعاد و الامتثال لتعاليم النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. كلّ ذلك خلال البحوث المطروحة. و من المعلوم أن الإعتقاد بالوحدانية و النّبوّة و المبدأ و المعاد. يدعم مناهج التربية الأخلاقية فى الفرد و الجماعة، فذلك الإعتقاد هو الأصل، و ما عداه من أمور فروع عليه، تورق و تثمر إذا قوى الأصل و اشتدّ.

و تطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالميّة، و أشارت إلى تعاليم إسلامية أخرى، و هى تشكل- بمجموعها- وحدة متكاملة شاملة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۱) الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲) الزَّانِى لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (۳)

التّفسير

حد الزانى و الزانية:

سمّيت هذه السورة بالنّور لأنّ آية النور فيها من أهم آياتها، إضافة إلى أنّ مضمونها يشعشع فى جوانح الرجل و المرأة و الأسرة و البشر عفّة و طهارة، و حرارة تقوى، و يعمر القلوب بالتوحيد و الإيمان بالمعاد و الاستجابة لدعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة سُورَةٌ أَنْزَلْناها وَ فَرَضْناها وَ أَنْزَلْنا فِيها آياتٍ بَيِّناتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱

«سورة» كلمة مشتقّة من «السور» أى الجدار المرتفع، ثمّ أطلقت على الجدران التى تحيط بالمدن لحمايتها من مهاجمة الأعداء. و بما أنّ هذه الجدران كانت تعزل المدينة عن المنطقة المحيطة بها، فقد استعملت كلمة «سورة» تدريجيا فى كل قطعة مفصولة عن شىء، و منها استعملت لتعنى قسما من القرآن. كما قال بعض اللغويين: إنّ «سورة» بناء جميل مرتفع، و هذه الكلمة تطلق أيضا على قسم من بناء كبير، و تطلق السورة على أقسام القرآن المختلفة المفصولة بعضها عن بعض ۲].

و على كل حال فإنّ هذه العبارة إشارة إلى كون أحكام و مواضيع هذه السورة- من اعتقادات و آداب و أوامر إلهية- ذات أهمّيّة فائقة، لأنّها كلها من اللّه.

و تؤكّد ذلك عبارة «فرضناها»، لأنّ «الفرض» يعنى قطع الشىء الصلب و التأثير فيه كما يقول الراغب فى مفرداته.

و عبارة آياتٍ بَيِّناتٍ قد تكون إشارة إلى الحقائق المنبعثة عن التوحيد و المبدأ و المعاد و النبوّة، التى تناولتها هذه السورة. و هى إزاء «فرضنا» التى تشير إلى الأوامر الإلهية و الأحكام الشرعية التى بيّنتها هذه السورة. و بعبارة أخرى:

إحداها تشير إلى الاعتقادات، و الأخرى إلى الأحكام الشرعية.

و يحتمل أن تغنى «الآيات البينات» الأدلة التى استندت إليها هذه الأحكام الشرعية.

و عبارة لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تؤكّد أن جذور جميع الاعتقادات الصحيحة، و تعاليم الإسلام التطبيقية، تمكن فى فطرة البشر.

و على هذا الأساس فإن بيانها يعتبر نوعا من التذكير.

و بعد هذا الاستعراض العام. تناولت السورة أوّل حكم حاسم للزانى و الزانية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲

الزَّانِيَةُ وَ الزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ و لتأكيد هذا الحكم قالت وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

و أشارت الآية فى نهايتها إلى مسألة أخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهى وَ لْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و تشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

۱- الحكم بمعاقبة النساء و الرجال الذين يمارسون الزنا.

۲- إقامة هذا الحكم الإلهى بعيدا عن الرأفة بمن يقام عليه، فهذه الرأفة الكاذبة تؤدّى إلى الفساد و انحطاط المجتمع. و تضع الآية الإيمان باللّه و يوم الحساب مقابل الرأفة التى قد يحس بها أحد تجاه الزانى و الزانية ساعة إقامة الحدّ عليهما، لأنّ أداء الأحكام الإلهية من غير تأثر بالعواطف دليل على صدق الإيمان بالمبدأ و المعاد، و الإيمان باللّه العالم الحكيم يعنى أنّ لكل حكم من أحكامه غاية و هدف حكيم، و الإيمان بالمعاد يشعر الإنسان بالمسؤولية إزاء كل مخالفة.

و ذكر بهذا الصدد حديث مهم

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يؤتى بوال نقص من الحدّ سوطا، فيقال له: لم فعلت ذلك؟ فيقول: رحمة لعبادك، فيقال له: أنت أرحم بهم منّى؟! فيؤمر به إلى النار، و يؤتى بمن زاد سوطا، فيقال له: لم فعلت ذلك؟ فيقول:

لينتهوا عن معاصيك! فيقول: أنت أحكم به منّى؟! فيؤمر به إلى النّار!».[۳]

۳- أوجب اللّه حضور عدد من المؤمنين فى ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرون من إقامة حكم اللّه العادل على المذنبين، و بملاحظة النسيج الاجتماعى للبشر نرى أن انحطاط الشخص لا ينحصر فيه، بل يسرى إلى الآخرين، و لإتمام التطهير يجب أن يكون العقاب علنا مثلما كان الذنب علنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳

و بهذا يتّضح الجواب عن السؤال: لم يعرّض الإسلام كرامة إنسان بين الناس إلى الخدش و الامتهان؟ فيقال: ما دام الذنب سرّا لم يطّلع عليه أحد و لم يبلغ القضاء، فلا بأس بكتمانه فى النفس و استغفار اللّه منه، فإنّه تعالى يستره بلطفه و يحبّ من يستره، أمّا إذا ظهر الجرم بالأدلّة الشرعيّة، فلا بدّ من تنفيذ العقاب بشكل يبطل آثار الذنب السيئة، و يبعث على استفظاعه و بشاعته. و من الطبيعى أن يولى المجتمع السليم الأحكام اهتماما كبيرا، فتكرار التحدّى للحدود الشرعيّة يفقدها فاعليتها فى صيانة الطمأنينة و الاستقرار فى النفوس، و من هنا وجبت إقامة هذا الحدّ علنا ليمتنع الناس من تكرار فاحشة ساءت سبيلا.

و يجب أن لا ننسى أن كثيرا من الناس يهتم باطّلاع الناس على سوء فعله أكثر من اهتمامه بما ينزل به من العقاب على ذلك الفعل الشنيع. و لهذا وجبت إقامة الحدّ على الزّانى بحضور الناس، و هذا الإعلان لإقامة هذا الحدّ الإلهى أمام الناس قد يمنع المفسدين من الاستمرار فى الفساد و يكون بمثابة فرامل قوية امام التمادى فى ركوب الشهوات.

و بعد بيان حدّ الزّنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء فى الآية الثّالثة و كما يلى الزَّانِي لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَ الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَ حُرِّمَ ذلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

اختلف المفسّرون فى كون هذه الآية بيانا لحكم إلهى، أو خبرا عن قضيّة طبيعية.

فیری البعض أنّ الآیـة تبیّن واقعـة ملموسـة فقـط، فـالمنحطون یختـارون المنحطـات، و کـذلک یفعلن هن فی اختیـارهن، بینمـا یسـمو المتطهّرون المؤمنون عن ذلک. و یحرّمون علی أنفسهم اختیار الأزواج من ذلک الصنف تزکیة و تطهیرا، و هذا ما یشهد به ظاهر الآیة الذی جاء علی شکل جملة خبریة.

إلّا أنّ مجموعة أخری تری فی هذه العبارة حکما شرعیا و أمرا إلهیا یمنع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴

المؤمنین من الزواج مع الزانیـات، و یمنع المؤمنـات من الزواج مع الزنـاة، لأنّ الانحرافات الأخلاقیـة کالأمراض الجسـمیة المعدیـة فی الغالب. فضلا عن أنّ ذلک عار یأباه المؤمن و ینأی عنه.

مضافا إلی المصیر المبهم و المشـکوک للأبناء الذین ینشؤون فی احضان ملوثة و مشـکوکة. ینتظر الأبناء من مثل هذا الزواج! و لهذه الأسباب و الخصوصیات منعه الإسلام.

و الشاهد علی هذا التفسیر جملة وَ حُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ الّتی تدلّ علی تحریم الزنا.

و الدلیل الآخر أحادیث عدیدة رویت عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأئمّة المعصومین علیهم السّلام التی فسّرت هذه الآیة باعتبارها حکما إلهیا ینص علی المنع.

و حتی أن بعض کبار المفسّرین کتب بشأن نزول هذه الآیة: إنّ رجلا من المسلمین استأذن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی أن یتزوج «أم مهزول» و هی امرأة کانت تسافح و لها رایة علی بابها، فنزلت الآیة[۴]، عن عبد اللّه بن عباس و ابن عمر و مجاهد و قتادة و الزهری، و المراد بالآیة النهی و إن کان ظاهرها الخبر.

و یؤیده ما

روی عن أبی جعفر علیه السّلام و أبی عبـد اللّه علیه السّلام أنّهما قالا: «هم رجال و نساء کانوا علی عهد رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم مشـهورین بالزنا، فنهی اللّه عن أولئک الرجال و النساء، و الناس علی تلک المنزلة، فمن شـهر بشـیء من ذلک و أقیم علیه الحد فلا تزوجوه حتی تعرف توبته»[۵].

و لا بد أن نذکّر أن العدید من الأحکام جاء جملا خبریة. و لا ضرورة لأن تکون إنشائیة آمرة ناهیة.

و الجدیر بالانتباه أنّ المشرکین کانوا یعطفون علی الزناة، و هذا یکشف عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵

أنّ الزّنا و الشّرک صنوان.

قال الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «لا یزنی الزانی حین یزنی و هو مؤمن، و لا یسرق السارق حسن یسرق و هو مؤمن، فإنه إذا فعل ذلک خلع عنه الإیمان کخلع القمیص»[۶].

ملاحظات

۱- الحالات التی یعدم فیها الزانی

ما ذکرته الآیة السابقة حکم عامّ یستثنی منه زنا المحصّن و المحصنة، فحدّهما القتل، إذا ثبت علیهما الجرم.

و یقصـد بـالمحصن الرجـل الـذی له زوجـة تعیش معه، و المحصـنة هی المرأة المتزوجـة التی یعیش زوجهـا معها فمن توفر له السبیل المشروع لإرضاء الغریزة الجنسیة ثمّ یزنی فإنّ حدّه القتل.

كما أن الزنا بالمحرمات حكمه الإعدام.

و كذلك الزنا بالعنف و الإكراه، أى الاغتصاب فحكمه القتل أيضا. و فى بعض الحالات يحكم إضافة إلى الجلد بالنفى و أحكام أخرى ذكرتها الكتب الفقهية.

۲- لماذا ذكرت الزانية أولا؟

لا شك فى أنّ ممارسة هذا العمل الذى يخالف العفة، هى فى غاية القبح، و تزداد قبحا و بشاعة بالنسبة للمرأة، فحياؤها أكثر من حياء الرجل، و الخروج عليه دليل تمرد شديد جدّا. و إضافة إلى أنّ عاقبته المشؤومة بالنسبة لها أكبر رغم فداحته و وباله على الطرفين كليهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶

و يحتمل أن تكون المرأة مصدر الوساوس فى اقتراف هذا الذنب، و تعتبر فى كثير من الأحيان السبب الأصلى فيه. و لهذا كله ذكرت الآية الزانية أولا ثمّ الزانى.

إلّا أن النساء و الرجال من أهل العفّة و الإيمان يجتنبون هذه الأعمال.

۳- لماذا تكون العقوبة علنية؟

تستوجب الآية السابقة- التى جاءت بصيغة الأمر- حضور طائفة من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا، لكنّ القرآن لم يشترط أن يجرى ذلك فى الملأ العام، بل وقفه على الظروف، و يكفى حضور ثلاثة أشخاص أو أكثر وفق ما يقرر القاضى ۷].

و فلسفة هذا الحكم واضحة، لأنّه أوّلا: إنّ الهدف هو أن يكون هذا الحكم عبرة للناس جميعا، و سببا لتطهير المجتمع.

و ثانيا: ليكون خجل المذنب مانعا له من ارتكاب هذا الذنب فى المستقبل.

و ثالثا: متى نفذ الحدّ بحضور مجموعة من الناس يتبرأ القاضى و القائمين على تنفيذ الحدّ من أية تهمة كالارتشاء أو المهادنة أو التفرقة أو ممارسة التعذيب و أمثال ذلك.

و رابعا: حضور مجموعة من الناس يمنع التعنت و الإفراط فى تنفيذ الحدّ.

و خامسا: حضور الناس يمنع المجرم من نشر الشائعات و الاتهامات ضد القاضى، كما يحول هذا الحضور من نشاط المجرم التخريبى فى المستقبل و غير ذلك من الفوائد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷

۴- ماذا كان حدّ الزانى سابقا؟

يستفاد من الآيتين (۱۵) و (۱۶) من سورة النساء أنّ الحكم قبل نزول سورة النّور كان السجن المؤبّد للزانية فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ و إلحاق الأذى بالزناة غير المحصنين فَآذُوهُما و لم يحدد مقدار هذا الأذى حتى حددته هذه الآية بمائة جلدة. و على هذا حلّ الإعدام محل السجن المؤبد فى الحكم على الزانية المحصنة، و حدّد الأذى لغير المحصن بمائة جلدة (و لمزيد من الاطّلاع راجع التّفسير الأمثل فى تفسير الآيتين (۱۵) و (۱۶) من سورة النساء).

۵- منع الإفراط و التفريط عند تنفيذ الحدّ!

لا ريب فى أنّ القضايا الإنسانيـة و العاطفيـة توجب بـذل أقصـى الجهود لمنع إصابـة برىء بهـذا العقاب، و إصـدار العفو وفق الأحكام الإلهيـة، أمّـا إذا ثبت الـذنب فلاـ بـدّ من الحسم من غير تـأثر بالمشاعر الكاذبـة و العواطف البشـرية إلّا بالحقّ، فهيجانها الجارف يلحق بالنظام الاجتماعى ضررا كبيرا.

و لا سيما و قد وردت فى الآية عبارة: «فى دين اللّه» أى: عند ما يكون الحكم من اللّه فهو أبصر و أحكم بمواقع الرأفة و الرّحمة، فحين ينهى عن الانفعال العاطفىّ فى إقامة حكم شرعى من أجل أنّ أكثرية الناس تتملّكهم هذه الحالة، فيحتمل غلبة عواطفهم و احساساتهم على عقلهم و ايمانهم. و لا جـدال فى وجود فئـة قليلـة من الناس تميل إلى العنف، و هذا انحراف عمّا دعانا إليه ربّ العزّة و الحكمة- سبحانه- من العدل و الإحسان اللذين لا يظهران إلّا بإقامة أحكامه الرشيدة، فلا ينبغى لمسلم أن يزيد أو ينقص فى حكم اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸

۶- شروط تحريم الزواج بالزانية و الزانى:

ذكرنا أن ظاهر الآيات السابقة يحرّم الزواج من الزانية و الزانى، و خصصت الأحاديث الشريفة ذلك بالذين اشتهروا بالزنى و لم يتوبوا، و أمّا إذا لم يشتهروا بهذا العمل القبيح، أو أنّهم تركوه و طهّروا أنفسهم منه، و حافظوا على عفتهم، فلا مانع من الزواج منهم.

أمّا الـدليل على الصورة الثّانية، و هى حالة التوبة، فإنه لا ينطبق عنوان الزانى و الزانية على هؤلاء فكانت حالة مؤقّتة زالت عنهم. أمّا فى الحالة الأولى فقد ورد هذا القيد فى الروايات الإسلامية و يؤيده سبب نزول الآية السابقة. ففى حديث معتبر

عن الإمام الصادق عليه السّـلام أن الفقيه المعروف «زرارة» سأله عن تفسـير الزَّانِى لا يَنْكِحُ إِلَّا زانِيَةً. فقال الإمام عليه السّلام: «هن نساء مشـهورات بالزنا و رجال مشـهورون بالزنا، قـد شـهروا بالزنا و عرفوا به، و الناس اليوم بذلك المنزل، فمن أقيم عليه حد الزنا، أو شـهر بالزنا، لا ينبغى لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه توبته»[۸].

كما جاءت أحاديث أخرى بهذا المضمون.

۷- فلسفة تحريم الزنا:

لا يخفى على أحـد مساوئ هـذا العمل القبيح على الفرد و المجتمع، و مع ذلك نرى من اللازم بيان هذا المعنى باختصار: إنّ ممارسـة هذا العمل القبيح و انتشاره يعرّض النظام الأسرىّ إلى الدمار.

و يجعل العلاقة بين الابن و أبيه غامضة و سلبية.

و قد بيّنت لنا التجربة أنّ الأولاد المجهولى النسب يتحولون إلى جناة خطرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹

على المجتمع.

كما أنّ هذا العمل القبيح يؤدى إلى مصادمات بين أصحاب المطامع و الأهواء.

إضافة إلى انتشار أنواع الأمراض النفسية و الجلدية. و ذلك ليس خافيا على أحد.

و من نتائجه المشؤومة الإجهاض و ارتكاب الجرائم من هذا القبيل (و لمزيد الاطلاع راجع التّفسير الأمثل آخر الآية ۳۲ من سورة الإسراء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۴ الى ۵]

اشارة

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴) إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

التّفسير

عقوبة البهتان:

قد يستغلّ المعترضون ما نصّت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزانى و الزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات، و يسخّرون هذا الحكم لأغراضهم الدنيئة. فجاءت هاتان الآيتان لحفظ الحرمات الطاهرة و صيانة الكرامات من عبث هؤلاء المفسدين.

تقول الآية: وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافى العفّة (أى الزنا)، و لم يأتوا بأربعة شهود عدول لاثبات ادعائهم. فحكمهم فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً و تضيف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱

الآية حكمين آخرين: وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً، وَ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

فهنا لا يقع مثل هؤلاء الأشخاص تحت طائلة العقاب الفيزيقى الشديد فحسب، بل إنّ كلامهم و شهادتهم يسقطان عن الإعتبار أيضا، لكيلا يتمكنوا من التلاعب بسمعة الآخرين و تلويث شرفهم فى المستقبل، مضافا إلى أن وصمة الفسق تكتب على جبينهم فيفتضح أمرهم فى المجتمع. و ذلك لمنعهم من تلويث سمعة الطاهرين.

و هذا التشديد فى الحكم المشرّع لحفظ الشرف و الطهارة، ليس خاصا بهذه المسألة، ففى كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلا أمامنا للأهمية البالغة التى يمنحها الإسلام لشرف المرأة و الرجل المؤمن الطاهر.

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح فى الماء»[۹].

و لكنّ المولى العزيز الحكيم سبحانه و تعالى لا يسدّ باب رحمته فى وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم و طهّروا أنفسهم، و ندموا على ما فرّطوا، و سعوا فى تعويض ما فاتهم من البرّ إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و قد اختلف المفسّرون فى كون هذا الاستثناء يعود إلى جملة أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أو إلى جملة وَ لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً، فإذا كان الاستثناء عائدا إلى الجملتين معا، فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة و إزالته الحكم بفسقهم. أمّا إذا كان عائدا إلى الجملة الأخيرة، فإن الحكم عليهم بالفسق سيزول عنهم فى جميع الأحكام الإسلامية، إلّا أن شهادتهم تظل باطلة لا تقبل منهم حتى آخر أعمارهم.

إلّا أن المبادئ المعمول بها فى «أصول الفقه» تقول: «إن الاستثناء الوارد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۲

بعد عدّة جمل يعود إلى الأخيرة منها، إلّا فى حالة وجود قرائن تنص على شمول هذه الجمل بهذا الاستثناء. و هنا يوجد مثل هذه القرينة، لأنّه عند ما يزول الحكم بالفسق عن الشخص بتوبته إلى اللّه، فلا يبقى دليل على ردّ شهادته لأنّ عدم قبول الشهادة كان من أجل فسقه. فإذا تاب و رجعت إليه ملكة العدالة فلا يسمى فاسقا.

و جاءت أحاديث عن أهل البيت عليهم السّلام مؤكّدة هذا المعنى،

فقد روى أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد و حماد عن القاسم بن سليمان قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن الرجل يقذف الرجل فيجلد حدا، ثمّ يتوب و لا نعلم منه إلّا خيرا أ تجوز شهادته؟ قال: «نعم. ما يقال عندكم؟».

قلت: يقولون: توبته فيما بينه و بين اللّه، و لا تقبل شهادته أبدا.

فقال: «بئس ما قالوا: كان أبى يقول: إذا تاب و لم نعلم منه إلّا خيرا جازت شهادته»[۱۰].

كما رويت أحاديث أخرى فى هذا الباب بهذا المعنى، و لكن يوجد حديث واحد يحمل على التقية.

و من الضرورى أن نذكّر بأن كلمة «أبدا» فى جملة لا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً دليل على عمومية الحكم. و كما نعلم فإنّ كل عام يقبل الاستثناء (خاصّة الاستثناء المتصل به)، فالرأى القائل أن لفظة (أبدا) تمنع تأثير التوبة خطأ مؤكّد.

بحوث

۱- المراد من كلمة «رمى»

«الرّمى» فى الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر و أمثالهما، و طبيعى أنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۳

يؤذى فى معظم الأوقات، و قد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتهام الأشخاص و سبابهم و وصفهم بما لا يليق، لأن هذه الكلمات كالسهم يصيب الشخص و يجرحه.

و لعل ذلك هو السبب فى استخدام هذه الآيات- و الآيات المقبلة- لهذه الكلمة بشكل مطلق، فلم ترد الآية على هذا النحو (و الذين يرمون المحصنات بالزنا) و إنّما جاءت وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ لأنّ مفهوم «يرمون» و خاصّة مع ملاحظة القرائن الكلامية يستبطن معنى (الزنا)، و عدم التصريح به و لا- سيما عند الحديث عن النساء العفيفات نوع من الاحترام لهن. و هذا التعبير مثال بارز لإكرام المتطهرين، و نموذج لاحترام الآداب و العفة فى الكلام.

۲- لماذا أربعة شهود؟

من المعلوم أن شاهدين عادلين يكفيان- فى الشريعة الإسلامية- لإثبات حق، أو ذنب اقترفه شخص ما، حتى و إن كان قتل النفس. أمّا فى إثبات الزنا فقد اشترط اللّه تعالى أربعة شهود. و قد يكون ذلك لأن الناس يتعجلون الحكم فى هذه المسألة، و يتطاولون بإلصاق تهمة الزنا بمجرّد الشك، و لهذا شدّد الإسلام فى هذا المجال ليحفظ حرمات الناس و شرفهم. أمّا فى القضايا الأخرى- حتى قتل النفس- فإن موقف الناس يختلف.

إضافة إلى أن قتل النفس ذو طرف واحد فی الدعوی، أی إنّ المجرم واحد، أمّا الزنا فذو طرفین، حیث یثبت الذنب علی شخصین أو ینفی عنهما، فإذ کان المخصص لکل طرف شاهدین، فیکون المجموع أربعة شهود.

و هذا الکلام تضمنه الحدیث التالی:

عن أبی حنیفة قال: قلت لأبی عبد اللّه علیه السّلام أیّهما أشدّ الزنا أم القتل؟ قال: فقال علیه السّلام: القتل: قال: فقلت: فما بال القتل جاز فیه شاهدان، و لا یجوز فی الزنا إلّا أربعة؟ فقال لی: ما عندکم فیه یا أبا حنیفة، قال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴

قلت: ما عندنا فیه إلّا حدیث عمر، إنّ اللّه أجری فی الشهادة کلمتین علی العباد، قال: لیس کذلک یا أبا حنیفة و لکنّ الزنا فیه حدّان، و لا یجوز أن یشهد کلّ اثنین علی واحد، لأنّ الرجل و المرأة جمیعا علیهما الحدّ، و القتل إنّما یقام الحدّ علی القاتل و یدفع عن المقتول ۱۱].

و هناک حالات معینة فی الزنا، ینفذ الحد فیها علی طرف واحد (کالزنا بالإکراه و أمثاله) إلّا أنها حالات مستثناة و المتعارف فیه اتفاق الطرفین، و من المعلوم أن غایات الأحکام تتبع الغالب فی الأفراد.

۳- الشّرط المهم فی قبول التوبة

قلنا مرارا: إنّ التوبة لیست فقط بالندامة علی ما اقترفه الإنسان و تصمیمه علی ترکه فی المستقبل، بل تقتضی- إضافة إلی هذا- أن یقوم الشخص بالتعویض عن ذنوبه اقترفها، فإذا وجّه المرء تهمة لامرأة أو رجل طاهر ثمّ تاب، فیجب علیه أن یعید الاعتبار إلی من تضرّر باتّهامه، و ذلک بأن یکذب هذه التهمة بین کل الذین سمعوها عنه.

فعبارة وَ أَصْلَحُوا التی أعقبت عبارة تابُوا هی إشارة إلی هذه الحقیقة، حیث أوجبت التوبة- کما قلنا- أولا، ثمّ إصلاح ما أفسده و إعادة ماء وجه الذی أساء إلیه، و لیس صحیحا أن یتّهم إنسان أخاه ظلما فی ملأ عام، أو یعلن عن ذلک فی الصحّف و أجهزة الإعلام، ثمّ یستغفر فی خلوة داره- مثلا- و یطلب من اللّه الصفح عنه، و بالطبع لن یقبل اللّه مثل هذه التوبة.

لذلک

روی عن أئمّة المسلمین قال الرّاوی: سألته عن الذی یقذف المحصنات، تقبل شهادته بعد الحدّ إذا مات؟ قال: نعم، قلت، و ما توبته؟ قال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵

لا یجیء فیکذب نفسه عند الإمام و یقول: «قد افتریت علی فلانة و یتوب ممّا قال»[۱۲].

۴- أحکام القذف:

یوجد باب تحت عنوان «حد القذف» فی کتاب الحدود.

و «القذف» علی وزن «فعل» یعنی لغة رمی الشیء نحو هدف بعید، إلّا أنّه استخدمت کلمة «رمی» کنایة عن اتهام شخص ما فی عرضه، أو بتعبیر آخر: هو سباب یرتبط بهذه الأمور.

و «القذف» إذا جری بلفظ صریح، و بأی لغة و أیة صورة فحدّه- کما قلنا سابقا- هو ثمانون جلدة. و إذا لم یکن صریحا فیعزّر

القاذف. (و لم ترد فى الشريعة الإسلامية حدود للتعزير، بل و كل التعزير إلى تقدير القاضى، ليقرر حدودها وفق خصائص المذنب و كيفية وقوع الذنب و الشروط الأخرى).

و إذا وجه شخص اتهاما لمجموعة من الناس، و كرره بالنسبة لكل واحد منهم، فإنه يواجه حدّ القذف لكل تهمة تفوّه بها، أمّا إذا اتهمهم مرّة واحدة، فينفّذ بحقه حدّ واحد إن طالبوا القاضى جميعا مرة واحدة. و أمّا إذا أقام كلّ واحد منهم الدعوى بصورة مستقلة، فإنه يعاقب المذنب بعدد هذه الدعاوى.

و هذا الموضوع من الأهمية إلى درجة أنّه إذا اتهم شخصا و مات المتهم، فلورثته الحق فى المطالبة باقامة الحدّ على الذى اتهم مورثّهم بشىء. و بما أن هذا الحكم مرتبط بحق الشخص، فلصاحب الحق العفو عن الذنب و إسقاط الحدّ عنه، باستثناء حالة تكرر هذا الذنب من شخص معين بحيث يعرض وجود و شرف المجتمع إلى الخطر، فيكون حسابه عسيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶

و إذا تسابّ شخصان سقط الحد عنهما، إلّا أنّ حاكم الشرع يعزرهما، و لهذا لا يجوز للشخص ردّ السّباب بالمثل، بل له أن يطلب من حاكم الشرع معاقبة المذنب.

و على كل حال فإنّ هذا الحكم الإسلامى يرمى إلى المحافظة على سمعة الناس و شرفهم، و إلى الحيلولة دون انتشار المفاسد الاجتماعية و الأخلاقية التى يبتلى المجتمع بها عن هذا الطريق. و لو ترك المفسدون يعملون ما يحلو لهم يسبّون و يتهمون الأشخاص و المجتمع متى شاؤوا دون رادع، لتعرض شرف الناس و كرامتهم إلى الهتك، و لوصل الأمر بسبب هذه التهم الباطلة إلى وقوع الريبة بين الزوج و زوجته، و سوء ظن الأب بشرعية ولده إلى الخطر. و يسيطر الشك و سوء الظن على المجتمع كله. و تروّج الشائعات فتصيب الطاهرين أيضا. و هنا يستوجب العمل بحزم كبير مثلما عامل الإسلام هؤلاء المسيئين مروّجى التهم و الشائعات.

أجل، يجب أن يضربوا ثمانين جلدة إزاء كل تهمة بالزنا ليقفوا عند حدّهم، و لتتم المحافظة على كرامة الناس و شرفهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (۶) وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۷) وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (۸) وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (۱۰)

سبب النّزول

روى ابن عباس أن سعد بن عبادة (سيد الأنصار) من الخزرج قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بحضور جمع من الأصحاب: «يا رسول اللّه! لو أتيت لكاع (زوجته) و قد يفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، فو اللّه ما كنت لآتى باربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته و يذهب، و إن قلت ما رأيت إن فى ظهرى لثمانين جلدة، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸

يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم؟

فقالوا: لا تلمه فإنّه رجل غيور. ما تزوج امرأة إلّا بكرا، و لا طلّق امرأة له فاجترى رجل منّا أن يتزوجها.

فقال سعد بن عبادة: يا رسول اللّه، بأبى أنت و أمّى، و اللّه إنّى لأعرف أنّها من اللّه، و أنّها حق، و لكن عجبت من ذلك لما أخبرتك.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: فإنّ اللّه يأبى إلّا ذاك.

فقال: صدق اللّه و رسوله.

فلم يلبثوا إلّا يسيرا حتى جاء ابن عم له، يقال له: هلال بن أميـة قد رأى رجلا مع امرأته ليلا، فجاء شاكيا إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: إنّى جئت أهلى عشاء فوجدت معها رجلا رأيته بعينى و سمعته بأذنى.

فكره ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى رؤيت الكراهـة فى وجهه، فقال هلال: إنّى لأرى الكراهـة فى وجهك، و اللّه يعلم إنّى لصادق، و إنّى لأرجو أن يجعل اللّه لى فرجا.

فهمّ رسول اللّه بضربه، و اجتمعت الأنصار و قالوا: ابتلينا بما قال سعد، أ يجلد هلال و تبطل شهادته؟ فنزل الوحى و أمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحى قد نزل، فأنزل اللّه تعالى وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ الآيات، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

أبشر يا هلال، فإنّ اللّه تعالى قد جعل فرجا.

فقال: قد كنت أرجوا ذاك من اللّه تعالى.[۱۳]

و بنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة، و شرحها كما يأتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹

التّفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة!

يستنتج من سبب النّزول أنّ هـذه الآيات فى حكم الاستثناء الوارد على حـد القـذف، فلا يطبق حـدّ القذف (ثمانين جلدة) على زوج يتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، و تقبل شهادته لوحدها. و يمكن فى هذه الحالة أن يكون صادقا كما يمكن أن يكون كاذبا فى شهادته. و هنا يقدم القرآن المجيد حلا أمثل هو:

على الزوج أن يشـهد أربع مرات على صـدق ادعائه وَ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُـهَداءُ إِلَّا أَنْفُسُـهُمْ فَشَـهادَةُ أَحَـدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَ الْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ و بهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة «اشـهد باللّه إنى لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا» أربع مرات لإثبات ادعائه من جهة، و ليدفع عن نفسه حد القذف من جهة أخرى.

و يقول فى الخامسة: «لعنة اللّه علىّ إن كنت من الكاذبين».

و هنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإمّا أن تقر بالتهمة التى وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففى الحالة الأولى تثبت التهمة.

و فى الثّانية وَ يَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ وَ الْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ و بهذا الترتيب تشـهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس- أيضا- لتنفى التهمة عنها. بأن تكرر أربع شهادات «أشهد باللّه إنّه لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا» و فى الخامسة تقول «أن غضب اللّه علىّ إن كان من الصادقين».

و هذه الشهادات منهما هى ما يسمّى ب «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن فى الشهادة.

و ليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

و ثانيها: تحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أى لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معا بعقد جديد.

و ثالثها: سقوط حد القذف عن الرجل، و حد الزنا عن المرأة (و إذا رفض أحدهما تنفيذ هذه الشهادات يقام عليه حدّ القذف إن كان الرافض الرجل، و إن كانت المرأة يقام عليها حد الزنا.

و رابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، و تحفظ نسبته للمرأة فقط.

و لم ترد تفاصيل الحكم السابق فى الآيات المذكورة أعلاه، و إنّما جاء فى آخر الآية موضع البحث وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنّها تدل على أن اللعان فضل من اللّه، إذ يحل المشكلة التى يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

فمن جهة لا يجبر الرجل على التزام الصمت إزاء سوء تصرف زوجته و يمتنع من مراجعة الحاكم الشرعى.

و من جهة أخرى لا- تتعرض المرأة إلى حدّ الزنا الخاص بالمحصنة بمجرّد توجيه التهمة إليها، بل يمنحها الإسلام حق الدفاع عن نفسها.

و من جهة ثالثة لا يلزم الرجل البحث عن شهود أربعة إن واجه هذه المشكلة، لاثبات هذه التهمة النكراء و الكشف عن هذه الفضيحة المخزية.

و من جهة رابعة يفصل بين هذين الزوجين و لا يسمح لهما بالعودة إلى الحياة الزوجية بعقد جديد فى المستقبل أبدا، لتعذّر الاستمرار فى الحياة الزوجية إن كانت التهمة صادقة، كما أن المرأة تصاب بصدمة نفسية إن كانت التهمة كاذبة.

و تجعل الحياة المشتركة ثانية صعبة للغاية و لا تقتصر على حياة باردة و خاملة، بل ينتج عن هذه التهمة عداء مستفحل بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱

و من جهة خامسة توضح الآية مستقبل الوليد الذى يولد بعد توجيه هذه التهمة.

هذا كله فضل من اللّه و رحمة منّ بها على عباده. و حل هذه المشكلة بشكل عادل يعبّر عن لطف اللّه بعباده و رحمته لهم. و لو دققنا النظر فى الحكم لرأينا أنّه لا يتقاطع مع ضرورة وجود شهود أربعة فى هذه القضية. إذ أن تكرار كل من الرجل و المرأة شهادتهما أربع مرات يعوض عن ذلك.

ملاحظات

۱- لماذا استثنى الزوجان من حكم القذف؟

السّؤال الأوّل الذى يطرح نفسه هنا: ما هى خاصية الزوجين، ليصدر هذا الحكم المستثنى بحقّهما؟

و نجد جواب هذا السؤال من جهة فى سبب نزول الآية، و هو عدم تمكن الرجل من التزام الصمت إزاء مشاهدته لزوجته و هى تخونه مع رجل آخر.

كيف له أن يمتنع عن رد الفعل إزاء الاعتداء على شرفه؟ و إذا توجّه إلى القاضى و هو يصرخ و يستنجد، فقد يواجه حدّ القذف، لعدم تيقن القاضى من صدق دعواه. و إذا حاول إحضار أربعة شهود، فإن ذلك صعب عليه لمساسه بشرفه، و قد تنتهى الحادثة و لا يمكنه إحضار شهوده فى الوقت المناسب.

و من جهة أخرى، فإنّ الغرباء يتّهمون بعضهم بعضا بسهولة، و لكن الرجل و المرأة نادرا ما يتّهم أحدهما الآخر.

و لهذا السبب حكم الشارع فى هذه القضية بوجوب إحضار أربعة شهود فى غير الزوجين، و إلّا نفّذ حدّ القذف على الذى يوجه تهمة الزنا، و ليس الأمر كذلك بالنسبة للزوجين، و لهذا خصّهما الحكم المذكور لما فيهما من ميزات خاصّة فى هذه الحالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲

۲- كيفية اللعان

توصلنا بعد الإيضاحات التى ذكرناها خلال تفسير هذه الآيات، إلى وجوب تكرار الرجل شهادته أربع مرات ليثبت صحة دعواه فى اتهامه لزوجته بالزنا، و لينجو من حدّ القذف. و بهذا فإن هذه الشهادات الأربع من الزوج بمثابة أربعة شهود، و فى الخامسة يتقبل لعنة اللّه عليه إن كان كاذبا.

و مع الالتفات إلى أن تنفيذ هذه الأحكام يتم عادة فى محيط اسلامى ملتزم و بيئة متديّنة، و يرى الزوج نفسه مضطرا للوقوف بين يدى الحاكم الشرعى، ليدلى بشهادته أربع مرات بشكل حاسم لا يقبل الشك و الترديد، و فى الخامسة يطلب من اللّه أن يلعنه إن كان كاذبا، فهذا كله يمنع الرجل من التهوّر و توجيه اتهام باطل إلى زوجته.

أمّا المرأة التى تريد الدفاع عن نفسها و ترى نفسها بريئة من هذه التهمة، فعليها تكرار شهادتها أربع مرات و تشهد أن التهمة باطلة، لإيجاد موازنة بين شهادتى الرجل و المرأة، و بما أن التّهمة موجهة للمرأة، فإنّها تدافع عن نفسها بعبارة أقوى فى المرحلة الخامسة، حيث تدعو اللّه أن ينزل غضبه عليها إن كانت كاذبة.

و كما نعلم فإنّ «اللعنة» ابتعاد عن الرحمة.

و أمّا «الغضب» فإنّه أمر أشد من اللعنة، لأنّ الغضب يستلزم العقاب، فهو أكثر من الابتعاد عن الرحمة.

و لهذا قلنا فى تفسير سورة الحمد: إنّ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ هم أسوأ من الضَّالِّينَ على الرغم من أنّ الضالّين هم بالتأكيد بعيدون عن رحمة اللّه تعالى.

۳- العقاب المحذوف فى الآية:

جاءت الآية الأخيرة- ممّا نحن بصدده- جملة شرطية لم يذكر جزاءها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳

حيث تقول: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ لكنّها لم تذكر نتيجة ذلك. و بملاحظة القرائن فيها يتّضح لنا جواب الشرط. و الصمت إزاء مسألة ما يكشف عن أهميتها البالغة، و يثير فى مخيلة المرء تصورات عديدة لها. و كل تصور منها له مفهوم جديد. فهنا قد يكون جواب الشرط: لولا فضل اللّه و رحمته عليكم، لكشف عن أعمالكم و فضحكم.

أو: لولا فضل اللّه و رحمته عليكم، لعاقبكم فورا و أهلككم.

أو: لولا هذا الفضل، لما وضع اللّه سبحانه و تعالى مثل هذه الأحكام الدقيقة من أجل تربيتكم.

و فى الواقع فإن حذف جواب الشرط يثير فى فكر القارئ كل هذه الأمور[۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۱ الى ۱۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۱) لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ (۱۲) لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۳) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۴) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (۱۵) وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (۱۶)

سبب النّزول

اشارة

ذكر سببين لنزول الآيات السابقة:

أوّلهما: ما

روته عائشة زوجة الرّسول قالت: كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أراد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵

يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا فى غزوة[۱۵] غزاها فخرج سهمى فخرجت مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ما نزل الحجاب و أنا أحمل فى هودجى و أنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من غزوته تلك و قفل.

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلمّا قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فإذا عقد لى من جزع ظفار[۱۶]. قد انقطع فالتمست عقدى و حبسنى ابتغاؤه و أقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب، و هم يحسبون أنى فيه، و كانت النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلهن اللحم إنّما تأكل المرأة العلقة[۱۷] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه و كنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم و ليس بها داع و لا مجيب فيممت منزلى الذى كنت به فظننت أنّهم سيفقدونى فيرجعون إلىّ فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت.

و كان صفوان بن المعطل السلمى ثمّ الذكر إنّى من وراء الجيش فأدلج ۱۸] فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى فعرفنى حين رآنى و كان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى و اللّه ما كلمنى كلمة واحدة و لا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطّى على يديها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة فهلك فى من هلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶

و كان الذى تولى الإفك عبد اللّه بن أبىّ بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا و الناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك، و هو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اللطف الذى كنت

أری منه حین اشتکی إنّما علیّ فیسلم ثمّ یقول: کیف تیکم؟ ثمّ ینصرف فذاک الذی یریبنی و لا أشعر بالشر حتی خرجت بعد ما نقهت و خرجت معی أم مسطح قبل المناصع ۱۹] و هی متبرزنا و کنّا لا نخرج إلّا لیلا إلی لیل، و ذلک قبل أن نتخذ الکنف قریبا من بیوتنا و أمرنا أمر العرب الأوّل فی التبرّز قبل الغائط فکنّا نتأذی بالکنف أن نتخذها عند بیوتنا.

فانطلقت أنا و أم مسطح فأقبلت أنا و أم مسطح قبل بیتی قد أشرعنا[۲۰] من ثیابنا فعثرت أم مسطح فی مرطها[۲۱] فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أ تسبین رجلا شهد بدرا؟ قالت: إی هنتاه ۲۲] أو لم تسمعی ما قال؟ قلت: و ما قال:

فأخبرتنی بقول أهل الإفک فازددت مرضا علی مرضی.

فلما رجعت إلی بیتی دخل علیّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فسلم ثمّ قال: کیف تیکم؟

فقلت: أ تأذن لی أن آتی أبوی؟- قالت: و أنا حینئذ أرید أن أستیقن الخبر من قبلهما- قالت: فأذن لی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فجئت لأبوی فقلت لأمی: یا أمتاه ما یتحدث الناس؟ قالت یا بنیة هونی علیک فو اللّه لقلما کانت امرأة قط وضیئة عند رجل یحبّها و لها ضرائر إلّا أکثرن علیها فقلت: سبحان اللّه و لقد تحدث الناس بهذا؟ فبکیت تلک اللیلة حتی أصبحت لا یرقا لی دمع و لا أکتحل بنوم ثمّ أصبحت أبکی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷

و دعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی بن أبی طالب و أسامة بن زید حین استلبث الوحی یستأمرهما فی فراق أهله، فأمّا اسامة فأشار علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالذی یعلم من براءة أهله و بالذی یعلم لهم فی نفسه من الودّ فقال: یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أهلک و لا نعلم إلّا خیرا، و أمّا علی بن أبی طالب فقال: یا رسول اللّه لم یضیّق اللّه علیک، و النساء سواها کثیرة و إن تسأل الجاریة تصدقک، فدعا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بریرة فقال: أی بریرة هل رأیت شیئا یریبک؟ قال بریرة: لا و الذی بعثک بالحق إن رأیت علیها أمرا أغمضه أکثر من أنّها جاریة حدیثة السن تنام عن عجین أهلها فیأتی الداجن فیأکله.

فقام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاستعذر یومئذ من عبد اللّه بن أبی فقال و هو علی المنبر:

یا معشر المسلمین من یعذرنی من رجل بلغنی أذاه فی أهل بیتی فو اللّه ما علمت علی أهلی إلّا خیرا، و لقد ذکروا رجلا ما علمت علیه إلّا خیرا و ما کان یدخل علی أهلی إلّا معی.

فقام سعد بن معاذ الأنصاری فقال: یا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنا أعذرک منه إن کان من الأوس ضربت عنقه و إن کان من إخواننا من بنی الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک، فقام سعد بن عبادة و هو سید الخزرج و کان قبل ذلک رجلا صالحا و لکن احتملته الحمیّة ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة: کذبت لعمر اللّه ما تقتله و لا تقدر علی قتله، فقام أسید بن خضیر و هو ابن عم سعد بن عبادة، قال: کذبت لنقتلنه فإنّک منافق تجادل عن المنافقین، فتثاورا الحیّان: الأوس و الخزرج حتی همّوا أن یقتتلوا و رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قائم علی المنبر فلم یزل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخفضهم حتی سکنوا و سکت.

فبکیت یومی ذلک فلا یرقا لی دمع و لا أکتحل بنوم فأصبح أبوای عندی و قد بکیت لیلتین و یوما لا أکتحل بنوم و لا یرقا لی دمع و أبوای یظنان أن البکاء فالق کبدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸

فبینما هما جالسان عندی و أنا أبکی فاستأذنت علیّ امرأة من الأبصار فأذنت لها فجلست تبکی معی فبینما نحن علی ذلک دخل علینا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ثمّ جلس و لم یجلس عندی منذ قیل فیّ ما قیل قبلها و قد لبث شهرا لا یوحی إلیه فی شأنی بشیء، فتشهد حین جلس ثمّ قال: أمّا بعد یا عائشة إنّه بلغنی عنک کذا و کذا فإن کنت بریئة فسیبرؤک اللّه، و إن کنت ألممت بذنب

فاستغفری اللّه و توبی إلیه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب تاب اللّه علیه.

فلمّا قضی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مقالته قلص ۲۳] دمعی حتی ما أحس منه قطرة، فقلت لأبی: أجب عنّی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. قال: و اللّه ما أدری ما أقول لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فقلت لامی: أجیبی عنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، قالت: و اللّه ما أدری ما أقول لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

فقلت و أنا جاریة حدیثة السن لا أقرأ کثیرا من القرآن: إنّی و اللّه لقد علمت أنّکم سمعتم هذا الحدیث حتی استقر فی أنفسکم و صدّقتم به فلئن قلت لکم: إنّی بریئة و اللّه یعلم أنی بریئة لا تصدّقونی، و لئن اعترفت لکم بأمر و اللّه یعلم أنّی منه بریئة لتصدّقنّی، و اللّه لا أجد لی و لکم مثلا إلّا قول أبی یوسف: فصبر جمیل و اللّه المستعان علی ما تصفون.

ثمّ تحوّلت فاضطجعت علی فراشی و أنا حینئذ أعلم أنی بریئة و أن اللّه مبرّئی ببراءتی و لکن و اللّه ما کنت أظن أن اللّه منزل فی شأنی وحیا یتلی، و لشأنی فی نفسی کان أحقر من أن یتکلم اللّه فی بأمر یتلی، و لکن کنت أرجو أن یری رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رؤیا یبرّئنی اللّه بها.

قالت: فو اللّه ما رام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مجلسه و لا خرج أحد من أهل البیت حتی أنزل علیه فأخذه ما کان یأخذه من البرحاء عند الوحی حتی أنه لیتحدّر منه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۹

مثل الجمان من العرق و هو فی یوم شات من ثقل القول الذی أنزل علیه فلمّا سری عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سری عنه و هو یضحک فکان أوّل کلمة تکلم بها أن قال: أبشری یا عائشة أمّا اللّه فقد برّأک، فقالت أمی: قومی إلیه، فقلت: و اللّه لا أقوم الیه و لا أحمد إلّا اللّه الذی أنزل براءتی، و أنزل اللّه: «إن الذین جاؤا بالإفک عصبة منکم» العشر الآیات کلها.

فلما أنزل اللّه هذا فی براءتی قال أبو بکر، و کان ینفق علی مسطح بن أثاثة لقرابته منه و فقره: و اللّه لا أنفق علی مسطح شیئا أبدا بعد الذی قال لعائشة ما قال فأنزل اللّه: «و لا یأتل أولو الفضل منکم و السعة أن یؤتوا أولی القربی و المساکین- إلی قوله- رحیم» قال أبو بکر: و اللّه إنّی أحبّ أن یغفر اللّه لی فرجع إلی مسطح النفقة التی کان ینفق علیه، و قال: و اللّه لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة: فکان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یسأل زینب ابنة جحش عن أمری فقال:

یا زینب ماذا علمت أو رأیت؟ فقالت: یا رسول اللّه أحمی سمعی و بصری ما علمت إلّا خیرا، قالت: و هی التی کانت تسامینی من أزواج النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فعصمها اللّه بالورع، و طفقت أختها حمنة تحارب لها فهلکت فیمن هلک من أصحاب الإفک.[۲۴] إمام باقر علیه السّلام یقول: لما هلک إبراهیم بن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حزن علیه حزنا شدیدا فقالت عائشة: ما الذی یحزنک علیه؟ ما هو إلّا ابن جریح، فبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علیا علیه السّلام و أمره بقتله.

فذهب علی علیه السّلام و معه السیف و کان جریح القبطی فی حائط فضرب علی علیه السّلام باب البستان فأقبل جریح له لیفتح الباب فلما رأی علیّا علیه السّلام عرف فی وجهه الغضب فأدبر راجعا و لم یفتح باب البستان فوثب علی علیه السّلام علی الحائط و نزل إلی البستان و اتبعه و ولی جریح مدبرا فلما خشی أن یرهقه ۲۵] صعد فی نخلة و صعد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰

علی علیه السّلام فی أثره فلما دنا منه رمی بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا لیس له ما للرجال و لا له ما للنساء.

فانصرف علی علیه السّلام إلی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال له: یا رسول اللّه إذا بعثتنی فی الأمر أکون کالسمار المحمیّ فی الوبر أم أثبت؟ قال: لا بل تثبت. قال: و الذی بعثک بالحق ما له ما للرجال و ما له ما للنساء، فقال: الحمد اللّه الذی صرف عنّا السوء

أهل البيت.[۲۶]

تحقيق المسألة:

على رغم ممّا ذكرته معظم المصادر الإسلامية لهذين السببين فإن هناك أمورا غامضة فى السبب الأوّل تثير النقاش، منها:

۱- يستفاد من تعابير هذا الحديث- رغم تناقضاته- أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وقع تحت تأثير الشائعة، و أدى ذلك إلى مشاورته أصحابه و تغيير سلوكه مع عائشة حتى ابتعد عنها لمدّة طويلة.

و هذا الموضوع لا ينسجم مع عصمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و حسب، بل كل مسلم ثابت الإيمان لا ينبغى أن يقع تحت تأثير الشائعات دون مبرر، و إذا تأثّر بالشائعة فعليه ألا يغيّر سلوكه عمليا، و لا يستسلم للشائعة و أثرها فكيف بالمعصوم.

فهل يمكن التصديق أنّ العتاب الشديد الذى ذكرته الآيات التالية و تساءلت:

لماذا وقع بعض المؤمنين تحت تأثير هذه الشائعة، و لماذا لم يطلبوا شهودا أربعة، يشمل النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟ هذه تساؤلات تدفعنا فى أقل تقدير إلى الشك فى صحة سبب النّزول الأول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱

۲- رغم أن ظاهر الآيات يدلّ على أن حكم القذف (الاتهام بعمل مخل بالشرف و العفة) نزل قبل حديث الإفك، فلما ذا لم يستدع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عبد اللّه بن أبى سلول و عددا آخر ممّن نشروا هذه الشائعة ليجرى الحد الذى فرضه اللّه؟ (الّا أن يقال بأن آيات القذف و الافك نزلت سوية، و أن حكم القذف قد شرح حينذاك لتناسبه مع الموضوع، ففى هذه الصورة ينتفى هذا الإشكال و لكن يبقى الأوّل على قوّته).

أمّا بالنسبة لسبب النّزول الثّانى، فإنّ ما يثير فيه النقاش هو عدّة أمور، منها:

۱- إن الذى وجه التهمة- وفقا لسبب النّزول هذا- هو شخص واحد لا غير، فى الوقت الذى ذكرت الآيات فيه أنّهم مجموعة، و قد روّجوا لها لدرجة شيوعها تقريبا فى المدينة كلها. لهذا استخدمت الآيات ضمير جمع للمؤمنين الذى عاتبتهم بشدّة، و الذين تورّطوا فى تصديق و ترويج هذه الشائعة، و هذا لا ينسجم أبدا مع سبب النّزول الثّانى.

۲- يبقى سؤال هو: إذا كانت عائشة ارتكبت هذا الإثم (القذف) ثمّ ثبت خلاقة، فلما ذا لم ينفّذ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حدّ القذف بحقها؟

۳- كيف يمكن للنبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يصدر حكم القتل بحق شخص بشهادة امرأة واحدة؟ مع أنّ التنافس بين زوجات رجل واحدا أمرا اعتياديّا، و الانحراف عن الحق و العدل أو ارتكاب إحداهن لخطأ على الأقل ممكن.

و ليس مهما ما يكون سبب النّزول، بل المهم أن نعلم من مجموع الآيات هو أنه قد اتهم شخص برىء بعمل مخلّ بالعفة و الشرف حين نزول هذه الآيات، و أن الشائعات كانت منتشرة فى المدينة، كما يفهم من الدلائل الموجودة فى هذه الآية، أن هذه التهمة كانت موجهة لشخص له أهمية خاصّة فى المجتمع آنذاك. و أن مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الإخلال بالمجتمع الإسلامى بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، و تصدّت لهذه الحادثة بقوة، و دفعت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲

المنحرفين و المنافقين الحاقدين إلى جحورهم.

و مهما يكن سبب نزول هذه الأحكام، فإنها لا تخص سبب النّزول وحده، و لا تنصرف لزمانه و مكانه فقط، بل هى أحكام نافذة فى كلّ بيئة و زمان.

بعد هذا الحديث نشرع فى تفسير هذه الآيات لنرى كيف يتابع القرآن بفصاحته و بلاغته هذه الحادثة الخاصّة، و كيف يبحث تفاصيلها بدقة.

التّفسير

حديث الافك المثير:

تقول أوّل آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة إِنَّ الَّذِينَ جاؤُ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لأن من علائم الفصاحة و البلاغة، حذف الجمل الزائدة، و الاكتفاء بما تدلّ عليه الكلمات من معان شاملة.

كلمة «الإفك» على وزن «فكر» كما يقول الراغب الأصفهانى: يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذى يحق له أن يكون عليه، و منه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة» ثمّ أطلقت على كل كلام منحرف عن الحق و مجانب للصواب، و من ذلك يطلق على الكذب «أفك».

و يرى «الطبرسى» فى مجمع البيان أن الإفك لا يطلق على كل كذبة بل الكذبة الكبيرة التى تبدل الموضوع عن حالته الأصلية، و على هذا يستفاد أن كلمة «الإفك» بنفسها تبيّن أهمية هذه الحادثة و كذب التهمة المطروحة.

و أمّا كلمة «العصبة» فعلى وزن «فعلة» مشتقّة من العصب، و جمعها أعصاب، و هى التى تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، و على شكل شبكة منتشرة فى الجسم، ثمّ أطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة و ذات عقيدة واحدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳

و استخدام هذه الكلمة يكشف عن الارتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين فى ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكلون شبكة قوية منسجمة و مستعدة لتنفيذ المؤامرات.

و قال البعض: إن هذه المفردة تستعمل فى عشرة إلى أربعين شخصا[۲۷].

و على كل حال فإن القرآن طمأن و هدّأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمة إلى شخصية متطهرة لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لأنّه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء، و فضح أمر هؤلاء المرائين، و سوّد وجوههم إلى الأبد.

و لو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، و لكانوا أكثر خطرا على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمين أن اتّباع الذين يروّجون الشائعات يجرّهم إلى الشقاء، و أنّ عليهم أن يقفوا بقوّة امام هذا العمل. كما علّم هذا الحادث المسلمين درسا آخر، و هو أنّ لا ـ ينظروا إلى ظاهر الحادث المؤلم، بل عليهم أن يتبحّروا فيه، فقد يكون فيه خيرا كثيرا رغم سوء ظاهره.

و ممّا يلفت النظر أنّ ذكر ضمير «لكم» يعمّ جميع المؤمنين فى هذا الحادث، و هذا حقّ، لأن شرف المؤمنين و كيانهم الاجتماعى لا ينفصل بعضه عن بعض، فهم شركاء فى السرّاء و الضرّاء.

ثمّ تعقّب هذه الآية بذكر مسألتين:

أوّلاهما: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ إشارة إلى أنّ المسؤولية الكبرى التى تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، و لهذا يتحمل كلّ شخص مسئوليته إزاء أية مؤامرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴

و المسألة الثّانية: وَ الَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ قال بعض المفسّرين: إن الشخص المقصود هو «عبد اللّه بن أبى سلول» قائد أصحاب الإفك.

و قال آخرون: إنّه مسطح بن أثاثة. و حسان بن ثابت كمصاديق لهذا الخطاب.

و على كل حال، فإنّ الذى نشط فى هذا الحادث أكثر من الآخرين، و أضرم نار الإفك، هو قائد هذه المجموعة الذى سيعاقب عقابا عظيما لكبر ذنبه. (و يحتمل أن كلمة «تولى» يقصد بها رأس مروجى حديث الإفك).

ثمّ توجّهت الآية التالية: إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلا متهم بشدّة لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً.

أى: لماذا لم تقفوا فى وجه المنافقين بقوّة، بل استمعتم إلى أقوالهم الّتى مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. و لماذا لم تدفعوا هذه التهمة و تقولوا بأن هذا الكلام كذب و افتراء: وَ قالُوا هذا إِفْكٌ مُبِينٌ

أنّكم كنتم تعرفون جيدا الماضى القبيح لهذه المجموعة من المنافقين، و تعرفون جيدا طهارة الذى اتّهم، و كنتم مطمئنين من عدم صدق هذه التهمة وفق الدلائل المتوفرة لديكم.

و كنتم تعلمون أيضا بما يحاك من مؤامرات ضدّ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الأعداء و المنافقين، لذا فإنّكم تستحقون اللوم و التأنيب لمجرد هذه الشائعات الكاذبة، و لالتزامكم الصمت إزاءها، فكيف بكم و قد اشتركتم فى نشر هذه الشائعة بوعى أو دون وعى منكم؟

و ممّا يلفت النظر أن الآية السابقة بدلا من أن تقول: عليكم أن تحسنوا الظن بالمتهم و تصدقوا تهمته، فإنها تقول ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً و هذه العبارة- كما قلنا- إشارة إلى أنّ أنفس المؤمنين كنفس واحدة، فإذا اتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵

أحدهم، فكأن التهمة موجهة لجميعهم، و مثالهم فى ذلك كمن اشتكى عضو منه فهبت بقية الأعضاء لنجدته.

و هكذا يجب أن يهب المسلم للدفاع عن إخوته و أخواته فى الدين مثلما يدافع عن نفسه ۲۸].

و قد استعملت كلمة «الأنفس» فى آيات أخرى من القرآن فى هذا المعنى أيضا- فى مثل هذه الحالات- كما هو فى الآية (۱۱) من سورة الحجرات وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ أمّا الاستناد إلى الرجال و النساء المؤمنين فيشير إلى قدرة الإيمان على ردع سوء الظن بالآخرين.

و حتى هذه اللحظة كانت الملامة ذات طابع أخلاقى و معنوى، و تقضى بعدم التزام المؤمنين جانب الصمت إزاء مثل هذه التهم القبيحة، أو أن يكونوا وسيلة بيد مروّجى الشائعات.

ثمّ تهتم الآيات بالجانب القضائى للمسألة فتقول: لَوْ لا جاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ أى لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَداءِ فَأُولئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكاذِبُونَ

إنّ هذه الملامة تبيّن أن الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، و كذلك حد القذف فى حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التى تناولت حديث الإفك.

و أمّا الجواب عن سؤال: كيف لم يقدم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على تنفيذ هذا الحدّ؟ فإنّه واضح، لأنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يقدم على شىء ما لم يسند من قبل الناس، فالتعصب القبلى قد يؤدى إلى مقاومة سلبية لبعض أحكام اللّه و لو بصورة مؤقتة، و قد ذكر المؤرخون أنّ الأمر كان هكذا فى هذه القضية.

و أخيرا جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶

وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيما أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذابٌ عَظِيمٌ

و نظرا لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، و استعملت فى حالات أخرى للتوغل فى الماء، نتج من هذه العبارة أنّ شائعة الاتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافا إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

و تبيّن الآية التالية- فى الحقيقة- البحث السابق. و هو كيف ابتلى المؤمنين بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم؟ فتقول إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ أى تذكّروا كيف رحبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ

و تشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة فى هذا المجال:

الأوّل: تقبّل الشائعة: استقبالها و تناقلها.

الثّانى: نشر الشائعة دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثّالث: استصغار الشائعة و اعتبارها وسيلة للّهو و قضاء الوقت، فى وقت تمس فيه كيان المجتمع الإسلامى و شرفه، إضافة إلى مساسها بشرف بعض المسلمين.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية استعملت تعبير «بألسنتكم» تارة أخرى تعبير «بأفواهكم» على الرغم من أنّ جميع الكلام يصدر عن طريق الفم و اللسان، إشارة إلى أنّكم لم تطلبوا الدليل على الكلام الذى تقبلتموه، و لا تملكون دليلا يسوّغ لكم نشره، و الأمر الوحيد الذى كان بأيديكم هو لقلقة لسانكم و حركات أفواهكم.

و نظرا لهول هذه الحادثة التى استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فأنّبتهم مرّة أخرى و لذعتهم بعباراتها إذ قالت وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷

و سبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الاتهام باطلا و هنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، و لا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم و قد كنتم سببا لنشرها! عليكم أن تعجبوا لهذه التهمة الكبيرة، و أن تذكروا اللّه سبحانه و تعالى، و أن تلجأوا إلى اللّه يطهركم من نشر هذه التهمة و إشاعتها. و مع كل الأسف استصغرتموها و نشرتموها بكل يسر، فأصبحتم بذلك آلة بيد المنافقين المتآمرين المروجين للشائعات.

هذا و سنتناول بالبحث- خلال تفسير الآيات القادمة- ذنب اختلاق الشائعة و دوافعها، و السبيل إلى مكافحتها، بعون اللّه و توفيقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷) وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۸) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۱۹) وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (۲۰)

التّفسير

حرمة إشاعة الفحشاء:

تحدثت هذه الآيات أيضا عن حديث الإفك، و النتائج المشؤومة و الأليمة لاختلاق الشائعات و نشرها، و اتهام الأشخاص الطاهرين بتهمة تمس شرفهم و عفتهم. و هذه القضية مهمه بدرجة أن القرآن المجيد تناولها عدّة مرات، و عرض لها من طرق مختلفة مؤثرة، باحثا محللا لها من أجل ألّا تتكرر مثل هذه الواقعة الأليمة فى المجتمع الإسلامى، فذكر أولا يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ ۲۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۹

أى أن من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، و إذا ارتكبها فذلك يدلّ على عدم إيمانه أو ضعفه، و الجملة المذكورة تشكل- فى الحقيقة- أحد أركان التوبة، إذ أنّ الندم على الماضى لا يكفى، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب فى المستقبل، لتكون توبة كاملة.

و لتأكيد أكثر على أنّ هذا الكلام ليس اعتياديا، بل صادر عن اللّه العليم الحكيم، و لبيان الحقائق ذات الأثر الفعّال فى مصير الإنسان، يقول سبحانه و تعالى وَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

فهو يعلم تفاصيل أعمالكم تمام العلم، و يصدر أحكامه بمقتضى حكمته الهادية لكم. و بتعبير آخر: إنه يعلم حاجاتكم و ما يضرّكم و ما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، و يصدر أحكامه و أوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

و لتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم لم يقل «الذين يشيعون الفاحشة، بل قال:

الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ و هذا يحكى عن الأهمية القصوى التى يدليها القرآن لذلك. و بعبارة أخرى: أنّه لا ينبغى توهم أن ذلك كان من أجل زوجة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو شخص آخر بمنزلتها، بل من أجل كلّ مؤمن و مؤمنة، فلا خصوصية فى ذلك، إنّما هى عامّة للجميع على الرغم من أن كل حالة لها خصائصها، و قد تزيد الواحدة على الأخرى فى الخصائص أو تنقص.

كما يجب الانتباه إلى أن إشاعة الفحشاء لا تنحصر فى ترويج تهمة كاذبة ضد مسلم مؤمن، يتهم بعمل مخل بالشرف، بل هذه مصداق من مصاديقها و لهذا التعبير مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء و المنكر.

و قد وردت فى القرآن المجيد كلمة «الفحشاء» غالبا للدلالة على العمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۰

المخل بالعفّة و الشرف. و لكن من الناحية اللغوية، فقد ذكر الراغب الإصفهانى مفهوما واسعا لها فقال: الفحش و الفحشاء و الفاحشة، ما عظم قبحه من الأفعال و الأقوال.

و يستعمل القرآن أحيانا هذا المفهوم الواسع، حيث يقول وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ [۳۰] و بهذا يتّضح المفهوم الواسع للآية:

أمّا قول القرآن الكريم: لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا فقد يكون إشارة إلى الحدود و التعزيرات الشرعية. و ردود الفعل الاجتماعية، و ما يبتلى به الناس فى هذه الدنيا من مظاهر مشؤومة بسبب أعمالهم القبيحة، إضافة إلى عدم تقبل أية شهادة منهم، و إدانتهم بالفسق و الفجور و افتضاح أمرهم. كل ذلك من النتائج الدنيوية التى تترتب على أقوالهم و أعمالهم القبيحة.

و أمّا عذابهم الأليم فى الآخرة، فيكون فى ابتعادهم عن رحمة اللّه، و استحقاقهم غضب اللّه و عذاب النار.

و تختم الآية بالقول وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ أجل، و إن اللّه يعلم بالعاقبة المشؤومة التى تنتظر الذى يشيعون الفحشاء فى الدنيا و الآخرة، و لكنّكم لا تعلمون أبعاد هذه القضية.

إنّه يعلم الذين يبيتون فى قلوبهم حب هذا الذنب، و يعلم الذين يمارسونه تحت واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك و لا تدركونه.

أجل، يعلم اللّه كيف ينزل أحكامه ليحول دون ارتكاب هذه الأعمال القبيحة.

و كررت الآية الأخيرة- ممّا نحن بصدده من الآيات التى تناولت حديث الافك و مكافحة إشاعة الفحشاء، و قذف المؤمنين المتطهرين- هذه الحقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۱

لتؤكّد القول وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ وَ أَنَّ اللَّهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ [۳۱]

بحوث

۱- ما معنى إشاعة الفحشاء؟

بما أن الإنسان مخلوق اجتماعى، فالمجتمع البشرى الذى يعيش فيه له حرمة يجب أن لا تقلّ عن حرمته الشخصيّة، و طهارة كلّ منهما تساعد فى طهارة الآخر، و قبح كلّ منهما يسرى إلى صاحبه. و بموجب هذا المبدأ كافح الإسلام بشدّة كلّ عمل ينشر السموم فى المجتمع، أو يدفعه نحو الهاوية و الانحطاط.

و لهذا السبب حارب الإسلام- بقوة- الغيبة و النميمة، لأن الغيبة تكشف العيوب الخفية، و تسىء إلى حرمة المجتمع.

أوجب الإسلام ستر العيوب و السبب فى ذلك هو ما تقدم من الحيلولة دون انتشار الذنوب فى المجتمع، و اكتسابها طابع العمومية و الشمول.

و عند ما نرى اختصاص الذنب العلنى بأهمية أكثر من الذنب الذى يرتكب فى الخفاء، حتى

أن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «المذيع بالسيئة مخذول و المستتر بالسيئة مغفور له»[۳۲].

فالسبب هو ما ذكرنا.

و هكذا لنفس السبب يدين القرآن- بشدّة- ارتكاب الذنوب فى العلن، كإشاعة الفحشاء التى ذكرتها الآيات السابقة فارتكاب الذنوب كالنار التى تسرى فى الهشيم، تأتى على المجتمع من أساسه فتنخره حتى تهدمه و تذروه، لهذا يجب الإسراع لإطفاء هذه النار، أو لمحاصرتها على الأقل. أمّا إذا زدنا النار لهيبا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۲

و نقلناها من مكان إلى آخر، فإنّها ستحرق الجميع، و لا يمكن بعدئذ إطفاؤها أو السيطرة عليها.

و إضافة إلى ذلك، فإنّه لو عظم الذنب فى نظر عامّة الناس، و تمّت المحافظة على سلامة ظاهر المجتمع من التلوث و الفساد، فإن ذلك يمنع انتشار الفاحشة بصورة مؤكدة. أمّا اشاعة الفحشاء و الذنوب و التجاهر بالفسق، فمن نشأنها أن تحطم هذا السد الحاجز للفساد. و يستصغر شأن الذنوب من قبل الناس، و يسهل التورط فيها.

و

قد جاء فى حديث للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها»[۳۳].

و

جاء فى حديث آخر عن محمد بن الفضيل الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام قال: قلت له: جعلت فداك الرجل من إخوانى بلغنى عنه الشىء الذى أكرهه فاسأله عنه فينكر ذلك و قد أخبرنى عنه قوم ثقات؟ فقال الإمام عليه السّلام لى: «يا محمّد كذب سمعك و بصرك عن أخيك، و إن شهد عندك خمسون قسامة. و قال لك قول فصدقه و كذبهم، و لا تذيعن عليه شيئا تشينه به و تهدم به

مروءته، فتكون من الذين قال اللّه عزّ و جلّ: إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ[۳۴][۳۵].

و ممّا يلزم ذكره أنّ لإشاعة الفحشاء صورا عديدة فتارة يكون من قبيل افتعال تهمة كاذبة و نقلها بين الناس.

و اخرى يكون بإنشاء مراكز للفساد و نشر الفحشاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۳

و ثالثة بتوفير وسائل المعصية للناس، أو تشجيعهم على ارتكاب الذنوب.

و رابعة يرتكب الذنب فى العلن دون ملاحظة الدين، و لا رعاية لقانون و لا التفات لآداب عامّة، و كل هذه مصاديق لإشاعة الفحشاء، لأنّ لهذه الكلمة مفهوما واسعا (فتأملوا جيدا).

۲- مصيبة الشائعات

إن اختلاق و نشر الشائعة الكاذبة يودّى إلى سيطرة القلق و استبداد الاضطراب و انعدام الثقة، و هذه من أهمّ ما ترمى إليه الحرب النفسيّة للمستعمرين بغية إثارة البلبلة و نشر الفزع، ليتسنى لهم التّغلّب العسكرىّ و السياسىّ.

فعند ما يعجز العدو عن إلحاق الضرر بصورة مباشرة، يقوم بنشر الشائعات، لبث الرعب و القلق فى الناس، ليشغلهم بأنفسهم، و ليحرفهم عن أهم قضاياهم حساسية، و ليتسنّى له الظهور عليهم و التمكّن منهم فى كل مجال. و اختلاق الشائعة من الأسلحة المخربة المستعملة ضدّ الصالحين و الطيبين، لعزلهم و إقصاء الناس عنهم.

و بحسب أسباب النّزول المعروفة بشأن الآيات موضع البحث لجأ المنافقون إلى أخسّ السبل لتلويث سمعة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الحط من شأنه المقدّس لدى الناس، باختلاق شائعة تمسّ طهارة و عفة إحدى زوجاته مستغلين فى ذلك فرصة سنحت لهم، ممّا أدى إلى تشويش أفكار المسلمين، و إدخال الحزن إلى قلوبهم، بحيث اضطرب الجميع. و أصاب المؤمنين القلق الشديد حتى نزل الوحى و أنقذهم من هذه الحالة، و مرّغ أنوف المنافقين فى الوحل بما اختلقوا هذه الشائعة.

و جعلهم عبرة للآخرين.

و رغم أن اختلاق الشائعة يعد نوعا من الكفاح فى المجتمعات التى تسودها الدكتاتورية و يفتقد الناس فيها الحرية إلّا أن من أسبابها و دوافعها الانتقام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۴

و تصفية الحساب مع أشخاص معنيين، و إزالة الثقة العامّة بالشخصيات الكبيرة.

و حرف الرأى العام عن القضايا الجوهرية.

و لا يهمنا أن نعلم دوافع اختلاق الشائعات، إنّما المهم تحذير المجتمع من مغبة الوقوع فى برائن الذين يختلقون الشائعات و ينشرونها بين الناس، و بذلك يدمرون المجتمع و أنفسهم بأيديهم! و أن نعلّم الناس بأن يدفنوا الشائعة فى مهدها، و إلّا فقد أدخلنا السرور إلى قلب العدو، و عرضنا أنفسنا إلى عذاب الدنيا و الآخرة كما نصت عليه الآيات السابقة.

۳- استصغار الذنب

يستفاد من الآيات السابقة أنها استنكرت استصغار نشر البهتان و التهمة، و هو خطأ فادح و جرم عظيم و فى الحقيقة إن استصغار الذنب

بذاته ذنب آخر. فالذى يرتكب الذنب و يشعر بعظمة ذنبه، و يندم على ما فعل هو الذى يؤمل فيه التوبة و الجبران.

أمّا الـذى يستصـغر الذنب و يقول: ما أسـعدنى إن كان ذنبى هذا فقط فهذا الشـخص يسـير فى طريق خطر و قد يواصل ارتكاب ذنبه، لهذا نقرأ

فى حديث للإمام على عليه السّلام قوله: «أشد الذنوب ما استهان به صاحبه»[۳۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۵

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۱ الى ۲۶]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۲۱) وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۲) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۲۳) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (۲۵)

الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۲۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۵۶

التّفسير

للعقوبات حساب!

على الرغم من عـدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصـراحة، إلّا إنّها تعتبر مكملة لمضـمون ذلك البحث، و تحذّر المؤمنين جميعا من تأثير الأفكار الشـيطانية التى تبدو أوّلا فى صورة باهتة، فلا بدّ من الانتباه إليها، و إلّا فالنتيجة سـيئة للغاية، و لا يمكن تلافيها بسهولة فعلى هذا حينما يشـعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعة الفحشاء أو ارتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوّة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره و توسعه.

و تخـاطب الآيـة الأولى المؤمنين، فتقول يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ[۳۷].

و إذا فسّـرنا الشيطان بأنه كل مخلوق مؤذ و فاسد و مخرّب، يتّضح لنا شمولية هذا التحذير لأبعاد حياتنا كلها، و حيث لا يمكن جرّ أى إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد أخرى فى طريق الفساد:

الخطوة الأولى: مرافقة الملوثين و المنحرفين.

الخطوة الثّانية: المشاركة فى مجالسهم.

الخطوة الثّالثة: التفكير بارتكاب الذنوب.

الخطوة الرّابعة: ارتكاب الأعمال المشتبه بها.

الخطوة الخامسة: ارتكاب الذنوب الصغيرة.

و أخيرا الابتلاء بالكبائر. و كأنّ الإنسان فى هذه المرحلة يسلّم نفسه لمجرم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۷

ليقوده نحو الهاوية، أجل هذه خُطُواتِ الشَّيْطانِ ۳۸].

ثمّ تشير الآية إلى أهم النعم الكبيرة التى منّ اللّه بها على الإنسان فى هدايته فتقول: وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ ما زَكى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَ لكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

و لا شك فى أنّ الفضل و الرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الانحطاط و الانحراف من الذنوب جميعا، فاللّه منحه العقل، و لطف به فأرسل إليه الرّسل، و يسّر له سبل الارتقاء و الاهتداء، و أعانه على استكمال الخير. و إضافة إلى هذه المواهب شمل اللّه الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، و إمداداته التى يستحقونها، و التى تعتبر أهم عنصر فى تطهير و تزكية النفس.

و كما أسلفنا. مرارا، فإنّ عبارة «من يشاء» لا تعنى المشيئة دون مبرّر، بل إنّ اللّه يهدى عباده الذين يسعون فى نيلها، الذين يسيرون فى الطريق إلى اللّه، و يجاهدون فى سبيله، فيمسك اللّه بيدهم و يحفظهم من وساوس الشيطان و كيده حتى يبلغهم الهدف الأسمى.

و بعبارة أخرى: إنّ الفضل و الرحمة الإلهية تارة يكون لهما جانب تشريعى عن طريق الرسل عليهم السّلام و الكتب السماوية و ما فيها من تعاليم إلهية و بشارات و إنذارات سماوية. و أخرى يتخذ الفضل و الرحمة الإلهية جانبا تكوينيا عن طريق الإمدادات المعنوية الإلهية.

و الآيات موضع البحث استهدفت القسم الثّانى، بدليل عبارة «من يشاء»، و يجب الانتباه إلى أن «الزكاة» و «التزكية» تعنى فى الأصل النمو، و العمل من أجل النمو، إلّا أنها وردت غالبا بمعنى التطهّر و التطهير.

و يمكن إرجاعها إلى أصل واحد، إذ أنّ النمو و الرشد لا يمكن أن يتحققا إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۸

بزوال الحواجز و التطهير من المفاسد و الرذائل.

و ذكر عدد من المفسّرين سببا لنزول الآية الثّانية- من الآيات موضع البحث- يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: إنّ هذه الآية نزلت بشأن عدد من الصحابة أقسموا على عدم تقديم مساعدة مالية إلى الذين تورّطوا فى هذه القضية و أشاعوا هذه التهمة بين الناس، و ألا يشاركوهم همومهم، فنزلت هذه الآية لتمنعهم من ردّ فعل قاس، و أمرتهم بالعفو و السماح.

و قد روى سبب النّزول هذا «القرطبى» فى شأن نزول هذه الآيات فى تفسيره عن ابن عباس و الضحاك، و رواه المرحوم «الطبرسى» عن ابن عبّاس، و رواه آخرون لدى تفسير الآيات موضع البحث، و هو يمتاز بعموميته.

إلّا أن مجموعة من مفسّرى أهل السنة يصرّون على أن هذه الآية نزلت بخصوص «أبى بكر» حيث أقسم بعد حادث الإفك على عدم تقديم أية مساعدة مالية ل- «مسطح بن أثاثة» الذى كان ابن خالته، أو ابن أخته، و هو الذين نشر شائعة الإفك، فى حين أنّ الضمائر التى استعملتها الآية، جاءت بصيغة الجمع، و تبيّن أنّ مجموعة من المسلمين اتخذوا قرارا بقطع مساعداتهم عن هؤلاء المجرمين، إلّا أنّ هذه الآية نهتهم عن العمل.

و من المعلوم أنّ الآيات القرآنية لا تختص بسبب النّزول فقط، بل تشمل جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، فهى توصى المسلمين جميعا بألّا يستسلموا لعواطفهم، و ألّا يتخذوا مواقف عنيفة إزاء أخطاء الآخرين.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النّزول هذا:

يقول القرآن وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِى الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عددا ممن تورّط فى قضية الإفك كانوا من المهاجرين فى سبيل اللّه إذ خدعهم المنافقون، و لم يجز اللّه طردهم من المجتمع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۵۹

الإسلامی لماضیهم المجید، کما لم یسمح بعقابهم أکثر ممّا یستحقونه.

کلمة «یأتل» مشتقّة من «ألیّة» (علی وزن عطیّة) أی الیمین، أو إنّها مشتقة من «ألو» (علی وزن دلو) بمعنی التقصیر و الترک.

و علی هـذا، فإنّ الآیـة تعنی وفق المعنی الأوّل النّهی عن هـذا القسم بقطع مثل هذه المساعدات ۳۹]، و علی المعنی الثّانی النهی علی التقصیر فی مساعدتهم و ترک مثل هذا العمل.

ثمّ تضیف الآیة وَ لْیَعْفُوا وَ لْیَصْفَحُوا لتشجیع المسلمین و ترغیبهم فی العفو و الصفح بقولها: أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ یَغْفِرَ اللَّهُ لَکُمْ

فإنّکم مثلما تأملون من اللّه العفو عنکم و أن یغفر خطایاکم، یجب علیکم العفو و الصفح عن الآخرین وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ

و المثیر للدهشة أنّ أصحاب الإفک أدینوا بشدّة فی آیات شدیدة اللهجة، إلّا أنّها تسیطر علی مشاعر المفرطین لمنعهم من تجاوز الحدّ فی العقوبة بثلاث جمل ذات تشعشع أخّاد، الأول: الأمر بالعفو و السماح.

ثمّ تقول: ألا تحبّون أن یغفر اللّه لکم؟ فینبغی علیکم أن یعفوا و تصفحوا کذلک.

و لتأکید ذلک تذکر الآیة صفتین من صفات اللّه «الغفور» و «الرحیم».

و هکذا تقول الآیة للناس: لا یمکنکم أن تکونوا أحرص من اللّه الذی هو صاحب هذا الحکم، و هو یأمرکم بألّا تقطعوا مساعداتکم.

ممّا لا شک فیه أن جمیع المسلمین الذین تورطوا فی حادثة الإفک لم یکونوا مشارکین فی التآمر بهذا الصدد، و لکن المنافقین هم الذین وضعوا أساس فتنة الإفک و تبعهم مسلمون مضلّلون.

و لا شک فی أنّهم جمیعا مقصّرون و مذنبون، و لکن بین هاتین المجموعتین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۰

فرق کبیر، و علی هذا یجب أن لا یعامل الجمیع سواسیة.

و علی کل حال، ففی الآیات السابقة درس کبیر لحاضر المسلمین و مستقبلهم، و تذکیر لهم بأن لا یتجاوزوا الحدّ المقرّر فی معاقبة المذنبین، و لا ینبغی طردهم من المجتمع الإسلامی، أو إغلاق باب المساعدة فی وجوهم، ذلک من أجل المحافظة علیهم کی لا یزدادوا انحرافا فیقعوا فی أحضان العدو، أو ینحازوا إلی جانبه.

و ترسم هذه الآیات صورة للتعادل الإسلامی فی جذبه و دفعه، و تشکل آیات الإفک و العقوبات الشدیدة التی تفرض علی الذین یتهمون الآخرین فی شرفهم «قوة الدفع». و أمّا الآیة موضع البحث التی تتحدث عن العفو و الصفح و کون اللّه غفورا رحیما. فإنها تکشف عن «قوة الجذب»! ثمّ تعود الآیة إلی قضیة القذف و اتّهام النساء العفیفات المؤمنات فی شرفهن، فتقول بشکل حازم: إِنَّ الَّذِینَ یَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ الْغافِلاتِ الْمُؤْمِناتِ لُعِنُوا فِی الدُّنْیا وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِیمٌ

ذکرت هذه الآیة المبارکة ثلاث صفات لهؤلاء النسوة، کلّ واحدة تشکل دلیلا علی مدی الظلم الذی تعرضن إلیه باتهامهنّ فی شرفهنّ: «المحصنات» أی العفیفات الطاهرات الذیل و «الغافلات» البعیدات عن کل تهمة و تلوّث و «المؤمنات»، کما تکشف العذاب العظیم الذی ینتظر من یقترف هذا العمل ۴۰].

کما أنّ عبارة- «غافلات» تلفت النظر، لأنّها تکشف عن منتهی طهارتهنّ من أی انحراف و تلوّث، أی أنهن غافلات عن کل تلوث جنسی إلی درجة و کأنّهن لا یعلمن بوجود مثل هذا العمل فتارة یکون الإنسان فی مقابل الذنب أن لا یخطر علی ذهنه وجود مثل هذا الذنب فی الخارج و هذه مرحلة عالیة من التقوی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۱

و یحتمل أن یکون المراد من «الغافلات» أنهن لا یعلمن بما ینسب الیهنّ من بهتان فی الخارج، و لهذا السن فی صدد الدفاع عن أنفسهنّ، و فی النتیجة فإنّ الآیة تطرح موضوعا جدیدا للبحث، لأن الآیات السابقة تحدثت عن مثیری التهم الذین یمکن التعرف

عليهم و معاقبتهم، إلّا أنّ الحديث هنا يدور حول مثيرى الشايعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب و الحدّ الشرعى: فتقول الآية: أنّ هؤلاء لا يتصوروا أنّهم بهذا العمل سيكون بإمكانهم تجنب العقاب الإلهى دائما، لأنّ اللّه تعالى سيبعدهم عن رحمته فى هذه الدنيا. كما ينتظرهم العذاب العظيم فى الآخرة.

إن هذه الآية رغم مجيئها بعد حديث الإفك، و ظهورها بمظهر الارتباط بذلك الحادث، فإنها كبقية الآيات التى تنزل لسبب خاص، و هى ذات مفهوم عامّ، لا تختص بحالة معينة.

و الذى يثير الدهشة هو إصرار بعض المفسّرين كالفخر الرازى فى «التّفسير الكبير»، و آخرين، على أنّ مفهوم هذه الآية خاص باتهام نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يجعلون هذا الذنب بدرجة الكفر، و يستدلون بكلمة «اللعن» التى ذكرتها الآية، فى الوقت الذى لا يمكن فيه اعتبار توجيه التهمة- حتى إن كان هذا الذنب عظيما كاتهام نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لوحده سببا للكفر. لهذا لم يعامل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصحاب الإفك معاملة المرتدين عن دينهم. بل إن الآيات التالية التى بيّنا شرحها توصى بعدم تجاوز الحد المقرر لهم و عدم الإفراط فى عقابهم، فذنبهم لا يوازى الكفر باللّه.

و أمّا «لعنة اللّه» فهى تصدق على الكافرين و مرتكبى الكبائر أيضا، و عليه أوردت هذه الآيات المتحدّثة عن حدّ القذف (فى الأحكام الخاصّة باللعان) مرتين كلمة «لعن» ضد الكذابين المسيئين للناس. كما استعملت الأحاديث الإسلامية كرارا كلمة «اللعن» ضد مرتكبى الذنوب الكبيرة. و حديث «لعن اللّه فى الخمر عشر طوائف ...» معروف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۲

و تحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل فى ساحة العدل الإلهى، قائلة يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

تدور ألسنتهم بما لا تشتهى أنفسهم لتستعرض الحقائق. و عند ما يجد المجرمون الدلائل و الشواهد العينية على ما اقترفوه من أعمال إجرامية، تراهم يعرفون بذنوبهم و يفضحون أمرهم خلافا لرغبتهم الباطنية، حيث لا ينفع فى ذلك اليوم إنكارهم للتهم الموجهة إليهم. و تشهد أيديهم و أرجلهم، و كما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم و كأنّها شريط مسجّل، تنطق بما اقترف صاحبها من ذنوب، حيث رسمت آثار الجرائم عليها طوال عمره، حقا إنّه يوم البروز و الافتضاح، و يوم تنكشف فيه السرائر.

و إذا وجدنا فى بعض آيات القرآن إشارة إلى يوم القيامة تذكر الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ۴۱] فإنّه لا خلاف فيها مع هذا البحث، إذ يمكن أن تتعطل الأفواه عن الكلام أولا، فتشهد سائر أعضاء الجسم. و عندها تكشف الأيدى و الأرجل الحقائق، ينطق اللسان بما جرى و يعترف بالذنوب كلّها.

بحوث

۱- من هن الخبيثات و من هم الخبيثون؟

ذكر المفسّرون تعاريف مختلفة ل «الخبيثات» و «الخبيثون» و «الطيبات» و «الطيبون».

۱- قيل أنّ المراد هو الكلام السيء و التهمة و الافتراء و الكذب الصادر عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۳

المخطئين و المذنبين من الناس، و على العكس من ذلك الكلام الطيّب ما يصدر عن الطيّبين المتطهرين، و حسبما يقول المثل المأثور «ينضح الإناء بما فيه».

۲- و قیل إن کلمـة «الخبیثات» تعنی «السـیئات» و کل الأعمال السـیئة و غیر المرغوب فیها التی تصـدر عن الخبیثات من الناس، و علی العکس من ذلک «الحسنات» الخاصّة بالطیبین من الناس.

۲- «الخبیثـات» و «الخـبیثون» تعنیـان النسـاء و الرجـال السـاقطین، و هـم عکس (الطیبـات) و (الطیبـون) الخـاصتین بالنسـاء و الرجـال المتطهرین.

و ظاهر الآیة قصد هذا المعنی بذاته، حیث هناک قرائن تؤکّد هذا المعنی:

أ- جاءت هـذه الآیات إثر آیات الإفک- و بعـد آیـة الزَّانِی لا یَنْکِحُ إِلَّا زانِیَةً أَوْ مُشْـرِکَةً وَ الزَّانِیَةُ لا یَنْکِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْـرِکٌ وَ حُرِّمَ ذلِکَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ و هذا التّفسیر ینسجم مع مفهوم تلک الآیات.

ب- إن جملة أُولئِکَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا یَقُولُونَ التی تقصد الرجال و النساء الطاهرین من الدنس دلیل آخر علی صحة هذا التّفسیر.

ج- قرینـة المقابلـة لجمع المـذکر السـالم فی «الخبیثون» حیث یقصـد بهـا الرجـال الخبیثون، فمن ذلـک یعلم أن الخبیثات جمع مؤنث حقیقی، و تعنی النساء الساقطات.

د- إضافة إلی ذلک

روی حدیث عن الإمامین الباقر و الصّادق علیهما السّلام «إنّ هذه الآیة کآیة الزَّانِی لا یَنْکِحُ إِلَّا زانِیَةً أَوْ مُشْرِکَةً همّ رجال و نساء کانوا علی عهد رسول اللّه ۶ مشهورین بالزنا فنهی اللّه عن أولئک الرجال و النساء و الناس علی تلک منزلة ..».[۴۲]

کما نقرأ فی روایات کتاب النکاح، کیف کان أصحاب الإمام یستفسرون منه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۶۴

أحیانـا عـن الزواج بالخبیثـات فیجیبهـم سـلبا. و هـذا یـدل علی أن الخبیثـة تعنی المرأة الساقطـة، و لیس الکلام السـیء و لا العمل المنحط[۴۳].

و السؤال الآخر: هـل أن خبث هـذه المجموعـة من النساء و الرجال أو طیبهم یراد به الشـرف و العفّـة، أو یتعلّق بانحطاط فی الفکر أو العمل أو القول؟

إنّ المفهوم الأوّل للآیـة هو الأصوب، لأنّه یطـابق مـا جـاء فی الآیات و الأحادیث، لکنّ بعض الأحادیث یعطی معنی واسـعا لکلمتی الخبیث و الطیب اللتین وردتا فی هذه الآیات، و لا یحصرهما بالانحطاط الخلقی و طهارة الشخص.

و علی هـذا فلا یبعـد أن یکون مفهوم الآیـة الأولی خاصا بـذلک المعنی الخاص، إلّا أنه بملاحظـة الملاک و الغایة من الحکم یمکن تعمیمه و توسعته.

و بتعبیر آخر: إن الآیـة السابقـة بیـان لمیـل الصـنو إلی صـنوه، رغم اختصاصـها من حیث الموضوع یبحث العفّـة و الانحطـاط الخلقی، «تأملوا جیدا».

۲- هل هذا حکم تکوینی أم تشریعی؟

لا شکّ فی أن الأمثال التالیة تشـیر إلی سنة تکوینیّة تطبق علی المخلوقات جمیعا، حتی علی ذرات الوجود فی الأرض و السماء، و هی جذب الشیء لنظیره کما یجذب الکهرب التبن.

أصحاب النور ینجذبون إلی أصحاب النور.

و أصحاب النّار یمیلون إلی أصحاب النّار.

و «السنخیة علّة الانظمام» کما یقول المثل.

و على كل حال، فإن كل صنو يتبع صنوه، و كل مجموعة متجانسة ترتاح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۵

لأفرادها، إلّا أنّ هـذه الحقيقـة لا تمنع من كون الآيـة السابقـة كما هى عليه الآيـة الزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إِلَّا زانٍ أَوْ مُشْرِكٌ إشارة إلى حكم شرعى يمنع الزواج من النساء اللواتى اشتهرن بالعمل المخلّ بالشرف.

أليس لجميع الأحكام التشريعية جذور تكوينية؟

أليس هناك انسجام بين السنن الإلهية، التشريعية منها و التكوينية؟ (لإيضاح أكثر راجع شرح الآية التى ذكرناها).

۳- جواب استفسار:

الاستفسار هو: إننا نشاهد عبر التاريخ أو فى حياتنا حالات لا تنسجم مع القانون السابق؟ و مثال ذلك ما جاء فى القرآن المجيد ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما[۴۴] ...

و مقابل هذه الحالة ذكر القرآن المجيد زوجة فرعون مثالا للإيمان و الطهارة:

وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۴۵].

كما شوهد نظير هاتين الحالتين فى صدر الإسلام، حيث ابتلى بعض قادة المسلمين بنساء سيئات، و آخرون من اللّه عليهم بنساء مؤمنات جاء ذكرهن فى كتب التاريخ الإسلامى.

و فى الجواب عن ذلك نقول أنّه مضافا إلى أنّ لكل قانون استثناءات، فلا بدّ من ذكر مسألتين:

۱- قلنا خلال تفسير الآية موضع البحث: إنّ القصد من الخبث الانحطاط الخلقى و السقوط بارتكاب أعمال مخلة بالشرف، و الطيب ضد الخبث، و على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۶

هذا فجواب السؤال السابق يكون واضحا، لأن نساء الأنبياء و الأئمة الأطهار عليهم السّلام.

لم ينحرفن و الم يخبثن أبدا، و إنّما القصد من الخيانة فى قصة نوح و لوط عليهما السّلام، التجسس لمصلحة الكفّار و ليس خيانة شرفهما، و أساسا إن هذا العيب من العيوب المنفّرة و نعلم أن المحيط العائلى للأنبياء عليهم السّلام يجب أن يكون طاهرا من أمثال هذه العيوب المنفرة للناس حتى لا يتقاطع مع هدف النّبوة فى جذب الناس إلى الرسالة الإلهية.

۲- إضافة إلى ذلك، فإنّ نساء الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام، لم يكنّ كافرات منذ البداية، بل يصبن بالضلال أحيانا فيما بعد، و لهذا تستمر علاقة الأنبياء و الأولياء بهنّ على ما كانت عليه قبل ضلالهنّ، كما أنّ امرأة فرعون لم تكن مؤمنة بربّ موسى حين زواجها، إذ أنّ موسى عليه السّلام لم يكن قد ولد بعد، و قد آمنت برسالته السماوية بعد أن بعثه اللّه، و لم يكن لها مخرج إلّا بمواصلة حياتها الزوجية و الكفاح، حتّى انتهت حياتها باستشهادها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۷

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۲۷) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَ إِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (۲۸) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ (۲۹)

التّفسير

لا تدخلوا بيوت الناس حتّى يؤذن لكم:

بيّنت هـذه الآيات جانبا من أدب المعاشـرة، و التعاليم الإسـلامية الاجتماعيـة التى لها علاقـة وثيقـة بقضايا عامّـة حول حفظ العفّـة، أى كيفية الدخول إلى بيوت الناس، و كيفية الاستئذان بالدخول إليها.

حيث تقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۸

تَسْتَأْنِسُوا وَ تُسَلِّمُوا عَلى أَهْلِها. و بهذا الترتيب عند ما تعزمون على الدخول لا بدّ، من إخبار أصحاب البيت بذلك و نيل موافقتهم.

و الذى يلفت النظر فى هذه الجملة استعمالها «تستأنسوا» و لم تستعمل «تستأذنوا» لأنّ الجملة الثّانية لبيان الاستئذان بالدخول فقط، فى الوقت الـذى تكون الجملة الأولى مشـتقّة من «أنس» أى الاستئذان المرافق للمحبّة و اللطف و المعرفة و الإخلاص، و تبيّن كيف يجب أن يكون الاستئـذان برفق و أدب و صداقـة، بعيـدا عن أى حدّة و سوء خلق. و لو تبحرنا فى هذه الجملة على هذا الأساس لوجدنا فيها الكثير من الأدب الـذى يدور حول هذا الموضوع، و هو يعنى ألا تصـرخوا و ألّا تقرعوا الباب بقوة، و ألا تسـتأذنوا بعبارات حادّة، و ألا تدخلوا حتى يؤذن لكم، فتسلّموا أوّلا سلاما يستبطن مشاعر السّلام و الود و رسالة المحبة و الصداقة.

و ممّا يلفت النظر فى هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانية و عاطفية واضحة، مرافقته لجملتين أولاها: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ و ثانيها: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ و هـذا بحـدّ ذاته دليـل على أن لهـذه الأحكـام جـذورا فى أعمـاق العواطف و العقول الإنسانيـة، و لو دقق الإنسان النظر فيها لتذكر أن فيها الخير و الصلاح.

و تمّ هذا الحكم بجملة أخرى فى الآية التالية: فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيها أَحَداً فَلا تَدْخُلُوها حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص۶۸

يكون المراد من هـذه العبارة أنّه ربّما كان فى المنزل أحـد، و لكن من لديه حقّ إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

أو قد لا يوجد أحد فى المنزل، و لكن صاحب المنزل على مقربة من ذلك المكان، أو فى منزل الجيران بحيث لو طرق المرء الباب أو نادى صاحبه فقد يسمعه، ثمّ يحضر ليسمح له بالدخول، و على أى حال، فالمسألة المطروحة أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۶۹

لا ندخل منزلا دون إذن.

ثمّ تضـيف الآيـة وَ إِنْ قِيـلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَـارْجِعُوا هُوَ أَزْكى لَكُمْ إشـارة إلى أنّه لا ـ لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالـدخول، فلعلّ صاحب المنزل فى وضع غير مريـح، أو أن منزله لم يهيأ لاسـتقبال الضـيوف! و بما أن بعض الناس قد يدفعهم حبّ الاطلاع و الفضول حين رفضـهم اسـتقباله على استراق السـمع، أو التجنس من ثقب البـاب لكشف خفايـا أهل المنزل و ليطلع على أسـرارهم، لهـذا قالت

الآية: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

و بما أن لكل حكم استثناء، لرفع المشكلات و الضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيها مَتاعٌ لَكُمْ

و تضيف فى الختام وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما تَكْتُمُونَ و لعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعا بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلّا أنّ اللّه يعلم بكلّ هذه الأعمال، و يعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

بحوث

۱- الأمن و الحرية فى حريم المنزل

لا ريب فى أن لوجود الإنسان بعدين: بعد فردى، و آخر اجتماعى، و لهذا فله نوعان من الحياة: حياة خاصّة، و أخرى عامّة. و لكل واحدة خصائصها و آدابها، حيث يضطر الإنسان فى البيئة الاجتماعية إلى تحمل قيود كثيرة من حيث اللباس و الحركة، و مواصلة الإنسان حياته على هذا النسق وحده- خلال الأربع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۰

و العشرين ساعة- متعب و يبعث على الضجر، إذ أنّه يرغب فى أن يكون حرا خلال فترة من الليل و النهار ليستريح بعيدا عن هذه القيود، مع أسرته و بين أولاده، لهذا يلجأ إلى منزله الخاص به، و ينعزل بذلك عن المجتمع بشكل مؤقت، ليتخلص من قيوده، فيجب أن يكون محيط المنزل آمنا إلى حدّ كاف.

و أمّا إذا أراد كلّ عابر الدخول إلى منازل الآخرين، فلا تبقى حرمة لمنازل الناس، و يسلب منها أمنها و حريتها، و بهذا تتحول إلى بيئة عامّة كالسوق و الشارع. و لهذا السبب كانت بين الناس- على مرّ العصور- أعراف خاصّة فى هذا المجال. حتى أن جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان و تعاقب عليه، و حتى فى حالات الضرورة القصوى و لغرض حفظ الأمن و غايات أخرى أجيز عدد قليل على وفق القانون بالدخول إليها.

و نصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم و آداب خاصّة فى هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلّا نادرا.

نقرأ

فى حديث أن الصحابى الجليل أبا سعيد الخدرى استأذن على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة و السّلام: «لا تستأذن و أنت مستقبل الباب».[۴۶]

و

جاء فى حديث آخر أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب.

من تلقاء وجهه و لكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السّلام عليكم، و ذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

و جاء فى الأحاديث الإسلامية ضرورة استئذان المرء حين دخوله إلى منزل والده أو والدته، و حتى حين الدخول إلى منزل ولده.[۴۷]

و

جاء فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جوابا على استفسار رجل: قال: أستأذن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۱

علی امی؟ أجاب صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: نعم. قال: إنّها لیس لها خادم غیری أ فأستأذن علیها کلما دخلت؟ قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أ تحب أن تراها عریانة؟ قال الرجل لا، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

فاستأذن علیها[۴۸].

و

جاء فی حدیث آخر عن الامام الباقر علیه السّلام عن جابر بن عبد اللّه الانصاری قال: «خرج رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یرید فاطمة علیها السّلام و أنا معه فلما انتهینا إلی الباب وضع یده فدفعه ثمّ قال: السّلام علیکم، فقالت: فاطمة علیها السّلام: علیک السّلام یا رسول اللّه، قال: أدخل؟ قالت: ادخل یا رسول اللّه، قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: أدخل و من معی؟ قالت:

یا رسول اللّه لیس علیّ قناع، فقال: یا فاطمة خذی فضل ملحفتک فقنعی به رأسک ففعلت، ثمّ قال: السّلام علیکم، فقالت: و علیک السّلام یا رسول اللّه، قال أدخل قالت: نعم یا رسول اللّه، قال أنا و من معی؟ قالت: و من معک، قال جابر: فدخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فدخلت ...»[۴۹]

و هذا الحدیث یبیّن لنا کیف کان النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو القدوة للمسلمین کافة، یراعی هذه الأمور بدقة، و حتی جاء فی حدیث.

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام قال: «الاستیذان ثلاثة: أوّلهنّ یسمعون، و الثّانیة یحذرون، و الثّالثة إن شاؤوا أذنوا و إن شاؤوا لم یفعلوا فیرجع المستأذن».[۵۰]

و یری بعض المفسّرین ضرورة وجود فواصل زمنیة بین کل استئذان و آخر، إذ قد یکون صاحب المنزل لم یتهیأ- بعد- بلباس مناسب، أو یرید تغییر هیئة أو إعداد منزله، فیجب إعطاءه فرصة لیعدّ نفسه و منزله لاستقبال ضیفه، و علی الضیف الانصراف دون انزعاج أو توتّر إن لم یسمح له بالدخول.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۲

۲- ما المقصود بالبیوت غیر المسکونة؟

فی معرض الإجابة علی هذا السؤال لا بدّ من الإشارة إلی اختلاف المفسّرین فی ذلک، فقد قال البعض: یقصد بها المبانی التی لا یسکنها شخص معین، و هی لعموم الناس، کالمنازل العامّة فی الطرق البریة و الفنادق و الحمامات العامّة و أمثالها. و قد جاء هذا المعنی بصراحة فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام ۵۱].

و فسّر البعض ذلک بالخرائب التی لیست لها جدران و لا أبواب، یدخلها من یشاء، غیر أنّ هذا التفسیر یبدو بعیدا جدا عن الصواب، فلا أحد یضع متاعه فی هذه المنازل.

و قال آخرون: إنّها إشارة إلی مخازن التجار و حوانیتهم، التی احتوت علی متاع الناس أمانة لدیهم لغرض البیع، و یمکن لکلّ صاحب متاع الدخول إلی هذا المخزن لیأخذ متاعه، و هذا التّفسیر أیضا یبدو غیر منسجم مع ما قصدته الآیة.

کما یحتمل أنّها قصدت المنازل التی لیس فیها أحد، و یضع المرء متاعه فیها أمانة بعد علمه برضا صاحبها ضمنا فی حراستها و رفعها عند الحاجة.

و بعض هذه التفاسیر لا یتناقض مع غیره، إلّا أنّ التّفسیر الأوّل ینسجم انسجاما أفضل مع معنی الآیة و قصدها، و یتّضح بذلک أنّه لا یجوز لشخص له متاع فی منزل أن یدخل المنزل دون استئذان من صاحبه حتی لو لم یکن فی البیت أحد حینذاک.

۳- عقاب من یتلصّص علی منازل الناس:

جاء فی کتب الفقه و الحدیث. إذا تلصّص شخص علی داخل منزل و شاهد امرأة فیه لم تتحجب، فلأهل الدار أوّلا نهیه عن هذا العمل، و إن امتنع رموه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۳

بالحجارة. و إن عاود، فبإمکانهم الدفاع عن أعراضهم بآلة جارحة، فلو قتل هذا الشخص فی هذه الحالة فدمه هدر و لا دیّة له.

و طبیعی أنّه لا بدّ من تتبع هذه الخطوات أوّلا بأول. أی: علیهم أوّلا إتباع السبیل الیسیر لمنعه، ثمّ اتباع أسلوب العنف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۴

الآیتان [سورة النور (۲۴): الآیات ۳۰ الی ۳۱]

اشارة

قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ (۳۰) وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ یَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ یَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها وَ لْیَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلی جُیُوبِهِنَّ وَ لا یُبْدِینَ زِینَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبائِهِنَّ أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنائِهِنَّ أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی إِخْوانِهِنَّ أَوْ بَنِی أَخَواتِهِنَّ أَوْ نِسائِهِنَّ أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِینَ غَیْرِ أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِینَ لَمْ یَظْهَرُوا عَلی عَوْراتِ النِّساءِ وَ لا یَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِیُعْلَمَ ما یُخْفِینَ مِنْ زِینَتِهِنَّ وَ تُوبُوا إِلَی اللَّهِ جَمِیعاً أَیُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّکُمْ تُفْلِحُونَ (۳۱)

سبب النّزول

جاء فی کتاب الکافی حول سبب نزول أوّل آیة من الآیات السابقة، عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۷۵

الإمام الباقر علیه السّلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدینة و کان النساء یقنعن خلف آذانهن، فنظر إلیها و هی مقبلة، فلمّا جازت نظر إلیها و دخل زقاق قد سمّاه یعنی فلان، فجعل ینظر خلفها و اعترض وجهه عظم فی الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسیل علی ثوبه و صدره، فقال: و اللّه لاتین رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لأخبرنّه، قال: فآتاه فلمّا رآه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال له: ما هذا فأخبره، مهبط جبرئیل علیه السّلام بهذه الآیة: قُلْ لِلْمُؤْمِنِینَ یَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ یَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذلِکَ أَزْکی لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِیرٌ بِما یَصْنَعُونَ [۵۲]

التّفسیر

مکافحة السفور و خائنة الأعین:

قلنا فی البدایة: إنّ هذه السورة- فی الحقیقة- اختصت بالعفة و الطهارة و تطهیر الناس من جمیع الانحرافات الجنسیة، و بحوثها منسجمة، و هی تدور حول الأحکام الخاصّة بالنظر إلی الأجنبیة و الحجاب، و لا یخفی علی أحد ارتباط هذا البحث بالبحوث الخاصّة

بالقذف.

تقول الآية أوّلا: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ

و كلمة «يغضوا» مشتقّة من «غضّ» من باب «ردّ» و تعنى فى الأصل التنقيص، و تطلق غالبا على تخفيض الصوت و تقليل النظر. لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم. بل أمرت أن يغضّوا من نظرهم. و هذا التعبير الرائع جاء لينفى غلق العيون بشكل تام بحيث لا يعرف الإنسان طريقه بمجرّد مشاهدته امرأة ليست من محارمه، فالواجب عليه أن لا- يتبحّر فيها، بل أن يرمى ببصره إلى الأرض، و يصدق فيه القول أنه غضّ من نظره و أبعد ذلك المنظر من مخيلته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۶

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم لم يحدد الشىء الذى يستوجب غضّ النظر عنه. (أى أنه حذف متعلّق الفعل) ليكون دليلا على عموميته. أى غضّ النظر عن جميع الأشياء التى حرم اللّه النظر إليها.

و لكن سياق الكلام فى هذه الآيات، و خاصّة فى الآية التالية التى تتحدث عن قضية الحجاب، يوضح لنا جيدا أنها تقصد النظر إلى النساء غير المحارم، و يؤكّد هذا المعنى سبب النّزول الذى ذكرناه ۵۳] سابقا.

و يتّضح لنا ممّا سبق أن مفهوم الآية السابقة ليس هو حرمة النظر الحاد إلى النساء غير المحارم، ليتصور البعض أنّ النظر الطبيعى إلى غير المحارم مسموح به، بل إن نظر الإنسان يمتدّ إلى حيّز واسع و يشمل دائره واسعة، فإذا وجد امرأة من غير المحارم عليه أن يخرجها عن دائرة نظره. و ألّا ينظر إليها، و يواصل السير بعين مفتوحة، و هذا هو مفهوم غضّ النظر. (فتأملوا جيدا).

الحكم الثّانى فى الآية السابقة: هو «حفظ الفروج». و «الفرج»- كما قلنا سابقا- يعنى الفتحة و الفاصلة بين شيئين، إلّا أنّها هنا ورد كناية عن العورة.

و القصد من حفظ الفرج- كما ورد فى الأحاديث- هو تغطيته عن الأنظار، و

قد جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «كلّ آية فى القرآن فيها ذكر الفروج فهى من الزنا، إلّا هذه الآية فإنّها من النظر»[۵۴].

إن الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية و الشهوات، لأنّ ذلك أَزْكى لَكُمْ كما نصّت عليه الآية- موضع البحث- فى ختامها.

ثمّ تحذر الآية أولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، و يبررون عملهم هذا بأنّه غير متعمّد فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۷

و تناولت الآية التالية شرح واجبات النساء فى هذا المجال، فأشارت أوّلا- إلى الواجبات التى تشابه ما على الرجال، فتقول: وَ قُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَ

و بهذا حرم اللّه النظر بريبة على النساء أيضا مثلما حرّمه على الرجال، و فرض تغطيه فروجهن عن أنظار الرجال و النساء مثلما جعل ذلك واجبا على الرجال.

ثمّ أشارت الآية إلى مسألة الحجاب فى ثلاث جمل:

۱- وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها.

اختلف المفسّرون فى تفسير الزينة التى تجب تغطيتها، و الزينة الظاهرة التى يسمح باظهارها.

فقال البعض: إنّ الزينة المخفية هى الزينة الطبيعية فى المرأة (جمال جسم المرأة) فى حين أن استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى قليل.

و قال آخرون: إنّها تعنى موضع الزينة: لأن الكشف عن أداة الزينة ذاتها كالعضد و القلادة مسموح به، فالمنع يخص موضعها، أى اليدين و الصدر مثلا.

و قال آخرون: خصّ المنع أدوات الزينـة عنـد ما تكون على الجسم، و بالطبع يكون الكشف عن هـذه الزينة مرادفا للكشف عن ذلك الجزء من الجسم. (و هذين التّفسيرين الأخيرين لهما نتيجة واحدة على الرغم من متابعة القضية عن طريقين مختلفين).

و الحق أنّنا يجب أن نفسر الآية على حسب ظاهرها و دون حكم مسبّق، و ظاهرها هو التّفسير الثّالث.

و على هـذا، فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهن المخفية، و إن كانت لا تظهر أجسامهن، أى لا يجوز لهن الكشف عن لباس يتزيّن به تحت اللباس العادى أو العباءة، بنصّ القرآن الذى نهاهنّ عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۸

و ذكرت الأحاديث التى رويت عن أهل البيت عليهم السّلام هذا المعنى، فقد فسّروا الزينة المخفية بالقلادة و الدملج (حلى يشدّ أعلى الساعد) و الخلخال ۵۵].

و قـد فسّرت أحاديث عديدة أخرى الزينة الظاهرة بالخاتم و الكحل و أمثاله، لهذا نفهم بأنّ المراد من الزينة المخفية الزينة التى تحت الحجاب (فتأملوا جيدا).

۲- و ثـانى حكم ذكرته الآيـة هو: وَ لْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَ و كلمـة «خمر» جمع «خمـار» على وزن «حجاب» فى الأصل تعنى «الغطاء»، إلّا أنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشىء الذى تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهن.

و «الجيوب» جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقة القميص، و أحيانا يطلق على الجزء الذى يحيط بأعلى الصدر لمجاورته الياقة.

و يستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة و جانبا من الصدر، فأمرهن القرآن برمى أطراف الخمار حول أعناقهن أى فوق ياقة القميص ليسترن بذلك الرقبة و الجزء المكشوف من الصدر. (و يستنتج هذا المعنى أيضا عن سبب نزول الآية الذى ذكرناه آنفا).

۳- و تشرح الآيـة فى حكمها الثّالث الحالات التى يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهنّ و إظهار زينتهنّ، فتقول وَ لا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا.

۱- لِبُعُولَتِهِنَ

۲- أَوْ آبائِهِنَ

۳- أَوْ آباءِ بُعُولَتِهِنَ

۴- أَوْ أَبْنائِهِنَ

۵- أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۷۹

۶- أَوْ إِخْوانِهِنَ

۷- أَوْ بَنِى إِخْوانِهِنَ

۸- أَوْ بَنِى أَخَواتِهِنَ

۹- أَوْ نِسائِهِنَ

۱۰- أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ

۱۱- أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ أى الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلا بالعنن أو بمرض غيره.

۱۲- أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلى عَوْراتِ النِّساءِ.

۴- و تبيّن الآيـة رابع الأحكـام فتقول وَ لا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَ أى على النسـاء أن يتحفّظن كثيرا، و يحفظن عفّتهنّ، و يبتعدن عن كلّ شىء يثير نار الشهوة فى قلوب الرجال، حتى لا يتهمن بالانحراف عن طريق العفة.

و يجب أن يراقبن تصرفهن بشدّة بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم، و هذا كله يؤكّد دقّة نظر الإسلام إلى هذه الأمور.

و انتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالا و نساء إلى التوبة و العودة إلى اللّه ليفلحوا وَ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و توبوا أيّها الناس ممّا ارتكبتم من ذنوب فى هذا المجال، بعد ما اطلعتم على حقائق الأحكام الإسلامية، و عودوا إلى اللّه لتفلحوا، فلا نجاة لكم من كلّ الانحرافات الخطرة إلّا بلطف من اللّه و رحمته، فسلّموا أمركم إليه! صحيح أنّه لا معنى للذنوب و المعاصى- فى هذه المسألة- قبل نزول هذه الأحكام من اللّه، إلّا أنّنا نعلم بأنّ قسما من المسائل الخاصّة بالانحطاط الخلقى ذا جانب عقلانى و كما فى الاصطلاح أنها من «المستقلات العقلية» و يكفى لوحده فى تحديد المسؤولية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۰

بحوث

۱- فلسفة الحجاب

اشارة

ممّا لا شكّ فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين فى عصرنا الذى سمّوه بعصر التعرى و الحرية الجنسية، ليس حديثا سارّا حيث يتصوّرونه أسطورة يعود لعصور خلت.

إلّا أنّ الفساد الذى لا حدّ له، و المشاكل المتزايدة و الناتجة عن هذه الحرّيات التى لا قيد لها و لا حدود، أدى بالتدريج إلى إيجاد الأذن الصاغية لهذا الحديث.

و قد تمّ حلّ كثير من القضايا فى بيئات إسلامية و دينية أخرى، خاصّة فى أجواء إيران بعد الثورة الإسلامية، و أجيب عن الكثير من هذه الأسئلة بشكل مقنع.

و مع كل هذا تستوجب أهمية الموضوع بحث هذه القضية بحثا واسعا و عميقا.

و القضية المطروحة (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحيح أن تستغل النساء للتلذّذ من جانب الرجال عن طريق السمع و النظر و اللمس (باستثناء المجامعة) و أن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الأمور خاصّة لأزواجهنّ؟

إنّ النقاش يدور حول هذا السؤال: هل يجب بقاء النساء فى سباق لا نهاية له فى عرض أجسامهنّ، و تحريك شهوات و أهواء الرجال؟ أو يجب تصفية هذه الأمور من أجواء المجتمع، و تخصيصها بالأسرة و الحياة الزوجية؟! الإسلام يساند الأسلوب الثّانى. و يعتبر الحجاب جزءا من هذا الأسلوب، فى الوقت الذى يساند فيه الغربيون و المتغربون الشهوانيون الأسلوب الأوّل! يقول الإسلام: إنّ الأمور الجنسية سواء كانت مجامعة أو استلذاذا عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاصّ بالأزواج، و محرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّى إلى تلويث المجتمع و انحطاطه، و عبارة هُوَ أَزْكى لَكُمْ التى جاءت فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۱

السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

۱- إنّ تعرى النساء و ما يرافقه من تجميل و تدلل- و ما شاكل ذلك- يحرك الرجال- خاصّة الشباب- و يحطّم أعصابهم، و تراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، و أحيانا يكون ذلك مصدرا للأمراض النفسية، فأعصاب الإنسان محدودة التحمّل، و لا تتمكن من

الاستمرار فى حالة الهيجان؟

ألم يقل أطباء علم النفس بأنّ هذه الحالة من الهيجان المستمر سبب للأمراض النفسية؟

خاصّة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز فى الإنسان و أكثرها عمقا، و كانت عبر التاريخ السبب فى أحداث دامية و إجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كلّ حادثة مهمّة امرأة! أليس إثارة الغرائز الجنسية لعبا بالنار؟

و هل هذا العمل عقلانى؟

الإسلام يريد للرجال و النساء المسلمين نفسا مطمئنة و أعصابا سليمة و نظرا و سماعا طاهرين، و هذه واحدة من فلسفات الحجاب.

۲- تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق و تفكّك الأسرة فى العالم، بسبب زيادة التعرّى، لأنّ الناس أتباع الهوى غالبا، و هكذا يتحوّل حبّ الرجل من امرأة إلى أخرى، كلّ يوم، بل كل ساعة.

أمّا فى البيئة التى يسودها الحجاب (و التعاليم الإسلامية الأخرى) فالعلاقة وثيقة بين الزوج و زوجته، و مشاعرهما و حبهما مشترك.

و أمّا فى سوق التعرى و الحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع و تشترى، أو فى أقل تقدير موضع نظر و سمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته، و تنهار أسس الأسر بسرعة كانهيار بيت العنكبوت، و يتحمل هذه المصيبة الأبناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۲

بعد أن يفقدوا أولياءهم و يفقدوا حنان الأسرة.

۳- انتشار الفحشاء و ازدياد الأبناء غير الشرعين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء الحجاب، و لا حاجة إلى إحصائية بهذا الصدد، فشواهدها ظاهرة فى المجتمع الغربىّ، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

لا نقول: إنّ السبب الرئيسى فى ازدياد الفحشاء و الأبناء غير الشرعيين ينحصر فى إلغاء الحجاب و عدم الستر، و لا نقول: إنّ الاستعمار المشؤوم و القضايا السياسية المخربة ليس لها دور قوى فيه، بل نقول: إن التعرى من الأسباب القوية لذلك.

و كما نعلم فإن انتشار الفحشاء و ازدياد الأبناء غير الشرعيين مصدر أنواع الجرائم فى المجتمعات البشرية قديما و حديثا.

و بهذا تتضح الأبعاد الخطرة لهذه القضية.

و عند ما نسمع أنّ الولادات غير الشرعية فى بريطانيا بلغت بحسب إحصائياتهم خمسمائة ألف طفل كلّ عام، و أنّ علماءها حذّروا المسؤولين من مغبة هذا الوضع، ليس لأنّه- كما يقولون- بسبب مخالفته للقضايا الأخلاقية و الدينية، و إنّما بسبب الخطر الذى أوجده هؤلاء الأبناء لأمن المجتمع، فقد وجدوا أنّهم يمثّلون القسم الأعظم من ملفات القضايا الخاصّة بالجرائم.

و من هنا ندرك أهمية هذه القضية، و أنّها كارثة حتى للذين لا يؤمنون بدين و لا يهتمون بأخلاق.

و كلّما انتشر الفساد الجنسى فى المجتمعات البشرية اتّسع التهديد لهذه المجتمعات و تعاظم الخطر عليها، و قد برهنت دراسات العلماء فى التربية على ظهور الأعمال المنافية للعفة، و تفشّى الإهمال فى العمل و التأخر، و عدم الشعور بالمسؤولية، فى المدارس المختلطة و المنشئات التى يعمل فيها الرجال و النساء بشكل مختلط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۳

۴- قضية «ابتذال المرأة» و سقوط شخصيتها فى المجتمع الغربى ذات أهمية كبيرة لا تحتاج إلى أرقام، فعند ما يرغب المجتمع فى تعرى المرأة، فمن الطبيعى أن يتبعه طلبها لادوات التجميل و التظاهر الفاضح و الانحدار السلوكى، و تسقط شخصيّة المرأة فى مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلة إعلاميّة يروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

و هذا السقوط يفقدها كلّ قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها و جمالها و كأنّه المصدر الوحيد لفخرها و شرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداة لاتباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة فى صور البشر! كيف يمكن للمرأة فى هذا المجتمع أن تبرز علميا و تسمو أخلاقيا؟! و من المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، و تشتهر و تكسب المال الوفير، و تنحطّ إلى حد الابتذال فى المجتمع،

ليرحب بها مسيّر و هذا المجتمع المنحط خلقيّا، فى المهرجانات و الحفلات الساهرة؟! هكذا حال المرأة فى المجتمع الغربى، و قد كان مجتمعنا قبل انتصار الثورة الإسلامية كذلك، و نشكر اللّه على إنهاء تلك المظاهر المنحطة فى بلادنا بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية، فقد عادت المرأة إلى مكانتها السامية التى أرادها اللّه لها، و ها هى ذى تمارس دورا إيجابيا فى المجتمع مع محافظتها على حجابها الإسلامى، حتى أنها ساهمت بشكل فعّال خلف جبهات الحرب بمختلف الأعمال لدعم الجبهة و الجهاد فى سبيل اللّه.

و كان هذا جانبا من الفلسفة الحيوية لموضوع الحجاب فى الإسلام. و هو ينسجم مع تفسيرنا.

الإشكال الذى يورده معارضو الحجاب:

نصل هنا إلى الانتقادات التى يطرحها معارضو الحجاب، فنبحثها بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۴

مضغوط:

۱- أهم الانتقادات التى يذكرها معارضو الحجاب أنّ النساء يشكلن نصف المجتمع، و الحجاب يجعلهنّ فى معزل عن المجتمع، و يكون ذلك سببا فى تأخّرهنّ الثقافى، و انعدام الاستفادة من هذه الطاقات العظيمة فى ازدهار الإقتصاد. و إذا شغر مكانهنّ فى المنشئات الثقافية و الاجتماعية أصبحن موادّ استهلاكيّة ليست بذات جدوى للمجتمع.

إلّا أنّ هؤلاء المتمسّكين بهذا المنطق غفلوا عن عدّة أمور، أو تغافلوا عنها، للأسباب التالية:- أوّلا: من الذى قال: إنّ الحجاب الإسلامى يعزل المرأة عن المجتمع؟

لئن صعب علينا الجواب عن هذا السؤال فى السابق، فما نظن أنّنا بعد قيام الجمهورية الإسلامية المباركة بحاجة إلى دليل على نهضة المرأة نهضة كريمة و مشاركتها فى تشييد المجتمع الإسلامى المنشود مشاركة تحقق النفع للمرأة و الأسرة و الحكومة و الأمة، فهى مسئولة فى الدوائر و المصانع و المتاجر، و فى النشاط السياسى فى المسيرات و المظاهرات، فى الإذاعة و التلفزيون، و فى المراكز الصحيّة- خاصّة فى معالجة جرحى الحرب- و فى المدارس و الجامعات، حتّى فى ساحة الحرب و مجاهدة العدو.

و باختصار: إنّ الواقع الاجتماعى فى بلدنا خير جواب عن هذا السؤال: و إذ كنّا نتحدث فى السابق عن إمكانية حدوث ذلك، فإنّنا اليوم نراه ماثلا بين أعيننا.

و كما يقول الفلاسفة: خير دليل على إمكان وجود الشيء حدوثه، و لا حاجة للبرهنة على وجود الواقع.

ثانيا: إضافة إلى ذلك، ألا تعتبر إدارة المنزل و تربية الأبناء الأصحّاء رجال المستقبل- الذين يديرون عجلة الإقتصاد و السياسة فى البلاد- عملا؟

إن الذين لا يعدّون هذه المسؤولية للمرأة أمرا ايجابيا جاهلون بحقيقة دور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۵

المرأة فى الأسرة و فى التربية، و فى بناء مجتمع سليم فعّال، بل لا يعترفون إلّا بمغادرة الرجال و النساء المنازل صباحا- كالغربيين- ليلتحقوا بالدوائر و المصانع. و يجعلون أبناءهم تحت رعاية الآخرين، فى دور الحضانة، أو يغلقوا عليهم المنازل ليعيشوا فى معتقل دون رعاية، حتى يعود الوالدان من العمل و قد أرهقهما التعب! هؤلاء غافلون عن أنّ افتقاد الأطفال للرعاية و العطف، يؤدى إلى تحطّم شخصيتهم و يعرض المجتمع إلى الخطر.

۲- كما يتذرع معارضو الحجاب بادعائهم بأنّه يعوق المرأة عن نشاطها الاجتماعى و لا ينسجم مع العصر الحديث، و يقولون: كيف تحفظ المرأة حجابها و طفلها و عملها فى آن واحد؟! إنّهم غافلون عن أنّ الحجاب ليس العباءة و نحوها، بل هو غطاء الجسم، فإن تسنى للمرأة الاحتجاب بالعباءة فذلك حسن، و إلّا كفاها غطاء الرأس و اللباس المحتشم حجابا. و قد لبّت نساؤنا الريفيات و خاصّة

العاملات- فی مزارع الرز المملوکة لعوائلهن- هذا اللباس، حیث یمارسن الحراثة و البذار و الاهتمام بالزرع ثمّ حصاده، و برهنّ عملیّا علی إمکانیة محافظة المرأة علی حجابها دون أن یمنع ذلک ممارستها لاشقّ الأعمال.

۳- یعترض المخالفون للحجاب قائلین: إنّ الحجاب یفصل بین الرجال و النساء، و یزید فی حرص الرجال بدلا من إخماد هذا الحرص، لأنّ (المرء حریص علی ما منع).

و هذه سفسطة واضحة، فلو قارن المرء بین مجتمعنا علی عهد الطاغوت و الیوم لتجلّی له الحقّ صریحا، فبالأمس کان نزع الحجاب إجباریا، و الیوم یسود الحجاب الإسلامی مجتمعنا کله، و الفساد کان ینتشر بالأمس فی کل أنحاء البلاد، و یسیطر التسیب علی معظم الأسر، و یزداد الطلاق بنسبة عالیة، و ترتفع نسبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۶

المواليد غير الشرعية، و آلاف المصائب الأخرى. و نحن لا نجزم بأنّ كل الفساد قد زال فی بلادنا و اقتلعت جذوره، إلّا أنّه ممّا لا شک فیه أنّه قد انخفض بدرجة کبیرة، و استعاد مجتمعنا سلامته بدرجة کبیرة.

و إذا استمر الوضع علی هذا المنوال بعون من اللّه، فإنّنا سنتمکن من حلّ جمیع المشاکل. و یبلغ مجتمعنا مرتبة الطهارة الکاملة، و یحفظ للمرأة مکانتها الرفیعة.

۲- استثناء الوجه و الکفلین

هناک اختلاف فی الرأی بین الفقهاء حول شمول حکم حجاب الوجه و الکفین من الرسغ إلی أطراف الأصابع، أم لا؟

الکثیر من الفقهاء یری أنّ تغطیة الوجه و الکفین مستثنی من حکم الحجاب، فی الوقت الذی أفتی آخرون بوجوب تغطیتها، أو فی الأقل احتاطوا فی وجوب تغطیتها، و طبیعی أنّ القول باستثناء وجوب الحجاب علی الوجه و الکفین هو فی حالة عدم نشوب فساد، و إلّا فیجب تغطیتها.

و هناک قرائن فی الآیة الشریفة تؤید هذا الاستثناء و یؤید الرأی الأوّل:

أ- استثناء الزینة الظاهر فی الآیة السابقة، سواء دلت علی أنّها تقصد موضع الزینة أو الزینة ذاتها، تکشف عن عدم وجوب تغطیة الوجه و الکفین.

ب- إن حکم الآیة السابقة بوجوب رمی أطراف خمار المرأة علی طرفی الیاقة یفهم منه تغطیة جمیع أجزاء الرأس و الرقبة و الصدر. و لم یتحدث هذا الحکم عن تغطیة الوجه، و هذا دلیل آخر علی هذا الرأی.

و لإیضاح ذلک نقول: کانت بعض نساء العرب یلبسن الخمار و یرمین طرفیة علی الکتفین بشکل تبقی الرقبة و جزء من الصدر مکشوفین، و قد أصلح الإسلام هذه الحالة، فأمر بتغطیة الرقبة و الصدر برمی طرفی الخمار علی جانبی یاقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۷

الثوب، لتبقی دائرة الوجه وحدها مکشوفة.

ج- کما جاءت أحادیث إسلامیة عدیدة فی هذا المجال تؤکّد ما ذهبنا إلیه ۵۶] مع وجود أحادیث معارضة لها، و لکنّها لیست بتلک الدرجة من الصراحة، و الجمع بینهما بالقول باستحباب تغطیة الوجه و الکفین- عند خشیة الفساد و الانحراف- أمر ممکن. کما تدل شواهد تاریخیة علی أنّ تغطیة الوجه بقناع لم تکن عامّة فی صدر الإسلام (ذکر شرح مفصل فقهی و روائی عن هذه القضیة فی البحوث الفقهیة عن النکاح).

إلّا أنّنا نؤکّد ثانیة أنّ هذا الحکم فی وقت لا یؤدی إلی استغلال أو انحراف.

کما یجب القول: إنّ استثناء الوجه و الکفین من حکم الحجاب لا یعنی جواز النظر بشکل عمومی من قبل الرجال، و إنّما هو نوع من التسهیلات التی منحت للمرأة فی الحیاة.

۳- ما المقصود من نسائهنّ؟

ذکرنا فی تفسیر الآیة السابقة أنّ تاسع مجموعة مستثناة بالاطلاع علی زینة النساء هنّ النساء الأخریات، و بملاحظة عبارة «نسائهنّ» ندرک أنّها تقصد النساء المسلمات، و لا یکشفن عن زینتهنّ لغیر المسلمات، و فلسفة ذلک، أنّه من المحتمل أن یصفن- غیر المسلمات- لأزواجهنّ ما شاهدنه من زینة النساء المسلمات.

و هذا لیس عملا صائبا من قبل المسلمات.

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی کتاب (من لا یحضره الفقیه): «لا ینبغی للمرأة أن تکشف بین یدی الیهودیة و النصرانیة فإنّهنّ یصفن ذلک لأزواجهنّ»[۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۸۸

۴- تفسیر عبارة أَوْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَ

لظاهر هذه العبارة مفهوم واسع، و یدل علی أنّه بإمکان المرأة الظهور دون حجاب بحضور عبدها، إلّا أنّ بعض الأحادیث صرّحت بأنّ ذلک یعنی فقط الظهور بین الجواری حتی لو کنّ غیر مسلمات، و لا یشمل هذا الحکم العبید.

ففی حدیث للإمام أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «لا ینظر العبد إلی شعر سیّدته»[۵۸].

و یستفاد من أحادیث أخری تعمیم هذا الحکم علی الجواری و العبید، إلّا أنّ ذلک خلافا للاحتیاط.

۵- تفسیر أُولِی الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجالِ

«الإربة» فی الأصل مشتقة من «أرب» علی وزن «عرب» و کما یقول الراغب الأصفهانی فی مفرداته، شدّة الحاجة التی تدفع بالإنسان إلی إیجاد حلّ لها.

کما استعملت بمعنی الحاجة بشکل عامّ. و القصد هما من «أولی الإربة من الرجال» الذین لهم رغبة جنسیة و هم بحاجة إلی زوجة، و علی هذا، فإنّ «غیر أولی الإربة» هم الرجال الذین لا رغبة جنسیة لدیهم أصلا.

و لکن من المقصود بذلک؟

هنالک اختلاف بین المفسّرین.

قال البعض منهم: إنّهم کبار السنّ الذین خمد لدیهم دافع الشهوة الجنسیة، (کالقواعد من النساء و النسوة اللاتی تجاوزت أعمارهن حدّ الزواج و هنّ کالمتقاعدات فی هذا المجال).

و قال آخرون: إنّ المقصود هو الخصی من الرجال.

و قال بعض المفسّرین: إنّه الرجل الخنثی، أی: الذی لا یمتلک آلة الرجولة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۸۹

إلّا أنّ التّفسیر الذی یمکن الاعتماد علیه. هو الذی جاء فی أحادیث مؤکّدة

عن الإمامین الباقر و الصادق علیهما السّلام: «هو الأحمق الذی لا یأتی النساء»

من أنّ القصد هنا هو الأبلة من الرجال الذی لا یحسّ برغبة جنسیة أبدا، و یستفاد منهم فی الأعمال البسیطة و خدمة الأفراد، و عبارة «التابعین» تؤکّد هذا المعنی ۵۹].

و بما أن هذا الوصف- أی عدم الشعور بالرغبة الجنسیة- فئة خاصّة من المسنین یصدق علی. فلا نستبعد إمکانیة توسعة مفهوم الآیة لیشمل هذه الفئة، و قد روی حدیث عن الإمام الکاظم علیه السّلام یؤکّد ذلک، بید أنّ ذلک لا یعنی أنّهم یصبحون من المحارم، غایة الأمر هو عدم وجوب تغطیة الرأس أو جزء من الیدین بحضور هذه المجموعة.

۶- أی طفل مستثنی من هذا الحکم؟

ذکرنا أنّ المجموعة الثّانیة عشرة- أی الأطفال الذین لم یبلغوا الحلم- مستثنون من حکم الحجاب.

و عبارة «لم یظهروا» تعنی أحیانا «لم یطلعوا» و أحیانا أخری «لم یعتدوا» لأنّها جاءت بهذین المعنیین، حیث استعملها القرآن مرّة بهذا المعنی، و أخری بالمعنی الثّانی، و مثال ذلک ما جاء فی الآیة (۲۰) من سورة الکهف إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ یَرْجُمُوکُمْ

و نقرأ فی الآیة الثّانیة من سورة التوبة کَیْفَ وَ إِنْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لا یَرْقُبُوا فِیکُمْ إِلًّا وَ لا ذِمَّةً.

إلّا أنّ هذا الفرق لیس له أثر کبیر بالنسبة للآیة موضع البحث. حیث المقصود فیها الأطفال الذین لیس لهم میول جنسیة، بسبب عدم قدرتهم و عدم اطلاعهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۰

و علی هذا یجب علی النساء المسلمات أن یتحجبن بحضور الأطفال الذین بلغوا مرحلة برزت فیها رغبتهم الجنسیة و قدرتهم علی ذلک.

۷- لماذا لم یذکر العم و الخال ضمن المحارم؟

یطرح هذا السؤال بعد دراسة الآیات السابقة: لماذا لم یذکر العم و الخال ضمن المحارم- قط- و هم من المحارم؟

ربّما کان القرآن قد استهدف البلاغة فی تعابیره بعدم ذکر أیّة کلمة إضافیة، فقد دلّ استثناء ابن الأخ و ابن الأخت علی أنّ العمّة و الخالة تعتبران من محارم الرجل، و یتّضح بذلک أن العم و الخال لإحدی النساء هما من محارمها.

و بعبارة أخری: إنّ الحرمة ذات جانبین، فمن جهة بنات الأخت و بنات الأخ من محارم الرجال، و إنّه من الطبیعی سیکون من الجهة الثّانیة العمّ و الخال من المحارم «فتدبّر».

۸- تحریم سبل الإثارة!

آخر کلام فی هذا المجال هو أنّ الآیة السابقة نصّت علی حرمة المشی بقوّة من قبل النساء لیسمعن صوت الخلخال.

و هذا یدل علی دقّة الأحکام الإسلامیة و مبلغ اهتمامها بالقضایا الخاصّة بعفّة الناس و شرفهم، بحیث لا یسمح معها بالقیام بمثل هذه

الأعمال.

و من البداهة أن لا يسمح الإسلام بإثارة شهوات الشباب، عن طريق نشر الصور الخلاعية، و الأفلام المثيرة للشهوات، و القصص و الروايات الجنسية، و لا ريب فى أنّ البيئة الإسلامية يجب أن تكون طاهرة سليمة من هذه الأمور التى تجرّ أفرادها إلى مهاوى الفساد و ظلماته، و تدفع بالشباب و الشابات نحو الانحطاط الخلقى و الرذيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۱

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشارة

وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (۳۲) وَ لْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۳) وَ لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (۳۴)

التّفسير

الترغيب فى زواج يسير التكاليف:

طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلا أمينة متعدّدة للحيلولة دون الانحطاط الخلقى و الفساد، فكلّ واحد من هذه السبل يرتقى بالأمّة فردا و جماعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۲

إلى عالم أرحب من الطّهر و الاستقامة، و يحول دون تقهقرها أو انحدارها فى مهاوى الرّذيلة، و قد أشارت الآيات- موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا و هو الزواج اليسير الذى يتمّ بعيدا عن أجواء الرياء و البذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم و شرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب، أو بعبارة أخرى: كل مكافحة سلبية لا بدّ أن ترافقها مكافحة إيجابية.

لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: وَ أَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ

و «الأيامى» جمع «أيّم» على وزن «قيّم» و تعنى فى الأصل المرأة التى لا زوج لها، و كذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كلّ من ليس له زوج، سواء كان بكرا أم ثيّبا.

و عبارة «أنكحوا» أى «زوّجوا»- و بما أنّ الزواج يتمّ بالتراضى و حرية الإختيار الطرفين، فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج، عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج و الاستفادة من وساطة الأشخاص لحلّ المشاكل المستجدة.

و باختصار: إنّ مفهوم الآية واسع، حتى أنّه ليضم كلّ خطوة و حديث فى هذا المجال. و لا اختلاف فى أنّ أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

و جاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهميّة الزواج الخاصّة. و هى أهميّة بالغة المدى، إذ

ورد حديث بصددها عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قوله: «أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع اللّه

بینهما».[۶۰]

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام موسی الکاظم علیه السّلام قوله: «ثلاثة یستظلون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۳

بظلّ عرش اللّه یوم القیامة، یوم لا ظلّ إلّا ظلّه، رجل زوّج أخاه المسلم، أو خدمه، أو کتم له سرّا»[۶۱].

کما

جاء فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قوله فی الذی یسعی لزواج أخیه المسلم «کان له بکلّ خطوة خطاها، أو بکلّ کلمة تکلم بها فی ذلک عمل سنة قیام لیلها و صیام نهارها»[۶۲].

و بما أنّ بعض الإعذار کالفقر أو عدم وجود و توفّر الإمکانات اللازمة قد تقف حائلا دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج و تشکیل الأسرة. یقول القرآن بهذا الصدد: إِنْ یَکُونُوا فُقَراءَ یُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِیمٌ

إنّ قدرة اللّه واسعة سعة تشمل عالم الوجود کلّه، و علمه واسع یحیط بما خفی و بما ظهر من المقاصد و الأفعال، خاصّة الذین یقدمون علی الزواج ابتغاء المحافظة علی عفتهم و طهارتهم، و بهذا یشمل اللّه الجمیع بفضله و کرمه.

و لنا فی هذا المجال دراسة و تحلیل، و سنذکر أحادیث عدیدة فی نهایة هذا البحث.

و لکن أحیانا بالرغم من بذل الجمیع جهودهم لتهیئة مستلزمات زواج إنسان ما لا یفلحون فی ذلک، ممّا یضطره إلی مضی فترة من الزمن محروما من الزواج، و لکی لا یظنّ أن إقدامه علی الفساد أمرا مباحا تقتضیه الضرورة أسرعت الآیة التالیة لتأمره بالطهارة و العفّة فقالت: وَ لْیَسْتَعْفِفِ الَّذِینَ لا یَجِدُونَ نِکاحاً حَتَّی یُغْنِیَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

فیجب علیه تجنّب التلوث و الفساد فی هذه المرحلة المتأزّمة و مواجهة الامتحان الإلهی، حیث لا یقبل أی عذر منه، فلا بدّ أن یمتحن قوّة إیمانه و شخصیته و تقواه فی هذه المرحلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۴

و یهتم الإسلام کعادته بالعبید الضعفاء اجتماعیا من أجل تیسیر حریتهم، فیتناول القرآن المجید مسألة المکاتبة (و هی تعهد الغلام بتوقیعه اتفاقا ینص علی القیام بعمل معیّن أو دفع مبلغ مقابل عتقه)، فتقول الآیة وَ الَّذِینَ یَبْتَغُونَ الْکِتابَ مِمَّا مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ فَکاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِیهِمْ خَیْراً.

و تقصد عبارة عَلِمْتُمْ فِیهِمْ خَیْراً أی قد بلغوا من النمو الجسمی و وجدتم فیهم صلاحیة لإبرام العقد، و قدرتهم علی إنجاز ما تعهدوا به.

أمّا إذا لم یتمکنوا من الوفاء بما عاهدوا علیه، فلا ینبغی مکاتبتهم و عتقهم، لأنّ فی ذلک ضررا علیهم و علی المجتمع، فیجب تأجیل ذلک إلی وقت آخر یؤهّلهم من حیث القدرة و الصلاحیة، و لأجل ألا یقع العبید فی مشاکل لا یتمکنون من حلّها و یعجزون عن تسدید ما بذمتهم، یدعو القرآن الکریم إلی مساعدتهم فیقول: وَ آتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِی آتاکُمْ

هناک اختلاف حول هذا المال بین المفسّرین: فقال عدد کبیر منهم:- إنّه حصة من الزکاة، مثلما نصت علیه الآیة (۶۰) من سورة التوبة. لیتمکن العبید من الوفاء بدینهم و انعتاقهم.

و قال آخرون: علی مالک الغلام أن یتبرع بقسم من أقساط الدّین، أو یساعده بإعادته إلیه، لیتمکن من الحیاة الحرّة.

کما یحتمل أن المقصود هنا منح العبید فی البدایة مبلغا للإنفاق، أو جعله رأسمال لهم لیمکنهم من التجارة و العمل و إدارة شؤونهم الخاصّة، و دفع الأقساط التی بذمّتهم، و طبیعی أنّ التفاسیر الثلاثة هذه غیر متناقضة. و یمکن للآیة السابقة أن تستوعبها جمیعا.

و الهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «تضع عنه من نجومه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۵

التى لم تكن تريد أن تنقصه، و لا تزيد فوق ما فى نفسك»[۶۳].

إشارة إلى مجموعة من الناس كانوا يكاتبون عبيدهم بمبالغ أكبر ممّا يعطونهم، و يتظاهرون بمساعدتهم. و قد نهى الإمام الصادق عليه السّلام عن ذلك مبيّنا أنّه يجب أن يكون التخفيض حقيقيّا.

و عقّبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التى كان يمارسها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: وَ لا تُكْرِهُوا فَتَياتِكُمْ عَلَى الْبِغاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا.

قال بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية: كان عبد اللّه بن أبى يملك ست جوار يجبرهن على البغاء، و عند ما نزلت آيات قرآنية تنهى عن الفحشاء جئن إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عرضن شكواهن على سيّدهنّ عنده، فنزلت الآية أعلاه و نهت عن ارتكاب هذا الإثم ۶۴].

و هذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة و الانحطاط الخلقى الذى كان سائدا فى عهد الجاهلية. و قد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، و أنهت هذه الأعمال.

و مع بالغ الأسف نجد عصرنا الذى سمى بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة و على قدم و ساق فى بلدان تدّعى المدنية و الحضارة و الدفاع عن حقوق الإنسان. و كذلك كان الوضع فى بلادنا على عهد الطاغوت، إذ كان هذا العمل القبيح يمارس ببشاعة و مرارة، و كان البعض يخدع البنات البريئات و النساء الجاهلات، و يدفع بهنّ إلى مراكز الفساد، و يجبرهنّ على القيام بأعمال الرذيلة و الفساد، و يغلق أبواب النجاة بوجوههنّ ليجنى ثروات طائلة و تفصيل الكلام فى ذلك مؤلم و خارج عن عهدة هذا الكتاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۶

و بالرغم من أن العالم المعاصر يدّعى التحضّر و إزالة معالم العبودية القديمة، إلّا أنّ الجرائم و المفاسد الخلقية تشيع بشكل أكثر توحّشا من كلّ ما حدث فى غابر الأيّام، و نسأل اللّه أن يحفظ الإنسانية من شرّ هؤلاء الذين يدّعون التمدّن.

كما نحمده و نشكره على زوال هذه المعالم من إيران بعيد انتصار الثورة الإسلامية.

و جدير بالذكر أنّ عبارة إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لا تعنى فى مفهومها أنهنّ إن رغبن فى الفساد فلا مانع من إجبارهن، بل تعنى نفى الموضوع بشكل تامّ من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع، لأنّ مسألة الإكراه تصدق فى حالة عدم الرغبة فيه. و إلّا فبيع الجسد و إشاعة هذا الفعل بأية صورة كانت هو من كبائر الذنوب.

و جاءت هذه العبارة لتثير غيرة مالكى الجوارى إن كان لهم أدنى غيرة، و مفهومها أنّ الجوارى مع أنهنّ من الطبقة الدانية و لكن لا يرغبن فى ارتكاب الفاحشة. فلما ذا ترتكبون هذه الأعمال المنحطة على الرغم من تصوركم أنّكم طبقة راقية؟

و فى الختام- على حسب الأسلوب الذى يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، و يشجعهم على إصلاح أنفسهم: وَ مَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْراهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و يمكن أن تكون هذه الجملة- كما قلنا- إشارة إلى الوضع السائد بين ملّاك الجوارى الذين غلب عليهم الندم، و استعدوا للتوبة و إصلاح أنفسهم.

أو تكون هذه الجملة إشارة إلى النسوة اللواتى يرتكبن هذا العمل القبيح بإكراه من قبل أسيادهنّ.

و على نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج و تلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: وَ لَقَدْ

أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ و كذلك دروس و عبر من الأقوام الماضية تنفعكم فى يومكم هذا: وَ مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۷

مسائل مهمّة:

۱- الزواج سنّة إلهية

على الرغم من أن الزواج فى الوقت الحاضر قد تعقد بما أحاطته الأعراف الاجتماعية من عادات خاطئة و خرافية أحيانا، فأصبح طريقا صعبا لا يتمكن الشاب من سلوكه، فإنّه لو اجتزنا هذه العراقيل لأدركنا أنّ الزواج تعبير فطرى منسجم مع قانون الخليقة و ضرورى لبقاء نسل الإنسان، و سكن لروحه، و راحة لجسمه، و حل للمشاكل النفسية و الاجتماعية. فالإسلام يخطو بانسجام مع الخلق، و له تعابير جميلة مؤثرة، و من جملتها

حديث مشهور عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «تناكحوا و تناسلوا تكثروا. فإنّى أباهى بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط»[۶۵].

و نقرأ

حديثا آخر له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق اللّه فى النصف الباقى»[۶۶].

و السبب فى كلّ هذا الاهتمام هو أنّ الغريزة الجنسية من أقوى و أشرس الغرائز فى الإنسان، و تنافس الغرائز الأخرى بأجمعها، و انحرافها يعرّض دين المرء إلى الخطر، و لذا يعلو صوت

حديث نبوى آخر: «شراركم عزّابكم»[۶۷]

لهذا شجعت الآيات- موضع البحث- و أحاديث عديدة المسلمين على التعاون فى تزويج العزّاب، و تقديم ما بوسعهم من مساعدات فى هذا السبيل.

و قد حمّل الدّين الإسلامى الآباء مسئولية كبيرة عن أبنائهم، و الآباء الذين يتصرّفون دون مبالاة إزاء هذه القضية، فإنّهم يشاركون فى انحراف أبنائهم. كما نقرأ

فى حديث للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من أدرك له ولد و عنده ما يزوجه فلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۹۸

يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما!»[۶۸].

و قد أكّدت تعاليم الإسلام- لهذا السبب أيضا- بالتيسير فى نفقات الزواج و المهر، لإزالة الحواجز من طريق العزّاب. خاصّة إذا علمنا أنّ المهر الغالى يقف حجر عثرة فى وجه زواج العزّاب.

ففى حديث للرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «من شؤم المرأة غلاء مهرها»[۶۹].

و

جاء فى حديث آخر أعقب الحديث السابق: «من شؤمها شدّة مؤونتها»[۷۰].

و قد صرّحت الآية السابقة بأنّ الفقر لا يمكن أن يكون مانعا للزواج، و قد يغنى اللّه المرء بالزواج.

و بهذا حكمت الآية و أدانت الذين يفرون من الزواج بحجّة أنّهم فقراء، و لا يتحملون هذه المسؤولية الإلهية و الإنسانية، بأعذار واهية.
و السبب فى التأكيد على الزواج، هو أنّ المرء يشعر بعد زواجه بمسؤوليته فى الحياة، فيزج قواه للكسب الحلال. بينما نجد العزاب فى معظم الحالات مشردين! لعدم شعورهم بالمسؤولية. و المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسئولا عن المحافظة على زوجته، و ماء وجه أسرته، و تأمين حياة سعيدة و مستقبل زاهر لها. و يستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد فى نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، لهذا
ذكر الإمام الصادق عليه السّلام «الرزق مع النساء و العيال»[۷۱].
جاء فى حديث للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين شكا رجل إليه فقره فأجابه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:
«تزوّج».
فتزوّج فوسع له ۷۲].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۹۹
و لا جدال فى أنّ الإمدادات الإلهية و القوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذى تزوج ليحفظ نفسه و يطهرها. و على كلّ مؤمن أن يطمئن لما وعده اللّه، فقد
ذكر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنّه باللّه، إن اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۷۳].
و هناك أحاديث عديدة فى هذا المجال، لو تناولناها جميعا بالبحث لخرجنا عن بحثنا التّفسيرى هذا.

۲- المراد من عبارة وَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَ إِمائِكُمْ

ممّا يلفت النظر فى الآيات موضع البحث أنّها حين التحدّث عن زواج الرجال و النساء الأيامى تأمر بالتعجيل فى الزواج، و عدم وضع العراقيل فى وجهه، أمّا بالنسبة للعبيد و الجوارى، فتطلب توفر شرط الصلاح فيهم للزواج.
و ذهب عدد من المفسّرين (كالكاتب العظيم صاحب تفسير الميزان، و كذلك صاحب تفسير الصافى) إلى صلاحيتهم للزواج فى حين أن هذا الشرط يجب أن يتوفر فى النساء و الرجال الأحرار أيضا.
و قال البعض الآخر: إنّه يقصد الصلاح من ناحية الأخلاق و العقيدة، لأنّ الصالحين يتمتعون بمكانة خاصّة من هذه الجهة، و لكن السؤال يبقى على حاله:
لماذا لم يرد هذا الشرط فى الأحرار؟
و يحتمل أن يكون المراد غير هذا:- إذ أنّ أكثر العبيد فى تلك الفترة فى مستوى ثقافى و أخلاقى واطئ، فلا يشعرون بأيّة مسئولية، و لا يقدرون المشاعر المشتركة فى الحياة. فلو تزوجوا لتركوا زوجاتهم بسهولة، و من هنا استوجبت الآية التأكد من صلاحيتهم للزواج.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۰
و مفهوم هذه الآية أن يعدّوا العبيد للزواج أوّلا بتهذيب أخلاقهم و زيادة صلاحهم، ليكونوا بمستوى المسؤولية التى تقع على عاتقهم بعد الزواج.

۳- ما هو عقد المكاتبة؟

قلنا: إنّ الإسلام وضع برنامج التحرر التدريجى للعبيد، و استفاد من كل فرصة لعتقهم، فكانت قضية «المكاتبة» حكما يجب اتباعه، كما نصّت عليه الآيات موضع البحث.

و تشتق «المكاتبة» من الكتابة، و الكتابة فى الأصل مشتقّة من «كتب» بمعنى «الجمع» أى: جمع الحروف و الكلمات. و بما أنّ العقد بين المولى و العبد يتمّ بكتابة موادّ يتفق عليها، فلذلك سمّيت «مكاتبة». فعقد المكاتبة نوع من الاتفاقات يتمّ بين المولى و عبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطا لسيّده، فإذا دفع آخر قسط ينال حريته.

و أمر الإسلام ألا تتجاوز هذه الأقساط ثمن العبد نفسه.

و إذا عجز العبد لسبب ما عن دفع الأقساط المترتبة بذمّته، وجب أن تسدّد هذه الأقساط من بيت المال أو من الزكاة ليعتق، حتّى أنّ بعض الفقهاء قال بصراحة: إذا تعلقت زكاة بذمّة السيّد، وجب عليه احتساب هذه الأقساط منها، و هذا العقد لازم التنفيذ، و لا يمكن فسخه من أىّ طرف من طرفى العقد.

و يتّضح بذلك كيف يجعل هذا المشروع عتق العبيد يسيرا، ليعيشوا أحرارا مستقلين حتى فى فترة إعداد الأقساط، كما أن أسيادهم لا يتضررون بذلك، فلا يدفعهم هذا إلى إلحاق الأذى بعبيدهم.

و لعقد المكاتبة أحكام و فروع عديدة مذكورة فى الكتب الفقهية فى باب المكاتبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰۱

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۵ الى ۳۸]

اشارة

اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳۵) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ (۳۶) رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ (۳۷) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۸)

التّفسير

آية النور!

تحدث الفلاسفة و المفسّرون و العرفاء الإسلاميون كثيرا عن مقاصد الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰۲

أعلاه، و هى مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التى عرضت لقضية العفة و مكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

و بما أنّ ضمانة تنفيذ الأحكام الإلهية، و خاصّة السيطرة على الغرائز الثائرة، و لا سيّما الغريزة الجنسية التى هى أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الاستناد إلى الإيمان، و من هنا امتد البحث إلى الإيمان و أثره القوىّ، فقالت الآية أوّلا: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

ما أحلى هذه الجملة! و ما أثمنها من كلمات! أجل إنّ اللّه نور السموات و الأرض ... النور الذى يغمر كلّ شىء و يضيئه.

و يرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «النّور» تعنى هنا «الهادى»، و ذهب البعض الآخر أنّ المراد هو «المنير». و فسّرها آخرون ب «زينة

السماوات و الأرض».

و كلّ هذه المعانى صحيحة، سوى أنّ مفهوم هذه الآية أوسع بكثير ممّا ذكر، فالقرآن المجيد و الأحاديث الإسلامية فسّرت النور بأشياء عدّة منها:

۱- «القرآن المجيد»:- ذكرت الآية (۱۵) من سورة المائدة: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ و جاء فى الآية (۱۵۷) من سورة الأعراف وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِى أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

۲- «الإيمان» ذكرت الآية (۲۵۷) من سورة البقرة. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

۳- «الهداية الإلهية» مثلما جاء فى الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها؟! ۴- «الدين الإسلامى» كما نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة التوبة: وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

۵- النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- نقرأ عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية (۴۶) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۳

الأحزاب: وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً.

۶- الأئمة الأطهار: كما جاء فى الزيارة الجامعة لهم: «خلقكم اللّه أنوارا فجعلكم بعرشه محدّقين». و كذلك فى نفس هذه الزيارة «و أنتم نور الأخيار و هداة الأبرار».

۷- «العلم و المعرفة» حيث عرّف بالنور كما جاء فى الحديث المشهور «العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».

كلّ هذه من جهة، و من الجهة الأخرى علينا التدقيق فى خصائص النور و ميزانه، ليتّضح أنّه يمتاز بما يلى:

۱- النور أجمل و ألطف ما فى العالم، و هو مصدر لكلّ جمال و لطف! ۲- النور أسرع الأشياء، كما ثبت لمشهورى العلماء الكبار فى العالم، إذ تبلغ سرعته ثلاثمائة ألف كيلومتر فى الثّانية. و بإمكانه الدوران حول الكرة الأرضية سبع مرات فى طرفة عين (أقلّ من ثانية واحدة).

و لهذا السبب تقاس المسافات الهائلة بين النجوم فقط بسرعة الضوء، و الوحدة المستعملة فى هذا المجال هى السنة الضوئية، أى: المسافة التى يقطعها الضوء و هو بتلك السرعة الهائلة- فى سنة واحدة.

۳- بالنور يمكن مشاهدة الأشياء فى العالم، و من دونه يستحيل رؤية أىّ شىء، فالنور ظاهر بنفسه و مظهر لغيره.

۴- إنّ ضوء الشمس يعدّ من أهم أنواع النور فى عالمنا، فهو ينمى الأزهار و النباتات و به تستمرّ الحياة، بل هو رمز بقاء المخلوقات الحيّة، و لا يمكن لموجود حىّ أن يستمرّ فى الحياة دون أن يستفيد من نور الشمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

۵- ثبت اليوم أن جميع الألوان يمكن مشاهدتها بنور الشمس أو الأنوار الأخرى، و لولاها لعاشت المخلوقات فى عتمة قاتمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۴

۶- إنّ جميع أنواع الطاقة الموجودة فى محيطنا (باستثناء الطاقة النووية) مصدرها الشمس من قبيل حركة الرياح، سقوط المطر، و حركة الأنهر و الوسائط فيها و الشلالات و لو دققنا فى حركة جميع المخلوقات الحية لوجدناها ترتبط بنور الشمس.

مصدر الحرارة و تدفئة الأحياء كلها هو الشمس، حتى أن حرارة النار المتولدة من الخشب أو الفحم أو الفحم الحجرى أو النفط و مشتقاته مصدرها حرارة الشمس. لأنّ هذه الأشياء بحسب الدراسات العلمية تعود إلى النباتات أو الحيوانات، و هذه بدورها قد استفادت من نور الشمس و حرارتها، فخزنت الفائض منها فى جسمها، لهذا فإنّ حركة المحركات و المكائن أيضا من بركات الشمس.

۷- نور الشمس قاتل الميكروبات و المخلوقات المضرّة، و بفقدان هذا النور تتبدّل الأرض إلى مستشفى كبير قد ابتلى سكانها بأنواع

الأمراض و يصارعون الموت بين لحظة و أخرى! و كلما دققنا فى عالم النور الذى يشكل ظاهرة فريدة، يتّضح لنا أثره البالغ الأهمية و بركاته العظيمة.

و بملاحظة هاتين المقدمتين إذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمة التى لا نظير لها و لا شبيه) فلا نجد خيرا من النور؟! اللّه الذى خلق كل شىء فى عالم الوجود و نوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، و رزقها من فضل، و لو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع فى ظلمات الفناء و العدم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط باللّه بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام اللّه.

و الدين الإسلامى نور لأنّه دينه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰۵

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

و الأئمّة المعصومون عليهم السّلام أنوار إلهية، لأنّهم حفظة دينه بعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و الإيمان نور، لأنّه رمز الالتحام به سبحانه و تعالى.

و العلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته- عزّ و جلّ-.

و لهذا: اللّه نور السموات و الأرض.

و إذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أى الظاهر فى ذاته و المظهر لغيره فى هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات اللّه المقدسة حقيقة و لا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من اللّه تعالى فى العالم، و كلّ الأشياء تظهر من بركات وجوده.

و

جاء فى كتاب التوحيد، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام حين سئل عن معنى قوله تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قال «هاد لأهل السموات، و هاد لأهل الأرض».

و هذه فى الواقع واحدة من خصائص النور الإلهى، و لا يمكن حصره بهذه الخصيصة، و لهذا يمكن جمع كلّ ما قيل فى تفسير هذه الآية، و كلّ تفسير هو إشارة إلى أحد أبعاد هذا النور الذى لا مثيل له.

و الجدير بالذكر ما جاء فى الفقرة السابعة و الأربعين من دعاء الجوشن الكبير الذى يحتوى على صفات اللّه تعالى:

«يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبر النور، يا مقدر النور، يا نور كلّ نور، يا نورا قبل كلّ نور، يا نورا بعد كلّ نور، يا نورا فوق كلّ نور، يا نورا ليس كمثله نور»

و بهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره و تنتهى بنوره الطاهر.

و قد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذ ذكر مثالا رائعا دقيقا لكيفية النور الإلهى: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكاةٍ فِيها مِصْباحٌ الْمِصْباحُ فِي زُجاجَةٍ الزُّجاجَةُ كَأَنَّها كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ عَلى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰۶

الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و لشرح هذا المثال يجب الإلمام بعدة أمور:

«المشكاة» فى الأصل تعنى الكوّة التى تخصص فى الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح، و أحيانا تبنى فى الجدار فتحة صغيرة، يغطى جانبها المشرف على ساحة الدار بالزجاج، لإضاءة داخل و خارج الغرفة كما تحفظ المصباح من الرياح. كما تطلق

هـذه الكلمـة على وعـاء (الفانوس القـديم) يصـنع من زجاج على شـكل متوازى المسـتطيلات له باب و فتحـة فى أعلاه لخروج الهواء الساخن. و كانوا يضعون المصباح فيه.

و باختصار نقول: إنّ المشكاة محفظة للمصباح من الرياح الشديدة، و غالبا ما يثبت فى الجدار لتركيز الضوء و سهولة انعكاسه.

«الزجاجة» تطلق فى الأساس على الأحجار الشفّافة، و سمّيت الصفائح الشفافة بالزجاج لأنّها تصنع من مواد معدنية، و الزجاجة هنا تعنى الزجاجة التى توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، و تنظّم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح» يتألف من وعاء للزيت و فتيل.

عبارة يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ تشير إلى الطاقة التى تجهّز هذا المصباح بوقود لا ينضب معينه. و زيت الزيتون من أجود الوقود المسـتعمل للمصابيح، ثمّ أن هذا الزيت يحصل عليه من زيتون شـجر يتعرّض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا ـ أن تكون الشـجرة فى الجانب الشـرقى من البسـتان و بجانب حائط يمنع وصول أشـعة الشـمس إليها، كما لا تكون فى جهـة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس، فلا تنضج ثمرتها بصورة جيدة و لا يكون زيتها نقيا و صافيا.

و بعد هذا الإيضاح يتبيّن أنّنا للاستفادة من نور المصباح بإشعاع قوىّ نحتاج إلى توفر أربعة أشياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۷

«محفظة للمصـباح» لا تقلل من نوره، بل تركز هذا النور و تعكسه و «زجاجة» تنظم جريان الهواء حول الشعلة، و يجب أن تكون شفّافة بدرجة لا تمنع تشعشع النور، و «مصباح» هو مصدر النور، و هو عبارة عن إناء فيه زيت و فى أعلاه الفتيل.

و أخيرا «مادة الاحتراق» صافية خالصة شـفّافة مسـتعدة للاشـتعال بدرجة يتصوّر فيها الإنسان إنّها سوف تشـعل لوحدها دون أن يمسّـها قبس من النار.

كلّ هذه العبارات تكشف فى الحقيقة عن ظاهر القضية.

و من جهة أخرى أورد كبار المفسّرين تفاسير عديدة بشأن هذا التشبيه و أنّه ما هو «المشبّه» و من أىّ نور إلهى يكون:

قـال البعض: المقصـود هنـا نور الهدايـة الـتى يجعله اللّه فى قلوب المؤمنين، و بعبـارة أخرى: المقصود الإيمـان الـذى اسـتقرّ فى قلوب المؤمنين.

و قال آخرون: إنّ المشبّه يعنى هنا القرآن الذى ينير قلوب الناس.

و آخرون: إنّه إشارة إلى شخص النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و آخرون: إنّه إشارة إلى أدلة التوحيد و العدل الإلهى.

و آخرون: إنّه روح الطاعة و التقوى التى هى أساس كلّ خير و سعادة.

و فى الحقيقة فإنّ هذه التفاسـير قد أوردت كلّ ما جاء فى القرآن و الأحاديث الإسلامية بعنوان مصاديق للنور، و جوهرها واحد، و هو نـور الهدايـة بـذاته، و مصـدره القرآن و الـوحى و وجود الأنبيـاء، و ينهـل من أدلـة التوحيـد، و نـتيجته التسـليم بحكم اللّه و التمسـك بالتقوى.

و توضيح ذلك: إنّ نور الإيمان الموجود فى قلوب المؤمنين يحتوى على العناصر الأربعة المتوفرة فى المصباح المضىء، هى:

«المصباح» و هو شعلة الإيمان فى قلب المؤمن يضىء طريق الهداية.

و «الزجاجة» هى قلب المؤمن ينظم الإيمان فى ذاته و يحفظه من كل سوء.

و «المشكاة» صدر المؤمن، أو بعبارة أخرى: شخصيته بما فيها وعيه و علمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۰۸

و فكره الذى يصون إيمانه من الأعاصير و الأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هى الوحى الإلهى الذى يكون بمنتهى الصفاء و الطهارة و توقد شعلة إيمان المؤمنين- فى الحقيقة- من نور اللّه الذى ينير السموات و الأرض و قد. شرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم و نور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلّة العقلائية بنور الوحى، فيكون مصداق «نور على نور».

و لهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهى تهتدى، و هى المقصودة بعبارة يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ و على هذا فإنّ المحافظة على النور الإلهى (نور الهداية و الإيمان) يستوجب توفر مجموعة من المعارف و العلوم و الوعى و الأخلاق و بناء الذات، من أجل أن تكون كالمشكاة تحفظ هذا المصباح.

كما تحتاج إلى قلب مستعد لينظّم هذا النور الإلهى كما تنظم الزجاجة شعلة المصباح.

و تحتاج إلى مدد من الوحى، ليمنحها طاقة مثلما تمنحها الشجرة التى سمّاها القرآن بعبارة شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ.

و تجب المحافظة على نور الوحى من التلوث و الميول المادية و الانحراف إلى الشرق أو الغرب الذى يؤدّى إلى التفسخ و الاندثار.

و لتعبئ قوى الإنسان بشكل سليم بعيدا عن كلّ فكر مستورد و انحراف، لتكون مصداقا ل يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ.

و كلّ تفسير يتضمّن حكما مسبقا و يتضمّن ذوق المفسّر و عقيدته الخاصّة به، أو رغبة يسارية أو يمنية، أو خرافة يؤدى إلى تلويث سمعة هذه الشجرة المباركة، و يقلل من تشعشع مصباحها. و أحيانا يطفئه.

هذا هو المثال الذى ذكره اللّه لنوره فى هذه الآية، و هو الذى أحاط بكلّ شىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۰۹

علما.

و ممّا سلف يتّضح لنا أن ما ذكرته الرّوايات عن الأئمّة المعصومين عليهم السّلام بخصوص تفسير هذه الآية أنّ المشكاة هى قلب نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المصباح نور العلم، و الزجاجة وصية على عليه السّلام، و الشجرة المباركة إبراهيم الخليل عليه السّلام الذى يرجع نسب بيت النبوّة إليه، و عبارة لا شَرْقِيَّةٍ وَ لا غَرْبِيَّةٍ تعنى نفى أىّ ميل إلى اليهودية و النصرانية فهو وجه آخر لنور الهداية و الإيمان، و مصداق واضح لها، و لا يعنى أنّ هذه الآية مختصة بهذا المصداق.

كما أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ النور الإلهى هو القرآن، أو الأدلة العقلائية، أو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذاته، له جذور مشتركة بالتّفسير أعلاه.

و قد شاهدنا حتى الآن خصائص هذا النور الإلهى، نور الهداية و الإيمان من خلال تشبيهه بمصباح قوىّ الإضاءة.

و يجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، و شكل موضعه؟ ليتّضح لنا ما كان ضروريا إيضاحه فى هذا المجال. لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ لكى تكون فى مأمن من الشياطين و الأعداء و الانتهازيين وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ و يتلى فيها القرآن و الحقائق الإلهية.

و قد اعتبر العديد من المفسّرين هذه الآية مرتبطة كما قلنا بالآية التى سبقتها[۷۴]. غير أن البعض من المفسّرين يرى أنّ هذه الجملة ترتبط بالجملة التى تليها، إلّا أنّ ذلك بعيد عن الصواب.

أمّا ما أورده البعض و تساءل عن مدى تأثير هذا النور الباهر فى البيوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۰

المذكورة بتلك الخصوصيات، فجوابه واضح، لأنّ البيوت التى ورد ذكرها فى هذه الآية و التى يحرسها رجال أشداء يقظون، هم الذين يحفظون هذه المصابيح المنيرة، إضافة إلى أن هؤلاء الرجال يبحثون عن مصدر نور، فيهرعون إليه بعد أن يتعرّفون على موضع هذا النور.

و لكن ما المقصود من هذه البيوت؟

الجواب يتّضح بما ذكرته آخر الآية من خصائص حيث تقول: أنّه فى هذه البيوت يسبّح أهلها صباحا و مساء: يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ ۷۵].

رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَ الْأَبْصارُ إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هى المراكز التى حصّنت بأمر من اللّه، و أنّها مركز لذكر اللّه و لبيان حقيقة الإسلام و تعاليم اللّه، و يضم هذا المعنى الواسع المساجد و بيوت الأنبياء و الأولياء خاصّة بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيت علىّ عليه السّلام. و لا دليل يؤيّد حصرها من قبل بعض المفسّرين- بالمساجد أو بيوت الأنبياء و أمثالها.

و

فى الحديث المروى عن الإمام الباقر عليه السّلام «هى بيوت الأنبياء و بيت علىّ منها»[۷۶].

و

فى حديث آخر حيث سئل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا قرأ الآية، أى بيوت هذه؟ فقال:

«بيوت الأنبياء» فقام أبو بكر فقال: يا رسول اللّه، هذا البيت منها، يعنى بيت علىّ و فاطمة. قال: «نعم، من أفاضلها»[۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۱

و كل ذلك إشارة إلى مصاديق واضحة تذكرها الأحاديث كعادتها حين تفسير القرآن.

أجل، إنّ كلّ مركز يقام بأمر من اللّه، و يذكر فيه اسمه و يسبح له فيها بالغدو و الآصال، و فيه رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر اللّه، فهى مواضع لمشكاة الأنوار الإلهية و الإيمان و الهداية.

و لهذه البيوت عدّة خصائص.

أوّلها: أنّها شيّدت بأمر من اللّه.

و الأخرى: إن جدرانها رفعت و أحكم بناؤها لتمنع تسلل الشياطين.

و ثالثها: أنها مركز لذكر اللّه.

و أخيرا: فإنّ فيها رجالا يحرسونها ليل نهار، و هم يسبحون اللّه، و لا تلهيهم الجواذب الدنيوية عن ذكر اللّه.

هذه البيوت بهذه الخصائص، مصادر للهداية و الإيمان.

و لا بدّ من التنبيه إلى ورود كلمتين فى هذه الآية هما «التجارة» و «البيع» و هما كلمتان تبدوان و كأنّ لهما معنى واحدا، إلّا أنّ الفرق بينهما هو أنّ التجارة عمل مستمر، و البيع ينجز مرة واحدة، و قد تكون عابرة.

و يجب الالتفات إلى أنّ الآية لم تقل: أنّ هؤلاء لا يمارسون أبدا التجارة و البيع بل قالت: إنّهم لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه.

إنّهم يخافون يوم القيامة و العدل الإلهى الذى تتقلّب فيه القلوب و الأبصار من الخوف و الوحشة (و يجب الانتباه إلى أنّ الفعل المضارع، «يخافون» يدلّ على الاستمرار فى الخوف، و هذا الخوف هو الذى دفعهم إلى تحمل مسئولياتهم، و لبلوغ رسالتهم فى الحياة).

و أشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافى لحراس نور الهداية و عشّاق الحقّ و الحقيقة، فقالت: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۲

و لا عجب فى ذلك، لأنّ الفضل الإلهى لمن كان جديرا به غير محدود: وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ

و قال بعض المفسّرين عما تعنيه عبارة أَحْسَنَ ما عَمِلُوا فى هذه الآية، أنّها إشارة إلى جميع الأعمال الطيبة، سواء كانت واجبة أم مستحبة، صغيرة أم كبيرة.

و يرى آخرون أنّها إشارة إلى أنّ اللّه يكافئ الحسنة بعشر أمثالها، و أحيانا بسبعمائة مثلها، حيث نقرأ فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها. كما جاء فى الآية (۲۶۱) من سورة البقرة حول جزاء المنفقين فى سبيل اللّه أنّ المكافأة تعادل سبعمائة مرة أو ضعفها.

كما يمكن أن تفسّر العبارة السابقة بأنّ المقصود هو أنّ اللّه يكافئ جميع أعمالهم بموجب أفضلها، و يشمل ذلك أبسط أعمالهم و أوسطها، حيث يجعلها اللّه بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

و ليس هذا بعيدا عن رحمة اللّه و فضله، و العدالة تقضى بمساواة المكافأة مع العمل فى سبيل اللّه، إلّا أنّ رحمة اللّه وسعت كلّ شىء، فهو يهب دون حساب و لا حدود، فذاته المقدسة غير محدودة، و أنعمه لا تنتهى، و كرمه عظيم لا حدود له.

ملاحظات

بيّنا كثيرا من مسائل هذه الآيات خلال تفسيرنا لها، و بقيت عدّة أحاديث يقتضى الأمر ذكرها بغية إتمام هذا البحث.

۱- نقرأ

فى كتاب روضة الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير آية النور: «إن المشكاة قلب محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المصباح النور الذى فيه العلم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۳

و الزجاجة قلب على عليه السّلام أو نفسه»[۷۸].

۲- و

جاء حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توحيد الصدوق «إن المشكاة نور العلم فى صدر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الزجاجة صدر على ... و نور على نور إمام مؤيد بنور العلم و الحكمة فى أثر الإمام من آل محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم اللّه عزّ و جلّ- خلفاء فى أرضه و حجج على خلقه، لا تخلو الأرض فى كلّ عصر من واحد منهم»[۷۹].

۳- و فسّر

حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام المشكاة بفاطمة عليها السّلام و المصباح بالحسن عليه السّلام و الزجاجة بالحسين عليه السّلام.[۸۰]

و كما أشرنا سابقا فإنّ للآيات مفهوما واسعا، و كلّ حديث من هذه الأحاديث بيان لمصداق بارز من مصاديقها دون الإخلال بعموميتها.

و بهذا لا نجد تناقضا فى الأحاديث السابقة.

۴- نقرأ

فى حديث عن أبى جعفر الثمالى قال: قال أبو جعفر عليه السّلام الباقر لقتادة: من أنت؟ قال: أنا قتادة ابن دعامّة البصرى فقال له أبو جعفر عليه السّلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال له الامام الباقر عليه السّلام: ويحك يا قتادة إن اللّه خلق خلقا من خلقه فجعلهم حججا على خلقه، فهم أوتاد فى أرضه قوّام بأمره نجباء فى علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظلة عن يمين عرشه قال: فسكت قتادة طويلا ثمّ قال:

أصلحك اللّه و اللّه لقد جلست بين يدى الفقهاء و قدّامهم، فما اضطرب قلبى قدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك.

فقال له الإمام الباقر عليه السّلام: أ تدرى أين أنت؟ بين يدى: بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ

رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ إِقامِ الصَّلاةِ وَ إِيتاءِ الزَّكاةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۴

فأنت ثمّ و نحن أولئك.

فقال له قتادة: «صدقت و اللّه جعلنى اللّه فداك و اللّه ما هى بيوت حجارة و لا طين ...»[۸۱].

۵- و ذكر

حديث آخر حول رجال اللّه حماة الوحى و الهداية: «هم التجار الذين لا تلهيهم تجارة و لا بيع عن ذكر اللّه، إذا دخل مواقيت الصلاة أدوا إلى اللّه حقّه فيها»[۸۲]

إشارة إلى أنّ هؤلاء الرجال همّهم ذكر اللّه و لا يقدمون عليه شيئا، رغم أنّهم يمارسون نشاطا اقتصاديا فى الحياة.

۶- وصفت شجرة الزيتون فى الآيات السابقة بأنّها شجرة مباركة.

و كان لهذه الشجرة أهمية بالغة حين نزول القرآن، و قد اتّضح ذلك اليوم، لأنّ كبار العلماء أخبرونا بخلاصة تجاربهم و دراساتهم عن خواصّ أنواع النباتات، و حول شجرة الزيتون يقولون: إنّها مباركة حقّا، و ثمرها مفيد جدّا، و يمنحنا أجود الزيوت، و لها دور حيوى فى سلامة الجسم.

يقول ابن عباس: إنّ أجزاء هذه الشجرة مفيدة و مريحة، و حتى رماد خشبها فيه منفعة، و هى أول شجرة نبتت بعد طوفان نوح عليه السّلام، و قد دعا لها الأنبياء و باركوها.

۷- ذكر المفسّرون الكبار عدّة تفاسير لعبارة «نور على نور» فقال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: إنّها إشارة إلى أنبياء من نسل واحد يتعاقبون على النبوة و يواصلون طريق الهداية.

و يقول الفخر الرازى فى تفسيره: إنّها إشارة إلى تجمع شعاع النور و تراكمه، حيث ذكر حول المؤمن: «يقف المؤمن بين أربعة مواقف، فإذا وهبه اللّه شكره،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۵

و إذا أصابته مصيبة صبر و صمد، و إذا تكلم صدق، و إذا حكّم بين اثنين عدل، و هو إنسان واع بين جهلة و مثله كحىّ بين أموات. إنّه يسير بين خمسة أنوار: كلامه نور، عمله نور، إقامته نور، رحله نور، هدفه نور اللّه يوم القيامة».

و يمكن أن يكون النور الأوّل الذى ذكرته الآية إشارة إلى نور الهداية الإلهية عن طريق الوحى، و النور الثّانى نور الهداية عن طريق العقل.

أو أنّ النور الأوّل هو نور الهداية التشريعة، و النور الثّانى نور الهداية التكوينية فهو نور على نور.

و بهذا فسّرت هذه العبارة بمختلف مصادر النور، مرّة فسّرت بالأنبياء و أخرى بأنواع النور، و مرة ثالثة بمراحل النور المختلفة، و هى ممكنة جميعا فى آن واحد، لأنّ مفهوم الآية واسع جدا (فتأملوا جيدا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۶

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۳۹ الى ۴۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسابِ (۳۹) أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ (۴۰)

التّفسير

أعمال سرابية

تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الإيمان و الهداية. و لإتمام هذا البحث و لتوضيح المقارنة بين الذين نوّر اللّه قلوبهم و بين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر و الجهل و الإلحاد المظلم، و تحدثت عن الكفار و المنافقين الذين وجودهم ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ خلافا للمؤمنين الذين أصبحت حياتهم و أفكارهم نُورٌ عَلى نُورٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۷

الكلام فى الآية الأولى عن الذين يبحثون عن الماء فى صحراء جافّة حارقة، و لا يجدون غير السراب فيموتون عطشا، فى الوقت الذى عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، و منبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أوّلا:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً و لكن يجد اللّه عند أعماله وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ

«السراب» مشتق من السرب على وزن «حرب» بمعنى الطريق المنحدر، و تطلق كلمة السراب على لمعان يشاهد فى الصحارى و المنحدرات من بعيد و كأنّه ماء، و ما هو إلّا انعكاس لأشعة الشمس ۸۳].

و يرى البعض أنّ «القيعة» جمع «قاعة»، بمعنى الأرض الواسعة التى لا ماء و لا نبات فيها، و يطلق ذلك على الصحارى التى يظهر فيها السراب فى معظم الأحيان، إلّا أنّ بعض المفسّرين و اللغويين يرون أنّ هذه الكلمة مفردة، و جمعها «قيعان» أو «قيعات»[۸۴].

و رغم عدم وجود الفرق من حيث المعنى، فإنّ الآية توجب أن تكون هده الكلمة مفردة، لأنّها ذكرت السراب مفردا و السراب الواحد يكون فى أرض واحدة طبعا.

ثمّ تناولت الآية الثّانية مثالا آخر لأعمال الكفار و قالت: أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ و بهذا المنوال تكون ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها.

أجل، إنّ النور الحقيقى فى حياة البشر هو نور الإيمان فقط، و من دونه تسود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۱۸

الحياة الظلمات، و نور الإيمان هذا إنّما هو لطف من عند اللّه وَ مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ.

و لفهم عمق هذا المثال لا بدّ من الاهتمام بمعنى كلمة «اللجّىّ» و هو البحر الواسع و العميق. و بالأصل مشتقّة من «اللجاج» بمعنى متابعة عمل ما (التى تطلق عادة على الأعمال غير الصحيحة) ثمّ أطلقت على تتابع أمواج البحر و استقرارها الواحدة بعد الأخرى، و لقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى لأنّ البحر كلّما كان عميقا و واسعا تزداد أمواجه.

و لو تصوّرتم بحرا هائجا عميقا، و مع علمنا أنّ نور الشمس أقوى أنواع النور، لكنّه لا ينفذ إلّا بمقدار معيّن فى البحر، و آخر حدود نفوذه فى العمق لا يتجاوز سبعمائة متر، حيث يسود الظلام الدائم أعماق البحار و المحيطات.

كما نعلم أنّ الماء إذا كان هادئا يعكس النور بشكل أفضل، بينما تكسر أمواج البحر أشعة الشمس، و لا تسمح لها بالنفوذ إلى العمق إلّا بمقدار أقل. و إذا أضفنا إلى ذلك مسألة مرور سحاب داكن اللون فوق هذا البحر الهائج، فإنّ الظلام يزداد عتمة و سوادا بشكل

كبير[۸۵].

إن الظلام فى عمق البحر من جهـة، و ظلمـة الأمواج الهائجـة من جهـة أخرى، و ظلمـة الغيوم السوداء من جهـة ثالثـة، ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض.

و فى مثل هذا الظلام لا يمكن رؤية أىّ شىء، مهما اقترب منّا، حتّى لو وضع الإنسان الشىء نصب عينيه لما استطاع مشاهدته.

و هكـذا حال الكفار الذين حرموا من نور الإيمان فابتلوا بهذه الظلمات، خلافا للمؤمنين الذين نوّر اللّه قلوبهم و طريقهم و هم مصداق نُورٌ عَلى نُورٍ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الظلمات ثلاثة أقسام، قد ابتلى غير المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۱۹

بها، و هى: ظلمـة العقيـدة الباطلـة، و ظلمـة القول الخاطئ، و ظلمـة السـلوك السـىء، و بعبارة أخرى: إنّ أعمال غير المؤمنين أساسـها الفكرى ظلمات. و كذلك أقوالهم التى هى انعكاس لعقائدهم، ثمّ انسجامها مع أفعالهم الظلمانية.

و قـال آخرون: إنّ هـذه الظلمات الثلاث عبارة عن مراحل جهل غير المؤمنين، و أوّلها أنّهم لا يعلمون، و ثانيتها أنّهم لا يعلمون، بأنّهم لا يعلمون، و ثالثتها أنّهم مع كل هذا يتصوّرون أنّهم يعلمون، و بهذا يعيشون فى جهل مركّب دامس.

و قـال البعض الآـخر: إنّ أسـاس المعرفـة- كمـا يقول القرآن المجيـد- فى ثلاثـة أشـياء: القلب و العين و الأذن (و بالطبع يعنى بالقلب العقل). كما جاء فى الآيـة (۷۸) من سورة النحـل: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهـاتِكُمْ لا- تَعْلَمُونَ شَـيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ[۸۶]. و لكن الكفار فقدوا بكفرهم نور العقل و السمع و البصر، فصاروا فى ظلمات متراكمة.

و لا تناقض بين هذه التفاسير الثلاثة، كما هو واضح، إذ يمكن أن تشملهم هذه الآية جميعا.

و على كلّ حال، فيمكننا أن نصل إلى استنتاج عام من الآيتين السابقتين. فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن فى صحراء جافة، لا يروى هذا السراب العطاشى أبدا، و إنّما يزيد فى سعيهم للحصول على الماء فيرهقهم دون نتيجة تذكر.

ثمّ ينتقـل القرآن من الحـديث عن هـذا النور الكـاذب، الـذى هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هـذه الأعمال، الباطن المظلم و المخيف و الموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، و تظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه، فكيف يمكنه رؤية الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۰

و طبيعى أنّ المرء فى هـذه الظلمات فى وحـدة مطلقة و جهل دائم، لا يجد طريقه، و لا رفيق سـفره، و لا موقف له، و لا يملك وسـيلة للنجاة، لأنّه لم يكتسب شيئا من مصدر النور، أى اللّه سبحانه و تعالى، و قد ختم اللّه على قلبه بالجهل و الضلال.

و لعلكم تتـذكرون أنّنا قلنا: أنّ النور مصدر أنواع الجمال و الحياة و الحركة، عكس الظلام الذى يعتبر مصدر القبائح و الموت و العدم و السكون و السكوت.

الظلام مصدر الخوف و الكراهية، و هو توأم الهمّ و الغمّ، هكذا وضع الذين افتقدوا نور الإيمان، و غرقوا فى ظلمات الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۱

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۱ الى ۴۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (۴۱) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۴۲)

التّفسير

الجميع يسبّح للّه:

تحدثت الآيات السابقة عن نور اللّه، نور الهداية و الإيمان، و عن الظلمات المضاعفة للكفر و الضلال.

أمّا الآيات موضع البحث، فإنّها تتحدّث عن دلائل الأنوار الإلهية و أسباب الهداية، و تخاطب الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتقول: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و كذلك الطير يسبّحن للّه فى حال أنها باسطات أجنحتهن فى السماء وَ الطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ

و بما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، و خالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، و كذلك دليل على أنّ كل ما فى الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۲

كما يحتمل وجود رابطة بين هذه الآية و سابقتها، حيث تحدّثت الآية الأولى فى آخر جملة لها، عن علم اللّه بأعمال البشر جميعا و علمه بالمسبحين له.

أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى محكمة العدل الإلهى فى الآخرة، و أنّ للّه ما فى السموات و الأرض، و هو الحاكم و القدير العادل فى مصير الناس و ما فى الوجود.

مسائل مهمة:

۱- ماذا تعنى عبارة أَ لَمْ تَرَ

حسبما يراها الكثير من المفسّرين، تعنى: ألم تعلم، حيث التسبيح العام من قبل جميع المخلوقات فى العالم لا يمكن إدراكه بالعين، بل بالقلب و العقل.

و لكون هذه القضية واضحة جدا و كأنّها ترى بالعين المجرّدة، استخدمت الآية عبارة أَ لَمْ تَرَ.

كما يجب الانتباه إلى أنّه على الرغم من كون المخاطب فى هذه الآية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالذات، فإنّ عددا من المفسّرين يرى أنّها تشمل الناس جميعا، لأنّ ذلك من أساليب القرآن المجيد اتبعها فى كثير من آياته.

و قال البعض: إنّ هذا الخطاب خاصّ بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مرحلة الرؤيا و المشاهدة، حيث منحه اللّه القدرة على مشاهدة تسبيح جميع المخلوقات، و كذلك منح سبحانه و تعالى هذه القدرة لجميع عباده المخلصين له المتمسّكين بهداه.

أمّا بالنسبة لعامّة الناس، فالمسألة تخصّ إدراكهم لتسبيح الموجودات عن طريق العقل، و ليس بالمشاهدة البصريّة[۸۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۳

۲- التسبيح العامّ لجميع المخلوقات

تحدّثت الآيات المختلفة فى القرآن المجيد عن أربع عبادات تمارسها مخلوقات هذا الكون العظيم، هى: التسبيح، و الحمد، و السجود،

و الصلاة، أمّا الآية موضع البحث، فقد تناولت الصلاة و التسبيح.

و تحدثت الآية الخامسة عشرة من سورة الرعد عن السجود العام: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

أمّا الآية الرّابعة و الأربعون من سورة الإسراء، فقد تحدثت عن التسبيح و الحمد من قبل جميع المخلوقات فى الوجود كله وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ و قد تناولنا حقيقة الحمد و التسبيح العامّين من قبل المخلوقات و التفاسير المختلفة الواردة بهذا الصدد، فى تفسيرنا الآية الرّابعة و الأربعين من سورة الإسراء، و نذكر هنا ملخصه:

هناك تفسيران جديران بالاهتمام، و هما:- ۱- إنّ ذرات هذا العالم كلها- عاقلة أو غير عاقلة- لها نوع من الإدراك و الشعور، و هى تسبح فى عالمها للّه و تحمده على الرغم من عدم إدراكنا لها. و لهذا التّفسير أدلّة قرآنية.

۲- إن القصد من التسبيح و الحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله» أى نظام الوجود و أسراره المدهشة الكامنة فى كلّ مخلوق تتحدّث بصراحة عن عظمة الخالق و علمه و حكمته التى لا حدود لها، إذ كلّ مخلوق جميل، و كلّ أثر فنىّ بديع يثير الدهشة و الإعجاب، حتّى أنّ لوحة فنية و قطعة شعرية جميلة، تحمد و تسبّح لمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) و من جهة أخرى تنفى عنه أى عيب أو نقص (فتسبحه). فكيف و هذا الكون العظيم بما فيه من عجائب و غرائب لا تنتهى! (للاطلاع أكثر على ذلك يراجع تفسير الآية ۴۴ من سورة الإسراء فى تفسيرنا هذا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۴

و إذا قلنا: إنّ عبارة يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تعنى تسبيح كلّ من فى السماوات و الأرض، و نحدد كلمة «من» بذوى العقول، فإنّ التسبيح يخصّ هنا المعنى الأوّل، فهو تسبيح بوعى و إرادة و لازم هذا القول أن الطيور أيضا لها شعور، لأنّ كلمة الطيور جاءت بعد حرف «من». و لا عجب فى ذلك، لأنّ آيات قرآنية أخرى قالت بوجود مثل هذا الشعور لدى بعض الطيور (يراجع تفسير الآية ۳۸ من سورة الأنعام).

۳- التسبيح الخاصّ بالطيور:

ما السبب فى ذكر تسبيح الطيور من بين جميع المخلوقات، و خاصّة فى حالة بسط جناحيها فى السماء؟

المسألة تكمن فى أنّ الطيور إضافة إلى تنوّعها الكبير، تمتاز بصفات خاصّة تجلب نظر كل عاقل إليها، حيث تحلّق هذه الأجسام- و بعضها ثقيل- فى السماء خلافا لقانون الجاذبية، و تطير بسرعة من نقطة إلى أخرى فى الجو، و تركب أمواج الرياح و هى باسطة جناحيها دون أى تعب أو جهد. بشكل يثير الإعجاب.

و المثير فيها هو إدراكها لقضايا الأنواء الجوية، و معلوماتها الدقيقة لوضع الأرض الجغرافى- خلال سفرها و هجرتها من قارة إلى أخرى، حتى أنّ بعضها يهاجر من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى.

فهى تمتلك جهاز توجيه خفى عجيب يرشدها إلى الهدف إبّان سفرها الطويل، حتى لو تلبّدت السماء بالغيوم. و هذه من أكثر الأمور إثارة للدهشة و العجب، و من أوضح أدلة التوحيد.

طيور الليل بدورها تملك رادارا مدهشا يخبرها حين الطيران فى ظلمة الليل عن كلّ حاجز أمامها، حتى أن بعضها يرى سمكّة تحت الماء، فيخطفها بسرعة البرق، و هذه ميزة مدهشة فى هذه الطيور!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۱۲۵

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۲۵

و على كل حال فإنّ هناك أمورا عجيبة فى الطيور جعلت القرآن المجيد يخصّها بالذكر.

۴- عبارة كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ

نسب عدد من المفسّرين ضمير «علم» إلى كلمة «كلّ»، و بهذا يصبح معنى العبارة السابقة: كلّ من فى الأرض و السماء، و كذلك الطيور علم صلاته و تسبيحه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ ضمير (علم) يعود إلى اللّه تعالى، أى أنّ اللّه علم صلاة و تسبيح كلّ منهم.

و التّفسير الأوّل يلائم الآية بشكل أفضل.

و بهذا الترتيب يعلم كلّ مسبّح للّه أسلوب تسبيحه و طريقته و شروطه و خصائص صلاته.

فإذا كان التسبيح بوعى من هذه الكائنات يتّضح جيدا مفهوم هذا الكلام، أمّا إذا كان بلسان حالها فيكون مفهومه أنّ كلّ واحد منها له نظام خاصّ يعبّر بشكل من الأشكال عن عظمة اللّه، و كلّ واحد منها يعكس قدرة اللّه و حكمته.

۵- ما المقصود بالصلاة؟

قال بعض المفسّرين كالمرحوم «الطبرسى» فى مجمع البيان، و «الآلوسى» فى روح البيان: إنّ الصلاة هى الدعاء.

و هذا هو مفهومها اللغوى، و بهذا تمارس جميع المخلوقات فى الأرض و السماء الدعاء إلى اللّه بلسان حالها أو مقالها و تسأله الرحمة، لأنّه أرحم الراحمين، و أنّه سبحانه و تعالى يمنّ عليها برحمته كلا بحسب قابليته.

غاية الأمر إنّهم جميعا يعلمون حاجتهم و مطلبهم و ما ينبغى أن يدعون،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۶

و إضافة إلى ذلك- وفق الآيات التى أشرنا إليها سابقا- فهم خاضعون لعظمة اللّه، و قد سلّموا بقوانين الخلق، و يردّدون من الأعماق الثناء على صفاته الكاملة سبحانه و تعالى، و نفى كلّ نقص عنه جلّ اسمه المقدّس.

و بهذا الشكل تتمّ العبادات الأربع «الحمد» و «التسبيح» و «الدعاء» و «السّجود».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۷

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ (۴۳) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (۴۴) وَ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى بَطْنِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى رِجْلَيْنِ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۵)

التّفسير

جانب آخر من الخلق العجيب:

نواجه ثانيـة- فى هـذه الآيات- جانبا آخر من مسألـة الخلق المدهشة، و ما احتوته من آيات العلم و الحكمة و العظمة، و كلّ ذلك من أدلّة توحيد ذات اللّه الطاهرة.

يخاطب القرآن المجيد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثانية و يقول أ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۸

ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً و بعـد أن تتراكم السـحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السـحاب و تهبـط على الجبال و السـهول و الصحارى فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ

و كلمة «يزجى» مشتقّة من «الإزجاء»، أى سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا و هناك بقصد جمعها.

و هـذا التعبير يصـدق بالنسـبة للسـحب، حيث ترتفع كلّ قطعة منه من جانب من البحر. ثمّ تسوقها يد القدرة الإلهية. و تجمعها، فتراكم بعضها على بعض.

و كلمة «ركام» على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمة بعضها فوق بعض.

و أمّـا «الودق» على وزن «شـرق»، فيرى الكثيرون أنّهـا حبّـات المطر، إلّـا أنّ الراغب الأصـفهانى يرى فى مفرداته أنّها ذرات دقيقـة من الماء، أى: الرذاذ الذى يتناثر فى الفضاء حين هطول المطر.

و المعنى الأوّل أكثر ملاءمة هنا، فما يدلّ بشـكل أكبر على عظمة اللّه هو ذرات المطر نفسها و ليس رذاذه، إضافة إلى أنّ القرآن كلّما ذكر السـحاب و نزول بركـات اللّه من السـماء، أشار فيها إلى المطر. فهو الـذى يحيى الأرض بعـد موتها و يبعث الحياة فى الأشـجار و النباتات، و يروى عطش البشر و الحيوان.

و أشـار القرآن إلى ظاهرة أخرى من ظواهر السـماء المدهشـة، و هى السـحاب، حيث قال: وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ أى من جبال السـحب فى السـماء تنزل قطرات المطر على شـكل ثلج و برد، فتكون بلاء لمن يريد اللّه عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع و الثمار و تتلفها و قـد تصـيب الناس و الحيوانات فتؤذيهم فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ و من لم يرد تعـذيبه دفع عنه هذا البلاء وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ.

أجل، إنّه هو الـذى ينزّل الغيث المخصب من سـحابة تارة ... و هو الذى يصـيّره بردا بأدنى تغيير بأمره فيصـيب به (بالأذى) من يشاء، و ربما يكون مهلكا أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۲۹

و هذا يدلّ على منتهى قدرته و عظمته- إذ جعل نفع الإنسان و ضـرره و موته و حياته متقارنة، بل مزج بعضـها ببعض! و فى نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية الّتى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ.

فالسـحب المؤلفة فى الحقيقة من ذرات الماء تحمل فى طيّاتها الشحنات «الكهربائية»، و تومض إيماضا يذهل برقها (العيون) و الأبصار و يصكّ رعدها السمع من صوته، و ربّما اهتزت له جميع الأجواء.

إن هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرة للدهشة حقّا! ...

ردّ على استفسار:

السؤال الذى بقى هنا هو: ما هذا الجبل الذى فى السماء ينزل منه البرد؟

أجاب المفسّرون عن هذا الاستفسار بأجوبه مختلفة، هى:

۱- قال البعض: إنّ كلمة الجبال هنا كناية، مثلما نقول جبل من غذاء أو جبل من علم. و على هذا فإنّ مفهوم الآية السابقة، هو أنّ هناك بردا متراكما كالجبل فى قلب السماء أوجد السحاب، و ينزل قسم منه فى المدن، و قسم آخر فى الصحراء، و يصيب به من يشاء.

۲- و قال آخرون: المقصود من الجبال السحب المتراكمة بحيث تشبه الجبل.

۳- و ذكر صاحب تفسير «فى ظلال القرآن»، بيانا آخر هو الأوفق حسب الظاهر، و هو: «إن يد اللّه تزجى السحاب و تدفعه من مكان إلى مكان، ثمّ تؤلف بينه و تجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء و الويل الهاطل، و هو فى هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، و مشهد السحاب كالجبال لا- يبدو لنا كما يبدو لراكب الطائرة و هى تعلو فوق السحب أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۰

تسير بينها، فإذا المشهد مشهد جبال حقا، بضخامتها و مساقطها و ارتفاعها و انخفاضها، و إنّه لتعبير مصور للحقيقة التى لم يرها الناس إلّا بعد ما ركبوا الطائرات»[۸۸].

و يمكن أن يضاف إلى ذلك أنّ العلماء يرون فى كيفية تكون البرد فى السماء أنّ قطرات المطر تنفصل من السحاب، و إذا مرت بطبقة باردة من الهواء أصبحت ثلجا، ثمّ تدفعها أحيانا العواصف الموجودة هناك إلى الأعلى، فتدخل قطع الثلج هذه إلى داخل السحب، و يكتسب بعضها مياها جديدة ثمّ تهبط، فتجمد ثانية عند مرورها بطبقة من الهواء البارد جدّا.

و كلما تكرر وقوع هذا العمل نمت هذه القطع من الثلج و ازداد وزنها، إلى أن تقع على الأرض بعد أن تعجز الأعاصير عن دفعها إلى الأعلى مرّة أخرى. أو أنّ الإعصار يهدأ فيسقط البرد على الأرض.

و بهذا الشرح العلمى يتّضح لنا المراد من كلمة «الجبال» التى وردت فى هذه الآية، لأن تكوّن البرد بقطع كبيرة و ثقيلة ممكن فى حال تراكم السحب، حتى يقذف الإعصار حبّات البرد وسطها، لتكسب هذه الحبّات قدرا أكبر من مياه السحب.

و ذلك ممكن فى حالة وجود جبال مرتفعة من السحب، لتكون مصدرا جيدا لتكون البرد.[۸۹] و نقرأ هنا تحليلا- آخر ذكره بعض الكتّاب، و خلاصته كالآتى: «أشارت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۱

الآيات موضع البحث بصراحة إلى الجبال الثلج، أى الجبال التى فيها نوع من الثلوج.

و هذا يثير الانتباه كثيرا، لأنّ اختراع الطائرات و التمكن من التحليق بها فى مستوى مرتفع زاد من آفاق علم البشر، فقد تمكّن العلماء من الوصول إلى سحب مستورة و متكونة من تراكمات ثلجية، و حقّا ممكن أن تسمى بجبال الثلج.

و ممّا يثير الدهشة أنّ أحد علماء السوفيت استخدم- لعدة مرات- اسم «جبال السحب» و «جبال الثلج» خلال شرحه موضوع سحب العواصف الثلجية، و بهذا يتّضح لنا وجود جبال من الثلج فى السماء.

و أشارت الآية التالية إلى إحدى معاجز الخلق و دلائل عظمة اللّه، و هو خلق الليل و النهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ.

و ذكرت لمعنى «يقلّب» عدّة تفاسير، فقال البعض: إنّ تقلب الليل و النهار هو أنّه إذا حلّ أحدهما محا الآخر.

و قال البعض: إنّه قصر أحدهما و طول الآخر، و يحدث ذلك بصورة تدريجية و له ارتباط بالفصول الأربعة.

و اعتبر آخرون تقلبات الحرّ و البرد، و حوادث أخرى تقع فى الليل و النهار[۹۰].

و ليس بين هذا التفاسير أى تناقض، بل يمكن جمعها فى مفهوم عبارة «يقلب»، و لا ريب- و قد برهن العلم على ذلك- أنّ لتعاقب

اللیل و النهار و التغییرات التدریجیة الحاصلة منه أثر فعّال فی استدامة الحیاة و بقاء الإنسان، و فی ذلک عبرة لأولی الأبصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۲

و إذا کانت حرارة الشمس علی نسق واحد، فإنّها ترفع درجة حرارة الهواء، و تقتل الأحیاء و تتعب الأعصاب، لکنّ وقوع اللیل بین نهارین یعدّل من أثر الشمس القوی و یلائمه.

کما إنّ التغییرات التدریجیة فی ساعات اللیل و النهار هی السبب فی ظهور الفصول الأربعة، و عامل مؤثّر جدّا فی نمو النباتات و حیاة جمیع الأحیاء و هطول المطر و تکوین المیاه الجوفیة التی هی من کنوز الأرض ۹۱].

و أشارت آخر الآیات- موضع البحث- إلی أبرز صورة و أوضح دلیل علی التوحید، و هی مسألة الحیاة بصورها المختلفة، فقالت: وَ اللَّهُ خَلَقَ کُلَّ دَابَّةٍ مِنْ ماءٍ أی أنّ أصلها جمیعا من ماء، و مع هذا فلها صور مختلفة فَمِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی بَطْنِهِ کالزواحف. وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی رِجْلَیْنِ کالإنسان و الطیور وَ مِنْهُمْ مَنْ یَمْشِی عَلی أَرْبَعٍ کالدواب.

و لیس الخلق محددا بهذه المخلوقات، فالحیاة لها صور أخری متعددة بشکل کبیر، سواء کانت أحیاء بحریة أو حشرات بأنواعها المتعددة التی تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآیة فی الختام یَخْلُقُ اللَّهُ ما یَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ.

بحوث

۱- ماذا یعنی الماء هنا؟

و إلی أی نوع من الماء أشارت الآیة موضع البحث؟

للمفسّرین بهذا الصدد ثلاثة آراء:

۱- یقصد بالماء النطفة، و قد اختار الکثیر من المفسّرین هذا المعنی، و قد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۳۳

أشارت إلیه بعض الأحادیث.

و هناک مشکلة تواجه هذا التّفسیر، إذ أنّ الاحیاء جمیعا لم تخلق من ماء النطفة، فمنها أحیاء مجهریة ذات خلّیة واحدة، و أخری تخلق من انقسام الخلایا و لیس من النطفة إلّا أن یقال بالنسبة للحکم أعلاه: إنّ المراد هو الجانب النوعی و لیس عاما.

۲- و التّفسیر الثّانی یقول: إنّ المقصود هنا ظهور أوّل مخلوق، فقد ذکرت بعض الأحادیث أنّ أوّل ما خلق اللّه الماء، ثمّ خلق الإنسان من الماء.

و ینسجم هذا مع النظریات الجدیدة القائلة: إنّ أوّل عنصر حی ظهر فی البحار. و هذه ظاهرة سادت أعماق البحار و سواحلها. (و طبیعی فإنّ القدرة التی خلقت هذا الموجود الحیّ بجمیع تعقیداته و رعته فی المراحل البعدیة، هی قدرة أسمی من الطبیعة، أی إرادة اللّه تعالی).

۳- آخر تفسیر لخلق الأحیاء من الماء، هو أنّ الماء یشکّل حالیا أساس تکوینها، و أکبر نسبة من بنائها، و لا یمکن للأحیاء أن تواصل حیاتها دون الماء.

و طبیعی أن لا نجد تناقضا بین هذه التفاسیر، لکنّ التّفسیرین الأوّل و الثّانی أقرب إلی الصواب علی ما یبدو[۹۲].

۲- جواب علی استفسار

يطرح هنا سؤال يقول: إنّ الحيوانات لا تحدد بهذه الأنواع الثلاثة (الزواحف و ثنائية الأرجل و رباعيتها) إذ أنّ هناك دوابّا لها أكثر من أربع أرجل؟

و الجواب عنه يكمن فى الآية ذاتها، أى فى قوله تعالى يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۴

فهى تتناول الحيوانات كافّة، مضافا إلى أن أهم الحيوانات التى يستخدمها الإنسان، هى هذه الأنواع الثلاثة.

و يرى البعض أنّ الأحياء التى لها أكثر من أربع أرجل، تعتمد على أربع منها، و الباقى منها سواعد مساعدة لها[۹۳][۹۴].

۳- صورة الحياة المختلفة:

لا شك أنّ الحياة تعتبر أعجب ظاهرة فى العالم، ذلك السرّ الذى لم يقدر العلماء على فكّ رموزه حتّى الآن، فالجميع يقول: إنّ الأحياء خلقت من مادّة لا حياة فيها، إلّا أنّه لا أحد يعلم كيف حدثت هذه الطفرة و فى أىّ ظرف، إذ لم يشهد أىّ مختبر تبدّل موجود عديم الحياة إلى آخر حى، على الرغم من انشغال الآلاف من العلماء طوال سنين عديدة فى التفكير بذلك، و إجراء تجارب مختبرية يخطئها الحصر.

و هناك خيال من بعيد يتراءى للعلماء فى هذا المجال، و لكنّه مجرّد خيال و شبح، فانّ العلم البشرى عاجز عن كشف أسرار الحياة مع تقدّمه الهائل، و ذلك لتعقد هذه الأسرار بدرجة كبيرة.

و فى الظروف السائدة تولّد الأحياء من أحياء أخرى، و لا يولد أىّ حىّ من غير حىّ. و لكن المؤكّد أن هذا الحال لم يكن كذلك فى الماضى البعيد. أو بعبارة أخرى: أنّ الحياة تملك تاريخا لظهورها.

و لكن كيف و تحت أية شروط؟

إنّ ذلك لغز لم تتضح حقيقته بعد، و الأعجب من ذلك تنوع الحياة فى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۵

الصور الكاملة، تبدأ من الأحياء المجهرية وحيدة الخلية حتى تصل إلى الحيتان العظيمة التى يتجاوز طول الواحدة منها الثلاثين مترا، و تبدو إحداها كأنّها جبل من لحم طائف فى المحيط.

و من مئات الآلاف من الحشرات المختلفة إلى آلاف من الطيور الجميلة، كلّ له عالمه الخاصّ به و أسراره الذاتية.

و تشغل كتب علم الحيوان اليوم حيّزا كبيرا من مكتبات العالم، و يستعرض مؤلفوها جوانب من أسرار هذه الأحياء، خاصّة الأحياء البحرية.

و البحر دوما تكمن فيه الأسرار التى ما تزال معلوماتنا قاصرة عن استكناهها، على الرغم من سعة تطوّرنا العلمىّ و عمقه، حقّا اللّه أكبر، خلق كلّ هذه الأحياء، و منحها ما تحتاج إليه، فما أعظم قدرته و علمه! سبحانه! كيف وضع كلّ واحد منها فى ظروف مناسبة له، و وفّر غذاءه و ما يحتاج إليه، و الأعجب من ذلك خلقه سبحانه و تعالى جميع هذه الكائنات، من ماء و قليل من تراب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۶

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۶) وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (۴۷) وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (۴۸) وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (۴۹) أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۵۰)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون سببين لنزول بعض هذه الآيات:

قيل نزلت الآيات فى رجل من المنافقين كان بينه و بين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهودى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعاه المنافق إلى كعب بن الأشراف (اليهودى) (حتّى أنّ بعض الرّوايات ذكرت أنّ المنافق قال صراحة: يحتمل أنّ لا يعدل محمدا فينا):

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۷

و

حكى أنّه كان بين على عليه السّلام و عثمان (و حسب رواية بين على عليه السّلام و المغيرة بن وائل) منازعة فى أرض اشتراها من على عليه السّلام فخرجت فيها أحجار، و أراد ردّها بالعيب، فلم يأخذها فقال: بينى و بينك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فقال الحكم بن أبى العاص (و هو من المنافقين): إن حاكمته إلى ابن عمّه يحكم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت الآيات و استنكرت عليه ذلك بشدّة، و هو المروى عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام

أو قريب منه ۹۵].

التّفسير

الإيمان و قبول حكم اللّه:

تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان باللّه و عن دلائل توحيده و علائمه فى عالم التكوين، بينما تناولت الآيات- موضع البحث- أثر الإيمان و انعكاس التوحيد فى حياة الإنسان، و إذعانه للحقّ و الحقيقة.

تقول أوّلا: لَقَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ مُبَيِّناتٍ آيات تنور القلوب بنور الإيمان و التوحيد، و تزيد فى فكر الإنسان نورا و بهجة، و تبدّل ظلمات حياته إلى نور على نور. و طبيعى أنّ هذه الآيات المبينات تمهد للإيمان، إلّا أنّ الهداية الإلهية هى صاحبة الدور الأساسى وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

و كما نعلم فإنّ إرادة اللّه و مشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه و تعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله، أى التى أبدت المجاهدة فى سبيل اللّه و قطعت خطوات للتقرب إليه، فأعانها على قدر سعيها فى الوصول إلى لطفه سبحانه.

ثمّ استنكرت الآية الثّانية و ذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۸

الإيمان فى الوقت الذى خلت فيه قلوبهم من نور اللّه، فتقول الآية عن هذه المجموعة وَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ بِالرَّسُولِ وَ أَطَعْنا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ ما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ

ما هذا الإيمان الذى لا يتجاوز حدود ألسنتهم، و لا أثر له فى أعمالهم؟

ثمّ تذكر الآية التى بعدها دليلا واضحا على عدم إيمانهم وَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ

و لتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا و فضح شركهم، تضيف الآية وَ إِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ و بكامل التسليم و الخضوع.

و الجدير بالذكر أن العبارة الأولى تحدثت عن الدعوة إلى اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أمّا العبارة التالية أى كلمة «ليحكم» فإنّها جاءت مفردة، و هى تشير إلى تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لوحده، و ذلك لأنّ تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس منفصلا عن تحكيم اللّه تعالى، حيث أنّ كلا الحكمين فى الحقيقة واحد.

كما يجب الانتباه إلى أنّ ضمير الهاء المتّصلة فى «إليه» يعود إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه، أو إلى تحكيمه. و كذلك لا بدّ من الالتفات إلى أن الآية نسبت التخلف عن هذا الحكم و الإعراض عن تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى مجموعة من المنافقين فقط.

و لعل ذلك لأن الفئات الأخرى لم تكن بهذه الدرجة من الجرأة و عدم الحياء، لأنّ للنفاق مراتب أيضا كمراتب الأيمان المختلفة.

و بيّنت الآية الأخيرة فى ثلاث جمل، الجذور الأساسية و دوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت أوّلا أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، و لكنّهم لا يسلّمون بحكم اللّه و رسوله، و لا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبيا عن التوحيد أو الشك و التردد أَمِ ارْتابُوا و طبيعى أنّ الذى يتردّد فى عقيدته، لن يستسلم لها أبدا.

و ثالثها فيما لو لم يلحدوا و لم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: أَمْ يَخافُونَ أَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۳۹

يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ

فى الوقت الذى يعتبر هذا تناقضا صريحا، إذ كيف للذى يؤمن برسالة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يعتبر حكمه حكم اللّه تعالى أن ينسب الظلم إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! و هل يمكن أن يظلم اللّه أحدا؟

أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ اللّه تعالى مقدّس عن كلّ هذه الصفات بَلْ أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، و هم يعلمون أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يجحف بحق أحد، و لهذا لا يستسلمون لحكمه.

و يرى مفسّر «فى ظلال القرآن»: فى الآية: أَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ؟ أَمِ ارْتابُوا؟ أَمْ يَخافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ رَسُولُهُ؟ أنّ السؤال الأوّل للإثبات، أى لاثبات وجود مرض النفاق فى قلوبهم فمرض القلب جدير بأن ينشئ مثل هذا الأثر.

و السؤال الثّانى للتعجب، فهل هم يشكّون فى حكم اللّه و هم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكّون فى مجيئه من عند اللّه؟ أو هم يشكّون فى صلاحيته لإقامة العدل؟

و السؤال الثّالث لاستنكار أمرهم الغريب، و التناقض الفاضح بين ادعائهم و عملهم.

و إنّه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف فى نفس إنسان، فاللّه خالق الجميع و ربّ العالمين، فكيف يحيف فى حكمه على أحد من خلقه لحساب مخلوق آخر[۹۶].

و ما يورده هذا المفسّر هو أنّ عبارة «أم ارتابوا» تعنى الشك فى عدالة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى صحة تحكيمه فى الوقت الذى يرى كثير من المفسّرين أنّه الشك فى أصل النّبوة كما هو الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۴۰

بحثان

۱- مرض النفاق

ليست هـذه المرة الأـولى التى يستخدم فيهـا القرآن عبـارة «المرض» للنفاق، فقـد اسـتخدمها فى مطلع سورة البقرة عنـد بيانه لصـفات المنافقين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً و كما قلنا فى المجلد الأوّل فى أثناء تفسير الآية المذكورة، فإنّ النفاق فى حقيقته مرض و انحراف عن الطريق السوى، فالإنسان السليم له صورة واحدة هى انسجام روحه مع بدنه.

فإذا كان مؤمنا فكلّ أجزاء بدنه تعبر عن إيمانها، و إذا كان عديم الإيمان فإنّ ظاهره و باطنه يكشفان عن كفره و انحرافه.

أمّا إذا كان متظاهرا بالإيمان و مبطنا للكفر، فإنّ ذلك يعتبر نوعا من المرض.

و بما أن هؤلاء الأشـخاص (المنافقين) لا يسـتحقون لطف اللّه و رحمته، بسـبب عنادهم و إصـرارهم على المضى بمناهجهم المنحرفة، فقد تركهم اللّه على حالهم، ليزدادوا مرضا.

و المنافقون فى الواقع أخطر مجموعة فى المجتمع، لأنّه لا يتّضح للمؤمن بأىّ أسـلوب يجب أن يعاملهم، فهم ليسوا أصدقاء و لا يبدون أنّهم أعـداء، فيسـتفيدون من إمكانـات المـؤمنين و يصونون أنفسـهم عن العقـاب المفروض على الكفـار بالتظـاهر و إخفـاء حقـائقهم المشؤومة، فأعمالهم أتعس من أعمال الكفّار.

و لكن هؤلاـء لا يمكنهم أن يواصـلوا هـذا المنهـج لمـدّة طويلـة، فلا بـدّ أن يفتضـح أمرهم و ينكشف باطنهم. و كما ذكرت الآيات- موضع البحث- و سبب نزولها.

افتضاحهم فى عملية تحكيم واحدة و انكشاف باطنهم الخبيث ۹۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۱

۲- الحكومة العادلة هى الحكومة الإلهية فقط:

لا شك فى أن الإنسان مهما سـعى فى تهذيب نفسه من الصـفات الرذيلة، خاصّة الكبر و البغضاء و حب الذات و الأنانية، فإنّه قد يبتلى ببعضها دون وعى منه، إلّا المعصوم من البشر، إذ يعصمه اللّه من الخطأ و الزلل.

و لهذا السـبب نقول: اللّه وحده هو المشرّع الحقيقى، لأنّه إضافة إلى علمه المطلق بحاجات الإنسان، فإنّه يعلم سبل سدّ هذه الحاجات، و هو الذى لا يزلّ و لا ينحرف بسبب احتياجه و ميول الحب و البغض فيه سبحانه.

و قضـاء اللّه و النّبى و الإمـام المعصوم أفضـل قضـاء، و يليهم التـابعون السـائرون على نهجهم المتوكلون على اللّه، إلّا أنّ البشـر الـذى يصاب بالكبر و حبّ الذات لا يرضخ لهذا القضاء، فهو يبحث عن قضاء يشـبع طمعه و شـهواته. ما أجمل العبارة التى اسـتخدمتها الآية الكريمة بحق هؤلاء أُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

كما أنّ المرور فى مثل هذا الامتحان، خير دليل على إيمان الإنسان أو عدم إيمانه.

و يسـتوقفنا قول القرآن فى موضع آخر فَلاـ وَ رَبِّكَ لاـ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً[۹۸].

أجل، المؤمنون الحقيقيون لا يرتضون قضاءك فحسب، و إنّما قد سلّموا أنفسهم لك حتّى إن لحقهم ضرر.

أمّا المنافقون، فلا يقنعون بحكم من اللّه و رسوله صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلّا ما يحقق مصالحهم، فهم عبيـد لها، و على الرغم من ادعائهم الإيمان، فهم مشركون حقّا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۲

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵۱) وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ (۵۲) وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۵۳) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۵۴)

التّفسير

الإيمان و التسليم التام إزاء الحقّ:

لاحظنا فى الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين، الذين اسودّت قلوبهم، و أصبحت ظلمات فى ظلمات. و كيف لم يرضخوا لحكم اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كأنّهم يخافون أن يحيف اللّه و رسوله عليهم، فيضيع حقّهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۴۳

أمّا الآيات- موضع البحث- فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم اللّه و رسوله، فتقول إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا.

ما أجمل هذا التعبير المختصر و المفيد سَمِعْنا وَ أَطَعْنا! و قد وردت كلمة «إنّما» فى الآية السابقة لتحصر كلام المؤمنين فى عبارة سَمِعْنا وَ أَطَعْنا و الواقع أن حقيقة الايمان يكمن فى هاتين الكلمتين فقط.

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم اللّه، و هو يعتقد بأنّ اللّه عالم بكلّ شىء، و لا حاجة له بأحد، و هو الرحمن الرحيم؟ و كيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم اللّه إلّا السمع و الطاعة؟

فما أحسن هذه الوسيلة لامتحان المؤمنين الحقيقيين و نجاحهم فى الامتحان؟! لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و لا شك فى أنّ الفلاح نصيب الذى يسلّم أمره إلى اللّه، و يعتقد بعدله و حكمه فى حياته المادية و المعنوية.

و تابعت الآية الثّانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَخْشَ اللَّهَ وَ يَتَّقْهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ ۹۹].

و قد وصفت هذه الآية المطيعين المتقين بالفائزين، كما وصفت الآية السابقة الذين يرضخون لحكم اللّه و رسوله بالمفلحين.

و تفيد مصادر اللغة أنّ «الفوز» و «الفلاح» بمعنى واحد تقريبا، قال الراغب الأصفهانى فى مفرداته: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» و «الفلاح: الظفر و ادراك البغية» (و فى الأصل بمعنى الشق، و بما أنّ الأشخاص المفلحين يشقون طريقهم إلى مقصدهم و يزيلون العقبات منه أطلق الفلاح على الفوز أيضا) و بما أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۴۴

الكلام فى الآية السابقة كان عن الطاعة بشكل مطلق، و فى الآية قبلها عن التسليم أمام حكم اللّه، و أحدهما عام و الآخر خاص، فنتيجة كليهما واحدة.

و ما يستحقّ الملاحظة هو أن الآية الأخيرة ذكرت ثلاثة أوصاف للفائزين:

هى: طاعة اللّه و الرّسول، و خشية اللّه، و تقوى اللّه.

و قال بعض المفسّرين: إنّ الطاعة ذات معنى عام، و الخشية فرعها الباطنى، و التقوى فرعها الظاهرى. و قد تحدثت أوّلا عن الطاعة بشكل عامّ، ثمّ عن باطنها و ظاهرها.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ قال: «إنّ المعنى بالآية أمير المؤمنين (على عليه السّلام)»[۱۰۰].

و لا خلاف فى أنّ عليا عليه السّلام خير مصداق لهذه الآية، و هذا هو المراد من هذا الحديث فلا يفقد الآية عموميتها.

لحن الآية التالية- و كذلك سبب نزولها الذى ذكرته بعض التفاسير- يعنى أنّ بعض المنافقين تأثروا جدا على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة و التى وجّهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أقسموا يمينا مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، و لهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَ إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم و بيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، و عليكم عملا اطاعة اللّه بصدق و إخلاص قُلْ لا تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

يرى كثير من المفسّرين أنّ كلمة «ليخرجن» فى هذه الآية يقصد منها الخروج للجهاد فى سبيل اللّه، غير أنّ المفسّرين آخرين يرون أنّها تقصد عدم التهالك على المال و الحياة، و أتباع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أينما رحل و حلّ و طاعته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۵

و قد وردت كلمة «الخروج» و مشتقاتها فى القرآن المجيد بمعنى الخروج إلى ميادين الجهاد تارة، و ترك المنزل و الأهل و الوطن فى سبيل اللّه تعالى تارة أخرى، إلّا أنّ الآيات السابقة التى تحدثت عن حكم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى القضايا المختلفة يجعلنا نتقبل التّفسير الثّانى. بمعنى أن المنافقين جاءوا إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعربوا عن طاعتهم لحكمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التسليم له، فأقسموا على إخراج قسم من أموالهم، بل أن يتركوا الحياة الدنيا إن أمرهم بذلك.

و لا مانع من الجمع بين التّفسيرين، أى إنّهم كانوا على استعدادهم لترك أموالهم و أهليهم، و الخروج للجهاد و لتضحية فى سبيل اللّه. و لكن بما أنّ المنافقين يتقلبون فى مواقفهم بحسب الظروف السائدة فى المجتمع، فتراهم يقسمون الأيمان المغلّظة حتى تشعر بأنّهم كاذبون، فقد ردّ القرآن- بصراحة- أنّه لا حاجة إلى اليمين، و إنّما لا بدّ من البرهنة على صدق الادعاء بالعمل، لأنّ اللّه خبير بما تعملون. يعلم هل تكذبون فى يمينكم، أم تبغون تعديل مواضعكم واقعا؟

لهذا أكدت الآية التالية- التى هى آخر الآيات موضع البحث- هذا المعنى، و تقول للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن: قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَ عَلَيْكُمْ ما حُمِّلْتُمْ ففى صورة العصيان فقد ادّى وظيفته و هو مسئول عنها كما أنّكم مسئولون عن أعمالكم حين أن وظيفتكم الطاعة، و لكن وَ إِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل اللّه و الحقّ و الصواب.

فى كل الأحوال وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ و إنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر اللّه به، فإن أطاعوه استفادوا، و إن لم يطيعوه خسروا. و ليس على النّبى أن يجبر الناس على الهداية و تقبّل دعوته.

و ما يلفت النظر فى الآية السابقة تعبيرها عن المسؤولية ب «الحمل» الثقيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۶

و هذا هو الواقع، فرسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تستوجب الإبلاغ عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على الناس طاعته. إنّها لمسؤولية لا يطيق حملها إلّا المخلصون.

و لذا

روی الإمام الباقر علیه السّلام حدیثا عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال فیه «یا معشر قرّاء القرآن، اتقوا اللّه عزّ و جلّ فیما حملکم من کتابه، فإنّی مسئول، و أنتم مسئولون:

إنّی مسئول عن تبلیغ الرسالة، و أمّا أنتم فتسألون عما حملتم من کتاب اللّه و سنّتی»[۱۰۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۷

الآیة [سورة النور (۲۴): آیة ۵۵]

اشارة

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَما اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۵۵)

سبب النّزول

روی کثیر من المفسّرین. و منهم السیوطی فی «أسباب التنزیل» و الطبرسی فی «مجمع البیان» و سید قطب فی «فی ظلال القرآن» و القرطبی فی تفسیره، مع بعض الاختلاف، سبب نزول هذه الآیة أنه: عند ما هاجر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمون إلی المدینة، استقبلهم الأنصار بترحاب، و لکن العرب تحالفوا ضدهم.

لهذا کان المسلمون یبیتون لیلتهم و السلاح إلی جانبهم لا یفارقهم، إذ کانوا فی حالة تأهّب تامّ. و قد شقّ علی المسلمین ذلک. حتی تساءل البعض: إلی متی یدوم هذا الوضع؟ و هل یأتی زمان نستریح و تطمئنّ أنفسنا و لا نخشی إلّا اللّه؟ فنزلت الآیة السابقة تبشرهم بتحقّق ما یصبون إلیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۴۸

التّفسیر

حکومة المستضعفین العالمیة:

تحدثت الآیة السابقة عن طاعة اللّه و رسوله و التسلیم له، و قد واصلت الآیة- موضع البحث- هذا الموضوع، و بیّنت نتیجة هذه الطاعة ألا- و هی الحکومة العالمیة التی: وعدها اللّه المؤمنین به. فقالت الآیة مؤکّدة وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِی الْأَرْضِ کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ

وَ لَیُمَکِّنَنَّ لَهُمْ دِینَهُمُ الَّذِی ارْتَضی لَهُمْ و یجعله متجذرا و ثابتا و قویا بین شعوب العالم.

وَ لَیُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً یَعْبُدُونَنِی لا یُشْرِکُونَ بِی شَیْئاً و بعد سیادة حکم التوحید فی العالم و إجراء الأحکام الإلهیة، و استقرار الأمن و اقتلاع جذور الشرک، وَ مَنْ کَفَرَ بَعْدَ ذلِکَ فَأُولئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و علی کلّ حال یبدو من مجمل هذه الآیة أنّ اللّه یبشر مجموعة من المسلمین الذین یتصفون بالإیمان و العمل الصالح بثلاث بشائر:

۱- استخلافهم و حکومتهم فی الأرض.

۲- نشر تعالیم الحقّ بشکل جذری و فی کلّ مکان (کما یستفاد من کلمة «تمکین» ...).

۳- انعدام جمیع عوامل الخوف و الاضطراب.

و ینتج من کل هذا أن یعبد اللّه بکلّ حریة، و تطبق تعالیمه و لا یشرک به، و یتمّ نشر عقیدة التوحید فی کلّ مکان.

و یتّضح ممّا یلی متی تمّ وعد اللّه هذا؟ أو متی سیتم؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۴۹

بحوث

۱- تفسیر عبارة کَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ

هناک اختلاف بین المفسّرین حول الذین أشارت إلیهم الآیة الشریفة من الذین استخلفوا فی الأرض من قبل المسلمین.

البعض من المفسّرین یری أنّهم آدم و داود و سلیمان علیهم السّلام، حیث قالت الآیة (۳۰) من سورة البقرة حول آدم علیه السّلام إِنِّی جاعِلٌ فِی الْأَرْضِ خَلِیفَةً و فی الآیة (۲۶) من سورة ص جاء بصدد داود علیه السّلام یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ

و بما أنّ سلیمان علیه السّلام ورث حکم داود علیه السّلام بمقتضی الآیة (۱۶) من سورة النمل فإنّه قد استخلف فی الأرض.

لکن بعض المفسّرین- کالعلامة الطباطبائی فی المیزان- استبعد هذا المعنی و رأی أنّ عبارة الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ لا تناسب مقام الأنبیاء. إذ أنّ القرآن المجید لم ترد فیه هذه العبارة بخصوص الأنبیاء. و إنّما هی إشارة إلی أمم خلت، و کانت علی درجة من الإیمان و العمل الصالح بحیث استخلفها اللّه فی الأرض.

و یری مفسرون آخرون أنّ هذه الآیة إشارة إلی بنی إسرائیل، لأنّهم استخلفوا فی الحکم فی الأرض بعد ظهور موسی علیه السّلام و تدمیر حکم فرعون و الفراعنة، حیث یقول القرآن المجید فی الآیة (۱۲۷) من سورة الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِینَ کانُوا یُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِی بارَکْنا فِیها و یضیف وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ أی جعلناهم حکاما بعد أن استضعفوا فی الأرض.

و لا شکّ فی أنّه کان فی بنی إسرائیل- حتی فی زمن موسی علیه السّلام- أشخاص عرفوا بفسقهم و کفرهم، لکنّ الحکم کان بید المؤمنین الصالحین، (و بهذا یمکن دفع ما أشکل به البعض علی هذا التّفسیر) و یظهر أن التّفسیر الثّالث أقرب إلی الصواب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۰

۲- الذین وعدهم اللّه باستخلاف الأرض:

لقد وعد اللّه المؤمنین ذوی الأعمال الصالحة بالاستخلاف فی الأرض و تمکینهم من نشر دینهم و تمتعهم بالأمن الکامل، فما هی خصائص هؤلاء الموعودین بالاستخلاف؟

هناک اختلاف بهذا الصدد بین المفسّرین: یری البعض من المفسّرین أنّ الوعد بالاستخلاف خاصّ بأصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذین استخلفهم اللّه فی الأرض فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. (و لا یقصد بالأرض جمیعها، بل هو مفهوم یطلق علی الجزء و الکل).

و یری آخرون أنّه خاصّ بالخلفاء الأربعة الذین خلفوا الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و یری البعض أنّ مفهومه واسع یشمل جمیع المسلمین الذین اتصفوا بهذه الصفات.

و يرى آخرون أنّه إشارة إلى حكومة المهدى (عج) الذى يخضع له الشرق و الغرب فى العالم، و يجرى حكم الحقّ فى عهده فى جميع أرجاء العالم، و يزول الاضطراب و الخوف و الحرب و تتحقق للبشرية عبادة اللّه النقية من كلّ أنواع الشرك.

و لا ريب فى أنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدى (عج) مصداق لها، إذ يتفق المسلمون كافة من شيعة و سنة على أن المهدى (عج) يملأ الأرض عدلا و قسطا بعد أن ملئت جورا و ظلما.

و مع كل هذا لا مانع من تعميمها. و ينتج من ذلك تثبيت أسس الإيمان و العمل الصالح بين المسلمين فى كلّ عصر و زمان، و أنّ لهم الغلبة و الحكم ذا الأسس الثابتة.

أمّا قول البعض: إنّ كلمة «الأرض» مطلقة و غير محددة، و تشمل كلّ الأرض، و بذلك تنحصر بحكومة المهدى (أرواحنا له الفداء)، فهو لا ينسجم مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۱

عبارة كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ لأن خلافة و حكومة السابقين بالتأكيد لم تشمل الأرض كلها.

و إضافة إلى ذلك فإنّ سبب نزول هذه الآية يبيّن لنا- على أقلّ تقدير- وقوع مثل هذا الحكم فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (رغم حدوثه فى أواخر حياته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و نقولها ثانية: إنّ نتيجة جهود جميع الأنبياء و المرسلين حصول حكم يسوده التوحيد و الأمن الكامل و العبادة الخالية من أىّ نوع من الشرك، و ذلك حين ظهور المهدى (عج)، و هو من سلالة الأنبياء عليهم السّلام و حفيد النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هو المقصود فى هذا الحديث الذى تناقله جميع المسلمين

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم لطوّل اللّه ذلك اليوم حتى يلى رجل من عترتى، اسمه اسمى، يملأ الأرض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا»[۱۰۲].

و ممّا يجدر ذكره هنا قول العلّامة الطبرسى فى تفسير هذه الآية: روى عن أهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول هذه الآية:

«إنّها فى المهدى من آل محمد»[۱۰۳].

و ذكر تفسير «روح المعانى» و تفاسير عديدة

لمؤلفين شيعة عن الإمام السجاد عليه السّلام فى تفسير الآية موضع البحث أنه قال: «هم و اللّه شيعتنا- أهل البيت- يفعل اللّه ذلك بهم على يدى رجل منّا، و هو مهدى هذه الأمة يملأ الأرض عدلا و قسطا كما ملئت ظلما و جورا، و هو الذى قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم ...».

و كما قلنا، لا تعنى هذه التفاسير حصر معنى هذه الآية، بل بيان مصداقها التام، و ممّا يؤسف له عدم انتباه بعض المفسّرين- كالآلوسى فى روح البيان- إلى هذه المسألة، فرفضوا هذه الأحاديث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۲

و

روى القرطبى المفسّر المشهور من أهل السنة عن المقداد بن الأسود عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ما على ظهر الأرض بيت حجر و لا مدر إلّا أدخله اللّه كلمة الإسلام»[۱۰۴].

و للحصول على إيضاح أكثر حول حكومة المهدىّ (عج) و شرح أدلتها فى كتب علماء السنة و الشيعة، يراجع تفسير الآية (۳۳) من سورة التوبة.

۳- الهدف النهائى عبادة خالصة:

إنّ مفهوم عبارة يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً من الناحية الأدبية سواء كانت جملة حالية أم مستقبلية[۱۰۵]، هو أن الهدف النهائى إعداد حكومة عادلة راسخة الأسس، ينتشر فيها الحقّ و الأمن و الاطمئنان، و تكون ذات تحصينات أسسها العبودية للّه و توحيده على نحو ما ذكرته آية قرآنية أخرى تذكر الغاية من الخلق وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۱۰۶].

عبادة هدفها السامى تربية البشر و تسامى أنفسهم. عبادة لا يحتاج اللّه إليها، و إنّما يحتاج إليها البشر لطىّ مراحل تكاملهم الإنسانى.

و على هذا فإنّ الفكر الإسلامى ليس كالأفكار المادية التى تتوخى مكاسب مادية و رفاهية فى الحياة، بل تكون للحياة المادية قيمة فى الإسلام إن أصبحت وسيلة لتحقيق هدف معنوى سام، فالاهتمام بكون العبادة خالية من شوائب الشرك نافية للأهواء الزّائفة، يعنى أنّه لا يمكن تحقق هذه العبادة الصافية إلّا بتشكيل حكومة عادلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۳

هذا و يمكن كسب مجموعة من الناس إلى جانب الحقّ بالتربية و التعليم و التبليغ المستمر، و لا يمكن تعميم هذه الحالة فى المجتمع إلّا بتشكيل حكومة عادلة يقودها المؤمنون الصالحون، و لهذا سعى الأنبياء إلى تشكيل مثل هذه الحكومة خاصّة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فبمجرّد وصوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة المنورة، و فى أوّل فرصة، شكّل نموذجا لها.

و يمكن الاستنتاج من ذلك أنّ جميع الجهود- من حرب و سلام و برامج تثقيفية و اقتصادية و عسكرية- تنصّب فى ظلّ هذه الحكومة فى مسيرة العبودية للّه الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

و لا بدّ من القول: إنّه لا يعنى خلو الأرض من المذنبين و المنحرفين فى ظلّ حكومة الصالحين المؤمنين الذين يمكّنهم اللّه من نشر الحقّ و العدل، و عبادته عبادة خالية من صور الشرك، بل مفهوم هذه الحكومة هو أنها تدار من قبل المؤمنين الصالحين، و الصفة السائدة فى المجتمع هى خلوه من الشرك. و بما أن الإنسان خلق حرّا، فإن مجال الانحراف موجود حتى فى أفضل المجتمعات الإنسانية (فتأملوا جيدا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۵۴

الآيتان [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۵۶) لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۵۷)

التّفسير

استحالة الفرار من حكومته تعالى:

وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة فى الأرض، و تعبئ هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، و خلال نفيها وجود حواجز كبيرة لهذا العمل، تضمن هى بذاتها نجاحه. و فى الحقيقة أن إحدى هاتين الآيتين بيّنت المقتضى، بينما نفت الثّانية المانع، فهى تقول أوّلا: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ.

و هى الوسيلة التى توثق الصلة بين الخالق و المخلوق، و تقرّب الناس إلى بارئهم، و تمنع عنهم الفحشاء و المنكر.

وَ آتُوا الزَّكاةَ و هى الوسيلة التى تربط الإنسان بأخيه الإنسان، و تقلل الفواصل بينهما، و تقوى ارتباطهما العاطفى.

و بشكل عام يكون فى كلّ شىء تبعا للرسول: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ طاعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۵

تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم فى الأرض لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ و تكونون لائقين لحمل رأية الحقّ و العدل.

و إذا احتملتم أن الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم اللّه إيّاه، فذلك غير ممكن، لأن قادر على كلّ شىء، و لا يحجب إرادته شىء، و لهذا لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب اللّه و عذابه فى الأرض، و لا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل أنّهم فى الآخرة مَأْواهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

و كلمة «معجزين» جمع «معجز»، المشتقّة من الإعجاز بمعنى نفاذ القدرة، و أحيانا يتابع المرء شخصا يفر من يديه، و لا يمكنه القبض عليه و قد خرج من سلطته فهو يعجزه، لهذا استعملت كلمة «معجز» بهذا المعنى، و كذلك تشير الآية السابقة إلى المعنى ذاته، و مفهومها أنّكم لا يمكنكم الفرار من حكومة اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۶

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۸) وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۵۹) وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (۶۰)

التّفسير

آداب الدخول إلى المكان الخاصّ بالوالدين:

إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة- كما ذكرنا- هى مسألة العفاف العام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۷

و مكافحة كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفة.

و قد تناولت الآيات- موضع البحث- إحدى المسائل التى ترتبط بهذه المسألة، و شرحت خصائصها، و هى استئذان الأطفال البالغين و غير البالغين للدخول إلى الغرفة المخصصة للزوجين.

فتقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فيجب على عبيدكم و أطفالكم الاستئذان فى ثلاث أوقات مِنْ قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ.

«الظهيرة» تعنى كما يقول «الراغب الإصفهانى» فى مفرداته «و الفيروزآبادى» فى القاموس المحيط: منتصف النهار و قريب الظهر حيث ينزع الناس عادة الملابس الإضافية، و قد يختلى الزوج بزوجته.

ثَلاثُ عَوْراتٍ لَكُمْ أى هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصّة بكم.

«العورة» مشتقّة من «العار»، أى: العيب. و أطلق العرب على العضو التناسلى العورة، لأنّ الكشف عنه عار.

كما تعنى العورة الشقّ الذى فى الجدار أو الثوب، و أحيانا تعنى العيب بشكل عامّ.

و على كلّ فإنّ إطلاق كلمة (العورة) على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس فى حالة خاصّة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التى يرتدونها فى الأوقات الأخرى.

و طبيعى أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أنّ عمومية الآية تعنى شمولها الأطفال البنين و البنات، و كلمة «الّذين» التى هى لجمع المذكر السالم، لا تمنع أن يكون مفهوم الآية عاما، لأنّ هذه العبارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۸

استعملت فى كثير من الموارد و قصد بها المجموع، كما فى آية وجوب الصوم، فلفظ «الّذين» هناك يعمّ المسلمين كافة (سورة البقرة الآية ۸۳).

و لا بدّ من القول بأنّ هذه الآية تتحدّث عن أطفال مميّزين يعرفون القضايا الجنسية، و يعلمون ماذا تعنى العورة. لهذا أمرتهم بالاستئذان عند الدخول إلى غرفة الوالدين، و هم يدركون سبب هذا الاستئذان، و جاءت عبارة «ثلاث عورات» شاهدا آخرا على هذا المعنى و لكن هل أن الحكم المتعلق بمن ملكت أيديكم يختص بالعبيد الذكور منهم أو يشمل الإماء و الجوارى، هناك أحاديث مختلفة فى هذا المجال، و يمكن ترجيح الأحاديث التى تؤيد ظاهر الآية، أى شمولها الغلمان و الجوارى.

و تختتم الآية بالقول: لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لا عَلَيْهِمْ جُناحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ فلا حرج و لا إثم عليكم و عليهم إذا دخلوا بدون استئذان فى غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

كلمة طَوَّافُونَ مشتقة من «الطواف» بمعنى الدوران حول شىء ما، و قد جاءت بصيغة مبالغة لتأكيد تعدد الطواف.

و بما أنّ عبارة بَعْضُكُمْ عَلى بَعْضٍ جاءت بعد كلمة طَوَّافُونَ فإنّ مفهوم الجملة يكون: إنه مسموح لكم بالطواف حول بعضكم فى غير هذه الأوقات الثلاثة، و لكم أن تتزاوروا فيما بينكم و يخدم بعضكم بعضا.

و كما قال «الفاضل المقداد» فى كنز العرفان، فإنّ هذه العبارة بمنزلة دليل على عدم ضرورة الاستئذان فى غير هذه الأوقات، لأنّ المسألة تتعقد إن رغبتم فى الاستئذان كلّ مرّة[۱۰۷].

و بيّنت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۵۹

وَ إِذا بَلَغَ الْأَطْفالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

و كلمة «الحلم» على وزن «كتب» بمعنى العقل و الكناية عن البلوغ، الذى يعتبر توأما لطفرة عقلية و فكرية، و مرحلة جديدة فى حياة الإنسان.

و قيل أنّ الحلم بمعنى الرؤيا، فهى كناية عن احتلام الشباب حين البلوغ.

و على كلّ حال يستفاد من الآية السابقة، أنّ الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأنّ أولئك يجب عليهم استئذان الوالدين فى الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الاستئذان كلّ مرة، و كما

أنّهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد. أمّا الشباب البالغ، فهم مكلّفون فى جميع الأوقات بالاستئذان حين الدخول على الوالدين.

و يخصّ هـذا الحكم المكان المخصّص لاستراحة الوالدين. أمّا إذا كان فى غرفة عامّة يجلس فيها آخرون أيضا، فلا حاجة للاستئذان منهما بالدخول.

و الجدير بالذكر إنّ عبارة كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إشارة إلى الكبار الذين يستأذنون من الوالدين حين الدخول إلى غرفتهما. و قد أردفت الآية الشباب الذين بلغوا الرشد بهؤلاء، الكبار.

و تقول الآية فى الختام للتأكيد و الاهتمام الفائق: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

و هذا هو نفس التعبير الذى جاء فى آخر الآية السابقة دون تغيير، باستثناء استعمال الآية السابقة كلمة «الآيات» و هذه استعملت كلمة «آياته» و لا فرق فى معناهما.

و سنتناول بحث ميزات هذا الحكم، و كذلك فلسفته فى ذيل تفسير هذه الآيات.

و فى آخر الآيات- موضع البحث- استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز و المسنّات من هـذا الحكم، فقال: وَ الْقَواعِدُ مِنَ النِّساءِ اللَّاتِي لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۰

يَرْجُونَ نِكاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ.

و لهذا الاستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه، أو بعبارة أخرى: أن يفقدن كلّ جاذبية أنثوية.

و ثانيهما: ألا يتزيّن بزينة بعد رفع حجابهنّ، و يتّضح بذلك أنّه لا ضير فى رفع الحجاب بعد إجراء هذين الشرطين. و لهذا استثناهنّ الإسلام من حكم الحجاب.

كما أنّ- من الواضح- أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب إباحة خلع الملابس كلها و التعرّى، بل خلع اللباس الفوقانى فقط. و كما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب و الخمار.

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى شرح هـذه الآية: «الخمار و الجلباب»، قلت: بين يدى من كان؟ قال: «بين يدى من كان غير متبرجة بزينة».[۱۰۸]

كما وردت أحاديث أخرى عن أهل البيت عليهم السّلام بهذا المضمون أو ما يقاربه ۱۰۹].

و تضيف الآية فى ختامها وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَ

فالإسلام يرغب فى أن تكون المرأة أكثر عفّة و أنقى و أطهر. و لتحذير النساء اللواتى يسئن الاستفادة من هذه الحرية، و يتحدثن أو يتصرفن بأسلوب لا يليق بشرفهنّ، تقول الآية محذرة إيّاهن: وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ كلّما تقولونه يسمعه اللّه، و ما تكتمون فى قلوبكم أو فى أذهانكم يعلمه اللّه أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۱

بحثان

۱- فلسفة الاستئذان و المفاسد المترتبة على عدم الالتزام به

لا يكفى اللجوء إلى القوة لاقتلاع جذور المفاسد الاجتماعية كالأعمال المخلة بالشرف، و لا يرجى نتيجة مرضية من العقاب فقط فى القضايا الاجتماعية.

و إنّما يستوجب اتباع عدة أمور كالتثقيف الإسلامى، و تعليم آدابه الخلقية، و اتباع السبل الصحيحة فى القضايا العاطفية. و إلى جانب هذه الأمور يكون العقاب كعامل لردع المنحرفين عن الطريق السوى.

و لهذا السبب بدأت سورة النور- و هى فى الواقع سورة العفاف و الشرف- بالحديث عن جلد الرجال الزناة و النساء الزانيات، كما تحدثت فى نفس الوقت عن تسهيل الزواج و رعاية الحجاب الإسلامى، و النهى عن النظر بلذة و تحريم اتهام الآخرين بشرفهم و ناموسهم، و أخيرا استئذان الأبناء حين الدخول إلى غرفة الوالدين.

و هذا يدلّ على عدم إغفال الإسلام أى من هذه التفاصيل التى لها علاقة بمسألة العفاف و الشرف.

و على الخدم أن يستأذنوا حين الدخول إلى غرفة الزوجين الخاصّة اللذين يخدمانهما، كذلك يستوجب على الأطفال البالغين عدم الدخول إلى الغرفة المذكورة دون استئذان، و تعليم الأطفال غير البالغين الذين يرتبطون ارتباطا وثيقا بالوالدين، أن لا يدخلوا غرفة الوالدين دون استئذان و على الأقل فى الأوقات الثلاثة التى أشارت إليها الآية «قبل صلوة الفجر و حين الظهر و من بعد صلوة العشاء».

و هذا نوع من الأدب الإسلامى، رغم قلّة الالتزام به مع كلّ الأسف. و رغم بيان القرآن ذلك بصراحة فى الآيات السابقة. فإنّه من النادر أن يتناوله الخطباء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۲

و الكتّاب، و لا يعرف سبب إهمال هذا الحكم القرآنى الحاسم؟! و رغم أنّ ظاهر الآية يوجب هذا الحكم، و حتى لو اعتبرناه مستحبا فإنّه ينبغى الحديث عنه، و بحث جزئياته و رغم تصور بعض السذج بأن الأطفال لا يدركون شيئا عن هذه الأمور، و أن خدم البيت لا يهتمون بها، فإنّ الثابت هو حساسية الأطفال بالنسبة لهذه القضية (فكيف بالنسبة للكبار). و قد يؤدى إهمال الوالدين و رؤية الأطفال لمشاهد ممنوعة إلى انحرافهم خلقيا و أحيانا إلى إصابتهم بأمراض نفسية.

و قد واجهنا أشخاصا اعترفوا بأنّهم أثيروا جنسيا، أو أصيبوا بعقد نفسية لمشاهد جنسية من هذا القبيل و قد شبّت فى قلوب البعض منهم نار الحقد على الوالدين، إلى درجة الرغبة فى قتلهما، أو الانتحار. كلّ ذلك بسبب الأثر الذى زرعه فى نفوسهم إهمال الوالدين، و عدم حيطتهم حين الممارسة الجنسية أو مقدماتها.

هنا تتضح لنا قيمة و أهمية هذا الحكم الإسلامى الذى بلغه العلماء المعاصرون، بينما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرنا. و هنا نجد لزاما علينا توصية الآباء و الأمهات بالجدية فى الحياة الزوجية، و تعليم أولادهم الاستئذان حين الدخول إلى غرفتهما، و اجتناب كلّ عمل قد يثير الأولاد و يحركهم. و من هذه الأعمال مبيت الزوجين بغرفة فيها أولاد بالغون، فيجب اجتناب ذلك بالقدر الممكن. و أن يعلما بأنّ هذه الأمور تؤثّر بشكل كبير فى مستقبل أولادهما.

و ممّا يلفت النظر

حديث للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه «إيّاكم و أن يجامع الرجل امرأته و الصبى فى المهد ينظر إليهما»[۱۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۳

۲- حكم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز:

لا خلاف فى أصل هذا الاستثناء فى حكم الحجاب بين علماء المسلمين، لأنّ القرآن صريح فى هذا الأمر. إلّا أنّ هناك أقوالا فى خصوصيات هذا الحكم.

فبالنسبة لعمر هؤلاء النسوة، و الحد الذى يجب أن يبلغنه ليكنّ من القواعد، هناك أقوال. فبعض الأحاديث الإسلامية تنص على أنّ المراد هو

«المسنّة».[۱۱۱]

بينما فسرته أحاديث أخرى ب

«القعود عن النكاح»[۱۱۲].

و لكن عدد من المفسّرين يرى أنّها تعنى «النساء اللواتى لا- يطمئن، فيصلن إلى مرحلة عدم الحمل. و لا- يرغب أحد فى الزواج بهنّ»[۱۱۳].

و يبدو أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى واقع محدد، هو بلوغهن سنا لا يتزوجن عادة. و قد يحدث نادرا أن يقدم بعضهن على الزواج فى هذا العمر.

كما جاءت تعابير مختلفة فى الأحاديث الإسلامية حول المقدار من الجسم المسموح بكشفه، لأنّ القرآن الكريم ذكر المسألة بشكل عام فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ و يقصد بهذه الثياب الملابس الفوقانية.

و جاء فى بعض الأحاديث جوابا على سؤال: أى الثياب يجوز وضعها؟

يجيب الإمام الصادق عليه السّلام

«الجلباب»[۱۱۴].

بينما ذكر حديث آخر أنه

«الجلباب و الخمار»[۱۱۵].

و يبدو أنّ هذه الأحاديث غير متناقضة، و قصدها جواز الكشف عن رؤوسهن، و عدم تغطية الشعر و الرقبة و الوجه. كما قالت أحاديث أخرى- و قال فقهاء- بشمول الاستثناء إلى حدّ الرسغ. و لا سند لدينا يسمح بأكثر من ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۴

و على كلّ حال، فإنّ ذلك مسموح لهنّ بشرط أن يكنّ غَيْرَ مُتَبَرِّجاتٍ بِزِينَةٍ و أن يخفين الزينة التى تحت الحجاب، و التى من الواجب إخفاؤها من قبل جميع النساء، و أن لا يرتدين الملابس التى تنزين بها النساء، و التى تثير انتباه الآخرين.

و بتعبير آخر: إنّه مسموح لهنّ بعدم التحجب على أن يخرجن إلى الشارع بلباس محتشم و دون تزين بزينة.

و هذا كلّه ليس حكما إلزاميا. إذ أنّ الأفضل لهن أن يخرجن محجبات كالنساء الأخريات، كما جاء فى آخر الآية المذكورة، إذ هنّ معرضات إلى الزلل- و إن كان نادرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۵

الآية [سورة النور (۲۴): آية ۶۱]

اشارة

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا- عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا- عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَواتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۱)

التّفسير

البيوت التى يسمح بالأكل فيها:

تحدثت الآيات السابقة عن الاستئذان فى أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاصّ بالأب و الأم.

أمّا الآية موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۶

و بشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء و أمثالهم، و حتّى أنّه يجوز لهم الأكل فيها دون استئذان، حيث تقول هذه الآية أولا لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

لأنّ أهل المدينة كانوا- كما ورد بصراحة فى بعض الأحاديث- و قبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى و الأعرج و المريض من المشاركة فى مائدتهم، و يتنفّرون من هذا العمل.

و على عكس ذلك كانت مجموعة منهم بعد إسلامها، تفرد لمثل هؤلاء موائد خاصّة، ليس لاحتقارهم المشاركة معهم على مائدة واحدة، و إنّما لأسباب إنسانية، فالأعمى قد لا يرى الغذاء الجيد فى المائدة، و هم يرونه، و يأكلونه، و هذا خلاف الخلق السليم، و كذلك الأمر بالنسبة للأعرج و المريض، حيث يحتمل تأخرهما عن الغذاء، و تقدم السالمين عليهما. و لهذا كلّه لم يشاركوهم الغذاء على مائدة واحدة. و لهذا كان الأعمى و الأعرج و المريض يسحب نفسه حتى لا يزعج الآخرين بشىء. و يعتبر الواحد منهم نفسه مذنبا إن شارك السالمين غذاءهم فى مائدة واحدة.

و قد استفسر من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التى نصّت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى و الأعرج و المريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة.[۱۱۶] و قد فسر آخرون هذه العبارة باستثناء هذه الفئات الثلاث من حكم الجهاد، أو أنّ القصد أنّه مسموح لكم استصحاب العاجزين معكم إلى الأحد عشر بيتا التى أشارت إليها الآية فى آخرها، ليشاركوكم فى غذائكم.

إلّا أن هذين التفسيرين- كما يبدو- بعيدان عن قصد الآية، و لا ينسجمان مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۶۷

ظاهرها. (فتأملوا جيدا).

ثمّ يضيف القرآن المجيد وَ لا عَلى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ

و المقصود بعبارة بيوتكم الأبناء أو الزوجات.

أَوْ بُيُوتِ آبائِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أُمَّهاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ إِخْوانِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أَعْمامِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ أَخْوالِكُمْ

أَوْ بُيُوتِ خالاتِكُمْ

أَوْ ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ

أَوْ صَدِيقِكُمْ

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط و إيضاحات سيأتى ذكرها فى آخر تفسير الآية.

ثمّ تضيف الآية لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتاتاً.

ذكر أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يمتنعون عن الأكل منفردين، بل كانوا يبقون جياعا لمدّة حتى يجدوا من يشاركهم غذاءهم، فعلمهم القرآن المجيد أن تناول الغذاء مسموح بصورة جماعية أو فردية.[۱۱۷] و يرى البعض: إنّ مجموعة من العرب كانت تقدم غذاء الضيف على حدة احتراما له، و لا يشاركونه الغذاء (حتى لا يخجل أثناء تناوله الطعام).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۸

لقد رفعت الآية المذكورة هذه التقاليد و اعتبروا غير محمودة[۱۱۸].

و قال آخرون: إنّ البعض كان يرى عدم جواز تناول الأغنياء الغذاء مع الفقراء، و المحافظة على الفروق الطبقية حتى على مائدة الطعام.

لهذا نفى القرآن المجيد هذا التقليد الخاطئ و الظالم بذكره العبارة السابقة.[۱۱۹] و لا مانع من احتواء الآية السابقة لكلّ هذه المعانى.

ثمّ تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً و اختتمت بهذه العبارة كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

و قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود من عبارة «بيوتا» فى هذه الآية، هى البيوت الأحد عشرة المذكورة سابقا.

و قال آخرون: إنّها المساجد.

و لكن يبدو أنها عامّة، تشمل جميع البيوت، سواء الأحد عشر بيتا التى يجوز للمرء الأكل فيها، أو غيرها كبيوت الأصدقاء و الأقرباء.

حيث لا يوجد دليل على تضييق المفهوم الواسع لهذه الآية.

و لكن ما هو المقصود من عبارة فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ

نجد هنا عددا من التفاسير: حيث يرى البعض من المفسّرين أنّه سلام البعض على البعض، مثلما جاء فى قصّة بنى إسرائيل (سورة البقرة الآية ۵۴) فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

و رأى آخرون أنّه يعنى السّلام على الزوجة و الأبناء و الأهل، حيث هم بمنزلة النفس، لهذا استخدمت الآية تعبير «الأنفس»، كما جاء هذا التعبير أيضا فى آية المباهلة (سورة آل عمران الآية ۶۱). و هذا يبيّن لنا أن قرب الشخص من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۶۹

الآخر قد يصل إلى درجة أنّه يكون كنفسه، أى يكونان كنفس واحدة، مثلما كان علىّ عليه السّلام من الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يرى بعض المفسّرين أنّ الآية السابقة أشارت إلى بيوت لم يسكنها أحد، حيث يحيى المرء نفسه عند دخولها فيقول: السّلام عليكم من قبل ربّنا. أو: السّلام علينا و على عباد اللّه الصالحين. و نرى عدم وجود تناقض بين هذه التفاسير. حيث يجب السّلام عند الدخول إلى أىّ منزل كان، و يجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، و يسلّم أهل المنزل أحدهم على الآخر. و أمّا إذا لم يجد أحدا فى المنزل فيحيى المرء نفسه، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

لهذا نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام يجيب فيه على سؤال يخصّ تفسير هذه الآية فيقول: «هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثمّ يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم».[۱۲۰]

و

فی حـدیث عن الباقر علیه السّـلام أیضا، یقول فیه: «إذا دخل الرجل منکم بیته فإنّ کان فیه فلیسـلم علیه، و إن لم یکن فیه أحـد فلیقل: السّلام علینا من عند ربّنا، یقول اللّه عزّ و جلّ «تحیّة من عند اللّه مبارکة طیبة»[۱۲۱].

بحوث

۱- هل أن تناول غذاء الآخرین غیر منوط بإذنهم؟

کما شاهـدنا فی الآیـة السابقـة، أنّ اللّه تعالی سـمح أن یأکل الإنسان فی بیوت أقربائه المقرّبین و بعض الأصـدقاء و أمثالهم، و أصـبح عدد هذه البیوت أحد عشر بیتا. و لم تشترط الآیة استئذانهم لتناول الطعام، و لا شک فی عدم وجوب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۰

الاستئـذان. إذ أنّ بوجود الإذن بالأکل یمکن تناول الغذاء العائد لأی شـخص، و بذلک لا تبقی میزة لهذه المجموعة المؤلفة من أحد عشر بیتا.

فهل یشترط توفر الرضی القلبی یتناول الغذاء «و کما یقال من شاهد الحال».

بسبب الصلة الوثیقة بین الطرفین إن ظاهر اطلاق الآیة ینفی هذا الشرط، إذ یکفی احتمال حصول رضاه فقط و عادة یحصل الرضی.

أمّا إذا کانت الحالـة تؤکّد عدم رضـی صاحب الطعام فی تناول غذاءه، فبالرغم من اطلاق الآیة و شـمولها لهذا المورد أیضا، إلّا أنّه لا یبعد انصراف الآیة عن هذا المورد، و خاصّة أنّ مثل هذا المورد نادر الوقوع، و من المعلوم أنّ الإطلاقات لا تشمل الأفراد النادرة.

و علی هذا فإنّ الآیة المذکورة تخصص الآیات و الرّوایات التی تشترط فی التصرف بأموال الآخرین إحراز رضاهم فی دائرة محدودة.

و تکرر القول بأن هذا التخصیص. فی نطاق محدد، أی تناول الغذاء بمقدار الحاجة تناولا بعیدا عن الإسراف.

و الذی ذکرناه متعارف علیه بین کبار فقهائنا. و جاء بعضه بصراحة فی الأحادیث الإسلامیة، حیث ذکر روایة معتبرة

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال عند الاستفسار منه عبارة «أو صدیقکم»

الوارد فی هذه الآیة

قال علیه السّلام: «هو و اللّه الرجل یدخل بیت صدیقه فیأکل بغیر إذنه»[۱۲۲].

کما ذکرت أحادیث أخری بهـذا المضـمون، أکّـدت أنّه لا یشترط الاستئذان فی هذه الحالات. (و بالطبع لا یوجد خلاف بین الفقهاء حول عدم جواز الأکل من غذاء الآخرین دون استئذان، الذی نهت عنه الآیة بصراحة مع العلم بهذا النهی.

لهذا أهملت الآیة السابقة ذکره).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۱

و حول عبارتی «عدم الإفساد» و «عدم الإسراف» فقد صرحت بعض الأحادیث بذلک أیضا[۱۲۳].

و لا بـد من الإشارة إلی أنّه ورد حدیث فی هذا الباب یقول بأنّه یمکن الاسـتفادة فقط من غذاء خاص و لیس أیّ غذاء، إلّا أنّ الفقهاء أعرضوا عن هذا الحدیث لضعف سنده.

و اسـتثنی بعض المفسّـرین الأطعمـة الممتـازة التی یحفظهـا صـاحب المنزل لنفسه، أو لضـیوفه المقربین، أو لمناسـبات خاصّـة. و هـذا الاستثناء غیر بعید، بسبب انصراف الآیة عنه ۱۲۴].

۲- فلسفة هذا الحکم الإسلامی:

یمکن أن یثیر هذا الحکم تساؤلا بالمقارنة مع الأحکام الشدیدة التی نصت علیها التعالیم فی تحریم الغصب، هو: کیف سمح الإسلام بذلک، رغم تشدیده فی قضیة التصرف بأموال الآخرین؟! إنّنا نری أنّ هذا السؤال ینسجم مع طبیعة البیئات المادیة تماما، کالمجتمع الغربی، حیث یطرد الأبناء من المنزل حین البلوغ! و لا یهتمون بالوالدین حین إصابتهم بالعجز أو الشیخوخة! حیث نشاهد الأبناء هناک، لا یثمنون أتعاب الوالدین و لا یشفقون علیهما، بسبب تسلط التفکیر المادی علی العلاقات الاجتماعیة فی الغرب! و لا خبر هناک عن العاطفة الإنسانیة و الشفقة! إلّا أنّ التعالیم الإسلامیة و العواطف الإنسانیة التی تمتد جذورها فی المجتمع الإسلامی، خاصّة بین الأهل و الأقرباء و الأصدقاء، قد میّزت المجتمع الإسلامی عن المجتمع الغربی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۲

و الواقع أنّ الإسلام جعل علاقات الأقرباء و الأصدقاء أسمی من الأمور المادیة، و هذا یعکسه الصفاء و الود اللذان یسودان المجتمع الإسلامی الحقیقی، حیث یبتعد أفراد هذا المجتمع عن الصفات غیر المحمودة کالبخل و حب الذات.

و لا ریب أن أحکام الغصب تکون نافذة فی غیر هذه الدائرة. و لکن الإسلام فی داخل هذه الدائرة یفضل القضایا العاطفیة و الروابط الإنسانیة، فهی التی ینبغی أن تسود العلاقات بین الأقرباء و الأصدقاء جمیعا.

۳- من هو الصدیق؟

لا شک أنّ للصداقة مفهوما واسعا، و هی تعنی هنا بالتأکید الأصدقاء الخاصین الذین تربطهم علاقات وثیقة، و هذه العلاقة توجب التزاور فیما بینهم و الأکل من طعام الآخر، و لا حاجة هنا- کما أسلفنا- إلی إحراز الرضا، بل یجوز الأکل بمجرّد عدم العلم بعدم رضا صاحب الغذاء.

لهذا قال بعض المفسّرین حول هذه الآیة: الصدیق هو الذی یصدق فی علاقاته معک.

و قیل: الصدیق هو الذی یصدّق ظاهره باطنه و کما یبدو فإن الجمیع یشیرون إلی حقیقة واحدة.

و یتّضح من هذه العبارة أنّ الذی لا یسمح بمشارکة صدیقة لغذائه، لا یمکن اعتباره صدیقا! و من المناسب هنا أن نقرأ حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام ضمّ مفهوم الصداقة الواسع و شروطها الکاملة:

«لا تکون الصداقة إلّا بحدودها، فمن کانت فیه هذه الحدود أو شیء منها فأنسبه إلی الصداقة، و من لم یکن فیه شیء منها فلا تنسبه إلی شیء من الصداقة.

فأوّلاها: أن تکون سریرته و علانیته لک واحدة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۷۳

و الثّانی: أن یری زینک زینه و شینک شینه.

و الثّالثة: أن لا تغیره علیک ولایة و لا مال.

و الرّابعة: أن لا تمنعک شیئا تناله مقدرته.

و الخامسة: و هی تجمع هذه الخصال أن لا یسلمک عند النکبات».[۱۲۵]

۴- تفسیر عبارة ما مَلَکْتُمْ مَفاتِحَهُ

جاء فی بعض أسباب النّزول أنّ المسلمین فی صدر الإسلام کانوا یسلمون أحیانا مفاتیح منازلهم إلی الذین لا یشملهم الجهاد. حین

توجههم إلى الجهاد فى سبيل اللّه. و كانوا يسمحون له بتناول الطعام من هذه المنازل، إلّا أنّ هؤلاء كانوا يمتنعون من الأكل فى هذه المنازل خوفا من ارتكاب إثم فى ذلك.

و حسب هذه الرواية فإنّ المراد من عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ هو ما ذكرنا.[۱۲۶] و روى عن ابن عباس أيضا أن قصد الآية هو وكيل الشخص على ما يملكه من ماء و بستان و مواشى، حيث سمح له بتناول الفاكهة من بستان الموكّل بقدر حاجته و الشرب من حليب ماشيته.

كما فسّر آخرون ذلك بحارس المخزن الذى يسمح له بتناول قليل من المواد الغذائية الموجودة فى هذا المخزن.

و مع ملاحظة سائر المجموعات التى ورد ذكرها فى هذه الآية، يبدو أنّها تقصد الذين يسلمون مفاتيح منازلهم لأشخاص مؤثقين و مقربين لهم، و هذا التقارب الوثيق بينهما يؤدى إلى أن يكونوا فى صف الأقرباء و الأصدقاء المقرّبين، و سواء كان وكيلا رسميا أم لا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۴

و إذا لاحظنا أنّ بعض الأحاديث تفسر عبارة ما مَلَكْتُمْ مَفاتِحَهُ بالوكيل الذى يتعهد بالإشراف على أموال شخص آخر، فإنّ ذلك مصداق للآية و ليس لتحديد معناها و حصرها بهذا التّفسير.

۵- السّلام و التحية

«التحية» مشتقّة من الحياة، بمعنى الدعاء لسلامة الآخرين، سواء كانت بشكل السّلام عليكم، أو السّلام علينا، أو قولا كحيّاك اللّه، فكل هذا إعراب عن المحبة التى يبديها الشخص عند لقائه بآخر، و تدعى بالتحية.

و يقصد بعبارة تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبارَكَةً طَيِّبَةً. ربط التحية باللّه بشكل ما، أى «السّلام عليكم»، سلام اللّه عليكم، أو نسأل اللّه أن يسلمكم، إذ أن كل موحّد يرى ربط الدعاء باللّه، و طبيعى أنّ الدعاء بهذا الشكل يكون مباركا و طيبا. (تناولنا بحث السّلام و أهميته و وجوب الردّ على التحية، فى تفسير الآية ۸۶ من سورة النساء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۵

الآيات [سورة النور (۲۴): الآيات ۶۲ الى ۶۴]

اشارة

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۶۲) لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۶۳) أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَ يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۴)

سبب النّزول

ذكرت عدة أسباب لنزول الآية الأولى من الآيات أعلاه، فقد جاء فى بعض الأحاديث أنّ هذه الآية نزلت فى «حنظلة بن أبى عياش» الذى صادف زواجه ليلة معركة أحد، و كان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يشاور أصحابه حول هذه المعركة، فجاءه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۶

حنظلة یستأذنه المبیت عند زوجته، فأجازه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد بکّر حنظلة للالتحاق بصفوف المسلمین، و کان علی عجل من أمره بحیث لم یتمکن من الاغتسال. و دخل المعرکة علی هذه الحال، و قاتل حتی قتل فی سبیل اللّه.

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیه «رأیت الملائکة تغسل حنظلة بماء المزن فی صحائف فضة بین السماء و الأرض».

لهذا سمی حنظلة بعدها ب «غسیل الملائکة»[۱۲۷].

و ذکر سبب آخر لنزول هذه الآیة حیث «روی ابن إسحاق» فی سبب نزول هذه الآیات أنّه لما سمع رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بتجمع قریش و الأحزاب علی حربه- و ما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق علی المدینة. فعمل فیه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ترغیبا للمسلمین فی الأجر، و عمل معه المسلمون فیه فدأب و دأبوا، و أبطأ عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و عن المسلمین فی عملهم ذلک رجال من المنافقین لا ینجزون إلّا الیسیر من العمل، أو یتسللون إلی أهلیهم بغیر علم رسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لا إذنه، و جعل الرجل من المسلمین إذا نابته النائبة من الحاجة التی لا بدّ منها، یذکر ذلک لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یسأله فی اللحوق بحاجته فیأذن له.

فإذا قضی حاجته، رجع إلی ما کان فیه من عمله رغبة فی الخیر و احتسابا له، فأنزل اللّه تعالی فی أولئک المؤمنین إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ... الآیة، ثمّ قال تعالی یعنی المنافقین الذین کانوا یتسللون من العمل و یذهبون بغیر إذن من النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ ... الآیة[۱۲۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۷

التّفسیر

لا تترکوا النبیّ وحده!

قال بعض المفسّرین حول علاقة هذه الآیات بسابقتها، و فیهم المرحوم «الطبرسی» فی مجمع البیان «و سید قطب» فی تفسیر فی ظلال القرآن: بما أنّ الآیات السابقة طرحت للبحث جانبا من أسلوب التعامل مع الأصدقاء و الأقرباء.

فإنّ الآیات موضع البحث تناولت کیفیة تعامل المسلمین مع قائدهم النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد أکّدت التزام الوقار أمامه، و طاعته و عدم ترک الجماعة إلّا بإذنه.

و یمکن أیضا أنّ الآیات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة اللّه و رسوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و من علائم طاعته عدم ترکه أو القیام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآیات- موضع البحث- حول هذا الموضوع. فتقول أوّلا: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ إِذا کانُوا مَعَهُ عَلی أَمْرٍ جامِعٍ لَمْ یَذْهَبُوا حَتَّی یَسْتَأْذِنُوهُ

و المراد من «أمر جامع» کلّ عمل یقتضی اجتماع الناس فیه و یتطلب تعاونهم، سواء کان عملا استشاریا، أو مسألة حول الجهاد و مقاتلة العدو، أو صلاة جمعة فی الظروف الاستثنائیة و أمثالها.

و إذا وجدنا أنّ بعض المفسّرین، قالوا بأنّه یعنی الاستشارة أو الجهاد أو صلاة الجمعة أو العید فنقول: إنّهم عکسوا جانبا من معانی هذه الآیة. و أسباب النّزول السابقة أیضا هی من مصادیق هذا الحکم العام.

و فی الحقیقة إنّ هذا من شروط النظم و التنظیم و لا یمکن لأیة مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغیاب شخص واحد قد تترتب

عليه صعوبات و يلحق ضررا بالهدف النهائى، خاصّة إذا كان قائد الجماعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلامه مطاع.

كما يجب الانتباه إلى أنّ الإذن لا يعنى الاستئذان الشكلى لقضاء الشخص أعماله الخاصّة و التفرغ لتجارته. و إنّما أن يكون صادقا فى الاستئذان. فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضررا، فمن حقه أن لا يأذن له، و عليه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۸

يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى. لهذا تضيف الآية: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

و من الواضح أنّ هؤلاء المؤمنين لا يستأذن أحدهم لعمل بسيط فى حين أنّهم اجتمعوا لأمر أهم، و المقصود من عبارة «شأنهم»، الأعمال الضرورية و المهمّة فقط.

و من جهة أخرى، لا تعنى إذن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للأشخاص دون دراسة جوانب المسألة و أثر حضور و غياب الأفراد، بل جاء هذا التعبير ليطلق يد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن لا يأذن لأحد حين إحساسه بضرورة حضوره فى الجماعة.

و دليل هذا الكلام ما جاء فى الآية (۴۳) من سورة التوبة حيث يلام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإذنه بعض الأفراد: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْكاذِبِينَ

و تبيّن هذه الآية كيف أوجبت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التحقيق قبل الإذن، و أن يلاحظ أبعاد هذه المسؤولية الإلهية.

و تقول الآية فى الختام: وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و هنا يطرح سؤال: ما الغرض من هذا الاستغفار؟ فهل هم مذنبون رغم أخذهم الإذن من الرّسول بالمغادرة، كى يحتاجوا إلى استغفاره لهم؟

و للجواب على هذا السؤال هناك وجهان:

أحدهما: أن يستغفر لهم تنبيها على أنّ الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم و إن أذن لهم، لأن ذلك يعتبر تقديم الشخص لمصلحته الخاصّة على مصلحة المسلمين، و لا يخلو هذا الأمر من «الترك الاولى» و لذا يحتاج الى الاستغفار (كالاستغفار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۷۹

على عمل مكروه).[۱۲۹] كما تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الاستئذان بالقدر الممكن. و اتباع التضحية و الإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

و الوجه الثانى: يحتمل أنّه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة لتمسّكهم بآداب اللّه تعالى فى الاستئذان.[۱۳۰] و لكن نرى عدم وجود تناقض بين هذين الوجهين، كما أنّه من الطبيعى أن لا تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه فقط. و إنّما هى واجبة الإتباع إزاء كلّ قائد إلهى، سواء كان نبيا أم إماما أم عالما نائبا لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة. كما يحتمه- إضافة إلى القرآن- العقل و المنطق، لأنّ الاستمرار التنظيم يتوقف على رعاية هذه المبادئ، و لا يمكن إدارة المجتمع بدونها.

و المدهش تفسير كبار مفسّرى أهل السنة لهذه الآية بأنّها دليل على جواز الاجتهاد و توقف الحكم على رأى المجتهد. و لا يخفى أنّ الاجتهاد المطروح فى مباحث الأصول و الفقه يخص الأحكام الشرعية، و لا يتعلق بالاجتهاد فى الموضوعات حيث أنّ الاجتهاد فى الموضوع لا يقبل الإنكار، فكل قائد جيش أو مدير دائرة أو مشرف على جماعة يجتهد فى القضايا الإجرائية الخاصّة بدائرة عمله. و ليس هذا دليلا على إمكان الاجتهاد فى الأحكام الشرعية العامّة بإيجاب حكم بدعوى المصلحة العامّة، أو نفى حكم أو تشريع آخر.

ثمّ بيّنت الآية التالية حكما آخر له علاقة بتعاليم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۰

تقول: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً.

إن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما يدعوكم للاجتماع، فإنه لا بدّ من أن يكون لمسألة إلهية مهمّة، لهذا يجب عليكم الاهتمام بدعوته، و الالتزام بتعاليمه، و ألّا تهملوها، فأمره من اللّه و دعوته منه سبحانه و تعالى.

ثمّ تضيف الآية قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

«يتسللون» مشتقّة من «تسلل»، و تعنى سحب الشيء من موضعه، كأنّ يقال:

سلّ السيف من غمده. كما يطلق على الذين يفرون سرّا من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذا» مشتقّة من «ملاوذة» بمعنى الاختفاء، و تعنى هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار، أو بتعبير آخر: استغفال الآخرين ثمّ الفرار من مكان تجمعهم، و هذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر، يقول لهم القرآن المجيد: «إنّ عملكم النفاقى هذا إن خفى على الناس فإنّه لا يخفى على اللّه، و سيعاقبكم على هذه الأعمال و مخالفتكم لاوامر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الدنيا و الآخرة».

ماذا يقصد به «فتنة» هنا؟ قال بعض المفسّرين: إنّها القتل، و آخرون قالوا: إنّها تعنى الضلال، كما قال بعضهم: إنّها السلطان الظالم، و قيل: إنّها بلاء النفاق الذى يتوغل فى قلب الإنسان.

كما يحتمل أن تعنى الفتنة الفتن الاجتماعية و مشاكلها، و أن يسود الهرج و المرج فى المجتمع، و ابتلائه بالهزيمة، و سائر الفتن الاخرى التى يبتلى بها المجتمع فى حالة عصيانه أوامر قائده.

و على كلّ حال فالفتنة ذات مفهوم واسع يضمّ جميع هذه الأمور و غيرها، مثلما يضمّ العذاب الأليم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة أو كليهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۱

و ممّا يجب الانتباه إليه فى تفسير الآية محل البحث وجود احتمالين إضافة إلى ما ذكرناه هما:

الأوّل: أنّ القصد من قوله تعالى: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً أنّكم عند ما تدعو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فينبغى أن تدعوه بأدب و احترام يليق بمنزلته، و ليس كما تدعون بعضكم بعضا، و السبب يكمن فى أنّ جماعة من المسلمين لم يتعلموا- بعد- الآداب الإسلامية فى التعامل مع الآخرين، فكانوا ينادون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعبارة: يا محمّد! و هذا لا يليق بنداء قائد إلهى كبير.

و تستهدف الآية تعليم الناس أن يدعوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعبارات رزينة و بأسلوب مؤدب، كأن يدعوه: يا رسول اللّه، أو: يا نبىّ اللّه.

و هذا التّفسير ورد فى بعض الرّوايات أيضا إلّا أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآية التى تحدثت عن الاستجابة لدعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و وجوب عدم الغياب عن الجماعة دون استئذان منه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أن نقول: إن كلا المعنيين مقصودان للآية واحدة، و أن مفهوم الآية شامل للتفسيرين الأوّل و الثّانى.

و الآخر: و يبدو أنّه ضعيف جدّا، و هو ألّا تجعلوا دعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أحد الأشخاص و لعنه له كدعاء بعضكم على بعض ۱۳۱]، لأنّ دعاء و لعن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتمّ وفق حساب دقيق و خاضع للتعاليم الإلهية، و هو نافذ حتما.

و لكن ليس لهذا التّفسير علاقة بأوّل الآية و نهايتها، و لم يرد حديث إسلامى خاصّ به، و لهذا السبب لا يمكن قبوله.

و تجدر الإشارة إلى أنّ علماء الأصول فسّروا عبارة فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ بأنّ أوامر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تدل على الوجوب، إلّا أنّ هذا الاستدلال فيه نواقص أشير إليها فى علم الأصول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۲

و آخر آیـة من الآیـات موضع البحث،- و التی هی آخر سورة النور- إشـارة بلیغـة إلی قضـیة المبـدأ و المعـاد التی تعتبر دافعـا لامتثال التعـالیم الإلهیـة جمیعـا، و ضـمان لتنفیـذ جمیع الأـوامر و النواهی، و منهـا الـتی وردت فی هـذه السورة حیث تقول: أَلاـ إِنَّ لِلَّهِ مـا فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

فـإنّ اللّه العالم بکلّ شـیء قَدْ یَعْلَمُ ما أَنْتُمْ عَلَیْهِ أی یعلم أسـلوبکم فی التعامل و أعمالکم و اعتقادکم و مقاصـدکم، فکلّها واضـحة له سبحانه و تعالی. و ثابتة فی لوحة علمه وَ یَوْمَ یُرْجَعُونَ إِلَیْهِ فَیُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا و یجازیهم بها وَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیمٌ

و ممّا یلفت النظر تأکید الآیة ثلاث مرات علی علم اللّه بأعمال البشـر. لیشـعر الإنسان أنّه مراقب بشکل دائم، و لا یخفی علی اللّه شیء من أعمال هذا الإنسان أبدا. و لهذا الإعتقاد أثره التربوی الکبیر و یضمن سیطرة الإنسان علی نفسه إزاء الانحرافات و الذنوب.

إلهی، نوّر قلوبنـا بنور العلم و الإیمـان، و قوّ مشـکاة وجودنـا للمحافظـة علی هـذا الإیمـان، لنجتاز صـراطک المسـتقیم الـذی سار علیه أنبیاؤک لکسب رضاک، و لتحفظنا بلطفک من کل انحراف.

ربّاه، نوّر أبصارنا بنور العفة، و قلوبنا بنور المعرفة، و أرواحنا بنور التقوی، و نور وجودنا کله بنور الهدایة، و احفظنا من التیه و الغفلة، و أعذنا من وساوس الشیطان.

إلهی، وطّد أرکان حکومـة العدل الإسـلامی من أجل تنفیذ حدودک، و احفظ مجتمعنا من الزلل و السـقوط فی هاویة الرذیلة، إنک علی کل شیء قدیر.

نهایة سورة النور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۳

سورة الفرقان

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها سبع و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۵

«سورة الفرقان»

محتوی سورة الفرقان:

هـذه السورة بحکم کونها من السور المکیة[۱۳۲]، فإن أکثر ارتکازها علی المسائل المتعلقـة بالمبـدأ و المعاد، و بیان نبوة النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المواجهة مع الشرک و المشرکین، و الإنذار من العواقب الوخیمة للکفر و عبادة الأصنام و الذنوب.

و تتألف هـذه السورة فی مجملها من ثلاثـة أقسام:- القسم الأوّل: الـذی یشـکل مطلع هـذه السورة، یدحض منطق المشـرکین بشدّة، و یسـتعرض ذرائعهم، و یردّ علیهـا، و یخوفهم من عـذاب اللّه، و حسـاب یوم القیامـة، و عقوبـات جهنم الألیمـة، و یـذکّرهم بمقاطع من قصـص الأقوام الماضـیة الـذین افترسـتهم علی أثر مخالفتهم لدعوة الأنبیاء- الشدائد و البلایا و العقوبات، و ذلک علی سبیل الدرس و العبرة لهؤلاء المشرکین المعاندین.

فی القسم الثانی: لأجل إکمال هذا البحث، تبحث الآیات بعض دلائل التوحید و مظاهر عظمة اللّه فی الأکوان، بدءا من ضـیاء الشمس إلی ظلمة و عتمة اللیل، و هبوب الریاح، و نزول الأمطار، و إحیاء الأراضـی الموات، و خلق السـماوات و الأرضین فی ستة أیّام، و خلق الشمس و القمر، و سیرهما المنظم فی الأفلاک السماویة، و ما شابه ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۶

فالقسم الأوّل فی الحقیقة- یحدد مفهوم (لا إله)، و القسم الثّانی یحدد مفهوم (إلّا اللّه).

القسم الثالث: مختصر جذاب جدّا، و جامع لصفات المؤمنین الحقیقیین (عباد الرحمن) و عباد اللّه المخلصین، فی مقایسة مع الکفار المتعصبین الذین ذکروا فی القسم الأوّل، فتتحدد منزلة کل من الفریقین تماما. کما أنّنا سنری أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقادیات و الأعمال الصالحة و مکافحة الشهوات، و امتلاک الوعی الکافی، و الإحساس و الالتزام بالمسؤولیة الاجتماعیة.

و اسم هذه السورة قد أخذ من آیتها الأولی، التی تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفاصل بین الحق و الباطل).

فضیلة سورة الفرقان:

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أن «من قرأ سورة الفرقان (و تدبّر فی محتواها و عمل بما ورد فیها) بعث یوم القیامة و هو مؤمن أن الساعة آتیة لا ریب فیها، و أن اللّه یبعث من فی القبور».[۱۳۳]

(أی مؤمن بأن الساعة ...) و

نقل فی حدیث آخر عن إسحاق بن عمار عن الإمام أبی الحسن موسی بن جعفر علیه السّلام أنّه قال له: «یا ابن عمار، لا تدع قراءة سورة تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ فإن من قرأها فی کل لیلة لم یعذبه اللّه أبدا، و لم یحاسبه، و کان منزله فی الفردوس الأعلی».[۱۳۴]

کما أننا سنری- فی تفسیر هذه السورة- أن کلّ من تلا بحق صفات عباد اللّه المخلصین المبیّنة فی السورة کما هی، و امتزجت بقلبه و روحه، و بنی صفاته أعماله طبقا لها فإنّ منزله الفردوس الأعلی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۷

الآیتان [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۱ الی ۲]

اشارة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص۱۸۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً (۱) الَّذِی لَهُ مُلْکُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لَمْ یَتَّخِذْ وَلَداً وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ شَرِیکٌ فِی الْمُلْکِ وَ خَلَقَ کُلَّ شَیْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِیراً (۲)

التّفسیر

المقیاس الأعلی للمعرفة:

تبدأ هذه السورة بجملة «تبارک» من مادة «برکة»، و نعلم أنّ الشیء ذو برکة، عبارة عن أنّه ذو دوام و خیر و نفع کامل. یقول تعالی: تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراً.[۱۳۵] الملفت للانتباه أنّ ثبوت البرکة لذات الخالق عزّ و جلّ بواسطة نزول

الفرقان، يعنى أنّه أنزل قرآنا فاصلا بين الحق و الباطل، و هذا يدل على أن أعظم الخير و البركة هى أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل.

و هنا وقفة مهمّة أيضا، و هى أنّ كلمة «الفرقان» وردت بمعنى «القرآن» تارة، و تارة بمعنى معجزات مميزة للحق من الباطل، و وردت بمعنى «التوراة» تارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۸

أخرى.

عن القرآن و الفرقان، أ هما شيئان، أو شيء واحد؟ فقال: «القرآن: جملة الكتاب، و الفرقان: المحكم الواجب العمل به».

و لا منافاة بين هذا القول و بين أنّ الفرقان هو جميع آيات القرآن، و المراد هو أنّ آيات القرآن المحكمات تعتبر مصداقا أوضح و أبرز للفرقان و للتمييز بين الحق و الباطل.

و لموهبة «الفرقان و المعرفة» أهمية بالغة بحيث أنّ القرآن المجيد ذكرها كمكافأة عظيمة للمتقين: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً ..[۱۳۶].

نعم، فبدون التقوى لا يمكن تمييز الحق من الباطل، لأنّ الأهواء و الذنوب تلقى على وجه الحق حجابا كثيفا، و تعمى بصر ابن آدم و بصيرته.

و على أية حال، فالقرآن المجيد هو الفرقان الأعلى.

القرآن وسيلة لتشخيص الحق من الباطل فى نظام حياة البشر.

القرآن وسيلة لتشخيص الحق من الباطل فى مسير الحياة الفردية و الاجتماعية، و هو الميزان و المحك على صعيد الأفكار و العقائد، و القوانين، و الأحكام، و الآداب، و الأخلاق.

و هذه الوقفة مهمّة أيضا، حيث يقول تعالى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ نعم، فمقام العبودية و الانقياد التامّين هو الذى يحقق اللياقة لنزول الفرقان، و لتلقى موازين الحق و الباطل.

و النكتة الأخيرة التى طرحت فى هذه الآية، تبيّن أنّ هدف الفرقان النهائى هو إنذار العالمين، الإنذار الذى نتيجته الإحساس بالمسؤولية تجاه التكاليف الملقاة على عاتق الإنسان. و عبارة «للعالمين» كاشفة عن أنّ شريعة الإسلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۸۹

عالمية لا تختص بمنطقة معينة، و لا بقوم أو عنصر معينين. بل إن بعضهم قد استدل منها على خاتمية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ذلك أن «العالمين» كما أنّها غير محدودة من حيث المكان، فكذلك مطلقة من حيث الزمان أيضا، ف «العالمين» تشمل جميع الأجيال القادمة أيضا (فتأمل!).

الآية الثّانية تصف اللّه الذى نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هى الأساس، و البقية نتائج و فروع لها، فتقول أوّلا: الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۱۳۷].

نعم، إنّه الحاكم على كل عالم الوجود، و كل السماوات و الأرض، فلا شيء خارج عن سلطة حكومته، و بالالتفات إلى تقدم «له» على «ملك السموات» الذى هو دليل الحصر فى اللغة العربية يستفاد أن الحكومة الواقعية و الحاكمية المطلقة فى السماوات و الأرض منحصرة به تبارك و تعالى، ذلك لأن حكومته عامّة و خالدة و واقعية، بخلاف حاكمية غيره التى هى جزئية و متزلزلة. و فى نفس الوقت فهى مرتبطة به سبحانه.

ثمّ يتناول تفنيد عقائد المشركين واحدة بعد الأخرى، فيقول تعالى: وَ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً[۱۳۸].

و كما قلنا من قبل فإن الحاجة إلى الولد من حيث الأصل إمّا لأجل الاستفادة من طاقته البشرية فى الأعمال، أو لأجل الاستعانة به حال

الضعف و العجز و الشيخوخة، أو لأجل الاستئناس به فى حال الوحدة، و من المعلوم أن ذاته المقدسة عزّ و جلّ منزّهة عن أى واحد من تلك الاحتياجات.

و بهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأنّ «المسيح» عليه السّلام ابن اللّه، أو ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۰

يعتقده اليهود أنّ «العزير» ابن اللّه، و كذلك يدحض اعتقاد مشركى العرب، ثمّ يضيف جل ذكره: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ فإذا كان لمشركى العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، و يتوهمونهم شركاء للّه فى العبادة، و يتوسلون بهم من أجل الشفاعة، و يسألونهم المعونة لقضاء حوائجهم، حتى آل بهم الأمر أنّهم كانوا يقولون بصراحة- حين التلبية للحج- جملا قبيحة ملوثة بالشرك، مثل: «لبيك لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك، تملكه و ما ملك». فإنّ القرآن يدين و يدحض كل هذه الأوهام.

و يقول تعالى فى العبارة الأخيرة: وَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً.

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأن قسما من موجودات هذا العالم مخلوقات «اللّه»، و أن قسما منها مخلوقات «الشيطان».

و بهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق و الخلقة بين اللّه و الشيطان، ذلك لأنّهم كانوا يتوهمون الدنيا مجموعة من «الخير» و «الشر»، و الحال ألّا شىء فى عالم الوجود إلّا الخير من وجهة نظر الموحد الحق. فإذا رأينا شرّا، فإمّا أن يكون ذا جنبة «نسبية» أو «عدمية»، أو أن يكون نتيجة لأعمالنا (فتأمل)!.

بحث

تقدير الموجودات بدقة:

ليس نظام العالم الدقيق و المتقن- وحده- من الدلائل المحكمة على معرفة اللّه و توحيده، فتقديراته الدقيقة أيضا دليل واضح آخر، أنّنا لا يمكن أن نعتبر مقادير موجودات هذا العالم المختلفة، و كميتها و كيفيتها المحسوبة، معلولة للصدفة التى لا تتوافق مع حساب الاحتمالات.

و قد تقصّى العلماء الأمر فى هذا الصدد، و أزاحوا الستار عن أسراره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۱

المدهشة التى تذهل فكر الإنسان، و تترك لسانه يترنم بتمجيد عظمة و قدرة الخالق بلا اختيار.

و نعرض لكم- ها هنا- جانبا من ذلك:

يقول العلماء: لو كانت قشرة الأرض أسمك ممّا هى عليه الآن بمقدار بضعة أقدام، لما وجد غاز «الاوكسجين» الذى يعتبر المادة الاصلية للحياة، و لو كانت البحار أعمق من عمقها الفعلى عدّة أقدام لا متصت جميع ما فى الجو من الكاربون و الاوكسجين، و لما أمكن وجود حياة لحيوان و نبات على سطح الأرض، و يحتمل أن تقوم قشرة الأرض و البحار بامتصاص كل الأوكسجين، و كان على الإنسان أن ينتظر نمو النباتات التى تلفظ الأوكسجين.

و طبقا للحسابات الدقيقة فى هذا المجال يتّضح أنّ للأوكسجين مصادر مختلفة، و لكن مهما كان مصدره فإنّ كميته مطابقة لاحتياجاتنا بالضبط.

و لو كانت طبقة الغلاف الجوى أرق ممّا هى عليه الآن ممّا هو، فإنّ بعض الشهب التى تحترق كل يوم بالملايين فى الهواء الخارجى، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، و هى تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال و أربعين ميلا فى الثّانية، و كان فى إمكانها أن

تشعل كل شيء قابل للاحتراق. و لو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض و لكانت العاقبة مروعة، و لو تعرض الإنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، لتحول الى رماد لمجرّد حرارته.

الغلاف الجوى سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيموى التى يحتاج إليها الزرع و التى تقتل الجراثيم و تنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلّا إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللازم. و على الرغم من الانبعاثات الغازية من اعماق الأرض طول الدهور، و معظمها سام، فإنّ الهواء باق دون تلوث فى الواقع، و دون تغير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

إنّ الجهاز الذى يقوم بهذه الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۲

أى البحار و المحيطات التى هى مصدر الحياة و الغذاء و المطر و المناخ المعتدل، و أخيرا استمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيوية منهما، فدع من يدرك ذلك يقف فى روعة أمام عظمته تعالى، و يقرّ بواجباته شاكرا! إنّ التعادل العجيب بين الأوكسجين و ثانى أوكسيد الكاربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية، و عالم النبات كلّه، قد استرعت أنظار كل العالم المفكر، غير أن أهمية ثانى أوكسيد الكاربون لم يدركها الجميع بعد، و ثانى أوكسيد الكاربون هو الغاز المألوف فى تعبئة ماء الصودا، و هو غاز ثقيل، و لحسن الحظ يعلق بالأرض، و لا يتمّ فصله إلى أوكسجين و كاربون إلّا بصعوبة كبيرة، و إذا أشعلت نارا، فإنّ الخشب- الذى يتكون غالبا من الأوكسجين و الكاربون و الهيدروجين- يتحلل تحت تأثير الحرارة و يتحد الكاربون مع الأوكسجين بشدّة، و ينتج من ذلك ثانى أوكسيد الكاربون. و الهيدروجين الذى يطلق يتحد بمثل تلك الشدة مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء. و معظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره.

و حين يتنفس رجل فإنّه يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم، و يقوم بتوزيعه الى جميع أنحاء جسمه، و يقوم هذا الأوكسجين يحرق طعامه فى كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبيا، النتيجة هى ثانى أوكسيد الكاربون و بخار الماء.

و بذلك يتسلل ثانى أوكسيد الكاربون إلى رئتيه، و يعود الى الجو مرّة اخرى من خلال الزفير، و كلّ كائن حيوانى حى يمتص الاوكسجين و يلفظ ثانى اوكسيد الكاربون.

ما أعجب نظام الضوابط و الموازنات الذى منع أى حيوان- مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكره- من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسان وحده بامكانه قلب هذا التوازن الذى للطبيعة بنقله النباتات و الحيوانات من مكان إلى آخر، و سرعان ما يلقى جزاءه القاسى على ذلك ماثلا فى تطورات آفات الحيوان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۳

و الحشرات و النبات.

و الواقعة الآتية مثل بارز على أهمية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبّار (الكاكتوس) فى أستراليا كسياج وقائى. و لكن هذا الزرع مضى فى سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، و زاحم أهالى المدن و القرى، و أتلف مزارعهم، و حال دون الزراعة، و لم يجد الأهالى وسيلة لصده عن الانتشار، و صارت أستراليا فى خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت، يتقدم فى سبيله دون عائق! و طاف علماء الحشرات بنواحى العالم حتى وجدوا أخيرا حشرة لا تعيش إلّا على ذلك الصبار و لا تتغذى بغيره، و هى سريعة الانتشار و ليس لها عدو يعوقها فى أستراليا. و ما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار، ثمّ تراجعت، و لم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفى لصد الصبّار عن الانتشار إلى الأبد.

و هكذا توافرت الضوابط و الموازين، و كانت دائما مجدية.

و لماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم و تقتل بذلك النوع البشرى مع أن البعوض متوفر فى جميع أنحاء العالم حتى فى القطبين؟ و مثل ذلك أيضا يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التى تقدمت شمالا فى أحد الفصول حتى وصلت إلى

نيويورك.

و لماذا لم تتطور ذبابة «تسى تسى» «الذبابة المنومة» حتى تستطيع أن تعيش فى غير مناطقها الحارة، و تمحو الجنس البشرى من الوجود؟ يكفى أن يذكر الإنسان الطاعون و الأوبئة و الجراثيم الفتاكة التى لم يكن منها وقاء حتى الأمس القريب، و أن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية، ليعلم أن بقاء الجنس البشرى معها يدعو حقا إلى الدهشة![۱۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳ الى ۶]

اشارة

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً (۳) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً (۴) وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۵) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۶)

التّفسير

الاتهامات المتعددة الألوان:

هذه الآيات- فى الحقيقة- تتمة للبحث الذى ورد فى الآيات السابقة، فى مسألة المواجهة مع الشرك و عبادة الأوثان. ثمّ فى الادعاءات الواهية لعبدة الأوثان، و اتهاماتهم فيما يتعلق بالقرآن، و شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآية الأولى- فى الواقع- تجر المشركين إلى المحاكمة، و لتحريك وجدانهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۱۹۵

تقول بمنطق واضح و بسيط، و فى نفس الوقت قاطع و داحض: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَ هُمْ يُخْلَقُونَ

المعبود الحقيقى هو خالق عالم الوجود، و لا يدعى المشركون هذا الادعاء لأوثانهم، بل يعتقدون أنّها مخلوقة للّه.

و بعد، فما ذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التى لا تملك لنفسها نفعا و لا ضرا، و لا تملك موتا و لا حياة و لا نشورا، فما بالك بما تستطيعه للآخرين!؟

وَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً وَ لا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَ لا حَياةً وَ لا نُشُوراً.

و الأصول المهمّة عند الإنسان هى هذه الأمور الخمسة بالذات: النفع و الضر، و الموت، و الحياة، و النشور.

فمن يكن بحق مالكا أصيلا لهذه الأمور، يكن بالنسبة إلينا جديرا بالعبادة.

لكن هذه الأصنام غير قادرة أصلا على هذه الأمور لنفسها، فكيف تريد أن توفّر هذه الأمور لمن يعبدها من المشركين؟! أى منطق مفتضح هذا!؟ أن ينقاد الإنسان و يتذلل على أعتاب موجود لا اختيار له فى نفسه، فما بالك باختياره للآخرين!؟

هذه الأوثان ليست عاجزة فى الدنيا عن حل مشكلة ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا يؤمل منها شىء فى الآخرة أيضا.

هذا التعبير يدل على أنّ هذه الفئة من المشركين، المخاطبة فى هذه الآيات، كانت تقبل بالمعاد نوعا من القبول (المعاد الروحى لا الجسدى)، أو أن القرآن- حتى مع عدم اعتقادهم بمسألة المعاد- يتناول القضية كمسلّمة، فيخاطبهم بشكل قاطع على هذا الصعيد، و هذا مألوف، فالإنسان أحيانا يكون أمام شخص منكر للحقيقة، لكنّه يدلى بكلامه طبقا لأفكاره هو، دون اعتناء بأفكار ذلك المنكر.

خاصّة و أنّ دليلا ضمنيا على المعاد قد كمن فى نفس الآية، لأنّ خالقا حينما يبتدع مخلوقا- و هو مالك موته و حياته و ضرّه و نفعه- لا بدّ أن يكون له هدف من خلقه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۶

و لا يمكن أن يتحقق هذا الهدف فيما يخص الناس بدون الإيمان بالنشور، ذلك لأنّه إذا انتهى بموت الإنسان كل شىء، فسوف تكون الحياة فارغة بلا معنى، و هذا يدلّ على أن ذلك الخالق لم يكن حكيما.

إذا تأملنا جيدا وجدنا مسألة «الضرر» جاءت فى الآية قبل «النفع» و ذلك لأن الإنسان ينفر من الضرر بالدرجة الأولى، و لهذا كانت جملة «دفع الضرر أولى من جلب المنفعة» أحد القوانين العقلائية.

و إذا كان «الضرر» و «النفع» و «الموت» و «الحياة» و «المنشور» جاءت بصيغة النكرة، أيضا، فلأجل بيان هذه الحقيقة، و هى أن هذه الأوثان لا تملك نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا، حتى فى مورد واحد، فما بالك بالموارد كلها!؟

و إذا ذكرت «لا يملكون» و «لا يخلقون» بصيغة «جمع المذكر العاقل» (فى حال أنّ هذه الأوثان الحجرية و الخشبية ليس لها أدنى عقل أو شعور) فذلك لأنّ هذا الخطاب لا يتعلق بالأوثان الحجرية و الخشبية فحسب، بل بالجماعة التى كانت تعبد الملائكة أو المسيح، و لأن العاقل و غير العاقل مجتمعان فى معنى هذه الجملة، فذكر الجميع بصيغة العاقل من باب «التغليب» كما فى الاصطلاح الأدبى.

أو أن الخطاب فى هذه العبارة كان طبقا لاعتقاد المخاطبين به، حتى يثبت عجزهم و عدم استطاعتهم، يعنى: إذا كنتم تعتقدون أن هذه الأوثان ذات عقل و شعور، فلما ذا لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضررا، أو أن تجلب منفعة!؟

الآية التالية- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- فى مقابل دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلَّا إِفْكٌ افْتَراهُ وَ أَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ

فى الواقع، إنّهم من أجل أن يلقوا عن عواتقهم مسئولية تحمل الحق- شأن كل الذين أصروا على معارضة القادة الربانيين على طول التاريخ- اتهموا الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۷

صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوّلا بالافتراء و الكذب، خاصّة و أنّهم قد استخدموا لفظة «هذا» ليحقروا القرآن.

ثمّ من أجل أن يثبتوا أنّه غير قادر على الإتيان بمثل هذا الكلام- لأنّ الإتيان بمثل هذا الكلام المبين مهما يكن بحاجة إلى قدرة علمية وافرة، و ما كانوا يريدون التسليم بهذا- و من أجل أن يقولوا أيضا: إنّ هذا خطّة مدبرة و محسوبة، قالوا: إنّه لم يكن وحده فى هذا العمل، بل أعانه قوم آخرون، و هذه مؤامرة بالتأكيد، و يجب الوقوف بوجهها.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ المقصود ب قَوْمٌ آخَرُونَ جماعة من اليهود.

و قال آخرون: إنّ المقصود بذلك ثلاثة نفر كانوا من أهل الكتاب، و هم:

«عداس» و «يسار» و «حبر» أو «جبر».

على أية حال- بما أنّ هذه المواضيع لم يكن لها وجود فى أوساط مشركى مكّة، و إنّ قسما منها مثل قصص الأنبياء الأولين كان عند اليهود و أهل الكتاب- فقد كان المشركون مضطرين الى نسبة هذه المطالب الى أهل الكتاب كى يخمدوا موجة إعجاب الناس من سماع هذه الآيات.

لكن القرآن يردّ عليهم فى جملة واحدة فقط، تلك هى: فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً.[۱۴۰] «الظلم» هنا لأنّ رجلا أمينا طاهرا و صادقا مثل الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اتّهموه بالكذب و الافتراء على اللّه، و بالاشتراك مع جماعة من أهل الكتاب. فظلموا أنفسهم و الناس أيضا.

و «الزور» هنا أن قولهم لم يكن له أساس مطلقا، لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعاهم عدّة مرات إلى الإتيان بسورة و آيات

مثل القرآن، فعجزوا و ضعفوا أمام هذا التحدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۸

و هذا بالذات يدل على أن هذه الآيات ليست من صنع عقل البشر، لأنّ الأمر لو كان كذلك، لكانوا يستطيعون بمعونة جماعة اليهود و أهل الكتاب أن يأتوا بمثلها. و من هنا فإنّ عجزهم دليل على كذبهم، و كذبهم دليل على ظلمهم.

لهذا فالجملة، القصيرة فَقَدْ جاؤُ ظُلْماً وَ زُوراً رد بليغ و داحض فى مواجهة ادعاءاتهم الواهية.

كلمة «زور» فى الأصل من «زور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثمّ أطلقت على كل شىء يتمايل عن حدّ الوسط، و بما أنّ «الكذب» انحرف عن الحق، و مال إلى الباطل، فقد، سمّوه «زورا».

تتناول الآية التالية لونا آخر من التحليلات المنحرفة و الحجج الواهية للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها.

لا ـ شىء عنده من قبل نفسه، لا علم و لا ابتكار، فكيف له بالنبوّة و الوحى! إنّه استعان بآخرين، فجمع عدّة من الأساطير القديمة، و أطلق عليها اسم الوحى و الكتاب السماوى. و هو يستلهمها من الآخرين طيلة اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا.

إنّه يتلقى المعونة لأجل هدفه فى الأوقات التى يقلّ فيها تواجد الناس، أى بكرة و عشيا.

هذا الكلام- فى الحقيقة- تفسير و توضيح للاتهامات التى نقلت عنهم فى الآية السابقة. إنّهم فى هذه الجملة القصيرة أرادوا أن يفرضوا على القرآن مجموعة من نقاط الضعف:

أوّلها: أن ليس فى القرآن موضوع جديد مطلقا، بل مجموعة من الأساطير القديمة.

و الثّانية: أنّ نبى الإسلام لا يستطيع الاستمرار بدعوته- حتى يوما واحدا- بدون مساعدة الآخرين، فلا بدّ أن يملوا الموضوعات عليه بكرة و عشيا، و عليه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۱۹۹

يكتبها.

و الأخرى: أنّه يعرف القراءة و الكتابة. فإذا قال: إنّنى أمّى، فهى دعوى كاذبة.

إنّهم- فى الواقع- كانوا يريدون أن يفرقوا الناس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بواسطة هذه الأكاذيب و الاتهامات، فى الوقت الذى يعلم كل العقلاء الذين عاشوا مدّة فى ذلك المجتمع، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن قد درس عند أحد، مضافا إلى أنّه لم تكن له أية رابطة مع جماعة اليهود و أهل الكتاب. و إذا كان يستلهم من الآخرين كل يوم بكرة و عشيا، فكيف أمكن أن يخفى على أحد؟ فضلا عن هذا، فإن آيات القرآن كانت تنزل عليه فى السفر و الحضر، بين الناس و منفردا، و فى كل حال.

مضافا إلى كل هذا، كان القرآن مجموعة من التعليمات الاعتقادية، و الأحكام العملية، و القوانين، و مجموعة من قصص الأنبياء، و لم تكن قصص الأنبياء لتشكل كل القرآن، مضافا إلى أنّ ما ورد من قصص الأقوام الأولين فى القرآن لم يكن له شبه لما جاء فى العهدين (التوراة و الإنجيل) المحرفين، و أساطير العرب الخرافية، لذلك لأنّ ما فى العهدين ملىء بالخرافات، و القرآن منزّه عنها، و لو وضعنا القرآن و العهدين جنبا إلى جنب، و قايسنا بينهما، فسوف تتجلى حقيقة الأمر جيدا.[۱۴۱] لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغة الرد على هذه الاتهامات الواهية، فتقول:

قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إشارة إلى أن محتوى هذا الكتاب، و الأسرار، المتنوعة فيه من علوم و معارف و تاريخ الأقوام الأولين، و القوانين و الاحتياجات البشرية، و حتى أسرار عالم الطبيعة و الأخبار المستقبلية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۰

تدل على أن ليس من صنع و متناول عقل البشر، و لم ينظم بمساعدة هذا أو ذاك.

بل بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء و الأرض، و المحيط بكل شيء علما.

لكن مع كل هـذا، فإن القرآن يترك طريق التوبة مفتوحا أمام هؤلاء المغرضـين و المنحرفين، فيقول تبارك و تعالى فى ختام الآية إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً.

فبمقتضـى رحمته أرسـل الأنبيـاء، و أنزل الكتب السـماوية، و بمقتضـى غفوريته سـيعفو فى ظـل الإيمـان و التوبـة عن ذنوبكم الـتى لا تحصى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۱

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ قالُوا ما لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِـى فِى الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً (۷) أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلًا مَسْحُوراً (۸) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (۹) تَبارَكَ الَّذِى إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً (۱۰)

سبب النّزول

فى رواية عن الإمام الحسن العسـكرى عليه السّلام، أنّه قال: قلت لأبى على بن محمد عليهما السّلام: هل كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يناظر اليهود و المشركين إذا عاتبوه و يحاجّهم؟ قال: مرارا كثيرة و ذلك أنّ رسول اللّه كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة، فابتـدأ عبد اللّه بن أبى أمية المخزومى فقال: يا محمد لقد ادّعيت دعوى عظيمة، و قلت مقالا هائلا، زعمت أنّك رسول ربّ العالمين، و ما ينبغى لربّ العالمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۰۲

و خـالق الخلق أجمعين أن يكون مثلـك رسوله بشـرا مثلنـا، تأكل كما نأكل و تمشـى فى الأسواق كما نمشـى، فقال رسول اللّه: اللّهمّ أنت السامع لكل صوت، و العالم بكلّ شيء، تعلم ما قاله عبادك فأنزل اللّه عليه: يا محمد: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ ... إلى قوله تعالى وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً.[۱۴۲]

التّفسير

لم لا يملك هذا الرّسول كنوزا و جنات؟!

عرض فى الآيـات السابقـة قسم من إشـكالات الكفـار فيما يخص القرآن المجيـد، و أجيب عليها، و يعرض فى هـذه الآيات قسم آخر يتعلق بشـخص الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و يجـاب عنهـا، فيقول تعـالى: وَ قـالُوا مـا لِهـذَا الرَّسُولِ يَأْكُـلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِـى فِى الْأَسْواقِ

ما هـذا النّبى الـذى يحتاج إلى الغذاء كغيره من الأفراد العاديين؟ و يمشـى فى الأسواق من أجل الكسب و التجارة و شـراء احتياجاته؟

فليست هـذه سيرة الرسل و لا طريقـة الملوك و السـلاطين! و فى الوقت الـذى يريـد هذا الرّسول التبليغ بالدعوة الإلهية، و يريد أيضـا السـلطنة على الجميع! لقـد كان المشـركون يرون أنّه لا يليق بـذوى الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغى أن يرسـلوا خدمهم و مأموريهم من أجل ذلك.

ثمّ أضافوا: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَـذِيراً، فلم لم يرسل إليه- على الأقل- ملك من عند اللّه، شاهد على صدق دعوته، و ينذر معه الناس!؟

حسن جـدا، لنفرض أنّنـا وافقنا على أن رسول اللّه يمكن أن يكون إنسانا، و لكن لماذا يكون فقيرا فاقـدا للثروة و المال!؟ أَوْ يُلْقى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۳

و لم يكتفوا بهذا أيضا، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطئ، كما نقرأ فى ختام هذه الآية نفسها وَ قالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً. ذلـك أنّهم كـانوا يعتقـدون أن السـحرة يسـتطيعون أن يتـدخلوا فى فكر و عقول الأفراد فيسـلبونهم قوام عقولهم! من مجموع الآيات أعلاه، يسـتفاد أنّ المشركين كانت لديهم عدّة إشكالات واهية حول الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانوا يتنازلون عن مقالتهم مرحلة بعد مرحلة.

أوّلا: إنّه أساسا يجب أن يكون ملكا، و هذا الذى يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق ليس ملكا بالضرورة.

ثمّ قالوا: حسن جدّا، إن لم يكن ملكا، فيرسل اللّه- على الأقل- ملكا يرافقه و يعينه.

ثمّ تنـازلوا عن هـذا أيضـا، فقالوا: لنفرض أن رسول اللّه بشـر، فينبغى أن يلقى إليه كنز من السـماء، ليكون دليلا على أنه موضع اهتمام اللّه.

و قـالوا فى نهايـة المطـاف: لنفرض أنه لم يكن له أىّ من تلـك الميزات، فينبغى على الأقـل ألاـ يكون إنسانا فقيرا، فليكن كأى مزارع مرفه، له بستان يضمن منه معيشته. لكنّه فاقد لكلّ هذا مع الأسف، و يقول إنّنى نبىّ!؟

و استنتجوا فى الختام، أنّ ادعاءه الكبير هذا، فى مثل هذه الشرائط، دليل على أن ليس له عقل سليم.

الآية التالية تبيّن جواب جميع هذه الإشكالات فى عبارة موجزة: انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.

هـذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هـذه الحقيقـة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهية التى لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق و القرآن- الذى محتواه شاهد ناطق على ارتباطه باللّه- ليخفوا وجه الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۴

حقّا، إن مثلهم كمثل من يريـد أن يقف أمام اسـتدلالاتنا المنطقيـة من خلال حفنـة من الحجـج، الواهيـة: فنقول من دون الاجابة عليها بالتفصيل: انظر بأية ادعاءات واهية يريدون أن يقفوا معها أمام الدليل المنطقى.

و هكذا كانت أقوالهم فى جميع مواردها، لأن:

أوّلا: لماذا يجب أن يكون الرّسول من جنس الملائكة؟ بل ينبغى أن يكون قائد البشر منهم، كما يحكم به العقل و العلم، حتى يدرك جميع آلام و رغبات و حاجات و مشـكلات و مسائل حياة الإنسان تماما، ليكون قـدوة عملية له على كل المسـتويات، و حتى يسـتلهم الناس منه فى جميع المناهج، و من المسلّم أن تأمين هذه الأهداف لم يكن ليتحقق لو كان من الملائكة، و لقال الناس إذا حدثهم عن الزهـد و عـدم الاهتمام بالـدنيا: إنّه ملك، و ليست له حاجات ماديـة تجرّه إلى الـدنيا و إذا دعا إلى الطهارة و العفـة لقال الناس: إنه لا يدرى ما عاصفة الغريزة الجنسية، و عشرات (إذا) مثل تلك.

ثانيا: ما ضـرورة أن ينزل ملك ليرافق بشرا من أجل تصديقه؟ أ فليست المعجزات كافية لإدراك هذه الحقيقة، و خاصّة معجزة عظيمة كالقرآن! ثالثا: أكل الطعام كسائر الناس، و المشى فى الأسواق يكون سببا للاندماج بالناس أكثر، و الغوص فى أعماق حياتهم، ليؤدى

رسالته بشكل أفضل.

رابعا: عظمة الرّسول و شخصيته مردهما ليس إلى الكنز و النفائس و لا- بساتين النخيل و الفواكه الطازجة، هذا نمط تفكير الكفار المنحرف الذى يعتبر أن المكانة- و حتى القرب من اللّه- فى الأثرياء خاصّة، فى حال أنّ الأنبياء جاؤوا ليقولوا:

أيّها الإنسان، إنّ قيمة وجودك ليست بهذه الأشياء، إنّها بالعلم و التقوى و الإيمان.

خامسا: بأى مقياس كانوا يعتبرونه «مسحورا» أو «مجنونا»؟ الشخص الذى كان عقله معجزا بشهادة تأريخ حياته و انقلابه العظيم و تأسيسه الحضارة الإسلامية، كيف يمكن اتهامه بهذه التهمة المضحكة؟ أ يصح أن نقول إن تحطيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۵

الأصنام و رفض الإتباع الأعمى للأجداد دليل على الجنون؟! اتضح بناء على ما قلناه أن (الأمثال) هنا، خاصّة مع القرائن الموجودة فى الآية، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية، و لعل التعبير عنها ب (الأمثال) بسبب أنّهم يلبسونها لباس الحق فكأنها مثله، و أقوالهم مثل الأدلة المنطقية، فى حال أنّها ليست كذلك واقعا.[۱۴۳] و ينبغى أيضا الالتفات إلى هذه النكتة، و هى أنّ أعداء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا يتهمونه- ب «الساحر» و أحيانا ب «المسحور» و إن كان بعض المفسّرين قد احتمل أن «المسحور» بمعنى «الساحر» (لأن اسم المفعول يأتى بمعنى اسم الفاعل أحيانا) و لكن الظاهر أن بينهما فرقا.

عند ما يقال عنه بأنّه ساحر، فلأن كلامه كان ذا نفوذ خارق فى القلوب، و لأنّهم ما كانوا يريدون الإقرار بهذه الحقيقة، فقد لجأوا إلى اتهامه ب «الساحر».

أمّا «المسحور» فمعناه أن السحرة تدخّلوا فى عقله و تصرفوا به، و عملوا على اختلال حواسه، هذا الاتّهام نشأ من أن الرّسول كان محطما لسنتهم، و مخالفا لعاداتهم و أعرافهم الخرافية، و قد وقف فى وجه مصالحهم الفردية.

أمّا جواب جميع هذه الاتهامات فقد اتضح من الكلام أعلاه.

و هنا يأتى هذا السؤال، و هو أنّه لماذا قال تعالى: فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا.

الجواب هو أنّ الإنسان يستطيع أن يكتشف الطريق إلى الحق بصورة ما، إذا كان مريدا للحق باحثا عنه، أمّا من يتخذ موقفه- ابتداء- على أساس أحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۶

مسبّقة خاطئة و مضلّة، نابعة من الجهل و التزمت و العناد، فمضافا إلى أنّه لا يعثر على الحق، فإنّه سيتخذ موقعه ضد الحق دائما.

الآية الأخيرة مورد البحث- كالآية التى قبلها- توجه خطابها إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على سبيل تحقير مقولات أولئك، و أنّها لا تستحق الإجابة عليها، يقول تعالى:

تَبارَكَ الَّذِى إِنْ شاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ يَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً.

و إلّا، فهل أحد غير اللّه أعطى الآخرين القصور و البساتين؟ من غير اللّه خلق جميع هذه النعم و الجمال فى هذا العالم؟ ترى أ يستحيل على اللّه القادر المنّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور البساتين؟! لكنّه لا يريد أبدا أن يعتقد الناس أن مكانتك مردّها المال و الثروة و القصور، و يكونوا غافلين عن القيم الواقعية. إنه يريد أن تكون حياتك كالأفراد العاديين و المستضعفين و المحرومين، حتى يمكنك أن تكون ملاذا لجميع هؤلاء و لعموم الناس.

أمّا لماذا يقول قصورا و بساتين أفضل ممّا أراده أولئك؟ فلأن «الكنز» وحده ليس حلّال المشاكل، بل ينبغى بعد مزيد عناء أن يستبدل بالقصور و البساتين، مضافا الى أنّهم كانوا يقولون: ليكن لك بستان يؤمن معيشتك، أمّا القرآن فيقول: إن اللّه قادر على أن يجعل لك قصورا و بساتين، لكن الهدف من بعثتك و رسالتك شىء آخر.

ورد فى «الخطبة القاصعة» من «نهج البلاغة» بيان معبر و بليغ: هنالك حيث يقول الإمام عليه السّلام: «... و لقد دخل موسى بن عمران

و معه أخوه هارون علیهما السّلام علی فرعون و علیهما مدارع الصوف و بأیدیهما العصی فشرطا له إن أسلم بقاء ملکه و دوام عزّه فقال:

«ألا تعجبون من هذین یشرطان لی دوام العز و بقاء الملک و هما بما ترون من حال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۷

الفقر و الذل، فهلّا ألقی علیهما أساورة من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه. و لو أراد اللّه سبحانه بأنبیائه حیث بعثهم أن یفتح لهم کنوز الذهبان، و معادن العقیان، و مغارس الجنان، و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء، و اضمحلت الأنباء، و لما وجب للقابلین أجور المبتلین، و لا استحق المؤمنون ثواب المحسنین، و لا لزمت الأسماء معانیها، و لکن اللّه سبحانه جعل رسله اولی قوّة فی عزائمهم، و ضعفة فیما تری الأعین من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب و العیون غنی، و خصاصة تملأ الأبصار و الأسماع أذی.

و لو کانت الأنبیاء أهل قوة لا ترام و عزّة لا تضام، و ملک تمتد نحوه أعناق الرجال، و تشدّ إلیه عقد الرحال، لکان ذلک أهون علی الخلق فی الإعتبار و أبعد لهم فی الاستکبار، و لآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم، فکانت النیّات مشترکة و الحسنات مقتسمة، و لکن اللّه سبحانه أراد أن یکون الإتباع لرسله و التصدیق بکتبه و الخشوع لوجهه و الاستکانة لأمره و الاستسلام لطاعته، أمورا له خاصّة لا تشوبها من غیرها شائبة. و کلما کانت البلوی و الاختبار أعظم کانت المثوبة و الجزاء أجزل».[۱۴۴]

و الجدیر بالذکر أنّ البعض یری بأنّ المراد بالجنّة و القصور، جنّة الآخرة قصورها، لکن هذا التّفسیر لا ینسجم مع ظاهر الآیة بأی وجه.[۱۴۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۸

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۱۱ الی ۱۶]

اشارة

بَلْ کَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ کَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِیراً (۱۱) إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَکانٍ بَعِیدٍ سَمِعُوا لَها تَغَیُّظاً وَ زَفِیراً (۱۲) وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَکاناً ضَیِّقاً مُقَرَّنِینَ دَعَوْا هُنالِکَ ثُبُوراً (۱۳) لا تَدْعُوا الْیَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً کَثِیراً (۱۴) قُلْ أَ ذلِکَ خَیْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ کانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِیراً (۱۵)

لَهُمْ فِیها ما یَشاؤُنَ خالِدِینَ کانَ عَلی رَبِّکَ وَعْداً مَسْؤُلاً (۱۶)

التّفسیر

مقارنة بین الجنة و النار:

فی هذه الآیات- علی أثر البحث فی الآیات السابقة حول انحراف الکفار فی مسألة التوحید و النّبوة- یتناول القرآن الکریم قسما آخر من انحرافاتهم فی مسألة المعاد، و یتّضح مع بیان هذا القسم أنّهم کانوا أساری التزلزل و الانحراف فی تمام أصول الدین، فی التوحید، و فی النبوة، و فی المعاد، حیث ورد القسمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۰۹

الأولان منه فی الآیات السابقة، و نقرأ الآن القسم الثالث:

يقول تعالى أوّلا: بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ.

و بما أنّ كلمة «بل» تستعمل لأجل «الإضراب» فيكون المعنى: أن ما يقوله أولئك الكفار على صعيد نفى التوحيد و النبوة، إنّما ينبع فى الحقيقة من إنكارهم المعاد، ذلك أنه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى و بالجزاء الإلهى، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا الاستهزاء و اللامبالاة، و لن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النّبى و براهينه الظاهرة، و لن يتذلل أمام الأصنام التى صنعها و زيّنها بيده.

لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالى، ذلك لأن هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال و المنطق، بل واجههم بتهديد مخيف و جسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم و الأليم، فهذا الأسلوب قد يكون أقوى تأثيرا لمثل هؤلاء الأفراد يقول أوّلا: وَ أَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً.[۱۴۶] ثمّ وصف هذه النار المحرقة وصفا عجيبا، فيقول تعالى: إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَ زَفِيراً.

فى هذه الآية، تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهى:

۱- إنّه لا يقول: إنّهم يرون نار جهنم من بعيد، بل يقول: إن النار هى التى تراهم- كأن لها عينا و أذنا- فسمّرت عينها على الطريق بانتظار هؤلاء المجرمين.

۲- إنّها لا تحتاج إلى أن يقترب أولئك المجرمون منها، حتى تهيج، بل إنّها تزفر من مسافة بعيدة .. من مسافة مسيرة عام، طبقا لبعض الروايات.

۳- وصفت هذه النار المحرقة ب «التغيظ» و ذلك عبارة عن الحالة التى يعبّر بها الإنسان عن غضبه بالصراخ و العويل.

۴- إن لجهنم «زفيرا» يعنى كما ينفث الإنسان النفس من الصدر بقوة، و هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۰

عادة فى الحالة التى يكون الإنسان مغضبا جدا.

مجموع هذه الحالات يدل على أن نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير باللّه».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أمّا حالهم فى نار جهنم فيصفها تعالى:

وَ إِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً.[۱۴۷] هذا ليس لأنّ جهنم صغيرة، فإنّه طبقا للآية (۳۰) من سورة ق يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ فهى مكان واسع، لكن أولئك يحصرون مكانا ضيقا فى هذا المكان الواسع، فهم «يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط».[۱۴۸] كما أن كلمة «ثبور» فى الأصل بمعنى «الهلاك و الفساد»، فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شىء مخيف و مهلك، فإنّه يصرخ عاليا «وا ثبورا» التى مفهومها ليقع الموت علىّ».

لكنّهم يجابون عاجلا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً.

على أية حال، فلن تنفعكم استغاثتكم فى شىء، و لن يكون ثمّة موت أو هلاك، بل ينبغى أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

هذه الآية فى الحقيقة تشبه الآية (۱۶) من سورة الطور حيث يقول تعالى اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

من هو المتكلم مع الكافرين ها هنا؟ القرائن تدل على أنّهم ملائكة العذاب، ذلك لأنّ حسابهم مع هؤلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۱

و أمّا لماذا يقال لهم هنا: لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَ ادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً؟ ربّما كان ذلك لأنّ عذابهم الأليم ليس مؤقتا فينتهى بقول (وا ثبورا) واحدا، بل ينبغى أن يرددوا هذه الجملة طيلة هذه المدة، علاوة على أنّ العقوبات الإلهية لهؤلاء الظالمين المجرمين متعددة الألوان، حيث يرون الموت أمام أعينهم إزاء كل مجازاة، فتعلوا أصواتهم ب (وا ثبورا)، فكأنّهم يموتون ثمّ يحيون و هكذا.

ثمّ يوجه الخطاب إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يأمره أن يدعو أولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: قُلْ أَ ذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَ مَصِيراً.

تلك الجنّة التى لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ

تلك الجنّة التى سيبقون فيها أبدا خالِدِينَ

أجل، إنّه وعد اللّه الذى اخذه على نفسه: كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا.

هذا السؤال، و طلب هذه المقايسة، ليس لأن أحدا لديه شك فى هذا الأمر، و ليس لأن تلك العذابات الأليمة المهولة تستحق الموازنة و المقايسة مع هذه النعم التى لا نظير لها، بل إن هذا النوع من الأسئلة و المطالبة بالمقارنة لأجل إيقاظ الضمائر الهامدة، حيث تجعلها أمام أمر بديهى واحد، و على مفترق طريقين:

فإذا قالوا فى الجواب: إنّ تلك النعم أفضل و أعظم (و هو ما سيقولونه حتما) فقد حكموا على أنفسهم بأنّ أعمالهم خلاف ذلك. و إذا قالوا: إنّ العذاب أفضل من هذه النعمة، فقد وقّعوا على وثيقة جنونهم، و هذا يشبه ما إذا حذرنا شابا ترك المدرسة و الجامعة بقولنا: اعلم أنّ السجن هو مكان الذين فروا من العلم و وقعوا فى أحضان الفساد، ترى السجن أفضل أم الوصول إلى المقامات الرفيعة!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۲

ملاحظات

۱- ينبغى الالتفات أوّلا- إلى هذه النكتة، و هى الآيات الكريمة وصفت الجنّة بالخلود تارة و صفة لأهل الجنّة تارة أخرى، ليكون تأكيدا على هذه الحقيقة، و هى كما أن الجنة خالدة، فكذلك ساكنوها.

۲- قوله تعالى لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ جاءت فى مقابل حال الجهنميين فى الآية (۵۴) من سورة سبأ وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ

۳- التعبير ب «مصير» بعد كلمة «جزاء» بالنسبة إلى الجنّة، كله تأكيد على ما يدخل فى مفهوم الجزاء، و هو بجميعه نقطة مقابلة إزاء مكان أهل النّار، حيث ورد فى الآيات السابقة أنّهم يلقون فى مكان ضيق محدود مقرنين بالأصفاد.

۴- قوله تعالى كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلًا إشارة إلى أن المؤمنين كانوا فى أدعيتهم يطلبون من اللّه الجنّة و جميع نعمها، فهم السائلون، و اللّه «المسؤول منه» كما نقرأ قول المؤمنين فى الآية (۱۹۴) من سورة آل عمران رَبَّنا وَ آتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ ...، لسان حال جميع المؤمنين أيضا، إنّهم يطلبون هذا الطلب من اللّه، لأن لسان حال كل من يطيع أمره تبارك و تعالى أن يطلب ذلك.

و الملائكة كذلك يسألون اللّه الجنّة و الخلود للمؤمنين، كما نقرأ فى الآية (۸) من سورة المؤمن: رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ....

و يوجد هنا تفسير آخر، و هو أنّ كلمة (مسئولا) تأكيد على هذا الوعد الإلهى، الحتمى، يعنى أنّ هذا الوعد على قدر عظيم من القطع بحيث أنّ المؤمنين يستطيعون أن يطالبوا اللّه به، و هذا يشبه ما إذا أعطينا وعدا لأحد، و أعطيناه- فى الضمن- الحق فى أن يطالبنا به.

قطعا لا يوجد أى مانع من أن تجتمع كل هذه المعانى فى المفهوم الواسع ل (مسئولا).

۵- بالالتفات إلى قوله تعالى لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ ينشأ لدى البعض هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۳

السؤال: إذا أخذنا فى الإعتبار المفهوم الواسع لهذه العبارة، فنتيجة هذا أن أهل الجنّة إذا أرادوا مقام الأنبياء و الأولياء يعطى لهم، مثلا، أو إذا طلبوا نجاة أقربائهم و أصدقائهم المذنبين المستحقين لجهنم، يعطون سؤلهم، و ما سوى هذه الرغبات؟! و يتّضح الجواب مع الالتفات إلى هذه النكتة، و هو أنّ الحجب تزول عن أعين أهل الجنّة فيدركون الحقائق جيدا، و يتّضح تناسبها فى نظرهم كاملا، إنّهم

لا يخطر ببالهم أبدا أن يطلبوا من اللّه طلبات كهذه، و هذا يشبه تماما أن نطلب فى الدنيا من طفل فى الابتدائية أن يكون استاذا فى الجامعة، أو أن يكون لص مجرم قاضى محكمة ... ترى هل تخطر مثل هذه الأمور فى فكر أى عاقل فى الدنيا!؟

و فى الجنّة أيضا كذلك، فضلا عن هذا فإنّ كلّ إرادتهم فى طول إرادة اللّه، و إنّ ما يريدونه هو ما يريده اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۴

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۱۷ الى ۱۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (۱۷) قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَ كانُوا قَوْماً بُوراً (۱۸) فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً (۱۹)

التّفسير

المحاكمة بين المعبودين و عبدتهم الضالين:

كان الكلام فى الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين و المشركين فى القيامة و جزاء هذين الفريقين، و تواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذى يسأل اللّه عنه معبودى المشركين فى القيامة و جوابهم، على سبيل التحذير، فيقول تعالى أولا: و اذكر يوم يحشر اللّه هؤلاء المشركين و ما يعبدون من دون اللّه: وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فيسأل المعبودين: فَيَقُولُ أَ أَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبادِي هؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۵

ففى الإجابة: قالُوا سُبْحانَكَ ما كانَ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِياءَ.

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك و ربوبيتك، و لم نقبل غيرك معبودا لنا و لغيرنا.

و كان سبب انحراف أولئك هو: أنّ اللّه تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا و نعيمها فتمتعوا هم و آباءهم و بدلا من شكر اللّه تعالى غرقوا فى هذه الملذات و نسوا ذكر اللّه: وَ لكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَ آباءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ و لهذا هلكوا و اندثروا وَ كانُوا قَوْماً بُوراً.

هنا يوجه اللّه تبارك و تعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِما تَقُولُونَ

لأنّ الأمر هكذا، و كنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَ لا نَصْراً، وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً.

لا شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، و مع أنّ موضوع البحث فى الآية هو «الشرك» الذى هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلّا أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

و الملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، و هذا يدل على أن القسم الأوّل من البحث و أن كان مرتبطا بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم فى الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة للتقبل على أثر سماعها (محاورات العابدين و المعبودين فى القيامة)، فيحول الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: وَ مَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً.[۱۴۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۶

مسائل مهمة:

۱- من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟

فى الإجابة على هذا السؤال، هناك تفسيران بين المفسّرين المعروفين:

أوّلا: أن يكون المقصود بالمعبودين إنسانا (مثل المسيح) أو شيطانا (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث أن كلّ واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبودا لهم. و لأنّهم أهل عقل و شعور و إدراك، فيمكنهم أن يكونوا موضع الاستنطاق و المحاسبة، و لإتمام الحجة، و لإثبات كذب المشركين الذين يقولون:

إنّ هؤلاء دعونا لعبادتهم! فهم يسألون عمّا إذا كان هذا الادعاء صحيحا؟ و لكنّهم يكذبون ادعاء المشركين بصراحة! التّفسير الثّانى: الذى ذكره جمع من المفسّرين هو أنّ اللّه يمنح الأصنام فى ذلك اليوم نوعا من الحياة و الإدراك و الشعور، بالشكل الذى تستطيع فيه أن تكون موضع المحاسبة، لينطقوا بالجواب اللازم: إلهنا، نحن ما أضللنا هؤلاء، بل هم أنفسهم ضلوا بسبب انغماسهم فى الشهوات و الغرور.

و هناك الاحتمال آخر، و هو أنّ المقصود يشمل جميع المعبودين، سواء كانوا ذوو عقل و شعور يخبرون بألسنتهم عن الوقائع، أم لم يكونوا من أهل العقل و الشعور، حيث يعكسون الحقيقة أيضا، بلسان حالهم.

و لكن القرائن الموجودة فى الآية تتفق أكثر مع التّفسير الأوّل، ذلك لأنّ الأفعال و الضمائر تدل جميعها على أن طرف المحاورة هم أصحاب عقل و شعور، و هذا يتناسب مع معبودين كالمسيح و الملائكة و أمثالهم.

إضافة إلى أنّ قوله تعالى فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ ... يظهر أن المشركين قد ادّعوا من قبل أن هؤلاء المعبودين قد أضلونا و دعونا لعبادتهم، و بعيد أن يكون المشركون قد ادعوا هذا بالنسبة إلى الأصنام الحجرية و الخشبية، لأنّهم- كما ورد فى قصة إبراهيم- كانوا على يقين بأنّ الأصنام لا تتكلم لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۱۷

يَنْطِقُونَ ۱۵۰].

فى حين أنّنا نقرأ مثلا بالنسبة إلى المسيح عليه السّلام فى الآية (۱۱۶) من سورة المائدة: أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! و من المسلّم أنّ ادعاء المشركين و عبدة الأصنام كان واهيا و بلا أساس، فأولئك لم يدعوهم إلى عبادة أنفسهم.

الملفت هو أن المعبودين لم يقولوا فى الجواب: إلهنا، ما دعوناهم إلى عبادة أنفسنا، بل يقولون: نحن ما اتّخذنا لأنفسنا غيرك معبودا، يعنى فى الوقت الذى نحن نعبدك وحدك، فمن الأولى أنّنا لم ندعهم إلى أحد غيرك، خاصّة و أن هذا الكلام يقترن مع سُبْحانَكَ و مع ما كانَ يَنْبَغِي لَنا التى تكشف عن غاية أدبهم، و تأكيدهم على التوحيد.

۲- دافع الانحراف عن أصل التوحيد

المهم هو أنّ المعبودين يعدّون العامل الأصلى لانحراف هذا الفريق من المشركين هو (الحياة المرفهة) لهم، و يقولون، إلهنا، متّعت هؤلاء و آباءهم من نعم هذه الحياة، و هذا هو بالذات كان سبب نسيانهم، فبدلا من أن يعرفوا واهب هذه النعم فيشكرونه و يطيعونه، توغلوا فى دوامة الغفلة و الغرور.

فالحياة المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور من جهة، ذلك لأنّهم فى الوقت الذى ينالون النعم الكثيرة، ينسون أنفسهم و ينسون اللّه، حتى أنّ فرعون كان يطبّل أحيانا (أنا اللّه).

و من جهة أخرى، فإنّ هؤلاء الأفراد يميلون إلى التحرر من كل القيود التى تعيقهم فى ملذّاتهم من قبيل الحلال و الحرام، و المشروع و اللامشروع و تمنعهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۸

الوصول إلى أهدافهم، و لهذا فهم لا يريدون أن يخضعوا أمام القوانين و المقررات الدينية، و لا أن يقبلوا بيوم الحساب و الجزاء.

و هكذا نجد أنّ اتباع دين اللّه و تعليمات الأنبياء قليل فى أوساط المرفهين دائما و لكن المستضعفين هم الأتباع الصامدون و المحبّون الأوفياء للدين و المذهب.

إنّ هذا الكلام له استثناءات فى كلا الطرفين قطعا، و لكن أكثرية كلّ من الفريقين هم كما قلنا.

و ممّا تتضمنه الآية أعلاه، أنّها لم تركز على رفاهية حياتهم فقط، بل ركزت على رفاهية حياة آبائهم أيضا، ذلك لأنّ الإنسان حينما ينشأ على الدلال و النعمة فإنه سوف يرى فارقا و امتيازا بينه و بين الآخرين، و لن يكون مستعدا لفقد المنافع المادية و الحياة المرفهة بسهولة.

فى حين أن التقيد بأمر اللّه، و بتعاليم الدين تحتاج إلى الإيثار، و أحيانا إلى الهجرة، و تحتاج حتى إلى الجهاد و الشهادة، و أحيانا إلى التعاطى مع أنواع المحروميات، و عدم التسليم للعدو، و هذه الأمور نادرا ما تتوافق مع مزاج المرفهين، إلّا إذا كانت نفوسهم أرفع من حياتهم المادية، فإذا توفرت يوما ما شكروا اللّه، و إلّا فلن يتزلزلوا و لن ينزعجوا، و بعبارة أخرى: إنّهم حاكمون على حياتهم المادية غير محكومين لها، أمراء عليها لا أسارى عندها.

و يستفاد أيضا من التوضيح أنّ المقصود من قوله تعالى نَسُوا الذِّكْرَ نسيان ذكر اللّه، حيث ورد مكان ذلك فى الآية (۱۹) من سورة الحشر وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أو نسيان يوم القيامة و محكمة العدل الإلهى، كما جاء فى الآية (۲۶) سورة ص لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ أو نسيان كل منهما، و جميع التعاليم الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۱۹

۳- كلمة «بور».

«بور» من مادة «بوار» و هى فى الأصل بمعنى شدّة كساد الشىء، و لأنّ شدّة الكساد تبعث على الفساد، كما جاء فى المثل العربى «كسد حتى فسد»، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثمّ أطلقت بعد هذا على الهلاك، و لهذا يقولون للأرض الخالية من الشجر و الورد و النبات، و التى هى فى الحقيقة فاسدة و ميتة كلمة «بائر».

و على هذا فإنّ قوله تعالى: كانُوا قَوْماً بُوراً إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم فى الحياة المادية المرفهة، و نسيانهم اللّه و اليوم الآخر، صاروا إلى الفساد و الهلكة، و صارت أراضى قلوبهم كالصحراء جافة و بائرة، و أخليت من أزاهير ملكات القيم الإنسانية، و فواكه الفضيلة و الحياة المعنوية.

مطالعة حال الأمم الغرقى فى الدلال و النعمة اليوم، الغافلة عن اللّه و عن الخلق، توضح عمق معنى هذه الآية فى كيفية غرق هذه الأمم فى بحر الفساد الأخلاقى، و كيف اجتثت الفضائل الإنسانية من أرض وجودهم البائرة.[۱۵۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۰

الآية [سورة الفرقان (۲۵): آية ۲۰]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَ تَصْبِرُونَ وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً (۲۰)

سبب النّزول

أورد جماعة من المفسّرين و أصحاب السير كابن إسحاق فى سيرته فى سبب نزول هذه الآية «أن سادات قريش «عتبة بن ربيعة» و غيره اجتمعوا معه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: يا محمد، إن كنت تحبّ الرياسة ولينا ك علينا، و إن كنت تحبّ المال جمعنا لك من أموالنا، فلما أبى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ذلك، رجعوا فى باب الإحتجاج معه فقالوا: ما بالك و أنت رسول اللّه تأكل الطعام، و تقف بالأسواق! فعيّروه بأكل الطعام، لأنّهم أرادوا أن يكون الرّسول ملكا، و عيّروه بالمشى فى الأسواق حين رأوا الأكاسرة و القياصرة و الملوك و الجبابرة يترفعون عن الأسواق، و كان عليه السّلام يخالطهم فى أسواقهم، و يأمرهم و ينهاهم، فقالوا: هذا يريد أن يتملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك؟ فأجابهم اللّه بقوله، و أنزل على نبيّه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۱

وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ فلا تغتم و لا تحزن، فإنّها شكاة ظاهر عنك عارها».[۱۵۲]

التّفسير

هكذا كان جميع الأنبياء

فى عدّة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين بهذه الصيغة: لماذا يأكل رسول اللّه الطعام، و يمشى فى الأسواق؟ و أجيب عليها بجواب إجمالى و مقتضب، أمّا الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطى جوابا أكثر تفصيلا و صراحة، فيقول تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعامَ وَ يَمْشُونَ فِي الْأَسْواقِ فقد كانوا من البشر و يعاشرون الناس، و فى ذات الوقت وَ جَعَلْنا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً و امتحانا.

و هذا الامتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر و من أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصّة إذا كان فى مستوى واطئ من حيث الإمكانات المادية، و هم فى مستوى عال ماديا، أو أن أعمارهم أكبر، أو أنّهم أكثر شهرة فى المجتمع.

و يرد احتمال آخر فى المراد بالفتنة، و هو أنّ الناس عموما بعضهم لبعض فتنة، ذلك أن المتقاعدين و العجزة و المرضى و الأيتام و المزمنين فتنة للأقوياء و الأصحاء السالمين، و بالعكس، فإنّ الأفراد الأصحاء الأقوياء فتنة للضعفاء و العجزة.

ترى هل أنّ الفريق الثّانى راض برضا اللّه! أم لا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۲

و هل أن الفريق الأوّل يؤدى مسئوليته و تعهده إزاء الفريق الثّانى، أم لا؟! من هنا، لا تقاطع بين هذين التّفسيرين فمن الممكن أن يجتمع كلاهما فى المفهوم الواسع للآية فى أن الناس بعضهم لبعض فتنة.

و على أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى:

أ تَصْبِرُونَ

ذلك لأنّ أهم ركن للنجاح فى جميع هذه الامتحانات هو الصبر و الاستقامة و الشجاعة ... الصبر و الاستقامة أمام خيالات الغرور الذى يمنع من قبول الحق ...

الصبر و الاستقامة أمام المشكلات الناشئة من المسؤوليات و أداء الرسالات، و كذلك الجلد أمام المصائب و الحوادث الأليمة التى لا تخلو منها حياة الإنسان على كل حال.

و الخلاصة: أنّ من الممكن اجتياز هذا الامتحان الإلهى العظيم بقوّة الاستقامة و الصبر.[۱۵۳] و يقول تعالى فى ختام الآية بصيغة التحذير: وَ كانَ رَبُّكَ بَصِيراً فينبغى ألا يتصور أحد أن شيئا من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافيا و مستورا عن عين اللّه و علمه الذى لا يخفى عليه شىء. إنّه يراها بدقة و يعلمها جميعا.

سؤال:

يرد ها هنا استفسار، و هو أن ردّ القرآن على المشركين فى الآيات أعلاه قائم على أن جميع الأنبياء، كانوا من البشر. و هذا لا يحلّ المشكلة، بل يزيد من حدّتها، ذلك أن من الممكن أن يعمموا إشكالهم على جميع الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۳

و الجواب:

أنّ الآيات القرآنية المختلفة تدلّ على أن إشكالهم على شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانوا يعتقدون أنه اتخذ لنفسه وضعا خاصا به، و لهذا كانوا يقولون: ما لهذا الرّسول ...

يقول القرآن فى جوابهم: ليس هذا منحصرا بالرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق، فجميع الأنبياء كانت لهم مثل هذه الأوصاف، و على فرض أنّهم سيعممون هذا الأشكال على جميع الأنبياء، فقد أعطى القرآن جوابهم أيضا حيث يقول: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا «كى يستطيع أن يكون أسوة و أنموذجا للناس فى كل مجالات». إشارة إلى أن الإنسان فقط يستطيع أن يكون مرشدا للإنسان، فهو الواقف على جميع حاجاته و رغباته و مشكلاته و مسائله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۴

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (۲۱) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً (۲۲) وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً (۲۳) أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا (۲۴)

التّفسير

الادعاءات الكبيرة:

قلنا أنّ المشركين يصرون على الفرار من ثقل التعهدات و المسؤوليات التى يضعها على عواتقهم الإيمان باللّه و اليوم الآخر، فكانوا يقولون تارة: لماذا يحتاج الرّسول إلى الطعام و يمشى فى الأسواق؟ حيث قرأنا الإجابة عليها فى الآيات السابقة.

الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائعهم و تجيب عليها، فيقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۵

تعالى أوّلا: وَ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا.

فعلى فرض أنّنا سنقبل أنّ النّبى يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا. لكن أن يتنزل الوحى عليه وحده، و لا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به، ما المانع من أن يظهر الملك فيؤكّد صحة نبوة الرّسول؟ أو أن يسمعنا بعضا من الوحى!؟ أو أن نرى ربّنا بأعيننا حتى لا يبقى عندنا مكان لأى شك أو شبهة!؟

هذه هى الأسئلة التى تمنعنا من قبول دعوة محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

المهم هو أن القرآن يصنف هؤلاء المتعللين بالذرائع تحت عنوان لا يَرْجُونَ لِقاءَنا، حيث يدل على أنّ منبع هذه الأقوال الواهية هو عدم الإيمان بالآخرة، و عدم القبول بالمسؤولية أمام اللّه.

فى الآية (۷) من سورة الحجر نقرأ أيضا شبيها لهذا القول، حيث قالوا لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ و قرأنا أيضا فى مطلع سورة الفرقان هذه أن المشركين كانوا يقولون: لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.

فى حين أن من حق أى إنسان لإثبات قضية ما، أن يطالب بالدليل فقط.

أمّا نوع الدليل، فمن المسلّم أنّه لا فرق فيه، فى الوقت الذى أثبت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بإظهار المعجزات و من جملتها القرآن نفسه- حقانية دعوته بوضوح، إذن فما معنى هذه الذرائع؟

و أفضل دليل على أنّهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوة النّبى، هو أنّهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، و أنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذى طلبه مجرمو بنى إسرائيل أيضا، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه فى سورة الأعراف الآية ۱۴۳.

لذا يقول القرآن فى الإجابة على هذه الطلبات فى آخر الآية مورد البحث:

لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَ عَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً.

«العتو» على وزن «غلو»، بمعنى الامتناع عن الطاعة، و التمرد على الأمر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۶

مصحوبا بالعناد و اللجاجة.

و تعبير «فى أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور و التكبّر فى أنفسهم. و من الممكن أن يكون أيضا بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم و غرورهم فى قلوبهم و أظهروا هذه المعاذير.

فى عصرنا و زماننا أيضا، يوجد أشخاص يكررون منطق المشركين الغابرين، فيقولون: ما دمنا لا نرى اللّه فى مختبراتنا، و لا نشاهد الروح تحت مبضع الجراحة، فلن نصدّق! بوجودهما و منبع الإثنين واحد و هو الاستكبار و العتو.

و من حيث الأصل، فإنّ جميع الأشخاص الذين يحصرون وسائل المعرفة فى الحس و التجربة فقط، يكررون نفس هذا القول بشكل ضمنى، فكلّ الماديين داخلون فى هذا الصنف، فى حين أنّ الحواس لا تدرك إلّا جزء ضئيلا لا يذكر من مادة هذا العالم.

ثمّ يقول تعالى بصيغة التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [۱۵۴] بلى سوف لن يسرّوا برؤية الملائكة فى ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، و سوف يغمرهم الرعب إلى حد أنّهم سيطلقون صرخات الإستغاثة التى كانوا يطلقونها فى الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان .. الأمان، اعفوا عنّا: وَ يَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً.

و لكن لا هذه الجملة- و لا غيرها- لها أثر على مصيرهم المحتوم، ذلك لأنّ النار التى هم أوقدوها ستلتهم أطرافهم شاءوا أم أبوا، و ستتجسد أمامهم الأعمال السيئة التى ارتكبوها، فلا يملكون شيئا لأنفسهم.

كلمة «حجر» (على وزن قشر) تقال فى الأصل للمنطقة التى حجروها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۷

و جعلوها ممنوعة الورود، و عند ما يقال «حجر إسماعيل» فلأن حائطا أنشئ حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضا «حجرا» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. لذا نقرأ فى الآية (۵) من سورة الفجر هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ، و أيضا «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم فى القرآن (الآية ۸۰ من سورة الحجر) و هم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتا حجرية محكمة فى قلوب الجبال، فكانوا يعيشون فى أمانها.

هذا فى ما يخص كلمة «حجر».

أمّا جملة «حجرا محجورا» فقد كانت اصطلاحا بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

كان هذا عرف العرب، خاصّة فى الأشهر الحرم، حيث كانت الحرب ممنوعة، فحينما يواجه شخص آخر، و يحتمل خرق هذا العرف و التعرض للأذى، فإنّه يكرر هذه الجملة، و الطرف المقابل- أيضا- مع سماعة لها كان يعطيه الأمان، فيخرجه من القلق و الاضطراب و الخوف.

على هذا فإنّ معنى الجملة المذكورة هو: «أريد الأمان، الأمان الذى لا رجعة فيه و لا تغيير».[۱۵۵] اتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ المجرمين هنا هم أصحاب هذا القول، و تناسب الأفعال الموجودة فى الآية، و السير التاريخى، و سابقة هذه الجملة فى أوساط العرب- أيضا- يستدعى هذا، و لكن البعض احتمل أنّ الملائكة هم أصحاب هذا القول، و هدفهم منع المشركين من رحمة اللّه.

و قال آخرون: إنّ أصحاب هذا القول هم المجرمون، يقولونه بعضهم لبعض، و لكن الظاهر هو المعنى الأول، حيث اختاره كثير من المفسّرين، أو ذكروه كأوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۸

تفسير لذلك.[۱۵۶] أمّا أى يوم ذلك اليوم الذى يلتقى فيه المجرمون بالملائكة؟ فقد ذكر المفسّرون احتمالين: أحدهما: هو يوم الموت حيث يرى الإنسان ملك الموت، كما نقرأ فى الآية (۹۳) من سورة الأنعام: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَ الْمَلائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ و الثّانى: أنّ المقصود هو يوم القيامة و النشور، حيث يكون المجرمون أمام ملائكة العذاب فيشاهدونهم.

و مع الانتباه إلى الآيات الآتية التى تتكلم عن النشور، خصوصا جملة يَوْمَئِذٍ التى تشير إليه، يتبيّن أنّ التّفسير الثّانى هو الأقرب.

الآية التى بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين فى الآخرة، فتقول:

وَ قَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً.

كلمة «العمل» على ما قاله «الراغب» فى المفردات بمعنى: كل فعل يكون بقصد، و لكن الفعل أعم منه، فهو يطلق على الأفعال التى تكون بقصد أو بغير قصد.[۱۵۷] جملة «قدمنا» من «القدوم» بمعنى «المجىء» أو «الذهاب على أثر شىء» و هى هنا دليل على تأكيد و جدّية المسألة، يعنى مسلّما و بشكل قاطع أن جميع أعمال أولئك التى قاموا بها عن قصد و إرادة- و إن كانت أعمال خير ظاهرا-

سنمحوها كما تمحى ذرات الغبار فى الهواء، لشركهم و كفرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۲۹

آفات العمل الصالح:

كلمة «هباء» بمعنى ذرات الغبار الصغيرة جدّا التى لا ـ ترى بالعين المجرّدة و فى الحال العادية أبدا إلّا فى الوقت الذى يدخل نور الشمس إلى الغرفة المظلمة من ثقب أو كوّة، فيكشف عن هذه الذرات و يمكن مشاهدتها.

هذا التعبير يدل على أن أعمال أولئك لا قيمة لها و لا اثر إلى حدّ كأنّهم لم يعملوا شيئا، و إن كانوا قد سعوا و اجتهدوا سنين طويلة.

هذه الآية نظيرة الآية (۱۸) من سورة إبراهيم التى تقول: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ

الدليل المنطقى لذلك واضح أيضا، لأنّ الشىء الذى يعطى عمل الإنسان الشكل و المحتوى، هو النيّة و الدافع و غاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهى و على أساس أهداف مقدسة طاهرة، و خطط سليمة صحيحة، فى حين أن من لا إيمان لهم، فغالبا يقعون أسارى التظاهر و الرياء و الغرور و العجب، فيكون سببا فى انعدام أية قيمة لأعمالهم.

على سبيل المثال، نحن نعرف مساجد من مئات السنين، لم تترك عليها القرون الماضية أدنى تأثير، و بعكسها نرى بيوتا تظهر فيها الشروخ و علامات الضعف مع مضى شهر واحد أو سنة واحدة، فالأولى بنيت من كل النواحى بناء محكما بأفضل المواد مع توقع الحوادث المستقبلية، أمّا الثّانية فلأن الهدف من بنائها هو تهيئة المال و الثروة عن طريق المظاهر و الحيلة، فالعناية فيها كانت بالزخرفة فقط.[۱۵۸] من وجهة نظر المنطق الإسلامى، فإن للأعمال الصالحة آفات، ينبغى مراقبتها بدقة، فقد يكون العمل أحيانا خرابا و فاسدا منذ البداية، كمثل العمل الذى يتخذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۰

(رياء).

و أحيانا أخرى يلحقه الفساد أثناء العمل كما لو أصاب الإنسان الغرور و العجب حينه فتزول قيمة عمله بسبب ذلك.

و قد يمحى أثر العمل الصالح بعد الانتهاء منه بسبب القيام بأعمال مخالفة و منافية، كمثل الإنفاق الذى تتبعه «منّة»، أو كالأعمال الصالحة التى يعقبها كفر و ارتداد.

حتى ارتكاب الذنوب أحيانا يترك أثره على العمل الصالح بعدها- طبقا لبعض الرّوايات الإسلامية- كما نقرأ فى مسألة شارب الخمر حيث لا ـ تقبل أعماله عند اللّه أربعين يوما.[۱۵۹] على أية حال، فللإسلام منهج فذ، دقيق و حساس فى مسألة خصوصيات العمل الصالح. نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: يبعث اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة قوما بين أيديهم نور كالقباطى، ثمّ يقول له:

هَباءً مَنْثُوراً ثمّ قال: أمّا و اللّه- يا أبا حمزة- إنّهم كانوا يصومون و يصلون، و لكن كانوا إذا عرض لهم شىء من الحرام أخذوه، و إذا ذكر لهم شىء من فضل أمير المؤمنين عليه السّلام أنكروه، قال: و الهباء المنثور هو الذى تراه يدخل البيت فى الكوة مثل شعاع الشمس».[۱۶۰]

و بما أن القرآن- عادة- يضع الحسن و السىء متقابلين حتى يتّضح وضع كل منهما بالمقايسة فإنّ الآية التى بعدها تتحدث عن أهل الجنّة فتقول: أَصْحابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَ أَحْسَنُ مَقِيلًا.

ليس معنى هذا الكلام أنّ وضع أهل جهنم حسن، و وضع أهل الجنّة أحسن، لأنّ صيغة «أفعل التفضيل» تأتى أحيانا حيث يكون أحد الأطراف واجدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۱

للمفهوم، و الآخر فاقدا له كليا. مثلا نقرأ فى الآية (۴۰) من سورة فصّلت: أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ.

«مستقر» بمعنى محل الاستقرار.

و «مقيل» بمعنى محل الاستراحة فى منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، و قد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۲

الآيتان [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۵ الى ۲۶]

اشارة

وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا (۲۵) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً (۲۶)

التّفسير

تشقق السماء بالغمام:

مرّة أخرى يواصل القرآن فى هذه الآيات البحث حول القيامة، و مصير المجرمين فى ذلك اليوم، فيقول أوّلا: إن يوم محنة و حزن المجرمين هو ذلك اليوم الذى تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: وَ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَ نُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلًا.[۱۶۱] «الغمام» من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذى يغطى الشمس يقال له «الغمام»، و كذلك الحزن الذى يغطى القلب يسمّونه «الغم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۳

هذه الآية- فى الحقيقة- ردّ على طلبات المشركين، و على إحدى ذرائعهم، لأنّهم كانوا يتوقعون أن يأتى اللّه و الملائكة- طبقا لأساطيرهم و خرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، و فى أساطير اليهود جاء- أيضا- أنّ اللّه أحيانا يظهر ما بين الغيوم.[۱۶۲] يقول القرآن فى الردّ عليهم: نعم الملائكة (و ليس اللّه) يأتون إليهم يوما ما، لكن أى يوم؟ اليوم الذى تتحقق فيه مجازاة و عقوبة هؤلاء المجرمين، و ينهى ادعاءاتهم الباطلة.

و لكن ما هو المقصود من تشقق السماء بالغمام، مع أنّنا نعلم أن لا وجود حولنا لشيء يسمى السماء، يكون قابلا للتشقق؟

قال بعض المفسّرين مثل «العلامة الطباطبائى» فى تفسير «الميزان»:

المقصود هو تشقق سماء عالم الشهود، و زوال حجاب الجهل و الغباء و ظهور عالم الغيب، فيكون للإنسان إدراك و رؤية تختلف كثيرا عمّا هى عليه اليوم، فحينئذ تزول الحجب، فيرون الملائكة و هى تتنزل من العالم الأعلى.

ثمّة تفسير آخر، هو أنّ المقصود من السماء هو الأجرام السماوية التى تتلاشى على أثر انفجارات متوالية، فيملأ الغيم الحاصل من هذه الإنفجارات و من تلاشى الجبال صفحة السماوات، و بناء على هذا فالأفلاك السماوية تتشقق مع الغيوم الحاصلة من ذلك.[۱۶۳] آيات كثيرة من القرآن المجيد، خصوصا التى وردت فى السور القصار آخر القرآن، تبيّن هذه الحقيقة، حيث تملأ جميع عوالم الوجود تغيرات عظيمة، و انقلاب و تحول عجيب، تتلاشى الجبال و تتناثر فى الفضاء كذرات الغبار، الشمس تفقد نورها و كذلك النجوم. و يلتقى الشمس و القمر، و تملأ نواحى الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۴

زلزلة و هزّة عجيبة.

نعم، فى مثل ذلك اليوم، زوال السماء، بمعنى الأجرام السماوية، و تلبّس السماء بغيوم كثيفة، سيكون أمرا طبيعيا.

من الممكن توضيح نفس هذا التّفسير بنحو آخر:

شدّة التغيرات، و انفجارات الكواكب و السيارات يصير سببا فى تغطية السماء بغيم كثيف، و لكن توجد انشقاقات بين هذا الغيم، و على هذا فالسماء التى ترى بالعين فى الأحوال العادية، تتشقق بواسطة هذه الغيوم الانفجارية العظيمة.[۱۶۴] تفسيرات أخرى قيلت لهذه الآية أيضا لا تتوافق مع الأصول العلمية و المنطقية، و فى نفس الوقت فالتّفسيرات الثلاثة الآنفة لا تتنافى مع بعضها، فمن الممكن أن ترتفع حجب العالم المادى عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعة، و من جهة أخرى ستتلاشى الأجرام السماوية، و تظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها فى ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم و بداية النشور، يوم أليم جدّا للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمنِ

حتى أولئك الذين كان لهم فى هذا العالم نوع من الملك المجازى و المحدود و الفانى و السريع الزوال، يخرجون أيضا من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كلّ النواحى و جميع الجهات لذاته المقدسة خاصّة، و بهذا وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً.

نعم، فى ذلك اليوم تزول القوى الكاذبة تماما، و تكون الحاكمية للّه خاصّة، فتتداعى قلاع الكافرين، و تزول قوى الجبابرة و الطواغيت، و إن كانوا جميعا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۵

هذا العالم- أيضا- لا شىء أمام إرادته تبارك و تعالى. و إذا كان لهم فى هذه الدنيا بهرجة، فبأى ملاذ يلوذون من الجزاء الإلهى فى يوم القيامة، يوم انكشاف الحقائق و زوال المجازات و الخيالات و الأوهام، و لهذا سيكون ذلك اليوم يوما بالغ الصعوبة عليهم، فى الوقت الذى يكون على المؤمنين سهلا يسيرا و هينا جدّا.

فى حديث عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فقلت: ما أطول هذا اليوم!؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «و الذى نفسى بيده إنّه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا».[۱۶۵]

و التأمل الدقيق فى سائر آيات القرآن يكشف عن دلائل صعوبة ذلك اليوم على الكافرين، ذلك أنّنا نقرأ من جهة وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ [۱۶۶] و من جهة أخرى ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَبَ [۱۶۷] و من جهة ثالثة يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً.[۱۶۸] حتى الشفاعة التى هى وحدها طريق النجاة، تكون للمذنبين الذين كانت لهم صلة باللّه و بأولياء اللّه مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ [۱۶۹] و ايضا وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [۱۷۰] فلا يسمح لهم بالاعتذار، فما بالك بقبول الاعذار الواهية!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۶

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۲۷ الى ۲۹]

اشارة

وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (۲۷) يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا (۲۸) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِي وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا (۲۹)

سبب النّزول

«قال ابن عباس: نزل قوله تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ فى عقبـة بن أبى معيط، و أبى بن خلف، و كانا متخالّين، و ذلك أن عقبـة كان لا يقدم من سـفر إلّا صـنع طعاما فدعا إليه أشراف قومه، و كان يكثر مجالسة الرّسول، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاما و دعا الناس، فـدعا رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشـهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّى رسول اللّه، فقال عقبـة: أشـهد أن لا إله إلّا اللّه و أشـهد أن محمدا رسول اللّه. و بلغ ذلك أبى بن خلف فقـال: صبئت يـا عقبـة؟ قـال: لاـ و اللّه مـا صـبأت، و لكن دخـل علىّ رجـل فـأبى أن يطعم من طعـامى إلّا أن أشـهد له فاستحييت أن يخرج من بيتى و لم يطعم، فشهدت له فطعم، فقال أبى: ما كنت براض عنك أبدا حتى تأتى فتبزق فى وجهه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۷

ففعل ذلك عقبـة و ارتـدّ، و أخـذ رحم دابـة فألقاها بين كتفيه، فقال النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: لا ألقاك خارجا من مكّة إلّا علوت رأسـك بالسـيف، فضـرب عنقه يوم بـدر صبرا، و أمّا أبى بن خلف فقتله النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم يوم أحـد بيـده فى المبارزة».

و قال الضـحاك: لما بزق عقبة فى وجه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم عاد بزاقه فى وجهه، فأحرق خديه، و كان أثر ذلك فيه حتى مات.

و قيـل نزلت فى كـل كـافر أو ظـالم تبع غيره فى الكفر أو الظلم و ترك متابعـة أمر اللّه تعالى.[۱۷۱] نزلت الآيـات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذى يبتلى بخليل ضال، و يجره إلى الضلال.

و قلنا مرارا أنّ سبب النّزول و إن يكن خاصّا، إلّا أنّه لا يقيد مفهوم الآيات أبدا، و عمومية المفهوم تشمل جميع المصاديق.

التّفسير

أضلنى صديق السوء

يوم القيامـة له مشاهـد عجيبة، حيث ورد بعض منها فى الآيات السابقة، و فى هذه الآيات اشارة الى قسم آخر منها، و هى مسألة حسـرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول تعالى أوّلا: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا[۱۷۲].

«يعضّ» من مادة «عضّ» (على وزن سدّ) بمعنى الأزم بالأسنان، و يستخدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۸

هـذا التعبير عـادة بالنسـبة إلى الأشـخاص المهووسـين من شـدّة الحسـرة و الأـسف، كمـا فى المثـل العربى، لأـن الإنسان فى مثل هـذه الحالات لا يعض الإصـبع دائما، بل يعض ظاهر اليد أحيانا، و كثيرا ما يقال- كما فى الآية الآية مورد البحث- «يديه» يعنى كلتا اليدين حيث تبيّن شدّة الأسف و الحسرة بنحو أبلغ.

و هذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، و يعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الانتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب فى نفوسهم و الشعور بالراحة.

و ينبغى حقّا، أن يسـمى ذلك اليوم يَوْمَ الْحَسْرَةِ كما ورد هـذا الوصف بالـذات فى القرآن ليوم القيامـة أيضا (سورة مريم الآيـة ۳۹)، ذلك لأن المجرمين يرون أنفسـهم فى أتعس حال بين يـدى الحياة الخالـدة، فى الوقت الذى كانوا يسـتطيعون خلال أيام من الصبر و الاسـتقامة و مجاهدة النفس و الإيثار أن يسـتبدلوا ذلك بحياة مشـرفة و سعيدة، و هو يوم أسف أيضا حتى بالنسبة إلى المحسنين، فهم يأسفون على أنّهم: لماذا لم يحسنوا أكثر.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدى الغارق فى عالم الأسف، يقول: يا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا.[۱۷۳] واضح أن المقصود ب «فلان» هو ذلك الذى أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال، و فرد مثل «أبى» ل «عقبة» الذى ورد فى سبب النّزول.

هذه الآية- و الآية التى قبلها- تعرضان حالتى نفى و إثبات متقابلتين فى مكان واحد، يقول تعالى: يا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا، و هنا يقول:

... لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا حيث كانت التعاسة كلها فى ترك الارتباط بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قبول الارتباط بهذا الخليل الضال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۳۹

ثمّ يستمر و يقول: لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنِى

لو كانت الفاصلة كبيرة بينى و بين الإيمان و السعادة الخالدة فى الدنيا لم أكن آسف الى هذا الحد، و لكنى كنت قاب قوسين أو أدنى من السعادة الدائمة فصدّنى رفيق السوء هذا عن عين ماء الحياة ظامئا و أغرقنى فى دوامة التعاسة.

«الذكر» فى الجملة أعلاه، له معنى واسع، و يشمل كل الآيات الإلهية التى نزلت فى الكتب السماوية، بل يدخل فى إطاره كلّ ما يوجب يقظة و وعى الإنسان.

و فى ختام الآية يقول تعالى: وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا ذلك لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر و الطرق المنحرفة، ثمّ يتركه حيران و يذهب لسبيله.

و ينبغى الانتباه إلى أنّ «خذولا» صيغة مبالغة، بمعنى كثير الخذلان.

و حقيقة الخذلان هى أى يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، و لكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته و إعانته تماما فى اللحظات الحساسة.

فى هذه الجملة الأخيرة وَ كانَ الشَّيْطانُ لِلْإِنْسانِ خَذُولًا قد تكون من مقولة اللّه تعالى على سبيل الإنذار لجميع الظالمين و الظالمين، أو تتمة لمقولة هؤلاء الأفراد المتحسرين فى القيامة، ذكر المفسّرون تفسيرين، و كل منهما منسجم مع معنى الآية، غير أن كونها مقولة اللّه تعالى أكثر انسجاما.

بحث

أثر الصديق فى مصير الإنسان:

لا شك فى أن عوامل بناء شخصية الإنسان- بعد عزمه و إرادته و تصميمه- أمور مختلفة، من أهمها الجليس و الصديق و المعاشر، ذلك لأنّ الإنسان قابل للتأثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۰

شاء أم أبى، فيأخذ قسطا مهما من أفكاره و صفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، و لقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية و عن طريق التجربة و المشاهدات الحسية أيضا.

قابلية التأثر هذه نالت اهتماما خاصّا لدى الإسلام إلى حدّ أنّه نقل فى الرّوايات الإسلامية،

عن نبىّ اللّه سليمان عليه السّلام أنّه قال: «لا تحكموا على رجل بشىء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنّما يعرف الرجل بأشكاله و

أقرانه، و ینسب إلی أصحابه و أخدانه».[۱۷۴]

یقول الإمام أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطبة له: «و من اشتبه علیکم أمره و لم تعرفوا دینه، فانظروا إلی خلطائه، فإن کانوا أهل دین اللّه فهو علی دین اللّه، و إن کانوا علی غیر دین اللّه، فلا حظّ له من دین اللّه».[۱۷۵]

حقّا، إنّ أثر الصدیق فی سعادة و شقاوة إنسان ما قد یکون من أهم العوامل أحیانا، فقد یؤدی به إلی درکات الشقاء الأبدی، و قد یرقی به أحیانا إلی غایة المجد.

الآیات الحالیة و سبب نزولها، تبیّن- بوضوح- کیف أنّ الإنسان قد یقترب من السعادة، لکنّ وسوسة شیطانیة واحدة من صدیق سیء تقلبه رأسا علی عقب و تقلب مصیره، حیث سیعضّ علی یدیه من الحسرة یوم القیامة، و ستتعالی منه صرخة «یا ویلتی».

فی کتاب «العشرة» وردت روایات کثیرة فی نفس هذا الموضوع، تبیّن أن الإسلام شدید و دقیق و ثاقب النظرة فی مسألة اختیار الصدیق.

ننهی هذا البحث القصیر بنقل حدیثین فی هذا الموضوع، و من أراد الاطلاع أکثر فی هذا الموضوع فلیراجع کتاب «العشرة» من بحار الأنوار، الجزء ۷۴.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۱

نقرأ

فی حدیث عن التاسع من أئمة الإسلام العظام، الإمام محمد التقی الجواد علیه السّلام «إیّاک و مصاحبة الشریر، فإنه کالسیف المسلول، یحسن منظره و یقبح أثره».[۱۷۶]

و

قال الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أربع یمتن القلب: الذنب علی الذنب ...

و مجالسة الموتی» قیل له: یا رسول اللّه، و ما الموتی؟ قال: «کل غنی مترف».[۱۷۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۲

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۳۰ الی ۳۴]

اشارة

وَ قالَ الرَّسُولُ یا رَبِّ إِنَّ قَوْمِی اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (۳۰) وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِینَ وَ کَفی بِرَبِّکَ هادِیاً وَ نَصِیراً (۳۱) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَیْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلًا (۳۲) وَ لا یَأْتُونَکَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناکَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِیراً (۳۳) الَّذِینَ یُحْشَرُونَ عَلی وُجُوهِهِمْ إِلی جَهَنَّمَ أُوْلئِکَ شَرٌّ مَکاناً وَ أَضَلُّ سَبِیلًا (۳۴)

التّفسیر

إلهی، إنّ الناس قد هجروا القرآن:

کما تناولت الآیات السابقة أنواعا من ذرائع المشرکین و الکافرین المعاندین، تتناول الآیة الأولی فی مورد البحث هنا حزن و شکایة الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بین یدی اللّه عزّ و جلّ من کیفیة تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۳

وَ قالَ الرَّسُولُ يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً.[۱۷۸] قول الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هذا، و شكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدى اللّه أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذى هو رمز الحياة و وسيلة النجاة، القرآن الذى هو سبب الإنتصار و الحركة و الترقى، القرآن الممتلئ ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الاستجداء إلى الآخرين، حتى فى القوانين المدنية و الجزائية.

إلى الآن، لو تأملنا فى وضع كثير من البلدان الإسلامية، خصوصا أولئك الذين يعيشون تحت هيمنة الشرق و الغرب الثقافية، لوجدنا أنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم و التشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، و يستخدمونه فى زخرفة المساجد بعنوان الفن المعمارى، و لافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، و شفاء مريض، و على الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

و يستدلون بالقرآن، أحيانا و غايتهم إثبات أحكامهم المسبّقة الخاطئة من خلال الاستعانة بالآيات، و بالاستفادة من المنهج المنحرف فى التّفسير بالرأى.

فى بعض البلدان الإسلامية، هناك مدارس فى طول البلاد و عرضها بعنوان:

مدارس «تحفيظ القرآن» و فريق عظيم من الأولاد و البنات مشغولون بحفظ القرآن، فى الوقت الذى تؤخذ أفكارهم عن الغرب حينا، و عن الشرق حينا آخر، و تؤخذ قوانينهم و قراراتهم من الأجانب، أمّا القرآن فغطاء لمخالفاتهم فقط.

نعم، اليوم أيضا يصرخ النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً. مهجورا من ناحية لبّه و محتواه، متروكا من ناحية الفكر و التأمل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۴

و مهملا من ناحية برامجه البناءة.

تقول الآية التى بعدها فى مواساة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائى للخصوم: وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ

لست وحدك قد واجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العداء.

و لكن اعلم أنّك لست وحيدا، و بلا معين وَ كَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَ نَصِيراً.

فلا وساوسهم تستطيع أن تضللك، لأنّ اللّه هاديك، و لا مؤامراتهم تستطيع، أن تحطمك، لأن الخالق معينك، الخالق الذى علمه فوق كل العلوم، و قدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التى بعدها، تشير أيضا إلى ذريعة أخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً.

أليس القرآن جميعه من قبل اللّه!؟ أليس من الأفضل أن ينزل جميع محتوى هذا الكتاب دفعة واحدة حتى يقف الناس على عظمته أكثر؟ و لماذا تتنزل هذه الآيات تدريجيا و على فواصل زمنية مختلفة؟

و قد يأخذ هذا الإشكال فى كيفية نزول القرآن مأخذه من الأفراد السطحيين، خاصّة إذا كانوا من المتمحلين للأعذار بأن هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس و مصدر كل حياة المسلمين، و محور كل قوانينهم السياسية و الاجتماعية و الحقوقية و العبادية، لماذا لم ينزل كاملا- و دفعة واحدة على نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حتى يقرأه أتباعه من البداية إلى النهاية فيطلعون على محتواه. و أساسا فقد كان الأفضل للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كيما يجيب الناس فورا على كل ما يسألونه و يريدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۵

منه.

و لكن القرآن فى تتمة نفس هذه الآية يجيبهم: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا. و قد غفل أولئك السطحيون عن هذه الحقيقة، فلا شك أن نزول القرآن التدريجى له ارتباط وثيق بتثبيت قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و سيأتى بحث مفصل عن ذلك فى نهاية هذه الآيات.

ثمّ للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً. أى أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك و مقابلتها، إلّا آتيناك بكلام حقّ يقمع كلماتهم الجوفاء و أدلتهم الخاوية بأحسن بيان و أفضل تفسير.

و بما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أن محمّدا و أصحابه مع صفاتهم هذه و كتابهم هذا و برامجهم هذه شرّ خلق اللّه (العياذ باللّه)، و لأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة و بلاغة القرآن، فإنّ اللّه سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول فى الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول:

الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلى وُجُوهِهِمْ إِلى جَهَنَّمَ أُوْلئِكَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضَلُّ سَبِيلًا.

نعم، تتضح هناك نتيجة منهاهج حياة الناس، فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرور، و وجوه منيرة كالقمر، و خطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنّة، فى مقابل فريق مطأطئى رؤوسهم إلى الأرض، تسحبهم ملائكة العذاب إلى جهنّم، هذا المصير المختلف يكشف عمن كان ضالا و شقيا! و من كان مهتديا و سعيدا؟!

بحوث

۱- تفسير جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا.

يفهم من هذه الجملة- أحيانا- أن اللّه من أجل مواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۴۶

وحدك لك عدوّ، بل لقد جعلنا لكل نبى عدوّا، و لازم هذا القول إسناد وجود أعداء الأنبياء إلى اللّه تعالى، الأمر الذى لا يتفق مع حكمته و لا مع أصل حرية و إرادة الإنسان. ذكر المفسّرون أجوبة متعددة على هذا السؤال ...

قلنا مرارا أن جميع أعمال الإنسان منسوبة إلى اللّه، لأنّ جميع متعلقاتنا، قدرتنا، قوانا، عقلنا و فكرنا، و حتى حريتنا و اختيارنا أيضا من عنده، و على هذا فمن الممكن من هذه الناحية نسبة وجود الأعداء للأنبياء إلى اللّه، دون أن يستلزم ذلك الجبر و سلب الإختيار، و لا يرد خدش فى مسئوليتهم إزاء أعمالهم (فتأمل)! مضافا إلى أن وجود هؤلاء الأعداء الأشداء و مخالفتهم للأنبياء، يكون سببا فى أن يصبح المؤمنون أقوى فى عملهم، و أثبت قدما، فيتحقق الامتحان الإلهى بالنسبة إلى الجميع.

هذه الآية فى الحقيقة مثل الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام حيث تقول:

وَ كَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ، يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً.

أمام الأزاهير تنمو الأشواك، و فى قبال المحسنين يوجد المسيئون، دون أن تنتفى مسئولية أى واحد من هاتين المجموعتين.

و قال البعض: إنّ المقصود من «جعلنا» هى أوامر و نواهى و مناهج الأنبياء البناءة التى تجر بعض الضالين إلى العداوة، شاؤوا أم أبوا.

و إذا أسند ذلك إلى اللّه فلأن الأوامر و النواهى من جهته عزّ و جلّ.

التّفسير الآخر: أن هنالك فئة يطبع اللّه على قلوبهم و يعمى أبصارهم و يصم أسماعهم بسبب الإصرار على الذنب و الإفراط فى التعصب و اللجاجة، هذه الفئة يصبحون أعداء الأنبياء فى نهاية المطاف، أمّا أسباب ذلك فهى بما قدموا لأنفسهم.

و لا منافاة بین هذه التفاسیر الثلاثة، فمن الممکن أن تجتمع کلها فی مفهوم الآیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۷

۲- الآثار العمیقة لنزول القرآن التدریجی

صحیح أنّه کان للقرآن نزولان، طبقا للرّوایات (بل لظاهر بعض الآیات):

أحدهما: «نزول دفعی» مرّة واحدة فی لیلة القدر علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و الآخر:

«نزول تدریجی» فی ثلاث و عشرین سنة، لکن بلا شک أن النّزول المعترف به الذی کان النّبی و الناس یتفاعلون معه دائما هو النّزول التدریجی للقرآن.

و هذا النّزول التدریجی بالذات صار سببا لاستفهامات الأعداء: لماذا لم ینزل القرآن مرّة واحدة و یجعل دفعة واحدة بین أیدی الناس، حتی یکونوا أکثر اطلاعا و تفهما، فلا یبقی مکان للشک و الریبة؟

و لکن- کما رأینا- فإنّ القرآن أجابهم جوابا قصیرا و جامعا و بلیغا من خلال جملة کَذلِکَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَکَ فکلما تأملنا فیها أکثر تتجلی آثار النّزول التدریجی للقرآن أوضح.

۱- لا شک أنّ التشریعات إذا کانت تتنزل بشکل تدریجی تبعا للحاجات، و یکون لکل مسألة شاهد و مصداق عینیّ، فستکون مؤثرة جدّا من ناحیة «تلقی الوحی» و کذلک «إبلاغ الناس».

مبادئ التربیة تؤکّد أنّ الشخص أو الأشخاص المراد تربیتهم ینبغی أن یؤخذ بأیدیهم خطوة خطوة، فینظم لهم لکل یوم برنامج، و یسلکوا من المرحلة الأدنی التی شرعوا منها إلی المراحل الأعلی و البرامج التی تتدرج بهذه الکیفیة تکون أکثر مقبولیة و أعمق أثرا.

۲- إنّ هؤلاء المعترضین غافلون أساسا عن أنّ القرآن لیس کتابا عادیا یبحث فی موضوع أو علم معین، بل هو منهج حیاتی للأمة التی تغیرت به، و استلهمت منه فی جمیع أبعاد الحیاة و لا تزال.

کثیر من آیات القرآن نزلت فی مناسبات تاریخیة مثل معرکة (بدر) و (أحد) و (الأحزاب) و (حنین)، و بذلک سنّت التشریعات و الاستنتاجات من هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۸

الحوادث، تری هل یصح أن تکتب هذه مرّة واحدة و تعرض علی الناس!؟

بعبارة أخری: القرآن مجموعة من أوامر و نواه، أحکام و قوانین، تاریخ و موعظة، و مجموعة من الخطط ذات المدی الطویل أو القصیر فی مواجهة الأحداث التی کانت تبرز أمام مسیر الأمة الإسلامیة، کتاب- کهذا- یبیّن و ینفذ جمیع مناهجه حتی قوانینه الکلیة عن طریق الحضور فی میادین حیاة الأمة، لا یمکن أن ینظم و یدوّن دفعة واحدة.

و هذا من قبیل أن یقوم قائد عظیم بکتابه و نشر جمیع بیاناته و إعلاناته و أوامره و نواهیه- التی یصدرها فی المناسبات المختلفة- دفعة واحدة من أجل تسییر الثورة، تری هل یعتبر هذا العمل عقلائیا!؟

۳- النّزول التدریجی للقرآن کان سبب ارتباط النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الدائم و المستمر بمبدإ الوحی ممّا یجعل قلبه الشریف أقوی و إرادته أشدّ. و من غیر الممکن إنکار تأثیره فی المناهج التربویة.

۴- من جهة أخری فإنّ استمرار الوحی دلیل علی استمرار رسالة و سفارة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و سوف لن یترک مجالا لوسوسة الأعداء لکی یقولوا: لقد بعث هذا النّبی لیوم واحد! ثمّ ترکه ربه، کما نقرأ فی التأریخ الإسلامی أن هذه الهمهمة ظهرت أثناء تأخر الوحی فی بدایة الدعوة، فأنزلت سورة وَ الضُّحی لنفی ذلک.

۵- لا شک أنّه إذا کان مقررا لمناهج الإسلام أن تنزل جمیعها دفعة واحدة، فقد کان من اللازم أن تطبّق دفعة واحدة أیضا، لأن النّزول بدون تطبیق یفقد النّزول قیمته، و من المعلوم أن تطبیق جمیع المناهج أعم من العبادات کالزکاة و الجهاد، و رعایة جمیع الواجبات و الامتناع عن کل المحرمات دفعة واحدة ..

عمل ثقیل جدّا قد یؤدی إلی فرار فئة کبیرة من الإسلام.

و بهذا یتبیّن أن النّزول التدریجی و بالتالی التطبیق التدریجی أفضل من جهات کثیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۴۹

و بعبارة أخری: إنّ أیّ واحد من هذه التشریعات فی صورة النّزول التدریجی سیتم هضمه و استیعابه بصورة جیدة، و فی حالة تعرضه لبعض الاستفهامات یمکن طرحها و الاجابة علیها.

۶- و فائدة أخری من فوائد النّزول التدریجی هو اتضاح عظمة و إعجاز القرآن، ذلک لأن فی کل واقعة تنزل عدّة آیات کریمة تکون لوحدها دلیل العظمة و الاعجاز، و کلما یتکرر تتجلی أکثر هذه العظمة و هذا الإعجاز، فینفذ فی أعماق قلوب الناس.

۳- معنی الترتیل فی القرآن:

کلمة «ترتیل» من مادة «رتل» (علی وزن قمر) بمعنی انتظم و اتسق، لذا فالعرب یقولون «رتل الإنسان» لمن تکون أسنانه جیدة و منتظمة و متسقة. و علی هذا الأساس یطلق الترتیل بمعنی القراءة المتسقة للکلام أو الآیات بموجب نظام و حساب.

و علی هذا فجملة وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِیلًا إشارة إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ آیات القرآن و إن نزلت تدریجا و فی مدة ۲۳ سنة، لکنّ هذا النّزول کان علی أساس نظام و حساب و منهج بحیث ادی الی رسوخه فی الأفکار و غرسه فی القلوب.

فی تفسیر کلمة «ترتیل» نقلت روایات جذابة، نشیر إلی بعضها کما یأتی:

فی تفسیر «مجمع البیان» «نقل عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه أمر ابن عباس: «إذا قرأت القرآن فرتله ترتیلا» فسألته: و ما الترتیل؟ قال: «بینه تبیینا و لا تنثره نثر الدقل و لا تهزه هزّ الشعر، قفوا عند عجائبه و حرکوا به القلوب، و لا یکونن همّ أحدکم آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۰

السورة».[۱۷۹]

و هناک روایة بهذه المضمون رواه الشیخ الکلینی فی «أصول الکافی» عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام.[۱۸۰] و

نقل أیضا عن الإمام الصادق علیه السّلام «الترتیل أن تتمکث به و تحسن به صوتک، و إذا مررت بآیة فیها ذکر النار فتعوّذ باللّه من النار، و إذا مررت بآیة فیها ذکر الجنة فاسأل اللّه الجنّة».[۱۸۱]

۴- تفسیر یُحْشَرُونَ عَلی وُجُوهِهِمْ إِلی جَهَنَّمَ

أقوال کثیرة بین المفسّرین فی ما هو المقصود بحشر هذه الفئة من المجرمین علی وجوههم!؟

بعضهم فسّروا ذلک بنفس معناه الحقیقی، و قالوا: إنّ ملائکة العذاب یسحبونهم إلی جهنم و هم ملقون علی وجوههم إلی الأرض، و هذا علامة علی مهانتهم و ذلتهم، لأنّهم کانوا فی الدنیا فی غایة الکبر و الغرور و الاستهانة بخلق اللّه، هذا من جهة.

و من جهة أخری تجسید لضلالتهم فی هذا العالم، ذلک أن من یسحبونه بهذه الصورة لا یری ما أمامه بأی شکل، و غافل عما حوله.

و البعض الآخر أخذوا بمعناه الکنائی، فقالوا تارة هذه الجملة کنایة عن تعلق قلوب أولئک بالدنیا، فهم یسحبون إلی جهنم لأن وجوه

قلوبهم لا زالت مرتبطة بالدنيا.[۱۸۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۱

و قالوا تارة اخرى: انها كناية مستعملة فى الأدب العربى حيث يقولون: فلان مرّ على وجهه، يعنى أنّه لم يكن يدرى أين يذهب.

لكن الواضح أنّنا مع عدم الدليل على المعنى الكنائى، لا بدّ من حملها على المعنى الأوّل، و هو المعنى الحقيقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۲

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۳۵ الى ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً (۳۵) فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً (۳۶) وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً (۳۸) وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً (۳۹)

وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَها بَلْ كانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (۴۰)

التّفسير

مع كل هذه الدروس و العبر، و لكن ...

أشار القرآن المجيد فى هذه الآيات إلى تاريخ الأمم الماضية و مصيرهم المشؤوم مؤكّدا على ست أمم بخاصّة (الفراعنة، و قوم نوح، و قوم عاد، و ثمود، و أصحاب الرّس، و قوم لوط) و ذلك لمواساة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة، و لتهديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۳

المشركين المعاندين الذين مرّ أنموذج من أقوالهم فى الآيات السابقة، من جهة أخرى و يجسد دروس العبرة من مصير هذه الأقوام بشكل مختصر و بليغ تماما.

يقول أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَ جَعَلْنا مَعَهُ أَخاهُ هارُونَ وَزِيراً.

فقد ألقيت على عاتقيهما لمسؤولية الثقيلة فى جهاد الفراعنة، و يجب عليهما مواصلة هذا العمل الثورى بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر فَقُلْنَا اذْهَبا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فإنّهم قد كذبوا دلائل اللّه و آياته التى فى الآفاق و فى الأنفس و فى كل عالم الوجود، و أصروا على طريق الشرك و عبادة الأصنام من جهة .. و من جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الأنبياء السابقين و كذبوهم.

و لكن بالرغم من جميع الجهود و المساعى التى بذلها موسى و هارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة و البينات المتنوعة، أصروا أيضا على طريق الكفر و الإنكار، لذا فَدَمَّرْناهُمْ تَدْمِيراً.

كلمة «تدمير» من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب، حيث كان هلاك قوم فرعون فى أمواج النيل المتلاطمة بتلك الكيفية المعروفة من عجائب التاريخ حقا.

و كذلك: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً، وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً.

الملفت للانتباه أنّه تعالى يقول: إنّ أولئك كذبوا الرسل (لا- رسولا واحدا فقط) ذلك أنه لا فرق بين أنبياء اللّه و رسله فى أصل الدعوة، و تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، فضلا عن أنّهم كانوا مخالفين لدعوة جميع أنبياء اللّه و منكرين لجميع الأديان.

و کذلک: وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَیْنَ ذلِکَ کَثِیراً.[۱۸۳]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۴

«قوم عاد» هم قوم النّبی «هود» العظیم، الذی بعث فی منطقة (الأحقاف) أو (الیمن).

و «قوم ثمود» قوم نبی اللّه «صالح» الذی بعث فی منطقة وادی القری (بین المدینة و الشام)، أمّا ما یتعلق بمسألة «أصحاب الرس» فسنبحثها فی نهایة هذا البحث.

«قرون» جمع «قرن» و هی فی الأصل بمعنی الجماعة الذین یعیشون معا فی زمان واحد، ثمّ أطلقت علی الزمان الطویل (أربعین أو مائة سنة).

لکننا لم نجاز أولئک علی غفلة أبدا، بل وَ کُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ

أجبنا علی إشکالاتهم، مثل الإجابة علی الإشکالات التی یوردونها علیک، و بیّنا لهم الأحکام الإلهیة و حقائق الدین. أخطرناهم، أنذرناهم، کررنا علیهم مصائر و قصص الماضین، لکن حین لم ینفع أیّ من ذلک أهلکناهم و دمّرناهم تدمیرا: وَ کُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِیراً.[۱۸۴]

و فی نهایة المطاف- فی الآیة الأخیرة مورد البحث- یشیر القرآن المجید إلی خرائب مدن قوم لوط التی تقع علی بدایة طریق الحجازیین إلی الشام، و إلی الأثر الحی الناطق عن المصیر الألیم لأولئک الملوثین و المشرکین، فیقول تعالی: وَ لَقَدْ أَتَوْا عَلَی الْقَرْیَةِ الَّتِی أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَ فَلَمْ یَکُونُوا یَرَوْنَها.

نعم، لقد کانوا یرون مشهد الخرائب هذه، لکنّهم لم یأخذوا منها العبرة، ذلک لأنّهم بَلْ کانُوا لا یَرْجُونَ نُشُوراً.

إنّهم یعدون الموت نهایة هذه الحیاة، و إذا کان لهم اعتقاد بحیاة ما بعد الموت فهو اعتقاد ضعیف و بلا أساس، لا یطبع أثرا فی أرواحهم و لا ینعکس فی مناهج

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۵

حیاتهم، و لهذا فهم یأخذون جمیع الأشیاء مأخذ اللعب، و لا یفکرون إلّا بأهوائهم السریعة الزوال.

بحثان

۱- من هم «أصحاب الرس»

کلمة «رسّ» فی الأصل بمعنی الأثر القلیل، فیقال مثلا «رسّ الحدیث فی نفسی» (قلیل من حدیثه فی ذاکرتی) أو یقال: وجد رسّا من حمی» (یعنی: وجد قلیلا من الحمّی فی نفسه).[۱۸۵] و جماعة من المفسّرین اعتقدوا بأن «الرسّ» بمعنی البئر.

علی أیة حال فتسمیة هؤلاء القوم بهذا الاسم، إمّا لأنّ أثرا قلیلا جدا بقی منهم، أو لأنّهم کانت لهم آبار کثیرة، أو لأنّهم هلکوا و زالوا بسبب جفاف آبارهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۱ ؛ ص۲۵۵

ّا من هم هؤلاء القوم؟ هناک أقوال کثیرة بین المؤرخین و المفسّرین:

۱- یری کثیرون أن «أصحاب الرس» کانوا طائفة تعیش فی «الیمامة» و بعث لهم نبی اسمه «حنظلة» کذبوه و ألقوه فی بئر، و ذکروا أیضا: إنّهم ملأوا هذا البئر بالرماح، و أغلقوا فم البئر بعد إلقاء النّبی فیها بالحجارة حتی استشهد ذلک النبی.[۱۸۶] ۲- البعض الآخر یری أن «أصحاب الرسّ» إشارة إلی قوم «شعیب» الذین کانوا یعبدون الأصنام، و کانوا ذوی أغنام کثیرة و آبار ماء، و «الرسّ» کان

اسما لبئر عظیم، حیث أغاضه اللّه، فأهلک أهل ذلک المکان.

۳- بعض آخر یعتقد أن «الرسّ» کانت قریة فی أرض «الیمامة» حیث کان یعیش فیها جماعة من بقایا قوم ثمود، فهلکوا نتیجة طغیانهم و غرورهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۶

۴- و ذهب آخرون أنّهم کانوا جماعة من العرب الماضین، یعیشون ۱۸۷] بین الشام و الحجاز.

۵- بعض التفاسیر یعرّف «أصحاب الرسّ» من بقایا عاد و ثمود، و یعتبر وَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَ قَصْرٍ مَشِیدٍ.[۱۸۸] متعلقة بهم أیضا، و ذکر أن موطنهم فی «حضر موت» و اعتقد «الثعلبی» فی «عرائس البیان» أن هذا القول هو الأکثر اعتبارا.

البعض الآخر من المفسّرین طبقوا «الرس» علی «أرس» (فی شمال آذربیجان)! ۶- العلامة الطبرسی فی مجمع البیان، و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، و الآلوسی فی روح المعانی نقلوا من جملة الاحتمالات، أنّهم قوم یعیشون فی أنطاکیة الشام، و کان نبیهم «حبیب النجار».

۷- فی عیون أخبار الرضا، نقل حدیث طویل حول «أصحاب الرس» خلاصته: «إنّهم کانوا قوما یعبدون شجرة صنوبر یقال لها (شاه درخت) کان یافث بن نوح غرسها بعد الطوفان علی شفیر عین یقال لها (روشن آب) و کان لهم اثنتا عشرة قریة معمورة علی شاطئ نهر یقال له «الرسّ»، یسمین بأسماء: آبان، آذر، دی، بهمن أسفندار، فروردین، أردی بهشت، خرداد، مرداد، تیر، مهر، شهریور، و منها اشتقّ العجم أسماء شهورهم.

و قد غرسوا فی کل قریة منها من طلع تلک الصنوبرة حبّة. أجروا علیها نهرا من العین التی عند الصنوبرة، و حرّموا شرب مائها علی أنفسهم و أنعامهم، و من شرب منه قتلوه، و یقولون: إنّه حیاة الآلهة فلا ینبغی لأحد أن ینقص حیاتها. و قد جعلوا فی کل شهر من السنة یوما- فی کل قریة، عیدا، یخرجون فیه إلی الصنوبرة التی خارج القریة یقربون إلیها القرابین و یذبحون الذبائح ثمّ یحرقونها فی النار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۷

فیسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها و سطوعه فی السماء و یبکون و یتضرعون، و الشیطان یکلمهم من الشجرة. و کان هذا دأبهم فی القری حتی إذا کان یوم عید قریتهم العظمی التی کان یسکنها ملکهم و اسمها (أسفندار) اجتمع إلیها أهل القری جمیعا و عیّدوا اثنی عشر یوما، و جاءوا بأکثر ما یستطیعونه من القرابین و العبادات للشجرة، و کلّمهم إبلیس و هو یعدهم و یمنیهم أکثر ممّا کان من الشیاطین فی سائر الأعیاد من سائر الشجر.

و لما طال منهم الکفر باللّه و عبادة الشجرة، بعث اللّه إلیهم رسولا من بنی إسرائیل من ولد یهودا، فدعاهم برهة إلی عبادة اللّه و ترک الشرک، فلم یؤمنوا، فدعا علی الشجرة فیبست، فلما رأوا ذلک ساءهم، فقال بعضهم: إنّ هذا الرجل سحر آلهتنا، و قال آخرون: إنّ آلهتنا غضبت علینا بذلک لما رأت هذا الرجل یدعونا إلی الکفر بها فترکناه و شأنه من غیر أن نغضب لآلهتنا. فاجتمعت آراؤهم علی قتله فحفروا بئرا عمیقا و ألقوه فیها، و سدّوا فوهتها، فلم یزالوا علیها یسمعون أنینه حتی مات، فأتبعهم اللّه بعذاب شدید أهلکهم عن آخرهم».[۱۸۹] قرائن متعددة تؤید مضمون هذا الحدیث، لأن مع وجود ذکر «أصحاب الرسّ» فی مقابل عاد و ثمود یکون احتمال أنّهم جماعة من هاتین الأمتین بعیدا جدا.

کذلک، فإنّ وجود هؤلاء القوم فی الجزیرة العربیة و الشامات و تلک الحدود- و هو الذی احتمله الکثیرون- بعید أیضا، ذلک لأنّه یجب أن یکون له انعکاس فی تاریخ العرب بحسب العادة، فی الوقت الذی لم نر حتی انعکاسا ضئیلا لأصحاب الرس لدیهم.

مضافا الی ذلک توافقه مع کثیر من التفاسیر الأخری، من جملتها: أنّ «الرس»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۵۸

كان اسما لبئر (البئر التى ألقوا فيها نبيهم) أو أنّهم كانوا أصحاب زراعة و مواشى و أمثال ذلك.

و ما

ورد فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: أنّ نساءهم كن منحرفات جنسيا و يمارسن «المساحقة»

لا منافاة له مع هذا الحديث أيضا[۱۹۰].

و من عبارة (نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۰) يستفاد أنه كان لهم أكثر من نبىّ واحد فقط، لأنّه عليه السّلام

يقول: «أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيّين، و أطفأوا سنن المرسلين، و أحيوا سنن الجبارين!؟».

و كلام أمير المؤمنين عليه السّلام هذا لا يتنافى مع الرواية أعلاه، لأنّ من الممكن أن الرواية تشير إلى مقطع من تاريخهم و كان قد بعث نبىّ فيهم.

۲- مجموعة من الدروس المؤثرة:

ست فئات فى الآيات أعلاه، ذكرت أسماؤهم: قوم فرعون قوم نوح المتعصبون، قوم عاد المتجبرون، ثمود، أصحاب الرس، و قوم لوط، حيث كان كل منهم أسير نوع من الانحراف الفكرى و الأخلاقى أدّى بهم إلى الهلاك و الشقاء.

الفراعنة كانوا ظالمين جائرين و مستعمرين و استثماريين و أنانيين.

قوم نوح كما هو معلوم كانوا معاندين و متكبرين و مغرورين.

قوم عاد و قوم ثمود كانوا يتكلمون على قدراتهم الذاتية.

و كان أصحاب الرس فى دوامة الفساد و الشذوذ الجنسى و خاصّة نسائهم، و كان قوم لوط غارقين فى وحل من الفحشاء، و شذوذ الرجال بخاصّة، و الجميع منحرفون عن جادة التوحيد. حيرى فى الضلالات.

و هنا يريد القرآن أن ينذر مشركى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جميع الناس على مدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۵۹

التاريخ: ليكن لكم من القدرات و الاستطاعة و الإمكانات كل شىء و مهما كان لكم من اموال و ثروات و حياة مرفّهة، فإن التلوث بالشرك و الظلم و الفساد سيستأصل أعماركم، و إنّ نفس أسباب تفوقكم تلك ستكون أسباب هلاككم! قوم فرعون: و قوم نوح، أهلكوا بالماء الذى هو أساس الحياة، قوم عاد بالعاصفة و الرياح التى هى أيضا فى ظروف خاصّة أساس الحياة، قوم ثمود بالسحاب الحامل للصواعق، و قوم لوط بمطر من الحجارة نزل بعد الصاعقة، أو انفجار بركان على قول بعضهم، و أصحاب الرس طبقا لذيل تلك الرواية أعلاه، أبيدوا بنار تطلع من الأرض، و بشعلة مهلكة انتشرت من السحاب، ليؤوب هذا الإنسان المغرور إلى نفسه، فيتمسك بطريق اللّه و العدالة و التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (۴۱) إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (۴۲) أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (۴۳) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ

يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاّ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (۴۴)

التّفسير

أضلّ من الأنعام:

الملفت للانتباه أنّ القرآن المجيد لا يورد أقوال المشركين دفعة واحدة فى آيات هذه السورة، بل أورد بعضا منها، فكان يتناولها بالردّ و الموعظة و الإنذار، ثمّ بعد ذلك يواصل تناول بعض آخر بهذا الترتيب.

الآيات الحالية، تتناول لونا آخر من منطق المشركين و كيفية تعاملهم مع رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته الحقّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۱

يقول تعالى أولا: وَ إِذا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَ هذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا.[۱۹۱] و هكذا نجد هؤلاء الكفار يتعجبون! أىّ ادعاء عظيم يدعى؟ أى كلام عجيب يقول!؟ إنّها مهزلة حقّا! لكن يجب ألا ننسى أنّ رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كان هو ذلك الشخص الذى عاش بينهم أربعين عاما قبل الرسالة، و كان معروفا بالأمانة و الصدق و الذكاء و الدراية، لكنّ رؤوس الكفر تناسوا صفاته هذه حينما تعرضت منافعهم الى الخطر، و تلقوا مسألة دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- بالرغم من جميع تلك الشواهد و الدلائل الناطقة- بالسخرية و الاستهزاء حتى لقد اتّهموه بالجنون.

ثمّ يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم إِنْ كادَ لَيُضِلُّنا عَنْ آلِهَتِنا لَوْ لا أَنْ صَبَرْنا عَلَيْها[۱۹۲].

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففى البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التى ما كانت أهلا للمنطق: وَ سَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، كما قال بعض المفسّرين مثل «الطبرسى» فى مجمع البيان، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» و أمثالها، كما قال «القرطبى» فى تفسيره المعروف، و يمكن أن تكون الإشارة إليهما معا.

الملفت للنظر أنّ هذه الفئة الضالة فى مقولتها هذه، وقعت فى تناقض فاضح، فمن جهة تلقت النّبى و دعوته بالسخرية، إشارة إلى أن ادعاءه بلا أساس و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۲

يستحق أن يؤخذ مأخذ الجد، و من جهة أخرى أنّه لو لا تمسكهم بمذهب أجدادهم، فمن الممكن أن- يؤثر عليهم كلام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يضلّهم عن ذلك المذهب، و هذا يدل على أنّهم كانوا يعتبرون كلامه قويا و جديا و مؤثرا و محسوبا، و هذا المنطق المضطرب ليس غريبا عن هؤلاء الأفراد الحيارى اللجوجين.

و كثيرا ما يرى أنّ منكرى الحق حينما يقفون قبالة الأمواج المتلاطمة لمنطق القادة الإلهيين، فإنّهم يختارون أسلوب الاستهزاء تكتيكا من أجل توهينه و دفعه، فى حين أنّهم يخالفون سلوكهم هذا فى الباطن، بل قد يأخذوه بجدية أحيانا و يقفون ضده بجميع امكاناتهم.

الجواب القرآنى الثّانى على مقولاتهم ورد فى الآية التى بعدها، موجها الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على سبيل المواساة و تسلية الخاطر، و أيضا على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النّبى من قبل أولئك، فيقول: أَ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته و الدفاع عنه أَ فَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا.

يعنى إذا وقف أولئك أمام دعوتك بالاستهزاء و الإنكار و أنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأن منطقك ضعيف و دلائلك غير مقنعة، و فى دينك شك أو ريبة، بل لأنّهم ليسوا أتباع العقل و المنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، ترى أ تنتظر أن يطيعك هكذا

أشخاص، أو تستطيع أن تؤثر فيهم!؟

أقوال مختلفة للمفسرين الكبار فى معنى جملة: أ رَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ

قال جماعة- كما قلنا آنفا-: إنّ المقصود أنّ لهم صنما، ذلك هو هواهم النفسى، و كل أعمالهم تصدر من ذلك المنبع.

فى حين أنّ جماعة أخرى ترى أنّ المراد هو أنّهم لا يراعون المنطق بأى شكل فى اختيارهم الأصنام، بل إنّهم متى ما كانت تقع أعينهم على قطعة حجر، أو شجرة جذابة، أو شىء آخر يثير هواهم، فإنّهم يتوهمونه «معبودا»، فكانوا يجثون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۳

على ركبهم أمامه، و يقدمون القربان، و يسألونه حل مشكلاتهم.

و ذكر فى سبب نزول هذه الآية رواية مؤيدة لهذا المعنى، و هى أن إحدى السنين العجاف مرّت على قريش، فضاق عليهم العيش، فخرجوا من مكّة و تفرقوا فكان الرجل إذا رأى شجرة حسنة أو حجرا حسنا هويه فعبده، و كانوا ينحرون النعم و يلطخونها بالدم و يسمونها «سعد الصخرة»، و كان إذا أصابهم داء فى إبلهم أغنامهم جاؤوا إلى الصخرة فيمسحون بها الغنم و الإبل، فجاء رجل من العرب بإبل يريد أن يمسح بالصخرة إبله و يتبرك بها، فنفرت إبله فتفرقت، فقال الرجل شعرا:

أتيت إلى سعد ليجمع شملنافشتتنا سعد فما نحن من سعد

و ما سعد إلّا صخرة مستويةمن الأرض لا تهدى لغىّ و لا رشد

و مرّ به رجل من العرب و الثعلب يبول عليه فقال شعرا:

و ربّ يبول الثعلبان برأسهلقد ذلّ من بالت عليه الثعالب ۱۹۳]

التّفسيران أعلاه لا منافاة بينهما، فأصل عبادة الأصنام- التى هى وليدة الخرافات- هو اتباع الهوى، كما أنّ اختيار الأصنام المختلفة بلا أى منطق، فرع آخر عن أتباع الهوى أيضا.

و سيأتى بحث مفصل فى الملاحظات الآتية، بصدد «اتباع الهوى و الشهوات» إن شاء اللّه.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثّالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا.

يعنى لا يؤذينك استهزاؤهم و مقولاتهم السيئة و غير المنطقية أبدا، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، و يستخدم عقله، فيكون مصداقا ل «يعقلون».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۴

أو أنّه فاقد للعلم و لكنّه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقا ل «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من أولئك و لا من هؤلاء، و على هذا فلا فرق بينهم و بين الانعام.

و واضح أنّه لا يتوقع من الأنعام غير الصياح و الرفس و الأفعال اللامنطقية. بل هم أتعس من الأنعام و أعجز، إذ أن الأنعام لا تعقل و لا فكر لها، و هؤلاء لهم عقل و فكر، و تسافلوا إلى حال كهذه.

المهم هو أنّ القرآن يعبّر ب «أكثرهم» هنا أيضا، فلا يعمم هذا الحكم على الجميع، لأنّه قد يكون بينهم أفراد مخدوعون واقعا، و حينما يواجهون الحق تنكشف عن أعينهم الحجب تدريجيا، فيتقبلوا الحق، و هذا نفسه دليل على أن القرآن يراعى الإنصاف فى المباحث القرآنية.

بحثان

۱- اتباع الهوی و عواقبه الأليمة

لا شک أنّ فی کیان الإنسان غرائز و میولا مختلفة، و جمیعها ضروری لإدامة حیاته، الغیظ و الغضب، حب النفس، حب المال و الحیاة المادیة، و أمثالها، و لا شک أنّ مبدع الوجود خلقها جمیعا لذلک الهدف التکاملی.

لکن المهم هو أنّها تتجاوز حدها أحیانا، و تخرج عن مجالها، و تتمرّد علی کونها أداة طیعة بید العقل، و تصرّ علی العصیان و الطغیان، فتسجن العقل، و تتحکم بکل وجود الإنسان، و تأخذ زمام اختیاره بیدها.

هذا هو ما یعبرون عنه ب «اتباع الهوی» الذی هو أخطر أنواع عبادة الأصنام، بل إن عبادة الأصنام تنشأ عنه أیضا، فلیس عبثا أن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اعتبر صنم «الهوی» أعظم و أسوأ الأصنام، لذا

قال: «ما تحت ظل السماء من إله یعبد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۵

من دون اللّه أعظم عند اللّه من هوی متبع».[۱۹۴]

و نقرأ

فی حدیث آخر عن بعض أئمّة الإسلام «أبغض إله عبد علی وجه الأرض الهوی».

و إذا تأملنا جیـدا فی أعماق هـذا القول، نعلم جیدا لماذا کان اتباع الهوی مصدر الغفلة، کما یقول القرآن: وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِکْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ [۱۹۵] و من جهة أخری فإن اتباع الهوی منبع الکفر و عدم الإیمان، کما یقول القرآن فَلا یَصُدَّنَّکَ عَنْها مَنْ لا یُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ [۱۹۶] و من جهـة ثالثـة فإنّ اتباع الهوی أسوأ الضـلال، یقول القرآن الکریم: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَیْرِ هُـدیً مِنَ اللَّهِ [۱۹۷] و من جهـة رابعة فإن اتباع الهوی نقطة مقابلة لطلب الحق، و یخرج الإنسان عن طریق اللّه، کما نقرأ فی القرآن: فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ [۱۹۸] و من جهـة خامسة فإن اتباع الهوی مانع من العدل و الإنصاف کما نقرأ فی القرآن: فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوی أَنْ تَعْدِلُوا.[۱۹۹] و أخیرا، فإنّ نظام السـماء و الأرض إذا دار حول محور أهواء و شـهوات الناس، فإنّ الفساد سوف یعمّ کلّ ساحة الوجود: وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَ [۲۰۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۶۶

و فی الروایات الإسلامیة أیضا، نلاحظ تعبیرات مؤثرة فی هذا الصدد:

نقرأ

فی روایة عن علی علیه السّلام: «الشقی من انخدع لهواه و غروره».[۲۰۱]

و

فی حدیث آخر عنه علیه السّلام، نقرأ أن: «الهوی عدو العقل».[۲۰۲]

نقرأ أیضا:

«الهوی أسّ المحن».[۲۰۳]

و

عنه علیه السّلام: «لا دین مع هوی»[۲۰۴]

و

«لا عقل مع هوی».

[۲۰۵] و الخلاصة أن اتباع الهوی لیس من الدین و لیس من العقل، و لیس عاقبة اتباع الهوی إلّا التعاسة و المحن و البلاء، و لا یثمر إلّا

المسكنة و الشقاء و الفساد.

أحداث حياتنا و التجارب المرّة التى رأيناها فى أيّام العمر بالنسبة إلينا و إلى الآخرين، شاهد حى على جميع النكات التى وردت فى الآيات و الرّوايات أعلاه بصدد اتباع الهوى.

نرى أفرادا يتجرعون المرارة إلى آخر أعمارهم، جزاء ساعة واحدة من أتباع الهوى.

و نعرف شبابا صاروا أسارى مصيدة الإدمان الخطير، و الانحرافات الجنسية و الأخلاقية، على أثر انقيادهم للهوى، بحيث تحولوا إلى موجودات ذليلة لا قيمة لها، و فقدوا كل قواهم و طاقاتهم الذاتية.

فى التأريخ المعاصر و الماضى، نلتقى بأسماء الذين قتلوا آلافا و أحيانا ملايين من الناس الأبرياء، من أجل أهوائهم، بحيث أن الأجيال تذكر أسماءهم المخزية بالسوء إلى الأبد.

هذا الأصل لا يقبل الاستثناء، فحتى العلماء و العابدون أهل السابقة مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۷

(بلعم بن باعورا) سقطوا من قمة العظمة الإنسانية إلى الهاوية، نتيجة انقيادهم لهوى النفس، حيث يمثلهم القرآن بالكلب النجس الذى لا ينفك عن النباح (الآية ۱۷۶ سورة الأعراف).

لهذا فلا عجب أن

يقول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين عليه السّلام: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، اتباع الهوى و طول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة».[۲۰۶]

وردت أيضا فى النقطة المقابلة- يعنى ترك أتباع الهوى- آيات و روايات توضح عمق هذه المسألة من وجهة نظر الإسلام، إلى حد أن يعدّ مفتاح الجنّة الخوف من اللّه، و مجاهدة النفس: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى [۲۰۷]

يقول على عليه السّلام: «أشجع الناس من غلب هواه».[۲۰۸]

و قد نقلت قصص كثيرة فى حالات محبى الحق و أولياء اللّه، و العلماء و العظماء، حيث نالوا المقامات العالية نتيجة ترك أتباع الهوى، هذه المقامات لم تكن ممكنة بالطرق العادية.

۲- لماذا أضلّ من الأنعام!؟

لتجسيد أهمية الموضوع فى الآيات أعلاه، يبيّن القرآن أوّلا: أن الذين اتّخذوا أهواءهم آلهة يعبدونها هم كالأنعام، و بعد ذلك يضيف مشددا: بل هم أضل! نظير هذا التعبير ورد أيضا فى الآية (۱۷۲) من سورة الأعراف فى أهل النار الذين يؤولون إلى هذا المصير نتيجة عدم الاستفادة من السمع و البصر و العقل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۸

يقول تعالى: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُ

(أضل) و إن كانت واضحة إجمالا، لكن المفسّرين قدموا بحوثا جيدة فى هذه المسألة، و هى- مع تحليل و إضافات:

۱- إذا لم تفهم الأنعام شيئا، و ليس لها أذن سامعة و عين باصرة، فذلك لعدم استعدادها الذاتى، لكن الأعجز منها الإنسان الذى تكمن فى وجوده خميرة جميع السعادات، و الذى أفاض اللّه عليه قدرا عظيما من الاستعدادات ليستطيع أن يكون خليفة اللّه فى الأرض، و لكن أفعاله الذميمة بلغت به حدّا أسقطته عن مستوى الأنعام، و أذهبت كل لياقاته هدرا، و هوى من رتبة مسجود الملائكة إلى حضيض الشياطين الذليلة. و هذا هو الأضل و المؤلم حقا.

۲- الأنعام غير مسئولة تقريبا، و ليست مشمولة بالجزاء الإلهى، فى حين أنّ البشر الضالين يجب عليهم أن يحملوا عبء كل أعمالهم على عواتقهم، ليروا جزاء أعمالهم بلا نقص أو زيادة.

۳- تؤدى الأنعام للإنسان خدمات كثيرة، و تنجز له أعمالا مختلفة، أمّا طغاة البشر العصاة فلا تتأتى منهم أية منفعة، بل يسببون آلافا من البلاءات و المصائب.

۴- الأنعام لا خطر منها على أحد، فإذا كان ثمّة خطر منها، فخطر محدود، لكن الويل من الإنسان غير المؤمن، و المستكبر، عابد الهوى، الذى يؤجج أحيانا نار حرب يذهب ضحيتها الملايين من الناس.

۵- إذا لم يكن للأنعام قانون و منهج، فإنّها تتبع مسارا عيّنه اللّه لها على شكل غرائز، فهى تتحرك على ذلك الخط. أمّا الإنسان المتمرد، فلا يعترف بقوانين تكوينية و لا قوانين تشريعية، و يعتبر هواه و شهواته حاكما على كل شىء.

۶- الأنعام لا تبرير لديها لأعمالها أصلا، فإذا خالفت فهى المخالفة، و إذا أرادت أن تمضى فى طريقها حين تمضى فذلك هو الواقع، أمّا الإنسان المتكبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۶۹

السفاك، عابد الهوى فكثيرا ما يبرر جميع جرائمه بالشكل الذى يدعى فيه أنّه يؤدى مسئولياته الإلهية و الإنسانية.

و لهذا، فلا موجود أكبر خطرا و أشد ضررا من إنسان متبع للهوى، عديم الايمان و متمرد.

و لهذا و صمته الآية (۲۲) من سورة الأنفال بلقب شَرَّ الدَّوَابِ و كم هو مناسب هذا اللقب؟!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۴۵ الى ۵۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (۴۵) ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً (۴۶) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً وَ النَّوْمَ سُباتاً وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً (۴۷) وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً (۴۸) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً (۴۹)

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً (۵۰)

التّفسير

حركة الظلال:

فى هذه الآيات كلام فى أقسام مهمّة من النعم الإلهية، على سبيل بيان أسرار التوحيد و معرفة اللّه، الأمور التى يزيدنا التفكر فيها معرفة بخالقنا و قربا منه، و مع الالتفات إلى أنّ المحاورات الكثيرة فى الآيات الماضية كانت مع المشركين، تتّضح صلة و ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۱

فى هذه الآيات، كلام فى نعمة «الضلال» ثمّ فى آثار و بركات «الليل» و «النوم و الاستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضى الموات» و «سقاية» الأنعام و الناس.

يقول تعالى أولا: أ لَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَ لَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ ساكِناً.

لا شك أنّ هذا الجزء من الآية إشارة إلى أهمية نعمة الظلال الممتدة و المتحركة.

الظلال التى لا تثبت على حال، بل هى فى حركة و انتقال.

و لكن أى ظل هو المقصود بالآية؟ ثمّة أقوال فى أوساط المفسّرين:

بعضهم يقول: هذا الظل الممتد و المنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر و قبل طلوع الشمس، و أهنأ الظلال و الساعات هى تلك، هذا النور الشفاف، و الظل المنبسط، يبدأ عند طلوع الفجر، يتلاشى عند طلوع الشمس حيث يأخذ مكانه الضياء.

و يرى البعض الآخر أن المقصود هو ظل الليل بأجمعه، الذى يبدأ من لحظة الغروب و ينتهى عند لحظة طلوع الشمس، لأنّنا نعلم أنّ الليل فى الحقيقة هو ظل نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، و هو ظل مخروطى يكون فى الطرف الآخر و منتشرا فى الفضاء الواسع. و هذا الظل المخروطى فى حركة دائمة و مع طلوع الشمس على منطقة يزول عنها ليتشكل فى أخرى.

و قال آخرون: المقصود هو الظل الذى يظهر للأجسام بعد الظهر فينبسط شيئا فشيئا بالتدريج.

طبيعى، أنّه لو لم تكن الجمل الآتية، لكنّا نفهم من هذه الجملة معنى واسعا يشمل جميع الظلال الشاسعة، لكن سائر القرائن التى وردت على أثرها تدل على أن التّفسير الأوّل أكثر تناسبا، لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۲

إشارة إلى أن مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس، فالظل من حيث الأصل يخلق بسبب ضياء الشمس، لأنّ «الظل» يطلق عادة على الظلمة الخفيفة اللون التى تظهر الأشياء فيها، و هذا فى حالة ما إذا أضاء النور جسما مانعا لنفوذ النور، فإن الظل يبدو فى الجهة المقابلة. بناء على هذا فليس تشخيص الظل يتم بواسطة النور طبقا لقاعدة «تعرف الأشياء بأضدادها» فقط، بل إنّ وجوده أيضا من بركة النور.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثمّ إنّنا نجمعه جمعا وئيدا ثُمَّ قَبَضْناهُ إِلَيْنا قَبْضاً يَسِيراً.

من المعلوم أن الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجيا، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماما فى بعض المناطق، لأنّ الشمس آنئذ تستقر تماما فوق رأس كل موجود، و فى مناطق أخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، و لهذا فالظل لا يظهر و لا يختفى دفعة واحدة، و هذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الانتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائى يكون ضارا بجميع المخلوقات. لكن هذا النظام المتدرج فى هذه الحالة الانتقالية له أكبر المنفعة بالنسبة إلى الموجودات، دون أن يكون له أى ضرر.

التعبير ب «يسيرا» إشارة إلى انقباض الظل التدريجى، أو إشارة إلى أن نظام النور و الظلمة الخاص، شىء يسير هين بالنسبة إلى قدرة الخالق. و كلمة (إلينا) تأكيد على هذه القدرة أيضا.

على أية حال، لا شك أن الإنسان كما يحتاج إلى أشعة «النور» فى حياته، فهو كذلك يحتاج إلى «الظل» لتعديل و منع «النور» أوقات اشتداده، فكما أنّ أشعة النور المستديمة تربك الحياة، كذلك فإنّ الظل الدائم الساكن مهلك أيضا.

فى الحالة الأولى تحترق جميع الموجودات، و فى الحالة الثّانية تنجمد جميعا، و لكن هذا النظام المتناوب من «النور» و «الظل» هو الذى يجعل الحياة ممكنة و سائغة للإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۳

لذا فإنّ آيات قرآنية أخرى تعدّ وجود الليل و النهار، الواحد تلو الآخر، من النعم الإلهية العظيمة، ففى موضع يقول تعالى: قُلْ أ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ، أ فَلا تَسْمَعُونَ و يضيف مباشرة قُلْ أ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أ فَلا تُبْصِرُونَ [۲۰۹] و يستنتج من هذا القول أنّ هذا النظام من رحمة اللّه الذى جعل لكم الليل و النهار لتسكنوا و تستريحوا فيهما، و لتستفيدوا فى تحصيل المعاش من فضله، و لعلكم

تشكرون وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [۲۱۰] و لهذا يعد القرآن «الظل الممدود» إحدى نعم الجنّة، حيث لا نور معش مرهق، و لا ظلمة موحشة.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أخريين متناسبتين معها تناسبا تاما، فيكشف جانبا آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود اللّه، يقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً.

كم هو تعبير جميل و رائع جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِباساً ... هذا الحجاب الظلامى الذى لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض و يحفظها كاللباس، و يلتحفه الإنسان كالغطاء الذى يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثمّ يشير تعالى إلى نعمة النوم وَ النَّوْمَ سُباتاً.

«السبات» فى اللغة من «سبت» (على وزن وقت) بمعنى القطع، ثمّ جاء بمعنى تعطيل العمل للاستراحة، و لذا فإنّ أوّل أيّام الأسبوع يسمّونه فى لغة العرب «يوم السبت» و هى تسمية أخذت من طريقة اليهود، لأنّه يوم تعطيلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۴

هذا التعبير- فى الحقيقة- إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم، لأنّنا نعلم أن قسما مهما من الأفعال البدنية يتوقف كليا فى حال النوم، و قسما آخر مثل عمل القلب و جهاز التنفس يؤدى عمله بصورة وئيدة جدّا، و يستمر بصورة أكثر هدوء كيما يرتفع التعب و تتجدد القوى.

النوم فى وقته و بحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، و باعث للنشاط و القوّة، و أفضل وسيلة لهدوء الأعصاب، بعكس الأرق خصوصا لفترة طويلة- فهو ضار جدّا و قد يؤدى الى الموت أيضا. و لهذا فإنّ قطع برنامج النوم واحد من أهم أساليب التعذيب حيث يحطم كل مقاومة الإنسان بسرعة.

و فى ختام الآية، أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: وَ جَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً.

كلمة «النشور» فى الأصل من النشر بمعنى البسط، فى مقابل الطى و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح فى أنحاء البدن، حين اليقظة التى تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس فى ساحة المجتمع، و الحركة للمعاش على وجه الأرض. نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه كان يقول كل صباح: «الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور».[۲۱۱]

فضياء النهار من حيث روح و جسم الإنسان باعث على الحركة حقّا، كما أن الظلام باعث على النوم و الهدوء.

فى عالم الطبيعة أيضا، فإنّ الحركة و النشاط تشمل جميع الموجودات الحية و يستجد انبعاث فيها بمجرّد سطوع أوّل اشعة للشمس، فينطلق كل واحد منها إلى سبيله، و حتى النباتات تتنفس و تتغذى و تنموا و تنضج أمام النور، أمّا عند مغيب الشمس، فكأن الطبيعة تنفخ فى صور انتهاء العمل و السكون، الطيور تؤوب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۵

أوكارها، الموجودات الحية تفىء إلى الاستراحة و النوم، حتى النباتات تغطّ فى نوع من النوم.

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التى هى أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة أخرى مهمّة جدّا فيقول: وَ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ، وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً.

لا يخفى أن دور الرياح هو أنّها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، و إلّا فلن تنزل قطرة مطر على الأرض العطشى أبدا.

صحيح أن ضياء الشمس يبخر ماء البحار فيتصاعد فى الفضاء، و تراكم هذه الأبخرة فى طبقة عليا باردة يشكل الغيوم الممطرة، و لكن إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالى المحيطات باتجاه الأراضى اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر و ستهطل على نفس ذلك البحر.

و الخلاصـة أن وجود بشائر الرحمـة هـذه، التى تتحرك بشـكل دائم فى كل ارجاء الأرض، سـبب رواء الجفاف على الأرض، و نزول المطر الباعث على الحياة و تشكيل الأنهار و العيون و الآبار، و نمو أنواع النباتات.

إنّ قسـما من هـذه الرياح المتقدمـة لقطعات الغيوم، فى حركتها و امتزاجها برطوبـة ملائمة، تبعث النسـيم المنعش الذى تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذى ينبئ عن قدوم مسافر عزيز.

التعـبير ب «الريـاح» بصـيغة الجمـع لعله إشـارة إلى أنـواع مختلفـة منهـا، فبعض شـمالى، و بعض جنوبى، و بعض يهب من الشـرق إلى الغرب، و منها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سببا فى انتشار الغيوم فى كل الآفاق.[۲۱۲] المهم هنا هو أن «الماء» قد وصف ب «الطهور» التى هى صيغة مبالغة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۶

الطهارة و النقاء و لهذا فمفهوم الطهارة و التطهير يعنى أن الماء طاهر بذاته، و يطهر الأشياء الملوثة ... ثمّة أشياء كثيرة غير الماء طاهرة، و لكنّها لا تسـتطيع أن تكون مطهرة لغيرها! و على أيـة حال، فمضافا إلى خاصـية الإحياء، فإنّ للماء خاصـية كبيرة الأهمية هى التطهير، فلو لاـ المـاء فـإنّ أجسامنـا و نفوسـنا و حياتنا تتسـخ و تتلوث فى ظرف يوم واحـد و الماء و إن لم يكن قاتلا للميكروب عادة، و لكنّه يسـتطيع إزالتها و طردها بسـبب خاصـيته الفـذة (الإذابـة). و من هـذه الناحيـة فإنّه يقدم مساعدة مؤثرة جدّا فى مسألة سـلامة الإنسان و مكافحة أنواع الأمراض.

مضافا إلى أن تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل و الوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح و الجسم معا.

لكن خاصـية التطهير هـذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت فى الدرجة الثّانية، لذا يضـيف القرآن الكريم فى الآية التى بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً[۲۱۳].

و أيضا وَ نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنا أَنْعاماً وَ أَناسِيَّ كَثِيراً.

ملاحظات

و هنا ملاحظات مهمّة:

۱- فى هذه الآية ورد الكلام عن الأنعام و الأناسى الكثيرة مع أن جميع الناس و الحيوانات تستفيد من ماء المطر!! هذه إشارة إلى البدو الرحل و ساكنى الخيام الذين ليس لديهم ماء مطلقا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۷۷

سوى ماء المطر حيث يسـتفيدون منه مباشـرة، هذه النعمة الكبيرة محسوسة لديهم أكثر فحينما تظهر السحب فى السماء و يمطل عليهم المطر، و تمتلئ الأراضى المنخفضة من ماء المطر الزلال، فيرتوون منه و يسقون أنعامهم، و يشعرون بنشاط الحياة يدبّ فى وجودهم و وجود أنعامهم.

۲- جملة «نسـقيه» من مادة «إسـقاء» و فرقها عن «سـقى» كما قال الراغب فى المفردات و آخرون من المفسّـرين، هو أنّ الإسقاء بمعنى تهيئـة المـاء و جعله للسـقاية، ليشـرب منه الإنسـان متى أراد، فى حين أن مادة «سـقى» بمعنى أن يعطى من يريـد الماء حتى يشـرب، و بعبارة أخرى فإن الإسقاء له معنى أوسع و أعم.

۳- فى هذه الآية، ورد الكلام أوّلا عن الأراضى الميتة، ثمّ الأنعام ثمّ الأناسى، و هذا التعبير ربّما كان لأن الأراضى إذا لم تحى بالمطر، فلن يكون للأنعام طعام، و إذا لم تعش الأنعام، فلن يستطيع الإنسان إن يتغذى منها.

۴- طرح مسألـة الإحیاء بالماء بعـد مسألـة التطهیر، قـد یکون إشارة إلی الارتباط الوثیق بین هاتین المسألتین (حول آثار الإحیاء بالماء، ثمّة بحث مفصل فی ذیل الآیة ۳۰ سورة الأنبیاء).

فی الآیـة الأخیرة- مورد البحث- یشیر تعالی إلی القرآن فیقول: جعلنا هذه الآیات بینهم بصور مختلفة و مؤثرة لیتذکروا و لیتعرفوا من خلاله علی قدرة الخالق، لکن کثیرا من الناس لم یتخذوا موقفا إزاء ذلک إلّا الإنکار و الکفران:

وَ لَقَدْ صَرَّفْناهُ بَیْنَهُمْ لِیَذَّکَّرُوا فَأَبی أَکْثَرُ النَّاسِ إِلَّا کُفُوراً.

و إن أرجع کثیر من المفسّرین مثل العلامة الطبرسی فی تفسیره، و الشیخ الطوسی فی تفسیر التبیان، و العلامة الطباطبائی فی تفسیر المیزان و آخرین، الضمیر فی جملـة «صرفناه» إلی المطر، حیث یکون مفهومها هکـذا: أنزلنـا المطر فی جهـات و مناطق مختلفـة من الأرض، و وزعناه بین الناس لیتذکروا هذه النعمة العظمی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۸

لکن الحق أن هـذا الضـمیر یرجع إلی القرآن و آیـاته، لأن هـذا التعبیر (بصـیغة الفعل الماضـی و المضارع) ورد فی عشـرة مواضع من القرآن المجیـد، حیث أرجع فی تسـعة مواضع إلی آیـات القرآن و بیانـاته صـراحة، و أتبع بجملـة «لیـذکروا» أو مـا یشابهها فی موارد متعددة. علی هذا فمن البعید جدا أن یأخذ هذا التعبیر مفهوما آخر فی هذا المورد الواحد.

و من حیث الأصل فإنّ «تصریف» التی هی بمعنی التحویل من حال إلی حال، لیس لها تناسب کثیر مع نزول المطر، فی وقت هی أکثر تناسـبا مع آیـات القرآن التی تـأتی فی أنحـاء مختلفـة، أحیانا بصورة وعـد، و أحیانا بصورة أمر، و أخری بصورة نهی، و أحیانا بصورة قصص الماضین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۷۹

الآیات [سورة الفرقان (۲۵): الآیات ۵۱ الی ۵۵]

اشارة

وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِی کُلِّ قَرْیَةٍ نَذِیراً (۵۱) فَلا تُطِعِ الْکافِرِینَ وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً کَبِیراً (۵۲) وَ هُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَیْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَیْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً (۵۳) وَ هُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً وَ کانَ رَبُّکَ قَدِیراً (۵۴) وَ یَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا یَنْفَعُهُمْ وَ لا یَضُرُّهُمْ وَ کانَ الْکافِرُ عَلی رَبِّهِ ظَهِیراً (۵۵)

التّفسیر

بحران متجاوران: عذب فرات و ملح أجاج:

الآیة الأولی- مورد البحث- أشارت إلی عظمة مقام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، یقول تعالی:

لو أردنا لبعثنا نبیّا فی کل مدینـة و بلـد، لکنّنا لم نفعل هـذا و ألقینا مسـئولیة هدایة العالمین علی عاتقک: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِی کُلِّ قَرْیَةٍ نَذِیراً.

کمـا أنّ اللّه عزّ و جلّ- طبقا للآیات السابقـة- قادر علی إرسال قطرات المطر الباعث علی الحیاة إلی کل الأراضـی المیتـة، فله القـدرة أیضا علی إنزال الوحی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۰

و النبوّة على قلب نبىّ فى كل قرية، و أن يبعث لكل أمة نذيرا، لكن اللّه يختار لعباده ما هو أصلح، لأنّ تمركز النبوّة فى وجود فرد واحد يكون باعثا على وحدة و انسجام الناس، و مانعا من كل فرقة و تشتت.

و يحتمل أن بعض المشركين أوردوا هذا الاشكال و هو: ألم يكن من الأفضل أن يبعث اللّه نبيّا فى كل مدينة و قرية؟! لكن القرآن يقول فى ردّهم: لو أراد اللّه ذلك لفعل، لكن هذا التشتت ليس فى صالح الأمم و الشعوب قطعا.

و على أية حال، فكما أن هذه الآية دليل على عظمة مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهى دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، و على ثقل عبء مسئوليته.

و بنفس هذا الدليل، يبيّن اللّه تبارك و تعالى فى الآية التالية، أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أوّلا إلى الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يقول: فَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ

لا- تخط أية خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى اللّه، قف أمامهم بقوّة، واسع إلى إصلاحهم، لكن كن حذرا و لا تتسلم لأهوائهم و خرافاتهم.

أمّا القانون الثّانى فهو: جاهد أولئك بالقرآن: وَ جاهِدْهُمْ بِهِ جِهاداً كَبِيراً.

جهادا كبيرا بعظمة رسالتك، و بعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذى يشمل جميع الأبعاد الروحية و الفكرية للناس، و يشمل كل الأصعدة المادية و المعنوية.

لا شك أن المقصود من الجهاد فى هذا الموضع هو الجهاد الفكرى و الثقافى و التبليغى و ليس الجهاد المسلح، ذلك لأنّ هذه السورة مكية، و الأمر بالجهاد المسلح لم يكن قد نزل فى مكّة. و على قول العلامة «الطبرسى» فى مجمع البيان، أن هذه الآية دليل واضح على أنّ الجهاد الفكرى و التبليغى فى مواجهة وساوس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۸۱

المضلين و أعداء الحق من أكبر أنواع الجهاد.

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

و ربّما كان هذا الحديث إشارة إلى نفس هذا الجهاد و إلى عظمة ما يؤديه العلماء فى التبليغ بالدين، هذا التعبير يجسد أيضا عظمة مقام القرآن، ذلك لأنّه وسيلة هذا الجهاد الكبير و سلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية و استدلاله و تأثيره العميق و جاذبيته فوق تصور و قدرة البشر.

الوسيلة المؤثرة و الواضحة كوضوح الشمس و ضياء النهار، و المطمئنة كطمأنينة ستائر الليل، و المحركة كحركة الرياح الخلاقة، و العظيمة بعظمة الغيوم و فيما تبثه قطرات المطر من حياة، حيث أشارت إلى ذلك الآيات السابقة.

و بعد فاصلة وجيزة، يتناول القرآن الكريم مجددا الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه فى النظام الكونى، فيشير بعد ذكر المطر فى الآيات السابقة إلى عدم الاختلاط بين المياه العذبة و المالحة: وَ هُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً.

«مرج» من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، و هنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب و المالح.

«عذب» بمعنى سائغ و طيب و بارد، و «فرات» بمعنى لذيذ و هنىء.

«ملح» بمعى مالح، و «أجاج» بمعنى مرّ و حار. (بناء على هذا فملح و أجاج نقطتان مقابلتان لعذب و فرات).

«برزخ» بمعنى حجاب و حائل بين شيئين.

و جملة حِجْراً مَحْجُوراً كما أشرنا سابقا (ذيل الآية ۲۲ من هذه السورة) كانت جملة لاخذ الأمان بين العرب يقولونها عند ما يفاجؤون

بشخص يخافونه و يرهبونه، يعنى (أعف عنا، و آمنا، و ابتعد عنا).

على أية حال، فهذه الآية تصور واحدا من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۲

فى عالم مخلوقاته، و كيف يستقر حجاب غير مرئى، و حائل خفى بين البحر المالح و البحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

و قد اتّضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئى، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح و العذب» و فى الاصطلاح «تفاوت الوزن النوعى» لهما، حيث يكون سببا فى عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

و رغم أنّ جماعة من المفسّرين وقعوا فى تعب من أجل اكتشاف مثل هذين البحرين فى الكرة الأرضية و أين يوجد بحر عذب الماء فى جوار بحر مالح الماء و لا يمتزجان!؟ لكن هذه المشكلة انحلت لنا، لأنّنا نعلم أن جميع أنهار الماء، العذب العظيمة التى تصب فى البحار عند الساحل، تشكل بحرا من الماء العذب، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف، و يستمر هذا الوضع إلى مدّة طويلة، و بسبب التفاوت فى كثافتهما يمتنعان عن الامتزاج مع بعضهما، فكل واحد منهما يقول للآخر: حِجْراً مَحْجُوراً.

الملفت هو أنّ سطح البحر يرتفع و ينخفض بمقدار كبير بسبب المد و الجزر اللذين يحصلان مرّتين فى اليوم بتأثير جاذبية القمر و بذلك تغمر المياه العذبة التى شكلت بحرا اليابسة فى مصبات تلك الأنهار و أطرافها، و قد استفاد الناس من هذه الحالة منذ قديم الزمان، فحفروا جداول كثيرة فى أطراف ملتقى الأنهار مع البحر، و زرعوا أراض شاسعة بالأشجار، حيث تتمّ سقايتها بنفس ذلك الماء العذب الذى ينتشر فى مناطق واسعة بواسطة المد و الجزر.

توجد حتى الآن فى جنوب العراق و إيران ملايين من أشجار النخيل، و قد شاهدنا عن قرب أنّ قسما منها يسقى فقط بهذه الوسيلة، و يقع على بعد كبير من ساحل البحر، و أحيانا يتغلب الماء المالح حيث تقل المياه التى تصبها الأنهار الكبيرة فى البحر فى السنين المجدبة، فيقلق المزارعون من أهل هذه المنطقة، لأنّ ذلك يضرّ بزراعتهم ضررا بالغا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۳

لكن العادة ليست كذلك، فهذا الماء «العذب الفرات» المستقر إلى جوار الماء «المالح و الأجاج» يعدّ ذخيرة عظيمة لهم.

معلوم أن وجود العلل الطبيعية فى مثل هذه المسائل لا يقلل من قيمتها أبدا، و إلّا فما هى الطبيعة؟ ليست هى إلّا فعل اللّه و إرادته و مشيئته، و هو تعالى الذى منح هذه الخواص لهذه الموجودات.

و الملفت للنظر أنّ الإنسان حينما يجتاز هذه المناطق بالطائرة، يرى جيدا هذان الماءان المختلفان فى اللون، غير الممتزجين، فيذكّر هذا المشهد الإنسان بهذه النكتة القرآنية.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق ب «الكفر» و «الإيمان» ربّما تكون أيضا إشارة و تمثيلا لهذا الأمر، ففى المجتمع الواحد أحيانا، و فى المدينة الواحدة، بل حتى فى البيت الواحد أحيانا، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب و الفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج ... مع طرازين من الفكر، و نوعين من العقيدة، و نمطين من العمل، طاهر و غير طاهر، دون أن يمتزجا.

فى الآية التالية- بمناسبة البحث فى نزول المطر، و فى البحرين العذب و الأجاج المتجاورين يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْماءِ بَشَراً.

حقا إن النحت فى الماء، و خلق صورة بديعة كهذه على الماء، دليل على عظمة قدرة الخالق، و كان الكلام فى الآيات السابقة حول إحياء النباتات بواسطة المطر، و الكلام- هنا عن مرحلة أعلى، يعنى خلق الإنسان من الماء.

و بين المفسّرين أقوال فى المراد من الماء هنا:

ذهب جماعة أنّ المقصود من «بشر» هو الإنسان الأول، يعنى آدم عليه السّلام، ذلك لأنّ خلقه كان من «طين» يعنى عجينا من ماء و تراب، إضافة إلى أن الماء كان أوّل موجود خلقه اللّه تعالى طبقا للرّوايات الإسلامية، و خلق الإنسان من ذلك الماء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۴

و تنکیر «بشر» شاهد علی هذا المعنی.

و ذهب جماعة آخرون أن المقصود من «الماء» هو ماء النطفة، حیث یتکون جمیع الناس منه بقدرة الخالق، و مع امتزاج نطفة الرجل «الحیمن» الذی یسبح فی الماء مع «البویضة» نطفة المرأة، تتکون أول نواة لحیاة الإنسان، یعنی الخلیة الإنسانیة الحیة الأولی.

لو تدبّر الإنسان و تأمل فی مراحل انعقاد النطفة من بدایتها إلی نهایتها، فسیشاهد الکثیر من آیات عظمة الحق و قدرة الخالق فیها، حیث تکفی وحدها لمعرفة ذاته المقدسة تبارک و تعالی.

الشاهد علی هذا التّفسیر، جملة وردت فی آخر الآیة، و سنشرحها فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً.

فضلا عن هذا، فلا شک أنّ الماء یشکل القسم الأکبر من وجود الإنسان، بالصورة التی یمکن القول أنّ المادة الأساس لوجود أی إنسان هی الماء، لهذا فإن مقاومة الإنسان إزاء العطش قلیلة جدّا، فی حین یستطیع الإنسان أن یقاوم أیّاما و أسابیع حیال قلّة المواد الغذائیة.

و یحتمل قویا أیضا، أنّ جمیع هذه المعانی تجتمع فی مفهوم الآیة، أی أن الإنسان الأوّل خلق من ماء، و أن تکوّن جمیع أفراد البشر من ماء النطفة أیضا، و أن الماء یشکل أهم مادة فی بناء جسم الإنسان أیضا ... الماء الذی یعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، کیف صار مبدأ إیجاد مثل هذا الخلق الجمیل!؟ و هذا دلیل بیّن علی قدرته تبارک و تعالی.

بعد ذکر خلق الإنسان، یورد جلّ ذکره الکلام عن انتشار الإنسان، فیقول:

فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْراً.

المقصود من «النسب» هو القرابة التی تکون بین الناس عن طریق الذریة و الولد، مثل ارتباط الأب و الابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۵

«صهر» التی هی فی الأصل بمعنی «الختن» هو الارتباط الذی یقام بین طائفتین عن هذا الطریق، مثل ارتباط الإنسان بأقرباء زوجته، و هذان الاثنان هما ما یعبر عنه الفقهاء فی مباحث النکاح ب «النسب» و «السبب».

فی القرآن المجید فی سورة النساء، أشیر إلی المحارم النسبیة النسب فی سبعة موارد (الأم، البنت، الأخت، العمة، الخالة، بنت الأخ، بنت الأخت) و إلی المحارم السببیة فی أربعة موارد (بنت الزوجة، أم الزوجة، زوجة الابن، زوجة الأب).

من المؤکّد أن هناک وجهات نظر أخری لدی المفسّرین فی تفسیر هذه الجملة، لکن ما قلناه أوضح و أقوی من جمیعها.

فمن جملتها أنّ جماعة منهم اعتبروا «النسب» بمعنی أولاد الابن، و «الصهر» بمعنی أولاد البنت، ذلک لأن الارتباط النسبی یحسب علی أساس الآباء لا علی أساس الأمهات.

و کما قلنا بشکل مفصل- فی ذیل الآیة (۶۱) من سورة آل عمران- فإنّ هذا اشتباه کبیر، استمدّ من سنن أیّام ما قبل الإسلام، حیث اعتبروا النسب عن طریق الأب فقط، و لیس للأم أی أثر، فی حین أن من المسلمات فی الفقه الإسلامی و بین جمیع علماء الإسلام أن الحرمة النسبیة من ناحیة الأب و من ناحیة الام أیضا (و لزیادة الاطلاع، راجع التّفسیر ذیل الآیة (۶۱) من سورة آل عمران).

و الجدیر بالذکر، أن لدینا حدیثا معروفا، نقل فی کتب الشیعة و السنة، و طبقا لهذا الحدیث فإنّ الآیة أعلاه نزلت فی النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و علی علیه السّلام، و ذلک أنّ النّبی زوّج ابنته فاطمة من علی علیهما السّلام، و لهذا فقد کان علی علیه السّلام ابن عمّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و زوج ابنته أیضا، و هذا معنی «نسبا و صهرا».[۲۱۴]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۶

و لکن هذه الرّوایات تعتبر بیان للمصادیق الواضحة، و لا تقدح بعمومیة مفهوم الآیة، فالآیة تشمل کل ارتباط یکون عن طریق النسب

و المصاهرة، و أحد مصاديقها الواضحة كان ارتباط على عليه السّلام من جهتين مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فى ختام الآية يقول تبارك و تعالى بصيغة التأكيد على المسائل الماضية:

وَ كانَ رَبُّكَ قَدِيراً.

و يبيّن القرآن الكريم فى نهاية المطاف فى الآية الأخيرة- مورد البحث- انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسة بين قدرة الأصنام و قدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها فى الآيات السابقة، يقول: وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُهُمْ وَ لا يَضُرُّهُمْ من المسلّم أنّ وجود المنفعة و الضرر لا يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبيّن من خلال هذا التعبير هذه النكتة، و هى أنّهم يفتقدون أية حجة فى هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماما، و فاقدة لأية قيمة، و لأى تأثير سلبى أو إيجابى.

و يضيف القرآن الكريم فى ختام الآية أن الكفرة يعين بعضهم بعضا فى مواجهة خالقهم «فى طريق الكفر» وَ كانَ الْكافِرُ عَلى رَبِّهِ ظَهِيراً.

إن هؤلاء ليسوا وحدهم فى طريق الضلال، إنهم يقوى بعضهم بعضا بشكل قاطع، و يعبئون القوى و يقيمون العراقيل ضد دين اللّه و نبيّه و المؤمنين الحقيقيين.

و إذا رأينا أن بعض المفسّرين يحصر «الكافر» الوارد فى هذه الآية فى «أبى جهل» فمن باب ذكر المصداق البارز، و إلّا فإنّ الكافر فى كل مورد له معنى واسع يشمل جميع الكفار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۷

مسألتان

۱- وحدة القيادة

فى الآية الأولى- مورد البحث- قرأنا قوله تعالى: وَ لَوْ شِئْنا لَبَعَثْنا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً و لكننا لم نفعل مثل هذا ... و من المسلّم أن علة ذلك لأن الأنبياء قادة الأمم، و نعلم أن التعدد فى مسألة القيادة يؤدى إلى إضعاف كل أمّة و شعب، خاصّة و أنّ الكلام هنا عن خاتم الأنبياء صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يجب أن تستمر هذه القيادة حتى نهاية العالم. لذا تتّضح- أكثر- أهمية التمركز و الوحدة فى القيادة.

القائد الواحد يستطيع أن يوحد جميع القوى، و يمنحها الانسجام و الوحدة.

و فى الحقيقة فإن مسألة وحدة القيادة انعكاس لحقيقة التوحيد فى المجتمع الإنسانى، و يكون فى النقطة المقابلة ظواهر الشرك و التفرقة و النفاق.

و ما ورد فى الآية (۲۴) من سورة فاطر: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ فليس ثمّة منافاة مع البحث أعلاه، لأن الكلام فيها عن الأمة، لا أهل كل مدينة و كل بلد.

فلو أغمضنا النظر عن مقام الأنبياء، فإنّ هذا الأصل صحيح أيضا حتى فى أدنى مستويات القيادة، و الشعوب التى صارت أسيرة التعدد فى القيادة، انتهت إلى التجزئة فى سائر شؤونها، فضلا عن الضعف و العجز.

۲- القرآن وسيلة الجهاد الكبير

«الجهاد الكبير» تعبير بليغ عن أهمية منهج الكفاح الرّبانى البنّاء.

الملفت للانتباه فى الآيات أعلاه، هو أنّ هـذا العنوان قـد أعطى للقرآن، أو بعبارة أخرى: للأشـخاص الـذين يجاهـدون بالقرآن مظاهر الضلال و الانحرافات و التلوثات.

هذا التعبير يبيّن المواجهات المنطقية و العقائدية من جهة، و يكشف عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۸

عظمة مقام القرآن من جهة أخرى.

ورد فى بعض الرّوايات: أنّ أبا سفيان بن حرب و أبا جهل بن هشام، و الأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة ... خرجوا ليلة ليستمعوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يصلى من الليل فى بيته. فأخذ كلّ رجل منهم مجلسا يستمع فيه، و كلّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، و قال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا! ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثّانية عاد كلّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة! ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثّالثة أخذ كلّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود! فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا.

فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته، فقال: أخبرنى- يا أبا حنظلة- عن رأيك فيما سمعت من محمّد. فقال: يا أبا ثعلبة، و اللّه لقد سمعت أشياء أعرفها، و أعرف ما يراد بها، و سمعت أشياء ما عرفت معناها، و لا ما يراد بها.

قال الأخنس: و أنا و الذى حلفت به.

قال: ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

فقال: ماذا سمعت!؟ تنازعنا نحن و بنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، و حملوا فحملنا، و أعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، و كنّا كفرسى رهان، قالوا: منّا نبى يأتيه الوحى من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ و اللّه لا نؤمن به أبدا و لا نصدقه!!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۸۹

قال: فقام عنه الأخنس و تركه.[۲۱۵] نعم، جاذبية القرآن ردت هؤلاء إلى أنفسهم ليالى متوالية، و كانوا حتى بياض الصبح غرقى هذه الجاذبية الإلهية، لكن التكبر و التعصب و الحرص على المصالح المادية كان مسلطا عليهم بحيث منعهم من قبول الحق.

و لا شك أنّ هذا النّور الإلهى له هذه القدرة على أن يجذب إليه كل قلب مستعد أينما كان، و لهذا كان القرآن وسيلة «الجهاد الكبير» فى الآيات مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۵۶) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلاً (۵۷) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً (۵۸) الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً (۵۹)

التّفسير

أجرى هو هدايتكم:

كان الكلام فى الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التى لا تضرّ و لا تنفع، و فى الآية الحالية الأولى يشير القرآن إلى مهمّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً.[۲۱۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۱

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك فى البشارة و الإنذار، و دعوت القلوب المستعدة إلى اللّه.

هـذا الخطاب، كما يشـخص مهمّـة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، كذلك يسـلّيه، و فيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، و عدم المبالاة بهم.

ثمّ يأمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أن يقول لهم أننى لا أريـد منكم فى مقابل هـذا القرآن و ابلاغكم رسالة السـماء أى أجر و عوض: قُلْ ما أَسْـئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ثمّ يضـيف: إن الأجر الوحيـد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق اللّه إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا.

يعنى أجرى و جزائى هو هـدايتكم فقـط، و بكامـل الإرادة و الإختيـار أيضـا، فلاـ إكراه و لاـ إجبـار فيه، و كم هو جميـل هـذا التعبير الكاشف عن غاية لطف و محبة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ[۲۱۷] أجره و جزاءه سعادتهم.

بديهى أنّ للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أجرا معنويا عظيما على هداية الأمة، ذلك لأن «الدال على الخير كفاعله».

و ذكر المفسّرون احتمالات أخرى أيضا فى تفسير هذه الآية من جملتها:

يرى جماعـة من المفسّـرين أنّ معنى هـذه الآيـة هكـذا «أنـا لا أريـد منكم أى جزاء إلّا ما أردتم من إنفاق الأموال على المحتاجين فى سبيل اللّه، و ذلك مرتبط برغبتكم».[۲۱۸] لكنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

اتّضـح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الضـمير فى «عليه» يرجع إلى القرآن و تبليغ دين الإسـلام، لأن الكلام كان فى عدم المطالبة بالأجر و الجزاء فى مقابل هذه الدعوة.

هذه الجملة بالإضافة إلى أنّها تقطع حجج المشركين، فهى توضح أن قبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۲

هذه الدعوة الإلهية سهل و يسير جدّا لكل أحد، بلا مشقّة و لا خسارة.

و هـذا بنفسه شاهـد على صدق دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و نقاء فكره و منهجه، و ذلك لأنّ الأدعياء الكاذبين لا بدّ أن يدخلوا فى هذا العمل رغبتهم فى الأجر و الجزاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

و تبيّن الآية التى بعدها المعتمد الأساس للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ

فمع هـذا المعتمـد و الملجأ و المولى الـذى مـا زال و لن يزال حيـا دائمـا، فلاـ حاجـة لـك بأجر و جزاء هؤلاء، و لا خوف عليك من ضررهم و مؤامراتهم.

و الآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح اللّه تنزيها له من كل نقص، و أحمده إزاء كل هذه الكمالات وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ

من الممكن اعتبار هذه الجملة بمنزلة التعليل للجملة السابقة، لأنّ تعالى هو المنزّه من كل عيب و نقص، و أهل لكل كمال و جمال، و حقيق بالتوكل عليه.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان و مؤامرات الأعداء، لأنّ اللّه مطلع على ذنوب عباده و سيحاسبهم: وَ كَفى بِهِ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِيراً.

الآيـة التالية بيان لقدرة الخالق فى ساحة عالم الوجود، و وصف آخر لهذا الملاذ الأمين، يقول تعالى: الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثمّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ فأخذ بتدبير العالم.

إنّ من له هـذه القـدرة الواسـعة يسـتطيع أن يحفـظ المتوكلين عليه من كـل خطر و حادثـة، فكمـا أنّ خلق العالم كان بواسـطة قـدرته، كذلك فإنّ إدارة و قيادة و تدبير ذلك العالم بأمر ذاته المقدسة.

ضمنـا، فـإنّ خلق العـالم بشـكل تـدريجى إشارة إلى أنّ اللّه لا يعجل فى أى عمل، فإذا لم يجاز أعـداءك سـريعا، فلأجل أن يمنحهم الفسحة و الفرصة حتى يأخذوا بإصلاح أنفسهم، فضلا عن أن من يعجل هو من يخاف الفوت، و هذا غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۳

متصور بالنسبة إلى اللّه القادر المتعال.

فى مسألة خلق عالم الوجود فى ستة أيّام، فإنّ «اليوم» فى مثل هذه الموارد بمعنى «المرحلة»، أو الفترة الزمنية و هذه الفترة من الممكن أن تسـتغرق ملايين أو مليارات من السـنين، و شواهد هذا المعنى فى الأدب العربى و غيره كثيرة، بحثناه بشـكل مفصل فى تفسير الآية (۵۴) من سورة الأعراف، و شرحنا هناك هذه المراحل الست.

و أيضا فإنّ معنى «العرش» و جملة اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وردت هناك أيضا.

و فى ختام الآية يضـيف تعالى: الرَّحْمنُ من شملت رحمته العامّة جميع الموجودات، فالمطيع و العاصى و المؤمن و الكافر يغترفون من خوان نعمته التى لا انقطاع فيها.

و الآن، حيث ربّك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئا فاطلب منه فإنّه المطلع على احتياجات جميع عباده: فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً.

هـذه الجملـة- فى الحقيقـة- نتيجة لمجموع البحوث السابقة. يأمر اللّه النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: أعلن لهم أنّنى لا أريد منكم أجرا، و توكل على اللّه الجامع لكل الصفات، القادر، و الرحمن، و الخبير، و المطلع، و أطلب منه أى شىء تريده.

للمفسّـرين أقوال أخرى فى تفسـير هـذه الجملـة، فقد جعلوا السؤال هنا بمعنى الاسـتفهام (لا الطلب)، و قالوا: إن مفهوم الجملة هو: إذا أردت أن تسأل فى موضوع خلق الوجود و قدرة الخالق، فاسأله هو، فهو العالم بكل شىء.

بعض آخر، بالإضافـة إلى أنّهم فسـروا «السؤال» ب «الاسـتفهام» قـالوا: إن المقصود ب «الخـبير» جبرئيـل، أو النّبى، يعنى: اسألهمـا عن صفات اللّه.

التّفسـير الأـخير بعيـد جـدّا بالتأكيـد، و مـا قبله أيضـا غير متناسب كثيرا مع الآيات السابقـة، و الأقرب هو ما قلناه فى معنى الآيـة من أن المقصود من السؤال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۴

هو الطلب من اللّه.[۲۱۹]

مسألتان

۱- أجر الرسالة

نقرأ فى كثير من آيات القرآن أنّ أنبياء اللّه كانوا يبيّنون هذه الحقيقة بصراحة:

إنّنا لا نسأل أى أجر من أى أحد، بل إنّ أجرنا على اللّه العظيم فقط.

الآيات ۱۰۹ و ۱۲۷ و ۱۴۵ و ۱۶۴ و ۱۸۰ سورة الشـعراء، و كذلك الآيات ۲۹ و ۵۱ سورة هود، و الآيـة ۷۲ سورة يونس و ۴۷ سورة

سبأ، تدل على هذا المعنى.

لا شك أن عدم المطالبة بالأجر هذه، تدفع كل اتهام عن الأنبياء، فضلا عن أنّهم يستطيعون أن يواصلوا عملهم بحرية تامة، و ترتفع الموانع و الحواجز التى قد تحدد من حرية ألسنتهم بسبب العلاقة المادية.

أمّا الملفت للانتباه فإنّه تلاحظ ثلاثة تعابير مختلفة فيما يخص الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۱- التعبير الذى ورد فى الآيات أعلاه قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا هذا التعبير الفذ البليغ الرائع.

۲- التعبير الوارد فى الآية (۲۳) من سورة الشورى قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى

۳- التعبير الوارد فى الآية (۴۷) من سورة سبأ قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

من انضمام هذه التعابير الثلاثة إلى بعضها، تتحصل النتيجة التالية: فيما يخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۵

الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذا عدّت المودة فى القربى أجر رسالته، فهذه المودة- من جانب- فى نفع المؤمنين أنفسهم لا بنفع النّبى. و من جانب آخر فإن هذه المودة وسيلة حصول الهداية على طريق اللّه تبارك و تعالى.

بناء على هذا، فإنّ مجموع هذه الآيات يشير إلى أن المودة فى قربى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى استمرار منهج رسالة و قيادة ذلك النّبى، و بعبارة أخرى: لمواصلة طريق النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هدايته و قيادته يجب الارتباط بذوى قرباه، و الاعتماد على قيادتهم، هذا هو الأمر الذى يدافع عنه اتباع أهل البيت فى مسألة الإمامة، فإنّهم يعتقدون أن امتداد القيادة بعد النّبى سيستمر إلى الأبد، لا فى شكل النبوّة، بل فى شكل الإمامة.

و من اللازم الالتفات إلى هذه النكتة أيضا، و هى أن المحبة عامل مؤثر فى الأتباع، كما نقرأ فى الآية (۳۱) من سورة آل عمران: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ... ذلك لأنّى المبلغ بأمره.

و رابطة الحب من حيث الأصل، تأخذ الإنسان باتجاه المحبوب و إراداته، و كلما كانت رابطة الحب أكثر قوّة، كانت هذه الجاذبية قوية أكثر. خصوصا المحبّة التى يكون دافعها كمال «المحبوب»، و يكون الإحساس بهذا الكمال سببا فى أن يسعى الإنسان ليتقرب إلى مبدأ الكمال و إلى تنفيذ إراداته.[۲۲۰]

۲- على من يجب التوكل؟

فى الآيات أعلاه، يأمر اللّه تبارك و تعالى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالتوكل، و أن يصرف النظر عن جميع المخلوقات، و ينظر إلى اللّه عزّ و جلّ فقط.

و لذلك يعدد صفات لهذه الذات المقدسة، هى فى الحقيقة شرائط أساسية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۲۹۶

فيمن يستطيع أن يكون ملاذا واقعيا و آمنا للناس.

الأولى: هى أن يكون حيا، و ذلك أنّ موجودا ميتا فاقدا لخصائص الحياة- مثل الأصنام- لا يمكنه أبدا أن يكون معتمدا.

الثّانية: هى أن تكون حياته خالدة، بالشكل الذى لا يحدث احتمال موته تزلزلا فى فكر المتوكلين.

الثّالثة: هى أن يحيط بكل شىء علما، فيكون مطلعا على احتياجات المتوكلين، و على خطط و مؤامرات الأعداء أيضا.

الرّابعة: هى أن يكون على كل شىء قديرا، حيث لا وجود فيه لأى شكل من العجز و عدم الاستطاعة الموجبين لضعف هذا الملجأ.

الخامسة: هى أن تكون الحاكمية له على جميع الأمور، و إدارتها بيده المقتدرة.

و نحن نعلم أن هـذه الصـفات ليست إلّا للّه تبارك و تعالى، و لهـذا فهو وحـده الملجأ الباعث على الاطمئنان الذى لا يتزلزل أمام كل الحوادث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۷

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۰ الى ۶۲]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا وَ زادَهُمْ نُفُوراً (۶۰) تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً (۶۱) وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً (۶۲)

التّفسير

البروج السماوية:

كـان الكلام فى الآيـات الماضـية عن عظمـة و قـدرة اللّه، و عن رحمته أيضا، و يضـيف اللّه تعالى فى الآيـة الأولى هنا: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قالُوا وَ مَا الرَّحْمنُ

نحن لا نعرف «الرحمن» أصـلا، و هـذه الكلمـة ليس لها مفهوم واضح عندنا، أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا نحن لا نخضع لأى أحد، و سوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك وَ زادَهُمْ نُفُوراً اى أنّهم يتكلمون بهذا الكلام و يزدادون ابتعادا و نفورا عن الحقّ.

لا شكّ أنّ أنسب اسم من أسماء اللّه للدعوة إلى الخضوع و السجود بين يديه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۸

هو ذلـك الاسم الممتلئ جاذبيـة «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّـة الواسـعة، لكن أولئك بسـبب عمى قلوبهم و لجاجتهم، لم يظهروا تأثرا حيال هـذه الـدعوة، بل تلقوها بالسـخرية و الاسـتهزاء، و قالوا على سبيل التحقير: وَ مَا الرَّحْمنُ كما قال فرعون حيال دعوة موسـى عليه السّلام: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ [۲۲۱] فهؤلاء لم يكونوا على استعداد حتى ليقولوا: «و من الرحمن» أو «من ربّ العالمين».

و رغم أن بعض المفسّـرين يرى أن اسم «الرحمن» لم يكن مأنوسا بين عرب الجاهلية، و حينما سـمعوا هذا الوصف من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طرحوا هـذا السؤال على سبيـل التعجب واقعـا، حتى كـان يقول البعض منهم: «مـا نعرف الرحمن إلّا رجلا باليمامـة» (يعنون به مسيلمة الكذاب الذى ادعى النبوّة كذبا، و عرفه و قومه بهذا الاسم «الرحمن»).

لكن هذا القول بعيد جدّا، لأنّ مادة هذا الاسم و صـيغته كلاهما عربيان، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلو- دائما- فى بداية السور القرآنيـة، الآيـة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ و على هـذا فلم يكن هـدف أولئك إلّا التحجج و السـخرية، و العبارة التالية شاهد على هذه الحقيقة أيضا لأنهم يقولون: أَ نَسْجُدُ لِما تَأْمُرُنا.

و بمـا أن تعـاليم القـادة الإلـهيين تؤثر فى القلوب المؤهلـة فقـط، فـإنّ عمى القلوب من المعانـدين مضافـا الى عـدم انتفاعهم بها، فإنّها تزيدهم نفورا لأنّ آيات القرآن كقطرات المطر الباعثة على الحياة تنمى الورد و الخضـرة فى البستان، و الشوك فى الأرض السبخة، و لذا لا مجال للتعجب حيث يقول: وَ زادَهُمْ نُفُوراً.[۲۲۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۲۹۹

الآيـة التاليـة إجابـة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «و ما الرحمن»، و إن كانوا يقولون هذا على سبيل السـخرية، لكن القرآن يجيبهم

إجابة جادة، يقول تعالى:

تَبارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّماءِ بُرُوجاً.

«البروج» جمع «برج» فى الأصل بمعنى «الظهور» و لـذا يسـمون ذلك القسم الأعلى و الأظهر من جـدار أطراف المدينـة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج»، و لهذا أيضا يقال حينما تظهر المرأة زينتها «تبرجت المرأة»، و هذه الكلمة تطلق أيضا على القصور العالية.

على أية حال، فالبروج السـماوية، إشارة إلى الصور الفلكية الخاصّة حيث تسـتقر الشـمس و القمر فى كل فصل و كل موضع من السنة إزاء واحـد منهـا، يقولون مثلاـ: اسـتقرت الشـمس فى برج «الحمل» يعنى أنّها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكيـة»، «الحمل»، أو القمر فى «العقرب» يعنى وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكيـة «العقرب» (تطلق الصورة الفلكيـة على مجموعـة من النجوم لها شـكل خاص فى نظر المشاهد).

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس و القمر السماوية، و تضيف على أثر ذلك: وَ جَعَلَ فِيها سِراجاً وَ قَمَراً مُنِيراً[۲۲۳].

تبيّن هـذه الآيـة النظم الـدقيق لسير الشـمس و القمر فى السـماء (و بـديهى أن هـذه التغييرات فى الحقيقة ترتبط بدوران الأرض حول الشـمس دائما). و النظام الفذ الدقيق الذى يحكمهما ملايين السـنين بلا زيادة أو نقصان، بالشـكل الذى يستطيع الفلكيون- أحيانا- أن يتنبئوا. قبل مئات السـنين بوضع حركة الشـمس و القمر فى يوم معين و ساعة معينة بالنسـبة إلى مئات السـنين الآتية، هذا النظام الحاكم على هذه الأفلاك السماوية العظيمة شاهد ناطق على وجود الخالق المدبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۰

و المدير لعالم الوجود الكبير.

مع هذه الدلائل الواضحة، و مع هذه المنازل البديعة و الدقيقة للشمس و القمر، فهل ما زلتم تجهلونه و تقولون: «و ما الرحمن»!؟

أمّا لماذا سـميت الشـمس، «سـراجا»، و قرن القمر بصـفة «منير»؟ فمن الممكن أن يكون دليله أن «السـراج» بمعنى المنبع الضوئى الذى نوره مسـتمد من ذاته و هـذا ينطبق على حـال الشـمس، حيث أنّ من المسـلمات العلميـة طبقا للتحقيقات أن نورها من نفسـها. بخلاف القمر الذى نوره من ضـياء الشمس، و لذا وصفه ب «المنير» الذى يستمد نوره من غيره دائما، (فى التّفسير الأمثل، أوردنا القول مفصلا فى هذا الصدد، ذيل الآية ۵ و ۶ سورة يونس).

فى الآية الأخيرة، يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، و يتحدث مرّة أخرى فى قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً.

هـذا النظام البـديع الحاكم على الليل و النهار، حيث يعقب أحـدهما الآخر متناوبين متواصـلين على هـذا النظم ملايين السـنين ... النظم الـذى لولاه لانعـدمت حياة الإنسان نتيجـة لشدة النور و الحرارة أو الظلمة و العتمة، و هذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا اللّه عزّ و جلّ.

و من المعلوم أن نشوء نظام «الليل» و «النهار» نتيجـة لـدوران الأرض حول الشـمس، و أن تغيراتهما التدريجيـة و المنظمة، حيث ينقص من أحدهما و يزاد فى الآخر دائما بسبب ميل محور الأرض عن مدارها ممّا يؤدى لوجود الفصول الأربعة.

فإذا دارت كرتنا الأرضـية فى حركتها الدورانية أسـرع أو أبطأ من دورانها الفعلى ففى احدى الصور تطول الليالى الى درجة أنّها تجمد كل شىء، و يطول النهار الى درجة أنّ الشمس تحرق كل شىء ... و فى صورة اخرى فإنّ الفاصلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۱

القصـيرة بين الليل و النهار كانت ستبطل تأثيرهما و فائدتهما. فضلا عن أنّ القوّة المركزية الطاردة كانت سترتفع بحيث ستقذف جميع الموجودات الأرضية بعيدا عن الكرة الأرضية.

و الخلاصـة أنّ التأمـل فى هـذا النظـام يوقـظ فطرة معرفـة اللّه فى الإنسـان من جهـة (و لعل التعبير بالتـذكر و التـذكير إشارة إلى هـذه

الحقيقة)، و من جهة أخرى يحى روح الشكر فيه، و قد أشير إلى ذلك بقوله تعالى: أَوْ أَرادَ شُكُوراً.

الجدير بالذكر أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات التى نقلت عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الأئمّة المعصومين فى تفسير الآية، أن تعاقب الليل و النهار من أجل أن الإنسان إذا أهمل أداء واجب من واجباته تجاه اللّه سبحانه و تعالى فإنّه بإمكانه جبرانه أو قضاءه فى الوقت الآخر منهما. هذا المعنى من الممكن أن يكون تفسيرا ثانيا للآية، و ممّا سبق من كون الآيات القرآنية ذات بطون، فلا منافاة بين هذا المعنى و المعنى الأوّل أيضا.

و فى ذلك

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «كلّ ما فاتك بالليل فاقضه بالنهار، قال اللّه تبارك و تعالى: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرادَ شُكُوراً يعنى أن يقضى الرجل ما فاته بالليل بالنهار، و ما فاته بالنهار بالليل».[۲۲۴]

نفس هذا المعنى نقله «الفخر الرازى» عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۲

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۳ الى ۶۷]

اشارة

وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً (۶۳) وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً (۶۴) وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً (۶۵) إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۶۶) وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً (۶۷)

التّفسير

الصفات الخاصّة لعباد الرحمن:

هذه الآيات- فما بعد- تستعرض بحثا جامعا فذا حول الصفات الخاصّة لعباد الرحمن، إكمالا للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم اللّه «الرحمن» يقولون و ملء رؤوسهم استهزاء و غرور «و ما الرحمن!؟

و رأينا أن القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، و جاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

تبيّن هذه الآيات اثنتى عشرة صفة من صفاتهم الخاصّة، حيث يرتبط بعضها بالجوانب الاعتقادية، و بعض منها أخلاقى، و منها ما هو اجتماعى، بعض منها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۳

يتعلق بالفرد، و بعض آخر بالجماعة، و هى أوّلا و آخرا مجموعة من أعلى القيم الإنسانية.

يقول تعالى: وَ عِبادُ الرَّحْمنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً.[۲۲۵] إن أوّل صفة ل: «عباد الرحمن» هو نفى الكبر و الغرور و التعالى، الذى يبدو فى جميع أعمال الإنسان حتى فى طريقة المشى، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها فى حنايا أعمال و أقوال و حركات الإنسان بحيث أن من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه- بدقّة- من أسلوب مشيته.

نعم، إنّهم متواضعون، و التواضع مفتاح الإيمان، فى حين يعتبر الغرور و الكبر مفتاح الكفر.

لقد رأينا بأم أعيننا فى الحياة اليومية، و قرأنا مرارا فى آيات القرآن أيضا، أن المتكبرين المغرورين لم يكونوا مستعدين حتى ليصغوا

إلى كلام القادة الإلهيين، كانوا يتلقون الحقائق بالسخرية، و لم تكن رؤيتهم أبعد من أطراف أنوفهم، ترى أ يمكن أن يجتمع الإيمان فى هذه الحال مع الكبر؟! نعم، هؤلاء المؤمنون، عباد ربهم الرحمن، و العلامة الأولى لعبوديتهم هو التواضع ... التواضع الذى نفذ فى جميع ذرات وجودهم، فهو ظاهر حتى فى مشيتهم.

فإذا رأينا أنّ إحدى أهم القواعد التى يأمر اللّه بها نبيّه هى وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا[۲۲۶] فلنفس هذا السبب أيضا، و هو أن التواضع روح الإيمان.

حقّا إذا كان للإنسان أدنى معرفة بنفسه و بعالم الوجود، فسيعلم كم هو ضئيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۴

حيال هذا العالم الكبير، حتى و إن كانت رقبته كالجبال، فإن أعلى جبال الأرض أمام عظمة الأرض أقل من تعرجات قشر (النارنج) بالنسبة إليها، تلكم الأرض التى هى نفسها لا شىء بالنسبة إلى الأفلاك العظيمة.

ترى أ ليست هذه الحالة من الكبر و الغرور، دليلا على الجهل المطلق!؟

نقرأ فى حديث رائع عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه كان يعبر أحد الأزقة يوما ما، فرأى جماعة من الناس مجتمعين، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا: مجنون شغل الناس بأعمال جنونية مضحكة،

فقال: رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أ تريدون أن أخبركم من هو المجنون حقا، فسكتوا و أنصتوا بكل وجودهم فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «المتبختر فى مشيه، الناظر فى عطفيه، المحرك جنبيه بمنكبيه، الذى لا يرجى خيره و لا يؤمن شرّه، فذلك المجنون، و هذا مبتلى!».

الصفة الثّانية ل «عباد الرحمن» الحلم و الصبر، كما يقول القرآن فى مواصلته هذه الآية وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً.

السّلام الذى هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، و ليس الناشئ عن الضعف.

السّلام دليل عدم المقابلة بالمثل حيال الجهلة الحمقى، سلام الوداع لأقوالهم غير المتروية، ليس سلام التحية الذى هو علامة المحبة و رابطة الصداقة.

و الخلاصة، أنه السّلام الذى هو علامة الحلم و الصبر و العظمة.

نعم، المظهر الآخر من مظاهر عظمتهم الروحية، هو التحمل و سعة الصدر اللذين بدونهما سوف لا يطوى أى إنسان طريق «العبودية للّه» الصعب الممتلئ بالعقبات، خصوصا فى المجتمعات التى يكثر فيها الفاسدون و «مفسدون» و جهلة.

و تتناول الآية الثّانية، خاصيتهم الثالثة التى هى العبادة الخالصة للّه، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَ قِياماً.

فى عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، و حيث لا مجال للتظاهر و الرياء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۵

حرّموا على أنفسهم لذة النوم، و نهضوا إلى ما هو ألذّ من ذلك، حيث ذكر اللّه و القيام و السجود بين يدى عظمته عزّ و جلّ، فيقضون شطرا من الليل فى مناجاة المحبوب، فينورون قلوبهم و أرواحهم بذكره و باسمه.

و رغم أن جملة «يبيتون» دليل على أنّهم يقضون الليل بالسجود و القيام إلى الصباح، لكن المعلوم أنّ المقصود هو شطر كبير من الليل، و إن كان المقصود هو كل الليل فإنّ ذلك يكون فى بعض الموارد.

كما أن تقديم «السجود» على «القيام» بسبب أهميته، و إن كان القيام مقدّم على السجود عمليا فى حال الصلاة.[۲۲۷] الصفة الرّابعة لهم هى الخوف من العذاب الإلهى وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذابَها كانَ غَراماً. أى شديدا و مستديما. إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.

و مع أنّهم مشتغلون بذكر اللّه و عبادته فى الليالى، و يقضون النهار فى إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضا مملوءة بالخوف من

المسؤوليات، ذلك الخوف الباعث على القوّة فى الحركة أكثر و أفضل باتجاه أداء التكاليف، ذلك الخوف الذى يوجه الإنسان من داخله كشرطى قوى، فينجز تكاليفه على النحو الأحسن دون أن يكون له آمر و رقيب، فى ذات الوقت الذى يرى نفسه مقصرا أمام اللّه.

كلمة «غرام» فى الأصل بمعنى المصيبة، و الألم الشديد الذى لا يفارق الإنسان. و يطلق «الغريم»[۲۲۸] على الشخص الدائن، لأنّه يلازم الإنسان دائما من أجل أخذ حقّه.

و يطلق «الغرام» أيضا على العشق و العلاقة المتوقدة التى تدفع الإنسان بإصرار باتجاه عمل أو شىء آخر، و تطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۶

شديد و دائم لا يزول.

و لعل الفرق بين «مستقرا» و «مقاما» أن جهنم مكان دائم للكافرين فهى لهم «مقام»، و مكان مؤقت للمؤمنين، أى «مستقر»، و بهذا الترتيب يكون قد أشير إلى كلا الفريقين الذين يردان جهنم.

و من الواضح أن جهنم محل إقامة و مستقر سىء، و شتان بين الراحة و النعيم و بين النيران الحارقة.

و من المحتمل أيضا أن تكون «مستقرا» و «مقاما» كلاهما لمعنى واحد، و تأكيد على دوام عقوبات جهنم، و هو صحيح فى مقابل الجنّة، حيث نقرأ عنها فى آخر هذه الآيات نفسها خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.[۲۲۹] فى الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التى هى الاعتدال و الابتعاد عن أى نوع من الإفراط و التفريط فى الأفعال، خصوصا فى مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

الملفت للانتباه أنه يعتبر أصل الإنفاق أمرا مسلما لا يحتاج إلى ذكر، ذلك لأن الإنفاق أحد الأعمال الضرورية لكل إنسان، لذا يورد الكلام فى كيفية إنفاقهم فيقول: إن إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أى إسراف و بخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم و أولادهم جياعا، و لا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم و عطاياهم.

فى تفسير «الإسراف» و «الإقتار» كنقطتين متقابلتين، للمفسّرين أقوال مختلفة يرجع جميعها إلى أمر واحد، و هو أنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، و فى غير حق، و بلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۰۷

فى إحدى الروايات الإسلامية، ورد تشبيه رائع للإسراف و الإقتار وحد الاعتدال، تقول الرّواية:

تلا أبو عبد اللّه عليه السّلام هذه الآية: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً. قال: فأخذ قبضة من حصى و قبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذى ذكره اللّه عزّ و جلّ فى كتابه، ثمّ قبض قبضة أخرى فأرخى كفّه كلّها، ثمّ قال: هذا الإسراف، ثمّ أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها و أمسك بعضها و قال: هذا القوام».[۲۳۰]

كلمة «قوام» (على وزن عوام) لغة بمعنى العدل و الاستقامة و الحد و الوسط بين شيئين، و «قوام» (على وزن كتاب): الشىء الذى يكون أساس القيام و الاستقرار.

مسألتان

۱- طريقة مشى المؤمنين

قرأنا فى الآيات أعلاه أنّ التواضع أحد علائم «عباد الرحمن»، التواضع الذى يهيمن على أرواحهم بحيث يظهر حتى فى مشيتهم، التواضع الذى يدفعهم إلى التسليم أمام الحق. لكن من الممكن أحيانا أن يتوهم البعض فى التواضع ضعفا و عجزا و خورا و كسلا، و هذا النمط من التفكير خطير جدّا.

التواضع فى المشى ليس هو الضعف و الخطوة الخائرة، بل إنّ الخطوات المحكمة التى تحكى عن الجدية و القدرة هى من صميم التواضع.

نقرأ

فى سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن أحد أصحابه يقول: «ما رأيت أحدا أسرع فى مشيته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كأنّما الأرض تطوى له، و إنّا لنجهد أنفسنا و إنّه لغير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۸

مكترث».[۲۳۱]

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ أنّه قال: «و الرجل يمشى بسجيته التى جبل عليها لا يتكلف و لا يتبختر».[۲۳۲]

و

ورد فى حديث آخر، فى حالات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قد كان يتكفأ فى مشيه كأنّما يمشى فى صبب».[۲۳۳]

يعنى حينما كان الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يمشى فإنّه يخطو خطوات سريعة دونما استعجال، كأنّما يمشى فى منحدر.

على أية حال فإنّ طريقة المشى ليست مقصودة بذاتها، بل هى نافذة إلى معرفة الحالة الروحية للإنسان، و الآية فى الحقيقة تشير إلى نفوذ روح التواضع و الخشوع فى أرواح و قلوب «عباد الرحمن».

۲- البخل و الإسراف

لا شك أنّ «الإسراف» واحد من الأعمال الذميمة بنظر القرآن و الإسلام، و ورد ذم كثير له فى الآيات و الرّوايات، فالإسراف كان نهجا فرعونيا: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ [۲۳۴] و المسرفون هم أصحاب جهنم و الجحيم وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.[۲۳۵] و مع الالتفات إلى أنّه أصبح ثابتا اليوم أن منابع الثروات الأرضية ليست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۰۹

كثيرة جدا نسبة إلى زيادة الكثافة السكانية للبشرية حتى يمكن للإنسان أن يسرف، و كل إسراف سيكون سببا فى حرمان أناس لا ذنب لهم، فضلا عن أن الإسراف عادة قرين التكبر و الغرور و البعد عن خلق اللّه.

فى نفس الوقت فإنّ التقتير و البخل أيضا، ذميم و قبيح و غير مقبول بنفس الدرجة، فالأصل على أساس النظرة التوحيدية، أن اللّه تبارك و تعالى هو المالك الأصلى، و نحن جميعا مستخلفون من قبله، و كلّ نوع من التصرف دون إجازته و رضاه فهو قبيح و غير مقبول، و نحن نعلم أن اللّه لم يأذن بالإسراف و لم يأذن بالبخل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۰

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۶۸ الى ۷۱]

اشارة

وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً (۶۸) يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً (۶۹) إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۰) وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً (۷۱)

التّفسير

بحث آخر فى صفات عباد الرحمن:

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التى وردت فى هذه الآيات هى التوحيد الخالص الذى يبعدهم عن كل أنواع الشرك و الثنوية و التعددية فى العبادة، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

فقد أنار التوحيد آفاق قلوبهم و حياتهم الفردية و الاجتماعية، و انقشعت عن سماء أفكارهم و أرواحهم ظلمات الشرك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۱

الصفة السابعة طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء وَ لا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِ [۲۳۶] و يستفاد جيدا من الآية أعلاه أن جميع الأنفس الإنسانية محترمة فى الأصل، و محرم إراقة دمائها إلّا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتى فتبيح إراقة الدم.

صفتهم الثّامنة هى أن عفافهم لا يتلوث أبدا: وَ لا يَزْنُونَ

إنّهم على مفترق طريقين: الكفر و الإيمان، فينتخبون الإيمان، و على مفترق طريقين الأمان و اللاأمان فى الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، و على مفترق طريقين: الطهر و التلوث: فهم يتخيرون النقاء و الطهر. إنّهم يهيئون المحيط الخالى من كل انواع الشرك و التعدى و الفساد و التلوث، بجدهم و اجتهادهم.

و فى ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً.

«الإثم» و «آثام» فى الأصل بمعنى الأعمال التى تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثمّ أطلقت على كل ذنب، لكنّها هنا بمعنى جزاء الذنب.

قال بعضهم أيضا: إن «إثم» بمعنى الذنب و «آثام» بمعنى عقوبة الذنب ۲۳۷] فإذا رأينا أن بعض المفسّرين ذكروها بمعنى صحراء أو جبل أو بئر فى جهنم فهو فى الواقع من قبيل بيان المصداق.

و حول فلسفة تحريم الزنا، قدمنا بحثا مفصلا فى ذيل الآية (۳۳) سورة الإسراء.

و من الملفت للنظر فى الآية أعلاه، أنها بحثت أولا فى مسألة الشرك، ثمّ قتل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۲

النفس، ثمّ الزنا، و يستفاد من بعض الرّوايات أن هذه الذنوب الثلاثة تكون من حيث الأهمية بحسب الترتيب الذى أوردته الآية.

ينقل ابن مسعود عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال: سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل للّه ندا و هو خلقك» قال: قلت: ثمّ أىّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: قلت: ثمّ أىّ؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك» فأنزل اللّه تصديقها.[۲۳۸]

و بالرغم من أن الكلام فى هذا الحديث، ورد عن نوع خاص من القتل و الزنا، لكن مع الانتباه إلى إطلاق مفهوم الآية يتجلى أنّ هذا

الحكم يشمل جميع أنواع القتل و الزنا، و ما فى الرّواية مصداق أوضح لهما.

تتكئ الآيـة التاليـة أيضا على ما سبق، من أن لهـذه الذنوب الثّلاثة أهمية قصوى، فيقول تعالى: يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً.

و يتجسد هنا سؤالان:

الأوّل: لماذا يتضاعف عذاب هذا النوع من الأشخاص؟ و لماذا لا يجازون على قدر ذنوبهم؟ و هل ينسجم هذا مع أصول العدالة!؟

الثّانى: إنّ الكلام هنا عن الخلود فى العـذاب، فى حين أنّ الخلود هنا مرتبط بالكفار فقط. و الـذنب الأوّل من هذه الذنوب الثلاثة التى ذكرت فى الآية يكون كفرا، فقط، و أمّا قتل النفس و الزنا فليسا سببا للخلود فى العذاب.

بحث المفسّرون كثيرا فى الإجابـة على السؤال الأول، و أصـح ما أوردوه هو أن المقصود من مضاعفـة العـذاب أن كل ذنب من هـذه الذنوب الثلاثة المذكورة فى هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذابا مضاعفا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۳

فضـلا عن أنّ ذنبا ما يكون أحيانا مصدر الذنوب الأخرى، مثل الكفر الذى يسبب ترك الواجبات و ارتكاب المحرمات، و هذا نفسـه موجب لمضاعفة العذاب الإلهى.

لهذا اتّخذ بعض المفسّرين هذه الآية دليلا على هذا الأصل المعروف أن:

«الكفار مكلفون بالفروع كما أنّهم مكلفون بالأصول».

و أمّا فى الإجابـة على السؤال الثّانى: فيمكن القول أن بعض الذنوب عظيم إلى درجة يكون عندها سببا فى الخروج من هذه الدنيا بلا إيمان، كما قلنا فى مسألة قتل النفس فى ذيل الآية (۹۳) سورة النساء.[۲۳۹] و من الممكن أن يكون الأمر كذلك فى مورد الزنا أيضا، خاصّة إذا كان الزنا بمحصنة.

و من المحتمل أيضا أن «الخلود» فى الآيـة أعلاه يقصد به من يرتكب هذه الذنوب الثلاثة معا، الشـرك و قتل النفس و الزنا، و الشاهد على هذا المعنى: الآية التالية حيث تقول: إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً.

و اعتبر بعض المفسّرين- أيضا- أن «الخلود» هنا بمعنى المدة الطويلة لا الخالدة، لكن التّفسير الأوّل و الثّانى أصح.

و من الملفت للنظر هنا- فضـلا عن مسألـة العقوبات العاديـة- عقوبـة أخرى ذكرت أيضا هى التحقير و المهانـة، أى البعـد النفسـى من العذاب، و قد تكون بذاتها تفسيرا لمسألة مضاعفة العذاب، ذلك لأنّهم يعذبون عذابا جسديا و عذابا روحيا.

لكن القرآن المجيـد كمـا مرّ سابقـا، لم يغلق طريق العودة أمـام المجرمين فى أى وقت من الأوقـات، بل يـدعو المـذنبين إلى التوبـة و يرغبهم فيها، ففى، الآية التالية يقول تعالى هكذا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۴

إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ، وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

كما مرّ بنا فى الآيـة الماضـية، ففى الوقت الـذى ذكرت ثلاثـة ذنوب هى من أعظم الذنوب، تركت الآية باب التوبة مفتوحا أمام هؤلاء الأشـخاص، و هـذا دليل على أن كل مذنب نادم يمكنه العودة إلى اللّه، بشـرط أن تكون توبته حقيقية، و علامتها ذلك العمل الصالح (المعوّض) الذى ورد فى الآية، و إلّا فإن مجرّد الاستغفار باللسان أو الندم غير المستقر فى القلب لا يكون دليلا على التوبة أبدا.

المسألة المهمّة فيما يتعلق بالآية أعلاه هى: كيف يبدل اللّه «سيئات» أولئك «حسنات»؟

تبديل السيئات حسنات:

هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعا:

۱- حينما يتوب الإنسان و يؤمن باللّه، تتحقّق تحولات عميقة فى جميع وجوده، و بسبب هذا التحول و الانقلاب الداخلى تتبدل سيئات أعماله فى المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلا للنفس المحترمة فى الماضى، فإنّه يتبنى مكانها فى المستقبل الدفاع عن المظلومين و مواجهة الظالمين. و إذا كان زانيا، فإنّه يكون بعدها عفيفا و طاهرا، و هذا التوفيق الإلهى يناله العبد فى ظل الإيمان و التوبة.

۲- أن اللّه تبارك و تعالى بلطفه و كرمه و فضله و إنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، و يضع مكانها حسنات، نقرأ فى رواية عن أبى ذر: قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغار ذنوبه، و تخبأ كبارها، فيقال: عملت يوم كذا و كذا، و هو يقرّ ليس بمنكر، و هو مشفق من الكبائر أن تجىء، فإذا أراد اللّه خيرا قال: أعطوه مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا ربّ لى ذنوب ما رأيتها ها هنا؟» قال: و رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ضحك حتى بدت نواجذه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۵

ثمّ تلا: فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ [۲۴۰]

۳- التّفسير الثّالث هو أن المقصود من السيئات ليس نفس الأعمال التى يقوم بها الإنسان، بل آثارها السيئة التى تنطبع بها روح و نفس الإنسان، فحينما يتوب و يؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه و نفسه، و تبدل بآثار الخير، و هذا هو معنى تبديل السيئات حسنات.

و لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة قطعا، و من الممكن أن تجتمع كل هذه التفاسير الثلاثة فى مفهوم الآية.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: وَ مَنْ تابَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً.[۲۴۱] يعنى أن التوبة و ترك الذنب ينبغى ألا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغى- إضافة إلى ذلك- أن يكون الدافع إليها خلوص النية، و العودة إلى اللّه تبارك و تعالى.

لهذا فإنّ ترك شرب الخمر أو الكذب بسبب إضرارهما مثلا، و إن كان حسنا، لكنّ القيمة الأسس لهذا الفعل لا تتحقق إلّا إذا استمدّ من الدافع الربّانى.

بعض المفسّرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآية، و هو أن هذه الجملة جواب على التعجب الذى قد تسببه الآية السابقة أحيانا فى بعض الأذهان، و هو: كيف يمكن أن يبدل اللّه السيئات حسنات؟!، فتجيب هذه الآية: حينما يؤوب الإنسان إلى ربه العظيم، فلا عجب فى هذا الأمر.

تفسير ثالث ذكر لهذه الآية، و هو أن كلّ من تاب من ذنبه فإنّه يعود إلى اللّه، و مثوبته بلا حساب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۶

و بالرغم من عدم وجود منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، لكن التّفسير الأوّل أقرب، خاصّة و أنّه يتفق مع الرّواية المنقولة فى تفسير على بن إبراهيم القمى فى ذيل هذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة الفرقان (۲۵): الآيات ۷۲ الى ۷۶]

اشارة

وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً (۷۲) وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً (۷۳) وَ الَّذِينَ

يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً (۷۴) أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً (۷۵) خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (۷۶)

التّفسير

جزاء «عباد الرحمن»:

فى متابعة للآيات الماضية التى كررت القول فى خصائص «عباد الرحمن»، تشرح هذه الآيات بقية هذه الصفات:

الصفة الرفيعة التاسعة لهم، هى احترام و حفظ حقوق الآخرين: إنّ هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقا: وَ الَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ.

المفسّرون الكبار فسّروا هذه الآية على نحوين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۸

اعتبر بعضهم «الزور» بمعنى «الشهادة بالباطل» كما قلنا أعلاه، لأنّ «الزور» لغة بمعنى التمايل و الانحراف، و حيث أن الكذب و الباطل و الظلم من الانحرافات، فإن «الزور» يطلق عليها.

هذه العبارة (شهادة الزور) فى كتاب الشهادات فى فقهنا، موجودة بنفس هذا العنوان، و قد نهى عنها فى روايات متعددة، و إن لم نرفى تلك الرّوايات استدلالا بالآية أعلاه.

التّفسير الآخر: هو أنّ المقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعنى أن عباد الرحمن لا يتواجدون فى مجالس الباطل.

و فى بعض الرّوايات التى وردت عن طرق أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، فسّرت ب «الغناء» أى تلك المجالس التى يتمّ فيها إنشاد اللهو مصحوبا بأنغام الآلات الموسيقية أو بدونها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص۳۱۸

شك أنّ مراد هذا النوع من الرّوايات ليس هو تحديد مفهوم «الزور» الواسع ب «الغناء»، فالغناء واحد من مصاديقه البارزة إنه يشمل سائر مجالس اللهو و اللعب و شرب الخمر و الكذب و الغيبة و أمثال ذلك.

و لا يستبعد أيضا أن يجتمع كلا التّفسيرين فى معنى الآية، و على هذا فعباد الرحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، و لا يشهدون مجالس اللهو و الباطل و الخطيئة، ذلك لأنّ الحضور فى هذه المجالس- فضلا عن ارتكاب الذنب- فإنه مقدمة لتلوث القلب و الروح.

ثمّ يشير تعالى فى آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، و هى امتلاك الهدف الإيجابى فى الحياة، فيقول: وَ إِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً.

إنّهم لا يحضرون مجالس الباطل، و لا يتلوثون باللغو و البطلان. و مع الالتفات إلى أن «اللغو» يشمل كل عمل لا ينطوى على هدف عقلائى، فإن ذلك يدل على أن «عباد الرحمن» يتحرون دائما الهدف المعقول و المفيد و البناء، و ينفرون من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۱۹

اللاهدفية و الأعمال الباطلة، فإذا اعترضهم هذا النوع من الأعمال فى مسير حياتهم، مروا بمحاذاتها مرور اللامبالى، و لا مبالاتهم نفسها دليل على عدم رضاهم الداخلى عن هذه الأعمال، فهم عظماء بحيث لا تؤثر عليهم الأجواء الفاسدة و لا تغيرهم.

و لا شك أنّ عدم اعتنائهم بهذه الأمور من جهة أنّهم لا طريق لهم إلى مواجهة الفساد و النهى عن المنكر، و إلّا فلا شكّ أنّهم سوف يقفون و يؤدون تكاليفهم حتى المرحلة الأخيرة.

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة و الأذن السامعة حين مواجهتهم لآيات الخالق، فيقول تعالى: وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً.

من المسلّم أنّ المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات اللّه أصلا، بل إن المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات اللّه بأعين و آذان موصدة، دون أن يتدبروا حقائقها و يسبروا غورها، فيعرفوا ما يريده اللّه و يتفكروا فيه، و يستهدوه فى أعمالهم.

و لا يمكن طى طريق اللّه بعين و أذن موصدتين، فالأذن السامعة و العين الباصرة لازمتان لطى هذا الطريق، العين الناظرة فى الباطن، المتعمقة فى الأشياء، و الأذن المرهفة العارفة بلطائف الحكمة.

و لو تأملنا جيدا لأدركنا أن ضرر هذه الفئة ذات الأعين و الآذان الموصدة و فى ظنها أنّها تتبع الآيات الإلهية، ليس أقلّ من ضرر الأعداء الذين يطعنون بأصل شريعة الحق عن وعى و سبق إصرار، بل أن ضررهم أكثر بمراتب أحيانا.

التلقى الواعى عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة و الثبات و الصمود، لأن من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، و بتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادى الكفر و الضلالة و عدم الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۰

هذا النوع من الأفراد أداة بيد الأعداء، و لقمة سائغة للشياطين، المؤمنون وحدهم هم المتدبرون المبصرون السامعون كمثل الجبل الراسخ، فلا يكونون لعبة بيد هذا أو ذاك.

نقرأ فى حديث عن أبى بصير، قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السّلام عن قول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْها صُمًّا وَ عُمْياناً، قال:

«مستبصرين ليسوا بشكاك».[۲۴۲] الصفة الثّانية عشر الخاصّة لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هى التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم و عوائلهم، و إيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ

بديهى أن معنى هذا ليس أن يقبعوا فى زاوية و يتضرعوا بالدعاء، بل إن الدعاء دليل شوقهم و عشقهم الداخلى لهذا الأمر، و رمز جدهم و اجتهادهم.

من المسلّم أنّ أفرادا كهؤلاء لا يقصرون فى بذل ما لديهم من طاقة و قدرة فى تربية أبنائهم و أزواجهم، و تعريفهم بأصول و فروع الإسلام، و سبل الحق و العدالة و فى ما لا تصل إليه قدرتهم و طاقتهم، فإنّهم يدعون اللّه، يسألونه التوفيق بلطفه.

فالدعاء الصحيح من حيث الأصل، ينبغى أن يكون هكذا: السعى بمقدار الاستطاعة، و الدعاء خارج حدّ الاستطاعة.

«قرّة العين» كناية عمّن يسرّ به، هذا التعبير أخذ فى الأصل من كلمة «قر» التى بمعنى البرد، و كما هو معروف (و قد صرح به كثير من المفسّرين) أن دمعة الشوق و السرور باردة، و دموع الحزن و الغم حارة حارقة، لذا ف «قرّة عين» بمعنى الشىء الذى يسبب برودة عين الإنسان، يعنى أن دمعة الشوق تنسكب من عينيه، و هذه كناية جميلة عن السرور و الفرح.[۲۴۳]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۱

مسألة تربية الأبناء و إرشاد الزوجات، و مسئولية الآباء و الأمهات إزاء أطفالهم من أهم المسائل التى أكد عليها القرآن، و سنفصل القول فيها إن شاء اللّه فى ذيل الآية (۶) من سورة التحريم.

و أخيرا فالصفة الرفيعة الثّالثة عشر لعباد الرحمن التى هى أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هى أنّهم لا يقنعون أبدا أنّهم على طريق الحق، بل أن همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة و قدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضا.

إنّهم ليسوا كالزهاد المنزوين فى الزوايا، و ليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إن سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى.

لذا يقول فى آخر الآية، إنّهم الذين يقولون: وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً.

ينبغى الالتفات إلى هـذه النكتـة أيضا، إنّهم لا يدعون ليكونوا فى موقع العظماء جزافا، بل إنّهم يهيئون أسـباب العظمة و الإمامة بحيث تجتمع فيهم الصفات اللائقة بالقدوة الحقيقية، و هذا عمل عسير جدا، و له شرائط صعبة و ثقيلة.

و لا ننس أنّ القرآن لا يذكر فى هذه الآيات صـفات جميع المؤمنين، بل أوصاف نخبة ممتازة من المؤمنين فى الصف المتقدم بعنوان «عباد الرحمن». نعم، إنّهم عباد الرحمن، و كما أن رحمـة اللّه العامّة تشـمل الجميع فإنّ رحمة اللّه بهؤلاء العباد عامّة أيضا من أكثر من جهة، فعلمهم و فكرهم و بيانهم و قلمهم و مالهم و قدرتهم تخدم بلا انقطاع فى طريق هداية خلق اللّه.

أولئك نماذج و أسوات المجتمع الإنسانى.

أولئك قدوات المتقين.

إنّهم أنوار الهداية فى البحار و الصحارى. ينادون التائهين إليهم لينقذوهم من الغرق فى الدوامة، و من السقوط فى المزالق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۲

نقرأ فى روايات متعددة أنّ هذه الآية نزلت فى على عليه السّلام و ائمّة أهل البيت عليهم السّلام.

و نقرأ

فى رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إيانا عنى».[۲۴۴]

و لا ـ شـك أن أئمـة أهـل البيت عليهم السّـلام من أوضـح مصـاديق هـذه الآيـة، لكن هـذا لا ـ يمنع من اتساع مفهوم الآيـة، فالمؤمنون الآخرون أيضا يكون كل منهم إماما و قدوة للآخرين بمستويات متفاوتة.

و اسـتنتج بعض المفسّـرين من هـذه الآيـة أن طلب الرئاسـة المعنويـة و الروحانيـة ليس غير مـذموم فقط، بل إنه مطلوب و مرغوب فيه أيضا.[۲۴۵] و ينبغى الالتفات ضمنا إلى أن كلمة «إمام» و إن كانت للمفرد، إلّا أنّها تأتى بمعنى الجمع، و هكذا هى فى الآية.

بعد إكمال هذه الصـفات الثلاثة عشـرة، يشـير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، و فى صورة الكوكبة الصغيرة، فيبيّن جزاءهم الإلهى أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا.

«غرفة» من مادة «غرف» (على وزن حرف): بمعنى رفع الشـىء و تناوله، و يقال لما يغترف و يتناول «غرفة» (كاغتراف الإنسان الماء من العين بيده للشرب) ثمّ أطلقت على الأقسام العليا من البناء، و منازل الطبقات العليا، و هى هنا كناية عن أعلى منازل الجنّة.

لذلك فإنّ «عباد الرحمن» بامتلاكهم هذه الصفات، يكونون فى الصف الأوّل من المؤمنين، و ينبغى أن تكون درجتهم فى الجنّة أعلى درجة أيضا.

المهم أنّه يقول: إن هـذا المقـام العـالى قـد أعطى لهم بسـبب ما قـدموا من ضـريبة الصبر و الاسـتقامة فى طريق اللّه، و من الممكن أن يتصور أن هذا وصف آخر من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۳

أوصافهم، لكن هـذا فى الحقيقـة ليس وصـفا جديـدا، بل هو ضـمانة تطبيق جميع الصـفات السابقـة، و إلّا فهل يمكن أن نتصور عبادة الخالق، و مواجهة الطغيان و الشهوات، و ترك شهادة الزور، و التواضع و الخشوع و غيرها من الصفات بدون صبر و استقامة.

هذا البيان يذكّر الإنسان بالحديث المعروف

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام حيث يقول: «و الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»

فبقاء الجسد من بقاء الرأس، ذلك لأن قيادة جميع أعضاء البدن تستقر فى دماغ الإنسان.

و على هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل و الصـمود أمام مشـكلات طريق الحق، و الجهاد و المواجهة ضد العصاة، و الوقوف أمام دواعى الـذنوب، تجتمع كلهـا فى ذلـك المفهوم، و إذا فسـر فى بعض الرّوايـات بالصبر على الفقر و الحرمان المالى، فمن المسـلم أن

ذلك من قبيل بيان المصداق.

ثمّ يضيف تعالى: وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً.

أهل الجنّة يحى بعضهم بعضا، و تسلم الملائكة عليهم، و أعلى من كل ذلك أن اللّه يحييهم و يسلم عليهم، كما نقرأ فى الآية (۵۸) من سورة يس سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ و نقرأ فى الآية (۲۳ و ۲۴) من سورة يونس وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ....

ترى هل ل «التحية» و «السّلام» هنا معنيان، أم معنى واحد!؟ ثمّة أقوال بين المفسّرين، لكن مع الالتفات إلى أن «التحية» فى الأصل بمعنى الدعاء لحياة الغير، و «سلام» من مادة السلامة، و بمعنى الدعاء للغير.

على هذا نستنتج: أن الكلمة الأولى بعنوان طلب الحياة، للمخاطب و الكلمة الثّانية طلب اقتران هذه الحياة مع السلامة، و لو أن هاتين الكلمتين تأتيان بمعنى واحد أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۴

«التحية» فى العرف لها معنى أوسع، فهى كل ما يقولونه فى بيان اللقاء مع الآخرين، فيكون سببا فى سرورهم و احترامهم و إظهار المحبّة لهم.

ثمّ يقول تبارك و تعالى للتأكيد أكثر: خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۵

الآية [سورة الفرقان (۲۵): آية ۷۷]

اشارة

قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (۷۷)

التّفسير

لو لا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة:

هذه الآية التى هى الآية الأخيرة فى سورة الفرقان، جاءت فى الحقيقة نتيجة لكل السورة، و للأبحاث التى بصدد صفات «عباد الرحمن» فى الآيات السابقة، فيقول تبارك و تعالى مخاطبا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ

«يعبؤ» من مادة «عبء» بمعنى «الثقل»، و على هذا فجملة لا يعبأ يعنى لا يزن، و بعبارة أخرى لا يعتنى.

و لو أن احتمالات كثيرة ذكرت هنا فى مسألة معنى الدعاء، لكن أساس جميعها يعود إلى أصل واحد.

فذهب البعض: إن الدعاء هو نفس ذلك المعنى المعروف للدعاء.

بعض آخر فسّره بمعنى الإيمان.

و بعض بمعنى العبادة و التوحيد.

و آخر، بمعنى الشكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۶

و بعض: بمعنى التضرع إلى اللّه فى المحن و الشدائد.

لكنّ أساس جميعها هو الإيمان و التوجه إلى اللّه.

و بناء على هذا، يكون مفهوم الآية هكذا: إن ما يعطيكم الوزن و القيمة و القدر عند اللّه هو الإيمان باللّه و التوجه إليه، و العبودية له.

ثمّ يضيف تعالى: فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً.

من الممكن التصور أن تضادا بين بداية الآية و نهايتها، أو أنّه لا يبدو على الأقل الارتباط و الانسجام اللازم بينهما، و لكن إذا دققنا قليلا- يتّضح أنّ المقصود أساسا هو: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات اللّه و بأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى اللّه، و لم نسلكوا طريق الإيمان به و العبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، و ستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.[۲۴۶] و من جملة الشواهد الواضحة التى تؤيد هذا التّفسير،

الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه سئل: «كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء»؟ فقال عليه السّلام: «كثرة الدعاء أفضل و قرأ هذه الآية».[۲۴۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۷

بحث

الدعاء طريق إصلاح النفس و معرفة اللّه:

معلوم أن مسألة الدعاء أعطيت أهمية كبيرة فى آيات القرآن و الرّوايات الإسلامية، حيث كانت الآية أعلاه أنموذجا منها، غير أن قد يكون القبول بهذا الأمر ابتداء صعبا على البعض، كأنّه يقال: الدعاء عمل سهل جدّا، و يمكن أن يؤديه الجميع أو يتوسعون أكثر فيقولون: الدعاء عمل المغلوبين على أمرهم، الأمر الذى لا أهمية له.

لكن الاشتباه هنا ينشأ من أنّهم ينظرون إلى الدعاء الخالى من شرائطه، فى حين إذا أخذت الشرائط الخاصّة للدعاء بنظر الإعتبار، فإن هذه الحقيقة تثبت بوضوح. و هى أن الدعاء وسيلة مؤثرة فى إصلاح النفس، و الارتباط القريب بين اللّه و الإنسان.

أوّل شرائط الدعاء، معرفة المدعو.

الشرط الثانى: تخلية القلب و إعداد الروح لدعائه تبارك و تعالى، ذلك لأن الإنسان حينما يذهب باتجاه أحد، ينبغى أن يملك الاستعداد للقائه.

الشرط الثّالث للدعاء: هو جلب رضاه من يدعوه الإنسان، ذلك لأنّه لا يحتمل التأثير بدون ذلك إلا نادرا.

و أخيرا فالشرط الرّابع لاستجابة الدعاء: هو أن يستخدم الإنسان كلّ قدرته، و قوته و استطاعته فى عمله، و يؤديه بأعلى درجة من الجدّ و الاجتهاد، ثمّ يرفع يديه و يوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء فى ما وراء ذلك.

ذلك لأنّه ورد صريحا فى الرّوايات الإسلامية، أن الإنسان إذا قصّر فى العمل الذى يستطيع أن يؤديه بنفسه، ثمّ يتوسل بالدعاء فلن يستجاب دعاؤه.

من هنا، فإنّ الدعاء وسيلة لمعرفة الخالق و معرفة صفاته الجمالية و الجلالية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۸

و وسيلة أيضا للتوبة من الذنب، و لتطهير الروح، و سبب أيضا لأداء الحسنات للجهاد و الجدّ و الاجتهاد إلى منتهى الاستطاعة.

لهذا نجد عبارات مهمّة حول الدعاء لا يمكن فهمها إلّا على ضوء ما قلناه، مثلا:

نقرأ

فى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «الدعاء سلاح المؤمن، و عمود الدين، و نور السماوات و الأرض».[۲۴۸]

و نقرأ

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «الدعاء مفاتيح النجاح و مقاليد الفلاح، و خير الدعاء ما صدر عن صدر نقى، و قلب تقى».[۲۴۹]

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الدعاء أنفذ من السنان».[۲۵۰]

فضلا عن كل ذلك، فإن من الطبيعى أن حوادث تقع فى حياة الإنسان، فتغرقه فى اليأس من حيث الأسباب الظاهرية، فالدعاء يمكنه أن يكون شرفة على أمل الفوز، و وسيلة مؤثرة فى مواجهة اليأس و القنوط.

لهذا فالدعاء إزاء الحوادث الصعبة المرهقة، يمنح الإنسان قدرة و قوة و أملا و طمأنينة، و أثرا لا يمكن إنكاره من الناحية النفسية.

و قدّمنا بحثا مفصلا بصدد مسألة الدعاء، و فلسفته، و شرائطه، و نتائجه، فى التّفسير الأمثل ذيل الآية (۱۸۶) من سورة البقرة، فتفضل بمراجعته هناك من أجل التوضيح أكثر.

اللّهمّ، اجعلنا من خاصّة عبادك، و ترحم علينا بتوفيق اكتساب خصائص و صفات «عباد الرحمن».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۲۹

ربّنا، افتح لنا أبواب الدعاء و اجعل ذلك سببا لتثمين وجودنا بين يديك.

اللّهمّ، تفضل علينا بتوفيقات الدعاء المطلوبة بين يديك، و لا تحرمنا من الاستجابة.

إنّك على كل شىء قدير و بالإجابة جدير.

نهاية سورة الفرقان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۱

سورة الشّعراء

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائتان و سبع و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۳

«سورة الشعراء»

محتوى سورة الشعراء:

المعروف بين المفسّرين أنّ جميع آيات هذه السورة المائتين و سبع و عشرين نزلت فى مكّة عدا الآيات الأربع الأخيرة.[۲۵۱] إيقاع آيات هذه السورة يتناغم أيضا مع إيقاعات السور المكية الأخرى، و نعلم أنّ السور المكية التى أنزلت فى بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الأصول الاعتقادية: التوحيد و المعاد، و دعوة أنبياء اللّه، و أهمية القرآن.

و تدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريبا.

و يمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى عدة أقسام:

القسم الأوّل: مطلع هذه السورة الذى يتكون من الحروف المقطعة، ثمّ يتحدث فى عظمة القرآن، و تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم فى مواجهة إصرار و حماقة المشركين، و الإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، و صفات اللّه تبارك و تعالى.

القسم الثّانى: يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام و مواجهاتهم مع أقوامهم، و فى مكابرات و حماقات أولئك حيال هؤلاء الأنبياء، حيث فصّل الحديث أكثر فى بعض منها، كما فى قصة موسى و فرعون، و اختصره فى بعض آخر منها، كما فى قصّة إبراهيم و نوح و هود و صالح و لوط و شعيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۴

فى هذا القسم بخاصّة، أشير إلى منطق المشركين. الضعيف الممزوج بالتعصب فى كل عصر و زمان فى مواجهة أنبياء اللّه، و الذى يشبه كثيرا منطق مشركى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فكان هذا سببا فى تسلية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الأوائل:، ليعلموا تاريخ هذا الصنف من الناس و منطقهم، حتى لا يتأثروا و يتراخوا، و حتى لا يفسحوا للضعف و الفتور ليجد طريقا إلى أنفسهم.

و فيه بشكل خاص أيضا، تركيز على العذاب العظيم و الابتلاءات المروعة التى حلّت بهذه الأمم، و الذى هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النّبى فى تلك الشرائط.

القسم الثّالث: و تغلب عليه جنبه الاستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عظمة القرآن، و تكذيب المشركين، و الأوامر الصادرة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما يتعلق بطريقة الدعوة، و كيفية التعامل مع المؤمنين، و يختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، و بالتهديد الشديد للظالمين.

و بالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التى تتحدّث حول الشعراء غير المؤمنين.

و هناك نكتة جديرة بالاهتمام أيضا، و هى أن هذه السورة تعتبر من أكبر السور بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات، و إن كانت ليست كذلك من حيث عدد الكلمات، بل هى أقصر من كثير من السور.

فضيلة سورة الشعراء:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى بيان أهمية تلاوة هذه السورة أنّه قال:

«من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدّق بنوح و كذب به، و هود و شعيب و صالح و ابراهيم، و بعدد كل من كذب بعيسى و صدق بمحمّد».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۵

و لا يخفى أن كلّ هذا الأجر و الثواب ليس على التلاوة بدون التفكر و العمل بها، بل ان القرائن المتعدد فى روايات فضائل السور تحكى عن أن المراد من التلاوة هى ما كانت مقدمة للتفكر، ثمّ العزم و العمل، و قد أشرنا الى ذلك سابقا.

و ممّا يؤيد هذا المعنى التعبير الوارد فى نفس الحديث أعلاه، لأنّ استحقاق الحسنات بعدد المصدّقين و المكذبين للأنبياء من أجل أن يكون الشخص فى صف المصدّقين و يتجنّب منهج المكذبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (۱) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۳) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ (۴)

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (۵) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۶)

التّفسير

إنهم يعرضون عن كل جديد!

مرّة أخرى نواجه فى بداية هذه السورة مثلا آخر من الحروف المقطعة و هو:

طسم

و كان لنا فى تفسير هذه الحروف المقطعة بحوث مسهبة و مستقلّة فى مستهل سورة البقرة و سورة آل عمران و سورة الأعراف! فلا نرى حاجة إلى التكرار و الإعادة! إلّا أنّ ما ينبغى أن نضيفه هنا هو ما ورد من روايات متعددة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۷

بعض أصحابه فى تفسير «طسم» و يدلّ جميعها على أنّ هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء اللّه تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنّة! ...

و هذه الرّوايات تؤيد التّفسير الذى نقلناه فى مستهلّ سورة الأعراف فى هذا الصدد، كما أنّها فى الوقت ذاته لا تنافى ما قلناه فى مستهل سورة البقرة من أن المراد من هذه الحروف بيان أعجاز القرآن و عظمته، حيث أن هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة و صغيرة! و الآية التالية تبيّن عظمة القرآن بهذا النحو: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ

و بالطبع فإنّ «تلك» فى لغة العرب اسم إشارة للبعيد، و يشار بها للمؤنث «المفرد» و «الجمع»، كما قد يشار بها لجمع التكسير.[۲۵۲] و كما بيّنا آنفا فقد يعبّر فى لغة العرب عن عظمة الشىء- و إن كان قريبا- باسم الإشارة (للبعيد) فكان الموضوع لأهميّته و ارتفاع «و علوّ» مرتبة بعيد عنّا، و مكانه فى السماوات العلى! و ممّا ينبغى الالتفات إليه و ملاحظته أنّ هذه الآية بنصّها وردت فى بداية سورة يوسف و سورة القصص- أيضا- دون زيادة أو نقصان. كما أنّها وردت بعد الحروف المقطعة فى مستهلّ السور آنفة الذكر، و هى تدل على ارتباط هذه الحروف بعظمة القرآن.

و وصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جليّا بيّنا عظيما معجزا- فكلّما أمعن الإنسان النظر فى محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر ... ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يبيّن الحق و يميزه عن الباطل، و يوضّح سبيل السعادة و النصر و النجاة من الضلال!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۸

و الآية التالية تسرّى عن قلب النّبى و تثبته فتقول: لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

كلمة «باخع» مشتقّة من (البخع) (على وزن الدّمع)! و معناه إهلاك النفس من شدة الغمّ ... و هذا التعبير يدلّ على مدى تحرّق قلب النّبى و شفقته لأمته، و أداء رسالته، و ما كان عليه من إصرار فى خطته، و تجلّد فى مواجهة شدته و محنته، لأنّه يرى القلوب المتعطشة الظامئة فى جوار النبع القرآنى الزلال، و لكنّها لا- تزال على ظمئها و لا- ترتوى من معينه العذب، فكان يتحرق لذلك! كان قلقا- و باخعا نفسه- أن يرى الإنسان الذى منحه اللّه العقل و اللبّ يسير فى الطريق المظالم، بالرغم من كل هذا الضياء، و يهوى فى الوادى السحيق ليكون من الهالكين! أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على أممهم و لا سيما الرّسول الأعظم صلّى اللّه

عليه و آله و سلّم الذى ورد فى شأنه هذا التعبير القرآنى أكثر من مرّة ...

قال بعض المفسّرين: إن سبب نزول الآية الأنفة الذكر هو أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يدعو أهل مكّة إلى توحيد اللّه باستمرار، إلّا أنّهم لم يؤمنوا. فأسف النّبى و تأثر تأثرا بالغا حتى بدت أماراته فى وجهه، فنزلت الآية آنفة الذكر لتسرّى عن قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.[۲۵۳] و لبيان أنّ اللّه على كل شىء قدير حتى أنّه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقا و يضطرّهم إلى ذلك، فإنّ الآية التالية تقول: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ

و هى إشارة إلى أن اللّه قادر على إنزال معجزة مذهلة- من السماء- أو أن يرسل عليهم عذابا شديدا فيذعنوا له، يطأطئوا برؤوسهم خضوعا له، يستسلموا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۳۹

لأمره و حكمه، إلّا أن الإيمان بإكراه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة و وعى و إدراك و تفكر.

و من الواضح أنّ المراد بخضوع الأعناق خضوع أصحابها ... فاللغة العربية تذكر الرقبة أو العنق كناية عن الإنسان لأنّها جزء مهمّ منه، و يقال مثلا كناية عن البغاة القساة: غلاظ الرقاب، و عن المضطهدين و الضعفاء: الرقاب الذليلة! و بالطبع فهناك احتمالات أخر لتفسير «أعناقهم» من جملتها أنّ الأعناق تعنى الرؤساء، كما أن من التفاسير أن الأعناق تعنى طوائف من الناس. و جميع هذه الاحتمالات ضعيفة.

ثمّ يتحدث القرآن عن مواقف المشركين و الكفار من آيات القرآن فيقول:

وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ

و التعبير ب «ذكر» هو إشارة إلى أن القرآن موقظ و منبّه، و هذا الأمر متحقّق فى جميع آياته و سوره! إلّا أن هذه الجماعة معرضة عن ذكره و تنبيهه، فهى تفرّ عن كل ذلك! ...

و التعبير ب «الرحمن» إشارة إلى أن نزول هذه الآيات من قبل اللّه إنّما هو من رحمته العامّة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة و الكمال! كما أن هذا التعبير- أيضا- ربّما كان لتحريك الإحساس بالشكر للّه، فهذا الذكر من اللّه الذى عمّت نعمه وجودكم من القرن إلى القدم، فكيف يمكن الإعراض عن ولى النعمة؟! و إذا كان سبحانه لا يتعجل بإنزال العذاب عليكم، فذلك من رحمته أيضا ...

و التعبير ب «محدث»- أى جديد- إشارة إلى أن آيات القرآن تنزل واحدة تلو الأخرى، و كلّ منها ذو محتوى جديد، و لكن ما جدوى ذلك، فهم مع كل هذه الحقائق الجديدة- معرضون ... فكأنّهم اتّفقوا على خرافات السلف و تعلّقوا بها- فهم لا يرضون أن يودّعوا ضلالهم و جهلهم و خرافاتهم!! فأساسا مهما كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۰

الجديد موجبا للهداية، فإنّ الجهلة و المتعصبين يخالفون الحق و لا يذعنون له ...

و نقرأ فى سورة «المؤمنون» الآية ۶۸ منه إذ تقول: أَ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الْأَوَّلِينَ فبذريعة ما لم يأت آباءهم تجدهم متعصبين مخالفين! ثمّ يضيف القرآن: أنّ هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الاستهزاء به، فيقول: فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبؤُا ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

«الأنباء»: جمع «انبأ»، أى الخبر المهمّ، و المراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوى و الأخروى. على أنّ بعض المفسّرين كالشيخ الطوسى فى «التبيان»، قال بأن هذا العقاب منحصر العقاب الآخرة. إلّا أن أغلب المفسّرين يعتقدون بشموله لعقاب الدارين، و هو- فى الواقع- كذلك! ... لأنّ الآية مطلقة.

و بغض النظر عن كل ذلك فإنّ للكفر و الإنكار انعكاسات واسعة و شاملة فى جميع حياة الإنسان ... فكيف يمكن السكوت عنها! و

التحقیق فی هذه الآیة و الآیة السابقة یکشف أن الإنسان حین ینحرف عن الجادة المستقیمة فإنّه یفصل نفسه عن الحق- بشکل مستمر-.

ففی المرحلة الأولی یعرض عن الحق و یصرف بوجهه عنه ... ثمّ بالتدریج یبلغ مرحلة الإنکار و التکذیب .. ثمّ یتجاوز هذه المرحلة إلی السخریة و الاستهزاء ... و نتیجة لذلک ینال عقاب اللّه و جزاءه «و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی الآیتین ۴ و ۵ من سورة الأنعام».

ملاحظتان

۱- ورد فی بعض خطب أمیر المؤمنین «فی نهج البلاغة» المعروفة بالخطبة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۱

القاصعة إشارة إلی هذه الحقیقة، و هی أن اللّه أرسل الأنبیاء علی شاکلة یستطیع معها أن یؤمن الناس بدعوتهم إلی اللّه دون إکراه، بحیث لو لم یکونوا کذلک لکان الإیمان إجباریا، إذ

یقول: «و لو أراد اللّه سبحانه لأنبیائه حیث بعثهم أن یفتح لهم کنوز الذهبان و معادن العقیان و مغارس الجنان و أن یحشر معهم طیور السماء و وحوش الأرضین لفعل ... و لو فعل لسقط البلاء و بطل الجزاء ...»[۲۵۴].

و

ورد فی کتاب الکافی ذیل الآیة محل البحث «لو أنزل اللّه من السماء آیة فظلّت أعناقهم لها خاضعین. و لو فعل لسقط البلوی عن الناس أجمعین».[۲۵۵]

و ممّا یسترعی النظر أنه

ورد فی بعض الکتب المعروفة کالإرشاد للشیخ المفید، و روضة الکافی، و کمال الدین للشیخ الصدوق، و تفسیر القمی، أن الإمام الصادق علیه السّلام قال فی تفسیر الآیة: إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَیْهِمْ مِنَ السَّماءِ آیَةً ... قال:

«تخضع رقابهم- یعنی بنی أمیة- و هی الصیحة فی السماء باسم صاحب الأمر- صلوات اللّه علیه-».[۲۵۶]

و واضح أنّ المراد من هذه الرّوایات هو بیان مصداق من هذا المفهوم الواسع للآیة، إذ ستخضع أخیرا جمیع الحکومات الباغیة و المتجبرة و الظالمة التی تواصل السیر علی منهج حکومة بنی أمیة، و ذلک عند ما یظهر المصلح المهدی علیه السّلام إمام الحکومة العالمیة، فتستسلم إذعانا لقدرته و حمایة اللّه له و تنحنی له إجلالا.

۲- أحد البحوث التی کثر الکلام فیها و التعلیق علیها فی القرون الأولی- أو الصدر الأوّل- للإسلام هو البحث أو الکلام عن کون کلام اللّه قدیما أو حادثا؟! و قد انجرّ هذا الکلام إلی کتب التّفسیر أیضا، و قد استدل جماعة من المفسّرین بالتعبیر الوارد فی الآیة آنفا «محدث» علی کون القرآن حادثا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۴۲

إلّا أنّه- کما أشرنا من قبل أیضا- فإنّ أساس هذا البحث لا یمکن أن یکون منطقیّا بأیّ وجه، و یبدو أنّ ذوی السلطة أو أولی الأمر فی ذلک الزمان من بنی أمیة و بنی العباس، کان لهم الأثر الکبیر فی هذه البحوث المضلة لیحرفوا أفکار المسلمین عن المسائل المهمّة و الجدیّة، و لیشغلوا علماء المسلمین بهذه المسائل حفاظا علی حکومتهم و سلطتهم.

لأنّه إذا کان المراد من کلام اللّه هو محتوی القرآن، فهو من الأزل فی علم اللّه و اللّه خبیر بکل ما فیه، و إذا کان المراد منه نزول الوحی و کلمات القرآن و حروفه، فذلک حادث قطعا و لا خلاف فیه.

فبناء علی ذلک فالقرآن تارة هو قدیم بذلک النحو، و أخری هو حادث قطعا بهذه الصورة، فعلی المجتمع الإسلامی أن یکون فطنا و لا سیما العلماء، فلا یبتلوا بالبحوث المضلة الانحرافیة المبتدعة من قبل الجبابرة و أعداء الإسلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۳

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۷ الی ۹]

اشارة

أ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ (۷) إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ (۸) وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۹)

التّفسیر

الزوجیة فی النباتات:

کان الکلام فی الآیات المتقدمة عن إعراض الکفار عن الآیات التشریعیة (أی القرآن المجید)، أمّا فی الآیات محل البحث فالکلام عن الآیات التکوینیة و دلائل اللّه فی خلقه و ما أوجده سبحانه، فالکفار لم یصمّوا آذانهم و یوصدوا أبواب قلوبهم بوجه أحادیث النّبی و کلماته فحسب، بل کانوا یحرمون أعینهم رؤیة دلائل الحق المنتشرة حولهم.

فتقول الآیة الأولی من هذه الآیات: أ وَ لَمْ یَرَوْا إِلَی الْأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ [۲۵۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۴

و التعبیر ب «زوج» فی شأن النباتات یستحق الدقّة ... فبالرغم من أنّ أغلب المفسّرین قالوا بأن الزوج یعنی النوع أو الصنف، و أن الأزواج معناها الأصناف و الأنواع، إلّا أنّه ما یمنع أن نفسر معنی الزوج بما یتبادر إلی الذهن من المعنی المعروف و هو الإشارة إلی الزوجیّة فی النباتات؟! کان الناس فیما مضی یدرکون أن بعض النباتات لها جنسان (ذکر و أنثی) و کانوا یستعینون بتلقیح النباتات لتثمر ... و کانت هذه المسألة معروفة و واضحة تماما فی النخیل ...

إلّا أنّ العالم السویدی و الخبیر بعلم النبات «لینه» وفّق لأول مرّة فی أواسط القرن الثامن عشر المیلادی لاکتشاف هذه الحقیقة، و هی أن الزوجیة فی عالم النباتات قانون عام تقریبا، و النباتات کسائر الحیوانات تحمل عن طریق تلقیح الذکر لأنثاه ثمّ تقذف بالثمار ...

غیر أنّ القرآن المجید أشار إلی هذه الظاهرة «الزوجیة فی النبات» فی آیات مختلفة مرارا قبل هذا العالم السویدی بقرون، کما هی الحال فی الآیات محل البحث. و فی الآیة الرّابعة من سورة الرعد، و الآیة العاشرة من سورة لقمان، و الآیة السابعة من سورة ق. و هذه الإشارة بنفسها إحدی معاجز القرآن العلمیة! و کلمة «کریم» فی الأصل تعنی کل شیء قیّم و ثمین، فقد تستعمل فی الإنسان، و قد تستعمل فی النبات، و قد تستعمل فی الکتاب [أی الرسالة المعهودة بین المتراسلین أیضا ... کما هی الحال فی شأن حدیث ملکة سبأ عن کتاب سلیمان إلیها إذا قالت: إِنِّی أُلْقِیَ إِلَیَّ کِتابٌ کَرِیمٌ [۲۵۸] و المراد من کَمْ أَنْبَتْنا فِیها مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة، و طبعا ما من نبات إلّا و له فائدة أو فوائد جمّة، و مع تقدم العلم تتجلی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۵

الحقیقة یوما بعد یوم.

و تأتی الآیة التالیة لتقول مؤکّدة بصراحة: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً.

أجل إن الالتفات إلی هذه الحقیقة، و هی أن هذا التراب الذی لا قیمة له ظاهرا، بما فیه من ترکیب معین هو مبدأ ظهور أنواع الأزهار الجمیلة، و الأشجار المثمرة الظلیلة، و الفواکه ذات الألوان الزاهیة، و ما فیها من خواص مختلفة. و هو- أی التراب- یبیّن منتهی قدرة

اللّه، إلّا أن أولئك الـذين طبع على قلوبهم فى غفلة و جهل إلى درجة يرون معها آيات اللّه بأعينهم، و مع ذلك يجحدونها و يكفرون بها، و يترسخ فى قلوبهم العناد و الجدل! لذلك فإنّ الآية هذه تعقّب قائلة: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

أى إنّ عدم الإيمان لدى أولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات، لأنّ قابليّة المحل من شرائط التأثير الأصيلة أيضا كما نقرأ قوله تعالى: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۲۵۹] و فى آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب فى تعبير يدلّ على التهديد و الترهيب و التشويق و الترغيب، فيقول سبحانه: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ...

«العزيز» معناه المقتدر الذى لا يغلب و لا يقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنه قادر على إهلاك المكذبين و تدميرهم .. إلّا أنّه مع كل ذلك رحيم، و رحمته وسعت كل شىء، و يكفى الرجوع بإخلاص إليه فى لحظة قصيرة! لتشمل رحمته من أناب إليه و تاب، فيعفو عنه بلطفه و رحمته! و لعل تقديم كلمة «العزيز» على «الرحيم» لأنّه لو تقدمت كلمة الرحيم على العزيز لأشعرت الإحساس بالضعف، إلّا أنّه قدم سبحانه الوصف بالعزيز ليعلم أنّه و هو فى منتهى قدرته ذو رحمة واسعة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰ الى ۱۵]

اشارة

وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (۱۱) قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴)

قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵)

التّفسير

بداية رسالة موسى:

قلنا إنّ فى هذه السورة بيانا لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، و لا سيما المسلمين الأوائل فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...

فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هى قصة موسى عليه السّلام، و تشرح جوانب مختلفة من حياته و مواجهته لفرعون و اتباعه حتى هلاكهم بالغرق فى النيل! و قد جاء الكلام عن بنى إسرائيل و موسى و فرعون و قومه حتى الآن فى سور شتى «كالبقرة و المائدة و الأعراف و يونس و الإسراء و طه» كما ورد الكلام فى هذا الشأن أيضا فى بعض السور التالية! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۷

و هذه البحوث و إن تكررت- بحسب الظاهر- إلّا أن الإمعان أو التدقيق فيها يكشف عن أن كلّ بحث منها يتناول جانبا خاصّا من هذه القصّة ذات المحتوى العزيز، و يعوّل على هدف معين! ...

مثلا .. حين نزلت الآيات- محل البحث- كان المسلمون قلّة ضعافا و كان أعداؤهم كثرة أولى قوّة و بأس شديد، بحيث لا يمكن الموازنة بين الفرقتين، فكان ينبغى أن يبيّن اللّه قصص الأمم السابقة المشابهة لحال هؤلاء، ليعلم المسلمون أن هذه القوّة التى يمتلكها الأعداء و هذا الضعف الظاهرى الذى يكتنف المسلمين لن يؤدى أىّ منهما بنفسه إلى اندحار المسلمين، و لتزداد معنويات المسلمين و تثبت استقامتهم و مقاومتهم ...

و ممّا يلفت النظر تكرار عبارة: وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ بعد تمام الحديث عن كل نبى ... و هو التعبير ذاته الوارد فى بداية هذه السورة فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. و هذا الاتساق فى التعبير شاهد حىّ على أن ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التى اكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية و الاجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآيتان الأوليان من الآيات محل البحث وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ و يتركون ظلمهم و فسادهم و عنادهم للحق.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هى الظلم، و من الواضح أن الظلم له معنى جامع واسع و من مصاديقه الشرك كما تقول الآية (۱۳) من سورة لقمان إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ...

كما أنّ استعباد بنى إسرائيل و استثمارهم و ما قارنهما من زجر و تعذيب من المصاديق الأخرى أيضا، ثمّ بعد هذا كله فإن قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، و هكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۸

بجميع أبعاده! ...

و يحكى القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة و ما طلبه منه من مزيد القوة و العون لحمل الرسالة العظمى، فيقول فى الآية التالية: قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ و أخشى أن أطرد قبل أن أكمل أداء رسالتى بما ألاقيه من صخب و تكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

و كان لموسى الحق فى كلامه هذا تماما، لأنّ فرعون و أتباعه و حاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم و لو برأيه، و إذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأى شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فورا ..

و إضافة إلى ذلك فان صدرى لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الالهية:

وَ يَضِيقُ صَدْرِي

ثمّ بعد هذا كله فلسانى قد يعجز عن بيانها: وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي ...

فلذلك فإنى أطلب أن تشدّ أزرى بأخى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ [۲۶۰] لنؤدى رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا فى مواجهة الظالمين و المستكبرين.

و بغض النظر عن كلّ ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردوننى وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ كما يعتقدون لأنّى قتلت واحدا منهم- حين كان يتنازع مع إسرائيلى مظلوم- بضربة حاسمة! و أنا قلق من ذلك فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و فى الحقيقة إنّ موسى عليه السّلام كان يرى أربع مشاكل كبرى فى طريقه، فكان يطلب من اللّه حلّها لأداء رسالته و هذه المشاكل هى ...

مشكلة التكذيب.

مشكلة ضيق الصدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۴۹

مشكلة عدم الفصاحة الكافية.

و مشكلة القصاص! و يتّضح ضمنا أنّ موسى لم يكن خائفا على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف و المقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من اللّه سبحانه مزيد القوّة لهذه المواجهة! ...

طلبات موسى عليه السّلام من اللّه فى هذا الصدد خير شاهد على هذه الحقيقة، إذ طلب أن يشرح صدره و حلّ عقدة لسانه و أن يرسل

إلى هـارون للمعاضـدة فى التبليغ كمـا جاء ذلك فى سورة طه بصورة أكثر تفصـيلا إذ قال: رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَـدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي وَ احْلُلْ عُقْـدَةً مِنْ لِسانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْـدُدْ بِهِ أَزْرِي وَ أَشْـرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَـبِّحَكَ كَثِيراً وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً.

فاسـتجاب اللّه طلب موسـى و دعوة الصادقـة و قالَ كَلَّا فلن يسـتطيعوا قتلك، أو كلّا لن يضـيق صـدرك و ينعقـد لسانك، و قـد أجبنا دعوتك أيضا فى شأن أخيك، فهو مأمور معك فى هذه المهمّة: فَاذْهَبا بِآياتِنا لتدعوا فرعون و قومه إلى توحيد اللّه.

و لا تظنّا بأنّ اللّه بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ...

فأنا معكما و لن أترككما أبدا، و سأنصـركما فى الحوادث الصعبة، فاذهبا مطمئنى الخاطر، و امضيا فى هذا السبيل بأقدام ثابتة و عزيمة راسخة! ...

و هكذا فإنّ اللّه سـبحانه أعطى لموسى الاطمئنان الكافى فى جمل ثلاث و حقّق له طلبه ... إذ طمأنه بقوله: كَلَّا على أنّ قوم فرعون لن يقتلوه و لن يسـتطيعوا ذلك ... و لن تحدث له مشـكلة بسـبب ضـيق صدره أو التلكؤ فى لسانه و بقوله: فَاذْهَبا بِآياتِنا أرسل أخاه ليعينه على أمره. و بقوله: إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ وعدهما أنّهما سيكونان أبدا تحت ظل خيمته و حمايته! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۰

و ممّـا ينبغى الالتفـات إليه ورود الضـمير فى آخر الجملـة بصـيغة الجمع فى قوله: إِنَّا مَعَكُمْ و لعـل ذلك إشارة إلى أن اللّه حاضـر مع موسـى و هـارون و من يواجهانهمـا من الطغاة و الفراعنـة فى جميع المحاورات، و يسـمع ما يـدور بينهم جميعا، فينصـر موسـى و أخاه هارون على أولئك الطغاة! ...

و مـا ذهب إليه بعض المفسّـرين من أن كلمـة «مع» دالـة على النصـرة و الحمايـة فلا تشـمل قوم فرعون، غير سديـد، بل إن «مع» تعنى حضور الخالق الـدائم فى جميع الميادين و المحاورات حتى مع المـذنبين، حتى مع المذنبين، و حتى مع الموجودات التى لا روح فيها، فهو فى كل مكان و لا يخلو منه مكان.

و التعبير ب «مستمعون»، أى الإصغاء المقرون بالتوجه هو تأكيد على هذه الحقيقة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۱

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶ الى ۲۲]

اشارة

فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۷) قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۱۹) قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (۲۰)

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۱) وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۲۲)

التّفسير

مواجهة فرعون مواجهة منطقية و قاطعة:

انتهت فى الآيات المتقدمة المرحلة الأولى لمأمورية «موسـى عليه السّلام» و هى موضوع الوحى «و الرسالة» و طلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير! ...

و تعقيبا على المرحلة الآنفة تأتى الآيات- محل البحث- لتمثل المرحلة الثّانية، أى مواجهة موسى و هارون لفرعون، و الكلام المصيرى الذى جرى بينهم! تقول الآية الأولى من هذه الآيات مقدمة لهذه المرحلة: فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۲

إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

و جملة فَأْتِيا فِرْعَوْنَ تكشف عن أنّهما ينبغى أن يواجها فرعون نفسه بأيّة قيمة أو أىّ ثمن كان ...

و التعبير ب «رسول» بصيغة الإفراد مع أنّهما «موسى و هارون» نبيّان مرسلان، يشير إلى وحدة دعوتهما، فكأنّهما روحان فى بدن واحد لهما خطّة واحدة و هدف واحد.[۲۶۱] و ضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يرسل بنى إسرائيل و يرفع يده عنهم: أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ

و بديهى أن المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبوديّة و القهر و الاستعباد، ليتحرروا و يأتوا مع موسى و هارون، و ليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

و هنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة و ممزوجة بالخبث و الشيطنة لينفى الرسالة و يقول لموسى: أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً ....

إذ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فأنقذناك من الهلاك، و هيّأنا لك مرضعة، و عفونا عن الحكم الصادر فى قتل أبناء بنى إسرائيل الذى كنت مشمولا به، فتربّيت فى محيط هادئ آمن منعّما ... و بعد أن تربيت فى بيتنا عشت زمانا وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

ثمّ توجه إلى موسى و ذكّره بموضوع قتل القبطى فقال: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۳

إشارة إلى أنه كيف يمكنك أن تكون نبيّا و لديك مثل هذه السابقة؟! ثمّ بعد هذا كله: وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (أى بنعمة فرعون) فلطالما جلست على مائدتنا و تناولت من زادنا فكيف تكون نبيّا و أنت كافر بنعمتى؟! و فى الحقيقة، كان فرعون يريد أن يجعل موسى محكوما بهذه التهم المواجهة إليه، و بهذا المنطق الاستدراجى.

و المراد من قصّة القتل المذكورة هنا هو ما جاء فى سورة القصص «الآية ۱۵ منها» حيث جاء فيها أن موسى وجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته و هذا من عدوّه، فاستغاثة الذى هو من شيعته على الذى من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه انتصارا لشيعته! ...

و عند ما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث و الشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّا أنه قدّم الإجابة على الإشكال الثّانى نظرا لأهميته.

(أو أنه أساسا لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأن تربية الشخص لا تكون دليلا على عدم جواز هداية مربّية إن كان المربى ضالا، ليسلك سبيل الرشاد).

و على كل حال أجابه موسى عليه السّلام: قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ

و هنا كلام طويل بن المفسّرين على المراد من كلمة «الضالين» الواردة فى تعبير موسى عليه السّلام ... لأنّه كما نعلم لا مجال لأن تكون للنبىّ سابقة سوء حتى قبل مرحلة النبوّة .. لأنّها تزلزل موقعه فى أفكار عامّة الناس، و يبقى الهدف من بعثته ناقصا غير تام، و لذلك فإنّ العصمة فى الأنبياء لازمة حتى قبل زمان نبوتهم! ... هذا من جهة ...

و من جهة أخرى ينبغى أن يكون هذا الكلام جوابا مسكتا و مفحما لفرعون! لذلك فإن كثيرا من المفسّرين يعتقدون أن المراد من «الضال» هنا هو كونه أخطأ فى الموضوع، أى أن موسى كانت ضربته للرجل القبطى لا بقصد القتل، بل لكى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۴

يحمى المظلوم و يدافع عنه، و لم يدر أنّه ستؤول ضربته إلى الإجهاز عليه و قتله، فبناء على ذلك فإنّ الضالّ هنا معناه «الغافل» و المراد منه الغافل عن العاقبة التى أدّى عمله إليها.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من ذلك أنّه لم يكن أىّ خطأ فى قتل القبطى الظالم لأنّه كان مستحقا، بل إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يقول: إنّه لم يدر أن عاقبة عمله ستكون على هذا الوجه، و أنه لا يستطيع البقاء فى مصر و عليه أن يخرج بعيدا عن وطنه، و أن يتأخر منهجه «فى أداء رسالته».

و لكن الظاهر أنّ هذا لا يعدّ جوابا لفرعون، بل هو موضوع كان لموسى أن يبيّنه لأتباعه و من حوله من محبّيه! لا أنه ردّ على إشكال فرعون! و التّفسير الثّالث الذى من المحتمل أن يكون مناسبا أكثر لمقام موسى عليه السّلام- من جهات متعددة- و يتلاءم و عظمة كيانه، أن موسى عليه السّلام استخدم التورية فى تعبيره جوابا على كلام فرعون، فقال كلاما ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق فى ذلك الزمان ... لكنّ اللّه عرّفه إياه بعدئذ، و وهب له حكما- فجعله من المرسلين، إلّا أنه كان يقصد فى الباطن أنه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدى إلى هذه النتيجة! من الجهد و العناء و اضطراب البال- مع أنّ أصل عمله كان حقا و مطابقا لقانون العدالة «أو أنه يوم كانت هذه الحادثة قد وقعت كان موسى عليه السّلام قد ضلّ طريقه فصادف أمامه هذه القضيّة» ...

و نحن نعرف أن «التورية» هى أن يقول الإنسان كلاما باطنه حق، إلّا أن الطرف الآخر يفهم من ظاهره شيئا آخر، و هذا الأمر يقع فى موارد خاصّة يبتلى الإنسان فيها بالحرج أو الضيق، و لا يريد أن يكذب، و هو فى الوقت ذاته على ظاهر كلامه ...[۲۶۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۵

ثمّ يضيف موسى قائلا: فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ و هناك اختلاف بين كلمات المفسّرين فى المراد من «الحكم» فى هذه الآية، أهو مقام النبوة، أم مقام العلم، أم سواهما؟! لكن مع ملاحظة ذيل الآية نفسها المذكور فيها مقام الرسالة بإزاء الحكم يتّضح أنّه غير الرسالة و النبوّة! و الشاهد الآخر على هذا الموضوع الآية (۷۹) من سورة آل عمران إذ قال:

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ....

إن كلمة «الحكم» تعنى فى اللغة: المنع من أجل الإصلاح، هذا هو الأصل فى ما وضعت له، و لذا سمّوا لجام الحيوان «حكمة» على وزن (صدقة) ثمّ أطلقت هذه الكلمة على ما يطابق الحكمة، و من هنا سمى العقل و العلم حكما أيضا لهذا التناسب، و قد يقال: إنّه يستفاد من الآية (۱۴) من سورة القصص أن موسى عليه السّلام كان قد بلغ مقام الحكم و العلم قبل هذه القضية إذ تقول: وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً.

فنجيب على ذلك أن للعلم و الحكمة مراحل مختلفة، فكان موسى عليه السّلام قد بلغ مرحلة منهما من قبل، و حين بلغ مقام النبوّة أدرك المرحلة الأكمل! ...

ثمّ يردّ موسى عليه السّلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه فى أنّه ربّاه و تعهده منذ طفولته و صباه، معترضا عليه بلحن قاطع فيقول: وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ

صحيح أنّ يد الحوادث ساقتنى- و أنا طفل رضيع- إلى قصرك، لأتربّى فى كنفك، و كان فى ذلك بيان لقدرة اللّه، لكن ترى كيف جئت إليك؟ و لم لا تربيت فى أحضان والدىّ و فى بيتهما؟! ألم يكن ذلك لأنّك عبّدت بنى إسرائيل و صفّدت أيديهم بنير الأسر! حتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۵۶

أمرت أن يقتل الأطفال الذكور و تستحيا النساء للخدمة؟! فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سببا لأن تضعنى أمى فى الصندوق حفاظا علىّ، و تلقينى فى أمواج النيل، و كانت مشيئة اللّه أن تسوق الأمواج «زورقى» الصغير حتى توصله إلى قصرك ... أجل إن ظلمك الفاحش هو الذى جعلنى رهين منّتك و حرمنى من بيت أبى الكريم، و صيرنى فى قصرك الملوّث! ...

و بهذا التّفسير يتّضح ارتباط جواب موسى بسؤال فرعون تماما.

كما يحتمل فى تفسير هـذه الآيـة أنّ مراد موسـى عليه السّـلام هو الاعتراض على فرعون بأنّه لو كانت تربيتى عندك نعمة من قبلك، فهى إزاء ظلمـك لبنى إسـرائيل بمثابـة القطرة فى مقابـل البحر، فأيـة نعمـة لـك علىّ مع ما عنـدك من الظلم و الجور على الناس؟! و التّفسير الثّالث لجواب موسـى لفرعون، هو أنّه: لو تربيت فى قصـرك و تمتعت بنعمك المختلفـة، فلا تنس بناه قصـرك الأوائل فهم أرقّـاء من قومى، و الموجودون لجميع تلـك النعم هم أسـراؤك من بنى إسـرائيل، فكيف تمنّ علىّ بجهود قومى و أتعـابهم؟! و هـذه التفاسير الثلاثـة لا تتنافى جميعا، و إن كان التّفسير الأوّل من بعض الجهات أكثر وضوحا! و يستفاد من عبارة: «من المرسلين» ضـمنا بأنّنى لست الوحيد المرسل من قبل اللّه. فمن قبلى جاء رسل عدّة، و أنا واحد منهم، إلّا أن فرعون نسيهم أو تناساهم!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۳ الى ۲۹]

اشارة

قـالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۳) قـالَ رَبُّ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْـتَمِعُونَ (۲۵) قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷)
قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹)

التّفسير

الاتهام بالجنون و التهديد بالسجن:

حين واجه موسـى عليه السّـلام فرعون بلهجة شديدة: و أجابه بضـرس قاطع، و أفحم فرعون فى ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، و سأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول ربّ العالمين، و قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ ..

و من المسـتبعد جـدّا أن يكون فرعون قـد سـأل موسـى عليه السّـلام هـذا السؤال لفهم الحقيقـة و معرفـة الموضوع، بـل يبـدو أنّه سأله متجاهلا و مستهزئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۸

إلّا أنّ موسـى- على كل حال- لم يجد بدا كسائر الباحثين الواعين اليقظين، أن يجيب على فرعون بجدّ ... و حيث أن ذات اللّه سبحانه بعيـدة عن متناول أفكار الناس، فإنّه أخـذ يحـدثه عن آيات اللّه فى الآفاق و آثاره الحيّة إذ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

فالسماوات بما فيهن من عظمة، و الأرض على سعتها ... و الموجودات المتعددة بألوانها بحيث لا تساوى أنت و قصرك بإزائها إلّا ذرّة فى مقابل المجرّة! كلّها من خلق ربّى، فمثل هذا الخالق المدبّر لهذا العالم جدير بالعبادة، لا الموجود الضعيف التافه مثلك! ...

و ينبغى الالتفات إلى أن عبـدة الأوثان كانوا يعتقـدون أنّ لكلّ موجود فى هذا العالم ربّا، و كانوا يعدّون العالم تركيبا من نظم متفرقة، إلّا أن كلام موسـى عليه السّـلام يشـير إلى أن هـذا النظام الواحـد المتحكم على هـذه المجموعـة فى عالم الوجود دليل على أن له ربّا واحدا ...

و جملة إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لعلها إشارة إلى أنّ موسـى عليه السّـلام يريد أن يفهم فرعون و من حوله- و لو تلويحا- أنه يعرف أن الهدف من هـذا السؤال ليس إدراك الحقيقـة ... لأنّه لو أراد إدراك الحقيقـة و البحث عنهـا لكان اسـتدلاله كافيا ... فكأنّه يقول لهم: افتحوا

أعينكم قليلا- و تفكروا ساعة فى السماوات و الأرض بما فيهما من الآثار و عجائب المخلوقات ... لتطلعوا على معالمها و تصححوا نظرتكم نحو الكون! إلّا أن فرعون لم يتيقظ من نومة الغافلين بهذا البيان المتين المحكم لهذا المعلم الكبير الرّبانى السماوى ... فعاد لمواصلة الاستهزاء و السخرية، و اتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و قالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْتَمِعُونَ

و معلوم من هم الذين حول فرعون؟ فهم أشخاص من نسيجه و جماعة من أصحاب القوّة و الظلم و القهر و المال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۵۹

يقول ابن عباس: كان الذين حول فرعون هناك خمسمائة نفر، و هم يعدّون من خواص قومه.[۲۶۳] و كان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقى يؤثر فى القلوب المظلمة لأولئك الرهط ... فعدّه كلاما بلا محتوى و غير مفهوم.

إلّا أن موسى عليه السّلام عاد مرّة أخرى إلى كلامه المنطقى دون أى خوف و لا وهن و لا إيهام، فواصل كلامه و قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

إن موسى عليه السّلام بدأ فى المرحلة الأولى ب «الآيات الآفاقية»، و فى المرحلة الثّانية أشار إلى «الآيات الانفسية»، و أشار إلى أسرار الخلق فى وجود الناس أنفسهم و آثار ربوبية اللّه فى أرواح البشر و أجسامهم، ليفكر هؤلاء المغرورون على الأقلّ فى أنفسهم و يحاولوا التعرّف عليها و بالتالى معرفة من خلقها.

إلّا أن فرعون تمادى فى حماقته، و تجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ...

و ذلك ما اعتاده الجبابرة و المستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين! ...

و ممّا يستجلب النظر أن هذا الضالّ المغرور لم يكن مستعدّا حتى لأنّ يقول:

«إنّ رسولنا الذى أرسل إلينا»، بل قال: «إنّ رسولكم الذى أرسل إليكم»، لأن التعبير برسولكم- أيضا- له طابع الاستهزاء المقترن بالنظرة الاستعلائية ... يعنى:

إننى أكبر من أن يدعونى رسول ... و كان الهدف من اتهامه موسى بالجنون هو إحباط و إفشال منطقه القوىّ المتين لئلا يترك أثرا فى أفكار الحاضرين.

إلّا أن هذه التهمة لم تؤثر فى روح موسى عليه السّلام و معنوياته العالية، و واصل بيان آثار اللّه فى عالم الإيجاد فى الآفاق و الأنفس، مبينا خط التوحيد الأصيل ف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۰

قالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

فإذا كنت- يا فرعون- تحكم حكما ظاهريّا فى أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّى الواقعية تسع المشرق و المغرب و ما بينهما جميعا، و آثاره تشرق فى وجوه الموجودات! ... و أساسا فإنّ هذه الشمس فى شروقها و غروبها و ما يتحكم فيها من نظام، كل ذلك بنفسه آية له و دليل على عظمته ... إلّا أنّ العيب كامن فيكم، لأنّكم لا تعقلون، و لم تعتادوا التفكير (و ينبغى الالتفات إلى أن جملة إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ هى إشارة إلى أنه لو كنتم تتفكرون و تستعملون العقل فى ماضى حياتكم و حاضرها لتوصلتم إلى إدراك هذه المسألة).

و فى الواقع إن موسى عليه السّلام أجاب على اتهامهم إياه بالجنون بأسلوب بليغ بأنّه ليس مجنونا، و أن المجنون هو من لا يرى كل هذه الآثار و دلائل وجود الخالق، و العجيب أنه مع وجود الآثار على باب الدار و الجدار، فانه يوجد من لا يفكر فى هذه الآثار!».

و صحيح أنّ موسى عليه السّلام أشار بادئ الأمر إلى تدبير أمر السماوات و الأرض، إلّا أنه حيث أن السماء عالية جدا، و أن الأرض ذات أسرار غريبة، فقد وضع موسى عليه السّلام أخيرا إصبعه على نقطة لا يمكن لأحد إنكارها، و يواجهها الإنسان كلّ يوم، و هى

نظام طلوع الشمس و غروبها و ما فيها من منهج دقيق ... و ليس لأحد من البشر أن يدعى أنّ بيده نظامها أبدا ...

و التعبير ب «ما بينهما» إشارة إلى الوحدة و الارتباط فى ما بين المشرق و المغرب، و هكذا كان التعبير فى شأن السماوات و الأرض.

قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا.

و يبيّن التعبير رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ أيضا ارتباط النسل و الوحدة فيه ...

غير أن هذا المنطق المتين الذى لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۱

استعمال «حربة» يفزع إليها المستكبرون عند الاندحار، فجابه موسى و قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

فأنا لا أعرف كلماتك، إنّما أعرف وجود إله و معبود كبير و هو أنا ... و من قال بغيره فهو محكوم بالإعدام أو السجن! ...

و يعتقد بعض المفسّرين أن الألف و اللام فى «من المسجونين» هما للعهد، و هى إشارة إلى سجن خاص من ألقى فيه يبقى سجينا حتى تخرج جنازته.[۲۶۴] و فى الواقع كان فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الارهابى، لأن مواصلة موسى عليه السّلام بمثل هذه الكلمات ستكون سببا فى إيقاظ الناس، و ليس أخطر على الجبابرة من شىء كإيقاظ الناس! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۲

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۰ الى ۳۷]

اشارة

قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (۳۴)

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۳۵) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۳۶) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (۳۷)

التّفسير

بلادكم فى خطر:

رأينا فى الآيات المتقدمة كيف حافظ موسى عليه السّلام على تفوّقه- من حيث المنطق- على فرعون، و بيّن للحاضرين إلى أيّة درجة يعوّل مبدؤه على منطقه و عقله، و أن ادعاء فرعون واه و ضعيف، فتارة يسخر من موسى، و تارة يرميه بالجنون، و أخيرا يلجأ إلى التهديد بالسجن و الإعدام! ...

و هنا يقلب موسى عليه السّلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقة أخرى يخذل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۳

فيها فرعون و يعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوّة أيضا، القوّة الإلهية التى تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّيا و قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ...

و هنا وجد فرعون نفسه فى طريق مغلق مسدود ... لأن موسى عليه السّلام أشار إلى خطّة جديدة! و لفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لاعتراض عليه الجميع و لقالوا: دعه ليرينا عمله المهم، فلو كان قادرا على ذلك فلنرى، و نعلم حينئذ

أنّه لا يمكن الوقوف امامه، و إلّا فستنكشف مهزلته!! و على كل حال ليس من اليسير تجاوز كلام موسى ببساطة ...

فاضطر فرعون إلى الاستجابة لاقتراح موسى عليه السّلام و قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ «بأمر اللّه».

ثمّ أظهر إعجازا آخر حيث أدخل يده فى جيبه (أعلى الثوب) و أخرجها فإذا هى بيضاء منيرة: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ

فى الحقيقة إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، و الأخرى مظهر الأمل، فالأولى تناسب مقام الإنذار، و الثّانية للبشارة! و الأولى تبيّن عذاب اللّه، و الأخرى نور و آية رحمة! لأنّ المعجزة ينبغى أن تكون منسجمة مع دعوة النّبى عليه السّلام.

«الثعبان» معناه الحية العظيمة، و يحتمل الراغب فى مفرداته أن «الثعبان» من مادة (ثعب) المأخوذ معناه من جريان الماء، لأنّ حركة هذا الحيوان تشبه الأنهار المتحركة! و التعبير ب «المبين» لعله إشارة إلى هذه الحقيقة! و هى أنّ عصّا موسى عليه السّلام تبدلت إلى ثعبان عظيم فعلا، و لم يكن فى الأمر من إيهام أو سحر.

و لا بأس بذكر هذه اللطيفة الدقيقة هنا، و هى أنّ الآية محل البحث عبرت [عن تبدل العصا] ب «ثعبان». أمّا الآية العاشرة من سورة النمل، و الآية الحادية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۴

و الثلاثون من سورة القصص، فقد عبرت عنها ب «جان» «ما تجنّه ۲۶۵] الأرض و ما يمشى عليها من الأفاعى الصغار بسرعة و قفز». أمّا الآية العشرون من سورة طه فقد عبّرت عنها بأنّها «حية» «المشتقّة من الحياة».

و هذا التفاوت أو الاختلاف فى التعابير مثير للسؤال فى بدو النظر، إلّا أنّ الاختلاف أو التفاوت إنّما هو لبيان واحد من أمرين:

۱- لعله إشارة إلى حالات ذلك الثعبان المتباينة، ففى البداية تبدلت العصا إلى جانّ أو حية صغيرة، ثمّ بدأت تكبر حتى صارت ثعبانا مبينا! ...

۲- أو أنّ هذه الألفاظ الثلاثة «الثعبان، و الجان، و الحية» كلّ منها يرمز إلى بعض الخصائص الموجودة فى تلك العصا المتبدلة إلى حالة جديدة! فالثعبان إشارة إلى عظمتها، و الجان إشارة إلى سرعتها، و الحية إشارة إلى حياتها! غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول و غرق فى وحشة عميقة و لكى يحافظ على قدرته الشيطانية التى أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السّلام، و كذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه و الملأ من حوله فى توجيه معاجز موسى و لفت نظرهم عنها، فقد قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ

ذلك الإنسان الذى كان يدعوه مجنونا إلى لحظات آنفة، و إذا هو الآن يعبر عنه بالعليم، و هكذا هى طريقة الجبابرة و أسلوبهم، حيث تتبدل كلماتهم فى مجلس واحد عدّة مرّات، و يحاولون التشبث بأى شىء للوصول إلى هدفهم.

و كان فرعون يعتقد أن اتهام موسى بالسحر ألصق به و أكثر قبولا عند السامعين، لأنّ ذلك العصر كان عصر السحر، فإذا أظهر موسى عليه السّلام معاجزه فمن اليسير توجيهها بالسحر.

و من أجل أن يعبّئ الملأ و يثير حفيظتهم ضد موسى عليه السّلام، قال لهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۵

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ؟.

و الغريب فى الأمر أن فرعون الذى قال هذا الكلام هو الذى كان يقول من قبل: أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ؟! و الآن حيث يرى عرشه متزعزعا ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، و يعدّها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم فى خطر، إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، ففكروا فى حيلة! ...

فرعون هذا لم يكن قبل ساعة مستعدا لأن يصغى لأحد، كان الآمر بلا منازع، أمّا الآن فهو فى حرج شديد يقول لمن حوله: «ماذا

تأمرون»؟! إنّها استشارة عاجزة و من موقف الضعف فحسب! ...

و يستفاد من الآية (۱۱۰) من سورة الأعراف أنّ اتباع فرعون و من حوله ائتمروا فيما بينهم و تشاوروا فى الأمر، و كانوا فى حالة من الاضطراب النفسى بحيث كان كلّ منهم يسأل الآخر قائلا: و أنت ما تقول؟ و ماذا تأمرون؟! أجل هذه سنّة الجبابرة فى كل عصر و زمان ... فحين يسيطرون على الأوضاع يزعمون أن كل شىء لهم، و يعدون الجميع عبيدهم، و لا يفهمون شيئا سوى منطق الاستبداد. إلّا أنّهم حين تهتزّ عروشهم الظالمة و يرون حكوماتهم فى خطر، ينزلون مؤقتا عن استبدادهم و يلجأون إلى الناس و يتحدثون باسم الناس، فالأرض أرض الشعب، و الحكومة تمثل الشعب و يحترمون آراء الشعب، و لكن حين يستقر الطوفان و يهدأ التيار، فإذا هم أصحاب الأمس و «عادت حليمة إلى عادتها القديمة».

و رأينا فى عصرنا بقايا السلاطين القدامى كيف يحسبون أن الدولة ملكهم المطلق حين تقبل الدنيا عليهم، و يأمرون من يرفض إتباعهم بالخروج عن تلك البلاد قائلين له: اذهب فى أرض اللّه العريضة الواسعة، ففى هذا البلد لا بدّ من تنفيذ ما نقول لا غير. و رأينا هذه الحالة عند ما بدأت هبّت رياح الثورة الإسلامية كيف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۶

أن الطواغيت أخذوا باحترام الشعب و تعظيمه، و حتى أنّهم أقروا بذنوبهم و طلبوا العفو، و لكن الناس الذين عرفوا سجيّتهم طوال سنين مديدة لم ينخدعوا بذلك.

و بعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ [۲۶۶] أى أمهلهما و ابعث رسلك الى جميع المناطق و الأمصار.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ

و فى الواقع أن رهط فرعون إمّا أنّهم غفلوا، و إمّا أنّهم قبلوا اتهامه لموسى و أعين للأمر. فهيأوا خطة على أنّه ساحر، و لا بدّ من مواجهته بسحرة أعظم منه و أكثر مهارة! ...

و قالوا: لحسن الحظّ إنّ فى بلادنا العريضة سحرة كثيرين، فلا بدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السّلام.

و كلمة (حاشرين) مأخوذه من مادة (الحشر) و معناه التعبئة و السوق لميدان الحرب و أمثال ذلك، و هكذا فينبغى على المأمورين أن يعبئوا السحرة لمواجهة موسى عليه السّلام بأىّ ثمن كان! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۳۸ الى ۴۲]

اشارة

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۳۸) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (۳۹) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۴۰) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۴۱) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴۲)

التّفسير

اجتماع السحرة من كلّ مكان:

فى هذه الآيات يعرض مشهدا آخر من هذه القصّة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع

السحرة و البحث عنهم، و كان الوعد المحدد فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و بتعبير آخر: إنّهم هيئوهم من قبل لمثل هذا اليوم، كى تجتمعوا فى الوعد المقرر فى «ميدان العرض» ..

و المراد من «اليوم المعلوم» كما يستفاد من بعض الآيات فى سورة الأعراف، أنّه بعض أعياد أهل مصر، و قد اختاره موسى عليه السّلام للمواجهة و منازلة السحرة ...

و كان هدفه أن يجد الناس فرصة أوسع للاجتماع، لأنّه كان مطمئنا بأنّه سينتصر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۸

و كان يريد أن يظهر آيات اللّه و ضعف فرعون و الملأ من حوله للجميع، و ليشرق نور الإيمان فى قلوب جماعة كثيرين! ...

و طلب من الناس الحضور فى هذا المشهد: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ و هذا التعبير يدلّ على أنّ المأمورين من قبل فرعون بذلوا قصارى جهودهم فى هذا الصدد ... و كانوا يعلمون أنّهم لو أجبروا الناس على الحضور لكان ردّ الفعل سلبيّا، لأنّ الإنسان يكره الإجبار و يعرض عنه بالفطرة! لذلك قالوا: هل ترغبون فى الحضور؟ و هل أنتم مجتمعون؟ و من البديهى أن هذا الأسلوب جرّ الكثير إلى حضور ذلك المشهد.

و قيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور و الاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الالهة و ينبغى علينا اتباعهم: لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ فلا بدّ من تهييج الساحة للمساعدة فى هزيمة عدو الالهة إلى الأبد.

و واضح أنّ وجود المتفرجين كلّما كان أكثر شدّ من أزر الطرف المبارز، و كان مدعاة لأن يبذل أقصى جهده، كما أنه يزيد من معنوياته و عند ما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب و الضجيج إلى درجة يتوارى بها خصمه، كما أن وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحيّة الطرف المواجه «الخصم» فلا يدعه ينتصر! أجل إن اتباع فرعون بهذه الآمال كانوا يرغبون أن يحضر الناس، كما أنّ موسى عليه السّلام كان يطلب- من اللّه- أن يحضر مثل هذا الجمع الحاشد الهائل! ليبيّن هدفه بأحسن وجه.

كل هذا من جهة، و من جهة أخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ ...

و كان فرعون قلقا مضطرب البال، لأنّه فى طريق مسدود، و كان مستعدّا لأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۶۹

يمنح السحرة أقصى الامتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ اى إن فرعون قال لهم: ما الذى تريدون و تبتغون؟! المال أم الجاه، فكلاهما تحت يدىّ! ...

و هذا التعبير يدلّ على أن التقرب من فرعون فى ذلك المحيط كان مهمّا إلى درجة قصوى! بحيث يذكره فرعون للسحرة و يعدّه أجرا عظيما، و فى الحقيقة لا أجر أعظم من أن يصل الإنسان إلى مقربة من القدرة المطلوبة! ...

فإذا كان الضالّون يعدّون التقرب من فرعون أعظم أجر، فإنّ عباد اللّه لا يرون أجرا أعظم من التقرب الى اللّه تعالى حتى الجنّة بما فيها من النعيم المقيم لا تقاس بنظرة من وجهه الكريم لهم! ...

و لذلك فإنّ الشهداء فى سبيل اللّه الذين ينبغى أن ينالوا أعظم الأجر لإيثارهم الكبير، ينالون التقرب من اللّه بشهادة القرآن! و التعبير القرآنى عِنْدَ رَبِّهِمْ شاهد بليغ على هذه الحقيقة! ...

و كذلك فإنّ المؤمن السليم القلب حين يؤدى العبادة اللّه، يؤديها بهدف «قربة الى اللّه» ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۰

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۴۳ الى ۵۱]

اشارة

قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴۳) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۴۶) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۴۷)
رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۴۸) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴۹) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵۰) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵۱)

التّفسير

نور الإيمان فى قلوب السحرة:

حين اتفق السحرة مع فرعون و وعدهم بالأجر و القرب منه، و شدّ من عزمهم، فإنّهم بدأوا بتهيئة المقدمات و وفروا خلال ما سخت لهم الفرصة عصيّهم و حبالهم، و يظهر أنّهم صيّروها جوفاء و طلوها بمادة كيميائية كالزئبق- مثلا- بحيث تتحرك
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۱
و تلمع عند شروق الشمس عليها! و أخيرا كان اليوم الموعود و الميقات المعلوم، و انثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخيّة، ففرعون و قومه من جانب، و السحرة من جانب آخر، و موسى و أخوه هارون من جانب ثالث، كلهم حضروا هناك! و كعادة القرآن فى حذف المقدمات المفهومة من خلال الآيات المذكورة، و الشروع بذكر أصل الموضوع، فيتحدّث عن مواجهة موسى للسحرة حيث التفت إليهم و: قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ
و يستفاد من الآية (۱۱۵) من سورة الأعراف، أنّ موسى عليه السّلام قال ذلك عند ما سأله السحرة: هل تلقى أنت أوّلا أم نلقى نحن أوّلا؟
و هذا الاقتراح من قبل موسى عليه السّلام يدلّ أنّه كان مطمئنا لانتصاره، و دليلا على هدوئه و سكينته أمام ذلك الحشد الهائل من الأعداء و أتباع فرعون ... كان هذا الاقتراح يعدّ أوّل «ضربة» يدمغ بها السحرة، و يبيّن فيها أنه يتمتع بالهدوء النفسى الخاص، و أنّه مرتبط بمكان آخر و متصل به.
و أمّا السحرة الغارقون بغرورهم، و الذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم فى هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين و مؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السّلام فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ [۲۶۷] أجل، لقد استندوا إلى عزّة فرعون كسائر المتملقين، و بدأوا باسمه و قدرته الواهية! و هنا- كما يبيّن القرآن فى مكان آخر من سورة و آياته- تحركت العصىّ كأنّها الأفاعى و الثعابين و يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى [۲۶۸] و قد انتخب السحرة العصى كوسائل لسحرهم، لتتغلّب حسب تصوّرهم على
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۲
عصى موسى، و أضافوا عليها الحبال ليثبتوا علوّهم و فضلهم عليه ...
فتهللت أسارير وجوه الناس و وجه فرعون فرحا، و أشرق الأمل فى عينى فرعون و أتباعه، و سرّوا سرورا لم يكن ليخفى على أحد، و سرت فيهم نشوة اللّذة من هذا المشهد! إلّا أنّ موسى عليه السّلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد و يدوم هذا الفصل المثير، فتقدم فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فتحولت الى ثعبان عظيم و بدأت بالتهام وسائل و أدوات السحرة بسرعة بالغة فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ [۲۶۹] و هنا طاف صمت مهيب على وجوه الحاضرين و غشّاهم الوجوم و فغرت الأفواه من الدهشة و العجب، و جمدت العيون، و

لكن سرعان ما انفجر المشهد بصراخ المتفرجين المذعورين ففر جماعة من مكانهم و بقى آخرون يترقبون نهاية المشهد، و أفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

و تبدّل كل شىء، و ثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا- إلى تلك اللحظة- مع فرعون غارقين فى الشيطنة، و لأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر و دقائقه، فإنّهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحرا، بل هى معجزة إلهية كبرى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ

الطريف أنّ القرآن يعبر عن خضوع السحرة ب «ألقى» و هذا التعبير إشارة إلى منتهى التأثير و جاذبية معجزة موسى لهم، حتى كأنّهم سقطوا على الأرض و سجدوا دون اختيارهم ...

و اقترن هذا العمل العبادى- و هو السجود- بالقول بلسانهم ف قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ

و لئلا يبقى مجال للإبهام و الغموض و التردد، و لئلا يفسر فرعون ذلك تفسيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۳

آخر فإنّهم قالوا: رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ

و هذا التعبير يدلّ على أنّه و إن كان موسى عليه السّلام متكفلا لأمر المبارزة و إلقاء العصا و محاججة السحرة، إلّا أنّ أخاه هارون كان يعاضده فى الأمر، و كان مستعدا لتقديم أى عون لأخيه.

و هذا التبدل و التغيّر المفاجئ العجيب فى نفوس السحرة بحيث خطوا فى لحظة واحدة من الظلمة المطلقة إلى النور المبين. و لم يكتفوا بذلك حتى أقحموا أنفسهم فى خطر القتل، و أعرضوا عن مغريات فرعون و مصالحهم المادية ... كلّ ذلك لما كان عندهم من «علم» استطاعوا من خلاله أن يتركوا الباطل و يتمسكوا بالحقّ! إنّهم لم يجوبوا باقى الطريق بخطى العقل فحسب، بل ركبوا خيول العشق، و قد سكروا من عطر أزهاره، حتى كأنّهم لم يفيقوا من سكرتهم، و سنرى أنّهم لهذا السبب استقاموا بشجاعة أمام تهديدات فرعون الرهيبة ...

نقرأ

حديثا عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «ما من قلب إلّا بين إصبعين من أصابع الرحمان، إن شاء أقامه، و إن شاء أزاغه»[۲۷۰]

(و بديهى أن مشيئة اللّه فى هاتين المرحلتين تتعلق باستعداد الإنسان، و هذا التوفيق أو سلب التوفيق إنّما هو لأجل قابلية القلوب المختلفة، و ليس اعتباطا).

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوما معنويا و يرى من جانب آخر أن وجوده و سلطانه فى خطر، و خاصّة أنه كان يعرف أىّ تأثير عميق لإيمان السحرة فى قلوب سائر الناس، و من الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة و ابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ [۲۷۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۴

لقد تربع على عرش الاستبداد سنين طوالا، و لم يكن يترقب من الناس أن لا يسجدوا أو يقوموا بعمل دون إذنه فحسب، بل كان ترقّبه أن تكون قلوب الناس و أفكارهم مرهونة به و بأمره، فليس لهم أن يفكّروا دون اذنه!! و هكذا هى سنة الجبابرة و المستكبرين!.

هذا المغرور الطائش لم يكن مستعدّا لأن يذكر اسم اللّه و لا اسم موسى، بل اكتفى بالقول (آمنتم له)! و المراد من هذا التعبير هو التحقير!! إلّا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أخريين ليثبّت موقعه كما يتصوّر أوّلا، و ليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلة نياما.

فاتّهم السحرة أوّلا بأنّهم تواطؤوا مع موسى عليه السّلام و تآمروا على أهل مصر جميعا، فقال: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.

و قد اتفقتم مع موسى من قبل أن تردوا هذه الساحة، فتضلوا أهل مصر و تجرّوهم إلى الخضوع تحت سيطرة حكومتكم، و تريدون أن

تطردوا أصحاب هذا البلد و تخرجوهم من ديارهم و تحلّوا العبيد محلهم ...

إلّا أننى لا أدعكم تنتصرون فى هذه المؤامرة، و سأخنق المؤامرة فى مهدها فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ

أى: لا أكتفى بإعدامكم فحسب، بل أقتلكم قتلا بالتعذيب و الزجر بين الملأ العام، و على جذوع النخل، (لأن قطع الأيدى و الأرجل من خلاف يؤدى إلى الموت البطىء، فيذوق معه الإنسان التعذيب أكثر).

و هذه هى طريقة الجبابرة و الحكّام الظلمة فى كل عصر و زمان، ففى البدء يتهمون الرجال المصلحين بالتآمر ضد الناس، و بعد الاستفادة من حربة التهمة يعملون السيف فى رقاب ليضعف موقع المطالبين بالحق و لا يجدوا معاضدا لهم، فيزيحوهم من طريقهم.

إلّا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظة- و المؤمنين فى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۵

اللحظة- قد غمر قلوبهم الإيمان، و أضرمهم عشق اللّه، بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع و احبطوا خطته و قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ

فأنت بهذا العمل لا تنقص منّا شيئا، بل توصلنا إلى معشوقنا الحقيقى و المعبود الواقعى، فيوم كانت هذا التهديدات تؤثر فينا لم نعرف أنفسنا و لم نعرف ربّنا، و كنّا، ضالين مضلين، إلّا أنّنا عثرنا اليوم على ضالتنا (فاقض ما أنت قاض)! ثمّ أضافوا بأنّهم واجهوا النّبى موسى عليه السّلام من قبل بالتكذيب و أذنبوا كثيرا، و لكن مع ذلك ف إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ...

إنّنا لا نستوحش اليوم من أى شىء، لا من تهديداتك، و لا من تقطيع الأيدى و الأرجل من خلاف و لا من الصلب على جذوع النخل.

و إذا كنّا نخاف من شىء، فإنّما نخاف من ذنوبنا الماضية، و نرجو أن تمحى فى ظل الإيمان و بفضل اللّه و لطفه! أية طاقة و قوّة هذه التى إن وجدت فى الإنسان صغرت عندها أعظم القوى، و هانت عنده أشد الأمور، و كرمت نفسه بسخاء فى موقف التضحية و الإيثار؟! إنّها قوّة الإيمان.

إنّها شعلة العشق النيرة، التى تجعل الشهادة فى سبيل اللّه أحلى من الشهد و العسل، و تصيّر الوصال إلى المحبوب أسمى الأهداف! هذه هى القوّة التى استعان بها النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ربّى المسلمين الأوائل عليها، و أوصل أمة جهلاء متأخرة إلى أوج الفخر بسرعة مذهلة، فكانت الأمة المسلمة التى أذهلت الدنيا! إلّا أن هذا المشهد- على كل حال- كان غاليا و صعبا على فرعون و قومه، بالرغم من أنّه طبّق تهديداته- طبقا لبعض الروايات- فاستشهد على يديه السحرة المؤمنون- إلّا أن ذلك لم يطفئ عواطف الناس تجاه موسى فحسب، بل أثارها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۶

أكثر فأكثر! ...

ففى كل مكان كانت اصداء النّبى الجديد ... و فى كل حدب و صوب حديث عن أوائل الشهداء المؤمنين، و هكذا آمن جماعة بهذا النحو، حتى أن جماعة من قوم فرعون و أصحابه المقربين حتى زوجته، آمنوا بموسى ايضا.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: كيف عبر السحرة التائبون المؤمنون عن أنفسهم بأنّهم أوّل المؤمنين ...

هل كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين فى ذلك المشهد؟! أو كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين من حماة فرعون؟! أو أنّهم أوّل المؤمنين الذين وردوا «الشهادة».

كل هذه الأمور محتملة، و لا تتنافى فى ما بينها.

و هذه التفاسير إنّما تصحّ فى صورة ما لو قلنا بأنّ جماعة من بنى إسرائيل أو من غيرهم آمنوا بموسى قبل ذلك، أما لو قلنا بأنّهم أمروا

بعد البعثة أن يتصلوا بفرعون مباشرة و أن يوردوا الضربة الأولى عليه، فلا يبعد أن يكونوا أول المؤمنين، و لا حاجة عندئذ إلى تفسير آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۵۲ الى ۵۹]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶)

فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (۵۹)

التّفسير

مصير الفراعنة:

فى الآيات المتقدمة ... رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصرا من تلك المواجهة.

رغم عدم إيمان فرعون و قومه إلّا أن هذه القضية كان لها عدة آثار مهمّة، يعدّ كلّ منها انتصارا مهمّا:

۱- آمن بنو إسرائيل بنبيّهم «موسى عليه السّلام» و التفّوا حوله بقلوب موحّدة ... لأنّهم بعد سنوات طوال من القهر و التعسف و الجور يرون نبيّا سماويا فى أوساطهم يضمن هدايتهم و على استعداد لأنّ يقود ثورتهم نحو الحرية و تحقيق النصر على فرعون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۸

۲- لقد شقّ موسى عليه السّلام طريقة وسط أهل مصر من الأقباط و غيرهم ... و مال إليه جمع منهم، أو على الأقل خافوا من مخالفته، و طافت أصداء دعوة موسى فى أرجاء مصر جمعاء! ۳- و أهمّ من كل ذلك أنّ فرعون لم ير فى نفسه القدرة- لا من جهة أفكار عامّة الناس، و لا من جهة الخوف على مقامة- على مواجهة رجل له عصا كهذه العصا، و لسان مؤثر كلسان موسى.

هذه الأمور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السّلام دعوته بين الناس، و يتمّ الحجة عليهم! و مرّت سنون طوال على هذا المنوال، و موسى عليه السّلام يظهر المعاجز تلو المعاجز- كما أشارت إليها سورة الأعراف و بيّناها فى ذيل الآيات ۱۳۰- ۱۳۵ منها- إلى جانب منطقه المتين، حتى ابتلى اللّه أهل مصر بالقحط و الجذب لسنوات لعلهم يتّقون «لمزيد الإيضاح لا بأس بمراجعة تفسير الآيات آنفة الذكر» ...

و لمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، و امتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحى على موسى أن يخرج بقومه من مصر، و الآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلا: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ

و هذه خطة إلهية على موسى عليه السّلام أن يمتثلها و يسرى بقومه ليلا، و إنّ على فرعون و قومه أن يعلموا ذلك فيتبعوهم ليحدث ما يحدث بأمر اللّه.

و التعبير ب «عبادى» بضمير الإفراد، مع أن الفعل (أوحينا) فى الجملة ذاتها مسند إلى ضمير الجمع، إنّما هو لبيان منتهى محبة اللّه لعباده المؤمنين ...

و فعلا امتثل موسى عليه السّلام هذا الأمر، و عبأ بنى إسرائيل بعيدا عن أعين أعدائهم، و أمرهم بالتحرك، و اختار الليل خاصّة لتنفيذ

أمر اللّه لتكون خطته نافذة.

إلّا أن من البديهى أن حركة جماعة بهذا الشكل ليس هينا يسيرا يمكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۷۹

إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، و كما يحدثنا القرآن عن ذلك أن فرعون أرسل رسله و أعوانه الى المدن لجمع القوات: فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ

بالطبع فإنّ فى تلك الظروف، وصول إبلاغ فرعون إلى المدائن، و جميع مناطق مصر، يحتاج إلى زمان معتنى به لكن من الطبيعى أن يصل هذا البلاغ المدن القريبة بسرعة و تتحرك القوى المعدّة فورا، و تؤدى مقدمة الجيش مهمّتها، و تتبعها بقية الأفواج بالتدريج ...

و لتعبئة الناس- ضمنا- و تهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى و قومه، أمر فرعون أن يعلن إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتما.

و «الشرذمة» فى الأصل تعنى القلة من الجماعة، كما تعنى ما تبقى من الشىء، و يطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أى موسى و قومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسم عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث أعداد الجيش فيهم ...

ثمّ تضيف الآية الأخرى حاكية عن لسان فرعون وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ فمن يسقى مزارعنا غدا، و من يبنى لنا القصور؟ و من يخدم فى البيوت و القصور غيرهم؟! ثمّ إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ و مستعدون جميعا لمواجهتهم.

و قد فسّر بعضهم «حاذرون» على أنها من الحذر، بمعنى الخوف و الخشية من التآمر، و فسّر بعضهم (حاذرون) على أنها من الحذر، بمعنى الفطنة و التهيؤ من حيث السلاح و القوّة. إلّا أن هذين التّفسيرين لا منافاة بينهما، فربّما كان فرعون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۰

و قومه قلقين من موسى و مستعدين لمواجهته أيضا.

ثمّ يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون و قومه و زوال حكومته، و قيام حكومة بنى إسرائيل، فيقول: فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ ... وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ

أجل كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ

و هناك اختلاف بين المفسّرين فى المراد من كلمة مَقامٍ كَرِيمٍ فقال بعضهم بأنّها القصور المجللة و المساكن المظللة ...

و قال بعضهم بأنّها المجالس المنعقدة بالحبور و السرور و النشاط.

و قال بعضهم: المراد مقام الحكام و الأمراء، الذين يجلسون على كراسيهم و من حولهم أتباعهم و جنودهم يمتثلون أوامرهم ...

و قال بعضهم: بل يعنى المنابر التى كان يصعدها الخطباء «المنابر التى كانت لصالح فرعون و حكومته و جهازه فهى بمثابة أبواق إعلام له».

و بالطبع فإن المعنى الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو، رغم أن هذه المعانى غير متباينة و من الممكن أن تجتمع هذه المعانى جميعا فى مفهوم الآية ...

فالمستكبرون (فرعون و قومه) أخرجوا من قصورهم و حكومتهم و موقعهم و قدرتهم، كما أخرجوا من مجالسهم المنعقدة بالحبور و السرور.

ملاحظتان

۱- هل حکم بنو إسرائیل فی مصر؟!

علی أساس تعبیر الآیات المتقدمة کَذلِکَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِیلَ ... فإنّ جمعا من المفسّرین یعتقدون أن بنی إسرائیل عادوا إلی مصر و سیطروا علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۱

الحکم، و مکثوا فی مصر حاکمین مدّة.[۲۷۲] و ظاهر الآیات المتقدمة یناسب هذا التّفسیر.

فی حین أن بعض المفسّرین یعتقد أن بنی إسرائیل تحرکوا نحو بیت المقدس بعد هلاک فرعون و أتباعه، إلّا أنّهم بعد مدّة مدیدة رجعوا إلی مصر و شکلوا فیها حکومتهم.[۲۷۳] و تتطابق فصول التوراة الحالیة المتعلقة بهذا القسم مع هذا التّفسیر.

و یعتقد بعض آخر من المفسّرین أن بنی إسرائیل صاروا جماعتین أو فئتین، فجماعة منهم بقیت فی مصر و حکمت فیها، و تحرکت جماعة منهم مع موسی نحو بیت المقدس.

و ذکر احتمال آخر، و هو أن بنی إسرائیل حکموا مصر بعد موسی علیه السّلام و فی زمان النّبی سلیمان بن داود، و الآیة کَذلِکَ وَ أَوْرَثْناها بَنِی إِسْرائِیلَ ناظرة إلی هذا المعنی! إلّا أنّه مع ملاحظة أن موسی علیه السّلام نبی ثائر کبیر، فمن البعید جدّا أن یترک هذه الأرض التی تهاوت أرکان حکومتها و قد أصبحت مقالید أمورها بیده فیذرها کلیا دون أن یخطط لها خطة و یتجه نحو فلسطین و بیت المقدس و الصحاری الشاسعة، و لا سیما أن بنی إسرائیل قد سکنوا مصر لسنین طوال، و تعودوا علی محیطها، فبناء علی هذا لا یخرج الأمر من أحد حالین ... أمّا أن نقول: إن بنی إسرائیل عادوا جمیعا إلی مصر و حکموا فیها، أو أن نقول: إن قسما منهم بقوا فی مصر بأمر موسی علیه السّلام و استولوا علی العرش و حکموا فی مصر! ... و فی غیر هاتین الحالین لا یتجلّی مفهوم لإخراج الفراعنة منها و وراثة بنی إسرائیل لها ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۲

۲- ترتیب الآیات

یشرح القرآن فیما یأتی من الآیات کیفیة غرق فرعون و اتباعه، و هذا الأمر یدعو إلی التساؤل: کیف یذکر القرآن إخراج فرعون و قومه من جنات و عیون و کنوز و مقام کریم و إیراثه «ذلک» بنی إسرائیل! ثمّ یذکر کیفیة غرق فرعون و قومه؟ مع أن الترتیب الطبیعی للآیات لیس کذلک ...

هذا الأمر ربّما یکون من قبیل بیان الإجمال ثمّ التفصیل، أی أن القرآن ذکر الموضوع أوّلا بصورة مجملة، ثمّ وضحه فی الآیات الاخر! کما یمکن أن یکون من قبیل ذکر النتیجة، ثمّ شرح المقدمات «فتدبر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۳

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۶۰ الی ۶۸]

اشارة

فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِینَ (۶۰) فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسی إِنَّا لَمُدْرَکُونَ (۶۱) قالَ کَلَّا إِنَّ مَعِی رَبِّی سَیَهْدِینِ (۶۲) فَأَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنِ اضْرِبْ بِعَصاکَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَکانَ کُلُّ فِرْقٍ کَالطَّوْدِ الْعَظِیمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِینَ (۶۴)

وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸)

التّفسير

عاقبة فرعون و أتباعه الوخيمة

فى هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصّة موسى و فرعون، و هو كيفية هلاك فرعون و قومه، و نجاة بنى إسرائيل و انتصارهم! و كما قرأنا فى الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، و هيأ مقدارا كافيا من «القوّة» و الجيش، قال بعض المفسّرين: كان ما أرسله فرعون على أنّه مقدمة الجيش ستمائة ألف مقاتل، و تبعهم نفسه بألف ألف مقاتل «أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۴

مليون».[۲۷۴] تحركوا فى جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحا كما تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۲۷۵] فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ

فأما منا بحر خضم متلاطم بالأمواج، و من ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة ... هؤلاء الغاضبون علينا و هم الذين قتلوا أطفالنا الأبرياء سنين طوالا ... و فرعون نفسه رجل دموى جبار ... فعلى هذا سيحاصروننا بسرعة، و يقتلوننا جميعا بحدّ السيوف، أو سيأسروننا و يعذبوننا، و القرائن جميعها تدل على ذلك.

و هنا مرّت لحظات عسيرة على بنى إسرائيل ... لحظات مرّة لا يمكن وصف مرارتها ... و لعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم و فقدوا معنوياتهم و روحياتهم.

إلّا أنّ موسى عليه السّلام كان مطمئنا هادئ البال، و كان يعرف أن وعد اللّه فى هلاك فرعون و قومه و نجاة بنى إسرائيل لا يتخلف أبدا و لن يخلف اللّه وعده رسله! ...

لذلك التفت إلى بنى إسرائيل الفزعين بكمال الاطمئنان و الثقة و قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ

و لعلّ هذا التعبير يشير إلى وعد اللّه لموسى و أخيه هارون حين أمرهما بإنذار قومهما، إذ قال لهما: إنى معكما أسمع و أرى.[۲۷۶] إذ كان موسى يعلم أن اللّه معه فى كل مكان، و خاصّة تعويله فى كلامه على كلمة (ربّى) أى اللّه المالك و المربّى هذا يدل على أنّ موسى عليه السّلام كان يدرى أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۵

لا يطوى هذا الطريق بخطاه، بل بلطف اللّه القادر الرحيم ...

و فى هذه الحال التى قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، و كانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر اللّه كما يقول القرآن: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ ....

تلك العصا التى هى فى يوم آية إنذار، و فى يوم آخر آية رحمة و نجاة! فامتثل موسى عليه السّلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بنى إسرائيل، إذا انشقّ البحر فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ و «انفلق» مأخوذ من «الفلق» و معناه الإنشقاق و «فرق» من مادة «فرق» على زنة «حلق» و معناه الانفصال! و بتعبير آخر، كما يقول الراغب فى مفرداته: أن الفرق بين (فلق) و (فرق) هو أن الأوّل يشير إلى الإنشقاق (أو الانشطار) و الثّانى يشير إلى الانفصال، و لذا تطلق الفرقة و الفرق على القطعة أو الجماعة التى انفصلت عن البقيّة! ...

«الطود» معناه الجبل العظیم، و وصف الطود بالعظمة فی الآیة تأکید آخر علی معناه.

و علی کل حال، فإنّ اللّه الـذی ینفذ أمره فی کل شـیء، و بأمره تموج البحار و تتصـرف الریاح و تتحرک العواصف و کل شـیء فی عالم الوجود من رشـحات فضله و قدرته أصدر أمره الی البحر، و أمواجه، فالتحمت الأمواج و تراکمت بعضها إلی بعض، و ظهرت ما بینهـا طرق سالکـة، فمرّت کـل فرقـة من بنی إسـرائیل فی إحـدی الطرق! إلّـا أنّ فرعون و أتباعه بالرغم من مشاهـدتهم هـذه المعجزة الکبری الواضـحة لم یذعنوا للحق، و لم ینزلوا عن مرکب غرورهم، فاتبعوا موسـی و رهطه لیبلغوا مصیرهم المحتوم، کما یقول القرآن فی هذا الشأن: وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِینَ ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۶

و هکـذا ورد فرعون و قومه البحر أیضـا، و اتبعوا عبیـدهم القـدماء الـذین استرقّوهم بطغیـانهم، و هم غـافلون عن أن لحظـات عمرهم تقترب من النهایة، و أن عذاب اللّه سینزل فیهم! و تقول الآیة التالیة: وَ أَنْجَیْنا مُوسی وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِینَ

و حین خرج آخر من کان من بنی إسـرائیل من البحر، و دخل آخر من کان من أتباع فرعون البحر، صـدر أمر اللّه فعادت الأمواج إلی حالتها الأولی فانهالت علیهم فجأة، فهلک فرعون و قومه فی البحر، و صار کل منهم کالقشّة فی وسط الأمواج المتلاطمة.

و یبیّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متینة فیقول: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِینَ ...

و هکذا انتهی کل شیء فی لحظة واحدة ... فالأرقاء أصبحوا أحرارا، و هلک الجبابرة، و انطوت صفحة من صفحات التأریخ، و انتهت تلک الحضارة المشیدة علی دماء المستضعفین، و ورث الحکومة و الملک المستضعفون بعدهم.

أجل إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ فکأنّ فی أعینهم عمی، و فی آذانهم و قرا، و علی قلوب أقفالا.

فحیث لا یؤمن فرعون و قومه مع ما رأوا من المشاهـد العجیبـة، فلا تعجب إذا ألّا یؤمن بک المشـرکون- یا محمـد- و لا تحزن علیهم لعـدم إیمانهم، فالتاریـخ- یحمل بین طیاته و ثناياه کثیرا من هـذه المشاهد! و التعبیر ب «أکثرهم» إشارة إلی أن جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسـی و التحقوا بأصـحابه، لا آسیة امرأة فرعون فحسب، و لا رفیق موسی المخلص المذکور فی القرآن علی أنه مؤمن من آل فرعون، بل آخرون أیضا کالسحرة التائبین مثلا.

أمّا آخر آیة من هذه الآیات فتشیر فی عبارة موجزة و ذات معنی غزیر إلی قدرة اللّه و رحمته المطلقة و اللامتناهیة، فتقول: وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۸۷

فمن عزته أنه متی شاء أن یهلک الأمم المسـرفة الباغیـة أصـدر أمره فأهلکها، و لا یحتاج أن یرسل جنودا من ملائکة السـماء لإهلاک أمّـة جبّارة ... فیکفی أن یهلکها بما هو سـبب حیاتها، کما أهلک فرعون و قومه بالنیل الـذی کان أساس حیاتهم و ثروتهم و قدرتهم، فـإذا هو یقبرهم فیه!! و من رحمته أنّه لاـ یعجـل فی الأمر أبـدا، بل یمهل سـنین طوالا. و یرسل معاجزه إتماما للحجـة، و من رحمته أن یخلص هؤلاء المستعبدین من قبضة الجبابرة الظالمین.

مسائل مهمة:

۱- معبر بنی إسرائیل!

ورد التعبیر فی القرآن مرارا عن موسـی أنه عبر بقومه «البحر»[۲۷۷] کما جاء فی بعض الآیات لفظ «الیمّ» بـدلا من البحر.[۲۷۸] و الآن ینبغی أن نعرف ما المراد من «البحر» و «الیم» هنا، أهو إشارة إلی النهر الکبیر الواسع فی مصـر، النیل الذی یروی جمیع أراضیها؟ أم هو

إشارة إلى البحر الأحمر «المعروف ببحر القلزم فی بعض المصطلحات»؟

یستفاد من التوراة الحالیة- و کذلک من کلمات بعض المفسّرین- أنه إشارة إلى البحر الأحمر ... إلّا أن القرائن الموجودة و المتوفرة تدل على أنّ المراد منه هو نهر النیل، لأن «البحر» کما یقول الراغب فی مفرداته یعنی فی اللغة الماء الکثیر الواسع، و الیم بهذا المعنى أیضا. فلا مانع إذا من إطلاق الکلمتین على نهر النیل.

و أمّا القرائن المؤیدة لهذا الرأی فهی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۸

۱- أنّ منطقة سکن الفراعنة التی کانت مرکزا لمدن مصر العامرة کانت نقطة قریبة من النیل حتما ... و إذا أخذنا بنظر الإعتبار معیار محلهم الفعلی «الأهرام» أو ما حولها، فإنّ بنی إسرائیل لا بدّ لهم أن یعبروا نهر النیل لیصلوا إلى الأرض المقدسة، لأن هذه المنطقة تقع غرب النیل و لا بدّ لهم من أن یتجهوا نحو الشرق للوصول إلى الأرض المقدسة! «فلاحظوا بدقة»! ۲- أنّ الفاصلة بین المناطق العامرة[۲۷۹] من مصر و التی هی قریبة من النیل بالطبع، بعیدة عن البحر الأحمر بحیث لا یمکن أن تطوی المسافة بینها و بین البحر بلیلة أو نصف لیلة ...

و یستفاد من الآیات المتقدمة بوضوح أن بنی إسرائیل غادروا أرض الفراعنة لیلا، و طبیعی أن تکون المغادرة فی اللیل. أمّا فرعون و جیشه فقد اتبعوهم حتى بلغوهم مشرقین «عند الصباح».

۳- لم تکن حاجة لیعبر بنو إسرائیل البحر الأحمر حتى یصلوا الأرض المقدسة، إذ کانت هناک منطقة یابسة ضیقة قبل حفر ترعة السویس «أو ما یصطلح علیها بقناة السویس» ... إلّا أن نفترض أن البحر الأحمر کان متصلا بالبحر الأبیض المتوسط فی الزمن السابق، و لم تکن هناک منطقة یابسة، و هذا الفرض غیر ثابت بأیّ وجه! ...

۴- یعبّر القرآن عن قصة موسى بإلقائه فی «الیم» «من قبل أمه» الآیة ۳۹ من سورة طه، کما یعبر عن غرق فرعون و أتباعه بقوله: فَغَشِیَهُمْ مِنَ الْیَمِّ ما غَشِیَهُمْ الآیة ۷۸ من السورة ذاتها. و کلتا القضیتین فی قصة واحدة و سورة واحدة أیضا (طه) و کون اللفظین مطلقین- (الیم) فی الآیة السابقة و (الیم) فی الآیة اللاحقة- یشعر بأنّهما واحد ... و مع ملاحظة أن أمّ موسى لم تلق موسى فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۳۸۹

البحر الأحمر قطعا، بل ألقته فی النیل طبقا لما تذکره التواریخ، فیعلم أن غرق فرعون و قومه کان فی النیل «فلاحظوا بدقّة».

۲- کیفیة نجاة بنی إسرائیل و غرق فرعون و قومه

هناک بعض المفسّرین ممن لا یمیل إلى کون نجاة بنی إسرائیل و غرق فرعون و قومه معجزة، بل حادثة طبیعیة، کما یصرّون على ذلک، فوجّهوا ذلک کله بأسباب طبیعیة.

لذلک قالوا: إنّ هذا الموضوع یمکن تطبیقه بواسطة الجسور المتحرکة المستعملة فی العصر الحدیث.[۲۸۰] و قال بعضهم: إنّ موسى علیه السّلام کان مطلعا على طرق خاصّة، و کان یمکنه العبور من البرازخ (أو الطرق الموجودة فی بحر سوف) أی خلیج السویس، إلى جزیرة سیناء. و انفلاق البحر- فی الآیات محل البحث- إشارة إلى هذا المعنى ۲۸۱] ...

و قال بعضهم: من المحتمل جدا أن یکون وصول موسى و قومه البحر عند منتهى جزره، فاستطاع أن یعبر بهم من النقاط الیابسة و یجتازها بسرعة، و لکن عند ما ورد فرعون و قومه البحر شرع المدّ فورا فأغرقوا بالنیل حینئذ و هلکوا ...

و لکن الحق أن أیّا من هذه الاحتمالات لا ینسجم و ظاهر الآیات- إن لم نقل و صریح الآیات- و مع قبول معاجز الأنبیاء الوارد بیانها مرارا فی سور القرآن، و خاصّة معجزة عصا موسى نفسها، فلا حاجة لمثل هذه التوجیهات ...

فما يمنع أن تتراكم أمواج النيل بعد ضربها من قبل موسى بالعصا بأمر اللّه الحاكم على قانون العليّة فى عالم الوجود، و تنجذب متأثرة بما فيها من سرّ غامض، لتترك طريقا يبسا بيّنا (يمرّ فى وسط البحر) ثمّ تتلاشى هذه الجاذبيّة بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۰

مدة، و يعود البحر إلى حالته الطبيعية و إلى أمواجه المتلاطمة! ... و ليس هذا استثناء فى قانون العليّة، بل هو اعتراف بتأثير علل غير معتادة، لا نعرفها لقصور علمنا أو لقلّة معلوماتنا!

۳- اللّه عزيز رحيم

ينبغى ملاحظة هذه اللطيفة، إذ جاءت الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- بمثابه استنتاج لما جرى من أمر موسى و فرعون و قومهما، و انتصار جيش الحق و انهزام الباطل! إذ تصف هذه الآية «اللّه» سبحانه بالعزيز الرحيم ...

فالوصف الأوّل إشارة إلى أنّ قدرته لا تضعف و لا تقهر، و الوصف الثّانى إشارة إلى أنه يوصل رحمته لعباده جميعا، و خاصّة بتقديم وصف (العزيز) على (الرحيم) لئلا يتوهّم أن رحمته من منطلق الضعف، بل هو مع قدرته رحيم! ...

و بالطبع فإنّ من المفسّرين من يرى أن وصفه بالعزيز إشارة إلى اندحار أعدائه، و وصفه بالرحيم إشارة إلى انتصار أوليائه، إلّا أنه لا مانع أبدا أن يشمل الوصفان الطائفتين معا ... لأنّ الجميع ينعمون برحمته حتى المسيئون ... و الجميع يخافون من سطوته حتى الصالحون ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۱

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۶۹ الى ۸۲]

اشارة

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ (۶۹) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ (۷۰) قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ (۷۱) قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (۷۲) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (۷۳)

قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۷۴) قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۷۵) أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (۷۶) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ (۷۷) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (۷۸)

وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ (۷۹) وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۸۰) وَ الَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (۸۱) وَ الَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (۸۲)

التّفسير

أعبد ربّا ... هذه صفاته:

كما ذكرنا فى بداية هذه السورة، فإنّ اللّه يبيّن حال سبعة من الأنبياء العظام، و مواجهاتهم أقوامهم لهدايتهم، لتكون «مدعاة» تسلية للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين القلّة معه فى عصره، و فى الوقت ذاته إنذار لجميع الأعداء و المستكبرين أيضا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۲

لـذلك تعقّب هـذه الآيات على قصّـة موسـى و فرعون المليئـة بالدروس لتبيّن قصة إبراهيم و مواجهاته المشـركين، و تبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر[۲۸۲] فتقول:

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهِيمَ

و من بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبىّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القسم: إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص ۳۹۲

من المسلّم به أنّ إبراهيم كان يعلم أىّ شىء يعبدون، لكن كان هدفه أن يستدرجهم ليعترفوا بما يعبدون، و التعبير ب «ما» مبيّن ضمنا نوعا من التحقير! فأجابوه مباشـرة قالُوا نَعْبُـدُ أَصْـناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ و هـذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافيا أن يجيبوه:

نعبـد أصـناما، إلّا أنّهم أضافوا هـذه العبارة: فَنَظَلُّ لَها عاكِفِينَ التعبير ب «نظلّ» يطلق عادة على الأعمال التى تؤدى خلال اليوم، و ذكره بصيغة الفعل المضارع إشارة إلى الاستمرار و الدوام.

كلمة «عاكفين» مأخوذة من «العكوف»، و معناه التوجه نحو الشىء و ملازمته باحترام، و هى تأكيد لما سبق من التعبير.

«الأصـنام» جمع الصـنم، و هو الهيكـل أو التمثال المصـنوع من الـذهب أو الخشب أو ما شاكلهما للعبادة، و كانوا يتصورون أنها مظهر للتقديس ...

و على كل حال، فإنّ إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال و الاعتراض بشدّة، و قمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم فى طريق مغلق، ف قالَ هَلْ يَسْـمَعُونَكُمْ إِذْ تَـدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُـرُّونَ ! إن أقلّ ما ينبغى توفره فى المعبود هو أن يسـمع نـداء عابده، و أن ينصره فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۳

البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره! ...

إلّـا أن هـذه الأصـنام ليس فيهـا مـا يـدلّ على أن لها أقلّ إحساس أو شـعور أو أدنى تأثير فى عواقب الناس، فهى أحجار أو فلزات «أو معادن أو خشب لا قيمة لها! و إنّما أعطتها الخرافات هذه الهالة و هذه القيمة الكاذبة! ...

إلّا أن عبـدة الأصـنام الجهلـة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القـديم الذى يكررونه دائما، ف قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ

و هـذا الجواب الـذى يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسـلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذى اسـتطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السّـلام، و هو جواب دليـل بطلانه كامن فيه، و ليس أى عاقل يجيز لنفسه أن يقفو أثر غيره و يصم أذنيه و يغمض عينيه، و لا سـيما أن تجارب الخلف أكثر من السلف عادة، و لا يوجد دليل على تقليدهم الأعمى! ...

و التعبير ب كَذلِكَ يَفْعَلُونَ تأكيد أكثر على تقليدهم، أى نفعل كما كانوا يفعلون، سواء عبدوا الأصنام أم سواها.

فالتفت إبراهيم موبّخا لهم و مبينا موقفة منهم و قالَ أَ فَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعالَمِينَ ... أجل ... إنّهم جميعا أعدائى و أنا معاديهم، و لا أسالمهم أبدا ...

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن إبراهيم الخليل عليه السّـلام يقول: «فإنّهم عـدوّ لى» و إن كان لازم هـذا التعبير أنّه عـدوّ لهم أيضا، إلّا أن هذا التعبير لعله ناشئ من أن عبادة الأصنام أساس الشقاء و الضلال و عذاب الدنيا و الآخرة «للإنسان»، و هذه الأمور فى حكم عداوتها للإنسان. أضف إلى ذلك أنه يستفاد من آيات متعددة من القرآن أن الأصنام تبرأ من عبدتها يوم القيامة و تعاديهم، و تحاججهم بأمر اللّه و تنفر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۴

منهم.[۲۸۳] و استثناء ربّ العالمین مع أنّه لم یکن من معبوداتهم، و کما یصطلح علیه استثناء منقطع، إنّما هو للتأکید علی التوحید الخالص.

کما یرد هذا الاحتمال و هو أن من بین عبدة الأصنام من کان یعبد اللّه إضافة إلی عبادة الأصنام، فاستثنی إبراهیم «ربّ العالمین» من الأصنام، رعایة لهذا الموضوع ...

و ذکر الضمیر «هم» الذی یستعمل عادة للجمع «فی العاقلین» و قد ورد فی شأن الأصنام، لما ذکرناه من بیان آنفا ...

ثمّ یصف إبراهیم الخلیل ربّ العالمین و یذکر نعمه المعنویة و المادیّة، و یقایسها بالأصنام التی لا تسمع الدعاء و لا تنفع و لا تضرّ، لیتّضح الأمر جلیّا ...

فیبدأ بذکر نعمة الخلق و الهدایة فیقول: الَّذِی خَلَقَنِی فَهُوَ یَهْدِینِ فقد هدانی فی عالم التکوین، و وفر لی وسائل الحیاة المادیة و المعنویة، کما هدانی فی عالم التشریع فأوحی إلیّ و أرسل إلیّ الکتاب السماوی ...

و ذکر «الفاء» بعد نعمة الخلق، هو إشارة إلی أن الهدایة لا تنفصل عن الخلق أبدا، و جملة (یهدین) الواردة بصیغة الفعل المضارع، دلیل واضح علی استمرار هدایته، و حاجة الإنسان إلیه فی جمیع مراحل عمره! فکأن إبراهیم فی کلامه هذا یرید أن یبیّن هذه الحقیقة، و هی إنّنی کنت مع اللّه منذ أن خلقنی، و معه فی جمیع الأحوال، و أشعر بحضوره فی حیاتی، فهو ولیی حیث ما کنت و یقلبنی حیثما شاء! ...

و بعد بیان أولی مراحل الربوبیة، و هی الهدایة بعد الخلق، یذکر إبراهیم الخلیل علیه السّلام النعم المادیة فیقول: وَ الَّذِی هُوَ یُطْعِمُنِی وَ یَسْقِینِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۵

أجل، إنّنی أری النعم جمیعا من لطفه، فلحمی و جلدی و طعامی و شرابی، کل ذلک من برکاته! ...

و لست مشمولا بنعمة فی حال الصحة فقط، بل فی کل حال وَ إِذا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ

و مع أنّ المرض أیضا قد یکون من اللّه، إلّا أن إبراهیم نسبه إلی نفسه رعایة للأدب فی الکلام ...

ثمّ یتجاوز مرحلة الحیاة الدنیا إلی مرحلة أوسع منها ... إلی الحیاة الدائمة فی الدار الآخرة، لیکشف أنه علی مائدة اللّه حیثما کان، لا فی الدنیا فحسب، بل فی الآخرة أیضا. فیقول: وَ الَّذِی یُمِیتُنِی ثُمَّ یُحْیِینِ

أجل، إنّ موتی بیده و عودتی إلی الحیاة مرّة أخری منه أیضا ..

و حین أرد عرصات یوم القیامة أعلّق حبل رجائی علی کرمه: وَ الَّذِی أَطْمَعُ أَنْ یَغْفِرَ لِی خَطِیئَتِی یَوْمَ الدِّینِ

و ممّا لا شک فیه أن الأنبیاء معصومون من الذنب، و لیس علیهم وزر کی یغفر لهم ... إلّا أنّه- کما قلنا سابقا- قد تعدّ حسنات الأبرار سیئات المقرّبین أحیانا، و قد یستغفرون أحیانا من عمل صالح لأنّهم ترکوا خیرا منه ... فیقال عندئذ فی حق أحدهم: ترک الأولی.

فإبراهیم علیه السّلام لا یعوّل علی أعماله الصالحة، فهی لا شیء بإزاء کرم اللّه، و لا تقاس بنعم اللّه المتواترة، بل یعوّل علی لطف اللّه فحسب، و هذه هی آخر مرحلة من مراحل الانقطاع إلی اللّه! ...

و ملخّص الکلام أن إبراهیم علیه السّلام من أجلّ أن یبیّن المعبود الحقیقی یمضی نحو خالقیّة اللّه أولا، ثمّ یبیّن بجلاء مقام ربوبیته فی جمیع المراحل:

فالمرحلة الأولی مرحلة الهدایة.

ثمّ مرحلة النعم المادیّة، و هی أعمّ من إیجاد المقتضی و الظروف الملائمة أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۶

دفع الموانع ...

و المرحلة الأخيرة هى مرحلة الحياة الدائمة فى الدار الأخرى، فهناك يتجلّى وجه الرب بالهبات و الصفح عن الذنوب و مغفرتها! ...

و هكذا يبطل إبراهيم الخرافات التى كانت فى قومه، من تعدد الآلهة و الأرباب و ينحنى خضوعا للخالق العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷]

اشارة

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (۸۳) وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (۸۴) وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (۸۵) وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ (۸۶) وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (۸۷)

التّفسير

دعاء إبراهيم عليه السّلام:

من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل و سؤالاته من اللّه، فكأنّه بعد أن دعا قومه الضالين نحو اللّه، و بيّن آثار الربوبية المتجليّة فى عالم الوجود ... يتجه بوجهه نحو اللّه و يعرض عنهم، فكل ما يحتاجه فانه يطلبه من اللّه، ليكشف للناس و لعبدة الأصنام أنه مهما أرادوه من شؤون الدنيا و الآخرة، فعليهم أن يسألوه من اللّه، و هو تأكيد آخر- ضمنى- على ربوبيته المطلقة.

فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

فالمقام الأوّل هنا الذى يريده إبراهيم لنفسه من اللّه هو الحكم، ثمّ الإلحاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۸

بالصالحين ...

و «الحكم» و «الحكمة» كلاهما من جذر واحد ... و «الحكمة» كما يقول عنها الراغب فى مفرداته: هى الوصول إلى الحق عن طريق العلم و معرفة الموجودات و الأفعال الصالحة، و بتعبير آخر: هى معرفة القيم و المعايير التى يستطيع الإنسان بها أن يعرف الحق حيثما كان، و يميز الباطل فى أى ثوب كان، و هو ما يعبّر عنه عند الفلاسفة ب «كمال القوّة النظرية».

و هى الحقيقة التى تلقّاها لقمان من ربّه وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ.[۲۸۴] و عبّر عنها بالخير الكثير فى الآية (۲۶۹) من سورة البقرة وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

و يبدو أنّ للحكم مفهوما أسمى من الحكمة ... أى إنّه العلم المقترن بالاستعداد للتنفيذ و العمل، و بتعبير آخر: إن الحكم هو القدرة على القضاء الصحيح الخالى من الهوى و الخطأ! أجل، إنّ إبراهيم عليه السّلام يطلب من اللّه قبل كل شىء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحاكميّة، لأن أى منهج لا يتحقق دون هذا الأساس! و بعد هذا الطلب يسأل من اللّه إلحاقه بالصالحين، و هو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها ب «الحكمة العملية» فى مقابل الطلب السابق و هو «الحكمة النظرية»! ...

و لا شك أن إبراهيم عليه السّلام كان يتمتع بمقام «الحكم» و كان فى زمرة الصالحين أيضا ... فلم سأل اللّه ذلك؟! الجواب على هذا السؤال هو أنّه ليس للحكمة حد معين، و لا لصلاح الإنسان حدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم و العمل يوما بعد يوم، حتى و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۳۹۹

فى موقع النبوة، و أنه من أولى العزم .. لا يكتفى بهذه العناوين ...

ثمّ- إضافة إلى ذلك- فإنّ إبراهيم عليه السّلام يعلم أن كل ذلك من اللّه سبحانه، و من الممكن فى أى لحظة أن تسلب هذه المواهب أو تزل به القدم، لذا فهو يطلب دوامها من اللّه إضافة إلى التكامل، كما أننا نخطو و نسير إن شاء اللّه فى الصراط المستقيم، و مع ذلك فكلّ يوم نسأل ربّنا فى الصلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، و نطلب منه التكامل و مواصلة هذا الطريق! و بعد هذين الطلبين ... يطلب موضوعا مهما آخر بهذه العبارة: وَ اجْعَلْ لِي لِسانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ

أى اجعلنى بحال تذكرنى الأجيال الآتية بخير، و اجعل منهجى مستمرا بينهم فيتخذونى أسوة و قدوة لهم فيتحركون و يسيرون فى منهاجك المستقيم و سبيلك القويم ...

فاستجاب اللّه دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه فى القرآن الكريم: وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا.[۲۸۵] و لا يبعد أن يكون هذا الطلب شاملا لما سأله إبراهيم الخليل ربه بعد بناء الكعبة، فقال: رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ [۲۸۶] و نعرف أن هذا الدعاء تحقق بظهور نبىّ الإسلام. و ذكر إبراهيم الخليل بالخير فى هذه الأمة عن هذا الطريق، و بقى هذا الذكر الجميل مستمرا ...

ثمّ ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، و يتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: وَ اجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ

«جنة النعيم» التى تتماوج فيها النعم المعنوية و المادية، النعم التى لا زوال لها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۰

و لا اضمحلال ... النعم التى لا يمكن أن نتصورها نحن- سجناء الدنيا- فهى ما لا عين رأت و لا أذن سمعت! ...

و قلنا سابقا: إن التعبير بالإرث فى شأن الجنّة إمّا لأنّ معنى الإرث الحصول على الشىء دون مشقّة و عناء، و من المسلّم أن تلك النعم التى فى الجنّة تقاس بطاعاتنا، فطاعاتنا بالنسبة لا تمثل شيئا إليها! ... أو أنّ ذلك- طبقا لما ورد فى بعض الرّوايات- لأن كل إنسان له بيت فى الجنة و آخر فى النار، فإذا دخل النّار ورث الآخرون بيته فى الجنّة ...

و فى خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضالّ، و كما وعده أنّه سيستغفر له، فإنّه يقول فى هذا الدعاء: وَ اغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كانَ مِنَ الضَّالِّينَ

و هذا الوعد هو ما صرحت به الآية (۱۱۴) من سورة التوبة إذ تحكى عنه وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ وعده من قبل، و كان هدفه أن ينفذ إلى قلبه عن هذا الطريق، و أن يجرّه إلى طريق الإيمان، لذلك قال له مثل هذا القول و عمل به أيضا ... و طبقا لرواية عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السّلام استغفر لعمّه آزر مرارا، إلّا أنه حين غادر آزر الدنيا كافرا و ثبت عداؤه للدين الحق، قطع إبراهيم استغفار عن عمه، كما نرى فى ذيل الآية النص التالى: فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ [۲۸۷] و أخيرا فإنّ دعاءه السادس من ربّه فى شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة وَ لا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ

(و لا تخزنى)، مأخوذ من مادة (خزى) على زنة (حزب) و كما يقول الراغب فى مفرداته، معناه الذل و الانكسار الروحى الذى يظهر على وجه الإنسان من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۱

الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجونه و يخجلونه! و هذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية و الاعتماد على لطف اللّه العظيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۲

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۸۸ الى ۱۰۴]

اشارة

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ (۸۸) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۹) وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (۹۰) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ (۹۱) وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (۹۲)

مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (۹۳) فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ (۹۴) وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (۹۵) قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ (۹۶) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۹۷)

إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۹۸) وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (۹۹) فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ (۱۰۰) وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (۱۰۱) فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰۲)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۰۳) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۰۴)

التّفسير

الخصام بين المشركين و معبوداتهم:

أشير فى آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة و مسألة المعاد ... أمّا فى هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۳

«فى تلك السوق»، و عاقبة المؤمنين و عاقبة الكافرين و الضالين و جنود إبليس، و يدلّ ظاهر الآيات أن هذا الوصف و هذا التصوير هو من كلام إبراهيم الخليل، و أنه ختام دعائه ربّه، و هكذا يعتقد- أيضا- أغلب المفسّرين ... و إن كان هناك من يحتمل أنه هو من كلام اللّه، و أن الآيات محل البحث هى منه سبحانه جاءت مكملة لكلام إبراهيم عليه السّلام و موضحة له، إلّا أن هذا الاحتمال يبدو ضعيفا! ...

و على كل حال، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ

و فى الحقيقة إنّ هاتين الدعامتين المهمتين فى الحياة الدنيا «المال و البنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة، و كل ما كان دون هاتين الدعامتين رتبة من الأمور الدنيوية- من باب أولى- لا نفع فيه، و لا فائدة من ورائه! و بديهى أنّ المراد من المال و البنين هنا ليس هو ما يكون- من المال و البنين- فى مرضاة اللّه، بل المراد منه الاستناد إلى الأمور الماديّة، فالمراد إذا هو أن هذه الدعامات المادية لا تحلّ معضلا فى ذلك اليوم ... أمّا لو كان أىّ من البنين و المال فى مرضاة اللّه فلن يكون ذلك مادّيا .. إذ يصطبغ بصيغة اللّه و يعدّ من «الباقيات الصالحات»! ...

ثمّ يضيف القرآن فى ختام الآية، على سبيل الاستثناء إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

و هكذا يتّضح أنّ أفضل ما ينجى يوم القيامة هو القلب السليم، و يا له من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان و النية الخالصة، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح! و لم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح؟! و بتعبير آخر: كما أن قلب الإنسان و روحه يؤثران فى أعماله، فإن أعماله لها أثر واسع فى القلب أيضا، سواء كانت أعمالا رحمانية أم شيطانية! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۴

ثمّ يبيّن القرآن الجنّة و النار بالنحو التالى فيقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۲۸۸] وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ أى الضالين.

و هـذا الأمر- فى الحقيقـة- قبل ورود كلّ من أهل الجنّة و النار إليهما! فكلّ طائفة ترى مكانها من قريب .. فيسرّ المؤمنون و يستولى الرعب على الغاوين، و هـذا أوّل جزائهمـا هنـاك! الطريف هنـا أنّ القرآن لا- يقول: اقترب المتقون أو أزلف المتقون إلى الجنـة، بل يقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ و هذا يدل على مقامهم الكريم و عظم شأنهم! ...

كما ينبغى الإشارة إلى هذه اللطيفة، و هى أن التعبير بالغاوين هو التعبير ذاته الوارد فى قصة الشيطان، إذ طرده اللّه عن ساحته المقدسة فقـال له: إِنَّ عِبادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ [۲۸۹] ثمّ يتحـدث القرآن عن ملامة هؤلاء الضالين، و ما يقال لهم من كلمات التوبيـخ أو العتاب، فيقول: وَ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فهل يستطيعون معونتكم فى هـذه الشـدة التى أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر و المعونة هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۲۹۰] ...

إلّا أنّهم لا يملكون جوابا لهذا السؤال! كما لا يتوقع أحد منهم ذلك! ...

فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ

كما يقول بعض المفسّرين: إن كلّا منهم سيلقى على الآخر يوم القيامة! وَ جُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ

و فى الحقيقة أن هذه الفرق الثلاث، الأصنام و العابدين لها و جنود إبليس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۵

الـدالين على هـذا الانحراف، يساقون جميعا إلى النار ... و لكن بهـذه الكيفيـة ... و هى أن تلقى الفرق فرقـة بعـد أخرى فى النار. لأن «كبكبوا» فى الأصـل مـأخوذة من (كبّ)، و (الكبّ) معنـاه إلقاء الشـىء بوجهه فى الحفرة و ما أشـبهها، و تكراره «كبكب» يؤدى هـذا المعنى من السـقوط، و هذا يدلّ أنّهم حين يلقون فى النار مثلهم كمثل الصخرة إذ تهوى من أعلى الجبل أو تلقى من قمة الجبل، فهى تصل أولا نقطة ما فى الوادى ثمّ تتدحرج إلى نقاط أخر حتى تستقرّ فى القعر!.

إلّا أن الكلام لا يقف عنـد هـذا الحدّ، بل يقع النزاع و الجـدال بين هـذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصـمتهم هنا، فيقول: قالُوا وَ هُمْ فِيها يَخْتَصِمُونَ

أجـل ... إن العبـدة الضـالين الغاوين يقسـمون باللّه فيقولون: تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ ۲۹۱] إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ ۲۹۲] وَ ما أَضَلَّنا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ...

المجرمون الـذين كـانوا سـادة مجتمعاتنـا و رؤساءنـا و كبراءنـا، فأضـلونا حفظا لمنافعهم، و جرّونا إلى طريق الشـقوة و الغوايـة ... كما يحتمل أن يكون المراد من المجرمين هم الشياطين أو الاسلاف الضالين الذين جرّوهم إلى هذه العاقبة الوخيمة.

فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ...

و الخلاصة أن الأصنام لا تشفع لنا كما كنا نتصور ذلك فى الدنيا، و لا يتأتى لأى صديق أن يعيننا هنالك ...

و ممّا ينبغى الالتفات إليه، أنّ كلمـة (شافعين) جاءت فى الآيـة السابقـة بصـيغة الجمع كما ترى، إلّا أن كلمـة (صـديق) جاءت بصـيغة الإفراد، و لعلّ منشأ هذا التفاوت و الاختلاف، هو أن هؤلاء الضالين يرون بأم أعينهم المؤمنين الجانحين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۶

يشـفع لهم الأنبياء و الأوصـياء أو الملائكـة و بعض الأصـدقاء الصالحين، فأولئك الضالون يتمنون الشافعين أيضا، و أن يكون عنـدهم صديق هنالك! ...

إضافة إلى ذلك فإن كلمتى (الصديق) و (العدو) كما يقول بعض المفسّرين، تطلقان على المفرد و الجمع أيضا ...

إلّا أنّهم ما أسـرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جـدوى هناك للحسـرة و لا مجال للعمل فى تلك الدار لجبران ما فات فى دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا ... و يقولون: فَلَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ...

و صـحيح أنّهم فى ذلك اليوم و فى عرصات القيامة يؤمنون بربّهم، إلّا أن هذا الإيمان نوع من الإيمان الاضطرارى غير المؤثر، و ليس

كالايمان الاختيارى، و فى هذه الدنيا حيث يكون أساسا للهداية و العمل الصالح.

و لكن لا يحقق هذا التمنى شيئا، و لا يحلّ معضلا، و لن تسمح سنة اللّه بذلك، و هم يدركون تلك الحقيقة، لأنّهم يتفوّهون بكلمة «لو»[۲۹۳] ...

و أخيرا بعد الانتهاء من هذا القسم من قصة إبراهيم، و كلماته مع قومه الضالين، و دعائه ربّه، و وصفه ليوم القيامة، يكرر اللّه آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعبادة جميعا، و هاتان الآيتان وردتا فى ختام قصة موسى و فرعون، كما وردتا فى قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ...

و تكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تسليته و من معه من الصحابة القلة و كذلك المؤمنين فى كل عصر و مصر لئلا يستوحشوا فى الطريق من قلة أهله و كثرة الأعداء ... و ليطمئنوا إلى رحمة اللّه و عزته، كما أن هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين. و إشارة إلى أنه لو وجدوا الفرصة فى حياتهم و أمهلهم اللّه إمهالا فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته و كرمه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۷

ملاحظات

۱- القلب السليم- وحده- وسيلة النجاة

فى أثناء كلام إبراهيم الخليل عليه السّلام قرأنا ضمن ما ساقته الآيات المتقدمة من تعابير فى وصف القيامة، أنّه لا ينفع فى ذلك اليوم شيء إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

(السليم) مأخوذ من السلامة، و له مفهوم واضح، و هو السالم و البعيد من أىّ انحراف أخلاقى و عقائدى، أو أىّ مرض آخر! ...

ترى ... ألم يقل اللّه القرآن فى شأن المنافقين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۲۹۴] و نلاحظ تعاريف للقلب السليم فى عدد من الأحاديث الغزيرة المعنى.

۱-

ففىّ حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام- ذيل الآية محل البحث ۲۹۵]- يقول فيه: «و كل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط».

۲- و نعلم من جهة أخرى أن العلائق المادية الشديدة و حب الدنيا ... كل ذلك يجرّ الإنسان إلى كل انحراف و خطيئة، لأن «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»[۲۹۶].

و لذلك فالقلب السليم هو القلب الخالى من حبّ الدنيا، كما ورد هذا المضمون فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام- ذيل محل البحث- إذ

يقول: «هو القلب الذى سلم من حبّ الدنيا».[۲۹۷]

و مع الالتفات إلى الآية (۱۹۷) من سورة البقرة إذ تقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى ... يتّضح أن القلب السليم هو القلب الذى يكون محلا لتقوى اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۰۸

۳- و آخر ما نقوله- هنا- أنّ القلب السليم هو القلب الذى ليس فيه سوى اللّه، كما يجيب الإمام الصادق عليه السّلام على سؤال فى هذا الشأن

فيقول: «القلب السليم الذى يلقى ربّه و ليس فيه أحد سواه».[۲۹۸]

و لا يخفى أن المراد من القلب فى مثل هذه الموارد هو روح الإنسان و نفسه.

و هناك مسائل كثيرة وردت فى الروايات الإسلامية تتحدث حول سلامة القلب و الآفات التى تصيبه، و طريق مبارزتها و مكافحتها، و يستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامى المتين أن الإسلام يهتم قبل كلّ شىء بالأساس الفكرى و العقائدى و الأخلاقى، لان جميع المناهج التطبيقية و العملية للإنسان هى انعكاسات لذلك الأساس و آثاره! ...

فكما أنّ سلامة القلب الظاهرية سبب لسلامة الجسم، و أن مرضه سبب لمرض أعضائه جميعا، لأنّ تغذية الخلايا فى البدن تتمّ بواسطة الدم الذى يتوزع و يرسل إلى جميع الأعضاء بإعانة القلب على هذه المهمّة ... فكذلك هى الحال بالنسبة لسلامة مناهج حياة الإنسان و فسادها، كل ذلك انعكاس عن سلامة العقيدة و الأخلاق أو فسادهما ...

و نختتم هذا البحث

بحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام إذ قال: «إنّ القلوب أربعة:

قلب فيه نفاق و إيمان، و قلب منكوس، و قلب مطبوع، و قلب أزهر أجرد، «أجرد من غير اللّه» إلى أن قال عليه السّلام: و أمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر و إن ابتلاه صبر. و أمّا المنكوس فقلب المشرك أ فَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فإن القلب الذى فيه إيمان و نفاق، فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك، و إن أدركه على إيمانه نجا».[۲۹۹]

۲- و جاء فى الروايات متعددة عن الإمامين الصادقين (أبى جعفر و أبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۰۹

عبد اللّه عليهما السّلام) فى تفسير فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَ الْغاوُونَ قولهما: «هم قوم وصفوا عدلا بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى غيره».[۳۰۰] و هذا الحديث يدل على أنّ القول بلا عمل قبيح و مذموم جدّا، إذ يلقى أصحابه فى النار، فأولئك قوم ضالون مضلّون، و كلامهم يهدى، الناس إلى الحق، بينما عملهم يجرّهم إلى الباطل، بل إن عملهم كاشف عن عدم إيمانهم بأقوالهم! و ينبغى الالتفات- ضمنا- إلى أن كلمة «غاوون» المأخوذة من «الغىّ» لا تعنى الضلال مطلقا، بل كما يقول الراغب فى المفردات: هو نوع من الجهل و الضلال الناشئ عن فساد العقيدة.

۳- وردت فى ذيل الآية فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ وَ لا صَدِيقٍ حَمِيمٍ روايات متعددة، و بعضها صريحة فى أن:

«الشافعون الأئمّة و الصديق من المؤمنين».[۳۰۱]

و

جاء فى حديث آخر عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «إن الرجل يقول فى الجنّة: ما فعل صديقى فلان؟ و صديقه فى الجحيم، فيقول اللّه: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة، فيقول من بقى فى النار: فما لنا من شافعين و لا صديق حميم».[۳۰۲]

و بديهى أنّه لا الشفاعة بدون معيار و ملاك، و لا السؤال فى شأن الصديق دون حساب، فلا بد من وجود ارتباط أو علاقة بين الشفيع و المشفوع له ليتحقق هذا الهدف ... «بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى بحث الشفاعة، فى تفسير الآية ۴۸ من سورة البقرة- فليراجع فى محله».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۰

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۰۵ الى ۱۱۵]

اشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۰۵) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۰۶) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۰۷) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۰۸) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۰۹)

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۱۰) قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (۱۱۱) قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۲) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (۱۱۳) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۴)

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۱۱۵)

التّفسير

يا نوح، لم يحف بک الأرذلون؟!

يتحدّث القرآن الكريم بعد الانتهاء ممّا جرى لإبراهيم و قومه الضّالين، عن قوم نوح عليه السّلام حديثا للعبرة و الاتعاظ ... فيذكر عنادهم و شدّتهم فى موقفهم من نوح عليه السّلام و عدم حيائهم و عاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات ... فيقول أوّلا: كَذَّبَتْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۱

قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ [۳۰۳] و واضح أن قوم نوح إنّما كذبوا نوحا فحسب ... و لكن لمّا كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيبا للمرسلين جميعا ... و لذا قال القرآن كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ

كما و يحتمل أنّ قوم نوح أساسا كانوا منكرين لجميع الأديان و المذاهب، سواء قبل ظهور نوح أو بعده ...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السّلام، الذى سبق أن أشار إليه فى كلامه حول إبراهيم و موسى عليهما السّلام، فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَ لا تَتَّقُونَ ...

و التعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبّة و العلاقة الحميمة على أساس المساواة ... أى أن نوحا دون أن يطلب التفوق و الاستعلاء عليهم، كان يدعوهم إلى تقوى اللّه فى منتهى الصفاء.

و التعبير بالأخوة لم يرد فى شأن نوح فى القرآن فحسب، بل جاء فى شأن كثير من الأنبياء، كهود و صالح و لوط، و هو يلهم جميع القادة و الأدلاء على طريق الحق أن يراعوا فى دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، و لا يستثقله الناس! ...

و بعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التى هى أساس كل أنواع الهداية و النجاة، يضيف القرآن فيقول على لسان نوح و هو يخاطب قومه: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ فإن إطاعتى من إطاعة اللّه سبحانه ...

و هذا التعبير يدلّ على أن نوحا عليه السّلام كانت له صفة ممتدة من الأمانة بين قومه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۲

و كانوا يعرفونه بهذه الصفة السامية، فهو يقول لهم: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و لهذا فإنّى أمين أيضا فى أداء الرسالة الالهية، و لن تجدوا خيانة منّى أبدا ...

و تقديم التقوى على الإطاعة، لأنه ما لم يكن هناك إيمان و اعتقاد باللّه و خشية منه، فلن تتحقق الإطاعة لنبيّه ...

و مرّة أخرى يتمسك نوح عليه السّلام بحقانية دعوته، و يأتى بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ

و معلوم أن الـدوافع الإلهيهٔ- عادهٔ- دليل على صدق مدعى النبوّهٔ، فى حين أن الدوافع المادّيهٔ تدل بوضوح على أن الهدف من ورائها هو طلب المنفعهٔ، و لا سيما أن العرب فى ذلك العصر كانوا يعرفون هذه المسألهٔ فى شأن الكهنهٔ و أضرابهم ...

ثمّ يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذى جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته و أمانته، إذ يقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ...

إلّا أنّ المشـركين الحمقى، حين رأوا سـبل ما تـذرّعوا به من الحجـج الواهيـهٔ موصـدهٔ، تمسـكوا بهـذه المسألهٔ، ف قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ

إن قيمـهٔ الزعيم ينبغى أن تعرف ممن حوله من الأتبـاع، و بعبارهٔ أخرى «إن الولى يعرف من زوّاره- كما يقال» فحين نلاحظ قومك يا نوح، نجـدهم حفنـهٔ من الأـراذل و الفقراء و الحفـاهٔ و الكسـبهٔ الضـعاف، قـد داروا حولـك، فكيف تتوقع أن يتبعـك الاثريـاء الأغنياء الشـرفاء و الوجهـاء و يخضـعوا لـك؟! و صـحيح أنّهم كـانوا صادقين و مصـيبين فى أنّ الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلّا أن خطأهم الكـبير هو عـدم معرفتهم مفهوم الشخصـيهٔ و معيارهـا ... إذ كـانوا يرون معيـار القيم فى المـال و الثروهٔ و الألبسـهٔ و البيوت و المراكب الغاليهٔ و الجميلهٔ، و كانوا غافلين عن النقاء و الصفاء و التقوى و الطهارهٔ و طلب الحق، و الصفات العليا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۳

للإنسانيهٔ الموجودهٔ فى الطبقات الفقيرهٔ و القلّهٔ من الاشراف.

إن روح الطبقيهٔ كانت حاكمهٔ على أفكارهم فى أسوأ أشكالها، و لذلك كانوا يسمّون الفقراء الحفاهٔ بالأراذل.

و «الأـراذل» جمـع (أرذل) كمـا أنّه جمع (للرذل) و معنـاه الحقير ... و لو كـانوا يتحررون من قيود المجتمع الطبقى، لأـدركوا جيـدا أن إيمـان هـذه الطائفـهٔ نفسـها دليل على حقانيـهٔ دعوهٔ النّبى و أصالتها! إلّا أنّ نوحا عليه السّـلام جابهم و ردّهم بتعبير متين، و جرّدهم من سلاحهم و قالَ وَ ما عِلْمِي بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

فما مضى منهم مضى، و المهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوهٔ النّبى، و قالوا له:

لبّيك، و توجهوا لبناء شخصياتهم، و مكنوا الحقّ من أن ينفذ إلى قلوبهم! ...

و إذا كانوا فى ما مضى من الزمن قد عملوا صالحا أو طالحا، فلست محاسبا و لا مسئولا عنهم آنئذ إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ

و يسـتفاد من هذا الكلام- ضـمنا- أنّهم كانوا يريدون أن يتهموا هؤلاء الطائفهٔ من المؤمنين، بالإضافهٔ إلى خلوّ أيديهم، بسوء سابقتهم الأخلاقيهٔ و العمليهٔ، مع أن الفساد و الانحراف الخلقى عادهٔ فى المجتمعات المرفههٔ أكثر من سواها بدرجات ... فهم الذين تتوفر لديهم كل وسائل الفساد، و هم سكارى المقام و المال، و قلّ أن يكونوا من الصالحين.

إلّـا أن نوحـا عليه السّـلام- دون أن يصـطدم بهم فى مثـل هـذه الأـمور- يقول: مـا علمى بهم و بمـا كانوا يعملون، فإذا كان الأمر كما تزعمون فإنّما حسابهم على ربى لو تشعرون! و إنّما علىّ أن أبسط جناحى لجميع طلّاب الحق وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ

و هـذه العبارهٔ فى الحقيقـهٔ جواب ضـمنى لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفهٔ الفقراء من حوله، ليتقربوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۱۴

منه و يكونوا من أتباعه بعد طرد أولئك الفقراء ...

و لكن المسؤوليهٔ الملقاهٔ على عاتقى هى أن أنذر الناس فحسب إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

فمن سـمع إنذارى و عاد إلى الصـراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعى كائنا من كان، و فى أى مستوى طبقى و مقام اجتماعى أو مـادى! و ممّـا ينبغى الالتفـات إليه أن هـذا الإيراد لم يتعرّض له نوح النّبى الـذى هو أول الرسل من أولى العزم فحسب، بل و وجه الى النّبى محمـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و سائر الأنبياء به، فالأغنياء كانوا ينظرون بنظاراتهم الفكريهٔ السوداء شخصـيات هؤلاء الفقراء البيضاء، فيرونها سوداء، فيطلبون طردهم دائما. و لم يقبلوا بربّ و لا نبى يتبعه مثل هؤلاء العباد الفقراء! ...

إلّا أنه ما أعذب و أحلى تعبير القرآن عنهم فى سورة الكهف، إذ يقول:

وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

و هذا الإيراد أو الإشكال يوردونه حتى على قادة الحق و الأدلّاء على الهدى فى كل عصر و زمان، و هو أن معظم أتباعكم المستضعفون! أو الحفاة الجائعون.

إنّهم يريدون أن يعيبوا بكلامهم هذا الرسالة و المذهب، مع أنّهم من حيث لا يشعرون، يمدحون و يطرون ذلك المذهب و يوقّعون على أصالته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۱۶ الى ۱۲۲]

اشارة

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (۱۱۶) قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (۱۱۷) فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸) فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (۱۲۰)

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲)

التّفسير

نجاة نوح و غرق المشركين:

كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين فى مواجهة نبيّهم نوح عليه السّلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ و هو الاعتماد على القوّة و التهديد بالموت و الفناء: قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ

و التعبير ب «من المرجومين» يدل على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جاريا فى شأن المخالفين ... و فى الحقيقة إنّهم يقولون لنوح: إذا قررت أن تواصل دعوتك للتوحيد ... و الاستمرار على عقيدتك و دينك، فستنال ما يناله المخالفون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۶

- عامّة- و هو الرجم بالحجارة، الذى يعد واحدا من أسوأ أنواع القتل.[۳۰۴] و لما رأى نوح أن دعوته المستمرة الطويلة بما فيها من منطق بيّن ... و بما يقترن بها من اصطبار، لم تؤثر إلّا فى جماعة قلة آمنوا به ... شكا إلى ربّه أخيرا، و ضمن بيان حاله، سأل ربه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، و أن يبعده عنهم ... إذ قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ

و صحيح أن اللّه مطّلع على كل شيء، إلّا أنه لبيان الشكوى و تمهيدا للسؤال التالى، يذكر نوح مثل هذا الكلام.

و ممّا يلفت النظر أنّ نوحا لم يشتك من المصائب التى أبتلى بها، بل اشتكى من تكذيب قومه إيّاه فحسب، إذ لم يصدقوه و لم يقبلوا رسالته الالهية لهدايتهم ...

ثمّ يلتفت إلى ربّه فيقول: و الآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا و افصل بينى و بينهم: فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً.

«الفتح» معناه واضح، و هو ما يقابل الغلق و يضاده، و له استعمالان ... فتارة يستعمل فى القضايا المادية كفتح الباب مثلا، و تارة يستعمل فى القضايا المعنوية كفتح الهمّ و رفع الغم، و كفتح المستغلق من العلوم، و فتح القضية، اى بيان الحكم حسم النزاع! ثمّ

يضيف فيقول: وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و هنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة اللّه نوحا، و إهلاك المكذبين بعاقبة وخيمة مفجعة، إذ يقول: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ اى الملىء بالناس و انواع الحيوانات ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ ...

«المشحون» مأخوذ من مادة (شحن) على وزن (صحن) و معناه الملء، و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۷

يستعمل بمعنى التجهيز ... و «الشحناء» تطلق على العداوة التى تستوعب جميع جوانب الإنسان، و المراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلك الفلك [أى السفينة] كان مملوءا من البشر و جميع الوسائل ... و لم يكن فيه أى نقص ... إى أن اللّه بعد ما جهز السفينة و أعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يبتلى نوح و جميع من فى الفلك بأى نوع من أنواع الأذى ... و هذا بنفسه إحدى نعم اللّه عليهم! و فى ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله فى ختام قصة موسى و إبراهيم عليهما السّلام، فيكرر قوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً أى فى ما جرى لنوح عليه السّلام و دعوته المستمرة و صبره و نجاته و غرق مخالفيه وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

و لهذا فلا تحزن يا رسول اللّه من إعراض المشركين و عنادهم، و استقم كما أمرت ... فإنّ عاقبتك و عاقبة أصحابك عاقبة نوح و أصحابه، و عاقبة الضالين من قومك كعاقبة الضالين من قوم نوح.

وَ اعلم إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

فرحمته تقتضى أن يمهلهم و يتمّ عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، و عزته تستلزم أن ينصرك عليهم، و تكون عاقبة أمرهم خسرا! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۸

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۲۳ الى ۱۳۵]

اشارة

كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۲۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۲۶) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۷)

أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (۱۲۸) وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (۱۲۹) وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (۱۳۰) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۳۱) وَ اتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ (۱۳۲)

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ (۱۳۳) وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۳۴) إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳۵)

التّفسير

جنايات عاد و اعمالهم العدوانية:

و الآن يأتى الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانبا من حياتهم و عاقبتهم، و ما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشرة آية من آياته! ...

«عاد»- كما قلنا من قبل- جماعة كانوا يقطنون فى «الأحقاف»، و هى منطقة فى حضر موت تابعة لليمن، تقع جنوب الجزيرة العربية ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۱۹

فيقول القرآن: كَذَّبَتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ [۳۰۵] بـالرغم من أنّهم كـذبوا هودا فحسب، إلّا أنّه لمّا كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعا، فكأنّهم كذّبوا الأنبياء جميعا ...

و بعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدّث القرآن عنهم فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَ لا تَتَّقُونَ

لقد دعاهم إلى التوحيد و التقوى فى منتهى الشفقة و العطف و الحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة «أخوهم» ...

ثمّ أضاف قائلا: إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و ما سبق من حياتى بين ظهرانيكم يـدل على هـذه الحقيقة، فإنّى لم أخنكم أبدا ... و لم تجدوا منّى غير الصدق و الحق! ...

ثمّ يضيف مؤكّدا: لما كنتم تعرفوننى جيدا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ ... لأنّ إطاعتكم إيّاى إطاعة للّه سبحانه ... و لا تتصوروا بأنّى أدعوكم لانتفع من وراء دعوتى إيّاكم فى حياتى الـدنيا و أنال المال و الجاه، فلست كـذلك وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ... فجميع النعم و البركات من قبله سبحانه، و إذا أردت شيئا طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعا ...

و القرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيرة «هود» فى قومه إلى أربعة أمور على الترتيب ...

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد اللّه و تقواه، و قرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى ...

أمّا الأمور الثلاثة الأخر فيذكرها القرآن حاكيا عن لسان هود فى ثوب الاستفهام الإنكارى، فيقول: أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۰

«الريع» فى الأصل يطلق على المكان المرتفع، أمّا كلمـة (تعبثون) فمأخوذ من «العبث»، و معناه العمل بلا هدف صـحيح، و مع ملاحظة كلمـة (آيـة) الـتى تـدل على العلامـة يتّضـح معنى العبـارة بجلاء ... و هـو أنّ هؤلاء القـوم المـثرين، كـانوا يبنون على قمم الجبـال و المرتفعـات الأخر مبـانى عاليـة للظهور و التفـاخر على الآخرين، و هـذه المبانى [كالأبراج و ما شاكلها] لم يكن من روائها أى هـدف سوى لفت أنظار الآخرين، و إظهار قدرتهم و قوّتهم- من خلالها-!! و ما قاله بعض المفسّرين من أنّ المراد من هذا التعبير هو المبانى و المنازل التى كانت تبنى على المرتفعات، و كانت مركزا للهو و اللعب، كما هو جار فى عصـرنا بين الطغاة ... فيبـدو بعيـدا، لأن هـذا التعبير لا ينسجم مع كلمتى (الآية) و (العبث).

كما أنّ هناك احتمال ثالث ذكره بعض المفسّرين، و هو أنّ عادا كانت تبنى هـذه البنايات للاشـراف على الشوارع العامّة، ليسـتهزئوا منها بالمارة، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صحة من سواه ...

و أمّا الأمر الثّالث الذى ذكره القرآن حاكيا على لسان هود منتقدا به قومه، فهو قوله: وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ

«المصـانع» جمع «مصـنع» و معنـاه المكـان أو البنـاء المجلّل المحكم، و النّبى هود لا يعترض عليهم لأنّ لـديهم هـذه البنايات المريحة الملائمـة، بل يريـد أن يقول لهم: إنّكم غارقون فى أمواج الـدنيا، و منهمكون بعبادة الزينـة و الجمال و العمل فى القصور حتى نسـيتم الدار الآخرة! ... فلم تتخذوا الدنيا على أنها دار ممر، بل اتخذتموها دار مقر دائم لكم ...

أجل، إنّ مثل هذه المبانى التى تذهل أهلها، و تجعلهم غافلين عن اليوم الآخر، هى لا شك مذمومة! و

فى بعض الرّوايات عن أنس بن مالك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خرج فرأى قبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۱

فقال: ما هذه؟ فقالوا له أصـحابه: هذا الرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسـلم فى الناس أعرض عنه و صـنع ذلك مرارا حتى عرف الرجـل الغضب به و بالاعراض عنه، فشـكى ذلك إلى أصـحابه و قال: و اللّه إلىّ لأنكر رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما أدرى ما حدث فىّ و ما صنعت؟

قالوا: خرج رسول اللّه فرأى قبّتك فقال: لمن هـذه؟ فأخبرناه، فرجع الى قبّته فسواها بالأرض، فخرج رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التى كانت ها هنا قالوا: شكى إلينا صاحبها انحراصل عنه فأخبرناه فهدمها فقال صلّى اللّه

عليه و آله و سلّم: «إن كلّ ما يبنى و بال على صاحبه يوم القيامة، إلّا ما لا بدّ منه».[۳۰۶]

و يعرف من هذه الرّواية و ما شابهها من الرّوايات نظر الإسلام بجلاء، فكل بناء «طاغوتى» مشيد بالإسراف و البذخ و مستوجب للغفلة ... يمقته الإسلام، و يكره للمسلمين أن يبنوا مثل هذه الأبنية التى يبنيها المستكبرون المغرورون الغافلون عن اللّه، و لا سيما فى محيط يسكن فيه المحرومون و المستضعفون ...

إلّا أن ما ينبغى التنويه به، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يستعمل القوة للوصول إلى هذا الهدف الإنسانى أبدا، و لم يأمر بتخريب البناء، بل استطاع أن يحقق هدفه برد فعل لطيف كالإعراض و عدم الاهتمام بالبناء مثلا! ...

ثمّ ينتقد النّبى «هود» قومه على قسوتهم و بطشهم عند النزاع و الجدال فيقول:

وَ إِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ

فمن الممكن أن يعمل الإنسان عملا يستوجب العقوبة، إلّا أنّه لا يصح تجاوز الحد و الانحراف عن جادة الحق و العدل عند محاسبته و معاقبته، و أن يعامل ذو الجرم الصغير معاملة ذى الجرم الكبير ... و أن تسفك الدماء عند الغضب و يقع التماصع بالسيف ۳۰۷]، فذلك ما كان يلجأ إليه الجبابرة و الظلمة و الطغاة آنئذ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۲

و يرى الراغب فى المفردات أن «البطش» على زنة (نقش) هو أخذ الشىء بقوّة و قسوة و استعلاء ...

و فى الحقيقة أن هودا يوبخ عبدة الدنيا عن طرق ثلاثة:

الأوّل: علاماتهم التى كانت مظهرا لحبّ الاستعلاء و حب الذات، و التى كانت تبنى على المرتفعات العالية ليفخروا بها على سواهم.

ثمّ يوبخهم على مصانعهم و قصورهم المحكمة، التى تجرهم إلى الغفلة عن اللّه، و إن الدنيا دار ممر لا مقر.

و أخيرا فإنّه ينتقدهم فى تجاوزهم الحدّ و البطش عند الانتقام ...

و القدر الجامع بين هذه الأمور الثلاثة هو الإحساس بالاستعلاء و حبّ البقاء. و يدلّ هذا الأمر على أن عشق الدنيا كان قد همين عليهم، و أغفلهم عن ذكر اللّه حتى ادعو الألوهية ... فهم بأعمالهم هذه يؤكّدون هذه الحقيقة، و هى أن

«حب الدنيا رأس كل خطيئة».[۳۰۸]

و القسم الثّالث من حديث هود ممّا بيّنه لقومه، هو ذكر نعم اللّه على عباده ليحرك فيهم- عن هذا الطريق- الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو اللّه ...

و فى هذا الصدد يتبع النّبى هود أسلوبى الإجمال و التفصيل، و هما مؤثران فى كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أولا فيقول: وَ اتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِما تَعْلَمُونَ [۳۰۹] و بعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم اللّه عليهم، فيقول: أَمَدَّكُمْ بِأَنْعامٍ وَ بَنِينَ ...

فمن جهة وفّر لكم الأمور المادية، و كان القسم المهم منها- خاصّة فى ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۳

العصر- الأنعام و المطايا من النياق و غيرها. و من جهة أخرى وفّر لكم القوّة الكافية و هى «الأبناء» للحفاظ على الأنعام و تدجينها ...

و هذا التعبير تكرر فى آيات مختلفة، فعند عدّ النعم المادية تذكر الأموال أولا ثمّ الأبناء ثانيا، و هم الحفظة للأموال و منمّوها، و يبدو أن هذا ترتيب طبيعى، لا أن الأموال أهم من الأبناء ... إذ نقرأ فى الآية (۶) من سورة الإسراء ... وَ أَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ جَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً ...

ثمّ يضيف بعد ذلك: وَ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

و هكذا فقد وفر اللّه لكم سبل الحياة جميعا، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، و الزراعة و التدجين و وسائل الحمل و النقل، بشكل لا يحس الإنسان معه بأى نقص أو قلق فى حياته!.

لكن ما الـذى حدث حتى نسيتم واهب هذه النعم جميعا، و أنتم تجلسون على مائدته ليل نهار، و لا تعرفون قدره؟! و أخيرا، فإنّ هودا فى آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم و يهددهم بسوء الحساب و عقاب اللّه لهم، فيقول: إِنِّى أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

ذلك اليوم الذى ترون فيه نتائج أعمالكم و ظلمكم و غروركم و استكباركم، و حب الذات و ترك عبادة اللّه ... ترون كل ذلك بأم أعينكم.

و عادة- يستعمل لفظ (اليوم العظيم) فى القرآن، و يراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه ... إلّا أنّه قد يستعمل فى القرآن فى اليوم الصعب الموحش المؤلم على الأمم ...

كما نقرأ فى هـذه السورة فى قصة «شعيب»، أن قومه بعد أن جحدوه و لم يؤمنوا به و عاندوه و استهزءوا به، أرسل اللّه عليهم صاعقة «و كانت قطعة من الغيم» فعاقبهم بها، فسمّى ذلك اليوم باليوم العظيم، كما تقول الآية: فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۴

فبناء على هـذا قـد يكون التعبير ب «يوم عظيم» فى الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الـذى ابتلى به المعانـدون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم و هو الاعصار المدمر، و سيتجلى الشاهد على هذا المعنى فى الآيات المقبلة ...

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة و عذابه ... أو إلى العذابين معا، فيوم الاعصار يوم عظيم، و يوم القيامة يوم عظيم أيضا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۵

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۳۶ الى ۱۴۰]

اشارة

قـالُوا سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ (۱۳۶) إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (۱۳۷) وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۱۳۸) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۳۹) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۴۰)

التّفسير

لا تتعب نفسك فى نصحنا:

رأينا فى الآيات المتقدمـة أحاديث النّبى هود المحترق القلب شـفقة لقومه المعانـدين «عاد» و ما حملته هذه الأحاديث من معان غريزة ساميـة ... و الآـن ينبغى أن نعرف جـواب قومه الجـارح و غير المنطقى و لاـ المعقول، يقول القرآن فى هـذا الصـدد قـالُوا سَواءٌ عَلَيْنـا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أمّا اعتراضك علينا بهذه الأمور فلا محل له من الاعراب إِنْ هذا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ

و ليس الأمر كما تقول، فإنّه لا شىء بعد الموت وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ لا فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۶

العالم، و لا فى العالم الآخر.

و «الخلق»- بضم الخاء و اللام- معناه العادة و السلوك و الأخلاق لأن هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع و السجيّة و العادة الأخلاقيـة ... و هى هنـا إشارة إلى الأعمال التى كانت تصـدر منهم كعبادة الأصـنام، و بناء القصور العاليـة الجميلـة، و حب الـذات، و

التفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، و كذلك البطش عند الانتقام أو الجزاء ... أى إن ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض و الانتقاد! ...

و فسّر «الخلق» بعضهم بالكذب، أى إنّ ما تقوله فى شأن اللّه و القيامة كلام باطل قيل من قبل (إلّا أن هذا التّفسير إنّما يقبل إذا قرئ النص: إن هذا إلّا خلق الأولين. فيكون الخلق فيه على وزن (الحلق) إلّا أن القراءة المشهورة ليست كذلك!).

و يبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْناهُمْ

و فى ختام هذه الاحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا فى نهاية قصص نوح و إبراهيم و موسى عليهما السّلام ... فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً على قدرة اللّه، و استقامة الأنبياء و عاقبة المستكبرين السيئة، و لكن مع ذلك وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

فيمهل إمهالا كافيا. و يمنح الفرصة. و يبيّن الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا ... إلّا أنه عند المجازاة و العقاب، و بعد إتمام الحجة يأخذ أخذا عسيرا لا مفرّ لأحد منه أبدا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۴۱ الى ۱۵۲]

اشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (۱۴۱) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۴۲) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۴۳) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۴۴) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۴۵)

أَ تُتْرَكُونَ فِي ما هاهُنا آمِنِينَ (۱۴۶) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۴۷) وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ (۱۴۸) وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً فارِهِينَ (۱۴۹) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۵۰)

وَ لا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (۱۵۱) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۱۵۲)

التّفسير

لا تطيعوا المسرفين المفسدين:

القسم الخامس من قصص الأنبياء فى هذه السورة، هو قصّة «ثمود» الموجزة القصيرة، و نبيّهم «صالح» الذين كانوا يقنطون فى «وادى القرى» بين المدينة و الشام، و كانت حياتهم مترفة مرفهة ... إلّا أنّهم لطغيانهم و عنادهم أبيدوا و أبيروا حتى لم يبق منهم ديّار و لم تترك لهم آثار ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۲۸

و بداية القصّة هذه مشابهة لبداية قصة عاد «قوم هود» و بداية قصة نوح و قومه، و هى تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ...

لأنّ دعوة المرسلين جميعا دعوة واحدة، فتكذيب ثمود نبيّهم صالحا تكذيب للمرسلين أيضا ...

و بعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح و قومه، فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صالِحٌ أَ لا تَتَّقُونَ ...

لقد كان النّبى صالح هاديا و دليلا لقومه مشفقا عليهم، فهو بمثابة «الأخ» لهم، و لم يكن لديه نظرة استعلائية و لا منافع ماديّة، و لذلك

فقد عبّر القرآن عنه بكلمة «أخوهم» ... و قد بدأ دعوته إيّاهم كسائر الأنبياء بتقوى اللّه و الإحساس بالمسؤولية! ...

ثمّ يقول لهم معرفا نفسه: إِنِّی لَکُمْ رَسُولٌ أَمِینٌ و سوابقی معکم شاهد مبین علی هذا الأمر فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ إذ لا أرید إلّا رضا اللّه و الخیر و السعادة لکم ...

و لذلک فأنا لا ـ أطلب عوضا منکم فی تبلیغی إیّاکم ... وَ ما أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِیَ إِلَّا عَلی رَبِّ الْعالَمِینَ فأنا أدعوکم له، و أرجو الثواب منه سبحانه ...

کان هذا أوّل قسم من سیرة صالح التی تلخصت فی دعوته قومه و بیان رسالته إلیهم ...

ثمّ یضع «صالح» إصبعه علی نقاط حساسة من حیاتهم، فیتناولها بالنقد و یحاکمهم محاکمة وجدانیة، فیقول: أَ تُتْرَکُونَ فِی ما هاهُنا آمِنِینَ

و تتصورون أن هذه الحیاة المادیة التی تستغفل الإنسان دائمة له و هو خالد فیها! فلذلک تأمنون من الجزاء، و أن ید الموت لا تنوشکم؟! و بالأسلوب المتین، أسلوب الإجمال و التفصیل ... یشرح النّبی صالح لقومه تلک الجملة المغلقة و المجملة بقوله: و تحسبون أنّکم مخلّدون فِی جَنَّاتٍ وَ عُیُونٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۲۹

وَ زُرُوعٍ وَ نَخْلٍ طَلْعُها هَضِیمٌ [۳۱۰] ثمّ ینتقدهم علی بیوتهم المرفهة المحکمة فیقول: وَ تَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُیُوتاً فارِهِینَ

«الفاره» مشتق من (فره علی وزن فرح) و معناه فی الأصل السرور المقرون باللامبالاة و عبادة الهوی ... کما یستعمل فی المهارة عند العمل أحیانا ... و مع أن المعنیین ینسجمان مع الآیة، إلّا أنّه مع ملاحظة توبیخ نبیّهم صالح إیّاهم و ملامته لهم فیبدو أنّ المعنی الأوّل أنسب ...

و من مجموع هذه الآیات و بمقایستها مع ما تقدم من الآیات فی شأن عاد، یستفاد أن عادا «قوم هود» کان أکثر اهتمامهم فی حب الذات و المقام و المفاخرة علی سواهم ... فی حین أن ثمود «قوم صالح» کانوا أسری بطونهم و الحیاة المرفهة» ... و یهتمون أکبر اهتمامهم بالتنعم، إلّا أنّ عاقبة الجماعتین کانت واحدة، لأنّهم جعلوا دعوة الأنبیاء التی تحررهم من سجن عبادة الذات للوصول إلی عبادة اللّه، جعلوها تحت أقدامهم، فنال کلّ منهم عقابه الصارم الوبیل ...

و بعد ذکر هذه الانتقادات یتحدث النّبی صالح علیه السّلام فی القسم الثّالث من کلامه مع قومه، فیقول: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُونِ وَ لا تُطِیعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِینَ الَّذِینَ یُفْسِدُونَ فِی الْأَرْضِ وَ لا یُصْلِحُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۳۰

ملاحظة:

العلاقة بین الإسراف و الفساد فی الأرض!

نعرف أن «الإسراف» هو التجاوز عن حدّ قانون التکوین و قانون التشریع ...

و واضح أیضا أنّ أیّ تجاوز عن الحد موجب للفساد و الاختلال و بتعبیر آخر: إن مصدر الفساد هو الإسراف، و نتیجة الإسراف هی الفساد أیضا.

و ینبغی الالتفات إلی أنّ الإسراف له معنی واسع، فقد یطلق علی المسائل المادیة کالأکل و الشرب، کما فی الآیة (۳۱) من سورة الأعراف کُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لا تُسْرِفُوا.

و قد يرد فى الانتقام و القصاص- عند تجاوز الحد- كما فى الآية (۳۳) من سورة الإسراء ... فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً.

و قد يستعمل فى الإنفاق و البذل عند التبذير و عدم التدبير، كما فى الآية (۶۷) من سورة الفرقان: وَ الَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كانَ بَيْنَ ذلِكَ قَواماً.

و قد يأتى فى الحكم أو القضاء الذى يجرّ إلى الكذب، كما فى الآية (۲۸) من سورة غافر: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ و قد يستعمل فى الإعتقاد المنتهى إلى الشك و التردد و الارتياب كما فى الآية (۳۴) من سورة غافر إذ تقول: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ

و قد يأتى بمعنى الاستعلاء و الاستكبار و الاستثمار كما جاء فى الآية (۳۱) من سورة الدخان فى شأن فرعون إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ

و أخيرا فقد يأتى بمعنى مطلق الذنوب كما هو فى الآية (۵۳) من سورة الزمر قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

و بملاحظة كل ما بيّناه آنفا، تتّضح العلاقة بين الإسراف و الفساد بجلاء ...

يقول العلّامة الطباطبائى فى الميزان: «إن الكون على ما بين أجزائه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۱

التضاد و التزاحم، مؤلف تأليفا خاصا يتلائم معه أجزاؤه بعضها مع بعض فى النتائج و الآثار ... فالكون يسير بالنظام الجارى فيه إلى غايات صالحة مقصودة، و هو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلا خاصّا يسير فيها بأعمال خاصّة، من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط، فإنّ فى الميل و الانحراف إفسادا للنظام المرسوم و يتبعه إفساد غايته و غاية الكل ... و من الضرورى أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له، و إفساد النظم المفروض له و لغيره، يستعقب منازعة بقية الأجزاء له، فإن استطاعت أن تقيمه و ترده إلى وسط الاعتدال فهو و إلّا أفنته و عفت آثاره، حفظا لصلاح الكون و استبقاء لقوامه و الإنسان الذى هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية، فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له، و إن تعدّى حدود فطرته و أفسد فى الأرض، أخذه اللّه سبحانه بالسنين و المثلات و أنواع النكال و النقمة، لعله يرجع إلى الصلاح و السداد، قال اللّه تعالى: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [۳۱۱] و إن أقاموا مع ذلك على الفساد- لرسوخه فى نفوسهم- أخذهم اللّه بعذاب الاستئصال و طهّر الأرض من قذارة فسادهم قال اللّه تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ [۳۱۲][۳۱۳].

و من هنا يتّضح بجلاء، لم ذكر اللّه سبحانه فى الآيات المتقدمة الإسراف و الفساد فى الأرض و عدم الإصلاح، فى سياق واحد و منسجم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۲

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۵۳ الى ۱۵۹]

اشارة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۵۳) ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۵۴) قالَ هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۱۵۵) وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۵۶) فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ (۱۵۷)

فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۵۸) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۵۹)

التّفسير

عناد قوم صالح و لجاجتهم:

لقد استمعتم إلى منطق صالح المتين و المحب للخير، مع قومه المضلين- فى الآيات المتقدمة- و الآن لنستمع إلى جواب قومه فى هذه الآيات.

إنهم واجهوه بكلام خشن و قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ فلذلك فقدت عقلك و تتكلم بكلمات غير موزونة و لا معقولة.

ثمّ بعد هذا كله ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا و كل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۳

إنسانا مثله فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ لكى نؤمن بك و نتبعك.

كلمة (المسحّر) مشتقّة من (السحر) و معناها المسحور، أى المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أن السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل، و هذا القول لم يتّهم به النبىّ صالحا فحسب، بل اتهم به كثير من الأنبياء، حتى أن المشركين اتّهموا نبيّنا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم به فقالوا: إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً[۳۱۴].

أجل، إنّهم كانوا يرون معيار العقل أن يكون الإنسان متوقفا مع البيئة و المحيط، فيأكل الخبز- مثلا- بسعر يومه، و يطبّق نفسه على جميع المفاسد ... فلو أن رجلا مصلحا إلهيّا دعا الناس للقيام و النهوض بوجه العقائد الفاسدة و إصلاحها، عدوّه- بحسب منطقهم- مجنونا «مسحّرا».

و هناك احتمالات أخر فى معنى «المسحّرين»، صرفنا النظر عنها لعدم مناسبتها ...

و على كل حال فإنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفة الحق، بل تذرعا بالحجة الواهية، و على نبيّهم أن يتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم- و بأمر اللّه- قال: هذِهِ ناقَةٌ لَها شِرْبٌ وَ لَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و «الناقة» معروفة عند العرب، و هى أنثى الجمل، و القرآن لم يذكر خصائص هذه الناقة التى كان لها حالة إعجازية، إلّا أنه ذكرها بنحو الإجمال ... لكننا نعرف أنّها لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، فكما يقول جماعة من المفسّرين: كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل. و من خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحىّ فى يوم، و اليوم الآخر لأهل الحى «أو القرية» و هكذا دواليك ... كما أشارت الآية آنفة الذكر إلى هذا المعنى، و وردت الإشارة إلى هذا المعنى فى الآية (۲۸) من سورة القمر أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۴

و قد ذكر المفسّرون لها خصائص أخر[۳۱۵].

و على كل حال، كان على صالح عليه السّلام أن يعلمهم أن هذه الناقة ناقة عجيبة و خارقة للعادة، و هى آية من آيات عظمة اللّه المطلقة فعليهم أن يدعوها على حالها، و قال: وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ...

و بديهى أن المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتآمروا على نحر الناقة: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِينَ ۳۱۶] لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الالهى.

و لما تجاوز طغيانهم الحدّ، و أثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة اللّه و مشيئته أن يطهر الأرض من وجودهم الملوّث فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ

و كما نقرأ فى الآية (۷۸) من سورة الأعراف، و الآية (۶۷) من سورة هود، ما جاء عن عذاب اللّه لهم إجمالا ... أن الأرض زلزلت من تحتهم ليلا، فانتبهوا من نومهم و جثوا على الركب فما أمهلهم العذاب و أخذتهم الرجفة و الصيحة، فاهتزت حيطانهم و هوت عليهم

فأماتتهم جاثمين على حالهم ففارقوا الدنيا بحال موحشة رهيبة! ...

و يقول القرآن فى ختام هـذه الحادثة ما قاله فى ختام حوادث قوم هود و قوم صالح و قوم نوح و قوم إبراهيم عليه السّلام، فيعبّر تعبيرا بليغا موجزا يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إن فى قصة قوم صالح، و فى صبره و تحمله و استقامته و منطقه القويم من جهة، و عناد قومه و غرورهم و انكارهم للمعجزة البيّنة، و المصير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۵

الأسود الذى آلو إليه دروس و عبر: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

أجل، ليس لأحد أن يغلب ربّه، فما فوق قوته من قوّة!! و هذه القوّة و هذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضا: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [۳۱۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶۰ الى ۱۶۶]

اشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۶۰) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۶۳) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶۴)

أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (۱۶۶)

التّفسير

السفلة المعتدون:

سادس نبىّ- ورد جانب من حياته و حياة قومه المنحرفين فى هـذه السورة- هو «لوط» عليه السّلام، و مع أنّه كان يعيش فى عصر إبراهيم الخليل، إلّا أنّ قصته لم تأت بعد قصّة إبراهيم عليه السّلام، لأن القرآن لم يكن كتابا تاريخيا ليبيّن الحوادث بترتيب وقوعها ... بل يلفت النظر إلى جوانبه التربوية البناءة، و التى تقتضى تناسبا آخر ...

و قصّة لوط و ما جرى لقومه تنسجم فى حياة الأنبياء الآخرين الذين ورد ذكرهم فى ما بعد ...

يقول القرآن أوّلا فى هذا الصدد: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۷

ورود «المرسلين» بصيغة الجمع، إمّا لأنّ دعوة الأنبياء عليهم السّلام واحدة، فتكذيب الواحد منهم تكذيب للجميع، أو أن قوم لوط لم يؤمنوا بأىّ نبى قبل لوط واقعا و حقيقة ...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التى تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ

و لحن كلماته و قلبه المتحرق لهم، العميق فى تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثمّ أضاف لوط قائلا: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فلم تعرفوا عنّى خيانة حتى الآن ... و سأرعى الأمانة فى إيصال رسالة اللّه إليكم أبدا ... فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ فأنا زعيمكم إلى السعادة و النجاة.

و لا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة و العيش، و أنّ وراءها هدفا مادّيا، كلّا: وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى

رَبِّ الْعالَمِينَ

ثمّ يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، و قسما من انحرافاتهم الأخلاقية ...

و حيث أنّ أهم نقطة فى انحرافاتهم ... هى مسألة الانحراف الجنسى، لذلك فإنّه ركّز عليها و قال: أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ فتختارون الذكور من بين الناس لإشباع شهواتكم!! أى، إنّكم على الرغم ممّا خلق اللّه لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشا طاهرا هادئا، إلّا أنّكم تركتم نعمة اللّه هذه وراءكم، و لوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ...

كما و يحتمل فى تفسير هذه الآية أن «من العالمين» جاء قيدا لقوم لوط أنفسهم، أى إنّكم من دون العالمين وحدكم المنحرفون بهذا الانحراف و المبتلون به ... كما أن هذا الاحتمال ينسجم مع بعض التواريخ إذ يقال أن أوّل أمّة ارتكبت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۸

الانحراف الجنسى «اللواط» بشكل واسع هى قوم لوط،[۳۱۸] إلّا أن التّفسير الأوّل مع الآية التالية- أكثر انسجاما.

ثمّ أضاف قائلا: وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ

فالحاجة و الغريزة الطبيعية، سواء كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع ابدا، و إنّما جرّكم الطغيان و التجاوز، فتلوثتم و خزيتم به ...

إن ما تقومون به يشبه من يترك الثمر الطيب و النافع و السالم، و يمضى نحو الغذاء المسموم الملوّث المميت ... فهذا الفعل ليس حاجة طبيعية ... بل هو التجاوز و الطغيان!

بحثان

۱- الانحراف الجنسى انحراف مخجل

أشار القرآن فى سور متعددة منه- كالأعراف و هود و الحجر و الأنبياء و النمل و العنكبوت، إلى ما كان عليه قوم لوط من الوزر الشنيع ... إلّا أن تعابيره- فى السور المذكورة آنفا- يختلف بعضها عن بعض ... و فى الحقيقة إن كل تعبير من هذه التعابير يشير إلى بعد من أبعاد عملهم الشنيع:

ففى «الأعراف» نقرأ مخاطبة لوط إيّاهم بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [۳۱۹] و فى الآية (۷۴) سورة الأنبياء يتحدث القرآن عن لوط فيقول: وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِى كانَتْ تَعْمَلُ الْخَبائِثَ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فاسِقِينَ

أمّا فى الآية- محل البحث- فقد قرأنا مخاطبة لوط إياهم بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۳۹

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ

و جاء فى الآية (۵۵) من سورة النمل قوله لهم: بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ «الآية ۵۵».

كما جاء فى الآية (۲۹) من سورة العنكبوت على لسان لوط مخاطبا إيّاهم إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ [۳۲۰] و هكذا فقد ذكر هذا العمل القبيح بعناوين «إسراف»، «خبيث»، «فسق»، «تجاوز»، «جهل»، و «قطع السبيل».

«الإسراف» من جهة أنّهم نسوا نظام الخلق فى هذا الأمر، و تجاوزوا عن الحد، و «التعدّى» ذكر أيضا لهذا السبب.

و «الخبيث» هو ما ينفر منه طبع الإنسان السليم، و أىّ عمل أقبح من هذا العمل الذى ينفر منه؟! «الفسق» معناه الخروج عن الطاعة-

طاعة اللّه- و التعرى عن الشخصيّة الإنسانية، و هو من لوازم هذا العمل حتما.

و «الجهل» لعدم معرفتهم بعواقب هذا الفعل الوخيمة على الفرد و المجتمع! ...

و أخيرا فإن «قطع السبيل» هو النتيجة السيئة لهذا الفعل، لأنّه سيؤدى إلى انقطاع النسل عند اتساع هذا الفعل، لأنّ العلاقة نحو الجنس المشابه ستحل محل العلاقة نحو الجنس المخالف بالتدريج (كما هى الحال بالنسبة للواط و السحاق).

۲- العواقب الوخيمة للانحراف الجنسى.

بالرغم من بحثنا لهذا الموضوع فى ذيل الآيات ۸۱- ۸۳ بحثا مفصّلا فى أضرار هذا العمل القبيح، إلّا أنه- نظرا لأهميته- نرى هنا من اللازم أن نذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۰

مطالب أخر مضافا إلى ما سبق!

فى الحديث عن النّبى (محمّد) صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «لا يجد ريح الجنّة زنوق و هو المخنث».[۳۲۱]

و

فى حديث آخر عن الإمام على عليه السّلام أنه قال: «اللواط هو الكفر».[۳۲۲]

و

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا فى فلسفة تحريم اللواط و السحاق أنه قال: «علة تحريم الذكران للذكران، و الإناث للإناث، لما ركب فى الإناث و ما طبع عليه الذكران، و لما فى إتيان الذكران الذكران، و الإناث للإناث من انقطاع النسل، و فساد التدبير، و خراب الدنيا».[۳۲۳]

و هذه المسألة قبيحة جدّا فى نظر الإسلام بحيث جعل- فى أبواب الحدود- حدّة القتل دون شك ... حتى الذين يقومون بعمل أدنى من اللواط و السحاق جعل لهم عقابا صارما ...

ففى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «من قبل غلاما من شهوة، ألجمه اللّه يوم القيامة بلجام من نار».[۳۲۴]

و عقوبة من يفعل مثل هذا الفعل تتراوح من ثلاثين سوطا إلى تسعة و تسعين سوطا ...

و على كل حال، فلا شك أن الانحراف الجنسى من أخطر الانحرافات الاجتماعية ... لأنّه يلقى بظله المشؤوم على جميع المسائل الأخلاقية، و يجر الإنسان إلى الانحراف العاطفى.

«و كان لنا بحث مفصل فى هذا الصدد فى ذيل الآية ۸۱ من سورة هود».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۴۱

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۶۷ الى ۱۷۵]

اشارة

قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (۱۶۷) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (۱۶۸) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (۱۶۹) فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۷۰) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۷۱)

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۷۲) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۴) وَ إِنَّ

رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵)

التّفسير

عاقبة قوم لوط:

إن قوم لوط الغارقين بالغرور و المتمادية بهم رياح الشهوة، بدلا من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهى، فتدخل مواعظه فى قلوبهم و يخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنهم نهضوا لمواجهته و قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ...

إن كلامك يبلبل أفكارنا، و يسلب اطمئناننا و هدوأنا، فنحن غير مستعدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۲

حتى للإصغاء إلى كلامك ... و إذا واصلت هذا الأسلوب و لم تنته منه، فإنّ أقل ما تجزى به هو الإبعاد و الإخراج من هذه الأرض ...

و نقرأ فى مكان آخر من القرآن أن قوم لوط سعوا لتنفيذ تهديدهم، و أمروا بإخراج لوط و أهله، فقالوا: أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

إن فعل هؤلاء الضالّين- بلغ بهم أن يعدوا التقوى و التطهر بينهم أكبر عيب، و أن يفخروا بالرجس و عدم الطهارة، و هذه هى العاقبة المشؤومة للمجتمع المسرع نحو الفساد! و يستفاد من عبارة لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أناسا طاهرين من حيّهم فهدّدوا لوطا بهذا الأمر أيضا، و هو أنه إذا لم تنته فستنال ما ناله سواك من الإبعاد و الإخراج ...

و قد صرّح فى بعض التفاسير أنّهم كانوا يخرجون المتطهرين من القرية بأسوأ الحال ۳۲۵] ...

إلّا أنّ لوطا لم يكترث بتهديدهم، و واصل نصحه لهم و قالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادى إيّاكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترك مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالاعتراض و النقد! ...

و التعبير ب «من القالين» يدلّ أيضا على أن جماعة كانوا مثل النّبى لوط يرفضون هذه الأعمال و يعترضون عليها ... رغم أن المنحرفين أخرجوهم من قريتهم آخر الأمر.

كلمة «القالين» جمع «قال» من مادة (قلى) أو (قلى) «على وزنى حلق و شرك» و معناها العداوة الشديدة التى تترك أثرها فى قلب الإنسان، و هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۳

يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم ...

و الذى يسترعى النظر أن لوطا يقول: إنّى لعملكم من القالين. أى إنّنى لا- أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادى أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم و غير قال لكم.

و أخيرا لم تؤثر مواعظ لوط و نصائحه فى قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع عفن ... و تمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، و بلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية ... فعليه أن يغادر هذه المنطقة العفنة، و أن ينجّى من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب اللّه على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: رَبِّ نَجِّنِى وَ أَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ

و بالرغم من أنّ بعضهم احتمل أن يكون المراد من الأهل من الآية جميع من آمن به ... إلّا أن الآية (۳۶) من سورة الذاريات تقول: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و لكن كما أشرنا من قبل- فإن بعض التعابير الواردة فى الآيات محل البحث، تشير إلى أن جماعة من المؤمنين به كانوا قد أبعدوا و

أخرجوا من القرية ...

و يستفاد ممّا قيل- ضمنا- أن دعاء لوط لأهله لم يكن بسبب العلاقة العاطفية و الارتباط النسبى القرابتى، بل لإيمانهم به ...

فاستجاب اللّه دعاؤه كما تقول الآية التالية: فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ [۳۲۶] و هذه العجوز لم تكن سوى زوج النّبى لوط التى كانت منسجمة مع أفكار قومه الضالين و عقيدتهم، و لم تؤمن بلوط أبدا، و لذلك ابتليت بما أبتلى به قومه من العذاب و الهلاك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۴

و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى ذيل الآيات «۸۱- ۸۳ من سورة هود».

أجل، لقد نجّى اللّه لوطا و المؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلا من تلك المدينة- أو القرية- فترك قومه الغارقين بالفسق و الفجور على حالهم، فنزل عذاب اللّه فى الغداة، فتزلزلت بهم الأرض و انهارت عليهم الأبنية و القصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها و هلكوا جميعا فى ديارهم، و قد عبّر القرآن عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ و لم يكف ذلك بل وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً و أىّ مطر! إنّه وابل من أحجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار. فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ...

و الأمطار عادة تمنح الحياة، إلّا أن هذا المطر كان موحشا مهلكا مخرّبا ...

و يستفاد من الآية (۸۲) من سورة هود أن قرى قوم لوط و مدنهم قلب عاليها سافلها أوّلا، ثمّ أمطرت بالحجر النضيد المتراكم، و لعله كان إمطارهم بالحجارة لمحوا آثارهم، فلم يبق منها غير تل كبير من الأحجار و التراب بدل تلك المدن العامرة ...

ترى هل كانت هذه الأحجار قد حملت من الصحارى على أثر اعصار عظيم و سقطت على رؤوسهم؟ أو هى أحجار نزلت من السماء بأمر من اللّه عليهم؟! أو كما يقول بعض المفسّرين كان هناك بركان أو جبل نار قد خمد لفترة، ثمّ انفجر بأمر اللّه فأمطرهم بالحجارة، ليس ذلك معلوما على نحو الدقّة! إلّا أن من المسلّم به أنّ هذه الأحجار- أو هذا المطر المهلك- لم يترك للحياة فى تلك الأرض من أثر! «و تفصيل هذا الموضوع ذكرناه فى ذيل الآيات ۸۱- ۸۳ من سورة هود، كما ذكرناه فى الجزء الثامن مع «لطائف» مختلفة فلا بأس بمراجعتها» ...

و مرّة أخرى نواجه فى نهاية هذه القصّة الجملتين اللتين تكررتا فى القصص المشابهة لها فى هذه السورة، فى شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۵

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ

و أيّة آية أجلى من هذه الآية التى تعرفكم على هذه المسائل المهمّة و البناءة، دون أن تحتاجوا إلى تجربة شخصية! أجل إن تاريخ الماضين عبرة و آية للآتين، و ليس تجربة، لأنّ التجربة ينبغى على الإنسان أن يتحمل فيها خسائر ليحصل على نتائجها ... إلّا أنّنا هنا نحصل على النتائج من خسائر الآخرين!.

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

و أية رحمة أعظم من أنّه لا- يعاقب أقواما فاسقين كقوم لوط فورا، بل يمهلهم إمهالا- كافيا لعلهم يهتدون، و يجددوا نظرهم فى أعمالهم! ...

و أية رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان فى ألف ألف ۳۲۷] أسرة غير صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنه ينجيها منها و ينزل العذاب على أولئك! و أية عزّة أعظم من أن ترى بطرفة عين واحدة ديار الفاسقين قد دمرت تدميرا و لم يبق منها أى أثر! فالأرض التى كانت مهادا لأمنهم أمرت بإقبارهم، و المطر الذى تحيا به الأرض و الناس يكون مميتا لهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۶

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۷۶ الى ۱۸۴]

اشارة

كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (۱۷۶) إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۷۷) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۷۸) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۷۹) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۸۰)

أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (۱۸۱) وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ (۱۸۲) وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (۱۸۳) وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (۱۸۴)

التّفسير

شعيب و أصحاب الأيكة:

هذه هى القصّة السابعة، و الحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء الواردة فى هذه السورة ... و هى قصة «شعيب» عليه السّلام و قومه المعاندين.

كان هذا النّبى يقطن فى «مدين»، «و هى مدينة تقع جنوب الشامات».

و «أيكة» على وزن (ليلة) «قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۷

و الآية (۷۹) من سورة الحجر تدل على أن «أيكة» كانت تقع فى طريق أهل الحجاز إلى الشام.

تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: كَذَّبَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ

إنّهم لم يكذبوا نبيّهم شعيبا فحسب، بل كذبوا جميع الأنبياء، لأنّ دعوتهم واحدة ... أو لأنّهم لم يصدقوا و يقبلوا بأىّ رسالة سماوية أبدا ...

و الأيكة معناها فى الأصل محل مكتظ بالأشجار، و هى هنا إشارة إلى منطقة تقع على مقربة من «مدين»، سمّيت بذلك لأن فيها أشجارا كثيرة و ماء و ظلالا! ...

و القرائن تشير إلى أنّهم كانوا منعّمين مترفين ذوى حياة مرفهة و ثروة كثيرة، و ربّما كانوا لهذه الأمور غرقى الغرور و الغفلة! ...

ثمّ يتحدث القرآن إجمالا عن شعيب عليه السّلام و عنهم فيقول: إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لا تَتَّقُونَ

و فى الحقيقة فإن دعوة شعيب عليه السّلام انطلقت من النقطة التى ابتدأها سائر الأنبياء، و هى التقوى و مخافة اللّه التى تعدّ أساس المناهج الإصلاحية و التغييرات الأخلاقية و الاجتماعية جمعاء ...

و الجدير بالذكر أن التعبير «أخوهم» الوارد فى قصص صالح و هود و نوح و لوط عليهم السّلام، لم يلاحظ هنا. و لعل منشأ ذلك يعود إلى أن «شعيبا» كان من أهل مدين أصلا- و تربطه باهلها روابط نسبية، و ليس كذلك مع اصحاب الأيكة ... و لذلك نرى فى سورة هود حين يشير القرآن إلى إرسال «شعيب» إلى قومه من أهل مدين يقول: وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً إلّا أن الآية محل البحث لما كانت تتحدث عن أصحاب الأيكة، و شعيب عليه السّلام لا تربطه رابطة نسبية بهم لم تذكر التعبير «أخاهم» ...

ثمّ أضاف شعيب قائلا: إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ فطاعتكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۸

لى طاعة للّه.

و اعلموا أنّى أبتغى ثوابه و وجهه وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ

و هـذه التعـابير هى التعـابير ذاتها التى دعا بها سائر الأنبياء أممهم، فهى متحـدة المآل و مدروسـة، إذ تـدعو إلى التقوى، و تؤكّد على سابقـة أمانـة النّبى بين قومه، كما أنّها تؤكّد على أن الهدف من الدعوة إلى اللّه معنوى فحسب، و ليس ورائها هدف مادى، و لا يطمع أىّ من الأنبياء بما فى يـد الآخرين، ليكون مثارا للشـكوك و ذريعـة للمتذرعين! و «شـعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حيـاتهم فى هـذه السورة، فهو يـدعو قومه بعـد الـدعوة العامّـة للتقوى و طاعـة اللّه، إلى إصـلاح انحرافاتهم الأخلاقيـة و الاجتماعيـة و ينتقدهم على هذه الانحرافات، و حيث أن أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادى، و الاستثمار و الظلم الفاحش فى الأثمان و السـلع، و التطفيف فى الكيل، لـذلك فقـد اهتم بهـذه المسائل أكثر من غيرها، و قال لهم: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ ۳۲۸] الْمُسْتَقِيمِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

و فى هذه الآيات الأخيرة الثلاث يأمر شـعيب هؤلاء القوم الضالين بخمسة أوامر فى عبارات موجزة، و يتصور بعض المفسّرين أن هذه العبارات بعضـها يؤكّد بعضا، إلّا أن التدقيق فيها يدلّ على أن هذه الأوامر الخمسة فى الواقع تشير إلى خمسة مطالب أساسية و مختلفة، أو بتعبير آخر: هى أربعة أوامر و نتيجة كليّة! ...

و لكى يتّضح هذه الاختلاف أو التفاوت، فإنه يلزم الالتفات إلى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۴۹

الحقيقـة ... و هى أن قوم شـعيب (أهل مـدين و أصـحاب الأيكة) كانوا مسـتقرين فى منطقة حساسة تجارية، و هى على طريق القوافل القادمة من الحجاز إلى الشام، أو العائدة من الشام إلى الحجاز، و من مناطق أخر.

و نحن نعرف أن هذه القوافل تحتاج فى أثناء الطريق إلى أمور كثيرة ...

و طالما يسـىء أهل المنطقـة الاسـتفادة من هذه الحالة، فهم يسـتغلونها فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن ... و يبيعون عليهم المسـتلزمات بأعلى ثمن «و ينبغى الالتفات إلى أن أكثر المعاملات فى ذلك الحين كانت قائمة على أساس المعاوضة سلعة بسلعة» ...

و ربما تذرعوا عند شـراء البضاعة بأن فيها عدة عيوب، و إذا أرادوا أن يبيعوا عليهم عرّفوها بأحسن التعاريف، و عند ما يزنون لأنفسهم يسـتوفون الوزن، و إذا كالوا الآخرين أو وزنوا لهم لا يهتمون بالميزان الصـحيح و الإستيفاء السـليم، و حيث أن الطرف المقابل محتاج إلى هذه الأمور على كل حال و مضطر إليها، فلا بدله من أن يقبلها و يسكت عليها! ...

و بغض النظر عن القوافـل التى تمرّ عليهم، فـإنّ أهـل المنطقـة نفسـها المضـطرين إلى التعامـل ببضـائعهم مع هؤلاء المطففين، و ليسوا بأحسن حظا من أصحاب القوافل أيضا.

فقيمـة المتاع سواء كان الجنس يراد بيعه أو شـراؤه تتعين بحسب رغبـة الكسـبة هؤلاء. و الوزن و المكيال على كل حال بأيديهم، فهذا المسـكين المستضـعف عليه أن يستسـلم لهم كالميت بيد غاسله! و مع ملاحظة ما ذكرناه آنفا، نعود الآن إلى تعابير الآيات المختلفة ... فتارة يقول شعيب لقومه: أوفوا الكيل، و فى مكان آخر يقول: زنوا بالقسطاس المستقيم، و نعرف أن تقويم الأجناس و البضائع يتم عن طريق الكيل أو الوزن، فهو يشير الى كل واحد منهما و يهتم به اهتماما خاصا ... لمزيد التأكيد على أن لا يبخسوا الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۰

أشياءهم ...

ثمّ إنّ التطفيف أن بخس النـاس له طرق شتى، فتارة يكون الميزان صـحيحا إلّا صاحبه لا يؤدى حقه، و تارة يكون اللعب أو العيب فى الميزان ... فهو يغش صاحبه بما فيه من عيب، و قد جاءت الإشارات فى الآيات الآنفة إلى جميع هذه الأمور.

و بعـد اتضـاح هـذين التعبيرين أَوْفُوا الْكَيْلَ ... وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ نأتى الى معنى (لا تبخسوا) المأخوذة من «البخس»، و هو فى الأصـل

النقص ظلما من حقوق الناس ... و قد يأتى أحيانا بمعنى الغش أو التلاعب المنتهى إلى تضييع حقوق الآخرين ... فبناء على ما تقدم، فإن الجملة الآنفة وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش و التزوير و التضليل، و التلاعب فى المعاملات، و غمط حقوق الآخرين! و أمّا جملة وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ فمع ملاحظة أن «المخسر» هو من يوقع الآخر أو الشىء فى الخسران ... فمعناه واسع أيضا، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس و التطفيف كل ما من شأنه أن يكون سببا للخسارة و إيذاء الطرف الآخر فى المعاملة! و هكذا فإنّ جميع ما ذكر من الاستغلال و سوء الاستفادة و الظلم، و المخالفة فى المعاملة و الغش و الإخسار، سواء كان ذلك فى الكمية أو الكيفية، كله داخل فى التعليمات آنفة الذكر ...

و حيث أن الاضطراب الاقتصادى، أو الأزمة الاقتصادية، أساس لاضطراب المجتمع، فإنّ شعيبا يختتم هذه التعليمات بعنوان جامع فيقول: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فتجرّوا المجتمع الى هاوية الفساد و الانحطاط، فعليكم أن تضعوا حدّا لأى نوع من الاستثمار و العدوان و تضييع حقوق الآخرين.

و هذه التعليمات ليست بناءة للمجتمع الثرى الظالم فى عصر شعيب فحسب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۱

بل هى بناءة و نافعة لكل عصر و زمان، و داعية إلى العدالة الاقتصادية! ...

ثمّ إن «شعيبا» فى آخر تعليماته- فى هذا القسم- يدعوهم مرد اخرى إلى تقوى اللّه فيقول: وَ اتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ الْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ

فلستم أول قوم أو جماعة خلقوا على هذه الأرض، فآباؤكم و الأمم الأخرى جاءوا و ذهبوا، فلا تنسوا ماضيهم و ما تقبلون عليه ...

(الجبلة) مأخوذة من (الجبل) و هو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيرا» و يسمى الطود أحيانا ... فالجبلة تطلق على الجماعة الكثيرة التى هى كالجبل فى العظمة ...

قال بعضهم: الجبلة مقدار عددها عشرة آلاف! كما تطلق الجبلة على الطبيعة و الفطرة الإنسانية، لأنّها لا تتغير، كما أن الجبل لا يتغيّر عادة ...

و التعبير المتقدم لعله إشارة إلى أن شعيبا يقول: إنّما أدعوكم إلى ترك الظلم و الفساد، و أداء حقوق الناس و رعاية العدل، لأنّ ذلك موجود فى داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأوّل، و أنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة ...

إلّا أنّه- و للأسف- لم تؤثر كلمات هذا النّبى المشفق، فأجابوه بمنطق «مرّ و فظ» سنقرؤه فى الآيات المقبلة ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۲

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۸۵ الى ۱۹۱]

اشارة

قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (۱۸۵) وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ (۱۸۶) فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۱۸۷) قالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸۸) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۸۹)
إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۹۰) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۹۱)

التّفسير

عاقبة الحمقى:

لما رأى قوم شعيب الظالمون- أنّهم لا- يملكون دليلا- ليواجهوا به منطقه المتين ... و من أجل أن يسيروا على نهجهم و يواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التهم و الأكاذيب.

فالتهمة الأولى هى ما يلصقها الجبابرة دائما و المجرمون بالأنبياء، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۳

السحر فاتّهموه بها و قالُوا إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۳۲۹] و لا يرى فى كلامك ما هو منطقى!! و تظن أنّك بهذا الكلام تستطيع تقييد حريتنا فى التصرف فى أموالنا كما نشاء!! ثمّ ما الفارق بينك و بيننا لنتّبعك؟! و لا مزيّة لك علينا وَ ما أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ إِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكاذِبِينَ

و بعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارة يدعونه (من الكاذبين) و رجلا انتهازيا، و تارة يدعونه مجنونا أو من المسحّرين، و كان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّا فَأَسْقِطْ عَلَيْنا كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ حيث كنت تهددنا دائما بهذا اللون من العذاب.

و «كسف» على وزن (فرق) جمع (كسفة) على وزن (قطعة) و معناها قطعة أيضا و المراد من هذه «القطع من السماء» هى قطع الأحجار التى تهوى من السماء ...

و هكذا يبلغ بهم صلفهم و وقاحتهم و عدم حيائهم إلى هذه الدرجة، و أظهروا كفرهم و تكذيبهم فى أسوأ الصور.

إلّا أن شعيبا عليه السّلام، و هو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة و الكلمات القبيحة و طلبهم عذاب اللّه، كان جوابه الوحيد لهم أن قالَ رَبِّى أَعْلَمُ بِما تَعْمَلُونَ ...

و يشير إلى أنّ الأمر خارج عن يدى، و أن إنزال العذاب و إسقاط الكسف من السماء غير مخول بها ليطلب كل ذلك منّى ... فاللّه يعرف أعمالكم و يعلم بها، و ما أنتم أهل له، فمتى لم تنفع المواعظ و تمّت الحجّة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له و سيقطع دابركم لا محالة! ...

و هذا التعبير و أمثاله ممّا يرد على لسان الأنبياء، و ما نلاحظه فى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۴

القرآن يدل على أنّهم كانوا يوكلون جميع الأمور إلى اللّه، و إنّها بإذنه و أمره، و لم يدّعوا أنّهم قادرون على كل شىء، أو أنّهم يفعلون ما يشاءون!.

و على كل حال فإن عذاب اللّه أزف موعده- و كما يعبر القرآن عنه فى الآية التالية قائلا: فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

«الظلة» فى الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أى ذى الظل ...

يقول أغلب المفسّرين فى ذيل هذه الآية: إن حرّا شديدا محرقا حلّ فى أرضهم سبعة أيّام، و لم يهب نسيم بارد مطلقا، فإذا قطعة من السحاب تظهر فى السماء- بعد السبعة أيّام- و تحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، و استظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

و فجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، و أحرقتهم بنارها و زلزلت الأرض و هلكوا جميعا.

و نعرف أن الصاعقة تنتج عن تلاقح القوى أو «الطاقة» الموجبة و السابقة، أو ما يعبر عنها بالشحنات الكهربائية و حين تتلاقح هذه الشحنات بين السحاب و الأرض ينتج عنها صوت مرعب و شعلة موحشة، و قد تهتز الأرض عند وقوعها فيتزلزل محل سقوطها ... و هكذا يتّضح أن اختلاف التعابير فى آيات القرآن الواردة عن عذاب قوم شعيب، يعود إلى حقيقة واحدة! ففى سورة الأعراف جاء التعبير بالرجفة (الآية (۹۱) و فى سورة هود جاء التعبير بالصيحة (الآية ۹۴) أمّا فى الآيات محل البحث فقد جاء التعبير ب عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين «كالقرطبى و الفخر الرازى و غيرهم» يحتمل أن أصحاب الأيكة و أهل مدين كانوا جماعتين أو

طائفتین، و کل طائفة نزل علیهم عذاب خاص، إلّا أنه مع ملاحظة هذه الآیات المتعلقة بهذا القسم- بدقة- یتجلّی أن هذا الاحتمال غیر وارد! ...

و تختتم القصّة هذه بما ختمت القصص الست السابقة عن أنبیاء اللّه الکرام، إذ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۵

یقول القرآن: إن فی حکایة أصحاب الایکة و دعوة نبیّهم شعیب و عنادهم و تکذیبهم، و بالتالی نزول العذاب علی هؤلاء المتکبرین درس و عبرة لمن اعتبر إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً وَ ما کانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ

و مع ذلک کله فإن اللّه رحیم ودود یمهلهم لعلهم یرجعون و یصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا فی الغی و استوجبوا عذاب اللّه، أخذهم أخذ عزیز مقتدر.

أجل وَ إِنَّ رَبَّکَ لَهُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ

بحوث

۱- الانسجام التام فی دعوات الأنبیاء

فی ختام قصص هؤلاء الأنبیاء السبعة نجد أن هذه القصص تشکّل حلقة کاملة من حیث الدروس التربویة ... و ینبغی أن نلتفت إلی هذه «اللطیفة»[۳۳۰] و هی أن قصص هؤلاء الأنبیاء جمیعا جاءت فی سور أخر من القرآن أیضا. إلّا أنها لم تعرض بهذا العرض بحیث نجد أن بدایة دعوتهم منسجمة، کما أنّ نهایاتها منسجمة أیضا.

و لوحظ فی خمسة أقسام من هذه القصص أن محتوی الدعوة هو تقوی اللّه، ثمّ الإشارة إلی أمانة النّبی، و عدم مطالبته قومه بالأجر علی تبلیغه إیّاهم ... و بعد هذه المسائل تعالج المسائل الاجتماعیة، و الانحرافات الأخلاقیة، من قبل الأنبیاء بلغة تنمّ عن الإشفاق و المحبة ...

ثمّ یبیّن القرآن ردّ فعل الأمم المنحرفة تجاه أنبیائهم، و أخیرا عاقبتهم الوخیمة، و یذکر عذاب کل منهم و کیفیته ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۶

و فی نهایة کل من هذه القصص السبع یشیر القرآن إلی أن فی ذلک آیة و أن أکثرهم لا یؤمنون ...

ثمّ یؤکّد القرآن أیضا فی نهایة کل قصّة منها علی قدرة اللّه (و عزته) و رحمته.

و هذا الانسجام- قبل کل شیء- یدلّ علی تجلی مفهوم وحدة دعوات الأنبیاء، بحیث کانوا ذوی منهج واحد و بدایة واحدة و نهایة واحدة ... و جمیعهم کانوا معلمی مدارس الإنسانیة ... و بالرغم من أنّ محتوی هذه المدارس کان ینبغی أن یتغیّر بتقدم الزمن و المجتمع الإنسانی، إلّا أنّ الأصول و النتائج تبقی علی حالها.

ثمّ بعد هذا کله، فإن هذه القصص کانت تسرّی عن قلب النّبی و المؤمنین القلّة فی ذلک العصر (و المؤمنون فی کل عصر) و تسلّی خاطرهم، لئلا- یحزنوا و ییأسوا من کثرة المشرکین و الأعداء الضالین، و أن یثقوا و یتوقعوا العاقبة لهم ... و أن یکون أملهم بذلک کبیرا ...

کما أن ذلک إنذار للجبابرة و المستکبرین و الظالین- فی کل عصر و زمان- لئلا یتصوروا بأنّ عذاب اللّه بعید عنهم ... العذاب بأنواعه کالزلزلة و الصاعقة، و الطوفان و البرکان ... و انشقاق الأرض و الخسف، و الأمطار الغزیرة التی تعقبها السیول المدمّرة، و الإنسان المعاصر ضعیف أمامها کضعف الإنسان الغابر ... لأن الإنسان المعاصر- بالرغم من جمیع قواه و تقدمه الصناعی عاجز أمام

الطوفان و الصاعقة و الزلزلة ... و یبقی ضعیفا لا حول له و لا طول! ...

کل ذلک من أجل أن الهدف من قصص القرآن هو تکامل الناس و بلوغهم الرشد، و الهدف تنویر القلوب و معالجة الهوی بالتعقّل ... و أخیرا فإنّ الهدف هو مواجهة الظلم و الانحراف ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۷

۲- التقوی، بدایة دعوة الأنبیاء جمیعا:

ممّا یلفت النظر أن قسما مهما من قصص هؤلاء الأنبیاء- الوارد ذکرهم فی سورة الشعراء- ذکر فی سورة هود و الأعراف، إلّا أن فی بدایة ذکرهم و بیان سیرتهم فی اقوامهم الدعوة إلی وحدانیة اللّه- عادة- و یبتدأ فی تلک السور عند ذکرهم. بجملة یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرُهُ إلّا أنّه فی هذه السورة (الشعراء)- کما لاحظنا- کانت بدایة دعوتهم قومهم أ لا تَتَّقُونَ ... و الحق أنّهما تعودان إلی نتیجة واحدة ... لأنّه إذا لم توجد فی الإنسان أدنی مراتب التقوی، و هی طلب الحق، فإنه لا یؤثر فیه شیء، لا الدعوة إلی التوحید و لا غیرها ... لذا فإنّنا نقرأ فی بدایة سورة البقرة قوله تعالی: ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ هُدیً لِلْمُتَّقِینَ

و بالطبع فإنّ التقوی لها مراحل- أو مراتب- و کل مرتبة هی درجة للرقی إلی المرحلة التالیة أو المرتبة الأخری ...

کما نلاحظ اختلافا آخر بین هذه السورة و سورتی الأعراف و هود، ففی سورتی الأعراف و هود کانت دعوة الأنبیاء تترکز علی نبذ الأصنام، أمّا المسائل الأخر فکانت تحت الشعاع، إلّا أنه فی سورة الشعراء هذه تترکز الدعوة علی مکافحة الانحرافات الأخلاقیة و الاجتماعیة، کالمفاخرة و طلب الاستعلاء، و الإسراف، و الانحراف الجنسی، و الاستثمار و التطفیف. إلخ ... و هذا الأمر یکشف بأن تکرار هذه القصص فی القرآن له حساب خاص، و لکلّ هدف معین یعرف من السیاق!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۱۱ ؛ ص۴۵۷

۳- الانحرافات الاخلاقیة

ممّا یلفت النظر أنّ الأقوام المذکورین فی هذه السورة، بالإضافة إلی انحرافهم عن أصل التوحید نحو الشرک و عبادة الأوثان، الذی یعدّ أصلا مشترکا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۸

بینهم، فإنهم کانوا متورطین بانحرافات أخلاقیة و اجتماعیة خاصّة «و کل قوم لهم انحرافات خاصّة» ...

فبعضهم کانوا أهل مفاخرة و تکبر ... کقوم هود علیه السّلام.

و بعضهم کانوا أهل إسراف و ترف کقوم صالح علیه السّلام.

و بعضهم کانوا مبتلین بالانحراف الجنسی کقوم لوط علیه السّلام.

و بعضهم کانوا عبدة المال بحیث کانوا یتلاعبون بالمعاملات کقوم شعیب علیه السّلام.

و بعضهم کانوا مغرورین بالثروة کقوم نوح علیه السّلام.

إلّا أن عقابهم کان متشابها إلی حدّ ما، و کانت نهایتهم الهلاک ...

فبعضهم أهلکوا بالصاعقة و الزلزلة کقوم شعیب و قوم لوط و قوم صالح و قوم هود.

و بعضهم أهلكوا بالطوفان كقوم نوح عليه السّلام.

و فى الحقيقة، فإن الأرض التى هى مهد للدعة و الاطمئنان، و كانوا يمرحون عليها، أمرت بإهلاكهم! ...

و الماء و الهواء الذين هما سببا حياتهم نفذا الأمر بإماتتهم! و ما أعجب أن تكون حياة الإنسان فى قلب الموت، و موته فى قلب الحياة، و هو مع كل ذلك غافل مغرور!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۹۲ الى ۱۹۷]

اشارة

وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۹۲) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (۱۹۳) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۱۹۴) بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (۱۹۵) وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (۱۹۶)

أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۹۷)

التّفسير

عظمة القرآن فى كتب «السابقين».[۳۳۱]

بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، و العبر الكامنة فى تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرة أخرى إلى البحث الذى شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن و حقانية هذا الكلام الإلهى المبين، إذ يقول: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ

و أساسا فإن بيان جوانب مختلفة عن سير الأنبياء السابقين بهذه الدقة و الظرافة، و الخو من أى نوع من الخرافات و الأساطير الكاذبة، و فى محيط ملىء بالأساطير و الخرافات، و من قبل إنسان لا يعرف القراءة و الكتابة، أو لم يسبق له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۰

أن تعلمهما ... كل ذلك بنفسه دليل على أن هذا الكتاب تنزيل من ربّ العالمين، و هذا نفسه دليل على إعجاز القرآن!! لذلك تضيف الآية التالية قائلة: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

و لو كان القرآن لم ينزله ملك الوحى «الروح الأمين من قبل اللّه» لم يكن بهذا الإشراق و الصفاء و الخلو من الخرافات و الأساطير و الأباطيل ...

و ممّا يلفت النظر أن ملك الوحى وصف بوصفين فى الآية: الأوّل أنّه الروح، و الوصف الثّانى أنّه الأمين ...

فالروح هى أساس الحياة، و الأمانة، هى شرط أصيل فى الهداية و القيادة! ...

أجل، إن هذا الروح الأمين نزل بالقرآن عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [۳۳۲] فالهدف هو أن تنذر الناس، و أن تحذرهم من مغبة الانحراف عن التوحيد، ليحذروا من سوء العاقبة ... إن الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفا فكريا و لملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية و اليقظة، و الهدف هو التربية و بناء شخصية الإنسان! ...

و لئلا تبقى حجّة لأحد و لا عذر، فإنّ القرآن أنزل بِلِسانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ...

فهذا القرآن نازل بلسان عربى فصيح، خال من الإبهام، للإنذار و الإيقاظ، و لا سيما أنه نزل فى محيط يتذرع أهله بالحجج الواهية، نزل بليغا واضحا ...

هذا اللسان العربى هو أكمل الألسنة و اللغات و أغناها أدبا و مقاما.

و الجدير بالذكر أن أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحة و البلاغة- بقطع النظر عن كيفية اللسان، و كما يقول الراغب فى المفردات: العربى: الفصيح البيّن من الكلام ...

و فى هذه الصورة فإنه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۱

القرآن و وضوح مفاهيمه، و الآيات التالية تؤيد هذا المعنى، كما جاء فى الآية (۴۴) من سورة فصلت وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ

فالمراد من الأعجمى هنا هو الكلام غير الفصيح! ...

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ [۳۳۳] و خاصّة أن أوصاف هذا النّبى العظيم و أوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراة موسى عليه السّلام بحيث أن علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك، حتى قيل أن إيمان قبيلتى الأوس و الخزرج بالنّبى محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان على أثر ما كان يتوقعه علماء اليهود عن ظهور هذا النّبى العظيم، و نزول هذا الكتاب السماوى الكريم ..

لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلا: أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ

و واضح أنه مع وجود أولئك العلماء من بنى إسرائيل فى ذلك المحيط الملىء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافا» و اعتباطا ..

لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب و صوب بالإنكار، و هذا بنفسه دليل على أن هذا الموضوع كان جليّا فى ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات- محل البحث- و نقرأ فى الآية (۸۹) من سورة البقرة أيضا: وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ

و كل هذا شاهد جلىّ على صدق آيات القرآن و حقانية دعوته! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۳

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۱۹۸ الى ۲۰۳]

اشارة

وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (۱۹۸) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (۱۹۹) كَذلِكَ سَلَكْناهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (۲۰۰) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۲۰۱) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۲۰۲)

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (۲۰۳)

التّفسير

لو نزّل القرآن على الأعاجم ...

فى هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الاحتمالية من قبل الكفار و موقفه منها، و يستكمل البحث السابق فى نزول القرآن بلسان عربى مبين، فيقول: وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

قلنا سابقا أن كلمة «عربى» قد يراد منها من ينتمى إلى العرب، و قد تطلق على الكلام الفصيح أيضا. و «عجمى» فى مقابل العربى كذلك له معنيان، فقد يراد منه من ينتمى إلى غير العرب، و قد يراد منه الكلام غير الفصيح، و كلا المعنيين فى الآية الآنفة محتمل، إلّا أن الاحتمال الأكثر هو أن المقصود غير العرب، كما يبدو.

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية و يعبد القومية كانوا متعصبين الى درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۴

أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ [۳۳۴] لا شك أن المراد من هذا العذاب الذى يأخذهم بغتة، هو عذاب الدنيا و البلاء المهلك و عقاب الاستئصال! ...

لذا فإنّ القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنّهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، و يندمون على أفعالهم، و يتملكهم الخوف من المصير المرعب، و يودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات و الإيمان بالرسالة الالهية: فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ...

بحوث

۱- العصبية القومية و القبلية الشديدة! ...

لا شك أن كل إنسان يرتبط بأرض أو قبيلة أو قومية فإنّه يعشقها، و هذه العلاقة بالأرض أو القبيلة، ليست غير معيبة فحسب، بل هى عامل بنّاء لأبناء المجتمع، إلّا أن لهذا الأمر حدودا، فلو تجاوز الحدود فإنه سينقلب إلى عامل مخرب، و ربّما إلى عامل مفجع.

و المراد من التعصب أو العصبية القومية أو القبلية المذمومة و السلبية، هو الإفراط فى التعصب أو العصبية ...

«التعصب» و «العصبية» فى الأصل من مادة (عصب) و معناه واضح، و هو الغضروف الذى يربط المفاصل، ثمّ أطلق التعصب و العصبية على كل ارتباط ...

إلّا أن هذا اللفظ أو هذين اللفظين يستعملان عادة فى المفهوم الإفراطى المذموم.

إن الدفاع المفرط عن القوم أو القبيلة أو الأرض و الوطن، كان مصدرا لكثير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۵

من الحروب على طول التاريخ، و عاملا على انتقال الخرافات و التقاليد السيئة على أنها آداب و سنن فى قبيلة ما أو أمّة ما! إلى امم أخر! هذا الدفاع أو الانتماء المتطرف، قد يبلغ حدا بحيث يرى أسوأ أفراد قبيلته فى نظره جميلا، و أحسن أفراد القبيلة الأخرى فى نظره سيئا ... و كذلك الحال بالنسبة إلى السنن و الآداب السيئة و الحسنة ... و بتعبير آخر: إنّ التعصب القومى يلقى ستارا من الجهل و الأنانية على أفكار الإنسان و عقله، و يلغى التقييم الصحيح! هذه الحالة من العصبية كانت لها صورة أكثر حدة بين بعض الأمم، و منهم العرب المعروفون بالتعصب.

و قد قرأنا فى الآيات الآنفة أنّه لو أنزل اللّه القرآن على غير العرب لما كانوا به مؤمنين.

و قد ورد فى الرّوايات الإسلامية التحذير من التعصب، على أنّه خلق مذموم، حتى أنّنا نقرأ

حديثا عن رسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «من كان فى قلبه حبّة من خردل من عصبية، بعثه اللّه يوم القيامة مع أعراب الجاهلية».[۳۳۵]

و

نقرأ حديثا آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه».[۳۳۶]

و یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أیضا، أن إبلیس أوّل من تعصب ...

یقول الإمام علی علیه السّلام فی بعض خطبه- المعروفة بالقاصعة- فی مجال التعصب کلاما بلیغا مؤثرا، ننقل جانبا منه هنا: «أمّا إبلیس فتعصب علی آدم لأصله، و طعن علیه فی خلقته، فقال: أنا نارى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۶

و أنت طینی).[۳۳۷]

ثمّ

یضیف الإمام علی فی خطبته هذه قائلا: «فإن کان لا بدّ من العصبیة، فلیکن تعصبکم لمکارم الخصال، و محامد الأفعال، و محاسن الأمور».[۳۳۸]

و یتّضح من هذا الحدیث- بجلاء أن التعصب و الدفاع المستمیت عن بعض الحقائق و الایجابیات لیس غیر مذموما فحسب، بل بامکانه أن یسدّ فراغا روحیا قد ینشأ من ترک بعض العادات الجاهلیة المقیتة.

لذلک نقرأ

عن الإمام زین العابدین علی بن الحسین علیه السّلام حین سئل عن التعصب قوله: «العصبیة التی یأثم علیها صاحبها أن یری الرجل شرار قومه خیرا من خیار قوم آخرین، و لیس من العصبیة أن یحب الرجل قومه، و لکن من العصبیة أن یعین قومه علی الظلم».[۳۳۹]

و التعبیر الآخر عن العصبیة الوارد فی بعض الروایات أو الآیات هو الحمیة (حمیة الجاهلیة).

و بالرغم من أن الأحادیث فی هذا المجال کثیرة، إلّا أننا نختم بحثنا بحدیثین منها:

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام «إنّ اللّه یعذب ستة بست- العرب بالعصبیة، و الدهاقنة بالکبر، و الأمراء بالجور، و الفقهاء بالحسد، و التجار بالخیانة، و أهل الرستاق بالجهل).[۳۴۰] و کان رسول اللّه یتعوذ فی کل یوم من ست «من الشکّ و الشرک و الحمیّة و الغضب و البغی و الحسد».[۳۴۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۶۷

۲- طلب الرجوع إلی الدنیا ...

من لحظة الموت تبدأ حسرات المجرمین و آهاتهم، و تشتعل فی قلوبهم رغبة الرجوع إلی الدنیا، و یصرخون و یدعون و لات حین مناص ...

و فی القرآن الکریم أمثلة کثیرة فی هذا الصدد، أکثرها بساطة هذه الآیة محل البحث هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ

أمّا فی الآیة (۲۷) من سورة الأنعام فنقرأ: یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا.

أمّا فی الآیة (۶۶) سورة الأحزاب فتقول منها: یا لَیْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا.

و نقرأ فی الآیتین ۹۹- ۱۰۰ من سورة المؤمنون: حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ

و هذه الحالة تستمر حتی فی صوره وقوف المجرمین علی حافة النار، کما فی الآیة ۲۷ من سورة الأنعام، إذ تقول: وَ لَوْ تَری إِذْ وُقِفُوا عَلَی النَّارِ فَقالُوا یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ ...

إلّا أن هذه العودة لن تتحقق، لأنّها سنة اللّه سبحانه، و لن تجد لسنة اللّه تبدیلا، و لن تجد لسنة اللّه تحویلا، فلو قطعت ثمرة غیر ناضجة من الشجرة ثمّ عادت، و لو سقط الجنین من بطن امّه قبل اکتماله، ثمّ عاد الی الرحم ... لأمکن أن یعود هؤلاء ...

فبناء على ذلك فإن الطريق الوحيد المعقول، هو التوقّى من حسرة ما بعد الموت بالتوبة من الذنب، و الأعمال الصالحة، ما دامت الفرصة سانحة و إلّا فلا ينفع الندم بعد فوات الأوان! ...

۳- فضل العجم:

جاء فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق ذيل الآيات محل البحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۸

أنه قال: «لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب ... و قد نزل على العرب فآمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم».[۳۴۲]

«و فى هذا الصدد كانت لنا إشارات ذيل الآية ۵۴ من سورة المائدة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۶۹

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۰۴ الى ۲۱۲]

اشارة

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (۲۰۴) أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ (۲۰۵) ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ (۲۰۶) ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ (۲۰۷) وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَها مُنْذِرُونَ (۲۰۸)

ذِكْرى وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ (۲۰۹) وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (۲۱۰) وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ وَ ما يَسْتَطِيعُونَ (۲۱۱) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (۲۱۲)

التّفسير

تهمة أخرى للقرآن:

حيث أن الآيات المتقدمة ختمت بجملة هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ التى يقولها المجرمون عند ما يأتيهم العذاب بغتة و هم علا أبواب الهلاك، طالبين الإمهال و الرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال. فالآيات محل البحث تردّ عليهم عن طريقين:

الأوّل قوله تعالى: أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ

إشارة إلى أنّه طالما استهزأتم أيّها المجرمون، و سخرتم من أنبيائكم، و طلبتم منهم نزول العذاب بسرعة ... لكن حين أصبحتم فى قبضة العذاب تطلبون الإمهال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۰

لتعوضوا عمّا فات من الأعمال، و كنتم ترون الأمر لهوا و لعبا فى يوم، لكن فى اليوم الآخر وجدتموه جديّا- و على كل حال فإنّ سنة اللّه أن لا يعذب قوما حتى يتمّ عليهم الحجّة البالغة ...

لكن إذا تمّت الحجة، و فسح لهم المجال، و لم يثوبوا الى رشدهم أنزل عذابه فلا ينفع الابتهال، و الرجوع نحو ساحة ذى الجلال.

و الآخر أنّه أَ فَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْناهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جاءَهُمْ ما كانُوا يُوعَدُونَ ما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يُمَتَّعُونَ

فعلى فرض أنّهم أمهلوا ثانية (و لن يمهلوا بعد إتمام الحجة عليهم) و على فرض أن يعمّروا سنين طوالا فى هذه الدنيا و يغرقوا فى بحر الغفلة و الغرور، الا يكون عملهم التمتع و التلذذ بالمواهب الماديّة فحسب. و هل يعوضون عما فاتهم؟! كلّا أبدا .. فمن المسلّم أنّهم لا

يعرضون عمّا فاتهم. و هل تغنى المواهب المادية عنهم شيئا عند نزول العذاب؟ و هل تحلّ مشكلتهم أو تحدث تغييرا فى عاقبتهم؟! كما يرد هذا الاحتمال فى تفسير الآيات الآنفة، و هو أنّهم لا- يطلبون الإمهال للرجوع نحو الحق و التعويض عما فات، بل يطلبون الإمهال لمزيد التمتع من النعم الزائلة فى هذه الدنيا، إلّا أن هذا التمتع لا يغنى عنهم شيئا، و لا بد أن يرحلوا- إن عاجلا و إن آجلا- من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية، و أن يواجهوا أعمالهم هناك ...

و هنا يثار سؤال- و هو أنّه مع الالتفات إلى أن اللّه بمستقبل كل قوم و جماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثمّ أن الأمم السالفة كذبت أنبياءها واحدا بعد الآخر، و بمقتضى قوله تعالى:

وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ الوارد فى نهاية تلك القصص إن أكثرهم لم يؤمنوا، فعلام يأتى الأنبياء منذرين و مبشرين؟! فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأن ذلك سنة اللّه وَ ما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۱

لَها مُنْذِرُونَ فنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجّة و تقديم النصح و الموعظة ليتذكروا و يستيقظوا من غفلتهم ذِكْرى [۳۴۳] و لو كنا نأخذهم بدون إتمام الحجة، و ذلك بإرسال المنذرين و المبشرين- من قبل اللّه- لكان ظلما منّا وَ ما كُنَّا ظالِمِينَ

فمن الظلم أن نهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجّة عليهم ...

و ما ورد فى هذه الآيات هو فى الحقيقة بيان للقاعدة العقلية المعروفة ب «قاعدة قبح العقاب بلا بيان» و شبيه لهذه الآية ما جاء فى الآية (۱۵) من سورة الإسراء: وَ ما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا.

أجل .. إنّ العقاب بدون البيان الكافى قبيح، كما أنه ظلم، و اللّه العادل الحكيم محال أن يفعل ذلك أبدا، و هذا ما يعبر عنه فى علم الأصول ب (أصل البراءة) و معناه أن كل حكم لم يقم عليه الدليل، فإنّه ينفى بواسطة هذا الأصل «لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآية ۵۷ من سورة الإسراء» ..

ثمّ يرد القرآن على إحدى الذرائع أو التهم الباطلة من قبل اعداء القرآن و هى أن النّبى مرتبط ببعض الجن، و هو يعلمه هذه الآيات، و الحال أن القرآن يؤكّد أن هذه الآيات هى من «تنزيل ربّ العالمين».

فيضيف هنا قائلا: وَ ما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ

ثمّ يبيّن جواب هذه التهمة الواهية التى اختلقها الأعداء فيقول: وَ ما يَنْبَغِي لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۲

أى أن محتوى هذا الكتاب العظيم الذى يدعو الى الحق و الطهارة و العدل و التقوى، و نفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنّه لا شباهة له بأفكار الشياطين و ما يلقونه. فالشياطين لا يصدر منهم إلّا الشر و الفساد، و هذا كتاب خير و صلاح، فالدقّة فى محتواه تكشف عن أصالته.

ثمّ إن الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك وَ ما يَسْتَطِيعُونَ

فإذا كانت لهم القدرة فينبغى على سائر من كان فى محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين بالشياطين (أو على الأقل كان المشركون يدّعون بأنّهم مرتبطون بالشياطين) أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله، و هذا العجز أثبت أن القرآن فوق قدرتهم و مستوى بلاغتهم و أفكارهم! ...

و مضافا إلى كل ذلك، فإن الكهنة أنفسهم كانوا يعترفون أنّهم بعد ولادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم انقطعت علاقتهم بالشياطين الذين كانوا يأتونهم بأخبار السماء و إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ

و يستفاد من سائر آيات القرآن أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء و يسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلّا أنّه بظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ولادته انقطع استراق السمع تماما، و زال الارتباط

الخبرى بين الشياطين و أوليائهم ...

و هذا الأمر كان يعلم به المشركون أنفسهم، و على فرض أن المشركين كانوا لا يعلمون، فإن القرآن أخبرهم بذلك.[۳۴۴] و لذا فقد جعله القرآن دليلا فى الآيات الأنفة لدحض ما يتقوله الأعداء ...

و هكذا فقد أجاب القرآن على هذا الاتهام من ثلاثة طرق:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۳

۱- عدم التناسب بين محتوى القرآن و إلقاء الشياطين.

۲- عدم قدرة الشياطين على ذلك.

۳- منع الشياطين من استراق السمع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الشعراء (۲۶): الآيات ۲۱۳ الى ۲۲۰]

اشارة

فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (۲۱۳) وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (۲۱۴) وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۱۵) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۱۶) وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۲۱۷) الَّذِي يَراكَ حِينَ تَقُومُ (۲۱۸) وَ تَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (۲۱۹) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۲۲۰)

التّفسير

و أنذر عشيرتك الأقربين ...

تعقيبا على الأبحاث الواردة فى الآيات السابقة فى شأن مواقف المشركين من الإسلام و القرآن ... فإن اللّه سبحانه يبيّن لنبيّه- فى الآيات محل البحث- منهجه و خطّته فى خمسة أوامر، فى مواجهة المشركين ...

و قبل كل شىء فإن اللّه يدعو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الإعتقاد التام بالتوحيد، التوحيد الذى هو أساس دعوات الأنبياء جميعا ... يقول سبحانه: فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ...

و مع أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان من المقطوع به أنّه ينادى إلى التوحيد و لا يمكن أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۵

يتصور انحرافه عن هذا الأصل ... إلّا أنّ أهمية هذه المسألة كانت بحيث أن يكون شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- قبل كل شىء- مخاطبا بها. ليعرف الآخرون موقفهم ... ثمّ إن بناء الآخرين يبدأ من بناء شخصية الإنسان نفسه ...

ثمّ يأمره اللّه فى مرحلة اخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب فى دعوته قائلا:

وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [۳۴۵] و لا شكّ أنّه للوصول إلى منهج تغييرى ثورى واسع، لا بدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى و الأصغر، فما أحسن أن يبدأ النّبى دعوته من أقربائه و أرحامه، لأنّهم يعرفون سوابقه النزيهة أكثر من سواهم كما أن علائق القربى و المودّة تستدعى الإصغاء إلى كلامه أكثر من غيرهم، و أن يكونوا أبعد من سواهم من حيث الحسد و الحقد و المخاصمة! إضافة إلى ذلك فإنّ هذا الأمر يدلّ على أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس لديه أية مداهنة و لا مساومة مع أحد، ليستثنى أقرباءه المشركين عن

دعوته إلى التوحيد و الحق و العدل! ...

و عند ما نزلت هذه الآية، قام النّبى بما ينبغى عليه من أجل تنفيذ هذا الأمر الإلهى، و سيأتى تفصيل ذلك كله فى حقل البحوث بإذن اللّه ...

أمّا المرحلة الثّالثة، فإنّ اللّه يوصى النّبى فى دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل اتباعك باللطف و المحبة: وَ اخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و هذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة و اللطف، كما أن الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبّة منها لها، و تجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانة من الحوادث المحتملة، و لتحفظها من التشتت و التفرّق! فكذلك الأمر بالنسبة للنّبى إذ أمر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۶

و هذا التعبير الرائع ذو المعنى الغزير يبيّن دقائق مختلفة فى شأن محبة المؤمنين، و يمكن إدراكها بأدنى التفاتة! ...

و ذكر هذه الجملة- ضمنا- بعد مسألة الإنذار يكشف عن هذه الحقيقة، و هى إذا كان التعويل على الخشونة فى بعض الموارد بمقتضى الضرورات التربوية، فإنّه و بلا فاصلة يأتى التعويل على المحبّة و العاطفة ليتوفر منهما نمط مناسب ...

ثمّ تأتى المرحلة الرّابعة و هى أن الأعداء لم يقبلوا دعوتك و عصوا أوامرك.

فلا- تبتئس و لا تحزن: فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ... ليعرفوا موقفك منهم! و الظاهر أنّ الضمير فى عصوك- يعود على عشيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأقربين ... أى إذا لم يذعنوا بعد دعوتك إياهم للحق، و واصلوا شركهم و عنادهم، فعليك أن تبيّن موقفك منهم، و هذا التوقع الذى احتمله القرآن حدث فعلا، كما سنذكر ذلك فى البحوث القادمة، إذ امتنع الجميع عن قبول دعوة النّبى ما عدا عليا عليه السّلام ... فبعضهم لاذ بالصمت، و بعضهم أبدى مخالفته عن طريق الاستهزاء و السخرية ...

و أخيرا فالأمر الالهى الخامس للنّبى لإكمال مناهجه السابقة، هو: وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ

فلا- تدع لعنادهم مجالا- للتأثير على عزيمتك ... و لا لقلّة الأعوان و الأنصار طريقا لتوهين ارادتك، فلست وحدك ... و سندك و ملاذك هو اللّه القادر العزيز الذى لا يقهر، و الرحيم الذى لا حدّ لرحمته ...

اللّه الذى سمعت وصفه فى ختام قصص الأنبياء بالعزيز الرحيم! ...

اللّه الذى بقدرته أحبط ظلم فرعون و غرور نمرود، و تمرّد قوم نوح، و أنانية قوم هود، و اتباع الشهوات لقوم لوط. و كذلك أنقذ أنبياءه و رسله الذين كانوا قلّة، و شملهم برحمته الواسعة.

ذلك اللّه الَّذِى يَراكَ حِينَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۷

أجل إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ...

و هكذا تذكر الآيات ثلاث صفات للّه بعد وصفه بالعزيز الرحيم و كلّ منها يمنح الأمل و يشدّ من عزم النّبى على مواصلة طريقة، إذ أن اللّه يرى جهوده و أتعابه و حركاته و سكناته، و قيامه و سجوده و ركعاته! ..

ذلك اللّه الذى يسمع صوته.

اللّه الذى يعلم حاجاته و طلباته حاجته ...

أجل، فعلى هذا الإله توكل، و أركن إليه أبدا.

بحثان

۱- تفسير وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ

بين المفسّرين أقوال مختلفة فى معنى قوله تعالى: الَّذِی یَراکَ حِینَ تَقُومُ وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ

و ظاهر الآية هو ما ذكرناه آنفا، أن اللّه يرى قيامك و انتقالك و حركتك بين الساجدين.

و هذا القيام يمكن أن يكون قياما للصلاة، أو القيام للعبادة من النوم، أو القيام للصلاة فرادى، و فى مقام تقلبك فى الساجدين ... الذى يشير إلى صلاة الجماعة.

«التقلب» معناه الحركة و الانتقال من حال إلى حال، و هذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبىّ بين الساجدين فى أثناء الصلاة، أو إلى حركة النّبى و تنقله بين أصحابه و هم مشغولون بالعبادة، و كان يتابع أحوالهم و يسأل عنهم ...

و فى المجموع فإنّ هذا التعبير إشارة إلى أن اللّه سبحانه لا يخفى عليه شىء من حالاتك و سعيك، سواء كانت شخصيّة فردية، أم كانت مع المؤمنين فى صورة جماعية، لتدبير امور العباد و لنشر مبدأ الحق مع الالتفات الى ان الأفعال الواردة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۸

فى الآية مضارعة و فيها معنى الحال و الاستقبال».

و هنا تفسيران آخران ذكرا فى معنى الآية، إلّا أنّهما لا ينسجمان مع ظاهرها، و لعلهما من بطون الآية:

الأوّل: أنّ المراد من الآية رؤية النّبى و نظره إلى المصلين و الساجدين خلفه، لأنّه كما يرى من أمامه يرى من خلفه كما ورد فى الحديث: «لا ترفعوا قبلى و لا تضعوا قبلى، فإنّى أراكم من خلفى كما أراكم من أمامى»[۳۴۶]

ثمّ تلا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الآية آنفة الذكر.

الثّانى: أنّ المراد منه أنّ انتقال فى أصلاب النبيّين من لدن آدم حتى أبيه عبد اللّه، كلّه تحت نظر اللّه سبحانه، أى حين تنتقل نطفتك المباركة من نبىّ موحد ساجد إلى ساجد آخر فإن اللّه عليم بذلك ...

و

قد جاء فى تفسير على بن ابراهيم عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير وَ تَقَلُّبَکَ فِی السَّاجِدِینَ ما يشير إلى هذا المعنى، قال عليه السّلام: «فى أصلاب النبيين صلوات اللّه عليهم».[۳۴۷]

و

فى تفسير مجمع البيان فى توضيح هذه الجملة جاء عن الإمامين الباقر و الصادق عليه السّلام ما يلى: «فى أصلاب النبيين نبىّ بعد نبىّ، حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم».[۳۴۸]

و بالطبع فإنّه بقطع النظر عن الآيات آنفة الذكر و تفسيراتها، فإن الدلائل المتوفرة تدلّ على أن والد النّبى و أجداده لم يكونوا مشركين أبدا، و ولدوا فى محيط منزّه عن الشرك و الدنس «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية، ۷۴ من سورة الأنعام» إلّا أن التفاسير الآنفة هى من بطون الآية ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۷۹

۲- إنذار الأقربين «حديث يوم الدار»

وفقا لما ورد فى التواريخ الإسلامية، أمر النّبى فى السنة الثّالثة بدعوته الأقربين من عشيرته، لأنّ دعوته حتى ذلك الحين كانت مخفية «سريّة»، و كان الذين دخلوا فى الإسلام عددا قليلا، لذلك حين نزلت الآية: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَکَ الْأَقْرَبِينَ و الآية فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَ

أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۳۴۹] أمر النّبی أن یجعل دعوته علنیة، و بدأ ذلک بدعوة أهله و أقربائه ۳۵۰].

و أمّا کیفیة إبلاغه و إنذاره إیّاهم، فهو بإجمال أنّه دعا النبیّ «عشیرته» إلی بیت عمّه أبی طالب، و کانوا فی ذلک الیوم حوالی أربعین رجلا، و کان ممن حضر هذه الدعوة بعض أعمام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کأبی طالب و الحمزة و أبو لهب و العباس، و بعد أن تناولوا الطعام، و أراد النّبی أن یؤدی ما علیه، تکلم أبو لهب کلمات أحبط بها خطة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لذا فقد دعاهم النّبی فی الیوم التالی أیضا.

و بعد أن تناولوا الطعام،

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا بنی عبد المطلب، إنّی و اللّه ما أعلم شابا فی العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتکم بخیر الدنیا و الآخرة ... و قد أمرنی اللّه أن أدعوکم إلیه فأیکم یؤازرنی علی أمری هذا، علی أن یکون أخی و وصیی و خلیفتی فیکم؟» فأحجم القوم عنها غیر علی، و کان أصغرهم (سنا)، فقال: «یا نبیّ اللّه، أنا أکون وزیرک علیه»، فأخذ رسول اللّه برقبته، و قال: «إنّ هذا وصیّ و خلیفتی فیکم فاسمعوا له و أطیعوا» فقام القوم یضحکون، و یقولون لأبی طالب:

قد أمرک أن تسمع لابنک و تطیع.[۳۵۱]

و قد نقل هذا الحدیث کثیر من أهل السنة کابن جریر الطبری، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه، و أبو نعیم، و البیهقی، و الثعلبی، کما نقله «ابن الأثیر» فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۰

الجزء الثّانی من کتابه «الکامل»، و أبو الفداء فی الجزء الأوّل من تأریخه، و جماعة آخرون.[۳۵۲] و هذا الحدیث یوضع لنا کیف کان النّبی وحیدا حینذاک، و کیف ردّوا علیه دعوته بالسخریة و الاستهزاء، و کیف وقف علی علیه السّلام إلی جانب النّبی فی وحدته ناصرا و معینا ...

و

فی حدیث آخر أن النّبی دعا قریشا واحدا واحدا و حذرهم من النار فقال:

«یا بنی کعب أنقذوا أنفسکم من النار».

و کان یدعو أحیانا بهذا الخطاب بنی عبد شمس، و بنی عبد مناف، و بنی عبد المطلب، و بنی هاشم فیقول: «أنقذوا أنفسکم من النار».[۳۵۳] فلست قادرا علی الدفاع عنکم فی حال کفرکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۸۱

الآیات [سورة الشعراء (۲۶): الآیات ۲۲۱ الی ۲۲۷]

اشارة

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّياطِينُ (۲۲۱) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۲۲۲) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (۲۲۳) وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (۲۲۴) أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ (۲۲۵)

وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ (۲۲۶) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (۲۲۷)

التّفسیر

النّبى ليس شاعرا:

هـذه الآيات- محل البحث- هى آخر الآيات من سورة الشعراء، تعود ثانيـة لتردّ على الاتهام السابق- من قبل الأعـداء- بأن القرآن من إلقـاء الشـياطين، تردهم ببيـان أخـاذ بليـغ مفحم، فتقـول: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيـاطِينُ تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ أى الكـاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعونه مع اضافة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۲

أكـاذيب كثيرة عليه يُلْقُونَ السَّمْعَ وَ أَكْثَرُهُمْ كـاذِبُونَ [۳۵۴] و ملخص الكلام أن ما تلقيه الشـياطين له علائم واضـحة، و يمكن معرفته بعلائمه أيضا. فالشـيطان موجود موذ و مخرب، و ما يلقيه يجرى فى مسير الفساد و التخريب، و أتباعه هم الكذابون المجرمون، و ليس شىء من هذه الأمور ينطبق على القرآن، و لا على مبلّغه، و ليس فيها أى شبه بهما.

و الناس فى ذلك العصـر- و ذلك المحيط- كانوا يعرفون النّبى محمّـدا صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أسـلوبه و طريقته، فى صدقه و أمـانته و صـلاحه فى جميع المجالات ... و محتوى القرآن ليس فيه سوى العـدل و الحق و الإصـلاح، فكيف يمكن أن تتهموه بأنّه من إلقاء الشـياطين؟! و المراد من (الأفاك الأثيم) هو الكاهن المرتبط بالشـياطين فتارة يقوم الشـياطين باستراق السـمع لأحاديث الملائكة، ثمّ بعد مزجه بأباطيل كثيرة ينقلونه الى الكهنة. و هم بدورهم يضيفون عليه عشرات الأكاذيب و ينقلونها إلى الناس ...

و بعـد نزول الوحى خاصّـة، و منع الشـياطين من الصـعود إلى السـماء و استراق السـمع. كـان مـا يلقيه الشـياطين إلى الكهنـة خفنـة من الأكاذيب و الأراجيف ...

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يقاس محتوى القرآن بما تلقيه الشياطين ...

و أن يقاس النّبى الصادق الأمين بحفنة من الكهنة الأفاكين الكاذبين! ...

و هناك تفاسير مختلفة لجملة يُلْقُونَ السَّمْعَ

فمنها: أن الضـمير فى (يلقون) عائد على الشـياطين و «السمع» المراد منه المسموعات، أى أن الشياطين يلقون مسموعاتهم إلى أوليائهم و أكثرهم كاذبون «و يضيفون على ما يلقيه الشياطين أكاذيب كثيرة!» ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۳

و منها: إن الضمير فى الفعل يعود على الأفاكين، إذ أنّهم كانوا يلقون- ما يسمعون من الشياطين- إلى عامّة الناس، إلّا أن التّفسير الأوّل أصح ظاهرا[۳۵۵]! و فى الآية الرّابعة- من الآيات محل البحث- يردّ القرآن على اتهام آخر كان الكفار يرمون به النّبى فيدعونه شاعرا، كما فى الآية (۵) من سورة الأنبياء بَلْ هُوَ شاعِرٌ و ربما دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء فى الآيـة (۳۶) من سورة الصافات وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقى، بأن منهج النّبى يختلف عن منهج الشـعراء. فالشعراء يتحركون فى عالم من الخيال، و هو يتحرك على أرض الواقع و الواقعيات، لتنظيم العالم الإنسانى ...

و الشـعراء يبحثون عن العيش و اللـذة و الغزل (كمـا هى الحـال بالنسـبة لشـعراء ذلك العصـر فى الحجاز خاصّـة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

و لذا فإن أتباعهم هم الضالون: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ

ثمّ يضيف القرآن على الجملة آنفة الذكر معقّبا أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ [۳۵۶] فهم غارقون فى أخيلتهم و تشبيهاتهم الشعرية، حتى أن القوافى تجرهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، و يهيمون معها فى كل واد ...

و هم غالبا ليسوا أصـحاب منطق و اسـتدلال، و أشعارهم تنبع ممّا تهيج به عواطفهم و قرائحهم ... و هذه العواطف تسوقهم فى كل آن

من واد لآخر! ...

فحين يرضون عن أحد يمدحونه و يرفعونه إلى أوج السماء، و إن كان حقه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۴

يكون فى أسفل السافلين، و يلبسونه ثوب الملاك الجميل و إن كان شيطانا لعينا ...

و متى سخطوا على أحد هجوه هجوا مرا و أنزلوه فى شعرهم الى أسفل السافلين، و إن كان موجودا سماويّا.

ترى هل يشبه محتوى القرآن الدقيق المنطلقات الشعرية أو الفكرية للشعراء و خاصّة شعراء ذلك العصر، الذين لم تكن منطلقاتهم إلّا وصف الخمر و الجمال و العشق و المدح لقبائلهم و هجو أعدائهم ...

ثمّ إن الشعراء عادة هم رجال حطابة و جماهير لا أبطال قتال، و كذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول عنهم: وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ

غير أن النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل عمل من قرنه إلى قدمه، و قد اعترف بعزمه الراسخ و استقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! و ممّا تقدم من الأوصاف التى ذكرها القرآن عن الشعراء، يمكن أن يقال بأن القرآن وصفهم بثلاث علامات:

الأولى: أنّهم يتبعهم الغاوون الضالون، و يفرّون من الواقع، و يلجئون إلى الخيال.

و الثّانية: أنّهم رجال لا هدف لهم، و متقلّبون فكريّا، و واقعون تحت تأثير العواطف! و الثّالثة: أنّهم يقولون ما لا يفعلون ... و حتى فى المجال الواقعى لا يطبقون كلامهم على أنفسهم ...

إلّا أنه لا شىء من هذه الأوصاف يصدق على النّبى، فهو فى الطرف المقابل لها تماما! و لمّا كان بين الشعراء أناس مخلصون هادفون و أهل أعمال لا أقوال، و دعاة نحو الحق و الصدق «و إن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلا يومئذ». فالقرآن من أجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۵

ألّا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون فى شعرهم أهدافا الهية و انسانية، و لا يغرقون فى الأشعار فيغفلون عن ذكر اللّه، بل كما يقول القرآن: وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً.

و أشعارهم تذكر الناس باللّه أيضا ... و إذا ما ظلموا كان شعرهم انتصارا للحق وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا.

فإذا هجوا جماعة هجوهم من أجل الحق و دفاعا عن الحق الذى يهجوه أولئك فيذبون عنه ...

و هكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، و هى الإيمان، و العمل الصالح، و ذكر اللّه كثيرا، و الإنتصار للحق من بعد ما ظلموا، مستعينين بشعرهم فى الذب عنه ...

و حيث أن معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النّبى، و التسرية عنه، و عن المؤمنين القلّة فى ذلك اليوم فى قبال كثرة الأعداء، و حيث أن كثيرا من آيات هذه السورة فى مقام الدفاع عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، و غير اللائقة به- فإن السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، و فيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: وَ سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

و بالرغم من أن بعض المفسّرين أرادوا أن يحصروا هذا الانقلاب و العاقبة المرة للظالمين بنار جهنّم ... إلّا أنه لا دليل على تقييد ذلك و تحديده بها ... بل لعله إشارة إلى هزائمهم المتتابعة و المتلاحقة فى المعارك الإسلامية، كمعركة بدر و غيرها، و ما أصابهم من ضعف و ذلة فى دنياهم، فمفهوم هذه الآية عام، بالإضافة إلى ذلك عذابهم و انقلابهم إلى النار فى آخر المطاف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۶

بحوث

۱- لم كانوا يتهمون النّبى بالشعر

إن واحدة من التهم التى كانت توجه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى الشعر، و أنّه شاعر، فالآيات- آنفة الذكر- كانت ردا على هذا الاتهام أيضا ...

لقد كانوا يعرفون جيدا أن القرآن ليس له أقل شبه بالشعر، لا من حيث الشكل و الظاهر و لا من حيث المحتوى، فالشعر فيه وزن و قافية و أبيات مشطرة، و ليس كذلك القرآن. و الشعر فيه تخيّل و تشبيهات كثيرة و غزل ممّا ليس فى القرآن أيضا.

إلّا أنّهم حيث كانوا يرون أثر القرآن الكبير فى جذب أفكار الناس و إيقاعه الخاص فى قلوبهم، فلإلقاء الستار على هذا النور الإلهى، سموه «سحرا» تارة، لأنّه كان ذا نفوذ و تأثير «خفى» فى الأفكار. و دعوة «شعرا» تارة أخرى لأنّه كان يهزّ القلوب و يأخذها معه! لقد أرادوا أن يذموا القرآن فمدحوه بهذا الكلام، و كان كلامهم سندا و دليلا حيا على نفوذ القرآن الخارق للعادة فى أفكار الناس و فى قلوبهم.

يقول القرآن فى تنزيه النّبى عن الشعر: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ ۳۵۷].

۲- الشعر و الشاعرية فى الإسلام

لا شك أن الذوق الشعرى و الفن الشاعرى كسائر رؤوس الأموال، له قيمته فى صورة ما لو استعمل استعمالا صحيحا و له أثر إيجابى ... إلّا أنّه إذا صار وسيلة تخريب و هدم للبناء العقائدى و الأخلاقى فى المجتمع، فلا قيمة له، بل يعتبر وسيلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۷

ضارة عندئذ ...

فالشعر ينبغى أن يؤدى دورة فى وجود الإنسان ليكون ذا قيمة كبرى، و أن لا يسوق الناس نحو الخيال أو الضياع أو الإشغال دون جدوى، لأنّه سيكون وسيلة للضرر و الإضرار.

و يتّضح بهذا الجواب على السؤال التالى:

ماذا يفهم من الآيات المتقدمة، هل الشاعريّة أمر حسن أو غير حسن، و هل يوافق الإسلام الشعر أو يخالفه؟! فالجواب على ذلك أن تقويم ۳۵۸] الإسلام فى هذا المجال قائم على الأهداف و الوجوه و النتائج ... و كما

قال الإمام على عليه السّلام حين كان بعض أصحابه يتكلمون على مائدة الإفطار فى إحدى ليالى شهر رمضان، و جرى كلامهم فى الشعر و الشعراء، فخاطبهم أمير المؤمنين على عليه السّلام قائلا: «اعلموا أن ملاك أمركم الدين، و عصمتكم التقوى، و زينتكم الأدب و حصون أعراضكم الحلم».[۳۵۹]

فكلام الإمام على عليه السّلام إشارة إلى أن الشعر وسيلة ... و معيار تقويمه الهدف الذى قيل من أجله! ...

إلّا أنّه- و للأسف- استغلّ الشعر على امتداد تاريخ آداب الأمم و الملل لأغراض سيئة، و تلوّث هذا الذوق الإلهى اللطيف، فسقط فى الوحل بسبب البيئة الفاسدة، و بلغ الشعر أحيانا درجة من الانحطاط بحيث صار من أهم عوامل الفساد و التخريب، و لا سيما فى العصر الجاهلى الذى كان عصر انحطاط الفكر العربى و أخلاقه!. فكان الشعر و الشراب و الغارات بعضها إلى جنب بعض ممّا مميزات ذلك

العصر!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۸

و لکن من یستطیع أن ینکر هذه الحقیقة، و هی أن الأشعار البنّاءة و الهادفة علی امتداد التاریخ، خلقت طاقات کثیرة و حماسة قصوی، و ربّما عبأت امة مغلوبة بوجه أعدائها، فشدتها علی العدوّ فهزمته و انتصرت «بهذه الأشعار».

و فی فترة نضوج الثورة الإسلامیة رأینا بأم أعیننا کیف أثرت الأشعار الحماسیة فی نفوس الناس، فحرکتهم و أثارتهم حتی جرت دماء الثورة فی مفاصلهم، و جعلتهم صفا واحدا و زلزلت قصور الأعداء و هزمتهم ...

کما نسأل: من یستطیع أن ینکر أن شعرا أخلاقیا ینفذ فی أعماق الإنسان و یغیّر محتواه لدرجة لا یبلغها کتاب علمی غزیر المحتوی ... أجل، إن الشعر کما

قال عنه النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إن من الشعر لحکمة و إنّ من البیان لسحرا».[۳۶۰]

و للکلمات الموزونة و إیقاعها- أحیانا- مضاء السیف و نفوذ السهم فی قلب العدو ...

ففی بعض أحادیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- فی مثل هذه الأشعار- أنه قال: «... و الذی نفس محمد بیده فکأنّما تنضحونهم بالنبل».[۳۶۱]

أجل ... قال النّبی ذلک حین کان العدو یهجو المسلمین لیضعف معنویاتهم و روحیّاتهم، فأمر النّبی شعراء المسلمین أن یردّوا علیهم بالهجاء المقذع، لذمهم و تقویة روحیّة المسلمین.

و

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی شأن أحد الشعراء المدافعین عن الإسلام «أهجهم فإنّ جبرئیل معک».[۳۶۲]

و خاصّة حین سأل کعب بن مالک «الشاعر المؤمن» الذی کان ینشد قصائد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۸۹

فی تقویة الإسلام- و کانت الآیات قد نزلت فی ذم الشعراء- فقال یا رسول اللّه: ما أصنع؟!

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «إنّ المؤمن یجاهد بنفسه و سیفه و لسانه».[۳۶۳]

و قد ورد عن أئمة أهل البیت علیهم السّلام وصف کثیر فی الشعر و الشعراء الهادفین و الدعاء لهم و إیصال الجوائز إلیهم، بحیث یطول الکلام فی ذلک «إن أردنا نقل الروایات عنهم».

إلّا أنّه من المؤسف أنه علی طول التاریخ أسقط جماعة هذه المنحة الإلهیة و الذوق اللطیف، الذی هو من أجمل مظاهر الخلق، فأنزلوه من أوجه إلی الحضیض، و کذبوا فیه کثیرا حتی قیل فی المثل المعروف: «أعذبه أکذبه».

و ربّما سخّروه فی خدمة الجبابرة و الظالمین و تملّقوا لهم، رجاء صلة محتقرة رخیصة ...

أو أنّهم أفرطوا فی وصف الشراب و الفجور و الفسق أحیانا، إلی درجة یخجل القلم عن ذکرها! و ربّما أشعلوا الحروب بنیران أشعارهم، و جروا الناس إلی القتل و الغارات، و لطخوا الأرض بدماء الأبریاء.

إلّا أن فی الطرف الآخر- و فی قبالهم- الشعراء الذین آمنوا بمبدئهم، و اشتدت همتهم، فسخّروا هذه القریحة الملکوتیة فی سبیل حریة الناس و التقوی، و مواجهة اللصوص و المستکبرین و الجبابرة، فبلغوا أوج الفخر! و ربّما دافعوا عن الحق فاشتروا بکل بیت من أبیات شعرهم بیتا فی الجنّة.[۳۶۴] ربما وقفوا فی وجوه حکام الظلم و الجور کبنی أمیة و بنی العباس الذین کانوا یحبسون الأنفاس فی الصدور، فتجلی القلوب بقصیدة کقصیدة دعبل «مدارس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۱۱، ص: ۴۹۰

آیات خلت من تلاوة» و أماطوا عن الحقّ لثام الباطل، فکأنّما کان یجری علی لسانهم روح القدس.[۳۶۵] و ربّما أنشدوا الأشعار

لإنهاض المضطهدين الذين كانوا يحسّون فى أنفسهم الاحتقار و الازدراء من قبل الظلمة ... فهاجوهم و أثاروهم بتلك الأشعار ...

و القرآن يقول فى شأن هؤلاء: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَ انْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُوا.

ممّا يلفت النظر أن هؤلاء الشعراء قد يتركون شعرا خالدا مؤثرا بليغا ... حتى أن أئمّة الإسلام الكرام- كما تقول بعض الرّوايات- أوصوا شيعتهم و أصحابهم بحفظ أشعارهم كما ورد ذلك فى شأن «أشعار العبدى». إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يا معشر الشيعة، علموا أولادكم شعر العبدى، فإنّه على دين اللّه».[۳۶۶]

و نختتم هذا البحث بقصيدة للعبدى، و هى من قصائده المعروفة، فى شأن خلافة الإمام على عليه السّلام وصىّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ قال:

و قالوا رسول اللّه ما اختار بعدهإماما و لكنّا لأنفسنا اخترنا

أقمنا إماما إن أقام على الهدىأطعنا و إن ضل الهداية قوّمنا

فقلنا: إذا أنتم إمام إمامكمبحمد من الرحمن تهتم و لا تهنا

و لكننا اخترنا الذى اختار ربّنالنا يوم خم ما اعتدينا و لا حلنا

و نحن على نور من اللّه واضحفيا ربّ زدنا منك نورا و ثبتنا[۳۶۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۱، ص: ۴۹۱

۳- ذكر اللّه:

قرأنا فى الآيات- آنفة الذكر- أن من خصائص الشعراء الهادفين هو أنّهم يذكرون اللّه كثيرا ...

و

نقرأ فى بعض الأحاديث المرويّة عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه يقول: قول اللّه عز و جل: وَ ذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السّلام فقد ذكر اللّه الذكر الكثير».[۳۶۸]

كما

جاء عنه عليه السّلام أنه قال: من أشدّ ما قرض اللّه على خلقه ذكر اللّه كثيرا ... ثمّ قال عليه السّلام: «لا أعنى سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر، و إن كان منه، و لكن ذكر اللّه عند ما أحلّ و حرّم! فإن كان طاعة عمل بها، و إن كان معصية تركها!».[۳۶۹]

ربّنا، أملأ قلوبنا بذكرك، لنختار ما يرضيك، و نترك ما يسخطك ...

ربّنا، اجعل ألسنتنا بليغة، و أقلامنا سيّالة، و قلوبنا مليئة بالإخلاص، لنستعمل ذلك فى سبيلك و ابتغاء رضوانك، آمين ربّ العالمين.

انتهاء سورة الشعراء و نهاية المجلد الحادى عشر

---

[۱] (۱)- تفسير مجمع البيان للآية موضع البحث، و كتاب ثواب الأعمال للصدوق(حسبما نقله نور الثقلين، المجلد الثّالث. صفحة ۵۶۸).

[۲] (۱)-« لسان العرب» المجلد الرّابع، مادة« سور».

[۳] (۱)- تفسیر الفخر الرّازی، المجلد الثّالث و العشرین، صفحة ۱۴۸.

[۴] (۱)- مجمع البیان، تفسیر الآیة موضع البحث و القرطبی فی تفسیره لهذه الآیة. حیث رویا هذا الحدیث.

[۵] (۲)- مجمع البیان، من تفسیر الآیة موضوع البحث.

[۶] (۱)- الکافی، الأصول، المجلد الثانی، صفحة ۲۶(المطبعة الإسلامیة عام ۱۳۸۸). حسبما نقله صاحب نور الثقلین، المجلد الثالث، ص ۵۷۱.

[۷] (۱)- شککک عدد من المفسّرین فی ضرورة حضور مجموعة من المؤمنین حین تنفیذ حدّ الزنا، فی حین أن الأمر بالحضور ظاهر من الآیة، و هی لا تقصد الاستحباب.

[۸] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الرّابع عشر، ص ۳۳۵.

[۹] (۱)- أصول الکافی، المجلد الثانی، صفحة ۲۶۹، باب التهمة و سوء الظن.

[۱۰] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۸ کتاب الشهادات، الباب ۳۶ صفحة ۲۸۲.

[۱۱] (۱)- نور الثقلین، المجلد الثالث، ص ۵۷۴.

[۱۲] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الثامن عشر، صفحة(۲۸۳)(أبواب الشهادات باب ۳۶ الحدیث ۴).

[۱۳] (۱)- تفاسیر مجمع البیان، و فی ظلال القرآن، و نور الثقلین، و المیزان، فی تفسیر الآیات موضع البحث(مع بعض الاختلاف).

[۱۴] (۱)- ذکر تفسیر« المیزان» جواب الشرط بشکل یشمل التفاسیر الأخری قال:« لولا ما أنعم اللّه علیکم من نعمة الدین و توبته لمذنبیکم و تشریع الشرائع لنظم أمور حیاتکم، لزمتکم الشقوة، و أهلکتکم المعصیة و الخطیئة، و اختل نظام حیاتکم بالجهالة».

[۱۵] (۱)- هی غزوة بنی المصطلق فی العام الخامس للهجرة.

[۱۶] (۲)- ظفار کقطام بلد بالیمین قرب صنعاء، و جزع ظفاری منسوب إلیها و الجزع الخرز و هو الذی فیه سواد و بیاض.

[۱۷] (۳)- العلقة من الطعام ما یمسک به الرمق.

[۱۸] (۴)- أدلج القوم: ساروا اللیل کله أو فی آخره.

[۱۹] (۱)- المناصع: المواضع یتخلی فیها لبول أو حاجة.

[۲۰] (۲)- أی رفعنا ثیابنا.

[۲۱] (۳)- المرط- بالکسر- کساء واسع یؤتزر به و ربما تلقیه المرأة علی رأسها و تتلفع به.

[۲۲] (۴)- خطاب للمرأة یقال للرجل یا هناه.

[۲۳] (۱)- قلص: اجتمع و انقبض.

[۲۴] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۹۶- ۱۰۰.

[۲۵] (۲)- أرهقه: أدرکه.

[۲۶] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۰۳.

[۲۷] (۱)- نقل تفسیر« روح المعانی» هذا المعنی عن کتاب« الصحاح».

[۲۸] (۱)- و أما قول البعض بأن المضاف محذوف و تقدیره« ظن المؤمنون و المؤمنات بأنفس بعضهم خیرا» لیس صائبا و یفقد الآیة جمالها و روعتها.

[۲۹] (۱)- لهذه الجملة کلمة محذوفة هی حرف« لا» و تقدیرها:« یعظکم اللّه أن لا تعودوا لمثله أبدا» و إذا لم نقدّر محذوفا، فإن عبارة« یعظکم» تعنی ینهاکم. أی إن اللّه ینهاکم من العودة إلی مثل هذا العمل.

[۳۰] (۱)- سورة الشوری، ۳۷.

[۳۱] (۱)- لهذه الجملة محذوف كما يبدو فى آيات أخرى سبقت، و تقديره« لو لا فضل اللّه عليكم لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم».

[۳۲] (۲)- أصول الكافى، المجلد الثانى، باب ستر العيوب.

[۳۳] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثانى، باب القبح.

[۳۴] (۲) كتاب ثواب الأعمال، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۵۸۲.

[۳۵] (۳)- لهذه القضية استثناءات، منها موضوع الشهادة فى المحكمة، أو حالات النهى عن المنكر حيث لا سبيل إلّا بكشف العمل القبيح الذى يرتكبه شخص ما و الشهادة ضده.

[۳۶] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، رقم ۳۴۸.

[۳۷] (۱)- هناك محذوف لجملة\i وَ مَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ\E و هو جواب الشرط و تقديره« و من يتبع خطوات الشيطان ارتكب الفحشاء و المنكر فإنّه يأمر بهما»(روح المعانى، المجلد الثامن عشر، صفحة ۱۱۲ تفسير آخر الآيات موضع البحث) و يجب الانتباه إلى أن جملة فإنه يأمر بالفحشاء، لا يمكن اعتبارها جوابا للشرط.

[۳۸] (۱)- بحثنا الفرق بين الفحشاء و المنكر فى تفسير الآية(۹۰) من سورة النحل.

[۳۹] (۱)- فى هذه الحالة يجب تقدير وجود حرف« لا» قبل« يؤتوا» فيكون التقدير« و لا يأتل ... أن لا يؤتوا».

[۴۰] (۱)- الميزان، تفسير الآيات موضع البحث، المجلد ۱۵، صفحة ۱۲۲.

[۴۱] (۱)- سورة يس، الآية ۶۵.

[۴۲] (۱)- مجمع البيان، فى تفسير الآيات موضع البحث.

[۴۳] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، صفحة ۳۳۷، الباب ۱۴ من أبواب ما يحرم بالمصاهرة.

[۴۴] (۱)- سورة التحريم، ۱۰.

[۴۵] (۲)- سورة التحريم، ۱۱.

[۴۶] (۱)- تفسير فخر الرازى، المجلد ۲۳، ص ۱۹۸، آخر آية موضع البحث.

[۴۷] (۲)- المصدر السابق.

[۴۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، الصفحة ۵۸۶.

[۴۹] (۲)- نور الثقلين، المجلد الثّالث، صفحة ۵۸۷.

[۵۰] (۳)- وسائل الشيعة المجلد الرّابع عشر، صفحة ۱۶۱، أبواب مقدمات النكاح، الباب ۲۳.

[۵۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۱۶۱.

[۵۲] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۳۹، تفسير نور الثقلين، و الميزان، و روح المعانى مع بعض الاختلاف فى تفسير الآية موضع البحث.

[۵۳] (۱)- اختلف المفسّرون فى تعليل وجود« من» فى جملة\i يَغُضُّوا مِنْ أَبْصارِهِمْ E فقال بعضهم إنّها للتبعيض و قيل: إنّها زائدة، و قيل: ابتدائية. و لكن الظاهر هو المعنى الأوّل.

[۵۴] (۲)- أصول الكافى، و تفسير على بن إبراهيم(وفق ما نقله نور الثقلين المجلد الثالث، صفحة ۵۸۷، ۵۸۸).

[۵۵] (۱)- تفسير على بن إبراهيم لآخر الآية موضع البحث.

[۵۶] (۱)- كتاب وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، صفحة ۱۴۵، الباب ۱۰۹، من أبواب مقدمات النكاح.

[۵۷] (۲)- من لا يحضره الفقيه، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، المجلد ۳، صفحة ۵۹۳.

[۵۸] (۱)- وسائل الشیعة، الباب ۱۲۴، من مقدمات النکاح، الحدیث الثامن.

[۵۹] (۱)- لتوضح أکثر یراجع جواهر الکلام، المجلد ۲۹، صفحة ۹۴، و کذلک الوسائل الباب ۱۱۱، من مقدمات النکاح(المجلد ۱۴، ص ۱۴۸) و کذلک التهذیب المجلد السابع، صفحة ۴۶۸.

[۶۰] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۴، صفحة ۲۷(الباب ۱۲ من أبواب مقدمات النکاح).

[۶۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۴، صفحة ۲۷(الباب ۱۲ من أبواب مقدمات النکاح).

[۶۲] (۲)- المصدر السابق.

[۶۳] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، صفحة ۶۰۱.

[۶۴] (۲)- مجمع البیان فی تفسیر آخر الآیة موضع البحث، و تفسیر القرطبی(مع بعض الاختلاف).

[۶۵] (۱)- سفینة البحار، المجلد الأول، صفحة ۵۶۱(مادة الزوج).

[۶۶] (۲)- المصدر السابق.

[۶۷] (۳)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة موضع البحث.

[۶۸] (۱)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة موضوع البحث.

[۶۹] (۲)- وسائل الشیعة، المجلد الخامس عشر، الباب الخامس من أبواب المهور صفحة ۱۰.

[۷۰] (۳)- المصدر السابق.

[۷۱] (۴)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، صفحة ۵۹۵.

[۷۲] (۵)- وسائل الشیعة، المجلّد الرّابع عشر، صفحة ۲۵، الباب ۱۱« من أبواب مقدمات النکاح».

[۷۳] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الرّابع عشر، صفحة ۲۴، الباب ۱۰« من أبواب مقدمات النکاح».

[۷۴] (۱)- هکذا یکون تقدیر الآیة« هذه المشکاة فی بیوت ... أو هذا المصباح فی بیوت ... هذه الشجرة فی بیوت ... نور اللّه فی بیوت» فی الوقت الذی یری أصحاب التّفسیر الثّانی أنّ عبارة« فی بیوت» تعود إلی کلمة« یسبّح» لیکون معنی الآیة\i فِی بُیُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَ یُذْکَرَ فِیهَا اسْمُهُ یُسَبِّحُ لَهُ فِیها بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ E أی فی الصباح و المساء. إلّا أن هذا التّفسیر لا ینسجم مع وجود کلمة« فیها» لأنّه یعد تکرارا لا داعی له، إضافة إلی عدم انسجامها مع الأحادیث الواردة بهذا الصدد(فتأملوا جیدا).

[۷۵] (۱)-« الغدو» علی وزن« علو» بمعنی الصبح، و یقول الراغب الأصفهانی: الغدوة و الغداة من أوّل النهار، و قوبل فی القرآن بالآصال، نحو قوله i بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ E و قوبل الغداة بالعشیّ.

و« الآصال» جمع« الأصل» علی وزن« رسل» و هو بدوره جمع للأصیل بمعنی العصر، و السبب فی ذکر الغدو مفردة و الآصال جمعا؟ یقول فخر الرازی، لأنّ الغدو ذات بعد مصدری و لا یجمع المصدر.

[۷۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، ص ۶۰۷.

[۷۷] (۳)- تفسیر مجمع البیان للآیة موضع البحث.

[۷۸] (۱)- نور الثقلین فی تفسیر الآیات موضع البحث(مع بعض التلخیص المجلد الثالث، صفحة ۶۰۲ و ۶۰۳).

[۷۹] (۲)- المصدر السابق.

[۸۰] (۳)- المصدر السابق.

[۸۱] (۱)- المصدر السابق، ۶۰۹.

[۸۲] (۲)- المصدر السابق.

[۸۳] (۱)- یقول علماء الفیزیاء المعاصرون: عند ارتفاع درجات الحرارة فالهواء المجاور للأرض یتمدد و یزداد تخلخله فیختلف مع

الطبقة المجاورة له، و بذلک تنعکس موجة الضوء و یحدث السراب.

[۸۴] (۲)- تراجع التفاسیر التالیة: مجمع البیان، روح المعانی، تفسیر القرطبی، تفسیر الفخر الرازی، و مفردات الراغب.

[۸۵] (۱)- یجب الانتباه إلی أن« السحاب» یعنی کما جاء من« لسان العرب» الغیوم الممطرة، و عادة تکون السحب المتراکمة أکثر عتمة.

[۸۶] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، للآیة موضع البحث.

[۸۷] (۱)- تفسیر الصافی للآیة موضع البحث.

[۸۸] (۱)- تفسیر من ظلال القرآن المجلد(۱۹- ۲۰) صفحة ۱۰۹- ۱۱۰- دار إحیاء الکتب العربیة- الطبعة الأولی.

[۸۹] (۲)- تکرر حرف(من) ثلاث مرات فی عبارة\i وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِیها مِنْ بَرَدٍ\E أولاها ابتدائیة، و ثانیتها لها نسبة مع ابتدائیة، و أمّا الثّالثة فقد اختلف فی تفسیرها کما ذکرنا أعلاه، فهی بحسب التّفسیر الأوّل بیانیة، و یکون مفهوم الجملة هو ینزل من السماء من جبال من برد. و قد حذف مفعول الفعل(ینزل) و هو البرد، و یفهم ذلک من قرینة فی الکلام، و علی حسب التفسیرین الثّانی و الثّالث اللذین اخترناهما تکون« من» إمّا زائدة(حسبما نقله تفسیر روح المعانی عن الأخفش) أو هی للتبعیض.

[۹۰] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، و تفسیر مجمع البیان، و تفسیر روح المعانی.

[۹۱] (۱)- بحثنا فی هذا المجال فی التّفسیر الأمثل عند تفسیر الآیة(۶) من سورة یونس.

[۹۲] (۱)- استند البعض عن دعاة نظریة التطور إلی هذه الآیة لإثبات نظریتهم، إلّا أننا ذکرنا عدم ثبوت هذه النظریة فی تفسیرنا للآیة(۲۶) من سورة الحجر. و الجدیر بالاهتمام هو أنّه یجب أن لا نطبق الآیات مع النظریات. فالآیات القرآنیة تحکی عن حقائق لا تتغیر، أمّا النظریات العلمیة فتتغیر.

[۹۳] (۱)- تفسیر القرطبی، و تفسیر الفخر الرازی للآیة موضع البحث.

[۹۴] (۲)- لا بدّ من الاهتمام بهذه المسألة لغویا، و هی أنّ الضمیر« هم» فی« منهم» رغم أنّه للجمع العاقل، فقد استخدمتها الآیة لغیر العاقل أیضا. و کذلک حرف« من» و ذلک بسبب استخدام هذه الکلمات أحیانا لغیر العاقل أیضا.

[۹۵] (۱)-« مجمع البیان» و تفسیر« روح المعانی» و تفسیر« التبیان» و تفسیر« القرطبی» و تفسیر« الفخر الرازی» و تفسیر« الصافی» و تفسیر« نور الثقلین»(مع بعض التصرف).

[۹۶] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، المجلد(۱۷- ۲۰)، صفحة ۱۱۵- طبعة دار إحیاء الکتب العربیة- الطبعة الأولی.

[۹۷] (۱)- لإیضاح أکثر حول صفات المنافقین یراجع التّفسیر الأمثل من بدایة سورة البقرة آخر الآیة العاشرة و ما یلیها.

[۹۸] (۱)- النساء، ۶۵.

[۹۹] (۱)- أصل« یتقه» بسکون القاف و کسر الهاء« یتقه» و قد حذفت الیاء منها لأنّها فی حالة جزم و قد حذفت إحدی الکسرتین المتالیتین لأنّها ثقیلة للفظ.

[۱۰۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الثالث، صفحة ۶۱۶.

[۱۰۱] (۱)- المصدر السابق.

[۱۰۲] (۱)- احتوی کتاب« منتخب الأثر» علی مائة و ثلاثة و عشرین حدیثا بهذا الصدد، من مصادر إسلامیة مختلفة خاصّة السنّیة منها. للاستزادة یراجع هذا الکتاب فی صفحة ۲۴۷، و ما یلیها.

[۱۰۳] (۲)- مجمع البیان فی تفسیر الآیة موضع البحث.

[۱۰۴] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد السابع، صفحة ۴۲۹۲.

[۱۰۵] (۲)- فی الصورة الأولی الجملة الحالیة للضمیر« هم» الذی جاء فی الآیات السابقة. و فی الصورة الثّانیة تقدر ب« لیعبدوننی» و

احتمل آخرون أنها جملة استئنافية و هو احتمال ضعيف.

[۱۰۶] (۳)- الذاريات، ۶۵.

[۱۰۷] (۱)- كنز العرفان، المجلد الثانى، صفحة ۲۲۵.

[۱۰۸] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴ كتاب النكاح صفحة ۱۴۷، الباب ۱۱۰.

[۱۰۹] (۲)- للاستزادة يراجع المصدر السابق.

[۱۱۰] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۳، صفحة ۲۹۵.

[۱۱۱] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۴، كتاب النكاح، الباب ۱۱۰، الحديث ۴.

[۱۱۲] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۵.

[۱۱۳] (۳)- الجواهر، المجلد ۲۹، صفحة ۸۵ و كنز العرفان، المجلد ۲، ص ۲۲۶.

[۱۱۴] (۴)- وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ۱۱۰، الحديث ۱.

[۱۱۵] (۵)- المصدر السابق، الحديث ۲ و ۴.

[۱۱۶] (۱)- ذكرت هذا التّفسير أيضا، التفاسير التالية« الدر المنثور» و« نور الثقلين» و« مجمع البيان» و« الصافى» و« التّفسير الكبير» و« التبيان».

[۱۱۷] (۱)- تفسير التبيان، للآية موضع البحث.

[۱۱۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۱۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۰] (۱)- نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ۶۲۷.

[۱۲۱] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۲] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۶، صفحة ۴۳۴، كتاب الأطعمة و الأشربة- أبواب آداب المائدة- الباب ۲۴ الحديث ۱.

[۱۲۳] (۱)- المصدر السابق، الحديث ۴.

[۱۲۴] (۲)- لإيضاح أكثر يراجع جواهر الكلام المجلد ۳۶، صفحة ۴۰۶،(كتاب الأطعمة و الأشربة).

[۱۲۵] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثانى، صفحة ۴۶۷.

[۱۲۶] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد الثّانى عشر، ص ۳۱۵(و جاء فى وسائل الشيعة المجلد السادس عشر، صفحة ۴۳۶، الباب ۲۴ من أبواب المائدة حديث بهذا المضمون).

[۱۲۷] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحة ۶۲۸.

[۱۲۸] (۲)- فى ظلال القرآن- طبعة دار إحياء الكتب العربية- الجزء السابع عشر، ص ۱۲۶.

[۱۲۹] (۱)- التّفسير الكبير للفخر الرازى، و روح المعانى، و تفسير القرطبى للآيات موضع البحث.

[۱۳۰] (۲)- التّفسير الكبير للفخر الرازى- فى تفسيره للآية موضع البحث صفحة ۳۹ من طبعة دار الكتب العلمية بطهران- الطبعة الثّانية.

[۱۳۱] (۱)- لقد جاء بعد كلمة الدعاء« لام» فإنّها تعنى الابتهال و الدعاء، أمّا إذا جاء الحرف« على» فإنّها تعنى الدعاء على شخص لغير صالحه، و إذا افتقدت الجملة أى من هذين الحرفين فيحتمل أن تتضمّن العبارة المعنيين.

[۱۳۲] (۱)- يصر بعض المفسّرين على أن ثلاث آيات من هذه السورة(۶۸، ۶۹، ۷۰) نزلت فى المدينة، و لعل ذلك لأنّ أحكاما مثل قتل النفس و الزنا، شرّعت فى هذه الآيات، فى حين أن التدقيق فى الآيات التى قبلها و التى بعدها، يكشف جيدا عن أنّ السياق واحد

متصل و منسجم تماما حول i عِبادُ الرَّحْمنِ E و بيان أوصافهم، لذا فالظاهر أن السورة نزلت كلها فى مكّة.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البيان آخر الآية مورد البحث.

[۱۳۴] (۲)- ثواب الأعمال للصدوق، طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۴، ص ۲.

[۱۳۵] (۱)- ورد شرح كلمة« البركة» فى ج ۵، آخر الآية(۵۴) من سورة الأعراف، شرح اصل« البركة».

[۱۳۶] (۱)- سورة الأنفال، الآية ۲۹.

[۱۳۷] (۱)- كلمة(الملك) كما يقول« الراغب» فى« المفردات» بمعنى تملك الشىء و الحاكمية عليه، فى حين أن(الملك) ليس دليلا على الحاكمية و تصرف المالك دائما. و بهذا الترتيب: فكل ملك ملكا، فى حين أنّ ليس كل ملك ملكا.

[۱۳۸] (۲)- ورد إيضاح أكثر حول نفى الولد عن اللّه تعالى، و دلائل ذلك فى تفسير الآية(۱۱۶) من سورة البقرة.

[۱۳۹] (۱)- اقتباس من كتاب« الإنسان لا يقوم وحده» تأليف كريسى موريسون، ترجمه محمود صالح الفلكى بعنوان(العلم يدعو للإيمان)، من الصفحات ۶۵، ۶۶، ۷۰، ۷۱، ۱۵۹، ۱۶۰.

[۱۴۰] (۱)-« جاؤا» من مادة« مجىء»: يراد بها عادة معنى« القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى« الإتيان»، كما نقرأ أيضا فى الآية(۸۱) سورة يونس أن موسى عليه السّلام قال للسحرة« ما جئتم به السحر».

[۱۴۱] (۱)- يعتقد جماعة من المفسّرين أنّ المراد من جملة(اكتتبها): هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد من الآخرين أن يكتبوا له هذه الآيات، و كذلك، جملة(تملى عليه) مفهومها: هو أنّ أولئك كانوا يلقونها إليه، و كان هو يحفظها. لكنّه مع الالتفات إلى أنّنا لا دليل لدينا على حمل هاتين الجملتين على خلاف الظاهر، يكون التّفسير الذى ورد فى المتن هو الأصح، ففى الواقع إن أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من هذا الطريق، بأنّه يقرأ و يكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أميا عمدا.

[۱۴۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، الجزء ۴، الصفحة ۶.

[۱۴۳] (۱)- كثير من المفسّرين اعتبروا(الأمثال) هنا بمعنى(التشبيهات) لكنّهم لم يوضحوا هنا ما هى التشبيهات التى قدمها المشركون، و بعض آخر اعتبر(الأمثال) هنا بمعنى(الصفات)، لأن أحد معانى(المثل)- طبقا لما قاله الراغب فى المفردات هو(الصفة)، فالمقصود هنا هى الصفة الواهية التى لا أساس لها، ذلك لأن ما فى صدر و ذيل الآية القرآنية أعلاه يدل على هذا المعنى، فمن جانب يقول بعنوان التعجب: انظر آية أمثال ضربوا؟ و من جانب آخر يقول: الأوصاف التى تؤدى الى ضلالهم الذى لا هداية بعده.

[۱۴۴] (۱)-« الخطبة القاصعة»، الخطبة ۱۹۲ نهج البلاغة.

[۱۴۵] (۲)- و كذلك الذين قالوا: إن المقصود هو جنات الدنيا و قصور الآخرة، فالفعلان الماضى و المضارع(جعل و يجعل) اللذان فى الآية، ينبغى ألا يكونا باعثا على هكذا و هم أيضا، لأنّنا نعلم طبقا لقواعد الأدب العربى، أن الأفعال فى الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزمانى.

[۱۴۶] (۱)-« سعير» من« سعر» على وزن« قعر» بمعنى التهاب النار، و على هذا يقال للسعير: النار المشتعلة و المحيطة و المحرقة.

[۱۴۷] (۱)-« مقرنين» من« قرن» بمعنى قرب و اجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، و يقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء« قرن»، و يقولون أيضا لمن تقيد يده و رجله مع بعضهما بالغل و السلاسل« مقرّن»(من أجل توضيح أكثر فى المسألة راجع آخر الآية(۴۹) من سورة إبراهيم).

[۱۴۸] (۲)- مجمع البيان، آخر الآية مورد البحث.

[۱۴۹] (۱)- و يحتمل أن تكون الجملة الأخيرة استمرارا لمحاورة اللّه مع المشركين فى القيامة، و لا يضرّ كون الفعل مضارعا، لأنّ جملة(من يظلم ..) ذكرت بصورة قانون عام(جملة شرطية)، و نعلم أنّ الأفعال فى الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزمانى، و تبقى

وحدة الارتباط بین الشرط و جوابه معتبرة.

[۱۵۰] (۱)- الأنبیاء، ۶۳.

[۱۵۱] (۱)- تعتبر بعض المصادر أنّ کلمة« بور» تأتی بمعنی اسم الفاعل، و تأتی واحدة فی المفرد و المثنی و الجمع و المذکر و المؤنث، و بعض یعدها جمع« بائر».

[۱۵۲] (۱)- و إن کان قد جاء مضمون الروایة أعلاه فی کثیر من التفاسیر، و لکن ما ذکرناه أعلاه مطابق للروایة التی أوردها القرطبی فی تفسیره« الجامع لأحکام القرآن» ج ۱۳، ص ۵ دار إحیاء التراث العربی/ بیروت.

[۱۵۳] (۱)- من أجل توضیح أکثر فی مسألة الاختبارات الإلهیة، و الغایة من هذه الاختبارات و سائر أبعاد ذلک، بحثنا ذلک بشکل مفصّل فی ذیل الآیة(۵۵) من سورة البقرة.

[۱۵۴] (۱)- کلمة(لا) ها هنا، قد تکون للنفی، کما قال کثیر من المفسّرین، و یحتمل أیضا أن تکون لانشاء الدعاء السلبی، حیث یصبح معنی الجملة فی هذه الصورة، هکذا:« فی ذلک الیوم لا کانت بشری للمجرمین».

[۱۵۵] (۱)- و من الناحیة الأدبیة فإنّ« حجرا» مفعول لفعل مقدر و« محجورا» جاءت للتوکید، فهی فی الأصل(أطلب منک منعا لا سبیل إلی رفعه و دفعه).

[۱۵۶] (۱)- تفسیر المیزان، تفسیر الفخر الرازی، فی ظلال القرآن، تفسیر أبو الفتوح الرازی، ذیل آیة البحث.

[۱۵۷] (۲)- یذهب(الراغب) الی هذا الفرق فی مادة« عمل»، و لو أنّ له بیانا خلاف ذلک فی مادة« فعل». لکن مع الالتفات إلی موارد استعمال هاتین الکلمتین یکون هذا الفرق صحیحا، طبعا یمکن أن یکون له استثناءات کما یقولون للثیران التی تعمل« عوامل».

[۱۵۸] (۱)- بحثنا فی هذا الصدد بصورة أکثر تفصیلا فی(ذیل الآیة ۱۸ من سورة إبراهیم).

[۱۵۹] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۲۷، مادة« خمر».

[۱۶۰] (۲)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۹.

[۱۶۱] (۱)- جملة« یوم تشقق السماء» فی الواقع عطف علی جملة« یوم یرون الملائکة» التی مرّت سابقا، و علی هذا فأنّ« یوم» هنا متعلق بذلک الشیء الذی کان فی الآیة السابقة، یعنی جملة« لا بشری». و یعتقد جماعة أنّه متعلق بفعل مقدّر، مثل(أذکر) و« الباء» فی« الغمام» یمکن أن تکون بمعنی الملابسة، أو بمعنی« عن»، أو للسببیة کما تقدم فی تفسیر الآیات أعلاه.

[۱۶۲] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۵۴(ذیل الآیة مورد البحث).

[۱۶۳] (۲)-« الباء» من الناحیة الأدبیة فی هذه الحالة للملابسة.

[۱۶۴] (۱)- فی هذه الحالة« الباء» فی« بالغمام» للسببیة.

[۱۶۵] (۱)- تفسیر القرطبی« الجامع لأحکام القرآن»، ج ۱۳، ص ۲۳، ج ۷، ص ۴۷۳۹.

[۱۶۶] (۲)- سورة البقرة، الآیة ۱۶۶.

[۱۶۷] (۳)- سورة تبّت، الآیة ۲.

[۱۶۸] (۴)- سورة الدخان، الآیة ۴۱.

[۱۶۹] (۵)- سوره البقرة، الآیة ۲۵۵.

[۱۷۰] (۶)- سورة المرسلات، الآیة ۳۶.

[۱۷۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۱۶۶.

[۱۷۲] (۲)- جملة\i یَوْمَ یَعَضُّ الظَّالِمُ\ ...E عطف علی« یوم یرون» التی مضت قبل عدّة آیات، بعض یعتبرها أیضا متعلقة بجملة مقدرة« اذکر».

[۱۷۳] (۱)-« خلیل» تطلق بمعنی الصدیق الخاص الحمیم حیث یجعله الإنسان مشاورا لنفسه. و للخلیل معان أخری أیضا قد أوردناها فی ذیل الآیة(۱۲۵) من سورة النساء.

[۱۷۴] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۲۷ مادة(صدق).

[۱۷۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۹۷.

[۱۷۶] (۱)- بحار الأنوار ج ۷۴ ص ۱۹۸.

[۱۷۷] (۲)- الخصال، للصدوق، طبقا لنقل بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۹۵.

[۱۷۸] (۱)- الظاهر أن جملة« قال» فعل ماض، تدل علی أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد ذکر هذا القول علی سبیل الشکوی فی هذه الدنیا، و أکثر المفسّرین أیضا علی هذا الإعتقاد، لکن بعضا آخر مثل« العلامة الطباطبائی» فی« المیزان» یعتقدون أن هذا القول مرتبط بیوم القیامة، و الفعل الماضی هنا بمعنی المضارع. و ذکر العلامة الطبرسی فی مجمع البیان أیضا هذا علی سبیل الاحتمال، لکن الآیة التی بعدها، و التی فیها جنبة مواساة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دلیل علی أن التّفسیر المشهور هو الأصح.

[۱۷۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۱۷۰ ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۸۰] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۴۴۹(باب ترتیل القرآن بالصوت الحسن).

[۱۸۱] (۳)- مجمع البحرین مادة رتل.

[۱۸۲] (۴)- طبقا لهذا التّفسیر، فإنّ عبارة« علی وجوههم» أخذت محل العلّة. فیکون مفهوم الجملة هکذا(یحشرون إلی جهنم لتعلق وجوه قلوبهم إلی الدنیا).

[۱۸۳] (۱)-« و عادا و ثمودا» عطف علی ضمیر« هم» فی جملة« دمرناهم». و احتمل بعضهم أیضا أن العطف علی« هم» فی« جعلناهم»، أو یکون عطفا علی محل« الظالمین» لکن الاحتمال الأوّل مناسب أکثر.

[۱۸۴] (۱)-« تتبیر» من مادة« تبر»(علی وزن ضرر، و علی وزن صبر) بمعنی الإهلاک التام.

[۱۸۵] (۱)- مفردات الراغب.

[۱۸۶] (۲)- أعلام القرآن ص ۱۴۹.

[۱۸۷] (۱)- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید، ج ۱، ص ۹۴.

[۱۸۸] (۲)- سورة الحج، الآیة ۴۵.

[۱۸۹] (۱)- عیون أخبار الرضا علیه السّلام، طبقا لنقل و تلخیص تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۲۱۹ و الحدیث فی العیون بإسناده عن أبی الصلت الهروی عن الإمام الرضا علیه السّلام عن أمیر المؤمنین علیه السّلام.

[۱۹۰] (۱)- الکافی، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۹.

[۱۹۱] (۱)-« هزوا» مصدر، و جاء هنا بمعنی المفعول، و هذا الاحتمال وارد أیضا و هو أن یکون مضافا مقدارا(محل هزو)، أیضا فالتعبیر ب« هذا» للتحقیر و لتصغیر النّبی.

[۱۹۲] (۲)- کلمة(إن) فی i إِنْ کادَ لَیُضِلُّنا\E مخففة، للتوکید، و فی تقدیر« إنّه کاد» و ضمیرها ضمیر الشأن.

[۱۹۳] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم القمی، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۰.

[۱۹۴] (۱)- تفسیر الدر المنثور، فی ذیل الآیة مورد البحث، نقلا عن تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۲۵۷.

[۱۹۵] (۲)- سورة الکهف، الآیة ۲۸.

[۱۹۶] (۳)- سورة طه، الآیة ۱۶.

[۱۹۷] (۴)- سورة القصص، الآیة ۵۰.

[۱۹۸] (۵)- سورة ص، الآیة ۲۶.

[۱۹۹] (۶)- سورة النساء، الآیة ۱۳۵.

[۲۰۰] (۷)- سورة المؤمنون، الآیة ۷۱.

[۲۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

[۲۰۲] (۲)- غرر الحکم، الجملة ۲۶۵.

[۲۰۳] (۳)- غرر الحکم، الجملة ۱۰۴۸.

[۲۰۴] (۴)- غرر الحکم، الجملة ۱۰۵۳۱.

[۲۰۵] (۵)- غرر الحکم، الجملة ۱۰۵۴۱.

[۲۰۶] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۷۲۸(ذیل مادة هوی) و نهج البلاغة، الخطبة ۲۸ و ۴۲.

[۲۰۷] (۲)- سورة النازعات، الآیة ۴۰.

[۲۰۸] (۳)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۶۸۹(مادة شجع).

[۲۰۹] (۱)- القصص، ۷۱ و ۷۲.

[۲۱۰] (۲)- القصص، ۷۳.

[۲۱۱] (۱)- تفسیر القرطبی.

[۲۱۲] (۱)- یجب الانتباه إلی أنّ« بشرا»- بسکون الشین مخفف-« بشرا»- بضم الشین- الذی هو جمع« بشور»(علی وزن قبول) بمعنی مبشر و بشیر.

[۲۱۳] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أن« بلدة» هنا بمعنی الصحراء، و مع أنّ هذا اللفظ مؤنث، فصفته التی هی« میتا» وردت بصیغة المذکر، ذلک لأن المراد بالمعنی« المکان» و هو مذکر.

[۲۱۴] (۱)- مجمع البیان، و تفسیر روح المعانی، ذیل هذه الآیة.

[۲۱۵] (۱)- سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۷، و فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۲۱۶] (۱)-« نذیر» فی اعتقاد البعض صیغة مبالغة، فی حین أنّ« مبشر» اسم فاعل فقط، هذا التفاوت التعبیری یمکن أن یکون بسبب أن النبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان فی مواجهة فئة بلا إیمان و کان لها إصرار بالغ علی انحرافها، فلا بد أن یبالغ فی إنذارها.(روح المعانی ذیل الآیة مورد البحث).

[۲۱۷] (۱)- بناء علی هذا فالاستثناء فی الآیة أعلاه« استثناء متصل» و إن بدا منقطا لأول وهلة.

[۲۱۸] (۲)- الاستثناء فی هذه الحالة« استثناء منقطع».

[۲۱۹] (۱)- طبقا لهذا التّفسیر ف« الباء» فی« به» زائدة، أمّا طبقا للتفاسیر الأخری، فإن« الباء» بمعنی« عن».

[۲۲۰] (۱)- من أجل توضیح أکثر فی هذا الصدد، راجع التّفسیر الأمثل(ذیل الآیة ۳۱ سورة آل عمران).

[۲۲۱] (۱)- سورة الشعراء، الآیة ۲۳.

[۲۲۲] (۲)- علی هذا فإنّ فاعل(زاد) هو ذلک الأمر بالسجود الذی ترک أثرا معکوسا فی أولئک المرضی قلوبهم، و إن نقل بعض المفسّرین أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سجد بعد هذا الکلام و سجد المؤمنون أیضا، فسبّب هذا ابتعاد أولئک أکثر، بناء علی هذا ففاعل(زاد) السجدة، لکن المعنی الأوّل أکثر صحّة.

[۲۲۳] (۱)- طبقا للتفسیر أعلاه، فإنّ ضمیر« فیها» یرجع إلی البروج، و ینبغی أن یکون هکذا، ذلک لأنّ الموضوع المهم هو دوران الشمس و القمر ضمن نظام خاص فی البروج: و لیس وجود البروج فی السماء فقط.

[۲۲۴] (۱)- من لا یحضره الفقیه، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴ ذیل الآیة.

[۲۲۵] (۱)-« هون» مصدر، و هو بمعنی الناعم و الهادی المتواضع، و استعمال المصدر فی معنی اسم الفاعل هنا للتوکید، یعنی أنّهم فی ما هم علیه کأنّهم عین الهدوء و التواضع.

[۲۲۶] (۲)- سورة الإسراء، الآیة ۳۷.

[۲۲۷] (۱)- ینبغی الانتباه إلی أنّ« سجدا» جمع« ساجد»، و قیاما» جمع« قائم».

[۲۲۸] (۲)- تطلق« الغریم» علی« الدائن» و« المدین» أیضا.(لسان العرب مادة غرم).

[۲۲۹] (۱)- سورة الفرقان، الآیة ۷۶.

[۲۳۰] (۱)- الکافی: طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۹.

[۲۳۱] (۱)- فی ظلال القرآن، ذیل الآیة مورد البحث، و فی تفسیر القرطبی ینقل روایة أخری فی هذا الصدد أیضا لها شبه کبیر بما قلناه أعلاه.

[۲۳۲] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۳] (۳)- تفسیر روح المعانی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۴] (۴)- سورة یونس، الآیة ۸۳.

[۲۳۵] (۵)- سورة غافر، الآیة ۴۳.

[۲۳۶] (۱)- الاستثناء فی الجملة أعلاه« استثناء مفرغ» اصطلاحا، و کان فی التقدیر هکذا« لا یقتلون النفس التی حرم اللّه بسبب من الأسباب إلّا بالحق».

[۲۳۷] (۲)- تفسیر الفخر الرازی.

[۲۳۸] (۱)- صحیح« البخاری» و« مسلم» طبقا لنقل مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۹] (۱)- التفسیر الأمثل، الجزء الثالث.

[۲۴۰] (۱)- عوالی اللئالی، طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۳.

[۲۴۱] (۲)-« متاب» مصدر میمی بمعنی التوبة، و لأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوکید.

[۲۴۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۴۳.

[۲۴۳] (۲)- الشاهد علی هذا القول، الشعر الذی نقله القرطبی فی تفسیره عن أحد الشعراء العرب.

فکم سخنت بالأمس عین قریرةو قرت عیون دمعها الیوم ساکب [۲۴۴] (۱)- أورد هذه الروایات فی تفسیر آخر هذه الآیة« علی بن إبراهیم»، و مؤلف کتاب نور الثقلین فی تفسیریهما.

[۲۴۵] (۲)- یراجع تفسیر« القرطبی» و تفسیر« الفخر الرازی».

[۲۴۶] (۱)- الآیة أعلاه من الآیات التی هی مورد مناقشات کثیرة بین المفسّرین، و ما قلناه فی تفسیرها هو أوضح تفسیر، لکن جماعة من المفسّرین المعروفین ذکروا لها تفسیر آخر خلاصته هکذا.

لا اعتناء للّه بکم، ذلک لأنّکم کذبتم بآیاته، إلّا أن اللّه یدعوکم إلی الإیمان(طبقا لهذا التّفسیر:« دعاؤکم» من قبیل إضافة المصدر إلی المفعول، و فاعله ضمیر یعود إلی« ربّی».

لکن طبقا للتفسیر الذی اخترناه فإن« دعاؤکم» من قبیل إضافة المصدر إلی الفاعل، و ظاهر إضافة المصدر إلی الضمیر هی أن تکون الإضافة إلی الفاعل، إلّا أن تظهر قرینة علی خلافه).

ثمّة تفسیر ثالث لهذه الآیة و هو أنّ الهدف بیان: إنّکم أیّها البشر، غالبا ما سلکتم طریق التکذیب، فلا وزن و لا قدر لکم عند اللّه، إلّا

لأجل تلك الأقلية مثل« عباد الرحمن» الذين يتوجهون إلى اللّه و يدعونه بإخلاص(هذا التّفسير و إن كان صحيحا من ناحية المعنى و المضمون، لكنّه لا يوافق ظاهر الآية كثيرا، ذلك لأنّ الضمير فى« دعاؤكم» و« كذبتم» يعود ظاهرا إلى فئة واحدة لا فئتين(فتأمل!).

[۲۴۷] (۲)- تفسير الصافى، ذيل هـذه الآيـة- نقلوا لهذه الرّواية أيضا تفاسير أخرى يتفاوت يسير، نقلت أيضا روايات أخرى شاهدة على التّفسير أعلاه، بعضها عن أمالى الشيخ الطوسى، و بعضها عن تفسير على بن إبراهيم ذيل هذه الآية.

[۲۴۸] (۱)- اصول الكافى، الجزء الثّانى، أبواب الدعاء باب أن الدعاء سلاح المؤمن.

[۲۴۹] (۲)- المصدر السابق.

[۲۵۰] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۱] (۱)- تفسير« مجمع البيان» و تفسير« الفخر الرازى» و تفسير« القرطبى» و تفسير« التبيان»، و استثنى فى تفسير« روح المعانى» خمس آيات. لكن بعض المفسّرين مثل العلّامة الطباطبائى فى« الميزان» لم يقبل استثناء هذه الآيات. و سوف يكون لنا بحث أكثر إن شاء اللّه فى ذيل هذه الآيات.

[۲۵۲] (۱)- كقوله تعالى i وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُداوِلُها بَيْنَ النَّاسِ E.

[۲۵۳] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۸ ذيل الآية محل البحث.

[۲۵۴] (۱)- راجع نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقم ۱۹۲« تواضع الأنبياء».

[۲۵۵] (۲)- الكافى حسب نقل تفسير نور الثقلين ذيل الآية محل البحث.

[۲۵۶] (۳)- تفسير الميزان، و نور الثقلين ذيل الآيات محل البحث.

[۲۵۷] (۱)- يتعدى الفعل« يرى» عادة إلى المفعول بدون حرف الجر(إلى) و قد تتعدى إلى المفعولين، و إنّما تعدت هنا بحرف الجر(إلى) لأنّ المراد منها النظر العميق الدقيق لا الرؤية السطحية ...

[۲۵۸] (۱)- النمل، ۲۹.

[۲۵۹] (۱)- البقرة، الآية ۲.

[۲۶۰] (۱)- فى هذه الجملة حذف و تقديره: فأرسل جبرئيل إلى هارون.

[۲۶۱] (۱)- يقول الراغب فى« المفردات»:« الرّسول» من الكلمات التى تطلق على المفرد و الجمع، و إن جمعت أحيانا على« الرسل» فمنهم من يرى أنها مصدر أيضا و معناها الرسالة، و نعرف أنه لا تثنية و لا جمع فى المصدر. و قد ورد فى لسان العرب أنّ الرّسول بمعنى الرسالة، إلّا أن هذه الكلمة تحمل المعنى الوصفى حتما، و كثيرا ما تجمع أو تثنى و قد ورد فى سورة طه عن هذه القصة و قصة موسى و هارون:« إنّا رسولا ربك»! ...

[۲۶۲] (۱)- هذا الكلام يوافق مضمون الحديث الوارد عن الإمام الرضا عليه السّلام فى تفسير الآية، راجع كتاب عيون اخبار الرضا، ج ۴، ص ۴۸ نقلا عن« نور الثقلين».

[۲۶۳] (۱)- راجع تفسير أبى الفتوح الرازى ذيل الآية محل البحث.

[۲۶۴] (۱)- راجع تفسير الميزان، و الفخر الرازى، و روح المعانى ذيل الآية محل البحث.

[۲۶۵] (۱)- جن يجن« من الأضداد فى اللغة» و الضد فى الألفاظ ما يحمل معنيين متضادين، مثل الجون يطلق على الأسود و الأبيض، و جن بمعنى ستره و أظهره.

[۲۶۶] (۱)-(أرجه) مشتقّة من« الإرجاء»، و معناها التأخير و عدم الاستعجال فى القضاء، و الضمير فى(أرجه) يعود على موسى، و أصل الكلمة كان(أرجئه) و حذفت الهمزة للتخفيف!

[۲۶۷] (۱)-« الحبال» جمع« حبل» على وزن(طبل) و معناها واضح، و العصى جمع العصا.

[۲۶۸] (۲)- سورة طه، الآية ۶۶.

[۲۶۹] (۱)-(تلقف) مشتق من(اللقف) على زنه(السقف) و معناه إمساك الشيء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، و معلوم أن المراد هنا الإمساك بالفم و الابتلاع، و(يأفكون) مشتق من(الإفك) و معناه الكذب، و هى إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

[۲۷۰] (۱)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۲۰۸.

[۲۷۱] (۲)- جاء التعبير فى هذه الآية(۷۱) من سورة طه ب\i آمَنْتُمْ لَهُ E و جاء التعبير فى الآية(۱۲۳) من سورة الأعراف

[۲۷۲] (۱)- راجع مجمع البيان و القرطبى: ذيل الآيات محل البحث، كما أن الألوسى فسّر هذا الموضوع فى روح المعانى تفسيرا يستحق النظر!

[۲۷۳] (۲)- روح المعانى ذيل الآيات محل البحث.

[۲۷۴] (۱)- كلمة مليون و أخواتها(مليار، بليون إلخ) من مصطلحات العصر و هى غير عربية، و كان العرب يقولون ألف ألف.

[۲۷۵] (۲)- قال بعض المفسّرين: المراد من« مشرقين»، أن بنى إسرائيل ساروا نحو الشرق، و اتّباع فرعون و قومه بالاتجاه نفسه، لأنّ بيت المقدس يقع شرق مصر!

[۲۷۶] (۳)- سورة طه، الآية ۴۶.

[۲۷۷] (۱)- اقرأ فى سورة« يونس: الآية ۹۰- و طه الآية ۷۷- و الشعراء الآية ۶۳، و الآية محل البحث أيضا.

[۲۷۸] (۲)- اقرأ سورة طه الآية ۷۸- و القصص الآية ۴۰- و الذاريات الآية ۴۰.

[۲۷۹] (۱)- العامرة هنا اسم فاعل بمعنى المفعول أى المعمورة.

[۲۸۰] (۱)- أعلام القرآن، ص ۶۲۲.

[۲۸۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۸۲] (۱)- بيّنا مرارا أنّ لفظ« الأب» يطلق فى لغة العرب و القرآن على الوالد كما يطلق على العم، و هنا استعمل هذا اللفظ بمعناه الثانى.

[۲۸۳] (۱)- لمزيد الإيضاح فى هذا الصدد يراجع تفسير الآية(۸۲) من سورة مريم.

[۲۸۴] (۱)- سورة لقمان، الآية ۱۲.

[۲۸۵] (۱)- سورة مريم، الآية ۵۰.

[۲۸۶] (۲)- البقرة، الآية ۱۲۹.

[۲۸۷] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية ۱۱۴ سورة التوبة.

[۲۸۸] (۱)- أزلفت: فعل مشتق من(الزلفى) على وزن(كبرى) و معنى الفعل« قربت».

[۲۸۹] (۲)- سورة الحجر، الآية ۴۲.

[۲۹۰] (۳)- قد يكون المراد من« ينتصرون» هو أن يطلبوا العون و النصر لأنفسهم أو لغيرهم ... أو مجموعهما، لاننا سنلاحظ فى الآيات المقبلة أن العبدة و معبوديهم يساقون إلى النار.

[۲۹۱] (۱)-(إن كنا) مخففة من(إنّا كنا) ...

[۲۹۲] (۲)- يحتمل أن تكون(إذ) هنا للظرفية، كما يحتمل أن تكون تعليلية ...

[۲۹۳] (۱)- تعدّ(لو) من حروف الشرط- و عادة- تستعمل حينما يكون الشرط محالا ...

[۲۹۴] (۱)- سورة البقرة، الآية ۱۰.

[۲۹۵] (۲)- راجع مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

[۲۹۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۲۳۹.

[۲۹۷] (۴)- تفسیر الصافی فی ذیل الآیة محل البحث.

[۲۹۸] (۱)- الکافی ... طبقا لما جاء فی تفسیر الصافی- ذیل الآیة محل البحث.

[۲۹۹] (۲)- أصول الکافی ج ۲ ص ۴۲۲ ط الرّابعة، باب فی ظلمة قلب المنافق.

[۳۰۰] (۱)- نقل هذه الروایة مؤلف تفسیر نور الثقلین عن أصول الکافی، و تفسیر علی بن إبراهیم، و المحاسن للبرقی.

[۳۰۱] (۲)- المحاسن للبرقی. ذیل الآیة محل البحث.

[۳۰۲] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة.

[۳۰۳] (۱)- تأنیث لفظ(کذبت) لأن(قوم) فی معنی الجماعة، و الجماعة فیها تأنیث لفظی ... و قال بعضهم: إن کلمة(قوم) بذاتها مؤنثة، لأنّهم قالوا فی تصغیرها« قویمة» نقل الوجه الأوّل الطبرسی فی مجمع البیان، و نقل الوجه الثّانی الفخر الرازی فی تفسیره ... إلّا أن« الآلوسی» قال فی روح المعانی: إن لفظ« قوم» یستعمل فی المذکر و المؤنث علی السواء ...

[۳۰۴] (۱)-« الرجم» مأخوذ من(رجام) علی وزن(کتاب) و هو جمع(رجمة) علی وزن(لقمة) و معناها القطعة من الحجر التی توضع علی القبر، أو ما یطوف حوله عبدة الأوثان، کما یعنی الرجم القذف بالحجارة حتی القتل، کما یأتی أحیانا بمعنی القتل بأیّ شکل کان، لأن القتل کان بالحجر سابقا.

[۳۰۵] (۱)- لما کانت« عاد» قبیلة، و تتألف من جماعة من الناس أنث الفعل کما یری، فجاء\i کَذَّبَتْ عادٌ\E لأنّ لفظی القبیلة و الجماعة مؤنثان ...

[۳۰۶] (۱)- مجمع البیان: ذیل الآیة محل البحث، نور الثقلین، ج ۴، ص ۶۳.

[۳۰۷] (۲)- التماصع، التطاحن و القتال.(المصحح).

[۳۰۸] (۱)- تفسیر الفخر الرازی ذیل الآیة محل البحث.

[۳۰۹] (۲)-(أمدّ) مأخوذ من« الإمداد»، و یطلق فی الأصل علی أمور توضع بعضها بعد بعض بشکل منظم، و حیث أن اللّه یرسل نعمه بشکل منظم إلی عباده استعملت هذه الکلمة هنا أیضا ...

[۳۱۰] (۱)-« الطلع» مأخوذ من مادة« الطلوع» و یستعمل فی ما یکون منه الرطب بعدئذ، و هو معروف و شکله جمیل منضوم نضید، له غلاف ینشقّ عنه العذق أول الربیع. ثمّ یلقح بید الإنسان أو بالریاح لیکون الثمر ... و قد یستعمل الطلع فی الثمرة الأولی للنخل! و« الهضیم» من مادة« هضم»، و له معان مختلفة، فتارة یراد منه الثمرة الناضجة، و تارة یطلق علی الثمر اللین القابل للهضم، و تارة یطلق علی المهضوم، و قد یستعمل بمعنی المنضوم المنضد، فإذا کان الطلع فی الآیة محل البحث بمعنی العذق أوّل طلوعه، فالهضیم معناه المنضود، و إذا کان الطلع أول الثمر فالهضیم معناه الناضج اللین اللطیف ...

[۳۱۱] (۱)- الروم، الآیة ۴۱.

[۳۱۲] (۲)- الأعراف، الآیة ۹۶.

[۳۱۳] (۳)- راجع تفسیر المیزان، الجزء ۱۵، الصفحة ۳۳۳- ۳۳۴.

[۳۱۴] (۱)- سورة الفرقان، الآیة ۸.

[۳۱۵] (۱)- لمزید الإیضاح فی هذا الصدد یراجع تفسیر الآیة(۶۱) من سورة هود ...

[۳۱۶] (۲)- کلمة(عقروها) مأخوذة من مادة(عقر) علی زنة(قفل) و معناها فی الأصل أساس الشیء و جذره، و قد تأتی بمعنی حز الرأس، و تأتی بمعنی قطع الأرجل من الحیوان، و ما إلی ذلک.

[۳۱۷] (۱)- تقول الروایات إن الذی قتل ناقة صالح کان واحدا لا غیر ... إلّا أن القرآن یعبر عن هذا الفعل بصیغة الجمع(فعقروها).

و هذا التعبير لأن الآخرين كانوا راضين بعمله و يضمون أصواتهم إلى صوته، و يعتقدون بمعتقده ... و تنفتح نافذة من هنا على أصل اسلامى، و هو أنّ العلائق الفكرية و المذهبيّة تجعل المنتمين إليها فى صف واحد، و تكون عاقبتهم واحدة. لمزيد الإيضاح يراجع الآية(۶۵) من سورة هود ...

[۳۱۸] (۱)- فى شأن انحراف هؤلاء القوم، يذكر التأريخ قصة يمكن مراجعتها فى تفسير الآية(۸۱) من سورة هود ...

[۳۱۹] (۲)- سورة الأعراف، الآية ۸۱.

[۳۲۰] (۱)- قيل أن المراد من(تقطعون السبيل) أى تقطعون سبيل الفطرة و تداوم النسل، و فسّره آخرون بأنّ المراد هو أن قوم لوط كانوا قطّاع طرق و سرّاقا! ...

[۳۲۱] (۱)- بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ۷۹، ص ۶۷.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۳] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۴.

[۳۲۴] (۴)- بحار الأنوار، ج ۷۹، ص ۷۲.

[۳۲۵] (۱)- تفسير روح المعانى، و التّفسير الكبير للفخر الرازى، ذيل الآيات محل البحث.

[۳۲۶] (۱)-« الغابر» من مادة(الغبور) و معناه الباقى، و متى ما تحركت جماعة و بقى شخص فى المكان فإنّه يدعى(غابرا) و لهذا السبب سمى التراب الباقى غبارا ... و الغبرة: الباقى من اللبن فى ثدى الحيوان.

[۳۲۷] (۱)- ذكرنا آنفا أن مصطلح ألف ألف هو التعبير العربى الصحيح و أن كلمة مليون ليست عربيّة بل هى غربية فتأمل.

[۳۲۸] (۱)-« القسطاس»،« على وزن نسناس» معناه« ميزان» ... قال بعضهم: أصل هذه الكلمة روميّة، و قال بعضهم. بل هى عربية، و يعتقد بعضهم أن القسطاس ميزان كبير، أما الميزان نفسه المستعمل فى لغة العرب فهو الصغير، و قالوا: إن للقسطاس مؤشرا و لسانا فهو لذلك دقيق الوزن! ...

[۳۲۹] (۱)-« المسحّر» كما أشرنا من قبل إليه، هو المسحور ... أو الذى يقع عليه السحر من قبل السحرة، لينفذوا فى عقله و يبطلوا عمله!!

[۳۳۰] (۱)- اللطيفة، ممّا لطف و دقّ و هى الشىء الخفى الذى يحتاج إلى دقة لإدراكه.(المصحح).

[۳۳۱] (۱)- كلمة« السابقين» نعت و منعوته محذوف و تقديره الأنبياء(المصحح).

[۳۳۲] (۱)- واضح- هنا- أن المراد من القلب هو روح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لا القلب الذى يعدّ مضخّة للدم ... و انتخاب هذا التعبير إشارة إلى أنّك يا رسول اللّه استوعبت القرآن بروحك و قلبك، و هذه المعجزة السماوية مقرّها قلبك.

[۳۳۳] (۱)-« الزبر» جمع: زبور و معناه الكتاب، و هو فى الأصل من مادة(زبر) على وزن(أسر) اى كتابة ...

[۳۳۴] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أن جملة« فيأتيهم» منصوبة و معطوفة على« حتى يروا»، و ينبغى بيان معناها بهذه العلاقة.

[۳۳۵] (۱)- اصول الكافى، الجزء الثّانى(باب العصبية ص ۳۲).

[۳۳۶] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقمها ۱۹۲.

[۳۳۸] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳۹] (۳)- اصول الكافى، ج ۲، باب العصبية، ص ۲۳۳.

[۳۴۰] (۴)- البحار، ج ۷۳، ص ۲۸۹.

[۳۴۱] (۵)- المصدر نفسه.

[۳۴۲] (۱)- الجزء الرّابع من تفسیر نور الثقلین، ص ۱۶۵.

[۳۴۳] (۱)- للمفسرین فی محل(ذکری) من الإعراب أربعة احتمالات ... الأوّل: أنه مفعول لأجله و العامل« منذرون» و التّفسیر المذکور آنفا فی المتن هو علی هذا الأساس.

الثّانی: أنّه مفعول مطلق لکلمة« منذرون» لأنّ معناهما واحد أو هما متقاربان فی المعنی.

الثّالث: أنّه حال من الضمیر فی منذرون.

الرّابع: أنّها خبر لمبتدإ محذوف تقدیره(هذه ذکری).

[۳۴۴] (۱)- لمزید الإیضاح فی منع الشیاطین عن استراق السمع یراجع الجزء الأوّل من سیرة ابن هشام، ص ۲۱۷ فما بعد.

[۳۴۵] (۱)- العشیرة مشتقّة من« العشرة» العدد المعروف ۱۰] و حیث أن العشرة تعتبر فی نفسها عددا کاملا، فقد سمی أقرباء الرجل الذین یکمل بهم عشیرة، و لعل المعاشرة مأخوذة من هذا المعنی، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة کاملة.

[۳۴۶] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیة محل البحث.

[۳۴۷] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۶۹.

[۳۴۸] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث.

[۳۴۹] (۱)- سورة الحج، الآیة ۹۴.

[۳۵۰] (۲)- راجع سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۰.

[۳۵۱] (۳)- المراجعات، ص ۱۳۰.

[۳۵۲] (۱)- لمزید الإیضاح یراجع کتاب المراجعات، ص ۱۳۰ فما بعد و کتاب إحقاق الحق، ج ۴، ص ۶۲.

[۳۵۳] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۸۵۹ ذیل الآیات محل البحث مع شیء من الاختصار.

[۳۵۴] (۱)-« أفّاک» من:« الإفک». و الإفک هو الکذب الکبیر. فمعنی الأفلاک من یکذب کثیرا أکاذیب کبیرة ... و« أثیم» من مادة« إثم» علی وزن(اسم) و معناه فی الأصل: العمل الذی یؤخر صاحبه عن الثواب، و یطلق عادة علی الذنب، فالأثیم هو المذنب ...

[۳۵۵] (۱)- لأن(یلقون) فی مثل هذه الموارد معناها نقل الأخبار و المطالب، کما جاء فی الآیة(۵۳) من سورة الحج i لِیَجْعَلَ ما یُلْقِی الشَّیْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ E و جملة\i أَکْثَرُهُمْ کاذِبُونَ E تتناسب مع الشیاطین، لأن الأفّاکین کلهم کاذبون لا أکثرهم(فلاحظوا بدقة).

[۳۵۶] (۲)-« یهیمون» فعل مضارع من« الهیام»، و معناه المشی بلا هدف ...

[۳۵۷] (۱)- یس، الآیة ۶۹.

[۳۵۸] (۱)-« التقویم» له معان متعددة منها تقویم الأود أی إقامة الاعوجاج، و تقویم الشیء إعطاء قیمته أو معرفتها، و هو هنا بهذا المعنی. و ما یجری علی السنة الکتاب و أقلامهم بلفظ(تقییم) خطأ مشهور و غیر صحیح(المصحح).

[۳۵۹] (۲)- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید ج ۲۰، ص ۴۶۱.

[۳۶۰] (۱)- نقل حدیث الرّسول هذا جماعة کثیرة من علماء الشیعة و السنة فی کتبهم« یراجع کتاب الغدیر، ج ۲، ص ۹».

[۳۶۱] (۲)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۳۶۲] (۳)- مسند أحمد، ج ۴، ص ۲۹۹.

[۳۶۳] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۸۶۹.

[۳۶۴] (۲)- جاء عن الإمام الصادق أنّه قال:« من قال فینا بیت شعر بنی اللّه له بیتا فی الجنة»،« الغدیر، ج ۲، ص ۳».

[۳۶۵] (۱)-

\i\ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنه قال\:E«ما قال فینا قائل بیت شعر حتی یؤید بروح القدس»« عیون أخبار الرضا\» ...E

[۳۶۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۷۱.

[۳۶۷] (۳)- الکنی و الألقاب، ج ۲، ص ۴۵۵.

[۳۶۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۷۳.

[۳۶۹] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۷۳، نقلا عن اصول الکافی.

الجزء الثانی عشر

سورة النمل

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث و تسعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷

سورة النّمل

محتوی سورة النمل

هذه السورة نزلت بمکّة- کما ذکرنا آنفا- و المعروف أنّها نزلت بعد سورة الشعراء.

و محتوی هذه السورة- بصورة عامّة- کمحتوی سائر السور المکیة، فأکثر اهتمامها- من الوجهة الاعتقادیة- ینصبّ علی المبدأ و المعاد ... و تتحدث عن الوحی و القرآن و آیات اللّه فی عالم الإیجاد و الخلق، و کیفیة المعاد و القیامة؟

و أمّا من ناحیة المسائل العملیة و الاخلاقیة، فالقسم الکبیر منها یتحدث عن قصص خمسة أنبیاء کرام و مواجهاتهم لأممهم المنحرفة، لتکون هذه السورة تسلیة للمؤمنین القلّة بمکّة فی ذلک الیوم، و فی الوقت ذاته تکون إنذارا للمشرکین المعاندین الظالمین لیروا عواقب أمرهم فی صفحات تاریخ الظلمة الماضین، فلعلهم یحذرون و یرجعون إلی الرشد.

و أحد خصائص هذه السورة هی بیان قسم مهم من قصّة النّبی سلیمان و ملکة سبأ، و کیفیة إیمانها بالتوحید، و کلام الطیر- کالهدهد، و الحشرات کالنمل- مع سلیمان علیه السّلام.

و هذه السورة سمّیت سورة «النمل» لورود ذکر النمل فیها، و العجیب أنّها سمّیت بسورة «سلیمان» کما فی بعض الرّوایات «و النمل أخری» سلیمان أحیانا، و کما سنلاحظ ... فإنّ هذه التسمیات للسور لیست اعتباطا، بل هی مدروسة و دقیقة فی تسمیتها، فهی من تعلیمات النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و تکشف عن حقیقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸

مهمّة یغفل عنها الناس فی الظروف الاعتیادیة!.

و تتحدث هذه السورة ضمنا عن علم اللّه غیر المحدود، و هیمنته و سلطانه علی کل شیء فی عالم الوجود، و حاکمیته عالم عباده ... و الالتفات إلی ذلک له أثره الکبیر فی المسائل التربویة للإنسان.

و تبدأ هذه السورة بالبشری و تنتهی بالتهدید، فالبشری للمؤمنین، و التهدید للناس بأنّ اللّه غیر غافل عن أعمالکم.

فضيلة سورة النمل:

جاء فى بعض أحاديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان و كذّب به، و هود و شعيب و صالح و إبراهيم و يخرج من قبره و هو ينادى لا إله إلّا اللّه»[۱].

و بالرغم من أنّ هـذه السورة تتحدث عن موسـى و سـليمان و داود و صالح و لوط، و ليس فيها كلام عن هود و شـعيب و إبراهيم، إلّا أنّه حيث أنّ جميع الأنبياء سواء فى دعوتهم إلى اللّه- فلا مجال لأن نعجب من هذا التعبير.

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ سور الطواسين الثلاث «يعنى سور الشعراء و النمل و القصص» فى ليلـة جمعـة كان من أولياء اللّه و فى جواره و كنفه، و لم يصـبه فى الـدنيا بؤس أبدا، و أعطى فى الآخرة من الجنّة حتى يرضـى و فوق رضاه، و زوجه اللّه مائة زوجة من الحور العين»[۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ (۱) هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ (۲) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۳) إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (۴)

أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (۵) وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (۶)

التّفسير

القرآن منزل من لدن حكيم عليم:

نواجه مرّة أخرى- فى بداية هذه السورة- الحروف المقطّعة من القرآن (طس).

و بملاحظـة أنّ ما بعـدها مباشـرة هو الكلام عن عظمـة القرآن، فيبـدو أنّ واحدا من أسـرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم و الآيات البيّنات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسـيطة ... و إن الجـدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجـد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف، و كان لنا فى هذا الشأن بحوث مفصّلة فى بداية سورة البقرة و سورة آل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰

عمران و سورة الأعراف.

ثمّ يضـيف القرآن قائلا: تِلْكَ آياتُ الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ و الإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، و التعبير ب (المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه و موضح للحقائق أيضا[۳].

و بالرغم من أنّ بعض المفسّـرين احتمل أنّ التعبير ب الْقُرْآنِ وَ كِتابٍ مُبِينٍ إشارة إلى معنيين مسـتقلين، و أن «الكتاب المبين» يراد منه اللوح المحفوظ ... إلّا أن ظـاهر الآيـة يـدلّ على أنّ كلاهما لبيان حقيقـة واحـدة، فالأوّل فى ثوب الألفاظ و التلاوة، و الثّانى فى ثوب

الكتابة و الرسم.

و فى الآيـة التاليـة وصـفان آخران للقرآن إذ تقول: هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ ... الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

و هكـذا فـإن اعتقـاد المؤمنين راسـخ فى شـأن المبـدأ و المعـاد، و ارتبـاط متين بـاللّه و خلقه أيضـا ... فالأوصاف المتقدمـة تشـير إلى اعتقادهم الكامل و منهجهم العملى الجامع!.

و هنا ينقـدح سؤال و هو: إذا كان هؤلاء المؤمنون قـد اختاروا الطريق السوى، من حيث المبانى الاعتقاديـة و العمليـة، فما الحاجـة لأنّ يأتى القرآن لهدايتهم؟! و يتّضح الجواب بملاحظة أنّ الهداية لها مراحل مختلفة، و كل مرحلة مقدمة لما بعدها.

ثمّ إنّ اسـتمرار الهداية مسألة مهمّة، و هى ما نسألها اللّه سـبحانه ليل نهار بقولنا: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ليثبتنا فى هذا المسير، و يجعلنا مستمرين فيه بلطفه، فلو لا لطفه لما كان ذلك ممكنا لنا ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱

و بعـد هذا كلّه، فالإفادة من آيات القرآن و الكتاب المبين هى نصـيب أولئك الذين فيهم القابلية على معرفة الحق و طلب الحق. و إن لم يبلغوا مرحلـة الهداية الكاملة ... و إذا ما وجدنا التعبير فى بعض آيات القرآن بأنّه هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «كما فى الآية ۲ من سورة البقرة» و فى مكان آخر لِلْمُسْـلِمِينَ «كما فى الآية ۱۰۲ من سوره النحل» و هنا هُـدىً وَ بُشْـرى لِلْمُؤْمِنِينَ فإنّ ذلك ناشـئ من أنّه إذا لم يكن فى قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى و التسليم و الإيمان بالواقع، فإنّه لا يتجه نحو الحق، و لا يبحث عنه، و لا يفيد من نور هذا الكتاب المبين ... لأنّ قابلية المحل شرط أيضا.

ثمّ بعد ذلك فإن الهدى و البشرى مقترنين معا .. و هما للمؤمنين فحسب، و ليس للآخرين مثل هذه المزية ...

و من هنا يتّضح مجىء التعبير بالهداية بشـكل واسع لعموم الناس هُدىً للناس فإن المراد منه أولئك الذين تتوفر فيهم الأرضيّة المناسبة لقبول الحق، و إلّا فأنّ المعاندين الألداء. عماة القلوب، لو أشرقت عليهم آلاف الشموس بدل شمسنا هذه ليهتدوا، لما اهتدوا أبدا.

و تتحدّث الاية التالية عن الأشـخاص فى المقابلة للمؤمنين، و تصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ أى حيارى فى حياتهم.

فهم يرون الملوّث نقيّا، و القبيح حسنا، و العيب فخرا، و الشقاء سعادة و انتصارا!.

أجـل، هـذا حال من يسـلك الطريق المنحرف و يتوغل فيها ... فواضـح أن الإنسان حين يقوم بعمل قبيـح. فإنّ قبحه يخف تـدريجا، و يعتـاد عليه، و عنـد مـا يتطبع عليه يوجهه و يبرره، حتى يبـدو له حسـنا و يعـدّه من وظـائفه! و مـا أكثر الـذين تلوثت أيـديهم بالأعمـال الإجرامية ... و هم يفتخرون بتلك الأعمال و يعدونها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲

أعمالا إيجابيّة.

و هذا التغير فى القيم، أو اضطراب المعايير فى نظر الإنسان، يؤدى إلى الحيرة فى متاهات الحياة ... و هو من أسوأ الحالات التى تصيب الإنسان.

و الذى يلفت النظر أنّ «التزيين» فى الآية محل البحث- و فى آية أخرى من القرآن، و هى الآية (۱۰۸) من سورة الأنعام، نسب إلى اللّه سبحـانه، مع أنّه نسب فى ثمانيـة مواطن إلى الشـيطان، و فى عشـرة أخر جـاء بصـيغ الفعـل المجهول (زيّن) و لو فكرنا بإمعان- و أمعنا النظر، لوجدنا جميع هذه الصور كاشـفة عن حقيقة واحدة! فأمّا نسبة التزيين إلى اللّه، فلأنّه «مسبب الأسباب» فى عالم الإيجاد، و ما من موجود مؤثر إلّا و يعود تأثيره إلى اللّه.

أجل، إنّ هذه الخاصية أوجدها اللّه فى تكرار العمل ليتطبّع عليه الإنسان ...

و يتغير حسّ التشخيص فيه دون أن تسلب المسؤولية عنه، أو أن تكون نقصا فى خلقة اللّه أو إيرادا عليه (لاحظوا بدقّة).

و أمّا نسبة التزيين إلى الشيطان (أو هوى النفس) فلأن كلّا منهما عامل قريب و بغير واسطة للتزيين.

و أمّا مجيء التزيين بصورة الفعل المبنى للمجهول، فهو إشارة إلى أنّ طبيعة العمل يقتضى أن يوجد- على أثر التكرار- حالة و ملكة و علاقة و عشقا!! ثمّ تبيّن الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» و عاقبة أولئك الذين شغفوا بها فتقول: أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ

فهم فى الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، و سينالون العقاب الصارم فى الآخرة وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ

و الدليل على أنّهم فى الآخرة هم الأخسرون، ما جاء فى الآية (۱۰۳) من سورة الكهف قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳

الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

فأية خسارة أعظم من أن يرى الإنسان عمله القبيح حسنا!! و أن يهدر جميع طاقاته من أجله، ظنّا منه بأنّه عمل «إيجابى» مثبت، إلّا أنّه يراه فى عاقبة أمره شقاء و ذلة و عذابا.

و أمّا الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهى بمثابة إكمال البيانات السابقة فى صدد عظمة محتوى القرآن، و مقدمة لقصص الأنبياء التى تبدأ بعدها مباشرة فتقول: وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى ۴] الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

و بالرغم من أنّ الحكيم و العليم كلاهما إشارة إلى علم اللّه سبحانه، إلّا أن الحكمة تبيّن الجوانب العملية، و العلم يبيّن الجوانب النظرية ... و بتعبير آخر: إن العليم يخبر عن علم اللّه الواسع، و الحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم و إنزال القرآن على قلب النّبى (محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و مثل هذا القرآن النازل من قبل اللّه ينبغى أن يكن مبينا ... و هدى و بشرى للمؤمنين، و أن تكون قصصه خالية من أى نوع من أنواع الخرافات و التضليل و الأباطيل و التحريف.

الواقعية و الإيمان:

المسألة المهمة فى حياة الإنسان هى أن يدرك الواقعيّات بما هى عليه، و أن يكون موقفه منها صريحا ... فلا تمنعه من فهمها و إدراكها تصوراته و أحكامه المسبقة و رغباته الانحرافية و حبّه و بغضه، و لذلك فأنّ أهم تعريف للفلسفة هو:

إدراك الحقائق كما هى!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴

و لذلك فقد كان من دعاء المعصومين: (اللّهم أرنى الأشياء كما هى) أى لأعرف قيمها و أؤدى حقّها.

و هذه الحالة لا تتحقق بغير الإيمان! لأنّ الهوى و الهوس و الانحرافات أو الرغبات النفسية، تكون حجابا و سدا كبيرا فى هذا الطريق، و لا يمكن رفع هذا الحجاب أو السد إلّا بالتقوى و ضبط هوى النفس!.

لذلك فقد قرأنا فى الآيات آنفة الذكر: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ

و المثل الواضح و الجلى لهذا المعنى نراه فى حياة كثير من عبدة الدنيا فى زماننا بشكل بيّن. فهم يفتخرون ببعض المسائل و يرونها حضارة، إلّا أنّها فى الواقع ليست إلّا الفضيحة و العار و الذل.

فالتفسخ و الحماقة عندهم دليل «الحرية».

و التعرى و السفور من قبل النساء دليل «التمدن».

التکالب علی بهارج الدنیا و زخارفها دلیل علی «الشخصیّة».

الغرق فی ألوان الفساد دلیل «التحرر».

القتل و الإجرام دلیل علی «القوّة».

التخریب و غصب رؤوس الأموال دلیل علی الاستعمار، أی البناء و العمران ۵]!! استخدام اجهزة الاعلام العامة کالرادیو و التلفزیون لتوکید المفاهیم!! سحق حقوق المحرومین دلیل علی احترام حقوق البشر.

الأسر فی قبضة المخدرات و الفضائح و ما إلی ذلک من أشکال الحریة!.

و التزویر و الغش و اقتناء الأموال من أی طریق کان و کیف کان، دلیل علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵

الجدارة و الذکاء.

رعایة أصول العدل و احترام حقوق الآخرین دلیل علی الضعف و عدم اللیاقة!.

الکذب و الدجل و نقض العهود و ما إلی ذلک دلیل علی السیاسة.

و الخلاصة: إنّ الأعمال السیئة و القبیحة تتزین فی نظر هؤلاء الی درجة أنّهم لا یشعرون فی أنفسهم بالخجل منها. بل و یفتخرون و یتباهون بها!! و واضح إلی این یتجه مثل هذا العالم و ماذا سیکون مصیره!!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۷ الی ۱۴]

اشارة

إِذْ قالَ مُوسی لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً سَآتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِیکُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۷) فَلَمَّا جاءَها نُودِیَ أَنْ بُورِکَ مَنْ فِی النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِینَ (۸) یا مُوسی إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۹) وَ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جَانٌّ وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسی لا تَخَفْ إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ (۱۰) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّی غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۱) وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ فِی تِسْعِ آیاتٍ إِلی فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۱۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آیاتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِینٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَیْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۴)

التّفسیر

موسی یقتبس النّور:

یجری الکلام فی هذه السورة- کما أشرنا من قبل- بعد بیان أهمّیة القرآن، عن قصص خمسة أنبیاء عظام، و ذکر أممهم، و الوعد بانتصار المؤمنین و عقاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷

الکافرین.

فأوّل نبیّ تتحدث عنه هذه السورة، هو موسی علیه السّلام أحد الأنبیاء «أولی العزم» و تبدأ مباشرة بأهم نقطة من حیاته و أکثرها «حسّاسیة» و هی لحظة نزول الوحی علی قلبه و إشراقه فیه، و تکلیم اللّه إیّاه إذ تقول الآیة: إِذْ قالَ مُوسی لِأَهْلِهِ إِنِّی آنَسْتُ ناراً[۶] ای

رأيت نارا من بعيد، فامكثوا هنيئة سَآتِيكَمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكَمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكَمْ تَصْطَلُونَ ۷].

فى تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السّلام يسير بزوجته بنت النبىّ شعيب عليه السّلام فى طريق مصر- و فى الصحراء- فهبت ريح باردة، و كانت زوجته (أهله) مقرّبا، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السّلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النّار لتصطلى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أىّ شىء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سرّ كثيرا، و علم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى و آتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

ممّا يلفت النظر أنّ موسى عليه السّلام يقول لأهله سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس «بضمير الجمع لا الإفراد» و لعل هذا التعبير هو أنّ موسى عليه السّلام كان معه بالإضافة إلى زوجته أطفال أيضا ... لأنّه كان قد مضى على زواجه عشر حجج (عشر سنين) فى مدين .. أو أنّ الخطاب بصيغة الجمع (آتيكم) يوحى بالاطمئنان فى هذه الصحراء الموحشة!.

و هكذا فقد ترك موسى أهله فى ذلك المكان و اتّجه نحو «النّار» التى آنسها فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هناك احتمالات مختلفة عند المفسّرين فى المراد من قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸

مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها! ... فما المقصود من هذا التعبير؟! و يبدو أنّ المراد من مَنْ فِي النَّارِ هو موسى نفسه، حيث كان قريبا منها و من الشجرة الخضراء التى عندها، فكأنّ موسى كان فى النّار نفسها، و أنّ المراد من مَنْ حَوْلَها هم الملائكة المقرّبون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت.

أو أنّ المراد- على عكس ما ذكرنا آنفا- فمن فى النّار: هم الملائكة المقرّبون، و من حولها هو موسى عليه السّلام.

و على كلّ حال فقد جاء فى بعض الرّوايات أنّ موسى عليه السّلام لما وصل النّار و نظر بدقّة، رأى النّار تشتعل من غصن أخضر! و تتسع الشعلة لحظة بعد أخرى، و الشجرة تزداد اخضرارا و جمالا .. فلا حرارة النّار تحرق الشجرة، و لا رطوبة الشجرة تطفئ لهب النّار، فتعجب من هذا المشهد الرائع .... و انحنى ليقتبس من هذه النّار و يشعل الغصن اليابس «الحطب» الذى كان معه، فأتته النّار فارتاع و رجع ... فمرّة يأتى موسى إلى النّار، و مرّة تأتى النّار إلى موسى، و بيّنا هو على هذه الحالة، إذا بالنداء يقرع سمعه مبشرا إيّاه بالوحى.

فالمراد أنّ موسى عليه السّلام اقترب من النّار ألى درجة عبّر عنه بأنّه «فى النّار».

و التّفسير الثّالث لهذه الجملة، هو أنّ المراد من (من فى النّار) هو نور اللّه الذى تجلّى فى تلك الشعلة، و المراد من «من حولها» هو موسى الذى كان قريبا منها. و على كل حال فمن أجل أن لا يتوهم أحد من هذه العبارة مفهوم «التجسيم» فقد ختمت الآية ب سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ تنزيها له عن كل عيب و نقص و جسميّة و ما يعترض الجسم من عوارض!.

و مرّة أخرى نودى موسى بالقول: يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و ذلك يزول عن موسى عليه السّلام كل شك و تردّد، و ليعلم أنّ الّذى يكلمه هو ربّ العالمين، لا شعلة النّار و لا الشجرة، الربّ القوى العزيز الذى لا يغلب و لا يقهر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹

و الحكيم ذو التدبير فى جميع الأمور!.

و هذا التعبير فى الحقيقة مقدّمة لبيان المعجزة التى سيأتى بيانها فى الآية التالية لأنّ الإعجاز آت من هاتين الصفتين «قدرة اللّه» و «حكمته»، و لكن قبل أن نصل إلى الآية التالية .. ينقدح هذا السؤال و هو: من أين تيقن موسى عليه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء اللّه و ليس سواه؟! يمكن أن يجاب على هذا السؤال بأنّ هذا النداء- أو الصوت المقرون بمعجزة جليّة، و هى إشراق النّار من الغصن الأخضر «فى الشجرة الخضراء»- دليل حى على أنّ هذا أمر إلهى!.

ثمّ إنّه- كما سنرى فى الآية التالية- بعد هذا النداء أمر موسى عليه السّلام بإلقاء العصا و إظهار اليد البيضاء، على نحو الإعجاز، و هما شاهدان صادقان آخران على هذه الحقيقة.

ثمّ بعد هذا كله (فعلى القاعدة) فإن نداء اللّه له خصوصية تميزه عن كلّ نداء آخر، و حين يسمعه الإنسان يؤثر فى روحه و قلبه تأثيرا لا يخالطه الشك أو التردد بأنّ هذا النداء هو نداء اللّه سبحانه.

و حيث أنّ الصدع بالرسالة و البلاغ (و أية رسالة و بلاغ ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم كفرعون). لا بدّ له من قوّة ظاهرية و باطنية و سند على حقانيته ...

فلذا أمر موسى بأن يلقى عصاه: وَ أَلْقِ عَصاكَ

فألقى موسى عصاه، فتبدلت ثعبانا عظيما، فلمّا رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّات الصغار خاف و ولّى هاربا و لم يلتفت الى الوراء: فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ [۸] و يحتمل أنّ عصا موسى تبدلت بادئ الأمر إلى حيّة صغيرة، ثمّ تحولت إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰

أفعى كبيرة فى المراحل الأخر! و هنا خوطب موسى مرّة أخرى أن يا مُوسى لا تَخَفْ إِنِّى لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ فهنا مقام القرب، و حرم أمن اللّه القادر المتعال.

و هنا لا معنى للخوف و الوحشة. و معنى الآية: أن يا موسى إنّك بين يدى خالق الوجود العظيم، و الحضور عنده ملازم لأمن المطلق!.

و نقرأ نظير هذا التعبير فى الآية (۳۱) من سورة القصص: يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ

إلّا أنّ فى الآية التالية استثناء للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ .

و هناك رأيان مختلفان لدى المفسّرين فى علاقة الاستثناء بالجملة:

فالرأى الأوّل: أنّ هناك حذفا ذيل الآية آنفة الذكر و تقديره: إنّك من الآمنين و غير الأنبياء ليس آمنا. ثمّ استثنى سبحانه من ذلك «بإلّا» من ظلم ثمّ بدل حسنا، فهو من الآمنين أيضا لأن الله غفور رحيم.

و الثّانى: أنّ الاستثناء من ضمن الجملة، و الظلم إشارة إلى ترك الأولى الذى قد يقع من الأنبياء، و هو لا ينافى مقام العصمة، و معنى الآية على هذا الرأى: أن الأنبياء فى حال ترك الأولى غير آمنين أيضا، و أنّ اللّه يحاسبهم حسابا عسيرا، كما جاء فى آيات القرآن عن قصّة آدم و قصّة يونس عليهما السّلام!.

إلّا أولئك الذين التفتوا إلى ترك الأولى، و انعطفوا نحو اللّه الرحيم، فبدلوا حسنا و عملا صالحا بعد ذلك، كما جاء فى شأن موسى عليه السّلام نفسه فى قصّة قتله الرجل القبطى، إذ اعترف موسى بتركه الأولى، فقال: رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱

أمّا المعجزة الثّانية التى أمر موسى أن يظهرها، فهى اليد البيضاء، إذ تقول الآية: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

و القيد مِنْ غَيْرِ سُوءٍ إشارة إلى أن بياض اليد ليس من برص و نحوه، بل هو بياض نورانى يلفت النظر، و هو بنفسه كاشف عن إعجاز و أمر خارق للعادة:

و من أجل أن يظهر اللّه تعالى عنايته و لطفه لموسى أكثر، و كذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأن معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآنفتين، بل فِى تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ۱۰].

و يستفاد من ظاهر الآية أن هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة، و قد استنتجنا ذلك من الآية (۱۰۱) من سورة الإسراء، و إن المعاجز السبع الأخر هى:

۱- الطوفان ۲- الجراد ۳- كثرة الضفادع ۴- تبدل لون نهر النيل كلون الدم ۵- الآفات فى النباتات. و كل واحدة من هذه المعاجز

الخمس تعدّ إنذارا لفرعون و قومه، فكانوا عند البلاء يلجأون إلى موسى ليرفع عنهم ذلك.

أمّا المعجزتان الأخريان فهما ۶- القحط «السنين» ۷- و نقص الثمرات. إذ أشارت إليهما الآية (۱۳۰) من سورة الأعراف فقالت: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ... «و لمزيد الإيضاح يراجع الجزء التاسع من التّفسير الأمثل ذيل الآية (۱۰۱) من سورة الإسراء».

و أخيرا تعبّأ موسى بأقوى سلاح- من المعاجز- فجاء إلى فرعون و قومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك فى آيته التالية فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ

و معلوم أنّ هذا الاتّهام «بالسحر» لم يكن خاصّا بموسى عليه السّلام، بل اتّخذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲

المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدّا فى طريق الآخرين، و الاتّهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقا للعادة، بحيث اتّهموه بالسحر.

مع أنّنا نعرف أن الأنبياء كانوا رجالا صالحين صادقين طلّاب حق مخلصين، أمّا السحرة فهم منحرفون ماديّون تتوفر فيهم جميع صفات المدلّسين «أصحاب التزوير».

و إضافة إلى ذلك فإن السحرة كانت لديهم قدرة محدودة على الأعمال الخارقة، إلّا أنّ الأنبياء فقد كان محتوى دعوتهم و منهاجهم و سلوكهم يكشف عن حقانيتهم، و كانوا يقومون بأعمال غير محدودة، بحيث كان ما يقومون به معجزا لا يشبه سحر السحرة أبدا.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يضيف فى آخر الآية- محل البحث- قائلا: إنّ هذا الاتهام لم يكن لأنّهم كانوا فى شك من أمرهم و مترددين فعلا، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا.

و يستفاد من هذا التعبير أنّ الإيمان له حقيقة و واقعية غير العلم و اليقين، و يمكن أن يقع الكفر جحودا و إنكارا بالرغم من العلم بالشيء!.

و بعبارة أخرى: إنّ حقيقة الإيمان هى الإذعان و التسليم- فى الباطن و الظاهر- للحقّ، فبناء على ذلك إذا كان الإنسان مستيقنا بشيء ما، إلّا أنّه لا يذعن له فى الباطن أو الظاهر فليس له إيمان. بل هو ذو كفر جحودى، و هذا موضوع مفصل، و نكتفى هنا بهذه الاشارة.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يذكر فيه ضمن عدّه أقسام الكفر الخمسة

«كفر الجحود»

و يبيّن بعض شعبه بالتعبير التالى (هو أنّ يجحد الجاحد و هو يعلم أنّه حق قد استقرّ عنده).[۱۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ القرآن يعد الباعث على إنكار فرعون و قومه أمرين: الأوّل الظلم، و الثّانى العلوّ: ظُلْماً وَ عُلُوًّا.

و لعل «الظلم» إشارة إلى غصب حقوق الآخرين، و «العلوّ» إشارة إلى طلب التفوّق على بنى إسرائيل.

أى إنّهم كانوا يرون أنّهم إذا أذعنوا لموسى عليه السّلام و آمنوا به و بآياته، فإنّ منافعهم غير المشروعة ستكون فى خطر، كما أنّهم سيكونون مع رقيقهم «بنى إسرائيل» جنبا إلى جنب، و لا يمكنهم تحمل ايّ من هذين الأمرين.

أو أنّ المراد من الظلم هو ظلم النفس أو الظلم بالآيات، و أنّ المراد من العلوّ هو الظلم للآخرين، كما جاء فى الآية (۹) من سورة الأعراف بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ

و على كل حال، فإنّ القرآن يذكر عاقبة فرعون و قومه على أنّه درس من دروس العبرة، فى جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيرا إلى هلاكهم و غرقهم فيقول: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ

و القرآن هنا لا يرفع الستار عن هذه العاقبة، لأنّ قصّة هؤلاء الكفرة و نهايتهم الوخيمة ذكرها فى آيات أخرى و اكتفى هنا بالاشارة

الى تلك الآيات ليفهم من يفهم.

و القرآن يعوّل- ضمنا على كلمة (مفسد) مكان ذكر جميع صفاتهم السيئة، لأنّ الإفساد له مفهوم جامع يشمل الإفساد فى العقيدة، و الإفساد فى الأقوال و الأعمال، و الإفساد على المستوى الفردى، و المستوى الجماعى، فجمع كلّ أعمالهم فى كلمة (المفسدين).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۵) وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶)

التّفسير

حكومة داود و سليمان عليهما السّلام:

بعد الكلام عن جانب من قصّة موسى عليه السّلام فى هذه السورة، يجرى الكلام عن نبيّين آخرين من الأنبياء العظام، و هما «داود» و «سليمان» ... و الكلام على داود لا يتجاوز الإشارة العابرة، إلّا أنّ الكلام على سليمان أكثر استيعابا.

و ذكر هذا المقطع من قصّة هذين النبيّين بعد قصّة موسى عليه السّلام، لأنّهما كانا من أنبياء بنى إسرائيل أيضا، و ما نجده من اختلاف بين تأريخهما و تاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما- و نتيجة للاستعداد الفكرى و ملائمة المحيط الاجتماعى فى عهدهما- قد وفّقا إلى تأسيس حكومة عظيمة، و أن ينشرا بالاستعانة و الإفادة من حكومتهما دين اللّه، لذلك لا نجد هنا أثرا أو خبرا عمّا عهدناه من أسلوب فى تلك الآيات التى كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، و هم يواجهون قومهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵

المعاندين، و ربّما نالوا منهم الأذى و الطرد و الإخراج من مدنهم و قراهم .. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماما.

و يدلّ هذا بوضوح أنّه لو كان المصلحون و الدعاة إلى اللّه يوفقون إلى تشكيل حكومة لما بقيت معضلة و لغدا طريقهم معبدا سالكا.

و على كل حال، فالكلام هنا عن العلم و القدرة و العظمة، و عن طاعة الآخرين حتى الجن و الشياطين لحكومة اللّه و عن تسليم الطير فى الهواء و الموجودات الأخر لحكومة اللّه!.

و أخيرا، فإنّ الكلام عن مكافحة عبادة الأصنام عن طريق الدعوة المنطقية، ثمّ الإفادة من قدرة الحكومة!.

و هذه الأمور هى التى ميّزت قصّة هذين النبيّين عن الأنبياء الآخرين.

الطريف، أن القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التى هى أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً.

و بالرغم من أن كثيرا من المفسّرين أجهدوا أنفسهم و أتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذى أوتيه سليمان و داود، لأنّه جاء فى الآية بصورة مغلقة .. فقال بعضهم:

هو علم القضاء، بقرينة الآية (۲۰) من سورة ص: وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ و الآية (۷۹) من سورة الأنبياء وَ كُلًّا آتَيْنا حُكْماً وَ عِلْماً.

و قال بعضهم: إن هذا العلم هو معرفة منطق الطير بقرينة الآية عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ.

و قال بعضهم: «إن المراد من هذا العلم هو صنعة الدروع، بقرينة صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكَمْ لِتُحْصِنَكَمْ مِنْ بَأْسِكَمْ

إلّا أن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل فى نفسه علم التوحيد و الإعتقادات المذهبية و القوانين الدينية، و كذلك علم القضاء، و جميع العلوم التى ينبغى توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية ... لأنّ تأسيس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶

حكومة إلهية على أساس العدل ... و حضارة عامرة حرّة ... دون الإفادة من علم واسع غير ممكن ... و هكذا فإنّ القرآن يعدّ مقام العلم لتشكيل حكومة صالحة أوّل حجر أساس لها!.

و بعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود و سليمان من ثناء للّه: وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

و الذى يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشرة ... ليكون واضحا أنّ كل نعمة لا بدّ لها من شكر، و حقيقة الشكر هو أنّ يستفاد من النعمة فى طريقها الذى خلقت من أجله.

و هذان النبيّان العظيمان عليهما السّلام استفادا من نعمة علمهما الاستفادة القصوى فى تنظيم حكومة إلهية.

و قد جعل داود و سليمان معيار تفضيلهما على الآخرين «العلم» لا القدرة و لا الحكومة، و عدّا الشكر للعلم لا لغيره من المواهب، لأنّ كلّ قيمة هى من أجل العلم، و كلّ قدرة تعتمد أساسا على العلم.

و الجدير بالذكر أنّهما يشكران اللّه و يحمدانه لتفضيلهما و لحكومتهما على امّة مؤمنة .. لأنّ الحكومة على امّة فاسدة غير مؤمنة ليست مدعاة للفخر! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: لم قال داود و سليمان الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ و لم يقولا على عباده المؤمنين جميعا، مع أنّهما كانا نبيّين، و هما أفضل أهل عصرهما؟

و لعلّ هذا التعبير رعاية لأصول الأدب و التواضع، إذ على الإنسان أن لا يرى نفسه أفضل من الجميع فى أى مقام كان! أو لأنّهما كانا ينظران إلى جميع الأزمنة، و لم ينظرا إلى مقطع زمنىّ خاص، و نعرف أن على مدى التأريخ يوجد أنبياء كانوا أفضل منهما.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولا، فتقول: وَ وَرِثَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷

سُلَيْمانُ داوُدَ.

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من الإرث هنا، ما هو؟

فقال بعضهم: هو ميراث العلم فحسب ... لأنّ فى تصورهم أنّ الأنبياء لا يورثون.

و قال بعضهم: هو ميراث المال و الحكومة، لأنّ هذا المفهوم يتداعى إلى الذهن قبل أى مفهوم آخر.

و قال بعضهم: هو منطق الطير.

و لكن مع الالتفات إلى أنّ الآية مطلقة، و قد جاء فى الجمل التالية الكلام على العلم و عن جميع المواهب أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فلا دليل على حصر مفهوم الآية و جعله محدودا، فبناء على ذلك فإنّ سليمان ورث كل شىء عن أبيه.

و فى الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يستدلون بهذه الآية على عدم صحة ما

نسب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حديث «نحن معاشر الأنبياء لا نورث و ما تركناه صدقة»

و أنّه ساقط من الإعتبار لمخالفته كتاب اللّه.

و

فى بعض الأحاديث عن أهل البيت أنّه لما أجمع أبو بكر على أخذ فدك من فاطمة عليها السّلام، محتجّا بالحديث آنف الذكر، جاءته فاطمة عليها السّلام فقالت: (يا أبا بكر، أفى كتاب اللّه أن ترث أباك و لا أرث أبى؟! لقد جئت شيئا فريّا، فعلى عمد تركتم كتاب اللّه و نبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ[۱۲].

ثمّ تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ

و بالرغم من ادعاء بعضهم أن تعبير النطق و الكلام فى شأن غير الناس لا يمكن إلّا على نحو المجاز .. إلّا أنّه إذا أظهر غير الإنسان أصواتا من فمه كاشفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸

عن مطلب ما، فلا دليل على عدم تسميته نطقا، لأنّ النطق كل لفظ مبين للحقيقة و المفهوم ۱۳].

و لا نريد أنّ نقول أنّ ما يظهر من أصوات الحيوانات عند الغضب أو الرضا أو الألم أو إظهار الشوق لأطفالها هو نطق، كلّا فهى أصوات تقترن بحالات الحيوان ... إلّا أنّنا- كما سيأتى فى الآيات التالية- سنرى بتفصيل أن سليمان تكلم مع الهدهد فى مسائل و حمّله رسالة ... و طلب منه أن يتحرّى جوابها.

و هذا الأمر يدلّ على أن الحيوانات بالإضافة إلى أصواتها الكاشفة عن حالاتها الخاصة ... لها القدرة على النطق فى ظروف خاصة بأمر اللّه، كما سيأتى الكلام فى شأن تكلم النمل فى الآيات المقبلة إن شاء اللّه.

و بالطبع فإن النطق استعمل فى القرآن بمعناه الوسيع، حيث يبيّن حقيقة النطق و نتيجته، و هو بيان ما فى الضمير، سواء كان ذلك عن طريق الألفاظ أو عن طريق الحالات الأخر، كما فى قوله تعالى: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ ۱۴] إلّا أنّه لا حاجة إلى تفسير كلام سليمان و منطق الطير بهذا المعنى ... بل طبقا لظاهر الآيات فإن سليمان كان بإمكانه أن يعرف ألفاظ الطير الخاصة الدالة على مسائل معيّنة فيشخّصها، أو أنّه كان يتكلم معها فعلا ..

و سنتكلم فى هذا الشأن فى البحوث إن شاء اللّه تعالى.

أمّا جملة أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فهى على خلاف ما حدده جماعة من المفسّرين، لها مفهوم واسع شامل .. فهى تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة اللّه فى ذلك الحين .. و أساسا فإن الكلام سيقع ناقصا بدونها، و لا يكون له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹

ارتباط واضح بما سبق.

و هنا يثير الفخر الرازى سؤالا فيقول: أليس التعبير ب (علمنا) و (أوتينا) من قبيل كلام المتكبرين؟! ثمّ يجيب على سؤاله هذا بالقول: إن المراد من ضمير الجمع هنا هو سليمان و أبوه، أو هو و معاونوه فى الحكومة .. و هذا التعبير مستعمل حين يكون الشخص فى رأس هيئة ما، أن يتكلم عن نفسه بضمير الجمع!.

بحوث

۱- علاقة الدين بالسيّاسة

خلافا لما يتصوره أصحاب النظرة الضيقة من أن الدين مجموعة من النصائح و المواعظ، أو المسائل الخاصة بالحياة الشخصيّة للإنسان .. بل هو مجموعة من القوانين و المناهج الحيوية التى تستوعب جميع مسائل حياة الإنسان و خاصة المسائل الاجتماعية.

فقد بعث الأنبياء لإقامة القسط و العدل كما فى الآية (۲۵) من سورة الحديد، إذ يقول سبحانه لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

و ليضع الأنبياء عن الناس إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فيتمتعوا بالحرية كما أشارت إلى ذلك الآية (۱۵۷) من سورة الأعراف.

و الدين رحمة و منجاة للمستضعفين و تخليصهم من نير المتكبرين الظالمين.

و الدين- أخيرا- مجموعة من التعاليم و التربية فى مسير تزكية الإنسان و الرقى به نحو الكمال (كما أشارت إليه الآية ۲ من سورة

الجمعة).

و بديهى أن هذه الأهداف الكبرى لا يمكن أن تتحق دون إقامة الحكومة! فمن ذا يستطيع أن يقيم القسط بين الناس بمجرّد التوصيات الاخلاقيّة؟ .. أو أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰

يقطع أيدى الظالمين عن المستضعفين. و يضع الإصر و الأغلال عن يدى الإنسان و رجليه دون الاستناد الى قدرة شاملة!! و من يستطيع أن ينشر الثقافة الصحيحة و المسائل التربوية فى مجتمع يشرف عليه المفسدون، فيمنح القلوب الملكات الأخلاقيّة؟

و هذا هو ما نقوله بأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة، فإذا انفصل الدين عن السياسة فقد فقد عضده و شلت يده، و إذا انفصلت السياسة عن الدين تبدّلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصيّة! إن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إنّما وفق لنشر هذا الدين القويم السماوى فى أرجاء العالم بسرعة، لأنّه أسس حكومته فى أوّل فرصة واتته، و تابع أهدافه الإلهية عن طريق الحكومة الإسلامية.

و هناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق فنشروا دعوتهم إلى اللّه فى الأرض أفضل بشكل ... أمّا من لم تسمح لهم الفرصة بإقامة حكومة إلهية، فإنّهم لم يحالفهم التوفيق كثيرا فى نشر رسالتهم الالهية ..

۲- آيات الحكومة الإلهية

ممّا يلفت النظر أنّنا نجد فى قصّة سليمان و داود- بصورة واضحة- أنّهما استطاعا أن يقلعا جذور الشرك و آثاره بسرعة، و أن يقيما نظاما إلهيا عادلا ..

نظاما يقوم على أسس و اركان- طبقا لما فى الآيات محل البحث- العلم و المعرفة و الاطلاع فى المجالات المختلفة.

نظاما يتوج منهجه اسم اللّه، فهو على رأس لوحته.

نظاما استعمل كل قواه حتى الطائر، من أجل الوصول إلى أهدافه.

نظاما جعل الشياطين مغلولة، و الظالمين أذلاء لا يتجاوزون حدودهم.

و أخيرا فإنّ هذا النظام كانت لديه القدرة النظامية «العسكرية» الكافية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱

و الجهاز التجسس «الأمنى»، و الأفراد المتخصصون فى المجالات الاقتصادية و الإنتاجيّة و العلمية المختلفة، و كل ذلك كان تحت خيمة «الإيمان» و مظلّة «التوحيد».

۳- منطق الطير

فى الآيات المتقدمة و الآيات التالية بعدها التى تذكر قصّة سليمان و الهدهد، إشارة صريحة إلى منطق الطير، و بعض ما يتمتع به الحيوان من شؤون.

و ممّا لا شك فيه أنّ الطيور كسائر الحيوانات تظهر أصواتا فى حالاتها المختلفة، بحيث يمكن معرفتها بدقة، أن أىّ صوت يعبّر عن الجوع؟ و أىّ صوت يعبر عن الغضب؟ و أى صوت يعبر عن الرضا؟ و أى صوت يعبّر عن التمنى؟ و أىّ صوت يدعوا الأفراخ إليه؟ و أى صوت يعبر عن القلق و الاستيحاش و الرعب؟.

فهذه الأصوات من أصوات الطيور، لا مجال للشك و التردد فيها، و كلّنا نعرفها مع اختلاف فى كثرة الاطلاع أو قلّته! إلّا أنّ آيات هذه

السورة- بحسب الظاهر- تبيّن موضوعا أوسع ممّا ذكرناه آنفا .. فالبحث هنا عن نطقها بنحو «معمّى خفىّ» بحيث ينطوى على مسائل دقيقة، و البحث عن تكلمّها و تفاهمها مع الإنسان .. و بالرغم من أن هذا الأمر مدعاة لتعجب بعضهم، إلّا أنّه مع الالتفات إلى المسائل المختلفة التى كتبها العلماء و مشاهداتهم الشخصية فى شأن الطيور، لا يكون الموضوع عجيبا.

فنحن نعرف عن ذكاء الطيور مسائل أعجب من هذا.

فبعضها لديها المهارة فى صنع أعشاشها و بيوتها بشكل أنيق، قد يفوق عمل مهندسينا أحيانا.

و بعض الطيور تعرف عن وضع أفراخها فى المستقبل، و حاجاتها، و تعمل لها عملا دقيقا، بحيث تكون مثار إعجابنا جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲

و توقعها لما سيكون عليه الجوّ حتى بالنسبة لعدّة أشهر تالية، و معرفتها بوقوع الزلازل قبل أن تقع، و قبل أن تسجلها مقاييس الزلازل المعروفة!.

و التعليمات التى تصدر إلى الحيوانات فى «السيرك» و نشاطاتها و أعمالها الخارقة للعادة الحاكية عن ذكائها العجيب ..

أعمال النمل و حركاته العجيبة و تمدنه المثير.

عجائب حياة النحل، و ما تقوم به من أعمال محيرة.

معرفة الطيور المهاجرة بالطرق الجويّة، و قد تقطع المسافة بين القطبين الشمالى و الجنوبى! خبرة الأسماك فى مهاجرتها الجماعية فى أعماق البحار.

كل ذلك من المسائل العلمية المسلّم بها، كما أنّها دليل على وجود مرحلة مهمّة من الإدراك أو الغريزة- أو ما شئت فسمه- فى هذه الحيوانات!.

وجود الحواس غير الطبيعية فى الحيوانات- كالرادار للخفاش، و حاسة الشم القوية فى بعض الحشرات، و النظر الحاد عند بعض الطيور، و أمثالها، دليل آخر على أنّها ليست متخلفة عنّا فى كل شىء! فمع الأخذ بنظر الإعتبار جميع ما بيّناه، لا يبقى مجال للعجب من أن لهذه الحيوانات تكلما و نطقا خاصا، و أنّها تستطيع أن تتكلم مع الإنسان الذى يعرف، «ألف باءها» ... و قد وردت الإشارة فى آيات القرآن إلى هذا المعنى، و منها الآية (۳۸) من سورة الأنعام وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ۱۵].

و فى الرّوايات الإسلامية أمور كثيرة أيضا، تكشف عن نطق الحيوانات و خاصة الطيور .. و حتى أنّه نقل لكلّ «منطق» هو بمثابة الشعار، بحيث يطول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳

المقام بنا لو تعرضنا له بالتفصيل ۱۶].

ففى رواية عن الإمام أبى عبد اللّه الصادق أنّه قال: قال أمير المؤمنين على لابن عباس «إنّ اللّه علّمنا منطق الطير كما علّم سليمان بن داود و منطق كل دابة فى برّ أو بحر»[۱۷].

۴- رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» ..

نقل أهل السنة فى كتبهم المختلفة

حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مضمونه أنّه قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة» ..

و ربّما نقل الحديث فى بعض الكتب بحذف الجملة الأولى و الاكتفاء بعبارة:

«ما تركناه صدقة».

و سند هذا الحدیث ینتهی فی کتب أهل السنة المشهورة إلی «أبی بکر»- غالبا- إذ تولّی بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم زمام أمور المسلمین، و حین طلبت منه سیدة النساء فاطمة علیها السّلام أو بعض أزواج النّبیّ میراثها منه امتنع عن دفع میراث النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلیها استنادا إلی الحدیث آنف الذکر.

و قد نقل هذا الحدیث «مسلم» فی صحیحه «الجزء ۳- کتاب الجهاد و السیر ص ۱۳۷۹» و «البخاری» فی الجزء الثامن من کتاب الفرائض ص ۱۸۵، و جماعة آخرون فی کتبهم.

ممّا یلفت النظر أن «البخاری» نقل فی صحیحه حدیثا عن «عائشة» أنّها قالت: «إن فاطمة و العباس علیهما السّلام أتیا أبا بکر یلتمسان میراثهما من رسول اللّه، و هما حینئذ یطلبان أرضیهما من فدک و سهمهما من خیبر،

فقال أبو بکر: سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یقول: لا نورّث ... ما ترکناه صدقة،

إنّما یأکل آل محمّد من هذا المال ...

قال أبو بکر: و اللّه لا أدع أمرا رأیت رسول اللّه یصنعه فیه إلّا صنعته «قال» فهجرته

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴

فاطمة فلم تکلمه حتی ماتت ۱۸]!.

و بالطبع فإنّ هذا الحدیث فیه مجال للنقد و الطعن من جهات متعددة، إلّا أنّنا نقتصر فی هذا التّفسیر علی ذکر ما یلی:

۱- إنّ هذا الحدیث لا ینسجم مع نصّ القرآن ... و وفقا للقواعد الأصولیة التی عندنا، أن کلّ حدیث لا یوافق کتاب اللّه ساقط عن الإعتبار، و لا یمکن التعویل علی أنّه حدیث شریف من أحادیث النبی أو المعصومین علیهم السّلام.

ففی الآیات آنفة الذکر، ورد «و ورث سلیمان داود» و ظاهر الآیة مطلق یشمل حتی الأموال .. و نقرأ فی شأن یحیی و زکریا یَرِثُنِی وَ یَرِثُ مِنْ آلِ یَعْقُوبَ «مریم الآیة ۶». و لا سیما فی ما یخصّ زکریا، فإن کثیرا من المفسّرین أکّدوا علی الأمور المالیة!.

إضافة إلی ذلک فإنّ ظاهر آیات الإرث فی القرآن المجید عام و یشمل جمیع الموارد.

و ربّما کان لهذا السبب أن یفسر «القرطبی»- مضطرا- الحدیث علی أنّه غالبا ما یکون کذلک، لا أنّه عام، و قال: هذا مثل قولهم: إنّا- معشر العرب- أقری الناس للضیف، مع أن هذا الحکم غیر عام ۱۹].

إلّا أن من الواضح أن هذا الکلام ینفی «قیمة هذا الحدیث ...» لأنّنا إذا توسّلنا بهذا العذر فی شأن سلیمان و یحیی، فإنّ شموله للموارد الأخری غیر قطعی أیضا.

۲- إنّ الرّوایة المتقدمة تعارض روایة أخری تدلّ علی أن أبا بکر صمّم علی إعادة فدک إلی فاطمة علیها السّلام، إلّا أن الآخرین ما نعوه، کما نقرأ فی سیرة الحلبی: إن فاطمة قالت له: من یرثک؟! قال أهلی و ولدی! فقلت: فما لی لا أرث أبی؟. و فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵

کلام سبط بن الجوزی: إنّه کتب لها بفدک و دخل علیه عمر فقال: ما هذا؟ فقال:

کتاب کتبته لفاطمة بمیراثها من أبیها. فقال: فما ذا تنفق علی المسلمین، و قد حاربتک العرب کما تری؟ ثمّ أخذ عمر الکتاب فشقّه ۲۰].

تری کیف یمنع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم موضوع الإرث و ینهی عنه بصراحة، و یجرأ أبو بکر علی مخالفته؟! و لم استند عمر إلی المسائل العسکریة و حاجة المعارک، و لم یستند إلی الروایة؟! إن التحقیق الدقیق- فی الروایات الآنفة- یدل علی أن الموضوع لم یکن موضوع نهی النّبی عن الإرث، کما أثاره أبو بکر، بل المهم هنا المسائل السیاسیة آنئذ، و هذه المسائل هی ما تدعونا إلی أن نتذکر مقالة ابن أبی الحدید المعتزلی إذ یقول: سألت أستاذی «علی بن الفارقی»: أ کانت فاطمة، صادقة؟ فقال: نعم.

قلت: فلم لم یدفع إلیها أبو بکر فدک و هی عنده صادقة؟ یقول: المعتزلی: فتبسم أستاذی، ثمّ قال کلاما لطیفا مستحسنا مع ناموسه و

حرمته و قلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدكا بمجرّد دعواها، لجاءت إليه غدا و ادعت لزوجه الخلافة و لم يمكنه الاعتذار بشىء لأنّه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدعى كائنا ما كان من غير حاجة الى بيّنة و لا شهود[۲۱].

۳- الرواية المعروفة عن النّبى الواردة فى كثير من كتب أهل السنّة و الشيعة

«العلماء ورثة الأنبياء»[۲۲].

و ما

نقل عنه صلّى اللّه عليه و آله أيضا «إن الأنبياء لم يورثوا دينارا و لا درهما».

يستفاد من مجموع هذين الحديثين أن الهدف الأساس للأنبياء نشر العلم، و هم يفخرون به، و أهم ما يتركونه هو الهداية. و من يحصل على الحظ الكبير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶

العلم و المعرفة فهو وارثهم الأصيل ... بصرف النظر عن الأموال التى يرثها عنهم، ثمّ إن هذا الحديث منقول فى المعنى، و عبّر عنه تعبيرا سيئا و يحتمل أن يكون (ما تركناه صدقة) المستنبط من بعض الرّوايات مضاف عليه.

و لكى لا يطول بنا الكلام ننهى كلامنا ببحث للمفسر المعروف من أهل السنة «الفخر الرازى» الذى أورده ذيل الآية (۱۱) من سورة النساء إذ يقول: من تخصيصات هذه الآية «آية الإرث» ما هو مذهب أكثر المجتهدين، أن الأنبياء عليهم السّلام لا يورّثون، و الشيعة خالفوا فيه .. روى أن فاطمة عليها السّلام لما طلبت الميراث و منعوها منه احتجوا

بقوله عليه السّلام: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث .. ما تركناه صدقة» ..

فعند هذا احتجت فاطمة عليها السّلام بعموم قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ و كأنّها أشارت إلى أن عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر الواحد.

ثمّ يضيف الفخر الرازى قائلا: إنّ الشيعة قالوا: بتقدير أن يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، إلّا أنّه غير جائز هنا و بيانه من ثلاثة أوجه:

«أحدها»: أنّه على خلاف قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السّلام: يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ .. و قوله تعالى: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ قالوا: و لا يمكن حمل ذلك على وراثة العلم و الدين، لأنّ ذلك لا يكون وراثة فى الحقيقة، بل يكون كسبا جديدا مبتدأ، إنّما التوريث لا يتحقق إلّا فى المال على سبيل الحقيقة.

«و ثانيها»: أن المحتاج إلى معرفة هذه المسألة ما كان إلّا فاطمة و على و العباس، و هؤلاء كانوا من أكابر الزهاد و العلماء و أهل الدين، و أمّا أبو بكر فإنّه ما كان محتاجا إلى معرفة هذه المسألة البتة، لأنّه ما كان يخطر بباله أن يرث من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فكيف يليق بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبلغ هذه المسألة إلى من لا حاجة به إليها؟ و لا يبلغها إلى من له إلى معرفتها أشدّ الحاجة؟! «و ثالثها»: يحتمل أن قوله: «ما تركناه صدقة» صلة «لا نورث» و التقدير (الذى تركناه صدقة) فذلك الشىء (لا يورّث).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷

فإن قيل: لا يبقى للرّسول خاصية فى ذلك! قلنا: بل تبقى الخاصية، لاحتمال أن الأنبياء إذا عزموا على التصدّق بشىء فبمجرّد العزم يخرج ذلك عن ملكهم و لا يرثه وارث عنهم، و هذا المعنى مفقود فى حق غيرهم! و الجواب: أنّ فاطمة رضيت بقول أبى بكر بعد هذه المناظرة، و انعقد الإجماع على صحة ما ذهب إليه أبو بكر! إلخ ۲۳].

إلّا أن من الواضح أن جواب الفخر الرازى لا يناسب الاستدلالات السابقة، لأنّه كما ذكرنا آنفا و نقلناه عن المصادر المعتبرة عند أهل السنة ... فإن فاطمة لا أنّها لم ترض بكلام أبى بكر فحسب، بل ظلّت واجدة و «غاضبة» عليه، فلم تكلمه حتى آخر عمرها سلام اللّه

عليها! ثمّ بعد هذا كلّه كيف يمكن أن يدّعى الإجماع فى هذه المسألة، مع أنّ عليّا و فاطمة عليها السّلام و العباس و أضرابهم الذين تربّوا فى مهبط الوحى و مركزه، كانوا مخالفين لهذا الرأى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۱۷ الى ۱۹]

اشارة

وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹)

التّفسير

سليمان فى وادى النمل:

يستفاد من آيات هذه السورة، و آيات سورة سبأ أن «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات و المعاجز المختلفة، التى ورد قسم منها فى هذه السورة، و القسم الآخر ورد فى سورة «سبأ» أمّا ما ورد فى هذه السورة من الأمور الخارقة للعادة «حكومة سليمان على الجن، و الطير، و إدراكه كلام النمل، و كلامه مع الهدهد».

و فى الحقيقة فإنّ اللّه أظهر قدرته فى هذه الحكومة و ما سخّر لها من قوى، و نحن نعرف أن هذه الأمور عند اللّه- فى نظر الإنسان الموحّد- يسيرة و سهلة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹

و أوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ.

و كانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك و المسير، و من أجل المحافظة على النظم. يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها فَهُمْ يُوزَعُونَ

«يوزعون» من مادة (وزع) على وزن (جمع) و معناه الحبس و الإيقاف، و هذا التعبير متى أطلق على الجند أو الجيش فيعنى إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره، لكى يحفظ من التشتت و التفرق.

و كلمة «وزع» معناها الحرص و العلاقة الشديدة بالشىء، بحيث تمنع الإنسان عن الأمور الأخرى.

و يستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم و الانضباط.

«و حشر» فعل ماض من (الحشر) على وزن (نشر) و معناه إخراج الجمع من المقرّ، و التحرك نحو الميدان للقتال، و ما أشبه ذلك.

و يستفاد من هذا التعبير- و التعبير التالى فى الآية الأخرى أنّ سليمان عليه السّلام كان قد جمع جنوده و حرّكهم نحو نقطة ما، لكن هذه النقطة أية نقطة هى؟ و أين كان يتجه سليمان؟ ليس ذلك معلوما على وجه الدقّة.

و استفاد بعضهم من الآية التالية التى تتحدث عن وصول سليمان إلى وادى النمل، أنّها منطقة على مقربة من الطائف. و قال بعضهم: بل هى منطقة على مقربة من «الشام».

و حيث أنّ هذا الموضوع لا تأثير له فى الأمور الأخلاقية و التربوية «للآية» لذلك لم تتطرق له الآية الكريمة.

و هناك- ضمنا- جدل بين كثير من المفسّرين فى أن الإنس و الجن و الطير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰

هل كانوا جميعا من جنود سليمان؟ فتكون (من) فى الآية بيانية، أو أن قسما منهم كان يؤلف جيشه و جنوده فتكون (من) تبعيضية .. و يبدو أن هذا بحث لا طائل تحته ... لأنّ سليمان- دون أدنى شك- لم يكن حاكما على وجه البسيطة كلها، بل كانت منطقة نفوذه و حكومته منطقة الشام و بيت المقدس، و قد يدخل بعض ما حولهما تحت سلطته و حكومته!.

كما يستفاد من الآيات التالية أنّه لم تكن له بعد سلطة على اليمن أيضا ..

و إنّما صارت اليمن تحت نفوذه بعد قصّة الهدهد و «تسليم ملكة سبأ» و إذعانها له.

و جملة وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فى الآيات التالية، تدلّ على أن هدهدا واحدا كان ضمن الطير التى كانت تحت أمر سليمان، بحيث أنّه لما افتقده سأل عنه، فلو كانت الطيور جميعها تحت أمره و فيها آلاف الهداهد، لكان هذا التعبير غير صحيح «فتأمّلوا بدقة».

و على كل حال، فإنّ سليمان تحرك بهذا الجيش العظيم حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ

فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ۲۴].

و لنا كلام سيأتى- إن شاء اللّه- فى كيفية اطّلاع النملة و معرفتها بحضور سليمان و جنوده فى تلك المنطقة، و كيف أوصلت صوتها إلى بقية النمل؟.

و يستفاد ضمنا من جملة لا يَشْعُرُونَ أن عدل سليمان كان ظاهرا و واضحا حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أن سليمان و جنوده لو شعروا و التفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، و إذا وطئوها فإنّما ذلك لعدم توجههم و التفاتهم. فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها.

هناك كلمات مختلفة عند المفسّرين فى الشىء الذى أضحك سليمان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱

و الظاهر أن القضية ذاتها كانت عجيبة عند سليمان، بحيث تحذّر نملة صويحباتها من النمل ... تحذرهنّ من تحطيم سليمان و جنوده إياهن و هم لا يشعرون:

فضحك من أجلها! و قال بعضهم: كان ضحك سليمان سرورا منه بأن عرف أن النمل تعترف بتقواه و عدالته و تقوى جنوده و عدالتهم.

و قال بعضهم: كان ضحكه و تبسمه لأنّ اللّه أعطاه هذه القدرة، و هى أنّه برغم جلجلة جيشه و لجبه فإنّه التفت إلى صوت النملة مخاطبة بقية النمل فلم يغفل عنها.

و على كل حال، فإن سليمان توجه نحو اللّه .. داعيا و شاكرا مستزيدا فضله وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَ ۲۵].

أى، لتكون لى القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها فى ما أمرتنى به و ما يرضيك، و لا أنحرف عن طريق الحقّ .. فإن أداء شكر هذه النعم لا يكون إلّا بتوفيقك و إعانتك. وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ و هو يشير إلى أن بقاء هذا الجيش و حكومته و تشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدى عملا صالحا يرضى به ربّه، و حيث أن «أعمل» فعل مضارع فهو دليل على طلب استمرار التوفيق من قبل اللّه له.

و الطلب الثّالث الذى طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآية، هو أن يجعله فى زمرة الصالحين، إذ قال: وَ أَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبادِكَ الصَّالِحِينَ ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲

بحوث

۱- معرفة سليمان بلغة الحيوانات و منطقها

ليس لنا كثير معرفة بعالم الحيوانات ... و ما يزال الغموض أو الإبهام يكتنف هذا العالم و يلقى عليه ظلاله، بالرغم من التقدم العلمى فى هذا المجال.

إنّنا نرى آثار ذكاء الحيوانات و مهارتها فى كثير من أعمالها .. فبناء خلايا النحل بشكلها المنظّم الدقيق، و دقة النمل فى جميع ما يحتاج للشتاء، و كيفية ذخيرته و مذخره! و دفاع الحيوانات عن نفسها عند مواجهتها العدوّ، و حتى معرفتها بكثير من الأمراض، و العثور على بيوتها و أوكارها من الأماكن البعيدة، و قطع المسافات الطويلة للوصول إلى هدفها ... و توقّعها عن حوادث المستقبل و أمثالها.

كل هذه الأمور تدل على أن فى دنيا الحيوانات المجهولة كثيرا من الوسائل الغامضة التى لا نعرف حلّها!.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ كثيرا من الحيوانات تقوم بأعمال مذهلة نتيجة للتعلم و التربية ... يعجز عنها حتى الإنسان.

إلّا أنّه ليس من الواضح أنّ هذه الحيوانات إلى أية درجة هى خبيرة بدنيا الناس! .. ترى هل تعلم الحيوانات واقعا: من نحن؟! و ما نعمل؟ و قد لا نعهد فى هذه الحيوانات ذكاء بهذا المستوى، إلّا أن هذا لا يعنى نفيه و سلبه عنها.

فعلى هذا الحساب إذا كنّا قرأنا فى القصّة السابقة .. أن النمل علم بمجىء سليمان و جنوده، و حذر من البقاء، و أنّه يجب التوجه نحو مساكنه لئلا يحطمه سليمان و جنوده .. و سليمان عرف هذا الموضوع تماما .. فلا مجال للعجب.

ثمّ بعد هذا فإن حكومة سليمان- كما قلنا آنفا- كانت خارقة للعادات مقرونة بالمعاجز، فعلى هذا الأساس أبدى بعض المفسّرين اعتقادهم بأن هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳

المستوى من الاطلاع و المعرفة- من قبل فئة من الحيوانات فى عصر سليمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعادة، و لا يمنع أن لا نرى ذلك عينه فى سائر العصور و القرون.

و الغرض أنّه لا دليل عندنا على حمل قصّة سليمان و النمل، أو سليمان و الهدهد، على الكناية أو لسان الحال، مع إمكان حفظ الظاهر و حمله على المعنى الحقيقى ۲۶]!

۲- سليمان و إلهامه الشكر للّه

إن واحدة من أفضل العلامات لمعرفة الحكام الإلهيين و تمييزهم عن الحكام الجبابرة، هى أن الجبابرة حين يصلون إلى القدرة يغرقون فى الغرور و الغفلة، و ينسون القيم الإنسانية كلّها ... و يندكّون بشدّة فى أنانيتهم! إلّا أن الحكام الإلهيين حين ينالون القدرة يحسّون بأعباء المسؤولية ..

فيتوجهون نحو اللّه أكثر من أى وقت مضى، و يسألونه العون و القدرة على أداء رسالتهم ... كما أن «سليمان» بعد أن وصل إلى تلك القدرة. كان أهم شىء عنده أن يسأل اللّه الشكر على نعمه، و الإفادة من هذه المواهب فى مسير رضاه و سعادة عباده!.

و ممّا يلفت النظر أن يبدأ طلبه بعبارة أَوْزِعْنِي و مفهومه الإلهام الوجدانى و إعداد القوى الباطنية كلها لأداء هذا الهدف الكبير. و معناها: اللّهم تفضل على بقدرة و طاقة تجعلنى أعبئ كل قواى الداخلية لأداء شكرك، و أداء ما علىّ من مسئولية .. و دلّنى على

السبیل إلیک، لأنّ الطریق طویل صعب محفوف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴

بالمخاوف و المخاطر .. طریق أداء حقوق جمیع الناس فی مثل هذه الحکومة الواسعة.

إنّه لا یطلب الإیزاع علی شکر نعم اللّه علیه فحسب، بل یطلب فی الوقت ذاته أن یؤدی الشکر علی المواهب و النعم التی أنعمها اللّه علی والدیه ... لأنّ کثیرا من مواهب وجود الإنسان یرثها عن والدیه ... و ممّا لا شک فیه أن الإمکانات التی یمنحها اللّه للوالدین تعین الأبناء کثیرا فی سبیل الوصول لأهدافهم.

۳- سلیمان و العمل الصالح

ممّا یلفت النظر أن سلیمان رغم حکومته و سلطنته التی لا نظیر لها، و تلک القدرة الواسعة، إلّا أنّه یطلب من اللّه یوفقه للعمل الصالح باستمرار، و أهم من ذلک و أسمی أن یکون فی زمرة عباده الصالحین.

و یستفاد من هذا التعبیر:

أوّلا: أنّ الهدف النهائی من نیل القدرة هو أداء العمل الصالح، العمل الجدیر القیّم ... و کل ما سواه یعدّ مقدمة له!.

و العمل الصالح مقدمة- أیضا- لنیل رضا اللّه- الذی هو الهدف النهائی و غایة الغایات.

ثانیا: أنّ الدخول فی زمرة «الصالحین» مرحلة أسمی من مرحلة أداء العمل الصالح، لأنّ الأوّل یعنی صلاح الذات، و الثّانی صلاح العمل «لا حضوا بدقّة».

و بتعبیر آخر: قد یقوم الإنسان بعمل صالح، إلّا أن هذا المعنی لا یعدّ جزءا من ذاته و روحه و نسیج وجوده، فسلیمان علیه السّلام یطلب من اللّه أن یشمله بعنایته إلی درجة یتجاوز بها مرحلة کونه یعمل صالحا، لینفد الصلاح إلی أعماق وجوده و روحه، و لا یمکن تحقق هذا إلّا برحمة اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵

فکم هو عزیز و غال أن یکون الإنسان عبدا صالحا للّه، بحیث یطلب سلیمان من ربّه أن یدخله فی عباده الصالحین، علی الرغم من جاهه و حشمته و جلاله الذی لا یشک فیها أحد، و أن یحفظه اللّه من العثرات و الزلات فی کل آن، و خاصّة ما قد یصدر من الإنسان و هو علی رأس هیئة عظیمة و تشکیلات واسعة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۲۰ الی ۲۶]

اشارة

وَ تَفَقَّدَ الطَّیْرَ فَقالَ ما لِیَ لا أَرَی الْهُدْهُدَ أَمْ کانَ مِنَ الْغائِبِینَ (۲۰) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِیداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَیَأْتِیَنِّی بِسُلْطانٍ مُبِینٍ (۲۱) فَمَکَثَ غَیْرَ بَعِیدٍ فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُکَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ یَقِینٍ (۲۲) إِنِّی وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِکُهُمْ وَ أُوتِیَتْ مِنْ کُلِّ شَیْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِیمٌ (۲۳) وَجَدْتُها وَ قَوْمَها یَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ فَهُمْ لا یَهْتَدُونَ (۲۴) أَلاَّ یَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِی یُخْرِجُ الْخَبْءَ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ یَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ (۲۵) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ (۲۶)

التّفسير

قصّة الهدهد و ملكة سبأ:

يشير القرآن فى هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من حياة سليمان عليه السّلام المدهشة، و ما جرى له مع الهدهد و ملكة سبأ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷

فيقول أوّلا: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ.

و هذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، و هى أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، و كان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شىء، حتى لو كان طائرا واحدا.

و ما لا شك فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأنّ القرآن يضيف استمرارا للكلام فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ

و هناك كلام بين المفسّرين فى كيفية التفات سليمان إلى عدم حضور الهدهد.

فقال بعضهم: كان سليمان عليه السّلام عند ما يتحرك تظلل الطير بأنواعها فوق رأسه فتكون مثل الخيمة، و قد عرف غياب الهدهد من وجود ثغرة فى هذا الظل!.

و قال بعضهم: كان الهدهد مأمورا من قبل سليمان بالتقصّى عن الماء كلما دعت الحاجة إليه ... و عند ما دعت الحاجة إلى الماء فى هذه المرّة لم يجد الهدهد فعرف غيابه.

و على كل حال، فهذا التعبير ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ ثمّ قوله: أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ لعله إشارة إلى أن غياب الهدهد هل كان لعذر مقبول أو لغير عذر؟

و على أيّة حال، فان حكومة منظمة و مقتدرة يجب أن تجعل كل شىء يجرى داخل اطار الدولة تحت نظرها و نفوذها .. حتى وجود طائر واحد و غيابه، لا بدّ أن لا يخفى عن علمها و نظرها ... و هذا درس كبير لمن أراد التدبير.

و من أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابيا، و أن لا يؤثر غياب الهدهد على بقية الطيور، فضلا عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلا: لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و المراد من «السلطان» هنا هو الدليل الذى يتسلط به الإنسان من أجل إثبات قصده، و تأكيد هذا اللفظ ب «مبين» هو أنّه لا بد لهذا الفرد المتخلف من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸

إقامة دليل واضح و عذر مقبول لتخلفه! و فى الحقيقة فإنّ سليمان قبل أن يقضى غيابيا ذكر تهديده اللازم فى صورة ثبوت التخلّف ...

و حتى هذا التهديد جعله فى مرحلتين تناسبان الذنب ... مرحلة العقاب بما دون الاعدام، و مرحلة العقاب بالإعدام.

و قد برهن «سليمان» ضمنا أنّه- حتى بالنسبة للطائر الضعيف- يستند فى حكمه إلى المنطق و الدليل، و لا يعوّل على القوّة و القدرة أبدا.

و لكن غيبة الهدهد لم تطل فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ عاد الهدهد و توجه نحو سليمان: فَقالَ أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ

و كأن الهدهد قد رأى آثار الغضب فى وجه سليمان، و من أجل أن يزيل ذلك التهجم، أخبره أوّلا بخبر مقتضب مهم الى درجة أن سليمان نفسه كان غير مطّلع عليه، برغم ما عنده من علم، و لما سكن الغضب عن وجه سليمان، فصّل الهدهد له الخبر، و سيأتى بيانه فى الآيات المقبلة.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ جنود سليمان- حتى الطيور الممتثلة لأوامره- كانت عدالة سليمان قد أعطتهم الحرية و الأمن و الدعة

بحيث يكلمه الهدهد دون خوف و بصراحة لا ستار عليها فيقول: أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ

فتعامل الهدهد «و علاقته» مع سليمان لم يكن كتعامل الملأ المتملقين للجبابرة الطغاة .. إذ يتملقون فى البدء مدة طويلة، ثمّ يتضرعون و يعدون أنفسهم كالذرّة أمام الطود، ثمّ يهوون على أقدام الجبابرة و يبدون حاجتهم فى حالة من التضرع و التملق، و لا يستطيعون أن يصرّحوا فى كلامهم أبدا، بل يكنّون كناية أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!.

أجل، إنّ الهدهد قال بصراحة: غيابى لم يكن اعتباطا و عبثا ... بل جئتك بخبر يقين «مهم» لم تحط به! و هذا التعبير درس كبير للجميع، إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹

يعرف موضوعا لا يعرفه أعلم من فى عصره، لئلا يكون الإنسان مغرورا بعلمه ...

حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوّة الواسع.

و على كل حال، فإنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَ أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَها عَرْشٌ عَظِيمٌ

لقد بيّن الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريبا، و أسلوب حكومته! فقال أوّلا: إنّه بلد عامر فيه جميع المواهب و الإمكانات، و الآخر إنّنى وجدت امرأة فى قصر مجلل تملكهم، و الثّالث: لها عرش عظيم- و لعله أعظم من عرش سليمان- لأنّ الهدهد كان رأى عرش سليمان حتما، و مع ذلك يصف عرش هذه الملكة بأنّه عظيم.

و قد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنّه لا ينبغى أن تتصور أن جميع العالم تحت «نفوذ أمرك و حكومتك»! و أن عرشك هو وحده العرش العظيم ...

و لما سمع سليمان عليه السّلام كلام الهدهد غرق فى تفكيره، إلّا أن الهدهد لم يمهله طويلا فأخبره بخبر جديد .. خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس و بذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

و قد غرقوا فى عبادة الأصنام حتى أنّى لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ

و هكذا فقد بين الهدهد ما هم عليه من حالة دينية و معنوية أيضا، إذ هم غارقون فى الشرك و الوثنية و الحكومة تروّج عبادة الشمس ... و الناس على دين ملوكهم.

معابدهم و أوضاعهم الأخرى تدل على أنّهم سادرون فى التيه، و يتباهون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰

بهذا الضلال و الانحراف، و فى مثل هذه الظروف التى يرى فيها الناس و الحكومة على خط واحد، فمن البعيد إمكان هدايتهم.

ثمّ أضاف الهدهد قائلا: أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَ ما تُعْلِنُونَ ۲۷].

و كلمة «خبء» على وزن (صبر) معناها كل شيء خفى مستور، و هى هنا إشارة إلى إحاطة علم اللّه بغيب السماوات و الأرض، أى: لم لا يسجدون للّه الذى يعلم غيب السماوات و الأرض و ما فيهما من أسرار؟! و ما فسّره بعضهم بأن الخبء فى السماوات هو الغيث، و الخبء فى الأرض هو النبات، فهو- فى الحقيقة- من قبيل المصداق البارز.

و الطريف فى الآية أنّها تتكلم أوّلا عما خفى فى السماوات و الأرض، ثمّ تتكلم عن أسرار القلوب!.

إلّا أنّه لم استند الهدهد من بين جميع صفات اللّه إلى علمه بغيب العالم و شهوده كبيره و صغيره؟! لعل ذلك لمناسبة أن سليمان- بالرغم من جميع قدرته- كان يجهل خصائص بلد سبأ، فالهدهد يقول: ينبغى الاعتماد على اللّه الذى لا يخفى عليه شيء فى السماوات و الأرض.

أو لمناسبة أنّه- طبقا لما هو معروف- للهدهد حس خاص يدرك به وجود الماء فى داخل الأرض ... لذلك يتكلم عن علم اللّه الذى

يعلم بكل خافية فى عالم الوجود.

و أخيرا يختتم الهدهد كلامه هكذا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱

و هكذا يختتم الهدهد كلامه مستندا إلى «توحيد العبادة» و «توحيد الرّبوبية» للّه تعالى. مؤكدا نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

ملاحظتان

أ- الدروس التعليميّة

ما قرأناه فى هذا القسم من الآيات، فيه لطائف كثيرة و مسائل دقيقة، يمكن أن يكون لها كبير الأثر فى حياة الناس و سياسة الحكومات جميعا.

۱- فرئيس الحكومة أو المدير العام، ينبغى عليه أن يكون دقيقا فى دائرته أو تشكيلاته التنظيمية، بحيث يتابع حتى غياب الفرد الواحد و يتفقده! ۲- أن يراقب تخلف الفرد، و أن يتخذ الحكم الصارم، لكيلا يؤثر غيابه على الآخرين.

۳- لا ينبغى أن يصدر حكما غيابيا أبدا دون أن يمنح المتخلف الفرصة للدفاع عن نفسه، مع الإمكان.

۴- ينبغى أن يجعل لكل جريمة عقابا مناسبا ... و أن يكون العقاب بمقدار الذنب، و أن يراعى سلسلة مراتبه.

۵- أن على أى شخص- حتى لو كان أكبر الناس، أو بيده أعظم المسؤوليات و القدرة الاجتماعية- أن يذعن للمنطق و الدليل حتى و لو صدر من فم أضعف الخلق!.

۶- ينبغى أن تحكم الصراحة فى محيط المجتمع، و أن يتمتع أفراده بالحرية بحيث يستطيع الواحد منهم عند اللزوم أن يقول لرئيس الحكومة: أَحَطْتُ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ ۷- من الممكن أن يكون أقل الأفراد على اطلاع و معرفة، فى حين أنّ أكبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲

العلماء و أصحاب النفوذ غير مطلعين، لكيلا يغتر أىّ إنسان بعلمه! ۸- فى المجتمع البشرى حاجات و ضرورات متبادلة، بحيث قد يحتاج أكبر شخص فيه- كسليمان مثلا- إلى مساعدة أدنى شخص حتى و لو كان مثل الهدهد! ۹- بالرغم من أن فى النساء قابليات كثيرة! و قصّة سليمان نفسها حاكية عن أن ملكة سبأ كانت تتمتع بدراية كبيرة و فهم عال، إلّا أنّ قيادة الحكومة لا تتلاءم مع حالة المرأة و روحها و جسمها، بحيث يتعجب الهدهد من هذه المسألة و يقول:

إِنِّى وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ۱۰- أغلب الناس على دين ملوكهم ... لذلك نقرأ فى هذه القصّة أن الهدهد يقول فى شأن الملكة و قومها: وَجَدْتُها وَ قَوْمَها يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ

يتحدث الهدهد أولا عن سجودها ثمّ عن سجود قومها.

ب- الجواب على بعض الأسئلة

للمفسرين هنا بعض الأسئلة، و منها: كيف لم يحط سليمان عليه السّلام بمثل هذه البلدة مع ما لديه من علم و إمكانات و فيرة فى حكومته؟.

ثمّ كيف طوى الهدهد هذه المسافة بين اليمن و مركز حكومة سليمان الّذى كان فى الشام «على ما يظهر»؟

و هل كان الهدهد قد ضل الطريق ثمّ اهتدى إلى ذلك المكان، أو كان له غرض آخر؟! أمّا فى ما يخص السؤال الأوّل فيمكن أن يجاب عنه بأن سليمان عليه السّلام كان ذا علم بوجود هذه البلدة، إلّا أنّه لم يعرف خصائصها، ثمّ إن صحراء الحجاز كانت تفصل بين اليمن و الشام، و لم تكن و سائل المواصلات بين البلدان يومئذ كما هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳

عليه فى يومنا هذا «و بالطبع فإنّ علمه عن طريق الغيب و الإلهام الإلهى موضوع آخر».

و أمّا قطع المسافة من قبل الهدهد، فإنّها لم يكن عسيرة عليه ... لأنّنا نعرف بعض الطيور التى تقطع المسافة بين القطبين ... و الفاصلة بين الشام و اليمن إزاء تلك المسافة لا تعدّ شيئا.

و أمّا مجيء الهدهد إلى سبأ فكان- كما تقول بعض التواريخ- أنّ سليمان عزم على زيارة بيت اللّه الحرام، فتوجه من الشام ليؤدى مناسك إبراهيم عليه السّلام «أى الحج»، و فى مسيره رغب فى السير نحو الجنوب، فواصل منطقة لا تبعد عن اليمن كثيرا ... فاغتنم الهدهد الفرصة عند ما استراح سليمان فى تلك المنطقة و جاء إلى قصر ملكة سبأ فرأى ما رأى من المشهد المثير العجيب ۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۲۷ الى ۳۵]

اشارة

قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ (۲۷) اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا يَرْجِعُونَ (۲۸) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ (۲۹) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۳۰) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ (۳۱) قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ (۳۲) قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ (۳۳) قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ (۳۴) وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (۳۵)

التّفسير

الملوك مفسدون مخرّبون:

لقد أصغى سليمان عليه السّلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام ... و فكّر مليّا، و لعل سليمان كان يظنّ أن كلام الهدهد صحيح، و لا دليل على كذب بهذا الحجم ... لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵

حيث أن هذه المسألة لم تكن مسألة «ساذجة» بسيطة، و لها أثر كبير فى مصير بلد كامل و أمّة كبيرة! ... فينبغى أن لا يكتفى بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر فى هذا المجال: قالَ سَنَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكاذِبِينَ

و هذا الكلام يثبت بصورة جيدة أنّه يجب الاهتمام فى المسائل المصيرية المهمّة، حتى لو أخبر بها «فردّ» صغير، و أن يعجّل فى التحقيقات اللازمة «كما تقتضيه السين» فى جملة «سننظر»!.

سليمان عليه السّلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب ... و لم يصدّق كلامه دون أىّ دليل ... بل جعله أساسا للتحقيق! و على كل حال، فقد كتب كتابا وجيزا ذا مغزى عميق، و سلّمه إلى الهدهد و قال له: اذْهَبْ بِكِتابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ ما ذا

يَرْجِعُونَ ۲۹].

يستفاد من التعبير فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ أن يلقى الكتاب عند ما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.، و من هنا يتّضح أن ما ذهب إليه بعض المفسّرين بأن الهدهد ذهب إلى قصر ملكة سبأ و دخل مخدعها و ألقى الكتاب على صدرها أو حنجرتها- لا يقوم عليه دليل- و إن كان متناسبا مع الجملة التى وردت فى الآية التالية إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتابٌ كَرِيمٌ

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، و اطّلعت على مضمونه، و حيث أنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان و اسمه، و محتوى الكتاب يدلّ على إقدامه و عزمه الشديد فى شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت مليّا، و لما كانت فى مثل هذه المسائل المهمّة تستشير من حولها، لذلك فقد دعتهم و توجهت إليهم و قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتابٌ كَرِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶

ترى، حقّا أن ملكة سبأ لم تكن رأت «حامل الكتاب»، إلّا أنّها أحست بأصالة الكتاب من القرائن الموجودة فيه؟ و لم تحتمل أن يكون الكتاب مفتعلا و مفترى أبدا ...؟! أم أنّها رأت الرّسول بأم عينيها، و رأت كيفية وصول الكتاب الدهشة التى هى بنفسها دليل على أن المسألة واقعية و مهمّة، و مهما كان الأمر فإنّها عوّلت على الكتاب بكل اطمئنان؟.

و قول الملكة: إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتابٌ كَرِيمٌ «أى قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنّه بدئ باسم اللّه أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح ۳۰]. أو لأنّ مرسله رجل عظيم، و قد احتمل كل مفسّر وجها منها- أو جميعها- لأنّه لا منافاة بينها جميعا. و قد تجتمع جميعها فى هذا المفهوم الجامع!.

صحيح أنّهم (قوم سبأ) كانوا يعبدون الشمس، إلّا أننا نعرف أن كثيرا من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون باللّه- أيضا- و يسمونه رب الأرباب و يعظمونه و يحترمونه.

ثمّ إن «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَ إِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِى مُسْلِمِينَ ۳۱].

و من البعيد- كما يبد و- أن يكون سليمان كتب كتابه إلى ملكة سبأ بهذه العبارات «و هذه الألفاظ العربيّة». إذا فالجمل الأنفة يمكن أن تكون منقولة بالمعنى، أو أنّها خلاصة ما كان كتبه سليمان، و قد أدّتها ملكة سبأ بهذه الوجازة و الاقتضاب إلى قومها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷

الطريف أن مضمون هذا الكتاب لم يتجاوز فى الواقع ثلاث جمل:

الأولى: ذكر «اسم اللّه» و بيان رحمانيّته و رحمته.

الثّانية: الأمر بترك الاستعلاء و الغرور ... لأنّ الاستعلاء مصدر المفاسد الفرديّة و الاجتماعيّة.

و الثّالثة: التسليم و الإذعان للحق.

و إذا أمعنا النظر لم نجد شيئا آخر لا بدّ من ذكره.

و بعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها ... التفتت إليهم و قالَتْ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى أَمْرِى ما كُنْتُ قاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ

لقد أرادت الملكة بهذه الاستشارة تقوية مركزها فى قومها، و أن تلفت أنظارهم إليها، كما أرادت ضمنا أن تعرف مدى انسجامهم و ميزان استجابتهم لما تقدم عليه من تصميم.

كلمة «أفتونى» مشتقّة من (الفتوى) معناها فى الأصل الحكم الدقيق و الصحيح فى المسائل الغامضة و الصعبة ... فملكة سبأ أرادت بهذا التعبير أن تشعرهم بصعوبة المسألة أوّلا، و أن يدققوا النظر و يجمعوا الرأى فيها ليتجنبوا الخطأ ثانيا.

«تشهدون» مأخوذ من مادة «الشهود»، و معناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون و المشورة!.

فالتفت إليها أشراف قومها و أجابوها على استشارتها ف قالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَ الْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي ما ذا تَأْمُرِينَ

و هكذا فقد أظهروا لها تسليمهم و إذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم فى الاعتماد على القوّة و الحضور فى ميدان الحرب.

و لمّا رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافا لميلها الباطنى، و من أجل إطفاء هذا الظمأ و أن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك قالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذا دَخَلُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۸

قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً.

فيقتلون جماعة منهم و يأسرون آخرين و يطردون طائفة ثالثة و يخرجونهم من ديارهم و يخربون حيّهم و ينهبون ثرواتهم و أموالهم.

و لمزيد التأكيد أردفت قائلة: وَ كَذلِكَ يَفْعَلُونَ

و فى الحقيقة ... إن ملكة سبأ التى كانت بنفسها ملكة، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، و أن سيرتهم تتلخص فى شيئين:

۱- الإفساد و التخريب.

۲- و إذلال الأعزة ...

لأنّهم يفكرون فى مصالحهم الشخصية، و لا يكترثون بمصالح الأمّة و عزتها ... و هما على طرفى نقيض دائما.

ثمّ أضافت الملكة قائلة: علينا أن نختبر سليمان و أصحابه، لنعرف منهم و ما يريدون؟ و هل سليمان نبىّ حقا أو ملك؟ و هل هو مصلح أو مفسد؟ و هل يذلّ الناس أم يحترمهم و يعزّهم؟

فينبغى أن نرسل شيئا إليه وَ إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، و نقطة الضعف كامنة فى هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، و ينبغى أن نواجهه بالقوّة فنحن أقوياء ... و إذا ألح على كلامه و لم يكترث بنا فهو نبىّ، و فى هذه الصورة ينبغى التعامل معه بالحكمة و التعقل! و لم يذكر القرآن أية هدية أرسلتها الملكة إلى سليمان، لكنّه بتنكيرها بيّن عظمتها، إلّا أن المفسّرين ذكروا مسائل كثيرة لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم: أرسلت إليه خمسمائة غلام و خمسمائة جارية ممتازة، و قد ألبست الرجال ثياب النساء و النساء ثياب الرجال، و جعلت الأقراط فى آذان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۹

الرجال و الا سورة فى أيديهم، و ألبست الجوارى تيجانا ... و كتبت فى رسالتها إلى سليمان: لو كنت نبيّا فميّز الرجال من النساء!.

و بعثت أولئك على مراكب ثمينة، و معهم جواهر و أحجار كريمة، و أوصت رسولها- فى الضمن- أن أنظر كيف يواجهك سليمان عند وردك عليه، فإن واجهك بالغضب فاعلم بأنه سيرة الملوك، و إن واجهك بالمحبة و اللطف فاعلم أنّه نبىّ.

بحوث

۱- آداب كتابة الرسائل

ما ورد فى الآيات آنفة الذكر فى شأن كتاب «سليمان» إلى أهل سبأ، هو قدوة لكتابة الرسائل و «الكتب» و قد تكون من المسائل المهمّة و المصيرية ... إذ تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم و تبيّن روح الكلام فى جملتين مدروستين.

و يظهر من التاريخ الإسلامى و الرّوايات- بشكل واضح- أن أئمتنا الكرام عليهم الصلاة و السّلام، كانوا يعنون بالاختصار و الاقتضاب

فی إرسال الکتاب خالیا من الحشو و الزوائد، و هو مدروس أیضا.

فأمیر المؤمنین علیه السّلام یکتب إلی عماله و ممثلیه فی بعض کتبه:

«أدقوا أقلامکم، و قاربوا بین سطورکم، و احذفوا عنّی فضولکم، و اقصدوا قصد المعانی، و إیّاکم و الإکثار، فإن أموال المسلمین لا تحتمل الإضرار»[۳۲].

إن بری لسان القلم یجعل الکلمات أصغر، و تقارب السطور و حذف الفضول، لا یؤدی إلی الاقتصاد فی الأموال العامة أو الشخصیة فحسب- بل یقتصد فی وقت الکاتب و القارئ أیضا ... و قد یضیع الفضول و التشریفات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۰

الواردة فی أثناء جمل الکتاب الهدف من کتابته، فلا یصل الکاتب و القارئ إلی الهدف المنشود! و فی هذه الأیّام أصبح من المألوف الإکثار فی کتابة العناوین البراقة و الألقاب الفخمة و زیادة المقدمات و الحواشی و الإضافات علی خلاف ما کان فی صدر الإسلام ممّا یهدر الکثیر من الطاقات و الأوقات و الثروات.

و خاصة ینبغی الالتفات إلی أن الکتاب «الرسالة» فی ذلک العصر کان یتطلب زمانا طویلا لإیصاله و بذل المال لحامل الکتاب، و مع ذلک کانت الکتب موجزة مقتضبة، و یمکن ملاحظة أمثلة منها فی کتب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی خسرو پرویز و قیصر الروم و أمثالهما.

و أساسا فإنّ رسالة الإنسان و کتابه دلیل علی شخصیته، کما أن حامل الکتاب و الرّسول دلیل علی شخصیة المرسل أیضا.

یقول الإمام علی علیه السّلام فی نهج البلاغة: «رسولک ترجمان عقله، و کتابک أبلغ من ینطق عنک»[۳۳].

و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام «یستدل بکتاب الرجل علی عقله و موضع بصیرته، و برسوله علی فهمه و فطنته»[۳۴].

و الجدیر بالذکر أنّه یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أنّ ردّ الکتاب واجب کردّ السلام، إذ نقرأ

عن الإمام الصادق أنّه قال: «ردّ جواب الکتاب واجب کوجوب ردّ السلام»[۳۵].

و حیث أن کل رسالة أو کتاب مشفوع عادة بالتحیة، فلا یبعد أن یکون مشمولا بالآیة الکریمة وَ إِذا حُیِّیتُمْ بِتَحِیَّةٍ فَحَیُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها أَوْ رُدُّوها[۳۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۱

۲- هل دعا سلیمان إلی التقلید؟!

بعض المفسّرین استفادوا من کتاب سلیمان أنّه دعا أهل سبأ إلیه دون دلیل! ثمّ أجابوا بأن مجیء الهدهد بتلک الصورة «المعجزة» بنفسه دلیل علی حقانیة دعوته ۳۷].

إلّا أنّنا نعتقد أنّه لا حاجة إلی مثل هذه الردود و الإجابات، فوظیفة النّبی هی الدعوة. و وظیفة الآخرین التحقیق فی أمره. و بتعبیر آخر: إنّ الدعوة هی الباعث علی التحقیق ... کما قامت بذلک ملکة سبأ، فاختبرت سلیمان و تحققت عنه، أهو ملک أم نبیّ؟!

۳- مدالیل عمیقة فی قصّة سلیمان علیه السّلام

نلاحظ فی هذا القسم من قصّة سلیمان علیه السّلام إشارات قصیرة إلی مسائل مهمّة أیضا:

أ- تتلخص «روح» دعوة الأنبياء فى نفى الاستعلاء الذى يعنى نفى كل نوع من أنواع الاستثمار و الاستعمار، و التسليم للحق و القانون الصحيح.

ب- بالرغم من أنّ أصحاب ملكة سبأ أعلنوا استعدادهم لخوض المعركة، إلّا أن الطبع النسائى الشفاف فى الملكة لم يكن موافقا على ذلك، و لذلك عطفت انظارهم الى مسائل أخرى.

ج- و لو أن الملكة أذعنت لرأيهم فى الحرب لكانت بعيدة عن الحقيقة و الصواب، و سنرى أن إقدامها على إرسال الهدية كان مثمرا، و كانت نتيجة طيبة لها و لقومها، و كان سببا لأن يهتدوا إلى طريق الحق و العدل، و يبتعدوا عن سفك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۲

الدماء! د- و يستفاد من هذه القضية ضمنا أن المناهج التشاورية لا تنتهى إلى الحق دائما ... إذ كانت عقيدة الأكثرية هنا أن يلجأ و إلى القوّة و القتال فى حين أن ملكة سبأ كانت ترى خلاف نظرتهم، و سنرى أن الحق كان معها فى نهاية القصّة! ه- و يمكن أن يقال: إنّ هذا النوع من التشاور أو المشورة غير ما هو جار بيننا اليوم من التشاور ... فنحن نأخذ برأى الأكثرية على أنّه هو المعيار، و نعطيهم حق التصويت و التصويب. فى حين أن التشاور محل البحث هو مجرّد إبداء النظر من قبل الأكثرية، و الرأى الحاسم لقائد تلك الجماعة ... و لعل الآية وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۳۸] تشير إلى هذا القسم الثّانى من التشاور. أمّا الآية الكريمة وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ ۳۹] فناظرة إلى القسم الأوّل ۴۰].

و- قال أصحاب ملكة سبأ لها نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَ أُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ و لعل هذا الاختلاف بين «القوة» و «البأس» فى التعبير، هو أنّ «القوة» إشارة إلى الكمية العظيمة من الجيش ... و «البأس الشديد» إشارة إلى كيفية العمل و روح الشجاعة و الشهامة فى الجيش، أى أن مرادهم أنّهم مستعدون للقتال من الناحية «الكمية» و من حيث «الكيفية» لمواجهة العدو أيضا.

۴- علامات الملوك

يستفاد من هذه الآيات- بصورة جيدة- أن الحكومة الاستبدادية و السلطنة فى كل مكان مدعاة للفساد و إذلال الأعزة ... لأنّ الملوك يبعدون عنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۳

الشخصيات الفذة، و يدنون المتملقين، و يبحثون فى كل شىء عن مصالحهم و منافعهم الذاتية، و هم أهل رشوة و ذهب و مال، و بالطبع فإنّ الأمراء و الأعوان القادرين على هذه الأمور أحبّ عندهم من غيرهم.

و بينما نرى تفكير الملوك و رغباتهم تتلخص فى نيل الهدايا و الجاه و المقام و الذهب و المال ... نجد أنّ الأنبياء لا يفكرون إلّا بإصلاح أممهم!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۴

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَ سُلَيْمانَ قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (۳۶) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ (۳۷)

التّفسير

لا تخدعونى بالمال:

خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا و تركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «فى الشام» ظنّا منهم أن سليمان سيكون مسرورا بمشاهدته هذه الهدايا و يرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإنّ سليمان عليه السّلام مضافا الى عدم استقباله و اكتراثه بتلك الهدايا قالَ أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتاكُمْ فما قيمة المال، إزاء مقام النبوّة و العلم و الهداية و التقوى بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ أجل، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف، فيهدى بعضكم لبعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۵

فيشرق وجه تملع عيناه! إلّا أن هذه الأمور لا قيمة لها عندى و لا أكترث بها.

و هكذا فقد حقّر سليمان عليه السّلام معيار القيم عندهم، و أوضح لهم أن هناك معيارا آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا و لا تساوى شيئا.

و من أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق و الباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها وَ لَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْها أَذِلَّةً وَ هُمْ صاغِرُونَ

و أَذِلَّةً فى الحقيقة حال أولى و هُمْ صاغِرُونَ حال ثانية، و هما إشارة إلى أن أولئك لا يخرجون من أرضهم فحسب، بل بالإذلال و الإحقار و الصغار بشكل يتركون جميع ممتلكاتهم من قصور و أموال و جاه و جلال ... لأنّهم لم يذعنوا- و يسلموا- للحق ... و إنّما قصدوا الخداع و المكر! و طبيعى أن هذا التهديد كان تهديدا جديّا جديرا بأن يؤخذ بنظر الإعتبار بالنسبة لرسل ملكة سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

و مع ملاحظة ما قرأناه فى الآيات السابقة من أنّ سليمان طلب من أولئك شيئين: ترك الاستعلاء، و التسليم للحق أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَ أْتُونِي مُسْلِمِينَ و كان عدم إجابتهم لهذين و توسلهم بالهديّة دليلا على امتناعهم من قبول الحقّ و ترك الاستعلاء، و لذلك هدّدهم باستخدام القوة العسكرية.

و لو أنّ ملكة سبأ و قومها طلبوا من سليمان الدليل و المعجزة (على أنّه نبىّ مطاع) لأعطاهم الحق أن يتحروا و يفحصوا أكثر ... إلّا أنّ إرسال الهدية ظاهره أنّهم فى مقام الإنكار.

و اتضح كذلك أنّ أهمّ خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعة «ملكة سبأ و قومها» أنّهم كانوا يعبدون الشمس و يسجدون لها من دون اللّه الذى له ما فى السماوات و الأرض فكان سليمان عليه السّلام قلقا من هذا الأمر ... و من المعلوم أن عبادة الأصنام ليست أمرا هيّنا تسكت عنه الأديان السماوية، أو أن تتحمل عبدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۶

الأصنام على أنّهم أقليّة دينية. بل تستخدم القوّة إذا لزم الأمر و تحطم الأصنام و يطوى الشرك و مريدوه من الوجود!.

و ممّا بيّناه من توضيحات آنفا يظهر أنّه لا تنافى بين تهديدات سليمان و الأصل الأساس لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ لأنّ عبادة الأصنام ليست دينا، بل هى خرافة و انحراف.

ملاحظات

۱- ممّا ينبغى الالتفات إليه أن الزهد فى الأديان السماوية لا يعنى أن لا يتمتع الإنسان بماله و ثرواته و إمكاناته الدنيوية، بل حقيقة الزهد هى أن لا يكون أسير هذه الأمور .. بل أميرا عليها .. و قد بيّن سليمان هذا النبىّ العظيم بردّه الهدايا الثمينة على ملكة سبأ أنّه أميرها لا أسيرها.

و نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «الدنيا أصغر قدرا عند اللّه و عند أنبيائه و أوليائه من أن يفرحوا بشىء منها، أو يحزنوا عليه، فلا ينبغى لعالم و لا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا»[۴۱].

۲- و مرّة أخرى نجد فى هذا القسم من قصّة سليمان دروسا جديرة بالنظر، خافية فى تعابير الآيات الكريمة:

ألف: إن الهدف من تعبئة الجيش ليس قتل الناس، بل أن يرى العدوّ نفسه ضعيفا قبالها، و لا يرى نفسه قادرا على مواجهة الطرف الآخر: بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها.

و هذا التعبير نظير ما أمر به المسلمون وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۷

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ [۴۲] ب- إنّ سليمان عليه السّلام لا يهدد مخالفيه بالقتل، بل يهددهم بالإخراج من القصور أذلة صاغرين، و هذا الأمر جدير بالملاحظة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۶۷

إنّ سليمان لا يستغفل مخالفيه، بل يحذرهم بصراحة قبل الهجوم.

د- إنّ سليمان لا يطمع فى أموال الآخرين، بل يقول: «ما آتانى اللّه خير» فهو لا يرى مواهب اللّه منحصرة بالقدرة المادية و المالية، بل يفتخر بالعلم و الإيمان و المواهب المعنوية!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۸

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (۳۸) قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (۳۹) قالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ (۴۰)

التّفسير

حضور العرش فى طرفة عين:

و أخيرا عاد رسل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم و أمتعتهم إلى بلدهم، و أخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة ملك سليمان عليه السّلام المعجز و جهازه الحكومى، و كل واحد من هذه الأمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد و لا ملكا كسائر الملوك، بل هو مرسل من قبل اللّه حقّا، و حكومته حكومة إلهية.

و هنا اتّضح لأولئك جميعا أنّهم غير قادرين على مواجهته عكسريا، بل إذا استطاعوا- فرضا- فهم على احتمال قوى فى مواجهة نبىّ عظيم ذى سلطة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۶۹

واسعة!.

لذلك قررت الملكة أن تأتى بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، و يتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أىّ طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السّلام، فعزم على اظهار قدرته العجيبة- و الملكة و أصحابها فى الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شىء على إعجازه، ليذعنوا له و يسلّموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و قالَ يا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِها قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ

و بالرغم من أن المفسّرين أتعبوا أنفسهم للوقوف على علّة إحضار عرش الملكة، و ربّما ذكروا وجوها لا تنسجم مع مفاد الآيات و لا تتناسب و إيّاها!. إلّا أن من الواضح أنّ هدف سليمان عليه السّلام من هذه الخطة إنّه كان يريد أن يظهر أمرا مهما للغاية خارقا للعادة ليذعنوا له دون قيد، و يؤمنوا بقدرة اللّه من دون حاجة إلى سفك الدماء و المواجهة فى ساحات القتال.

كان يريد أن ينفذ الإيمان إلى أعماق قلب ملكة سبأ و أشراف قومها، ليستجيب الباقون لدعوته و التسليم لأمره!.

و هنا أظهر شخصان استعدادهما لامتثال طلب سليمان عليه السّلام، و كان أمر أحدهما عجيبا و الآخر أعجب! إذ قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ ۴۳]. فهذا الأمر على يسير، و لا أجد فيه مشقة، كما أنّى لا أخونك أبدا، لأنّى قادر على ذلك وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ

و «العفريت» ... معناه المارد الخبيث.

و جملة وَ إِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات «إنّ و الجملة الاسميّة، و لام التوكيد» تشر الى احتمال خيانة هذا العفريت ... لذلك فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۰

أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين و فىّ.

و على كل حال فإنّ قصّة «سليمان» مملوءة بالعجائب الخارقة للعادات فلا عجب أن يرى عفريت بهذه الحالة مبديا استعداده للقيام بهذه المهمّة خلال سويعات .. و سليمان يقضى بين الناس، أو يتابع أمور مملكته، أو يقدم نصحه و إرشاده للآخرين.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلا صالحا له علم ببعض ما فى الكتاب، و يتحدث عنه القرآن فيقول: قالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ

فلمّا وافق سليمان عليه السّلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالاستعانة بقوته المعنوية فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.

ثمّ أضاف قائلا: وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ

و هناك اختلاف بين المفسّرين و كلام طويل فى أن هذا الشخص الذى جاء بعرش الملكة، من كان؟! و من أين له هذه القدرة العجيبة؟! و ما المراد عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ

إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين و أوليائه الخاصين، و قد جاء اسمه فى التواريخ بأنه (آصف بن برخيا) وزير سليمان و ابن أخته ۴۴].

و أمّا «علم الكتاب» فالمراد منه معرفة ما فى الكتب السماوية ... المعرفة العميقة التى تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعادة! و قال بعضهم: يحتمل أن يكون المراد من (علم الكتاب) هو اللوح المحفوظ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۱

الذی علم اللّه بعضه ذلک الرجل «آصف» و لذلک استطاع أن یأتی بعرش ملکة سبأ بطرفة عین، و یحضره عند سلیمان!.

و قال کثیر من المفسّرین: إنّ هـذا الرجل المؤمن کان عارفا بالاسم الأعظم، ذلک الاسم الـذی یخضع له کل شـیء، و یمنـح الإنسان قدرة خارقة للعادة!.

و ینبغی القول أن «الاسم الأعظم» لیس کما یتصوره الکثیر بأنّ مفهومه أن یتلفظ الإنسان بکلمة فیکون وراءها الأثر العجیب، بل المراد منه التخلـق بـذلک الاـسم و الوصف، أی علی الإنسـان أن یسـتوعب «الاـسم» فی نفسه و روحه، و أن یتکامـل علمه و خلقه و تقواه و إیمانه إلی درجة یکون بها مظهرا من مظاهر ذلک الاسم الأعظم، فهذا التکامل المعنوی و الروحانی (بواسطة الاسم الأعظم) یوجد فی الإنسان مثل هذه القدرة الخارقة للعادة[۴۵].

کمـا أنّ للمفسّـرین فی جملـة قَبْلَ أَنْ یَرْتَـدَّ إِلَیْکَ طَرْفُکَ لکن بملاحظـة الآیات الاخر من القرآن یمکن معرفـة حقیقتها ... ففی الآیة (۴۳) من سورة إبراهیم نقرأ: لا یَرْتَدُّ إِلَیْهِمْ طَرْفُهُمْ

و نحن نعرف أن الإنسان عند ما یستوحش و یذهل، تبقی عیناه مفتوحتان علی وتیرة واحدة کأنّهما عینا میت لا تتحرکان.

فبناء علی ذلک فالمراد منه أنّنی سأحضر عرش ملکة بلقیس قبل أن یتحرک جفناک ۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۲

مسائل مهمة:

۱- الجواب علی بعض الاسئلة

من الأسـئلة- التی تثار حول الآیات آنفة الذکر- هذا السؤال: لم لم یقدم سـلیمان بنفسه علی هذا العمل الخارق للعادة؟ فهو نبیّ کریم من قبل اللّه و ذو معاجز! فلم حوّل هذا الأمر إلی «آصف بن برخیا»؟! لعل الوجه فی ذلک أن آصف کان وصـیّه، و کان سـلیمان یرید أن یبیّن موقعه فی هذه اللحظة الحساسة للجمیع ۴۷].

إضافـة إلی ذلک فإن من المهم أن یختبر الأسـتاذ تلامیـذه فی الموارد اللازمـة و یعرف جـدارتهم، و أساسا فإنّ جـدارة التلامیذ دلیل کبیر علی جدارة الأستاذ.

السؤال الآخر هو: کیف جاء سلیمان بعرش ملکة سبأ و أحضره عنده دون إذنها؟.

فیقال: لعل ذلک لبیان هـدف أسـمی، کمسألـة الهدایـة و بیان معجزة کبیرة. ثمّ بعد هذا کله فإننا نعرف أن الملوک لیس لهم مال من أنفسهم، بل أموالهم فی الغالب مغصوبة من الآخرین!.

السؤال الآـخر: کیف تکون لعفریت من الجن القـدرة علی أمر خـارق للعـادة کهـذه الحادثـة؟! و قـد بیّنا الجواب علی هـذا السؤال فی الأبحاث المتعلقة بالإعجاز، فقلنا: إن من الناس حتی غیر المؤمنین من تکون له قدرة علی بعض الأمور الخارقة للعادة (و ذلک للریاضة المجهدة و مجاهدة النفس) إلّا أن الفرق بین ما یقومون به ممّا یخرق العادة و بین المعجزة هو أنّه لما کانت أعمالهم مستندة إلی قدرة بشـریة محـدودة ... فهی «أعمالهم الخارقـة للعادة» محـدودة دائما، فی حین أن المعاجز تسـتند إلی قدرة اللّه التی لا نهایة لها، و قدرته کسائر صفاته غیر محدودة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۳

لـذلک نری أن العفریت من الجن یحدّد قدرته- علی فترة بقاء سـلیمان فی مجلس القضاء و التحقیق فی أمور البلد، لیأتیه بعرش ملکة

سبأ، فی حین أنّ آصف بن برخیا لم یحدد قدرته، و تحدیدها بارتداد الطرف هو فی الحقیقة إشارة إلی أدنی فترة زمنیة ممکنة ... و من المسلم به أن سلیمان علیه السّلام یشجع الأعمال التی تبیّن للناس الأشخاص الصالحین، و یبارکها، لا عمل العفریت الذی قد یوقع العوام و البساط فی الوهم، فیعدونه دلیلا علی تقواه و طهارته!.

و بدیهی أن أیّ إنسان یقوم بعمل مهم فی المجتمع و یکون عمله مقبولا فانّ أفکاره و معتقداته ستتجذّر و تتحدّد فی المجتمع بذلک «العمل» فلا ینبغی أن یأخذ العفاریت زمام المبادرة فی حکومة سلیمان الإلهیة، بل ینبغی أن یقوم به من عندهم علم من الکتاب لیؤثروا علی أفکار الناس و عواطفهم.

۲- القوة و الأمانة شرطان مهمان

جاء فی الآیات المتقدمة- و الآیة (۲۶) من سورة القصص- أن أهم شرط للعامل أو الموظف شیئان: الأوّل القوة، و الثّانی الأمانة!.

و بالطبع فإنّ المبانی الفکریة و الأخلاقیة قد تقتضی أن یکون الإنسان حاویا علی هاتین الصفتین «کما هی الحال فی شأن موسی الوارد ذکره فی سورة القصص» و قد یقتضی نظام المجتمع و الحکومة الصالحة أن یتصف بهاتین الصفتین حتی العفریت من الجن إلزاما .. و لکن- علی کل حال- فلیس من الممکن القیام بأی عمل کبیر أو صغیر فی المجتمع دون توفر هاتین الصفتین ...

سواء کان مصدرهما «التقوی» أو «النظام القانونی» .. «فتأملّوا بدقة».

۳- الفرق بین «علم من الکتاب» و «علم الکتاب» جاء التعبیر فی الآیات- محل البحث- عن الذی أتی بعرش ملکة سبأ فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۴

أدنی مدّة «و بطرفة عین» ب مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ بینما جاء فی الآیة (۴۳) من سورة الرعد فی شأن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و من یشهد علی حقانیته قُلْ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ

فی حدیث عن أبی سعید الخدری أنّه قال: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الَّذِی عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْکِتابِ الوارد فی قصّة سلیمان، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: هو وصی أخی سلیمان بن داود، فقلت: و الآیة وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْکِتابِ عمن تتحدث؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ذاک أخی علی بن أبی طالب علیه السّلام ۴۸].

و الالتفات إلی الفرق بین «علم من الکتاب» الذی یعنی «العلم الجزئی» و (علم الکتاب) الذی یعنی «العلم الکلی»، یکشف البون الشاسع بین آصف و علی علیه السّلام.

لذلک نقرأ فی روایات کثیرة أنّ الاسم الأعظم ثلاثة و سبعون حرفا إنّما کان عند آصف منها حرف واحد فتکلم به فخسف بالأرض ما بینه و بین سریر بلقیس حتی تناول السریر بیده، ثمّ عادت الأرض کما کانت أسرع من طرفة عین- کان «حرف» واحد منه عند «آصف بن برخیا» و قام بمثل هذا العمل الخارق للعادة- و عندنا نحن الائمّة من أهل البیت- اثنان و سبعون حرفا، و حرف واحد عند اللّه تبارک و تعالی استأثر به فی علم الغیب عنده ۴۹].

۴- هذا من فضل ربّی

إن عبدة الدنیا و طلّابها المغرورین حین ینالون «القوّة» و الاقتدار ینسون کل شیء إلّا أنفسهم .. و کل ما یقع فی أیدیهم یحسبونه من عند أنفسهم لا من غیرهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۵

كما كان قارون يقول: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِى .. فى حين أن عباد اللّه و خاصّته كلما نالوا شيئا قالوا: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ..

الطريف أن سليمان عليه السّلام لم يقل هذا الكلام عند ما شاهد عرش ملكة سبأ عنده فحسب، بل أضاف قائلا: لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ.

و قرأنا فى هذه السورة- من قبل- أن سليمان عليه السّلام كان يرى جميع النعم التى يتمتع بها من نعم اللّه عليه، و كان يدعو ربّه خاضعا فيقول: رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ أجل .. هذا هو معيار معرفة الموحدين المخلصين من عبدة الدنيا المغرورين .. و هذه سيرة الرجال العظماء فى قبال غيرهم من الأنانيين!.

و بالرغم من أنّه اعتيد كتابة هذه العبارة المهمة هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى من قبل المتظاهرين بالشكر على أبواب قصورهم «الطاغوتية» دون أن يعتقدوا بذلك أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة فى عملهم .. إلّا أن المهم هو أن تكتب على الباب و على جبين حياة الإنسان و فى قبله ... أيضا، و أن يكشف عمله أن كل ذلك من فضل اللّه .. و أن يشكره عليه، لا شكرا باللسان فحسب، بل شكرا مقرونا بالعمل و فى جميع وجوده ۵۰].

۵- كيف أحضر «آصف» عرش الملكة؟!

لم يكن هذا (الأمر) أوّل خارق للعادة نراه فى قصّة سليمان عليه السّلام، أو فى حياة الأنبياء بشكل عام .. و على من يحمل هذه التعبيرات على الكناية و المجاز، و لا يؤخذ بظاهرها، أن يبينوا موقفهم من معاجز الأنبياء.

ترى هل يرون الأعمال الخارقة للعادة للأنبياء و خلفائهم محالا، و ينكرونها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۶

كليّا؟! فهذا ما لا ينسجم مع أصل التوحيد، و لا مع قدرة اللّه الحاكمة على قوانين الوجود، و لا ينسجم مع صريح القرآن فى آيات كثيرة .. أيضا.

أمّا إذا قبلوا بإمكان المعاجز، فلا ينبغى أن يفرقوا بين أن يكون البحث عن إحياء الموتى و إبراء العمى من قبل «عيسى بن مريم» عليه السّلام، أو عن إحضار عرش ملكة سبأ من قبل آصف بن برخيا.

و لا شك أن هنا علائق مجهولة و عللا لا نعرفها فى هذا الأمر، إذ نجهل ذلك بعلمنا «المحدود»، لكننا نعرف أن هذا الأمر غير محال.

فهل استطاع «آصف» بقدرته المعنوية أن يبدل عرش بلقيس إلى أمواج من نور، و بلحظة أحضرها عند سليمان عليه السّلام ثمّ أرجعها إلى مادتها الأصليّة مرّة أخرى؟ ... هذا الأمر عندنا يلفّه الغموض.

و ما نعرف أن الإنسان يقوم اليوم بأعمال بواسطة الطرق العلمية المتداولة، كانت قبل مائتى عام تعدّ فى دائرة المحال!.

فمثلا لو كان يقال لشخص ما قبل عدّة قرون: سيأتى زمان على الناس يتكلم الرجل فى المشرق فيسمعه الآخرون و يرونه فى المغرب فى اللحظة ذاتها .. لكان يعد هذا المقال ضربا من الهذيان أو الحلم! و ليس هذا إلّا لأنّ الإنسان يريد أن يقوّم كل شىء بعلمه المحدود و قدرته القاصرة! مع أن ما وراء علمه و قدرته أسرارا خفية كثيرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۷

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ (۴۱) فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ (۴۲) وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ (۴۳) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها قالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۴)

التّفسير

نور الايمان فى قلب الملكة:

نواجه فى هذه الآيات مشهدا آخر، ممّا جرى بين سليمان و ملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ و درايتها، و يهيء الجوّ لإيمانها باللّه، أمر أن يغيروا عرشها و ينكّروه ف قالَ نَكِّرُوا لَها عَرْشَها نَنْظُرْ أَ تَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ

و بالرغم من أن المجيء بعرشها من سبأ الى الشام كان كافيا لان لا تعرفه ببساطة .. و لكن مع ذلك فإنّ سليمان أمر أن يوجدوا تغييرات فيه، من قبيل تبديل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۸

بعض علاماته، أو تغيير ألوانه و مواضع مجوهراته، و لكن هذا السؤال: ما الهدف الذى كان سليمان عليه السّلام يتوخّاه من اختبار عقل (و درايهٔ) ملكهٔ سبأ و ذكائها؟

لعل هذا الاختبار كان لمعرفهٔ أى منطق يواجهها به؟ و كيف يأتى لها بدليل لإثبات المبانى العقائديهٔ؟

أو كان يفكر أن يتزوجها، و كان يريد أن يعرف هل هى جديرهٔ بأن تكون زوجهٔ له، أم لا؟ .. أو أراد- واقعا- أن يعهد لها بمسؤوليهٔ بعد ايمانها ... فلا بدّ من معرفهٔ مقدار استعدادها لقبول المسؤوليهٔ! و هناك تفسيران لجملهٔ أَ تَهْتَدِي فقال بعضهم: المراد منها معرفهٔ عرشها.

و قال بعضهم: المراد من هذه الجملهٔ أنّها هل تهتدى إلى اللّه برؤيهٔ المعجزهٔ، أو لا؟! إلّا أنّ الظاهر هو المعنى الأوّل، و إن كان المعنى الأوّل بنفسه مقدمهٔ للمعنى الثّانى.

و على كل حال ... فَلَمَّا جاءَتْ قِيلَ أَ هكَذا عَرْشُكِ و الظاهر أن القائل لها لم يكن سليمان نفسه، و الّا فلا يناسب التعبير ب «قيل»، لأنّ اسم سليمان ورد قبل هذه الجملهٔ و بعدها، و عبّر عن كلامه ب «قال».

أضف إلى ذلك أنّه لا يناسب مقام سليمان عليه السّلام أن يبادرها بمثل هذا الكلام.

و على أى حال. فإنّ ملكهٔ سبأ أجابت جوابا دقيقا و قالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ.

فلو قالت: يشبه، لأخطأت .. و لو قالت: هو نفسه، لخالفت الاحتياط، لأنّ مجيء عرشها إلى أرض سليمان لم يكن مسألهٔ ممكنهٔ بالطرق الاعتياديهٔ، إلّا أن تكون معجزهٔ.

و قد جاء فى التواريخ أن ملكهٔ سبأ كانت قد أودعت عرشها الثمين فى مكان محفوظ، و فى قصر مخصوص فيه غرفهٔ عليها حرس كثير! و مع كل ذلك فإنّ ملكهٔ سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۷۹

من تغييرات .. فقالت مباشرهٔ: وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ

أى، إذا كان مراد سليمان عليه السّلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكى نؤمن به، فإنّنا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر ..

كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

و هكذا فأنّ سليمان عليه السّلام منعها وَ صَدَّها ما كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۵۱] بالرغم من إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ

أجل، إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤية هذه العلائم المنيرة، و خطت نحو مرحلة جديدة من الحياة المملوءة بنور الإيمان و اليقين.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، و هو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

و كان سليمان عليه السّلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، و أن يجرى الماء من تحتها.

فلمّا وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ۵۲] فلما رأته ظنته نهرا جاريا فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء و هى متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجارى، و كما يقول القرآن: فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَ كَشَفَتْ عَنْ ساقَيْها[۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۰

إلّا أنّ سليمان عليه السّلام التفت إليها و قال: إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِيرَ[۵۴].

فلا حاجة الى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

و هنا ينقدح سؤال هام، و هو أن سليمان نبىّ كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق و التزيّن الرائق ... و الصرح الممرد و البساط الممهّد! .. و صحيح أنّه كان حاكما مبسوط اليد، إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنّه، ما يمنع أن يرى سليمان ملكة سبأ التى كانت ترى قدرتها و عظمتها بالعرش و التاج و القصر العظيم و الزينة .. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، و لتحتقر ما عندها؟! و هذه نقطة انعطاف فى حياتها لتعيد النظر فى ميزان القيم و معيار الشخصية! ما يمنعه- بدلا من أن يغير جيشا لجبا فيسفك الدماء- أن يجعل فكر ملكة سبأ حائرا مبهوتا بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلا ... خاصة أنّها كانت امرأة تهتم بهذه الأمور و التشريفات! و لا سيما أنّ أغلب المفسّرين صرحوا بأن سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح و القصر قبل أن تصل ملكة سبأ إلى الشام، و كان هدفه أن يريها قدرته لتذعن لأمره و تسلم له ... و هذا الأمر يدلّ على أن سليمان عليه السّلام كان يتمتع فى سلطانه بقدرة عظيمة من حيث القوّة الظاهرية وفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

و بتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، و قبول دين الحق، و الوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمرا مسرفا.

و لذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع قالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۱

لقد كنت فى ما مضى أسجد للشمس و أعبد الأصنام، و كنت غارقة فى الزينة و التجميل، و كنت أتصور أنّى أعلى الناس فى الدنيا.

أمّا الآن فإنّنى أفهم أنّنى ضعيفة جدّا و هذه الزخارف و الزبارج لا تروى ظمأ الإنسان و لا تبلّ غليل روحه!.

ربّاه ... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمرى، خاضعة عنقى إليك. الطريف هنا أنّها تقول: أسلمت مع سليمان، فتستعمل كلمة (مع) ليتجلّى أن الجميع إخوة فى السبيل إلى اللّه! لا- كما يعتاده الجبابرة إذ يتسلط بعضهم على رقاب بعض، و ترى جماعة أسيرة فى قبضة آخر.

فهنا لا يوجد غالب و مغلوب، بل الجميع- بعد قبول الحق- فى صف واحد!.

صحيح أن ملكة سبأ كانت قد أعلنت إيمانها قبل ذلك أيضا، لأنّنا سمعنا عن لسانها فى الآيات آنفة الذكر وَ أُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَ كُنَّا مُسْلِمِينَ

إلّا أن إسلام الملكة هنا وصل إلى أوجه، لذلك أكّدت إسلامها مرّة أخرى.

إنها رأت دلائل متعددة على حقانية دعوة سليمان.

فمجىء الهدهد بتلك الحالة الخاصّة! و عدم قبول سليمان الهدية الثمينة المرسلة من قبلها.

و إحضار عرشها فى فترة قصيرة من مدى بعيد.

و أخيرا مشاهدة قدرة سليمان الاعجازية، و ما لمسته فيه من أخلاق دمثة لا تشبه أخلاق الملوك!

بحثان

۱- عاقبة أمر ملكة سبأ

كان هذا كل ما ورد فى القرآن المجيد عن ملكة سبأ إذ آمنت أخيرا و لحقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۲

بالصالحين ... لكن هل عادت إلى وطنها بعد إيمانها، و واصلت حكمها من قبل سليمان، أو بقيت عند سليمان و تزوجت منه؟! أو تزوجت من أحد ملوك اليمن المشهورين باسم «تبّع»؟

هذه الأمور لم يشر إليها القرآن الكريم، لأنّها لا علاقة لها بالهدف الأصلى الذى يبتغيه القرآن من المسائل التربوية! ... إلّا أن المؤرّخين و المفسّرين كلّا منهم اختار رأيا، و لا نجد ضرورة فى الخوض فى ذلك، و إن كان المشهور- طبقا لما قاله أغلب المفسّرين- أنّها تزوّجت من سليمان نفسه ۵۵].

إلّا أنّه ينبغى أن نذكّر بهذا الأمر المهم، و هو أنّه وردت أساطير كثيرة حول سليمان و جنوده و حكومته و خصوصيات ملكة سبأ. و جزئيات حياتها أيضا، ممّا يصعب على عامة الناس تمييزها من الحقائق التاريخية، و ربّما يغشّى هذه الحقائق التاريخية. ظلّ مظلم من الخرافات يشوه وجهها الناصع .. و هذه هى نتيجة الخرافات المتداخلة فى الحقائق التى ينبغى أن تراقب مراقبة تامّة!.

۲- خلاصة عامة عن حياة سليمان

ما ورد عن سيرة سليمان و حالاته فى الثلاثين آية آنفة الذكر، يكشف عن مسائل كثيرة، قرأنا قسما منها فى أثناء البحث، و نشير إلى القسم الآخر إشارة عابرة:

۱- إنّ هذه القصّة تبدأ بالحديث عن موهبة (العلم الوافر) التى وهبها اللّه لسليمان بن داود، و تنتهى بالتسليم لأمر اللّه، و ذلك التوحيد أساسه العلم أيضا.

۲- هذه القصّة تدل على أن غياب طائر أحيانا (فى تحليقة استثنائية) قد يغير مسير تأريخ أمّة، و يجرها من الفساد إلى الصلاح، و من الشرك إلى الإيمان ...

و هذا مثل عن بيان قدرة اللّه، و مثل من حكومة الحق!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۳

۳- إنّ هذه القصّة تكشف عن أن نور التوحيد يشرق فى جميع القلوب، حتى الطائر الذى يبدو ظاهرا أنّه صامت، فإنّه يخبر عن أسرار التوحيد العميقة!.

۴- ينبغى من أجل لفت نظر الإنسان إلى القيمة الواقعية له و هدايته نحو اللّه، أن يدمّر غروره و كبرياؤه أولا .. ليماط عن وجه ستار الظلام، كما فعل سليمان، فدمر غرور ملكة سبأ و ذلك بإحضار عرشها، و إدخالها الصرح الممرد الذى حسبته لجة.

۵- إنّ الهدف النهائى فى حكومة الأنبياء ليس التوسع فى رقعة الأرض، بل الهدف هو ما قرأناه فى آخر آية من الآيات محل البحث،

و هو أن يعترف الظالم بذنبه، و أن يسلم لربّ العالمين، و لذلك فإن القرآن ختم بهذه «اللطيفة» القصّة المذكورة.

۶- إنّ روح الإيمان هى التسليم، لذلك فقد أكّد سليمان عليه فى كتابه إلى ملكة سبأ.

۷- قد يكون بعض الناس مع ما لديه من قدرة عظيمة لا ترقى إليه قدرة الآخرين، محتاجا إلى موجود ضعيف كالطائر مثلا، لا إلى علمه فحسب، بل قد يستعين بعلمه أيضا، و قد تحقّره نملة بما هى عليه من ضعف! ۸- إنّ نزول هذه الآيات فى مكّة حيث كان المسلمون تحت نير العدو، و كانت الأبواب موصدة بوجوههم، هذا النّزول كان له مفهومه الخاص. و هو تقوية معنويات المسلمين و تسلية قلوبهم، و احياء أملهم بلطف اللّه و رحمته و الانتصارات المقبلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۴

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ (۴۵) قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۶) قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (۴۷)

التّفسير

صالح فى ثمود:

بعد ذكر جانب من قصص موسى و داود و سليمان عليه السّلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصّة رابع نبىّ- و تبيّن جانبا من حياته مع قومه- فى هذه السورة، و هى ما جاء عن صالح عليه السّلام و قومه «ثمود»! إذ يقول القرآن: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۵۶].

و كما قيل من قبل: إنّ التعبير ب «أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبّة و الإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم، كما أن فى بعض المواطن إشارة الى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۵

و على كل حال، فإنّ جميع دعوة هذا النّبى العظيم تلخصت فى جملة أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ أجل، إنّ عبادة اللّه هى عصارة كل تعليمات رسل اللّه.

ثمّ يضيف قائلا: فَإِذا هُمْ فَرِيقانِ يَخْتَصِمُونَ ۵۷]. المؤمنون من جهة و المنكرون المعاندون من جهة أخرى.

و قد عبر فى الآيتين ۷۵ و ۷۶ من سورة الأعراف عن الفريقين، بالمستكبرين و المستضعفين: قالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَ تَعْلَمُونَ أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ، قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِى آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ

و بالطبع فإنّ هذه المواجهة بين الفريقين «الكفار و المؤمنين» تصدق فى شأن كثير من الأنبياء، بالرغم من أن بعض الأنبياء بقوا محرومين حتى من هذا المقدار القليل من الأنصار حيث وقف كل افراد قومهم ضدهم.

فأخذ صالح عليه السّلام ينذرهم و يحذرهم من عذاب اللّه الأليم ... إلّا أنّ أولئك لم يستجيبوا له و تمسكوا بعنادهم و طلبوا منه بإصرار أن إذا كنت نبيّا فليحل بنا عذاب اللّه «و قد صرحت الآية ۷۷ من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب» وَ قالُوا يا

صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

إلّا أن صالحا أجابهم محذرا و قالَ يا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ.

فلم تفكرون بعذاب اللّه دائما و تستعجلونه؟ أ لا تعلمون أن عذاب اللّه إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم و لا يبقى مجال للايمان؟

تعالوا و اختبروا صدق دعوتى فى البعد الايجابى و الأمل فى رحمة اللّه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۶

ظل الإيمان به لَوْ لا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

علام تسألون عن نزول العذاب و تصرون على السيئات؟! و لم هذا العناد و هذه الحماقة؟! لم يكن قوم صالح- وحدهم- قد طلبوا العذاب بعد انكارهم دعوة نبيّهم، فقد ورد فى القرآن المجيد هذا الأمر مرارا فى شأن الأمم الآخرين، و منهم قوم هود «كما فى الآية ۷۰ من سورة الأعراف».

و نقرأ فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما واجهه به بعض المشركين المعاندين، إذ قالوا: اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ [۵۸] و هذا أمر عجيب حقّا أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة! مع أنّهم يعلمون يقينا احتمال صدق دعوة هؤلاء الأنبياء «يعلمون ذلك فى قلوبهم و إن أنكروه بلسانهم».

و هذا الأمر يشبه حالة ما لو أدعى رجل بأنّه طبيب، فيقول: هذا الدواء ناجع شاف، و ذلك الدواء ضار مهلك. و نحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!! فهذا منتهى الجهل و التعصب ... و لمرض الجهل الكثير من هذه الافرازات.

و على كل حال، فإنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلا من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم و يستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية و كلمات باطلة! ... منها أنّهم قالُوا اطَّيَّرْنا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ و لعل تلك السنة كانت سنة قحط و جدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء و المشاكل و العقبات كلّها بسبب قدوم هذا النّبى و أصحابه ... فهم مشئومون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۷

جلبوا الشقاء لمجتمعنا!! فكانوا يحاولون مواجهة دعوة نبيّهم صالح و منطقه المتين بحربة التطير، التى هى حربة المعاندين الخرافيين.

لكنّه ردّ عليهم و قالَ طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ فهو الذى يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إن ذلك اختبار و إمتحان إلهى كبير لكم، أجل بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

هذه امتحانات و فتن إلهية ... هذه إنذارات و تنبيهات لينتبه- من فيهم اللياقة من غفلتهم، و يصلحوا انحرافهم و يتجهوا نحو اللّه!.

بحث

«التطيّر و التفاؤل»

«التطيّر» مأخوذ من مادة «طير» و هو معروف، إذ يعنى ما يطير بجناحين فى الجوّ، و لما كان العرب يتشاءمون غالبا من بعض الطيور، سمى الفأل غير المحبوب تطيّرا، و هو فى قبال «التفأل» و معناه الفأل الحسن المحبوب.

و قد وردت فى القرآن الإشارة إلى هذا المعنى مرارا و هى أن المشركين الخرافيّين كانوا يواجهون أنبياءهم بحربة التطير، كما نقرأ ذلك فى قصّة موسى و أصحابه وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ ۵۹].

و فى الآيات- محل البحث- أظهر قوم «ثمود» المشركون رد فعلّهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۸

مقابل نبيّهم «صالح» بالتطير أيضا.

و أساسا، و نقرأ فى سورة «يس» أن المشركين تطيّروا من مجىء رسل المسيح عليه السّلام الى «انطاكية» (يس- ۱۸).

فإنّ الإنسان لا يمكن أن يقف أمام الحوادث على حال واحدة، فلا بدّ أن يفسّر آخر الأمر لكل حادثة علة ... فإذا كان الإنسان مؤمنا موحدا للّه، فإنّه يرجع العلل إلى ذاته المقدسة تعالى طبقا لحكمته، فكل شىء عنده بمقدار، عالم الغيب و الشهادة الكبير المتعال. و لو استند إلى العلم فى تحليل العلة و المعلول الطبيعيين، فستحل مشكلته ايضا، و إلّا فإنّه سينتج أوهاما و خرافات لا أساس لها .. أوهاما لا حد لها .. و أحدها «التطير» و الفأل السىء! مثلا كان عرب الجاهلية إذا رأوا الطائر يتحرك من اليمين نحو الشمال عدوّه فألا حسنا، و إذا رأوه يتحرك من الشمال «اليسار» نحو اليمين عدّوه فألا سيئا، و دليلا على الخسران أو الهزيمة! و غيرها من الخرافات الكثيرة عندهم ۶۰].

و اليوم يوجد- من قبيل هذه الخرافات و الأوهام- الكثير فى مجتمعات لا تؤمن باللّه، و إن حققت نصرا من حيث العلم و المعرفة، بحيث لو سقطت «مملحة» على الأرض أقلقتهم إلى حد كبير! ... و يستوحشون من الدار أو البيت أو الكرسى المرقم ب ۱۳، و ما زالت سوق المنجمين و أصحاب الفأل رائجة غير كاسدة! فهناك مشترون كثر «للطالع و البخت»!.

إلّا أنّ القرآن جمع كل هذه الأمور فجعلها فى جملة موجزة قصيرة فقال:

طائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۸۹

أجل، فطائركم و طالعكم و انتصاركم و هزيمتكم و توفيقكم و فشلكم كله عند اللّه، اللّه الحكيم الذى يهب عطاياه لمن كانت عنده اللياقة، و اللياقة بدورها انعكاس تنعكس عن الايمان و الأعمال الصالحة أو الطالحة!.

و هكذا فإنّ الإسلام يدعو أتباعه ليخرجهم من وادى الخرافة إلى الحقيقة، و من المفازة[۶۱] إلى الصراط المستقيم.

«كان لنا بحث مفصل فى مجال التطير و التفاؤل ذيل الآية ۱۳۱ من سورة الأعراف».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۰

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۴۸ الى ۵۳]

اشارة

وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ (۴۸) قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۴۹) وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵۰) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۱) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۵۲)

وَ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۵۳)

التّفسير

تآمر تسعة رهط فى وادى القرى:

نقرأ هنا قسما آخر من قصّة «صالح» و قومه، حيث يكمل القسم السابق و يأتى على نهايته، و هو ما يتعلق بالتآمر على قتل «صالح» من

قبل تسعة «رهط»[۶۲] من المنافقين و الكفار، و فشل هذا التآمر! فى وادى القرى منطقة «النّبى صالح و قومه».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۱

يقول القرآن فى هذا الشأن وَ كانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَ لا يُصْلِحُونَ

و مع ملاحظة أنّ «الرّهط» يعنى فى اللغة الجماعة التى تقلّ عن العشرة أو تقلّ عن الأربعين، فإنّه يتّضح أن كلّا من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، و قد اجتمعوا على أمر واحد، و هو الإفساد فى الأرض و الإخلال بالمجتمع (و نظامه الاجتماعى) و مبادئ العقيدة و الأخلاق فيه.

و جملة «لا يصلحون» تأكيد على هذا الأمر، لأنّ الإنسان قد يفسد فى بعض الحالات ثمّ يندم و يتوجه نحو الإصلاح .. إنّ المفسدين الواقعيين ليسوا كذلك، فهم يواصلون الفساد و الإفساد و لا يفكرون بالإصلاح!.

و خاصّة أن الفعل فى الجملة «يفسدون» فعل مضارع، و هو يدل على الاستمرار، فمعناه أن إفسادهم كان مستمرا ... و كلّ رهط من هؤلاء التسعة كان له زعيم و قائد ... و يحتمل أن كلّا ينتسب إلى قبيلة!.

و لا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، و لذلك تقول الآية التالية فى حقّهم: قالُوا تَقاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَ أَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ

«تقاسموا» فعل أمر، أىّ اشتركوا جميعا فى اليمين، و تعهّدوا على هذه المؤامرة الكبرى تعهدا لا عودة فيه و لا انعطاف!.

الطريف أنّ أولئك كانوا يقسمون باللّه، و يعنى هذا أنّهم كانوا يعتقدون باللّه، مع أنّهم يعبدون الأصنام، و كانوا يبدأون باسمه فى المسائل المهمّة .. كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا فى منتهى الغرور و «السكر» بحيث يقومون بهذه الجناية الكبرى على اسم اللّه و ذكره!! فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعبادة أو خدمة مقبولة ...

إلّا أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون اللّه و الضالين عن الحق.

و كلمة «لنبيتّنه» مأخوذة من «التبييت»، و معناه الهجوم ليلا، و هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۲

يدلّ على أنّهم كانوا يخافون من جماعة صالح و أتباعه، و يستوحشون من قومه ..

لذلك و من أجل أن يحققوا هدفهم و لا يكونوا فى الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح، اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، و اتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النّبى- لأنّهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل- حلفوا بأن لا علاقة لهم بذلك الأمر، و لم يشهدوا الحادثة أبدا.

جاء فى التواريخ أن المؤامرة كانت بهذه الصورة، و هى أن جبلا كان فى طرف المدينة و كان فيه غار يتعبّد فيه صالح، و كان يأتيه ليلا- بعض الأحيان يعبد اللّه فيه و يتضرع إليه، فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل، و يحملوا على بيته بعد استشهاده ثمّ يعودوا إلى بيوتهم، و إذا سئلوا أظهروا جهلهم و عدم معرفتهم بالحادث.

فلمّا كمنوا فى زاوية و اختبئوا فى ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم فى الحال! لذلك يقول القرآن فى الآية التالية: وَ مَكَرُوا مَكْراً وَ مَكَرْنا مَكْراً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

ثمّ يضيف قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَ قَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ

و كلمة (مكر)- كما بيّناها سابقا- تستعملها العرب فى كل حيلة و تفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما .. و لا تختص بالأمور التى تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر و ما ينفع .. فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع، و وصفه بالسوء إذا كان لما يضرّ .. قال سبحانه: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

و قال: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ «فتأملوا بدقّة» يقول الراغب فى المفردات .. المكر صرف الغير عما يقصده .. فبناء على هذا إذا نسبت هذه الكلمة إلى اللّه فإنّها تعنى إحباط المؤامرات الضارة من قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۳

الآخرین، و إذا نسبت إلی المفسدین فهی تعنی الوقوف بوجه المناهج الإصلاحیة، و الحیلولة دونها.

ثمّ یعبّر القرآن عن کیفیة هلاکهم و عاقبة أمرهم فیقول: فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خاوِیَةً بِما ظَلَمُوا.

فلا صوت یسمع منها و لا حرکة تتردد و لا أثر من تلک الزخارف و الزبارج و النعم و المجالس الموبوءة بالذنوب و الخطایا.

أجل، لقد أذهبهم ریح عتوّهم و ظلمهم، و احترقوا بنار ذنوبهم فهلکوا جمیعا إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ

إلّا أن الأخضر لم یحترق بالیابس، و الأبریاء لم یؤخذوا بجرم الأشقیاء ... بل سلم المتقون وَ أَنْجَیْنَا الَّذِینَ آمَنُوا وَ کانُوا یَتَّقُونَ

ملاحظات

۱- عقوبة ثمود

تختلف تعابیر آیات القرآن فی موضوع هلاک قوم صالح «ثمود».

فتارة یأتی التعبیر عن هلاکهم بالزلزلة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ.[۶۳] و تارة یقول: «عنهم» القرآن: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[۶۴].

و تارة یقول: وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ[۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۴

إلّا أنّه لا منافاة بین هذه التعابیر الثلاثة أبدا ... لأنّ «الصاعقة» هی الشعلة الکبیرة بین السحاب و الأرض المقرونة بصیحة عظیمة و اهتزاز شدید فی الأرض «ذکرنا تفصیلا عن الصیحة السماویة فی ذیل الآیة ۶۷».

۲- روی بعض المفسّرین أن أصحاب صالح الذین نجوا معه کانوا أربعة آلاف رجل، و قد خرجوا بأمر اللّه من المنطقة الموبوءة بالفساد إلی حضر موت»[۶۶].

۳- «خاویة» من (الخواء) علی وزن (الهواء) معناه السقوط و الهویّ و الانهدام، و قد یأتی الخواء بمعنی الخلو ... و هذا التعبیر ورد فی سقوط النجم و هویّه، إذا قالوا «خوی النجم» أی هوی.

و یری الراغب فی المفردات أن الأصل فی «خوی» هو الخلو ... و یرد هذا التعبیر فی البطون الغرثی، و الجوز الخالی، و النجوم التی لا تعقب الغیث، کان عرب الجاهلیة یعتقدون أن کل نجم یظهر فی الأفق یصحبه الغیث! «المطر».

۴- روی عن ابن عباس أنّه قال: استفدت من القرآن أن الظلم یخرب البیوت و یهدمها، ثمّ استدل بالآیة الکریمة فَتِلْکَ بُیُوتُهُمْ خاوِیَةً بِما ظَلَمُوا[۶۷].

و فی الحقیقة فإن تأثیر الظلم فی تخریب البیوت و المدن و المجتمعات لا یقاس بأی شیء، فالظلم یأتی بالصاعقة المهلکة، و الظلم یزلزل و یدمر ... و الظلم له أثر کأثر الصیحة- فی السماء- المهلکة المیتة، و قد أکد التأریخ مرارا هذه الحقیقة و أثبتها، و هی أن الدنیا قد تدوم مع الکفر، إلّا أنّها لا تدوم مع الظلم أبدا.

۵- ما لا شک فیه أن عقاب ثمود «قوم صالح» کان بعد أن عقروا الناقة «قتلوها» و کما یقول القرآن فی الآیات (۶۵)- (۶۷) من سورة هود:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۵

فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِی دارِکُمْ ثَلاثَةَ أَیَّامٍ ذلِکَ وَعْدٌ غَیْرُ مَکْذُوبٍ، فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّیْنا صالِحاً وَ الَّذِینَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ مِنْ خِزْیِ یَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّکَ هُوَ الْقَوِیُّ الْعَزِیزُ، وَ أَخَذَ الَّذِینَ ظَلَمُوا الصَّیْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دِیارِهِمْ جاثِمِینَ

فبناء على هـذه الآيات لم ينزل العـذاب مباشـرة بعـد المؤامرة على قتل صالـح، بل الاحتمال القوى أن الجماعـة الـذين تآمروا على قتله أهلكوا فحسب، ثمّ أمهل اللّه الباقين، فلمّا قتلوا الناقة أهلك اللّه جميع الظالمين و الآثمين الكافرين.

و هذه هى نتيجة الجمع بين آيات هذه السورة، و الآيات الواردة فى هذا الشأن فى سورتى الأعراف و هود.

و بتعبير آخر: فى الآيـات محـل البحث جـاء بيـان إهلاكهم بعـد مؤامرتهم على قتل نبيهم صالـح، أمّا فى سورتى الأعراف و هود فبيان هلاكهم بعد عقرهم الناقة.

و نتيجـة الأـمرين أنّهم حـاولوا قتل نبيّهم، فلمّا لم يفلحوا أقـدموا على قتل الناقـة (و عقرها) التى كانت معجزته الكبرى ... و نزل عليهم العذاب بعد أن أمهلوا ثلاثة أيام.

و يحتمل أيضا أنّهم أقـدموا على قتل الناقـة أولا، فلما هـدّدهم نبيّهم صالـح بنزول العـذاب بعد ثلاثة أيّام حاولوا قتله، فأهلكوا دون أن يفلحوا فى قتله ۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۶

الآيتان [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۴ الى ۵۵]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵)

التّفسير

انحراف قوم لوط!

بعد ذكر جوانب من حياة موسى و داود و سليمان و صالح عليهم السّلام مع أممهم و أقوامهم، فإنّ النّبى الخامس الذى وردت الإشارة إليه فى هذه السورة: نبىّ اللّه العظيم «لوط».

و ليست هـذه أوّل مرّة يشـير القرآن إلى هـذا الموضـوع، بـل تكررت الإشـارة إليه عـدّة مرّات، كمـا فى سورة الحجر، و سورة هود، و سورة الشعراء، و سورة الأعراف.

و هذا التكرار و التشابه، لأنّ القرآن ليس كتابا تاريخيا كى يتحدث عن الموضوع مرّة و لا يعود إليه .. بل هو كتاب تربوى إنسانى .. و نعرف انّ المسائل التربويـة قـد تقتضـى الظروف أحيانا أن تكرر الحادثة و يذكر بها مرارا، و أن ينظر إليها من زوايا مختلفة، و يستنتج من جهاتها المتعددة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۷

و على كل حال فإنّ حياة قوم لوط المشـهورين بالانحراف الجنسـى و العادات السـيئة المخزيـة الأخرى، كما أنّ عاقبة حياتهم الوخيمة يمكن أن تكون لوحـة بليغـة لأولئك السادرين فى شـهواتهم ... و إن سـعة هـذا التلوث بين الناس تقتضـى أن يكرر ما جرى على قوم لوط مرارا.

يقول القرآن: فى الآيتين محل البحث أوّلا: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۶۹].

«الفاحشة» كما أشرنا إليها من قبل، تعنى الأعمال السيئة القبيحة، و المراد منها الانحراف الجنسى و عمل اللواط المخزى.

و جملة وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ إشارة إلى أنّكم- يعنى قوم لوط- ترون بأم أعينكم قبح هذا العمل و آثاره الوخيمة، و كيف تلوّث مجتمعكم

من قرنه إلى قدمه به ... و حتى الأطفال فى غير مأمن من هذا العمل القبيح، فعلام تبصرون و لا تتنبهون! و أمّا ما يحتمله بعضهم من أن جملة «تبصرون» إشارة إلى أنّهم كانوا يشهدون فعل اللواط «بين الفاعل و المفعول» فهذا المعنى لا ينسجم و ظاهر التعبير، لأنّ لوطا يريد أن يحرّك «وجدانهم» و ضمائرهم، و أن يوصل نداء فطرتهم إلى آذانهم ... فكلام لوط نابع من البصيرة و رؤية العواقب الوخيمة لهذا العمل و التنبه منه.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ.

و قد ورد التعبير عن هذا العمل القبيح بالفاحشة، ثمّ وضحه أكثر لئلا يبقى أى إبهام فى الكلام، و هذا اللون من الكلام واحد من فنون البلاغة لبيان المسائل المهمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۸

و لكى يتّضح بأن الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلا:

بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ

تجهلون باللّه .. و تجهلون هدف الخلق و نواميسه .. و تجهلون آثار هذا الذنب و عواقبه الوخيمة، و لو فكرتم فى أنفسكم لرأيتم أن هذا العمل قبيح جدّا، و قد جاءت الجملة بصيغة الاستفهام ليكون الجواب نابعا من أعماقهم و وجدانهم، فيكون أكثر تأثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۹۹

بداية الجزء العشرون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۱

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشارة

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (۵۹)

التّفسير

عند ما تعدّ الطهارة عيبا كبيرا!

لاحظنا- فى ما سبق من البحوث- منطق نبى اللّه العظيم «لوط»، ذلك المنطق المتين أمام المنحرفين الملوثين، و بيانه الاستدلالى الذى كان يعنّفهم على عملهم القبيح، و يكشف لهم نتيجة جهلهم و عدم معرفتهم بقانون الخلق و بجميع القيم الإنسانية.

و الآن، لنستمع الى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط»؟! يقول القرآن: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۲

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى و السقوط الأخلاقى البعيد!.

أجل .. إنّ الطهارة تعدّ عيبا و نقصا فى المحيط الموبوء، و ينبغى أن يلقى أمثال يوسف المتعفف فى السجن، و أن يطرد آل لوط نبىّ اللّه العظيم و يبعدوا- لأنّهم يتطهرون- خارج المدينة، و أن يبقى أمثال «زليخا» أحرارا أولى مقام ...

كما ينبغى أن يتمتع قوم لوط فى مدينتهم دون حرج!.

و هـذا هو المصـداق الجلى لكلام القرآن فى الضـالين، إذ يقول: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ بسـبب أعمالهم السيئة المخزية.

و يحتمـل فى جملـة إِنَّهُمْ أُنـاسٌ يَتَطَهَّرُونَ أن قوم لوط لانحرافهم و غرقهم فى الفساد، و تطبعهم و تعودهم على التلوّث، كانوا يقولون مثل هذا الكلام من باب السـخرية و الاستهزاء .. أى إنّهم يتصورون أن أعمالنا قبيحة و غير طاهرة! و أن تقواهم من التطهر، فما أعجب هذا الكلام! إنه لمهزلة!.

و ليس هـذا غريبا أن يتبـدل إحساس الإنسان- نتيجة تطبعه بعمل قبيح- فيتغير سـلوكه و نظرته .. فقد سـمعنا بقصّة الدباغ المعروفة، إذ ورد أن رجلا كان يـدبغ الجلود المتعفنـة دائما، و تطبعت «شامّته» برائحـة الجلود «العفنـة» فمرّ ذات يوم فى سوق العطارين، فاضـطرب حاله و أغمى عليه، لأنّ العطور لا تناسب «شامّته» فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لانقاذه من الموت ...

فهذا مثال حسىّ طريف لهذا الموضوع المنطقى.

جاء فى الرّوايات أن لوطا كان يبلغ قومه حوالى ثلاثين عاما و ينصحهم، إلّا أنّه لم يؤمن به إلّا أسرته و أهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين و على عقيدتهم ۷۰].

بـديهى أن مثل هؤلاء القوم لا أمل فى إصـلاحهم فى عالم الـدنيا، فينبغى أن يطوى «طومار» حياتهم، لـذلك تقول الآية التالية فى هذا الشأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۳

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ ۷۱].

و بعد أن خرج آل لوط فى الموعد المعين «سـحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلمّا أصـبح الصـباح نزلت عليهم الحجارة من السـماء، و تزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعا تحت الحجارة و الأنقاض، و الى هذا تشير الآية الكريمة التالية وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ

و كان لنا بحث مفصل فى قوم لوط و عاقبتهم الوخيمـة و آثار الانحراف الجنسـى، فى ذيل الآيات ۷۷- ۸۳ من سورة هود، و لا حاجة إلى تكراره.

إن قانون الخلق عيّن لنا مسيرا لو سلكناه لكان ذلك مدعاة لتكاملنا و حياتنا، و لو انحرفنا عنه لكان باعثا على سقوطنا و هلاكنا.

فقانون الخلق جعل الجاذبية الجنسـية بين الجنسـين المتخالفين عاملا لبقاء نسل الإنسان و اطمئنان روحه. و تغيير المسـير نحو الانحراف الجنسى «اللواط أو السحاق» يذهب بالاطمئنان الروحى ... و النظام الاجتماعى.

و حيث أن لهـذه القوانين الاجتماعيـة جـذرا فى الفطرة، فـالتخلف «أو الانحراف» يسـبب الاضـطراب و عـدم الانسـجام فى نظام وجود الإنسان!.

فلـوط نـبىّ اللّه العظيم نبّه قومه المنحرفين إلى هـذا الأسـاس «الفطرى» فقـال لهم: أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ! فالجهـل و عـدم معرفتكم بقانون الحياة و السفاهة هو الذى يقودكم إلى الضلال و التيه!.

فلا عجب أن تتغير سائر قوانين الخلق فى شأن هؤلاء القوم الضالين، فبـدلا من أن يغاثوا بماء من السـماء يهب الحياة يمطرون بالحجارة .. و بـدلا من أن تكون الأـرض مهـادا وثيرا لهم تضـطرب و تتزلزل و يقلب عاليها سافلها، لئلا يقتصـر الحال على هلاكهم فحسب، بل لتمحى آثارهم!.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث، و بعد بيان ما جرى على لوط و قومه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۴

المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النّبى الكريم «محمّد» صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ

الحمد و الثناء الخاص للّه، لأنّه أهلك أمما مفسدين كقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم!.

الحمد للّه الذى أبار قوم صالح ثمود، و فرعون و قومه المفسدين، و جعل آثارهم عبرة للمعتبرين.

و أخيرا فالحمد للّه الذى أنعم و تفضل على عباده المؤمنين ... كداود و سليمان و أمثالهما، و أولاهم القوّة و القدرة، و هدى القوم الضالين كقوم سبأ.

ثمّ يضيف قائلا: وَ سَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى

سلام على موسى و صالح و لوط و سليمان و داود، و سلام على جميع الأنبياء و المرسلين و عباد اللّه الصالحين، و من والاهم بإحسان.

ثمّ يقول: آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۷۲]!! رأينا فى قصص هؤلاء الأنبياء أن الأصنام لم تستطع عند نزول البلاء أن تسعف اتباعها، أو تقوم بأدنى مساعدة لهم! غير أن اللّه سبحانه لم يترك عباده وحدهم فى هذه الخطوب، بل أعانهم بلطفه الذى لا ينفذ!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (۶۰) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۶۱) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (۶۲) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۳) أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶۴)

التّفسير

أ مع كلّ هذه الأدلة ما تزالون مشركين؟!

فى آخر آية من آيات البحث السابق، و بعد ذكر جوانب مثيرة من حياة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۶

خمسة أنبياء عظام، ألقى هذا السؤال الوجيز المتين آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ! أمّا فى الآيات محل البحث فتفصّل السؤال .. و توجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين و تحاكمهم، و تكشف دلائل التوحيد فى الآيات الخمس فى اثنى عشر مثلا! فالآية الأولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات و الأرض، و نزول الماء من السماء و البركات الناشئة عنه، فتقول: هل أن معبوداتكم أفضل أَمَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ ذاتَ بَهْجَةٍ.[۷۳][۷۴] «الحدائق» جمع «الحديقة»، و هى كما يقول كثير من المفسرين: البستان الذى يحيطه الجدار أو الحائط، و محفوظ من جميع الجهات، و منها سمّيت حدقة العين حدقة لأنّها محفوظة بين الجفنين و الهدب، أمّا الراغب فيقول فى المفردات:

إنّ الحديقة تطلق فى الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء، كما أنّ حدقة العين فيها الماء دائما.

و يستفاد من مجموع هذين الرأيين أن الحديقة بستان له جدار و ماء كاف.

و «البهجة» على وزن (لهجة) معناها الجمال و حسن الظاهر الذى يسر الناظرين.

و يتوجه الخطاب نحو العباد فى ختام الآية فيقول: ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۷

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور و تسقوا الأرض، لكن الذى جعل الحياة فى قلب البذرة، و أمر الشمس أن تشرق على الأرض، و الماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة فتكون شجرا، هو اللّه فحسب.

فهذه حقائق لا يمكن إنكارها، و لا أن تنسب لغير اللّه ... فهو الذى خلق السماوات و الأرض، و هو الذى أنزل الغيث من السماء، و هو مبدأ هذه البهجة و الحسن و الجمال فى عالم الحياة!.

إن مجرّد التأمل فى لون الزهرة الجميلة، و أوراقها اللطيفة المنظمة التى تشكل حلقة رائعة .. كاف أن يجعل الإنسان عارفا بعظمة الخالق و قدرته و حكمته .. فهذه الأمور تهز قلب الإنسان و تدعوه إلى اللّه.

و بتعبير آخر فإن التوحيد فى الخلق يؤدى الى «توحيد الخالق»، و التوحيد فى الربوبيّة «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة»!.

و لذلك فالقرآن يقول فى نهاية الآية: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ و لكن هؤلاء جهلة عدلوا عن اللّه و عبدوا ما لا ينفعهم و لا يضرهم بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۷۵].

و السؤال الثّانى بحث عن موهبة استقرار الأرض و ثباتها، و أنّها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَراراً وَ جَعَلَ خِلالَها أَنْهاراً وَ جَعَلَ لَها رَواسِيَ ۷۶] كما تحافظ على القشرة الارضية من الزلازل، كما وَ جَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حاجِزاً و مانعا من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

و هكذا فقد ورد فى هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض! فتقول:

إن استقرار الأرض فى الوقت الذى تتحرك بسرعة و تدور حول نفسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۸

و حول الشمس، و تتحرك فى المنظومة الشمسية و حركة هادئة و فى وتيرة واحدة، إلى درجة أن سكّانها لا يحسّون بحركتها أبدا ... فكأنّها أوتدت فى مكان واحد! و بقيت ثابتة فلا يرى فيها أقلّ حركة.

و النعمة الأخرى وجود الجبال، التى قلنا عنها سابقا أنّها تحيط بالأرض، و جذورها متصلة بعضها ببعض كالحاجز القوى الذى يقاوم الضغوط الداخلية للأرض، و حركات الجزر و المدّ الذين يحصلان بسبب جاذبية القمر، كما أنّها تعبر مانعا امام الأعاصير و السيول من أن تدمّر الأرض بطغيانها! و النعمة الأخرى الحجاب الحاجز بين البحرين، و الحائل الطبيعى الذى يحول بين الماء المالح و الماء العذب، و هذا الحجاب- غير المرئى- هو الاختلاف فى درجة الغلظة بين الماء العذب و الماء المالح، أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعى» الخاص الذى يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمة العذبة التى تنصب فى البحار المالحة لمدّة طويلة، و عند حالة «المدّ» تتمدد هذه المياه العذبة على السواحل الصالحة للزراعة فتسقيها (و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع ذيل الآية ۵۳ من سورة الفرقان).

و فى الوقت ذاته جعل اللّه خلال أجزاء الأرض المختلفة أنهارا تسقى المزارع و الأحياء ... فتخضرّ البساتين و تثمّر الأشجار و بعض مصادر هذه المياه تكمن فى قمم الجبال ... و بعضها بين الطبقات الأرضيّة!.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد ولد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، و المبدأ الفاقد للعقل و الحكمة؟! و هل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشة؟! حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الادعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآية هذا السؤال: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! حاش للّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

السؤال الثّالث من هذه الأسئلة الخمسة التى تحكى عن محاورة و محاكمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۰۹

المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، و فتح الطرق الموصدة، و إجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ.

أجل ... عند ما تغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، و يبلغ النصل إلى العظم، و يغدو مضطرا حيرانا لا حيلة له، فإنّ الذى يحلّ المعضلة، و يفتح الأقفال، و يزيل السدود عن الطرق، و ينثر فى القلوب نور الأمل، و يفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو اللّه لا غير!.

و حيث أنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة فى اعماق نفوسهم جميعا، فإنّ المشركين حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم و يتوجهون نحو لطف اللّه، كما يقول القرآن: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۷۷] لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق و الشدائد فحسب، بل:

وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ و لكنكم لا تتعضون بهذه الدلائل .. قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ ۷۸].

و حول مفهوم المضطر، و مسألة استجابه الدعاء و شروطها، بحوث ستأتى فى نهاية هذه الآيات! و المراد من خُلَفاءَ الْأَرْضِ لعله بمعنى «سكنة الأرض» و أصحابها .. لأنّ اللّه جعل الإنسان حاكما على هذه الأرض، مبسوط اليد فيها بما أولاه من النعم و أسباب الرفاه و الدعة و الاطمئنان!.

و لا سيما حين يقع الإنسان فى شدّة، فيغدو مضطرا و يتجه نحو خالقه الكريم- فيرفع بكرمه البلايا و الموانع- فتستحكم أسس هذه الخلافة و هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۰

تتجلى العلاقة بين شطرى الآية.

كما قد يكون المراد بهذا المعنى، و هو أنّ اللّه جعل ناموس الحياة أن يخلف قوم قوما على الدوام، بحيث لو لم يكن هذا التناوب لم تغد الصورة متكاملة[۷۹]!.

و يثير القرآن فى السؤال الرّابع مسألة الهداية فيقول: هل أن الأصنام أفضل، أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بواسطة النجوم وَ مَنْ يُرْسِلُ الرِّياحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ !!.

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، و كأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث، إنّها فى الحقيقة تهدى الناس إلى الغيث أيضا.

و التعبير ب بُشْراً فى شأن الرياح، و التعبير ب بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ فى شأن الغيث، كلاهما تعبيران طريفان لأنّ الرياح هى التى تحمل الرطوبة فى الجو و تنقل أبخرة الماء من على وجه المحيطات بشكل قطعات من السحب على متونها، إلى النقاط اليابسة، و تخبر عن قدوم الغيث! و كذلك الغيث الذى ينشد نغمة الحياة على وجه البسيطة، و حيثما نزل حلت البركة و الرحمة[۸۰].

(ذكرنا شرحا مفصلا فى تأثير الرياح فى نزول الغيث فى ذيل الآية ۵۷ من سورة الأعراف).

و يخاطب القرآن فى ختام الآية المشركين مرّة أخرى فيقول: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! ثمّ يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلا- تَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ

أمّا فى آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۱

شأن المبدأ و المعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، أَمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ .. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير اللّه قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ! و فى الواقع فإن الآيات المتقدمة كلها

كانت تتكلم على المبدأ، و ايات عظمة اللّه فى عالم الخلق و الوجود، و مواهبه و نعمه، إلّا أنّه فى الآية الأخيرة ينتقل البحث من معبر ظريف إلى مسألة المعاد، لأنّ بداية الخلق نفسها دليل على تحققها، و القدرة على بداية الخلق تعد دليلا واضحا على المعاد.

و من هنا يتّضح الجواب على السؤال الذى يثيره كثير من المفسّرين، و هو أن المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد «المعاد الجسمانى» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال و يطلب منهم الإقرار.

فالجواب عليه أن هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنّه باعترافهم أن بداية الخلق من اللّه، و هذه المواهب و النعم كلّها منه، لكى تقبل عقولهم إمكان المعاد و الرجوع الى الحياة فى يوم القيامة مرّة أخرى.

و المراد من (الرزق السماوى) هو الغيث و نور الشمس و أمثال ذلك، أمّا (الرزق الارضى) فالنباتات و المواد الغذائية المختلفة التى تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام و المعادن و المواد المختلفة التى يتمتع بها الإنسان فى حياته!.

بحوث

۱- من المضطر الذى يجاب إذا دعاه؟

مع أنّ اللّه- يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء، إلّا أنّ فى الآيات آنفة الذكر اهتماما بالمضطر، و ذلك لأنّ من شروط إجابة الدعاء أن يغمض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۲

الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كليّا، و أن يجعل قلبه و روحه بين يدى رحمة اللّه، و أن يرى كل شىء منه و له! و أن حل كل معضلة بيده، و هذه النظرة و هذا الإدراك إنّما يتحققان فى حال الاضطرار.

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب و المسببات، و المؤمن يبذل منتهى سعيه و جهده فى هذا الشأن ... إلّا أنّه لا يضيع فى عالم الأسباب أبدا ... و يرى كل شىء من بركات ذاته المقدسة، و يرى من وراء الحجاب ببصره النافذ «مسبب الأسباب» فيطلب منه ما شاء!.

أجل، إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، فإنه يوفّر لنفسه أهم شرط لإجابة الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد فى بعض الرّوايات تفسير هذه الآية بقيام المهدى صلوات اللّه و سلامه عليه!

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و اللّه لكأنّى أنظر إلى القائم و قد أسند ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد اللّه حقّه ... قال و اللّه هو المضطر فى كتاب اللّه فى قوله: أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ [۸۱]!

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «نزلت فى القائم من آل محمّد عليهم السّلام هو و اللّه المضطر إذا صلى فى المقام ركعتين و دعا اللّه عزّ و جلّ فأجابه و يكشف السوء و يجعله خليفة فى الأرض»[۸۲].

و لا شك أن هذا التّفسير- كما رأينا نظائره الكثيرة- لا يحصر المراد من هذه الآية بالمهدى عليه السّلام، بل مفهوم الآية واسع، و المهدى عليه السّلام واحد من مصاديقها الجليّة ... إذ الأبواب فى زمانه موصدة، و الفساد عمّ البسيطة، و البشرية فى طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۳

مسدود، و حالة الاضطرار ظاهرة فى جميع العالم .. فعندئذ يظهر الإمام فى أقدس بقعة .. فيطلب كشف السوء، فيلبى اللّه دعوته، و يجعله بداية «الظهور» المبارك فى العالم، و يستخلفه فى الأرض هو و أصحابه، فيكون مصداقا لقوله تعالى وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ

«كان لنا بحث فى شروط إجابة الدعاء و أهميته، و فى سبب عدم الإجابة، فصّلناه فى ذيل الآية (۱۸۶) من سورة البقرة»

۲- الاستدلال المنطقی فی کلّ مکان

نقرأ فی آیات القرآن- مرارا- أنّه یطالب المخالفین بالدلیل، و خاصة بقوله:

هاتُوا بُرْهانَکُمْ و قد جاء هذا النص فی أربعة مواضع البقرة: الآیة ۱۱۵، الأنبیاء: الآیة ۲۴، النمل: الآیة ۶۴، و القصص: الآیة ۷۵ کما أنّه أکّد فی مواضع أخری علی البرهان خاصة «و المراد من البرهان: أصدق دلیل».

و هذا المنطق (المطالبة بالبرهان) للإسلام یحکی عن محتواه الغنی و القوی، لأنّه یسعی لأن یواجه مخالفیه مواجهة منطقیة، فکیف یطالب الآخرین بالبرهان و هو لا یکترث به؟! فآیات القرآن المجید مملوءة بالاستدلالات المنطقیة ...

و البراهین العلمیة فی المسائل المتعددة!.

و هذا الأمر علی خلاف ما حرفته المسیحیة الیوم- و عوّلت علیه، و تری أن الدین هو ما یوحیه القلب!! و تفصل العقل عنه إذ تراه أجنبیا عنه ... حتی أنّها تؤمن بالتناقضات العقلیة کالتوحید فی التثلیث، و من هنا فقد سمحت للخرافات أن تدخل فی الدین، مع أن الدین لو خلا من العقل و الاستدلال العقلی فسوف لا یقوم دلیل علیه، و یکون ذلک الدین و ما یضادّه سواء!.

و تبرز عظمة هذا المنهج (و هو الاهتمام بالبرهان و دعوة المخالفین إلی الاستدلال المنطقی) حین نلتفت إلی أن الإسلام ظهر فی محیط یعیش الخرافات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۴

التی لا أساس لها و المسائل غیر المنطقیة فی جمیع مفاصل منظومته الفکریة و المعرفیة!!

۳- خلاصة عامّة و مرور علی الآیات السابقة

فی الآیات السابقة کان اهتمام القرآن منصبا لإثبات «توحید المعبود» علی «توحید الخالق»، و «توحید الرب» ای (توحید الخلق و توحید التدبیر) و تحدّث عن اثنتی عشرة آیة و علامة للّه العظیم فی عالم الوجود:

۱- السماء و الأرض.

۲- نزول الغیث.

۳- برکاته فی الحیاة.

۴- قرار الأرض.

۵- الأنهار.

۶- الجبال الرواسی.

۷- الحاجز بین البحرین (العذب و المالح).

۸- إجابة دعوة العباد.

۹- هدایتهم فی ظلمات البر و البحر.

۱۰- إرسال الریاح بشرا بین یدی رحمته.

۱۱- بدء الخلق و إعادته.

۱۲- رزق الإنسان «و سائر الخلق» من السماء و الأرض.

هذه المواهب «و النعم» الاثنتا عشرة بیّنت فی خمس آیات و ضمن خمسة أسئلة!. و کانت تعالج الأمور الخمسة التالیة علی التوالی:

۱- الخلق.

۲- و الاستقرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۵

۳- كشف الضرّ.

۴- الهداية.

۵- إعادة الحياة (بعد الموت).

و قد عقّب ذيل كل واحد من الأسئلة الخمسة، بقوله تعالى: أ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ! و قد أوضح القرآن فى نهاية كل سؤال أمورا، فأشار فى نهاية الآية الأولى إلى انحراف المخالفين عن الحق.

و أشار فى الآية الثّانية إلى جهلهم.

و أشار فى الآية الثّالثة إلى عدم تفكيرهم! و أشار فى الآية الرابعة إلى انحطاط أفكارهم.

و طالبهم فى نهاية الآية الخامسة بالاستدلال! و قد أبدى القرآن بشكل عام مجموعة من الأسئلة الجامعة و المنسجمة بعضها مع بعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۶

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۶۵ الى ۶۸]

اشارة

قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (۶۵) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ (۶۶) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَ إِذا كُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ (۶۷) لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۶۸)

التّفسير

لمّا كان البحث فى آخر الآيات السابقة عن القيامة و البعث، فإن الآيات- محل البحث- تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أولا على السؤال الذى يثيره المشركون دائما، و هو قولهم: متى تقوم القيامة؟ و «متى هذا الوعد»؟! فتقول: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَ ما يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ لا شك أن علم الغيب- و منه تاريخ وقوع القيامة- خاص باللّه، إلّا أنّه لا منافاة فى أن يجعل اللّه بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ فى الآيتين (۲۶) و (۲۷) من سورة الجن عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۷

مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

و بتعبير آخر فإنّ علم الغيب بالذات، و بصورته المستقلة و المطلقة غير المحدودة، خاصّ باللّه سبحانه، و كل علوم الآخرين مسترفدة من علمه تعالى.

و لكن مسألة تاريخ وقوع القيامة مستثناة من هذا الأمر أيضا، و لا يعلم بها أحد «إلّا اللّه»[۸۳].

ثمّ يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة و شكهم و جهلهم، فيقول: بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ

«ادّارک» فی الأصل «تـدارک» و معناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملـة: بَلِ ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَةِ أنّهم لم یصـلوا إلی شیء بالرغم ممّا بـذلوه من تفکیر، و جمعوا المعلومات فی هـذا الشأن، لـذلک فإنّ القرآن یضـیف مباشـرة بعد هذه الجملة بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة فی هذه الدنیا، فعودة الأرض المیتة إلی الحیاة فی فصل الربیع، و إزهار الأشـجار و إثمارها مع أنّها کانت فی فصل الشتاء جرداء! ... و مشاهدة عظمة قدرة الخالق فی مجموعة الخلق و الوجود، کلها دلائل علی إمکان الحیـاة بعـد الموت، إلّا أنّهم کالعمی الـذین لا یبصـرون کل شـیء! و بالطبع فإنّ هناک تفاسـیر أخر للجملـة أعلاه، منها أنّ المراد من ادَّارَکَ عِلْمُهُمْ فِی الْآخِرَةِ أن أسباب التوصل للعلم فی شأن الآخرة متوافرة و متتابعة، إلّا أنّهم عمی عنها.

و قال بعضهم: إنّ المراد منها أنّهم عند ما تکشف الحجب فی یوم الآخرة، فإنّهم سیعرفون حقائق الآخرة بشکل کاف.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۸

إلّا أنّ الأنسب من بین هذه التفاسیر الثلاثة هو التّفسیر الأوّل حیث یناسب بقیة الجمل فی الآیة، و البحوث الواردة فی الآیات الأخر!.

و هکذا فقد ذکرت ثلاث مراحل لجهل المنکرین (للآخرة).

الأولی: أنّ إنکارهم و إشکالهم هو لأنّهم یجهلون خصوصیّات الآخرة «و حیث أنّهم لم یروها فهم یظنون الحقیقة خیالا».

الثّانیة: أنّهم فی شک من الآخرة أساسا، و سؤالهم عن زمان تحققها ناشئ من أنّهم فی شک منها!.

الثّالثة: أن جهلهم و شکهم لیس منشؤهما أنّهم لا یملکون دلیلا أو دلائل کافیة علی الآخرة، بل الأدلة متوفرة إلّا أن أعینهم عمی عنها!

و الآیة التالیة: توجز منطق منکری القیامة و البعث فی جملة واحدة، فتقول:

وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَ إِذا کُنَّا تُراباً وَ آباؤُنا أَ إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ! فهم مقتنعون بهـذا المقـدار، أنّ هـذه المسألة بعیدة (أن یتحول الإنسان إلی تراب ثمّ یعود إلی الحیاة)! مع أنّهم کانوا أوّل الأمر ترابا و خلقوا من التراب، فما یمنع أن یعودوا إلی التراب، ثمّ یرجعون أحیاء بعد أن کانوا ترابا! الطریف أنّنا نواجه مثل هذا الاسـتبعاد فی ثمانیة مواضع من القرآن، فهم یشـکون فی مسألة القیامة فی المواضع آنفة الذکر بمجرّد استبعاد عودتهم إلی الحیاة من «التراب» ثانیة!.

ثمّ یحکی القرآن عمّا یضـیفه المشـرکون من قول: لَقَدْ وُعِدْنا هذا نَحْنُ وَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ و لکن لم نجد أثرا لهذا الوعد و لن یوجد إِنْ هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ

فما هی سوی خرافات و خزعبلات القدماء.

فبناء علی هذا فإنّهم یبدأون من الاستبعاد ثمّ یجعلونه أساسا للإنکار المطلق ... فکأنّهم کانوا ینتظرون أن تتحقق القیامة عاجلا، و حیث أنّهم لم یشهدوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۱۹

ذلک فی حیاتهم فهم ینکرونه.

و علی کل حال، فهذه التعبیرات جمیعها تدل علی غفلتهم و غرورهم!.

و یستفاد- ضـمنا من هـذا التعبیر- أنّهم أرادوا أن یسـخروا من کلام النّبی فی شأن یوم القیامـة، و یطعنوا علیه، فیقولوا: إن هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جدید فیها یستحق بذل التفکیر و المراجعة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۰

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۶۹ الی ۷۵]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (۶۹) وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (۷۰) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۷۱) قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (۷۲) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (۷۳)

وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۴) وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (۷۵)

التّفسير

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، و استهزائهم و تكذيبهم باليوم الآخر.

و لما كان البحث المنطقى غير مجد لهؤلاء القوم المعاندين و الأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد ممّا يرى كلّ يوم فى عالم النباتات و فى عالم الأجنّة، و ما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۱

بدلا من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب اللّه الّذى شمل من سبقهم من الكفّار، و أنذرتهم بعقابه المخزى ... فوجهت الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، و لم يروا ضررا .. فهلّا سرتم فى الأرض قليلا، لتشهدوا آثار هؤلاء المجرمين المنكرين للتوحيد و المعاد، و خاصة الآثار فى المناطق القريبة من الحجاز ... لتنظروا أن الأمر ليس كما تزعمون.

و لكن سيحين موعدكم فلا تعجلوا ... فأنتم كأولئك ستواجهون المصير المحتوم و العاقبة المخزية إذا لم تصلحوا أنفسكم!.

و القرآن دعا مرارا إلى السير فى الأرض، و مشاهدة آثار الماضين، و المدن الخاوية الخربة التى حاق بأهلها سوء العذاب، و قصور الظالمين المتداعية، و القبور الدارسة و العظام النخرة، و الأموال التى خلفها أصحابها المغرورون!! إنّ مطالعة تلك الآثار التى تعبّر عن التأريخ الحىّ لأولئك الماضين، توقظ القلوب الغافلة! و تبصّرها بالحق ... و الواقع كذلك، فإن مشاهدة واحد من هذه الآثار يترك فى القلب أثرا لا تتركه مطالعة عدّة كتب تأريخية!.

(كان لنا بحث مفصل فى هذا المجال ذيل الآية ۱۳۷ من سورة آل عمران).

ممّا ينبغى ملاحظته أنّه جاء فى هذه الآية التعبير ب «المجرمين» بدلا من «المكذبين» ... و هو إشارة إلى أن تكذيبهم لم يكن لأنّهم أخطأوا فى التحقيق، بل أساسه العناد و اللجاجة. و تلوثهم بأنواع الجرائم! و حيث أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يشفق عليهم لإنكارهم، و يحزن لعنادهم، و يحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصا على هدايتهم، و كان يواجه مؤامراتهم أيضا .. فإنّ الآية التالية تسرى عن قلب النّبى فتقول له: وَ لا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ و لا تقلق من مؤامراتهم وَ لا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۲

إلّا أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلا من أن يأخذوا إنذار النّبى المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه و يسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و مع أنّ المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الموضوع ذكر بصيغة الجمع «إن كنتم صادقين» لأنّ المؤمنين الصادقين كانوا قد ضموا صوتهم إلى صوت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا ... فهم مخاطبون بما خوطب به كذلك! و هنا يردّ القرآن على استهزائهم و سخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطبا نبيّه: قُلْ عَسى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ

فعلام تستعجلون؟! و علام تستصغرون عقاب اللّه؟! أ فلا ترحمون أنفسكم؟! ترى، هل عذاب اللّه ضرب من الهزل أو المزاح؟ فعسى أن يأخذكم اللّه بعذابه لكلامكم هذا فيهلككم ... فلم هذا العناد و اللجاجة؟! «ردف» فعل مشتق من (ردف) على وزن (حرف) و معناه كون الشيء خلف الشيء الآخر، و لذا يطلق على من يركب الفرس خلف صاحبه (رديف) كما يطلق الرديف على الأشخاص أو الأشياء التى تقف صفا واحدا بعضها خلف بعض.

و هناك كلام عن المراد من العذاب الذى كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى، إذ صرع من عتاتهم سبعون رجلا و أسر سبعون رجلا!.

كما و يحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذى دفع أخيرا، ببركة وجود النّبى إذ كان رحمة للعالمين، و الآية (۳۳) من سورة الأنفال شاهدة عليه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

و التعبير ب «عسى» لعله على لسان النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و حتى لو كان من قبل اللّه سبحانه- فعلى خلاف ما يتصوّره بعضهم، فإنّه ليس فيه أى إشكال ... إذ هو إشارة إلى وجود مقدمات الشيء و مقتضياته، مع إمكان أن تقترن هذه المقدمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۳

بالمانع، فلا تصل إلى النتيجة النهائية (فلاحظوا بدقّة)!.

ثمّ يتحدث القرآن فى الآية التالية عن هذه الحقيقة: و هى أنّ اللّه إذا لم يعجل فى عقابكم، فذلك بفضله و برحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافى لإصلاح أنفسهم، فيقول: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ

و إذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم اللّه سبحانه لما يدور فى خلدهم من نيات سيئة و أفكار ضالة، فهم فى غاية الخطأ: وَ إِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ ۸۴].

فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم و ما يعلنون، و الغيب و الشهادة عنده سيّان.

فهذه المفاهيم هى من نتاج علمنا المحدود، و إلّا فهى فى مقابل غير المحدود تفقد معانيها و تتلاشى حدودها.

و هنا ذكر «علم اللّه بما تكنّ القلوب» مقدما على علمه بالأفعال الخارجية، و لعل ذلك هو بسبب أهمية النيات و الإرادة! كما يمكن أن يكون التقديم لأنّ الأفعال الخارجية ناشئة عن النيات الداخلية، و العلم بالعلة مقدم على العلم بالمعلول!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: إنّه ليس علم اللّه منحصرا بما تكن القلوب و ما تعلن، بل علمه واسع مطلق! وَ ما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ ۸۵].

و واضح أن «الغائبة» لها معنى واسع، فهى تحمل فى مفهومها كلّ ما خفى عن حسّنا و غاب ... و تشمل أعمال العباد الخفية و النيات الباطنية، و أسرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۴

السماوات و الأرض و قيام الناس للحساب يوم القيامة، زمان نزول العذاب، و أمثال ذلك. و لا دليل على أن نفسّر «الغائبة» هنا بواحد من هذه الأمور المذكورة آنفا- كما ذهب إليه بعض المفسّرين-.

و المراد ب «الكتاب المبين» هو اللوح المحفوظ، و علم اللّه الذى لا نهاية له، و قد بحثنا هذا الموضوع فى ذيل الآية (۵۹) من سورة الأنعام.

ملاحظات

التحقيق فى الآيات المتقدمة يدل على أن منكرى المعاد من أجل أن يتنصّلوا من عبء الإيمان بالقيامة و المسؤوليات الناشئة عنه، كانوا يتوسلون بثلاثة طرق:

۱- استبعاد العودة للحياة بعد أن يغدو الإنسان ترابا، لاعتقادهم أنّ التراب لا يمكن أن يكون أساسا للحياة! ۲- قدم هذه العقيدة و عدم الجدة فيها.

۳- عدم نزول العذاب على منكرى المعاد ... لأنّه لو كان حقّا أن يبتلى المنكرون بالعذاب فلم لا ينزل عليهم! و قد ترك القرآن الجواب على الإشكالين الأوّل و الثانى، لأنّنا نرى بأم أعيننا أنّ التراب مصدر الحياة و أساسها، و كنا فى البداية ترابا ثمّ صرنا أحياء! و كون الشىء قديما لا ينقص من أهميّته أيضا ... لأنّ قوانين هذا العالم الأصيلة ثابتة و مستقرة من الأزل حتى الأبد ... و فى الأصول الفلسفية و المسائل الرياضيّة و العلوم الأخر أصول كثيرة ثابتة ... فهل كون امتناع اجتماع النقيضين قديما، أو جدول ضرب فيثاغورس قديما، دليلا على ضعفه؟! و إذا رأينا العدل حسنا و الظلم سيئا منذ القدم، و لا يزال كذلك، فهل هو دليل على بطلانه ... فكثيرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۵

ما يتفق أن القدم دليل على الأصالة.

و أمّا فى شأن الإشكال الثالث، فيجيب القرآن: ألّا تعجلوا .. فعدم نزول العذاب من لطف اللّه، فهو يمهلكم و لا يعذبكم عاجلا، لكن إذا جاء عذابه فلا مفرّ منه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۶

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۷۶ الى ۸۱]

اشارة

إِنَّ هـذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِى إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۷۶) وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۷۸) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (۷۹) إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۸۰)

وَ ما أَنْتَ بِهادِى الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۸۱)

التّفسير

عمى القلوب لا يقبلون دعوتك!

كان الكلام فى الآيات السابقة عن المبدأ و المعاد ... أمّا فى الآيات- محل البحث- فيقع الكلام على مسألة النبوّة، و حقّانيّة القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث!.

و من جهة أخرى فقد كان الكلام فى الآيات السابقة عن علم اللّه الواسع غير المحدود، و فى الآيات محل البحث مزيد تفصيل فى هذا الشأن.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجها للمشركين، و هنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود و اختلافاتهم!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۷

فتقول الآيات أوّلا: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى بَنِى إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم فى مسائل كثيرة! فقد اختلفوا فى شأن مريم و عيسى عليهما السّلام. و فى شأن النّبى الذى بشّرت به

«التّوراة» من هو؟

كما أنّهم اختلفوا فى ما بينهم فى كثير من المسائل الدينية و الأحكام الشرعية ... فجاء القرآن موضحا هذه الأمور بجلاء، و قال: إن المسيح عليه السّلام عرف نفسه بصراحة ف قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا[۸۶].

و قال أيضا: إنّ المسيح ولد من دون أب، و ليس أمره محالا و إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ۸۷].

و أمّا النّبى الذى بشرت به التّوراة فتنطبق أوصافه على نبى الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا تنطبق على أحد سواه!.

و على كل حال فإنّ واحدة من مهامّ القرآن هى مواجهة الاختلافات المتولّدة من اختلاط الخرافات و حقائق التعليمات التى جاء بها الأنبياء ... و كل نبى مسئول أن يحسم الاختلافات الناشئة من التحريف و الخلط بين الحقّ و الباطل ... و حيث أن هذا العبء لا يمكن أن ينهض به رجل أمى لم يسبق له أن يقرأ، و فى محيط جاهلى، فيتّضح أنّه مرسل من قبل اللّه! و لما كانت مواجهة الاختلافات و الوقوف بوجهها مدعاة للهدى و الرحمة، فإنّ الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلى» و تقول: وَ إِنَّهُ لَهُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

أجل، إنّه هدى و رحمة من حيث حسم الخلافات و مبارزة الخرافات، هدى و رحمة لأنّ دليل حقانيته كامن فى عظمة محتواه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۸

هدى و رحمة لأنّه يهدى إلى سبيل الحق و يدل عليه!.

و ذكر «المؤمنين» هنا خاصّة .. هو لما ذكرناه آنفا من أنّه ما لم تتوفر مرحلة من الإيمان فى الإنسان، و هى مرحلة الاستعداد لقبول الحق و التسليم للّه، فإنّه لا يستطيع الاستفادة من هذا المصدر الإلهى الفيّاض.

و حيث أنّ جماعة من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن و الحقائق الواردة فيه، لأوامر اللّه، فإنّ الآية التالية تقول فى شأنهم: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ

و بالرغم من أنّ هذه الآية لم تصرّح بأن قضاء اللّه بينهم سيكون يوم القيامة ...

إلّا أنّه بقرينة آيتين أخريين تتحدثان عن اختلافات بنى إسرائيل، و أن اللّه يقضى بينهم يوم القيامة، يتّضح أنّ مراد الآية محل البحث هو هذا المعنى ذاته.

ففى الآية (۱۷) من سورة الجاثية يقول سبحانه: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

كما ورد فى ذيل الآية (۹۳) من سورة يونس، هذا النص المتقدم نفسه.

و وصف اللّه «بالعزيز» و «العليم» إشارة إلى ما ينبغى توفره فى القاضى من هاتين الصفتين، «العلم» بصورة كافية و «القدرة» على إجراء الحكم، و اللّه سبحانه أعلم من الجميع و أعزّهم.

و هذا الكلام إضافة إلى أنّه يبيّن عظمة القرآن، و هو تهديد لبنى إسرائيل، فهو فى الوقت ذاته تسلية عن قلب النّبى و تسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

توكل على اللّه العزيز الذى لا يغلب، و العليم بكل شىء .. توكل على اللّه الذى أنزل القرآن على عظمته فجعله عندك، فتوكل عليه و لا تقلق من المشركين و المعاندين، لأنّه يرعاك و إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: إذا كان القرآن حقّا مبينا فلما ذا خالفوه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۲۹

فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان أولئك لا يذعنون للحق المبين، و لا يؤثر فى قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب .. ل إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى ۸۸].

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق و أرواحهم توّاقة إليه، أمّا إحياء الموتى- أو موتى الأحياء- لتعصبهم و عنادهم و استمرارهم على الذنب، فلا- ترهق فكرك و نفسك من أجلهم و حتى لو كانوا احياء فإنهم صمّ لا يسمعون فلا يمكنهم أن يسمعوا صوتك، و

خاصة إذا أداروا إليك ظهورهم و ابتعدوا عنك وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

و لعلهم لو كانوا عندك و كنت تصرخ فيهم لبلغت بعض أمواج صوتك إلى مسامعهم، إلّا أنّهم مع صممهم يبتعدون عنك.

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، و لو ببعض العلامات، إلّا أنّهم عمى وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ

و هكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، و آذانهم صمّ موقرة، و أعينهم عمى! فأنت يا رسول اللّه إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ و يشعرون فى أنفسهم بالإذعان للحق.

و فى الحقيقة إن الآيتين- آنفتى الذكر- تتحدثان عن مجموعة واضحة من عوامل المعرفة و ارتباط الإنسان بالعالم الخارجى و هى:

«حس التشخيص»، و العقل اليقظ، فى مقابل القلب الميت.

«الأذن الصاغية» لاكتساب الكلام الحق، عن طريق السمع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۰

«و العين الباصرة» لرؤية وجه الحق و وجه الباطل، عن طريق البصر.

إلّا أن العناد و اللجاجة و التقليد الأعمى و الذنب ... كلها تعمى العين التى بها يرى الإنسان الحقيقة، و توفر سمعه، و تميت قلبه.

و مثل هؤلاء المعاندين المذنبين، لو جاء جميع الأنبياء و الأولياء و الملائكة لهدايتهم، لما أثّروا فيهم شيئا، لأنّ ارتباطهم بالعالم الخارجى مقطوع، و هم غارقون فى «مستنقع ذواتهم» فحسب!.

و نظير هذا التعبير ورد فى سورة البقرة و سورة الروم و سور أخر من القرآن (و كان لنا بحث آخر فى نعمة «و سائل المعرفة» فى تفسير سورة النحل ذيل الآية ۷۸.

و مرّة أخرى نذكّر بهذه اللطيفة و هى أنّ المراد من الإيمان و التسليم ليس معناه أنّهم قبلوا حقائق الدين من قبل، فيكون من باب تحصيل الحاصل، بل الهدف من ذلك أن الإنسان إذا لم يكن فيه شوق للحق و خضوع لأمر اللّه، فإنه لا يصغى إلى كلام النّبى أبدا.

بحثان

۱- أسباب التوكل

«التوكل» مأخوذ من «الوكالة»، و هو فى منطق القرآن يعنى الاعتماد على اللّه و جعله وليّا وكيلا، و عدم القلق و الخوف من كثرة المشاكل و الموانع و عظم حجمها، بسبب التوكل على اللّه! و هذا الأمر واحد من دلائل الإيمان المهمّة و مدعاة للنصر و التوفيق!.

و الطريف أنّ الآيات المتقدمة عدّت التوكل فى شيئين:

أحدهما: القدرة و العلم لمن يتوكل عليه الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۱

و الآخر: وضوح الطريق الذى اختاره الإنسان!.

و فى الحقيقة فإنّ القرآن يقول: لا مدعاة للضعف و الخوف و الوحشة، فأنت تعوّل على اللّه العزيز الذى لا يقهر، و العليم الخبير بكل شىء هذا من جهة .. ثمّ إنّك على الطريق الواضح و الحق اللائح من جهة أخرى .. فالمدافع عن الحق المبين علام يخاف؟! و إذا ما رأيت جماعة خالفتك فلا تحزن أبدا ... فهى لا تملك عيونا باصرة، و لا آذانا صاغية، و لا قلوبا حيّة! ... و هى خارجة أساسا عن طريق الهداية و التبليغ ... و إنّما يلتفّ حولك طلاب الحق و عشاق اللّه، و العطاشى إلى العدل حيث يخفّون نحو منبع القرآن الزلال،

لیرتووا من نمیره العذب.

۲- الموت و الحیاة فی منطق القرآن!

هناک کثیر من الألفاظ لها مـداليل و معان شتّی بحسب النظرات المختلفـة، و من هـذه الألفاظ، لفظا الحیاة و الموت. «فالحیاة» بالنظرة الماديـة تعنی الحیاة الطبیعـة «الفیزیائیة» فحسب، أی متی کان القلب ینبض، و الدم یجری فی العروق إلی أعضاء الجسم کافة، و کانت الحرکـة و عملیـة الجـذب و الـدفع فی البـدن، کان البـدن حیا .. أمّا إذا سـکنت هذه الحرکة، فتدل علی «الموت» القطعی الذی یعرف بالاختبار الدقیق خلال عدّة لحظات!.

إلّا أنّ النظرة القرآنیـة تختلف عن النظرة الماديـة، فکثیر من الناس یعـدون أحیاء بحسب النظرة الماديـة- إلّا أنّهم أموات بحسب النظرة القرآنیـة .. کأولئک الـذین أشارت إلیهم الآیات المتقدمة .. و علی العکس منهم الشـهداء، فهم بحسب الظاهر أموات، لکنّهم بالمنطق القرآنی أحیاء خالدون! و السبب فی هذا الاختلاف بین النظرتین، هو أنّ الإسلام بالإضافة إلی أنّه یعدّ معیار الحیاة الإنسانیة و شخصیة الإنسان فی القیم الروحانیة، فهو یری فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۲

إیصال النفع الی الآخرین و عدمه معیار الوجود الحیاة و عدمها فی الإنسان.

فالإنسان الذی یری بحسب الظاهر حیّا، إلّا أنّه غارق فی الشـهوات، فلا یسـمع صـرخة لمظلوم، و لا صوتا لمنادی الحق، و لا ینظر بعین بصـیرة فیری آثار اللّه فی خلقه، و لا یفکر و لو لحظة واحدة فی مستقبله و ماضیه .. فمثل هذا الإنسان میّت فی منطق القرآن. أمّا الذین ما تزال آثارهم تملأ الدنیا بعد موتهم، و أفکارهم أسوة و قدوة للآخرین، فهؤلاء أحیاء خالدون ۸۹].

و بغض النظر عن هـذه الأمور کلّهـا .. فالإسـلام- حسب مـا لـدینا من المـدارک- یؤمن بالحیاة البرزخیـة للناس .. و العجب أن بعض الوهابیین الجهلة یصـرون علی نفی أی نوع من أنواع الحیاة و العلم بعد الوفاة، حتی للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یمنعون التوسل به، لأنّه بزعمهم میّت و لا- أثر للمیت، و الأعجب من ذلـک أنّهم یسـتندون إلی الآیـات- محل البحث- لتأییـد دعواهم!! فی حین أنّ بعضـهم الآخر یصـرّح علی أنّ للنبیّ نوعا من الحیاة البرزخیة، حیاة أشـرف من حیاة الشـهداء المصرّح بها فی القرآن، و قال: إنّه یسمع سلام المسلّم علیه ۹۰].

و الرّوایات فی هذا الشأن کثیرة وافرة عن الفریقین الشـیعة و السـنة، أن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمة المعصومین یسمعون من یسلّم علیهم من بعید أو قریب، و یردّون علیه سلامهم، کما أنّ أعمال الأمّة تعرض علیهم ۹۱].

و نقرأ فی حدیث ورد فی صـحیح البخاری فی قصّة معرکة بدر أن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله مع بعض أصحابه وقف علی «القلیب» و قد ألقیت فیه أجساد قتلی المشرکین، فناداهم بأسمائهم، و

قال: هلّا أطعتم اللّه و رسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۳

فهـل وجـدتم مـا وعـد ربّکم حقـا .. فقـال عمر: یا رسول اللّه، تکلم أجسادا لا روح فیها ... فقال صـلّی اللّه علیه و آله: «و الـذی نفس محمّد بیده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۱۳۳

نقرأ فى قصّة الجمل عن الأصبغ بن نباتة، أنّه لما انهزم أصحاب الجمل ركب على عليه السّلام بغلة رسول اللّه الشهباء و سار فى القتلى يستعرضهم فمرّ ب «كعب بن سور» قاضى البصرة و هو قتيل، فقال: أجلسوه، فأجلس. فقال: و يلمّك يا كعب بن سور، لقد كان لك علم لو نفعك .. و لكن الشيطان أضلك فأزلّك فعجلك إلى النّار[۹۳].

و نقرأ فى نهج البلاغة- أيضا- أنّه عليه السّلام بعد رجوعه من صفين بلغ مقبرة كانت خلف سور الكوفة، فخاطب الموتى فقال كلاما فى تقلب الدنيا ثمّ

قال: «هذا ما عندنا فما خبر ما عندكم ثمّ أضاف عليه السّلام أمّا لو أذن لهم فى الكلام لأخبروكم أن خير الزاد التقوى»[۹۴].

و هذا بنفسه دليل على أنّهم يسمعون إلّا أنّهم لا يسمح لهم بالردّ .. و لو أذن لهم لأجابوا!.

فجميع هذه التعبيرات «إشارة» إلى حياة الإنسان البرزخية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۴

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۸۲ الى ۸۵]

اشارة

وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ (۸۲) وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ (۸۳) حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸۴) وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ (۸۵)

التّفسير

لمّا كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفّار بالعذاب و نزوله، أو تحقق القيامة و انتظارهم بفارغ الصبر و وقوع ذلك، و كانوا يقولون للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ و متى يوم القيامة؟! فإنّ الآيات- محل البحث- تشير إلى بعض الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، و تجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ

و المراد من قوله تعالى: وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ هو صدور أمر اللّه و ما وعدهم من العقاب و الجزاء .. أو وقوع يوم القيامة و حضور علائمها، العلائم التى يخضع لها كل من يراها، و يستسلم لأمر اللّه، و يحصل عنده اليقين بأنّ وعد اللّه حق، و أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۵

القيامة قد اقتربت ... و حينئذ توصد أبواب التوبة ... لأنّ الإيمان فى مثل هذه الظروف يقع اضطرارا.

و بالطبع فإنّ هذين المعنيين متلازمان لأنّ اقتراب القيامة يقترن بنزول العذاب و مجازاة الكافرين.

و لكن ما هى «دابة الأرض»؟ و ما مصداقها؟ و أية مهمّة تحملها؟ .. فالقرآن يجمل و لا يفصل، و كأنّه يريد أن يترك الموضوع مجملا غامضا، ليكون الكلام فيه أكثر تأثيرا و باعثا على التهويل.

فيقول مختصرا: يخرج اللّه موجودا يتحرك «أو دابة من الأرض» بين يدى القيامة، فيتكلم مع الناس و يقول: «إنّ الناس كانوا لا يؤمنون بآيات اللّه».

و بتعبير آخر: إنّ مهمّة هذه الدابة هى تفريق الصفوف و تمييز المنافقين و المنكرين من المؤمنين.

و بديهى أن المنكرين يرجعون إلى أنفسهم عند مشاهدة هذه الآيات، و يندمون على ما سلف منهم و على أيّامهم المظلمة، و لكن ما

عسى أن ينفعهم الندم و أبواب التوبة موصدة؟! و هناك مسائل كثيرة و مطالب و فيرة فى خصوصيات «دابة الأرض» و جزئياتها و صفاتها فى الرّوايات الإسلامية الواردة فى كتب الفريقين، الشيعة و أهل السنة، و سنتعرض إليها ذيل هذه الآيات فى باب البحوث إن شاء اللّه.

ثمّ تشير الآيات إلى علامة أخرى من علامات القيامة، فتقول: وَ يَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ

«و الحشر» معناه إخراج جماعة ما من مقرّها و السير بها نحو ميدان الحرب أو غيره! و «الفوج»، كما يقول الراغب فى المفردات: الجماعة التى تتحرك بسرعة.

و أمّا «يوزعون» فمعناه حبس الجماعة و إيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل .. و هذا التعبير يطلق- عادة- على الجماعات الكثيرة، نظير ما قرأنا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۶

شأن جنود سليمان فى هذه السورة ذاتها.

فبناء على هذا يستفاد من مجموع الآية أن يوما سوف سيأتى يحشر اللّه فيه من كل أمّة جماعة، و يهيؤهم للحساب و الجزاء على أعمالهم!.

و الكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة و عودة جماعة من الصالحين و جماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة .. لأنّ التعبير لو كان عن القيامة لم يكن قوله «نحشر من كل أمّة فوجا» صحيحا .. إذ فى القيامة يكون الحشر عاما للجميع، كما جاء فى الآية (۴۷) من سورة الكهف قوله تعالى: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً.

و الشاهد الآخر على أنّ الآيات هذه تتحدث عمّا يقع قبيل القيامة، هو أن الآيات التى قبلها كانت تتحدث عن الحوادث التى تقع قبل القيامة، و الآيات التى تلى الآيات محل البحث تتحدث عن الحوادث التى تقع قبيل القيامة أيضا ... فمن البعيد أن تتحدث الآيات السابقة و اللاحقة عن ما يقع قبل القيامة، و هذه الآيات محل البحث- فقط- تتحدث عن ما يقع فى يوم القيامة.

و هناك روايات كثيرة فى هذا الصدد عن مسألة الرجعة سنتناولها فى البحوث القادمة إن شاء اللّه، إلّا أن المفسّرين من أهل السنة يعتقدون أن الآية ناظرة إلى يوم القيامة، و قالوا: إنّ المراد بالفوج هو إشارة إلى رؤساء الجماعات و أئمتهم! و أمّا عدم الانسجام بين الآيات الذى يحدثه هذا التّفسير، فقالوا: إنّ الآيات بحكم التأخير و التقديم، فكأن الآية (۸۳) حقّها أن تقع بعد الآية (۸۵).

إلّا أننا نعلم أن تفسير الفوج بالمعنى الآنف الذكر خلاف الظاهر، و كذلك عدم انسجام الآيات بأنّها فى حكم التأخير و التقديم هو خلاف الظاهر أيضا.

حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۷

و قائل هذا الكلام هو اللّه سبحانه، و المراد من «الآيات» هى المعاجز التى يأتى بها الأنبياء، أو أوامر اللّه، أو الجميع!.

و المراد من جملة وَ لَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً هو أنّكم بدون أن تتحققوا و تطّلعوا على حقيقة الأمر، كذبتم الآيات، و هذا منتهى الجهل و عدم المعرفة أن ينكر الإنسان شيئا دون أن يتحقق منه!.

و فى الحقيقة فإنّهم يسألون عن شيئين.

الأوّل: تكذيبهم دون أن يفحصوا عن الحق.

و الآخر: عن أعمالهم التى كانوا يقومون بها.

و إذا كانت الآية- آنفة الذكر- تتحدث عن القيامة، فمفهومها واضح. و أمّا إذا كانت تشير إلى مسألة الرّجعة- كما يقتضيه انسجام الآيات- فهى إشارة إلى أنّه عند ما يرجع إلى هذه الدنيا طائفة من المجرمين ... فولى الأمر الذى يمثل اللّه، و هو خليفته فى الأرض،

يتحقق منهم و يسألهم عمّا فعلوه فى حياتهم، ثمّ يجازيهم حسب ما يستحقون من الجزاء الدنيوى، و لا يمنع هذا من عذاب الآخرة، كما أن كثيرا من المجرمين ينالون الحدّ الشرعى فى هذه الدنيا، و يستوفون جزاءهم، فإذا لم يتوبوا فإنّ ما يستحقون من العقاب ينتظرهم فى الآخرة.

و بديهى أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أىّ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: وَ وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ

و هذا القول أو العذاب دنيوى، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۸

بحوث

۱- ما هى دابة الأرض؟!

«الدّابة» معناها ما يدب و يتحرك، و «الأرض» معناها واضح .. و خلافا لما يتصوّره بعضهم بأنّ الدّابة تطلق على غير الإنسان ... بل الحق أنّها ذات مفهوم واسع يشمل الإنسان أيضا، كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة هود وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها، و فى الآية (۶۱) من سورة النحل وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ.

و فى الآية (۲۲) من سورة الأنفال إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ

إلّا أنّه- كما ذكرنا فى تفسير الآية آنفا- فإنّ القرآن لا يفصّل فى بيان هذه الكلمة و إنّما يذكرها على إجمالها، فكأنّ البناء كان على الإجمال و الإبهام، و الوصف الوحيد المذكور لها بأنّها تكلم الناس و تميز المؤمن من غير المؤمن ...

إلّا أنّ هناك كلاما طويلا فى الرّوايات الإسلامية و أقوال المفسّرين فى الشأن، و يمكن تلخيص مجموعها فى تفسيرين:

۱- فطائفة تعتقد بأنّ هذه «الدابة» حيوان غير مألوف و من غير جنس الإنسان له شكل عجيب، و نقلوا له عجائب شبيهة بما يخرق العادات و المعاجز!.

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان، و تتحدث عن الإيمان و الكفر، و تفضح المنافقين و تسمهم بميسمها! ۲- و طائفة تعتقد- حسب الرّوايات الإسلامية الواردة فى هذا الشأن- أنّها إنسان فوق العادة- إنسان متحرك فعّال! و واحد من أفعاله الأصلية تمييز المؤمنين عن المنافقين و وسمهم .. حتى أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أن معه عصا موسى عليه السّلام و خاتم سليمان .. و نحن نعرف أن عصا موسى رمز للقدرة و الإعجاز، و خاتم سليمان رمز للحكومة و السلطة الإلهية! فإذا هذا الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۳۹

رجل قوىّ ذو سلطة و هيمنة! و

قد جاء فى حديث عن «حذيفة بن اليمان» عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى وصف هذه الدابة قوله: «لا يدركها طالب و لا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه و يكتب بين عينيه مؤمن، و تسم الكافر بين عينيه و يكتب بين عينيه كافر، و معها عصا موسى و خاتم سليمان»[۹۶].

و قد طبق هذا المفهوم فى روايات كثيرة على «أمير المؤمنين» عليه السّلام

ففى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رجلا قال لعمار بن ياسر: فى القرآن آية شغلت بالى و جعلتنى فى شك قال عمار: أيّة آية هى؟ قال: آية وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ

فیقول عمـار: و اللّه لاـ أجلس علی الأرض و لا آکل طعاما و لا أشـرب ماء حتی أریکها. ثمّ یأخـذه عمار إلی الإمام علی، و هو یأکل طعاما فلما بصر به الإمام علی ناداه فجاء عمار عنده و أکل معه!.

فتعجب الرجل و لم یصـدق هـذا المشـهد، إذ کان عمار قـد حلف و وعده أن لا یجلس علی الأرض و لا یأکل و لا یشـرب حتی یریه دابة الأرض، فکأنّه نسی وعده!.

فلمّـا قـام عمـار و ودّع علیّـا .. قال له الرجل: عجیب منک أن تقسم باللّه أن لا تأکل و لا تشـرب و لا تجلس علی الأرض، حتی ترینی دابة الأرض! ... فقال له عمار: أریتکها لو کنت تعقل ۹۷].

و نظیر هذا المعنی فی تفسیر العیاشی، إلّا أنّه ورد اسم «أبی ذر» مکان عمار[۹۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۰

و

ینقل العلّامة المجلسـی رحمه اللّه فی بحار أنواره بسـند معتبر عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: انتهی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی أمیر المؤمنین علیه السّـلام و هو نـائم فی المسـجد قـد جمع رملاـ و وضع رأسه علیه، فحرّکه برجله، ثمّ قـال: قم یا دابـة اللّه، فقال رجل من أصحابه: یا رسول اللّه أ نسمّی بعضنا بعضا بهذا الاسم؟

فقال لهم: «لا و اللّه ما هو إلّا له خاصّـة و هو الدابـة التی ذکر اللّه فی کتابه وَ إِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَیْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُکَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ کـانُوا بِآیاتِنـا لاـ یُوقِنُـونَ ثـمّ قـال: یـا علی إذا کـان آخر الزمـان أخرجـک اللّه فی أحسـن صـورة، و معـک میسـم تسـم به أعداءک»[۹۹].

و بناء علی هذه الرّوایة، فالآیة تنطبق علی الرجعة و تنسجم هی و الآیة التی تلیها فی الرجعة!.

و یقول المرحوم «أبو الفتوح الرازی» فی تفسـیره فی ذیل الآیة: طبقا للأخبار التی جاءتنا عن طریق أصحابنا، فإن دابة الأرض کنایة عن المهدی «صاحب الزمان علیه السّلام»[۱۰۰].

و مع الأخـذ بنظر الإعتبـار لهـذا الحـدیث و الأحادیث المتقدمـة، یمکن أن یسـتفاد من دابـة الأرض مفهوم واسع، ینطبق علی أی إمام عظیم یخرج فی آخر الزمان و یمیز الحق عن الباطل.

و هذا التعبیر الوارد فی الرّوایات الاسـلامیة بأن معه عصا موسی علیه السّلام التی هی رمز القوة و الإنتصار، و خاتم سلیمان علیه السّلام الذی یرمز للحکومة الإلهیة، قرینة علی أن دابة الأرض إنسان نشط فعال فوق العادة!.

کمـا أنّ مـا ورد فی الرّوایات الإسـلامیة من أنّها تسم المؤمن بین عینیه فیکتب مؤمنا، و تسم الکافر فیکتب کافرا ینسـجم و القول بأنّها إنسان!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۱

إضافة إلی ذلک فالتصریح فی القرآن بأنّها تکلم الناس یساعد علی هذا المعنی!.

و من مجموع ما مرّ نصل هنا إلی أنّ الدّابة تطلق فی الأغلب علی غیر الناس، و قد اسـتعملها القرآن فی الأعم من الإنسان و غیره أو فی خصوص الإنسان، هذا من جهة. و من جهة أخری فالقرائن المتعددة الموجودة فی الآیة ذاتها، و الرّوایات الکثیرة فی تفسـیر الآیة، تدل علی أنّ المراد من «دابة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذکرنا له من خصائص آنفا، فهو یمیز الحق من الباطل و المؤمن من المنافق و الکافر.

إنسان یخرج فی آخر الزمان قبیل یوم القیامة، و هو بنفسه آیة من آیات عظمة الخالق!.

۲- الرجعة فی الکتاب و السنة!

من المسائل التی تجدر بالملاحظة، فی الآیات- محل البحث- ظهور بعض من هذه الآیات فی مسألة الرجعة!.

و «الرجعة» من عقائد الشیعة المعروفة، و تفسیرها فی عبارة موجزة بهذا النحو: «بعد ظهور المهدی علیه السّلام و بین یدی القیامة، یعود طائفة من المؤمنین الخلّص، و طائفة من الکفار الأشرار، إلی هذه الدنیا .. فالطائفة الأولی تصعد فی مدارج الکمال ... و الطائفة الثّانیة تنال عقابها الشدید!.

یقول «الشریف المرتضی» الذی هو من أعاظم الشیعة: إنّ الذی تذهب الشیعة الإمامیة إلیه، أن اللّه تعالی یعید عند ظهور الإمام المهدی علیه السّلام أقواما ممن کان قد تقدم موته من شیعته لیفوز بثواب نصرته و معونته و مشاهدة دولته، و یعید أیضا قوما من أعدائه لینتقم منهم، فیلتذوا بما یشاهدون من ظهور الحق و علوّ کلمة أهله!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۲

ثمّ یضیف السید المرتضی قائلا: و الدلالة علی صحة هذا المذهب أن الذی ذهبوا إلیه ممّا لا شبهة علی عاقل فی أنّه مقدور للّه تعالی غیر مستحیل فی نفسه، فإنا نری کثیرا من مخالفینا ینکرون الرجعة إنکار من یراها مستحیلة غیر مقدورة، و إذا ثبت جواز الرجعة و دخولها تحت المقدور، فالدلیل إلی إثباتها إجماع الإمامیة علی وقوعها[۱۰۱].

و یظهر بالطبع- من کلمات بعض قدماء علماء الشیعة و کذلک من کلام العلامة «الطبرسی» فی مجمع البیان- أن «الأقلیّة» القلیلة من الشیعة لا تؤمن بهذه العقیدة، أی «الرجعة» و فسّروها بعودة حکومة أهل البیت علیهم السّلام، لا رجوع الأشخاص و حیاتهم بعد موتهم فی هذه الدنیا، إلّا أنّ مخالفة هذه القلة لا تؤثر فی الإجماع.

و علی کل حال، فهنا مطالب کثیرة، و من أجل ألّا نخرج عن أسلوب بحثنا نشیر إلیها بإیجاز فی ما یلی:

۱- لا ریب أنّ إحیاء جماعة من الموتی فی هذه الدنیا لیس محالا! ... کما أن إحیاء جمیع البشر فی یوم القیامة ممکن، و التعجب من هذه المسألة کتعجب المشرکین «من أهل الجاهلیة» من مسألة المعاد، و السخریة منها کالسخریة من المعاد! ... لأنّ العقل لا یحکم علی مثل هذا الأمر بالاستحالة ... و قدرة اللّه واسعة بحیث أنّ هذه الأمور عندها سهلة یسیرة هیّنة!.

۲- جاء ذکر الرجعة فی القرآن المجید إجمالا، و وقوعها فی خمسة مواطن فی شأن الأمم السالفة.

ألف: فی ما یتعلق بالنّبی الذی مرّ علی قریة و هی خاویة علی عروشها، و عظام أهلها نخرة متفرقة هنا و هناک. فتساءل فی نفسه و قال: أَنَّی یُحْیِی هذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِها فأماته اللّه مائة عام ثمّ أحیاه فقال له: کم لبثت؟! قال: لبثت یوما أو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۳

بعض یوم قال: بل لبثت مائة عام «مؤدّی الآیة ۲۵۹- من سورة البقرة».

و سواء کان هذا النّبی عزیرا أم سواه، فلا فرق فی ذلک، المهم أنّ القرآن صرح بحیاته بعد موته فی هذه الدنیا فأماته اللّه مائة عام ثمّ بعثه!.

ب- یتحدث القرآن- فی الآیة (۲۴۳) من سورة البقرة ذاتها- عن جماعة أخری خرجت من دیارها خوفا من الموت، و امتنعت من الذهاب إلی سوح القتال بحجّة مرض الطاعون، فأماتها اللّه ثمّ أحیاها أَ لَمْ تَرَ إِلَی الَّذِینَ خَرَجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْیاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَی النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَشْکُرُونَ

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین لم یتحملوا وقوع مثل هذه الحادثة غیر المألوفة، و عدوها مثالا فحسب، إلّا أنّ من الواضح أنّ مثل هذه التأویلات إزاء ظهور الآیة- بل صراحتها- لا یمکن المساعدة علیه!.

ج- و فی الآیتین ۵۵ و ۵۶ من سورة البقرة أیضا، یتحدث القرآن عن بنی إسرائیل فیقول: وَ إِذْ قُلْتُمْ یا مُوسی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْکُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ، ثُمَّ بَعَثْناکُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِکُمْ لَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ

د- و نقرأ فی الآیة (۱۱۰) ضمن معاجز عیسی قوله تعالی: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتی بِإِذْنِی

و یدل هذا التعبیر علی أنّ المسیح علیه السّلام أحیا الموتی فعلا، بل التعبیر بالفعل المضارع (تخرج) یدلّ علی أنّه أحیا الموتی مرارا، و هـذا الأمر بنفسه یعـد نوعا من الرجعة لبعضـهم! ه- و أخیرا ففی الآیتین (۷۲) و (۷۳) من سورة البقرة، إشـارة إلی مقتـل رجل من بنی إسـرائیل و وقوع الجدال و النزاع فی شأن قاتله، و ما أمرهم اللّه أن یفعلوه بضرب القتیل ببعض البقرة- الواردة خصائصها فی الآیة ۷۲- إذ یقول سبحانه:

وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِیها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما کُنْتُمْ تَکْتُمُونَ، فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۴

کَذلِکَ یُحْیِ اللَّهُ الْمَوْتی وَ یُرِیکُمْ آیاتِهِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ

و بالإضافـة إلی هـذه المواطن الخمسة التی أشـرنا إلیها، فهناک مواطن أخر فی القرآن، منها قصّة أصـحاب الکهف، و هی قصّة تشـبه الرجعة. و قصّة الأربعة من الطیر التی أمر إبراهیم أن یذبحها فأتینه سعیا بعد ذبحهن و تفریقهن علی رأس کل جبل جزءا منهنّ، لیتّضح له إمکان المعاد للناس و یکون مجسدا برجوع هذه الطیور إلی الدنیا.

و علی کـل حـال! کیف یمکن أن یؤمن الشـخص بـالقرآن و أنّه کتـاب سـماوی، ثمّ ینکر هـذه الآیـات الواضـحة فی الرجعـة؟ و هل الرجعة- أساسا- إلّا العودة للحیاة بعد الموت؟! أو لیست الرجعة مثلا مصغرا من القیامة فی هذه الدنیا.

فمن یؤمن بالقیامـة بمقیاسـها الواسع، کیف یمکنه أن یعـترض علی مسألـة الرجعـة و أن یسـخر منهـا؟! و أن یقول قائـل کأحمـد أمین المصـری فی کتابه «فجر الإسلام» الیهودیة ظهرت بالتشیع بالقول بالرجعة[۱۰۲].!! و أی فرق بین کلام أحمـد أمین هذا، و إنکار عرب الجاهلیة لمسألة المعاد الجسمانی؟! ۳- ما ذکرناه- إلی هنا- یثبت إمکان الرجعة، و أمّا ما یؤید وقوعها فروایات کثیرة نقلها الثقات عن أئمّـة أهل البیت علیهم السّـلام و حیث لا یسع بحثنا نقلها و التحقیق فیها، فیکفی أن نـذکر ما عـدّه المرحوم العلّامة المجلسـی فی بحار أنواره و ما جمعه منها، إذ یقول: و کیف یشک مؤمن بحقیّـة الأئمـة الأطهار علیهم السّـلام فیما تواتر عنهم فی قریب من مائتی حدیث صریح ۱۰۳]، رواها نیّف و أربعون من الثقات العظام و العلماء الأعلام، فی أزید من خمسین من مؤلفاتهم .. فإذا لم یکن مثل هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۵

متواترا ففی أیّ شیء یمکن دعوی التواتر[۱۰۴]؟!

۴- فلسفة الرجعة!

إنّ أهم سؤال یثار فی هـذا الصدد، هو: ما الهدف من الرجعة قبل یوم القیامة؟! و مع ملاحظة ما یسـتفاد من الرّوایات الإسـلامیة من أنّ هـذا الموضوع لیس عامّا بل یختصّ بالمؤمنین الخلّص الـذین هم فی مرحلـة عالیـة من الإیمان، و الکفار و الطغاة الظلمة الذین هم فی مرحلـة منحطة من الکفر و الظلم .. فیبدو أن الرجعة لهاتین الطائفتین للدنیا ثانیة هی من أجل إکمال الطائفة الأولی حلقتها التکاملیة، و أن تذوق الطائفة الثّانیة جزاءها الدنیوی.

و بتعبیر آخر: إن الطائفة المؤمنة «خالصة الإیمان» الذین واجهوا الموانع و العوائق فی مسـیر تکاملهم المعنوی فی حیاتهم و لم یتکاملوا الکمال اللائق باسـتعدادهم، فإنّ حکمـة اللّه تقتضـی أن یتکاملوا عن طریق الرجعـة لهـذه الـدنیا و أن یکونوا شـهداء الحکومة العالمیّة للحقّ و العدل، و أن یساهموا فی بناء هذه الحکومة، لأنّ المساهمة فی بناء مثل هذه الحکومة من أعظم الفخر!.

و علی عکس الطائفـة الآنفـة الـذکر، هناک طائفـة من المنافقین و الجبابرة المعانـدین، ینبغی أن ینالوا جزاءهم الـدنیوی بالإضافـة إلی جزاءهم الأخروی، کما ذاق- قوم فرعون و ثمود و عاد و قوم لوط جزاءهم- و لا طریق لأن یذوقوا عذاب الدنیا إلّا بالرجعة!.

يقول الإمـام الصادق عليه السّـلام فى بعض أحاديثه «إن الرجعـة ليست بعامـة، و هى خاصّـة، لا يرجع الّا من محض الإيمان محضا، أو محض الشرك محضا»[۱۰۵].

و لعل الآية (۹۵) من سورة الأنبياء وَ حَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۶

تشير إلى هـذا المعنى أيضا، لأنّها تتحـدث عن عـدم رجوع أولئك الذين ذاقوا عذابهم الشديد فى هذه الدنيا، فيتّضح منها أن أولئك الذين لم يذوقوا مثل هذا الجزاء ينبغى أن يرجعوا، فيذوقوا عذابهم «فلاحظوا بدقة».

كما يرد هـذا الاحتمال أيضا، و هو أنّ رجعة «الطائفتين هاتين» فى ذلك المقطع الخاص من الزمان هى بمثابة درسـين كبيرين و آيتين مهمتين من آيات عظمـة اللّه- و مسألة القيامة و «المبدأ و المعاد»- للناس، ليبلغوا أسـمى درجات الكمال المعنوى بمشاهدتهما و يزداد إيمانهم ... و لا يكونوا مفتقرين إلى شىء أبدا.

۵- و يتصور بعضهم أنّ الإعتقاد بالرجعة لا ينسجم و أصل حرية الإرادة و الإختيار عند البشر!.

و ممّا بيّناه آنفا يتّضح أنّ هذا اشتباه محض، لأنّ رجوع من يرجع إلى هذه الدنيا سيكون فى ظروف طبيعية، و يتمتع بحرية كاملة.

و مـا يقوله بعضـهم بـأنّه من الممكن أن يتوب الجبـابرة و الكفار المعانـدون بعـد الرجعـة و يعودوا إلى الحق، فجوابه أنّ هؤلاء الأفراد غارقون فى الظلم و الفساد و الكفر بحيث أن هذه الأمور مندمجة مع روحهم و نسيجهم و لا يتصور توبتهم!.

كما أنّ القرآن يحكى فى ردّه على طلب أهل النّار يوم القيامـة الرجوع إلى الدنيا، ليقضوا ما فاتهم و لا يعملوا السـيئات ... فيقول: وَ لَوْ رُدُّوا لَعـادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ [۱۰۶] كما يتّضح الجواب على إشـكال بعضـهم من أنّ الرجعة لا تنسجم مع الآية (۱۰۰) من سورة المؤمنون لأنّه طبقا لهـذه الآيـة فإن المشـركين يطلبون الرجوع إلى هذه الدنيا ليعملوا صالحا، و يقول كل منهم: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ فيرد عليه بالقول: كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۷

فالجواب على هذا الإشكال، أن هذه الآية عامة و الرجعة خاصة «فلاحظوا بدقة».

۶- و آخر الكلام هنا أنّ الشيعة مع اعتقادهم بالرجعة التى أخذوها عن أهل البيت عليهم السّلام فإنّهم لا يحكمون على منكرى الرجعة بالكفر، لأنّ الرجعة من ضروريّات المذهب الشيعى لا من ضروريات الإسلام.

فبناء على ذلك فإنّ هـذه المسألـة لا تقطع وشائـج الأخوة الإسـلامية مع الآخرين .. إلّا أن الشـيعة تواصل دفاعها المنطقى عن عقيـدتها هذه.

و ينبغى الالتفات إلى أن هناك خرافات تمتزج أحيانا بالرجعة فتشوّه وجهها فى نظر البعض، فينبغى أن نعول على الأحاديث الإسـلامية الصحيحة فى الشأن، و أن نتجنب الأحاديث المطعون فيها أو المشكوكة.

و ما ذكرناه هنا خلاصـة موجزة عمّا يتعلق بالرجعـة، و ينبغى مراجعـة الكتب التى تتحدث عن هذا الشأن لمن أراد أن يستزيد و يعرف خصائص أخر للرجعة أو جزئياتها.

و مع ملاحظـة هذا المقدار الذى بيّناه يتّضح الجواب على الحملات المسعورة من قبل أولئك الذين لم يطّلعوا على هذا الموضوع من إخواننا أهل السـنة «كما فعل «الآلوسـى» فى تفسيره روح المعانى ذيل الآيات محل البحث» و أن إشكالهم على مسألة الرجعة ناشئ من عدم تعقلهم لها حتى عدّوها أسطورة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۸

الآيات [سورة النمل (۲۷): الآيات ۸۶ الى ۸۸]

اشارة

أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۸۶) وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ (۸۷) وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ (۸۸)

التّفسير

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلميّة:

مرّة أخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ و المعاد، و آثار عظمة اللّه، و دلائل قدرته فى عالم الوجود، و حوادث القيامة، فتقول: أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً و فى ذلك علائم و دلائل واضحة على قدرة اللّه و حكمته لمن كان مستعدا للايمان إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و هذه ليست أوّل مرّة يتحدث فيها القرآن عن الليل و النهار الحيويّة، و نظامى النور و الظلمة، كما أنّها ليست آخر مرّة أيضا .. و ذلك لأنّ القرآن كتاب تعليم و تربية، و هو يهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية ... و نحن نعرف أن أصول التعليم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۴۹

و التربية تقتضى أحيانا أن يتكرر الموضوع فى «فواصل» مختلفة، و أن يذكّر الناس به ليبقى فى الذهن كما يقال.

فالسكن أو الهدوء الذى يحصل من ظلمة الليل، مسألة علمية و حقيقة مسلّم بها، فسدل الليل ليست أسبابا إجبارية لتعطيل النشاطات اليومية فحسب، بل لها أثر عميق على سلسلة الأعصاب فى الإنسان و سائر الحيوانات، و يجرها إلى الراحة و النوم العميق، أو كما يعبر القرآن عنه بالسكون!.

و كذلك العلاقة بين ضوء النهار و السعى و الحركة التى هى من خصائص النور من الناحية العلمية- أيضا- و لا مجال للتردد فيها. فنور الشمس لا- يضىء محيط الحياة ليبصر الإنسان به مأربه فحسب، بل يوقظ جميع ذرات وجود الإنسان و يوجهه إلى الحركة و النشاط!.

فهذه الآية توضح جانبا من التوحيد الرّبوبى، و لما كان المعبود الواقعى هو ربّ «عالم الوجود» و مدبّره، فهى تشطب بالبطلان على وجوه الأوثان! ... و تدعو المشركين إلى إعادة النظر فى عبادتهم.

و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة، و هى أنّ على الإنسان أن يجعل نفسه منسجما مع هذا النظام، فيستريح فى الليل و يسعى فى النهار، ليبقى نشطا صحيحا دائما ... لا كالمنقاد لهواه الذى يطوى الليل يقظا ساهرا و ينام النهار حتى الظهر!.

و الطريف أن كلمة «مبصر» نسبت إلى النهار و وصف بها، مع أنّها وصف للإنسان فى النهار، و هذا نوع من التأكيد الجميل للاهتمام بالنشاط فى النهار، كما يوصف الليل أحيانا بأنه «ليل نائم»[۱۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۰

و هذا التفاوت فى التعبير فى الآية، هو لبيان فائدة الليل و النهار، إذ جاء فى شأن الليل لِيَسْكُنُوا فِيهِ و عبر عن النهار ب (مبصر) فلعل هذا الاختلاف فى التعبير إشارة إلى أن الهدف الأصلى من وجود الليل هو السكون و الهدوء، و الهدف من الضوء و النهار ليس النظر فحسب، بل رؤية الوسائل الموصلة إلى مواهب الحياة و الاستمتاع بها «فلاحظوا بدقة».

و على كل حال، فهذه الآية و إن كانت تتكلم مباشرة عن التوحيد و تدبير عالم الوجود، إلّا أنّها ربّما كانت إشارة لطيفة إلى مسألة

المعاد، لأنّ النوم بمثابة الموت، و اليقظة بمثابة الحياة بعد الموت!.

و الآيـة التاليـة تتحـدث عن مشاهـد القيامة و مقدماتها، فتقول: و اذكر يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ أى خاضعين.

و يستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ فى الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات.

فالمرّة الأولى يقع النفـخ فى الصور عند نهاية الدنيا و بين يدى القيامة! و بها يفزع من فى السـماوات و الأرض إلّا من شاء اللّه! و الثّانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، و لعل هاتين النفختين واحدة.

و المرّة الثّالثة ينفخ فى الصور عند البعث و قيام القيامة .. إذ يحيا الموتى جميعا بهذه النفخة، و تبدأ الحياة الجديدة معها.

و هناك كلام بين المفسّـرين الى أنّ الآية محل البحث هل تشير الى النفخة الأولى أم الثّانية أم الثّالثة؟! .. القرائن الموجودة فى الآية و ما بعدها من الآيات تنطبق على النفختين، و قيل: بل هى تشمل الجميع.

إلّا أن الظاهر من الآية يدل على أن النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأولى التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۱

تقع فى نهايـة الدنيا، لأنّ التعبير ب (فزع) و هو يعنى الخوف أو الاستيحاش الذى يسـتوعب جميع القلوب، يعدّ من آثار هذه النفخة ... و نعلم أن الفزع فى يوم القيامة هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخة!.

و بتعبير آخر: إن ظاهر «فاء» التفريع فى «ففزع» أن الفزع ناشـئ من النفخـة فى الصور، و هـذا خاص بالنفخة الأولى، لأنّ النفخة الأخيرة ليست لا تثير الفزع فحسب، بل هى مدعاة للحياة و الحركة، و إذا حصلت حالة فهى من أعمال الإنسان نفسه!.

و أمّا ما المراد بالنفخ فى الصور،؟ هناك كلام طويل بين المفسّرين سنتناوله فى ذيل الآية (۶۸) من سورة «الزمر» بإذن اللّه!.

و أمّـا جملـة إِلَّا مَنْ شـاءَ اللَّهُ المـذكورة للاسـتثناء من الفزع العـام، فهى إشـارة للمؤمنين الصـالحين سواء كـانوا من الملائكـة أو سـائر المؤمنين فى السـماوات و الأـرض، فهم فى اطمئنان خاص! لا تفزعهم النفخـة فى الصور الأولى و لا الأخرى .. إذ نقرأ فى الآيات التى تلى هذه الآيات قوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ

و أمّـا جملـة وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ فظاهرها عام و ليس فيه أى اسـتثناء، حتى الأنبياء و الأولياء يخضـعون للّه و يـذعنون لمشـيئته، و إذا ما لاحظنا قوله تعالى فى الآية (۱۲۷) من سورة الصافات: فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَـرُونَ إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِـينَ فلا منافاة بينها و بين عموم الآية محل البحث، فالآية محل البحث إشارة إلى أصل الحضور فى المحشر، و أمّا الثّانية فهى إشارة إلى الحضور للمحاسبة و مشاهدة الأعمال!.

و الآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة اللّه فى هذا العالم الواسع، فتقول:

وَ تَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۲

شَيْءٍ[۱۰۸].

فمن يكون قادرا على كل هذا النظم و الإبداع فى الخلق، لا ريب فى علمه و إِنَّهُ خَبِيرٌ بِما تَفْعَلُونَ

يعتقـد كثير من المفسّـرين أن هذه الآية تشـير إلى الحوادث التى تقع بين يدى القيامة، لأننا نعرف أن فى نهاية هذه الدنيا تقع زلازل و انفجارات هائلة، و تتلاشى الجبال و تنفصل بعضها عن بعض، و قد أشير الى هذه الحقيقة فى السور الأخيرة من القرآن كرارا.

و وقوع الآية فى سباق آيات القيامة دليل و شاهد على هذا التّفسير.

إلّا أن قرائن كثيرة فى الآيـة تؤيـد تفسـيرا آخر، و هو أن الآيـة آنفـة الذكر من قبيل آيات التوحيد و دلائل عظمة اللّه فى هذه الدنيا، و تشير إلى حركة الأرض التى لا نحس بها.

و توضیح ذلک:

۱- إنّ الآیة تقول: تحسب الجبال ساکنة و جامدة مع أنّها تمرّ مرّ السحاب ..

و هـذا التعبیر واضـح أنّه لا ینسـجم مع الحوادث التی تقع بین یـدی القیامـة .. لأنّ هـذه الحوادث من الوضوح بمکان بحیث یعبر عنها القرآن یَوْمَ تَرَوْنَها تَـذْهَلُ کُلُّ مُرْضِـعَةٍ عَمَّا أَرْضَـعَتْ وَ تَضَعُ کُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَی النَّاسَ سُـکاری وَ ما هُمْ بِسُـکاری [۱۰۹] ۲- تشبیه حرکـة الجبال بحرکـة السـحاب یتناسب مع الحرکات المتناسـقة الهادئـة، و لا یتناسب و الإنفجارات العظیمـة التی تصـطک منها المسامع!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۳

۳- التعبیر الآنف الذکر یدلّ علی أنّه فی الوقت الذی تری الجبال بحسب الظاهر جامدة، إلّا أنّها فی الواقع تتحرک بسرعة «علی حالتها التی تری فیها جامدة» أی أن الحالتین تبینان شیئا واحدا.

۴- و التعبیر ب «الإتقان» الذی یعنی الإحکام و التنظیم، یتناسب زمان استقرار نظام العالم، و لا یتناسب و زمان انهیاره و تلاشیه.

۵- جملـة إِنَّهُ خَـبِیرٌ بِمـا تَفْعَلُـونَ مع ملاحظـة أنّ «تفعلون» فعـل مضـارع، تـدل علی أنّهـا تتعلق بهـذه الـدنیا، لأنّهـا تقول: إن اللّه خـبیر بأعمالکم التی تصدر فی الحال و المستقبل. و لو کانت ترتبط بانتهاء العالم، لکان ینبغی أن یقال: إنّه خبیر بما فعلتم. «فتأملوا بدقّة».

و یسـتفاد من مجموع هـذه القرائن أنّ هـذه الآیـة تکشف عن إحـدی عجـائب الخلق، و هی فی الواقع تشـبه مـا جاء فی الآیتین آنفتی الذکر: أَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّیْلَ لِیَسْکُنُوا فِیهِ

و بناء علی ذلک فالآیات محل البحث قسم منها فی التوحید، و قسم منها فی المعاد!.

و ما نسـتنتجه من هذا التّفسـیر، هو أن هذه الجبال التی نتصورها ساکنة «جامدة» هی فی سـرعة مطرّدة فی حرکتها ... و من المقطوع به أنّه لا معنی لحرکة الجبال من دون حرکة الأرض المتصلة بها، فیتّضح من الآیة أنّ الأرض تتحرک کما یتحرک السحاب!.

و وفقا لحسابات علماء الیوم فإنّ سـرعة حرکة الأرض حول نفسـها تقرب من (۳۰) کیلومتر فی کل دقیقة، و سـرعة سیرها فی حرکتها الانتقالیة حول الشمس أکثر من هذا المقدار ...

لکن علام عنی بالجبال دون غیرها؟ لعل ذلک إنّما هو لأنّ الجبال یضـرب بها المثل لثقلها و قرارها، و تعـدّ مثلا حسـنا لبیان قـدرة اللّه سبحانه، فحیث أن هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۴

الجبال علی عظمتها و ما فیها من ثقل، تتحرک کالسحاب بأمر اللّه «مع الأرض» فقدرته علی کل شیء «بینة، و ثابتة»!.

و علی کل حال، فالآیـة آنفـة الـذکر تعـدّ من معاجز القرآن العلمیة ... لأننا نعلم أن أوّل العلماء الذین اکتشـفوا حرکة کرة الأرض هو «غالیو» الإیطالی و «کبرنیک» اللذین أظهرا هذه الحقیقة للملأ فی أواخر القرن السادس عشـر و أوائل القرن السابع عشـر! بالرغم من أن رجال الکنیسة حکموا علیهما حکما صارما، و تعرضا لمضایقات کثیرة ..

إلّا أنّ القرآن کشف السـتار عن وجه هـذه الحقیقـة قبل ذلک بألف عام تقریبا و بیّن حرکـة الأرض بالأسـلوب الآنف الذکر علی أنّها بعض أدلـة التوحید! و یری بعض فلاسـفة الإسـلام، فی الوقت الذی یقبلون فیه التّفسـیر الثانی، و هو الإشارة إلی حرکة الجبال فی هذا العالم، أن الآیـة ناظرة إلی «الحرکـة الجوهریة» فی الأشـیاء، و اعتقدوا أنّ الآیة منسـجمة و النظریة المعروفة بالحرکة الجوهریة و مؤیدة لها[۱۱۰]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۵

الآیات [سورة النمل (۲۷): الآیات ۸۹ الی ۹۳]

اشارة

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (۸۹) وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۹۰) إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۹۱) وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (۹۲) وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آياتِهِ فَتَعْرِفُونَها وَ ما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۹۳)

التّفسير

آخر ما أمر به النّبى!

كان الكلام فى الآيات السابقة عن أعمال العباد و علم اللّه بها .. أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام فى مستهلّها عن جزائهم و ثواب أعمالهم و أمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ

و هناك اختلاف بين تعبيرات المفسّرين فى المراد من «الحسنة» فى هذه الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۶

ففسّرها بعضهم بكلمة التوحيد «لا إله إلّا اللّه» و الإيمان باللّه.

و فسّرها بعضهم بولاية أمير المؤمنين عليه السّلام و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، و قد ورد التأكيد على هذا المعنى فى الرّوايات المتعددة عن أهل البيت، و من جملتها ما

جاء فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه دخل أبو عبد اللّه الجدلى على أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: يا أبا عبد اللّه أ لا أخبرك بقول اللّه عزّ و جلّ: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ هُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ قال: بلى يا أمير المؤمنين جعلت فداك، فقال: «الحسنة معرفة الولاية حبّنا أهل البيت، و السيئة إنكار الولاية و بغضنا أهل البيت ثمّ قرأ عليه السّلام الآية»[۱۱۱].

و بالطبع فإنّ معنى الآية واسع- و قد أشرنا إلى ذلك مرارا- كما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أيضا ... فهى تشمل الصالحات و الأعمال الخالصة، و من ضمنها الإيمان باللّه و برسوله و ولاية الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، التى تعدّ فى طليعة الأعمال الحسنة، و لا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة أخرى تشملها الآية.

أمّا ما أورده بعضهم بأنّه: على فرض العموم فى «الحسنة» فسوف تشمل الإيمان باللّه و هل هناك خير من الإيمان حتى يقول سبحانه: من جاء بالحسنة فله خير منها؟

فالجواب على هذا الإشكال واضح ... لأنّ رضا اللّه خير من الإيمان. و بتعبير آخر: جميع هذه الأمور مقدمة له ... و ذو المقدمة خير من المقدمة!.

و هناك سؤال آخر يثار هنا، و هو أن ظاهر بعض الآيات- كالآية ۲ من سورة الحج- أنّ الفزع يعمّ الجميع فى يوم القيامة، فكيف أستثنى أصحاب الحسنات منه؟.

فالآية (۱۰۳) من سورة الأنبياء توضح الجواب على هذا السؤال فتقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۷

لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَ تَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هذا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و «الفزع الأكبر»- هو كما نعلم- فزع يوم القيامة، و فزع الدخول فى نار جهنّم- أعاذنا اللّه منها- لا الفزع الحاصل من النفخة فى الصور «فلاحظوا بدقّة».

ثمّ يتحدث القرآن عن الطائفة الأخرى التى تقابل أصحاب الحسنات فتقول: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ.

و ليس لهذه الطائفة أىّ توقع غيرها هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و «كبّت» مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» و معناه فى الأصل إلقاء الشىء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر «وجوههم» فى الآية هو من باب التوكيد!.

و إلقاء هذه الطائفة على وجوهها فى النّار من أسوأ أنواع العذاب. إضافة إلى ذلك، فإنّ أولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يلوون وجوههم و رؤوسهم، و كانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين ... فالآن لا بدّ أن- يبتلوا بمثل هذا العذاب.

و جملة هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لعلها جواب على سؤال يلقى هنا، و هو ما لو قيل: إنّ هذا الجزاء «العقاب» شديد، فيجاب: بأنّ هذا الجزاء إن هو إلّا عملك فى الدنيا، فهل تجزون إلّا ما كنتم تعلمون «فلاحظوا بدقة».

ثمّ يوجه الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، و يؤكّد له هذه الحقيقة و هى أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدى رسالته و وظيفته ... سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ.

هذه البلدة المقدسة التى يتلخّص كل وجودكم و شرفكم بها ... البلدة المقدسة التى كرمها اللّه و كرّمكم بما أنزل فيها من البركات .. إلّا أنّكم بدل أن تشكروا نعمة اللّه كفرتم بها! البلدة المقدسة التى هى حرم أمن اللّه، و أشرف بقعة على وجه الأرض، و أقدم معبد للتوحيد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۸

أجل ... أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة الَّذِى حَرَّمَها و جعل لها خصائص و أحكاما و حرمة، و أمورا أخر لا تتمتع بها أية بلدة أخرى فى الأرض!.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلدة وحدها للّه، بل له كل شى فى عالم الوجود وَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ.

و الأمر الثّانى الذى أمرت به هو أن أسلم وجهى له وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

و هكذا فإن الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النّبى و هما (عبادة الواحد الأحد، و التسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ

أتلوه فأستضىء بنوره، و أنتهل من عذب معينه الذى يهب الحياة! و أن أعول فى جميع مناهجى على هديه. أجل .. فالقرآن وسيلتى للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، و المواجهة لكل أنواع الشرك و الانحراف و الضلال و مكافحتها، ثمّ تعقب الآية لتحكى عن لسان الرسول و هو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنّكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسى، كما أن اللّه غنى عنكم، بل فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ

و كل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم أخروية فهى عائدة للمهتدى نفسه و العكس صحيح وَ مَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ

و عواقبه الوخيمة لا تصيبنى ... فوظيفتى البلاغ و الإنذار و إراءة سبيل الحق، و الإصرار على أن تسلكوا سبيل الحق، إلّا أنّ من أراد أن يبقى فى طريق الضلال، فإنّما يشقى وحده، فيكون من الخاسرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۵۹

الطریف أنّ القرآن یقول فی شأن الهدایة: فَمَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ و لکنّه لا یقول فی شأن الضلال: و من ضل فضرره علیه، بل یقول: فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِینَ

و هذا الاختلاف فی التعبیر لعله إشارة إلی أنّ النّبی علیه السّلام یقول: إنّی لا أسکت بوجه الضالین أبدا، و لا أترکهم علی حالهم، بل أظلّ أنذرهم و أواصل الإنذار و لا أعیا عن ذلک، لأننی من المنذرین (بالطبع هناک آیات وردت فی القرآن فی شأن الهدایة و الضلالة، و فیها التعبیر «لنفسه و علیها» للموضوعین ... کقوله تعالی:

فَمَنِ اهْتَدی فَإِنَّما یَهْتَدِی لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَ فعلیها لکننا نعلم أنّ هذا الاختلاف فی التعبیرات منسجم مع اختلاف المقامات، و ربّما جاء لإلقاء المعانی المختلفة و المتفاوتة)! و الجدیر بالذکر أنّ هذه السورة شرعت ببیان أهمیة القرآن، و انتهت بالأمر بتلاوته، فبدایتها و نهایتها عن القرآن.

و الأمر الأخیر- فی آخر آیة من هذه السورة- موجه للنبیّ أن یحمد اللّه علی هذه النعم الکبری، و لا سیما نعمة الهدایة فیقول: وَ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ هذا الحمد أو الثناء یعود لنعمة القرآن، کما یعود للهدایة أیضا، و یمکن أن یکون مقدمة للجملة التالیة سَیُرِیکُمْ آیاتِهِ فَتَعْرِفُونَها.

و هذا التعبیر إشارة إلی أنّه مع مرور الزمان و تقدم العلم و المعرفة، سینکشف کل یوم بعض أسرار عالم الوجود، و یرفع ستار جدید عنها .. و ستعرفون نعم اللّه و عظمة قدرته و عمق حکمته یوما بعد یوم .. و إراءة الآیات هذه مستمرّة دائما و لا تنقطع مدی عمر البشر.

إلّا أنّکم إذا واصلتم طریق الخلاف و الانحراف، فلن یترککم اللّه سدی و ما ربک بغافل عما یعمل الظالمون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۰

و لا تتصوروا بأنّ اللّه إذا أخر عقابکم بلطفه، فهو غیر مطلع علی أعمالکم، و أنّها لا تسجل فی اللوح المحفوظ.

و جملة وَ ما رَبُّکَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ الواردة بنفسها أو مع شیء من التفاوت الیسیر فی تسع آیات من القرآن جملة موجزة، و هی تهدید ذو معنی عمیق، و إنذار لجمیع الناس.

و الحمد للّه رب العالمین نهایة سورة النمل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۱

سورة القصص

اشارة

مکیة و عدد آیاتها ثمان و ثمانون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۳

«سورة القصص»

محتوی سورة القصص:

المعروف أنّ هذه السورة نزلت بمکّة، و بإمکاننا ملاحظة أنّ محتواها الکلی و خطوطها العامّة الأساسیّة علی شاکلة السور المکّیة[۱۱۲] غیر أن بعض المفسّرین استثنوا الآیة ۸۵، أو الآیات ۵۱- ۵۵ من هذه السورة معتقدین أن الآیة الأولی «۸۵» نزلت بالجحفة- و هی منطقة بین مکّة و المدینة- و أمّا الآیات الأربع الأخری فیقولون: إنّها نزلت بالمدینة. و لا یوجد دلیل واضح علی کلامهم ..

و لعل محتوی الآیات الخمس التی تتحدث عن أهل الکتاب. (و کان أکثر أهل الکتاب یقطنون فی المدینة). کان سببا لمثل هذا

التصور. فى حين أن نزول الآيات القرآنية فى مكّة لا يعنى إنّها لا بدّ أن تتحد عن المشركين فى مكّة فحسب، و خاصّة أن أهالى مكّة و المدنيّة كانت لهم رحلات متقابلة و علاقات و روابط قبلية و تجارية. و بالطبع فإن المفسّرين ذكروا سببا آخر لنزول الآيات ۵۲- ۵۵ يتناسب مع كونها مدينة، و سنتحدث، عن ذلك فى محله إن شاء اللّه ..

أمّا الآية (۸۵) التى تتحدث عن عودة النّبى إلى موطنه الأصلى، أى «مكّة» فلا مانع من أن تكون نزلت حين خروجه و هجرته من مكّة على مقربة من هذه الأرض المقدسة ... لأنّ النبى كان فى غاية الشوق و الحنين لمكّة بلد اللّه الحرام الآمن، و اللّه سبحانه يبشره فى هذه الآية بأنّه سيردّه إلى معاده «مكّة المكرمة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۴

فعلى هذا الأساس يمكن أن تكون هذه الآية- المشار إليها آنفا- مكيّة، و لو فرضنا أنّها نزلت «بالجحفة» فهى إلى مكّة أقرب منها إلى المدينة.

و على هذا الأساس- أيضا- لا يمكن- فى تقسيم الآيات إلى مكّية و مدنية- إلّا أنّ نعد هذه الآية (۸۵) مكّية! ..

أجل .. هذه السورة نزلت فى مكّة ... و فى ظروف كان المؤمنون فى قبضة الأعداء الأقوياء و بين مخالبهم .. الأعداء الذين كانوا أكثر عددا و أشدّ قدرة و قوّة و نفيرا ..

فهؤلاء الأقلية من المؤمنين و المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة هذا التصور بحيث كان جماعة من المسلمين قلقين على مستقبل الإسلام و خائفين من أجله. و بما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التى كان عليها بنو إسرائيل و هم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسما من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصّة بنى إسرائيل و موسى عليه السّلام و الفراعنة ..

و لعل هذا القسم يستوعب نصف هذه السورة تقريبا .. خاصة أنّها تتحدث عن فترة كان موسى طفلا ضعيفا رضيعا فى قبضة الفراعنة ... و لكنّ تلك القدرة التى تستوعب عالم الوجود كلّه- و لا تقف أية قوّة أمامها- تكفلت هذا الطفل الضعيف و رعته و هو فى أحضان أعدائه الأقوياء، حتى منحته قدرة و قوّة قصوى قهرت سلطان الفراعنة و نكّست تيجانهم و قلبت قصورهم!!.

هكذا تتحدث هذه السورة ليطمئن المسلمون إلى لطف اللّه و قدرته، و لا يرهبوا كثرة الأعداء و قوّتهم، و لا يخافوا من الطريق ذاته! ..

أجل .. القسم الأوّل من هذه السورة يتضمن هذا التاريخ الملىء بالدروس و العبر و يبشر المستضعفين فى بداية السورة بحكومة الحق و العدل لهم و كسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الاطمئنان و القدرة.

تتحدث هذه السورة عن أن بنى إسرائيل كانوا مصفدين بأغلال أعدائهم ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۵

داموا بعيدين عن خيمة الإيمان و التوحيد، و فاقدين لأى نوع من أنواع الحركة و النهوض و السعى الذى يتحدّون به أعداءهم، لكن ما إن وجدوا قائدهم و نوّروا قلوبهم بنور العلم و التوحيد حتى أغاروا على الفراعنة و سيطروا على الحكم و حرروا أنفسهم من نير الفراعنة.

و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذى كان يعتمد على علمه و ثروته ... حتى لقى أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود! أحدهما غريق فى الماء و الآخر دفين فى الأرض .. و ذلك معتمد على سلطانه و جيشه فى حكمه، و هذا معتمد على ماله و ثروته! ليتّضح أنّه لا يمكن لتجار مكّة و أثريائهم و لا لأقويائهم من المشركين، و لا سياسيّيهم فى ذلك المحيط، أن يقاوموا إرادة اللّه فى انتصار المستضعفين على المستكبرين.

و هذا القسم جاء فى أواخر السورة.

و بين هذين القسمين دروس حيّة و قيّمة من التوحيد و المعاد و أهمية القرآن، و بيان حال المشركين فى يوم القيامة، و مسألة الهداية و الضلالة، و الإجابة على حجج الأفراد الضعاف، و هى فى الحقيقة «نتيجة» الأوّل و «مقدمة» للقسم الثانى.

فضیلة تلاوة سورة القصص:

نقرأ فی بعض الأحادیث الواردة عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من قرأ طسم القصص أعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسی و کذب به، و لم یبق ملک فی السماوات و الأرض إلّا شهد له یوم القیامة أنّه کان صادقا»[۱۱۳].

کما

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الطواسین الثلاث فی لیلة الجمعة کان من أولیاء اللّه، و فی جواره و کنفه، لم یصبه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۶

فی الدنیا بؤس أبدا، و أعطی فی الآخرة حتی یرضی و فوق رضاه، و زوجه اللّه مائة زوجة من الحور العین»[۱۱۴].

و بدیهی أن کلّ هذا الأجر و الثواب هو لأولئک الذین یقفون جنبا إلی جنب مع أصحاب موسی علیه السّلام و المؤمنین الصادقین- عند قراءة هذه السورة- لیبارزوا فراعنة عصرهم و قارون زمانهم، و لا یقبعون فی الأجحار أو یطأطئون رؤوسهم.

عند مواجهتهم الأخطار و المشاکل و الأعداء، و لا یضیّعون مواهبهم لیستغلّها الآخرون ..

هذا الأجر خاص لمن یقرءون و یتفکرون، و علی ضوء هذه السورة یخططون لحیاتهم و عملهم ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۷

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

طسم (۱) تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ الْمُبِینِ (۲) نَتْلُوا عَلَیْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسی وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِیَعاً یَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ یُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ یَسْتَحْیِی نِساءَهُمْ إِنَّهُ کانَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۴)

وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ (۵) وَ نُمَکِّنَ لَهُمْ فِی الْأَرْضِ وَ نُرِیَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما کانُوا یَحْذَرُونَ (۶)

التّفسیر

المشیئة الالهیة تقتضی انتصار:

هذه هی المرّة الرابعة عشرة التی نواجه بها بدایات السورة «بالحروف المقطعة» فی القرآن، و قد تکررت فیها طسم ثلاث مرات، و هی هنا- أی «طسم»- ثالث المرات و آخرها ..

و قد بیّنا مرارا و تکرارا أنّ للحروف المقطعة من القرآن تفاسیر متعددة و مختلفة، و قد ذکرناها و بحثناها بحثا وافیا فی بدایات سور «البقرة» و «آل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۸

عمران» و «الأعراف».

و علاوة على ذلك كلّه فإنّه يظهر من كثير من الرّوايات فى شأن طسم أن هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات اللّه سبحانه و تعالى، أو أنّها أماكن مقدسّة .. و لكنّها فى الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التّفسير المعروف الذى أكّدنا عليه مرارا، و هو أنّ اللّه تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، و هى أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تأريخ البشرية و حامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانيّة يتشكّل من أمور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبّى.

و من هنا تتجلى عظمة القرآن و أهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التى هى فى اختيار الجميع.

و لعل هذا السبب كان داعيا لأن يكون الحديث بعد «الحروف المقطّعة» مباشرة عن عظمة القرآن، إذ يقول: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ و بالرغم من أن الْكِتابِ الْمُبِينِ جاء بمعنى اللوح المحفوظ كما قد ورد فى الآية (۶۱) من سورة يونس وَ لا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ و الآية السادسة من سورة هود كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ و لكنّه جاء بمعنى القرآن فى الآية محل البحث بقرينة ذكر «الآيات» و كذلك جملة نَتْلُوا عَلَيْكَ الواردة فى الآية التى بعدها ..

و قد وصف القرآن هنا بكونه «مبين» و كما يستفاد من اللغة فإنّ كلمة «مبين» تستعمل فى المعنيين «اللازم و المتعدى»، فهو واضح فى نفسه و موضّح لغيره، و القرآن المجيد بمحتواه المشرق يميّز الحق عن الباطل، و يبيّن الطريق اللاحب من الطريق المعوّج ۱۱۵].

و القرآن بعد ذكر هذه المقدّمة القصيرة يحكى قصّة «فرعون» و «موسى» فيقول: نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۶۹

التعبير ب «من» التى هى للتبعيض إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة، و هى أن ما ورد- هنا فى القرآن- من هذه القصّة ذات الأحداث الكبيرة يتناسب و ما تقتضيه الضرورة فحسب ..

و التعبير «بالحق» إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خال من كل خرافة و أسطورة، و بعيد عن الأباطيل و الأكاذيب .. فهى إذن تلاوة مقترنة بالحق و الواقعية ..

و التعبير ب لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ هو تأكيد على هذه الحقيقة، و هى أنّ مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين و الأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، و هى أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم و تزايدوا عددا و عددا، و أن المؤمنين مهما قلّوا و كانوا تحت ضغط أعدائهم و كانوا ضعافا بحسب الظاهر، فلا ينبغى أن يهنوا و ينكصوا عن طريق الحق، فكل شىء عند اللّه سهل يسير! ..

اللّه الذى ربّى «موسى» فى أحضان «فرعون» لإبادته و تدميره .. اللّه الذى أوصل العبيد و المستضعفين إلى أن يكونوا حاكمين فى الأرض، و أذل الجبابرة و المستكبرين و أبادهم.

اللّه الذى رعى الطفل الرضيع بين أمواج النيل فحفظه و نجاه و أغرق آلاف الفراعنة الأقوياء فى تلك الأمواج .. هو قادر على أن ينجيكم «أيّها المؤمنون» ..

أجل، إنّ الهدف الأصل من هذه الآيات هم المؤمنون و هذه التلاوة لأجلهم، و المؤمنون الذين يستلهمون من معانى هذه الآيات و يشقّون طريقهم- وسط زحام المشاكل و الأخطار- باطمئنان.

كان ذلك فى الحقيقة بيانا إجماليا، ثمّ يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ

فقد كان عبدا ضعيفا، و على أثر جهله و عدم معرفته أضاع شخصيته و وصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الرّبوبية .. و التعبير ب «الأرض» إشارة إلى أرض مصر و ما حولها .. و حيث أن القسم المهم العامر من الأرض فى ذلك العصر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۰

كان «مصرا» فقد جاء التعبير بالأرض بصورة مطلقة.

و يحتمل أيضا أنّ الألف و اللام للعهد أى «أرض مصر».

و على كل حال فإنّ فرعون- من أجل تقوية قواعده الاستكبارية- قد أقدم على عدّة جرائم كبرى! ..

فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً و هى سياسة معروفة و متبعة على امتداد التاريخ، و عليها يستند المستكبرون فى حكمهم، فلا يمكن أن تحكم الأقلية- التى لا تعدّ شيئا- على الأكثرية إلّا بالخطة المعروفة «فرّق تسد» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» و يخافون منهما أبدا- و يخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض، و لذلك يلجأون إلى الطبقية فى الحكم، فهذه الطريقة وحدها تتكفل بقاءهم فى الحكم، كما صنعه فرعون فى أهل مصر، و يصنعه الفراعنة فى كل عصر و مصر.

أجل، إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتى «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه و الراحة، و كانت فى أيديهم القصور و دوائر الدولة و الحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد و الخدم «فى قبضة الأقباط»! و كانوا محاطين بالفقر و الحرمان، و يحملون أشدّ الأعباء دون أن ينالوا من وراء ذلك نفعا [و التعبير بالأهل فى شأن الطائفتين الأقباط و الأسباط هو لأنّ بنى إسرائيل كانوا قد سكنوا مصر مدّة طويلة فكانوا يعدّون من أهلها حقيقة!].

و حين نسمع أن بعض الفراعنة يستعمل مائة ألف مملوك من العبيد لتشييد مقبرة خلال عشرين سنة (كما هى الحال بالنسبة إلى هرمخوفو المعروف الكائن بمقربة من القاهرة عاصمة مصر) و يموت فى سبيل ذلك آلاف العبيد و المماليك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۱

على أثر الضرب بالأسواط و تحت ضغط العمل الشاق، ندرك جيدا الحالة الارهابية السائدة فى ذلك المجتمع ...

و الجريمة الثّانية هى استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ

فقد كان أصدر أمرا بأن يراقبوا الأطفال الذين يولدون من بنى إسرائيل، فإن كانوا ذكورا فإنّ حظهم الذبح، و إن كانوا إناثا فيتركن للخدمة فى المستقبل فى بيوت الأقباط.

و ترى ماذا كان يهدف فرعون من وراء عمله هذا؟! المعروف أنّه رأى فى منامه أن شعلة من النّار توهجت من بيت المقدس و أحرقت جميع بيوت مصر، و لم تترك بيتا لأحد من الأقباط إلّا أحرقته، و لكنّها لم تمسّ بيوت بنى إسرائيل بسوء، فسأل الكهنة و المعبرين للرؤيا عن تأويل ذلك، فقالوا له: يخرج رجل من بيت المقدس يكون على يديه هلاككك و زوال حكومة الفراعنة[۱۱۶].

و أخيرا كان هذا الأمر سببا فى عزم فرعون على قتل الرضّع من الأطفال الذكور من بنى إسرائيل ۱۱۷].

كما يحتمل- أيضا- أنّ الأنبياء السابقين بشّروا بظهور موسى عليه السّلام و خصائصه، و قد أحزن الفراعنة خبره، فلمّا اطّلعوا على هذا الأمر أقدموا على التصدى له ۱۱۸].

و لكون ورود جملة يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ بعد جملة يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۲

فإنّ مسألة أخرى تتجلّى أمامنا، و هى أنّ الفراعنة اتّخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنوا إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة و يحاربوهم، و كانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقة لهن على القتال و الحرب، ليكبرن ثمّ يخدمن فى بيوتهم.

و الشاهد الآخر هو الآية (۲۵) فى سوره المؤمن، إذ يستفاد منها- بصورة جيدة- أن خطة قتل الأبناء و استحياء النساء كانت موجودة

حتى بعد ظهور موسى عليه السّلام [و مجيئه إلى الفراعنة]. إذ تقول: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ

و جملة يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ يظهر منها أنّهم كانوا يصرّون على إبقاء البنات و النساء، إمّا لكى يخدمن فى بيوت الأقباط، أو للاستمتاع الجنسى، أو لكلا الأمرين جميعا.

و فى آخر جملة تأتى الآية بتعبير جامع، و فيه بيان العلة أيضا فتقول: إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

و باختصار فإنّ عمل فرعون يتلخص فى الفساد فى الأرض، فاستعلاؤه كان فسادا، و إيجاد الحياة الطبقية فى مصر فساد آخر، و تعذيب بنى إسرائيل و استضعافهم و ذبح أبنائهم و استحياء نسائهم ليخدمن فى بيوت الأقباط فساد ثالث، و سوى هذه المفاسد كانت لديه مفاسد كثيرة أخرى أيضا.

و التعبير ب «يذبح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام و الأنعام الأخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء و يحتزون رؤوسهم![۱۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۳

و فى هذه الخطة الإجرامية من قبل الفراعنة ضد الحوامل قصص مذكورة، إذ قال بعضهم: إنّ فرعون كان قد أمر برقابة مشددة على النساء الحوامل من بنى إسرائيل، و أن لا يلى إيلادهن إلّا قابلة من القبطيّات و الفرعونيّات، فإذا كان المولود ذكرا فإنّ جلاوزة القصر الفرعونى يأتون ليتسلموا «قربانهم»[۱۲۰].

و لا يعرف بدقّة كم بلغ عدد «ضحايا الحوامل» من أطفال بنى إسرائيل على أثر هذه الخطة الإجرامية؟ قال بعضهم: كان الضحايا من الأطفال المواليد تسعين ألفا، و أوصلها بعضهم إلى مئات الآلاف! ..

لقد كانوا يظنون أنّهم سيقفون بوجه إرادة اللّه الحتمية بهذه الجرائم الوحشية، فلا ينهض بنوا إسرائيل ضدهم و لا يزول سلطانهم.

ثمّ تأتى الآية الأخرى لتقول: إنّ إرادتنا و مشيئتنا اقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا و كرمنا وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ و أن تشملهم رعايتنا و مواهبنا تكون بيد الحكومة و مقاليد الأمور: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ

و يكونون اولى قوّة و قدرة فى الأرض وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ ما أبلغ هاتان الآيتان، و ما أعظم ما فيهما من رجاء و أمل! .. إذ جاءتا بصورة الفعل المضارع و الاستمرار، لئلا يتصور أنّهما مختصتان بالمستضعفين من بنى إسرائيل و حكومة الفراعنة، إذ تبد آن بالقول: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ....

أى إنّ فرعون أراد أن يجعل بنى إسرائيل شذر مذر و يكسر شوكتهم و يبير قواهم و قدرتهم، و لكننا أردنا- و نريد- أن ينتصروا و يكونوا أقوياء! فرعون يريد أن تكون الحكومة بيد المستكبرين إلى الأبد. و لكنّا أردنا أن تكون بيد المستضعفين، فكان كما أردنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۴

و التعبير ب «نمنّ» كما أشرنا إلى ذلك من قبل، معناه منح الهبات و النعم، و هو يختلف تمام الاختلاف مع «المنّ» المراد به عدّ النعم لتحقير الطرف المقابل، و هو مذموم قطعا.

و يكشف اللّه فى هاتين الآيتين الستار عن إرادته و مشيئته بشأن المستضعفين، و يذكر فى هذا المجال خمسة أمور بعضها مرتبط ببعض و متقاربة أيضا:

الأوّل: قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ ... لنشملهم بالمواهب و النعم .. إلخ.

الثّانى: قوله: وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً.

الثّالث: قوله: وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى المستخلفين بعد الفراعنة و الجبابرة.

الرّابع: قوله: وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أى نجعلهم يحكمون فى الأرض و تكون السلطة و القدرة و غيرهما لهم و تحت تصرفهم ..

و الخامس: إن ما كان يحذره الأعداء منهم و ما عبأوه لمواجهتهم يذهب أدراج الرياح، و تكون العاقبة لهم وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ

هكذا لطف اللّه و عنايته فى شأن المستضعفين، أمّا من هم أولئك المستضعفون؟! و ما هى أوصافهم؟! فسنتحدث عن كل ذلك بعد قليل بأذن اللّه و كان «هامان» وزير فرعون المعروف يتمتع بنفوذ و سلطة إلى درجة أن الآية المتقدمة إذ تتحدث عن جنود مصر فإنّها تعزوهم إلى فرعون و هامان معا (و سيأتى مزيد إيضاح و شرح عن حال هامان بإذن اللّه فى ذيل الآية (۳۸) من هذه السورة ذاتها).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۵

بحوث

۱- حكومة المستضعفين العالمية

قلنا: إنّ الآيات المتقدمة لا تتحدث عن فترة خاصة أو معينة، و لا تختص ببنى إسرائيل فحسب، بل توضح قانونا كليا لجميع العصور و القرون و لجميع الأمم و الأقوام، إذ تقول: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ

فهى بشارة فى صدد انتصار الحق على الباطل و الإيمان على الكفر.

و هى بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة و حكومة العدل و انطواء بساط الظلم و الجور.

و حكومة بنى إسرائيل و زوال حكومة الفراعنة ما هى إلّا نموذج لتحقق هذه المشيئة الإلهية و المثل الأكمل هو حكومة نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه بعد ظهور الإسلام .. حكومة الحفاة العفاة و المؤمنين المظلومين الذين كانوا موضع تحقير فراعنة زمانهم و استهزائهم و يرزخون تحت تأثير الضغوط «الظالمة» لائمّة الكفر و الشرك.

و كانت العاقبة أن اللّه فتح على أيدى هؤلاء المستضعفين أبواب قصور الأكاسرة و القياصرة، و أنزل أولئك من أسرّة الحكم و القدرة و أرغم أنوفهم بالتراب.

و المثل الأكبر و الأوسع هو ظهور حكومة الحق و العدالة على جميع وجه البسيطة- و الكرة الأرضية- على يد «المهدىّ» أرواحنا له الفداء.

فهذه الآيات هى من جملة الآيات التى تبشّر- بجلاء- بظهور مثل هذه الحكومة، و نقرأ عن أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير هذه الآية أنّها إشارة إلى هذا الظهور العظيم.

فقد ورد فى نهج البلاغة عن على عليه السّلام قوله: «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۶

عطف الضروس على ولدها، و تلا عقيب ذلك: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ [۱۲۱].

و

فى حديث آخر نقرأ عنه عليه السّلام فى تفسير الآية المتقدمة قوله: «هم آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله يبعث اللّه مهدّيهم بعد جهدهم فيعزّهم و يذل عدوّهم»[۱۲۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام قوله: «و الذى بعث محمّدا بالحقّ بشيرا و نذيرا، إنّ الأبرياء منّا أهل البيت و شيعتهم بمنزلة موسى و شيعته، و إن عدونا و أشياعهم بمنزلة فرعون و أشياعه»[۱۲۳]

(أى سننتصر أخيرا و ينهزم أعداؤنا و تعود حكومة العدل و الحق لنا).

و من الطبيعى أن حكومة المهدى عليه السّلام العالميّة فى آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية فى معايير محدودة قبلها من قبل المستضعفين ضد المستكبرين، و متى ما تمّت الظروف و الشروط لمثل هذه المحكومات الإسلامية فإنّ وعد اللّه المحتوم و المشيئة الإلهية سيتحققان فى شأنها، و لا بدّ أن يكون النصر حليفها بإذن اللّه.

۲- من هم المستضعفون و من هم المستكبرون؟!

كلمة «المستضعف» مشتقّة من مادة «ضعف»، و لكنّها لما استعملت فى باب «الاستفعال» دلت على من يكبّل بالقيد و الغلّ و يجرّ إلى الضعف.

و بتعبير آخر: ليس المستضعف هو الضعيف و الفاقد للقدرة و القوّة .. بل المستضعف من لديه قوى بالفعل و بالقوة، و لكنّه واقع تحت ضغوط الظلمة و الجبابرة، و برغم أنّه مكبل بالأغلال فى يديه و رجليه فإنّه غير ساكت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۷

و لا يستسلم، و يسعى دائما لتحطيم الأغلال و نيل الحرية، و التصدى للجبابرة و المستكبرين، و نصرة مبدأ العدل و الحق.

فاللّه سبحانه و عد أمثال هؤلاء بالمنّ و بالحكومة على الأرض، لا الأفراد الجبناء الذين لا يجرؤن على ادنى اعتراض فكيف إذا حمى الوطيس و حان أوان التضحية و الفداء؟! فبنوا إسرائيل استطاعوا أن يأخذوا الحكومة و يرثوها من الفراعنة لأنّهم التفوا حول موسى عليه السّلام و عبؤوا قواهم و شكّلوا صفا واحدا، و استكملوا بقايا إيمانهم الذى ورثوه عن جدّهم إبراهيم الخليل، و نفضوا الخرافات عن أفكارهم و نهضوا مع موسى عليه السّلام.

و بالطبع فإنّ المستضعفين أنواع، فهناك مستضعف فكرىّ، و هناك مستضعف ثقافىّ، و هناك مستضعف اقتصادى، و آخر مستضعف سياسى، أو أخلاقى، و أكثر ما أكّد عليه القرآن هو الاستضعاف السياسى و الأخلاقى!.

و ما من شك أنّ المستكبرين الجبابرة يسعون أبدا لأن يجرّوا قرابينهم إلى الاستضعاف الفكرى و الثقافى، ثمّ إلى الاستضعاف الاقتصادى، لئلا تبقى لهم قوّة و لا قدرة، و لئلا يفكروا بالنهوض و تولى زمام الحكومة.

و فى القرآن المجيد ورد الكلام عن المستضعفين فى خمسة موارد، و على العموم فإنّ هذا الكلام يدور حول المؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط الجبابرة.

ففى مكان من القرآن الكريم يدعو إلى الجهاد و المقاتلة فى سبيل اللّه و المستضعفين إذ يقول: وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۸

أَهْلُها وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً[۱۲۴].

و فى مكان واحد فقط ورد الكلام عن الذين أعانوا الكفار و ظلموا أنفسهم، و ادعوا أنّهم مستضعفون، و لم يهاجروا فى سبيل اللّه، فالقرآن ينفى عنهم هذا الاستضعاف فيقول: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً[۱۲۵].

و على كل حال فإنّه القرآن فى كل مكان منه يدافع عن المستضعفين و يذكرهم بخير، و يعبّر عنهم بالمؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط المستكبرين ... المؤمنون المجاهدون و الساعون بجدّهم المشمولون بعناية اللّه و لطفه.

۳- أسلوب المستكبرين على مدى التأريخ

لم يكن فرعون وحده يذبح أبناء بنى إسرائيل و يستحيى نساءهم لاـ ذلالهم، فعلى مدى التاريخ نجد أسلوب الجبابرة على هذه الشاكلة، حيث يسعون لتعطيل القدرات و القوى بأية وسيلة كانت، فحيث لم يستطيعوا قتل «الرجال» يلجأون إلى قتل «الرجولة»، و يذوّبون روح الشهامة بنشر الفساد و المخدّرات و الفحشاء و المنكر و الانحراف الجنسى و كثرة الشراب و القمار، ليستطيعوا براحة بال و اطمئنان خاطر أن يواصلوا حكمهم و حكومتهم.

و لكنّ أنبياء اللّه، و خاصّة نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله كانوا يسعون لإيقاظ قوى الفتوة النائمة و يشحنوا قدرات الشباب الهائلة، و يحرروهم من أسر الذلة، و كانوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۷۹

يعلمون حتى النساء دروسا من الشجاعة و الشهامة، ليقفن فى صفوف الرجال ضد المستكبرين.

و الشواهد على هذين المنهجين فى البلاد الإسلامية فى التأريخ المعاصر و التأريخ القديم كثيرة و واضحة جيّدا، فلا حاجة لسردها و ذكرها بتفصيل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۰

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (۸) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۹)

التّفسير

فى قصر فرعون!

من أجل رسم مثل حىّ لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد فى سرد قصّة موسى و فرعون، و يتحدث بالخصوص عن مراحل يكون فيها موسى فى أشدّ حالات الضعف، أمّا فرعون فهو فى أقوى الحالات و أكثرها هيمنة ... ليتجسّد انتصار مشيئة اللّه على إرادة الجبابرة فى أعلى الصور و أحسن الوجوه ..

يقول القرآن: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۱

فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

و هذه الآية على ايجازها تشتمل على أمرين و نهيين و بشارتين، و هى خلاصة قصّة كبيرة و ذات أحداث و مجريات ننقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون و حكومته الجائرة قد خططت تخطيطا واسعا لذبح «الأطفال» من بنى إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون كن

يراقبن النساء الحوامل [من بنى إسرائيل .

و من بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السّلام «و كان الحمل خفيّا لم يظهر أثره على أم موسى» و حين أحست أم موسى بأنّها مقرّب و على أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة و أخبرتها بالواقع، و أنّها تحمل جنينا فى بطنها و توشك أن تضعه، فهى بحاجة- هذا اليوم- إليها.

و حين ولد موسى عليه السّلام سطع نور بهىّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور و طبع حبّه فى قلبها، و أنار جميع زوايا قلبها.

فالتفتت القابلة إلى أم موسى و قالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعونى بهذا الوليد ليأتى الجلاوزة فيقتلوه «و أنال بذلك جائزتى» و لكن ما عسى أن أفعل و قد وقع حبّه الشديد فى قلبى، و أنا غير مستعدة لأن تنقص و لو شعرة واحدة من رأسه، فاهتمى بالمحافظة عليه، و أظنّ أن عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيرا.

ثمّ خرجت القابلة من بيت أمّ موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون و صمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمّها و أخبرتها بأن تتهيأ للأمر، فارتبكت و لم تدر ما ذا تصنع؟! و فى هذه الحالة من الارتباك و هى ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة و ألقته فى التنور فإذا بالمأمورين و الجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئا إلّا التنور المشتعل نارا ... فسألوا أم موسى عن سبب دخول القابلة عليها فقالت: إنّها صديقتى و قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۲

جاءت زائرة فحسب، فخرجوا ءايسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدها و صوابها و سألت «أخت موسى» عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه، و إذا البكاء يعلو من داخل التنور، فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالما و قد جعل اللّه النّار عليه بردا و سلاما «اللّه الذى نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالما من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا و هناك و يفتشون البيوت يمنة و يسرة، و كان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

و فى هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهره أنّه مدعاة للخطر، و لكن مع ذلك أحسّت بالاطمئنان أيضا.

كان ذلك من اللّه و لا بدّ أن يتحقق، فلبست ثياب عملها و صممت على أن تلقى وليدها فى النيل.

فجاءت إلى نجّار مصرى «و كان النجار من الأقباط و الفراعنة أيضا» فطلبت منه أن يصنع صندوقا صغيرا.

فسألها النجار قائلا: ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟ و لكن الأمّ لما كانت غير متعودة على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق و الواقع، و أنّها من بنى إسرائيل و لديها طفل تريد إخفاءه فى الصندوق.

فلمّا سمع النجّار القبطى هذا الخبر صمم على أن يخبر الجلاوزة و الجلّادين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه و كلّما حاول أن يفهمهم و لو كلمة واحدة لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمة، فظن أولئك أنّه يستهزئ بهم فضربوه و طردوه، و لما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعى، فرجع ثانية إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحالة الأولى من الارتجاج و العىّ، و أخيرا فقد فهم أن هذا أمر إلهى و سرّ خفى، فصنع الصندوق و أعطاه لأم موسى.

و لعلّ الوقت كان فجرا و الناس- بعد- نيام، و فى هذه الحال خرجت أم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۳

موسى و فى يديها الصندوق الذى أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل و أرضعت موسى حتى ارتوى، ثمّ ألقت الصندوق فى النيل فتلقفته الأمواج و أخذت تسير به مبتعدة عن الساحل، و كانت أم موسى تشاهد هذا المنظر و هى على الساحل .. و فى لحظة أحست أن قلبها انفصل عنها و مضى مع الأمواج، فلو لا لطف اللّه الذى شملها و ربط على قلبها لصرخت و لانكشف الأمر و اتضح

کل شیء.

و لا أحد یستطیع أن یصور- فی تلک اللحظات الحساسة- قلب الأم بدقّة.

لا یستطیع أیّ أحد أن یصور حال أم موسی و ما أصابها من الهلع و الفزع ساعة ألقت طفلها فی النیل و لکنّ هذه الأبیات المترجمة عن الشاعرة «پروین اعتصامی»- بتصرف- تحکی صورة «تقریبیة» عن ذلک الموقف:

أمّ موسی حین ألقت طفلهاللذی رب السما أوحی لها

نظرت للنیل یمضی مسرعاآه لو تعرف حقا حالها

و دوی الموج فیه صاخبو فتاها شاغل بلبالها

و تناغیه بصمت: ولدی کیف یمضی بک هذا الزورق

دون ربان، و إن ینسک من هو ذو لطف فمن ذا یشفق

فأتاها الوحی: مهلا، و دعی باطل الفکر و وهما یزهق

إن موسی قد مضی للمنزلفاتق اللّه و لا تستعجلی

قد تلقینا الذی ألقیتهبید ترعی الفتی لا تجهلی

و خریر الماء أضحی مهدهفی اهتزاز مؤنس إن تسألی

و له الموج رؤوما حدبافاق من یحدب أمّا و أبا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۴

کل نهر لیس یطغی عبثاإن أمر اللّه کان السببا

یأمر البحر فیغدو هائجاو له الطوفان طوعا مائجا

عالم الإیجاد من آثارهکل شیء لعلاه عارجا

أین تمضین دعیه فلهخیر ربّ یرتضیه لا هجا

کل هذا من جهة! ..

و لکن تعالوا لنری ما یجری فی قصر فرعون؟! ورد فی الأخبار أنّ فرعون کانت له بنت مریضة، و لم یکن له من الأبناء سواها، و کانت هذه البنت تعانی من آلام شدیدة لم ینفعها علاج الأطباء، فلجأ إلی الکهنة فقالوا له: نتکهّن و نتوقع أن إنسانا یخرج من البحر یکون شفاؤها من لعاب فمه حین یدهن به جسدها، و کان فرعون و زوجه «آسیة» فی انتظار هذا «الحادث» و فی یوم من الأیّام .. فجأة لاح لعیونهما صندوق تتلاطمه أمواج النیل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن یأتوا به لیعرفوا ما به؟! و مثل الصندوق «المجهول» الخفیّ أمام فرعون، و لم یتمکن أحد أن یفتحه.

بلی کان علی فرعون أن یفتحه لینجو موسی علی ید فرعون نفسه، و فتح الصندوق علی یده فعلا!.

فلمّا وقعت عین آسیة علیه سطع منه نور فأضاء قلبها، و دخل حبّه فی قلوب الجمیع، و لا سیما قلب امرأة فرعون «آسیة» .. و حین شفیت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أکثر فأکثر[۱۲۶].

و لنعد الآن إلی القرآن الکریم لنسمع خلاصة القصّة من لسانه! یقول القرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۵

فی هذا الصدد: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِیَکُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً.

کلمة «التقط» مأخوذة من مادة «التقاط» و معناها فی الأصل الوصول إلی الشیء دون جهد و سعی، و إنّما سمیت الأشیاء التی یعثر

عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضا ..

و بديهى أنّ الفراعنة لم يجلبوا الصندوق الذى فيه الطفل الرضيع من الماء ليربوه فى أحظانهم فيكون لهم عدوا لدودا، بل أرادوه- كما قالت امرأة فرعون- قرة عين لهم.

و لكن النتيجة و العاقبة .. كان ما كان و حدث ما حدث .. و كما يقول علماء الأدب: إنّ اللام فى الآية هنا فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ .. هى «لا العاقبة» ليست «لام العلة» و لطافة التعبير كامنة فى أنّ اللّه سبحانه يريد أن يبيّن قدرته، و كيف أن هذه الجماعة «الفراعنة» عبّأت جميع قواها لقتل بنى إسرائيل، و إذا الذى أرادوا قتله- و كانت كل هذه المقدمات من أجله- يتربى فى أحضانهم كأعزّ أبنائهم.

و التعبير- ضمنا- بآل فرعون يدل على أنّ الملتقط لم يكن واحدا، بل اشترك فى التقاط الصندوق جماعة من آل فرعون، و هذا بنفسه شاهد على أنّهم كانوا ينتظرون مثل هذا الحدث!.

ثمّ تختتم الآية بالقول: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ

كانوا خاطئين فى كل شىء، و أى خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل و الحقّ، و أن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم و الجور و الشرك!.

و أى خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السّلام، و لكن اللّه سبحانه أودعه فى أيديهم و قال لهم: خذوا عدوّكم هذا و ربّوه ليكبر عندكم؟![۱۲۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۶

و يستفاد من الآية التالية أن شجارا حدث ما بين فرعون و امرأته، و يحتمل أن بعض أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ...

و يلوح للنظر أنّ فرعون وجد فى مخايل الطفل و العلائم الأخرى و من جملتها إيداعه فى التابوت «الصندوق» و إلقاءه بين أمواج النيل، و ما إلى ذلك- أن هذا الطفل من بنى إسرائيل، و أن زوال ملكه على يده، فجثم كابوس ثقيل على صدره من الهم و ألقى على روحه ظلّة، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه.

فأيده أطرافه و أتباعه المتملّقون على هذه الخطة، و قالوا: ينبغى أن يذبح هذا الطفل، و لا دليل على أن لا يجرى هذا القانون عليه.

و لكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولدا ذكرا، و لم يكن قلبها منسوجا من قماش عمال قصر فرعون، وقفت بوجه فرعون و أعوانه و منعتهم من قتله.

و إذا أضفنا قصّة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى- على ما قدمناه- فسيكون دليلا آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

و لكن القرآن- بجملة مقتضية و ذات مغزى كبير- ختم الآية قائلا: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ!.

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر اللّه النافذ و مشيئته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطرا ... و لا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، و لا يمكن مخالفتها أبدا ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۷

ملاحظة

تخطيط اللّه العجيب ..

إظهار القدرة .. ليس معناه أن اللّه إذا أراد أن يهلك قوما جبارين، يرسل عليهم جنود السماوات و الأرض، فيهلكهم و يدمرهم تدميرا.

إظهار القدرة هو أن يجعل الجبابرة و المستكبرين يدمرون أنفسهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بالإلقاء أنفسهم فى البئر التى حفروها لغيرهم، و أن يصنعوا لأنفسهم سجنا يموتون فيه! و أن يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها! ..

و فى قضية الفراعنة الجبابرة المعاندين حدث مثل هذا، و تمّت تربية موسى و نجاته فى جميع المراحل على أيديهم.

فالقابلة التى أولدت موسى كانت من الأقباط.

و النجار الذى صنع الصندوق الذى أخفى فيه موسى كان قبطيّا.

و الذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

و الذى فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسية.

و أخيرا فإن المكان الآمن و الهادىء الذى تربّى فيه موسى- البطل الذى قهر فرعون- هو قصر فرعون ذاته.

و بهذا الشكل يظهر اللّه تعالى قدرته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۸

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۰ الى ۱۳]

اشارة

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳)

التّفسير

عودة موسى إلى حضن أمّه:

فى هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة .. فأمّ موسى التى قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها فى أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفا .. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهمّ على فراق ولدها، فقد أصبح مكان ولدها الذى كان يملأ قلبها خاليا و فارغا منه.

فأوشكت أن تصرخ من أعماقها و تذيع جميع أسرارها، لكن لطف اللّه تداركها، و كما يعبّر القرآن الكريم وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۸۹

«الفارغ» معناه الخالى، و المقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خاليا من كل شىء إلّا من ذكر موسى .. و إن كان بعض المفسّرين يرون أن المقصود به هو خلوّ القلب من الهمّ و الغمّ، أو أنّه خال من الإلهام و البشائر التى بشرت بها أم موسى من قبل، و لكن مع الالتفات لهذه الجمل و التدقيق فيها يبدوا هذا التّفسير غير صحيح.

و طبيعىّ تماما أنّ أمّا تفارق ولدها بهذه الصورة يمكن أن تنسى كل شىء إلّا ولدها الرضيع، و يبلغ بها الذهول درجة لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها و ولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها و أذاعت أسرارها.

و لكن اللّه الذى حمّل أم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد اللّه، و لتعلم أنّه بعين اللّه، و أنّه سيعود إليها و سيكون نبيّا.

كلمـة «ربطنا» من مادة «ربط» و معناها فى الأصل شـدّ وثاق الحيوان أو ما أشـبهه بمكان ما ليكون محفوظا فى مكانه، و لـذلك يدعى هذا المحلّ الذى تربط فيه الحيوانات ب «الرباط» ثمّ توسعوا فى اللغة فصار معنى الربط: الحفظ و التقوية و الاستحكام، و المقصود من «ربط القلب» هنا تقويته .. أى تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد اللّه و تتحمل هذا الحادث الكبير.

و على أثر لطف اللّه أحست أم موسـى بالاطمئنان، و لكنّها أحبت أن تعرف مصـير ولـدها، و لذلك أمرت أخته أن تتبع أثره و تعرف خبره وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ

كلمة «قصّيه» مأخوذة من مادة «قصّ» على زنة «نصّ» و معناها البحث عن آثار الشىء، و إنّما سميّت القصّة قصّة لأنّها تحمل فى طياتها أخبارا مختلفة يتبع بعضها بعضا.

فاسـتجابت «أخت موسـى» لأمر أمّها، و أخذت تبحث عنه بشـكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، و رأت صندوقه الذى كان فى الماء يتلقفه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۰

آل فرعون .. و يقول القرآن فى هذا الصدد: فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ

و لكن أولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

قال البعض: إن خدم فرعون كانوا قد خرجوا بالطفل من القصر بحثا عن مرضعة له، فرأتهم أخت موسى.

و يبـدوا أنّ التّفسـير الأوّل أقرب للنظر، فعلى هـذا بعـد رجوع أم موسـى إلى بيتها أرسـلت أخته للبحث عنه، فرأت- من فاصـلة بعيدة- كيف استخرجه آل فرعون من النيل لينجو من الخطر المحدق.

هناك تفاسير أخرى لجملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أيضا.

فالعلامة «الطبرسـى» لا يستعبد أن يكون تكرار هذه الجملة فى الآية السابقة و الآيات اللاحقة إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أن فرعون جاهل بالأمور الى هذه الدرجة فكيف يدعى الرّبوبية؟ و كيف يريد أن يحارب مشيئة اللّه التى لا تقهر!؟.

و على كـل حال، فقـد اقتضت مشـيئة اللّه أن يعود هـذا الطفل إلى أمّه عاجلا ليطمئن قلبها، لـذلك يقول القرآن الكريم: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ ۱۲۸].

و طبيعى أن الطفـل الرضـيع حين تمر عليه عـده ساعـات فـإنه يجوع و يبكى و لا يطيق تحمل الجوع، فيجب البحث عن مرضع له، و لا سيما أن ملكة مصر «امرأة فرعون» تعلق قلبها به بشدّة، و أحبّته كروحها العزيزة.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثا عن مرضع له، و العجيب فى الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

لعل ذلك آت من استيحاشه من وجوه المرضعات، أو أنّه لم يكن يتذوق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۱

ألبانهن، إذ يبدو لبن كلّ منهن مرّا فى فمه، فكأنّه يريد أن يقفز من أحضان المراضع، و هذا هو التحريم التكوينى من قبل اللّه تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعا.

و لم يزل الطفـل لحظـة بعـد أخرى يجوع أكثر فأكثر و هو يبكى و عمال فرعون يـدورون به بحثا عن مرضع بعـد أن ملأ قصـر فرعون بكاء و ضجيجا، و ما زال العمال فى مثل هذه الحال حتى صادفوا بنتا أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ

إنّنى أعرف امرأة من بنى إسـرائيل لها ثـديان مملوءان لبنا، و قلب طافـح بالمحبّة، و قد فقدت وليدها، و هى مسـتعدة أن تتعهد الطفل الذى عندكم برعايتها.

فسّر بها هؤلاء و جاءوا بأمّ موسـى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة أمّه التقم ثديها بشغف كبير، و أشرقت عيناه سرورا، كما أن

عمّال القصر سرّوا كذلك لأنّ البحث عن مربية له أعياهم، و امرأة فرعون هى الأخرى لم تكتم سرورها للحصول على هذه المرضع أيضا.

و لعلهم قالوا للمرضع: أين كنت حتى الآن، إذ نحن نبحث عن مثلك منذ مدّة .. فليتك جئت قبل الآن، فمرحبا بك و بلبنك الذى حلّ هذه المشكلة.

تقول بعض الرّوايات: حين استقبل موسى ثدى أمّه، قال هامان وزير فرعون لأم موسى: لعلك أمّه الحقيقية، إذ كيف أبى جميع هذه المراضع و رضى بك، فقالت: أيّها الملك، لأنّى امرأة ذات عطر طيب و لبنى عذب، لم يأتى طفل رضيع إلّا قبل بى، فصدّقها الحاضرون و قدموا لها هدايا ثمينة[۱۲۹].

و نقرأ فى هذا الصدد

حديثا قال الراوى: فقلت للإمام الباقر عليه السّلام؛ فكم مكث موسى غائبا من أمّه حتى ردّه اللّه؟ قال «ثلاثة أيّام»[۱۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۲

و قال بعضهم: هذا التحريم التكوينى لأنّ اللّه لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثة بالحرام .. الملوّثة بأموال السرقة، أو الملوّثة بالإجرام و الرشوة و غصب حقوق الآخرين، و إنّما أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمّه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس و يحارب الآثمين.

و تم كل شىء بأمر اللّه فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ۱۳۱].

هنا ينقدح سؤال مهم و هو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسى» عند أمّه لترضعه و تأتى به كل حين- أو كل يوم- إلى قصر فرعون لتراه امرأة فرعون؟! أم أنّهم أودعوا موسى فى القصر و طلبوا من المرضع «أم موسى» أن تأتى بين فترات متناسبة إلى القصر لترضعه؟! لا يوجد دليل قوى لأىّ من الاحتمالين، إلّا أن الاحتمال الأوّل أقرب للنظر كما يبدو! و هناك سؤال آخر أيضا، و هو: هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فترة الرضاعة، أم أنّه حافظ على علاقته بأمّه و عائلته و كان يتردد ما بين القصر و بيته؟! قال بعضهم: أودع موسى بعد فترة الرضاعة عند فرعون و امرأته، و تربى موسى عندهما، تنقل فى هذا الصدد قصص عريضة حول موسى و فرعون، و لكن هذه العبارة التى قالها فرعون لموسى عليه السّلام بعد بعثته أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟![۱۳۲]، تدل بوضوح على أن موسى عاش فى قصر فرعون مدة، بل مكث هناك سنين طويلة.

و يستفاد من تفسير على بن إبراهيم أن موسى عليه السّلام بقى مع كمال الاحترام فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۳

قصر فرعون حتى مرحلة البلوغ، إلّا أنّ كلامه عن توحيد اللّه أزعج فرعون بشدة إلى درجة أنّه صمّم على قتله، فترك موسى القصر و دخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط و الآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه «و سيأتى تفصيل ذلك فى شرح الآيات المقبلة إن شاء اللّه»[۱۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۴ الى ۱۷]

اشارة

وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ

عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (۱۵) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷)

التّفسير

موسى عليه السّلام و حماية المظلومين:

فى هذه الآيات نواجه المرحلة الثّالثة من قصّة موسى عليه السّلام و ما جرى له مع فرعون، و فيها مسائل تتعلق ببلوغه، و بعض الأحداث التى شاهدها و هو فى مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثمّ سبب هجرته إلى مدين.

تقول الآيات فى البداية وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۵

وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

كلمة «أشدّ» مشتقّة من مادة «الشدّة» و هى القوّة.

و كلمة «استوى» مشتقة من «الاستواء» و معناها كمال الخلقة و اعتدالها.

و هناك كلام بين المفسّرين فى الفرق بين المعنيين:

فقال بعض المفسّرين: المقصود من بلوغ الأشد هو أن يصل الإنسان الكمال من حيث القوى الجسمانية، و غالبا ما يكون فى السنة الثامنة عشرة من العمر ..

أمّا الإستواء فهو الاستقرار و الاعتدال فى أمر الحياة، و غالبا ما يحصل ذلك بعد الكمال الجسمانى.

و قال بعضهم: إنّ المقصود من بلوغ الأشد هو الكمال الجسمانى، و أمّا الاستواء فهو الكمال العقلى و الفكرى.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب معانى الأخبار قال: فلمّا بلغ أشدّه و استوى قال: «أشدّه ثمان عشر سنة و استوى، التحى»[۱۳۴].

و ليس بين هذه التعابير فرق كبير، و من مجموعها- مع ملاحظة المعنى اللغوى للكلمتين «الأشدّ و الاستواء»- يستفاد منهما أنّهما يدلان على التكامل فى القوى الجسمية و العقلية و الروحية.

و لعل الفرق بين «الحكم» و «العلم» هو أنّ الحكم يراد منه العقل و الفهم و القدرة على القضاء الصحيح، و العلم يراد به العرفان الذى لا يصحبه الجهل.

أمّا التعبير كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ فيدل بصورة جليّة على أن موسى عليه السّلام كان جديرا بهذه المنزلة، نظرا لتقواه و طهارته و أعماله الصالحة، إذ جازاه اللّه «بالعلم و الحكم» و واضح أنّ المراد بالحكم و العلم هنا ليس النبوّة و الوحى و ما إليهما .. لأنّ موسى عليه السّلام يومئذ لم يبعث بعد، و بقى مدّة بعد ذلك حتى بعث نبيّا.

بل المقصود و المراد من الحكم و العلم هما المعرفة و النظرة الثاقبة و القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۶

على القضاء الصحيح و ما شابه ذلك، و قد منح اللّه هذه الأمور لموسى عليه السّلام لطهارته و صدقه و أعماله الصالحة كما ذكرنا آنفا.

و يفهم من هذا التعبير- إجمالا- أنّ موسى عليه السّلام لم يتأثر بلون المحيط الذى عاشه فى قصر فرعون، و كان يسعى إلى تحقيق

العدل و الحق ما استطاع إلى ذلك سبيلا .. رغم أنّ جزئيات تلك الأعوام غير واضحة.

و على كل حال فإن موسى دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها.

فما هى المدينة المذكورة فى الآية المتقدمة؟ لا نعرفها على وجه التحقيق ..

لكن الاحتمال القوى أنّها عاصمة مصر .. و كما يقول بعض المفسّرين فإنّ موسى عليه السّلام على أثر المشاجرات بينه و بين فرعون، و مخالفاته له و لسلطته التى كانت تشتدّ يوما بعد يوم حتى بلغت أوجها، حكم عليه بالتبعيد عن العاصمة ..

لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصة خاصّة و الناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينة و يدخلها.

و يحتمل أيضا، أنّ المقصود دخوله المدينة من جهة قصر فرعون .. لأنّ القصور يومئذ كانت تشاد على أطراف المدينة ليعرف الداخل إليها و الخارج منها.

و المقصود من جملة عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها هو الزمن الذى يستريح الناس فيه من أعمالهم، و لا تراقب المدينة فى ذلك الحين بدقّة، و لكن أى حين و أى زمن هو؟! قال بعضهم: هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم و يعطلون دكاكينهم و محلاتهم ابتغاء الراحة و النوم، و جماعة يذهبون للتنزه، و آخرون لأماكن أخرى .. هذه الساعة هى المعبر عنها بساعة الغفلة فى بعض الرّوايات الإسلامية.

و هناك حديث شريف

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى هذا الشأن يقول: «تنفّلوا فى ساعة الغفلة و لو بركعتين خفيفتين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۷

و قد ورد فى ذيل هذا الحديث الشريف هذه العبارة

«و ساعة الغفلة ما بين المغرب و العشاء»[۱۳۵].

و الحق أنّ هذه الساعة ساعة غفلة و كثيرا ما تحدث الجنايات و الفساد و الانحرافات الأخلاقية فى مثل هذه لساعة من أوّل الليل .. فلا الناس مشغولون بالكسب و العمل، و لا هم نائمون، بل هى حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادة، و تنشط مراكز الفساد أيضا فى هذه الساعة.

و احتمل البعض أن ساعة الغفلة هى ما بعد نصف النهار، حيث يستريح الناس من أعمالهم استراحة مؤقتة، و لكن التّفسير الأوّل أقرب للنظر كما يبدو.

و على كل حال، موسى دخل المدينة، و هنالك واجه مشادّة و نزاعا، فاقترب من منطقة النزاع فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ

و التعبير ب «شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع و أنصار و شيعة من بنى إسرائيل، و ربّما كان قد اختارهم لمواجهة فرعون و حكومته كنواة اساسية.

فلمّا بصر الإسرائيلى بموسى استصرخه فَاسْتَغاثَهُ الَّذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ

فجاءه موسى عليه السّلام لاستنصاره و تخليصه من عدوّه الظالم .. الذى يقال عنه أنّه كان طباخا فى قصر فرعون، و كان يريد من الإسرائيلى أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتا فى الحال تقول الآية: فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ ۱۳۶].

و ممّا لا شك فيه، فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعونى، و يتّضح ذلك من خلال الآيات التالية أيضا .. و لا يعنى ذلك أن الفراعنة لم يكونوا يستحقون القتل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۸

و لكن لاحتمال وقوع المشاكل و التبعات المستقبلية على موسى و جماعته.

لذلك فإنّ موسى عليه السّلام أسف على هذا الأمر قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ

و بتعبير آخر: فإنّ موسى عليه السّلام كان يريد أن يبعد الفرعونى عن الرجل الإسرائيلى، و إن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك. لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل، و كما سنرى فإن ذلك الأمر دعا موسى عليه السّلام إلى أن يخرج من مصر إلى أرض مدين و حرمه من البقاء فى مصر.

ثمّ يتحدث القرآن عن موسى عليه السّلام فيقول: قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

و من المسلم به أنّ موسى عليه السّلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغى عليه أن يحتاط لئلا يقع فى مشكلة، و لذلك فإنّه استغفر ربّه و طلب منه العون، فشمله اللطيف الخبير بلطفه.

لذلك فإنّ موسى عليه السّلام حين نجا بلطف اللّه من هذا المأزق قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَ من عفوك عنى و انقاذى من يد الأعداء و جميع ما أنعمت على منذ بداية حياتى لحدّ الآن فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ و معينا للظالمين.

بل سأنصر المؤمنين المظلومين، و يريد موسى عليه السّلام أن يقول: إنّه لا يكون بعد هذا مع فرعون و جماعته أبدا .. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين ..».

و احتمل بعضهم أن يكون المقصود ب «المجرمين» هو هذا الإسرائيلى الذى نصره موسى، إلّا أن هذا الاحتمال بعيد جدّا، حسب الظاهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۱۹۹

مسألتان

۱- أ لم يكن عمل موسى هذا مخالفا للعصمة!

للمفسّرين أبحاث مذيّلة و طويلة فى شأن المشاجرة التى حدثت بين القبطى و الإسرائيلى و قتل موسى للقبطى.

و بالطبع فإنّ أصل هذا العمل ليس مسألة مهمّة .. لأنّ الظلمة الأقباط و الفراعنة المفسدين الذين قتلوا آلاف الأطفال من بنى إسرائيل و لم يتأبّوا يحجموا عن أية جريمة ضد بنى إسرائيل، لم تكن لهم حرمة عند بنى إسرائيل.

إنّما المهم عند علماء التّفسير هو تعبيرات موسى عليه السّلام التى ولّدت إشكالات عندهم.

فهو تارة يقول: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۱۹۹

فى مكان آخر يقول: رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

فكيف تنسجم أمثال هذه التعابير مع عصمة الأنبياء حتى قبل بعثتهم و رسالتهم.

و لكن هذه الإشكالات تزول بالتوضيح المتقدم فى تفسير الآية الآنفة، و هو أن ما صدر من موسى عليه السّلام هو من قبيل «ترك الأولى» لا- أكثر، إذ كان عليه أن يحتاط قبل أن يضرب القبطى، فلم يحتط، فأوقع نفسه فى مشاكل جانبية، لأنّ قتل القبطى لم يكن أمرا هينا حتى يعفو عنه الفراعنة.

و نعرف أن ترك الأولى لا يعنى أنّه عمل حرام ذاتا، بل يؤدى الى ترك عمل أهم و أفضل، دون أن يصدر منه عمل مخالف و مناف

لذلك العمل!.

و نظير هـذه التعابير ما ورد فى بعض قصـص الأنبياء من جملتهم أبو البشـر آدم عليه السّـلام التى تقـدم شـرحه فى ذيل الآيـة (۱۹) من سورة الأعراف.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۰

المتقدمـة: «قـالَ هـذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» يعنى الاقتتال الـذى وقع بين الرجل لا ما فعله موسـى عليه السّـلام من قتله «إنه» يعنى الشـيطان «عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»-

و أمّا المراد من جملـة- «رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى» يعنى ان موسـى يريـد أن يقول وضـعت نفسـى غير موضـعها بـدخول هـذه المدينة «فَاغْفِرْ لِى» أى استرنى من أعدائك لئلا يظفروا بى فيقتلونى ...».[۱۳۷]

۲- دعم المجرمين و إسنادهم من أعظم الآثام:

هناك باب مفصل فى الفقه الإسـلامى فيه أحاديث وافرة تتحدث حول «الإعانة على الإثم» و «معاونة الظلمة» و تدل على أن واحدا من أسوأ الآثام إعانة الظالمين و المجرمين، و تكون سببا لأن يشترك المعين فى مصيرهم الأسود.

و أساسـا فإنّ الظلمـة و المجرمين- أمثال فرعون- فى المجتمع أيّا كان هم أفراد معـدودون، و إذا لم يساعـد المجتمع هؤلاء لم يكونوا فراعنة، فهؤلاء القلّة المتفرعنون .. إنّما يعتمدون على الناس الضـعاف أو الانتهازيين و عبدة الدنيا، الذين يلتفّون حولهم و يكونون لهم أجنحة و أذرعا، أو على الأقل يكثّرون السواد ليوفروا لهم القدرة الشيطانية.

و فى القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى هـذا الأصل الإسـلامى، فنحن نقرأ فى الآيـة الثّانيـة من سورة المائـدة قوله تعالى: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ لا تَعاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ

كما أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته بالقول: وَ لا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۱

[۱۳۸] و سواء كان «الرّكون» هنا بمعنى الميل القلبى، أو بمعنى الإعانـة الظاهريـة، أو إظهار الرضا و المحبّـة، أو طلب الخير لهم .. هذه المعـانى التى ذكرهـا المفسّـرين «للركون» يجمعهـا مفهوم جـامع لها، و هو الاتكاء و الاعتماد و التعلق و ما إلى ذلك، و هـذا المفهوم شاهد حى على مقصودنا.

و نقرأ فى هـذا الصـدد حـديثا للإمام على بن الحسـين عليه السّـلام مع «محمّـد بن مسـلم الزهرى» الـذى كان رجلا عالما، إلّا أنّه كان يتعاطف و يتعاون مع الجهاز الأموى و لا سـيما مع هشام بن عبـد الملك، يحـذّره الإمام فى حـديثه هـذا من إعانـة الظالمين و الركون إليهم، و هو حديث مثير جدّا .. و قد جاء فيه:

«أو ليس بـدعائهم إيّـاك حين دعـوك جعلوك قطبـا أداروا بـك رحى مظـالمهم، و جسـرا يعـبرون عليـك إلى بلايـاهم، سـلّما إلى ظلالـتهم، داعيـا إلى عينهم سالكـا سبيلهم، يـدخلون بك الشك على العلماء و يقتادون بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك فى قدر ما أخذوا منك، و ما أيسـر ما عمروا لك فى جنب ما خرّبوا عليك! فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر إليها غيرك، و حاسـبها حساب رجل مسئول»[۱۳۹].

و الحقّ أنّ هذا المنطق البليغ المؤثر للإمام عليه السّـلام لكل عالم من وعّاظ السـلاطين مرتبط بالظالمين راكن إليهم، يمكن أن يبصّـره

بمصيره المشؤوم عاقبته المخزية.

و يذكر ابن عباس أن آية رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ من جملة الآيات التى تؤكّد على أن الركون للمجرمين ذنب عظيم، و إعانة المؤمنين إطاعة لأمر اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۲

قالوا لبعض العلماء: إنّ فلانا أصبح كاتبا للظالم الفلانى، و لا يكتب له إلّا الدخل و الخرج. و حياته و حياة عائلته مرهونة بما يحصل عليه من مال لقاء هذا العمل، و إلّا فسيقع هو و أسرته فى فقر مدقع.

فكان جواب هذا العالم: أمّا سمع قول العبد الصالح «موسى» رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ۱۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۱۸ الى ۲۲]

اشارة

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (۱۸) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (۱۹) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۱) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (۲۲)

التّفسير

موسى يتوجّه إلى مدين خفية:

نواجه فى هذه الآيات المقطع الرّابع من هذه القصّة ذات المحتوى الكبير.

حيث أن مقتل الفرعونى فى مصر انتشر بسرعة، و القرائن المتعددة تدلّ على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۴

أن القاتل من بنى إسرائيل، و لعل اسم موسى عليه السّلام كان مذكورا من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم.

و بالطبع فإنّ هذا القتل لم يكن قتلا عاديا، بل كان يعد شرارة لانفجار ثورة مقدمة للثورة .. و لا شك أن جهاز الحكومة لا يستطيع تجاوز هذه الحالة ببساطة ليعرّض أرواح الفرعونيين للقتل على أيدى عبيدهم من بنى إسرائيل.

لذلك يقول القرآن فى بداية هذا المقطع فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ ۱۴۱].

و هو على حال من الترقب و الحذر، فوجئ فى اليوم التالى بالرجل الإسرائيلى الذى آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطى آخر و طلب من موسى أن ينصره فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۱۴۲].

و لكن موسى تعجب منه و استنكر فعله و قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ إذ تحدث كل يوم نزاعا و مشادة مع الآخرين، و تخلق مشاكل ليس أوانها الآن، إذ نحن نتوقع أن تصيبنا تبعات ما جرى بالأمس، و أنت اليوم فى صراع جديد أيضا!! و لكنّه كان على كل حال مظلوما فى قبضة الظالمين (و سواء كان مقصرا فى المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السّلام أنّ يعينه و ينصره و لا يتركه وحيدا

فى الميدان، فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُما ج صاح ذلك القبطى: قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ و يبدو من عملك هذا أنّك لست إنسانا منصفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۵

إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِى الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ۱۴۳].

و هـذه العبـارة تـدلّ بوضوح على أن موسـى عليه السّـلام كان فى نيّته الإصـلاح من قبل، سواء فى قصـر فرعون أو خارجه، و نقرأ فى بعض الرّوايات أن موسـى عليه السّلام كانت له مشادات كلامية مع فرعون فى هذا الصدد، لذا فإن القبطى يقول لموسى: أنت كل يوم تريد أن تقتل إنسانا، فأىّ إصـلاح هذا الذى تريده أنت؟! فى حين أن موسـى عليه السّـلام لو كان يقتل هذا الجبار، لكان يخطو خطوة أخرى فى طريق الإصلاح ..

و على كل حال فإنّ موسـى التفت إلى أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، و من أجل أن لا تتسع دائرة المشاكل لموسى فإنّه أمسك عن قتل الفرعونى فى هذا اليوم.

و من جهة أخرى فإنّ الأخبار وصـلت إلى قصـر فرعون فأحسّ فرعون و من معه فى القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه و انتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسـى، و كان فى القصـر رجل له علاقة بموسـى فمضـى إليه و أخبره بالمؤامرة .. و كما يقول القرآن الكريم: وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

و يبدو أنّ هذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذى كان يكتم إيمانه و يدعى «حزقيل» و كان من أسرة فرعون، و كانت علاقته بفرعون وثيقة بحيث يشترك معه فى مثل هذه الجلسات.

و كان هذا الرجل متألما من جرائم فرعون، و ينتظر أن تقوم ثورة «إلهية»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۶

ضده فيشترك معها.

و يبـدو أنّه كان له أمل كبير بموسـى عليه السّـلام إذ كان يتوسم فى وجهه رجلا ربّانيا صالحا ثوريّا، و لـذلك فحين أحسّ بأن الخطر محـدق بموسـى أوصل نفسه بسـرعة إليه و أنقـذه من مخالب الخطر، و سـنرى بعدئذ أن هذا الرجل لم يكن فى هذا الموقف فحسـب سندا و ظهيرا لموسى، بل كان يعدّ عينا لبنى إسرائيل فى قصر فرعون فى كثير من المواقف و الأحداث.

أمّا موسى عليه السّلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّية و قبل نصحه و وصيته فى مغادرة المدينة فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ و تضرع إلى اللّه بإخلاص و صفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و قالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمة و لا يرحمون، و قد نهضت- دفاعا عن المحرومين- بوجه الظالمين، و لم آل جهدا و وسعا فى ردع الأشرار عن الإضرار بالطيبين، فأسألك- يا ربّى العظيم- أن تدفع عنّى أذاهم و شرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السّلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التى كانت تقع جنوب الشام و شمال الحجاز، و كانت بعيدة عن سيطرة مصر و الفراعنـة .. و لكنه شاب تربّى فى نعمـة و رفاه و يتجه إلى سـفر لم يسـبق له فى عمره أن يسافر إليه، فلا زاد و لا متاع و لا صـديق و لا راحلة و لا دليل، و كان قلقا خائفا على نفسه، فلعل أصـحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه «مدين» و يأسرونه ثمّ يقتلونه .. فلا عجب أن يظل مضـطرب البال! أجل، إن على موسـى عليه السّـلام أن يجتاز مرحلة صـعبة جدّا، و أن يتخلص من الفخ الذى ضربه فرعون و جماعته حوله ليصـطادوه، ليسـتقرّ أخيرا إلى جانب المستضـعفين و يشاطرهم آلامهم بأحاسـيسه و عواطفه، و أن يتهيأ لنهضـة إلهية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۷

لصالحهم و ضد المستكبرين.

إلّا أنّه كان لـديه فى هـذا الطريق و عواطفه رأس مال كبير و كثير لا ينفـد أبـدا، و هو الإيمان باللّه و التوكل عليه، لـذا لم يكترث بأى شىء و واصل السير .. وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّى أَنْ يَهْدِيَنِى سَواءَ السَّبِيلِ ۱۴۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۸

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِى حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (۲۳) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّى لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (۲۴) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِى عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۵)

التّفسير

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير:

نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصّة، و هى قضيّة ورود موسى عليه السّلام إلى مدينة مدين.

هـذا الشاب الطاهر الـذى لا يغش أحـدا أمضـى عـدّة أيّام فى الطريق، الطريق التى لم يتعود المسـير فيها من قبل أبدا، و لم يكن له بها معرفة، و كما يقول بعضهم:

اضطر موسى إلى أن يمشى فى هذا الطريق حافيا، و قيل: إنّه قطع الطريق فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۰۹

ثمانية أيّام، حتى لقى ما لقى من النصب و التعب، و ورمت قدماه من كثرة المشى.

و كـان يقتـات من نبات الأرض و أوراق الشـجر دفعا لجوعه، و ليس له أمام مشاكل الطريق و أتعابه إلّا قلبه المطمئن بلطف اللّه الـذى خلّصه من مخالب الفراعنة.

و بـدأت معالم «مـدين» تلوح له من بعيد شـيئا فشـيئا، و أخذ قلبه يهدأ و يأنس لاقترابه من المدينة، و لما اقترب ثمّ عرف بسـرعة أنّهم أصحاب أغنام و أنعام يجتمعون حول الآبار ليسقوا أنعامهم و أغنامهم.

يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ ۱۴۵].

فحركه هذا المشـهد ... حفنة من الشـبان الغلاظ يملأون الماء و يسـقون الأغنام، و لا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان فى زاويـة بعيـدة عنهم، و عليهم آثار العفّـة و الشـرف، جاء إليهما موسـى عليه السّـلام ليسألهما عن سـبب جلوسهما هناك و قالَ ما خَطْبُكُما[۱۴۶].

و لم لا تتقدمان و تسـقيان الأغنام؟! لم يرق لموسى عليه السّلام أن يرى هذا الظلم، و عدم العدالة و عدم رعاية المظلومين، و هو يريد أن يـدخل مدينـة مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين و من أجلهم ضـرب قصـر فرعون و نعمته عرض الحائط و خرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته و سيرته و أن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم! ..

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس و أن يسقى هؤلاء الرعاة اغنامهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۰

قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ[۱۴۷].

و من أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ و لماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ فلا هو يستطيع أن يسقى الأغنام، و ليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيلة لنا إلّا أن نؤدى نحن هذا الدور.

فتأثر موسى عليه السّلام من سماعه حديثهما بشدة. فأى أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، و لا هم لهم غير أنفسهم.

فتقدم و أخذ الدلو و ألقاها فى البئر .. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّا أن موسى عليه السّلام استخرجها بقوته و شكيمته و همّته بنفسه دون أن يعينه أحد فَسَقى لَهُما أغنامهما.

و يقال: إنّ موسى عليه السّلام حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أى أناس أنتم لا همّ لكم إلّا أنفسكم! و هاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال و قالوا له:

هلمّ و املأ الدلو، و كانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلئ لا يستخرجها إلّا عشرة أنفار من البئر.

و لكن موسى عليه السّلام بالرغم من تعب السير فى الطريق و الجوع ملأ الدلو و سحبها بنفسه و سقى أغنام المرأتان جميعها .. ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.

أجل .. إنّه متعب و جائع، و لا أحد يعرفه فى هذه المدينة، فهو غريب، و فى الوقت ذاته كان مؤدبا و إذا دعا اللّه فلا يقول: ربّ إنّى أريد كذا و كذا، بل يقول:

رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ أى إنّه يكشف عن حاجته فحسب، و يترك الباقى إلى لطف اللّه سبحانه.

لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود! و كم له من بركات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۱

عجيبة! خطوة نحو اللّه ملء دلو من أجل إنصاف المظلومين، فتح لموسى فصلا جديدا، و هيأ له. من عالم عجيب من البركات المادية و المعنوية .. و وجد ضالته التى ينبغى أن يبحث عنها سنين طوالا.

و بداية هذا الفصل عند ما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء و العفة و يظهر منها أنّها تستحى من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ فلم تزد على أن قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا.

فلمع فى قلبه إشراق من الأمل، و كأنّه أحس بأنّ واقعة مهمّة تنتظره و سيواجه رجلا كبيرا! .. رجلا عارفا بالحق و غير مستعد أن يترك أى عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه، هذا الرجل ينبغى أن يكون إنسانا نموذجيا و رجلا سماويا و إلهيّا .. ربّاه .. ما أروعها من فرصة.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب» النّبى الذى كان يدعو الناس لسنين طوال نحو اللّه، كان مثلا لمن يعرف الحق و يطلب الحق، و اليوم إذ تعود بنتاه بسرعة يبحث عن السبب، و حين يعرف الأمر يقرر أن يؤدى ما عليه من الحق لهذا الشاب كائنا من كان.

تحرك موسى عليه السّلام و وصل منزل شعيب، و طبقا لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّا أن الهواء كان يحرّك ثيابها و ربّما انكشف ثوبها عنها، و لكن موسى لما عنده من عفة و حياء طلب منها أن تمشى خلفه و أن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله و تخبره من أى طريق يمضى إلى دار أبيها شعيب:[۱۴۸] دخل موسى عليه السّلام منزل شعيب عليه السّلام، المنزل الذى يسطع منه نور النبوّة .. و تشع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۲

فیه الروحانیة من کل مکان .. و إذا شیخ و قور یجلس ناحیة من المنزل یرحب بقدوم موسی علیه السّلام، و یسأله:

من أین جئت؟! و ما عملک؟! و ما تصنع فی هذه المدینة. و ما مرادک و هدفک هنا؟! و لم أراک وحیدا؟! و أسئلة من هذا القبیل ..

یقول القرآن فی هذا الصدد: فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ فأرضنا بعیدة عن سیطرتهم و سطوتهم و لا تصل أیدیهم إلینا، فلا تقلق و لا تشعر نفسک الوحشة، فأنت فی مکان آمن و لا تفکر بالغربة، فکل شیء بلطف اللّه سیتیسر لک! ..

فالتفت موسی إلی أنّه وجد استاذا عظیما .. تنبع من جوانبه عیون العلم و المعرفة و التقوی، و تغمر وجوده الروحانیّة .. و یمکن أن یروی ظمأه منه.

کما أحسّ شعیب أنّه عثر علی تلمیذ جدیر و لائق، و فیه استعداد لأن یتلقی علومه و ینقل إلیه تجارب العمر! أجل .. کما أن موسی شعر باللذة حین وجد أستاذا عظیما .. کذلک أحس شعیب بالفرح و السرور حین عثر علی تلمیذ مثل موسی.

مسألتان

۱- أین کانت مدین؟!

«مدین»: اسم مدینة کان یقطنها «شعیب» و قبیلته، هذه المدینة کانت تقع فی شرق خلیج العقبة [و شمال الحجاز و جنوب الشامات و أهلها من أبناء إسماعیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۳

«الذبیح» ابن إبراهیم الخلیل علیهما السّلام، و کانت لهم تجارة مع مصر و فلسطین و لبنان.

أمّا الیوم فیطلق علی «مدین» اسم «معان».

کما أن بعضا من المفسّرین یعتقدون أن مدین اسم لجماعة کانت تعیش ما بین خلیج العقبة و جبل سینا المعروف بطور سیناء، و جاء اسمها فی التوراة ب «مدیان» أیضا[۱۴۹].

کما یری البعض: إنّ أساس تسمیة هذه المدینة «بمدین» هو لأنّ أحد أبناء إبراهیم الخلیل و اسمه «مدین» کان یعیش فی هذه المدینة[۱۵۰].

و فی الوقت الحاضر یبدو فی الخرائط الجغرافیة للأردن أن إحدی مدنها فی الجنوب الغربی منها، و اسمها «معان» تحمل الأوصاف ذاتها التی کانت فی مدین ..

و تنطبق علیها تماما.

۲- دروس کثیرة توحی بالعبر:

فی هذا القسم من قصّة موسی علیه السّلام دروس کثیرة توحی بالعبر:

أ- إنّ أنبیاء اللّه هم حماة المظلومین دائما، فموسی سواء کان فی مصر أو کان فی مدین کان یسیئه أن یری ظلما و تجاوزا علی حقوق الآخرین، و کان ینهض لنصرة المظلوم .. و لم لا یکون کذلک، و أحد أهداف بعثة الأنبیاء نصرة المظلوم.

ب- أداء عمل صغير للّه له بركات كثيرة! لم يفعل موسى سوى أنّه جلب دلوا من الماء و سقى الأغنام للبنتين، و لم يكن له هدف سوى مرضاة اللّه الخالق سبحانه! و لكن كم كان لهذا العمل الصغير من خير و بركة؟! لأنّه صار سببا لأن يصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۴

إلى منزل شعيب نبى اللّه، و أن يتخلّص من الغربة، و أن يجد مأوى يطمئن إليه، و صار من نصيبه الأكل الهنىء و الثياب و الزوجة الصالحة، و أهم من كل ذلك .. إنّه وصل إلى شعيب، ذلك الشيخ الكبير الذى يتمتع بضمير حى و له دين سماوى، فعاش معه عشر سنين و أصبح مهيأ لقيادة الأمة فى ذلك الوقت ..

ج- إنّ رجال اللّه لا يتركون أى عمل سدى- و خاصّة ما يعمله المخلصون- دون أن يؤدوا أجره .. و لهذه السبب فإنّ شعيبا حين بلغه ما قدمه موسى عليه السّلام من عمل- و هو شاب لم يكن معروفا لم يكن معروفا هناك- لم يقرّ حتى أرسل خلفه ليعطيه أجره.

د- و هذه المسألة تثير الانتباه، و هى أن موسى كان يذكر اللّه دائما، و يطلب منه العون فى كل أمر، يوكل حل مشاكله إليه.

فحين قتل القبطى و عرف أنّه «ترك الأولى» استغفر ربّه فورا و قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي

و حين خرج من مصر سأل اللّه أن يحفظه و قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

و حين وصل أرض مدين قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ!.

و حين سقى أغنام «شعيب» و تولى إلى الظل دعا ربّه فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.

و هذا الدعاء الأخير- خاصة- الذى دعا به فى وقت تحوط فيه الأزمات و هو فى أشدّ الحاجات، دعا به و هو فى غاية التأدب و الخشوع، و لم يسأل اللّه أن يحقق له ما يحتاج، بل سأل المزيد و قال: رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ.

ه- لا ينبغى التصور أن موسى عليه السّلام إنّما كان يذكر اللّه فى الشدائد فحسب، فهو لم ينس ذكر اللّه حتى حين كان فى نعمة و رفاهية من العيش، إذ كان يعيش فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۵

قصر فرعون- لذلك ورد فى الرّوايات ..

«درج موسى كان يوما عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد للّه ربّ العالمين. فأنكر فرعون ذلك عليه و لطمه و قال:

ما هذا الذى تقول؟ فوثب موسى على لحيته- و كان طويل اللحية- فهلبها أى قلعها، فآلمه ألما شديدا، فهم فرعون بقتله فقالت له امرأته، هذا غلام حدث لا يدرى ما يقول و قد لطمته بلطمه إيّاك. فقال فرعون: بلى يدرى ...» إلخ ۱۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۶

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (۲۶) قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (۲۸)

التّفسير

موسى فى دار شعيب:

هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السّلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، منزل قرويّ بسيط، منزل نظيف و ملىء بالروحيّة العالية، و بعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتى شعيب بالقول- و بعبارة موجزة-: إنّنى أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام و رعايتها: و قالت يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ

هذه البنت التى تربّت فى حجر النّبى الكبير، ينبغى أن تتحدث بمثل هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۷

الحديث الوجيز الكريم، و أن تؤدى الكلام حقّه بأقلّ العبارات.

ترى من أين عرفت هذه البنت أنّ هذا الشاب قويّ و أمين أيضا؟ مع أنّها لم تره الّا لأوّل مرّة على البئر، و لم تتّضح لها سوابق حياته! و الجواب على هذا السؤال واضح و جليّ .. إذ لاحظت قوته و هو ينحيّ الرعاء عن البئر و يملأ القربة الثقيلة لوحده و يطالب بحق المظلوم، و أمّا أمانته و صدقه فقد اتّضحا لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها، فطلب منها أن تتأخر و يتقدمها، لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك .. من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتّضحت قوته فى دفعه القبطى عن الإسرائيلى و قتله إيّاه بضربة واحدة .. و أمانته و صدقه .. فى عدم مساومته الجبابرة.

فرضى شعيب عليه السّلام باقتراح ابنته، و توجه إلى موسى و قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ثمّ أضاف قائلا: فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ۱۵۲].

و على كل حال، فلا أريد إيذاءك وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

فأنّا ألتزم بالعهد و الميثاق و أفى بما نتعاقد عليه، و لا أشدّد عليك فى الأمور، و أتعامل معك معاملة حسنة و صالحة .. إن شاء اللّه.

و من خلال هذا الاقتراح هناك أسئلة كثيرة حول الزواج من ابنة شعيب و المهر و سائر الخصوصيات، و سنبحث عنها فى البحوث القادمة إن شاء اللّه.

و استجابة لهذا القرار و العقد الذى أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۸

و قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ ..

ثمّ أردف مضيفا بالقول: أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَ أى سواء قضيت عشر سنين أو ثمانى سنين «حجج» فلا عدوان على ..

و من أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السّلام اللّه كفيلا و قال: وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ!.

و بهذه البساطة أصبح موسى صهرا لشعيب على ابنته.

بحوث

۱- شرطان أساسيان للإدارة الصحيحة

فى العبارة القصيرة التى وردت فى الآيات المتقدمة على لسان بنت شعيب فى شأن استئجار موسى، كان من أهم الشروط و أكثرها أصالة شرطان لخّصا فى «القوّة» و «الأمانة».

و من البديهى أنّ القوّة المذكورة- آنفا- ليس المراد منها قوّة الجسم فحسب، بل القدرة على تحمّل المسؤولية أيضا.

فالطبیب «القوی الأمین» هو الطبیب الذی له معرفة جیدة و کافیة فی عمله، و له تسلّط علیه أیضا.

و المدیر القوی هو الذی یعرف «أصول الإدارة» و یعرف الأهداف المطلوبة ..

و له تسلط فی وضع الخطط و «البرامج»، و له سهم وافر فی الابتکار و تنظیم الأعمال .. و یعبئ القوی فی سبیل الوصول للهدف المعین.

و فی الوقت ذاته یکون مشفقا و ناصحا و أمینا و صادقا فی العمل.

و الأشخاص الذین یقنعون فی تحمل المسؤولیة وجود الأمانة و الطهارة فحسب، هم مخطئون بمقدار خطأ من یعتمد علی سمة التخصص و العلم فحسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۱۹

فالمتخصصون الخونة و العلماء المنحرفون یضربون ضربتهم کما یضربها المخلصون الذین لا ـ حظ لهم من الاطلاع و المهارة فی العمل.

و إذا أردنا أن نخرّب دولة ما فینبغی أن نوکل الأمور إلی إحدی هاتین الطائفتین .. إلی مدراء خائنین ل «الأمانة»، إلی المخلصین الذین لاحظ لهم من العلم و الإدارة و النتیجة واحدة.

إنّ منطق الإسلام هو أن یوکل کل عمل إلی شخص قوی أمین مقتدر، لیصل نظام المجتمع إلی الکمال، و إذا ما تأمّلنا فی سبب زوال الحکومات فی طول التأریخ، و فکّرنا فی الأمر، وجدنا العامل الأصلی هو إیکال الأمر إلی إحدی هاتین الطائفتین اللتین تکلمنا عنهما آنفا.

و من الطریف أنّ منهج الإسلام فی جمیع الأمور أنّه یقرن «العلم مع التقوی» جنبا إلی جنب.

فمرجع التقلید لا بدّ أن یکون «مجتهدا عادلا» و القاضی و کذلک القائد یجب أن یکون «مجتهدا عادلا» .. و بالطبع فإن شروطا أخری ینبغی توفرها أیضا، و لکن أساس هذه الشروط جمیعا شرطان هما «العلم المقترن بالتقوی و العدل».

۲- اسئلة عن زواج موسی من بنت شعیب! ...

ذکرنا- آنفا- أنّ الآیات المتقدمة تحمل بین ثنایها أسئلة متعددة، و علینا أن نجیب علیها و لو باختصار:

أ- هل یجوز من الناحیة الشرعیة و الفقهیة، أن تکون الزوجة غیر معلومة، بل یقال عند إجراء صیغة العقد «أزوّجک إحدی البنتین مثلا»؟ ...

و الجواب: لیس من المعلوم أن العبارة السابقة أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ ذکرت عند إجراء صیغة العقد .. بل الظاهر أنّه جری کلام و مقدمات للعقد و الزواج، و بعد موافقة موسی علی الزواج، ثمّ تجری صیغة العقد علی واحدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۰

بعینها.

ب- هل یمکن أن یکون المهر مجهولا ـ أو مرددا بین النقصان و التمام؟! و الجواب: یفهم من لغة الآیة أن المهر الواقعی کان ثمانی سنوات خدمة .. أمّا السنتان الأخریان فموکلتان لرغبة موسی، إن شاء أدّاهما، و إلّا فلا! ج- و هل یجوز أساسا أن یکون المهر «خدمة و عملا»؟! و کیف یمکن الزواج من امرأة علی هذا المهر و الدخول بها، و المهر بعد لم یتمّ، و لا یمکن إتمامه فی مکان واحد! و الجواب: إنّه لا دلیل علی عدم جواز مثل هذا المهر، بل إطلاقات الأدلة علی المهر فی شریعتنا- أیضا- تشمل کل شیء ذی قیمة! کما أنّه لا یلزم أداء المهر فی مکان واحد، بل یکفی أن یکون فی ذمّة الرجل، و المرأة مالکة له.

و أصل السلامة و الاستصحاب یقضیان أنّ هذا الرجل یحیا مدّة و یستطیع أداء هذا المهر.

د- أساسا کیف یمکن جعل الخدمة للأب مهرا للبنت؟! فهل المرأة بضاعة تباع فی مقابل الخدمة[۱۵۳]؟! ..

و الجواب: لا شکّ أن شعیبا کان یحرز رضا ابنته علی مثل هذا المهر، و لدیه وکالة منها علی هذا العقد، و بتعبیر آخر: إن المالک الأصلی لما فی ذمّة موسی، هی زوجته «بنت شعیب».

و لکن .. حیث أنّهم کانوا یعیشون فی بیت واحد و فی غایة الصفاء و النقاء، و لم تکن بینهم فرقة و انفصال «کما هی الحال بالنسبة إلی کثیر من الأسر القرویة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۱

القدیمة التی تبدو حیاتها منسجمة تمام الانسجام» فلم تکن هذه المسألة- مسألة أداء الدین- محل بحث و لا کیف یوفّی المهر.

المهم هنا أن المالک للمهر البنت وحدها لا الأب، و الخدمات التی قدمها موسی کانت فی هذا السبیل أیضا.

ه- کان مهر بنت شعیب مهرا ثقیلا نسبیا- لأنّنا إذا أردنا أن نلاحظ أجرة العامل العادی خلال شهر ثمّ خلال سنة، و بعدئذ نضاعف ذلک الأجر إلی ثمانی مرات فسیکون مبلغا کثیرا جدّا.

الجواب: أولا لم یکن هذا الزواج زواجا بسیطا، بل کان مقدمة لبقاء موسی عند «شعیب» متبعا شاکلته و مذهبه، و مقدمة لأن یدرس موسی علیه السّلام فی جامعة علمیة کبری خلال هذه الفترة الطویلة، و اللّه العالم کم تعلم موسی من «شیخ مدین» فی هذه المدّة من امور؟! ثمّ بعد ذلک کله، لو قلنا: إنّ هذه المدة الطویلة کان یقضیها موسی فی خدمة شعیب، ففی مقابل ذلک سیؤمن له شعیب مصرفه و نفقات زوجه من هذا الطریق أیضا .. فإذا جردنا مصرف موسی و نفقاته من أجرة عمله لم یکن المهر غالیا- بل سیبقی مبلغ زهید و خفیف! ..

۳- یستفاد ضمنا من هذه القصّة أن ما یشیع فی عصرنا من أن اقتراح الأب علی إختیار البعل لابنته أمر مصیب، لا مانع منه و لیس معیبا، فإذا وجد الأب شخصا لائقا و جدیرا، فله الحق أن یقترح علیه الزواج من ابنته، کما فعل شعیب علیه السّلام مع موسی فی شأن ابنته علیه السّلام و الزواج منها.

۴- اسما ابنتی شعیب: واحدة «صفورة» أو «صفورا» و هی التی تزوجت من موسی علیه السّلام، أمّا الثّانیة فاسمها «لیا»[۱۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۲

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۲۹ الی ۳۵]

اشارة

فَلَمَّا قَضی مُوسَی الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیکُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّکُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمَّا أَتاها نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبارَکَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ یا مُوسی إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ کَأَنَّها جانٌّ وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ (۳۱) اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِکَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّکَ إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ إِنَّهُمْ کانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (۳۲) قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (۳۳)

وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُکَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَکُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْکُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَکُمَا الْغالِبُونَ (۳۵)

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۳

التّفسير

الشّرارة الأولى للوحى:

نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصّة ..

لا يعلم أحد- بدقّة- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب ۱۵۵]، و لا شكّ أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السّلام سنوات عذبة هادئة، سنوات هيأته للمسؤولية الكبرى.

فى الحقيقة كان من الضرورى أن يقطع موسى عليه السّلام مرحلة عشر سنين من عمره فى الغربة إلى جانب النّبى العظيم شعيب، و أن يكون راعيا لغنمه؛ ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل أو ما قد أثرت عليه حياة القصر من خلق و سجية.

كان على موسى عليه السّلام أن يعيش إلى جوار سكنة الأكواخ فترة ليعرف همومهم و آلامهم، و أن يتهيأ لمواجهة سكنة القصور.

و من جهة أخرى كان موسى بحاجة الى زمن طويل ليفكر فى أسرار الخلق و عالم الوجود و بناء شخصيته. فأىّ مكان أفضل له من صحراء مدين، و أفضل من بيت شعيب؟!.

إنّ مسئولية نبى من أولى العزم، ليست بسيطة حتى يمكن لكل فرد أن يتحملها، بل يمكن أن يقال: إنّ مسئولية موسى عليه السّلام- بعد مسئولية النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله- من بين الأنبياء جميعا، كانت أثقل و أهم، بالنظر لمواجهته الجبابرة على الأرض، و تخليص أمّة من أسرهم، و غسل آثار الأسر الثقافى من أدمغتهم.

نقرأ فى «التوراة» و فى بعض الروايات الإسلامية- أيضا- أنّ شعيبا قرر تكريما لأتعاب موسى و جهوده معه أن يهب له ما تلده الأغنام فى علائم خاصة، فاتفق أن ولدت جميع الأغنام أو أغلبها- فى السنة الذى ودّع فيها موسى شعيبا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۴

أولادها بتلك العلائم التى قررها شعيب ۱۵۶]، و قدمها شعيب مع كامل الرغبة إلى موسى.

و من البديهى أنّ موسى عليه السّلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، و إن كان وجود «شعيب» الى جانبه يعدّ غنيمة كبرى.

فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، و أن يخلصهم من قيود الأسر، و ينقذهم من حالة الجهل و عدم المعرفة.

و عليه أن ينهى وجود الظلمة و حكام الجور فى مصر، و أن يحطّم الأصنام، و أن يجد المظلومون العزة باللّه معه، هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

و أخيرا جمع موسى أثاثه و متاعه و أغنامه و تهيأ للسفر.

و يستفاد ضمنا من التعبير ب «الأهل» التى وردت فى آيات كثيرة فى القرآن أن موسى عليه السّلام كان عنده هناك غير زوجته ولد أو أولاد، كما تؤيد الرّوايات الإسلامية هذا المضمون، و كما صرّح بهذا المعنى فى «التوراة» فى سفر الخروج، و إضافة إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملا أيضا.

و عند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق، و لئلا يقع أسيرا بيد الظلمة من أهل الشام اختار طريقا غير مطروق.

و على كل حال فإنّ القرآن يقول فى أوّل من آية هذا المقطع: فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً ثمّ التفت إلى أهله و قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ ناراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ أى (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقّة من مادة «إيناس» و معناها المشاهدة و الرؤية المقترنة بالهدوء و الراحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۵

«جذوة» هى القطعة من النّار، و قال بعضهم: بل هى القطعة الكبيرة من الحطب.

و يستفاد من قوله لَعَلِّى آتِيكَمْ مِنْها بِخَبَرٍ أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة لَعَلَّكَمْ تَصْطَلُونَ أن الوقت كان ليلا باردا.

و لم يرد فى الآيـة كلام عن حالـة زوجـة موسـى، و لكن المشـهور أنّها كانت حاملا- كما فى كثير من التفاسـير و الرّوايات- و كانت تلك اللحظة قد أحست بالطلق و ألم الولادة .. و كان موسى قلقا لحالها أيضا.

فَلَمَّا أَتاها أى أتى النّار التى آنسها و رآها، وجدها نارا لا كمثل النيران الأخر فهى غير مقترنة بالحرارة و الحريق، بل هى قطعة من النور و الصفاء، فتعجب موسى من ذلك نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ

«الشاطئ» معناه الساحل.

و «الوادى» معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول.

و «الأيمن» مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، و هو صفة للوادى.

و «البقعة» القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

و لا شك أن اللّه سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية فى كل شـىء، فأوجد فى الوادى شجرة ليكلّم موسى .. و موسى بشر له جسم و أذنان و لا بدّ له ليسـمع الكلام من أمواج صوتية .. و طبيعى أن كثيرا من الأنبياء كان الوحى بالنسبة لهم إلهاما داخليا، و أحيانا يرون ما يوحى إليهم فى «النوم» كما كان الوحى يأتيهم. أحيانا- عن طريق سماع الأمواج الصوتية.

و على كل حال فلا مجال للتوهم بأنّ اللّه جسم، تعالى اللّه عن ذلك.

و فى بعض الرّوايـات ورد أن موسـى عليه السّـلام حين اقترب من النّار، دقق النظر فلاحظ أن النّار تخرج من غصن أخضـر و تضـىء و تزداد لحظة بعد لحظة و تبدو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۶

أجمل، فانحنى موسى و فى يده غصن يابس ليوقده من النّار، فجاءت النّار من ذلك الغصن الأخضر إليه فاستوحش و رجع إلى الوراء .. ثمّ رجع إليها ليأخـذ منها قبسا فأتته ثانيـة .. و هكـذا مرّة يتجه بنفسه إليها و مرّة تتجه النّار إليه، و إذا النداء و البشارة بالوحى إليه من قبل اللّه سبحانه.

و من هنا و مع ملاحظة قرائن لا تقبل الإنكار اتّضح لموسى عليه السّلام أنّ هذا النداء هو نداء إلهى لا غير.

و مع الالتفات إلى أنّ موسـى عليه السّـلام سـيتحمل مسـئولية عظيمـة و ثقيلـة .. فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل اللّه تعالى مناسبة لمقامه النبوى، و قد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الأولى قوله تعالى: وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ

و يوم اختار موسـى عليه السّـلام هذه العصا ليتوكأ عليها للاستراحة، و يهشّ بها على غنمه، و يرمى لها بهذه العصا أوراق الأشـجار، لم يكن يعتقـد أنّ فى داخلهـا هـذه القـدرة العظيمـة المودعـة من قبل اللّه. و أن هـذه العصا البسـيطة سـتهز قصور الظالمين، و هكـذا هى موجودات العالم، نتصور أنّها لا شىء، لكن لها استعدادات عظيمة مودعة فى داخلها بأمر اللّه تتجلى لنا متى شاء.

فى هذه الحال سمع موسى عليه السّلام مرّة أخرى النداء من الشجرة أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ

«الجـانّ» فى الأصـل معنـاه الموجود غير المرئى، كمـا يطلق على الحيـات الصـغار اسم (جان) أيضا؛ لأنّها تعبر بين الأعشاب و الأحجار بصورة غير مرئية ..

كما عبر فى بعض الآيات عن العصا ب ثُعْبانٌ مُبِينٌ [سورة الأعراف الآية ۱۰۷ و سورة الشعراء الآية ۳۲].

و قد قلنا سابقا: إنّ هذا التفاوت فى التعابير ربّما لبيان الحالات المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۷

لتلك الحية .. التى كانت فى البداية حية صغيرة، ثمّ ظهرت كأنّها ثعبان مبين.

كما و يحتمل أن موسى عليه السّلام رآها فى الوادى بصورة حية، ثمّ فى المرات الأخرى بدأت تظهر بشكل مهول ثُعْبانٌ مُبِينٌ و على كل حال، كان على موسى عليه السّلام أن يعرف هذه الحقيقة، و هى أنّه لا ينبغى له الخوف فى الحضرة الإلهية؛ لأنّ الأمن المطلق حاكم هناك، فلا مجال للخوف إذا.

كانت المعجزة الأولى آية «من الرعب»، ثمّ أمر أن يظهر المعجزة الثّانية و هى آية أخرى «من النور و الأمل» و مجموعهما سيكون تركيبا من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ.

فالبياض الذى يكون على يده للناس لم يكن ناشئا عن مرض- كالبرص و نحوه- بل كان نورا الهيا جديدا.

لقد هزّت موسى عليه السّلام مشاهدته لهذه الأمور الخارقة للعادات فى الليل المظلم و فى الصحراء الخالية .. و من أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ

قال بعضهم: هذه العبارة وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ كناية عن لزوم القاطعية و العزم الراسخ فى أداء المسؤولية بالنسبة لرسالته، و أن لا يخاف أو يرهب شيئا أو أحدا أو قوّة مهما بلغت.

و قال بعضهم: حين ألقى موسى عليه السّلام عصاه فرآها كأنّها «جان» أو ثُعْبانٌ مُبِينٌ رهب منها، فمدّ يده ليدافع عن نفسه و يطردها عنه، لكن اللّه أمره أن يضم يده إلى صدره، إذ لا حاجة للدفاع فهى آية من آياته.

و التعبير ب «الجناح» [الذى يستعمل للطائر مكان اليد للإنسان بدلا عن اليد فى غاية الجمال و الروعة .. و لعل المراد منه تشبيه هذه الحالة بحالة الطائر حين يدافع عن نفسه و هو أمام عدوّه المهاجم، و لكنه يعود إلى حالته الأولى و يضم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۸

جناحه إليه عند ما يزول عنه العدو و لا يجد ما يرهبه!.

و جاء موسى النداء معقّبا: فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ

فهم طائفة خرجت عن طاعة اللّه و بلغ بهم الطغيان مرحلة قصوى .. فعليك- يا موسى- أن تؤدى وظيفتك بنصحهم، و إلّا واجهتهم بما هو أشد.

هنا تذكر موسى عليه السّلام حادثة مهمة وقعت له فى حياته بمصر، و هى قتل القبطى، و تعبئه القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه و قتله.

و بالرغم من أنّ موسى عليه السّلام كان يهدف عندها الى انقاذ المظلوم من الظالم الذى كان فى شجار معه، فكان ما كان .. إلّا أن ذلك لا معنى له فى منطق فرعون و قومه، فهم مصممون على قتل موسى إن وجدوه .. لذلك فإنّ موسى: قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و بعد هذا كلّه فإنّى وحيد و لسانى غير فصيح وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

كلمة «أفصح» مشتقّة من «الفصيح» و هو فى الأصل كون الشىء خالصا، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو و زيادة كلمة «الفصيح» أيضا.

و «الردء» معناه المعين و المساعد.

و على كل حال فلأن هذه المسؤولية كانت كبيرة جدّا، و لئلا يعجز موسى عن أدائها، سأل ربّه أن يرسل معه أخاه هارون أيضا.

فأجاب اللّه دعوته، و طمأنه بإجابة ما طلبه منه و قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فالسلطة و الغلبة لكما فى جميع المراحل.

و بشرهما بالنصر و الفوز، و أنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك: إذ قال سبحانه:

فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا فبهذه الآيات و المعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الإضرار بكما أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۲۹

فكـان مـا أوحى اللّه إلى موسـى أملاـ كبيرا و بشـارة عظمى اطمـأن بهـا قلبه، و أصـبح راسـخ العزم و الحزم، و سـنجد آثـار ذلك فى الصفحات المقبلة حين نقرأ الجوانب الأخرى من قصّة موسى عليه السّلام إن شاء اللّه ۱۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۰

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسـى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِـحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَـمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۳۶) وَ قالَ مُوسـى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷)

التّفسير

موسى فى مواجهة فرعون:

نواجه المقطع الثامن من هـذه القصّـة العظيمـة .. لقد تلقى موسـى عليه السّـلام من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة و الرسالة فى تلك الليلة المظلمة و الأرض المقدسة، فوصل إلى مصر، و أخبر أخاه هارون بما حمّل .. و أبلغه الرسالة الملقاة عليهما ..

فـذهبا معـا إلى فرعون ليبلغاه رسالـة اللّه، و بعـد عناء شديـد اسـتطاعا أن يصـلا إلى فرعون و قـد حف به من فى القصـر من جماعته و خاصته، فأبلغاه الدعوة إلى اللّه و وحدانيّته .. و لكن لنر ما جرى هناك- فى قصر فرعون- مع موسى و أخيه.

يقول القرآن فى أوّل آية من هذا المقطع: فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۱

و أنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ

فواجهوا موسـى متوسّـلين بحربـة توسّـل بهـا جميع الجبابرة و الضالّون على طول التاريـخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم .. و هى حربة «السحر» لأنّ الأنبياء يأتون بأمور خارقة للعادات، و «السحر» خارق للعادة «لكن اين هذا من هذه»؟

السـحرة أناس منحرفون و أهل دنيا و عبيـد لها و أساس عملهم قائم على تحريف الحقائق، و يمكن معرفتهم جيـدا بهـذه العلامة .. فى حين أنّ دعوة الأنبياء و محتواها شاهد على صدق معاجزهم ..

ثمّ إنّ السـحرة طالما يعتمدون على القدرة البشرية فإنّ عملهم محدود، أمّا الأنبياء الذين يعتمدون على قوّة الهية، فإن معاجزهم عظيمة و غير محدودة! ..

التعبير ب «الآيات البيّنات» عن معاجز موسـى عليه السّلام بصيغة الجمع، ربّما يراد به أن معاجز أخرى غير المعجزتين هاتين، أو أن كل معجزة من معجزتيه مركبة من عدّة معاجز.

فتبديل العصا إلى ثعبان عظيم معجزة، و عودة الثعبان إلى عصا معجزة أخرى.

و التعبير ب «مفترى» مأخوذة من «فرية» بمعنى التهمة و الكذب لأنّهم قصدوا أنّ موسى يكذب على اللّه!.

و التعبير ب ما سَـمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ مع أن نداء الأنبياء و دعوتهم من أمثال نوح و إبراهيم و يوسف عليهم السـلام كانا من قبل موسـى عليه السّـلام فى هـذه الأرض، فجميعهم دعوا إلى عبادة اللّه سـبحانه. هذا التعبير أساسه طول المدّة و بعد العهد عليهم، أو أنّهم

يريدون أن يقولوا: إنّ آباءنا- أيضا- لم يذعنوا لدعوة الأنبياء قبلك!.

لكن موسى عليه السّلام أجابهم بلهجة التهديد و الوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار وَ قالَ مُوسى رَبِّى أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۲

الدَّارِ.

إشارة إلى أنّ اللّه يعلم حالى، و هو مطلع علىّ بالرغم من اتهامكم إيّاى بالكذب .. فكيف يمكن أن يمكننى اللّه من الأمور الخارقة للعادات لكى أضل بها عباده؟

فعلمه بحالى و منحه لى هذه القدرة على الإتيان بالمعجزات دليل على حقانية دعوتى.

ثمّ بعد هذا، الكاذب قد يقضى فترة بين الناس بالكذب و الخديعة، لكن سرعان ما يفتضح أمره، فانتظروا لتشهدوا من تكون له العاقبة و الإنتصار .. و لمن يكون الخزى و الاندحار!؟

و لو كان كلامى كذبا فأنا ظالم و إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ

و هذا التعبير يشبه تعبيرا آخر فى الآية (۶۹) من سورة «طه» إذ جاء بهذه الصيغة «وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى .

و هذه الجملة لعلها إشارة إلى الفراعنة المعاندين و المستكبرين ضمنا، و هى أنّكم مقتنعون بمعاجزى و دعوتى الحقّة، و لكنّكم تخالفوننى ظلما .. فعليكم أن تعرفوا أنّكم لن تنتصروا أبدا، و العاقبة لى فحسب.

و التعبير ب عاقِبَةُ الدَّارِ ربّما كان إشارة لعاقبة الدار الدنيا، أو لعاقبة الدار الآخرة، أو لعاقبة الدارين جميعا، و بالطبع فإنّ المعنى الثّالث أجمع و أنسب حسب الظاهر.

بهذا المنطق المؤدب أنذر موسى عليه السّلام فرعون و قومه بالهزيمة فى هذه الدنيا و فى الأخرى!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۳۸ الى ۴۲]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِى صَرْحاً لَعَلِّى أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (۳۸) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِى الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۴۰) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِى هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (۴۲)

التّفسير

كيف كان عاقبة الظالمين؟

نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ الملىء بالأحداث و العبر.

هذا المقطع يعالج مسألة صنع فرعون البرج- أو بنائه الصرح المعروف- للبرهنة على وهمية دعوة موسى عليه السّلام.

و نعرف أن من سنن الساسة القدماء فى أعمالهم أنّه كلما وقعت حادثة مهمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۴

على خلاف رغباتهم و ميولهم (و من أجل التمويه و إيهام الناس) يبادرون إلى خلق جوّ جديد ليلفتوا أنظار الناس إليه، و ليصرفوهم عن تلك الحادثة المطلوبة.

و يبدو أنّ بناء «الصرح العظيم» حدث بعد ما جرى لموسى من مواجهته السحرة ما جرى .. لأنّه يستفاد من سورة «المؤمن» أن هذا العمل «بناء البرج» تمّ حين كان الفراعنة يخططون لقتل موسى عليه السّلام، و كان مؤمن آل فرعون يدافع عنه ..

و نعرف أنّه قبل أن يواجه موسى عليه السّلام السحرة لم يكن مثل هذا العمل و لا مثل هذا الحديث، و حيث أن القرآن الكريم تحدّث عن مواجهة موسى عليه السّلام للسحرة فى سورة «طه، و الأعراف، و يونس، و الشعراء» فإنّه لم يتطرق إليها هنا. و إنّما تحدث هنا و فى سورة المؤمن عن بناء البرج.

و على كل حال فقد شاع خبر انتصار موسى عليه السّلام على السحرة فى مصر، و إيمان السحرة بموسى زاد فى الأمر أهمية، كما أن موقع الحكومة الفرعونية أصبح فى خطر جدىّ شديد.

و احتمال تيقظ الجماهير التى فى أسر الذل كان كبيرا جدّا .. فيجب صرف أفكار الناس بأية قيمة كانت، و اشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية مقرونة ببذل من الجهاز الحكومى، لإغفال الناس و تحميقهم! و فى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس فرعون للتشاور فى معالجة الموقف، إذ نقرأ فى أوّل آية من هذا المقطع: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى

فأنا إلهكم فى الأرض .. أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده، و لكننى سأتحقق فى الأمر و لا أترك الاحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان و قال: فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ ثمّ أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّا لأصعد عليه و استخبر عن إله موسى.

فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۵

لم لم يذكر فرعون اسم الآجر، و اكتفى بالقول: فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ قال بعضهم: هذا دليل على أن الآجر لم يكن متداولا حتى ذلك الحين، و إنّما ابتكره الفراعنة من بعد .. فى حين أن بعضهم يرى أن هذا التعبير أو هذا البيان فيه نوع من التكبر و موافق لسنّة الجبابرة.

و قال بعضهم: إنّ كلمة «آجر» ليست فصيحة، لذلك لم يستعملها القرآن، و إنّما استعمل هذا التعبير المتقدم على لسان فرعون!.

هنا ناقش جماعة من المفسّرين كالفخر الرازى و الآلوسى مسألة «الصرح»، و هل بنى فرعون «الصرح» حقّا أم لا؟! و يبدو أن الذى شغل فكر المفسّرين هو أن هذا العمل لم يكن متزّنا بأىّ وجه و أى حساب.

ترى .. أ لم يكن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فرأوا منظر السماء كما هو على الأرض؟.

و هل البرج الذى يبنيه البشر أكثر ارتفاعا من الجبل؟.

و أى أحمق يصدق أنّه يمكن الوصول إلى السماء بواسطة مثل هذا البرج؟! و لكن أولئك الذين يفكرون مثل هذا التفكير غفلوا عن هذه المسألة، و هى أن مصر لم تكن أرضا جبلية، و بعد هذا كلّه نسوا أنّ الطبقة العامّة لأهل مصر بسطاء و يخدعون بشتى الوسائل.

حتى فى عصرنا الذى يسمى عصر العلم و عصر النور، نجد مسائل تشبه ما وقع فى العصور الماضية ينخدع بها الناس.

و على كل حال، فطبقا لما ورد فى بعض التواريخ، فإنّ هامان أمر بأرض واسعة ليبنى عليها الصرح أو البرج، و هيّأ خمسين ألف رجل من العمال و المهندسين لهذا العمل المضنى، و آلاف العمال لتهيئة الوسائل اللازمة لهذا البناء، و فتح أبواب الخزائن و صرف أموالا طائلة فى هذا السبيل، و اشغل عمالا كثيرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۶

فى هذا البناء .. حتى أنّه ما من مكان إلّا و تسمع فيه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!.

و كلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج، و ما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء و هذا البرج.

صعد البناء إلى مرحلة بحيث أصبح مشرفا على جميع الأطراف. و كتب بعضهم: إنّ المعمارين بنوا هذا البرج بناء بحيث جعلوا حوله سلالم حلزونية يمكن لراكب الفرس أن يرتقى الى أعلى البرج.

و لمّا بلغ البناء تمامه و لم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك .. جاء فرعون بنفسه يوما و صعده بتشريفات خاصة .. فنظر إلى السماء فوجدها صافية كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير و لم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنّه رمى سهما إلى السماء، فرجع السهم مخضبا بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر و قال للناس: اذهبوا و اطمأنوا فقد قتلت إله موسى ۱۵۸].

و من المسلم به أن جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعا أعمى و أصم، صدّقوا ما قاله فرعون و نشروه فى كل مكان، و شغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

و نقلوا هذا الخبر أيضا، و هو أنّ البناء لم يدم طويلا «و طبعا لا يدوم» أجل لقد تهدم البناء و قتل جماعة من الناس .. و نقلوا فى هذا الصدد قصصا أخرى، و حيث أن لم تتّضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

و الذى يلفت النظر أن فرعون فى كلامه هذا ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِى كان قد استعمل نهاية الخبث و منتهى الشيطنة .. إذ كان يرى من المسلّم به أنّه إله!! .. و كان مدار بحثه: هل يوجد إله غيره؟!! .. ثمّ ينفى أن يكون هناك إله سواه إله؛ لعدم وجود الدليل!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۷

و فى المرحلة الثّالثة و الأخيرة، و من أجل أن يقيم الدليل على عدم وجود إله غيره بنى ذلك الصرح!.

كل هذه الأمور تؤكّد جيدا أنّه كان يعرف تلك المسائل، إلّا أنّه كان يضلل الناس و يصرف أفكارهم عن الحق، ليحفظ موقعه و حكومته!.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون و من معه، و عدم إذعانهم لمسألتى «المبدأ و المعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام و جنايات بسبب انكار هذين الأصلين فيقول: وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ هذا الإنسان الضعيف الذى لا يستطيع أن يبعد عن نفسه بعوضة، و ربّما قتله ميكروب لا يرى بالعين المجرّدة كيف يمكن له أن يدعى العظمة و الألوهيّة!؟.

ورد فى الحديث القدسى أنّ اللّه سبحانه يقول: «الكبرياء ردائى، و العظمة إزارى، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النّار»[۱۵۹].

و من البديهى أنّ اللّه لا يحتاج إلى أوصاف كهذه .. و لكن حالة الطغيان و العدوان تستولى الإنسان حينما ينسى نفسه، و تملأ ريح الكبر و الغرور فكره! لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون و جنوده؟! يقول القرآن الكريم: فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِ أجل، لقد جعلنا سبب موتهم فى مصدر معيشتهم، و جعلنا النيل الذى هو رمز عظمتهم و قوّتهم مقبرة لهم!.

من الطريف أنّ القرآن يعبّر ب «نبذناهم» من مادة «نبذ» على زنة «نبض» و معناه رمى الأشياء التى لا قيمة لها و طرحها بعيدا، ترى ما قيمة هذا الإنسان الأنانى المتكبر المتجبّر الجانى المجرم؟! أجل، لقد نبذنا هؤلاء الذين لا قيمة لهم من المجتمع البشرى، و طهّرنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۸

الأرض من لوث وجودهم.

ثمّ، يختتم الآية بالتوجه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

هذا النظر ليس بعين «البصر» بل هو بعين «البصيرة»، و هو لا يخص ظلمة الماضى و فراعنة العهد القديم، بل إن ظلمة هذا العصر ليس لهم من مصير سوى هذا المصير المشؤوم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا فى شأنهم: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ

هذا التعبير أوجد إشكالا لدى بعض المفسّرين، إذ كيف يمكن أن يجعل اللّه أناسا أئمة للباطل؟! و لكن هذا الأمر ليس معقدا .. لأنّه أولا .. إن هؤلاء هم فى مقدمة جماعة من أهل النّار، و حين تتحرك الجماعات من أهل النّار، فإنّ هؤلاء يتقدمونهم إلى النّار! فكما أنّهم كانوا فى هذه الدنيا أئمّة الضلال، فهم فى الآخرة- أيضا- أئمّة النّار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم!.

ثانيا .. كونهم أئمّة الضلال- فى الحقيقة- نتيجة أعمالهم أنفسهم، و نعرف أن تأثير كل سبب هو بأمر اللّه، فهم اتخذوا طريقا يؤدى بهم إلى الضلال و ينتهى بهم إلى أن يكونوا أئمّة الضالين، فهذه حالهم فى يوم القيامة!.

و لمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم و ماهيتهم فى الدنيا و الآخرة! وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ![۱۶۰] لعنة اللّه معناها طردهم من رحمته، و لعنة الملائكة و المؤمنين هى الدعاء عليهم صباحا و مساء .. و فى كل وقت. و أحيانا تشملهم اللعنة العامة. و أحيانا يأتى اللعن خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۳۹

لبعضهم. حيث أنّ كل من يتصفح تأريخهم يلعنهم، و يتنفّر من أعمالهم.

و على كل حال فإنّ سوء أعمالهم فى هذه الدنيا، هو الذى قبّح وجوههم فى الدار الآخرة «يوم القيامة»، لأنّه يوم البروز و يوم هتك الحجب.

ملاحظة!

أئمّة «النّور» و أئمّة «النّار»

هناك طائفتان من الأئمة فى منطق القرآن الكريم، فأئمة للمتقين يهدونهم إلى الخيرات، كما ورد فى شأن الأنبياء عليهم الصلاة و السلام: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ ۱۶۱].

فهؤلاء أئمّة أصحاب مناهج واضحة، لأنّ التوحيد الخالص و الدعوة إلى الخير و العمل الصالح و الحق و العدالة، تشكّل متن مناهجهم .. فهم أئمّة النور، و خطهم متصل بسلسلة الأنبياء و الأوصياء الى خاتم النّبيين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أوصيائه عليهم السلام.

و هناك أئمّة للضلال .. و قد عبّرت عنهم الآيات محل البحث بأنّهم: أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ!.

و من خصائص هاتين الطائفتين من الأئمّة، كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يلى: «إنّ الأئمّة فى كتاب اللّه إمامان، قال اللّه تبارك و تعالى: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لا بأمر الناس يقدمون أمر اللّه قبل أمرهم، و حكم اللّه قبل حكمهم، قال: وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ يقدمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حكمهم قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۰

حكم اللّه، و يأخذون بأهوائهم خلاف كتاب اللّه»[۱۶۲].

و بهذا المعيار يتّضح معرفة هاتين الطائفتين من الأئمة .. ففى يوم القيامة الذى تتمايز فيه الصفوف، كل جماعة تمضى خلف إمامها، فأهل النار إلى النّار، و أهل الجنّة إلى الجنّة .. كما يقول القرآن الكريم: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ۱۶۳].

و قلنا مرارا: إنّ يوم القيامة تجسم عظيم عن هذا العالم «الصغير» و أولئك الذين ارتبطوا بإمام معين و اقتفوا أثره، فهم سائرون خلفه

هناك أيضا.

ينقل «بشر بن غالب» عن الإمام أبى عبد اللّه الحسين عليه السّلام أنّه سأله عن تفسير الآية يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فقال عليه السّلام: «إمام دعا إلى هدى فأجابوه إليه، و إمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليها، هؤلاء فى الجنّة، و هؤلاء فى النّار .. و هو قوله عزّ و جلّ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ[۱۶۴].

من الطريف أن فرعون الذى تقدّم قومه فى هذه الدنيا و أغرقهم بمعيّته فى أمواج النيل، يقدم قومه يوم القيامة- أيضا- يخزيهم بمعيته فى نار جهنم، إذ يقول القرآن فى شأنه: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ.[۱۶۵] و نختم هذا البحث بحديث الإمام على عليه السّلام فى شأن المنافقين حيث يقول عليه السّلام: «ثمّ بقوا بعده فتقربوا إلى أئمّة الضلالة و الدعاة إلى النّار بالزور و البهتان، فولّوهم الأعمال، و جعلوهم حكاما على رقاب الناس»[۱۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۳ الى ۴۶]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶)

التّفسير

الأخبار الغيبيّة هى من عند اللّه وحده ..

نصل فى هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» و هو القسم الأخير من الآيات التى تتعلق بقصّة موسى و ما تحمله من معان كبيرة!. و هى تتحدث عن نزول الأحكام، و التوراة، أى إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبى «الطاغوت» و بداية «الدور الإيجابى» و البناء!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۲

يبدأ هذا المقطع بالآية التالية وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و الكلام فى أنّ المقصود من «القرون الأولى» أى الأقوام السابقين .. من هم؟! قال بعض المفسّرين: هو إشارة إلى الكفّار من قوم نوح و عاد و ثمود و أمثالهم .. لأنّه بتقادم الزمان و مضيّه تمحى اثار الأنبياء السابقين، و يلزم من ذلك وجود كتاب سماوىّ جديد فى أيدى البشر!.

و قال بعض المفسّرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين، لأنّ اللّه سبحانه آتى موسى كتاب «التّوراة» بعد هلاكهم.

و لكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأولى فى الآية شاملا لجميع الأقوام.

و «البصائر» جمع «بصيرة» و معناها الرؤية، و المقصود بها هنا الآيات و الدلائل التى تستوجب إنارة قلوب المؤمنين .. و «الهدى» و «الرحمة» أيضا من لوازم البصيرة .. و على أثرها تتيقظ القلوب ۱۶۷].

ثمّ يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، و هى أنّ ما ذكرناه لك «يا رسول اللّه، فى شأن موسى و فرعون و ما جرى بينهما بدقائقه، هو فى نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضرا» فى هذه «الميادين» التى كان يواجه موسى فيها فرعون و قومه! و لم تشهدها بعينيك .. بل هو من الطاف اللّه عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول القرآن: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ أى الأمر بالنبوّة وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ

الذى يجلب الانتباه و يستلفت النظر هنا أنّ موسى عليه السّلام حين سار من مدين إلى مصر مرّ فى طريق سيناء، و كان بهذا الاتجاه يسير من الشرق نحو الغرب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۳

و على العكس من ذلك مسير بنى إسرائيل حين جاءوا من مصر إلى الشام و مرّوا عن طريق سيناء، فإنّهم يتجهون بمسيرهم من الغرب نحو الشرق .. و لذلك يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الآية «۶۰» فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فى سورة الشعراء التى تتحدث عن متابعة فرعون و قومه لبنى إسرائيل، هو إشارة إلى هذا المعنى! ثمّ يضيف القرآن وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ و تقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء و هدايتهم فى قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن و بيّنا فيه قصص الماضين ليكون نورا و هدى للناس.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [أى على أهل مكة] آياتِنا[۱۶۸] وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ .. و أوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التى تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس و موعظة للمتقين ۱۶۹].

و تأكيدا على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلا: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ[۱۷۰] إِذْ نادَيْنا اى نادينا موسى بأمر النبوّة، و لكننا أنزلنا إليك بهذه الاخبار رحمة من اللّه عليك وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و خلاصة الكلام: أنّ اللّه أخبرك يا محمّد بالحوادث التى فيها إيقاظ و إنذار لما جرى فى الأقوام السابقين، و لم تكن فيهم من الشاهدين، لتتلو كل ذلك على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۴

قومك الذين هم على ضلال لعلهم يهتدون و لعلهم يتذكرون.

هنا ينقدح هذا السؤال: كيف يقول القرآن: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ [أى العرب المعاصرين للنبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله فى حين أنّنا نعرف أن الأرض لا تخلو من حجّة للّه، و كان بين العرب أوصياء للأنبياء السابقين (كأوصياء عيسى عليه السّلام).

و فى الجواب على ذلك نقول: المقصود من ذلك هو إرسال رسول يحمل إلى قومه كتابا سماويّا بيّنا .. لأنّ بين عصر عيسى عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله قرونا مديدة، و لم يأت بين عيسى و النبىّ محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبىّ من أولى العزم، و لذلك فقد كان هذا الموضوع ذريعة للملحدين و المفسدين.

يقول الإمام على عليه السّلام فى هذا الصدد «إن اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدعى نبوة، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم و بلغهم منجاتهم»[۱۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۵

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشارة

وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

(۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰)

التّفسير

ذريعة للفرار من الحق:

حيث أن الآيات- آنفة الذكر- كانت تتحدث عن إرسال النّبى صلّى اللّه عليه و آله لينذر قومه، ففى هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف اللّه على وجود النّبى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۶

قومه فيقول: إنّنا و قبل أن نرسل إليهم رسولا إذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم و سيئاتهم قالوا: لما ذا لم ترسل لنا رسول يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۱۷۲].

هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، و هو أن طريق الحقّ واضح و بيّن ... و كل «عقل» حاكم ببطلان الشرك و عبادة الأصنام .. و قبح كثير من الأعمال التى تقع نتيجة الشرك و عبادة الأصنام- كالمظالم و ما شاكلها- هى من مستقلات حكم العقل، و حتى مع عدم إرسال الرسل، فإنّ العقوبة على مثل هذه الأمور ممكنة.

و لكن اللّه سبحانه حتى فى هذا المجال و مع وضوح حكم العقل فيه أرسل الرسل مع الكتب السماوية و المعاجز الساطعة، إتماما للحجّة و نفيا للعذر، لئلا يقول أحد: إنّما كان شقاؤنا بسبب عدم وجود الدليل، إذ لو كان فينا قائد إلهى لكنّا من أهل الهداية و من الناجين.

و على كل حال فإنّ هذه الآية من الآيات التى فيها دلالة على لزوم اللطف عن طريق إرسال الأنبياء و الرسل! و تدل على أن سنة اللّه قائمة على عدم تعذيب أية أمة قبل إرسال الرسل إليها، و نقرأ فى سورة النساء الآية (۶۵) أيضا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

ثمّ تتحدّث الآيات عن معاذير أولئك، و تشير إلى أنّهم- بعد إرسال الرسل- لم يكفّوا عن الحيل و الذرائع الواهية، و استمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۷

فلم لم تكن عصا موسى فى يده؟ و لم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ و لم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟! و لم لم ... إلخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، و يقول: أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا أى موسى و هارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

و التعبير ب «سحران» بدلا عن «ساحران» هو لشدة التأكيد، لأنّ العرب حين تريد التأكيد على شخص فى خصلة ما تقول: هو العدل بعينه، أو بعينه، أو السحر و هكذا.

كما يرد هذا الاحتمال- أيضا- و هو: إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى عليه السّلام و هما عصاه و يده البيضاء! و إذا قيل: ما علاقة هذا الإنكار بمشركى مكّة، فهذه الأمور متعلقة بفرعون و قومه السابقين؟

فالجواب على ذلك واضح .. و هو أن التذرع بالحجج الواهية ليس أمرا جديدا .. فجميعهم من نسيج واحد، و كلامهم يشبه كلام

السابقين تماما، و خطهم و طريقتهم و منهجهم على شاكلة واحدة.

التفسير الواضح للآية ما قلناه آنفا، إلّا أن بعض المفسّرين فسّروا الآية تفسيرا آخر و قالوا: إنّ المقصود بقوله تعالى: سِحْرانِ تَظاهَرا هو «النّبى موسى و نبى الإسلام العظيم محمّد صلّى اللّه عليه و آله» لأنّ مشركى العرب كانوا يقولون: إن كليهما ساحران ... و إنّا بكلّ كافرون.

و قد نقلوا فى هذا الصدد حادثة تاريخية، و هى أنّ أهل مكّة بعثوا جماعة منهم إلى اليهود فى بعض أعيادهم، و سألوهم عن نبى الإسلام «محمّد» صلّى اللّه عليه و آله أ هو نبىّ حقّا؟! فأجابوا: إنّهم وجدوا مكتوبا عندهم فى التوراة «بأوصافه»!. فرجع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۸

المبعوثون إلى مشركى مكّة و نقلوا لهم ما جرى بينهم و بين اليهود، فقالوا:

سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ

و لكن بملاحظة هاتين النقطتين يبدو هذا التّفسير بعيدا جدّا:

الأولى: أنّه قلّ أن يرى فى التاريخ و الرّوايات أن مشركى العرب يتهمون موسى بكونه ساحرا.

الثّانية: كيف يمكن لأحد أن يدعى أن موسى و محمّدا صلّى اللّه عليه و آله ساحران يعين أحدهما الآخر مع وجود فاصلة زمنية بينهما تقدّر بالفى عام.

ترى هل يمكن لساحر قبل آلاف السنين أن يعرف من سيأتى فى المستقبل؟! و ماذا سيقول؟! و على كل حال فإنّ مشركى مكّة المعاندين كانوا يصرّون على أنّه لم يأت النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمعاجز كمعاجز موسى، و من جهة أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه فى «التوراة» من علائمه و أوصافه و لا يؤمنون بالقرآن المجيد و آياته العظيمة ... لذا يخاطب القرآن النّبى محمّدا صلّى اللّه عليه و آله ليتحداهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن!! قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و بتعبير آخر: إنّهم كانوا يبحثون عن كتاب هداية و عن معاجز!! فأى كتاب هداية أعظم من القرآن؟! و أية معجزة أسمى منه؟! و لو لم يكن عند النّبى شىء آخر سوى القرآن لكان كافيا فى إثبات دعوته الحقة! و لكنّهم لم يكونوا طلّاب حق، بل أصحاب حجج واهية فحسب! ثمّ يضيف القرآن فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ لأنّ أى إنسان إذا لم يتبع هواه فإنّه سيذعن لهذا الاقتراح، لكن أولئك لم يكونوا على صراط مستقيم، و لذلك يرفضون كل مقترح بذريعة جديدة!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۴۹

و لكن من أضيع منهم وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

و لو كانوا طلّاب حقّ و قد أضلوا سبيلهم، فإنّ لطف اللّه سيشملهم بمقتضى الآية الكريمة وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا و لكنّهم ظالمون لأنفسهم و لمجتمعهم الذى يعيشون فيه، فلا هدف لهم سوى اللجاجة و العناد ... فكيف يهديهم اللّه و يعينهم؟!

ملاحظة

اتباع الهوى مدعاة للظلال:

فى الآيات المتقدمة بيّنت العلاقة بين الهوى و الضلال بصراحة، و قد عبّر فيها عن المتبعين هواهم بأضلّ النّاس، و أنّهم لم يحظو بهداية اللّه.

هوى النفس حجاب كبير أمام نظر العقل.

هوی النفس یشدّ الإنسان بالشیء و یجعل قلبه متعلقا به إلی درجة تفقده القدرة علی فهم الحقائق و درکها .. لأنّ التسلیم المطلق إزاء الواقعیات، و ترک التعلق بالشیء و التسرّع بالحکم، شرط لدرک الحقائق .. التسلیم دون قید أو شرط إزاء الواقع الخارجی، مرا کان أم عذبا، موافقا لرغبات النفس أم مخالفا، منسجما مع المصالح و المنافع الشخصیة أم غیر منسجم ... لکن هوی النفس لا یتفق مع هذه الأصول!.

و فی هذا المجال کان لنا بحث مسهب فی ذیل الآیة (۴۳) من سورة الفرقان.

و من الطریف هنا أنّ روایات عدیدة تفسّر الآیة بأنّ المراد منها من ترک إمامه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۰

و قائده الإلهی و اتبع هواه ۱۷۳].

و هذه الرّوایات المنقولة عن الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام و بعض الائمّة الطاهرین علیهم السّلام .. هی من قبیل المصداق البارز .. و بتعبیر آخر: إنّ الإنسان محتاج لهدایة اللّه ... هذه الهدایة تارة تنعکس فی کتاب اللّه، و اخری فی وجود النّبی و سنته، و أخری فی و أوصیائه المعصومین، و أخری فی منطق العقل.

المهم أن یکون الإنسان فی خطّ الهدایة الإلهیة غیر متبع لهواه، لیستطیع أن یستضیء بهذه الأنوار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۱

الآیات [سورة القصص (۲۸): الآیات ۵۱ الی ۵۵]

اشارة

وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ (۵۱) الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ یُؤْمِنُونَ (۵۲) وَ إِذا یُتْلی عَلَیْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا کُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِینَ (۵۳) أُولئِکَ یُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَیْنِ بِما صَبَرُوا وَ یَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّیِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ (۵۵)

سبب النّزول

نقل المفسّرون و رواة الأخبار روایات کثیره و مختلفة فی شأن نزول الآیات المتقدمة، و الجامع المشترک فیها واحد، و هو إیمان طائفة من علماء الیهود و النصاری و الأفراد الذین یتمتعون بقلوب طاهرة- بالقرآن و نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله.

فعن «سعید بن جبیر» أن هذه الآیات نزلت فی سبعین قسّا مسیحیا بعثهم النجاشی من الحبشة إلی مکّة للتحقیق و الاطلاع علی دین النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله، فلمّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۲

قرأ علیهم نبیّ الإسلام سورة «یس» دمعت عیونهم شوقا و أسلموا[۱۷۴].

و قال بعضهم: هذه الآیات نزلت فی نصاری نجران «مدینة فی شمال الیمن» جاءوا إلی النّبی فسمعوا آیات القرآن فآمنوا به ۱۷۵].

و قال آخرون: بل نزلت فی النجاشی و قومه.[۱۷۶] کما یری بعضهم أنّها نازلة فی «سلمان الفارسی» و جماعة من علماء الیهود، کعبد اللّه بن سلام و تمیم الداری و الجارود العبدی و أضرابهم ۱۷۷].

و أخیرا فإنّ بعضهم یری أنّ الآیات تشیر إلی أربعین عالما مسیحیا من ذوی الضمائر حیّة و النیرة، جاء اثنان و ثلاثون منهم مع جعفر بن أبی طالب من الحبشة، و ثمانیة آخرون من الشام، من بینهم «بحیرا» الراهب الی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فأسلموا.[۱۷۸] و بالطبع

فإنّ الرّوايات الثلاث تتناسب مع نزول الآيات فى مكّة، كما أنّها تدعم قول من يرى بأن جميع آيات هذه السورة مكية. و لكن الرواية الرابعة و الرواية الخامسة تدلّان على أن هذه الآيات الآنفة نزلت بالمدينة استثناء، كما أنّهما تدعمان قول القائلين على أنّ الآيات المتقدمة مدنية لا مكية.

و على كل حال فإن هذه الآيات «شواهد بليغة» تدل على أن جماعة من علماء أهل الكتاب أعلنوا إسلامهم حين سمعوا آيات القرآن ... لأنّه لا يمكن لنبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله أن يقول مثل هذا. و لم يكن أحد من أهل الكتاب قد آمن به بعد لأنّ المشركين كانوا ينهضون فورا و يقومون بالصياح و الضجيج لتكذيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۳

التّفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن:

حيث أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التى يقدّمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأة لقبول قول الحق و التى سمعت هذه الآيات اهتدت الإسلام و بقى أصحابها متمسكين بالإسلام أوفياء له فى حين أنّ قلوب الجاهليين المظلمة لم تتأثر بها.، يقول القرآن فى هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعا وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۱۷۹].

هذه الآيات نزلت عليهم نزول المطر المتصلة قطراته و جاءت الآيات على أشكال متنوعة، و كيفيات متفاوتة، فتارة تحمل الوعد بالثواب، و تارة الوعيد بالنّار، و أخرى الموعظة و النصيحة، و أخرى تنذر و تهدد. و أحيانا تحمل استدلالات عقلية، و أحيانا تحمل قصص الماضين و تأريخهم المليء بالعبر، و خلاصة كاملة من الأحداث المتجانسة التى يؤمن بها أى قلب فيه أقل استعداد للإيمان، حيث أنّها تجذب القلوب إليها ... إلّا أن عمى القلوب لم يذعنوا لها.

إلّا أنّ (اليهود و النصارى) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ لأنّهم يرونه منسجما مع ما ورد فى كتبهم السماوية من علامات و دلائل!.

و من الطريف هنا أنّهم كانوا جماعة من «أهل الكتاب»، إلّا أن الآيات المتقدمة تحدثت عنهم بأنّهم «أهل الكتاب» دون قيد أو تبعيض أو أى شيء آخر، و لعلها تشير إلى أنّهم أهل الكتاب حقّا، أمّا سواهم فلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۴

ثمّ يضيف القرآن فى وصفهم قائلا: وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا.

أجل: كانت تلاوة الآيات عليهم كافية لأن يقولوا «آمنا» ... ثمّ يضيف القرآن متحدثا عنهم: إنّنا مسلمون لا فى هذا اليوم فحسب، بل إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ إنّنا وجدنا علائم النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى كتبنا السماوية و تعلقت قلوبنا به، و انتظرناه بفارغ الصبر- و فى أوّل فرصة وجدنا بها ضالتنا أمسكنا بها- و قبلناه «بقلوبنا و أرواحنا».

ثمّ يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التى آمنت بالنّبى من غير تقليد أعمى، و إنّما طلبا للحق، فيقول: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا.

فمرّة لإيمانهم بكتابهم السماوىّ الذى كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه ...

و مرّة أخرى لإيمانهم بنبىّ الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله النّبى الموعود المذكور عندهم فى كتبهم السماوية.

و يحتمل- أيضا- كما هو مستفاد من الآيات المتقدمة، إنّما يؤتون أجرهم مرتين؛ لأنّهم آمنوا بنبى الإسلام قبل ظهوره، و حين ظهر لم يكفروا به بل آمنوا به كذلك.

و هؤلاء بذلوا جهدا و صبروا زمانا طويلا ليؤدوا ما عليهم من وظيفة و مسئولية ... و لم يرض بأعمالهم المنحرفون من اليهود و لا النصارى، و لم يسمح لهم تقليد السابقين و الجوّ الاجتماعى أن يتركوا دينهم و يسلموا، إلّا أنّهم وقفوا و صبروا و تجاوزوا هوى النفس و المنافع الذاتية، فنالوا ثواب اللّه و أجره مرّتين.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و «الإنفاق ممّا رزقهم اللّه» و «المرور الكريم باللغو و الجاهلين» و كذلك الصبر و الاستقامة، و هى خصال أربع ممتازة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۵

حيث يقول فى شأنهم القرآن الكريم: وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ.

يدرءون بالكلام الطيب الكلام الخبيث، و بالمعروف المنكر، و بالحلم الجهل و الجاهلين، و بالمحبّة العداوة و البغضاء، و بصلة الرحم من يقطعها، و الخلاصة أنّهم بدلا من أن يدفعوا السيئة بالسيئة فإنّهم يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ!.

و هذا أسلوب مؤثر جدّا فى مواجهة المفاسد و مبارزتها، و لا سيما فى مواجهة اللجوجين و المعاندين.

و قد أكّد القرآن الكريم على هذا الأسلوب مرارا و كرارا، و قد سبق أن بحثنا فى هذا المجال بشرح مبسّط فى ذيل الآية (۲۲) من سورة الرعد و ذيل الآية (۶۹) من «سورة المؤمنون».

و الخصلة الأخرى فى هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

و ليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم اللّه من العلم و القوى الفكرية و الجسميّة و الوجاهة الاجتماعية، و جميع هذه الأمور من مواهب اللّه و رزقه- فهم ينفقون منها فى سبيل اللّه!.

و آخر صفة ممتازة بيّنها القرآن فى شأنهم قوله: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ

و لم يردّوا الجهل بالجهل و اللغو باللغو، بل قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ

فلا تحاسبون بجريرة أعمالنا، و لا نحاسب بجرمكم و جريرة أعمالكم، و لكن ما أسرع ما سيجد كل منّا نتيجة عمله.

ثمّ يضيف القرآن فى شأنهم حين يواجهون الجاهلين الذين يتصدون لإثارة المؤمنين باللغو و ما شاكله، حيث يقولون: سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ

فلسنا أهلا للكلام البذىء، و لا أهلا للجهل و الفساد، و لا نبتغى ذلك، إنّما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۶

نبتغى العلماء و أصحاب الضمائر الحيّة و العاملين المؤمنين الصادقين.

و على هذا فبدلا من أن يهدروا قواهم فى مواجهة الجاهلين عمى القلوب و أهل الكلام البذى، يمرون عليهم كراما ليؤدوا أهدافهم و مناهجهم الأساسية.

الجدير بالذكر أنّ هؤلاء حين يواجهون الجاهلين، لا يسلّمون عليهم سلام تحية و استقبال، بل سلام وداع.

ملاحظة!

القلوب المهيّأة للإيمان:

رسمت الآيات المتقدمة للقلوب التى تقبّلت بذور الإيمان رسما جميلا و بليغا.

فهى ليست من نسيج الأشخاص الانتهازيين الذين ملئت قلوبهم من التعصب و الجهل، و الكلام البذىء السىء الفارغ، و البخل و الحقد، و ما إلى ذلك!!.

إنّ هؤلاء العظماء من الرجال و النساء حطموا قبل كلّ شىء القيود التى فرضها التقليد الأعمى، ثمّ أصغوا بكلّ دقّة إلى نداء التوحيد، و حين وجدوا الدلائل الحقة بقدر كاف استجابوا له!.

و لا شكّ أن على هؤلاء أن يدفعوا ثمنا غاليا، لأنّهم خرجوا عن طوق التقليد الأعمى و حطموا أغلاله، و تحرروا عن محيطهم المنحرف، و عليهم أن يتحملوا الكثير من المشاكل و المتاعب فى هذا السبيل و لكنّهم يتمتعون بصبر و استقامة فى سبيل هدفهم الكبير ما يعينهم على تحمل تلك الشدائد و المصاعب ..

فهؤلاء ليسوا حاقدين، و لا يردون السوء بالسوء، و لا هم بخلاء و لا خسيسون، ليجعلوا المواهب الإلهية خاصة بهم!.

إنّهم أناس عظام بعيدون عن الكذب و الانشغال غير الصحيح، و الكلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۷

الفارغ الركيك، و المزاح و غيره.

لهم ألسنة طيبة و قلوب أطيب، و لا يضيعون طاقاتهم فى الردّ على الجهلاء ..

بل فى كثير من الأحيان يفضلون السكوت على الكلام و الردّ على الجهّال!.

و يفكرون فى أعمالهم و مسئولياتهم، و يمضون كأنهم الظماء إلى النبع.

الظماء إلى العلم و المتشوّقون لحضور مجالس العلماء و الفقهاء.

أجل هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الإيمان فى نفوسهم، ليؤتوا أجرهم .. لا مرّة واحدة، بل يؤتيهم اللّه أجرهم مرّتين بما صبروا!.

هؤلاء أمثال سلمان الفارسى و النجاشى و بحيرا الراهب الذين هم فى خط واحد و فى جبهة واحدة، و الذين بذلوا جهدا و قاوموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

و من الطريف أنّنا نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام فى هذا الصدد يقول: «نحن صبر و شيعتنا أصبر منّا و ذلك أنا صبرنا على ما نعلم و صبروا على ما لا يعلمون»

تأملوا لو أن شخصين من المؤمنين توجها إلى ميدان الجهاد، أحدهما يعلم بانتهاء الأمر و أن عاقبة جهاده النصر، و الآخر لا يعلم، أ لا يكون صبر الثّانى أكثر من صبر الأول؟!.

أو نقول- مثلا- أنّ القرائن تدل على أن كلا منهما سيشرب من كأس الشهادة، لكن أحدهما يعلم ما فى شهادته من أسرار خفية و ماذا ستحرك من أمواج على مدى الأعصار و القرون المتمادية، و أنّه سيكون أسوة و قدوة للأحرار ... أمّا الثّانى فلا يعرف شيئا عن ذلك، فلا شك أن الثّانى أصبر من الأوّل فى هذا الصدد.

و فى حديث آخر ورد فى تفسير على بن ابراهيم قال: «اللغو» الكذب، «اللهو» الغناء، و المعرضون عن اللغو و «المتقون» هم الأئمّة عليهم السّلام يعرضون عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۸

ذلك كلّه ۱۸۰].

و واضح أنّ الحديثين من قبيل المصداق البارز، و إلّا فإنّ مفهوم «اللغو» أوسع و يشمل غير ما ذكرنا، و «المعرضون عن اللغو» أيضا هم

جميع المؤمنين الصادقين، و إن كان الأئمّة عليهم السّلام فى طليعتهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۵۹

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۶ الى ۵۷]

اشارة

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶) وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۵۷)

التّفسير

الهداية بيد اللّه وحده! ..

بالرغم من أن بحوثا كثيرة و روايات وردت فى الآية الأولى من هاتين الآيتين المتقدمتين و شأن نزولها، إلّا أنّها- كما سنرى- روايات غير معتبرة و لا قيمة لها، حتى كأنّها رويت لأغراض و مقاصد خاصّة، و لذلك رأينا أن نفسّر الآية من القرآن نفسه ثمّ نعالج الرّوايات المشكوكة أو المجعولة.

و مع الالتفات إلى أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من مشركى أهل مكّة المعاندين، كان رسول صلّى اللّه عليه و آله شديد الإصرار على هدايتهم، لكنّهم لم يهتدوا و لم يذعنوا لنور الإيمان. و طائفة من أهل الكتاب و الأفراد البعيدين عن مكّة، تلقوا هداية اللّه برحابة صدر و بعشق وضحوا فى سبيل الإسلام، و آثروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۰

على أنفسهم مصلحة الإسلام، و لم يكترثوا بعناد قومهم الجاهلين الأنانيين، و لم يستوحشوا من الضغوط و العزلة و ما إلى ذلك!.

فمع الالتفات إلى كل هذه الأمور، نلاحظ أن الآية الأولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

فاللّه يعلم من هم الجديرون بالإيمان .. و أيّة قلوب تطلب الحقّ و هو يعرف العاشقين له.

أجل، هو يعرف هؤلاء و يوفقهم بلطفه ليسيروا نحو الإيمان.

أمّا الذين أظلمت قلوبهم و ساءت سيرتهم و عادوا الحق فى الخفاء و نهضوا بكل ما عندهم من قوة بوجه رسل اللّه، و قد تلوثت قلوبهم فى حياتهم إلى درجة لم يكونوا جديرين بنور الإيمان فاللّه سبحانه لا يضع مصباح التوفيق فى طريقهم أبدا.

إذن، و بناء على ما تقدم، ليس المقصود من الهداية «إراءة الطريق»، لأنّ إراءة الطريق هى من وظيفة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و تشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب و الهدف»، و الإيصال إلى المطلوب و إلى الهدف هو بيد اللّه وحده، الذى يغرس الإيمان فى القلوب، و ليس هذا العمل اعتباطا و دون حساب، فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأة و المستعدة ليهبها نور السماء! و على كل حال، فإنّ هذه الآية بمثابة التسلية و التثبيت لقلب النّبى ليطمئن إلى هذه الحقيقة، و هى إنّه لا إصرار المشركين و عنادهم و إن كانوا من أهل مكّة، و لا إيمان أهل الحبشة و نجران و غيرهما أمثال سلمان الفارسى و بحيرا الراهب من دون دليل و سبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفة الأولى، فإن اللّه يقذف نوره فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۱

القلوب المهيأة للنور و يبسط عليها خيمته!.

و نظير هذا المضمون كثير فى آيات القرآن!.

إذ نقرأ فى الآية (۲۷۲) من سورة البقرة قوله تعالى: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ.

و فى الآية (۳۷) من سورة النمل إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ يُضِلُ

و فى الآية (۴۳) من سورة يونس أَ فَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ

كما نقرأ أيضا فى الآية (۴) من سورة إبراهيم ما هو بمثابة القانون العام فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فالآية الأخيرة تدلّ دلالة واضحة على أن المشيئة الإلهية فى شأن هاتين الطائفتين «جماعة الهدى و جماعة الضلال» ليست دون حساب، بل هى طبقا للجدارة و اللياقة و سعى الأفراد أنفسهم ... فاللّه يهب توفيقه على هذا الأساس، و يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، و يسلب الهدى ممن يشاء فيضلون السبيل.

و فى الآية الثّانية- من الآيتين محل البحث- يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام فى واقعهم و أيقنت به قلوبهم، إلّا أنّهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصية و ملاحظات ذاتية، حيث يقول: وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا[۱۸۱].

ورد فى كتب التّفسير أن الذى قال: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ إلخ .. هو «الحارث بن نوفل»، حيث قال للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: إنّنا نعرف أن ما تقوله حق، لكن الذى يمنعنا من اتباعك و الإيمان بك، خوفنا من هجوم العرب علينا ليطردونا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۲

أرضنا، و لا طاقة لنا على ردّهم ۱۸۲].

هذا الكلام لا يقوله إلّا من يستضعف قدرة اللّه و يرى أن قدرة حفنة من العرب الجاهليين عظيمة!! و هذا الكلام لا يصدر إلّا من قلب لا يعرف عناية اللّه و حمايته، و لا يعرف كيف ينصر اللّه أولياءه و يخذل أعداءه، لذلك يقول القرآن ردّا على مثل هذه المزاعم أ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ[۱۸۳] ... وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

اللّه الذى جعل هذه الأرض المالحة و المليئة بالصخور و الخالية من الأشجار و الأنهار، جعلها حرما تهفوا إليه القلوب، و يؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهرة.

فإنّ من له هذه القدرة على اقرار «الأمن» و جباية «النعم» إلى هذا المكان و هؤلاء يرون ذلك بأعينهم، كيف لا يكون قادرا على أن يحفظكم من هجوم حفنة من الجاهليين عبّاد الأوثان؟! فقد كنتم فى زمان الكفر مشمولين بنعمتى اللّه العظيمتين «الأمن و المواهب المعاشية» فكيف يمكن أن يحرمكم اللّه منهما بعد الإسلام؟! لتكن قلوبكم قوية و آمنوا بما انزل إليكم فإنّ ربّ الكعبة و ربّ مكّة معكم.

هنا، ينقدح هذا السؤال، و هو: إن التأريخ يدل على أن حرم مكّة لم يكن آمنا للمسلمين للغاية، أ لم تعذب طائفة من المسلمين فى مكّة؟ أ لم يرموا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالأحجار الكثيرة؟! أ لم يقتل بعض المسلمين فى مكّة؟! أ لم يهاجر جماعة من المسلمين من مكّة مع جعفر بن أبى طالب رضى اللّه عنه و جماعة آخرون مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله آخر الأمر لعدم الأمن فى مكّة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۳

فنقول جوابا على ذلك:

أوّلا: مع جميع هذه الأمور ما تزال مكّة أكثر أمنا من النقاط الأخرى .. و كان العرب يحترمونها و يقدسونها، و بالرغم من أنّهم كانوا يقدمون على جرائم متعددة فى أماكن أخرى، إلّا أنّهم كانوا يحجمون عن الإتيان بمثلها فى مكّة.

و الخلاصة: فمع عدم الأمن العام و الكلى كانت مكّة تتمتع بالأمن النسبى و لا سيما أن الأعراب خارجها كانوا يراعون أمنها و

قداستها.

ثانيا: صحيح أن هذه الأرض التى جعلها اللّه حرما آمنا أضحت لفترة وجيزة غير آمنة على أيدى جماعة ... إلّا أنّها سرعان ما تحولت إلى مركز كبير للأمن و تواتر النعم الكثيرة المتعددة، فعلى هذا لم يكن تحمل هذه الصعاب المؤقتة من أجل الوصول للنعم العظيمة، أمرا عسيرا و معقدا.

و على كل حال، فإنّ كثيرا ممن يقلقون على منافعهم الشخصية، كالحارث بن نوفل، لا يسلكون سبيل الهداية و الإيمان ... فى حين أنّ الإيمان باللّه و التسليم لأمره، لا يؤمن المنافع المعنوية لهم فحسب، بل يؤمن لهم المحيط الصحيح و المنافع المادية المشروعة و ما إلى ذلك. و عدم الأمن و الغارات و الحروب التى نجدها فى عصر التمدن- كما يصطلح عليه- و فى الدنيا البعيدة عن الإيمان و الهداية، كل هذه الأمور شاهد حى على هذا المدّعى!.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطة الأساسية، و هى أنّ اللّه سبحانه أوّل ما يذكر من نعمه نعمة الأمن، ثمّ يذكر جلب الثمرات و الأرزاق و غير ذلك من جميع الأنحاء إلى مكّة، و يمكن أن يكون هذا التعبير مبيّنا هذا الواقع، و هو: طالما كان الأمن حاكما فى بلد كان اقتصاده جيدا، و إلّا فلا، «قد بيّنا هذا الأمر فى بحثنا للآية ۳۵ سورة إبراهيم».

كما أنّ الجدير بالذكر أنّ «يجبى» جاءت على صيغة الفعل المضارع الذى يدل على الاستمرار فى الحال و الاستقبال، و نحن اليوم و بعد مرور أربعة عشر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۴

قرنا، نرى بأم أعيننا مفهوم هذا الكلام و استمرار جباية جميع أنواع المواهب إلى هذه الأرض المباركة، فالذين يحجّون مكّة و يزورون بيت اللّه الحرام، يرون بأعينهم هذه الأرض الجرداء الحارة التى لا تنبت شيئا، كم فيها من النعم! فكأن مكّة غارقة بها، و لعل أية نقطة من العالم ليس فيها ما فى مكّة من هذه النعم الوفيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۲۶۴

ملاحظة

إيمان أبى طالب و الضجيج حوله:

هذا الموضوع يبدو عجيبا لمن كان من أهل البحث و المطالعة .. فكيف يصرّ جماعة من رواة الأخبار على أن يزعموا أنّ أبا طالب عليه السّلام عم النّبى كان مشركا و غير مؤمن و أنّه مات كافرا!! و هو بإجماع المسلمين كان من الذين بذلوا تضحيات منقطعة النظير، و حمى نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و ضحّى من أجله؟! و لم لا يكون هذا الإصرار بالنسبة للآخرين الذين لا حظّ لهم فى تأريخ الإسلام؟! هنا نعرف أنّ المسألة ليست مسألة عادية .. ثمّ بأقل ملاحظة و تدقيق نصل إلى هذه النتيجة، و هى أنّ وراء هذه البحوث التاريخية و الروائية لعبة سياسيّة خطيرة من أعداء على عليه السّلام و مناوئيه! فقد كانوا يصرّون على سلب كل فضيلة له، حتى جعلوا أباه المضحّى و الفادى للنبى و المؤثر له على نفسه يموت كافرا بزعمهم!!.

و من المؤكّد أنّ بنى أمية و مريديهم فى عصرهم، و قبل أن يصلوا إلى دفة الحكومة، سعوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا لإثبات مدعاهم بالشواهد و الحجج الواهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۵

و نحن بقطع النظر عن هذه الأمواج السياسية المنحرفة و الملوثة، التى هى بنفسها تستحق المطالعة من جهات متعددة ... نبحث المسألة على أساس أنّها مسألة بنفسها تستحق المطالعة من جهات متعددة ... نبحث المسألة على أساس أنّها مسألة تأريخية و تفسيرية بحتة، بشكل موجز و مضغوط (كما يقتضيه وضع الكتاب) ليتّضح أن ليس وراء هذا الضجيج أى سند معتبر، بل هناك شواهد حيّة ضده!.

۱- إن الآية محل البحث إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ليس لها علاقة بأبى طالب كما بيّنا، و قلنا: إن الآيات التى جاءت قبلها تدل بصورة واضحة أنّها فى شأن جماعة من أهل الكتاب المؤمنين، فى مقابل مشركى مكّة.

الطريف أن الرازى الذى يزعم أن الآية نزلت فى أبى طالب عليه السّلام بإجماع المسلمين!! يصرّح بأن الآية ليس فيها أقل دلالة على كفر أبى طالب ۱۸۴].

و لكن مع هذه الحال فلما ذا يصرون فيها على أن يكون أبو طالب عليه السّلام مشركا؟ فهذه مسألة غريبة و مدعاة للدهشة! ..

۲- و أهم دليل لديهم فى هذا المجال أنّهم ادعوا إجماع المسلمين على أن أبا طالب مات مشركا!.

فى حين أن مثل هذا الإجماع كذب محض لا أساس له، و هو عار عن الصحة.

فالمفسّر المعروف «الآلوسى»- و هو من علماء السنة- صرح فى تفسير روح المعانى أنّ هذه المسألة ليست إجماعية، و حكاية الإجماع من قبل المسلمين أو المفسّرين على أنّ الآية المتقدمة نزلت فى أبى طالب تبدو غير صحيحة ... لأنّ علماء الشيعة و جمع كثير من المفسّرين يعتقدون بإسلام أبى طالب، و ادّعى أئمّة أهل البيت عليهم السّلام الإجماع على ذلك، إضافة إلى أن أكثر قصائد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۶

أبى طالب تشهد على إيمانه ۱۸۵].

۳- التدقيق و البحث يدل على أن هذا الإجماع المزعوم هو من قبل أخبار الآحاد الذين لا اعتبار لهم، و فى سند هذه الروايات أفراد مشكوك فيهم كذابون.

و من هذه الرّوايات ما نقله ابن «مردويه» بسنده عن ابن عباس أن آية إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ نزلت فى شأن أبى طالب، و قد أصرّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عليه أن يؤمن فلم يؤمن ۱۸۶].

فى حين أنّ فى سند هذه الرواية «أبو سهل السرى» الذى عرف بين كبار أصحاب علم الرجال بأنّه من الكذابين الوضّاع السارقين للحديث. كما أنّ فى سند هذه الرّواية «عبد القدوس أبو سعيد الدمشقى» و هو من الكذابين أيضا[۱۸۷].

و ظاهر تعبير الحديث يدل على أن ابن عباس ينقل هذا الحديث من غير واسطة و كان شاهدا على ذلك، فى حين أنّنا نعرف أن ابن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، فعلى هذا كان لا يزال رضيعا عند ما مات أبو طالب عليه السّلام ... و من هنا نستنتج أنّ واضعى الحديث حتى فى هذا العمل كانوا مبتدئين و ناشئين!!.

و هناك حديث آخر فى هذا المجال

ينقله «أبو هريرة» إذ يقول: حين دنت وفاة أبى طالب قال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله: يا عم قل: لا إله إلّا اللّه، لأشهد لك يوم القيامة عند اللّه بالتوحيد، فقال أبو طالب: لو لا- أن قريشا تقول إن أبا طالب أظهر الإيمان حال الموت خوفا، لكنت أشهد بالتوحيد و أقرّ عينيك، فنزل قوله تعالى: إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ۱۸۸].

و يبدو من ظاهر هذا الحديث أن أبا هريرة كان شاهدا على هذه القضية، فى حين أنّنا نعرف أن أبا هريرة أسلم سنة فتح خيبر، بعد الهجرة بسبع سنين، فأين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۷

أبو هريرة من وفاة أبى طالب التى حدثت قبل الهجرة ...؟!! و إذا قيل أن ابن عباس و أبا هريرة لم يكونا شاهدين على هذه القضية، و سمعا هذه القصّة من شخص آخر فإننا نسأل من هو هذا الشخص؟! فالذى نقل هذا الحديث لهذين الشخصين- إذا- مجهول، و مثل

هذا الحديث يعرف عند أهل الحديث بالمرسل، و الجميع يعلمون بأن لا اعتبار للمراسيل! و من المؤسف أنّ جماعة من رواة الأخبار و المفسّرين نقلوا هذا الحديث بعضهم عن بعض دون تدقيق فى كتبهم، و شيئا فشيئا كوّنوا إجماعا لهذا الحديث! و لكن أىّ إجماع هذا؟ أم أى حديث معتبر!؟! ۴- و بعد هذا كلّه، فإنّ متن هذه الأحاديث الموضوعة يدل على أن أبا طالب عليه السّلام كان مؤمنا بحقانية النّبى، غاية ما فى الأمر لم يجر ذلك على لسانه لملاحظات خاصة ... و نحن نعرف أن الإيمان هو بالقلب، و أمّا اللسان فهو طريق القلب، و فى بعض الأحاديث الإسلامية شبه أبو طالب بأصحاب الكهف الذين كانوا مؤمنين و إن لم يقدروا على إظهار الإيمان على ألسنتهم ۱۸۹].

۵- ثمّ هل يمكن القناعة برواية مرسلة عن أبى هريرة أو ابن عباس فى مثل هذه المسألة المهمة، فلم لا يؤخذ بإجماع أئمة أهل البيت عليهم السّلام و إجماع علماء الشيعة، و هم أعرف بحال أسرة النّبى و أهله!! إنّنا اليوم نحتفظ بأشعار كثيرة لأبى طالب توضح إيمانه بالإسلام و رسالة النّبى (محمّد) صلّى اللّه عليه و آله، و قد نقل هذه الأشعار طائفة من العلماء و الأفاضل فى كتبهم (و قد نقلنا طائفة منها فى ذيل الآية ۲۶ من سورة الأنعام من مصادر سنية معروفة)!.

۶- و مع غض النظر عن جميع ما تقدم، فإنّ تأريخ حياة أبى طالب و تضحياته العظيمة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و علاقة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين الشديدة به إلى درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۸

أنّ النّبى سمى عام وفاته ب «عام الحزن» كل ذلك يدل على أنّه كان يعشق الإسلام، و لم يكن دفاعه عن النّبى على أنّه أحد أرحامه، بل دفاع رجل مؤمن مخلص و عاشق نظيف و جندى مضحّ عن قائده و إمامه .. فمع هذه الحالة، كم يبلغ الجهل و الغفلة و الظلم و عدم الشكر بطائفة أن تصرّ على أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحّد مات مشركا[۱۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۶۹

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۵۸ الى ۶۰]

اشارة

وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (۵۸) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (۵۹) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۶۰)

التّفسير

لا تخدعنكم علائق الدنيا:

كان الحديث فى الآيات المتقدمة يدور حول ما يدعيه أهل مكّة، و قولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، و تتكدر حياتنا و يختل وضعنا المعاشى و الاقتصادى .. و قد أجابت الآيات السابقة على هذا الكلام بردّ بليغ.

و فى هذه الآيات مورد البحث ردّان آخران على كلامهم:

الأوّل: يقول .. على فرض أنّكم لم تؤمنوا، و حييتم فى ظل الشرك مرفهين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۰

ماديّا، و لكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياة من قبلكم ف كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها.

أجل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، و البطر أساس الظلم، و الظلم يجرّ حياتهم إلى النّار ... فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا.

بلى ... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها و لم يسكنها أحد إلّا لفترة قليلة وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ

فيا مشركى مكّة ... أ تريدون أن تعيشوا حياة البطر و الكفر كما عاشه أولئك، و تكون عاقبتكم كعاقبتهم، فأى نفع فى ذلك؟! كلمة «بطرت» مشتقّة من «بطر» على زنة «بشر» و معناه الطغيان و الغرور على أثر وفرة النعم.

و التعبير ب «تلك» التى هى اسم إشارة للبعيد، و تستعمل غالبا للأمور التى يمكن مشاهدتها، و يحتمل أن يكون المقصود بها أرض «عاد و ثمود و قوم لوط» التى لا تبعد كثيرا عن أهل مكّة، و هى فى أرض الأحقاف بين اليمن و الشام، أو فى وادى القرى، أو فى أرض سدوم، و جميع هذه المناطق فى مسير قوافل التجار العرب الذين كانوا يمضون من مكّة إلى الشام، و كانوا يرون تلك البيوت بأم أعينهم خالية خاوية لم تسكن إلّا قليلا.

و جملة إِلَّا قَلِيلًا التى جاءت بصيغة الاستثناء، فيها ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: أن الاستثناء عن الساكنين.

و الاحتمال الثّانى: أنّه عن المساكن.

و الاحتمال الثّالث: أنّه عن السكن.

ففى الصورة الأولى يكون مفهومها أن جماعة قليلة سكنتها «أى سكنت تلك المساكن».

و فى الصورة الثّانية يكون مفهومها أن فترة قليلة كان بها السكن فى هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۱

«المساكن» لأنّ من يسكن فى هذه المساكن المشؤومة سرعان ما تنطوى فيها صفحة حياته.

و بالطبع فإنّ إرادة المعانى الثلاثة من النصّ السابق لا يوجد لنا أى مشكلة، و إن كان المفهوم الأوّل أظهر.

كما أن بعض المفسّرين قال: إنّ المقصود من هذه الآية هو الإشارة إلى السكن المؤقت للمسافرين الذاهبين و الآئبين حيث يستريحون فيها لا أكثر، و فسرها آخرون بأنّها إشارة لسكن الحيوانات الوحشية.

و القدر المسلم به أن هذه المساكن التى كانت ملوّثة بالإثم و الشرك أصبحت غير صالحة للسكن فهى خاوية و خالية! و التعبير ب وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ إشارة إلى خلّوها من الساكنين، كما هى إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقى هو اللّه سبحانه المالك لكل شىء، و إذا ما أعطى ملكا «اعتباريا» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلا حتى يرثه اللّه أيضا.

و الآية الثّانية فى الحقيقة جواب عن سؤال مقدر، و هو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك اللّه الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكّة و الحجاز، الذين بلغوا حدّا عظيما من الطغيان، و لم يكن إثم و لا جهل إلّا و ارتكبوه، و لم لم يعذبهم اللّه بعذابه الأليم؟

يقول القرآن فى هذا الصدد وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا.

أجل .. لا يعذب اللّه قوما حتى يتمّ عليهم حجّته و يرسل إليهم رسله، و حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ اللّه لا يعذبهم، و هو يراقب أعمالهم، وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلَّا وَ أَهْلُها ظالِمُونَ

و التعبير ب ما كُنَّا أو وَ ما كانَ رَبُّكَ دليل على أن سنة اللّه الدائمة و الأبدية التى كانت و لا زالت، هى أن لا يعذب أحدا إلّا بعد إتمام الحجة الكافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۲

و التعبير ب حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا إشارة إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن، بل يكفى أن يبعث فى مركز كبير من

مراكزها التى تنشر العلوم و الأخبار رسولا- يبلغهم رسالاته! لأنّ أهل تلك المناطق فى ذهاب و إياب مستمر إلى المركز الرئيسى، لحاجتهم الماسة، و ما أسرع أن ينتشر الخبر الذى يقع فى المركز إلى بقية الأنحاء القريبة و البعيدة، كما انتشرت أصداء بعثة النّبى صلّى اللّه عليه و آله التى كانت فى مكّة- و بلغت جميع أنحاء الجزيرة العربية فى فترة قصيرة! لأنّ مكّة كانت أم القرى، و كانت مركزا روحانيا فى الحجاز، كما كانت مركزا تجاريا أيضا .. فانتشرت أخبار النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و وصلت جميع المراكز المهمّة فى ذلك الحين و فى فترة قصيرة جدّا.

فعلى هذا تبيّن الآية حكما كليا و عامّا، و ما يدّعيه بعض المفسّرين من أنّها إشارة إلى «مكّة» لا دليل عليه، و التعبير ب فِي أُمِّها هو تعبير عام كلى أيضا ..

لأنّ كلمة «أم» تعنى المركز الأصلى، و لا يختص هذا بمكّة فحسب ۱۹۱].

و أخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثّالث على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا و يبعدنا العرب من ديارنا، و هو قوله تعالى: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى ممّا عندكم من النعيم الفانى .. إذ أنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار و المشاكل المختلفة، و لس من نعمة مادية خالية من الضرر و الخطر أبدا.

إضافة إلى ذلك فإنّ النعم التى عند اللّه «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم اللّه- إذن- خير و أبقى!.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنّه لا ينبغى أن يضحى بنعم الآخرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۳

من أجل نعم الدنيا، و لذلك تختتم الآية بالقول: أَ فَلا تَعْقِلُونَ .

يقول «الفخر الرازى» نقلا- عن أحد الفقهاء أنّه قال: لو أوصى أحد بثلث ماله إلى أعقل الناس، فإنى أفتى أن يعطى هذا المال لمن يطيع أمر اللّه، لأن أعقل الناس من يعطى المتاع القليل، (الفانى) ليأخذ الكثير (الباقى) و لا يصدق هذا، إلّا فى من يطيع اللّه.

ثمّ يضيف الفخر الرازى .. قائلا: فكأنّما استفاد هذا الحكم من الآية محل البحث ۱۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۴

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۶۱ الى ۶۴]

اشارة

أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۶۱) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۶۲) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (۶۳) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (۶۴)

التّفسير

أنّهم عبدة الهوى:

كان الحديث فى الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصيّة- و رجّحوا الشرك على التوحيد، و فى الآيات التى بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين.

ففى بداية هذه الآيات يلقى القرآن سؤالا يقارن فيه بين المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۵

و الكافرين، و يثير الوجدان و يجعله حكما فيقول: أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

و لا شك أن وجدان يقظ يرجّح وعود اللّه و مواهبه العظيمة الخالدة، على نعم الدنيا التى لا تطول إلّا أيّاما و تتبعها آلام و شقاء خالد؟! جملة فَهُوَ لاقِيهِ تأكيد على أن وعد اللّه لا يتخلف أبدا و لا بدّ أن يكون كذلك، لأنّ تخلف الوعد إمّا ناشئ عن الجهل أو العجز، و كلاهما مستحيل على ذات اللّه المقدسة.

و جملة هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ إشارة إلى الإحضار فى محضر اللّه يوم القيامة للحساب، و فسرها البعض بالإحضار فى نار جهنّم، و لكن التّفسير الأوّل أنسب كما يبدو، و على كل حال فإنّ هذا التعبير يدل بصورة واضحة على أنّ المجرمين يساقون مكرهين، و على غير رغبة منهم إلى تلك العرصات المخوفة، و ينبغى أن يكون الأمر كذلك ... لأنّ وحشة الحساب و القضاء يوم القيامة و مشاهدها تغمر وجودهم هناك!.

و التعبير ب الْحَياةِ الدُّنْيا التى تكررت فى سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الأخرى و الخلود فيها و عدم الزوال و الاضمحلال، لأنّ كلمة «دنيا» فى الأصل مأخوذة من «دنو» على زنة «غلو» و معناها القرب فى المكان أو الزمان أو المنزلة و المقام، ثمّ توسّع هذا المفهوم ليطلق بلفظ «دنيا أو أدنى» على الموجودات الصغيرة التى تحت اليد فى مقابل الموجودات الكبيرة، و قد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التى لا قيمة لها فى مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، و ربّما استعمل فى القرب فى مقابل البعد.

و حيث أن هذه «الحياة» فى مقابل العالم الآخر صغيرة و لا قيمة لها و قريبة أيضا، فإنّ تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۶

بعد هذا، يأتى الكلام عن عرصات يوم القيامة و مشاهدها ليجسّده أمام الكفار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

و بديهى أنّ هذا السؤال سؤال توبيخ و إهانة، لأنّ يوم القيامة يوم كشف الحجب و الأستار، فلا مفهوم للشرك، و لا المشركون فى ذلك اليوم باقون على عقيدتهم و «شركهم».

فهذا السؤال فى الحقيقة فيه نوع من الإهانة و التوبيخ و العقوبة! و لكنّهم بدلا من أن يجيبوا بأنفسهم، فإنّ معبوديهم هم الذين يردّون الجواب، و يتبرءون منهم، و يتنفرون من عبادة المشركين إيّاهم.

و نعرف أن معبودات المشركين و آلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن يكونوا أصناما «و أحجارا و خشبا» أو من المقدسين كالملائكة و المسيح، و إمّا أن يكونوا من الشياطين و الجنّ. فالذين يردّون على السؤال و يجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ

فعلى هذا تكون الآية السابقة شبيهة بالآية (۲۸) من سورة يونس إذ تقول:

وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ

فعلى هذا يرد المعبودون الغواة على عبدتهم و يتبرءون منهم، كما يبرأ فرعون و نمرود و الشياطين و الجن من عبدتهم و قومهم و يتنفرون منهم، و يدافعون عن أنفسهم، حتى أنّهم ينسبون الضلالة لمن تبعهم و يقولون: إنّهم تبعونا طوعا ... إلخ.

و لكن- من البديهى- ليس لهذا النفى أثر، و لا تنفع البراءة منهم، فالعابد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۷

و المعبود معا شريكان «فى النّار»[۱۹۳].

الطريف الذى يستلفت النظر، هو أنّ كل واحد من المنحرفين يتبرأ فى ذلك اليوم من الآخر و كل يسعى لأن يلقى تبعة ذنبه على صاحبه.

و هذا يشبه تماما ما قد نراه فى هذه «الدنيا» من اجتماع رهط على أمر ما حتى إذا وقعوا فى مخالفة القانون، و ألقى القبض عليهم، و أحضروا إلى المحكمة، يتبرأ كلّ واحد من الآخر و يلقى بعضهم الجريمة على صاحبه، فهكذا هى عاقبة المنحرفين و الضالين فى الدنيا و الآخرة! كما نجد مثل هذا فى الآية (۲۲) من سورة إبراهيم وَ قالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَ ما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ

و نقرأ فى الآية (۳۰) من سورة الصافات فى شأن المشركين الذين يتحاجون فى يوم القيامة مع أتباعهم فيقولون: وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ

و على كل حال، فتعقيبا على السؤال عن آلهتهم. و عجز المشركين عن الجواب. يطلب أن يدعوهم لنصرتهم وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ [۱۹۴].

و حيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع، و أن المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئا من شدّة الهلع و الوحشة، أو استجابة لأمر اللّه الذى يريد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۸

أن يفضح المشركين و الشركاء أمام أعين الخلق، يتوجهون إلى الشركاء و يدعونهم كما يقول القرآن الكريم: فَدَعَوْهُمْ

و من الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء و الطلب، و لا يقال لهم «لبيك» .. فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ

فحينئذ لا ينفعهم شىء وَ رَأَوُا الْعَذابَ

و يتمنون لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ!.[۱۹۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

اشارة

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (۶۵) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (۶۶) فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (۶۷) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۸) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (۶۹)

وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۷۰)

التّفسير

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان فى الآيات السابقة فى شأن المشركين و ما يسألون يوم القيامة.

فبعد أن يسألوا عن شركائهم و معبوديهم، يسألون عن مواقفهم و ما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ

و من المسلم به أنّ هؤلاء «المشركين» لا يملكون جوابا لهذا السؤال، كما لم يملكوا للسؤال السابق جوابا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۰

ترى: أ يقولون بأنّنا لبيّنا دعوة المرسلين؟ فهذا كذب محض! و الكاذب خاسر فى ذلك اليوم، أم يقولون بأنّنا كذّبناهم، و اتهمناهم، و قلنا لهم بأنّكم سحرة و مجانين و حاربناهم و قتلناهم مع اتباعهم؟ ...

ما عسى أن يقولوا هناك؟! فكلّ ما يقولون كاشف عن فضيحتهم و شقائهم!.

حتى أنّ الأنبياء و المرسلين فى ذلك اليوم يجيبون ربّهم حين يسألون ما ذا أُجِبْتُمْ قالُوا لا عِلْمَ لَنا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ [۱۹۶] ما الذى يقوله فى ذلك اليوم و فى ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟! لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ أى يسأل بعضهم بعضا و لا يعرفون جوابا!.

و الذى يستلفت النظر أن العمى نسب فى الآية للأنباء لا للمشركين فلا يقول عمى المشركون هناك بل يقول: «عميت عليهم الأنباء» .. لأنّه كثيرا ما يحدث أن يكون الإنسان غير عالم بالخبر، لكنّه يصله بانتشاره على أفواه الناس، كما يتفق لنا أن نكون جاهلين بالشىء أحيانا فنعرف به حين ينتشر بين المجتمع، لكن فى يوم القيامة، لا الناس مطّلعون، و لا الأخبار تنتشر!.

فعلى هذا تعمى الأخبار، فلا يملكون جوابا هناك على قوله تعالى: ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ فيحيط بهم الصمت من قرنهم إلى أقدامهم.

و حيث أنّ أسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين و الآثمين دائما، لعلهم يتوبون و يرجعون إلى الحق فى أى مرحلة كانوا من الإثم، فإنّه يضيف فى الآية التى بعدها: فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ

فسبيل النجاة- حسب ما يوضحه القرآن- يتلخّص فى ثلاث جمل هى العودة و التوبة إلى اللّه، و الإيمان، و العمل الصالح، و عاقبتهما النجاة و الفلاح حتما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۱

و التعبير بعسى «من أفعال الرجاء» مع أن الذى آمن و عمل صالحا فهو من أهل الفلاح حتما- ربّما كان لأنّ الإيمان و العمل الصالح مشروطان بالبقاء و الدوام عليهما، و حيث أن التائبين لا يبقى جميعهم على التوبة، بل قد يعود بعضهم لعمله السابق، عبر القرآن بقول: فَعَسى .. إلخ.

قال بعض المفسّرين: التعبير ب «عسى» حين يكون من شخص كريم، فإنّه يدل على المفهوم القطعى، و اللّه سبحانه أكرم الأكرمين.

و الآية التى بعدها فى الحقيقة دليل على نفى الشرك و بطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ[۱۹۷].

فالخلق بيده، و التدبير و الإختيار بيده أيضا، و هو ذو الإرادة، و ليس لأحد سواه أن يفعل ما يشاء، فكيف بالأصنام؟! فاختيار الخلق بيده، و الشفاعة بيده، و إرسال الرسل بيده أيضا. و الخلاصة أنّ اختيار كل شىء متعلق بمشيئته و إرادته المقدسة، فعلى هذا لا يمكن للأصنام أن تعمل شيئا، و لا حتى الملائكة و الأنبياء، إلّا أن يأذن اللّه لمن يشاء و يرضى! و على كل حال فإطلاق الإختيار دليل على عموميته .. بمعنى أن اللّه سبحانه صاحب الإختيار فى الأمور التكوينية و الأمور التشريعية أيضا .. فجميعها يتعلقان به.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك و يتجهون نحو غير اللّه؟

لذلك فإنّ الآية تنزه اللّه عن الشرك و تقول: سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

و فى الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام فسرت الآية المتقدمة باختيار الأئمّة المعصومين من قبل اللّه سبحانه- و جملة ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ أيضا وردت فى هذا المعنى، و هى فى الواقع من قبيل بيان المصداق الواضح، لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۲

مسألة حفظ الدين و المذهب و اختيار القائد المعصوم لأجل هذا الهدف، لا تكون إلّا من قبل اللّه تعالى ۱۹۸].

أمّا الآية التى بعدها فتتحدث عن علم اللّه الواسع، و هى فى الحقيقة تأكيد أو دليل على الإختيار الواسع فى الآية السابقة، إذ تقول هذه

الآية: وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي- ضمنا- تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن اللّه غير مطلع على سرائرهم و نيّاتهم و «مؤامراتهم».

و الآية الأخيرة من هذا المقطع- هي نتيجة الحكم، و توضيح للآيات السابقة في مجال نفي الشرك، و هي ذات أربعة أوصاف من أوصاف اللّه، و جميعها فرع على خالقيته و اختياره.

فالأول: أنّه هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

فكيف يمكن أن يكون معبود آخر سواه، و هو الخالق وحده و جميع الإختيارات بأمره و بيده. فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند اللّه فهو من المضلين الخاطئين.

و الثّاني: أن جميع النعم دنيوية كانت أم أخروية هي منه، و هي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ.

الثّالث: أنّه وَ لَهُ الْحُكْمُ فهو الحاكم في هذا العالم، و في العالم الآخر.

و الرّابع: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ للحساب و الثواب و العقاب.

فاللّه الخالق، و هو المطّلع، و هو الحاكم يوم الجزاء، و بيده الحساب و الثواب و العقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۱ الى ۷۵]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (۷۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۷۲) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۷۳) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (۷۴) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۷۵)

التّفسير

نعمتا «الليل و النهار» العظيمتان:

هذه الآيات- محل البحث- تتحدث عن قسم كبير من مواهب اللّه سبحانه، التي تدل على التوحيد و نفي الشرك من جهة، كما أنّها تكمّل البحث السابق ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۴

و تذكر مثلا للنعم التي تستوجب الحمد و الثناء .. الحمد المشار إليه في الآيات المتقدمة، كما هي في الوقت ذاته شاهد على اختيار اللّه و تدبيره في نظام الخلق من جهة أخرى!.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمة النهار و النور الذي هو أساس لأية حركة، فتقول الآية: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ ۱۹۹].

هنا عبر عن النهار بالضياء، لأنّ الهدف الأصلى من النهار هو الضياء و الانبلاج، ذلك الضياء الذى تتعلق به حياة كل الموجودات الحية، فلولا ضياء الشمس لما تنسمت «زهرة» و لا نمت «شجرة» و لا طار «طائر» و لا بقى «إنسان» و لا هطل مطر.

«السرمد» معناه الدائم المتواصل، و يرى البعض بأنه المتتابع، و أصله «سرد» و يرون أن ميمها زائدة .. لكن الظاهر أنّها كلمة مستقلة تعطى معنى الدوام و الاستمرار.[۲۰۰] كما تتحدث الآية الأخرى عن نعمة الظلمة فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ

أمّا الآية الثّالثة فتحكى عن نتيجة النعمة المشار إليها فى الآيتين السابقتين فيقول وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل، إنّ سعة رحمة اللّه تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم، فأنتم-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۵

من جانب- بحاجة إلى السعى و الحركة، و كل ذلك لا بدّ لهما من الليل! لقد ثبت- فى هذا العصر- علميّا أن جميع أجهزة البدن تكون فعالة و نشطة مع وجود النور، إذ تنشط الحركة الدموية و الجهاز التنفسى و حركة القلب و سائر الأجهزة، و إذا استمر النور أكثر من المعتاد تعبت خلايا الجسم و تحول النشاط إلى خمول! و بالعكس فإنّ الخلايا تهدأ فى الليل و تستريح استراحة عميقة تستعيد نشاطها و قواها «شرحنا هذا المعنى فى الجزء السادس ذيل الآية ۶۷ من سورة يونس و الآية (۱۲) من سورة الاسراء»، الطريف هنا أن الآية حين تتحدث عن سرمديّة الليل تخاطب الناس قائلة:

أَ فَلا تَسْمَعُونَ ... و حين تتحدث عن سرمدية النهار تخاطبهم قائلة: أَ فَلا تُبْصِرُونَ و لعل هذا التعبير لأجل أن الحسّ المناسب لليل هو السمع و الأذن، و ما يناسب النهار هو البصر و العين .. إلى هذه الدرجة نلاحظ الدقّة فى القرآن الكريم.

كما أنّ من الجدير الالتفات إلى أنّ الآية هنا بعد ذكر مسألتى السمع و البصر أو الليل و النهار، تختتم الحديث بالقول: لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ الشكر إزاء النظام المحسوب النور و الظلمة، الشكر الذى يوصل الإنسان إلى معرفة المنعم و الشكر الذى يكون باعثا على الإيمان فى المباحث الاعتقادية!.

و مرّة أخرى- بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد و نفى الشرك- يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذى أثير فى الآيات السابقة ليقول: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ

و هذه الآية مكررة فى السورة نفسها، إذ وردت بنصّها فى الآية ۶۲، و لعل هذا التكرار ناشئ عن السؤال مرتين فى يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، و مرّة بصورة عامّة فى محضر الشهود، و هو ما أشير إليه فى الآية التى بعدها .. ليخجلوا أيضا من حضورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۶

لذلك تأتى الآية التى بعدها فتقول: وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً[۲۰۱] فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ أيّها المشركون الضالون.

و حين تنكشف المسائل و تتجلى الأمور لا تبقى خافية فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الأخرى فى القرآن، إذ أن كل نبى شاهد على أمته، و نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء و الأمم، كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۱) من سورة النساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

فعلى هذا، ينعقد يوم القيامة مجلس كبير بحضور الأنبياء، و يؤتى بالمشركين المعاندين عمى القلوب، و هناك يعرفون الفاجعة العظمى للشرك، و حقانية اللّه، و ضلال الأصنام ... بجلاء.

و من الطريف أن القرآن يعبر ب ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ أى إن تصوراتهم و اعتقاداتهم فى الأصنام تمحى عنهم يوم القيامة، لأنّ عرصة القيامة عرصة الحق، و لا مكان للباطل هناك، فالباطل يضل هناك و يمحى من الوجود!.

فإذا كان الباطل يغطى وجهه هنا (فى هذا العالم) بستار من الحق ليخدع الناس أيّاما، فهناك تنكشف الحجب و لا يبقى سوى الحق.

نقرأ فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً

قوله: «و من هذه الأمة إمامها»[۲۰۲].

و هـذا الكلام إشارة إلى أنّه لا بـدّ فى كل عصـر و زمان من شاهـد معصوم للأمـة، و الحـديث آنف الـذكر من قبيل بيان مصداق هذا المفهوم القرآنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۷

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۶ الى ۷۸]

اشارة

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۷۷) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (۷۸)

التّفسير

الثّرى الاسرائيلى البخيل:

جاء تفصيل قصّة موسى عليه السّلام العجيبة و مواجهاته و مواقفه مع فرعون فى قسم كبير من الآيات السابقة فى هذه السورة .. و ذكرنا الأقوال فيها، و كان الكلام إلى حد ما كافيا عليها.

و فى القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۸

إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون».

قارون هذا كان مظهرا للثراء المقرون بالكبر و الغرور و الطغيان.

و أساسا، فإنّ موسى عليه السّلام واجه فى طول حياته ثلث قوى استكبارية طاغوتية:

۱- «فرعون» الذى كان مظهرا للقوّة «و القدرة فى الحكومة».

۲- «قارون» الذى كان مظهرا للثروة و المال! ۳- «السامرى» الذى كان مظهرا للنفاق و الصناعة.

و بـالرغم من أنّ أهم مواجهـات موسـى عليه السّـلام هى مواجهته لفرعون و «حكومته» إلّـا أنّ مواجهتيه الأـخيرتين لهمـا أهميّـة كبيرة أيضا، و فيهما دروس ذات عبر و محتوى كبيرا.

المعروف أن «قارون» كان من أرحام موسـى و أقاربه «ابن عمه أو ابن خالته» و كان عارفا بالتوراة، و كان فى بدايـة أمره مع المؤمنين، إلّا أنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر و دعاه إلى أن يقف بوجه موسـى عليه السّلام و أماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك فى الآيات التالية:

يقول القرآن فى شـأنه أوّلاـ: إِنَّ قـارُونَ كـانَ مِنْ قَوْمِ مُوسـى فَبَغى عَلَيْهِمْ و سـبب بغيه و ظلمه إنّه كـان ذا ثروة عظيمـة، و لأنّه لم يكن

يتمتع بإيمان قوى و شخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة و جرّته إلى الانحراف و الاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ.

«المفاتح» جمع «مفتح» على زنة «مكتب» معناه المكان الذى يدخّر فيه الشىء، كالصندوق الذى يحفظ فيه المال، و هو ما يسميه بعض التجار ب «القاصة».

فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير و وفير من الذهب و الفضّة، بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۸۹

كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء أُولِي الْقُوَّةِ.

و مع ملاحظة كلمة «عصبة» التى تعنى الجماعة المتآزرة يدا بيد على الأمر المهم، يتّضح حجم الذهب و الفضة و المعادن الثمينة التى كانت عند قارون، قال بعضهم: العصبة هى من عشرة رجال إلى أربعين رجلا.

و كلمة «تنوء» مشتقّة من «النوء» و معناه القيام بمشقّة و ثقل، و تستعمل فى حمل الأثقال التى لها ثقل و وزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه!.

و هذا الذى بيّناه فى «المفتاح» اتفق عليه جماعة من المفسّرين.

فى حين أنّ بعضهم يرى أنّها جمع «مفتح» على زنة «منبر» و هو المفتاح الذى تفتح به الخزائن، يقولون: إن خزائن قارون كانت من الكثرة إلى درجة إن مفاتيحها ينوء بحملها الرجال الأشداء.

و الذين ذهبوا إلى هذا المعنى أتعبوا أنفسهم كثيرا فى توجيهه، إذ كيف يمكن تصور عدد هذه «المفتاح» بشكل هائل حتى لا يمكن حملها إلّا بمشقّة و عناء بالغين .. و على كل حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر و أوضح بيانا. لأنّنا و إن سلّمنا على أن «مفتح، بكسر الميم» تعنى آلة الفتح أى «المفتاح» فإنّ أهل اللغة ذكروا لهذا الوزن (مفتح) معانى أخرى منها «الخزانة» التى يجمع فيها المال، فالمعنى الأوّل أقرب للواقع و بعيد عن المبالغة. فلا ينبغى الخلط بين «المفاتح» التى تعنى الخزائن. و «المفاتيح» التى تعنى آلات الفتح، و هى جمع «مفتاح»[۲۰۳].

فلنتجاوز هذا البحث لنرى ما قال بنوا إسرائيل لقارون، يقول القرآن فى هذا الصدد: إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۲۰۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۰

ثمّ يقدمون له أربع نصائح قيّمة أخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له:

لا تَفْرَحْ فالنصيحة الأولى قولهم له: وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ و هذا إشارة إلى أن المال و الثروة ليس أمرا سيئا كما يتصوره بعض المتوهّمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، و فى أى طريق ينفق، فإذا ابتغى به الدار الآخرة فما أحسنه! أو كان وسيلة للعب و الهوى و الظلم و التجاوز، فلا شىء أسوأ منه! و هذا هو المنطق الذى

ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلام معروف «من أبصر بها بصّرته و من أبصر إليها أعمته»[۲۰۵].

و كان قارون رجلا ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، و لكن ما الفائدة منها و قد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

و النصيحة الثّانية قولهم له: وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا و الآية تشير إلى مسألة واقعيّة، و هى أنّ لكل فرد منّا نصيبا من الدنيا، فالأموال التى يصرفها على بدنه و ثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محدودة، و ما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئا، و على الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة! ... فالإنسان ... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ و لم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ و كم يمكن أن يحوز من المساكن و

المراكب؟! و إذا مات و كم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟! فالباقى- إذن- رضى أم أبى هو من نصيب الآخرين.

و ما أجمل

قول الإمام على عليه السّلام: «يا ابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك»[۲۰۶].

و هناك تفسير آخر لهذه الجملة فى الرّوايات الإسلامية و كلمات المفسّرين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۱

و يمكن التوفيق بين هذا التّفسير و التّفسير السابق (لأنّ استعمال اللفظ فى أكثر من معنى جائز).

إذ ورد فى تفسير وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا

عن الإمام على ابن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «لا تنس صحتك و قدرتك و فراغك و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة»[۲۰۷].

و طبقا لهذا التّفسير فالعبارة المتقدمة بمثابة التنبيه لجميع الناس، لئلا يضيعوا أوقاتهم و فرصهم فإنّها تمر مرّ السحاب.

و النصيحة الثّالثة هى وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ

و هذه حقيقة أخرى، و هى أن الإنسان يرجو دائما نعم اللّه و إحسانه و خيره و لطفه، و ينتظر منه كل شىء. فبمثل هذه الحال كيف يمكن له التغاضى عن طلب الآخرين الصريح أو لسان حالهم .. و كيف لا يلتفت إليهم!.

و بتعبير آخر: كما أنّ اللّه تفضل عليك و أحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

و شبيه هذا الكلام نجده فى الآية (۲۲) من سورة النور فى شأن العفو و الصفح، إذ تقول الآية: وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ

و يمكن تفسير هذه الجملة بتعبير آخر، و هو أنّ اللّه قد يهب الإنسان مواهب عظيمة لا يحتاج إليها جميعا فى حياته الشخصيّة فقد و هبه العقل و القدرة التى لا تدير فردا واحدا فحسب، بل تكفى لإدارة بلد أيضا و وهبه علما لا يستفيد منه إنسان واحد فقط، بل ينتفع به مجتمع كامل.

أعطاه مالا و ثروة لتنفيذ المناهج الاجتماعية.

فهذه المواهب الإلهية مفهومها الضمنى أنّها لا تتعلق بك وحدك- أيّها الإنسان- بل أنت وكيل مخوّل من قبل اللّه لنقلها إلى الآخرين، أعطاك اللّه هذه المواهب لتدير بها عباده!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۲

و النصيحة الرابعة و الأخيرة أن لا تغرنّك هذه الأموال و الامكانات المادية فتجرّك الى الفساد. وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ

و هذا أيضا حقيقة واقعية أخرى، إنّ كثيرا من الأثرياء و على أثر جنون زيادة المال- أحيانا- أو طلبا للاستعلاء، يفسدون فى المجتمع، فيجرّون إلى الفقر و الحرمان، و يحتكرون جميع الأشياء فى أيديهم، و يتصورون أنّ الناس عبيدهم و مماليكهم، و من يعترض عليهم فمصيره الموت، و إذا لم يستطيعوا اتهامه أو الإساءة إليه بشكل صريح، فإنّهم يجعلونه معزولا عن المجتمع بأساليبهم و طرائقهم الخاصة ...

و الخلاصة: إنّهم يجرون المجتمع إلى الفساد و الانحراف.

و فى كلام جامع موجز نصل إلى أن هؤلاء الناصحين سعوا أولا إلى أن يكبحوا غرور قارون!.

ثمّ نبهوه أن الدنيا إنّما هى وسيلة- لا هدف- فى مرحلتهم الثّانية.

و فى المرحلة الثّالثة أنذروه بأن ما عندك تستفيد من قسم قليل منه، و الباقى لغيرك.

و فى المرحلة الرابعة أفهموه هذه الحقيقة، و هى أن لا ينسى اللّه الذى أحسن إليه فعليه أن يحسن إلى الآخرين .. و إلّا فإنّه يسلب مواهبه منك.

و فى المرحلة الخامسة حذروه من أن مغبة الفساد فى الأرض الذى يقع نتيجة نسيان الأصول الأربعه آنفة الذكر.

و ليس من المعلوم بدقّة من هم الناصحون لقارون يومئذ و لكن القدر المسلم به أنّهم رجال علماء متقون، أذكياء، ذوو نجدة و شهامة، عارفون للمسائل الدقيقة الغامضة!.

و لكن الاعتقاد بأنّ الناصح لقارون هو موسى عليه السّلام نفسه بعيد جدّا، لأنّ القرآن يعبّر عن من قدم النصح بصيغة الجماعة إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۳

و الآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغى و الظالم الإسرائيلى لجماعته الواعظين له!.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور و التكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي

هذا لا يتعلق بكم، و ليس لكم حق أن ترشدونى إلى كيفية التصرف بمالى، فقد أوجدته بعلمى و اطلاعى.

ثمّ إنّ اللّه يعرف حالى و يعلم أنّى جدير بهذا المال الذى أعطانيه، و علمنى كيف أتصرف به، فلا حاجة إلى تدخلكم!.

و بعد هذا كله فقد تعبت و بذلت جهودا كبيرة فى سبيل جمع هذا المال، فإذا كان الآخرون جديرين بالمال، فلم لا يتعبون و يجهدون أنفسهم؟ فلست مضايقا لهم، و إذا لم يكونوا جديرين، فليجوعوا و ليموتوا فهو أفضل لهم ۲۰۸].

هذا المنطق العفن المفضوح طالما يردده الأثرياء الذين لا حظّ لهم من الإيمان أمام من ينصحهم.

و هذه اللطيفة جديرة بالالتفات و هى أن القرآن لم يصرّح بالعلم الذى كان عند قارون و أبقاه مبهما، و لم يذكر أى علم كان عند قارون حتى استطاع بسببه على هذه الثروة الطائلة!.

أهو علم الكيمياء، كما فسّره بعضهم.

أم هو علم التجارة و الصناعة و الزراعة.

أم علم الإدارة الخاص به، الذى استطاع بواسطته أن يجمع هذه الثروة العظيمة.

أم جميع هذه العلوم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۴

لا يبعد أن يكون مفهوم الآية واسعا و شاملا لجميع هذه العلوم «بالطبع بصرف النظر عن أن علم الكيمياء علم يستطاع بواسطته قلب النحاس و أمثاله ذهبا، و هل هو خرافة أم حقيقة واقعية»؟

و هنا يجيب القرآن على قول قارون و أمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول:

أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً.

أتقول: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي و نسيت من كان أكثر منك علما و أشدّ قوّة و أثرى مالا، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهى؟! لقد عبّر أولو الألباب و الضمائر الحيّة عن المال بقولهم لقارون: فِيما آتاكَ اللَّهُ و لكن هذا الغافل غير المؤدّب ردّ على قولهم بأنّ ما عنده من مال فهو بواسطة علمه!! لكن اللّه سبحانه عبّر عن حقارة قوّته و قدرته أمام إرادته و مشيئته جلّ و علا بالعبارة المتقدمة آنفا.

و فى ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء فى غاية الإيجاز:

وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ

فلا مجال للسؤال و الجواب، فالعذاب واقع- لا محالة- بصورة قطعيّة و مؤلمة، و هو عذاب فجائى مدمّر!.

و بعبارة أخرى أن العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم و كان لديه مجال و الجواب، لكن بعد إتمام الحجة و نزول العذاب الإلهى، عندئذ لا مجال للتفكير و الجواب، فإذا حلّ العذاب الالهى بساحته فهو الهلاك الحتمى.

هنا يرد سؤال حول الآيـة التى تقول: وَ لا يُسْـئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى سؤال هـذا الـذى نفاه اللّه أهو فى الدنيا أم فى الآخرة؟! قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بعدم السؤال هو فى الدنيا، و قال بعضهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۵

بل المقصود أنّه فى الآخرة! لكن لا مانع من أن يكون عدم السؤال فى الدارين «الدنيا و الآخرة».

أى لا يسألون حال نزول العـذاب فى الدنيا، لئلا يدافعوا عن أنفسـهم و يبرئوا ساحتهم، و يظهروا الأعذار تلوا الأعذار. و لا يسألون يوم القيامـة- أيضـا- لأنّ يوم القيامـة لا- يبقى فيه شـىء خافيـا، فكل شـىء واضـح، و كما يعبّر القرآن تعبيرا دقيقا فى هـذا الصـدد يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ [۲۰۹] و كـذلك فإنّ الآية- محل البحث- وَ لا يُسْـئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ منسـجمة تمام الانسـجام مع الآية من سورة الرحمن إذ تقول: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

هنـا ينقـدح سؤال آخر، و هو كيف ينسـجم هـذا التعبير فى القرآن مع قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْـئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [۲۱۰] و يمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

الأوّل: إنّ المواقـف فى يوم القيامـة متعـددة، ففى بعضـها يقع السؤال و الجواب و فى بعض المواقف لا- حاجـة للسؤال، لأنّ الحجب مكشوفة، و كل شىء واضح هناك.

الثّانى: إنّ السؤال عـادة نوعان .. «سؤال تحقيق» و «سؤال توبيـخ» فليس فى يوم القيامـة سؤال للتحقيق، لأنّ كل شـىء هناك مكشوف عيانا و واضح دون لبس.

و لكن يوجد هناك سؤال توبيخ و هو بنفسه نوع من العذاب النفسى للمجرمين.

و ينطبق هـذا تماما فى ما لو سأل الأب ابنه غير المؤدب: أ لم أقـدم لك كل هذه الخدمات ... أ هذا جزاء ما قدمت؟! فى حين أن كلا من الأب و الابن يعرفان الحقيقة، و أن قصد الأب من سؤاله لابنه هو التوبيخ لا غير!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۶

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۷۹ الى ۸۲]

اشارة

فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ قـالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ الْحَيـاةَ الـدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِىَ قارُونُ إِنَّهُ لَـذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۷۹) وَ قـالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِـلَ صالِحـاً وَ لا- يُلَقَّاهـا إِلاَّ- الصَّابِرُونَ (۸۰) فَخَسَـفْنا بِهِ وَ بِـدارِهِ الْأَرْضَ فَمـا كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۸۱) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۸۲)

التّفسير

جنون الثّروة:

المعروف أن أصـحاب الـثروة يبتلون بـأنواع الجنون ... و واحـد منهـا «جنون عرض الثروة و إظهارهـا» فهؤلاـء يشـعرون باللـذة عنـد ما

يعرضون ثروتهم على الآخرين، و حين يعبرون على مركب غال وثير و يمرّون بين حفاة الأقدام فيتصاعد الغبار و الاتربة لينتشر على وجوههم، و يحقّرونهم بذلك، فحينئذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۷

يشعرون بالراحة النفسية و النشوة تدغدغ قلوبهم ..

و بالرغم من أن عرض الثروة هذا غالبا ما يكون سببا للبلاء عليهم، لأنّه يربى الأحقاد فى الصدور و يعبئ الحساسيّات ضده، و كثيرا ما ينهى هذا العمل الردىء حياة الإنسان، أو يزيل ثروته مع الريح!.

و لعل هذا الجنون يحمل هدفا من قبيل إغراء الطامعين و تسليم الأفراد المعاندين و لكن الأثرياء غالبا ما يقومون بهذا العمل دون هدف، لأنّه نوع من الهوى و الهوس و ليس خطة أو برنامجا معينا.

و على كل حال فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلا بارزا له، و القرآن يتحدث عنه فى جملة موجزة فى بعض آياته فيقول: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ امام قومه من بنى إسرائيل.

و التعبير ب «فى زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، و هى أنّه أظهر جميع قدرته و قوته ليبدى ما لديه من زينة و ثروة.

و معلوم طبعا إنّ رجلا بهذه المثابة من الثروة ما ذا يستطيع أن يفعل!؟

و ينقل فى التاريخ- فى هذا الصدد قصص كثيرة- مقرونة بالأساطير أحيانا، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج فى استعراض كبير، و قد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس حمر «غالية القيمة» مغطاة بالقماش الفاخر، و قد ملأها زينة من الذهب و الجواهر الأخرى، فمرّ بهذا الاستعراض على بنى إسرائيل ..

و قد أثار هذا المنظر الناس، إذ رأوا أربعة آلاف من الخدم ابيض يلبسون ثيابا حمرا مع زينتهم.

و قال بعضهم: بل بلغ عدد هؤلاء «الخدم و الحشم» سبعة آلاف نفر، و ذكروا أخبارا أخرى فى هذا الصدد.

و لو فرضنا أن كل ذلك مبالغ فيه، إلّا أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقة، و هى أن قارون لديه ثروات مهمّة أظهرها فى زينته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۸

هنا أصبح الناس طائفتين- بحسب العادة فطائفة و هم الأكثرية- من عبدة الدنيا- أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم و تأوهوا بالحسرات و تمنوا لو كانوا مكان قارون و لو يوما واحدا و لو ساعة واحدة و حتى و لو لحظة! واحدة ...

فأيّة حياة عذبة جميلة هذه الحياة التى تهب اللذات و النشاط ... قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

هنيئا لقارون و لثروته العظيمة! .. و ما أعظم جلاله و عزّته .. و لا نظن فى التاريخ أحدا أعطاه اللّه ما أعطى قارون .. و ما إلى ذلك من الكلمات.

و هنا جاء دور الامتحان الالهى العظيم فمن جانب نجد قارون عليه أن يؤدى امتحانه فى غروره و طيشه! و من جانب آخر من بهرهم مشهده الذين أحاطوا به- من بنى إسرائيل-.

و بالطبع فإنّ العقاب الأليم هو العقاب الذى سيقع بعد هذا العرض المثير، و هو أن يهوى قارون من أوج العظمة إلى قعر الأرض إذ تنخسف به الأرض على حين غرّة!.

لكن أمام هذه الطائفة التى ذكرناها آنفا طائفة أخرى من العلماء و المتقين الورعين، سمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل، و كانوا حاضرين حينئذ و «المشهد» يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصية بالذهب و القوّة، و لا يبحثون عن القيم فى الأمور الماديّة. لا تبهرهم هذه المظاهر، بل يسخرون منها و يتبسمون تبسم استهزاء و ازدراء! و يحقّرون هذه الرؤوس الفارغة.

فهؤلاء كانوا هناك، و كان لهم موقف آخر من قارون، و كما يعبر عنهم القرآن وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً ثمّ أردفوا مؤكّدين وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ

أولئك الذين لا تهزّهم زخارف الدنيا و زبارجها، و يقفون فى استقامة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۲۹۹

برجولة و شهامة- امام الحرمان، و لا يطأطئون رؤوسهم للأراذل و يقفون كالجبال الرواسى فى الامتحان الإلهى- امتحان الثروة و المال و الخوف و المصيبة ...

و هؤلاء هم الجديرون بثواب اللّه سبحانه!.

و من المسلم به أنّه المقصود بجملة الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هم علماء بنى إسرائيل، و من بينهم «يوشع» و هو من كبار رجالهم.

غير أنّ الطريف فى الأمر أن القرآن عبّر عن الطائفة الأولى بجملة الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا لكنّه لم يعبر عن الطائفة الثّانية بأنّهم «الذين يريدون الحياة الاخرة» بل عبر عنهم ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فحسب، لأنّ العلم هو أساس كل شىء و جذر الإيمان و الاستقامة و العشق للثواب الإلهى و الدار الآخرة ..

كما أن التعبير ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ هو جواب دامغ- ضمنا- لقارون الذى يدّعى العلم، فالقرآن يريد أن يبيّن أن العلماء هم هؤلاء الذين لا يريدون الحياة الدنيا، أمّا أنت يا قارون فمغرور و طائش!.

و هكذا نرى مرّة أخرى أنّ أساس البركات و الخيرات هو العلم الحقيقى.

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه و عناده إلى الدرجة القصوى غير أن ما ورد فى التواريخ حكاية منقولة عن قارون تدل على منتهى الخسة و عدم الحياء! ننقلها هنا حسب تفصيلها!.

فقال له موسى عليه السّلام إنّ اللّه أمرنى أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة و جاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل فنرسلها اليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها:

نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنّه فجر بك قالت نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السّلام قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال: أمرنى أن تعبدوا اللّه و لا تشركوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۰

به شيئا و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا و قد أمرنى فى الزانى إذا زنى و قد أحصن أن يرجم. قالوا: و إن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السّلام أنشدتك باللّه إلّا ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتنى فإنّهم دعونى و جعلوا لى جعلا على أن أقذفك بنفسى و أنا أشهد أنّك برىء و أنّك رسول اللّه.

فخرّ موسى عليه السّلام ساجدا يبكى فأوحى اللّه إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون:

يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى اللّه:

«يا موسى سألك عبادى و تضرّعوا إليك فلم تجبهم فوعزّتى لو أنّهم دعونى لأجبتهم».

يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ

أجل حين يبلغ الطغيان و الغرور و تحقير المؤمنين الأبرياء و المؤامرة ضد نبى اللّه أوجها، تتجلى قدرة اللّه تعالى و تطوى حياة الطغاة

... و تدمرهم تدميرا يكون عبرة للآخرين.

مسألـة «الخسف» هنا التى تعنى انشـقاق الأرض و ابتلاع ما عليها، حدثت على مدى التاريخ عدّة مرات ... إذ تتزلزل الأرض ثمّ تنشقّ و تبتلع مدينـة كاملـة أو عمارات سـكنية داخلها، لكن هـذا الخسف الـذى حدث لقارون يختلف عن تلك الموارد ... هذا الخسف كان طعمته قارون و خزائنه فحسب!.

يا للعجب! .. ففرعون يهوى فى ماء النيل! .. و قارون فى أعماق الأرض!.

الماء الذى هو سرّ الحياة و أساسها يكون مأمورا بهلاك فرعون.

و الأـرض التى هى مهـاد الاطمئنان و الدعـة تنقلب قبرا لقارون و اتباعه! و من البـديهى أنّ قارون لم يكن لوحـده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه و ندماءه و من أعانه على ظلمه و طغيانه، و هكذا توغلوا فى اعماق الأرض جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۱

فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ...

فلم يخلصه أصـدقاؤه، و لا الـذين كانوا يحملون أمتعته و لا أمواله و لا أى أحـد من عذاب اللّه، و مضـى قارون و أمواله و من معه فى قعر الأرض! أمّا آخر آيـة- محل البحث- فتحكى عن التبـدل العجيب لأولئك الـذين كانوا يتفرجون على اسـتعراض قارون بالأمس و يقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، و ما شابه ذلك!. و إذا هم اليوم يقولون: واها له، فإنّ الرزق بيد اللّه وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ.

لقـد ثبت عنـدنا اليوم أن ليس لأحد شـىء من عنده! فكلّ ما هو موجود فمن اللّه، فلا عطاؤه دليل على رضاه عن العبد، و لا منعه دليل على تفاهة عبده عنده!.

فاللّه تعالى يمتحن بهذه الأموال و الثروة عباده أفرادا و أقواما، و يكشف سريرتهم و نيّاتهم.

ثمّ أخذوا يفكرون فى ما لو أجيب دعاؤهم الذى كانوا يصرون عليه، و أعطاهم اللّه هذا المال، ثمّ هووا كما هوى قارون، فما ذا يكون قد نفعهم المال؟

لذلك شكروا اللّه على هذه النعمة و قالوا: لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ

فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، و عاقبة الغرور و الغفلة و نهاية الكفر و الشهوة!.

و نعرف أن أمثال هذه الحياة المثيرة للقلوب بمظاهرها الخداعة، ما أوحشها! و ما أسوأ عاقبتها!.

و يتّضـح من الجملـة الأخيرة فى هـذه القصّـة- ضـمنا- أنّ قارون المغرور مات كافرا غير مؤمن، بالرغم من أنّه كان يعـدّ عارفا بالتوراة قارئا لها، و عالما من بنى إسرائيل و من أقارب موسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۲

بحوث

۱- نماذج قارونية بالأمس و اليوم!

قصّـة قـارون- هـذا الثرى المغرور- التى ذكرها القرآن فى سـبع آيات بينات- بأسـلوب جـذّاب- تكشف الحجب عن حقاق كثيرة فى حياة الناس! هـذه القصّـة النّيرة توضح هذه الحقيقة، و هى أن غرور الثروة و نشوتها قد ينجر بهما الإنسان- أحيانا- إلى أنواع الجنون .. جنون إظهار الثروة و عرضها ..

و لفت أنظار الآخرين .. إلى التلذذ من تحقير الفقراء و المساكين.

كما أن هذا الغرور و هذه النشوة و العشق المطلق للفضة و الذهب، قد تكون سببا لأنّ يجرأ الإنسان أحيانا إلى ارتكاب أقبح الذنوب و أخسها، كالإساءة إلى النّبى و مناهظة الحق و الحقيقة .. و اتهام أطهر الأفراد، و استخدام الثروة لإنفاقها على الفواحش فى سبيل الوصول إلى الغرض المطلوب.

أن الغرور و النشوة الناشئين من كثرة الثروة، لا يسمحان للإنسان أن يسمع نصيحة الآخرين، و يستجيب لمن يريد له الخير!.

و هؤلاء المغرورون الجهلة يتصورون أنّهم أعلم الناس و أكثرهم اطلاعا، و فى اعتقادهم أن ثروتهم التى وقعت فى أيديهم، و ربّما تقع عن طريق الغصب أحيانا، هى دليل على عقلهم و ذكائهم ... و أن جميع الناس جهلة كما يظنون، و أنّهم- وحدهم- العلماء فحسب!.

و يبلغ بهم الأمر حدّا أن يظهروا قدرتهم أمام الخالق، و كأنّهم مستقلّون، و يدّعون أنّ ما وصلهم هو عن طريق ابتكارهم و ذكائهم، و استعدادهم و خلّاقيتهم و معرفتهم التى لا نظير لها! و رأينا عاقبة هؤلاء المغرورين المنحرفين، و كيف ينتهون، و إذا كان قارون و أتباعه و ثروته جميعا قد خسفت بهم الأرض فهووا إلى قعرها، فإنّ الآخرين يفنون بأشكال مختلفة .. و أحيانا تبتلع الأرض حتى ثروتهم العظيمة بشكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۳

آخر .. أو يبدّلون ثروتهم الكبيرة بالقصور و البساتين و الأراضى الشاسعة ثمّ لا يستفيدون منها أبدا .. و قد يشترون الأراضى الموات و البائرة، على أمل تقسيمها صغيرة لتباع كل قطعة بسعر باهض! ... و هكذا تبتلع الأرض ثروتهم.

أمثال هؤلاء الأفراد من سقيمى العقول حين لا يجدون طريقا لصرف ثروتهم العظيمة يتوجهون إلى القيم الخيالية ... و ينفقون أموالهم على الخزف المتكسّر على أنّه من التراث القديم كالأكواز و الأقداح الخزفية، و الطوابع، و الأوراق النقدية المتعلقة بالسنوات القديمة، و يحافظون عليها فى مكان حريز من بيوتهم على أنّها أغلى التحف، و هى لا تستحق أن توضع إلّا فى المزابل لو نظرنا إليها بعين البصيرة و الاعتبار! أولئك الذين يحيون مثل هذه الحياة الناعمة الخيالية قد يتفق أن يرى فى مدينتهم أو فى مناطقهم- و أحيانا فى جيرانهم- من لا عهد له بالشبع، و يسهرون لياليهم على الطوى جائعين، و من العجيب أنّهم يرون هذه الحالة فلا تهتز لها ضمائرهم، و لا يتأثر لأجلها وجدانهم!.

كما يتفق لحيواناتهم أن تعيش حياة الرفاه، و تستفيد من رعاية الأطباء و الأدوية الخاصّة! فى حين أن أناسا محرومين يعيشون فى ظروف صعبة و سيئة إلى جوارهم، و ربّما يرقدون فى المستشفى، و يئنّون و لا من مصرخ لهم، و لا من علاج لمرضهم!.

جميع هذه البحوث تنطبق أحيانا على بعض الأفراد فى مجتمع ما، و قد تنطبق على دولة معينة قبال دول الدنيا كلها، أى قد نجد دولة قارونية مستكبرة أمام الدول الضعيفة، كما نلاحظ فى العصر الحاضر فى شأن الدول الاستكبارية كأمريكا و كثير من الدول الأوروبية.

لقد هيأ هؤلاء حياة التنعّم و الرفاه- فى أرقى صورها- باستثمار أبناء العالم الثّالث و الدول الفقيرة العزلاء ... بحيث أنّهم يرمون فضلات طعامهم فى المزابل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۴

و لو قدر أن تجمع بصورة صحيحة، لأمكن عندئذ تغذية الملايين المحرومة الجائعة من هذه المواد الغذائية الإضافية.

و ما نقوله من أن بعض الدول فقيرة هى فى الحقيقة ليست دولا فقيرة، بل هى دول منيت بسرقة خيراتها و أغير عليها ... و ربّما كان لديها أغلى المصادر و المعادن تحت الأرض، لكن هؤلاء المغيرين ينهبون هذه الخيرات و يتركون أهلها على الأرض السوداء الجرداء.

فهؤلاء القارونيون يشيدون قواعد قصورهم الظالمة على أكواخ المستضعفين المهدّمة .. و إذا لم يتّحد المستضعفون يدا بيد ليقذفوا

بالمستكبرين إلى قعر الأرض كما فعل بقارون، فإنّ حالة الدنيا ستبقى هكذا.

فأولئك يشربون الخمور و يضحكون منتشين، و هؤلاء يجلسون على بساط الفقر و الحرمان باكين.

۲- من أين جاء قارون بهذه الثروة العريضة؟

الطريف أنّنا نقرأ فى الآيتين (۲۳) و (۲۴) من سورة المؤمن ما نستفيد منه بوضوح أنّ رسالة موسى عليه السّلام كانت من البداية لمبارزة ثلاثة أشخاص! «فرعون»، و وزيره «هامان»، و «قارون» الثرى المغرور. وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ

و نستفيد من النصّ القرآنى المتقدم أن قارون كان من جماعة فرعون، و كان على خطه؛ كما أنّنا نقرأ فى التواريخ أنّه كان ممثلا لفرعون فى بنى إسرائيل من جهة[۲۱۱]، و أنّه كان أمين الصندوق عند فرعون، و المسؤول على خزائنه من جهة أخرى ۲۱۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۵

و من هنا تتّضح هويّة قارون .. فإنّ فرعون من أجل إذلال بنى إسرائيل و سلب أموالهم اختار رجلا منافقا منهم، و أودعه أزمّة أمورهم، ليستثمر أموالهم لخدمة نظامه الجبار، و ليجعلهم حفاة عراة، و يكتسب من هذه الطريقة ثروة ضخمة منهم!.

و القرائن تشير إلى أنّ مقدارا من هذه الثروة العظيمة و كنوز الأموال بقيت بعد هلاك فرعون عند قارون، و لم يطلع موسى عليه السّلام- إلى تلك الفترة- على مكان الأموال لينفقها على اتباعه الفقراء.

و على كل حال، فسواء كانت هذه الثروة قد حصل عليها قارون فى عصر فرعون، أو حصل عليها عن طريق الإغارة على خزائنه بعد هلاكه، أو كما يقول البعض قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجارة ... أو معرفته بأصول استثمار أموال المستضعفين.

مهما يكن الأمر فإنّ قارون آمن بموسى بعد انتصار موسى على فرعون، و بدّل وجهه بسرعة، و أصبح من قرّاء التوراة و علماء بنى إسرائيل ... فى حين أنّ من البعيد أن تدخل ذرة من الإيمان فى مثل قلب هذا المنافق!.

و أخيرا فحين أراد موسى عليه السّلام أن يأخذ من قارون زكاة المال، خدع به الناس، و عرفنا كيف كانت عاقبته.

۳- موقف الإسلام من الثّروة!

لا ينبغى أن نستنبط من المسائل التى ذكرناها آنفا أنّ الإسلام يقف من الثروة موقفا سلبيا، و أنّه يخالف خط الثراء، و لا ينبغى أن نتصور أنّ الإسلام يريد حياة الفقر و الفقراء، و يعدّ حياة الفقر من الكلمات المعنوية!.

بل على العكس من ذلك، فإنّ الإسلام يعد الثروة عاملا مهمّا نحو الآخرة! و قد عبّر القرآن عن المال بالخير فى الآية (۱۸۰) من سورة البقرة إِنْ تَرَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۶

خَيْراً أى مالا.

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى هذا الصدد «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة»[۲۱۳].

بل حتى الآيات- محل البحث- التى تذم قارون أشدّ الذم، لأنّه اغتر بالمال، هى شاهد بليغ على هذا الموضوع .. غاية ما فى الأمر أنّ الإسلام يقبل بالثروة التى بواسطتها تبتغى الدار الآخرة، كما قال علماء بنى إسرائيل لقارون وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ.

و الإسلام يرضى بالثروة التى نرى فيها «أحسن كما أحسن اللّه إليك» و لكن للجميع!.

و الإسلام يوافق على ثروة يتحقق فيه القول «لا تنس نصيبك من الدنيا» و يمدحها.

و أخيرا فإنّ الإسلام لا يطلب ثروة ينبغى بها الفساد فى الأرض و تنسى بها القيم الإنسانية .. و تكون نتيجتها الابتلاء بمسابقة جنون التكاثر، أو أن ينفصل الإنسان عن ذاته و يحتقر الآخرين، و ربّما تجرّه إلى مواجهة الأنبياء كما فعل قارون فى مواجهته لموسى عليه السّلام!.

يريد الإسلام الثروة لتكون وسيلة لملء الفراغ الاقتصادى، و أن يستفيد منها الجميع، و لتكون ضمادا لجراح المحرومين، و للوصول بها إلى إشباع الحاجات الاجتماعية و حلّ مشاكل المستضعفين ...

فالعلاقة بين هذه الثروة و هذه الأهداف المقدّسة ليست علاقة دنيوية، أو ارتباطا بالدنيا، بل هى علاقة أخروية.

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أن أحد أصحابه جاءه شاكيا أمره، و قال: و اللّه إنّا لنطلى الدنيا و نحبّ أن نؤتاها. فقال عليه السّلام: «تحبّ أن تصنع بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۷

ما ذا؟» قال: أعود بها على نفسى و عيالى، و أصل بها و أتصدق بها و أحج و أعتمر فقال الامام الصادق عليه السّلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»[۲۱۴].

و من هنا يتّضح فساد عقيدة طائفتين فى هذا المجال:

طائفة من المسلمين، أو بتعبير أدق: ممن يتظاهرون بالإسلام، و بعيدون عن تعاليمه، فيعرّفون الإسلام على أنّه محام عن المستكبرين.

و طائفة من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل، و يجعلوه معاديا للثروة، و أنّه يقف الى جانب الفقراء فحسب.

و أساسا فإنّ أمّة فقيرة لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعة الرأس حرّة كريمة!.

فالفقر وسيلة للارتباط بالاجنبى و التبعية و الفقر أساس الخزى فى الدنيا و الآخرة! و الفقر يدعو الإنسان إلى الإثم و الخطيئة.

كما نقرأ

فى حديث للإمام الصادق فى هذا الصدد «غنى يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم»[۲۱۵].

إنّ على المجتمعات الإسلامية أن تسعى- مهما استطاعت- نحو التقدم لتكون غنيّة غير محتاجة، و لتبلغ مرحلة الاكتفاء الذاتى، و أن تقف على أقدامها و أن لا تضحّى باستقلالها و عزّتها و شرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعية و تعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۸

الآيتان [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۳ الى ۸۴]

اشارة

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۸۴)

التّفسير

نتيجة حبّ التسلط و الفساد فى الأرض:

بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر و متسلط، و هو قارون، تبدأ الآية الأولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلى لهذا الواقع و هذا الحدث، إذ تقول الآية تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.

أجل، فهم غير مستكبرين و لا مفسدين فى الأرض و ليس هذا فحسب، بل قلوبهم مطهّرة من هذه المسائل، و أرواحهم منزهة من هذه الأوساخ! فلا يريدون ذلك و لا يرغبون فيه.

و فى الحقيقة إنّ ما يكون سببا لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة فى العلو» أىّ الاستكبار و «الفساد فى الأرض» و هما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۰۹

الذنوب .. لأنّ كل ما نهى اللّه عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان و تكامل وجوده حتما، فارتكاب ما نهى اللّه عنه يدمر نظام حياة الإنسان، لذا فهو أساس الفساد فى الأرض! حتى مسألة الاستعلاء- بنفسها- هى أيضا واحدة من مصاديق الفساد فى الأرض، إلّا أن أهميته القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق للفساد فى الأرض!.

و قد رأينا فى قصّة «قارون» و شرح حاله أنّ السبب الأساس فى شقوته و هلاكه هو العلوّ و «الاستكبار».

و نجد فى الرّوايات الإسلامية اهتماما بهذه المسألة حتى أنّنا نقرأ

حديثا عن الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول: «إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها»[۲۱۶].

(و هذا أيضا فرع صغير من الاستعلاء).

و من الطريف أنّ صاحب «تفسير الكشاف» يعلق بعد ذكر هذا الحديث فيقول: بعض الطامعين ينسبون «العلوّ» فى الآية محل البحث لفرعون بمقتضى قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ [۲۱۷] و الفساد لقارون بمقتضى قوله: تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ [۲۱۸] و يدعون بأن من لم يكن كمثل فرعون و قارون فهو من أهل الجنّة و الدار الآخرة، و على هذا فهم يبعدون فرعون و قارون و أمثالهما من الجنّة فحسب، و يرون الباقين من أهل الجنّة، إلّا أنّهم لم يلاحظوا ذيل الآية وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ بدقة- كما لاحظها الإمام على عليه السّلام ۲۱۹].

و ما ينبغى إضافته على هذا الكلام هو أن هؤلاء الجماعة أخطئوا حتى فى معرفة قارون و فرعون .. لأنّ فرعون كان عاليا فى الأرض و كان من المفسدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۰

إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ [۲۲۰] و قارون أيضا كان مفسدا و كان عاليا بمقتضى قوله: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ [۲۲۱] و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه كان يسير فى الأسواق أيام خلافته الظاهرية، فيرشد التائهين إلى الطريق و يساعد الضعفاء، و كان يمرّ على الباعة و الكسبة و يتلوا الآية الكريمة تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً.

ثمّ يضيف سلام اللّه عليه:

«نزلت هذه الآية فى أهل العدل و التواضع من الولاة و أهل القدرة من الناس»[۲۲۲].

و معنى هذا الكلام، أنّه كما لم يجعل الخلافة و الحكومة وسيلة للاستعلاء، فلا ينبغى أن تجعلوا أموالكم و قدرتكم وسيلة للتسلط على الآخرين، فأنّ العاقبة لأولئك الذين لا يريدون علوا فى الأرض و لا فسادا و كما يقول القرآن فى نهاية الآية وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

و «العاقبة» بمفهومها الواسع هى النتيجة الصالحة، و هى الانتصار فى هذه الدنيا، و الجنّة و نعيمها فى الدار الأخرى ... و قد رأينا أنّ قارون و أتباعه إلى أين وصلوا و أيّة عاقبة تحمّلوا! مع أنّهم كانوا مقتدرين و لكن حيث كانوا غير متقين فقد ابتلوا بأسوأ العاقبة و المصير!.

و نختم كلامنا فى شأن هذه الآية بحديث للإمام الصادق عليه السّلام و هو

أنّ الإمام الصادق حين تلا هذه الآية أجهش بالبكاء و قال: «ذهبت و اللّه الأمانى عند هذه الآية»[۲۲۳].

و بعد ذكر هذه الحقيقة الواقعية، و هى أن الدار الآخرة ليست لمن يحب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۱

السلطة و المستكبرين، بل هى للمتقين المتواضعين و طلبة الحق، تأتى الآية الثّانية لتبيّن قانونا كليا و هو مزيج بين العدالة و التفضل، و لتذكر ثواب الإحسان فتقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها.

و هذه هى مرحلة التفضل، أى أنّ اللّه سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقة، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلّا أنّ اللّه قد يضاعف الحسنة بعشر أمثالها و قد يضاعفها بمئات الأمثال و ربّما بالآلاف، إلّا أن أقلّ ما يتفضل اللّه به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.

أمّا الحدّ الأكثر من ثواب اللّه و جزائه فلا يعلمه إلّا اللّه، و قد جاءت الإشارة إلى جانب منه- و هو الإنفاق فى سبيل اللّه- فى الآية ۲۶۱ من سورة البقرة ... إذ يقول سبحانه فى هذا الصدد ... مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

و بالطبع فإنّ مضاعفة الأجر و الثواب ليس أمرا اعتباطيا، بل له ارتباط وثيق بنقاء العمل و ميزان الإخلاص و حسن النيّة و صفاء القلب، فهذه هى مرحلة التفضل الإلهى فى شأن المحسنين.

ثمّ يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ

و هذه هى مرحلة العدل الإلهى، لأنّ المسىء لا يجازى إلّا بقدر إساءته، و لا تضاف على إساءته أية عقوبة!.

الطريف هنا عند ذكر جزاء السيئة أن القرآن يعبر عن الجزاء بالعمل نفسه إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى إن أعمالهم التى هى طبقا لقانون بقاء الموجودات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۲

عالم الوجود، تبقى و لا تتغير، و تبرز فى يوم القيامة متجسمة دون خفاء، فهو (يوم البروز) فى شكل يناسب العمل، و هذا الجزاء يرافق المسيئين و يعذبهم!.

ملاحظات

۱- لم تكرر ذكر «السيئة» فى هذه الآية مرتين؟

من المحتمل أن يكون ذكر السيئة مرتين فى الآية، لأن اللّه يريد أن يؤكّد على هذه المسألة، و هى أن السيئة لا جزاء لها إلّا نفسها.

۲- هل تشمل الحسنة الإيمان و التوحيد؟ فإذا كان كذلك فما معنى هذه الجملة مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها؟! و هل هناك خير من الإيمان و التوحيد؟! و فى الإجابة على هذا السؤال نقول- بدون شك و تردّد- إن للحسنة معنى واسعا فهى تشمل المناهج الاعتقادية و الأقوال و الأعمال الخارجية، و ما هو أفضل من الاعتقاد بتوحيد اللّه فهو رضا اللّه سبحانه الذى يكون ثوابا للمحسنين، فنحن نقرأ فى الآية (۷۲) من سورة التوبة قوله تعالى: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ! ۳- لم عبّر القرآن عن الحسنة بصيغة الإفراد، و عن السيئات بصيغة

الجمع؟! يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذا التعبير عائد إلى كثرة المسيئين و قلة المحسنين ۲۲۴].

كما و يحتمل أيضا أن الحسنات تتلخص فى حقيقة التوحيد، و أنّ جميع الحسنات تعود إلى «جذر» واحد و هو توحيد اللّه، فى حين أن السيئات ترجع إلى الشرك الذى هو مصداق التشتت و التعدد و الكثرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۳

الآيات [سورة القصص (۲۸): الآيات ۸۵ الى ۸۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۸۵) وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ (۸۶) وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۸۷) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۸)

سبب النّزول

نقل جماعة من المفسّرين- سببا لنزول الآية الأولى من الآيات أعلاه عن ابن عباس مضمونه ما يلى:

حين كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله متوجها من مكّة إلى المدينة فى سفر الهجرة و بلغ «الجحفة» و هى لا تبعد عن مكّة كثيرا ... تذكر و طنه «مكّة» هذه البقعة التى هى حرم اللّه و أمنه و فيها البيت العتيق «الكعبة» التى تعلق بها قلب النّبى و روحه تعلقا لا يقبل الانفكاك .. ظهرت آثار الشوق على وجه النّبى الكريم مزيجة بالحزن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۴

و التأثر، فنزل أمين الوحى جبريل على رسول اللّه و قال: أ تشتاق الى بلدك و هو مولدك؟! فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نعم ... فقال جبرئيل عليه السّلام: فإن اللّه يقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ[۲۲۵] يعنى مكّة ...

و نعلم أنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيرا، و دخل النّبى صلّى اللّه عليه و آله بجيشه القوى و قدرته و عظمته الكبيرة مكّة ظافرا، و استسلمت مكّة و الحرم الآمن دون حرب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله.

فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازى السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى مكّة بصورة قطعيّة و دون أى قيد و شرط، و لم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهى الكبير!.

التّفسير

الوعد بعودة النّبى إلى حرم اللّه الآمن:

هذه الآيات التى هى آخر الآيات فى سورة القصص تخاطب نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و تبشره بالنصر، بعد أن جاءت الآيات الأولى لتبيّن قصّة موسى و فرعون و ما جرى له مع قومه، كما أنّ هذه الآيات فيها ارشادات و تعليمات مؤكّدة لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

قلنا: إنّ الآية الأولى من هذه الآيات طبقا لما هو مشهور بين المفسّرين نزلت فى «الجحفة» فى مسير النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلى

المدينة إذ كان متوجها إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرّسول» ... و أن يبذر النّواة الأصيلة ... «لحكومة إسلامية» فيها و يجعلها مقرّا لحكومة إلهية واسعة، و يحقق فيها أهدافها.

لكن هذا الحنين و الشوق و التعلق بمكّة يؤلمه كثيرا، و ليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم اللّه الآمن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۵

و هنا يشرق فى قلبه الطاهر نور الوحى، و يبشّره بالعودة إلى وطنه الذى ألفه فيقول: إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ.

فلا تكترث و لا تذهب نفسك حسرات، فاللّه الذى أعاد موسى إلى أمّه هو الذى أرجعه أيضا إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات فى مدين، ليشعل مصباح التوحيد و يقيم حكومة المستضعفين و يقضى على الفراعنة و دولتهم و قوّتهم.

هو اللّه سبحانه الذى يردك إلى مكّة بكلّ قوّة و قدرة، و يجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقا فى هذه الأرض المباركة.

و هو اللّه الذى أنزل عليك القرآن، و فرض عليك إبلاغه، و أوجب عليك أحكامه.

أجل، إنّ ربّ القرآن و ربّ السماء و الأرض العظيم، يسير عليه أن يردّك إلى معادك و وطنك «مكّة».

ثمّ يضيف القرآن فى خطابه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه اللّه قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى وَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ

إنّ طريق الهداية واضح، و ضلالهم بيّن، و هم يتعبون أنفسهم عبثا، فاللّه يعرف ذلك جيدا، و القلوب التى تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضا.

و بالطبع فإنّ التّفسير الواضح للآية كما بيّناه آنفا، إلّا أن جمعا من المفسّرين لديهم احتمالات أخرى فى كلمة «معاد» .. من قبيل «العودة للحياة بعد الموت» «المحشر» او «الموت». كما فسّروه «بالجنّة» أو مقام «الشفاعة الكبرى» ... أو «بيت المقدس» الذى عرج النّبى منه أوّل مرة، و غير هذه المعانى.

إلّا أنّه مع الالتفات إلى محتوى مجموع هذه السورة- القصص- و ما جاء فى قصّة موسى و فرعون و بنى إسرائيل، و ما سقناه من شأن نزول الآية، فيبعد تفسير المعاد بغير العودة إلى مكّة كما يبدو!.

أضف إلى ذلك أن المعاد فى يوم القيامة لا يختصّ بالنّبى وحده، و الحال أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۶

الآية تتحدث عن النّبى- هنا- و تخاطبه وحده. و وجود هذه الآية بعد الآية التى تتحدث عن الثواب و الجزاء فى يوم القيامة، لا دلالة فيها على هذا المعنى، بل على العكس من ذلك، لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الانتصار فى الدار الآخرة، و من المناسب أن يكون الحديث فى هذه الآية عن الانتصار فى هذه الدنيا.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن نعمة أخرى من نعم اللّه العظيمة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله فتقول: وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۲۲۶].

كان كثير من الناس قد سمعوا بالبشارة بظهور الدين الجديد، و لعل طائفة من أهل الكتاب و غيرهم كانوا ينتظرون أن ينزل عليهم الوحى و يحمّلهم اللّه هذه المسؤولية، و لكنّك- أيّها النّبى- لم تكن تظن أنّه سينزل عليك الوحى وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ .. إلّا أن اللّه رآك أجدر بالأمر، و أن هذا الدين الجديد ينبغى أن ينتشر و يتسع على يدك فى هذا العالم الكبير!.

و بعض المفسّرين يرون هذه الآية منسجمة مع آيات سابقة كانت تتحدث عن موسى عليه السّلام، و تخاطب النّبى- أيضا- كقوله تعالى: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ .. وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ... وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ

فعلى هذا يكون المقصود بالكتاب هنا هو قصص الأنبياء السابقين .. إلّا أن هذا التفسير لا منافاة فيه مع التفسير المتقدم! بل يعدّ قسما

منه فى الواقع!.

ثمّ يضيف القرآن فى خطابه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله أن طالما كنت فى هذه النعمة فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ

و من المسلّم به أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن ظهيرا للكافرين أبدا، إلّا أن الآية جاءت فى مقام التأكيد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيان المسؤولية للآخرين، و أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۷

وظيفتهم أن يتأسوا بالنّبى و لا يكون أىّ منهم ظهيرا للكافرين.

و هذا الموضوع ينسجم تماما مع الموضوع الذى قرأناه فى شأن موسى عليه السّلام، إذ قال: رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ .. و بيّنا معناه فى شأن إعانة الظالمين فى الآية (۱۷) من سورة القصص، أمّا الآيتان اللتان تختتم بهما سورة القصص، فهما تأكيد على مسألة التوحيد بتعابير و استدلالات متعددة- و مختلفة.

التوحيد الذى هو أساس جميع المسائل الدينية ... التوحيد الذى هو الأصل و هو الفرع و هو الكلّ و هو الجزء!.

و فى هاتين الآيتين أربعة أوامر من اللّه لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله، و أربعة صفات للّه تعالى، و بها يكتمل ما ورد فى هذه السورة من أبحاث.

يقول أوّلا: وَ لا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ و بالرغم من أن النهى موجه إلى الكفار، إلّا أن مفهوم الآية عدم تسليم النّبى صلّى اللّه عليه و آله أمام صدّ الكافرين، و إحباطهم و مؤامراتهم، و هذا تماما يشبه ما لو قلنا مثلا: لا ينبغى أن يوسوس لك فلان، فمعناه: لا تستسلم لوسوسته!.

و بهذا الأسلوب يأمر اللّه النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات و لا يتردد فى الأمر، و أن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، و ليسر نحو هدفه مطمئنا، فإنّ اللّه حاميه و معه أبدا.

و يقول ابن عباس: و إن كان المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّ المراد عموم الناس، و هو من قبيل المثل العربى المعروف «إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة!».

و بعد هذا الخطاب الذى فيه جنبة نهى، يأتى الخطاب الثّانى و فيه سمة إثبات فيقول: وَ ادْعُ إِلى رَبِّكَ .. فاللّه الذى خلقك و هو الذى ربّاك و رعاك ...

و الأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد اللّه، هو نفى جميع أنواع الشرك و عبادة الأصنام وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... فإن طريق التوحيد واضحة بينة، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۸

ساروا عليها فهم على صراط مستقيم!.

و الأمر الرّابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى:

وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

و هذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكّد الآخر، يوضح أهمية التوحيد فى المنهج الإسلامى، إذ بدونه يكون كل عمل زيفا و وهما.

و بعد هذه الأوامر الأربعة تأتى أوصاف أربعة للّه سبحانه، و هى جميعا تأكيد على التوحيد أيضا.

فالأوّل قوله: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و الثّانى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ

و الوصف الثالث: لَهُ الْحُكْمُ و الحاكمية فى عالمى التشريع و التكوين.

و الرابع: أن معادنا إليه وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و الأوصاف الثلاثة الأخيرة يمكن أن تكون دليلا على إثبات التوحيد و ترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذى أشير إليه فى الوصف الأول! لأنّه طالما كنّا هالكين جميعا و هو الباقى.

و طالما كان التدبير لنظام الوجود بيده و الحكم له! و طالما كان معادنا إليه و إليه نرجع! ... فما عسى أن يكون دور المعبودات غيره، و أى أحد يستحق العبادة سواه!؟

و المفسّرون الكبار لديهم آراء مختلفة فى تفسير جملة كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ تدور حول محور كلمتى «وجه» و «هالك».

لأنّ الوجه يطلق- من حيث اللغة- على المحيّا أو ما يواجهه الإنسان من الشخص المقابل، و لكن الوجه حين يطلق على الخالق فإنّه يعنى عندئذ ذاته المقدسة!.

و كلمة «هالك» مشتقّة من مادة «هلك» و معناه الموت و العدم، فعلى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۱۹

يكون معنى الجملة المتقدمة فناء جميع الموجودات عدا ذات الخالق المقدسة ...

و هذا الفناء بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بفناء هذا العالم و انتهائه، فالموجودات الآن فانية قبال الذات المقدسة، و هى تحتاج إلى فيضه لحظة بعد لحظة، و ليس لديها فى ذاتها أى شىء، و كلّ ما لديها فمن اللّه! ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ موجودات هذا العالم جميعها متغير و فى معرض التبدل، و حتى طبقا لفلسفة «الحركة الجوهرية» فذاتها هى التغيير بعينه، و نحن نعرف أن الحركة و التغيير معناهما الفناء و العودة الدائمية، فكل لحظة تموت موجودات العالم و تحيا!.

فعلى هذا فإنّ الموجودات هالكة و فانية الآن- أيضا- غير أن الذات التى لا طريق الفناء إليها و لا تهلك، هى الذات المقدسة! كما نعلم أنّ الفناء أو العدم يتجلى بصورة واضحة فى نهاية هذا العالم، و كما يقول القرآن: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ [۲۲۷] و لا يخصّ الفناء ما على الأرض، بل يشمل حتى أهل السماء وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ [۲۲۸] فهذا التّفسير منسجم مع ظاهر الآية و الآيات الأخرى فى القرآن، غير أن بعض المفسّرين ذكروا تفاسير أخرى غير ما تقدم بيانه، و منها:

۱- أنّ المقصود من كلمة (وجه) هو العمل الصالح، و مفهوم هذه الآية يكون حينئذ أن جميع الأعمال تمضى مع الرياح سوى ما يكون خالصا للّه.

و قال بعضهم: إنّ المراد بالوجه هو انتساب الأشياء إلى اللّه، فيكون مفهوم الآية أنّ كل شىء معدوم ذاتا إلّا من ناحية انتمائه إلى اللّه!

و قال بعضهم: المراد بالوجه هو الدين، فيكون مفهوم الآية أن المذاهب كلها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۰

باطلة سوى دين اللّه.

و جملة لَهُ الْحُكْمُ هى كما فسّروها بأنّها الحاكمية التشريعية. و هو تأكيد على التّفسير السابق!.

كما أن جملة وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ فسّروها بالرجوع إلى اللّه فى أخذ الشريعة عنه! و هذا تأكيد آخر على هذا المعنى ۲۲۹].

و هذه التفاسير مع ما بيّناه آنفا لا نجد بينها منافاة فى الحقيقة! ... لأنّنا حين عرفنا أن الشىء الوحيد الذى يبقى فى هذا العالم هو الذات المقدسة للّه فحسب! فيتّضح أن ما يرتبط بذات اللّه بنحو من الأنحاء فإنه يستحق البقاء و الابدية.

فدين اللّه الصادر منه أبدىّ، و العمل الصالح الذى له أبدىّ ... و القادة الإلهيّون الذين يرتبطون يتّسمون بالخلود.

و الخلاصة، كل ما هو مرتبط باللّه- و لو بنحو من الأنحاء- فهو غير فان «فلاحظوا بدقّة».

مسألتان

۱- كيف تفنى جميع الأشياء؟!

من جملة الأسئلة التى أثيرت فى ذيل الآية، هو أنّه إذا كان لا بدّ من فناء جميع الأشياء فى نهاية العالم، فلا محيص من أن تتلاشى الأتربة التى تكونت من أبدان الناس، فى حين أن القرآن يصرّح مرارا بأن اللّه سيجمع هذه الاتربة و ينشر الناس منها، و أن الناس سينشرون فى يوم القيامة من قبورهم!.

و طبقا لظاهر الآيات- أيضا- فإن الجنّة معدّة، و النّار معدّة و مهيأة من قبل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۱

كما جاء التعبير عن الجنّة أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ أو ما شابه ذلك، و هى إشارة لخلق الجنّة و أنّها مهيأة للمتقين .. و قد ورد هذا التعبير فى موضعين من آيات القرآن «الآية ۱۲۳ من سورة آل عمران و الآية ۲۱ من سورة الحديد».

كما ورد التعبير عن النّار ب أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ فى موضعين من القرآن أيضا «البقرة الآية ۲۴ و آل عمران الآية ۱۳۱».

فهل ستفنى الجنّة و النار فى انتهاء العالم؟! ثمّ بعد هذا كلّه فنحن نعتقد بالحياة البرزخية للإنسان، و نستفيد ذلك من آيات القرآن فى شأن الأرواح، فهل ستفنى تلك أيضا؟! و الجواب على جميع الأسئلة يتّضح بما يلى:

إنّ كثيرا ما يتفق أن يكون المراد من الهلاك و العدم هو تخلخل النظام و دماره، لا تلاشيه و فنائه فلو أن عمارة مثلا تهدمت بسبب الزلزلة فهنا يصدق عليها الفناء و الهلاك، فى حين أنّ مواد العمارة لا تزال موجودة، غير أن نظامها قد أختل و انعدم فحسب!.

و نعرف أن فى نهاية هذا العالم ستنطفئ الشمس، و يظلم القمر، و تندك الجبال، و تموت الموجودات الحيّة، فهذا معنى هلاكها! هذا من جهة!.

و من جهة أخرى فإنّ الفناء متعلق بهذه الدنيا، و ما فى هذه الدنيا ... أمّا الجنّة و النّار فسواء كانتا داخل هذا العالم أو خارجه، فليستا جزءا من هذه الدنيا ليشملهما حكم الفناء و العدم لنظامهما، فهما متعلقتان بالآخرة لا بالدنيا! و من جهة ثالثة، فإنّا ذكرنا آنفا أنّ الهلاك- أو الفناء- بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بانتهاء هذا العالم .. فهى هالكة و فانية الآن أيضا، لأنّها لا تملك شيئا فى داخل ذاتها، و كل ما عندها فمن غيرها، فهى متغيرة و دائمة الحركة، و معنى ذلك الفناء التدريجى و المركب من الوجود و العدم! و مع بيان ما تقدم يتّضح الجواب على الأسئلة السابقة تماما!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۲

۲- التّفسير المنحرف لجملة وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ!

يستدل جماعة من الوهّابيين أحيانا على أن مسألة «التوسل و الشفاعة» لا تنسجم مع حقيقة التوحيد، بالآية الآنفة و آيات أخرى مشابهة لها.

إذ يقول أولئك: إنّ القرآن نهى عن عبادة غير اللّه بصريح العبارة، كما نهى أن ندعو أسماء سوى اللّه، إذ قال: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً.[۲۳۰] و الحال أنّ المقصود من هذه الآيات ليس هو أن لا ندعو أشخاصا آخرين، بل المقصود كما هو مستفاد من الآية مَعَ اللَّهِ أى أن من يعتقد أن ما كان للّه يمكن طلبه من غير اللّه و يراه مستقلا فى إنجازه، فإنه مشرك.

و لكننا إذا اعتقدنا بأن جميع القدرات هى خاصة باللّه، و لا نعتقد بأن أحدا معه يكون مبدأ الأثر ... و نعتقد بأن للّه أولياء يشفعون بإذنه و أمره، فنتوسل بهم إلى اللّه ليشفعوا لنا عند اللّه، فهذا هو التوحيد بعينه، و هذا هو ما أشارت إليه آيات القرآن مرارا.

ترى هل كان قول إخوة يوسف لأبيهم: يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا شركا؟! (سورة يوسف الآية ۹۷).

و هـل- حين يقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً،[۲۳۱] يكون قول القرآن هذا دعوة نحو الشرك؟!! إنّ حقيقة الشفاعة و التوسل- أيضا- ليس شيئا سوى ما أشرنا إليه آنفا[۲۳۲]! ربّنا ألهم قلوبنا نور التوحيد و المعرفة، لئلا نرى سواك، و لا نطلب سواك، و لا نرجو سواك!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۳

اللّهم وثّق ارتباطنا بذاتك المقدسة يوما بعد يوم أرواحنا تحظى بقبس من بقاء و خلود ذاتك الخالدة! اللّهم أبعد حبّ الدنيا و الاستعلاء و الفساد فی الأرض عن أرواحنا، و اجعلنا فی صفوف المتقين، وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

آمين ربّ العالمين انتهاء سورة القصص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۵

سورة العنكبوت

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع و ستون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۷

«سورة العنكبوت»

محتوى سورة العنكبوت!

المشهور بين جمع من المحققين أنّ جميع آيات هذه السورة نازلة بمكّة، فيكون محتواها منسجما مع محتوى السور المكية.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۳۲۷

ورد فيها الكلام على المبدأ و المعاد، و قيام الأنبياء السابقين العظام، و وقوفهم بوجه المشركين و عبدة الأصنام و الجبابرة و الظالمين، و انتصارهم و انهزام هذه الجماعة الظالمة! و كذلك تتحدث هذه السورة عن الدعوة الى الحق و الامتحان الالهى للبشر، و ذرائع الكفار فی مجالات مختلفة.

غير أنّ جماعة من المفسّرين يرون بأن إحدى عشرة آية منها نازلة بالمدينة، و هی الآيات الأولى من السورة، و لعلّ ذلك- كما سنرى- ناتج عن سبب نزول بعض الآيات التی تتحدث عن الجهاد، و الإشارة إلى موضوع المنافقين، و هذا ما يناسب السور المدنية!.

و لكن سنرى بعدئذ أنّ هذه الأمور لا تنافی كون السورة مكيّة.

و على كل حال، فتسمية السورة هذه ب «العنكبوت» مأخوذة من الآية (۴۱) من هذه السورة، التی تشبّه عبدة الأوثان من دون اللّه بالعنكبوت، التی تبنی بيتها من نسيجها، و هو أوهن البيوت!!.

و بصورة إجمالية، يمكن أن يقال: إن أبحاث هذه السورة تتلخص فی أربعة أقسام:

۱- فالقسم الأوّل من السورة يتحدث عن مسألة «الامتحان»، و موضوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۸

«المنافقين»، و هذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك!! لأنّ معرفة المنافقين غير ممكنة إلّا فی طوفان الامتحانات.

۲- و القسم الثّانی من هذه السورة- فی الحقيقة- هو لتسلية قلب النّبی صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين القلّة الأوائل، عن طريق بيان

جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح و إبراهيم و لوط و شعيب عليهم السّلام و عواقبهم!. إذ واجهوا أعداء ألدّاء أمثال نمرود و طواغيت المال البخلاء.

و قد بيّن هذا القسم من السورة كيفية المواجهة، و عدّتها، و عاقبتها للمؤمنين لتطمئن قلوبهم، و لتكون هذه الآيات إنذارا للمشركين و عبدة الأوثان، الذين لهم قلوب كالحجارة أو أشدّ قسوة، و الظالمين الذين عاصروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

۳- و القسم الثّالث من هذه السورة، و هو ما ورد فى نهاية السورة بوجه خاص، يتحدث عن التوحيد و دلائل اللّه فى عالم خلقه، و المواجهة مع المشركين، و يدعوا الفطرة و الوجدان إلى الاحتكام و القضاء الحق!.

۴- أمّا القسم الرّابع من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التى تعبد من دون اللّه، و عبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، و بيان عظمة القرآن، و دلائل حقانية نبىّ الإسلام، و لجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، و العمل الصالح، و الإحسان إلى الوالدين، و أسلوب مناقشة المخالفين، و ما إلى ذلك.

فضيلة هذه السورة!

ورد فى تفسير مجمع البيان عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى فضيلة هذه السورة ما يلى: «من قرأ سورة العنكبوت كان له عشر حسنات بعدد كل المؤمنين و المنافقين».

و لتلاوة سورتى العنكبوت و الروم فى شهر رمضان فى الليلة الثّالثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۲۹

و العشرين منه فضيلة قصوى، حتى أنّنا نقرأ فى هذا الصدد

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول: «من قرأ سورة العنكبوت و الروم فى شهر رمضان ليلة ثلاث و عشرين فهو و اللّه من أهل الجنّة، لا استثنى فيه أبدا ... و لا أخاف أن يكتب اللّه على فى يمينى إثما، و إن لهاتين السورتين من اللّه مكانا».[۲۳۳]

و لا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، و الدروس العملية المهمّة منها فى التوحيد، و ما إلى ذلك، كلّه كاف لأن يسوق أىّ إنسان ذى لب و فكر و عمل إلى الجنّة و الخلود فيها.

بل لو استلهمنا من بداية سورة العنكبوت و آياتها الأولى العظة فلعلنا نكون مشمولين فى قسم الإمام الصادق عليه السّلام ... تلك الآية التى تعرض الامتحان لعامّة الناس دون استثناء ليفتضح المبطلون و الكاذبون ... فكيف يمكن أن يصدّق الإنسان بهذا الامتحان العظيم و هو لم يهىء نفسه له!؟. و لم يكن من أهل التقوى و الورع!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۰

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (۳)

سبب النّزول

طبقا لما نقل بعض المفسّرين، أنّ الآيات الإحدى عشرة الأولى من بداية سورة العنكبوت نزلت فى المدينة فى شأن المسلمين الذين كانوا فى مكّة و غير راغبين بالهجرة إلى المدينة .. و كانوا قد تلقوا رسائل من إخوة لهم فى المدينة جاء فيها: «إن اللّه لا يقبل إقراركم بالإيمان حتى تهاجروا إلى المدينة» فصمموا على الهجرة و خرجوا من مكّة، فتبعهم جماعة من المشركين و التحموا بالقتال فقتل منهم جماعة و جرح آخرون «و ربّما سلّم بعضهم نفسه و رجعوا إلى مكّة».

و قال بعض: إنّ الآية الثّانية من هذه السورة فى شأن «عمار بن ياسر» و جماعة من المسلمين الأوائل، الذين آمنوا برسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و لاقوا صنوف التعذيب من الأعداء.

كما قال بعضهم: إنّ الآية الثامنة نزلت فى إسلام «سعد بن أبى وقاص»! غير أنّ التدقيق فى الآيات يكشف عن أنّه لا دليل على ارتباط الآيات مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۱

هجرة أولئك، سوى أنّ الآيات تبيّن الضغوط على المؤمنين فى ذلك الوقت من قبل أعدائهم و أحيانا من الآباء المشركين و الأمهات المشركات ضدّ أبنائهم المؤمنين.

فهذه الآيات تشجّع المسلمين على الثبات و الرجولة و الاستقامة أمام أمواج الضغوط من قبل الأعداء .. و إذا ورد الحديث فيها على الجهاد فالمراد منه- أيضا- الجهاد فى هذا المجال، لا الجهاد المسلّح الذى تقوم به الجماعة، فذلك شرّع فى المدينة.

و إذا ورد الحديث عن المنافقين فى هذه الآيات، فلعلّه إشارة إلى المسلمين الضعاف فى إيمانهم، الذى كان يتفق وجودهم بين المسلمين فى مكّة أحيانا ...

فتارة هم مع المسلمين و تارة مع المشركين، و كانوا يميلون مع الكفة الراجحة منهما.

و على كل حال، فارتباط الآيات بعضها ببعض و انسجامها توجب أن تكون هذه السورة «جميعها» مكية، و ما ذكرناه من الرّوايات المتقدمة المتناقضة فى ما بينها، لا يمكن أن تقطع هذا الارتباط!

التّفسير

الامتحان الإلهى سنة خالدة:

نواجه فى بداية هذه السورة الحروف المقطعة [ألف- لام- ميم أيضا .. و قد بيّنا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة[۲۳۴].

و بعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، و هى مسألة الشدائد و الضغوط و الامتحان الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۲

فيقول أوّلا: أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ [۲۳۵] ثمّ يذكر القرآن هذه الحقيقة- بعد الآية المتقدمة مباشرة، و هى أن الامتحان سنة الهية دائمية، فالامتحان لا يختص بكم- أيّها المسلمين- بل هو سنة جارية فى جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

و هكذا ألقينا بهم أيضا فى أفران الامتحانية الشديدة الصعبة ... و وقعوا أيضا- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساة و الجهلة المعاندين .. فساحة الامتحان كانت مفتوحة دائما، و اشترك فيها جماعة كثيرون.

و ينبغى أن يكون الأمر كذلك، لأنّه فى مقام الادعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنّه أشرف مجاهد و أفضل مؤمن و أكثر

الناس تضحية .. فلا بدّ من معرفة قيمة هذه الادعاءات بالامتحان، و ينبغى أن تعرف النيات و السرائر إلى أى مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.؟! أجل فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ

من البديهى أنّ اللّه يعرف جميع هذه الأمور جيدا- قبل أن يخلق الإنسان- إلّا أنّ المراد من العلم هنا هو التحقق العينى للمسائل .. و وجودها الخارجى، و بتعبير آخر: ظهور الآثار و الشواهد العملية .. و معناه أنّه ينبغى أن يرى علم اللّه فى هذه المجموعة عمليا فى الخارج، و أن يكون لها تحقق عينى، و أن يكشف كلّ عمّا فى نفسه و داخله ... هذا هو العلم حين يطلق على مثل هذه المسائل و ينسب إلى اللّه!.

و الدليل على هذه المسألة واضح- أيضا- لإنّ النيّات و الصفات الباطنية إذا لم تحقق فى عمل الإنسان و تكون عينيّة، فلا مفهوم للثواب و الجزاء و العقاب!.

و بعبارة أخرى: فإنّ هذا العالم مثله كمثل «المدرسة» أو «المزرعة»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۳

(و التشبيهات هذه واردة فى متون الأحاديث الإسلامية) و المنهج هو أن تتفتح الاستعدادات و تربّى القابليات و تكون فعلية بعد ما كانت بالقوّة.

و ينبغى أن تنمو البذور فى هذه المدرسة و أن تطلع البراعم من تحت الأرض فتحاط بالرعاية و العناية لتكون شجيرات صغيرة، ثمّ تكون أشجارا ذوات أصول قوية و أغصان و مثمرّة على تعاقب الزمن .. و هذه الأمور لا تكون إلّا بالامتحان و الاختبار.

و من هنا نعرف أن الامتحانات الإلهية ليست لمعرفة الأفراد، بل هى من أجل تربية الاستعدادات و رعايتها، لتتفتح و تكون بصورة أحسن.

فعلى هذا .. لو أردنا نحن أن نمتحن شيئا، فهو لأجل كشف المجهول، لكنّ امتحان اللّه ليس لكشف المجهول، لأنّه أحاط بكل شىء علما ... بل هو لتربية الاستعدادات و إيصال مرتبة «القوة» إلى «الفعل»[۲۳۶].

بحث

الامتحانات فى وجوه مختلفة:

و بالرّغم من أن بيان عمومية الامتحان لجميع الأمم و الأقوام كان له أثر كبير فعّال بالنسبة لمؤمنى مكّة، الذين كانوا يمثلون الأقلية فى ذلك العصر، و كان التفاتهم إلى هذه الحقيقة سببا فى وقوفهم بوجه الأعداء بصبر و استقامة ... إلّا أن ذلك لم يكن منحصرا فى مؤمنى مكّة، بل إن كل جماعة و طائفة لها نصيب من هذه السنة الإلهية فهم شركاء فيها، إلّا أن الامتحانات الإلهية لهم تأتى بصور مختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۴

فالجماعة الذين يعيشون فى محيط ملوث بالمفاسد و الوساوس تحيط بهم من كل جانب، فإن امتحانهم الكبير فى مثل هذا الجو و الظروف، هو أن لا يتأثروا بلون المحيط و أن يحفظوا أصالتهم و نقاءهم.

و الجماعة الذين يعيشون تحت ضغط الحرمان و الفقر، يرون بأنّهم لو صمموا على ترك رأس مالهم الأصيل «الإيمان» فإنّهم سرعان ما يتخلصوا من الفقر و الحرمان لكن ثمن ذلك هو فقدانهم للإيمان و التقوى و الكرامة و الحرية و الشرف، فهنا يكمن امتحانهم ..

و جماعة آخرون على عكس أولئك غرقى فى اللذائذ و النعم، و الإمكانات المادية متوفرة لديهم من جميع الوجوه ... ترى هل

يؤدون فى مثل هذه الظروف الشكر على النعم .. أم سيبقون غرقى فى اللذائذ و الغفلة و حب الذات و الأنانية ...

غرقى الشهوات و الاغتراب عن المجتمع و عن أنفسهم! و جماعة منهم كالمتغربين فى عصرنا، يرون بعض الدول بعيدة عن اللّه و الفضيلة و الأخلاق حقّا، و لكنّها تتمتع بالتمدن المادى المذهل و الرفاه الاجتماعى. هنا تجذب هؤلاء المتغرّبين قوّة خفية إلى سلوك هذا النوع من الحياة أو سحق جميع القيم و الأصول و الأعراف التى يعتقدون بها، و يبيعون أنفسهم أذلاء عملاء لتلك الدول، ليوفروا لهم و لمجتمعهم مثل هذه الحياة ... و هذا نوع آخر من الامتحان.

المصائب، و الآلام و الهموم، و الحروب و النزاعات، و القحط و الغلاء، و ما تثيره الحكومات الأنانية لتجذبهم إليها و تستعبدهم به و أخيرا الأمواج النفسية القوية و الشهوات، كلّ منها وسيلة للامتحان فى طريق عباد اللّه، و السائرين فى الميادين التى تتميز فيها شخصية الأفراد و تقواهم و إيمانهم و طهارتهم و أمانتهم و حريتهم .. إلخ.

و لكن لا طريق للانتصار فى هذه الامتحانات الصعبة لاجتيازها إلّا الجدّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۵

السعى المستمر، و الاعتماد على لطف اللّه سبحانه.

و من الطريف أنّنا نقرأ حديثا عن أحد المعصومين فى أصول الكافى فى تفسير الآية أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ يقول فيه:

«يفتنون كما يفتن الذهب، ثمّ قال يخلصون كما يخلص الذهب»[۲۳۷].

و على كل حال، فإن طالبى العافية الذين يظنون أنّ إظهار الإيمان كاف بهذا المقدار ليكونوا فى صفوف المؤمنين و فى أعلى عليين فى الجنّة مع النّبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين، فهم فى خطأ كبير.

و على حدّ تعبير

أمير المؤمنين عليه السّلام فى نهج البلاغة: «و الذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة و لتغربلن غربلة، و لتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم و أعلاكم أسفلكم»[۲۳۸].

قال عليه السّلام: هذا الكلام و الناس جديد و عهد ببيعته، و ينتظرون ما سيفعل ببيت المال، أ يقسمه حسب الجاه و المقامات بحسب المعايير السابقة، فيبعّض فى المال، فيعطى الكثير لبعضهم بحسب المقام، و القليل للبعض الآخر! .. أم سيسير معهم بالعدل المحمّدى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۶

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۴) مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ (۷)

التّفسير

لا مهرب من سلطان اللّه:

كـان الكلاـم فى الآيات السابقـة عن امتحان المؤمنين الشامل، و الآيـة الأولى من الآيات أعلاه تهديـد شديـد للكفار و المـذنبين، لئلا يتصوروا أنّهم حين يضـيّقون على المؤمنين و يضـغطون عليهم و لاـ يعـاقبهم اللّه فورا، فإنّ اللّه غافل عنهم أو عاجز عن عـذابهم، تقول الآية هذه: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ

فلا ينبغى أن يغرّهم إمهال اللّه إيّاهم فهو امتحان لهم، كما أنّه فرصة للتوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۷

و العودة إلى ساحة اللّه تعالى.

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ هذه الآية هى إشارة إلى المؤمنين المذنبين، فلا يناسب هذا التّفسير سياق الآيات بأى وجه، بل جميع القرائن تدل على أنّ المقصود بالآية هم المشركون و الكفار.

ثمّ يتحـدث القرآن مرّة أخرى عن سـير المؤمنين و مناهجهم، و يقدم النصح لهم، فيقول: مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فعليه أن يعمل ما فى وسعه على امتثال الأوامر الإلهية و الأحكام الشرعية، لأنّ الوقت المعيّن سيأتى حتما فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۲۳۹].

أجل، إنّ وعـد اللّه هـذا لا يقبل التخلّف، هو طريق لا بدّ من اجتيازه، ثمّ إنّ اللّه سـبحانه يسـمع أحاديثكم، و هو مطلع على أعمالكم و نيّاتكم ... لأنّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

و فى معنى قوله تعالى: لِقاءَ اللَّهِ و ما المقصود منه؟ فسّره بعض المفسّرين بملاقاة الملائكة، كما فسّره البعض بملاقاة الحساب و الجزاء .. و بعض بملاقـاة الحكم و أمر الحـق .. و آخرون بـأنّه كنايـة عن يوم القيامـة .. فى حين أنّه لاـ دليـل على أن تفسّـر هـذه الآيـة بهـذه المعانى المجازية.

و ينبغى القول أن «لقاء اللّه» فى يوم القيامة ليس لقاء حسيّا بل نوعا من الشـهود الباطنى، لأنّ الستائر الضخمة لعالم المادة تنكشف عن عين روح الإنسان، و تبـدو فى حالـة الشـهود للإنسان! و كما يقول العلامة الطباطبائى فى تفسـير الميزان: إنّ المقصود من لقاء اللّه، هو أنّ العبـاد يكونون فى موقف لاـ يكون بينهم و بين اللّه حجاب، لأنّ طبيعـة يوم القيامـة هى ظهور الحقائق كما يقول القرآن: وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۸

سورة النور الآية ۲۵[۲۴۰].

أمّـا الآيـة التى تليهـا، فهى- فى الحقيقـة- تعليـل لما سـبق بيانه فى الآيـة الآنفـة، إذ تقول: إن على المؤمنين الـذين يرغبون فى لقاء اللّه السـعى بما أوتوا من قـدرة و قابلية من أجل ذلك فإن نتيجة كل ذلك السـعى و الجهاد و تحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ

إن خطـة الامتحـان الالهى هى الجهاد، جهاد النفس و هواها، و جهاد الأعـداء الألـداء، لحفظ الإيمان و التقوى و الطهارة، و نفع ذلك يعود للإنسـان ... و إلّـا فـإنّ اللّه وجود غير متنـاه من جميع الوجوه، و غير مفتقر لأـى شـىء حتى يتم بواسـطة طاعـة النـاس أو عبادتهم جبرانه، و لا ينقصه شىء حتى يكمله الآخرون، فكل ما عندهم فمنه، و ليس لهم شىء من أنفسهم!.

و يتّضح هنا من هذا البيان أن الجهاد لا يعنى بالضـرورة جهاد العدوّ المسـلّح، بل يحمل معناه اللغوى الذى يشـمل كل أنواع السـعى و الجد لحفظ الإيمان و التقوى، و تحمل أنواع الشدائد، و المواجهات «الموضعية» للأعداء الألدّاء و الحاقدين.

و الخلاصة أنّ جميع منافع هذا الجهاد ترجع للشخص المجاهد نفسه، و هو الذى يفوز بخير الدنيا و الآخرة فى جهاده، و حتى إذا كان المجتمع يستفيد من بركات هذا الجهاد، فهو فى مرحلة أخرى بعده.

فعلى هذا، متى ما وفّق أى إنسان إلى الجهاد فنال نصيب منه، فعليه أن يشكر اللّه على هذه النعمة!.

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره فى الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد

فيقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۳۹

إذن أوّل فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير و هو الإيمان و العمل الصالح هى تكفير الذنوب و سترها على الإنسان، كما أن الثواب سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن فى نهاية هذه الآية أيضا: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ

كلمة «نكفّر» مشتقة من مادة «تكفير» و معناها فى الأصل التغطية و الستر، و المقصود بتغطية الذنوب هنا عفو اللّه و صفحه! و التعبير ب أَحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ مع أن اللّه يجزى على الأعمال الصالحة- حسنة كانت أم أحسن لعله إشارة إلى أنّنا نجازى جميع أعمالهم الصالحة و الحسنة بأحسن الجزاء، أى إذا كانت بعض أعمالهم أحسن و بعضها حسنا، فنحاسب الجميع بالأحسن، و هذا هو معنى تفضل اللّه سبحانه.

و فى آيات أخرى من القرآن، كالآية (۳۸) من سورة النور وردت الإشارة إلى ذلك أيضا لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۰

الآيتان [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۸ الى ۹]

اشارة

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (۹)

سبب النّزول

وردت روايات مختلفة فى شأن نزول الآية الآنفة الذكر، و مضمون الجميع واحد و هى أنّ بعض الرجال الذين كانوا فى مكّة و أسلموا[۲۴۱]، حين سمعت أمهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاما و لا يشربن ماء حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، و بالرغم من أن أية واحدة من هؤلاء الأمهات لم تف بقولها، و رجعت عن إضرابها عن الطعام، إلّا أنّ الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع أسلوب المعاملة بين الأبناء و الآباء و الأمهات، فى مجال الكفر و الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۱

التّفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين:

إنّ واحدا من أهم الامتحانات الإلهية، هى مسألة «التضاد» بين خط الإيمان و التقوى و بين علاقة العاطفية و القرابة .. و القرآن فى هذا المجال- يوضح وظيفة المسلمين بجلاء! فى البداية يتحدث عن قانون كلّى يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ

و بالرغم من أنّ هذا حكم تشريعى، و لكن هذه المسألة قبل أن تكون «لازما» تشريعيا، لها وجود فى فطرة الإنسان بشكل قانون

تكوينى. و خاصّة أن التعبير ب «الإنسان» هنا يلفت النظر .. فهذا القانون لا يختصّ بالمؤمنين، بل كلّ من كان جديرا بأن يحمل اسم الإنسان ينبغى أن يكون عارفا بحق الأبوين ...

و أن لا ينسى تكريمهما و احترامهما و الإحسان إليهما طيلة عمره .. و إن كان كل ذلك لا يفى بحقوقهما!.

بعد ذلك، و من أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أنّ العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمة على العلاقة بين الإنسان و ربّه و إيمانه، يأتى استثناء صريح- ليوضّح هذا الموضوع فى الآية، فيقول تعالى: وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما.

و التعبير ب جاهَداكَ مفهومه بذل قصارى جهدهما و إصرارهما و منتهى سعيهما للحيلولة بين الولد و بين الإيمان باللّه.

و التعبير ب ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إشارة إلى عدم منطقية الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحا واقعا لكان عليه دليل بيّن.

و بتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشىء فلا ينبغى أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم ببطلانه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۲

فهذا الاتباع هو اتّباع للجهل، فلو أن الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

و أساسا فإنّ التقليد الأعمى خطأ حتى و لو كان فى مورد الإيمان، فكيف إذا كان هذا التقليد للكفر و الشرك!.

و هذه الوصية وردت- أيضا- فى سورة لقمان مع اضافة وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً فمع عدم قبول دعوتهما للشرك، ينبغى عليك احترامهما و الإحسان إليهما و الارفاق بهما.

و لا ينبغى أن يتصور أحد أن وجوب مخالفة الأبوين فيما لو دعوا ولديهما الى الشرك دليل على جواز الاساءة لهما، فهذا يؤكّد منتهى تأكيد الإسلام على احترام الأبوين.

و بهذا- يستفاد من هذا المنطلق أصل كلى: أى إن شيئا لا يمكن أن يكون حاكما على علاقة الإنسان باللّه، لأنّها مقدمة على كل شىء، حتى على علاقته بأبويه التى هى أقرب العلائق إليه.

و

الحديث المعروف «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق»[۲۴۲].

.. الذى نقل عن أمير المؤمنين على عليه السّلام يعطينا معيارا واضحا لهذه المسائل!.

ثمّ يضيف تعالى فى نهاية الآية إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و أجازيكم دون غمط و نقص فى الثواب أو العقاب.

و هذه الجملة- فى الحقيقة تهديد لأولئك الذين يسيرون فى طريق الشرك، و الذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق .. لأنّها تقول بصراحة: إنّ اللّه يرى أعمالكم و يحفظهما ثمّ يعيدها إليكم «فى معادكم».

و الآية التى بعدها تؤكّد الحقيقة فى أولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، و تكرر هذا المضمون أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۳

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ

و أساسا فإنّ عمل الإنسان يترك فى الإنسان أثره .. فالعمل الصالح يصبغ الإنسان بلونه و يدخله فى زمرة «الصالحين».

كما أنّ العمل السىء يدخله فى زمرة «الخاطئين و المسيئين».

و لكن ما الغاية من هذا التكرار؟! قال بعضهم: فى الآيات السابقة إشارة إلى أولئك الذين يسلكون طريق الحق، أمّا هذه الآية فهى إشارة إلى أولئك الذين هم الأدلاء و الهداة الى طريق التوحيد، لأنّ التعبير ب «الصالحين» ورد فى كثير من الأنبياء، إذ كانوا يطلبون من اللّه أن يدخلهم فى الصالحين.

كما يحتمل أيضا، أنّ الكلام فى الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب و تكفير السيئات و ما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلّا أنّه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذى هو فى نفسه ثواب آخر! فهم فى صف الصالحين، صف الأنبياء و الصديقين و الشهداء، و هم

جلساؤهم و رفقاؤهم فی الجنان.

ملاحظة

الإحسان إلی الوالدین:

لیست هـذه هی المرّة الأولی التی یشیر فیها القرآن إلی هـذه المسألة الإنسانیة المهمّة، فقد أشار إلیها فی سورة الإسـراء الآیة (۲۳) من قبل، و سترد الإشارة إلیها بعد فی سورة لقمان الآیتین (۱۴) و (۱۵) و سورة الأحقاف الآیة (۱۵) أیضا.

و فی الحقیقة إنّ الإسـلام یدعو إلی احترام الوالدین فی أسـمی مراتبه، حتی مع کونهما مشـرکین، أو عند دعوتهما إلی الشـرک الذی هو أبغض الأشیاء فی نظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۴

الإسلام، فإنّ الإسلام یوجب احترامهما فی الوقت الذی یمنع من إطاعتهما فی قبول الشرک و الاستجابة إلی ذلک!.

و هذا فی الواقع واحد من الامتحانات الإلهیة العظیمة .. التی أشـیر إلیها فی بدایة هذه السورة، لأنّهما قد یبلغان من العمر أحیانا یصعب معه تحمّلهما .. فهنا ینبغی علی الأبناء أن یؤدوا امتحانهم فی مجال ردّ الإحسان و إطاعة أمر اللّه .. و أن یحافظوا علی والدیهما بأحسـن وجه!.

نقرأ

فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّ رجلا جاء إلیه فقال: «یا رسول اللّه، من أبرّ؟

قال: أمّک: قلت: ثمّ من؟ قال: أمّک. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أمّک. قلت: ثمّ من؟ قال: ثمّ أباک ثمّ الأقرب فالأقرب»[۲۴۳].

و

فی حدیث آخر- و هو وارد فی کثیر من الکتب- أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «الجنّة تحت أقدام الأمّهات»[۲۴۴].

فلا بدّ للوصول إلی الجنّة من الخضوع و التذلل فی مقابلها کتراب الأقدام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۵

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۱۰ الی ۱۳]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِیَ فِی اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ کَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَیَقُولُنَّ إِنَّا کُنَّا مَعَکُمْ أَ وَ لَیْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِی صُدُورِ الْعالَمِینَ (۱۰) وَ لَیَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ لَیَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِینَ (۱۱) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِلَّذِینَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِیلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطایاکُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِینَ مِنْ خَطایاهُمْ مِنْ شَیْءٍ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ (۱۲) وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَیُسْئَلُنَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ عَمَّا کانُوا یَفْتَرُونَ (۱۳)

التّفسیر

شرکاء فی الانتصار أمّا فی الشدّة فلا!

حيث أنّ الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين و المشركين بشكل صريح، ففى الآيات الأولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثّالث- أى المنافقين- فيقول القرآن فيهم: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ فلا يصبرون على الأذى و الشدائد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۶

و يحسبون تعذيب المشركين لهم و أذى الناس أنّه عذاب من اللّه وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فنحن معكم فى هذا الافتخار و الفتح.

ترى هل يظنون أن اللّه خفىّ عليه ما فى أعماق قلوبهم فلا يعرف نياتهم أ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ

و لعل التعبير ب «آمنا» بصيغة الجمع، مع أنّ الجملة التى تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أنّ هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم فى صف المؤمنين، فلذلك يقولون «آمنا» أى آمنا كسائر الناس الذين آمنوا.

و التعبير ب أُوذِيَ فِي اللَّهِ معناه أوذى فى سبيل اللّه، أى إنّهم قد يتعرض لهم العدوّ- أحيانا- و هم فى سبيل اللّه و الإيمان فيؤذيهم.

الطريف هنا أنّ القرآن يعبر عن مجازاة اللّه ب «العذاب» و عن إيذاء الناس ب «الفتنة» و هذا التعبير إشارة إلى أنّ إيذاء الناس ليس عذابا- فى حقيقة الأمر- بل هو امتحان و طريق إلى التكامل.

و بهذا فإنّ القرآن يعلمهم أن لا يقايسوا بين هذين النوعين «العذاب» و «الإيذاء» و لا ينبغى أن يتنصّلوا من «الإيمان» بحجّة أن المشركين و المخالفين يؤذيهم فإن هذا الإيذاء جزء من منهج الامتحان الكلى فى هذه الدنيا.

و هنا ينقدح سؤال و هو: أى نصر جعله اللّه حليف المسلمين و نصيبهم، ليدعى المنافقون أنّهم شركاء فى هذا النصر مع المسلمين؟! و نقول فى الجواب: إنّ الجملة الآنفة الذكر جاءت بصيغة «الشرط» و نعلم أنّ الجملة الشرطية لا دليل فيها على وجود الشرط، بل مفهومها هو أنّه لو اتفق أن كان النصر حليفكم فى المستقبل، فإنّ هؤلاء المنافقين- ضعاف الإيمان- يرون أنفسهم شركاء فى هذا النصر! إضافة إلى كل ذلك فإنّ المسلمين فى مكّة كانت لهم انتصارات على المشركين غير عسكرية بل انتصارات فى التبليغ و «الإعلام» و نفوذ فى الأفكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۷

العامة و توغّل الإسلام فى طبقات المجتمع ...

ثمّ بعد هذا كله فإنّ التعبير بالإيذاء مناسب لمحيط مكّة ... و إلّا فقلّ أن اتفق مثل هذا الإيذاء فى محيط المدينة.

و قد تنوّر و اتضح- ضمنا- هذا الموضوع الدقيق، و هو أن التعبير بالمنافق لا يختص بمن ليس فى قلبه ايمان إطلاقا و يدعى الإيمان، بل حتى الافراد من ضعاف الإيمان الذين يتراجعون عن عقيداتهم نتيجة الضغوط و التأثير بفلان و فلان فهؤلاء أيضا يعدون من المنافقين .. و الآية محل البحث- كما يظهر- تتحدث عن هذا النوع من المنافقين، و تصرح بأنّ اللّه مطلع على نيّاتهم و عليم بسرائرهم.

و فى الآية التالية- لمزيد التأكيد- يضيف القرآن قائلا: وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ

فلو تصوروا أنّهم إذا أخفوا الحقائق فإنّهم سيكونون فى منأى عن علم اللّه فهم فى خطأ كبير جدّا.

و نكرر هنا- مرّة اخرى أنّ التعبير بالمنافقين ليس دليلا على أنّ هذه الآيات نزلت فى المدينة، صحيح أنّ مسألة النفاق تقع عادة بعد انتصار جماعة و الاستيلاء على الحكومة .. حيث يغير المخالفون أقنعتهم و يعملون فى الخفاء حينئذ، إلّا أن للنفاق- كما قلنا- معنى واسع، و يشمل حتى الأفراد ضعاف الإيمان الذين يبدّلون عقيدتهم لأدنى مكروه يصيبهم.

و الآية الأخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوى و الملتوى، الذى لا يزال موجودا فى طبقات المجتمع الواسعة فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ ۲۴۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۸

و الیوم نری کثیرا من الخبثاء یقولون للآخرین عند دعوتهم إلی أمر: إن کان فیه ذنب فعلی رقابنا!.

فی حین أنّنا نعلم أنّه لا یمکن لأحد أن یتحمل وزر أحد، و أساسا فإنّ هذا العمل لیس معقولا و لیس منطقیا .... فاللّه عادل سبحانه و لا یؤاخذ أحدا بجرم الآخر.

ثمّ بعد کل ذلک فإنّ الإنسان لا تسقط عنه المسؤولیة فی العمل بمثل هذه الکلمات، و لا یمکن له التنصّل منها ... و خلافا لما یتوهمه بعض الحمقی فإنّ مثل هذه التعبیرات لا تنقص من عقابهم حتی بمقدار رأس الإبرة.

و لذلک فلا یعتدّ بمثل هذا الکلام فی أیة محکمة کانت و لا یقبل من المذنب أن یقول: إن فلانا تحمّل عنّی الوزر و جعله فی رقبته!.

صحیح أن ذلک الإنسان حثه علی الإجرام و دفعه إلی اقترافه، فهو شریکه، إلّا أن هذا الاشتراک فی الجریمة لا یخفّف عنه المسؤولیة!

لذلک فإنّ القرآن یقول بصراحة فی الجملة التالیة وَ ما هُمْ بِحامِلِینَ مِنْ خَطایاهُمْ مِنْ شَیْءٍ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ

هنا ینقدح السؤال التالی .. «إنّ الصدق و الکذب هما فی موارد الجمل الخبریة، فی حین أن هذه الجملة إنشائیة «و لنحمل خطایاکم» و لیس فی الجملة الإنشائیة صدق أو کذب، فلم عبّر القرآن عنهم بأنّهم «کاذبون»؟! و الجواب علی هذا السؤال یتّضح من البیان الذی ذکرناه سابقا، و هو أن الجملة الأمریة هنا تتحول إلی جملة شرطیة، و مفهومها أنّه إن اتبعتمونا حملنا خطایاکم و آثامکم، و مثل هذه الجملة تقبل الصدق و الکذب ۲۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۴۹

و بعد ذلک، و من أجل أن لا یتصور أن هؤلاء الدعاة للکفر و الشرک و عبادة الأصنام و الظلم، لا شیء علیهم من العقاب لهذا العمل، فإنّ القرآن یضیف فی الآیة التالیة قائلا: وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ

و ثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء و الإغواء و حث الآخرین علی الذنب، و هو ثقل السنّة التی عبّر عنها

النّبی صلّی اللّه علیه و آله فقال: «من سنّ سنة سیئة فعلیه وزرها و وزر من عمل بها من غیر أن ینقص من وزره شیء!»[۲۴۷].

المهم أنّهم شرکاء فی آثام الآخرین، و إن لم ینقص من وزر الآخرین و إثمهم مقدار من رأس الإبرة.

و تختتم الآیة بالقول: وَ لَیُسْئَلُنَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ عَمَّا کانُوا یَفْتَرُونَ

و ینقدح هنا سؤال آخر و هو: ما المراد من هذا الافتراء الذی یسألون عنه؟! و لعل ذلک إشارة إلی الافتراءات التی نسبوها إلی اللّه، و کانوا یقولون: «إن اللّه أمرنا أن نعبد الأصنام!».

أو أنّه إشارة إلی کلامهم الذی کانوا یقولون: «و لنحمل خطایاکم».

لأنّهم کانوا یدّعون أن مثل تلک الأعمال لا یترتب علیها إثم ... و إن هذا الکلام کان افتراء، و ینبغی أن یجیبوا علی ما یسألون بصدده! أو أنّه یقال لهم علی نحو الحقیقة و الواقع یوم القیامة: هلموا لتحملوا أثقال الآخرین، فیمتنعون من ذلک و یظهر کذبهم و افتراءهم .... أو أنّ ظاهر کلامهم کان یعنی أن کلّ إنسان یمکن أن یتحمل وزر الأخر و یکون مسئولا عنه، فی حین أن هذا الکلام کذب و افتراء محض أیضا، و کل إنسان مسئول عن عمله!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۰

مسألتان

۱- السنن الحسنة و السنن السیئة:

التخطيط لعمل ما- أو لمنهج ما- فى المنطق الإسلامى له أثره .. و يحمل صاحبه المسؤولية عنه- شاء أم أبى- و يكون مشاركا للآخرين الذين يعملون بما خططه و سنّه، لأنّ أسباب العمل هى من مقدمات العمل، و نعرف أن كل شخص يكون دخيلا فى مقدمة عمل إنسان آخر فهو شريكه أيضا، فحتى لو كانت المقدمة بسيطة، إلّا أن ذلك الشخص شريك مع ذى المقدمة.

و الشاهد على هذا الكلام حديث منقول عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و هو أن سائلا جاء و النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى طائفة من صحابته فطلب العون فلم يجبه أحد، ثمّ قام اليه رجل و ناوله شيئا فقام: الآخرون و رغّبوا فى إعانته

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «من سنّ خيرا فاستن به كان له أجره و من أجور من تبعه غير منتقص من أجورهم شيئا، و من سنّ شرّا فاستن به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا»[۲۴۸].

و قد ورد نظير هذا الحديث بعبارات مختلفة فى مصادر الحديث عند الشيعة و السنة و هو حديث مشهور.

۲- جواب على سؤال:

أثار بعضهم هنا هذا السؤال، و هو أنّنا نلاحظ أحيانا فى القوانين الإسلامية أن الدية تقع على شخص آخر ... فمثلا فى حالة قتل «الخطأ المحض» تقع الدية على العاقلة «و المراد بالعاقلة أقارب الرجل الذكور من طرف الأب ... الذين تتوزع فيما بينهم دية قتل الخطأ المحض، و يدفع كلّ منهم قسما حتى تتمّ الدية!».

أو ليست هنا منافاة بين هذه المسألة و بين الآيات المتقدمة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۱

و فى الجواب على هذا السؤال نقول: إنّ «ضمان العاقلة» فى الحقيقة نوع من التأمين الإلزامى المتقابل بين أعضاء العشيرة الواحدة.

فالإسلام- من أجل أن لا يتحمل الفرد الواحد العبء الثقيل للدية- ألزم أفراد العشيرة بأن يضمن بعضهم بعضا فى ديّة قتل الخطأ، و أن يقسموا المبلغ فيما بينهم فيدفع كل فرد منهم حصّة.

فقد يخطئ اليوم أحدهم، و غدا قد يرتكب هذا الخطأ شخص آخر من العشيرة ... «لمزيد الإيضاح نوكل المراجعة إلى الكتب الفقهية، بحث الديات».

و على كل حال، فإنّ هذا المنهج نوع من التعاون فى سبيل حفظ المنافع المتقابلة، و لا يعنى بأى وجه تحمل وزر الآخرين، خاصة و أنّ دية قتل الخطأ ليست أصلا جريمة ذنب، بل هى تعويض عن الخسارة! «فتأمل بدقّة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۲

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱۴ الى ۱۹]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (۱۴) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۱۵) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۷) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۸)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۹)

التّفسير

إشارة لقصتى نوح و إبراهيم:

لما كان الكلام فى البحوث السابقة عن الامتحانات العامّة فى الناس، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۳

الكلام هنا- و فى ما بعد- يقع على الامتحانات الشديدة للأنبياء، و كيف أنّهم كانوا تحت ضغط الأعداء و إيذائهم، و كيف صبروا و كانت عاقبة صبرهم النصر! ليكون هذا الكلام تسلية لقلوب أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله الذين كانوا تحت وطأة التعذيب الشديد من قبل الأعداء- من جانب- و تهديدا للأعداء لينتظروا عاقبتهم الوخيمة من جانب آخر.

تبدأ الآيات أوّلا بالكلام على أوّل نبى من أولى العزم و هو «نوح» عليه السّلام، و تتحدث عنه بعبارات موجزة، لتجمل قسما من حياته التى تناسب- كثيرا- الواقع الراهن للمسلمين- آنئذ- فتقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً.

كان نوح مشغولا ليل نهار بالتبليغ و دعوة قومه إلى توحيد اللّه- فرادى و مجتمعين، مستفيدا من جميع الفرص فى هذه المدة الطويلة (أى تسعمائة و خمسين عاما) يدعوهم إلى اللّه .. و لم يشعر بالتعب و النصب من هذا السعى المتتابع و لم يظهر عليه الضعف و الفتور.

و مع كل هذا الجهد الجهيد لم يؤمن به إلّا جماعة قليلة فى حدود الثمانين شخصا كما تنقل التواريخ (أى بمعدّل نفر واحد لكل اثنتى عشرة سنة!).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف و التعب فى سبيل الدعوة إلى الحق و مواجهة الانحرافات، لأنّ منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألدّاء: فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ

و هكذا انطوى «طومار» حياتهم الذليلة، و غرقت قصورهم و أجسادهم و آثارهم فى الطوفان و أمواجه.

و التعبير ب أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً مع إمكان القول «تسعمائة و خمسين سنة» من البداية، هو إشارة إلى عظمة المدة و طول الزمان، لأنّ عدد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۴

«الألف» و أىّ ألف؟ ألف سنة! يعدّ مهما و عددا كبيرا بالنسبة لمدّة التبليغ.

و ظاهر الآية الآنفة أنّ هذا المقدار لم يكن هو عمر نوح عليه السّلام بتمامه (و إن ذكر ذلك فى التوراة الحديثة، فى سفر التكوين الفصل التاسع) بل عاش بعد الطوفان فترة أخرى، و طبقا لما قاله بعض المفسّرين فقد كانت الفترة هذه ثلاثمائة سنة! طبعا ... هذا العمر الطويل بالقياس إلى أعمار زماننا كثير جدا و لا يعدّ طبيعيّا أبدا، و يمكن أن يكون ميزان العمر فى ذلك العصر متفاوتا مع عصرنا هذا ... و بناء على المصادر التى وصلت إلى أيدينا فإنّ قوم نوح كانوا معمرين، و عمر نوح بينهم أيضا كان أكثر من المعتاد، و يشير هذا الأمر ضمنا إلى هيئة تركيب أجسامهم كانت تمكّنهم من أن يعمّروا طويلا.

إنّ دراسات العلماء فى العصر الحاضر تدلّ على أن عمر الإنسان ليس له حد ثابت، و ما يقوله بعضهم بأنّه محدود بمائة و عشرين سنة، و أكثر أو أقل، فلا أساس له ... بل يمكن أن يتغير بحسب اختلاف الظروف.

و اليوم و بواسطة التجارب استطاع العلماء أن يضاعفوا عمر قسم من النباتات أو الموجودات الحيّة، إلى اثنى عشر ضعفا على العمر الطبيعى، و حتى فى بعض الموارد- و لا تتعجبوا- أو صلوا هذه الفترة للنباتات أو غيرها إلى تسعمائة مرّة ضعف عمرها الطبيعى ... و إذا حالفهم التوفيق فيمكنهم أن يضاعفوا عمر الإنسان، فيمكن أن يعمّر الإنسان عندئذ آلاف السنين.[۲۴۹] و ينبغى الالتفات ضمنا إلى أن كلمة «الطوفان» فى الأصل معناها كل حادثة تحيط بالإنسان، و هى مشتقّة من مادة «الطواف»، ثمّ استعمل هذا التعبير للماء الغزير أو

السيل الشديد الذى يستوعب مساحة كبيرة من الأرض و يغرقها، كما يطلق على كل شىء كثير و شديد و فيه حالة الاستيعاب، سواء كان ريحا أو نارا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۵

أو ماء، فيسمى كلّ منها طوفانا ... كما قد يرد بمعنى ظلمة الليل الشديدة أيضا.[۲۵۰] الطريف أنّ القرآن يقول: وَ هُمْ ظالِمُونَ أى إنّهم حين وقوع العذاب «الطوفان» كانوا لا يزالون فى ظلمهم أيضا.

و هذا إشارة إلى أنّهم لو تركوا تلك الأعمال، و ندموا على ما فعلوا، و توجّهوا إلى اللّه، لما ابتلوا بمثل هذه العاقبة أبدا.

و يضيف القرآن الكريم فى الآية الأخرى فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ ۲۵۱].

ثمّ يعقّب على قصّة نوح و قومه التى وردت بشكل مضغوط، و يأتى بقصّة إبراهيم عليه السّلام، ثانى الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۲۵۲].

هنا بيّن القرآن منهجين مهمّين من مناهج الأنبياء العملية و الاعتقادية، و هما الدعوة إلى توحيد اللّه و التقوى- فى مكان واحد- ثمّ يختتم القول: أن لو فكرتم جيدا لكان ذلك خيرا لكم عند اتباعكم لمذهب التوحيد و التقوى، إذ ينجيكم من دنياكم الملوّثة بالذنوب و الشقاء، و تكون آخرتكم هى السعادة الأبديّة.

ثمّ يذكر إبراهيم عليه السّلام أدلة بطلان عبادة الأصنام و الأوثان، و يبيّن فى تعابير مختلفة يتضمّن كل منها دليلا على فساد مذهبهم و بطلانه فيقول أوّلا: إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً.

هذه الأوثان هى الأصنام الخالية من الروح .. الأصنام التى ليس لها إرادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۶

و لا عقل، و هى فاقدة لكل شىء، بحيث أن شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان» (لاحظوا أن «الأوثان» هى جمع لكلمة «وثن» على زنة «صنم» و معناها «الحجارة المنحوتة» الموضوعة للعبادة!).

ثمّ يتوسع فى حديثه و يمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون و تضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً.

فأى دليل لديكم على هذا الكذب سوى حفنة من الأوهام و الخرافات الباطلة.

و حيث أن كلمة «تخلقون» مشتقّة من الخلق، و تعنى أحيانا الصنع و الإبداع، و أحيانا تأتى بمعنى الكذب، فإنّ بعض المفسّرين ذكر تفسيرا آخر لهذه الجملة غير ما بيّناه آنفا ... و قالوا إنّ المقصود من هذا التعبير هو أنّكم تنحتون هذه الأوثان ... المعبودات الباطلة المزوّرة بأيديكم، و تصنعونها (فيكون المراد من الإفك هنا هو المعبودات المزورّة) و الخلق هو النحت هنا[۲۵۳].

ثمّ يبيّن الدليل الثّالث و هو أن عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم فى «الأخرى» و كلا الهدفين باطل ... و ذلك: إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً.

و أنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو اللّه، فالذى يتكفل بالرزق هو اللّه فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

و لأنّه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ

و بتعبير آخر، فإن واحدا من أسباب العبادة و بواعثها هو الإحساس بالشكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۷

للمنعم الحقيقى، و تعرفون أن المنعم الحقيقى هو اللّه، فالشكر و العبادة يختصان- أيضا- بذاته المقدسة.

و إذ كنتم تبتغون الدار الأخرى فإنّه إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

فالأصنام لا تصنع شيئا هنا و لا هناك!.

و بهذا الأدلّة الموجزة و الواضحة ألجم منطقهم الواهى و أفحمهم.

ثمّ يلتفت إبراهيم عليه السّلام مهدّدا لهم و مبديا عدم اكتراثه بهم قائلا: وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزى بتكذيبهم و العاقبة الوخيمة وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ سواء استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته و بلاغه! و المقصود بالأمم قبل أمة إبراهيم عليه السّلام، أمة نوح عليه السّلام و ما بعده من الأمم و بالطبع فإنّ ارتباط هذه الآيات يوجب أن تكون هذه الجملة من كلمات إبراهيم عليه السّلام، و هذا ما يذهب إليه كثير من المفسّرين عند تفسيرهم للنص، أو يحتملون ذلك!.

و الاحتمال الآخر: إنّ الخطاب فى هذه الآية للمشركين من أهل مكّة المعاصرين للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و جملة كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ فيها تتناسب أكثر مع هذا الاحتمال.

أضف إلى ذلك، فإنّ نظير هذا التعبير الذى ورد فى الآية ۲۵ من سورة الزمر، و الآية (۲۵) من سورة فاطر، هو أيضا فى شأن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و المشركين العرب فى مكّة. و لكن- و على أى حال- أيّا من التّفسيرين كان ذلك، فليس هناك تفاوت فى النتيجة!.

و القرآن يترك قصّة إبراهيم هنا مؤقتا، و يكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد و بيان رسالته بدليل المعاد، فيقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۸

و المراد بالرؤية هنا هى الرؤية «القلبية» و العلم، أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق اللّه؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أولا قادر على إعادته أيضا، فالقدرة على شىء ما هى قدرة على أمثاله و أشباهه أيضا.

كما يأتى هذا الاحتمال، و هو أنّ الرؤية هنا هى الرؤية «البصيريّة» و المشاهدة بالعين ... لأنّ الإنسان يرى بعينيه كيف تحيا الأرض و تنمو النباتات، و تتولد الدجاجة من البيض، و الأطفال من النطف ... فمن له القدرة على هذا الأمر قادر على أن يحيى الموتى من بعد أيضا.

و يضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لأنّ تجديد الحياة قبال الإيجاد الأوّل يعدّ أمرا بسيطا.

و طبيعى أنّ هذا التعبير يناسب منطق الناس و فهمهم، و إلّا فإن اليسير و العسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة و المطلقة ... فهذه قدراتنا التى أوجدت مثل هذا «المفهوم»، و مع الالتفات إلى إنجازها ... ظهرت لدينا أمور يسيرة و أخرى عسيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۵۹

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۰ الى ۲۳]

اشارة

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲۰) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (۲۱) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۲۲) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۳)

التّفسير

الآيسون من رحمة اللّه:

هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضا، على صورة جمل معترضة فى قصّة إبراهيم عليه السّلام.

و ليست هـذه أوّل مرّة نواجه فيها مثل هـذا الأسـلوب ... فهـذه هى طريقـة القرآن دائما، فعنـد ما يبلغ مرحلـة حساسة من ذكر قصّة ما، يترك بقيّة القصّة مؤقتا للاستنتاج أكثر، ثمّ يعطى النتائج اللازمة.

و على كل حال، فإنّ القرآن يدعو فى الآية الأولى من هذا المقطع الناس إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۰

«السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أن الآية السابقة كانت السـمة فيها «السير فى الأنفس» أكثر! يقول القرآن: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ انظروا الى أنواع الموجودات الحية، و الأقوام و الأمم المتنوعة و المختلفة، و كيف أنّ اللّه تعالى خلقها أولا، ثمّ أن اللّه نفسه الذى أوجدها فى البداية من العدم قادر ايضا على إيجادها فى الآخرة ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ.

و لأنّه أثبت قدرته على كل شىء حين خلق الخلق أولا، إذن ف إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فهـذه الآية و الآية التى قبلها- أيضا- أثبتتا بواسـطة قدرته الواسـعة إمكان المعاد .. مع فرق أن الآية الأولى تتحدث عن الإنسان نفسه و خلقه و ما حوله! و الآيـة الثّانية تأمر بمطالعة حالات الأمم و الموجودات الأخرى، ليروا الحياة الأولى فى صور مختلفة و ظروف متفاوتة تماما، و ليطّلعوا على عموميّة قدرة اللّه، و ليستيقنوا قدرته على إعادة هذه الحياة!.

كما أن إثبات التوحيـد يتمّ- أحيانا- عن طريق مشاهدة «الآيات فى الأنفس» و أحيانا عن طريق «الآيات فى الآفاق» فكذلك يتمّ إثبات المعاد عن هذين الطريقين أيضا.

و فى عصـرنا هذا يمكن أن تبيّن هذه الآيات للعلماء معنى أعمق و أدق، و هو أن يمضوا و يلاحظوا الموجودات الحيّة الأولى التى هى فى أعمـاق البحار على شـكل فسائل و نباتات و غيرها، و فى قلب الجبال، و بين طبقات الأرض، و يطلعوا على جانب من أسـرار بـداية الحياة على وجه الأرض، و يدركوا عظمة اللّه و قدرته، و ليعلموا أنّه قادر على إعادة الحياة أيضا[۲۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۱

هذا و إن كلمة «النشأة» فى الأصل، تعنى إيجاد الشـىء و تربيته، و قد يعبر أحيانا عن الدنيا بالنشأة الأولى، كما يعبر عن الأخرى بالنشأة الآخرة!.

و هـذه اللطيفـة جديرة بالملاحظة، و هى أنّ فى ذيل الآيات السابقة ورد التعبير «إن ذلك على اللّه يسير» و ورد التعبير هنا إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لعل منشأ التفاوت و الاختلاف هو أن الآية الأولى تعالج مطالعة محدودة، أمّا الثّانية فتعالج و تبيّن مطالعة وسيعة جدّا.

ثمّ يتعرض القرآن الكريم إلى إحـدى المسائل المتعلقـة بالمعاد، و هى مسألـة الرحمـة و العـذاب، فيقول: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ

و مع أنّ رحمـة اللّه مقدمـة على غضـبه، إلّا أن الآيـة هنا تبـدأ أولا بـذكر العـذاب ثمّ الرحمة، لأنّها فى مقام التهديد، و ما يناسب مقام التهديد هو هذا الأسلوب!.

هنا ينقدح السؤال التالى:

كيف يتحـدث القرآن أوّلا عن العـذاب و الرحمـة، ثمّ يتحدث عن معاد الناس إليه وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ فى حين أن القضـية على العكس من ذلك، ففى البدايـة يحضـر الناس عنـد ساحته، ثمّ يشـملهم العـذاب أو الرحمـة .. و ربّما كان هذا هو السـبب فى أن يعتقد بعضـهم أن العذاب و الرحمة المذكورين هنا هما فى هذه الدنيا.

و نقول جوابا على مثل هـذا السؤال: إن العـذاب و الرحمـة- بقرينـة الآيات السابقة و اللاحقة- هما عذاب القيامة و رحمتها، و جملة وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ إشـارة إلى الـدليل على ذلـك: أى: بما أنّ معادكم إليه و كتابكم و حسابكم لـديه، فالعـذاب و الرحمـة- أيضا- بإرادته و

تحت أمره!.

و لا يبعد أن يكون العذاب و الرحمة فى هذه الآية لهما معنى واسع، بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۲

يشمل العذاب و الرحمة فى الدارين.

كما يتّضح أنّ المراد بقول: مَنْ يَشاءُ هو المشيئة الإلهية المقرونة بحكمته، أى كل من كان جديرا و مستحقا لذلك .. فإن مشيئة اللّه ليست عبثا، بل منسجمة مع الاستحقاق و الجدارة!.

و جملة «تنقلبون» من مادة «القلب» و معناها فى الأصل: تغيير الشىء من صورة إلى صورة أخرى، و حيث أن الإنسان فى يوم القيامة يعود إلى هيئة الموجود الحى الكامل بعد أن كان ترابا لا روح فيه، فقد ورد هذا التعبير فى إيجاده ثانية أيضا.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة- أيضا- و هى أن الإنسان يتبدل فى الدار الأخرى و يتغيّر تغيرا ينكشف باطنه به و تتجلى أسراره الخفية، و بهذا فهى تنسجم مع الآية (۹) من سورة الطارق يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ.

و إكمالا لهذا البحث الذى يبيّن أن الرحمة و العذاب هما بيد اللّه و المعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان اللّه و حكومته و لا يمسّكم عذابه، فأنتم فى خطأ كبير ... فليس الأمر كذلك! وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ[۲۵۵].

و إذا كنتم تتصورون أنّكم تجدون من يدافع عنكم و ينصركم هناك، فهذا خطأ محض أيضا وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

و فى الحقيقة، فإنّ الفرار من قبضة اللّه و عذابه، إمّا بأن تخرجوا من حكومته، و إمّا بأن تعتمدوا مع بقائكم فى حكومته على قدرة الآخرين لتدافعوا عن أنفسكم، فلا الخروج ممكن، لأنّ البلاد كلّها له و عالم الوجود كلّه ملكه الواسع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۳

و لا يوجد أحد يستطيع أن يقف أمام قدرته و ينهض للدفاع عنكم.

يبقى هنا سؤالان:-

أوّلا: مع الالتفات إلى هذه الحقيقة، و هى أن مقصود الآية هو فى الكفار و المشركين، و هم سكنة الأرض، فما معنى قوله تعالى: وَ لا فِي السَّماءِ و أى مفهوم له هنا؟! و ينبغى أن يقال فى الجواب، أن هذا التعبير هو نوع من التأكيد و المبالغة، أى إنكم لا تستطيعون أن تخرجوا من قدرة اللّه و سلطانه فى هذه الأرض، و لا فى السماوات، إذ حتى لو فرضنا أنّكم تستطيعون أن تصعدوا فى السماء، فما زلتم تحت قدرته و سلطانه.

أو إنّه: لا تستطيعون أن تعجزوا اللّه فى مشيئته بواسطة من فى الأرض، و لا بواسطة من تعبدون فى السماوات، من أمثال الملائكة و الجن (و التّفسير الأوّل أكثر مناسبة- طبعا-) ثانيا: ما الفرق بين الولى و النصير؟! يرى العلامة «الطبرسى» فى «مجمع البيان» و قيل: إن الولى الذى يتولى المعونة بنفسه و النصير يتولى النصرة تارة بنفسه بأن يأمره غيره به»[۲۵۶].

بل يمكن القول مع ملاحظة الكلمتين هاتين، أن الولى إشارة إلى من يعيّن دون طلب (من عليه الولاية)، و النصير هو المستصرخ الذى يأتى لإعانة الإنسان بعد استصراخه.

و هكذا يغلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين ..

لذلك يقول فى الآية التى بعدها بشكل قاطع: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۴

ثمّ يضيف مؤكدا: وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة اللّه.

و المراد ب «ايات اللّه» إمّا هى «الآيات التكوينية» أى آثار عظمة اللّه فى نظام خلقه و إيجاده، و فى هذه الصورة فهى إشارة إلى مسألة التوحيد، فى حين أن كلمة «لقائه» إشارة إلى مسألة المعاد، أى إنّهم منكرون للمبدأ و للمعاد كليهما.

أو أنّ المراد من آيات اللّه هى «الآيات التشريعية» أى هى الآيات التى أنزلها اللّه على أنبيائه، التى تتحدث عن المبدأ و عن النبوة و عن المعاد، و فى هذه الحال يكون التعبير ب «لقائه» من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كما يمكن أن يكون المقصود من آيات اللّه هى جميع الآيات فى عالم الوجود و التشريع.

و ينبغى ذكر هذه المسألة- أيضا- و هى أن «يئسوا» فعل ماض و الهدف منه هو الاستقبال- أى فى يوم القيامة- و العرب عادة إذا تحدثوا عن أمر مستقبلى بصورة التأكيد عبروا عنه بصيغة الماضى، للدلالة على تحققه قطعا و حتما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۵

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۴ الى ۲۷]

اشارة

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۲۴) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۲۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۶) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (۲۷)

التّفسير

أسلوب المستكبرين فى جوابهم لإبراهيم:

و الآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضّالون لإبراهيم عليه السّلام ردّا على أدلته الثّلاثة فى مجال التوحيد و النّبوة و المعاد؟! إنّهم- قطعا- لم يكن لديهم جواب منطقى و كجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسّلوا بقدراتهم الشيطانية و أصدروا أمرا بقتله، حيث يصرّح بذلك القرآن الكريم فيقول: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۶

و يستفاد من هذا التعبير أن جماعة كانوا يميلون إلى حرق إبراهيم بالنّار، فى حين كانت جماعة أخرى تقترح أن يقتل بالسيف أو ما شاكله! و أخيرا رجح الرأى الأوّل، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ أشدّ حالات الإعدام هو الإحراق بالنّار.

كما و يحتمل أيضا أنّهم جميعا كانوا يفكرون فى قتله بالوسائل الطبيعية، غير أنّهم اتفقوا أخيرا على إحراقه بالنّار، و أن يبذلوا قصارى جهدهم فى هذا الأمر.

و فى هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السّلام بالنّار سوى هذا المقدار الذى استكملت به الآية الكريمة، و هو فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ.

غیر أن تفصیل ما جری علیه من الإحراق ورد فی سورة الأنبیاء (الآیات ۶۸- ۷۰) و قد بیّنا ذلک هناک، فلا بأس بمراجعته! و یضیف القرآن فی الختام إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ

و لم تکن علامة و آیة واحدة فی هذا الصدد و فی هذه الحادثة، بل علائم و آیات ... فمن جانب فإنّ عدم تأثیر النّار فی جسد إبراهیم بنفسه معجزة واضحة، و تبدل النّار إلی روضة و «سلام» علی إبراهیم کما هو معروف معجزة أخری، و عدم استطاعة هذه الجماعة القویة التغلب علی شخص واحد- و هو أعزل من کل وسیلة بحسب الظاهر- کان معجزة ثالثة أیضا.

کما أنّ عدم تأثیر هذا الحادث العجیب الخارق للعادة فی أولئک المظلمة قلوبهم، آیة من آیات اللّه، إذ یسلب التوفیق من أمثال هؤلاء الأفراد المعاندین الألدّاء، بحیث لا تؤثر فیهم أعظم الآیات!.

و قد ورد فی بعض الرّوایات أنّه لما القی بإبراهیم الخلیل مکتوف الیدین و الرجلین فی النّار، فإن الشیء الوحید الذی احترق منه هو الحبل الذی کان مشدودا و موثقا به ۲۵۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۷

أجل، إنّ نار الجهل و جنایة المنحرفین إنّما أحرقت وسائل الأسر، فتحرر إبراهیم علیه السّلام منها ... و هذه بنفسها تعدّ آیة أخری.

و ربّما کان- لهذه الأسباب- أن عبّر القرآن عن قصّة نوح و سفینته بقوله:

جَعَلْناها آیَةً بصیغة الإفراد، و لکنّه عبّر هنا بقوله: لَآیاتٍ بصیغة الجمع!.

و علی کل حال فإنّ ابراهیم علیه السّلام نجّی من النّار بصورة خارقة للعادة و بلطف اللّه سبحانه، غیر أنّه لم یترک أهدافه .. بل نهض بالأمر و ازداد همّة و أعطی لأهدافه حرارة أکثر.

ثمّ توجه إبراهیم إلی المشرکین وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَیْنِکُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا و لکن هذه المودّة و المحبّة تتلاشی فی الآخرة ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ یَکْفُرُ بَعْضُکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُکُمْ بَعْضاً وَ مَأْواکُمُ النَّارُ وَ ما لَکُمْ مِنْ ناصِرِینَ

کیف تکون الأوثان أساسا للمودّة بین عبدة الأوثان؟! هذا السؤال یمکن الإجابة علیه من عدّة طرق:

الأوّل: أن عبادة الصنم أو الوثن کانت رمزا للوحدة لکل قوم و لکل قبیلة، لأنّ کل جماعة اختارت لنفسها وثنا، کما ذکروا فی شأن أصنام الجاهلیة، إذ کان کل صنم یعود لقبیلة من القبائل العربیة، فصنم «العزّی» کان لقریش، و «اللّات» کان خاصا بثقیف، أمّا «منات» فکان خاصا بالأوس و الخزرج!.

الثّانی: أن عبادة الأوثان تربط بینهم و بین أسلافهم و غالبا ما کانوا یعتذرون بمثل هذا العذر و یقولون: إنّ هذه الأوثان کان علیها السلف و نحن نتبع السلف و نمضی علی دین آبائنا.

ثمّ بعد هذا کلّه فإنّ سراة[۲۵۸] الکفار کانوا یدعون أتباعهم إلی عبادة الأوثان، و کان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بین السراة و الأتباع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۸

و لکن هذه العلائق و الوشائج و الارتباطات الخاویة تتقطع جمیعها یوم القیامة، و کل فرد یلقی التبعة و الذنب علی رقبة الآخر، و یلعنه و یتبرأ منه و من عمله، حتی المعبودات التی کانوا یتصورون أنّها الوسیلة إلی اللّه، و کانوا یقولون فی شأنها ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِیُقَرِّبُونا إِلَی اللَّهِ زُلْفی [۲۵۹]- تتبرأ منهم.

و کما یصوّر القرآن هذه الحالة فی سورة مریم الآیة ۸۲ یقول: کَلَّا سَیَکْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ یَکُونُونَ عَلَیْهِمْ ضِدًّا.

فعلی هذا، یکون المراد من قوله تعالی: یَکْفُرُ بَعْضُکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُکُمْ بَعْضاً هو أنّهم یتبرأ بعضهم من بعض فی ذلک الیوم، و ما کان أساسا لعلاقة المودة الکاذبة فی الدنیا یکون مدعاة للعداوة و البغضاء فی الآخرة .. کما یعبّر القرآن عن ذلک فی الآیة (۶۷) من سورة الزخرف فیقول: الْأَخِلَّاءُ یَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِینَ

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذا الحكم غير مختص بعبدة أوثان، بل هو لجميع أولئك الذين اختاروا «إماما باطلا» لأنفسهم، فاتبعوه و تعاهدوا معه على المودة، ففى يوم القيامة يكونون أعداء فيما بينهم، و يتبرأ بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا.[۲۶۰] فى حين أنّ علاقة المحبّة بين المؤمنين قائمة على أساس التوحيد و عبادة اللّه و إطاعة أمر الحق فى هذه الدنيا و هذه العلاقة سيكتب لها الدوام، و فى الآخرة تكون أكثر تماسكا .. حين إنّه يستفاد من بعض الروايات أنّ المؤمنين يستغفر بعضهم لبعض و يتشفع بعضهم لبعض فى يوم القيامة .. فى وقت يتبرأ فيه المشركون بعضهم من بعض و يلعن بعضهم بعضا[۲۶۱].

و فى الآية التى بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط و هجرة إبراهيم، إذ تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۶۹

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ.

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، و كانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السّلام» و حيث أن اتّباع شخص عظيم- لإبراهيم- بمنزلة أفراد امّة كاملة فقد تحدث سبحانه- خاصة- عن إيمان «لوط» و شخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السّلام، ليتّضح أنّه إذ لم يؤمن الآخرون، فإنّ ذلك ليس مهمّا.

و يبدوا أنّه كانت فى أرض بابل قلوب مهيأة لقبول دعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام، و قد التفوا حوله بعد مشاهدة تلك المعجزة العظيمة، غير أنّه من المسلّم به أنّهم كانوا «أقليّة».

ثمّ تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و من الوضوح بمكان أنّه حين يؤدى القادة الإلهيون رسالتهم فى محيط ما، و يكون هذا المحيط ملوّثا و تحت تأثير الجبابرة، بحيث لا تتقدّم دعوتهم أكثر، فينبغى أن يهاجروا إلى منطقة أخرى لتتسع دعوة اللّه فى الأرض!.

فلذلك تحرك ابراهيم عليه السّلام و زوجه سارة- بمعيّة لوط- من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء و التوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك و يوسع دعوة التوحيد!.

من الطريف أنّ إبراهيم عليه السّلام يقول فى هذا الصدد: إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي لأنّ ذلك الطريق كان طريق اللّه، طريق رضاه، و طريق دينه و منهاجه.

و بالطبع فإنّ بعض المفسّرين احتمل أن يكون الضمير فى قوله تعالى: وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ عائد على لوط عليه السّلام، أى إنّ لوطا قال: إنّى مهاجر إلى ربّى، و ظاهر الجملة منسجم مع هذا المعنى أيضا، إلّا أن الشواهد التاريخية تدلّ على أن الضمير يعود على إبراهيم عليه السّلام، و كانت هجرة لوط بمعية إبراهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۰

و الشاهد على هذا الكلام قول إبراهيم عليه السّلام فى الآية (۹۹) من سورة الصافات إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ [۲۶۲] و فى آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التى منحها اللّه لإبراهيم عليه السّلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الأولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق و يعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان و النّبوة فى بيته و أسرته و يحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ و هما نبيّان كبيران واصل كلّ منهما السير على منهاج إبراهيم عليه السّلام محطم الأصنام.

الموهبة الثّانية: وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ و لم تكن النّبوة فى إسحاق بن إبراهيم و يعقوب حفيده فحسب، بل استمر خط النّبوة فى ذريّة إبراهيم عليه السّلام و أسرته حتى نبوّة خاتم الأنبياء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم متعاقبون من ذرية إبراهيم، نوّروا العالم بضياء التوحيد.

الموهبة الثّالثة: وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا فما هو هذا الأجر الذى لم يوجهه القرآن؟ لعله إشارة إلى أمور مختلفة مثل الاسم الحسن، و لسان الصدق و الثناء بين جميع الأمم، لأنّ الأمم كلها تحترم ابراهيم عليه السّلام على أنّه نبى عظيم الشأن، و يفتخرون بوجوده و

يسمونه «شيخ الأنبياء».

عمارة أرض مكّة كانت بدعائه، و جذب قلوب الناس جميعا نحوه، لتتذكر ذكريات التجلى و الإيمان كل سنة فى مناسك الحج، كل ذلك من هذا الأجر المشار اليه فى القرآن.

الموهبة الرّابعة: هى إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ و هكذا تشكّل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۱

المواهب مجموعة كاملة من المفاخر.

ملاحظتان

۱- أكبر الفخر! ...

«الدخول فى الصالحين» بالشكل الذى يستنتج من كثير من آيات القرآن هو أوج الفخر، و قد يحظى به انسان معين فيكون من نصيبه. و لذلك فإنّ كثيرا من الأنبياء كانوا يسألون اللّه أن يدخلهم فى زمرة عباده الصالحين.

فيوسف عليه السّلام بعد وصوله إلى أبرز الانتصارات الظاهرية يسأل اللّه فيقول:

تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [۲۶۳] و كذلك نبىّ اللّه سليمان عليه السّلام مع ما لديه من جاه و حشمة و جلالة، يطلب من اللّه أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ ۲۶۴] و شعيب عليه السّلام، ذلك النّبى العظيم، حين وقع العقد على استئجار موسى قال له: سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ [۲۶۵] و إبراهيم عليه السّلام أيضا يطلب لنفسه من اللّه أن يكون فى زمرة الصالحين رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [۲۶۶] كما يطلب من اللّه أن يرزقه أبناء صالحين فيقول: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [۲۶۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۲

كما نلاحظ فى كثير من الآيات أن اللّه سبحانه حين يمدح أنبياءه العظام فى كتابه، يصفهم بأنّهم «من عباده الصالحين».

و يستفاد من مجموع هذه الآيات- بصورة جيدة- أن أسمى مراحل تكامل الإنسان هو أن يكون عبدا صالحا.

ما معنى الصلاح؟! و بعبارة أجلى: ما معنى أن يكون الإنسان صالحا؟! معناه: أن يكون جديرا بالاعتقاد و الإيمان، جديرا بالعمل، جديرا بالقول، جديرا بالأخلاق! أمّا ما يقابل الصالح فهو الفاسد، و نعرف أن «الفساد فى الأرض» تعبير يشمل جميع أنواع الظلم و الأعمال السيئة.

و فى القرآن الكريم يستعمل الصلاح- أحيانا- فى مقابل الفساد، و يستعمل- أحيانا- فى مقابل السيئة، و تعنى «الذنب» و ما لا يليق.

۲- مواهب إبراهيم العظيمة

قال بعض المفسّرين: إنّ فى الآية الآنفة لطيفة دقيقة .. هى أنّ اللّه بدل جميع الأمور و الأحوال التى تؤدى بإبراهيم إلى الاستياء، إلى الضدّ.

فعبدة الأوثان فى بابل أرادوا إحراقه بالنّار، فتبدلت روضة و سلاما.

و أرادوه أن يبقى منفردا معزولا عن الناس، فوهب اللّه له أمّة عظيمة و جعل النّبوة فى ذراريه.

و كان بعض أقاربه ضالا و عابدا للصنم كما هى الحال فى «آزر» فأعطاه اللّه مكانه أبناء مهتدين و هادين للآخرين.

و لم يكن لإبراهيم عليه السّلام فى بداية حياته مال و لا جاه، فوهب له اللّه مالا و جاها عظيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۳

و كان إبراهيم عليه السّلام فى بداية أمره مجهولا- لا يعرفه الناس حتى أن عبدة الأوثان فى بابل حين أرادوا تعريفه قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ

لكن اللّه سبحانه رفع مقامه و أعلى صيته، حتى أنّه إذا ذكر قيل فى حقّه «شيخ الأنبياء» أو «شيخ المرسلين»[۲۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۴

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۲۸) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۹) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (۳۰)

التّفسير

المنحرفون جنسيا:

بعد بيان جانب ممّا جرى لإبراهيم عليه السّلام يتحدث القرآن عن قسم من قصّة حياة النّبى المعاصر لإبراهيم «لوط» عليه السّلام فيقول: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ [۲۶۹] «الفاحشة» كما بيناها من قبل، مشتقّة من مادة «فحش» و هى فى الأصل تعنى كل فعل أو كلام سيء للغاية، و المراد بها هنا الانحراف الجنسى. (اللواط).

و يستفاد من جملة ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ بصورة جليّة أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۵

هذا العمل السيء و المخزى لم يسبق له- على الأقل بشكل عام و جماعى- أن يقع فى أية أمة أو قوم كما وقع فى قوم لوط.

ذكروا فى أحوال قوم لوط أن واحدا من عوامل تلوثهم بهذا الذنب هو أنّهم كانوا قوما بخلاء جدا، و لمّا كانت مدنهم على قارعة الطريق التى تمرّ بها قوافل الشام، فقد كانوا يظهرون هذا العمل «الانحراف» لبعض ضيوفهم أو العابرين لينفروهم و كى لا يضيفوهم، إلّا أنّهم تعودوا على هذا العمل القبيح، و قويت فيهم رغبة اللواط، فسقطوا فى الوحل المخزى شيئا فشيئا.

على كل حال، سينؤون بحمل ذنوبهم و ذنوب من يعمل عملهم، دون أن ينقص من ذنوب الآخرين شيء أبدا و ليحملن أثقالهم و أثقالا مع أثقالهم!.

لأنّهم كانوا مؤسسى هذه السنة المشؤومة، و نحن نعرف أن من سنّ سنة ما فهو شريك فى عمل من يعمل بها أيضا.

لوط عليه السّلام هذا النّبى العظيم، كشف أخيرا ما فى نفسه و قال لقومه أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ أ فتريدون أن تقطعوا النسل وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ ۲۷۰].

و لا ترعوون عن الأعمال المخزية فى مجالسكم العامة وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ.

«النادى» مشتق من «النداء» و هو يعنى المجلس العام، كما يأتى أحيانا بمعنى مكان التنزّه، لأنّ الأفراد هناك ينادى بعضهم بعضا و

ترتفع أصواتهم.

و القرآن لم يبيّن هنا بتفصيل أية منكرات كانوا يأتونها فى مجالسهم و نواديهم .. لكنّها قطعا كانت متناسبة مع عملهم السيء المخزى .. و كما ورد فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۶

بعض التواريخ، فإنّهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش و الابتذال، أو يضرب أحدهم الأخر على ظهره. أو يلعبون القمار، و أو يعبثون كالأطفال و خاصة الترامى بالحجارة الصغيرة فيما بينهم أو على العابرين، و يستعملون أنواع الآلات الموسيقية، و يكشفون عوراتهم فى مجتمعهم و يغدون عراة ... إلخ ۲۷۱].

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله كما تنقله «أم هانى» أنّه قال مفسرا لمعنى:

وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ أنّهم «كانوا يخذفون من يمرّ بهم و يسخرون منه»[۲۷۲] أى يرمون من يمرّ بهم بالحجارة و يسخرون منه.

و الآن فلنلاحظ ما ذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النّبى لوط عليه السّلام المنطقية.

يقول القرآن: فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

أجل هكذا، كان جواب هؤلاء المفتونين فاقدى العقل و الدراية إذ أجابوا به من منطلق السخرية و الاستهزاء إزاء دعوة لوط عليه السّلام المنطقية و المعقولة.

كما يستفاد جيدا من هذا الجواب أنّ لوطا عليه السّلام كان قد هدّدهم بعذاب اللّه، بالإضافة إلى كلامه البيّن ذى الدليل الواضح فى ما لو استمروا بهذا العمل القبيح، إلّا أنّهم تركوا جميع مواعظه و تمسكوا بتهديده بالعذاب، فقالوا: ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ على سبيل الاستهزاء و السخرية!! ... كما أشير إلى هذا الموضوع فى سورة القمر الآية (۳۶) بقوله تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ.

و يستشف- ضمنا- من تعبير هؤلاء القوم أنّهم كانوا يريدن أن يستنتجوا من عدم نزول العذاب على كذب لوط عليه السّلام، فى حين أن رحمة اللّه هى التى تمهلهم و تعطيهم الفرصة لمراجعة أنفسهم و إعادة النظر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۷

و هنا لم يكن للوط عليه السّلام بدّ إلّا أن يلتفت إلى اللّه بقلب حزين مهموم ... و قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ

القوم المنحرفين، المتمادين فى الأرض فسادا، و الذين تركوا تقواهم و أخلاقهم الإنسانية و ألقوا العفة و الطهارة خلف ظهورهم، و سحقوا العدل الاجتماعى تحت أقدامهم، و مزجوا عبادة الأوثان بفساد الأخلاق و الظلم، و هددوا نسل الإنسان بالفناء و الزوال، فيا ربّ انصرنى على هؤلاء القوم المفسدين.

ملاحظة

بلاء الانحراف الجنسى:

الانحراف الجنسى- سواء كان فى أوساط الرجال «اللواط» أم فى أوساط النساء «المساحقة»- لهو من أسوأ الانحرافات الأخلاقية، و مصدر المفاسد الكثيرة فى المجتمع.

و أساسا فإنّ طبيعة «كلّ من الرجل و المرأة» مخلوقة بشكل يمنح الهدوء و الإشباع الصحيح السالم فى العلاقة الجنسية بين الرجل و المرأة «عن طريق الزواج المشروع» و أى نوع من الميول الجنسية فى غير هذه الصورة هو انحراف عن طبع الإنسان الصحيح، و هو نوع من الأمراض النفسيّة الذى لو قدّر له أن يستمرّ لاشتد خطره يوما بعد يوم، و تكون نتيجته البرود الجنسى بالنسبة ما بين الرجل و المرأة،

و الإشباع غير الصحيح من «الجنس المماثل» أى «اللواط» أو «السحاق».

و لهذا النوع من العلائق غير المشروعة أثر مدمّر فى جهاز البدن، بل حتى فى سلسلة الأعصاب و الروح. إذ يسقط الرجل من رجولته و المرأة من أنوثتها!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۸

بحيث أن أمثال هؤلاء الرجال و النساء المنحرفين جنسيا يبتلون بضعف جنسى شديد، و لا يستطيعون أن يكونوا آباء و أمهات صالحين لأبنائهم فى المستقبل، و ربّما كانوا غير قادرين حتى على الإنجاب بصورة كلية «بسبب هذا الانحراف».

إن المنحرفين جنسيا يغدون بالتدريج منزوين منعزلين عن المجتمع، و يحسون بالغربة فى مجتمعهم و فى أنفسهم أيضا، كما يبتلون بنفصام الشخصية، و إذا لم يهتموا بإصلاح أنفسهم، فمن الممكن أن يبتلوا بأمراض جسمية و نفسية مختلفة.

و لهذا السبب- و لأسباب أخلاقية و اجتماعية أخرى- حرّم الإسلام الانحراف الجنسى تحريما شديدا بأى شكل كان و فى أية صورة، كما قرر للذى يقوم بهذا العمل عقابا صارما يبلغ أحيانا إلى درجة الإعدام و القتل!.

و الموضوع المهم هو أن الانفلات الاخلاقى و التميّع الجنسى و الابتذال للعالم المتمدن و الحضارة المادية قد جرّت كثيرا من الفتيان و الفتيات إلى الانحراف الكبير.

فى البداية يرغّبون الفتيان فى أن يلبسوا ثياب النساء و أن يظهروا بمظهر خاص، و يدعون النساء أن يلبسن ثياب الرجال، و تبدأ من هنا قضية الانحراف الجنسى حتى تصل إلى أقبح الأعمال الوقحة فى هذا المجال، و تأخذ شكلا قانونيا بحيث يعدون هذا الأمر عاديا لا يستحق أى نوع من العقاب أو التبعة، و لا يسع القلم إلّا أن يستحى و يخجل من وصف ذلك ۲۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۳۱ الى ۳۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲) وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵)

التّفسير

و هذه هى عاقبة المنحرفين:

لقد أستجيب دعاء لوط أخيرا، و صدر الأمر من اللّه تعالى بالعقاب الصارم و الشديد لهؤلاء القوم المنحرفين و المفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التى فيها إبراهيم عليه السّلام لأداء رسالة أخرى قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، و هذه الرسالة التى سبقت العذاب، هى بشارتهم لإبراهيم عليه السّلام بالولد:

«بشروه بإسحاق و من وراء إسحاق يعقوب».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۰

و الآيات المتقدمة تذكر أوّلا قصّة مرورهم بإبراهيم عليه السّلام فتقول: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ

و التعبير ب «هذه القرية» يدل على أن مدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السّلام و التعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك و الفساد الأخلاقى و عدم العفة، و ظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين و القوافل التى كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النّبى العظيم و قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً.

فما عسى أن تكون عاقبته؟! إلّا أنّهم أجابوه على الفور، قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها فلا تحزن عليه، لأننا لا نحرق «الأخضر و اليابس» معا، و خطتنا دقيقة و محسوبة تماما ... ثمّ أضافوا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

و يستفاد من هذه الآية جيدا أنّ أسرة واحدة فقط فى جميع تلك المدن و القرى كانت مؤمنة و غير مدنّسة، و قد نجاها اللّه فى ذلك الحين أيضا ... كما نقرأ مثل ذلك فى الآية (۳۶) من سورة الذاريات: فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ و مع ذلك فإنّ امرأة لوط كانت خارجة عن جماعة المؤمنين، فشملها العذاب.

و التعبير ب «الغابرين» جمع «غابر» و معناه المتخلف عن جماعته الماضين فى الطريق، فالمرأة التى كانت فى عائلة النبوّة لا ينبغى لها أن تنفصل عن المؤمنين و المسلمين ... غير أنّ الكفر و الشرك و عبادة الأوثان- كل ذلك- دعاها إلى الانفصال!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۱

و يتّضح من هنا أن انحرافها كان من جهة العقيدة، و لا يبعد أن يكون هذا الانحراف متأثرا بسبب محيطها ... و كانت فى بداية الأمر مؤمنة موحدة، و بهذا فلن يرد أى إشكال على لوط عليه السّلام فى أنّه لم تزوّج بمثل هذه المرأة؟! و إذا كان جماعة من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط، فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسة قبل هذا الحادث، ما عدا لوطا و أهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعة هناك، لاحتمال تأثير تبليغه و إنذاره.

هنا ينقدح هذا السؤال: ترى هل كان «إبراهيم» يحتمل أن عذاب اللّه سيشمل لوطا، فأظهر تأثره أمام الملائكة، غير أنّهم طمأنوه بنجاة لوط؟! و الجواب الواضح على هذا السؤال، و هو أن إبراهيم كان يعرف الحقيقة، و إنّما سأل ليطمئن قلبه، نظير هذا السؤال ما كان من هذا النّبى العظيم فى شأن المعاد و إحياء الموتى، إذ جسد له اللّه ذلك فى إحياء أربعة من الطير «ليطمئن قلبه».

إلّا أنّ المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائى يعتقد أنّ المراد من سؤال إبراهيم هو أن وجود «لوط» بين هؤلاء القوم سيكون دليلا على رفع العذاب عنهم ...

و يستعين بالآيات (۷۴)- (۷۶) من سورة هود على هذا المقصد، لأنّ هذه الآيات تبيّن: أنّه عليه السّلام كان يريد بقوله: إِنَّ فِيها لُوطاً أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاك أهلها يشمله، فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلك بل معه غيره ممن لا يشملهم العذاب و هم أهله إلّا امرأته.[۲۷۴] لكننا نعتقد أنّ هذا الجواب من الملائكة- فى صدد نجاة لوط و أهله- يدلّ بوضوح أن الكلام فى هذه الآيات هو على لوط فحسب، و لكن آيات سورة هود تتحدث عن موضوع منفصل، و كما قلنا آنفا فإنّ إبراهيم كان ليطمئن قلبه أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۲

«فلاحظوا بدقة».

انتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، و توجهوا إلى ديار لوط عليه السّلام و قومه، يقول القرآن فى هذا الشأن: وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً.

و كان كلّ استيائه و عدم ارتياحه بسبب أنّه لم يعرفهم ... فقد جاؤوا إليه بهيئة فتيان ذى وجوه مليحة، و مجيء أمثال هؤلاء الضيوف فى مثل هذا المحيط الملوّث، ربّما كان يجرّ على لوط الوبال، و أن يذهب ماء وجهه أمامهم، لذلك فكر مليّا: ما عسى أن يكون ردّ

فعل هؤلاء القوم الضالين الوقحين الذين لا حياء لهم قبال هؤلاء الضيوف؟! «سيء» مشتقّة من «ساء» و معناه سوء الحال، و «الذرع» معناه «القلب» «الخلق»، فعلى هذا يكون معنى ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً أى ضاق قلبه و انزعج.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الكلمة فى الأصل تعنى «الفاصلة بين أطراف البعير أثناء السير» و حيث أنّهم إذا وضعوا على البعير حملا ثقيلا قصّر خطاه و ضيّق الفاصلة، عبروا بجملة «ضاق ذرعا» كناية عن الحادثة الثقيلة «الصعبة» التى لا تطاق! إلّا أنّ الضيوف حين أدركوا عدم ارتياحه كشفوا عن «هويّتهم» و عرفوا أنفسهم و رفعوا عنه الحزن: وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

و يستفاد بالطبع من الآيات التى فى سورة هود أن أولئك القوم الأراذل، حين عرفوا بوجود الضيوف عند لوط عليه السّلام أسرعوا إليه، و كان فى نيّتهم أن يعتدوا عليهم، و حيث أن لوطا كان لا يزال غير عارف بحقيقة الملائكة فقد كان متأثرا جدّا، و كان تارة ينصحهم و اخرى يهدّدهم و مرّة يقول لهم: أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ فيحرك ضمائرهم و تارة يقترح عليهم الزواج من بناته، و أراد أن يمنعهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۳

من الوصول إلى أضيافه، لكن هؤلاء المنحرفين الذين لا حياء لهم لم يقتنعوا بأى شيء و لم يفكروا إلّا بهدفهم المخزى.

و لكن رسل اللّه عرفوا أنفسهم للوط عليه السّلام، و أعموا أبصار هؤلاء القوم الذين أرادوا الهجوم على الملائكة و اثلجوا قلب ذلك النّبى العظيم عليه السّلام.[۲۷۵] و ما ينبغى الالتفات إليه أن رسل اللّه قالوا للوط: لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ فما الفرق بين كلمتى «الخوف» و «الحزن»؟

ورد فى تفسير الميزان أن الخوف يقع على الحوادث غير المستساغة احتمالا .. أمّا الحزن فيقع فى الموارد القطعية.

و قال بعضهم: الخوف يطلق على الحوادث المستقبلية، أمّا الحزن فعلى ما مضى! كما يرد هذا الاحتمال و هو أن الخوف فى المسائل الخطرة، أمّا الحزن فهو فى المسائل الموجعة، و إن لم يكن فيها أى خطر! ..

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّه طبقا لآيات سورة هود فإنّ لوط و خوفه لم يكن على نفسه، بل كان يخشى أن يضايقوا «ضيفه»[۲۷۶] غير أن جواب الملائكة يتعلق بنجاة لوط و أهله، و هذان الأمران غير منسجمين.

و الجواب على هذا السؤال يستفاد إجمالا من الآية (۸۱) من سورة هود، لأنّ القوم المنحرفين حين مدّوا أيديهم إلى الضيوف قال الملائكة: يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ أى مسألتنا سهلة ... و لن يصل إليك سوء و أذى منهم أيضا، فعلى هذا كان الملائكة يرون النجاة بالنسبة لهم من المسلّم بها، و إنّما ركزوا على البشارة للوط و أهله فحسب.

و بعد هذا، و لكى تتضح خطة عملهم فى شأن عاقبة هؤلاء القوم المنحرفين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۴

أكثر، أضافوا: إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ

و المراد بالقرية هى «سدوم» و ما جاورها من القرى و المدن التى كان يسكنها قوم لوط، و قد أوصل بعضهم عدد هؤلاء إلى سبعمائة ألف نفر[۲۷۷].

و المراد من «الرجز» هنا هو العذاب، و معناه الأصلى الاضطراب، ثمّ عبروا عن كل شيء يوجب الاضطراب بالرجز، و لذلك استعمل العرب كلمة الرجز فى كثير من المعانى كالبلايا الشديدة، و الطاعون أو البرد، و الأصنام، و وساوس الشيطان، و العذاب الإلهى .. إلخ.

و جملة بِما كانُوا يَفْسُقُونَ هى سبب عقابهم الشديد، لأنّهم لم يطيعوا اللّه، و التعبير بالفعل المضارع «يفسقون» دليل على استمرارهم و دوامهم على العمل القبيح!.

و هذا التعبير يبيّن هذه الحقيقة، و هى لو أن أولئك لم يستمروا على الذنب، و كانوا يتوبون و يعودون إلى طريق الحق و التقوى، لم

یبتلوا بمثل هذا العذاب و کانت ذنوبهم الماضیة مغفورة.

و هنا لم یذکر القرآن کیفیة العذاب الألیم، سوی أنّه قال: وَ لَقَدْ تَرَکْنا مِنْها آیَةً بَیِّنَةً لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ

إلّا أنّ فی سورة هود الآیة (۸۲) منها، و کذلک سورة الأعراف الآیة ۸۴ منها، تفصیلا فی بیان العذاب، و هو أنّه أصابت قراهم فی البدایة زلزلة شدیدة فجعلت عالیها سافلها، ثمّ أمطرت علیها حجارة من السماء بحیث توارت بیوتهم و قراهم و أجسادهم تحتها!.

و التعبیر ب «الآیة البینة» أی العلامة الواضحة، هو إشارة إلی الآثار الباقیة من مدینة «سدوم» التی کانت فی طریق قوافل أهل الحجاز طبقا «لآیات القرآن» ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۵

و کانت باقیة حتی ظهور النّبی صلّی اللّه علیه و آله. کما نقرأ فی الآیة (۷۶) من سورة الحجر وَ إِنَّها لَبِسَبِیلٍ مُقِیمٍ و کما نقرأ فی سورة الصافات الآیتین (۱۳۷) و (۱۳۸):

وَ إِنَّکُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَیْهِمْ مُصْبِحِینَ وَ بِاللَّیْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۶

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۳۶ الی ۴۰]

اشارة

وَ إِلی مَدْیَنَ أَخاهُمْ شُعَیْباً فَقالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْیَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِی الْأَرْضِ مُفْسِدِینَ (۳۶) فَکَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِی دارِهِمْ جاثِمِینَ (۳۷) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَیَّنَ لَکُمْ مِنْ مَساکِنِهِمْ وَ زَیَّنَ لَهُمُ الشَّیْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ کانُوا مُسْتَبْصِرِینَ (۳۸) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسی بِالْبَیِّناتِ فَاسْتَکْبَرُوا فِی الْأَرْضِ وَ ما کانُوا سابِقِینَ (۳۹) فَکُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَیْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّیْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما کانَ اللَّهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَ لکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (۴۰)

التّفسیر

تنوع العذاب للظالمین:

بعد بیان قصّة لوط و قومه یقع الکلام عن أقوام آخرین أمثال قوم شعیب و عاد و ثمود، و قارون و فرعون، و قد أشیر فی هذه الآیات- محل البحث- إلی کلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۷

منهم إشارة موجزة «مکثفة» للاستنتاج و العبرة! فی البدایة تقول الآیة: وَ إِلی مَدْیَنَ أَخاهُمْ شُعَیْباً[۲۷۸].

و التعبیر بکلمة «أخاهم» کما قلنا مرارا، هو إشارة إلی منتهی محبّة هؤلاء الأنبیاء إلی أممهم، و إلی عدم طلبهم السلطة، و بالطبع فإنّ هؤلاء الأنبیاء کانت لهم علاقة قرابة بقومهم أیضا.

و «مدین» مدینة واقعة جنوب غربی الأردن، و تدعی الیوم ب «معان» و هی فی شرق خلیج العقبة، و کان شعیب علیه السّلام و قومه یقطنون فیها[۲۷۹].

و شعیب کسائر أنبیاء اللّه العظام، بدأ بالدعوة الی الاعتقاد بالمبدأ و المعاد، و هما أساس کل دین و طریقة فَقالَ یا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ

ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ.

فالإيمان بالمبدأ يكون سببا لإحساس الإنسان بأن اللّه يراقبه مراقبة دقيقة بشكل دائم و يسجّل أعماله؛ و الإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شىء و كل عمل مهما كان تافها ... و من المسلم أنّ الإعتقاد بهذين الأصلين له أثره البالغ على تربية الإنسان و إصلاحه!.

و المبدأ الثّالث هو بمثابة خطّة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الاجتماعية، إذ قال: وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

و للفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، و تدمير، و ظلم .. إلخ .. و يقابله الصلاح و الإصلاح، و مفهومهما يشمل جميع الخطط البنّاءة!.

أمّا كلمة «تعثوا» فهى من مادة «عثى» و معناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما فى الأمر أن هذا التعبير كثيرا ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيدا على هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۸

المفهوم.

إلّا أنّ تلك الجماعة بدلا من أن تصغى لمواعظه و نصائحه بآذان القلوب، خالفته و لم تصغ إليه «فكذبوه».

و كان هذا التكذيب سببا فى أن تصيبهم زلزلة شديدة فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ أى مكبوبين على وجوههم ميتين.

و «الجاثم» مشتق من «جثم» على زنة «سهم» و معناه الجلوس على الركبة و التوقف فى مكان ما .. و لا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنّهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا و جثوا على الركب، إلّا أنّ الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم و نزلت عليهم الصاعقة التى تزامنت معها فماتوا[۲۸۰].

أمّا الآية التى بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومى (هود و صالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيّاهما لهما، و ما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنّهما مذكوران فى آيات عديدة من القرآن، و هما أى قوم هود و قوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: وَ عاداً وَ ثَمُودَ[۲۸۱].

ثمّ تضيف الآية وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ المتهدمة و التى هى على طريقكم فى منطقة الحجر و اليمن.

فأنتم فى كل سنة تمرون فى أسفاركم للتجارة بأرض «الحجر» التى تقع شمال جزيرة العرب، و بالأحقاف التى تقع قريبا من اليمن و جنوبها، و ترون آثار المساكن المتهدمة و بقاياها من عاد و ثمود، فعلام لا تعتبرون؟! ثمّ تشير الآية إلى السبب الأصلى لشقائهم و سوء حظّهم، إذ تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۸۹

وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ

و كانت فطرتهم على فطرة اللّه و تقواه، و لم يأل الأنبياء جهدا فى هدايتهم، و بذلوا قدرا كافيا من النصح و الإرشاد لهم، لكنّهم حادوا وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

قال بعض المفسّرين: إنّ جملة وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ تعنى أنّهم كانوا ذوى أعين بصيرة، و عقل كاف.

و قال بعضهم: إنها تعنى أنّهم كانوا على الفطرة السليمة.

كما قال آخرون: إنّها تعنى هداية الأنبياء لهم.

و لا يمنع اجتماع جميع هذه المعانى فى الآية الكريمة، فهى إشارة إلى أنّهم لم يكونوا جاهلين قاصرين، بل كانوا يعرفون الحق جيدا من قبل، و كانت ضمائرهم حية و لديهم العقل الكافى، و أتمّ الأنبياء عليهم الحجّة البالغة، و لكن ...

مع كل ما تقدم ... من نداء العقل و الضمير، و دعوة الأنبياء، فقد انحرفوا عن السبيل و وسوس لهم الشيطان، و يوما بعد يوم يرون

أعمالهم القبيحة حسنة، و بلغوا مرحلة لا سبيل لهم إلى الرجوع منها، فأحرق قانون الخلق و الإيجاد هذه العيدان اليابسة .. و هى جديرة بـذلك! و الآية الأخرى تذكر أسـماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزا للقدرة الشـيطانية، فتقول: وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ ۲۸۲].

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور و عبادة «الذات» و الأنانية و الغفلة.

و فرعون كان مظهر القدرة الاستكبارية المقرونة بالشيطنة.

و أمّا هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين!.

ثمّ يضـيف القرآن وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسـى بِالْبَيِّناتِ و الـدلائل فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ فاعتمد قارون على ثروته و خزائنه و علمه، و اعتمد فرعون و هامان على جيشهما و على القدرة العسكرية، و على قوة إعلامهم و تضليلهم لطبقات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۰

الناس المغفّلين الجهلة.

لكن .. برغم كل ذلك لم يفلحوا وَ ما كانُوا سابِقِينَ

فأمر اللّه الأرض التى هى مهد الاطمئنان و الدعة بابتلاع قارون.

و أمر الماء الذى هو مصدر الحياة بابتلاع فرعون و هامان.

و عبأ جنود السماوات و الأرض لإهلاكهم جميعا، بل ما كان مصدر حياتهم أمر اللّه أن يكون هو نفسه سببا لفنائهم ۲۸۳].

كلمة «سابقين» تعنى من يتقدم و يكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى:

وَ ما كانُوا سابِقِينَ أى إنّهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سـلطان اللّه برغم ما كان عنـدهم من إمكانات، بل أهلكهم اللّه فى اللحظـة التى أراد، و أرسلهم إلى ديار الفناء و الذلة و الخزى.

كما يذكر فى الآية التى بعدها فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ

و حيث أنّ القرآن ذكر «الطوائف الأربع» فى الآيتين المتقدمتين، و لم يبيّن عذابهم، و هم:

۱- قوم هود «عاد».

۲- و ثمود «قوم صالح».

۳- قارون.

۴- فرعون و هامان.

فإنه يذكر فى هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم. فيقول: فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً.

و «الحاصب» معناه الاعصار الذى يحمل حصى كثيرة معه، و «الحصباء» «الحصى الصغيرة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۱

و المقصود ب «منهم» هنـا هم «عـاد» قوم هود، و حسب مـا جـاء فى بعض السور كالـذاريات و الحاقـة و القمر، أصابهم اعصار شـديد مهلك خلال ثمانية أيّام و سبع ليال فدمرهم تدميرا.

يقول القرآن: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ «الحاقة».

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ و قلنـا: إن الصيحة السـماوية التى هى نتيجـة الصاعقـة التى تقترن مع الزلزلـة فى زمـان الوقوع، و هـذا هو العـذاب الـذى عـذب اللّه به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين ... و يقول القرآن فى الآية (۶۷) من سورة هود فى شـأن ثمود وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ

وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ و هذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل، و قد أشير إليه فى الآية (۸۱) من سورة القصص.

وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا و نعرف أنّ هذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون و هامان و جنودهما، و قد ذكرت هذه القصّة فى سور متعددة من القرآن الكريم.

و على كل حال، فمع الالتفات لهذا البيان فإن أنواع العذاب الأربعة ذكرت هنا للطوائف الأربع المذكورين فى الآيتين المتقدمتين. حيث اشارتا إلى ضلالهم و انحرافهم و ذنوبهم دون أن تذكرا عقابهم.

و لكن من البعيد أن تشمل هذه الأنواع الأربعة من العذاب الواردة فى هذه الآية أقواما آخرين، كما يقول بعض المفسّرين. «كالغرق لقوم نوح، و إمطار الحجارة و الحصباء على قوم لوط» لأنّ عقابهم مذكور هناك و فى موارد ذكرهم و لا حاجة للتكرار هنا، و أمّا عقاب الفئات الأربع فلم يذكر فى هذه السلسلة من الآيات، و لذا بينه اللّه سبحانه فى الآيتين الأخيرتين.

و يبيّن فى ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، و هى أنّ ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، و هم زرعوا فحصدوا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۲

يَظْلِمُونَ

أجل، إنّ عقاب هذه الدنيا و الآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم. فاللّه أكثر عدلا و أسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم!.

و هذه الآية- كسائر كثير من آيات القرآن- تثبت أصل الحرية فى الإرادة و الإختيار عند الإنسان، و تقرر أن التصميم فى كل مكان يصدر من الإنسان نفسه. و قد خلقه اللّه حرّا و يريده حرّا .. فعلى هذا يبطل اعتقاد أتباع مذهب «الجبر» الذين لهم وجود بين المسلمين- مع الأسف- بهذا المنطق القوى للقرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۳

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۴۱) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۴۲) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ (۴۳) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۴۴)

التّفسير

دعامة واهية كبيت العنكبوت:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۳۹۳

ّنت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون و المفسدون الظلمة و الأنانيون من مصير وخيم و عاقبة سوداء و عذاب أليم ... و بهذه

المناسبة، ففى الآيات التى بين أيدينا، يبيّن القرآن الكريم مثالا بليغا و مؤثرا يعبدون غير اللّه و يتخذون من دونه أولياء! و كلما أمعنا النظر فى هذا المثال و فكرنا فيه مليّا انقدحت فى أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

كم هو بديع هذا المثال و طريف، و كم هو بليغ و دقيق هذا التشبيه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۴

تأمّلوا بدقّة ... إنّ كل حيوان- و كل حشرة- له بيت أو وكر و ما أشبه ذلك، لكن ليس فى هذه البيوت بيت أوهن من بيت العنكبوت! فكل بيت- عادة- يحتوى على سقف و باب و جدار، و هو يحفظ صاحبه من الحوادث، و يكون مكانا أمينا لإيداع الأطعمة و الأشياء الأخرى و حفظها ... فبعض البيوت لا سقف لها إلّا أنّها على الأقل لها جدار، كما أنّ هناك بيوتا لا جدار لها إلّا أن لها سقفا.

لكن بيت العنكبوت المنسوج من خيوط دقيقة واهية، ليس له سقف و لا جدار و لا ساحة و لا باحة و لا باب، هذا من جانب ... و من جانب آخر فإنّ مواد بنائه واهية جدّا و سرعان ما تتلاشى إزاء أية حادثة بسيطة، فهى لا تقدر على المقاومة.

فلو هبّ نسيم عليل لتمزق هذا النسيج.

و لو سقطت عليه قطرات المطر لتلاشى و تلف.

و لو لامسته شعلة خفيفة لاحرقته.

و حتى لو تراكم عليه الغبار لتركه أشلاء ممزقة معلقة.

فآلهة هؤلاء الجماعة و معبوداتهم «الكاذبة» كمثل هذا البيت لا تنفع و لا تضر و لا تحلّ مشكلة، و لا تكون ملجأ لأحد فى المحنة و الشدّة!.

صحيح .. إن هذا البيت للعنكبوت- مع ما لها من أرجل طويلة- هو محل استراحتها، و شرك لاصطياد الحشرات و الحصول على الغذاء إلّا أن هذا البيت- بالقياس إلى البيوت الأخرى للحيوانات و الحشرات- فى منتهى الوهن و الانهيار!.

فمن يعتمد على غير اللّه و يتخذ من دونه وليا، فقد اعتمد على بيت العنكبوت!!.

و الذين اختاروا سوى اللّه، اعتمدوا على بيوت العناكب، كعرش فرعون و تاجه، و الأموال المتراكمة عند قارون، و قصور الملوك و خزائنهم، جميع هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۵

الأمور المذكورة كمثل بيت العنكبوت!.

فهى لا تدوم، و لا يمكن الاعتماد عليها، و لا أساس لها حتى تكون راسخة أمام طوفان الحوادث.

و التاريخ يدل على أنّه لا يمكن الاعتماد على أىّ من هذه الأمور حقّا.

أمّا الذين اعتمدوا على اللّه و توكلوا عليه، فقد اعتمدوا على سدّ حصين منيع.

و الجدير بالذكر، أنّ بيت العنكبوت و نسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، و التدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.، فخيوط العنكبوت «مصنوعة» و منسوجة من مائع لزج، هذا المائع مستقر فى حفر دقيقة و صغيرة كرأس الإبرة تحت بطن العنكبوت، و لهذا المائع خصوصية أو تركيب خاص هو أنّه متى ما لامس الهواء جهد و تصلّب.

و العنكبوت تخرج هذا المائع بواسطة آليات خاصة و تصنع خيوطها منه.

يقال: إن كلّ عنكبوت يمكن لها أن تصنع من هذا المائع القليل جدّا ما مقداره خمسمائة متر من خيطها المفتول!.

و قال بعضهم: إنّ الوهن فى هذه الخيوط منشؤه دقتها القصوى، و لولا هذه الدقة فإنها أقوى من الفولاذ «لو قدر أن تفتل بحجم الخيط الفولاذى».

العجيب أنّ هـذه الخيط تنسـج أحيانا من أربع جـدائل كل جديلة هى أيضا منسوجة أو مصـنوعة من ألف جديلة! و كل جديلة تخرج من ثقب صغير جدّا فى بدن العنكبوت، ففكروا الآن فى هذه الخيوط التى تتكون منها هذه الجديلة كم هى ناعمة و دقيقة و ظريفة؟! و إضافة إلى العجائب الكامنة فى بناء بيت العنكبوت و نسجه، فإنّ شكل بنائه و هندسته طريف أيضا، فلو دققنا النظر فى بيوت العنكبوت لرأينا منظرا طريفا مثل الشمس و أشعتها مستقرة على قواعد هذا «البناء النسيجى»، و بالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت و كاف، و لكنّه فى المجموع لا يمكن تصور بيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۶

أوهن منه، و هكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين و معبوديهم، إذ تركوا عبادة اللّه و التجأوا إلى الأصنام و الأحجار و الأوثان!!.

و مع الالتفات إلى أن العناكب ليست نوعا واحـدا، بل- كما يـدعى بعض العلماء- عرف منها حتى الآن عشـرون ألف نوع، و كل نوع له خصوصياته التى تبين عظمة الخالق و قدرته فى خلق هذا الموجود الصغير بوضوح و جلاء.

التعبير ب «الأولياء» جمع ولى مكان التعبير بالأصـنام، ربّما كان إشارة ضـمنية إلى هذه اللطيفة، و هى أنّه ليس الحكم مختصا بالأصنام و الآلهة المزعومة، بل حتى الأئمة و القادة الارضيين مشمولون بهذا الحكم أيضا.

و جملـة لَوْ كـانُوا يَعْلَمُونَ تتعلق بالأصـنام و المعبودين من دون اللّه و لا ترتبط بوهن بيت العنكبوت ... لأنّ وهن بيت العنكبوت معلوم عنـد الجميع، فعلى هذا يكون مفهوم الجملة كالتالى: لو كانوا يعلمون وهن المعبودين من دون اللّه و ما ركنوا إليه من دونه و اختاروه، لعلموا أنّهم فى الوهن و الضعف كما هى الحال فى بيت العنكبوت من الوهن!.

أمّا الآيـة التالية ففيها تهديد لهؤلاء المشـركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ! و لا يخفى على اللّه شركهم الظاهر و لا شـركهم الخفى وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ على الإطلاق! و إذا أمهلهم، فليس بسـبب العجز و الضـعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة للّه عليهم، فيهتدى من هو جدير بالهدى!.

قال بعض المفسّرين: إن هـذه الجملـة إشارة إلى حجـج المشـركين و إلى ادّعائهم أنّهم فى عبادتهم للأصـنام لا يريـدون بها الأصـنام ذاتها، بل إنّ الأصـنام عندهم مطهر و رمز للنجوم السـماوية و الأنبياء و الملائكة، فهم- كما يزعمون- يسـجدون لأولئك لا للأصنام و خيرهم و شرهم و نفعهم و ضررهم بيدها أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۷

فـالقرآن يبيّن أن اللّه يعلم الأشـياء التى تـدعونها- كائنـا من كـان، و أى شـىء كـان- فكـل أولئك المعبودين إزاء قـدرته كمثل بيت العنكبوت، و لا يملكون لأنفسـهم شـيئا كى يعطوه لكم.، و الآيـة الثّالثـة- من الآيات محل البحث- لعلها تشـير إلى ما استشـكله أعداء الإسـلام على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فى هـذه الأمثلـة التى ضـربها اللّه، و كانوا يقولون: اللّه الـذى خلق السـماوات و الأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت و الذباب و الحشرات و ما شاكلها؟

فيردّ القرآن بقوله: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ

إنّ أهميّة المثال و ظرافته لا تكمن فى كبره و صـغره، بل تظهر أهميته فى انطباق المثال على المقصود، فقد يكون صـغر الشىء الممثل به أكبر نقطة فى قوته.

قالوا فى ضـرب الأمثال: ينبغى عند الكلام عن الأشياء الضعيفة و التى فيها وهن أن يمثل لها فى ما لو اعتمد عليها ببيت العنكبوت، فهو أحسن شىء ينتخب لهذا الوهن و عدم الثبات، فهذا المثال هو الفصاحة بعينها و البلاغة ذاتها، و لذا قيل:

إنّه لا يعلم دقائق أمثلة القرآن و لا يدركها إلّا العلماء!.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يضـيف القرآن الكريم: خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ليس

فى عمل اللّه باطل أو عبث ... فإذا التشبيه بالعنكبوت و بيته الخاوى هو أمر محسوب بدقّة. و إذا ما اختار موجودا صغيرا للتمثيل به فهو لبيان الحقّ، و إلّا فهو خالق أعظم المجرّات و المنظومات الشمسيّة و غيرها.

و من الطريف- هنا- أن نهاية هذه الآيات تنتهى بالعلم و الإيمان، ففى مكان يقول القرآن: لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ و فى مكان آخر يقول: وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ و فى الآية التى نحن فى صددها يقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۸

و هى إشارة إلى أن وجه الحق مشرق جلى دائما و لكنّه يثمر فى الموارد المستعدة ... فى قلب مطّلع باحث، و عقل يقظ مذعن للحق ... و إذا كان هؤلاء الذين عميت قلوبهم لا يرون جمال الحق، فليس ذلك لخفائه، بل لعماهم! و ضلالهم!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۳۹۹

الآية [سورة العنكبوت (۲۹): آية ۴۵]

اشارة

اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (۴۵)

التّفسير

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر:

بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفة من قصص الأمم السابقة و أنبيائهم العظام و ما عاملهم به قومهم من معاملة سيئة مذمومة، و بيان نهاية هؤلاء الظالمين الاليمة، يتوجه الخطاب- على سبيل تسلية الخاطر، و تقوية الروحية، و إراءة الخط الكلّى أو الخطوط العامة- للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و يأمره بما ينبغى عليه أن يفعل.

فيبدأ أوّلا- بقوله: اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ ... أى اقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه و تطلبه من العلم و الحكمة و النصح، و معيار معرفة الحق من الباطل، و سبل تنوير القلب و الروح، و مسير حركة كل طائفة، أو مجموعة و اتجاهها!.

اقرأ .. و امض على نهجها فى حياتك، اقرأها و استلهم منها ... اقرأها و نوّر قلبك بتلاوتها.

و بعد بيان هذا الأمر الذى يحمل- فى الحقيقة- طابعا تعليميا، يأتى الأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۰

الثّانى الذى هو محور أصيل للتربية فيقول تعالى: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ ...

ثمّ يبيّن فلسفة الصلاة الكبرى فيقول: إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ[۲۸۴].

طبيعة الصلاة- حيث أنّها تذكر بأقوى رادع للنفس، و هو الاعتقاد بالمبدأ و المعاد- فإنّها تردع عن الفحشاء و المنكر، فالإنسان الذى يقف للصلاة، و يكبّر، يرى اللّه أعلى من كل شىء و أسمى من كل شىء، و يتذكر نعمه فيحمده و يشكره، و يثنى عليه و ينعته بأنّه رحمان رحيم، و يذكر يوم الجزاء «يوم الدين» و يعترف بالعبودية له، و يطلب منه العون، و يستهديه الصراط المستقيم، و يتعوذ به من طريق المغضوب عليهم، و يلتجئ إليه (مضمون سورة الحمد).

فلا شك أنّ قلب مثل هذا الإنسان و روحه سوف تدبّ فيها حركة نحو الحقّ، و اندفاع نحو الطهارة، و نهوض نحو التقوى.

يركع للّه .. و يضع جبهته على الأرض ساجدا لحضرته، و يغرق فى عظمته، و ينسى أنانيته و ذاتيّاته جميعا.

و یشهد بوحدانیته و برسالة النّبی صلّی اللّه علیه و آله.

و یصلی و یسلم علی نبیّه، و یرفع یدیه متضرعا بالدعاء لیجعله فی زمرة عباده الصالحین.

جمیع هذه الأمور تمنح وجوده موجا من المعنویة، و تکون سدا منیعا بوجه الذنوب.

و یتکرر هذا العمل عدة مرّات «لیل نهار» فحین ینهض صباحا یقف بین یدی ربّه و خالقه لیناجیه ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۱

و عند منتصف النهار و بینما هو غارق فی حیاته المادیة یفاجأ بصوت تکبیر المؤذن، فیقطع عمله و یسرع إلی حضرته، بل فی آخر النهار بدایة اللیل أیضا و قبل أن یدلف إلی فراش الدعة و الراحة، یدعوه و یطلب منه حاجته، و یجعل قلبه مرکز أنواره.

و بغض النظر عن کل ما تقدم فإنّ الإنسان حین یتهیأ لمقدمات الصلاة، یطهّر بدنه و یبعد عنه مسائل الحرام و الغصب، و یتجه إلی الحبیب، فکلّ هذه الأمور لها تأثیر رادع لنوازع الفحشاء و المنکر.

غایة ما فی الأمر أنّ کل صلاة- بحسب شروط الکمال و روح العبادة لها- أثر رادع ناه عن الفحشاء و المنکر، فتارة تنهی نهیا کلیّا و أخری جزئیا ..

و محدودا.

و لا یمکن لأحد أن یصلی و لا تدع الصلاة فیه أثرا حتی لو کانت الصلاة صوریة، و حتی لو کان ملوّثا بالذنب! و بالطبع فإنّ مثل هذه الصلاة قلیلة الفائدة و مثل هؤلاء الأفراد لو لم یصلّوا صلاة کهذه لکانوا أسوأ ممّا هم علیه.

و لنوضّح أکثر فنقول: النهی عن الفحشاء و المنکر له سلسلة درجات و مراتب کثیرة، و کل صلاة مع رعایة الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

و ممّا بیّناه آنفا یتّضح أن تخبط بعض المفسّرین فی تفسیر هذه الآیة، و انتخاب تفسیرات غیر مناسبة لا وجه له! و ربّما فسّروها بتفسیر غیر مناسب، لأنّهم رأوا بعض الناس یصلون و یرتکبون الذنوب، ففسّروا الآیة فی معناها المطلق دون سلسلة المراتب، و أخذوا یشکّون و یترددون، فاختاروا طرقا أخری فی تفسیر الآیة.

فمنها ما قاله بعضهم: من أنّ الصلاة تنهی عن الفحشاء و المنکر ما دام الإنسان مشغولا بها. و هذا کلام عجیب، إذ لا تتمیز الصلاة بهذا وحدها، فکثیر من الأعمال علی هذه الشاکلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۲

و قال بعضهم: إنّ أعمال الصلاة و أذکارها بمثابة عبارات و جمل، کل جملة تنهی الإنسان عن الفحشاء و المنکر، فمثلا کل من التکبیر و التهلیل و التسبیح .. کلّ منها یقول للإنسان: لا تذنب و لکن هل أنّ هذا الإنسان یصغی لهذا النهی أم لا ...

فهذا أمر آخر.

و لکن من ذهب الی هذا التّفسیر، غفل عن هذه الحقیقة، و هی أن النهی هنا لیس نهیا تشریعیا فحسب، بل هو نهی تکوینی، فظاهر الآیة أنّ الصلاة لها أثر ناه، و التّفسیر الأصیل هو ما قدمناه ذکره و بیانه آنفا.

و بالطبع فلا مانع من القول أنّ الصلاة تنهی عن الفحشاء و المنکر نهیا تکوینیا و نهیا تشریعیا أیضا.

«أحادیث» ینبغی الالتفات إلیها

۱-

فی حدیث عن النّبی الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله ورد أنّه قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنکر لم یزدد من اللّه إلّا

بعدا».[۲۸۵]

۲- و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله أيضا: «لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، و طاعة الصلاة أن ينتهى عن الفحشاء و المنكر»[۲۸۶].

۳- كما نقرأ

فى حديث ثالث عنه صلّى اللّه عليه و آله أنّ شابا من الأنصار أدّى الصلاة معه، و لكنّه كان ملوثا بالذنوب القبيحة، فأخبروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال: «إن صلاته تنهاه يوما»[۲۸۷].

۴- هذا الأثر للصلاة له أهمية قصوى إلى درجة أنّنا نجده فى الرّوايات الإسلامية معيارا لقبول الصلاة و عدمها، إذ

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۳

«من أحبّ أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء و المنكر؟! فبقدر ما منعته قبلت منه!»[۲۸۸].

و يقول القرآن تعقيبا على ما ذكره و من شأن الصلاة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

و ظاهر الجملة هو بيان غاية و حكمة أخرى فى الصلاة، أى أن أثرا آخر من آثار الصلاة و بركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء و المنكر هو تذكير الإنسان بربّه، هذا الذكر هو أساس السعادة و الخير، بل العامل الأصلى للنهى عن الفحشاء و المنكر أيضا هو ذكر اللّه، و كونه أكبر لأنّه العلّة و الأساس للصلاة!.

و أساسا ... فإنّ ذكر اللّه فيه حياة القلوب و دعتها، و لا شىء يبلغ مبلغه أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۲۸۹].

و لا ريب أنّ روح العبادة بجميع أقسامها- صلاة كانت أم غيرها- هو ذكر اللّه، فأذكار الصلاة، و أفعالها و مقدماتها، جميعها فى الواقع تحيى ذكر اللّه فى قلب الإنسان.! و ممّا يلفت النظر أن فى الآية (۱۴) من سورة طه إشارة إلى هذه الحكمة الأساسية من الصلاة، إذ نلاحظ فيها الخطاب لموسى قائلا: وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى

إلّا أنّ المفسّرين الكبار ذكروا للجملة المتقدمة تفسيرات أخرى، و قد ورد فى الرّوايات الإسلامية إشارة إليها أيضا ... من ضمنها: إنّ المراد من الجملة المتقدمة، أن ذكر اللّه لكم برحمته أكبر من ذكركم للّه بطاعته ۲۹۰].

و منها: إنّ ذكر اللّه أكبر من الصلاة و أعلى، لأنّ روح كل عبادة «ذكر اللّه».

و هذا التّفاسير التى ورد بعضها فى الرّوايات الإسلامية، ربّما كانت إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۴

بطون الآية، و إلّا فإنّ ظاهرها منسجم مع المعنى الأوّل، لأنّه فى أغلب الموارد التى يرد التعبير فيها ب «ذكر اللّه» أو «ذكروا اللّه» أو «اذكروا اللّه» ... إلخ، يقصد بها ذكر الناس للّه! و الآية المذكورة آنفا، يتداعى لها هذا المعنى، إلّا أنّ ذكر اللّه لعباده يمكن أن يكون نتيجة مباشرة لذكر العباد للّه، و بهذا يرتفع التضاد بين المعنيين.

فى حديث عن معاذ بن جبل أنّه قال: لا شىء من أعمال ابن آدم لنجاته من عذاب اللّه أكبر من ذكر اللّه، فسألوه: حتى الجهاد فى سبيل اللّه؟! فقال: أجل، فاللّه يقول: وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ.

و الظاهر أنّ «معاذ بن جبل» سمع هذا الكلام من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: لأنّه نفسه ينقل إنّه سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أىّ الأعمال أفضل؟

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أن تموت و لسانك رطب من ذكر اللّه».

و حيث أنّ نيّات الناس، و ميزان حضور القلب منهم فى الصلاة و سائر العبادات، كل ذلك متفاوت جدّا، فإنّ الآية تختتم بالقول: وَ

اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ

أى يعلم ما تصنعون من أعمال فى الخفاء أو العلن، و النيّات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم!.

بحث

تأثير الصلاة فى تربية الفرد و المجتمع:

بالرغم من أن فائدة الصلاة لا تخفى على أحد، لكن التدقيق فى متون الروايات الإسلامية يدلنا على لطائف و دقائق أكثر فى هذا المجال!.

۱- إنّ روح الصلاة و أساسها و هدفها و مقدمتها و نتيجتها ... و أخيرا حكمتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۵

و فلسفتها[۲۹۱]، هى ذكر اللّه، كما بيّنت فى الآية على أنّها أكبر النتائج.

و بالطبع فإنّ الذكر المراد هنا، هو الذكر الذى يكون مقدمة للفكر، و الفكر الذى يكون باعثا على العمل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جملة وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ قال: «ذكر اللّه عند ما أحلّ و حرّم» أى على أن يتذكر اللّه فيتبع الحلال و يغضى أجفانه عن الحرام «بحار الأنوار، ج ۸۲، ص ۲۰۰».

۲- إنّ الصلاة وسيلة لغسل الذنوب و التطهر منها، و ذريعة إلى مغفرة اللّه، لأنّ الصلاة- كيف ما كانت- تدعوا الإنسان إلى التوبة و إصلاح الماضى، و لذلك فإننا نقرأ فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إذ سأل بعض أصحابه:

«لو كان على باب دار أحدكم نهر و اغتسل فى كل يوم منه خمس مرات أ كان يبقى فى جسده من الدرن شىء؟! قلت لا، قال: فإنّ مثل الصلاة كمثل النهر الجارى كلما صلّى كفرت ما بينهما من الذنوب»[۲۹۲].

و على هذا فإنّ الجراح التى تخلفها الذنوب فى روح الإنسان، و تكون غشاوة على قلبه، تلتئم بضماد الصلاة و ينجلى بها صدأ القلوب!

۳- إنّ الصلوات سدّ أمام الذنوب المقبلة، لأنّ الصلاة تقوى روح الإيمان فى الإنسان، و تربّى شجيرة التقوى فى قلب الإنسان، و نحن نعرف أن الإيمان و التقوى هما أقوى سدّ أمام الذنوب، و هذا هو ما بيّنته الآية المتقدمة عنوان «النهى عن الفحشاء و المنكر»، و ما نقرؤه فى أحاديث متعددة من أن أفرادا كانوا مذنبين، فذكر حالهم لأئمّة الإسلام فقالوا: لا تكترثوا فإنّ الصلاة تصلح شأنهم ...

و قد أصلحتهم.

۴- إن الصلاة توقظ الإنسان من الغفلة، و أعظم مصيبة على السائرين فى طريق الحقّ أن ينسوا الهدف من إيجادهم و خلقهم، و يغرقوا فى الحياة المادية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۶

و لذائذها العابرة! إلّا أنّ الصلاة بما أنّها تؤدى فى أوقات مختلفة، و فى كل يوم و ليلة خمس مرات، فإنّها تخطر الإنسان و تنذره، و تبيّن له الهدف من خلقه، و تنبهه إلى مكانته و موقعه فى العالم بشكل رتيب، و هذه نعمة كبرى للإنسان بحيث أنّها فى كل يوم و ليلة تحثه و تقول له: كن يقظا.

۵- إنّ الصلاة تحطّم الأنانية و الكبر، لأنّ الإنسان فى كلّ يوم و ليلة يصلى سبع عشرة ركعة، و فى كل ركعة يضع جبهته على التراب تواضعا للّه، و يرى نفسه ذرة صغيرة أمام عظمة الخالق، بل يرى نفسه صفرا بالنسبة إلى ما لا نهاية له!.

و لأمير المؤمنين على عليه السّلام كلام معروف تتجسد فيه، فلسفة العبادات الإسلامية بعد الإيمان باللّه، فبيّن أوّل العبادات و هى

الصلاة مقرونة بهذا الهدف إذ

قال: «فرض اللّه الإیمان تطهیرا من الشرک، و الصلاة تنزیها عن الکبر»[۲۹۳].

۶- الصلاة وسیلة لتربیة الفضائل الخلقیة و التکامل المعنوی للإنسان، لأنّها تخرج الإنسان عن العالم المحدود و تدعوه إلی ملکوت السماوات، و تجعله مشارکا للملائکة بصوته و دعائه و ابتهاله، فیری نفسه غیر محتاج إلی واسطة إلی اللّه أو أن هناک «حاجبا» یمنعه ... فیتحدث مع ربّه و یناجیه!.

إن تکرار هذا العمل فی الیوم و اللیلة- و بالاعتماد علی صفات اللّه الرحمن الرحیم العظیم، خاصة بالاستعانة بسور القرآن المختلفة بعد سورة الحمد التی هی خیر محفّز للصالحات، و الطهارة- له الأثر فی تربیة الفضائل الخلقیة فی وجود الإنسان! لذلک نقرأ فی تعبیر الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام عن حکمتها

قوله: «الصلاة قربان کل تقیّ!»[۲۹۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۷

۷- إن الصلاة تعطی القیمة و الروح لسائر أعمال الإنسان؛ لأنّ الصلاة توقظ فی الإنسان روح الإخلاص ... فهی مجموعة من النیة الخالصة و الکلام الطاهر «الطیب» و الأعمال الخالصة ... و تکرار هذه المجموعة فی الیوم و اللیلة ینثر فی روح الإنسان بذور سائر الأعمال الصالحة و یقوّی فیه روح الإخلاص.

لذلک فإنّنا نقرأ فی بعض ما

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی ضمن وصایاه المعروفة بعد أن ضربه ابن ملجم بالسیف ففلق هامته، أنّه قال: «اللّه اللّه فی صلاتکم فإنها عمود دینکم»[۲۹۵].

و نعرف أنّ عمود الخیمة إذا انکسر أو هوی، فلا أثر للأوتاد و الطنب مهما کانت محکمة ... فکذلک ارتباط عباد اللّه به عن طریق الصلاة، فلو ذهبت لم یبق لأی عمل آخر أثر.

و نقرأ

عن الإمام الصادق علیه السّلام قوله: «أوّل ما یحاسب به العبد الصلاة، فإن قبلت قبل سائر عمله، و إن ردّت ردّ سائر عمله!».

و لعل الدلیل علی هذا الحدیث هو أن الصلاة رمز للعلاقة و الارتباط بین الخالق و المخلوق! فإذا ما أدّیت بشکل صحیح، و کان فیها قصد القربة و الإخلاص «حیّا» کان وسیلة القبول لسائر الأعمال، و إلّا فإنّ بقیة أعماله تکون مشوبة و ملوّثة و ساقطة من درجة الاعتبار.

۸- إنّ الصلاة- بقطع النظر- عن محتواها، و مع الالتفات إلی شرائط صحتها، فإنّها تدعوا إلی تطهیر الحیاة! لأنّنا نعلم أن مکان المصلی، و لباس المصلی، و بساطه الذی یصلی علیه، و الماء الذی یتوضأ به أو یغتسل منه، و المکان الذی یتطهر فیه «وضوء أو غسلا» ینبغی أن یکون طاهرا من کل أنواع الغصب و التجاوز علی حقوق الآخرین. فإنّ من کان ملوّثا بالظلم و الغصب و البخس فی المیزان و البیع و آکلا للرشوة و یکتسب أمواله من الحرام ... کیف یمکن له أن یهیء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۸

مقدمات الصلاة!؟ فعلی هذا فإنّ تکرار الصلاة خمس مرات فی الیوم و اللیلة- هو نفسه- دعوة إلی رعایة حقوق الآخرین! ۹- إنّ للصلاة- بالإضافة إلی شرائط صحتها- شرائط لقبولها، أو بتعبیر آخر:

شرائط لکمالها، و رعایتها- أیضا- عامل مؤثر و مهم لترک کثیر من الذنوب!.

و قد ورد فی کتب الفقه و مصادر الحدیث روایات کثیرة تحت عنوان موانع قبول الصلاة، و منها «شرب الخمر» إذ

جاء فی بعض الرّوایات: لا تقبل صلاة شارب الخمر أربعین یوما إلّا أن یتوب ۲۹۶].

کما نقرأ فی روایات متعددة أنّ من جملة «من لا تقبل صلاته «الإمام الظالم»[۲۹۷].

کما صرّح فی بعض الرّوایات بأنّ الصلاة لا تقبل من «مانع الزکاة».

کما أنّ هناک بعض الرّوایات تقول: «إنّ الصلاة لا- تقبل ممن یأکل السحت و الحرام، و لا ممن یأخذه العجب و الغرور» و هکذا تتّضح الحکمة و الفائدة الکبیرة من وجود هذه الشروط.

۱۰- إنّ الصلاة تقوی فی الإنسان روح الانضباط و الالتزام، لأنّها ینبغی أن تؤدی فی أوقات معینة، لأنّ تأخیرها عن وقتها أو تقدیمها علیه موجب لبطلانها.

و کذلک الآداب و الأحکام الأخری فی موارد النیة و القیام و الرکوع و السجود و ما شابهها، إذ أن رعایتها تجعل الاستجابة للالتزام فی مناهج الحیاة ممکنا و سهلا.

کل هذه من فوائد الصلاة- بغض النظر عن صلاة الجماعة- و إذا أضفنا إلیها خصوصیة الجماعة، حیث أنّ روح الصلاة هی الجماعة، ففیها برکات لا تحصی و لا تعدّ، و لا مجال هنا لشرحها و بیانها، مضافا الی أن الجمیع یدرک خیراتها و فوائدها علی الإجمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۰۹

و نختم کلامنا فی مجال حکمة الصلاة و فلسفتها و أسرارها بحدیث جامع منقول عن الإمام الرضا علیه السّلام إذ سئل عنها فأجاب بما یلی:

«إن علة الصلاة أنّها إقرار بالربوبیة للّه عزّ و جلّ، و خلع الأنداد، و قیام بین یدی الجبار جل جلاله بالذل و المسکنة و الخضوع و الاعتراف، و الطلب للإقالة من سالف الذنوب، و وضع الوجه علی الأرض کل یوم إعظاما للّه عزّ و جلّ و أن یکون ذاکرا غیر ناس و لا بطر، و یکون خاشعا متذللا، راغبا طالبا للزیادة فی الدین و الدنیا مع ما فیه من الإیجاب و المداومة علی ذکر اللّه عزّ و جلّ باللیل و النهار، لئلا ینسی العبد سیده و مدیره و خالقه فیبطر و یطغی، و یکون فی ذکره لربّه و قیامه بین یدیه زاجرا له عن المعاصی و مانعا له عن أنواع الفساد».[۲۹۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۱

بدایة الجزء الحادی و العشرون من القرآن الکریم و یبدأ من بدایة الآیة ست و أربعون سورة العنکبوت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۳

الآیات [سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۴۶ الی ۴۹]

اشارة

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْکِتابِ إِلَّا بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُکُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ کَذلِکَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلَّا الْکافِرُونَ (۴۷) وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ (۴۹)

التّفسیر

اتّبعوا أحسن الأسالیب فی البحث و الجدال:

کان أکثر الکلام فی الآیات المتقدمة فی کیفیة التعامل مع المشرکین المعاندین و کان مقتضی الحال أن یکون الکلام شدید اللهجة

حادّا، و أن يعدّ ما يعبدون من دون اللّه أوهى من بيت العنكبوت، أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- فيقع الكلام فى شأن مجادلة أهل الكتاب الذين ينبغى أن يكون الكلام معهم لطيفا، إذ أنّهم- على الأقل- قد سمعوا قسما ممّا جاء به الأنبياء و الكتب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۴

السماوية، و لديهم استعداد أكثر للتعامل المنطقى، إذ ينبغى أن يكلم كل شخص بمقدار علمه و عقله و أخلاقه.

فيقول القرآن فى هذا الصدد: لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۲۹۹].

«تجادلوا» مشتق من «جدال» و معناه فى الأصل فتل الحبل و إحكامه، كما تستعمل هذه المفردة فى البناء المحكم و ما أشبهه، و حين يتناقش اثنان فى بحث معين فكل واحد منهما- فى الحقيقة- يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته و فكرته .. لذا فقد سمّى هذا النقاش جدالا. كما يرد هذا التعبير فى النزاع أيضا، و على كل حال فإنّه المراد من قوله وَ لا تُجادِلُوا المناقشات المنطقية.

و التعبير ب بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ تعبير جامع يشمل الأساليب و الطرق الصحيحة و المناسبة للتباحث أجمع، سواء كان ذلك فى الألفاظ أو المحتوى، و سواء كان فى طريقة الكلام، أو الحركات و الإشارات المصاحبة له.

فعلى هذا يكون مفهوم الجملة المتقدمة: إنّ ألفاظكم ينبغى أن تكون بطريقة مؤدبة، و الكلام ذا مودّة، و المحتوى مستدلا، و صوتكم هادئا غير خشن، و لا متجاوزا لحدود الأخلاق أو لهتك الحرمة، و كذلك بالنسبة لحركات الأيدى و العيون و الحواجب التى تكمل البيان، ينبغى أن تكون هذه الحركات ضمن هذه الطريقة المؤدبة ... و كم هو جميل هذا التعبير القرآنى، إذ أوجز عالما من المعانى الدقيقة فى جملة قصيرة.

كل هذه الأمور لأجل أن الهدف من وراء النقاش و البحث ليس هو طلب التفوق و دحر الطرف الآخر، بل الهدف أن يكون الكلام حتى ينفذ فى القلب و فى أعماق الطرف الآخر ... و خير السبل للوصول إلى هذا الهدف هو هذا الأسلوب القرآنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۵

و كثيرا ما يتفق أنّه لو استطاع الإنسان أن يبيّن قول الحق بصورة يراه الطرف الآخر متطابقا لفكره و رأيه، فسرعان ما ينعطف إليه و ينسجم معه، لأنّ الإنسان ذو علاقة بفكره كعلاقته بأبنائه.

و هكذا فإنّ القرآن الكريم يثير الكثير من المسائل على صورة «السؤال و الاستفهام» لينتزع جوابه من داخل فكر المخاطب فيراه منه! و بالطبع فإنّ لكل قانون استثناء، و منها هذا القانون أو الأصل الكلى فى البحث و المجادلة الإسلامية، فقد يعدّ فى بعض الموارد ضعفا، أو يكون الطرف الآخر مغرورا الى درجة أن هذا التعامل الإنسانى يزيده جرأة و عدوانا و تكبرا، لذلك فإنّ القرآن يضيف مستثنيا: إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

و هم الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا الآخرين، و كتموا كثيرا من الآيات، لئلا يطلع الناس على أوصاف النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله.

الظالمون الذين جعلوا أوامر اللّه التى لا تنسجم مع منافعهم الشخصية تحت أقدامهم.

الظالمون الذين آمنوا بالخرافات فكانوا كالمشركين فى عقيدتهم إذ قالوا:

إن المسيح ابن اللّه، أو العزير ابن اللّه.

و أخيرا فهم أولئك الذين ظلموا و تذرعوا بالسيف و القوّة بدلا من البحث المنطقى، و توسّلوا بالشيطنة و التآمر على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و على الإسلام.

و يختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة بالتى هى أحسن» و يمكنه أن يكون قدوة لأى بحث؛ فيقول القرآن الكريم: وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

كم هو جميل هذا التعبير! و كم هو رائع هذا النغم و اللهجة! لهجة الوحدة و الإيمان بكل ما أنزل اللّه الواحد، و حذف جميع

العصبيّات، و نحن و أنتم جميعا موحدون للّه مسلمون له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۶

و هـذا مثل واحـد من المجادلـة بالتى هى أحسن التى ينجذب إليها كل من يسـمعها، و يدلّ على أن الإنسان يجب أن يكون بعيدا عن التحزب أو طلب التفرقة، فنداء الإسلام هو نداء الوحدة و التسليم لكل كلام حق.

و أمثلة هذا البحث كثيرة فى القرآن، و من ضمنها ما أشار إليه

الإمام الصادق عليه السّلام إذ قال: «أمّا الجـدال بالتى هى أحسن فهو ما أمر اللّه تعالى نبيّه أن يجادل به من جحـد البعث بعد الموت و إحيـاءه له، فقال اللّه حاكيا عنه: قل (يا محمّـد)» يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ۳۰۰].

و الآية الأخرى تؤكّد على الأصول الأربعة التى سبق ذكرها فى الآية المتقدمة، فتقول: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ أى القرآن.

أجل ... نزل هـذا القرآن على أساس توحيـد المعبود، و توحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، و التسـليم دون قيد أو شـرط لأمر اللّه؛ و المجادلة بالتى هى أحسن!.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من جملـة وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ هو تشبيه نزول القرآن على النّبى محمّد صـلّى اللّه عليه و آله أى كما أنزلنا كتبا من السماء على الأنبياء الماضين، فكذلك أنزلنا إليك الكتاب!.

إلّا أنّ التّفسير السابق يبدو أكثر دقّة، و إن كان الجمع بين التّفسيرين ممكنا أيضا.

ثمّ يضـيف القرآن الكريم: فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ و يعتقـدون بصـدقه .. إذ أنّهم وجدوا علائمه فى كتبهم، كما أن محتواه من حيث الأصول العامّة و الكلية منسجم مع كتبهم!.

و من المعلوم أن جميع أهل الكتاب (اليهود و النصارى) لم يؤمنوا بنبوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۷

محمّـد صـلّى اللّه عليه و آله «نـبى الإسـلام» فتكون هـذه الجملـة فى خصوص تلـك الجماعـة المؤمنـة منهم، و الـتى تبتغى الحق دون تعصب، فتكون جديرة أن يطلق عليها «أهل الكتاب».

و يضيف القرآن بعدئذ: وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۳۰۱] أى أهل مكّة و المشركون العرب.

ثمّ يقول القرآن فى كفر الطائفتين من اليهود و النصارى وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ

و مع الالتفات إلى أنّ مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشىء بقلبه و ينكره بلسانه، فإنّ مفهوم الجملة المتقدمة أن الكفار يعترفون فى قلوبهم بعظمـة هـذه الآيـات، و يرون علامات الصـدق عليها، و منهـج النّبى و طريقته و حياته النقيـة، و أن أتباعه هم المخلصون، و يعـدّون كـل ذلـك دليلا على أصـالته، إلّا أنّهم ينكرون ذلك عنادا و تعصـبا، و تقليـدا أعمى لأسـلافهم و لآبائهم، و لحفظ منافعهم الشخصية.

و على هذا فإنّ القرآن يحدد مواقف الأمم المختلفة إزاء هذا الكتاب و يصنفهم إلى قسمين:

فقسم هم أهـل الإيمـان، سواء من علماء اليهود و النصارى، أو المؤمنين بصـدق، أو المشـركين العطاشـى إلى الحقّ الـذين عرفوا الحق فتعلقت قلوبهم به.

و قسم آخر هم المنكرون المعانـدون، الـذين رأوا الحق إلّا أنّهم أنكروه و أخفوا أنفسـهم عنه كالخفاش، لأنّ ظلمـة الكفر كانت جزءا من نسيج وجودهم، فهم يستوحشون من نور الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۸

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ هـذا القسم- أو هذا الطائفة- كانوا كفرة من قبل، و لكن التأكيد على كفرهم ممكن أيضا، و ذلك لأنّهم

لم تتمّ الحجّة عليهم من قبل، و لكنّهم بعد أن تمّت عليهم الحجّة، فقد أصبحوا كافرين كفرا حقيقتا، و حادوا بعلمهم و اطلاعهم عن الصراط المستقيم، و خطوا فى دروب الضلال!.

ثمّ يضيف القرآن مشيرا إلى علامة أخرى من علائم حقانية دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله الجلية و الواضحة، و هى تأكيد على محتوى الآية السابقة، فيقول: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ و قالوا إنّ ما جاءنا به هذا النّبى هو حصيلة مطالعاته لكتب الماضين.

و معنى هذه الآية أنّك لم تذهب إلى مدرسة قط، و لم تكتب من قبل كتابا قط، لكنّك باشارة من وحى السماء أصبحت تعرف المسائل أفضل من مائة مدرس!.

كيف يمكن أن يصدق أن شخصا لم يقرأ كتابا و لم ير أستاذا و لا مدرسة، أن يأتى بكتاب يتحدى به جميع البشر أن يأتوا بمثله، فيعجز جميعهم عن الإتيان بما طلب.

أ ليس هذا دليلا على أن قوّتك تستمدّ من قوة الخالق غير المحدودة، و أن كتابك وحى السماء ألقاه اللّه إليك؟! و ينبغى الإشارة إلى أنّه لو سأل سائل: من أين نعرف أن النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يذهب إلى مدرسة قط؟!.

فنجيب أنّه صلّى اللّه عليه و آله قد عاش فى بيئة المثقفون و المتعلمون فيها معدودون و محدودون ... حتى قيل أن ليس فى مكّة أكثر من سبعة عشر رجلا يجيدون القراءة و الكتابة، ففى مثل هذا المحيط و هذه البيئة، لو قدّر لأحد أن يمضى إلى المدرسة فيتعلم القراءة و الكتابة، فمن المستحيل أن يكون مجهولا، بل يكون معروفا فى كل مكان. كما يعرف الناس أستاذه و درسه أيضا.

فكيف يمكن لمثل هذا الشخص أن يدعى أنّه نبىّ صادق و مع ذلك يكذب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۱۹

هذه الكذبة المفضوحة و المكشوفة؟ خاصة أن هذه الآيات نزلت فى مكّة، مهد نشأة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كذلك فى قبال الأعداء الألدّاء الذين لا تخفى عليهم أقل نقطة ضعف!!.

و فى الآية التالية علامة أخرى أيضا على حقانية القرآن، إذ تقول: بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ

و التعبير ب «الآيات البينات» كاشف عن هذه الحقيقة و هى أن دلائل حقانية القرآن تتجلى بنفسها عيانا، و تشرق فى أرجائه، فدليلها معها.

و فى الحقيقة، إنّها مثل الآيات التكوينية التى تجعل الإنسان يذعن بحقيقتها عند مطالعتها دون حاجة إلى شىء آخر، هذه الآيات التشريعية- أيضا- من حيث ظاهرها و محتواها كذلك، إذ هى دليل على صدقها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ أتباع هذه الآيات و طلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولوا العلم و الاطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية و أرجلهم حافية!.

و بتعبير أوضح: إنّ واحدا من طرق معرفة أصالة مذهب ما دراسة حال المؤمنين به، فإذا كان الجهال المحتالون قد التفوا حول الشخص، فهو أيضا من نسيجهم، و لكن إذا كان من التفّ حول الشخص هم الذين امتلأت صدورهم بأسرار العلوم و هم أوفياء له، فيكون هذا الأمر دليلا على حقانية ذلك الشخص، و نحن نرى أن جماعة من علماء أهل الكتاب، و رجالا متقين أمثال أبى ذر و سلمان و المقداد و عمار بن ياسر، و شخصية كبيرة كعلى بن أبى طالب عليه السّلام، هم حماة هذا المبدأ.

و فى روايات كثيرة منقولة عن أهل البيت عليهم السّلام، إنّ المراد بالذين أوتوا العلم هم الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام و طبعا ... فليس هذا المعنى منحصرا فيهم، بل هم المصداق الجلى لهذه الآية[۳۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۰

و إذا ما لاحظنا أن بعض الرّوايات تصرّح أنّ المراد من هذه العبارة المتقدمة هم الأئمّة عليهم السّلام، فإنّ ذلك فى الحقيقة إشارة إلى

المرحلة الكاملة لعلم القرآن الذى عندهم، و لا يمنع أن يكون للعلماء ... بل لعامّة الناس الذين لهم نصيب من الفهم، أن يحظوا بقسط من علوم القرآن أيضا.

كما أنّ هذه الآية تدلّ ضمنا على أن العلم ليس منحصرا بالكتاب، أو بما يلقيه الأستاذ على تلاميذه ... لأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله- طبقا لصريح الآيات المتقدمة- لم يدرس فى مدرسة و لم يكتب من قبل كتابا ... إلّا أنّه كان خير مصداق للذين «أوتوا العلم».

فإذا فما وراء العلم «الرسمى» الذى نعهده، علم أوسع و أعظم، و هو علم يأتى من قبل اللّه تعالى على شكل نور يقذف فى قلب الإنسان، كما ورد فى الحديث «العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء». و هذا هو جوهر العلم، أمّا ما سواه فهو الصدف و القشر! و تختتم الآية بقوله تعالى: وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ ... لأنّ دليلها واضح، فالنّبى الأمّىّ الذى لم يقرأ و لم يكتب، هو الذى جاء بها ... و العلماء المطلعون هم المؤمنون بها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الآيات نفسها مجموعة من الآيات البينات «كلمات ذوات محتوى جلى مشرق».

و قد وردت علائمها فى الكتب المتقدمة.

و مع كل هذا ترى هل ينكر هذه الآيات إلّا الذين ظلموا أنفسهم و ظلموا مجتمعهم «و نكرر أن التعبير ب «بالجحد» يكون فى مورد ما لو أن الإنسان يعتقد بالشىء و ينكره على خلاف ما يعلمه»!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۱

بحوث

۱- الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. الأمى

صحيح أن القراءة و الكتابة تعدّان- لكل إنسان- كمالا.. إلّا أنّه يتفق أحيانا- و فى ظروف معينة- أن يكون من الكمال فى عدم القراءة و الكتابة ... و يصدق هذا الموضوع فى شأن الأنبياء، و خاصة فى نبوّة خاتم الأنبياء «محمّد» صلّى اللّه عليه و آله.

إذ يمكن أن يوجد عالم قدير و فيلسوف مطّلع، فيدّعى النبوّة و يظهر كتابا عنده على أنّه من السماء، ففى مثل هذه الظروف قد تثار الشكوك و الاحتمالات أو الوساوس فى أنّ هذا الكتاب- أو هذا الدين- هو من عنده لا من السماء!.

إلّا أنّنا إذا رأينا إنسانا ينهض من بين أمّة متخلفة، و لم يتعلم على يد أى أستاذ، و لم يقرأ كتابا و لم يكتب ورقة- فيأتى بكتاب عظيم عظمة عالم الوجود، بمحتوى عال جدا ... فهنا يمكن معرفة أن هذا الكتاب ليس من نسج فكره و عقله، بل هو وحى السماء و تعليم إلهى، و يدرك هذا بصورة جيدة!.

كما أنّ هناك تأكيدا على أمية النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى آيات القرآن الأخرى، و كما أشرنا آنفا فى الآية (۱۵۷) من سورة الأعراف إلى أن هناك ثلاثة تفاسير لمعنى «الأمىّ»، و أوضحها و أحسنها هو أنّه من لا يقرأ و لا يكتب.

و لم يكن فى محيط الحجاز و بيئته- أساسا- درس ليقرأ النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و لا معلم ليحضر عنده و يستفيد منه، و قلنا: إنّ عدد المثقفين الذين كانوا يقرءون و يكتبون فى مكّة لم يتجاوز سبعة عشر نفرا فحسب، و يقال أن من النساء كانت امرأة واحدة تجيد القراءة و الكتابة[۳۰۳].

و طبيعى فى مثل هذا المحيط الذى تندر فيه أدنى مرحلة للعلم و هى القراءة و الكتابة، لا يوجد شخص يعرف القراءة و الكتابة و لا يعرف عنه الناس شيئا ...

و إذا ظهر مدع و قال- بضرس قاطع- إنّنى لم أقرأ و لم أكتب، لم ينكر عليه أحد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۲

دعاءه، فیکون عدم الإنکار دلیلا جلیّا علی صدق مدّعاه، و علی کل حال فإنّ هذه الکیفیة الخاصة للنّبی صلّی اللّه علیه و آله التی نوهت عنها الآیات المتقدمة، إنّما هی لإکمال إعجاز القرآن، و لقطع السبیل أمام حجج المتذرعین بالأباطیل الواهیة، و فیها تأثیر بالغ و نافع جدّا.

أجل، إنّه عالم منقطع النظیر، لکنّه لم یدرس فی مدرسة، بل تعلّم من وحی السماء!.

تبقی هناک ذریعة واحدة یحتج بها المتذرعون، و هی أنّ النّبی سافر إلی الشام مرّة أو مرتین «لفترة وجیزة و لغرض التجارة» .. قبل نبوته، فیقولون: ربّما اتصل فی بعض هاتین السفرتین بعلماء أهل الکتاب و تعلّم منهم هذه المسائل!.

و الدلیل علی ضعف هذا الادّعاء منطو فی نفسه، فکیف یمکن أن یسمع إنسان جمیع هذه الدروس و تواریخ الأنبیاء و الأحکام و المعارف الجلیلة، و هو لم یمض إلی مدرسة و لم یقرأ شیئا، فیحفظ کل ذلک بهذه السرعة، و یودعه فی ذهنه، ثمّ یبیّنه و یفصله خلال مدّة ثلاث و عشرین سنة؟! و أن یبدی موقفا مناسبا للحوادث غیر المتوقعة و التی لم یسبق لها مثیل.

و هذا یشبه تماما أن نقول مثلا: إنّ فلانا تعلم قائمة العلوم و الفنون الطبیة کلّها فی عدّة أیّام، و أنّه کان مشرفا علی معالجة المرضی فی المستشفی الفلانی، و مستشارا للأطباء، هذا کلام أقرب إلی المزاح و الهزل منه إلی الجد.

و ینبغی الالتفات إلی هذه المسألة، هی أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله بعد أن بلغ مرحلة النبوّة، یحتمل أن یکون قادرا علی القراءة و الکتابة، حینئذ و ذلک بواسطة التعلیم الالهی و إن لم یرد فی التواریخ أنّه استفاد من هذه الطریقة! و لم یقرأ شیئا بنفسه أو یکتب شیئا بیده، و لعل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم تجنب کل ذلک فی طول عمره لئلا یتذرع المتذرعون فیثیروا الشکوک بنبوّته! الشیء الوحید الذی جاء فی کتب التأریخ أن النّبی صلّی اللّه علیه و آله کتبه بنفسه، هو صلح الحدیبیة الذی جاء فی مسند أحمد أن «النّبی أمسک القلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۳

بیده و کتب معاهدة الصلح»[۳۰۴].

إلّا أنّ جماعة من علماء الإسلام أنکروا هذا الحدیث، و قالوا: إنّ هذا مخالف لصریح الآیات، و إن اعتقد البعض بأنّه لیس فی الآیات صراحة، لأنّ الآیات ناظرة لحال النّبی قبل بعثته، فما یمنع أن یکتب النّبی علی وجه الاستثناء بعد أن نال مقام النبوّة .. فی مورد واحد .. و یکون ذلک بنفسه معجزة أخری من معاجزه!.

إلّا أن الاعتماد فی مثل هذه المسألة علی خبر الواحد مجانب للحزم و الاحتیاط، و مخالف لما ثبتت فی علم الأصول حتی لو قلنا أنّ هذا الخبر لا اشکال فیه.[۳۰۵]

۲- طریق النفوذ فی الآخرین

لا یکفی الاستدلال القوی المتین للنفوذ إلی قلوب الآخرین و اکتسابهم بالکلام الحق، فانّ أسلوب التعامل مع الطرف الآخر و طریقة البحث و المناظرة تترک أعمق الأثر فی هذه المرحلة .. فکثیرا ما یتفق أن یوجد أناس مطّلعون و لهم ید طولی فی البحوث العلمیة الدقیقة، إلّا أنّهم قلّما یوفقون للنفوذ إلی قلوب الآخرین، بسبب عدم معرفتهم بکیفیة المجادلة بالتی هی أحسن، و عدم معرفتهم بالبحوث البنّاءة!.

و بتعبیر آخر فإنّ النفوذ الی مرحلة الوعی- فی المخاطب- غیر کاف وحده، بل ینبغی الدخول إلی مرحلة عدم الوعی الذی یمثل القسم الأکبر لروح الإنسان أیضا.

و يستفاد من مطالعة أحوال الأنبياء، و لا سيما حال النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة الهدى عليهم السّلام- بصورة جيدة أن هؤلاء العظام سلكوا أحسن سبل الأخلاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۴

الاجتماعية و أسس المعارف النفسية و الإنسانية، لأجل تحقيق أهدافهم التبليغية و التربوية!.

و كانت طريقة تعاملهم مع الناس أن يكتسبوهم إليهم بشكل سريع فينجذبوا إليهم، و إن كان بعض الناس يميل إلى أن يضفى على مثل هذه الأمور ثوب الإعجاز دائما، إلّا أنّه ليس كذلك، فلو اتبعنا سنتهم و طريقتهم لاستطعنا بسرعة أن نترك فى الناس عظيم الأثر، و أن ننفذ إلى أعماق قلوبهم.

و القرآن يخاطب نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله بصراحة فيقول: وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۳۰۶] أو كثيرا ما يرى أنّ بعضهم بعد ساعات من الجدال و المناظرة، لا أنه لا يحصل على تقدم فى مناقشاته فحسب، بل على العكس يجعل الطرف الآخر متعصبا و متشددا فى عقيدته الباطلة بصورة أكثر ... و ذلك دليل على أنّه لم يتبع أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن.

فالخشونة فى البحث، و طلب الاستعلاء، و تحقير الطرف المقابل، و إظهار التكبر و الغرور، و عدم احترام أفكار الآخرين، و عدم الجدية فى المناقشات و البحوث، كلها من الأمور التى تبعث على انهزام الإنسان فى بحثه، و عدم انتصاره على الطرف الآخر. لذلك فإنّنا نرى فى مباحث الأخلاق الإسلامية بحثا تحت عنوان «تحريم الجدال و المراء» و المراد منه الأبحاث التى لا يطلب من ورائها الحق، بل المراد منها الاستعلاء و إبراز العضلات لا غير!.

و تحريم الجدال و المراء- بالإضافة إلى الجوانب المعنوية و الأخلاقية- إنّما هو لأنّه لا يحصل من ورائهما على نتيجة فكرية ملحوظة.

و الجدال و المراء فى حرمتهما متقاربان، إلّا أن العلماء من المسلمين جعلوا فرقا بين كلّ منهما ... «فالمراء» معناه إظهار الفضل و الكمال، «و الجدال» يراد منه تحقير الطرف المقابل!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۵

و قالوا: إنّ الجدال هى المراحل الهجومية الأولى فى البحث ... و أمّا المراء فيراد منه الصدّ الدفاعى فى الكلام.

كما أنّ هناك قولا بأن الجدال فى المسائل العلمية، أمّا المراء فهو فى الأعم منها «و بالطبع فإنه لا تضادّ بين هذه التفاسير جميعا».

و على كل حال، فإنّ الجدال أو البحث مع الآخرين، تارة يقع بالتى هى أحسن، و ذلك ما بيّناه بالشرائط المتقدمة آنفا، و ينبغى رعايتها بدقّة. و تارة يكون بغير الأحسن، و ذلك فى ما لو أهملت الأمور التى ذكرناها فى مستهل كلامنا على الجدال، و جعلت فى طىّ النسيان.

و نختتم هذا الكلام بعدة روايات بليغة و نافعة لنتعلم منها:

ففى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «لا يستكمل عبد حقيقة الإيمان حتى يدع المراء و إن كان محقا»[۳۰۷].

و نقرأ

فى حديث آخر أن سليمان النّبى عليه السّلام قال لولده «يا بنى إيّاك و المراء، فإنّه ليست فيه منفعة، و هو يهيج بين الأخوان العداوة»[۳۰۸].

۳- الكافرون و الظالمون

نواجه فى الآيات المتقدمة آنفا هذا التعبير وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ و مرّة أخرى نواجه المضمون ذاته مع شىء من التفاوت فبدلا من كلمة «الكافرون» جاءت كلمة «الظالمون» وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ

و الموازنة بين التعبيرين تدلّ على أن المسألة ليست من قبيل التكرار، بل هى لبيان موضوعين، أحدهما يشير إلى جانب عقائدى «الكافرون» و الآخر يشير إلى جانب عملى «الظالمون».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۶

فالآية الأولى تقول: إنّ الذين اختاروا الشرك و الكفر بأحكامهم المسبّقة الباطلة و تقليدهم الأعمى لأسلافهم، لا يرون آية من آيات اللّه إلّا أنكروها و إن تقبلتها عقولهم»! أمّا التعبير الثّانى فيقول: إنّ الذين اختاروا بظلمهم أنفسهم و مجتمعهم طريقا يرون فيه منافعهم الشخصية، و عزموا على الاستمرار فى هذه الطريق، لا يذعنون لآياتنا. لأنّ آياتنا كما أنّها لا تنسجم مع خطهم الفكرى، فهى لا تنسجم مع خطهم العملى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۰ الى ۵۵]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۵۲) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۵۳) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (۵۴)

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

التّفسير

أ ليس القرآن كافيا فى إعجازه؟!

الأشخاص الذين لم يذعنوا و يسلّموا للبيان الاستدلالى و المنطقى الذى جاء به القرآن بسبب عنادهم و إصرارهم على الباطل، و لم يقبلوا بكتاب كالقرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۸

الذى جاء به إنسان أمى كالنّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله دليلا جليّا على حقانية دعوته ...

تذرعوا بحجّة أخرى على سبيل الاستهزاء و السخرية، و هى أنّه لم لا- تأت- يا محمّد- بمعجزة من المعاجز التى جاء بها موسى و عيسى وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ

و لم لم يكن لديه مثل عصى موسى و يده البيضاء و نفخة المسيح؟! و لم لا يهلك أعداءه بمعاجزه، كما فعل موسى و شعيب و هود و نوح بأممهم المعاندين؟!.

أو كما يعبر على لسانهم القرآن فى الآيات ۹۰- ۹۳ من سورة الإسراء وَ قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَ عِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً، أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقى فِي السَّماءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا.

و من دون شك فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كانت لـديه معاجز غير القرآن الكريم، كما أن التواريخ تصـرح بذلك أيضا ... إلّا أن أولئك لم يكن قصـدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة، بل كان قصـدهم- من جهـة- أن لا يعتبروا القرآن شـيئا مهما و كتابا إعجازيا، و من جهـة أخرى كانوا يريـدون معجزات مقترحـة «و المراد من المعجزات المقترحـة هو أن يأتى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله طبقـا لرغبـات هـذا و ذاك بمعاجز خارقـة للعادة يقترحونها عليه، فمثلا يريـد منه بعضـهم أن يفجّر له الأرض ينابيع من الماء الزلال، و يريد الآخر منه أن يقلب له الجبال التى فى مكّة ذهبا، و يتذرع الثّالث بأن هذا لا يكفى أيضا بل ينبغى أن يصـعد إلى السـماء، و هكذا يجعلون المعجزة على شكل ألعوبة لا قيمة لها، و آخر الأمر .. و بعد رؤية كل هذه الأمور يتهمونه بأنه ساحر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۲۹

لذلك فإن القرآن يقول فى الآية (۱۱۱) من سورة الأنعام وَ لَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَ حَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا.

و على كل حال فإنّ القرآن، للرد على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهية، يدخل من طريقين:

فيقول أوّلا فى خطابه لنبيه قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ أى قل لأولئك المعانـدين أن اللّه يـدرى أيـة معجزة تناسب أى زمان و أى قوم، و هـو يعلم أى الأفـراد هم أتبـاع الحق، و ينبغى أن يريهم المعـاجز الخارقـة للعـادة، و أى الأفـراد المتـذرعون و أتبـاع هوى النفس؟! ثمّ يضـيف القرآن معقبـا أن قـل وَ إِنَّمـا أَنَـا نَـذِيرٌ مُبِينٌ ... فمسؤوليتى الإنـذار- فحسب- و الإبلاـغ و بيـان كلام اللّه، أمّا المعاجز و الأمور الخارقة للعادة فهى بأمر اللّه.

و الجواب الآخر هو قوله تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ

فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، و القرآن بحد ذاته أعظم معجزة معنوية ..

و هم يريدون معجزة عابرة لا تمكث طويلا، فى حين أن القرآن معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم و على الأجيال من بعدهم.

ترى هل يعقل أن يأتى إنسان أمى و حتى لو كان يقرأ و يكتب فرضا بكتاب بهـذا المحتوى العظيم و الجاذبيـة العجيبـة، التى هى فوق قـدرة الإنسـان و البشـر، ثمّ يـدعوا أهـل العلم متحـديا لهم للإتيـان بمثله فيعجزون عن الإتيان بمثله؟! فلو كانوا حقا طلاب معجزة، فقد آتيناهم بنزول القرآن أكثر ممّا طلبوه إلّا أنّهم لم يكونوا طلاب معجزة، بل هم متذرعون بالأباطيل!.

و ينبغى الالتفات إلى أن التعبير أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ إنّما يستعمل- غالبا- فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۰

موارد يكون الإنسان قد أدّى عملا فوق ما ينتظره الطرف الآخر، و هو غافل عنه أو يتغافل عنه، كأن يقول مثلا: لم أحصل على الخدمة الفلانيّة، فى حين أن الخدمـة التى قـدمت إليه- كما فى هـذه الحال- أكبر خدمـة، إلّا أنّه لا يعتبرها شـيئا، و نقول له: أو لم يكفك ما قـدمناه؟! ثمّ بعـد هـذا كله ينبغى أن تكون المعجزة منسـجمة مع ظروف «الزمان و المكان و كيفية دعوة النّبى» فالنّبى الذى يدعوا إلى مبدأ خالد، ينبغى أن تكون معجزته خالدة أيضا.

و النّبى الذى تسـتوعب دعوته العالم و تستوعب القرون و الأعصار المقبلة، لا بدّ له من أن يأتى بمعجزة نيّرة «روحية و عقلانية» ليجلب إليه أفكار جميع العلماء و المفكرين، و من المسلّم به أن مثل هذا الهدف يتناسب مع القرآن، لا عصى موسى و لا يده البيضاء.

و فى نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد و التوضيح بصورة أجلى، فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

«ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، و هو القرآن.

أجـل، إن القرآن رحمـة «وسـيلة» للـذكرى و التـذكر أيضـا، فهو للمؤمنين الـذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقـة، و الـذين يبتغون النور و الطريق السوىّ هو لهم رحمـة إلهيـة يحسونها بكل وجودهم، و يشـعرون بالاطمئنان و الدعـة عنـده .. و كلّما قرءوا آياته تذكروا، فهى لهم ذكرى و أيـة ذكرى؟! و لعـل الفرق بين «الرحمـة» و «الـذكرى» أنّ القرآن ليس معجزة و ذكرى فحسب، بـل هـو إضافـة إلى كل

ذلك يحتوى على القوانين التى تمنح الرحمة و المناهج التربوية و الإنسانية.

فمثلا- كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلّا أنّها لم يكن لها أثر فى حياة الناس اليومية، غير أن القرآن معجزة، هو فى الوقت ذاته منهج كامل الحياة و رحمة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۱

أيضا.

و لمّا كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبيّن فى الآية الأخرى أن خير شاهد هو اللّه قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً.

و بديهى أنّه كلّما كان اطلاع الشاهد و شهادته أكثر، فإنّ قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلا: يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و الآن لنعرف كيف شهد اللّه على حقانية نبيّه صلّى اللّه عليه و آله؟! يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنّه حين يؤتى اللّه نبيّه معجزة كبرى كالقرآن، فقد وقع على سند حقانيته و أمضاه.

ترى هل يمكن أن يأتى اللّه الحكيم العادل بمعجزة على يد كذّاب، و العياذ باللّه! فعلى هذا كانت طريقة إعطاء المعجزة لشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله- بنفسها- أعظم شهادة على نبوته من قبل اللّه.

و إضافة للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ فى آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية فى نبوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، كما فى الآية (۴۰) من سورة الأحزاب ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ و فى الآية (۲۹) من سورة الفتح أيضا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية كانت جوابا على ما قاله بعض رؤوساء اليهود من أهل المدينة، أمثال «كعب بن الأشرف» و أتباعه، إذ قالوا: يا محمّد، من يشهد على أنّك مرسل من قبل اللّه، فنزلت هذه الآية قُلْ كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً! كما يمكن أن تفسّر الآية المتقدمة بتفسير آخر و بيان ثان، و ذلك أنّ المراد من شهادة اللّه فى الآية هى ما سبق من الوعد و الذكر فى كتب اللّه السابقة «كالتّوراة و الإنجيل» و يعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة!.

و فى الوقت ذاته لا منافاة بين التّفسيرات الثلاثة الآنفة الذكر، و من الممكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۲

أن تجتمع هذه التفاسير فى معنى الآية أيضا.

و تختتم الآية بنحو من الوعيد و التهديد لأولئك الكفار باللّه، فيقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و أى خسران أعظم من أن يعطى الإنسان جميع وجوده فى سبيل لا شىء؟! كما فعله المشركون، فقد أعطوا قلوبهم و أرواحهم للأوثان و الأصنام .. و وظّفوا جميع قواهم الجسمانية و الإمكانات الاجتماعية و الفردية فى سبيل الإعلام و التبليغ لمذهبهم الوثنى و أهملوا ذكر اللّه، فلم يعد عليهم هذا إلّا بالضرر و الخسران!.

و غالبا ما يشير القرآن إلى هذا الخسران فى آياته، و فى بعض الآيات يرد التعبير بكلمة «أخسر» و هى إشارة إلى أنّه ليس فوق هذا الخسران من خسارة و لا أعظم منه! .. (راجع آيات السور «هود ۲۲ و النمل ۵ و الكهف ۱۰۳»).

و المثل الأهمّ هو أنّه قد يتفق للإنسان أحيانا أن يتضرر فى معاملته و يخسر رأس ماله و يغلب على أمره، و قد تتسع هذه الدائرة أحيانا فيقل كاهله بالديون، و هذه الحالة أسوأ الحالات و المشركون هم فى مثل هذه الحالة، بل قد يكونون سببا لضلال الآخرين و خسرانهم، و كما يصطلح عليه: «الفشل سلسلة متصلة»[۳۰۹].

فى الآيات المتقدمة عرض قسمان من ذرائع الكفار قبال دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قد أجيب عنهما:

الأوّل: كان قولهم: لم لا يأتى بمعجزة؟! فأجاب القرآن: إن هذا الكتاب المنزل من السماء هو أعظم معجزة.

و الثّانى: سؤالهم: من الشاهد على صدق دعواك و حقانية النبوة عندك؟

فأجاب القرآن: كفى بالله شهيدا بينى و بينكم يعلم ما فى السماوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۳

و الأرض.

أمّا فى الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثّالثة إذ تقول: وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ إذ يقولون: لو كان عذاب اللّه حقا على الكافرين فلم لا يأتينا!؟

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأوّل: وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ

و هـذا الزمان المعين «الأجل» إنّما هو لهدف أصلى، للارعواء عن باطلهم و تيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم، فاللّه لا يستعجل أبدا فى أمره، لأنّ العجلة خلاف حكمته.

و الثّانى: إن أولئك الـذين يتـذرعون بهـذا القول ما يـدريهم لعل العـذاب يأخذهم على حين غرة من أنفسـهم وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ۳۱۰].

و بالرغم من أن موعـد العـذاب- فى الواقع- معين و مقرّر إلّا أن المصـلحة تقتضـى ألّا يطّلعوا عليه، و أن يأتيهم دون مقـدمات، لأنّه لو عرف وقته لكـان باعثـا على تجرؤ الكفار و المـذنبين و جسارتهم .. و كانوا يواصـلون الـذنب و الكفر إلى آخر لحظـة .. و حين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبة- جميعا- الى اللّه و ينيبون إليه.

و الحكمـة التربويـة لمثل هذا العقاب تقتضـى أن يكتم موعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسـها، و يكون الخوف و الاستيحاش منها عاملا على الردع، و يتّضح ممّا قلناه- ضـمنا- أنّ المراد من جملة وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ لا تعنى أنّهم لا يدركون أصل وجود العذاب. و إلّا فإنّ فلسـفة العذاب و الحكمة منه لا يكون لها أثر، بل المراد أنّهم لا يعرفون اللحظة التى ينزل فيها العذاب و لا مقدماته، و بتعبير آخر: إنّ العذاب ينزل عليهم كالصاعقة و هم غافلون.

و يظهر من آيات متعددة من القرآن أن التذرع بالحجج الواهية لم يكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۴

منحصرا بأهل مكّة، بل كثير من الأمم السابقين يلتجئون إلى مثل هذه الذريعة، و يصرون على تعجيل العقوبة و العذاب!.

و أخيرا فإنّ الجواب القرآنى الثّالث يتبيّن فى الآية إذ يقول: يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

فإذا تأخر عنهم عـذاب الـدنيا، فإن عـذاب الآخرة واقع لا محالـة، و محيط بهم تماما و سيصـيبهم حتما بحيث أنّ القرآن يذكره بصورة أمر فعلىّ (و كأن جهنّم الآن محيطة بهم).

و يوجد تفسير آخر أكثر دقّة لهذه الآية، و هو أنّ جهنم محيطة، الآن فعلا بالكافرين، من جهتين- بالمعنى الواقعى للكلمة.

الجهـة الأـولى: إنّهـا جهنم الـدنيا، إذ هم على أثر شـركهم و تلوثهم بالـذنب يحـترقون بجهنم التى أعـدّوها لأنفسـهم، جهنم الحرب و سفك الدماء، جهنم النزاع و الشقاق و الاختلافات، جهنم القلق و الفزع، جهنم الظلم، و جهنم الهوى و الهوس و العناد.

و الجهـة الثّانيـة: طبقا لظاهر الآيات فى القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلا، و كما تقـدم سابقا فإنّ جهنّم موجودة فى باطن الـدنيا، و بهـذا فهى محيطـة بهم على نحو الحقيقة .. و فى سورة التكاثر إشارة لها أيضا كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ الآيات ۵- ۷ من سورة التكاثر[۳۱۱].

ثمّ يضيف القرآن يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۳۱۲].

يمكن أن تكون هـذه الآية توضـيحا لإحاطة عذاب جهنّم فى يوم القيامة بالكفار، و يمكن أن تكون بيانا مسـتقلا لذلك العذاب الأليم لهم الذى يحيط بهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۵

الیوم علی أثر أعمالهم، و فی غد یتجلی هذا العذاب بوضوح و یکون محسوسا ظاهرا.

و علی کل حال فذکره لإحاطة العذاب مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ و عدم ذکره لبقیة الجهات- فی الحقیقة- هو لوضوح المطلب، و إضافة إلی ذلک فإن نار العذاب إذا امتدت ألسنتها من تحت الأرجل و نزلت علی الرؤوس، فإنها تحیط بجمیع البدن أیضا و تغشی جمیع أطرافه و جوانبه.

و أساسا فإنّ هذا التعبیر مستعمل فی اللغة العربیة، إذ یقال مثلا: إن فلانا غارق من قرنه إلی قدمه فی مستنقع الفسق و عدم العفة، أی إن جمیع وجوده غارق فی هذا الذنب، و بهذا یرتفع الإشکال عند المفسّرین فی ذکر القرآن للجهة العلیا «من فوقهم» و الجهة السفلی «من تحتهم» و السکوت عن الجهات الأربع الأخری، و یتّضح المراد منه بالتقریر الذی بیّناه! أمّا جملة ذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ التی یظهر أن قائلها هو اللّه تعالی، فهی بالإضافة إلی أنّها نوع من العقوبة النفسیة لمثل هؤلاء الأشخاص، فهی کاشفة عن هذه الحقیقة، و هی أن عذاب اللّه لیس إلّا انعکاسا للأعمال التی یقوم بها الإنسان نفسه فی النشأة الآخرة!.

ملاحظات

۱- دلائل إعجاز القرآن:

لا شک أنّ القرآن أعظم معجزة للإسلام ... معجزة بلیغة، خالدة و باقیة، مناسبة لکل عصر و زمان و لجمیع الطبقات الاجتماعیة، و قد ذکرنا بحثا مفصلا عن إعجاز القرآن فی ذیل الآیة ۲۳ من سورة البقرة، و لا حاجة إلی إعادته هنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۶

۲- التشبث بالحیل لإنکار المعجزات:

یصرّ بعض العلماء المتأثرین بالغرب- الذین یمیلون إلی أن لا یعتدّوا بظواهر الأنبیاء الخارقة للعادة- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لیس له معجزة غیر القرآن، و ربّما یرون القرآن لیس معجزا، فی حین أنّ مثل هذا الکلام مخالف لآیات القرآن، و للرّوایات المتواترة، و للتأریخ الإسلامی أیضا.

«و قد بیّنا تفصیل هذا الکلام فی ذیل الآیات ۹۰- ۹۳ من سورة الإسراء».

۳- المعجزات الاقتراحیّة:

کانت أسالیب المخالفین للأنبیاء دائما هی اقتراحهم المعجزات التی یرتؤونها، و کانوا بعملهم هذا یحاولون أن یحطّوا من قیمة المعجزات و عظمتها و یجروها إلی الابتذال من جهة، و أن تکون فی أیدیهم ذریعة إلی عدم قبول دعوة الأنبیاء من جهة أخری، لکن الأنبیاء لم یستسلموا لهذه المؤامرات أبدا .. و کما رأینا فی إجابتهم آنفا، فإن المعجزة لیست باختیارهم لتکون مطابقة «لمیلکم و هوسکم» کل یوم و کل ساعة نأتی بمعجزة کما تریدون ... بل المعاجز هی بأمر اللّه فحسب، و هی خارجة عن أمرنا.

«و قد ذکرنا شرحا حول المعجزة الاقتراحیة فی ذیل الآیة ۲۰ من سورة یونس».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۷

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۵۶ الى ۶۰]

اشارة

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۵۸) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۵۹) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶۰)

سبب النّزول

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ الآية- من هذا المقطع- نزلت فى شأن المؤمنين الذين كانوا تحت ضغط الكفار الشديد، حتى أنّهم لم يستطيعوا أن يؤدوا وظائفهم الإسلامية، فجاءت هذه الآية لتأمرهم بالهجرة من هذه الأرض.

كما يعتقد بعض المفسّرين أيضا أنّ الآية وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا و هى الآية الأخيرة- من المقطع محل البحث نزلت فى شأن بعض المؤمنين الذين كانوا يتعرضون لأذى أعدائهم فى مكّة! و كانوا يقولون لو هاجرنا إلى المدينة فليست لدينا دار و لا أرض، من يطعمنا و يسقينا هناك؟ فنزلت الآية وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۸

التّفسير

لا بدّ من الهجرة:

حيث أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام و المسلمين، ففى الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين و مسئولياتهم قبال المشاكل المختلفة، أى مشاكل أذى الكفار و ضغوطهم و قلّة عدد المسلمين و ما إلى ذلك، فتقول الآية الأولى: يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ

و بديهى أنّ هذا ليس قانونا خاصا بمؤمنى أهل مكّة، و لا يحدد سبب النّزول مفهوم الآية الواسع المنسجم مع الآيات الأخرى ... فعلى هذا لو سلب الإنسان حريته فى أى عصر أو زمان و مكان بشكل كامل، فإنّ بقاءه هناك لا يجلب عليه إلّا الذل «و الخسران و الضرر» و الابتعاد عن أداء المناسك الإلهية، فوظيفة الإنسان المسلم عندئذ الهجرة إلى منطقة «حرّة» يستطيع أن يؤدى فيها وظائفه الإسلامية بحرية تامّة أو حرية نسبية.

و بتعبير آخر: إنّ الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبدا للّه، عبودية هى فى الواقع سبب للحرية و الكرامة و الإنتصار فى جميع الجهات ... و جملة فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ إشارة إلى هذا المعنى، كما ورد هذا التعبير فى الآية (۵۶) من سورة الذاريات وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسى و النهائى مستحيلا، فلا سبيل عندئذ إلّا الهجرة، فأرض اللّه واسعة، و ينبغى أن يهاجر الفرد نحو منطقة أخرى، و لا يكون أسيرا لمفاهيم «القبلية و القومية و الوطنية و البيت و الأهل» فى مثل هذه الموارد، و لا يذل الإنسان نفسه من

أجلها، فإنّ احترام هذه الأمور هو فيما لو كان الهدف الأصلى قائما غير مخاطر به، أمّا إذا أصبح الهدف الأصلى «عبادة اللّه» مخاطرا به فلا سبيل إلّا الهجرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۳۹

و فى مثل هذه الموارد

يقول الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام: «ليس بلد بأحق بك من بلدك، خير البلاد ما حملك»[۳۱۳].

صحيح أنّ حب الوطن و العلاقة بمسقط الرأس جزء من طبيعة كل إنسان، و لكن قد يتفق أن تحدث فى حياة الإنسان مسائل أهم من تلك الأمور، فتجعلها تحت شعاعها و تكون أولى منها.

و فى مجال موقف الإسلام و نظرته من مسألة الهجرة و الرّوايات الواردة فى هذا الصدد، كان لنا بحث مفصل فى ذيل الآية (۱۰۰) من سورة النساء.

و التعبير ب يا عِبادِيَ هو أكثر التعابير رأفة و حبّا للناس من قبل خالقهم.

و تاج للفخر أعلى حتى من مقام الرسالة و الخلافة، كما نذكر ذلك فى التشهد حيث نقدم العبودية على الرسالة دائما «أشهد أن محمّدا عبده و رسوله».

من الطريف أنّه حين خلق اللّه آدم لقبه ب «خليفة اللّه»، و هو فخر لآدم، إلّا أن الشيطان لم ييأس من التسويل و الوسوسة له، فكان ما كان، و لكن حين بوأه مقام العبودية أذعن الشيطان له و يئس من إغوائه و قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [۳۱۴] و اللّه سبحانه ضمن هذا الأمر فقال: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ [۳۱۵] و يتّضح ممّا ذكرناه- بصورة جيدة- أنّ المراد بالعباد ليس جميع الناس- فى الآية محل البحث- بل هم المؤمنون منهم فحسب، و جملة الَّذِينَ آمَنُوا جاءت للتأكيد و التوضيح ۳۱۶].

و حيث أنّ البعض بقوا فى ديار الشرك، و لم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۰

يخشون الخروج من ديارهم و يخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الأخرى التى تهددهم ... إضافة إلى فراق الأحبّة و المتعلقين و الأبناء و الأصدقاء، فإنّ القرآن يردّهم بجواب جامع قائلا: كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ

فهذه الدنيا ليست بدار بقاء لأى أحد، فبعض يمضى عاجلا، و بعض يتأخر، و لا بدّ أن يذهبوا جميعا، و على كل حال ففراق الأحبة و الأبناء و الأقارب لا بدّ أن يقع و يتحقق، فعلام يبقى الإنسان فى ديار الشرك من أجل المسائل العابرة .. و أن يحمل عبء الذل و الأسر على كاهله، أكلّ ذلك من أجل أن يبقى بضعة أيّام أو أكثر؟! ثمّ بعد هذا كلّه ينبغى أن تخافوا أن يدرككم الموت فى ديار الكفر و الشرك قبل أن تبلغوا دار الإسلام، فما أشد ألم مثل هذا الموت و ما أتعسه! ثمّ لا تظنوا أن الموت نهاية كل شىء، فالموت بداية لحياة الإنسان الأصلية، لأنّكم جميعا إِلَيْنا تُرْجَعُونَ .. إلى اللّه العظيم، و إلى نعمه التى لا حدّ لها و لا انتهاء لأمدها.

و الآية التالية تبيّن جانبا من هذه النعم فتقول: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ[۳۱۷].

فهم فى قصور تحيط بها أشجار الجنّة من كلّ جانب، الأنهار المختلفة التى لكلّ منها طعمه و لونه، طبقا لآيات القرآن الاخر، و هى ما بين الأشجار و تحت تلك القصور جارية أبدا .. (لاحظوا أن «غرف» جمع غرفة، و معناها البناء المرتفع المشرف على أطرافه).

و الامتياز الآخر لغرف الجنّة أنّها ليست كغرف الدنيا و قصورها و منازلها التى ما أن يضع الإنسان فيها قدمه حتى يسمع نداء «الرحيل»، فغرف الجنّة دائمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۱

خالِدِينَ فِيها.

و يضيف القرآن معقبا فى ختام الآية نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و بموازنة بسيطة بين ما ذكر آنفا فى شأن الكفّار و المذنبين فى الآيات السابقة، و ما ورد فى هذه الآية، تتّضح عظمة ثواب المؤمنين.

فالكفّار غارقون فى نار جهنّم من قرنهم إلى قدمهم، و يقال لهم على سبيل التوبيخ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أمّا المؤمنون فهم مقيمون فى نعيم الجنّة و تحيط بهم رحمة اللّه من كلّ جانب، و بدلا من كلمات التوبيخ يكلمون بكلام طيب ملؤه المحبّة و اللطف الإلهى الكريم، أجل يقال لهم: نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و بديهى أنّ المراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، و إن كانت كلمة العاملين مطلقة.

و

فى حديث عن نبىّ الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله يصف الجنّة فيقول: «إنّ فى الجنّة لغرفا يرى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها» فنهض بعض أصحابه فقال:

يا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمن هذه الغرف؟ فقال صلّى اللّه عليه و آله: «هى لمن أطاب الكلام، و أطعم الطعام، و صلى لله بالليل و الناس نيام»[۳۱۸].

و الآية التالية تصف أهمّ ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

إذ يبتعدون عن الزوجة و الأولاد و الأهل و البيت و الأحباب و الأصدقاء و كل شىء عزيز عليهم، لكنّهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة و التهجير عن أوطانهم و يصبرون، و تتلقى أنفسهم العذاب و الأذى من أعدائهم من أجل حفظ إيمانهم، و يواجهون الصعاب فى جهادهم الأكبر «جهادهم مع النفس» و جهادهم أعداءهم بشدّة، و يتحملون أنواع المشاكل فيصبرون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۲

أجل، هذا الصبر و هذه الاستقامة هما رمز انتصارهم و عامل فخرهم الكبير، و بدونه لا يتحقق عمل إيجابى فى الحياة.

ثمّ بعد هذا كلّه، فهم لا يعتمدون على أموالهم و لا على أصدقائهم، بل يعتمدون على اللّه و يتوكلون على ذاته المقدسة، و إذ ابتغى ألف عدو هلاكهم تمثلوا قائلين: «امتحانك رحمة فلا أكترث بالأعداء».

و إذ أمعنا النظر و فكّرنا جيدا رأينا أن الصبر و التوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق و المشاكل، و التوكل هو الهدف و الباعث على الحركة فى هذا الطريق المديد الملتوى.

و فى الحقيقة ينبغى الاستمداد من هاتين الفضيلتين (الصبر و التوكل) للأعمال الصالحة، إذ بدونهما لا يمكن أن تؤدى الأعمال الصالحة بالمقياس الواسع ۳۱۹].

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا و أهلينا، فمن سيطعمنا و يرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا تحزنوا على الرزق و لا تحملوا ثقل الذلة و الأسر، فالرازق هو اللّه، لا لكم فحسب بل وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ

قليل من الدواب و الحيوانات و الحشرات- و كذلك الإنسان- يأتى برزقه من الصحراء و الشجر إلى وكره و مسكنه كالنحل- التى تنتج العسل- و النمل، و غالبا ما تكون الحيوانات بمثابة «طائر اليوم» أى كل يوم عليها أن تمضى لرزقها و تبحث عنه من جديد. و هكذا فإنّ ملايين الملايين من الحيوانات التى من حولنا، فى النقاط القريبة و البعيدة، و فى الصحارى و أعماق البحار و أعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۳

الجبال و الأماكن الأخرى، فإنّها كلّها تقتات من مائدة اللّه السرمدية.

و أنت أيّها الإنسان أقوى من تلك الحيوانات و أذكى فى جلب الرزق، فلم كلّ هذا الخوف من انقطاع الرزق؟! و لم الركون إلى حياة الذل و الاستكانة و الفجور؟! و لم تظل سادرا تحت وطأة الظلم و القهر و الهوان و الذل؟! اخرج أنت أيضا من داخل هذه الدائرة

المظلمة، و اجلس على مائدة خالقك الواسعة و لا تفكر بالرزق!.

فأنت يوم كنت جنينا محبوسا فى بطن أمّك، و لا تصل إليك أية يد حتى من أبيك و أمك الرؤوم، لم ينسك اللّه الذى خلقك، و هيأ ما كنت تحتاج إليه لك بكل دقّة، فكيف و أنت اليوم كائن قوى و رشيد؟! و حيث أن إيصال الرزق للمحتاجين هو فرع علمه تعالى بحاجاتهم، فالقرآن يؤكّد فى نهاية الآية قائلا: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

يسمع كلامكم كلّه، و يعرف لسان حالكم، و لسان حال جميع الدواب، و هو خبير بحاجات الجميع، و لا يخفى على علمه الذى لا حد له شيء أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الى ۶۶]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۶۱) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (۶۵)

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۶۶)

التّفسير

الإقرار بالتوحيد فى الباطن و الشرك فى الظاهر:

كان الحديث فى الآيات السابقة موجّها إلى المشركين الذين أدركوا حقانية الإسلام، إلّا أنّهم لم يكونوا مستعدين للإيمان و الهجرة، خوفا من انقطاع الرزق عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۵

أمّا فى هذه الآيات، فالحديث موجه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله، و فى الواقع لجميع المؤمنين، و هو يبيّن دلائل التوحيد عن طرق «الخلقة»، و «الربوبيّة»، و «الفطرة»، أى عن ثلاث طرائق متفاوتة، و يريهم أن مصيرهم و عاقبة أمرهم بيد اللّه الذى يجدون آثاره فى الآفاق و فى أنفسهم، لا بأيدى الأصنام و الأوثان التى لا تضر و لا تنفع.

فتبدأ الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث- مشيرة إلى خلق السماوات و الأرض و تستعين باعتقاداتهم الباطنية ... فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام و لا غيرهم و لا أى أحد آخر يقول: إنّ خالق السماوات و الأرض و مسخر الشمس و القمر حفنة من الأحجار و الخشب المصنوعة بيد الإنسان.

و بتعبير آخر: لا يشك فى «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين فى عبادة الخالق، و كانوا يقولون: إنّما نعبد أوثانا ليقربونا إلى اللّه زلفى، فهم الوسطاء بيننا و بين اللّه، كما نقرأ فى الآية (۱۸) من سورة يونس وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ .. فنحن غير جديرين أن نرتبط باللّه مباشرة، بل ينبغى أن نرتبط به عن طريق الأصنام ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى [۳۲۰] و هم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق و المخلوق أية فاصلة، و هو أقرب إلينا من حبل الوريد، زد على ذلك: إذا كان الإنسان- الذى هو بمثابة

الدرّة اليتيمة فى تاج الموجودات- لا يستطيع أن يرتبط باللّه مباشرة، فأى شىء يكون واسطة الإنسان إلى اللّه؟! و على كلّ حال، فإنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم و يستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار و الأخشاب؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۶

كلمة «يؤفكون» مشتقّة من «إفك» على زنة «فكر» و معناها إعادة الشىء من صورته الواقعية و الحقيقية، و بهذه المناسبة تطلق الكلمة على الكذب و على الرياح المخالفة «للاتجاه» أيضا.

و التعبير ب «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة.

و المراد من تسخير الشمس و القمر النظم التى أقرها اللّه تعالى، و جعل الشمس و القمر فى دائرة هذه النظم فى خدمة الإنسان، و منافعه.

ثمّ يضيف القرآن تأكيدا لهذا المعنى، و هو أن اللّه خالق الخلق و رازقهم، فيقول: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ ... فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس و لا بيد الأصنام.

و ما ورد بيانه فى الآيات السابقة من أنّ المؤمنين حقّا هم وحدهم يتوكلون عليه، فلأجل هذا المعنى، و هو أن شىء بيده و بأمره، فعلام يخشون من إظهار الإيمان، و يرون حياتهم فى خطر من جهة الأعداء.

و إذا كانوا يتصورون أنّ اللّه قادر، إلّا أنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير ل إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

ترى هل يمكن لخالق مدبر يصل فيضه لحظة بعد أخرى لموجوداته، و فى الوقت ذاته يكون جاهلا بحالها؟.

و فى المرحلة الثّانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» و نزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

فهذا هو ما يعتقده عبدة الأصنام فى الباطن، و لا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم! فهم يعرفون أن الخالق هو اللّه، و أنّه ربّ العالم و مدبره.

ثمّ يضيف القرآن مخاطبا نبيّه قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فالحمد و الثناء لمن أنعم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۷

جميع النعم، إذ لمّا كان الماء الذى هو مصدر الحياة لجميع الحيوانات من رزق اللّه فيكون واضحا أن الأرزاق جميعها صادرة من قبله أيضا.

قل الحمد للّه «و اشكره»، لأنّهم يعترفون بهذه الحقائق.

و قل الحمد للّه، فمنطقنا قوى متين حىّ إلى درجة لا- يستطيع أى أحد إبطاله أو تفنيده. و حيث أنّ أقوال المشركين من جهة، و أعمالهم و أفعالهم و كلماتهم من جهة أخرى، يناقض بعضها بعضا، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

و إلّا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتارة يرى أن الخالق و الرازق و المدبّر للعالم هو اللّه، و تارة يسجد للأوثان التى لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس!. فمن جهة يعتقدون بتوحيد الخالق و الرب، و من جهة أخرى يظهرون الشرك فى العبادة.

و من الطريف أنّ الآية لا- تقول: «أكثرهم لا- عقل لهم» بل تقول: لا يَعْقِلُونَ و معناها أنّهم لديهم العقول، إلّا أنّهم لا يستوعبون و لا يتعقلون! و من أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنّه يبيّن فى الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياسا إلى الحياة الأخرى الخالدة، فى عبارة موجزة و مليئة بالمعانى، فيقول: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

كم هو تعبير بليغ و بديع! لأنّ «اللهو» معناه الانشغال .. أو كل عمل يصرف الإنسان إليه و يشغله عن مسائل الحياة الأساسية.

أمّا «اللعب» فيطلق على الأعمال التى فيها نوع من النظم الخيالى، و الهدف الخيالى أيضا، ففى اللعب يكون أحد اللاعبين ملكا، و الآخر وزيرا، و الثّالث قائدا للجيش، و الرابع- السارق أو «الحرامى»، و الخامس يمثل القافلة و هكذا، و بعد انتهاء اللعب المؤقت يعود كل شىء إلى مكانته، و كأن المسألة لا تعدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۸

طيفا .. أو خيالا .. فلا أثر و لا خبر.

فالقرآن فى هذا الصدد يشرح حال الدنيا و حال الآخرة، مبينا أن الحياة الدنيا هى نوع من الانشغال و اللعب يجتمع الناس فيها و ينشدّون إلى تصورات قلوبهم و أنفسهم، و بعد أيّام يتفرقون و يختفون تحت التراب، ثمّ يطوى كل شىء و يغدو فى سلة النسيان.

أمّا الحياة الحقيقية التى لا فناء بعدها، و لا ألم فيها، و لا قلق و لا خوف و لا تضاد و لا تزاحم، فهى الحياة الآخرة فحسب ... لو كان الإنسان يعرف ذلك، و كان أهلا للتدقيق و التحقيق! أمّا الذين تعلقت قلوبهم بهذه الحياة، و فتنوا برزقها و زخرفها و زبرجها، و يأنسون بها، فهم أطفال لا غير و إن امتدت أعمارهم سنين طويلة.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» على زنة «خفقان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدريا[۳۲۱] ..

و هذا التعبير وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ إشارة إلى أن الحياة الحقيقية هى فى الأخرى، لا فى هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياة فى الأخرى تفور من جميع أبعادها، و لا شىء هناك إلّا الحياة.

و بديهى أن القرآن لا يريد أن ينسى و ينفى مواهب اللّه فى هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الأخرى قياسا صريحا و واضحا ...

و إضافة إلى كل ذلك فإنّه ينذر الإنسان لئلا يكون أسيرا لهذه المواهب، بل ينبغى أن يكون أميرا عليها، و لا يؤثرها على القيم الأصيلة أبدا.

و فى المرحلة الثّالثة ... يتجه القرآن نحو الفطرة و الجبلّة الإنسانية، و نحو تجلّى نور التوحيد فى أشدّ الأزمات فى أعماق روح الإنسان، و ضمن مثال بديع جدّا و بليغ فيقول: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۴۹

أجل، إنّ الشدائد و الأزمات هى التى تهىء الارضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفى فى أرواح الناس جميعا، إلّا أن الآداب و المسائل الخرافية و التربية الخاطئة و التلقينات السيئة تلقى عليه ظلالا و أستارا، و لكن حين تحدق بالإنسان الشدائد و تحيط به دوّامات المشاكل، و يرى يده قاصرة عن الأسباب الظاهرية، يتجه بدون اختياره إلى عالم ما وراء الطبيعة، و يخلص قلبه من كل نوع من أنواع الشرك و الكفر، و ينصهر فى تنور الحوادث، و يكون مصداقا لقوله تعالى: مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

و ملخص الكلام: إنّه توجد فى داخل قلب الإنسان دائما نقطة نورانية، و هى خطّ ارتباطه بما وراء عالم الطبيعة، و أقرب طريق إلى اللّه.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة و الغفلة و الغرور- و خاصة عند السلامة و وفور النعمة- تلقى عليها أستارا، غير أن طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، و تتجلى نقطة النور آنذاك.

و على هذا، فإنّ أئمّة المسلمين العظام كانوا يرشدون المترددين فى مسألة «معرفة اللّه» و يغرقون فى الشك و الحيرة .. بهذا الأمر.

و قصّة الرجل المتحيّر المبتلى بالشك فى معرفة اللّه، و الذى أرشده الإمام الصادق عليه السّلام عن طريق الفطرة و الوجدان، سمعناها جميعا إذ

قال: يا ابن رسول اللّه، دلّنى على اللّه ما هو؟! فقد أكثر على المجادلون و حيّرونى! فقال له الإمام عليه السّلام: «يا عبد اللّه، هل ركبت سفينة قطّ؟

قال: نعم.

قال: فهل کسر بک حیث لا سفینة تنجیک و لا سباحة تغنیک؟! قال: نعم! قال: فهل تعلّق قلبک هنالک أن شیئا من الأشیاء قادر علی أن یخلصک من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۰

ورطتک؟! قال: نعم.

قال الصادق علیه السّلام: فذلک الشیء هو اللّه القادر علی الإنجاء حیث لا منجی، و علی الإغاثة حیث لا مغیث».[۳۲۲]

و فی آخر آیة- من الآیات محل البحث- و بعد ذکر جمیع هذه الدلائل علی التوحید و عبادة اللّه، یواجه القرآن المشرکین و الکفار بتهدید شدید فیقول: إن هؤلاء أنکروا آیاتنا و کفروا بما رزقناهم من النعم فلیتمتعوا بها أیّاما قلائل:

لِیَکْفُرُوا بِما آتَیْناهُمْ وَ لِیَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ عاقبة کفرهم و شرکهم إلی أین ستبلغ بهم؟

و أی ابتلاء و مصیر مشؤوم سیقعون فیه؟! و بالرغم من أنّ ظاهر الآیة هنا هو الأمر بالکفر و إنکار آیات اللّه ... إلّا أن من البدیهی أنّ المراد منه التهدید ... و هذا تماما ینطبق مثلا علی ما لو قلنا لمذنب جان: افعل ما بدا لک من إجرام، إلّا أنّک سرعان ما تذوق مرارة عملک؟

ففی مثل هذه العبارات، و إن استعملت صیغة الأمر فیها، إلّا أنّ الهدف من ورائها هو التهدید و لیس الطلب.

و الطریف أن جملة فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ جاءت بصورة مطلقة، فهی لا تقول:

أی شیء یعلمون ... بل تقول: سیعلمون عاجلا، هذا هو معنی فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ

إطلاق الکلام هذا لیکون مفهومه واسعا و لا یتحدد ذهن السامع بأی شیء فنتیجة الأعمال السیئة هی عذاب اللّه، الافتضاح فی الدارین، و کل أنواع الشقاء و سوء العاقبة!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۱

ملاحظة

الشدائد و اشراق الفطرة:

سنتحدث بإذن اللّه فی ذیل الآیة الثلاثین من سورة الروم حول «فطریّة» أصل التوحید و معرفة اللّه بشکل مفصّل، و ما یلزم ذکره هنا هو أنّ القرآن المجید یتحدث فی آیات کثیرة عن المشاکل و الصعاب علی أنّها باعثة علی ظهور الفطرة الإنسانیة و بروزها «فالمشاکل و الصعاب وسیلة لاشراق الفطرة».

یقول القرآن فی بعض آیاته: وَ ما بِکُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّکُمُ الضُّرُّ فَإِلَیْهِ تَجْئَرُونَ ثُمَّ إِذا کَشَفَ الضُّرَّ عَنْکُمْ إِذا فَرِیقٌ مِنْکُمْ بِرَبِّهِمْ یُشْرِکُونَ [۳۲۳] و یأتی هذا المعنی فی سورة یونس، و لکن بأسلوب آخر، إذ یقول القرآن إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا کَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ کَأَنْ لَمْ یَدْعُنا إِلی ضُرٍّ مَسَّهُ ۳۲۴] کما ورد هذا المعنی فی سورة الروم الآیة (۳۲) و سورة الزمر الآیة (۴۹) و سورة الإسراء الآیات (۶۷)- (۶۹) بعبارات أخری و إشارات ملیئة بالمعانی.

و فی الآیات- محل البحث- قرأنا أیضا أن المشرکین فی الحالات العادیة یتجهون إلی الأصنام، و لکن إذا سافروا فی البحر و أحاطت بهم الأمواج و الطوفان، و أضحت سفینتهم کالقشة فی وسط الأمواج المتلاطمة تتقاذفها هنا و هنا، و انقطعت بهم السبل تتنور قلوبهم بنور التوحید و یلقون جانبا جمیع المعبودات المصنوعة، و یخلصون قلوبهم کاملا- لکن خلوصا إجباریا لا قیمة له- فما أن یهدأ

الطوفان و تتلاشى الأمواج و تعود الحالة الاعتيادية، حتى تنزل الأسدال على الفطرة و تظهر أشواك الشرك و الوثنية على هذه «الوردة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۲

قد يقال: إنّ هذه الحالة من التوجه تحصل على أثر التلقين و الرسوبات الفكرية من الثقافة الاجتماعية و أفكار المحيط.

و يمكن قبول مثل هذا الكلام فيما إذا كانت هذه المسألة تحدث خاصّة فى موارد المتدينين أو الذين نشؤوا فى محيط دينى، و لكن مع الالتفات إلى أن هذه الحالة تظهر حتى عند أشد المنكرين للّه، و فى المجتمعات غير المذهبية، فيتّضح حينئذ أن جذرها كامن فى الضمير (غير الواعى) للإنسان، و فى داخل فطرته و جبلّته!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۶۷ الى ۶۹]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۶۸) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (۶۹)

سبب النّزول

نقل فى تفسير «الدر المنثور» عن ابن عباس- ذيل الآية محل البحث- أن جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل فى دينك إلّا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلّتنا و العرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنا قد دخلنا فى دينك اختطفنا فكنّا أكلة رأس، فانزل اللّه: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً و كانت جوابا لهم.

التّفسير

أشارت الآيات- التى سبق ذكرها- إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، و هى أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثمّ هاجرنا معك يا رسول اللّه، و قد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۴

و فى الآيات- محل البحث- يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً أى أرض مكّة المكرمة.

فى حين أن العرب كانوا يعيشون فى حالة غير آمنة خارج مكّة، و كانت قبائلهم مشغولة بالنهب و السلب و الغارات، إلّا أن هذه الأرض باقية على أمنها وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ

فاللّه المقتدر على أن يجعل فى هذا البحر المتلاطم و الطوفان المحدق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكّة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر. كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! و كيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة اللّه العظيمة جلّ و علا؟ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ

و ملخص الكلام، إنّ اللّه القادر على أن يجعل فى أرض مضطربة فى وسط جماعة من الناس أنصاف وحشيين منطقة صغيرة آمنة،

فكيف لا يقدر على حفظ جماعة المؤمنين القلائل بين جماعات كثيرة من الكفار.

و بعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهى القرآن الى هذه النتيجة فى الآية التالية وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ

لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنّه لا شىء أحق بالعبادة و أحرى بها من اللّه، لكنّكم كذبتم على اللّه، و صنعتم له شركاء بأيديكم، و تدعون أن هذا هو منهج إلهى.

و من جهة أخرى، فإنّ القرآن الذى أنزلناه عليكم فيه دلائل الحق لائحة واضحة، إلّا أنّكم لم تكترثوا به، و ألقيتموه وراءكم ظهريا! فهل يتصور ظلم أشدّ من هذا؟! لقد ظلمتم أنفسكم و ظلمتم الناس جميعا، لأنّ الشرك ظلم عظيم.

و بتعبير آخر: هل الظلم بمعناه الوسيع إلّا الانحراف و إخراج الشىء عن محلّه الجدير به، و هل يرى أسوأ من أن يعدّ الإنسان حفنة من الأحجار المصنوعة التى لا قيمة لها أو الخشب المصنوع شركاء للخالق سبحانه الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۵

خلق السماوات و الأرض.

إضافة إلى ذلك فإنّ الشرك مصدر جميع المفاسد الاجتماعية، و فى الواقع إن المظالم الأخرى تسترفد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

و لكن اعلموا أنّ عاقبة الشؤم و الخزى للمشركين أ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ

من الجدير ذكره أنّ فى القرآن الكريم ۱۵ موردا عبّر فيها القرآن عن بعض الأفراد بأنّهم الأظلم، و جميع هذه الموارد بدأت بجملة استفهامية وَ مَنْ أَظْلَمُ طبعا الاستفهام هنا استنكارى.

و التدقيق فى هذه الآيات يدل على أنّ الآيات المذكورة و إن عالجت مسائل متنوعة، إلّا أنّها جميعا تعود إلى الشرك، فعلى هذا لا تضاد بينها أبدا. «لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية (۲۱) من سورة الأنعام».

و آخر آية- من الآيات محل البحث- و هى فى الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعا مهما، و هى عصارة جميع هذه السورة، و تنسجم مع بدايتها.، تقول الآية .. بالرغم من أن المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى اللّه، من قبيل مشكلة معرفة الحق، و مشكلة وساوس الشياطين من الإنس و الجن، و مشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا يرحمون، و مشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، و هى أن اللّه يمنحكم القوّة و الاطمئنان قبال المشاكل و يدافع عنكم، تقول الآية: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

و فى معنى «الجهاد» هنا و المراد منه احتمالات متعددة. أ هو جهاد الأعداء؟

أم جهاد النفس؟ أم الجهاد فى سبيل معرفة اللّه عن الطرق العلمية؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۶

للمفسّرين آراء فى هذا المجال.

و كذلك فى معنى «فينا» الذى ورد تعبيره فى الآية، هل المراد منه فى سبيل اللّه؟! أم فى سبيل الجهاد للنفس، أم فى سبيل العبادة، أم مواجهة الأعداء؟

و لكن من الواضح أنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، و مثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعى و جهاد فى سبيل اللّه و من أجله، و للوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه جاهَدُوا فِينا سواء كان فى سبيل كسب المعرفة! أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو فى إعانة الضعفاء، أو فى الإقدام على أى عمل حسن و صالح! و يتّضح ممّا قلناه ضمنا أنّ المراد ب «السبل» الطرق المتعددة التى تنتهى إلى اللّه، سبيل جهاد النفس، سبيل جهاد الأعداء، سبيل العلم و

الثقافة. و الخلاصة، فإن الجهاد فى كل طريق من هذه الطرق و السبل سبب لهداية المسير المنتهى إلى اللّه.

و هـذا وعد وعده اللّه لجميع المجاهدين فى سبيله، و أكده بأنواع التأكيدات ك «لام التأكيد و النون الثقيلة» و جعل التوفيق و الإنتصار و الرقى فى محور شيئين هما «الجهاد» و «خلوص النية».

و يعتقـد جماعـة من الفلاسـفة أنّ التفكر و المطالعـة لاـ يوجـدان العلم، بـل يهيئـان روح الإنسان لقبول صور المعقولات، و حين تتهيأ الروح الإنسانية للقبول يتنزّل «الفيض» من قبل الخالق المتعال و واهب الصور بالعلم و «الحكمة».

فعلى هذا ينبغى على الإنسان أن يجاهد فى هذا الطريق، إلّا أن الهداية بيد اللّه تعالى.

و ما

ورد فى الحديث أنّه «ليس العلم بكثرة التعلم و التعليم، بل هو نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء»

، فلعله إشارة إلى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۷

ملاحظتان

۱- الجهاد و الإخلاص

يستفاد من الآية المتقدمة بصورة جيدة أنّنا إذا أصبنا بأى نوع من الهزيمة عدم الموفقية، فسبب ذلك و علته أحد أمرين: إمّا أنا قصّرنا فى جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص فى العمل، و إذا اجتمع الجهاد و الإخلاص- فبناء على وعد اللّه- فإن النصر و الهداية حتميّان.

و لو فكّرنا جيـدا لاسـتطعنا أن نعزو جميع المشاكل و المصائب فى المجتمع الإسـلامى الى التقاعـد عن الجهاد و عدم الإخلاص، فهما مصدرها.

فلم تأخر المسلمون، الذين كانوا متقدمين بالأمس!؟

و لم يمدون يد الحاجة إلى الأجانب فى كل شىء، حتى فى الثقافة و القوانين، و حتى نظمهم الخاصة.

و لم يعتمدون على غيرهم من أجل حفظ أنفسهم من التيارات السياسية و الهجومات العسكرية.

لم كـان الآـخرون جالسـين يومـا على مائـدة المسـلمين التى كان خوانها مبسوطا بالعلم و الثقافـة و المعرفـة، و اليوم أصـبح المسـلمون جالسين على مائدة الآخرين؟!! و أخيرا، لم نرى المسلمين أسرى فى قبضة الآخرين، و أراضيهم مغصوبة من قبل الظالمين؟

الإجابة على جميع هذه الأسئلة منحصرة فى سبب واحد، هو «نسيانهم الجهاد» أو «عدم الخلوص فى النية».

أجل، لقـد أهملوا الجهاد فى الميادين العلمية و الثقافية و السياسـية و الاقتصادية و العسـكرية، و تغلّب عليهم حب النفس و عشق الدنيا او طلب الراحة و النظرة الضيقة و الأغراض الشخصيّة، حتى أصبح قتلاهم على أيديهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۸

أكثر من قتلاهم على أيدى أعدائهم!.

إنّ اسـتغراب بعض المسـلمين الذى انبهروا بحضارة الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى، و عمالة بعض الرؤساء و الزعماء، و يأس و انزواء العلماء و المفكرين كل ذلك سلبهم التوفيق الى الجهاد، و كذلك حرمهم من الإخلاص.

و متى ما ظهر قليل من الإخلاص بين صـفوفنا، و تحرك مجاهـدونا حركة ذاتية، فإن النصـر يكون حليفنا واحدا بعد الآخر ... و تتقطع غلال الأسـر ... و يتبـدل اليأس إلى أمل مشـرق، و سوء الحظ الى حسن الحظ، و الذلـة إلى العزة و رفعـة الرأس، كما تتبـدل الفرقـة و

الشتات إلى الوحدة و الانسجام.

و ما أعظم ما قاله القرآن! و ما أبلغ إلهامه! إذ جمع فى جملة واحدة الداء و الدواء معا.

أجل إن الذين يجاهدون فى سبيل اللّه تشملهم هدايته، و من البديهى أنّه مع هداية اللّه، فلا ضلال و لا خسران، و لا انهزام.

و إذا لاحظنا أن الآية مفسرة فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام بآل محمّد صلّى اللّه عليه و آله و أتباعهم، فهى مصداق كامل لذلك «التّفسير» لأنّهم كانوا السابقين و المتقدمين فى طريق الجهاد، و ليس فى الآية دليل على تحديد مفهومها أبدا.

و على كل حال، فإنّ كل إنسان يلمس هذه الحقيقة القرآنية .. فى سعيه و اجتهاده، حيث يجد الأبواب مفتوحة عند ما يعمل للّه و فى سبيل اللّه، و تنتهى مشاكله السهلة و الصعبة و تضحى بسيطة متحملة.

۲- الناس ثلاثة أصناف:

فصنف لجوج معاند لا تنفعه أية هداية.

و صنف مجد دؤوب مخلص، و هذا الصنف يصل إلى الحق.

و صنف ثالث أعلى من الصنف الثانى، فهذا الصنف ليس بعيدا حتى يقترب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۵۹

من الحق، و لا منفصلا عنه حتى يتصل به، لأنّه معه أبدا.

فالآية المتقدمة وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى إشارة إلى الصنف الأوّل.

و جملة وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا إشارة إلى الصنف الثّانى.

و جملة إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ إشارة إلى الصنف الثّالث.

و يستفاد- ضمنا- من هذا التعبير أن مقام «المحسنين» أسمى من مقام «المجاهدين»، لأنّ المحسنين إضافة إلى جهادهم فى سبيل اللّه لنجاة أنفسهم، فهم مؤثرون غيرهم على أنفسهم، و يحسنون إلى الآخرين، و يسعون لإعانتهم.

ربّنا وفقنا توفيقا ترحمنا به، فلا نكفّ أيدينا عن الجد و الاجتهاد.

إلهنا .. ارزقنا الإخلاص حتى لا نفكر فى سواك، و لا نخطوا لغيرك.

إلهنا .. ارفع درجاتنا حتى نعلو على مقام المجاهدين و ننال درجة المحسنين، و ارزقنا هدايتك فى جميع أعمارنا.

آمين يا ربّ العالمين انتهاء سورة العنكبوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۱

سورة الروم

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ستون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۳

«سورة الروم»

محتوى سورة الروم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۴۶۳

ث أنّ هـذه السورة جميعها نزلت بمكّة- كما هو المشـهور- فإنّ محتوى السور المكيـة، و روحها باد عليها ... أى إنّها تبحث قبل كل شىء عن المبدأ و المعاد، لأنّ فترة مكّة هى فترة تعلم الإعتقادات الإسـلامية الأصـلية الأساسـية، كالتوحيد و مواجهة الشـرك و التوجه ليوم المعاد و محكمة العدل الإلهى و البعث و النشور .. إلخ ... كما تثار خلال هذه المباحث مسائل أخرى ترتبط بها.

و يمكن تلخيص مضامين هذه السورة فى سبعة أقسام:

۱- التنبؤ بانتصار الروم على الفرس فى معركة تحدث فى المسـتقبل، و ذلك لما جرى من الحديث بين المسلمين و المشركين فى هذا الصدد، و سيأتى تفصيل ذلك فى الصفحات المقبلة بإذن اللّه.

۲- جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين و كيفية أحوالهم، ثمّ التهديدات لهم بالعذاب و الجزاء (الإلهى) فى يوم القيامة.

۳- قسم مهم من آيـات «عظمـة اللّه» فى الأـرض و السـماء، و فى وجود الإنسان، من قبيل خروج الحى من الميت، و خروج الميت من الحىّ .. و خلق الإنسـان من تراب، و نظـام الزوجيـة بالنسـبة للنـاس، و علاقـة المودة بين كل من الزوجين، خلق السـماوات و الأرض و اختلاف الألسن، نعمة النوم فى الليل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۴

و الحركة فى النهار، و ظهور البرق و الرعد و الغيث و حياة الأرض بعد موتها، و تدبير اللّه لأمر السماء و الأرض.

۴- الكلام عن التوحيد «الفطرى» بعد بيان دلائله فى الآفاق و فى الأنفس لمعرفة اللّه سبحانه.

۵- العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين و المذنبين و تفصيل حالاتهم، و ظهور الفساد فى الأرض نتيجة لآثامهم و ذنوبهم.

۶- إشارة إلى مسألة التملك، و حق ذوى القربى، و ذم الربا.

۷- العودة- مرّة أخرى- إلى دلائل التوحيد، و آيات اللّه و آثاره، و المسائل المتعلقة بالمعاد.

و بشـكل عـام فـإنّ فى هـذه السورة- كبـاقى سور القرآن الأخرى مسائل اسـتدلالية و عاطفيـة و خطابيـة ممزوجـة مزجا .. حتى غـدت «مزيجا» كاملا لهداية النفوس و تربيتها.

فضيلة سورة الروم:

ورد فى حـديث للإمـام الصادق عليه السّـلام كما أشـرنا إليه من قبل، فى فضـيلة هـذه السورة و سورة العنكبوت ما يلى: «من قرأ سورة العنكبوت و الروم فى شـهر رمضان ليلـة ثلاث و عشـرين فهو و اللّه- (يا أبا محمّد)- من أهل الجنّة لا أسـتثنى فيه أبدا، و لا أخاف أن يكتب اللّه على فى يمينى إثما، و إن لهاتين السورتين من اللّه مكانا»[۳۲۵].

و

فى حديث آخر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ورد ما يلى «من قرأها كان له من الأجر عشر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۵

حسنات بعدد كل ملك سبح اللّه بين السماء و الأرض، و أدرك ما ضيع فى يومه و ليلته»[۳۲۶].

و من البـديهى أن من جعل محتوى هـذه السورة التى هى درس عام للتوحيـد و محكمـة القيامة الكبرى، فى روحه و قلبه، و راقب اللّه فى كل لحظة، و اعتقد بيوم الجزاء حقا، فإن تقوى اللّه تملأ قلبه حتى يكون حقيقا بهذا الأجر و الثواب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)
بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (۷)

سبب النّزول

يتفق المفسّرون الكبار على أن الآيات الأولى من هذه السورة نزلت فى أعقاب الحرب التى دارت بين الروم و الفرس، و انتصر الفرس على الروم، و كان النّبى حينئذ فى مكّة، و المؤمنون يمثلون الأقلية.
فاعتبر المشركون هذا الإنتصار للفرس فألا حسنا، و عدّوه دليلا على حقانية المشركين و «الشرك»، و قالوا: إن الفرس مجوس مشركون، و أمّا الروم فهم مسيحيون «نصارى» و من أهل الكتاب .. فكما أن الفرس غلبوا «الروم» فإن
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۷
الغلبة النهائية للشرك أيضا، و ستنطوى صفحة الإسلام بسرعة و يكون النصر حليفنا.
و بالرغم من أن مثل هذا الاستنتاج عار من أى أساس، إلّا أنّه لم يكن خاليا من التأثير فى ذلك الجوّ و المحيط للتبليغ بين الناس الجهلة، لذلك كان هذا الأمر عسيرا على المسلمين.
فنزلت الآيات الآنفة و قالت بشكل قاطع: لئن غلب الفرس الروم ليأتينّ النصر و الغلبة للروم خلال فترة قصيرة. و قد حدّدت الفترة لانتصار الروم على الفرس فى بِضْعِ سِنِينَ
و هذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوى الذى يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، و من جهة أخرى كان فألا حسنا للمسلمين فى مقابل فأل المشركين، حتى أن بعض المسلمين عقدوا مع المشركين رهانا على هذه المسألة المهمّة، و لم يكن فى ذلك الحين قد نزل الحكم بتحريم مثل هذا الشرط[۳۲۷].

التّفسير

تنبؤ عجيب!

هذه السورة ضمن مجموع تسع و عشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة الم
و قد بحثنا مرارا فى تفسير هذه الحروف المقطعة «و خاصة فى بداية سورة البقرة و آل عمران و الأعراف».
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۸
و الفارق الوحيد الذى نلاحظه هنا عن بقية السور، و يلفت النظر، هو أنّه خلافا لكثير من السور التى تبدأ بالحروف المقطعة، التى يأتى

الحديث بعدها على عظمة القرآن الكريم، بل بحثا عن اندحار الروم و انتصارهم فى المستقبل، و لكن مع التدقيق يتّضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضا ...

لأنّ هذا الخبر الغيبى المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، و عظمة هذا الكتاب السماوى!.

يقول القرآن بعد الحروف المقطعة غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ و هم قريب منكم يا أهل مكّة، إذ أنّهم فى شمال جزيرة العرب، فى أراضى الشام فى منطقة بين «بصرى» و «أذرعات».

و من هنا يعلم بأنّ المراد من الروم هنا هم الروم الشرقيون، لا الروم الغربيون.

و يرى بعض المفسّرين كالشيخ الطوسى فى تفسير «التبيان»- أن من المحتمل أن يكون المراد بأدنى الأرض المكان القريب من بلاد فارس، أى إن المعركة وقعت فى أقرب نقطة بين الفرس و الروم.[۳۲۸] و صحيح أن التّفسير الأوّل معه الألف و اللام للعهد- فى «الأرض» مناسب أكثر، و لكن و من جهات متعددة- كما سنذكرها- يبدوا أن التّفسير الثّانى أصحّ من الأول! و يوجد هنا تفسير ثالث، و لعلّه لا يختلف من حيث النتيجة مع التّفسير الثانى، هو أنّ المراد من هذه الأرض- هى أرض الروم، أى إنّهم غلبوا فى أقرب حدودهم مع بلاد فارس، و هذا يشير إلى أهمية هذا الاندحار و عمقه، لأنّ الاندحار فى المناطق البعيدة و الحدود المترامية البعد ليس له أهمية بالغة، بل المهم أن تندحر دولة فى أقرب نقاطها من حدودها مع العدو، إذ هى فيها أقوى و أشدّ من غيرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۶۹

فعلى هذا سيكون ذكر جملة فِي أَدْنَى الْأَرْضِ إشارة إلى أهمية هذا الاندحار.

و بالطبع فإن التنبؤ عن انتصار البلد المغلوب خلال بضع سنين فى المستقبل، له أهمية أكبر، إذ لا يمكن التوقع له إلّا عن طريق الإعجاز.

ثمّ يضيف القرآن: وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ و هم أىّ الروم. و مع أن جملة «سيغلبون» كافية لبيان المقصود، و لكن جاء التعبير مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ بشكل خاص لتتّضح أهمية هذا الإنتصار أكثر، لأنّه لا ينتظر أن تغلب جماعة مغلوبة و فى أقرب حدودها و أقواها فى ظرف قصير، لكن القرآن يخبر بصراحة عن هذه الحادثة غير المتوقعة.

ثمّ يبيّن الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير فِي بِضْعِ سِنِينَ ۳۲۹] و المعلوم أن «بضع» ما يكون أقله الثلاث و أكثره التسع.

و إذا أخبر اللّه عن المستقبل، فلأنّه لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ.

و بديهىّ أن كون الأشياء جميعها بيد اللّه- و بأمره و إرادته- لا يمنع من اختيارنا فى الإرادة و حريتنا و سعينا و جهادنا فى مسير الأهداف المنظورة.

و بتعبير آخر: إن هذه العبارة لا تريد سلب الإختيار من الآخرين، بل تريد أن توضح هذه اللطيفة، و هى أن القادر بالذات و المالك على الإطلاق هو اللّه، و كل من لديه شىء فهو منه!.

ثمّ يضيف القرآن، أنّه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ

أجل، يفرحون بِنَصْرِ اللَّهِ ... يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

و لكن ما المراد من فرح المؤمنون؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۰

قال جماعة: المراد منه فرحهم بانتصار الروم، و إن كانوا فى صفوف الكفار أيضا، إلّا أنّهم لكونهم لديهم كتاب سماوى فانتصارهم على المجوس يعدّ مرحلة من انتصار «التوحيد» على «الشرك».

و أضاف آخرون: إن المؤمنين إنّما فرحوا لأنّهم تفألوا من هذه الحادثة فألا حسنا، و جعلوها دليلا على انتصارهم على المشركين.

أو أن فرحهم كان لأنّ عظمة القرآن و صدق كلامه المسبق القاطع- بنفسه- انتصار معنوى للمسلمين و ظهر فى ذلك اليوم.

و لا يبعد هذا الاحتمال و هو أن انتصار الروم كان مقارنا مع بعض انتصارات المسلمين على المشركين، و خاصة أن بعض المفسّرين أشار إلى أن هذا الإنتصار كان مقارنا لانتصار بدر أو مقارنا لصلح الحديبية. و هو بنفسه يعدّ انتصارا كبيرا، و خاصة إن التعبير بنصر اللّه أيضا يناسب هذا المعنى.

و الخلاصة: إنّ المسلمين «المؤمنين» فرحوا فى ذلك اليوم لجهات متعددة:

۱- من انتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنّه ساحة لانتصار الموحدين على المشركين.

۲- من الإنتصار المعنوى لظهور إعجاز القرآن.

۳- و من الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، و يحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الأخر!.

و لزيادة التأكيد يضيف أيضا وَعْدَ اللَّهِ ۳۳۰] لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ و السبب فى عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم باللّه و قدرته، فهم لم يعرفوا اللّه حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، و هى أن اللّه محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأنّ التخلف عن الوعد إمّا للجهل، أو لأنّ الأمر كان مكتوما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۱

ثمّ اتضح و صار سببا لتغيير العقيدة، أو للضعف و عدم القدرة، إذ لم يرجع الذى وعد عن عقيدته لكنّه غير قادر، لكن اللّه لا يتخلف عن الوعد، لأنّه يعرف عواقب الأمور، و قدرته فوق كل شىء.

ثمّ يضيف القرآن معقبا: يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ

إنّهم لا يعلمون إلّا الحياة الدنيا فحسب، بل يعلمون الظاهر منها و يقنعون به! فكلّ ما تمثله نظراتهم و نصيبهم من هذه الحياة هو اللهو و اللذة العابرة و النوم و الخيال ... و ما ينطوى فى هذا الأدران السطحى للحياة من الغفلة و الغرور، غير خاف على أحد.

و لو كانوا يعلمون باطن الحياة و واقعها فى هذه الدنيا، لكان ذلك كافيا لمعرفة الآخرة! لأنّ التدقيق فى هذه الحياة العابرة، يكشف أنّها حلقة من سلسلة طويلة و مرحلة من مسير مديد كبير، كما أن التدقيق فى مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائى ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب! بل هى مقدمة لحياة أوسع!.

أجل، هم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا فحسب، و لكنّهم غافلون عن مكنونها و محتواها و مفاهيمها!.

و من الطريف هنا أن تكرار الضمير «هم» يشير إلى هذه الحقيقة، و هى أن علة هذه الغفلة و سرّها تعود إليهم «فهم الغفلة و هم الجهلة» و هذا يشبه تماما قول القائل لك مثلا: لقد أغفلتنى عن هذا الأمر، فتجيبه: أنت كنت غافلا عن هذا الأمر، أى إن سبب الغفلة يعود إلى نفسك أنت!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۲

بحوث

۱- إعجاز القرآن من جهة «علم الغيب»

إن واحدا من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، و مثله الواضح فى هذه الآيات- محل البحث- ففى عدّة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن انتصار كبير لجيش منهزم بعد بضع سنين .. و يعدّ ذلك وعدا إلهيّا غير مكذوب و لا يتخلف أبدا.

فمن جهة يتحدث مخبرا عن أصل الإنتصار و الغلب وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

و من جهة يتحدث عن خبر لانتصار آخر للمسلمين على الكفار مقترنا لزمان الإنتصار الذى يتحقق للروم وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ

اللَّهِ

و من جهة ثالثة يصرّح أنّ هذا الأمر سيقع خلال عدّة سنوات فِي بِضْعِ سِنِينَ

و من جهة رابعة يسجّل قطعية هذا الوعد الإلهى بتأكيدين بالوعد وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ

و يحدثنا التأريخ أنّه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ...

فقد انتصر الروم فى حربهم الجديدة على الفرس، و اقترن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» و طبقا لرواية أخرى أنّه كان مقارنا لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون انتصارا ملحوظا على الكفار.

و الآن ينقدح هذا السؤال، و هو: هل يستطيع إنسان أن يخبر بعلم عادى بسيط، عن مثل هذه الحادثة المهمة بضرس قاطع؟ .. حتى لو فرضنا أن الأمر كان مع تكهّن سياسى- و لم يكن- فينبغى أن يذكر هذا الأمر بقيد «الاحتياط» و الاحتمال، لا بمثل هذه الصراحة و القطع، إذ لو ظهر خلافه لكان أحسن دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۳

و سند على إبطال دعوى النبوة بيد الأعداء!.

و الحقيقة هى أنّ مسائل من قبيل توقّع انتصار دولة كبيرة كالروم، أو مسألة المباهلة، تدل بصورة جيدة على أنّ نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله كان قلبه متعلقا بمكان آخر، و كان له سند قوى، و إلّا فلا يمكن لأى أحد- فى مثل هذه الظروف- أن يجرأ على مثل هذا الأمر!.

و خاصة، إنّ مطالعة سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله تكشف أنّه لم يكن إنسانا يتصيد بالماء العكر، بل كانت أعماله محسوبة ... فمثل هذا الادعاء من مثل هذا الشخص يدل على أنّه كان يعتمد على ما وراء الطبيعة، و على وحى اللّه و علمه المطلق.

و سنتحدث عن تطبيق هذا التنبؤ التاريخى فى القريب العاجل إن شاء اللّه.

۲- السطحيّون «أصحاب الظاهر»

تختلف نظرة الإنسان المؤمن الإلهى أساسا مع نظرة الفرد المادى المشرك، اختلافا كبيرا.

فالأوّل طبقا لعقيدة التوحيد- يرى أن العالم مخلوق لربّ عليم حكيم، و جميع أفعاله وفق حساب و خطة مدروسة، و على هذا فهو يعتقد أن العالم مجموعة أسرار و رموز دقيقة، و لا شىء فى هذا العالم بسيط و اعتيادى، و جميع كلمات هذا الكتاب «التكوينى» ذات محتوى و معنى كبير.

هذه النظرة التوحيدية تقول لصاحبها: لا تمرّ على أية حادثة و أى موضوع ببساطة، إذ يمكن أن يكون أبسط المسائل أعقدها .. فهو ينظر دائما إلى عمق هذا العالم و لا يقنع بظواهره، قرأ الدرس فى مدرسة التوحيد، و يرى للعالم هدفا كبيرا، و ما من شىء إلّا يراه فى دائرة هذا الهدف غير خارج عنها.

فى حين أن الإنسان المادى غير المؤمن يعدّ الدنيا مجموعة من الحوادث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۴

العمى و الصمّ التى لا هدف لها، و لا يفكر بغير ظاهرها، و لا يرى لها باطنا و عمقا أساسا.

ترى هل يعقل أن يكون لكتاب رسم طفل على صفحاته خطوطا عشوائية، أهمية تذكر؟! و كما يقول بعض العلماء الكبار فى علوم الطبيعة: إن جميع علماء البشر من أية فئة كانوا و أية طبقة، حين نهضوا للتفكير فى نظام هذا العالم، كانوا ينطلقون من تفكير دينى «فتأملوا بدقّة».

«انشتاين» العالم المعاصر يقول: من الصعب العثور بين المفكرين فى العالم شخص لا يحس بدين خاص ... و هذا الدين يختلف مع دين الإنسان العامى، إنّه يدعو هذا العالم إلى التحيّر من هذا النظام العجيب و الدقيق للكائنات، إذ تكشف عن وجهها أسرارا لا تقاس مع جميع تلك الجهود و الأفكار المنظمة للبشر[۳۳۱]!.

و يقول فى مكان آخر: إن الشىء الذى دعا العلماء و المفكرين و المكتشفين- فى جميع القرون و الأعصار- أن يفكروا فى أسرار العالم الدقيقة، هو اعتقادهم الدينى.

و من جهة أخرى كيف يمكن أن يساوى بين من يعتبر هذه الدنيا مرحلة نهائية و هدفا أصليّا، و من يعدّها مزرعة و ميدانا للامتحان للحياة الخالدة التى تعقب هذه الحياة الدنيا، فالأوّل لا يرى أكثر من ظاهر هذه الحياة، و الآخر يفكر فى أعماقها!.

و هذا الاختلاف فى النظر يؤثر فى حياتهم بأجمعها، فالذى يعيش حياة سطحية و ظاهرية يعتبر الإنفاق سببا للخسران و الضرر، فى حين أن هذا «الموحد» يعدّها تجارة رابحة لن تبور.

و ذلك المادى يعتبر «أكل الربا» سببا للزيادة و وفرة المال. و أمّا الموحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۵

فيعده وبالا و شقاء و ضررا.

و ذلك يعتبر الجهاد ضنى و شقاء و يعتبر الشهادة فناء و انعداما، و أمّا الموحد فيعد الجهاد رمزا للرفعة، و الشهادة حياة خالدة! أجل، إن غير المؤمنين لا يعرفون إلّا الظواهر من الدنيا، و هم فى غفلة عن الحياة الأخرى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ

۳- المطابقة التاريخية

لكى نعرف المقطع التاريخى الذى حدثت فيه المعارك بين الروم و الفرس، يكفى أن نعرف فى ذلك التاريخ أن حربا طويلة حدثت فى عهد «خسرو پرويز» ملك الفرس مع الروم استمرت زهاء أربع و عشرين سنة، حيث دامت من سنة «۶۰۴ ميلادية إلى سنة ۶۲۸».

و فى حدود سنة ۶۱۶ ميلادية هجم قائدان عسكريان فى الجيش الفارسى هما: (شهر براز» و (شاهين) على الحدود الشرقية للروم، فهزما الروم هزيمة نكراء، و سيطرأ على منطقة الشامات و مصر و آسيا الصغرى، فواجهت الروم الشرقية بسبب هذه الهزيمة حالة الانقراض تقريبا، و استولى الفرس على جميع ما كان تحت يد الروم من آسيا و مصر.

و كان ذلك فى حدود السنة السابعة للبعثة! غير أنّ ملك الروم «هرقل» بدأ هجومه على بلاد فارس سنة ۶۲۲ ميلادية و ألحق هزائم متتابعة بالجيش الفارسى، و استمرت هذه المعارك حتى سنة ۶۲۸ لصالح الروم، و غلب خسرو پرويز، و انكسر انكسارا مريرا، فخلعه الفرس عن السلطنة و أجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

و بملاحظة أنّ مولد النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان سنة ۵۷۱ ميلادية و كانت بعثته سنة ۶۱۰ ميلادية، فإن هزيمة الروم وقعت فى السنة السابعة للبعثة، و كان انتصارهم بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۶

سنتى خمس و ست للهجرة النبوية، و من المعلوم أن السنة الخامسة حدثت فيها معركة الخندق، و تم فى السنة السادسة صلح الحديبية، و بطبيعة الحال فإن تنقّل الأخبار عن حرب فارس و الروم إلى منطقة الحجاز و مكّة كانت تستوعب عادة فترة من الزمان، و بهذا ينطبق هذا الخبر القرآنى على هذه الفترة التاريخية بوضوح «فلاحظوا بدقة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (۸) أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۹) ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (۱۰)

التّفسير

عاقبة المسيئين:

كان الكلام فى آخر آية من البحث السابق عن السطحيين و أصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا و العالم المادى .. و كانوا جاهلين بما وراء الطبيعة و يوم القيامة.

أمّا فى هذه الآيات- محل البحث- و الآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ و المعاد، فتبدأ هذه الآيات أولا على صورة استفهام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۸

فتقول: أ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى

أى: لو أنّهم فكروا جيدا و رجعوا إلى عقلهم فى الحكم و وجدانهم، لكانوا يطلعون جيدا على هذين الأمرين:

أوّلا: إنّ العالم خلق على أساس الحق، و تحكمه أنظمة هى دليل على أنّ الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق و قدرة كاملة.

و ثانيا: هذا العالم يمضى إلى الزوال، و حيث أن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثا، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا، و إلّا فلا مفهوم لخلق هذا العالم، و هذا الخلق الطويل العريض لا يعقل أن يكون من أجل أيّام معدودات فى الحياة الدنيا، و بذلك يذعنون بوجود الآخرة!.

فعلى هذا يكون التدقيق فى نظم هذا العالم و حقانيته دليلا على وجود المبدأ، و التدقيق فى أن هناك «أجلا مسمى» دليل على المعاد «فلاحظوا بدقة».

لذلك يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلا: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ فينكرون لقاء اللّه.

أو إنّهم ينكرون المعاد أصلا، كما نقلنا عن قول المشركين مرارا فى آيات القرآن، إذ كانوا يقولون: أ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ إنّ هذا .. إنّ هذا .. إلخ .. و بتعابير مختلفة «كما ورد فى سورة الرعد الآية (۵)، و سورة المؤمنون الآية (۳۵)، و سورة النمل الآية (۶۷)، و سورة ق الآية (۳) و فى غيرها من السور».

أو إنّهم لا- ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» و مخزية تدل على أنّهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين!.

و التعبير ب فِي أَنْفُسِهِمْ لا- يعنى أن يطالعوا فى أسرار وجودهم، كما يدّعى الفخر الرازى فى تفسيره، بل المراد منه أن يفكروا فى داخل أنفسهم عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۷۹

العقل و الوجدان يخلق السماوات و الأرض.

و التعبير بِالْحَقِ له معنيان: الأوّل: أنّ الخلق كان توأما مع الحق و القانون و النظم، و الآخر: أن الهدف من الخلق كان بالحق، و لا منافاة بين هذين التّفسيرين طبعا[۳۳۲].

و التعبير بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كما قلنا مرارا، هو إشارة إلى يوم القيامة و النشور، حيث تنكشف الحجب، و الإنسان يعرف عظمة اللّه بالشهود الباطنيّين.

و حيث أنّ التعبير ب أَجَلٍ مُسَمًّى كاشف عن أن هذه الحياة على كل حال لا تدوم، و هذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإنّ القرآن يضيف فى الآية التالية قائلا:

أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى بالدلائل الواضحات ... إلّا أنّهم أهملوا ذلك، و لووا رؤوسهم، و لم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب اللّه الأليم! وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

فى الواقع إنّ القرآن يشير إلى أمم كانت لهم- فى نظر مشركى مكّة- عظمة ملحوظة من حيث القدرة و القوّة الجسمية و الثروة المالية، و كان مصيرهم الأليم يمثل درسا من العبرة لهؤلاء المشركين.

و يمكن أن تكون جملة أَثارُوا الْأَرْضَ إشارة إلى حرث الأرض للزراعة و التشجير، أو حفر الأنهار، أو تأسيس العمارات على الأرض، أو جميع هذه الأمور، لأنّ جملة أَثارُوا الْأَرْضَ لها مفهوم واسع يشمل جميع هذه الأمور التى هى مقدمة للعمارة و البناء[۳۳۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۰

و حيث كانت أكبر قدرة- فى ذلك العصر- تعنى التقدم فى الزراعة و الرقى الملحوظ من حيث البناء و العمارات، فإنّه يتّضح رفعة الأمم السالفة و علوهم على مشركى مكّة الذين كانت قدرتهم فى هذه المجالات محدودة جدّا.

إلّا أنّ أولئك مع كل قدراتهم حين أنكروا آيات اللّه و كذبوا الأنبياء، لم يستطيعوا الفرار من مخالب العقاب، فكيف تستطيعون الفرار من عذاب اللّه؟! و هذا العقاب و الجزاء الأليم هو نتيجة أعمالهم المهلكة أنفسهم، إذ ظلموا أنفسهم، و لا يظلم ربّك أحدا.

أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فتبيّن آخر مرحلة من كفرهم فتقول:

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ

أجل، إنّ الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمرض الخبيث، فيأكل إيمانه و يعدمه، و يبلغ الأمر حدّا يكذب الإنسان فيه آيات اللّه، و أبعد من ذلك أيضا إذ يحمل الذنب صاحبه على الاستهزاء بالأنبياء، و السخرية بآيات اللّه، و يبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ و نصيحة أبدا، و لا تؤثر فيه أية حكمة و أيّة آية، و لا يبقى طريق سوى أسواط عذاب اللّه المؤلمة له.

إنّ نظرة واحدة فى صفحات تاريخ كثير من الجناة و البغاة تكشف أنّهم لم يكونوا هكذا فى بداية الأمر، إذ كان لديهم على الأقل نور إيمان ضعيف يشع فى قلوبهم، و لكن ارتكابهم للذنوب المتتابعة سبّب يوما بعد آخر أن ينفصلوا عن الإيمان و التقوى، و أن يبلغوا آخر الأمر إلى المرحلة النهائية من الكفر.

و نلاحظ فى خطبة العقيلة زينب عليها السّلام أمام يزيد بن معاوية فى الشام، النتيجة ذاتها التى أشرنا إليها آنفا ... لأنّها حين رأت يزيد يسخر بكل شىء و يتكلم بكلمات الكفر و أنشد أشعارا من ضمنها:

ليت أشياخى ببدر شهدواجزع الخزرج من وقع الأسل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۱

لعبت هاشم بالملك فلاخبر جاء و لا وحى نزل

و هذه الكلمات تكشف عن عدم إيمانه بأساس الإسلام، فحمدت زينب اللّه تعالى و صلّت و سلّمت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: «صدق اللّه، كذلك يقول: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ .

أى إذا أنكرت الإسلام و الإيمان هذا اليوم بأشعارك المشوبة بالكفر، و تقول لأسلافك المشركين الذين قتلوا على أيدى المسلمين فى معركة بدر: ليتكم تشهدون انتقامى من بنى هاشم، فلا مجال للتعجب، فذلك ما قاله اللّه سبحانه: ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ ..

و قد ذكرت فى هذا الصدد مطالب كثيرة.

و لمزيد من الإيضاح يراجع الجزء الخامس و الأربعون من بحار الأنوار الصفحة ۱۵۷.[۳۳۴]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۲

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۱ الى ۱۶]

اشارة

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (۱۲) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (۱۳) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (۱۴) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (۱۵) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۱۶)

التّفسير

مصير المجرمين و مآلهم يوم القيامة!

كان الكلام فى الآيات المتقدمة عن الذين يكذّبون و يستهزءون بآيات اللّه، و فى الآيات- محل البحث- تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، و مآل المجرمين فى القيامة! فتبدأ الآيات بالقول: اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ و يبيّن فى هذه الآية استدلال قصير موجز، و ذو معنى كبير، على مسألة المعاد. و قد ورد هذا المعنى بعبارة أخرى فى بعض آيات القرآن الأخرى و منها قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۳

فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۳۳۵] و جملة ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ إشارة إلى أنّه بعد النشور و القيامة يعود الجميع إلى محكمة اللّه، و الأسمى من ذلك أن المؤمنين يمضون فى تكاملهم نحو ذات اللّه المقدسة إلى ما لا نهاية ..

و الآية الأخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ

«يبلس» مأخوذ من مادة «إبلاس» و تعنى فى الأصل الغم و الحزن المترتبان على أثر شدة اليأس و القنوط.

و بديهى أنّه إذا يئس الإنسان من شىء غير ضرورى، فهذا اليأس غير مهم، لكن الحزن و الغم يكشف فى هذه الموارد عن أمور ضرورية مأيوس منها، لذلك يرى بعض المفسّرين أنّ «الضرورة» جزء من «الإبلاس» و إنّما سمّى «إبليس» بهذا الاسم، فلأنّه أبلس من رحمة اللّه و استولى عليه الهم.

و على كـل حـال فيحق للمجرمين أى ييـأسوا و يبلسوا فى ذلـك اليوم، إذ ليس لـديهم إيمـان و عمـل صالـح فيشـفع لهم فى عرصات المحشر، و لا صديق حميم، و لا مجال للرجوع إلى الدنيا و تدارك ما مضى!.

لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ.

فتلك الأصـنام و المعبودات المصـنوعة التى كانوا يتـذرعون بها عنـد ما يسألون: من تعبدون؟ فيقولون: هؤُلاءِ شُـفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ۳۳۶]، سيتّضح لهم جيدا حينئذ أنّه لا قيمة لها و لا تنفعهم أبدا .. فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۴

و يبرأون منها وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ

و لم لا يكفرون بهـذه الأصـنام؟ و هم يرونها ساكنـة عن الدفاع عنهم بل كما يعبّر القرآن تقوم بتكذيبهم و تقول: يا رب ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ۳۳۷] بل كانوا يعبـدون هوى أنفسـهم؟! و أكثر من هـذا، فقد عبر القرآن عن هذا المعبودات فى الآية (۶) من سورة الأحقاف أنّها ستكون معادية لهم و كافرة بهم وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ

ثمّ يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول:

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ

كلمة «يحبرون» مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشـر» و معناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور و الفرح التى يظهر أثرهـا على الوجه أيضـا، و حيث أن قلوب أهل الجنّـة فى غايـة السـرور و الفرح بحيث أن آثارها تظهر فى وجودهم قاطبـة، فقد استعمل هذا التعبير لهذه الحالة أيضا.

و «الروضة» معناها المكان الذى تكثر فيه الأشـجار و الماء، و لذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها و اخضرارها .. و قـد جـاءت هـذه الكلمـة هنـا بصـيغة التنكير لغرض التعظيم و المبالغـة، أى إنّهم فى أفضـل الجنـان و أعلاهـا التى تبعث السـرور، فهم منعمون، بل غارقون فى نعيم الجنّة.

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ

الطريف هنا أنّه فى شأن أهل الجنّـة اسـتعملت كلمـة «يحبرون» و تـدلّ على منتهى الرضا من جميع الجوانب لـدى أهل الجنّة .. و لكن استعملت كلمة «محضرون» فى أهل النّار، و هى دليل على منتهى الكراهة و عدم الرضا لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۵

يتلقونه و يستقبلونه، لأنّ الإحضار يطلق فى موارد تكون على خلاف الرغبات الباطنيّة للإنسان.

اللطيفـة الأخرى أن أهل الجنّـة ذكروا بقيـد الإيمان و العمل الصالح، و لكن أهل النّار اكتفى من ذكرهم بعدم الإيمان «إنكار المبدأ و المعاد». و هى إشارة أن ورود الجنّـة- لا بـد له من الإيمان و العمل الصالح- فلا يكفى الإيمان وحده، و لكن يكفى لدخول النّار عدم الإيمان- و إن لم يصدر من ذلك «الكافر» ذنب- لأنّ الكفر نفسه أعظم ذنب!.

ملاحظة

لم كان أحد أسماء القيامة «الساعة»؟!

ينبغى الالتفات إلى هـذه المسألة الدقيقة ... و هى أنّه فى كثير من آيات القرآن، و من ضـمنها الآيتان من الآيات محل البحث، عبر عن قيـام «القيامـة» بقيـام «الساعـة» و ذلـك لأنّ «الساعـة» فى الأصل جزء من الزمان، أو لحظات عابرة، و حيث أنّه من جهـة تكون القيامة

بصورة مفاجئة و كالبرق الخاطف، و من جهة أخرى بمقتضى أن اللّه سريع الحساب فإنه ينهى حساب عباده بسرعة، فقد استعمل هذا التعبير فى شأن يوم القيامة ليفكر الناس بيوم القيامة و يكونوا على «أهبة الاستعداد».

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» اسم للوقت الذى تصعق فيه العباد و الوقت الذى يبعثون فيه و تقوم فيه القيامة، سمّيت ساعة لأنّها تفاجئ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلّهم عند الصيحة الاولى التى ذكرها اللّه عزّ و جلّ فقال:

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ۳۳۸] .. و أشار إلى الثّانية بقوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۶

إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۳۳۹].

و ينقل «الزبيدى» فى «تاج العروس» عن بعضهم أن الساعة ثلاث «ساعات»:

فساعة كبرى: و هى يوم القيامة، و إحياء الموتى للحساب.

و ساعة وسطى: و هى يوم الموت الفجائى لأهل زمان واحد «بالعذاب و العقوبة الإلهية للاستيصال».

و ساعة صغرى: و هى يوم الموت الطبيعى لكل إنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۱۷ الى ۱۹]

اشارة

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (۱۷) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (۱۸) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۹)

التّفسير

التسبيح و الحمد فى جميع الأحوال للّه!

بعد الأبحاث الكثيرة التى وردت فى الآيات السابقة فى شأن المبدأ و المعاد، و قسم من ثواب المؤمنين، و جزاء المشركين و عقابهم ... ففى الآيات محل البحث يذكر التسبيح و الحمد و التقديس و التنزيه للّه من جميع أنواع الشرك و النقص و العيب، إذ تقول الآية:

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ

و على هذا فقد ورد فى هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسبيح اللّه:

۱- بداية الليل حِينَ تُمْسُونَ

۲- و طلوع الفجر حِينَ تُصْبِحُونَ

۳- و عصرا عَشِيًّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۸

۴- و عند الزوال- فى الظهر- حِينَ تُظْهِرُونَ ۳۴۰].

أمّا «الحمد» من حيث المكان فهو عام و شامل لجميع السماوات و الأرض.

و ذكر هذه الأوقات الأربعة فى الآيات المتقدمة لعله كناية عن الدوام و الاستمرار فى التسبيح، «أى كل وقت و كل زمان».

كما احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من هذه الأوقات الأربعة الإشارة إلى أوقات الصلاة، إلّا أنّهم لم يجيبوا على هذا السؤال، و هو: لم ذكر فى القرآن أربعة أوقات بدلا من خمسة أوقات؟ «و لم يرد الكلام على صلاة العشاء»! و لكن يمكن الجواب على هذا السؤال بأن وقت صلاة المغرب مقارب لوقت صلاة العشاء نسبيا، و الفاصلة بينهما حدود الساعة إلى الساعة و النصف، فجاءت الصلاتان فى مكان واحد، غير أنّ الفاصلة بين الظهر و العصر أطول نسبيا، حيث تطول أكثر من ساعتين.

لكننا لو أخذنا التسبيح و الحمد بمفهومهما الوسيع فى الآية، لوجدنا أنّهما لا يتحدّدان بالصلوات الخمس، و إن كانت هذه الصلوات من مصاديقهما الواضحة.

و ينبغى أن نذكر هذه المسألة «اللطيفة» و هى: إن كلا من جملتى فَسُبْحانَ اللَّهِ و لَهُ الْحَمْدُ يمكن أن تكونا إنشاء لتسبيح اللّه و حمده من قبل اللّه سبحانه، كما قال فى الآية (۱۴) من سورة المؤمنون فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ

و يمكن أن يكون هذا الحمد و التسبيح بمعنى الأمر، أى «سبّحوه و احمدوا له».

و هذا التّفسير يبدو أقرب للنظر، إذ الآيات المتقدمة هى بمثابة دستور لجميع العباد لمحو آثار الشرك و الذنب من الروح و القلب كل صباح و مساء و كل ظهر و عصر، فسبحوا اللّه و احمدوا له فى الصلاة و فى غير الصلاة.

و نقرأ

حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله يقول فيه: «من قال حين يمسى ثلاث مرات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۸۹

فسبحان اللّه حين تمسون و حين تصبحون (الآيات الثلاث إلى .. تخرجون) أدرك ما فاته فى يومه، و إن قالها حين يمسى أدرك ما فاته ليلته»[۳۴۱].

و فى الآية التالية عودة إلى المعاد، و يرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ

أى إنّ ميدان «المعاد» و ميدان «نهاية الدنيا» المتمثّل أحدهما بخروج «الحى من الميت» و الآخر «خروج الميت من الحى» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعا، و يعود الناس فى يوم القيامة إلى الحياة مرّة أخرى! أمّا التعبير ب «يخرج الحى من الميت» المستعمل للأراضى الموات، فقد ذكره القرآن مرارا فى مسألة المعاد و واضح أنّ الأرض تبدوا ميتة فى فصل الشتاء، فلا خضرة و لا أزهار تضحك و لا براعم تتفتح، و لكن فى فصل الربيع مع سقوط الغيث و اعتدال الهواء، تدبّ الحركة فى الأرض، و تنمو الخضرة فى كل مكان، و تتبسّم الأزهار و تنمو البراعم على الأغصان و هذا ميدان المعاد الذى نراه فى هذه الدنيا.

و أمّا مسألة «إخراج الميت من الحىّ» فهى ليست شيئا خافيا و لا مستترا، فدائما تموت الأشجار على الأرض و تتبدل إلى أخشاب، و يفقد الإنسان و الحيوان حياتهما، و يتبدل كل منهما إلى جسد هامد لا روح فيه.

و أمّا ما يتعلق ب «إخراج الحىّ من الميت» ففسّره بعضهم بخروج الإنسان و الحيوان من النطفة، و قال بعضهم: بل المراد منه تولد المؤمن من الكافر، و قال بعضهم: المراد منه تيقظ النائمين و الراقدين.

و الظاهر أنّه ليس أيّا من هذه المعانى هو المعنى الأصلى، لأنّ النطفة بنفسها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۰

موجود حى، و مسألة «الكفر و الإيمان» هى من بطون الآية، لا من ظواهر الآية، و أمّا موضوع التيقظ و النوم فهو أمر مجازى، إذ ليس النوم و التيقظ موتا و حياة حقيقيين.

إنّما ظاهر الآية هو أنّ اللّه يخرج الموجودات الحية دائما من الموجودات الميتة، و يبدل الموجودات الهامدة التى لا روح فيها إلى

موجودات حيّة.

و بالرغم من أنّه من المسلّم به- فى العصر الحاضر على الأقل- أنّه لم ير فى المختبرات و المشاهدات اليوميّة أن موجودا حيّا يتولد من موجود ميّت، بل تتولد الموجودات الحية دائما من البيوض أو البذور أو نطف الموجودات الحية الأخرى، غير أن الثابت علميا و المسلّم به أنّه كانت الأرض فى البداية قطعة ملتهبة من النّار، و لم يوجد عليها أى موجود حى، ثمّ وفقا لظروف خاصة لم يكتشفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحية من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة .. لكن هذا الموضوع و فى الظروف الفعلية للكرة الأرضية.

و حيث أنّ العلم البشرى لم يتوصل إليه، فلم يشاهد هذا الموضوع (و بالطبع يحتمل أن تتحقق هذه القفزة الكبرى فى أعماق البحار و المحيطات فى بعض الظروف الحالية).

لكن الذى نلمسه و ندركه، هو أنّ الموجودات الميتة دائما تكون جزءا من الموجودات الحية و تكسى ثوب الحياة! فالماء و الطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنّهما حين يكونان فى البدن و يصيران جزءا منه يتحولان إلى موجود حىّ و تضاف كريات جديدة و خلايا جديدة إلى كريات البدن و خلاياه، كما يتبدل الطفل الرضيع عن هذا الطريق إلى شاب قوى متين.

أ ليس هذا إخراج الحياة من قلب الموت، أو «الحى من الميت»؟! فعلى هذا يمكن القول بأن فى نظام الطبيعة دائما يخرج الحى من الميت و يخرج الميت من الحى، و بهذا الدليل فإنّ اللّه الذى خلق الطبيعة قادر على إحياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۱

الموتى فى العالم الآخر.

و بالطبع فإنّ الآية الآنفة من جهة البعد المعنوى لها تفاسير أخر .. منها تولد المؤمن من الكافر، و تولد الكافر من المؤمن، و العالم من الجاهل، و الجاهل من العالم، و الصالح من المفسد، و المفسد من الصالح، كما أشير إلى كل ذلك فى الروايات الإسلامية أيضا.

و يمكن أن تكون هذه المعانى من بطون الآية، لأنّنا نعرف أنّ آيات القرآن لها ظاهر و باطن، كما يمكن أن يكون للموت و الحياة معنى جامع واسع يشمل الجانب المادى و الجانب المعنوى.

هذا و

قد جاء فى رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام فى تفسير الآية يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها ما يلى: «ليس يحييها بالقطر، و لكن يبعث اللّه رجالا فيحيون العدل، فتحيى الأرض لإحياء العدل و لإقامة العدل فيه أنفع فى الأرض من القطر أربعين صباحا»[۳۴۲].

و واضح أنّ مراد الإمام عليه السّلام أن معنى الآية لا ينحصر بنزول الغيث، و لا ينبغى تفسير الآية بالغيث فحسب، لأنّ الإحياء المعنوى للأرض بالعدل أهم من إحيائها بالغيث عند نزوله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۲

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۰ الى ۲۲]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (۲۰) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (۲۲)

التّفسير

آیات اللّه فی الآفاق و فی الأنفس:

تحدثت هذه الآیات- و بعض الآیات الأخر التی تلیها- عن طرائف و لطائف من دلائل التوحید، و آیات اللّه و آثاره فی نظام عالم الوجود، و هی تکمل البحوث السابقة، و یمکن القول بأن القسم المهم بشکل عام من آیات التوحید فی القرآن تمثله هذه الآیات! هذه الآیات التی تبدأ جمیعها بقوله تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ و لها وقع خاص و لحن بلیغ جاذب و تعبیرات مؤثرة و عمیقة، مجموعة من سبع آیات، ست منها متتابعات، و واحدة منفصلة «و هی الآیة السادسة و الأربعون».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۳

هذه الآیات مقسمة تقسیما طریفا من حیث «آیات الآفاق» و «آیات الأنفس» إذ تتحدث ثلاث منها عن آیات الأنفس (دلائل الخالق فی وجود الإنسان نفسه) و ثلاث منها عن آیات الآفاق (دلائل الخالق خارج وجود الإنسان) و واحدة من هذه الآیات تتحدث عن الآیات فی الأنفس و فی الآفاق معا.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه أنّ الآیات التی تبدأ بهذه العبارة: وَ مِنْ آیاتِهِ مجموعها إحدی عشرة آیة فحسب، فی سائر سور القرآن، سبع منها فی هذه السورة، و اثنتان فی سورة فصلت هما «الآیة ۳۷ و الآیة ۳۹» و آیتان أخریان فی سورة الشوری هما الآیة ۲۹ و الآیة ۳۲- و مجموعها کما ذکرنا آنفا إحدی عشرة لا غیر. و هی تشکل دورة متکاملة فی التوحید.

و یجدر التنبیه- قبل الدخول إلی تفسیر هذه الآیات- علی هذه «اللطیفة» و هی أن ما أشار إلیه القرآن فی هذه الآیات، و إن کانت تبدو للنظر محسوسة و ملموسة، یمکن أن یدرکها عامّة الناس، إلّا أنّه مع تطور العلم و تقدمه تبدو للبشر لطائف جدیدة فی هذا المجال، و تتّضح للعلماء أمور ذات أهمیة کبری، و سنشیر إلی قسم منها خلال تفسیرنا لهذه الآیات إن شاء اللّه.

و یتحدث القرآن هنا أوّلا عن خلقة الإنسان التی تعد أوّل موهبة إلهیة له، و أهمهما أیضا، فیقول: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ فی هذه الآیة إشارة دلیلین من أدلة عظمة اللّه.

الأوّل: خلق الإنسان من التراب، و ربّما کان إشارة إلی الخلق الأوّل للإنسان، أی آدم علیه السّلام، أو خلق جمیع الناس من التراب، لأنّ المواد الغذائیة التی تشکل وجود الإنسان، جمیعها من التراب بشکل مباشرة أو غیر مباشر! الثّانی: کثرة النسل «الآدمی» و انتشار أبناء «آدم» علی سطح المعمورة، فلو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۴

لم تخلق خصوصیة التناسل فی آدم، لانطوی نسله من الوجود بسرعة!.

تری أین التراب و أین الإنسان بهذا الهندام و الرشاقة؟! فلو وضعنا خلایا و أستار العین التی هی أدق من ورق الزهور و ألطف و أکثر حساسیة، و کذلک الخلایا الدقیقة للدماغ و المخ إلی جانب التراب و قارناهما بالقیاس إلی بعضهما البعض، نعرف حینئذ کم لخالق العالم من قدرة عجیبة، بحیث أوجد من مادة کدرة سوداء لا قیمة لها هذه الأجهزة الظریفة و الدقیقة القیّمة.

فالتراب لیس فیه نور، و لا حرارة، و لا جمال، و لا طراوة، و لا حس، و لا حرکة و مع ذلک فقد أضحی عجینة الإنسان و لها جمیع هذه الصفات، فالذی أوجد من هذا الموجود المیت التافه موجودا حیّا عجیبا، لحقیق بکل حمد و ثناء علی هذه القدرة الباهرة و العلم المطلق فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ

و الآیة محل البحث تبیّن ضمنا هذه الحقیقة، و هی أنّه لا تفاوت بین بنی الإنسان، و یعود جذرهم إلی شیء واحد، و أصل واحدة و هو التراب و بالطبع فنهایتهم إلی ذلک التراب أیضا.

و ممّا ینبغی الالتفات إلیه، أن کلمة «إذا» تستعمل فی لغة العرب فی الموارد الفجائیة و لعل هذا التعبیر هنا إشارة إلی أنّ اللّه له القدرة

البالغة على أن يخلق مثل آدم أعدادا هائلة بحيث ينتشر نسلها فى فترة قصيرة- فجأة- و يملأ سطح الأرض .. و يكون مجتمعا إنسانيّا كاملا.

و الآية الثّانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضا عن قسم آخر من الآيات فى الأنفس، التى تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها. أى من جنسكم و الغاية هى السكينة الروحية و الهدوء النفسى و حيث أن استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، و بين جميع الناس عامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۵

يحتاج إلى جذب قلبى و روحانى، فإنّ الآية تعقب على ذلك مضيفة وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

و لمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

الطريف هنا أن القرآن- فى هذه الآية- جعل الهدف من الزواج الاطمئنان و السكن، و أبان مسائل كثيرة فى تعبير غزير المعنى «لتسكنوا» كما ورد نظير هذا التعبير فى سورة الأعراف الآية ۱۸۹.

و الحقّ أن وجود الأزواج مع هذه الخصائص للناس التى تعتبر أساس الاطمئنان فى الحياة، هو أحد مواهب اللّه العظيمة.

و هذا السكن أو الاطمئنان ينشأ من أن هذين الجنسين يكمل بعضهما بعضا، و كل منهما أساس النشاط و النماء لصاحبه، بحيث يعد كل منهما ناقصا بغير صاحبه، فمن الطبيعى أن تكون بين الزوجين مثل هذه الجاذبيّة القوية.

و من هنا يمكن الاستنتاج بأنّ الذين يهملون هذه السنة الإلهية وجودهم ناقص، لأنّ مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلّا أن توجب الظروف الخاصة و الضرورة فى بقائهم عزّابا).

و على كل حال، فإنّ هذا الاطمئنان أو السكن يكون من عدّة جهات «جسميا و روحيّا و فرديا و اجتماعيّا».

و لا يمكن إنكار الأمراض التى تصيب الجسم فى حالة عدم الزواج، و كذلك عدم التعادل الروحى و الاضطراب النفسى عند غير المتزوجين.

ثمّ أنّ الأفراد العزّاب لا يحسّون بالمسؤولية- من الناحية الاجتماعية- كثيرا .. و لذلك فإن الانتحار تزداد بين أمثال هؤلاء أكثر .. كما تصدر منهم جرائم مهولة أكثر من سواهم أيضا.

و حين يخطو الإنسان من مرحلة العزوبة الى مرحلة الحياة الأسرية يجد فى نفسه شخصية جديدة، و يحس بالمسؤولية أكثر،، و هذا السكن و الاطمئنان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۶

ظل الزواج.

و أمّا مسألة «المودة و الرحمة» فهما فى الحقيقة «ملاط» البناء فى المجتمع الإنسانى، لأنّ المجتمع يتكون من افراد متفرقين كما أن البناء العظيم يتألف من عدد من الطابوق و «الآجر» أو الأحجار. فلو أن هؤلاء الأفراد المتفرقين اجتمعوا، أو أن تلك الأجزاء المتناثرة وصلت بعضها ببعض، لنشأ من ذلك المجتمع أو البناء حينئذ.

فالذى خلق الإنسان للحياة الاجتماعية جعل فى قلبه و روحه هذه الرابطة الضرورية.

و الفرق بين «المودة» و «الرحمة» قد يعود إلى الجهات التالية:

۱- المودة هى الباعثة على الارتباط فى بداية الأمر بين الزوجين، و لكن فى النهاية، و حين يضعف أحد الزوجين فلا يكون قادرا على الخدمة، تأخذ الرحمة مكان المودة و تحلّ محلها.

۲- المودة تكون بين الكبار الذين يمكن تقديم الخدمة لهم، أمّا الأطفال و الصبيان الصغار، فإنهم يتربون فى ظلّ الرحمة.

۳- المودّة، غالبا ما يكون فيها «تقابل بين الطرفين»، فهى بمثابة الفعل ورد الفعل، غير أنّ الرحمة من جانب واحد لديه إيثار و عطف،

لأنّه قد لا يحتاج إلى الخدمات المتقابلة أحيانا، فأساس بقاء المجتمع هو «المودة» و لكن قد يحتاج إلى الخدمات بلا عوض، فهو الإيثار و الرحمة.

و بالطبع فإنّ الآية تبيّن المودة و الرحمة بين الزوجين، و لكن يحتمل أن يكون التعبير «بينكم» إشارة إلى جميع الناس .. و الزوجان مصداق بارز من مصاديق هذا التعبير، لأنّه ليست الحياة العائلية وحدها لا تستقيم إلّا بهذين الأصلين (المودّة و الرحمة) بل جميع المجتمع الإنسانى قائم على هذين الأصلين و زوالهما من المجتمع- و حتى نقصانهما يؤدى الى أنواع الارباك و الشقاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۷

و الاضطراب الاجتماعى.

أمّا آخر آية- من هذه الآيات محل البحث- فهى مزيج من آيات الآفاق و آيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء و الأرض، فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

السماوات بجميع ما فيها من كرات، و بجميع ما فيها من منظومات و مجرّات، السماوات التى مهما حلّق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها و مطالعتها .. و كلّما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

كان الإنسان يرى الكواكب فى السماء بهذا العدد الذى تراه العين (و قد أحصى العلماء الكواكب التى ترى بالعين المجرّدة، فوجدوها تتراوح بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف كوكب).

و لكن كلما تقدم العلم فى صناعة المجهر و التلسكوب، فإنّ عظمة و كثرة الكواكب تزداد أكثر ... إلى درجة بلغ الإعتقاد اليوم أن مجرتنا لوحدها من بين مجاميع المجرات فى السماء تحتوى على أكثر من مائة مليون كوكب و تعد الشمس على عظمتها المذهلة واحدة من النجوم المتوسطة، و لا يعلم عدد المجرات و لا يحصيها إلّا اللّه، إذ هو وحده يعلم كم من كوكب و نجمة فى هذا المجرات! و كذلك كلما تقدم العلم الطبيعى و الجيولوجيا، و علم النبات و العلوم البيلوجية «و الحيوانية» و علم التشريح و الفيزياء، و العلوم النفسية و غيرها، فستتضح عجائب فى خلق الأرض كانت خافية، كل واحدة تعدّ آية من آيات اللّه.

ثمّ ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ

و بلا شك فإنّ الحياة الاجتماعية للبشر، لا تقوم بغير معرفة و تشخيص الأفراد و الأشخاص، إذ لو كان الناس جميعا فى يوم ما على صورة واحدة و لباس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۸

واحد، فإن أسلوب حياتهم يضطرب فى ذلك اليوم، إذ لا يعرف الأب و الابن و الزوج من الغرباء، و لا يميز المجرم من البرىء، و لا الدائن من المدين، و لا الآمر من المأمور، و لا الرئيس من المرؤوس، و لا الضيف من المضيف و لا العدوّ من الصديق، و أى ارباك عجيب كان سيحدث لو كانوا على هذه الشاكلة!.

و على سبيل الاتفاق قد تحدث هذه المسألة بين الإخوة التوائم، أو الشقيقين التوأمين المتشابهين من جميع الوجوه، و كم تحدث من المشاكل بين الناس و بينهم، و قد سمعنا ذات مرّة أن امرأة كان لديها توأمان متشابهان تماما، و كان أحدهما مريضا، فأعطت الدواء لمعافى دون السقيم!!.

لذلك خلق اللّه الأصوات و الألون لتنظيم المجتمع البشرى، على حد تعبير «الرازى» فى تفسيره فى ذيل الآية محل البحث: إن معرفة الإنسان للإنسان تحصل إمّا عن طريق العين أو الأذن، فخلق اللّه الألوان و الصور و الأشكال المختلفة لتعرفها العين و تشخصها، و أوجد اختلاف الأصوات لتشخصها الأذن، حتى أنّه لا يمكن العثور فى جميع العالم على إنسانين متشابهين فى الوجه و الصوت معا، أى إن وجه الإنسان الذى هو عضو صغير، و صوته الذى هو موضوع بسيط، بقدرة اللّه جاءا على مليارات الأشكال و الأصوات المختلفة، و ما ذلك الاختلاف إلّا من آيات عظمة اللّه.

كما يحتمل أن المراد باختلاف الألسنة كما أشار إليه كبار المفسّرين هو اختلاف اللغات، من قبيل العربية و الفارسية و اللغات الأخرى.

و لكن يمكن أن يستفاد من كلمة «اختلاف» معنى واسع بحيث يشمل هذا التّفسير و ما قبله، و أى تفسير آخر، فهذا التنوع فى الخلقة شاهد على عظمة الخالق و قدرته.

يقول «فريد وجدى» فى دائرة معارفه، نقلا عن قول «نيوتن» العالم الغربى المعروف (لا تشكوا فى الخالق، فإنه ممّا لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۴۹۹

قائدة الوجود، لأنّ ضرورة عمياء متجانسة فى كل مكان و فى كل زمان لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع فى الكائنات، و لا هذا الوجود كله بما فيه من ترتيب أجزائه و تناسبها، مع تغيرات الأزمنة و الأمكنة، بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر إلّا من كائن أزلى له حكمة و إرادة)[۳۴۳].

و يقول القرآن فى نهاية الآية الآنفة الذكر إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۰

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۴) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (۲۵)

التّفسير

آيات عظمته- مرّة أخرى:

تعقيبا على الأبحاث السابقة حول آيات اللّه فى الآفاق و فى الأنفس، تتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة.

فتتحدث فى البداية عن ظاهرة «النوم» على أنّها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق و مثل بارز من نظام الحكيم الخالق، فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ

و تختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ

و هذه الحقيقة غير خافية على أحد، هى أن جميع «الموجودات الحية»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۱

تحتاج إلى الراحة و الدعة، و ذلك لتجديد قوتها و تهيئة الاستعداد اللازم لإدامة العمل و الفعالية، الراحة التى لا بدّ منها حتى لأولئك الأفراد الحريصين و الجادّين.

فأى شىء يتصور أحسن من النوم للوصول إلى هذا الهدف، و هو يأتيه بشكل إلزامى، و يدعوه إلى تعطيل نشاطه الجسمانى، و قسم مهم من نشاطه الفكرى و الذهنى، بينما تستمر أجهزة خاصة فى العمل فى جسم الإنسان كالقلب الرئة و بعض النشاط الذهنى، و ما إلى ذلك ممّا يستلزمه استمرار الحياة فى الإنسان فحسب، أمّا البقية فتهدأ و تتعطل عن العمل.

هذه الموهبة العظيمة تؤدى الى أن يحصل جسم الإنسان و روحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذى بمثابة وقفة لعمل البدن، و نوع من التعطيل له. و يجد الإنسان على أثرها قوة و نشاطا جديدا فى حياته.

و من المسلّم به أنّه لولا النوم لتصدّعت روح الإنسان و ذبل جسمه و انهار بسرعة، و لعجل عليه العجز و الشيخوخة ... و بهذا فإن النوم المناسب و الهادىء مدعاة للسلامة و طول العمر، و دوام «الشباب» و نشاطه.

و ممّا يجدر التنبيه عليه أوّلا: أنّ النوم ورد قبل عبارة ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ التى تعنى السعى وراء الرزق، و هذا التعبير هو إشارة إلى أن النوم أساس السعى لأنّه- من دون النوم الكافى- يصعب الابتغاء من فضل اللّه.

ثانيا: صحيح أنّ النوم يقع فى الليل، و الابتغاء من فضل اللّه فى النهار، إلّا أنّه ليس صعبا على الإنسان أن يغيّر هذا المنهج إذا اقتضت الضرورة. بل اللّه خلق الإنسان بصورة يستطيع معها تغيير منهجية النوم، و يجعلها وفقا للضرورات و الحاجات، فكأنّ التعبير مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ إشارة إلى هذه «اللطيفة» الدقيقة.

و لا شك أنّ المنهج الأصل للنوم متعلق بالليل، و لأنّ الليل هادئ بسبب الظلمة، فله أولوية خاصة فى هذا المورد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۲

و لكن قد يتفق للإنسان و لظروف خاصة يكون مجبرا على السفر ليلا- و أن يستريح نهارا ... فلو كان منهج تنظيم النوم خارجا عن اختيار الإنسان فسيواجه العديد من الصعوبات حتما.

و أهمية هذا الموضوع، خاصة فى عصرنا الذى تضطر فيه بعض المؤسسات الصناعية و الطبية و العلاجية أن تعمل ليل نهار، و لا يمكن لها أن تعطل منهجها بحيث يتناوب عمالها فى ثلاث مراحل للعمل فيها، هذه الأهمية فى هذا العصر أجلى منه فى أى عصر مضى! و حاجة جسم الإنسان و روحه إلى النوم كثيرة إلى درجة لا يستطيع الفرد أن يتحمل السهر المتواصل أكثر من يومين أو ثلاثة.

و لذلك فإنّ المنع من النوم يعتبر من أشد أنواع التعذيب الذى يمارسه الطغاة و الجبابرة مع سجنائهم.

و كذلك يعدّ النوم واحدا من الطرق العلاجية لكثير من الأمراض، حيث يوصى الأطباء المريض بأن يغطّ فى نوم عميق فتزداد بذلك قوّة المريض و مناعته.

و بالطبع لا- يمكن لأحد أن يحدد مقدارا معينا للنوم على أنّه «مقدار النوم اللازم» لعموم الناس لأنّ ذلك يرتبط بسنّ الأشخاص و وضعهم و مزاجهم و كيفية البناء الفيسيولوجى و السيكلوجى «الجسيمى و الروحى»، بل المهم النوم الكافى بمقدار يحسّ الإنسان بعده بأنّه شبع منه ... كما هى الحال بالنسبة للشبع من الغذاء و الماء تماما.

و ينبغى الالتفات إلى هذه المسألة، و هى أنّه بالإضافة إلى «طول» زمان النوم، فلعمقه خصوصية و أهمية أخرى أيضا ... فرب ساعة ينام فيها الإنسان نوما عميقا تسد عن عدد من الساعات التى ينامها نوما سطحيا فى إعادة بناء روح الإنسان و جسمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۳

و بالطبع، فحيث لا يمكن النوم العميق، فالنعاس أيضا من النعم الإلهية، كما أشارت إليه الآية الحادية عشرة من سورة الأنفال فى شأن المجاهدين يوم بدر إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ لأنّه لا يمكن النوم العميق فى ميدان الحرب، و ليس مفيدا- أيضا- و لا نافعا.

و على كل حال فإن نعمة النوم و الهدوء و الاطمئنان الناشئ منه، و ما يحصل عليه الإنسان من قوة و نشاط بعد النوم، هى من النعم التى لا يمكن وصفها بأى بيان!.

و الآية التى تلتها، و التى تبيّن خامس آية من آيات عظمة اللّه، تتجه أيضا إلى «الآيات فى الآفاق» و تتحدث عن البرق و الرعد و

الغيث و حياة الأرض بعد موتها فتقول: وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

«الخوف» ممّا يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق فتحرق كل شيء تقع عليه و تحيله رمادا.

«و الطمع» من جهة نزول الغيث الذى ينزل بعد البرق و الرعد على هيئة قطر أو مزنة.

و على هذا فإنّ البرق السماوى مقدمة لنزول الغيث (بالإضافة إلى فوائد البرق المختلفة المهمة و التى كشف العلم عنها أخيرا و قد تحدثنا عنه فى بداية سورة الرعد»[۳۴۴].

ثمّ يضيف القرآن معقبا يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

الأرض الميتة التى لا يؤمل فيها الحياة و النبات، تهتز بنزول الغيث الذى يمنحها الحياة، فتحيا و تظهر آثار الحياة عليها على هيئة الأزهار و النباتات، بحيث لا تصدق أحيانا أنّها الأرض الميتة سابقا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۴

و يؤكّد القرآن فى نهاية هذه الآية مضيفا: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ و يفهمون أن وراء هذه الخطة المدروسة يدا قادرة تقودها و تهديها، و لا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة و الضرورة العمياء الصّماء أبدا.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية أخرى من الآيات الآفاقية، و ذلك عن تدبير نظام السماء و الأرض و بقائهما و دوامهما، إذ تقول:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ

أى إنّ خلق السماوات- المشار إليه فى الآيات السابقة- ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها و دوام نظامها أيضا آية أخرى، فهذه الأجرام العظيمة فى دورانها المنظّم حول نفسها تحتاج إلى أمور كثيرة، و أهمّها المحاسبة المعقدة للقوّة الجاذبة و الدافعة! إنّ الخالق الكبير جعل هذا التعادل دقيقا، بحيث لا يعترض الأجرام أدنى انحراف فى مسيرها و دورانها حول نفسها إلى ملايين السنين.

و بتعبير آخر: إنّ الآية السابقة كانت إشارة إلى «توحيد الخلق» و أمّا هذه الآية فهى إشارة إلى «توحيد الربوبية و التدبير».

و التعبير بقيام السماء و الأرض، تعبير لطيف مأخوذ من حالات الإنسان، لأنّ أحسن حالات الإنسان لأجل استدامة نشاطه هى حالة قيامه، إذ يستطيع فيها أداء جميع حوائجه، و تكون له السيطرة و التسلط الكامل على أطرافه.

و التعبير ب «أمره» هنا إشارة إلى منتهى قدرة اللّه، إذ يكفى أمر واحد من قبله لاستمرار الحياة، و نظم هذا العالم الوسيع.

و فى نهاية الآية و بالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

و لقد رأينا- مرارا- فى آيات القرآن أن اللّه سبحانه يستدل على المعاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۵

بآيات قدرته فى السماء و الأرض، و الآية محل البحث واحدة من تلك الآيات.

و التعبير ب «دعاكم» اشارة إلى أنّه كما أنّ أمرا واحدا منه كاف للتدبير و لنظم العالم، فإنّ دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم و تنشركم من قبوركم ليوم القيامة، و خاصة إذا لاحظنا جملة إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ فإنّ كلمة «إذا» تبين بوضوح مؤدى هذه الجملة، حيث أنّها «فجائية» كما يصطلح عليها أهل النحو و اللغة، و معناها: إذا دعاكم اللّه تخرجون بشكل سريع و فجائى.

و التعبير ب دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ دليل واضح على المعاد الجسمانى، إذ يثب الإنسان فى يوم القيامة من هذه الأرض «فلاحظوا بدقّة».

بحوث

۱- دورة دروس کاملة لمعرفة اللّه

تناولت الآیات الست المتقدمة بحوثا مختلفة فی معرفة اللّه، و هی بمجموعها تمثل حلقات متصلة و دورة کاملة طریفة، بدءا بخلق السماء إلی خلق البشر من التراب، و من رباط الحب فی الأسرة، إلی النوم الذی یمنح الدعة و الاطمئنان فی اللیل و النهار، و من تدبیر النظام و العالم متدرجا، إلی البرق و الغیث و اختلاف الألسنة و الألوان ... فهی مجموعة مناسبة من آیات الآفاق و آیات الأنفس!.

الطریف هنا أن کلّ آیة من الآیات الست یذکر فیها قسمان من دلائل التوحید، لیهیّئ الأوّل الأرضیة المناسبة، و الآخر للتحکیم و التأکید، و هذا یشبه تماما الإتیان بشاهدین عدلین لإثبات المدّعی، فیکون المجموع اثنی عشر شاهدا صادقا علی قدرة اللّه الحق، التی لا نهایة و لا أمد لها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۶

۲- من هم المستلهمون من هذه الآیات

ورد فی أربع آیات من هذه الآیات الست التأکید علی أن فی هذه الأمور دلائل واضحة «للعالمین، المتفکرین، السمیعین، العاقلین» إلّا أنّ هذا التأکید لم یرد فی الآیة الأولی، و لا الآیة الأخیرة.

و یوضح الفخر الرازی فی هذا المجال فیقول: لعل عدم ذکر ذلک، فی الآیة الأولی لأنّ الآیة الأولی و الثّانیة جاءتا متصلتین فی سیاق واحد، و کلتاهما من الآیات التی تتحدث فی الأنفس.

و أمّا فی الآیة الأخیرة فإنّ الأمر واضح إلی درجة لا یحتاج بعدها إلی مزید إیضاح، و لا تأکید علی التعقل و التفکر[۳۴۵]! الطریف هنا أن الحدیث عن التفکر ورد قبل الحدیث و الکلام عن «العلم» لأنّ التفکر مقدمة و قاعدة للعلم، ثمّ یأتی الکلام علی من یسمع، لأنّ الإنسان یستعد للاستماع و تقبل الحق، إذا کان فی صدد العلم و الاطلاع، کما یقول القرآن فی هذا المجال: فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۳۴۶] و فی آخر مرحلة کان الکلام عن العقل، لأنّ أولئک کانوا یسمعون، فلا بدّ أن یبلغوا مرحلة العقل الکامل! کما ینبغی الالتفات إلی هذه اللطیفة، هی أنّه وقع الکلام فی ذیل الآیة الأولی عن خلق الإنسان و انتشار نسله فی الأرض ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ

و وقع الکلام فی آخر آیة أیضا عن خروج الناس و نشورهم فی یوم القیامة إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

فالآیة الأولی لبدایة الخلق، و الأخیرة للنهایة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۷

۳- عجائب عالم النوم

بالرغم من جمیع الأبحاث التی کتبها العلماء حول النوم و خصائصه، یبدو أن زوایا هذا العالم لم تنکشف جمیعها، و لم یرفع النقاب عن أسراره و حقائقه الغامضة! فما زال البحث یدور بین العلماء: أی فعل و انفعال یکون فی البدن بحیث یتوقف- خلال لحظة مفاجئة- قسم من نشاطات المخ و البدن، و یظهر تحول فی عامّة الروح و الجسد؟! قال بعضهم: إنّ العامل الأصلی للنوم هو «عامل فیزیاوی» و یعتقدون أن انتقال الدم من المخ إلی أجزاء البدن الأخری، یوجد هذه الظاهرة، و لأجل إثبات معتقدهم عمدوا إلی صنع سریر للنوم علی شکل خاص یدعی «سریر النوم المعیاری» یبیّن کیفیة انتقال الدم من المخ إلی سائر أعضاء البدن!.

و قال جماعة: إنّ العامل الأصلى للنوم هو «عامل كيمياوى» و يعتقدون أن الإنسان فى حالة السعى و العمل تزداد فيه السموم بحيث تؤدى الى تعطيل قسم من المخ عن عمله، فينام الإنسان على أثر ذلك، و حين تتلاشى السموم و تسيطر عليها كريات الدم يتيقظ الإنسان مرّة أخرى! و قال جماعة آخرون: إنّ العامل الأصلى للنوم هو «عامل عصبى» و يعتقدون أن للنشاط العصبى خصوصية فى المخ لها حكم وقود السيارة، فعند ما تتعب ينطفئ المخ و يتوقف عن العمل مؤقتا.

و لكن هناك أسئلة و نقاط مبهمة حول جميع هذه النظريات، لم نحصل إلى الآن على جواب واضح لها، و ما يزال النوم محتفظا بوجهه الملىء بالأسرار.

من عجائب عالم النوم ما أماط العلماء النقاب عنه أخيرا، و هو حين يتعطل قسم كبير من المخ عن العمل تبقى بعض خلاياه التى ينبغى أن تسمى ب «الخلايا الحارسة» متيقظة و لا تنسى الوصايا التى يوصيها الإنسان قبل النوم عند ساعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۸

التيقظ ... و عند الحاجة توقظ هذه الخلايا جميع المخ و يتحرك نحو العمل مرّة أخرى! فمثلا: الأم المرضعة المتعبة حين تنام الليل و إلى جنبها رضيعها فى المهد، يوصى عقلها الباطنى الخلايا الحارسة التى تربط بين الروح و الجسم، أنّه متى ما سمعت أقل صوت لطفلى فأيقظينى، و لكن لا يهمنى أى صوت آخر، فقد لا تتيقظ المرأة من صوت الرعد المهول، و لكنّها تتيقظ لأقل صوت من ولدها الرضيع، فهذه المهمّة هى وظيفة الخلايا الحارسة.

و نحن أيضا جرّبنا هذا الموضوع كثيرا، فمتى ما كان لدينا تصميم أن نستيقظ مبكرين أو فى منتصف الليل لنسافر أو لأداء مهمّة، و نحدث أنفسنا بذلك، فإننا غالبا ما نستيقظ فى الوقت المطلوب، فى حين أن من الممكن أن نغرق فى النوم لساعات طوال فى غير هذه الحالة! و الخلاصة، حيث أنّ النوم هو من الظواهر الروحية، و للروح عالم ملىء بالأسرار، فليس عجيبا أن تبقى كثير من زوايا هذه المسألة غامضة ... و لكن كلما سبرنا غور هذا العالم نتعرف على عظمة خالق هذه الظاهرة.

هذا عن ظاهرة النوم، و أمّا عن الرؤيا و الأحلام، فقد بحثنا عنه بحوثا كثيرة، و لا بأس بمراجعة تفسير سورة يوسف عليه السّلام.

۴- علاقة الحب بين الزوجين

بالرّغم من أنّ العلاقة أو الارتباط بين الإنسان و أبيه و أمه و إخوته هى علاقة نسبية، تمتد جذورها العميقة بالقرابة. و العلاقة بين الزوجين علاقة قانونية.

و «معاقدة بينهما» لكن كثيرا ما تتغلب هذه العلاقة حتى على علاقة الإنسان بأبيه و أمه، و فى الحقيقة هذا هو ما أشارت إليه الآيات الآنفة بالتعبير وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۰۹

و نقرأ حديثا عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله أنّه أخبر ابنة جحش باستشهاد خالها حمزة، فقالت: إنا للّه و إنا إليه راجعون. فأخبرها باستشهاد أخيها فقالت مرّة أخرى: «إنا للّه و إنا إليه راجعون» (و طلبت له الأجر و الثواب من اللّه).

و لكن حين أخبرها باستشهاد زوجها، وضعت يدها على رأسها و صرخت،

فقال النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما يعدل الزوج عند المرأة شىء»[۳۴۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۰

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

وَ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۲۶) وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلی فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۲۷) ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِکُمْ هَلْ لَکُمْ مِنْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ مِنْ شُرَکاءَ فِی ما رَزَقْناکُمْ فَأَنْتُمْ فِیهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِینَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَیْرِ عِلْمٍ فَمَنْ یَهْدِی مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِینَ (۲۹)

التّفسير

المالكية للّه وحده:

كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، و توحيد الرّب، أمّا الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، و هو توحيد الملك فتقول: وَ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لأنّهم ملك يده ف كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ و خاضعون.

و واضح أنّ المراد من المالكية و خضوع المخلوقات و قنوتها، الملك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۱

و القنوت التكوينيان ... أى إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كلّه فى يده، و هم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة اللّه، شاؤوا أم أبوا.

حتى العتاة الطغاة الألدّاء و المتمردون على القانون و الجبابرة، هم مضطرون أيضا أن يحنوا رؤوسهم لأمر اللّه فى القوانين التكوينية.

و الدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية و الربوبية، فإنّ من خلق الموجودات فى البداية و تكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنّه هو المالك الأصلى لها لا سواه! و بما أنّ جميع موجودات الدنيا سواسية فى هذا الأمر، فمن الواضح أن لا يكون معه أى شريك فى الملك حتى الأوثان و المعبودات المصطنعة التى يتصورها المشركون أنّها أربابهم، هى أيضا مملوكة لمالك «الملك» و الملوك، و هى طوع أمره.

و ينبغى الالتفات- ضمنا- إلى أنّ كلمة «قانت» تعنى- كما يقول الراغب فى مفرداته- فى الأصل: الطاعة الملازمة للخضوع! و نقرأ حديثا

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال «كل قنوت فى القرآن فهو طاعة».

غاية ما فى الأمر، تارة تأتى هذه الطاعة «تكوينية» و أخرى «تشريعية».

و ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ كلمة «قانتون» معناها هنا «قائمون بالشهادة على وحدانيته»[۳۴۸] فهو فى الحقيقة بيان لأحد مصاديق الطاعة، لأنّ الشهادة على وحدانية اللّه نوع من الطاعات.

و حيث أنّ المسائل المرتبطة بالمبدأ و المعاد هى كالنسيج الواحد فى انسجامها فى سلسلة الآيات الآنفة، و التى ستأتى فى ما بعد، ففى الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: وَ هُوَ الَّذِی یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۲

[۳۴۹].

إنّ القرآن يثبت فى هذه الآية- بأوجز الاستدلال- مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنكم تعتقدون أن بداية الخلق من قبل اللّه،

فعودة الخلق مرّة أخرى أيسر و أهون من بداية الخلق!.

و الدليل على أن عودة الخلق أهون من البداية، هو أنّه فى البداية لم يكن شىء و لكن اللّه هو الذى أبدعه، و فى الإعادة توجد المواد الأصلية على الأقل، فبعضها فى طيّات التراب، و بعضها متناثر فى الفضاء، و إنّما تحتاج إلى نظم و إلى إعطائها صورتها الأولى فحسب، فهى أهون! و لكن من الضرورى أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، و هى أنّ التعبير بالهيّن و الصعب، هو من خلال نافذتنا الفكرية، و أمّا بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب و السهل».

و أساسا فإنّ «الصعب و السهل» يصدقان مفهوما فى مكان يكون الكلام عن قدرة محدودة، كأن يستطيع أحد أن يؤدى عملا بصورة جيدة، و الآخرة لا يؤديه بصورة جيدة، بل بمشقّة، أمّا حين يكون الكلام على قدرة لا حدّ لها، فلا معنى للصعب و الهيّن هناك! و بتعبير آخر: إنّ حمل «أعظم الجبال» على الأرض بالنسبة إلى اللّه و حمل أخف الأشياء عليها عنده سواء، لقدرته التى لا يعظم عليها شىء.

و ربّما كان لهذا السبب أن عقّب القرآن فى ذيل الآية مباشرة بالقول: وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

لأننا لو تصورنا أى وصف كمالى لأى موجود فى السماء و الأرض، من علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۳

و قدرة و ملك و عظمة و جود و كرم، فمصداقه الأتم و الأكمل هو عند اللّه، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلّا هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، و الجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف اللّه فذاتية، و هو مصدر الكمالات و أساسها.

حتى الألفاظ التى تجرى على ألسنتنا لبيان مقاصدنا يوميّا .. لا يمكن أن تكون مبينة لأوصافه ... كما هو فى تعبير «أهون» الذى نجده مثلا عندنا.

و الجملة الآنفة هى كالآية (۱۸۰) فى سورة الأعراف، إذ ورد فيها وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها و الآية (۱۱) فى سورة الشورى إذ يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

و تنتهى الآية- بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

هو عزيز لا يقهر، إلّا أنّه و فى منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكل أفعاله وفق حكمته.

و بعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد و المعاد فى الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفى الشرك» فى مثال بيّن فيقول: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ

هذا المثال هو لو كان لديكم- أيّها المشركون- عبيد و مماليك ف هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ أى أن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم فى أموالكم و فى ما رزقناكم. بحيث تكونون أنتم و عبيدكم سواء فى مالكية هذه الأموال و النعم و تخافون أن يتصرفوا فى هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحالة فى تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو فى الميراث مثلا ... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا فى أموالكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۴

فلو كان لكم عبيد و ملك يمين «و هو ملك مجازى» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التى هى ملك حقيقى للّه شركاءه! أو تزعمون أن بعض الأنبياء كالمسيح أو ملائكة اللّه أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصنام الحجرية و الخشبيّة شركاءه، ألا- ساء ما تحكمون!! المملوكات المجازية التى يمكن أن تتحرر و تنعتق بسرعة، و تكون فى صفوفكم و من أمثالكم «كما جرى ذلك فى الإسلام»- لا تكون حالة كونها مملوكة- فى صف مالكها، و ليس لها حق التدخل فى منطقة نفوذه، فكيف تجعلون العبيد الحقيقيين أو المملوكات الحقيقية شركاء اللّه، فى حين أنّهم متعلقون باللّه ذاتا و وجودا، و لا يمكن أن يسلب هذا التعلق باللّه و الارتباط به منهم، و كل ما عندكم فمن عنده، و ما أنتم بشىء من دونه!.

قال بعض المفسّرين: إنّ هـذه الآيـة ناظرة لما قاله المشـركون من قريش، عند التلبية فى مناسك الحج، إذ كانوا يقولون عند التلبية ... «لبيك، اللّهم لا شريك لك، إلّا شريكا هو لك، تملكه و ما ملك» ... هكذا كان محتوى تلبية المشركين ۳۵۰].

و بـديهى أن شـأن نزول هـذه الآيـات شـأن سـائر الآيـات فى نزولهـا، إذ لاـ يحـدد معنى الآيـة، كمـا هى فى الوقت ذاته جواب لجميع المشركين، هى مستقاة من حياتهم أنفسهم التى تدور حول الرق و المملوكين، و تحتج عليهم احتجاجا متينا.

و التعبير ب ما رَزَقْناكُمْ يشير إلى هذه اللطيفة، و هى أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد و المماليك، و لا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك للّه وحده، و لكنّكم غير مستعدين لأن تخوّلوا مماليككم المجازيين بالتصرف فى أموالكم المجازية و تعدّوهم شركاءكم، فى حين أنّه لا يستلزم محالا و لا مشكلة من الناحية التكوينية لأنّ الكلام يدور مدار الاعتباريّات.

غير أن التفاوت بين اللّه و مخلوقاته تفاوت تكوينى و لا يتغيّر، و جعل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۵

المخلوقات شريكة للّه من سابع المستحيلات.

و من جهة أخرى فإنّ عبادة أحد الموجودات، إمّا لعظمته، أو لأنّه ينفع و يضر الإنسان، إلّا أن هذه المعبودات لا تنفع و لا تضر[۳۵۱].

و يعقب القرآن فى ختام الآية للتأكيد و الدقة على مضمون السؤال، فيقول:

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

أجـل، نـذكر لكم الحقـائق من الأمثلـة الواضـحة فى حيـاتكم لتفكروا فيهـا، و لكيلاـ تنسـبوا للّه- على الأقل- ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم!.

غير أنّ هـذه الآيات البينات و هـذه الأمثلة الواضـحة هى لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، و استوعبت آفاقهم الخرافات و العصبيات، لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ

و لـذلك فـإنّ اللّه خلّى بينهم و بين أنفسـهم بسـبب أعمالهم السـيئة، فتاهوا فى وادى الضـلالة فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ! و التعبير ب «ظلموا» مكان «أشركوا» إشارة إلى أن الشرك بعد أعظم الظلم:

فهو ظلم للخالق، إذ جعله مخلوقه إلى جانبه و أشركه معه (و نعرف أن الظلم أن تضع الشىء فى غير موضعه).

و ظلم للخلق، إذ منعوهم عن طريق الخير و السعادة «طريق التوحيد».

و ظلم لأنفسهم، لأنّهم أطلقوا جميع وجودهم و كيانهم للريح، و ظلوا فى مفازة عمياء! و بيداء قفراء.

و هذا التعبير- ضمنا- مقدمة للجملة التالية، و هو إنّما أضلهم اللّه عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۶

الحق فبظلمهم، كما جاء مثل هذا التعبير فى سورة إبراهيم الآية (۲۷) وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ

و لا شك أن من يتركهم اللّه و يخلّى بينهم و بين أنفسهم ف ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ

و بهـذا يوضـح القرآن عاقبة هذه الجماعة المشؤومة، و لم لا تكون كذلك؟! و هم يرتكبون «أعظم الذنوب و أعظم الظلم»، إذ عطلوا عقولهم و أفكارهم عن العمل، و تركوا شمس العلم خلف ظهورهم، و توجهوا إلى ظلمة الجهل و الهوى.

فمن الطبيعى أن يسلب اللّه منهم التوفيق، و يتركهم فى ظلماتهم، و ما لهم من ناصرين و لا معينين!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۷

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۰ الى ۳۲]

اشارة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۳۱) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲)

التّفسير

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد و معرفة اللّه، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، و الاستفادة منه لإثبات مبدأ العلم و القدرة فى ما وراء عالم الطبيعة، بالاستفادة من آيات التوحيد فى هذه السورة! و تعقيبا على الآيات الآنفة الذكر، فإن الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد الفطرى، أى الاستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية و الدرك الضرورى و الوجدانى، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد:

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً لأنّها فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

«الوجه» معناه معروف، و هو مقدم الرأس. و المراد به هنا الوجه الباطنى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۸

و وجه القلب و الروح فعلى هذا ليس المراد هنا من الوجه أو المحيّا وحده، بل التوجه بجميع الوجود، لأنّ الوجه أهم أعضاء البدن! و كلمة «أقم» مشتقة من الإقامة، و معناه الاستقامة و الوقوف بثبات (على قدم راسخة) ...

و كلمة «حنيف» مشتقة من «حنف»، و معناها الميل من الباطل نحو الحق، و من الاعوجاج نحو الإستواء و الاستقامة، على العكس من «جنف» على وزن «حنف» أيضا، و معناها الميل من الإستواء إلى الضلالة و الاعوجاج.

فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل و الإستواء عن كل انحراف و باطل و خرافة و ضلال.

فيكون معنى هذه الجملة بمجموعها، أن وجّه نفسك دائما نحو مبدأ و مذهب خال من أى أنواع الاعوجاج و الانحراف، و ذلك هو مبدأ الإسلام و دين اللّه الخالص و الطاهر[۳۵۲].

إنّ الآية المتقدمة تؤكّد على أن الدين الحنيف الخالص الخالى من كل أنواع الشرك، هو الدين الذى ألهمه اللّه سبحانه فى كل فطرة، الفطرة الخالدة التى لا تتغير، و إن كان كثير من الناس غير ملتفت لهذه الحقيقة.

و الآية المتقدمة تبين عدة حقائق:

۱- إنّ معرفة اللّه- ليست وحدها- بل الدين و الإعتقاد بشكل كلى و فى جميع أبعاده هو أمر فطرى، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الدراسات التوحيدية تؤكّد أن بين جهاز التكوين و التشريع انسجاما لازما، فما ورد فى الشرع لا بدّ أن يكون له جذر فى الفطرة، و ما هو فى التكوين و فطرة الإنسان متناغم مع قوانين الشرع!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۱۹

و بتعبير آخر: إنّ التكوين و التشريع عضدان قويان يعملان بانسجام فى المجالات كافة، فلا يمكن أن يدعو الشرع إلى شىء ليس له أساس و لا جذر فى أعماق فطرة الإنسان، و لا يمكن أن يكون شىء فى أعماق وجود الإنسان مخالف للشرع! و بدون شك فإنّ الشرع يعين حدودا و قيودا لقيادة الفطرة لئلا تقع فى مسار منحرف، إلّا أنّه لا يعارض أصل مشيئة الفطرة، بل يهديها من الطريق المشروع، و إلّا فسيقع التضاد بين التشريع و التكوين، و هذا لا ينسجم مع أساس التوحيد.

و بعبارة أخرى: إنّ اللّه لا يفعل أعمالا متناقضة أبدا، بحيث يقول أمره التكوينى: افعل! و يقول أمره التشريعى: لا تفعل.

۲- إنّ الدين له وجود نقى خالص من كل شائبة داخل نفس الإنسان، أمّا الانحرافات فأمر عارض، و وظيفة الأنبياء إذن إزالة هذه

الأمور العارضة، و فسح المجال لفطرة الإنسان فى الإشراق.

۳- إنّ جملة لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ و بعدها جملة ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ تأكيدان آخران على مسألة كون الدين فطريا، و عدم إمكان تغيير هذه الفطرة! ...

و إن كان كثير من الناس لا يدركون هذه الحقيقة بسبب عدم رشدهم كما ينبغى! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة، و هى أن الفطرة فى الأصل من مادة «فطر» على زنة «بذر» و معناها شق الشىء من الطول، و هنا معناها الخلقة، فكأن ستار العدم ينشق عند خلق الموجودات و يبرز كل شىء منها.

و على كل حال فمنذ أن وضع الإنسان قدمه فى عالم الوجود، كان هذا النور متوقدا فى داخله، من أوّل يوم و من ذلك الحين! و الرّوايات المتعددة التى وردت فى تفسير الآية تؤيد ما ذكرناه آنفا، و سنتحدث عن ذلك لاحقا إن شاء اللّه، بالإضافة إلى الأبحاث الأخرى فى مجال كون التوحيد فطريا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۰

و يضيف القرآن فى الآية التالية: ينبغى أن يكون التفاتكم للدين الحنيف و الفطرى حالة كونكم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ فأصلكم و أساسكم على التوحيد، و ينبغى أن تعودوا إليه أيضا.

و كلمة «منيبين» من مادة «إنابة» و هى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، و تعنى هنا الرجوع نحو اللّه و العودة نحو الفطرة (التوحيدية) و معناها متى ما حصل عامل يحرف الإنسان عقيدته و عن أصل التوحيد فينبغى أن يعود إليه ..

و مهما تكرر هذا الأمر فلا مانع من ذلك الى أن تغدو أسس الفطرة متينة و راسخة، و تغدو الموانع و الدوافع خاوية و يقف الإنسان بصورة مستديمة فى جبهة التوحيد، و يكون مصداقا للآية فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أن أقم وجهك جاءت بصيغة الإفراد، و كلمة «منيبين» جاءت بصيغة الجمع، و هذا يدل على أنّه و إن كان الأمر الأوّل مخاطبا به النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلّا أن الخطاب- فى الحقيقة- لعموم المؤمنين و جميع المسلمين.

و يعقب على الأمر بالإنابة و العودة إليه، بالأمر بالتقوى، و هى كلمة تجمع معانى أوامر اللّه و نواهيه، إذ يقول: وَ اتَّقُوهُ أى اتقوا مخالفة أوامره!.

ثمّ يؤكّد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ.

لأنّ الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، و أشد الوسائل تأثيرا فى تقوية أسس التوحيد و الإيمان باللّه سبحانه.

كما أنّه يؤكّد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهى فيقول:

وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

لأنّ الشرك أعظم الذنوب و أكبر الكبائر، إذ يمكن أن يغفر اللّه جميع الذنوب إلّا الشرك باللّه، فإنّه لا يغفره. كما نقرأ فى الآية (۴۸) من سورة النساء إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۱

و واضح أن الأوامر الأربعة الواردة فى هذه الآية، هى تأكيد على مسألة التوحيد و آثاره العملية، فالمسألة أعمّ من التوبة و العودة إليه تعالى و إلى تقواه و إقامة الصلوة و عدم الشرك به.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يبيّن القرآن واحدا من آثار الشرك و علائمه فى عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا فى دينهم على فرق و احزاب كثيرة: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً.

و العجيب فى الأمر أنّهم على تضادّهم و اختلافهم فإنّ كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

أجل، إن واحدة من علائم الشرك هى التفرقة، لأنّ المعبودات المختلفة هى منشأ الأساليب المتفاوتة و هى أساس الانفصال و التفرق،

خاصة و أنّ الشرک هو توأم عادة لهوی النفس و التعصّب و الکبر و الأنانیة و عبادة الذات، أو متولد عنها، لذلک لا یمکن أن تتحقق الوحدة و الاتحاد إلّا فی ظل عبادة اللّه، و العقل و التواضع و الإیثار!.

فعلی هذا، حیثما وجدنا تفرقة و اختلافا فینبغی أن نعرف أن نوعا من الشرک حاکم هناک، و یمکن أن نستنتج من هذا الموضوع أن نتیجة الشرک هی تفرق الصفوف، و التضاد، و هدر القوی، و أخیرا الضعف و عدم القدرة.

و أمّا مسألة کُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَیْهِمْ فَرِحُونَ فهی واضحة و دلیلها بیّن، حین یعتقدون أن ما لدیهم حق، لأنّ الهوی یزیّن للنفس عملها فی نظر الإنسان و هذا التزیین نتیجته التعلق أکثر فأکثر، و الفرح بالطریق الذی اختارته النفس، و إن کان هذا الطریق یؤدی إلی الضلال و الانحراف.

إنّ عبادة الهوی لا تسمح للإنسان أن یری وجه الحقیقة کما هو، و لا یمکنه أن یقضی قضاء صحیحا خالیا من الحبّ و الحقد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۲

یقول القرآن المجید فی الآیة (۸) من سورة فاطر: فَمَنْ زُیِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً .. کالذی یمضی فی طریق الحق، و یری الحقائق کما هی، و یعرفها حق المعرفة؟!

بحثان

۱- التوحید باعث داخلی قوی:

کما أنّ الدلائل العقلیة و المنطقیة توجّه الإنسان، فإنّ فی داخله دوافع و موانع أیضا .. بحیث تعین له الجهة «أحیانا» من حیث یدری أو لا- یدری! و فلسفة وجودها فی داخل الإنسان، هی أنّ الإنسان لا یستطیع- دائما- أن ینتظر إیعاز العقل و المنطق، لأنّ هذا العمل قد یعطل الأهداف «الحیاتیة» بعض الأحیان.

فمثلا- لو أراد الإنسان أن یستلهم من منطق «لزوم بدل ما یتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طریق التوالد و التناسل» ضرورة الممارسة الجنسیة، و أن یعمل و یتحرک وفق المنطق فی کل ذلک، لکان ینبغی أن ینقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بکثیر- إلّا أن الغریزة الجنسیة من جهة و جاذبیتها، و الاشتهاء للطعام من جهة أخری، یجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبی.

و کلما کانت الأهداف حیاتیة أکثر و عمومیة، کانت هذه «الدوافع» أشد و أقوی أیضا.

لکن ینبغی الالتفات إلی أن هذه الدوافع علی نحوین:

فبعضها باطنیة (غیر واعیة) لا تحتاج إلی وساطة العقل و الشعور، کما ینجذب الحیوان نحو الطعام و الجنس دون الحاجة إلی التفکیر.

و قد یکون تأثیر الدوافع عن طریق الوعی، أی إن هذه الدوافع الداخلیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۳

تترک أثرها فی العقل و التفکیر و تدفعه إلی انتخاب الطریق! و عادة یطلق علی النوع الأوّل من هذه الدوافع «الغریزة» و علی النوع الثّانی «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة اللّه و الاتجاه نحوه لهما مکانه فی نفوس جمیع الناس، و هو ما یصطلح علیه ب «الفطرة».

و یمکن أن یعدّ بعض الناس هذا الکلام ادعاء محضا، یدّعیه المؤمنون، إلّا أن لدینا دلائل و شواهد مختلفة توضح بجلاء کون «المیل إلی اللّه» فطریا، بل تؤکّد هذا المیل فی جمیع اصول الدین و أبعاده:

۱- إنّ دوام الإعتقاد الدینی و الإیمان باللّه علی امتداد التاریخ البشری بنفسه دلیل علی الفطرة! لأنّه إذا کان ذلک علی سبیل العادة،

لما كانت له جنبة عمومية و لا جنبة دائمية، فهذا العموم و هذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

يقول المؤرخون الكبار: لم ير فى المجتمعات الإنسانية فى أعماق التاريخ البشرى، و فى عصر ما قبل التاريخ أن أقواما بشرية عاشت بلا دين إلّا بشكل استثنائى.

و يقول «ويل دورانت» المؤرخ المعاصر:

«إذا عرّفنا الدين على أنّه عبادة القوى التى هى أسمى من الطبيعة، فينبغى أن نأخذ بنظر الإعتبار هذه المسألة الدقيقة، و هى أن بعض الأمم البدائية لم يكن لها أى دين ظاهرا» ثمّ يضيف بعد ذكر أمثلة لهذا الموضوع: فما ذكر من الأمثلة هو فى عداد الحالات النادرة، و الرأى القائل: التدين يشمل عموم أفراد البشر، يوافق الحقيقة»! ثمّ يضيف قائلا: «تعدّ هذه القضية فى نظر الفيلسوف واحدة من القضايا الأساسية فى التاريخ و الدراسات النفسيّة، فهو لا يقنع بهذه المسألة: إنّ جميع الأديان محشوّة بالباطل و اللغو و الخرافات، بل هو ملتفت إلى هذه المسألة، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۴

أن الدين منذ قديم الأيّام كان مرافقا للتاريخ البشرى»[۳۵۳].

و يختتم كلامه بهذا الاستفهام الكبير معنى و مغزى «ترى أين هو مصدر التقوى التى لا يخلوا القلب منها بأى وجه»؟! و هذا المؤرخ نفسه يقول فى تحقيقاته حول وجود الدين فى فترات ما قبل التاريخ «و إذا لم نتصور للدين جذورا فى فترات ما قبل التاريخ، فلا يمكن أن نعرفها فى الفترة التاريخية كما هى عليه»[۳۵۴].

و التنقيبات عن إنسان ما قبل التاريخ التى تمت عن طريق الحفر، تؤيد هذا الموضوع أيضا، كما يصرح بذلك العالم الاجتماعى «ساموئيل كنيج» فى كتابه «دراسة المجتمع»: إن الأسلاف الماضين للإنسان المعاصر «ممن ينتمون إلى إنسان نئاندرتال» كان لديهم دين حتما، و يستدلّ بعدئذ لإثبات هذا الموضوع بالآثار التى عثر عليها عن طريق التنقيب و الحفر، و منها أنّهم كانوا يدفنون موتاهم بكيفية خاصة، و يدفنون معهم أشياء تدل على اعتقادهم بيوم القيامة».[۳۵۵] و على كل حال، فإنّ فصل الدين عن التاريخ البشرى لا يمكن أن يقبله أى محقق و باحث.

۲- إنّ المشاهدات عيانا فى العالم المعاصر تكشف أنّه مع جميع ما بذل الطغاة و المستبدون- و أنظمتهم الجائرة من جهود و سعى لمحو الدين و آثاره و عن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين و جذوره من أعماق هذه المجتمعات.

و نعرف جيدا أنّ الحزب الشيوعى الحاكم فى الاتحاد السوفياتى، و منذ أكثر من ستين سنة، و بوسائل الإعلام و «الدعايات» المختلفة، حاول أن يغسل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۵

الأذهان و العقول و القلوب من الإعتقادات الدينية مستعينا بالخلايا التنظيمية الجماعية، إلّا أنّ الأخبار التى تسربت و تهربت من ذلك المحيط المغلق، و ما نقرؤه فى الصحف و الجرائد، تكشف أنّهم «أى الحزب الحاكم فى روسيا» مضافا الى عدم تحقيقهم هدفهم بالرغم من تشددهم فى وسائل الإعلام، فإنّه تبدو هذه الأيّام حالة من التطلع المتزايد الى المسائل الدينية فى بعض الدول الاشتراكية و جمهوريات روسيا ممّا أقلق قادة النظام، و هذا يدل على أنّه لو رفعوا الضغوط و لو يوما واحدا، لعاد الدين إلى مكانه بسرعة فائقة، و هذا بنفسه شاهد آخر على فطرية الدافع الدينى أيضا.

۳- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين و علماء النفس فى مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنّهم يقولون: «إنّ التحقيقات فى المجالات النفسيّة تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الدينى» أو بتعبير آخر «بعد قدسى» أو «ربانى» و ربّما عدّوا هذا البعد أساسا للأبعاد الثلاثة الأخرى و هى «البعد العلمى»، و «البعد الجمالى»، و «البعد الخيّر».

إذ يدّعون بأن البواعث الأساسية للروح البشرية هى هذه:

۱- دافع البحث عن الحقیقة (الشعور العلمی) و هو مصدر أنواع العلوم، و الأهداف التحقیقیة المستمرة، و المتابعات فی معرفة عالم الوجود! ۲- حس «الإحسان و العمل الصالح» الذی یجذب الإنسان نحو المفاهیم الأخلاقیة کالتضحیة و الإیثار و العدل و الشهامة و أمثالها. حتی أنّه لو کان الإنسان غیر واجد لهذه الصفات، فإنّه یعشق من تتوفر فیهم هذه الصفات، و هذا یدل علی أن العشق للعمل الصالح و الإحسان کامن فی جذور النفس.

۳- الحس «الجمالی»: و هو یجذب الإنسان نحو الفن الأصیل و الأدب و المسائل الذوقیة، و ربّما أصبح مصدر التحول فی حیاة الفرد أو المجتمع أحیانا.

۴- الحس «الدینی»، أی الإیمان بمبدإ عال و عبادته و اتّباعه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۶

و نقرأ فی مقالة کتبها «کوونتایم» فی هذا المجال ما یلی:

«إنّ معرفة النفس بالبحث داخل النفس البشریة غیر الواعیة- التی بوشر بها بواسطة فروید «فی البدایة» استمرّت بالاستعانة ب «آدلر» و «یونک»- فی أعماق روح الإنسان وصلت إلی عالم جدید من القوی المستورة، و أنحاء الدرک و المعرفة وراء العقل، و یمکن أن یکون الحسّ الدینی مفتاحا من مفاتیح حل هذه الأحجیة.

و بالرغم من أنّنا بعیدون للآن عن اتفاق الآراء، إلّا أنّه و مع هذه الحال فما یزال «مسیر فکری» فی ازدیاد یوما بعد یوم، إذ یعتقد کثیر من المفکرین بالتعریف الذی نورده ذیلا:

«إنّ الحس الدینی واحد من العناصر الأولیة الثابتة و الطبیعیة لروح الإنسان، و هو أکثرها أصالة و ماهویّة، و لا یمکن مطابقته لأی من الأحاسیس و الدوافع الأخری، حیث یمدّ جذوره الی أعماق اللاوعی و یعدّ «المفهوم الدینی» أو بتعبیر أصح «المفهوم المقدس» بالنسبة لمفاهیم الجمال و الإحسان و الحقیقة، مقولة رابعة، و لها أصالة المفاهیم الثلاثة ذاتها و استقلالها أیضا[۳۵۶].

کما نقرأ فی المقالة المترجمة المقتبسة عن المحقق «تان کی دو- کنتن» ما یلی «کما أن من مزایا العصر الحاضر- فی عالم الطبیعة- هو اکتشاف البعد الرابع، الذی أطلق علیه اسم «بعد» الزمان مضافا الی الأبعاد الثّلاثة للجسم، و هو فی الوقت ذاته جامع لها، فکذلک اکتشفت فی هذا العصر المقولة الرابعة «المقدسة» أو المقولة الإلهیة «الربانیة» بموازاة المفاهیم الثلاثة «الجمال، الإحسان، طلب الحقیقة» و هی البعد الرّابع لروح الإنسان، ففی هذا المقام أیضا فان هذا البعد الرّابع الروحی منفصل عن الأبعاد الثلاثة الأخری، و ربّما کان هذا البعد منشأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۷

ولادة الأبعاد الثلاثة الأخری»[۳۵۷].

۴- إن التجاء الإنسان فی الشدائد و المحن إلی قوة خفیة وراء الطبیعة، و طلب حل المشاکل و الأزمات من قبل هذه القوة، لهو أیضا شاهد آخر علی أصالة هذا الدافع الباطنی و الإلهام الفطری، و یمکن- بضمها إلی مجموع الشواهد التی ذکرناها آنفا- أن توقفنا علی مثل هذا الدافع الباطنی فی داخلنا نحو اللّه سبحانه.

و بالطبع فمن الممکن أن یعدّ بعضهم هذا التوجه من آثار التلقینات أو الإعلام الدینی فی المحیط الاجتماعی المتدین! إلّا أن عمومیة هذه الظواهر فی جمیع الناس، حتی فی أولئک الذین لا علاقة لهم بالمسائل الدینیة عادة، تدلّ علی أن لها جذرا أعمق من هذه الفرضیة.

۵- و فی حیاة الإنسان حوادث و ظواهر لا یمکن تفسیرها إلّا عن طریق أصالة الحسّ الدینی ... فکثیر من الناس نجدهم قد ضحوا بجمیع ما لدیهم من الإمکانات المادیة، و لا یزالون یضحون أیضا، و یصبّون کل ما عندهم مع ما لدیهم من سوابق تحت قدم الدین، و ربّما قدّموا أنفسهم فی سبیله أیضا.

الشهداء الذین شربوا کأس الشهادة- من أجل تقدم الأهداف الإلهیة و تحقّقها- بشوق و عشق بالغین، بحیث نری أمثالهم فی تاریخ جهاد الإسلام الطویل، بل فی تأریخ الأمم الأخری أیضا، یکشفون عن هذه الحقیقة، و هی أن الحس الدینی له جذر عمیق فی روح الإنسان.

لکن قد یرد علی هذا الکلام إشکال، و هو أنّ أفرادا- کالشیوعیین مثلا- لهم موقع إلحادیّ- ضد الأیدلوجیة و الدین- و لا یکتمون موقعهم هذا أبدا .. کما أن لهم مواقف تضحویة فی سبیل حفظ فکرتهم و اعتقادهم! إلّا أنّ هذا الإشکال ینحل تماما بملاحظة هذه المسألة، و هی أنّه حتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۸

الشیوعیون الذین ینفون الدین کلیّا- بحسب الظاهر- و یعتقدون أن الدین مرتبط بالتأریخ القدیم، و لا یمکن أن یکون له مکان فی المجتمعات الشیوعیة .. أجل، إن هؤلاء أنفسهم قد قبلوا بالدین بشکل آخر عن طریق العقل الباطنی «و اللاوعی».

فهم یقدّسون زعماءهم و قادتهم بالنظرة التی ینظرها المصریون القدماء أوثانهم، و صفوفهم الطویلة عند جسد «لینین» لزیارته هی شاهد آخر علی هذا الموضوع أیضا.

و هم عادة یعتبرون الأصول الماركسیة کوحی السماء لا تقبل النقد و الخدش، فهی مقدّسة عندهم، و یتصورون أن ماركس و لینین و انجلس کالمعصومین من الأخطاء و السهو، و یعدون مراجعة العقل لاتخاذ موقف جدید من هذه الأصول ذنبا لا یغتفر أبدا .. و یخاطبون مخالفیهم بتعبیرنا الدینی علی أنّهم «مرتدون» و علی هذا فهم یعتقدون بکثیر من المفاهیم و المسائل الدینیة، غایة ما فی الأمر هو أن تفکیر هم نوع من الفکر الدینی فی شکل منحرف!

۲- فطرة التوحید فی الأحادیث الإسلامیة

موضوع «معرفة اللّه الفطریة» لم یختص به القرآن الکریم فحسب، بل هو وارد فی الأحادیث الإسلامیة بشکل یسترعی الانتباه، حیث أن بعضها یؤکّد علی التوحید بالفطرة، و بعضها یؤکّد علی المعرفة، و قسم یتناول الفطرة «علی الإسلام» و أخیرا فإن قسما منها تناول عنوان الولایة أیضا.

ففی حدیث معتبر یرویه المحدث الکبیر الشیخ الکلینی فی أصول الکافی، و هو ما نقله

عن هشام بن سالم، قال: سألت الإمام الصادق علیه السّلام: ما المراد من قوله تعالی: فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها ... فقال «هی التوحید»[۳۵۸].

کما

ورد فی الکافی نفسه نقلا عن بعض أصحاب الإمام الصادق علیه السّلام أیضا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۲۹

حین سأله عن تفسیر الآیة المتقدمة فقال الإمام علیه السّلام «هی الإسلام»[۳۵۹].

کما نقرأ حدیثا متشابها لما سبق-

عن الإمام الباقر علیه السّلام جوابا لزرارة أحد أصحابه العلماء حین سأله عن تفسیر الآیة فقال علیه السّلام «فطرهم علی المعرفة به»[۳۶۰].

و

الحديث المنقول عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله «كل مولود يولد على الفطرة حتى ليكون أبواه هما اللذان يهودانه و ينصرانه» يؤكّد هذا المضمون أيضا[۳۶۱].

و أخيرا فإننا نقرأ

فى أصول الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا فى تفسير الآية قال: «هى الولاية»[۳۶۲].

و

قد ورد فى الخطبة الأولى لنهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السّلام حديث موجز العبارة غزير المعنى، إذ يقول عليه السّلام «فبعث فيهم رسوله، و واتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكروهم منسى نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول».

و طبقا للرّوايات المتقدمة، فليست معرفة اللّه هى الفطرية فحسب، بل مجموع الإسلام بشكل موجز «مضغوط» كامن فى داخل الفطرة الإنسانية بدءا من التوحيد و انتهاء بالقادة الإلهيين و خلفائهم الصادقين، و كذلك فروع الأحكام أيضا.

فعلى هذا، و طبقا للتعبير الوارد فى نهج البلاغة، فإن عمل الأنبياء هو رعاية الفطرة حتى تفتح، و تذكر الناس نعم اللّه المنسية، و من جملة هذه النعم الفطرة على التوحيد، و استخراج كنوز المعرفة الدفينة فى روح الإنسان و أفكاره! و ممّا يسترعى الانتباه أن القرآن الكريم- فى آيات متعددة- يتخذ من الشدائد و المشاكل و الحوادث المؤلمة التى يمر بها الإنسان فى حياته مناخا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۲ ؛ ص۵۲۹

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۰

ملائما للحس الدينى، إذ يقول فى واحدة من هذه الآيات: فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ۳۶۳].

و سنتحدث بإذن اللّه فى هذا المجال ذيل الآيات المقبلة التى تشبه الآيات من سورة العنكبوت أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۱

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۳ الى ۳۶]

اشارة

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۳۳) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (۳۵) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (۳۶)

التّفسير

إنّ الآية الأولى من المقطع الذى بين أيدينا، هى فى الحقيقة استدلال و تأكيد على البحث السابق فى مجال كون التوحيد فطريا، و تفتح هذا النور الإلهى عند الشدائد و الصعاب! إذ تقول الآية: وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ

إلّا أنّهم الى درجة من السطحية و الغباء التعصب و التقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنّه بمجرّد انتهاء المشكلة و هبوب نسيم الرحمة الالهية .. ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ

و التعبير ب مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ إشارة إلى اصابتهم بقليل من الضرر ... كما أنّ التعبير أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إشارة إلى بلوغ شيء من النعمة، لأنّ التعبير ب «مسّ»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۲

أو «ذاق» فى مثل هذه الموارد يطلق على الأمور القليلة و الجزئية، و خاصّة باستعمال كلمتى «ضر» و «رحمة» نكرتين.

أى إنّ طائفة تبلغ بهم الحال إلى أن يفزعوا إلى اللّه عند حدوث أقل مشكلة لهم، و تنكشف الحجب عن فطرتهم التوحيدية، و لكن إذا رأوا نعمة و لو بأقل ما يتصوّر، فإنّهم يغفلون عن واقعهم كليّا، و ينسون كل شيء! و بالطبع ففى الحالة الأولى يبيّن القرآن أنّ الناس يفزعون جميعا إلى اللّه عند الضر و الشدائد، لأنّ فطرة التوحيد موجودة فى الجميع.

و لكن فى الحالة الثّانية يتحدث القرآن عن جماعة تسلك طريق الشرك فحسب، لأنّ طائفة من عباد اللّه يذكرون اللّه فى الشدائد و فى الرخاء و فى السراء و الضراء. فلا تنسيهم المتغيّرات ذكر اللّه أبدا.

و التعبير ب مُنِيبِينَ إِلَيْهِ كما رأينا فى مفهوم الإنابة سابقا- من مادة «النوب» و تعنى العودة ثانية إلى الشيء، هذا التعبير إشارة لطيفة للمعنى التالى، و هو أنّ الأساس فى الفطرة هو توحيد اللّه و عبادته، و الشرك أمر عارض، حيث متى ما يئسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان و التوحيد، شاؤوا أم أبوا!.

و الطريف هنا أنّ «الرحمة» فى الآية مسندة إلى «اللّه»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلّا أن الضرّ لم يسند إليه سبحانه، لأنّ كثيرا من الابتلاءات و المشاكل التى تحوطنا هى من نتائج أعمالنا و ذنوبنا.

و كلمة «ربّهم» التى تكررت فى الآية تكررت فى الآية مرّتين، تؤكّد على أنّ الإنسان يحسّ بالتدبير الإلهى و ربوبية اللّه على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك و الضلال.

و ينبغى ذكر هذه المسألة الدقيقة، و هى أنّ الضمير فى كلمة «منه» يعود إلى اللّه، و هذا تأكيد على أن جميع النعم من اللّه سبحانه. و قد اختار كثير من المفسّرين هذا المعنى أمثال «الطباطبائى» فى الميزان، و «الطوسى» فى التبيان، و «أبو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۳

الفتوح الرازى» فى تفسيره و غيرهم، و إن ذهب غيرهم كالفخر الرازى الى إن الضمير فى كلمة «منه» يعود على الضرّ، و فسّروا الآية هكذا «حين يذيق اللّه عباده بعد الضرّ رحمة. إذا فريق منهم يشركون باللّه». (فيكون معنى «من» هنا البدلية). إلّا أنّه من الواضح أن التّفسير الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية! أمّا الآية الأخرى فجاءت بعنوان التهديد لأولئك المشركين، الذين ينسون ربّهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ و ليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا! ثمّ يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم و المواهب الدنيوية الفانية. و سوف يرون العاقبة السيئة لذلك: فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۳۶۴] و بالرغم من أنّ المخاطبين بالآية هم المشركون، إلّا أنّه لا يبعد أن يكون لها مفهوم واسع بحيث يشمل جميع الذين ينسون اللّه عند إقبال النعم، و ينشغلون بالتمتع بهذه النعم فحسب، دون أن يذكروا واهب النعم.

و بديهى أن صيغة الأمر استعملت هنا للتهديد!.

و القرآن فى الآية الأخرى يصوغ الكلام فى صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ

«أم» هنا للاستفهام، و يحمل الاستفهام هنا غرضا استنكاريا و توبيخا ... أى إن سلوك هذا الطريق و الخطة يجب أن يكون إمّا لنداء الفطرة، أو بحكم العقل، أو بأمر اللّه، لكن حين يصرخ الوجدان و الفطرة فى الشدائد و الملمات بالتوحيد ....

فإن العقل يقول أيضا: ينبغى التوجه نحو واهب النعم.

يبقى أن حكم اللّه فى هذه الآية هو فى مورد النفى، أى: لم يؤمروا من قبل اللّه بمثل هذا الأمر، فعلى هذا فإن هؤلاء فى اعتقادهم هذا

لم يستندوا إلى أى أصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۴

مقبول!.

و «السلطان» معناه ما يدل على السلطة و ينتهى إلى الإنتصار عادة، و معناه هنا هو الدليل المحكم المقنع.

و التعبير ب «يتكلم» هو نوع من التعبير المجازى، إذ ترانا نعبر عند وضوح الدليل قائلين «كأن هذا الدليل يتكلم مع الإنسان»! و احتمل بعض المفسّرين أن المراد بالسلطان هنا هو أحد الملائكة المقتدرين، فيكون استعمال «يتكلم» هنا على نحو الحقيقة، أى لم نرسل عليهم ملكا يتكلم بالشرك فيتبعوه!.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أوضح كما يبدو! أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهى ترسم طريقة تفكير و روحية هؤلاء الجهلة الأغبياء الذين يقنطون و يحزنون لأقل مصيبة، فتقول: وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ فى حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر اللّه عند النعم، و لا يقنطون عند الشدائد و المصيبة، إذ هم يشكرون اللّه على نعمه، و يرون المصيبة امتحانا و اختبارا، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون و يتّجهون إلى اللّه تعالى.

فالمشركون يعيشون دائما بين «الغرور» و «اليأس»، أمّا المؤمنون فهم بين «الشكر» و «الصبر».

و يستفاد ضمنا من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسما من المصائب و الابتلاءات التى تحل بالإنسان هى- على الأقل- نتيجة أعماله و ذنوبه، فاللّه يريد أن ينبههم و يطهرهم و يلفتهم إليه.

و ينبغى الالتفات الى أنّ جملة فَرِحُوا بِها ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور و نوع من السكر و النشوة، و هى الحالة التى يكون عليها الأراذل عند ما تتهيأ لهم وسائل العيش و الحياة، و إلّا فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۵

السرور المقرون بالشكر و التوجه نحو اللّه ليس أمرا سيئا، بل هو مأمور به قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا[۳۶۵].

و التعبير بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ الذى ينسب المعاصى إلى الأيدى، هو لأنّ أكثر الذنوب و الأعمال يكون على يد الإنسان، و إن كانت هناك ذنوب يكتسبها القلب أو البصر أو السمع، إلّا أن كثرة الأعمال التى تصدر عن اليد استدعى هذا التعبير.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو: أ لا تخالف هذه الآية، الآية الثّالثة و الثلاثين «ما قبل آيتين» لأنّ الكلام فى هذه الآية عن يأسهم عند المصائب، فى حين أن الآية السابقة تتحدث عن توجههم إلى اللّه عند بروز المشاكل و الشدائد.

و الخلاصة، إن واحدة من الآيتين تتحدث عن «الرجاء» و الأخرى عن «اليأس»؟

لكن مع الالتفات إلى مسألة دقيقة يتّضح جواب هذا السؤال، و ذلك أن الآية المتقدمة كان الكلام فيها عن «الضر» أى الحوادث الضارة كالطوفان و الزلزلة و الشدائد الأخرى التى تصيب عامة الناس «الموحدين منهم و المشركين».

فيتذكرون اللّه فى هذه الحال، و هذا واحد من دلائل الفطرة على التوحيد.

أمّا فى الآية محل البحث فالكلام على نتائج المعاصى و اليأس الناشئ منها، لأنّ بعض الأفراد إذا عملوا صالحا أصبحوا مغرورين و حسبوا أنفسهم مصونين من عذاب اللّه، و حين يعملون السيئات و تحلّ بهم العقوبة فيغم وجودهم اليأس من رحمة اللّه، فكلتا الحالين «العجب و الغرور» و «اليأس و القنوط من رحمة اللّه» مذمومتان! فعلى هذا تكون كلّ آية من الآيتين قد تناولت موضوعا منفصلا عن الآخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۶

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳۷) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۳۸) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (۳۹) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۰)

التّفسير

الآية الأولى من الآيات محل البحث- تتحدث عن التوحيد و الربوبيّة أيضا، و انسجاما مع سياق الآيات السابقة التى كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، و يأسهم و قنوطهم عند مواجهتهم الشدائد و البلاء، فإنّها تقول: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

فلا ينبغى أن يكون إقبال النعم مدعاة للغرور و نسيان اللّه و الطغيان، و لا إدبارها سببا لليأس و القنوط، لأنّ سعة الرزق و ضيقه بيد اللّه، فتارة يرى المصلحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۷

للعبد فى الحالة الأولى «سعة الرزق»، و تارة يراها فى الثّانية، أى «الضيق».

و صحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب، فمن جدّ و جد، و من سعى قاوم الصعاب ينل فائدة أكثر و يربح عادة، و أمّا أولئك الكسالى فلا ينالون إلّا قليلا ...

لكن هذه القاعدة فى الوقت ذاته ليست دائمية و لا كلية، إذ يتفق أن نرى أناسا جديرين و جادّين يركضون من هنا و هناك، إلّا أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، و على العكس منهم قد نشاهد أناسا لا يسعون و لا يجدّون و تتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حدب و صوب.

و هذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ اللّه بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغى أن ينسى فى عالم الأسباب، و لا ينبغى للإنسان أن يغفل أن وراء هذا العالم يدا قوية أخرى تديره كيف شاءت! فأحيانا- و وفق مشيئته- توصد جميع الأبواب بوجه الإنسان مهما سعى و جدّ فى الأمر، و قد يرحم الإنسان و ييسّر له الأمور الى درجة انه ما أن يخطو خطوة ... و إذا الأبواب متفتحة أمامه! فما نرى فى حياتنا من هذه المفارقات، بالإضافة إلى أنّه يحدّ من الغرور المتولد من وفور النعمة، و اليأس الناشئ من الفقر، فهو فى الوقت ذاته دليل على أن وراء إرادتنا و مشيئتنا يدا قوية أخرى «تسيّر أعمالنا».

لذلك يقول القرآن فى نهاية الآية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و ينقل بعض المفسّرين كلاما بهذا المضمون و هو: سئل أحد العلماء: ما الدليل على أنّ للعالم صانعا واحدا؟

فقال هناك ثلاثة أدلة: «ذل اللبيب، و فقر الأديب، و سقم الطبيب».[۳۶۶] أجل إن وجود هذه المستثنيات و المفارقات دليل على أن الأمور بيد قادر آخر، كما

ورد فى كلام الإمام على عليه السّلام أيضا «عرفت اللّه سبحانه بفسخ العزائم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۸

و حلّ العقود، و نقض الهمم».[۳۶۷]

و حيث أن كل نعمة و موهبة ينالها الإنسان تحمّله وظائف و مسئوليّات و عليه أداؤها، فإن القرآن يوجه الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية التالية قائلا: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ

و ينبغى أن لا تتصور عند سعة الرزق أن ما عندك هو لك فقط، بل إنّ للآخرين فى مالك حقّا أيضا، و من هؤلاء الأقارب و المساكين الذين باتوا متربين لشدة الفقر، و كذلك الأعزة الذين ابتعدوا عن الوطن و انقطع بهم الطريق نتيجة حوادث معينة و هم محتاجون! ...

و التعبير ب «حقّه» كاشف عن أنّهم شركاء فى أموال الإنسان، و إذا دفع المرء شيئا من ماله إليهم فإنّما يؤدى حقهم، و ليس له منّ عليهم!.

و هناك جماعة من المفسّرين يرون أنّ المخاطب فى هذه الآية هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، و أن «ذا القربى» أرحامه، و

قد ورد فى رواية عن أبى سعيد الخدرى و غيره ما يلى: «لما نزلت هذه الآية على النّبى أعطى فاطمة فدكا و سلّمها إليها».[۳۶۸]

و بالمضمون نفسه نقل عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام أيضا.[۳۶۹] و قد ورد المعنى نفسه مفصلا فى احتجاج فاطمة الزهراء عليها السّلام على أبى بكر فى قضية فدك، و ذلك فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام.[۳۷۰] غير أنّ جماعة من المفسّرين قالوا: إنّ الخطاب فى هذه الآية عام، و هو يشمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و غيره، و طبقا لهذا التّفسير فإنّ جميع الناس عليهم أن لا ينسوا حق ذوى القربى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۳۹

و بالطبع فإنه لا منافاة فى الجمع بين التّفسيرين، و على هذا فإن مفهوم الآية مفهوم واسع، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قرباه و خاصة فاطمة الزهراء عليها السّلام هم المصداق الأتم لهذه الآية.

و من هنا يتّضح أن لا منافاة لأى من التفاسير الآنفة مع كون السورة مكّية، لأنّ مفهوم الآية مفهوم جامع ينبغى العمل به فى مكّة و فى المدينة أيضا، و حتى خبر إعطاء «فدك» لفاطمة عليها السّلام على أساس هذه الآية مقبول جدّا.

الشىء الوحيد الذى يبقى هنا، هو جملة «لما نزلت هذه الآية ...» فى رواية أبى سعيد الخدرى، إذ أن ظاهرها أن إعطاء فدك كان بعد نزول الآية، و لكن لو أخذنا كلمة «لما» به معنى العلة، لا بمعنى الزمان الخاص، ينحل هذا الإشكال، و يكون مفهوم الآية أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعطى فاطمة فدكا لأمر اللّه إياه، أضف إلى ذلك فإن بعض آيات القرآن يتكرر نزولها!.

و لكن لم ذكر هؤلاء الثلاثة من بين جميع المحتاجين و أصحاب الحق؟

لعل ذلك لأهميتهم، لأنّ حق ذى القربى أهم و أعلى من أى حق سواه، و من بين المحرومين و المحتاجين فإنّ المساكين و أبناء السبيل أحوج من الجميع!.

أو أن ذلك لما أورده «الفخر الرازى» هنا إذ يقول: «فى تخصص الأقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم، مع أن اللّه ذكر الأصناف الثمانية فى الصدقات، فنقول:

أراد هاهنا بيان من يجب الإحسان إليه على كل من له مال، سواء كان زكويا أم لم يكن، و سواء كان بعد الحول أو قبله، لأنّ المقصود هاهنا الشفقة العامة، و هؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم و إن لم يكن للمحسن مال زائد، أمّا القريب فتجب نفقته و إن كان لم تجب عليه زكاة كمال القاصرين أو مال لم يحل عليه الحول، و المسكين كذلك فإنّ من لا شىء له إذا بقى فى ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة، يجب على من له مقدرة دفع حاجته و إن لم يكن عليه زكاة، و كذلك من انقطع فى مفازة و مع آخر دابة يمكنه بها إيصاله إلى مأمن، يلزمه ذلك، و إن لم تكن عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۰

زكـاة، و الفقير داخل فى المسـكين، لأنّ من أوصـى للمساكين شـيئا يصـرف إلى الفقراء أيضا «فما ذكرته الآيـة من ترتيب لهؤلاء إنّما يناسب شأنهم».[۳۷۱] و على كل حال فإنّ القرآن يبيّن فى نهاية الآية ترغيبا للمحسنين، و شرط القبول ضمنا، فيقول: ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

أولئـك المفلحون فى هـذه الـدنيا، لأـنّ الإنفاق يجلب معه البركات العجيبـة، و فى الآخرة أيضا، لأنّ الإنفاق هو أكثر الأعمال ثقلا فى ميزان اللّه يوم القيامة.

و مع الالتفات إلى أن المراد من وَجْهَ اللَّهِ ليس هو المحيّا الجسمانى، إذ ليس له تعالى وجه جسمانى، بل هو بمعنى ذاته المقدّسة، فإن هـذه الآيـة تشـير إلى أن الإنفـاق و إيتـاء حق الأقارب و أصـحاب الحق الآخرين ليس كافيا، بل المهم هو الإخلاص و النيـة الطاهرة و الخالية من أى أنواع الرياء و المنة و التحقير و انتظار الأجر و الثواب.

و خلافـا لمـا ذهب إليه بعض المفسّـرين. من أنّ الإنفـاق لغرض الوصول إلى الجنّـة ليس مصـداقا لوجه اللّه، فـان جميع الأعمـال التى يؤديهـا الإنسـان و فيهـا نوع من الارتباط باللّه، سواء كانت لمرضاته أو ابتغاء ثوابه أو للنجاة من جزائه، فكلها مصـداق لوجه اللّه، و إن كانت المرحلة العليا و الكاملة من ذلك أن لا يبتغى الإنسان من وراء عمله إلّا الطاعة و العبودية المحضة!.

و تشـير الآيـة التالية- بمناسـبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص- إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما للّه، و الآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول:

وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ

مفهوم الجملـة «الثّانيـة» و هى إعطـاء الزكـاة و الإنفـاق لوجه اللّه و الثواب واضـح، إلّا أن الجملـة الأولى وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً مختلف فى تفسيرها مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۱

الالتفات إلى أنّ «الربا» معناه فى الأصل «الزيادة».

فالتّفسـير الأوّل، و هو أوضـح من جميع التفاسـير، و منسـجم مع مفهوم الآيـة أكثر، و متناسق مع الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّـلام، أن المراد من الربا هو الهدايا التى يقدمها بعض الأفراد للآخرين، و لا سـيما إلى أصـحاب الثروة و المال، كى ينالوا منهم أجرا أحسن و أكثر! و بـديهى أنّه فى مثـل هـذه الهـدايا لا يؤخـذ بنظر الاعتبار اسـتحقاق الطرف الآخر و لا الجـدارة و الأولويـة، بل كل ما يهـدف اليه أن تصل الهديـة إلى مكان، تعود على مهـديها بمبلغ أوفر و من الطبيعى أن مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبة» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية، و المعنوية!.

فعلى هـذا يكون معنى «الربـا» فى هـذه الآيـة هو «الهديـة و العطيـة» و المراد من جملـة لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ هو أخـذ الأجر الوافر من الناس! و لا شك أن أخـذ مثل هـذه الأجرة ليس حراما، إذ ليس فيه شـرط أو قرار، إلّا أنّه فاقد للقيمة الأخلاقية و المعنوية ... و لذلك فقـد ورد التعبير عن هـذا الربا- فى روايات متعـددة عن الإمام الصادق عليه السّـلام فى مصادر معروفة، ب «الربا الحلال» فى قبال «الربا الحرام» الذى يستلزم الشرط و العقد أو الاتفاق.

و نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب تهذيب الأحكام، فى تفسير الآية هو

قوله عليه السّلام: «هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منهما، فذلك ربا يؤكل»!

كما نقرأ حديثا آخر

عنه عليه السّـلام «الربـا ربـاءان، أحـدهما حلال و الآخر حرام، فأمّا الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضا يريـد أن يزيـده و يعوضـه بأكثر ممّا يأخذه بلا شـرط بينهما، فإن أعطاه أكثر ممّا أخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له، و ليس له عند اللّه ثواب فيما أقرضه، و هو قوله: فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ و أمّا الحرام فالرجل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۲

یقرض قرضا و یشترط أن یردّ أکثر ممّا أخذه فهذا هو الحرام».[۳۷۲]

و هناک تفسیر آخر لهذه الآیة، و هو أن المراد من الربا فی هذه الآیة هو الربا الحرام، و طبقا لهذا التّفسیر فإن القرآن یرید أن یقیس الربا بالإنفاق الخالص لوجه اللّه، و یبین أن الربا و إن کان ظاهره زیادة المال، إلّا أنّه لیس زیادة عند اللّه، فالزیادة الحقیقیة و الواقعیة هی الإنفاق فی سبیل اللّه.

و علی هذا الأساس فقد عدّوا الآیة مقدمة لمسألة «تحریم الربا» التی ذکرها القرآن فی بدایة الأمر و قبل الهجرة علی سبیل الإرشاد الأخلاقی و النصح، و لکن تمّ تحریم الربا بعد الهجرة فی ثلاث سور «البقرة و آل عمران و النساء» بصورة تدریجیة «و کانت لنا إشارة أیضا فی الجزء الثّانی من التّفسیر الأمثل علی هذا الأساس».

و بالطبع لیس بین المعنیین أیّ تضاد، و یمکن أن تؤخذ الآیة بمعناها الواسع الذی یجمع «الربا الحلال» و «الربا الحرام» و یقاس کلاهما بالإنفاق فی سبیل اللّه، إلّا أن تعبیرات الآیة أکثر انسجاما مع التّفسیر الأول، لأنّ الظاهر من الآیة هنا أن عملا قد صدر لیس فیه ثواب، و هو مباح، لأنّ الآیة تقول: إن هذا العمل لا یربو عند اللّه، و هذا یتناسب مع الربا الحلال الذی لیس فیه وزر و لا ثواب، و لیس شیئا یستوجب مقت اللّه و غضبه ... و قد قلنا: إن الروایات الإسلامیة ناظرة إلی هذا المعنی.

و ینبغی الإشارة إلی هذه اللطیفة اللغویة، و هی أنّ کلمة «مضعفون» التی هی صیغة لاسم الفاعل، لا تعنی أنّهم یزیدون و یضعفون بأنفسهم للمال، بل معناها أنّهم أصحاب الثواب المضاعف، لأنّ اسم الفاعل قد یأتی فی لغة العرب و یراد منه اسم المفعول، مثل «الموسر» أی: صاحب المال الکثیر.

و ینبغی أیضا أن یعرف بالنظرة البعیدة أن المراد من الضعف و المضاعف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۳

لیس معناه «مثل الشیء مرّتین» بل یشمل المثل مرتین و یشمل أمثال الشیء، و الحدّ الأقل فی الآیة هنا عشرة أمثال، لأنّ القرآن یقول: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۳۷۳] و تبلغ الزیادة أحیانا کما فی القرض إلی ثمانیة عشر کما نقرأ فی هذا

حدیثا للإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه: «علی باب الجنّة مکتوب: القرض بثمانیة عشر و الصدقة بعشر».[۳۷۴]

و قد تبلغ الزیادة إلی سبعمائة «ضعف» کما هو فی شأن الإنفاق فی سبیل اللّه، إذ تقول الآیة: مَثَلُ الَّذِینَ یُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ کَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِی کُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ[۳۷۵] و فی الآیة الأخیرة- من الآیات محل البحث- عودة أخری إلی مسألة المبدأ و المعاد، و هی الموضوع الأساس الذی ورد فی کثیر من آیات هذه السورة ...

و تصف الآیة «اللّه» بأربعة أوصاف لتکون إشارة للتوحید و مواجهة الشرک، و دلیلا علی المعاد أیضا فتقول: اللَّهُ الَّذِی خَلَقَکُمْ ثُمَّ رَزَقَکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یُحْیِیکُمْ هَلْ مِنْ شُرَکائِکُمْ مَنْ یَفْعَلُ مِنْ ذلِکُمْ مِنْ شَیْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ

و من المسلّم به أن المشرکین لم یکن أیّ منهم یعتقد بأن الخلق کان من قبل الأوثان، أو أن أرزاقهم بید الأوثان و الأصنام، أو أن نهایة حیاتهم بأیدی هذه الأوثان کذلک!! بل لأنّهم جعلوا هذه الأوثان المصنوعة واسعة و شفعاء بینهم و بین اللّه، فعلی هذا یکون الجواب علی هذه الأسئلة هو النفی، و الاستفهام هنا استفهام إنکاری!.

الموضوع الآخر الذی یثیر السؤال هنا هو أن أولئک المشرکین لم یکونوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۴

یعتقدون بالحیاة بعد الموت، فکیف یستند القرآن فی آخر وصف للّه تعالی إلی ذلک؟! لعل هذا التعبیر هو لأنّ مسألة المعاد و الحیاة بعد الموت- کما ذکرناها فی بحوثنا المتقدمة- لها «جنبة» فطریّة، و القرآن هنا لا یستند إلی معتقداتهم، بل إلی فطرتهم.

إضافة إلی ذلک فقد یتفق أن متکلما ذلقا حین یواجه شخصا آخر ینکر موضوعا ما، فیستدرجه بما لدیه من حقائق یتقبلها ذلک الآخر

و يستند إليها بشكل قطعى ليظهر أثرها، و ينزل صاحبه من مركب الإنكار.

ثمّ بعد هذا كله فإن بين الحياة الأولى من قبل اللّه و قدرته على ذلك، و الحياة بعد الموت رابطة لا تقبل الانفصام، و مع ملاحظة هذه الرابطة المنطقية فإن «كلا الأمرين» جاءا فى عبارة واحدة.

و على كل حال فإن القرآن يقول: عند ما يكون الخلق و الرزق و الموت و الحياة بيد اللّه، فالعبادة ينبغى أن تكون له فقط، و يكشف هذه الحقيقة بقوله:

سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ و هى أنّ المشركين أهانوا كثيرا مقام رب العزة إذ أشركوه فى العبادة مع أوثانهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۵

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (۴۵)

التّفسير

أساس الفساد و مصدره أعمال الناس أنفسهم:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، و نعلم أنّ أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد و التوجه نحو الشرك، لذلك فإنّ القرآن- فى هذه الآيات محل البحث- يتحدث عن ظهور الفساد فى الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

و اللّه يريد أن يريهم ما قدموه و لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۶

يَرْجِعُونَ

و الآية الآنفة الذكر تبيّن المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذى لا يختصّ بأرض «مكّة» و الحجاز، و لا بعصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله، بل هو من قبيل القضية الحقيقية التى تبيّن العلاقة بين الموضوع و المحمول! و بعبارة أخرى: حيثما ظهر الفساد فهو انعكاس لأعمال الناس و فيه- ضمنا- هدف تربوى، ليذوق الناس «طعم العلقم» نتيجة أعمالهم، لعلهم ينتهون و يثوبون إلى رشدهم! و يقول بعضهم: إنّ هذه الآية ناظرة إلى القحط و «الجدب» الذى أصاب المشركين بسبب دعاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله على مشركى مكّة! ... فانقطعت المزن و يبست الصحارى، و صار من الصعب عليهم الصيد من البحر الأحمر أيضا.

و على فرض أن يكون هذا الكلام صحيحا تاريخيا، إلّا أنّه بيان لأحد المصاديق و لا يحدد معنى الآية فى مسألة ارتباط الفساد بالذنب، فهى ليست محدّدة بذلك الزمان و المكان، و لا بالجدب و انقطاع «الغيث».

و ممّا ذكرناه آنفا يتّضح جيدا أنّ كثيرا من التّفاسير المحدودة و الضيقة التى نقلها بعض المفسّرين فى ذيل الآية غير مقبولة بأى وجه.

كما فسّروا الفساد فى الأرض بأنّه قتل «هابيل» على يد «قابيل»، أو أن المراد بالفساد فى البحر هو غصب السفن فى عصر موسى، و الخضر عليهم السّلام.

أو أنّ المراد من الفساد فى البر و البحر هو ظهور الحكّام المتسلطين الفاسدين الذين يشيعون الفساد فى جميع هذه المناطق!.

و بالطبع فإنّ الممكن أن تكون مصاديق الآية مثل هؤلاء الأفراد الذين يتسلطون على الناس نتيجة الدنيا و المجاملة و جرّ الناس للذل، و لكن من المسلّم به أن هذا المصداق لا يعنى تخصيص مفهوم الآية!.

كما أنّ جماعة من المفسّرين بحثوا فى معنى الفساد فى البحر أيضا، فقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۷

بعضهم: المراد بالبحر هو المدن التى إلى جانب البحر، و قال بعضهم: إنّ المراد بالبحر هو «المناطق المخصبة ذات البساتين و الأثمار».

و لا نجد دليلا على هذه التمحّلات، لأنّ البحر معناه معروف، و الفساد فيه لعله قلّة المواهب البحرية، أو عدم الأمن فيه، أو الحروب البحرية.

و نقرأ

حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى هذا الصدد «حياة دواب البحر بالمطر، فإذا كفّ المطر ظهر الفساد فى البحر و البرّ، و ذلك إذا كثرت الذنوب و المعاصى»[۳۷۶].

و بالطبع فإنّ ما ورد فى هذه الرواية هو مصداق واضح للفساد و ما ورد فى شأن نزول المطر «و حياة دواب البحر به» فهو موضوع دقيق، تؤكّد عليه التجربة، فكلما قلّ ماء السماء «المطر» قل السمك فى البحر، حتى أنّنا سمعنا ممن يقطنون ساحل البحر يقولون: إن فائدة الغيث للبحر أكثر من فائدته للصحراء!.

و فى الآية التالية يأمر اللّه الناس بالسير فى الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيّة» من مسألة ظهور الفساد فى الأرض بسبب المعاصى و الذنوب من قبل الناس. و يوصى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله أن يأمرهم بذلك، فيقول: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ

انظروا قصور «الظالمين» المتهدمة، و أبراجها المتداعية و الخزائن المطموسة، و جماعاتهم المتفرقة، ثمّ انظروا إلى قبورهم المدروسة و عظامهم النخرة! و انظروا عاقبة أمر الظلم و الشرك و ما آلى إليه.

أجل كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ

و الشرك أساس الفساد و الانحراف و الضلال! ممّا يستلفت الانتباه، أنّه حين كان الكلام فى الآيات السابقة عن نعم اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۸

كانت بدايته حول خلق الإنسان ثمّ رزقه من قبل اللّه اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ إلّا أن الكلام فى الآيات محل البحث التى تتحدث عن العقاب يبدأ الكلام فيها أوّلا بالإشارة إلى زوال النعم على أثر المعاصى و الذنوب، ثمّ الهلاك على أثر الشرك، لأنّه عند الهبة و العطاء «أوّل الأمر يذكر الخلق ثمّ الرزق» .. و عند الاسترجاع، «فأوّل الأمر زوال النعمة ثمّ الهلاك».

و التعبير ب كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ مع الالتفات إلى أنّ هذه السورة مكّية و كان المسلمون فى ذلك الوقت قلّة، فلعل ذلك إشارة إلى أن لا تخافوا من كثرة المشركين، لأنّ اللّه أهلك من قبلهم من هو أشدّ منهم، و اكثر جمعا، و هو فى الوقت ذاته إنذار للطغاة ليسيروا فى الأرض فينظروا بأم أعينهم عاقبة الظالمين من قبلهم!.

و حيث أن التصور و الوعى و الانتباه، ثمّ العودة و الإنابة إلى اللّه، كل ذلك لا يكون- دائما- مفيدا و مؤثرا، ففى الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله قائلا: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ۳۷۷] أى يتفرقون «فريق فى الجنّة و فريق فى السعير».

و وصف الـدين بأنه «قيّم» مع ملاحظـة أن «القيّم معناه الثابت و القائم» هو إشارة إلى أن هـذا التوجه المسـتمر «أو الإقامة» هى للدين .. أى لأنّ الإسـلام دين ثـابت و مسـتقيم و ذو نظام قائم فى الحياة الماديـة و المعنويـة للناس، فلا تمل عنه أبـدا، بل أقم وجهك للـدين القيم! و إنّما وجه الخطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله ليعرف الآخرون واجبهم و وظيفتهم أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۴۹

و التعبير ب «يصدعون» من مادة «صدع» معناه فى الأصل: كسـر الإناء، ثمّ انتقل بالتدريج إلى أى نوع من أنواع التفرق و التشتت. و هنا إشارة إلى انفصال صـفوف أهل الجنان عن صـفوف أهل النيران، و كل من هذه الصـفوف يتفرق إلى عدة صـفوف، و ذلك لسلسـلة المراتب فى الجنان، و دركات النيران «و العياذ باللّه».

و الآية التالية- بيان لهذا الانفصال فى يوم القيامة، إذ تقول: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ

كلمـة «يمهـدون» مشـتقّة من «المهـد» على زنـة «عهـد» و كما يقول الراغب فى مفرداته فإنّ معناه السـرير المعدّ للطفل، ثمّ توسـعوا فى المعنى فصـار المهـد و المهـاد لكـل مكان مهيأ و معـد «و فيه منتهى الدعـة و الراحـة» و قـد انتخب هـذا التعبير لأهل الجنّـة و المؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

و الخلاصـة: لا تحسـبوا أن إيمانكم و كفركم و أعمالكم الصالحـة و الطالحـة لها أثر على اللّه، بل أنتم الـذين تفرحون بها أو تساءون يَوْمَ تَرَوْنَها.

و مـن الطريـف أنّ القرآن اكتفى فى شـأن الكفـار بـالتعبير ب مَـنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ و لكن بالنسـبة للمـؤمنين تضـيف الآيـة التاليـة: أن المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم اللّه من مواهبه و فضله فيقول: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ

و من المسلّم به أن هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ ...

و لا شكّ أنّ اللّه يعاملهم وفق عدالته، و يجزيهم ما يستحقون، لا أكثر، لكن لا ينالهم منه فضل و موهبة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۰

بحوث

۱- العلاقة بين الذنب و الفساد

ممّا لا شك فيه أن كل ذنب يترك أثره فى المجتمع، كما يترك أثره فى الأفراد عن طريق المجتمع أيضا ... و يسـبب نوعا من الفساد فى التنظيم الاجتماعى، فالذنب و العمل القبيح، و تجاوز القانون، مثلها كمثل الغذاء السـىء و المسـموم، إذ يترك أثره غير المطلوب و السىء فى البدن شئنا أم أبينا، و يقع الإنسان فريسة للآثار الوضعية لذلك الغذاء المسموم.

«الكذب» يسلب الاعتماد.

و «خيانة الأمانة» تحطّم الروابط الاجتماعية.

و «الظلم» يسبب إيذاء الآخرين و ظلمهم.

و الإفراط فى الحرية يجرّ إلى الديكتاتورية، و الديكتاتورية تجر إلى الإنفجار.

و «ترك حقوق المحرومين» يورث العداوة و الحقد و البغضاء، و «تراكم الأحقاد و العداوات» يزلزل أساس المجتمع!.

و الخلاصة، أن كلّ عمل غير صـحيح له أثره السـىّء سواء كان ذلك فى دائرة محدودة أم واسـعة، و أحد تفاسير الآية ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ هو هذا (و هذا يبيّن العلاقة الطبيعية بين الذنب و الفساد- «هنا»).

إلّا أنّه يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ كثيرا من الذنوب- إضافة لما ذكرنا- تجلب معها سلسلة من الآثار السيئة، و علاقتها و ارتباطها مع تلك الآثار- من الناحية الطبيعية على الأقل- غير معروفة.

فمثلا- ورد فی الرّوايات الإسلامية أن قطع الرحم يقصر العمر، و أن أكل المال الحرام يورث ظلمة القلب، و أن كثرة الزنا يورث فناء الناس و يقلل الرزق ۳۷۸].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۱

حتى أنّنا لنقرأ

حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال»[۳۷۹]

و

قد ورد فی القرآن نظير هذا المعنى فی تعبير آخر، حيث يقول القرآن: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْناهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ ۳۸۰].

إذن فالفساد- فی الآية محل البحث- هو الفساد الأعمّ «الذی يشمل المفاسد الاجتماعية، و البلايا، و سلب النعم و البركات».

و ممّا يستلفت الانتباه أن الآية المتقدمة يستفاد منها ضمنا أن واحدا من حكم الآفات و البلايا تأثيرها التربوی على الناس، إذ عليهم أن يروا رد الفعل الناتج من أعمالهم .. ليفيقوا من نومهم و غفلتهم، و يعودوا إلى الطهارة و التقوى! و لا نقول: إنّ جميع الشرور و الآفات هی من هذا القبيل، و لكننا نقول: إن قسما منها- على الأقل- فيه هذه الحكمة و الغاية و بالطبع فإنّ له حكمة أخرى بحثناها فی محلها.

۲- فلسفة السير فی الأرض

لقد وردت مسألة «السير فی الأرض» ست مرات فی القرآن المجيد، (فی سورة آل عمران و الأنعام و النحل و النمل و العنكبوت و الروم) حيث وردت مرّة بقصد التفكر فی أسرار الخلق (سورة العنكبوت الآية ۲۰) و خمس مرات بقصد العبرة من العواقب الوخيمة التی نالها الظالمون و الجبابرة و الطغاة الآثمون!

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۲

و القرآن يهتمّ بالمسائل العينية و الحسية- التی يمكن لمس آثارها فی الأمور التربوية- اهتماما خاصا، و لا سيما أنّه يأمر المسلمين أن ينطلقوا من محيطهم المحدود إلى المدى الأرحب، و يسيروا و يسيحوا فی هذا العالم، و ليفكروا فی أعمال الآخرين و سجاياهم و عواقب أمورهم، و أن يستوحوا من هذه «الحياة» العابرة «و يدخروا ذخيرة قيمة» من العبرة و الاطلاع! إنّ القوى الشيطانية فی العصر الحاضر- من أجل سعة استثمارها فی العالم كافة- مشطت و فحصت جميع الدول و البلدان و الأمم و طريقة حياتهم و ثقافتهم و نقاط القوّة و الضعف فيهم بصورة جيدة.

إنّ القرآن يقول: بدلا من هؤلاء المستكبرين سيروا أنتم فی أرجاء الأرض و بدلا من خططهم و مؤامراتهم الشيطانية تعلموا دروسا رحمانية.

العبرة و الإعتبار من حياة الآخرين أهم من التجارب الشخصية و أكثر قيمة، لأنّ الإنسان ينبغی أن يتحمل خلال تجاربه أضرارا ليتعلم مسائل جديدة إلّا أن الإنسان عند استلهام العبرة من الآخرين يربح معارف جمة و ثمينة دون أن يتحمل ضررا.

و أمر القرآن بالسير فی الأرض ينطبق على أكمل الأساليب و الطرق التی حصل عليها البشر فی العصر الحاضر، و ذلك بأن يأخذوا بأيدی التلاميذ- بعد استيعاب المسائل فی الكتب- و يسيروا فی الأرض، و يطالعوا الشواهد العينية التی قرءوها فی الكتب! و بالطبع

فهنـاک الیوم نوع آخر من السیر فی الأرض بعنوان «السـیاحة» فی العالم، و ذلک من قبل «الحضارة الشـیطانیة» لجلب الأموال و الثروة «الحرام» التی راجت سوقها، و غالبا ما تکون فیها أهداف منحرفة و تضـلیلیة، کنقل الثقافة السقیمة و إشاعة الهوی و السفاهة و الحماقة و اللهو هذه هی «السیاحة المخربة»!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۳

و لکن الإسـلام یؤید السیاحة التی تکون وسیلة لنقل الثقافات الصحیحة و التجارب المتراکمة، و استکناه أسرار الخلق فی عالم البشر و عالم الطبیعة، و استلهام دروس العبرة من عواقب المفسدین و الظالمین الوخیمة.

و لا بأس بالإشارة إلی أنّ هناک سیاحة منعها الإسلام و نقرأ

حدیثا یقول:

«لا سیاحة فی الإسلام»[۳۸۱].

و المراد من هذا الحدیث هو فی جمیع سـنوات حیاتهم- أو بعضـها- منفصلین عن الحیاة الاجتماعیة تماما، و دون أن یکون لهم نشاط ملحوظ، فهم یسیحون فی الأرض و یعیشون کالرهبان! فیکونون عالة علی الآخرین.

و بتعبیر آخر: إنّ عمل هؤلاء بمثابـة «الرهبانیـة السـیارة» مقابل الرهبان الثابتین المنزوین فی الـدیر و المنعزلین عن المجتمع، و حیث أن الإسلام یخالف هذا الاتجاه و الانزواء الاجتماعی، فهو یعد هذه «السیاحة» غیر مشروعة أیضا.

۳- الدین القیّم

کـان الخطـاب فی الآیـات المتقدمـة للنّبی صـلّی اللّه علیه و آله أن یجعـل تمام توجهه نحو الـدین المسـتقیم و الثابت، الـذی لیس فیه اعوجاج و لا انحراف و لا تزلزل فی قواعده أبدا.

و من الطریف أن تعبیرات أخری فی آیات القرآن المتعددة جاءت بصدد هذا الدین، ففی الآیة (۱۰۵) من سورة یونس جاء التعبیر عنه بالحنیف فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً.

و فی الآیة (۳) من سورة الزمر وصف بالخالص أَلا لِلَّهِ الدِّینُ الْخالِصُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۴

و فی الآیة (۵۲) من سورة النحل، وصف بأنّه واصب، أی لا یتغیر وَ لَهُ الدِّینُ واصِباً.

و فی الآیة (۷۸) من سورة الحـج وصف بأنه خال من الحرج و الشـدة وَ ما جَعَلَ عَلَیْکُمْ فِی الـدِّینِ مِنْ حَرَجٍ و نظائر هذه الآیات کثیرة فی القرآن! و کل واحد من هذه الأمور یمثل بعدا من أبعاد الدین الإسلامی، و هو فی الوقت ذاته من باب اللازم و الملزوم.

أجل ینبغی أن ینتخب مثل هذا الدین، و أن یسعی فی معرفته، و أن یحفظ حتی آخر رمق!

۴- لا عودة فی یوم القیامة!

قرأنـا فی الآیـات المتقدمـة عن یوم القیامـة قوله تعـالی: یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ و لا طریق للعودة إلی الـدنیا! و یلاحظ فی آیات القرآن الأخر ما یشبه هذا التعبیر، و من ذلک الآیة (۴۴) من سورة الشوری- حین یری الظالمون العذاب یقولون: هَلْ إِلی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ

کما وصف یوم القیامة فی الآیة (۴۷) من سورة الشوری- أیضا- بقوله تعالی: یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ

و الحقيقة أن عالم الوجود له مراحل لا عودة فيها إلى مرحلة سابقة، و هذه سنة اللّه التى لا تتبدل و لا تتحول! ترى، هل يرجع الطفل- سواء ولد كاملا أو ناقصا- جنينا مرّة أخرى إلى رحم أمه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۵

و هل ترجع الثمرة المقطوفة من الشجرة- ناضجة كانت أم لا- إلى أغصانها؟! فانتقال الإنسان من هذا العالم إلى العالم الآخر على هذه الشاكلة، أى لا طريق للعودة أبدا ... و هذه حقيقة تخيف الإنسان و تهزّه و تنذره ليكون يقظا!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۶

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

انظر إلى آثار رحمة اللّه:

قلنا: إن فى هذه السورة قسما مهمّا «يستلفت النظر» من دلائل التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۷

و آيات اللّه، مبينا فى سبع آيات تبدأ كل منها بقوله: وَ مِنْ آياتِهِ قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعة، و الآية الأولى من الآيات أعلاه هى سابع الآيات التى مرت.

و آخرها.

و حيث كان الكلام فى الآيات السابقة عن الإيمان و العمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد- أيضا- تأكيدا على ذلك! تقول هذه الآية: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ فهى تمضى سابقة للغيث فى حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم و تربط بينها و تؤلفها و تحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، و تغطى صفحة السماء، و مع تغير درجة حرارة الجو تهيء المطر للنزول من هذه الغيوم.

و لعلّ أهمية قدوم الرياح المبشرات- لأهل المدن المتنعمة- ليست جليّة واضحة .. إلّا أن أهل الصحارى اليابسة الظمأى إلى المطر، ما إن تتحرك الرياح مصحوبة بالسحاب التى هطلت فى نقطة أخرى- و النسيم يحمل رائحة الطلّ و الرطوبة منها، حتى يلمع و ميض الأمل فى قلوبهم.

و بالرغم من أنّ آيات القرآن تستند إلى البشارة فى نزول الغيث أكثر من غيرها، إلّا أنّه لا يمكن تحديد كلمة «مبشرات» فى هذا المضمون فحسب، لأنّ الرياح تصحب بشائر أخر أيضا.

فالرياح تبدل حرارة الجو و برودته الشديدة إلى «الاعتدال».

و الرياح تستهلك العفونة فى الفضاء الكبير و تصفى الهواء.

و الرياح تخفف من وطء حرارة الشمس على الأوراق و النباتات، و تمنع من احتراقها بحرارة الشمس.

كما أنّ الرياح تنقل غاز الأوكسجين المتولد من النباتات و أوراق الشجر- إلى الإنسان، و تهب غاز ثانى أوكسيد الكاربون الخارج مع زفير الإنسان و تنفسه إلى النباتات أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۸

و هى كذلك تؤدى وظيفة أخرى، فقد أرسلها اللّه لواقح تنقل معها لقاح الأزهار الذكور للإناث.

و الرياح تحرك الطواحين الهوائية و تصفى البيادر.

و الرياح تنقل البذور من المناطق التى قد تجمعت فيها و تنثرها و تبسطها على الصحراء، كأنّها فلاح مشفق، فتغدو خضراء ممرعة بعد أن كانت يبابا.

و الرياح تنقل السفن مع مسافريها و أثقالهم إلى نقاط مختلفة.

و حتى فى هذا العصر الذى حلت الوسائل الحديثة «الماكنات» مكان الرياح، فما تزال الرياح ذات أثر بالنسبة للسفن فى اتجاهاتها المخالفة لها أو الموافقة لها ... سرعة و بطأ! أجل، أنّ الرياح مبشرات من جهات شتى.

و لذلك فنحن نقرأ فى تعقيب الآية قوله تعالى: وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أجل، إنّ الرياح هى وسيلة لتكاثر النعم العديدة فى مجال الزراعة و التدجين، و هى وسيلة للحمل و النقل أيضا، و أخيرا فهى سبب للازدهار التجارى.

و قد أشير إلى الموضوع الأوّل بجملة وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ و إلى الثّانى بجملة وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ و للثالث بجملة وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ و الطريف هنا أن جميع هذه البركات منشؤها الحركة، الحركة فى ذرات الهواء فى الفضاء الجوى لكن لا يعرف قدر أية نعمة حتى تسلب عن الإنسان! فيعرفها حينذاك. فما لم تتوقف هذه الرياح و النسائم، فلا يعرف الإنسان ما ذا يحلّ به من بلاء؟! فتوقف الهواء يجعل الحياة فى أفضل الحقول كالحياة فى أشد المطامير و السجون ظلمة! و على العكس فلو أن نسيما عليلا هب فى خلايا السجون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۵۹

الانفرادية لجعلها كالفضاء الرحب «المفتوح»، و عادة فإنّ واحدا من أساليب التعذيب فى السجون هو سدّ منافذ الهواء!.

حتى أنّ الهواء لو توقف فى المحيطات و هدأت الأمواج، لأصبحت حياة الحيوانات البحرية مهددة بالخطر على أثر قلّة الأوكسجين، و يتحول البحر حينذاك إلى مستنقع متعفن موحش! يقول «الفخر الرازى» إن جملة وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ مع ملاحظة أن الإذاقة تستعمل فى الشىء القليل، فهى إشارة أن جميع الدنيا و نعمها لا تتجاوز الرحمة القليلة، أمّا الرحمة الواسعة (من قبل اللّه) فهى خاصة بالحياة الأخرى!.

و فى الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، فى حين أن الآية التى بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرّة أخرى، و لعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضى، كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين.

و لعل ذكر النبوّة إلى جانب هذه المسائل، إنّما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ و المعاد، إذ ورد البحث عنهما مرارا فى هذه السورة كما قاله بعض المفسّرين.

و يمكن أن يكون وجود هذه الآية إنذارا لأولئك الذين يتمتعون بجميع هذه النعم الكثيرة و يكفرون بها.

و على كل حال، فإنّ الآية تقول: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ أى المعجزات و الدلائل الواضحة و البراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، و لم يستجب آخرون لها برغم النصائح فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا و نصرنا

المؤمنين وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و التعبير ب «كان» التى تدل على أن هذه السنة لها جدر عميق، و التعبير ب «حقّا» و بعده التعبير ب «علينا» هو بنفسه مبين للحق و مشعر به، جميع هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۰

الألفاظ تأكيدات متتابعة فى هذا المجال و تقديم «حقا علينا» على «نصر المؤمنين» الذى يدل على الحصر، هو تأكيد آخر. و بالمجموع تعطى الآية هذا المعنى «إن نصر المؤمنين من المسلّم به هو فى عهدتنا و هذا الوعد سنجعله عمليا دون الحاجة إلى نصر من الآخرين».

و هذه الجملة- ضمنا- فيها تسلية و طمأنة لقلوب المسلمين، الذين كانوا حينئذ فى مكّة تحت ضغوط الأعداء و اضطهادهم و كان الأعداء أكثر عددا و عددا.

و أساسا فإنّ أعداء اللّه طالما كانوا غرقى فى الآثام و الذنوب، فإنّ ذلك بنفسه أحد عوامل انتصار المؤمنين، لأنّ الذنب سيدمرهم آخر الأمر و يهيء وسائل هلاكهم بأيديهم، و يرسل عليهم نقمة اللّه.

أمّا الآية الأخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً[۳۸۲] أى القطع الصغيرة المتراكمة ثمّ تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة فَتَرَى الْوَدْقَ ۳۸۳] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ

أجل، إن واحدا من الآثار المهمة عند نزول الغيث، يقع على عاتق الرياح، إذ تحمل قطعات السحاب من البحر إلى الأرض العطشى و اليابسة، و الرياح هى المأمورة ببسط السحاب و الغيوم فى السماء جعلها متراكمة بعضها فوق بعض، و بعد أن تلطف الجو و تصيره رطبا تهيء الغيث للنزول.

إن مثل الرياح كمثل راعى الغنم المحنّك، الذى يجمع قطيع الغنم عند الاقتضاء من أطراف الصحراء، و يسير بها فى مسير معيّن ليقوم بالتالى على حلب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۱

لبنها!.

و جملة فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ لعلها إشارة إلى أن غلظة الغيوم و شدة هبوب الرياح، ليستا فى تلك الدرجة التى تمنع خروج قطرات الغيث الصغيرة من الغيم و نزولها على الأرض، بل إن هذه الذرات الصغيرة- على الرغم من الغيوم المغطاة بها صفحة السماء- تجد طريقها من خلال الغيوم إلى الأرض، و تتناثر ناعمة على الأراضى العطشى حتى ترويها بصورة جيدة و فى الوقت ذاته لا تدمر الثمر.

إن الرياح الشديدة و الأعاصير التى تقلع الشجرة من أصلها أحيانا- على عظمتها و تحرك الصخور، تأذن للقطرة الناعمة أن تمرّ من خلالها و تستقر على الأرض! و ينبغى الالتفات الى أن كون السحاب قطعات متراكمة «كسفا»- و إن لم يكن لنا جليا بهذه الصورة- فى اليوم الغائم، حيث تغطى هذه القطع صفحة السماء، فلا نحس بأنّها على شكل قطع، بل نراه سحابا مبسوطا .. لكن حين تقلّنا الطائرة و تحلق بنا فوق السحاب أو من خلاله، نلمس هذه الظاهرة بوضوح! و يضيف القرآن فى نهاية الآية قائلا: فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ

ثمّ تأتى الآية الأخرى بعدها فتقول: وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۳۸۴].

و إنّما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم و تنقّلهم فى الصحراء، و لحياتهم علاقة و صلة قريبة مع هذه القطرات، فأولئك يتفق أحيانا أن يلقى اليأس ظلاله السوداء على أنفسهم الظمأى، كما أن أراضيهم و مزارعهم تبدو عليها آثار العطش، و فجأة تهب الرياح المبشرة بنزول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۲

المطر، الرياح التى يشمّ من خلالها رائحة «الغيث»! و تمرّ لحظات، فتتسع الغيوم فى السماء ثمّ تغلظ و تكون أكثر كثافة، ثمّ ينزل «القطر» و الغيث، و تمتلئ الحفر بالماء الزلازل، و تفيض الروافد و السواقى الصغيرة و الكبيرة من هذه المائدة السماوية، و تعود الحياة النضرة إلى الأرض اليابسة، كما تتبر عم الآمال فى قلوب الرحّل فى الصحراء و يشرق الأمل فى قلوبهم، و تنجلى عنها غيوم الظلمة و اليأس و القنوط! و يبدو أن تكرار كلمة «من قبل» فى الآية للتأكيد، إذ تبيّن الآية أن الوجوه كانت عابسة متجهمة من قبل المطر بلحظات، أجل ... لحظات قبل المطر، و هم قلقون و لكن حين ينزل عليهم الغيث ... تشرق فجأة الوجوه و تبتسم الشفاه، فكم هو موجود ضعيف هذا الإنسان! و كم هو رحيم هذا الربّ.

و مثل هذا التعبير وارد فى كلماتنا العرفية حيث نقول مثلا: إن فلانا كان بالأمس، نعم بالأمس صديقا لنا، و اليوم هو من أعدائنا ... و الهدف من هذا التكرار هو التأكيد على تغيير حالات الإنسان.

و فى آخر آية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله قائلا:

فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها.

و الاهتمام أو الاعتماد على كلمة «انظر» هو إشارة إلى أن آثار رحمة اللّه فى إحياء الأرض بالمطر، هى من الوضوح بمكان بحيث تكفى نظرة واحدة لمشاهدة هذه الآثار، دون حاجة للبحث و التدقيق.

و التعبير ب رَحْمَةِ اللَّهِ فى شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة!.

فالمطر يسقى الأرض و يرعى بذور النباتات ... و يهب الأشجار الحياة الجديدة! و هو ينقىّ الجو و المحيط من الغبار المتراكم أو المتناثر فى الفضاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۳

و هو يغسل النباتات و يمنحها النضرة و الطراوة!.

و هو يمضى إلى أعماق التربة و الأرض، و بعد فترة يعود على شكل عيون و قنوات إلى سطح الأرض.

و المطر يدفع الأنهار و السيول و بعد تجمعها خلف السدود يتولد منها «الكهرباء» أو الطاقة و النور و الحركة!.

و أخيرا فإنّ قطر السماء يحسّن الجوّ إذ يخفف من شدّة الحر، و يهدئ من شدّة البرودة.

و التعبير ب «الرحمة» عن المطر مذكور فى عدة آيات من القرآن كما فى الآية (۴۸) من سورة الفرقان، و الآية (۶۳) من سورة النمل، و نقرأ كذلك فى سورة الشورى الآية (۲۸) قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

و مع الالتفات إلى العلاقة بين المبدأ و المعاد فى المسائل المختلفة فإن «القرآن» يضيف قائلا فى نهاية الآية: إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و التعبير ب «محيى» بصيغة اسم الفاعل مكان الفعل المضارع، و خاصّة مع كونه مسبوقا بلام التوكيد، دليل على منتهى التأكيد.

و لقد رأينا مرارا فى آيات القرآن الكريم، أن هذا الكتاب السماوى- من أجل إثبات مسألة المعاد- ينتخب نزول الغيث و إحياء الأرض بعد موتها شاهدا على ذلك!.

ففى سورة (ق) الآية (۱۱) يعقب القرآن بعد التعبير بحياة الأرض بعد موتها قائلا: كَذلِكَ الْخُرُوجُ و يشبه هذا التعبير فى الآية (۹) من سورة فاطر إذ يقول القرآن: كَذلِكَ النُّشُورُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۴

و الواقع أن قانون الحياة و الموت فى كل مكان متشابه .. فالذى يحى الأرض الميتة بقطرات السماء، و يهبها الحركة و البهجة، و يتكرر هذا العمل على طول السنة، و أحيانا فى كل يوم، فإن له هذه القدرة على إحياء الناس بعد الموت، فالموت بيده فى كل مكان، كما أن الحياة بأمره أيضا.

صحيح أن الأرض الميتة لا تحيى ظاهرا، بل تنمو البذور التى فى قلب الأرض، و لكننا نعلم أن هذه البذور الصغيرة تجذب مقدارا عظيما من أجزاء الأرض إلى نفسها، و تحوّل الموجودات الميتة إلى موجودات حية! و حتى بقايا هذه النباتات المتلاشية- أيضا- تمنح القدرة و القوة للأرض لكى تحيى من جديد.

و فى الحقيقة لم يكن لمنكرى المعاد أى دليل على مدعاهم سوى الاستبعاد، و القرآن المجيد إنّما يستشهد بهذه الأمثال لإحباط هذا الاستبعاد منهم أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۵

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (۵۱) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (۵۲) وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵۳) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (۵۴)

التّفسير

الموتى و الصّمّ لا يسمعون كلامك:

حيث أنّ الكلام كان- فى الآيات السابقة- عن الرياح المباركة التى كانت مبشرات بالغيث و الرحمة، ففى أوّل آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمّرة و التى تجلب الضرر، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ

أولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، و بعد نزوله مستبشرون، و إذا هبت ريح صفراء فى بعض الأيّام و ابتلوا مؤقتا تراهم يتصارخون و بالكفر يجأرون و يتجرءون!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۶

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة اللّه مستبشرون و عليها يشكرون، و عند نزول المصائب و المشاكل تراهم صابرون، و لا يؤثر التغيير المعاشى و الحياتى المادى فى إيمانهم أبدا، و ليسوا كعمى القلوب ضعيفى الإيمان، الذين يظهرون إيمانهم بمجرّد هبوب الريح، و يكفرون مرّة أخرى إذا هبت الريح بشكل آخر! و كلمة «مصفرا» مشتقّة من «الصفرة» على زنة «سفرة» و هى لون معروف، و يعتقد أكثر المفسّرين أن الضمير فى «رأوه» يعود على الشجر و النباتات التى تصفر و ذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

و احتمل بعضهم أنّ الضمير يعود على السحاب، و السحاب المصفّر طبعا سحاب خفيف، و هو عادة لا يحمل قطرا، على العكس من الغيوم السود الكثيرة، فإنّها تولد الغيث و القطر.

كما يعتقد بعضهم أنّ الضمير فى «رأوه» يعود على الريح، لأنّ الرياح الطبيعية عادة لا لون فيها (فهى عديمة اللون) إلّا أن الرياح التى تهب و هى مصفرة، فهى ريح سموم و هجير، و فى كثير من الأحيان تحمل معها الغبار.

و هناك احتمال رابع، و هو أنّ «المصفّر» معناه الخالى، لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته، يطلق على الإناء الخالى، و البطن الخالية

من الطعام، و الأوردة من الدم أنّها (صفر) على وزن (سفر)، فعلى هذا يكون هذا التعبير آنف الذكر فى شأن الرياح الخالية من القطر و الغيث.

و فى هذه الصورة يعود الضمير فى «رأوه» على الريح (فلاحظوا بدقة).

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أشهر من الجميع! و ما يستلفت النظر، هو أنّ الرياح النافعة ذات الغيث جاءت هنا بصيغة الجمع، و لكن على العكس منها الريح التى تجلب الضرر فقد جاءت بصيغة المفرد، و هى إشارة إلى أنّ معظم الرياح نافعة و مفيدة، غير أن ريح السموم هى من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۷

الحالات الاستثنائية التى تهب أحيانا فى السنة مرّة أو فى الشهر مرّة .. لكن الرياح المفيدة تهب دائما (ليل نهار).

أو أنّها إشارة إلى أنّ الرياح النافعة إنّما تكون كذلك و يكون لها أثرها المفيد، إذا تتابعت، غير أن الريح السيئة تترك أثرها عند هبوبها فى المرّة الأولى.

و آخر ما ينبغى الإشارة إليه من اللطائف الضرورية فى ذيل هذه الآية، هو التفاوت ما بين يَسْتَبْشِرُونَ فى شأن الرياح النافعة التى ذكرتها الآية المتقدمة، و جملة لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ الواردة فى الآية محل البحث.

و هذا الاختلاف أو التفاوت يدل على أنّهم يرون هذه النعم العظيمة المتتابعة التى أنعمها اللّه عليهم فيفرحون و يستبشرون، غير أنّهم لو أصيبوا مرّة واحدة أو يوما واحدا بمصيبة، فإنّهم يضجون و يكفرون حتى كأنّهم غير تاركين للكفر، حل بهم!.

و هذا تماما يشابه حال أولئك الذين يعيشون عمرا بسلامة و لا يشكرون اللّه، لكنّهم إذا مرضوا ليلة واحدة بالحمى «و اشتعلوا بحرارتها» فإنّهم يظهرون الكفر و هذه هى حال الجهلة من ضعفاء الإيمان.

و كان لنا فى هذا الصدد فى الآية (۳۵) من هذه السورة، و الآيتين (۹) و (۱۰) من سوره هود، و الآية (۱۱) من سورة الحج بحوث أخر أيضا.

و فى الآيتين التاليتين- بمناسبة البحث الوارد فى الآية السابقة- فإن الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

۱- طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أية حقيقة، و إن كانوا أحياء فى الظاهر! ۲- و طائفة «الصم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

۳- و طائفة «العمى» الذى حرموا من رؤية وجه الحق! ۴- و أخيرا طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، و لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۸

أعين يبصرون بها، و لهم آذان يسمعون بها.

فتقول الآية الأولى: فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى و لذلك لا تؤثر مواعظك فى أصحاب القلوب الميتة.

و كذلك وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ

و تأتى الآية الثّانية لبيان بقية الطوائف فتقول: وَ ما أَنْتَ بِهادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ

و كما قلنا من قبل، فإنّ القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة و الموت الماديين و الجسمانيين» و أفضل من السمع و البصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة و الموت و السمع و البصر، و تكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه! فالقرآن لديه معيار لتقييم هذه الأمور، لا بالقيمة المادية و الفيزيائية، بل القيمة المعنوية و الإنسانية.

و الشرط الأوّل لإدراك الحقيقة أن يكون للإنسان قلب مهيأ و مستعد، و عين باصرة و أذن سميعة، و إلّا فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء و تلوا جميع الآيات الإلهية على من لا يدرك الحقيقة لما اقترفه من الذنوب و اللجاجة و العناد، فإنها لن تؤثر فيه!.

و إنّما أشار القرآن إلى هاتين الحاستين الظاهرتين، بالإضافة إلى الإدراك الباطنى فحسب، فلأجل أن أكثر معلومات الإنسان، إمّا أن

يكون عن طريق هـاتين الحـاستين العين و الأـذن، أو عن طريق الوجـدان و التحليل العقلى! و الطريف هنا أنّ المراحل الثلاث- الواردة فى الآيات الآنفـة الـذكر- هى ثلاث مراحل مختلفـة من الانحراف و عـدم درك الحقيقـة، و هى تبـدأ من شديـدها و تنتهى بالخفيف منها! فالمرحلة الأولى: هى موت القلوب المعبر عنها ب «الموتى» و هذه المرحلة ليس للحقيقة أى طريق للنفوذ فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۶۹

و المرحلـة الثّانيـة: مرحلة «الصـمم» و عدم السـمع، و لا سـيما عند أولئك الذين يديرون ظهورهم و هم فى حالة الفرار، فقد يؤثر فيهم الصـراخ الشديـد لو كانوا قريبين، لكن فى مثل هـذه الحال و هم يفرون، فلا! و بالطبع فإنّ هـذه الطائفة ليست كالموتى، فمن الممكن أحيانا أن يتمّ تفهيمهم بالإشارة أو العلامـة، إلّا أنّنا نعرف أن كثيرا من الحقائق لا يمكن بيانها و إيصالها إلى الذهن بالإشارة! و خاصـة حين يدير الطرف الآخر ظهره و يكون بعيدا.

المرحلـة الثّالثـة: (العمى)، و بالطبع فإن الحياة مع العمى أسـهل بمراتب من الحياة مع «الصم» أو الحياة مع «الموتى»، فعلى الأقل لـديهم آذان سـميعة، و يمكن إيصال كثير من المفاهيم إليهم ... لكن اين السـمع فى إدراك الحقائق من البصـر؟! ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ تبيين المسائـل غير كاف وحـده، فلنفرض أن يقال للأعمى سـر باتجاه اليمين أو اليسار، فإنّ تطبيق هـذا الأمر ليس سـهلا، و ربّما بأقل خطأ- أحيانـا- فى تحديـد المقـدار، يؤدى بالأـعمى إلى السـقوط! و فى بحثنـا المفصل فى ذيل الآيتين (۸۰) و (۸۱) من سورة النمـل، بيّنا- ضمن التحليل لحقيقة الحياة و الموت- الإشـكال الواهى الذى أثاره جماعة من الوهابيين، إذ يستعينون بمثل هذه الآيات- محل البحث و غيرها- لإثبات عدم جواز التوسل بالنّبى و الأئمّة الطاهرين، و يقولون: إنّ الموتى (حتى النّبى) لا يفهمون شيئا.

غير أنّنـا أثبتنا هناك أن الإنسان- خاصّـة من هو بمسـتوى الأئمـة الكرام و الشـهداء العظام- له نوع من الحياة البرزخيـة بعـد الموت، و هناك وثائق كثيرة و أدلـة متعـددة من القرآن و الأحاديث تشـهد بذلك و تؤيده، و فى هذه الحياة البرزخية إدراك و بصـر أوسع من الحياة الدنيوية (لمزيد الإيضاح يراجع التّفسير الأمثل، ذيل الآيات المشار إليها آنفا).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۰

و هنا ينبغى أن نضيف هذه الجملة، و هى أن جميع المسلمين فى صلاتهم- دائما- يخاطبون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و يسلمون عليه بهـذه الجملـة «السّـلام عليك أيّها النّبى و رحمـة اللّه و بركاته» و نعرف أنّ المخاطبـة الحقيقـة لا المجازية يجب أن تكون- حتما- مع إنسان يسـمع و يـدرك! فعلى هـذا الأساس لازم السـلام على النّبى بهيئـة المخاطبة من بعيد أو قريب، أن روحه المقدسة تسـمع جميع هذه التحيات، و لا دليل يقودنا إلى أن نحمل هذه التحيات على المجاز!.

و فى آخر آيـة- من الآيـات محـل البحث- يشـير القرآن إلى دليل آخر من أدلـة التوحيـد، و هو دليل الفقر و الغنى، و يكمل البحوث التى تدور حول التوحيد فى هذه السورة، فيقول: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَـعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَـعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً.

كنتم فى البداية ضعافا إلى درجة أنّكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعاب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصداقة قوله تعالى: لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم.

لكن- قليلا- قليلا- صـرتم ذوى رشـد و قوّة، و صـار لكم جسم قوى، و فكر جيـد، و عقـل مقتـدر إدراك واسع! و مع هـذه الحال لم تسـتطيعوا أن تحـافظوا على هـذه القوّة، فمثلكم كمن يصـعد من طرف الجبل إلى قمته، ثمّ يبـدأ بالانحـدار من القمـة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم و الروح».

هـذا التغير و الصـعود و النّزول خير دليـل لهـذه الحقيقـة، و هى أنّه لم تكن القوّة من عنـدكم و لا- الضـعف، فكل منهما كان من جهة أخرى، و هذا بنفسه دليل على أن وراءكم من يدبّر أموركم و يسيّر حياتكم و ما عندكم فهو أمر عارض!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۱

و هذا هو ما

أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى كلامه النيّر إذ قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود و نقض الهمم»[۳۸۵].

لقد عرفت من هذا الاختلاف و التغير أن القوة الأصلية ليست بأيدينا، فهى بيد اللّه، و ليس لدينا بنحو مستقل أى شىء سوى ما وهبنا إيّاه! و من الطريف أنّ القرآن يضيف- عند بيان الضعف الثّانى للإنسان- كلمة وَ شَيْبَةً غير أنّه لم يذكر «الطفولة» فى الضعف الأول ... و هذا التعبير ربّما كان إشارة إلى أن ضعف الشيخوخة و الشيب أشدّ ألما، لأنّه على العكس من ضعف الطفولة، إذ يتجه نحو الفناء و الموت ... هذا أوّلا.

و ثانيا فإن ما يتوقع من الشيبة و المسنين مع ما لهم تجارب ليس كما يتوقع من الأطفال، على حين أن ضعف كل منهما مشابه للآخر، و هذا الموضوع يدعوا إلى الإعتبار كثيرا.

فهذه المرحلة هى التى تدفع الأقوياء و الطغاة إلى الانحناء، و تجرهم إلى الضعف و الذلة! أمّا آخر جملة فى الآية فهى إشارة إلى علم اللّه الواسع و قدرته المطلقة:

يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ و هى بشارة و إنذار فى الوقت ذاته، أى إن اللّه مطلع على جميع نيّاتكم، و هو قدير على مجازاتكم و ثوابكم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۲

الآيات [سورة الروم (۳۰): الآيات ۵۵ الى ۶۰]

اشارة

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (۵۸) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۵۹)

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (۶۰)

التّفسير

يوم لا ينفع الاعتذار:

قلنا إن فى هذه السورة أبحاثا منسجمة و متناغمة تتعلق بالمبدأ و المعاد ..

و فى الآيات- محل البحث- يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ و المعاد أيضا، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، و ذلك بتجسيمه حالة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۳

الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ فى عالم البرزخ أجل كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ فإنّهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق و مصروفين عنها.

و التعبير ب «الساعة» عن يوم القيامة- كما أشرنا إليه سابقا- هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع فى لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أن أعمال

العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ اللّه سريع الحساب، و نعرف أنّ «الساعة» فى لغة العرب تعنى جزءا أو لحظة من الزمن ۳۸۶].

و بالرغم من أنّ الآية المتقدمة لم تشر إلى مكان (اللبث) حتى احتمل بعضهم أنّ المراد منه هو لبثهم فى الدنيا، الذى هو فى الواقع بمثابة لحظة عابرة لا أكثر، إلّا أنّ الآية التى بعدها دليل واضح على أن المراد منه هو اللبث فى عالم البرزخ .. و عالم ما بعد الموت .. و ما قبل القيامة، لأنّ جملة لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ تنهى هذا اللبث إلى يوم القيامة، و لا يصح هذا إلّا فى شأن البرزخ (فلاحظوا بدقة).

و نعرف- هنا أيضا- أن «البرزخ» ليس للجميع على شاكلة واحدة، فقسم له فى البرزخ حياة واعية، و قسم مثلهم كمن يغط فى نوم عميق- فى عالم البرزخ- و يستيقظون فى يوم القيامة، و يتصورون آلاف السنين ساعة واحدة[۳۸۷].

مسألتان

الأوّل: كيف يقسم المجرمون مثل هذا القسم الكاذب؟

و الجواب واضح، فهم يتصورون- واقعا- مثل هذا التصور، و يظنون أن فترة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۴

البرزخ كانت قصيرة جدّا، لأنّهم كانوا فى حالة تشبه النوم، أ لا ترى أن أصحاب الكهف الذين كانوا صالحين مؤمنين، حين أفاقوا بعد نوم طويل، تصوروا أنّهم لبثوا يوما أو بعض يوم فى منامهم.

أو أن أحد الأنبياء الواردة قصته فى سورة البقرة (الآية ۲۵۹) بعد أن أماته اللّه مائة عامة ثمّ بعثه للحياة ثانية، لم يظهر فى تصوره غير أنّه لبث يوما أو بعض يوم.

فما يمنع أن يتصور المجرمون- مع ملاحظة حالتهم الخاصة فى عالم البرزخ و عدم اطلاعهم- مثل هذا التصور!؟

لذا يقول المؤمنون الذين أوتوا العلم- كما تذكره الآية التى تأتى بعد هذه الآية-: إنّكم غير مصيبين فى قولكم، إذ لبثتم فى عالم البرزخ إلى يوم القيامة، و هذا هو يوم القيامة!.

و من هنا تتّضح المسألة الثّانية. أى تفسير جملة كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ لأنّ «الإفك» فى الأصل معناه تبدل الوجه الحقيقى و الانصراف عن الحق، و هذه الجماعة ابتعدت عن الواقع لحالتها الخاصة فى عالم البرزخ، فلم تستطع أن تحدد لبثها فى عالم البرزخ.

و مع ملاحظة أنّه لا حاجة لنا إلى الأبحاث الطويلة التى بحثها جمع من المفسّرين، و فى أنّه لم يكذب المجرمون عمدا فى يوم القيامة، لأنّه ليس فى الآية دليل على كذبهم العمد فى هذه المرحلة!.

و بالطبع فإنّنا نرى فى آيات القرآن الأخر أمثلة من أكاذيب المجرمين يوم القيامة، و قد بيّنا الإجابة المفصلة على كل ذلك فى ذيل الآية (۲۳) من سورة الأنعام، لكن ذلك البحث لا علاقة له بموضوع هذه الآيات! أمّا الآية التالية فتتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ و القيامة فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۵

تَعْلَمُونَ

و تقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

و التعبير فِي كِتابِ اللَّهِ لعله إشارة إلى الكتاب التكوينى، أو إلى الكتاب السماوى، أو إشارة إليهما معا، أى كان- بأمر اللّه التكوينى و التشريعى- مقدّرا أن تلبثوا مثل هذه المدّة فى البرزخ، ثمّ تحشرون فى يوم القيامة[۳۸۸].

و فى أن المقصود ب الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ من هم؟! قال بعض المفسّرين: هى إشارة إلى ملائكة اللّه الذين لهم علم و هم

مؤمنون أيضا.

و قال بعضهم: المقصود هم المؤمنين العالمون، و المعنى الثّانى أظهر طبعا.

و ما ورد فى بعض الرّوايات من تفسير هذه الآية بالأئمّة الطاهرين، فهو من قبيل المصداق الواضح لها، و لا يحدد معناها الوسيع.

و هذه اللطيفة جديرة بالالتفات، و هى أن بعض المفسّرين قالوا: إنّ ما قاله المجرمون مقسمين بأنّهم ما لبثوا غير ساعة، و ما ردّه عليهم الذين أوتوا العلم و الإيمان بأنّهم لبثوا إلى يوم البعث، هذه المحاورة و الكلام منشؤهما أنّ الطائفة الأولى- لأنّهم كانوا يتوقعون العذاب- كانوا يرغبون فى تأخيره، و كانت الفاصلة و إن طالت بالنسبة لهم قصيرة جدّا عندهم.

أمّا الطائفة الثّانية فلأنّهم كانوا ينتظرون الجنّة و نعمها الخالدة و راغبين فى تقديمها، فكانوا يرون الفاصلة طويلة جدّا[۳۸۹].

و على كل حال، فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۶

ندمهم و يتوبون و يعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هذا الصدد: فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۳۹۰] و تجدر الإشارة إلى هذه المسألة، و هى أن فى بعض آيات القرآن تصريحا بعدم الإذن للمجرمين أن يعتذروا وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۳۹۱] غير أنّ الآية محل البحث تقول: لا ينفعهم الاعتذار هناك، و ظاهرها أنّهم يعتذرون، إلّا أنّه لا أثر لاعتذارهم.

و بالطبع فإنّه لا تضاد بين هذه الآيات، لأنّ يوم القيامة فيه مراحل مختلفة، و فى بعض المراحل لا يؤذن للمجرمين بالاعتذار أبدا و يختم على أفواههم ...

و إنّما تتحدث الجوارح بما أساءت فحسب ... و فى بعض المراحل تنطلق ألسنتهم بالاعتذار، إلّا أنّه ... لا ينفعهم الاعتذار أبدا ...؟! و واحد من أعذارهم أنّهم يلقون تبعات ذنوبهم على أشياخهم فى الكفر و النفاق، فيقولون لهم: لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۳۹۲]، إلّا أن أولئك يردون عليهم بالقول: أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ ۳۹۳] و أحيانا يلقون اللوم على الشيطان فى تضليلهم و انحرافهم و أنّه وسوس لهم، إلّا أن الشيطان يجيبهم فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ۳۹۴]، أى لم أكرهكم على الكفر، إلّا أنّكم استجبتم لى برغبتكم.

و فى الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها فى هذه السورة ... إذ تقول: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لقد ذكرنا فيه الوعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۷

و الوعيد، الأمر و النهى، البشارة و الإنذار، الآيات الآفاقية و الأنفسية، دلائل المبدأ و المعاد و الأخبار الغيبية و الخلاصة ذكرنا فيه كل شىء يمكن أن يؤثر فى نفوس الناس.

و فى الحقيقة، إنّ فى القرآن- بشكل عام- و سورة الروم- بشكل خاص- حيث نحن الآن فى مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل و الدروس الموقظة لكل فئة، و لكل طبقة، و لكل جماعة، و لكل فكر و أسلوب ... مجموعة من العبر، و المسائل الأخلاقية، و الخطط و المناهج العملية، و الأمور الاعتقادية، بحيث استفيد من جميع الطرق و الأساليب المختلفة للنفوذ فى أفكار الناس و دعوتهم إلى طريق السعادة! و مع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر فى قلوبهم المظلمة السوداء أى من هذه الأمور، لذلك يقول القرآن فى شأنهم: وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ

و التعبير ب «مبطلون» تعبير جامع يحمل كل معانى الدجل و الافتراء و النسب الكاذبة و الفاسدة من قبل المشركين، كنسبة الكذب للنبى صلّى اللّه عليه و آله و السحر و الجنون و الأساطير الخرافية، إذ أن كل واحد من هذه الأمور يمثل وجها من وجوه الباطل، و قد جمعت كل هذه الأمور تحت كلمة «مبطلون».

أجل، إنّهم كانوا يتهمون الأنبياء دائما بواحد من هذه الأمور الباطلة، ليشغلوا عنهم الناس الطيبين الطاهرين و لو لعدّة أيّام- بما ينسبونه

للأنبياء ممّا أشرنا إليه.

و المخاطب فى كلمة «أنتم» يمكن أن يكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين، و يمكن أن يكون جميع أصحاب الحق من الأنبياء و الائمّة المعصومين عليهم السّلام و أتباعهم، لأنّ هذه المجموعة من الكفار تخالف جميع اتباع الحق.

و الآية التى بعدها تبيّن السبب فى مخالفة هذه الطائفة، فتقول: إن لجاجة هؤلاء التى لا حدّ لها و عداءهم للحق، إنّما هو لفقدانهم الإحساس و الإدراك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۸

بسبب كثرة ذنوبهم، و لأنّهم لا يعلمون شيئا ... إذ تقول: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

و كلمة «يطبع» مأخوذة من الطبع، و معناها ختم الشىء، و هى إشارة إلى ما كان يجرى فى السابق، و هو جار أيضا اليوم إذ يختم على الشىء كيلا يتصرف به و يغلق بإحكام، و قد يضعون عليه القفل و يضربون عليه مادة لزجة مختومة بإشارة معينة كما بيّنا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشىء إلّا بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

و كان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التى لا ينفذ إليها النصح، و الذين فقدوا الوجدان و العقل و العلم، و لا أمل فى هدايتهم.

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ فى الآيات السابقة ذكر العلم أساسا للإيمان، و فى هذه الآية ذكر الجهل أساسا للكفر و عدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية- من الآيات محل البحث- التى تقع فى آخر سورة الروم، فهى تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أمرين مهمين، و تبشره بشارة كبرى، لتحثه على مواصلة الوقوف و التصدى للمشركين و الجاهلين و السفهاء بالاستقامة و الصبر.

تقول أوّلا: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر و الاستقامة امام الحوادث المختلفة، و فى مقابل انواع الأذى و البهتان و المصاعب فَاصْبِرْ.

لأنّ الصبر و الاستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

و ليكون النّبى صلّى اللّه عليه و آله أكثر اطمئنانا، فإنّ الآية تضيف إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فقد وعدك و المؤمنين بالنصر، و الاستخلاف فى الأرض، و غلبة الإسلام على الكفر، و النور على الظلمة، و العلم على الجهل. و سوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل!.

و كلمة «الوعد» هنا إشارة إلى الوعود المكررة التى وعدها القرآن فى انتصار المؤمنين، و من ضمنها الآية (۴۷) من هذه السورة وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و الآية (۵۱) من سورة غافر إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۲، ص: ۵۷۹

وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ!.

و تقول الآية (۵۶) من سورة المائدة أيضا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و تأمر ثانيا بضبط الأعصاب و الهدوء و عدم الانحراف فى المواجهة الشديدة و المتتابعة، حيث تقول الآية: وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ

إنّ مسئوليتك أن تتحمل كل شىء، و أن يتسع صدرك و خلقك لجميع الناس فهذا هو الجدير بقائد و زعيم لأمثال هؤلاء.

كلمة لا يَسْتَخِفَّنَّكَ مشتقّة من «الخفة» و هى خلاف الثقل، أى كن رزينا قائما على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد و يحركوك من مكانك، و كن ثابتا و مواصلا للمسيرة باطمئنان، إذ أنّهم فاقدو اليقين، و أنت مركز اليقين و الإيمان!.

هذه السورة بدأت بوعد انتصار المؤمنين على الأعداء، و انتهت أيضا بهذا الوعد، إلّا أن شرطها الأساس هو الصبر و الاستقامة!.

ربّنا، هب لنا صبرا و استقامة حتى لا يهزنا طوفان الحوادث و المشاكل من مكاننا أبدا.

إلهنا، نلتجئ إلى ذاتك المقدسة، ألّا نكون من زمرة الذين لا تؤثر فى قلوبهم الموعظة و النصح و الإرشاد و العبر و النذر!.

إلهنا، إن أعداءنا متحدون، و هم مسلّحون بأنواع الأسلحة الشيطانية، فانصرنا- ربّنا- على أعدائنا فى الخارج، و شيطاننا فى الداخل.

آمين يا رب العالمين انتهاء سورة الروم و نهاية المجلد الثانى عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البيان ذيل الآيات و تفسير الثقلين، ج ۴، ص ۷۴.

[۲] (۲)-« ثواب الأعمال» نقلا، نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۴.

[۳] (۱)-« المبين» مشتق من(الإبانة) و كما يقول بعض المفسّرين« كالآلوسى فى روح المعانى»: إنّ هذه المادة قد يأتى فعلها لازما، و قد يأتى متعديا ففى الصورة الأولى يكون مفهوم المبين هو الواضح و البيّن، و فى الصورة الثّانية يكون مفهومه الموضح!

[۴] (۱)-« تلقى» فعل مضارع مبنى للمفعول، و هو من باب التفعيل، و الفعل الثلاثى المجرّد من هذه المادة(لقى) و هو يتعدى إلى مفعول واحد. أمّا المزيد فيتعدى إلى مفعولين. و فى الآية محل البحث(اللّه) هو الفاعل و ملقى القرآن، و النّبى(مفعول به أول)، و القرآن مفعول ثان، و حيث أنّ الفعل بنى للمجهول يقوم المفعول الأوّل مقام الفاعل فرفع، و أمّا المفعول الثّانى فعلى حالة.

[۵] (۱)- المفهوم اللغوى للاستعمار مفهوم جميل، يعنى الإعمار كما جاء فى القرآن i وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيها\E إلّا أن المفهوم السياسى للاستعمار هو التسلط من قبل الأجنبى و استثماره لخيرات الشعوب(المصحح).

[۶] (۱)-« آنست» فعل ماض مأخوذ من(الإيناس) و هو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية و السكينة و إنما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

[۷] (۲)-« الشهاب» هو النور الذى ينبثق من النار كالعمود، و كل نور له عمود يدعى شهابا، و فى الأصل يطلق الشهاب على واحد النيازك التى تهوى من السماء بسرعة مذهلة فتحرق بسبب اصطدامها بالغلاف الجوى فيكون لها عمود من نار،« و القبس» شعلة من النار تنفصل عنها.« و تصطلون» من الاصطلاء و هو الدفء(بالنار) ..

[۸] (۱)- يعتقد بعض المفسّرين أنّ« الجان» مأخوذ من الجن، و هو الموجود غير المرئى، لأنّ الحيّات الصغيرة تتحرك بين العشب فى الأرض و تخفى نفسها.

[۹] (۱)- القصص، ۱۶.

[۱۰] (۱)- الجار و المجرور« فى تسع آيات» إمّا متعلقان بجملة(اذهب) أو بأحد أفعال العموم المقدرة .. و قد تكون(فى) بمعنى(مع) و(إلى فرعون) متعلق بالجملة ذاتها، أو بجملة أنت مرسل بها المفهومة من السياق تقديرا.

[۱۱] (۱)- الكافى، ج ۲، باب وجوه الكفر ص ۲۸۷.

[۱۲] (۱)- راجع كتاب الإحتجاج للطبرسى طبقا لما جاء فى تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۵.

[۱۳] (۱)- يقول ابن منظور فى لسان العرب:« النطق» هو التكلم، ثمّ يضيف« و كلام كل شىء منطقه. و منه قوله تعالى\i:عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ\E ثمّ ينقل عن بعض علماء العرب- و هو ابن سيده- أنّه« خلافا لما قال بعضهم: إن النطق خاص بالإنسان. فقد يستعمل النطق فى غير الإنسان». و ينبغى الالتفات إلى أن الفلاسفة و علماء المنطق أطلقوا النطق على القدرة على التفكير الذى يعطى الإنسان التمكن من الكلام ...

[۱۴] (۲)- الجاثية، الآية ۲۹.

[۱۵] (۱)- كان لنا بحث آخر ذيل الآية(۳۸) من سورة الأنعام.

[۱۶] (۱)- لمزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبى ذيل الآيات محل البحث و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۷۷، فما بعد ..

[۱۷] (۲)- المصدر السابق، ص ۸۱.

[۱۸] (۱)- صحيح البخارى- الجزء الثامن، ص ۱۸۵.

[۱۹] (۲)- تفسير القرطبى، ج ۷، ذيل الآيات محل البحث، ص ۴۸۸۰.

[۲۰] (۱)- سيرة الحلبى، ج ۳، ص ۴۸۸.

[۲۱] (۲)- شرح نهج البلاغة، لابن أبى الحديد، ج ۱۶، ص ۲۸۴.

[۲۲] (۳)- صحيح الترمذى، باب العلم، الحديث ۱۹، و سنن ابن ماجة مقدمة الحديث ۱۷.

(،)- أصول الكافى، ج ۱، باب صفة العلم، الحديث ۲.

[۲۳] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۹، ص ۲۱۰.

[۲۴] (۱)- قال بعض المفسّرين: إن(التاء) فى النملة للوحدة، و تأنيث الفعل مراعاة لظاهر الكلمة! ..

[۲۵] (۱)-« أوزعنى» من مادة(إيزاع) و معناه« الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق و التعلق، إلّا أن أغلب المفسّرين اختاروا المعنى الأوّل.

[۲۶] (۱)- تحدثنا فى تفسير الآية(۳۸) من سورة الأنعام عن هذا الشأن أيضا ..

[۲۷] (۱)- كلمة« ألّا» مركبة من(أن و لا) كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين، و هى متعلقة بجملة(فصدهم) أو« زين لهم الشيطان» و قدروا لها اللام فتكون الجملة هذا النحو من التقدير« صدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا للّه» إلّا أن الظاهر أن(ألّا) حرف تحضيض و معناه(هلّا) و كما قلنا فى المتن فإنّ هذه الجملة من كلام الهدهد تعقيبا على ما سبق، و إن كان هناك من يقول بأنها استئنافية و إنها من كلام اللّه.

[۲۸] (۱)- لا بأس بمراجعة دائرة المعارف لمحمّد فريد و جدى، ج ۱۰، ص ۴۷۰ مادة« الهدهد» بالرغم من أن الرّواية المذكورة هناك لم تخل من المبالغات! ...

[۲۹] (۱)- قال بعض المفسّرين: إن جملة« ثمّ تول عنهم» مؤخرة معنى، و إن تقدمت فى العبارة، و أصلها هكذا: فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم ... و إنّما قدروا ذلك لأنّ تولّ عنهم معناه العودة و الرجوع، مع أن ظاهر الآية أنّه ألق الكتاب و اعرض عنهم و انظر فى مكان مشرف لترى رد فعلهم! ...

[۳۰] (۱)- ورد فى الحديث أن كون الكتاب كريما هو بخاتمه« تفسير مجمع البيان و الميزان و القرطبى». و جاء فى حديث آخر أن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أراد أن يكتب رسالة للعجم، فقيل له: إنّهم لا يقبلونها إلّا بالخاتم، فأمر النّبى أن يصنع له خاتم و نقشه« لا اله إلّا اللّه محمّد رسول اللّه» و ختم الرسالة أو الكتاب بذلك الخاتم« القرطبى ذيل الآيات محل البحث».

[۳۱] (۲)- جملة« ألّا تعلوا على» يمكن أن تكون بمجموعها بدلا من(كتاب) و بيان لمحتواه. كما يمكن أن تكون(أن) تفسيرية فهى هنا بمعنى(أى)- كما يحتمل أن(أن) تكون متعلقة بمحذوف و تقديره: أوصيكم ألا تعلوا إلخ.

[۳۲] (۱)- الخصال- للصدوق، طبقا لما جاء فى البحار، ج ۷۶، ص ۴۹.

[۳۳] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار- الجملة ۳۰۱.

[۳۴] (۲)- البحار، ج ۷۶، ص ۵۰.

[۳۵] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۴۲۷« كتاب الحج أبواب العشرة باب ۳۲».

[۳۶] (۴)- النساء، الآية ۸۶.

[۳۷] (۱)- تفسیر الرازی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۸] (۱)- آل عمران، الآیة ۱۵۹.

[۳۹] (۲)- الشوری، الآیة ۳۸.

[۴۰] (۳)- لمزید الإیضاح فی موضوع الشوری یراجع تفسیر الآیة(۱۵۹) من سورة آل عمران.

[۴۱] (۱)- تفسیر روح البیان ذیل الآیة محل البحث.

[۴۲] (۱)- الأنفال، الآیة ۶۰.

[۴۳] (۱)- کلمة« آتیک» ربّما کانت اسم فاعل مضاف إلی(الکاف) و یمکن أن تکون فعل؛ مضارعا من(أتی) إلّا أن الاحتمال الأوّل یبدو أقرب للنظر!

[۴۴] (۱)- و ما قاله بعضهم بأنه سلیمان أو جبرئیل فلا دلیل علیه ... و کونه سلیمان نفسه(فهو) مخالف لظاهر الآیات قطعا!

[۴۵] (۱)- کان لنا فی ذیل الآیة(۱۸۰) من سورة الأعراف بحث فی شأن الاسم الأعظم، فلا بأس بمراجعته.

[۴۶] (۲)- ما یقوله بعضهم: إن المراد من(یرتد إلیک طرفک) هو إلقاء النظرة علی شیء ما و عودة النظرة للإنسان لا دلیل علیه، کما أن هذا التعبیر لا یکون شاهدا علی النظریة القائلة بخروج الشعاع من العین الواردة فی الفلسفة- القدیمة.

[۴۷] (۱)- هذا الجواب نفسه أجاب به الإمام الهادی یحیی بن أکثم کما جاء فی روایة عن تفسیر العیاشی ذیل الآیة محل البحث.

[۴۸] (۱)- نقل هذا الحدیث جماعة من المفسّرین و علماء السنة بالعبارة ذاتها أو ما یقرب منها، و لمزید الإیضاح یراجع الجزء الثّالث من إحقاق الحق، ص ۲۸۰ و ۲۸۱.

[۴۹] (۲)- راجع اصول الکافی و تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۹۰.

[۵۰] (۱)- کان لنا بحث مفصّل فی أهمیّة الشکر، و تأثیره علی زیادة النعمة، و أقسام الشکر« التکوینی و التشریعی» فی ذیل الآیة السابقة من سورة إبراهیم.

[۵۱] (۱)- للمفسّرین أقوال مختلفة فی فاعل(صدّ) و أنّ(ما) هل هی موصولة أو مصدریة، فقال جماعة من المفسّرین. إن الفاعل هو سلیمان کما بیّناه فی المتن، و بعضهم قال: بل هو اللّه، و النتیجة تکاد تکون واحدة و طبقا لهذین التّفسیرین تکون« ها» مفعولا أوّلا و(ما کانت) مکان المفعول الثّانی، و إن کان أصلها جارا و مجرورا، أی و صدها سلیمان أو اللّه عما کانت تعبد من دون اللّه. إلّا أن جماعة ذهبوا إلی أن فاعل صدّ، هو(ما کانت)، لکن حیث أن الکلام عن إیمانها لا کفرها فالتّفسیر الأوّل أنسب .. و أمّا کلمة(ما) فقد تکون موصولة .. أو مصدریة.

[۵۲] (۲)-« صرح» معناه الفضاء الواسع، و قد یأتی بمعنی البناء العالی و القصر و فی الآیة المشار إلیها آنفا معناه ساحة القصر أی فضاءه الواسع ظاهرا.

[۵۳] (۳)-« اللّجة» فی الأصل مأخوذة من اللجاج، و معناه الشدّة، ثمّ أطلق علی ذهاب الصوت و إیابه فی الحنجرة تعبیر(لجة) علی وزن(ضجة)، أمّا الأمواج المتلاطمة فی البحر فتسمی(لجة) علی وزن(جبة) و هی هنا فی الآیة بهذا المعنی الأخیر.

[۵۴] (۱)-« الممرد» معناه الصافی ... و(القواریر) جمع قارورة و هی الزجاجة.

[۵۵] (۱)- الآلوسی فی روح المعانی.

[۵۶] (۱)- جملة(أن اعبدوا اللّه) مجرورة بحرف جر مقدر و أصلها: و لقد أرسلنا إلی ثمود أخاهم صالحا بعبادة اللّه.

[۵۷] (۱)- کلمة(فریقان) تثنیة، و فعلها مسند إلی ضمیر الجمیع، و ذلک لأنّ کل فریق یتألف من جماعة ... فأخذ الجمع بنظر الإعتبار ..

[۵۸] (۱)- الأنفال، الآیة ۳۲.

[۵۹] (۱)- الأعراف، ۱۳۱.

[۶۰] (۱)- يشير الكميت الأسدى إلى بعض هذه الخرافات فى قصيدته البائية فيقول:

و لا أنا ممن يزجر الطير همّهأ صاح غراب أم تعرض ثعلب

و لا السانحات البارحات عشيةأمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب (المصحح).

[۶۱] (۱)- المفازاة تأتى بمعنى الفوز، و تأتى بمعنى الهلاك ... فهى من الأضداد فى اللغة- و هنا معناها الصحراء المهلكة(المصحح).

[۶۲] (۱)-« الرهط» من الناس ما لا يقل عن الثلاثة و لا يزيد عن العشرة، و هو اسم جنس لا مفرد له من نوعه و يجمع على أراهط و أرهاط- و لا يكون فى الرهط امرأة(المصحح).

[۶۳] (۱)- الأعراف، الآية ۷۸.

[۶۴] (۲)- الذاريات، ۴۴.

[۶۵] (۳)- هود، ۶۷.

[۶۶] (۱)- راجع الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و القرطبى فى تفسيره المعروف، ذيل الآيات محل البحث.

[۶۷] (۲)- مجمع البيان ذيل الآية محل البحث ..

[۶۸] (۱)- تفسير روح البيان ذيل الآية محل البحث ..

[۶۹] (۱)- يحتمل أن« و لوطا» منصوب بالفعل(أرسلنا) الذى سبق ذكره فى الآيات المتقدمة، و يحتمل أن يكون منصوبا بفعل محذوف تقديره(اذكر) و حيث جاء بعد الكلمة(إذ قال) فالاحتمال الثّانى أنسب ...

[۷۰] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۸۲.

[۷۱] (۱)-« الغابرين» جمع الغابر و معناه هنا الباقى من الذاهبين من المكان.

[۷۲] (۱)(آللّه) أصلها(أ اللّه) فانقلبت إحدى الهمزتين ألفا ثمّ صارت مدة كما هى عليه الآن .. و جملة(أمّا يشركون) أصلها(أم ما يشركون) إذ أدغمت(أم) المعادلة الاستفهامية بما الموصولة فصارت(أمّا).

[۷۳] (۱)- كلمة(ذات) فى« ذات بهجة» جاءت مفردة، مع أن حدائق جمع و هى موصوفها، و ذلك لأنّ الحدائق جمع تكسير، و جمع التكسير قد يأتى أحيانا بمعنى الجماعة، و هى- أى لفظة الجماعة- مفرد و صفتها مفردة أيضا ..

[۷۴] (۲)- هذه الآية فى الحقيقة فيها حذف و تقديره: ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض؟ و فى الحقيقة إن السؤال فى الآية السابقة كان هكذا: اللّه خير أم الشركاء؟ و هنا يبدأ السؤال بالعكس: ما يشركون خير أم من خلق السماوات و الأرض.

[۷۵] (۱)- قد يكون(يعدلون) من مادة(العدول) أى الانحراف و الرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة(عدل) على وزن(قشر) و معناه المعادل و النظير .. ففى الصورة الأولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن اللّه الواحد إلى غيره، و فى الصورة الثّانية مفهومها أنّهم يجعلون له عديلا.

[۷۶] (۲)-« الخلال» فى الأصل معناه الشق بين الشيئين. و« الرواسى» جمع« راسية»، و هى الثابتة.

[۷۷] (۱)- العنكبوت، الآية ۶۵.

[۷۸] (۲)(ما) فى قوله تعالى\:i قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ E زائدة ظاهرا، و نعرف أن الحروف الزائدة فى كثير من المواطن للتأكيد، و(قليلا) صفة لمصدر محذوف و تقديره: تتذكرون تذكرا قليلا.

[۷۹] (۱)- فبناء على هذا المعنى يكون(خلفاء الأرض) بمعنى: خلفاء فى الأرض.

[۸۰] (۲)-« بشر» على وزن« عشر»- كما ذكرنا آنفا- مخفف بشر على وزن« كتب»، و هى جمع« بشور» على وزن« قبول» و معناه

المبشر.

[۸۱] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۹۴.

[۸۲] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۹۴.

[۸۳] (۱)- كان لنا بحوث مفصلة فى علم الغيب فى الأجزاء السابقة فى هذا التّفسير.

[۸۴] (۱)-« تكنّ» مأخوذ من كنّ على وزن جنّ، و هذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء و تحفظ، و هنا كناية عن ما يخطر فى قلوب الكفّار من خواطر و أفكار عدوانية! ..

[۸۵] (۲)-« الغائبة» اسم فاعل مشتق يدل على الوصف، و كما يعتقد بعضهم« التاء» ليست فى هذه الكلمة للتأنيث، بل هى إشارة للأشياء المخفية، فهى للمبالغة فى الخفاء ... إلا أنّه لا مانع من أن نحتمل أن التاء للتأنيث، و أن موصوفها محذوف، و تقديره: و ما من خصلة غائبة. أو أشياء غائبة، و اللّه العالم ..

[۸۶] (۱)- سورة مريم، الآية ۳۰.

[۸۷] (۲)- آل عمران، الآية ۵۹.

[۸۸] (۱)- قال جماعة من المفسّرين: إن هذه الجملة و الجمل الأخر التى تليها بمثابة الدليل على لزوم توكل النّبى على اللّه و عدم يأسه ... مع أن الظاهر أنّها جواب على سؤال يثار فى شأن القرآن و كونه هو« الحق المبين».

[۸۹] (۱)- كان لنا بحث مفصل« فى الموت و الحياة الروحيين» فى ذيل الآية(۲۴) من سورة الأنفال.

[۹۰] (۲)- الرسالة الثّانية من الهديّة السنية لمحمّد بن عبد الوهاب، ص ۴۱.

[۹۱] (۳)- لمزيد من الإيضاح يراجع كتاب كشف الارتياب ص ۱۰۹ للسيد محسن الأمين العاملى.

[۹۲] (۱)- صحيح البخارى، ج ۵، ص ۹۷، باب قتل أبى جهل.

[۹۳] (۲)- شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱، ص ۲۴۸.

[۹۴] (۳)- نهج البلاغة- الكلمات القصار رقم ۱۳۰.

[۹۵] (۱)- جملة(أمّا ذا كنتم تعملون) جملة استفهاميّة و(أما) مركبة من(أم) التى هى حرف عطف و تأتى بعد همزة الاستفهام عادة، و تسمّى بالمعادلة، و(ما) الاستفهامية. و معنى الآية: أو أىّ شىء كنتم تعملون.

[۹۶] (۱)- مجمع البيان ذيل الآية محل البحث.

[۹۷] (۲)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث ..

[۹۸] (۳)- المصدر السابق.

[۹۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۵۲، خ ۳.

[۱۰۰] (۲)- تفسير الرازى، ج ۸ ص ۴۲۳.

[۱۰۱] (۱)- سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۱۱، مادة رجع.

[۱۰۲] (۱)- انظر عقائد الإمامية- للشيخ محمّد رضا المظفر ص ۷۱.

[۱۰۳] (۲)- يعنى« بالرجعة».

[۱۰۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۱۲۲.

[۱۰۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۵۳، ص ۳۹.

[۱۰۶] (۱)- الأنعام، الآية ۲۸.

[۱۰۷] (۱)- هذا النوع من التعبير يسمّى عند البلاغيين ب« المجاز العقلى»، و يراد منه إسناد الفعل أو ما فى معناه« كاسم الفاعل و اسم

المفعول» لغیر ما وضع له لعلاقة، منها العلاقة الزمانیة، فیقال مثلا: نهار الزاهد صائم و لیله قائم.(المصحح)

[۱۰۸] (۱)-« صنع اللّه» منصوب بفعل محذوف تقدیر(أنذر صنع اللّه) أو ما شاکله.

[۱۰۹] (۲)- سورة الحج، الآیة ۲.

[۱۱۰] (۱)- المراد من« الحرکة الجوهریة» هو أنّ أشیاء عالم المادة بالإضافة إلی ما یحصل فیها من تغییرات مختلفة فی الکیفیة و الکمیة و المکان و ما أشبه ذلک! فیها حرکة فی داخلها« و جوهرها» أی أنّها وجود سیال و متحرک، و التغییرات الظاهریة هی انعکاس عن التغییرات الداخلیة لها .. و بتعبیر آخر: إن لدینا وجودین مختلفین ذاتا ..

الوجود الثابت« الوجود ما وراء المادی»، و وجود سیال و متحرک« الوجود المادی» و أهم دلیل علی إثبات هذه النظریة مسألة وجود الزمان للموجودات المادیة و عدم انفصال التغییرات الظاهریة عن التغییرات الباطنیة، و یطول بنا البحث فی هذا الصدد و هو خارج عن موضوعنا هنا.

[۱۱۱] (۱)- اصول الکافی، وفقا لما جاء فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۰۴.

[۱۱۲] (۱)- یراجع فی هذا الشأن« تاریخ القرآن» لأبی عبد اللّه الزنجانی و« الفهرست» لابن الندیم، و کتب التّفسیر الأخری ..

[۱۱۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان فی بدایة سورة القصص.

[۱۱۴] (۱)- ثواب الأعمال طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین فی بدایة سورة القصص.

[۱۱۵] (۱)- و نذکر ضمنا أنّ التعبیر ب« تلک» المستعملة للإشارة للبعید- کما بیّنا سابقا- لبیان عظمة هذه الآیات أیضا ..

[۱۱۶] (۱)- راجع فی ذلک مجمع البیان، ج ۷، ص ۲۳۹، و التّفسیر الکبیر للفخر الرازی ذیل الآیات.

[۱۱۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۱۸] (۳)- راجع التّفسیر الکبیر للفخر الرازی- ذیل الآیة محل البحث.

[۱۱۹] (۱)- ممّا یلفت النظر أنّ مادة(ذبح) فی الفعل الثلاثی مجرّدة، و فعلها متعدّ بنفسه، و لکنّها هنا استعملت بصیغة التفعیل لتدلّ علی الکثرة، کما تستفاد من صیغة المضارع الاستمرار علی هذه الجنایة[فلاحظوا بدقة].

[۱۲۰] (۱)- التّفسیر الکبیر الفخر الرازی ذیل الآیات محل البحث.

[۱۲۱] (۱)- نهج البلاغة- الکلمات القصار رقم ۲۰۹.

[۱۲۲] (۲)- الغیبة للشیخ الطوسی حسب نقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۰.

[۱۲۳] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة.

[۱۲۴] (۱)- النساء، الآیة ۷۵.

[۱۲۵] (۲)- النساء، الآیة ۹۷.

[۱۲۶] (۱)- ورد هذا القسم من الرّوایة عن ابن عباس فی تفسیر الفخر الرازی کما هناک روایات آخرها فی تفسیر« أبو الفتوح» و« مجمع البیان».

[۱۲۷] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: إن الفرق بین« الخاطئ»« و المخطئ» هو أنّ الخاطئ هو من یقدم علی عمل لا- یخرج من عهدته و یطوی طریق الخطأ بنفسه ..

أمّا المخطی فیقال فی من یقدم علی عمل و یخرج من عهدته، إلّا أنّه یخطئ فی الأثناء صدفة، فیتلف العمل.

[۱۲۸] (۱)-« المراضع» جمع« مرضع» علی زنة« مخبر» و معناها المرأة التی تسقی الطفل لبنها من ثدیها، و قال البعض:

(المراضع) جمع(مرضع) علی زنة(مکتب) أی مکان الإرضاع، أی،« الأثداء» و قال البعض: یحتمل أن تکون الکلمة جمعا للمصدر المیمی« مرضع» بمعنی الرضاع، و لکن المعنی الأوّل أنسب کما یبدو ..

[۱۲۹] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۴، ص ۲۳۱.

[۱۳۰] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۶.

[۱۳۱] (۱)- تحدثنا عن الجذر اللغوی لمادة« تقرّ عینها» فی ذیل الآیة« ۷۴» من سورة الفرقان- فیراجع هناک.

[۱۳۲] (۲)- الشعراء، الآیة ۱۸.

[۱۳۳] (۱)- لاحظ تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لما ورد فی نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۳۴] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۳۵] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۲۴۹[باب ۲۰ من أبواب الصلوات المندوبة].

[۱۳۶] (۲)-« وکز» مأخوذ من« الوکز» علی زنة« رمز» و معناه الضرب بقبضة الید، و هناک معان اخری لا تناسب المقام ..

[۱۳۷] (۱)- عیون أخبار الرضا طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۹.

[۱۳۸] (۱)- سورة هود، الآیة ۱۱۴.

[۱۳۹] (۲)- تحف العقول، ص ۶۶.

[۱۴۰] (۱)- کان لنا بحثان مستوفیان فی مجال إعانة الظالمین فی ذیل الآیة(۲) من سورة المائدة و ذیل الآیة(۱۱۲) من سورة هود، فلا بأس بمراجعتهما.

[۱۴۱] (۱)- کلمة« یترقب» مأخوذة من« الترقب»، و معناه الانتظار، و موسی هنا فی انتظار نتائج هذه الحادثة، و محل الجملة إعرابا- خبر بعد خبر، و إن قیل أنها حال، إلا أن هذا القول ضعیف.

[۱۴۲] (۲)- کلمة« یستصرخ» مشتقة من مادة« الاستصراخ»، و معناها الإستغاثة، و لکنها فی الأصل تعنی الصیاح أو طلب الصیاح من الآخر، و هذا عادة ملازم للإعانة ...

[۱۴۳] (۱)- یعتقد جماعة من المفسّرین أن هذه الجملة قالها الإسرائیلی لموسی، لأنّه ظن أن موسی یرید قتله، و لکن القرائن الکثیرة فی الآیة تنفی هذا الاحتمال!

[۱۴۴] (۱)-« تلقاء» مصدر أو اسم مکان، و معناه هنا: الجهة و الصوب الذی قصده.

[۱۴۵] (۱)-« تذودان» مشتقة من« ذود» علی زنة« زرد» و معناها المنع، فهما إذا کانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخری.

[۱۴۶] (۲)- ما خطبکما: أی ما شأنکما و ما شغلکما هنا؟!

[۱۴۷] (۱)-« یصدر» مأخوذ من مادة« صدر» و معناه الخروج من الماء،« و الرعاء» جمع راع، و هو سائس الغنم.

[۱۴۸] (۱)- انظر: أبو الفتوح الرازی- ذیل الآیات.

[۱۴۹] (۱)- راجع أعلام القرآن، ص ۵۷۲.

[۱۵۰] (۲)- راجع روح المعانی، ج ۲۰، ص ۵۱.

[۱۵۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۱۷.

[۱۵۲] (۱)- هذا المضمون نفسه ورد فی روایة منقولة فی تفسیر علی بن إبراهیم، فقال لها شعیب: أمّا قوته فقد عرفتنیه إنّه یستقی الدلو وحده، فبم عرفت أمانته؟ فقالت:« إنّه لمّا قال لی تأخری عنّی و دلینی علی الطریق فإنّا من قوم لا ینظرون فی أدبار النساء عرفت أنّه لیس من الذین ینظرون أعجاز النساء فهذه أمانته».

[۱۵۳] (۱)- قال المحقق الحلی فی الشرائع« یصح العقد علی منفعة کتعلیم الصنعة و السورة من القرآن و کل عمل محلل، و علی إجارة الزوج نفسه مدّة معینة» و یضیف الفقیه الکبیر الشیخ محمّد حسن صاحب الجواهر بعد ذکر تلک العبارة قوله:« وفاقا للمشهور»(جواهر الکلام، ج ۳۱، ص ۴).

[۱۵۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۲۴۹.

[۱۵۵] (۱)- یظهر من الرّوایات الإسلامیة أنّ موسی علیه السّلام عمل مع شعیب عشر سنوات، و هذا الموضوع موجود فی کتاب وسائل الشیعة، ج ۱۵، الصفحة ۳۴(کتاب النکاح .. أبواب المهور. الباب ۲۲- الحدیث الرابع).

[۱۵۶] (۱)- راجع أعلام القرآن، ص ۴۰۹.

[۱۵۷] (۱)- کانت لنا بحوث عدیدة فی هذا المجال، فراجعها إن شئت فی« تفسیر سورة الأعراف» و« تفسیر سورة طه» و« تفسیر سورة الشعراء». و فی بعض السور الأخری.

[۱۵۸] (۱)- مقتبس من تفسیر أبی الفتوح الرازی ذیل الآیات محل البحث، ج ۸۹، ص ۳۶۲.

[۱۵۹] (۱)- تفسیر روح المعانی، التّفسیر الکبیر، للفخر الرازی، تفسیر المیزان و تفاسیر أخر ذیل الآیة محل البحث.

[۱۶۰] (۱)-« المقبوح» مشتق من« القبح» و معناه السوء. ما فسّره بعضهم بأنّ المقبوح معناه المطرود أو المفضوح أو المغضوب علیه و ما شاکلها، فهو من التّفسیر بلازم المعنی، و إلّا فالمقبوح معناه واضح.

[۱۶۱] (۱)- سورة الأنبیاء، الآیة ۷۳.

[۱۶۲] (۱)- تفسیر الصافی ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۶۳] (۲)- الإسراء، ۷۱.

[۱۶۴] (۳)- أمالی الصدوق لما ورد فی نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۹۲.

[۱۶۵] (۴)- سورة هود، ۹۸.

[۱۶۶] (۵)- راجع نهج البلاغة، الخطبة ۲۱۰.

[۱۶۷] (۱)-« البصائر» جمع« بصیرة» و أمّا« البصر» فجمعه« أبصار».

[۱۶۸] (۱)-« ثاوی» مشتق من(ثوی) و معناه الإقامة المقرونة بالاستقرار، و لذا سمّی المستقر و المکان الدائم بالمثوی.

[۱۶۹] (۲)- کان بین ظهور موسی علیه السّلام و ظهور النّبی(محمّد) صلّی اللّه علیه و آله حدود ألفی عام.

[۱۷۰] (۳)- قال بعض المفسّرین: یحتمل أن یکون المراد من« نادینا» هنا هو النداء الثّانی عند ما جاء موسی و سبعون رجلا من قومه إلی الطور، فجاءه النداء من اللّه، و لکن هذا الاحتمال بعید جدا؛ لأنّ هذه الآیات تشیر إلی المسائل التی أخبر عنها النّبی فی الآیات المتقدمة فی حین أنّه لم یکن حاضرا هناک و لم یکن من الشاهدین، و نعرف أن الآیات المتقدمة تتحدث عن حرکة موسی من مدین باتجاه مصر، و سماعه النداء من قبل اللّه لأول مرّة فی وادی الطور« فلاحظوا بدقة».

[۱۷۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۳۳.

[۱۷۲] (۱)- یصرّح کثیر من المفسّرین أنّ جواب« لولا» الأولی محذوف و تقدیره« لما أرسلنا رسولا» أو« لما وجب إرسال الرسل» .. و بدیهیّ أنّ التعبیر الثّانی أکثر دقّة و وضوحا .. و علی کل حال فهذا الکلام مربوط بأحکام یدرکه العقل مستقلا .. و إلّا فإن إرسال الرسل ضروریّ بدلائل أخری، علی أنّ واحدا من فوائد إرسال الرسل- أیضا- هو تأکید الأحکام العقلیة کبطلان الشرک و قبح الظلم و الفساد ..« فلاحظوا بدقّة».

[۱۷۳] (۱)- هذه الرّوایات فی أصول الکافی و بصائر الدرجات طبقا لما فی نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۳۲.

[۱۷۴] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۳۵۷، و ۳۵۸.

[۱۷۵] (۲)- المصدر السابق.

[۱۷۶] (۳)- المصدر السابق.

[۱۷۷] (۴)- مجمع البیان، ج ۷، ص ۲۵۸.

[۱۷۸] (۵)- المصدر السابق.

[۱۷۹] (۱)-« وصّلنا» مأخوذ من مادة« وصل» أی ربط، و حیث أنّها جاءت من باب التفعیل، فهی تدل علی الکثرة، و یستفاد منها التأکید أیضا ..

[۱۸۰] (۱)- تفسیر القمی، ج ۲، ص ۱۴۲.

[۱۸۱] (۱)- کلمة« معک» فی الآیة الآنفة متعلقة ب« نتبع»، و یحتمل أن تکون کلمة« معک» متعلقة ب« الهدی» و یکون التفاوت فی المعنی یسیرا ..

[۱۸۲] (۱)- مجمع البیان- ذیل الآیة محل البحث ...

[۱۸۳] (۲)-« یجبی» مشتق من مادة« جبایة»[« و نمکن» فی الآیة بمعنی نجعل و الجبابة معناها الجمع، لذلک یطلق علی الحوض الذی یجمع فیه الماء جابیة ... و نصب کلمة« حرم» علی أنّها مفعول لنمکن.

[۱۸۴] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۲۵، ص ۳.

[۱۸۵] (۱)- روح المعانی، ج ۲، ص ۸۴ ذیل الآیة محل البحث.

[۱۸۶] (۲)- الدر المنثور، ج ۵، ص ۱۳۳.

[۱۸۷] (۳)- الغدیر، ج ۸، ص ۲۰.

[۱۸۸] (۴)- الدر المنثور، ج ۵، ص ۱۳۳.

[۱۸۹] (۱)- راجع فی هذا الصدد تفسیر الصافی و تفسیر البرهان ذیل الآیة محل البحث.

[۱۹۰] (۱)- هناک بحث مفصل أوردناه لدی تفسیر الآیة ۳۶ من سورة الأنعام.

[۱۹۱] (۱)- فی أن الآیة هل تشمل المستقلات العقلیة أم لا، بحثنا فی ذلک بحثا مناسبا فی ذیل الآیة(۱۵) من سورة الإسراء.

[۱۹۲] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۲۵، ص ۶.

[۱۹۳] (۱)- و یحتمل فی الآیة الآنفة- أیضا- أنّ القائلین جوابا علی سؤال اللّه هم رؤوساء المشرکین« أی جماعة من عبدة الأصنام» فهم من أجل أن یفروا عن الجواب یتحدثون عن أتباعهم، و یقولون: ربّنا إنّنا غوینا فمضینا فی طریق الشرک، و هؤلاء اتبعونا طوعا فأغویناهم، و لکنّهم لم یطیعونا« العبادة فی الآیة الآنفة معناها الطاعة» و إنّما أطاعوا هواهم، و لکن التّفسیر السابق أظهر.

[۱۹۴] (۲)- التعبیر ب« شرکاءکم» مع أن هؤلاء الشرکاء کانوا قد جعلوا شرکاء اللّه سبحانه، هو اشارة إلی أنّ هؤلاء الشرکاء من صنعکم و هم متعلقون بکم لا باللّه ...

[۱۹۵] (۱)- بحث المفسّرون فی الآیة\i لَوْ أَنَّهُمْ کانُوا یَهْتَدُونَ E بحوثا شتی، فکثیر منهم قالوا بأن« لو» حرف شرط هنا، فبحثوا عن الجزاء، فقالوا: یستفاد من جملة\i رَأَوُا الْعَذابَ E و تقدیر الجملة یکون هکذا:« لو أنّهم کانوا یهتدون لرأوا العذاب فی الدنیا بعین الیقین».

و هذا یشبه قوله تعالی i لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ E فی سورة التکاثر الآیة السادسة.

کما یری البعض أن التقدیر هکذا لو أنهم کانوا یهتدون فی الدنیا لما رأوا العذاب فی الآخرة.

و زعم بعضهم أن الجزاء غیر ما تقدم« یطول بها البحث هنا».

لکنّ بعضهم یعتقد أن جواب الشرط« الجزاء» غیر محذوف أساسا، و جملة\i وَ رَأَوُا الْعَذابَ E هی الجواب المتقدم، و ما بعده جملة الشرط، فیکون المعنی هکذا: لو کانوا یرون و یهتدون لرأوا العذاب لکنهم لم یهتدوا! ...

لکن وراء کل هذه المعانی معنی آخر ذکرناه فی بیان الآیة آنفا، و هو أن نفسر معنی لو ب« تمنّوا، فلا بأس بمراجعة الکتب اللغویة و الأدبیة« کمغنی اللبیب» و غیره!.

[۱۹۶] (۱)- المائدة، الآية ۱۰۹.

[۱۹۷] (۱)-« ما» فى جملـة« ما كان لهم الخيرة» نافيـة، و لكن البعض يحتمل أنّها موصولة و معطوفة على المفعول المحذوف« ليختار» لكن هذا الاحتمال بعيد جدا ...

[۱۹۸] (۱)- اصول الكافى. و تفسير على بن إبراهيم« طبقا لتفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۳۶».

[۱۹۹] (۱)-« أ رأيتم» جملة تأتى بمعنى« أخبرونى» عادة، كما فسّروها، و لكن كما قلنا سابقا تأتى أحيانا بمعنى: هل علمتم؟!

[۲۰۰] (۲)- قال أهل اللغة: إن كلمة« سرمدى» تطلق على ما ليس له بداية و لا نهاية، و« الأزلى» ما ليس له بداية، و« الأبدى» ما ليس له نهاية ...

[۲۰۱] (۱)- التعبير ب« نزعنا» التى تعنى جذب الشىء من مقرّه، هى إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة و أمة ...

[۲۰۲] (۲)- تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۰.

[۲۰۳] (۱)- فسّر بعضـهم« المفتاح» تفسـيرا آخر، و هو أنّ الإتيان بالمفتاح لحفظ الأموال و جمعها كان صعبا على الرجال الأشداء، و لكن هذا التفسير بعيد جدّا« فلا بأس بمراجعة لسان العرب لزيادة الإيضاح».

[۲۰۴] (۲)- كلمة« الفرحين» جمع الفرح، و تعنى من يكون مغرورا على أثر تملكه الشىء و متكبرا بطرا منتشيا من ريح النّصر.

[۲۰۵] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۸۲.

[۲۰۶] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار جملة ۱۹۲.

[۲۰۷] (۱)- معانى الأخبار، مطابق تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۳۹.

[۲۰۸] (۱)- جملة\i إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِى E تصـلح للمعانى الثلاثة المتقدمة جميعا، كما أنّها تصلح لاى واحد منها كما فسروا(فتأملوا بدقّة).

[۲۰۹] (۱)- سورة الرحمن، الآية ۴۱.

[۲۱۰] (۲)- سورة الحجر، الآية ۹۲.

[۲۱۱] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۵، ص ۱۳، و تفسر مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۶۶- ذيل الآية محل البحث ...

[۲۱۲] (۲)- مجمع البيان، ج ۸، ص ۵۲۰ ذيل الآية ۲۴ من سورة المؤمن.

[۲۱۳] (۱)- وسائل الشيعة: ج ۱۲، ص ۱۷، الحديث ۵ من الباب ۱۶ من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۴] (۱)-« وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۹ الحديث الثّالث الباب السابع من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۵] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۱۷، الحديث السابع الباب السادس من أبواب مقدمات التجارة.

[۲۱۶] (۱)- تفسير جوامع الجامع، ذيل الآية محل البحث.

[۲۱۷] (۲)- سورة القصص، الآية ۴.

[۲۱۸] (۳)- سورة القصص، الآية ۷۷.

[۲۱۹] (۴)- تفسير الفخر الرازى، ذيل الآية محل البحث.

[۲۲۰] (۱)- سورة القصص، الآية ۴.

[۲۲۱] (۲)- سورة القصص، الآية ۷۹.

[۲۲۲] (۳)- نقل هذه الرواية زاذان عن أمير المؤمنين« مجمع البيان(ذيل الآية محل البحث)».

[۲۲۳] (۴)- تفسير على بن إبراهيم ذيل الآية محل البحث.

[۲۲۴] (۱)- روح المعانى، الآلوسى ذيل الآية.

[۲۲۵] (۱)- راجع تفسیر المیزان، تفسیر القرطبی، و مجمع البیان« التّفسیر الکبیر» للفخر الرازی، و تفاسیر غیرها.

[۲۲۶] (۱)- قال بعضهم: إن« إلّا» هنا تفید الاستثناء، فاضطروا إلی أن یقولوا بحذف کلمة و التقدیر لها من عندهم و هو تحکّم ... إلّا أن البعض الآخر فسّر« إلّا» بمعنی« لکن» و أنّها تفید الإستدراک، و هذا الوجه أقرب للنظر! ...

[۲۲۷] (۱)- سورة الرحمن، الآیتان ۲۶ و ۲۷.

[۲۲۸] (۲)- سورة الزمر، الآیة ۶۸.

[۲۲۹] (۱)- وردت روایات متعددة فی تفسیر« نور الثّقلین» فی ذیل الآیات فسّرت بعضها الوجه بدین اللّه، و بعضها برسل اللّه و ما هو منسوب للّه.

[۲۳۰] (۱)- سورة الجن، الآیة ۱۸.

[۲۳۱] (۲)- سورة النساء، الآیة ۶۴.

[۲۳۲] (۳)- لمزید التوضیح یراجع تفسیر الآیة ۳۵ المائدة، و تفسیر ذیل الآیة(۴۸) من سورة البقرة!

[۲۳۳] (۱)-« ثواب الأعمال»« طبقا لتفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۴۷» من الجدیر بالذکر أنّنا نکتب هذا القسم من هذا التّفسیر فی بدایة لیلة ۲۳ من شهر رمضان لسنة ۱۴۰۳ هجریة ...

[۲۳۴] (۱)- یراجع بدایة تفسیر سورة البقرة و بدایة سورة آل عمران و بدایة تفسیر سورة الأعراف من التّفسیر الأمثل.

[۲۳۵] (۱)-« یفتنون» مشتق من« الفتنة» و هی فی الأصل وضع الذهب فی النّار لمعرفة مقدار خلوصه، ثمّ أطلق هذا التعبیر علی کل امتحان ظاهری و معنوی ..« لمزید الإیضاح یراجع تفسیر الآیة(۱۹۳) من سورة البقرة».

[۲۳۶] (۱)- لمزید الإیضاح فی مسألة الامتحان الإلهی و جوانبها المختلفة، یراجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۱۵۷) من سورة البقرة حیث بیّناه بتفصیل! ...

[۲۳۷] (۱)- أصول الکافی، طبقا لما نقل فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۴۸.

[۲۳۸] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۶.

[۲۳۹] (۱)- هذه الجملة- فی الحقیقة- فیها حذف، و التقدیر« من کان یرجو لقاء اللّه فیبادر بالطاعة قبل أن یلحقه الأجل» أو« من کان یرجو لقاء اللّه و یقول آمنت باللّه فلیقله مستقیما صابرا علیه فإنّ أجل اللّه لآت».

[۲۴۰] (۱)- بحثنا المراد من لقاء اللّه فی الجزء الأوّل ذیل الآیة(۴۶) من سورة البقرة فلیراجع هناک أیضا.

[۲۴۱] (۱)- ورد فی بعض الروایات اسم(سعد بن أبی وقاص) و فی بعضها اسم(عیاش بن أبی ربیعة المخزومی).

[۲۴۲] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار- الجملة ۱۶۵.

[۲۴۳] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث ...

[۲۴۴] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۵] (۱)- جملة« و لنحمل» فعل دالّ علی الأمر، و قد ولّد هذا التعبیر إشکالا عند بعض المفسّرین، و هو: هل یمکن أن- یأمر الإنسان نفسه؟! ثمّ قالوا فی رد هذا الإشکال. إنّ هذا الأمر فی حکم القضیة الشرطیة أی« إن اتبعتمونا حملنا خطایاکم»- کما فی تفسیر الرّازی- إلّا أنّه فی اعتقادنا لا یمنع أن یأمر الإنسان نفسه، و الآمر و المأمور شخص واحد، إلّا أنّه ذو اعتبارین ...« فتأمل بدقّة».

[۲۴۶] (۱)- لدینا طریق آخر علی الجواب علی هذا السؤال، لأنّنا نعتقد وجود الصدق و الکذب فی الجملة الإنشائیة أیضا،- و یلاحظ هذا فی التعبیرات العرفیة أیضا ... لأنّ الشخص- مثلا- إذا أمر بشیء ما فهو دلیل علی تعلقه به، و حین نقول: إنّه یکذب، فمعناه أنّه لم یطلبه« فلاحظوا بدقّة».

[۲۴۷] (۱)- التّفسیر الکبیر للرازی، ج ۲۵، ص ۴۰.

[۲۴۸] (۱)- تفسیر الدر المنثور ...

[۲۴۹] (۱)- لمزید التوضیح فی مسألة طول العمر، بمناسبة الأبحاث المتعلقة بطول عمر المهدی علیه السّلام، یراجع کتاب« المهدی تحول کبیر».

[۲۵۰] (۱)- المفردات للراغب.

[۲۵۱] (۲)- القول فی ما هو مرجع الضمیر فی« جعلناها» للمفسّرین احتمالات کثیرة، فبعضهم قال: هو إشارة إلی مجموع هذه الواقعة و الحادثة، و قال بعضهم: هی نجاة نوح علیه السّلام فحسب- مع أصحابه- و أشار بعضهم إلی أن المراد من« جعلناها» هی السفینة، و ظاهر العبارة المتقدمة- أیضا- تؤید هذا الاحتمال الأخیر، و حقا کانت هذه السفینة آیة من آیات اللّه فی ذلک العصر، و فی تلک الحادثة العظیمة.

[۲۵۲] (۳)- الظّاهر أنّ« إبراهیم» معطوف علی کلمة« نوح» و فعله« أرسلنا»، و بعضهم عطفه علی مفعول(أنجیناه) و بعضهم جعله مفعولا لفعل محذوف تقدیره« اذکر».

[۲۵۳] (۱)-« الإفک» یطلق فی الأصل علی کل شیء مختلف عن حقیقته، و لذلک یطلق علی الکذب- خاصة الکذب الکبیر- أنّه إفک، کما تطلق هذه الکلمة علی الریاح المخالفة لاتجاهها و مسیرها فیقال« ریاح مؤتفکة».

[۲۵۴] (۱)- سبق أن تعرضنا إلی بحث حول« السیر فی الأرض» و آثاره، غیر أنّ البحث الفائت کانت فیه جوانب من دروس العبرة فی مجال قصص الأمم الماضیة و طغاتها. التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۱۳۷) سورة آل عمران، فلا بأس بمراجعتها.

[۲۵۵] (۱)- کلمة« معجزین» مشتقّة من مادة« عجز»، و معناها فی الأصل التخلّف و التأخر عن الشیء، و لذلک تستعمل هذه الکلمة فی الضعف الباعث علی التخلف و التأخر،« المعجزة» معناه الذی یجعل الآخر عاجزا، و حیث أن الأفراد الذین یفرون من سلطان أحد و قدرته، یعجزونه عن ملاحقتهم، لذلک استعملت کلمة« معجز» فی هذا الصدد أیضا ...

[۲۵۶] (۱)- مجمع البیان، ج، ص ۳۵۲.

[۲۵۷] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۰، ص ۱۳۰.

[۲۵۸] (۱)-« السراة» جمع مفردها سریّ- کبیر القوم.(المصحح)

[۲۵۹] (۱)- سورة الزمر، الآیة ۳.

[۲۶۰] (۲)- أصول الکافی، طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۵۴.

[۲۶۱] (۳)- کتاب الصدوق، طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۵۴.

[۲۶۲] (۱)- هناک بحث مفصل فی هجرة إبراهیم علیه السّلام من بابل إلی الشام فی ذیل الآیة(۷۱) من سورة الأنبیاء من التّفسیر الأمثل، فلا بأس بمراجعته.

[۲۶۳] (۱)- سورة یوسف، الآیة ۱۰۱.

[۲۶۴] (۲)- سورة النمل، الآیة ۱۹.

[۲۶۵] (۳)- سورة القصص، الآیة ۳۷.

[۲۶۶] (۴)- سورة الشعراء، الآیة ۸۳.

[۲۶۷] (۵)- سورة الصافات، الآیة ۱۰۰.

[۲۶۸] (۱)- تفسیر الرازی، بشیء من التصرف.

[۲۶۹] (۱)- یمکن أن تکون کلمة« لوطا» عطفا علی کلمة(نوحا) فتکون بمنزلة المفعول« لأرسلنا» و یمکن أن یکون مفعولا لفعل محذوف تقدیره« و اذکر لوطا».

[۲۷۰] (۱)- یری جماعـة من المفسّـرین وجوها و احتمالات أخری لجملة« و تقطعون السبیل» منها ما فسّـروه بقطع الطریق علی الناس فی سـفرهم مع الالتفات إلی ماضـیهم و تأریخهم المعروف، لأنّ القوافل تضـطر أن تأخذ طریقا غیر مطروق من أجل أن تسـلم من شرّ هؤلاء و لئلا تبتلی بهم، کما فسّـره بعضـهم بسـرقة أموال المسافرین فی القافلـة و لکن التّفسـیر الأوّل المشار إلیه فی المتن أنسب للآیة کما یبدوا للنظر، لأنّ واحدا من أسرار تحریم اللواط و فلسفته هو خطر قطع النسل کما صرحت به الرّوایات.

[۲۷۱] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۵۱۷.

[۲۷۲] (۲)- تفسیر القرطبی ذیل الآیات محل البحث.

[۲۷۳] (۱)- کان لنا فی صدد الانحراف الجنسی بحث مفصل فی ذیل الآیة(۸۱) سورة هود ...

[۲۷۴] (۱)- المیزان، ج ۱۶، ص ۱۲۴.

[۲۷۵] (۱)- ذکرنا تفصیل هذا الحادث فی ذیل الآیات ۷۷- ۸۱ من سورة هود فلا بأس بمراجعتها.

[۲۷۶] (۲)-« الضیف» یطلق علی المفرد و الجمع، و جمعه: ضیوف و أضیاف.(المصحح).

[۲۷۷] (۱)- روح البیان، ج ۶، ص ۴۶۷.

[۲۷۸] (۱)- هذه الجملة معطوفة علی جملة« و لقد أرسلنا نوحا».

[۲۷۹] (۲)- ورد الکلام علی مدین فی ذیل الآیة(۲۳) من سورة القصص فی هذا الجزء بإسهاب.

[۲۸۰] (۱)- بیان هذه الحادثة المؤلمة فصلناه فی تفسیر« سورة هود» ذیل الآیات فی شرح قصة« شعیب و قومه».

[۲۸۱] (۲)-« و عـادا و ثمودا» مفعولان لفعل مقـدر و هو« أهلکنا» و هو یسـتفاد من الآیـة السابقـة. و قال بعضـهم: فعلهما المحـذوف تقدیره« اذکر».

[۲۸۲] (۱)- هذه الکلمات الثلاث مفاعیل للفعل المقدر« أهلکنا» أو کما قال البعض: هی مفاعیل لفعل تقدیره« اذکر»!

[۲۸۳] (۱)- شـرح قصّة حیاة قارون فی الآیات السبع ۷۶- ۸۲ سورة القصـص، و هلاک فرعون و جماعته فی تفسـیر سورة القصص، کما ورد فی سورة الأعراف أیضا.

[۲۸۴] (۱)- بیّنا الفرق بین الفحشاء و المنکر فی تفسـیر الآیة(۹۰) من سورة النحـل فی عبـارة موجزة، و قلنا: إنّه یمکن التفریق بینهما بأن الفحشاء هی إشارة للـذنوب الکبیرة الخفیـة، و أمّا المنکر فهو الـذنوب الکبیرة الظاهرة، أو أن الفحشاء هی الذنوب التی تنتج بغلبة القوی الشهوانیة، و المنکر من أثر القوی الغضبیة.

[۲۸۵] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیة مح البحث« و الحدیث الثّانی یشعر بالنهی التشریعی».

[۲۸۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۸۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱)- المصدر السابق.

[۲۸۹] (۲)- الرعد، الآیة ۲۸.

[۲۹۰] (۳)- علی ضوء هذا التّفسیر یکون لفظ الجلالة« اللّه» فاعلا فی المعنی، و علی التّفسیر السابق یکون مفعولا.

[۲۹۱] (۱)-« الفلسفة» کلمة یونانیة معناها« الحکمة» فهی لیست عربیة لکنّها شاعت فی العربیة أیضا.

[۲۹۲] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۳، ص ۷(الباب الثّانی من أبواب أعداد الفرائض الحدیث ۳).

[۲۹۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار ۲۵۲.

[۲۹۴] (۲)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الجملة ۱۳۶.

[۲۹۵] (۱)- نهج البلاغة، و من کتاب له« وصیة له» ۴۷.

[۲۹۶] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۴، ص ۳۱۷ و ۳۲۰.

[۲۹۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۸۴ ص ۳۱۸.

[۲۹۸] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۳، ص ۴.

[۲۹۹] (۱)-« التی» هنا صفة لموصوف محذوف تقدیره الطریقة أو ما شاکلها ...

[۳۰۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۶۳.

[۳۰۱] (۱)- قال بعض المفسّرین: إنّ جملة« الذین آتیناهم الکتاب» إشارة إلی المسلمین، و جملة\i« مِنْ هؤُلاءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ\»E إشارة إلی أهل الکتاب، إلّا أنّ هذا التّفسر بعید- کما یبدو- جدّا لأنّ التعبیر ب\i فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ E و ما شابهه لم یأت فی القرآن- بحسب الظاهر- إلّا فی خصوص الیهود و النصاری.

[۳۰۲] (۱)- هذه الرّوایات وردت فی تفسیر البرهان الجزء الثالث، ص ۲۵۴ فما بعد بشکل مفصل.

[۳۰۳] (۱)- فتوح البلدان للبلاذری طبع مصر، ص ۴۵۹.

[۳۰۴] (۱)- مسند أحمد، ج ۴، ص ۲۹۸.

[۳۰۵] (۲)- ورد فی صدد« النّبی الأمی» شرح مفصل آخر ذیل الآیة(۱۵۷) من سورة الأعراف.

[۳۰۶] (۱)- آل عمران- الآیة ۱۵۹.

[۳۰۷] (۱)- سفینة البحار مادة مرأ.

[۳۰۸] (۲)- إحیاء العلوم.

[۳۰۹] (۱)- لنا فی هذا الصدد بحث مفصل بیناه فی ذیل الآیة(۱۰۳) من سورة الکهف.

[۳۱۰] (۱)-« البغتة» مشتقة من« البغت» علی زنة« وقت» و معناه التحقق المفاجئ و غیر المنتظر لأمر.

[۳۱۱] (۱)- لمزید الإیضاح یراجع- فی هذا الصدد تفسیر الآیة(۱۲۳) من سورة آل عمران.

[۳۱۲] (۲)- یری بعض المفسّرین أن کلمة« یوم» متعلقة بفعل محذوف مقدر، و قال بعضهم: هو متعلق ب« محیطة».

[۳۱۳] (۱)- الکلمات القصار، رقم ۴۴۲.

[۳۱۴] (۲)- سورة ص الآیتان ۸۲، ۸۳.

[۳۱۵] (۳)- سورة الحجر، الآیة ۴۲.

[۳۱۶] (۴)- جملة« فإیای فاعبدون» عطف علی جزاء جملة الشرط المحذوف و التقدیر« إن ضاقت بکم الأرض فهاجروا منها إلی غیرها و إیّای فاعبدون».

[۳۱۷] (۱)-« لنبوئنهم» من مادة« تبوئة» علی زنة« تذکرة» معناها إعطاء السکنی للإقامة و البقاء الدائم.

[۳۱۸] (۱)- تفسیر القرطبی ذیل الآیات محل البحث، ج ۷، ص ۵۰۷۵.

[۳۱۹] (۱)- تحدثنا عن حقیقة التوکل و حکمته و فلسفته بإسهاب فی ذیل الآیة(۱۲) سورة إبراهیم، و عن حقیقة الصبر لدی تفسیر الآیة(۱۲) من سورة إبراهیم و الآیة(۲۴) من سورة الرعد و الآیة(۲۶) من سورة الأعراف.

[۳۲۰] (۱)- الزمر، الآیة ۳.

[۳۲۱] (۱)- أصل الکلمة مشتق من« حیی» و مصدرها« حییان» ثم أبدلت الیاء الثانیة واوا فصارت حیوان.

[۳۲۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۴۱» الطبعة الجدیدة.

[۳۲۳] (۱)- النحل، الآیتان ۵۳- ۵۴»

[۳۲۴] (۲)- یونس، الآیة ۱۲.

[۳۲۵] (۱)- ثواب الأعمال للصدوق، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۶۴.

[۳۲۶] (۱)- مجمع البیان، بدایة سورة الروم.

[۳۲۷] (۱)- جاء سبب النّزول هذا فی کتب التفاسیر المختلفة بشیء من الاختلاف البسیط فی التعابیر، فراجع مجمع البیان و المیزان و نور الثقلین و تفسیر الفخر الرازی و أبو الفتوح الرازی، و تفسیر الآلوسی و فی ظلال القرآن و التفاسیر الأخری.

[۳۲۸] (۱)- تفسیر التبیان، ج ۸، ص ۲۰۶.

[۳۲۹] (۱)- توجد احتمالات کثیرة فی معنی« بضع» فقیل: إنّها تتراوح بین ثلاث و عشر، أو أنّها تتراوح بین واحدة و تسع، و قیل: أقلّها ست و أکثرها تسع. إلّا أن ما ذکرناه فی المتن هو المشهور.

[۳۳۰] (۱)- نصب« وعد اللّه» علی أنّه مفعول مطلق و عامله محذوف، و یعلم من الجملة التی قبله أی« سیغلبون» التی هی مصداق الوعد الإلهی، و یکون تقدیره: وعد اللّه ذلک وعدا!.

[۳۳۱] (۱)- نقلا عن کتاب« الدنیا التی أراها».

[۳۳۲] (۱)- فی صورة ما لو قلنا بالتّفسیر الأوّل، فإن« الباء» فی کلمة« بالحق» للمصاحبة، و فی التّفسیر الثّانی تکون الباء بمعنی اللام، أی للحق.

[۳۳۳] (۲)-« آثار» مأخوذة من مادة(ثور) علی زنة(غور) و معناها التفریق و النثر، و إنّما سمی الثور ثورا لأنّه یثیر الأرض و یفرّقها.

[۳۳۴] (۱)- طبقا لما ذکرنا فی التّفسیر تکون کلمة« السوءی» مفعولا لأساءوا و جملة\i أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللَّهِ E مکان اسم کان و خبرها« عاقبة الذین».

و یذکر العلّامة الطباطبائی ذلک فی المیزان بصورة احتمال، و إن لم ینتخبه هو نفسه، و یری« أبو البقاء» فی کتاب« إملاء ما منّ به الرحمن» الصفحة ۱۸۵ الجزء الثانی، أنّه واحد من احتمالین مقبولین.

إلّا أن أغلب المفسّرین کالطبرسی و صاحب المیزان، و الفخر الرازی، و الآلوسی، و أبو الفتوح الرازی و القرطبی و سید قطب فی ظلاله، و الطوسی فی تبیانه» یقوّون احتمالا آخر فی تفسیر الآیة .. و هو أن کلمة« السوءی» اسم کان، و جملة« إن کذبوا» فی مقام التعلیل.

و طبقا لهذا التّفسیر یکون معنی الآیة: و أخیرا فإن عاقبة أعمال المسیئین کانت السوء، لأنّهم کذبوا بآیاتنا. و هذا المعنی شبیه بقوله تعالی\:i لِلَّذِینَ أَحْسَنُوا الْحُسْنی E.

إلّا أن الأنصاف أن هذا التفسیر خلاف ما یستظهر من الآیة، و انتخاب المفسّرین لهذا الرأی و التفسیر لا یصرفنا عما هو منسجم مع الآیة، و خاصة أنّهم اضطروا إلی أن یقدروا اللام فی جملة« أن کذبوا» و التقدیر خلاف الظاهر« فلاحظوا بدقة».

[۳۳۵] (۱)- سورة یس، ۷۹- ۸۱.

[۳۳۶] (۲)- سورة یونس، الآیة ۱۸.

[۳۳۷] (۱)- سورة القصص، الآیة ۶۳.

[۳۳۸] (۱)- سورة یس، الآیة ۲۹- و ما بعدها ...

[۳۳۹] (۱)- المصدر السابق.

[۳۴۰] (۱)- یرجی ملاحظة أن« عشیا» و« حین تظهرون» قد عطفتا علی« حین تمسون» و یرجع الجمیع للتسبیح ...

[۳۴۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۷۲.

[۳۴۲] (۱)- نقلا عن کتاب الکافی و طبقا لتفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۷۳.

[۳۴۳] (۱)- دائرة المعارف، محمّد فرید وجدی، ج ۱ ص ۴۹۶(مادة اله).

[۳۴۴] (۱)- راجع تفسیر« سورة الرعد» الآیات الأولی منها.

[۳۴۵] (۱)- التفسیر الکبیر الفخر الرازی- ذیل الآیات محل البحث.

[۳۴۶] (۲)- الزمر، الآیة ۱۸.

[۳۴۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۷۴.

[۳۴۸] (۱)- نقل« الآلوسی» فی تفسیره« روح المعانی» ذیل الآیة محل البحث هذا الکلام عن بعض المفسرین المتقدمین.

[۳۴۹] (۱)- ینقل« الفخر الرازی» عن« الزمخشری» فی تفسیر الکشّاف أن اللّه قال فی شأن ولادة عیسی علیه السّلام دون أب« هو علی هین» و لأنّ کلمة« علیّ» مقدمة، فهی دلیل علی الحصر، أی إن هذا العمل سهل علی فحسب لا علی سوای، أمّا فی هذه الآیة محل البحث فقد قال: سبحانه\i: وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ E فلا یستفاد منها الحصر، و هی إشارة إلی أن کل من یستطیع أن یؤدی عملا فی البدایة فهو قادر علی إعادته أیضا« فلاحظوا بدقة».

[۳۵۰] (۱)- تفسیر المیزان و تفسیر مجمع البیان و تفسیر نور الثقلین ذیل الآیة محل البحث.

[۳۵۱] (۱)- فسّر بعض المفسّرین جملة« تخافونهم کخیفتکم أنفسکم» بهذه المناسبة تفسیرا آخر، حاصله أنّ هؤلاء المعبودین لیست لدیهم القدرة حتی تخافوهم کما تخافون من بعضکم، فکیف إذا کان الخوف أکثر!« إلّا أن التّفسیر الذی ذکرناه فی البدایة یبدو أقرب للنظر».

[۳۵۲] (۱)- الألف و اللام فی کلمة« الدین» هما للعهد، و هما هنا إشارة إلی الدین الذی أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن یبلغه، أی دین« الإسلام».

[۳۵۳] (۱)- تاریخ التمدن، ج ۱، ص ۸۷- ۸۹.

[۳۵۴] (۲)- تاریخ التمدن، ج ۱، ص ۱۵۶.

[۳۵۵] (۳)- دراسة المجتمع، ص ۱۹۲ أصله بالفارسیة و عنوانه جامعه شناسی.

[۳۵۶] (۱)- یراجع کتاب الحسّ المذهبی أو البعد الرّابع ترجمه مهندس بیانی(للکاتب کوونتایم).

[۳۵۷] (۱)- المصدر نفسه الطبعة الثّانیة، ص ۳۹.

[۳۵۸] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۰، باب« فطرة الخلق علی التوحید».

[۳۵۹] (۱)- المصدر السابق.

[۳۶۰] (۲)- المصدر السابق.

[۳۶۱] (۳)- تفسیر« جمع الجوامع» للمرحوم الطبرسی ذیل الآیة محل البحث.

[۳۶۲] (۴)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۸۴.

[۳۶۳] (۱)- العنکبوت، الآیة ۶۵.

[۳۶۴] (۱)- إنّ« اللام» فی جملة« لیکفروا» هی لام الأمر، و هذا الأمر للتهدید، و کذلک جملة« تمتعوا» إذ هی للتهدید أیضا.

و إن کانت الأولی جاءت بصیغة« الغائب» و الثّانیة بصیغة« الخطاب» ... فکأنّما افترض فی الحالة الأولی أنّهم غیّاب ثمّ من أجل التشدّد بالتهدید جعلهم مواجهین للتهدید و الخطاب، إلّا أنّ بعض المفسّرین عدّوا« اللام» للعاقبة، أی کان عاقبة أمرهم الکفر بنعم اللّه، إلّا أن المعنی الأوّل أکثر انسجاما مع ظاهر الآیة.

[۳۶۵] (۱)- یونس، الآیة ۵۸.

[۳۶۶] (۱)- تفسیر روح البیان، ج ۷، ص ۲۹، ذیل الآیة محل البحث.

[۳۶۷] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار الجملة ۲۵۰

[۳۶۸] (۲)- مجمع البیان.

[۳۶۹] (۳)- مجمع البیان.

[۳۷۰] (۴)- تفسیر علی بن إبراهیم، طبقا لنقل نور الثقلین عنه، ج ۴، ص ۱۸۶.

[۳۷۱] (۱)- ذیل الآیات محل البحث« الفخر الرازی».

[۳۷۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۹۱.

[۳۷۳] (۱)- الأنعام، الآیة ۱۶۰.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۱۹۰.

[۳۷۵] (۳)- البقرة، الآیة ۲۶۱.

[۳۷۶] (۱)- تفسیر القمی: طبقا لنقل تفسیر المیزان، ج ۱۶، ص ۲۱۰.

[۳۷۷] (۱)- کلمة« مردّ» فی جملة« لا مرد له من اللّه» مصدر میمی و هو هنا بمعنی اسم الفاعل فیکون معنی الجملة: لا رادّ له من اللّه. و الضمیر فی« له» یعود إلی« یوم» و یکون المفهوم العام للجملة. لا- یستطیع أی کان أن یعید ذلک الیوم من اللّه، أی یقف بوجه القضاء و المحاکمة بتأخیر ذلک الیوم و« تعطیله».

و الخلاصة: إنّه لا- یخلف اللّه وعده لیعید ذلک الیوم، و لیس لأحد سواه القدرة علی ذلک؛ فوقوع ذلک الیوم لا بدّ منه و هو یوم محتوم»(فلاحظوا بدقة).

[۳۷۸] (۱)-

\i\i فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال\:E« للزنا عقوبات ثلاث منها فی الدنیا و ثلاث فی الآخرة، فأمّا العقوبات فی E

-

\i الدنیا فإنه یسلب النور من الإنسان، و یبتله بموت الفجأة، و یقطع الرزق. و أمّا التی فی الآخرة فهو علی سوء الحساب و غضب اللّه و الخلود فی نار جهنم»(سفینة البحار- مادة زنی\).E

[۳۷۹] (۱)- سفینة البحار(مادة ذنب).

[۳۸۰] (۲)- الأعراف، الآیة ۹۶.

[۳۸۱] (۱)- مجمع البحرین مادة« سیح»، و

\i\i فی حدیث آخر عن النّبی العظیم صلّی اللّه علیه و آله فی هذا الکتاب نفسه نقرأ قوله صلّی اللّه علیه و آله و سلّم E« سیاحة أمتی الغزو و الجهاد\».E

[۳۸۲] (۱)-« الکسف» جمع« کسفة» علی وزن« حجلة» و معناها القطعة، و هی هنا- کما یبدو- إشارة إلی القطعات من الغیوم المتراکمة بعضها فوق بعض فتجعلها غلیظة و شدیدة، و ذلک حین تکون الغیوم مهیأة لنزول المطر.

[۳۸۳] (۲)-« الودق» علی وزن(الحلق) و تطلق علی ذرات الماء الصغیرة کمثل الغبار أحیانا، إذ تتناثر عند نزول الغیث فی السماء، کما تطلق علی قطرات« المطر» المتفرقة أحیانا ...

[۳۸۴] (۱)-« مبلس» مأخوذة من مادة الإبلاس، و معناها الیأس و عدم الرجاء.

[۳۸۵] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الجملة ۲۵۰.

[۳۸۶] (۱)- کان لنا فی هذا الصدد بحث مفصّل ذیل الآیة(۱۴) من هذه السورة.

[۳۸۷] (۲)- بیّنا هذا البحث« المتعلق بموضوع البرزخ» فی ذیل الآیة ۱۰۰، من سورة المؤمنون، کما نوّهنا عن هذه اللطیفة و المسألة

الدقيقة هناك.

[۳۸۸] (۱)- فى كون الآية، هل فيها تقديم و تأخير، أم لا؟ هناك كلام و نقاش بين المفسّرين و العلماء، فقال بعضهم« فى كتاب اللّه» متعلق بجملة« أوتوا العلم و الإيمان» فيكون معنى الآية هكذا: الذين أوتوا العلم فى كتاب اللّه و يؤمنون به قالوا مثل هذا الكلام، و قال بعضهم« فى كتاب اللّه» متعلق بجملة« لبثتم» و نحن اخترنا هذا الرأى أيضا فى شرحنا للآية، لأنّ الحكم بالتقديم و التأخير يحتاج إلى قرينة واضحة و لا نجد هنا قرينة على ذلك!.

[۳۸۹] (۲)- تفسير الفخر الرازى ذيل الآيات محل البحث.

[۳۹۰] (۱)- كلمة« يستعتبون» مشتقة من« عتب» على وزن« حتم» و معناها فى الأصل الاضطراب النفسى« الداخلى» و حين يصاغ هذا الفعل من باب الإفعال فيكون معناه ازالة هذا الأثر و الاضطراب، كما جاء فى لسان العرب أن الاستفعال يؤدى معنى الإفعال هنا، لذلك يقال فى شأن الاسترضاء معناه طلب الرضا و التوبة، و معنى الكلمة هنا فى الآية هو بمثل ما ذكرناه، و معنى ذلك أنّ المجرمين فى يوم القيامة ليس لهم القدرة على التوبة.

[۳۹۱] (۲)- المرسلات، الآية ۳۶.

[۳۹۲] (۳)- سبأ، الآية ۳۱.

[۳۹۳] (۴)- سبأ، الآية ۳۲.

[۳۹۴] (۵)- إبراهيم، الآية ۲۲.

الجزء الثالث عشر

سورة لقمان

اشارة

مكّية و عدد آياتها أربع و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷

«سورة لقمان»

محتوى السورة:

المعروف و المشهور بين المفسّرين أنّ هذه السورة نزلت فى مكّة، و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد استثنى بعض آيات هذه السورة كالشيخ الطوسى فى (التبيان) حيث استثنى الآية الرّابعة التى تتحدّث عن الصلاة و الزكاة، أو الفخر الرازى الذى استثنى مضافا إلى هذه الآية، و الآية (۲۷) التى تبحث فى علم اللّه الواسع، إلّا أنّه لا يوجد دليل واضح لهذه الاستثناءات، لأنّ الصلاة و الزكاة- الزكاة بصورة عامّة طبعا- كانتا موجودتين فى مكّة أيضا، و قضيّة البحث عن سعة علم اللّه لا تصلح لأن تكون دليلا على كونها مدنية.

بناء على هذا، فإنّ سورة لقمان بحكم كونها مكّية تشتمل على محتوى السور المكّية العام، أى أنّها تبحث حول العقائد الإسلامية الأساسية، و خاصّة المبدأ و المعاد، و كذلك النبوّة. و بصورة عامّة فإنّ محتوى هذه السورة يتلخّص فى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يشير- بعد ذكر الحروف المقطّعة- إلى عظمة القرآن و كونه هدى و رحمة للمؤمنين الذين يتمتّعون بصفات خاصّة، و يتحدّث فى الطرف المقابل عن الذين يظهرون التعصّب و العناد أمام هذه الآيات البيّنات بحيث يبدون و كأنّهم صمّ الآذان، بل يسعون أيضا إلى صرف الآخرين عن القرآن عن طريق إيجاد وسائل لهو غير صحيحة.

القسم الثّانى: يتحدّث عن آيات اللّه فى خلق السماء و رفعها بدون أى عمد، و خلق الجبال، و الاحياء المختلفة، و نزول المطر، و نموّ النباتات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸

القسم الثّالث: ينقل جانبا من كلام لقمان الحكيم و المتألّه فى وصيّته لابنه، و يبدأ من التوحيد و محاربة الشرك، و ينتهى بالوصيّة بالإحسان إلى الوالدين، و الصلاة، و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و الثبات أمام الحوادث الصعبة.

و البشاشة و الطلاقة مع الناس، و التواضع و الاعتدال فى الأمور.

فى القسم الرّابع: تعود السورة إلى أدلّة و علامات التوحيد مرّة اخرى فتتحدّث عن تسخير السماء و الأرض و نعم اللّه الوفيرة، و ذمّ منطق الوثنيين الذين سقطوا فى وادى الضلال و الانحراف نتيجة التقليد و اتّباع الآباء و الأجداد، و تجعلهم يقرّون بمسألة كون اللّه خالقا التى هى أساس العبودية له.

و تكشف الستار عن علم اللّه المطلق بذكر مثال واضح، و تبحث فى هذا الباب- إضافة إلى ذكر آيات الآفاق- عن التوحيد الفطرى الذى يتجلّى عند الوقوع فى عواصف البلاء، و تطرح ذلك بشكل رائع.

أمّا القسم الخامس: فإنّه يشير إشارة قصيرة مؤثّرة تهزّ الوجدان إلى مسألة المعاد و الحياة بعد الموت، و تحذّر الإنسان من الاغترار بهذه الدنيا، و تحثّه على أن يفكّر بتلك الحياة الخالدة و يتهيّأ لها.

ثمّ تنهى هذا المبحث بذكر جانب من علم اللّه بالغيب بما يتعلّق بالإنسان، و من جملة ذلك لحظة موته، و حتّى على الجنين فى بطن امّه، و بذلك تنتهى السورة.

و من الواضح أنّ تسمية هذه السورة بسورة «لقمان» بسبب البحث المهمّ العميق المحتوى الذى ورد فى هذه السورة عن مواعظ لقمان، و هى السورة الوحيدة التى تتحدّث عن هذا الرجل الحكيم.

فضل سورة لقمان:

وردت روايات عديدة عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و بعض أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى فضل هذه السورة، و من جملتها ما

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «من قرأ سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹

لقمان كان لقمان له رفيقا يوم القيامة، و أعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف و نهى عن المنكر»[۱].

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سورة لقمان فى ليلة و كّل اللّه به فى ليلته ثلاثين ملكا يحفظونه من إبليس و جنوده حتّى يصبح، فإذا قرأها بالنهار لم يزالوا يحفظونه من إبليس و جنوده حتّى يمسى»[۲].

و قلنا مرارا، بأنّ كلّ هذا الفضل و الثواب و الامتياز لتلاوة سورة من القرآن لأنّ التلاوة مقدّمة للتفكّر، و التفكّر مقدّمة للعمل، و يجب أن لا يتوقّع الإنسان كلّ هذا الفضل بلقلقة اللسان فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الم (۱) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (۲) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (۳) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)
أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵)

التّفسير

من هم المحسنون؟

الم تبدأ هذه السورة بذكر أهميّة و عظمة القرآن، و بيان الحروف المقطّعة فى بدايتها إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ هذه الآيات التى تتركّب من حروف الألف باء البسيطة، لها محتوى و مفهوم سام يغيّر مصير البشر بصورة تامّة. و لذلك فإنّها تقول بعد ذكر الحروف المقطّعة: تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ
تِلْكَ فى لغة العرب إشارة للبعيد، و قلنا مرارا أنّ هذا التعبير بالخصوص كناية عن عظمة و أهميّة هذه الآيات، و كأنّها فى أعالى السماء و فى نقطة بعيدة المنال.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱
إنّ وصف «الكتاب» ب «الحكيم» إمّا لقوّة و متانة محتواه، لأنّ الباطل لا يجد إليه طريقا و سبيلا و يطرد عن نفسه كلّ نوع من الخرافات و الأساطير، و لا يقول إلّا الحقّ، و لا يدعو إلّا إليه، و هذا التعبير فى مقابل لَهْوَ الْحَدِيثِ الذى يأتى فى الآيات التالية تماما.
أو بمعنى أنّ القرآن كالعالم الحكيم الذى يتكلّم بألف لسان فى الوقت الذى هو صامت لا ينطق، فيعلّم، و يعظ و ينصح، و يرغّب و يرهّب، و يحذّر و يتوعّد، و يبيّن القصص ذات العبرة، و خلاصة القول فإنّه حكيم بكلّ معنى الكلمة. و لهذه البداية علاقة مباشرة بكلام لقمان الحكيم الذى ورد البحث فيه فى هذه السورة.
و لا مانع- طبعا- من أن يكون المعنيان مرادين فى الآية أعلاه.
ثمّ تذكر الآية التالية الهدف النهائى من نزول القرآن، فتقول: هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ
إنّ الهداية فى الحقيقة مقدّمة لرحمة اللّه، لأنّ الإنسان يجد الحقيقة أوّلا فى ظلّ نور القرآن، و يعتقد بها و يعمل بها، و بعد ذلك يكون مشمولا برحمة اللّه الواسعة و نعمه التى لا حدّ لها.
و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ هذه السورة اعتبرت القرآن سببا لهداية و رحمة «المحسنين»، و فى بداية سورة النمل: هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُؤْمِنِينَ و فى بداية سورة البقرة: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ
و هذا الاختلاف فى التعبير ربّما كان بسبب أنّ روح التسليم و قبول الحقائق لا تحيا فى الإنسان بدون التقوى، و عند ذلك سوف لا تتحقّق الهداية، و بعد مرحلة قبول الحقّ نصل إلى مرحلة الإيمان التى تتضمّن البشارة بالنعم الإلهية علاوة على الهداية، و إذا تقدّمنا أكثر فسنصل إلى مرحلة العمل الصالح، و عندها تتجلّى رحمة اللّه أكثر من ذى قبل.
بناء على هذا فإنّ الآيات الثلاث أعلاه تبيّن ثلاث مراحل متعاقبة من مراحل
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲
تكامل عباد اللّه: مرحلة قبول الحقّ، ثمّ الإيمان، فالعمل، و القرآن فى هذه المراحل مصدر الهداية و البشارة و الرحمة على الترتيب- تأمّلوا ذلك-.

ثمّ تصف الآيـة التاليـة المحسـنين بثلاـث صـفات، فتقول: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاـةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكـاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ فإنّ ارتباط هؤلاـء بالخـالق عن طريـق الصـلاة، و بخلـق اللّه عن طريـق الزكـاة، و يقينهم بمحكمـة القيامـة بـاعث قوى على الابتعـاد عن الـذنب و المعصية، و دافع لأداء الواجبات.

و تبيّن الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- عاقبة عمل المحسنين، فتقول:

أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

جملـة أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ توحى بأنّ هداية أولئك قد ضـمنت من قبل ربّهم من جهة، و من جهة اخرى فإنّ التعبير ب (على) دليل على أنّ الهدايـة كأنّها مطيّـة سـريعة السير، و أولئك قـد ركبوها و أخـذوا بزمامها، و من هنا يتّضـح التفاوت بين هذه الهداية، و الهدايـة التى وردت فى بدايـة السورة، لأـنّ الهدايـة الاـولى هى الاسـتعداد لقبول الحقّ، و هـذه الهدايـة برنامـج للوصول إلى الغايـة و الهدف.

ثمّ إنّ جملة أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ التى تدلّ على الحصر وفقا للقواعد العربية، توحى بأنّ هذا الطريق هو الطريق الوحيد إلى الإخلاص، طريق المحسنين، طريق أولئك المرتبطين باللّه و خلقه، و طريق أولئك الذين يؤمنون إيمانا كاملا بالمبدأ و المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِى أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (۸) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين: إنّ الآيـة الاولى من هـذه الآيات نزلت فى «النضـر بن الحارث»، فقـد كان تاجرا يسافر إلى ايران، و كان يحدّث قريشـا بقصـص الإيرانيين و أحاديثهم، و كان يقول: إذا كان محمّـد يحـدّثكم بقصـص عاد و ثمود فإنّى أحـدّثكم بقصـص رسـتم و إسفنديار و أخبار كسرى و سلاطين العجم، فكانوا يجتمعون حوله و يتركون استماع القرآن.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا المقطع من الآيات نزل فى رجل اشترى جارية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴

مغنّية، و كانت تغنّيه ليل نهار فتشغله عن ذكر اللّه.

يقول المفسّر الكبير الطبرسى رحمه اللّه، بعد ذكر سبب النّزول هذا: و

قـد روى حـديث عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فى هذا الباب يؤيّد سـبب النّزول أعلاه، لأنّه صـلّى اللّه عليه و آله قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات و لا بيعهن، و أثمانهنّ حرام، و قد نزل تصديق ذلك فى كتاب اللّه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ ...

التّفسير

الغناء أحد مكائد الشياطين الكبيرة.

الكلام فى هذه الآيات عن جماعة يقعون تماما فى الطرف المقابل لجماعة المحسنين و المؤمنين الذين ذكروا فى الآيات السابقة.

الكلام و الحديث هنا عن جماعة يستخدمون طاقاتهم من أجل بثّ اللاهدفية و إضلال المجتمع، و يشترون شقاء و بؤس دنياهم و آخرتهم! فتقول أوّلا: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً[۳] ثمّ تضيف أخيرا: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ

إنّ شراء لهو الحديث و الكلام الأجوف إمّا أن يتمّ عن طريق دفع المال فى مقابل سماع الخرافات و الأساطير، كما قرأنا ذلك فى قصّة النضر بن الحارث.

أو أن يكون عن طريق شراء المغنّيات لعقد مجالس اللهو و الباطل و الغناء. أو صرف المال بأىّ شكل كان و فى أى طريق للوصول إلى هذا الهدف غير المشروع، أى لهو الحديث و الكلام الفارغ.

و العجيب أنّ عمى القلوب هؤلاء، كانوا يشترون الكلام الباطل و اللهو بأغلى القيم و الأثمان، و يعرضون عن الآيات الإلهية و الحكمة التى منحهم اللّه إيّاها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵

مجّانا! و يحتمل أيضا أن يكون للشراء هنا معنى كنائى، و المراد منه كلّ أنواع السعى للوصول إلى هذه الغاية.

و أمّا (لهو الحديث) فإنّ له معنى واسعا يشمل كلّ نوع من الكلام أو الموسيقى أو الترجيع الذى يؤدّى إلى اللهو و الغفلة، و يجرّ الإنسان إلى اللاهدفيّة أو الضلال، سواء كان من قبيل الغناء و الألحان و الموسيقى المهيّجة المثيرة للشهوة و الغرائز و الميول الشيطانية، أو الكلام الذى يسوق الإنسان إلى الفساد عن طريق محتواه و مضامينه، و قد يكون عن كلا الطريقين كما هو الحال فى أشعار و تأليفات المغنّين الغراميّة العاديّة المضلّلة فى محتواها و ألحانها.

أو يكون كالقصص الخرافية و الأساطير التى تؤدّى إلى انحراف الناس عن الصراط المستقيم.

أو يكون كلام الاستهزاء و السخرية الذى يطلق بهدف محو الحقّ و تضعيف أسس و دعائم الإيمان، كالذى ينقلونه عن أبى جهل أنّه كان يقف على قريش و يقول: أ تريدون أن أطعمكم من الزقّوم الذى يتهدّدنا به محمّد؟ ثمّ يبعث فيحضرون الزبد و التمر، فكان يقول: هذا هو الزقّوم! و بهذا الأسلوب كان يستهزئ بآيات اللّه.

و على كلّ حال، فإنّ للهو الحديث معنى واسعا يتضمّن كلّ هذه المعانى و أمثالها، و إذا أشارت الروايات الإسلامية و كلمات المفسّرين إلى إحداها، فإنّ ذلك لا يدلّ مطلقا على انحصار معنى الآية فيه.

و تلاحظ فى الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تعبيرات تبيّن سعة معنى هذه الكلمة، و من جملتها ما نراه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «الغناء مجلس لا ينظر اللّه إلى أهله، و هو ممّا قال اللّه عزّ و جلّ: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶

الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ [۴].

و التعبير ب لَهْوَ الْحَدِيثِ بدلا من (حديث اللهو) ربّما كان إشارة إلى أنّ الهدف الأساس لهؤلاء هو اللهو و العبث، و الكلام و الحديث وسيلة للوصول إليه.

و لجملة لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مفهوم واسع أيضا، يشمل الإضلال العقائدى، كما قرأنا ذلك فى قصّة النضر بن الحارث و أبى جهل، و كذلك يشمل الإفساد الأخلاقى كما جاء فى أحاديث الغناء.

و التعبير ب بِغَيْرِ عِلْمٍ إشارة إلى أنّ هـذه الجماعـة الضالّة المنحرفة لا تؤمن حتّى بمذهبها الباطل، بل يتّبعون الجهل و التقليد الأعمى لا غير، فإنّهم جهلاء يورطون و يشغلون الآخرين بجهلهم.

هـذا إذا اعتبرنا بِغَيْرِ عِلْمٍ وصـفا للمضـلّين، إلّا أنّ بعض المفسّـرين اعتبر هـذا التعبير وصـفا للضالّين، أى أنّهم يجرّون الناس الجهلة إلى وادى الانحراف و الباطل دون أن يعلموا بذلك لجهلهم.

إنّ هؤلاء المغفّلين قـد يتمـادون فى غيّهم فلا يقنعون بلهو هـذه المسائـل، بـل إنّهم يجعلون كلامهم الأجوف و لهو حـديثهم وسـيلة للاستهزاء بآيات اللّه، و هذا هو الذى أشارت إليه نهاية الآية حيث تقول: وَ يَتَّخِذَها هُزُواً.

أمّا وصف العذاب ب (المهين) فلأنّ العقوبة متناغمة مع الذنب، فإنّ هؤلاء قد استهزءوا بآيات اللّه و أهانوها، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه قد أعدّ لهم عذابا مهينا، إضافة إلى كونه أليما.

و أشارت الآيـة التاليـة إلى ردّ فعل هـذه الفئـة أمام آيات اللّه، و توحى بالمقارنـة بردّ فعلهم تجاه لهو الحـديث، فتقول: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً أى ثقلا يمنعه من السماع ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷

ثمّ تذكر أخيرا عقاب مثل هؤلاء الأفراد الأليم فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

إنّ التعبير ب وَلَّى مُسْتَكْبِراً إشارة إلى أنّ إعراضه لم يكن نابعا من تضرّر مصالحه الدنيويّة و الحدّ من رغباته و شهواته فحسب، بل إنّ الأمر أكبر من ذلك، فإنّ فيه دافع التكبّر أمام عظمة اللّه و آياته، و هو أعظم ذنب فيه.

و الرائع فى تعبير الآيـة أنّهـا تقول أوّلا: إنّه لم يعبأ بآيات اللّه كأنّه لم يسـمعها قطّ، و يمرّ عليها دون اكتراث بها، ثمّ تضـيف: بل كأنّه أصمّ لا يسـمع أىّ كلام قطّ! إنّ جزاء مثل هؤلاء الأفراد يناسب أعمالهم، فكما أنّ أعمالهم كانت مؤلمـة و مؤذية لأهل الحقّ، فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عقابهم و عذابهم أليما أيضا.

و ينبغى الالتفـات إلى أن تعبير (بشّـر) فى مورد العـذاب الإلـهى الأليم، يتناسب مع عمل المسـتكبرين الـذين كانوا يتّخـذون آيات اللّه هزوا، و التشبّه بصـفات أبى جهـل، حيث كـانوا يفسّـرون «زقّوم جهنّم» بالزبـد و التمر! ثمّ تعود الآيـات التاليـة إلى شـرح و تبيان حال المؤمنين الحقيقيّين، و قـد بـدأت السورة فى مقارنتها هذه بذكر حالهم أوّلا ثمّ ختمت به فى نهاية هذا المقطع أيضا، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ

أجل، إنّ هذه الفئة على عكس المسـتكبرين و الضالّين المضلّين الذين لا يرون آثار قدرة اللّه فى عالم الوجود، و لا يصغون إلى كلام أنبياء اللّه.

إنّ هؤلاء يؤمنون بحكم العقل الواعى، و العين البصيرة، و الاذن السامعة التى منحهم اللّه إيّاها، يؤمنون بآيات اللّه و يعملون بها صالحا، فمـا أجـدر أن يكون لأولئـك العـذاب الأليم، و لهؤلاء جنّات النعيم! و الأهمّ من ذلـك أنّ هـذه الجنان الوافرة النعم خالـدة لهؤلاء خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا و اللّه سبحانه لا يعد كذبا، و ليس عاجزا عن الوفاء بوعوده وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و ثمّة مسألة تستحقّ الدقّة، و هى أنّه قد ورد العذاب فى حقّ المستكبرين بصيغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸

المفرد، و فى شأن المؤمنين الذين يعملون الصالحات جاءت «الجنّات» بصيغة الجمع، و ذلك لأنّ رحمة اللّه عزّ و جلّ وسعت غضبه.

و التأكيد على الخلود و وعد اللّه الحقّ، تأكيد أيضا على سعة هذه الرحمة، و تفوّقها على الغضب.

و للنعيم معنى واسع يشـمل كلّ أنواع النعم الماديّة و المعنوية، و حتّى النعم التى لا يمكن أن ندركها، فنحن أسارى شـهوات البدن فى هذه الدنيا، و الراغب فى (مفرداته) يقول: النعيم: النعمة الكثيرة.

بحوث

۱- تحریم الغناء

لا شکّ فی أنّ الغناء بصورة إجمالیة حرام علی المشهور بین علماء الشیعة، و تصل هذه الشهرة إلی حدّ الإجماع.

و أکّد کثیر من علماء أهل السنّة علی هذه الحرمة، و إن کان بعضهم قد استثنوا بعض الأمور، و ربّما لا یعدّ بعضها استثناء فی الحقیقة، بل تعتبر خارجة عن موضوع الغناء، أو کما یقال: خارج تخصّصا.

یقول «القرطبی» فی ذیل الآیات مورد البحث فی هذا الباب: «و هو الغناء المعتاد عند المشتهرین به، الذی یحرّک النفوس و یبعثها علی الهوی و الغزل، و المجون الذی یحرّک الساکن و یبعث الکامن، فهذا النوع إذا کان فی شعر یشبّب فیه بذکر النساء و وصف محاسنهن و ذکر الخمور و المحرّمات لا یختلف فی تحریمه، لأنّه اللهو و الغناء المذموم بالاتّفاق، فامّا ما سلم من ذلک فیجوز القلیل منه فی أوقات الفرح، کالعرس و العید و عند التنشیط علی الأعمال الشاقّة کما کان فی حفر الخندق و حدو أنجشة و سلمة بن الأکوع، فامّا ما ابتدعته الصوفیة الیوم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹

من الإدمان علی سماع الأغانی بالآلات المطربة من الشبابات و الطار و المعازف و الأوتار فحرام»[۵].

إنّ ما ذکره القرطبی و بیّنه کاستثناء، من قبیل الحداء للإبل، أو الأشعار الخاصّة التی کان یقرؤها المسلمون أثناء حفر الخندق، یحتمل قویّا أنّه لم یکن من الغناء أساسا، فهو شبیه بالأشعار التی یقرؤها جماعة بلحن خاصّ فی المسیرات أو مجالس الفرح و مجالس العزاء الدینیّة.

و فی أیدینا أدلّة کثیرة علی تحریم الغناء فی المصادر الإسلامیة، و من جملتها الآیة أعلاه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ و بعض آیات أخر من القرآن التی تنطبق- علی الأقلّ طبق الروایات الواردة فی تفسیر هذه الآیات- علی الغناء، أو أنّ الغناء اعتبر من مصادیقها:

ففی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر آیة: وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ[۶] قال:

«قول الزور الغناء»[۷].

و

عنه علیه السّلام فی تفسیر الآیة: وَ الَّذِینَ لا یَشْهَدُونَ الزُّورَ[۸] قال: «الغناء»[۹].

و

قد رویت فی تفسیر هذه الآیة روایات عدیدة عن الإمام الباقر و الصادق و الرضا علیهم السّلام أوضحوا فیها أنّ أحد مصادیق لهو الحدیث الموجب للعذاب المهین هو «الغناء»[۱۰].

إضافة إلی هذا فإنّه تلاحظ فی المصادر الإسلامیة روایات کثیرة اخری- عدا ما ورد فی تفسیر الآیات- تبیّن تحریم الغناء بصورة مؤکّدة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰

ففی حدیث مروی عن جابر بن عبد اللّه، عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «کان إبلیس أوّل من تغنّی»[۱۱].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «بیت الغناء لا تؤمن فیه الفجیعة، و لا تجاب فیه الدعوة، و لا یدخله الملک»[۱۲].

و

فى حديث آخر عليه السّلام: «الغناء يورث النفاق، و يعقب الفقر»[۱۳].

و

فى حديث آخر عن الصادق عليه السّلام: «المغنّية ملعونة، و من أدّاها ملعون، و آكل كسبها ملعون»[۱۴].

و قد نقلت روايات كثيرة فى هذا المجال فى كتب أهل السنّة المعروفة أيضا، و من جملتها الرواية التى

نقلها فى (الدرّ المنثور) عن جماعة كثيرة من المحدّثين، عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، أنّه قال: «لا يحلّ تعليم المغنّيات و لا بيعهنّ، و أثمانهنّ حرام»[۱۵].

و نقل نظير هذا المعنى كاتب (التاج) عن الترمذى و الإمام أحمد[۱۶].

و

يروى ابن مسعود عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل»[۱۷].

و بالجملة، فإنّ الرّوايات الواردة فى هذا الباب كثيرة جدّا بحيث تصل إلى حدّ التواتر، و لهذا فإنّ أكثر علماء الإسلام قد أفتوا بالحرمة، علاوة على علماء الشيعة، الذين يتّفقون بالرأى فى هذا الموضوع تقريبا، و قد نقل تحريمه عن أبى حنيفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱

أيضا، و عند ما سألوا «أحمد»- إمام السنّة المعروف- عن الغناء قال: ينبت النفاق.

و قال «مالك»- إمام أهل السنّة المعروف- مجيبا عن هذا السؤال: يفعله الفسّاق.

و صرّح «الشافعى» بأنّ شهادة أصحاب الغناء غير مقبولة، و هذا بنفسه دليل على فسق هؤلاء.

و نقل عن أصحاب الشافعى أيضا أنّهم اعتبروا فتوى الشافعى تحريما، على خلاف ما اعتقده البعض ۱۸].

۲- ما هو الغناء؟

لا يواجهنا إشكال مهم فى حرمة الغناء، إنّما الإشكال الصعب هو تشخيص موضوع الغناء، فهل أنّ كلّ صوت حسن غناء؟

من المسلّم أنّ الأمر ليس كذلك، لأنّه قد ورد فى الرّوايات الإسلامية، و سيرة المسلمين تحكى أيضا، أن اقرؤوا القرآن و أذّنوا بصوت حسن.

هل أنّ الغناء كلّ صوت فيه ترجيع- و هو تردّد الصوت فى الحنجرة-؟ هذا أيضا غير ثابت.

و الذى يمكن استفادته من مجموع كلمات فقهاء و أقوال أهل السنّة فى هذا المجال، أنّ الغناء هو كلّ لحن و صوت يطرب، و يشتمل على اللهو و الباطل.

و بعبارة أوضح: الغناء هو الأصوات و الألحان التى تناسب مجالس الفسق و الفجور، و أهل المعصية و الفساد.

و بتعبير آخر: الغناء يقال للصوت الذى يحرّك القوى الشهوانية فى الإنسان، بحيث يشعر الإنسان فى تلك الحال بأنّه لو كان إلى جانب هذا الصوت خمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲

و مسكر و إباحة و فساد جنسى، لكان ذلك مناسبا جدّا! و هناك مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّ بعض الألحان تعدّ أحيانا غناء و لهوا باطلا بذاتها و محتواها، مثال ذلك أشعار العشق و الغرام و الأشعار المفسدة التى تقرأ بألحان و موسيقى راقصة.

و قد تكون الألحان بذاتها غناء أحيانا اخرى، مثال الأشعار الجيدة، أو آيات القرآن و الدعاء و المناجاة التى تقرأ بلحن يناسب مجالس

الفاسدين و الفسّاق، و هو حرام فى كلام الصورتين «فتأمّل».

و ثمّة مسألة ينبغى ذكرها، و هى أنّه يذكر للغناء معنيان: معنى عامّ، و معنى خاصّ، و المعنى الخاصّ هو ما ذكرناه أعلاه، أى الموسيقى و الألحان التى تحرّك الشهوات، و تناسب مجالس الفسق و الفجور.

و المعنى العامّ هو كلّ صوت حسن، فمن فسّر الغناء بالمعنى العامّ قسّمه إلى قسمين: غناء حلال، و غناء حرام.

و المراد من الغناء الحرام: هو ما قيل أعلاه، و المراد من الغناء الحلال: الصوت الحسن الجميل و الذى لا يكون باعثا على الفساد، و لا يناسب مجالس الفسق و الفجور.

و بناء على هذا فلا يوجد اختلاف- تقريبا- فى أصل تحريم الغناء، بل الاختلاف فى كيفية تفسيره.

و من الطبيعى أن يكون للغناء موارد شكّ- ككلّ المفاهيم الاخرى- و أنّ الإنسان لا يعلم حقّا هل أنّ الصوت الفلانى يناسب مجالس الفسق و الفجور، أم لا؟ و فى هذه الصورة يحكم بالحلّية بحكم أصل البراءة، و هذا- طبعا- بعد الإحاطة الكافية بالمفهوم العرفى للغناء طبق التعريف أعلاه.

و من هنا يتّضح أنّ الأصوات و الموسيقى الحماسية التى تناسب ساحات الحرب أو الرياضة و أمثالها لا دليل على حرمتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳

و من الطبيعى أنّ هناك بحوثا أخرى فى باب الغناء، من قبيل بعض الاستثناءات التى قبلها جماعة و أنكرها آخرون، و مسائل أخرى ينبغى الكلام عنها فى الكتب الفقهيّة.

و الكلام الأخير هو أنّ ما ذكر أعلاه يتعلّق بالغناء، و أمّا استعمال الآلات الموسيقية و حرمتها، فهو بحث آخر خارج عن هذا الموضوع.

۳- فلسفة تحريم الغناء:

إنّ التدقيق فى مفهوم الغناء- مع الشروط التى قلناها فى شرح هذا المفهوم- تجعل الغاية من تحريم الغناء واضحة جدّا.

فبنظرة سريعة إلى معطيات الغناء سنواجه المفاسد أدناه:

أوّلا: الترغيب و الدعوة إلى فساد الأخلاق.

لقد بيّنت التجربة- و التجربة خير شاهد- أنّ كثيرا من الأفراد الواقعين تحت تأثير موسيقى و ألحان الغناء قد تركوا طريق التقوى، و اتّجهوا نحو الشهوات و الفساد.

إنّ مجلس الغناء- عادة- يعدّ مركزا لأنواع المفاسد، و الدافع على هذه المفاسد هو الغناء.

و نقرأ فى بعض التقارير التى وردت فى الصحف الأجنبية أنّه كان فى مجلس جماعة من الفتيان و الفتيات فعزفت فيه موسيقى خاصّة و على نمط خاص من الغناء، فهيّجت الفتيان و الفتيات إلى الحدّ الذى هجم فيه بعضهم على البعض الآخر، و عملوا من الفضائح ما يخجل القلم عن ذكره.

و ينقل فى تفسير (روح المعانى) حديثا عن أحد زعماء بنى أميّة أنّه قال لهم:

إيّاكم و الغناء فإنّه ينقص الحياء، و يزيد فى الشهوة، و يهدم المروءة، و إنّه ينوب عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴

الخمر، و يفعل ما يفعل السكر[۱۹]. و هذا يبيّن أنّه حتّى أولئك كانوا مطّلعين على مفاسده أيضا.

و عند ما نرى فى الرّوايات الإسلامية:

أنّ الغناء ينبت النفاق،

فإنّه إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ روح النفاق هى روح التلوّث بالفساد و الابتعاد عن التقوى.

و إذا جاء فى الرّوايات أنّ الملائكة لا تدخل البيت الذى فيه غناء، فبسبب التلوّث بالفساد، لأنّ الملائكة طاهرة تطلب الطهارة، و تتأذّى من هذه الأجواء الملوّثة.

ثانيا: الغفلة عن ذكر اللّه:

إنّ التعبير باللهو الذى فسّر بالغناء فى بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى حقيقة أنّ الغناء يجعل الإنسان عبدا ثملا من الشهوات حتّى يغفل عن ذكر اللّه.

و فى الآيات أعلاه قرأنا أنّ «لهو الحديث» أحد عوامل الضلالة عن سبيل اللّه، و موجب للعذاب الأليم.

فى حديث عن على عليه السّلام: «كلّ ما ألهى عن ذكر اللّه (و أوقع الإنسان فى و حل الشهوات) فهو من الميسر»[۲۰]

- أى فى حكم القمار-.

ثالثا: الإضرار بالأعصاب:

إنّ الغناء و الموسيقى- فى الحقيقة- أحد العوامل المهمّة فى تخدير الأعصاب، و بتعبير آخر: إنّ الموادّ المخدّرة ترد البدن عن طريق الفمّ و الشرب أحيانا كالخمر، و أحيانا عن طريق الشمّ و حاسّة الشمّ كالهيروئين، و أحيانا عن طريق التزريق كالمورفين، و أحيانا عن طريق حاسّة السمع كالغناء.

و لهذا فإنّ الغناء و الموسيقى المطربة قد تجعل الأفراد منتشين أحيانا إلى حدّ يشبهون فيه السكارى، و قد لا يصل إلى هذه المرحلة أحيانا، و لكنّه يوجد تخديرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵

خفيفا، و لهذا فإنّ كثيرا من مفاسد المخدّرات موجودة فى الغناء، سواء كان تخديره خفيفا أم قويّا.

«إنّ الانتباه بدقّة إلى سيرة مشاهير الموسيقيين يبيّن أنّهم قد واجهوا تدريجيّا مصاعب و صدمات نفسية خلال مراحل حياتهم حتّى فقدوا أعصابهم شيئا فشيئا، و ابتلى عدد منهم بأمراض نفسية، و جماعة فقدوا مشاعرهم و ساروا إلى دار المجانين، و بعضهم أصيبوا بالشلل و العجز، و بعضهم أصيب بالسكتة، حيث ارتفع ضغط الدم عندهم أثناء عزف الموسيقى»[۲۱].

و قد جاء فى بعض الكتب التى كتبت فى مجال لآثار المضرّة للموسيقى على أعصاب الإنسان، حالات جمع من الموسيقيين و المغنّين المعروفين الذين أصيبوا بالسكتة و موت الفجأة أثناء أداء برامجهم، و زهقت أرواحهم فى ذلك المجلس ۲۲].

و خلاصة القول فإنّ الآثار المضرّة للغناء و الموسيقى على الأعصاب تصل إلى حدّ إيجاد الجنون، و تؤثّر على القلب و تؤدّى إلى ارتفاع ضغط الدم و غير ذلك من الآثار المخرّبة.

و يستفاد من الإحصاءات المعدّة للوفيّات فى عصرنا الحالى بأنّ معدّل موت الفجأة قد إزداد بالمقارنة مع السابق، و قد ذكروا أسبابا مختلفة كان من جملتها الغناء و الموسيقى.

رابعا: الغناء أحد وسائل الاستعمار:

إنّ مستعمرى العالم يخافون دائما من وعى الشعوب، و خاصّة الشباب، و لذلك فإنّ جانبا من برامجهم الواسعة لاستمرار و إدامة الاستعمار هو إغراق المجتمعات بالغفلة و الجهل و الضلال، و توسعة وسائل اللهو المفسدة.

إنّ المخدّرات لا تتّصف اليوم بصفة تجارية فقط، بل هى أحد الوسائل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶

السياسية المهمّة، فإنّ السياسات الاستعمارية تسعى إلى إيجاد مراكز الفحشاء و نوادى القمار و وسائل اللهو الفاسدة الاخرى، و من جملتها توسعة و نشر الغناء و الموسيقى، و هى من أهمّ الوسائل التى يصرّ عليها المستعمرون لتخدير أفكار الناس، و لهذا فإنّ

الموسيقى تشكّل القسم الأكبر من وقت إذا عات العالم و وسائل الإعلام الأساسية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷

الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۰ الى ۱۱]

اشارة

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۱۰) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۱)

التّفسير

هذا خلق اللّه:

مواصلة للبحث حول القرآن و الإيمان به فى الآيات السابقة، تتحدّث الآيتان أعلاه عن أدلّة التوحيد الذى هو أهمّ الأصول العقائدية.

تشير الآية الاولى إلى خمسة أقسام من مخلوقات اللّه التى ترتبط مع بعضها ارتباطا وثيقا لا ينفصل، و هى: خلق السماء، و كون الكواكب معلّقة فى الفضاء، و خلق الجبال لتثبيت الأرض، ثمّ خلق الدواب، و بعد ذلك الماء و النباتات التى هى وسيلة تغذيتها، فتقول: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها.

(العمد) جمع (عمود)، و تقييد بنائها و إقامتها ب تَرَوْنَها دليل على أنّه ليس لهذه السماء أعمدة مرئيّة، و معنى ذلك أنّ لها أعمدة إلّا أنّها غير قابلة للرؤية، و كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸

قلنا قبل هذا فى تفسير سورة الرعد أيضا، فإنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى قانون الجاذبيّة الذى يبدو كالعمود القوىّ جدّا، إلّا أنّه غير مرئىّ، يحفظ الأجرام السماوية.

و قد صرّح

فى حديث رواه حسين بن خالد، عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام، أنّه قال: «سبحان اللّه! أليس اللّه يقول: بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها؟ قلت: بلى، قال: «ثمّ عمد و لكن لا ترونها»[۲۳][۲۴].

و على كلّ حال، فإنّ الجملة أعلاه أحد معاجز القرآن المجيد العلميّة، و قد أوردنا تفصيلا أكثر عنها فى ذيل الآية (۲) من سورة الرعد.

ثمّ تقول الآية فى الغاية من خلق الجبال: وَ أَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ۲۵].

إنّ هذه الآية التى لها نظائر كثيرة فى القرآن، توضّح أنّ الجبال وسيلة لتثبيت الأرض، و قد تثبت هذه الحقيقة اليوم من الناحية العلميّة من جهات عديدة:

فمن جهة أنّ أصولها مرتبطة مع بعضها، و هى كالدرع المحكم يحفظ الكرة الأرضية أمام الضغوط الناشئة من الحرارة الداخلية، و لو لا هذه الجبال فإنّ الزلازل المدمّرة كانت ستبلغ حدّا ربّما لا تدع معه للإنسان مجالا للحياة.

و من جهة أنّ هذه السلسلة المحكمة تقاوم جاذبية القمر و الشمس الشديدة، و إلّا فسيحدث جزر و مدّ عظيمان فى القشرة الأرضية أقوى من جزر و مدّ البحار، و تجعل الحياة بالنسبة للإنسان مستحيلة.

و من جهة أنّها تقف سدّا أمام العواصف و الرياح العاتية، و تقلّل من تماسّ الهواء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹

المجاور للأرض عند دوران الأرض حول نفسها إلى أقلّ حدّ، و لو لم تكن هذه الجبال لكان سطح الأرض كالصحارى اليابسة، و عرضة للأعاصير و الزوابع المهلكة، و العواصف الهوجاء المدمّرة ليل نهار[۲۶].

و بعد ذكر نعمة استقرار السماء بأعمدة الجاذبية. و استقرار و ثبات الأرض بواسطة الجبال، تصل النوبة إلى خلق الكائنات الحيّة و استقرارها، بحيث تستطيع أن تضع أقدامها فى محيط هادئ مطمئن، فتقول: وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ.

إنّ التعبير ب مِنْ كُلِّ دابَّةٍ إشارة إلى تنوّع الحياة فى صور مختلفة، ابتداء من الكائنات الحيّة المجهرية و التى ملأت جميع الأرجاء إلى الحيوانات العملاقة و المخوفة.

و كذلك الحيوانات المختلفة الألوان، و المتفاوتة الأشكال التى تعيش فى الماء و الهواء من الطيور و الزواحف، و الحشرات المختلفة و أمثالها، و التى لكلّ منها عالمها الخاصّ تعكس الحياة فى مئات الآلاف من المرايا.

إلّا أنّ من المعلوم أنّ هذه الحيوانات تحتاج إلى الماء و الغذاء، و لذلك فإنّ الجملة التالية أشارت إلى هذا الموضوع، فقالت: وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ

و بهذا فإنّ الآية تبيّن أساس حياة كلّ الحيوانات- و خاصّة الإنسان- و الذى يكوّنه الماء و النبات، فالكرة الأرضية تعتبر سماطا واسعا ذا أغذية متنوّعة يمتدّ فى جميع أنحائها، و يصلح لكلّ نوع منها حسب خلقته، ممّا يدلّ على عظمة الخالق جلّ و علا.

و ممّا يستحقّ الانتباه هو أنّه فى بيان خلق الأقسام الثلاثة الاولى ذكرت الأفعال بصيغة الغائب، و حين وصل الأمر إلى نزول المطر و نمو النباتات أتت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰

الأفعال بصيغة المتكلّم، فيقول: نحن أنزلنا من السماء ماء، و نحن أنبتنا النباتات فى الأرض.

و هذا بنفسه أحد فنون الفصاحة، حيث إنّهم عند ما يريدون ذكر امور مختلفة، فإنّهم يبيّنونها بشكلين أو أكثر، كى لا يشعر السامع بأىّ نوع من الضجر و الرتابة، إضافة إلى أنّ هذا التعبير يوضّح أنّ نزول المطر و نمو النبات كانا محطّ اهتمام خاصّ.

ثمّ تشير هذه الآية مرّة أخرى إلى مسألة (الزوجيّة فى عالم النباتات) و هى أيضا من معجزات القرآن العلميّة، لأنّ الزوجيّة- أى وجود الذكر و الأنثى- فى عالم النباتات لم تكن ثابتة فى ذلك الزمان بصورة واسعة، و القرآن كشف الستار عنها. و لزيادة التفصيل حول هذه المسألة يمكنكم مراجعة ذيل الآية (۷) من سورة الشعراء.

ثمّ إنّ وصف أزواج النباتات ب «الكريم» إشارة ضمنية إلى أنواع المواهب الموجودة فيها.

بعد ذكر عظمة اللّه فى عالم الخلقة، و ذكر صور مختلفة من المخلوقات، وجّهت الآية الخطاب إلى المشركين، و جعلتهم موضع سؤال و استجواب، فقالت: هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ! من المسلّم أنّ أولئك لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون أىّ من المخلوقات من خلق الأصنام، و على هذا فإنّهم كانوا يقرّون بتوحيد الخالق، مع هذا الحال كيف يستطيعون تعليل الشرك فى العبادة؟!

لأنّ توحيد الخالق دليل على توحيد الربّ و كون مدبّر العالم واحدا، و هو دليل على توحيد العبوديّة.

و لذلك اعتبرت الآية عمل أولئك منطبقا على الظلم و الضلال، فقالت: بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و معلوم أنّ «الظلم» له معنى واسعا يشمل وضع كلّ شىء فى غير موضعه، و لمّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱

كان المشركون يربطون العبادة، و تدبير العالم أحيانا بالأصنام، فإنّهم كانوا مرتكبين لأكبر ظلم و ضلالة.

ثمّ إنّ التعبير أعلاه يتضمّن إشارة لطيفة إلى ارتباط «الظلم» و «الضلال»، لأنّ الإنسان عند ما لا يعرف مكانة الموجودات الموضوعية

فى العالم، أو يعرفها و لا يراعيها، و لا يرى كلّ شىء فى مكانه، فمن المسلّم أنّ هذا الظلم سيكون سببا للضلالة و الضياع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۱۲) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۱۳) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (۱۴) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۵)

التّفسير

احترام الوالدين:

لتكميل البحوث السابقة حول التوحيد و الشرك، و أهميّة و عظمة القرآن، و الحكمة التى استعملت و اتّبعت فى هذا الكتاب السماوى، فقد ورد الكلام فى هذه الآيات التى التى نبحثها و الآيات الاخرى التالية عن لقمان الحكيم، و عن جانب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳

من المواعظ المهمّة لهذا الرجل المتألّه فى باب التوحيد و محاربة الشرك، و قد انعكست المسائل الأخلاقيّة المهمّة فى مواعظ لقمان لابنه.

إنّ هذه المواعظ العشرة التى ذكرت ضمن ستّ آيات، قد بيّنت بأسلوب رائع المسائل العقائدية، إضافة إلى أصول الواجبات الدينيّة و المباحث الأخلاقية.

و سنبحث فيما بعد- فى بحث الملاحظات- إن شاء اللّه تعالى، من هو لقمان؟

و أيّة خصائص كان يمتلكها؟ و لكنّ ما نذكره هنا هو أنّ القرائن تبيّن أنّه لم يكن نبيّا، بل كان رجلا ورعا مهذّبا انتصر فى ميدان جهاد هوى النفس، فكان أن فجّر اللّه تعالى فى قلبه ينابيع العلم و الحكمة.

و يكفى فى عظمة مقامه أنّ اللّه قد قرن مواعظه بكلامه، و ذكرها فى طيّات آيات القرآن.

أجل .. عند ما يتنوّر قلب الإنسان بنور الحكمة نتيجة للطهارة و التقوى، فإنّ الكلام الإلهى يجرى على لسانه، و يقول ما يقوله اللّه، و يفكّر بالشكل الذى يرضاه اللّه! بعد هذا التوضيح الموجز نعود إلى تفسير الآيات:

تقول الآية الاولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[۲۷].

فما هى الحكمة؟

فى معرض الحديث عن ماهية الحكمة ينبغى القول: إنّهم قد ذكروا للحكمة معانى كثيرة، مثل: معرفة أسرار عالم الوجود، و الإحاطة و العلم بحقائق القرآن،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴

و الوصول إلی الحقّ من جهة القول و العمل، و معرفة اللّه.

إلّا أنّ کلّ هـذه المعانی یمکن جمعها فی تعریف واحـد، فالحکمـة التی یتحـدّث عنها القرآن، و التی کان اللّه قد آتاها لقمان، کانت مجموعة من المعرفة و العلم، و الأخلاق الطاهرة و التقوی و نور الهدایة.

و

فی حدیث عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام، أنّه قال لهشام بن الحکم فی تفسیر هذه الآیة: «إنّ الحکمة هی الفهم و العقل»[۲۸].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة، أنّه قال: «أوتی معرفة إمام زمانه»[۲۹].

و من الواضح أنّ کلّا من هذه المفاهیم یعتبر أحد فروع معنی الحکمة الواسع، و لا منافاة بینها.

و علی کلّ حال، فإنّ لقمان بامتلاکه هذه الحکمة کان یشکر اللّه، فقد کان یعلم الهدف من وراء هذه النعم الإلهیّة، و کیفیّة استغلالها و الاستفادة منها، و کان یضعها بدقّة و صواب کامل فی مکانها المناسب لتحقیق الهدف الذی خلقت من أجله، و هذه هی الحکمة، هی وضع کلّ شیء فی موضعه، و بناء علی هذا فإنّ الشکر و الحکمة یعودان إلی نقطة واحدة.

و قد اتّضحت نتیجة الشکر و الکفران للنعم بصورة ضمنیة فی الآیة، و هی أنّ شکر النعمة سیکون من صالح الإنسان و فی منفعته، و أنّ کفران النعمة سیکون سببا لضرره أیضا، لأنّ اللّه سبحانه غنیّ عن العالمین، فلو أنّ کلّ الممکنات قد شکرته فلا یزید فی عظمته شیء، و لو أنّ کلّ الکائنات کفرت فلا ینقص من کبریائه شیء! إنّ «اللام» فی جملة أَنِ اشْکُرْ لِلَّهِ لام الإختصاص، و «اللام» فی لِنَفْسِهِ لام النفع، و بناء علی هذا، فإنّ نفع الشکر، و الذی هو دوام النعمة و کثرتها، إضافة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵

إلی ثواب الآخرة یعود علی الإنسان نفسه، کما أنّ مضرّة الکفر تحیق به فقط.

و التعبیر ب غَنِیٌّ حَمِیدٌ إشارة إلی شکر الناس للأفراد العادیین أمّا أن یؤدّی إلی النفع المادّی للمشکور، أو زیادة مکانة صاحبه فی أنظار الناس، إلّا أنّ أیّا من هذین الأمرین لا معنی له و لا مصداق فی حقّ اللّه تعالی، فإنّه غنیّ عن الجمیع، و هو أهل لحمد کلّ الحامدین و ثنائهم، فالملائکة تحمده، و کلّ ذرّات الوجود و الموجودات مشغولة بتسبیحه، و إذا ما نطق إنسان بالکفر فلیس له أدنی تأثیر، فحتّی ذرّات وجوده مشغولة بحمده و ثنائه بلسان الحال! و ممّا یجدر ذکره أنّ الشکر قد ذکر بصیغة المضارع، و الذی یدلّ علی الاستمرار، أمّا الکفر فقد جاء بصیغة الماضی الذی یصدق حتّی علی المرّة الواحدة، و هذا إشارة إلی أنّ الکفران و لو لمرّة واحدة یمکن أن یؤدّی إلی عواقب و خیمة مؤلمة، أمّا الشکر فإنّه لازم، و یجب أن یکون مستمرّا لیطوی الإنسان مسیره التکاملی.

و بعد تعریف لقمان و مقامه العلمی و الحکمی، أشارت الآیة التالیة إلی اولی مواعظه، و هی فی الوقت نفسه أهمّ وصایاه لولده، فقالت: وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ یَعِظُهُ یا بُنَیَّ لا تُشْرِکْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِیمٌ

إنّ حکمة لقمان توجب علیه أن یتوجّه قبل کلّ شیء إلی أهمّ المسائل الأساسیة، و هی مسألة التوحید .. التوحید فی کلّ المجالات و الأبعاد، لأنّ کلّ حرکة هدّامة ضدّ التوجّه الإلهی تنبع من الشرک، من عبادة الدنیا و المنصب و الهوی و أمثال ذلک، و الذی یعتبر کلّ منها فرعا من الشرک.

کما أنّ أساس کلّ الحرکات الصحیحة البنّاءة هو التوحید و التوجّه إلی اللّه، و إطاعة أوامره، و الابتعاد عن غیره، و کسر کلّ الأصنام فی ساحة کبریائه! و ممّا یستحقّ الإشارة أنّ لقمان الحکیم قد جعل علّة نفی الشرک هو أنّ الشرک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶

ظلم عظیم، و قد احیط بالتأکید من عدّة جهات ۳۰].

و أىّ ظلم أعظم منه، حيث جعلوا موجودات لا قيمة لها فى مصافّ اللّه و درجته، هذا من جانب، و من جانب آخر يجرّون الناس إلى الضلال و الانحراف، و يظلمونهم بجناياتهم و جرائمهم، و هم يظلمون أنفسهم أيضا حيث ينزلونها من قمّة عزّة العبودية للّه و يهوون بها إلى منحدر ذلّة العبودية لغيره.

و الآيتان التاليتان جمل معترضة ذكرها اللّه تعالى فى طيّات مواعظ لقمان، لكنّ هذا الاعتراض لا يعنى عدم الاتّصال و الارتباط، بل يعنى الصلة الواضحة لكلام اللّه عزّ و جلّ بكلام لقمان، لأنّ فى هاتين الآيتين بحثا عن نعمة وجود الوالدين و مشاقّهما و خدماتهما و حقوقهما، و جعل شكر الوالدين فى درجة شكر اللّه.

إضافة إلى أنّهما تعتبران تأكيدا على كون مواعظ لقمان لابنه خالصة، لأنّ الوالدين مع هذه العلاقة القويّة و خلوص النيّة لا يمكن أن يذكرا فى مواعظهما إلّا ما فيه خير و صلاح الولد، فتقول أوّلا: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ و عندئذ تشير إلى جهود و متاعب الامّ العظيمة، فتقول: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ ۳۱].

و هذه المسألة قد ثبتت من الناحية العلمية، إذ أوضحت التجارب أنّ الامّهات فى فترة الحمل يصبن بالضعف و الوهن، لأنّهنّ يصرفن خلاصة وجودهنّ فى تغذية و تنمية الجنين، و يقدّمن له من موادهنّ الحياتية أفضلها، و لذلك فإنّ الامّهات أثناء فترة الحمل يبتلين بنقص أنواع الفيتامينات و فى حالة عدم تعويض هذا النقص فسيؤدّى إلى آلام و متاعب كثيرة.

و هذا الأمر يستمر حتّى فى فترة الرضاعة، لأنّ اللبن عصارة وجود الامّ، و لهذا تضيف بعد ذلك فترة رضاعه سنتان وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ كما أشير إلى ذلك فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷

موضع آخر من القرآن: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ۳۲]، و المراد فترة الرضاعة الكاملة، و إن كانت تتمّ أحيانا بفترة أقلّ.

و على كلّ حال، فإنّ الامّ فى هذه ال (۳۳) شهرا- فترة الحمل، و فترة الرضاع- تبدى و تقدّم أعظم تضحية لولدها، سواء كان من الجانب الروحى و العاطفى، أو الجسمى، أو من جهة الخدمات و الرعاية.

و الملفت للنظر هنا أنّها توصى فى البداية بالوالدين معا، إلّا أنّها عند بيان المشاقّ و المتاعب تؤكّد على متاعب الامّ، لتنبّه الإنسان إلى إيثارها و تضحياتها و حقّها العظيم.

ثمّ تقول: أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ فاشكرنى لأنّى خالقك و المنعم الأصلّى عليك، و منحتك مثل هذين الأبوين العطوفين الرحيمين، و اشكر والديك لأنّهما واسطة هذا الفيض و قد تحمّلا مسئولية إيصال نعمى إليك. فما أجمل أن يجعل شكر الوالدين قرين شكر اللّه! و ما أعمق مغزاه! و يقول اللّه تعالى فى نهاية الآية بنبرة لا تخلو من التهديد و العتاب: إِلَيَّ الْمَصِيرُ. نعم، فإنّك إذا قصّرت هنا فستحاسب على كلّ هذه الحقوق و المصاعب و الخدمات بدقّة فيجب على الإنسان أن يؤدّى ما عليه من شكر مواهب اللّه.

و كذلك شكر نعمة وجود الأبوين و عواطفهما الصادقة الطاهرة لينجح فى ذلك الحساب و تلك المحكمة.

و فى هذا المجال التفت بعض المفسّرين إلى مسألة لطيفة، و هى أنّه قد ورد التأكيد على رعاية حقوق الأبوين مرارا فى القرآن المجيد، إلّا أنّ التوصية بالأولاد تلاحظ قليلا- ما عدا مورد النهى عن قتل الأولاد، و التى كانت عادة مشؤومة قبيحة و استثنائية فى عصر الجاهلية- و ذلك لأنّ الوالدين، و بحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸

عواطفهما القويّة، قلّ ما يهملوا أولادهما بيد النسيان، فى حين يلاحظ بكثرة أنّ الأولاد ينسون الأبوين، و خاصّة عند الكبر و العجز، و تعتبر هذه آلم و أشدّ حالة لهما، و أسوأ صور كفران النعمة بالنسبة للأولاد[۳۳].

إنّ الوصيّة بالإحسان إلى الأبوين قد توجد الاشتباه و الوهم عند البعض و ذلك حينما يظنّ أنّه يجب مداراتهما و اتّباعهما حتّى فى

مسألة العقيدة و الكفر و الإيمان، لكنّ الآية التالية تقول: وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما فيجب أن لا تكون علاقة الإنسان بأمّه و أبيه مقدّمة على علاقته باللّه مطلقا، و أن لا تكون عواطف القرابة حاكمة على عقيدته الدينيّة أبدا.

جملة جاهَداكَ إشارة إلى أنّ الأبوين قد يظنّان أحيانا أنّهما يريدان سعادة الولد، و يسعيان إلى جرّه إلى عقيدتهما المنحرفة و الإيمان بها، و هذا يلاحظ لدى كلّ الآباء و الامّهات.

إنّ واجب الأولاد أن لا يستسلموا أبدا أمام هذه الضغوط، و يجب أن يحافظوا على استقلالهم الفكرى، و لا يساوموا على عقيدة التوحيد، أو يبدّلوها بأىّ شىء.

ثمّ إنّ جملة ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ تشير ضمنا إلى أنّنا لو نتجاهل أدلّة بطلان الشرك، و لم نقم لها وزنا، فإنّه لا يوجد دليل على إثباته، و لا يستطيع أىّ متعنّت إثبات الشرك بالدليل.

و إذا تجاوزنا ذلك، فإنّ الشرك إن كانت له حقيقة، فينبغى أن يكون هناك دليل على إثباته، و لمّا لم يكن هناك دليل على إثباته، فإنّ هذا بنفسه دليل على بطلانه.

و لمّا كان من الممكن أيضا أن يوجد هذا الأمر توهّم وجوب استخدام الخشونة مع الوالدين المشركين و عدم احترامهما، و لذلك أضافت الآية أنّ عدم طاعتهما فى مسألة الشرك ليس دليلا على وجوب قطع العلاقة معهما، بل تأمره الآية أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹

وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً.

فلاطفهما و أظهر المحبّة لهما فى الحياة الدنيويّة و المعاشرة، و لا تستسلم لأفكارهما و اقتراحاتهما من الناحية العقائدية و البرامج الدينيّة، و هذه بالضبط نقطة الاعتدال الأصليّة التى تجمع فيها حقوق اللّه و الوالدين، و لذا يضيف بعد ذلك وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ لأنّ المصير إليه سبحانه ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إنّ سبب النفى و الإثبات المتلاحق، و الأوامر و النواهى المتتابعة فى الآيات أعلاه هو أن يجد المسلمون الخطّ الأصلى و يشخّصوه فى مثل هذه المسائل، حيث يبدو فى أوّل الأمر أنّ هناك تناقضا فى أداء هذين الواجبين، فإن تفكّروا قليلا فإنّ المسير الصحيح سيكون نصب أعينهم، و سيسيرون فيه دون أدنى إفراط و لا تفريط، و هذه الدقّة و اللطافة القرآنية فى أمثال هذه الدقائق من صور فصاحة القرآن و بلاغته العميقة.

و على كلّ حال، فإنّ الآية أعلاه تشبه ما جاء فى الآية (۸) من سورة العنكبوت، حيث تقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و قد أوردنا فى ذيل الآية (۸) من سورة العنكبوت سبب نزول لها ذكر فى بعض التفاسير.

بحثان

۱- من هو لقمان؟

لقد ورد اسم «لقمان» فى آيتين من القرآن فى هذه السورة، و لا يوجد فى القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيّا أم لا، كما أنّ أسلوب القرآن فى شأن لقمان يوحى بأنّه لم يكن نبيّا، لأنّه يلاحظ فى القرآن أنّ الكلام فى شأن الأنبياء عادة يدور حول الرسالة و الدعوة إلى التوحيد و محاربة الشرك و انحرافات البيئة، و عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰

المطالبـة بالأجر و المكافأة، و كـذلك بشارة الأمم و إنذارها، فی حين أنّ أيّا من هذه الأمور لم يذكر فی شأن لقمان، و الذی ورد هو مجموعة مواعظ خاصّة مع ولده (رغم شموليتها و عموميتها)، و هذا دليل على أنّه كان رجلا حكيما و حسب.

و

فی حـديثه عن الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله: «حقّا أقول: لم يكن لقمان نبيّا، و لكن كان عبدا كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ اللّه فأحبّه و منّ عليه بالحكمة».

و جـاء فی بعض التواريـخ: أنّ لقمـان كـان عبـدا أسود من سودان مصـر، و لكنّه إلى جانب وجهه الأسود كان له قلب مضـیء و روح صافية، و كان يصدق فی القول من البداية، و لا يمزج الأمانة بالخيانة، و لم يكن يتدخّل فيما لا يعنيه ۳۴].

و احتمل بعض المفسّرين نبوّته، لكن- كما قلنا- لا يوجد دليل على ذلك، بل لدينا شواهد واضحة على نقيض ذلك.

و

جاء فی بعض الرّوايات: أنّ شخصا سأل لقمان: ألم تكون ترعى معنا؟ قال:

نعم.

قال الرجل: فمن أين أتاك كلّ هذا العلم و الحكمة؟

قال: قدر اللّه، و أداء الأمانة، و صدق الحديث، و الصمت عمّا لا يعنينی ۳۵].

و

ورد كـذلك فی ذيل الحـديث الـذی نقلناه عن الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله: «كان لقمان نائما نصف النهار، إذ جاءه نـداء: يا لقمـان، هل لك أن يجعلك اللّه خليفـة تحكم بين الناس بالحقّ؟ فأجاب الصوت: إن خيّرنی ربّی قبلت العافيـة، و لم أقبل البلاء، و إن عزم علیّ فسمعا و طاعة، فإنّی أعلم أنّه إن فعل بی ذلك أعاننی و عصمنی.

فقالت الملائكة: دون أن يراهم: لم يا لقمان؟

قـال: لأنّ الحكم أشـدّ المنازل و آكـدها، يغشاه الظلم من كلّ مكان، إن وقی فبالحری أن ينجو، و إن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، و من يكن فی الدنيا ذليلا و فی

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱

الآخرة شريفا خير من أن يكون فی الدنيا شريفا و فی الآخرة ذليلا، و من يخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا و لا يصيب الآخرة.

فتعجّبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فاعطی الحكمة، فانتبه يتكلّم بها»[۳۶].

۲- صور من حكمة لقمان

لقـد ذكر بعض المفسّـرين بعضـا من كلمـات لقمـان الحكيمـة مناسـبة للمواعـظ التی وردت فی آيات هـذه السورة، و نحن نـذكر هنا مختصرا منها:

أ- كان لقمان يقول لابنه: يا بنی، إنّ الـدنيا بحر عميق، و قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سـفينتك فيها الإيمان باللّه، و اجعل شـراعها التوكّل على اللّه، و اجعل زادك فيها تقوى اللّه، فإن نجوت فبرحمة اللّه، و إن هلكت فبذنوبك ۳۷].

و

قد ورد نفس هذا المطلب ضـمن كلام الإمام الكاظم عليه السّـلام مع هشام بن الحكم بصورة أكمل، نقلا عن لقمان الحكيم: «يا بنیّ،

إنّ الدنیا بحر عمیق، قد غرق فیها عالم کثیر، فلتکن سفینتک فیها تقوی اللّه، و حشوها الإیمان، و شراعها التوکّل، و قیّمها العقل، و دلیلها العلم، و سکّانها الصبر»[۳۸].

ب- و فی حوار آخر مع ابنه حول آداب السفر یقول:

یا بنیّ، سافر بسیفک و خفّک و عمامتک، و خبائک و سقائک، و خیوطک و مخرزک، و تزوّد معک من الأدویة ما تنتفع به أنت و من معک، و کن لأصحابک موافقا إلّا فی معصیة اللّه عزّ و جلّ.

یا بنیّ، إذا سافرت مع قوم فأکثر استشارتهم فی أمرک و أمورهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲

و أکثر التبسّم فی وجوههم.

و کن کریما علی زادک بینهم.

و إذا دعوک فأجبهم، و إذا استعانوا بک فأعنهم.

و استعمل طول الصمت، و کثرة الصلاة، و سخاء النفس بما معک من دابّة أو ماء أو زاد.

و إذا استشهدوک علی الحقّ فاشهد لهم.

و اجهد رأیک إذا استشاروک، ثمّ لا تعزم حتّی تتثبّت و تنظر، و لا تجب فی مشورة حتّی تقوم فیها و تقعد، و تنام و تأکل و تصلّی، و أنت مستعمل فکرتک و حکمتک فی مشورته، فإنّ من لم یمحض النتیجة من استشاره سلبه اللّه رأیه.

و إذا رأیت أصحابک یمشون فامش معهم، فإذا رأیتهم یعملون فاعمل معهم.

و اسمع لمن هو أکبر منک سنّا.

و إذا أمروک بأمر، و سألوک شیئا فقل: نعم، و لا تقل: لا، فإنّ (لا) عی و لؤم.

یا بنیّ، إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخّرها لشیء، صلّها و استرح منها فإنّها دین.

و صلّ فی جماعة و لو علی رأس زجّ.

و إن استطعت أن لا تأکل طعاما حتّی تبتدئ فتتصدّق منه فافعل.

و علیک بقراءة کتاب اللّه ۳۹].

ج- و ثمّة قصّة معروفة أیضا عن لقمان، و هی أنّ مولاه دعاه- یوم کان عبدا- فقال: اذبح شاة، فأتنی بأطیب مضغتین منها، فذبح شاة، و أتاه بالقلب و اللسان.

و بعد عدّة أیّام أمره أن یذبح شاة، و یأتیه بأخبث أعضائها، فذبح شاة و أتاه بالقلب و اللسان، فتعجّب و سأله عن ذلک فقال: إنّ القلب و اللسان إذا طهّرا فهما أطیب من کلّ شیء، و إذا خبثا کانا أخبث من کلّ شیء[۴۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳

و ننهی هذا البحث بحدیث

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «و اللّه ما اوتی لقمان الحکمة لحسب و لا مال و لا بسط فی جسم و لا جمال، و لکنّه کان رجلا قویّا فی أمر اللّه، متورّعا فی اللّه، ساکتا سکینا عمیق النظر، طویل التفکّر، حدید البصر.

و لم ینم نهارا قطّ- أی أوّله- و لم یتکئ فی مجلس قطّ- و هو عرف المتکبّرین- و لم یتفل فی مجلس قوم قطّ، و لم یعبث بشیء قطّ، و لم یره أحد من الناس علی بول و لا غائط قطّ، و لا علی اغتسال لشدّة تستّره و تحفّظه فی أمره.

و لم یمرّ بین رجلین یقتتلان أو یختصمان إلّا أصلح بینهما، و لم یسمع قولا استحسنه من أحد قطّ إلّا سأله عن تفسیره و عمّن أخذه، و کان یکثر مجالسة الفقهاء و العلماء، و یتعلّم من العلوم ما یغلب به نفسه، و یجاهد به هواه، و کان لا یظعن إلّا فیما ینفعه، و لا ینظر إلّا

فيما يعنيه، فبذلك اوتى الحكمة و منح القضيّة»[۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (۱۶) يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۱۷) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۱۸) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (۱۹)

التّفسير

أثبت كالجبل، و عامل الناس بالحسنى!

كانت اولى مواعظ لقمان عن مسألة التوحيد و محاربة الشرك، و ثانيتها عن حساب الأعمال و المعاد، و التى تكمّل حلقة المبدأ و المعاد، فيقول: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ أى فى يوم القيامة و يضعها للحساب إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵

«الخردل»: نبات له حبّات سوداء صغيرة جدّا يضرب المثل بصغرها، و هذا التعبير إشارة إلى أنّ أعمال الخير و الشرّ مهما كانت صغيرة لا قيمة لها، و مهما كانت خفيّة كخردلة فى بطن صخرة فى أعماق الأرض، أو فى زاوية من السماء، فإنّ اللّه اللطيف الخبير المطّلع على كلّ الموجودات، صغيرها و كبيرها فى جميع أنحاء العالم، سيحضرها للحساب و العقاب و الثواب، و لا يضيّع شىء فى هذا الحساب.

و الضمير فى «إنّها» يعود إلى الحسنات و السيّئات، و الإحسان و الإساءة[۴۲].

إنّ الالتفات و التوجّه إلى هذا الاطّلاع التامّ من قبل الخالق سبحانه على أعمال الإنسان و علمه بها، و بقاء كلّ الحسنات و السيّئات محفوظة فى كتاب علم اللّه، و عدم ضياع و تلف شىء فى عالم الوجود هذا، هو أساس كلّ الإصلاحات الفرديّة و الاجتماعية، و هو قوّة و طاقة محرّكة نحو الخيرات، و سدّ منيع من الشرور و السيّئات. و ذكر السماوات و الأرض بعد بيان الصخرة، هو فى الواقع من قبيل ذكر العامّ بعد الخاصّ.

و

فى حديث روى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «اتّقوا المحقّرات من الذنوب، فإنّ لها طالبا، يقول أحدكم: أذنب و أستغفر، إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ و قال عزّ و جلّ: إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[۴۳].

و بعد تحكيم أسس المبدأ و المعاد، و التى هى أساس كلّ الإعتقادات الدينيّة، تطرّق لقمان إلى أهمّ الأعمال، أى مسألة الصلاة، فقال: يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ لأنّ الصلاة أهمّ علاقة و ارتباط مع الخالق، و الصلاة تنوّر قلبك، و تصفّى روحك، و تضىء حياتك، و تطهّر

روحك من آثار الذنب، و تقذف نور الإيمان فى أنحاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶

وجودك، و تمنعك عن الفحشاء و المنكر.

و بعد الصلاة يتطرّق لقمان إلى أهمّ دستور اجتماعى، أى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، فيقول: وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

و بعد هذه الأوامر العمليّة المهمّة الثلاثة، ينتقل إلى مسألة الصبر و الاستقامة، و التى هى من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فيقول: وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ.

من المسلّم أنّه توجد مشاكل و عقبات كثيرة فى سائر الأعمال الاجتماعية، و خاصّة فى مسألة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و من المسلّم أيضا أنّ أصحاب المصالح و المتسلّطين، و المجرمين و الأنانيّين لا يستسلمون بهذه السهولة، بل يسعون إلى إيذاء و اتّهام الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر، و لا يمكن الإنتصار على هذه المصاعب و العقبات بدون الصبر و التحمّل و الاستقامة أبدا.

«العزم» بمعنى الإرادة المحكمة القويّة، و التعبير ب عَزْمِ الْأُمُورِ هنا إمّا بمعنى الأعمال التى أمر اللّه بها أمرا مؤكّدا، أو الأمور و الأعمال التى يجب أن يمتلك الإنسان فيها إرادة فولاذية و تصميما راسخا، و أيّا من هذين المعنيين كان فإنّه يشير إلى أهميّة تلك الأعمال.

و التعبير ب «ذلك» إشارة إلى الصبر و التحمّل، و يحتمل أيضا أن يعود إلى كلّ الأمور و المسائل التى ذكرت فى الآية أعلاه، و من جملتها الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، إلّا أنّ هذا التعبير قد ورد بعد مسألة الصبر فى بعض الآيات القرآنية الاخرى، و هذا يدعم و يقوّى الاحتمال الأوّل.

ثمّ انتقل لقمان إلى المسائل الأخلاقية المرتبطة بالناس و النفس، فيوصى أوّلا بالتواضع و البشاشة و عدم التكبّر، فيقول: وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ أى لا تعرض بوجهك عن الناس وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷

«تصعّر»: من مادّة (صعّر)، و هى فى الأصل مرض يصيب البعير فيؤدّى إلى اعوجاج رقبته.

و «المرح»: يعنى الغرور و البطر الناشئ من النعمة.

و «المختال»: من مادّة (الخيال) و (الخيلاء)، و تعنى الشخص الذى يرى نفسه عظيما و كبيرا، نتيجة سلسلة من التخيّلات و الأوهام.

و «الفخور»: من مادّة (الفخر) و يعنى الشخص الذى يفتخر على الآخرين.

و الفرق بين كلمتى المختال و الفخور، أنّ الاولى إشارة إلى التخيّلات الذهنيّة للكبر و العظمة، أمّا الثّانية فهى تشير إلى أعمال التكبّر الخارجى.

و على هذا، فإنّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى صفتين مذمومتين جدّا و أساس توهين و قطع الروابط الاجتماعية الصميميّة: إحداهما التكبّر و عدم الاهتمام بالآخرين، و الاخرى الغرور و العجب بالنفس، و هما مشتركتان من جهة دفع الإنسان إلى عالم من التوهّم و الخيال و نظرة التفوّق على الآخرين، و إسقاطه فى هذه الهاوية، و بالتالى تقطعان علاقته بالآخرين و تعزلانه عنهم، خاصّة و أنّه بملاحظة الأصل اللغوى ل «صعّر» سيتّضح أنّ مثل هذه الصفات مرض نفسى و أخلاقى، و نوع من الانحراف فى التشخيص و التفكير، و إلّا فإنّ الإنسان السالم من الناحية الروحية و النفسية لا يبتلى مطلقا بمثل هذه الظنون و التخيّلات.

و لا يخفى أنّ مراد لقمان لم يكن مسألة الإعراض عن الناس، أو المشى بغرور و حسب، بل المراد محاربة كلّ مظاهر التكبّر و الغرور، و لمّا كانت هذه الصفات تظهر فى طليعة الحركات العاديّة اليوميّة، فإنّه وضع إصبعه على مثل هذه المظاهر الخاصّة.

ثمّ بيّن فى الآية التالية أمرين و سلوكين أخلاقيين إيجابيّين فى مقابل النهيين عن سلوكين سلبيين فى الآية السابقة فيقول: ابتغ الاعتدال فى مشيك: وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ و ابتغ الاعتدال كذلك فى كلامك و لا ترفع صوتك عاليا وَ اغْضُضْ مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸

صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ[۴۴].

إنّ هاتين الآيتين فى الحقيقة أمرتا بصفتين، و نهتا عن صفتين:

فالنهى عن «التكبّر» و «العجب»، فإنّ أحدهما يؤدّى إلى أن يتكبّر الإنسان على عباد اللّه، و الآخر يؤدّى إلى أن يظنّ الإنسان أنّه فى مرتبة الكمال و أسمى من الآخرين، و بالتالى سيغلق أبواب التكامل بوجهه، و إن كان لا يقارن بينه و بين الآخرين.

و بالرغم من أنّ هاتين الصفتين مقترنتان غالبا، و لهما أصل مشترك، إلّا أنّهما قد تفترقان أحيانا.

أمّا الأمر بصفتين، فهما رعاية الاعتدال فى العمل و الكلام، لأنّ التأكيد على الاعتدال فى المشى أو إطلاق الصوت هو من باب المثال فى الحقيقة.

و الحقّ أنّ الإنسان الذى يتّبع هذه النصائح الأربع موفّق و سعيد و ناجح فى الحياة، و محبوب بين الناس، و عزيز عند اللّه.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ من الممكن أن نسمع أصواتا أزعج من أصوات الحمير فى محيط حياتنا، كصوت سحب بعض القطع الفلزّية إلى بعضها الآخر، حيث يحسّ الإنسان عند سماعه بأنّ لحمه يتساقط، إلّا أنّ هذه الأصوات لا تمتلك صفة عامّة، إضافة إلى وجود فرق بين المزعج و القبيح من الأصوات، و الحقّ هو أنّ صوت الحمار أقبح من كلّ الأصوات العاديّة التى يسمعها الإنسان، و به شبّهت صرخات و نعرات المغرورين البله.

و ليس القبح من جهة ارتفاع الصوت و طريقته فحسب، بل من جهة كونه بلا سبب أحيانا، لأنّ بعض المفسّرين يقولون: إنّ أصوات الحيوانات تعبّر غالبا عن حاجة، إلّا أنّ هذا الحيوان يطلق صوته أحيانا بدون مبرّر أو داع، و بدون أىّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹

حاجة أو مقدّمة! و ربّما كان ما ورد فى بعض الرّوايات من أنّ الحمار كلّما أطلق صوته فقد رأى شيطانا، لهذا السبب.

و قال البعض: إنّ صراخ كلّ حيوان تسبيح إلّا صوت الحمار! و على كلّ حال، فإنّنا إذا تجاوزنا كلّ ذلك، فإنّ كون هذا الصوت قبيحا من بين الأصوات لا يحتاج إلى بحث، و إذا رأينا فى الرّوايات المرويّة عن الإمام الصادق عليه السّلام، و التى فسّرت هذه الآية بالعطسة بصوت عال، أو الصراخ عند التكلّم و التحدّث، فإنّه فى الحقيقة مصداق واضح لذلك ۴۵].

تعليقات

۱- آداب المشى

صحيح أنّ المشى مسألة سهلة و بسيطة، إلّا أنّ نفس هذه المسألة السهلة يمكن أن تعكس أحوال و أوضاع الإنسان الداخلية و الأخلاقيّة، و قد تحدّد ملامح شخصيته، لأنّ روحيّة الإنسان و أخلاقه تنعكس فى طيّات كلّ أعماله، كما قلنا سابقا، و قد يكون العمل الصغير حاكيا عن روحية متأصّلة أحيانا. و لمّا كان الإسلام قد اهتمّ بكلّ أبعاد الحياة، فإنّه لم يهمل شيئا فى هذا الباب أيضا.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «من مشى على الأرض اختيالا لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها»[۴۶].

و

فى حديث آخر عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أنّه نهى أن يختال الرجل فى مشيه، و قال: «من لبس ثوبا فاختال فيه خسف اللّه به من شفير جهنّم، و كان قرين قارون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۰

لأنّه أوّل من اختال!»[۴۷].

و کذلک

ورد عن الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه تبارک و تعالی فرض الإیمان علی جوارح ابن آدم و قسّمه علیها و فرّقه فیها- إلی أن قال- و فرض علی الرجلین أن لا تمشی بهما إلی شیء من معاصی اللّه، و فرض علیهما المشی إلی ما یرضی اللّه عزّ و جلّ، فقال تعالی: وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً و قال: وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ ۴۸].

و قد نقل ذلک عن نبی الإسلام العزیز صلّی اللّه علیه و آله، و ذلک أنّه

کان قد مرّ من طریق، فرأی مجنونا قد اجتمع الناس حوله ینظرون إلیه، فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» فقالوا:

علی مجنون یصرع، فنظر إلیهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و قال: «ما هذا بمجنون! ألا أخبرکم بالمجنون حقّ المجنون؟» قالوا: بلی یا رسول اللّه، فقال: «إنّ المجنون: المتبختر فی مشیه، الناظر فی عطفیه، المحرّک جنبیه بمنکبیه، فذلک المجنون و هذا المبتلی»[۴۹].

۲- آداب الحدیث

لقد وردت إشارة إلی آداب الحدیث فی مواعظ لقمان، و قد فتح فی الإسلام باب واسع لهذه المسألة، و ذکرت فیه آداب کثیرة من جملتها:

- طالما لم تکن هناک ضرورة للحدیث و التکلّم، فإنّ السکوت خیر منه، کما نری ذلک

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «السکوت راحة للعقل»[۵۰].

- و

جاء فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیهما السّلام: «من علامات الفقه:

العلم و الحلم و الصمت، إنّ الصمت باب من أبواب الحکمة»[۵۱].

- و قد ورد التأکید فی روایات اخری علی أنّه لا ینبغی للمؤمن أن یسکت فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۱

المواضع التی یلزم فیها الکلام، و أنّ الأنبیاء بعثوا بالکلام لا بالسکوت، و أنّ وسیلة الوصول إلی الجنّة و الخلاص من النار هی الکلام فی الموضع المناسب ۵۲].

۳- آداب العشرة

لقد اهتمّت الروایات الإسلامیة الواردة عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّة أهل البیت علیهم السّلام بمسألة التواضع و حسن الخلق و الملاطفة فی المعاملة، و ترک الخشونة و الجفاء فی المعاشرة، اهتماما قلّ نظیره فی الموارد الاخری، و أفضل و أبلغ شاهد فی هذا الباب هی الروایات الإسلامیة نفسها، و نذکر منها هنا نماذج:

-

جاء رجل إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله فقال: یا رسول اللّه، أوصنی، فکان فیما أوصاه أن قال: «الق أخاک بوجه منبسط»[۵۳].

و

فى حديث آخر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «ما يوضع فى ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[۵۴].

- و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «البرّ و حسن الخلق يعمران الديار، و يزيدان فى الأعمار»[۵۵].

و

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «أكثر ما تلج به امّتى الجنّة تقوى اللّه و حسن الخلق»[۵۶].

و

عن على عليه السّلام فى شأن التواضع: «زينة الشريف التواضع»[۵۷].

- و أخيرا نطالع

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «التواضع أصل كلّ خير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۲

نفيس، و مرتبة رفيعة، و لو كان للتواضع لغة يفهمها الخلق لنطق عن حقائق ما فى مخفيات العواقب .. و من تواضع للّه شرّفه اللّه على كثير من عباده .. و ليس للّه عزّ و جلّ عبادة يقبلها و يرضاها إلّا و بابها التواضع»[۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۳

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۰ الى ۲۴]

اشارة

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (۲۰) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ (۲۱) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ (۲۴)

التّفسير

بعد انتهاء مواعظ لقمان العشر حول المبدأ و المعاد و طريقة الحياة، و خطط و برامج القرآن الأخلاقية و الاجتماعية، و لأجل إكمال البحث، تتّجه الآيات إلى بيان نعم اللّه تعالى لتبعث فى الناس حسن الشكر .. الشكر الذى يكون منبعا لمعرفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۴

اللّه و طاعة أوامره ۵۹]، فيوجّه الخطاب لكلّ البشر، فيقول: أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

إنّ لتسخير الموجودات السماوية و الأرضيّة للإنسان معنى واسعا يشمل الأمور التى فى قبضته و إختياره، و يستخدمها برغبته و إرادته فى طريق تحصيل منافعه ككثير من الموجودات الأرضيّة، كما تشمل الأمور التى ليست تحت تصرّفه و إختياره، لكنّها تخدم الإنسان بأمر اللّه جلّ و علا- كالشمس و القمر. و بناء على هذا فإنّ كلّ الموجودات مسخّرة بإذن اللّه لنفع البشر، سواء كانت مسخّرة بأمر الإنسان أم لا، و على هذا فإنّ اللام فى (لكم) لام المنفعة[۶۰].

ثمّ تضيف الآية: وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً.

«أسبغ» من مادّة (سبغ) و هى فى الأصل بمعنى الثوب أو الدرع العريض الكامل، ثمّ اطلق على النعم الكثيرة الوفيرة أيضا.

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المراد من النعم الظاهرة و الباطنة فى هذه الآية ..

فالبعض اعتقد أنّ النعمة الظاهرة هى الشىء الذى لا يمكن لأىّ أحد إنكاره كالخلق و الحياة و أنواع الأرزاق، و النعم الباطنة إشارة إلى الأمور التى لا يمكن إدراكها من دون دقّة و مطالعة ككثير من القوى الروحية و الغرائز المهمّة.

و البعض عدّ الأعضاء الظاهرة هى النعم الظاهرة، و القلب هو النعمة الباطنة.

و البعض الآخر اعتبر حسن الصورة و الوجه و القامة المستقيمة و سلامة الأعضاء النعمة الظاهرة، و معرفة اللّه هى النعمة الباطنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۵

و

فى حديث عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله أنّ ابن عبّاس سأله عن النعم الظاهرة و الباطنة فقال صلّى اللّه عليه و آله: «يا بن عبّاس، أمّا ما ظهر فالإسلام و ما سوّى اللّه من خلقك، و ما أفاض عليك من الرزق، و أمّا ما بطن فستر مساوئ عملك و لم يفضحك به»[۶۱].

و

فى حديث آخر عن الباقر عليه السّلام: «النعمة الظاهرة: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و ما جاء به النّبى من معرفة اللّه، و أمّا النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت و عقد مودّتنا»[۶۲].

إلّا أنّه لا توجد أيّة منافاة بين هذه التفاسير فى الحقيقة، و كلّ منها يبيّن مصداقا بارزا للنعمة الظاهرة و النعمة الباطنة دون أن يحدّد معناها الواسع.

و تتحدّث الآية فى النهاية عمّن يكفر بالنعم الإلهية الكبيرة العظيمة، و التى تحيط الإنسان من كلّ جانب، و يهبّ إلى الجدال و محاربة الحقّ، فتقول: مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ و بدل أن يعرف و يقدّر هبة و عطاء كلّ هذه النعم الظاهرة و الباطنة، فإنّه يتّجه إلى الشرك و الجحود نتيجة الجهل.

و لكن ما هو الفرق بين «العلم» و «الهدى» و «الكتاب المنير»؟

لعلّ أفضل ما يمكن أن يقال فى ذلك هو أنّ «العلم»: إشارة إلى الإدراكات التى يدركها الإنسان عن طريق عقله، و «الهدى»: إشارة إلى المعلّمين و القادة الربّانيين و السماويين، و العلماء الذين يأخذون بيده فى هذا المسير و يوصلونه إلى الغاية و الهدف، و المراد من «الكتاب المنير»: الكتب السماوية التى تملأ قلب الإنسان نورا عن طريق الوحى.

إنّ هذه الجماعة العنيدة فى الحقيقة لا يمتلكون علما، و لا يتّبعون مرشدا و هاديا، و لا يستلهمون من الوحى الإلهى، و لمّا كانت طرق الهداية منحصرة بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۶

الأمور الثلاثة فإنّ هؤلاء لمّا تركوها سقطوا فى هاوية الضلال و الضياع و وادى الشياطين.

و تشير الآية التالية إلى المنطق الضعيف السقيم لهذه الفئة، فتقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا و لمّا لم يكن اتّباع الآباء الجهلة المنحرفين جزءا من أىّ واحد من الطرق الثلاثة المذكورة أعلاه للهداية، فإنّ القرآن ذكره بعنوان الطريق الشيطانى، و قال: أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ[۶۳].

إنّ القرآن- فى الحقيقة- يزيح هنا الغطاء عن اتّباع سنّة الآباء و الأجداد الزائفة، و يبيّن الوجه الحقيقى لعمل هؤلاء و الذى هو فى حقيقته اتّباع الشيطان فى مسير جهنّم.

أجل، إنّ قيادة الشيطان بذاتها تستوجب أن يخالفها الإنسان و إن كانت مبطّنة بالدعوة إلى الحقّ، فمن المسلّم أنّه غطاء و خدعة، و

الدعوة إلى النار كافية لوحدها أيضا للمخالفة بالرغم من أنّ الداعى مجهول الحال، فإذا كان الداعى الشيطان، و دعوته إلى نار جهنّم المستعرة، فالأمر واضح.

هل يوجد عاقل يترك دعوة أنبياء اللّه إلى الجنّة، و يلهث وراء دعوة الشيطان إلى جهنّم؟! ثمّ تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال مجموعتين: المؤمنين الخلّص، و الكفّار الملوّثين، و تجعلهم مورد اهتمامها فى المقارنة بينهم، فقالت: وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى

و المراد من تسليم الوجه إلى اللّه سبحانه، هو التوجّه الكامل و بكلّ الوجود إلى ذات اللّه المقدّسة، لأنّ الوجه لمّا كان أشرف عضو فى البدن، و مركزا لأهمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۷

الحواسّ الإنسانية، فإنّه يستعمل كناية عن ذاته.

و التعبير ب وَ هُوَ مُحْسِنٌ من قبيل ذكر العمل الصالح بعد الإيمان.

و الاستمساك بالعروة الوثقى تشبيه لطيف لهذه الحقيقة، و هى أنّ الإنسان يحتاج لنجاته من منحدر الماديّة و الارتقاء إلى أعلى قمم المعرفة و المعنويات و تسامى الروح، إلى واسطة و وسيلة محكمة مستقرّة ثابتة، و ليست هذه الوسيلة إلّا الإيمان و العمل الصالح، و كلّ سبيل و متّكأ غيرهما متهرّئ متخرّق هاو و سبب للسقوط و الموت، إضافة إلى أنّ ما يبقى هو هذه الوسيلة، و كلّ ما عداها فان، و لذلك فإنّ الآية تقول فى النهاية: وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ.

جاء فى حديث نقل فى تفسير البرهان عن طرق العامّة عن الإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «و سيكون بعدى فتنة مظلمة، الناجى منها من تمسّك بالعروة الوثقى، فقيل: يا رسول اللّه، و ما العروة الوثقى؟ قال: ولاية سيّد الوصيّين، قيل: يا رسول اللّه، و من سيّد الوصيّين؟ قال: أمير المؤمنين، قيل:

يا رسول اللّه و من أمير المؤمنين؟ قال: مولى المسلمين و إمامهم بعدى، قيل:

يا رسول اللّه، و من مولى المسلمين و إمامهم بعدك؟ قال: أخى على بن أبى طالب»[۶۴].

و قد رويت روايات اخرى فى هذا الباب تؤيّد أنّ المراد من العروة الوثقى مودّة أهل البيت عليهم السّلام، أو حبّ آل محمّد صلّى اللّه عليه و آله، أو الأئمّة من ولد الحسين عليهم السّلام ۶۵].

و قد قلنا مرارا: إنّ هذه التفاسير بيان للمصاديق الواضحة، و لا تتنافى مع المصاديق الاخرى كالتوحيد و التقوى و أمثال ذلك.

ثمّ تطرقت الآية التالية إلى بيان حال الفئة الثّانية، فقالت: وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ لأنّك قد أدّيت واجبك على أحسن وجه، و هو الذى قد ظلم نفسه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۸

و مثل هذه التعبيرات التى وردت مرارا فى القرآن، تبيّن أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله كان يتألّم و يتعذّب كثيرا عند ما يرى الجاهلين العنودين يتركون سبيل اللّه مع تلك الدلائل البيّنة و العلامات الواضحة، و يسلكون سبيل الغىّ و الضلال، و كان يغتمّ إلى درجة أنّ اللّه تعالى كان يسلّى خاطره فى عدّة مرّات، و هذا دأب و حال المرشد و القائد الحريص المخلص.

فلا- تحزن أن تكفر جماعة من الناس، و يظلموا و يجوروا و هم متنعّمون بالنعم الإلهيّة و لا- يعاقبون، فلا- عجلة فى الأمر، إذ: إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا فإنّنا مطّلعون على أسرارهم و نيّاتهم كاطّلاعنا على أعمالهم، ف: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

إنّ تعبير: إنّ اللّه ينبّئ الناس فى القيامة بأعمالهم، أو أنّه تعالى ينبّئهم بما كانوا فيه يختلفون، قد ورد فى آيات كثيرة من القرآن المجيد، و بملاحظة أنّ (ننبّئكم) من مادّة (نبأ) و النبأ- على ما أورده الراغب فى مفرداته- يقال للخبر الذى ينطوى على محتوى و فائدة مهمّة، و هو صريح و خال من كلّ أشكال الكذب، سيتّضح أنّ هذه التعبيرات تشير إلى أنّ اللّه سبحانه يفشى و يفضح أعمال

البشر بحيث لا يبقى لأحد أىّ اعتراض و إنكار، فهو يظهر ما عمله الناس فى هذه الدنيا و نسوه أو تناسوه، و يهيّؤه للحساب و الجزاء، و حتّى ما يخطر فى قلب الإنسان و لم يطّلع عليه إلّا اللّه تعالى، فإنّه سبحانه سيذكرهم بها.

ثمّ يضيف بأنّ تمتّع هؤلاء بالحياة لا ينبغى أن يثير عجبك، لأنّا نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ ذلك العذاب الأليم المستمر.

إنّ هذا التعبير لعلّه إشارة إلى أنّ هؤلاء لا يتصوّروا أنّهم خارجون عن قبضة قدرة اللّه سبحانه، بل إنّه يريد أن يمهل هؤلاء للفتنة و إتمام الحجّة و الأهداف الاخرى، و إنّ هذا المتاع القليل من جانبه أيضا، و كم يختلف حال هؤلاء الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۵۹

يجرّون و يسحبون بذلّة و إكراه إلى العذاب الإلهى الغليظ، و حال أولئك الذين وضعوا كلّ وجودهم فى طريق العبودية للّه سبحانه، و استمسكوا بالعروة الوثقى، فهم يعيشون فى هذه الدنيا طاهرين صالحين، و فى الآخرة يتنعّمون بجوار رحمة اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۰

الآيات [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۲۵ الى ۳۰]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۵) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۲۷) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۲۹)

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۳۰)

التّفسير

عشر صفات للّه سبحانه:

بيّنت الآيات السّتّة أعلاه مجموعة من صفات اللّه سبحانه، و هى عشر صفات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۱

رئيسيّة، أو عشرة أسماء من الأسماء الحسنى:

الغنى، الحميد، العزيز، الحكيم، السميع، البصير، الخبير، الحقّ، العلىّ، و الكبير.

هذا من جهة، و من جهة اخرى فإنّ الآية الاولى تتحدّث عن «خالقية» اللّه، و الآية الثّانية عن «مالكيته» المطلقة، و الثالثة عن «علمه» اللامتناهى، و الآية الرّابعة و الخامسة عن «قدته» اللامتناهية. و الآية الأخيرة تخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّ الذى يمتلك هذه الصفات و يتمتّع بها هو اللّه تعالى، و كلّ ما دونه باطل أجوف حقير.

مع ملاحظة هذا البحث الإجمالى نعود إلى شرح الآيات، فتقول الآية الاولى:

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

هذا التعبير- و الذى يلاحظ فى آيات القرآن الاخرى، كالآية (۶۱- ۶۳) من سورة العنكبوت، و الآية (۳۸) من الزمر، و الآية (۹) من

الزخرف- يدلّ من جهة على أنّ المشركين لم يكونوا منكرين لتوحيد الخالق مطلقا، و لم يكونوا يستطيعون ادّعاء كون الأصنام خالقة، إنّما كانوا معتقدين بالشرك فى عبادة الأصنام و شفاعتها فقط. و من جهة اخرى يدلّ على كون التوحيد فطريّا و أنّ هذا النور كامن فى طينة و طبيعة كلّ البشر.

ثمّ تقول: إذا كان هؤلاء معترفين بتوحيد الخالق ف قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

ثمّ تتطرّق إلى «مالكية» اللّه، لأنّه بعد ثبوت كونه خالقا لا حاجة إلى دليل على كونه مالكا، فتقول: لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و من البديهى أنّ الخالق و المالك يكون مدبّرا لأمر العالم أيضا، و بهذا تثبت أركان التوحيد الثلاثة، و هى:

«توحيد الخالقية» و «توحيد المالكية» و «توحيد الربوبية». و الذى يكون على هذا الحال فإنّه غنىّ عن كلّ شىء، و أهل لكلّ حمد و ثناء، و لذلك تقول الآية فى النهاية: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۲

إنّه غنىّ على الإطلاق، و حميد من كلّ جهة، لأنّ كلّ موهبة فى هذا العالم تعود إليه، و كلّ ما يملكه الإنسان فإنّه صادر منه و خزائن كلّ الخيرات بيده، و هذا دليل حىّ على غناه.

و لمّا كان «الحمد» بمعنى الثناء على العمل الحسن الذى يصدر عن المرء باختياره، و كلّ حسن نراه فى هذا العالم فهو من اللّه سبحانه، فإنّ كلّ حمد و ثناء منه، فحتّى إذا مدحنا جمال الزهور، و وصفنا جاذبية العشق الملكوتى، و قدّرنا إيثار الشخص الكريم، فإنّنا فى الحقيقة نحمده، لأنّ هذا الجمال و الجاذبية و الكرم منه أيضا .. إذن فهو حميد على الإطلاق.

ثمّ تجسّد الآية التالية علم اللّه اللامحدود من خلال ذكر مثال بليغ جدّا، و قبل ذلك نرى لزوم ذكر هذه المسألة، و هى- طبقا لما جاء فى تفسير على بن إبراهيم:

إنّ قوما من اليهود عند ما سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله حول مسألة الروح، و أجابهم القرآن بأن قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا صعب هذا الكلام عليهم، و سألوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله: هل أنّ هذا فى حقّنا فقط؟ فأجابهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله:

«بل الناس عامّة»،

قالوا: فكيف يجتمع هذا يا محمّد؟! أ تزعم أنّك لم تؤت من العلم إلّا قليلا، و قد أوتيت القرآن و أوتينا التوراة، و قد قرأت: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ- و هى التوراة- فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً هنا نزلت الآية وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ...- الآية مورد البحث- و أوضحت أنّ علم الإنسان مهما كان واسعا فإنّه فى مقابل علم اللّه عزّ و جلّ ليس إلّا ذرّة تافهة، و الذى يعدّ كثيرا فى نظركم، هو قليل جدّا عند اللّه ۶۶].

و قد بيّنا نظير هذه الرواية عن طريق آخر فى ذيل الآية (۱۰۹) من سورة الكهف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۳

و على كلّ حال، فإنّ القرآن الكريم و لأجل تجسيد علم اللّه اللامتناهى يقول:

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

«يمدّه» من مادّة (المداد) و هى بمعنى الحبر أو المادّة الملوّنة التى يكتبون بها، و هى فى الأصل من (مدّ) بمعنى الخطّ، لأنّ الخطوط تظهر على صفحة الورق بواسطة جرّ القلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۶۳

نقل بعض المفسّرين معنى آخر لها، و هو الزيت الذى يوضع فى السراج و يسبّب إنارة السراج. و كلا المعنيين فى الواقع يرجعان إلى

أصل واحد.

«الكلمات» جمع «كلمة»، و هى فى الأصل الألفاظ التى يتحدّث و يتكلّم بها الإنسان، ثمّ أطلقت على معنى أوسع، و هو كلّ شىء يمكنه أن يبيّن المراد و المطلب، و لمّا كانت مخلوقات هذا العالم المختلفة يبيّن كلّ منها ذات اللّه المقدّسة و عظمته، فقد أطلق على كلّ موجود (كلمة اللّه)، و استعمل هذا التعبير خاصّة فى الموجودات الأشرف و الأعظم، كما نقرأ فى شأن المسيح فى الآية (۱۷۱) من سورة النساء إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ ثمّ استعملت كلمات اللّه بمعنى علم اللّه لهذه المناسبة.

و الآن يجب أن نفكّر بدقّة و بشكل صحيح بأنّه قد يكفى أحيانا قلم واحد مع مقدار من الحبر لكتابة كلّ المعلومات التى تتعلّق بإنسان ما، بل قد يكون من الممكن أن يسجّل أفراد آخرون مجموعة معلوماتهم على الأوراق بنفس ذلك القلم، إلّا أنّ القرآن يقول: لو أنّ كلّ الأشجار الموجودة على سطح الأرض تصبح أقلاما- و نحن نعلم أنّه قد تصنع من شجرة ضخمة، من ساقها و أغصانها، آلاف، بل ملايين الأقلام، و مع الأخذ بنظر الإعتبار المقدار العظيم للأشجار الموجودة فى الأرض، و الغابات التى تغطّى الكثير من الجبال و السهول، و عدد الأقلام الذى سينتج منها ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۴

و كذلك لو كانت كلّ البحار و المحيطات الموجودة، و التى تشكّل ثلاثة أرباع الكرة الأرضيّة تقريبا، بذلك العمق الساحق، تصبح حبرا، عند ذلك يتّضح عظمة ما سيكتب، و كم من العلوم يمكن كتابتها بهذا المقدار من الأقلام و الحبر! سيّما مع ملاحظة مضاعفة ذلك بإضافة سبعة أبحر اخرى، و كلّ واحد منها يعادل كلّ محيطات الأرض، و بالأخصّ إذا علمنا أنّ عدد السبعة هنا لا يعنى العدد، بل للكثرة و الإشارة إلى البحار التى لاعدّ لها، فعند ذلك ستّتضح سعة علم اللّه عزّ و جلّ و ترامى أطرافه، و مع ذلك فإنّ كلّ هذه الأقلام و المحابر تنتهى و لكنّ علومه سبحانه لا تعرف النهاية.

هل يوجد تجسيد و تصوير للّانهاية أروع و أبلغ و أجمل من هذا التجسيد؟ إنّ هذا العدد حىّ و ناطق إلى الحدّ الذى يصطحب معه أمواج فكر الإنسان إلى الآفاق اللامحدودة، و يغرقها فى الحيرة و الهيبة و الجلال.

إنّ الإنسان يشعر مع هذا البيان البليغ الواضح أنّ معلوماته مقابل علم اللّه كالصفر مقابل اللانهاية، و يليق به أن يقول فقط: إنّ علمى قد أوصلنى إلى أن أطّلع على جهلى، فحتّى التشبيه بالفطرة من البحر لتبيان هذه الحقيقة لا يبدو صحيحا.

و من جملة المسائل اللطيفة التى تلاحظ فى الآية: أنّ الشجرة قد وردت بصيغة المفرد، و الأقلام قد وردت بصيغة الجمع، و هذا تبيان لعدد الأقلام الكثيرة التى تنتج من شجرة واحدة بساقها و أغصانها.

و كذلك التعبير ب (البحر) بصيغة المفرد مع (الف و لام) الجنس ليشمل كلّ البحار و المحيطات على وجه الأرض، خاصّة و أنّ كلّ بحار العالم و محيطاته متّصلة ببعضها، و هى فى الواقع بحكم بحر واسع.

و الطريف فى الأمر أنّه لا- يتحدّث فى مورد الأقلام عن أقلام إضافية و مساعدة، أمّا فيما يتعلّق بالبحار فإنّه يتحدّث عن سبعة أبحر اخرى، لأنّ القلم يستهلك قليلا أثناء الكتابة، و الذى يستهلك أكثر هو الحبر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۵

انتخاب كلمة (سبع) للكثرة فى لغة العرب، ربّما كان بسبب أنّ السابقين كانوا يعتقدون أنّ عدد كواكب المنظومة الشمسية سبعة كواكب- و فى أنّ ما يرى اليوم بالعين المجرّدة من المنظومة الشمسية سبعة كواكب لا أكثر- و مع ملاحظة أنّ الأسبوع دورة زمانية كاملة تتكوّن من سبعة أيّام لا أكثر، و أنّهم كانوا يقسّمون كلّ الكرة الأرضية إلى سبع مناطق، و كانوا قد وضعوا لها اسم الأقاليم السبعة، سيتّضح لماذا انتخب عدد السبعة كعدد كامل من بين الأعداد، و استعمل لبيان الكثرة[۶۷].

بعد ذكر علم اللّه اللامحدود، تتحدّث الآية الاخرى عن قدرته اللامتناهية، فتقول: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

قال بعض المفسّرين: أنّ جمعا من كفّار قريش كانوا يقولون من باب التعجّب و الاستبعاد لمسألة المعاد: إنّ اللّه قد خلقنا بأشكال مختلفة، و على مدى مراحل مختلفة، فكنّا يوما نطفة، و بعدها صرنا علقة، و بعدها صرنا مضغة، ثمّ أصبحنا تدريجيّا على هيئات و صور مختلفة، فكيف يخلقنا اللّه جميعا خلقا جديدا فى ساعة واحدة؟! فنزلت الآية مورد البحث فأجابتهم.

إنّ هؤلاء كانوا غافلين فى الحقيقة عن مسألة مهمّة، و هى أنّ هذه المفاهيم كالصعوبة و السهولة، و الصغير و الكبير يمكن تصوّرها من قبل موجودات لها قدرة محدودة كقدرتنا، إلّا أنّها أمام قدرة اللّه اللامتناهية تكون متساوية، فلا يختلف خلق إنسان واحد عن خلق جميع البشر مطلقا، و خلق موجود ما فى لحظة واحدة أو على مدى سنين طوال بالنسبة إلى قدرته المطلقة.

و إذا كان تعجّب كفّار قريش من أنّه كيف يمكن فصل الأجساد عن بعضها و إرجاع كلّ منها إلى محلّه بعد أن كانت الطبائع مختلفة، و الإشكال متغايرة، و الشخصيات متنوّعة، و ذلك بعد أن تحوّل بدن الإنسان إلى تراب و تطايرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۶

ذرّات ذلك التراب؟! فإنّ علم اللّه اللامتناهى، و قدرته اللامحدودة تجيبهم عن سؤالهم، فإنّه قد جعل بين الموجودات روابط و علاقات بحيث أنّ الواحد منها كالمجموعة، و المجموعة كالواحد.

و أساسا فإنّ انسجام و ترابط هذا العالم بشكل ترجع كلّ كثرة فيه إلى الوحدة، و خلقة مجموع البشر تتّبع خلقة إنسان واحد.

و إذا كان تعجّب هؤلاء من قصر الزمان، لأنّه كيف يمكن أن تطوى المراحل التى يطويها الإنسان خلال سنين طوال من كونه نطفة إلى مرحلة الشباب، فى لحظات قصيرة؟! فإنّ قدرة اللّه تجيب على هذا التساؤل أيضا، فإنّنا نرى فى عالم الأحياء أنّ أطفال الإنسان يحتاجون لمدّة طويلة ليتعلّموا المشى بصورة جيّدة، أو يصبحوا قادرين على الاستفادة من كلّ أنواع الأغذية، فى حين أنّنا نرى الفراخ بمجرّد أن تخرج من البيضة تنهض و تسير، و تأكل دونما حاجة حتّى للامّ، و هذه الظاهرة تبيّن أنّ هذه الأمور لا تعنى شيئا أمام قدرة اللّه عزّ و جلّ.

إنّ ذكر كون اللّه «سميعا و بصيرا» فى نهاية الآية قد يكون جوابا عن إشكال آخر من جانب المشركين، و هو على فرض أنّ جميع البشر على اختلاف خلقتهم، و بكلّ خصوصياتهم يبعثون و يحيون فى ساعة واحدة، لكن كيف ستخضع أعمالهم و كلامهم للحساب، فإنّ الأعمال و الأقوال امور تفنى بعد الوجود؟! فيجيب القرآن بأنّ اللّه سميع و بصير، قد سمع كلّ كلامهم، و رأى كلّ أعمالهم، علاوة على أنّ الفناء المطلق لا معنى و لا وجود له فى هذا العالم، بل إنّ أعمالهم و أقوالهم موجودة دائما.

و إذا تجاوزنا ذلك فإنّ الجملة أعلاه تهديد لهؤلاء المعاندين، بأنّ اللّه سبحانه مطّلع على أقوالكم و مؤامراتكم، بل و حتّى على ما فى قلوبكم و ضمائركم.

الآية التالية تأكيد و بيان آخر لقدرة اللّه الواسعة، و قد وجّهت الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقالت: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۷

سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لخدمة الناس و تأمين احتياجاتهم كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

«الولوج» فى الأصل بمعنى «الدخول»، و دخول الليل فى النهار و النهار فى الليل قد يكون إشارة إلى طول و قصر الليل و النهار التدريجى على مدار السنة، حيث ينقص شىء من أحدهما تدريجيّا، و يضاف على الآخر بصورة غير محسوسة، لتتكوّن الفصول الأربعة للسنة بخصائصها و آثارها المباركة. (و ليست هناك إلّا نقطتان على سطح الأرض لا يوجد فيهما هذا التغيير التدريجى و الفصول الأربعة: إحداهما: النقطة الحقيقيّة للقطب الشمالى و الجنوبى حيث يكون الليل هناك ستّة أشهر، و النهار ستّة أشهر طوال السنة، و الاخرى خطّ الإستواء الدقيق حيث يتساوى ليله و نهاره كلّ السنة).

أو إشارة إلى أنّ تبديل الليل بالنهار و النهار بالليل لوجود الغلاف الجوّى لا يحدث بصورة مفاجئة فيتعرّض الإنسان و كلّ الموجودات

الحيّة للأخطار المختلفة حينئذ، بل إنّ أشعّة الشمس تتوغّل من حيث طلوع الفجر فى أعماق الظلام أوّلا، ثمّ يتّسع و يزداد ضوء النهار حتّى يعمّ كلّ أرجاء السماء، و على العكس تماما ممّا يحدث عند انتهاء النهار و دخول الليل.

و هذا الانتقال التدريجى و المنظّم بدقّة متناهية من مظاهر قدرة اللّه تعالى.

و من الطبيعى أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، و يمكن أن يجتمعا فى معنى الآية و تفسيرها.

أمّا فى مورد تسخير الشمس و القمر و سائر الكواكب السماوية للبشر، فإنّ المراد- و كما قلنا سابقا أيضا- تسخيرها فى سبيل خدمة الإنسان، و بتعبير آخر فإنّ اللام فى سَخَّرَ لَكُمْ لام النفع لا الإختصاص، و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد فى شأن الشمس و القمر، و الليل و النهار، و الأنهار و البحار و السفن، و كلّ هذه مبيّنة لعظمة شخصيّة الإنسان، و سعة نعم اللّه عليه حيث أنّ كلّ الموجودات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۸

الأرضية و السماوية مسخّرة و مطيعة له بأمر اللّه تعالى، و مع كلّ هذا التسخير فليس من الإنصاف أن يعصى اللّه سبحانه و لا يطيع أوامره ۶۸].

و جملة كُلٌّ يَجْرِى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إشارة إلى أنّ هذا النظام الدقيق لا يستمرّ إلى الأبد، بل إنّ له نهاية بانتهاء الدنيا، و هو ما ذكر فى سورة التكوير: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ....

إنّ ارتباط جملة أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ بهذا البحث سيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفا، لأنّ اللّه الذى جعل الشمس و القمر العظيمين خاضعين لنظام دقيق، و عاقب بين الليل و النهار بذلك النظام الخاصّ آلاف و ملايين السنين، كيف يمكن أن تخفى عليه أعمال البشر؟ نعم .. إنّه يعلم الأعمال، و كذلك يعلم النيّات و الأفكار.

و تقول الآية الأخيرة، كاستخلاص نتيجة جامعة كليّة ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ[۶۹].

إنّ مجموع البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول كون اللّه خالقا و مالكا، و عن علمه و قدرته اللامتناهيين، أثبتت هذه الأمور، و أنّ الحقّ هو اللّه وحده، و كلّ شىء غيره زائل و باطل و محدود و محتاج، و العلى و الكبير الذى يسمو على كلّ شىء، و يجلّ عن كلّ وصف، هو ذاته المقدّسة، و على قول الشاعر:

ألا كلّ شىء ما خلا اللّه باطل‌و كلّ نعيم لا محالة زائل

و يمكن إيضاح هذا الكلام بالتعبير الفلسفى كما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۶۹

إنّ الحقّ إشارة إلى الوجود الحقيقى الثابت، و فى هذا العالم فإنّ الوجود الحقيقى القائم بذاته و الثابت المستقرّ الخالد هو اللّه فقط، و كلّ ما عداه لا وجود له بذاته و هو عين البطلان، حيث إنّه يستمدّ وجوده عن طريق الارتباط بذلك الوجود الحقّ الدائم، فإذا انقطع الفيض عنه لحظة فإنّه سيفنى و يمحى فى ظلمات الفناء و العدم، و بهذا فإنّه كلّما قوى ارتباط الموجودات الاخرى بوجود اللّه تعالى فإنّها تكتسب بتلك النسبة حقّا أكبر.

و على كلّ حال، و كما قلنا سابقا، فإنّ هذه الآيات مجموعة من عشر صفات من صفات اللّه تعالى، و عشرة أسماء من أسمائه، و تشتمل على أدلّة قويّة- لا يمكن إنكارها- و على بطلان كلّ أنواع الشرك، و لزوم التوحيد فى كلّ مراحل العبودية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۰

الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۱) وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (۳۲)

التّفسير

فى دوّامة البلاء!

يدور البحث و الحديث فى هاتين الآيتين أيضا عن نعم اللّه سبحانه، و أدلّة التوحيد فى الآفاق و الأنفس، فالحديث فى الآية الاولى عن دليل النظام، و فى الآية الثّانية عن التوحيد الفطرى، و هما فى المجموع تكمّلان البحوث التى وردت فى الآيات السابقة.

تقول الآية الاولى: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ۷۰] لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۱

لا شكّ أنّ حركة السفن على سطح المحيطات تتمّ بمجموعة من قوانين الخلقة:

- فحركة الرياح المنتظمة من جهة.
- و الوزن الخاصّ للخشب أو المواد التى تصنع منها تلك السفينة من جانب آخر.
- و مستوى كثافة الماء من جانب ثالث.
- و مقدار ضغط الماء على الأجسام التى تسبح فيه من جهة رابعة.

و حينما يحدث اختلال فى واحد من هذه الأمور فإنّ السفينة إمّا أن تغرق و تنزل إلى قعر البحر، أو تنقلب، أو تبقى حائرة لا تهتدى إلى سبيل نجاتها فى وسط البحر.

غير أنّ اللّه جلّ و علا الذى أراد أن يجعل البحار الواسعة أفضل السبل و أهمّها لسفر البشر، و نقل المواد التى يحتاجونها من نقطة إلى اخرى، قد هيّأ و يسّر هذه الشروط و الظروف، و كلّ منها نعمة من نعمه تعالى.

إنّ عظمة قدرة اللّه سبحانه فى ميدان المحيطات، و صغر الإنسان مقابلها، تبلغ حدّا بحيث إنّ كلّ البشر فى العالم القديم- الذى كانت السفن تعتمد على الرياح فى حركتها- لو اجتمعوا ليحرّكوا سفينة وسط البحر عكس اتّجاه ريح عاصف قويّة لما استطاعوا.

و اليوم أيضا، حيث حلّت المولّدات و المكائن العظيمة محلّ الهواء، فإنّ هبوب العواصف قد يبلغ من الشدّة أحيانا بحيث يحرّك و يهزّ أعظم السفن، و قد يحطّمها أحيانا.

و التأكيد الذى ورد فى نهاية الآية على أوصاف (صبّار) و (شكور) إمّا أن يكون من باب أنّ الحياة الدنيا مجموعة من البلاء و النعمة، و كلاهما طريق و محلّ للاختبار، حيث إنّ الصمود و التحمّل أمام الحوادث الصعبة، و الشكر على النعم يشكّلان مجمل ما يجب على الإنسان، و لذا نقل كثير من المفسّرين

عن الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۲

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «الإيمان نصفان: نصف صبر، و نصف شكر»[۷۱].

أو أن يكون إشارة إلى لزوم وجود هدف لأجل إدراك آيات اللّه العظيمة فى ميدان الخلقة، و هذا الهدف هو شكر المنعم المقترن بالصبر و التحمّل من أجل دقّة و تفحّص أكبر.

و بعد بيان نعمة حركة السفن فى البحار، و التى كانت و لا تزال أكبر و أنفع وسائل حمل و نقل البضائع و البشر، أشارت هذه الآية إلى صورة اخرى لهذه المسألة، فقالت: وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

«الظلل» جمع ظلّة، و قد ذكر المفسّرون لها عدّة معان:

- فيقول الراغب فى مفرداته: الظلّة سحابة تظلّ، و أكثر ما تقال لما يستوخم و يكره.

- و البعض اعتبرها بمعنى المظلّة الكبيرة، من مادّة الظلّ.

- و البعض اعتبرها بمعنى الجبل.

و بالرغم من أنّ هذه المعانى- من حيث تعلّقها بالآية مورد البحث- لا تختلف كثيرا عن بعضها، إلّا أنّه بملاحظة أنّ هذه الكلمة قد وردت مرارا فى القرآن بمعنى السحاب الذى يظلّ، و بملاحظة أنّ تعبير (غشيهم) يناسب معنى السحاب أكثر، فيبدو أنّ هذا التّفسير هو الأقرب.

أى إنّ أمواج البحر العظيمة تهيج فتحيط بهم كأنّ سحابا قد أظلّهم بظلّ مرعب مهول.

هنا يجد الإنسان نفسه ضعيفا و عاجزا رغم كلّ تلك القوى و الإمكانيات الظاهرية التى أعدّها لنفسه، و يجد يده قاصرة عن كلّ شىء و مكان، و تقف كلّ الوسائل العادية و الماديّة عن العمل، و لا يبقى له أى بصيص أمل إلّا النور الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۳

يشعّ من أعماق روحه و فطرته، فيزيح عن قلبه حجب الغفلة، و يقول له: هل يوجد أحد يستطيع إنقاذك؟

نعم، إنّه الذى تطيع أوامره أمواج البحر .. أنّه خالق الماء و الهواء و التراب.

هنا يحيط التوحيد الخالص بكلّ قلبه و يغمره، و يعتقد بأنّ الدين و العبادة مختصّة به سبحانه.

ثمّ تضيف الآية إنّ اللّه سبحانه لمّا نجّاهم من الهلكة انقسم الناس قسمين: فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ[۷۲]. و هؤلاء وفوا بعهدهم و لم ينقضوه، و لم ينسوا منّة اللّه عليهم فى تلك اللحظات الحسّاسة.

أمّا القسم الثّانى فإنّهم نسوا كلّ ذلك، و استولى جيش الشرك و الكفر على معسكر قلوبهم.

و اعتبر بعض المفسّرين الآية أعلاه إشارة إلى إسلام «عكرمة بن أبى جهل»، إذ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عفا عن جميع الناس عند فتح مكّة غير أربعة نفر أحدهم عكرمة بن أبى جهل، إذ أهدر دمهم، و أمر بقتلهم حيثما وجدوا، لأنّهم لم يتركوا أىّ سيّئة أو جريمة ضدّ الإسلام و المسلمين إلّا عملوها، و لذلك اضطرّ عكرمة إلى الفرار من مكّة، فتوجّه إلى البحر الأحمر و ركب السفينة، فأخذت بأطرافه ريح عاصف، فقال بعض أهل السفينة لبعضهم الآخر: تعالوا نترك الأصنام و نتضرّع إلى اللّه وحده و نسأله لطفه، فإنّ آلهتنا هذه لا تنفع شيئا! فقال عكرمة: إذا لم ينقذنا غير توحيدنا فى البحر، فلن ينقذنا فى البرّ سواه أيضا، اللهمّ إنّ أعطيك عهدا- إذا نجّيتنى من هذه المحنة- لآتينّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و أبايعه، فإنّى أعلم أنّه كريم عفوّ.

و أخيرا نجا، و أتى إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله ۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۴

و قد ورد فى التواريخ الإسلامية أنّ عكرمة قد أصبح فى صفّ المسلمين الحقيقيين، و استشهد فى معركة اليموك أو أجنادين.

و تضيف الآية فى النهاية وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ.

(ختّار) من الختر، بمعنى نقض العهد، و هذه الكلمة صيغة مبالغة، لأنّ المشركين و العاصين يتوجّهون إلى اللّه مرارا، و يقطعون على أنفسهم العهود، و ينذرون النذور، إلّا أنّهم بمجرّد أن يهدأ طوفان الحوادث ينقضون عهودهم بصورة متلاحقة، و يكفرون بنعم اللّه عليهم.

إنّ تعبير «ختّار» و «كفور» الذى ورد فى نهاية هذه الآية، هو فى الحقيقة مقابل تعبير «صبّار» و «شكور» الذى ورد فى نهاية الآية

السابقـة- فالكفران فى مقابل الشـكر، و نقض العهـد فى مقابل الصبر و الثبات على العهـد- لأنّ الوفاء بالعهـد لا يتمّ إلّا من قبل الثابتين الصامـدين .. أولئك الـذين إذا توهّج الإيمان الفطرى فى أعماق أرواحهم فلا يـدعون هـذا النور الإلهى ينطفئ مرّة اخرى و تتكاثف عليه الحجب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۵

الآيتان [سورة لقمان (۳۱): الآيات ۳۳ الى ۳۴]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِى والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۳۴)

التّفسير

سعة علم اللّه:

فى هاتين الآيتين اللتين هما آخر آيات سورة لقمان، تلخيص للمواعظ و النصائـح السابقة و لأدلّة التوحيد و المعاد، و توجيه الناس إلى اللّه و اليوم الآخر و تحذير من الغرور الناشـئ من الدنيا و الشيطان، ثمّ الحديث عن سعة علم اللّه سبحانه و شموله لكلّ شىء، فتقول: يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِى والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۶

إنّ الدسـتور الأوّل هو التوجّه إلى المعـاد، فالدسـتور الأوّل يحيى فى الإنسـان قوّة المراقبـة، و الثّانى ينمّى روح الثواب و العقاب، و لا شكّ أنّ الإنسان الـذى يعلم أنّ شـخصا خبيرا و مطّلعا على كلّ أعماله يراه و يعلم به و يسـجّل كلّ أعماله، و من ناحية اخرى يعلم أنّ محكمة عادلة ستتشكّل للتحقيق فى كلّ جزئيات أعماله، لا يمكن أن يتلوّث بأدنى فساد و معصية.

جملة لا يَجْزِى من مادّة الجزاء، و «الجزاء، و «الجزاء» ورد بمعنيين من الناحية اللغوية:

أحدهما: المكافأة و المعاقبة مقابل شىء، كما يقال: جزّاه اللّه خيرا.

و الآخر: الكفاية و النيابة و التحمّل للشىء عن الآخرين، كما جاء فى الآية مورد البحث: لا يَجْزِى والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ

و من الممكن أن يعود كلا المعنيين إلى أصـل واحـد، لأنّ الثواب و العقـاب يحلّان محلّ العمل و ينوبان عنه، و هما بمقـداره أيضا- تأمّلوا ذلك-.

على كـلّ حـال، فإنّ كلّ إنسان فى ذلك اليوم مشـغول بنفسه، و مبتلى بمعطيات أعماله و آثارها إلى درجـة أنّه لا ينظر إلى أحـد و لا يهتمّ به، حتّى و إن كان أبوه، أو ابنه الذى كانت تربطه به أقرب الروابط، فلا يفكّر أحد بآخر مطلقا.

و هذه الآية نظير ما ورد فى بداية سورة الحجّ فى الحديث حول القيامة و الزلزلة: يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ

و ممّا يسـتحقّ الانتباه أنّه يعبّر ب لا يَجْزِى فى مورد الأب، و هى صيغة المضارع، أمّا فى شأن الابن فإنّه يعبّر باسم الفاعل (جاز) و هذا التفاوت فى التعبير لعلّه من باب التنوّع فى الكلام، أو إشارة إلى واجب و مسئولية الابن تجاه الأب، لأنّ اسم الفاعل يؤدّى معنى الدوام و التكرار أكثر.

و بتعبير آخر، فإنّ المتوقّع من العواطف الأبوية أن يتحمّل الأب مقدارا من العذاب عن ابنه، كما كان فى الدنيا يتحمّل المصاعب و المشاكل فى سبيله، لكن من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۷

الابن أن يتحمّل مصائب الأب أكثر وفاء لحقوق الابوّة المترتّبة عليه، فى حين أن أيّا منهما لا يتحمّل أدنى مشكلة عن الآخر، و كلّ منهما مشغول بأعماله، و حائر فى أمره و نفسه.

و تحذّر الآية فى النهاية البشر من شيئين، فتقول: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ أى الشيطان.

فى الواقع، يلاحظ هنا نهيان فى مقابل الأمرين اللذين كانا فى بداية الآية، فإنّ الإنسان إذا نمت فيه مسألة التوجّه إلى اللّه، و الخوف من الحساب و الجزاء، فلا يخاف عليه من الانحراف و الفساد، إلّا من طريقين:

أحدهما: أن تغلب زخارف الدنيا و زبرجها الحقائق فى عينيه بصور اخرى، و تسلب منه القدرة على التشخيص، لأنّ حبّ الدنيا رأس كلّ الخطايا و أساسها.

و الآخر: أن تخدعه وساوس الشيطان و تغرّه، و تبعده عن المبدأ و المعاد.

فإذا أغلق طريقى نفوذ المعصية و الذنب هذين، فسوف لا يهدّده أىّ خطر، و على هذا فإنّ الدساتير و البنود الأربعة أعلاه تمثّل مجموعة كاملة من برنامج نجاة و خلاص الإنسان.

و فى آخر آية من هذه السورة، و بمناسبة البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول يوم القيامة، يدور الكلام عن العلوم المختّصة باللّه سبحانه، فتقول: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ و مطّلع على جميع جزئياته و تفاصيله ...

وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

فكأنّ مجموع هذه الآية جواب عن سؤال يطرح فى باب القيامة، و هو نفس السؤال الذى سأل المشركون به النّبى صلّى اللّه عليه و آله مرارا و تكرارا، و قالوا: مَتى هُوَ؟[۷۴]، فيجيبهم القرآن عن سؤالهم، و يقول: لا يعلم أحد بموعد قيام القيامة إلّا اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۸

سبحانه، و طبقا لصريح آيات اخرى، فإنّ اللّه أخفى هذا العلم عن الجميع: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها[۷۵]، و ذلك كى لا يحيط الغرور و الغفلة بأطراف البشر.

ثمّ تقول الآية: إنّ مسألة القيامة ليست هى المسألة الوحيدة الخافية عليكم، ففى حياتكم اليومية، و من بين أقرب المسائل المرتبطة بحياتكم و مماتكم، مسائل كثيرة تجهلونها ..

أنتم لا تعلمون زمان نزول قطرات المطر، و التى ترتبط بها حياة كلّ الكائنات الحيّة، و إنّما تتوقّعونها على أساس الحدس و الظنّ و التخمين.

و كذلك زمان تكوّنكم فى بطون الامّهات و خصائص الجنين فلا علم لأحد منكم بذلك.

و مستقبلكم القريب، أى حوادث الغد، و كذلك مكان موتكم و توديعكم للحياة، خاف على الجميع.

فإذا كنتم جاهلين بهذه المسائل القريبة من حياتكم و المتّصلة بها، فلا مجال للعجب من عدم علمكم بلحظة قيام القيامة[۷۶].

و نقل فى الدرّ المنثور: أنّ رجلا يقال له «الوراث»، من بنى «مازن بن حفصة»، جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فقال: يا محمّد، متى تقوم الساعة؟ و قد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ و قد تركت امرأتى حبلى فمتى تلد؟ و قد علمت ما كسبت اليوم فما ذا أكسب غدا؟ و قد علمت بأى أرض ولدت فبأى أرض أموت؟ فنزلت هذه الآية[۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۷۹

بحوث

۱- أنواع الغرور و الخدع!

إنّ الآيات أعلاه تحذّر من الانخداع و الاغترار بزخارف الحياة الدنيا و بهارجها، ثمّ تتحدّث عن خدع الشيطان و مكائده، و تعلن عن خطورته، لأنّ الناس عدّة أقسام:

فبعضهم ضعيف و عاجز إلى الحدّ الذى يكفى لخداعه و التغرير به مجرّد رؤية زخارف الدنيا.

أمّا القسم الذى يمتلك مقاومة أكثر، فلا بدّ أن تزداد الوساوس الشيطانية لازدياد مقاومتهم، و يتّحد لإضلالهم و خداعهم الشيطان الداخلى و الخارجى.

و تعبيرات الآية أعلاه تحذير لأفراد كلا الفئتين.

و ممّا يجدر ذكره أنّ (الغرور) على وزن «جسور» يعنى كلّ موجود خدّاع، و إنّما فسّروها بالشيطان لأنّه مصداقها الواضح فى الحقيقة، و إلّا فإنّ كلّ إنسان خدّاع، و كلّ كتاب مضلّ، و أىّ مقام و منصب يوسوس، و كلّ موجود يخدع الإنسان و يضلّه فإنّه يدخل فى المفهوم الواسع لهذه الكلمة، اللهمّ إلّا أن نعطى للشيطان من سعة المعنى بحيث يشمل كلّ المعانى المتقدّمة، و لهذا فإنّ الراغب فى مفرداته يقول: فالغرور كلّ ما يغرّ الإنسان من مال و جاه و شهوة و شيطان، و قد فسّر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين.

و قد فسّرها البعض بالدنيا لخداعها و غرورها، كما نقرأ فى نهج البلاغة: «تغرّ و تضرّ و تمرّ»[۷۸].

۲- خداع الدنيا

لا شكّ أنّ كثيرا من مظاهر الحياة الدنيا غارّة و مضلّة، و قد تشغل الإنسان بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۰

أحيانا حتّى يغفل عن كلّ شىء، و لا يشتغل إلّا بها، و لذلك نقرأ

فى بعض الروايات عن أمير المؤمنين عليه السّلام حينما سأله بعضهم: أىّ الناس أثبت رأيا؟ قال: «من لم يغرّه الناس من نفسه، و لم تغرّه الدنيا بتشويقها»[۷۹].

و لكن، و مع هذه الحال، فإنّ فى طيّات مشاهد هذه الدنيا الخدّاعة المختلفة، مشاهد و حوادث ناطقة معبّرة عن زوال هذا العالم، و كون زخارفه و زبارجه جوفاء خالية بأبلغ تعبير و أوضحه، تلك الحوادث تستطيع أن توقظ كلّ إنسان عاقل، بل و تجعل الأغبياء عاقلين حكماء.

ففى حديث: أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام سمع رجلا يذمّ الدنيا و كان يعدّها خدّاعة، فقال عليه السّلام: «أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها، المخدوع بأباطيلها، أ تغترّ بالدنيا ثمّ تذمّها؟

أنت المتجرّم عليها، أم هى المتجرّمة عليك؟

متى استهوتك؟ أم متى غرّتك؟ أ بمصارع آبائك من البلى أم بمضاجع امّهاتك تحت الثرى ...؟! إنّ الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار عافية لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء اللّه، و مصلّى ملائكة اللّه، و مهبط وحى اللّه، و متجر أولياء اللّه ...»[۸۰].

۳- هذه العلوم الخمسة مختصّة باللّه

إنّ أسلوب الآية أعلاه يحكى أنّ العلم بالقيامة، و نزول المطر، و وضعيّة الجنين فى رحم الامّ، و الأمور التى سيقوم بها الإنسان فى المستقبل، و محلّ موته منحصر باللّه، و لا سبيل للآخرين إلى العلم بذلك، إضافة إلى هذا فإنّ الرّوايات الواردة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۱

تفسير هذه الآية تؤكّد هذه الحقيقة، و من جملتها ما

ورد فى حديث: «إنّ مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلّا اللّه، و قرأ هذه الآية»[۸۱].

و

جاء فى رواية اخرى وردت فى نهج البلاغة: أنّ عليّا عليه السّلام كان يوما يخبر بحوادث المستقبل، فقال له أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، أ تتحدّث عن الغيب و تعلم به؟

فتبسّم الإمام، و قال له: «يا أخا كلب (لأنّ الرجل كان من بنى كلب)، ليس هو بعلم غيب، و إنّما هو تعلّم من ذى علم، و إنّما علم الغيب علم الساعة و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ... فيعلم اللّه سبحانه ما فى الأرحام، من ذكر أو أنثى، و قبيح أو جميل، و سخىّ أو بخيل، و شقىّ أو سعيد، و من يكون فى النار حطبا، و فى الجنان للنبيين مرافقا، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّا اللّه، و ما سوى ذلك فعلم علّمه اللّه نبيّه فعلّمنيه و دعا لى بأن يعيه صدرى و تضطمّ عليه جوانحى»[۸۲].

و يظهر من هذه الروايات جليّا أنّ المراد من عدم علم الناس بهذه الأمور، جهلهم بكلّ خصوصياتها و جزئياتها، فمثلا: إذا وضعت تحت تصرّف الإنسان يوما ما وسائل معيّنة- و لم يحلّ ذلك اليوم إلى الآن- بحيث يطّلع تماما على كون الجنين ذكرا أو أنثى، فإنّ هذا الأمر برغم كونه تطوّرا علميّا هامّا لا يعدّ شيئا، لأنّ الاطّلاع على الجنين و العلم به يعنى أن نعلم كلّ خصائصه الجسمية، القبح و الجمال، الصحّة و المرض، الاستعدادات الداخلية، الذوق العلمى و الفلسفى و الأدبى، و سائر الصفات و الكيفيّات الروحية، و هذا الأمر لا يتمّ لغير اللّه سبحانه.

و كذلك ما يتعلّق بالمطر، فمتى ينزل؟ و أيّة منطقة يصيب و يهطل عليها؟ و أىّ مقدار- على وجه الدقّة- سينزل فى البحر؟ و ما مقدار ما ينزل فى الصحراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۲

و المنحدرات و الجبال؟ لا يعلم بذلك إلّا اللّه تعالى.

و كذلك شأن حوادث الغد، و الأيّام التالية، و خصوصياتها و جزئيّاتها.

و من هنا يتّضح جيّدا جواب السؤال الذى يطرح هنا غالبا، حيث يقولون: إنّنا نقرأ فى التواريخ و الروايات المتعدّدة أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، بل و حتّى بعض أولياء اللّه من غير الأئمّة، قد أخبروا بموتهم، أو بيّنوا و حدّدوا مكان دفنهم، و من جملتها الحوادث المتعلّقة بكربلاء، فقد قرأنا مرارا فى الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله، أو أمير المؤمنين عليه السّلام و الأنبياء السابقين قد أخبروا بشهادة الإمام الحسين عليه السّلام و أصحابه بأرض كربلاء.

و فى كتاب اصول الكافى يلاحظ باب فى علم الأئمّة بزمان و فاتهم ۸۳].

و الجواب هو: إنّ العلم بجزء من هذه الأمور، علما إجماليا- و هذا العلم أيضا عن طريق التعليم الإلهى- لا ينافى مطلقا اختصاص العلم التفصيلى بها بذات اللّه المقدّسة.

ثمّ إنّ هذا الإجمال أيضا- و كما قلنا- ليس ذاتيا و مستقلا، بل هو عرضى و حصل بالتعليم الإلهى، بالمقدار الذى يريده اللّه و يرى فيه الصلاح، و لذلك نرى

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله: هل یعلم الإمام الغیب؟

قال: «لا، و لکن إذا أراد اللّه أن یعلم الشیء أعلمه اللّه ذلک»[۸۴].

و قد وردت فی باب علم الغیب، و کیفیّة علم الأنبیاء و الأئمّة به روایات کثیرة سنبحثها فی نهایة الآیات المناسبة، إلّا أنّ من المسلّم أنّ هناک علوما لم یطّلع علیها و لا یعلم بها أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ ۸۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۳

اللهمّ نوّر قلوبنا بنور العلم، وهب لنا من علمک اللامتناهی.

اللهمّ اعصمنا زخارف هذه الدنیا، و لا یغرّنا الشیطان و هوی أنفسنا.

إلهنا اجعلنا منتبهین دائما إلی إحاطة علمک، و جنّبنا أن نعمل بین یدیک ما یخالف رضاک و یجلب سخطک.

نهایة سورة لقمان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۵

سورة السّجدة

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ثلاثون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۷

سورة السجدة

أسماء هذه السورة:

المعروف أنّ هذه السورة نزلت فی مکّة، إلّا أنّ البعض الآخر یری أنّ الآیات ۱۸- ۲۰ مدنیّة، فی حین لا تلاحظ أیّة قرینة أو علامة فی هذه الآیات علی کونها مدنیة.

اسم هذه السورة فی بعض الرّوایات، و کذلک المشهور علی لسان المفسّرین:

(سورة السجدة)، أو (الم السجدة)، و یسمّونها أحیانا (سجدة لقمان) لتمییزها عن سورة (حم السجدة)، لأنّها جاءت بعد سورة لقمان.

و ذکرت فی بعض الرّوایات باسم (الم تنزیل).

و ذکر «الفخر الرازی» و «الآلوسی» أنّ من جملة أسمائها (سورة المضاجع)، و هو إشارة إلی الآیة (۱۶) من هذه السورة: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ....

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۸

فضل تلاوة سورة السجدة:

ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «من قرأ الم تنزیل، و تبارک الذی بیده الملک، فکأنّما أحیی لیلة القدر»[۸۶].

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی حدیث آخر: «من قرأ سورة السجدة فی کلّ لیلة جمعة أعطاه اللّه کتابه بیمینه،

و لم یحاسبه بما کان منه، و کان من رفقاء محمّد صلّی اللّه علیه و آله و أهل بیته»[۸۷].

و لمّا کانت قد وردت فی هذه السورة بحوث واسعة عن المبدأ و المعاد، و عقاب المجرمین فی یوم القیامة، و دروس محذّرة ترتبط بالمؤمنین و الکافرین، فلا شکّ أنّ تلاوتها- التلاوة التی تکون مصدرا و منبعا للتفکیر، و بالتالی مبدءا للتصمیم و الحرکة- قادرة علی أن تصنع من الإنسان مثالا- متکاملا- تشمله کلّ هذه الفضیلة و الفخر، و أن یکون أثرها کإحیاء لیلة القدر، و نتیجتها أن یکون فی مصافّ أصحاب الیمین، و نیل افتخار محبّة النّبی و آله صلوات اللّه علیهم.

محتوی سورة السجدة:

هذه السورة بحکم کونها من السور المکّیة تتابع بقوّة الخطوط الأصلیة للسور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۸۹

المکّیة، أی البحث فی المبدأ و المعاد، و البشارة و الإنذار، و علی العموم تنقسم مباحثها إلی عدّة أقسام:

۱- الکلام عن عظمة القرآن، و نزوله من قبل ربّ العالمین، و نفی اتّهامات الأعداء عنه.

۲- ثمّ البحث حول آیات اللّه سبحانه فی السماء و الأرض، و تدبیر هذا العالم.

۳- بحث آخر حول خلق الإنسان من «التراب» و «النطفة» و «الروح الإلهیّة»، و منحه وسائل تحصیل العلم، أی العین و الاذن و العقل من قبل اللّه تعالی.

۴- ثمّ تتحدّث بعد ذلک عن القیامة و الحوادث التی تسبقها، أی الموت، و ما بعدها، أی السؤال و الحساب.

۵- ۶- بحوث مؤثّرة تهزّ الوجدان عن البشارة و الإنذار، تبشّر المؤمنین بجنّة المأوی، و تهدّد الفاسقین بعذاب جهنّم الشدید.

۷- و فی السورة إشارة قصیرة إلی تأریخ بنی إسرائیل، و قصّة موسی علیه السّلام و انتصارات هذه الامّة.

۸- و کذلک تشیر- مناسبة لبحث البشارة و الإنذار- إلی أحوال قوم آخرین من الأمم السابقة، و مصیرهم المؤلم.

۹- ۱۰- ثمّ تعود مرّة اخری إلی مسألة التوحید و آیات عظمة اللّه، و تنهی السورة بتهدید الأعداء المعاندین.

و بهذا فإنّ الهدف الأصلی للسورة تقویة أسس الإیمان بالمبدأ و المعاد، و إیجاد دفعة قویّة فی المحتوی الداخلی للإنسان نحو التقوی، و الابتعاد عن العصیان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۰

و التمرّد و الطغیان، و التوجّه إلی مقام الإنسان الرفیع، و هذا المعنی کان یحظی بالأهمیّة القصوی خاصّة فی بدایة حرکة الإسلام، و فی محیط مکّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۱

الآیات [سورة السجده (۳۲): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتابِ لا رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۲) أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ (۴)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵)

التّفسير

عظمة القرآن، و المبدأ و المعاد:

مرّة اخرى نواجه الحروف المقطّعة (الف- لام- ميم) فى هذه السورة، و هذه هى المرّة الخامسة عشرة التى نرى فيها مثل هذه الحروف فى بداية السور القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۲

و لقد بحثنا بصورة مفصّلة فى بداية سورة البقرة، و آل عمران و الأعراف التفاسير المختلفة لهذه الحروف. و البحث الذى جاء بعد هذه الحروف مباشرة حول أهميّة القرآن يبيّن مرّة اخرى هذه الحقيقة، و هى أنّ الم إشارة إلى عظمة القرآن، و القدرة على إظهار عظمة اللّه سبحانه، و هذا الكتاب العظيم الغنىّ المحتوى، و الذى هو معجزة محمّد صلّى اللّه عليه و آله الخالدة يتكوّن من حروف المعجم البسيطة التى يعرفها الجميع.

تقول الآية: تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۸۸]. هذه الآية- فى الواقع- جواب عن سؤالين: الأوّل عن محتوى هذا الكتاب السماوى، فتقول فى الجواب: إنّ محتواه حقّ و لا مجال لأدنى شكّ فيه. و السؤال الثّانى يدور حول مبدع هذا الكتاب، و فى الجواب تقول: إنّ هذا الكتاب من قبل ربّ العالمين.

و يحتمل فى التّفسير أيضا أنّ جملة مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ جاءت دليلا و برهانا لجملة لا رَيْبَ فِيهِ فكأنّ سائلا يسأل: ما هو الدليل على أنّ هذا الكتاب حقّ، و لا مجال للشكّ فيه؟ فتقول: الدليل هو أنّه من ربّ العالمين الذى يصدر منه كلّ حقّ و حقيقة.

ثمّ إنّ التأكيد على صفة رَبِّ الْعالَمِينَ من بين صفات اللّه سبحانه قد يكون إشارة إلى أنّ هذا الكتاب مجموعة من عجائب عالم الخلقة، و عصارة حقائق عالم الوجود، لأنّه من ربّ العالمين.

و ينبغى الالتفات أيضا إلى أنّ القرآن لا يريد هنا الاكتفاء بالادّعاء الصرف، بل يريد أن يقول: إنّ الشىء الظاهر للعيان لا يحتاج إلى البيان، فإنّ محتوى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۳

الكتاب شاهد بنفسه على صحّته و أحقّيته.

ثمّ يشير إلى التهمة التى طالما وجهها المشركون و المنافقون إلى هذا الكتاب السماوى العظيم حيث قالوا: إنّ هذا الكتاب من تأليف محمّد. و قد ادعى كذبا بأنّه من اللّه: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ ۸۹] فيقول جوابا على ادّعاء هؤلاء الزائف: بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ و أدلّة أحقّيته واضحة و بيّنة فيه من خلال آياته.

ثمّ يتطرّق إلى الهدف من نزوله، فيقول: لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ

فبالرغم من أنّ دعوة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله مبشّرة و منذرة، و أنّه بشير قبل أن يكون نذيرا، إلّا أنّه يجب التأكيد على الإنذار أكثر مع القوم الضالّين المعاندين.

و جملة لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ إشارة إلى أنّ القرآن يهيّء أرضية الهداية، إلّا أنّ التصميم و اتّخاذ القرار النهائى موكول و مرتبط بنفس الإنسان.

و هنا يطرح سؤالان:

۱- من هم هؤلاء القوم الذين لم يأتهم أى نذير قبل النّبى صلّى اللّه عليه و آله؟

۲- ألم يقل القرآن الكريم: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ.[۹۰] قال جمع من المفسّرين فى جواب السؤال الأوّل: المراد قبيلة قريش التى لم يكن لها نذير قبل نبىّ الإسلام.

و قال البعض الآخر: المراد مرحلة الفترة و الفاصلة الزمنية بين نبوّة عيسى عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله.

إلّا أنّ أيّا من هذين الجوابين لا يبدو صحيحا، لأنّ الأرض لا تبقى خالية من حجّة اللّه مطلقا، و فى كلّ عصر و زمان لا بدّ من وجود نبى أو وصى نبىّ لإتمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۴

الحجّة.

بناء على هذا، يبدو أنّ المراد من «النذير» هنا النّبى الكبير الذى يوضّح و يبيّن دعوته مقرونة بالمعجزات و فى محيط واسع، و معلوم أنّ مثل هذا النذير لم يقم فى الجزيرة العربية و بين قبائل مكّة.

و فى الإجابة عن السؤال الثّانى ينبغى أن يقال: إنّ معنى جملة: وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ هو أنّ كلّ امّة كان لها نذير، إلّا أنّه لا يلزم حضوره بنفسه فى كلّ مكان، بل يكفى أن يصل صوت دعوة أنبياء اللّه العظام بواسطة أوصيائهم إلى أسماع كلّ البشر فى العالم.

و هذا يشبه قولنا: إنّ كلّ امّة كان لها نبى من اولى العزم، و لها كتاب سماوى، فمعنى هذا الكلام أنّ صوت هذا النّبى و كتابه السماوى قد وصل عن طريق وكلائه و أوصيائه لكلّ تلك الامّة على طول التاريخ.

بعد بيان عظمة القرآن و رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله تطرّقت الآية التالية إلى أساس آخر من أهم أسس و دعائم العقائد الإسلامية، فتقول: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ۹۱].

و قلنا مرارا: إنّ المراد من سِتَّةِ أَيَّامٍ فى هذه الآيات: ستّ مراحل، لأنّ أحد معانى اليوم فى المحادثات اليومية: المرحلة، كما نقول: كان النظام المستبدّ يحكمنا بالأمس، و اليوم يحكمنا نظام الشورى، فى حين أنّ الحكومات المستبدّة كانت تحكم آلاف السنين، إلّا أنّهم يعبّرون عن تلك المرحلة باليوم.

و من جهة اخرى، فقد مرّت فترات و مراحل مختلفة على السماء و الأرض:

- فيوما كانت كلّ كواكب المنظومة الشمسية كتلة واحدة مذابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۵

- و فى يوم آخر انفصلت السيارات عن الشمس و بدأت تدور حولها.

- و فى يوم كانت الأرض كتلة نار ملتهبة.

- و فى يوم آخر أصبحت باردة و جاهزة لحياة النباتات و الحيوانات، ثمّ وجدت الكائنات الحيّة عبر مراحل مختلفة.

و قد أوردنا شرحا مفصّلا لهذا المعنى و المراحل الستّ بصورة مفصّلة فى ذيل الآية (۵۴) من سورة الأعراف.

و من البديهى أنّ قدرة اللّه اللامتناهية كافية لإيجاد كلّ هذا العالم فى لحظة، بل و فى أقلّ منها، إلّا أنّ هذا النظام التدريجى يبيّن عظمة اللّه و علمه و تدبيره فى جميع المراحل بصورة أفضل.

فمثلا: إذا طوى الجنين فى لحظة واحدة كلّ مراحل تكامله و ولد، فإنّ عجائبه ستبقى بعيدة عن نظر الإنسان، أمّا عند ما نراه يطوى فى كلّ يوم و أسبوع- طوال هذه التسعة أشهر- أشكالا عجيبة جديدة، فستتعرّف أكثر على عظمة اللّه سبحانه.

و بعد مسألة الخلق تتطرّق الآية إلى مسألة حاكميّة اللّه سبحانه على عالم الوجود، فتقول: إنّ اللّه تعالى بعد ذلك استوى على عرش قدرته و سيطر على جميع الكائنات: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ

كلمة (العرش) كما قلنا سابقا، تعنى فى الأصل الكراسى الطويلة القوائم، و تأتى عادة كناية عن القدرة، كما نقول فى تعبيراتنا اليومية:

تكسّرت قوائم عرش فلان، أى إنّ قدرته و حكومته قد زالت.

بناء على هذا، فإنّ استواء اللّه على العرش لا يراد منه المعنى الجسمى بأن يكون للّه عرش كالملوك يجلس عليه، بل بمعنى أنّه خالق عالم الوجود، و كذلك الحاكم على كلّ العالم ۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۶

و تكمّل الآية مراحل التوحيد بالإشارة إلى توحيد «الولاية» و «الشفاعة»، فتقول: ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ

فمع هذا الدليل الواضح، بأنّ كونه سبحانه خالقا دليل على كونه حاكما، و الحاكميّة دليل على توحيد الولى و الشفيع و المعبود، فلما ذا تنحرفون و تضلّون و تتمسّكون بالأصنام؟ أ فَلا تَتَذَكَّرُونَ فى الحقيقة، إنّ المراحل الثلاث للتوحيد التى انعكست فى الآية أعلاه يعتبر كلّ منها دليلا على الاخرى، فتوحيد الخالقية دليل على توحيد الحاكمية، و توحيد الحاكمية دليل على توحيد الولىّ و الشفيع و المعبود.

و هنا طرح بعض المفسّرين سؤال، و هو أنّ الجملة الأخيرة تقول: ما لكم من دون اللّه من ولىّ و لا شفيع، و معناها أنّ وليّكم و شفيعكم الوحيد هو اللّه سبحانه وحده، فهل من الممكن أن يشفع أحد عنده؟

و يمكن الإجابة على هذا السؤال من ثلاثة جوانب:

۱- بملاحظة أنّ جميع الشفعاء لا يشفعون إلّا بإذنه تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۹۳]، يمكن القول بأنّ الشفاعة بالرغم من كونها من قبل الأنبياء و أولياء اللّه، إلّا أنّها تعود إلى اللّه سبحانه، سواء كانت الشفاعة لغفران الذنوب و العفو عن العاصين، أم للوصول إلى النعم الإلهيّة، و الشاهد على هذا الكلام الآية التى وردت فى بداية سورة «يونس» بمضمون هذه الآية تماما، حيث تقول:

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ [۹۴] ۲- إنّنا عند التوسّل باللّه نتوسّل بصفاته، فنستمدّ من رحمته و رحمانيّته، من كونه غفّارا غفورا، و من فضله و كرمه، فكأنّنا قد جعلناه شفيعا إلى نفسه، و نعتبر هذه الصفات واسطة بينها و بين ذاته المقدّسة، و إن كانت صفاته عين ذاته فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۷

الحقيقة، و هذا هو نفس الشىء الذى جاء فى دعاء كميل فى عبارة على عليه السّلام العميقة المعنى: «و استشفع بك إلى نفسك».

۳- المراد من «الشفيع» هنا: الناصر و المعين، و نحن نعلم أنّ الناصر و الولىّ و المعين هو اللّه وحده، و ما قيل من أنّ الشفاعة هنا بمعنى الخلق و تكميل النفوس يعود فى الحقيقة إلى نفس هذا المعنى.

و تشير الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث إلى توحيد اللّه سبحانه فى البداية، ثمّ إلى مسألة «المعاد»، و بهذا تكمل هنا فروع و أركان التوحيد الثلاثة التى اتّضحت فى الآيات السابقة- (توحيد الخالقية و الحاكمية و العبودية)- بذكر توحيد الربوبية، أى تدبير عالم الوجود من قبل اللّه سبحانه فقط، فتقول: إنّ اللّه يدبّر امور العالم من مقام القرب منه إلى الأرض: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ

و بتعبير آخر، فإنّ اللّه سبحانه قد جعل عالم الوجود من السماء إلى الأرض تحت أمره و تدبيره، و لا يوجد مدبّر سواه فى هذا العالم ۹۵].

ثمّ تضيف: ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ و المراد من هذا اليوم يوم القيامة.

و توضيح ذلك: أنّ المفسّرين قد تحدّثوا كثيرا فى تفسير هذه الآية، و احتملوا احتمالات عديدة مختلفة:

۱- فاعتبرها بعضهم إشارة إلى قوس الصعود و النّزول لتدبير العالم فى هذه الدنيا.

۲- و ذهب آخرون إلى أنّها إشارة إلى ملائكة اللّه الذين يطوون المسافة بين السماء و الأرض فى خمسمائة سنة، و يرجعون بهذه المدّة أيضا، و هو مشغولون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۸

بتدبير هذا العالم بأمر اللّه سبحانه.

۳- و يعتبرها البعض الآخر إشارة إلى مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم، و يعتقدون أنّ مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم كلّ ألف سنة، و يأمر اللّه سبحانه ملائكته بتدبير أمر السماء و الأرض فى كلّ الف سنة، و بعد انتهاء مرحلة الألف سنة هذه تبدأ مرحلة اخرى.

إنّ هذه التفاسير علاوة على أنّها تطرح مطالب غامضة و مبهمة، فإنّها لا تمتلك قرينة و شاهدا من نفس الآية أو من آيات القرآن الاخرى.

و فى اعتقادنا أنّ المراد من الآية- بقرينة آيات اخرى من القرآن، و كذلك الروايات الواردة فى تفسير الآية- شىء آخر، و هو أنّ اللّه سبحانه خلق هذا العالم، و نظّم و دبّر السماء و الأرض بتدبير خاصّ، و ألبس البشر و الموجودات الحيّة الاخرى لباس الحياة، إلّا أنّه يطوى هذا التدبير فى نهاية العالم، فتظلم الشمس، و تفقد النجوم أشعّتها، و بتعبير القرآن ستطوى السماوات حتّى ترجع إلى حالتها قبل توسّع هذا العالم يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۹۶]، و بعد طىّ هذا العالم سيبدأ إبداع برنامج و مشروع عالمى جديد أوسع، أى سيبدأ عالم آخر بعد انتهاء هذه الدنيا.

و هذا المعنى قد ورد فى آيات القرآن الاخرى، و من جملتها الآية (۱۵۶) من سورة البقرة: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

و جاء فى الآية (۲۷) من سورة الروم: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

و نقرأ فى الآية (۳۴) من سورة يونس: قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۹۹

بملاحظة هذه التعبيرات، و التعبيرات الاخرى التى تقول: وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ۹۷]، يتّضح أنّ الآية مورد البحث تتحدّث أيضا عن بداية و نهاية العالم و قيام يوم القيامة، و الذى يعبّرون عنه أحيانا ب «قوس النّزول» و «قوس الصعود».

بناء على هذا فإنّ معنى الآية يصبح: إنّ اللّه سبحانه يدبّر أمر هذا العالم من السماء إلى الأرض- يبدأ من السماء و ينتهى بالأرض- ثمّ يعود كلّ ذلك إليه فى يوم القيامة.

و نطالع فى تفسير على بن إبراهيم فى ذيل هذه الآية: يعنى الأمور التى يدبّرها، و الأمر و النهى الذى أمر به، و أعمال العباد، كلّ هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سنىّ الدنيا.

و هنا سؤال، و هو: إنّنا نرى فى الآية (۴) من سورة المعارج فى شأن طول يوم القيامة: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فكيف يمكن الجمع بين الآية مورد البحث، و التى عيّنت مقداره بألف سنة فقط، و آية سورة المعارج؟! و

قد ورد الجواب عن هذا السؤال فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام روى فى (أمالى الشيخ الطوسى) أنّه قال: «إنّ فى القيامة خمسين موقفا، كلّ موقف مثل الف سنة ممّا تعدّون، ثمّ تلا هذه الآية: فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة»[۹۸].

و من الطبيعى أنّ هذه التعبيرات لا تنافى عدم كون المراد من عدد الألف و الخمسين ألفا، العدد و الحساب هنا، بل كلّ منهما لبيان الكثرة و الزيادة، أى إنّ فى القيامة خمسين موقفا يجب أن يتوقّف الإنسان فى كلّ موقف مدّة طويلة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۰

بحث

إساءة الاستفادة من آية يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

لقد اتّخذ بعض أتباع المذاهب المصطنعة المبتدعة[۹۹] الآية أعلاه وسيلة و دليلا لتوجيه مسلكهم و مذهبهم، و أرادوا أن يطبّقوا هذه الآية على مرادهم بارتكاب المغالطات و الاشتباهات و ادّعوا أنّ المراد من «الأمر» فى الآية: الدين و المذهب، و «التدبير»: يعنى إرسال الدين، و «العروج»: يعنى رفع و نسخ الدين! و استنادا إلى هذا فإنّ كلّ مذهب أو دين لا يمكنه أن يعمّر أكثر من ألف سنة، و يجب أن يترك مكانه لدين آخر، و بهذا فإنّهم يقولون: إنّنا نقبل القرآن، لكن، و استنادا إلى نفس هذا القرآن فإنّ دينا آخر سيأتى بعد مرور الف سنة! و الآن نريد أن نبحث و نحلّل الآية المذكورة بحثا محايدا، لنرى هل يوجد فيها ارتباط بما يدّعيه هؤلاء، أم لا؟ و نغضّ النظر عن أنّ هذا المعنى بعيد عن مفهوم الآية إلى الحدّ الذى لا يخطر على ذهن أىّ قارئ خالى الذهن.

إنّنا نرى- بعد الدقّة- أنّ ما يقولونه لا ينسجم مع مفهوم الآية، بل إنّه مشكل بصورة واضحة من جهات كثيرة:

۱- إنّ تفسير كلمة «الأمر» بالدين لا دليل عليه، بل تنفى آيات القرآن الاخرى ذلك، لأنّ كلمة الأمر قد استعملت فى آيات اخرى بمعنى أمر الخلق، مثل إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۱۰۰].

و قد استعملت كلمة الأمر فى هذه الآية، و آيات اخرى مثل: الآية ۵۰/ سورة القمر، الآية (۲۷) من سورة المؤمنون، الآية (۵۴) من سورة الأعراف، (۳۲) من سورة إبراهيم، (۱۲) من سورة النحل، (۲۵) من سورة الروم، (۱۲) من سورة الجاثية، بمعنى الأمر التكوينى، لا بمعنى تشريع الدين و المذهب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۱

و أساسا فإنّ كلّ مورد يأتى الكلام فيه عن السماء و الأرض، و الخلق و الخلقة و أمثال ذلك، فإنّ «الأمر» يأتى بهذا المعنى (فتأمّل).

۲- كلمة «التدبير» تستعمل أيضا فى مورد الخلقة و الخلق و تنظيم وضع عالم الوجود، لا بمعنى إنزال الدين و الشريعة، و لذلك نرى فى آيات القرآن الاخرى- و الآيات يفسّر بعضها بعضا- أنّ هذه الكلمة لم تستعمل مطلقا فى مورد الدين و المذهب، بل استعملت كلمة «التشريع» أو «التنزيل» أو «الإنزال»:

- شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً.[۱۰۱]- وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ۱۰۲].

- نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ [۱۰۳] ۳- إنّ الآيات التى قبل و بعد هذه الآية مرتبطة بالخلقة و خلق العالم، و لا ترتبط بتشريع الأديان، لأنّ الكلام فى الآية السابقة كان عن خلق السماء و الأرض فى ستّة أيّام- و بعبارة اخرى ستّ مراحل- و الكلام فى الآية التالية عن خلق الإنسان.

و لا يخفى أنّ تناسب و انسجام الآيات يوجب أن تكون هذه الآية المتوسّطة لآيات الخلقة مرتبطة بمسألة الخلقة و تدبير أمر الخلق، و لهذا فإنّنا إذا طالعنا كتب التّفسير التى كتبت قبل مئات السنين فإنّنا لا نجد أحدا قد احتمل أن تكون الآية متعلّقة بتشريع الأديان، بالرغم من أنّهم احتملوا احتمالات مختلفة، فمثلا: مؤلّف تفسير «مجمع البيان»- و هو من أشهر التفاسير الإسلامية، و مؤلّفه عاش فى القرن السادس الهجرى- لم ينقل عن أحد علماء الإسلام قولا يدّعى فيه أنّ الآية ترتبط بتشريع الأديان، مع أنّه ذكر أقوالا مختلفة فى تفسير الآية أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۲

۴- إنّ كلمة «العروج» تعنى الصعود و الارتفاع، لا نسخ الأديان و زوالها، و لا يلاحظ العروج فى أى موضع من القرآن بمعنى النسخ- و هذه الكلمة قد ذكرت فى خمس آيات من القرآن، و لا تؤدّى هذا المعنى فى أىّ منها- بل تستعمل كلمة النسخ أو التبديل و أمثالهما فى مورد الأديان.

إنّ الأديان و الكتب السماوية فى الأساس ليست كأرواح البشر تعرج إلى السماء مع الملائكة بعد انتهاء العمر، بل إنّ الأديان المنسوخة، موجودة فى الأرض، إلّا أنّها تسقط عن الإعتبار فى بعض مسائلها، فى حين أنّ أصولها تبقى على قوّتها.

و الخلاصة: فإنّ كلمة العروج علاوة على أنّها لم تستعمل فى أىّ موضع من القرآن بمعنى نسخ الأديان، فهى لا تتناسب مع مفهوم

نسخ الأديان، لأنّ الأديان المنسوخة لا تعرج إلى السماء.

۵- إضافة إلى كلّ ما مرّ فإنّ هذا المعنى لا ينطبق على الواقع الحقيقى العينى، لأنّ الفاصلة بين الأديان السابقة لم تكن ألف سنة فى أىّ مورد! فمثلا: الفاصلة بين ظهور موسى و المسيح عليهم السّلام أكثر من (۱۵۰۰) سنة، و الفاصلة بين المسيح عليه السّلام و ظهور نبى الإسلام العظيم صلّى اللّه عليه و آله أقلّ من (۶۰۰) سنة، و كما تلاحظون فإنّ أيّا من هذين الموردين لا ينطبق على الألف سنة التى يقول بها هؤلاء، بل إنّ الفاصلة بين الواقع و ما يدّعون كبيرة.

و ذكروا أنّ الفترة الزمنية بين ظهور نوح عليه السّلام الذى كان من أنبياء اولى العزم، و واضع دعائم الدين و الشريعة الخاصّة، و بين محطّم الأصنام الصنديد إبراهيم عليه السّلام الذى كان نبيّا آخر من ذوى الشرائع أكثر من (۱۶۰۰) سنة، و الفترة بين إبراهيم و موسى عليهما السّلام أقلّ من (۵۰۰) سنة.

من هذا الموضوع نخلص إلى هذه النتيجة، و هى أنّه لم تكن هناك فترة و لا فاصلة، و لو من باب المثال، بين أحد الأديان و المذاهب و بين الدين الذى يليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۳

بمقدار ألف سنة.

۶- و إذا غضضنا النظر عن كلّ ما مرّ، فإنّ بدعة «السيّد على محمّد باب» و التى تحمل أتباعه لأجل الدفاع عنها كلّ هذه التوجيهات الباطلة لا تتناسب مع هذا الحساب، لأنّه باعترافهم ولد سنة ۱۳۲۵ هجرى، و كان بدء دعوته سنة ۱۲۶۰ هجرى قمرى، و بملاحظة أنّ بداية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله التى كانت بثلاثة عشر عاما قبل الهجرة، فإنّ الفاصلة بين الإثنين تكون (۱۲۷۳) أى بإضافة (۲۷۳) فما ذا نصنع بهذا الفارق الكبير؟ و بأيّة خطّة سنتجاهله؟

۷- و لو تركنا جانبا كلّ هذه الإيرادات الستّة، و صرفنا النظر عن هذه الردود الواضحة، و جعلنا أنفسنا مكان القرآن، و أردنا أن نقول للبشرية: كونوا بانتظار نبىّ جديد بعد مرور ألف سنة، فهل هذا يصحّ طرح هذا المفهوم بالشكل الذى ذكرته الآية، حتّى لا ينتبه و يطّلع أحد من العلماء و غير العلماء أدنى اطّلاع على معنى الآية على مدى الإثنى أو الثلاثة عشر قرنا، ثمّ يأتى جماعة بعد مرور (۱۲۷۳) عام ليدّعوا أنّهم اكتشفوا اكتشافا جديدا، و أزاحوا الغطاء عنه، و هو مع ذلك لا يتجاوز إطار قبولهم أنفسهم لا قبول الآخرين؟! ألم يكن الأحسن و الأكثر حكمة و عقلا أن يقال مكان هذه الجملة: ابشّركم بأنّ نبيّا بهذا الاسم سيظهر بعد ألف سنة، كما قال عيسى عليه السّلام فى شأن نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله:

وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ.[۱۰۴] و على كلّ حال، فهذه المسألة قد لا تستحقّ بحثا بهذا المقدار إلّا أنّه لتنبيه و إيقاظ جيل الشباب المسلم، و اطلاعهم على المكائد التى هيّأها الاستعمار العالمى، و المسالك و المذاهب التى ابتدعها لتضعيف جبهة الإسلام، لم يكن لنا سبيل إلّا أن يعلموا و يطّلعوا على جانب من منطق هؤلاء، و عليهم الباقى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۴

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ (۹)

التّفسير

مراحل خلق الإنسان العجيبة!

إنّ الآيات- مورد البحث- إشارة و تأكيد فى البداية على بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة، و التى كانت تتلخّص فى أربع مراحل: توحيد الخالقية، و الحاكمية، و الولاية، و الربوبية، فتقول: ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

من البديهى أنّ من يريد أن يدبّر امور السماء و الأرض، و أن يكون حاكما عليها، و يتعهّد و يقوم بمهام مقام الولاية و الشفاعة و الإبداع، يجب أن يكون مطّلعا على كلّ شىء، الظاهر و الباطن، حيث لا يمكن أن يتمّ أىّ من هذه الأمور بدون الاطّلاع و سعة العلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۵

و فى نفس الوقت الذى يجب أن يكون هذا المدبّر عزيزا قويّا لا يقهر ليقوى على القيام بهذه الأعمال المهمّة، ينبغى أن تقترن هذه العزّة باللطف و الرحمة، لا الخشونة و الغلظة.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نظام الخلقة الأحسن و الأكمل بصورة عامّة، و مقدّمة لبيان خلق الإنسان و مراحل تكامله بشكل خاصّ: الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ و أعطى كلّ شىء ما يحتاجه، و بتعبير آخر: فإنّ تشييد صرح الخلقة العظيم قد قام على أساس النظام الأحسن، أى قام على نظام دقيق سالم لا يمكن تخيّل نظام أكمل منه.

لقد أوجد سبحانه بين كلّ الموجودات علاقة و انسجاما، و أعطى كلّا منها ما يطلبه على لسان الحال.

إذا نظرنا إلى وجود الإنسان، و أخذنا بنظر الإعتبار كلّ جهاز من أجهزته، فسنرى أنّها خلقت من ناحية البناء و الهيكل، و الحجم، و وضع الخلايا، و طريقة عملها، بشكل تستطيع معه أن تؤدّى وظيفتها على النحو الأحسن، و فى الوقت ذاته فقد وضعت بين الأعضاء روابط قويّة بحيث يؤثّر و يتأثّر بعضها بالبعض الآخر بدون استثناء.

و هذا المعنى هو الحاكم تماما فى العالم الكبير مع المخلوقات المتنوّعة، و خاصّة فى عالم الكائنات الحيّة، مع تلك التشكيلات و الهيئات المختلفة جدّا.

و الخلاصة: فإنّه هو الذى أودع أنواع العطور البهيجة فى الأزهار المختلفة، و هو الذى يهبّ الروح للتراب و الطين و يخلق منه إنسانا حرّا ذكيّا عاقلا، و من هذا التراب المخلوط يخلق أحيانا الأزهار، و أحيانا الإنسان، و أحيانا اخرى أنواع الموجودات الاخرى، و حتّى التراب نفسه خلق فيه ما ينبغى أن يكون فيه.

و نرى نظير هذا الكلام فى الآية (۵۰) من سورة «طه» من قول موسى و هارون عليهما السّلام: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۶

و هنا يطرح سؤال حول خلق الشرور و الآفات، و كيفية انسجامها مع النظام العالم الأحسن، و سنبحثه إن شاء اللّه تعالى فيما بعد.

بعد هذه المقدّمة الآفاقية يدخل القرآن بحث الأنفس، و كما تحدّث فى بحث الآيات الآفاقية عن عدّة أقسام للتوحيد، فإنّه يتحدّث هنا عن عدّة مواهب عظيمة فى مورد البشر:

يقول أوّلا: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ليبيّن عظمة و قدرة اللّه سبحانه حيث خلق مثل هذا المخلوق الجليل العظيم من مثل هذا الموجود البسيط الحقير، هذا من جانب، و من جانب آخر يحذّر الإنسان و يذكّره من أين أتيت، و إلى أين ستذهب؟! و من المعلوم أنّ هذه الآية تتحدّث عن خلق آدم، لا كلّ البشر، لأنّ استمرار نسله قد ذكر فى الآية التالية، و ظاهر هذه الآية دليل واضح على خلق الإنسان بشكل مستقل، و نفى فرضيّة تحوّل الأنواع (و على الأقل فى مورد نوع الإنسان).

و بالرغم من أنّ البعض أراد أن يفسّر هذه الآية بحيث تناسب و تلائم فرضية تكامل الأنواع، بأنّ خلق الإنسان يرجع إلى أنواع سافلة، و هى تنتهى أخيرا إلى الماء و الطين، إلّا أنّ ظاهر الآية ينفى وجود أنواع اخرى من الموجودات الحيّة- و هم يدّعون أنّها أنواع لا

تحصى- تفصل بين آدم و الطين، بل إنّ خلق الإنسان قد تمّ من الطين مباشرة و بدون واسطة. و لم يتحدّث القرآن عن أنواع الكائنات الحيّة الاخرى.

و هذا المعنى يتّضح أكثر عند ملاحظة الآية (۵۹) من سورة آل عمران، حيث تقول: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ

و يقول فى الآية (۲۶) من سورة الحجر: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ

و يستفاد من مجموع الآيات أنّ خلق آدم قد تكوّن من التراب و الطين كخلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۷

مستقل، و من المعلوم أنّ فرضية تطور الأنواع لم تكن مسألة علمية قطعية لنحاول تفسير الآيات أعلاه بشكل آخر بسبب تضادّها و تعارضها مع هذه الفرضية، و بتعبير آخر: طالما لا توجد قرينة واضحة على خلاف ظواهر الآيات فيجب أن نطبّقها بمعناها الظاهر، و كذلك الحال فى مورد خلق آدم المستقلّ.

ثمّ تشير الآية بعدها، إلى خلق نسل الإنسان، و كيفية تولّد أولاد آدم فى مراحل، فتقول: ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ

«جعل» هنا بمعنى الخلق، و «النسل»: بمعنى الأولاد و الأحفاد فى جميع المراحل.

«السلالة» فى الأصل، بمعنى العصارة الخالصة لكلّ شىء، و المراد منها هنا نطفة الإنسان التى تعتبر عصارة كلّ وجوده، و مبدأ حياة و تولّد الذريّة و استمرار النسل.

إنّ هذا السائل الذى يبدو تافها لا قيمة له و لا مقدار فإنّه يعدّ من الناحية البنائية و الخلايا الحيوية التى تسبح فيه، و كذلك تركيب السائل الخاصّ الذى تسبح فيه الخلايا رقيقا و دقيقا و معقّدا إلى أبعد الحدود، و يعتبر من آيات عظمة اللّه سبحانه، و علمه و قدرته. و كلمة «مهين» التى تعنى الضعيف إشارة إلى وضعه الظاهرى، و إلّا فإنّه من أعمق أسرار الموجودات.

و تشير الآية التالية إلى مراحل تكامل الإنسان المعقّدة فى عالم الرحم، و كذلك المراحل التى طواها آدم عند خلقه من التراب، فتقول: ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ

«سوّاه» من التسوية، أى الإكمال، و هذه إشارة إلى مجموع المراحل التى يطويها الإنسان من حال كونه نطفة إلى المرحلة التى تتّضح فيها جميع أعضاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۸

بدنه، و كذلك المراحل التى طواها آدم بعد خلقه من التراب حتّى نفخ الروح ۱۰۵].

و التعبير ب «النفخ» كناية عن حلول الروح فى بدن الإنسان، فكأنّه شبّه الحال بالهواء و التنفّس، بالرغم من أنّه لا هذا و لا ذاك.

فإن قيل: إنّ نطفة الإنسان منذ استقرارها فى الرحم- بل و قبل ذلك- كانت كائنا حيّا و على هذا فأىّ معنى لنفخ الروح؟

قلنا فى الجواب: إنّ النطفة عند ما تنعقد فى البداية ليس لها إلّا نوعا من «الحياة النباتية»، أى التغذية و النمو فقط، أمّا الحسّ و الحركة التى هى علامة «الحياة الحيوانية»، و كذلك قوّة الإدراكات التى هى علامة الحياة الإنسانية، فلا أثر عن كلّ ذلك.

إنّ تكامل النطفة فى الرحم تصل إلى مرحلة تبدأ عندها بالحركة، و تحيا و تنبعث فيها القوى الإنسانية الاخرى تدريجيا، و هذه هى المرحلة التى يعبّر عنها القرآن بنفخ الروح.

أمّا إضافة «الروح» إلى «اللّه» فهى «إضافة تشريفية»، أى إنّ روحا ثمينة و شريفة بحيث أنّ من المناسب أن تسمّى «روح اللّه» قد دبّت فى الإنسان و نفخت فيه، و هذا يبيّن حقيقة أنّ الإنسان و إن كان من ناحية البعد المادّى يتكوّن من الطين و الماء، إلّا أنّه من البعد المعنوى و الروحى يحمل «روح اللّه».

إنّ أحد طرفى وجوده ينتهى إلى التراب، و طرفه الآخر يتّصل بعرش اللّه، فإنّه خليط من الملائكة و الحيوان، و لوجود هذين البعدين فإنّ منحنى صعوده و نزوله، و تكامله و انحطاطه واسع جدّا[۱۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۰۹

و أشار القرآن فى آخر مرحلة- و التى تعتبر المرحلة الخامسة فى خلق الإنسان- إلى نعمة الاذن و العين و القلب، و من الطبيعى أنّ المراد هنا ليس خلقة هذه الأعضاء، لأنّ هذه الخلقة تتكوّن قبل نفخ الروح، بل المراد حسّ السمع و البصر و الإدراك و العقل.

و التأكيد على هذه الحواس الثلاث فقط من بين كلّ الحواس «الظاهرة» و «الباطنة»، لأنّ أهمّ حسّ ظاهرى يربط الإنسان بالعالم الخارجى رابطة قويّة هو السمع و البصر، فالأذن تدرك الأصوات، و خاصّة أنّ التربية و التعليم يتمّ بواسطتها، و العين وسيلة النظر إلى العالم الخارجى و مشاهدة مشاهد هذا العالم المختلفة، و قوّة العقل أهمّ حسّ باطنى لدى الإنسان، و بتعبير آخر فإنّه حاكم على وجود البشر.

و الجدير بالذكر أنّ «أفئدة» جمع «فؤاد» بمعنى «قلب» و لكن مفهومها أدقّ من القلب حين يقصد بها عادة الحنكة و الفطانة فى الفرد، و بهذا يبيّن اللّه تعالى فى هذه الآية أهمّ وسائل المعرفة و الإدراك الظاهرية و الباطنية فى الإنسان، لأنّ العلوم و المعارف إمّا أن يحصل عليها الإنسان بواسطة «التجربة» فالوسيلة هى السمع و البصر، أو عن طريق التحليل و الاستدلال العقلى، و الوسيلة لذلك هو العقل و الفؤاد كما ورد التعبير عنه فى هذه الآية، و حتّى الإدراك الحاصل من الوحى أو الإشراق و الشهود القلبى يتمّ بواسطة هذه الوسيلة أيضا، أى «الأفئدة».

و لو فقد الإنسان هذه الوسائل للمعرفة، فسوف يخسر قيمته تماما و يصبح مجرّد كميّة مهملة من المادّة و التراب، و لهذا نجد الآية الشريفة محل البحث تؤكّد فى ختامها على مسألة الشكر لهذه النعم العظيمة على الإنسان و تقول قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ و ذلك إشارة إلى أنّ الإنسان مهما سعى فى أداء شكر هذه النعم و المواهب العظيمة، فمع ذلك لا يؤدّى حقّ الشكر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۰

بحث

كيفية خلق آدم من التراب:

رغم أنّ الآيات القرآنية تحدّثت أحيانا عن خلق الإنسان من «طين» (كالآيات محلّ البحث)، و كما ورد فى قصّة آدم و إبليس فى قوله تعالى:

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً[۱۰۷].

و أحيانا اخرى عن الخلق من الماء مثل: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ [۱۰۸] إلّا أنّ من المعلوم أنّ هذه جميعا تعود إلى مطلب واحد، و حتّى عند الكلام عن خلق آدم من التراب، مثل إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ [۱۰۹] لأنّ المراد: التراب الممتزج بالماء، أى الطين.

و من هنا تتّضح عدّة نقاط:

۱- أنّ الذين احتملوا أنّ المراد من خلق الإنسان من التراب، هو أنّ أفراد البشر يتغذّون على النباتات- سواء كانت التغذية بصورة مباشرة أو غير مباشرة- و أنّ النباتات كلّها من التراب- قد جانبوا الصواب، لأنّ آيات القرآن يفسّر بعضها بعضا، و الآيات أعلاه إشارة إلى شخص آدم الذى خلق من التراب.

۲- أنّ كلّ هذه الآيات دليل على نفى فرضية التكامل- و على الأقل فى مورد الإنسان، و أنّ نوع البشر الذى ينتهى بآدم له خلق مستقلّ.

و ما قيل من أنّ آيات الخلق من التراب إشارة إلى نوع الإنسان الذى يعود إلى الموجودات أحادية الخليّة بآلاف الوسائط، و هى أيضا قد جاءت- طبقا للفرضيات الأخيرة- من الطين الموجود على جانب المحيطات، أمّا نفس آدم فقد كان فردا انتخب من بين نوع البشر، و لم يكن له خلق مستقلّ، بل إنّ امتيازه كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۱

فى صفاته الخاصّة .. هذه الفرضية لا تتناسب مع ظواهر آيات القرآن بأىّ وجه من الوجوه.

و تؤكّد مجدّدا أنّ مسألة تحوّل الأنواع ليست قانونا علميّا مسلّما، بل هى مجرّد فرضيّة- لأنّ الشىء الذى امتدّ أصله إلى ملايين السنين و خفى فيها، فمن المسلّم أنّه لا يخضع للتجربة و المشاهدة، و لا يمكن أن يكون فى مصاف القوانين العلمية الثابتة- بل هى فرضية لتوجيه ظاهرة تنوّع الأجناس التى ظهرت إلى الوجود توجيها تخمينيا، و نحن نعلم أنّ الفرضيات فى حالة تغيّر و تحوّل دائما حيث تخلى الساحة أمام الفرضيات الجديدة.

بناء على هذا، فإنّه لا يمكن الاعتماد عليها مطلقا فى المسائل الفلسفية التى تحتاج إلى أسس مسلّمة قطعية.

و قد أوردنا إيضاحا مفصّلا حول أسس فرضية تكامل الأنواع، و عدم صحّتها، تحت عنوان (القرآن و خلق الإنسان) فى ذيل الآية (۲۸) من سورة الحجر.

و فى نهاية هذا البحث نرى لزاما ذكر هذه المسألة، و هى أنّه ليس لفرضية التكامل أى ارتباط بمسألة التوحيد و معرفة اللّه، و لا تعتبر دليلا على نفى عالم ما وراء الطبيعة، لأنّ الإعتقاد التوحيدى يقول: إنّ العالم قد خلق من قبل اللّه سبحانه، و إنّه هو الذى أعطى كلّ خواص الموجودات، و يشملها بفيضه فى جميع المراحل.

إنّ هذا المعنى يمكن أن يقبله المعتقد بنظرية (ثبوت الأنواع) كما يقبله من يذهب إلى (تطور الأنواع)، غير أنّ المشكلة الوحيدة التى يواجهها المعتقد بفرضية تحوّل الأنواع هى أنّ هذه الفرضيّة لا تتناسب مع التفصيل الذى بيّنه القرآن الكريم حول خلق آدم، حيث يذكر كيفيّة خلقه من التراب و الطين.

بناء على هذا فإنّنا ننفى فرضية التكامل لهذا السبب فقط، لا بسبب مخالفتها لمسألة التوحيد. هذا من الناحية التّفسيرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۲

أمّا من الناحية العلمية- أى العلوم الطبيعية- فإنّنا ننفى فرضية التكامل- و كما أشير إلى ذلك- من جهة عدم امتلاكها الأدلّة القطعيّة على ثبوتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۳

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

اشارة

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (۱۰) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۳) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴)

التّفسير

الندم و طلب الرجوع:

تبدأ هذه الآيات ببحث واضح جلى حول المعاد، ثمّ تبيّن و تبحث حال المجرمين فى العالم الآخر، و هى فى المجموع تتمّة للبحوث السابقة التى تحدّثت حول المبدأ، إذ أنّ البحث عن المبدأ و المعاد مقترنان غالبا فى القرآن المجيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۴

فتقول: إنّ هؤلاء الكفّار يتساءلون باستغراب بأنّنا إذا متنا و تحوّلت أبداننا إلى تراب و اندثرت تماما فهل سوف نخلق من جديد: وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

إنّ التعبير ب ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أنّ الإنسان يصبح ترابا بعد موته كسائر الأتربة و يتفرّق هذا التراب نتيجة العوامل الطبيعية و غير الطبيعية، و لا يبقى منه شىء حتّى يعيده اللّه سبحانه فى القيامة مرّة اخرى.

إلّا أنّ هؤلاء ليسوا بمنكرين قدرة اللّه فى الحقيقة بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ فإنّهم ينكرون مرحلة لقاء اللّه و الحساب و الثواب و العقاب و لتبرير حرية العمل و ليعملوا ما يريدون! و هذه الآية تشبه كثيرا الآيات الاولى من سورة القيامة التى تقول: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ.[۱۱۰] بناء على هذا، فإنّ هؤلاء ليسوا قاصرين من ناحية الاستدلال، و لكن شهواتهم حجبت قلوبهم، و نيّاتهم السيّئة منعتهم من قبول مسألة المعاد، و إلّا فإنّ اللّه الذى أعطى قطعة المغناطيس القوّة التى تجذب إلى نفسها ذرّات الحديد الصغيرة جدّا و المتناثرة فى طيّات أطنان من تراب الأرض من خلال جولة سريعة فى تلك الأرض، و تجمعها بكلّ بساطة، هو الذى يجعل بين ذرّات بدن الإنسان مثل هذه الجاذبية المتقابلة.

من الذى يستطيع أن ينكر أنّ المياه الموجودة فى جسم الإنسان- و أكثر جسم الإنسان ماء- و كذلك المواد الغذائية، كانت ذرّاتها متناثرة فى زاوية من العالم قبل ألف عام مثلا، و كلّ قطرة فى محيط، و كلّ ذرّة فى إقليم، إلّا أنّها تجمّعت عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۵

السحاب و المطر و العوامل الطبيعية الاخرى، و كوّنت الوجود الإنسانى فى النهاية، فأى داع للعجب من أن تجتمع و ترجع إلى حالها الأوّل بعد تلاشيها و تبعثرها؟! و تجيب الآية هؤلاء عن طريق آخر، فتقول: لا تتصوّروا أنّ شخصيتكم بأبدانكم و أجسامكم، بل بأرواحكم، و هى باقية و محفوظة: قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ

إذا لا حظنا أنّ معنى «يتوفّاكم»- من مادة «توفّى» (على وزن تصدّى)، هو الإستيفاء، فإنّ الموت سوف لا يعنى الفناء، بل نوع من قبض الملائكة لروح الإنسان التى تشكّل أهمّ من وجود الإنسان.

صحيح أنّ القرآن يتحدّث عن المعاد الجسمانى، و يعتبر رجوع الروح و الجسم المادّى فى المعاد حتميّا، إلّا أنّ الهدف من الآية أعلاه هو بيان أنّ هذه الأجزاء المادّى التى شغلتم بها فكركم تماما ليست هى أساس شخصيّة الإنسان، بل الأساس هو الجوهر الروحى الذى جاء من قبل اللّه تعالى و إليه يرجع.

و فى المجموع يمكن أن يقال: إنّ الآيتين أعلاه تجيبان منكرى المعاد بهذا الجواب: إذا كان إشكالكم فى تفرّق الأجزاء الجسمية، فإنّكم تقرّون بقدرة اللّه سبحانه و لا تنكرونها، و إذا كان إشكالكم فى اضمحلال و فناء شخصية الإنسان على أثر تناثر تلك الذرّات، فلا يصحّ ذلك لأنّ أساس شخصيّة الإنسان يستند إلى الروح.

و هذا الإيراد لا يختلف عن شبهة (الآكل و المأكول) المعروفة، كما أنّ جوابه فى الموردين يشبه جواب تلك الشبهة[۱۱۱].

و ثمّة مسألة ينبغى التوجّه إليها، و هى أنّ فى بعض آيات القرآن نسب التوفّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۶

إلى اللّه سبحانه: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها،[۱۱۲] و فى بعضها إلى مجموعة من الملائكة: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ ...[۱۱۳]. و فى الآيات مورد البحث نسب قبض الأرواح إلى ملك الموت، إلّا أنّه لا منافاة بين هذه التعبيرات مطلقا، فإنّ لملك الموت معنى الجنس، و هو يطلق على كلّ الملائكة، أو هو إشارة إلى كبير الملائكة و زعيمها، و لمّا كان الجميع يقبضون الأرواح بأمر اللّه سبحانه، فقد نسب الفعل إلى اللّه عزّ و جلّ.

ثمّ تجسّد وضع هؤلاء المجرمين الكافرين و منكرى المعاد الذين يندمون فى القيامة أشدّ الندم على ما كان منهم لدى مشاهدة مشاهدها و مواقفها المختلفة.

فتقول: وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ۱۱۴].

ستعجب حقّا! أ هؤلاء النادمون الناكسو الرؤوس هم أولئك المتكبّرون العتاة العصاة الذين لم يكونوا يذعنون فى الدنيا لأيّة حقيقة؟! إلّا أنّهم الآن يتغيّرون تماما عند رؤية مشاهد القيامة و يصلون إلى مستوى الشهود، لكنّ هذا الوعى و تغيير الموقف سريع الزوال، فإنّهم- و طبقا لآيات القرآن الاخرى- لو رجعوا إلى هذه الدنيا لعادوا إلى حالتهم الأولى، الأنعام/ الآية ۲۸.

«الناكس» من مادّة (نكس) على وزن (كلب) بمعنى انقلاب الشىء، و هنا يعنى خفض الرأس إلى الأسفل و طأطأته.

تقديم «أبصرنا» على «سمعنا» لأنّ الإنسان يرى المشاهد و المواقف أوّلا، ثمّ يسمع استجواب اللّه و الملائكة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۷

و يتبيّن ممّا قلناه أنّ المراد من «المجرمين» هنا الكافرون، و خاصّة منكرى القيامة.

و على كلّ حال، فليست هذه المرّة الاولى التى نواجه فيها هذه المسألة فى آيات القرآن، و هى أنّ المجرمين يندمون أشدّ الندم عند مشاهدة نتائج الأعمال و العذاب الإلهى، و يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فى حين أنّ مثل هذا الرجوع غير ممن فى السنّة الإلهية، كما أنّ رجوع الطفل إلى رحم الأمّ، و الثمرة المقطوفة إلى الشجرة غير ممكن.

و الجدير بالذكر أنّ طلب المجرمين الوحيد هو الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا، و من هنا يتّضح جيّدا أنّ رأس مال النجاة الوحيد فى القيامة هو الأعمال الصالحة .. تلك الأعمال التى تنبع من قلب طاهر ملىء بالإيمان، و تتمّ بخالص النيّة.

و لمّا كان كلّ هذا الإصرار و التأكيد على قبول الإيمان قد يوهم عجز اللّه سبحانه عن أن يلقى نور الإيمان فى قلوب هؤلاء، فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها.

فمن المسلّم أنّ اللّه تعالى يمتلك مثل هذه القدرة، إلّا أنّ الإيمان الذى يتحقّق و يتمّ بالإجبار لا قيمة له، و لذا فالمشيئة الإلهيّة أرادت أن ينال الإنسان شرف كونه مختارا، و أن يسير فى طريق التكامل بحريته و إختياره، و لذلك تضيف فى النهاية لقد قرّرت أن أخلق الإنسان مختارا وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

أجل .. إنّ المجرمين سلكوا هذا الطريق بسوء اختيارهم، و لذلك فهم مستحقّون للعقاب، و نحن قد قطعنا على أنفسنا أن نملأ جهنّم منهم.

و بملاحظة ما قلناه، و بملاحظة مئات الآيات القرآنية التى تعتبر الإنسان موجودا مختارا ذا إرادة، و مكلّفا بتكاليف، و مسئولا عن أعماله، و قابلا للهداية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۸

بواسطة الأنبياء و تهذيب النفس و تربيتها، فإنّ كلّ توهّم يبتنى على أنّ الآية أعلاه دليل على الجبر- كما ظنّ ذلك الفخر الرازى و أمثاله- واضح البطلان.

و لعلّ الجملة الشديدة القاطعة أعلاه إشارة إلى أن لا تتصوّروا أنّ رحمة اللّه الواسعة تمنع من عقاب المجرمين الفسقة و الظالمين، و

أن لا تغترّوا بآيات الرحمة و تعدّوا أنفسكم بمأمن من العذاب الإلهى، فإنّ لرحمته موضعا، و لغضبه موضعا.

إنّه عزّ و جلّ سيفى بوعيده حتما- و خاصّة بملاحظة لام القسم فى جملة (لأملأنّ) و نون التوكيد فى آخرها- و سيملأ جهنّم من أصحابها هؤلاء، و إن لم يفعل فذلك خلاف الحكمة، و لذلك تقول الآية التالية: إنّا سنقول لأصحاب النار فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

مرّة اخرى يستفاد من هذه الآية أنّ نسيان محكمة القيامة العادلة هو الأساس لكلّ تعاسة و شقاء للإنسان، لأنّه سيرى نفسه فى هذه الصورة حرّا إزاء ارتكاب القبائح و الظلم و العدوان.

و كذلك يستفاد من الآية بوضوح أنّ العقاب الأبدى للفرد معلول لما ارتكبه من أعمال فى دار الدنيا، لا لشىء آخر.

و ضمنا يتّضح أنّ المراد من «نسيان اللّه» هو عدم رعايته و نصرته لهم، و إلّا فإنّ جميع العالم حاضر دوما عند اللّه، و لا معنى للنسيان بالنسبة له عزّ و جلّ.

مسألتان

۱- استقلال الروح و أصالتها

الآية الاولى من الآيات مورد البحث، و التى لها دلالة على قبض الأرواح بواسطة ملك الموت، من أدلّة استقلال روح الإنسان، لأنّ التعبير بالتوفّى (و الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۱۹

يعنى القبض) يوحى بأنّ الروح تبقى بعد انفصالها عن البدن و لا تفنى.

و التعبير عن الإنسان فى الآية بالروح أو النفس فى الآية أعلاه شاهد آخر على هذا المعنى، لأنّ الروح- وفق نظرية المادّيين- ليست إلّا الخواص الفيزيائية و الكيميائية للخلايا المخيّة، و هى تفنى بفنائها، تماما كما تفنى حركات عقارب الساعة بعد فنائها و تحطّمها. و طبقا لهذه النظرية فإنّ الروح ليست هى المحافظة على شخصية الإنسان، بل هى جزء من خواصّ جسمه تتلاشى عند تلاشى جسمه.

و لدينا أدلّة فلسفية عديدة على أصالة الروح و استقلالها، ذكرنا بعضا منها فى ذيل الآية (۸۵) من سورة الإسراء، و المراد هنا بيان الدليل النقلى على هذا الموضوع، حيث تعتبر الآية أعلاه من الآيات الدالّة على هذا المعنى.

۲- ملك الموت

يستفاد من آيات القرآن المجيد أنّ اللّه سبحانه يدبّر امور هذا العالم بواسطة مجموعة من الملائكة، كما فى الآية (۵) من سورة النازعات حيث يقول:

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً و نعلم أنّ السنّة الإلهيّة قد جرت على أن تمضى الأمور بأسبابها.

و قسم من هؤلاء الملائكة هم الملائكة الموكّلون بقبض الأرواح، و الذين أشارت إليهم الآيات (۲۸ و ۳۳) من سورة النحل، و بعض الآيات القرآنية الاخرى، و على رأسهم ملك الموت.

و قد رويت أحاديث كثيرة فى هذا الباب، تبدو الإشارة إلى بعضها لازمة من جهات:

۱-

فى حـديث روى عن الرّسول الأـكرم صـلّى اللّه عليه و آله أنّه قـال: «الأـمراض و الأوجـاع كلّها بريـد الموت و رسل الموت! فإذا حان الأجل أتى ملك الموت بنفسه فقال: يا أيّها العبد، كم خبر بعد خبر؟ و كم رسول بعد رسول؟ و كم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۰

الذى ليس بعدى خبر! و أنا الرّسول أجب ربّك طائعا أو مكرها.

فإذا قبض روحه و تصارخوا عليه، قال: على من تصرخون؟ و على من تبكون؟

فو اللّه مـا ظلمت له أجلاـ و لاـ أكلت له رزقـا، بـل دعاه ربّه، فليبك الباكى على نفسه، و إنّ لى فيكم عودات و عودات حتّى لا ابقى فيكم أحدا»[۱۱۵].

طالعوا هذا الحديث المروّع مرّة اخرى، فقد أخفيت فيه حقائق كثيرة.

۲- و

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السـلام: «دخل رسول اللّه على رجل من الأنصار يعوده، فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول اللّه: يـا ملـك الموت، ارفق بصـاحبى فإنّه مؤمن، فقال: أبشـر يا محمّـد، فإنّى بكلّ مؤمن رفيق، و اعلم يا محمّـد، أنّى لأقبض روح ابن آدم فيصـرخ أهله، فأقوم فى جانب الدار فأقول: و اللّه، ما لى من ذنب، و إنّ لى لعودة و عودة، الحذر الحذر، و ما خلق اللّه من أهل بيت و لاـ مـدر و لا شـعر و لا وبر، فى برّ و لا بحر إلّا و أنا أتصـفّحهم فى كلّ يوم و ليلـة خمس مرّات حتّى أنّى لأعرف بصـغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم»[۱۱۶].

و قـد وردت روايـات اخرى بهـذا المضـمون فى مختلف المصادر الإسـلامية، تحـذّر جميعا كلّ البشـر أنّ المسافـة بينهم و بين الموت ليست كبيرة! و من الممكن جدّا أن ينتهى كلّ شىء فى لحظة قصيرة.

أ يحسن بالإنسان و الحال هـذه أن يغترّ و ينخـدع بزخارف هـذه الدنيا و زبرجها، و يتلوّث بأنواع المعاصـى و الظلامات، و يبقى غافلا عن عاقبة أعماله؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۱

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۱۵ الى ۲۰]

اشارة

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُـجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (۱۵) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفـاً وَ طَمَعـاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۱۶) فَلاـ تَعْلَمُ نَفْسٌ مـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِمـا كـانُوا يَعْمَلُونَ (۱۷) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (۱۸) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۹)
وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۰)

التّفسير

جوائز عظيمة لم يطّلع عليها أحد!

إنّ طريقـة القرآن هى أنّه يبيّن كثيرا من الحقائق من خلال مقارنتها مع بعضـها، لتكون مفهومـة و مسـتقرّة فى القلب تماما، و هنا أيضـا بعد الشرح و التفصيل الذى مرّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۲

فی الآیات السابقة حول المجرمین و الکافرین، فإنّه یتطرّق إلی صفات المؤمنین الحقیقیین البارزة، و یبیّن أصولهم العقائدیة، و برامجهم العملیة بصورة مضغوطة ضمن آیتین بذکر ثمان صفات ۱۱۷]، فیقول أوّلا: إِنَّما یُؤْمِنُ بِآیاتِنَا الَّذِینَ إِذا ذُکِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا یَسْتَکْبِرُونَ

التعبیر ب (إنّما) الذی یستعمل عادة لإفادة معنی الحصر، یبیّن أنّ کلّ من یتحدّث عن الإیمان و یتمشدق به، و لا یمتلک الخصائص و الصفات التی وردت فی هذه الآیات، فإنّه لا یکون فی صفّ المؤمنین الواقعیین، بل هو شخص ضعیف الإیمان.

لقد بیّنت فی هذه الآیة أربع صفات:

۱- أنّهم یسجدون بمجرّد سماعهم آیات اللّه، و التعبیر ب خَرُّوا بدل سُجَّداً إشارة إلی نکتة لطیفة، و هی أنّ هؤلاء المؤمنین ینجذبون إلی کلام اللّه لدی سماعهم آیات القرآن و یهیمون فیها بحیث یسجدون لا إرادیا[۱۱۸].

نعم .. إنّ أوّل خصائص هؤلاء هو العشق الملتهب، و العلاقة الحمیمة بکلام محبوبهم و معشوقهم.

لقد ذکرت هذه الصفة و الخاصیة فی بعض آیات القرآن الاخری کأحد أبرز صفات الأنبیاء، کما یقول اللّه سبحانه فی شأن جمع من الأنبیاء العظام: إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُکِیًّا.[۱۱۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۳

و بالرغم من أنّ الآیات هنا ذکرت بصورة مطلقة، و لکن من المعلوم أنّ المراد منها غالبا الآیات التی تدعو إلی التوحید و محاربة الشرک.

۲- ۳- علامتهم الثّانیة و الثالثة تسبیح اللّه و حمده، فهم ینزّهون اللّه تعالی عن النقائص من جهة، و من جهة اخری فإنّهم یحمدونه و یثنون علیه لصفات کماله و جماله.

۴- و الصفة الاخری لهؤلاء هی التواضع و ترک کلّ أنواع التکبر، لأنّ الکبر و الغرور أوّل درجات الکفر و الجحود، و التواضع أمام الحقّ و الحقیقة أولی خطوات الإیمان! إنّ الذین یسیرون فی طریق الکبر و العجب لا یسجدون للّه، و لا یسبّحونه و لا یحمدونه، و لا یعترفون بحقوق عباده! إنّ لهؤلاء صنما عظیما، و هو أنفسهم! ثمّ أشارت الآیة الثّانیة إلی أوصاف هؤلاء الاخری، فقالت: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ۱۲۰] فیقومون فی اللیل، و یتّجهون إلی ربّهم و محبوبهم و یشرعون بمناجاته و عبادته.

نعم .. إنّ هؤلاء یستیقظون و یحیون قدرا من اللیل فی حین أنّ عیون الغافلین تغظّ فی نوم عمیق، و حینما تتعطّل برامج الحیاة العادیة، و تقلّ المشاغل الفکریة إلی أدنی مستوی، و یعمّ الهدوء و الظلام کلّ الأرجاء، و یقلّ خطر التلوّث بالریاء فی العبادة، و الخلاصة: عند توفّر أفضل الظروف لحضور القلب، فإنّهم یتّجهون بکلّ وجودهم إلی معبودهم، و یطأطئون رؤوسهم عند أعتاب معشوقهم، و یخبرونه بما فی قلوبهم، فهم أحیاء بذکره، و کؤوس قلوبهم طافحة بحبّه و عشقه.

ثمّ تضیف: یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۴

و هنا تذکر الآیة صفتین أخریین لهؤلاء هما: «الخوف» و «الرجاء»، فلا یأمنون غضب اللّه عزّ و جلّ، و لا ییأسون من رحمته، و التوازن بین الخوف و الرجاء هو ضمان تکاملهم و توغّلهم فی الطریق إلی اللّه سبحانه، و الحاکم علی وجودهم دائما، لأنّ غلبة الخوف تجرّ الإنسان إلی الیأس و القنوط، و غلبة الرجاء تغری الإنسان و تجعله فی غفلة، و کلاهما عدوّ للإنسان فی سیره التکاملی إلی اللّه سبحانه.

و ثامن صفاتهم، و آخرها فی الآیة أنّهم وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ

فهم لا یهبون من أموالهم للمحتاجین و حسب، بل و من علمهم و قوّتهم و قدرتهم و رأیهم الصائب و تجاربهم و رصیدهم الفکری، فیهبون منها ما یحتاج إلیه الغیر.

إنّهم ينبوع من الخير و البركة، و عين فوّارة من ماء الصالحات العذب الصافى الذى يروى العطاشى، و يغنى المحتاجين بحسب استطاعتهم.

نعم .. إنّ أوصاف هؤلاء مجموعة من العقيدة الرصينة الثابتة، و الإيمان القوىّ و العشق الملتهب للّه، و العبادة و الطاعة، و السعى و الحركة الدؤوبة، و معونة عباد اللّه فى كلّ المجالات.

ثمّ تطرّقت الآية التالية إلى الثواب العظيم للمؤمنين الحقيقيين الذين يتمتّعون بالصفات المذكورة فى الآيتين السابقتين، فتقول بتعبير جميل يحكى الأهميّة الفائقة لثوابهم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

التعبير ب فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ و كذلك التعبير ب قُرَّةِ أَعْيُنٍ مبيّن لعظمة هذه المواهب و العطايا التى لا عدّ لها و لا حصر، خاصّة و أنّ كلمة (نفس) قد وردت بصيغة النكرة فى سياق النفى، و هى تعنى العموم و تشمل كلّ النفوس حتّى ملائكة اللّه المقرّبين و أولياء اللّه.

و التعبير ب قُرَّةِ أَعْيُنٍ من دون الإضافة إلى النفس، إشارة إلى أنّ هذه النعم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۵

الإلهيّة التى خصّصت كثواب و جزاء للمؤمنين المخلصين فى الآخرة، فى هيئة تكون معها قرّة لعيون الجميع.

(قرّة) مادّة القرّ، أى البرودة، و من المعروف أنّ دموع الشوق باردة دائما، و أنّ دمع الغمّ و الحسرة حارّ محرق، فالتعبير ب قُرَّةِ أَعْيُنٍ يعنى فى لغة العرب الشىء الذى يسبّب برودة عين الإنسان، أى أنّ دموع الشوق و الفرح تجرى من أعينهم، و هذه كناية لطيفة عن منتهى الفرح و السرور و السعادة.

و

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «إنّ اللّه يقول: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر»[۱۲۱].

و ثمّة سؤال طرحه المفسّر الكبير العلّامة «الطبرسى» فى (مجمع البيان) و هو:

لماذا اخفى هذا الثواب و الجزاء؟

ثمّ يذكر ثلاثة أجوبة لهذا السؤال:

۱- أنّ الأمور المهمّة و القيّمة لا يمكن إدراك حقيقتها بسهولة من خلال الألفاظ و الكلام، و لذلك فإنّ إخفاءها و إبهامها يكون أحيانا أكثر تحفيزا، و أبعث على النشاط، و هو أبلغ من ناحية الفصاحة.

۲- أنّ الشىء الذى يكون قرّة للأعين، يكون عادة مترامى الأطراف إلى الحدّ الذى لا يصل علم ابن آدم إلى جميع خصوصياته.

۳- لمّا كان هذا الجزاء قد جعل لصلاة الليل المستورة، فإنّ المناسب أن يكون ثواب هذا العمل عظيما و مخفيّا أيضا. و ينبغى الالتفات إلى أنّ جملة تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ فى الآية السابقة إشارة إلى صلاة الليل.

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «ما من حسنة إلّا و لها ثواب مبين فى القرآن، إلّا صلاة الليل، فإنّ اللّه عزّ اسمه لم يبيّن ثوابها لعظم خطرها، قال: فلا تعلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۶

نفس ما اخفى لهم من قرّة أعين»[۱۲۲].

و بغضّ النظر عن كلّ ذلك، فإنّ عالم القيامة- و كما أشرنا إلى ذلك سابقا- عالم أوسع من هذا العالم سعة لا تحتمل المقارنة، فهو أوسع حتّى من الحياة الدنيا بالقياس إلى حياة الجنين فى رحم الامّ، و أبعاد ذلك العالم لا يمكن إدراكها عادة بالنسبة لنا نحن السجناء

داخل الجدران الأربعة للدنيا، و لا يمكن تصوّره من قبل أحد.

إنّنا نسمع كلاما عنه فقط، و نرى شبحه من بعيد، لكنّنا ما لم ندرك و لم نر ذلك العالم، فإنّ من المحال إدراك أهميّته و عظمته، كما أنّ إدراك الطفل فى بطن الامّ لنعم هذه الدنيا- على فرض امتلاكه العقل و الإحساس الكامل- غير ممكن.

و قد ورد نفس هذا التعبير فى شأن الشهداء فى سبيل اللّه، ذلك أنّ الشهيد عند ما يقع على الأرض تقول له الأرض: مرحبا بالروح الطيّبة التى خرجت من البدن الطيّب، أبشر فإنّ لك ما لا عين رأت، و لا اذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر[۱۲۳].

و تبيّن الآية التالية المقارنة التى مرّت فى الآيات السابقة بصيغة أكثر صراحة، فتقول: أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً.

لقد وردت الجملة بصيغة الاستفهام الإنكارى، ذلك الاستفهام الذى ينبعث جوابه من عقل و فطرة كلّ إنسان بأنّ هذين الصنفين لا يستويان أبدا، و فى الوقت نفسه، و للتأكيد، فقد أوضحت الآية عدم التساوى بصورة أوضح بذكر جملة: لا يَسْتَوُونَ

لقد جعل «الفاسق» فى مقابل «المؤمن» فى هذه الآية، و هذا دليل على أنّ للفسق مفهوما واسعا يشمل الكفر و الذنوب الاخرى، لأنّ هذه الكلمة أخذت فى الأصل من جملة (فسقت الثمرة) إذا خرجت من قشرها، ثمّ أطلقت على الخروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۷

على أوامر اللّه و العقل و عصيانها، و نعلم أنّ كلّ من كفر، أو ارتكب معصية فقد خرج على أوامر اللّه و العقل.

و ممّا يجدر ذكره أنّ الثمرة ما دامت فى قشرها فهى سالمة، و بمجرّد أن تخرج من القشر تفسد، و بناء على هذا فإنّ فسق الفاسق كفسق الثمرة، و فساده كفسادها.

و نقل جمع من المفسّرين الكبار ففى ذيل هذه الآية

أنّ «الوليد بن عقبة» قال يوما لعلى عليه السّلام: أنا أبسط منك لسانا، و أحدّ منك سنانا! إشارة إلى أنّه- بظنّه- يفوق عليا فى الفصاحة و الحرب، فأجابه على عليه السّلام: «ليس كما تقول يا فاسق»، إشارة إلى أنّك أنت الذى اتّهمت بنى المصطلق بوقوفهم ضدّ الإسلام فى قصّة جمع الزكاة منهم، فكذّبك اللّه و عدّك فاسقا فى الآية (۶) من سورة الحجرات: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ...[۱۲۴].

و أضاف البعض هنا بأنّ آية: أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً نزلت بعد هذه المحاورة، لكن يبدو من ملاحظة أنّ السورة مورد البحث (سورة السجدة) نزلت فى مكّة، و قصّة الوليد و بنى المصطلق وقعت فى المدينة، فهذا من قبيل تطبيق الآية على مصداق واضح لها.

و بناء على ما ذهب بعض المفسّرين من أنّ الآية أعلاه و الآيتين بعدها مدنية، لا يبقى إشكال من هذه الجهة، و لا مانع من أن تكون هذه الآيات الثلاث قد نزلت بعد المحاورة أعلاه.

و على كلّ حال، فلا بحث و لا جدال فى إيمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام العميق المتأصّل، و لا فى فسق الوليد، حيث أشير فى آيات القرآن لكلا الإثنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۸

و تبيّن الآية التالية عدم المساواة هذه بصورة أوسع و أكثر تفصيلا، فتقول: أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى ۱۲۵] ثمّ تضيف الآية بأنّ هذه الجنّات قد أعدّها اللّه تعالى لاستقبالهم فى مقابل أعمالهم الصالحة: نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير ب «نزلا»، و الذى يقال عادة للشىء الذى يهيّئونه لاستقبال و إكرام الضيف، إشارة لطيفة إلى أنّ المؤمنين يستقبلون و يخدمون دائما كما هو حال الضيف، فى حين أنّ الجهنّميين- كما سيأتى فى الآية الآتية- كالسجناء الذين يأملون الخروج منها فى كلّ حين، ثمّ يعادون فيها! و ما ورد فى الآية (۱۰۲) من سورة الكهف: إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا فإنّه من قبيل فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ و هو كناية عن أنّه يعاقب و يعذّب هؤلاء بدل إكرامهم، و يهدّدون مكان بشارتهم.

و يعتقد البعض أنّ «النزل» أوّل شيء يستقبل به الضيف الوارد لتوّه- كالشاى و العصير فى زماننا- و بناء على هذا فإنّه إشارة لطيفة إلى أنّ جنّات المأوى بتمام نعمها و بركاتها هى أوّل ما يستقبل به ضيوف الرحمن، ثمّ تتبعها المواهب فى بركات اخرى لا يعلمها إلّا اللّه سبحانه.

و التعبير ب فَلَهُمْ جَنَّاتُ لعلّه إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه لا يعطيهم بساتين الجنّة عارية، بل يملّكهم إيّاها إلى الأبد، بحيث لا يعكّر هدوء فكرهم احتمال زوال هذه النعم مطلقا.

و تطرّقت الآية التالية إلى النقطة التى تقابل هؤلاء، فتقول: وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ فهؤلاء مخلّدون فى هذا المكان المرعب بحيث أنّهم كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۲۹

مرّة اخرى نرى هنا العذاب الإلهى قد جعل فى مقابل «الكفر و التكذيب»، و الثواب و الجزاء فى مقابل «العمل»، و هذا إشارة إلى أنّ الإيمان لا يكفى لوحده، بل يجب أن يكون حافزا و باعثا على العمل، إلّا أنّ الكفر كاف لوحده للعذاب، و إن لم يرافقه و يقترن به عمل.

بحث

أصحاب الليل!

ورد لجملة: تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ تفسيران فى الروايات الإسلامية:

أحدهما: تفسيرها بصلاة «العشاء»، و هو يشير إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا ينامون بعد صلاة المغرب و قبل صلاة العشاء مخافة أن يغلب عليهم النوم فتفوتهم صلاة العشاء (لأنّ المعتاد فى ذلك الزمان أنّهم كانوا يستريحون فى أوّل الليل- و كانوا يفرّقون بين صلاتى المغرب و العشاء، طبقا لاستحباب التفريق بين الصلوات الخمس، و كانوا يؤدّون كلا منهما فى وقت فضيلتها) فربّما لم يستيقظوا لصلاة العشاء إذا ما ناموا بعد صلاة المغرب مباشرة.

و قد روى هذا التّفسير ابن عبّاس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله طبقا لنقل الدرّ المنثور، و كذلك روى فى أمالى الصدوق عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۲۶].

و ثانيهما: أنّها فسّرت بالقيام و النهوض من النوم و المضجع لأداء صلاة الليل فى أغلب الرّوايات و كلمات المفسّرين:

ففى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: «ألا أخبرك بالإسلام أصله و فرعه و ذروة سنامه»؟ قال: بلى، جعلت فداك، قال: «أمّا أصله فالصلاة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۰

و فرعه الزكاة، و ذروة سنامه الجهاد»! ثمّ قال: «إن شئت أخبرتك بأبواب الخير»؟ قال: نعم جعلت فداك، قال: «الصوم جنّة، و الصدقة تذهب بالخطيئة، و قيام الرجل فى جوف الليل بذكر اللّه، ثمّ قرأ:

تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ۱۲۷].

و

روى فى (تفسير مجمع البيان) عن معاذ بن جبل، قال: بينما نحن مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى غزوة تبوك، و قد أصابنا الحرّ

فتفرّق القوم، فإذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أقربهم منّى، فدنوت منه، فقلت: يا رسول اللّه، أنبئنى بعمل يدخلنى الجنّة، و يباعدنى من النار، قال: «لقد سألت عن عظيم و إنّه ليسير على من يسّره اللّه عليه: تعبد اللّه و لا تشرك به شيئا، و تقيم الصلاة المكتوبة، و تؤدّى الزكاة المفروضة، و تصوم شهر رمضان».

قال: «و إن شئت أنبأتك بأبواب الخير» قال: قلت: أجل يا رسول اللّه، قال:

«الصوم جنّة، و الصدقة تكفّر الخطيئة، و قيام الرجل فى جوف الليل يبتغى وجه اللّه» ثمّ قرأ هذه الآية تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ ۱۲۸].

و بالرغم من عدم وجود المانع من أن يكون للآية معنى واسعا يشمل البقاء على اليقظة فى أوّل الليل لصلاة العشاء، إضافة إلى النهوض فى السحر لصلاة الليل، إلّا أنّ الدقّة فى مفهوم (تتجافى) تعكس المعنى الثّانى فى الذهن أكثر، لأنّ ظاهر الجملة أنّ الجنوب قد اضطجعت و هدأت فى المضاجع، ثمّ تجافت و ابتعدت عنها، و هذا يناسب القيام آخر الليل لأداء الصلاة، و بناء على هذا فإنّ المجموعة الاولى من الروايات من قبيل شمولية المفهوم و إلغاء الخصوصية.

و بالرغم من أنّ هذه الروايات القليلة تبدو كافية حول أهميّة هذه الصلاة المباركة، إلّا أنّ الروايات الإسلامية قد أولت هذه العبادة اهتماما عظيما قلّ أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص ۱۳۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۱

تحدّثت بهذا المقدار عن عبادة اخرى.

لقد اهتمّ أنصار الحقّ و محبّوه و سالكو طريق الفضيلة كثيرا بهذه العبادة الخالية من الرياء، و التى تنير القلب و تصفّيه من كلّ الشوائب.

و من الممكن أن لا يوفّق البعض إلى هذه العبادة المباركة دائما، و لكن ما المانع من أن يسعى الفرد إلى نيل هذا التوفيق فى بعض الليالى، و فى الوقت الذى يرخى الليل سدوله، و تهدأ الأصوات و تنام العيون يكون الجوّ مهيئا لحضور القلب، يهبّ إلى مناجاة اللّه و ينوّر قلبه بنور عشق الحبيب و محبّته ۱۲۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۲

الآيتان [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۱) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (۲۲)

التّفسير

عقوبات تربوية:

بعد البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول المجرمين و عقابهم الأليم، فإنّ الآيات مورد البحث تشير إلى أحد الألطاف الإلهية الخفيّة

و هى موارد العذاب الخفيف فى الدنيا ليتّضح أنّ اللّه سبحانه لا يريد أن يبتلى عبد بالعذاب الخالد أبدا، و لذلك يستخدم كلّ وسائل التوعية لنجاته، فيرسل الأنبياء، و ينزل الكتب السماوية، و ينعم و يبتلى بالمصائب، و إذا لم تنفع أيّة وسيلة منها فليس إلّا نار الجحيم.

تقول الآية: وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

من المسلّم أنّ «العذاب الأدنى» له معنى واسعا يتضمّن أغلب الاحتمالات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۳

كتبها المفسّرون بصورة منفصلة:

فمن جملتها، أنّ المراد المصائب و الآلام و المشقّة.

أو القحط و الجفاف الشديد الذى دام سبع سنين و ابتلى به المشركون فى مكّة حتّى اضطروا إلى أكل أجساد الموتى! أو الضربة القاصمة التى نزلت عليهم فى غزوة بدر، و أمثال ذلك.

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد عذاب القبر، أو العقاب فى الرجعة فلا يبدو صحيحا، لأنّه لا يناسب جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ أى عن أعمالهم.

من البديهى أنّ العذاب موجود فى هذه الدنيا أيضا، بحيث إذا نزل أغلقت أبواب التوبة، و هو عذاب الاستئصال، أى العذاب و العقوبات التى تنزل لفناء الأقوام العاصين حينما لا تنفع و لا تؤثّر فيهم أىّ وسيلة توعية و تنبيه.

و أمّا «العذاب الأكبر» فيعنى عذاب يوم القيامة الذى يفوق كلّ عذاب حجما و ألما.

و هناك التفاتة أشار إليها بعض المفسّرين فى أنّه لما ذا جعل «الأدنى» فى مقابل «الأكبر»، فى حين أنّه يجب إمّا أن يقع الأدنى مقابل الأبعد، أو الأصغر فى مقابل الأكبر؟

و ذلك أنّ لعذاب الدنيا صفتين: كونه صغيرا، و قريبا، و ليس من المناسب التأكيد على صغره عند التهديد، بل يجب التأكيد على قربه. و لعذاب الآخرة صفتان أيضا:

كونه بعيدا و كبيرا، و المناسب فى شأنه التأكيد على كبره و عظمته لا بعده- تأمّلوا جيدا-.

و تقدّم أنّ التعبير ب (لعلّ) فى جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ بسبب أنّ الإحساس بالعقوبات التحذيرية ليس علّة تامّة للوعى و اليقظة، بل هو جزء العلّة، و يحتاج إلى أرضيّة مهيّأة، و بدون هذا الشرط لا يحقّق النتيجة المطلوبة، و كلمة (لعلّ) إشارة إلى هذه الحقيقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۴

و تتّضح من هذه الآية إحدى حكم المصائب و الابتلاءات و الآلام التى تعتبر من المسائل الملحّة و المثيرة للجدل فى بحث التوحيد و معرفة اللّه و عدله.

و ليس فى هذه الآية فحسب، بل أشير فى آيات اخرى من القرآن إلى هذه الحقيقة، و من جملتها فى الآية (۹۴) من سورة الأعراف وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنا أَهْلَها بِالْبَأْساءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ

و لمّا لم تنفع أيّة وسيلة من وسائل التوعية و التنبيه، حتّى العذاب الإلهى، لم يبق طريق إلّا انتقام اللّه من هؤلاء القوم الذين هم أظلم الناس، و كذلك تقول الآية التالية: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ

فلم تؤثّر فيهم النعمة الإلهيّة، و لا العذاب و الابتلاءات التحذيرية، و على هذا فلا أحد أظلم منهم، و إذا لم ينتقم من هؤلاء فممّن الانتقام؟

من الواضح- و بملاحظة الآيات السابقة- أنّ المراد من «المجرمين» هنا هم منكرو المبدأ و المعاد الذين لا إيمان لهم.

و قد وصف جماعة من الناس فى آيات القرآن مرارا بأنّهم (أظلم) من الباقين، و بالرغم من تعبيراتها المختلفة إلّا أنّها تعود جميعا إلى أصل الكفر و الشرك، و بناء على هذا فإنّ معنى (أظلم) الذى يعتبر صيغة تفضيل يتطابق مع هذه المصاديق.

و التعبير ب (ثمّ) فى الآيـة، و الـذى يـدلّ عـادة على التراخى، لعلّه إشـارة إلى أنّ أمثـال هؤلاـء يعطون فرصـة و مجالاـ كافيا للتفكير و البحث، و لا تكون معاصيهم الابتدائية سببا لانتقام اللّه أبدا، إلّا أنّهم سيستحقّون انتقام اللّه عزّ و جلّ بعد انتهاء الفرصة اللازمة.

و يجب الالتفات إلى أنّ التعبير ب «الانتقام» يعنى العقوبـة فى لسان العرب، و مع أنّ معنى الكلمـة أصـبح فى المحادثات اليوميـة يعنى تشفّى القلب و إبراد الغليل من العدو، إلّا أنّ هذا المعنى لا وجود له فى الأصل اللغوى، و لذلك فإنّ هذا التعبير قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۵

استعمل مرارا فى شأن اللّه عزّ و جلّ فى القرآن المجيد، فى حين أنّه سبحانه أسمى و أعلى من هذه المفاهيم، فهو لا يفعل شيئا إلّا وفق الحكمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۶

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَـى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْـرائِيلَ (۲۳) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْـدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (۲۴) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۲۵)

التّفسير

شرط الإمامة: الصبر و الإيمان:

تشـير الآيات مورد البحث إشارة قصيرة و عابرة إلى قصّة «موسى» عليه السّلام و بنى إسرائيل لتسلّى نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائـل و تطيّب خواطرهم، و تـدعوهم إلى الصبر و التحمّـل و الثبـات أمـام تكـذيب و إنكار المشـركين التى أشـير إليها فى الآيات السابقة، و لتكون بشارة للمؤمنين بانتصارهم على القوم الكافرين العنودين كما انتصـر بنو إسرائيل على أعدائهم و أصبحوا أئمّة فى الأرض.

و لمّـا كـان موسـى عليه السّـلام نبيّـا جليلاـ يؤمن به كلّ من اليهود و النصارى، فإنّه يكون حافزا على توجّه أهل الكتاب نحو القرآن و الإسلام.

تقول الآية أوّلا: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ أى فلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۷

تشكّ أو تتردّد فى أنّ «موسـى» قد تلقّى آيات اللّه، و قد جعلنا كتاب موسـى «التوراة» وسـيلة لهداية بنى إسـرائيل وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ

ثمّة اختلاف بين المفسّرين فى عودة الضمير فى قوله: مِنْ لِقائِهِ و قد احتملوا فى ذلك سبعة احتمالات أو أكثر، إلّا أنّ أقربها هو عودته إلى الكتاب- كتاب موسـى السـماوى، أى «التوراة»- كما يبـدو، و له معنى المفعول و فاعله موسـى، و بناء على هذا فإنّ المعنى الكلّى لهذه الجملة يصبح: لا تشكّ فى أنّ موسى عليه السّلام تلقّى الكتاب السماوى الذى القى إليه من قبل اللّه تعالى.

و الشاهـد القوىّ على هـذا التّفسـير هو أنّه قـد وردت فى الآيـة أعلاه ثلاث جمل، تتحدّث الجملتين الاولى و الأخيرة عن التوراة قطعا، فمن المناسب أن تتابع الجملـة الوسط هـذا المعنى أيضا، لا أن تتحـدّث عن القيامة أو القرآن المجيد حيث سـتكون جملة معترضة فى

هذه الصورة، و نعلم أنّ الجملة المعترضة خلاف الظاهر، و ما دمنا فى غنى عنها فلا ينبغى التوجّه إليها.

السؤال الوحيد الذى يبقى فى هذا التّفسير هو استعمال كلمة (لقاء) فى مورد الكتاب السماوى، حيث إنّ هذه الكلمة قد استعملت فى القرآن الكريم غالبا بإضافتها إلى اللّه أو الربّ أو الآخرة و أمثالها، و هى إشارة إلى القيامة. و لهذا السبب رجّح البعض كون الآية أعلاه تتحدّث أوّلا عن نزول التوراة على موسى، ثمّ تأمر نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله أن لا تشكّ فى لقاء اللّه و مسألة المعاد، ثمّ تعود إلى مسألة التوراة، لكن فى هذه الصورة ينهار الانسجام بين جمل هذه الآية و يزول التناسب فيما بينها.

غير أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ تعبير «لقاء» و إن لم يستعمل فى القرآن فى مورد الكتب السماوية، إلّا أنّ الإلقاء و التلقّى قد استعمل مرارا فى هذا المعنى، كما فى الآية (۲۵) من سورة القمر: أَ أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا.

و نقرأ فى قصّة سليمان و ملكة سبأ أنّها قالت عند ما وصلتها رسالة سليمان: إِنِّي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۸

أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ

و فى نفس هذه السورة «سورة سليمان» فى الآية (۶) نقرأ فى شأن القرآن الكريم وَ إِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

بناء على هذا فإنّ فعل الإلقاء و التلقّى قد استعمل مرارا فى هذا المورد، بل و حتّى نفس فعل اللقاء قد استعمل فى مورد صحيفة أعمال الإنسان، فنقرأ فى الآية (۱۳) من سورة الإسراء: وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً.

و من مجموع ما قلناه يتّضح ترجيح هذا التّفسير على سائر الاحتمالات التى احتملت فى الآية أعلاه ۱۳۰].

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يشكّ فى مثل هذه المسائل مطلقا، بل إنّ مثل هذه التعبيرات تستعمل عادة لتأكيد المطلب، و ليكون نموذجا للآخرين.

ثمّ تشير الآية التالية إلى الأوسمة و المفاخر التى حصل عليها بنو إسرائيل فى ظلّ الاستقامة و الإيمان لتكون درسا للآخرين، فتقول: وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ

لقد ذكرت الآية هنا شرطين للإمامة: أحدهما: الإيمان و اليقين بآيات اللّه عزّ و جلّ، و الثّانى: الصبر و الاستقامة و الصمود. و هذا الأمر ليس مختصّا ببنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۳۹

إسرائيل، بل هو درس لكلّ الأمم، و لجميع مسلمى الأمس و اليوم و الغد بأن يحكموا أسس يقينهم، و لا يخافوا من المشاكل التى تعترضهم فى طريق التوحيد، و أن يتحلّوا بالصبر و المقاومة ليكونوا أئمّة الخلق و قادة الأمم و مرشديها فى تاريخ العالم.

التعبير ب (يهدون) و (يوقنون) بصيغة الفعل المضارع دليل على استمرار هاتين الصفتين طيلة حياة هؤلاء، لأنّ مسألة القيادة لا تخلو لحظة من المشكلات، و يواجه شخص القائد و إمام الناس مشكلة جديدة فى كلّ خطوة، و يجب أن يهبّ لمواجهتها مستعينا بقوّة اليقين و الاستقامة المستمرّة، و يديم خطّ الهداية إلى اللّه سبحانه.

و الجدير بالانتباه أنّ الآية تقيّد الهداية بأمر اللّه، فتقول: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا و هذا هو المهمّ فى أمر الهداية بأن تنبع من الأوامر الإلهيّة، لا من أمر الناس، أو تقليد هذا و ذاك، أو بأمر من النفس و الميول القلبية.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى حديثه العميق المحتوى، بالاستناد إلى مضامين القرآن المجيد: «إنّ الأئمّة فى كتاب اللّه عزّ و جلّ إمامان: قال اللّه تبارك و تعالى:

و جعلناهم أئمّة يهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، يقدّمون أمر اللّه قبل أمرهم، و حكم اللّه قبل حكمهم، و قال: و جعلناهم أئمّة يدعون إلى النار، يقدّمون أمرهم قبل أمر اللّه، و حكمهم قبل حكم اللّه، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما فى كتاب اللّه عزّ و جلّ»[۱۳۱].

ثمّ أنّ المراد من الأمر هنا هل هو الأمر التشريعى، أم الأمر التكوينى؟ ظاهر الآية يعطى المعنى الأوّل، و تعبيرات الرّوايات و المفسّرين

تؤيّد ذلك، إلّا أنّ بعض كبار المفسّرين اعتبروه بمعنى الأمر التكوينى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۰

و توضيح ذلك: أنّ الهداية قد وردت فى الآيات و الروايات بمعنيين: «تبيان الطريق»، و «الإيصال إلى المطلوب»، و كذلك هداية الأئمّة الإلهيين نتّخذ صورتين: فيكتفون أحيانا بالأمر و النهى، و أحيانا اخرى ينفذون إلى أعماق القلوب المستعدّة و الجديرة بالهداية ليوصلوها إلى الأهداف التربوية و المقامات المعنوية.

و قد استعملت كلمة «الأمر» فى بعض آيات القرآن بمعنى «الأمر التكوينى»، مثل: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۱۳۲]، و جملة يَهْدُونَ بِأَمْرِنا فى الآية مورد البحث إشارة إلى هذا المعنى أيضا، أى إنّ أولئك كانوا أئمّة ينفذون إلى النفوس المستعدّة بقدرة اللّه، و يسوقونها إلى الأهداف التربوية و الإنسانية العالية[۱۳۳].

إنّ هذا المعنى يستحقّ الملاحظة و الانتباه، و هو أحد شؤون الإمامة، و فروع و طرق الهداية، إلّا أنّ حصر جملة: يَهْدُونَ بِأَمْرِنا بهذا المعنى لا يوافق ظاهر الآية، لكن لا مانع من أن نفسّر كلمة الأمر فى هذه الجملة بمعناها الواسع الذى يتضمّن الأمر التكوينى و التشريعى، و يجمع كلا معنيى الهداية فى الآية، و هذا المعنى ينسجم مع بعض الأحاديث الواردة فى تفسير هذه الآية.

و لكن، و على كلّ حال، لا يمكن أن يصل الإمام و الهادى إلى هذا المقام إلّا فى ظلّ اليقين و الاستقامة فقط.

و يبقى سؤال، و هو: هل المراد من هؤلاء الأئمّة فى بنى إسرائيل هم الأنبياء الذين بعثوا إليهم، أم أنّ العلماء الذين كانوا يهدون الناس إلى الخيرات بأمر اللّه يدخلون فى هذه الزمرة؟

الآية ساكتة عن ذلك، و اكتفت بالقول بأنّنا قد جعلنا منهم أئمّة، لكن بملاحظة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۱

جملة: (جعلنا) يرجّح فى رأينا أنّ المراد هم الأنبياء الذين نصبوا بأمر اللّه فى هذا المنصب.

و لمّا كانوا بنوا إسرائيل- كسائر الأمم- قد اختلفوا بعد هؤلاء الأئمّة الحقيقيين، و سلكوا مسالك مختلفة، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تقول بلحن التهديد: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

أجل .. إنّ مصدر و منبع الاختلاف دائما هو مزج الحقّ بالأهواء و الميول، و لمّا كانت القيامة يوما لا معنى فيه للأهواء و الميول، حيث تمحى و يتجلّى الحقّ بأجلى صوره، فهناك ينهى اللّه سبحانه الاختلافات بأمره، و هذه أيضا إحدى فلسفات المعاد. تأمّلوا ذلك.

ملاحظة

صمود و استقامة القادة الإلهيين

قلنا: إنّه قد ذكر فى الآيات مورد البحث شرطان للأئمّة: الأوّل: الصبر و الثبات، و الآخر: الإيمان و اليقين بآيات اللّه.

و لهذا الصبر و الثبات فروعا و أشكالا كثيرة:

فيكون أحيانا أمام المصائب التى تحلّ بالإنسان.

و اخرى مقابل الأذى الذى يحيق بأصحابه و مؤيّديه.

و ثالثة فى مقابل التعديات و الألسن البذيئة التى تنال مقدّساته.

و اخرى فى مقابل المنحرفين فكريا.

و اخرى أمام الجاهلين الحمقى.

و اخرى أمام العلماء الخبثاء.

و الخلاصة: فإنّ القائد الواعى الرشيد يجب أن يصمد أمام كلّ هذه المشاكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۲

و غيرها، و لا ينسحب من ميدان الصراع و الحوادث، و لا يجزع و ييأس، و لا يفقد زمام الأمور من يده، و لا يضطرب و لا يندم حتّى يحقّق هدفه الكبير.

و قد روى فى هذا الباب حديث جامع و رائع عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث قال لأحد أصحابه: إنّ من صبر صبر قليلا (و بعده الظفر) و إنّ من جزع جزع قليلا (و من بعده الخسران).

ثمّ قال: عليك بالصبر فى جميع أمورك، فإنّ اللّه عزّ و جلّ بعث محمّدا فأمره بالصبر و الرفق، فقال: وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا و قال: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

فصبر رسول اللّه حتّى نالوه بالعظائم و رموه بها- فسمّوه ساحرا و مجنونا و شاعرا، و كذّبوه فى دعوته- فضاق صدره، فأنزل اللّه عزّ و جلّ عليه: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أى إنّ هذه العبادة تمنحك الاطمئنان و الهدوء-.

ثمّ كذّبوه و رموه فحزن لذلك، فأنزل اللّه عزّ و جلّ: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا.

فألزم النّبى نفسه الصبر، فتعدّوا فذكروا اللّه تبارك و تعالى و كذّبوه، فقال: قد صبرت فى نفسى و أهلى و عرضى و لا صبر لى على ذكر إلهى، فأنزل اللّه عزّ و جلّ:

وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ فصبر النّبى فى جميع أحواله.

ثمّ بشّر فى عترته بالأئمّة و وصفوا بالصبر، فعند ذلك قال: الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فشكر اللّه عزّ و جلّ ذلك له، فأباح له قتال المشركين، فقتلهم اللّه على يدى رسول اللّه و أحبّائه، و جعل له ثواب صبره مع ما ادّخر له فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۳

الآخرة».

ثمّ

أضاف الإمام الصادق عليه السّلام: «فمن صبر و احتسب لم يخرج من الدنيا حتّى يقرّ اللّه له عينه فى أعدائه مع ما يدّخر له فى الآخرة»[۱۳۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۴

الآيات [سورة السجده (۳۲): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (۲۶) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (۲۷) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۸) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (۲۹) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (۳۰)

التّفسير

يوم انتصارنا:

كانت الآيات السابقة ممزوجة بتهديد المجرمين من الكفّار، و تقول الآية الاولى من الآيات مورد البحث إكمالا لهذا التهديد: أ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ ۱۳۵] فهؤلاء يسيرون بين الخرائب و يرون آثار أولئك الأقوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۵

الذين هلكوا من قبلهم يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ ۱۳۶].

نقع مساكن «عاد» و «ثمود» المدمّرة، و مدن «قوم لوط» الخربة فى طريق هؤلاء إلى الشام، و كانت هذه المساكن مقرّا و مركزا للأقوام الأقوياء المنحرفين، و طالما حذّرهم الأنبياء فلم يؤثّر فيهم ذلك، و أخيرا طوى العذاب الإلهى ملفّ حياتهم، و كان المشركون يمرّون على تلك الخرائب فكأنّ لكلّ بيوت هؤلاء و قصورهم المتهدّمة مائة لسان، تصيح بهؤلاء أن يتنبّهوا، و تبيّن لهم و تحدّثهم بنتيجة الكفر و الانحطاط، لكنّهم لم يعبئوا بها و يلتفتوا إليها، و كأنّهم فقدوا أسماعهم تماما، و لذلك تضيف الآية فى النهاية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أ فَلا يَسْمَعُونَ

و تشير الآية التالية إلى أحد أهمّ النعم الإلهية التى هى أساس عمران كلّ البلدان، و وسيلة حياة كلّ الكائنات الحيّة، ليتّضح من خلالها أنّ اللّه سبحانه كما يمتلك القدرة على تدمير بلاد الضالّين المجرمين، فإنّه قادر على إحياء الأراضى المدمّرة و الميّتة، و منح عباده كلّ نوع من المواهب، فتقول: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أ فَلا يُبْصِرُونَ

«الجرز» تعنى الأرض القاحلة التى لا ـ ينبت فيها شىء قطّ، و هى فى الأصل من مادّة (جرز) على وزن (مرض) بمعنى «القطع»، فكأنّ النباتات قد اجتثّت من مثل هذه الأرض، أو أنّ الأرض نفسها قد قطعت تلك النباتات.

و الطريف هنا أنّه قد عبّر ب: (نسوق الماء) و هو إشارة إلى طبيعة الماء توجب- بحكم ثقله- أن يكون على الأرض و فى المنخفضات، و بحكم كونه مائعا يجب أن ينزل إلى أعماق الأرض، إلّا أنّه عند ما يصله أمرنا يفقد طبيعته، و يتحوّل إلى بخار خفيف يتحرّك إلى كلّ الجهات بهبوب النسيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۶

نعم، إنّ هذه السحب السابحة فى السماء بحار كبيرة من المياه العذبة ترسل إلى الأراضى اليابسة بأمر اللّه و معونة الرياح.

و الواقع أنّه لو لا ـ المطر فإنّ كثيرا من الأراضى لا ترى حتّى القطرة الواحدة من الماء، و إذا افترضنا أنّ هناك أنهارا غزيرة المياه فإنّ تلك المياه لا تصل إلى أغلب الأراضى، إلّا أنّنا نرى أنّه ببركة هذه الرحمة الإلهيّة قد نبتت و نمت الأعشاب و الغابات و الأشجار الكثيرة جدّا على قمم كثير من الجبال و الوديان الوعرة و التلال المرتفعة، و هذه القدرة العجيبة للمطر على الرى لا يستطيع القيام بها شىء آخر.

«زرعا» له هنا معنى واسعا يشمل كلّ أنواع العشب و الشجر، و إن كان يستعمل أحيانا فى مقابل الشجر.

و يمكن أن يكون تقديم الدوابّ و الأنعام على البشر فى هذه الآية لأنّ تغذية الحيوانات تعتمد على النبات، فى حين أنّ البشر يتغذّى على النبات و على لحوم الحيوانات.

أو من جهة أنّ النبات بمجرّد نموّه يصبح غذاء للحيوانات، و تستطيع الاستفادة منه و هضمه، فى حين أنّ استفادة الإنسان من النباتات، تتأخّر حتّى تحمل الشجرة و تنضج الثمرة.

و الطريف هنا أنّ جملة: أ فَلا يُبْصِرُونَ قد وردت فى نهاية الآية مورد البحث، فى حين أنّ الآية السابقة التى كانت تتحدّث عن أطلال

قصور الأقوام الغابرة قد ختمت بجملة: أ فَلا يَسْمَعُونَ

و علّة هذا الاختلاف هو أنّ الجميع يرون بأمّ أعينهم منظر الأراضى الميّتة و هى تحيا على أثر نزول الأمطار و نموّ نباتها و ينع ثمرها، فى حين أنّهم يسمعون المسائل المرتبطة بالأقوام السابقين كإخبار غالبا.

و يستفاد من مجموع الآيتين أعلاه أنّ اللّه تعالى يقول لهؤلاء العصاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۷

المتمرّدين: انتبهوا جيّدا، و افتحوا عيونكم و أسماعكم، فاسمعوا الحقائق، و انظروا إليها، و تفكّروا كيف أمرنا الرياح يوما أن تحطّم قصور قوم عاد و مساكنهم و تجعلها أطلالا و آثارا، و فى يوم آخر نأمر ذات الرياح أن تحمل السحاب الممطر إلى الأراضى الميّتة البور لتحيى تلك الأراضى و تجعلها خضراء نضرة، ألا تستسلمون و تذعنون لهذه القدرة؟! و لمّا كانت الآيات السابقة تهدّد المجرمين بالانتقام، و تبشّر المؤمنين بالإمامة و النصر، فإنّ الكفّار يطرحون هذا السؤال غرورا و استكبارا و تعلّلا بأنّ هذه التهديدات متى ستتحقّق؟ كما يذكر القرآن ذلك: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

فيجيبهم القرآن مباشرة، و يأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ أى: إذا كان مرادكم أن تروا صدق الوعيد الإلهى الذى سمعتموه من النّبى لتؤمنوا، فإنّ الوقت قد فاتكم، فإذا حلّ ذلك اليوم لا ينفعكم إيمانكم فيه شيئا.

و ممّا قلنا يتّضح أنّ المراد من «يوم الفتح» يوم نزول «عذاب الاستئصال»، أى العذاب الذى يقطع دابر الكافرين، و لا يدع لهم فرصة الإيمان. و بتعبير آخر فإنّ عذاب الاستئصال نوع من العذاب الدنيوى، لا من عذاب الآخرة، و لا من العقوبات الدنيوية المعتادة، بل هو العذاب الذى ينهى حياة المجرمين بعد إتمام الحجّة.

و الشاهد على هذا القول امور:

أ: إذا كان المراد العقوبات الدنيوية المعتادة، أو الانتصارات الشبيهة بانتصار المسلمين فى معركة بدر و يوم فتح مكّة- كما قال ذلك بعض المفسّرين- فإنّ جملة: لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ لا تصحّ حينئذ، لأنّ الإيمان كان مفيدا حينذاك، و أبواب التوبة كانت مفتّحة يوم الإنتصار فى بدر، و فى يوم فتح مكّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۸

ب: إذا كان المراد من يوم الفتح يوم القيامة- كما ارتضى ذلك بعض المفسّرين- فإنّ ذلك لا يناسب جملة: وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ لأنّ إعطاء الفرصة و عدمه يرتبط بالحياة الدنيا، إضافة إلى أنّ «يوم الفتح» لم يستعمل بمعنى يوم القيامة فى أىّ موضع من القرآن الكريم.

ج: إنّ التعبير بالفتح فى مورد عذاب الاستئصال يلاحظ مرارا فى القرآن، مثل الآية (۱۱۸) من سورة الشعراء، حيث يقول نوح: فَافْتَحْ بَيْنِى وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِى وَ مَنْ مَعِىَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و هو إشارة إلى عقوبة الطوفان.

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۷۷) من سورة المؤمنون أيضا.

إلّا أنّ المراد إذا كان عذاب الاستئصال فى الدنيا فإنّه يتّفق مع ما قلناه أعلاه، و ينسجم مع كلّ القرائن، و هو فى الواقع تهديد للكافرين و الظالمين بأن لا تطلبوا تحقّق الوعد بالفتح للمؤمنين و وقوع عذاب الاستئصال على الكافرين، فإنّ طلبكم إذا تحقّق فسوف لا تجدون الفرصة للإيمان، و إذا وجدتم الفرصة و آمنتم فإنّ إيمانكم سوف لا يقبل.

و هذا المعنى خاصّة يتلاءم كثيرا مع الآيات السابقة التى تحدّثت عن هلاك الأقوام المتمرّدين الطاغين الذين كانوا يعيشون فى القرون الماضية، و ابتلوا بالعذاب الإلهى و الفناء، لأنّ كفّار مكّة إذا سمعوا الكلام الذى ورد فى الآيتين السابقتين فإنّهم سيطلبون تحقّق مثل هذا الموضوع فى حقّهم، إلّا أنّ القرآن الكريم يحذّرهم بأن لا يطلبوا مثل هذا الطلب، فإنّ العذاب إذا نزل لا يبقى لهم شىء.

و أخیرا تنهی الآیة الأخیرة هذه السورة- سورة السجدة- بتهدید بلیغ عمیق المعنی، فتقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ الآن، حیث لم تؤثّر فی هؤلاء البشارة و لا الإنذار، و لا هم أهل منطق و استدلال لیعرفوا اللّه سبحانه بمشاهدة الآثار الإلهیّة فی خفایا الخلقة فیعبدوه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۴۹

و لیس لهم وجدان حیّ یترنّم فی أعماقهم بنغمة التوحید فیسمعونها، فأعرض عنهم، و انتظر رحمة اللّه سبحانه، و لینتظروا عذابه فإنّهم لا یستحقّون سواه.

اللهمّ اجعلنا ممّن یسلّم و یؤمن عند رؤیة أوّل علامات الحقّ و آیاته.

اللهمّ أبعد عنّا روح الکبر و الغرور و العناد و نجّنا منها.

اللهمّ عجلّ بنصر جند الإسلام علی جنود الکفر و الاستکبار و الاستعمار.

نهایة سورة السجدة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۱

سورة الأحزاب

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثلاث و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۳

سورة الأحزاب

سبب التسمیة و فضلها:

هذه السورة نزلت فی المدینة باتّفاق علماء الإسلام، و مجموع آیاتها (۷۳) آیة، و لمّا کان جزء مهمّ من هذه السورة یتحدّث عن أحداث غزوة الأحزاب (الخندق) فإنّ هذا الاسم قد اختیر لها.

و یکفی فی فضل هذه السورة أن نقرأ

فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله: «من قرأ سورة الأحزاب و علّمها أهله ... اعطی الأمان من عذاب القبر»[۱۳۷].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من کان کثیر القراءة لسورة الأحزاب کان یوم القیامة فی جوار محمّد صلّی اللّه علیه و آله و أزواجه»[۱۳۸].

و قد قلنا مرارا: إنّ هذه الفضائل لا تنال بالتلاوة الخالیة من الروح، و العاریة من کلّ أنواع الفکر و العمل، بل التلاوة التی تکون مبدأ للتفکّر الذی یضیء آفاق الإنسان یظهر آثاره فی أعماله و سلوکه.

محتوی سورة الأحزاب:

إنّ هذه السورة من أغنی سور القرآن المجید و أجناها ثمارا، و تتابع و تبحث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۴

مسائل متنوّعة و كثيرة جدّا فى باب اصول الإسلام و فروعه.

و يمكن تقسيم الأبحاث التى وردت فى هذه السورة إلى سبعة أقسام:

الأوّل: بداية السورة التى تدعو الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إلى طاعة اللّه و ترك اتّباع الكافرين و مقترحات المنافقين، و تبشّره بأنّ اللّه سبحانه سيدعمه و ينصره فى مقابل استنكار هؤلاء.

الثّانى: أشار إلى بعض خرافات زمان الجاهلية، كالظهار، حيث كانوا يعتبرونه سببا للطلاق و افتراق الرجل عن امرأته، و كذلك مسألة التبنّى، و أكّدت على بطلانها، و حصرت العلاقات و الروابط العائلية و السببية بالروابط الواقعية و الطبيعية.

الثّالث: و هو أهمّ أقسام هذه السورة، و يرتبط بمعركة «الأحزاب» و حوادثها المرعبة، و انتصار المسلمين المعجز على الكفّار، و إعاقات و تخرّصات و تعذّر المنافقين، و نقضهم لعهودهم، و قد بيّنت فى هذا المجال قوانين رائعة و جامعة.

الرّابع: يرتبط بزوجات النّبى، حيث يجب أن يكنّ أسوة و أنموذجا أسمى لكلّ نساء المسلمين، و يصدر لهنّ فى هذا الباب أوامر مهمّة.

الخامس: يتطرّق إلى قصّة «زينب بنت جحش» التى كانت يوما زوجة لزيد، و هو ابن النّبى بالتبنّى، و افترقت عنه، فتزوّجها النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأمر اللّه سبحانه، فأصبح هذا الزواج حربة بيد المنافقين، فأجابهم القرآن الجواب الكافى الشافى.

السّادس: يتحدّث عن مسألة الحجاب، و التى ترتبط بالبحوث السابقة، و يوصى كلّ النساء المؤمنات بمراعاة هذا القانون الإسلامى.

السّابع: الذى يشكّل الجزء الأخير، و يشير إلى مسألة المعاد المهمّة، و طريق النجاة فى ذلك الموقف العظيم، و كذلك يشرح و يبيّن مسألة أمانة الإنسان العظمى، أى مسألة التعهّد و التكليف و المسؤولية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۵

آيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۳)

سبب النّزول

لقد ذكر المفسّرون هنا أسباب نزول مختلفة، تبحث كلّها تقريبا موضوعا واحدا.

و من جملتها: إنّ هذه الآيات نزلت فى شأن أبى سفيان و بعض آخر من رؤوس الكفر و الشرك الذين أخذوا الأمان من الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بعد معركة أحد و دخلوا المدينة، و أتوا مع عبد اللّه بن أبى و جماعة من أصحابه، إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و قالوا:

يا محمّد، لا تذكر آلهتنا اللات و العزى و مناة بسوء و قل: إنّ لها شفاعة لمن عبدها و ندعك و ربّك، فشقّ ذلك على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فقال عمر بن الخطّاب: ائذن لنا- يا رسول اللّه- فى قتلهم،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّى أعطيتهم الأمان»

و أمر فأخرجوا من المدينة و نزلت الآية: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ و أمرته أن لا يصغى لمثل هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۶

الاقتراحات ۱۳۹].

التّفسير

اتّبع الوحى الإلهى فقط:

إنّ من أخطر المنعطفات و المنحدرات التى تعترض طريق القادة الكبار قضيّة اقتراحات الصلح و التنازل و الوفاق التى تطرح من قبل المخالفين، و تضع الخطوط الملتوية و الطرق المنحرفة إلى جانب طريق القادة، و تسعى لحرفهم عن مسيرهم الأصلى، و هذا إمتحان صعب و عسير لهؤلاء.

لقد بذل مشركو «مكّة» و منافقو «المدينة» كلّ ما فى وسعهم ليحرّفوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله عن خطّ التوحيد من خلال طرح مقترحات السلام و الاتّفاق، و من جملتها ما قرأناه فى سبب النّزول، إلّا أنّ أولى آيات سورة الأحزاب نزلت فأنهت مؤامراتهم، و دعت النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى الاستمرار فى أسلوبه الحاسم فى خطّ «التوحيد» بدون أدنى تراجع و تنازل و مسالمة.

إنّ هذه الآيات بمجموعها تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأربعة أوامر مهمّة:

الأوّل: فى مجال التقوى، و التى تهيّء الأرضية لكلّ برنامج آخر، فتقول:

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ

إنّ حقيقة التقوى هى ذلك الإحساس الداخلى بالمسؤولية، و لو لا هذا الإحساس فإنّ الإنسان لا يندفع و لا يتحرّك باتّجاه أى برنامج بنّاء.

التقوى هى الهدف الأسمى للهداية و الانتفاع بآيات اللّه، كما جاء فى الآية الثّانية من سورة البقرة: هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

صحيح أنّ المرحلة النهائية للتقوى تحصل بعد الإيمان و العمل طبق أوامر اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۷

سبحانه، إلّا أنّ مرحلتها الابتدائية تقع قبل كلّ هذه المسائل، لأنّ الإنسان إذا لم يحسّ بالمسؤولية داخليا، فإنّه لا يسعى للتحقّق من دعوة الأنبياء و التثبّت منها، و لا يصغى إليها، و حتّى مسألة (دفع الضرر المحتمل) التى عدّها علماء الكلام و العقائد أساس و دعامة السعى إلى معرفة اللّه، فإنّها فى الحقيقة فرع التقوى.

الثّانى: نفى و رفض طاعة الكافرين: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ و تقول الآية فى النهاية تأكيدا لهذا الموضوع: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً فإنّه تعالى حينما يأمرك بعدم إتّباع هؤلاء، فإنّ ذلك صادر عن حكمته اللامتناهية، لأنّه يعلم ما اخفى فى هذا الإتّباع و المهادنة من المصائب، الأليمة، و المفاسد الجمّة.

و على كلّ حال، فإنّ أوّل وظيفة بعد التقوى و الإحساس بالمسؤولية، هى غسل القلب و تصفيته من الغير، و اقتلاع الأشواك الضارّة المؤذية من هذه الأرض المعنوية.

الثّالث: نثر بذور التوحيد و اتّباع الوحى الإلهى، فيقول: وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ و احذر ف إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً و بناء على هذا فإنّ الواجب الأوّل هو طرد الشياطين من أعماق الروح لتحلّ محلّها الملائكة، و أن تقلع الأشواك لتبذر محلّها الورود، و يجب أن تطهّر الأرض من الطواغيت لتخلّفهم حكومة اللّه و نظامه المقدّس.

و لمّا كانت هناك مشاكل كثيرة، و تهديدات و مؤامرات، و معوّقات فى الاستمرار فى سلوك هذا الطريق، فإنّه تعالى يصدر الأمر

الرابع بأن وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا فلو أنّ الف عدوّ يسعى لقتلك، فلا تخش و لا تخف منهم لأنّى ناصرك و معينك.

و مع أنّ المخاطب فى هـذه الآيات هو النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّه خطاب لكلّ المؤمنين، و لعامّة المسـلمين، و هو و صـفة طيبة تمنح الحياة، و دواء لبث النشاط و الحيوية فى كلّ عصر و زمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۸

و قال بعض المفسّرين: إنّ الخطاب ب يا أَيُّهَا خاصّ بالموارد التى يراد منها جلب انتباه العموم لمطلب ما، و إن كان المخاطب واحدا، بخلاف الخطاب ب (يا) و الذى يستعمل فى الموارد التى يراد منها شخص المخاطب ۱۴۰]. و لمّا كانت هـذه الآيات قد بدأت ب يا أَيُّهَا فإنّها تؤكّد كون الهدف من هذه الآيات هو العموم.

و الشاهد الآخر للتعميم، هو أنّ جملة: إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً قد وردت بصـيغة الجمع، و إذا كان المخاطب هو النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، فينبغى أن تقول الآية: إنّ اللّه كان بما تعمل خبيرا-.

و لا يخفى أنّ هذه الأوامر الموجّهة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا تعنى أنّه كان مقصّرا فى التقوى أو أنّه يتّبع الكافرين و المنافقين، بل إنّ لهذه الأوامر صفة التأكيد على واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهة، و هى درس و عبرة لكلّ المؤمنين من جهة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۵۹

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

مـا جَعَـلَ اللَّهُ لِرَجُـلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْـدِى السَّبِيلَ (۴) ادْعُوهُمْ لِآبـائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْـدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِى الـدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنـاحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِى الْكِتابِ مَسْطُوراً (۶)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۰

التّفسير

ادّعاءات جوفاء:

تعقيبـا للآيـات السابقـة التى كـانت تأمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله أن يتّبع الوحى الإلهى فقط، و لا يتّبع الكافرين و المنافقين، تعكس هـذه الآيات التى نحن بصـددها عاقبـة اتّباع هؤلاء و أنّه يدعو الإنسان إلى مجموعة من الخرافات و الأباطيل، و قد ذكرت الآية الاولى من الآيات مورد البحث ثلاث منها، فتقول أوّلا: ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ

و قد ذكر جمع من المفسّرين فى سبب نزول هذا القسم من الآية: أنّ رجلا فى الجاهلية يدعى «جميل بن معمّر» كان عجيب الحفظ، و كان يـدّعى أنّ فى جوفه قلبين كلّ منهما أفهم من محمّد صـلّى اللّه عليه و آله، و لذلك كان مشـركو قريش يسـمّونه: ذا القلبين! فلمّا كان يوم بدر و هزم المشـركون، و فيهم جميل بن معمّر، تلقّاه أبو سـفيان و هو آخذ بيده إحدى نعليه، و الاخرى فى رجله، فقال له: يا أبا معمّر، ما حال الناس؟

قال: انهزموا، قال: فما بالك إحدى نعليك فى يدك، و الاخرى فى رجلك؟ فقال أبو معمّر: ما شعرت بذلك، و كنت أظنّهما فى رجلى، فعرفوا يومئذ أنّه لم يكن له إلّا قلب واحد لما نسى نعله فى يده ۱۴۱]. بل لم يكن يعقل و يفهم حتّى بمقدار ذى القلب الواحد.

و المراد من «القلب» فى مثل هذه الموارد «العقل».

و على كلّ حال فإنّ اتّباع الكفّار و المنافقين، و عدم اتّباع الوحى الإلهى يدعو الإنسان إلى مثل هذه الإعتقادات الخرافية.

و بغضّ النظر عن ذلك، فإنّ للجملة معنى أعمق، و هو: أنّه ليس للإنسان إلّا قلب واحد، و لا يحتوى هذا القلب و لا يختزن إلّا عشق معبود واحد، و على هذا فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۱

أولئك الذين يدعون إلى الشرك و الآلهة المتعدّدة ينبغى أن تكون لهم قلوب متعدّدة، ليجعلوا كلّ واحد منها بيتا لعشق معبود واحد!

من المسلّم أنّ شخصيّة الإنسان السليم شخصية واحدة، و خطّه الفكرى واحد، و يجب أن يكون واحدا فى وحدته و اختلاطه بالمجتمع، فى الظاهر و الباطن، فى الداخل و الخارج، و فى الفكر و العمل، فإنّ كلّ نوع من أنواع النفاق أز ازدواج الشخصية أمر مفروض على الإنسان و على خلاف طبيعته.

إنّ الإنسان بحكم امتلاكه قلبا واحدا يجب أن يكون له كيان عاطفى واحد، و أن يخضع لقانون واحد ..

و لا يدخل قلبه إلّا حبّ معشوق واحد ..

و يسلك طريقا معيّنا فى حياته، بأن يتآلف مع فريق واحد، و مجتمع واحد، و إلّا فإنّ التعدّد و التشتّت و الطرق المختلفة و الأهداف المتفرّقة ستقوده إلى اللاهدفية و الانحراف عن المسير التوحيدى الفطرى.

و لهذا نرى

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام فى تفسير هذه الآية: «لا يجتمع حبّنا و حبّ عدوّنا فى جوف إنسان، إنّ اللّه لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه، فيحبّ بهذا و يبغض بهذا، فأمّا محبّنا فيخلص الحبّ لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه، فمن أراد أن يعلم فليمتحن قلبه، فإن شارك فى حبّنا حبّ عدوّنا فليس منّا و لسنا منه»[۱۴۲].

و بناء على هذا فإنّ القلب مركز الإعتقاد الواحد، و ينفّذ برنامجا عمليا واحدا، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يعتقد بشىء حقيقة و ينفصل عنه فى العمل، و ما يدّعى بعض المعاصرين من أنّهم يمتلكون شخصيات متعدّدة، و يقولون: إنّنا قد قمنا بالعمل الفلانى سياسيا، و بذلك العمل دينيا، و الآخر اجتماعيا، و يوجّهون بذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۲

أفعالهم المتناقضة، فهو ناشئ من نفاقهم و سوء سريرتهم حيث يريدون أن يسحقوا بهذا الكلام قانون الخلقة.

صحيح أنّ أبعاد حياة الإنسان مختلفة، و لكن يجب أن يحكمها خطّ واحد، و تسير ضمن منهاج واحد.

ثمّ يتطرّق القرآن إلى خرافة اخرى من خرافات الجاهلية، و هى خرافة «الظهار»، حيث أنّ المشركين كانوا إذا غضبوا على نسائهم، و أرادوا أن يبدوا تنفّرهم و عدم ارتياحهم، قالوا للزوجة: أنت علىّ كظهر أمّى فيعتبرها بمثابة أمّه، و كان يعدّ هذا الكلام بمنزلة الطلاق!

يقول القرآن الكريم فى تتمّة هذه الآية: وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِى تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ فلم يمض الإسلام هذا القانون الجاهلى، و لم يصادق عليه، بل جعل عقوبة لمن يتعاطاه، و هى: أنّ من نطق بهذا الكلام فلا يحقّ له أن يقرب زوجته حتّى يدفع الكفّارة، و إذا لم يدفعها و لم يأت زوجته فإنّ لها الحقّ فى أن تستعين بحاكم الشرع ليجبره على أحد أمرين: إمّا أن يطلّقها وفقا لأحكام الإسلام و يفارقها، أو أن يكفّر و يستمرّ فى حياته الزوجية كالسابق ۱۴۳].

أى منطق هذا الذى تصبح فيه زوجة الإنسان بمنزلة أمّه بمجرّد أن يقول لها:

أنت علىّ كظهر أمّى؟! إنّ ارتباط و علاقة الامّ و الولد علاقة طبيعية لا تتحقّق بمجرّد الكلام مطلقا، و لذلك تقول الآية ۲- سورة المجادلة بصراحة: إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً.

و إذا كان هدف هؤلاء من إطلاق هذه الكلمات هو الإفتراق و الانفصال عن المرأة- (و هكذا كان فى عصر الجاهلية، حيث كانوا يقولون هذه الكلمات بدل لفظ الطلاق)- فإنّ الانفصال عن المرأة لا يحتاج إلى مثل هذا الكلام القبيح السيّء. ألا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۳

يمكن أن يصرّح بالطلاق بتعبير صحيح بعيد عن كلّ ذلك القبح؟

و قال بعض المفسّرين: إنّ «الظهار» فى الجاهلية لم يكن يؤدّى إلى انفصال الرجل عن المرأة، بل إنّه كان يجعل المرأة كالمعلّقة لا يعرف حالها و مصيرها، و إذا كانت المسألة كذلك، فإنّ جناية هذا العمل و قبحه ستكون أوضح، لأنّ كلمة لا معنى لها كانت تحرّم على الرجل علاقته الزوجية مع زوجته من دون أن تكون المرأة مطلّقة[۱۴۴].

ثمّ تطرّقت الآية إلى ثالث خرافة جاهلية، فقالت: وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ

و توضيح ذلك: أنّه كان من المتعارف فى زمن الجاهلية أنّهم كانوا ينتخبون بعض الأطفال كأولاد لهم، و يسمّونهم أولادهم، و بعد هذه التسمية يعطونه كلّ الحقوق التى يستحقّها الولد من الأب، فيرث الولد من تبنّاه، كما يرث المتبنّى الولد، و يجرى عليهما تحريم امرأة الأب أو زوجة الابن.

و قد نفى الإسلام هذه العادات غير المنطقية و الخرافية أشدّ النفى، بل- و كما سنرى- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أقدم- لمحو هذه السنّة المغلوطة- على الزواج من زوجة ولده المتبنّى «زيد بن حارثة» بعد أن طلّقها زيد، ليتّضح من خلال هذه السنّة النبوية أنّ هذه الألفاظ الجوفاء لا يمكن أن تغيّر الحقائق و الواقع، لأنّ علاقة البنوّة و الابوّة علاقة طبيعية لا تحصل أبدا من خلال الألفاظ و الاتّفاقيات و الشعارات.

و مع أنّنا سنقول فيما بعد: أنّ زواج النبى بزوجة زيد المطلّقة قد أثار ضجّة عظيمة بين أعداء الإسلام، و أصبح حربة بيدهم للإعلام المضادّ السيء، إلّا أنّ هذا العمل كان يستحقّ تحمّل كلّ ذلك الصخب الإعلامى لتحطيم هذه السنّة الجاهلية، و لذلك يقول القرآن الكريم بعد هذه الجملة: ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۴

إنّكم تقولون: إنّ فلانا ولدى، و أنتم تعلمون علم اليقين أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ الأمواج الصوتية فقط هى التى تخرج من أفواهكم و لا تنبع مطلقا من إعتقاد قلبى، و هذا كلام باطل ليس إلّا وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ

إنّ «قول الحقّ» يطلق على القول الذى ينطبق على الواقع الموضوعى تماما، أو أن يكون من الأمور الاعتبارية التى تنسجم مع مصالح كلّ أطراف القضيّة، و نعلم أنّ مسألة «الظهار» فى الجاهلية، أو «التبنّى» الذى كان يستحق حقوق الأبناء الآخرين إلى حدّ كبير- لم يكونا من الموضوعات العينية، و لا من الاعتباريات الحافظة لمصلحة عامّة الناس.

ثمّ يضيف القرآن مؤكّدا و موضّحا الخطّ الصحيح و المنطقى للإسلام: ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ

إنّ التعبير ب (أقسط) لا يعنى أنّهم إن دعوهم بأسماء المتبنّين لهم فإنّه عدل، و إن دعوهم بأسماء آبائهم الواقعيين فإنّه أعدل، بل- و كما قلنا سابقا مرارا- إنّ صيغة (أفعل التفضيل) تستعمل فى بعض الموارد و لا تدلّ على الوصف المقابل لصفة ما، فمثلا نقول: من الأفضل أن يحتاط الإنسان و لا يلقى بنفسه فى الخطر، فلا يعنى هذا أنّ إلقاء النفس فى الخطر و التهلكة حسن، إلّا أنّ الاحتياط أفضل منه، بل إنّ المراد المقارنة بين الحسن و القبح.

و تقول الآية لرفع الأعذار و الحجج: فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ أى إنّ عدم معرفة آبائهم لا يكون دليلا على أن تضعوا اسم شخص آخر كأب لهذا الابن، بل يمكنكم أن تخاطبوهم كإخوانكم فى الدين أو أصدقائكم و مواليكم.

(الموالى) جمع «مولى»، و قد ذكر المفسّرون له معانى عديدة، فالبعض فسّره هنا بمعنى الصديق و الصاحب، و البعض الآخر بمعنى الغلام المعتق و المحرّر، لأنّ بعض الأدعياء كانوا عبيدا يشترون ثمّ يتحرّرون، و لمّا كان أصحابهم قد اهتّموا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۵

بهم و أحبّوهم فإنّهم كانوا يدعونهم كأبناء لهم.

و ممّا يجدر الإشارة إليه أنّ تعبير (مولى) فى مثل هذه الموارد كان يرتبط بالعبيد المحرّرين من جهة أنّهم كانوا يحتفظون بعلاقاتهم مع مالكيهم بعد تحرّرهم، تلك العلاقات التى كانت تنوب عن اولى الأرحام فى بعض الجهات من الناحية الحقوقية، و كانوا يعبّرون عن ذلك ب (ولاء العتق) و لذلك نقرأ فى الروايات الإسلامية أنّ «زيد بن حارثة» بعد أن أعتقه النّبى كان يدّعى زيد بن محمّد، حتّى نزل القرآن بالأمر أعلاه، فمن ذلك الحين

قال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «أنت زيد بن حارثة»،

و كان الناس يدعونه بعد ذلك: مولى رسول اللّه ۱۴۵].

و قالوا أيضا: كان لأبى حذيفة غلام يدعى «سالما» فأعتقه و ادّعاه، فلمّا نزلت هذه الآية كانوا يسمّونه: سالما مولى أبى حذيفة[۱۴۶].

و لكن ربّما يدعو الشخص إنسانا لغير أبيه لاعتياده ذلك سابقا، أو لسبق لسانه، أو لاشتباهه فى تشخيص نسب الأفراد، و هذا خارج عن حدود إختيار الإنسان، فإنّ اللّه العادل الحكيم لا يعاقب مثل هذا الإنسان، و لذا أردفت الآية: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۱۴۷] وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

إنّه تعالى يغفر لكم ما سبق، و يعفو عن السهو و النسيان و الاشتباه، أمّا بعد نزول هذا الحكم فإنّ اللّه عزّ و جلّ سوف لا يغفر لكم مخالفتكم إن صدرت عن عمد و قصد، فتدعون أفرادا بغير أسماء آبائهم، و تستمرّون على اتّباع هذا العرف السيء بالدعوة لغير الأب.

و قال بعض المفسّرين: إنّ موضوع الخطأ يشمل الموارد التى يقول فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۶

الإنسان لآخر تحبّبا: ولدى، أو يا بنىّ، أو يقول فيها لآخر احتراما: يا أبت! و هذا الكلام صحيح- طبعا- و هذه التعبيرات لا تعدّ ذنبا، لكن لا لأجل عنوان الخطأ، بل لأنّ لهذه التعبيرات صفة الكناية و المجاز، و قرينتها معها عادة، و القرآن ينفى التعبيرات الحقيقية فى هذا الباب، لا المجازية.

ثمّ تتطرّق الآية التالية إلى مسألة مهمّة اخرى، أى إبطال نظام «المؤاخاة» بينهم.

و توضيح ذلك: أنّ المسلمين لمّا هاجروا من مكّة إلى المدينة و قطع الإسلام كلّ روابطهم و علاقاتهم بأقاربهم و أقوامهم المشركين الذين كانوا فى مكّة تماما، فقد أجرى النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأمر اللّه عقد المؤاخاة بينهم و عقد عهد المؤاخاة بين «المهاجرين» و «الأنصار»، و كان يرث أحدهم الآخر كالأخوين الحقيقيين، إلّا أنّ هذا الحكم كان مؤقّتا و خاصّا بحالة استثنائية جدّا، فلمّا اتّسع الإسلام و عادت العلاقات السابقة تدريجيّا لم تكن هناك ضرورة لاستمرار هذا الحكم، فنزلت الآية أعلاه و ألغت نظام المؤاخاة الذى كان يحلّ محلّ النسب، و جعل حكم الإرث و أمثاله مختّصا بأولى الأرحام الحقيقيين.

و بالرغم من أنّ نظام المؤاخاة كان نظاما إسلاميا- على خلاف نظام التبنّى الذى كان نظاما جاهليا- و لكن كان من الواجب أن يلغى بعد ارتفاع الحالة الموجبة له، و هكذا حصل، غاية ما فى الأمر أنّ الآية قبل أن تذكر هذا الحكم ذكرت حكمين آخرين- أى كون النّبى صلّى اللّه عليه و آله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، و كون نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله كامّهاتهم- كمقدّمة، فقالت: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ

و مع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمنزلة الأب، و أزواجه بمنزلة امّهات المؤمنين إلّا أنّهم لا يرثون منهم مطلقا، فكيف ينتظر أن يرث الابن المتبنّى؟! ثمّ تضيف الآية: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۷

وَ الْمُهاجِرِينَ و لکن مع ذلک، و من أجل أن لا تغلق الأبواب بوجه المسلمین تماما و لیکون بإمکان المؤمنین تعیین شیئا من الإرث لإخوانهم- و إن کان بأن یوصوا بثلث المال- فإنّ الآیة تضیف فی النهایة: إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً.

و تقول فی آخر جملة تأکیدا لکلّ الأحکام السابقة، أو الحکم الأخیر: كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً- فی اللوح المحفوظ أو فی القرآن الکریم-.

کان هذا خلاصة تفسیر الآیة أعلاه، و الآن یجب أن نتطرّق إلی تفصیل کلّ واحد من الأحکام الأربعة التی وردت فی هذه الآیة:

۱- ما هو المراد من کون النّبی أولی بالمؤمنین؟

لقد ذکر القرآن فی هذه الآیة أولویة النّبی صلّی اللّه علیه و آله بالمسلمین بصورة مطلقة، و معنی ذلک أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أولی بالإنسان المسلم من نفسه فی جمیع الصلاحیات التی یمتلکها الإنسان فی حقّ نفسه.

و مع أنّ بعض المفسّرین فسّروها بمسألة «تدبیر الأمور الاجتماعیة»، أو «الأولویة فی مسألة القضاء»، أو «طاعة الأمر»، إلّا أنّنا فی الواقع لا نمتلک أی دلیل علی انحصار الآیة فی أحد هذه الأمور الثلاث.

و إذا لاحظنا فی بعض الروایات الإسلامیة تفسیر الأولویة ب «الحکومة»، فهو فی الحقیقة بیان لأحد فروع هذه الأولویة[۱۴۸].

لذلک یجب أن یقال: إنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله أولی من کلّ إنسان مسلم فی المسائل الاجتماعیة و الفردیة، و کذلک فی المسائل المتعلّقة بالحکومة و القضاء و الدعوة، و إنّ إرادته و رأیه مقدّم علی إرادة أی مسلم و رأیه.

و لا ینبغی العجب من هذه المسألة، لأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله معصوم و وکیل للّه سبحانه، و لا یفکّر و یقرّر إلّا فی صالح المجتمع و الفرد، و لا یتّبع الهوی أبدا، و لا یعتبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۸

مصالحه مقدّمة علی مصالح الآخرین و أهمّ منها، بل علی العکس من ذلک، فهو یؤثّر و یقدّم مصالح الامّة علی مصالحه دائما عند تعارض المصلحتین.

إنّ هذه الأولویة فرع من أولویة المشیئة الإلهیّة، لأنّ کلّ ما لدینا من اللّه سبحانه. إضافة إلی أنّ الإنسان لا یصل إلی أوج الإیمان إلّا عند ما یضحّی بأقوی العلائق و الدوافع فیه، و هو عشقه لذاته فی طریق عشقه لذات اللّه و خلفائه، و لذلک نقرأ

فی حدیث: «لا یؤمن أحدکم حتّی یکون هواه تبعا لما جئت به»[۱۴۹].

و

جاء فی حدیث آخر: «و الذی نفسی بیده لا یؤمن أحدکم حتّی أکون أحبّ إلیه من نفسه و ماله و ولده و الناس أجمعین»[۱۵۰].

و کذلک

روی عنه صلّی اللّه علیه و آله: «ما من مؤمن إلّا و أنا أولی الناس به فی الدنیا و الآخرة»[۱۵۱].

و یقول القرآن الکریم فی الآیة (۳۶) من سورة الأحزاب هذه: ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ

و نؤکّد مرّة اخری علی أنّ هذا الکلام لا یعنی أنّ اللّه قد جعل أمر الناس تبعا لأهواء و رغبات شخص ما، بل من جهة أنّ للنّبی صلّی اللّه علیه و آله مقام العصمة، و بمصداق: ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى فإنّ کلّ ما یقوله هو کلام اللّه و من اللّه، و هو أحرص و أرحم حتّی من الأب بهذه الامّة.

إنّ هذه الأولویة فی الحقیقة تقع فی مسیر منافع الناس فی جوانب الحکومة و تدبیر المجتمع الإسلامی، و کذلک فی المسائل الشخصیة و الفردیة.

و يتبيّن من هـذه الأدلّـة أنّ هذه الأولوية تضع على عاتق النّبى صـلّى اللّه عليه و آله مسـئوليات ثقيلة ضـخمة، و لذلك نقرأ فى الرواية المشهورة الواردة فى مصادر الشيعة و السنّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۶۹

أنّ النّبى صـلّى اللّه عليـه و آله قـال: «أنـا أولى بكـلّ مـؤمن من نفسه، و من ترك مالاـ فللـوارث، و من ترك دينـا أو ضـياعا فـإلىّ و علىّ»[۱۵۲].

ينبغى الالتفات إلى أنّ «الضـياع» هنا بمعنى الأولاد أو العيال الـذين بقوا بـدون معيل، و التعبير ب «الدّين» قبلها قرينة واضـحة على هذا المعنى، لأنّ المراد بقاء الدّين بدون مال يسدّد به.

۲- الحكم الثّـانى فى هـذا الباب يتعلّق بأزواج النّبى حيث يعتبرن كامّهات لكلّ المؤمنين، و هى طبعا أمومـة معنويـة و روحيـة، كما أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أب روحى و معنوى للأمّة.

إنّ تأثير هذا الارتباط المعنوى كان منحصرا فى مسألة حفظ احترام أزواج النّبى و حرمة الزواج منهنّ، كما جاء الحكم الصريح بتحريم الزواج منهنّ بعـد وفـاة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله فى آيـات هـذه السورة، و إلّا فليس لهـذه العلاقـة أدنى أثر من ناحيـة الإرث و سائر المحرّمات النسبيـة و السـببية، أى إنّ المسـلمين كان من حقّهم أن يتزوّجوا بنات النّبى، فى حين أنّ أىّ أحد لا يسـتطيع الزواج من ابنة امّه. و كذلك مسألة كونهنّ أجنبيات، و عدم جواز النظر إليهن إلّا للمحارم.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ امرأة قالت لعائشة: يا امّه! فقالت:

لست لك لامّ إنّما أنا أمّ رجالكم»[۱۵۳]

و هو إشارة إلى أنّ الهدف من هذا التعبير هو حرمة التزويج، و هذا صادق فى رجال الامّة فقط.

و ثمّة مسألة مطروحة، و هى احترامهنّ و تعظيمهنّ- كما قلنا- إضافة إلى قضـيّة عدم الزواج، و لذلك فإنّ نساء المسلمين كنّ قادرات على مخاطبة نساء النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۰

بالامّ بعنوان احترامهنّ.

و الشاهـد لهـذا القول، أنّ القرآن الكريم يقول: النَّبِيُّ أَوْلى بِـالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِـهِمْ و هـذا يعنى أولويـة النّبى بكـلّ النسـاء و الرجال، و ضمير الجملـة التاليـة يعود إلى هـذا العنوان الواسع المعنى، و لـذلك نقرأ فى العبارة التى نقلت عن «امّ سـلمة»- و هى من أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله- أنّها قالت: أنا امّ الرجال منكم و النساء[۱۵۴].

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل أنّ تعبير وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ يتناقض مع ما ورد فى الآية (۲) من سورة المجادلة: الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسـائِهِمْ مـا هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَـدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً فكيف تعتبر نساء النّبى- و الحال هـذه- امّهات المسلمين و لم يولدوا منهنّ؟

و ينبغى فى الإجابة على هذا السؤال الالتفات إلى أنّ مخاطبة امرأة ما بالامّ إمّا أن تكون من الناحية الجسمية أو الروحية ..

فأمّا من الناحيـة الجسـمية: فإنّ هـذه المخاطبـة تكون واقعيـة فى حالـة كون الإنسان مولودا منها فقط، و هـذا هو الـذى جاء فى الآيات السابقة بأنّ الامّ الجسمية للإنسان هى التى تلده فقط.

و أمّـا الأـب أو الامّ الروحيين، فهو الـذى له حقّ معنوىّ على الإنسـان كالنّبى صـلّى اللّه عليه و آله الـذى يعتبر الأب الروحى للامّـة، و لأجله اكتسبت أزواجه منزلة و احترام الامّ.

و الإشـكال الـذى كان يوجّه إلى عرب الجاهليـة فى مورد «الظهار» أنّهم عند ما كانوا يخاطبون أزواجهم بخطاب الامّ فمن المسـلّم أنّ مرادهم ليس الامّ المعنويـة، بـل المقصود أنّهنّ كالامّ الجسـمية، و لـذلك كانوا يعـدّونه نوعا من الطلاق، و نعلم أنّ الامّ الجسـمية لا

تتحقّق بمجرّد الألفاظ، بل إنّ شرط ذلك الولادة الجسمية، و بناء على هذا فإنّ كلامهم كان منكرا و زورا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۱

أمّا فى مورد أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فبالرغم من أنّهنّ لسن امّهات جسميا، إلّا أنّهنّ امّهات روحيات اكتسابا من مقام و احترام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و لهنّ وجوب الاحترام كأمّهات. و إذا رأينا القرآن قد حرّم الزواج من أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى الآيات القادمة، فإنّ ذلك شأن آخر من شؤون احترامهنّ و احترام النّبى صلّى اللّه عليه و آله كما سيأتى توضيح ذلك بصورة مفصّلة إن شاء اللّه تعالى.

و هناك نوع ثالث من الامّهات فى الإسلام و هى الامّ المرضعة، و التى أشير إليها فى الآية (۲۳) من سورة النساء: وَ أُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ إلّا أنّها فى الحقيقة فرع من فروع الامّ الجسمية.

۳- الحكم الثالث: مسألة أولوية أولى الأرحام فى الإرث بالنسبة إلى الآخرين، لأنّ قانون الإرث فى بداية الإسلام- حيث قطع المسلمون علاقتهم بأقوامهم و أقاربهم على أثر الهجرة- نظّم على أساس الهجرة و المؤاخاة، أى أنّ المهاجرين كانوا يرثون بعضهم من بعض أو مع الأنصار الذين تآخوا معهم و لكن لم تكن هناك ضرورة للاستمرار عليه بعد توسّع الإسلام و إعادة كثير من العلاقات القومية و الرحمية السابقة نتيجة إسلام أقوامهم- (و ينبغى الالتفات إلى أنّ سورة الأحزاب قد نزلت فى السنة الخامسة للهجرة، و هى سنة «حرب الأحزاب») لذلك ثبتت أولوية أولى الأرحام بالنسبة إلى الآخرين.

و هناك قرائن على أنّ المراد من الأولوية هنا هى الأولوية الإلزامية لا الاستحبابية، لأنّ إجماع علماء الإسلام على هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيرة الواردة فى المصادر الإسلامية، و التى تثبت هذا الموضوع.

و يجب هنا الالتفات إلى هذه المسألة بدقّة، و هى: أنّ هذه الآية بصدد بيان أولوية اولى الأرحام فى مقابل الأجانب، لا بيان أولوية طبقات الإرث الثلاث بالنسبة إلى بعضها البعض، و بتعبير آخر، فإنّ المفضّل عليهم هنا هم المؤمنون و المهاجرون الذين ورد ذكرهم فى متن القرآن: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۲

بناء على هذا فإنّ مفهوم الآية يصبح: إنّ أولى الأرحام أولى من الأجانب من ناحية الإرث، أمّا كيف يرث هؤلاء الأرحام؟ و على أى أساس و معيار؟ فإنّ القرآن سكت عن ذلك فى هذا الموضع، مع أنّه بحث الموضوع مفصّلا فى آيات سورة النساء[۱۵۵].

۴- الحكم الرّابع الذى ورد فى الآية أعلاه كاستثناء، هو استفادة و انتفاع الأصدقاء و الأفراد المعينين الذين يخصّهم الأمر من الأموال التى يتركها الإنسان كذكرى، و الذى بيّن بجملة: إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً و مصداقه الواضح هو حكم الوصيّة، حيث يستطيع الإنسان أن يتصرّف فى ثلث أمواله و يضعه حيث يشاء، أو يوصى به لمن يشاء.

و بهذا فإنّ الإسلام عند ما وضع أساس الإرث على دعامة القرابة و الرحم بدل الروابط و العلاقات السابقة، لم يقطع وشائج الصلة بين الإنسان و رفقائه الذين يعزّهم و باقى إخوته المسلمين تماما، فالإنسان حرّ فى التصرّف فى ماله من ناحية الكميّة و الكيفيّة، إلّا أنّ هذه الحرية مشروطة بأن لا تزيد على الثلث، و من الطبيعى أنّ الإنسان إذا لم يوص بشىء فإنّ كلّ أمواله تقسّم بين أقاربه و ذوى رحمه طبقا لقانون الإرث، و لا يترك له ثلث فى هذه الحالة[۱۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۳

ملاحظة

وردت روايات كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير الآية أعلاه فيما يتعلّق بأولى الأرحام، حيث فسّرت هذه الآية فى بعض منها بمسألة «إرث الأموال»، كما هو المعروف بين المفسّرين، فى حين فسّرت فى البعض الآخر بمسألة «إرث الخلافة و

الحكومة» فى آل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سئل عن تفسير هذه الآية، أنّه قال: «نزلت فى ولد الحسين عليه السّلام» .. قيل: فى المواريث؟ قال: «لا، نزلت فى الإمرة»[۱۵۷].

من البديهى أنّه ليس المراد من هذه الأحاديث نفى مسألة إرث الأموال، بل المراد لفت الانتباه إلى أنّ للإرث معنى واسعا يشمل إرث الأموال و إرث الولاية و الخلافة.

و ليس لهذا التوارث أى وجه شبه مع مسألة توارث السلطنة فى سلسلة الملوك و السلاطين، فإنّ التوارث هنا نتيجة للأهلية و اللياقة، و لذلك فإنّه يشمل من بين أولاد الأئمّة من كانت له هذه الأهلية، و يشبه تماما ما يريده إبراهيم عليه السّلام من اللّه سبحانه لذريّته، فيقول اللّه له: إنّ الإمامة و الولاية لا تنال الظالمين، بل هى خاصّة بالطاهرين لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ

و يشبه أيضا ما نقوله فى الزيارات أمام قبور الشهداء فى سبيل اللّه، و من جملتها ما نقوله أمام قبر الإمام الحسين عليه السّلام:

السّلام عليك يا وارث آدم، و وارث نوح، و وارث إبراهيم، و وارث موسى و عيسى و محمّد ...

فإنّ هذا الإرث فى الجوانب العقائدية و الأخلاقية و المعنوية و الروحية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۴

الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۷ الى ۸]

اشارة

وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۸)

التّفسير

ميثاق اللّه الغليظ:

لمّا كانت الآيات السابقة قد بيّنت الصلاحيات الواسعة للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله تحت عنوان (النّبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فإنّ هذه الآيات تبيّن واجبات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سائر الأنبياء العظام الثقيلة العظيمة، لأنّا نعلم أنّ الصلاحيات تقترن دائما بالمسؤوليات، و حيثما وجد «حقّ» كان إلى جانبه «تكليف» و مسئولية، فإنّ هذين الأمرين لا يفترقان أبدا. بناء على هذا فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إن كان له حقّ و صلاحية واسعة، فإنّ عليه فى المقابل مسئوليات ضخمة.

تقول الآية الأولى: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً و على هذا فإنّها تذكر أوّلا جميع الأنبياء فى مسألة الميثاق، ثمّ تخصّ بالذكر منهم خمسة أنبياء هم أولو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۵

العزم، و على رأسهم نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله لعظمته و جلالته و شرفه، و بعده الأنبياء الأربعة من أولى العزم حسب ترتيب ظهورهم، و هم: «نوح و إبراهيم و موسى و عيسى» عليهم السّلام.

و هذا يوحى بأنّ الميثاق المذكور كان ميثاقا عامّا أخذ من جميع الأنبياء، و إن كان أولو العزم متعهّدين بذلك الميثاق و مسئولين عنه

بصورة أشدّ. ذلك الميثاق الذى بيّن بتأكيد شديد جدّا بجملة: وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً[۱۵۸].

المهمّ أن نعلم أىّ ميثاق هذا الذى أخذ من كلّ الأنبياء؟! للمفسّرين هنا أقوال مختلفة يمكن القول أنّها جميعا فروع مختلفة لأصل واحد، و هو تأدية مسئولية التبليغ و الرسالة و القيادة و هداية الناس فى كلّ الأبعاد و المجالات.

إنّ الأنبياء كانوا مكلّفين جميعا بدعوة كلّ البشر إلى التوحيد قبل كلّ شىء، و كانوا مكلّفين أيضا بأن يؤيّد بعضهم بعضا، كما أنّ الأنبياء اللاحقين يصدّقون و يؤكّدون صحّة دعوة الأنبياء السابقين. و الخلاصة: أن تكون الدعوة إلى جهة واحدة، و أن يبلغ الجميع حقيقة واحدة، و يوحّدوا الأمم تحت راية واحدة.

و يمكن ملاحظة الشاهد على هذا الكلام فى سائر آيات القرآن أيضا، فنقرأ فى الآية (۸۱) من سورة آل عمران: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِى قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

و ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۱۸۷) من سورة آل عمران، حيث تقول بصراحة: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ و على هذا فإنّ اللّه سبحانه قد أخذ الميثاق المؤكّد من الأنبياء بأن يدعوا الناس إلى توحيد اللّه، و توحيد دين الحقّ و الأديان السماوية، و كذلك أخذه من علماء أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۶

الكتاب بأن لا يقصّروا فى تبيان الدين الإلهى بكلّ ما فى وسعهم، و أن لا يكتموا ذلك أبدا.

و تبين الآية التالية الهدف من بعثة الأنبياء و الميثاق الغليظ الذى أخذ منهم، فتقول: لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً.

للمفسّرين تفسيرات كثيرة لكلمة «الصادقين»، و من هم المقصودون بها؟ و أىّ سؤال هذا السؤال؟ إلّا أنّ الذى يبدو منسجما مع آيات هذه السورة و آيات القرآن الاخرى، هو: أنّ المراد منهم المؤمنون الذين صدّقوا ادّعاءهم بالعمل، و أثبتوا صدقه بترجمته عمليّا، و بتعبير آخر: فإنّهم خرجوا من ساحة الاختبار و الامتحان الإلهى مرفوعى الرؤوس.

و الشاهد لهذا القول:

أوّلا: إنّ «الصادقين» هنا وضعوا فى مقابل الكافرين، فيستفاد هذا المعنى بوضوح من قرينة المقابلة.

ثانيا: نقرأ فى الآية (۲۳) من هذه السورة: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ثمّ تقول الآية (۲۴) مباشرة: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

ثالثا: عرّفت الآية (۱۵) من سورة الحجرات، و الآية (۸) من سورة الحشر (الصادقين) جيّدا، ففى آية الحجرات نقرأ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و تقول آية الحشر: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و بهذا يتّضح أنّ المراد من الصادقين: هم الذين أثبتوا صدقهم و إخلاصهم فى ميادين حماية دين اللّه و الجهاد و الثبات و الصمود أمام المشاكل و بذل الأرواح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۷

و الأموال ۱۵۹].

أمّا ما هو المراد من سؤال الصادقين عن صدقهم؟ فيتّضح بملاحظة ما قلناه آنفا أنّ المراد هو: هل يثبتون إخلاص نيّتهم فى أعمالهم و يصدقون فى ادّعائهم .. فى الإنفاق و الجهاد و الثبات أمام الصعاب و المشاكل، و خاصّة صعوبات ميدان الحرب، أم لا؟

و أين سأل هـذا السؤال؟ ظاهر الآيـة أنّه فى القيامـة، فى محكمـة العـدل الإلهيّة، و آيات القرآن العديدة أيضا تخبر عن وقوع مثل هذا السؤال فى القيامة بصورة عامّة.

إلّا أنّه يحتمل أيضا أن يكون لهذا السؤال جانب عملى و يقع فى الدنيا، حيث يخضع كلّ من يدّعى الإيمان للسؤال عن بعثة الأنبياء، و عمله هو الجواب على هذا السؤال، لأنّه سيقرّر فيما إذا كان صادقا فى ادّعائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۹ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۹) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (۱۰) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (۱۱)

التّفسير

الامتحان الإلهى العظيم فى مواجهة الأحزاب:

تتحدّث هـذه الآيات و الآيات الاخرى التاليـة، و التى تشكّل بمجموعها سبع عشرة آيـة، عن أعسر الامتحانات و الاختبارات الإلهية للمؤمنين و المنافقين، و اختبار مدى صدقهم فى العمل، الذى بحث فى الآيات السابقة.

إنّ هـذه الآيات تبحث أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسـلام، أى عن «معركة الأحزاب»، تلك المعركة التى كانت فى الواقع نقطة انعطاف فى تاريـخ الإسـلام، و قلبت موازين القوى بين الإسـلام و الكفر لصالح المسـلمين، و كان ذلك النصـر مفتاحا للانتصارات المسـتقبلية العظيمة، فقد انقصم ظهر الأعداء فى هذه الغزوة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۷۹

و لم يقدروا بعد ذلك على القيام بأىّ عمل مهمّ.

إنّ حرب الأحزاب- و كمـا يـدلّ عليها اسـمها- كانت مجابهـة شاملـة من قبل عامّـة أعـداء الإسـلام و الفئات المختلفـة التى تعرّضـت مصالحها و منافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع و انتشار هذا الدين.

لقد اشـعلت أوّل شـرارة للحرب من قبل يهود «بنى النظير» الذين جاؤوا إلى مكّة و أغروا «قريش» بحرب النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و وعدوهم بأن يساندوهم و يقفوا إلى جانبهم حتّى النفس الأخير، ثمّ أتوا قبيلة «غطفان» و هيّئوهم لهذا الأمر أيضا.

ثمّ دعت هـذه القبائـل حلفاءهـا كقبيلـة «بنى أسـد» و «بنى سـليم»، و لمّا كان الجميع قـد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحـدوا و اتّفقوا على أن يقضـوا على الإسـلام إلى الأبـد، و يقتلـوا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و يقضوا على المسـلمين، و يغيروا على المدينـة و يطفئوا مشـعل الإسلام و نوره.

أمّا المسـلمون الـذين رأوا أنفسـهم أمام هـذا الجحفل الجرّار، فإنّهم اجتمعوا للتشاور بأمر النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و قبل كلّ شـىء أخـذوا برأى «سـلمان الفارسـى» و حفروا حول المدينـة خندقا حتّى لا يسـتطيع العدو عبوره بسـهولة و يهجم على المدينة، و لهذا كان أحد أسماء هذه المعركة «معركة الخندق».

لقد مرّت لحظات صعبة و خطرة جدّا على المسلمين، و كانت القلوب قد بلغت الحناجر، و كان المنافقون من جهة أخرى قد شمّروا عن السواعد و جدّوا فى تآمرهم على الإسلام، و كذلك ضخامة عدد الأعداء و قلّة عدد المسلمين- (ذكروا أنّ عدد الكفّار كان عشرة آلاف، أمّا المسلمون فكانوا ثلاثة آلاف) و استعداد الكفّار من ناحية المعدّات الحربية و تهيئة كافّة المستلزمات، كلّ ذلك قد رسم صورة كالحة للمصير المجهول فى أعين المسلمين.

إلّا أنّ اللّه سبحانه أراد أن ينزل هنا آخر ضربة بالكفر، و يميّز صفّ المنافقين عن صفوف المسلمين، و يفضح المتآمرين، و يضع المسلمين الحقيقيين فى موضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۰

الاختبار العسير.

و أخيرا انتهت هذه الغزوة بانتصار المسلمين- كما سيأتى تفصيل ذلك- فقد هبّت بأمر اللّه عاصفة هو جاء اقتلعت خيام الكفّار و أتلفت وسائلهم، و ألقت فى قلوبهم الرعب الشديد، و أرسل سبحانه قوى الملائكة الغيبية لعون المسلمين.

و قد أضيف إلى ذلك تجلّى قدرة و عظمة أمير المؤمنين على عليه السّلام أمام عمرو بن عبد ودّ، فلاذ المشركون بالفرار من دون القدرة على القيام بأىّ عمل.

نزلت الآيات السبع عشرة من هذه السورة، و استطاعت بتحليلاتها الدقيقة و الفاضحة أن تستفيد من هذه الحادثة المهمّة من أجل انتصار الإسلام النهائى و قمع المنافقين بأفضل وجه.

كان هذا عرضا لمعركة الأحزاب التى وقعت فى السنة الخامسة للهجرة[۱۶۰]، و من هنا نتوجّه إلى تفسير الآيات و نؤجّل سائر جزئيات هذه الغزوة إلى بحث الملاحظات.

يلخّص القرآن الكريم هذه الحادثة فى آية واحدة أوّلا، ثمّ يتناول تبيان خصوصياتها فى الستّ عشرة آية الاخرى، فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ (كثيرة جدا) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً و يعلم أعمال كلّ جماعة و ما قامت به فى هذا الميدان الكبير.

و هنا جملة مطالب تستحقّ الدقّة:

۱- إنّ تعبير (اذكروا) يوحى بأنّ هذه الآيات نزلت بعد انتهاء الحرب و مضى فترة من الزمن أتاحت للمسلمين أن يحلّلوا فى عقولهم و أفكارهم ما كانوا قد رأوه ليكون التأثير أعمق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۱

۲- إنّ التعبير ب «الجنود» إشارة إلى مختلف الأحزاب الجاهلية كقريش و غطفان و بنى سليم و بنى أسد و بنى فزارة و بنى أشجع و بنى مرّة، و كذلك إلى طائفة اليهود فى داخل المدينة.

۳- إنّ المراد من جُنُوداً لَمْ تَرَوْها و التى نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التى ورد نصرها للمؤمنين فى غزوة بدر فى القرآن المجيد بصراحة، و لكن كما بيّنا فى ذيل الآية (۹) من سورة الأنفال، فإنّا لا نمتلك الدليل على أنّ هذه الجنود الإلهية اللامرئية نزلت إلى الميدان و حاربت، بل إنّ القرائن الموجودة تبيّن أنّ الملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين و شدّ عزيمتهم و إثارة حماسهم ۱۶۱].

و تقول الآية التالية تجسيدا للوضع المضطرب فى تلك المعركة، و قوّة الأعداء الحربية الرهيبة، و القلق الشديد لكثير من المسلمين: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا.

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة (فوق) فى هذه الآية إشارة إلى الجانب الشرقى للمدينة، و هو المكان الذى دخلت منه قبيلة غطفان،

و (أسفل) إشارة إلى غربها حيث دخلت منه قريش و من معها.

إذا لا حظنا أنّ «مكّة» تقع فى جنوب المدينة تماما، فمن الطبيعى أنّ قبائل المشركين أتت من الجنوب، لكن ربّما كان وضع الطريق و مدخل المدينة فى حالة بحيث إنّ هؤلاء قد داروا قليلا حول المدينة و دخلوا من الغرب. و على كلّ حال فإنّ الجملة أعلاه إشارة إلى محاصرة هذه المدينة من قبل مختلف أعداء الإسلام.

إنّ جملة زاغَتِ الْأَبْصارُ- بملاحظة أن «زاغت» من مادّة الزيغ، أى الميل إلى جانب واحد- إشارة إلى الحالة التى يشعر بها الإنسان عند الخوف و الاضطراب، حيث تميل عيناه إلى جهة واحدة، و تتسمّر و تثبت على نقطة معيّنة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۲

و يبقى متحيّرا حينذاك.

و جملة بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ كناية جميلة عن حالة القلق و الاضطراب، و إلّا فإنّ القلب المادّى لا يتحرّك من مكانه مطلقا، و لا يصل فى أى وقت إلى الحنجرة.

و جملة وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا إشارة إلى أنّ بعض المسلمين كانوا قد خطرت على أفكارهم ظنون خاطئة، لأنّهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الكمال فى الإيمان، و هؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية التالية: إنّهم زلزلوا زلزالا شديدا.

ربّما كان بعضهم يفكّر و يظنّ بأنّنا سننهزم فى نهاية المطاف، و ينتصر جيش العدوّ بهذه القوّة و العظمة، و قد حانت نهاية عمر الإسلام، و أنّ و عود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بالنصر سوف لا تتحقّق مطلقا.

من الطبيعى أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيدة راسخة، بل كانت وساوس حدثت فى أعماق قلوب البعض، و هذا شبيه بما ذكره القرآن فى معركة أحد، حيث يقول:

وَ طائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجاهِلِيَّةِ.[۱۶۲] و لا شكّ أنّ المخاطب فى هذه الآية محل البحث هم المؤمنون، و جملة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا التى وردت فى الآية السابقة دليل واضح على هذا المعنى، و ربّما لم يلتفت الذين اعتبروا المنافقين هم المخاطبون هنا إلى هذه المسألة، أو لعلّهم ظنّوا أنّ مثل هذه الظنون لا تتناسب مع الإيمان و الإسلام، فى حين أنّ ظهور مثل هذه الأفكار لا يتعدّى كونها وسوسة شيطانية، خاصّة فى تلك الظروف الصعبة المضطربة جدّا، و هذا أمر طبيعى بالنسبة لضعفاء الإيمان، و الحديثى العهد بالإسلام ۱۶۳].

هنا كان الامتحان الإلهى قد بلغ أشدّه كما تقول الآية التالية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۳

هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً.

من الطبيعى أنّ الإنسان إذا احيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الابتلاء، بل ستظهر عليه آثار الاضطراب و التزلزل، و كثيرا ما نرى أنّ الأشخاص المضطربين فكريا لا يستطيعون الاستقرار فى مجلسهم و تنعكس و بشكل واضح اضطراباتهم الفكرية من خلال حركاتهم و صفقهم يدا بيد.

و أحد شواهد هذا القلق و الاضطراب الشديد ما نقلوه من أنّ خمسة من أبطال العرب المعروفين- و كان على رأسهم «عمرو بن عبد ودّ»- نزلوا إلى الميدان بغطرسة متميّزة و اعتداد بالنفس كبير، فقالوا: هل من مبارز؟ سيّما عمرو بن عبد ودّ الذى كان يرتجز و يسخر من المسلمين و يستهزئ بالجنّة و الآخرة، و كان يقول:

أيّها المسلمون ألم تزعموا أنّ قتلاكم فى الجنّة؟ فهل فيكم من يشتاق إلى الجنّة؟

إلّا أنّ السكوت ساد على معسكر المسلمين أمام سخريته و استهزائه و دعوته للبراز، و لم يجرأ أحد على مناجزته، إلّا على بن أبى طالب عليه السّلام الذى هبّ لمبارزته، و حقّق نصرا كبيرا للمسلمين، و سيأتى ذلك مفصّلا فى البحوث.

نعم ... إنّ الحديد يزداد صلابة و جودة إذا عرض على النار، و المسلمون الأوائل كان يجب أن يوضعوا فى بوتقة الحوادث الصعبة المرّة، و خاصّة فى غزوات كغزوة الأحزاب، ليصبحوا أشدّ مقاومة و صلابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۴

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۲ الى ۱۷]

اشارة

وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (۱۲) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً (۱۳) وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً (۱۴) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (۱۵) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً (۱۶)

قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۱۷)

التّفسير

المنافقون فى عرصة الأحزاب:

فار تنّور إمتحان حرب الأحزاب، و ابتلى الجميع بهذا الامتحان الكبير العسير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۵

و من الواضح أنّ الناس الذين يقفون ظاهرا فى صفّ واحد فى الظروف العادية، ينقسمون إلى صفوف مختلفة فى مثل هذه الموارد المضطربة الصعبة، و هنا أيضا انقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، و فئة خواصّ المؤمنين، و جماعة ضعاف الإيمان، و فرقة المنافقين، و جمع المنافقين العنودين المتعصّبين، و بعضهم كان يفكّر فى بيته و حياته و الفرار، و جماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، و البعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

و الخلاصة: فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنية و ما ينطوى عليه فى هذه القيامة العجيبة، و فى يوم البروز هذا.

كان الكلام فى الآيات السابقة عن جماعة المسلمين ضعفاء الإيمان، و الذين وقعوا تحت تأثير الوساوس الشيطانية و الظنون السيّئة، و تعكس اولى الآيات مورد البحث مقالة المنافقين و مرضى القلوب، فتقول: إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً.

جاء فى تأريخ حرب الأحزاب: أنّه خلال حفر الخندق، و بينما كان المسلمون مشغولين بحفر من الخندق، اصطدموا بقطعة حجر كبيرة صلدة لم يؤثّر فيها أى معول، فأخبروا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بذلك، فأتى بنفسه إلى الخندق و وقف إلى جنب الصخرة، و أخذ المعول، فضرب الحجر أوّل ضربة قويّة فانصدع قسم منه و سطع منه برق، فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كبّر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربة أخرى فتهشّم قسم آخر و ظهر منها برق، فكبّر النّبى و كبّر المسلمون، و أخيرا ضرب النّبى ضربته الثالثة، فتحطّم الباقى من الحجر و سطع برق، فكبّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فسأل سلمان النّبى عن ذلك

فقال صلّى اللّه عليه و آله «أضاءت الحيرة و قصور كسرى فى البرقة الاولى، و أخبرنى جبرئيل أنّ امّتى ظاهرة عليها، و أضاء لى فى الثّانية القصور الحمر من أرض الشام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۶

و الروم، و أخبرنى أنّ امّتى ظاهرة عليها، و أضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء، و أخبرنى أنّ أمّتى ظاهرة عليها، فأبشروا» فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلى بعضهم و قالوا: أ لا تعجبون؟ يعدكم الباطل و يخبركم أنّه ينظر من يثرب إلى الحيرة و مدائن كسرى و أنّها تفتح لكم، و أنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟ فأنزل اللّه: وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً[۱۶۴].

و الحقّ أنّ مثل هذه الأخبار و البشارات اعتبرها المنافقون فى ذلك اليوم خدعة و غرورا، إلّا أنّ عين النّبى صلّى اللّه عليه و آله الملكوتية كانت قادرة على رؤية فتح أبواب قصور ملوك ايران و الروم و اليمن من خلال الشرر المتطاير من ذلك الحجر، و يبشّر هذه الامّة المضحّية التى حملت القلوب على الأكفّ، و يزيح الستار عن أسرار المستقبل.

و ربّما لا نحتاج إلى التذكير بأنّ المراد من الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم المنافقون، و ذكر هذه الجملة توضيح فى الواقع لكلمة «المنافقين» التى وردت من قبل، و أىّ مرض أسوأ و أضرّ من مرض النفاق؟! لأنّ الإنسان السليم الذى له فطرة إلهيّة سليمة ليس له إلّا وجه واحد، أمّا أولئك الذين لهم وجهان أو وجوه متلوّنة عديدة فإنّهم مرضى، حيث إنّهم مبتلون دائما بالاضطراب و التناقض فى الأقوال و الأفعال.

و الشاهد لهذا الأمر ما ورد فى بداية سورة البقرة فى وصف المنافقين، حيث تقول: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۱۶۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۷

ثمّ تتطرّق الآية الاخرى إلى بيان حال طائفة اخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، و الذين كانوا أخبث و أفسق من الباقين، فمن جانب تقول الآية عنهم: و اذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: يا أهل المدينة (يثرب) ليس لكم فى هذا المكان موقع فلا تتوقّفوا هنا و ارجعوا إلى بيوتكم: وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا.

و خلاصة الأمر أنّكم لا تقدرون على عمل أىّ شىء فى مقابل جحفل الأعداء اللجب، فانسحبوا من المعركة و لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة و بنسائكم و أطفالكم إلى ذلّ الأسر، و بذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

و من جانب آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً.

كلمة (عورة) مأخوذة من مادّة (عار)، و تقال للشىء الذى يوجب ظهوره العار، و تقال أيضا للشقوق و الثقوب التى تظهر فى اللباس أو جدران البيت، و كذلك للثغور الضعيفة و النقاط الحدودية التى يمكن اختراقها و تدميرها، و على ما يخافه الإنسان و يحذره، و المراد هنا البيوت التى ليس لها جدار مطمئن و باب محكم، و يخشى عليها من هجوم العدوّ.

و المنافقين بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحة الحرب و اعتزال القتال، و اللجوء إلى بيوتهم.

و جاء فى رواية: أنّ طائفة «بنى حارثة» أرسلوا رسولا منهم إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: إنّ بيوتنا غير مأمونة، و ليس هناك بيت من بيوت الأنصار يشبه بيوتنا، و لا مانع بيننا و بين «غطفان» الذين هجموا من شرق المدينة، فائذن لنا أن نرجع إلى بيوتنا و ندافع عن نسائنا و أولادنا، فأذن لهم النّبى.

فبلغ ذلك «سعد بن معاذ» كبير الأنصار، فقال للنبى صلّى اللّه عليه و آله: لا تأذن لهم، فإنّى اقسم باللّه أنّ هؤلاء القوم تعذّروا بذلك كلّما عرضت لنا مشكلة، إنّهم يكذبون،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۸

فأمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله أن يرجعوا.

و «يثرب» هو الاسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و بعد هجرته أصبح اسمها تدريجيا «مدينة الرّسول»، و مخفّفها المدينة.

و لهذه المدينة أسماء عديدة، ذكر لها الشريف المرتضى (رحمة اللّه عليه) أحد عشر اسما آخر إضافة إلى هذين الاسمين، و من جملتها: طيبة، و طابة، و سكينة، و المحبوبة، و المرحومة، و القاصمة. و يعتقد البعض أنّ «يثرب» اسم لأرض هذه المدينة[۱۶۶].

و

جاء فى بعض الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «لا تسمّوا هذه المدينة يثرب»

و ربّما كان ذلك بسبب أنّ يثرب فى الأصل من مادّة «ثرب» (على وزن حرب) أى اللوم، و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ليرضى مثل هذا الاسم لهذه المدينة المباركة.

و على كلّ حال فإنّ خطاب المنافقين لأهل المدينة ب (يا أهل يثرب) لم يكن خطابا عشوائيا، و ربّما كان الباعث لخطابهم بهذا الاسم أنّهم كانوا يعلمون أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يشمئز من هذا الاسم، أو أنّهم كانوا يريدون إعلان عدم اعترافهم بالإسلام و اسم مدينة الرّسول، أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحلة الجاهلية! و تشير الآية التالية إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينة من كلّ جانب و صوب، و استولى عليها، ثمّ دعاهم إلى الشرك و الكفر فسوف يقبلون ذلك و يسارعون إليه:

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا يَسِيراً.

من المعلوم أنّ أناسا بهذا الضعف و التزلزل و عدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدوّ و محاربته، و لا هم متأهّبون لتقبّل الشهادة فى سبيل اللّه، بل يستسلمون بسرعة و يغيّرون مسيرهم، و بناء على هذا، فإنّ المراد من كلمة «الفتنة» هنا هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۸۹

الشرك و الكفر، كما جاء فى آيات القرآن الاخرى، كالآية (۱۹۳) من سورة البقرة:

غير أنّ بعض المفسرين احتملوا أن يكون المراد من «الفتنة» هنا: الحرب ضدّ المسلمين، بحيث إنّها لو عرضت على هؤلاء المنافقين لأجابوا إليها بسرعة، و يعينوا أصحاب الفتنة! إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتلاءم مع ظاهر جملة: وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها و ربّما اختار أكثر المفسّرين المعنى الأوّل لهذا السبب.

ثمّ يستدعى القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا و عليه فإنّهم مسئولون أمام تعهّدهم.

و قال البعض: أنّ المراد من هذا العهد و الميثاق هو ذلك العهد الذى عاهد «بنو حارثة» عليه اللّه و رسوله يوم احد حينما قرّروا الرجوع عن ميدان القتال ثمّ ندموا بعد ذلك، فقطعوا العهد على أنفسهم أن لا يرتكبوا مثل هذه الأمور، إلّا أنّهم فكّروا مرّة ثانية فى معركة الأحزاب فى نقض عهدهم و ميثاقهم ۱۶۷].

و يعتقد البعض أنّه إشارة إلى العهد الذى عاهدوا به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى غزوة بدر، أو فى العقبة قبل هجرة النّبى ۱۶۸].

و لكن يبدو أنّ للآية أعلاه مفهوما واسعا يشمل هذه العهود و المواثيق، و كلّ عهودهم الاخرى.

إنّ كلّ من يؤمن و يبايع النّبى صلّى اللّه عليه و آله يعاهده على أن يدافع عن الإسلام و القرآن و لو كلّفه ذلك حياته.

و التأكيد على العهد و الميثاق هنا من أجل أنّه حتّى عرب الجاهلية كانوا يحترمون مسألة العهد، فكيف يمكن أن ينقض إنسان عهده و يضعه تحت قدميه بعد ادّعائه الإسلام؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۰

و بعد أن أفشى اللّه سبحانه نيّة المنافقين و بيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنّبى صلّى اللّه عليه و آله: قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

فافرضوا أنّكم استطعتم الفرار، فلا يعدو الأمر حالين: إمّا أن يكون أجلكم الحتمىّ و موتكم قد حان، فأينما تكونوا يأخذ الموت

بتلابيبكم، حتّى و إن كنتم فى بيوتكم و بين زوجاتكم و أولادكم.

و إن لم يكن أجلكم قد حان فستعمّرون فى هذه الدنيا أيّاما قليلة اخرى تكون مقترنة بالذلّ و الهوان، و ستصبحون تحت رحمة الأعداء و فى قبضتهم، و بعدها ستلقون العذاب الإلهى.

إنّ هذا البيان يشبه ما ورد فى غزوة أحد، حيث أشار القرآن إلى فئة اخرى من المنافقين المثبّطين للعزائم، و المفرّقين لوحدة الصفّ: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلى مَضاجِعِهِمْ [۱۶۹] و الثّانى: ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد اللّه، و لن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة اللّه و قدرته و مشيئته: قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

بناء على هذا، فإنّكم إذا علمتم أنّ كلّ مقدّراتكم بيده سبحانه، فأطيعوا أمره فى الجهاد الذى هو أساس العزّة و الكرامة و الشموخ فى الدنيا و عند اللّه، و حتّى إذا تقرّر أن تنالوا و سام الشهادة فعليكم أن تستقبلوا ذلك برحابة صدر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۱

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱۸ الى ۲۰]

اشارة

قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۸) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۱۹) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (۲۰)

التّفسير

فئة المعوّقين:

أشارت هذه الآيات إلى وضع فئة اخرى من المنافقين الذين اعتزلوا حرب الأحزاب، و كانوا يدعون الآخرين أيضا إلى اعتزال القتال، فقالت: قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۲

«المعوّقين» من مادّة (عوق) على زنة (شوق) تعنى منع الشىء و محاولة صرف الآخرين عنه، و «البأس» فى الأصل يعنى (الشدّة)، و المراد منه هنا الحرب.

و يحتمل أن تكون الآية أعلاه مشيرة إلى فئتين: فئة من المنافقين الذين كانوا بين صفوف المسلمين- و تعبير (منكم) شاهد على هذا- و كانوا يسعون إلى صرف ضعاف الإيمان من المسلمين عن الحرب، و هؤلاء هم «المعوّقون».

و الفئة الاخرى هم (المنافقون أو اليهود) الذين تنحّوا جانبا، و عند ما كانوا يلتقون بجنود النّبى صلّى اللّه عليه و آله كانوا يقولون: هلمّ إلينا و تنحّوا عن القتال، و هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الجملة الثّانية.

و يحتمل أن تكون هذه الآية بيانا لحالتين مختلفتين لفئة واحدة، و هم الذين يعوّقون الناس عن الحرب عند ما يكونون بينهم، و عند ما يعتزلونهم يدعون الناس إليهم.

و نقرأ فى رواية: أنّ أحد أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله جاء من ميدان حرب الأحزاب إلى داخل المدينة لحاجة، فرأى أخاه قد وضع أمامه الخبز و اللحم المشوى و الشراب، فقال له: أنت فى هذه الحال تلتذّ و رسول اللّه مشغول بالحرب، و هو بين الأسنّة و السيوف؟! فقال أخوه: يا أحمق! ابق معنا و شاركنا مجلسنا، فو الذى يحلف به محمّد إنّه لن يرجع من هذه المعركة! و سوف لن يدع هذا الجيش العظيم الذى اجتمع عليه محمّدا و أصحابه أحياء! فقال له الأوّل: أنت تكذب، و اقسم باللّه لأذهبنّ إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و أخبره بما قلت، فجاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أخبره بما جرى، فنزلت الآية.

و بناء على سبب النّزول هذا، فإنّ كلمة (إخوانهم) وردت هنا بمعنى الإخوة الحقيقيين، أو بمعنى أصحاب المذهب و المسلك الواحد، كما سمّت الآية (۲۷) سورة الإسراء المبذّرين إخوان الشياطين: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ

و تضيف الآية التالية: إنّ الدافع لكلّ تلك العراقيل التى وضعوها أمامكم هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۳

أنّهم بخلاء: أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۱۷۰] لا- فى بذل الأرواح فى ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتّى فى المعونات الماديّة لتهيئة مستلزمات الحرب، و فى المعونة البدنية فى حفر الخندق، بل و يبخلون حتّى فى المساعدة الفكرية، بخلا يقترن بالحرص المتزايد يوميا! و بعد تبيان بخل هؤلاء و امتناعهم عن أىّ نوع من المساعدة و الإيثار، تتطرّق الآية إلى بيان صفات اخرى لهم، و التى لها صفة العموم فى كلّ المنافقين، و فى كلّ العصور و القرون، فتقول: فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فلأنّهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقى، و لم يستندوا إلى عماد قوىّ فى الحياة، فإنّهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماما عند ما يواجهون حادثا صعبا و مأزقا حرجا، و كأنّهم يواجهون الموت.

ثمّ تضيف الآية: فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون و المتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون و يطلبون سهمهم من الغنائم، و هم كانوا أبخل من الجميع فى المشاركة فى الحرب و الثبات فيها.

«سلقوكم» من مادّة (سلق)، و هى فى الأصل بمعنى فتح الشىء بعصبية و غضب، سواء كان هذا الفتح باليد أو اللسان، و هذا التعبير يستعمل فى شأن من يطلب الشىء بالزجر و أسلوب الأمر. و «الألسنة الحداد» تعنى الألسنة الجارحة المؤذية، و هى هنا كناية عن الخشونة فى الكلام.

و تشير الآية فى النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، و التى هى فى الواقع أساس كلّ شقائهم و تعاستهم، فقالت: أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ لأنّها لم تكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۴

منبعثة عن الإخلاص و الدافع الدينى الإلهى: وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

و ممّا مرّ نخلص إلى هذه النتيجة، و هى: أنّ المعوّقين كانوا منافقين يتميّزون بالصفات التالية:

۱- أنّهم لم يكونوا أهل حرب أبدا، إلّا بنسبة قليلة جدّا.

۲- لم يكونوا من أهل التضحية و الإيثار سواء بالمال و النفس، و لم يكونوا يتحمّلون أقلّ المصاعب و المتاعب.

۳- كانوا يفقدون توازنهم و شخصيتهم فى اللحظات الحرجة العاصفة من شدّة الخوف.

۴- يظنّون أنّهم سبب كلّ الانتصارات، و لهم كلّ الفخر عند الإنتصار.

۵- أنّهم كانوا أناسا بلا إيمان، و لم يكن لأعمالهم أيّة قيمة عند اللّه تعالى.

و هذه الصفات هى التى تعرفنا بالمنافقين فى كلّ عصر و زمان، و فى كلّ مجتمع و فئة.

و هذا الوصف الدقيق الذى وصفهم القرآن به يمكن من خلاله معرفة من يشاركهم فى الفكر و السلوك، و كم نرى بأمّ أعيننا فى عصرنا من أمثالهم!! و تجسّد الآية التالية بتصوير أبلغ جبن و خوف هذه الفئة، فتقول: يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا من شدّة خوفهم و

رعبهم، فقد خيّم عليهم كابوس مخيف، فكأنّ جنود الكفر يمرّون دائما أمام أعينهم و قد سلّوا السيوف و مالوا عليهم بالرماح! إنّ هؤلاء المحاربين الجبناء، و المنافقين خائرى القلوب و القوى يخافون حتّى من ظلالهم، و ينطوون على أنفسهم من الخوف لدى سماع صهيل الخيل و رغاء البعير، ظنّا أنّ جيوش الأحزاب قد عادت! ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ أى منتشرون فى الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك و يتتبّعون أخباركم و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۵

يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ فيسألون لحظة بلحظة من كلّ مسافر آخر الأخبار لئلّا تكون الأحزاب قد اقتربت منهم، و هم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائما!! و تضيف الآية فى آخر جملة: و على فرض أنّهم لم ينهزموا و يفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم: وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا.

فلا تحزنوا و تقلقوا لذهابهم، و لا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم أناس لا قيمة لهم و لا صفة تحمد، و عدمهم أفضل من وجودهم! و حتّى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن للّه أيضا، بل هو نتيجة الخوف من ملامة و تقريع الناس، و للتظاهر و الرياء، لأنّه لو كان للّه لكانوا يقفون و يثبتون فى ساحة الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (۲۱) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً (۲۲) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (۲۳) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (۲۴) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (۲۵)

التّفسير

دور المؤمنين المخلصين فى معركة الأحزاب:

يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة و مخطّطاتهم و أدوارهم فى غزوة الأحزاب، و قد تقدّم الكلام عن ضعفاء الإيمان و المنافقين و رؤوس الكفر و النفاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۷

و المعوّقين عن الجهاد.

و يتحدّث القرآن المجيد فى نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، و معنوياتهم العالية و رجولتهم و ثباتهم و سائر خصائصهم فى الجهاد الكبير.

و يبدأ مقدّمة هذا البحث بالحديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، حيث كان إمامهم و قدوتهم، فيقول: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً.

فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله خير نموذج لكم، لا فى هذا المجال و حسب، بل و فى كلّ مجالات الحياة، فإنّ كلّا من معنوياته العالية،

و صبره و استقامته و صموده، و ذكائه و درايته، و إخلاصه و توجّهه إلى اللّه، و تسلّطه و سيطرته على الحوادث، و عدم خضوعه و ركوعه أمام الصعاب و المشاكل، نموذج يحتذى به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف و العجلة إلى نفسه سبيلا عند ما تحيط بسفينته أشدّ العواصف، و تعصف بها الأمواج المتلاطمة، فهو ربّان السفينة، و مرساها المطمئن الثابت، و هو مصباح الهداية، و مبعث الراحة و الهدوء و الاطمئنان الروحى لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّة المؤمنين، فيجمع ترابه بمسحاة و يخرجه بوعاء معه، و يمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم و التخفيف عنهم، و يرغّبهم فى إنشاد الشعر الحماسى لإلهاب مشاعرهم و تقوية قلوبهم، و يدفعهم دائما نحو ذكر اللّه تعالى و يبشّرهم بالمستقبل الزاهر و الفتوحات العظيمة.

يحذّرهم من مؤامرات المنافقين، و يمنحهم الوعى و الاستعداد اللازم.

و لا يغفل لحظة عن التجهيز و التسلّح الحربى الصحيح، و انتخاب أفضل الأساليب العسكرية، و لا يتوانى فى الوقت نفسه عن اكتشاف الطرق المختلفة التى تؤدّى إلى بثّ التفرقة و إيجاد التصدّع فى صفوف الأعداء.

نعم إنّه أسمى مقتدى، و أحسن أسوة للمؤمنين فى هذا الميدان، و فى كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۸

الميادين.

«الاسوة» تعنى فى الأصل الحالة التى يتلبّسها الإنسان لدى اتّباعه لآخر، و بتعبير آخر: هى التأسّى و الاقتداء، و بناء على هذا فإنّ لها معنى المصدر لا الصفة، و معنى جملة: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ هو أنّ لكم فى النّبى صلّى اللّه عليه و آله تأسّيا و اقتداء جيّدا، فإنّكم تستطيعون بالاقتداء به و اتباعه أن تصلحوا أموركم و تسيروا على الصراط المستقيم.

و الطريف أنّ القرآن الكريم يعتبر هذه الاسوة الحسنة فى الآية أعلاه مختّصة بمن لهم ثلاث خصائص: الثقة باللّه، و الإيمان بالمعاد، و أنّهم يذكرون اللّه كثيرا.

إنّ الإيمان بالمبدأ و المعاد هو سبب و باعث هذه الحركة فى الحقيقة، و ذكر اللّه يعمل على استمراره، إذ لا شكّ أنّ من لم يمتلئ قلبه بهكذا إيمان لا يقدر أن يضع قدمه موضع قدم النّبى، و إذا لم يدم ذكر اللّه و يعمّر قلبه به أثناء استمراره فى هذا الطريق، و يبعد الشياطين عنه، فسوف لا يكون قادرا على إدامة التأسّى و الاقتداء.

و تجدر الإشارة إلى أنّ عليا عليه السّلام مع شهامته و شجاعته فى كلّ ميادين الحرب، و التى تمثّل معركة الأحزاب نموذجا منها، و سيشار إليها فيما بعد،

يقول فى نهج البلاغة فيما روى عنه: «كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه»[۱۷۱].

بعد ذكر هذه المقدّمة تطرّقت الآية التالية إلى بيان حال المؤمنين الحقيقيين، فقالت: وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً.

و لكن ما هذا الوعد الذى كان اللّه و رسوله قد وعدهم به؟

قال البعض: إنّه إشارة إلى الكلام الذى كان رسول اللّه قد تكلّم به من قبل بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۱۹۹

قبائل العرب و مختلف أعدائكم سيتّحدون ضدّكم قريبا و يأتون إليكم، لكن اعلموا أنّ النصر سيكون حليفكم فى النهاية، فلمّا رأى المؤمنون هجوم الأحزاب أيقنوا أنّ هذا ما وعدهم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: ما دام الجزء الأوّل من الوعد قد تحقّق، فمن المسلّم أنّ جزأه الثّانى- أى النصر- سيتحقّق بعده، و لذلك زاد إيمانهم و تسليمهم.

و قال البعض الآخر: إنّ هذا الوعد هو ما ذكره اللّه سبحانه فى الآية (۲۱۴) من سورة البقرة حيث قال: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ

أى إنّهم قيل لهم من قبل: إنّكم ستخضعون لامتحان عسير، فلمّا رأوا الأحزاب تيقّنوا صدق إخبار اللّه و رسوله، و زاد إيمانهم و تسليمهم.

و من الطبيعى أنّ هذين التّفسيرين لا يتنافيان، خاصّة بملاحظة أنّ أحد الوعدين كان فى الأساس وعد اللّه، و الآخر وعد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله، و قد جاءا معا فى الآية مورد البحث، و يبدو أنّ الجمع بينهما مناسب تماما.

و تشير الآية التالية إلى فئة خاصّة من المؤمنين، و هم الذين كانوا أكثر تأسّيا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله من الجميع، و ثبتوا على عهدهم الذى عاهدوا اللّه به، و هو التضحية فى سبيل دينه حتّى النفس الأخير، و إلى آخر قطرة دم، فتقول: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ من دون أن يتزلزل أو ينحرف و يبدّل العهد و يغيّر الميثاق الذى قطعه على نفسه وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا.

إنّهم لم ينحرفوا قيد أنملة عن خطّهم، و لم يألوا جهدا فى سبيل اللّه، و لم يتزلزلوا لحظة، بعكس المنافقين أو ضعاف الإيمان الذين بعثرتهم عاصفة الحوادث هنا و هناك و أفرزت الشدائد فى أدمغتهم الخاوية أفكارا جوفاء خبيثة ... إنّ المؤمنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۰

وقفوا كالجبل الأشمّ و أثبتوا أنّ العهد الذى عاهدوا به لا يقبل النقض أو التراجع عنه.

إنّ لفظة (نحب) على زنة (عهد) تعنى العهد و النذر و الميثاق، و وردت أحيانا بمعنى الموت، أو الخطر، أو سرعة السير، أو البكاء بصوت مرتفع ۱۷۲].

و هناك اختلاف بين المفسّرين فى المعنىّ بهذه الآية.

يروى العالم المعروف (الحاكم أبو القاسم الحسكانى)- و هو من علماء السنّة- بسند عن على عليه السّلام أنّه قال: «فينا نزلت رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فأنا- و اللّه- المنتظر و ما بدّلت تبديلا، و منّا رجال قد استشهدوا من قبل كحمزة سيّد الشهداء»[۱۷۳].

و قال آخرون: إنّ جملة مَنْ قَضى نَحْبَهُ إشارة إلى شهداء بدر و أحد، و جملة:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ إشارة إلى المسلمين الصادقين الآخرين الذين كانوا بانتظار إحدى الحسنيين: النصر، أو الشهادة.

و روى عن «أنس بن مالك» أيضا: أنّ عمّه «أنس بن النضر» لم يكن حاضرا فى غزوة بدر، فلمّا علم فيما بعد، و كانت الحرب قد وضعت أوزارها، أسف لعدم اشتراكه فى الجهاد، فعاهد اللّه على أن يشارك فى الجهاد إن وقعت معركة اخرى و يثبت فيها و إن زهقت روحه، و لذلك فقد شارك فى معركة احد، و حينما فرّ جماعة لم يفرّ معهم، و قاوم و صمد حتّى جرح ثم استشهد[۱۷۴].

و روى عن «ابن عبّاس» أنّه قال: إنّ جملة: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ إشارة إلى حمزة بن عبد المطّلب و باقى شهداء احد، و أنس بن النضر و أصحابه ۱۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص ۲۰۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۱

و لا منافاة بين هذه التفاسير مطلقا، لأنّ للآية مفهوما واسعا يشمل كلّ شهداء الإسلام الذين استشهدوا قبل معركة الأحزاب، و كلّ من كان منتظرا للنصر أو الشهادة، و كان على رأسهم رجال كحمزة سيّد الشهداء و على عليهما السّلام، و لذلك ورد فى تفسير الصافى: أنّ أصحاب الحسين بكربلاء كانوا كلّ من أراد الخروج للقتال ودّع الحسين عليه السّلام و قال: السلام عليك يا ابن رسول اللّه، فيجيبه: و عليك السلام و نحن خلفك، و يقرأ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ[۱۷۶].

و يستفاد من كتب المقاتل أنّ الإمام الحسين عليه السّلام تلا هذه الآية عند أجساد شهداء آخرين كمسلم بن عوسجة، و حين بلغه خبر شهادة «عبد اللّه بن يقطر»[۱۷۷].

و من هنا يتّضح أنّ للآية مفهوما واسعا يشمل كلّ المؤمنين المخلصين الصادقين فى كلّ عصر و زمان، سواء من ارتدى منهم ثوب الشهادة فى سبيل اللّه، أم من ثبت على عهده مع ربّه و لم يتزعزع، و كان مستعدّا للجهاد و الشهادة.

و تبيّن الآية التالية النتيجة النهائية لأعمال المؤمنين و المنافقين فى جملة قصيرة، فتقول: لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ فلا يبقى صدق و إخلاص و وفاء المؤمنين بدون ثواب، و لا ضعف و إعاقات المنافقين بدون عقاب.

و مع ذلك، و لكى لا يغلق طريق العودة و الإنابة بوجه هؤلاء المنافقين العنودين، فإنّ اللّه سبحانه قد فتح أبواب التوبة أمامهم بجملة: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إذا تابوا- و وصف نفسه بالغفور و الرحيم إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً ليحيى فيهم الحركة نحو الإيمان و الصدق و الإخلاص و الوفاء بالتزاماتهم أمام اللّه و العمل بمقتضاها.

و لمّا كانت هذه الجملة قد ذكرت كنتيجة لأعمال المنافقين القبيحة، فإنّ بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۲

كبار المفسّرين رأى على أساسها بأنّ الذنب الكبير فى القلوب التى لها قابلية الهداية ربّما كان دفعا للحركة المضادّة و الرجوع إلى الحقّ و الحقيقة، و قد يكون الشرّ مفتاحا للخير و الرشاد[۱۷۸].

و تطرح الآية الأخيرة من هذه الآيات- و التى تتحدّث عن غزوة الأحزاب و تنهى هذا البحث- خلاصة واضحة لهذه الواقعة فى عبارة مختصرة، فتقول فى الجملة الاولى: وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً.

«الغيظ» يعنى (الغضب) و يأتى أحيانا بمعنى (الغمّ)، و هنا جاء مزيجا من المعنيين، فإنّ جيوش الأحزاب قد بذلت قصارى جهدها للانتصار على جيش الإسلام، لكنّها خابت، و رجع جنود الكفر إلى أوطانهم يعلوهم الغمّ و الغضب.

و المراد من «الخير» هنا الإنتصار فى الحرب، و لم يكن انتصار جيش الكفر خيرا أبدا، بل إنّه شرّ، و لمّا كان القرآن يتحدّث من وجهة نظرهم الفكرية عبّر عنه بالخير، و هو إشارة إلى أنّهم لم ينالوا أىّ نصر فى هذا المجال.

و قال البعض: إنّ المراد من «الخير» هنا (المال) لأنّ هذه الكلمة أطلقت فى مواضع اخرى بهذا المعنى، و من جملتها ما فى آية الوصية (۱۸۰) من سورة البقرة:

إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ

و مع أنّ أحد الأهداف الأصليّة لمعسكر الكفر كان الحصول على غنائم المدينة و الإغارة على هذه الأرض، و هذا الباعث كان أهمّ البواعث فى عصر الجاهلية، لكنّنا لا نمتلك الدليل على حصر معنى (الخير) هنا بالمال، بل يشمل كلّ الانتصارات التى كانوا يطمحون إليها، و كان المال أحدها لكنّهم حرموا من الجميع.

و تضيف فى الجملة التالية: وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ فقد هيّأ عوامل بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۳

انتهت الحرب من دون حاجة إلى التحام واسع بين الجيشين، و من دون أن يتحمّل المؤمنون خسائر فادحة، لأنّ العواصف الهوجاء القارصة قد مزّقت أوضاع المشركين من جهة، و من جهة اخرى فإنّ اللّه تعالى قد ألقى الرعب و الخوف فى قلوبهم من جنود اللّه التى لا ترى، و من جهة ثالثة فإنّ الضربة التى أنزلها على بن أبى طالب عليه السّلام بأعظم بطل من أبطالهم، و هو «عمرو بن عبد ودّ»، قد تسبّبت فى تبدّد أحلامهم و آمالهم، و دفعتهم إلى أن يلملموا أمتعتهم و يتركوا محاصرة المدينة و يرجعوا إلى قبائلهم تقدمهم الخيبة و الخسران.

و تقول الآية فى آخر جملة: وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً فمن الممكن أن يوجد أناس أقوياء، لكنّهم ليسوا بأعزّاء لا يقهرون، بل هناك من

يقهرهم و من هو أقوى منهم، إلّا أنّ القوى العزيز الوحيد فى العالم هو اللّه عزّ و جلّ الذى لا حدّ لقدرته و قوّته و لا انتهاء، فهو الذى أنزل على المؤمنين النصر فى مثل هذا الموقف العسير و الخطير جدّا بحيث لم يحتاجوا حتّى إلى النزال و تقديم التضحيات!

بحوث

۱- ملاحظات هامّة فى معركة الأحزاب

أ- إنّ معركة الأحزاب- و كما هو معلوم من اسمها- كانت حربا اتّحدت فيها كلّ القبائل و الفئات المختلفة التى تعادى الإسلام، للقضاء على الإسلام اليافع.

لقد كانت «حرب الأحزاب» آخر سعى للكفر، و آخر سعى للكفر، و آخر سهم فى كنانته، و آخر استعراض لقوى الشرك، و لهذا قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[۱۷۹]

عند ما تقابل أعظم أبطال العدوّ، و هو عمرو بن عبد ودّ، و بطل الإسلام الأوحد أمير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۴

المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، لأنّ انتصار أحدهما على الآخر كان يعنى انتصار الكفر على الإيمان، أو الإيمان على الكفر، و بتعبير آخر: كان عملا مصيريا يحدّد مستقبل الإسلام و الشرك، و لذلك فإنّ المشركين لم تقم لهم قائمة بعد انهزامهم فى هذه المواجهة العظيمة، و كانت المبادرة و زمامها بيد المسلمين بعدها دائما.

لقد أفل نجم الأعداء، و انهدمت قواعد قوّتهم، و لذلك نقرأ فى حديث

أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال بعد نهاية غزوة الأحزاب: «الآن تغزوهم و لا يغزوننا»[۱۸۰].

ب- ذكر بعض المؤرخّين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشرة آلاف محارب، و يقول «المقريزى» فى «الإمتاع»: إنّ قريشا أتت لوحدها بأربعة آلاف رجل، و ألف و ثلاثمائة فرس، و ألف و خمسمائة من الإبل، و نزلت عند حافّة الخندق، و جاءت قبيلة بنى سليم بسبعمائة رجل و التقوا بهم فى مرّ الظهران، و جاء «بنو فزارة» بألف، و كلّ من «بنى أشجع» و «بنى مرّة» بأربعمائة، و القبائل الاخرى أرسلت عددا من الرجال، فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشرة آلاف رجل.

فى حين أنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف رجل، و كانوا قد جعلوا مخيّمهم الأصلى أسفل جبل سلع، و كانت نقطة مرتفعة جنب المدينة مشرفة على الخندق، و كانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطرة على حركة المرور من الخندق.

على كلّ حال، فإنّ جيش الكفّار قد حاصر المسلمين من جميع الجهات، و طالت هذه المحاصرة عشرين يوما، و قيل خمسة و عشرين يوما، و على بعض الرّوايات شهرا[۱۸۱].

و مع أنّ العدوّ كان متفوقا على المسلمين من جهات مختلفة، إلّا أنّه خاب فى النهاية كما قلنا، و رجع إلى دياره خالى الوفاض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۵

ج- إنّ مسألة حفر الخندق قد تمّت- كما نعلم- بمشورة «سلمان الفارسى»، و كانت هذه المسألة أسلوبا دفاعيا معتادا فى بلاد فارس آنذاك، و لم يكن معروفا فى جزيرة العرب إلى ذلك اليوم، و كان يعتبر ظاهرة جديدة، و كانت لإقامته فى أطراف المدينة أهميّة عظيمة، سواء من الناحية العسكرية، أم من جهة إضعاف معنويات العدوّ و رفع معنويات المسلمين.

و لا توجد لدينا معلومات دقيقة عن صفات الخندق و دقائقه، فقد ذكر المؤرخّون أنّه كان من العرض بحيث لا يستطيع فرسان العدو عبوره بالقفز، و من المحتّم أنّ عمقه أيضا كان بالقدر الذى إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهولة.

إضافة إلى أنّ سيطرة رماة المسلمين على منطقة الخندق كان يمكّنهم من جعل كلّ من يحاول العبور هدفا و غرضا لسهامهم فى وسط الخندق و قبل عبوره.

و أمّا من ناحية الطول فإنّ البعض قد قدّره باثنى عشر ألف ذراع (ستّة آلاف متر) استنادا إلى الرواية المعروفة التى تقول بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان قد أمر أن يحفر كلّ عشرة رجال أربعين ذراعا من الخندق، و بملاحظة أنّ عدد جنود المسلمين- طبقا للمشهور- بلغ ثلاثة آلاف رجل.

و لا بدّ من الاعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق، و بالآلات البدائية المستعملة فى ذلك اليوم كان أمرا مضنيا و جهدا، خاصّة و أنّ المسلمين كانوا فى ضيق شديد و حاجة ملحّة من ناحية الزاد و الوسائل الاخرى.

و من المسلّم أنّ حفر الخندق قد استغرق مدّة لا يستهان بها، و هذا يوحى بأنّ جيش المسلمين كان قد قدّر و خمّن و توقّع التوقّعات اللازمة بدقّة كاملة قبل أن يهجم العدوّ بحيث أنّ حفر الخندق كان قد تمّ قبل ثلاثة أيّام من وصول جيش الكفّار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۶

د- ساحة إمتحان عظيمة إنّ غزوة «الأحزاب» كانت محكّا و امتحانا عجيبا لكلّ المسلمين، و لمن كانوا يدّعون الإسلام، و كذلك لأولئك الذين كانوا يدّعون الحياد أحيانا، و كان لهم فى الباطن ارتباط و تعامل مع أعداء الإسلام و يتعاونون معهم ضدّ دين اللّه.

لقد تبيّن بوضوح تامّ موقع الفئات الثلاث- المؤمنون الصادقون، و ضعفاء الإيمان، و المنافقون- من خلال عملهم، و اتّضحت تماما القيم و المفاهيم الإسلامية، فقد عكست كلّ من الفئات الثلاث فى أتون الحرب الملتهبة حسن إيمانها أو قبحه، و إخلاص نيّاتها أو عدمه.

لقد كانت العاصفة هو جاء شديدة لم تدع المجال لأىّ شخص أن يخفى ما فى قلبه، و ظهرت امور فى أقلّ من شهر، و كان يحتاج كشفها إلى سنين ربّما تكون طويلة فى الظروف الطبيعيّة.

و هنا مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أثبت عمليّا إيمانه الكامل بما جاء به من التعليمات الإلهيّة و وفاءه التامّ لها من خلال مقاومته و صلابته، و رباطة جأشه، و توكّله على اللّه، و اعتماده على نفسه، و كذلك أثبت للناس أنّه يطبّق قبل الآخرين ما يأمرهم به من خلال مواساته للمسلمين و مساعدتهم فى حفر الخندق، و تحمّله لمصاعب الحرب و مشاكلها.

ه- نزال على عليه السّلام التاريخى لعمرو بن عبد ودّ من المواقف الحسّاسة و التاريخية لهذه الحرب مبارزة على عليه السّلام لبطل معسكر العدوّ العظيم «عمرو بن عبد ودّ»، فقد جاء فى التواريخ أنّ جيش الأحزاب كان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للاشتراك و المساهمة فى هذه الحرب، و كان الأشهر من بين هؤلاء خمسة: عمرو بن عبد ودّ، و عكرمة بن أبى جهل، و هبيرة، و نوفل، و ضرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۷

لقد استعدّ هؤلاء فى أحد أيّام الحرب للمبارزة الفردية، و لبسوا عدّة الحرب، و استطاعوا اختراق الخندق و العبور بخيولهم إلى الجانب الآخر من خلال نقطة ضيّقة فيه، كانت بعيدة نسبيا عن مرمى الرماة المسلمين، و أن يقفوا أمام جيش المسلمين، و كان أشهرهم «عمرو بن عبد ودّ».

فتقدّم و قد ركبه الغرور و الاعتداد بالنفس، و كانت له خبرة طويلة فى الحرب، و رفع صوته طالبا من يبارزه.

لقد دوّى نداؤه (هل من مبارز) فى ميدان الأحزاب، و لمّا لم يجرأ أحد من المسلمين على قتاله اشتدّت جرأته و بدأ يسخر من معتقدات المسلمين، فقال: أين جنّتكم التى تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ هل فيكم من أرسله إلى الجنّة، أو يدفعنى إلى النار؟

و هنا أنشد أبياته المعروفة:

و لقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارزو وقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز

إنّ السماحة و الشجاعة فى الفتى خير الغرائز

فأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله عند ذلك أن يخرج إليه رجل و يبعد شرّه عن المسلمين، إلّا أنّ أحدا لم يجب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله إلّا على بن أبى طالب عليه السّلام،

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّه عمرو» فقال على عليه السّلام: «و إن كان عمروا» فدعاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عمّمه، و قلّده سيفه الخاصّ ذا الفقار، ثمّ دعا له فقال: «اللهمّ احفظه من بين يديه و من خلفه و عن يمينه و عن شماله و من فوقه و من تحته».

فمشى على عليه السّلام إلى الحرب و هو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجزذو نيّة و بصيرة و الصدق منجى كلّ فائز

إنّى لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۸

من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

و هنا

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله كلمته المعروفة: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»[۱۸۲].

فلمّا التقيا دعاه أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى الإسلام أوّلا، فأبى، ثمّ دعاه إلى اعتزال الحرب، فرفض ذلك، و اعتبره عارا عليه، و فى الثالثة دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده و يقاتله راجلا فغضب عمرو قال: ما كنت أحسب أحدا من العرب يدعونى إلى مثل ذلك، فنزل من على ظهر فرسه و ضرب عليا عليه السّلام على رأسه، فتلقّاها على عليه السّلام بمهارة خاصّة بدرعه، إلّا أنّ السيف قدّه و شجّ رأس على عليه السّلام.

هنا استعمل على عليه السّلام أسلوبا خاصّا، فقال لعمرو: أنت بطل العرب، و أنا أقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟ فلمّا التفت عمرو، ضربه على عليه السّلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض، فثارت غبرة ظنّ معها المنافقون أنّ عليا عليه السّلام قد قتل بسيف عمرو، غير أنّهم لمّا سمعوا التكبير قد علا علموا بانتصار على، و رأوا فجأة عليا عليه السّلام يرجع إلى معسكره رويدا رويدا و الدم ينزم من رأسه، و على شفتيه ابتسامه النصر، و كانت جثّة عمرو قد سقطت فى جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربة قاصمة بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم و حطّمت معنوياتهم، و هزمتهم نفسيا هزيمة منكرة، و خابت آمالهم فى النصر و الظفر، و لذلك

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى حقّها: «لو وزن اليوم عملك بعمل جميع امّة محمّد لرجح عملك على عملهم، و ذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلّا و قد دخله ذلّ بقتل عمرو، و لم يبق بيت من المسلمين، إلّا و قد دخله عزّ يقتل عمرو»[۱۸۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۰۹

و قد أورد العالم السنّى المعروف «الحاكم النيسابورى» هذا القول، لكن بتعبير آخر:

«لمبارزة على بن أبى طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال امّتى إلى يوم القيامة»[۱۸۴].

و الغاية من هذا الكلام واضحة، لأنّ كلّا من الإسلام و القرآن كان على حافّة الهاوية ظاهرا، و كان يمرّ بأحرج لحظاته و أصعبها، و لذلك كانت التضحية فى هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النّبى صلّى اللّه عليه و آله، حيث حفظت الإسلام من السقوط و درأت عنه الخطر، و ضمنت بقاءه إلى يوم القيامة، و ببركة تضحية الإمام عليه السّلام تجذّر الإسلام و تأصّل و شملت غصونه و أوراقه

العالمين، و بناء على هذا فإنّ عبادة الجميع مرهونة بعمله.

و ذكر البعض: أنّ المشركين أرسلوا رسولا- منهم ليشترى جثّة عمرو بعشرة آلاف درهم- و ربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّة عمرو ما فعله قساة القلوب بجسد حمزة يوم أحد-

فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى»!

و هناك موقف يستحقّ الذكر و الانتباه، و هو: أنّ اخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها، و رأت أنّ عليا عليه السّلام لم يسلبه درعه الثمينة قالت: ما قتله إلّا كفؤ كريم ۱۸۵].

و- إجراءات النبى العسكرية و السياسية فى هذه الحرب كانت هناك مجموعة من العوامل المختلفة، و الأساليب العسكرية و السياسية، و كذلك عامل العقيدة و الإيمان، ساهمت فى انتصار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المسلمين فى معركة الأحزاب، إضافة إلى التأييد الإلهى. عن طريق الرياح و العواصف الهوجاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۰

التى مزّقت جيوش الأحزاب شرّ ممزّق، و كذلك جنود اللّه الغيبيين، و من جملة هذه العوامل و الإجراءات:

۱- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله أدخل بقبوله اقتراح حفر الخندق أسلوبا جديدا لم يكن موجودا و معروفا بين العرب إلى ذلك اليوم، و كان عاملا مهمّا فى رفع معنويات المسلمين و كسر شوكة الكفّار.

۲- المواقف و الحسابات الدقيقة للمسلمين، و الأساليب و المناورات العسكرية كانت عاملا مؤثّرا فى عدم نفوذ العدوّ إلى داخل المدينة.

۳- قتل عمرو بن عبد ودّ على يد بطل الإسلام العظيم على بن أبى طالب عليه الصلاة و السّلام، و تبديد آمال الأحزاب بقتله يعدّ عاملا مؤثّرا آخر.

۴- الإيمان باللّه، و التوكّل عليه، و الذى غرسه النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى قلوب المسلمين، و سقاه المسلمون على امتداد الحرب بتلاوة القرآن و كلمات النّبى صلّى اللّه عليه و آله المؤثّرة.

۵- أسلوب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و روحه الكبيرة، و اعتماده على نفسه الذى يمنح المسلمين قوّة و اطمئنانا.

۶- إضافة إلى ذلك، فإنّ عمل «نعيم بن مسعود» كان أحد العوامل المهمّة فى إيجاد الفرقة بين جيوش الأحزاب.

ز- نعيم بن مسعود و بثّ الفرقة فى جيش العدوّ! جاء «نعيم» إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و كان قد أسلم لتوّه، و لم تعلم قبيلته (غطفان) بإسلامه، فقال: أسلمت و لم يعلم بى أحد من قومى فمرنى بأمرك،

فقال له النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنّا ما استطعت، فإنّما الحرب خدعة».

فانطلق نعيم بخطّة رائعة، و أتى يهود بنى قريظة، و كانت له معهم صداقة فى الجاهلية، فقال لهم: إنّى لكم صديق، و أنتم تعلمون ذلك، فقالوا: صدقت، و نحن لا نتّهمك أبدا، فقال: إنّ البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم، و إنّما قريش

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۱

و غطفان بلادهم غيرها، و إنّما جاءوا حتّى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها، و إن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم و خلوا بينكم و بين الرجل، و لا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتّى يناجزوا محمّدا، فقالوا: قد أشرت برأى، فقبل بنو قريظة قوله.

ثمّ أتى أبا سفيان و أشراف قريش متخفّيا، فقال: يا معشر قريش، إنّكم قد عرفتم ودّى إيّاكم و فراقى محمّدا و دينه، و إنّى قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علىّ، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أنّ بنى قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم و بين محمّد فبعثوا إليه: أنّه لا يرضيك عنّا إلّا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك عليهم حتّى نخرجهم من بلادك، فقالوا:

بلی، فإن بعثوا إلیکم یسألونکم نفرا من رجالکم فلا تعطوهم رجلا واحدا و احذروا.

ثمّ جاء إلی غطفان قبیلته، فقال: تعلمون حسبی و نسبی، و أنا أودّکم، و لا أظنّکم تشکّون فی صدقی، فقالوا: نعلم ذلک، فقال: لکم عندی خبر فاکتموه علیّ، فقالوا: نفعل، فقال لهم ما قال لقریش. و کان ذلک لیلة السبت من شوّال سنة خمس من الهجرة.

فأرسل أبو سفیان و رؤساء غطفان جماعة إلی بنی قریظة فقالوا: إنّ الکراع و الخفّ قد هلکا، و إنّا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلی محمّد حتّی نناجزه.

فأجابهم الیهود: إنّ غدا السبت، و هو یوم لا نعمل فیه، و لسنا مع ذلک بالذین نقاتل معکم حتّی تعطونا رهنا من رجالکم نستوثق بهم لا تذهبوا و تدعونا حتّی نناجز محمّدا.

فلمّا بلغ ذلک قریشا و غطفان قالوا: و اللّه لقد حذّرنا هذا نعیم، فبعث إلیهم أبو سفیان: إنّا لا نعطیکم رجلا واحدا فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا، و إن شئتم فاقعدوا.

و لمّا علمت الیهود بذلک قالوا: هذا و اللّه الذی قال لنا نعیم، فإنّ فی الأمر حیلة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۲

و هؤلاء لا یریدون القتال، و یریدون أن یغیروا و یرجعوا إلی دیارهم و یذروکم و محمّدا.

فأرسلوا إلی قریش و غطفان: إنّا و اللّه لا نقاتل حتّی تعطونا رهنا، فأصرّت قریش و غطفان علی قولهما فوقع الاختلاف بینهم، و بعث اللّه سبحانه علیهم الریح فی لیال شاتیة قارصة البرد، قلعت خیامهم، و کفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل، فحزم الجمیع أمتعتهم و رجّحوا الفرار علی القرار، و لم یبق منهم رجل فی ساحة الحرب ۱۸۶].

ح- قصّة حذیفة جاء فی کثیر من التواریخ أنّ «حذیفة الیمانی» قال: و اللّه، لقد رأیتنا یوم الخندق و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا یعلمه إلّا اللّه، و فی لیلة من اللیالی- بعد أن وقع الاختلاف بین جیش الأحزاب-

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «ألا رجل یأتینا بخبر القوم یجعله اللّه رفیقی فی الجنّة».

قال حذیفة: فو اللّه ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف و الجوع، فلمّا رأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله ذلک دعانی، فقلت: لبّیک،

قال: «اذهب فجئنی بخبر القوم و لا تحدثنّ شیئا حتّی ترجع»

، فأتیت القوم فإذا ریح اللّه و جنوده تفعل بهم ما تفعل، ما یستمسک لهم بناء، و لا تثبت لهم نار، و لا یطمئن لهم قدر، فإنّی لکذلک إذ خرج أبو سفیان من رحله، ثمّ قال: یا معشر قریش، لینظر أحدکم من جلیسه لئلّا یکون هنا غریب، فبدأت بالذی عن یمینی، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقلت: حسنا.

ثمّ عاد أبو سفیان براحلته، فقال: یا معشر قریش- و اللّه- ما أنتم بدار مقام، هلک الخفّ و الحافر، و أخلفتنا بنو قریظة، و هذه الریح لا یستمسک لنا معها شیء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۳

ثمّ عجّل فرکب راحلته و إنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما رکبها.

فقلت فی نفسی: لو رمیت عدوّ اللّه و قتلته کنت قد صنعت شیئا، فوترت قوسی ثمّ وضعت السهم فی کبد القوس، فلمّا أردت أن أطلقه ذکرت

قول رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله: «لا تحدثنّ شیئا حتّی ترجع»

و إنّه طلب منّی أن آتیه بالخبر و حسب، حططت القوس ثمّ رجعت إلی رسول اللّه فأخبرته الخبر،

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «اللهمّ أنت منزل الکتاب، سریع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهمّ أهزمهم و زلزلهم»[۱۸۷].

ط- نتائج حرب الأحزاب لقد کانت حرب الأحزاب نقطة انعطاف فی تاریخ الإسلام، قلبت کفّة التوازن العسکری و السیاسی لصالح

المسلمين إلى الأبد. و يمكن تلخيص النتائج المثمرة لهذه المعركة فى عدّة نقاط:

أ- فشل مساعى العدو، و تحطّم قواه.

ب- كشف المنافقين، و فضح الأعداء الداخليين الخطرين.

ج- جبران الذكرى الأليمة لهزيمة أحد.

د- قوّة المسلمين، و ازدياد هيبتهم فى قلوب الأعداء.

ه- ارتفاع معنويات المسلمين نتيجة للمعجزات العظيمة التى رأوها فى هذه المعركة.

و- تثبيت مركز النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى داخل المدينة و خارجها.

ر- تهيؤ الأرضية لتصفية المدينة و إنقاذها من شرّ بنى قريظة.

۲- النّبى أسوة و قدوة

نعلم أنّ إختيار رسول اللّه من بين البشر إنّما هو من أجل أن يكونوا قدوة عملية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۴

للأمم، لأنّ أهمّ جانب من جوانب دعوة الأنبياء و أكثرها تأثيرا هى الدعوة العملية، و لذلك فإنّ علماء الإسلام اعتبروا العصمة شرطا لمقام النبوّة، و إحدى أدلّتها و براهينها هى أنّهم يجب أن يكونوا «قدوة» للناس، و «أسوة» للبشر.

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ التأسّى بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله الوارد فى هذه الآية قد جاء بصورة مطلقة، و هذا يشمل التأسّى فى كافّة المجالات بالرغم من أنّ سبب نزول هذه الآيات هى معركة الأحزاب، و نعلم أنّ أسباب النّزول لا تحدّد مفاهيم الآيات بها مطلقا، و لذلك نرى فى الأحاديث الشريفة أنّ أهمّ المسائل و أبسطها قد طرحت فى مسألة التأسّى.

ففى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «إنّ الصبر على ولاة الأمر مفروض لقول اللّه عزّ و جلّ لنبيّه: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إيجابه مثل ذلك على أوليائه و أهل طاعته لقوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[۱۸۸].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إنّ رسول اللّه كان إذا صلّى العشاء الآخرة أمر بوضوئه و سواكه فوضع عند رأسه مخمرا»

ثمّ يبيّن كيفية صلاة الليل التى كان يصلّيها النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و يقول فى آخر الحديث: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ[۱۸۹].

و إذا ما اتّخذنا النّبى صلّى اللّه عليه و آله أسوة لنا فى حياتنا حقّا، فى إيمانه و توكّله، فى إخلاصه و شجاعته، فى تنظيم أمره و نظافته، و فى زهده و تقواه، فإن أسلوب حياتنا سيختلف تماما، و سيعمّ الضياء و السعادة كلّ زوايا حياتنا و نواحيها.

يجب اليوم على كلّ المسلمين، و خاصّة الشباب المؤمن، أن يقرءوا سيرة نبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، بدقّة متناهية و يحفظوها، و يجعلوه قدوة و أسوة لهم فى كلّ شىء، فإنّ هذا التأسّى و الاقتداء به سبيل السعادة، و مفتاح النصر و العزّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۵

۳- اذكروا اللّه كثيرا

لقد وردت الوصيّة بذكر اللّه- و خاصّة الذكر الكثير- مرارا فى الآيات القرآنية، و قد أولته الروايات الإسلامية اهتماما كبيرا أيضا، حتّى أنّنا نقرأ

فى حديث عن أبى ذرّ أنّه قال: دخلت المسجد فأتيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله ... فقال لى: «عليك بتلاوة كتاب اللّه و ذكر اللّه كثيرا فإنّه ذكر لك فى السماء و نور لك فى الأرض»[۱۹۰].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إذا ذكر العبد ربّه فى اليوم مائة مرّة كان ذلك كثيرا»[۱۹۱].

و

فى حديث آخر عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال لأصحابه: «أ لا أخبركم بخير أعمالكم و أزكاها عند مليككم، و أرفعها فى درجاتكم، و خير لكم من الدينار و الدرهم، و خير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتقتلونهم و يقتلونكم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: ذكر اللّه كثيرا»[۱۹۲].

لكن لا ينبغى أن يتصوّر أنّ المراد من ذكر اللّه بكلّ هذه الفضيلة هو الذكر اللسانى فقط، بل قد صرّحت الروايات الإسلامية أنّ المراد منه إضافة لما مرّ هو الذكر القلبى و العملى، أى أنّ الإنسان يذكر اللّه عند ما يواجه حراما فيتركه.

إنّ الهدف أن يجعل الإنسان اللّه نصب عينيه دائما، و يشعر بحضوره و شهادته الدائمة، و أن يغمر نور اللّه كلّ حياته، فيفكّر فيه و يذكره دائما، و لا يغفل عن أوامره بل يطيعها.

إنّ مجالس الذكر ليست تلك المجالس التى يجتمع فيها جماعة من المغفّلين و يشرعون فى الطعام و الشراب، و تتخلّل مجالسهم تلك مجموعة من الأذكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۶

المخترعة، و البدع التى يروجونها،

فقد ورد فى حديث أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «بادروا إلى رياض الجنّة، قالوا: و ما رياض الجنّة؟ قال: حلق الذكر»[۱۹۳]،

و المراد منها الحلقات التى تحيا فيها العلوم الإسلامية، و تطرح البحوث التربوية التى تؤدّى إلى تهذيب الناس و تطهير المذنبين و تدفعهم إلى سبيل اللّه ۱۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۷

الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشارة

وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (۲۶) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۷)

التّفسير

غزوة بنى قريظة انتصار عظيم آخر:

كان فى المدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، و هم: بنو قريظة، و بنو النضير، و بنو قينقاع، و كانت هذه الطوائف قد عاهدت النّبى صلّى اللّه عليه و آله على أن لا- تعين عدوّا له و لا يتجسّسوا لذلك العدوّ، و أن يعيشوا مع المسلمين بسلام، إلّا أنّ «بنى قينقاع» قد

نقضوا عهدهم فى السنة الثّانية للهجرة، و «بنو النضير» فى السنة الرّابعة للهجرة بأعذار شتّى، و صمّموا على مواجهة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و انهارت مقاومتهم فى النهاية، و طردوا إلى خارج المدينة، فذهب «بنو قينقاع» إلى أذرعات الشام، و ذهب بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۸

«بنى النضير» إلى خيبر، و بعضهم الآخر إلى الشام ۱۹۵].

بناء على هذا فإنّ «بنى قريظة» كانوا آخر من بقى فى المدينة إلى السنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، و كما قلنا فى تفسير الآيات السبع عشرة المتعلّقة بمعركة الأحزاب، فإنّهم نقضوا عهدهم فى هذه المعركة، و اتّصلوا بمشركى العرب، و شهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد انتهاء غزوة الأحزاب و التراجع المشين و المخزى لقريش و غطفان و سائر قبائل العرب عن المدينة، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله- طبقا للرّوايات الإسلامية- عاد إلى منزله و خلع لامة الحرب و ذهب يغتسل، فنزل عليه جبرئيل بأمر اللّه و قال: لماذا ألقيت سلاحك و هذه الملائكة قد استعدّت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بنى قريظة و تنهى أمرهم.

لم تكن هناك فرصة لتصفية الحساب مع بنى قريظة أفضل من هذه الفرصة، حيث كان المسلمون فى حرارة الإنتصار، و بنو قريظة يعيشون لوعة الهزيمة المرّة، و قد سيطر عليهم الرعب الشديد، و كان حلفاؤهم من قبائل العرب متعبين منهكى القوى خائرى العزائم، و هم فى طريقهم إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبة، و لم يكن هناك من يحميهم و يدافع عنهم.

هنا نادى مناد من قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بأن توجّهوا إلى بنى قريظة قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعة و تهيّئوا للمسير إلى الحرب، و ما كادت الشمس تغرب إلّا و كانت حصون بنى قريظة المحكمة محاصرة تماما.

لقد استمرت هذه المحاصرة خمسة و عشرين يوما، و أخير سلّموا جميعا- كما سيأتى فى البحوث- فقتل بعضهم، و أضيف إلى سجل انتصارات المسلمين انتصار عظيم آخر، و تطهّرت أرض المدينة من دنس هؤلاء المنافقين و الأعداء اللدودين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۱۹

إلى الأبد.

و قد أشارت الآيات- مورد البحث- إشارة مختصرة و دقيقة إلى هذه الحادثة، و كما قلنا فإنّ هذه الآيات نزلت بعد الإنتصار، و أوضحت أنّ هذه الحادثة كانت نعمة و موهبة إلهيّة عظيمة، فتقول الآية أوّلا: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ «الصياصى» جمع (صيصية)، أى: القلعة المحكمة، ثمّ أطلقت على كلّ وسيلة دفاعية، كقرون البقر، و مخالب الديك. و يتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم و حصونهم إلى جانب المدينة فى نقطة مرتفعة، و التعبير ب (أنزل) يدلّ على هذا المعنى.

ثمّ تضيف الآية: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ و أخيرا بلغ أمرهم أنّكم فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصرا و جانبا من نتائج غزوة بنى قريظة، حيث قتل جمع من أولئك الخائنين على يد المسلمين، و أسر آخرون، و غنم المسلمون منهم غنائم كثيرة من جملتها أراضيهم و ديارهم و أموالهم.

و التعبير عن هذه الغنائم ب «الإرث» لأنّ المسلمين لم يبذلوا كثير جهد للحصول عليها، و سقطت فى أيديهم بسهولة كلّ تلك الغنائم التى كانت حصيلة سنين طويلة من ظلم و جور اليهود و استثماراتهم فى المدينة.

و تقول الآية فى النهاية: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.

هناك اختلاف بين المفسّرين فى المقصود من أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها و أىّ أرض هى؟

فاعتبرها البعض إشارة إلى أرض خيبر التى فتحت على أيدى المسلمين فيما بعد.

و اعتبرها آخرون إشارة إلى أرض مكّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۰

و آخرون يعتقدون أنّها إشارة إلى أرض الروم و فارس.

و يرى البعض أنّها إشارة إلى جميع الأراضى و البلدان التى وقعت فى يد المسلمين من ذلك اليوم و ما بعده إلى يوم القيامة.

إلّا أنّ أيّا من هـذه الاحتمالات لا يناسب ظاهر الآيـة، لأنّ الآيـة- بقرينة الفعل الماضـى الذى جاء فيها (أورثكم)- شاهدة على أنّ هذه الأرض قد أصبحت تحت تصرّف المسلمين فى حادثة غزوة بنى قريظة، إضافة إلى أنّ أرض مكّة- و هى إحدى التفاسير السابقة- لم تكن أرضا لم يطأها المسلمون، فى حين أنّ القرآن الكريم يقول: وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها.

و الظاهر أنّ هـذه الجملـة إشارة إلى البساتين و الأراضـى الخاصّة ببنى قريظة، و التى لم يكن لأحد الحقّ فى دخولها، لأنّ اليهود كانوا يبذلون قصارى جهودهم فى سبيل الحفاظ على أموالهم و حصرها فيما بينهم.

و لو أغمضـنا، فإنّها تتناسب كثيرا مع أرض «خيبر» التى أخـذت من اليهود بعـد مـدّة ليست بالبعيـدة، و أصـبحت فى حوزة المسـلمين، حيث إنّ معركة «خيبر» وقعت فى السنة السابعة للهجرة.

بحوث

۱- غزوة بنى قريظة و دوافعها

إنّ القرآن الكريم يشـهد بأنّ الـدافع الأساس لهـذه الحرب هو دعم يهود بنى قريظـة لمشـركى العرب و مساندتهم فى حرب الأحزاب، لأنّه يقول: الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ

إضافـة إلى أنّ اليهود فى المدينـة كـانوا يعتبرون الطـابور الخـامس لأعـداء الإسـلام، و كـانوا مجـدّين فى الإعلام المضادّ للإسـلام، و يغتنمون كلّ فرصة مناسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۱

للبطش بالمسلمين و الفتك بهم.

و كما قلنا سابقا، فإنّ هذه الطائفة هى الوحيدة من الطوائف الثلاث (بنو القينقاع، و بنو النضـير، و بنو قريظة) التى بقيت فى المدينة عند نشوب معركـة الأـحزاب، فقـد طردت الطائفتـان الأوّليان فى السـنة الثّانيـة و الرّابعـة للهجرة، و كان يجب أن تعاقب هـذه الطائفـة على أعمالها الخبيثة و جرائمها، لأنّها كانت أوقح من الجميع و أكثر علانية فى نقضها لميثاقها و اتّصالها بأعداء الإسلام.

۲- أحداث غزوة بنى قريظة

قلنا: إنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله قد امر بعد انتهاء معركة الأحزاب مباشرة أن يحاسب بنى قريظة على أعمالهم، و يقال: إنّ المسلمين قـد تعجّلوا الوصول إلى حصون بنى قريظـة بحيث إنّ البعض قـد غفل عن صـلاة العصـر فاضـطّروا إلى قضائها فيما بعد، فقد أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن تحاصـر حصونهم، و دام الحصـار خمسـة و عشـرين يومـا، و قـد ألقى اللّه عزّ و جلّ الرعب الشديـد فى قلوب اليهود، كما يتحدّث القرآن عن ذلك.

فقـال «كعب بن أسـد»- و كان من زعماء اليهود-: إنّى على يقين من أنّ محمّـدا لن يتركنا حتّى يقاتلنا، و أنا أقترح عليكم ثلاثـة امور اختاروا أحدها:

إمّـا أن نبـايع هـذا الرجـل و نؤمن به و نتّبعه، فـإنّه قـد ثبت لكم أنّه نبى اللّه، و أنتم تجـدون علاماته فى كتبكم، و عنـد ذلك سـتصان

أرواحکم و أموالکم و أبناؤکم و نساؤکم، فقالوا: لا نرجع عن حکم التوراة أبدا، و لا نقبل بدلها شیئا.

قال: فإذا رفضتم ذلک، فتعالوا نقتل نساءنا و أبناءنا بأیدینا حتّی یطمئن بالنا من قبلهم، ثمّ نسلّ السیوف و نقاتل محمّدا و أصحابه و نری ما یریده اللّه، فإن قتلنا لم نقلق علی أبنائنا و نسائنا، و إن انتصرنا فما أکثر النساء و الأولاد. فقالوا: أ نقتل هؤلاء المساکین بأیدینا؟! إذن لا خیر فی حیاتنا بعدهم.

قال کعب بن أسد: فإن أبیتم هذا أیضا فإنّ اللیلة لیلة السبت، و أنّ محمّدا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۲

و أصحابه یظنون أنّنا لا نهجم علیهم اللیلة، فهلمّوا نبیّتهم و نباغتهم و نحمل علیهم لعلّنا ننتصر علیهم. فقالوا: و لا نفعل ذلک، لأنّا لا نهتک حرمة السبت أبدا.

فقال کعب: لیس فیکم رجل یعقل لیلة واحدة منذ ولدته امّه.

بعد هذه الحادثة طلبوا من النّبی صلّی اللّه علیه و آله أن یرسل إلیهم «أبا لبابة» لیتشاوروا معه، فلمّا أتاهم و رأی أطفال الیهود یبکون أمامه رقّ قلبه، فقال الرجال: أ تری لنا أن نخضع لحکم محمّد صلّی اللّه علیه و آله؟ فقال أبو لبابة: نعم، و أشار إلی نحره، أی إنّه سیقتلکم جمیعا! یقول أبو لبابة: ما إن ترکتهم حتّی انتبهت لخیانتی، فلم آت النّبی صلّی اللّه علیه و آله مباشرة، بل ذهبت إلی المسجد و أوثقت نفسی بعمود فیه و قلت: لن أبرح مکانی حتّی یقبل اللّه توبتی، فقبل اللّه توبته لصدقه و غفر ذنبه و أنزل وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ [۱۹۶] و أخیرا اضطرّ بنو قریظة إلی أن یستسلموا بدون قید أو شرط،

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «أ لا ترضون أن یحکم فیکم سعد بن معاذ»؟ قالوا: بلی،

فقال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه فی اللّه لومة لائم.

ثمّ أخذ سعد الإقرار من الیهود مجدّدا بأنّهم یقبلون بما یحکم، و بعدها التفت إلی حیث کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله واقفا فقال: حکمی فیهم نافذ؟ قال: نعم، فقال: انّنی أحکم بقتل رجالهم المحاربین، و سبی نسائهم و ذراریهم، و تقسیم أموالهم.

و قد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا[۱۹۷].

۳- نتائج غزوة بنی قریظة

إنّ الإنتصار علی أولئک القوم الظالمین العنودین قد حمل معه نتائج مثمرة للمسلمین، و من جملتها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۳

أ- تطهیر الجبهة الداخلیة للمدینة، و اطمئنان المسلمین و تخلّصهم من جواسیس الیهود.

ب- سقوط آخر دعامة لمشرکی العرب فی المدینة، و قطع أملهم من إثارة القلاقل و الفتن داخلیا.

ج- تقویة بنیة المسلمین المالیة بواسطة غنائم هذه الغزوة.

د- فتح آفاق جدیدة للانتصارات المستقبلیة، و خاصة فتح «خیبر».

ه- تثبیت مکانة الحکومة الإسلامیة و هیبتها فی نظر العدوّ و الصدیق، فی داخل المدینة و خارجها.

۴- الآیات و تعبیراتها العمیقة!

إنّ من جملة التعبیرات التی تلاحظ فی الآیات أعلاه أنّها تقول فی مورد قتلی هذه الحرب: فَرِیقاً تَقْتُلُونَ أی أنّها قدّمت (فریقا) علی

(تقتلون) فى حين أنّها أخّرت (فريقا) عن الفعل «تأسرون»! و قال بعض المفسّرين فى تفسير ذلك: إنّ سبب هذا التعبير هو التأكيد على الأشخاص فى مسألة القتلى، لأنّ رؤساءهم كانوا فى جملة القتلى، أمّا الأسرى فإنّهم لم يكونوا أناسا معروفين ليأتى التأكيد عليهم. إضافة إلى أنّ هذا التقديم و التأخير أدّى إلى أن يقترن «القتل و الأسر»- و هما عاملا الإنتصار على العدو- و يكون أحدهما إلى جنب الآخر، مراعاة للانسجام بين الأمرين أكثر.

و كذلك ورد إنزال اليهود من «صياصيهم» قبل جملة: وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فى حين أنّ الترتيب الطبيعى على خلاف ذلك، أى أنّ الخطوة الاولى هى إيجاد الرعب، ثمّ إنزالهم من الحصون المنيعة. و سبب هذا التقديم و التأخير هو أنّ المهمّ بالنسبة للمسلمين، و المفرّح لهم، و الذى كان يشكّل الهدف الأصلى هو تحطيم هذه القلاع المحصّنة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۴

و التعبير ب أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ يبيّن حقيقة أنّ اللّه سبحانه قد سلّطكم على أراضيهم و ديارهم و أموالهم دون أن تبذلوا كثير جهد فى هذه الغزوة.

و أخيرا فإنّ التأكيد على قدرة اللّه عزّ و جلّ فى آخر آية: وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً إشارة إلى أنّه سبحانه قد هزم الأحزاب بالرياح و العواصف و الجنود الغيبيين يوما، و هزم ناصريهم- أى يهود بنى قريظة- بجيش الرعب و الخوف يوما آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۵

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۲۸ الى ۳۱]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا (۲۸) وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (۲۹) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (۳۱)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديدة للآيات أعلاه، و هى لا تختلف عن بعضها كثيرا من جهة النتيجة.

و يستفاد من أسباب النّزول هذه أنّ نساء النّبى قد طلبن منه طلبات مختلفة فيما يتعلّق بزيادة النفقة، أو لوازم الحياة المختلفة، بعد بعض الغزوات التى و فّرت للمسلمين غنائم كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۶

و طبقا لنقل بعض التفاسير فإنّ «أمّ سلمة» طلبت من النّبى صلّى اللّه عليه و آله خادما لها، و طلبت «ميمونة» حلّة، و أرادت «زينب بنت جحش» قماشا يمنيا خاصّا، و «حفصة» لباسا مصريا، و «جويرية» لباسا خاصّا، و «سودة» بساطا خيبريا! و النتيجة أنّ كلا منهنّ طلبت شيئا. فامتنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله عن تلبية طلباتهنّ، و هو يعلم أنّ الاستسلام أمام هذه الطلبات التى لا تنتهى سيحمل معه عواقب وخيمة، و اعتزلهنّ شهرا، فنزلت الآيات أعلاه و خاطبتهنّ بنبرة التهديد و الحزم الممتزج بالرأفة و الرحمة، بأنكنّ إن كنتنّ تردن حياة مملوءة بزخارف الدنيا و زبارجها فبإمكانكن الانفصال عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الذهاب إلى حيث تردن، و إن فضّلتنّ علاقتكنّ باللّه و رسوله و اليوم الآخر، و اقتنعتنّ بحياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله البسيطة و الباعثة على الفخر، فابقين معه، و تنعمنّ

بمواهب اللّه العظيمة.

بهذا الجواب القاطع أجابت الآيات نساء النّبى اللائى كن يتوقّعن رفاهية العيش، و خيّرتهنّ بين «البقاء» مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و «مفارقته».

التّفسير

أمّا السعادة الخالدة أو زخارف الدنيا!

لم يعزب عن أذهانكم أنّ الآيات الاولى من هذه السورة قد توّجت نساء النّبى بتاج الفخر حيث سمّتهنّ ب (أمهات المؤمنين) و من البديهى أنّ المناصب و المقامات الحسّاسة التى تبعث على الفخر تصاحبها مسئوليات ثقيلة، فكيف يمكن أن تكون نساء النّبى امّهات المؤمنين و قلوبهنّ و أفكارهنّ مشغولة بحبّ الدنيا و مغرياتها؟

و هكذا ظنّ، فإنّ الغنائم إذا سقطت فى أيدى المسلمين فلا شكّ أنّ نصيبهنّ سيكون أفخرها و أثمنها كبقيّة نساء الملوك و السلاطين، و يعطى لهنّ ما ناله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۷

المسلمون بتضحيات الفدائيين الثائرين و دماء الشهداء الطاهرة، فى الوقت الذى يعيش هنا و هناك أناس فى غاية العسرة و الشظف.

و بغضّ النظر عن ذلك، فإنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يجب أن لا يكون لوحده أسوة للناس بحكم الآيات السابقة، بل يجب أن تكون عائلته أسوة لباقى العوائل أيضا، و نساؤه قدوة للنساء المؤمنات حتّى تقوم القيامة، فليس النّبى صلّى اللّه عليه و آله ملكا و إمبراطورا ليكون له جناح خاصّ للنساء، و يغرق نساءه بالحلىّ و المجوهرات الثمينة النفيسة.

و ربّما كان هناك جماعة من المسلمين المهاجرين الذين وردوا المدينة لا يزالون يقضون ليلهم على الصفّة (و هى مكان خاصّ كان إلى جنب مسجد النّبى) حتّى الصباح، و لم يكن لهم فى تلك المدينة أهل و لا دار، و فى مثل هذه الأحوال لا يمكن أن يسمح النّبى صلّى اللّه عليه و آله لأزواجه أن يتوقّعن كلّ تلك الرفاهية و التوقّعات الاخرى.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ بعض أزواجه قد كلّمنه بكلام خشن جاف، حتّى أنّهنّ قلن: لعلّك تظنّ إن طلّقتنا لا نجد زوجا من قومنا غيرك ۱۹۸]. هنا امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يواجه هذه المسألة بحزم تامّ، و يوضّح لهنّ حاله الدائمى، فخاطبت الآية الاولى من الآيات أعلاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا.

«امتّعكن» من مادّة متعة، و كما قلنا فى الآية (۲۳۶) من سورة البقرة، فإنّها تعنى الهدية التى تلائم أحوال المرأة. و المراد هنا المقدار المناسب الذى يضاف على المهر، و إن لم يكن المهر معيّنا فإنّه يعطيها هدية لائقة بحالها بحيث ترضيها و تسرّها، و يتمّ طلاقها و فراقها فى جوّ هادئ مفعم بالحبّ.

«السراح» فى الأصل من مادّة (سرح) أى الشجرة التى لها ورق و ثمر، و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۸

«سرّحت الإبل»، أى: أطلقتها لتأكل من الأعشاب و أوراق الشجر، ثمّ أطلقت بمعنى أوسع على كلّ نوع من السراح و لكلّ شىء و شخص، و تأتى أحيانا كناية عن الطلاق، و يطلق (تسريح الشعر) على تمشيط الشعر و ترجيله، و فيه معنى الإطلاق أيضا. و على كلّ حال فإنّ المراد من «السراح الجميل» فى الآية طلاق النساء و فراقهنّ فراقا مقترنا بالإحسان، و ليس فيه جبر و قهر.

و للمفسّرين و فقهاء المسلمين هنا بحث مفصّل فى أنّه هل المراد من هذا الكلام أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد خيّر نساءه بين البقاء و الفراق، و إذا ما انتخبن الفراق فإنّه يعتبر طلاقا بحدّ ذاته فلا يحتاج إلى إجراء صيغة الطلاق؟ أم أنّ المراد هو أنّهنّ يخترن أحد السبيلين، فإن أردن الفراق أجرى النّبى صلّى اللّه عليه و آله صيغة الطلاق، و إلّا يبقين على حالهنّ؟

و لا شكّ أنّ الآية لا تدلّ على أىّ من هذين الأمرين، و ما تصوّره البعض من أنّ الآية شاهد على تخيير نساء النّبى، و عدّوا هذا الحكم من مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله، لأنّه لا يجرى فى سائر الناس، لا يبدو صحيحا، بل إنّ الجمع بين الآية أعلاه و آيات الطلاق يوجب أن يكون المراد الفراق عن طريق الطلاق.

و هذه المسألة مورد نقاش بين فقهاء الشيعة و السنّة، إلّا أنّ القول الثّانى- أى الفراق عن طريق الطلاق- يبدو أقرب لظواهر الآيات، إضافة إلى أنّ لتعبير (أسرحكنّ) ظهورا فى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يقدّم على تسريحهنّ، خاصّة و أنّ مادّة «التسريح» قد استعملت بمعنى الطلاق فى موضع آخر من القرآن الكريم (سورة البقرة/ الآية ۲۲۹)[۱۹۹].

و تضيف الآية التالية: وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۲۹

لقد جمعت هذه الآية كلّ أسس الإيمان و سلوكيات المؤمن، فمن جهة عنصر الإيمان و الإعتقاد باللّه و الرّسول و اليوم الآخر، و من جهة اخرى البرنامج العملى و كون الإنسان فى صفّ المحسنين و المحسنات، و بناء على هذا فإنّ إظهار عشق اللّه و حبّه، و التعلّق بالنّبى و اليوم الآخر لا يكفى لوحده، بل يجب أن تنسجم البرامج العملية مع هذا الحبّ و العشق.

و بهذا فقد بيّن اللّه سبحانه تكليف نساء النّبى و واجبهنّ فى أن يكنّ قدوة و أسوة للمؤمنات على الدوام، فإن هنّ تحلين بالزهد و عدم الاهتمام بزخارف الدنيا و زينتها، و اهتممن بالإيمان و العمل الصالح و تسامى الروح، فإنّهن يبقين أزواجا للنبى و يستحقّنّ هذا الفخر، و إلّا فعليهنّ مفارقته و البون منه.

و مع أنّ المخاطب فى هذه الآية هو نساء النّبى إلّا أنّ محتوى الآيات و نتيجتها تشمل الجميع، و خاصّة من كان فى مقام قيادة الناس و إمامتهم و أسوة لهم، فإنّ هؤلاء على مفترق الطرق دائما، فإمّا أن يستغلّوا المنصب الظاهرى للوصول إلى الحياة المادية المرفّهة، أو البقاء على حرمانهم لنوال رضى اللّه سبحانه و هداية خلقه.

ثمّ تتناول الآية التالية بيان موقع نساء النّبى أمام الأعمال الصالحة و الطالحة، و كذلك مقامهنّ الممتاز، و مسئولياتهنّ الضخمة بعبارات واضحة، فتقول: يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً.

فأنتنّ تعشن فى بيت الوحى و مركز النبوّة، و علمكنّ بالمسائل الإسلامية أكثر من عامّة الناس لارتباطكنّ المستمر بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و لقائه، إضافة إلى أنّ الآخرين ينظرون إليكنّ و يتّخذون أعمالكنّ نموذجا و قدوة لهم. بناء على هذا فإنّ ذنبكنّ أعظم عند اللّه، لأنّ الثواب و العقاب يقوم على أساس المعرفة، و معيار العلم، و كذلك مدى تأثير ذلك العمل فى البيئة، فإنّ لكنّ حظّا أعظم من العلم، و لكنّ موقع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۰

حسّاس له تأثيره فى المجتمع.

و يضاف إلى ذلك أنّ مخالفتكنّ تؤذى النّبى صلّى اللّه عليه و آله من جهة، و من جهة اخرى توجّه ضربة إلى كيانه و مركزه، و يعتبر هذا بحدّ ذاته ذنبا آخر، و يستوجب عذابا آخر.

و المراد من «الفاحشة المبيّنة» الذنوب العلنية، و نعلم أنّ المفاسد التى تنجم عن الذنوب التى يقترفها أناس مرموقون تكون أكثر حينما تكون علنية.

و لنا بحث فى مورد «الضعف» و «المضاعف» سيأتى فى البحوث.

أمّا قوله عزّ و جلّ: وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً فهو إشارة إلى أن لا تظنّن أنّ عذابكنّ و عقابكنّ عسير على اللّه تعالى، و أنّ علاقتكنّ بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله ستكون مانعة منه، كما هو المتعارف بين الناس حيث يغضّون النظر عن ذنوب الأصدقاء و الأقرباء، أو يعيرونها أهميّة قليلة .. كلّا، فإنّ هذا الحكم سيجرى فى حقّكنّ بكلّ صرامة.

أمّا فى الطرف المقابل، فتقول الآية: وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً.

«يقنت» من القنوت، و هو يعنى الطاعة المقرونة بالخضوع و الأدب ۲۰۰]، و القرآن يريد بهذا التعبير أن يأمرهنّ بأن يطعن اللّه و رسوله، و يراعين الأدب مع ذلك تماما.

و نواجه هنا هذه المسألة مرّة اخرى، و هى أنّ مجرّد ادّعاء الإيمان و الطاعة لا يكفى لوحده، بل يجب أن تلمس آثاره بمقتضى وَ تَعْمَلْ صالِحاً.

«الرزق الكريم» له معنى واسع يتضمّن كلّ المواهب المادية و المعنوية، و تفسيره بالجنّة باعتبارها مجمعا لكلّ هذه المواهب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۱

بحث

لما ذا يضاعف ثواب و عقاب المرموقين؟

قلنا: إنّ هذه الآيات و إن كانت تتحدّث عن نساء النّبى بأنّهنّ إن أطعن اللّه فلهنّ أجر مضاعف، و إن ارتكبن ذنبا مبيّنا فلهنّ عذاب الضعف بما اكتسبن، إلّا أنّ الملاك و المعيار الأصلى لما كان امتلاك المقام و المكانة المرموقة، و الشخصية الاجتماعية البارزة، فإنّ هذا الحكم صادق فى حقّ الأفراد الآخرين الذين لهم مكانة و مركز اجتماعى مهمّ.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد لا يرتبط سلوكهم و تصرفاتهم بهم خاصّة، بل إنّ لوجودهم بعدين: بعد يتعلّق بهم، و بعد يرتبط بالمجتمع، و يمكن أن يكون نمط حياتهم سببا لهداية جماعة من الناس، أو ضلال اخرى.

بناء على هذا فإنّ لأعمالهم أثرين: أحدهما فردى، و الآخر اجتماعى، و لكلّ منهما ثواب و عقاب بهذا اللحاظ، و لذلك نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[۲۰۱]!

و مضافا إلى ذلك، فإنّ العلاقة وثيقة بين مستوى العلمية و مقدار الثواب و العقاب، كما ورد ذلك فى بعض الأحاديث الشريفة، حيث نقرأ:

«إنّ الثواب على قدر العقل»[۲۰۲].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّما يداقّ اللّه العباد فى الحساب يوم القيامة على قدر ما آتاهم من العقول فى الدنيا»[۲۰۳].

بل

ورد فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: إذا بلغت النفس هاهنا- و أشار بيده إلى حلقه- لم يكن للعالم توبة، ثمّ قرأ: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۲

[۲۰۴].

و من هنا يتّضح أنّه ربّما كان معنى المضاعف و المرتين هنا هو الزيادة، فقد تكون ضعفين حينا، و تكون أضعافا مضاعفة حينا آخر، تماما كما فى الأعداد التى لها صفة التكثير، خاصّة و أنّ الراغب يقول فى مفرداته فى معنى الضعف:

ضاعفته: ضممت إليه مثله فصاعدا- تأمّلوا بدقّة- و الرواية التى ذكرناها قبل قليل حول التفاوت بين ذنب العالم و الجاهل إلى سبعين ضعفا شاهد آخر على هذا الادّعاء.

إنّ تعدّد مراتب الأشخاص و اختلاف تأثيرهم فى المجتمع نتيجة اختلاف مكاناتهم الاجتماعية، و كونهم أسوة يوجب أن يكون الثواب و العقاب الإلهى بتلك النسبة.

و ننهى هذا البحث بحديث

عن الإمام السجّاد علىّ بن الحسين عليهما السّلام، و ذلك أنّ رجلا قال له: إنّكم أهل بيت مغفور لكم، فغضب الإمام و قال: «نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى اللّه فى أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله من أن نكون كما تقول، إنّا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، و لمسيئنا ضعفين من العذاب، ثمّ قرأ الآيتين»[۲۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۳

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشارة

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۳۲) وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (۳۳) وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (۳۴)

التّفسير

هكذا يجب أن تكون نساء النّبى!

كان الكلام فى الآيات السابقة عن موقع نساء النّبى و مسئولياتهنّ الخطيرة، و يستمرّ هذا الحديث فى هذه الآيات، و تأمر الآيات نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله بسبعة أوامر مهمّة.

فيقول سبحانه فى مقدّمة قصيرة: يا- نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۴

اتَّقَيْتُنَ فإنّ انتسابكنّ إلى النّبى من جانب، و وجودكنّ فى منزل الوحى و سماع آيات القرآن و تعليمات الإسلام من جانب آخر، قد منحكن موقعا خاصّا بحيث تقدرن على أن تكن نموذجا و قدوة لكلّ النساء، سواء كان ذلك فى مسير التقوى أم مسير المعصية، و بناء على هذا ينبغى أن تدركن موقعكنّ، و لا تنسين مسئولياتكنّ الملقاة على عاتقكنّ، و اعلمن أنّكنّ إن اتقيتنّ فلكنّ عند اللّه المقام المحمود.

و بعد هذه المقدّمة التى هيّأتهنّ لتقبّل المسؤوليات و تحمّلها، فإنّه تعالى أصدر أوّل أمر فى مجال العفّة، و يؤكّد على مسألة دقيقة لتتّضح المسائل الاخرى فى هذا المجال تلقائيا، فيقول:

فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ بل تكلّمن عند تحدثكنّ بجدّ و بأسلوب عاديّ، لا كالنساء المتميّعات اللائى يسعين من خلال حديثهنّ الملىء بالعبارات المحرّكة للشهوة، و التى قد تقترن بترخيم الصوت و أداء بعض الحركات المهيّجة، أن يدفعن ذوى الشهوات إلى الفساد و ارتكاب المعاصى.

إنّ التعبير ب الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ تعبير بليغ جدّا، و مؤدّ لحقيقة أنّ الغريزة الجنسية عند ما تكون فى حدود الاعتدال و المشروعية فهى عين السلامة، أمّا عند ما تتعدّى هذا الحدّ فإنّها ستكون مرضا قد يصل إلى حدّ الجنون، و الذى يعبّرون عنه بالجنون الجنسى، و قد فصّل العلماء اليوم أنواعا و أقساما من هذا المرض النفسى الذى يتولّد من طغيان هذه الغريزة، و الخضوع للمفاسد الجنسية و البيئات المنحطّة الملوّثة.

و يبيّن الأمر الثّانى فى نهاية الآية فيقول عزّ و جلّ: يجب عليكنّ التحدّث مع الآخرين بشكل لائق و مرضى للّه و رسوله، و مقترنا مع الحقّ و العدل: وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً.

إنّ جملة فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ إشارة إلى طريقة التحدّث، و جملة: وَ قُلْنَ قَوْلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۵

مَعْرُوفاً إشارة إلى محتوى الحديث.

«القول المعروف» له معنى واسع يتضمّن كلّ ما قيل، إضافة إلى أنّه ينفى كلّ قول باطل لا فائدة فيه و لا هدف من ورائه، و كذلك ينفى المعصية و كلّ ما خالف الحقّ.

ثمّ إنّ الجملة الأخيرة قد تكون توضيحا للجملة الأولى لئلّا يتصوّر أحد أنّ تعامل نساء النّبى مع الأجانب يجب أن يكون مؤذيا و بعيدا عن الأدب الإسلامى، بل يجب أن يتعاملن بأدب يليق بهنّ، و فى الوقت نفسه يكون خاليا من كلّ صفة مهيّجة.

ثمّ يصدر الأمر الثالث فى باب رعاية العفّة، فيقول: وَ قَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى

«قرن» من مادّة الوقار، أى الثقل، و هو كناية عن التزام البيوت. و احتمل البعض أن تكون من مادّة (القرار)، و هى لا تختلف عن المعنى الأوّل كثيرا[۲۰۶].

و «التبرّج» يعنى الظهور أمام الناس، و هو مأخوذ من مادّة (برج)، حيث يبدو و يظهر لأنظار الجميع.

لكن ما هو المراد من «الجاهلية»؟

الظاهر أنّها الجاهلية التى كانت فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و لم تكن النساء محجّبات حينها كما ورد فى التواريخ، و كنّ يلقين أطراف خمرهن على ظهورهنّ مع إظهار نحورهنّ و جزء من صدورهنّ و أقراطهنّ و قد منع القرآن الكريم أزواج النّبى من مثل هذه الأعمال.

و لا شكّ أنّ هذا الحكم عامّ، و التركيز على نساء النّبى من باب التأكيد الأشدّ، تماما كما نقول لعالم: أنت عالم فلا تكذب، فلا يعنى هذا أنّ الكذب مجاز و مباح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۶

للآخرين، بل المراد أنّ العالم ينبغى أن يتّقى هذا العمل بصورة آكد.

إنّ هذا التعبير يبيّن أنّ جاهلية اخرى ستأتى كالجاهلية الاولى التى ذكرها القرآن، و نحن نرى اليوم آثار هذا التبؤ القرآنى فى عالم التمدّن المادّى، إلّا أنّ المفسّرين القدامى لم يتنبّؤوا و يعلموا بمثل هذا الأمر، لذلك فقد جهدوا فى تفسير هذه الكلمة، و لذلك اعتبر البعض منهم الجاهلية الاولى هى الفاصلة بين «آدم» و «نوح»، أو الفاصلة بين عصر «داود» و «سليمان» حيث كانت النساء تخرج بثياب يتّضح منها البدن، و فسّروا الجاهلية العربية قبل الإسلام بالجاهلية الثّانية! و لكن لا حاجة إلى هذه الكلمات كما قلنا، بل الظاهر أنّ الجاهلية الاولى هى الجاهلية قبل الإسلام، و التى أشير إليها فى موضع آخر من القرآن الكريم- فى الآية (۱۴۳) من سورة آل عمران،

و الآية (۵۰) من سورة المائدة، و الآية (۲۶) من سورة الفتح- و الجاهلية الثّانية هى الجاهلية التى ستكون فيما بعد، كجاهلية عصرنا. و سنبسط الكلام حول هذا الموضوع فى بحث الملاحظات.

و أخير يصدر الأمر الرابع و الخامس و السادس، فيقول سبحانه: وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ

إذا كانت الآية قد أكّدت على الصلاة و الزكاة من بين العبادات، فإنّما ذلك لكون الصلاة أهمّ وسائل الاتّصال و الارتباط بالخالق عزّ و جلّ، و تعتبر الزكاة علاقة متينة بخلق اللّه، و هى فى الوقت نفسه عبادة عظيمة. و أمّا جملة: أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فإنّه حكم كلّى يشمل كلّ البرامج الإلهية.

إنّ هذه الأوامر الثلاثة تشير إلى أنّ الأحكام المذكورة ليست مختّصة بنساء النّبى، بل هى للجميع، و إن أكّدت عليهنّ.

و يضيف اللّه سبحانه فى نهاية الآية: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

إنّ التعبير ب (إنّما) و الذى يدلّ على الحصر عادة- دليل على أنّ هذه المنقبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۷

خاصّة بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله. و جملة (يريد) إشارة إلى إرادة اللّه التكوينية، و إلّا فإنّ الإرادة التشريعية- و بتعبير آخر لزوم تطهير أنفسهم- لا تنحصر بأهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فإنّ كلّ الناس مكلّفون بأن يتطهّروا من كلّ ذنب و معصية.

من الممكن أن يقال: إنّ الإرادة التكوينية توجب أن يكون ذلك جبرا، إلّا أنّ جواب ذلك يتّضح من ملاحظة البحوث التى أوردناها فى مسألة كون الأنبياء و الأئمّة معصومين، و يمكن تلخيص ذلك هنا بأنّ للمعصومين أهلية اكتسابية عن طريق أعمالهم، و لهم لياقة ذاتية موهوبة لهم من قبل اللّه سبحانه، ليستطيعوا أن يكونوا أسوة للناس.

و بتعبير آخر فإنّ المعصومين نتيجة للرعاية الإلهية و أعمالهم الطاهرة، لا يقدمون على المعصية مع امتلاكهم القدرة و الإختيار فى إتيانها، تماما كما لا نرى عاقلا يرفع جمرة من النار و يضعها فى فمّه، مع أنّه غير مجبر و لا مكره على الامتناع عن هذا العمل، فهذه الحالة تنبعث من أعماق وجود الإنسان نتيجة المعلومات و الاطلاع، و المبادئ الفطرية و الطبيعية، من دون أن يكون فى الأمر جبر و إكراه.

و لفظة «الرجس» تعنى الشىء القذر، سواء كان نجسا و قذرا من ناحية طبع الإنسان، أو بحكم العقل أو الشرع، أو جميعها[۲۰۷]. و ما ورد فى بعض الأحيان من تفسير «الرجس» بالذنب أو الشرك أو البخل و الحسد، أو الإعتقاد بالباطل، و أمثال ذلك، فإنّه فى الحقيقة بيان لمصاديقه، و إلّا فإنّ مفهوم هذه الكلمة عامّ و شامل لكلّ أنواع الحماقات بحكم (الألف و اللام) التى وردت هنا، و التى تسمّى بألف و لام الجنس.

و «التطهير» الذى يعنى إزالة النجس، هو تأكيد على مسألة إذهاب الرجس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۸

و نفى السيّئات، و يعتبر ذكره هنا بصيغة المفعول المطلق تأكيدا آخر على هذا المعنى.

و أمّا تعبير أَهْلَ الْبَيْتِ فإنّه إشارة إلى أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله باتّفاق علماء الإسلام و المفسّرين، و هو الشىء الذى يفهم من ظاهر الآية، لأنّ البيت و إن ذكر هنا بصيغة مطلقة، إلّا أنّ المراد منه بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله بقرينة الآيات السابقة و اللاحقة[۲۰۸].

إلّا أنّ هناك اختلافا فى المقصود بأهل بيت النّبى هنا؟

اعتقد البعض أنّ هذا التعبير مختصّ بنساء النّبى، لأنّ الآيات السابقة و اللاحقة تتحدّث حول أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فاعتبروا ذلك قرينة على مدّعاهم.

غير أنّ الانتباه إلى مسألة فى الآية ينفى هذا الادّعاء، و هى: أنّ الضمائر التى وردت فى الآيات السابقة و اللاحقة، جاءت بصيغة ضمير

النسوة، فى حين أنّ ضمائر هذه القطعة من الآية قد وردت بصيغة جمع المذكر، و هذا يوحى بأنّ هناك معنى آخر هو المراد، و لذلك خطا جمع آخر من المفسّرين خطوة أوسع و اعتبر الآية شاملة لكلّ أفراد بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله رجالا و نساء.

و من جهة اخرى فإنّ الرّوايات الكثيرة جدّا الواردة فى كتب الفريقين تنفى شمول الآية لكلّ أهل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و تقول: إنّ المخاطبين فى الآية هم خمسة أفراد فقط، و هم: محمّد صلّى اللّه عليه و آله و على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام و مع وجود النصوص الكثيرة التى تعتبر قرينة على تفسير الآية، فإنّ التّفسير الذى يمكن قبوله هو التّفسير الثالث فقط، أى اختصاص الآية بالخمسة الطيّبة.

و السؤال الوحيد الذى يبقى هنا هو: كيف يمكن أن يطرح مطلب فى طيّات البحث فى واجبات نساء النّبى و لا يشملهنّ هذا المطلب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۳۹

و قد أجاب المفسّر الكبير العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان عن هذا السؤال فقال: ليست هذه المرّة الاولى التى نرى فيها فى آيات القرآن أن تتّصل مع بعضها و تتحدّث عن مواضيع مختلفة، فإنّ القرآن ملىء بمثل هذه البحوث، و كذلك توجد شواهد كثيرة على هذا الموضوع فى كلام فصحاء العرب و أشعارهم.

و أضاف المفسّر الكبير صاحب الميزان جوابا آخر ملخّصه: لا دليل لدينا على أنّ جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ... قد نزلت مع هذه الآيات، بل يستفاد جيّدا من الرّوايات أنّ هذه القطعة قد نزلت منفصلة، و قد وضعها الإمام مع هذه الآيات لدى جمعه آيات القرآن فى عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أو بعده.

و الجواب الثالث الذى يمكن أن يجاب به عن هذا السؤال هو: أنّ القرآن يريد أن يقول لزوجات النّبى: إنكنّ بين عائلة بعضها معصومون، و الذى يعيش فى ظلّ العصمة و منزل المعصومين فإنّه ينبغى له أن يراقب نفسه أكثر من الآخرين، و لا تنسين أنّ انتسابكنّ إلى بيت فيه خمسة معصومين يلقى على عاتقكنّ مسئوليات ثقيلة، و ينتظر منه اللّه و عباده انتظارات كثيرة.

و سنبحث فى الملاحظات القادمة- إن شاء اللّه تعالى- روايات السنّة و الشيعة الواردة فى تفسير هذه الآية.

و بيّنت الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث- سابع وظيفة و آخرها من وظائف نساء النّبى، و نبّهتهن على ضرورة استغلال أفضل الفرص التى تتاح لهنّ فى سبيل الإحاطة بحقائق الإسلام و العلم بها و بأبعادها، فتقول: وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ.

فإنكنّ فى مهبط الوحى، و فى مركز نور القرآن، فحتّى إذا جلستن فى البيوت فأنتنّ قادرات على أن تستفدن جيّدا من الآيات التى تدوّى فى فضاء بيتكنّ، و من تعليمات الإسلام و حديث النّبى صلّى اللّه عليه و آله الذى كان يتحدّث به، فإنّ كل نفس من أنفاسه درس، و كلّ لفظ من كلامه برنامج حياة! و فيما هو الفرق بين «آيات اللّه» و «الحكمة»؟ قال بعض المفسّرين: إنّ كليهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۰

إشارة إلى القرآن، غاية ما فى الأمر أنّ التعبير ب (الآيات) يبيّن الجانب الإعجازى للقرآن، و التعبير ب (الحكمة) يتحدّث عن المحتوى العميق و العلم المخفى فيه.

و قال البعض الآخر: إنّ «آيات اللّه» إشارة إلى آيات القرآن، و «الحكمة» إشارة إلى سنّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله مواعظه و إرشاداته الحكيمة.

و مع أنّ كلا التّفسيرين يناسب مقام و ألفاظ الآية، إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ التعبير بالتلاوة يناسب آيات اللّه أكثر، إضافة إلى أنّ تعبير النّزول قد ورد فى آيات متعدّدة من القرآن فى مورد الآيات و الحكمة، كالآية (۲۳۱) من سورة البقرة: وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ و يشبهه ما جاء فى الآية (۱۱۳) من سورة النساء.

و أخيرا تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً و هى إشارة إلى أنّه سبحانه مطّلع على أدقّ الأعمال و أخفاها، و يعلم نيّاتكم تماما، و هو

خبير بأسراركم الدفينة فى صدوركم.

هذا إذا فسّرنا «اللطيف» بالمطّلع على الدقائق و الخفيات، و أمّا إذا فسّر بصاحب اللطف، فهو إشارة إلى أنّ اللّه سبحانه لطيف و رحيم بكنّ يا نساء النّبى، و هو خبير بأعمالكنّ أيضا.

و يحتمل أيضا أن يكون التأكيد على «اللطيف» من جانب إعجاز القرآن، و على «الخبير» باعتبار محتواه الحكمى. و فى الوقت نفسه لا منافاة بين هذه المعانى و يمكن جمعها.

بحوث

۱- آية التطهير برهان واضح على العصمة:

اعتبر بعض المفسّرين «الرجس» فى الآية المذكورة إشارة إلى الشرك أو الكبائر- كالزنا- فقط، فى حين لا يوجد دليل على هذا التحديد، بل إنّ إطلاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۱

الرجس- و خاصّة بملاحظة ألفه و لامه، و هى ألف لام الجنس- يشمل كلّ أنواع الذنوب و المعاصى، لأنّ كلّ المعاصى رجس، و لذلك فإنّ هذه الكلمة أطلقت فى القرآن على الشرك و الخمور و القمار و النفاق و اللحوم المحرّمة و النجسة و أمثال ذلك.

انظر الآيات: الحجّ- ۳۰، المائدة- ۹۰، التوبة- ۱۲۵، الأنعام- ۱۴۵.

و بملاحظة أنّ الإرادة الإلهيّة حتمية التنفيذ و الوقوع، و أنّ جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ دليل على إرادته الحتمية، و خاصّة بوجود كلمة (إنّما) الدالّة على الحصر و التأكيد، سيتّضح أنّ إرادة اللّه سبحانه قد قطعت بأن يكون أهل البيت منزّهين عن كلّ رجس و خطأ، و هذا هو مقام العصمة.

و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّه ليس المراد من الإرادة الإلهيّة فى هذه الآية الأوامر و الأحكام الإلهيّة فى مسائل الحلال و الحرام، لأنّ هذه الأحكام تشمل الجميع، و لا تختّص بأهل البيت، و بناء على هذا فإنّها لا تتناسب مع مفهوم (إنّما).

إذن، فهذه الإرادة المستمرّة نوع من الإمداد الإلهى الذى يعيّن أهل البيت على العصمة و الاستمرار فيها، و هى فى الوقت نفسه لا تنافى حرية الإرادة و الإختيار، كما فصّلنا ذلك سابقا.

إنّ مفهوم هذه الآية فى الحقيقة هو عين ما

جاء فى الزيارة الجامعة: «عصمكم اللّه من الزلل، و آمنكم من الفتن، و طهّركم من الدنس و أذهب عنكم الرجس و طهّركم تطهيرا».

و ينبغى أن لا نشكّ بعد هذا الإيضاح فى دلالة الآية المذكورة على عصمة أهل البيت عليهم السّلام.

۲- فيمن نزلت آية التطهير؟

قلنا: إنّ هذه الآية بالرغم من أنّها وردت ضمن الآيات المتعلّقة بنساء النّبى، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۲

أنّ تغيير سياقها- حيث تبدّل ضمير الجمع المؤنث إلى ضمير الجمع المذكّر- دليل على أنّ لهذه الآية معنى و محتوى مستقلا عن تلك الآيات، و لهذا فحتّى أولئك الذين لم يعتبروا الآية مختّصة بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و على و فاطمة و الحسن و الحسين

عليهم السّلام، فإنّهم اعتقدوا أنّ لها معنى واسعا يشمل هؤلاء العظام و نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

إلّا أنّ الرّوايات الكثيرة التى بين أيدينا تبيّن أنّ هذه الآية خاصّة بهؤلاء الأجلّاء، و لا تدخل الزوجات ضمن الآية، بالرغم من أنهنّ يتمتّعن باحترام خاصّ، و نضع بين أيديكم بعضا من هذه الروايات:

أ: الرّوايات التى رويت عن أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنفسهنّ، و التى حدثن فيها: إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله عند ما كل يتحدّث عن هذه الآية الشريفة سألناه: أ نحن من أصحاب هذه الآية؟ فكان يجيب: بأنكنّ إلى خير، و لكن لستنّ من أصحابها.

و من جملتها الرواية التى

رواها «الثعلبى» عن «امّ سلمة» فى تفسيره، و ذلك أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان فى بيتها إذ أتته فاطمة عليها السّلام بقطعة حرير، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «ادعى لى زوجك و ابنيك- الحسن و الحسين-» فأتت به فطعموا، ثمّ ألقى عليهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله كساء له خيبريا و قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتى و عترتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا» فنزلت آية التطهير، فقلت: يا رسول اللّه و أنا معهم؟ قال: «إنّك إلى خير» و لكنّك لست منهم ۲۰۹].

و يروى «الثعلبى» أيضا عن «عائشة» أنّها عند ما سئلت عن حرب الجمل و تدخّلها فى تلك الحرب المدمّرة الطاحنة، قالت بأسف: كان ذلك قضاء اللّه.

و

عند ما سئلت عن على عليه السّلام قالت: تسألينى عن أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، و زوج أحبّ الناس كان إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله؟ لقد رأيت عليا و فاطمة و حسنا و حسينا عليهم السّلام، و جمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بثوب عليهم ثمّ قال: «اللهمّ هؤلاء أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۳

بيتى و حامتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا» قالت: فقلت: يا رسول اللّه، أنا من أهلك! قال: «تنحّى فإنّك إلى خير»[۲۱۰]- إلّا أنّك لست جزءا منهم-.

إنّ هذه الرّوايات تصرّح أنّ زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله لسن جزءا من أهل البيت فى هذه الآية.

ب: لقد

وردت روايات كثيرة جدّا بصورة مجملة فى شأن حديث الكساء، يستفاد منها جميعا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله دعا عليا و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام- أو أنّهم أتوا إليه- فألقى عليهم عباءة و قال: «اللهمّ هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا»، فنزلت الآية: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ....

و قد روى العالم المعروف «الحاكم الحسكانى النيسابورى» هذه الروايات فى (شواهد التنزيل) بطرق مختلفة عن رواة مختلفين ۲۱۱].

و هنا سؤال يلفت النظر، و هو: ماذا كان الهدف من جمعهم تحت الكساء؟

كأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يريد أن يحدّد هؤلاء و يعرّفهم تماما، و يقول: إنّ الآية أعلاه فى حقّ هؤلاء خاصّة، لئلّا يرى أحد أو يظنّ ظانّ أنّ المخاطب فى هذه الآية كلّ من تربطه بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله قرابة، و كلّ من يعدّ جزءا من أهله، حتّى جاء فى بعض الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد كرّر هذه الجملة ثلاث مرّات:

«اللهمّ هؤلاء أهل بيتى و خاصّتى فأذهب عنهم الرجس و طهّرهم تطهيرا»[۲۱۲].

ج: نقرأ فى روايات عديدة اخرى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله بقى ستّة أشهر بعد نزول هذه الآية ينادى عند مروره من جنب بيت فاطمة سلام اللّه عليها و هو ذاهب إلى صلاة الصبح:

«الصلاة یا أهل البیت! إنّما یرید اللّه لیذهب عنکم الرجس أهل البیت و یطهّرکم تطهیرا». و قد روی الحاکم الحسکانی هذا الحدیث عن أنس بن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۴

مالک ۲۱۳].

و روی ابن عبّاس أیضا هذا الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله ۲۱۴].

و هنا مسألة تستحقّ الانتباه، و هی أنّ تکرار هذه الأمر ستّة أشهر أو ثمانیة أو تسعة أشهر بصورة مستمرّة جنب بیت فاطمة إنّما هو لبیان هذه المسألة تماما لئلّا یبقی مجال للشکّ لدی أیّ شخص بأنّ هذه الآیة قد نزلت فی شأن هؤلاء النفر فقط، خاصّة و أنّ الدار الوحیدة التی بقی بابها مفتوحا إلی داخل المسجد بعد أن أمر اللّه نبیّه بأن تغلق جمیع أبواب بیوت الآخرین، هی دار فاطمة علیها السّلام، و لا شکّ أنّ جماعة من الناس کانوا یسمعون ذلک القول من النّبی صلّی اللّه علیه و آله حین الصلاة هناک- تأمّلوا ذلک-.

و مع ذلک، فإنّ ممّا یثیر العجب أنّ بعض المفسّرین یصرّون علی أنّ للآیة معنی عامّا تدخل فیه أزواج النّبی، بالرغم من أنّ أکثر علماء الإسلام، السنّة منهم و الشیعة، قد حدّدوها بهؤلاء الخمسة.

و ممّا یستحقّ الالتفات أنّ عائشة- زوجة النّبی لم تکن تدع شیئا فی ذکر فضائلها، و دقائق علاقتها بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله بشهادة الروایات الإسلامیة، فإذا کانت هذه الآیة تشملها فلا بدّ أنّها کانت ستتحدّث بها فی المناسبات المختلفة، فی حین لم یرو شیء من ذلک عنها مطلقا.

د: رویت روایات عدیدة عن الصحابی المعروف «أبی سعید الخدری» تشهد بصراحة بأنّ هذه الآیة قد نزلت فی شأن هؤلاء الخمسة الأطهار: «نزلت فی خمسة: فی رسول اللّه، و علی، و فاطمة، و الحسن، و الحسین»[۲۱۵]. و هذه الرّوایات کثیرة بحیث عدّها بعض المحقّقین متواترة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۵

و ممّا قلناه نستنتج أنّ المصادر و رواة الأحادیث التی تدلّ علی اختصاص الآیة بالخمسة المطهّرة و حصرها بهم کثیرة بحیث لا تدع لأحد المجال للشکّ فی هذه الدلالة، حتّی أنّه ذکر فی شرح (إحقاق الحقّ) أکثر من سبعین مصدرا من مصادر العامّة المعروفة، و أمّا مصادر الشیعة فی هذا الباب فتربو علی الألف ۲۱۶]. و قد روی صاحب کتاب (شواهد التنزیل)- و هو من علماء الإخوة السنّة المشهورین- أکثر من (۱۳۰) حدیثا فی هذا الموضوع ۲۱۷].

و بغضّ النظر عن کلّ ذلک، فإنّ بعض أزواج النّبی قد قمن بأعمال طوال حیاتهنّ تخالف مقام العصمة، و لا تناسب کونهنّ معصومات، کحادثة «حرب الجمل» التی کانت ثورة و خروجا علی إمام الزمان، و التی تسبّبت فی إراقة دماء کثیرة، فقد بلغ عدد القتلی فی هذه الحرب- عند بعض المؤرخّین- سبعة عشر ألف قتیل.

و لا شکّ أنّ هذه المعرکة لا یمکن توجیهها، بل إنّنا نری أنّ عائشة نفسها قد أظهرت الندم بعدها، و قد مرّ نموذج من هذا الندم فی البحوث السابقة.

إنّ انتقاص عائشة من خدیجة- و التی هی من أعظم نساء المسلمین، و أکثر هنّ تضحیة و إیثارا، و أجلّهنّ فضیلة و قدرا- مشهور فی تاریخ الإسلام، و قد آلم هذا الکلام رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله حتّی ظهرت علی وجهه الشریف آثار الغضب و

قال: «لا و اللّه ما أبدلنی اللّه خیرا منها، آمنت بی إذ کفر الناس، و صدّقتنی إذ کذّبنی الناس، و واستنی فی مالها إذ حرمنی الناس»[۲۱۸].

۳- هل أن الإرادة الإلهية هنا تكوينية أم تشريعية؟

مرّت الإشارة فى طيّات تفسير هذه الآية إلى هذا الموضوع، و قلنا: إنّ الإرادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۶

فى جملة: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ إرادة تكوينية لا تشريعية.

و لمزيد التوضيح ينبغى أن نذكّر بأنّ المراد من «الإرادة التشريعية» هى أوامر اللّه و نواهيه، فنعلم مثلا أنّ اللّه سبحانه يريد منّا أداء الصلاة و الصوم و الحجّ و الجهاد، و هذه إرادة تشريعية. و من المعلوم أنّ الإرادة التشريعية تتعلّق بأفعالنا لا بأفعال اللّه عزّ و جلّ. فى حين أنّ الآية أعلاه تتعلّق بأفعال اللّه سبحانه، فهى تقول:

إنّ اللّه أراد أن يذهب عنكم الرجس، و بناء على هذا فإنّ مثل هذه الإرادة يجب أن تكون تكوينية، و مرتبطة بإرادة اللّه سبحانه فى عالم التكوين.

إضافة إلى ذلك، فإنّ مسألة الإرادة التشريعية فيما يتعلّق بالتقوى و العفّة لا تنحصر بأهل البيت عليهم السّلام، لأنّ اللّه قد أمر الجميع بالتقوى و التطهّر من الذنوب، و بذلك لا تكون لهم مزيّة و خاصيّة، لأنّ كلّ المكلّفين مشمولون بهذا الأمر.

و على أيّة حال، فإنّ هذا الموضوع- أى الإرادة التشريعيّة- مضافا إلى أنّه لا يناسب ظاهر الآية، فانّه لا يتناسب مع الأحاديث السابقة بأىّ وجه من الوجوه، لأنّ كلّ تلك الأحاديث تتحدّث عن فضيلة سامية و هبة مهمّة خاصّة بأهل البيت عليهم السّلام.

و من المسلّم أيضا أنّ «الرجس» هنا لا يعنى الرجس الظاهرى، بل هو إشارة إلى الأرجاس الباطنية، و إطلاق هذه الكلمة ينفى انحصارها و كونها محدودة بالشرك و الكفر و الأعمال المنافية للعفّة و أمثال ذلك، فإنّها تشمل كلّ الذنوب و المعاصى و المفاسد العقائدية و الأخلاقية و العملية.

و المسألة الاخرى التى ينبغى الالتفات إليها بدقّة هى أنّ الإرادة التكوينية التى تعنى الخلقة و الإيجاد، تعنى هنا «المقتضى» لا العلّة التامّة لتكون موجبة للجبر و سلب الإختيار.

و توضيح ذلك، إنّ مقام العصمة يعنى حالة تقوى اللّه التى توجد عند الأنبياء و الأئمّة بمعونة اللّه سبحانه، لكن وجود هذه الحالة لا يعنى أنّهم غير قادرين على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۷

ارتكاب المعصية، بل إنّهم قادرون على إتيانها، غير أنّهم يعفّون أنفسهم و يجلّونها عن التلوّث بها باختيارهم، و يغضّون الطرف عنها طوعا، تماما كالطبيب الحاذق الذى لا يتناول مطلقا مادّة سمّية جدّا و هو يعلم الأخطار التى تنجم عن تناولها، و مع أنّه قادر على تناولها، إلّا أنّ علومه و اطلاعه و مبادئه الفكرية و الروحية تدفعه إلى الامتناع إراديا و اختيارا عن هذا العمل.

و يجب التذكير بهذه المسألة، و هى أنّ هذه التقوى موهبة خاصّة منحت للأنبياء لا للآخرين، لكن اللّه سبحانه قد منحهم إيّاها للمسؤوليات الثقيلة الخطيرة الملقاة على عاتقهم فى قيادة الناس و إرشادهم، و بناء على هذا فإنّه امتياز يعود نفعه على الجميع، و هذه عين العدالة، تماما كالامتياز الخاصّ الذى منحه اللّه لطبقات العين و أغشيتها الرقيقة و الحسّاسة جدّا، و التى يستفيد منها جميع البدن.

إضافة إلى أنّ الأنبياء تعظم مسئولياتهم و واجباتهم بنفس المقدار الذى يتمتّعون بهذا المواهب الإلهية و الامتيازات، فإنّ ترك الاولى من قبلهم يعادل ذنبا كبيرا يصدر من الناس العاديين، و هذا معيار و تشخيص لخطّ العدالة.

و النتيجة أنّ هذه الإرادة إرادة تكوينية فى حدود المقتضى- و ليست علّة تامّة- و هى فى الوقت نفسه لا توجب الجبر و لا تسلب الإختيار و الإرادة الإنسانية.

۴- جاهلية القرن العشرين!

مرّت الإشارة إلى أنّ جمعا من المفسّرين تورّطوا فى تفسير (الجاهلية الاولى) و كأنّهم لم يقدروا أن يصدّقوا ظهور جاهلية اخرى فى العالم بعد ظهور الإسلام، و أنّ جاهلية العرب قبل الإسلام ضئيلة تجاه الجاهلية الجديدة، إلّا أنّ هذا الأمر قد تجلّى للجميع اليوم، حيث نرى مظاهر جاهلية القرن العشرين المرعبة، و يجب أن تعدّ تلك إحدى تنبؤات القرآن الإعجازية.

إذا كان العرب فى زمان الجاهلية يغيرون و يحاربون، و إذا كان سوق عكاظ-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۸

مثلا- ساحة لسفك الدماء لأسباب تافهة عدّة مرّات، و قتل على أثرها أفراد معدودون، فقد وقعت فى جاهلية عصرنا حروب ذهب ضحيّتها عشرون مليون إنسان، و جرح و تعوّق أكثر من هذا العدد! و إذا كانت النساء «تتبرّج» فى زمن الجاهلية و يلقين خمرهنّ عن رؤوسهن بحيث كان يظهر جزء من صدورهنّ و نحورهنّ، و قلائدهنّ و أقراطهنّ، ففى عصرنا تشكّل نواد تسمّى بنوادى العراة- و نموذجها مشهور فى بريطانيا- حيث يتعرّى أفرادها كما ولدتهم امّهاتهم، و فضائح البلاجات على سواحل البحار و المسابح، بل و حتّى فى الأماكن العامّة و على قارعة الطريق يخجل القلم من ذكرها.

و إذا كانت فى الجاهلية «زانيات من ذوات الأعلام»، حيث كنّ يرفعن أعلاما فوق بيوتهنّ ليدعين الناس إلى أنفسهنّ، فى جاهلية قرننا أناس يطرحون أمورا و مطالب فى هذا المجال عبر صحف خاصّة، يندى لها الجبين، و لجاهلية العرب مائة مرتبة من الشرف على هذه الجاهلية.

و الخلاصة: ماذا نقول عن وضع المفاسد التى توجد فى عصرنا الحاضر .. عصر التمدّن المادّى الآلى الخالى من الإيمان، فعدم الحديث عنها أولى، و لا ينبغى أن نلوّث هذا التّفسير بذكرها.

إنّ ما قلناه كان جانبا من العبء الملقى على عاتقنا لبيان حياة الذين يبتعدون عن اللّه تعالى، فإنّهم و إن امتلكوا آلاف الجامعات و المراكز العلمية و العلماء المعروفين، فهم غارقون فى و حل الفساد و مستنقع الرذيلة، بل إنّهم قد يضعون هذه المراكز العلمية و علماءها فى خدمة هذه الفجائع و المفاسد أحيانا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۴۹

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۳۵]

اشارة

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۳۵)

سبب النّزول

أورد جمع من المفسّرين فى سبب نزول هذه الآية انّه عند ما رجعت «أسماء بنت عميس» زوجة «جعفر بن أبى طالب» من الحبشة مع زوجها، جاءت إلى زوجات النّبى، فسألتهن: هل نزل فينا شىء من القرآن؟ فقلن: لا، فأتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فقالت: «يا رسول اللّه إنّ النساء لفى خيبة و خسار. فقال: و ممّ ذلك؟ قالت: لأنّهنّ لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال. فأنزل اللّه تعالى هذه

الآية

(التى طمأنت النساء بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۰

لهنّ درجة عند اللّه مساوية للرجال، و أكّدت على أنّ المعيار هو العقيدة و العمل و الأخلاق الإسلامية).

التّفسير

شخصية المرأة و مكانتها فى الإسلام:

بعد البحوث التى ذكرت فى الآيات السابقة حول واجبات أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله، فقد ورد فى هذه الآية كلام جامع عميق المحتوى فى شأن كلّ النساء و الرجال و صفاتهم، و بعد أن ذكرت عشر صفات من صفاتهم العقائدية و الأخلاقية و العملية، بيّنت الثواب العظيم المعدّ لهم فى نهايتها.

إنّ بعض هذه الصفات العشر تتحدّث عن مراحل الإيمان (الإقرار باللسان، و التصديق بالقلب و الجنان، و العمل بالأركان).

و القسم الآخر يبحث فى التحكّم باللسان و البطن و الشهوة الجنسية، و التى تشكّل ثلاثة عوامل مصيرية فى حياة البشر و أخلاقهم.

و تحدّثت فى جانب آخر عن مسألة الدفاع عن المحرومين، و الاستقامة أمام الحوادث الصعبة، أى الصبر الذى هو أساس الإيمان.

و أخيرا تتحدّث عن عامل استمرار هذه الصفات، أى «ذكر اللّه تعالى».

تقول الآية: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ أى المطيعين لأوامر اللّه و المطيعات.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد اعتبر الإسلام و الإيمان فى الآية بمعنى واحد، إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التكرار يوحى بأنّ المراد منهما شيئان مختلفان، و هو إشارة إلى المطلب الذى ورد فى الآية (۱۴) من سورة الحجرات: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ و هو إشارة إلى أنّ «الإسلام» هو الإقرار باللسان الذى يجعل الإنسان فى صفّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۱

المسلمين، و يصبح مشمولا بأحكامهم، إلّا أنّ «الإيمان» هو التصديق بالقلب و الجنان.

و قد أشارت الرّوايات الإسلامية إلى هذا التفاوت فى المعنى،

ففى رواية أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام سأله عن الإسلام و الإيمان، و هل أنّهما مختلفان؟

فقال الإمام عليه السّلام: «إنّ الإيمان يشارك الإسلام، و الإسلام لا يشارك الإيمان»، فاستوضح الرجل الإمام أكثر فقال عليه السّلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلّا اللّه و التصديق برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، به حقنت الدماء، و عليه جرت المناكح و المواريث، و على ظاهره جماعة الناس، و الإيمان الهدى و ما يثبت فى القلوب، و ما ظهر من العمل به»[۲۱۹].

«قانت» من مادّة (القنوت)، و هى- كما قلنا سابقا- الطاعة المقترنة بالخضوع، الطاعة التى تنبع من الإيمان و الإعتقاد، و هذه إشارة إلى الجوانب العملية للإيمان و آثاره.

ثمّ تطرقت إلى أحد أهمّ صفات المؤمنين الحقيقيين، أى حفظ اللسان، فتقول:

وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ

و يستفاد من الرّوايات أنّ استقامة إيمان الإنسان و صدقه باستقامة لسانه و صدقه:

«لا يستقيم إيمان امرئ حتّى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه»[۲۲۰].

و لمّا كان الصبر و التحمّل و الصلابة أمام المشاكل و العقبات هو أساس الإيمان، و دوره و منزلته فى معنويات الإنسان بمنزلة الرأس من الجسد، فقد وصفتهم الآية بصفتهم الخامسة، فقالت: وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ

و نعلم أنّ أحد أسوأ الآفات الأخلاقية هو الكبر و الغرور و حبّ الجاه، و النقطة التى تقع فى مقابله هى «الخشوع»، لذلك كانت الصفة السادسة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۲

وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ

و إذا تجاوزنا حبّ الجاه، فإنّ حبّ المال أيضا آفة كبرى، و عبادته و التعلّق به ذلّة خطيرة مرّة، و يقابله الإنفاق و مساعدة المحتاجين، لذلك كانت صفتهم السابعة: وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ

قلنا: إنّ ثلاثة أشياء إذا تخلّص الإنسان من شرّها، فإنّه سيبقى فى مأمن من كثير من الآفات و الشرور الأخلاقية، و هى: اللسان و البطن و الشهوة الجنسية، و قد أشير إلى الأوّل فى الصفة الرّابعة، أمّا الشىء الثّانى و الثالث فقد أشارت إليهما الآية فى الصفتين الثامنة و التاسعة، فقالت: وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ

و أخيرا تطرّقت الآية إلى الصفة العاشرة التى يرتبط بها الاستمرار فى كلّ الصفات السابقة و المحافظة عليها، فقالت: وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ

أجل .. إنّ هؤلاء يجب أن يكونوا مع اللّه و يذكروه فى كلّ حال، و فى كلّ الظروف، و أن يزيحوا عن قلوبهم حجب الغفلة و الجهل، و يبعدون عن أنفسهم همزات الشياطين و وساوسهم، و إذا ما بدرت منهم عثرة فإنّهم يهبون لجبرانها فى الحال لئلّا يحيدوا عن الصراط المستقيم.

و قد ذكرت تفاسير مختلفة ل «الذكر الكثير» فى الرّوايات و كلمات المفسّرين، و كلّها من قبيل ذكر المصداق ظاهرا، و يشملها جميعا معنى الكلمة الواسع. و من جملتها ما نقرؤه

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فتوضّئا و صلّيا كتبا من الذاكرين اللّه كثيرا و الذاكرات»[۲۲۱].

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من بات على تسبيح فاطمة عليها السّلام كان من الذاكرين اللّه كثيرا و الذاكرات»[۲۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۳

و قال بعض المفسّرين: إنّ «الذكر الكثير» هو الذكر حال القيام و القعود، و ذكر اللّه عند ما يأوى المرء إلى فراشه.

و على أى تقدير، فإنّ الذكر علامة الفكر، و الفكر مقدّمة للعمل، فليس الهدف هو الذكر الخالى من الفكر و العمل مطلقا.

ثمّ تبيّن الآية فى النهاية الأجر الجزيل لهذه الفئة من الرجال و النساء الذين يتمتّعون بهذه الخصائص العشرة بأنّهم قد أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً فإنّه تعالى قد غسل ذنوبهم التى كانت سببا فى تلوّث أرواحهم، بماء المغفرة، ثمّ كتب لهم الثواب العظيم الذى لا يعرف مقداره إلّا هو.

و الواقع إنّ أحد هذين الأمرين يطرد كلّ المنغّصات، و الآخر يجلب كلّ الخيرات.

إنّ التعبير ب «أجرا» دليل بنفسه على عظمته، و وصفه ب «العظيم» تأكيد على هذه العظمة، و كون هذه العظمة مطلقة دليل آخر على سعة أطرافها و تراميها، و من البديهى، أنّ الشىء الذى يعده اللّه عظيما يكون خارقا فى عظمته.

و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه، و هى أنّ جملة أَعَدَّ قد وردت بصيغة الماضى، و هو بيان لحتمية هذا الأجر و الجزاء و عدم إمكان خلفه و عدم الوفاء به، أو أنّه إشارة إلى أنّ الجنّة و نعمها معدّة منذ الآن للمؤمنين.

بحث

مساواة الرجل و المرأة عند اللّه:

يتصوّر البعض أحيانا أنّ الإسلام قد رجّح كفّة شخصية الرجال، و لا مكانة مهمّة للنساء فى برامج الإسلام، و ربّما كان منشأ هذا الاشتباه هو بعض الاختلافات الحقوقية، و التى لكلّ منها فلسفة خاصّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۴

و مع غضّ النظر عن مثل هذه الاختلافات التى لها علاقة بالمكانات و المراكز الاجتماعية و ظروفها الطبيعية- فلا شكّ فى عدم وجود أى فرق بين الرجل و المرأة فى تعليمات الإسلام من الناحية الإنسانية و المقامات المعنوية، و الآية المذكورة دليل واضح على هذه الحقيقة، لأنّها وضعت المرأة و الرجل فى مرتبة واحدة ككفّتى ميزان لدى تبيانها خصائص المؤمنين، و أهمّ المسائل العقائدية و الأخلاقية و العملية، و وعدت الإثنين بمكافاة متكافئة و ثواب متساو بدون أى تفاوت و اختلاف.

و بتعبير آخر: لا يمكن إنكار التفاوت الجسمى بين الرجل و المرأة، كما لا يمكن إنكار التفاوت النفسى بينهما أيضا، و من البديهى أنّ هذا التفاوت ضرورى لإدامة نظام المجتمع الإنسانى، كما أنّه يفرز آثارا و نتائج فى بعض القوانين الحقوقية للمرأة و الرجل، إلّا أنّ الإسلام لم يطرح شخصية المرأة الإنسانية للمناقشة- كما فعل ذلك بعض القساوسة المسيحيين فى القرون الماضية- بأنّ المرأة هل هى إنسان فى الواقع؟ و هل لها روح إنسانية أم لا؟! و لم يكتف بذلك فحسب، بل أكّد على عدم الفرق بين الجنسين من ناحية الروح الإنسانية، و لذلك نقرأ فى الآية (۹۷) من سورة النحل مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

لقد أقرّ الإسلام للمرأة نفس الاستقلال الاقتصادى الذى أقرّه للرجل، على عكس كثير من قوانين العالم السابقة، بل و حتّى قوانين عالم اليوم التى لم تبح للمرأة الاستقلال الاقتصادى مطلقا.

من هنا، فإنّنا نلاحظ فى علم الرجال الإسلامى جانبا خاصّا يتعلّق بالنساء العالمات اللواتى كنّ فى مصافّ الرواة و الفقهاء، و قد ذكرن كشخصيات مؤثّرة و فاعلة فى التاريخ الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۵

و إذا رجعنا إلى تاريخ العرب قبل الإسلام، و حقّقنا فى وضع النساء فى ذلك المجتمع، و رأينا كيف أنهنّ كنّ محرومات من أبسط حقوق الإنسان، بل لم يكن المشركون يعتقدون بأنّ لهنّ حقّ الحياة أحيانا، و لذلك كانوا يئدونهنّ و هنّ أحياء بعد ولادتهنّ!! و كذلك إذا نظرنا إلى وضع المرأة فى عالمنا المعاصر حيث أصبحت العوبة لا إختيار لها و لا إرادة فى أيدى مجموعة من المتلبّسين بلباس الإنسانية و يدعون التمدّن، فسوف ندرك جيدا بأنّ الإسلام قد خدم المرأة أيّما خدمة، و له حقّ عظيم عليهنّ ۲۲۳]؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (۳۶) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ

وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (۳۷) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (۳۸)

سبب النّزول

نزلت هذه الآيات- على قول أغلب المفسّرين- فى قضيّة زواج «زينب بنت جحش»- بنت عمّة الرّسول الأكرم- بزيد بن حارثة مولى النّبى صلّى اللّه عليه و آله المعتق، و كانت القصّة كما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۷

كانت خديجة قد اشترت قبل البعثة و بعد زواجها بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله عبدا اسمه زيد، ثمّ و هبته للنّبى صلّى اللّه عليه و آله فأعتقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله، فلمّا طردته عشيرته و تبرّأت منه تبنّاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و بعد ظهور الإسلام أصبح زيد مسلما مخلصا متفانيا، و أصبح له موقع ممتاز فى الإسلام، و كما نعلم فإنّه أصبح فى النهاية أحد قوّاد جيش الإسلام فى معركة مؤتة و استشهد فيها.

و عند ما صمّم النّبى صلّى اللّه عليه و آله على أن ينتخب زوجة لزيد، خطب له «زينب بنت جحش»- و التى كانت بنت «أميّة بنت عبد المطّلب»، أى بنت عمّته- فكانت زينب تظنّ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يريد أن يخطبها لنفسه، فسرّت و رضيت، و لكنّها لمّا علمت فيما بعد أن خطبته كانت لزيد تأثّرت تأثّرا شديدا و امتنعت، و كذلك خالف أخوها عبد اللّه هذه الخطبة أشدّ مخالفة.

هنا نزلت الآية الاولى من الآيات مورد البحث و حذّرت زينب و عبد اللّه و أمثالهما بأنّهم لا يقدرون على مخالفة أمر يراه اللّه و رسوله ضروريا، فلمّا سمعا ذلك سلّما لأمر اللّه.

إنّ هذا الزواج لم يكن زواجا بسيطا- كما سنرى ذلك- بل كان مقدّمة لتحطيم سنّة جاهلية مغلوطة، حيث لم تكن أيّة امرأة لها مكانتها و شخصيتها فى المجتمع مستعدّة للاقتران بعبد فى زمن الجاهلية، حتّى و إن كان متمتّعا بقيم إنسانية عالية.

غير أنّ هذا الزواج لم يدم طويلا، بل انتهى إلى الطلاق نتيجة عدم الانسجام و اختلاف أخلاق الزوجين، بالرغم من أنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله كان مصرّا على أن لا يتمّ هذا الطلاق.

بعد ذلك اتّخذ النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأمر اللّه «زينب» زوجة له لتعوّض بذلك فشلها فى زواجها، فانتهت المسألة هنا، إلّا أنّ همهمات و أقاويل قد ظهرت بين الناس، و قد اقتلعها القرآن و عالجها فى هذه الآيات التى نبحثها، و سيأتى تفصيل ذلك، إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۸

شاء اللّه تعالى ۲۲۴].

التّفسير

تمرّد عظيم على العرف:

نعلم أنّ روح الإسلام التسليم، و يجب أن يكون تسليما لأمر اللّه تعالى بدون قيد أو شرط، و قد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفة من القرآن الكريم، و بعبارات مختلفة، و من جملتها الآية أعلاه، و التى تقول: وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ بل يجب أن يجعلوا إرادتهم تبعا لإرادة اللّه تعالى، كما أنّ كلّ وجودهم من الشعر حتّى أخمص القدمين

مرتبط به و مذعن له.

(قضى) هنا تعنى القضاء التشريعى، و القانون و الأمر و الحكم و القضاء، و من البديهى أنّ اللّه تعالى غنى عن طاعة الناس و تسليمهم، و لم يكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله ينظر بعين الطمع لهذه الطاعة، بل هى فى الحقيقة لمصلحتهم و منفعتهم، فإنّهم قد يجهلونها لكون علمهم و آفاقهم محدودة، إلّا أنّ اللّه تعالى يعلمها فيأمر نبيّه بإبلاغها.

إنّ هذه الحالة تشبه تماما حالة الطبيب الماهر الذى يقول للمريض: إنّنى أبدا بعلاجك إذا أذعنت لأوامرى تماما، و لم تبد أى مخالفة تجاهها، و هذه الكلمات تبيّن غاية حرص الطبيب على علاج مريضه، و اللّه تعالى أسمى و أرحم بعباده من مثل هذا الطبيب، و لذلك أشارت الآية إلى هذه المسألة فى نهايتها، حيث تقول:

وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً.

فسوف يضلّ طريق السعادة، و يسلك طريق الضلال و الضياع، لأنّه لم يعبأ بأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۵۹

ربّ الكون الرحيم، و بأمر رسوله، ذلك الأمر الضامن لخيره و سعادته، و أيّة ضلالة أوضح من هذه؟! ثمّ تناولت الآية التالية قصّة «زيد» و زوجته «زينب» المعروفة، و التى هى إحدى المسائل الحسّاسة فى حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و لها ارتباط بمسألة أزواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ

و المراد من نعمة اللّه تعالى هى نعمة الهداية و الإيمان التى منحها لزيد بن حارثة، و من نعمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه كان قد أعتقه و كان يعامله كولده الحبيب العزيز.

و يستفاد من هذه الآية أنّ شجارا قد وقع بين زيد و زينب، و قد استمرّ هذا الشجار حتّى بلغ أعتاب الطلاق، و بملاحظة جملة تَقُولُ حيث إنّ فعلها مضارع، يستفاد أنّ النّبى كان ينصحه دائما و يمنعه من الطلاق.

هل أنّ هذا الشجار كان نتيجة عدم تكافؤ الحالة الاجتماعية بين زينب و زيد، حيث كانت من قبيلة معروفة، و كان هو عبدا معتق؟

أم كان ناتجا عن بعض الخشونة فى أخلاق زيد؟

أو لا هذا و لا ذاك، بل لعدم وجود انسجام روحى و أخلاقى بينهما، فإنّ من الممكن أن يكون شخصان جيدين، إلّا أنّهما يختلفان من ناحية السلوك و الفكر و الطباع بحيث لا يستطيعان أن يستمرا فى حياة مشتركة؟

و مهما يكن الأمر فإنّ المسألة إلى هنا ليست بذلك التعقيد.

ثمّ تضيف الآية: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ

لقد أسهب المفسّرون هنا فى الكلام، و كان تسامح بعضهم فى التعبيرات قد منح الأعداء حربة للطعن، فى حين يفهم من القرائن الموجودة فى نفس الآية، و سبب نزول الآيات، و التأريخ، أنّ معنى الآية ليس مطلبا و مبحثا معقّدا، و ذلك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۰

إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان قد قرّر أن يتّخذ «زينب» زوجة له إذا ما فشل الصلح بين الزوجين و وصل أمرهم إلى الطلاق لجبران هذه النكسة الروحية التى نزلت بابنة عمّته زينب من جرّاء طلاقها من عبده المعتق، إلّا أنّه كان قلقا و خائفا من أن يعيبه الناس و يثير مخالفيه ضجّة و ضوضاء، من جهتين:

الاولى: أنّ زيدا كان ابن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله بالتبنّى، و كان الابن المتبنّى- طبقا لسنّة جاهلية- يتمتّع بكلّ أحكام الابن الحقيقى، و من جملتها أنّهم كانوا يعتقدون حرمة الزواج من زوجة الابن المتبنّى المطلّقة.

و الاخرى: هى كيف يمكن للنبى صلّى اللّه عليه و آله أن يتزوّج مطلّقة عبده المعتق و هو فى تلك المنزلة الرفيعة و المكانة السامية؟

و يظهر من بعض الروايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد صمّم على أن يقدم على هذا الأمر بأمر اللّه سبحانه رغم كلّ الملابسات و الظروف، و فى الجزء التالى من الآية قرينة على هذا المعنى.

بناء على هذا، فإنّ هذه المسألة كانت مسألة أخلاقية و إنسانية، و كذلك كانت وسيلة مؤثّرة لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين، و هما: الاقتران بمطلّقة الابن المتبنّى، و الزواج من مطلّقة عبد معتق.

من المسلّم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا ينبغى أن يخاف الناس فى مثل هذه المسائل، و لا يدع للضعف و التزلزل و الخشية من تأليب الأعداء و شايعاتهم إلى نفسه سبيلا، إلّا أنّ من الطبيعى أن يبتلى الإنسان بالخوف و التردّد فى مثل هذه المواقف، خاصّة و أنّ أساس هذه المسائل كان إختيار الزوجة، و أنّه كان من الممكن أن تؤثّر هذه الأقاويل و الضجيج على انتشار أهدافه المقدّسة و توسّع الإسلام، و بالتالى ستؤثّر على ضعفاء الإيمان، و تغرس فى قلوبهم الشكّ و التردّد.

لهذا تقول الآية فى متابعة المسألة: إنّ زيد لمّا أنهى حاجته منها و طلّقها زوجناها لك: فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۱

حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً و كان لا بدّ أن يتمّ هذا الأمر وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا.

«الأدعياء» جمع «دعى»، أى الابن المتبنّى، و «الوطر» هو الحاجة المهمّة، و إختيار هذا التعبير فى مورد طلاق زينب للطف البيان، لئلّا يصرّح بالطلاق الذى يعدّ عيبا للنساء، بل و حتّى للرجال، فكأنّ كلا من هذين الشخصين كان محتاجا للآخر ليحيا حياة مشتركة لمدّة معيّنة، و افتراقهما كان نتيجة لانتفاء هذه الحاجة و نهايتها.

و التعبير ب زَوَّجْناكَها دليل على أنّ هذا الزواج كان زواجا بأمر اللّه، و لذلك ورد فى التواريخ أنّ زينب كانت تفتخر بهذا الأمر على سائر زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و كانت تقول: زوّجكنّ أهلوكنّ و زوّجنى اللّه من السماء[۲۲۵].

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ القرآن الكريم يبيّن بمنتهى الصراحة الهدف الأصلى من هذا الزواج، و هو إلغاء سنّة جاهلية كانت تقضى بمنع الزواج من مطلّقات الأدعياء، و هذا بنفسه إشارة إلى مسألة كلّية، و هى أنّ تعدّد زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن أمرا عاديا بسيطا، بل كان يرمى إلى أهداف كان لها أثرها فى مصير دينه.

و جملة كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا إشارة إلى وجوب الحزم فى مثل هذه المسائل، و كلّ عمل ينبغى فعله يجب أن ينجز و يتحقّق، حيث لا معنى للاستسلام أمام الضجيج و الصخب فى المسائل التى تتعلّق بالأهداف العامّة و الأساسية.

و يتّضح من التّفسير الواضح الذى أوردناه فى بحث الآية أعلاه أنّ الادّعاءات التى أراد الأعداء أو الجهلاء إسنادها لهذه الآية لا أساس لها مطلقا، و سنعطى فى بحث الملاحظات توضيحا أكثر فى هذا الباب إن شاء اللّه تعالى.

و تقول الآية الأخيرة فى تكميل المباحث السابقة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۲

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ فحيث يأمره اللّه سبحانه لا تجوز المداهنة فى مقابل أمره تعالى، و يجب تنفيذه بدون أىّ تردّد.

إنّ القادة الربانيين يجب أن لا يصغوا إلى كلام هذا و ذاك لدى تنفيذ الأوامر الإلهيّة، أو يراعوا الأجواء السياسية و الآداب و الأعراف الخاطئة السائدة فى المحيط، و ربّما كان هذا الأمر قد صدر لتمزيق هذه الأعراف المغلوطة، و لتحطيم البدع القبيحة.

إنّ القادة الإلهيين يجب أن ينفّذوا أمر اللّه بدون خوف من الملامة و العتاب و الضجّة و الغوغاء، و أن كونوا مصداق وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ [۲۲۶] إنّنا إذا أردنا أن نجلس و ننتظر رضا الجميع و سرورهم ثمّ ننفّذ أمر اللّه سبحانه، فلنعلم أنّ هذا الأمر لا يمكن تحقّقه، لأنّ بعض الفئات لا ترضى حتّى نستسلم لما تريد و نتّبع دينها و فكرها، كما يقول القرآن الكريم ذلك: وَ لَنْ تَرْضى عَنْكَ الْيَهُودُ وَ لَا

النَّصارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ [۲۲۷] و کـذلک کان الأمر فی مورد الآیـة التی نبحثها، لأنّ زواج النّبی صـلّی اللّه علیه و آله من زینب کان یکتنفه فی أفکار الناس العامّة إشکالان کما قلنا:

الأوّل: أنّ الزواج بمطلّقة المدّعی کان فی نظر أولئک کالزواج بزوجة الابن الحقیقی، و کانت هذه بدعة یجب أن تلغی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۲۶۲

الآخر: أنّ زواج رجل مرموق له مکانته فی المجتمع کالنّبی صلّی اللّه علیه و آله من مطلّقة غلام محرّر کان یعدّ عیبا و عارا، لأنّه یجعل النّبی و العبـد فی مرتبـة واحـدة، و هـذه الثقافـة الخاطئـة کان یجب أن تقلع و تجتث من الجـذور لتزرع مکانها القیم الإنسانیة، و کون الزوجین کفؤین لبعضهما إنّما یستقیم و یقاس علی أساس الإسلام و الإیمان و التقوی و حسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۳

و أساسا فانّ مخالفة السنن و الأعراف، و اقتلاع الآداب و العادات الخرافیة و غیر الإنسانیة یقترن عادة بالضجیج و الغوغاء و الصخب، و ینبغی أن لا یهتمّ الأنبیاء بهذا الضجیج و الصخب مطلقا، و لذلک تعقب الجملة التالیة فتقول: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

فلست الوحید المبتلی بهذه المشـکلة، بل إنّ الأنبیاء جمیعا کانوا یعانون هذه المصاعب عند مخالفتهم سـنن مجتمعاتهم، و عند سعیهم لاجتثاث اصول الأعراف الفاسدة منها.

و لم تکن المشـکلة الکبری منحصـرة فی محاربـة هاتین السـنّتین الجاهلیتین، بل إنّ هذا الزواج لمّا کان مرتبطا بالنّبی صـلّی اللّه علیه و آله فإنّه یمکن أن یعطی الأعداء حربة اخری لیعیبوا علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فعله، و یطعنوا فی دینه، و سیأتی تفصیل ذلک.

و یقول اللّه سبحانه فی نهایة الآیة تثبیتا لاتّباع الحزم فی مثل هذه المسائل الأساسیة: وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

إنّ التعبیر ب قَدَراً مَقْدُوراً قد یکون إشارة إلی کون الأمر الإلهی حتمیا، و یمکن أن یکون دالا علی رعایة الحکمة و المصلحة فیه، إلّا أنّ الأنسب فی مورد الآیة أن یراد منه کلا المعنیین، أی أنّ أمر اللّه تعالی یصدر علی أساس الحساب الدقیق و المصـلحة، و کذلک لا بدّ من تنفیذه بدون استفهام أو تلکّؤ.

و الطریف أنّنا نقرأ فی التواریـخ أنّ النّبی صـلّی اللّه علیه و آله قـد أولم للناس و ولیمة عامّة لم یکن لها نظیر فیما سـبق اقترانه بزوجاته ۲۲۸]، فکأنّه أراد بهذا العمل أن یبیّن للناس أنّه غیر قلق و لا خائف من السـنن الخرافیة التی کانت سائدة فی تلک البیئة، بل إنّه یفتخر بتنفیذ هذا الأمر الإلهی، إضافة إلی أنّه کان یطمح إلی أن یصل صوت إلغاء هذه السـنّة الجاهلیة إلی آذان جمیع من فی جزیرة العرب عن هذا الطریق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۴

بحثان

۱- أساطیر کاذبة

مع أنّ القرآن الکریم کان غایـة فی الصـراحة فی قصّـة زواج النّبی الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله من زینب، و فی تبیان هـذه المسألة، و الهـدف من هـذا الزواج، و أعلن أنّ الهـدف هو محاربـة سـنّة جاهلیـة فیما یتعلّق بالزواج من مطلّقـة الابن المدّعی، إلّا أنّها ظلّت مورد استغلال جمع من أعـداء الإسـلام، فحـاولوا اختلاـق قصّـة غرامیـة منهـا لیشوّهوا بهـا صورة النّبی المقدّسـة، و اتّخـذوا من الأحـادیث المشکوک فیها أو الموضوعة فی هذا الباب آلة و حربة یلوّحون بها.

و من جملة ذلك ما كتبوه من أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله جاء إلى دار زيد ليسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتّى وقعت عينه على جمال زينب، فقال: «سبحان اللّه خالق النور! تبارك اللّه أحسن الخالقين» و اتّخذوا هذه الجملة دليلا على تعلّق النّبى صلّى اللّه عليه و آله بزينب.

فى حين أنّ هناك دلائل واضحة- بغضّ النظر عن مسألة العصمة و النبوّة- تكذّب هذه الأساطير:

الاولى: أنّ زينب كانت بنت عمّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و قد تربيّا و كبرا معا فى محيط عائلى تقريبا، و النّبى صلّى اللّه عليه و آله هو الذى خطبها بنفسه لزيد، و إذا كان لزينب ذلك الجمال الخارق، و على فرض أنّه استرعى انتباهه، فلم يكن جمالها أمرا خافيا عليه، و لم يكن زواجه منها قبل هذه الحادثة أمرا عسيرا، بل إنّ زينب لم تبد أى رغبة فى الاقتران بزيد، بل أعلنت مخالفتها صراحة، و كانت ترجّح تماما أن تكون زوجة للنبى صلّى اللّه عليه و آله، بحيث أنّها سرّت و فرحت عند ما ذهب النّبى صلّى اللّه عليه و آله لخطبتها ظنّا منها بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يخطبها لنفسه، إلّا أنّها رضخت لأمر اللّه و رسوله بعد نزول هذه الآية القرآنية و تزوّجت زيدا.

مع هذه المقدّمات هل يبقى مجال لهذا الوهم بأنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن عالما بحال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۵

زينب و جمالها؟ و أىّ مجال لهذا الظنّ الخاطئ بأن يكون راغبا فى الزواج منها و لا يستطيع الإقدام عليه؟

و الثّانية: أنّ زيدا عند ما كان يراجع النّبى صلّى اللّه عليه و آله لطلاق زوجته زينب، كان النّبى ينصحه مرارا بصرف النظر عن هذا الأمر، و هذا بنفسه شاهد آخر على بطلان هذه الادّعاءات و الأساطير.

و من جهة اخرى فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحة لئلّا يبقى مجال لأقاويل اخرى.

و من جهة رابعة قرأنا فى الآيات المذكورة أعلاه أنّ اللّه تعالى يقول: قد كان فى حادثة زواج النّبى بمطلّقة زيد أمر كان النّبى يخشى الناس فيه، فى حين أنّ خشيته من اللّه أحقّ من الخشية من الناس.

إنّ مسألة خشية اللّه سبحانه توحى بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعى، يجب عنده طرح كلّ الاعتبارات الشخصية جانبا من أجل اللّه تعالى ليتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرسالة، حتّى و إن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التى يلقيها جماعة المنافقين فى اتّهاماتهم للنبى، و كان هذا هو الثمن الباهض الذى دفعه النّبى صلّى اللّه عليه و آله- و لا زال يدفعه إلى الآن- فى مقابل طاعة أمر اللّه سبحانه، و إلغاء عرف خاطئ و سنّة مبتدعة.

إلّا أنّ هناك لحظات حرجة فى حياة القادة المخلصين تحتّم عليهم أن يضحّوا و يعرّضوا أنفسهم فيها الاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد ليتحقّق هدفهم! أجل .. لو كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم ير زينب من قبل مطلقا، و لم يكن يعرفها، و لم يكن لدى زينب الرغبة فى الاقتران به، و لم يكن زيد مستعدّا لطلاقها- و بغضّ النظر عن مسألة النبوّة و العصمة- لكان هناك مجال لمثل هذه الأقاويل و التخرّصات، لكن بملاحظة انتفاء كلّ هذه الظروف يتّضح كون هذه الأكاذيب مختلفة.

إضافة إلى أنّ تاريخ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يعكس أى دليل أو صورة تدلّ على وجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۶

رغبة خاصّة لديه صلّى اللّه عليه و آله فى الزواج من زينب، بل هى كسائر الزوجات، بل ربّما كانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات، و هذا شاهد تأريخى آخر على نفى هذه الأساطير.

و نرى فى نهاية المطاف ضرورة الإشارة إلى احتمال أن يقول شخص: إنّ محاربة مثل هذه السنّة الخاطئة واجب، و لكن أيّة ضرورة تدعو إلى أن يقتحم النّبى صلّى اللّه عليه و آله هذا الميدان بنفسه؟ فقد كان بإمكانه أن يطرح هذه المسألة و يبيّنها كقانون، و يرغب الآخرين فى الزواج من مطلّقة المتبنّى.

غیر أنّ مخالفة سنّة جاهلیة خاطئة- خاصّة و أنّها تتعلّق بالزواج من أفرادهم دون شأن المقابل ظاهرا- قد تکون غیر مقبولة بالکلام و التقنین أحیانا، إذ یقول الناس: إذا کان هذا الأمر حسنا فلما ذا لم یفعله هو؟ لم لم یتزوّج بمطلّقة عبده المعتق و ابنه المتبنی؟

فی مثل هذه الموارد ینهی الإقدام و الإجراء العملی کلّ هذه الأسئلة و الإشکالات، و عندها ستتکسّر و تتلاشی تلک السنّة الخاطئة. إضافة إلی أنّ هذا العمل کان بنفسه تضحیة و إیثارا.

۲- روح الإسلام التسلیم أمام اللّه

لا شکّ أنّ استقلال الإنسان الفکری و الروحی لا یسمح له أن یستسلم لأحد بدون قید أو شرط، لأنّه إنسان مثله، و من الممکن أن تکون له أخطاء و اشتباهات فی المسائل.

أمّا إذا انتهت المسألة إلی اللّه العالم و الحکیم، و النّبی الذی یتحدّث عنه و یسیر بأمره، فإنّ عدم التسلیم المطلق دلیل علی الضلال و الانحراف، حیث لا یوجد أدنی اشتباه فی أوامره سبحانه. إضافة إلی أنّ أمره حافظ لمنافع الإنسان نفسه، و لا یعود شیء علی ذاته المقدّسة، فهل یوجد إنسان عاقل یسحق مصالحه برجله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۷

بعد تشخیص هذه الحقیقة؟

و مضافا إلی ذلک فإنّنا منه تعالی، و کلّ ما لدینا منه، و لا یمکن أن یکون لنا أمر و قرار إلّا التسلیم لإرادته و أمره، و لذلک تری بین دفّتی القرآن آیات کثیرة تشیر إلی هذه المسألة:

فمرّة تقول آیة: إِنَّما کانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِینَ إِذا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَ رَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أَنْ یَقُولُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [۲۲۹] و تقول اخری: فَلا وَ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثُمَّ لا یَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسْلِیماً.[۲۳۰] و یقول القرآن فی موضع آخر: وَ مَنْ أَحْسَنُ دِیناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ [۲۳۱] إنّ «الإسلام» أخذ من مادّة «التسلیم»، و هو یشیر إلی هذه الحقیقة، و بناء علی هذا فإنّ کلّ إنسان یتمتّع بروح الإسلام بمقدار تسلیمه للّه سبحانه.

ینقسم الناس عدّة أقسام من هذه الناحیة: فقسم یسلّمون لأمر اللّه فی الموارد التی تنفعهم فقط، و هؤلاء فی الحقیقة مشرکون انتحلوا اسم الإسلام، و عملهم تجزئة لأحکام اللّه تعالی، فهم مصداق نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَکْفُرُ بِبَعْضٍ فإیمانهم فی الحقیقة إیمان بمصالحهم لا باللّه تعالی.

و آخرون جعلوا إرادتهم تبعا لإرادة اللّه، و إذا تعارضت منافعهم الزائلة مع أمر اللّه سبحانه، فإنّهم یغضّون الطرف عنها و یسلّمون لأمر اللّه، و هؤلاء هم المؤمنون و المسلمون الحقیقیون.

و القسم الثالث أسمی من هؤلاء، فهم لا یریدون إلّا ما أراد اللّه، و لیس فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۸

قلوبهم إلّا ما یشاؤه سبحانه، فقد بلغوا مرتبة من التسامی لا یحبّون معها إلّا ما یحبّه اللّه، و لا یبغضون إلّا ما أبغضه اللّه عزّ و جلّ.

هؤلاء هم الخاصّة و المخلصون و المقرّبون لدیه، فقد صبغ التوحید کلّ وجودهم، و غرقوا فی حبّه، و فنوا فی جماله ۲۳۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۶۹

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۳۹]

اشارة

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (۳۹)

التّفسير

من هم المبلّغون الحقيقيون؟

تشير الآية مورد البحث، و مناسبة للبحث الذى مرّ حول الأنبياء السابقين فى آخر آية من الآيات السابقة، إلى أحد أهم برامج الأنبياء العامّة، فتقول: الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ

و كذلك الحال بالنسبة إليك، فينبغى أن لا تخش أحدا فى تبليغ رسالات اللّه، و عند ما يأمرك اللّه سبحانه أن حطّم سنّة جاهلية خاطئة فى مسألة زواج مطلّقة المتبنّى، و تزوّج بزينب مطلّقة زيد، فيجب أن لا تدع لأدنى قلق و خوف من قول هذا و ذاك فى تأدية هذا التكليف إلى نفسك سبيلا، فإنّ هذه سنّة جميع الأنبياء عليهم السّلام.

إنّ عمل الأنبياء عليهم السّلام فى كثير من المراحل هو كسر مثل هذه السنن و الأعراف عادة، و لو أنّهم سمحوا لأقلّ خوف و تردّد أن ينفذ إلى نفوسهم فسوف يفشلون فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۰

أداء رسالاتهم، فيجب على هذا أن يسيروا بحزم و ثبات، و يستوعبوا كلمات المسيئين الجارحة غير المتزنة، و يستمرّوا فى طريقهم دون أن يهتّموا باصطناع الأجواء ضدّهم، و ضجيج العوام، و تآمر الفاسدين و المفسدين و تواطئهم، لأنّ كلّ الحسابات بيد اللّه سبحانه، و لذلك تقول الآية فى النهاية: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً.

إنّه يحسب إيثار الأنبياء و تضحياتهم فى هذا الطريق و يجزيهم عليها، كما يحفظ كلمات الأعداء البذيئة و ثرثرتهم ليحاسبهم عليها و يجازيهم.

إنّ جملة: وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً دليل فى الحقيقة على أنّ القادة الإلهيين يجب أن لا يخشوا شيئا أو أحدا فى إبلاغ الرسالات، لأنّ اللّه سبحانه هم المحصى لجهودهم، و هو المثيب عليها.

ملاحظات

[۱- المراد من «التبليغ»]

المراد من «التبليغ» هنا هو الإبلاغ و الإيصال، و عند ما يرتبط الأمر ب «رسالات اللّه» فإنّه يعنى أن يعلّم الأنبياء الناس ما علّمهم اللّه عن طريق الوحى، و أن ينفذوه إلى القلوب عن طريق الاستدلال و الإنذار و التبشير و الموعظة و النصيحة.

[۲- المراد من «الخشية»]

«الخشية» تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام، و يختلف عن الخوف المجرّد من هذه الخاصية من هذه الجهة. و قد تستعمل أحيانا بمعنى مطلق الخوف.

و قد ورد فى مؤلّفات المحقّق «الطوسى» كلام فى الفرق بين هذين اللفظين، و هو فى الحقيقة يشير إلى المعنى العرفانى لا اللغوى، فانّه يقول: إنّ الخشية و الخوف و إن كانا فى اللغة بمعنى واحد- أو يقربان من معنى واحد- إلّا أنّ بينهما فرقا لدى أهل البصائر، و هو: إنّ «الخوف» يعنى القلق و الاضطراب الداخلى من العواقب التى ينتظرها الإنسان نتيجة ارتكابه المعاصى و الذنوب، أو تقصيره فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۱

الطاعة، و هذه الحالة تحصل لأغلب الناس و إن اختلفت درجاتها، أمّا أعلى مراتبها فلا تحصل إلّا لفئة قليلة منهم.

أمّا «الخشية» فهى الحالة التى تحصل للإنسان لدى إدراكه عظمة اللّه و هيبته، و الخوف من بقائه مبعدا عن أنوار فيضه، و هذه الحالة لا تحصل إلّا لأولئك الـذين وقفوا على عظمة ذاته المقدّسة و جلال كبريائه، و تذوّقوا طعم قربه، و لذلك عدّ القرآن هذه الحالة خاصّيـة بعباد اللّه العلماء فقال: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ[۲۳۳].

۳- جواب عن سؤال؟

قـد يقال: إنّ هذه الآية تتناقض مع ما مرّ فى الآيات السابقة، فهى تقول هنا: إنّ أنبياء اللّه لا يخشون إلّا اللّه، و لا يخشون أحدا غيره، إلّا أنّه قد ورد فى الآيات السابقة: وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ

إلّا أنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بتأمّل النقطتين التاليتين:

الاـولى: أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله إنّمـا كان خائفا من عـدم تحمّل عـدد كبير من الناس لنقض هـذه السـنّة، و من عـدم استيعابهم للمسألة، و بذلك ستتزعزع أسس إيمانهم من هذه الجهة، و مثل هذه الخشية ترجع فى الحقيقة إلى خشية اللّه سبحانه.

و الاخرى: أنّ الأنبياء لا يعيشون حالة الخوف و القلق من شـخص ما فى تبليغهم رسالات اللّه، أمّا فى ما يتعلّق بأمور الحياة الشخصـية و الخاصّيـة فلاـ مـانع من أن يخـافوا من أمر خطير كاتّهـام و طعن النـاس، أو أن يكونـوا كموسـى عليه السّـلام إذ خـاف- حسب الطـبيعة البشـرية- عنـد ما ألقى العصا و تحوّلت إلى ثعبان عظيم، فإنّ مثل هذا الخوف و الاضـطراب إذا لم يكن مفرطا لا يعدّ عيبا و نقصا، بل قد يواجه هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۲

المسألة أشجع الناس أحيانا، إنّما العيب و النقص هو الخوف من أداء التكليف الإلهى فى الحياة الاجتماعية.

۴- هل كان الأنبياء يستعملون التقيّة؟

استفاد جماعة من هذه الآية أنّ التقيّة حرام مطلقا للأنبياء فى تبليغ الرسالة، لأنّ القرآن يقول: وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ

غير أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للتقيّـة أنواعا، و لم تنف الآيـة فى مورد دعوة الأنبياء و إبلاغ الرسالـة إلّا نوعا واحدا، و هو التقيّة خوفا، فى حين أنّ للتقيّة أنواعا منها التقيّة مداراة و تورية.

و المراد من التقيّـة المداراتيـة أن يكتم الإنسان عقيـدته أحيانا لجلب محبّـة الطرف المقابل ليقوى على اسـتمالته للتعاون فى الأهـداف المشتركة.

و المراد من تقيّة «التورية» و الإخفاء هو أنّه يجب أن تخفى المقدّمات و الخطط للوصول إلى الهدف، فإنّها إن أفشيت و انتشرت بين الناس و أصبحت علنية، و أطلع العدوّ عليها فمن الممكن أن يقوم باجهاضها.

إنّ حياة الأنبياء- و خاصّيـة نبى الإسـلام صـلّى اللّه عليه و آله- مليئـة بموارد التقيّة هذه، لأنّا نعلم أنّه صـلّى اللّه عليه و آله كان كثيرا ما

یخفی أهدافه و مقاصده عند ما کان یتوجّه إلی میدان الحرب، و کان یرسم خططه الحربیة بخفاء تامّ، و کان یستخدم أسلوب الاستتار و التخفّی- و الذی هو نوع من التقیّة- فی جمیع المراحل.

و کان یتّبع أحیانا أسلوب «المراحل»- و هو نوع من التقیّة- لبیان حکم ما، فمثلا نری أنّ مسألة تحریم الربا أو شرب الخمر لم تبیّن فی مرحلة واحدة، بل تمت فی مراحل متعدّدة بأمر اللّه سبحانه، أی أنّها تبدأ من المراحل الأبسط و الأسهل حتّی تنتهی بالحکم النهائی الأساسی.

و علی أیّة حال، فإنّ للتقیّة معنی واسعا، و هو: (إخفاء الحقائق و الواقع للحفاظ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۳

علی الأهداف من التعرّض للخطر و الانهیار) و هذا الشیء متعارف بین عقلاء العالم، و القادة الربّانیون یفعلون ذلک فی بعض المراحل للوصول إلی أهدافهم المقدّسة، کما نقرأ ذلک فی قصّة «إبراهیم» علیه السّلام بطل التوحید، حیث أخفی هدفه من البقاء فی المدینة فی الیوم الذی یخرج فیه عبدة الأصنام خارج المدینة لإجراء مراسم العید لیستغلّ فرصة مناسبة فینهال علی الأصنام و یحطّمها.

و کذلک أخفی «مؤمن آل فرعون» إیمانه لیستطیع أن یعیّن موسی علیه السّلام فی اللحظات الحسّاسة و ینقذه من القتل، و لهذا السبب ذکر القرآن له تسعة مواقف و صفات عظیمة.

و من هنا نعلم أنّ التقیّة خوفا فقط غیر جائزة علی الأنبیاء، لا الأنواع الاخری للتقیّة.

و بالرغم من أنّ الکلام فی هذا الباب کثیر، إلّا أنّنا ننهی هذا البحث بحدیث جامع غنیّ المحتوی

عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «التقیّة دینی و دین آبائی، و لا دین لمن لا تقیّة له، و التقیّة ترس اللّه فی الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[۲۳۴].

و کان لنا بحث مفصّل حول التقیّة فی ذیل الآیة (۱۰۶) من سورة النحل.

۵- شرط الإنتصار فی التبلیغ:

إنّ الآیة المذکورة دلیل واضح علی أنّ الحزم و الإخلاص و عدم الخوف من أی أحد إلّا اللّه تعالی، شرط أساسی فی التقدّم و الرقی فی مجال الإعلام و التبلیغ.

الأشخاص الذین یراعون رغبات و میول هذا و ذاک فی مقابل أمر اللّه، و یوجّهون الحقّ و العدالة بما یناسب أهواءهم، سوف لا یحصلون علی نتیجة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۴

مطلقا، فلا نعمة أسمی من نعمة الهدایة، و لا خدمة أنفع من إهداء هذه النعمة للبشریة، و لذلک کان جزاء و ثواب هذا العمل أعظم من کلّ ثواب و عطاء، و من هنا نقرأ

فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «بعثنی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله إلی الیمن و قال لی: یا علی لا تقاتلن أحدا حتّی تدعوه، و أیم اللّه لئن یهدی اللّه علی یدیک رجلا خیر ممّا طلعت الشمس و غربت»[۲۳۵].

و لهذا السبب أیضا یجب أن یستغنی المبلّغون الحقیقیون عن الناس، و لا یخافون أی مقام و منصب، فإنّ تلک الحاجة و الخوف سیترکان أثرا علی أفکارهم و إرادتهم شاءوا أم أبوا.

إنّ المبلّغ الإلهی یفکّر فقط- بمقتضی وَ کَفی بِاللَّهِ حَسِیباً- بأنّ محصی الأعمال و المحاسب علیها هو اللّه تعالی، و بیده جزاؤه و ثوابه، و هذا الوعی و العرفان هو الذی یمدّه و یعینه فی هذا الطریق الملیء بالعقبات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۵

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۴۰]

اشارة

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۴۰)

التّفسير

مسألة الخاتمية:

هذه الآية هى آخر ما بيّنه اللّه سبحانه فيما يتعلّق بمسألة زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمطلّقة زيد لكسر عرف جاهلى خاطئ، و هى جواب مختصر كآخر جواب يقال هنا، و تبيّن فى نهايتها حقيقة مهمّة اخرى- و هى مسألة الخاتمية- بمناسبة خاصّة.

تقول أوّلا: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ لا زيد و لا غيره، و إذا ما أطلقوا عليه يوما انّه «ابن محمّد» فإنّما هو مجرّد عادة و عرف ليس إلّا، و ما إن جاء الإسلام حتّى اجتثّت جذوره، و ليس هو رابطة طبيعيّة عائلية.

طبعا كان للنبى صلّى اللّه عليه و آله أولاد حقيقيون، و أسماؤهم «القاسم» و «الطيّب» و «الطاهر» و «إبراهيم»، إلّا أنّهم- طبقا لنقل المؤرخّين- جميعا قد و دّعوا هذه الدنيا و ارتحلوا عنها قبل البلوغ، و لذلك لم يطلق عليهم أنّهم «رجال»[۲۳۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۶

و الإمامان الحسن و الحسين عليهما السّلام اللذان كانوا يسمّونهم أولاد النّبى رغم أنّهما بلغا سنين متقدّمة فى العمر، إلّا أنّهما كانا لا يزالان صغيرين عند نزول هذه الآية.

بناء على هذا فإنّ جملة: ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ و التى وردت بصيغة الماضى، كانت صادقة فى حقّ الجميع قطعا.

و إذا ما رأينا فى بعض تعبيرات النّبى صلّى اللّه عليه و آله نفسه أنّه يقول: «أنا و على أبوا هذه الامّة» فمن المسلّم أنّ المراد لم يكن الابوّة النسبية، بل الابوّة الناشئة من التعليم و التربية و القيادة و الإرشاد.

مع هذه الحال، فإنّ الزواج من مطلّقة زيد- و الذى بيّن القرآن فلسفته بصراحة بأنّه إلغاء للسنن الخاطئة- لم يكن شيئا يبعث على البحث و الجدال بين هذا و ذاك، أو أنّهم يريدون أن يتّخذوه وسيلة للوصول إلى نواياهم السيّئة.

ثمّ تضيف: بأنّ علاقة النّبى صلّى اللّه عليه و آله معكم إنّما هى من جهة الرسالة و الخاتمية فقط وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ و بهذا قطع صدر الآية الارتباط و العلاقة النسبية بشكل تامّ و قطعى، و أثبت ذيلها العلاقة المعنوية الناشئة من الرسالة و الخاتمية، و من هنا يتّضح ترابط صدر الآية و ذيلها.

هذا إضافة إلى أنّ الآية تشير إلى حقيقة هى: أنّ علاقته معكم فى الوقت نفسه أشدّ و أسمى من علاقة والد بولده، لأنّ علاقته علاقة الرّسول بالامّة، و يعلم أنّ سوف لا يأتى رسول بعده، فكان يجب عليه أن يبيّن لهذه الامّة و يطرح لها كلّ ما تحتاجه إلى يوم القيامة فى منتهى الدقّة و غاية الحرص عليها.

و لا شكّ أنّ اللّه العليم الخبير قد وضع تحت تصرّفه كلّ ما كان لازما فى هذا الباب، من الأصول و الفروع، و الكليّات و الجزئيات فى جميع المجالات، و لذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ كونه «خاتم الأنبياء» يعنى أيضا أنّه خاتم المرسلين، و ما ألصقه بعض مبتدعى الأديان لخدش كون مسألة الخاتمية بهذا المعنى، من أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۷

القرآن قد اعتبر النّبی صلّی اللّه علیه و آله خاتم الأنبیاء لا خاتم المرسلین، إنّما هو اشتباه کبیر، لأنّ من کان خاتما للأنبیاء یکون خاتما للرسل بطریق أولی، لأنّ مرحلة «الرسالة» أسمی من مرحلة «النبوّة»- تأمّلوا ذلک-.

إنّ هذا الکلام یشبه تماما أن نقول: إنّ فلانا لیس فی بلاد الحجاز، فمن المسلّم أنّ هذا الشخص سوف لا یکون موجودا فی مکّة، أمّا إذا قلنا: إنّه لیس فی مکّة، فمن الممکن أن یکون فی مکان آخر من الحجاز.

بناء علی هذا، فإنّه تعالی لو کان قد سمّی النّبی خاتم المرسلین، فمن الممکن أن لا یکون خاتم الأنبیاء، أمّا و قد سمّاه «خاتم الأنبیاء» فمن المسلّم أنّه سیکون خاتم الرسل أیضا، و بتعبیر المصطلحات فإنّ النسبة بین النّبی و الرّسول نسبة العموم و الخصوص المطلق.

بحوث

۱- ما هو الخاتم؟

«الخاتم»- علی زنة حاتم- لدی أرباب اللغة: هو الشیء الذی تنهی به الأمور، و کذلک جاء بمعنی الشیء الذی تختم به الأوراق و ما شابهها.

و کان هذا الأمر متداولا فیما مضی- و لا یزال إلی الیوم- حینما یریدون إغلاق الرسالة أو غطاء الوعاء أو باب المنزل لئلّا یفتحها أحد، فإنّهم کانوا یضعون مادّة لاصقة علی الباب أو القفل و یختمون علیها. و یکون هذا الخاتم من الصلابة بحیث إنّه لا بدّ من کسره إذا ما أرید فتح الباب، و هذه المادّة التی توضع علی مثل هذه الأشیاء تسمّی «خاتما».

و لمّا کانوا فی السابق یستعملون لهذا الأمر الطین الصلب الذی یلصق، فإنّنا نقرأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۸

فی متون بعض کتب اللغة المعروفة أنّ معنی الخاتم هو «ما یوضع علی الطینة»[۲۳۷].

کلّ ذلک بسبب أنّ هذه الکلمة مأخوذة من مادّة «الختم» أی النهایة، و لمّا کان هذا العمل- أی الختم- یجری فی الخاتمة و النهایة فقد اطلق علیه اسم الخاتم لذلک.

و إذا ما رأینا أنّ أحد معانی الخاتم هو الخاتم الذی یوضع فی الید، فبسبب أنّهم کانوا یضعون إمضاءهم و توقیعهم علی خواتیمهم و یختمون الرسائل بها، و لذلک فإنّ من جملة الأمور التی تذکر فی أحوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أئمّة الهدی علیهم السّلام و الشخصیات الاخری هو نقش خاتمهم.

و

یروی «الکلینی»- رحمه اللّه- فی الکافی حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ خاتم رسول اللّه کان من فضّة نقشه محمّد رسول اللّه»[۲۳۸].

و جاء فی بعض التواریخ أنّ إحدی حوادث السنة السادسة للهجرة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله اختار لنفسه خاتما نقش فیها، و ذلک أنّهم أخبروه أنّ الملوک لا یقرءون الرسائل إذا لم تکن مختومة[۲۳۹].

و جاء فی کتاب «الطبقات»: أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لمّا صمّم أن ینشر دعوته فی الآفاق، و یکتب الرسائل إلی ملوک الأرض و سلاطینها أمر أن یصنعوا له خاتما کتب علیه (محمّد رسول اللّه) و کان یختم به رسائله ۲۴۰].

بهذا البیان یتّضح جیدا أنّ الخاتم و إن اطلق الیوم علی خاتم الزینة أیضا، إلّا أنّ أصله مأخوذ من الختم، أی النهایة، و کان یطلق ذلک

اليوم على الخواتيم التى كانوا يختمون بها الرسائل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۷۹

إضافة إلى أنّ هذه المادّة قد استعملت فى القرآن فى موارد متعدّدة، و كلّها تعنى الإنهاء أو الختم و الغلق، مثل: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ [۲۴۱] خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ، وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ[۲۴۲].

و من هنا يعلم أنّ الذين شكّكوا فى دلالة هذه الآية على كون نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله خاتم الأنبياء، و انتهاء سلسلة الأنبياء به، غير مطّلعين على معنى هذه الكلمة تماما، أو أنّهم تظاهروا بعدم الإحاطة و الاطلاع عليها، و إلّا فإنّ من له أدنى إحاطة بآداب العرب يعلم أنّ كلمة «خاتم النّبيين» تدلّ على الخاتمية.

و إذا قيل- عند ذاك- فى تفسير هذه الآية غير هذا التّفسير فإنّه تفسير متطفّل غير متّزن، كأن نقول: إنّ نبى الإسلام كان خاتم الأنبياء، أى أنّه زينة الأنبياء، لأنّ الخاتم آلة زينة للإنسان، و لا يمكن أن يوازى الإنسان فى المرتبة مطلقا، و إذا فسّرنا الآية بهذا التّفسير فسنكون قد حططنا من مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و أنزلنا منزلته إلى أدنى المستويات، مع إنّه لا يناسب المعنى اللغوى، و لذلك فإنّ هذه الكلمة حيثما استعملت فى القرآن الكريم- فى ثمانية موارد- فإنّها أعطت معنى الإنهاء و الإغلاق.

۲- أدلّة كون نبىّ الإسلام خاتما للأنبياء:

بالرغم من أنّ الآية المذكورة كافية لوحدها فى إثبات هذا المطلب، إلّا أنّ الدليل على كون نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله خاتما للأنبياء لا ينحصر بها، فإنّ آيات اخرى فى القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى، إضافة إلى الروايات الكثيرة الواردة فى هذا الباب:

فمن جملتها فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۰

وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ فإنّ سعة مفهوم تعبير وَ مَنْ بَلَغَ توضّح رسالة القرآن و نبى الإسلام العالمية من جهة، و مسألة الخاتمية من جهة اخرى.

و هناك آيات اخرى تثبت عمومية دعوة نبى الإسلام لكلّ البشر، مثل: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً.[۲۴۳] و كقوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً.[۲۴۴] و الآية: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً.[۲۴۵] إنّ ملاحظة سعة مفهوم «العالمين» و «الناس» و «الكافّة» تؤيّد هذا المعنى أيضا. إضافة إلى أنّ إجماع علماء الإسلام من جهة، و كون هذه المسألة ضرورية لدى المسلمين من جانب آخر، و الروايات الكثيرة الواردة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و باقى أئمّة الهدى عليهم السّلام من جانب ثالث توضّح هذا المطلب، و نكتفى هنا بذكر بعضها من باب الشاهد و المثال:

۱-

ورد فى الحديث المعروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «حلالى حلال إلى يوم القيامة، و حرامى حرام إلى يوم القيامة»[۲۴۶].

إنّ هذا التعبير مبيّن لاستمرار هذه الشريعة حتّى نهاية العالم و فنائه.

و

قد روى هذا الحديث بهذه الصيغة أحيانا: «حلال محمّد حلال أبدا إلى يوم القيامة، و حرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة، لا يكون غيره، و لا يجىء غيره»[۲۴۷].

۲- حديث المنزلة المعروف، و الذى ورد فى مختلف كتب الشيعة و السنّة، و هو فى شأن على عليه السّلام و بقائه مكان النّبى فى المدينة عند ما توجّه صلّى اللّه عليه و آله إلى غزوة تبوك.

فإنّه یوضّح مسألة الخاتمیة تماما، لأنّا نقرأ فی هذا الحدیث

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۱

لعلی علیه السّلام: «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی إلّا أنّه لا نبی بعدی»[۲۴۸].

۳- و ثمّة حدیث مشهور أیضا، و قد روی فی کثیر من مصادر العامّة، و ذلک

أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «مثلی و مثل الأنبیاء کمثل رجل بنی بنیانا فأحسنه و أجمله، فجعل الناس یطیفون به یقولون ما رأینا بنیانا أحسن من هذا إلّا هذه اللبنة، فکنت أنا تلک اللبنة».

لقد ورد هذا الحدیث فی صحیح مسلم بعبارات مختلفة، و روی عن رواة عدیدین، و قد وردت هذه الجملة «و أنا خاتم النّبیین» فی ذیل الحدیث الآنف الذکر فی أحد الموارد.

و نری فی نهایة حدیث آخر: «جئت فختمت الأنبیاء»[۲۴۹].

و قد ورد هذا الحدیث أیضا فی صحیح البخاری- کتاب المناقب- و مسند أحمد بن حنبل، و سنن الترمذی و النسائی و کتب اخری، و هو من الأحادیث المعروفة و المشهورة جدّا، و قد أورده مفسّر و الفریقین کالطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره، فی ذیل الآیة مورد البحث.

۴- لقد ورد کون نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله خاتما للنبیین صریحا فی کثیر من خطب نهج البلاغة، و من جملة ذلک ما نراه فی الخطبة ۱۷۳ فی وصف نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله، حیث یقول علیه السّلام: «أمین وحیه، و خاتم رسله، و بشیر رحمته، و نذیر نقمته».

و

جاء فی الخطبة ۱۳۳: «أرسله علی حین فترة من الرسل، و تنازع من الألسن.

فقفّی به الرسل، و ختم به الوحی».

و

قال علیه السّلام فی الخطبة الاولی من نهج البلاغة، بعد أن عدّد تعلیمات الأنبیاء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۲

الماضین: «إلی أن بعث اللّه سبحانه محمّدا رسول لإنجاز عدته، و إتمام نبوّته».

۵- و قد وردت مسألة الخاتمیة فی ختام خطبة الوداع، تلک الخطبة التی ألقاها نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله فی آخر حجّة له، و فی آخر سنة من عمره المبارک، کوصیّة جامعة للناس، حیث

قال: «ألا فلیبلّغ شاهدکم غائبکم لا نبیّ بعدی، و لا امّة بعدکم» ثمّ رفع یدیه إلی السماء حتّی بان بیاض إبطیه، فقال: «اللهمّ اشهد أنّی قد بلّغت»[۲۵۰].

۶- و

جاء فی حدیث آخر ورد فی «الکافی» عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه ختم بنبیّکم النبیّین فلا نبیّ بعده أبدا، و ختم بکتابکم الکتب فلا کتاب بعده أبدا»[۲۵۱].

إنّ الأحادیث الواردة فی هذا الباب کثیرة جدّا، بحیث جمع منها فی کتاب (معالم النبوّة) ۱۳۵ حدیثا من کتب علماء الإسلام عن النّبی

صلّى اللّه عليه و آله و أئمّة الإسلام العظام ۲۵۲].

۳- إجابة عن عدّة أسئلة:

۱- كيف تتناسب الخاتمية مع سير الإنسان التكاملى؟

السوال الأوّل الذى يطرح فى هذا البحث هو: هل يمكن أن يتوقّف المجتمع الإنسانى؟ أ ترى يوجد لسير البشر التكاملى حدّ محدود؟ أ لسنا نرى بامّ أعيننا أنّ بشر اليوم قد وصلوا فى العلم و الثقافة إلى مرحلة تفوّق مستوى سابقيهم؟ فمع هذا الحال كيف يمكن أن يغلق سجل النبوّة مطلقا، فيحرم الإنسان من قيادة أنبياء جدد فى سيره التكاملى؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بالالتفات إلى مسألة واحدة، و هى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۳

الإنسان يصل أحيانا إلى مرتبة من النضج الفكرى و الثقافى بحيث يكون قادرا على الاستمرار فى طريقه بالاستعانة المستمرة بالأصول و التعليمات التى تركها له النّبى الخاتم بصورة جامعة، دون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

و هذا الأمر يشبه تماما أن يكون الإنسان محتاجا لمعلّم جديد و مربّ آخر فى كلّ مرحلة من مراحل الدراسة المختلفة، حتّى يقضى المراحل المختلفة، أمّا إذا حصل على الدكتوراه، أو أصبح مجتهدا له رأيه فى العلم أو العلوم المختلفة فإنّه لا يحتاج فى دراسته إلى أستاذ جديد، بل يباشر البحث و المطالعة و التحقيق استنادا إلى ما اكتسبه من الأساتذة السابقين، و خاصّة استاذه الأخير.

و بتعبير آخر، فإنّه يحلّ المشاكل و العقبات التى تعترضه بالاستعانة بتلك الأصول الكليّة التى تعلّمها من استاذه الأخير، و بناء على هذا فلا حاجة لأنّ يظهر دين جديد على مرّ الزمان (تأمّلوا ذلك).

و ببيان آخر، فإنّ كلّ واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانبا من مسير التكامل ليكون الإنسان قادرا على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل و ينال الأهلية لاستقبال منهج كامل و جامع لهذا الطريق على يد آخر نبى أرسل من قبل اللّه تعالى.

من البديهى أنّه مع استلام الخريطة الكاملة و المخطّط الجامع سوف لا تكون هناك حاجة إلى مخطّط آخر، و هذا فى الحقيقة هو التعبير الذى ورد فى الرّوايات الدالة على كونه صلّى اللّه عليه و آله خاتما، و التى عدّت نبىّ الإسلام آخر لبنة، أو واضع آخر لبنة فى قصر الرسالة البديع المحكم. و كلّ ذلك يؤكّد عدم الحاجة إلى دين جديد و شريعة مستحدثة.

أمّا فيما يتعلّق بمسألة القيادة و الإمامة، و التى تعنى الإشراف التامّ على تنفيذ هذه الأصول، و الأخذ بأيدى الناس فى هذا الطريق، فهى مسألة اخرى لا يمكن أن يستغنى الإنسان عنها فى أىّ حين، و لذلك فإنّ ختام سلسلة النبوّة لا يعنى أبدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۴

نهاية سلسلة الإمامة، لأنّ «تبيين» و «توضيح» هذه الأصول و «تحقّقها فى الخارج» لا يمكن أن يتمّ من دون الاستعانة بوجود قائد و إمام معصوم.

۲- كيف تتلاءم القوانين الثابتة مع الحاجات المتغيّرة؟

بغضّ النظر عن مسألة السير التكاملى للبشر، فإنّ هناك سؤالا آخر يطرح هنا، و هو: أنّنا نعلم أنّ مقتضيات الأزمنة و الأمكنة و متطلباتها متفاوتة، و بتعبير آخر فإنّ حاجات الإنسان فى تغيّر مستمر، فى حين أنّ للشريعة الخاتمة قوانين ثابتة، فهل تقوى هذه القوانين الثابتة على أن تؤمّن حاجات الإنسان المتغيّرة على مدى الزمان؟

و يمكن الإجابة على هذا السؤال جيدا بملاحظة المسألة التالية، و هى: أنّه لو كانت لكلّ قوانين الإسلام صفة الجزئية، و أنّها قد عيّنت

لكلّ موضوع حكما جزئيا معينا لكان هناك مجال لهذا السؤال، أمّا إذا عرفنا بأنّ فى تعليمات الإسلام سلسلة من الأصول الكلية الواسعة جدّا، و التى تقدر على أن تطابق الحاجات المتغيّرة و تؤمّنها، فلا يبقى مجال لهذا الإشكال.

إنّنا نرى استحداث سلسلة من الاتّفاقيات الجديدة و الروابط الحقوقية بين البشر لم يكن لها وجود فى عصر نزول القرآن بتاتا، فمثلا لم يكن فى ذلك العصر شيء اسمه «الضمان» بفروعه المتعدّدة[۲۵۳]، و كذلك أنواع الشركات التى ظهرت فى عصرنا و زماننا حسب الاحتياج اليومى، لكن يوجد لدينا فى الإسلام أصل عامّ ورد فى بداية سورة «المائدة» بعنوان «لزوم الوفاء بالعهد و العقد»: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و هو قادر على احتواء كلّ هذه الاتفاقيات.

و طبعا هناك قيود و شروط بصورة عامّة وضعت لهذا الأصل العامّ فى الإسلام،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۵

يجب أن تؤخذ بنظر الإعتبار أيضا.

بناء على هذا فالقانون الكلّى ثابت فى هذا الباب بالرغم من أنّ مصاديقه متغيّرة، فلا مانع من أن يظهر مصداق جديد له فى كلّ يوم.

و نضرب مثالا آخر، و هو: لدينا فى الإسلام قانون مسلّم به، و هو قانون (لا ضرر) يمكن من خلاله تحديد أىّ حكم يكون منبعا و مصدرا للضرر و الخسارة فى المجتمع، و عن هذا الطريق ترفع كثير من الاحتياجات. إضافة إلى أنّ مسائل «لزوم حفظ المجتمع»، و «وجوب مقدّمة الواجب»، و «تقديم الأهمّ على المهمّ» يمكن أن تكون حلا للمشاكل فى كثير من الموارد.

و علاوة على كلّ ذلك فإنّ الصلاحيات التى تمنح للحكومة الإسلامية عن طريق «ولاية الفقيه» تضع تحت تصرفها إمكانيات واسعة لحلّ المشاكل فى إطار اصول الإسلام العامّة.

إنّ بيان كلّ واحد من هذه الأمور، مع الأخذ بنظر الإعتبار كون باب الاجتهاد- أى استنباط الأحكام الإلهية من المصادر الإسلامية- يحتاج إلى بحث واسع يبعدنا تناوله عن الموضوع و لكن مع ذلك فإنّ ما أوردناه هنا من باب الإشارة يمكن أن يكون جوابا للإشكال المذكور.

۳- كيف يحرم البشر من فيض الارتباط بعالم الغيب؟

السؤال الآخر هو: إنّ نزول الوحى و الاتّصال بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة يعتبر نافذة أمل لكلّ المؤمنين الحقيقيين، إضافة إلى أنّه موهبة و فخر لعالم البشرية، ألا يعتبر قطع طريق الاتّصال هذا، و غلق نافذة الأمل هذه حرمانا عظيما للبشر الذين يعيشون بعد وفاة خاتم الأنبياء؟

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتّضح بملاحظة النقطتين أدناه، و هما:

الاولى: إنّ الوحى و الارتباط بعالم الغيب وسيلة لإدراك الحقائق و لمّا بيّنت كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۶

الاحتياجات و الحقائق إلى يوم القيامة فى الأصول العامّة و التعليمات الجامعة التى وضعها خاتم النّبيين، و لذلك فإنّ قطع طريق الاتّصال هذا لا يوجد مشكلة.

الثّانية: إنّ ما يقطع إلى الأبد بعد ختم النبوّة هو الوحى لشريعة جديدة، أو لتكميل شريعة سابقة، لا كلّ أنواع الاتّصال بما وراء عالم الطبيعة، لأنّ للأئمّة ارتباطا بعالم الغيب، و كذلك المؤمنون الحقيقيون الذين أزالوا الحجب عن قلوبهم و وصلوا إلى مقام المكاشفة و الشهادة نتيجة تهذيبهم أنفسهم.

يقول الفيلسوف الشهير «صدر المتألّهين الشيرازى» فى مفاتيح الغيب:

«و اعلم، أنّ الوحى إذا انقطع، و باب الرسالة إذا انسدّ استغنى الناس عن الرسل و إظهار الدعوة بعد تصحيح الحجّة و إكمال الدين،

كما قال اللّه تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و أمّا باب الإلهام فلا ينسدّ، و مدد نور الهداية لا ينقطع لاحتياج الناس لاستغراقهم فى هذه الوساوس إلى التنبيه و التذكير، و اللّه تعالى غلق باب الوحى و فتح باب الإلهام رحمة منه على عباده»[۲۵۴].

إنّ هذا الارتباط يتولّد عادة من سموّ النفس و ارتقاء الروح و تصفيتها و صفاء الباطن، و لا علاقة لها بمسألة النبوّة و الرسالة، و بناء على هذا فمتى ما تحقّقت مقدّماته و شروطه وجدت هذه الرابطة المعنوية، و بذلك فلم يكن أىّ بشر محروما من هذا الفيض العظيم، و لن يكون- تأمّلوا ذلك-.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۷

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۴۲) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴)

التّفسير

تحيّة اللّه و الملائكة فرج للمؤمنين:

لمّا كان الكلام فى الآيات السابقة عن مسئوليات نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و واجباته الثقيلة الملقاة على عاتقه، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن جانبا من وظائف المؤمنين من أجل تهيئة الأرضية اللازمة لهذا التبليغ، و توسعة أطرافه فى جميع الأبعاد، فوجّهت الخطاب إليهم جميعا و قالت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً و نزّهوه صباحا و مساء وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا.

أجل .. لمّا كانت عوامل الغفلة فى الحياة المادية كثيرة جدّا، و سهام وسوسة الشياطين ترمى من كلّ جانب صوب الإنسان، فلا طريق لمحاربتها إلّا بذكر اللّه الكثير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۸

إنّ «الذكر الكثير»- بالمعنى الواقعى للكلمة- يعنى التوجّه إلى اللّه سبحانه بكلّ الوجود، لا بلقلقة اللسان و حسب.

«الذكر الكثير» هو الذى يقذف النور فى كلّ أعمال الإنسان، و يغمرها بالضياء، و لهذا فإنّ القرآن أمر كلّ المؤمنين فى هذه الآية أن يذكروا اللّه على كلّ حال:

فاذكروه أثناء العبادة، فاحضروا قلوبكم و أخلصوا فيها.

و اذكروه عند إقدامكم على المعصية و تجنّبوها و إذا ما بدرت منكم عثرة و هفوة فبادروا إلى التوبة، و ارجعوا إلى طريق الحقّ.

و اذكروه عند النعم و اشكروه عليها.

و اذكروه عند البلايا و المصائب و اصبروا عليها و تحمّلوها.

و الخلاصة: لا تنسوا ذكره فى كلّ مشهد من مشاهد الحياة و الابتعاد عن سخطه، و التقرّب لما يجلب رضاه.

و نطالع

فى حديث مروى فى «سنن الترمذى» و «مسند أحمد» عن أبى سعيد الخدرى عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: أنّه سئل: أى العباد أفضل درجة عند اللّه يوم القيامة؟ فقال: «الذاكرون اللّه كثيرا».

قال أبو سعيد: فقلت: يا رسول اللّه، و من الغازى فى سبيل اللّه؟! قال: «لو ضرب بسيفه فى الكفّار و المشركين حتّى ينكسر و يختضب دما لكان الذاكرون أفضل درجة منه»[۲۵۵]،

و ذلك لأنّ الجهاد المخلص لا يمكن أن يتمّ بدون ذكر اللّه الكثير.

و من هنا يعلم أنّ للذكر الكثير معنى واسعا، و إذا ما فسّر فى بعض الرّوايات بتسبيح فاطمة عليها السّلام- و هو ۳۴ مرّة (اللّه أكبر) و ۳۳ مرّة (الحمد للّه) و ۳۳ مرّة (سبحان اللّه)- و فى كلمات بعض المفسّرين بذكر الصفات العليا و الأسماء الحسنى، و تنزيه اللّه سبحانه عمّا لا يليق به، فإنّ كلّ ذلك من باب ذكر المصداق الواضح، لا تحديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۸۹

المعنى بخصوص هذه المصاديق.

و كما يظهر بوضوح من سياق الآيات، فإنّ المراد من «تسبيح اللّه» فى كلّ غداة و عشى هو استمرار التسبيح، و ذكر هذين الوقتين بالخصوص باعتبارهما بداية اليوم و نهايته، و ما فسّرهما به البعض من أنّ المراد صلاتى الصبح و العصر، أو أمثال ذلك، فهو من قبيل ذكر المصداق أيضا.

لهذا فإنّ ذكر اللّه الكثير، و تسبيحه بكرة و أصيلا لا يحصل إلّا باستمرار التوجّه إلى اللّه، و تنزيهه عن كلّ عيب و نقص، و تقديسه المتّصل، فذكر اللّه غذاء لروح الإنسان كما أنّ الطعام و الشراب غذاء للبدن.

و جاء فى الآية (۲۸) من سورة الرعد أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ و نتيجة هذا الاطمئنان القلبى هو ما ورد فى الآيات ۲۷- ۳۰ من سورة الفجر، حيث تقول:

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي

و الآية التالية بمثابة نتيجة و علّة غائيّة للتسبيح فى الواقع، فهى تقول: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ أى من ظلمات الشرك و الكفر و الجهل إلى نور الإيمان و العلم و التقوى وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بسبب هذه الرحمة كتب على نفسه هداية البشر و إرشادهم، و أمر ملائكته أن تعينهم فى ذلك.

«يصلّى» من مادة (صلاة) و هى هنا تعنى الرعاية و العناية الخاصّة، و هذه العناية بالنسبة للّه تعنى نزول الرحمة، و بالنسبة للملائكة تعنى الاستغفار و طلب الرحمة، كما نقرأ ذلك فى الآية (۷) من سورة غافر: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و على أيّة حال، فإنّ هذه الآية تتضمّن بشارة عظيمة للمؤمنين الذاكرين اللّه على الدوام، فهى تقول بصراحة: إنّ هؤلاء ليسوا وحدهم فى سيرهم إلى اللّه، بل إنّهم- بمقتضى (يصلّى) و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار- يسيرون فى ظلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۰

رحمة اللّه و ملائكته، و فى ظلّ هذه الرحمة تزاح حجب الظلمة، و يغمر قلوبهم و أرواحهم نور العلم و الحكمة و الإيمان و التقوى.

نعم .. إنّ هذه الآية بشارة كبرى لكلّ سالكى طريق الحقّ بأنّ هناك جاذبية قوية من جانب المعشوق تجذب العاشق إليها لينتهى سعى هذا العاشق الصبّ إلى نتيجة و لا يذهب سدى! إنّ هذه الآية ضمان لكلّ المجاهدين فى سبيل اللّه أن لا ينالهم قسم الشيطان على إغواء بنى آدم، لأنّهم فى زمرة المخلصين المخلصين، و قد أظهر الشيطان عجزه عن إضلال هذه الزمرة منذ الوهلة الاولى فقال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [۲۵۶] إنّ جملة وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً و بملاحظة أنّ (كان) فعل ماض يدلّ على أنّ اللّه كان رحيما بالمؤمنين رحمة خاصّة على الدوام، تأكيد مجدّد على ما جاء فى بداية السورة.

أجل .. هذه هى رحمة اللّه الخاصّة التى تخرج المؤمنين من ظلمات الأوهام و الشهوات و الوساوس الشيطانية، و تهديهم إلى نور اليقين و الاطمئنان و السيطرة على النفس، و لو لا رحمته سبحانه فإنّ هذا الطريق الملىء بالمنعطفات و العراقيل لا يكون سالكا.

و تجسّد الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث مقام المؤمنين و ثوابهم بأروع تجسيد و أقصر عبارة، فتقول: تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ

«التحيّة» من مادّة «حياة»، و هى تعنى الدعاء لسلامة و حياة اخرى. و لمزيد التوضيح راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (۸۵) من سورة النساء.

هذا السّلام يعنى السلامة من العذاب، و من كلّ أنواع الألم و العذاب و المشقّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۱

سلام ممتزج بالهدوء و الاطمئنان.

و مع أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ «تحيتهم» إشارة إلى سلام المؤمنين و تحية بعضهم بعضا، إلّا أنّ ملاحظة الآيات السابقة التى كان الكلام فيها عن الصلاة و رحمة اللّه و الملائكة فى هذه الدنيا، تظهر أنّ هذه التحية أيضا من الملائكة فى الآخرة، كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۳) من سورة الرعد: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ

ممّا قلناه اتّضح بصورة ضمنية أنّ المراد من جملة يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ هو يوم القيامة الذى سمّى بيوم «لقاء اللّه»، و هذا التعبير يستعمل عادة فى القرآن بهذا المعنى.

بعد هذه التحيّة، التى ترتبط ببداية الأمر، أشارت الآية إلى نهايته فقالت:

وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً.

إنّها جملة جمع فيها كلّ شىء على اختصارها، و أخفيت فيها كلّ النعم و المواهب.

بحوث

۱- ذكر اللّه على كلّ حال:

عند ما يذكر اسم اللّه تعالى يتجلّى فى قلب الإنسان عالم من العظمة و القدرة و العلم و الحكمة، لأنّ له الأسماء الحسنى و الصفات العليا، و ربّ كلّ الكمالات، و منزّه عن كلّ عيب و نقص.

إنّ التوجّه المستمر لمثل هذه الحقيقة التى لها تلك الصفات، يسوق روح الإنسان إلى الخيرات و الأعمال الصالحة و الطهارات، و يبعده عن السيّئات و القبائح، و بعبارة اخرى فإنّ نور صفاته عزّ و جلّ يتجلّى فى روح الإنسان.

إنّ التوجّه إلى هكذا معبود عظيم يبعث على الإحساس الدائم بحضوره بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۲

يديه تعالى، و هذا الإحساس يؤدّى إلى زيادة الفاصلة كثيرا بين الإنسان و بين الذنب و المعصية.

ذكر اللّه يعنى تذكر مراقبته .. ذكر حسابه و جزائه .. ذكر محكمته العادلة .. نعيمه و جحيمه .. و هذا هو الذكر الذى يصفّى الروح، و يغمر القلب نورا و حيوية.

لهذا ورد فى الروايات الإسلامية أنّ لكلّ شىء حدّا، إلّا ذكر اللّه فإنّه لا حدّ له!

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى الرواية التى وردت فى اصول الكافى: «ما من شىء إلّا و له حدّ ينتهى إليه، إلّا الذكر فليس له حدّ ينتهى إليه».

ثمّ يضيف: «فرض اللّه عزّ و جلّ الفرائض، فمن أدّاهنّ فهو حدّهنّ، و شهر رمضان فمن صامه فهو، و الحجّ فمن حجّ حدّه، إلّا الذكر، فإنّ اللّه عزّ و جلّ لم يرض منه بالقليل، و لم يجعل له حدّا ينتهى إليه، ثمّ تلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا[۲۵۷].

و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام فی ذیل هذه الروایة، «و کان أبی کثیر الذکر، لقد کنت أمشی معه و إنّه لیذکر اللّه، و آکل معه الطعام و إنّه لیذکر اللّه، و لقد کان یحدث القوم و ما یشغله ذلک عن ذکر اللّه».

و أخیرا ینتهی هذا الحدیث الغنی المحتوی بهذه الجملة:

«و البیت الذی یقرأ فیه القرآن، و یذکر اللّه عزّ و جلّ فیه تکثر برکته، و تحضره الملائکة، و تهجره الشیاطین، و یضیء لأهل السماء کما یضیء الکوکب الدرّی لأهل الأرض»[۲۵۸].

إنّ هذا الموضوع من الأهمیّة بمکان بحیث عدّ «ذکر اللّه» فی حدیث یعدل خیر الدنیا و الآخرة،

فقد روی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من أعطی لسانا ذاکرا فقد اعطی خیر الدنیا و الآخرة»[۲۵۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۳

و الروایات الواردة فی أهمیّة «ذکر اللّه» تبلغ من الکثرة حدّا بحیث أنّا لو أردنا إیرادها جمیعا هنا لخرجنا عن وضع الکتاب وحدّه، و لذلک نختم هذا الحدیث بحدیث آخر قصیر عمیق المعنی

عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «من أکثر ذکر اللّه عزّ و جلّ أظلّه اللّه فی جنّته»[۲۶۰].

و لمزید الاطلاع فی هذا المجال یراجع المجلّد الثّانی من اصول الکافی- الأبواب التی تتعلّق بذکر اللّه، و خاصّة الأبواب التی تقول: إنّ الآفات و البلایا و المصائب لا تحیط بمن یذکرون اللّه).

و هناک مطلب ینبغی التأکید علیه، و هو أنّ کلّ هذه البرکات و الخیرات لا ترتبط قطعا بالذکر اللفظی و حرکة اللسان الخالیة من الفکر و العمل، بل الهدف هو الذکر الذی یکون مصدرا و منبعا للفکر .. ذلک الفکر الذی یتجلّی نوره فی أعمال الإنسان، کما صرّحت الروایات بهذا المعنی ۲۶۱].

۲- توضیح حول «لقاء اللّه»:

قلنا: إنّ هذا التعبیر فی القرآن المجید یشیر إلی القیامة عادة، و لمّا کان اللقاء الحسّی لا یصدق فی شأن اللّه، إذ لیس هو بجسم، و لیس له العوارض الجسمیة، و لذلک اضطر بعض المفسّرین إلی تقدیر شیء هنا، فقالوا: إن المراد هو «لقاء ثواب اللّه»، أو «لقاء ملائکة اللّه».

غیر أنّ «اللقاء» یمکن أن یؤخذ هنا بمعنی اللقاء الحقیقی بعین القلب، حیث أنّ الحجب تزال فی القیامة و تتجلّی عظمة اللّه و آیاته أکثر من أیّ وقت مضی، و یصل الإنسان إلی مقام المشاهدة الباطنیة و الرؤیة القلبیة، و ینال کلّ شخص من هذه المشاهدة مرتبة تتناسب مع مقدار معرفته و عمله الصالح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۴

و للفخر الرازی فی تفسیره هنا بیان جمیل یمکن جمعه مع ما قلناه، فهو یقول:

إنّ الإنسان یغفل فی هذه الدنیا عن اللّه غالبا نتیجة لغرقه فی الأمور المادیة، و السعی لتحصیل المعاش، إلّا أنّه یتوجّه یوم القیامة بکلّ وجوده إلی ربّ العالمین، لأنّ کلّ هذه المشاغل الفکریة ستزول، و هذا هو معنی لقاء اللّه ۲۶۲].

ثمّ إنّه اتّضح ممّا قلناه أنّ قول بعض المفسّرین بأنّ هذا التعبیر إشارة إلی لحظة الموت و اللقاء بملک الموت لا یناسب الآیات مورد البحث، و لا التعبیرات المشابهة الواردة فی آیات القرآن الاخری، و خاصّة و أنّ ضمیر المفعول الذی فی جملة «یلقونه» جاء بصیغة المفرد، و هو إشارة إلی ذات اللّه المقدّسة فی حین أنّ الملائکة التی تقبض الأرواح جمع، و جاءت کلمة «الملائکة» بصیغة الجمع فی

الآية السابقة أيضا (إلّا اللهمّ أن تقدّر كلمة ما).

۳- أجور المؤمنين معدّة منذ الآن!

إنّ جملة أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً توحى بأنّ الجنّة و نعمها قد خلقت، و هى بانتظار المؤمنين. و يمكن أن يتبادر هذا السؤال إلى الأذهان: إنّ التهيئة و الإعداد يليقان بالشخص المحدود القدرة، حيث أنّه ربّما لا يستطيع فى بعض الأحيان أن يهيء وقت الحاجة ما يريد، إلّا أنّ مثل هذه الحاجة إلى الاستعداد لا تصدق فى شأن اللّه سبحانه، إذ أنّ قدرته لا تحدّ، و إذا أراد شيئا فى أيّة لحظة فإنّه يقول له: كن فيكون، فما هو المراد من التأكيد على التهيئة و الإعداد فى هذه الآية و سائر آيات القرآن الاخرى؟! و بملاحظة نقطة واحدة يحلّ هذا الإشكال، و هى أنّ تهيئة الشيء ليس نابعا من كون القدرة محدودة دائما، بل قد يكون أحيانا من أجل تهدئة الخاطر و اطمئنان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۵

النفس أكثر، و قد يكون أحيانا من أجل زيادة الاحترام و الإكرام، و لذلك فإنّنا إذا دعونا ضيفا، و بدأنا بتهيئة وسائل استقباله و ضيافته، فسنكون قد اهتممنا به و احترمناه أكثر، على عكس ما إذا قمنا بهذا الاستعداد لاستقباله يوم مجيئه، و فى ساعة وصوله، فإنّ هذا كاف لوحده فى الدلالة على عدم اهتمامنا و قلّة احترامنا لهذا الضيف.

و فى الوقت نفسه، لا يمنع هذا الكلام من تعاظم الأجر و الثواب و زيادته وفق العمل، و أنّ المؤمنين كلّما اجتهدوا أكثر فى تهذيب أنفسهم و تطهيرها، فإنّ الأجور الإلهيّة المعدّة لهم تتكامل أكثر و تعظّم، و تسير نحو الكمال بنفس النسبة التى يتكاملون فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۶

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵) وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (۴۸)

التّفسير

السّراج المنير!

الخطاب فى هذه الآيات موجّه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله، إلّا أنّ نتيجته لكلّ المؤمنين، و بذلك فإنّها تكمل الآيات السابقة التى كانت تبحث فى بعض وظائف المؤمنين و واجباتهم.

لقد جاءت فى الآيتين الأوليين من هذه الآيات الأربع «خمس صفات» للنبى صلّى اللّه عليه و آله و جاء فى الآيتين الأخريين بيان خمس واجبات يرتبط بعضها ببعض، و تكمل إحداها الاخرى.

تقول الآية أوّلا: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً فهو من جانب شاهد على أعمال أمّته، لأنّه يرى أعمالهم كما نقرأ ذلك فى موضع آخر: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۷

وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ [۲۶۳] و هـذا العلم يمكن تحقّقه عن طريق عرض أعمـال الامّـة على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و الأئمّـة عليهم السّلام، و قد مرّ تفصيل ذلك فى ذيل الآية المذكورة (۱۰۵ من سورة التوبة).

و هو من جانب آخر شاهد على الأنبياء الماضـين الذين كانوا شـهودا على أممهم: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.[۲۶۴] و من جهـة ثالثة فإنّ وجودك بما لك من الصـفات و الأخلاق و البرامج و التعليمات البنّاءة، إضافة إلى تاريخك المشرق و أعمالك المشرفة، شاهد على أحقّية دينك، و شاهد على عظمة اللّه و قدرته.

ثمّ تطرّقت الآية إلى الصـفتين الثّانية و الثالثة فقالت: وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً فهو مبشّـر للمحسـنين بثواب اللّه اللامتناهى .. بالسـلامة و السـعادة الخالـدة .. بـالظفر و التوفيق الملىء بالفخر و الاعتزاز .. و نـذير للكافرين و المنافقين من عـذاب اللّه الأليم .. من خسـران كلّ رأسـمال الوجود، و من السقوط فى شراك التعاسة فى الدنيا و الآخرة.

و كمـا قلنـا سابقـا، فـإنّ البشارة و الإنـذار يجب أن يقترنا فى كلّ مكان، و أن يكون أحـدهما معادل للآخر، لأنّ نصف وجود الإنسان عبارة عن حبّه لجلب المنفعة، و نصـفه الآخر سـعيه لدفع المضـرّة عنه، فالبشارة تشـكّل الدافع على القسم الأوّل، و الإنذار على النصف الثانى، فالمناهج التى تعتمد على جانب واحد لم تدرك حقيقة الإنسان، و لم تدرك دوافعه و ميوله ۲۶۵].

و أشارت الآية التالية إلى الصفة الرّابعة و الخامسة، فقالت: وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۸

ملاحظات

و هنا ينبغى الانتباه إلى عدّة ملاحظات:

۱- لقد ذكر مقام «الشـهادة»، و كون النّبى صلّى اللّه عليه و آله شاهدا قبل جميع صفاته الاخرى، و ذلك لأنّ هذا المقام لا يحتاج إلى مقدّمـة سوى وجود النّبى و رسالته، فعنـد ما يتمّ نصـبه فى هذا المقام يكون شاهدا من جميع الجهات التى ذكرناها سابقا، غير أنّ مقام «البشارة» و «الإنذار» أمر يتحقّق بعد ذلك.

۲- إنّ الـدعوة إلى اللّه سـبحانه مرحلـة تأتى بعد البشارة و الإنذار، لأنّ البشارة و الإنذار وسـيلة لتهيئة الأفراد لقبول الحقّ، فعند ما تتهيّأ هذه الأرضية عن طريق الترغيب و الترهيب، تبدأ مرحلة الدعوة إلى اللّه سبحانه، و ستكون مؤثّرة فى هذه الحالة فقط.

۳- مع أنّ كلّ أعمال النّبى صلّى اللّه عليه و آله بإذن اللّه و أمره، إلّا أنّ الدعوة هى الوحيدة التى قيّدت بإذن اللّه هنا، و ذلك لأنّ أشقّ أعمال الأنبياء و أهمّها هى الـدعوة إلى اللّه سـبحانه، حيث يجب عليهم أن يسوقوا الناس فى طريق يخالف ميولهم و شـهواتهم، فيجب أن تسـتبطن إذن اللّه و أمره و نصـرته فى هـذه المرحلة ليتمّ تنفيذها، و من هنا يتّضح أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله لا يملك شـيئا من عند نفسه، بل كلّ ما يقوله بإذن اللّه ۲۶۶].

۴- إنّ كون النّبى صلّى اللّه عليه و آله (سراجا منيرا) إشارة إلى المعجزات و أدلّة أحقّية دعوة الرّسول، و علامة صدقها، فهو سراج منير شاهـد بنفسه على نفسه، يزيـح الظلمـات و يلفت الأنظـار و يجـذب القلـوب إليه، فكمـا أنّ بزوغ الشـمس دليـل على وجـود الشـمس، فكذلك وجوده صلّى اللّه عليه و آله دليل على كونه حقّا، و دليل على أحقّيته.

و ممّا يسـتحقّ الانتباه أنّ لفظة «السراج» قد وردت فى القرآن المجيد أربع مرّات، ثلاث منها فى شأن الشمس، و من جملتها ما ورد فى الآية (۱۶) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۲۹۹

نوح حيث تقول: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً.

«السراج» فى الأصل يعنى المصباح الذى يضاء سابقا بواسطة الفتيلة و الزيت، و بواسطة الطاقة الكهربائية و أمثالها فى العصر الحاضر، فينبعث ضياؤه و نوره، إلّا أنّه اطلق- على قول الراغب فى مفرداته- على كلّ مصدر للنور فيما بعد، و إطلاقه على الشمس من أجل أنّ نورها ينبع من داخلها، و لا تكتسب نورها من مصدر آخر كالقمر.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله كالشمس المنيرة التى تزيح ظلمات الجهل و الشرك و الكفر عن سماء روح البشر، لكن كما لا ينتفع العمى بنور الشمس، و كما تخفى الخفافيش أنفسها عنه حيث لا- طاقة لعيونها برؤية هذا النور، فإنّ عمى القلوب العنودين المتعصّبين لم يستفيدوا و لن يستفيدوا من هذا النور مطلقا، و كان أبو جهل و أمثاله يضعون أصابعهم فى آذانهم حتّى لا يسمعوا صوت قرأنه و نغمته.

إنّ الظلام يبعث على الخوف و الوحشة دائما، و النور يبعث الاطمئنان و الراحة، فالسرّاق و اللصوص يستغلّون ظلام الليل للسطو على الدور و نهب ما يقدرون عليه، و الحيوانات المفترسة تخرج من حجورها فى ظلمة الليل غالبا.

الظلام يسبّب الفرقة، و النور يسبّب الاجتماع، و لذلك فإنّنا إذا أسرجنا سراجا فى ليلة مظلمة فستجتمع حوله أنواع الحشرات فى فترة قصيرة.

إنّ النور و الضياء أساس نمو الأشجار، و نضج الفواكه و الأثمار، و الخلاصة: كلّ نشاطات الحياة، و تشبيه وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله بمصدر للنور يبعث على تداعى كلّ هذه المفاهيم فى الذهن.

إنّ وجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله أساس الهدوء و الاطمئنان، و فرار لصوص الدين و الإيمان، و هرب الذئاب الضارية الظالمة لمجتمعاتها، و يوجب هدوء الخاطر، و نمو روح الإيمان و الأخلاق، و الخلاصة: أساس الحياة و الحركة، و تأريخ حياته شاهد حى على هذا الموضوع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۰

و فى الآيتين الأخريين من الآيات مورد البحث بيانا لخمسة واجبات من واجبات النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله المهمّة بعد بيان صفاته الخمس، فتقول أوّلا: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً و هى إشارة إلى أنّ مسألة تبشير النّبى صلّى اللّه عليه و آله لا يحدّ بالثواب الإلهى بمقدار أعمال المؤمنين الصالحة، بل إنّ اللّه سبحانه يفيض عليهم من فضله بحيث تضطرب المعادلة بين العمل و الجزاء تماما كما تشهد بذلك الآيات القرآنية.

فتقول فى موضع: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۲۶۷] و تقول فى موضع آخر: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ.[۲۶۸] و قد تذهب أبعد من ذلك فتقول: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [۲۶۹] و بهذا فإنّ أبعاد الفضل الإلهى الكبير أوسع و أسمى ممّا يخطر فى التصوّر و الأوهام.

ثمّ تناولت الواجب الثّانى و الثالث، فقالت: وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ

لا- شكّ أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لم يطع الكافرين و المنافقين مطلقا، إلّا أنّ هذا الموضوع من الأهميّة بمكان، و لذلك أكّدت الآية على هذا الموضوع بالخصوص من باب التأكيد على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و التحذير و القدوة للآخرين، فهى تحذّرهم من الأخطار و العقبات المهمّة التى تعترض طريق القادة المخلصين، و التى تجرّهم إلى المساومة و التسليم أثناء المسيرة، و تتهيّأ أرضية هذا التسليم عن طريق التهديد تارة، و عن طريق منح الامتيازات تارة اخرى، حتّى أنّ الإنسان قد يشتبه أحيانا فيظنّ أنّ الخضوع و الامتثال لمثل لهذه المساومة و الاستسلام هو طريق الوصول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۱

إلى الهدف. فى حين أنّ نتيجة هذا الاستسلام هى إجهاض كلّ الجهود و المساعى، و إحباط كلّ جهاد و كفاح.

إنّ تأريخ الإسلام يبيّن أنّ الكافرين و المنافقين سعوا مرارا إلى جرّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى هذا الموضع، فاقترحوا مرّة أن لا يذكر الأصنام بسوء و لا ينتقدها و ينتقصها، و قالوا مرّة اخرى: ائذن لنا أن نعبد ربّك سنة، و اعبد آلهتنا سنة، و كانوا يقولون أحيانا: أمهلنا سنة نقيم فيها على ديننا ثمّ نؤمن بك. و اقترحوا عليه مرّة أن أبعد عنك فقراء المؤمنين و مساكينهم لنضمّ صوتنا- نحن الأثرياء ذوى المكانة- إليك.

و كانوا يعلنون أحيانا استعدادهم لبذل الامتيازات المالية و المركز و المنصب الحسّاس، و النساء الجميلات و أمثال ذلك.

من المسلّم أنّ كلّ هذه كانت شراك خطيرة فى طريق انتشار الإسلام السريع، و اقتلاع جذور الكفر و النفاق، و لو كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله قد أظهر الليونة و الميل إلى المساومة أمام واحد من هذه الاقتراحات فإنّ دعائم الثورة الإسلامية كانت ستنهار، و لم تكن الجهود لتصل إلى نتيجة مطلقا.

ثمّ تقول فى الأمر الرابع و الخامس: وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا.

إنّ هذا الجزء من الآية يوحى بأنّهم قد وضعوا النّبى صلّى اللّه عليه و آله تحت ضغط شديد لحمله على الاستسلام، و استخدموا ضدّه و ضدّ أصحابه كلّ أنواع الأذى، سواء كان عن طريق جرح اللسان و الكلام الفاحش و الإهانة، أم عن طريق الأذى الجسمى، أو عن طريق الحصار الاقتصادى. و كان لهذا الأذى صورة و أسلوبا فى مكّة، و أسلوبا آخر فى المدينة، لأنّ «الأذى» جاء مطلقا فى الآية و يشمل كلّ أنواع الأذى.

و يرى «الراغب» فى المفردات أنّ «الأذى» هو كلّ ضرر يصيب الكائن الحى، سواء فى روحه، أو جسمه، أو يصيب من يرتبط به، سواء فى الدنيا أم الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۲

و قد استعملت هذه الكلمة فى الآيات القرآنية فى «الأذى اللسانى» تارة كالآية (۶۱) من سورة التوبة، حيث تقول: وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ

و استعملت أيضا بمعنى «الأذى البدنى» فى آيات اخرى، كالآية (۱۶) من سورة النساء: وَ الَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما أى يرتكبان الفاحشة، فأقيموا عليهما الحدّ الشرعى.

يقول التاريخ: إنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الأوائل قد وقفوا كالجبل الأشمّ أمام أنواع الأذى، و لم يقبلوا عار الاستسلام و الهزيمة قطّ، و أخيرا انتصروا فى حركتهم.

و كان أساس هذه المقاومة و معينها هو «التوكيل على اللّه» و الاعتماد على ذاته المقدّسة .. اللّه الذى تتيسّر كلّ الصعاب و المشاكل أمام إرادته .. أجل يكفى الإنسان أن يكون معينه و ناصره هذا الربّ الجليل.

و ممّا قلناه اتّضح أنّ محتوى الآية المذكورة لم يكن نسخ لحكم الجهاد- كما يظنّ ذلك بعض المفسّرين- بل الظاهر أنّ هذه الآيات قد نزلت بعد مدّة من نزول حكم الجهاد، و هى فى مصافّ الحوادث المتعلّقة بسورة الأحزاب.

إنّ هذا حكم لكلّ العصور و القرون، بأن لا يصرف الأئمّة الإلهيون طاقاتهم الحيوية فى الاهتمام بإيذاء مخالفيهم، فإنّهم إن فعلوا ذلك و صرفوا قواهم و طاقاتهم فى هذا المجال، يكون عدوّهم قد حقّق هدفه، لأنّه يريد أن يشغل فكر من يقابله، و يهدر طاقاته عن هذا الطريق .. هنا يكون أمر دَعْ أَذاهُمْ هو الحلّ الوحيد.

و هنا أمر يستحقّ الانتباه أيضا، و هو: أنّ الأوامر الخمسة المذكورة، التى وردت فى الآيتين الأخيرتين، يكمل بعضها بعضا، و يرتبط بعضها ببعض، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۳

تبشير المؤمنين لجذب القوى المؤمنة، و عدم الاستسلام للكفّار و المنافقين، و عدم الاهتمام بأذاهم، و التوكّل على اللّه تشكّل

مجموعة مبادئ تؤدّى إلى الهدف، و دستور عمل جامع لكلّ سالكى طريق الحقّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۴

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۴۹]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِـدَّةٍ تَعْتَـدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَـرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا (۴۹)

التّفسير

جانب من أحكام الطلاق:

إنّ آيات هذه السورة- الأحزاب- جاءت على شكل مجموعات مختلفة، و الخطاب فى بعضها موجّه إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و فى بعضـها الآـخر إلى كـلّ المؤمنين، و لـذلك تقول أحيانـا: يـا أَيُّهَـا النَّبِيُ و أحيانـا اخرى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قـد وردت فيها الأوامر اللازمـة يوازى بعضـها بعضا، و هـذا يعنى أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله كان مرادا بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضا.

و الآيـة التى نبحثهـا من الآيـات التى توجّه خطابها إلى كلّ المؤمنين، و لـذلك تقول أحيانا: يا أَيُّهَا النَّبِيُ و أحيانا اخرى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قد وردت فيها الأوامر اللازمة يوازى بعضـها بعضا، و هذا يعنى أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله كان مرادا بهذه التعليمات، كما أنّ عموم المؤمنين يرادون بها أيضا.

و الآية التى نبحثها من الآيات التى توجّه خطابها إلى كلّ المؤمنين، فى حين أنّ الآيات السابقة خاطبت شـخص النّبى صـلّى اللّه عليه و آله ظاهرا، و يتوجّه الخطاب إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى الآيات القادمة مرّة اخرى، و بهذا فإنّ قسما من هذه السورة يتّبع أسلوب «اللفّ و النشر المرتّب».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۵

تقول الآية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها.

لقد بيّن اللّه سبحانه هنا حكما استثنائيا من حكم عدّة النساء المطلّقات، و هو أنّ الطلاق، إن وقع قبل الدخول فلا تلزم العدّة، و من هذا التعبير يفهم أنّ حكم العدّة كان قد بيّن قبل هذه الآية.

إنّ التعـبير ب «المؤمنـات» لاـ يـدلّ على أنّ الزواج مـن غير المسـلمات ممنـوع تمامـا، بـل مـن الممكـن أن يكـون إشـارة إلى أولـوية المؤمنات، و بناء على هذا فإنّه لا ينافى الروايات و مشهور فتاوى الفقهاء بجواز الزواج المؤقّت من الكتابيات.

ثمّ إنّه يسـتفاد من تعبير (لكم) و كـذلك جملـة (تعتـدونها) أنّ انتظار عـدّة المرأة يعتبر حقّا للرجل، و يجب أن يكون هكـذا، لأنّ من الممكن أن تكون المرأة حاملاـ فى الواقع، و تركهـا العـدّة و زواجها برجل آخر يجعل حال الولـد غير معلوم، و يؤدّى إلى ضـياع حقّ الرجل إضافـة إلى أنّ انتظار العـدّة يمنـح الرجل و المرأة فرصـة لتجديد النظر و الرجوع إلى بعضـهما، فقد يقع الطلاق نتيجة انفعالات شديدة، و مثل هذه الفرصة و التفكير حقّ للرجل و المرأة معا.

و أمّا ما أورده البعض على هذا الحكم، بأنّ العدّة إن كانت حقّا للرجل، فبإمكانه أن يسـقط حقّه، فلا يصحّ، لأنّ فى الفقه حقوقا كثيرة

لا يمكن إسقاطها، كالحقّ الذى لورثة الميّت فى أمواله، أو الحقّ الذى للفقراء فى الزكاة، إذ لا يقدر أى أحد على إسقاط هذا الحقّ الشرعى.

ثمّ تتطرّق الآية إلى حكم آخر من أحكام النساء اللاتى يطلقن قبل المباشرة الجنسية- و الذى سبقت الإشارة إليه فى سورة البقرة أيضا- فتقول: فَمَتِّعُوهُنَ أى اعطوهنّ هدية مناسبة.

و لا شكّ أنّ تقديم هديّة مناسبة إلى المرأة يكون واجبا فى حالة عدم تعيين المهر من قبل، كما جاء فى الآية (۲۳۶) من سورة البقرة لا جُناحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۶

النِّساءَ ما لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتِّعُوهُنَ

بناء على هذا، فإنّ الآية مورد البحث و إن كانت مطلّقة، و تشمل الموارد التى عين فيها المهر، و التى لم يعيّن فيها، إلّا أنّنا نحدّدها بالمورد الذى لم يعيّن فيه المهر بقرينة آية سورة البقرة، لأنّه فى حالة تعيين المهر و عدم الدخول يجب دفع نصف المهر، كما جاء ذلك فى الآية (۲۳۷) من سورة البقرة.

و احتمل بعض المفسّرين و الفقهاء أنّ حكم تقديم هديّة مناسبة عام فى الآية مورد البحث، و يشمل حتّى الموارد التى عيّن فيها المهر، غاية ما هناك أنّ له صفة الاستحباب فى هذه الموارد، و له صفة الوجوب فى الموارد التى لم يعيّن فيها المهر. و تلاحظ فى بعض الآيات و الروايات إشارة إلى هذا المعنى أيضا[۲۷۰].

أمّا كم هو مقدار هذه الهدية؟ فقد بيّنه القرآن المجيد فى سورة البقرة إجمالا بقوله: مَتاعاً بِالْمَعْرُوفِ [۲۷۱] و كذلك قال فى نفس تلك الآية: عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ

بناء على هذا، فإن ذكرت فى الروايات الإسلامية موارد من قبيل البيت و الخادم و اللباس و أمثال ذلك، فإنّها من قبيل المصاديق لهذا الكلّى و هى تتفاوت بحسب إمكانيات الزوج و شؤون المرأة.

و آخر حكم فى الآية مورد البحث هو: وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا.

«السراح الجميل» هو الطلاق المقترن بالمحبّة و الاحترام، و ترك كلّ خشونة و ظلم و جور و احتقار، و الخلاصة هو ما ورد فى الآية (۲۹) من سورة البقرة:

فَإِمْساكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسانٍ فإنّ الاستمرار فى الحياة الزوجية يجب أن يكون قائما على أساس المعايير الإنسانية، و الطلاق كذلك، فلا يجوز للرجل- إذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۷

صمّم على طلاق زوجته- هضم حقّ الزوجة و مهرها، و بذاءة الكلام و الخشونة معها، فإنّ هذا السلوك غير إسلامى قطعا، و لا يمتّ إلى الإسلام بصلة.

و اعتبر بعض المفسّرين «السراح الجميل» بمعنى إجراء الطلاق طبقا للسنّة الإسلامية، و جاء هذا المعنى فى الرّواية الواردة فى تفسير على بن إبراهيم و عيون الأخبار. إلّا أنّ من المسلّم أنّ «السراح الجميل» لا يتحدّد بهذا المعنى، بالرغم من أنّه أحد مصاديقه.

و اعتقد بعض آخر من المفسّرين أنّ السراح الجميل هنا يعنى إذن الخروج من المنزل، لأنّ المرأة ليست مكلّفة هنا بالعدّة، و بناء على هذا فيجب إطلاق سراحها لتذهب حيث شاءت.

إلّا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا بملاحظة أنّ تعبير السراح الجميل، أو أمثاله فى الآيات القرآنية الاخرى قد ورد حتّى فى شأن النساء اللاتى يجب أن يعتددن.

و قد كان لنا بحث مفصّل حول المعنى الأصلى للسراح، و أصله اللغوى، و لما ذا يستعمل فى الإطلاقات المتعارفة بمعنى الطلاق و

الإطلاق فى ذيل الآية (۲۸) من سورة الأحزاب هذه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۸

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۰]

اشارة

يـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنـا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰)

التّفسير

يمكنك الزواج من هذه النّسوة:

قلنـا: إنّ بعض مقاطع هـذه السورة تبحث واجبات النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين على طريقـة اللفّ و النشـر المرتّب، و لـذلك فبعد ذكر جانب من الأحكام المتعلّقة بطلاق النساء، وجّهت الخطاب هنا إلى النّبى صـلّى اللّه عليه و آله، و فصّلت الموارد السبعة التى يجوز للنبى الزواج فيها من تلك النسوة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۰۹

۱- فقالت أوّلا: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَ

و المراد من هؤلاء النساء- بقرينـة الجمل التالية- النساء اللاتى لم يكنّ يرتبطن بالنّبى صـلّى اللّه عليه و آله برابطة قرابة و قد تزوّجنه، و ربّما كانت مسألـة دفع المهر لهـذا السـبب، لأنّ العرف المتّبع آنـذاك هو أنّهم كانوا يـدفعون المهر نقـدا عنـد زواجهم من الأجنبيات، إضافة إلى أفضـلية التعجيل فى هذا الدفع، و خاصّة إذا كانت الزوجة بحاجة إليه. إلّا أنّ هذا الأمر ليس من الواجبات على أى حال، إذ يمكن أن يبقى المهر دينا فى ذمّة الزوج إذا ما اتّفق الطرفان على ذلك.

۲- وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ

أَفاءَ اللَّهُ من مادّة (الفىء)، و تقال للأموال التى يحصل عليها الإنسان بـدون جهد و مشـقّة، و لذلك يطلق (الفىء) على الغنائم الحربية، و كذلك الأنفال، و هى الثروات الطبيعية التى تعود إلى الحكومة الإسلامية و لا يملكها مالك بالخصوص.

يقول الراغب فى مفرداته: الفىء بمعنى الرجوع إلى حالـة محمودة، و منه فاء الظلّ. (لحالة رجوع الظلّ) ثمّ قال: و قيل للغنيمة من دون مشقّة فىء. قال بعضهم:

سمّى ذلك بالفىء تنبيها على أنّ أشرف أعراض الدنيا يجرى مجرى ظلّ زائل.

صحيـح أنّ الغنـائم الحربيـة لا تنال فى بعض الأحيان إلّا بشقّ الأنفس و بـذل الجهـد المضـنى، إلّا أنّ مشـقّتها أقلّ من مشـقّة تحصـيل الأموال الاخرى. و قد يطلق «الفىء» أحيانا على الأموال الطائلة التى يحصل عليها من خلال هجوم واحد.

لكن من من نساء النّبى يصدق عليها هذا الحكم؟

قـال بعض المفسّـرين: إنّ إحـدى نسـاء النّبى و هى «ماريـة القبطيـة»- كـانت من الغنـائم، و كـانت زوجتـان أخريان- و هما «صـفيّة» و «جويرية»- من الأنفال أعتقهما النّبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ تزوّجهما، و كان هذا الفعل بنفسه جزءا من خطّة الإسلام العامّة فى تحرير

العبيد التدريجى، و إرجاع الشخصية الإنسانية لهم.

۳- وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللَّاتِي هاجَرْنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۰

مَعَكَ و بهذا فإنّ اللّاتى يحلّ للنّبى الزواج منهنّ من بين جميع الأقارب: بنات العمّ و العمّة، و بنات الخال و الخالة، و بشرط أن يكنّ قد هاجرن مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله.

إنّ التحديد بهذه الفئات الأربع واضح، إلّا أنّ شرط الهجرة من أجل أنّها كانت دليلا على الإيمان فى ذلك اليوم، و عدم الهجرة دليل على الكفر، أو لأنّ الهجرة تمنحهنّ امتيازا أكبر و فخرا أعظم، و الهدف من الآية هو بيان النساء الفاضلات المؤهّلات لأن يصبحن زوجات للنّبى صلّى اللّه عليه و آله.

و هل لهذه الفئات الأربع التى ذكرت كحكم كلّى فى الآية، مصداق خارجى من بين نساء النّبى أم لا؟ إنّ المورد الوحيد الذى يمكن ذكره كمصداق هو زواجه صلّى اللّه عليه و آله بزينب بنت جحش، الذى مرّت قصّته المثيرة فى طيّات هذه السورة، لأنّ زينب كانت بنت عمّة النّبى و كان «جحش» زوج عمّته ۲۷۲].

۴- وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ (من دون مهر) إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أى أنّ هذا الحكم خاص للنبى صلّى اللّه عليه و آله و لا يشمل سائر المؤمنين قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ و بناء على هذا فإذا كنّا قد حدّدنا بعض المسائل فيما يتعلّق بالزواج من هؤلاء النسوة، فقد كان ذلك استنادا إلى مصلحة حاكمة فى حياتك و حياتهن، و لم يكن أىّ من هذه الأحكام و المقرّرات اعتباطيا و بدون حساب.

ثمّ تضيف الآية لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ و بالتالى ستكون قادرا على أداء المسؤوليات الملقاة على عاتقك فى القيام بهذا الواجب وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و فى مورد القسم الأخير- أى النساء اللّاتى لا مهر لهنّ- ينبغى الالتفات إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۱

النقاط أدناه:

۱- لا شكّ أنّ جواز اتّخاذ زوجة من دون مهر كان من مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الآية صريحة فى هذه المسألة، و لذلك فهى من مسلّمات الفقه الإسلامى، و بناء على هذا فلا يحقّ لأىّ امرئ أن يتزوّج امرأة بدون مهر، قلّ أم كثر، و حتّى إذا لم يرد ذكر المهر أثناء إجراء صيغة العقد، و لم تكن هناك قرينة تعيّنه، فيجب أن يدفع مهر المثل، و المراد من مهر المثل: المهر الذى تجعله النساء اللاتى تشابهها فى الأوصاف و الخصوصيات لأنفسهنّ عادة.

۲- هناك بحث بين المفسّرين فى أنّه هل لهذا الحكم الكلّى مصداق فى مورد زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله أم لا؟

يعتقد البعض- كابن عبّاس و بعض آخر من المفسّرين- أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يتزوّج بأيّه امرأة على هذه الحال، و بناء على هذا فإنّ الحكم أعلاه كان إذنا عاما للنّبى صلّى اللّه عليه و آله إلّا أنّه لم يطبّق عمليا مطلقا.

فى حين أنّ آخرين ذكروا أسماء ثلاث أو أربع نسوة من زوجات النّبى صلّى اللّه عليه و آله اللّاتى تزوجهنّ بدون مهر، و هنّ: «ميمونة» بنت الحارث، و «زينب» بنت خزيمة، و كانتا من الأنصار، و امرأة من بنى أسد، و اسمها «امّ شريك» بنت جابر، و «خولة» بنت حكيم.

و من جملة ما ورد فى الروايات أنّ «خولة» عند ما وهبت نفسها للنبى صلّى اللّه عليه و آله اعترضت عائشة، فقالت: ما بال النساء يبذلن أنفسهنّ بلا مهر؟! فنزلت الآية أعلاه، غير أنّ عائشة التفتت إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و قالت: أرى اللّه يسارع فى هواك- و كان هذا نوع من التعريض بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله-

فقال لها النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «و إنّك إن أطعت اللّه سارع فى هواك»[۲۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۲

لا ـ شكّ أنّ أمثال هؤلاء النسوة كنّ لا يطمعن إلّا فى الفخر المعنوى عن طريق الاقتران بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله، و لـذلك كنّ على استعداد للزواج منه بدون أىّ مهر، إلّا أنّ وجود مثل هذا المصداق للحكم أعلاه غير مسلّم من الناحية التأريخية كما قلنا، بل المسلّم أنّ اللّه سبحانه كان قد أذن لنبيّه بذلك للغاية التى سنشير إليها فيما بعد.

۳- يستفاد من هذه الآية جيّدا أنّ إجراء صيغة عقد الزواج بلفظ «الهبة» كان مختّصا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله فقط، و لا يستطيع أىّ فرد آخر أن يجرى عقد الزواج بهذا اللفظ، و يجوز إجراء العقد بلفظ الزواج أو النكاح، حتّى و إن لم يجر للمهر ذكر فيه، حيث يجب دفع مهر المثل عند عدم ذكر المهر كما قلنا آنفا، فكأنّه فى الحقيقة قد صرّح بمهر المثل.

بحث

جانب من حكمة تعدّد زوجات النّبى:

إنّ الجملة الأخيرة فى الآية أعلاه إشارة فى الواقع إلى فلسفة هذه الأحكام الخاصّة بنبيّنا الأكرم، حيث تقول: إنّ للنبى صلّى اللّه عليه و آله ظروفا لا يعيشها الآخرون، و هذا التفاوت فى الظروف أصبح سببا للتفاوت فى الأحكام.

و بتعبير أوضح، إنّ الهدف من هذه الأحكام رفع بعض المشاكل و الصعوبات من كاهل النّبى صلّى اللّه عليه و آله. و هذا تعبير لطيف يبيّن أنّ زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله من عدّة نساء كان لحلّ سلسلة من المشاكل الاجتماعية و السياسية فى حياته، لأنّا نعلم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان وحيدا حينما صدع بنداء الإسلام و رفع شعاره، و لم يؤمن به بعد مدّة طويلة سوى عدّة معدودة، فإنّه ثار ضدّ كلّ معتقدات عصره و بيئته الخرافية، و أعلن الحرب ضدّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۳

الجميع، فمن البديهى أن تتّحد كلّ الأقوام و القبائل ضدّه.

فى هذا الوضع كان لا بدّ من أن يستعين بكلّ الوسائل و يستغلّها لكسر اتّحاد الأعداء اللامشروع، و كانت إحدى هذه الوسائل هو الزواج من القبائل المختلفة لإيجاده علاقة قرابة و نسب، لأنّ رابطة القرابة كانت تعدّ أقوى الروابط بين عرب الجاهلية، و كانوا يعتبرون الصهر من نفس القبيلة، و الدفاع عنه واجبا، و تركه وحيدا جريمة و ذنبا.

إنّ لدينا قرائن كثيرة تبيّن أنّ زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله المتعدّد كان له صبغة سياسيّة فى كثير من الموارد على أقلّ تقدير. و أحدها- كزواجه بزينب- كان لكسر سنّة جاهلية، و قد بيّنا تفصيله فى ذيل الآية (۳۷) من هذه السورة. و بعضه لتقليل العداوة، أو لجلب محبّة أشخاص أو أقوام متعصّبين عنودين.

من الواضح أنّ شخصا يتزوّج و هو فى سنّ الخامسة و العشرين، حيث كان فى عنفوان شبابه، بامرأة أيم لها أربعون سنة، و يكتفى بها حتّى الثالثة و الخمسين من عمره، و بهذا يكون قد قضى مرحلة الشباب و بلغ سنّ الكهولة، ثمّ يقدم على الزواج المتعدّد، لا بدّ أن يكون له سبب و فلسفة، و لا يمكن أن يفسّر بأىّ وجه من الوجوه بأسباب العلاقة و الرغبة الجنسية، لأنّه لم يكن هناك مانع اجتماعى، أو ظروف مالية صعبة، أو أدنى نقص يمنع النّبى صلّى اللّه عليه و آله من الزواج المتعدّد فى سنّى شبابه، خاصّة و أنّ تعدّد الزوجات كان أمرا طبيعيا بين العرب آنذاك، بل ربّما كانت الزوجة الاولى تذهب لخطبة الزوجة الثّانية، و لم يكونوا يعترفون بأىّ حدّ فى اتّخاذ الزوجات.

و الطريف أنّه قد ورد فى التواريخ أنّ النّبى لم يتزوّج إلّا بكرا واحدة، و هى عائشة، و باقى نسائه كنّ أيامى جميعا و من الطبيعى أن لا يتمتعنّ بإثارة جنسية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۴

ملحوظة[۲۷۴].

بل نقرأ فى بعض التواريخ أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله تزوّج بعدّة زوجات، و لم يجر إلّا مراسم العقد، و لم يباشرهنّ أبدا، و لم يباشرهنّ أبدا، بل إنّه اكتفى فى بعض الموارد بخطبة بعض نساء القبائل فقط[۲۷۵].

و قد كان هؤلاء يفرحون و يسرّون و يفتخرون بأنّ امرأة من قبيلتهم قد سمّيت بزوجة النّبى صلّى اللّه عليه و آله فحصل لهم هذا الفخر، و بذلك فإنّ علاقتهم الاجتماعية بالنّبى كانت تشتدّ و تقوى، و يصبحون أكثر تصميما على الدفاع عنه.

و من جانب آخر، فمع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن رجلا عقيما، إلّا أنّه لم يكن له من الأولاد إلّا القليل، فى حين أنّ هذا الزواج المتعدّد لو كان بسبب جاذبية هذه النسوة، و إثارتهنّ الجنسية، فينبغى أن يكون له من الأولاد الكثير.

و كذلك ينبغى الالتفات إلى أنّ بعض هذه النساء- كعائشة- كانت صغيرة جدّا عند ما أصبحت زوجة للنبى صلّى اللّه عليه و آله، و قد مرّت سنين حتّى استطاعت أن تكون زوجة حقيقية له، و هذا يوحى بأنّ الاقتران بمثل هذه البنت الصغيرة كانت له أهداف اخرى، و كان الهدف الأصلى هو ما أشرنا إليه قبل قليل.

و بالرغم من أنّ أعداء الإسلام أرادوا أن يتّخذوا من تعدّد زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله حربة لأشدّ هجماتهم المغرضة، و يحوكون منها أساطير أو هى من خيط العنكبوت للطعن فى نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله إلّا أنّ سنّ النّبى المتقدّمة عند إقدامه على تكرار الزواج من جهة، و الظروف الخاصّة المتعلّقة بالنساء من ناحية العمر و القبيلة من جانب آخر، و القرائن المختلفة التى أشرنا إلى قسم منها آنفا من جهة ثالثة تجعل الحقيقة واضحة كالشمس، و تحبط مؤامرات المغرضين و تفضحها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۵

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۱]

اشارة

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱)

سبب النّزول

قلنا فى تفسير الآيتين ۲۸ و ۲۹ من هذه السورة و بيان سبب النّزول: إنّ جمعا من نساء النّبى- بناء على ما نقله المفسّرون- قلن للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله: زد فى نفقتنا و امور معاشنا- طمعا فى الغنائم الحربية، فكنّ يحسبن أنّ قسما كبيرا منها من نصيبهنّ فنزلت الآيات المذكورة و خاطبتهنّ بصراحة بأنهنّ إن أردن الحياة الدنيا و زينتها فليفارقن النّبى إلى الأبد، و إن أردن اللّه و رسوله و اليوم الآخر فليعشن معه حياة بسيطة.

إضافة إلى أنّه كانت بينهنّ منافسة فى كيفية تقسيم أوقات حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله بينهنّ، و كنّ يحرجن النّبى و يضايقنه مع كلّ المشاكل و المشاغل التى كانت لديه، و مع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان يراعى العدالة بينهنّ و يبذل الجهد اللازم لتحقيقها تماما، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۶

كان لغطهنّ وجد الهنّ مستمرّا، فنزلت هذه الآية و جعلت النّبى صلّى اللّه عليه و آله حرّا فى تقسيم أوقاته، ثمّ أعلنت الآية لهنّ أنّ هذا حكم إلهى لئلّا يتولّد فى أنفسهن أى قلق و سوء ظنّ ۲۷۶].

التّفسير

حلّ مشكلة اخرى فى حياة النّبى:

إنّ قائدا ربّانيا عظيما كالنّبى صلّى اللّه عليه و آله خاصّة و أنّه ابتلى بسيل من الحوادث الصعبة المرّة، و كانوا يحوكون له الدسائس و المؤامرات داخليا و خارجيا، لا يقدر أن يشغل فكره بحياته الخاصّة كثيرا، بل يجب أن يكون له هدوء نسبى فى حياته الداخلية ليقوى على التفرّغ لحلّ سيل المشاكل التى أحاطت به من كلّ جانب.

إنّ اضطراب الحياة الشخصية، و كون قلبه و فكره مشغولين بوضعه العائلى فى هذه اللحظات المضطربة الحسّاسة كان أمرا خطيرا للغاية.

و مع أنّ زواج النّبى صلّى اللّه عليه و آله المتعدّد- و طبقا للبحوث السابقة، و الوثائق و المستندات التى أوردناها فى تفسير الآية السابقة- كانت له أبعاد سياسية و اجتماعية و عاطفية غالبا، و كان فى الحقيقة جزءا من تنفيذ و تطبيق رسالة اللّه سبحانه، إلّا أنّ الاختلاف بين زوجات النّبى، و المنافسة النسوية المعروفة بينهنّ، قد أثار فى الوقت نفسه عاصفة من الاضطراب داخل بيت النّبى ممّا شغل فكره و زاد فى همّه.

هنا منح اللّه سبحانه نبيّه إحدى الخصائص الاخرى، و أنهى هذه الحوادث و الأخذ و العطاء فى الجدل إلى الأبد، و أراح فكر النّبى صلّى اللّه عليه و آله من هذه الجهة، و هدأ خاطره و روعه، فقال سبحانه فى هذه الآية تُرْجِى مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۷

«ترجى» من (الإرجاء)، أى: التأخير، و «تؤوى»، من (الإيواء) و يعنى استضافة شخص فى بيتك.

و نعلم أنّ أحكام الإسلام فى شأن الزوجات المتعدّدة تقضى بأن يقسم الزوج أوقاته بينهنّ بصورة عادلة، فإن بات ليلة عند واحدة، فيجب أن يبيت الليلة الاخرى عند غيرها، إذ لا فرق و لا اختلاف بين النساء من هذه الجهة، و يعبّرون عن هذا الموضوع فى الكتب الفقهيّة الإسلامية ب «حقّ القسم».

فكانت إحدى مختصّات النّبى صلّى اللّه عليه و آله هى سقوط رعاية حقّ القسم منه بحكم الآية أعلاه، و ذلك نتيجة للظروف الخاصّة التى كان يعيشها، و الأوضاع المضطربة التى كانت تحيط به من كلّ جانب، و خاصّة أنّ الحرب كانت تفرض عليه كلّ شهر تقريبا، و كان له فى نفس الوقت زوجات متعدّدة، و بسقوط هذا الواجب عنه فقد كان قادرا على أن يقسم أوقاته كيف يشاء، غير أنّه صلّى اللّه عليه و آله كان يراعى تحقيق العدالة ما أمكن رغم هذه الظروف، كما جاء ذلك فى التواريخ الإسلامية صريحا.

إلّا أنّ وجود هذا الحكم الإلهى قد منح نساء النّبى الراحة و الاطمئنان، و أضفى على حياته الداخلية الهدوء و السكينة.

ثمّ تضيف الآية: و عند ما ترغب عن إحداهن و تعتزلها، ثمّ ترغب فيها فلا تثريب عليك: وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ

و بهذا فليس الخيار بيدك فى البداية و حسب، بل إنّه بيدك حتّى فى الأثناء أيضا، و هو فى الاصطلاح «تخيير استمرارى» لا ابتدائى، و بهذا الحكم الواسع ستقطع كلّ الحجج من برنامج حياتك فيما يتعلّق بأزواجك، و تستطيع أن تسخّر فكرك لمسؤوليات الرسالة العظيمة الثقيلة.

و من أجل أن تعلم نساء النّبى بأنهنّ إن أذعنّ لأمر اللّه تعالى فى مسألة تقسيم أوقات النّبى صلّى اللّه عليه و آله فإنّه يعتبر و سام فخر لهنّ يضاف إلى الفخر بكونهنّ أزواج النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۸

صلّى اللّه عليه و آله، إذ أنّ هذا التسليم نوع من التضحية و الإيثار، و ليس فيه أىّ عيب و انتقاص، و لذلك يضيف سبحانه: ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَ

و ذلك أوّلا: لأنّ هذا الحكم عامّ يشملهنّ جميعا و لا يتفاوتن فيه، و ثانيا: إنّ الحكم الذى يشرع من جانب اللّه سبحانه إنّما يشرع لمصلحة مهمّة، و بناء على هذا فيجب الإذعان له برغبة و رضا، فينبغى مضافا إلى عدم القلق و التأثّر أن يفرحن لذلك.

لكن النّبى صلّى اللّه عليه و آله- و كما أشرنا إلى ذلك- كان يراعى تقسيم أوقاته بينهنّ بعدالة قدر المستطاع، إلّا فى الظروف الخاصّة التى كانت توجب عدم التسوية و تحتّمه، و كان هذا بحدّ ذاته مطلبا آخر يبعث على ارتياحهنّ، لأنّهنّ كنّ يرين أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يسعى للتسوية بينهنّ مع كونه مخيّرا.

و أخيرا ينهى المطلب بهذه الجملة: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً لا يستعجل فى إنزال العقاب بالمذنبين.

أجل .. إنّ اللّه يعلم بأىّ حكم قد رضيتم، و له أذعنتم بقلوبكم، و عن أى حكم لم ترضوا.

و هو سبحانه يعلم إلى من أكثر من أزواجكم، و من منهنّ تحظى باهتمام أقل، و يعلم كيف تراعون حكمه و تنفّذوه مع هذا الاختلاف فى الميول و الرغبات.

و كذلك يعلم سبحانه من هم الذين يجلسون جانبا، و يعترضون على أحكام اللّه فى شأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و يعارضونها بقلوبهم، و يعلم من هو الذى يرضى عن هذه الأحكام و يتقبّلها بدون اعتراض.

بناء على هذا فإنّ تعبير (قلوبكم) واسع يشمل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و أزواجه، و يشمل كلّ المؤمنين الذين يقبلون بهذه الأحكام، أو الذين يعترضون عليها و ينكرونها و إن لم يبدوا هذا الاعتراض و الإنكار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۱۹

ملاحظة

هل كان هذا الحكم فى حقّ كلّ نساء النّبى:

لقد كانت هذه المسألة موضع بحث فى الفقه الإسلامى فى باب خصائص النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأنّ تقسيم الأوقات بين الزوجات المتعدّدة بالتساوى هل يجب على النّبى صلّى اللّه عليه و آله كما يجب على عامّة المسلمين، أم أنّ النّبى كان له حكم التخيير الاستثنائى؟

المعروف و المشهور بين فقهائنا و عند جمع من فقهاء العامّة أنّه صلّى اللّه عليه و آله كان مستثنى من هذا الحكم، و يعدّون الآية المذكورة أعلاه دليلا على ذلك، فهى تقول:

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ لأنّ جعل هذه الجملة بعد البحث حول كلّ نساء النّبى يوجب أن يعود ضمير (هنّ) عليهنّ جميعا، و هذا مطلب مقبول من جانب الفقهاء و كثير من المفسّرين.

إلّا أنّ البعض يرى أنّ الضمير أعلاه يتعلّق بالنساء اللاتى وهبن أنفسهنّ للنبى بدون مهر. فى حين أنّه لم يثبت تاريخيا أنّ هذا الحكم قد تحقّق فى الخارج، و أنّ له موضوعا و مصداقا أم لا. و البعض يرى أنّ النّبى لم يتزوّج على هذه الشاكلة إلّا امرأة واحدة. و على كلّ

حال، فإنّ أصل المسألة لم يثبت من الناحية التاريخية هذا أوّلا.

ثانيا: إنّ هذا التّفسير خلاف الظاهر، و لا يتناسب مع سبب النّزول الذى ذكروه لهذه الآية، و بناء على هذا فيجب قبول الحكم المذكور عاما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۰

الآية [سورة الأحزاب (۳۳): آية ۵۲]

اشارة

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲)

التّفسير

حكم مهمّ آخر فيما يتعلّق بأزواج النّبى:

لقد بيّن اللّه سبحانه فى هذه الآية حكما آخر من الأحكام المتعلّقة بزوجات النّبى، فقال عزّ و جلّ: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ فالآية منعت الرّسول من الزواج الجديد إلّا الماء و الجوارى وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً.

للمفسّرين و فقهاء الإسلام بحوث كثيرة فى هذه الآية، و وردت فى المصادر الإسلامية روايات مختلفة فى هذا الباب، و نحن نذكر أوّلا ما يبدو من ظاهر الآية أنّه مرتبط بالآيات السابقة و اللاحقة- بغضّ النظر عن أقوال المفسّرين- ثمّ نتناول المطالب الأخرى.

الظاهر من تعبير مِنْ بَعْدُ أنّ الزواج محرّم عليك بعد هذا، و بناء على هذا فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۱

(بعد) إمّا أن تعنى (بعد) الزمانية، أى لا نتّخذ زوجة بعد هذا الزمان، أو أنّ المراد أنّك بعد أن خيّرت أزواجك بين البقاء معك و الحياة حياة بسيطة فى بيتك، و بين فراقهنّ، و قد رجّحن البقاء معك عن رغبة منهنّ، فلا ينبغى أن تتزوّج بعدهنّ بامرأة اخرى.

و كذلك لا يمكنك أن تطلّق بعضهنّ و تختار مكانهنّ زوجات أخر. و بتعبير آخر:

لا تزد فى عددهنّ، و لا تبدّل الموجود منهنّ.

مسائل مهمّة:

۱- فلسفة هذا الحكم:

إنّ هذا التحديد للنبى صلّى اللّه عليه و آله لا يعتبر نقصا، بل هو حكم له فلسفة دقيقة جدّا، فطبقا للشواهد التى تستفاد من التأريخ، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله كان تحت ضغط شديد من قبل مختلف الأفراد و القبائل بأن يتزوّج بنساء أخر منهم، و كلّ واحدة من القبائل المسلمة كانت تفتخر على قبائل العرب بأنّ النّبى قد صاهرهم و حتّى أنّ بعض النساء كنّ على استعداد أن يهبن أنفسهنّ للنبى

بدون مهر- كما مرّ ذلك- و يتزوّجنه بدون أىّ قيد أو شرط.

كانت هـذه العلاقة الزوجية مع تلك القبائل و الأقوام حلّا لمشاكل النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و محقّقة لأهدافه الاجتماعية و السياسـية، غير أنّهـا إذا تجـاوزت الحـدّ، فمن الطبيعى أن تخلق له المشاكل بنفسـها، و بما أنّ كلّ قبيلـة كانت تأمل أن يتزوّج النّبى منها، فلو أراد النّبى صـلّى اللّه عليه و آله أن يحقّق آمـال الجميع، و يختـار منهم أزواجـا، حتّى و إن كـانت بمجرّد العقـد و لا يـدخل بها، فإنّ ذلك سيوجـد له مصاعب جمّـة. و لـذلك فإنّ اللّه الحكيم قـد منع هذا الأمر و وقف دونه بإصدار قانون محكم، فنهاه عن الزواج الجديد، و عن تبديل أزواجه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۲

لقـد كان هناك أفراد فى هـذا الوسط يتوسّـلون للوصول إلى هـدفهم بحجّـة أنّ أغلب أزواجك أيامى، و من بينهنّ من لاحظ لها من الجمال، فاللائق بك أن تتزوّج بامرأة ذات جمال، و لـذلك فإنّ القرآن أكّـد على هـذه المسألة بأنّه لا يحقّ لك أن تتزوّج النساء فيما بعد و إن أعجبك حسنهنّ و كنّ ذوات جمال.

إضافـة إلى أنّ أداء الجميل و رعايته كان يوجب أن يسنّ اللّه تعالى مثل هـذا القانون، و يأمر به نبيّه لحفظ مقام أزواجه بعـد أن أبدين وفاءهن، و رجّحن الحياة البسيطة المعنوية مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله على أى شىء آخر.

و أمّا فيما يتعلّق بالجوارى و المملوكات باليمين حيث أبيح الزواج منهنّ، فإنّما هو من أجل أنّ مشكلة النّبى كانت من ناحية الحرائر، و لـذلك لم تكن هناك ضـرورة تدعو إلى تحديد هذا الحكم فى طرف الجوارى، مع أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله لم يسـتفد من هذا الاستثناء طبق الشواهد التأريخية.

هذا هو الشىء الذى يبدو من ظاهر الآية.

۲- الروايات المخالفة:

اعتبرت جملة: لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ فى روايات عديدة- بعضـها ضـعيفة من ناحية السند، و بعضها يستحقّ الملاحظة- إشارة إلى النسـاء اللواتى بيّن تحريمهم فى الآيتين (۲۳ و ۲۴) من سورة النسـاء- و هنّ الامّ و البنت و الاخت و العمّـة و الخالـة و ..، و صـرّح فى ذيل بعض هذه الأخبار بأنّه: كيف يمكن أن تكون النساء حلال على الآخرين و حرام على النّبى؟ فلم تكن أيّة امرأة محرّمة عليه سوى ما حرّم على الجميع ۲۷۷].

طبعا، يبدو بعيدا جدّا أن تكون الآية تشير إلى الآيات الواردة فى سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۳

النساء، إلّا أنّ المشكلة هنا أنّ بعض الروايات قد صرّحت بأنّ المراد من مِنْ بَعْدُ: بعد المحرّمات فى آية سورة النساء.

بناء على هـذا، فإنّ الأفضل هو أن نغضّ النظر عن تفسـير روايات الآحاد هـذه، أو كما يقال: ندع علم ذلك إلى أهله، أى المعصومون عليهم السّلام، لأنّها لا تنسجم مع ظاهر الآية، و نحن مكلّفون بظاهر الآية، و الأخبار المذكورة أخبار ظنّية.

و المطلب الآخر هو أنّ جماعـة كثيرة تعتقـد بأنّ الآيـة مورد البحث قـد حرّمت كلّ زواج جديد على النّبى صـلّى اللّه عليه و آله إلّا أنّ هـذا الحكم قـد نسـخ فيما بعـد، و اذن له بالزواج، و إن كان النّبى صـلّى اللّه عليه و آله لم يتزوّج بعد ذلك. حتّى الآية إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ .. و التى نزلت قبل الآيـة مورد البحث، فإنّهم يعتبرونها ناسـخة لهـذه الآية. و يعتقدون بأنّ هذه الآية و إن كانت قـد كتبت فى القرآن بعد آية إِنَّا أَحْلَلْنا .. إلّا أنّ الأخيرة قد نزلت قبلها! بل و ينقل «الفاضل المقداد» فى كنز العرفان بأنّ هذه هى الفتوى المشهورة بين الأصحاب ۲۷۸].

و هذا الرأى يتعارض مع الروايات أعلاه بوضوح، و كذلك لا ينسجم مع ظاهر الآيات أيضا، لأنّ ظاهر الآيات يوحى بأنّ آية إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ قد نزلت قبل الآية مورد البحث، و مسألة النسخ تحتاج إلى دليل قطعى.

و على كلّ حال، فليس لدينا شىء أكثر اطمئنانا و وضوحا من ظاهر الآية نفسها، و طبقا لذلك فإنّ كلّ زواج جديد، أو تبديل زوجات قد حرّم على النّبى صلّى اللّه عليه و آله بعد نزول هذه الآية، و كان لهذا الحكم مصالح و منافع هامّة أشرنا إليها فيما سبق.

۳- هل يمكن النظر إلى زوجة المستقبل قبل الزواج؟

اعتبر جمع من المفسّرين جملة وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ دليلا على حكم معروف أشير إليه فى الروايات الإسلامية أيضا، و هو: أنّ من أراد من أن يتزوّج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۴

بامرأة يستطيع النظر إليها من قبل نظرة تبيّن له هيكلها و أوصافها.

و حكمة هذا الحكم أن يختار الإنسان زوجته عن بصيرة تامّة و لا يندم و يأسف فى المستقبل و هو ما يهدّد العلاقة الزوجية و الكيان العائلى بالخطر، كما ورد ذلك فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال لأحد أصحابه حينما أراد أن يتزوّج:

«انظر إليها، فإنّه أجدر أن يدوم بينكما»[۲۷۹].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال فى جواب هذا السؤال: هل يستطيع الرجل أن يدقّق النظر إلى المرأة إذا أراد الزواج منها و ينظر إلى وجهها و خلفها: «نعم، لا بأس أن ينظر الرجل إلى المرأة إذا أراد أن يتزوّجها، ينظر إلى وجهها و خلفها»[۲۸۰].

و الأحاديث الواردة فى هذا الباب كثيرة، و قد صرّح بعضها بأنّ هذه النظرة يجب أن لا تكون بدافع الشهوة و طلب اللذّة.

و واضح أيضا أنّ هذا الحكم خاصّ بالموارد التى يريد فيها الإنسان أن يتحقّق فعلا من المرأة التى يريد الزواج منها، بحيث لو كانت الشروط مجتمعة فيها لتزوّجها، أمّا الذى لم يصمّم على الزواج بعد، بل يحتمله، أو أنّه يريد مجرّد البحث، فلا يجوز له النظر إلى النساء.

و احتمل البعض فى هذه الآية أنّها إشارة إلى النظر للنساء صدفة و لا إراديا، و على هذا فإنّ الآية لا تدلّ فى هذه الحالة على الحكم المذكور آنفا، و ستكون الروايات هى الدليل الوحيد عليه. إلّا أنّ جملة: وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَ لا تنسجم مع نظرة الصدفة السريعة، و بناء على هذا فإنّ دلالتها على الحكم المذكور تبدو بعيدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۵

الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۳ الى ۵۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون فی سبب نزول هذه الآیة: أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله لمّا تزوّج «زینب بنت جحش» أولم للناس ولیمة فخمة تقریبا. و قلنا سابقا: إنّ هذه الأحکام ربّما کانت من أجل تحطیم سنّة جاهلیة فی مجال تحریم مطلّقات الأدعیاء بحزم تامّ، و لیکون لهذا التحطیم شعاع أوسع، و لتمحی هذه السنّة الجاهلیة التی کانت تعتبر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۶

الزواج بأیامی العبید المحرّرین عیبا و عارا.

یقول «أنس»، و کان خادما خاصّا للنبی: أمرنی النّبی أن أدعو أصحابه للغداء فدعوتهم، فکانوا یأتون جماعة یأکلون و یخرجون، حتّی قلت: یا رسول اللّه، لم یبق أحد لم أدعه، فأمر برفع السماط، فرفعوا السماط و تفرّق القوم، إلّا ثلاثة نفر بقوا فی بیت النّبی و کانوا مشغولین بالحدیث.

فلمّا رأی النّبی صلّی اللّه علیه و آله حدیثهم قد طال، نهض و نهضت معه لعلّ القوم یلتفتون و یذهبون إلی أعمالهم، فخرج النّبی حتّی أتی حجرة عائشة، ثمّ رجع مرّة اخری و کنت معه، فرأیت القوم علی جلستهم و حالهم، فنزلت الآیة أعلاه و أفهمتهم کیفیة التعامل مع هذه المسائل ۲۸۱].

و یستفاد من بعض الرّوایات أیضا أنّ الجیران و سائر الناس کانوا یأتون إلی بعض نساء النّبی و یستعیرون أشیاء حسب المتعارف و المعتاد، و بالرغم من أنّهم لم یکونوا یرتکبون معصیة و ذنبا طبقا لبساطة الحیاة آنذاک، إلّا أنّ الآیة أعلاه نزلت لحفظ حیثیّة زوجات النّبی و أمرت المؤمنین أنّهم إن أرادوا أن یأخذوا من نساء النّبی شیئا فلیأخذوه من وراء حجاب.

و جاء فی روایة اخری أنّ بعض مخالفی النّبی قالوا: کیف تزوّج النّبی بعض نسائنا، أما و اللّه لئن مات لنتزوجنّ نساءه، فنزلت الآیة أعلاه و حرّمت الزواج بنساء النّبی من بعده مطلقا، و أنهت هذه المؤامرة[۲۸۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۳۲۶

التّفسیر

مرّة اخری یوجّه الخطاب إلی المؤمنین، لتبیّن الآیة جانبا آخر من أحکام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۷

الإسلام ضمن جمل قصیرة بلیغة و صریحة، و خاصّة ما کان مرتبطا بآداب معاشرة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و بیت النبوّة، فتقول أوّلا: لا ینبغی لکم دخول بیوت النّبی إلّا إذا دعیتم إلی طعام و اذن لکم بالدخول بشرط أن تدخلوا فی الوقت المقرّر، لا أن تأتوا قبل ذلک بفترة و تجلسون فی انتظار وقت الغذاء یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ إِلی طَعامٍ غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ ۲۸۳].

بهذا تبیّن الآیة أحد آداب المعاشرة المهمّة، و التی کانت قلّما تراعی فی تلک البیئة، و مع أنّ الکلام یدور حول بیت النّبی إلّا أنّ من المسلّم أنّ هذا الحکم لا یختصّ به، إذ ینبغی أن لا تدخل دار أی إنسان بدون إذنه (کما جاء ذلک فی الآیة ۲۷ من سورة النور) بل نقرأ فی أحوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله أنّه عند ما کان یرید دخول بیت ابنته فاطمة (سلام اللّه علیها)، کان یقف خارجا و یستأذن. و کان معه «جابر بن عبد اللّه» یوما، فاستأذن له بعد أن استأذن لنفسه ۲۸۴].

إضافة إلی أنّهم إذا دعوا إلی طعام فینبغی أن یکونوا عارفین بالوقت، لئلّا یوقعوا صاحب البیت فی جهد و إحراج فی غیر مکانه.

ثمّ تناولت الحکم الثّانی فقالت: وَ لکِنْ إِذا دُعِیتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا.

و هـذا الحكم مكمّـل و مؤكّـد للحكم السـابق فى الواقـع، فلاـ تـدخلوا الـبيت الـذى دعيتم إليه فى غير زمـان الـدعوة، و فى وقت غير مناسب، و لا تهملوا إجابة الدعوة أو أن لا تعبؤوا بها، و لا تتأخّروا بعد تناول الطعام مدّة طويلة.

من البديهى أنّ مخالفة هذه الأمور و عدم اتّباعها سيؤدّى إلى أذى و اشمئزاز المضيف، و هى لا تلائم الأصول الأخلاقية.

و تقول فى الحكم الثالث: وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ فلا تجلسوا حلقا تتحدّثون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۸

بعد تناول الطعام، سواء كان ذلك فى بيت النّبى، أم فى بيت أى صاحب دعوة.

طبعا، قـد يرغب المضـيفون فى مثل هـذه الحلقات و المجالس، فهـذه الحالة مسـتثناة، إنّما الكلام فى ما لو كانت الدعوة لتناول الطعام فقط، لا لتشـكيل مجالس الانس، حيث تجب مغادرته بعـد تناول الطعام، خاصّة إذا كان البيت كبيت رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله، مقرّ أداء أكبر رسالات اللّه و أعظمها، فيجب أن لا يهدر وقته بأمور جانبية تعوقه مدّة عن تأدية رسالته.

ثمّ تبيّن الآية علّة هذا الحكم فتقول: إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ

من المسلّم أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن يتردّد لحظة، و لا يخشى شيئا، أو يستحيى من شىء فى بيان الحقّ فى الموارد التى لم يكن لها بعد شخصـى و خاصّ، إلّا أنّ بيان الحقّ إذا كان يعود على القائل نفسه ليس بالأمر الجميل الحسن، أمّا تبيانه من قبل الآخرين فانّه رائع و مسـتحسن، و مورد الآية من هذا القبيل أيضا، فإنّ اصول الأخلاق و الأدب كانت توجب على النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن لا يدافع عن نفسه، بل يدافع اللّه سبحانه عنه.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الرابع فى باب الحجاب، فتقول: وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ

قلنا: إنّ هذا الأمر كان و لا يزال متعارفا بين العرب و كثير من الناس أنّهم إذا احتاجوا شـيئا من لوازم الحياة و وسائلها فإنّهم يستعيرونها من جيرانهم مؤقتـا، و لم يكن بيت النّبى مسـتثنى من هـذا القـانون، بـل كـانوا يـأتون إليه سـواء كـان الوقت مناسـبا أم غير منـاسب، و يسـتعيرون من نساء النّبى شـيئا، و من الواضح أن جعل نساء النّبى عرضة لأنظار الناس- و إن كن يرتدين الحجاب الإسلامى- لم يكن بالأمر الحسن، و لذلك صدر الأمر إلى الناس أن يأخذوا الأشياء من خلف حجاب أو من خلف الباب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۲۹

و المسألـة التى ينبغى الانتبـاه إليهـا هنـا هى أنّه ليس المراد من الحجـاب فى هـذه الآيـة لبـاس النساء، بل هو حكم يضاف إلى ما كان خاصّـا بنساء النّبى، و هو: أنّ الناس مكلّفون إذا أرادوا شـيئا من نساء النّبى أن يأخـذوه من وراء حجاب لظروف نساء النّبى الخاصّـة، و يجب عليهنّ أن لا يخرجن إلى الناس و يظهرن لهم فى مثل هـذه الموارد حتّى و إن كن محجّبات، و هذا الحكم لم يرد طبعا فى شأن النساء الاخريات، بل يكفيهنّ أن يراعين الحجاب الإسلامى.

و الشاهـد على ذلك أنّ كلمـة «الحجاب»، و إن كانت تسـتعمل فى المحادثات اليومية بمعنى حجاب المرأة، إلّا أنّها ليس لها مثل هذا المعنى لا فى كتب اللغة، و لا فى تعبيرات فقهائنا.

«الحجاب» فى اللغـة هو الشـىء الـذى يحول بين شـيئين ۲۸۵]، و لـذلك اطلق على الغشـاء الموجود بين الأمعـاء و القلب و الرئـة اسـم «الحجاب الحاجز».

و قـد اسـتعمل القرآن الكريم هـذه الكلمـة بمعنى الحائل أو الساتر فى عدّة مواضع، كالآية (۴۵) من سورة الإسـراء حيث تقول: جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً.

و نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة ص: حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ

و جاء فى الآية (۵۱) من سورة الشورى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ

أمّا فى كلمات الفقهاء فقـد اسـتعملت كلمـة «الستر» فيما يتعلّق بلباس النساء منذ قديم الأيّام و إلى يومنا هذا، و ورد أيضا فى الرّوايات

الإسلامية هذا التعبير أو ما يشبهه، و استعمال كلمة «الحجاب» فى شأن لباس المرأة اصطلاح ظهر فى عصرنا على الأكثر، و إذا وجد فى التواريخ و الرّوايات فقليل جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۰

و الشاهد الآخر هو ما نقرؤه فى

الحديث المروى عن «أنس بن مالك» خادم النّبى الخاص، حيث يقول: أنا أعلم الناس بهذه الآية- آية الحجاب- لمّا أهديت زينب إلى رّسول اللّه كانت معه فى البيت- صنع طعاما، و دعا القوم فقعدوا يتحدّثون، فجعل النّبى يخرج ثمّ يرجع و هم قعود يتحدّثون، فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِ إلى قوله- مِنْ وَراءِ حِجابٍ فضرب الحجاب و قام القوم ۲۸۶].

و فى رواية اخرى عن «أنس» أنّه قال: أرخى الستر بينى و بينه، فلمّا رأى القوم ذلك تفرّقوا[۲۸۷].

بناء على هذا فإنّ الإسلام لم يأمر النساء المسلمات بأن يجلسن خلف الستور، و لا يبرحن دورهن، و ليس لكلمة «المستورات» أو «المحجّبات» و أمثال ذلك من التعبيرات صفة إسلامية أو بعد إسلامى بالنسبة للنساء، بل إنّ ما يلزم المرأة المسلمة هو محافظتها على الحجاب الإسلامى، إلّا أنّ نساء النّبى قد أمرن بهذا الأمر الخاص بسبب وجود أعداء كثيرين، و متتبعين للعيوب و المغرضين، و كان من الممكن أن يصبحن عرضة للتهم، و حربة تقع بيد الانتهازيين.

و بتعبير آخر: إنّ الناس قد أمروا أن يسألوا نساء النّبى ما يبتغونه من وراء حجاب. خاصّة و أنّ التعبير ب «وراء» يشهد لهذا المعنى.

و لذلك بيّن القرآن فلسفة هذا الحكم فقال: ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ

و بالرغم من أنّ مثل هذا التعليل لا ينافى الحكم الاستحبابى، إلّا أنّ ظهور الأمر فى جملة فَسْئَلُوهُنَ لا يتزلزل فى دلالته على الوجوب، لأنّ مثل هذا التعليل قد ورد أحيانا فى موارد أحكام واجبة اخرى.

ثمّ تبيّن الآية الحكم الخامس بأنّه وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ فبالرغم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۱

من أنّ هذا العمل قد ذكر فى نفس الآية، و هو الذهاب إلى بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى وقت غير مناسب، و الجلوس بعد تناول الطعام، فقد ورد فى روايات سبب النّزول أنّ بعض المنافقين كانوا قد أقسموا على أن يتزوّجوا نساء النّبى من بعده، و قد آلم ذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله. و لكن معنى الآية عام على كلّ حال، فهو يشمل كلّ نوع من الأذى.

و أخيرا تبيّن الآية الحكم السادس و الأخير فى مجال حرمة الزواج بنساء النّبى من بعده، فقالت: وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً.

و هنا يأتى سؤال، و هو: كيف حرّم اللّه نساء النّبى من اتّخاذ زوج لهنّ بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و قد كان بعضهنّ شابات تقريبا؟

و جواب هذا السؤال يتّضح بملاحظة الغاية من هذا التحريم، و ذلك لأنّه:

أوّلا: كما علمنا من سبب النّزول، فإنّ البعض صمّم على هذا العمل كانتقام من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و إهانة لقدسيته، و كانوا يريدون أن ينزلوا ضربة بكيانه صلّى اللّه عليه و آله عن هذا الطريق.

ثانيا: لو كانت هذه المسألة جائزة، فإنّ جماعة كانوا سيتّخذون زوجان النّبى أزواجا لهم من بعده، و كان من الممكن أن يستغلّوا هذا الزواج لتحقيق مآربهم و الوصول إلى مكانة اجتماعية مرموقة. أو أنّهم يبدؤون بتحريف الإسلام على أساس أنّهم يمتلكون معلومات خاصّة صادرة من داخل بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و أهل البيت أدرى بالذى فيه، أو أن يبثّ المنافقون بين الناس مطالب عن هذا الطريق تخالف مقام النبوّة- تأمّلوا ذلك-.

و نلمس ذلك بصورة أوضح عند ما نعلم أنّ جماعة هيؤوا أنفسهم للقيام بهذا العمل، و صرّح بذلك بعضهم، و كتمه البعض الآخر

فى قلبه. و كان من جملة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۲

ذكره بعض مفسّرى العامّة هنا هو «طلحة»[۲۸۸].

إنّ اللّه المطّلع على الأسرار الخفيّة و المعلنة، و الخبير بها، قد أصدر حكما قاطعا لإحباط هذه الخطّة الخبيثة، و ليمنع من وقوع هذه الأمور، و لتحكيم دعائم هذا الحكم فقد أطلق لقب (امّهات المؤمنين) على أزواج النّبى ليعلم أولئك بأنّ الزواج منهنّ كالزواج من امّهاتهم! و بملاحظة ما قيل يتّضح لماذا وجب على نساء النّبى أن يتقبّلن هذا الحرمان بكلّ رحابة صدر؟

قد تطرح أحيانا مسائل مهمّة على مدى حياة الإنسان، يجب أن يظهر تجاهها التضحية و الإيثار، و أن يغضّ النظر عن بعض الحقوق التى ثبتت له، خاصّة و أنّ الافتخارات العظيمة تصاحبها مسئوليات خطيرة، و لا شكّ أنّ أزواج النّبى قد اكتسبن فخرا لا يضاهى و عزّا لا يسامى بزواجهنّ من النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و اكتساب هذا الفخر يحتاج إلى مثل هذه التضحية.

لهذا السبب كانت نساء النّبى يعشن من بعده بكلّ احترام و تقدير بين الامّة الإسلامية، و كن راضيات جدّا عن حالهنّ، و يعتبرن ذلك الحرمان مقابل هذه الافتخارات أمرا تافها.

و حذّرت الآية الثّانية الناس بشدّة، فقالت: إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً فلا تظنّوا أنّ اللّه سبحانه لا يعلم ما خططتم له فى سبيل إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله سواء ما ذكر تموه، أو الذى أضمر تموه، فإنّه تعالى يعلم كلّ ذلك جيدا، و يعامل كلّ إنسان بما يناسب عمله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۳

بحوث

اشارة

مناسبة للبحث الذى ورد فى الآيات المذكورة فى شأن واجبات المسلمين عند ما يدعون إلى ضيافة النّبى صلّى اللّه عليه و آله، نورد جانبا من تعليمات الإسلام فيما يتعلّق بأصل مسألة «الضيافة»، و حقّ الضيف، و واجبات المضيف:

۱- الضيافة:

لقد أولى الإسلام مسألة الضيافة أهميّة خاصّة، حتّى أنّه

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «الضيف دليل الجنّة»[۲۸۹].

إنّ أهميّة الضيف و وجوب احترامه و تقديره، بلغ حدّا اعتبر فيه هدية سماوية،

فإنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «إذا أراد اللّه بقوم خيرا أهدى إليهم هدية، قالوا: و ما تلك الهدية؟ قال: الضيف ينزل برزقه، و يرتحل بذنوب أهل البيت»[۲۹۰].

و الطريف أنّ رجلا حضر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقال: فداك أبى و امّى، إنّى أسبغ الوضوء، و أقيم الصلاة، و أؤتى الزكاة فى حينها، و ارحّب بالضيف و اقريه فى اللّه،

فقال صلّى اللّه عليه و آله: «بخ بخ بخ! ما لجهنّم عليك سبيل! إنّ اللّه قد برأك من الشحّ إن كنت كذلك».

الکلام فی هذا الباب کثیر، و نکتفی بهذا القدر رعایة للاختصار.

۲- مراعاة البساطة فی الضیافة:

مع کلّ الأهمیة التی یتمتّع بها الضیف، فإنّ الضیافة إذا اتّسمت بالتکلّف فإنّها غیر راجحة من وجهة نظر الإسلام، بل و نهی عنها، فإنّ الإسلام یوصی بأن تکون الضیافة بسیطة، و جعل معیارا عادلا بین الضیف و المضیف، و هو: أن لا یبخل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۴

المضیف بما عنده و یحضره، و أن لا یتوقّع الضیف أکثر من ذلک!

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «المؤمن لا یحتشم من أخیه، و ما أدری أیّهما أعجب؟! الذی یکلّف أخاه إذا دخل علیه أن یتکلّف له، أو المتکلّف لأخیه؟»[۲۹۱].

و

یروی سلمان الفارسی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «أن لا نتکلّف للضیف ما لیس عندنا، و أن نقدّم إلیه ما حضرنا»[۲۹۲].

۳- حقّ الضیف:

قلنا: إنّ الضیف کالهدیة السماویة من وجهة نظر الإسلام، و یجب أن یرحّب به و یکرم غایة الإکرام، و یحترم أقصی ما یمکن، حتّی أنّ أمیر المؤمنین علیا علیه السّلام

یروی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من حقّ الضیف أن تمشی معه فتخرجه من حریمک إلی البر»[۲۹۳].

و یجب تهیئة مستلزمات راحته إلی الحدّ الذی لا یبلغ التکلّف، حتّی أنّه ورد فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله قال: «إنّ من حقّ الضیف أن یعد له الخلال»[۲۹۴].

و قد یکون الضیوف خجولین أحیانا، و لذلک فقد صدر أمر بعدم سؤالهم عمّا إذا کانوا قد تناولوا الطعام أم لا، بل یمدّ لهم السماط فإن شاءوا و أکلوا، کما

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «لا تقل لأخیک إذا دخل علیک أکلت الیوم شیئا؟ و لکن قرّب إلیه ما عندک، فإنّ الجواد کلّ الجواد من بذل ما عنده»[۲۹۵].

و من جملة واجبات المضیف أمام اللّه سبحانه أن لا یحقّر الطعام الذی أعدّه، لأنّ نعمة اللّه سبحانه عزیزة و محترمة مهما کانت، إلّا أنّ المتعارف بین المترفین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۵

و أهل التکلّف أنّهم مهما نوّعوا السماط و ملؤوه بأنواع الأطعمة فإنّهم یقولون: هذا شیء بسیط لا یلیق بمقامکم! و فی المقابل یجب أن لا یحتقر الضیف ما قدّم إلیه،

ففی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «هلک امرؤ احتقر لأخیه ما یحضره، و هلک امرؤ احتقر من أخیه ما قدّم إلیه»[۲۹۶].

إنّ الإسلام دقیق النظرة فی إکرام الضیف، فهو یقول: استقبل الضیف و أعنه عند ما یدخل إلی بیتک، أمّا إذا أراد الخروج فلا تعنه لئلّا

یتصوّر بأنّک راغب فی خروجه ۲۹۷].

۴- واجبات الضیف:

إنّ المسؤولیات تکون متقابلة دائما، فکما أنّ علی المضیف واجبات تجاه الضیف، فکذلک توجد علی الضیف واجبات ینبغی أن یراعیها.

فعلاوة علی ما ذکر فی الأحادیث السابقة، فإنّ علی الضیف أن ینفّذ ما یطلبه منه صاحب البیت و یقترحه علیه فی شأن منزله، فإذا طلب منه أن یجلس فی مکان ما مثلا فلیفعل، فإنّ الإمام الصادق علیه السّلام یقول: «إذا دخل أحدکم علی أخیه فی رحله فلیقعد حیث یأمر صاحب الرحل، فإنّ صاحب الرحل أعرف بعورة بیته من الداخل علیه»[۲۹۸].

و ملخّص الکلام أنّ مسألة الضیافة و آدابها قد خصّص لها بحث واسع فی آداب المعاشرة الإسلامیة، و لیراجع لمزید الإیضاح فی هذا الباب «بحار الأنوار»، الأبواب ۸۸- ۹۴ من أبواب العشرة، المجلّد ۱۷ و «المحجّة البیضاء»، المجلّد ۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۶

الباب الرابع فضیلة الضیافة.

إلّا أنّ هذه السنّة الإنسانیة القدیمة قد تقلّصت و للأسف الشدید فی عصرنا الحاضر .. عصر غلبة المادیة و طغیانها فی العالم، و هیمنتها علیه، بل إنّها قد اجتثّت تقریبا فی بعض المجتمعات الغربیة، و قد سمعنا أنّ بعض أولئک عند ما یأتون إلی البلاد الإسلامیة و یرون انتشار مسألة الضیافة التی لا زالت قائمة فی البیوتات الأصیلة، و مدی العواطف التی تکتنفها، فإنّهم یتعجّبون کیف یمکن أن یقدّم الناس أفضل الوسائل الموجودة فی البیت، و أنفس الأطعمة و ألذّها للضیوف الذین ربّما تربطهم بهم رابطة ضعیفة أحیانا، و ربّما کانوا قد تعارفوا فی سفرة قصیرة؟! إلّا أنّ ملاحظة الأحادیث الإسلامیة- التی ورد قسم منها قبل قلیل- تبیّن سبب هذه التضحیة و الإیثار، و توضّح الحسابات المعنویة فی هذا المجال .. تلک الحسابات التی لا تعنی شیئا لدی عبّاد المادّة و الغارقین فی بحرها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۷

الآیة [سورة الأحزاب (۳۳): آیة ۵۵]

اشارة

لا جُناحَ عَلَیْهِنَّ فِی آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَکَتْ أَیْمانُهُنَّ وَ اتَّقِینَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ کانَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ شَهِیداً (۵۵)

سبب النّزول

یروی بعض المفسّرین أنّ آباء نساء النّبی و أبناءهنّ و عوائلهنّ سألوا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله بعد نزول آیة الحجاب- الآیة السابقة-: یا رسول اللّه، و نحن أیضا نحدّثهنّ من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآیة بأنّها لا تشملکم.

التّفسیر

الموارد المستثناة من قانون الحجاب:

لمّا كان الحكم الذى ورد فى الآية السابقة حول حجاب نساء النّبى مطلقا، و يمكن أن يوهم هذا الإطلاق بأنّ المحارم مكلّفون بتنفيذه أيضا، و أن يحدّثوهنّ من وراء حجاب كالأجانب، فقد نزلت هذه الآية و فصلت حكم هذه المسألة.

تقول الآية: لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۸

إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ و بتعبير آخر: فإنّ محارمهنّ الذين استثنوا فى الآية هم هؤلاء الستّة فقط، و إذا قيل: إنّ هناك أفرادا من المحارم أيضا لم يجر لهم ذكر فى الآية كالأعمام و الأخوال، فيجاب على هذا السؤال بأنّه:

لمّا كان القرآن يراعى الفصاحة و البلاغة فى أجلى صورها و أسماها، و أحد اصول الفصاحة هو أن لا تكون فى الكلام أى كلمة زائدة، فقد امتنع عن ذكر الأعمام و الأخوال هنا، و ذلك لأنّه حينما ذكر أولاد الأخ و أولاد الاخت، فسوف يتّضح حكم الأعمام و الأخوال من المحارم، لأنّ لهذه المحرمية جانبان، فكما أنّ ابن الأخ محرم بالنسبة إلى المرأة، فإنّها ستكون محرما أيضا بالنسبة إلى ابن أخيها- و نحن نعلم أنّ مثل هذه المرأة تعتبر «عمّة»- و لأنّ ابن الاخت كما هو محرم عليها فإنّها ستكون محرما بالنسبة إلى ابن الاخت، و نعلم أنّ مثل هذه المرأة هى «الخالة».

و عند ما تكون العمّة و الخالة محرما بالنسبة إلى ابن الأخ و ابن الاخت، فإنّ العمّ و الخال سيكونان أيضا محرما بالنسبة إلى ابنة الأخ و ابنة الاخت، حيث لا فرق بين العمّ و العمّة، و الخال و الخالة، و هذه إحدى دقائق القرآن الكريم. (تدبّر ذلك).

و هنا يطرح سؤال آخر، و هو: إنّ أبا الزوج و ابن الزوج بعض محارم المرأة، فلما ذا لم يذكرا هنا؟ فى حين أنّهما ذكرا من جملة المحارم فى الآية (۳۱) من سورة النور.

و الإجابة عن هذا السؤال واضحة، لأنّ الكلام فى هذه الآية منحصر فى حكم نساء النّبى صلّى اللّه عليه و آله، و نحن نعلم أنّ أبا النّبى صلّى اللّه عليه و آله لم يكن موجودا حال حياته، و لا امّه، و لم يكن له ابن ۲۹۹]. «فتأمّل».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۳۹

إنّ عدم ذكر الإخوة و الأخوات من الرضاعة، و أمثالهم بسبب أنّ هؤلاء فى حكم الأخ و الاخت و سائر المحارم، و لا يحتاجون إلى ذكر مستقل.

و يتغيّر أسلوب الآية فى نهايتها من الغائب إلى المخاطب، فتخاطب نساء النّبى و تقول: وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً فإنّ الحجاب و الستر و أمثالهما وسائل للحفظ و الإبعاد عن الذنب و المعصية ليس إلّا، و الدعامة الأساسية هى التقوى فحسب، و لولاها فسوف لا تنفع كلّ هذه الوسائل.

و الجدير بالذكر أنّ نِسائِهِنَ إشارة إلى النساء المسلمات، و ذلك لأنّ من غير اللائق بالنساء المسلمات- و كما قلنا فى تفسير سورة النور- أن يكنّ بدون حجاب أمام غير المسلمات، إذ أنّ من الممكن أن تصفهنّ غير المسلمات لأزواجهنّ ۳۰۰].

و أمّا جملة: وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَ فلها معنى واسع- كما قلنا ذلك فى تفسير سورة النور أيضا- يشمل الجوارى و الغلمان، إلّا أنّها تختّص بالجوارى طبقا لبعض الرّوايات الإسلامية، و بناء على هذا فإن ذكرهنّ بعد ذكر «النساء» قد يكون من جهة شمولها للجوارى غير المسلمات عموما. (دقّقوا ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۰

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

التّفسير[۳۰۱]

الصلاة على النّبى و السلام عليه:

بعد البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة حول وجوب حفظ حرمة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و عدم إيذائه، فإنّ هذه الآيات تتحدّث أوّلا عن محبّة اللّه و ملائكته للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و تعظيمهم له، و بعد ذلك تأمر المؤمنين بذلك، ثمّ تذكر العواقب المشؤومة الأليمة لأولئك الذين يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله ثمّ تبيّن أخيرا عظم ذنب الذين يؤذون المؤمنين باتّهامهم و الافتراء عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۱

تقول أوّلا: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ

إنّ مقام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و منزلته من العظمة بمكان، بحيث أنّ خالق عالم الوجود، و كلّ الملائكة الموكّلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلّون عليه، و إذا كان الأمر كذلك فضمّوا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، ف يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً.

إنّه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، و قد جعل بينكم بلطف اللّه، فلا تستصغروا قدره، و لا تنسوا مقامه و منزلته عند اللّه و ملائكة السماوات .. إنّه إنسان ظهر من بينكم، لكنّه ليس إنسانا عاديا، بل هو إنسان يتلخّص عالم الوجود فى وجوده.

و هنا امور يجب الالتفات إليها:

۱- (الصلاة) و جمعها «صلوات»، كلّما نسبت إلى اللّه سبحانه فإنّها تعنى «إرسال الرحمة»، و كلّما نسبت إلى الملائكة فإنّها تعنى «طلب الرحمة»[۳۰۲].

۲- إنّ التعبير ب (يصلّون) و هو فعل مضارع يدلّ على الاستمرار، يعنى أنّ اللّه و ملائكته يصلّون عليه دائما و باستمرار صلاة دائمة خالدة.

۳- اختلف المفسّرون فى الفرق بين (صلّوا) و (سلّموا) و الذى يبدو أنسب للأصل اللغوى للكلمتين، و أوفق لظاهر الآية القرآنية، هو: أن (صلّوا) أمر بطلب الرحمة و الصلاة على النّبى، أمّا (سلّموا) فتعنى التسليم لأوامر نبى الإسلام الأكرم، كما ورد فى الآية (۶۵) من سورة النساء ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً.

و كما نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أبا بصير سأله فقال: قد عرفت صلاتنا على النّبى، فكيف التسليم؟ قال: «هو التسليم له فى الأمور»[۳۰۳].

أو أن يكون بمعنى «السلام» على النّبى صلّى اللّه عليه و آله ب (السلام عليك يا رسول اللّه) و ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۲

أشبه ذلك، و الذى يعنى طلب سلامة النّبى صلّى اللّه عليه و آله من اللّه سبحانه.

يروى «أبو حمزة الثمالى» عن «كعب»- و هو أحد أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال:

لمّا نزلت هذه الآیة قلنا: قد عرفنا السلام علیک، فکیف نصلّی علیک؟ فقال: «قولوا:

اللهمّ صلّ علی محمّد و آل محمّد، کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید، و بارک علی محمّد و آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید»[۳۰۴].

و من هذا الحدیث تتّضح کیفیة الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و کذلک یتّضح معنی «السلام».

و بالرغم من أنّ هذین المعنیین للسلام یبدوان مختلفین تماما، إلّا أنّه یمکن عطفهما و إرجاعهما إلی نقطة واحدة إذا دقّقنا فیهما، و هی: التسلیم القولی و الفعلی للنبی صلّی اللّه علیه و آله، لأنّ من یسلّم علیه و یرجو من اللّه سلامته، یعشقه و یعرفه کنبی مفترض الطاعة.

۴- ممّا یلفت النظر أنّه قد ورد صریحا فی کیفیة الصلاة علی النّبی و فی روایات لا تحصی من طرق العامّة و أهل البیت، أن یضاف (آل محمّد) عند الصلوات علی محمّد صلّی اللّه علیه و آله.

فقد روی فی «الدرّ المنثور» عن صحیح البخاری و مسلم و سنن أبی داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجة و ابن مردویه و رواه آخرین عن کعب بن عجرة: أنّ رجلا- أتی إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله فقال: أمّا السلام علیک فقد علمناه، فکیف الصلاة علیک؟ فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله: «قل اللهمّ صلّ علی محمّد و علی آل محمّد کما صلّیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید. اللهمّ بارک علی محمّد و علی آل محمّد کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنّک حمید مجید».

و قد أورد صاحب تفسیر الدرّ المنثور ثمانیة عشر حدیثا آخر إضافة إلی هذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۳

الحدیث، صرّحت جمیعا بوجوب ذکر «آل محمّد» عند الصلوات.

و قد رویت هذه الأحادیث عن کتب أهل السنّة المعروفة المشهورة عن جماعة من الصحابة منهم: ابن عبّاس، و طلحة، و أبو سعید الخدری، و أبو هریرة، و أبو مسعود الأنصاری، و بریدة، و ابن مسعود، و کعب بن عجرة، و أمیر المؤمنین علی علیه السّلام ۳۰۵].

و قد رویت فی صحیح البخاری (و هو أشهر مصادر الحدیث عند أهل السنّة) روایات عدیدة فی هذا الباب یستطیع من یرید مزید الإیضاح أن یرجع إلیه ۳۰۶].

و کذلک وردت فی صحیح مسلم روایتان فی هذا الباب ۳۰۷].

و العجیب فی هذا الکتاب أنّه بالرغم من ورود (آل محمّد) عدّة مرّات فی هذین الحدیثین، فإنّه اختار هذا العنوان لهذا الباب: (باب الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله) بدون ذکر «الآل»!! و ثمّة مسألة تستحقّ الانتباه و هی: أنّ فی بعض روایات أهل السنّة، و فی کثیر من روایات أهل البیت لم ترد حتّی کلمة (علی) لتفرّق بین محمّد و آل محمّد، بل کیفیة الصلاة هی: اللهم صلّ علی محمّد و آل محمّد.

و ننهی هذا البحث بحدیث آخر عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله فإنّ

«ابن حجر» یروی فی الصواعق: أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: «لا- تصلّوا علیّ الصلاة البتراء، فقالوا: و ما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون: اللهمّ صلّ علی محمّد و تمسکون، بل قولوا: اللهمّ صلّ علی علی محمّد و آل محمّد»[۳۰۸].

و لهذه الرّوایات فقد اعتبر جمع من کبار فقهاء العامّة إضافة (آل محمّد) إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۴

اسم «محمّد» فی تشهد الصلاة واجبا[۳۰۹].

۵- هل أنّ الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله واجبة أم لا؟ و إذا کانت واجبة فأین تجب؟

یقول الفقهاء فی الإجابة عن هذا السؤال: إنّ جمیع فقهاء أهل البیت یعتبرونها واجبة فی التشهّد الأوّل و الثّانی من الصلاة، و مستحبة

فى غيرهما.

و علاوة على الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام فى هذا الباب، فإنّ الروايات الواردة فى كتب أهل السنّة، و الدالّة على الوجوب، ليست بالقليلة، و من جملتها ما ورد عن عائشة أنّها قالت: سمعت رسول اللّه يقول: «لا يقبل صلاة إلّا بطهور و بالصلاة علىّ».

و يعتبر «الشافعى»- و هو من فقهاء العامّة- الصلاة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله واجبة فى التشهّد الثانى، و «أحمد» فى إحدى الروايتين المرويتين عنه، و جمع آخر من الفقهاء، غير أنّ «أبا حنيفة» لا يعتبرها واجبة.

و الطريف أنّ «الشافعى» قد نظّم فتواه هذه شعرا و ذكرها بصراحة حيث يقول:

يا أهل بيت رسول اللّه حبّكمفرض من اللّه فى القرآن أنزله

كفاكم من عظيم القدر أنّكمن لم يصلّ عليكم لا صلاة له ۳۱۰]

ثمّ تبيّن الآية التالية النقطة المقابلة للآية السابقة، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً.

ماذا يراد من أذى اللّه سبحانه؟

قال البعض: إنّ المراد منه هو الكفر و الإلحاد الذى يغضب اللّه عزّ و جلّ، لأنّ «الأذى» لا يعنى فى شأن اللّه تعالى إلّا إغضابه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۵

و يحتمل أيضا أن يكون إيذاء النّبى صلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين هو إيذاء اللّه تعالى، و ذكر اللّه فى الآية لأهمية المطلب و تأكيده.

و أمّا إيذاء نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله فله معنى واسع، و يشمل كلّ عمل يؤذيه، سواء كان الكفر و الإلحاد و مخالفة أوامر اللّه و الافتراءات و التّهم، أم الأذى الذى يراه حين يدعوهم إلى بيته، كما مرّ فى الآية (۵۳) من هذه السورة إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَ أو الموضوع الذى ورد فى الآية (۶۱) من سورة التوبة عند ما اتّهموا النّبى صلّى اللّه عليه و آله بأنّه «اذن» نتيجة إصغائه لكلام الناس و رعايته لأدب المحادثة وَ مِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَ يَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ و أمثال ذلك.

بل و يستفاد من الرواية الواردة فى ذيل الآية أنّ إيذاء أهل بيت النّبى و خاصّة على و فاطمة عليهما السّلام، يدخل ضمن الآية، و قد جاء فى المجلّد الخامس من صحيح البخارى، أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله قال: «فاطمة بضعة منّى فمن أغضبها أغضبنى»[۳۱۱].

و

ورد هذا الحديث فى «صحيح مسلم» بهذه العبارة: «إنّ فاطمة بضعة منّى يؤذينى ما آذاها»[۳۱۲].

و روى هذا المعنى فى حقّ علىّ عليه السّلام عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله ۳۱۳].

و أمّا «اللعن» الوارد فى الآية أعلاه، فإنّه بمعنى الطرد عن رحمة اللّه، و هو فى مقابل الرحمة و الصلوات التى وردت فى الآية السابقة تماما.

إنّ اللعن و الطرد عن رحمة اللّه سبحانه .. تلك الرحمة الواسعة التى لا تعرف الحدود، يعدّ أسوأ أنواع العذاب، خاصّة إذا كان هذا الطرد فى الدنيا و الآخرة كما هو فى الآية مورد البحث، و لعلّ ذكر مسألة اللعن قبل العذاب المهين لهذا السبب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۶

و التعبير ب (أعدّ) دليل على تأكيد هذا العذاب و شدّته.

و تتحدّث الآية الأخيرة عن إيذاء المؤمنين، و تهتمّ به جدّا بعد إيذاء اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و آله، فتقول: وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً لأنّ للمؤمن علاقة باللّه و رسوله عن طريق الإيمان، و لهذا جعل فى مرتبة اللّه و رسوله هنا.

و تعبير بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا إشارة إلى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا ذنبا حتّى يؤذوا.

و من هنا يتّضح أنّهم إن بدر منهم ذنب يستوجب الحدّ و القصاص فلا مانع من إجرائه و تنفيذه فى حقّهم، و كذلك لا يشمل هذا الكلام الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

إنّ تقديم «البهتان» على «الإثم المبين» لأهميّته، لأنّ البهتان يعتبر من أكبر الذنوب، و الجراحات التى تنجم عنه أشدّ ألما من جراحات السنان، كما قال الشاعر العربى:

جراحات السنان لها التيامو لا يلتام ما جرح اللسان

و قد أولت الرّوايات الإسلامية هذه المسألة اهتماما فائقا،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: «ليأذن بحرب منّى من آذى عبدى المؤمن»[۳۱۴].

و قال بعض المفسّرين: يستفاد من أسلوب الآية أنّ جماعة فى المدينة كانوا يطلقون الشائعات و يثيرون الشبهات حول المؤمنين، و يتّهمونهم بما ليس فيهم، و حتّى نبى اللّه لم يكن بمنأى عن ألسن أولئك المؤذين. و هذه الفئة ليست قليلة فى المجتمعات الاخرى، و خاصّة فى مجتمعات اليوم، و ليس لها عمل إلّا التآمر ضدّ الصالحين و المحسنين، و اختلاق الأكاذيب و التّهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۷

لقد هاجم القرآن الكريم هؤلاء الأشخاص أشدّ هجوم، و وصفت أعمالهم بالبهتان و الإثم المبين. و الشاهد لهذا الكلام سيأتى فى الآيات التالية.

و

جاء فى حديث آخر يرويه الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام عن جدّه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: «من بهت مؤمنا أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه أقامه اللّه تعالى يوم القيامة على تلّ من نار حتّى يخرج ممّا قاله فيه»[۳۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۸

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۵۹ الى ۶۲]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلًا (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۶۲)

سبب النّزول

جاء فى تفسير «على بن إبراهيم» فى سبب نزول الآية الاولى: فإنّه كان سبب نزولها أنّ النساء كن يخرجن إلى المسجد و يصلّين خلف رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و إذا كان بالليل خرجن إلى صلاة المغرب و العشاء الآخرة و الغداة، يقعد الشبّان لهنّ فى طريقهنّ فيؤذونهن و يتعرّضون لهنّ فأنزل اللّه: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ إلى قوله- ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۴۹

رَحِيماً[۳۱۶].

و جاء فى نفس الكتاب فى شأن نزول الآيـة الثانيـة، أنّها نزلت فى قوم منافقين كانوا فى المدينـة يرجفون برسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله إذا خرج فى بعض غزواته يقولون قتل و أسـر فيغتمّ المسـلمون لذلك و يشـكون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فأنزل اللّه فى ذلك: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ إلى قوله- ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا[۳۱۷] فبذلك هدّدت مختلقى الشايعات بشدّة.

التّفسير

تحذير شديد للمؤذين و مختلقى الإشاعات!

بعـد النهى عن إيذاء رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و المؤمنين الذى ورد فى الآية السابقة، أكّدت الآية هنا على أحد موارد الأذى، و من أجل الوقوف أمامه سلكت طريقين:

فـأمرت المؤمنـات أوّلا- أن لا- يـدعن فى يـد المفسـدين و العابثين حجّـة يتشـبّثون بها فى سبيل تحقيق أذاهم، ثمّ هاجمت المنافقين و مختلقى الإشاعات و هدّدتهم بتهديد قلّ نظيره فى آيات القرآن.

فتقول الآيـة فى الجزء الأوّل: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ

هناك رأيان لدى المفسّرين فى المراد من «المعرفة» لا يتناقضان:

الأوّل: أنّه كان من المتعارف ذلك اليوم أن تخرج الجوارى من المنازل مكشوفات الرأس و الرقبة، و لمّا لم يكن مقبولات من الناحية الأخلاقيـة، فقـد كـان بعض الشـباب المتهوّر يضـايقوهنّ، فـأمرت المسـلمات الحرائر أن يلتزمن الحجاب التامّ ليتميّزن عن الجوارى، و بالتالى لا يقدر أن يؤذيهنّ أولئك الشباب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۰

و من البديهى أنّ هذا الكلام لا يعنى أنّه كان لأولئك الطائشين حقّ أذى الجوارى، بل المراد سلب الحجّة من الأفراد الفاسدين.

و الآـخر: أنّ الهـدف هو أن لا- تتساهـل المسـلمات فى أمر الحجـاب كبعض النسـاء المتحلّلات و المتبرجات المسـلوبات الحياء رغم التظاهر بالحجاب، هذا التبرّج يغرى السفلة و الأراذل و يلفت انتباههم.

أمّا المراد من «الجلباب» فقد ذكر المفسّرون و أرباب اللغة عدّة معان له:

۱- أنّه «الملحفة»، و هى قماش أطول من الخمار يغطّى الرأس و الرقبة و الصدر.

۲- أنّه المقنعة و الخمار.

۳- أنّه القميص الفضفاض الواسع ۳۱۸].

و مع أنّ هذه المعانى تختلف عن بعضها، إلّا أنّ العامل المشترك فيها أنّها تستر البدن.

و تجدر الإشارة إلى أنّ «الجلباب» يقرأ بكسر الجيم و فتحها.

إلّا أنّ الأظهر أنّ المراد هو الحجاب الذى يكون أكبر من الخمار و أقصر من العباءة، كما ذكر ذلك صاحب لسان العرب.

و المراد من (يدنين) أن يقربن الجلباب إلى أبدانهن ليكون أستر لهنّ، لا أن يدعنه كيف ما كان بحيث يقع من هنا و هناك فينكشـف البدن، و بتعبير أبسط أن يلاحظن ثيابهنّ و يحافظن على حجابهنّ.

أمّا ما اسـتفاده البعض من أنّ الآيـة تدلّ على وجوب ستر الوجه أيضا، فلا دليل عليه، و النادر من المفسّـرين من اعتبر ستر الوجه داخلا فى الآية[۳۱۹].

و على كلّ حال، فيستفاد من هذه الآية أنّ حكم الحجاب بالنسبة للحرائر كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۱

قد نزل من قبل، إلّا أنّ بعض النسوة كنّ يتساهلن فى تطبيقه، فنزلت الآية المذكورة للتأكيد على الدقّة فى التطبيق.

و لمّا كان نزول هـذا الحكم قـد أقلق بعض المؤمنات ممّا كان منهن قبل ذلك، فقـد أضافت الآيـة فى نهايتها وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً فكلّ ما بدر منكنّ إلى الآن كان نتيجة الجهل فإنّ اللّه سيغفره لكنّ، فتبن إلى اللّه و ارجعن إليه، و نفذن واجب العفّة و الحجاب جيدا.

بعـد الأمر الـذى صـدر فى الآيـة السابقة للمؤمنات، تناولت هذه الآية بعدا آخر لهذه المسألة، أى أساليب الأراذل و الأوباش فى مجال الإيـذاء، فقـالت: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا[۳۲۰].

(المرجفون) من مادّة «إرجاف»، و هى إشاعة الأباطيل بقصد إيذاء الآخرين و إحزانهم، و أصل الإرجاف: الاضطراب و التزلزل، و لمّا كانت الإشاعات الباطلة تحدث اضطرابا عامّا، فقد أطلقت هذه الكلمة عليها.

و (نغرينّك) من مادّة «الإغراء»، و يعنى الدعوة إلى تنفيذ عمل، أو تعلّم شىء، دعوة تقترن بالترغيب و التحريض.

و يستفاد من سياق الآيـة أنّ ثلاث فئات فى المدينـة كانت مشتغلة بأعمال التخريب و الهـدم، و كلّ منها كان يحقّق أهدافه بأسلوب خاصّ، فظهر ذلك كتيار و مخطّط جماعى، و لم تكن له صبغة فردية:

فالفئة الاولى: هم «المنافقون» الذين كانوا يسعون لاقتلاع جذور الإسلام عبر مؤامرتهم ضدّه.

و الثّانية: هم «الأراذل» الذين يعبّر عنه القرآن: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۲

أنّ هـذا التعبير قـد ورد فى الآية (۳۲) من سورة الأحزاب فى شأن من يتّبع أهواءه و شـهواته فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ

و الفئة الثالثة: هم الذين كانوا يبثّون الإشاعات فى المدينة، و خاصّة عند ما كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و جيش المسلمين يتّجهون إلى الغزوات، لإضعاف معنوياتهم، و كـانوا ينشـرون الأخبـار الكاذبـة عن هزيمـة النّبى و المؤمنين، و هؤلاء هم «اليهود» برأى بعض المفسّرين.

و بهذا فإنّ القرآن الكريم هدّد هذه الفئات الثلاثة جميعا.

و يحتمل فى تفسير الآية أيضا، أنّ كلّ أعمال التخريب للفئات الثلاثة كانت من عمل المنافقين، و فصلها عن بعضها هو فصل الصفات لا الأشخاص.

و مهما كان، فإنّ القرآن يقول: إنّ هؤلاء إن استمروا فى أعمالهم القبيحة المشينة فسنصدر أمرا بالهجوم العام عليهم، لنقتلع جذورهم من المدينة بحركة المؤمنين الشعبية، و لا يقدرون على البقاء فى المدينة بعد ذلك.

و عند ما يطردون من هذه المدينة، و يخرجون عن حماية الحكومة الإسلامية، فإنّهم سيكونون مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا.

«ثقفوا» من مادّة «ثقف» و «ثقافة»، و هى: السيطرة على الشىء بدقّة و مهارة، و لهذا يقال للعلم و تحصيله و الإحاطة به «ثقافة». و هذا التعبير إشارة إلى أنّهم سوف لا يجدون مكانا آمنا بعد هذا الهجوم، بل سيبحث عنهم المؤمنون بدقّة حتّى يجدوهم و يرسلوهم إلى ديار الفناء.

و هناك احتمالان فى المراد من الآية: فامّا أنّه سيطاردون المنافقين و يتعقّبونهم خارج المدينة و يقتلونهم، أو أنّهم إذا بقوا فى المدينة بعد حكم الإبعاد العام سيلاقون هذا المصير، و لا منافاة بينهما، إذ أنّ المعنى هو أنّ هؤلاء المنافقين و المخرّبين و المرجفين و مرضى القلوب سوف لا يكونون بمأمن من سطوة المسلمين الشجعان بعد أن هدرت دماؤهم، و سحبت الحماية عنهم، و صدر الحكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۳

بإخراجهم من المدينة، سواء بقوا فيها أم خرجوا.

ثمّ تضيف الآية الأخيرة من هذه الآيات أنّ هذا الأمر ليس جديدا، بل سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فكلّما زادت صلافة المفسدين و تجاوزت مؤامراتهم الحدود، يصدر الأمر بالهجوم عليهم.

و لمّا كان هذا الحكم سنّة إلهيّة، فإنّه سوف لا يتغيّر و لا يتبدّل أبدا، حيث أنّ سنّة اللّه ثابتة وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

إنّ هذا التعبير يجسّد كون هذا التهديد حقيقيا و جديا، ليعلموا أنّ هذا المطلب و المصير حتمى، و له جذوره و نظائره فى التأريخ، و لا سبيل إلى تغييره و تبديله، فإمّا أن ينتهوا عن أعمالهم المخزية، أو أن ينتظروا هذا المصير المؤلم.

تعليقات

۱- ابدأ بنفسك!

الأمر الذى ورد فى الآيات مورد البحث حول وجوب رعاية الحجاب الإسلامى بدقّة، و أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله أن يبلغ هذا الأمر، أوّل ما بدأ بنساء النّبى، ثمّ بناته، ثمّ المؤمنات، و هو إشارة إلى أنّك يجب أن تبدأ بنفسك و أهل بيتك فى أىّ برنامج إصلاحى، و هذا خطّ لكلّ مصلحى البشر.

و بدأ بالزوجات عند ما دار الأمر بين الزوجات و البنات، و ذلك لأنّهنّ أقرب إلى الرجل، لأنّ البنات يتزوجنّ و ينتقلن إلى بيوت الأزواج.

۲- العلاج من طريقين:

لمّا كانت المفاسد الاجتماعية لا تنبعث من علّة واحدة غالبا، فلذلك يجب أن تبدأ مكافحتها من جميع الجوانب. و الطريف فى الأمر أنّ الآيات المذكورة، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۴

أجل الوقوف أمام مضايقات الطائشين قد أمرت المؤمنات أوّلا أن لا يتركن ذريعة بيد الطائشين، ثمّ أوقفتهم عند حدّهم بتهديدهم أشدّ تهديد.

و هذا أيضا برنامج دائمى للجميع، بأنّ الصديق لا بدّ من إصلاحه، و يوقف العدوّ عند حدّه بالقوّة.

۳- موقع المسلمين القوى:

يستفاد جيّدا من تهديدات الآيات القويّة و الشديدة أنّه بعد انتهاء حادثة «بنى قريظة»، و اجتثاث جذور هذه الفئة من الأعداء الداخليين الخطرين، فإنّ موقع المسلمين قد قوى فى المدينة تماما، و لم تكن المخالفات تأتى إلّا من جانب المنافقين المندسّين بين صفوف المسلمين، أو من جانب جماعة من الأوباش و المتهوّرين و مطلقى الإشاعات، فتعامل النّبى صلّى اللّه عليه و آله معهم من موقع القوّة، و حذّرهم بشدّة بأنّهم إن لم يكفوا عن مؤامراتهم و نفثهم للسموم، فإنّه سيقوم بتصفية الحساب معهم بهجوم واحد و يقضى عليهم! و

قد أثّر هذا التعامل الحازم و الدقیق أثره بوضوح تامّ.

۴- اجتثاث جذور الفساد:

هل أنّ ما ورد فی الآیات أعلاه عن اقتلاع جذور المفاسد کمؤامرات المنافقین، و ملاحقة أعراض المسلمین و أذاهم، و إطلاق الإشاعات یصلح علاجا فی سائر الأعصار و القرون، و لکلّ الحکومات الإسلامیة؟

قلیل من المفسّرین من بحث ذلک، إلّا أنّه یبدو أنّ هذا الحکم کسائر الأحکام الإسلامیة لا یختّص بزمان أو مکان أو أشخاص.

إذا کان نفث السموم و التآمر قد تجاوز الحدّ علی أرض الواقع، و أصبح کتیار جارف یهدّد المجتمع الإسلامی بأخطار حقیقیة، فما المانع من أن تنفذ الحکومة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۵

الإسلامیة أوامر الآیات أعلاه، و التی أنزلت علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و منحته هذه الصلاحیة، و تعبئ الناس للقضاء علی جذور الفساد؟

إلّا أنّ ممّا لا شکّ فیه أنّ هذه الأعمال و أمثالها، خاصّة و أنّها مطروحة کسنّة لا تقبل التغییر، لا یسمح بها کتصرّف شخصی، و تمسّک برأی خاصّ، بل تجوز فقط بعد إذن ولی أمر المسلمین و حکّام الشرع بها.

۵- سنن اللّه الثابتة:

قرأنا فی الآیات السابقة أنّ القرآن ذکر أنّ إحدی سنن اللّه التی لا تقبل التغییر هی اقتلاع جذور التآمر بهجوم عامّ، و قد کانت هذه السنّة جاریة فی الأمم السابقة.

و قد ورد نظیر هذا التعبیر فی مواضع اخری من القرآن، و من جملتها ما ورد فی الآیة (۳۸) من سورة الأحزاب هذه، فبعد أن أجاز سبحانه مخالفة سنّة جاهلیة خاطئة و إلغاءها فی مسألة مطلقة الابن بالادّعاة، یقول: لیس للنبی أیّ ذنب إذا ما نفّذ أوامر اللّه مهما کانت.

ثمّ یضیف تعالی: سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

و فی الآیة (۴۳) من سورة فاطر، و بعد أن هدّد الکافرین و المجرمین بالفناء و الهلاک، یقول سبحانه: فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا.

و فی الآیة (۸۵) من سورة غافر، و بعد أن صرّح بأنّ إیمان الکفّار العنودین من الأقوام الماضین عند مشاهدتهم عذاب الاستئصال لم ینفعهم شیئا، یضیف: سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ

و فی الآیة (۲۳) من سورة الفتح، و بعد أن ذکر انتصار المؤمنین و هزیمة الکفّار فی الحروب، و أن لیس لهم ولی و لا نصیر، یضیف: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۶

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلًا.

و کذلک فی الآیة (۷۷) من سورة الإسراء عند ما یبیّن مؤامرة إبعاد النّبی أو قتله، یضیف: وَ إِذاً لا یَلْبَثُونَ خِلافَکَ إِلَّا قَلِیلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَکَ مِنْ رُسُلِنا وَ لا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِیلًا.

يستفاد من مجموع هذه الآيات جيّدا أنّ المراد من السنّة فى مثل هذه الموارد:

القوانين الإلهيّة الثابتة و الأساسية، سواء التكوينية منها أم التشريعية، التى لا تتغيّر مطلقا.

و بتعبير آخر: فإنّ للّه سبحانه فى عالم التكوين و التشريع قوانين و أصولا ثابتة، كالقوانين الأساسية و الدساتير المسنونة بين شعوب العالم و التى لا تتبدّل، و لا تكون عرضة للتغيير، و هذه القوانين الإلهية كانت حاكمة على الأقوام الماضين، و تحكّمنا اليوم، و ستكون حاكمة فى المستقبل على الأجيال الآتية.

إنّ نصرة النّبى، و هزيمة الكفّار، و وجوب تنفيذ أوامر اللّه و العمل بموجبها، حتّى و إن أدّت إلى إثارة سخط الناس و عدم رضاهم، عدم جدوى التوبة حين نزول العذاب الإلهى، و أمثال ذلك هى جزء من هذه السنن الخالدة.

إنّ هذه التعبيرات تسلّى خواطر كلّ السائرين فى طريق الحقّ، و تمنحهم الهدوء و الطمأنينة من جهة، و توضّح من جهة اخرى وحدة دعوة الأنبياء و انسجامها، و تناسق القوانين الحاكمة على نظام الخلقة و نظام الحياة الإنسانية و اتّحادها، و هى فى الحقيقة فرع من فروع التوحيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۶۳ الى ۶۸]

اشارة

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (۶۳) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (۶۴) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۶۵) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (۶۶) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (۶۷)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (۶۸)

التّفسير

يسألون أيّان يوم القيامة؟!

كانت الآيات السابقة تتحدّث عن مؤامرات المنافقين و الأشرار، و قد أشير فى هذه الآيات التى نبحثها إلى واحدة اخرى من خططهم الهدّامة، و أعمالهم المخرّبة، حيث كانوا يطرحون أحيانا هذا السؤال: متى تقوم القيامة التى يخبر بها محمّد و يذكر لها كلّ هذه الصفات؟ و ذلك إمّا استهزاء، أو لزرع الشكّ فيها فى قلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۸

البسطاء، فتقول الآية: يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ.

و يحتمل أيضا أن يكون بعض المؤمنين قد سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله هذا السؤال بدافع من حبّ الاستطلاع، أو للحصول على معلومات أكثر حول هذا الموضوع.

غير أنّ ملاحظة الآيات التى تلى هذه الآية ترجّح التّفسير الأوّل، و الشاهد الآخر لهذا الكلام ما ورد فى الآيتين ۱۷- ۱۸/ سورة الشورى فى هذا الباب، حيث تقولان: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها.

ثمّ تقول الآية- مورد البحث- فى مقام جوابهم: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ و لا يعلمها حتّى المرسلون و الملائكة المقرّبون.

ثمّ تضيف بعد ذلك: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً.

و بناء على هـذا يجب أن نكون مستعدّين دائما لقيام القيامـة، و هـذه هى الحكمة من كونها خافية مجهولة لئلّا يظنّ أحد أنّه فى مأمن منها، و يتصوّر أنّ القيامة بعيدة فعلا، و يعتبر نفسه فى معزل عن عذاب اللّه و عقابه.

ثمّ تطرّقت الآية إلى تهديد الكافرين، و تناولت جانبا من عقابهم الأليم، فقالت:

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

الفرق بين «الولى» و «النصير» هنـا هو: أنّ «الولى» من يتولّى القيام بكلّ الأعمال و تنفيـذها، أمّا «النصير» فهو الـذى يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب. إلّا أنّ هؤلاء الكافرين لا وليّ لهم فى القيامة و لا نصير.

ثمّ بيّنت جزءا آخر من عـذابهم الأليم فى القيامـة فقـالت: يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ و هـذا التقليب إمّـا أن يكون فى لون البشـرة و الوجه حيث تصبح حمراء أو سوداء أحيانا، أو من جهة تقلّبهم فى النار و لهيبها حيث تكون وجوههم فى مواجهة النار أحيانا، و أحيانا جوانب اخرى (نعوذ باللّه من ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۵۹

هنا ستنطلق صرخات حسرتهم، و يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا فإنّا لو كنّا أطعناهما لم يكن ينتظرنا مثل هذا المصير الأسود الأليم.

وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا[۳۲۱].

(السادة) جمع «سيّد»، و هو المالك العظيم الـذى يتولّى إدارة المدن المهمّة أو الدول، و «الكبراء» جمع «كبير» و هو الفرد الكبير سواء من ناحيـة السنّ، أو العلم، أو المركز الاجتماعى و أمثال ذلك. و بهـذا فإنّ السادة إشارة إلى رؤساء البلاد العظام، و الكبراء هم الـذين يتولّون إدارة الأمور تحت إشراف أولئك السادة، و يعتبرون معاونين و مشاورين لهم، و كأنّهم يقولون: إنّنا قد جعلنا طاعة السادة محل طاعة اللّه، و طاعة الكبراء مكان طاعة الأنبياء، فابتلينا بأنواع الانحرافات و التعاسة و الشقاء.

من البديهى أنّ معيار السيادة و كون الشـخص كبيرا بين أولئك الأقوام هو القوّة و السيطرة، و المال و الثروة الغير مشروعة، و المكر و الخـداع. و ربّما كان إختيار هـذين التعبيرين هنا من أجل أنّهم يحاولون توجيه عـذرهم و يقولون: لقد كنّا تحت تأثير العظمة الظاهرية لأولئك.

هنا تثور ثائرة هؤلاء الجهنميين الضالّين، و يطلبون من اللّه سبحانه أن يزيد فى عذاب مضلّيهم و عقابهم أشدّ عقاب فيقولون: رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً- عذاب لإضلالهم-.

من المسلّم أنّ هؤلاء يستحقّون العـذاب و اللعن، و استحقاقهم للعـذاب المضـاعف و اللعن الكبير بسبب سعيهم فى سبيل إضـلال الآخرين، و دفعهم إلى طريق الانحراف.

و الطريف ما ورد فى الآية ۳۸ من سورة الأعراف، من أنّ هؤلاء المتّبعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۰

الضالّين عند ما يطلبون عذاب الضعف لسادتهم و أئمّتهم، يقال: لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَ لكِنْ لا تَعْلَمُونَ ۳۲۲].

إنّ كون عذاب أئمّة الكفر و الضلال مضاعفا واضح، لكن لما ذا يكون عذاب من اتّبعهم مضاعفا؟

إنّ سبب ذلـك هو أنّهم استحقّوا عـذابا لضـلالتهم، و العـذاب الآخر لمعونـة الظالمين و مؤازرتهم، لأنّ الظالمين لا يقـدرون على أن يستمرّوا فى عمـل مـا لوحـدهم مهمـا كانت لهم من قوّة، إلّا أنّ أتباعهم هم الـذين يؤجّجون نار حروبهم، و يسجرون أتون ظلمهم و كفرهم، و إن كان عذاب أئمّة الكفر- إذا ما قورن بعذاب المتّبعين- أشدّ و آلم بدون شكّ.

و قد كان لنا بحث مفصّل فى هذا الباب فى الآية (۳۰) من هذه السورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۱

الآیات [سورة الأحزاب (۳۳): الآیات ۶۹ الی ۷۱]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ آذَوْا مُوسی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِیهاً (۶۹) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِیداً (۷۰) یُصْلِحْ لَکُمْ أَعْمالَکُمْ وَ یَغْفِرْ لَکُمْ ذُنُوبَکُمْ وَ مَنْ یُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِیماً (۷۱)

التّفسیر

بما ذا رموا موسی علیه السّلام و اتّهموه؟

بعد البحوث التی مرّت فی الآیات السابقة حول وجوب احترام مقام النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و ترک کلّ ما یؤذیه و الابتعاد عنه، فقد وجّهت هذه الآیات الخطاب للمؤمنین، و قالت: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ آذَوْا مُوسی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِیهاً.

إنّ إختیار موسی علیه السّلام من جمیع الأنبیاء الذین طالما أوذوا، بسبب أنّ المؤذین من بنی إسرائیل قد آذوه أکثر من أی نبی آخر، إضافة إلی أنّ بعض أنواع الأذی التی رآها کانت تشبه أذی المنافقین لنبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله.

و هناک بحث بین المفسّرین فی المراد من إیذاء موسی علیه السّلام هنا؟ و لماذا ذکره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۲

القرآن بشکل مبهم؟ و قد ذکروا احتمالات عدیدة فی تفسیر الآیة، و من جملتها:

۱- إنّ موسی و هارون علیهما السّلام قد ذهبا إلی جبل- طبق روایة- و ودّع هارون الحیاة، فأشاع المرجفون من بنی إسرائیل أنّ موسی علیه السّلام قد تسبّب فی موته، فأبان اللّه سبحانه حقیقة الأمر، و أسقط ما فی ید المرجفین.

۲- کما أوردنا مفصّلا فی ذیل الآیات الأخیرة من سورة القصص، فإنّ قارون المحتال أراد أن یتملّص من قانون الزکاة، و لا یؤدّی حقوق الضعفاء و الفقراء، فعمد إلی بغیّ و اتّفق معها علی أن تقوم بین الناس و تتّهم موسی علیه السّلام بأنّه زنی بها، إلّا أنّ هذه الخطّة قد فشلت بلطف اللّه سبحانه، بل و شهدت تلک المرأة بطهارة موسی علیه السّلام و عفته، و بما أراده منها قارون.

۳- إنّ جماعة من الأعداء اتّهموا موسی علیه السّلام بالسحر و الجنون و الافتراء علی اللّه، و لکن اللّه تعالی برّأه منها بالمعجزات الباهرات.

۴- إنّ جماعة من جهّال بنی إسرائیل قد اتّهموه بأنّ فیه بعض العیوب الجسمیة کالبرص و غیره، لأنّه کان إذا أراد أن یغتسل و یستحمّ لا یتعرّی أمام أحد مطلقا، فأراد أن یغتسل یوما بمنأی عن الناس، فوضع ثیابه علی حجر هناک، فتدحرج الحجر بثیابه، فرأی بنو إسرائیل جسمه، فوجدوه مبرّأ من العیوب.

۵- کان المعذرون من بنی إسرائیل أحد عوامل إیذاء موسی علیه السّلام، فقد کانوا یطلبون تارة أن یریهم اللّه عزّ و جلّ «جهرة»، و اخری یقولون: إنّ نوعا واحدا من الطعام- و هو «المنّ و السلوی»- لا یناسبنا، و ثالثة یقولون: إنّنا غیر مستعدّین للدخول إلی بیت المقدس و محاربة «العمالقة». اذهب أنت و ربّک فقاتلا، و افتحاه لنا لندخله بعد ذلک! الّا أنّ الأقرب لمعنی الآیة، هو أنّها بصدد بیان حکم کلّی عام جامع، لأنّ بنی إسرائیل قد آذوا موسی علیه السّلام من جوانب متعدّدة .. ذلک الأذی الذی لم یکن یختلف عن أذی

بعض أهل المدينة (لنبيّنا صلّى اللّه عليه و آله) كإشاعة بعض الأكاذيب و اتّهام زوج النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۳

بتهم باطلة، و قد مرّ تفصيلها فى تفسير سورة النور- ذيل الآيات ۱۱- ۲۰- و الاعتراضات التى اعترضوا بها على النّبى صلّى اللّه عليه و آله فى زواجه بزينب، و أنواع الأذى و المضايقات التى كانوا يضايقونه بها فى بيته، أو مناداته بأسلوب خال من الأدب و الأخلاق، و غير ذلك.

و أمّا الاتّهام بالسحر و الجنون و أمثال ذلك، أو العيوب البدنية، فإنّها و إن اتّهم موسى بها، إلّا أنّها لا تتناسب مع يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بالنسبة لنبيّنا صلّى اللّه عليه و آله إذ لم يتّهم المؤمنون موسى عليه السّلام و لا نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله بالسحر و الجنون. و كذلك الاتّهام بالعيوب البدنية، فإنّه على فرض كونه قد حدث بالنسبة لموسى عليه السّلام، و أنّ اللّه تعالى قد برّأه، فليس له مصداق أو حادثة تؤيّده فى تاريخ نبيّنا صلّى اللّه عليه و آله.

و على أيّة حال، فيمكن أن يستفاد من هذه الآية أنّ من كان عند اللّه وجيها و ذا منزلة، فإنّ اللّه سبحانه يدافع عنه فى مقابل من يؤذيه و يتّهمه بالأباطيل، فكن طاهرا و عفيفا، و احفظ وجاهتك عند اللّه، فإنّه تعالى سيظهر عفّتك و طهارتك للناس، حتّى و إن سعى الأشقياء و المسيؤون إلى اتّهامك و تحطيم منزلتك و تشويه سمعتك بين الناس.

و قد قرأنا نظير هذا المعنى فى قصّة «يوسف» الصدّيق الطاهر، و كيف برّأه اللّه سبحانه من تهمة امرأة عزيز مصر الكبيرة و الخطيرة.

و كذلك فى شأن «مريم» بنت عمران أمّ عيسى عليه السّلام، حيث شهد وليدها الرضيع بطهارتها و عفّتها، و قطع بذلك ألسن المتربّصين بها من بنى إسرائيل، و الذين كانوا يسعون لاتّهامها و تلويث سمعتها.

و الجدير بالذكر أنّ هذا الخطاب لم يكن مختّصا بالمؤمنين فى زمان النّبى صلّى اللّه عليه و آله، بل من الممكن أن تشمل الآية حتّى أولئك الذين سيولدون بعده و يقومون بعمل يؤذون روحه الطاهرة به، فيحتقرون دينه و يستصغرون شأنه، و ينسون مواريثه، و لذلك جاء فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام: «يا أيّها الذين آمنوا لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۴

تؤذوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله فى على و الأئمّة صلوات اللّه عليهم ...»[۳۲۳].

و آخر كلام فى تفسير هذه الآية هو: أنّه بعد ملاحظة أحوال الأنبياء العظام الذين لم يكونوا بمأمن من جراحات ألسن الجاهلين و المنافقين، يجب أن لا نتوقّع أن لا يبتلى المؤمنون و الطاهرون بمثل هؤلاء الأفراد،

فإنّ الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «إنّ رضى الناس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط ..» ثمّ يضيف الإمام فى نهاية هذا الحديث: «أ لم ينسبوا إلى موسى أنّه عنين و آذوه حتّى برّأه اللّه ممّا قالوا، و كان عند اللّه وجيها»[۳۲۴].

قولوا الحقّ لتصلح أعمالكم:

بعد البحوث السابقة حول ناشرى الإشاعات و الذين يؤذون النّبى، تصدر الآية التالية أمرا هو فى الحقيقة علاج لهذا المرض الاجتماعى الخطير، فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً.

«القول السديد» من مادّة (سد) أى المحكم المنيع الذى لا يعتريه الخلل، و الموافق للحقّ و الواقع، و يعنى القول الذى يقف كالسدّ المنيع أمام أمواج الفساد و الباطل. و إذا ما فسّره بعض المفسّرين بالصواب، و البعض الآخر بكونه خالصا من الكذب و اللغو و خاليا منه، أو تساوى الظاهر و الباطن و وحدتهما، أو الصلاح و الرشاد، و أمثال ذلك، فإنّها فى الواقع تفاسير ترجع إلى المعنى الجامع أعلاه.

ثمّ تبيّن الآية التالية نتيجة القول السديد، فتقول: يُصْلِحْ لَكَمْ أَعْمالَكَمْ وَ يَغْفِرْ لَكَمْ ذُنُوبَكَمْ

إنّ التقوى فى الواقع هى دعامة إصلاح اللسان و أساسه، و منبع قول الحقّ، و القول الحقّ أحد العوامل المؤثّرة فى إصلاح الأعمال، و إصلاح الأعمال سبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۵

مغفرة الذنوب، و ذلك ل إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ [۳۲۵] يقول علماء الأخلاق: إنّ اللسان أكثر أعضاء البدن بركة، و أكثر الوسائل تأثيرا فى الطاعة و الهداية و الصلاح، و هو فى الوقت نفسه يعدّ أخطر أعضاء البدن و أكثرها معصية و ذنبا، حتّى أنّ ما يقرب من الثلاثين كبيرة تصدر من هذا العضو الصغير[۳۲۶].

و

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: «لا يستقيم إيمان عبد حتّى يستقيم قلبه، و لا يستقيم قلبه حتّى يستقيم لسانه»[۳۲۷].

و من الرائع جدّا ما

ورد فى حديث آخر عن الإمام السجّاد عليه السّلام: «إنّ لسان ابن آدم يشرف كلّ يوم على جوارحه فيقول: كيف أصبحتم؟ فيقولون: بخير إن تركتنا.

و يقولون: اللّه اللّه فينا، و يناشدونه و يقولون: إنّما نثاب بك و نعاقب بك»[۳۲۸].

هناك روايات كثيرة فى هذا الباب تحكى جميعا عن الأهميّة الفائقة للّسان و دوره فى إصلاح الأخلاق و تهذيب النفوس الإنسانية، و لذلك نقرأ

فى حديث: «ما جلس رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله على هذا المنبر قطّ إلّا تلا هذه الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۶

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً[۳۲۹].

ثمّ تضيف الآية فى النهاية: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً و أى فوز و ظفر أسمى من أن تكون أعمال الإنسان صالحة، و ذنوبه مغفورة، و هو عند اللّه من المبيضة وجوههم الذين رضى اللّه عنهم؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۷

الآيتان [سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۷۲ الى ۷۳]

اشارة

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (۷۲) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۷۳)

التّفسير

حمل الأمانة الإلهية أعظم افتخارات البشر:

تكمل هاتان الآيتان- اللتان هما آخر آيات سورة الأحزاب- المسائل المهمّة التى وردت فى هذه السورة فى مجالات الإيمان، و العمل

الصالـح، و الجهـاد، و الإيثـار، و العفّـة و الأـدب و الأخلاق، و تبيّن كيف أنّ الإنسان يحتل موقعا ساميا جـدّا بحيث يسـتطيع أن يكون حامل رسالـة اللّه العظيمة، و كيف أنّه إذا ما جهل قيمه الحياتية و الوجودية سـيظلم نفسه غاية الظلم، و ينحدر إلى أسـفل سافلين! تبيّن الآية أوّلا أعظم امتيازات الإنسان و أهمّها فى كلّ عالم الخلقة، فتقول:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۸

مِنْها.

ممّا لا شكّ فيه أنّ إباءها تحمل المسؤولية و امتناعها عن ذلك لم يكن اسـتكبارا منها، كما كان ذلك من الشـيطان، حيث تقول الآية (۲۴) من سورة البقرة: أَبى وَ اسْتَكْبَرَ، بل إنّ إباءها كان مقترنا بالإشفاق، أى الخوف الممتزج بالتوجّه و الخضوع.

إلّا أنّ الإنسان، اعجوبة عالم الخلقة، قد تقدّم وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا.

لقد تحدّث كبار مفسّرى الإسلام حول هذه الآية كثيرا، و سعوا كثيرا من أجل الوصول إلى حقيقة معنى «الأمانة»، و أبدوا وجهات نظر مختلفة، نختار أفضلها بتقصّى القرائن الموجودة فى طيّات الآية.

و يجب التأكيد فى هذه الآية العميقة المحتوى على خمس موارد:

۱- ما هو المراد من الأمانة؟

۲- ما معنى عرضها على السماوات و الأرض و الجبال؟

۳- لماذا و كيف أبت هذه الموجودات حمل هذه الأمانة؟

۴- كيف حمل الإنسان ثقل الأمانة هذا؟

۵- لماذا و كيف كان ظلوما جهولا؟

لقد ذكرت تفاسير مختلفة للأمانة و من جملتها:

أنّ المراد من الأمانة: هى الولاية الإلهية، و كمال صفة العبودية، و الذى يحصل عن طريق المعرفة و العمل الصالح.

أنّ المراد: صفة الإختيار و الحرية و الإرادة التى تميّز الإنسان عن سائر الموجودات.

أنّ المراد: العقل الذى هو ملاك التكليف، و مناط الثواب و العقاب.

أنّ المراد: أعضاء جسم الإنسان، فالعين أمانة اللّه، و يجب الحفاظ عليها و عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۶۹

استعمالها فى طريق المعصية، و الاذن و اليد و الرجل و اللسان كلّها أمانات يجب حفظها.

أنّ المراد: الأمانات التى يأخذها الناس بعضهم من بعض، و الوفاء بالعهود.

أنّ المراد: معرفة اللّه سبحانه.

أنّ المراد: الواجبات و التكاليف الإلهيّة كالصلاة و الصوم و الحجّ.

لكن يتّضح من خلال أدنى دقّة أن هذه التفاسـير لا تتناقض مع بعضـها، بل يمكن إدغام بعضها فى البعض الآخر، فبعضها أخذت جانبا من الموضوع، و بعضها الآخر كلّه.

و من أجل الحصول على جواب جامع كاف، يجب أن نلقى نظرة على الإنسان لنرى أى شـىء يمتلكه و تفتقده السـماوات و الأرضون و الجبال؟

إنّ الإنسان موجود له اسـتعدادات و قابليات يستطيع من خلال استغلالها أن يكون أتمّ مصداق لخليفة اللّه، و يستطيع أن يصل إلى قمّة العظمة و الشرف باكتساب المعرفة و تهذيب النفس و تحصيل الكمالات، و أن يسمو حتّى على الملائكة.

إنّ هـذا الاسـتعداد المقترن بالحريـة و الإرادة و الإختيار يعنى أنّ الإنسان يطوى هـذا الطريق بإرادته و إختياره، و يبدأ فيه من الصـفر و يسير إلى ما لا نهاية.

إنّ السـماء و الأـرض و الجبـال تمتلـك نوعا من المعرفـة الإلهيـة، و هى تـذكر اللّه سـبحانه و تسـبّحه، و تخضع لعظمته و تخشع لها و تسـجد، إلّا أنّ كلّ ذلك ذاتى و تكوينى و إجبارى، و لذلك ليس فيه تكامل ورقى، و الموجود الوحيد الذى لا ينتهى منحنى صعوده و نزوله، و هو قادر على ارتقاء قمّـة التكامل بصورة لا تعرف الحـدود، و يقوم بكلّ هذه الأعمال بإرادته و إختياره، هو الإنسان، و هذه هى «الأمانة الإلهيّة» التى امتنعت من حملها كلّ الموجودات، و حملها الإنسان! و لذلك نرى الآية التالية قسّمت البشر إلى ثلاث فئات: «المؤمنين» و «الكفّار» و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۰

«المنافقين».

بنـاء على هـذا يجب القول فى عبارة مختصـرة أنّ الأمانـة الإلهيـة هى قابليـة التكامل غير المحـدودة و الممتزجـة بالإرادة و الإختيار، و الوصول إلى مقام الإنسان الكامل، و عبودية اللّه الخاصّة و تقبّل ولاية اللّه.

لكن لماذا عبّر عن هذا الأمر بالأمانة، مع أنّ كلّ وجودنا و كلّ ما لدينا أمانة اللّه؟

لقد عبّر بهذا التعبير لأهميّة امتياز البشر العظيم هذا، و إلّا فإنّ بقية المواهب أمانات اللّه أيضا، غير أنّ أهميّتها تقلّ أمام هذا الامتياز.

و يمكن أن نعبّر هنا عن هذه الأمانة بتعبير آخر و نقول: إنّها التعهّد و الالتزام و قبول المسؤولية.

بناء على هـذا فإنّ أولئك الـذين فسّـروا الأمانة بصـفة الإختيار و الحرية فى الإرادة، قد أشاروا إلى جانب من هذه الأمانة العظمى، كما أنّ أولئك الذين فسّروها بالعقل، أو أعضاء البدن، أو أمانات الناس لدى بعضهم البعض، أو الفرائض و الواجبات، أو التكاليف بصورة عامّة، قد أشار كلّ منهم إلى غصن من أغصان هذه الشجرة العظيمة المثمرة، و اقتطف منها ثمرة.

لكن ما هو المراد من عرض هذه الأمانة على السموات و الأرض؟

هل المراد: أنّ اللّه سبحانه قد منح هذه الموجودات شيئا من العقل و الشعور ثمّ عرض عليها حمل هذه الأمانة؟

أو أنّ المراد من العرض هو المقارنـة؟ أى أنّها عنـد ما قارنت حجم هـذه الأمانـة مع ما لديها من القابليات و الاسـتعدادات أعلنت عدم لياقتها و استعدادها عن تحمّل هذه الأمانة العظيمة.

طبعا، يبدو أنّ المعنى الثّانى هو الأنسب، و بهذا فإنّ السماوات و الأرض و الجبال قد صرخت جميعا بأنّا لا طاقة لنا بحمل هذه الأمانة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۱

و من هنا يتّضـح جواب السؤال الثالث أيضا، بأنّ هـذه الموجودات لما ذا و كيف رفضت و أبت حمل هـذه الأمانة العظمى، و أظهرت إشفاقها من ذلك؟

و من هنا تتّضح كيفية حمل الإنسان لهذه الأمانة الإلهية، لأنّ الإنسان كان قد خلق بشـكل يسـتطيع معه تحمّل المسؤولية و القيام بها، و أن يتقبّل ولايـة اللّه، و يسـير فى طريـق العبوديـة و الكمـال و يتّجه نحـو المعبـود الـدائم، و أن يطـوى هـذا الطريق بقـدمه و إرادته، و بالاستعانة بربّه.

أمّا ما ورد فى روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السّلام من تفسير هذه الأمانة بقبول ولاية أمير المؤمنين على عليه السّلام و ولـده، فمن أجل أنّ ولاية الأنبياء و الأئمّة نور ساطع من تلك الولاية الإلهية الكليّة، و الوصول إلى مقام العبودية، و طى طريق التكامل لا يمكن أن يتمّ من دون قبول ولاية أولياء اللّه.

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه سئل عن تفسير آية عرض الأمانة، فقال: «الأمانة الولاية، من ادّعاها بغير حقّ كفر»[۳۳۰].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال عند ما سئل عن تفسير هذه الآية: «الأمانة الولاية، و الإنسان هو أبو الشرور المنافق»[۳۳۱].

و المسألة الاخرى التى يلزم ذكرها هنا، هى أنّنا قلنا فى ذيل الآية (۱۷۲) من سورة الأعراف فيما يتعلّق بعالم الذرّ بأن أخذ ميثاق اللّه على التوحيد كان عن طريق الفطرة، و استعداد و طبيعة الآدمى، و إنّ عالم الذرّ هو عالم الاستعداد و الفطرة.

و فى مورد قبول الأمانة الإلهيّة يجب القول بأنّ هذا القبول لم يكن قبول اتّفاق و عقد، بل كان قبولا تكوينيا حسب عالم الاستعداد.

السؤال الوحيد الذى يبقى هو مسألة كون الإنسان «ظلوما جهولا»، فهل أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۲

وصف الإنسان بهاتين الصفتين- و ظاهرهما ذمّه و توبيخه- كان نتيجة قبوله لهذه الأمانة؟

من المسلّم أنّ النفى هو جواب هذا السؤال، لأنّ قبول هذه الأمانة أعظم فخر و ميزة للإنسان، فكيف يمكن أن يذمّ على قبوله مثل هذا المقام السامى؟

أم أنّ هذا الوصف بسبب نسيان غالب البشر و ظلمهم أنفسهم، و عدم العلم بقدر الإنسان و منزلته .. و بسبب الفعل الذى بدأ منذ ابتداء نسل آدم من قبل قابيل و أتباعه، و لا يزال إلى اليوم.

إنّ الإنسان الذى ينادى من العرش، و بنى آدم الذين وضع على رؤوسهم تاج (كرّمنا بنى آدم) و البشر الذين هم و كلاء اللّه فى الأرض بمقتضى قوله سبحانه:

إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً و الإنسان الذى كان معلّما للملائكة و سجدت له، كم يجب أن يكون ظلوما جهولا لينسى كلّ هذه القيم السامية الرفيعة، و يجعل نفسه أسيرة هذه الدنيا، و تابعا لهذا التراب، و يكون فى مصاف الشياطين، فينحدر إلى أسفل سافلين؟! أجل .. إنّ قبول هذا الخطّ المنحرف- و الذى كان و لا يزال له أتباع و سالكون كثيرون جدّا- خير دليل على كون الإنسان ظلوما جهولا، و لذلك نرى أنّه حتّى آدم نفسه، و الذى كان رأس السلسلة و متمتّعا بالعصمة، يعترف بأنّه قد ظلم نفسه رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ [۳۳۲] لقد كان «ترك الأولى» الذى صدر منه ناشئا فى الحقيقة عن نسيان جزء من عظمة هذه الأمانة الكبرى! و على أى حال، فيجب الاعتراف بأنّ الإنسان الضعيف و الصغير فى الظاهر، هو اعجوبة علم الخلقة، حيث استطاع أن يتحمّل أعباء الأمانة التى عجزت السماوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۳

و الأرضون عن حملها إذا لم ينس مقامه و منزلته ۳۳۳].

و تبيّن الآية التالية علّة عرض هذه الأمانة على الإنسان، و بيان حقيقة أنّ أفراد البشر قد انقسموا بعد حمل هذه الأمانة إلى ثلاث فئات: المنافقين و المشركين و المؤمنين، فتقول: لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

يوجد هناك احتمالان فى معنى «اللام» فى لِيُعَذِّبَ

الأوّل: أنّها «لام الغاية» التى تذكر لبيان عاقبة الشىء و نهايته، و بناء على هذا يكون معنى الآية: كانت عاقبة حمل هذه الأمانة أن سلك جماعة طريق النفاق، و جماعة سبيل الشرك، و هؤلاء سيبتلون بعذاب اللّه لخيانتهم أمانته، و جماعة هم أهل الإيمان الذين ستشملهم رحمته لأدائهم هذه الأمانة و القيام بواجباتهم.

و الثانى: أنّها «لام العلّة»، فتكون هناك جملة مقدرة، و على هذا يكون تفسير الآية: كان الهدف من عرض الأمانة أن يوضع كلّ البشر فى بوتقة الاختبار، ليظهر كلّ إنسان باطنه فيرى من الثواب و العقاب ما يستحقّه.

و هنا امور ینبغی الالتفات إلیها:

۱- إنّ سبب تقدیم أهل النفاق علی المشرکین هو أنّ المنافق یتظاهر بأنّه أمین فی حین أنّه خائن، إلّا أنّ خیانة المشرک ظاهرة مکشوفة، و لذلک فإنّ المنافق یستحقّ حظّا أکبر من العذاب.

۲- یمکن أن یکون سبب تقدیم هاتین الفئتین علی المؤمنین هو أنّ الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۴

السابقة قد ختمت ب ظَلُوماً جَهُولًا و هاتان الصفتان تناسبان المنافق و المشرک، فالمنافق ظالم، و المشرک جهول.

۳- لقد وردت کلمة (اللّه) مرّة واحدة فی شأن المنافقین و المشرکین، و مرّة فی شأن المؤمنین، و ذلک لأنّ مصیر الفئتین الاوّلیین واحد، و حساب المؤمنین یختلف عنهما.

۴- یمکن أن یکون التعبیر بالتوبة بدل الجزاء و الثواب فی شأن المؤمنین بسبب أنّ أکثر خوف المؤمنین من الذنوب و المعاصی التی تصدر عنهم أحیانا، و لذا فإنّ الآیة تطمئنهم و تمنحهم السکینة بأنّ ذنوبهم ستغفر.

أو لأنّ توبة اللّه علی عباده تعنی رجوعه علیهم بالرحمة، و نعلم أنّ کلّ الهبات و العطایا و المکافآت قد أخفیت فی کلمة «الرحمة».

۵- إنّ وصف اللّه بالغفور و الرحیم ربّما کان فی مقابل الظلوم و الجهول. أو لمناسبته ذکر التوبة بالنسبة للمؤمنین و المؤمنات.

الآن و قد بلغنا نهایة سورة الأحزاب بفضل اللّه سبحانه، نری لزاما ذکر هذه المسألة، و هی: أنّ انسجام بدایة هذه السورة مع نهایتها یستحقّ الدقّة و الانتباه، لأنّ هذه السورة- سورة الأحزاب- قد بدأت بخطاب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أمره بتقوی اللّه، و نهیه عن طاعة الکافرین و المنافقین، و التأکید علی کون اللّه علیما حکیما، و انتهت بذکر أعظم مسألة فی حیاة البشر، أی حمل أمانة اللّه. ثمّ بتقسیم البشر إلی ثلاث فئات: المنافقین، و الکافرین، و المؤمنین، و التأکید علی کون اللّه غفورا رحیما.

و بین هذین البحثین طرحت بحوثا کثیرة حول هذه الفئات الثلاثة، و أسلوب تعاملهم مع هذه الأمانة الإلهیة، و کلّ هذه البحوث یکمل بعضها بعضا، و یوضّح بعضها بعضا.

اللهمّ اجعلنا ممّن قبلوا أمانتک بإخلاص، و حملوها بعشق و لذّة، و قاموا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۵

بواجباتهم تجاهها.

اللهمّ اجعلنا من المؤمنین الذین وسعتهم رحمتک، لا من المنافقین و المشرکین الذین استحقّوا العذاب لکونهم ظلومین جهولین.

اللهمّ انزل غضبک و سخطک علی أحزاب الکفر التی اتّحدت مرّة اخری، و احتّلت مدینة الإسلام فی عصرنا الحاضر، و اهدم قصورهم علی رؤوسهم. اللهمّ و هب لنا من الثبات و الاستقامة ما نقف به کالجبل لندافع عن مدینة الإسلام و نحرسها فی هذه اللحظات الحسّاسة.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الأحزاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۷

سورة سبأ

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها أربع و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۷۹

«سورة سبأ»

محتوی سورة سبأ:

سمّیت السورة بهذا الاسم (سبأ) لذکرها قصّة قوم سبأ، و هی من السور المکیّة، التی تشتمل عادة علی بحوث المعارف الإسلامیة و اصول الإعتقادات، خصوصا «المبدأ» و «المعاد» و «النبوّة». فأغلب بحوثها تحوم حول تلکم الموضوعات، لحاجة المسلمین لبلورة امور العقیدة فی مکّة، و إعدادهم للانتقال إلی فروع الدین، و تشکیل الحکومة، و تطبیق کافّة البرامج الإسلامیة.

و بشکل إجمالی یمکن القول بأنّ محتوی هذه السورة یندرج فی خمسة مواضیع:

۱- «التوحید»، و بعض الآثار الدالّة علیه فی عالم الوجود، و بعض صفات اللّه المقدّسة کالوحدانیة، و الربوبیة، و الالوهیة.

۲- قضیّة المعاد التی نالت النصیب الأوفی من العرض فی هذه السورة، باستعراضها ضمن بحوث منوّعة و من زوایا مختلفة.

۳- نبوّة الأنبیاء السابقین و بالأخص رسول الإسلام الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و الردّ علی تخرصات أعدائه حوله، و ذکر جانب من معجزات من سبقه من الأنبیاء.

۴- التعرّض لذکر بعض النعم الإلهیة العظیمة، و مصیر الشاکرین و الجاحدین من خلال استعراض جانب من حیاة النّبی سلیمان علیه السّلام و حیاة قوم سبأ.

۵- الدعوة إلی التفکّر و التأمّل و الإیمان و العمل الصالح، و بیان تأثیر هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۰

العوامل فی سعادة و موفقیة البشر.

و علی کلّ حال، فانّها تشکّل برنامجا تربویا شاملا لتربیة الباحثین عن الحقّ.

فضیلة هذه السورة:

یلاحظ فی الروایات تعبیرات ملفتة حول أهمیّة هذه السورة و أهمیّة قراءتها.

من جملتها ما

ورد فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال: «من قرأ سورة سبأ لم یبق نبیّ و لا رسول إلّا کان له یوم القیامة رفیقا و مصافحا»[۳۳۴].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ الحمدین جمیعا، سبأ و فاطر، فی لیلة لم یزل لیلته فی حفظ اللّه تعالی و کلاءته، فإن قرأهما فی نهاره لم یصبه فی نهاره مکروه، و اعطی من خیر الدنیا و خیر الآخرة ما لم یخطر علی قلبه و لم یبلغ مناه»[۳۳۵].

و نذکّر- کما فی بدایة کلّ سورة- بأنّ من الطبیعی أنّ هذا الثواب العظیم لا یکون نصیب من یکتفی من قراءته بلقلقة اللسان و حسب، بل یجب أن تکون القراءة مقدّمة للتفکیر الذی یکون بدوره باعثا علی العمل الصالح.

فإنّ من یقرأ هذه السورة مثلا، سیعلم بأنّ الدمار الذی حلّ بقوم سبأ و جعل من مصرعهم عبرة للعالمین، و مصیرهم مضربا للأمثال، إنّما کان لکفرانهم النعم الإلهیة الوافرة.

و من يطّلع على ذلك فسيؤدّى شكر النعمة بطريقة عملية. و الشاكر بنعمة اللّه سيكون فى حفظه و أمانه تعالى.

و قد ذكرنا شرحا أوفى حول هذا الموضوع فى أوّل تفسيرنا لسورة النور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۱

الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱ الى ۲]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (۱) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (۲)

التّفسير

هو المالك لكلّ شىء و العالم بكلّ شىء:

خمس سور من القرآن الكريم افتتحت «بحمد اللّه»، و ارتبط (الحمد) فى ثلاثة منها بخلق السموات و الأرض و هى (سبأ و فاطر و الأنعام) بينما كان مقترنا فى سورة الكهف بنزول القرآن على قلب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، و جاء فى سورة الفاتحة تعبيرا جامعا شاملا لكلّ هذه الاعتبارات الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على كلّ حال، الحمد و الشكر للّه تعالى فى مطلع سورة سبأ هو فى قبال مالكيته و حاكميته تعالى فى الدنيا و الآخرة.

يقول تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۲

الْآخِرَةِ.

لذا فإنّ الحاكمية و المالكية فى الدنيا و الآخرة له سبحانه، و كلّ موهبة، و كلّ نعمة، و منفعة و بركة، و كلّ خلقة سوية عجيبة مذهلة، تتعلّق به تعالى، و لذا فإنّ «الحمد» الذى حقيقته «الثناء على فعل اختيارى حسن» كلّه يعود إليه تعالى، و إذا كانت بعض المخلوقات تستحقّ الحمد و الثناء، فلأنّها شعاع من وجوده عزّ و جلّ و لأنّ أفعالها و صفاتها قبس من أفعاله و صفاته تعالى. و عليه فكلّ مدح و ثناء يصدر من أحد على شىء فى هذا العالم، فإنّ مرجعه فى النهاية إلى اللّه سبحانه و تعالى.

ثمّ يضيف تعالى قائلا: وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ.

فقد اقتضت حكمته البالغة أن يخضع الكون لهذا النظام العجيب، و أن يستقرّ- بعلمه و إحاطته- كلّ شىء فى محلّه من الكون، فيجد كلّ مخلوق- كلّ ما يحتاج إليه- فى متناوله.

و قد تحدّث المفسّرون كثيرا فى هذه الآية عن المقصود من الحمد و الشكر فى الآخرة ..

فذهب بعضهم: إنّ الآخرة و إن لم تكن دار تكليف، إلّا أنّ عبّاد الرحمن الذين تسامت أرواحهم بعشق بارئهم هناك، يشكرونه و يحمدونه و ينتشون بلذّة خاصّة من ذلك.

و قال آخرون: إنّ أهل الجنّة يحمدونه على فضله، و أهل النار يحمدونه على عدله.

و قيل: إنّ الإنسان- نتيجة وجود الحجب المختلفة على قلبه و عقله فى الدنيا- لا يمكنه أن يحمد اللّه حمدا خالصا، و عند ما ترتفع

هـذه الحجب يوم القيامـة تتّضـح مالكيته تعالى و هيمنته على عالم الوجود للجميع مصـداقا لقوله تعالى الْمُلْكَ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ و حينها تلهج الألسن بحمده و الثناء عليه بكامل خلوص النيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۳

و كـذلك فإنّ الإنسان قـد يغفل فى هـذه الـدنيا فيحمد بعض المخلوقات، متوهما اسـتقلالها، إلّا أنّه فى الآخرة، و حيث يتّضح ارتباط الكلّ به تعالى كارتباط أشعّة الشمس بقرصها، فإنّ الإنسان لن يؤدّى الحمد و الثناء إلّا للّه سبحانه.

فضـلا عن كـلّ هـذا، فقـد ورد مرارا فى القرآن الكريم- أيضا- أنّ أصـحاب الجنّـة يحمـدون اللّه حين دخولهم جنّات الخلـد: وَ قالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ [۳۳۶] وَ آخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْـدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعـالَمِينَ [۳۳۷] على كلّ حال فإنّ هـذا الحمـد و الثناء لا ينطلق من ألسـنة النـاس و الملائكـة فقط، بل تسـمع همهمـة الحمـد و التسبيـح من كلّ ذرّة فى عالم الوجود بإدراك العقل، فليس من موجود إلّا و يحمده و يسبّحه تعالى.

تنتقل الآيـة التى بعدها إلى التوسّع فى إظهار جانب من علم اللّه اللامحدود، تناسـبا مع وصف الآية السابقة له تعالى بالحكيم و الخبير، فيقول سبحانه: يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها.

نعم، فقـد أحاط علما بكلّ حبّـة مطر و قطرة ماء تنفذ و تلج فى أعماق الأرض حتّى إذا وصـلت طبقة صـلدة تجمّعت هناك و صارت ذخيرة للإنسان.

و يعلم بالبذور التى تنتقل على سطح الأرض بواسطة الريح أو الحشرات، لتنبت فى مكان ما و تصبح شجرة باسقة أو عشبا طريّا.

يعلم بجذور الأشجار عند توغلها فى أعماق التربة بحثا عن الماء و الغذاء.

يعلم بالموجـات الكهربائيـة و الغـازات المختلفـة، بـذرّات الهواء التى تنفـذ فى الأرض، يعلم بالكائنات الحيّـة التى تشقّ طريقها فيها، و يعطيها الحياة.

و كذلك، يعلم بالكنوز و الدفائن و أجساد الموتى من الإنسان و غيره .. نعم إنّه

.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۴

مطّلع على كلّ هذا.

و كذلك فهو عارف و عالم بالنباتات التى تخرج من الأرض، و الناس الذين يبعثون منها، بالعيون التى تفور بالماء منها، بالغازات التى تتصاعد منها، بالبراكين التى تلوّح بجحيمها، بالحشرات التى تتّخذ أو كارا فيها، و تخرج منها.

و الخلاصة، فهو عالم بكلّ الموجودات التى تلج الأرض و تخرج منها أعمّ ممّا نعلمه أو ما لا نعلمه.

ثمّ يضيف قائلا: وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها.

فهو يعلم بحبّـات المطر، و بأشـعّة الشـمس التى تنثر الحيـاة، بـأمواج الوحى و الشـرائع السـماوية العظيمـة، و بالملائكـة التى تهبـط إلى الأـرض لإبلاـغ الرسالات أو أداء الأوامر الإلهيّـة المختلفـة. بالأشـعة الكونيـة التى تـدخل جو الأرض من الفضاء الخارجى، بالشـهب و الذرّات المضطربة فى الفضاء و التى تهوى نحو الأرض، فهو تعالى محيط بهذا كلّه.

و كـذلك فإنّه يعلم بأعمال العباد التى تعرج إلى السـماء، و الملائكـة التى تقفل صاعـدة إلى السـماء بعـد أداء تكاليفها، و بالشـياطين الذين يرتقون إلى السـماء لاستراق السـمع، و بفروع الأشـجار التى تتطلّع برؤوسـها إلى السـماء، و بالأبخرة التى تتصاعد من البحار إلى أعالى السماء لتتكاثف مكونة سحبا. و بالآهات التى تنطلق من قلب المظلوم متصاعدة إلى السماء ... نعم هو عالم بكلّ ذلك.

فهل هناك من مطّلع على كلّ ذلك غيره تعالى؟ و هل يمكن لعلوم جميع العلماء مجتمعة أن تحيط و لو بجزء من هذه المعلومات؟

و فى ختام الآية يضيف تعالى: وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.

لقد وصف اللّه تعالى نفسه بهاتين الصفتين إمّا لأجل أنّه من جملة الأمور التى تعرج إلى السماء أعمال العباد و أرواحهم فيشملها برحمته ...

أو لأنّ نزول البركات و العطايا السماوية تترشّح من رحمته، و الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۵

الصالحة المتصاعدة من العباد مشمولة بغفرانه بمقتضى وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

أو لكون «الرحمة» تشمل من يشكر هذه النعم، و «الغفران» يشمل المقصّرين فى ذلك.

و الخلاصة: أنّ الآية أعلاه، لها معان واسعة من جميع الوجوه، و لا يجب حصر مؤدّاها فى معنى واحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳ الى ۵]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّماواتِ وَ لا فِى الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتابٍ مُبِينٍ (۳) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (۴) وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۵)

التّفسير

أقسم باللّه لتأتينكم القيامة:

تتعرّض الآيات مورد البحث إلى موضع التوحيد و صفات اللّه فى نفس الوقت الذى تهيء أرضيّة لموضوع المعاد، لأنّ مشكلات (بحث المعاد) لا يمكن حلّها إلّا عن طريق العلم اللامتناهى للبارىّ عزّ و جلّ، كما سنرى.

لذا فإنّ الآيات مورد البحث تبدأ أوّلا بقوله تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ. فما هو إلّا كذب و افتراء، بل إنّ القيامة لا تأتى أحدا من الناس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۷

و يريدون بذلك الفكاك و التحرّر من قيود هذه الإعتقادات، الحساب و الكتاب و العدل و الجزاء، ليرتكبوا ما يحلوا لهم من الأعمال.

و لكنّ القرآن بناء على وضوح أدلّة القيامة يخاطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بصورة حاسمة و فى معرف بيان النتيجة، فيقول: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ

و التركيز على كلمة «ربّ» لأنّ القيامة فى الأصل من شؤون الربوبية. فكيف يمكن أن يكون اللّه مالكا و مربيا للبشر يقودهم فى سيرهم التكاملى، ثمّ يتخلّى عنهم فى منتصف الطريق لينتهى بالموت كلّ شىء، فتكون حياتهم بلا هدف و خلقهم هباء و بلا معنى.

و قد ركّز القرآن فى الآية السابعة من سورة التغابن أيضا على هذا الوصف، فقال تعالى: زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ

و بما أنّ أحد إشكالات الكافرين بالمعاد، هو شكّهم- من جانب- فى إمكانية جمع و إعادة بناء أعضاء الإنسان الميّت بعد تبعثرها و تفسّخها فى التراب. و كذلك- من جانب آخر- فى إمكانية وجود من يمكنه النظر فى جميع أعمال العباد التى عملوها فى السرّ و

العلن و الظاهر و الباطن، لـذا فإنّ اللّه تعالی یضـیف فی تتمّـة الآیـة الکریمـة عالِمِ الْغَیْبِ لا یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرُ إِلَّا فِی کِتابٍ مُبِینٍ ۳۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۳۸۷

لـذا، فلاـ یغیب عن علمه تبعثر ذرّات جسم الإنسـان فی التراب، و لاـ اختلاطهـا بسـائر الموجودات، و لاـ حتّی حلولها فی أبـدان أناس آخرین عن طریق الغـذاء، و لا یشـکّل مشـکلة أمام إعادة بنائه من جدیـد .. و أعمالهم فی هـذه الـدنیا تبقی محفوظـة أیضا، و إن تغیّر شکلها، فهو سبحانه المحیط بها علما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۸

و قـد ورد نظیر هـذا التعبیر فی الآیات الثالثـة و الرّابعـة من سورة (ق) فی قوله تعالی: أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً ذلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ، قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا کِتابٌ حَفِیظٌ.

و لکن ما هو المقصود من «الکتاب المبین»؟

أغلب المفسّـرین قـالوا بـأنّه «اللوح المحفوظ» و لکن السؤال هو: مـا هو اللوح المحفوظ؟! و کمـا ذکرنا سابقا فإنّ أقرب تفسـیر (للّوح المحفوظ)، هو «لوح العلم الإلهی اللامتناهی» نعم فی ذلک اللوح ضبط و قیّد کلّ شیء، بدون أن یجد التغییر و التبدیل طریقه إلیه.

و عـالم الوجود المترامی الأـطراف، هو الآـخر انعکاس عن ذلک اللوح المحفوظ، بلحاظ أنّ کلّ ذرّات وجودنا و کلّ أقوالنا و أفعالنا، تبقی محفوظة فیه، و إن کانت الظواهر تتغیّر، لکنّها لا تخرج عن حدّها أبدا.

ثمّ یوضّـح تعالی الهـدف من قیام القیامة فی آیتین، أو بتعبیر آخر إعطاء الدلیل علی لزوم مثل ذلک العالم بعد عالمنا الحالی لمنکری القیامة، فیقول تعالی:

لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ

فـإن لم یجـاز المؤمنین بصالـح عملهم ثوابا، أ فلا یعنی ذلک تعطیل أصل العدالـة الـذی هو أهم أصل من اصول الخلقـة؟ و هل یبقی معنی لعدالـة اللّه بـدون ذلـک المفهوم؟! فی الوقت الـذی نری أنّ أغلب هؤلاء الأفراد الصالحین، لا یتلقون جزاء أعمالهم الحسـنة فی هذه الدنیا أبدا، إذن لا بدّ من عالم آخر لکی یتحقّق فیه هذا الأصل.

تقـدیم «المغفرة» علی «الرزق الکریم» ربّمـا کـان سـببه: أنّ أشـدّ مـا یقلق المؤمنین هو الـذنوب التی ارتکبوها، لـذا فإنّ الآیـة تطمئنهم بعرض المغفرة علیهم أوّلا، فضلا عن أنّ من لم یغتسل بماء المغفرة الإلهیة لن یکون أهلا (للرزق الکریم) و المقام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۸۹

الکریم! (الرزق الکریم) یشـمل کلّ رزق ذی قیمة، و مفهوم ذلک واسع إلی درجة أنّه یشمل کلّ المواهب و العطایا الإلهیة، و منها ما لا عین رأت و لا اذن سمعت و لا خطر علی قلب بشر.

و بتعبیر آخر فإنّ «الجنّة» بکلّ نعمها المعنویـة و المادیّـة جمعت فی هـذه الکلمـة، و البعض فسّـر «الکریم» بأمرین: الجید و الخالی من المنغّصات، و لکن یبدو أنّ مفهوم الکلمة أوسع من ذلک بکثیر.

ثمّ تضـیف الآیـة الکریمة التالیة، موضّـحة نوعا آخر من العدالة فیما یخصّ عقاب المذنبین و المجرمین، فیقول تعالی: إنّ الذین کذّبوا آیاتنا وسعوا فی إنکارها و إبطالها و تصوّروا أنّهم یستطیعون الخلاص من دائرة قدرتنا .. وَ الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ

فهناک کان الحدیث عن «الرزق الکریم» و هنا عن «الرجز الألیم».

«الرّجز»: فی الأصـل بمعنی الاضـطراب و عـدم القـدرة علی حفـظ التوازن، و منه قیل «رجز البعیر رجزا» فهو أرجز، و ناقـة «رجزاء» إذا

تقارب خطوها و اضطرب لضعف فيها. و أجبرت على تقصير خطواتها لحفظ توازنها، ثمّ أطلقت الكلمة على كلّ ذنب و رجس.
كذلك فإنّ إطلاق كلمة «الرجز» على المقاطع الشعرية الخاصّة بالنزال فى الحرب، من باب قصر مقاطعها و تقاربها.
على كلّ حال فالمقصود من (الرجز) هنا، أسوأ أنواع العذاب- الذى يتأكّد بإرداف كلمة «الأليم» أيضا و أنواع العقوبات البدنية و الروحية الأليمة.
و التفت البعض إلى هذه النكتة، و هى أنّ القرآن الكريم حين ذكر نعم أهل الجنّة لم يستعمل كلمة «من» ليدلّل على سعتها، بينما جاءت هذه الكلمة عند ذكر العذاب لتكون دليلا على محدوديته النسبية، و لتتضح رحمته تبارك و تعالى.
«سعوا»: من السعى، بمعنى كلّ جهد و جدّ فى أمر، و المقصود منها هنا، الجدّ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۰
و الجهد فى تكذيب و إنكار آيات الحقّ و صدّ الناس عن طريق اللّه سبحانه و تعالى.
معاجزين: من المعاجزة، بمعنى معجّزين، أى مثبّطين، و فى مثل هذه الموارد تطلق على من يفرّ من شخص آخر بحيث لا يمكّنه من التسلّط عليه، و بديهى أنّ هذا الوصف يستخدم للمجرمين لتوهمّهم الذى يظهرونه عمليا بهذا الاتّجاه، و عملهم يشبه إلى حد كبير من يتصوّر أنّه يستطيع القيام بأيّة جناية يشاء، ثمّ يستطيع الفرار من سلطة القدرة الإلهيّة!!.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۱

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۶ الى ۹]

اشارة

وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۶) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ (۷) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِى الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ (۸) أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۹)

التّفسير

العلماء يرون دعوتك إنّها حقّ:

كان الحديث فى الآيات السابقة عن عمى البصائر، المغفّلين الذين أنكروا المعاد مع كلّ تلك الدلائل القاطعة، و سعوا سعيهم لتكذيب الآيات الإلهية، و إضلال الآخرين.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۲
و على هذا، فإنّ الآيات مورد البحث، تتحدّث عن العلماء و المفكّرين الذين صدّقوا بآيات اللّه و سعوا سعيهم لتشجيع الآخرين على التصديق بها، يقول تعالى:
وَ يَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَ يَهْدِى إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.
فسّر بعض المفسّرين عبارة الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ بتلك المجموعة من علماء أهل الكتاب الذين يتّخذون موقف الخضوع و الإقرار للحقّ عند مشاهدة آثار حقّانية القرآن الكريم.

و ليس هناك مانع من اعتبار علماء أهل الكتاب أحد مصاديق الآية، و لكن تحديدها بهم يفتقد إلى الدليل، بل مع الالتفات إلى الفعل المضارع (يرى) وسعة مفهوم الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يتّضح شمول الآية لكلّ العلماء و المفكّرين فى كلّ عصر و زمان و مكان.

و إذا فسّرت بكونها إشارة إلى «أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه الصلاة و السلام»، كما فى تفسير على بن إبراهيم، فإنّ ذلك توضيح و إشارة إلى أتمّ و أكمل مصاديق الآية.

نعم، فأى عالم موضوعى و غير متعصّب إذا تأمّل فى ما ورد فى هذا الكتاب السماوى، و تدبّر فى معارفه العميقة، و أحكامه المتينة، و نصائحه الحكيمة، و مواعظه المؤثّرة فى الوجدان إلى قصصه التأريخية المشعّة بالعبرة، و بحوثه العلمية الإعجازية، فسيعلم بأنّها جميعا دليل على حقّانية هذه الآيات.

و اليوم، فإنّ هناك كتبا متنوّعة كتبها مفكّرون غربيون و شرقيون حول الإسلام و القرآن، تحوى اعترافات ظاهرة على عظمة الإسلام و صدق الآية مورد البحث.

التعبير ب «هو الحقّ» تعبير جامع ينطبق على جميع محتوى القرآن الكريم، حيث أنّ «الحقّ» هو تلك الواقعة العينية و الوجود الخارجى، أى إنّ محتوى القرآن يتساوق و ينسجم مع قوانين الخلق و حقائق الوجود و عالم الإنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۳

و لكونه كذلك فهو يهدى إلى صراط اللّه، اللّه «العزيز» و «الحميد» أى أنّه تعالى الأهل لكلّ حمد و ثناء و فى ذات الوقت فانّ قدرته غاية القدرة و الغلبة، و ليس هو كأصحاب القدرة من البشر الذى يتعامل منطلقا من كونه على عرش القدرة بالدكتاتورية و الظلم و التجاوز و التلاعب.

و قد جاء نظير هذا التعبير فى الآية الاولى من سورة «إبراهيم» حيث قال جلّ من قائل: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

و واضح أنّ من كان مقتدرا و أهلا للحمد و الثناء، و من هو عالم و مطّلع رحيم و عطوف، من المحتّم أن يكون طريقه أكثر الطرق اطمئنان و استقامة. فمن يسلك طريقه إنّما يقترب من منبع القدرة و كلّ الأوصاف الحميدة.

و يعود تعالى إلى مسألة القيامة و البعث فى الآية التى بعدها، و يكمل البحوث السابقة بطريقة اخرى، فيقول تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

يبدو أنّ إصرار- هؤلاء الكفّار- على إنكار مسألة المعاد يعتمد على أمرين:- الأوّل: توهمّهم أنّ المعاد الذى تحدّث عنه رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و هو «المعاد الجسمانى»، أمر يسهل الإشكال عليه و الطعن فيه، و أنّ بإمكانهم تنفير الناس منه فينكرونه بسهولة.

الثّانى: أنّ الإعتقاد بالمعاد، أو حتّى القبول باحتماله- على كلّ حال- إنّما يفرض على الإنسان مسئوليات و تعهّدات، و يضعه وجها لوجه أمام الحقّ، و هذا ما اعتبره رؤوس الكفر خطرا حقيقيّا، لذا فقد أصرّوا على إلغاء فكرة المعاد و الجزاء الاخروى على الأعمال من أذهان الناس. فقالوا: أ يمكن لهذه العظام المتفسّخة، و هذه الذرّات المبعثرة، التى تعصف بها الريح من كلّ جانب، أن تجمع فى يوم و تلبس ثوب الحياة من جديد؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۴

و استخدامهم لكلمة (رجل) بصيغة النكرة فى تعبيرهم عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله يقصد منه التحقير «و حاشاه».

و لكن فاتهم أنّنا فى بدء الخليقة لم نكن إلّا أجزاء مبعثرة، فكلّ قطرة ماء فى أبداننا إنّما كانت قطرة فى زاوية من بحر أو ينبوع ماء، و كلّ ذرّة من مواد أجسامنا، كانت فى جانب من جوانب هذه الأرض المترامية، و سيجمعها اللّه تبارك و تعالى فى النهاية أيضا كما جمعها فى البدء، و هو على كلّ شىء قدير.

و العجيب أنّهم اعتبروا ذلك دليلا على كذب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله أو جنونه، و حاشاه أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ.

و إلّا فكيف يمكن لرجل عاقل أو صادق أن يتفوّه بمثل هذا الحديث!!؟

و لكن القرآن يردّ عليهم بشكل حاسم قائلا: بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِيدِ.

فأى ضلال أوضح من أن يرى منكر المعاد بامّ عينيه مثالا لهذا المعاد فى عالم الطبيعة فى كلّ عام بإحياء الأرض الميتة بالزرع.

المعاد الذى لو لا وجوده لما كان للحياة فى هذا العالم أى معنى أو محتوى.

و أخيرا فإنكار المعاد مساو لإنكار قدرة و عدل و حكمة اللّه جلّ و علا.

و لكن لماذا يؤكّد تعالى أنّهم الآن فى العذاب و الضلال؟

ذلك لأنّ الإنسان يواجه فى حياته مشاكل و أحداثا لا يمكنه- بدون الإيمان بالآخرة- تحمّلها، و الحقيقة أنّ الحياة لو حدّت بهذه الأيّام القليلة من عمر الدنيا لكان تصوّر الموت بالنسبة لكلّ إنسان كابوسا مرعبا، لهذا السبب نرى أنّ منكرى المعاد فى قلق دائم منغّص و عذاب أليم، فى حال المؤمنين بالمعاد يعتبرون الموت قنطرة إلى عالم البقاء، و وسيلة لكسر القيود و التحرّر من سجن الدنيا.

نعم، فالإيمان بالمعاد، يغمر قلب الإنسان بالطمأنينة، و يهوّن عليه المشكلات، و يجعله أكثر قدرة على الإيثار و الفداء و التضحية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۵

أمّا الذين يرون المعاد- لجهلهم و كفرهم- دليلا على الكذب أو الجنون، إنّما يأسرون أنفسهم فى عذاب العمى، و الضلال البعيد.

و مع أنّ بعض المفسّرين اعتبروا هذا العذاب إشارة إلى عذاب الآخرة، و لكنّ ظاهر الآية يدلّل على أنّهم أسرى هذا العذاب و الضلال الآن و فى هذه الدنيا.

ثمّ ينتقل القرآن الكريم لتقديم دليل آخر عن المعاد، مقترن بتهديد الغافلين المعاندين فيقول تعالى: أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

فإنّ هذه السماء العظيمة بكلّ عجائبها، بكواكبها الثابتة و السيّارة، و بالأنظمة التى تحكمها، و كذلك الأرض بكلّ مدهشاتها و أنواع موجوداتها الحيّة، و بركاتها و مواهبها، لأوضح دليل على قدرة الخلّاق العظيم.

فهل أنّ القدير على كلّ هذه الأمور، عاجز عن إعادة الإنسان بعد الموت إلى الحياة؟

و هذا هو «برهان القدرة» الذى استدلّ به القرآن الكريم فى آيات اخرى فى مواجهة منكرى المعاد، و من جملة هذه الآيات، الآية (۸۲) من سورة يس. الآية (۹۹) من سورة الإسراء و الآيتين (۶ و ۷) من سورة ق.

و نشير إلى أنّ هذه الجملة كانت مقدّمة لتهديد تلك الفئة المتعصّبة من ذوى القلوب السوداء، الذين يصّرون على عدم رؤية كلّ هذه الحقائق. لذا يضيف تعالى قائلا: إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ فنأمر الأرض فتنشقّ بزلزلة مهولة و تبتلعهم، أو نأمر السماء فترميهم بقطعات من الحجر و تدمّر بيوتهم و تهلكهم أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أجل، إنّ فى هذا الأمر دلائل واضحة على قدرة اللّه تعالى على كلّ شىء، و لكن يختّص بإدراك ذلك كلّ إنسان يتدبّر فى مصيره و يسعى فى الإنابة إلى اللّه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ

لا بدّ أن سمع أو شاهد كلّ منّا نماذج من الزلازل أو الخسف فى الأرض، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۶

سقوط النيازك من السماء، أو بتساقط و تناثر صخور الجبال بسبب صاعقة أو انفجار بركان، و كلّ عاقل يدرك إمكانية حصول مثل هذه الأمور فى أيّة لحظة و فى أىّ مكان من العالم، فإذا كانت الأرض هادئة تحت أقدامنا، و السماء آمنة فوق رؤوسنا، فلأنّها كذلك بقدرة اخرى و بأمر من آمر، فكيف نستطيع- و نحن المحكومون بقدرته فى كلّ طرفة عين- إنكار قدرته على البعث بعد الموت، أو كيف نستطيع الفرار من سلطة حكومته!!.

هنا يجب الالتفات إلى جملة امور:

۱- يعبّر القرآن الكريم هنا عن السماء التى فوق رؤوسنا، و الأرض التى تحت أقدامنا ب ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ و ما خَلْفَهُمْ و هو المورد الوحيد الذى يلاحظ فيه مثل هذا التعبير. و هذا التعبير لعلّه إشارة إلى أنّ قدرة و عظمة اللّه أظهر فى السماء وقت طلوع أو غروب الشمس و ظهور القمر و النجوم فيها. و نعلم أنّ من يقف غالب باتّجاه الأفق تكون السماء بين يديه، و الأرض التى تأتى بالدرجة الثّانية من الأهميّة اطلق عليها ما خَلْفَهُمْ

كذلك هى إشارة إلى هؤلاء المغرورين أنّهم إن لم يجيزوا لأنفسهم النظر إلى ما فوق رؤوسهم، فلا أقل من أن ينظروا إلى ما بين أيديهم فى جوار الأفق.

۲- نعلم بأنّنا نعيش بين مصدرين عظيمين من مصادر الخطر على حياتنا:

أوّلهما: باطن الكرة الأرضية المشتعل الذى هو عبارة عن صخور مذابة و مشتعلة و فى حالة من الفوران، و فى الحقيقة فإنّ حياة جميع البشر فوق مجموعة من البراكن- بالقوّة- و بمجرّد صدور أمر إلهى صغير ينطلق أحد هذه البراكين ليهزّ منطقة عظيمة من الأرض و ينثر عليها الأحجار الملتهبة و المواد المعدنية المذابة المشتعلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۷

و ثانيهما: مئات الآلاف من الأحجار الصغيرة و الكبيرة السابحة فى الفضاء الخارجى تنجذب نحو الأرض يوميا بفعل جاذبيتها، و لو لا احتراقها نتيجة اصطدامها بالغلاف الغازى، لكنّا هدفا «لمطر حجرى» بشكل متواصل ليل نهار، و أحيانا تكون أحجامها و سرعتها و قوّتها إلى درجة أنّها تتخطّى ذلك المانع و تنطلق باتّجاه الأرض لتصطدم بها. و هذا واحد من الأخطار السماوية، و عليه فإذا كنّا نعيش وسط هذين المصدرين الرهيبين للخطر، بمنتهى الأمن و الأمان بأمر اللّه، أ فلا يكفى ذلك لأن نتوجّه إلى جلال قدرته العظيمة و نسجد تعظيما و طاعة له!!.

۳- من الجدير بالملاحظة أنّ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث أشارت إلى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً و لكنّها حدّدت لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ و الإشارة تستبعد ذلك المتمرّس بالعصيان الذى خلع عن رقبته طوق العبودية للّه سبحانه و تعالى، و الغافلين الذين أداموا السير فى الطريق الخاطئة الملوّثة بالخطايا و استبعدوا عن أذهانهم- كليا- التوبة و الإنابة، فهؤلاء أيضا لا يمكنهم الانتفاع من هذه الآية المشرقة، لأنّ وجود الشمس الساطعة لا يكفى وحده لتحصل الرؤية، بل يستلزم أيضا العين المبصرة و ارتفاع الحجاب بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۸

الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۰ الى ۱۱]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (۱۰) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱)

التّفسير

المواهب الإلهية العظيمة لداود:

بناء على ما مرّ ذكره فى آخر المجموعة السابقة من الآيات و ما قلناه حول «العبد المنيب» و الثواب. و لعلمنا بأنّ هذا الوصف قد ذكر للنبى داود عليه السّلام (فى الآية ۲۴ من سورة ص)- كما سيرد شرحه بإذن اللّه- فالأفضل من أن نتعرّض لجانب من حياة هذا النّبى عليه السّلام كمثال للإنابة و التوبة و إكمال البحث السابق. و هى أيضا تنبيه لكل من يغمط نعم اللّه و يتناساها، و يتخلّى عن عبوديته للّه عند جلوسه على مسند القدرة و السلطة.

فى الآية الاولى يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا.

مفردة «فضل» ذات معنى وسيع، يشمل كلّ المواهب التى تفضّل اللّه بها على داود، و زادها التنكير سعة و دلّل على عظمة تلك المواهب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۳۹۹

فقد شمل داود بالمواهب العظيمة سواء من الناحية المادية أو المعنوية، و قد تعرّض القرآن الكريم مرارا لذكرها.

ففى موضع يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَ سُلَيْمانَ عِلْماً وَ قالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنا عَلى كَثِيرٍ مِنْ عِبادِهِ الْمُؤْمِنِينَ [۳۳۹] و فى موضع آخر يقول تعالى على لسان داود يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ [۳۴۰] و سترد ضمن حديثنا حول آخر هذه الآيات، معجزات مختلفة تمثّل جزءا من هذا الفضل العظيم، و كذلك الصوت الباهر، و القدرة العالية على القضاء العادل التى أشير إليها فى سورة (ص) تمثّل لونا آخر من ذلك الفضل الإلهى، و أهمّ من ذلك كلّه النبوّة و الرسالة التى شرّف بها داود.

و على كلّ حال، فبعد هذه الإشارة الإجمالية العامّة، تبدأ الآية بشرح و توضيح جوانب من الفضائل المعنوية و المادية التى تمتّع بها داود، فيقول تعالى: يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ.

كلمة «أوّبى» فى الأصل من «التأويب» بمعنى الترجيع و إعادة الصوت فى الحلق. و هذا الأصل يستعمل أيضا بمعنى «التوبة» لأنّ حقيقتها الرجوع إلى اللّه.

و مع أنّ كلّ ذرّات الوجود تذكر اللّه و تسبّح بحمده، سواء سبّح داود عليه السّلام معها أو لم يسبّح، و لكن الميزة التى خصّ بها داود هى أنّه ما إن يرفع صوته و يبدأ التسبيح، إلّا و يظهر ما كان خفيّا و كامنا فى الموجودات، و تتبدل الهمهمة الباطنية إلى نغمة علنية منسجمة، كما ورد فى الروايات من تسبيح الحصاة فى يد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله.

و

قد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ذكره لقصّة داود «إنّه خرج يقرأ الزبور،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۰

و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل و لا حجر و لا طائر إلّا أجابه»[۳۴۱].

و بعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، تذكر الآية فضيلة مادية اخرى فتقول: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ.

يمكن القول، بأنّ اللّه تعالى علّم داود- إعجازا- ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتّى يمكنه من صنع أسلاك رقيقة و قوية لنسج الدروع منها، أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعة الدروع و الإفادة منها فى الحروب، ممّا كان يسبّب حرجا و إزعاجا للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، و عدم قابلية تلك الدروع للانحناء أو الالتواء حين ارتدائها، و لم يكن أحد قد استطاع حتّى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعة المحكمة، ليكون لباسا يمكن ارتداؤه بسهولة و الإفادة من قابليته على التلوّى و الانحناء مع حركة البدن برقّة و إنسياب ۳۴۲].

و لکن ظاهر الآیـة یـدلّل علی أنّ لیونة الحدید تمّت لداود بأمر إلهی، فما یمنع الذی أعطی لفرن النار خاصـیة إلانة الحدید، أن یعطی هذه الخاصیة لداود بشکل آخر، و قد أشارت بعض الروایات أیضا إلی هذا المعنی.

فقـد روی عن الإمام الصادق علیه السّـلام، أنّه قال: «إنّ اللّه أوحی إلی داود: نعم العبـد أنت إلّا أنّک تأکل من بیت المال، فبکی داود أربعین صـباحا، فألانـ اللّه له الحدیـد، و کـان یعمـل کلّ یوم درعا فیبیعها بألف درهم فعمل ثلاثمائـة و ستّین درعا فباعها بثلاثمائـة و ستّین ألفا فاستغنی عن بیت المال»[۳۴۳].

صحیـح أنّ بیت المال یؤمّن مصارف الأشـخاص الذین یقدّمون خدمة مجانیة للامّة، و یتحمّلون الأعباء التی لا یتحمّلها غیرهم، و لکن ما أروع أن یستطیع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۱

الإنسان تقدیم هذه الخدمة، و تأمین معاشه- فی حال الاستطاعة- من کدّ یمینه، و داود علیه السّلام أراد أن یکون ذلک العبد الممتاز. علی کلّ حال، فإنّ داود وجّه هذه القدرة التی و هبها إیّاه اللّه فی أفضل الطرق و هی صناعة وسائل الجهاد و الدفاع ضدّ الأعداء، و لم یحاول الاسـتفادة منها فی صناعة وسائل الحیاة العادیة، و علاوة علی الاستفادة من دخله منها فی تصریف امور حیاته المعاشیة البسیطة، فقد هیّأ جزءا منه للإنفاق علی المحتاجین ۳۴۴]. و فوق کلّ هذا، فقد کان عمله بحدّ ذاته معجزة ارتبطت به.

نقل بعض المفسّـرین قال «حکی أنّ لقمان حضـر داود عند أوّل درع عملها فجعل یتفکّر فیها و لا یدری ما یرید، و لم یسأله حتّی فرغ منها ثمّ قام فلبسها و قال: نعم جنة الحرب هذه. فقال لقمان: الصمت حکمة و قلیل فاعله!»[۳۴۵].

الآیة التی بعدها تتعرّض لشرح صناعة داود للدروع و الأمر الإلهی العمیق المعنی بهذا الخصوص. یقول تعالی: أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ.

«سابغات»: جمع (سابغ) و هو الدرع التامّ الواسع، و «إسباغ النعمة» أیضا بمعنی توسیعها.

«سـرد»: فی الأصل بمعنی حیاکـة ما یخشن و یغلظ کنسج الدرع و خرز الجلد، و اسـتعیر لنظم الحدید. و جملة وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ معناها مراعـاة المقـاییس المتناسـبة فی حلقات الـدرع و طریقـة نسـجها. و فی الواقع فإنّ اللّه تعالی قـد أمر داود بأن یکون مثالا یحتـذی لکل الحرفیین و العمّـال المؤمنین فی العالم، بمراعاته للإتقان و الدقّـة فی العمل من حیث الکمّ و الکیف فی المصـنوعات، لیسـتطیع بالتالی مستهلکوها استعمالها براحة و بشکل جیّد، و الإفادة من متانتها.

یقول تعالی لداود: أن اصنع الدروع واسعة و مریحة، حتّی لا تکون سجنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۲

للمقاتل وقت ارتدائها .. لا تجعل حلقاتها صـغیرة و ضیّقة أکثر من اللازم فتفقد بذلک خاصیّة الانثناء و التطوّی، و لا کبیرة إلی درجة یمرّ منها حدّ السیف و الخنجر و السنان، فکلّ شیء یجب أن یکون ضمن مقیاس معیّن و تناسب محدّد.

الخلاصة: هی أنّ اللّه تعالی قد قیّض لداود «المادّة» بمقتضی وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِیدَ.

و کذلک علّمه بطریقة تحویلها و صناعتها، حتّی یکون الناتج کاملا باجتماع «المادّة» و «الصورة».

ثمّ تختم الآیة بخطاب لداود و أهل بیته وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّی بِما تَعْمَلُونَ بَصِیرٌ.

و یلاحـظ أنّ المخاطب کان فی صـدر الآیـة داود وحـده، بینما تحوّل الخطاب فی آخر الآیـة لیشـمل داود و أهل بیته أو داود و قومه، ذلک لأنّ هـذه الأمور مقدّمة للعمل الصالح، فالهدف لیس صـناعة الدروع و تحقیق الربح، بل إنّ ذلک کلّه وسـیلة فی المسـیر باتّجاه العمـل الصالـح. و لیسـتفید أیضا داود و أهل بیته. و إحـدی خصائص العمل الصالـح هی مراعاة الدقّـة الکافیـة فی الصـناعات من کلّ الجوانب و تقدیم نتاج کامل و مفید خال من أی عیب أو تقصیر.

و من المحتمل أیضا أن یکون الخطاب لداود و کلّ من تحقّقت له الاسـتفادة من جهده و نسـیجه، إشارة إلی أنّ هذه الوسیلة الدفاعیة

ينبغى أن تستخدم فى طريق العمل الصالح، و ليس فى طريق المعاصى و الجور و الظلم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۳

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (۱۳) فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (۱۴)

التّفسير

هيبة سليمان و موته العبرة!!

بعد الحديث عن المواهب التى أغدق اللّه بها على داود عليه السّلام تنتقل الآيات إلى الحديث عن ابنه سليمان عليه السّلام، و فى حين أنّ الآيات السابقة أشارت إلى موهبتين تخصّان داود، فهذه الآيات تشير إلى ثلاث مواهب عظيمة خصّ بها ابنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۴

سليمان عليه السّلام يقول تعالى: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ[۳۴۶].

الملفت هنا أنّ اللّه تبارك و تعالى حينما سخّر للأب جسما خشنا و صلبا جدّا و هو الحديد، نرى أنّه قد سخّر للابن موجودا لطيفا للغاية، و لكنّ العملين كانا نافعين و إعجازيين، جسم صلب يلين لداود، و أمواج الهواء اللطيفة تجعل محكمة و فعّالة لسليمان!! و لطافة الريح لا تمنع من أدائه أعمال هامّة، فمن الرياح ما يحرّك السفن الكبيرة على ظهر المحيطات، و منها ما يدير أحجار الطاحونات الهوائية الثقيلة، و منها ما يرفع البالونات إلى عنان السماء و يحرّكها كالطائرات.

نعم، هذا الجسم اللطيف بهذه القدرة الإيجابية سخّر لسليمان.

أمّا كيف تحمل الريح مقعد سليمان، (سواء أ كانت كرسيا أم بساطا)؟ فليس بواضح لنا. و القدر المتيقّن هو أن لا شىء يمثّل مشكلة أو عقبة أمام قدرة اللّه، لقد استطاع الإنسان بقدرته- الحقيرة أمام قدرة اللّه- أن يحرّك البالونات و الطائرات التى تحمل مئات بل آلاف المسافرين و الأحمال الاخرى فى عنان السماء، فهل أنّ تحريك بساط سليمان بواسطة الريح يشكّل أدنى مشكلة للبارى جلّت قدرته!؟

ما هى العوامل التى تحفظ سليمان و وسيلة نقله من السقوط أو من ضغط الهواء و المشكلات الاخرى الناشئة من الحركة فى السماء؟ هذه أيضا من المسائل التى خفيت عنّا تفصيلاتها. و لكن ما نعلمه أنّ تأريخ الأنبياء حافل بخوارق العادة و التى- مع الأسف- امتزجت نتيجة جهود بعض الجهلة أو أعداء المعرفة بالخرافات حتّى أضحت الصورة الحقيقية لهذه الأمور مشوشة و قبيحة، و نحن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۵

نقتنع بهذا الخصوص بالمقدار الذى أشار إليه القرآن الكريم.

«غدو»: بمعنى وقت الصبح من النهار، يقابله «الرواح» بمعنى وقت الغروب من النهار، و يطلق على الحيوانات عند عودتها إلى مساكنها

فى آخر النهار للاستراحة، و يبدو من القرائن فى الآية مورد البحث أنّ «الغدو» هنا بمعنى النصف الأوّل من النهار، و «الرواح» النصف الثّانى منه، لذا يحتمل فى معنى الآية أنّ سليمان عليه السّلام يقطع فى وقت مقداره من الصبح إلى الظهر- بمركبه- ما يعادل المسافة التى يقطعها المسافرون فى ذلك الزمان بشهر كامل، و كذا نصف النهار الثانى.

بعدئذ تنتقل الآية إلى الموهبة الثّانية التى خصّ اللّه بها سليمان عليه السّلام فتقول الآية الكريمة: وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ.

«أسلنا» من مادّة «سيلان» بمعنى الجريان، و «القطر» بمعنى النحاس، و المقصود أنّنا أذبنا له هذا الفلز و جعلناه كعين الماء، و ذهب البعض إلى أنّ «القطر» يعنى أنواع الفلزات أو «الرصاص»، و على هذا يكون قد ألين الحديد للأب، و أذيبت الفلزات بأجمعها للابن، و لكن المشهور هو المعنى الأوّل.

كيف يكون النحاس أو الفلزات الاخرى كعين الماء بين يدى سليمان عليه السّلام؟ هل أنّ اللّه علّم هذا النّبى كيفية إذابة هذه الفلزات بكميات كبيرة بطريقة الإعجاز؟ أو جعل عينا من هذا الفلز المائع تحت تصرفه، تشبه عيون البراكين وقت فعاليتها، حيث تنحدر منها على أطراف الجبل بصورة إعجازية، أو بأى شكل آخر؟ ليس واضحا لدينا و ما نعلمه هو أنّ ذلك أيضا كان من الألطاف الإلهية على هذا النّبى العظيم.

أخيرا تنتقل الآية إلى بيان الموهبة الإلهية الثالثة لسليمان عليه السّلام و هى تسخير مجموعة كبيرة من الجنّ لخدمته فتقول الآية: وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ.

«الجنّ»: و كما هو معلوم من اسمه، ذلك المخلوق المستور عن الحسّ البشرى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۶

له عقل و قدرة و مكلّف بتكاليف إلهية- كما يستفاد من آيات القرآن-.

لقد صيغت حول «الجنّ» أساطير و حكايات و قصص خرافية كثيرة، لو حذفناها لكان أصل وجودهم و الصفات الخاصّة بهم التى وردت فى القرآن موضوعا لا يخالف العلم و العقل مطلقا، و سوف نتعرّض إن شاء اللّه لتفصيل هذا الموضوع أكثر عند تفسير سورة «الجنّ».

و على كلّ حال، يستفاد من تعبير الآية أعلاه، أنّ تسخير هذه القوّة العظيمة كان- أيضا- بأمر اللّه، و أنّهم كانوا يتعرّضون للعقاب لدى تقصيرهم فى أداء مهامهم.

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود من «عذاب السعير» هنا، عقوبة يوم القيامة، فى حين أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّها عقوبة فى الدنيا.

و كذلك يستفاد من الآيات ۳۷ و ۳۸ من سورة «ص» بأنّ اللّه قد سخّر لسليمان عليه السّلام مجموعة من الشياطين لإنجاز أعمال عمرانية هامّة له، و أنّهم كانوا يكبّلون بالسلاسل بأمر من سليمان عند ظهور أى تخلّف منهم وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ.

و الجدير بالملاحظة. هو أنّه لإدارة حكومة كبيرة، و دولة واسعة كدولة سليمان يلزم وجود عوامل عديدة، و لكن أهمّها ثلاثة عوامل ذكرتها الآية أعلاه و هى:

الأوّل: توفّر واسطة نقل سريعة مهيّأة على الدوام، لكى يستطيع رئيس الحكومة تفقّد جميع أطراف دولته بواسطتها.

الثانى: مواد أوّلية يستفاد منها لصناعة المعدّات اللازمة لحياة الناس و الصناعات المختلفة.

الثالث: قوّة عاملة فعّالة، تستطيع الإفادة من تلك المواد بدرجة مناسبة، و تصنيعها بالكيفية اللازمة، و سدّ حاجة البلاد من هذه الجهة.

و نرى أنّ اللّه تعالى قد قيّض لسليمان هذه العناصر الثلاثة، و قد حقّق سليمان منها أحسن الفائدة فى ترقية الناس و تعمير البلاد و تحقيق الأمن فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۷

و هذا الموضوع لا يختّص فقط بعصر سليمان عليه السّلام و حكومته، فالالتفات إليه و مراعاته من الضروريات اليوم و غدا، و فى كلّ مكان لأجل إدارة الدول بطريقة صحيحة.

الآية التالية، تشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامّة، التى كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ

فكلّ ما أراده سليمان من معابد و تماثيل و أوانى كبيرة للغذاء و التى كانت كالأحواض الكبيرة، و قدور واسعة ثابتة، كانت تهيّأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية و العبادية، و بعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، و كانت متناسبة مع أعداد جيشه و عمّاله الهائلة.

«محاريب» جمع محراب، و يعنى «مكان العبادة» أو «القصور و المبانى الكبيرة» التى بنيت كمعابد. كذلك أطلقت أيضا على صدر المجلس، و عند ما بنيت المساجد سمّى صدر المسجد به، قيل: سمّى محراب المسجد بذلك لأنّه موضع محاربة الشيطان و الهوى ۳۴۷]. و قيل: سمّى بذلك لأنّ الإنسان فيه يكون حريبا من أشغال الدنيا و من توزّع الخواطر[۳۴۸].

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة و الجميلة فى ظلّ حكومته الإلهية و العقائدية، حتّى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

«تماثيل»: جمع تمثال، بمعنى الرسم و الصورة و المجسمة، و قد وردت تفاسير عديدة حول ماهية هذه التماثيل و لأى الموجودات كانت؟ أو لما ذا أمر سليمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۸

بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المبانى، كما نلاحظ ذلك فى المبانى المهمّة القديمة فى عصرنا الحالى، أو حتّى فى بعض المبانى الجديدة.

أو لإضفاء الأبّهة و الهيبة على المبانى التى بنيت، حيث أنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلا يضفى نوعا من الابّهة فى أفكار غالبية الناس.

ثمّ، هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحا فى شريعة سليمان عليه السّلام مع كونه حراما فى الشريعة الإسلامية؟ أو أنّ التماثيل التى كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار و الجبال و الشمس و القمر و النجوم؟

أو أنّها كانت مجرّد نقوش و رسوم على الجدران- كما تلاحظ فى الآثار القديمة- و هى غير محرّمة كما هو الحال فى حرمة التماثيل المجسّمة.

كلّ ذلك محتمل، لأنّ تحريم صناعة المجسّمات فى الإسلام، كان بقصد مكافحة قضيّة عبادة الأوثان و اقتلاعها من الجذور، فى حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة فى زمن سليمان، لذا لم تحرم فى شريعته! و لكنّنا نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «و اللّه ما هى تماثيل الرجال و النساء و لكنّها الشجر و شبهه»[۳۴۹].

و بالاستناد إلى هذه الرّواية فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح فى شريعة سليمان كان حراما أيضا.

«جفان» جمع «جفنة» بمعنى إناء الطعام.

«جوابى» جمع «جابية» بمعنى حوض الماء.

و هنا يستفاد أنّ المقصود من التعبير الوارد فى الآية الكريمة، أنّ هؤلاء العمّال قد صنعوا لسليمان عليه السّلام أوانى للطعام كبيرة جدّا، بحيث أنّ كلّا منها كان كالحوض،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۰۹

لكى يستطيع عدد كبير من الأفراد الجلوس حوله و تناول الطعام منه. و الاستفادة من الأوانى الجماعية الكبيرة لتناول الطعام كانت موجودة إلى أزمنة ليست بالبعيدة. و فى الحقيقة فإنّ مائدتهم كانت تلك الأوانى الكبيرة التى لا تشبه ما نستعمله هذه الأيّام من أوان صغيرة و مستقلّة.

«قدور»: جمع «قدر» على وزن «قشر». بنفس معناه الحالى، أى الإناء الذى يطبخ فيه الطعام.

«راسيات»: جمع «راسية» بمعنى ثابتة، و المقصود أنّ القدور كانت من العظمة بحيث لا يمكن تحريكها من مكانها.

و تعرج الآية فى الختام و بعد ذكر هذه المواهب الإلهية، إلى آل داود فتخاطبهم:

اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ.

و بديهى أنّ (الشكر) الذى أشارت إليه الآية، لو كان مقصودا به الشكر باللسان لما كانت هناك أدنى مشكلة و لمّا كان العاملون به قليلين، و لكن المقصود هو (الشكر العملى). أى الاستفادة من تلك المواهب فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها. و المسلّم به أنّ الذين يستفيدون من المواهب الإلهية فى طريق الأهداف التى خلقت لأجلها هم الندرة النادرة.

قال بعض العلماء: إنّ للشكر ثلاثة مراحل: الشكر بالقلب، بتصوّر النعمة و الرضى و السرور بها. و الشكر باللسان، و بالحمد و الثناء على المنعم. الشكر بسائر الأعضاء و الجوارح، و ذلك بتطبيق الأعمال مع متطلّبات تلك النعمة.

«شكور»: صيغة مبالغة. يعبّر بها عن كثرة الشكر و دوامه بالقلب و اللسان و الأعضاء و الجوارح.

و هذه الصفة تطلق أحيانا على اللّه سبحانه و تعالى، كما ورد فى الآية (۱۷) من سورة التغابن: اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ و المقصود به أنّ اللّه سبحانه و تعالى، يشمل العباد المطيعين بعطاياه و ألطافه، و يشكرهم، و يزيدهم من فضله أكثر ممّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۰

يستحقّون.

كذلك يمكن أن يكون التعبير ب قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ إشارة إلى تعظيم مقام هذه المجموعة النموذجية، أو بمعنى حثّ المستمع ليكون من أفراد تلك الزمرة و يزيد جمع الشاكرين.

آخر آية من هذه الآيات، و هى آخر حديث عن النّبى سليمان عليه السّلام، يخبرنا اللّه سبحانه و تعالى فيها بطريقة موت ذلك النّبى العجيبة و الداعية للاعتبار، فيوضّح تلك الحقيقة الساطعة، و هى كيف أنّ نبيّا بتلك العظمة و حاكما بكلّ تلك القدرة و الابّهة، لم يستطع حين أخذ الموت بتلابيبه من أن يستلقى على سرير مريح، و انتزعت روحه من بدنه بتلك السهولة و السرعة. يقول تعالى: فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۳۵۰].

يستفاد من تعبير الآية و من الروايات المتعدّدة الواردة فى تفسيرها، أنّ سليمان كان واقفا متّكئا على عصاه حين فاجأه الموت و استلّ روحه من بدنه، و بقى جثمان سليمان مدّة على حالته، حتّى أكلت الأرضة- التى عبّر عنها القرآن ب «دابّة الأرض»- عصاه، فاختلّ توازنه و هوى على الأرض، و بذا علم بموته.

لذا تضيف الآية بعد ذلك فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ

جملة «تبيّنت» من مادّة «بيّن» عادة بمعنى (اتّضح) (و هو فعل لازم). و أحيانا يأتى أيضا بمعنى «العلم و الاطلاع» (فعل متعد). و هنا يتناسب الحال مع المعنى الثانى. بمعنى أنّ الجنّ لم يعلموا بموت سليمان إلى ذلك الوقت، ثمّ علموا و فهموا أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لما بقوا حتّى ذلك الحين فى تعب و آلام الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۱

الشاقّة التى كلّفوا بها.

جمع من المفسّرين أخذ المعنى بالحالة الأولى، و قال: إنّ مقصود الآية هو أنّه بعد أن هوى جثمان سليمان عليه السّلام إلى الأرض

اتّضحت حقيقة الجنّ للناس، و أنّهم لا يعلمون شيئا من الغيب، و عبثا كان إعتقاد البعض باطّلاع الجنّ على الغيب ۳۵۱].

(العذاب المهين) هذا التعبير قد يكون إشارة إلى الأعمال الشاقّة التى كان سليمان عليه السّلام يعهد بها إلى مجموعة من الجنّ كنوع من العقاب، و إلّا فإنّ نبىّ اللّه لا يمكن أن يضع أحدا فى العذاب عبثا، و هو على ما يبدو عذاب مذلّ.

بحوث

۱- صور من حياة سليمان عليه السّلام:

على عكس «التوراة» الموجود اليوم و التى صوّرت «سليمان» أحد السلاطين الجبابرة و بانى معابد الأوثان الضخمة و مستهتر النساء- يعدّ القرآن الكريم «سليمان» من أنبياء اللّه العظام و نموذج للحكومة و القدرة المنقطعة النظير، و قد أعطى القرآن الكريم بعرضه البحوث المختلفة المتعلّقة بسليمان دروسا للبشر هى الأساس من ذكر قصّته.

قرأنا فى هذه الآيات الكريمة، أنّ اللّه تعالى أعطى لهذا الرّسول العظيم مواهب عظيمة، فمن وسيلة النقل السريعة جدّا و التى استطاع بواسطتها التنقّل فى مملكته الواسعة فى مدّة قصيرة، إلى المواد المعدنية المختلفة الكثيرة، إلى القوى العاملة الفعّالة الكافية لتصنيع تلك المعادن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۲

و قد قام سليمان عليه السّلام بالاستفادة من المواهب المذكورة، ببناء المعابد الضخمة، و ترغيب الناس بالعبادة، و كذلك فقد نظّم برامج واسعة لاستضافة أفراد جيشه و عمّاله و سائر الناس فى مملكته. و من الأوانى التى مرّ ذكرها يمكننا تخيّل أكثر من ذلك.

و فى قبال ذلك طالبه اللّه تعالى بأداء الشكر على هذه النعم، مع تأكيده سبحانه على أنّ أداء شكر النعم يتحقّق من فئة قليلة نادرة.

ثمّ اتّضح كيف أنّ رجلا بكلّ هذه القدرة و العظمة كان أمام الموت ضعيفا لا حول له و لا قوّة، بحيث فارق الدنيا فجأة و فى لحظة واحدة. نعم .. كيف أنّ الأجل لم يعطه حتّى فرصة الجلوس أو الاستلقاء على سريره. ذلك حتّى لا يتّوهم المغرورون العاصون حينما يبلغون مقاما أو منصبا أن قد أصبحوا مقتدرين حقيقة، فإنّ المقتدر الحقيقى الذى كان الجنّ و الإنس و الشياطين خدما بين يديه، و الذى كان يجول فى الأرض و السماء و قد بلغ قمّة الهيبة و الحشمة .. ثمّ فى لحظة قصيرة فارق الدنيا.

و اتّضح كذلك كيف أنّ عصا تافهة، أقامت جثمانه مدّة، و جعلت الجنّ يعملون بجد و اجتهاد و هم يلحظون جثمانه الواقف أو الجالس. ثمّ كيف أسقطته الأرضة على الأرض، و كيف اضطربت بسقوطه الدولة بكلّ مسئوليها. نعم، عصا تافهة أقامت دولة عظيمة، ثمّ حشرة صغيرة أوقفت تلك الدولة!! الجميل هو ما

ورد فى الرواية عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: «أمر سليمان بن داود الجنّ فصنعوا له قبّة من قوارير فبينا هو متكئ على عصاه فى القبّة ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاتة فإذا رجل معه فى القبّة قال له: من أنت، قال: أنا الذى لا أقبل الرشا و لا أهاب الملوك أنا ملك الموت. فقبضه و هو قائم متكئ على عصاه فى القبّة و الجنّ ينظرون إليه. قال: فمكثوا سنة يدأبون له حتّى بعث اللّه عزّ و جلّ الأرضة فأكلت منسأته- و هى العصا- فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۳

أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين» الحديث ۳۵۲].

و يجب أن نذكّر هنا أيضا، بأنّ قصّة النّبى سليمان عليه السّلام ككثير من قصص الأنبياء، اختلطت مع الأسف بروايات كثيرة موضوعة و خرافات شوّهت صورة هذا النّبى العظيم، و أكثر هذه الخرافات أخذت من التوراة الرائجة اليوم، و لو اقتنعنا بما ورد فى القرآن

الکریم حول هذا النّبی لما واجهتنا أیّة مشکلة.

۲- لماذا خفی موت سلیمان مدّة من الزمن؟

کم هی المدّة التی ظلّ فیها موت سلیمان مخفیا عن حکومته، هل کانت سنة، أم شهرا، أم عدّة أیّام؟ اختلف المفسّرون حول هذا الموضوع.

هل أنّ الکتمان کان من قبل مقربیه الذین قصدوا من وراء ذلک تمشیة امور الدولة، أم أنّهم هم الآخرون قد خفی علیهم ذلک؟

یبدو من المستبعد تماما أن یخفی أمر وفاته عن حاشیته لمدّة طویلة، لا بل حتّی لأکثر من یوم واحد، لأنّ من المسلّم أنّ هناک أفرادا کانوا مکلّفین بإیصال احتیاجاته و غذائه إلیه، و هؤلاء سیعلمون بموته حتما، و علیه فلا یستبعد- کما قال بعض المفسّرین- أنّهم علموا بأمر موته، لکنّهم أخفوا ذلک الأمر لغایات معیّنة، لذا فقد ورد فی بعض الروایات بأنّ «آصف بن برخیا» وزیر سلیمان الخاص، هو الذی کان یدیر امور الدولة.

ألم تشکّل مسألة عدم تناول الطعام و الماء لمدّة طویلة تساؤلا لدی ناظریه؟

مع الیقین بأنّ کلّ أعمال سلیمان علیه السّلام کانت عجیبة، فیمکن اعتبار هذه المسألة من عجائبه أیضا، و حتّی أنّه ورد فی بعض الروایات أنّه بعد مدّة من بقاء سلیمان علیه السّلام علی حاله کثر الهمس بین البعض فی وجوب عیادة سلیمان، لأنّه علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۴

حاله منذ مدّة لم یتحرّک و لم یأکل و لم یشرب و لم ینم ۳۵۳]. و لکن حینما تحطّمت العصا، و سقط الجثمان علی الأرض تبدّدت کلّ هذه الأفکار و الأوهام.

علی کلّ حال، فإنّ تأخیر إعلان موت سلیمان علیه السّلام کشف کثیرا من الأمور:

۱- اتّضح للجمیع أنّ الإنسان حتّی إذا بلغ أوج القدرة و القوّة، فلا یزال هو الموجود الضعیف قبال الحوادث، کالقشّة فی خضمّ الطوفان یتقاذفها فی کلّ جانب.

یقول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب (علیه أفضل الصلاة و السّلام) فی إحدی خطبه «فلو أنّ أحدا یجد إلی البقاء سلما أو لدفع الموت سبیلا لکان ذلک سلیمان بن داود علیهما السّلام الذی سخّر له ملک الجنّ و الإنس مع النبوّة و عظیم الزلفة»[۳۵۴].

۲- اتّضح للجمیع أنّ الجنّ لا یعلمون الغیب، و المغفّلین من البشر الذین کانوا یعبدونهم کانوا علی خطأ فادح.

۳- اتّضحت لجمیع الناس أیضا حقیقة إمکان أن یرتبط نظام دولة بموضوع صغیر، بوجوده یمکن أن یقوم هذا النظام، و بانهیاره ینهار هذا النظام، و من وراء ذلک تجلّت القدرة اللامتناهیة للباری عزّ و جلّ.

۳- سلیمان فی القرآن و التوراة الحالیة

یصوّر القرآن سلیمان بصورة نبی عظیم، ذی علم وافر، و تقوی عالیة، لم یأسره المقام و المال أبدا، مع کلّ ما کان له من سلطة فی حکومة عظیمة، و قال حینما أرسلت ملکة سبأ- لخداعه- هدایا نفیسة و ثمینة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۵

أَ تُمِدُّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِیَ اللَّهُ خَیْرٌ مِمَّا آتاکُمْ ۳۵۵] لم یکن لهم من هم سوی أداء الشکر للّه علی نعمه وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِی أَنْ أَشْکُرَ نِعْمَتَکَ الَّتِی أَنْعَمْتَ عَلَیَّ وَ عَلی والِدَیَّ ...[۳۵۶].

قائـد لم يسـمح بظلم نملـة حينمـا قـالت و هم فى وادى النمـل: يـا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُـلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ۳۵۷].

كان «عابدا» إذا غفل عن ذكر ربّه أو شغل بالدنيا عاد منيبا و هو يقول: إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ..[۳۵۸].

كان «حكيما» لم يجانب المنطق فى قول، حتّى فى حديثه مع الهدهد، لم يتخلّ عن الحقّ و العدالة.

كان «حاكما» له من المعاونين من له من علم الكتاب ما استطاع به إحضار عرش بلقيس فى أقلّ من طرفة عين.

و قد وصفه القرآن الكريم ب «الأوّاب» و «نعم العبد».

شخص أعطاه اللّه «الحكم» و «العلم» و شمله بهدايته، و لم يشرك باللّه طرفة عين أبدا.

لكنّنا نجـد أنّ التوراة الحالية المحرّفة، قد لوّثت صـفحة هذا النّبى العظيم بالشـرك و غيره، فقد نسـبت إليه أسوأ الأوصاف فيما يخصّ بناء المعابد الوثنية، و الترويج لعبادة الأوثان، و الولع المفرط بالنساء، و تعبيرات قبيحة جدّا من أوصاف العشّاق المبتذلين، التى نخجل عن ذكرها.

و نكتفى بذكر بعض ما ورد فى التوراة من الأساطير الأهون قبحا، ففى الكتاب الأوّل للملوك من التوراة نقرأ ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۶

«و أولع سـليمان بنسـاء غريبات كثيرات فضـلا عن ابنـة فرعون، فتزوّج نساء موابيات و عمّونيّات و أدوميات و صـيدونيات و حثيات، و كلّهنّ من بنـات الأمم التى نهى الربّ بنى إسـرائيل عن الزواج منهنّ قائلا ـ لهم: «لا ـ تتزوّجوا منهم و لا ـ هم منكم لأنّهم يغوون قلوبكم وراء آلهتهم» و لكن سـليمان التصق بهنّ لفرط محبّته لهنّ، فكانت له سـبع مائـة زوجـة، و ثلاث مائة محضـية، فانحرفن بقلبه عن الربّ فاسـتطعن فى زمن شـيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهـة اخرى، فلم يكن قلبه مسـتقيما مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه، و ما لبث أن عبد عشـتاروت آلهة الصيدونيين و ملكوم إله العمونيين البغيض، و ارتكب الشرّ فى عينى الربّ، و لم يتّبع سبيل الربّ بكمال كما فعل أبوه داود، و أقام على تلّ شـرقى أورشـليم مرتفعا تكموش إله الموآبيين الفاسق. و لمولك إله بنى عمون البغيض، و شـيّد مرتفعات لجميع نسـائه الغربيـات، اللواتى رحن يوقـدن البخور عليهـا، و يقربن المحرّقـات لآـلهتهنّ فغضب الربّ على سـليمان لأنّ قلبه ضلّ عنه مع أنّه تجلّى له مرّتين و نهاه عن الغوايـة وراء آلهة اخرى، فلم يطع وصـيّته، لهذا قال اللّه لسـليمان! لأنّك انحرفت عنّى و نكثت عهدى، و لم تطع فرائضـى التى أوصـيتك بهـا، فانّى حتما امزّق أوصال مملكتك و أعطيها لأحـد عبيـدك، إلّا أنّنى لا أفعل ذلك فى أيّامك، من أجل داود أبيك، بل من يد ابنك امزّقها، غير أنّى ابقى له سبطا واحدا يملك عليه إكراما لداود عبدى ...»[۳۵۹].

و من مجموع هذه القصّة الخرافية للتوراة يتّضح ما يلى:

۱- إنّ سـليمان كان يحبّ كثيرا النساء الوثنيات، و تزوّج بكثير منهنّ على خلاف أوامر اللّه تعالى، و تدريجيّا مال إلى دينهنّ، و بالرغم من كثرة نسائه (۷۰۰ زوجة و ۳۰۰ محضية) فانّ حبّه لهنّ أدّى إلى انحرافه عن طريق الحقّ (نعوذ باللّه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۷

۲- إنّ سليمان أمر بصراحة ببناء معابد للأوثان فوق الجبل المقابل لأورشليم المركز الدينى المقدّس لبنى إسرائيل، و أحد المعابد كان لصنم «كموش» الذى يعبده الموآبيون، و الآخر لصنم «عشترون» الذى كان يعبده الصيداويون. و كلّ ذلك حدث فى أيّام شيخوخته.

۳- إنّ اللّه تعـالى قرّر عقوبـة سـليمان بسـبب انحرافه و ذنوبه الكبيرة بـأن يفقـد مملكته، و لكن لا من يـده، بل من يـد ابنه «رحبعام» و يتركه إلى آخر عمره يلعب و يعبث كيفمـا شاء من أجل أبيه داود العبـد المخلص، أى ذلك العبـد الـذى تقول التوراة عنه انّه ارتكب قتـل النفس وزنـا المحصـنة و الاستيلاء على زوجـة قائـد جيشه المتفانى!! فهل يمكن تصـديق مثل هـذه التّهم ضـدّ رجل مقـدّس مثل سليمـان؟! و لو فرضـنا أنّ سـليمان لم يكن نبيّـا- كمـا يصـرّح القرآن بـذلك- و قلنا بأنّه من ملوك بنى إسـرائيل، فمع ذلك لا يمكن تصـديق مثـل هـذه التّهم فى حقّه، لأنّه لو لم يكن نبيّـا فلا ـ أقل من أنّ مرتبته كانت تاليـة لمرتبـة النّبى، لأنّ له كتابين من كتب العهد

القدیم أحدها یدعی: «مواعظ سلیمان» و الآخر «أشعار سلیمان».

و أساسا کیف یجیب الیهود و النصاری الذین یعتقدون بهذه التوراة الحالیة علی هذه الأسئلة و الإشکالات؟ و کیف یتسنّی لهم قبول مثل هذه الفضائح؟!

۴- و قلیل من عبادی الشکور

قبل کلّ شیء یلزم البحث فی الأصل اللغوی لکلمة «شکر».

الراغب الأصفهانی یقول فی مفرداته، الشکر: تصوّر النعمة و إظهارها، قیل و هو مقلوب عن «الکشر» أی الکشف، و یضادّه الکفر، و هو نسیان النعمة و سترها، «و دابة شکور» مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إلیها. و قیل أصله عین شکری، أی ممتلئة فالشکر علی هذا هو الامتلاء من ذکر المنعم علیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۸

و الشکر ثلاثة أضرب: شکر القلب، و هو تصوّر النعمة. و شکر اللسان، و هو الثناء علی المنعم، و شکر سائر الجوارح، و هو مکافأة النعمة بقدر استحقاقها.

التعبیر القرآنی فی الآیة اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُکْراً یشیر إلی أنّ الشکر أکثر من مقولة، إنّه «عمل»، و یجب أن یظهر من بین أعمال الإنسان، و علیه فقد یکون القرآن الکریم قد عدّ الشاکرین الحقیقیین قلّة لهذا السبب. و فضلا عمّا ورد فی هذه الآیات فإنّ فی الآیة (۲۳) من سورة الملک، ذکر بعد تعداد بعض النعم الإلهیة العظیمة، کخلق السمع و البصر و القلب، ذکر قَلِیلًا ما تَشْکُرُونَ و کذا فی الآیة (۷۳) من سورة النمل ورد وَ لَکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَشْکُرُونَ و هذا من جانب.

و من جانب آخر فمع الالتفات إلی أنّ الإنسان غارق من رأسه حتّی أخمص قدمیه بنعم اللّه التی لا تعدّ و لا تحصی، کما عبّر عن ذلک القرآن الکریم وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها یتّضح لما ذا یمتنع الشکر کما ینبغی للّه قبال جمیع النعم التی أفاضها الباری جلّ و علا.

بتعبیر آخر، و کما ورد علی لسان بعض کبار المفسّرین، فإنّ «الشکر المطلق»، هو أن یکون الإنسان علی ذکر دائم للّه بلا أدنی نسیان، سائرا فی طریقه تعالی بدون أیّة معصیة، طائعا لأوامره بلا أدنی لفّ أو دوران، و مسلّم بأنّ هذه الأوصاف لا تجتمع إلّا فی القلّة النادرة، و لا یصغی إلی قول من یقول: إنّه أمر بما لا یطاق، فإنّه ناشئ من قلّة التدبّر فی هذه الحقائق و البعد من ساحة العبودیة[۳۶۰].

قد یقال: إنّ أداء حقّ الشکر للّه سبحانه و تعالی قضیّة معقّدة بلحاظ إنّه فی الوقت الذی یقف فیه الإنسان فی مقام الشکر و یوفّق لذلک، بأن تتوفّر لدیه أسباب أداء الشکر، فإنّ ذلک بحدّ ذاته نعمة جدیدة تحتاج إلی شکر آخر، و بذا یستمرّ هذا الموضوع بشکل متتابع، و کلّما بذل الإنسان جهدا أکثر فی طریق الشکر سیکون مشمولا بنعمة متزایدة لا یمکنه معها أداء شکرها. لکن إذا انتبهنا أنّ أحد طرق أداء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۱۹

الشکر للّه هو بإظهار العجز عن أدائه کما بیّن القرآن الکریم یتّضح حقیقة قلّة الشاکرین و ملاحظة الأحادیث التالیة تساعد فی توضیح هذا المطلب.

فعن أبی بصیر قال: قلت لأبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام: هل للشکر حدّ إذا فعله العبد کان شاکرا؟ قال: «نعم» قلت: ما هو؟ قال: یحمد اللّه علی کلّ نعمة علیه فی أهل و مال، و إن کان فیما أنعم علیه فی ماله حقّ أدّاه»[۳۶۱].

و

عن أبى عبد اللّه عليه السّلام قال: «شكر النعمة اجتناب المحارم»[۳۶۲].

و

عن الإمام أبو عبد اللّه الصادق عليه السّلام أيضا قال: «فيما أوحى اللّه عزّ و جلّ إلى موسى عليه السّلام: يا موسى اشكرنى حقّ شكرى، فقال: يا ربّ و كيف أشكرك حقّ شكرك و ليس من شكر أشكرك به إلّا و أنت أنعمت به علىّ؟ قال: يا موسى الآن شكرتنى حين علمت أنّ ذلك منّى»[۳۶۳].

نلفت النظر كذلك إلى أنّ شكر الإنسان الذى يكون وسيلة للنعمة لشخص آخر، هو شعبة من شكر اللّه، و كما

ورد عن على بن الحسين السجّاد عليه السّلام قوله: إنّ اللّه يحبّ كلّ قلب حزين و يحبّ كلّ عبد شكور، يقول اللّه تبارك و تعالى لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلانا؟ فيقول: بل شكرتك يا ربّ، فيقول: لم تشكرنى إذ لم تشكره، ثمّ قال: أشكركم للّه أشكركم للناس»[۳۶۴].

و فيما يخصّ موضوع (حقيقة الشكر) و كيف يكون الشكر سببا فى زيادة النعمة، و كيف يكون الكفر سببا فى ذهابها و فنائها، هناك شرح مفصّل فى تفسير الآية السابعة من سورة إبراهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۰

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلَّا الْكَفُورَ (۱۷)

التّفسير

المدينة الراقية التى أضاعها الكفران:

بعد أن تطرّقت الآيات السابقة إلى توضيح النعم الإلهية العظيمة التى أولاها اللّه داود و سليمان عليهما السّلام، و أداء هذين النّبيين العظيمين وظيفتهما بالشكر، تنتقل الآيات أعلاه إلى الحديث عن قوم آخرين يمثّلون الموقف المقابل للموقف السابق، و يحتمل أن يكونوا قد عاصروا داود و سليمان أو عاشوا بعدهما بفترة قليلة .. قوم شملهم اللّه بأنواع النعم، و لكنّهم سلكوا طريق الكفران، فسلبهم اللّه ذلك، و مزّقهم شرّ ممزّق، حتّى أصبح ما حلّ بهم عبرة للعالمين، أولئك كانوا «قوم سبأ».

عرض القرآن المجيد تأريخ «قوم سبأ» من خلال خمس آيات، و أشار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۱

باختصار إلى بعض خصوصيات و جزئيات حياتهم.

يقول تعالى: لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ.

و كما سنرى فإنّ عظمة هذه الآية تنبع من أنّهم بالاستفادة من خصوصيات موقعهم و طريقة إحاطة الجبال بمنطقة سكناهم و بالذكاء العالى الذى وهبهم اللّه، استطاعوا حصر مياه السيول- التى لا تخلف وراءها إلّا الدمار- خلف سدّ عظيم، و بذا عمّروا دولة رفيعة

التمدّن، فكانت آيـة عظيمـة أن يتحوّل سبب الخراب و الـدمار إلى عامل رئيسـى من عوامل العمران و التمدّن!! «سـبأ» اسم من؟ و ما هى؟. الموضوع مورد أخـذ وردّ بين المؤرخين، و لكن المشـهور هو أنّ «سـبأ» اسم «أبى العرب» فى اليمن، و طبقـا للروايـة الواردة عن «فروة بن مسيك» أنّه قال: «سألت رسول اللّه عن «سبأ» أرجل هو أم امرأة؟ فقال:

هو رجل من العرب ولد له عشـرة، تيامن منهم سـتّة و تشاءم منهم أربعة، فأمّا الذين تيامنوا فالأزد و كندة و مذحج و الأشعرون و أنمار و مجـد. فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الـذين منهم خثعم و بجيلـة، و أمّا الـذين تشاءموا فعاملـة و جـذام و لخم و غسان. فالمراد بسبإ هاهنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[۳۶۵].

و بعضـهم ذهب إلى أنّ «سـبأ» اسم لأرض اليمن أو لإحدى مناطقها. و ظاهر الآيات القرآنية التى تحدّثت فى قصّة سليمان عليه السّلام و (الهدهد) أشارت إلى هذا المعنى أيضا ففى الآية (۲۲) من سورة النمل، يقول تعالى على لسان الهدهد:

وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ يعنى لقد جئتك من أرض سبأ بنبإ يقين.

فى حـال أنّ ظـاهر الآيـة مورد البحث هو أنّ «سـبأ» كـانوا «قوما» عاشوا فى تلك المنطقـة، بلحاظ أنّ ضـمير «هم» فى «مساكنهم» يعود عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۲

و لا منافاة بين التّفسـيرين لأنّ من الممكن أن يكون «سـبأ» اسم شـخص ابتداء، ثمّ بعدئذ سـمّى كلّ أولاده و قومه من بعده باسـمه، ثمّ انتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

تنتقل الآية بعد ذلك لتجلّى الموقف عن تلك الموهبة الإلهية التى وضعت بين يدى قوم سبأ. فيقول تعالى: جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ

ما حصل هو أنّ قوم سـبأ اسـتطاعوا- ببناء سدّ عظيم بين الجبال الرئيسـية فى منطقتهم- حصر مياه السيول المدمّرة أو الضائعة هدرا على الأقل، و الإفادة منها ..

و بإحـداث منافذ فى ذلك السدّ سـيطروا تماما على ذلك الخزّان المائى الهائل، و بالتحكّم فيه تمكّنوا من زراعة مساحات شاسـعة من الأرض.

الإشكال الذى أثاره (الفخر الرازى) هو: ما هى أهميّة وجود مزرعتين لكى يذكر ذلك فى آية مستقلّة؟ ثمّ يقول فى الجواب أنّ هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين، بل إنّهما عبارة عن سلسـلة من رياض المترابطة مع بعضها البعض و الممتدة على جانبى نهر عظيم يتغذّى من ذلك السـدّ العظيم. و كانت تلك الرياض مليئـة بالبركات إلى درجة أنّه ورد فى كتب التأريخ عنها، أن لو مرّ شـخص يحمل على رأسه سلّة فارغة من تحت أشجار تلك المزارع فى فصل نضوج الأثمار فانّها تمتلئ بسرعة نتيجة ما يتساقط من تلك الأثمار الناضجة.

أليس من العجيب إذا أن يتحوّل سـبب الخراب و الـدمار إلى سـبب رئيسـى للعمران بـذلك الشـكل المـدهش؟ ثمّ ألا يعـدّ ذلك من عجائب آيات اللّه سبحانه و تعالى؟

و علاوة على كلّ ذلك- و كما سترد الإشارة إليه فى الآيات الآتيـة- فإنّ من آيات اللّه أيضا ذلك الأمن و الأمان غير العاديين اللذين شملا تلك الأرض.

ثمّ يضيف القرآن: كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۳

غَفُورٌ[۳۶۶][۳۶۷].

هـذه الجملـة القصـيرة تصوّر مجموعـة النعم الماديـة و المعنويـة بأجمـل تعـابير، فبلحاظ النعم الماديـة أرض طيّبـة خاليـة من الأمراض المختلفـة، من السـراق و الظلمـة، من الآفـات و البلايا، من الجفاف و القحط، من الخوف و الوحشـة، و قيل خاليـة حتّى من الحشـرات المؤذية.

هواء نقى، و نسيم يبعث على السرور، أرض معطاءة و أشجار وافرة الثمر.

و أمّا بلحاظ النعم المعنوية فمغفرة اللّه التى شملتهم، و التغاضى عن تقصيرهم، و صرف البلاء و العذاب عنهم و عن بلدتهم.

و لكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين. لم يقدّروا تلك النعمة حّق قدرها. و لم يخرجوا من بوتقة الامتحان بسلام، سلكوا طريق الإعراض و الكفران، فقرّعهم اللّه أيّما تقريع!! قال تعالى: فَأَعْرَضُوا استهانوا بنعمة اللّه، توهّموا بأنّ العمران و المدنية و الأمن أشياء عادية، نسوا اللّه، و أسكرتهم النعمة، و تفاخر الأغنياء على الفقراء، و ظنّوا أنّهم يزاحمونهم فى أرزاقهم- كما سيرد فى الآيات اللاحقة-.

و هنا مسّهم سوط الجزاء، يقول تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ فدمّر بيوتهم و مزارعهم و حوّلها إلى خرائب ..

«العرم»: من «العرامة» و هى شراسة و صعوبة فى الخلق تظهر بالفعل، و وصف «السيل» بالعرم إشارة إلى شدّته و قابليته على التدمير. و تعبير «سيل العرم» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.

و قيل: «العرم» الجرذان الصحراوية، و هى التى سبّبت انهيار السدّ بنفوذها فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۴

(قصّة نفوذ الجرذان الصحراوية فى السدّ، مع كونها ممكنة- كما سيرد شرحه فيما بعد- لكن تعبير الآية ليس فيه أدنى تناسب مع هذا المعنى).

فى «لسان العرب»، مادّة «عرم» وردت معان مختلفة من جملتها «السيل الذى لا يطاق» و منه قوله تعالى «الآية»، و قيل: إضافة إلى المسنّاة أو السدّ، و قيل: إلى الفأر[۳۶۸].

و لكن أنسب التفاسير هو الأوّل، و هو الذى اعتمده- أيضا- على بن إبراهيم فى تفسيره.

بعدئذ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلى: وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

«أكل»: بمعنى الطعام.

«خمط»: بمعنى النبات المرّ و هو «الأراك».

«أثل»: شجر معروف.

و بذا يكون قد نبت محلّ تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة، و التى قد يكون «السدر» أهمّها، و هذا أيضا كان نادرا بينها. و لك- أيّها القارئ- أن تتخيّل أى بلاء حلّ بهؤلاء و بأرضهم؟! و لعلّ ذكر هذه الأنواع الثلاثة من الأشجار التى بقيت فى تلك الأرض المدمّرة إشارة إلى ثلاثة امور: أحدها قبيح المنظر، و الثّانى لا نفع فيه، و الثالث له منفعة قليلة جدّا.

يقول تعالى فى الآية التالية بصراحة و كتلخيص و استنتاج لهذه القصّة ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا.

و يجب أن لا يتبادر إلى الذهن بأنّ هذا المصير يخصّ هؤلاء القوم، بل إنّ من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۵

المسلّم أنّه يعمّ كلّ من كانت لهم أعمال شبيهة بأعمال هؤلاء. و هكذا تضيف الآية وَ هَلْ نُجازِى إِلَّا الْكَفُورَ.

كان هذا مختصرا عن مصير «قوم سبأ» الذى سنفصّله أكثر فى تفسير الآيات اللاحقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۶

الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۸ الى ۱۹]

اشارة

وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ (۱۸) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۱۹)

التّفسير

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ!!

تعود هذه الآيات إلى قصّة قوم سبأ مرّة اخرى، و تعطى شرحا و تفصيلا أكثر حولهم و حول العقاب الذى حلّ بهم. ليكون درسا بليغا و تربويا لكلّ سامع.

يقول تعالى: لقد عمّرنا أرضهم إلى حدّ أنّ النعمة لم تغطّها وحدها، بل وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً. فقد جعلنا بينهم و بين الأرض المباركة مدائن و قرى اخرى متّصلة بفواصل قليلة إلى درجة أنّ القرية ترى من القرية الثّانية.

بعض المفسّرين قالوا فى تفسير «قرى ظاهرة» بأنّها إشارة إلى القرى التى كانت تظهر للعيان من جادّة المسير بشكل واضح، و يستطيع المسافرون التوقّف فيها، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۷

أنّها القرى التى كانت على مرتفعات من الأرض فكانت واضحة للعابرين.

أمّا ما هى «الأرض المباركة»؟ فقد أجمع أغلب المفسّرين على أنّها «أرض الشام» (سوريا و فلسطين و الأردن)، لأنّ هذا التعبير اطلق على نفس هذه المنطقة فى الآية الاولى من سورة الإسراء، و الآية (۸۱) من سورة الأنبياء.

و لكن بعض المفسّرين احتمل أنّ المقصود منها هو «صنعاء» أو «مأرب» و كلتاهما كانتا فى اليمن، و لا يستبعد هذا التّفسير، لأنّ المسافة بين (اليمن) الواقعة فى أقصى جنوب الجزيرة العربية، و (الشام) الواقعة فى أقصى شمالها، شاسعة و مليئة بالصحارى اليابسة المقفرة ممّا يجعل تفسير الأرض المباركة هنا (بالشام) بعيدا جدّا، و لم ينقل فى التواريخ ما يشير إلى ذلك.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود (بالأرض المباركة). (مكّة) و هو بعيد أيضا.

هذا من جهة العمران، و لكن العمران وحده لا يكفى، بل إنّ شرطه الأساسى هو «الأمان»، و لذلك تضيف الآية وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أى جعلنا بينها فواصل معتدلة. سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ

و بهذا فإنّ الفواصل و المسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، و كذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضوارى أو السرّاق أو قطّاع الطرق. بحيث أنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق. بلا زاد أو دواب و بلا استفادة من الحراس المسلّحين، و لم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّة الماء و الزاد لديهم.

أمّا بأيّة وسيلة تمّ إبلاغ هذه الرسالة للناس سِيرُوا فِيها الآية، يرد أيضا الاحتمالان بأن يكون ذلك بواسطة أحد الأنبياء عليهم السّلام، أو أنّ ظاهر حال المنطقة كان يوصل هذا المعنى إلى وجدانهم.

تقديم «الليالى» على «الأيّام» قد يكون بلحاظ أنّ وجود الأمن فى الليل من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۸

السرّاق او الوحوش اهمّ منه فى النهار الذى تسهل معه مهمّة الأمن.

و لكن هؤلاء جحدوا نعم اللّه العظيمة التى شملت كلّ مناحى حياتهم- كما هو الحال بالنسبة لغيرهم من الأقوام المتنعّمة- و لبسهم الغرور، و أحاطت بهم الغفلة و نشوة النعيم و عدم لياقتهم له، فأسلكتهم طريق الكفران و عدم الشكر، و انحرفوا عن الصراط و تركوا

أوامر اللّه خلف ظهورهم.

فمن جملة مطالبهم العجيبة من اللّه، فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا.

أى طلبوا أن يجعل اللّه المسافات بين قراهم طويلة، كى لا يستطيع الفقراء السفر جنبا إلى جنب مع الأغنياء، و مقصودهم هو أن تكون بين القرى- كما أسلفنا- فواصل صحراوية شاسعة، حتّى لا يستطيع الفقراء و متوسّطو الحال الإقدام على السفر بلا زاد أو ماء أو مركّب، و بذا يكون السفر أحد مفاخر الأغنياء و علامة على القدرة و الثروة، و وجوب أن يظهر هذا الامتياز و يثبت لدى الجميع.

أو أنّهم ملّوا من الراحة و الرفاه، كما ملّ بنو إسرائيل من (المنّ و السلوى) (الغذاء السماوى) و طلبوا من اللّه البصل و الثوم و العدس.

بعضهم احتمل أيضا أن يكون المقصود بعبارة باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا أنّهم أصبحوا كسالى إلى درجة لم يكونوا معها حاضرين للسفر لغرض رعى الحيوانات أو التجارة أو الزراعة، و لذا طلبوا من اللّه أن يبقيهم فى وطنهم دائما و يباعد بين السفرة و الاخرى. و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل.

على كلّ حال فإنّهم بهذا العمل أوقعوا الظلم على أنفسهم وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

نعم، فإن كانوا يظنّون أنّهم إنّما يظلمون غيرهم فقد اشتبهوا، إذ أنّهم قد استلّوا خنجرا و مزّقوا به صدورهم، و دخّان النار التى أسعروها أعمى عيونهم.

و ياله من تعبير رائع، ذلك الذى أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول: إنّنا جازيناهم و دمّرنا بلادهم و معيشتهم بحيث: فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ

نعم فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، و التمدّن العريض المشرق، إلّا أخبار على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۲۹

الألسن، و ذكريات فى الخواطر، و كلمات على صفحات التاريخ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، و بذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، و نثروا كما تنثر أوراق الخريف التى عصفت بها الريح حتّى أضحى تفرّقهم مثلا يضرب فقيل:

«تفرّقوا أيادى سبأ»[۳۶۹].

و كما قال بعض المفسّرين، فقد ذهبت قبيلة (غسّان) إلى الشام، و (أسد) إلى عمان، و (خزاعة) إلى جهة تهامة، و (أنمار) إلى يثرب [۳۷۰].

و فى ختام الآية يقول تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، لأنّ الصابرين و الشاكرين وحدهم يستطيعون الإعتبار ممّا جرى، خصوصا مع ملاحظة أنّ كلّا من (صبّار) و (شكور) هى صيغة مبالغة. ذلك لكونهم بصبرهم و استقامتهم يتمكّنون من الإمساك بزمام مركب الهوى و الهوس الجموح، و يقفون بوجه المعاصى، و بشكرهم للّه تعالى فى طريق طاعته فإنّهم مرتبطون به و يقظون، و عليه فإنّهم يأخذون العبرة بشكل جيّد، أمّا أولئك الذين ركبوا سفينة الهوى و تجاهلوا نعم اللّه عليهم فكيف يمكنهم أخذ العبرة ممّا جرى؟

بحوث

۱- المصير المذهل لقوم سبأ!!

يستفاد ممّا ورد فى القرآن الكريم و الروايات، و كذلك كتب التاريخ، بأنّ «قوم سبأ» كانوا يقطنون جنوب الجزيرة، و كانت لهم

حکومة راقیة، و حضارة خلّابة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۰

و رغم أنّ أرض (الیمن) کانت واسعة و صالحة للزراعة، إلّا أنّه من استغلالها لعدم وجود نهر مهمّ فی تلک المنطقة، کما أنّ میاه الأمطار- التی کانت تهطل بغزارة علی قمم الجبال کانت تذهب هدرا فی هضاب و صحاری تلک المنطقة. و لکن أهل تلک المنطقة الأذکیاء فکّروا فی کیفیة الاستفادة من تلک المیاه المهدورة، فبنوا لهذا الغرض عددا من السدود فی النقاط الحسّاسة کان أهمّها و أکثرها مخزونا «سدّ مأرب».

«مأرب» بلدة صغیرة تقع عند انتهاء إحدی ممرّات السیول تلک، و کانت تمرّ سیول جبال «صراة» العظیمة من جنبها، و فی فم هذا المضیق و بین جبلی «بلق» بنوا سدّا عظیما قویا، و أوجدوا فیه منافذ کثیرة للماء، و قد استطاع هذا السدّ خزن کمیّات هائلة من الماء خلفه إلی درجة أنّهم استطاعوا- بالاستفادة من ذخیرته- إحداث جنّات جمیلة جدّا، و بساتین مملوءة بالبرکة علی طرفی النهر الوارد ابتداء من مصبّ السدّ.

و کما ذکرنا سابقا فإنّ القری المأهولة فی تلک الأرض کانت شبه متّصلة ببعضها، بحیث أنّ ظلال الأشجار کانت تتواصل مع بعضها البعض، و کانت الأشجار محمّلة بکمیّات کبیرة من الثمار حتّی أنّ من یمرّ تحتها بسلّته الخالیة یخرج بعد مدّة قصیرة بسلّة ممتلئة تلقائیا، و فور النعمة- ممزوجا بالأمان- هیّأ محیطا مرفّها لحیاة طاهرة، محیطا نموذجیا لطاعة اللّه، و التکامل المعنوی، و لکنّهم لم یقدّروا النعمة حقّ قدرها، فنسوا اللّه، و جحدوا النعمة، و انشغلوا بالتفاخر و العناوین و المستوی الاجتماعی.

ورد فی بعض کتب التاریخ بأنّ الجرذان الصحراویة، بعیدا عن مرأی هؤلاء المغرورین السکاری، کانت تتّخذ لها جحورا فی ذلک السدّ الترابی، و تنخره من الداخل، و فجأة هطلت أمطار غزیرة و تجمّعت لتشکّل سیولا عظیمة، تراکمت خلف ذلک السدّ الذی لم یعدّ حینها مؤهّلا لتحمّل الضغط الشدید من تلک الکمّیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۱

الهائلة، و ما هی إلّا لحظة حتّی انهار هذا السدّ لیضع النهایة لتلک الحیاة الزاهیة، و دمّر القری المعمورة، الجنان، المزارع، المحاصیل، قضی علی الحیوانات، هدّم القصور و البیوت الجمیلة الجذّابة، و تحوّلت تلک الأرض الحیّة إلی صحراء جافّة لا ماء فیها و لا کلأ، و لم یبق من تلک الجنان و الأشجار المثمرة إلّا شجر (الأراک) المرّ، و (شجر المنّ) و قلیل من (السدر)، و هاجرت الطیور المغردة لیحلّ محلّها البوم و الغربان ...[۳۷۱].

نعم، حینما یرید اللّه سبحانه و تعالی إظهار قدرته، فإنّه یدمّر مدینة راقیة بعدد من الفئران حتّی یتّضح للعباد مدی ضعفهم و لا یغترّوا بقدرتهم مهما بلغت.

۲- الإعجاز القرآنی التأریخی

أورد القرآن الکریم قصّة «قوم سبأ» فی الوقت الذی کان المؤرخّون لا یعلمون شیئا عن وجود هؤلاء القوم، و عن مثل تلک المدنیّة. و الملفت للنظر أنّ المؤرخّین قبل الاکتشافات الحدیثة، لم یذکروا شیئا حول سلسلة ملوک سبأ و المدنیة العظیمة لهم، و اعتقدوا فقط بأنّ (سبأ) هو شخص افتراضی، عرف کأب مؤسّس لدولة «حمیر»، فی حین أنّ القرآن الکریم أفرد سورة کاملة باسم هؤلاء القوم و أشار إلی أحد مظاهر مدینتهم و هو بناؤهم (لسدّ مأرب) التأریخی.

و لکن بعد الکشوف عن الآثار التأریخیة لهؤلاء القوم فی الیمن، تغیّرت أفکار علماء التأریخ. و السبب فی تأخّر الکشف عن الآثار التأریخیة لهؤلاء القوم یعود إلی:

۱- صعوبة الطريق المؤدّية إلى مناطق التنقيب و شدّة حرارة الجو هناك.

۲- تنفّر سكنة المنطقة حاليا من الأجانب، ممّا جعل الأوربيين غير المطّلعين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۲

و غير العارفين يطلقون صفة «التوحّش» على هذه الأحاسيس الصادرة من أهل المنطقة، حتّى استطاع عدّة معدودة من علماء الآثار يدفعهم التعلّق الشديد بكشف الأسرار الأثرية النفوذ إلى قلب مدينة «مأرب» و ما حولها. و اكتشفوا مجموعة من الأحجار الحاوية للخطوط و النقوش الكثيرة، و بعد ذلك تعاقبت مجاميع المنقّبين فى القرن التاسع عشر الميلادى ناقلين معهم فى كلّ مرّة مجموعة من النقوش و الخطوط و الآثار، و بالاستفادة من تلك الآثار، التى ناهزت الألف أثر، أطلع العلماء على جزئيات و خصوصيات حضارة هؤلاء القوم، و على تأريخ بناء «سدّ مأرب» و خصوصيات اخرى، و ثبت للغربيين بأنّ ما ذكره القرآن الكريم بهذا الخصوص لم يكن اسطورة، بل واقع تاريخى لم يكونوا قد اطّلعوا عليه، و بعد ذلك استطاعوا رسم مخطّط كامل لذلك السدّ العظيم و تشخيص منافذ عبور المياه فيه، و الجداول الخاصّة بالبساتين و المزارع يمينا و شمالا و سائر خصوصيات المنطقة الاخرى.

۳- لفتات هامّة للعبرة فى قصّة قصيرة

إنّ التعرّض لسرد قصّة قوم سبأ بعد قصّة سليمان عليه السّلام له مفهوم خاصّ:

۱- إنّ داود و سليمان عليهما السّلام كانا نبيّين عظيمين استطاعا تشكيل حكومة قويّة، و إيجاد حضارة مشرقة تلاشت بوفاتهم، و كذلك الحضارة الكبرى التى أقامها قوم سبأ تلاشت بانهيار سدّ مأرب!! و الجدير بالملاحظة أنّ الروايات تشير إلى أن عصا سليمان عليه السّلام أكلتها حشرة «الأرضة»، كما أنّ سدّ مأرب نخرته الجرذان الصحراوية، كى يعلم هذا الإنسان المغرور بأنّ النعم المادية مهما كانت عظيمة و مصدرا للخير، فإنّها أحيانا تتلاشى بواسطة حشرة أو حيوان ضعيف يقلب عاليها أسفلها. و بالنتيجة ينتبه المؤمنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۳

و العارفون و لا يقعوا أسرى فى شراك هذه النعم، و يفيق المغرورون من سكر غفلتهم و لا يسلكوا طريق الظلم و العدوان.

۲- نلاحظ هنا حضارتين عظيمتين، إحداهما رحمانية، و الاخرى شيطانية المصير، لكنّهما واجهتا الفناء و لم تخلدا.

۳- و ممّا يستحقّ الانتباه، هو أنّ المغرورين من قوم سبأ الذين لم يستطيعوا تحمّل وجود المستضعفين بينهم، و تمنّوا حاجزا منيعا بين الأقليّة الأشراف و الأكثرية الفقراء يحول دون اختلاطهم، و دعوا اللّه أن يباعد بين قراهم حتّى يشقّ السفر على الفقراء، و قد استجاب اللّه سبحانه و تعالى دعاءهم و فرّق جمعهم، و مزّقهم أيادى سبأ، حتّى أنّهم لو أرادوا الالتقاء لتطلّب منهم ذلك أن يصرفوا عمرا كاملا فى السفر.

۴- حينما يدقّق المتأمّل فى وضع تلك الأرض قبل هجوم «سيل العرم» و بعده، لا يمكنه أن يصدّق بسهولة أنّ هذه الأرض بعد السيل هى تلك الأرض الخضراء المليئة بالأشجار المورقة المثمرة، و كيف أضحت الآن صحراء موحشة ليس فيها إلّا بضعة أشجار مبعثرة من الشجر المرّ و الأراك و قليل من شجر السدر تتراءى من بعيد كمسافرين أضاعوا طريقهم و تبعثروا هنا و هناك.

و هذا يجسّد بلسان الحال: أنّ «كيان الإنسان» كهذه الأرض، فإذا استطاع السيطرة على قواه الخلّاقة و استخدمها بالشكل الصحيح، فإنّه ينبت بساتين مليئة بالطراوة من العلم و العمل و الفضائل الأخلاقية، و لكن إذا كسر سدّ التقوى، و انهالت الغرائز كالسيل المدمّر، و غطّت أرض حياة الإنسان، فلن يبقى غير الخراب، و أحيانا فإنّ أعمالا ظاهرها أنّها بسيطة تبدأ بالتأثير تدريجيا على الاسس، حتّى ينهار كلّ شيء، لذا يجب الخوف و الحذر حتّى من هذه الأمور الصغيرة التافهة ظاهرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۴

۵- آخر ما نروم الإشارة إليه، هو أنّ ذلك المصير العجيب يثبت مرّة اخرى حقيقة أنّ (الموت) مخفى فى جوهر حياة الإنسان، و نفس الشىء الذى يكون سببا لحياة الإنسان و عمرانها يوما، يكون عامل موته و هلاكه فى يوم آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۵

الآيتان [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشارة

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۲۰) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (۲۱)

التّفسير

لا أحد مجبر على اتّباع الشّيطان:

هذه الآيات فى الحقيقة تمثّل نوعا من الاستنتاج العام من قصّة «قوم سبأ» التى مرّت فى الآيات السابقة، و رأينا كيف أنّهم باستسلامهم لهوى النفس و وسوسة الشيطان، أصبحوا معرضا لكلّ تلك الخيبة و سوء التوفيق.

يقول تعالى فى الآية الاولى من هذه الآيات: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

بتعبير آخر، فإنّ إبليس بعد امتناعه من السجود لآدم و طرده من محضر الكبرياء الإلهى، توقّع و قال: فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۳۷۲] و إنّ هذا التوقّع قد صحّ بالنسبة لهؤلاء القوم. فمع أنّه (لعنه اللّه) قد قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۶

حديثه هذا تخمينا و توقّعا، و لكن هذا التخمين أصبح واقعا فى النتيجة. و اتّبعه ضعفاء الإيمان و الإرادة و سقطوا فى فخاخه زرافات و وحدانا، إلّا مجموعة صغيرة من المؤمنين استطاعت تحطيم سلاسل الوساوس الشيطانية، و تفادت الوقوع فى مصيدته، جاءوا أحرارا و عاشوا أحرارا و رحلوا أحرارا، و مع أنّهم كانوا قلّة من حيث العدد، إلّا أنّ كلّ واحد منهم كان يعدل دنيا بأسرها من حيث القيمة المعنوية

«أولئك هم الأقلّون عددا و الأكثرون عند اللّه قدرا»[۳۷۳].

و تشير الآية التالية إلى مطلبين فيما يخصّ الوساوس الشيطانية، و الأشخاص الذين يقعون تحت سلطته، و الأشخاص الذين ليس له عليهم سلطان، فتقول الآية المباركة: وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ

إذن فنحن الذين نجيز له الدخول و نعطيه تأشيرة العبور من حدود دولة الفردية إلى داخل قلوبنا. و ذلك هو عين ما ينقله القرآن عن لسان الشيطان نفسه وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۳۷۴]، و لكن من الواضح أنّه بعد إجابة دعوته من قبل عديمى الإيمان، و عبيد الهوى، لا يهدأ له بال، بل يسعى إلى إحكام سلطته على وجودهم.

لذا فإنّ الآية تؤكّد أنّ الهدف من إطلاق يد إبليس فى وسوساته، إنّما هو لأجل معرفة المؤمنين من غيرهم ممّن هم فى شكّ: إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍ ۳۷۵].

بديهى أنّ اللّه تعالى مطّلع تماما على كلّ ما يقع فى هذا العالم منذ الأزل حتّى الأبد، و عليه فإنّ جملة «لنعلم» ليس مفهومها أنّ اللّه تعالى يقول: «بأنّنا لم نكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۷

نعلم بالمؤمنين بالآخرة من الذين هم فى شكّ منها، و يجب أن تكون هناك للشيطان وسوسة حتّى نعلم ذلك» كلّا، بل المقصود من هذه الجملة هو التحقّق العينى لعلم اللّه، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى لا يعاقب أحدا بناء على علمه بالبواطن، و الأعمال المستقبلية لذلك الشخص، بل يجب توفّر ميدان للامتحان، و من خلال وساوس الشياطين و هوى النفس يظهر الإنسان ما بداخله- بكامل الإرادة و الإختيار إلى الواقع الفعلى، و يتحقّق علم اللّه سبحانه و تعالى عينا، لأنّه لو لا- تحقّق الأعمال بالفعل لا يحصل الاستحقاق للثواب و العقاب.

و بتعبير آخر: فإنّ الثواب و العقاب لا يقع على حسن الباطن أو سوئه، فلا بدّ لما هو موجود بالقوّة أن يتحقّق بالفعل.

ثمّ تختتم الآية بتنبيه للعباد وَ رَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ. حتّى لا يتصوّر أتباع الشيطان بأنّ أعمالهم و أقوالهم تتلاشى فى هذه الدنيا، أو أنّ اللّه ينسى، كلّا، بل إنّ اللّه يحتفظ بكلّ ذلك إلى يوم الجزاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۸

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۲ الى ۲۷]

اشارة

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا- يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا- فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (۲۲) وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (۲۳) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۴) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (۲۵) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (۲۶)

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷)

التّفسير

نبئونى لماذا؟

قلنا فى بداية السورة بأنّ هناك مجموعة من آياتها تتحدّث حول المبدأ و المعاد و الإعتقادات الحقّة، و من ربطها مع بعضها نحصل على حقائق جديدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۳۹

فى هذا المقطع من الآيات يجرّ القرآن المشركين فى الواقع إلى المحاكمة، و بالضربات الماحقة للأسئلة المنطقية، يحشرهم فى زاوية ضيّقة، ثمّ يبيّن تفسّخ منطقهم الواهى بخصوص شفاعة الأصنام.

فى هذه المجموعة من الآيات، خوطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله خمس مرّات، و قيل له: (قل) لهم ... و فى كلّ مرّة تعرض الآيات مطلبا جديدا يتعلّق بمصير الأصنام و عبّادها، بشكل يشعر معه بأن ليس هناك عقيدة أفرغ و لا أجوف من عبادة الأصنام، بل لا يمكن أساسا تسمية هذه العبادة (عقيدة) أو (مذهبا).

فى الآية الاولى يقول تعالى: قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۳۷۶] و لكن اعلموا أنّ هذه الأصنام أو الشركاء لا- يستجيبون لدعائكم أبدا، و لا يحلّون لكم مشكلة، ثمّ تنتقل الآية إلى عرض الدليل على هذا القول، فيقول تعالى:

لأنّهم لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ.

فلو كانوا يستطيعون شيئا لكان لهم أحد هذه الأوصاف الثلاثة: إمّا مالكية مستقلّة لشيء فى السماء أو الأرض، أو على الأقل مشاركة مع اللّه فى أمر الخلق، أو معاونة الخالق فى شيء من هذه الأمور.

فى حال أنّ الواضح هو أنّ «واجب الوجود» واحد لا ـ غير، و الباقون جميعهم «ممكن الوجود» مرتبطون به. و لو قطع اللّه تعالى نظر لطفه عنهم لحظة لأحلّهم دار البوار و العدم.

و اللطيف هو قوله تعالى: مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ فموجودات لا تملك فى هذه السماء اللامحدودة، و هذه الأرض المترامية الأطراف ما يعادل مِثْقالَ ذَرَّةٍ، فأى مشكلة يمكنها حلّها لنفسها، ناهيك عن سواها!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۰

هنا يتبادر إلى الذهن فورا السؤال التالى: إذا كانت الأمر كذلك، فما ذا تكون قضيّة شفاعة الشفعاء؟

و للإجابة على هذا التساؤل تقول الآية التى بعدها: لو كان هناك شفعاء لدى اللّه تعالى فانّهم لا يشفعون إلّا بإذنه و أمره وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ

و عليه فإنّ العذر الذى يتعلّل به الوثنيون بقولهم: هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ ۳۷۷]، ينتهى بهذا الجواب، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى، لم يجز شفاعتها أبدا.

أمّا جملة إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ فهى إشارة إلى الشافعين أو إلى المشفوع لهم.

احتمل المفسّرون الاحتمالين، و إن كان يناسب ما ورد فى الآية السابقة من الحديث حول الأصنام و أولئك الذين توهّموا أنّها شفعاؤهم، أن تكون الإشارة إلى «الشافعين».

ثمّ هل أنّ المقصود من «الشفاعة» هنا شفاعة الدنيا، أم الآخرة؟ كلّا الاحتمالين واردان، و لكن الجملة التى تلى ذلك تدلّل على أنّ المقصود هو شفاعة الآخرة.

لذا تقول العبارة بعدها بأنّه فى ذلك اليوم تهيمن الوحشة و الاضطراب على القلوب، و يستولى القلق على الشافعين و المشفوع لهم بانتظار أن يروا لمن يأمر اللّه بجواز الشفاعة؟ و على من ستجوز تلك الشفاعة؟ و تستمر حالة القلق و الاضطراب، حتّى حين .. فيزول ذلك الفزع و الاضطراب عن القلوب بصدور الأمر الإلهى. حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ۳۷۸].

على كلّ حال فذلك يوم الفزع، و عيون الذين يطمعون بالشفاعة تعلّقت بالشفعاء، ملتمسة منهم الشفاعة بلسان الحال أو بالقول. و لكن الشفعاء أيضا ينتظرون أمر اللّه، كيف؟ و لمن سيجيز الشفاعة؟ و يبقى ذلك الفزع و ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۱

الاضطراب عاما، إلى أن يصدر عن الحكيم المتعالى أمره بخصوص المتأهّلين للشفاعة.

هنا و حينما يتواجه الفريقان و يتساءلان، (أو أنّ المذنبين يسألون الشافعين) قالُوا: ما ذا قالَ رَبُّكُمْ فيجيبونهم: قالُوا: الْحَقَ و ما الحقّ إلّا جواز الشفاعة لمن لم يقطعوا ارتباطهم تماما مع اللّه، لا للذين قطعوا كلّ حلقات الارتباط، و أضحوا غرباء عن و رسوله و أحبّائه.

و تضيف الآية فى الختام وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ و هذه العبارة متمّمة لما قاله «الشفعاء»، حيث يقولون: لأنّ اللّه عليّ و كبير فأى أمر يصدره هو عين الحقّ، و كلّ حقّ ينطبق مع أوامره.

ما عرضناه هو أقرب تفسير يتساوق و ينسجم مع تعابير الآية، و للمفسّرين بهذا الخصوص تفسيرات اخرى، و العجيب أنّ بعضها لم يأخذ بنظر الإعتبار الترابط بين صدر الآية و ذيلها و ما قبلها و ما بعدها.

فى الآية التالية يلج القرآن الكريم طريقا آخر لإبطال عقائد المشركين، و يجعل مسألة «الرازقية» عنوانا بعد طرحه لمسألة «الخالقية» التى مرّت معنا فى الآيات السابقة. و هذا الدليل- أيضا- يطرحه القرآن بصيغة السؤال و الجواب من أجل إيقاظ وجدان هؤلاء و

الفاتهم إلى اشتباههم من خلال تثوير الجواب فى ذواتهم.

يقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

بـديهى أن لا ـ أحـد منهم يسـتطيع القول بـأنّ هـذه الأصـنام الحجريـة و الخشبيـة هى التى تنزل المطر من السـماء، أو تنبت النباتات فى الأرض، أو تسخّر المنابع الأرضية و السماوية لنا.

الجميل أنّه- بدون انتظار الجواب منهم- يردف تعالى قائلا: قُلِ اللَّهُ

قل اللّه الذى هو منبع كلّ هذه البركات، أى أنّ الأمر واضح إلى درجة لا يحتاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۲

إلى جواب من طرف آخر، بل إنّ للسائل و المجيب رأيا واحـدا، لأنّ المشـركين يعتقـدون بأنّ اللّه هو الخالق و الرازق، و الأصـنام لها مقام الشفاعة فقط.

من الجدير بالملاحظة- أيضا- أنّ الأرزاق التى تصل إلى الناس من السماء ليست محصورة بالغيث، بل إنّ النور و الحرارة الصادرة عن الشمس، و الهواء الموجود فى جوّ الأرض، هى الاخرى لا تقلّ أهميّة عن قطرات المطر.

كمـا أنّ بركـات الأـرض كـذلك، ليست محصورة فى النباتـات، بل إنّ المنابع المائيـة تحت سـطح الأرض، و المعادن المختلفـة التى كانت معروفة فى ذلك الوقت و التى عرفت بعد مرور الزمان تندرج تحت هذا العنوان أيضا.

آخر الآية تشير إلى موضوع يمكنه أن يكون أساسا لدليل واقعى و متوائم مع غاية الأدب و الإنصاف، بطريقة تسـتنزل الطرف المقابل من مركب الغرور و العناد الذى يمتطيه، و تدفعه إلى التفكّر و التأمّل، يقول تعالى: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ۳۷۹].

و هـذا إشارة إلى: أنّ عقيـدتنا و عقيـدتكم متضادّتان، و عليه- بناء على اسـتحالة الجمع بين النقيضـين- فلا يمكن أن تكون الدعوتان على حقّ، لذا فمن المحتّم أن يكون أحد الفريقين أهل هدى، و الثّانى أسير الضلال.

و الآن عليكم أن تفكّروا فى أىّ الفئتين على هدى، و أيّهما على ضلال؟ ..

انظروا إلى علامات و خصائص كلّ منهما، و مدى تطابقها مع علامات الهدى و الضلال.

و هـذا أحـد أفضل أساليب المناظرة و البحث، بأن يضع الطرف الآخر فى حالة من التفكّر و التفاعل، و ما يتوهّمه البعض أنّ ذلك نوع من التقيّة فهو منتهى الاشتباه.

الملفت للنظر هو ذكر «على» من «الهدى» و «فى» مع «الضلال»، إشارة إلى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۳

المهتـدين كأنّهم يركبون مركبا سـريعا، أو يسـتعلون منارا عاليا و يتسلّطون على كلّ شـىء، فى حال كون الضالّين مغمورين فى ظلمة جهلهم.

و من الجـدير بالملاحظـة كذلك هو أنّه تعالى تحدّث عن «الهدى» أوّلا ثمّ «الضـلال»، و ذلك أنّه قال: «إنّا» فى بداية الجملة أوّلا، ثمّ قال «إيّاكم»، لتكون تلميحا إلى هدى الفريق الأوّل، و ضلالة الفريق الثانى.

و رغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ وصف «المبين» يرتبط فقط (بالضلال)، بلحاظ أنّ الضلال أنواع و ضلال الشرك أوضحها. و لكن يحتمل أيضا أن يكون هـذا الوصف للهـدى و الضـلال على حـدّ سواء، لأنّ «الصـفة» فى مثل هـذه الموارد لا تتكرّر لتكون أكثر بلاغة، و عليه فيكون (الهدى) مبنيا و (الضلال) مبنيا، كما ورد فى كثير من آيات القرآن ۳۸۰].

و تستمرّ الآية التى بعدها بالاستدلال بشكل آخر- و لكن بنفس النمط المنصف الذى يستنزل الخصم من مركب العناد و الغرور. يقول تعالى: قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ

و العجيب هنـا أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله مـأمور باسـتعمال تعبير «جرم» فيما يخصّه، و تعبير «أعمال» فيما يخصّ الطرف الآخر، و

بذا تتّضح حقيقة أنّ كلّ شخص مسئول أن يعطى تفسيرا لأعماله و أفعاله، لأنّ نتائج أعمال أى إنسان تعود عليه، حسنها و قبيحها، و فى الضمن إشارة لطيفة إلى إنّنا إنّما نصرّ على إرشادكم و هدايتكم، لا لأنّ ذنوبكم تقيّد فى حسابنا، و لا لأنّ شرّكم يضرّ بنا، نحن نصرّ على ذلك بدافع الغيرة عليكم و طلبا للحقّ.

الآية التالية- فى الحقيقة- توضيح لنتيجة الآيتين السابقتين، فبعد أن نبّه إلى أنّ أحد الفريقين على الحقّ و الآخر على الباطل، و إلى أنّ كلّا منهما مسئول عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۴

أعماله، انتقل إلى توضيح كيفية التحقّق من وضع الجميع، و التفريق بين الحقّ و الباطل و مجازاة كلّ فريق طبق مسئوليته، فيقول تعالى، قل لهم بأنّ اللّه سوف يجمعنا فى يوم البعث، و يحكم بيننا بالحقّ، و يفصل بعضنا عن بعض، حتّى يعرف المهتدون من الضالّين، و يبلغ كلّ فريق بنتائج أعماله. قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ

و إذا كنتم اليوم ترون أنّكم مخلوطون بعضكم البعض، و كلّا يدّعى بأنّه على الحقّ و بأنّه من أهل النجاة، فإنّ هذا الوضع لن يدوم إلى الأبد، و لا بدّ أن يأتى يوم التفريق بين الصفوف. فربوبية اللّه اقتضت فصل «الطيب» من «الخبيث» و «الخالص» من «المشوب» و «الحقّ» عن «الباطل» فى النهاية. و يستقرّ كلّ منهما فى مكانه اللائق.

فكّروا الآن ماذا ستعملون فى ذلك اليوم؟ و فى أى صفّ ستقفون؟ و هل أحضرتم إجابة لمساءلة اللّه فى ذلك اليوم؟.

و فى آخر الآية يضيف ليؤكّد حتمية ذلك التفريق فيقول: وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ

هذان الاسمان- و هما من أسماء اللّه الحسنى- أحدهما يشير إلى قدرة اللّه تعالى على عملية فصل الصفوف، و الآخر إلى علمه اللامتناهى. إذ أنّ عملية تفريق صفوف الحقّ عن الباطل لا يمكن تحقّقها بدون هاتين الصفتين. و استخدام كلمة «الربّ» فى الآية أعلاه إشارة إلى أنّ اللّه هو المالك و المربّى للجميع، و ذلك ممّا يقتضى أن يكون برنامج مثل ذلك اليوم معدّا، و فى الحقيقة هى إشارة لطيفة إلى إحدى دلائل «المعاد».

لفظة «فتح»، كما يشير الراغب فى مفرداته «الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال، و ذلك ضربان: أحدهما يدرك بالبصر كفتح الباب و نحوه، و كفتح القفل، و الغلق و المتاع. و الثّانى: يدرك بالبصيرة كفتح الهم و هو إزالة الغمّ، و ذلك ضروب: أحدها:

فى الأمور الدنيوية كغمّ يفرج و فقر يزال بإعطاء المال و نحوه، و الثانى: فتح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۵

المستغلق من العلوم، ... إلى أن يقول: و «فتح القضيّة فتاحا» فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها». و عليه فإنّ استخدام هذه المفردة هنا لأنّ الحكم و القضاء يتمّ أيضا هناك، فضلا عن الفصل و التفريق بينهما الذى هو أحد معانى كلمة «فتح»- و مجازاة كلّ بما يستحق.

الجدير بالملاحظة، هو أنّ بعض الرّوايات أشارت إلى ذكر «يا فتّاح» فى الأدعية لحلّ بعض المعضلات، لأنّ هذا الاسم الإلهى العظيم و هو بصيغة المبالغة من الفتح- يدلّل على قدرة اللّه على حلّ أى مشاكل و رفع أى حسرة و غمّ، و تهيئة أسباب أى فتح و نصر، و فى الواقع فإنّه هو وحده (الفتّاح)، و مفتاح كلّ الأبواب المغلقة فى يد قدرته تعالى.

فى الآية الأخيرة من هذه الآيات و التى هى عبارة عن الأمر الخامس للرسول صلّى اللّه عليه و آله يعود القرآن إلى الحديث مرّة اخرى فى مسألة التوحيد التى ابتدأ بها ليختمه بها، يقول تعالى: قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ.

فما هى قيمة هؤلاء و قابلياتهم؟ فإن كان مقصودكم حفنة الحجر و الخشب الجامدة الميتة. فإنّ ذلك لممّا يدعو إلى الخجل و يدلّل على سوء التوفيق أن تتوهّموا تشابه أحقر الموجودات- و هى الجمادات ممّا صنعت أيديكم- مع اللّه تعالى. و إن اعتقدتم بأنّها تمثّل الأرواح و الملائكة فالمصيبة أعظم، لأنّ هؤلاء أيضا مخلوقات له سبحانه و تعالى، و منفذة لأوامره.

لذا فبعد هذه الجملة مباشرة، و بكلمة واحدة يشطب على هذه الأباطيل فيقول:

كَلَّا فهـذه الأشـياء لا تسـتحقّ أن تعبـد أبـدا و هـذه الأوهام و التصورات ليس لها شـىء من الواقعيـة، فإلى متى تسـلكون هـذه الطريقة الخاطئة.

و كلمة «كلّا» مع صغرها استبطنت كلّ هذه المعانى.

ثمّ لأجل تأكيد و تثبيت هذا المعنى يقول مختتما الحديث بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ فعزّته و قدرته الخارقة، تقتضـى الدخول فى حريم ربوبيته، و حكمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۶

تقتضى توجيه هذه القدرة فى محلّها.

نعم، فـإنّ امتلاـك هـذه الصـفات علامـة كونه واجب الوجود، و واجب الوجود وجود لاـ نهايـة له و لاـ حـدّ، و غير قابل للتعـدّد، و لا شريك له و لا شبيه، لأنّ أى تعدّد له يعنى حدّه و إمكانيته، بينما «الوجود اللامتناهى» دائما و أبدا و احد لا غير «تأمّل».

بحث

طريق تسخير القلوب:

كثيرا مـا يلاحـظ أفراد فضـلاء و على مسـتوى من العلم و المعرفـة، لاـ يمكنهم النفوذ فى أفكـار الآـخرين، لعـدم اطّلاعهم على الفنون الخاصّـة بالبحث و الاسـتدلال، و عـدم رعايتهم للجوانب النفسـية، على عكس البعض الآخر الـذين ليسوا على و فرة من العلم، إلّا أنّهم موفّقين من ناحية جذب القلوب و تسخيرها و النفوذ فى أفكار الآخرين.

و العلّة الأساسـية لذلك هى أنّ طريقة البحث، و أسـلوب التعامل مع الطرف المقابل يجب أن تكون مقرونة بأصول و قواعد تتّسق مع الخلق و الروح، فلاـ تسـتثار الجوانب السـلبية فى الطرف المقابـل، كى لاـ ينـدفع إلى العنـاد و الإصـرار، إذ أنّ مراعـاة الجانب النفسـى ستؤدّى إلى إيقاظ وجدانه و إثارة روح البحث عن الحقيقة و إحيائها فيه.

و المهمّ هنـا أن نعلم أنّ الإنسـان ليس فكرا و عقلاـ صـرفا كى يستسـلم أمام قـدرة الاسـتدلال، بل علاوة على ذلك فإنّ مجموعـة من العواطف و الأحاسيس التى تشكّل جانبا مهمّا من روحه مطوية فى وجوده، و التى يجب إشباعها بشكل صحيح و معقول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۷

و القرآن الكريم علّمنا كيفية مزج البحوث المنطقية بالأصول الأخلاقية فى المحاورة، حتّى تنفذ فى أرواح الآخرين.

شرط التأثير و النفوذ فى روح الطرف المقابل هو إحساس الطرف المقابل بأنّ المتحدّث يتحلّى بالصفات التالية:

۱- مؤمن بما يقول، و ما يقوله صادر من أعماقه.

۲- هدفه من البحث طلب الحقّ، و ليس التفوّق و التعالى.

۳- لا يقصد تحقير الطرف المقابل، و إعلاء شأن نفسه.

۴- ليس له مصلحة شخصية فيما يقول، بل إنّ ما يقوله نابع من الإخلاص.

۵- يكنّ الاحترام للطرف المقابل، لذا فهو يستخدم الأدب و الرقّة فى تعبيراته.

۶- لا يريد إثارة العناد لدى الطرف المقابل، و يكتفى من البحث فى موضوع بالمقدار الكافى، دون الإصـرار على إثبات أنّ الحقّ إلى جانبه. ليعرض حديثه.

۷- منصف، لا يفرط بالإنصاف أبدا، حتّى و إن لم يراع الطرف المقابل هذه الأصول.

۸- لا يقصد تحميل الآخرين أفكاره، بل يرغب فى إيجاد الدافع لدى الآخرين حتّى يوصلهم إلى الحقيقة بمنتهى الحرية.

الدقّة المتناهية فى هذه الآيات، و أسلوب تعامل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله- بأمر اللّه- مع المخالفين، المقترن بكثير من اللفتات الجميلة، تعتبر دليلا حيّا على ما ذكرناه. فهو أحيانا يصل إلى حدّ لا يشير بدقّة إلى المهتدى أو المضلّ فى أحد الفريقين، بل يقول: وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ حتّى يثير فى الذهن التساؤل عن علامات الهدى أو الضلال فى أى الفريقين.

أو يقول: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِ

طبعا لا يمكن إنكار أنّ كلّ ذلك بالنسبة إلى الأشخاص المؤمّل اهتداؤهم، و إلّا فإنّ القرآن يتعامل مع الأعداء المعاندين و الظلمة القساة الذين لا يؤمّل منهم القبول بذلك بطريقة اخرى. أسلوب محاورات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و الأئمّة عليهم السّلام مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۸

مخالفيهم يمثّل نموذجا حيّا فى هذا المجال، و كمثال على ذلك لاحظوا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام بهذا الخصوص فى كتب الحديث:

ففى أوائل كتاب توحيد المفضّل نقرأ «روى محمّد بن سنان قال: حدّثنى المفضّل بن عمر قال: كنت ذات يوم بعد العصر جالسا فى الروضة الشريفة بين القبر و المنبر، و أنا مفكّر فيما خصّ اللّه تعالى به سيّدنا محمّدا صلّى اللّه عليه و آله، من الشرف و الفضائل، و ما منحه و أعطاه و شرّفه و حباه، ممّا لا يعرفه الجمهور من الامّة و ما جهلوه من فضله و عظيم منزلته، و خطير مرتبته، فإنّى لكذلك إذ أقبل «ابن أبى العوجاء، «رجل ملحد معروف». إلى أن يذكر أحاديث هذا الرجل التى سمعها المفضّل ... إلى أن (قال المفضّل): فلم أملك نفسى غضبا و غيظا و حنقا، فقلت:

يا عدوّ اللّه ألحدت فى دين اللّه، و أنكرت البارى جلّ قدسه الذى خلقك فى أحسن تقويم و صوّرك فى أتمّ صورة، و نقلك فى أحوالك حتّى بلغ إلى حيث انتهيت. فلو تفكّرت فى نفسك و صدقك و لطيف حسّك، لوجدت دلائل الربوبية و آثار الصنعة فيك قائمة، و شواهده جلّ و تقدّس فى خلقك واضحة، و براهينه لك لائحة، فقال:

يا هذا إن كنت من أهل الكلام كلّمناك فإن ثبتت لك حجّة تبعناك، و إن لم تكن منهم فلا كلام لك، و إن كنت من أصحاب جعفر بن محمّد الصادق فما هكذا تخاطبنا، و لا بمثل دليلك تجادل فينا، و لقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش فى خطابنا، و لا تعدّى فى جوابنا، و إنّه الحليم الرزين، العاقل الرصين، لا يعتريه خرق و لا طيش و لا نزق، يسمع كلامنا، و يصغى إلينا و يتعرّف حجّتنا، حتّى إذا استفرغنا ما عندنا، و ظننا أنّا قطعناه، دحض حجّتنا بكلام يسير، و خطاب قصير يلزمنا به الحجّة، و يقطع العذر، و لا نستطيع لجوابه ردّا، فإن كنت من أصحابه فخاطبنا بمثل خطابه»[۳۸۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۴۹

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۸) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۲۹) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ (۳۰)

التّفسير

الدّعوة العالمية:

الآية الاولى من هذه الآيات، تتحدّث فى نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله، و الآيات التى تليها تتحدّث حول الميعاد، و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد، نصبح أمام مجموعة كاملة من بحوث العقائد، تتناسب مع كون السورة مكية.

أشارت الآيات ابتداء إلى شمولية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و عمومية نبوّته لجميع البشر فقالت: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

«كافّة» من مادّة «كفّ» و تعنى الكفّ من يد الإنسان، و بما أنّ للإنسان يقبض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۰

على الأشياء بكفّه تارة و يدفعها عنه بكفّه تارة اخرى، فلذا تستخدم هذه الكلمة للقبض أحيانا، و للمنع اخرى.

و قد احتمل المفسّرون الاحتمالين هنا، الأوّل بمعنى «الجمع» و فى هذه الحالة يكون مفهوم الآية «إنّنا لم نرسلك إلّا لجميع الناس». أى عالمية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله. و يقوّى هذا المعنى روايات عديدة وردت فى تفسير الآية من طرق الفريقين.

و عليه فمحتوى الآية شبيه بالآية (۱) سورة الفرقان تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً. و كذلك الآية (۱۹) من سورة الأنعام وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ

جاء فى حديث عن ابن عبّاس ينقله المفسّرون بمناسبة هذه الآية، أنّ عمومية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله ذكرت كواحدة من مفاخره العظيمة.

فعنه صلّى اللّه عليه و آله يقول: «أعطيت خمسا و لا أقول فخرا، بعثت إلى الأحمر و الأسود، و جعلت لى الأرض طهورا و مسجدا، و أحلّ لى المغنم و لا يحلّ لأحد قبلى، و نصرت بالرعب فهو يسير أمامى مسيرة شهر، و أعطيت الشفاعة فادّخرتها لامّتى يوم القيامة»[۳۸۲].

و إن كان لم يرد فى الحديث أعلاه تصريح بتفسير الآية، فثمّة أحاديث اخرى بهذا الخصوص، إمّا أن تصرّح بأنّها فى تفسير الآية، أو يرد فيها تعبير «للناس كافّة» الذى ورد فى نفس الآية[۳۸۳]. و جميعها تدلّل على أنّ مقصود الآية أعلاه، هو عالمية دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله.

و ذكر للآية تفسير آخر مأخوذ من المعنى الثّانى لكلمة «كفّ» و هو (المنع)، و طبقا لهذا التّفسير تكون «كافّة» صفة للرسول صلّى اللّه عليه و آله ۳۸۴] و يكون المقصود أنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۱

سبحانه و تعالى أرسل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله كمانع و رادع و كافّ للناس عن الكفر و المعصية و الذنوب، و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

على كلّ حال- كما أنّ لكلّ الناس غريزة جلب النفع و دفع الضرر- فقد كان للرسل أيضا مقام «البشارة» و «الإنذار». لكى يوظّفوا هاتين الغريزتين و يحرّكوهما، و لكن أكثر المغفّلين الجهّال- بدون الالتفات إلى مصيرهم- ينهضون للوقوف فى وجههم و يتنكّرون تلك المواهب الإلهية العظيمة.

و بناء على ما أشارت إليه الآيات السابقة من أنّ اللّه سبحانه و تعالى يجمع الناس و يحكم بينهم تورد هذه الآية سؤال منكرى المعاد كما يلى: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

لقد طرح هذا السؤال من قبل منكرى المعاد على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله أو الأنبياء الآخرين مرارا، حينا لفهم و إدراك هذا المطلب، و أغلب الأحيان للاستهزاء و السخرية من قبيل: أين هذه القيامة التى تؤكّدون على ذكرها مرارا و تكرارا، لو كانت حقّا فقولوا متى ستأتى؟ إشارة منهم إلى أنّ الإنسان الصادق فى إخباره يجب أن يعلم بجميع جزئيات الموضوع الذى يخبر عنه.

و لكن القرآن الكريم يمتنع دائما عن الإجابة الصريحة على هذا السؤال و تعيين زمان وقوع البعث، و يؤكّد أنّ هذه الأمور هى من علم اللّه الخاصّ به سبحانه و تعالى، و ليس لأحد غيره الاطلاع عليها.

لذا فقد تكرّر فى الآية التى بعدها، هذا المعنى بعبارة اخرى، يقول تعالى: قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ

إنّ إخفاء تأريخ قيام الساعة- حتّى على شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله- كما أسلفنا- لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أراد لعباده نوعا من حرية العمل مقترنة بحالة من التهيّؤ الدائم، لأنّه لو كان تأريخ قيام القيامة معلوما فإنّ الجميع سيغطّون فى الغفلة و الغرور و الجهل حينما يكون بعيدا عنهم، أمّا حين اقترابه منهم فستكون أعمالهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۲

ذات جنبة اضطرارية، و فى كلتا الحالتين تتحجّم الأهداف التربوية للإنسان، لذا بقى تأريخ القيامة مكتوما، كما هو الحال بالنسبة إلى «ليلة القدر» تلك الليلة التى هى خير من ألف شهر، أو تاريخ قيام المهدى عليه السّلام، و عبّر عن ذلك المعنى بلطف ما ورد فى الآية (۱۵) من سورة طه إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى

أمّا أولئك الذين يتصوّرون أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يجب أن يكون على علم بالتأريخ الدقيق ليوم القيامة لأنّه يخبر عنها، فإنّ ذلك غاية الاشتباه، و دليل على عدم معرفتهم بوظيفة النبوّة، فالنّبى مكلّف بالإبلاغ و البشارة و الإنذار، أمّا مسألة القيامة فمرتبطة باللّه سبحانه و تعالى، و هو وحده الذى يعلم تمام تفاصيلها، و ما يراه اللّه لازما لأغراض تربوية، أطلع عليه الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله.

هنا يثار سؤال، و هو أنّ القرآن الكريم فى مقام تهديد المخالفين يقول: لا تَسْتَأْخِرُونَ و لكن لماذا يقول أيضا: لا تَسْتَقْدِمُونَ فما هو تأثير ذلك فى هدف القرآن.

للإجابة يجب الالتفات إلى نكتتين:

الاولى: أن ذكر ذينك الإثنين معا إشارة إلى قطعية و دقّة تأريخ أى أمر، تماما كما تقول: «فلان قطعى الموعد، و ليس لديه تقديم أو تأخير».

الثّانية: أنّ جمعا من الكفّار المعاندين يلحّون على الأنبياء دائما، بقولهم: لماذا لا تأتى القيامة؟ و بتعبير آخر، كانوا يستعجلون ذلك الأمر سواء كان ذلك من قبيل الاستهزاء أو غير ذلك. و القرآن يقول لهم: «لا تستعجلوا فإنّ تأريخ ذلك اليوم هو عينه الذى قرّره اللّه سبحانه و تعالى».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۱ الى ۳۳]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (۳۱) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (۳۲) وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِى أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۳۳)

التّفسير

لمناسبة البحث الوارد فى الآيات السابقة، حول مواقف المشركين إزاء مسألة المعاد، تعرّج هذه الآيات إلى تصوير بعض فصول المعاد المؤلمة لهؤلاء المشركين كى يقفوا على خاتمة أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۴

أوّلا، يقول تعالى: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ أى و لا بالكتب السماوية السابقة.

كلمة «لن» للنفى الأبدى، و عليه فهم يريدون القول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: انّك حتّى لو بقيت تدعونا للإيمان إلى الأبد فلن نؤمن لك، و هذا دليل على عنادهم، بحيث أنّهم صمّموا على موقفهم إلى الأبد، فى حين أنّ من يطلب الحقّ و يسعى له، إذا لم يقتنع بدليل ما لا يمكنه أن ينكر جميع الأدلّة الممكن ظهورها مستقبلا قبل أن يسمعها، فيقول: إنّى أردّ جميع الأدلّة الأخرى أيضا.

أمّا من المقصود ب «الذين كفروا»؟ فقد أشار جمع من المفسّرين إلى أنّهم «المشركون»، و بعضهم أشار إلى أنّهم «اليهود و أهل الكتاب»، و لكن القرائن الواردة فى الآيات اللاحقة، و التى تتحدّث عن الشرك، تدلّل على أنّ المقصود هم المشركون.

و المقصود من «الذى بين يديه» هو تلك الكتب السماوية التى نزلت قبل القرآن على أنبياء سابقين، و قد ورد هذا التعبير فى كثير من آيات القرآن مشيرا إلى هذا المعنى- خصوصا بعد ذكر القرآن- و ما احتمله البعض من أنّ المقصود منه هو «المعاد» أو «محتوى القرآن» فيبدو بعيدا جدّا.

على كلّ حال فإنّ إنكار الإيمان بكتب الأنبياء السابقين، يحتمل أن يكون المقصود به. نفى نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله من خلال نفى الكتب السماوية الاخرى، باعتبار أنّ القرآن أكّد على موضوع ورود دلائل على نبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله فى التوراة و الإنجيل، و لهذا يقولون: نحن لا نؤمن لا بهذا الكتاب و لا بالكتب التى سبقته.

ثمّ تنتقل إلى الحديث حول وضع هؤلاء فى القيامة من خلال مخاطبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله فيقول تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۵

إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ ۳۸۵].

و مرّة اخرى يستفاد من الآية أعلاه أنّ من أهمّ مصاديق «الظلم» هو «الشرك و الكفر».

التعبير «عند ربّهم» إشارة إلى أنّهم حاضرون بين يدى مالكهم و ربّهم، و ما أكثر و أشدّ خجلا من أن يكون الإنسان حاضرا بين يدى من كفر به، فى حين أنّ كلّ وجوده غارق بنعمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۳ ؛ ص۴۵۵

حين أنّ «المستضعفين» الذين اتّبعوا بجهلهم «المستكبرين» و هم الذين سلكوا طريق الغرور و التسلّط على الآخرين و رسموا لهم منهجهم الشيطانى، هناك: يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

إنّهم يريدون بذلك إلقاء مسئولية ذنوبهم على عاتق هؤلاء «المستكبرين»، مع أنّهم لم يكونوا حاضرين للتعامل معهم بمثل هذه القاطعية فى دار الدنيا، لأنّ الضعف و الخور و الذلّة كانت حاكمة على وجودهم، و قد فقدوا حريتهم، أمّا هناك و بعد أن تبعثرت تلك المفاهيم الطبقية التى كانت سائدة فى دار الدنيا، و انكشفت نتائج أعمال الجميع، فهم يقفون وجها لوجه مقابل هؤلاء و يتحدّثون بصراحة و يتلاومون معهم.

لكن «المستكبرين» لا يبقون على صمتهم بل قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ كلّا، فلسنا بمسؤولين، فمع امتلاككم حرية الإرادة، استسلمتم لأحاديثنا الباطلة، و كفرتم و ألحدتم متناسين أحاديث الأنبياء المنطقية، بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ

صحيح أنّ المستكبرين ارتكبوا ذنبا كبيرا بوسوستهم، و لكن حديثهم الذى تذكره الآية الكريمة له حقيقة أيضا، حيث أنّ المتملّقين لم يكن عليهم أن يصمّوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۶

أسماعهم و أبصارهم و يلهثوا وراءهم، و إنّما عليهم أيضا مسئولية ذنوبهم.

و لكن المستضعفين لا- يقتنعون بهذا الجواب، و يعاودون القول مرّة اخرى لإثبات جرم المستكبرين: وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً.

نعم، فأنتم الذين لم تكفوا عن بثّ السموم، و لم تفرطوا بأى فرصة من الليل أو النهار من أجل تحقيق أهدافكم المشؤومة، فصحيح أنّنا كنّا أحرارا فى القبول بذلك، و بذا نكون مقصّرين و جناة، و لكن باعتباركم عامل الفساد فأنتم مسئولون و مجرمون، بل إنّكم واضعو حجر الأساس لذلك، خاصّة و أنّكم كنتم تتحدّثون معنا دائما من موقع القدرة و السلطة، (التعبير ب «تأمروننا» شاهد على هذا المعنى).

بديهى أنّ المستكبرين لا يملكون جوابا لهذا القول، و لا يمكنهم إنكار جرمهم الكبير ذاك، لذا فإنّ الفريقين يندمون على ما قدّمت أيديهم، المستكبرون على إضلالهم للآخرين، و المستضعفون على إيمانهم و قبولهم بتلك الأباطيل المشؤومة، و لكن لكى لا يفتضحوا أكثر فانّهم يكتمون الندم حينما يواجهون العذاب الإلهى ..

وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

فمع أنّ الكتمان لا- ينفع فى «يوم البروز» هناك، و مع عدم إمكانية إخفاء شىء، إلّا أنّهم- جريا على ما تعوّدوه فى الدنيا من قبل- يتوهّمون أنّ فى استطاعتهم كتمان حالتهم، فيلجئون إلى ذلك.

نعم، فهم فى الدنيا حينما يلتفتون إلى اشتباههم و يندمون لم يكونوا يمتلكون الشجاعة لإظهار ندمهم الذى هو أوّل طريق التوبة و إعادة النظر، و تلك هى الخصلة الأخلاقية الخاصّة بهم و التى يمارسونها فى الآخرة أيضا. و لكن ما الفائدة؟

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون ذلك الكتمان للندامة بسبب الرهبة الشديدة من مشاهدة العذاب الإلهى، و انحباس أنفاسهم فى صدورهم و انعقاد ألسنتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۷

نتيجة الأغلال التى غلّت بها رقابهم و السلاسل التى لفّتهم. مع أنّهم يطلقون صرخاتهم فى مواقف اخرى من القيامة يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ ۳۸۶].

و قال آخرون: إن «أسرّوا» بمعنى «أظهروا» بناء على أنّ هذه اللفظة تستعمل لمعنيين متضادّين فى اللغة العربية، و لكن من ملاحظة الموارد التى استعملت فيها هذه اللفظة فى القرآن و غير القرآن، يبدو هذا المعنى مستبعدا، بلحاظ أنّ «سرّ» عادة تستخدم للإشارة إلى ما يقابل «العلن». و قد ضعّف الراغب هذا المعنى أيضا مع أنّ بعض علماء اللغة أشار إلى كلا المعنيين ۳۸۷].

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء قد وجدوا نتائج أعمالهم هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ

نعم، فأعمال و جنايات الكفّار و المجرمين هى التى أضحت قيودا و سلاسل تلفّ أعناقهم و أيديهم و أرجلهم، لقد كانوا فى هذه الدنيا أسارى هوى النفس و الطمع و الظلم و الرغبة فى المقام، و فى يوم القيامة حيث تتجسّد الأعمال، يظهر ذلك الأسر بشكل آخر ... إذن، فالآية تشير أيضا إلى قضيّة تجسّم الأعمال التى أشرنا إليها مرارا. لأنّها تقول: هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ و أى تعبير أكثر وضوحا و حيوية من ذلك التعبير عن تجسّم الأعمال.

التعبير ب «الذين كفروا» يشير إلى أنّ فريقى الغاوين و المغويين المستضعفين و كلّ الكفّار يلقون ذلك المصير، و عادة فإنّ ذكر ذلك الوصف هو إشارة إلى أنّ علّة عقابهم إنّما هى «كفرهم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۸

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۴ الى ۳۸]

اشارة

وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۳۴) وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۳۵) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۶) وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (۳۸)

التّفسير

الأموال و الأولاد ليست دليلا على القرب من اللّه ..

بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة فى الغاوين من المستكبرين، فإنّ جانبا آخر من هذا المبحث تعكسه الآيات أعلاه بطريقة اخرى، و تقدّم المواساة أيضا للرسول صلّى اللّه عليه و آله ضمن إشارتها بأن لا تعجب إذا خالفك المخالفون، فإنّ المستكبرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۵۹

المرفّهين طبعوا على مخالفة أنبياء الحقّ، فتقول الآية المباركة: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ «نذير» من «الإنذار» و هو الإخبار الذى فيه تخويف، و إشارة إلى أنبياء اللّه الذين ينذرون الناس من عذاب اللّه فى قبال الانحرافات و الظلامات و الذنوب و الفساد.

«مترفوها» جمع «مترف» من مادّة «ترف» بمعنى «التوسّع فى النعمة» و (المترف) الذى قد أبطرته النعمة و سعة العيش. و أترفته النعمة أى أطغته ۳۸۸].

نعم، فإنّ هذه الفئة المترفة الغافلة الطاغية كانت الصف المتقدّم من مخالفى الأنبياء عادة، لأنّهم يرون أنّ تعليمات الأنبياء تتضارب مع أمانيهم و أهوائهم من جهة، و لأنّ الأنبياء يدافعون عن حقوق المحرومين التى اغتصبها هؤلاء المترفين و نالوا هذا النعيم، من جهة ثانية، و لأنّهم دائما يستخدمون عامل التسلّط لحماية مصالحهم و أموالهم من جهة ثالثة، و الأنبياء يقفون قبالهم فى كلّ هذه الحالات، لذا فإنّهم يهبّون فورا لمخالفة الأنبياء.

العجيب أنّهم لا يشيرون إلى حكم أو فقرة خاصّة ليخالفوها، بل إنّهم فورا و مرّة واحدة يقولون (نحن كافرون بكلّ ما بعثتم به) و لن نخطوا معكم خطوة واحدة، و هذا بعينه أحسن دليل على عنادهم و تعصّبهم إزاء الحقّ.

و قد كشف القرآن فى آيات مختلفة عن مسألة مهمّة، و هو أنّ المحرومين هم أوّل من يلبّى دعوة الأنبياء، و المتنّعمين المغرورين أيضا هم أوّل مجموعة ترفع لواء المخالفة.

و رغم أنّ منكرى دعوة الأنبياء لا ينحصرون فى هذه المجموعة فقط، و لكنّهم غالبا عامل الفساد الأوّل و الدعاة إلى الشرك و الخرافات، و يسعون دوما إلى إكراه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۰

الآخرين لسلوك طريقهم. و ردّ هذا المعنى أيضا فى الآيات ۲۳- الزخرف، و ۱۱۶- هود، و ۳۳- المؤمنون.

هـذه المجموعـة لم تقف فقط فى وجه الأنبياء فحسب، بل قبال أيّة خطوة إصـلاحية من قبل أى عالم أو مصـلح أو مفكّر مجاهد، فقد كانوا السبّاقين للمخالفة، و لا يتورّعون فى ارتكاب أيّة جريمة و تآمر ضدّ هؤلاء المصلحين.

تشـير الآيـة التاليـة إلى المنطق الأجوف الـذى يتمسّك به هؤلاء لإثبات أفضـليتهم و لاسـتغفال العوام فتقول: وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً.

إنّ اللّه يحبّنا، فقـد أعطانا المال الوفير، و القوّة البشـرية، و ذلك دليل على لطفه بحقّنا و إشارة إلى مقامنا و موقعنا عنـده، و لـذلك لن نعاقب أبدا وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ فلو كنّا مطرودين من رحمته فلم سخّر لنا كلّ هذه النعم؟ الخلاصة، إنّ وفرة النعيم فى دنيانا دليل واضح على كونه كـذلك آخرتنا!! بعض المفسّـرين احتملوا أن يكون قولهم: وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ دليلا على إنكارهم الكلّى للقيامة و العذاب.

و لكن الآيات اللاحقة تدلّل على عدم قصد هذا المعنى، بل المراد هو (القرب من اللّه بسبب الثروة التى يملكونها).

الآية التى بعدها تردّ بأرقى أسـلوب على هذا المنطق الأجوف الخدّاع و تنسـفه من الأساس، و بطريق مخاطبة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله تقول الآيـة الكريمـة: قل لهم: إنّ ربّى يرزق من يشاء و يقـدر لمن يشاء، و ذلك أيضا طبق مصالـح مرتبطة بامتحان الخلق و بنظام حياة الإنسان، و ليس له أى ربط بقدر و مقام الإنسان عند اللّه سبحانه و تعالى: قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

و عليه فلا يجب اعتبار سعة الرزق دليلا على السعادة، و قلّته على الشقاء.

وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ طبعا أكثر الجهّال المغفّلين هم كذلك، و إلّا فإنّ هذا الأمر واضح للعارف.

ثمّ تتابع الآيات هذا المعنى بصراحة أكثر. تقول: وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۱

بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى ۳۸۹] لقـد عمّ هـذا الاشـتباه الخطير بعضـا من البسـطاء، و تصوّروا بـأنّهم مـا داموا محرومين فى الـدنيا فهم مغضوب عليهم و مطرودون من رحمة اللّه، و هؤلاء المرفّهون هم المحبوبون المقبولون لديه.

ما أكثر المحرومين الذين امتحنوا بالحرمان، فنالوا أرقى الدرجات و المراتب الروحية.

و ما أكثر المرفّهين الذين أصبحت أموالهم و ثرواتهم وبالا عليهم و مقدّمة لعقابهم.

أليس قد ذكرت الآية (۱۵) من سورة التغابن بصراحة إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

و لكن ليس معنى هـذا هو حثّ الإنسـان على ترك السـعى و الـدأب اللاـزم لإقامـة الأـود، بـل المقصود هو التأكيـد على أنّ امتلاك الإمكانات الاقتصادية و القوّة البشرية الواسعة لا يمثّل أبدا أيّة قيمة معنوية للإنسان عند اللّه.

ثمّ تتنـاول الآيـة موضوع المعيار الأصـلى لتقييم الناس، و ما يسـبّب قربهم منه (على شـكل اسـتثناء منفصل) فتقول: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِى الْغُرُفاتِ آمِنُونَ ۳۹۰].

و عليه فجميع المعايير تعود أصـلا إلى هذين الأمرين «الإيمان» و «العمل الصالح». و يسـتوعب هذا المعيار جميع الأفراد و فى أى زمان أو مكان، و من أى طبقة أو مجموعة كان. و اختلاف مراتب البشـر أمام اللّه إنّما هو بتفاوت درجات إيمانهم و مراتب عملهم الصالح، و لا شىء سوى ذلك. حتّى طلب العلم أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۲

الانتساب إلى أفراد عظماء، بل حتّى للأنبياء، إذا لم يكن مقترنا بهذين الأمرين فإنّه وحده لا يضيف إلى قيمة الإنسان شيئا.

هنـا يشـطب القرآن و بصـراحة قـلّ نظيرهـا على كلّ الظنون المنحرفـة و الخرافات بخصوص عوامل القرب من اللّه، و ما يرفع من قيمة الإنسان، و يخلص إلى أنّ المعيار الأصـيل هو فى شـيئين فقط، يسـتطيع كلّ الناس تحصيلها، و أنّ الإمكانات و المحروميات المادية لا أثر لها فى ذلك.

أجـل، فـإنّ الأـموال و الأولاـد أيضا إذا وجّهت بهـذا المسـير، صـبغت بتلك الصـبغة الإلهيّـة و تقبّلت لون الإيمان و العمل الصالـح، و

أصبحت سببا فى القرب من اللّه. أمّا الأموال و الأولاد التى تبعد الإنسان عن اللّه، و تكون له صنما يعبد من دون اللّه و سببا للفساد و الإفساد، فهى جواذب جهنّم، و كما قال القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [۳۹۱] كلمة «ضعف» ليست بمعنى «مضاعفة الشىء مرتين» فقط، بل بمعنى «أضعاف مضاعفة لأكثر من مرتين». و قد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى. لأنّنا نعلم أنّ أى عمل حسن يحسب عند اللّه بعشرة أمثاله على الأقل مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها.[۳۹۲] و أحيانا أكثر من ذلك بكثير.

«غرفات» جمع «غرفة» بمعنى الحجرات العلوية من البناء، و التى غالبا ما تكون إضاءتها أكثر و هواؤها أفضل. و بعيدة عن الآفات، لذا عبّر القرآن عن أفضل منازل الجنّة (بالغرف). و هذه اللفظة من مادّة «غرف»، على زنة (بحر) بمعنى رفع الشىء و تناوله.

التعبير ب «آمنون» فيما يخصّ أهل الجنّة، تعبير جامع يعكس حالة الطمأنينة الروحية و الجسدية لهم من كافّة النواحى، فلا خوف من هجوم عدوّ، أو مرض، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۳

آفة أو ألم، و لا خوف حتّى من الخوف!، و ليس أغلى من هذه النعمة بأن يكون الإنسان آمنا من كلّ جانب، فلا بلاء أشدّ من الإحساس بعدم الأمن فى مختلف جوانب الحياة.

الآية التالية تصف الفريق المقابل لهؤلاء، فتقول: أمّا هؤلاء الذين يسعون و يجتهدون لتسفيه آياتنا، لا يؤمنون و لا يتركون غيرهم يسيرون فى طريق الإيمان، و يتوهّمون أنّهم يستطيعون الفرار من يد قدرتنا، هؤلاء يحضرون فى عذاب أليم يوم القيامة وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ

هؤلاء هم الذين اعتمدوا على أموالهم و أولادهم و كثرة عددهم لتكذيب الأنبياء، و عملوا على إغواء عباد اللّه، حتّى بلغ غرورهم درجة أن توهّموا أنّهم يفلتون من قبضة العذاب الإلهى، و لكن هيهات فانّ مصيرهم فى قلب جهنّم.

و بما أنّ جملة أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ ليس فيها ما يدلّل على الزمان الآتى- فقد تكون إشارة إلى كون هؤلاء مأسورين بالعذاب حتّى فى الوقت الحاضر، و أى عذاب أشدّ من هذا السجن الذى صنعوه لأنفسهم من أموالهم و أولادهم.

كذلك يحتمل أن يكون التعبير للتدليل على أنّ وعد اللّه مسلّم به إلى درجة يمكن القول بأنّهم حاليا فيه، كما هو الحال بالنسبة إلى قوله: وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ

«معاجزين»: كما ذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ معناه أنّ هؤلاء تصوّروا أنّهم يستطيعون الفرار من دائرة قدرة اللّه تعالى و جزائه و عقابه، إلّا أنّ هذا التوهّم باطل و سراب خادع ۳۹۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۴

بحث

معايير التقييم:

من القضايا المهمّة فى حياة الأفراد و المجتمعات هى قضيّة «معايير التقييم» و «نظام القيم» الذى يتحكّم بثقافة ذلك المجتمع. لأنّ كلّ الحركات الصادرة عن الأفراد و الجماعات فى حياتهم إنّما تنبع من هذا النظام و تهدف إلى خلق تلك القيم.

و اشتباه قوم من الأقوام و امّة من الأمم فى هذه القضيّة و التعامل بقيم خيالية لا أساس لها قد يؤدّى إلى طبع تأريخهم بطابع الغرور. و إدراك القيم الواقعية و المعايير الحقيقية يشكّل أساسا متينا لبناء سعادتهم.

عبيد الدنيا المغرورون يتصوّرون بأنّ القيم تنحصر فقط فى المال و القدرة المادية و التعداد البشرى، و حتّى القيمة أمام اللّه ينظرون إليها من داخل هذا الإطار، كما لاحظنا نموذجا من ذلك فى الآيات السابقة، و هناك نماذج كثيرة من هذا القبيل تلاحظ فى القرآن الكريم، منها:

۱- فرعون، الطاغية المتجبّر، الذى كان يقول لمن حوله بأنّه لا يصدق أنّ موسى عليه السّلام رسول من اللّه، فإن كان حقّا ما يقول فلم لم يعطه اللّه سوارا من الذهب فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ [۳۹۴] و حتّى انّه يرى عدمها دليل هى المهانة و الدونية، فيقول: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ [۳۹۵] ۲- مشركو عصر الرسالة المحمّدية، تعجّبوا من نزول القرآن على رجل فقير كرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و قالوا: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [۳۹۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۵

۳- بنو إسرائيل اعترضوا على نبى زمانهم «أشموئيل» فى قضيّة انتخاب «طالوت» كقائد للجيش و قالوا: نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمالِ [۳۹۷] ۴- مشركو زمان نوح عليه السّلام الأثرياء اعترضوا عليه بأن اتّبعه أراذلهم، و هم الفقراء فى نظرهم قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۳۹۸] ۵- أثرياء مكّة أوردوا نفس هذا الاعتراض على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بقولهم:

لقد أحاط بك الحفاة، و نحن نشمئزّ حتّى من رائحتهم، فلا نتبعك إلّا بابتعادهم عنك. و قد حقّرهم القرآن الكريم فى سورة الكهف بشدّة، و هدّدهم، و أمر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله بأن يكون مع الذين عشقوا اللّه، و يدعونه صباحا و مساء و إن كانوا فقراء وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ [۳۹۹] لهذه الأسباب، كان أوّل عمل إصلاحى يقوم به الأنبياء هو تحطيم اطر التقييم الكاذبة تلك، و استبدالها بالقيم الإلهية الأصيلة و القيام ب «ثورة ثقافية» أبدلوا أساس الشخصية و محورها من الأموال و الأولاد و الثروة و الجاه و الشهرة القبلية و العائلة إلى التقوى و الإيمان و العمل الصالح.

و قد مرّ نموذج لذلك فى الآيات السابقة، فبعد شجب الأموال و الأولاد كوسيلة للتقرّب من اللّه تعالى، و الآية وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى أعطت بعدها مباشرة القيم الأصيلة كبديل بالقول: إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً.

و الآية الشريفة إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ و التى أضحت شعارا إسلاميا بعد استبعاد القيم المرتبطة بالقبيلة و العشيرة، تشير إلى هذه الثورة الفكرية و الاعتبارية. فاستنادا إلى هذه الآية (الحجرات- ۱۳) فليس هناك شىء غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۶

التقوى، و الإيمان المقترن بالشعور بالمسؤولية، و صلاح العمل، ليس سوى ذلك معيارا لتقييم شخصية الإنسان و قربه من اللّه تعالى. و كلّ من كان له نصيب أكبر من ذلك كان إلى اللّه أقرب و عنده أكرم.

و الملفت للنظر أنّ محيط الجزيرة العربية كان قبل نزول التعاليم الإسلامية القرآنية السامية- بتأثير هيمنة القيم الظالمة- خاضعا لأصحاب الأموال و الكذبة من أمثال أبى سفيان و أبى جهل و أبى لهب. و لكن بعد ثورة القيم ظهر من نفس ذلك المحيط أمثال أبى ذرّ و عمّار و المقداد (رضوان اللّه عليهم).

الجميل أنّ القرآن المجيد فى سورة «الزخرف» و بعد ذكر الآيات التى أوردناها آنفا يقول: وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۴۰۰].

هذا كلّه لكى لا تحلّ القيم المزيّفة محلّ القيم الإنسانية الواقعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۷

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۳۹ الى ۴۲]

اشارة

قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ (۳۹) وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أَ هؤُلاءِ إِیَّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ (۴۰) قالُوا سُبْحانَکَ أَنْتَ وَلِیُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ کانُوا یَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَکْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴۱) فَالْیَوْمَ لا یَمْلِکُ بَعْضُکُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِینَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ (۴۲)

التّفسير

نفور المعبودين من عابديهم:

تعود هـذه الآيات لتؤكّـد مرّة اخرى خطأ الذين يتوهمون بأنّ أموالهم و أولادهم سـبب لقربهم من اللّه فتقول: قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ

ثمّ تضيف الآية: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۸

فمع أنّ محتوى هذه الآية يؤكّد ما عرضته الآيات السابقة إلّا أنّ هناك ما هو جديد من جهتين:

الاولى: أنّ الآيـة السابقـة التى عرضت نفس المفهوم، كانت تتحـدّث عن أموال و أولاد الكفّار، بينما الآيـة محلّ البحث باحتوائها على كلمـة «عبـاد» تشـير إلى المؤمنين، و المعنى أنّه حـتّى فيمـا يخصّ المؤمنين فـإنّه قـد يتّسع الرزق- لأنّه الأصـلح بالنسـبة للمؤمن- و قد يضيق- لأنّ المصلحة تقتضى ذلك- على كلّ حال، فإنّ سعة و ضيق الرزق لا يمكن أن يشكّل دليلا على أى شىء.

الثّانية: الآية السابقة أشارت إلى سعة الرزق و ضيقه بالنسبة إلى مجموعتين مختلفتين، فى حين أنّ هذه الآية تشير إلى حالتين مختلفتين بالنسبة لشخص واحد، حينا يتّسع رزقه و حينا يضيق.

إضافة إلى أنّ ما جاء فى بداية هذه الآية هو فى الحقيقة مقدّمة لما جاء فى آخرها، و هو الترغيب فى الإنفاق فى سبيل اللّه.

جملة «فهو يخلفه» تعبير جميل يشـير إلى أنّ ما ينفق فى سبيل اللّه إنّما هو فى الحقيقة تجارة وافرة الربح، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى تعهّد بـأن يخلفه، و نعلم أنّه فى الـوقت الـذى يتعهّـد فيه الكريم بـأداء العـوض فـإنّه لا يراعى المقـدار الـذى يريـد تعويضه، بـل إنّه يعوّض بأضعاف مضاعفة، بل بمئات الأضعاف.

طبعا فإنّ هذا الوعد الإلهى لا ينحصر بالآخرة، فإنّ ذلك مسلّم به، و لكن فى الدنيا أيضا فإنّه يخلف ما أنفق بمختلف البركات.

جملة هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ ذات معنى واسع، و يمكن الإفادة منها من وجوه مختلفة.

هو خير من يعطى رزقا، لأنّه يعلم ماذا يعطى و إلى أى حدّ، بحيث لا يكون ما يعطيه عاملا للفساد و الغرور، لأنّه عالم بكلّ شىء.

هو يعطى أى شىء يريد أن يعطيه لأنّه قادر على كلّ شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۶۹

و لا يريـد جزاء على ما يعطيه لأنّه غنى بـذاته. و يعطى ابتـداء، لأنّه حكيم و عالم بكلّ شـىء. بل الحقيقـة أنّه ليس من رزّاق غيره، لأنّ أى معط إنّما يعطى ممّا رزقه اللّه، و بذا فهو ليس سوى «واسطة انتقال» لا رزّاقا.

و كذلك فهو تعالى يعطى النعم الباقية قبال المال الفانى، و الكثير مقابل القليل.

و لأنّ فريقا من الأثرياء الظالمين الطغاة كانوا فى صفّ المشـركين، و ادّعوا بأنّهم يعبـدون الملائكـة و أنّهم شـفعاؤهم يوم القيامة، فقد ردّ القرآن على هذا الادّعاء الباطل فقال: وَ یَوْمَ یَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ یَقُولُ لِلْمَلائِکَةِ أَ هؤُلاءِ إِیَّاکُمْ کانُوا یَعْبُدُونَ

بـديهى أنّ هـذا السؤال ليس من باب الاسـتفهام عن الجواب، لأنّ اللّه تعالى عالم بكلّ شـىء، و لكن الهدف هو أن تظهر الحقائق من إجابة الملائكة، لكى يخسأ هؤلاء الضالّون و يخيب ظنّهم، و يعلموا بأنّ الملائكة متنفّرين من أعمالهم، فيصيبهم اليأس إلى الأبد.

ذكر (الملائكة) من بين المعبودات التى كان المشـركون يعبدونها، إمّا لأنّ الملائكة أشرف المخلوقات التى عبدها الضالّون، و التى لم يحصلوا على شفاعتها يوم القيامة، فما ذا يستطيعون الحصول عليه من حفنة من الحجر أو الأخشاب أو الجنّ أو الشياطين!؟

أو أنّه من قبيل أنّ عبـدة الأوثان كانوا يعتقـدون بأنّ الأحجار و الأخشاب هى مظهر و نموذج لموجودات علويـة (كالملائكـة و أرواح الأنبياء)، و لذا عبدوها.

فكمـا ورد فى تاريـخ الوثنيـة عنـد العرب «إنّ سـبب حـدوث عبـادة الأصـنام فى العرب، هو أنّ «عمرو بن لحى» مرّ بقوم بالشام فرآهم يعبدون الأصنام فسألهم فقالوا له: هذه أرباب نتّخذها على شكل الهياكل العلوية فنستنصر بها و نستسقى.

فتبعهم و أتى بصنم معه إلى الحجاز و سوّل للعرب فعبدوه و استمرّت عبادة الأصنام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۰

فيهم إلى أن جاء الإسلام»[۴۰۱][۴۰۲].

و الآـن لننظر مـاذا تقول الملائكـة للإجابـة على سؤال البـارى عزّ و جلّ؟ لقـد اختارت الملائكـة فى الحقيقـة أكثر الأجوبـة شـمولية و أعظمها أدبا قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

أمّـا مـا هو المقصود من الجواب الـذى أجـابت به الملائكـة؟ فللمفسّـرين أقوال، و يبـدو أنّ أقربها هو القول بأنّ المقصود (بالجنّ) هو (الشـيطان) و سائر الموجودات الخبيثـة التى شـجّعت عبـدة الأوثان على ذلك العمل، و زينته فى أنظارهم، و عليه فإنّ المراد من عبادة الجنّ هى تلك الطاعة و الانقياد لأوامرها و الرضى بأضاليلها.

فالملائكة إذا يقولون ضـمن إعلان تنفّرهم و عدم رضاهم على هذه الأعمال: إنّ العامل الأساسـى لهذا الفساد هم الشياطين، و إن كان الظاهر أنّهم يعبدوننا، فالمهمّ هو الكشف عن الوجه الحقيقى لهذا العمل أمام الملأ.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى سورة يونس- الآية (۲۸) حيث يقول تعالى:

وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْـرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُـرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُـرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ أى إنّكم فى الحقيقـة لم تعبدونا نحن، بل تعبدون أهواءكم و أوهامكم و خيالاتكم، ناهيك عن أنّ هذه العبادة لم تكن بأمرنا و رضانا. و عبادة هذا شكلها ليست بعبادة أصلا.

و بهذه الطريقة يتبدّل أمل المشـركين فى ذلك اليوم إلى يأس كامل، و تتجلّى لهم بذلك حقيقة أنّ معبوديهم لن يحلّوا من مشاكلهم عقدة صغيرة واحدة، بل على العكس فهم منهم متنفّرون مستاءون.

لذا- و كاستخلاص للنتيجة- تقول الآية الكريمة التى بعدها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۱

فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا. و بناء على ذلك فلا الملائكة- الذين هم ظاهرا معبودون- يستطيعون الشفاعة لهم، و لا هم يستطيعون مساعدة بعضهم البعض.

وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِى كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ

ليست هذه هى المرّة الاولى التى يعبّر فيها القرآن عن المشركين ب «الظلم» بل ورد ذلك فى الكثير من آيات القرآن.

التعبير عن «الكفر» ب «الظلم». أو عن «الكافرين و المشركين» ب «الظالمين».

ذلـك لأـنّهم قبـل كـلّ شـىء ظلموا أنفسـهم بخلعهم تـاج العبوديـة للّه عن رؤوسـهم، و لفّوا طوق الذلّـة للأوثان على رقابهم. و دمّروا شخصيتهم و مصيرهم.

و فى الحقيقـة فإنّهم سيعاقبون يوم القيامـة على شـركهم و على إنكارهم للمعاد، و جملـة وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَـذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ تشتمل على المعنيين.

بحوث

۱- الإنفاق سبب النماء لا النقصان

التعبير الوارد فى الآية السابقة يحتوى على معان جمّة:

أوّلا: فمن جهـة أنّ كلمة «شـىء» بمعناها الواسع تشـمل كلّ أنواع الإنفاق، المادّى و المعنوى القليل و الكثير، لأىّ من المحتاجين كان الإنفاق، صغيرا أو كبيرا، المهمّ أن يعطى الإنسان شيئا ممّا يملك فى سبيل اللّه بأى كيفية كان و بأى كميّة كانت.

ثانيا: لقد أخرجت الآية (الإنفاق) بمفهومه من «الفناء»، و لوّنته بلون «البقاء» لأنّ اللّه ضـمن إخلاف ما ينفق فى سبيله بمواهبه المادية و المعنوية، بمرّات مضاعفة، مئات الآلاف، أقلّها عشرة أضعاف، و بذا فإنّ المنفق- و بهذه الروحية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۲

و هذا الإعتقاد- سيلج ميدان الإنفاق بيد و قلب أكثر انفتاحا، و لن يخطر على باله إحساس بالقلّة، و لن يفكّر بالفقر، بل إنّه سيشكر اللّه على حسن توفيقه له على هذه التجارة الوفيرة الربح.

و قد عبّر القرآن فى الآيات (۱۰) و (۱۱) من سورة الصفّ عن هذا المعنى فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ- تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و نقرأ

فى الحديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله: ينادى مناد كلّ ليلة: لدوا للموت.

و ينادى مناد: ابنوا للخراب.

و ينادى مناد: اللهمّ هب للمنفق خلفا.

و ينادى مناد: اللّهمّ هب للممسك تلفا.

و ينادى مناد: ليت الناس لم يخلقوا.

و ينادى مناد: ليتهم إذ خلقوا فكّروا فيما له خلقوا!!»[۴۰۳].

و المقصود من هؤلاء المنادين هم الملائكة الذين يدبّرون أمور هذا العالم بأمر اللّه.

و

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله: «من أيقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة»[۴۰۴].

و قد نقل نفس المعنى عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام.

و الجدير بالتذكير هو أنّ الإنفاق يجب أن يكون من المال الحلال و الكسب المشروع، و إلّا فلا قبول لغيره عند اللّه و لا بركة فيه.

لذا

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام حينما سأله أحدهم قال: قلت: آيتان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۳

کتاب اللّه عزّ و جلّ أطلبهما فلا أجدهما.

قال علیه السّلام «و ما هما؟».

قلت: قول اللّه عزّ و جلّ: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ فندعوه و لا نری إجابهٔ.

قال علیه السّلام: أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟».

قلت: لا.

قال: فممّ ذلک؟

قلت: لا أدری.

قال علیه السّلام: «لکنّی أخبرک، من أطاع اللّه عزّ و جلّ فیما أمره من دعائه من جهة الدعاء أجابه».

قلت: و ما جهة الدعاء.

قال: «تبدأ فتحمد اللّه و تذکر نعمه عندک ثمّ تشکره ثمّ تصلّی علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله، ثمّ تذکر ذنوبک فتقرّ بها، ثمّ تستعیذ منها فهذا جهة الدعاء».

ثمّ قال علیه السّلام: «و ما الآیة الاخری؟».

قلت: قول اللّه عزّ و جلّ: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ و إنّی أنفق و لا أری خلفا؟

قال: «أفتری اللّه عزّ و جلّ أخلف وعده؟

قلت: لا.

قال: «فممّ ذلک؟».

قلت: لا أدری؟

قال: لو أنّ أحدکم اکتسب المال من حلّه و أنفقه فی حلّه لم ینفق درهما إلّا أخلف علیه»[۴۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۴

۲- أمنوا علی أموالکم بتأمین إلهی!!

لأحد المفسّرین تحلیل جمیل بهذا الخصوص، یقول: «ثمّ إنّ من العجب أنّ التاجر إذا علم أنّ مالا من أمواله فی معرض الهلاک یبیعه نسیئهٔ و إن کان من الفقراء، و یقول بأنّ ذلک أولی من الإمهال إلی أن یهلک المال، فإن لم یبع حتّی یهلک ینسب إلی الخطأ، ثمّ إن حصل به کفیل ملیء و لا یبیع ینسب إلی قلّهٔ العقل.

فإن حصل به رهن و کتب به وثیقهٔ و لا یبیعه ینسب إلی الجنون، ثمّ إنّ کلّ أحد یفعل هذا و لا یعلم أنّ ذلک قریب من الجنون، فإنّ أموالنا کلّها فی معرض الزوال المحقّق، و الإنفاق علی الأهل و الولد إقراض، و قد حصل الضامن الملیء و هو اللّه العلی و قال تعالی: وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ ثمّ رهن عند کلّ واحد إمّا أرضا أو بستانا أو طاحونهٔ، أو حمّاما أو منفعهٔ، فإنّ الإنسان لا بدّ أن یکون له صفهٔ أو جهة یحصل له منها مال، و کلّ ذلک ملک اللّه، و هو فی ید الإنسان بحکم العاریهٔ، فکأنّه مرهون بما تکفّل اللّه من رزقه لیحصل له الوثوق التامّ، و مع هذا لا ینفق و یترک ماله لیتلف لا مأجورا و لا مشکورا»[۴۰۶].

۳- سعهٔ مفهوم الإنفاق:

لأجل فهم الحدّ لمفهوم الإنفاق فى الإسلام، نطالع الحديث التالى

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله إذ يقول: «كلّ معروف صدقة، و ما أنفق الرجل على نفسه و أهله كتب له صدقة، و ما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة، و ما أنفق الرجل من نفقة فعلى اللّه خلفها، إلّا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية»[۴۰۷].

يبدو أنّ استثناء البنيان من قانون الإخلاف، لأنّ عين البناء باقية، أو لأنّه يكثر توجّه الناس إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۵

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۴۳ الى ۴۵]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هـذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۴۳) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۵)

التّفسير

بأىّ منطق ينكرون آيات اللّه:

تعود هـذه الآيات لتكمل البحث الذى تناولته الآيات السابقة حول المشركين الكفّار و أقوالهم يوم القيامة، فتتحدّث حول وضع هؤلاء فى الـدنيا و مواقفهم عنـد سـماعهم القرآن حتّى يتّضـح أنّ مصـيرهم الاـخروى المشؤوم إنّمـا هو نتـاج تلـك المواقف الخاطئـة الـتى اتّخذوها إزاء آيات اللّه فى الدنيا.

تقول الآية الكريمة الاولى: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۶

يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ

فهذا أوّل ردّ فعل لهم إزاء «الآيات البيّنات» و هو السعى إلى تحريك حسّ العصبية فى هؤلاء القوم المتعصّبين.

خاصّـة مع ملاحظـة اسـتخدامهم تعبير «آباؤكم» بـدل «آباؤنا»، يفهم منه أنّهم يريـدون القول لقومهم بأنّ تراث الأجداد فى خطر، و إنّ عليكم النهوض و التصدّى لهذا الرجل عن العبث بذلك الميراث.

ثمّ تعبير «ما هـذا إلّا رجل» إنّما يقصـد به تحقير النّبى صـلّى اللّه عليه و آله من جهتين الاولى كلمة «هذا» و الثّانية «رجل» بهيئة النكرة، مع العلم بأنّهم يعرفون النّبى صلّى اللّه عليه و آله جيّدا، و يعلمون بأنّ له ماضيا مشرقا.

من الجـدير بالملاحظـة أيضـا أنّ القرآن وصف «الآيـات» ب «البيّنـات»، أى أنّهـا تحمل دلائل حقّانيتها معها، و ما هو قابل للمعاينـة لا يحتاج إلى توضيح أو بيان.

ثمّ توضّح الآية مقولتهم الثّانية التى قصدوا بها إبطال دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله فتقول:

وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً

«إفك» كما ذكرنا سابقا بمعنى كلّ مصـروف عن وجهه الـذى يحقّ أن يكون عليه، و منه قيل للرياح العادلـة عن المهابّ «مؤتفكة»، و أى صـرف عن الحقّ فى الإعتقـاد إلى الباطل، و من الصـدق فى المقال إلى الكـذب، و من الجميل فى الفعل إلى القبيـح. و لكن كما

قال البعض، فإنّ «الإفك» يطلق على الأكاذيب الكبيرة.

و كان يكفى استخدامهم لكلمة «الإفك» فى اتّهام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالكذب، لكنّهم أرادوا تأكيد ذلك المعنى باستخدامهم لكلمة «مفترى»، دون أن يكون لهم أدنى دليل على ذلك الادّعاء.

و أخيرا، كان الاتّهام الثالث الذى ألصقوه بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله هو (السحر) كما نرى ذلك فى آخر هذه الآية وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

العجيب أنّ هؤلاء الضالّين يطلقون هذه التّهم الثلاث المذكورة بأصرح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۷

التأكيدات، ففى موضع يقولون إنّه سحر، و فى آخر يقولون: إنّه مجرّد كذب، ثمّ يقولون فى موضع ثالث، إنّه يريد أن يصدّكم عن مآثر أجدادكم! طبعا هذه الصفات الذميمة الثلاثة ليست متضادّة فيما بينها- مع أنّ هؤلاء لا يأنفون من الكلام المتضادّ- و على فلا داعى- كما يقول المفسّرين- لاعتبار أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات تنسب إلى مجموعة مستقلّة من الكفّار.

كذلك فمن الجدير بالملاحظة أنّ القرآن الكريم استخدم فى المرتين الاولى و الثّانية جملة «قالوا»، ثمّ استخدم فى المرّة الثالثة جملة «قال الذين كفروا»، إشارة إلى أنّ كلّ التعاسة التى أصابتهم إنّما منشأها الكفر و إنكار الحقّ و معاداة الحقيقة، و إلّا فكيف يمكن لأحد أن يتّهم رجلا تظهر دلائل حقّانيته من حديثه و عمله و ماضيه بهذه التّهم المتلاحقة و بلا أدنى دليل.

فكأنّهم يواصلون بهذه التّهم الثلاث برنامجا مدروسا لمواجهة النّبى صلّى اللّه عليه و آله فقد لاحظوا من جانب أنّ الدين جديد و له جاذبية، و من جانب آخر، فقد أخافت إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى فى الدنيا و الآخرة فئة من المجتمع شاءوا أم أبوا، و من جانب ثالث فإنّ معجزات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله تركت أثرها الإيجابى فى نفوس عامّة المجتمع- شاءوا أم أبوا كذلك.

لذا فإنّهم- لأجل إبطال مفعول هذه الأمور الثلاثة- فكّروا بالدعوة إلى حفظ تراث السلف فى قبال الدين الجديد، فى حين أنّ السلف كان مصداقا لما ذكره القرآن الكريم لا- يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ البقرة- ۱۷۰. فلا- جرم أن يتخلّى الناس عن مثل تلك الهياكل الخرافية التى كانت إرث هؤلاء الجهلة و الحمقى.

و أمّا فى قبال إنذارات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بالعذاب الإلهى، فقد طرحوا قضيّة الاتّهام بالكذب لكى يريحوا العامّة.

و فى قبال المعجزات، طرحوا تهمة (السحر). ظنّا منهم أنّ المعجزات لن تترك أثرا فى نفوس الناس بسبب هذا التوجيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۸

و لكن تاريخ الإسلام شاهد على أنّ أيّا من هذه المخطّطات الشيطانية لم تكن ذات أثر، و كانت النتيجة أن دخل الناس فى هذا الدين العظيم فوجا بعد فوج.

فى الآية التى بعدها، يشطب القرآن الكريم على جميع تلك الادّعاءات الواهية، مع أنّها واضحة البطلان، فيقول: وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها، وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ.

و هى إشارة إلى أنّ هذه الادّعاءات يمكنها أن تكون مقبولة فيما لو جاءهم رسول من قبل بكتاب سماوى يخالف مضمونه الدعوة الجديدة، فلا- بأس أن ينبروا لتكذيبها، و ينادوا بتراث الأجداد تارة، و بتكذيب الدعوة الجديدة تارة اخرى، أو اتّهام من جاء بها بالسحر. أمّا من لا يعتمد إلّا على فكره الشخصى- بدون أى وحى من السماء- و بدون أن يكون له نصيب من علم، فلا يحقّ له الحكم لمجرّد تلفيقه الخرافات و الأوهام.

و يستفاد من هذه الآية أيضا أنّ الإنسان لا يمكنه أن يطوى طريق الحياة بعقله فقط، بل لا بدّ أن يستمدّ المعونة من وحى السماء و يتقدّم إلى الأمام بالاستعانة بالشرائع، و إلّا فهى الظلمات و الخوف من التيه.

الآيـة الأخيرة من هـذه الآيات، تهدّد تلك المجموعة المتمردّة بكلمات بليغة مؤثّرة فتقول: وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فى حين أنّ هؤلاء لم يبلغوا فى القوّة و القدرة عشر ما كان لأولئك الأقوام وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ.

فمـدنهم المـدمّرة بضـربات العقوبـة الإلهيـة الساحقـة ليست ببعيـدة عنكم .. فهى فى الشـام القريب منكم، فليكونوا لكم مرآة للعبرة، و استمعوا إلى النصائح التى يقولها الدمار، و قارنوا مصيركم بمصيرهم، فلا السنّة الإلهيّة قابلة للتغيير و لا أنتم أقوى منهم!.

«معشار»: بمعنى واحد إلى عشرة. البعض اعتبرها «عشر العشر» أىّ واحد إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۷۹

مائة، و لكن أكثر كتب اللغة و التفاسير ذكرت المعنى الأوّل. و إن كان مثل تلك الأعداد لا يقصد بها التعداد، و تستخدم للتقليل فى مقابل سبعة و سبعين و ألف و أمثالها التى تستخدم للتكثير، و بـذا يكون المعنى المقصود من الآية، إنّنا دمّرنا عصاة أقوياء لا يمتلك هؤلاء إلّا جزءا صغيرا من قدرتهم.

و قـد ورد نظير هـذا المعنى فى آيـات كثيرة من آيات القرآن الكريم، من جملتها ما ورد فى الآيـة (۶) من سورة الأنعـام أَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنـا مِنْ قَبْلِهِـمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُـمْ فِي الْأَرْضِ مـا لَـمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَ أَرْسَـلْنَا السَّمـاءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَ جَعَلْنَا الْأَنْهـارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ و كذا ورد نظير هذا المعنى فى الآيات ۲۱- المؤمن، ۹- الروم.

لفظة «نكير» من مادّة «نكر» و الإنكار ضدّ العرفان، و المقصود أنّ إنكار اللّه هو تلك المجازاة و العذاب الصادر عنه تعالى.

بعض المفسّـرين احتملوا تفسيرا آخر لهذه الآية، و هو أنّ المقصود من وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ و هو عشر الآيات التى أنزلناها على مشـركى قريش لإتمام الحجّة عليهم، لم ننزّله على الأقوام السابقين، فإذا كان العذاب الذى عذّبناهم به بتلك الشدّة، فما بالك بمصـير مشـركى قريش الذين نالهم عشـرة أضـعاف الآيات لإتمام الحجّة! و لكن يبدو أنّ التّفسـير الأوّل أنسب (و بناء على التّفسـير الأوّل فإنّه من أربعة ضـمائر موجودة فى الآية، يعود الضميران الأوّل و الثّانى على كفّار قريش، و الضمير الثالث و الرابع على الكفّار السالفين، أمّا بناء على التّفسير الثّانى فإنّ الضمير الأوّل يعود على كفّار قريش، و الثّانى على الكفّار السالفين، و الثالث على كفّار قريش و الرابع على الكفّار السابقين- تأمّل).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۰

الآية [سورة سبإ (۳۴): آية ۴۶]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (۴۶)

التّفسير

الثّورة الفكرية أساس لأىّ ثورة أصيلة:

فى هـذا المقطع من الآيـات و الآيات التاليـة، و التى تشـكّل أواخر سورة سـبأ المباركـة، يؤمر الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله مرّة اخرى بدعوة هؤلاء بالأدلّة المختلفة ليؤمنوا بالحقّ، و يرجعوا عن ضلالهم، و كما مرّ فى البحوث السابقة فقد خوطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله خمس مرّات بأن قيل له (قل ...).

ففى الآيـة الاولى إشارة إلى اللبنـة الأساسـية فى كلّ التحوّلات و التبـدلات الاجتماعيـة و الأخلاقية و السياسـية و الاقتصادية و الثقافية،

فتقول و بجمل قصيرة و عميقة المعنى قُلْ إِنَّما أَعِظُكَمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكَمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذابٍ شَدِيدٍ.

كلمات و تعبيرات هذه الآية يشير كلّ منها إلى موضوع هامّ، نجملها فى عشرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۱

نقاط كما يلى:

۱- جملة «أعظكم» توضّح فى الحقيقة واقع أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله يريد القول بأنّى ألحظ فيما أقول لكم خيركم و صلاحكم دون أىّ شىء آخر.

۲- التعبير ب «واحدة» مع ارتباطه بالتأكيد بواسطة «إنّما» إشارة معبّرة إلى أنّ أصل جميع الإصلاحات الفردية و الجماعية، إنّما هى بإعمال الفكر، فما دام تفكير الامّة فى سبات فستكون هدفا لسرّاق و لصوص الذين و الإيمان و الحرية و الاستقلال، و لكن حينما تصحوا الأفكار فإنّها تقطع الطريق أمام هؤلاء.

۳- التعبير ب «قيام» ليس معناه مجرّد الوقوف على القدمين، بل معناه الاستعداد لإنجاز العمل، بلحاظ أنّ الإنسان بوقوفه على قدميه إنّما يكون مستعدّا لإتمام البرامج الحياتية المختلفة، و عليه فإنّ التفكّر يحتاج إلى استعداد قبلى، لكى يوجد السبب و المحرّك فى الإنسان الذى يدفعه بالإرادة و التصميم إلى التفكّر.

۴- تعبير «للّه» يوضّح أنّ القيام و الاستعداد يجب أن يكون باعثه إلهيا، و التفكّر الذى يكون صادرا عن هذا الدافع له قيمة عالية، فالإخلاص فى العمل عادة- و حتّى فى التفكّر- هو الأساس للنجاة و السعادة و البركة.

و الملفت للنظر هو اعتبار الإيمان باللّه هنا أمرا مسلّما، و عليه فالتفكّر المطلوب إنّما هو فى مسائل اخرى، و تلك إشارة إلى أنّ التوحيد إنّما هو أمر فطرى واضح يدرك حتّى بدون تفكّر.

۵- التعبير ب «مثنى و فرادى» إشارة إلى أنّ التفكّر يجب أن يكون بعيدا عن الغوغائية و الفوضى، بأن يقوم الناس آحادا أو على الأكثر مثنى و يتفكّرون، لأنّ التفكّر وسط الضوضاء و الغوغائية لا يمكنه أن يكون عميقا، خصوصا و أنّ عوامل الذاتية و التعصّب فى طريق الدفاع عن الإعتقادات الشخصية ستكون أشدّ فعلا فى التجمّعات الأكبر.

بعض المفسّرين احتمل أن يكون هذان التعبيران إشارة إلى الإفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۲

المشورة بالخلط بين الأفكار الفردية و الجماعية، فالإنسان يجب أن يتفكّر منفردا و كذلك يستفيد من أفكار الآخرين، لأنّ الاستبداد بالرأى و الفكر سبب للعجب، و التشاور و التعاون لأجل حلّ المشكلات العلمية- و الذى لا يؤدّى إلى الغوغاء- سيعطى حتما- أثرا أفضل، و يمكن أن يكون تقديم «مثنى» على «فرادى» فى الآية لهذا السبب.

۶- الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم يقول هنا «تتفكّروا» دون أن يذكر بماذا؟

فحذف المتعلّق دليل على العموم، أى فى كلّ شىء، فى الحياة المعنوية و المادية، فى الأمور الكبيرة و الصغيرة. و بكلمة: فى كلّ أمر يجب التفكّر أوّلا، و أهمّ من ذلك كلّه هو التفكّر للعثور على الإجابة للأسئلة الأربعة التالية: من أين جئت؟ لأى شىء أتيت؟ إلى أين أذهب؟ و أين أنا الآن؟

و لكن بعض المفسّرين ذهبوا إلى أن «تتفكّروا» تتعلّق بالجملة التى تليها و هى «ما بصاحبكم من جنّة» بمعنى أنّكم لو تفكّرتم قليلا لوجدتم أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله منزّه عن اتّهامكم الواهى له بالجنون. و الظاهر أنّ المعنى الأوّل أوضح.

و من البديهى أنّ من الأمور التى يجب التفكّر بها هى مسألة النبوّة و الصفات العالية التى كان يتمتّع بها شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله دون أن تكون منحصرة بذلك.

۷- تعبیر «صاحبکم» إشارة إلی الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و إنّه لیس نکرة بالنسبة لکم، فقد کان بینکم لسنوات طویلة. لقد عرفتموه بالأمانة و الصدق و الاستقامة، و لم تجدوا حتّی الآن نقطة ضعف واحدة فی مسیرة حیاته، لذا فعلیکم بالإنصاف قلیلا، فالتّهم التی تلصقونها به لا أساس لها جمیعا.

۸- «جنّة» بمعنی «جنون» و فی الأصل من مادّة «جن» بمعنی ستر الشیء عن الحاسّة، و من کون أنّ (المجنون) ستر عقله، فقد اطلق علیه هذا التعبیر، و الجدیر بالملاحظة هنا هو أنّ العبارة ترید الکشف عن هذه الحقیقة، و هی أنّ من یدعو إلی التفکّر و الانتباه کیف یکون هو مجنونا، و الحال أنّ مناداته بالتفکّر إنّما هی دلیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۳

علی تمام عقله و درایته.

۹- جملة إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِیرٌ لَکُمْ تلخّص رسالة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله فی مسألة «الإنذار» أی: التحذیر من المسؤولیة، و من المحکمة الإلهیة، و العقاب الإلهی، صحیح أنّ للرسول صلّی اللّه علیه و آله رسالة فی «التبشیر» أو «البشارة» و لکن الذی یدفع الإنسان أکثر إلی التحرّک هو «الإنذار»، لذا فقد ذکرت مسألة «الإنذار» فی آیات اخری من القرآن الکریم علی أنّها وظیفة الرّسول الأکرم الأساسیة، کما فی الآیة (۹) من سورة الأحقاف وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِیرٌ مُبِینٌ کما ورد کذلک شبیه هذا المعنی فی الآیة ۶۵ من سورة (ص) و آیات اخری.

۱۰- التعبیر ب بَیْنَ یَدَیْ عَذابٍ شَدِیدٍ إشارة إلی أنّ القیامة قریبة إلی درجة و کأنّها أمام العین، و الحقّ أنّها کذلک بالنسبة إلی عمر الدنیا، کذلک فقد ورد فی الروایات الإسلامیة نظیر هذا المعنی کما

فی الأثر عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله قال: «بعثت أنا و الساعة کهاتین»

و ضمّ صلّی اللّه علیه و آله الوسطی و السبّابة.

بحث

الدین أصل التحوّلات:

بسبب إحساس العقائد المادیة و الشیوعیة بالخطر من المذاهب السماویة الحقّة، فهی تدعوها ب (أفیون الشعوب) أی أنّها عامل تخدیر لأفکار الجماهیر!! و قد سعی المستعمرون فی الغرب و الشرق إلی تلقین مثل هذا الرأی عن طریق علماء الاجتماع و علماء النفس، و ذلک لتضلیل الجماهیر و إبعادها عن فطرتها، و الذی دفعهم إلی هذا هو خوفهم و حذرهم من نهضة الشعوب المؤمنة المسلّحة بالأفکار الدینیة السماویة، و من استقبالها الشهادة فی سبیل اللّه بصدور رحبة! ..

و الأنکی من ذلک أنّهم أو عزوا منشأ الدین لجهل البشر بالعوامل الطبیعیّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۴

و الجواب علی مثل الکلام مرّ فی محلّه، و لسنا هنا فی معرض سرد الردود جمیعا، و لکن الآیات التی نحن بصددها تدعو الإنسان إلی التفکّر و التدبّر، و اعتبرت طریق التفکّر هو الأساس لتطور و تکامل البشریة.

کیف یمکن أن یکون الإسلام داعیة لتخدیر أفکار الناس، أو أنّه نشأ بفعل جهل البشر بالعوامل الطبیعیّة، و یدعو الناس إلی النهضة و التفکّر و العیش بصفاء فی محیط بعید عن الضوضاء و الضجیج الإعلامی المسموم، بعیدا عن التعصّب و العناد؟! هل یمکن اتّهام الدین الذی یدعو الناس لمثل هذه الأفکار بکونه أفیون الشعب، أو عامل تخدیر لها؟! و یمکن هنا القول: إنّ علی الإنسان أن لا یفکّر

لوحده و بشكل انفرادى، بل عليه مشاورة الآخرين و أن تتعاضد آراؤه معهم، لسماع دعوة الأنبياء الصادقة، و مطالعة الدلائل و الآيات التى جاؤوا بها .. عند ذلك يمكن للإنسان الإذعان للحقّ.

إنّ الأحداث التى مرّت فى عصرنا الحالى سيّما نهضة المسلمين الثوريين فى مختلف البلدان الإسلامية بوجه القوى الكبرى و عملائها فى الشرق و الغرب، و التى جعلت الدنيا ظلاما دامسا فى وجوههم، و هزّت كياناتهم، تشير جميعا إلى أنّ الخطر الكبير الذى يتهدّد هذه القوى هو العقائد الدينية الأصلية، و من هنا يفهم هدف الاتّهامات الموجّهة ضدّ العقائد الدينية.

و ممّا يثير العجب و الغرابة أنّ علماء الاجتماع فى الغرب قالوا بعدم وجود عالم ما وراء الطبيعة، و اعتبروا الدين ظاهرة من صنع البشر، كما قالوا بوجود عوامل مختلفة لنشوء الدين، كالعامل الاقتصادى، و خوف الإنسان، و عدم اطّلاعه، و العقد النفسية ... إلخ!! كما أنّهم غير مستعدّين للتفكّر و لو للحظة واحدة بعالم ما وراء الطبيعة و بالدلائل المدهشة و الواضحة لتوحيد الخالق جلّ و علا، و العلامات الصريحة لنبوّة الأنبياء كنبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و غير مستعدّين أيضا للتنصّل عن أحكامهم التى أثبتت فشلها.

لا يمكن أن نماثل بين هؤلاء و بين مشركى عصر الجاهلية بالتعصّب و العناد و عدم الاطّلاع، نعم، هؤلاء متعصّبون و معاندون و لكنّهم مطّلعون، و لهذا فهم أكثر خطرا و ضلالة من مشركى عصر الجاهلية.

و ممّا يجدر ذكره أنّ ذيل أكثر الآيات القرآنية يدعو الإنسان إلى التفكّر و التعقّل و التذكّر: فأحيانا تقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (النحل- ۱۱ و ۶۹) و اخرى تقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الرعد- ۳، و الزمر- ۴۲، و الجاثية- ۱۳) و ثالثة تقول: لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر- ۲۱، و الأعراف- ۱۷۶)، و أحيانا تطرح الآيات القرآنية نفس المفهوم وجها لوجه كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (البقرة- ۲۱۹ و ۲۶۶).

و قد ورد فى القرآن الكريم الكثير من هذا القبيل، منه الدعوة إلى الفقه- أى الفهم- و الدعوة إلى العقل و التعقّل، و مدح الناس المتعلّقين، و الندم الشديد لأولئك المتعصّبين، و قد جاء ذلك فى (۴۶) آية من آيات القرآن المجيد، و قد قال الكثير من العلماء: إنّنا لو أردنا جمع هذه الآيات و تفسيرها لاحتجنا إلى كتاب مستقل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۵

و فى هذا المجال ذكر القرآن الكريم أنّ أحد صفات أهل النار هو عدم التفكّر و التعقّل كقوله تعالى: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ و منه قوله تعالى: وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ

۲- جانب من الروايات الإسلامية فى التفكّر و التأمّل:

اهتّمت الرواية الإسلامية- و على خطى القرآن الكريم- بمسألة التفكّر إلى حدّ أن جعلتها فى المقام الأوّل من الأهميّة، و يلاحظ المطالع للروايات تعبيرات جميلة و معبّرة أوردنا نماذج منها هنا:

ألف- التفكّر أعظم عبادة: نقرأ

عن الإمام الرضا عليه السّلام «ليس العبادة كثرة الصلاة و الصوم إنّما العبادة التفكّر فى أمر اللّه عزّ و جلّ»[۴۰۸].

و نقرأ

فى رواية اخرى: «كان أكثر عبادة أبى ذكر التفكّر»[۴۰۹].

ب- ساعة تفكّر أفضل من ليلة من العبادة:

عن الحسن الصيقل قال: سألت أبا عبد اللّه الصادق عليه السّلام: عمّا يروى الناس أنّ تفكّر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكّر؟

قال: «يمرّ بالخربة أو بالدار فيقول: أين ساكنوك و أين بانوك، ما لك لا تتكلّمين؟»[۴۱۰].

ج- التفكّر مصدر العمل:

قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «إنّ التفكّر يدعو إلى البرّ و العمل به»[۴۱۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۶

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشارة

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۴۷) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (۴۸) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ (۴۹) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (۵۰)

التّفسير

و ما يبدئ الباطل و ما يعيد:

قلنا أنّ اللّه تعالى أمر رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و آله فى هذه السلسلة من الآيات الكريمة خمس مرّات بأن يخاطب هؤلاء الضالّين و يقطع عليهم طريق الاعتذار من كلّ جانب.

فالآية السابقة كانت دعوة للتفكّر و نفى أى حالة من عدم التوازن الروحى عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله.

و فى مطلع هذه الآيات، يتحدّث القرآن فى عدم مطالبة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله بأى أجر مقابل تبليغ الرسالة. تقول الآية الاولى:

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ، إِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۷

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

و ذلك إشارة إلى أنّ العاقل حينما يتصرّف أى تصرّف يجب أن يكون لتصرفه باعث، فحينما يثبت لكم بأنّ لدى عقل كامل، و ترون بأن ليس لى هدف مادّى، فيجب أن تعلموا بأنّ هناك دافعا و محرّكا إلهيا و معنويا هو الذى دفعنى إلى ذلك التصرّف أو العمل.

بتعبير آخر: أنا دعوتكم للتفكّر، و الآن تأمّلوا، و اسألوا وجدانكم، أى سبب يدعونى لأن أنذركم من العذاب الإلهى الشديد؟، و أى ربح سوف أجنيه من هذا العمل؟، و أى فائدة مادية لى فيه؟. إضافة إلى ذلك فإن كانت حجّتكم فى هذا الإعراض و مخالفة الحقّ، هو أنّكم ستدفعون لى أجرا عليه، فسيضيع جزافا، لأنّى أساسا لم أطالبكم بأى أجر أو جزاء.

كذلك فقد ورد هذا المعنى بصراحة أيضا فى الآية (۴۶) من سورة القلم أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

أمّا ما هو تفسير جملة فَهُوَ لَكُمْ فهناك تفسيران:

الأوّل: أنّ الجملة كناية عن عدم المطالبة بأى أجر كما لو قلت «كلّ ما أردته منك فهو لك» كناية عن أنّك لا تريد شيئا مطلقا. و الدليل على ذلك هو الجملة التالية و التى تقول: إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

الثانى: أنّكم إن لاحظتم أنّى فى بعض ما أخبرتكم به عن اللّه سبحانه و تعالى، قلت لكم: لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ۴۱۲]، فهذا أيضا يعود نفعه إليكم، لأنّ مودّة ذى القربى ترتبط بمفهوم (الإمامة و الولاية) و «استمرار خطّ النبوّة، الذى هو ضرورى

لإدامة هدايتكم.

الدليل على هذا القول هو ما ورد فى أسباب النّزول الذى نقله بعضهم هنا، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۸

تفسير روح البيان، ورد أنّه عند نزول الآية قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله لمشركى مكّة: «لا تؤذوا ذوى قربای»

و هم قبلوا بهذا الطلب، و لكن عند ما نال الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله من أصنامهم، قالوا: إنّ محمّدا لم ينصفنا، فهو من جانب يدعونا لعدم التعرّض لذوى قرباه بالأذى، و لكنّه من جانب آخر يمسّ أربابنا بالأذى، و هنا نزلت الآية موضوع بحثنا قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ فما أردته منكم بهذا الخصوص هو بنفعكم، سواء آذيتموهم أو لم تؤذوهم.

ثمّ تختم الآية بالقول: وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. فإن كنت أريد أجرى من اللّه وحده فلأنّه وحده عالم بكلّ أعمالى و مطّلع على نوايای. علاوة على أنّه هو سبحانه و تعالى شاهد صدقى و حقّانية دعوتى، لأنّه هو سبحانه سخّر لى كلّ هذه المعجزات و الآيات البيّنات، و الحقّ أنّه سبحانه و تعالى نعم الشاهد، فهو الذى قد أحاط بكلّ شىء علما و هو أفضل من يستطيع الأداء، و لا يصدر عنه إلّا الحقّ و هو خير الشاهدين. و هو اللّه سبحانه و تعالى.

بالالتفات إلى ما قيل حول حقّانية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله، تضيف الآية التى بعدها قائلة أنّ القرآن واقع غير قابل للإنكار لأنّه ملقى من اللّه سبحانه و تعالى على قلب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله: قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ

كلمة «يقذف» من مادّة (قذف) و هو الرمى البعيد، و ثمّة تفسيرات متعدّدة لهذه الآية، يمكن جمعها مع بعضها البعض.

أوّلا: المقصود ب «يقذف بالحقّ» هو الكتب السماوية و الوحى الإلهى على قلوب الأنبياء و المرسلين، و لأنّه سبحانه و تعالى هو علّام الغيوب، فهو يعلم بالقلوب المهيّأة، فينتخبها و يقذف الوحى فيها حتّى ينفذ إلى أعماقها.

و على ذلك فالمعنى شبيه بما ورد فى الحديث المعروف «العلم نور يقذفه اللّه فى قلب من يشاء».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۸۹

و التعبير ب «علّام الغيوب» يؤيّد هذا المعنى.

الآخر: إنّ المقصود من «قذف الحقّ على الباطل و زهوق الباطل»، يعنى أنّ للحقّ قوّة تجعله قادرا على تجاوز أى عائق فى طريقه، و ليس لأحد طاقة على الوقوف بوجهه، و بهذا تكون الآية تهديدا للمخالفين لكى لا يقفوا بوجه القرآن، و أن يعلموا أنّ حقّانية القرآن ستسحقهم.

و بذا تكون الآية تعبيرا مشابها لما ورد فى الآية (۱۸) من سورة الأنبياء بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ

و يحتمل أن يكون المقصود بتعبير «القذف» هنا هو نفوذ حقّانية القرآن إلى نقاط العالم القريبة و البعيدة، و هى إشارة إلى أنّ هذا الوحى السماوى سيضىء جميع العالم بنوره فى نهاية الأمر.

بعدئذ و لزيادة التأكيد يضيف سبحانه و تعالى: قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ[۴۱۳]. و عليه فلن يكون للباطل أى دور مقابل الحقّ، لا خطّة اولى جديدة، و لا خطّة معادة، إذ أنّ خطط الباطل نقش على الماء، و لهذا السبب فلم يتمكّن الباطل من طمس نور الحقّ و محو أثره من القلوب.

مع أنّ بعض المفسّرين أرادوا حصر مصاديق «الحقّ» و «الباطل» فى هذه الآية فى حدود معيّنة، لكن الواضح أنّ مفهوم الإثنين واسع و شامل جدّا، القرآن، الوحى الإلهى، تعليمات الإسلام، جميعها مصاديق لمفهوم «الحقّ». و الشرك و الكفر، و الضلال، و الظلم و الذنوب، و وساوس الشيطان، و البدع الطاغوتية كلّها تندرج تحت معنى «الباطل»، و فى الحقيقة فإنّ هذه الآية شبيهة بالآية (۸۱) من سورة الإسراء، وَ قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً.

و قد ورد أنّ ابن مسعود قال: دخل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله مکّة و حول البیت ثلاثمائة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۰

و ستّون صنما فجعل یطعنها بعود فی یدیه و

یقول: «جاء الحقّ و زهق الباطل إنّ الباطل کان زهوقا- جاء الحقّ و ما یبدئ الباطل و ما یعید»[۴۱۴].

سؤال:

یثار هنا سؤال و هو أنّ الآیة أعلاه تقول: إنّه بظهور الحقّ، یمحق الباطل، و یفقد کلّ خلّاقیته، و الحال أنّنا نری أنّ الباطل له جولات وصیت إلی الآن، و یسیطر علی مناطق کثیرة؟

و للإجابة علی هذا السؤال، یجب الالتفات إلی ما یلی:

أوّلا: إنّه بظهور الحقّ و إشراقه. فإنّ الباطل- و الذی هو الشرک و النفاق و الکفر و کلّ ما ینبع عنها- یفقد بریقه، و إذا استمرّ وجوده فبالقوّة و الظلم و الضغط، و إلّا فإنّ النقاب قد ازیل عن وجهه، و ظهرت صورته القبیحة لمن یطلب الحقّ، و هذا هو المقصود من مجیء الحقّ و محو الباطل.

ثانیا: لأجل تحقّق حکومة الحقّ و زوال حکومة الباطل فی العالم، فإضافة إلی الإمکانیات التی یضعها اللّه فی خدمة عباده، هناک شرائط اخری مرتبطة بالعباد أنفسهم، و التی أهمّها «القیام بترتیب المقدّمات للاستفادة من تلک الإمکانات الإلهیة». و بتعبیر آخر، فإنّ انتصار الحقّ علی الباطل لیس فقط فی المناحی العقائدیة و المنطقیة و فی الأهداف، بل فی المناحی الإجرائیة علی أساسین، «فاعلیة الفاعل» و «قابلیة القابل» و إذا لم یصل الحقّ إلی النصر علی الباطل فی المرحلة العملیة نتیجة عدم تحقّق (القابلیة) فلیس ذلک دلیلا علی عدم انتصاره.

و لنضرب لذلک مثلا قرآنیا، فالآیة الکریمة تقول: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ ۴۱۵]، و لکن المعلوم لدینا بأنّ استجابة الدعاء لیست بدون قید أو شرط، فإن تحقّقت شرائط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۱

الدعاء فهو مستجاب قطعا، و فی غیر هذه الحالة ینبغی عدم انتظار الاستجابة، (شرح هذا المعنی جاء فی تفسیر الآیة ۱۸۶- من سورة البقرة).

و ذلک بالضبط کما لو أنّنا أتینا بطبیب حاذق لمریض ممدّد علی فراشه، و عندها نقول له: زادت فرصة النجاة لک، و فی أی وقت أحضرنا له دواء نذکره بأنّنا قد حللنا له مشکلا آخر، فی حین أنّ کلّ هذه الأمور هی من مقتضیات الشفاء و لیست (علّة عامّة)، فیجب أن یکون الدواء مؤثّرا فی المریض، و أن تراعی توصیات الطبیب، کما أنّه یجب أن لا ننسی الحمیة و أثرها، لکی یتحقّق الشفاء العینی و الواقعی (تأمّل).

ثمّ یضیف تعالی: لأجل إیضاح أنّ ما یقوله صلّی اللّه علیه و آله هو من اللّه، و أنّ کلّ هدایة منه، و أن لیس هناک أدنی خطأ أو نقص فی الوحی الإلهی، قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلی نَفْسِی وَ إِنِ اهْتَدَیْتُ فَبِما یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی ۴۱۶].

أی إنّنی لو اتّکلت علی نفسی فسوف أضلّ، لأنّ الاهتداء إلی طریق الحقّ من بین أکداس الباطل لیس ممکنا بغیر إمداد اللّه، و نور الهدایة الذی لیس فیه ضلال و تیه هو نور الوحی الإلهی.

صحیح أنّ العقل هو مصباح مضیء، غیر أنّ الإنسان لیس معصوما، و شعاع هذا المصباح لا یمکنه کشف جمیع حجب الظلام، إذا تعالوا و تعلّقوا بنور الوحی الإلهی هذا حتّی تخرجوا من الظلمات، و تضعوا أقدامکم علی أرض النور.

و فى ختام الآية يضيف تعالى: إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

فلعلّكم تعتقدون أنّه تعالى لا يسمع ما نقول و ما تقولون، أو أنّه يسمع ذلك و لكنّه بعيد، كلّا، فهو (سميع) و (قريب)، فلا تعزب عنه ذرّة ممّا نقول أن ندعو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۲

الآيات [سورة سبإ (۳۴): الآيات ۵۱ الى ۵۴]

اشارة

وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۵۱) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵۲) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵۳) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (۵۴)

التّفسير

ليس للكافرين مفرّ:

الآيات الأخيرة من سورة سبأ تعود إلى الحديث فى المشركين المعاندين الذين مرّ الحديث فيهم فى الآيات السابقة عن طريق مخاطبة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فتصوّر حال تلك المجموعة عند وقوعها فى قبضة العذاب الإلهى، كيف تفكّر فى الإيمان، حين لا يكون لإيمانهم أدنى فائدة.

يقول تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ

ثمّة آراء بين المفسّرين فى: متى يكون ذلك الصراخ و الفزع و الاضطراب؟

فبعضهم يرى أنّه عذاب الدنيا أو عذاب الموت، و بعضهم يرى أنّه يخصّ عقاب يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۳

القيامة، غير أنّ آخر هذه الآية، يشير إلى أنّ هذه الآيات جميعها تتحدّث عن الدنيا و عذاب الاستئصال، أو لحظة تسليم الروح، إذ يقول تعالى فى الآية الأخيرة من هذا المقطع وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ و هذا التعبير لا ينسجم مع يوم القيامة. لأنّ الجميع يجمعون فى ذلك اليوم للحساب، كما تشير إلى ذلك الآية (۱۰۲) من سورة هود ذلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

و فى الآيتين ۴۹- ۵۰ من سورة الواقعة أيضا نقرأ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

و عليه فإنّ المقصود من جملة أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ هو أنّ هؤلاء الأفراد الكافرين و الظالمين، ليس فقط لا يمكنهم الفرار من يد القدرة الإلهيّة فحسب، بل إنّ اللّه سبحانه و تعالى يأخذهم بالعذاب من مكان قريب منهم جدّا.

ألم يدفن الفراعنة فى أمواج النيل الذى كان المصدر الأساس لفخرهم، ألم تنخسف الأرض بقارون و كنوزه، و «قوم سبأ» الذين مرّت بنا قصّتهم فى هذه السورة ألم يحيق بهم الهلاك أقرب الأمكنة لهم، و هو ذلك السدّ العظيم الذى كان سبب عمران بلادهم و سبب حياتهم و حركتهم؟ لذا فإنّه اللّه يأخذ بالعذاب من أقرب الأماكن حتّى يعلم مدى قدرته و سطوته.

فأكثر السلاطين الظلمة قتلوا على أيدى أقرب أفراد حواشيهم، و أغلب المتسلّطين الجبابرة تلقّوا الضربة الأخيرة من داخل قصورهم.

و لو لا حظنا ما ورد فى الكثير من الروايات من طرق السنّة و الشيعة، لرأينا أنّ لهذه الآية مصداقا فى أحاديث «السفيانى» (مجموعة

على خطّ أبى سفيان و عصارة عصر الجاهلية يخرجون على أتباع الحقّ فى عصر ظهور المهدى عليه السّلام).

حيث أنّ السفيانى و جيشه تخسف بهم الصحراء وسط الطريق إلى مكّة، و ذلك فى الحقيقة واحد من مصاديق الآية وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ حيث أنّهم وقعوا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۴

العذاب الإلهى من أقرب النقاط لهم، و هى الأرض التى تحت أقدامهم. و قد وردت أحاديث كثيرة بهذا المضمون عن ابن عبّاس و ابن مسعود و أبى هريرة و حذيفة و امّ سلمة و عائشة، كما يلاحظ فى كتب السنّة، و كلّهم ينقلون عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله ۴۱۷].

و قد أوردت تلك الأحاديث فى تفسير هذه الآية فى الكثير من كتب التّفسير الشيعية من أمثال تفسير القمّى، و مجمع البيان، و نور الثقلين، و الصافى، و الكثير من كتب التّفسير السنّية كتفسير روح المعانى، و روح البيان، و القرطبى.

كذلك فإنّ العلّامة المجلسى- أعلى اللّه مقامه- أورد العديد من الروايات عن الإمام الباقر عليه السّلام بهذا الخصوص، و التى تشير إلى كونها أحد مصاديق هذه الآيات، باعتبار أنّ الخسف الذى يحلّ بالسفيانى و جيشه هو مصداق للأخذ من مكان قريب ۴۱۸].

و كما أشرنا مرارا فإنّ الرّوايات التى يوردها المفسّرون للتدليل على معنى الآية، إنّما هى المصاديق الأوضح، و ليس معناها تحديد معنى الآية فى ذلك.

الآية التى بعدها، تعرض وضع هؤلاء بعد أن أخذهم العذاب الإلهى تقول الآية الكريمة وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ ۴۱۹] و لكن أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

نعم فبحلول الموت و عذاب الاستئصال أغلقت أبواب العودة كليّا، و حيل كالسدّ المحكم بين الإنسان و بين أن يكفّر عن ذنوبه، لذا فإنّ إظهار الإيمان فى ذلك الحين، كأنّه كائن من مكان بعيد، و هو إيمان اضطرارى بسبب الخوف الشديد من العذاب الذى يعاين هناك، مثل ذلك الإيمان أصلا لا قيمة له، لذا فإنّ الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۵

(۲۸) من سورة الأنعام تعبّر عنهم قائلة: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

«التناوش» من مادّة «نوش»- على زنة خوف- بمعنى التناول، و بعضهم اعتبروا أنّها بمعنى «التناول بسهولة» أى كيف يتناولون الإيمان من مكان بعيد و لم يكونوا يتناولونه من قريب؟

كيف يستطيعون الآن و بعد أن انتهى كلّ شىء، أن ينبروا لجبران خطاياهم و يؤمنوا، فى حين أنّهم قبل هذا كفروا مع أنّهم كانوا يتمتّعون بالاختيار و الإرادة:

وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ

و لم يكتفوا بالكفر فقط، بل إنّهم ألصقوا بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و بتعاليمه مختلف أنواع التّهم، و حكموا أحكاما خاطئة فيما يخصّ (عالم الغيب- و القيامة- و النبوّة):

وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

«القذف»- كما قلنا- الرمى من بعيد، و «الغيب» هو عالم ما وراء الحسّ، و الجملة كناية لطيفة عمّن يطلق أحكامه على عالم ما وراء الطبيعة بلا سابق علم أو معرفة، كمن يرمى شيئا من نقطة بعيدة، فقلّما يصيب الهدف، فظنونهم و أمانيهم و أحكامهم لا تصيب أهدافها أيضا. فقد عدّوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله (ساحرا) حينا، و حينا (مجنونا) و آخر (كذّابا)، و حينا اعتبروا القرآن «نتاجا فكريا بشريا». و مرّة أنكروا الجنّة و النار و القيامة بشكل كلّى، كلّ هذه أنواع «للرجم بالغيب» أو «اصطياد الطيور فى ظلام الليل» أو بعبارة اخرى «القذف من مكان بعيد».

ثمّ يضيف تعالى: وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ ففى لحظة مؤلمة، فصل بينهم و بين كلّ ثرواتهم و أموالهم، و قصورهم و مقاماتهم، و أمانيهم، فكيف سيكون حالهم؟ هؤلاء الذين كانوا يعشقون الدرهم و الدينار، و الذين كانت قلوبهم لا تطاوعهم فى التخلّى عن أبسط الإمكانات المادية .. كيف سيكون حالهم فى تلك اللحظة التى يجب عليهم فيها أن يودّعوا كلّ ذلك وداعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۶

أخيرا، ثمّ يغمضون عيونهم و يسيرون باتّجاه مستقبل مظلم موحش.

جملة حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ فسّرت بتفسيرين:

الأوّل: هو ما عرضناه سابقا.

الثانى: أنّه حيل بينهم و بين رغبتهم فى الإيمان و جبران ما فاتهم .. غير أنّ التّفسير الأوّل ينسجم أكثر مع جملة ما يَشْتَهُونَ فضلا عن أنّ جملة أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ قد تعرّضت إلى قضيّة عدم تمكّنهم من الإيمان عند الموت و عذاب الاستئصال كما ذكرنا، فلا يبدو أنّ هناك داعيا للتكرار.

من الجدير بالذكر أيضا أنّ كثيرا من مفسّرى هذه الآية اعتبروا هذه الآيات ممّا يخصّ الحديث فى عقوبات الآخرة و ندامة المسيئين فى المحشر، و لكن الآية الأخيرة و بالأخصّ جملة كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ لا تنسجم مع هذا المعنى، بل إنّ المقصود هو لحظة الموت و مشاهدة عذاب الفناء.

و ما أجمل ما يقول أمير المؤمنين على (عليه أفضل الصلاة و السّلام) حينما يصوغ بكلماته النورانية وصفا للحظات فراق الروح لعالم الدنيا، و مفارقة نعمها:

«اجتمعت عليهم سكرة الموت، و حسرة الفوت، ففترت لها أطرافهم و تغيّرت لها ألوانهم! ثمّ زاد الموت فيهم و لوجا، فحيل بين أحدهم و بين منطقه، و إنّه لبين أهله، ينظر ببصره و يسمع باذنه ...

يفكّر فيم أفنى عمره؟ و فيم أذهب دهره؟ و يتذكّر أموالا جمعها، أغمض فى مطالبها، و أخذها من مصرحاتها و مشبهاتها! ...

فهو يعضّ يده ندامة على ما أصحر له عند الموت من أمره، و يزهد فيما كان يرغب فيه أيّام عمره، و يتمنّى أنّ الذى كان يغبطه بها و يحسده عليها قد حازها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۳، ص: ۴۹۷

دونه»![۴۲۰].

اللهمّ اجعلنا من الذين ينتبهون قبل فوات الفرص، و يجبرون ما فاتهم.

شباك الدنيا و مغرياتها مشرعة لنا، و العدوّ شديد المراس، و لو لا لطفك، فإنّ أعمالنا تافهة حقيرة ...

اللهمّ!! جعلنا من الذين يشكرون النعم حين حلولها، و أعذنا من الغفلة و الغرور، و اجعلنا من الذين لا يجزعون حين المصائب و الشدائد ..

... إنّك علىّ سميع نهاية تفسير سورة سبأ نهاية المجلّد الثالث عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البيان: ج ۸، ص ۳۱۲.

[۲] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۹۳.

[۳] (۱)- ضمیر« یتّخذها» یعود إلی(آیات الکتاب) التی وردت فی الآیات السابقة. و احتمل البعض أنّه یعود إلی(السبیل). لأنّ کلمة(السبیل) قد وردت فی آیات القرآن بصیغة المذکّر تارة، و بصیغة المؤنث تارة اخری.

[۴] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۲۲۸ باب تحریم الغناء.

[۵] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۵۱۳۶.

[۶] (۲)- الحجّ، ۳۰.

[۷] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۲۲۵- ۲۲۷، ۲۳۱ باب تحریم الغناء.

[۸] (۴)- الفرقان، ۷۲.

[۹] (۵)- المصدر السابق.

[۱۰] (۶)- المصدر السابق.

[۱۱] (۱)- المصدر السابق.

[۱۲] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۲، ص ۲۲۵- ۲۳۰.

[۱۳] (۳)- المصدر السابق.

[۱۴] (۴)- سفینة البحار، ج ۲، صفحة ۳۳۸.

[۱۵] (۵)- الدرّ المنثور ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۶] (۶)- التاج، المجلّد، ج ۵، ص ۲۸۷.

[۱۷] (۷)- تفسیر روح المعانی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۸] (۱)- تفسیر روح المعانی، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۹] (۱)- تفسیر روح المعانی، الجزء ۲۱، صفحة ۶۰.

[۲۰] (۲)- وسائل الشیعة، الجزء ۱۲، صفحة ۲۳۵.

[۲۱] (۱)- تأثیر الموسیقی علی النفس و الأعصاب، صفحة ۲۶.

[۲۲] (۲)- یراجع المصدر السابق صفحة ۹۲ و ما بعدها.

[۲۳] (۱)- تفسیر البرهان، المجلّد ۲، صفحة ۲۷۸.

[۲۴] (۲)- إنّ الذین اعتبروا الآیة أعلاه دلیلا علی نفی العمد مطلقا لا بدّ لهم من التقدیم و التأخیر فی الآیة لیقولوا: إنّ أصل الجملة کانت: خلق السماوات ترونها بغیر عمد، و هذا خلاف الظاهر قطعا.

[۲۵] (۳)-« تمید» من(المید) أی تزلزل الأشیاء و اضطرابها اضطرابا عظیما، و جملة(أن تمید بکم) فی تقدیر: لئلّا تمید بکم.

[۲۶] (۱)- لمزید الاطلاع حول فوائد الجبال راجع ذیل الآیة(۳) من سورة الرعد.

[۲۷] (۱)- هناک بحث بین المفسّرین فی أنّه هل یوجد لجملة(أن اشکر للّه) شیء مقدّر أم لا؟ فالبعض یعتقد أنّ جملة(قلنا له) مقدّرة قبلها، و البعض یقولون: لا تحتاج إلی تقدیر، و(أنّ) فی جملة(أن اشکر) تفسیریة، لأنّ الشکر بنفسه عین الحکمة، و الحکمة عینه. و کلا التّفسیرین یمکن قبوله.

[۲۸] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۳. کتاب العقل و الجهل حدیث ۱۲.

[۲۹] (۲)- نور الثقلین، الجزء ۴، صفحة ۱۹۶.

[۳۰] (۱)- إنّ کلّا من(أن) و« اللام»، و کون الجملة اسمیّة من أدوات التأکید.

[۳۱] (۲)- إنّ جملة(وهنا علی وهن) یمکن أن تکون حالا- للامّ بتقدیر کلمة« ذات»، فکان تقدیرها(حملته أمّه ذات وهن علی

وهن). و احتمل أیضا أن تکون مفعولا مطلقا لفعل مقدّر من مادّة(وهن) فکان تقدیره:(تهن و هنا علی وهن).

[۳۲] (۱)- البقرة، ۲۳۳.

[۳۳] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، الجزء ۶، ص ۴۸۴.

[۳۴] (۱)- قصص القرآن. شرح أحوال لقمان.

[۳۵] (۲)- مجمع البیان ذیل الآیات مورد البحث.

[۳۶] (۱)- مجمع البیان الجزء ۸ صفحة ۳۱۶ ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۷] (۲)- مجمع البیان. ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۸] (۳)- اصول الکافی، المجلّد الأوّل، صفحة ۱۳ کتاب العقل و الجهل.

[۳۹] (۱)- المصدر السابق.

[۴۰] (۲)- تفسیر البیضاوی و الثعلبی، و لکن نقل فی مجمع البیان جزءه الأوّل فقط.

[۴۱] (۱) مجمع البیان بتلخیص.

[۴۲] (۱) احتمل البعض أنّ الضمیر أعلاه ضمیر الشأن و القصّة، أو یعود إلی مفهوم الشرک، و کلا الاحتمالین بعید.

[۴۳] (۲) نور الثقلین، الجزء ۴، صفحة ۲۰۴.

[۴۴] (۱)« أنکر» أفعل التفضیل، و مع أنّه لا یأتی عادة فی مورد المفعول، إلّا أنّ هذه الصیغة وردت بصورة نادرة فی باب العیوب.

[۴۵] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۴۶] (۲) ثواب الأعمال و أمالی الصدوق، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، الجزء ۴، صفحة ۲۰۷.

[۴۷] (۱) المصدر السابق.

[۴۸] (۲) اصول الکافی، الجزء الثّانی، صفحة ۲۸ باب(أنّ الإیمان مبثوث لجوارح البدن کلّها).

[۴۹] (۳) بحار الأنوار، ج ۷۶، صفحة ۵۷.

[۵۰] (۴) الوسائل، الجزء صفحة ۵۳۲.

[۵۱] (۵) المصدر السابق.

[۵۲] (۱) المصدر السابق.

[۵۳] (۲) بحار الأنوار، الجزء ۷۴، صفحة ۱۷۱.

[۵۴] (۳) اصول الکافی، الجزء ۲، باب حسن الخلق و ما بعده صفحة ۸۱، ۸۲.

[۵۵] (۴) المصدر السابق.

[۵۶] (۵) المصدر السابق.

[۵۷] (۶) بحار الأنوار، الجزء ۷۵، صفحة ۱۲۰.

[۵۸] (۱) بحار الأنوار، الجزء ۷۵، صفحة ۱۲۱.

[۵۹] (۱) اعتقد بعض المفسّرین کالآلوسی فی روح المعانی، و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، بأنّ هذه الآیات مرتبطة بالآیات التی سبقت مواعظ لقمان، حیث تخاطب المشرکین\:i هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ E و تقول فی الآیات مورد البحث\:i أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ E. إلّا أنّ آخر هذه الآیة و الآیات التی بعدها، و الروایات الواردة فی تفسیرها تتناسب مع عمومیّة الآیة.

[۶۰] (۲) کانت لنا بحوث اخری حول تسخیر الموجودات للإنسان فی ذیل الآیة(۲) من سورة الرعد.

[۶۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۶۲] (۲) المصدر السابق.

[۶۳] (۱) اعتبر المفسّرون(لو) هنا شرطیة کالمعتاد، و جزاؤها محذوف، و التقدیر: لو کان الشیطان یدعوهم إلی عذاب السعیر أ یتبعونه.

[۶۴] (۱) تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۹ ذیل الآیة مورد البحث.

[۶۵] (۲) لمزید الإیضاح راجع تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۸ و ۲۷۹.

[۶۶] (۱) تفسیر البرهان، الجزء ۳، صفحة ۲۷۹.

[۶۷] (۱) تحدّثنا حول(علم اللّه المطلق) فی ذیل الآیة(۱۰۹) من سورة الکهف.

[۶۸] (۱) کان لنا بحث مفصّل حول تسخیر الشمس و القمر و الموجودات الاخری للإنسان فی ذیل الآیة(۲) من سورة الرعد، و الآیة(۳۲) من سورة إبراهیم.

[۶۹] (۲)« الباء» فی(بأنّ اللّه هو الحقّ) بالرغم من أنّها تبدو فی بادئ الأمر سببیة، و ربّما اعتبر بعض المفسّرین کالآلوسی فی روح المعانی مضمون هذه الآیة سببا للمطالب السابقة، إلّا أنّ سیاق الآیات و ذکر الصفات السابقة- أی الخالقیة و المالکیة و العلم و القدرة و علاماتها فی عالم الخلقة- ظاهر فی أنّها جمیعا کانت شاهدة علی هذه النتیجة، و بناء علی هذا، فإنّ محتوی هذه الآیة نتیجة للآیات السابقة لا سببا لها.

[۷۰] (۱)« الباء» فی(بنعمة اللّه) یمکن أن تکون باء السببیة، أو باء المصاحبة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب.

[۷۱] (۱) تفسیر مجمع البیان، و القرطبی، و الفخر الرازی، و الصافی.

[۷۲] (۱)« مقتصد» من مادّة قصد، بمعنی الاعتدال فی العمل، و الوفاء بالعهد.

[۷۳] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث، و وردت هذه الحادثة فی(اسد الغابة فی معرفة الصحابة) ج ۴، صفحة ۵ بتفاوت یسیر.

[۷۴] (۱) الإسراء، ۵۱.

[۷۵] (۱) سورة طه، ۱۵.

[۷۶] (۲) صحیح أنّ جملة(ینزل الغیث) فی الآیات أعلاه لا تتحدّث عن مسألة علم اللّه- و لهذا السبب فإنّ البعض اعتبر هذه الجملة استثناء من بین هذه الجمل، و جعلها مبیّنة لقدرة اللّه لا علمه، إلّا أنّ انسجام الجمل الخمس مع بعضها من جهة، و الروایات المتعدّدة التی وردت فی نهج البلاغة و کتب اخری- و سنشیر إلیها قریبا- من جهة اخری، قرینة علی أنّها ترتبط بعلم اللّه أیضا.

[۷۷] (۳) تفسیر الدرّ المنثور، طبقا لنقل تفسیر المیزان، الجزء، ۱۶ صفحة ۲۴۱.

[۷۸] (۱) وردت جملة(تغرّ و تضرّ و تمرّ) فی شأن الدنیا فی نهج البلاغة فی باب الحکم القصار لأمیر المؤمنین علیه السّلام: ۴۱۵.

[۷۹] (۱) من لا یحضره الفقیه، وفقا لنقل نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۲۱۷.

[۸۰] (۲) نهج البلاغة، الحکم القصار، جملة ۱۳۱.

[۸۱] (۱) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۸۲] (۲) نهج البلاغة. الخطبة ۱۲۸.

[۸۳] (۱) اصول الکافی، المجلّد الأوّل، ص ۲۰۲ باب أنّ الأئمّة یعلمون متی یموتون.

[۸۴] (۲) اصول الکافی، المجلّد الثّانی، ص ۲۰۱ باب نادر فیه ذکر الغیب.

[۸۵] (۳) لدینا فی کتاب الکافی روایات عدیدة فی أنّ للّه علما لا یعلمه إلّا هو، و علما علّمه الملائکة و الأنبیاء و الأئمّة. المجلّد الأوّل، صفحة ۱۹۹ باب أنّ الأئمّة علیهم السّلام یعلمون جمیع العلوم التی خرجت إلی الملائکة.

[۸۶] (۱) مجمع البیان، الجزء ۸، صفحة ۳۲۴.

[۸۷] (۲) مجمع البیان، الجزء ۸، صفحة ۳۲۵.

[۸۸] (۱)-« تنزیل الکتاب» خبر لمبتدأ محذوف تقدیره(هذا) و جملةi\ لا رَیْبَ فِیهِ E صفته، و(من ربّ العالمین) صفة اخری.

و احتمل البعض أن تکون الجمل الثلاث أخبارا متعاقبة. إلّا أنّ المعنی الأوّل أنسب. و علی کلّ حال فإنّ(تنزیل) مصدر جاء بمعنی اسم المفعول، و إضافته إلی الکتاب من قبیل إضافة الصفة إلی الموصوف. و یحتمل أیضا أن یکون المصدر بمعناه الأصلی و یؤدّی معنی المبالغة.

[۸۹] (۱)« أم» هنا بمعنی« بل»، و احتمل البعض أنّ فی الجملة تقدیرا، و کانت فی الأصل: أ یعترفون به أم یقولون افتراه- تفسیر« الفخر الرازی و أبی الفتوح-» إلّا أنّ هذا الاحتمال یبدو بعیدا.

[۹۰] (۲) فاطر، ۲۴.

[۹۱] (۱) لفظ الجلالة فی هذه الجملة مبتدأ، و(الذی) خبره. و احتملت فی ترکیب هذه الجملة احتمالات اخری، من جملتها، أنّ لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّ لفظ الجلالة مبتدأ و خبره(ما لکم من دونه من ولی) إلّا أنّ هذین الاحتمالین لا یبدوان مناسبین بتلک الدرجة.

[۹۲] (۱) لمزید التوضیح حول هذا الکلام راجع ذیل الآیة(۵۴) من سورة الأعراف.

[۹۳] (۱) البقرة، ۲۵۵.

[۹۴] (۲) یونس، ۳.

[۹۵] (۱) طبقا للتعبیر الأوّل فإنّ« السماء» بمعنی مقام القرب من اللّه، و طبقا للتعبیر الثّانی فإنّ« السماء» تعنی نفس هذه السماء- تأمّلوا ذلک-.

[۹۶] (۱) الأنبیاء، ۱۰۴.

[۹۷] (۱) سورة هود، ۱۲۳.

[۹۸] (۲) تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۲۱، و تفسیر الصافی ذیل الآیة مورد البحث.

[۹۹] (۱)« البهائیة و البابیة».

[۱۰۰] (۲) سورة یس، ۸۲.

[۱۰۱] (۱) الشوری، ۱۳.

[۱۰۲] (۲) المائدة، ۴۴.

[۱۰۳] (۳) آل عمران، ۳.

[۱۰۴] (۱) سورة الصف، ۶.

[۱۰۵] (۱) البعض یعتبر هذه الآیة إشارة إلی مراحل التکامل الجنینی فقط، و البعض الآخر احتمل أن تکون إشارة إلی مراحل تکامل آدم بعد خلقه من التراب، لأنّ عین هذه التعبیرات قد جاء فی آیات اخری من القرآن. إلّا أنّه لا مانع من أن تعود إلی الإثنین، لأنّ خلق آدم من التراب، و نسله من منی، طوی و یطوی هذه المراحل.

[۱۰۶] (۲) بحثنا فی هذا الباب فی ذیل الآیة(۲۹) من سورة الحجر.

[۱۰۷] (۱) سورة الإسراء، الآیة ۶۱.

[۱۰۸] (۲) سورة الأنبیاء، الآیة ۳۰.

[۱۰۹] (۳) آل عمران، ۵۹.

[۱۱۰] (۱) سورة القيامة، ۳- ۶.

[۱۱۱] (۱) لمزيد الإيضاح حول شبهة(الآكل و المأكول) و جوابها المفصّل راجع التّفسير الأمثل، ذيل الآية(۲۶۰) من سورة البقرة.

[۱۱۲] (۱) الزمر، ۴۲.

[۱۱۳] (۲) النحل، ۲۸.

[۱۱۴] (۳)(لو) فى الآية الشريفة شرطية، شرطها جملة(و ترى ..) و جزاؤها محذوف، و التقدير:« و لو ترى إذ المجرمون ... لرأيت عجبا». و فى جملة(ربّنا أبصرنا) حذف تقديره: يقولون ربّنا أبصرنا.

[۱۱۵] (۱) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۲۵.

[۱۱۶] (۲) تفسير الدرّ المنثور طبقا لنقل الميزان، الجزء ۱۶، صفحة ۲۵۵.

[۱۱۷] (۱) ينبغى الالتفات إلى أنّ الآية الاولى هى اولى السجدات الواجبة فى القرآن الكريم، و إذا ما تلاها أحد بتمامها، أو سمعها من آخر فيجب أن يسجد. طبعا لا يجب فيها الوضوء، لكن يجب الاحتياط فى وضع الجبهة على ما يصحّ السجود عليه.

[۱۱۸] (۲) يقول الراغب فى المفردات:(خرّوا) فى الأصل من مادّة الخرير، أى صوت الماء و أمثاله حين انحداره من مرتفع إلى منخفض، و استعماله هذا التعبير فى شأن الساجدين إشارة إلى أنّ هؤلاء ترتفع أصواتهم بالتسبيح فى لحظة هويّهم إلى الأرض للسجود.

[۱۱۹] (۳) سورة مريم، الآية ۵۸.

[۱۲۰] (۱)« تتجافى» من مادّة« جفا»، و هى فى الأصل بمعنى القطع و الحمل و الإبعاد، و(الجنوب) جمع جنب، و هو الجانب، و(المضاجع) جمع مضجع، و هو محل النوم، و إبعاد الجانب عن محلّ النوم كناية عن النهوض من النوم و التوجّه إلى عبادة اللّه فى جوف الليل.

[۱۲۱] (۱) نقل هذا الحديث كثير من المفسّرين، و من جملتهم الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و القرطبى فى تفسيره. و قد أورده المحدّثان المشهوران البخارى و مسلم فى كتبهما أيضا.

[۱۲۲] (۱) مجمع البيان. ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۲۳] (۲) مجمع البيان، ج ۲ ذيل الآية(۱۷۱) من آل عمران، و التّفسير الأمثل، ذيل نفس الآية.

[۱۲۴] (۱) أورد هذه الرواية العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، و الفاضل البرسوئى فى روح البيان. و ممّا يستحقّ الانتباه أنّنا نقرأ فى كتاب(اسد الغابة فى معرفة الصحابة) أنّه لا خلاف بين المطلعين على تفسير القرآن و العالمين به فى أنّ آية\i إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ\E قد نزلت فى حقّ الوليد بن عقبة فى قصّة بنى المصطلق.

[۱۲۵] (۱)« المأوى» من مادّة(أوى) بمعنى انضمام شىء إلى شىء آخر، ثمّ قيلت للمكان و المسكن و المستقرّ.

[۱۲۶] (۱) الدرّ المنثور و أمالى الشيخ طبقا لنقل تفسير الميزان الجزء ۱۶ صفحة ۲۶۸.

[۱۲۷] (۱) اصول الكافى، الجزء ۲، باب دعائم الإسلام صفحة ۲۰ حديث ۱۵، و المصدر السابق.

[۱۲۸] (۲) مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث، و تفسير نور الثقلين، الجزء ۴، صفحة ۲۲۹.

[۱۲۹] (۱) كان لنا بحث آخر حول أهميّة صلاة الليل و طريقتها فى ذيل الآية(۷۹) من سورة الإسراء.

[۱۳۰] (۱) ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مرجع الضمير فى(لقائه) إلى موسى، و بناء على هذا يصبح المعنى: لا شكّ يا محمّد بأنّك ستلتقى بموسى، و اعتبروا ذلك إشارة إلى لقائه به فى ليلة المعراج أو فى يوم القيامة. و هذا المعنى لا يبدو منسجما مع مفهوم الجملة. و قال البعض الآخر: إنّ الضمير يرجع إلى الكتاب، و المراد منه القرآن، أى: لا تدع أيّها النّبى للشكّ فى أنّ هذا القرآن وحى إلهى إلى نفسك سبيلا، و هذا المعنى و إن كان يتلائم مع آيات بداية السورة، إلّا أنّه لا يتلاءم كثيرا مع الجمل الاخرى الموجودة فى نفس

هـذه الآيـة. إضافة إلى أنّ الكتاب فى الآية مورد البحث بمعنى التوراة، فلا ينسـجم معه عود الضـمير إلى القرآن- و توجيه هذا المعنى بأنّ المراد مطلق الكتاب السماوى لا يقلّل من كونه خلاف الظاهر.

و قال بعض المفسّرين: إنّ الضـمير فى(لقائه) يعود إلى اللّه، و هذه الجملة إشارة إلى أنّه لا شكّ أبدا فى مسألة المعاد، و هذا المعنى و إن كان يتّفق و ينسجم مع الآيات السابقة، إلّا أنّه لا يتلاءم من أى وجه تقريبا مع نفس الآية مورد البحث.

و من هنـا يتّضـح أنّ مـا ورد فى بعض التفاسـير من أنّ الآيـة إشارة إلى التقاء خطّى و برنامجى موسـى و نبى الإسـلام، مطلب ذوقى لا يناسب المفهوم الواقعى لألفاظ الآية، و بناء على هذا فإنّ أوضح التفاسير و أجلاها ما أوردناه أعلاه.

[۱۳۱] (۱) الكافى، المجلّد الأوّل، صفحة ۱۶۸ باب أنّ الأئمّة فى كتاب اللّه إمامان.

[۱۳۲] (۱) سورة يس، الآية ۸۲.

[۱۳۳] (۲) تفسير الميزان، المجلّد الأوّل، صفحة ۲۷۵.

[۱۳۴] (۱) اصول الكافى، الجزء ۲، صفحة ۷۲ باب الصبر باختصار قليل.

[۱۳۵] (۱) فاعل(لم يهد) يفهم من جملة\i كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ E و التقدير: أو لم يهد لهم كثرة من أهلكنا.

[۱۳۶] (۱) ذكر أغلب المفسّرين فى تفسير الآيـة مـا ذكرنـاه أعلاه، إلّا أنّ البعض احتمـل أن تكون جملـة\i يَمْشُـونَ E بيانـا لحال المهلكين، أى أنّ أولئك الأقوام كانوا فى غفلة تامّة عن العذاب الإلهى، و كانوا يسـيرون فى مساكنهم و يتنّعمون بها، إذ أتاهم عذاب اللّه بغتة و أهلكهم. إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا.

[۱۳۷] (۱) مجمع البيان، المجلّد ۸، صفحة ۳۳۴. بداية سورة الأحزاب.

[۱۳۸] (۲) المصدر السابق.

[۱۳۹] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، و تفاسير اخرى.

[۱۴۰] (۱) تفسير الفخر الرازى، المجلّد ۱۵، صفحة ۱۹۰ ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۴۱] (۱) مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث، و تفسير القرطبى.

[۱۴۲] (۱) تفسير على بن إبراهيم، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۲۳۴.

[۱۴۳] (۱) سيأتى- إن شاء اللّه تعالى- توضيح أكثر حول المسائل المرتبطة بالظهار فى ذيل الآيات المناسبة فى سورة المجادلة.

[۱۴۴] (۱) تفسير فى ظلال القرآن، المجلّد ۶، صفحة ۵۳۴، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۴۵] (۱) روح المعانى، المجلّد ۲۱، صفحة ۱۳۱ ذيل الآية مورد البحث.

[۱۴۶] (۲) روح البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۱۴۷] (۳) قال المفسّرون: إنّ كلمـة(ما) هنا موصولـة، و هى من ناحيـة الإعراب مبتـدأ، و خبرها محـذوف، و تقدير الجملة: لكن ما تعمّدت قلوبكم فإنّكم تؤاخذون عليه.

[۱۴۸] (۱) وردت هذه الروايات فى اصول الكافى، و كتاب علل الشرائع. راجع تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۲۳۸- ۲۳۹.

[۱۴۹] (۱) تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۵۰] (۲) المصدر السابق.

[۱۵۱] (۳) صحيح البخارى، المجلّد ۶، صفحة ۱۴۵ تفسير سورة الأحزاب، و مسند أحمد، الجزء ۲، صفحة ۳۳۴.

[۱۵۲] (۱) نقل هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله فى وسائل الشيعة، الجزء ۷، صفحة ۵۵۱، و ورد هـذا المضـمون بتفـاوت يسـير فى تفسـير القرطبى، و روح المعـانى فى ذيل الآيات مورد البحث، و ورد أيضا فى صـحيح البخارى، المجلّد ۶، صفحة ۱۴۵ تفسير سورة الأحزاب.

[۱۵۳] (۲) مجمع البیان، و روح المعانی، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۵۴] (۱) روح المعانی، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۵۵] (۱) بناء علی هذا، فإنّ استدلال بعض الفقهاء بهذا التعبیر علی أولویة طبقات الإرث بالنسبة إلی بعضها البعض لا یبدو صحیحا، و ربّما سبّب حرف الباء فی(أولی ببعض) مثل هذا الاشتباه، فظنّوا أنّ المفضّل علیهم هنا هم البعض، فی حین أنّ القرآن الکریم ذکر صریحا أنّ المفضّل علیهم هم من المؤمنین و المهاجرین.

نعم .. إنّ تعبیر(أولو الأرحام) لا یستطیع أن یشعر بمفرده أنّ المعیار هو الرحم و القرابة، و أنّ درجة القرابة کلّما قویت و ارتفعت فستکون أحقّ بالتقدّم- لاحظوا ذلک-.

[۱۵۶] (۲) یعتقد جمع من المفسّرین أنّ الاستثناء فی جملة(إلّا أن تفعلوا ..) استثناء منقطع، لأنّ حکم الوصیّة غیر حکم الإرث، و لکنّا نعتقد أن لا مانع من أن یکون الاستثناء هنا متّصلا، لأنّ جملة(و أولو الأرحام ...) دلیل علی أن الأقارب أولی من الأجانب بالنسبة إلی الأموال التی یترکها المیّت، إلّا أن یکون قد أوصی، فإنّ الموصی له یکون حینئذ أولی من الأرحام فی إطار الثلث، و هذا فی الحقیقة شبیه بالاستثناءات التی وردت فی آیات الإرث بصیغة(من بعد وصیّة ...).

[۱۵۷] (۱) أخرج هذه الأحادیث العلّامة السیّد هاشم البحرانی فی تفسیر البرهان، المجلّد ۳، صفحة ۲۹۲- ۲۹۳، و من جملتها الحدیث أعلاه، و الحدیث(۱۶) من سلسلة الأحادیث هذه.

[۱۵۸] (۱) المیثاق- کما یقول الراغب فی مفرداته- هو العقد المؤکّد بیمین و عهد، و بناء علی هذا فإن ذکر(غلیظا) فی الآیة تأکید یضاف علی هذا المعنی.

[۱۵۹] (۱) احتمل جمع من المفسّرین احتمالا آخر فی معنی هذه الآیة، و هو أنّ المراد من« الصادقین» هنا هم الأنبیاء، حیث یسألون یوم القیامة عن مدی قیامهم و وفائهم بعهدهم و میثاقهم؟ إلّا أنّ الشواهد الثلاثة التی ذکرناها أعلاه تنفی هذا التّفسیر.

و احتمل أیضا أن یکون المراد أعمّ من الأنبیاء و المؤمنین، إلّا أنّ التّفسیر الذی ذکر أعلاه أکثر انسجاما مع آیات هذه السورة و سائر آیات القرآن.

[۱۶۰] (۱) ما ذکرناه أعلاه کان اختصارا لبحث مفصّل أورده المؤرخّون، و من جملتهم ابن الأثیر فی الکامل.

[۱۶۱] (۱) لمزید الإیضاح فی هذا الباب راجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۹) من سورة الأنفال.

[۱۶۲] (۱) آل عمران، الآیة ۱۵۴.

[۱۶۳] (۲) فسر جمع من المفسرین(الظنون) هنا بالمعنی الأعم من الظن السیء و الحسن، إلا أن القرائن الموجودة فی هذه الآیة و الآیة التالیة تبین أن المراد من الظنون هنا السیئة منها.

[۱۶۴] (۱)

\i\i الکامل لابن الأثیر، الجزء ۲، صفحة ۱۷۹. و ورد هذا الحادث بتفاوت یسیر فی سیرة ابن هشام\،E و هو أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله قال: أمّا الاولی فإنّ اللّه فتح علی بها الیمن، و أمّا الثّانیة فإنّ اللّه فتح علیّ بها الشام و المغرب، و أمّا الثالثة فإنّ اللّه فتح علیّ بها المشرق». و هذا الترتیب ینسجم مع التسلسل التاریخی لفتح هذه المناطق الثلاث\.E

[۱۶۵] (۲) البقرة، الآیة ۱۰.

[۱۶۶] (۱) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۳۴۶.

[۱۶۷] (۱) تفسیر القرطبی، و تفسیر فی ظلال القرآن، ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۶۸] (۲) نقل هذا القول الآلوسی فی روح المعانی.

[۱۶۹] (۱) آل عمران- ۱۵۴.

[۱۷۰] (۱)« أشـحّة» جمع شحیح، من مادّة(الشحّ)، أی البخل المقترن بالحرص، و محلّ الکلمة من الإعراب هنا برأی أکثر المفسّرین(حال)، لکن ذلک لا ینافی أن تکون حالا فی مقام بیان العلّة. تأمّلوا ذلک.

[۱۷۱] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، فصل الغرائب جملة ۹.

[۱۷۲] (۱)- مفردات الراغب، و مجمع البیان، و لسان العرب مادّة نحب.

[۱۷۳] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۷۴] (۳) أورد هذه الرّوایات بتفاوت یسیر أصحاب تفاسیر القرطبی و فی ظلال القرآن، و مجمع البیان فی کتبهم.

[۱۷۵] (۴) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۷۶] (۱) تفسیر الصافی ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۷۷] (۲) نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۲۵۹.

[۱۷۸] (۱) تفسیر المیزان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۷۹] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، صفحة ۲۱۵، و نقل هذا الحدیث عن الکراجکی.

[۱۸۰] (۱) التاریخ الکامل لابن الأثیر الجزء ۲ صفحة ۱۸۴.

[۱۸۱] (۲) بحار الأنوار، الجزء ۲۰، صفحة ۲۲۸.

[۱۸۲] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، صفحة ۲۱۵، ابن أبی الحدیـد فی شـرح نهج البلاغة، المجلّد ۴، صفحة ۳۴۴ طبقا لنقل إحقاق الحقّ، الجزء ۶، صفحة ۹.

[۱۸۳] (۲) بحار الأنوار الجزء ۲۰ صفحة ۲۱۶.

[۱۸۴] (۱) مستدرک الحاکم، الجزء ۳، صفحة ۳۲.

[۱۸۵] (۲) اعتمدنا فی هذا الجانب علی کتب: إحقاق الحقّ، بحار الأنوار، المجلّد ۶، بحار الأنوار، المجلّد ۲۰، تفسیر المیزان، المجلّد ۱۶.

[۱۸۶] (۱) سیرة ابن هشام، المجلّد ۳، صفحة ۲۴۰ باختصار.

[۱۸۷] (۱) بحار الأنوار، ج ۲۰، صفحة ۲۰۸.

[۱۸۸] (۱) إحتجاج الطبرسی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۲۵۵.

[۱۸۹] (۲) وسائل الشیعة، المجلّد ۱، صفحة ۳۵۶.

[۱۹۰] (۱) الخصال، طبقا لنقل نور الثقلین، المجلّد ۴، ص ۲۵۷.

[۱۹۱] (۲) سفینة البحار، المجلّد ۱، صفحة ۴۸۴.

[۱۹۲] (۳) المصدر السابق.

[۱۹۳] (۱) سفینة البحار، المجلّد ۱، ص ۴۸۶.

[۱۹۴] (۲) کان لنا بحث آخر حول أهمیّة ذکر اللّه و مفهومه ذیل الآیة(۱۲۰) من سورة الرعد.

[۱۹۵] (۱) الکامل لابن الأثیر، المجلّد ۲، صفحة ۱۳۷- ۱۷۳.

[۱۹۶] (۱) سورة التوبة، الآیة ۱۰۲.

[۱۹۷] (۲) سیرة ابن هشام، المجلّد ۳، صفحة ۲۴۴ و ما بعدها، و الکامل لابن الأثیر، ج ۲، ص ۱۸۵ و ما بعدها بتلخیص.

[۱۹۸] (۱) کنز العرفان، المجلّد ۲، ص ۲۳۸.

[۱۹۹] (۱) طالع التوضیح الأکثر فی هذا الباب فی الکتب الفقهیة، و خاصة کتاب الجواهر، المجلّد ۲۹، صفحة ۱۲۲ و ما بعدها.

[۲۰۰] (۱) المفردات للراغب، مادّة قنوت.

[۲۰۱] (۱) اصول الکافی، المجلد الأول، ص ۳۷ باب لزوم الحجة علی العالم.

[۲۰۲] (۲) اصول الکافی، الجزء الأول، صفحة ۹ کتاب العقل و الجهل.

[۲۰۳] (۳) المصدر السابق.

[۲۰۴] (۱) اصول الکافی، المجلّد الأوّل، صفحة ۳۸ باب لزوم الحجّة علی العالم، و الآیة(۱۷) من سورة النساء.

[۲۰۵] (۲) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۳۵۴ ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۰۶] (۱) طبعا یکون فعل الأمر(أقررن) فی صورة کونها من مادّة القرار، و حذفت الراء الاولی للتخفیف، و انتقلت فتحة الراء إلی القاف، و مع وجودها لا نحتاج إلی الهمزة، و تصبح(قرن)- تأمّلوا جیّدا-

[۲۰۷] (۱) ذکر الراغب فی مفرداته، فی مادّة(رجس) المعنی المذکور أعلاه، و أربعة أنواع کمصادیق له.

[۲۰۸] (۱) ما ذکره البعض من أنّ« البیت» هنا إشارة الی بیت اللّه الحرام، و أهله هم« المتّقون» لا یتناسب مطلقا مع سیاق الآیات. لأنّ الکلام فی هذه الآیات عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و أزواجه، لا عن بیت اللّه الحرام، و لا یوجد أیّ دلیل علی قولهم.

[۲۰۹] (۱) روی الطبرسی فی مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث، هذا الحدیث بهذا المضمون بطرق متعدّدة عن أمّ سلمة. راجع شواهد التنزیل، للحاکم الحسکانی، المجلّد ۲، صفحة ۵۶ و ما بعدها.

[۲۱۰] (۱) مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۱] (۲) شواهد التنزیل، المجلّد ۲، صفحة ۳۱ و ما بعدها.

[۲۱۲] (۳) الدرّ المنثور ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۳] (۱) شواهد التنزیل، المجلّد ۲، صفحة ۱۱.

[۲۱۴] (۲) الدرّ المنثور، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۱۵] (۳) شواهد التنزیل، الجزء ۲، صفحة ۲۵.

[۲۱۶] (۱) یراجع الجزء الثّانی، من إحقاق الحقّ و هوامشه.

[۲۱۷] (۲) یراجع المجلّد الثّانی، من شواهد التنزیل، صفحة ۱۰- ۹۲.

[۲۱۸] (۳) الإستیعاب، و صحیح البخاری، و صحیح مسلم. طبقا لنقل المراجعات صفحة ۲۲۹ الرسالة ۷۲.

[۲۱۹] (۱) اصول الکافی، المجلد الثانی، صفحة ۲۱ باب أن الإیمان یشرک الإسلام.

[۲۲۰] (۲) المحجة البیضاء، المجلد ۵، ص ۱۹۳.

[۲۲۱] (۱) تفسیر مجمع البیان و تفسیر القرطبی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۲۲] (۲) مجمع البیان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۲۳] (۱) کان لنا بحث آخر فی هذا المجال فی ذیل الآیة(۲۲۸) من سورة البقرة، و کذلک ورد بحث آخر فی ذیل الآیة(۹۷) من سورة النحل.

[۲۲۴] (۱) اقتباس من تفسیر مجمع البیان، و القرطبی، و المیزان، و الفخر الرازی، و فی ظلال القرآن، و تفاسیر اخری فی ذیل الآیات مورد البحث، و کذلک سیرة ابن هشام، المجلّد الأوّل، صفحة ۲۶۴، و الکامل لابن الأثیر، المجلّد الثّانی، صفحة ۱۷۷.

[۲۲۵] (۱) الکامل لابن الأثیر، المجلد ۲، ص ۱۷۷. و مما یستحق الالتفات أن زواج النبی صلی الله علیه و آله من زینب قد تم فی السنة الخامسة للهجرة، المصدر السابق.

[۲۲۶] (۱) المائدة، ۵۴.

[۲۲۷] (۲) البقرة، ۱۲۰.

[۲۲۸] (۱) یروی المفسّر الکبیر المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان: فتزوّجها رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله ... و ما أولم علی امرأة من نسائه ما أولم علیها، ذبح شاة، و أطعم الناس الخبز و اللحم حتّی امتدّ النهار. مجمع البیان، ج ۸، ص ۳۶۱.

[۲۲۹] (۱) النور، ۵۱.

[۲۳۰] (۲) النساء، ۶۵.

[۲۳۱] (۳) النساء، ۱۲۵.

[۲۳۲] (۱) لقد أوردنا بحثا آخر فی هذا الباب فی ذیل الآیة(۶۵) من سورة النساء.

[۲۳۳] (۱) مجمع البحرین مادّة خشی.

[۲۳۴] (۱) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۵۲۱ ذیل الآیة(۲۸) من سورة المؤمن.

[۲۳۵] (۱) الکافی، طبقا لنقل البحار، الجزء ۲۱، صفحة ۳۶۱.

[۲۳۶] (۱) تفسیر القرطبی، و تفسیر المیزان ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۳۷] (۱) لسان العرب، و قاموس اللغة مادّة ختم: الخاتم ما یوضع علی الطینة.

[۲۳۸] (۲) أورد هذا الخبر أیضا البیهقی فی سننه، المجلّد ۱۰، ص ۱۲۸.

[۲۳۹] (۳) سفینة البحار، المجلّد ۱، صفحة ۳۸۶.

[۲۴۰] (۴) الطبقات الکبری، المجلّد ۱، صفحة ۲۵۸.

[۲۴۱] (۱) سورة یس، ۶۵.

[۲۴۲] (۲) سورة البقرة، ۷.

[۲۴۳] (۱) سورة الفرقان- ۱.

[۲۴۴] (۲) سورة سبأ، ۲۸.

[۲۴۵] (۳) سورة الأعراف، ۱۵۸.

[۲۴۶] (۴) بحار الأنوار، المجلّد الثّانی، صفحة ۲۶۰ باب ۳۱ حدیث ۱۷.

[۲۴۷] (۵) اصول الکافی، المجلّد الأوّل، باب البدع و الرأی و المقاییس حدیث ۱۹.

[۲۴۸] (۱) روی هذا الحدیث محبّ الدین الطبری فی ذخائر العقبی: ص ۷۹ طبعة مکتبة القدس، و ابن حجر فی الصواعق المحرقة، ص ۱۷۷ طبعة مکتبة القاهرة، و فی تاریخ بغداد، المجلّد ۷، ص ۴۵۲ طبعة السعادة، و کتب اخری ککنز العمّال، و منتخب کنز العمال، و ینابیع المودّة.

لمزید الإیضاح حول حدیث المنزلة راجع هذا التّفسیر ذیل الآیة(۱۴۴) من سورة الأعراف.

[۲۴۹] (۲) صحیح مسلم، الجزء ۴، ص ۱۷۹۰- ۱۷۹۱ باب ذکر کونه صلّی اللّه علیه و آله خاتم النبیّین من کتاب الفضائل.

[۲۵۰] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۱، ص ۳۸۱.

[۲۵۱] (۲) اصول الکافی، المجلّد الأوّل.

[۲۵۲] (۳) معالم النبوّة. فصل نصوص کونه صلّی اللّه علیه و آله خاتما.

[۲۵۳] (۱) طبعا یوجد فی الإسلام موضوعات تشبه الضمان فی حدود خاصّة، کمسألة ضمان الجریرة، أو تعلّق دیّة الخطأ المحض بالعاقلة، إلّا أنّ لها مجرّد شبه بالمسألة کما قلنا.

[۲۵۴] (۱) مفاتیح الغیب، ص ۴۱- ۴۲.

[۲۵۵] (۱) الدرّ المنثور، طبقا لنقل الميزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۳۵۳.

[۲۵۶] (۱) سورة ص- ۸۲، ۸۳.

[۲۵۷] (۱) الكافى، المجلّد الثّانى، كتاب الدعاء. باب ذكر اللّه عزّ و جلّ كثيرا.

[۲۵۸] (۲) المصدر السابق.

[۲۵۹] (۳)- المصدر السابق.

[۲۶۰] (۱) المصدر السابق.

[۲۶۱] (۲) خصال الصدوق، طبقا لنقل تفسير الميزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۳۵۳.

[۲۶۲] (۱) التّفسير الكبير للفخر الرازى ذيل الآية مورد البحث.

[۲۶۳] (۱) التوبة، ۱۰۵.

[۲۶۴] (۲) النساء، ۴۱.

[۲۶۵] (۳) لقد أوردنا بحثا مفصّلا فى هذا الباب تحت عنوان أصلان تربويان مهمّان، فى ذيل الآية(۱۱۹) من سورة البقرة.

[۲۶۶] (۱) يحتمل أيضا أنّ قيد(بإذنه) يعود إلى جميع الأوصاف السابقة، إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ الضمير يعود إلى مسألة الدعوة إلى اللّه.

[۲۶۷] (۱) الأنعام، ۱۶۰.

[۲۶۸] (۲) البقرة، ۲۶۱.

[۲۶۹] (۳) الم السجدة، ۱۷.

[۲۷۰] (۱) كالآية(۲۴۱) من سورة البقرة، و وردت روايات متعدّدة فى هذا الباب ذكرت فى وسائل الشيعة، الجزء ۱۵، ص ۵۹ الباب ۵۰ من أبواب المهور من كتاب النكاح، و من جملتها ما

\iٌi ورد عن على عليه السّلام E« لكلّ مطلّقة متعة إلّا المختلعة\».E

[۲۷۱] (۲) البقرة، ۲۳۶.

[۲۷۲] (۱) ذكر بعض المفسّرين وجوها أوردها« الفاضل المقداد» فى كنز العرفان، فى أنّه لماذا ورد العمّ بصيغة المفرد و العمّات بصيغة الجمع، و كذلك الخال بصيغة المفرد و الخالات بصيغة الجمع، إلّا أنّ أفضلها هو أنّ العمّ و الخال يستعملان كاسم للجنس فى لغة العرب، و ليس كذلك العمّات و الخالات، و قد ذكر ابن العربى عرف أهل اللغة هذا(كنز العرفان، المجلّد ۲، ص ۲۴۱).

و قد رجّح الآلوسى هذا الاحتمال فى روح المعانى على كلّ الوجوه الاخرى.

[۲۷۳] (۱) مجمع البيان ذيل الآية مورد البحث، و فى تفسير القرطبى جملة:(و اللّه ما أرى بك إلّا يسارع فى هواك). و أوردها الآلوسى فى روح المعانى أيضا فى ذيل الآية مورد البحث. إنّ قبح هذا التعبير، و المعنى الذى اخفى فيه لا يخفى على أحد، إلّا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله يمرّ عليه و يتجاوزه بشكل رائع.

[۲۷۴] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۲۲، صفحة ۱۹۱- ۱۹۲.

[۲۷۵] (۲) المصدر السابق.

[۲۷۶] (۱) اقتباس من مجمع البيان و تفاسير اخرى.

[۲۷۷] (۱) تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۲۹۴- ۲۹۵.

[۲۷۸] (۱) كنز العرفان، المجلّد ۲، صفحة ۲۴۴.

[۲۷۹] (۱) تفسير القرطبى، المجلّد ۸، صفحة ۵۳۰۳.

[۲۸۰] (۲) وسائل الشیعة، المجلّد ۱۴، الباب ۳۶ من أبواب مقدّمات النکاح الحدیث ۳.

[۲۸۱] (۱) مجمع البیان، المجلّد ۸، صفحة ۳۶۶ ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۸۲] (۲) المصدر السابق، ص ۳۶۶ و ۳۶۸.

[۲۸۳] (۱)« إناه» من مادّة« أنّی یأنی» أی حلول وقت الشیء، و تعنی هنا تهیئة الطعام للتناول.

[۲۸۴] (۲) الکافی، المجلّد ۵، ص ۵۲۸.

[۲۸۵] (۱) لسان العرب مادّة حجب.

[۲۸۶] (۱) صحیح البخاری، ج ۶، ص ۱۴۹.

[۲۸۷] (۲) المصدر السابق.

[۲۸۸] (۱) تفسیر القرطبی، المجلّد ۸، صفحة ۵۳۱۰.

[۲۸۹] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۶۰ باب ۹۳ حدیث ۱۴.

[۲۹۰] (۲) المصدر السابق.

[۲۹۱] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۳.

[۲۹۲] (۲) المحجّة البیضاء، المجلّد ۳، صفحة ۲۹ الباب الثالث.

[۲۹۳] (۳) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۱.

[۲۹۴] (۴) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۵.

[۲۹۵] (۵) المصدر السابق.

[۲۹۶] (۱) المحجّة البیضاء، المجلّد ۳، صفحة ۳۰.

[۲۹۷] (۲) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۵ حدیث ۲۷.

[۲۹۸] (۳) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۴۵۱.

[۲۹۹] (۱) ذکر المؤرخّون ثلاثة أولاد للنبی صلّی اللّه علیه و آله: القاسم و عبد اللّه(الملقّب بالطیّب و الطاهر)، و کانا من خدیجة، و قد ودّعا الحیاة فی طفولتهما، و إبراهیم الذی ولد فی السنة الثامنة للهجرة، و لم یعش أکثر من ۱۸ أو ۱۶ شهرا و لم یکن أی منهم حیّا عند نزول سورة الأحزاب، و إبراهیم ولد بعد ذلک و مات فی طفولته. یراجع: اسد الغابة، و سائر کتب التأریخ و الرجال.

[۳۰۰] (۱) یراجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۳۱) من سورة النور.

[۳۰۱] (۱) الطریف أنّ البدء بهذه الآیات صادف لیلة میلاد النّبی صلّی اللّه علیه و آله فی شهر ربیع الأوّل سنة الف و أربعمائة و أربع للهجرة.

[۳۰۲] (۱) أورد الراغب هذا المعنی بعبارات اخری فی المفردات.

[۳۰۳] (۲) مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۰۴] (۱) المصدر السابق. و روی الحدیث الثّانی فی کتب الفریقین بطرق متعدّدة، و بعبارات قریبة الألفاظ.

[۳۰۵] (۱) تفسیر الدرّ المنثور ذیل الآیة مورد البحث، طبقا لتفسیر المیزان، ج ۱۶، صفحة ۳۴۴.

[۳۰۶] (۲) صحیح البخاری، المجلّد ۶، صفحة ۱۵۱.

[۳۰۷] (۳) صحیح مسلم، المجلّد ۱، صفحة ۳۰۵ باب الصلاة علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله.

[۳۰۸] (۴) الصواعق المحرقة، صفحة ۱۴۴.

[۳۰۹] (۱) أورد العلّامة الحلّی هذا القول فی بحث التشهّد من التذکرة- إضافة إلی کلّ علماء الشیعة- عن الإمام أحمد و بعض

الشافعیة.

[۳۱۰] (۲) ذکر العلّامة الأمینی فی کتاب« الغدیر» النفیس نسبة هذه الأشعار إلی الشافعی عن شرح المواهب للزرقانی و جماعة آخرین.

[۳۱۱] (۱) صحیح البخاری، الجزء ۵، صفحة ۲۶.

[۳۱۲] (۲) صحیح مسلم، المجلّد ۴، صفحة ۱۹۰۳ باب فضائل فاطمة.

[۳۱۳] (۳) تفسیر مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۱۴] (۱) أصول الکافی، المجلّد ۲، صفحة ۳۵.

[۳۱۵] (۱) بحار الأنوار، المجلّد ۷۵، صفحة ۱۹۴.

[۳۱۶] (۱) تفسیر القمّی ج ۲ ص ۱۹۶.

[۳۱۷] (۲) المصدر السابق طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۰۷.

[۳۱۸] (۱) لسان العرب، مجمع البحرین، مفردات الراغب القطر المحیط، و تاج العروس.

[۳۱۹] (۲) کان لنا بحث حول فلسفة الحجاب و أهمیّته، و کذلک حول استثناء الوجه و الکفّین فی ذیل الآیتین ۳۱ و ۳۲ من سورة النور.

[۳۲۰] (۱)(قلیلا) هنا مستثنی من محذوف، و التقدیر: لا یجاورونک زمانا إلّا زمانا قلیلا.

[۳۲۱] (۱) إنّ الألف فی« الرسولا» و« السبیلا» هی ألف الإطلاق، و لتناسق آخر الآیات، و إلّا فإنّ التنوین لا یجتمع مع الألف و اللام مطلقا.

[۳۲۲] (۱) ممّا یستحقّ الانتباه أنّه قد ورد« الضعفان» فی الآیات مورد البحث، و« الضعف» فی آیة سورة الأعراف، إلّا أنّه بالتدقیق فی معنی الضعف یتّضح أنّ لکلیهما معنی واحدا.

[۳۲۳] (۱) نور الثقلین، المجلّد ۴، ص ۳۰۸.

[۳۲۴] (۲) نور الثقلین، المجلّد ۴، ص ۳۰۹.

[۳۲۵] (۱) سورة هود، الآیة ۱۱۴.

[۳۲۶] (۲) عد الغزالی فی إحیاء العلوم عشرین کبیرة أو معصیة تصدر عن اللسان، و هی: ۱- الکذب ۲- الغیبة ۳- النمیمة ۴- النفاق فی الکلام، أی کون الإنسان ذا لسانین و وجهین ۵- المدح فی غیر موضعه ۶- بذاءة الکلام ۷- الغناء و الأشعار غیر المرضیة ۸- الإفراط فی المزاح ۹- السخریة و الاستهزاء ۱۰- إفشاء أسرار الآخرین ۱۱- الوعد الکاذب ۱۲- اللعن فی غیر موضعه ۱۳- التخاصم و النزاع ۱۴- الجدال و المراء ۱۵- البحث فی امور الباطل ۱۶- الثرثرة ۱۷- البحث فی الأمور التی لا تعنی الإنسان ۱۸- وصف مجالس الشراب و القمار و المعصیة ۱۹- السؤال عن المسائل الخارجة عن إدراک الإنسان و البحث فیها ۲۰- التصنع و التکلف فی الکلام.

و نزید علیها عشرة مواضیع مهمة اخری، و هی: ۱- الاتهام ۲- شهادة الزور ۳- إشاعة الفحشاء، و نشر الإشاعات التی لا أساس لها ۴- مدح الإنسان نفسه ۵- الإصرار فی غیر محله ۶- الغلظة و الخشونة فی الکلام ۷- الأذی باللسان ۸- ذم من لا یستحق الذم ۹- کفران النعمة اللسان ۱۰- الإعلام الباطل.

[۳۲۷] (۳) بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۷۸.

[۳۲۸] (۴) بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۲۷۸.

[۳۲۹] (۱) الدرّ المنثور، طبقا لنقل تفسیر المیزان، الجزء ۱۶، صفحة ۳۷۶.

[۳۳۰] (۱) تفسیر البرهان، المجلّد ۳، صفحة ۳۴۱ ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۳۱] (۲) المصدر السابق.

[۳۳۲] (۱) الأعراف، ۲۳.

[۳۳۳] (۱) اتّضح ممّا قلناه فى تفسير الآية أن لا حاجة مطلقا إلى أن نقدر شيئا فى الآية، كما قال ذلك جمع من المفسّرين، ففسّروا الآية بأنّ المراد من عرض أمانة اللّه على السماء و الأرض و الجبال هو عرضها على أهلها، أى الملائكة! و لذلك قالوا بأنّ أولئك الذين أبوا أن يحملوها قد أدّوها، و أولئك الذين حملوها خانوها.

إنّ هذا التّفسير ليس مخالفا لظاهر الآية من ناحية الاحتياج إلى التقدير و حسب، بل يمكن أن يناقش و يورد على اعتقاده بأنّ على الملائكة نوع تكليف، و أنّها حاملة لجزء من هذه الأمانة. و بغضّ النظر عن كلّ ذلك فإنّ تفسير أهل الجبال بالملائكة لا يخلو من غرابة، دقّقوا ذلك.

[۳۳۴] (۱) مجمع البيان، بداية سورة سبأ، المجلّد ۸، صفحة ۳۷۵.

[۳۳۵] (۲) المصدر السابق.

[۳۳۶] (۱) فاطر، ۳۴.

[۳۳۷] (۲) يونس، ۱۰

[۳۳۸] (۱)« يعزب»: من مادة« عزوب» و تعنى المتباعد فى طلب الكلأ عن أهله، يقال عزب يعزب و يعزب ثمّ اطلق على كلّ غائب، يقال رجل عزب، و امرأة عزبة إذا غاب عنها زوجها.

[۳۳۹] (۱) النمل، ۱۵.

[۳۴۰] (۲) النمل، ۱۶.

[۳۴۱] (۱) الميزان، ج ۱۶، ص ۳۶۷.

[۳۴۲] (۲) انظر تفسير البرهان، ج ۳، ص ۳۴۳. و تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۱۵.

[۳۴۳] (۳) مجمع البيان- ج ۸ ص ۳۸۱.

[۳۴۴] (۱) راجع تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۹، ص ۱۹۲.

[۳۴۵] (۲) مجمع البيان، ج ۸، ص ۳۸۲.

[۳۴۶] (۱)« لسليمان» جار و مجرور متعلّق بفعل مقدّر تقديره« سخّرنا» كما يفهم بقرينة الآيات السابقة، و قد صرّح بذلك فى الآية(۳۶) من سورة ص. التى قال فيها سبحانه و تعالى\:i فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ E. و بعض المفسّرين يعتقد بأنّ(اللام) فى(لسليمان) للتخصيص، إشارة إلى أنّ المعجزة اختصّ بها سليمان و لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء.

[۳۴۷] (۱) مفردات الراغب، مادّة(حرب).

[۳۴۸] (۲) المصدر السابق.

[۳۴۹] (۱) وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۱۹- ۲۲۰، ب ۹۴، ح ۱.

[۳۵۰] (۱)« منسأته»: من مادّة(نسأ) و هو التأخير فى الوقت، و المنسأة: عصا ينسأ بها الشىء، أى يؤخّر. قال بعض المفسّرين: إنّ هذه اللفظة من كلمات أهل اليمن، و بما أنّ سليمان عليه السّلام حكم تلك المنطقة فقد استخدمها القرآن حين حديثه عن ذلك النّبى. راجع مفردات الراغب و تفسير القرطبى و روح البيان.

[۳۵۱] (۱) فى الحالة الاولى يكون إعراب الآية كما يلى:« تبيّنت» فعل و« الجنّ» فاعل و جملة« أن لو كانوا ...» فى محل مفعول به، و فى الحالة الثّانية« تبيّنت» فعل و« أمر الجنّ» فاعل ثمّ حذف المضاف و أصبح« المضاف إليه» فى محلّه، و أن لو كانوا ... بيان و توضيح للجملة.

[۳۵۲] (۱) علل الشرائع، طبقا لنقل المیزان، ج ۱۶، ص ۳۶۶.

[۳۵۳] (۱) تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۳۴۵.

[۳۵۴] (۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۲.

[۳۵۵] (۱) النمل، ۳۶.

[۳۵۶] (۲) النمل، ۱۹.

[۳۵۷] (۳) النمل- ۱۸.

[۳۵۸] (۴) سورة ص، ۳۲.

[۳۵۹] (۱) التوراة کتاب الملوک الأوّل- الفصل ۱۱- ۱۲- زوجات سلیمان.

[۳۶۰] (۱) تفسیر المیزان، ج ۴، ص ۳۸.

[۳۶۱] (۱) الکافی، ج ۲، باب الشکر، ص ۹۵، ح ۱۲ و ح ۱۰.

[۳۶۲] (۲) المصدر السابق.

[۳۶۳] (۳) الکافی، ج ۲، باب الشکر، ص ۹۸، ح ۲۷.

[۳۶۴] (۴) الکافی، ج ۲، باب الشکر، ص ۹۹، ح ۳۰.

[۳۶۵] (۱) مجمع البیان، ج ۸، ص ۳۸۵- ۳۸۶.

[۳۶۶] (۱)« بلدة»: خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: هذه بلدة طیّبة و هذا ربّ غفور.

[۳۶۷] (۲) یمکن أن یکون هذا الخطاب الإلهی لهؤلاء القوم علی أحد احتمالین، فإمّا أن یکون قد أبلغ ذلک بواسطة الأنبیاء المبعوثین منهم، کما قال به بعض المفسّرین، أو أنّ هذه النعم کانت توصل إلی إدراکهم مثل هذا الخطاب.

[۳۶۸] (۱) لسان العرب مادّة« عرم» ج ۱۲، ص ۳۹۶.

[۳۶۹] (۱) نقل هذا المثل علی صورتین« تفرّقوا أیدی سبأ» و« أیادی سبأ»، ففی الشکل الأوّل إشارة إلی التمزّق البشری، و الشکل الثّانی إشارة إلی تمزّق الأموال و النعم و الإمکانات، لأنّ« أیادی» عادة تستعمل بمعنی النعم.

[۳۷۰] (۲) تفسیر القرطبی و تفسیر أبی الفتوح الرازی، ذیل الآیات مورد البحث.

[۳۷۱] (۱) اقتباس من تفسیر مجمع البیان و قصص القرآن و تفاسیر اخری.

[۳۷۲] (۱) النمل، ۱۹

[۳۷۳] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار.

[۳۷۴] (۲) إبراهیم، ۲۲.

[۳۷۵] (۳) علی هذا المعنی الذی ذکرناه فی تفسیر الآیة، فإنّ الاستثناء هنا« استثناء متّصل» بقرینة ما ورد فی الآیة(۴۲) من سورة الحجر\i:إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ E، بلحاظ أنّ ظاهر هذه الآیة أنّ للشیطان سلطة علی الغاوین- طبعا بعض المفسّرین احتملوا أن یکون« الاستثناء منقطعا أیضا».

[۳۷۶] (۱) فی الحقیقة إنّ فی الجملة مستترین: الأوّل بعد« زعمتم» تقدیره« أنّهم آلهة» و الثّانی بعد« من دون اللّه» تقدیره« لا یستجیبون دعاءکم» و الجملة تکون هکذا« قل ادعوا الذین زعمتم أنّهم آلهة من دون اللّه لا یستجیبون لکم».

[۳۷۷] (۱) یونس، ۱۸.

[۳۷۸] (۲)(فزع) من مادّة« فزع»، و فی وقت تعدّیها بحرف الجرّ(عن) تکون بمعنی إزالة الفزع و الوحشة و الاضطراب، کذلک لو وردت بصورة الثلاثی المجرّد و تعدّت بحرف الجرّ(عن) یکون لها نفس المعنی أیضا.

[۳۷۹] (۱) هذه الجملة تقديرا تعود إلى جملتين كما يلى« و انّا لعلى هدى أو فى ضلال مبين، و إنّكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين»(مجمع البيان، مجلّد ۷، ص ۳۸۸).

[۳۸۰] (۱) راجع الآيات التالية: النمل: ۱، النور: ۱۲، هود: ۶، القصص: ۲، النمل: ۷۹.

[۳۸۱] (۱) توحيد المفضّل- أوائل الكتاب.

[۳۸۲] (۱) تفسير مجمع التبيان، مجلّد ۸، ص ۳۹۱.

[۳۸۳] (۲) انظر تفسير نور الثقلين، مجلّد ۴، ص ۲۵۵ و ۲۵۶.

[۳۸۴] (۳) أحيانا تلحق(التاء) اسم الفاعل لتكون صيغة مبالغة لا علامة للتأنيث كما فى« رواية».

[۳۸۵] (۱)(يرجع): تأتى كفعل لازم و كفعل متعدّى، و قد وردت هنا بالحالة الثّانية لتعطى معنى العودة، و مجيئها بعد« بعضهم إلى بعض» معناه فى النتيجة بمعنى« مفاعلة».

[۳۸۶] (۱) الأنبياء، ۱۴.

[۳۸۷] (۲) انظر لسان العرب ذيل مادّة(سرّ) فهناك بحث مفصّل بهذا الخصوص مع اختلافات أهل اللغة و الأدب، مجلّد ۴، ص ۳۵۷.

[۳۸۸] (۱) لسان العرب، مجلّد ۹، ص ۱۷.

[۳۸۹] (۱)« زلفى» و« زلفة» بمعنى المنزلة و الحظوة(مفردات الراغب)، و لهذا السبب عبّر عن(منازل الليل) ب(زلف الليل)- و التعبير ب« التى» لأجل أنّه فى كثير من الموارد يعود الضمير المفرد المؤنث إلى جمع التكسير، و عليه فلا حاجة إلى التقدير هنا.

[۳۹۰] (۲) التعبير ب« جزاء الضعف» من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة.

[۳۹۱] (۱) التغابن، ۱۴.

[۳۹۲] (۲) أنعام، ۱۶۰.

[۳۹۳] (۱) الحقيقة أن تعبير« معاجزين» الذى أوردنا تفسيره من مفردات الراغب، شبيه بتعبير(يخادعون الله و رسوله) البقرة- ۹، لأنّ باب مفاعلة يمكن أن يأتى على هذه الصورة.

[۳۹۴] (۱) الزخرف، ۵۳.

[۳۹۵] (۲) الزخرف، ۲۵.

[۳۹۶] (۳) الزخرف، ۳۱.

[۳۹۷] (۱) البقرة، ۲۴۷.

[۳۹۸] (۲) الشعراء، ۱۱۱.

[۳۹۹] (۳) الكهف، ۲۸.

[۴۰۰] (۱) الزخرف، ۳۳- ۳۵.

[۴۰۱] (۱) تفسير روح المعانى، مجلد ۲۲، ص ۱۴۰- كذلك ورد هذا المعنى بتفاوت يسير فى سيرة ابن هشام، مجلد ۱، ص ۷۹- و هناك نقرأ أنه جلب معه الصنم« هبل».

[۴۰۲] (۲) عمرو بن لحى: أحد الشخصيات المعروفة فى مكة قبل الإسلام.

[۴۰۳] (۱)- مجمع البيان: ذيل الآيات مورد البحث.

[۴۰۴] (۲) نور الثقلين، المجلّد ۴، ص ۳۴۰، ح ۷۷.

[۴۰۵] (۱) تفسير البرهان، مجلّد ۳، ص ۳۵۳.

[۴۰۶] (۱) تفسير الفخر الرازى، مجلّد ۲۵، ص ۲۶۳(ذيل الآيات مورد البحث).

[۴۰۷] (۲) الجامع لأحکام القرآن(القرطبی)، مجلّد ۱۴، ص ۳۰۷.

[۴۰۸] (۱) اصول الکافی، المجلّد ۲، کتاب الکفر و الإیمان- باب التفکّر- صفحة ۵۵ حدیث ۴.

[۴۰۹] (۲) سفینة البحار، المجلّد الثّانی، صفحة ۳۸۲.

[۴۱۰] (۳) المصدر السابق.

[۴۱۱] (۴) المصدر السابق.

[۴۱۲] (۱) الشوری، ۲۳.

[۴۱۳] (۱)(یبدئ) من مادّة« بدء» بمعنی الإیجاد الابتدائی، و(یعید): من مادّة(عود) بمعنی التکرار، الباطل: فاعل، و المفعول محذوف، و التقدیر« ما یبدئ الباطل شیئا و ما یعید شیئا».

[۴۱۴] (۱) مجمع البیان، مجلّد ۸، صفحة ۳۹۷.

[۴۱۵] (۲) المؤمن، ۶۰

[۴۱۶] (۱) فیما یخصّ لما ذا أورد فی الجملة الاولی i عَلی نَفْسِی E و فی الجملة الثّانیة\i فَبِما یُوحِی إِلَیَّ رَبِّی E قال بعض المفسّرین: کلّ واحدة من هاتین الجملتین تحتوی علی محذوف مقدّر، و التقدیر کاملا« إن ضللت فإنّما أضلّ نفسی و إن اهتدیت فإنّما أهتدی لنفسی بما یوحی إلیّ ربّی»(تأمّل!!)- تفسیر روح المعانی- تفسیر الآیة مورد بحثنا.

[۴۱۷] (۱) تفسیر المیزان، المجلّد ۱۶، صفحة ۴۱۹.

[۴۱۸] (۲) بحار الأنوار، مجلّد ۵۲، صفحة ۱۸۵ فیما بعد.

[۴۱۹] (۳) الضمیر فی کلمة« به» یعود علی« الحقّ» علی اعتبار أنّه أقرب مرجع له، و نعلم بأنّ الحقّ الآیات السابقة یشیر إلی« القرآن و محتواه و المبدأ و المعاد و رسول الإسلام».

[۴۲۰] (۱) نهج البلاغة، خطبة ۱۰۹.

الجزء الرابع عشر

سورة فاطر

محتوی السورة:

سمّیت هذه السورة ب «فاطر» أو «الملائکة» لابتداء آیاتها بآیة ذکر فیها «فاطر» و «الملائکة». و هی من السور المکیّة، مع أنّ البعض یستثنی منها الآیات (۲۹ و ۳۲) و یعتبرها مدنیة، إلّا أنّنا لم نجد دلیلا علی صحّة هذا الاستثناء.

و لکونها مکیة النّزول، فانّ محتواها العام یعکس الملامح العامّة للسور المکیة، کالحدیث فی المبدأ و المعاد و التوحید، و دعوة الأنبیاء، و ذکر نعم اللّه عزّ و جلّ و مصیر المجرمین یوم الجزاء.

و یمکن تلخیص آیات هذه السورة فی خمسة أقسام:

۱- قسم مهم من آیات هذه السورة یتحدّث حول آثار عظمة اللّه فی عالم الوجود، و أدلّة التوحید.

۲- قسم آخر من آیاتها یبحث فی ربوبیة اللّه و تدبیره لجمیع امور العالم، بالأخصّ امور الإنسان، و عن خالقیته و رزاقیته، و خلق الإنسان من التراب و مراحل تکامل الإنسان.

۳- قسم آخر یتحدّث حول المعاد و نتائج الأعمال فی الآخرة، و رحمة اللّه الواسعة فی الدنیا، و سنّته الثابتة فی المستکبرین.

۴- قسم من الآیات یشیر إلی مسألة قیادة الأنبیاء و جهادهم الشدید و المتواصل ضدّ الأعداء المعاندین. و مواساة الرّسول الأکرم صلّی

اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الخصوص.

۵- القسم الأخير منها يتعرّض للمواعظ و النصائح الإلهية فيما يخصّ المواضيع المذكورة أعلاه، و يعتبر مكمّلا لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸

بعض المفسّرين لخصّ جميع هذه السورة فى موضوع واحد و هو: هيمنة و قهّارية اللّه فى جميع الأمور[۱].

هذا الإعتبار و إن كان منسجما مع القسم الأعظم من آيات السورة، إلّا أنّه لا يمكن إنكار وجود موضوعات مختلفة اخرى فيها.

فضيلة هذه السورة:

ورد فى الحديث الشريف عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من قرأ سورة الملائكة، دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنّة أنّ ادخل من أى الأبواب شئت»[۲].

و مع الالتفات إلى ما نعلمه من أنّ أبواب الجنّة هى تلك العقائد و الأعمال الصالحة التى سبّبت الوصول إلى الجنّة، كما ورد فى بعض الروايات من أنّ هناك بابا باسم «باب المجاهدين» أو أمثاله، فيمكن أن تكون الرواية السالف ذكرها إشارة إلى أبواب القاعدة الاعتقادية الثلاثية الأساس «التوحيد- المعاد- النبوّة».

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ «الحمدين: حمد سبأ، و حمد فاطر، من قرأهما فى ليلة لم يزل فى ليلته فى حفظ اللّه و كلاءته، فمن قرأهما فى نهاره لم يصبه فى نهاره مكروه، و أعطى من خير الدنيا و خير الآخرة ما لم يخطر على قلبه و لم يبلغ مناه»[۳].

و نقول كما قلنا سابقا بأنّ القرآن برنامج عمل، و تلاوته بداية للتفكّر و الإيمان الذى هو بدوره وسيلة للعمل بمحتوى الآيات، و كلّ هذا الثواب العظيم يتحقّق بهذه الشروط «فتأمّل!!».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲) يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۳)

التّفسير

فاتح مغاليق الأبواب!

تبدأ هذه السورة- كما هو الحال فى سورة الفاتحة و سبأ و الكهف- بحمد اللّه و الثناء عليه لخلقه هذا الكون الفسيح، يقول تعالى:

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«فاطر» من مادّة «فطر» و أصله الشقّ طولا، لأنّ خلق الموجودات يشبه شقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰

ظلمة العدم و ظهور نور الوجود، استخدم هذا التعبير فيما يخصّ الخلق، خصوصا إذا لا حظنا ما يقوله العلم الحديث من نظريات تشير إلى أنّ مجموعة عالم الوجود كانت فى البدء كومة واحدة ثمّ انشقّت تدريجيّا عن بعضها.

و إطلاق كلمة «فاطر» على اللّه سبحانه و تعالى، يعطى للكلمة مفهوما جديدا و أكثر وضوحا. نعم فنحن نحمد اللّه و نشكره على خالقيته، لأنّ كلّ ما هو موجود منه تعالى، و ليس لأحد ممّن سواه شيء من ذاته ۴].

و لأنّ تدبير امور هذا العالم قد نيطت من قبل البارى عزّ و جلّ- بحكم كون عالمنا عالم أسباب- بعهدة الملائكة، فالآية تنتقل مباشرة إلى الحديث فى خلق الملائكة و قدراتها العظيمة التى وهبها اللّه إيّاها! جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

هنا تطرح ثلاثة أسئلة:

الأوّل: ما هى رسالة الملائكة التى ورد ذكرها فى الآية؟ هل هى رسالة تشريعية و جلب الأوامر من البارى إلى الأنبياء، أم أنّها رسالة تكوينية، أى تحمّل مسئولية المأموريات المختلفة فى عالم الخلق، كما سترد الإشارة إليه لاحقا، أم يقصد منه الاحتمالان؟

يتّضح من ملاحظة ما ورد فى الجملة الاولى، من الحديث حول خلق السموات و الأرض، و ما ورد فى الجملة الأخيرة من الحديث حول الأجنحة المتعدّدة للملائكة، و التى تدلّ على قدرتهم، و كذلك بملاحظة إطلاق مفهوم «الرسالة» بالنسبة إلى جميع الملائكة (يلاحظ أنّ الملائكة لفظة جمع لاقترانها بالألف و اللام و تدلّ على العموم) يتّضح من ذلك كلّه أنّ المقصود من الرسالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱

مفهوم واسع يشمل كلا من «الرسالة التشريعيّة» و «الرسالة التكوينية».

إنّ إطلاق لفظه الرسالة على «الرسالة التشريعية» و إبلاغ الوحى إلى الأنبياء ورد فى القرآن بكثرة، و إطلاق هذه اللفظة أيضا على «الرسالة التكوينية» ليس بالقليل كذلك.

فى الآية (۲۱) من سورة يونس نقرأ إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ

و فى الآية (۶۱) من سورة الأنعام نقرأ حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا.

و فى الآية (۳۱) من سورة العنكبوت ورد وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ

و فى آيات اخرى من القرآن نرى أنّه قد عهد إلى الملائكة أيضا بمأموريات مختلفة عدّت من رسالاتهم أيضا، و عليه فإنّ للرسالة مفهوما واسعا.

الثانى: ما هو المقصود بالأجنحة التى عبّر عنها ب مَثْنى وَ ثُلاثَ وَ رُباعَ

ليس من المستبعد أن يكون المقصود بالأجنحة هنا هو القدرة على الانتقال و التمكّن من الفعل، بحيث يكون بعضهم أفضل من بعض و له قدرة أكبر.

و عليه فقد ذكرت لهم سلسلة من المراتب بالأجنحة، فبعضهم له أربعة أجنحة (مثنى اثنان اثنان)، و البعض له ستّة أجنحة، و البعض ثمانية، و هكذا.

«أجنحة» جمع (جناح) ما يستعين به الطائر على الطيران، و هو بمثابة اليد فى الإنسان، و لأنّ الجناح فى الطائر يستخدم كوسيلة مساعدة على الانتقال و الحركة و الفعّالية، فقد استخدمت هذه الكلمة كناية عن وسيلة الحركة ذاتها و عامل القدرة و الاستطاعة، فمثلا يقال: إنّ فلانا احترقت أجنحته، كناية عن فقدانه قدرة الحركة أو الإمكانية، أو أنّ الإنسان يجب أن يطير بجناحى العلم و العمل، و الكثير

من هذه التعبيرات التى تشير إلى المعنى المستعار لهذه الكلمة.

كما يلاحظ أنّ المقصود من تعبيرات مثل «العرش» و «الكرسى» و «اللوح» و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲

«القلم» هى المفاهيم المعنوية لها، و ليس واقعها المادّى.

من الطبيعى أنّه لا يمكن حمل ألفاظ القرآن على غير معانيها الظاهرية بدون قرينة، و لكن حيثما ظهر أثر لتلك القرائن فليس هناك مشكلة.

ورد فى بعض الروايات أنّ «جبرئيل» رسول الوحى الإلهى، له ستمائة جناح، و كان يملأ ما بين الأرض و السماء حينما يلتقى به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۵].

أو ما

ورد فى «نهج البلاغة» حينما تحدّث أمير المؤمنين عن عظمة الملائكة.

فقال: «و منهم الثابتة فى الأرضين السفلى أقدامهم، و المارقة من السماء العليا أعناقهم، و الخارجة من الأقطار أركانهم، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم»[۶].

أو أنّ هناك ملائكة ما بين شحمة آذانهم و عيونهم مسيرة خمسمائة عام من الطيران ۷].

و من الواضح انّ هذه التعبيرات لا يمكن حملها على البعد الجسمانى و المادّى، بل المراد بيان العظمة المعنوية و أبعاد القدرة.

و نعلم أنّ الجناح- عادة- يستفاد منه فى جو الأرض، لأنّ الأخيرة محاطة بغلاف غازى من الهواء الضاغط، و الطيور إنّما تستفيد من أمواج الهواء للطيران، و الارتفاع و الانخفاض، و لكن بمجرد خروجنا من المحيط الغازى للأرض حيث ينعدم الهواء فانّ الجناح ليس له أدنى تأثير فى تحقيق الحركة، و يكون حاله حال سائر الأعضاء.

ناهيك عن أنّ الملك الذى تكون أقدامه فى أعماق الأرض و رأسه أعلى من أعلى السموات، ليس له حاجة إلى الطيران الجسمانى!!

البحث فى هل أنّ «الملائكة» أجسام لطيفة أو من المجردات بحث آخر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳

سنشير له فى البحوث ان شاء اللّه. المقصود الآن هو أن نعلم أنّ الجناح و الريش بالنسبة لها وسيلة الفعّالية و الحركة و القدرة، و الذى عبّرت عنه القرائن المشار إليها أعلاه بقدر كاف، بالضبط كما قلناه بالنسبة ل «العرش» و «الكرسى»، فانّ هاتين الكلمتين تشيران إلى قدرة اللّه فى العالم من أبعاد مختلفة!! و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام «الملائكة لا يأكلون و لا يشربون و لا ينكحون، و إنّما يعيشون بنسيم العرش»[۸].

السؤال الثالث: هل أنّ عبارة يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إشارة إلى زيادة أجنحة الملائكة؟ كما قال به بعض المفسّرين؟ أم أنّ لها معنى أوسع من ذلك بحيث يشمل عدا الزيادة فى أجنحة الملائكة الزيادات التى تحصل فى خلق الموجودات الاخرى؟

إطلاق الجملة من جهة، و دلالة بعض الروايات التى جاءت فى تفسير هذه الآيات من جهة اخرى، يشير إلى أنّ المعنى الثانى هو الأنسب.

فمن جملة ما

ورد، حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الجملة أنّه قال: «هو الوجه الحسن، و الصوت الحسن، و الشعر الحسن».

و نقر

فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «حسّنوا القرآن بأصواتكم فإنّ الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» و قرأ يَزِيدُ فِي

الْخَلْقِ ما يَشاءُ.

بعد الحديث عن خالقية اللّه سبحانه و تعالى، و رسالة الملائكة الذين هم واسطة الفيض الإلهى، تنتقل الآيات إلى الحديث عن رحمة اللّه سبحانه، و التى هى الأساس لكلّ عالم الوجود، تقول الآية الكريمة: ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَ ما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

الخلاصة أنّ تمام خزائن الرحمة عنده، و هو يشمل بها كلّ من يراه أهلا لها، و يفتح أبوابها حيثما اقتضت حكمته، و لن يستطيع الناس بأجمعهم أن يغلقوا ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴

فتح و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا، أو أن يفتحوا بابا أغلقه سبحانه و تعالى، و هذا المفهوم فى الحقيقة فرع مهم من بحث التوحيد حيث يتفرّع عنه فروع اخرى «تأمّل».

و قد ورد شبيه هذا المعنى فى الآيات القرآنية الاخرى، ففى الآية ۱۰۷- سورة يونس يقول تعالى: وَ إِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

ملاحظات

۱- التعبير ب «يفتح»- من مادّة «فتح»- إشارة إلى وجود خزائن الرحمة الإلهية التى ورد ذكرها أيضا فى آيات اخرى من القرآن الكريم، و الملفت للنظر أنّ هذه الخزائن بمجرّد فتحها تجرى الرحمة على الخلائق بلا أدنى حاجة إلى شىء آخر، و بدون أن يستطيع أحد منعها من ذلك.

و تقدّم مفهوم «فتح الرحمة» على «إمساكها»، لأنّ رحمة اللّه تسبق غضبه دوما.

۲- تعبير «الرحمة» له معنى واسع و شامل، لكلّ المواهب الإلهيّة فى الكون، معنوية و مادية، و لهذا السبب يحسّ المؤمن عند ما توصد أمامه جميع الأبواب بأنّ الرحمة تنساب فى قلبه و روحه، فيكون مسرورا و قانعا هادئا و مطمئنا، حتّى و إنّ كان مأسورا فى السجن.

و تارة ينعكس الحال، و ذلك حينما تكون جميع الأبواب الظاهرية مفتوحة أمام الإنسان، و مع ذلك يحسّ فى أعماقه بالضيق و الضغط و يرى الدنيا على سعتها سجنا مظلما موحشا، لمجرد عدم انفتاح باب الرحمة الإلهية فى أعماقه. و هذا أمر محسوس و ملموس للجميع.

۳- استعمال صفتى «العزيز» و «الحكيم» لتوضيح قدرة اللّه سبحانه و تعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵

على «إرسال» و «إمساك» الرحمة، و فى عين الحال إشارة إلى أنّ الفتح و الإغلاق فى أىّ وقت شاء تعالى إنّما هو على أساس الحكمة، لأنّ قدرة البارى و حكمته مقرونتان.

و على كلّ حال فإنّ الانتفاع من محتوى هذه الآية، يمنح الإنسان المؤمن هدوءا و سكينة، و يجعله مقاوما لكلّ أنواع الحوادث، و لا يخاف من المشاكل، و يبعده عن الغرور فى حال النجاح و الفوز.

و تشير الآية التالية إلى «توحيد العبادة» على أساس «توحيد الخالقية و الرازقية» فتقول الآية الكريمة: يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

فكّروا مليا ما هو منشأ كلّ هذه المواهب و البركات و الإمكانيات الحياتية التى قيّضت لكم .. هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ فمن الذى يرسل عليكم من الشمس نورها الذى ينشر الحياة، و حبّات المطر التى تحيى الموات، و النسيم الذى ينعش الروح؟ و من الذى يخرج لكم من الأرض معادنها و ذخائرها و غذاءها و أنواع نباتاتها و ثمارها و بركاتها الأخرى؟

فإذا علمتم أنّ مصدر كلّ هذه البركات هو اللّه، فاعلموا أنّ: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و عليه فكيف تنحرفون عن طريق الحقّ إلى الباطل، و تسجدون للأصنام بدلا من السجود للّه سبحانه؟ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ

«تؤفكون»: من مادّة «إفك»، بمعنى «كلّ مصروف عن وجهه الذى يحقّ أن يكون عليه» و لذا قيل لكلّ حديث ينصرف عن الصدق فى المقال إلى الكذب «إفك» و إن كان البعض يرى أنّ هذه الكلمة تطلق على الكذب الفاحش و التهمة الشنيعة.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶

«بحث»

الملائكة فى القرآن الكريم:

تعرّض القرآن الكريم كثيرا لذكر الملائكة .. فقد تحدّثت آيات عديدة عن صفات، خصائص، مأموريات، و وظائف الملائكة. حتّى أنّ القرآن الكريم جعل الإيمان بالملائكة مرادفا للإيمان باللّه و الأنبياء و الكتب السماوية، ممّا يدلّل على أهميّة هذه المسألة الأساسية.

آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ [۹] و ممّا لا شكّ فيه أنّ وجود الملائكة من الأمور الغيبية التى لا يمكن إثباتها بتلك الصفات و الخصائص إلّا بالأدلّة النقلية، و يجب الإيمان بها على أنه إيمان بالغيب.

و بالجملة يطرح القرآن الكريم خصائص الملائكة كما يلى:

۱- الملائكة موجودات عاقلة لها شعور، و هم عباد مكرمون من عباد اللّه بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ ۱۰].

۲- مطيعون لأوامر اللّه و لا يعصونه أبدا: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۱۱].

۳- أنّ لهم وظائف مهمّة و كثيرة التنوّع كلّفوا بها من قبل البارى عزّ و جلّ.

مجموعة تحمّل العرش وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ[۱۲].

مجموعة تدبّر الأمر فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً[۱۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷

و اخرى لقبض الأرواح ... حَتَّى إِذا جاءَتْهُمْ رُسُلُنا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ...[۱۴].

و آخرون يراقبون أعمال البشر وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ ۱۵].

مجموعة تحفظ الإنسان من المخاطر و الحوادث وَ هُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا وَ هُمْ لا يُفَرِّطُونَ ۱۶].

و اخرى مأمورة بإحلال العذاب و العقوبة على أقوام معيّنة وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۱۷] و آخرون يمدّون المؤمنين حال الحرب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً[۱۸].

و أخيرا مجموعة لتبليغ رسالات الوحى و إنزال الكتب السماوية للأنبياء يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ [۱۹] و لو أردنا الاسترسال فى ذكر وظائف الملائكة لطال البحث و اتّسع.

۴- الملائكة دائمو التسبيح و التقديس للّه سبحانه و تعالى وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۲۰].

۵- و بناء على أنّ الإنسان بحسب استعداده للتكامل يمكنه أن يكون أعلى مقاما و أشرف موضعا من الملائكة فقد سجدت الملائكة بدون استثناء لخلق آدم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸

و عدّوا آدم معلّما لهم «الآیات ۳۰- ۳۴ سورة البقرة».

۶- إنّ الملائکة یظهرون بصورة الإنسان للأنبیاء و غیر الأنبیاء، کما نقرأ فی الآیة (۱۷) من سورة مریم: فَأَرْسَلْنا إِلَیْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِیًّا.

کذلک یذکر القرآن الکریم تجلّیهم بصورة إنسان لإبراهیم و لوط (هود- ۶۹ و ۷۷) کما أنّه یستفاد من أواخر تلک الآیات أنّ قوم لوط أیضا رأوهم بتلک الصورة الإنسانیة السویة «هود- ۷۸».

فهل أنّ ذلک الظهور بالشکل الإنسانی، له واقع عینی، أم هو بصورة تمثّل و تصرّف فی قوّة الإدراک؟ ظاهر الآیات القرآنیة یشیر إلی المعنی الأوّل، و إن کان بعض من کبار المفسّرین قد اختار المعنی الثانی.

۷- یستفاد من الروایات أنّ أعداد الملائکة کثیرة بحیث انّه لا یمکن مقایسة أعدادهم بالبشر بأی شکل من الأشکال، فحینما سئل الإمام الصادق علیه السّلام: هل الملائکة أکثر أم بنو آدم؟ قال: «و الذی نفسی بیده لملائکة اللّه فی السموات أکثر من عدد التراب فی الأرض، و ما فی السماء موضع قدم إلّا و فیها ملک یسبّحه و یقدّسه، و لا فی الأرض شجرة و لا مدر إلّا و فیها ملک موکّل بها یأتی اللّه کلّ یوم بعملها و اللّه أعلم بها، و ما منهم أحد إلّا و یتقرّب کلّ یوم إلی اللّه بولایتنا أهل البیت، و یستغفر لمحبّینا و یلعن أعداءنا، و یسأل اللّه أن یرسل علیهم العذاب إرسالا»[۲۱].

۸- الملائکة لا یأکلون و لا یشربون، و لا یتزوجون،

فقد ورد عن الإمام الصادق فی حدیث طویل قوله: «إنّ الملائکة لا- یأکلون و لا- یشربون و لا- ینکحون، و إنّما یعیشون بنسیم العرش»[۲۲].

۹- لا ینامون و لا یضعفون و لا یغفلون،

ففی الحدیث عن أمیر المؤمنین علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹

بن أبی طالب علیه أفضل الصلاة و السلام «و ملائکة خلقتهم و أسکنتهم سماواتک، فلیس فیهم فترة و لا عندهم غفلة، و لا فیهم معصیة هم أعلم خلقک بک، ... و لا- یغشاهم نوم العیون و لا سهو العقول، و لا فترة الأبدان، لم یسکنوا الأصلاب و لم تضمّهم الأرحام» الحدیث ۲۳].

۱۰- إنّ لهم مقامات، و مراتب متفاوتة ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۲۴].

و کذلک نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السّلام: «و إنّ للّه ملائکة رکعا إلی یوم القیمة، و إنّ للّه ملائکة سجدا إلی یوم القیامة»[۲۵].

و لمزید نقرأ

فی الحدیث المذکور عن الإمام الصادق علیه السلام: «و إنّ للّه ملائکة رکعا إلی یوم القیامة، و إنّ اللّه ملائکة سجدا إلی یوم القیامة» ۳.

و لمزید الاطلاع علی أوصاف الملائکة و أصنافهم یراجع کتاب «السماء و العالم» من بحار الأنوار، أبواب الملائکة (المجلد ۵۹- الصفحات ۱۴۴- إلی ۳۲۶) و کذلک نهج البلاغة الخطب (۱ و ۹۱- خطبة الأشباح- و ۱۰۹ و ۱۷۱).

هل أنّ الملائکة بتلک الأوصاف التی ذکرناها، موجودات مجردة أم مادیة؟

لا ـ شكّ أنّ من غير الممكن أن تكون الملائكة بهذه الأوصاف من هذه المادّة الكثيفة، و لكن لا مانع من أن تكون أجساما لطيفة الخلق، أجساما فوق هذه المادّة المألوفة لنا.

إثبات (التجرد المطلق) للملائكة من الزمان و المكان و الجزئية، ليس بالأمر الهيّن، و الوصول إلى تلك النتيجة ليس وراءه كثير فائدة، المهمّ هو أن نعرف الملائكة بالصفات التى وردت فى القرآن و الروايات الثابتة. و أنّها من الموجودات العلوية الراقية عند اللّه فى مقامها و مكانتها، و لا ـ نعتقد لها بغير مقام العبودية للّه سبحانه، و أن نعلم بأنّ الإعتقاد بأنّها شريكة مع اللّه فى أمر اللّه الخلق أو فى العبادة كفر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰

محض و شرك بيّن.

نكتفى بهذا القدر من التفصيل حول الملائكة و نوكّل التفاصيل الأكثر إلى الكتب التى كتبت بهذا الشأن.

و نرى فى الكثير من عبارات «التوراة» لدى الحديث عن الملائكة عبارة «الآلهة» و هو تعبير مشرك و من علائم تحريف التوراة الحالية، و لكن القرآن الكريم نقى من هذه التعبيرات، لأنّه لا يرى لها سوى مقام العبودية و العبادة للّه تعالى و إطاعة أوامره، و حتّى أنّ القرآن يصرّح فى بعض آياته يتفوّق الإنسان الكامل على الملائكة فى المرتبة و المقام.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۴) يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۵) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (۶) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷)

التّفسير

لا يغرنكم الشيطان و الدنيا

ينتقل القسم الثانى من هذه المجموعة من الآيات- و بعد أن كان الحديث حول توحيد الخالقية و الرازقية- إلى الحديث فى تفصيل البرامج العملية للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يوجّه الخطاب إليه أوّلا، ثمّ لعموم الناس و بيان المناهج العملية لهم بعد تفصيل البرامج العقائدية سابقا.

فى البداية تقدّم الآيات للرسول درس الاستقامة على الصراط السوى، و الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲

هو أهمّ الدروس له، فتقول الآية الكريمة: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فهؤلاء الرسل الذين سبقوك قاوموا، و لم يهدأ لهم بال فى أداء رسالتهم، و أنت أيضا يجب أن تقف بصلابة، و تؤدّى رسالتك، و البقية بعهدة اللّه. وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فهو الناظر و الرقيب على كلّ شىء، و سوف يحاسب على جميع الأعمال.

فهو تعالى لا يتغافل عن المشاق التى تتحمّلها فى هذا الطريق، كما أنّه لن يترك هؤلاء المكذّبين المخالفين المعاندين يمضون دون

عقاب، فقد يكون للقلق محلّ لو لم يكن ليوم القيامة وجود، أمّا مع وجود تلك المحكمة الإلهية العظيمة، و تلك الكتابة لكلّ أعمال البشر لذلك اليوم العظيم، فأىّ داع للقلق بعد؟

ثمّ تنتقل الآيات لتوضيح أهم البرامج للبشرية، فتقول الآية الكريمة: إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فالقيامة و الحساب و الكتاب و الميزان و الجزاء و العقاب و الجنّة و النار كلّها و عود إلهية لا يمكن أن يخلفها اللّه تعالى.

و مع الانتباه إلى هذه الوعود الحقّة: فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ فلا ينبغى أن تخدعكم الحياة الدنيا، و لا يخدعكم الشيطان بعفو اللّه و رحمته ..

أجل، إنّ عوامل الإثارة، و زخارف الدنيا و زبارجها، إنّما تريد أن تملأ قلوبكم، و تلهيكم عن تلك الوعود الإلهيّة العظيمة، و كذلك فإنّ شياطين الجنّ و الإنس دائمة السعى بوساوسها و إغرائها و بمختلف وسائل الخداع و الاحتيال، و هى أيضا تريد إلفات اهتمامكم إليها، و إلهائكم عن التفكير فى ذلك اليوم الموعود، فإن تمكّنت أضاليلهم و خدعهم منكم، فقد ضاعت عليكم حياتكم بأكملها، و كانت سعادتكم و آمالكم نقشا على الماء، فالحذر الحذر!! إنّ تكرار التنبيه للناس لكى لا يغترّوا بوساوس الشياطين أو بزخارف الدنيا- فى الحقيقة- إشارة إلى أنّ للذنوب طريقين للولوج إلى النفس الإنسانية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳

۱- مظاهر الدنيا الخدّاعة، كالجاه و المقام و المال و الكبرياء و أنواع الشهوات.

۲- الاغترار بعفو اللّه و كرمه، و هنا فإنّ الشيطان يزيّن الدنيا فى نظر الإنسان و يصوّرها له متاعا مباحا و جذّابا و محبّبا و قيّما من جهة.

و من جهة اخرى فإنّه كلّما أراد الإنسان أن يتذكّر الآخرة و محكمة العدل الإلهى و مقاومة الجاذبية الشديدة للدنيا و خدعها، فانّه يغريه بعفو اللّه و رحمته، فيدفعه بالنتيجة إلى التسويف و الطغيان و ارتكاب الذنوب. غافلا عن أنّ اللّه سبحانه مع كونه فى موضع الرحمة و «أرحم الراحمين» فهو تعالى فى موضع العقوبة «أشدّ المعاقبين»، فإنّ رحمته لا يمكن أن تكون أبدا باعثا على المعصية، كما أنّ غضبه لا يمكن أن يكون سببا لليأس و القنوط.

«غرور» صيغة مبالغة بمعنى الخدّاع أو المضلّل غير العادى، و الظاهر أنّه إشارة إلى جميع عوامل الإغواء و الخداع، كما أنّه قد يكون إشارة إلى خصوص الشيطان. و إن كان المعنى الثانى أكثر مناسبة للآية الثانية، خاصّة إذا علمنا أنّ القرآن الكريم نسب «الغرور» إلى الشيطان فى آيات مختلفة.

بعض المفسّرين، لهم تحليل خاص هنا ملخّصه: أنّ الناس الذين يتعرضون لعوامل الخداع و الإغراء ثلاثة أصناف:

۱- صنف ضعيف و ليس له قدرة بحيث أنّه يخدع بأبسط الحيل.

۲- صنف أقوى من الأوّل، لا يخدعون فقط بزخرف الدنيا و زبرجها، بل مع ضمّ وساوس الشياطين الذين يعملون على تحريك شهواتهم و يهوّنون لهم مفاسد أعمالهم عندها يمكن خداعهم. فالملذّات الدنيوية من جهة، و الوساوس الشيطانية من جهة اخرى، تدفعهم إلى ارتكاب أعمال قبيحة و سيّئة.

۳- أمّا الصنف الثالث و هو الأقوى و الأعلم، فهم لا يغترّون بأنفسهم و لا يمكن لأحد خداعهم.

و جملة فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا إشارة إلى الصنف الأوّل، و جملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴

وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إشارة إلى الصنف الثانى، و أمّا الصنف الثالث فهم مصداق قوله: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ ۲۶].

الآية التالية تنذر و تنبّه جميع المؤمنين فيما يخصّ مسألة وساوس الشيطان و مكائده و التى تعرّضت لها الآية السابقة فتقول: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا.

تلك العداوة التى شرع بها الشيطان من أوّل يوم خلق فيه آدم عليه السّلام، و أقسم حين طرد من قرب اللّه و جواره بسبب عدم تسليمه

للأمر الإلهى بالسجود لآدم، أقسم و توعّد بأن يسلك طريق العداء لآدم و بنيه، و حتّى أنّه دعا من اللّه أن يمهله و يطيل فى عمره لذلك الغرض.

و قد التزم بما قال، و لم يفوّت أدنى فرصة لإبراز عدائه و إنزال الضربات بأفراد بنى آدم، فهل يصحّ منكم يا بنى آدم أن لا تعتبروه عدوّا لكم، أو أن تغفلوا عنه و لو لحظة واحدة، فكيف الحال باتّباعه و اقتفاء خطواته، أو تعدونه وليّا شفيقا و صاحبا ناصحا أ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ[۲۷].

مضافا إلى أنّه عدو يهاجم من كلّ طرف و جانب، فهو نفسه «لعنه اللّه» يقول:

على ما نقله القرآن الكريم: ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمانِهِمْ وَ عَنْ شَمائِلِهِمْ [۲۸] و هو يكمن لكم و يراكم و لا ترونه: إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ [۲۹] و مع ذلك، فهذا لا يعنى أنّكم لا تقدرون على الدفاع عن أنفسكم أمام مكائده و وساوسه، فقد ورد عن أمير المؤمنين (عليه أفضل الصلوات و السلام): أنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵

سبحانه و تعالى أوصى موسى عليه السّلام أربع وصايا و طالبه بحفظها:

أولاهنّ ما دمت لا ترى ذنوبك تغفر فلا تشتغل بعيوب غيرك! و الثانية: ما دمت لا ترى كنوزى قد نفذت فلا تهتم برزقك! و الثالثة: ما دمت لا ترى زوال ملكى فلا ترج أحدا غيرى! و الرابعة: ما دمت لا ترى الشيطان ميتا فلا تأمن مكره ۳۰]! على كلّ حال، فقد وردت فى آيات كثيرة الإشارة إلى عداوة الشيطان لبنى آدم، و أطلقت عليه مرارا و تكرارا عبارة عَدُوٌّ مُبِينٌ ۳۱] لذا يجب الحذر الدائم من هذا العدوّ.

فى آخر الآية يضيف تعالى للتأكيد أكثر: إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ.

«حزب» فى الأصل بمعنى الجماعة التى لها فعالية، و لكنّها تطلق عادة على كلّ مجموعة تتبع برنامجا و هدفا خاصا.

و المقصود (بحزب الشيطان) أتباعه.

طبيعى أنّ الشيطان لا يمكنه إدخال أىّ أحد من الناس ليكون عضوا رسميا فى حزبه و يقوده إلى جهنّم، فأعضاء حزبه هم الذين يتّصفون بالصفات المذكورة فى بعض الآيات القرآنية ..

* فهم الذين طوّقوا أنفسهم بطوق العبودية للشيطان إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ [۳۲]* و هم الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ [۳۳] و الملفت للنظر أنّ القرآن الكريم ذكر «حزب اللّه» فى ثلاثة مواضع و كذلك ذكر «حزب الشيطان» فى ثلاثة مواضع أيضا، حتّى يتّضح من الذين يقيّدون أسماءهم فى حزب اللّه، و من هم أعضاء حزب الشيطان؟

و لكن من الطبيعى أنّ الشيطان يدعو حزبه إلى المعاصى و الذنوب و لوث الشهوات .. إلى الشرك و الطغيان و الاضطهاد، و بالنتيجة إلى جهنّم و بئس المصير.

و سوف نستوفى الشرح حول خصائص «حزب اللّه» و خصائص «حزب الشيطان» فى تفسير الآية (۲۲) من سورة «المجادلة» إن شاء اللّه.

آخر آية من هذه الآيات توضّح عاقبة «حزب اللّه» السعيدة و خاتمة «حزب الشيطان» المريرة، فتقول: الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

من الجدير بالملاحظة هنا أنّ القرآن الكريم اكتفى بذكر «الكفر» كسبب لاستحقاق العذاب، و لكنّه لم يكتف بذكر (الإيمان) وحده كسبب «للمغفرة و الأجر الكبير» بل أردف مضيفا له «العمل الصالح». لأنّ الكفر وحده يكفى للخلود فى عذاب السعير، بينما الإيمان بدون العمل لا يكفى لتحقيق النجاة، فإنّهما مقترنان.

و قد ورد فى الآية ذكر (المغفرة) ثمّ ذكر «الأجر الكبير» بعدها، باعتبار أنّ (المغفرة) تغسل المؤمنين فى البدء و تهيؤهم لتلقّى «الأجر الكبير».***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (۸) وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (۱۰)

التّفسير

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

ممّا مرّ من تقسيم الناس إلى مجموعتين «المجموعة المؤمنة» و «المجموعة الكافرة» أو «حزب اللّه» و «حزب الشيطان»، تنتقل هذه الآيات إلى بيان إحدى الخصائص المهمّة لهاتين المجموعتين و التى هى فى الواقع المصدر لسائر برامجهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸

تقول الآية الاولى: أَ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً كمن يرى الحقائق كما هى من حيث الحسن و القبح؟! فى الحقيقة إنّ هذه القضيّة هى المفتاح لكلّ مصائب الأقوام الضالّة و المعاندة، الذين يرون أعمالهم القبيحة أعمالا جميلة، و ذلك لانسجامها مع شهواتهم و قلوبهم المعتمة.

بديهى أنّ شخصا كهذا، لا يتقبّل نصيحة، و ليس لديه الاستعداد لسماع النقد و ليس بحاضر أبدا لتغيير مسيره. كما أنّه لا يناقش أعماله و لا يفكّر بعواقبها الوخيمة.

و أدهى من ذلك و أمرّ أنّهم حينما يدور حديث حول المحسنين و المسيئين، يعتقدون بأنّ الضمير فى الأوّل يعود عليهم، بينما يعود فى المسيئين على المؤمنين الصلحاء! و العجب من هؤلاء الكفّار المعاندين أنّهم عند ما يسمعون هذه الآيات تتلى عليهم و هى تتحدّث عن حزب الشيطان و مصيرهم الأسود طبّقوا ذلك على المؤمنين الصالحين، و عدّوا أنفسهم مصداقا لحزب اللّه!! و تلك مصيبة و فاجعة عظيمة! أمّا من الذى زيّن سوء أعمال هؤلاء فى أنظارهم؟ هل هو اللّه، أم هوى النفس، أم الشيطان؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ العامل الأصلى لذلك هو الهوى و الشيطان، و لكن لأنّ اللّه هو الخالق لذلك الأثر فى أعمالهم، فيمكن نسبة ذلك إلى اللّه تعالى، لأنّ الإنسان و فى بداية طريق المعاصى يشعر بعدم الارتياح حين ارتكاب المعصية، لسلامة فطرته و حيوية وجدانه و سلامة عقله، و لكن بتكرار تلك الأعمال يقلّ عدم الارتياح إلى أن يصل إلى درجة عدم الاكتراث. ثمّ إذا استمرّ فى ذلك الطريق يمسى القبيح جميلا فى نظره، حتّى يصل إلى أن يتوهّم أنّ ذلك من مفاخره و فضائله، و الحال أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹

يغطّ فى بركة آسنة من التعاسة و الشقاء.

و الملفت للنظر أنّ القرآن عند ما يتساءل أ فَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ....

لا- يتعرّض إلى ما يقابل ذلك صراحة، و كأنّه يريد أن يفسح المجال أمام المستمع لكى يتصوّر أمورا مختلفة يمكنها أن تكون ما يقابل ذلك و يفهم أكثر و أكثر، و كأنّه يريد أن يقول: هل أنّ شخصا كهذا هو كمن أبصر الحقيقة؟

هل أنّ شخصا كهذا كمن هو نقى القلب و مشغول دوما بمحاسبة نفسه؟.

و هل أنّ هناك أملا بالنجاة لهكذا شخص ۳۴]؟.

ثمّ يضيف القرآن موضّحا علّة الفرق بين الفريقين فيقول: فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

فإذا زيّنت الأعمال السيّئة بنظر المجموعة الاولى، فإنّ ذلك نتيجة الإضلال الإلهى، فاللّه سبحانه و تعالى هو الذى جعل تلك الخاصية فى النفس البشرية عند تكرارها للأعمال السيّئة، بأن تتطبّع عليها و تعتادها و تنسجم معها و تنطبع بطبيعتها.

و هو سبحانه الذى أعطى للمؤمنين الطاهرى القلوب نفاذ البصر و البصيرة، و سمعا واعيا لإدراك الحقائق كما هى.

و واضح أنّ هذه المشيئة الإلهيّة توأم لحكمته تعالى، و إنّما تعطى لكلّ ما يناسبه.

لذا فإنّ الآية تضيف فى الختام: فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ و هذا التعبير يشابه ما ورد فى الآية (۳) من من سورة الشعراء: لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۳۵].

التعبير ب «حسرات» الذى هو «مفعول لأجله» لما قبله فى الجملة، إشارة إلى أنّه ليس عندك عليهم حسرة واحدة، بل حسرات:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰

«حسرة» على تضييع نعمة الهداية. «حسرة» على تضييع جوهر الإنسانية، «حسرة» على تضييع حاسّة التشخيص إلى حدّ رؤية القبيح جميلا، و أخيرا «حسرة» على الوقوع فى نار الغضب و القهر الإلهى.

و لكن لماذا لا ينبغى أن تتحسّر عليهم؟! ذلك لأجل إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ

واضح من نبرة الآية شدّة تحرّق الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم على الضّالين و المنحرفين، و كذلك هى حال القائد الإلهى المخلص يتألّم لعدم تقبّل الناس الحقّ و تسليمهم للباطل، و ضربهم بكلّ أسباب السعادة عرض الجدار، إلى حدّ كأنّ روحه تريد أن تفارق بدنه.

و استنادا إلى البحوث التى سبقت حول الهداية و الضلالة و الإيمان و الكفر، تنتقل الآية التالية إلى بحث المبدأ و المعاد بعبارات مضغوطة، و تقرن آيات المبدأ بإثبات المعاد بدليل واحد ملفت للنظر، تقول الآية الكريمة: وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً[۳۶] فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ.

نظام دقيق يتحكّم فى حركة الرياح، ثمّ فى حركة السحاب، ثمّ فى نزول قطرات المطر الباعثة للحياة، ثمّ فى حياة الأرض الميتة، و هو أحسن دليل على أنّ يد القدرة الحكيمة هى من وراء ذلك النظام تقوم على تدبير أموره.

أوّلا، تؤمر الرياح الحارة بالتحرّك من المناطق الإستوائية إلى المناطق الباردة، و فى مسيرها تحمل معها بخار الماء من البحار و تطلقه فى السماء، بعدئذ تتحرّك بجريانات منظّمة للبرد القطبى الذى يعاكس دوما اتّجاه الحركة الأوّل، و تؤمر بتجميع البخار الحاصل لتشكيل الغيوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱

ثمّ تؤمر نفس تلك الريح بحمل تلك الغيوم و إرسالها إلى الصحارى الميتة، لتلقى قطرات المطر الباعثة للحياة فيها.

بعد ذلك- بشروط خاصّة- تؤمر الأرض و البذور التى نثرت عليها بقبول الماء و النمو و الاخضرار، و من موجودات حقيرة و عديمة القيمة ظاهرا تنبت موجودات حيّة و كثيرة التنوّع و الجمال، طريّة خضراء، مفيدة و مثمرة .. تدلّل بدورها على قدرته سبحانه و تعالى، و تشهد على حكمته، و تكون نموذجا من البعث الكبير.

فى الحقيقة إنّ الآية أعلاه تدعو إلى التوحيد فى عدّة جوانب:

«برهان النظم» دليل على الوحدانية، و «الحركة» تقتضى وجود محرّك لكلّ متحرّك، و من جانب آخر فإنّ النعم تدعو إلى شكر المنعم فطريا.

و كذلك فهى دليل على مسألة المعاد من جهات أيضا:

فتكامل الموجودات فى حركتها و مسارها و انبعاث الحياة من الأرض الميتة تقول للإنسان: أيّها الإنسان إنّك ترى مشهد المعاد فى فصول كلّ عام أمام ناظريك و تحت قدميك.

من اللازم أيضا الالتفات إلى أن (تثير) من مادّة (إثارة) بمعنى النشر و التفريق، و هى إشارة إلى أنّ توليد الغيوم ناتج عن هبوب الرياح على سطح المحيطات، لأنّ مسألة حركة الغيوم وردت فى الجملة التى بعدها فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ

و اللطيف ما نقرأ

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين سأله أحد الصحابة قائلا: يا رسول اللّه، كيف يحيى اللّه الموتى، و ما آية ذلك فى خلقه؟

قال: «أما مررت بوادى أهلك ممحلا ثمّ مررت به يهتزّ خضرا»؟

قلت: نعم! يا رسول اللّه.

قال: «فكذلك يحيى اللّه الموتى، و تلك آيته فى خلقه»[۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲

و لنا بحث آخر حول نفس الموضوع أوردناه عند تفسير الآية (۴۸) من سورة الروم.

الآن، و بعد هذا المبحث التوحيدى، تشير الآية إلى الاشتباه الخطير الذى وقع فيه المشركون لاعتقادهم بأنّ العزّة تأتيهم من أصنامهم، و بأنّ الإيمان بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيكون سببا فى تخطّف الناس إيّاهم إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا.[۳۸]

فتقول الآية: مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً.

«العزّة»: على ما يقول الراغب فى مفرداته: حالة مانعة للإنسان من أن يغلب ..

من قولهم: أرض عزاز، أى صلبة.

و لأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو الذات الوحيدة التى لا تغلب، و جميع المخلوقات بحكم محدوديتها قابلة لأن تغلب، و عليه فإنّ العزّة جميعها من اللّه، و كلّ من اكتسب عزّة فمن بحر عزّته اللامتناهى.

فى حديث ينقل عن أنس عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ ربّكم يقول كلّ يوم:

أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز».

و فى الحقيقة إنّ الإنسان العاقل يجب أن يتزوّد بالماء من منبعه، لأنّ الماء الصافى و الوافر متوفّر هناك، لا فى الأوانى الصغيرة المحدودة أو الملوّثة فى يد هذا و ذاك.

و

فى حديث عن الإمام الحسن بن على عليهما السّلام نقرأ بأنّ «جنادة بن أبى أميّة» قال:

دخلت على الحسن بن على بن أبى طالب عليهما السّلام فى مرضه الذى توفّى فيه و بين يديه طست يقذف عليه الدم و يخرج كبده قطعة قطعة، من السم الذى سقاه معاوية (لعنه اللّه)، فقلت: يا مولاى ما لك لا تعالج نفسك؟

فقال: «يا عبد اللّه، بماذا أعالج الموت؟

قلت: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳

ثمّ التفت إليّ و قال: ضمن وصايا عديدة: «.. و إذا أردت عزّا بلا عشيرة، و هيبة بلا سلطان، فاخرج من ذلّ معصية اللّه إلى عزّ طاعة اللّه عزّ و جلّ» ... الحديث.

و لو لا حظنا بعض الآيات الكريمة فى القرآن، فإنّها تذكرة العزّة للّه و لرسوله و للمؤمنين وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ [۳۹] إذ أنّ الرّسول و المؤمنين اكتسبوا عزّتهم من شعاع عزّة البارى عزّ و جلّ، و ساروا فى طريق طاعته.

ثمّ توضّح الآية طريق الوصول إلى (العزّة) فيقول تعالى: إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

الْكَلِمُ الطَّيِّبُ طيّب بمحتواه، و ذلك لأجل المفاهيم التى تنطبق على الواقع العينى الظاهر المشرق، و ما هو أطهر و أكثر واقعية من ذات اللّه تعالى، و مرآة حقّه و عدالته، و هؤلاء الصلحاء الذين يسلكون طريق نشر ذلك؟

لذا فقد فسّر «الكلم الطيّب» بأنّه العقائد الصحيحة فيما يخصّ المبدأ و المعاد و النبوّة، نعم .. فعقيدة صحيحة هكذا تصعد إلى اللّه، و تجعل المعتقد بها يحلق هو الآخر، حتّى يكون فى قرب جوار الحقّ تعالى، و تغمره فى عزّة اللّه ليكون عزيزا.

بديهى أن ينبت من هذا الجذر الطاهر، ساق و فروع، ثمرها العمل الصالح، و كلّ عمل لائق و بنّاء و مفيد، سواء كانت دعوة إلى الحقّ، أو حماية لمظلوم، أو جهادا للظلم و الطغيان، أو تقويم النفس و العبادة، أو تعلّم، و بالجملة فكلّ عمل خير يدخل فى هذا المفهوم الشامل الواسع، إذا كان لأجله سبحانه- فقط- و لأجل كسب رضاه فهو يصعد إليه، و يعرج فى سماء لطفه سبحانه و يكون سببا فى تكامل و معراج صاحبه حتّى يجعله أهلا للتعزّز بعزّة الحقّ تعالى.

و ذلك هو ما أشارت إليه الآية (۲۴) من سورة إبراهيم: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَ فَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴

و ممّا ذكرنا، يتّضح أنّ ما قال به بعض المفسّرين من أنّ «الكلمة الطيّبة» هى «لا إله إلّا اللّه» أو «سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلّا اللّه و اللّه أكبر» أو «إثبات الرسالة للرسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الولاية و الخلافة لعلى عليه السّلام بعد التوحيد» أو ما ورد فى بعض الروايات من أنّ «الكلم الطيّب» و «العمل الصالح» هو «ولاية أهل البيت عليهم السّلام» أو أمثال هذه التفاسير، فإنّها جميعا من قبيل بيان المصاديق الأكثر وضوحا لذلك المفهوم الواسع الشامل، و ليس من قبيل وضع الحدود لذلك المفهوم. إذ أنّ كلّ كلام طيّب و صالح المحتوى يدخل تحت هذا العنوان.

على كلّ حال هو اللّه سبحانه و تعالى الذى يحيى الأرض الميتة بقطرات المطر- بمقتضى الآية السابقة- هو سبحانه الذى ينمى «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح» و يوصله إلى جوار قربه تعالى.

ثمّ تنتقل الآية إلى ما يقابل كلّ ذلك فتقول: وَ الَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ.

فمع أنّ هؤلاء الفاسدين المفسدين توهّمون أنّهم بالظلم و الكذب و التزوير يستطيعون كسب العزّة و المال و الثروة و القدرة، إلّا أنّهم فى النهاية يضعون أنفسهم فى قبضة العذاب الإلهى من جهة، و كلّ جهودهم تذهب أدراج الرياح من جهة اخرى.

أشخاص قال عنهم القرآن: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا[۴۰].

و منافقون اعتقدوا بعزّتهم، و ذلّة المؤمنين يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ [۴۱] و آخرون اعتقدوا بأنّ القرب من الفراعنة سبب لعزّتهم، و أراد غيرهم الكرامة بالظلم و الاضطهاد، لكنّهم يتساقطون دوما، و الإيمان و العمل الصالح فقط هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵

الذى يصعد إلى اللّه سبحانه! (مكر): مع أنّ هذه الكلمة لغويا بمعنى التفكّر فى حلّ المشكل، و لكنّها جاءت فى موارد كثيرة بمعنى

التفكّر بالحلّ مع اقترانها بالإفساد، كما فى هذه الآية.

(السيّئات): كلّ القبائح و المذمومات، أعمّ من القبائح الاعتقادية أو العملية، و ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ المعنى هو المؤامرات التى قام بها المشركون لقتل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو إبعاده عن مكّة، فليس هو إلّا أحد مصاديق الكلمة دون مفهومها العامّ.

جملة «يبور» من مادّة «بوار» و «بوران» فى الأصل بمعنى الكساد المفرط، و لأنّ مثل هذا الكساد يكون سببا للهلاك، فقد استخدمت هذه الكلمة للتعبير عن الهلاك و الفناء، و كما قيل «كسد حتّى فسد».***

ملاحظتان

۱- العزّة جميعا من اللّه عزّ اسمه

ما هى حقيقة العزّة؟ هل هى سوى بلوغ مرحلة المنعة؟ و إن كان كذلك فأين يجب البحث عن العزّة؟ و أى شىء يمكنه أن يعطى للإنسان العزّة؟!.

يتّضح لنا بالتحليل أنّ حقيقة العزّة بالدرجة الأولى- قدرة تتجلّى فى قلب و روح الإنسان، و تبعده عن الخضوع و التسليم و الاستسلام أمام الطغاة و العصاة، قدرة بامتلاكها لا يخضع الإنسان للشهوات أبدا، و لن يجد الهوى و الهوس طريقا للتسلّط عليه.

قدرة ترتقى به إلى مستوى الصلابة أمام تأثير زخارف الدنيا.

فهل أنّ هذه القدرة لها منبع آخر غير الايمان باللّه، أى الارتباط بالمنبع الأصلى للقدرة و العزّة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶

هذا فى مرحلة الفكر و الإعتقاد و الروح، أمّا فى مرحلة العمل فإنّ «العزّة» تنبع من الأعمال السليمة الأصل و الدقيقة الأسلوب، و بتعبير آخر يمكن تلخيص ذلك ب «العمل الصالح» هذان الاثنان يعطيان الإنسان العظمة و الرفعة و العزّة و المنعة.

«السحرة» المعاصرون لفرعون، شرعوا بحيلهم باسم فرعون و بعزّته وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ [۴۲] و لكنّهم هزموا بسرعة أمام عصى موسى عليه السّلام. و بمجرّد أن خرجوا من ذلّة فرعون، و لجأوا إلى ظلّ التوحيد و آمنوا، أصبحوا أقوياء لا يمكن هزيمتهم بحيث لم تؤثّر بهم أشدّ تهديدات فرعون، و قدّموا أيديهم و أرجلهم و حتّى أرواحهم العاشقة الوالهة و تجرّعوا كأس الشهادة، و دلّلوا بذلك العمل على عدم استسلامهم أمام الترغيب و الترهيب، و عدم انهزامهم، و أصبح تأريخهم اليوم بالنسبة لنا عالما من الدروس البليغة.

۲- الفرق بين «الكلام الطيّب» و «العمل الصالح»

قد يطرح سؤال هو: لماذا تقول الآية السالفة الذكر حول «الكلام الطيّب» إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ بينما بالنسبة إلى «العمل الصالح» قالت وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

يمكن الإجابة على هذا السؤال بأنّ «الكلم الطيّب» إشارة إلى الإيمان و الإعتقاد السليم، و ذلك هو عين الصعود إلى اللّه، و حقيقة الإيمان ليس سوى ذلك، و لكن «العمل الصالح» الذى يتقبّله اللّه تعالى و يضاعف الأجر عليه، و يعطيه الدوام و البقاء ثمّ يرفعه (دقّق النظر)!!.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۱ الى ۱۲]

اشارة

وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۱۱) وَ ما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲)

التّفسير

و ما يستوى البحران!!

مع الالتفات إلى ما كان من حديث فى الآيات السابقة حول التوحيد و المعاد و صفات اللّه، تتعرّض هذه الآيات أيضا إلى قسم آخر من آيات «الأنفس و الآفاق» التى تدلّل على قدرة اللّه من جانب، و على علمه من جانب آخر، و قضيّة إمكانية المعاد من جانب ثالث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸

فى البداية تشير إلى خلق الإنسان فى مراحله المختلفة فتقول: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً.

و هذه ثلاث مراحل من مراحل خلق الإنسان: الطين- و النطفة- و مرحلة الزوجية.

بديهى أنّ الإنسان من التراب، إذ أنّ آدم عليه السّلام خلق من تراب، كما أنّ جميع المواد سواء التى يتشكّل منها جسم الإنسان، أو التى يتغذّى عليها، أو التى تنعقد منها نطفته، جميعها تنتهى إلى مواد هى ذاتها التى يحتويها التراب.

احتمل البعض أنّ الخلق من التراب، إشارة إلى الخلق الأوّل فقط، أمّا الخلق من النطفة فهو إشارة إلى المراحل التالية التى أوّلها مرحلة الخلقة الإجمالية للبشر (بلحاظ أنّ وجود الجميع يتلخّص بوجود آدم عليه السّلام) و ثانيها المرحلة التفضيلية بانفصال الإنسان من الآخر.

و على كلّ حال فإنّ مرحلة «الزوجية» هى مرحلة إدامة نسل الإنسان و حفظ نوعه، و أمّا ما احتمله البعض من أنّ معنى «أزواجا» هنا «الأصناف» أو «الروح و الجسم» و أمثالها، فيبدو بعيدا.

ثمّ ينتقل إلى المرحلة الرابعة و الخامسة، «حمل النساء» و «الولادة» فيقول تعالى: وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ

نعم، الحمل و التحوّلات و التغيّرات المذهلة و المعقّدة فى الجنين، ثمّ بلوغ مرحلة وضع الحمل و الاضطرابات و التغيّرات المحيّرة للامّ من جهة، و للجنين من جهة ثانية، بشكل و بمقدار منظّم و دقيق لا يمكن تعقّله بدون إسناده إلى العلم الإلهى اللامتناهى، فلو أصيب النظام الذى يحكم هذه العملية باختلال و لو بمقدار رأس الإبرة لأدّى إلى عسر أو اختلال الحمل أو عملية الولادة، ثمّ إلى ضياع الجنين و هلاكه.

هذه المراحل الخمس من حياة الإنسان، إحداها أعجب من الاخرى و أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹

إثارة للدهشة. فأين الثرى من الثريّا .. أين ذلك التراب الميّت الجامد من الإنسان الحى العاقل الفطن المبتكر؟! و أين تلك النطفة الحقيرة التى تتكوّن من بضع قطرات من الماء المتعفّن من ذلك الإنسان الراشد الجميل و المجهّز بالحواس و الأجهزة العضوية

المختلفة[۴۳].

بعد هذه المرحلة، تأتى مرحلة تقسيم النوع البشرى إلى جنسين «المذكّر» و «المؤنّث» بالفروقات الكثيرة فى الجسم و الروح، و الأمور الفسلجية التى تبدأ بالتحدّد منذ اللحظات الاولى لانعقاد النطفة، و اتّخاذ مسيرها الخاص و التكامل فى كلّ جنس باتّجاه الرسالة التى انيطت به.

ثمّ تظهر مسألة رسالة الامّ فى قبول و تحمّل ذلك الحمل و حفظه و تغذيته و تربيته و التى حيّرت العلماء لقرون طويلة، حتّى اعترفوا بأنّها من أعجب مسائل الوجود.

و آخر مرحلة فى هذا المسير هى مرحلة الولادة، و هى مرحلة تحوّل كامل تقترن بعجائب كثيرة.

فما هى العوامل التى تدفع الجنين إلى الخروج من بطن امّه؟

كيف يتمّ التنسيق بين هذا الأمر و بين إعداد جسم الامّ لتحقّق ذلك الأمر؟

كيف يتمكّن الجنين بعد تعوّده على وضع ما لمدّة تسعة أشهر، أن يلبس وضعا جديدا و يطبّق كلّ مفرداته الجديدة بلحظة واحدة، ففى لحظة واحدة يقطع صلته بامّه، و يتنفّس الهواء الطلق! يتناول طعامه من فمه بدلا من الحبل السرّى! يخرج إلى محيط غارق فى النور و الإشراق بدلا من محيط بطن امّه المظلم؟! أ ليست هذه أعظم الدلائل على قدرة اللّه و علمه اللامحدودين؟

و هل أنّ هذه المادّة الجامدة الميتة و هذه الطبيعة غير الهادفة يمكنها أن تنظّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰

حلقة واحدة صغيرة من آلاف الحلقات فى سلسلة الخلق بالاستفادة من المصادفات العمياء؟

فيا للأسف كيف يتعقّل الإنسان مثل هذا الاحتمال الموهوم فيما يخصّ خلقته؟! ثمّ .. تشير الآية إلى المرحلتين السادسة و السابعة من هذا البرنامج المذهل بانتقالها إلى حلقة اخرى، فتذكر مراحل العمر المختلفة و العوامل المؤثّرة فى زيادته و نقصانه فتقول الآية الكريمة: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتابٍ ۴۴] و يخضع لقوانين و مناهج مدروسة يتحكّم فيها علم اللّه و قدرته المطلقة.

فما هى العوامل المؤثّرة فى إدامة حياة الإنسان؟ و ما هى العوامل التى تهدّد إدامتها؟

و باختصار ما هى العوامل التى يجب أن تتظافر مع بعضها حتّى يستطيع الإنسان أن يعمّر مائة سنة أو أكثر أو أقل؟ و أخيرا ما هى العوامل الموجبة لتفاوت أعمار الناس؟ كلّ ذلك له حسابات دقيقة و معقّدة لا يعلمها إلّا اللّه. و ما نعلمه نحن اليوم حول هذه الموضوعات بالقياس إلى ما لا نعلمه يعتبر شيئا تافها.

«معمّر» من مادّة «عمر» فى الأصل من «العمارة» نقيض الخراب، و العمر اسم لمدّة عمارة البدن بالحياة خلال مدّة معيّنة.

«معمر» أى الشخص الطويل العمر.

و أخيرا تختم الآية بهذه الجملة إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

فخلق هذا الموجود العجيب من التراب، و بدء خلق إنسان كامل من «ماء النطفة» و كذلك المسائل المرتبطة بتحديد الجنس، ثمّ الزوجية، و الحمل، و الولادة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱

و زيادة أو نقص العمر سواء بلحاظ القدرة أو بلحاظ العلم و الحسابات كلّها بالنسبة إليه تعالى سهلة و بسيطة. و ذلك بمجموعه يمثّل جانبا من «آيات الأنفس» التى تربطنا ببداية عالم الوجود و التعرّف عليه من جهة، كما تعتبر أدلّة حيّة على مسألة إمكانية المعاد من جهة اخرى.

فهل أنّ القادر على الخلق الأوّل من التراب و النطفة غير قادر على إعادة الحياة للناس مرّة اخرى!؟

و هل أنّ العالم بكلّ دقائق و تفاصيل الأمور المرتبطة بتلك القوانين، يواجه مشكلة فى حفظ أعمال العباد ليوم المعاد.

تشير الآية التالية- التى تعتبر قسما آخر من آيات الآفاق الدالّة على عظمته و قدرته سبحانه و تعالى- إلى خلق البحار و بركاتها و فوائدها، فتقول الآية الكريمة: وَ ما يَسْتَوِى الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ ۴۵].

فمع أنّ كلا البحرين فى الأصل كانا بصورة قطرات من الماء الصافى و السائغ نزلت من السماء إلى الأرض، و أنّ كليهما من أصل واحد، إلّا أنّهما يظهران على هيئتين متفاوتين تماما بشكل كامل و بفوائد متفاوتة أيضا.

و العجيب أنّ الإنسان يحصل على السمك الطازج من كلّ منهما: وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها علاوة على إمكانية الإفادة من كليهما للنقل و الانتقال وَ تَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

تأمّل الأمور التالية:

۱- «فرات»: على ما ذكر فى لسان العرب هو الماء العذب جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲

«سائغ»: الماء الذى يستمرأ بسهولة لعذوبته، على عكس الماء المالح- أو الأجاج- و هو الماء المرّ الذى يمجّه الإنسان.

۲- بعض المفسّرين قالوا بأنّ هذه الآية مثال للفرق بين المؤمن و الكافر، و لكن الآيات السابقة و اللاحقة لها، و التى تتحدّث عن الخلقة، و حتّى نفس هذه الآية، شاهدة على حقيقة أنّ هذه الجملة أيضا تبحث فى أسرار التوحيد، و تشير إلى تنوّع المياه و آثارها المتفاوتة و فوائدها المشتركة.

۳- ذكرت الآية ثلاث فوائد من فوائد البحار الكثيرة و هى: المواد الغذائية، و وسائل الزينة، و مسألة الحمل و النقل.

و نعلم بأنّ البحر يشكّل منبعا مهمّا من المنابع الغذائية للبشر، و كلّ عام يستخرج منه ملايين الأطنان من اللحوم الطازجة، بدون أن يتحمّل الإنسان فى سبيل ذلك تعبا أو مشقّة، فإنّ نظام التوازن فى الطبيعة يشتمل على برنامج دقيق محسوب بحيث يستطيع الناس الإفادة من تلك المائدة الإلهيّة بدون اعتراض و بأقل زحمة و مشقّة.

كذلك يستخرج من البحار أيضا وسائل الزينة المختلفة من أمثال (اللؤلؤ- و المرجان- و الصدف- و الدرّ)، و تركيز القرآن على ذكر هذه المسألة لأنّ روح الإنسان تختلف عن الحيوان باحتوائها على أبعاد مختلفة منها «الحسّ الجمالى» الذى هو منبع ظهور جميع المسائل الذوقية و الفنّية و الأدبية التى يؤدّى إشباعها بصورة صحيحة بعيدا عن الإفراط و التفريط و الإسراف و التبذير إلى إشاعة السرور فى النفس، و إعطاء الإنسان النشاط و الهدوء، و تساعد الإنسان على إنجاز أعمال الحياة الشاقّة.

و أمّا مسألة الحمل و النقل و التى تعدّ واحدة من أهم أسس التمدّن الإنسانى و الحياة الاجتماعية، فمع ملاحظة أنّ البحار تشكّل القسم الأعظم من الكرة الأرضية و أنّها مرتبطة مع بعضها، فإنّها تستطيع أن تقدّم للإنسان أهمّ الخدمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳

بهذا الخصوص. إذ أنّ البضائع التى يتمّ حملها و نقلها عبر البحار، و كذا أعداد المسافرين الذين يتمّ نقلهم من مكان إلى آخر، على درجة من الكثرة بحيث لا يمكن مقايستها مع أيّة من وسائل النقل الاخرى، و على سبيل المثال فإنّ سفينة واحدة تستطيع حمل عشرات الآلاف من السيارات على ظهرها[۴۶].

۴- بديهى أنّ فوائد البحار لا يمكن حصرها بالأمور التى ذكرت أعلاه، و القرآن الكريم لا يريد بذلك أن يحدّدها ضمن تلك الأقسام الثلاثة المذكورة، فهناك مسألة تكون الغيوم، الأدوية النفط، الألبسة، الأسمدة للأراضى البور، التأثير فى إيجاد الرياح .. إلى غير ذلك من بركات البحار الاخرى.

۵- تأکید القرآن الکریم علی مفهوم «لحما طریّا» إشارة عمیقة المحتوی لفوائد التغذیة بهذه اللحوم فی مقابل أضرار اللحوم القدیمة و المعلّبة و أمثال ذلک.

۶- هنا یثار سؤال و هو أنّ البحار المالحة تملأ الکرة الأرضیة فی انتشارها، فأین تقع بحور الماء العذب؟

و للإجابة یجب القول أنّ بحر و بحیرات الماء العذب أیضا لیست قلیلة فی الکرة الأرضیة مثل بحیرات الماء العذب فی الولایات المتحدة و غیرها، إضافة إلی أنّ الأنهر الکبیرة تسمّی بحارا أیضا فی بعض الأحیان، فقد ورد استعمال کلمة «البحر» ل (نهر النیل) فی قصّة موسی، کما فی سورة البقرة- الآیة ۵۰ و الشعراء- ۶۳ و الأعراف- ۱۳۸).

کذلک فإنّه یمکن اعتبار مصبّات الأنهار فی البحار و المحیطات عبارة عن بحیرات عذبة، لأنّ میاه الأنهار عند انصبابها فی المحیط تدفع میاه البحار و تبقی غیر قابلة للاختلاط لمدّة قصیرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴

۷- جملة لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ لها معنی واسع و شامل لکلّ فعّالیة اقتصادیة تعتمد علی البحر.***

بحث

العوامل المعنویة المؤثّرة فی طول العمر

قام المفسّرون ببحوث مختلفة بما یتناسب مع البحث الوارد فی هذه الآیات حول إطالة و إقصار العمر بأمر اللّه، و ذلک بما یتوافق مع الروایات الواردة فی هذا الخصوص.

طبیعی أنّ هناک سلسلة من العوامل الطبیعیة التی تؤثّر علی طول أو قصر العمر، و التی أصبح أکثرها معروفا عند الناس، کالتغذیة الصحیحة بعیدا عن الإفراط و التفریط، العمل و إدامة الحرکة، تحاشی المواد المخدّرة، و الإدمانات الخطرة و المشروبات الکحولیة، الابتعاد عن المهیّجات المستمرة، التمسّک بإیمان قوی یساعد الإنسان علی العیش باطمئنان و هدوء فی الملمّات، و یعطیه القدرة علی مواجهة ذلک.

و إضافة إلی ذلک، فإنّ هناک عوامل اخری غیر واضحة الارتباط ظاهرا بقضیّة طول العمر، و لکن الروایات أکّدت علیها، و کنموذج نورد الروایات التالیة:

أ-

عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الصدقة و صلة الرحم تعمران الدیار و تزیدان فی الأعمار»[۴۷].

ب- و

عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من سرّه أن یبسط فی رزقه و ینسئ له فی أجله فلیصل رحمه»[۴۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵

ج- و فیما یخصّ بعض المعاصی مثل الزنا و أثرها فی تقصیر عمر الإنسان نقرأ

فی الروایة المشهورة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا معشر المسلمین إیّاکم و الزنا فإنّ فیه ستّ خصال، ثلاث فی الدنیا و ثلاث فی الآخرة، أمّا التی فی الدنیا فإنّه یذهب بالبهاء، و یورث الفقر، و ینقص العمر»[۴۹].

د-

عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «البر و صدقة السرّ ینفیان الفقر و یزیدان فی العمر، و یدفعان عن سبعین میتة سوء»[۵۰].

كذلك فقد وردت الإشارة إلى المعاصى و الذنوب الاخرى كالظلم، بل مطلق المعاصى.

بعض المفسّرين الذين لم يتمكّنوا من التفريق بين «الأجل المحتوم» و «الأجل المعلّق» اعترضوا على مثل هذه الأحاديث و اعتقدوا بأنّها مخالفة لنصّ القرآن و أنّ عمر الإنسان له حدّ ثابت لا يتغيّر.

توضيح المسألة:- لا شكّ أن للإنسان أجلا محتوما و أجلا معلّقا.

الأجل المحتوم الذى هو نهاية استعداد الجسم للبقاء، و بحلوله ينتهى كلّ شىء بأمر اللّه.

الأجل المعلّق أو المخروم الذى ينتفى بانتفاء شرائطه، مثلا إنسان ينتحر فلو أنّه لم يقم بتلك الكبيرة فإنّه سيبقى لسنوات اخرى يواصل حياته. أو أنّه نتيجة تعاطى المشروبات الكحولية و المواد المخدّرة و ممارسة الشهوات بدون قيد أو شرط، يفقد الجسم قدراته فى مدّة قصيرة. فى حال أنّه بالابتعاد عن هذه الأمور يستطيع أن يعيش لسنوات طويلة اخرى.

هذه امور قابلة للإدراك و التجربة بالنسبة إلى الجميع، و لا يستطيع أحد أن ينكر ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶

كذلك فإنّه فيما يخصّ الأقدار فإنّ هناك أمورا ترتبط بالأجل المخروم، و هى أيضا غير قابلة للإنكار.

و عليه فإذا ورد فى الروايات أنّ الإنفاق فى سبيل اللّه أو صلة الرحم تطيل العمر و تدفع أنواعا من البلاء، فهى فى الحقيقة تقصد هذه العوامل.

و إذا لم نفصل بين الأجل المخروم و الأجل المحتوم لا يمكننا إدراك كثير من الأمور المتعلّقة بالقضاء و القدر، و تأثير الجهاد و السعى و العمل الدائب فى الحياة، و سوف تبقى هذه الأمور غير قابلة للحلّ.

هذا البحث يمكن توضيحه بمثال واحد بسيط و هو الآتى:

لو اشترى أحدهم سيارة جديدة بحيث يتوقّع من صناعتها أن تدوم عشرين عاما، بشرط المحافظة عليها و صيانتها، و فى هذه الحالة فإنّ الأجل الحتمى لهذه السيارة هو عشرون عاما، و لكن لو لم تتحقّق لها الصيانة المطلوبة و قام صاحبها بتسليمها إلى أشخاص لا مبالين و غير عارفين بقيادة السيارات، أو أن يحملها فوق طاقتها، أو أن يقودها بعنف فى طرق و عرة يوميا، فإنّ أجلها المحتوم ذلك يمكن أن يهبط إلى النصف أو العشر، و ذلك هو الأجل المخروم، و نحن نعجب كيف أنّ بعض المفسّرين لم يلتفتوا إلى هذه القضية الواضحة.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (۱۳) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (۱۴)

التّفسير

الأصنام لا تسمع دعاءكم!!

تعاود هـذه الآيات الإشارة إلى قسم آخر من آيات التوحيـد و النعم الإلهيـة اللامتناهيـة، لكى تـدفع الإنسان مع تعريفه بتلك النعم إلى شكرها و معرفة المعبود الحقيقى، و ليرجع عن أىّ شرك أو عبادة خرافية، يقول تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ «يولـج» من مـادّة «إيلاـج» بمعنى الـدخول فى مضـيق. و يمكن أن يكـون إشـارة إلى أحـد المعنيين أو كليهمـا، أى: الزيـادة و النقص التدريجى فى الليل و النهار على مدار السنة. ممّا يؤدّى إلى حصول الفصول المختلفة بكلّ آثارها و بركاتها، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸

الانتقال التـدريجى من الليل إلى النهار و بالعكس، و ذلك بواسـطة الشـفق و الغسق الـذى يقلّل من مخاطر الانتقال المفاجئ من النور إلى الظلام و بالعكس ۵۱].

ثمّ يشير إلى مسألة تسخير الشمس و القمر فيقول تعالى: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ. و أىّ تسخير أفضل من حركة هذين الكوكبين باتّجاه تحقيق المنافع المختلفـة للبشـر، و هـذا التسـخير يعتبر مصـدرا لمختلف أنواع البركات فى حياة البشـر، فإنّ السـحاب و الريح و القمر و الشـمس و الأفلاك فى حركة دائبة لكى يسـتطيع الإنسان إدامة حياته، و ليفيق من غفلته فيذكر الواهب الأصـلى لهذه المواهب بالنسبة إلى تسخير الشمس و القمر عرضنا شرحا فى تفسير الآية الثانية من سورة الرعد و الآية ۳۳ من سورة إبراهيم).

و مع ما تتمتّع به الشـمس و القمر فى أفلاكها من مسـير دقيق و منتظم لتؤدّى المنفعة المناسبة و الجيّدة للبشر، فإنّ النظام الذى يحكمها ليس بخالد، فحتّى هذه السـيارات العظيمة بكلّ ذلك النور و الإشـراق ستصـيبها العتمة فى النهاية. و تتوقّف عن العمل. لذا يشير تعالى إلى ذلك بعد ذكر التسخير فيقول: كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

فبمقتضى إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۵۲]، فإنّها جميعا ستواجه مصير الانطفاء و الفناء.

بعض المفسّـرين ذكر تفسيرا آخر لجملة لِأَجَلٍ مُسَمًّى و ذلك أنّها تعبير عن حركة دوران الشمس و القمر حول محوريهما، و التى تتمّ فى الاولى فى عام، و فى الثانية فى شهر واحد[۵۳].

و لكن بملاحظة الموارد التى استعمل فيها هذا التعبير فى القرآن الكريم- بمعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹

انتهاء العمر- يتّضح أنّ التّفسير المشار إليه صحيحا، كما أنّ التّفسير الأوّل أيضا- أى نهاية عمر الشمس و القمر- ورد فى الآيات (۶۱- النحل و ۴۵- فاطر ۴۲- الزمر ۴- النور ۶۷- غافر).

ثمّ يقول تعالى مسلّطا الضوء على نتيجـة هـذا البحث التوحيـدى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ اللّه الذى قرّر نظام النوم و الظلام و الحركات الدقيقة للشمس و القمر بكلّ بركاتها. لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ[۵۴].

«قطمير»: على ما يقول الراغب: هو الأثر فى ظهر النواة، و ذلك مثل للشـىء الطفيف، و يقول «الطبرسى» فى مجمع البيان و القرطبى فى تفسيره: هو الغشاء الرقيق الشفّاف الذى يغلف نواة التمر بكاملها. و على كلّ حال فهو كناية عن موجودات حقيرة تافهة.

نعم فهذه الأصـنام لا تضـرّ و لا تنفع، لا تدفع عنكم و لا حتّى عن نفسـها، لا تحكم و لا تملك حتّى غلاف نواة تمر! فإذا كانت حالها كذلك، فكيف تعبدونها أيّها المغفّلون، و تريدون منها حلا لمشكلاتكم.

ثمّ تضـيف الآية: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنّها قطع من الحجر و الخشب لا أكثر، جمادات لا شعور لها، وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ

إذ اتّضح أنّها لا تملك نفعا و لا ضرّا حتّى بمقدار (قطمير) و على هذا فكيف تنتظرون منها أن تعمل لكم شيئا أو تحلّ لكم عقدة.

و أدهى من ذلك وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ و يقولون: اللّهم إنّهم لم يعبدوننا، بل إنّهم عبدوا أهواءهم فى الحقيقة.

هـذه الشـهادة إمّا بلسان الحال الـذى يدركه كلّ شـخص بآذان وجدانه، أو أنّ اللّه فى ذلك اليوم يعطى فيه جوارح الإنسان و أعضاءه إمكانية التكلّم فتنطق هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰

الأصنام أیضا، و یشهدن بأنّ هؤلاء المشرکین المنحرفین إنّما عبدوا فی الحقیقة أوهامهم و شهواتهم.

ما ورد فی هـذه الآیـة شبیه بما ورد فی الآیة (۲۸) من سورة یونس حیث یقول تعـالی: وَ یَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِیعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِینَ أَشْرَکُوا مَکانَکُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَکاؤُکُمْ فَزَیَّلْنا بَیْنَهُمْ وَ قالَ شُرَکاؤُهُمْ ما کُنْتُمْ إِیَّانا تَعْبُدُونَ

احتمل جمع من المفسّرین أنّ أمثال هذه التعبیرات وردت بخصوص معبودات من أمثال الملائکة أو حضـرة المسیح علیه السّلام، لأنّ الحـدیث و التکلّم من خصوصـیة هؤلاء فقط، و جملـة إِنْ تَدْعُوهُمْ لا یَسْمَعُوا دُعاءَکُمْ إشارة إلی أنّهم مشـغولون بأنفسـهم إلی درجة أنّکم لو خاطبتموهم لا یسمعون دعائکم ۵۵].

و لکن- مع الالتفات إلی سعة مفهوم الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ یظهر أنّ المقصود هو الأصنام، و أنّ جملة إِنْ تَدْعُوهُمْ لا یَسْمَعُوا دُعاءَکُمْ ترتبط بالدنیا خاصّة. ثمّ یقول تعالی فی ختام الآیة من أجل تأکید أکثر: أن لا أحد یخبرک عن جمیع الحقائق کما یخبرک اللّه تعالی: وَ لا یُنَبِّئُکَ مِثْلُ خَبِیرٍ.

فإذا قالت الآیة أنّ الأصنام تتنکّر لکم فی یوم القیامة، و تتضایق منکم، فلا تتعجّبوا من هذا القول، فإنّ من یخبرکم هو الذی یعلم بکلّ ما فی هذا الکون بالتفصیل، فهو المحیط علما بالمستقبل و الماضی و الحاضر.***

بحوث

۱- استقلال آیات القرآن الکریم و تفسیرها المنحرف.

لقد اتّضح لدینا من خلال تفسیر الآیة الأخیرة بأنّ الأصنام و الأوثان و ما یعبد من دون اللّه تعالی لیس لها آذان صاغیة لما یطلب منها، و إن کان لها فهی غیر قادرة علی حلّ مشکلة ما، و لیس لها فی هذا العالم أیّ ملک و لو بقدر رأس الإبرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱

إِنْ تَدْعُوهُمْ لا یَسْمَعُوا دُعاءَکُمْ و علی هذا الأساس اتّخذ الوهّابیون هذه الآیة ذریعة لهم للادّعاء بأنّ کلّ شیء ما خلا اللّه جلّ و علا- و إن کان نبیّا- لا یسـمع دعاء، و إن سـمع فلا یجیب! کما رفضوا أی نوع من التوسّل بأرواح الأنبیاء و الأئمّة و الأولیاء. و اعتبروا ذلک مخالفا للتوحید محتجّین بقوله تعالی: وَ الَّذِینَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا یَسْتَطِیعُونَ نَصْرَکُمْ وَ لا أَنْفُسَهُمْ یَنْصُرُونَ

و لو أمعنا النظر فی الآیات السابقـة و اللاحقـة لهـذه الآیـة للاحظنا أنّ المقصود من قوله: مِنْ دُونِهِ هی الأصـنام لا غیر، و ذلک یصدق علی مجموعة الأحجار و الأخشاب و غیرها و التی کانت فی نظر مشرکی الجاهلیة بأنّها ذات قدرة إزاء قدرة الخالق الکریم جلّ و علا، کما أنّ الأنبیاء و الأولیاء و حتّی الشـهداء فی سبیل اللّه أحیاء فی البرزخ، و حیاة البرزخ- کما هو معلوم- مجرّدة من الحجب المادیة و متعلّقات الدنیا ممّا یجعلها أوسع منها. یضاف إلی ذلک فإنّ التوسّل بالأرواح الطاهرة للأنبیاء و الأئمّة علیهم السّلام لا یعنی إقرارنا لهم بالاسـتقلالیة إزاء الخـالق الکریم، بـل إنّنـا إنّمـا نطلب العون و المـدد من مقـامهم و جـاههم فی حضـرة البـارئ العزیز، و هـذا هو عین التوحید (تأمّلوا جیدا).

و قد صرّح القرآن الکریم بأنّ الشـفیع إنّما یشفع بإذن اللّه تعالی: مَنْ ذَا الَّذِی یَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ فمن یستطیع إنکار مثل هذه الآیات الصـریحة غیر الجهلـة المغرورین الذین هتفوا بمثل هذه الادّعاءات لزرع الفرقة بین المسـلمین؟! و فی کثیر من الحالات نقرأ فی سـیرة الصـحابة أنّهم حینمـا تحیق بهم المشـکلات یأتون إلی قبر الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و یتوسّـلون إلیه، و یطلبون العون من اللّه عزّ و جلّ بشفاعة روحه الطاهرة.

مثالنا على ذلك ما ذكره «البيهقى» من محدّثى العامّة، قال: فى زمن الخليفة الثّانى مرّ فى الناس قحط و جدب، ممّا حدا ببلال و عدد من الصحابة إلى الذهاب لقبر رسول اللّه و قالوا عنده: «يا رسول اللّه، استق لامّتك ... فإنّهم قد هلكوا»[۵۶].

كما نقل «الآلوسى» فى (روح المعانى) الكثير من الأحاديث فى هذا الصدد، و بعد المناقشة لهذه الأحاديث يخرج بالقول: إنّنى لا أرى مانعا من التضرّع للّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲

جلّ و علا بمقام الرّسول الأكرم فى حياته أو بعد مماته ... ثمّ انّ الآخرين الذين يمتلكون مقاما و قربا من الخالق الكريم يجوز التوسّل باللّه سبحانه بواسطتهم.

و لمزيد من الاطلاع راجع تفسيرنا هذا، ذيل الآية ۳۵ من سورة المائدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۱۵) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۶) وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (۱۷) وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ مَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (۱۸)

التّفسير

اشارة

لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

بعد الدعوة المؤكّدة إلى التوحيد و محاربة أى شكل من أشكال الشرك و عبادة الأوثان، يحتمل أن يتوهّم البعض فيقول: ما هى حاجة اللّه لأن يعبد بحيث يصرّ كلّ هذا الإصرار، و يؤكّد كلّ هذا التأكيد على عبادته وحده؟ لذا فإنّ هذه الآيات توضّح هذه الحقيقة و هى أنّنا نحن المحتاجون لعبادته لا- هو سبحانه و تعالى، فتقول الآية الكريمة: يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴

فيا له من حديث مهمّ و قيم ذلك الذى يوضّح موقعنا فى عالم الوجود من خالق الوجود، و يكشف الكثير من الغموض، و يجيب على الكثير من الأسئلة.

نعم، فالقائم بذاته غير المحتاج لسواه، واحد أحد، و هو اللّه تعالى، و كلّ البشر بل كلّ الموجودات محتاجة إليه فى جميع شؤونها و فقيرة إليه و مرتبطة بذلك الوجود المستقل بحيث لو قطع ارتباطها به لحظة واحدة لأصبحت عدم فى عدم، فكما أنّه غير محتاج مطلقا، فإنّ البشر يمثّلون الفقر المطلق، و كما أنّه قائم بذاته، فالمخلوقات كلّها قائمة به تعالى، لأنّه وجود لا متناهى من كلّ ناحية، و واجب الوجود فى الذات و الصفات.

و مع حال كهذه، ما حاجته تعالى لعبادتنا؟! فنحن المحتاجون و الفقراء إلى اللّه و نسلك سبيل تكاملنا عن طريق عبادته و طاعته، و

نقترب بذلك من مصدر الفيض اللامتناهى، و نغترف من أنوار ذاته و صفاته.

و فى الحقيقة فإنّ هذه الآية توضيح للآيات السابقة حيث يقول تعالى: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ.

و عليه فإنّ البشر محتاجون له لا لسواه، لذا فيجب عليهم أن لا يطأطئوا رؤوسهم لغيره تعالى، و أن لا يطلبوا حاجاتهم إلّا منه تبارك اسمه، لأنّ ما سوى اللّه محتاج إلى اللّه كحاجتهم إليه، و حتّى أنّ تعظيم أنبياء اللّه و قادة الحقّ إنّما هو لأنّهم رسله تعالى و ممثّلوه، لا لذواتهم مستقلّة.

و عليه فهو «غنى» كما أنّه «حميد» أى إنّه فى عين استغنائه عن كلّ أحد، فهو رحيم و عطوف و أهل بكلّ حمد و شكر، و فى عين انّه أرحم الراحمين، فهو غير محتاج لأحد مطلقا.

الالتفات إلى هذه الحقيقة له أثران إيجابيان على المؤمنين، فهى تستنزلهم من مركب الغرور و الأنانية و الطغيان من جانب، و تنبههم إلى أنّهم لا يملكون شيئا من أنفسهم يستقلّون به، و أنّهم مؤتمنون على كلّ ما فى أيديهم من جانب آخر، لكى لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵

يمدّوا يد الحاجة إلى غيره، و لا يضعوا طوق العبودية لغير اللّه فى أعناقهم، و أن يتحرّروا من كلّ تعلّق آخر، و يعتمدوا على همّتهم، و بهذه النظرة الشمولية يرى المؤمنون أنّ كلّ موجود فى هذا العالم إنّما هو من أشعّة وجوده تعالى، و أن لا ـ ينشغلوا عن (مسبّب الأسباب) بالأسباب ذاتها.

جمع من الفلاسفة عدّوا هذه الآية إشارة إلى البرهان المعروف «الإمكان و الفقر» أو «الإمكان و الوجوب» لإثبات واجب الوجود، مع أنّ الآية ليست فى مقام بيان الاستدلال على إثبات وجود اللّه، بل إنّها شرح لصفاته تعالى، و لكن يمكن اعتبار البرهان المذكور من لوازم مفاد هذه الآية.

شرح برهان الإمكان و الوجوب «الفقر و الغنى»:

إنّ جميع الموجودات التى نراها فى هذا العالم كانت كلّها ذات يوم «عدما»، ثمّ اكتست بلباس الوجود، أو بتعبير أدقّ: كان يوم لم تكن شيئا فيه، ثمّ صارت وجودا، و هذا بحدّ ذاته دليل على أنّها معلولة فى وجودها لوجود آخر، و ليس لها وجود من ذاتها.

و نعلم بأنّ أى وجود معلول، مرتبط و قائم بعلّته و كلّه احتياج، و إذا كانت تلك (العلّة) أيضا معلولة لعلّة اخرى فإنّها بدورها ستكون محتاجة، و لو تسلسل هذا الأمر إلى ما لا ـ نهاية فسوف تكون الحصيلة مجموعة من الموجودات المحتاجة الفقيرة، و بديهى أنّ مجموعة كهذه لن يكون لها وجود أبدا، لأنّ منتهى الاحتياج احتياج، و منتهى الفقر فقر، و ما لا نهاية له من الأصفار لا يمكن أن يحصل منه أى عدد، كما أنّه ممّا لا نهاية له من المرتبطات بغيرها لا تنتج أى حالة استقلال.

من هنا نستنتج أنّنا فى النهاية يجب أن نصل إلى وجود قائم بذاته، و مستقل من جميع النواحى، و هو علّة لا معلول، و هو واجب الوجود.

هنا يثار السؤال التالى: لماذا تتعرّض الآية أعلاه للإنسان و حاجته إلى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶

فقط؟ بينما جميع الموجودات تشترك فى هذا الفقر؟

و الجواب: إذا كان الإنسان- الذى يعتبر سيّد المخلوقات- غارقا فى الحاجة و الفقر إلى اللّه، فإنّ حال بقيّة الموجودات واضحة، و بتعبير آخر فإنّ بقيّة الموجودات تشترك مع الإنسان فى الفقر الذى هو «إمكان الوجود».

و تخصيص الحديث فى الإنسان إنّما هو لأجل كبح جماح غروره، و إلفات نظره إلى حاجته إلى اللّه فى كلّ حال، و فى كلّ شىء و كلّ مكان، ليكون ذلك أساس الصفات الحسنة و الفضائل و الملكات الأخلاقية، ذلك الالتفات الذى يؤدّى إلى التواضع و ترك الظلم و الغرور و الكبر و العصبية و البخل و الحرص و الحسد، و يبعث على التواضع أمام الحقّ.

و لتأكيد هذا الفقر و الحاجة فى الإنسان يقول تعالى فى الآية التالية: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

و عليه فهو سبحانه و تعالى ليس بحاجة إليكم أو إلى عبادتكم، و إنّما أنتم الفقراء إليه.

و هذه الآية شبيهة بما ورد فى الآية (۱۳۳) من سورة الأنعام حيث يقول تعالى:

وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ كَما أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ

فهو تعالى ليس محتاجا لطاعتكم و لا خائفا من معصيتكم، و فى نفس الوقت فإنّ رحمته الواسعة تشملكم جميعا، و لا ينقص من عظمته شيئا ذهاب العالم بأسره، كما أنّ خلق هذا العالم لا يضيف إلى مقام كبريائه شيئا.

و فى الآية الثالثة أيضا يعود التأكيد مرّة ثانية فيقول تعالى: وَ ما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ نعم، فإنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، و هذا يصدق على جميع عالم الوجود.

على كلّ حال، فإنّه تعالى إذا أمركم بالإيمان و الطاعة و العبادة فإنّما ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۷

لأجلكم أنتم، و كلّ ما ينشأ عن ذلك من فائدة أو بركة إنّما يعود عليكم.

الآية الأخيرة من هذه الآيات تشير إلى خمسة مواضيع فيما يتعلّق بما سبق بحثه فى الآيات السابقة:

الأوّل: من الممكن أن يثير ما ورد فى الآية الماضية من قوله تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ سؤالا فى أذهان البعض من أنّ المقصودين فى هذه الآية ليس المذنبين فقط، إذ أنّ المؤمنين الصالحين موجودون فى كلّ عصر و زمان، فهل يمكن أن يكون هؤلاء أيضا معرضين للعقوبات المترتبة على أعمال الطالحين، و يحكمون بالفناء على حد سواء؟

هنا يجيب وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

«وزر» بمعنى الثقل، و قد أخذ من «وزر» (على زنة كرب) بمعنى الملجأ فى الجبل، و أحيانا يأتى بمعنى المسؤولية و يعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل، و الوزير المتحمّل ثقل المسؤولية من أميره، و الموازرة: المعاونة[۵۷]، لأنّ الشخص عند المعاونة يتحمّل قسطا من الثقل عن رفيقه.

و هذه الجملة تعتبر واحدة من الاسس الهامّة فى الإعتقادات الإسلامية، و الحقيقة أنّها ترتبط من جانب بالعدل الإلهى، بحيث يرتهن كلّ بعمله. و هو تعالى إنّما يثيب الشخص على سعيه و اجتهاده فى طريق الخير، و يعاقبه على ذنبه.

و من جانب آخر فإنّ فيها إشارة إلى شدّة العقوبة يوم القيامة، بحيث لا يكون أحد مستعدّا لتحمّل وزر عمل غيره على عاتقه مهما كان قريبا منه.

و الالتفات إلى هذا المعنى له الأثر الفعّال فى البناء الروحى للإنسان، حيث يكون مراقبا لنفسه، و لا يسمح لها بالفساد بحجّة فساد الأقران أو المحيط، ففساد المحيط لا يمكن اعتباره مسوغا لإفساد النفس، إذ أنّ كلا يحمل وحده وزر ذنبه.

و من جانب آخر فإنّه يفهم الناس و يبصرهم بأنّ حساب اللّه للمجتمع لا يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۸

حسابا جميعا، بل إنّ كلّ فرد يحاسب بشكل مستقل، أى إنّ الفرد إذا أدّى ما عليه من تطهير نفسه، و محاربة الفساد، فليس عليه أدنى بأس أو خوف إذا كان العالم بأسره ملوّثين بالكفر و الشرك و الظلم و المعصية.

و أساسا فلن يكون لأى برنامج تربوى أثر ما لم يولّ اهتماما لهذا الأصل المهمّ (دقّق النظر)!! هذه المسألة تطرح فى الجملة الثانية من

الآیة بشکل آخر، یقول تعالی: وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلی حِمْلِها لا یُحْمَلْ مِنْهُ شَیْءٌ وَ لَوْ کانَ ذا قُرْبی ۵۸].

فی حدیث عن ابن عبّاس أو غیره، أنّ امّا و ابنها یأتیان فی یوم القیامة و کلّا منهما علیه ذنوب کثیرة، و تطلب الامّ من ابنها أن یحمل عنها بعض تلک المسؤولیات فی قبال تربیتها له و حملها به، فیقول لها ابتعدی عنّی فأنا أسوأ منک حالا[۵۹].

و یبرز هنا السؤال التالی: هل أنّ هذه الآیة تنافی ما ورد فی الروایات الکثیرة حول السنّة السیّئة و السنّة الحسنة؟ حیث أنّ الروایات تقول:

«من سنّ سنّة حسنة کان له أجرها و أجر من عمل بها من غیر أن ینقص من أجره شیء، و من سنّ سنّة سیّئة کان له وزرها و وزر من عمل بها».

و لکنّنا إذا التفتنا إلی نکتة واحدة، یتّضح الجواب علی هذا السؤال، و هی أنّ عدم تسجیل ذنب أحد علی آخر، إنّما هو فی صورة أن لا یکون له سهم فی ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۹

العمل، و لکن إذا کان له سهم فی إیجاد سنّة، أو الإعانة و المساعدة أو الترغیب و التشجیع، فمن المسلّم أنّه یحسب من عمله و یکون شریکا و مساهما فی ذلک العمل.

و أخیرا، فی الجملة الثالثة من الآیة، ترفع الستارة عن حقیقة أنّ إنذارات الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لها أثرها فی القلوب المهیّأة لذلک فقط، تقول الآیة الکریمة: إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِینَ یَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَیْبِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ.

فإن لم یکن خوف اللّه متمکّنا من القلب، و لم یکن هناک إحساس بمراقبة قوّة غیبیة فی السرّ أو العلن، و لم تنفع الصلاة التی تؤدّی إلی إحیاء القلب و التذکیر باللّه فی تقویة ذلک الإحساس ... فلن یکون لإنذارات الأنبیاء أثر یذکر.

و حین لا یکون الإنسان قد اعتنق عقیدة ما و لم یؤمن، فلو لم تکن لدیه روح البحث عن الحقّ، و إحساس بالمسؤولیة تجاه معرفة الحقیقة، فلن یصغی لدعوة الأنبیاء، و لن یتفکّر فی آیات اللّه فی هذه الدنیا.

و فی الجملة الرابعة یعود مرّة اخری إلی حقیقة (إنّ اللّه غیر محتاج لأحد) فتضیف: وَ مَنْ تَزَکَّی فَإِنَّما یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ

و فی الختام ینبّه فی الجملة الخامسة إلی أنّ المحسنین و المسیئین إن لم ینالوا جزاء أعمالهم فی الدنیا فلیس لذلک أهمّیة ما دام المصیر إلی اللّه وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ و بالتالی فانّه سیحاسب الجمیع علی أعمالهم.***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۰

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۱۹ الی ۲۳]

اشارة

وَ ما یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ (۱۹) وَ لا الظُّلُماتُ وَ لا النُّورُ (۲۰) وَ لا الظِّلُّ وَ لا الْحَرُورُ (۲۱) وَ ما یَسْتَوِی الْأَحْیاءُ وَ لا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ یُسْمِعُ مَنْ یَشاءُ وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِی الْقُبُورِ (۲۲) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِیرٌ (۲۳)

التّفسیر

و ما تستوی الظلمات و لا النّور:

تذکر الآیات مورد البحث- بما یتناسب مع البحوث التی مرّت حول الإیمان و الکفر فی الآیات السابقة- أربعة أمثلة جمیلة للمؤمن و

الكافر، توضّح بأجلى شكل آثار الإيمان و الكفر.

فى المثال الأوّل: شبّه «الكافر و المؤمن» ب «الأعمى و البصير» حيث تقول الآية الكريمة: وَ ما يَسْتَوِى الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ.

الإيمان نور و إشراق، يعطى البصيرة و المعرفة للإنسان فى النظرة إلى العالم، و فى الإعتقاد، و العمل و فى كلّ الحياة، أمّا الكفر فظلمة كالحة، فلا إعتقاد صحيح و نظرة سليمة عن العالم، و لا عمل صالح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۱

تشير الآية (۲۵۷) من سورة البقرة إلى هذا الموضوع فتقول: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و بما أنّ العين المبصرة وحدها لا- تكفى لتحقّق الرؤية، فيجب توفّر النور و الإضاءة أيضا لكى يستطيع الإنسان- الإبصار بمساعدة هذين العاملين- تضيف الآية التالية: وَ لَا الظُّلُماتُ وَ لَا النُّورُ.

لأنّ الظلام منشأ الضلال، الظلام سبب السكون و الركود، الظلام مسبّب لكلّ أنواع المخاطر، أمّا النور و الضياء فهو منشأ الحياة و المعيشة و الحركة و الرشد و النمو و التكامل، فلو زال النور لتوقّفت كلّ حركة و تلاشت جميع الطاقات فى العالم، و لعمّ الموت العالم المادّى- بأسره، و كذلك نور الإيمان فى عالم المعنى، فهو سبب الرشد و التكامل و الحياة و الحركة.

ثمّ تضيف الآية وَ لَا الظِّلُّ وَ لَا الْحَرُورُ فالمؤمن من يستظلّ فى ظلّ إيمانه بهدوء و أمن و أمان، أنمّا الكافر فلكفره يحترق بالعذاب و الألم.

يقول «الراغب» فى مفرداته: الحرور: (على وزن قبول) الريح الحارّة.

و اعتبرها بعضهم «ريح السموم» و بعضهم قال بأنّها «شدّة حرارة الشمس».

و يقول «الزمخشرى» فى الكشّاف: «السموم يكون بالنهار، و الحرور بالليل و النهار، و قيل بالليل خاصّة»[۶۰]، على أيّة حال، فأين الحرور من الظلّ البارد المنعش الذى يبعث الارتياح فى روح و جسم الإنسان.

ثمّ يقول تعالى فى آخر تشبيه: وَ ما يَسْتَوِى الْأَحْياءُ وَ لَا الْأَمْواتُ المؤمنون حيويون، سعاة متحرّكون، لهم رشد و نمو، لهم فروع و أوراق و ورود و ثمر، أمّا الكافر فمثل الخشبة اليابسة، لا فيها طراوة و لا ورق و لا ورد و لا ظلّ لها، و لا تصلح إلّا حطبا للنار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۲

فى الآية (۱۲۲) من سورة الأنعام نقرأ: أ وَ مَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخارِجٍ مِنْها.

و فى ختام الآية يضيف تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ لكى يسمع دعوة الحقّ و يلبّى نداء التوحيد و دعوة الأنبياء وَ ما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ.

فمهما بلغ صراخك، و مهما كان حديثك قريبا من القلب، و مهما كان بيانك معبّرا، فإنّ الموتى لا يسعهم إدراك شىء من ذلك، و من فقد الروح الإنسانية نتيجة الإصرار على المعاصى، و غرق فى التعصّب و العناد و الظلم و الفساد، فبديهى أنّ ليس لديه الاستعداد لقبول دعوتك.

و عليه فلا تقلق من عدم إيمانهم، و لا تجزع، فليس عليك من وظيفة إلّا الإبلاغ و الإنذار إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ.

***

بحوث

۱- آثار الإيمان و الكفر

نعلم أنّ القرآن لا يعير اهتماما للحواجز الجغرافيـة و العرقيـة و الطبقيـة و أمثالها ممّا يفرّق بين الناس، فالقرآن الكريم يعتبر أنّ الحدّ هو الحدّ بين [الإيمان و الكفر]، و عليه فإنّه يقسّم المجتمع البشرى إلى قسمين «المؤمنين» و «الكافرين».

و لتعريف «الإيمـان» شبّهه القرآن الكريم ب «النور»، كمـا أنّه شبّه الكفر ب «الظلاـم» و هـذا التشبيه أحسن مؤشّـر على مـا يستخلصـه القرآن الكريم من مسألة الكفر و الإيمان ۶۱].

فالإيمان نوع من الإحساس و النظرة الباطنية، و نوع من العلم و المعرفة متوائمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۳

مع عقيدة قلبية و حركة، و نوع من التصديق الذى ينفذ فى أعماق روح الإنسان ليكون منبعا لكلّ الفعّاليات البنّاءة.

أمّا الكفر، فجهـل و عـدم معرفـة و تكـذيب يؤدّى إلى تبلّـد، بـل فقـدان الإحسـاس بالمسؤوليـة، كمـا يؤدّى إلى كلّ أنواع الحركات الشيطانية و التخريبية.

كـذلك نعلم أيضـا بأنّ «النور» منشأ لكلّ حياة و حركـة و نمو و رشـد فى الحياة، بالنسـبة إلى الإنسان و الحيوان و النبات، على عكس الظلاـم فهو عامـل الصـمت و النوم و الموت و الفنـاء فى حـال اسـتمراره. لـذا فلاـ عجب حينما يشـبه القرآن الكريم «الإيمان و الكفر» «بـالنور و الظلمـة» تـارة و «بالحيـاة و الموت» تـارة اخرى، و فى مكـان آخر يشـبّههما (بالظلّ الظليل و الريـح السـموم)، أو حينما يشـبّه (المؤمن و الكافر) (بالبصير و الأعمى). و قد أوضحنا كلّ ما يتعلّق بهذه التشبيهات الأربعة.

و لا نبتعد كثيرا، فعند ما نجالس (مؤمنا) نحسّ أثر ذلك النور فى كلّ وجوده، أفكاره تنير لمن حوله، و حديثه ملىء بالإشراق، أعماله و أخلاقه تعرّفنا حقيقة الحياة و حياة الحقيقة.

أمّا الكافر فكلّ وجوده ملىء بالظلمـة، لا يفكّر إلّا بمنافعه الماديّة و كيفية الترقّى فى الحياة الماديّة، أفقه و فضاء فكره لا يتجاوز حدود حياته الشخصية، غارق فى الشهوات، لا يدفع روح و قلب جليسه إلّا إلى أمواج الظلمات.

و عليه فإنّ ما أوضحه القرآن فى هذه الآيات، قابل للإدراك و التعقّل بشكل محسوس و ملموس.

۲- هل أنّ الموتى واقعا لا يدركون؟

من ملاحظة ما ورد فى الآيات أعلاه، يطرح هنا سؤالان:

الأوّل: كيف يقول تعالى فى القرآن الكريم مخاطبا الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: وَ ما أَنْتَ بِمُسْـمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ؟ مع أنّه جاء فى الحديث المعروف أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۴

أمر يوم بـدر بأربعـة و عشـرين رجلاـ من صـناديد قريش فقـذفوا فى طوىّ من أطواء بـدر خبيث مخبث، و كـان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصـة ثلاث ليال فلمّا كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته، فشدّ عليها رحلها ثمّ مشـى و اتّبعه أصـحابه و قالوا: ما نراه ينطلق إلّا لبعض حاجته، حتّى قام على شـفة الركى مجفل يناديهم بأسـمائهم و أسـماء آبائهم: يا فلان بن فلان و يا فلان بن فلان أ يسّركم أنّكم أطعتم اللّه و رسوله؟ فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّا فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا؟ قال:

فقال عمر: يا رسول اللّه ما تكلّم من أجساد لا أرواح لها؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و الّذى نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»[۶۲].

أو ما ورد فی آداب دفن الموتی من تلقینهم عقائد الحقّ.

فکیف یمکن التوفیق بین هذه الأمور و الآیات مورد البحث أعلاه.

یتّضح الجواب علی هذا السؤال إذا أخذنا بنظر الإعتبار ما یلی: إنّ الحدیث فی الآیات کان حول عدم إدراک الموتی بالشکل الطبیعی و الاعتیادی، أمّا الروایة التی ذکرناها أو تلقین المیّت فإنّما ترتبط بظروف خاصّة و غیر عادیّة، حیث أنّ اللّه سبحانه مکّن حدیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تلک الحالة من الوصول إلی أسماع الموتی.

و بتعبیر آخر فإنّ الإنسان فی عالم البرزخ ینقطع ارتباطه مع عالم الدنیا، إلّا فی الموارد التی یأذن اللّه فیها أن یوصل هذا الارتباط، و لذا فإنّنا لا نستطیع عادة الاتّصال بالموتی فی الظروف العادیة.

السؤال الآخر: هو إذا کان حدیثنا غیر بالغ أسماع الموتی فما معنی لسلامنا علی الرّسول الأکرم و الأئمّة علیهم السّلام و التوسّل بهم، و زیارة قبورهم، و طلب الشفاعة منهم عند اللّه؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۵

و قد استندت جماعة من الوهّابیین المعروفین بجمودهم الفکری علی هذا التوهّم الباطل، و بالتمسّک بظواهر الآیات القرآنیة، دون الاهتمام بمحتواها العمیق، أو الالتفات إلی الأحادیث الشریفة الکثیرة الواردة فی هذا المجال، سعوا إلی نفی و ردّ مفهوم «التوسّل» و إثبات بطلانه.

الجواب علی هذا السؤال أیضا یتّضح ممّا ذکرناه کمقدّمة فی الإجابة علی السؤال الأوّل، من أنّ التعامل مع الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أولیاء اللّه یختلف عنه مع الآخرین، فهؤلاء کالشهداء (بل إنّهم یحتلّون الصفّ الأوّل أمام الشهداء) و هم أحیاء و خالدون، و هم مصداق لقوله: أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ و بأمر من اللّه فإنّهم یحتفظون بارتباطهم بهذا العالم، کما أنّهم یستطیعون و هم فی هذه الدنیا أن یتّصلوا بالموتی- کما فی حالة قتلی بدر-.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۶۵

تنادا إلی ذلک نقرأ فی روایات کثیرة وردت فی کتب الفریقین أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام یسمعون سلام من یسلّم علیهم سواء کان قریبا أو بعیدا، بل إنّ أعمال الامّة تعرض علیهم ۶۳].

الجدیر بالملاحظة أنّنا مأمورون بالسلام علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی التشهّد الأخیر للصلوات الیومیة، و هذا إعتقاد المسلمین عامّة، أعمّ من کونهم شیعة أو سنّة، فکیف یمکن مخاطبة من لا یمکنه السماع أصلا؟

کذلک

وردت روایات متعدّدة فی صحیح مسلم عن أبی سعید الخدری و أبی هریرة، عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لقّنوا موتاکم لا إله إلّا اللّه»[۶۴].

کذلک وردت الإشارة فی نهج البلاغة إلی مسألة الارتباط مع أرواح الموتی، فعند ما کان أمیر المؤمنین صلوات اللّه و سلامه علیه قال راجعا من صفّین أشرف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۶

علی القبور بظاهر الکوفة:

«یا أهل الدیار الموحشة ... إلی أن قال: أما لو أذن لهم فی الکلام لأخبروکم أنّ خیر الزاد التقوی»[۶۵].

۳- تنویع التعبیرات جزء من الفصاحة

لوحظ فى التشبيهات الأربعة الواردة فى الآيات أعلاه، تعبيرات متفاوتة تماما مثلا (أعمى- بصير) و (ظلّ- حرور) جاءت بصورة المفرد فى حال أنّ (أحياء- أموات) بصورة الجمع، و جاءت (ظلمات- نور) بصورة جمع و الثانية بصورة مفرد .. هذا من جانب.

و من جانب آخر فقد قدمت التشبيهات ذات المنحى السلبى على غيرها فى التشبيه الأوّل و الثانى (أعمى- ظلمات) فى حال قدمت التشبيهات ذات المنحى الإيجابى فى التشبيه الثالث و الرابع (ظلّ- أحياء).

و من جانب ثالث تكرّرت أداة النفى فى التشبيهات الثانى و الثالث و الرابع فى حين أنّها لم تتكرّر فى التشبيه الأوّل.

و أخيرا، فإنّ جملة ما يَسْتَوِى وردت فقط فى التشبيه الأوّل و الأخير، و لا أثر لها فى التشبيهات الاخرى.

بعض المفسّرين علّلوا هذه الاختلافات بتعليلات كثيرة بعضها جدير بالاهتمام و بعضها الآخر مورد مساءلة.

و ضمن جملة التعليلات اللطيفة أنّ جمع «الظلمات» و إفراد «النور» للتدليل على أنّ الظلمة- التى تعنى الكفر- ذات تشعّبات كثيرة، بينما حقيقة «الإيمان» و التوحيد واحدة ليس إلّا. فالإيمان كالخطّ المستقيم الذى يوصل بين نقطتين لا وجود لسواه بينهما، فى حين أنّ ظلمة الكفر مثل آلاف الآلاف من الخطوط المتعرّجة المنحرفة التى يمكن إيجادها بين نقطتين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۷

كذلك فإنّ تقديم التشبيهات ذات المنحى السلبى فى المثالين الأوّليين إنّما هو للإشارة إلى الإسلام نقل الناس من الجاهلية و ظلمات الشرك إلى نور الهداية.

و أمّا المثالان الأخيران فإشارة إلى المراحل الاخرى التى أحكم الإسلام فيها جذوره فى القلوب، و وسّع المناحى الإيجابية فى المجتمع.

و إذا تجاوزنا كل ذلك فإنّ التنوّع أصلا فى البيان يمنح الحديث طراوة و روحا خاصّة، ممّا يجعل ذلك مؤثّرا و جميلا و جذّابا، فى حال إنّ التكرار على نمط واحد يسلب الحديث لطافته- إلّا فى موارد استثنائية- و بناء على هذا فإنّ الفصحاء و البلغاء يسعون دائما إلى تنويع تعبيراتهم و جعلها مؤثّرة، و نعلم أنّ القرآن على أعلى درجات الفصاحة و البلاغة.

و عليه، فلو لم يكن غير مراعاة الفصاحة أمر آخر لكفى، مع أنّ من الممكن أن يتوصّل غيرنا من الأجيال القادمة إلى كشف أسرار اخرى غير ما ذكرنا ممّا هو محجوب عنّا الآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۸

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۴ الى ۲۶]

اشارة

إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ (۲۴) وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (۲۵) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۲۶)

التّفسير

لا عجب من عدم إيمان:

توصّلنا فى الآيات السابقة إلى أنّ هناك أفرادا كالأموات و العميان لا تترك مواعظ الأنبياء فى قلوبهم أدنى أثر، و على ذلك فإنّ

الآيات مورد البحث تقصد مواساة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الخصوص و تخفيف آلامه لكى لا يغتمّ كثيرا.

أوّلا تقول الآية الكريمة: إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ. فيكفيك من أداء وظيفتك أن لا تقصّر فيها، أوصل نداءك إلى مسامعهم، بشّرهم بثواب اللّه، و أنذرهم عقابه، سواء استجابوا و لم يستجيبوا.

الملفت للنظر أنّه تعالى قال فى آخر آية من الآيات السابقة مخاطبا الرّسول الأكرم إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ، و لكنّه فى الآية الاولى من هذه الآيات يقول: إِنَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۶۹

أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً إشارة إلى أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يقوم بهذا العمل من عند نفسه، و إنّما هو مأمور من قبل اللّه تعالى.

و إذا كانت الآية السابقة قد ركّزت على الإنذار فقط، فلأنّ الحديث كان حول الجاهلين المعاندين الذين هم كالأموات المقبورين الذين لا يتقبّلون أى حديث، أمّا هذه الآية فإنّها توضّح بشكل كامل، وظيفة الأنبياء الثنائية الهدف «البشارة» و «الإنذار»، مؤكّدة فى آخرها من جديد على «الإنذار» لأنّ الإنذار هو القسم الأساس من دعوة الأنبياء فى قبال المشركين و الظلمة.

«خلا»: من (الخلاء) و هو المكان الذى لا ساتر فيه من بناء و مساكن و غيرهما، و الخلوّ يستعمل فى الزمان و المكان، و لأنّ الزمان فى مرور، قيل عن الأزمنة الماضية «الأزمنة الخالية» لأنّه لا أثر منها، و قد خلت الدنيا منها.

و عليه فإنّ جملة وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ بمعنى أن كلّ امّة من الأمم السالفة كان لها نذير.

و الجدير بالملاحظة، طبقا للآية أعلاه، أنّ كلّ الأمم كان فيها نذير إلهى، أى كان فيها نبى، مع أنّ البعض تلقّى ذلك بمعنى أوسع، بحيث يشمل العلماء و الحكماء الذين ينذرون الناس أيضا، و لكن هذا المعنى خلاف ظاهر الآية.

على كلّ حال، فليس معنى هذا الكلام أن يبعث فى كلّ مدينة أو منطقة رسول، بل يكفى أن تبلّغ دعوة الرسل و كلامهم أسماع المجتمعات المختلفة، إذ أنّ القرآن يقول: خَلا فِيها نَذِيرٌ و لم يقل «خلا منها نذير».

و عليه فلا منافاة بين هذه الآية التى تقصد وصول دعوة الأنبياء إلى الأمم، مع الآية (۴۴) من سورة سبأ و التى تقول: وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ و التى يقصد منها كون المنذر منهم.

و يضيف تعالى فى الآية التالية: وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فلا عجب من ذلك، و لا تحزن بسبب ذلك، لأنّه فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَ بِالزُّبُرِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۰

وَ بِالْكِتابِ الْمُنِيرِ.

فلست وحدك الذى أصبحت موضع تكذيب هؤلاء القوم الجاهلين بما عندك من معجزات و كتاب سماوى، فقد واجه الرسل السابقون هذه المشكلة أيضا، لذا فلا تغتمّ و واصل سيرك بحزم، و اعلم أنّ من كتبت له الهداية فسوف يهتدى.

أمّا ما هو الفرق بين (البيّنات- و الزبر- و الكتاب المنير)؟ المفسّرين أظهروا وجهات نظر مختلفة، أوضحها تفسيران:

۱- «البيّنات» بمعنى الدلائل الواضحة و المعجزات التى تثبت حقّانية النبى، أمّا «الزبر» فجمع «زبور» بمعنى الكتب التى كتبت بإحكام (مثل الكتابة على الحجر و أمثالها) و هى كناية عن استحكام مطالبها[۶۶]. و إشارة إلى الكتب النازلة قبل موسى عليه السلام. فى حين أنّ «الكتاب المنير» إشارة إلى كتاب موسى عليه السّلام و الكتب السماوية الاخرى التى نزلت بعده، (لأنّه وردت الإشارة فى القرآن المجيد فى سورة المائدة- الآيات ۴۴ و ۴۶ إلى التوراة و الإنجيل على أنّهما (هدى و نور و فى نفس السورة- الآية ۱۵ عبّر عن القرآن الكريم بالنور أيضا).

۲- المقصود ب «الزبر» ذلك القسم من كتب الأنبياء التى تحتوى على العبرة و الموعظة و النصيحة و المناجاة (كزبور داود)، و أمّا

«الكتاب المنير» فتلك المجموعة من الكتب السماوية التى تحتوى على الأحكام و القوانين و التشريعات الاجتماعية و الفردية المختلفة مثل التوراة و الإنجيل و القرآن. و يبدو أنّ هذا التّفسير أنسب.

تشير الآية الأخيرة من هذه الآيات إلى العقاب الأليم لتلك المجموعة فتقول:

ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا[۶۷] فهم لم يكونوا بمنأى عن العقاب الإلهى، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۱

استطاعوا أن يستمروا بتكذيبهم إلى حين.

فبعض عاقبناهم بالطوفان، و بعض بالريح العاصفة المدمّرة، و آخرون بالصيحة و الصاعقة و الزلزلة.

أخيرا لتأكيد و بيان شدّة و قسوة العقوبة عليهم يقول: فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ذلك تماما مثلما يقوم شخص بإنجاز عمل مهمّ ثمّ يسأل الحاضرين: كيف كان عملى؟

على أيّة حال فإنّ هذه الآيات تواسى و تطمئن من جانب كلّ سالكى طريق اللّه و القادة و الزعماء المخلصين منهم بخاصّة، من كلّ امّة و فى أى عصر و زمان، لكى لا ـ ييأسوا و لا يفقدوا الأمل عند سماعهم استنكار المخالفين، و لكى يعلموا أنّ الدعوات الإلهية واجهت دائما معارضة شديدة من قبل المتعصّبين الجاحدين الظلمة، و فى نفس الوقت وقف المحبّون العاشقون المتولّهون إلى جنب دعاة الحقّ وفدوهم بأنفسهم أيضا.

و من جانب آخر فهى تهديد للمعاندين الجاحدين، لكى يعلموا أنّهم لن يستطيعوا إدامة أعمالهم التخريبية القبيحة إلى الأبد، فعاجلا أو آجلا ستحيط بهم العقوبة الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۲

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۷ الى ۲۸]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ (۲۷) وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (۲۸)

التّفسير

العجائب المختلفة للخلقة:

مرّة اخرى تعود هذه الآيات إلى مسألة التوحيد، و تفتح صفحة جديدة من كتاب التكوين أمام ذوى البصائر من الناس، لكى ترد بعنف على المشركين المعاندين و منكرى التوحيد المتعصّبين.

لفتت هذه الصفحة المشرقة من كتاب الخلق العظيم إلى تنوّع الجمادات و المظاهر المختلفة و الجميلة للحياة فى عالم النبات و الحيوان و الإنسان، و كيف جعل اللّه سبحانه من الماء العديم اللون الآلاف من الكائنات الملوّنة، و كيف خلق من عناصر معيّنة و محدودة موجودات متنوّعة أحدها أجمل من الآخر.

فهذا النقاش الحاذق أبدع بقلم واحد و حبر واحد أنواع الرسوم و الأشكال التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۳

تجذب الناظرين و تحيّرهم و تدهشهم.

أوّلا تقول الآية الكريمة: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها.

شروع هذه الجملة بالاستفهام التقريرى، و بتحريك حسّ التساؤل لدى البشر، إشارة إلى أنّ هذا الموضوع جلى إلى درجة أنّ أى شخص إذا نظر أبصر، نعم، يبصر هذه الفواكه و الزهور الجميلة و الأوراق و البراعم المختلفة بأشكال مختلفة تتولّد من ماء و تراب واحد.

«ألوان»: قد يكون المراد «الألوان الظاهرية للفواكه» و التى تتفاوت حتّى فى نوع الفاكهة الواحد كالتفّاح الذى يتلوّن بألوان متنوعة ناهيك عن الفواكه المختلفة.

و قد يكون كناية عن التفاوت فى المذاق و التركيب و الخواص المتنوّعة لها، إلى حدّ أنّه حتّى فى النوع الواحد من الفاكهة توجد أصناف متفاوتة، كما فى العنب مثلا حيث أنّه أكثر من ۵۰ نوعا، و التمر أكثر من سبعين نوعا.

و الملفت للنظر هو استخدام صيغة الغائب فى الحديث عنه عزّ و جلّ، ثمّ الانتقال إلى صيغة المتكلّم، و هذا النوع من التعابير، غير منحصر فى هذه الآية فقط، بل يلاحظ فى مواضع اخرى من القرآن المجيد أيضا، و كأنّ الجملة الاولى تعطى للمخاطب إدراكا و معرفة جديدة، و تستحضره بهذا الإدراك و المعرفة بين يدى البارى عزّ و جلّ، ثمّ عنده حضوره يلقى عليه الحديث مباشرة.

ثمّ تشير الآية إلى تنوّع أشكال الجبال و الطرق الملوّنة التى تمرّ من خلالها و تؤدّى إلى تشخيصها و تفريقها الواحدة عن الاخرى. فتقول: وَ مِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَ غَرابِيبُ سُودٌ[۶۸].

هذا التفاوت اللونى يضفى على الجبال جمالا خاصّا من جهة، و من جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۴

اخرى، يكون سببا لتشخيص الطرق و عدم الضياع فيما بين طرقها المليئة بالالتواءات و الانحدارات، و أخيرا فهو دليل على أنّ اللّه على كلّ شىء قدير.

«جدد» جمع «جدّة»- على وزن غدّة- بمعنى الجادّة و الطريق.

«بيض» جمع «أبيض» كما أنّ «حمر» جمع «أحمر» و هو إشارة إلى الألوان.

«غرابيب» جمع «غربيب»- على وزن كبريت- و هو المشبّه للغراب فى السواد، كقولك أسود كحلك الغراب. و عليه فإنّ ذكر كلمة «سود» بعدها و التى هى أيضا جمع «أسود» تأكيد على شدّة و حلك السواد فى بعض الطرق الجبلية[۶۹].

و احتمل أيضا أن يكون التّفسير: ألم تر أنّ الجبال نفسها مثل طرائق بيضا و حمرا و سودا مختلفا ألوانها خطّت على سطح الأرض، و خاصّة إذا نظر إليها الشخص من فاصلة بعيدة، فانّها ترى على شكل خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها[۷۰].

على كلّ حال فإنّ تشكيل الجبال بألوان مختلفة من جهة، و تلوين الطرق الجبلية بألوان متفاوتة، من جهة اخرى، دليل آخر على عظمة و قدرة و حكمة اللّه سبحانه و تعالى و التى تتجلّى و تتزيّن كلّ آن بشكل جديد.

و فى الآية التالية تطرح مسألة تنوّع الألوان فى البشر و الأحياء الاخرى، فيقول تعالى: وَ مِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ

أجل، فالبشر مع كونهم جميعا لأب و أمّ واحدين، إلّا أنّهم عناصر و ألوان متفاوتة تماما، فالبعض أبيض البشرة كالوفر، و البعض الآخر أسود كالحبر، و حتّى فى العنصر الواحد فإنّ التفاوت فى اللون شديد أيضا، بل إنّ التوأمين الذين يطويان المراحل الجنينية معا، و اللذين يحتضن أحدهما الآخر منذ البدء، إذا دقّقنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۵

النظر نجدهما ليسا من لون واحد، مع أنّهما من نفس الأبوين، و تمّ انعقاد نطفتيهما فى وقت واحد، و تغذّيا من غذاء واحد.

ناهيك عن التفاوت و الاختلاف الكامل فى بواطنهم عدّ أشكالهم الظاهرية، و فى خلقهم و رغباتهم و خصوصيات شخصياتهم و استعداداتهم و ذوقهم، بحيث يتكوّن بذلك كيان مستقل منسجم بكلّ احتياجاته الخاصّة.

فى عالم الكائنات الحيّة أيضا يوجد آلاف الآلاف من أنواع الحشرات، الطيور، الزواحف، الحيوانات البحرية، الوحوش الصحراوية، بكلّ خصائصها النوعية و عجائب خلقتها. كدلالة على قدرة و عظمة و علم خالقها.

حينما نضع قدمنا فى حديقة كبيرة من حدائق الحيوان فسوف نصاب بالذهول و الحيرة و الدهشة بحيث أنّنا- بلا وعى منّا- نتوجّه بالشكر و الثناء للّه المبدع لكلّ هذا الفن الخلّاب على صفحة الوجود. مع أنّنا لا نرى أمامنا فى تلك الحديقة إلّا جزء من آلاف الأجزاء من الموجودات الحيّة فى العالم.

و بعد عرض تلك الأدلّة التوحيدية يقول تعالى فى الختام جامعا: نعم إنّ الأمر كذلك كَذلِكَ ۷۱].

و لأنّ إمكانية الانتفاع من آيات الخلق العظيمة هذه تتوفّر أكثر عند العباد العقلاء و المفكّرين يقول تعالى فى آخر الآية: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

نعم فالعلماء من بين جميع العباد، هم الذين نالوا المقام الرفيع من الخشية «و هى الخوف من المسؤولية متوافق مع إدراك لعظمة اللّه سبحانه»، حالة (الخشية) هذه تولّدت نتيجة سبر أغوار الآيات الآفاقية و الأنفسية، و التعرّف على حقيقة علم و قدرة اللّه و غاية الخلق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۶

الراغب فى مفرداته يقول: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، و أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، و لذلك خصّ العلماء بها».

قلنا تكرارا بأنّ الخوف من اللّه بمعنى الخوف من المسؤولية التى يواجهها الإنسان، الخوف من أن يقصّر فى أداء رسالته و وظيفته، ناهيك عن أنّ إدراك جسامة تلك المسؤولية يؤدّى أيضا إلى الخشية، لأنّ اللّه المطلق قد عهد بها إلى الإنسان المحدود الضعيف، (تأمّل بدقّة)!! كذلك يستفاد من هذه الجملة ضمنا بأنّ العلماء الحقيقيين هم أولئك الذين يستشعرون المسؤولية الثقيلة حيال وظائفهم، و بتعبير آخر: أهل عمل لا كلام، إذ أنّ العلم بدون عمل دليل على عدم الخشية، و من لا يستشعر الخشية لا تشمله الآية أعلاه.

هذه الحقيقة

وردت فى حديث عن الإمام زين العابدين على بن الحسين عليه السّلام حيث يقول: «و ما العلم باللّه و العمل إلّا إلفان مؤتلفان فمن عرف اللّه خافه، و حثّه الخوف على العمل بطاعة اللّه، و إنّ أرباب العلم و أتباعهم (هم) الذين عرفوا اللّه فعملوا له و رغبوا إليه، و قد قال اللّه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ»[۷۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية «يعنى بالعلماء من صدق قوله فعله و من لم يصدق قوله فعله فليس بعالم»[۷۳].

و

فى حديث آخر جاء «أعلمكم باللّه أخوفكم للّه»[۷۴].

ملخّص القول أنّ العلماء- بالمنطق القرآنى- ليسوا أولئك الذين تحوّلت أدمغتهم إلى صناديق للآراء و الأفكار المختلفة من هنا و هناك و مليئة بالقوانين و المعادلات العلميّة للعالم و تلهج بها ألسنتهم، أو الذين سكنوا المدارس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۷

و الجامعات و المكاتب، بل إنّ العلماء هم أصحاب النظر الذين أضاء نور العلم و المعرفة كلّ وجودهم بنور اللّه و الإيمان و التقوى، و الذين هم أشدّ الناس ارتباطا بتكاليفهم مع ما يستشعرونه من عظمة المسؤولية إزاءها.

نقرأ فى سورة القصص أيضا أنّه حينما اغترّ «قارون» و استشعر الرضى عن نفسه و ادّعى لها مقام العلم، قام يعرض ثروته أمام الناس، و تمنّى عبّاد الدنيا الذين أسرتهم تلك المظاهر البرّاقة أن تكون لهم مثل تلك الثروة و الإمكانية الدنيوية، و لكن علماء بنى إسرائيل قالوا لهم: إنّ ثواب اللّه خير و أبقى لمن آمن و عمل صالحا، و لا يفوز بذلك إلّا الصابرون المستقيمون: وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ ۷۵].

و فى ختام الآية يقول تعالى، كدليل موجز على ما مرّ: إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ.

«عزّته» و قدرته اللامتناهية منبع للخوف و الخشية عند العلماء، و (غفرانه)، سبب فى الرجاء و الأمل عندهم، و بذا فإنّ هذين الاسمين المقدسين يحفظان عباد اللّه بين الخوف و الرجاء، و نعلم بأنّه لا يمكن إدامة الحركة باتّجاه التكامل بدون الاتّصاف بهاتين الصفتين بشكل متكافئ.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۸

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۲۹ الى ۳۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (۲۹) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (۳۰)

التّفسير

التجارة المربحة مع اللّه:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى مرتبة الخوف و الخشية عند العلماء، تشير الآيات مورد البحث إلى مرتبة «الأمل و الرجاء» عندهم أيضا، إذ أنّ الإنسان بهذين الجناحين- فقط- يمكنه أن يحلّق فى سماء السعادة، و يطوى سبيل تكامله، يقول تعالى أوّلا: إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَ عَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ[۷۶].

بديهى أنّ «التلاوة» هنا لا تعنى مجرّد القراءة السطحية الخالية من التفكّر و التأمّل، بل قراءة تكون سببا و باعثا على التفكّر، الذى يكون بدوره باعثا على العمل الصالح، الذى يربط الإنسان باللّه من جهة، و مظهر ذلك الصلاة، و يربطه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۷۹

بخلق اللّه من جهة ثانية، و مظهر ذلك الإنفاق من كلّ ما تفضّل به اللّه تعالى على الإنسان، من علمه، من ماله و ثروته و نفوذه، من فكره الخلّاق، من أخلاقه و تجاربه، من جميع ما وهبه اللّه.

هذا الإنفاق تارة يكون (سرّا)، فيكون دليلا على الإخلاص الكامل. و تارة يكون (علانية) فيكون تعظيما لشعائر اللّه و دافعا للآخرين على سلوك هذا الطريق.

و مع الالتفات إلى ما ورد فى هذه الآية و الآية السابقة نستنتج أنّ العلماء حقّا هم الذين يتّصفون بالصفات التالية:

* قلوبهم مليئة بالخشية و الخوف من اللّه المقترن بتعظيمه تعالى.

* ألسنتهم تلهج بذكر اللّه و تلاوة آياته.

* يصلّون و يعبدون اللّه.

* ينفقون فى السرّ و العلانية ممّا عندهم.

* و أخيرا و من حيث الأهداف، فإنّ أفق تفكيرهم سام إلى درجة أنّهم أخرجوا من قلوبهم هذه الدنيا الماديّة الزائلة، و يتأمّلون ربحا من تجارتهم الوافرة .. الربح مع اللّه وحده، لأنّ اليد التى تمتدّ إليه لا تخيب أبدا.

و الجدير بالملاحظة أيضا أنّ «تبور» من «البوار» و هو فرط الكساد، و لمّا كان فرط الكساد يؤدّى إلى الفساد كما قيل «كسد حتّى فسد» عبّر بالبوار عن الهلاك، و بذا فإنّ «التجارة الخالية من البوار» تجارة خالية من الكساد و الفساد.

ورد فى حديث رائع أنّه جاء رجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول اللّه، ما لى لا أحبّ الموت؟ قال: «أ لك مال» قال: نعم. قال: «فقدّمه» قال: لا أستطيع. قال:

«فإنّ قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحق به، و إن أخّره أحبّ أن يتأخّر معه»[۷۷].

إنّ هذا الحديث فى الحقيقة يعكس روح الآية أعلاه، لأنّ الآية تقول إنّ الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۰

يقيمون الصلاة، و ينفقون فى سبيل اللّه لهم أمل و تعلّق بدار الآخرة، لأنّهم أرسلوا الخيرات قبلهم و لهم الميل للحوق به.

الآية الأخيرة من هذه الآيات، توضّح هدف هؤلاء المؤمنين الصادقين فتقول:

انّهم يعملون الخيرات و الصالحات لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ[۷۸].

هذه الجملة فى الحقيقة تشير منتهى إخلاصهم، لأنّهم لا ينظرون إلّا إلى الأجر الإلهى، أى شىء يريدونه من اللّه يطلبونه، و لا يقصدون به الرياء و التظاهر و توقّع الثناء من هذا و من ذاك، إذ أنّ أهمّ قضيّة فى الأعمال الصالحة هى «النيّة الخالصة».

التعبير ب «أجور» فى الحقيقة لطف من اللّه، فكأنّ العباد يطلبون من اللّه مقابل أعمالهم أجرا!! فى حال أنّ كلّ ما يملكه العباد منه تعالى، حتّى القدرة على إنجاز الأعمال الصالحة أيضا هو الذى أعطاهم إيّاها.

و ألطف من هذا التعبير قوله وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ الذى يبشّرهم بأنّه علاوة على الثواب الذى يكون عادة على الأعمال و الذى يكون مئات أو آلاف الأضعاف المضاعفة للعمل، فإنّه يزيدهم من فضله، و يعطيهم من سعة فضله ما لم يخطر على بال، و ما لا يملك أحد فى هذه الدنيا القدرة على تصوره.

جاء فى حديث عن ابن مسعود عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال فى قوله:

وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفا فى الدنيا[۷۹].

و بذا فإنّهم ليسوا فقط من أهل النجاة، بل إنّهم يكونون سببا فى نجاة الآخرين بفضل اللّه و لطفه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۱

و قال بعض المفسّرين بأنّ جملة: وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إشارة إلى مقام «الشهود» الذى يكون للمؤمنين فى يوم القيامة بأن يمكّنهم اللّه من النظر إلى جماله و جلاله و الالتذاذ من ذلك بأعظم اللذّات. و لكن يظهر أنّ الجملة المذكورة لها معنى واسع و شامل بحيث يشمل محتوى الحديث المذكور و عطايا و مواهب اخرى غير معروفة أيضا.

جملة إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ تدلّل على أنّ أوّل لطف اللّه معهم، هو «العفو» عن ذنوبهم و زلّاتهم التى تبدر منهم أحيانا، لأنّ أشدّ قلق المؤمن يكون من هذا الجانب.

و بعد أن يهدأ بالهم من تلك الجهة، فانّه تعالى يشملهم ب «الشكر» أى انّه يشكر لهم أعمالهم و يعطيهم أفضل الجزاء و الثواب.

نقل تفسير «مجمع البيان» مثلا تضربه العرب و هو «أشكر من بروقة» و تزعم العرب أنّها- أى بروقة- شجرة عارية من الورق، تغيم السماء فوقها فتخضر و تورق من غير مطر[۸۰]. و هو مثل يضرب للتعبير عن منتهى الشكر، ففى قبال أقل الخدمات، يقدّم أعظم الثواب. بديهى أنّ خالق مثل هذه الشجرة أشكر منها و أرحم.***

تعليقة

شروط تلك التجارة العجيبة:

الملفت للنظر أنّ كثيرا من الآيات القرآنيـة الكريمة تشبّه هذا العالم بالمتجر الذى تجّاره الناس، و المشترى هو اللّه سبحانه و تعالى، و بضاعته العمل الصالح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۲

و القيمة أو الأجر: الجنّة و الرحمة و الرضا منه تعالى ۸۱].

و لو تأمّلنا بشكل جيّد فسوف نرى أنّ هـذه التجارة العجيبة مع اللّه الكريم ليس لها نظير، لأنّها تمتاز بالمزايا التالية التى لا تحتويها أيّة تجارة اخرى:

۱- إنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطى للبائع تمام رأسماله، ثمّ كان له مشتريا!.

۲- إنّ اللّه تعالى مشتر فى حال أنّه غير محتاج- إلى شىء تماما- فلديه خزائن كلّ شىء.

۳- إنّه تعالى يشترى «المتاع القليل» بالسعر «الباهض» «يا من يقبل اليسير و يعفو عن الكثير»، «يا من يعطى الكثير بالقليل».

۴- هو تعالى يشترى حتّى البضاعة التافهة فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ

۵- أحيانا يعطى قيمة تعادل سبعمائة ضعف أو أكثر «البقرة- ۲۶۱».

۶- علاوة على دفع الثمن العظيم فإنّه أيضا يضيف إليه من فضله و رحمته وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ (الآية موضوع البحث).

و يا له من أسف أنّ الإنسان العاقل الحرّ، يغلق عينيه عن تجارة كهذه، و يشرع بغيرها، و أسوأ من ذلك أن يبيع بضاعته مقابل لا شىء. أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاة و السلام) يقول: «ألا حرّ يدع هذه اللّماظة لأهلها، إنّه ليس لأنفسكم ثمن إلّا الجنّة، فلا تبيعوها إلّا بها»[۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۳

الآيتان [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (۳۱) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (۳۲)

التّفسير

الورثة الحقيقيّون لميراث الأنبياء:

بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن المؤمنين المخلصين الذين يتلون الكتاب الإلهى و يطبّقون وصاياه، تتحدّث هذه الآيات عن ذلك الكتاب السماوى و أدلّة حقّانيّة، و كذلك عن الحملة الحقيقيين لذلك الكتاب، و بذا يستكمل الحديث الذى افتتحته

الآيات السابقة حول التوحيد، بالبحث الذى تثيره هذه الآيات حول النبوّة.

تقول الآية الكريمة: وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُ

مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ (الحقّ) يعنى كلّ ما ينطبق مع الواقع و ينسجم معه، فإنّ هذا التعبير دليل على إثبات أنّ هذا الكتاب السماوى نازل من اللّه تعالى، لأنّنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۴

كلّما دقّقنا النظر فى هذا الكتاب السماوى وجدناه أكثر انسجاما مع الواقع.

فليس فيه تناقض، أو كذب أو خرافة، بل فمبادئه و معارفه تنسجم مع منطق العقل. قصصه و تواريخه منزّهة عن الأساطير و الخرافات، و قوانينه تتساوق مع احتياجات البشر، فتلك الحقّانية دليل واضح على أنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالى.

هنا و لأجل توضيح موقع القرآن الكريم، تمّت الاستفادة هنا من كلمة «الحقّ»، فى حال أنّه فى آيات اخرى من القرآن الكريم ورد التعبير عنه ب «النور» و «البرهان» و «الفرقان» و «الذكر» و «الموعظة» و «الهدى»، و كلّ واحدة منها تشير إلى واحدة من بركات القرآن و أبعاده، بينما كلمة (الحقّ) تشمل جميع تلك البركات.

يقول الراغب فى (مفرداته): أصل الحقّ المطابقة و الموافقة، و الحقّ يقال على أوجه:

الأوّل: يقال لمن يوجد الشىء على أساس الحكمة، و لهذا قيل فى اللّه تعالى هو الحقّ، لذا قال اللّه: فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُ [۸۳] الثّانى: يقال للشىء الذى وجد بحسب مقتضى الحكمة، و لهذا يقال فعل اللّه تعالى كلّه حقّ، قال تعالى: ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِ [۸۴] أى الشمس و القمر و غير ذلك.

الثّالث: فى العقائد المطابقة للواقع. قال تعالى: فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِ [۸۵] و الرّابع: يقال للأقوال و الأفعال الصادر وفقا لما يجب، و بقدر ما يجب، و فى الوقت المقرّر، كقولنا: فعلك حقّ، و قولك حقّ ۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۵

و بناء عليه، فإنّ حقّانية القرآن المجيد هى من حيث كونه حديثا مطابقا للمصالح و الواقعيات من جهة، كما أنّ العقائد و المعارف الموجودة فيه تنسجم مع الواقع من جهة اخرى، و من جهة ثالثة فإنّه من نسج اللّه و صنعه الذى صنعه على أساس الحكمة، و اللّه ذاته تعالى الذى هو الحقّ يتجلّى فى ذلك الكتاب العظيم، و العقل يصدق و يؤمن بما هو حقّ.

جملة مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ دليل آخر على صدق هذا الكتاب السماوى، لأنّه ينسجم مع الدلائل المذكورة فى الكتب السماوية السابقة فى إشارتها إليه و إلى حامله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

جملة إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ توضّح علّة حقّانية القرآن و انسجامه مع الواقع و الحاجات البشرية، لأنّه نازل من اللّه سبحانه و تعالى الذى يعرف عباده خير معرفة، و هو البصير الخبير فيما يتعلّق بحاجاتهم.

لكن ما هو الفرق بين «الخبير» و «البصير»؟

قال البعض: «الخبير» العالم بالبواطن و العقائد و النيّات و البعد الروحى فى الإنسان، و «البصير» العالم بالظواهر و البعد الجسمانى للإنسان.

و قال آخرون: «الخبير» إشارة إلى أصل خلق الإنسان، و «البصير» إشارة إلى أعماله و أفعاله.

و طبيعى أنّ التّفسير الأوّل يبدو أنسب و إن كان شمول الآية لكلا المعنيين ليس مستبعدا.

الآية التّالية تتحدّث فى موضوع مهم بالنسبة إلى حملة هذا الكتاب السماوى العظيم، أولئك الذين رفعوا مشعل القرآن الكريم بعد نزوله على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى زمانه و بعده على مرّ القرون و العصور، و هم يحفظونه و يحرسونه، فتقول: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا.

واضح أنّ المقصود من «الكتاب» هنا، هو نفس ما ذكر فى الآية السابقة و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۶

«القرآن الكريم» و الألف و اللام فيه «للعهد». و القول بأنّ المراد هو الإشارة للكتب السماوية، و أنّ اللام هنا «للجنس» يبدو بعيد الاحتمال، و ليس فيه تناسب مع ما ورد فى الآيات السابقة.

التعبير ب «الإرث» هنا و فى موارد اخرى مشابهة فى القرآن الكريم، لأجل أنّ «الإرث» يطلق على ما يستحصل بلا مشقّة أو جهد، و اللّه سبحانه و تعالى أنزل هذا الكتاب السماوى العظيم للمسلمين هكذا بلا مشقّة أو جهد.

لقد وردت روايات كثيرة هنا من أهل البيت عليهم السّلام فى تفسير عبارة الَّذِينَ اصْطَفَيْنا بالأئمّة المعصومين عليهم السّلام [۸۷].

هذه الروايات- كما ذكرنا مرارا- ذكر لمصاديق واضحة و فى الدرجة الاولى.

و لكن لا مانع من اعتبار العلماء و المفكّرين فى الامّة، و الصلحاء و الشهداء، الذين سعوا و اجتهدوا فى طريق حفظ هذا الكتاب السماوى، و المداومة على تطبيق أوامره و نواهيه، تحت عنوان الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا.

ثمّ تنتقل الآية إلى تقسيم مهمّ بهذا الخصوص، فتقول: فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

ظاهر الآية هو أنّ هذه المجامع الثلاثة هى من بين الَّذِينَ اصْطَفَيْنا أى:

ورثة و حملة الكتاب السماوى.

و بتعبير أوضح، إنّ اللّه سبحانه و تعالى قد أوكل مهمّة حفظ هذا الكتاب السماوى، بعد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى هذه الامّة، الامّة التى اصطفاها اللّه سبحانه، غير أنّ فى تلك الامّة مجاميع مختلفة: بعضهم قصّروا فى وظيفتهم العظيمة فى حفظ هذا الكتاب و العمل بأحكامه، و فى الحقيقة ظلموا أنفسهم، و هم مصداق ظالِمٌ لِنَفْسِهِ

و مجموعة اخرى، أدّت وظيفتها فى الحفظ و العمل بالأحكام إلى حدّ كبير، و إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۷

كان عملها لا يخلو من بعض الزلّات و التقصيرات أيضا، و هؤلاء مصداق «مقتصد».

و أخيرا مجموعة ممتازة، أنجزت وظائفها العظيمة بأحسن وجه، و سبقوا الجميع فى ميدان الاستباق، و الذين أشارت إليهم الآية بقولها: سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ

و هنا يمكن أن يقال بأنّ وجود المجموعة «الظالمة» ينافى أنّ هؤلاء جميعا مشمولون بقوله «اصطفينا»؟

و فى الجواب نقول: إنّ هذا شبيه بما ورد بالنسبة إلى بنى إسرائيل فى الآية (۵۳) من سورة المؤمن: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ فى حال أنّنا نعلم أنّ بنى إسرائيل جميعهم لو يؤدّوا وظيفتهم إزاء هذا الميراث العظيم.

أو نظير ما ورد فى الآية (۱۱۰) من سورة آل عمران: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

أو ما ورد فى الآية (۱۶) من سورة الجاثية بخصوص بنى إسرائيل أيضا وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

و كذلك فى الآية (۲۶) من سورة الحديد نقرأ: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ

و خلاصة القول: إنّ الإشارة فى أمثال هذه التعبيرات ليست للامّة بأجمعها فردا فردا، بل إلى مجموع الامّة، و إن احتوت على طبقات، و مجموعات مختلفة[۸۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۸

و قد ورد فى روايات كثيرة عن أهل بيت العصمة عليهم السّلام فى تفسير «سابق بالخيرات» بالمعصوم عليه السّلام، و «ظالم لنفسه» بمن

لا يعرف الإمام، و «المقتصد» العارف بالإمام ۸۹].

هذه التّفسيرات شاهد واضح على ما اخترناه لتفسير الآية، و هو أنّه لا مانع من كون هذه المجاميع الثلاثة ضمن ورثة الكتاب الإلهى.

و لا نحتاج إلى التذكير بأنّ تفسير الروايات أعلاه هو من قبيل بيان المصاديق الأوضح للآية، و هم الأئمّة المعصومون، إذ هم الصفّ الأوّل، بينما العلماء و المفكّرون و حماة الدين الآخرون فى صفوف اخرى.

كذلك فإنّ التّفسير الوارد فى تلك الروايات للظالم و المقتصد، هو أيضا من قبيل بيان المصاديق، و إذا لاحظنا أنّ بعض الرّوايات تنفى شمول الآية للعلماء فى مقصودها فإنّ ذلك فى الحقيقة لإلفات النظر إلى وجود الإمام فى مقدّمة تلك الصفوف.

و من الجدير بالذكر أنّ جمعا من المفسّرين القدماء و المعاصرين احتملوا الكثير من الاحتمالات فى تفسير هذه المجاميع، و التى هى فى الحقيقة جميعا من قبيل بيان المصاديق ۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۸۹

و هنا يطرح السؤال التالى: لماذا ابتدأ الحديث بذكر الظالمين كمجموعة اولى، ثمّ المقتصد، ثمّ السابقين بالخيرات، فى حين أنّ العكس يبدو أولى من عدّة جهات؟

بعض كبار المفسّرين قالوا للإجابة على هذا السؤال: إنّ الهدف هو بيان ترتيب مقامات البشر فى سلسلة التكامل، لأنّ أوّل المراحل هى مرحلة العصيان و الغفلة، و بعدها مقام التوبة و الإنابة، و أخيرا التوجّه و الاقتراب من اللّه سبحانه و تعالى، فحين تصدر المعصية من الإنسان فهو «ظالم لنفسه»، و حين يلج مقام التوبة فهو «مقتصد»، و حين تقبل توبته و يزداد جهاده فى طريق الحقّ، ينتقل إلى مقام القرب ليرقى إلى مقام «السابقين بالخيرات»[۹۱].

و قال آخر: بأنّ هذا الترتيب لأجل الكثرة و القلّة فى العدد و المقدار، فالظالمون يشكّلون الأكثرية، و المقتصدون فى المرتبة التالية، و السابقون للخيرات و هم الخاصّة و الأولياء من الناس هم الأقلّية و ان كانوا أفضل من الناحية الكيفيّة.

الملفت للتأمّل ما

نقل فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: (ما مؤدّاه): «قدّم الظالم لكى لا ييأس من رحمة اللّه، و أخّر السابقون بالخيرات لكى لا يأخذهم الغرور بعملهم»[۹۲].

و يمكن أن يكون كلّ من هذه المعانى الثلاثة مقصودا.

و آخر كلام فى تفسير هذه الآية حول المشار إليه فى جملة ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ؟

قال البعض، بأنّه ميراث الكتاب الإلهى، و قال آخرون بأنّه إشارة إلى التوفيق التى شمل حال السابقين بالخيرات، و طيّهم لهذا الطريق بإذن اللّه، لكن يبدو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۰

المعنى الأوّل أنسب و أكثر انسجاما مع ظاهر الآية.

***

ملاحظة

من هم حرّاس الكتاب الإلهى؟

على ما ذكر القرآن الكريم فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يشمل الامّة الإسلامية بمواهب عظيمة، من أهمّها ذلك الميراث الإلهى العظيم و

هو «القرآن».

و قد اصطفيت الامّة الإسلامية من باقى الأمم، و تلك نعمة أعطيت لها، و مسئولية ثقيلة أسندت إليها بنفس النسبة التى فضّلت بها و أصبحت بسببها مشمولة باللطف الإلهى، و ستكون هذه الامّة فى صف «السابقين بالخيرات» ما أدّت حقّ حفظ و حراسة هذا الميراث العظيم. أى أن تسبق جميع الأمم فى الخيرات، فى تطوير العلوم، فى التقوى و الزهد، فى العبادة و خدمة البشرية، فى الجهاد و الاجتهاد، فى التنظيم و الإدارة، فى الفداء و الإيثار و التضحية، فتتقدّم و تسبق فى كلّ هذه الأمور، و إلّا فإنّها لا تكون قد أدّت حقّ حفظ ذلك الميراث العظيم. خاصّة إذا علمنا أنّ تعبير «السابقين بالخيرات» مفهوم واسع إلى درجة أنّه يشمل التقدّم فى جميع الأمور ذات المنحى الإيجابى من امور الحياة.

نعم، فحملة مثل هذا الميراث هم- فقط- أولئك الذين يتّصفون بتلك الصفات، بحيث أنّهم لو أعرضوا عن تلك الهدية السماوية العظيمة و لم يراعوا حرمتها، فسيكونون مصداقا ل «ظالم لنفسه»، إذ أنّ محتوى تلك الهدية الإلهية ليس سوى نجاتهم و توفيقهم و انتصارهم، فإنّ من يضرب عرض الحائط بنسخة الدواء التى كتبها له الطبيب، فإنّه يساعد على استمرار الألم و العذاب لنفسه. و إنّ من يحطّم مصباحه الوحيد و هو يسير فى طريق مظلم، إنّما يسوق نفسه إلى التيه و الضياع، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى غنى عن الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۱

و على المذنبين أيضا أن لا ينسوا حقيقة أنّهم كانوا مشمولين بمضمون الآية الكريمة فى زمرة الَّذِينَ اصْطَفَيْنا و إنّ لهم ذلك الاستعداد بالقوّة، فعليهم أن يتجاوزوا مرحلة «الظالم لنفسه» و ينتقلوا إلى مرحلة «المقتصد» و ليرتقوا من هناك حتّى ينالوا فخر «السابقين بالخيرات»، حيث أنّهم من جهة الفطرة و البناء الروحى من الذين اصطفاهم الحقّ.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۲

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۳ الى ۳۵]

اشارة

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (۳۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (۳۴) الَّذِى أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (۳۵)

التّفسير

الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن:

هذه الآيات فى الحقيقة نتيجة لما ورد ذكره فى الآيات الماضية، يقول تعالى:

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها[۹۳].

«جنّات» جمع «جنّة» بمعنى (الروضة) و كلّ بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۳

و «عدن» بمعنى الاستقرار و الثبات، و منه سمّى المعدن لأنّه مستقر الجواهر و المعادن. و عليه فإنّ «جنّات عدن» بمعنى «جنّات الخلد و الدوام و الاستقرار».

على كلّ حال فإنّ هـذا التعبير يشـير إلى أنّ نعم الجنّـة العظيمـة خالدة و ثابتة، و ليست كنعم الدنيا ممزوجة بالقلق الناجم عن زوالها و عدم دوامها، و أهل الجنّة ليست لهم جنّة واحدة، بل جنّات متعدّدة تحت تصرّفهم.

ثمّ تشـير الآية إلى ثلاثة أنواع من نعم الجنّة، بعضـها إشارة إلى جانب مادّى و بعضـها الآخر إلى جانب معنوى و باطنى، و بعض أيضـا يشير إلى عدم وجود أى نوع من المعوّقات، فتقول الآية: يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤاً وَ لِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ.

فهؤلاء لم يلتفتوا فى هذه الدنيا إلى بريقها و زخرفها، و لم يجعلوا أنفسـهم أسـرى لزبرجها، و لم يكونوا أسرى التفكير باللباس الفاخر، و اللّه سبحانه و تعالى يعوّضهم عن كلّ ذلك، فيلبسهم فى الآخرة أفخر الثياب.

هؤلاء زيّنوا حياتهم الدنيا بالخيرات، فزيّنهم اللّه سبحانه و تعالى فى يوم تجسّد الأعمال يوم القيامة بأنواع الزينة.

لقـد قلنا مرارا بأنّ الألفاظ التى وضـعت لهـذا العالم المحـدود لا يمكنها أن توضّـح مفاهيم و مفردات عالم القيامة العظيم، فلأجل بيان نعم ذلك العالم الآخر نحتاج إلى حروف اخرى و ثقافـة اخرى و قاموس آخر، على أيّة حال، فلأجل توضـيح صورة و إن كانت باهتة عن النعم العظيمة فى ذلك العالم لا بدّ لنا أن نستعين بهذه الألفاظ العاجزة.

بعد ذلك تلك النعمة الماديّة، تنتقل الآية مشيرة إلى نعمة معنوية خاصّة فتقول:

وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ

فهؤلاـء يحمـدون اللّه بعـد أن أصـبحت تلـك النعمـة العظيمـة من نصـيبهم، و تلاـشت عن حياتهم جميع عوامل الغمّ و الحسـرة ببركة اللطف الإلهى، و تبدّدت سحب الهمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۴

المظلمـة عن سـماء أرواحهم، فلاـ خوف من عـذاب إلهى، و لاـ وحشـة من موت و فنـاء، و لاـ قلق، و لا أذى الماكرين، و لا اضـطهاد الجبابرة القساة الغاصبين.

اعتـبر بعض المفسّـرين ذلـك الغمّ و الحسـرة إشـارة إلى نظير مـا يتعرّض له فى الـدنيا، و اعتبره البعض الآـخر إشـارة إلى الحسـرة فى المحشر على نتائج أعمالهم، و لا تضادّ بين هذين التّفسيرين، و يمكن جمعهما فى إطار المفهوم العام للآية.

«الحزن»: (على وزن عـدم)، و «الحزن»- على وزن عسـر- كليهما لمعنى واحد كما ذهب إليه أرباب اللغة، و أصـله الوعورة و الخشونة فى الأرض و اطلق على الخشونة فى النفس لما يحصل فيها من الغمّ و يضادّه الفرح ۹۴].

ثمّ يضيف أهل الجنّة هؤلاء إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ.

فبغفرانه أزال عنّـا حسـرة الزلّـات و الـذنوب، و بشـكره و هبنـا المواهب الخالـدة التى لن يلقى عليها الغمّ بظلاله المشؤومـة. غفر و ستر بغفرانه الكثير الكثير من ذنوبنا، و بشكره أعطانا الكثير على أعمالنا البسيطة القليلة القليلة! أخيرا تنتقل الآية مشيرة إلى آخر النعم، و هى عدم وجود عوامل الإزعاج و المشقّة و التعب و العذاب، فتحكى عن ألسنتهم الَّذِى أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَ لا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ

الـدار الآـخرة هنـاك دار إقامـة لا كما فى الـدنيا حيث أنّ الإنسان ما أن يألف محيطه و يتعلّق به حتّى يقرع له جرس الرحيل! هـذا من جانب .. و من جانب آخر فمع أنّ العمر هناك متّصل بالأبد، إلّا أنّ الإنسان لا يصيبه الملل أو الكلل، أو التعب أو النصب مطلقا، لأنّهم فى كلّ آن أمام نعمة جديدة، و جمال جديد.

«النصب» بمعنى التعب، و «اللغوب» بمعنى التعب و النصب أيضا. هذا على ما تعارف عليه أهل اللغة و التّفسير، فى حين أنّ البعض فرّق بين اللفظتين فقال بأنّ (النصب) يطلق على المشاقّ الجسمانية، و «اللغوب» يطلق على المشاقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۵

الروحية[۹۵]. أو أنّه الضعف و النحول الناجم عن المشقّة و الألم، و بذا يكون «اللغوب» ناجما عن «النصب»[۹۶].

و بذا فلا وجود هناك لعوامل التعب و المشقّة، سواء كانت نفسية أو جسمانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۶

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (۳۶) وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (۳۷) إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۳۸)

التّفسير

ربّنا أخرجنا نعمل صالحا!

القرآن الكريم يقرن (الوعيد) (بالوعود) و يذكر «الإنذارات»، إلى جانب «البشارات» لتقوية عاملى الخوف و الرجاء الباعثين للحركة التكاملية فى الإنسان، إذ أنّ الإنسان بمقتضى «حبّ الذات» يقع تحت تأثير غريزتى «جلب المنفعة» و «دفع الضرر».

و عليه فمتابعة للحديث الذى كان فى الآيات السابقة عن المواهب الإلهية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۷

العظيمة و صبر «المؤمنين السابقين فى الخيرات» ينتقل الحديث هنا إلى العقوبات الأليمة للكفّار، و الحديث هنا أيضا عن العقوبات المادية و المعنوية.

تبتدئ الآيات بالقول: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ فكما أنّ الجنّة دار المقامة و الخلد للمؤمنين، فإنّ النار أيضا مقام أبدى للكافرين.

ثمّ تضيف لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا[۹۷]، فمع أنّ تلك النار الحامية و ذلك العذاب المؤلم يستطيع القضاء عليهم فى كلّ لحظة، إلّا أنّهم و لعدم صدور الأمر الإلهى- و هو المالك لكلّ شىء- بموتهم لا يموتون، يجب أن يبقوا على قيد الحياة ليذوقوا عذاب اللّه.

فالموت بالنسبة إلى هؤلاء ليس سوى منفذ للخلاص من العذاب، لكن اللّه تعالى أوصد دونهم ذلك المنفذ.

يبقى منفذ آخر هو أن يبقوا على قيد الحياة و يخفّف عنهم العذاب شيئا فشيئا، أو أن يزداد تحمّلهم للعذاب فينتج عن ذلك تخفيف العذاب عنهم، و لكن تتمّة الآية أغلقت هذا المنفذ أيضا وَ لا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها.

ثمّ تضيف الآية و للتأكيد على قاطعية هذا الوعد الإلهى كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ.

فقد كفر هؤلاء فى بادئ الأمر بنعمة وجود الأنبياء و الكتب السماوية، ثمّ أتلفوا رصيدهم الذى سخّره اللّه لمساعدتهم على نيل السعادة، نعم، فجزاء الكفّار ليس سوى الحريق و العذاب الأليم، الحريق بالنار التى أشعلوها بأيديهم فى الحياة الدنيا و احتطبوا لها من أفكارهم و أعمالهم و وجودهم.

و بما أنّ كلمة «كفور» صيغة مبالغة، فإنّ لها معنى أعمق من «كافر»، علاوة على أنّ لفظة «كافر» تستخدم فى قبال «مؤمن» و لكن «كفور» إشارة إلى أولئك الذين كفروا بكلّ نعم اللّه، و أغلقوا عليهم جميع أبواب الرحمة الإلهيّة فى هذه الدنيا، لذا فإنّ اللّه يغلق عليهم جميع أبواب النجاة فى الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۸

و تنتقل الآية التالية إلى وصف نوع آخر من العذاب الأليم، و تشير إلى بعض النقاط الحسّاسة فى هذا الخصوص، فتقول الآية الكريمة: وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۹۸].

نعم، فهم بمشاهدة نتائج أعمالهم السيّئة، يغرقون فى ندم عميق، و يصرخون من أعماق قلوبهم و يطلبون المحال، العودة إلى الدنيا للقيام بالأعمال الصالحة.

التعبير ب «صالحا» بصيغة النكرة إشارة إلى أنّهم لم يعملوا أقلّ القليل من العمل الصالح، و لازم هذا المعنى أنّ كلّ هذا العذاب و الألم إنّما هو لمن لم تكن لهم أيّة رابطة مع اللّه سبحانه فى حياتهم، و كانوا غرقى فى المعاصى و الذنوب، و عليه فإنّ القيام بقسم من الأعمال الصالحة أيضا يمكن أن يكون سببا فى نجاتهم.

التعبير بالفعل المضارع «نعمل» أيضا له ذلك الإشعاع، و يؤيّد هذا المعنى، و هو تأكيد أيضا على «أنّنا كنّا مستغرقين فى الأعمال الطالحة».

قال بعض المفسّرين: إنّ الربط بين وصف «صالحا» و اللاحق لها «كنّا نعمل» يثير نكتة لطيفة، و هى أنّ المعنى هو «إنّنا كنّا نعمل الأعمال التى عملنا بناء على تزيين هوى النفس و الشيطان، و كنّا نتوّهم أنّها أعمال صالحة، و الآن قرّرنا أن نعود و نعمل أعمالا صالحة فى حقيقتها غير التى ارتكبناها».

نعم فالمذنب فى بادئ الأمر- و طبق قانون الفطرة السليمة- يشعر و يشخص قباحة أعماله، و لكنّه قليلا قليلا يتطبّع على ذلك فتقل فى نظره قباحة العمل، و يتوغّل أبعد من ذلك فيرى القبيح جميلا، كما يقول القرآن الكريم: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ ۹۹].

و فى مكان آخر يقول تعالى: وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.[۱۰۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۹۹

على كلّ حال، ففى قبال ذلك الطلب الذى يطلبه أولئك من اللّه سبحانه و تعالى، يصدر ردّ قاطع عنه سبحانه و تعالى حيث يقول: أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فإذا لم تنتفعوا بكلّ ما توفّر بين أيديكم من وسائل النجاة تلك و من كلّ الفرص الكافية المتاحة فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ.

هذه الآية تصرّح: لم يكن ينقصكم شىء، لأنّ الفرصة أتيحت لكم بما يكفى، و قد جاءتكم نذر اللّه بالقدر الكافى، و بتحقّق هذين الركنين يحصل الانتباه و النجاة، و عليه فليس لكم أى عذر، فلو لم تكن لكم المهلة كافية لكان لكم العذر، و لو كانت لكم مهلة كافية و لم يأتكم نذير و مرشد و معلّم فكذلك لكم العذر، و لكن بوجود ذينك الركنين فما هو العذر؟! «نذير» عادة ترد فى الآيات القرآنية للإشارة إلى وجود الأنبياء، و بالأخصّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكن بعض المفسّرين ذكروا لهذه الكلمة هنا معنى أوسع، بحيث تشمل الأنبياء و الكتب السماوية و الحوادث الداعية إلى الانتباه كموت الأصدقاء و الأقرباء، و الشيخوخة و العجز، و كما يقول الشاعر:

رأيت الشيب من نذر المنايالصاحبه و حسبك من نذير[۱۰۱]

من الجدير بالملاحظة أيضا أنّه قد ورد فى بعض الروايات أنّ هناك حدّا من العمر يعتبر إنذارا و تذكيرا للإنسان، و ذلك بتعبيرات مختلفة، فمثلا

فى حديث عن ابن عبّاس مرفوعا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من عمّره اللّه ستّين سنة فقد أعذر إليه»[۱۰۲].

و

عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «العمر الذى أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم ستّون سنة»[۱۰۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۰

و

عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة قيل: أين أبناء الستّين؟

و هو العمر الذى قال اللّه: أ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ[۱۰۴].

و لكن

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّ الآية «توبيخ لابن ثمانى عشرة سنة»[۱۰۵].

طبعا، من الممكن أن تكون الرواية الأخيرة إشارة إلى الحدّ الأقل، و الروايات السابقة إشارة إلى الحدّ الأعلى، و عليه فلا منافاة بينها، و حتّى أنّه يمكن انطباقها على سنين اخرى أيضا- حسب التفاوت لدى الأفراد- و على كلّ حال فإنّ الآية تبقى محتفظة بسعة مفهومها.

فى الآية الأخيرة- من هذه الآيات- يرد الجواب على طلب الكفّار فى العودة إلى الدنيا فتقول الآية: إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

الجملة الاولى فى الحقيقة دليل على الجملة الثانية، أى إنّه كيف يمكن لعالم أسرار السموات و الأرض و غيب عالم الوجود أن لا يكون عالما بأسرار القلوب؟! نعم، فهو سبحانه و تعالى يعلم أنّه لو استجاب لما طلبه منه أهل جهنّم، و أعادهم إلى الدنيا فسوف يعاودون نفس المسيرة المنحرفة التى كانوا عليها، كما أشارت إلى ذلك الآية (۲۸) من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

إضافة إلى ذلك فالآية تنبيه للمؤمنين على أن يسعوا لتحقيق الإخلاص فى نيّاتهم، و أن لا يأخذوا بنظر الإعتبار غير اللّه سبحانه و تعالى، لأنّ أقلّ شائبة فى نواياهم سيكون معلوما لديه و باعثا لمجازاتهم على قدر ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۱

ملاحظتان

۱- ما هو المقصود من «ذات الصدور»؟

ورد هذا اللفظ بتفاوت يسير فى أكثر من عشرة آيات من القرآن الكريم إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

لفظة «ذات» التى مذكّرها «ذو» فى الأصل بمعنى «الصاحب» مع أنّها وردت لدى الفلاسفة بمعنى «العين و الحقيقة و جوهر الأشياء»، و لكن على ما قاله (الراغب) فى مفرداته فإنّ هذا الاصطلاح لا وجود له فى كلام العرب.

و بناء على ذلك فإنّ المقصود من جملة إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ أنّ اللّه يعلم صاحب و مالك القلوب، و هى كناية لطيفة عن عقائد و نوايا الناس، إذ أنّ الإعتقادات و النوايا عند ما تستقر فى القلب تكون كأنّها مالك القلب، و الحاكم فيه، و لهذا السبب تعدّ تلك العقائد و النوايا صاحبا و مالكا للقلب الإنسانى.

و ذلك تماما ما صاغه بعض كبار العلماء استفادة من هذا المعنى فقالوا: الإنسان آراؤه و أفكاره، لا صورته و أعضاؤه»[۱۰۶].

۲- لا سبيل للرجوع!

من المسلّم به أنّ القيامة و الحياة بعد الموت مرحلة تكاملية نسبة إلى الدنيا، و أنّ الرجوع إلى هذه الدنيا ليس معقولا، فهل يمكننا العودة إلى الأمس؟ هل يمكن للوليد أن يعود إلى طى الأدوار الجنينية من جديد؟ و هل يمكن للثمرة التى قطفت من غصنها أن تعاد إليه مرّة ثانية؟ لهذا السبب فإنّ العودة إلى الدنيا غير ممكنة لأهل الآخرة.

و على فرض إمكانية تلك العودة فإنّ هذا الإنسان الكثير النسيان سوف لن يقوم بغير إدامة أعماله السابقة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۲

و لا نـذهب بعيـدا، فنحن مرّات عديـدة و فى شـرائط بعض الضائقات الحياتية، نتّخذ قرارا مخلصا بيننا و بين اللّه على القيام بعمل ما أو ترك عمل ما، و لكن بمجرّد تغيير تلك الشـرائط يتغيّر قولنا و ننسـى قراراتنا، إلّا إذا تحقّق لشـخص ما تحوّل جـدّى حقيقى، لا تحوّل مشروط بتلك متعدّدة الشرائط التى بتغيّرها يعود إلى سابق حاله.

هذه الحقيقة وردت فى آيات متعدّدة من القرآن المجيد، من جملتها ما ورد فى الآية (۲۸) من سورة الأنعام التى أشرنا إليها قبل قليل، حيث تكذّب هؤلاء و تردّهم.

و لكن الآية (۵۳) من سورة الأعراف تكتفى فقط بأنّ هؤلاء الأفراد خاسـرون، و لكن لم تردّ بصـراحة على طلبهم للعودة: فَهَلْ لَنا مِنْ شُفَعاءَ فَيَشْفَعُوا لَنا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

نفس هذا المعنى ورد بشـكل آخر فى الآيات (۱۰۷) و (۱۰۸) من سورة المؤمنون: رَبَّنـا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُـدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ قالَ اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ

على كلّ حال، فتلك مطالب غير ذات جـدوى، و أمانى عديمة التحقّق، و يحتمل أنّهم هم أيضا يعلمون ذلك، و لكنّهم لشدّة العذاب و انسداد جميع المنافذ أمامهم يكرّرون هذه المطالب.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۳

الآيات [سورة فاطر (۳۵): الآيات ۳۹ الى ۴۱]

اشارة

هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِى الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيـدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً (۳۹) قُـلْ أَ رَأَيْتُمْ شُـرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِـرْكٌ فِى السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُـهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً (۴۰) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِـكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (۴۱)

التّفسير

السماوات و الأرض بيد القدرة الإلهية:

تنتقل الآيات إلى مرحلة اخرى من تشـخيص عوامل ضـعف و بطلان مناهج الكفّار و المشركين فى التعامل أو التفكير لتكمل البحوث التى مرّت فى الآيات السابقة، فتقول أوّلا: هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِى الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۴

«خلائـف» هنـا سواء كـانت بمعنى خلفاء و ممثّلى اللّه فى الأرض، أم بمعنى خلفاء الأقوام السابقين (و إن كان المعنى الثانى هنا أقرب على ما يبدو) فهى دليل على منتهى اللطف الإلهى على البشر حيث أنّه قيّض لهم جميع إمكانات الحياة.

أعطاهم العقل و الشـعور و الإدراك، أعطاهم أنواع الطاقات الجسديـة، ملأ للإنسان صـفحة الأرض بمختلف أنواع النعم و البركات، و علّمه طريقة الاستفادة من تلك الإمكانات، فكيف نسى الإنسان و الحال هذه ولى نعمته الأصلى، و راح يعبد آلهة خرافية و مصنوعة؟!

هـذه الجملة فى الحقيقة بيان ل «توحيد الربوبية» الذى هو دليل على «توحيد العبادة». و هذه الجملة أيضا تنبيه للبشـر جميعا ليعلموا بأن مكثهم ليس أبـديّا و لا خالـدا، فكما أنّهم خلائف لأقوام آخرين، فما هى إلّا مدّة حتّى ينتهى دورهم و يكون غيرهم خلائف لهم، لذا فإنّ عليهم أن يتأمّلوا و يفكّروا ماذا يعملون خلال هذه المدّة القصيرة، و كيف سيذكرهم التأريخ فى هذا العالم؟

لذا تردف الآية قائلة: فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَ لا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً.

الجملتان الأخيرتان فى الواقع تفسير الجملة فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فهما تقيمان دليلين على رجوع الكفر على صاحبه كالآتى:

الأوّل: إنّ هذا الكفر يؤدّى إلى غضب اللّه الذى أعطى كلّ هذه المواهب.

و الثانى: أنّه علاوة على هـذا الغضب الإلهى فإنّ هـذا الكفر سوف لن يزيـد الظالمين إلّا خسارة و ضـررا بإتلافهم رأس مالهم المتمثّل بأعمارهم و وجودهم، و شرائهم للشقاء و الانحطاط و الظلمة، و أى خسارة أكثر من هذه.

و كلّ واحد من هذين الدليلين كاف لشجب و إبطال ذلك المنهج الباطل فى التعامل مع الحياة.

تكرار لا يَزِيدُ بصيغة المضارع، إشارة إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۵

الميّال بـالطبع إلى البحث عن الزيـادة، إذا سـار فى طريق التوحيـد فسـيزداد سـعادة و كمالا، و إذا سـلك طريق الكفر فسوف يتعرّض لمزيد من غضب البارى عزّ و جلّ و يكون نصيبه الضرر و الخسارة.

من الجـدير بالـذكر أيضا أنّ الغضب الإلهى ليس بمعنى الغضب الذى يحصل للإنسان، لأنّ هذا الغضب فى الإنسان عبارة عن نوع من الهيجان و الانفعال الداخلى الذى يكون سببا فى صدور أفعال قويّة و حادّة و خشنة، و فى تعبئة كافّة طاقات الإنسان للدفاع أو الانتقام، و أمّـا بالنسـبة إلى اللّه سـبحانه و تعالى فليس لأىّ من هـذه الآثار التى هى من خواص الموجودات المتغيّرة و الممكنـة أثر فى غضـبه، فغضبه بمعنى رفع الرحمة و منع اللطف الإلهى من شمول أولئك الذين ارتكبوا السيّئات.

الآيـة التاليـة ترد على المشـركين بجواب قـاطع حـازم، و تـذكّرهم بـأنّ الإنسان إذا اتّبع أمرا أو تعلّق بأمر، فيجب أن يكون هناك دليل عقلى على هذا الأمر، أو دليل نقلى ثابت، و أنتم أيّها الكفّار حيث لا تملكون أيّا من الدليلين فليس لديكم سوى المكر و الغرور.

تقول الآية الكريمة: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ۱۰۷] فهل خلقوا شيئا فى الأرض.

أم شـاركوا اللّه فى خلق السـماوات؟! و مع هـذا الحـال فمـا هو سـبب عبادتكم لها، لأنّ كون الشـىء معبودا فرع كونه خالقا، فما دمتم تعلمـون أنّ خـالق السـماوات و الأرض هو اللّه تعـالى وحـده، فلن يكون هنـاك معبود غيره، لأنّ توحيـد الخالقيـة دليـل على توحيد العبودية.

و الآن بعد أن ثبت أنّكم لا تملكون دليلا عقليا على ادّعائكم، فهل لديكم دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۶

نقلى؟ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ

كلّا، فليس لـديهم أى دليل أو بيّنـة أو برهان واضـح من الكتب الإلهيـة، إذا فليس لـديهم سوى المكر و الخديعـة بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً.

و بتعبير آخر، إذا كان لعبدة الأوثان و سائر المشـركين من كلّ مجموعة و كلّ صـنف ادّعاء بقدرة الأصـنام على تلبية مطالبهم، فعليهم أن يعرضوا نموذجا لخلقهم من الأرض، و إذا كانوا يعتقـدون أنّ تلك الأصـنام مظهر الملائكـة و المقدّسـين فى السـماء- كما يـدّعى البعض- فيجب أن يقيموا الدليل على أنّهم شـركاء فى خلق السـماوات .. و ان كانوا يعتقدون بأنّ هؤلاء الشـركاء ليس لهم نصـيب فى الخلقة، بل لهم مقام الشفاعة- كما يدّعى البعض- فيجب أن يأتوا بدليل على إثبات ذلك الادّعاء من الكتب السماوية.

و الحال أنّهم لا يملكون أيّا من هذه البيّنات، فهم مخادعون ظالمون ليس لهم سوى المكر و خديعة بعضهم البعض.

الجدير بالملاحظة أيضا هو المقصود ب «الأرض و السموات» هنا هو مجموعة المخلوقات الأرضية و السماوية، و التعبير ب ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ و شِرْكٌ فِي السَّماواتِ إشارة إلى أنّ المشاركة فى السماوات إنّما يجب أن تكون عن طريق الخلق.

و تنكير «كتابا»، مع استناده إلى اللّه سبحانه، إشارة إلى أنّه ليس هنا أدنى دليل على ادّعائهم فى أى من الكتب السماوية.

«بيّنة» إشارة إلى دليل واضح من تلك الكتب السماوية.

«ظالمون» تأكيد مرّة اخرى على أنّ «الشرك» «ظلم» واضح.

«غرور» إشارة إلى أنّ عبدة الأوثان أخذوا هذه الخرافات بعضهم من بعض، و تلافقوها إمّا على شكل شائعات، أو تقاليد من بعضهم الآخر.

و تنتقل الآية التى بعدها إلى الحديث عن حاكمية اللّه سبحانه و تعالى على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۷

مجموعة السماوات و الأرض، و فى الحقيقة فإنّها تنتقل إلى إثبات توحيد الخالقية و الربوبية بعد نفى شركة أى من المعبودات الوهمية فى عالم الوجود فتقول: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولا[۱۰۸].

فليس بدء الخلق- فقط- مرتبطا باللّه، فإنّ حفظ و تدبير الخلق مرتبط بقدرته أيضا، بل إنّ الخلق له فى كلّ لحظة خلق جديد، و فيض الوجود يغمر الخلق لحظة بعد اخرى من مبدأ الفيض. و لو قطعت الرابطة بين الخلق و بين ذلك المبدأ العظيم الفيّاض، فليس إلّا العدم و الفناء.

صحيح أنّ الآية تؤكّد على مسألة حفظ نظام الوجود الموزون، و لكن- كما ثبت من الأبحاث الفلسفيّة- فإنّ الممكنات محتاجة فى بقائها إلى موجدها كاحتياجها إليه فى بدء إيجادها، و بذلك فإنّ حفظ النظام ليس سوى إدامة الخلق الجديد و الفيض الإلهى.

الملفت للنظر أنّ الأجرام و الكرات السماوية، مع كونها غير مقيّدة بشىء آخر، إلّا أنّها لم تبرح أماكنها أو مداراتها التى حدّدت لها منذ ملايين السنين، دون أن تنحرف عن ذلك قيد أنملة، كما نلاحظ ذلك فى المجموعة الشمسية، فالأرض التى نعيش عليها تواصل دورانها حول الشمس منذ ملايين بل مليارات السنين فى مسيرها المحدّد و المحسوب بدقّة و الذى يتحقّق من التوازن بين القوى الدافعة و الجاذبة، كما أنّها تدور فى نفس الوقت حول نفسها، ذلك بأمر اللّه.

و للتأكيد تضيف الآية قائلة: وَ لَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ

فلا الأصنام التى صنعتموها و لا الملائكة، و لا غير ذلك، لا أحد غير اللّه قادر على ذلك.

و فى ختام الآية- لكى يبقى طريق الأوبة و الإنابة أمام المشركين الضالّين مفتوحا يقول تعالى محبّذا لهم التوبة فى كلّ مرحلة من الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۸

إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

فبمقتضى (حلمه) لا يتعجّل عقابهم، و بمقتضى (غفرانه) يتقبّل توبتهم- بشرائطها- فى أى مرحلة من مراحل مسيرهم، و عليه فإنّ ذيل الآية يشير إلى وضع المشركين و شمول الرحمة الإلهية لهم فى حال توبتهم و إنابتهم.

اعتبر بعض المفسّرين أنّ هذين الوصفين ذكرا لارتباطهما بموضوع حفظ السموات و الأرض، إذ أنّ زوالهما مصيبة عظيمة، و بمقتضى حلم اللّه و غفرانه فإنّه لا يشمل الناس بمثل ذلك العذاب و تلك المصيبة، و إن كانت أقوال و أعمال الكثير من هؤلاء الكفّار موجبة لإنزال ذلك العذاب، كما ورد فى الآيات ۸۸ إلى ۹۰ من سورة مريم وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا.

و الجدير بالملاحظة أيضا أنّ جملة وَ لَئِنْ زالَتا ليست بمعنى أنّه «إذا زالت فليس أحد غير اللّه يحفظها»، بل بمعنى «أنّها إذا شارفت على السقوط و الزوال فإنّ اللّه وحده يستطيع حفظها، و إلّا فلا معنى للحفظ بعد الزوال».

و قد حدث- على طول التاريخ البشرى- مرارا أنّ علماء الفلك توقّعوا أنّ «النجم الفلانى» المذنّب أو غير المذنّب سيمرّ بمحاذاة الكرة الأرضية و يحتمل أن يصطدم بها، هذه التوقّعات تدفع جميع الناس إلى القلق، و فى هذه الشرائط يحسّ الجميع بأنّه فى مثل حادث كهذا، ليس فى إمكان أحد أن يؤثّر شيئا، بحيث لو انطلقت إحدى الكرات السماوية باتّجاه الكرة الأرضية و اصطدمتا فيما بينهما بتأثير الجاذبية فلن يبقى للتمدّن البشرى أثر، و حتّى الموجودات الاخرى سوف لن يبقى لها أثر على سطح الأرض، و لن تستطيع أيّة قدرة عدا قدرة اللّه منع مثل هذه الكارثة من الوقوع.

فى مثل تلك الحالات يحسّ الجميع بالحاجة الماسّة و المطلقة إلى اللّه سبحانه و تعالى، و لكن بمجرّد أن تزول احتمالات الخطر، يلقى النسيان بظلاله على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۰۹

الإنسان.

هذه الكارثة لا تقع فقط من مجرّد اصطدام السيارات مع بعضها، بل إنّ أىّ انحراف بسيط لأىّ من السيارات- كالأرض مثلا- عن مسارها يؤدّى إلى وقوع فاجعة عظيمة.

***

ملاحظة

الصغير و الكبير سيّان أمام قدرة اللّه!

الملفت للنظر أنّ الآيات أعلاه ذكرت أنّ السماوات تستند إلى قدرة اللّه فى ثباتها و بقائها، و فى آيات اخرى من القرآن ورد نفس التعبير فيما يخصّ حفظ الطيور حال طيرانها فى السماء. أَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّراتٍ فِي جَوِّ السَّماءِ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

ففى موضع يشير إلى أنّ خلق السموات الواسعة دليل على وجوده تعالى، و فى موضع آخر يعتبر خلق حشرة صغيرة كالبعوضة دليلا على ذلك.

حينا يقسم بالشمس لأنّها منبع عظيم للطاقة فى عالم الوجود، و حينا يقسم بفاكهة مألوفة كالتين.

كلّ ذلك إشارة إلى أنّه لا فرق بين كبير و صغير أمام قدرة اللّه.

أمير المؤمنين عليه أفضل الصلوات و السلام يقول: «و ما الجليل و اللطيف و الثقيل و الخفيف و القوى و الضعيف فى خلقه إلّا سواء».

إنّ هذه الأشياء جميعها تشير إلى شىء واحد، و هو أنّ وجود اللّه سبحانه و تعالى، وجود لا متناه من جميع الجهات، و التدقيق فى مفهوم «اللامتناهى» يثبت هذه الحقيقة بشكل تامه، و هى أنّ مفاهيم مثل «الصعب» و «السهل» و «الصغير» و «الكبير» و «المعقّد» و «البسيط» لها معنى بحدود الموجودات المحدودة- فقط-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۰

و لكن حينما يكون الحديث عن قدرة اللّه تعالى المطلقة فإنّ هذه المفاهيم تتغيّر بشكل كلّى و تقف جميعا فى صفّ واحد بدون أدنى تفاوت فيما بينها «دقّق النظر!!».

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۱

الآیات [سورة فاطر (۳۵): الآیات ۴۲ الی ۴۴]

اشارة

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِیرٌ لَیَکُونُنَّ أَهْدی مِنْ إِحْدَی الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِیرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (۴۲) اسْتِکْباراً فِی الْأَرْضِ وَ مَکْرَ السَّیِّئِ وَ لا یَحِیقُ الْمَکْرُ السَّیِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ یَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِینَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا (۴۳) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ کانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ ما کانَ اللَّهُ لِیُعْجِزَهُ مِنْ شَیْءٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ إِنَّهُ کانَ عَلِیماً قَدِیراً (۴۴)

سبب النّزول

ورد فی تفسیر «الدرّ المنثور» و «روح المعانی» و «مفاتیح الغیب» و تفاسیر اخری: «بلغ قریشا قبل مبعث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ أهل الکتاب کذّبوا رسلهم فقالوا: لعن اللّه الیهود و النصاری أتتهم الرسل فکذّبوهم، فو اللّه لئن أتانا رسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۲

لنکوننّ أهدی من إحدی الأمم»[۱۰۹]. فلمّا أشرقت شمس الإسلام من أفق بلادهم، و جاءهم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالکتاب السماوی، رفضوا، بل کذّبوا، و حاربوا، و مارسوا أنواع المکر و الخدیعة.

فنزلت الآیات أعلاه تلومهم و توبّخهم علی ادّعاءاتهم الفارغة.

التّفسیر

استکبارهم و مکرهم سبب شقائهم:

تواصل هذه الآیات الحدیث عن المشرکین و مصیرهم فی الدنیا و الآخرة.

الآیة الاولی تقول: وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَیْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِیرٌ لَیَکُونُنَّ أَهْدی مِنْ إِحْدَی الْأُمَمِ ۱۱۰].

«أیمان» جمع «یمین» بمعنی القسم، و فی الأصل فإنّ معنی الیمین هو الید الیمنی، و الیمین فی الحلف مستعار منها اعتبارا بما یفعله المعاهد و المحالف و غیره من المصافحة بالیمین عندها.

«جهد»: من «الجهاد» بمعنی السعی و المشقّة، و بذا یکون معنی جَهْدَ أَیْمانِهِمْ حلفوا و اجتهدوا فی الحلف علی أن یأتوا به علی أبلغ ما فی وسعهم.

نعم، فعند ما طالعوا صفحات التأریخ، و اطّلعوا علی عدم وفاء و عدم شکر تلک الأقوام و جناياتهم بالنسبة إلی أنبیائهم و خصوصا الیهود، تعجّبوا کثیرا و ادّعوا لأنفسهم الادّعاءات و تفاخروا علی هؤلاء بأن یکون حالهم أفضل منهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۳

و لکن بمجرّد أن واجهوا محکّ التجربة، و دخلوا کورة الامتحان المشتعلة، و تحقّق طلبهم ببعثة نبیّ منهم، تبیّن أنّهم من نفس تلک

الطينة، حيث أشار القرآن إلى ذلك بعد تلك الجملة الاولى من الآية بالقول: فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

هذا التعبير يدلّل على أنّهم كانوا قبل بعثة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و على خلاف ما يدّعون- بعيدين عن دين اللّه سبحانه و تعالى، فقد كانت حنيفية إبراهيم معروفة بينهم، إلّا أنّهم لم يكونوا يحترمونها، كذلك لم يكن لديهم أى اعتبار لما كان يمليه العقل من تصرفات. و بقيام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نيله من عقائدهم و أعرافهم و عصبيتهم الجاهلية، و وقوع مصالحهم غير المشروعة فى الخطر، زادت الفاصلة بينهم و بين الحقّ، نعم كانوا بعيدين عن الحقّ، لكنّهم ازدادوا بعدا عن الحقّ بعد بعثة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الآية التالية توضيح لما فى الآية السابقة، تقول: إنّ بعدهم عن الحقّ لأنّهم سلكوا طريق الاستكبار فى الأرض، و لم تكن لديهم أهلية الخضوع لمنطق الحقّ اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ ۱۱۱] و كذلك لأنّهم كانوا يحتالون و يسيئون وَ مَكْرَ السَّيِّئِ ۱۱۲].

و لكن وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

جملة «لا- يحيق»: الفعل (يحيق) من (حاق) بمعنى نزل و أصاب، و الجملة معناها «لا- ينزل و لا- يصيب و لا- يحيط» إشارة إلى أنّ الاحتيال قد يؤدّى- مؤقتا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۴

إلى الإحاطة بالآخرين، و لكنّه فى النهاية يعود على صاحبه، فهو مفضوح و ضعيف و عاجز أمام خلق اللّه، و سيندمون حتما أمام اللّه سبحانه و تعالى، و ذلك هو المصير المشؤوم الذى انتهى إليه مشركو مكّة.

هذه الآية فى الحقيقة تريد القول بأنّهم لم يكتفوا فقط بالابتعاد عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بل إنّهم استعانوا بكلّ قدرتهم و استطاعتهم لأجل إنزال ضربة قويّة به و بدعوته، و السبب فى كلّ ذلك لم يكن سوى الكبر و الغرور و عدم الرضوخ للحقّ.

ختام الآية تهديد لتلك المجموعة المستكبرة الماكرة و الخائنة، و بجملة عميقة المعنى و بكلمات تهزّ المشاعر، يقول تعالى: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۱۱۳].

هذه الجملة القصيرة تشير إلى جميع المصائر المشؤومة التى أحاقت بالأقوام السالفة كقوم نوح، و عاد، و ثمود، و قوم فرعون، حيث أصاب كلا- منهم بلاء عظيم، و القرآن الكريم أشار مرارا إلى جوانب من مصائر هؤلاء الأقوام المشؤومة و الأليمة. و هنا و بتلك الجملة القصيرة جسّد جميع ذلك أمام بصيرة تلك الفئة فى مكّة.

ثمّ تضيف الآية لزيادة التأكيد قائلة: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا. فكيف يمكن للّه سبحانه و تعالى أن يعاقب قوما على أعمال معيّنة، ثمّ لا يعاقب غيرهم الذين يسلكون نفس سلوكهم؟ أ ليس هو العدل الحكيم، و كلّ ما يفعله بناء على حكمة و عدل تامين؟! فإنّ تغيير السنن يمكن تصوّره بالنسبة إلى من يمتلك اطّلاعا أو معرفة محدودة، إذ يزداد معرفة بمرور الزمان يعرض عن سنّة سابقة، أو يكون الإنسان عالما، إلّا أنّه لا يتصرّف طبقا للحكمة و العدالة، بل طبقا لميول خاصّة فى نفسه، و لكن اللّه سبحانه و تعالى منزّه عن جميع تلك الأمور، و سنّته حاكمة على من يأتى كما كانت تحكم من مضى، و لا تقبل التغيير أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۵

و قد أكّد القرآن الكريم فى مواضع عديدة على قضيّة ثبات سنن اللّه و عدم تغيّرها، و قد فصّلنا الحديث فى ذلك فى تفسير الآية (۶۲) من سورة الأحزاب، و بالجملة فإنّ فى هذا العالم- عالم التكوين التشريع- ثمّة قوانين ثابتة لا تتغيّر، عبّر عنها القرآن الكريم «السنن الإلهيّة» و التى لا سبيل إلى تغيّرها.

هذه القوانين كما أنّها حكمت فى الماضى فإنّها حاكمة اليوم و غدا. و مجازات المستكبرين الكفرة الذين لم تنفع بهم الموعظة الإلهية من هذه السنن، و منها أيضا نصرة أتباع الحقّ الذين لا ينثنون عن جدّهم و سعيهم المخلص، هاتان السنّتان كانتا و لا تزالان ثابتتين أمس و اليوم و غدا[۱۱۴].

الجدير بالملاحظة أنّه ورد فى بعض الآيات القرآنية الحديث عن «عدم تبديل» السنن الإلهيّة، الأحزاب- ۶۲، و فى البعض الآخر الحديث عن «عدم تحويل» السنن الإلهيّة، سورة الإسراء- ۷۷، و لكن الآية مورد البحث أكّدت على الحالتين معا.

فهل أنّ هاتين الحالتين تعبير عن معنى واحد، بحيث أنّهما ذكرتا معا للتأكيد، أم أنّ كلا منهما يشير إلى معنى مستقل؟

بمراجعة أصل اللفظين يتّضح أنّهما إشارة إلى معنيين مختلفين: (تبديل) الشىء، تعويضه بغيره كاملا بحيث يرفع الأوّل و يوضع الثانى، و لكن (تحويل) الشىء، هو تغيّر بعض صفات الشىء الأوّل من ناحية كيفية أو كمية مع بقائه.

و عليه فإنّ السنن الإلهية لا تقبل الاستبدال و لا التعويض الكامل، و لا التغيير النسبى من حيث الشدّة و الضعف أو القلّة و الزيادة. من جملتها أنّ اللّه سبحانه و تعالى يوقع عقوبات متشابهة بالنسبة إلى الذنوب و الجرائم المتشابهة و من جميع الجهات، لا أن يوقع العقاب على مجموعة و لا يوقعه على مجموعة اخرى. و لا أن يوقع عقابا أقلّ شدّة على مجموعة دون اخرى، و هكذا قانون يستند إلى أصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۶

ثابت، لا يقبل التبديل و لا التحويل ۱۱۵].

آخر ما نريد التوقّف عنده هو أنّ الآية تضيف «سنّة» إلى لفظ الجلالة «اللّه» و فى موضع آخر من نفس الآية تضيف «سنّة» إلى «الأوّلين» و يظهر فى بادئ الأمر وجود تنافى بين الحالتين، و لكن الأمر ليس كذلك، لأنّه فى الحالة الاولى أضيفت «سنّة» إلى «الفاعل»، و فى الحالة الثانية أضيفت «سنّة» إلى «المفعول به».

ففى الحالة الاولى تعبير عن مجرى السنّة، و فى الثانية عمّن أجريت عليه السنّة.

الآية التالية تدعو هؤلاء المشركين و المجرمين إلى مطالعة آثار الماضين و المصير الذى وصلوا إليه، حتّى يروا بأمّ أعينهم فى آثارهم و مواطنهم السابقة جميع ما سمعوه، و بذا يتحوّل البيان إلى العيان. فتقول الآية الكريمة: أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فإذا كانوا يتصوّرون أنّهم أشدّ قوّة من أولئك فهم على اشتباه عظيم تلك، لأنّ الأقوام السالفة كانت أقوى منهم: وَ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

فالفراعنة الذين حكموا مصر، و نمرود الذى حكم بابل و دولا اخرى بمنتهى القدرة، كانوا أقوياء إلى درجة لا يمكن قياسها مع قوّة مشركى مكّة.

إضافة إلى أنّ الإنسان مهما بلغ من القوّة و القدرة، فإنّ قدرته و قوّته لا شىء إزاء قوّة اللّه، لماذا؟ لأنّه وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ ۱۱۶] فهو العليم القدير، لا يخفى عليه شىء، و لا يستعصى على قدرته شىء، و لا يغلبه أحد، فلو تصوّر هؤلاء المستكبرون الماكرون أنّهم يستطيعون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۷

الفرار من يد قدرته تعالى فهم مشتبهون أشدّ الاشتباه. و إذا لم ينفضوا أيديهم من تلك الأعمال السيّئة، فسوف يلاقون نفس المصير الذى لقيه من كان قبلهم.

يمرّ بنا مرارا التعرّض لهذا الأمر فى القرآن الكريم، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يدعو الكفّار و العاصين إلى «السير فى الأرض» و مشاهدة آثار الأقوام الماضين و مصائرهم الأليمة.

و رد فى الآية (۹) من سورة الروم أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

و ورد شبيه هذا المعنى فى سورة يوسف- ۱۰۹، و الحجّ- ۴۶، و غافر ۲۱ و ۸۲، و الأنعام- ۱۱ إلى غير ذلك.

هذا التأكيد المتكرّر دليل على التأثير الخاصّ لتلك المشاهدات فى النفس الإنسانية، فإنّ عليهم أن يروا بأعينهم ما قرءوه فى التأريخ أو

سمعوه، ليذهبوا و ينظروا عروش الفراعنة المحطّمة. و قصور الأكاسرة المدمّرة، و قبور القياصرة الموحشة، و عظام نمرود المتفسّخة، و أرض قوم لوط و ثمود الخالية، ثمّ ليستمعوا إلى نصائحهم الصامتة، و أنينهم من تحت التراب، و ينظروا بامّ أعينهم ماذا حلّ بهؤلاء.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۸

الآية [سورة فاطر (۳۵): آية ۴۵]

اشارة

وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (۴۵)

التّفسير

لو لا لطف اللّه و رحمته!

الآية مورد البحث و هى الآية الأخيرة من آيات سورة فاطر، و بعد تلك البحوث الحادّة و التهديدات الشديدة التى مرّت فى الآيات المختلفة للسورة، تنهى هذه الآية السورة ببيان اللطف و الرحمة الإلهيّة بالبشر، تماما كما ابتدأت السورة بذكر افتتاح اللّه الرحمة للناس. و عليه فإنّ البدء و الختام متّفقان و منسجمان فى توضيح رحمة اللّه.

زيادة على ذلك، فإنّ الآية السابقة التى تهدّد المجرمين الكفّار بمصير الأقوام الغابرين، تطرح كذلك السؤال التالى، و هو إذا كانت السنّة الإلهية ثابتة على جميع الطغاة و العاصين، فلما ذا لا يعاقب مشركو مكّة؟! و تجيب على السؤال قائلة: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا و لا يمنحهم فرصة لإصلاح أنفسهم و التفكّر فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۱۹

مصيرهم و تهذيب أخلاقهم ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ.

نعم لو أراد اللّه مؤاخذتهم على ذنوبهم لأنزل عليهم عقوبات متتالية، صواعق، و زلازل، و طوفانات، فيدمّر المجرمين و لا يبقى أثرا للحياة على هذه الأرض.

وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى و يعطيهم فرصة للتوبة و إصلاح النفس.

هذا الحلم و الإمهال الإلهى له أبعاد و حسابات خاصّة، فهو إمهال إلى أن يحلّ أجلهم فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً[۱۱۷] فانّه تعالى يرى أعمالهم و مطّلع على نيّاتهم.

هنا يطرح سؤالان، جوابهما يتّضح ممّا ذكرناه أعلاه:

الأوّل: هل أنّ هذا الحكم العام ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ يشمل حتّى الأنبياء و الأولياء و الصالحين أيضا؟

الجواب واضح، لأنّ المعنى بأمثال هذا الحكم هم الأغلبية و الأكثرية منهم، و الرسل و الأئمّة و الصلحاء الذين هم أقلّية خارجون عن ذلك الحكم، و الخلاصة أنّ كلّ حكم له استثناءات، و الأنبياء و الصالحون مستثنون من هذا الحكم. تماما مثلما نقول: إنّ أهل الدنيا غافلون و حريصون و مغرورون، و المقصود الأكثرية منهم، فى الآية (۴۱) من سورة الروم نقرأ ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فبديهى أن الفساد ليس نتيجة لأعمال جميع البشر، بل هو نتيجة لأعمال

أكثريتهم.

و كذلك فإنّ الآية (۳۲) من نفس هذه السورة، التى قسّمت الناس إلى ثلاث مجموعات «ظالم» و «مقتصد» و «سابق بالخيرات» شاهد آخر على هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۰

و عليه فإنّ الآية أعلاه ليس فيها ما ينافى عصمة الأنبياء إطلاقا.

الثانى: هل أنّ التعبير ب «دابّة» فى الآية أعلاه يشير إلى شمول غير البشر، أى أنّ تلك الدواب أيضا سوف تتعرّض للفناء نتيجة إيقاع الجزاء على البشر؟! الجواب على هذا السؤال يتّضح إذا علمنا أنّ أصل فلسفة وجود الدواب هو تسخيرها لمنفعة الإنسان، فإذا انعدم الإنسان من سطح الكرة الأرضية فليس من داع لوجود تلك الدواب ۱۱۸].

و أخيرا نختم هذا البحث بالحديث التالى الوارد

عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «سبق العلم، و جفّ القلم، و مضى القضاء، و تمّ القدر بتحقيق الكتاب و تصديق الرسل، و بالسعادة من اللّه لمن آمن و اتّقى، و بالشقاء لمن كذّب و كفر، و بالولاية من اللّه عزّ و جلّ للمؤمنين، و بالبراءة منه للمشركين» ثمّ قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ يقول: يا ابن آدم، بمشيتى كنت أنت الذى تشاء لنفسك ما تشاء، و بإرادتى كنت أنت الذى تريد لنفسك ما تريد، و بفضل نعمتى عليك قويت على معصيتى، و بقوّتى و عصمتى و عافيتى أدّيت إلىّ فرائضى، و أنا أولى بحسناتك منك، و أنت أولى بذنبك منّى، الخير منّى إليك واصل بما أوليتك به، و الشرّ منك إليك بما جنيت جزاء، و بكثير من تسلّطى لك انطويت على طاعتى، و بسوء ظنّك بى قنطت من رحمتى، تلى الحمد و الحجّة عليك بالبيان، ولى السبيل عليك بالعصيان، و لك الجزاء الحسن عندى بالإحسان. لم أدع تحذيرك و لم آخذك عند غرّتك، و هو قوله عزّ و جلّ: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ لم اكلّفك فوق طاقتك، و لم احمّلك من الأمانة إلّا ما قرّرت بها على نفسك، و رضيت لنفسى منك ما رضيت به لنفسك منّى، ثمّ قال عزّ و جلّ:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۱

وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً[۱۱۹].

إلهى، اجعلنا ممّن ينتفعون من الفرصة قبل فواتها، فيرجعون إلى وجهك الكريم، و نوّر ما مضى من أيّامنا بنور حسناتك و رضاك.

إلهى، إذا لم تشملنا برحمتك فإنّ جهنّم التى أشعلناها بأعمالنا السيّئة ستمتدّ بألسنتها إلينا و تلقى بنا فى لهواتها، و إن لم تضىء قلوبنا بنور غفرانك فإنّ قلوبنا ستصبح مرتعا للشيطان اللعين.

إلهى، أعذنا من كلّ شرك، و أسرج مصباح الإيمان و التوحيد الخالص فى أعماق قلوبنا و زوّدنا بالتقوى فى أقوالنا و أعمالنا، إنّك مجيب الدعاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۳

سورة يس

اشارة

مكّية و عدد آياتها ثلاث و ثمانون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۵

سورة يس

محتوى السورة:

هـذه السورة من السور المكّيـة، لـذا فهى من حيث النظرة الإجمالية لها نفس المحتوى العام للسور المكّية، فهى تتحدّث عن التوحيد و المعاد و الوحى و القرآن و الإنذار و البشارة، و يلاحظ فى هذه السورة أربعة أقسام رئيسيّة:

۱- تتحدّث السورة أوّلا عن رسالة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و القرآن المجيد و الهدف من نزول ذلك الكتاب السماوى العظيم و عن المؤمنين به، و تستمر بذلك حتّى آخر الآية الحادية عشرة.

۲- قسم آخر من هذه السورة يتحدّث عن رسالة ثلاثة من أنبياء اللّه، و كيف كانت دعوتهم للتوحيد، و جهادهم المتواصل المرير ضدّ الشـرك، و هذا فى الحقيقة نوع من التسـلية و المواساة لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و توضيح الطريق أمامه لتبليغ رسالته الكبرى.

۳- قسم آخر منها، و الـذى يبدأ من الآية ۳۳ و حتّى الآية ۴۴، مملوء بالنكات التوحيديـة الملفتة للنظر، و هو عرض معبّر عن الآيات و الـدلائل المشـيرة إلى عظمـة اللّه فى عـالم الوجود، كـذلك فـإنّ أواخر السورة أيضـا تعود إلى نفس هـذا البحث التوحيـدى و الآيات الإلهية.

۴- قسم مهمّ آخر من هذه السورة، يتحدّث حول المواضيع المرتبطة بالمعاد و الأدلّة المختلفة عليه، و كيفية الحشر و النشر، و السؤال و الجواب فى يوم القيامة، و نهاية الدنيا، ثمّ الجنّة و النار، و هذا القسم يتضمّن مطالب مهمّة و دقيقة جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۶

و خلال هذه البحوث الأربعة ترد آيات محرّكة و محفّزة لأجل تنبيه و إنذار الغافلين و الجهّال، لها الأثر القوى فى القلوب و النفوس.

الخلاصـة، أنّ الإنسـان يواجه فى هـذه السورة بمشاهـد مختلفـة من الخلق و القيامـة، الحياة و الموت، الإنـذار و البشارة، بحيث تشـكّل بمجموعها نسخة الشفاء و مجموعة موقظة من الغفلة.

فضيلة سورة «يس»:

سورة يس- بشـهادة الأحاديث المتعـدّدة التى وردت بهـذا الخصوص- من أهمّ السور القرآنيـة، إلى حدّ أنّ الأحاديث لقّبتها ب «قلب القرآن»

ففى حديث عن رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقرأ «إنّ لكلّ شىء قلبا، و قلب القرآن يس»[۱۲۰].

و

فى حديث عن أبى بصـير عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ لكلّ شىء قلبا و قلب القرآن يس، فمن قرأ يس فى نهاره قبل أن يمسى كان فى نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتّى يمسـى، و من قرأها فى ليلة قبل أن ينام و كلّ به ألف ملك يحفظونه من كلّ شـيطان رجيم و من كلّ آفة ...» الحديث ۱۲۱].

كذلك نقرأ

عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا «سورة تدعى فى التوراة المعمة! قيل:

و ما المعمة؟ قال: تعم صاحبها خير الدنيا و الآخرة» الحديث ۱۲۲].

و هناك روايات اخرى عديدة بهذا الخصوص، وردت فى كتب الفريقين أعرضنا عن ذكرها حذرا من الإطالة.

لذا يجب الإقرار بأنّه ربّما لم تنل سورة من سور القرآن الاخرى كلّ هذه الفضائل الخاصّة بسورة يس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۷

و كما أشرنا سابقا فإنّ هذه الفضيلة و الثواب لا- ينالهما من يكتفى بقراءة الألفاظ- فقط- مشيحا عن مفاهيم السورة، بل إنّ عظمة فضيلة هذه السورة إنّما هى لعظمة محتواها ..

محتوى يوقظ من الغفلة و يضخّ فى النفس الإيمان، و يولد روح المسؤولية و يدعو إلى التقوى، بحيث أنّ الإنسان إذا تفكّر فى هذه الآية و جعل ذلك التفكّر يلقى بظلاله على أعماله، فإنّه يفوز بخير الدنيا و الآخرة.

فمثلا، الآية (۶۰) من هذه السورة تتحدّث حول عهد اللّه فى التحذير من عبادة الشيطان أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

و من الواضح أنّه حينما ينشغل الإنسان بهذا العهد الإلهى- تماما مثلما ورد فى الأحاديث التى ذكرناها- سيكون فى أمان من أى شيطان رجيم، و لكن لو قرئت هذه الآية بلا رويّة، و فى مقام العمل يكون من الأصدقاء المخلصين و الأوفياء للشيطان، فإنّه لن ينال ذلك الفخر الذى ذكرناه، و هذا يصدق على آيات هذه السورة آية آية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۸

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (۱) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۳) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴)

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (۵) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (۶) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۷) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (۸) وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (۹)

وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۱۰)

التّفسير

هذه السورة تبدأ- كما هو الحال فى ثمان و عشرين سورة اخرى- بحروف مقطّعة و هى (ياء) و (سين).

و قد فصّلنا الحديث فيما يخصّ الحروف المقطّعة فى بداية سورة (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف)، و لكن فيما يخصّ سورة (يس) فتوجد تفسيرات اخرى أيضا لهذه الحروف المقطّعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۲۹

من جملتها أنّ هذه الكلمة (يس) تتكوّن من «ياء» حرف نداء و «سين» أى شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عليه فيكون المعنى أنّه خطاب للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتوضيح قضايا لاحقة.

و قد ورد فى بعض الأحاديث أنّ هذه الكلمة تمثّل أحد أسماء الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۱۲۳].

و منها أنّ المخاطب هنا هو الإنسان و «سين» إشارة له، و لكن هذا الاحتمال لا يحقّق الانسجام بين هذه الآية و الآيات اللاحقة، لأنّ هذه الآيات تتحدّث إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وحده.

لذا نقرأ

فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يس اسم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الدليل على ذلك قوله تعالى: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۱۲۴].

بعد هذه الحروف المقطّعة- و كما هو الحال فى أغلب السور التى تبتدى بالحروف المقطّعة- يأتى الحديث عن القرآن المجيد، فيورد هنا قسما بالقرآن، إذ يقول: وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ الملفت للنظر أنّه وصف «القرآن» هنا ب «الحكيم»، فى حين أنّ الحكمة عادة صفة للعاقل، كأنّه سبحانه يريد طرح القرآن على أنّه موجود حى و عاقل و مرشد، يستطيع فتح أبواب الحكمة أمام البشر، و يؤدّى إلى الصراط المستقيم الذى تشير إليه الآيات التالية.

بديهى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ليس بحاجة لأنّ يقسم، و لكن الأقسام القرآنية تتضمّن- دائما- فائدتين أساسيتين: الاولى التأكيد على الموضوع اللاحق للقسم، و الثانية بيان عظمة الشىء الذى يقسم به اللّه تعالى، إذ أنّ القسم لا يكون عادة بأشياء ليست ذات قيمة.

الآية التى بعدها توضّح الأمر الذى من آجله أقسم اللّه تعالى فى مقدّمة السورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۰

الكريمة: إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۱۲۵].

بعد ذلك تضيف الآية تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۱۲۶].

التأكيد على «العزيز» كصفة للّه سبحانه و تعالى، لأجل بيان قدرته سبحانه و تعالى فى قبال كتاب كبير كهذا، كتاب يقف معجزة شامخة على مرّ العصور و القرون، و لن تستطيع أيّة قدرة مهما كانت أن تمحو أثره العظيم من صفحة القلوب.

و التأكيد على «رحيميته» لأجل بيان هذه الحقيقة و هى أنّ رحمته أوجبت أن تفيّض للبشر نعمة عظيمة كهذه.

بعض المفسّرين قالوا بأنّ هاتين الصفتين ذكرتا للإشارة إلى نوعين من ردود الفعل المحتملة من قبل الناس إزاء نزول ذلك الكتاب السماوى و إرسال النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فلو أنكروا و كذّبوا، فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يهدّدهم بعزّته، و لو دخلوا من باب التسليم و القبول، فإنّ اللّه يبشّرهم برحمته الخاصّة.

و عليه فإنّ عزّته و رحمته إحداهما مظهر للإنذار و الاخرى للبشارة، و باقترانهما جعل هذا الكتاب السماوى العظيم فى متناول البشرية.

هنا يطرح سؤال: هل يمكن إثبات حقّانية الرّسول أو الكتاب السماوى، بواسطة قسم أو تأكيد؟

الجواب تستبطنه الآيات المذكورة، لأنّها من جانب تصف القرآن بالحكيم، مشيرة إلى أنّ حكمته ليست مخفية عن أحد، و ذلك دليل على حقّانيته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص ۱۳۰

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۱

و من جانب آخر فإنّ وصف الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بمعنى أنّ محتوى دعوته يتّضح من سبيله القويم، و ماضيه أيضا دليل على أنّه لم يسلك فى حياته سوى الطريق المستقيم.

و قد أشرنا فى البحوث التى أوردناها حول أدلّة حقّانية الرسل، إلى أنّ أحد أهمّ الطرق لإدراك حقّانية الرسل، هو التحقّق و الاطلاع على محتوى دعواتهم بشكل دقيق، الأمر الذى يؤكّد دائما أنّها متوافقة و منسجمة مع الفطرة و العقل و الوجدان، و قابلة للإدراك و التعقّل البشرى، إضافة إلى أنّ تأريخ حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يدلّل على أنّه رجل أمانة و صدق، و ليس رجل كذب و تزوير .. هذه الأمور قرائن حيّة على كونه رسول اللّه، و الآيات أعلاه فى الحقيقة تشير إلى كلا المطلبين، و عليه فإنّ القسم و الدعوى أعلاه لم يكونا بلا سبب أبدا.

ناهيك عن أنّه من حيث أدب المناظرة، فإنّه لأجل النفوذ فى قلوب المنكرين و المعاندين يجب أن تكون العبارات فى طرحها أكثر

إحكاما و حسما و مصحوبة بتأكيد أقوى، كيما تستطيع التأثير فى هؤلاء.

يبقى سؤال: و هو لماذا كان المخاطب فى هذه الجملة شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس المشركين أو عموم الناس؟

الجواب هو التأكيد على أنّك يا أيّها النّبى على الحقّ و على الصراط المستقيم، سواء استجاب هؤلاء أو لم يستجيبوا، لذا فإنّ عليك الاجتهاد فى تبليغ رسالتك العظيمة، و لا تعر المخالفين أدنى اهتمام.

الآية التالية تشرح الهدف الأصلى لنزول القرآن كما يلى لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ ۱۲۷] أى إنّه لم يأت نذير لآبائهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۲

من المسلّم أنّ المقصود بهؤلاء القوم هم المشركون فى مكّة، و إذا قيل أنّه لم تخل امّة من منذر، و أنّ الأرض لا تخلو من حجّة للّه، علاوة على أنّه تعالى يقول فى الآية (۲۴) من سورة فاطر وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ؟

فنقول: إنّ المقصود من الآية- مورد البحث- هو المنذر الظاهر و النّبى العظيم الذى ملأ صيته الآفاق، و إلّا فإنّ الأرض لم تخل يوما من حجّة للّه على عباده، و إذا نظرنا إلى الفترة من عصر المسيح عليه السّلام إلى قيام الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نجدها لم تخل من الحجّة الإلهية، بل إنّها فترة من قيام اولى العزم،

يقول أمير المؤمنين عليه الصلاة و السّلام بهذا الخصوص «إنّ اللّه بعث محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا و لا يدّعى نبوّة!»[۱۲۸].

و على كلّ حال فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم كان تنبيه الناس الغافلين، و إيقاظ النائمين، و تذكيرهم بالمخاطر المحيطة بهم، و الذنوب و المعاصى التى ارتكبوها، و الشرك و أنواع المفاسد التى تلوّثوا بها، نعم فالقرآن أساس العلم و اليقظة، و كتاب تطهير القلب و الروح.

ثمّ يتنبّأ القرآن الكريم بما يؤول إليه مصير الكفّار و المشركين فيقول تعالى:

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

احتمل المفسّرون هنا العديد من الاحتمالات فى المراد من «القول» هنا.

الظاهر أنّه ذلك الوعيد الإلهى لكل أتباع الشيطان بالعذاب فى جهنّم، فمثله ما ورد فى الآية (۱۳) من سورة السجدة وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۳

الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ كذلك فى الآية (۷۱) من سورة الزمر نقرأ وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ

على كلّ حال فإنّ ذلك يخصّ أولئك الذين قطعوا كلّ ارتباط لهم باللّه سبحانه و تعالى، و أغلقوا عليهم منافذ الهداية بأجمعها، و أوصلوا عنادهم و تكبّرهم و حماقتهم إلى الحدّ الأعلى، نعم فهم لن يؤمنوا أبدا، و ليس لديهم أى طريق للعودة، لأنّهم قد دمّروا كلّ الجسور خلفهم.

فى الحقيقة فإنّ الإنسان القابل للإصلاح و الهداية هو ذلك الّذى لم يلوّث فطرته التوحيدية تماما بأعماله القبيحة و أخلاقه المنحرفة، و إلّا فإنّ الظلمة المطلقة ستتغلّب على قلبه و تغلق عليه كلّ منافذ الأمل.

فاتّضح أنّ المقصود هم تلك الأكثرية من الرؤوس المشركة الكافرة الّتى لم تؤمن أبدا، و كذلك كان، فقد قتلوا فى حروبهم ضدّ الإسلام و هم على حال الشرك و عبادة الأوثان، و ما تبقى منهم ظلّ على ضلاله إلى آخر الأمر.

و إلّا فإنّ أكثر مشركى العرب أسلموا بعد فتح مكّة بمفاد قوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً.[۱۲۹] و يشهد بذلك ما ورد فى الآيات التالية التى تتحدّث عن وجود سدّ أمام و خلف هؤلاء و كونهم لا يبصرون. و أنّه لا ينفع معهم الإنذار أو عدمه ۱۳۰].

الآيـة التى بعـدها تواصـل وصف تلـك الفئـة المعانـدة، فتقول: إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ أى مرفوعى الرأس لوجود الغلّ حول الأعناق.

«أغلال» جمع «غل»: من مادّة «غلل» و يعنى تدرع الشىء و توسطه، و منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۴

الغلل (على وزن عمل) للماء الجارى بين الشـجر. و «الغل» الحلقـة حول العنق أو اليـدين و تربط بعـد ذلك بسلسـلة، و بما أنّ العنق أو اليدين تقع فى ما بينها فقد استعملت هذه المفردة فى هذا المورد، و حينا تكون الأغلال فى العنق مربوطة بسلسـلة مستقلّة عمّا تربط به أغلال الأيـدى، و حينا تكون جميعها مربوطـة بسلسـلة واحـدة فيكون الشـخص بـذلك تحت ضـغط شديـد و فى محدوديـة و عـذاب شديدين.

و إذا قيل لحالـة العطش الشديـد أو الحسـرة و الغضب «غلة» فإنّ ذلك لنفوذ تلك الحالة فى داخل قلب و جسم الإنسان، و أساسا فإنّ مادّة «غل»- على وزن جدّ- بمعنى الدخول أو الإدخال، لذا قيل عن حاصل الكسب أو الزراعة و أمثالها «غلة»[۱۳۱].

و قد تكون حلقة «الغل» حول الرقبة عريضة أحيانا بحيث تضغط على الذقن و ترفع الرأس إلى الأعلى، من هنا فإنّ المقيّد يتحمّل عذابا فوق العذاب الذى يتحمّله من ذلك القيد بأنّه لا يستطيع مشاهدة أطرافه.

و يـا له من تمثيل رائع حيث شبّه القرآن الكريم حال عبـدة الأوثان المشـركين بحال هـذا الإنسان، فقـد طوّقوا أنفسـهم بطوق «التقليد الأعمى»، و ربطوا ذلك بسلسـلة «العادات و التقاليد الخرافية» فكانت تلك الأغلال من العرض و الاتّساع أنّها أبقت رؤوسـهم تنظر إلى الأعلى و حرمتهم بذلك من رؤية الحقائق، و بذلك فإنّهم أسرى لا يملكون القدرة و الفعّالية و الحركة، و لا قدرة الإبصار[۱۳۲].

على أيّـة حال فإنّ الآيـة الذى أعلاه، تعتبر شـرحا لحال تلك الفئة الكافرة فى الدنيا و حالهم فى عالم الآخرة الذى هو تجسـيد لمسائل هذا العالم، و ليس من الغريب استخدام صيغة الماضى فى تصوير حال الآخرة هنا، فإنّ الكثير من الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۵

القرآنيـة الكريمـة تتكلّم بصـيغة الماضـى حينما تتعرّض إلى الحوادث المسـلّم بها فى المسـتقبل للدلالة على مضارع متحقّق الوقوع، و بذلك يمكن أن تكون إشارة إلى كلا المعنيين حالهم فى الدنيا و حالهم فى الآخرة.

جمع من المفسّـرين ذكروا فى أسـباب نزول هـذه الآيـة و الآيـة التاليـة لهـا أنّهما نزلتا فى (أبى جهل) أو (رجل من مخزوم) أو قريش، الذين صـمّموا مرارا على قتل الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و لكن اللّه سـبحانه و تعالى منعهم من ذلك بطريقة إعجازية فكلّما أرادوا إنزال ضربة بالنّبى عميت عيونهم عن الإبصار أو أنّهم سلبوا القدرة على التحرّك تماما[۱۳۳].

و لكن سبب النّزول ذلك لا يمنع من عمومية مفهوم الآية وسعة معناها، بحيث يشمل جميع أئمّة الكفر و المعاندين، و فى الضمن فهى تعتبر تأييدا لما قلناه فى تفسير فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ فى أنّ المقصود بهم هم أئمّة الكفر و النفاق و ليس أكثرية المشركين.

الآيـة التاليـة تتناول وصـفا آخر لحالة تلك المجموعة، و تمثيلا ناطقا عن عوامل و أسـباب عدم تقبّلهم الحقائق فتقول: وَ جَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا و حوصـروا بين هذين السدّين و أمسوا لا يملكون طريقا لا إلى الأمام و لا إلى الوراء، آنئذ فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ

و يـا له من تشبيه رائع!! فهم من جهـة كالأسـرى فى الأغلال و السـلاسل، و من جهـة اخرى فـإنّ حلقـة الغـلّ عريضـة بحيث أنّها ترفع رؤوسـهم إلى السـماء، و تمنعهم من أن يبصـروا شـيئا ممّا حولهم، و من جهـة ثالثـة فهم محاصـرون بين سدود من أمامهم و خلفهم و ممنوعون من سلوك طريقهم إلى الأمام أو إلى الخلف. و من جهة رابعة فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ إذ فقدت عيونهم كلّ قدرة على الإبصار.

تأمّلوا مليّا ماذا ينتظر ممّن هو على تلك الحال؟ ما هو مقدار إدراكه للحقائق؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۶

ماذا يمكنه أن يبصر؟ و كيف يمكنه أن ينقل خطاه؟ فكذلك حال المستكبرين المعاندين العمى الصمّ فى قبال الحقائق!! لهذا فإنّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه المجموعة وَ سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ فمهما كان حديثك نافذا فى القلوب و مهما كان أثر الوحى السماوى، فإنّه لن يؤثّر ما لم يجد الأرضية المناسبة، فلو سطعت الشمس آلاف السنين على أرض سبخة، و نزلت عليها مياه الأمطار المباركة، و هبّت عليها نسائم الربيع على الدوام، فليس لها أن تنبت سوى الشوك و التبن، لأنّ قابلية القابل شرط مع فاعلية الفاعل.

***

بحوث

۱- فقدان وسائل المعرفة

يحتاج الإنسان للتعرّف على العالم الخارجى إلى الاستفادة من وسائل و أدوات تسمّى «وسائل المعرفة».

قسم منها «باطنية» و القسم الآخر «ظاهرية».

العقل و الوجدان و الفطرة من وسائل المعرفة الباطنية، و الحواس الظاهرية كالأبصار و الأسماع و أمثالها وسائل المعرفة الظاهرية.

و قد أعطى اللّه هذه الوسائل القدرة على الاشتداد شيئا فشيئا إذا استفيد منها على وجه صحيح حتّى تتمكّن من تشخيص الحقائق بصورة أفضل و أدق.

أمّا إذا استغلّت بطريقة خاطئة، أو لم يتمّ الاستفادة منها أصلا، فإنّها تضطرب بشكل كلّى و تعكس الحقائق بشكل مقلوب، تماما كالمرآة الصافية إذا غطّاها غبار غليظ أو أنّها تخرّشت بحيث أضحت لا تعكس الصورة عليها، أو أنّها تعكس ما لا ينطبق على الواقع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۷

هذه الأعمال المغلوطة و المواقف المنحرفة هى التى تصادر وسائل المعرفة من الإنسان، و لهذا السبب فإنّ المقصّر الأصلى هو الإنسان، و هو الذى جنى على نفسه.

الآيات أعلاه تشبيه معبّر عن هذه المسألة المهمّة و المصيرية، فهى تشبه المستكبرين و المتعصّبين و الأنانيين و المنافقين بالمقيدين بالأغلال و السلاسل من جهة، سلاسل الكبر و الهوس و الغرور و التقليد الأعمى الذى وضعوه على أعناقهم و أياديهم. و بأولئك المحاصرين بين سدّين منيعين لا يمكن عبورهما.

و من جهة اخرى فإنّ أعينهم مغلقة و لا تبصر.

الغلّ و السلاسل وحدها تكفى لمنعهم من الحركة، و السدّان العظيمان أيضا وحدهما كافيان لمنعهم من الفعّالية، انعدام البصر وحده أيضا عامل مستقل.

هذان السدّان عاليان و متقاربان إلى حدّ أنّهما وحدهما كافيان لسلبهم القدرة على الإبصار، كما أنّهما كافيان لسلبهم قدرة الحركة. و قد كرّرنا القول بأنّ الإنسان تبقى هدايته ممكنة ما لم يصل إلى تلك المرحلة، أمّا حينما يبلغ تلك المرحلة، فلو اجتمع جميع الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام أيضا و قرءوا له جميع الكتب السماوية، فلن يؤثّر ذلك فيه.

و ذلك ما تمّ التأكيد عليه، سواء فى آيات القرآن أو الروايات، و هو أنّ الإنسان إذا زلّت قدمه أو ارتكب ذنبا فعليه أو يتوب فورا و يتوجّه إلى اللّه، و أن يبتعد عن التسويف و التأخير، و الإصرار و التكرار، و من أجل أن لا يصل إلى تلك المرحلة عليه أن ينظف صدأ القلب، و يدمّر السدود و الموانع الصغيرة قبل أن تتحوّل إلى سدود كبيرة و عظيمة، و يحتفظ بمساره و تكامله و ينفض الغبار عن عينيه

لکی یتمکّن من الإبصار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۸

۲- السدود من الأمام و الخلف

طرح بعض المفسّرین هذا السؤال، و هو أنّ المانع الأساسی من استمرار الحرکة هو السدّ الذی یکون أمام الإنسان، فما معنی السدّ من الخلف؟

و أجاب بعضهم قائلا: «إنّ الإنسان له هدایة فطریة و وجدانیة- و هدایة نظریة استدلالیة- فکأنّه تعالی یقول: جَعَلْنا مِنْ بَیْنِ أَیْدِیهِمْ سَدًّا» أی: حرمناهم من سلوک سبیل الهدایة النظریة و جعلنا مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا أی: منعناهم من العودة إلی الهدایة الفطریة[۱۳۴].

و قال البعض الآخر: انّ السدّ من بین أیدیهم إشارة إلی الموانع التی تمنعهم من الوصول إلی الآخرة و سلوک طریق السعادة الخالدة، و أمّا السدّ من خلفهم فهو الذی یصدّهم عن تحصیل السعادة الدنیویة[۱۳۵].

کذلک یحتمل التّفسیر التالی أیضا، و هو إنّ السالک إذا انسدّ الطریق الذی قدّامه فقد فاته المقصد و لکنّه یرجع لیبحث عن طریق آخر یوصله إلی المقصد، فإذا أغلق الطریق من خلفه و من قدّامه فسوف یکون محروما من الوصول إلی المقصد حتما.

و فی الثنایا یتّضح الجواب أیضا علی السؤال التالی: و هو لماذا لم یذکر السدود عن الیمین و الشمال؟ ذلک لأنّ الإنسان لا یصل إلی المقصد الذی أمامه بالسیر یمینا أو شمالا، إضافة إلی أنّ السدّ عادة یبنی فی مکان یکون طرفاه الأیمن و الأیسر مغلقین، و الممر الوحید هو مکان السدّ الذی ینغلق هو الآخر بوجوده، فیکون الإنسان فی حصار کامل عملیّا.

۳- الحرمان من السیر الآفاقی و الأنفسی

هناک طریقان معروفان لمعرفة اللّه، الأوّل التأمّل و التفکّر فی آثار اللّه فی جسم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۳۹

الإنسان و روحه، و تلک «الآیات الأنفسیة»، و الثانی التأمّل فی الآیات الخارجیة الموجودة فی الأرض و السماء و الثوابت و السیارات من الکواکب، و الجبال و البحار. و تلک تسمّی «الآیات الآفاقیة» و قد أشار القرآن إلیهما فی الآیة (۵۳) من سورة فصّلت سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ

و حینما یفقد الإنسان قدرة المعرفة، فإنّه یغلق علیه طریق مشاهدة الآیات الأنفسیة و الآفاقیة علی حدّ سواء.

فی الآیات الماضیة و فی جملة إِنَّا جَعَلْنا فِی أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِیَ إِلَی الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ إشارة إلی المعنی الأوّل، لأنّ الأغلال ترفع رؤوسهم إلی الأعلی بحیث أنّهم لا یملکون القدرة علی رؤیة أنفسهم، و کذلک فإنّ السدود أمامهم و خلفهم تمنعهم من رؤیة ما حولهم، بحیث أنّهم مهما نظروا فلن یبصروا غیر السدود، و بذا یحرمون من مشاهدة الآیات الآفاقیة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۰

الآیتان [سورة یس (۳۶): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشارة

إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ (۱۱) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (۱۲)

التّفسير

من هم الذين يتقبّلون إنذارك؟

كان الحديث فى الآيات السابقة عن مجموعة لا تملك أى استعداد لتقبّل الإنذارات الإلهيّة و يتساوى عندهم الإنذار و عدمه، أمّا هذه الآيات فتتحدّث عن فئة اخرى هى على النقيض من تلك الفئة، و ذلك لكى يتّضح المطلب بالمقارنة بين الفئتين كما هو أسلوب القرآن.

تقول الآية الاولى من هذه المجموعة إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ

هنا ينبغى الالتفات إلى امور:

۱- ذكرت فى هذه الآية صفتان لمن تؤثّر فيهم مواعظ و إنذارات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و هى «أتباع الذكر» و «الخشية من اللّه فى الغيب». لا شكّ أنّ المقصود من هاتين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۱

الصفتين هو ذلك الاستعداد الذاتى و ما هو موجود فيهم «بالقوّة». أى أنّ الإنذار يؤثّر فقط فى أولئك الذين لهم أسماع واعية و قلوب مهيّأة، فالإنذار يترك فيهم أثرين: الأوّل إتّباع الذكر و القرآن الكريم، و الآخر الإحساس بالخوف بين يدى اللّه و المسؤولية.

و بتعبير آخر فإنّ هاتين الحالتين موجودتان فيهم بالقوّة، و إنّها تظهر فيهم بالفعل بعد الإنذار، و ذلك على خلاف الكفّار عمى القلوب الغافلين الذين لا يملكون اذنا صاغية و ليسوا أهلا للخشية من اللّه أبدا.

هذه الآية كالآية من سورة البقرة حيث يقول تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

۲- باعتقاد الكثير من المفسّرين أنّ المقصود من «الذكر» هو «القرآن المجيد».

لأنّ هذه الكلمة جاءت بهذه الصورة مرارا فى القرآن الكريم لتعبّر عن هذا المعنى ۱۳۶]، و لكن لا مانع من أن يكون المقصود من هذه الكلمة أيضا المعنى اللغوى لها بمعنى مطلق التذكير، بحيث يشمل كلّ الآيات القرآنية و سائر الإنذارات الصادرة عن الأنبياء و القادة الإلهيين.

۳- «الخشية» كما قلنا سابقا، بمعنى الخوف الممزوج بالإحساس بعظمة اللّه تعالى، و التعبير ب «الرحمن» هنا و الذى يشير إلى مظهر رحمة اللّه العامّة يثير معنى جميلا و هو أنّه فى عين الوقت الذى يستشعر فيه الخوف من عظمة اللّه، يجب أن يكون هنالك أمل برحمته، لموازنة كفّتى الخوف و الرجاء، اللذين هما عاملا الحركة التكاملة المستمرة.

الملفت للنظر أنّه ذكرت كلمة «اللّه» فى بعض من الآيات القرآنية فى مورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۲

«الرجاء» و التى تمثّل مظهر الهيبة و العظمة لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ[۱۳۷] إشارة إلى أنّه يجب أن يكون الرجاء ممزوجا بالخوف، و الخوف ممزوجا بالرجاء على حد سواء (تأمّل!!).

۴- التعبير ب «الغيب» هنا إشارة إلى معرفة اللّه عن طريق الاستدلال و البرهان، إذ أنّ ذات اللّه سبحانه و تعالى غيب بالنسبة إلى حواس الإنسان، و يمكن فقط مشاهدة جماله و جلاله سبحانه ببصيرة القلب و من خلال آثاره تعالى.

كـذلك يحتمل أيضا أنّ «الغيب» هنا بمعنى «الغياب عن عيون الناس» بمعنى أنّ مقام الخشـية و الخوف يجب أن لا يتّخـذ طابعا ريائيا، بل إنّ الخشية و الخوف يجب أن تكون فى السرّ و الخفية.

بعضهم فسّر «الغيب» أيضا ب «القيامة» لأنّها من المصاديق الواضحة للأمور المغيبة عن حسّنا، و لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

۵- جملـة «فبشّـره» فى الحقيقـة تكميل للإنذار، إذ أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى البدء ينذر، و حين يتحقّق للإنسان اتّباع الذكر و الخشية و تظهر آثارها على قوله و فعله، هنا يبشّره البارى عزّ و جلّ.

بماذا يبشّر؟ أوّلا يبشّره بشىء قد شغل فكره أكثر من أى موضوع آخر، و هو تلك الزلّات التى ارتكبها، يبشّره بأنّ اللّه العظيم سيغفر له تلك الزلّات جميعها، و يبشّره بعدئذ بأجر كريم و ثواب جزيل لا يعلم مقداره و نوعه إلّا اللّه سبحانه.

الملفت للنظر هو تنكير «المغفرة» و «الأـجر الكريم» و نعلم بـأنّ اسـتخدام النكرة فى مثـل هـذه المواضع إنّمـا هو للتـدليل على الوفرة و العظم.

۶- يرى بعض المفسّـرين أنّ (الفاء) فى جملـة «فبشّـره» للتفريع و التفضـيل، إشارة إلى أنّ (اتّباع التذكر و الخشـية) نتيجتها «المغفرة» و «الأجر الكريم» بحيث أنّ الاولى و هى المغفرة تترتّب على الأوّل، و الثانية على الثانى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۳

بعـد ذلك و بما يتناسب مع البحث الـذى كان فى الآيـة السابقـة حول الأجر و الثواب العظيم للمؤمنين و المصدّقين بالإنذارات الإلهية التى جاء بها الأنبياء، تنتقل الآيـة التاليـة إلى الإشارة إلى مسألة المعاد و البعث و الكتاب و الحساب و المجازاة، تقول الآية الكريمة: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى

الاسـتناد إلى لفظـة «نحن» إشارة إلى القـدرة العظيمـة التى تعرفونها فينا! و كـذلك قطع الطريق أمام البحث و التساؤل فى كيف يحيى العظـام و هى رميم، و يبعث الروح فى الأبـدان من جديـد؟ و ليس نحيى المـوتى فقـط، بـل وَ نَكْتُبُ مـا قَـدَّمُوا وَ آثـارَهُمْ و عليه فـإنّ صحيفة الأعمال لن تغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا و تحفظها إلى يوم الحساب.

جملـة «ما قدّموا» إشارة إلى الأعمال التى قاموا بها و لم يبق لها أثر، أمّا التعبير «و آثارهم» فإشارة إلى الأعمال التى تبقى بعد الإنسان و تنعكس آثارها على المحيط الخارجى، من أمثال الصـدقات الجاريـة (المبانى و الأوقاف و المراكز التى تبقى بعد الإنسان و ينتفع منها الناس).

كذلك يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أنّ «ما قدّموا» إشارة إلى الأعمال ذات الجنبة الشخصية، و «آثارهم» إشارة إلى الأعمال التى تصـبح سـننا و توجب الخير و البركـات بعـد موت الإنسان، أو تؤدّى إلى الشـرّ و المعاصـى و الـذنوب. و مفهوم الآيـة واسع يمكن أن يشمل التّفسيرين.

ثمّ تضيف الآية لزيادة التأكيد وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ

أغلب المفسّـرين اعتـبروا أنّ معنى «إمـام مـبين» هنـا هـو «اللـوح المحفوظ» ذلـك الكتـاب الـذى أثبتت فيه و حفظت كـلّ الأعمـال و الموجودات و الحوادث التى فى هذا العالم.

و التعبير ب «إمام» ربّما كان بلحاظ أنّ هـذا الكتاب يكون فى يوم القيامـة قائـدا و إماما لجميع المأمورين بتحقيق الثواب و العقاب، أو لكونه معيارا لتقييم الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۴

الإنسانية و مقدار ثوابها و عقوبتها.

الجدير بالملاحظة أنّ تعبير (إمام) ورد فى بعض آيات القرآن الكريم للتعبير عن «التوراة» حيث يقول سبحانه و تعالى: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً.

و إطلاق کلمة «إمام» فی هذه الآیة علی «التوراة» یشیر إلی المعارف و الأحکام و الأوامر الواردة فی التوراة، و کذلک للدلائل و الإشارات المذکورة بحقّ نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، ففی کلّ هذه الأمور یمکن للتوراة أن تکون قائدا و إماما للخلق، و بناء علی ذلک فإنّ الکلمة المزبورة لها معنی متناسب مع مفهومها الأصلی فی کلّ مورد استعمال.

***

مسألتان

۱- أنواع الکتب التی تثبت بها أعمال الناس

یستفاد من الآیات القرآنیة الکریمة أنّ أعمال الإنسان تدون و تضبط فی أکثر من کتاب، حتّی لا یبقی له حجّة أو غدر یوم الحساب.

أوّلها: «صحیفة الأعمال الشخصیة» التی تحصی جمیع أعمال الفرد علی مدی عمره اقْرَأْ کِتابَکَ کَفی بِنَفْسِکَ الْیَوْمَ عَلَیْکَ حَسِیباً[۱۳۸].

هناک حیث تتعالی صرخات المجرمین یَقُولُونَ یا وَیْلَتَنا ما لِهذَا الْکِتابِ لا یُغادِرُ صَغِیرَةً وَ لا کَبِیرَةً إِلَّا أَحْصاها.[۱۳۹] و هو الکتاب الذی یأخذه المحسنون فی أیمانهم و المسیئون فی شمائلهم- الحاقّة ۱۹ و ۲۵.

ثانیا: «صحیفة أعمال الامّة» و التی تبیّن الخطوط الاجتماعیة لحیاتها، کما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۵

یقول القرآن الکریم: کُلُّ أُمَّةٍ تُدْعی إِلی کِتابِهَا.[۱۴۰] و ثالثها: «اللوح المحفوظ» و هو الکتاب الجامع، لیس لأعمال جمیع البشر من الأوّلین و الآخرین فقط، بل لجمیع الحوادث العالمیة، و شاهد آخر علی أعمال بنی آدم فی ذلک المشهد العظیم، و فی الحقیقة فهو إمام لملائکة الحساب و ملائکة الثواب و العقاب.

۲- کلّ شیء أحصیناه

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: «ائتوا بحطب، فقالوا: یا رسول اللّه، نحن بأرض قرعاء! قال:

فلیأت کلّ إنسان بما قدر علیه. فجاءوا به حتّی رموا بین یدیه، بعضه علی بعض، فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم. هکذا تجمع الذنوب، ثمّ قال: إیّاکم و المحقّرات من الذنوب، فإنّ لکلّ شیء، طالبا، ألا و إنّ طالبها یکتب ما قدّموا و آثارهم و کلّ شیء أحصیناه فی إمام مبین»[۱۴۱].

هذا الحدیث المؤثّر، صورة معبّرة عن أنّ تراکم صغائر الذنوب و المعاصی یمکنه أن یولد نارا عظیمة اللهب.

فی حدیث آخر ورد أنّ «بنی سلمة» کانوا فی ناحیة المدینة، فأرادوا النقلة إلی قرب المسجد، فنزلت هذه الآیة إِنَّا نَحْنُ نُحْیِ الْمَوْتی وَ نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ آثارکم تکتب»-

أی خطواتکم التی تخطونها إلی المسجد، و سوف تثابون علیها- فلم ینتقلوا[۱۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۶

اتّضح إذا أنّ مفهوم الآية واسع و شامل، و له فى كلّ من تلك الأمور التى ذكرناها مصداق.

و قد يبدو عدم انسجام ما ذكرنا مع ما ورد من «أهل البيت» عليهم السّلام حول تفسير «إمام مبين» بأمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاة و السلام. كما

ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام عن آبائه عليهم السّلام: «لمّا أنزلت هذه الآية على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ قام أبو بكر و عمر من مجلسهما فقالا: يا رسول اللّه، هو التوراة؟ قال: لا، قالا: فهو الإنجيل؟ قال: لا، قالا: فهو القرآن؟ قال: لا، قال: فأقبل أمير المؤمنين على عليه السّلام فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: هو هذا، إنّه الإمام الذى أحصى اللّه تبارك و تعالى فيه علم كلّ شيء»[۱۴۳].

و

فى تفسير على بن إبراهيم عن ابن عبّاس عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «أنا و اللّه الإمام المبين، أبيّن الحقّ من الباطل، ورثته من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۱۴۴].

فمع أنّ بعض المفسّرين من أمثال «الآلوسى»، قد إستاء كثيرا من عملية نقل أمثال هذه الروايات من طرق الشيعة، و نسبهم لذلك إلى عدم المعرفة و الاطلاع و عدم التمكّن من التّفسير، إلّا أنّه بقليل من الدقّة يتّضح أنّ أمثال هذه الروايات لا تتنافى مع تفسير «الإمام المبين» ب «اللوح المحفوظ». بلحاظ أنّ قلب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالمقام الأوّل، ثمّ يليه قلب وليّه، و يعتبران مرآة تعكس ما فى اللوح المحفوظ، و إنّ اللّه سبحانه و تعالى يلهمهم القسم الأعظم ممّا هو موجود فى اللوح المحفوظ، و بذا يصبحان نموذجا من اللوح المحفوظ، و عليه فإنّ إطلاق «الإمام المبين» عليهما ليس بالأمر العجيب، لأنّهما فرع لذلك الأصل، ناهيك عن أنّ وجود الإنسان الكامل- كما نعلم- يعتبر عالما صغيرا ينطوى على خلاصة العالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۷

الكبير، و طبقا للشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه الصلاة و السلام.

أ تزعم أنّك جرم صغير؟و فيك انطوى العالم الأكبر

و العجيب أنّ «الآلوسى» لا يستبعد هذا التّفسير مع إنكاره للرّوايات السالفة الذكر، و على كلّ حال فليس من شكّ فى كون المقصود من «الإمام المبين» هو «اللوح المحفوظ» فإنّ الروايات السالفة الذكر يمكن تطبيقها عليه «دقّق النظر!!».***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۸

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

اشارة

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (۱۳) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (۱۴) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (۱۵) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (۱۶) وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۷)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۸) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۱۹)

التّفسير

و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية:

لمتابعة البحوث الماضية فى الآيات السابقة حول القرآن و نبوّة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و المؤمنين الصادقين، و الكفّار المعاندين، تطرح هذه الآيات نموذجا من موقف الأمم السابقة بهذا الصدد، إنّ هذه الآيات و بعضا من الآيات التالية لها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۴۹

و التى تشكّل بمجموعها ثمانى عشرة آية، تتحدّث حول تأريخ عدد من الأنبياء السابقين الذين بعثوا لهداية المشركين عبّاد الأوثان الذين سمّاهم القرآن الكريم أَصْحابَ الْقَرْيَةِ و كيف أنّهم نهضوا لمخالفة أولئك الأنبياء، و تكذيبهم، و كانت خاتمتهم أن أخذهم العذاب الأليم، لتكون تنبيها لمشركى مكّة من جهة، و تسلية للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فئة المؤمنين القليلة به فى ذلك اليوم. على كلّ حال فإنّ التأكيد على إيراد هذه القصّة فى قلب هذه السورة التى تعتبر هى بدورها قلب القرآن الكريم، بسبب تشابه ظروف تلك القصّة مع ظروف المسلمين فى ذلك اليوم.

أوّلا تقول الآيات الكريمة: وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ۱۴۵].

«القرية» فى الأصل اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس، و تطلق أحيانا على نفس الناس أيضا، لذا فمفهومها يتّسع حتّى يشمل المدن و النواحى، و أطلقت فى لغة العرب و فى القرآن المجيد مرارا على المدن المهمّة مثل «مصر» و «مكّة» و أمثالهما.

لكن ما اسم هذه القرية أو المدينة التى ذكرت فى هذه الآية؟

المشهور بين المفسّرين أنّها «أنطاكية» إحدى مدن بلاد الشام. و هى إحدى المدن الرومية المشهورة قديما، كما أنّها ضمن منطقة نفوذ تركيا جغرافيا فى الحال الحاضر، و سنتعرض إلى تفصيل الحديث عنها فى البحوث الآتية إن شاء اللّه، و على كلّ حال فإنّه يظهر جيدا من آيات هذه السورة الكريمة أنّ أهل تلك المدينة كانوا يعبدون الأصنام، و أنّ هؤلاء الرسل جاؤوا يدعونهم إلى التوحيد و نبذ الشرك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۰

بعد ذلك العرض الإجمالى العام، تنتقل الآيات إلى تفصيل الأحداث التى جرت فتقول: إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ۱۴۶].

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟ هناك أخذ و ردّ بين المفسّرين، بعضهم قال: إنّ أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» و الثالث «بولس»، و بعضهم ذكر أسماء اخرى لهم.

و كذلك هناك أخذ ورد فى أنّهم رسل اللّه تعالى، أم أنّهم رسل المسيح عليه السّلام (و لا منافاة مع قوله تعالى: إِذْ أَرْسَلْنا إذ أنّ رسل المسيح رسله تعالى أيضا)، مع أنّ ظاهر الآيات أعلاه ينسجم معه التّفسير الأوّل، و إن كان لا فرق بالنسبة إلى النتيجة التى يريد أن يخلص إليها القرآن الكريم.

الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّين قبال دعوة الرسل، القرآن الكريم يقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهية التى يتذرّع بها الكثير من الكفّار دائما فى مواجهة الأنبياء قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ

فإذا كان مقرّرا أن يأتى رسول من قبل اللّه سبحانه، فيجب أن يكون ملكا مقرّبا و ليس إنسانا مثلنا. هذه هى الذريعة التى تذرّعوا بها لتكذيب الرسل و إنكار نزول التشريعات الإلهية، و المحتمل أنّهم يعلمون بأنّ جميع الأنبياء على مدى التاريخ كانوا من نسل آدم، من جملتهم إبراهيم الخليل عليه السّلام، الذى عرف برسالته، و من المسلّم أنّه كان إنسانا، و ناهيك عن أنّه هل يمكن لغير الإنسان أن يدرك حاجات الإنسان و مشكلاته و آلامه؟

و ثمّ لماذا أكّدت الآية أيضا على صفة «الرحمانية» للّه؟ لعلّ ذلك لأنّ اللّه سبحانه و تعالى ضمن نقله هذه الصفة فى كلامهم يشعر

بأنّ الجواب كامن فى كلامهم، إذ أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۱

اللّه الذى شملت رحمته العالم بأسره لا بدّ أن يبعث الأنبياء و الرسل لتربية النفوس و الدعوة إلى الرشد و التكامل البشرى.

كذلك يحتمل أيضا أن يكونوا قد أكّدوا على وصف الرحمانية للّه ليقولوا بذلك أنّ اللّه الرحمن العطوف لا يثير المشاكل لعباده بإرسال الرسل و الأنبياء، بل إنّه يتركهم و شأنهم! و هذا المنطق الخاوى المتهاوى يتناسب مع مستوى تفكير هذه الفئة الضالّة.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالّين و لم يضعفوا، و فى جوابهم قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ و مسئوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل واضح و بيّن فحسب.

وَ ما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

من المسلّم به أنّهم لم يكتفوا بمجرّد الادّعاء، أو القسم بأنّهم من قبل اللّه، بل إنّ ممّا يستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالا أنّهم أظهروا دلائل و معاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، و إلّا فلا مصداقية (للبلاغ المبين)، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر للجميع أن يدركوا مراده، و ذلك لا يمكن تحقّقه إلّا من خلال بعض الدلائل و المعجزات الواضحة.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أيضا أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصى علاجهم- بإذن اللّه- كما كان لعيسى عليه السّلام.

و لكن الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح و تلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم فى المواجهة، و انتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد و التعامل الشديد قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ ۱۴۷].

و يحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم فى نفس الفترة التى بعث فيها هؤلاء الأنبياء، و كانت إمّا نتيجة معاصى هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۲

فكما نقل بعض المفسّرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لملمدّة[۱۴۸]، و لكنّهم لم يعتبروا من ذلك، بل إنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل. و لم يكتفوا بذلك، بل إنّهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح و العلنى، و قالوا:

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ

هل أنّ «العذاب الأليم» هو تأكيد على مسألة الرجم، أو زيادة المجازاة أكثر من الرجم وحده؟

يوجد احتمالان، و لكن يبدو أنّ الاحتمال الثانى هو الأقرب، لأنّ الرجم من أسوأ أنواع العذاب الذى قد ينتهى أحيانا بالموت، و من الممكن أن ذكر العذاب الأليم إشارة إلى أنّنا سنرجمكم إلى حدّ الموت، أو أنّه علاوة على الرجم فإنّنا سنمارس معكم أنواعا اخرى من التعذيب التى كانت تستعمل قديما كإدخال الأسياخ المحمّاة فى العيون أو صبّ الفلز المذاب فى الفمّ و أمثالها.

بعض المفسّرين احتملوا أيضا أنّ (الرجم) هو تعذيب جسمانى أمّا «العذاب الأليم» فهو عذاب معنوى روحى ۱۴۹]. و لكن الظاهر أنّ التّفسير الأوّل هو الأقرب.

أجل، فلأنّ أتباع الباطل و حماة الظلم و الفساد لا يملكون منطقا يمكنهم من المنازلة فى الحوار، فإنّهم يستندون دائما إلى التهديد و الضغط و العنف، غافلين عن أنّ سالكى طريق اللّه لن يستسلموا أمام أمثال هذه التهديدات، بل سيزيدون من استقامتهم على الطريق، فمنذ اليوم الأوّل الذى سلكت فيها أقدامهم طريق الدعوة إلى اللّه وضعوا أرواحهم على الأكف، و استعدوا لأى نوع من الفداء و التضحية.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالى على هذيان هؤلاء: قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۳

فإذا أصابكم سوء الحظّ و حوادث الشؤم، و رحلت بركات اللّه عنكم، فإنّ سبب ذلك فى أعماق أرواحكم، و فى أفكاركم المنحطّة و أعمالكم القبيحة المشؤومة، و ليس فى دعوتنا، فها أنتم ملأتم دنياكم بعبادة الأصنام و أتباع الهوى و الشهوات، و قطعتم عنكم بركات اللّه سبحانه و تعالى.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ جملة أَ إِنْ ذُكِّرْتُمْ جملة مستقلّة و قالوا: إنّ معناها هو «هل أنّ الأنبياء إذا جاءوا و ذكروكم و أنذروكم يكون جزاؤهم تهديدهم بالعذاب و العقوبة و تعتبرون وجودهم شؤما عليكم؟ و ما جلبوا لكم إلّا النور و الهداية و الخير و البركة. فهل جواب مثل هذه الخدمة هو التهديد و الكلام السيء؟![۱۵۰].

و فى الختام قال الرسل لهؤلاء بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

فإنّ مشكلتكم هى الإسراف و التجاوز، فإذا أنكرتم التوحيد و أشركتم فسبب ذلك هو الإسراف و تجاوز الحقّ، و إذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف فى المعاصى و التلوّث بالشهوات، و أخيرا ففى قبال الرغبة فى العمل الصالح تهدّدون الهادفين إلى الخير بالموت، و هذا أيضا بسبب التجاوز و الإسراف.

و سوف نعود إلى شرح قصّة أولئك القوم، و ما جرى لهؤلاء الرسل، بعد تفسير الآيات الباقية التى تكمل القصّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۴

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۲۰ الى ۳۰]

اشارة

وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (۲۰) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲۱) وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۲) أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ (۲۳) إِنِّى إِذاً لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۴)

إِنِّى آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (۲۵) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (۲۶) بِما غَفَرَ لِى رَبِّى وَ جَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ (۲۷) وَ ما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما كُنَّا مُنْزِلِينَ (۲۸) إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (۲۹)

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۰)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۵

التّفسير

المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذى وردت الإشارة إليه فى هذه القصّة. و الإشارة تتعلّق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل و بشجاعتهم فى قبال الأكثرية الكافرة المشركة .. و كيف وقفوا حتّى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

تشرع هذه الآيات بالقول: وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

هذا الرجل الذى يذكر أغلب المفسّرين أنّ اسمه «حبيب النجّار» هو من الأشخاص الذين قيّض لهم الاستماع إلى هؤلاء الرسل و الإيمان و أدركوا بحقّانية دعوتهم و دقّة تعليماتهم، و كان مؤمنا ثابت القدم فى إيمانه، و حينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب و يحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع- كما يستشفّ من كلمة يسعى- و أوصل نفسه إلى مركز المدينة و دافع عن الحقّ بما

استطاع. بل إنّه لم يدّخر وسعا فى ذلك.

التعبير ب «رجل» بصورة النكرة يحتمل انّه إشارة إلى أنّه كان فردا عاديا، ليس له قدرة أو إمكانية متميّزة فى المجتمع، و سلك طريقه فردا وحيدا. و كيف أنّه فى نفس الوقت دخل المعركة بين الكفر و الإيمان مدافعا عن الحقّ، لكى يأخذ المؤمنين فى عصر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم درسا بأنّهم و إن كانوا قلّة فى عصر صدر الإسلام، إلّا أنّ المسؤولية تبقى على عواتقهم، و أنّ السكوت غير جائز حتّى للفرد الواحد.

التعبير ب «أقصى المدينة» يدلّل على أنّ دعوة هؤلاء الأنبياء وصلت إلى النقاط البعيدة من المدينة، و أثّرت على القلوب المهيّأة للإيمان، ناهيك عن أنّ أطراف المدن عادة تكون مراكز للمستضعفين المستعدين أكثر من غيرهم لقبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۶

الحقّ و التصديق به، على عكس ساكنى مراكز المدن الذين يعيشون حياة مرفّهة تجعل من الصعب قبولهم لدعوة الحقّ.

التعبير ب «يا قوم» يوضّح حرقة هذا الرجل و تألمّه على أهل مدينته، و دعوته إيّاهم إلى اتّباع الرسل، تلك الدعوة التى لم تكن لتحقّق له أى نفع شخصى.

و الآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأى منطق و بأى دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أوّلا إلى هذه القضيّة اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً. فتلك القضيّة بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّة منفعة ماديّة شخصية، و لا يريدون منكم مالا و لا جاها و لا مقاما، و حتّى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. و الخلاصة: لا يريدون منكم أجرا و لا أى شىء آخر.

و هذا ما أكّدت عليه الآيات القرآنية مرارا فيما يخصّ الأنبياء العظام، كدليل على إخلاصهم و صفاء قلوبهم، و فى سورة الشعراء وحدها تكرّرت هذه الجملة خمس مرّات وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ[۱۵۱].

ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم و كلامهم انّهم أشخاص مهتدون: وَ هُمْ مُهْتَدُونَ إشارة إلى أنّ عدم الاستجابة لدعوة ما إنّما يكون لأحد سببين: إمّا لأنّ تلك الدعوة باطلة و تؤدّى إلى الضلال و الضياع، أو لأنّها حقّ و لكن الدعاة لها يكتسبون من تلك الدعوة منافع شخصية لهم ممّا يؤدّى إلى تشويه النظرة إلى تلك الدعوة، و لكن حينما لا يكون هذا و لا ذاك فما معنى التردّد و التباطؤ عن الاستجابة.

ثمّ ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذى يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى

فإنّ من هو أهل لأن يعبد هو الخالق و المالك و الوهّاب، و ليس الأصنام التى لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۷

تضرّ و لا تنفع، الفطرة السليمة تقول: يجب أن تعبدوا الخالق لا تلك المخلوقات التافهة.

و التأكيد على «فطرنى» لعلّه إشارة إلى هذا المعنى أيضا و هو: إنّنى حينما أرجع إلى الفطرة الأصيلة فى نفسى ألاحظ بوضوح أنّ هناك صوتا يدعونى إلى عبادة خالقى، دعوة تنسجم مع العقل، فكيف أغضّ الطرف إذا عن دعوة تؤيّدها فطرتى و عقلى؟! و الملفت للنظر أنّه لا يقول: و ما لكم لا تعبدون الذى فطركم؟ بل يقول: وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى لكى يكون بشروعه بالحديث عن نفسه أكثر تأثيرا فى النفوس و بعد ذلك ينبّه إلى أنّ المرجع و المآل إلى اللّه سبحانه فيقول: وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

أى: لا تتصوّروا أنّ اللّه له الأثر و الفاعلية فى حياتكم الدنيا فقط، بل إنّ مصيركم فى العالم الآخر إليه أيضا، فتوجّهوا إلى من يملك مصيركم فى الدارين.

و فى ثالث استدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام و إثبات العبودية للّه بنفى العبودية للأصنام، فيكمل قائلا: أَ أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّى شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَ لا يُنْقِذُونِ

هنا أيضا يتحدّث عن نفسه حتّى لا يظهر من حديثه أنّه يقصد الإمرة و الاستعلاء عليهم، و فى الحقيقة هو يحدّد الذريعة الأساس لعبدة الأوثان حينما يقولون: نحن نعبد الأصنام لكى تكون شفيعا لنا أمام اللّه، فكأنّه يقول: أيّة شفاعة؟

و أى معونة و نجاة تريدون منها؟ فهى بذاتها محتاجة إلى مساعدتكم و حمايتكم، فما ذا يمكنها أن تفعل لكم فى الشدائد و الملمّات؟

التعبير ب «الرحمن» هنا علاوة على أنّه إشارة إلى سعة رحمة اللّه و أنّه سبب لكلّ النعم و المواهب، و ذلك بحدّ ذاته دليل على توحيد العبادة، فإنّه يوضّح أنّ اللّه الرحمن لا يريدون أحدا بضرّ، إلّا إذا أوصلت الإنسان مخالفاته إلى أن يخرج من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۸

رحمة اللّه و يلقى بنفسه فى وادى غضبه.

ثمّ يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد و التوضيح أكثر: إنّى حين أعبد هذه الأصنام و أجعلها شريكا للّه فإنّى سأكون فى ضلال بعيد: إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ فأى ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنبا إلى جنب خالق السموات و الأرض!! و عند ما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من استعراض تلك الاستدلالات و التبليغات المؤثّرة أعلن لجميع الحاضرين إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ

أمّا من هو المخاطب فى هذه الجملة فَاسْمَعُونِ و الجملة السابقة لها إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ

ظاهر الآيات السابقة يشير إلى أنّهم تلك المجموعة من المشركين و عبدة الأوثان الذى كانوا فى تلك المدينة، و التعبير ب «ربّكم» لا ينافى هذا المعنى أيضا، إذ أنّ هذا التعبير ورد فى الكثير من آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن الكفّار حينما تستعرض الاستدلالات التوحيدية[۱۵۲].

و جملة «فاسمعون» لا تنافى ما قلنا، لأنّ هذه الجملة كانت دعوة لهم لاتّباع قوله، بالضبط كما ورد فى قصّة مؤمن آل فرعون حيث قال: يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ غافر- ۳۸.

و من هنا يتّضح أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ المخاطب فى هذه الجملة هم أولئك الرسل، و التعبير ب «ربّكم» و جملة «فاسمعون» قرينة على ذلك- لا يقوم عليه دليل سليم.

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشىء حول ذلك، و لكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه و قتلوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۵۹

نعم فإنّ حديثه المثير و الباعث على الحماس و الملىء بالاستدلالات القويّة الدامغة، و اللفتات الخاصّة و النافذة إلى القلب، ليس لم يكن لها الأثر الإيجابى فى تلك القلوب السوداء المليئة بالمكر و الغرور فحسب، بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقد و البغضاء و سعرت فيها نار العداوة، بحيث أنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشجاع و قتلوه بمنتهى القسوة و الغلظة. و قيل انّهم رموه بالحجارة، و هو يقول:

اللهمّ اهد قومى، حتّى قتلوه ۱۵۳].

و فى رواية اخرى أنّهم وطؤوه بأرجلهم حتّى مات ۱۵۴].

و لقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هى قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ و هذا التعبير ورد فى خصوص شهداء طريق الحقّ فى آيات أخرى من القرآن الكريم وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ [۱۵۵] و الجدير بالذكر و الملاحظة أنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنّة كان مقترنا باستشهاده شهادة هذا الرجل المؤمن، بحيث أنّ الفاصلة بين الإثنين قليلة إلى درجة أنّ القرآن المجيد بتعبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّة بدلا عن شهادته، فما أقرب طريق الشهداء إلى السعادة الدائمة!! و

واضح أنّ المقصود من الجنّة هنا، هی (جنّة البرزخ) لأنّه یستفاد من الآیات و من الرّوایات أنّ الجنّة الخالدة فی یوم القیامة ستکون نصیب المؤمنین، کما أنّ جهنّم ستکون نصیب المجرمین.

و علیه فإنّ هناک جنّة و جهنّم أخریین فی عالم البرزخ، و هما نموذج من جنّة و جهنّم یوم القیامة، فقد ورد عن أمیر المؤمنین علی علیه أفضل الصلاة و السلام أنّه قال: «و القبر روضة من ریاض الجنّة، أو حفرة من حفر النار»[۱۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۰

و ما احتمله البعض من أنّ هذه الجملة إشارة إلی خطاب یخاطب به هذا المؤمن الشهم فی یوم القیامة، و أنّها تحوی جنبة مستقبلیة، فهو خلاف لظاهر الآیة.

علی کلّ حال فإنّ روح ذلک المؤمن الطاهرة، عرجت إلی السماء إلی جوار رحمة اللّه و فی نعیم الجنان، و هناک لم تکن له سوی امنیة واحدة قالَ یا لَیْتَ قَوْمِی یَعْلَمُونَ

یا لیت قومی یعلمون بأی شیء بِما غَفَرَ لِی رَبِّی وَ جَعَلَنِی مِنَ الْمُکْرَمِینَ ۱۵۷].

أی: لیست أنّ لهم عین تبصر الحقّ، لهم عین غیر محجوبة بالحجب الدنیویة الکثیفة و الثقیلة، فیروا ما حجب عنهم من النعمة و الإکرام و الاحترام من قبل اللّه، و یعلموا أی لطف شملنی به اللّه فی قبال عدوانهم علیّ ..

لو أنّهم یبصرون و یؤمنون، و لکن یا حسرة!!

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فیما یخصّ هذا المؤمن «إنّه نصح لهم فی حیاته و بعد موته»[۱۵۸].

و من الجدیر بالملاحظة أنّه تحدّث أوّلا- عن نعمة الغفران الإلهی، ثمّ عن الإکرام، إذ یجب أوّلا غسل الروح الإنسانیة بماء المغفرة لتنقیتها من الذنوب، و حینها تأخذ محلّها علی بساط القرب و الإکرام الإلهی.

و الجدیر بالتأمّل أنّ الإکرام و الاحترام و التجلیل، و إن کان من نصیب الکثیر من العباد، و أصولا- فإنّه- أی الإکرام- یتعاظم مع «التقوی» جنبا إلی جنب، إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ ۱۵۹]. و لکن (الإکرام) بشکل مطلق و بدون أدنی قید أو شرط جاء فی القرآن الکریم خاصا لمجموعتین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۱

الاولی: «الملائکة المقرّبون» بَلْ عِبادٌ مُکْرَمُونَ لا یَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ یَعْمَلُونَ [۱۶۰] و الثانیة: الأشخاص الذین بلغوا بإیمانهم أکمل الإیمان و یسمّیهم القرآن «المخلصین» فیقول عنهم: أُولئِکَ فِی جَنَّاتٍ مُکْرَمُونَ ۱۶۱][۱۶۲].

و علی کلّ حال، فقد کان هذا مآل ذلک الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذی أدّی رسالته و لم یقصّر فی حمایة الرسل الإلهیین، و ارتشف فی النهایة کأس الشهادة، و قفل راجعا إلی جوار رحمة ربّه الکریم.

و لکن لننظر ما هو مصیر هؤلاء القوم الطغاة الظلمة؟.

مع أنّ القرآن الکریم لم یورد شیئا فی ما انتهی إلیه عمل هؤلاء الثلاثة من الرسل الذین بعثوا إلی هؤلاء القوم، لکن جمعا من المفسّرین ذکروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أیضا إضافة إلی قتلهم ذلک الرجل المؤمن، و فی حال أنّ البعض الآخر یصرّح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحدیثه و بشهادته لکی یتسنّی لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حیک ضدّهم من المؤامرات، و الانتقال إلی مکان أکثر أمنا، و لکن نزول العذاب الإلهی الألیم علی هؤلاء القوم قرینة علی ترجیح القول الأوّل، و إن کان التعبیر «من بعده» (أی بعد شهادة ذلک المؤمن) یدلّل- فی خصوص نزول العذاب الإلهی- علی أنّ القول الثانی أصحّ «تأمّل بدقّة!!».

رأینا کیف أصرّ أهالی مدینة أنطاکیة علی مخالفة الإلهیین، و الآن لننظر ما ذا کانت نتیجة عملهم؟

القرآن الکریم یقول فی هذا الخصوص: وَ ما أَنْزَلْنا عَلی قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَ ما کُنَّا مُنْزِلِینَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۳

بداية الجزء الثالث و العشرون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۵

فلسنا بحاجة إلى تلك الأمور، و أساسا فانّه ليس من سنّتنا لإهلاك قوم ظالمين أن نستخدم جنود السماء، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية للقضاء عليهم جميعا و إرسالهم إلى ديار العدم و الفناء، إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم و معيشتهم إلى عوامل موت و فناء، و فى لحظة خاطفة تقلب حياتهم عاليها سافلها.

ثمّ يضيف تعالى إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

هل أنّ تلك الصيحة كانت صدى صاعقة نزلت من الغيوم على الأرض و هزّت كلّ شىء، و دمّرت كلّ العمران الموجود، و جعلت القوم من شدّة الخوف و الوحشة يستسلمون للموت؟

أو أنّها كانت صيحة ناتجة عن زلزلة خرجت من قلب الأرض فضجّت فى الفضاء بحيث أنّ موج انفجارها أهلك الجميع.

أيّا كانت فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة فى وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كلّ شىء عن التحرّك، و هكذا هى قدرة اللّه سبحانه و تعالى، و هكذا هو مصير قوم ضالّين لا نفع فيهم.

الآية الأخيرة تتعرّض إلى طريقة جميع متمرّدى التاريخ إزاء الدعوات الإلهية لأنبياء اللّه بلهجة جميلة تأسر القلوب فتقول: يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

وا أسفاه عليهم أن أغلقوا نافذة الرحمة الإلهية عليهم! وا أسفاه عليهم أن كسّروا مصباح هدايتهم!!، هؤلاء الضالّون المحرومون من السعادة لم يكتفوا بعدم الاستماع بآذان قلوبهم لنداء قادة البشرية العظام فقط، بل إنّهم أصرّوا على السخرية و الاستهزاء منهم ثمّ بادروا إلى قتلهم. مع أنّهم علموا المصير المشؤوم للطغاة الكفّار من قبلهم، و سمعوا أو قرءوا على صفحات التأريخ كيف كانت خاتمتهم الأليمة، و لكنّهم لم يعتبروا بالمواعظ و سلكوا نفس المسير، و صاروا إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۶

نفس المصير.

و من الواضح أنّ هذه الجملة هى قول اللّه تعالى، لأنّ جميع هذه الآيات توضيح منه تعالى، غير أنّ من الطبيعى أن الحسرة هنا- بمعناها المتعارف و هو الغمّ على ما فات- لا تنطبق على اللّه سبحانه و تعالى، كما أنّ (الغضب) و أمثاله أيضا لا يصدر بمفهومه المتعارف من اللّه سبحانه، بل المقصود أنّ حال تلك الفئة التعيسة سىء إلى حدّ أنّ كلّ إنسان يطّلع عليه يتأسّف و يتحسّر متسائلا: لماذا غرقوا فى تلك الدوامة مع توفّر كلّ وسائل النجاة؟

التعبير ب «عباد» إشارة إلى أنّ العجب أن يكون هؤلاء العباد غارقين بنعم اللّه سبحانه و تعالى ثمّ يرتكبون مثل تلك الجنايات.

***

بحوث

۱- قصّة رسل أنطاكية

(أنطاكية) واحدة من أقدم مدن الشام التى بنيت- على قول البعض- بحدود ثلاثمائة سنة قبل الميلاد. و كانت تعدّ من أكبر ثلاث مدن رومية فى ذلك الزمان من حيث الثروة و العلم و التجارة.

تبعد (أنطاكية) مائة كيلومتر عن مدينة حلب، و ستّين كيلومترا عن الإسكندرية.

فتحت من قبل (أبى عبيدة الجراح) فى زمن الخليفة الثانى، و قبل أهلها دفع الجزية و البقاء على ديانتهم.

احتلّها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الاولى، و حينما أراد الفرنسيون ترك الشام ألحقوها بالأراضى التركية خوفا على أهالى أنطاكية من أن يمسّهم سوء بعد خروجهم لأنّهم نصارى مثلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۷

(أنطاكية) تعتبر بالنسبة إلى النصارى كالمدينة المنورة للمسلمين، المدينة الثانية فى الأهمية بعد بيت المقدس، التى ابتدأ المسيح عليه السّلام منها دعوته، ثمّ هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السّلام- بولس و برنابا-[۱۶۳] إلى أنطاكية و دعوا الناس هناك إلى المسيحية، و بذا انتشرت المسيحية هناك، و بهذا اللحاظ أشار القرآن الكريم إلى هذه المدينة لأهميّتها[۱۶۴].

«الطبرسى»- أعلى اللّه مقامه- فى تفسير مجمع البيان يقول: قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو (حبيب) صاحب (يس) فسلّما عليه.

فقال الشيخ لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.

فقال: أ معكما آية؟

قالا: نعم، نحن نشفى المريض و نبرئ الأكمه و الأبرص بإذن اللّه.

فقال الشيخ: إنّ لى ابنا مريضا صاحب فراش منذ سنين.

قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله، فذهب بهما فمسحا ابنه فقام فى الوقت بإذن اللّه صحيحا، ففشا الخبر فى المدينة و شفى اللّه على أيديهما كثيرا من المرضى.

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه، فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر.

فقال الملك: و لنا إله سوى آلهتنا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۸

قالا: نعم، من أوجدك و آلهتك.

قال: قوما حتّى أنظر فى أمركما، فأخذهما الناس فى السوق و ضربوهما.

و روى أنّ عيسى عليه السّلام بعث هذين الرّسولين إلى أنطاكية فأتياها و لم يصلا إلى ملكها، و طالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّروا و ذكرا اللّه فغضب الملك و أمر بحبسهما، و جلد كلّ واحد منهما مائة جلدة، فلمّا كذب الرسولان و ضربا، بعث عيسى (شمعون الصفا) رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكّرا فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضى عشرته و أنس به و أكرمه، ثمّ قال له ذات يوم: أيّها الملك بلغنى أنّك حبست رجلين فى السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما. قال الملك حال الغضب بينى و بين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا.

قالا: اللّه الذى خلق كلّ شىء لا شريك له.

قال: و ما آيتكما.

قالا: ما تتمنّاه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة. فما زالا يدعوان حتّى انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين

فوضعاها فى حديقتيه فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أ رأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعا مثل هذا فيكون لك و لإلهك شرفا؟

فقال الملك: ليس لى عنك سرّ، إنّ إلهنا الذى نعبده لا يضرّ و لا ينفع.

ثمّ قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به و بكما.

قالا: إلهنا قادر على كلّ شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۶۹

فقال الملك: إنّ هاهنا ميّتا مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه- و كان غائبا- فجاءوا بالميّت و قد تغيّر و أروح، فجعلا يدعوان ربّهما علانية، و جعل شمعون يدعو ربّه سرّا، فقام الميّت و قال لهم: إنّى قدمتّ منذ سبعة أيّام، و أدخلت فى سبعة أودية من النار و أنا احذّركم ممّا أنتم فيه، فآمنوا باللّه فتعجّب الملك.

فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر فى الملك، دعاه إلى اللّه فآمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون.

و نقل «العياشى» فى تفسيره مثل هذه الرواية عن الإمام الباقر و الصادق عليهما السّلام مع بعض التفاوت ۱۶۵].

و لكن بمطالعة الآيات السابقة، يبدو من المستبعد أنّ أهل تلك المدينة كانوا قد آمنوا، لأنّ القرآن الكريم يقول: إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

و يمكن أن يكون هناك اشتباه فى الرواية من جهة الراوى.

و من الجدير بالملاحظة أيضا أنّ التعبير ب «المرسلون» فى الآيات أعلاه يدلّل على أنّهما أنبياء مرسلون من اللّه تعالى، علاوة على أنّ القرآن الكريم يقول: بأنّ أهالى تلك المدينة قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ، و مثل هذه التعبيرات ترد فى القرآن الكريم عادة فيما يخصّ الأنبياء، و إن كان قد قيل بأنّ رسل الأنبياء هم رسل اللّه، و لكن هذا التوجيه يبدو بعيدا.

۲- ما نتعلّمه من هذه القصّة

نتعلّم من القصّة التى عرضتها الآيات السابقة أمورا عديدة منها:

الف- أنّ المؤمنين لا يستوحشون أبدا من سلوك طريق اللّه سبحانه و تعالى منفردين كما هو حال المؤمن «حبيب النجّار» الذى لم ترهبه كثرة المشركين فى مدينته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۰

يقول أمير المؤمنين على عليه أفضل الصلاة و السلام: «لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله»[۱۶۶].

ب- المؤمن عاشق لهداية الناس، و يتألّم لضلالهم، و حتّى بعد شهادته يتمنّى أن يرى الآخرون مقامه ليكون سببا فى إيمانهم! ج- محتوى دعوة الأنبياء بحدّ ذاتها دليل على هدايتهم و حقّانيتهم وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

د- الدعوة إلى اللّه يجب أن تكون خالية من أى ترقّب للأجر لكى تكون مؤثّرة.

ه- تارة يكون الضلال مكشوفا و واضحا، أى أنّه ضلال مبين، و عبادة الأوثان تعدّ مصداقا واضحا ل «الضلال المبين».

و- أهل الحقّ يستندون إلى الواقعيات، و الضالّون يستندون إلى أوهام و ظنون.

ز- إذا كان هناك شؤم و نكبات فإنّ سببها نفس الإنسان و أعماله.

ح- الإسراف سبب لكثير من الانحرافات و النكبات.

ط- وظيفة الأنبياء و أتباعهم «البلاغ المبين» و الدعوة العلنية، سواء استجاب الناس أو لم يستجيبوا.

ى- التجمّع و الكثرة من العوامل المهمّة للنصرة و العزّة و القوّة فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ

ك- إنّ اللّه لا يحتاج لتدمير أئمّة التمرّد و العصيان إلى تجنيد طاقات الأرض و السماء، بل تكفى الإشارة.

ل- لا فاصلة بين الشهادة و الجنّة، و الشهيد قبل أن يغادر الدنيا يقع فى أحضان الحصور العين ۱۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۱

م- إنّ اللّه يطهّر الإنسان من الذنوب أوّلا ثمّ يقربه إلى جوار رحمته بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ

ن- يجب على مريد الحقّ أن لا يستوحش من مخالفة الأعداء، لأنّ ذلك ديدنهم على مدى الدهور يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

و أى حسرة أكبر و أشدّ من أن يغلق الإنسان- لمجرّد تعصّبه و غروره- عينيه، فلا يبصر الشمس المضيئة الساطعة.

س- كان المستضعفون يؤمنون بالأنبياء قبل جميع الناس وَ جاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ ....

ع- و هم الذين لم يتعبوا و لم يكلّوا من طريق الحقّ، و لم يكن لسعيهم و اجتهادهم حدّ. يَسْعى

ف- يجب تعلّم طريقة التبليغ و الدعوة إلى اللّه من الرسل الإلهيين الذين استفادوا من جميع الأساليب و الطرائق المؤثّرة لأجل النفوذ فى قلوب الغافلين، و فى الآية أعلاه و الروايات التى أدرجناها نموذج على ذلك.

۳- ثواب و عقاب البرزخ

ورد فى الآيات الماضية أنّ (المؤمن حبيب النجّار) بعد شهادته دخل الجنّة و تمنّى أن لو يعلم قومه بمصيره. و من المسلّم أنّ هذه الآيات- كما هو الحال فى الآيات الاخرى التى تتحدّث عن الشهداء- ليست مربوطة بالجنّة المقصودة بعد يوم القيامة و التى تكون بعد البعث و الحساب فى المحشر.

من هنا يتّضح أنّ وراءنا جنّة و جحيما فى البرزخ أيضا، يتنعّم فيها الشهداء و يحترق فيها الطغاة من أمثال «آل فرعون» و مع الالتفات إلى هذا المعنى، تنحلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۲

كثير من الإشكالات فيما يخصّ الجنّة و النار، من أمثال ما ورد فى روايات الإسراء و المعراج و أمثالها.

۴- قادة الأمم

نقل فى تفسير الثعلبى عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا باللّه طرفة عين: على بن أبى طالب و صاحب يس، و مؤمن آل فرعون، فهم الصدّيقون و على أفضلهم»[۱۶۸].

كما

ورد هذا المعنى تقريبا فى رواية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أوردها صاحب تفسير «الدرّ المنثور» عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «الصدّيقون ثلاثة: حبيب النجّار مؤمن آل ياسين الذى قال: يا قوم اتّبعوا المرسلين، و حزقيل مؤمن آل فرعون الذى قال: أ تقتلون رجلا أن يقول ربّى اللّه، و على بن أبى طالب و هو أفضلهم»[۱۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۳

الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

أ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (۳۱) وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۳۲)

التّفسير

الغفلة الدائمة:

تتحدّث هاتان الآيتان- استنادا إلى ما مرّ فى الآيات السابقة- عن الغفلة المستمرّة لمجموعة كبيرة من البشر فى هذا العالم على مرّ العصور و القرون، فتقول الآية: أ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ ۱۷۰].

فهؤلاء الكفّار ليسوا بدعا من الأمر، فقد كان قبلهم أقوام آخرون تمرّدوا على الحقّ مثلهم عاشوا فى هذه الدنيا، و مصائرهم الأليمة التى ملأت صفحات التأريخ، و الآثار المعبّرة التى بقيت فى مدنهم المدمّرة، كلّها شاخصة أمام العيان، فهل يكفى ذلك المقدار لتحقّق العبرة و الإعتبار؟

و لكن على من يعود ضمير الجمع فى أ لَمْ يَرَوْا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۴

احتمل المفسّرون عدّة وجوه:

الأوّل: أنّه يعود على «أصحاب القرية» الذين تحدّثت الآيات السابقة حولهم.

و الثانى: أنّه يعود على «أهل مكّة» الذين نزلت هذه الآيات لتنبيههم.

و لكن يستدلّ من الآية السابقة يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ... على أنّ المقصود هو جميع البشر، إذ أنّ كلمة «العباد» فى الآية المذكورة تشمل جميع البشر على طول التاريخ، الذين ما إن جاءهم الأنبياء حتّى هبّوا لمخالفتهم و تكذيبهم و الاستهزاء بهم، و على كلّ حال فهى دعوة لجميع البشر بأن يتأمّلوا فى تأريخ القدماء، و يعتبروا من آثارهم التى خلّفوها، بفتح قلوبهم و بصائرهم.

فى آخر الآية يضيف تعالى: أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ۱۷۱].

أى أنّ المصيبة الكبرى فى استحالة رجوعهم إلى هذه الدنيا لجبران ما فاتهم و تبديل ذنوبهم حسنات، لأنّهم دمّروا كلّ الجسور خلفهم، فلم يبق لهم سبيل للرجوع أبدا.

هذا التّفسير يشبه بالضبط ما

قاله أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه أفضل الصلاة و السلام) حينما تحدّث فى أخذ العبرة من الموتى فقال: «لا- عن قبيح يستطيعون انتقالا و لا فى حسن يستطيعون ازديادا».[۱۷۲]

و تضيف الآية التالية وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ۱۷۳].

أى أنّ المسألة لا تنتهى بهلاكهم و عدم استطاعتهم العودة إلى هذه الدنيا، كلّا فانّ الموت فى الحقيقة بداية الشوط و ليس نهايته، فعاجلا سيحضر الجميع فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۵

عرصة المحشر للحساب، ثمّ العقاب الإلهى المتلاحق و المستمر فى انتظارهم.

إذا كانت الحال كذلك أ فلا- ينبغى عليهم الإعتبار من مصير هؤلاء السابقين لهم، و الاستفادة من الفرصة قبل الفوت للابتعاد عن

مواجهة ذلك المصير المشؤوم.

نعم، فلو كان الموت خاتمة لكلّ شيء، لكان ممكنا أن يقولوا بأنّه بداية راحتهم، و لكن يا حسرة!! و كما يقول الشاعر:

و لو أنّا إذا متنا تركنالكان الموت راحة كلّ حيّ

و لكنّا إذا متنا بعثناو نسأل بعده عن كلّ شيء

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۶

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۳ الى ۳۶]

اشارة

وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (۳۳) وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (۳۴) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۳۵) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ (۳۶)

التّفسير

آيات اخرى!!

ممّا مرّ بحثه فى الآيات السابقة حول جهاد الرسل ضدّ الشرك و عبادة الأوثان، و كذلك التعرّض إلى مسألة المعاد فى الآية الأخيرة من المقطع السابق، توضّح الآيات- مورد البحث- مسألتى التوحيد و المعاد معا لإيقاظ المنكرين لهاتين المسألتين و دفعهم إلى الإيمان.

تتعرّض الآية الاولى إلى قضيّة إحياء الأرض الميتة و البركات التى تعود على الإنسان من ذلك فتقول: وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَ أَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۷

يَأْكُلُونَ ۱۷۴].

قضيّة الحياة و البقاء من أهمّ دلائل التوحيد، و هى قضيّة فى واقعها معقّدة و مليئة بالألغاز و باعثة على الدهشة، إذ أنّها حيّرت عقول العلماء جميعا، فبرغم التطور و التقدّم الحاصل فى وسائل الدراسة و فى العلوم بشكل عام، لا زال الكثير من الأسرار تنتظر الحلّ! و حتّى الآن لم يعلم تحت تأثير أى العوامل تتحوّل موجودات ميتة إلى خلايا حيّة؟

حتّى الآن، لم يعرف كيف تتكوّن طبقات خلايا البذور؟ و ما هى القوانين المعقّدة التى تحكمها؟ بحيث أنّها بمجرد توفّر الشرائط المساعدة تبدأ بالتحرّك و النمو و الرشد. و تستلّ من ذرّات التراب الميتة وجودها، و بهذا الطريق تتحوّل الموجودات الميتة إلى أنسجة موجودات حيّة فتعكس فى كلّ يوم مظهرا مختلفا من مظاهر حياتها و نموّها.

قضيّة الحياة فى عالم النباتات و الحيوانات و إحياء الأرض الميتة تعتبر من جانب دليلا على وجود معلومات و قوانين دقيقة سخّرت فى خلق ذلك العالم، و من جانب آخر تعتبر دليلا على البعث بعد الموت.

و من الواضح أنّ الضمير فى «لهم» يعود على كلمة «العباد» التى ورد ذكرها فى الآيات السابقة، و المقصود من «العباد» هنا هم جميع

الذين وقعوا فى خطأ فى تقدير مسألة المبدأ و المعاد، و الذى عدّ القرآن الكريم وضعهم باعثا على الحسرة و الأسف.

تنكير «آية»، إشارة إلى عظمة و أهميّة و وضوح تلك الآية التوحيدية.

جملة فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ إشارة من جانب إلى أنّ الإنسان يستفيد من بعض بذور النباتات للتغذية، بينما بعضها غير قابل للأكل، و لكن له فوائد اخرى كتغذية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۸

الحيوانات، و صناعة الأصباغ، و الأدوية، و الأمور الاخرى التى لها أهميّة فى حياة الإنسان.

و من جانب آخر فإنّ تقديم «منه» على «يأكلون» و الذى يدلّ عادة على الحصر، هو لبيان أنّ أكثر و أفضل تغذية للإنسان هى من المواد النباتية إلى درجة أنّه يمكن القول أنّ جميع غذاء الإنسان يتشكّل منها.

الآية التالية توضيح و شرح للآية الاولى من هذه الآيات، فهى توضّح كيفية إحياء الأرض الميتة، فتقول: وَ جَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ

كان الحديث فى الآية الاولى عن الحبوب الغذائية، بينما الحديث هنا عن الفواكه المقوّية و المغذّية و التى يعدّ «التمر» و «العنب» أبرز و أهمّ نماذجها حيث يعتبر كلّ منهما غذاء كاملا.

و كما أشرنا سابقا فقد دلّت دراسات العلماء و بحوثهم على أنّ هاتين الفاكهتين تحتويان على الفيتامينات و المواد الحياتية المختلفة و اللازمة لجسم الإنسان، إضافة إلى أنّ هاتين الفاكهتين يمكن حفظهما و تناولهما طازجتين أو مجفّفتين على مدار العام.

«أعناب» جمع «عنب» و «النخيل»- كما يقول الراغب فى مفرداته- جمعه «نخل» و لكن باختلاف بين الكلمتين، (فالعنب) يطلق على الثمرة نفسها، و من النادر إطلاقه على شجرة العنب و لكن «النخل» اسم للشجرة، و (الثمرة) يقال له «الرطب» أو «التمر».

يرى البعض بأنّ هذا الاختلاف فى التعبير عن الفاكهتين بالإشارة إلى الشجرة مرّة و إلى الثمرة مرّة اخرى، بسبب أنّ النخلة- و كما هو معروف- كلّها مفيدة و قابلة للاستفادة، جذعها و جريدها و سعفها و أخيرا ثمرها، فى حين أنّ شجرة (الكرم) غالبا ما يستفاد من «عنبها» فقط، و أمّا ساقها و أوراقها فلا يستفاد منها إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۷۹

قليلا.

و أمّا ما ورد من ذكر الاثنتين بصيغة الجمع، فيبدو أنّه إشارة إلى الأنواع المختلفة لكلّ منهما، إذ أنّ كلا منهما لها عشرات الأنواع تختلف فى أشكالها و خصائصها و مذاقها.

و الجدير بالملاحظة- أيضا- أنّ الحديث فى هذه الآية تعرّض إلى إحياء الأرض الميتة دون أن يقرن ذلك بذكر المطر الذى عادة ما يذكر فى مثل هذه المواضع، و ورد الحديث هنا عن «العيون»، و ذلك لأنّ المطر كاف لزراعة الكثير من المحاصيل و النباتات، فى حين أنّ الأشجار المثمرة تحتاج إلى الماء الجارى أيضا.

«فجّرنا» من مادّة «تفجير» و هو شقّ الشىء شقّا واسعا، و من هنا استخدمت الكلمة للتعبير عن العيون، لأنّها تشقّ الأرض و تدفع ماءها إلى سطح الأرض ۱۷۵].

الآية التالية تشرح و توضّح الهدف من خلق تلك الأشجار المباركة المثمرة فتقول: إنّ الغرض من خلقها لكى يأكلوا من ثمارها دون حاجة إلى بذل جهد فى ذلك و دون تدخّل الإنسان فى صناعتها .. لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَ فَلا يَشْكُرُونَ

نعم، ثمار على شكل غذاء كامل تظهر على أغصان أشجارها، قابلة للأكل بمجرّد جنيها من أغصانها، و لا تحتاج إلى طبخ أو أيّة تغييرات اخرى، ذلك إشارة إلى غاية لطف اللّه بهذا الإنسان و كرمه.

حتّى أنّ ذلك الطعام الجاهز اللذيذ، يمكن تجميعه و تعليبه لكى يحفظ لمدّة طويلة بدون أن ينقص من قيمته الغذائية شىء، على

خلاف الأغذية التى يصنعها الإنسان من المواد الطبيعية التى أعطاها اللّه له، فهى غالبا ما تكون سريعة التلف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۰

و الفساد.

و يوجد تفسير آخر أيضا لمعنى الآية، و هو جدير بالنظر، و ذلك أنّ القرآن الكريم يريد الإشارة إلى الفواكه التى يمكن الاستفادة منها دون إدخال تغيير عليها، و كذلك إلى أنواع الأغذية المختلفة التى يمكن الحصول عليها من تلك الفواكه، بالقيام ببعض الأمور (فى التّفسير الأوّل تكون (ما) فى الجملة نافية، بينما فى التّفسير الثانى تكون موصولة).

و على كلّ حال، فالهدف هو تحريك حسّ تشخيص الحقّ، و الشكر فى الإنسان، لكى يضعوا أقدامهم على أوّل طريق معرفة اللّه عن طريق الشكر، لأنّ شكر المنعم أوّل قدم فى طريق معرفته.

الآية الأخيرة من الآيات موضع البحث، تتحدّث عن تسبيح اللّه و تنزيهه، و تشجب شرك المشركين الذى ذكرته الآيات السابقة، و توضّح طريق التوحيد و عبادة الأحد الصمد للجميع فتقول: سُبْحانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا لا يَعْلَمُونَ ۱۷۶].

نعم، فاللّه الذى خلق كلّ هذه الأزواج فى هذا العالم الواسع، لا حدّ لعلمه و قدرته و منزّه عن كلّ نقص و عيب، لذا فلا شريك و لا شبيه له، و إن عدّ بعض الناس الحجر و الخشب الجامد الميّت نظائر له، فإنّ تلك النسبة الباطلة لا تنقص من مقام كبريائه شيئا.

بديهى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ليس بحاجة إلى أن يسبّحه أحد، إنّما ذلك تعليم للعباد و منهاج عملى من أجل طى طريق التكامل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۱

أمّا ما هو المقصود من «أزواج» هنا، فللمفسّرين أقوال كثيرة.

ما هو مسلّم به أنّ «أزواج» جمع «زوج» عادة، تطلق على الذكر و الأنثى من أى نوع، سواء كان ذلك فى عالم الحيوان أو فى غيره، ثمّ شمل المعنى كلّ إثنين يقترنان مع بعضهما البعض أو حتّى إذا تضادّا، حتّى الغرفتين المتشابهتين فى البيت يقال لهما زوج، و دفّتى الباب و هكذا، فالمتصوّر أنّ لكلّ مخلوق زوج.

على كلّ حال فليس من المستبعد أن يكون المعنى المقصود هنا هو المعنى الخاصّ، أى جنس المذكر و المؤنث، و القرآن الكريم يخبر من خلال هذه الآية عن وجود ظاهرة الزوجية فى جميع عوالم النبات و الإنسان و الموجودات الاخرى التى لم يطّلع عليها البشر.

هذه الموجودات يمكن أن تكون النباتات التى لم تحدّد سعة دائرة الزوجية فيها حتّى الآن. أو إشارة إلى الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار، و هذه الحقيقة لم تعرف سابقا، و ما عرف منها فى العصر الحاضر إلّا جانب يسير.

أو أنّها إشارة إلى موجودات اخرى تقطن كواكب اخرى فى هذا الكون المترامى. أو موجودات حيّة لا ترى بالعين المجرّدة، و إن كان العلماء فى وقتنا الحاضر يشيرون إلى أنّ ليس فى تلك الموجودات الحيّة ذكر و أنثى، و لكن عالم هذه الموجودات الحيّة غامض و معقّد إلى درجة أنّ العلم البشرى حتّى الآن لم يلج كلّ غوامضها و مكنوناتها.

و حتّى وجود الزوجية فى عالم النبات- كما قلنا- لم يكن معلوما منها فى عصر نزول القرآن سوى بعض الحالات المحدودة كما فى النخل و أمثاله، و قد كشف القرآن الكريم الستار عن ذلك كلّه، و قد ثبت أخيرا من البحوث العلمية أنّ الزوجية قضيّة عامّة و شاملة فى عالم النبات.

كذلك احتمل أيضا أن تكون قضيّة الزوجية هنا إشارة إلى وجود البروتونات الموجبة و الالكترونات السالبة فى الذرّة التى تعتبر الأساس فى تشكيل كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۲

الموجودات فى عالم المادّة و لم يكن الإنسان مطّلعا على هذه الحقيقة و الزوجية قبل تفجير الذرّة، و لكن بعد ذلك ثبت علميا وجود

الأزواج السالبة و الموجبة فى نواة الذرّة و الالكترونات التى تدور حولها.

البعض اعتبر «الزوجية» هنا إشارة إلى تركيب الأشياء من «مادّة» و «صورة» أو «جوهر» و «عرض»، و البعض الآخر قالوا: إنّها كناية عن «الأصناف و الأنواع المختلفة» للنباتات و البشر و الحيوانات و سائر موجودات العالم.

و لكن الواضح أنّه حينما نستطيع حمل هذه الألفاظ على المعنى الحقيقى (جنس المذكّر و المؤنّث) و لا نجد قرينة على خلاف ذلك، فلا داعى لأن نبحث بعد ذلك عن المعانى الكناية، و كما لا حظنا فإنّ هناك عدّة تفاسير جميلة للزوجية بالمعنى الحقيقى لها.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية واحدة من الآيات التى توضّح محدودية علم الإنسان، و تدلّل على أنّ هناك الكثير من الحقائق الخافية علينا و عن معلوماتنا حتّى الآن.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (۳۷) وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۳۸) وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (۳۹) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (۴۰)

التّفسير

هذه الآيات تتحدّث فى قسم آخر من آثار عظمة اللّه فى عالم الوجود، و حلقة اخرى من حلقات التوحيد التى مرّ منها فى الآيات السابقة ما يتعلّق بالمعاد و إحياء الأرض الميتة، و نمو النباتات و الأشجار.

تقول الآية الكريمة الاولى وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ

«نسلخ» من مادّة (سلخ) و تعنى فى الأصل نزع جلد الحيوان، و التعبير فى الآية تعبير لطيف، فكأنّ نور النهار لباس أبيض ألبسه جسد الليل، ينزع عنه إذا حلّ الغروب ليبدو لونه الذاتى، و التأمّل فى هذا التعبير يوضّح هذه الحقيقة، و هى أنّ الظلام هو الطبيعة الأصل للكرة الأرضية، و أنّ النور و الإضاءة صفة عارضة عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۴

تأتيها من مصدر آخر، فهو كاللباس الذى يرتدى، و حينما يخلع ذلك الثوب، يظهر اللون الطبيعى للبدن ۱۷۷].

هنا يشير القرآن الكريم إلى ظلمة الليل، و كأنّه يريد- بعد أن تعرّض إلى كيفية إحياء الأرض الميتة كآية من آيات اللّه فى الآيات السابقة- أن يعرض نموذجا عن الموت بعد الحياة من خلال مسألة تبديل النور بظلمة الليل.

على كلّ حال، فعند ما يستغرق الإنسان فى ظلمة الليل، و يتذكّر النور و بركاته و نشاطه و منبعه يتعرّف- بتأمّل يسير- على خالق النور و الظلام.

الآية التى بعدها تتعرّض إلى النور و الإضاءة و تذكر الشمس فتقول:

وَ الشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها[۱۷۸].

هذه الآية تبيّن بوضوح حركة الشمس بشكل مستمر، أمّا ما هو المقصود من تلك الحركة؟ فللمفسّرين أقوال متعدّدة:

قال بعضهم: إنّ ذلك إشارة إلى حركة الشمس الظاهرية حول الأرض، تلك الحركة التى ستستمر إلى آخر عمر العالم الذى هو نهاية

عمر الشمس ذاتها.

و قال آخرون: إنّه إشارة إلى ميل الشمس فى الصيف و الشتاء نحو الشمال و الجنوب على التوالى، لأنّنا نعلم بأنّ الشمس تميل عن خطّ اعتدالها فى بدء الربيع بطرف الشمال، لتدخل فى مدار (۲۳) درجة شمالا، و تعود مع بدء الصيف قليلا قليلا حتّى تنتهى إلى خطّ اعتدالها عند بداية الخريف و تستمر على خطّ سيرها ذلك باتّجاه الجنوب حتّى بدء الشتاء، و من بدء الشتاء تتحرّك باتّجاه خطّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۵

اعتدالها حتّى تبلغ ذلك عند بدء الربيع. و بديهى أنّ جميع تلك الحركات فى الواقع ناجمة عن حركة الأرض حول الشمس و انحرافها عن خطّ مدارها، و ان كانت ظاهرا تبدو و كأنّها حركة الشمس.

و آخرون اعتبروا الآية إشارة إلى حركة الشمس الموضعية بالدوران حول نفسها، حيث أثبتت دراسات العلماء بشكل قطعى أنّ الشمس تدور حول نفسها[۱۷۹].

و آخر و أحدث التفاسير التى ظهرت بخصوص هذه الآية، هو ما كشفه العلماء أخيرا من حركة الشمس مع منظومتها باتّجاه معيّن ضمن المجرة التى تكون المجموعة الشمسية جزءا منها، و قيل أنّ حركتها باتّجاه نجم بعيد جدّا أطلقوا عليه اسم «وجا».

كلّ هذه المعانى المشار إليها لا تتضارب فيما بينها، و يمكن أن تكون جملة «تجرى» إشارة إلى جميع تلك المعانى و معانى اخرى لم يصل العلم إلى كشفها، و سوف يتمّ كشفها فى المستقبل.

و على كلّ حال، فإنّ حركة كوكب الشمس الذى يعادل مليون و مائتى الف مرّة حجم الأرض، بحركة دقيقة و منظمة فى هذا الفضاء اللامتناهى، ليس مقدورا لغير اللّه سبحانه الذى تفوق قدرته كلّ قدرة و بعلمه اللامتناهى، لذا فإنّ الآية تضيف فى آخرها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

أمّا آخر ما قيل فى تفسير هذه الآية فهو أنّ تعبير الآية يشير إلى نظام السنّة الشمسية الناشئ عن حركة الشمس عبر الأبراج المختلفة، ذلك النظام الذى يعطى لحياة الإنسان نظاما و برنامجا معيّنا يؤدّى إلى تنظيم حياته من مختلف النواحى.

لذا فإنّ الآية التالية تتحدّث عن حركة القمر و منازلة التى تؤدّى إلى تنظيم أيّام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۶

الشهر، و ذلك لأجل تكميل البحث السابق، فتقول الآية: وَ الْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ

المقصود ب (المنازل) تلك المستويات الثمانية و العشرون التى يطويها القمر قبل الدخول فى «المحاق» و الظلام المطلق. لأنّ القمر يمكن رؤيته فى السماء إلى اليوم الثامن و العشرين، و لكنّه يكون فى ذلك اليوم هلالا ضعيفا مائلا لونه إلى الاصفرار، و يكون نوره قليلا- و شعاعه ضعيفا جدّا، و فى الليلتين الباقيتين من الثلاثين يوما تنعدم رؤيته تماما و يقال: إنّه فى دور (المحاق)، ذلك إذا كان الشهر ثلاثين يوما، أمّا إذا كان تسعة و عشرين يوما، فإنّ نفس هذا الترتيب سيبدأ من الليلة السابعة و العشرين ليدخل بعدها القمر فى (المحاق).

تلك المنازل محسوبة بدقّة كاملة، بحيث أنّ المنجّمين منذ مئات السنين يستطيعون أن يتوقّعوا تلك المنازل ضمن حساباتهم الدقيقة.

هذا النظام العجيب ينظّم حياة الإنسان من جهة، و من جهة اخرى فهو تقويم سماوى طبيعى لا- يحتاج إلى تعلّم القراءة و الكتابة لمتابعته. بحيث أنّ أىّ إنسان يستطيع بقليل من الدقّة و الدراية فى أوضاع القمر خلال الليالى المختلفة ..

يستطيع بنظرة واحدة أن يحدّد بدقّة أو بشكل تقريبى أيّة ليلة هو فيها.

ففى الليلة الاولى يظهر الهلال الضعيف و طرفاه إلى الأعلى، و يزداد حجمه ليلة بعد ليلة حتّى الليلة السابعة حيث تكتمل نصف دائرة القمر، ثمّ تستمر الزيادة حتّى تكتمل الدائرة الكاملة للقمر فى الليلة الرابعة عشرة و يسمّى حينئذ «بدرا». ثمّ يبدأ بالتناقص تدريجيا حتّى الليلة الثامنة و العشرين حيث يصبح هلالا باهتا يشير طرفاه إلى الأسفل.

نعم، فإنّ النظم يشكّل أساس حياة الإنسان، و النظم بدون التعيين الدقيق للزمن ليس ممكنا، لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى قد وضع لنا هذا التقويم الدقيق للشهور و السنين فى كبد السماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۷

بعد استعراضنا لأشكال القمر و منازله يتّضح تماما معنى الجملة التالية حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۱۸۰].

و فى الحقيقة فإنّ الشبه بين العرجون و الهلال من جوانب عديدة: من ناحية الشكل الهلالى، و من ناحية اللون الأصفر، و الذبول، و إشارة الأطراف إلى الأسفل، و كونه فى وسط دائرة مظلمة تكون فى حالة العرجون منسوبة إلى سعف النخل الأخضر، و بالنسبة للهلال منسوبة إلى السماء المظلمة.

و الوصف ب (القديم) إشارة إلى كون العرجون عتيقا، فكلّما مرّ عليه زمن و تقادم أكثر أصبح ضعيفا و ذابلا و اصفّر لونه و أصبح يشبه الهلال كثيرا قبل دخوله المحاق.

و سبحان اللّه فقد تضمّن تعبير واحد قصير كلّ تلك الظرافة و الجمال؟

الآية الأخيرة من هذه الآيات، تتحدّث عن ثبات و دوام ذلك النظم فى السنين و الشهور، و النهار و الليل، فقد وضع اللّه سبحانه و تعالى لها نظاما و برنامجا لا يقع بسببه أدنى اضطراب أو اختلال فى وضعها و حركتها، و بذا ثبت تاريخ البشر و انتظم بشكل كامل، تقول الآية: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

من المعلوم أنّ الشمس تطوى فى دورانها خلال العام الأبراج الإثنى عشر، فى حين أنّ القمر يطوى منازله خلال شهر واحد، و عليه فحركة القمر أسرع من حركة الشمس فى مدارها اثنتى عشرة مرّة، لذا فإنّ الآية تقول بأنّ الشمس بحركتها لا يمكنها أن تدرك القمر فى حركته فتقطع فى شهر واحد ما تقطعه فى سنة واحدة.

و بذا يختلّ النظام السنوى لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۸

كما أنّ الليل لا يتقدّم على النهار، بحيث يدخل جزء منه فى النهار، فيختلّ النظام الموجود، بل إنّهما- على مدى ملايين السنين- ثابتان على مسيرهما دون أدنى تغيير.

يتّضح ممّا قلنا أنّ المقصود من حركة الشمس فى هذا البحث، هى الحركة بحسب حسّنا بها، و الملفت للنظر هنا، هو أنّ هذا التعبير عن حركة الشمس ظلّ يستعمل حتّى بعد أن ثبت للجميع بأنّ الشمس هى المركز الثابت لحركة الأرض حولها، فمثلا يقال: إنّ الشمس قد تحوّلت إلى برج الحمل، أو يقال: وصلت الشمس إلى دائرة نصف النهار، أو أنّ الشمس بلغت الميل الكامل (الميل الكامل هو بلوغ الشمس إلى أقصى نقطة ارتفاع لها فى نصف الكرة الأرضية الشمالى فى بداية الصيف أو بالعكس أدنى نقطة انخفاض فى بداية الشتاء).

هذه التعبيرات تدلّل دوما على أنّه حتّى بعد أن تمّ الكشف عن دوران الأرض حول الشمس و ثبات الأخيرة ظلّت تستخدم، لأنّ النظر الحسّى يستشعر حركة الشمس و ثبات الأرض، و من هنا تستعمل هذه التعبيرات، و على هذا أيضا يكون قوله تعالى: وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

كذلك يحتمل أن يكون المقصود من (السباحة) هنا حركة الشمس فى فلكها مع المنظومة الشمسية و المجرّة التى نحن فيها، حيث أنّ الثابت علميا حاليا أنّ المنظومة الشمسية التى نعيش فيها جزء من مجرّة عظيمة هى بدورها فى حالة دوران. إذ أنّ «فلك» كما يقول أرباب اللغة بمعنى: بروز و استدارة ثدى البنت، ثمّ أطلقت على القطعة المدوّرة من الأرض أو الأشياء المدوّرة الاخرى أيضا، و منه اطلق على مسير الكواكب الدورانى.

جملة كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ فى إعتقاد الكثير من المفسّرين، إشارة إلى كلّ من الشمس و القمر و النجوم الاخرى التى تتّخذ لنفسها

مسارات و مدارات، و إن لم یرد ذکر النجوم فی الآیة، و لکن بملاحظة ذکر «اللیل» و اقتران ذکر النجوم مع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۸۹

القمر و الشمس، لا یستبعد المعنی المذکور، خاصّة و أنّ «یسبّحون» ورد بصیغة الجمع.

و کذلک یحتمل أن تکون الجملة إشارة إلی کلّ من الشمس و القمر و اللیل و النهار، لأنّ کلا من اللیل و النهار له مدار خاص، و یدور حول الأرض بدقّة، فالظلام یغطّی نصف الکرة الأرضیة دوما، و النور یغطّی النصف الآخر منها، و هما یتبادلان المواضع خلال أربع و عشرین ساعة و یتمّان دورة کاملة حول الأرض.

«یسبّحون» من مادة «سباحة» و هی کما یقول «الراغب» فی المفردات: المرّ السریع فی الماء و الهواء. و استعیر لحرکة النجوم فی الفلک و التسبیح تنزیه اللّه تعالی، و أصله المرّ السریع فی عبادة اللّه!» و لذا فإنّها فی الآیة إشارة إلی الحرکة السریعة للأجرام السماویة، و الآیة تشبهها بالموجودات العاقلة المستمرة فی دورانها، و قد ثبت حالیا أنّ الأجرام السماویة تنطلق بسرعة هائلة فی الفضاء.

***

بحوث

۱- حرکة الشمس (الدورانیة) و (الجریانیة)

«الدوران» لغة یطلق علی الحرکة المغزلیة، فی حال أنّ «الجریان» یطلق علی الحرکة الطولیة، و الملفت للنظر أنّ الآیات أعلاه، نسبت الحرکتین إلی الشمس، فقالت: وَ الشَّمْسُ تَجْرِی ... و کُلٌّ فِی فَلَکٍ یَسْبَحُونَ

کانت المحافل العلمیة أیّام نزول الآیة متمسّکة بنظریة «بطلیموس» التی کانت تقول بأنّ الأجرام السماویة لیس فیها حرکة دورانیة، بل إنّ باطن الأفلاک التی تتکوّن من أجسام بلّوریة متراکمة علی بعضها البعض کتراکم طبقات البصلة و ثابتة، و حرکتها تتبع حرکة أفلاکها، و علیه فلم یکن فی تلک الأیّام معنی لا لجریان الشمس و لا غیره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۰

أمّا بعد أن تداعت الاسس التی تقوم علیها فرضیة بطلیموس فی ضوء الاکتشافات الجدیدة فی القرون الأخیرة، و تحرّرت الأجرام السماویة من قید الأفلاک البلوریة، فقد قویت نظریة کون الشمس هی مرکز المنظومة الشمسیة، و هی ثابتة و جمیع المنظومة الشمسیة تدور حولها.

هنا أیضا لم تکن تعبیرات الآیات أعلاه مفهومة فیما یتعلّق بحرکة الشمس الطولیة و الدورانیة حتّی أثبت العلم بتطوّره عدّة حرکات للشمس فی العقود الأخیرة. و هی:

حرکة الشمس الموضعیة حول نفسها.

حرکة الشمس الطولیة مع المنظومة الشمسیة باتّجاه نقطة محدّدة فی السماء.

و حرکتها الدورانیة مع المجرّة التی تتبعها و بذا ثبتت معجزة علمیة اخری للقرآن.

و لتوضیح هذه المسألة نورد ما ورد فی إحدی دوائر المعارف حول حرکة الشمس:

للشمس حرکة ظاهریة و اخری واقعیة، و تشترک الشمس فی الحرکة الظاهریة- الیومیة- فهی تشرق من مشرق نصف الکرة الأرضی الذی نعیش فیه، و تمرّ فی طرف الجنوب من نصف النهار ثمّ تغرب من المغرب، و عبورها من نصف النهار یشخّص الظهر الحقیقی- الزوال-.

و للشمس أیضا حرکة ظاهریة اخری- سنویة- حول الأرض بحیث أنّها تقترب من المشرق درجة واحدة کلّ یوم، و فی هذه الحرکة تمرّ الشمس مقابل الأبراج مرّة واحدة کلّ عام، و مدار هذه الحرکة یقع علی صفحة «دائرة البروج» و لهذه الحرکة أهمیّة عظمی فی علم الفلک، فظاهرة «الاعتدالین» و «الانقلاب» و «المیل الکلّی» کلّها مرتبطة بهذا العلم، و علی أساس ذلک یحسب العام الشمسی.

علاوة علی هذه الحرکات الظاهریة فإنّ للشمس حرکة دورانیة فی المجرّة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۱

فالشمس تنطلق بسرعة دورانیة فی الفضاء تعادل ملیون و مائة و ثلاثین ألف کیلومتر فی الساعة!! و فی داخل المجرّة فهی لیست ثابتة أیضا، بل إنّها أیضا تدور بسرعة تقارب إثنین و سبعین الف کیلومتر فی الساعة ضمن المجموعة النجمیة المسمّاة «الجاثی علی رکبتیه»[۱۸۱].

و عدم علمنا بتلک الحرکة السریعة للشمس هو بعد الأجرام السماویة، و الذی هو المانع من تشخیص تلک الحرکة الموضعیة أیضا.

دورة الحرکة الوضعیة للشمس علی محورها تستغرق حدود الخمسة و عشرین یوما بلیالیها[۱۸۲].

۲- تعبیر «تدرک» و «سابق»

إنّ التعبیرات القرآنیة استعملت بدقّة متناهیة لا یمکن الإحاطة بجمیع أبعادها.

ففی الآیات أعلاه حینما تتحدّث عن الحرکة الظاهریة للقمر و الشمس خلال المسیرة الشهریة و السنویة تقول: لَا الشَّمْسُ یَنْبَغِی لَها أَنْ تُدْرِکَ الْقَمَرَ. إذ أنّ القمر ینهی مسیرته فی شهر واحد بینما الشمس فی عام کامل.

أمّا حینما تحدّثت عن اللیل و النهار قالت: وَ لَا اللَّیْلُ سابِقُ النَّهارِ لعدم وجود فاصلة بینهما و لتعاقبهما. فالتعابیر غایة فی الدقّة.

۳- نظام النور و الظلام فی حیاة البشر:

تعرّضت الآیات أعلاه إلی موضوعین من أهمّ المواضیع المتعلّقة بحیاة البشر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۲

علی أنّهما آیتان من آیات اللّه و هما مسألة ظلمة اللیل و مسألة الشمس و نورها.

قلنا سابقا أنّ النور من ألطف و أکثر موجودات العالم المادّی برکة. و لیس لإضاءتنا و معیشتنا فقط فکلّ حرکة و نشاط مرتبط بنور الشمس، نزول قطرات المطر، نمو النباتات، تفتّح البراعم، نضوج الثمار و الفواکه، خریر الجداول، تلوین مائدة الطعام بأنواع المواد الغذائیة، و حتّی حرکة عجلة المصانع العظیمة، و تولید الطاقة الکهربائیة، و أنواع المنتجات الصناعیة، کلّها تعود فی أصلها إلی هذا المنبع العظیم للطاقة، أی نور الشمس.

و خلاصة القول فإنّ جمیع الطاقات علی سطح الکرة الأرضیة- عدا الطاقة الناجمة عن تفجیر الذرّة- جمیعها تستمدّ وجودها من نور الشمس، و لو لا الأخیر لخیّم الصمت و الموت علی کلّ مکان.

ظلمة اللیل مع أنّها تذکر بالموت و الفناء، فإنّها تعدّ من الأمور الحیاتیة الهامّة فی حیاة البشر، لأنّها تعدل نور الشمس و تؤثّر عمیقا فی راحة جسم و روح الإنسان، و المنع من المخاطر الناجمة عن تسلّط أشعّة الشمس بشکل متواصل و مستمر، بحیث لو لم یکن اللیل عقیب النهار لارتفعت درجة الحرارة علی سطح الأرض إلی درجة أنّ الأشیاء جمیعا تأخذ بالاشتعال و الاحتراق، کذلک فی القمر حیث اللیالی و الأیّام طویلة (کلّ لیلة هناک تعادل حوالی خمسة عشر یوما بلیالیها علی الأرض، کذلک الحال بالنسبة للنهار) فحرارة

النهار قاتلة، و برودة مجمّدة.

و عليه فإنّ كلا من «النور و الظلام» آية إلهية عظيمة.

ناهيك عن أنّ النظام المتناهى الدقّة الذى يحكمهما، أدّى إلى تنظيم تأريخ حياة البشر، ذلك التأريخ الذى لو لا وجوده لتفتتت الروابط الاجتماعية، و أصبحت الحياة بالنسبة إلى البشر أشبه بالمستحيل، و بذا فإنّ كلا من «النور و الظلام» آيتان إلهيتان من هذه الناحية أيضا.

و الملفت للنظر هنا هو قول القرآن الكريم: وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ. و هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۳

التعبير يدلّل على أنّ النهار خلق قبل الليل، و الليل بعده تماما، فلو أنّ أحدا نظر من خارج الكرة الأرضية فسيرى موجودين أسود و أبيض يدوران بشكل مرتّب حول الأرض، و فى مثل هذه الحركة الدائرية لا يمكن تصوّر القبل و البعد فيها.

و لكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ الأرض التى نعيش عليها كانت يوما ما جزءا من الشمس، و فى ذلك الوقت لم يكن سوى النهار، و لا وجود لليل، ثمّ بعد أن انفصلت الكرة الأرضية عن الشمس و ابتعدت تكون لها ظلّ مخروطى الشكل من الجهة المخالفة للشمس فكأنّ الليل، الليل الذى أصبحت حركته بعد النهار، نعم، لو توجّهنا لكلّ ذلك لاتّضحت دقّة و لطافة هذا التعبير.

و كما قلنا سابقا فليس الشمس و القمر وحدهما يسبحان فى هذا الفضاء المترامى، بل إنّ الليل و النهار أيضا يسبحان حول الكرة الأرضية، و كلّ منهما له مدار و مسير دائرى.

و قد ورد فى روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام التصريح بأنّ اللّه سبحانه و تعالى خلق النهار قبل الليل.

فعن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال جوابا على سؤال فى حديث طويل: «نعم خلق النهار قبل الليل، و الشمس و القمر و الأرض قبل السماء»[۱۸۳].

و

عن الإمام الرضا عليه السّلام أنّه قال: «فالنهار خلق قبل الليل و فى قوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ أى قد سبقه النهار»[۱۸۴].

و ورد نفس المعنى

عن الإمام الباقر عليه السّلام حين قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الشمس قبل القمر، و خلق النور قبل الظلمة»[۱۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۴۱) وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (۴۲) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ (۴۳) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ (۴۴)

التّفسير

حركة السفن فى البحار آية إلهيّة:

رغم أنّ بعض المفسّرين أمثال القرطبى اعتبر الآية الاولى من هذه الآيات من أعقد و أصعب آيات هذه السورة، إلّا أنّه و بتدقيق النظر فى هذه الآيات و ربطها بالآيات السابقة، يتّضح أن ليس هناك تعقيد فى هذه الآيات، لأنّ الآيات السابقة تحدّثت عن دلالة قدرة البارى عزّ و جلّ فى خلق الشمس و القمر و الليل و النهار و كذلك الأرض و بركاتها، و فى هذه الآيات التى أمامنا يتحدّث البارى عزّ و جلّ عن البحار و قسم من بركات و نعم و مواهب البحار، يعنى حركة السفن التجارية و السياحية على سطحها.

علاوة على أنّ حركة السفن فى خضمّ المحيطات ليست بعيدة فى الشبه عن حركة الكواكب السماوية فى خضمّ المحيط الفضائى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۵

لذا فإنّ الآيات الكريمة تقول أوّلا: وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

الضمير «لهم» لا يعود فقط على مشركى مكّة، بل على جميع العباد الذين أشارت لهم الآيات السابقة.

«ذرّية»: كما يقول الراغب فى مفرداته، أصلها الصغار من الأولاد، و إن كان يقع على الصغار و الكبار معا عرفا، و يستعمل للواحد و الجمع.

و ما تذكره الآية من حمل ذريّاتهم و ليس هم ربّما لأنّ الأولاد هم أكثر حاجة لركوب مثل ذلك المركب السريع، بلحاظ أنّ الكبار أكثر استعدادا للسير على سواحل البحار و طى الطريق من هناك!! فضلا عن أنّ هذا التعبير أنسب لتحريك عواطفهم.

«مشحون» أى مملوء، إشارة إلى أنّ السفن لا تحملهم هم فقط، بل أموالهم و تجارتهم و أمتعتهم و ما أهمّهم أيضا.

و ما قاله البعض من أن «الفلك» إشارة إلى سفينة نوح، و «ذريّة» بمعنى الآباء من مادّة «ذرأ» بمعنى خلق، فيبدو بعيدا، إلّا إذا كان من قبيل ذكر المصداق البارز.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۱۹۵

ى كلّ حال فإنّ حركة السفن و البواخر التى هى من أهمّ و أضخم وسائل الحمل و النقل البشرى، و ما يمكنها إنجازه يعادل آلاف الأضعاف لما تستطيعه المركّبات الاخرى، كلّ ذلك ناجم عن خصائص الماء و وزن الأجسام التى تصنع منها السفن، و الطاقة التى تحرّكها، سواء كانت الريح أو البخار أو الطاقة النووية.

و كلّ هذه القوى و الطاقات التى سخّرها اللّه للإنسان، كلّ واحدة منها و كلّها معا آية من آيات اللّه سبحانه و تعالى.

و لكى لا يتوهّم أنّ المركّب الذى أعطاه اللّه للإنسان هو السفينة فقط، تضيف الآية التالية قائلة: وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ المراكب التى تسير على الأرض، أو فى الهواء و تحمّل البشر و أثقالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۶

و مع أنّ البعض فسّر هذه الآية بخصوص «الجمل» الذى لقّب ب «سفينة الصحراء»، و البعض الآخر ذهب إلى شمولية الآية لجميع الحيوانات، و البعض فسّرها بالطائرات و السفن الفضائية التى اخترعت فى عصرنا الحالى تعبير «خلقنا» يشملها بلحاظ أنّ موادّها و وسائل صنعها خلقت مسبقا) و لكن إطلاق تعبير الآية يعطى مفهوما واسعا يشمل جميع ما ذكر و كثيرا غيره.

فى بعض آيات القرآن الكريم ورد مرارا الاقتران بين «الأنعام» و «الفلك» مثل قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ زخرف- ۱۲، و كذلك قوله تعالى: وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ المؤمن- ۸۰.

و لكن هذه الآيات أيضا لا تنافى عمومية مفهوم الآية مورد البحث.

الآية التالية- لأجل توضيح هذه النعمة العظيمة- تتعرّض لذكر الحالة الناشئة من تغيير هذه النعمة فتقول: وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ

فنصدّر أمرنا لموجة عظيمة فتقلب سفنهم، أو نأمر دوّامة بحرية واحدة ببلعهم، أو يتقاذفهم الطوفان بموجة فى كلّ اتّجاه بأمرنا، و إذا

أردنا فنستطيع بسلبنا خاصّية الماء و نظام هبوب الريح و هدوء البحر و غير ذلك أن نجعل الاضطراب صفة عامّة تؤدّى إلى تدمير كلّ شيء، و لكنّنا نحفظ هذا النظام الموجود ليستفيدوا منه. و إذا وقعت بين الحين و الحين حوادث من هذا القبيل فإنّ ذلك لينتبهوا إلى أهميّة هذه النعمة الغامرة.

«صريخ» من مادّة «صرخ» بمعنى الصياح. و «ينقذون» من مادّة «نقذ» بمعنى التخليص من ورطة.

و أخيرا تضيف الآية لتكمل الحديث فتقول: إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ

نعم فهم لا يستطيعون النجاة بأيّة وسيلة إلّا برحمتنا و لطفنا بهم.

«حين» بمعنى «وقت» و هى فى الآية أعلاه إشارة إلى نهاية حياة الإنسان و حلول أجله، و ذهب البعض إلى أنّها تعنى نهاية العالم بأسره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۷

نعم، فالأشخاص الذين ركبوا السفن أيّا كان نوعها و حجمها يدركون عمق معنى هذه الآية، فإنّ أعظم السفن فى العالم تكون كالقشّة حيال الأمواج البحرية الهائلة أو الطوفانات المفجعة للمحيطات، و لو لا شمول الرحمة الإلهية فلا سبيل إلى نجاة أحد منهم إطلاقا.

يريد اللّه سبحانه و تعالى بذلك الخيط الرفيع بين الموت و الحياة أن يظهر قدرته العظيمة للإنسان، فلعلّ الضالّين عن سبيل الحقّ يعودون إلى الحقّ و يتوجّهون إلى اللّه و يسلكون هذا الطريق.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۸

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۵ الى ۴۷]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۴۵) وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (۴۶) وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۴۷)

التّفسير

الإعراض عن جميع آيات اللّه:

بعد أن كان الحديث فى الآيات السابقة عن الآيات الإلهيّة فى عالم الوجود، تنتقل هذه الآيات لتتحدّث عن ردّ فعل الكفّار المعاندين فى مواجهة هذه الآيات الإلهيّة، و كذلك توضّح دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهم و إنذارهم بالعذاب الإلهى الأليم.

يفتتح هذا المقطع بالقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۱۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۱۹۹

للمفسّرين أقوال عديدة حول ما هو معنى قوله: ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ و ما خَلْفَكُمْ منها: أنّ المقصود ب «ما بين أيديكم» العقوبات الدنيوية التى أوردت الآيات السابقة نماذج منها، و المقصود ب «ما خلفكم» عقوبات الآخرة، و كأنّه يراد القول بأنّها خلفهم و لم تأت إليهم و سوف تصل إليهم فى يوم ما و تحيط بهم، و المقصود ب «التقوى» من هذه العقوبات، هو عدم إيجاد العوامل التى تؤدّى إلى وقوع هذه العقوبات، و الدليل على ذلك أنّ التعبير ب «اتّقوا» يرد فى القرآن إمّا عند ذكر اللّه سبحانه و تعالى أو عند ذكر يوم القيامة و

العقوبات الإلهيّة، و هذان الذكران وجهان لحقيقة واحدة، إذن أنّ الاتّقاء من اللّه هو اتّقاء من عقوباته.

و ذلك دليل على أنّ الآية تشير إلى الاتقاء من عذاب اللّه و مجازاته فى الدنيا و فى الآخرة.

و من هذه التّفسيرات أيضا عكس ما ورد فى التّفسير الأوّل، و هو أنّ «ما بين أيديكم» تعنى عقوبات الآخرة و «ما خلفكم» تعنى عذاب الدنيا، لأنّ الآخرة أمامنا (و هذا التّفسير لا يختلف كثيرا عن الأوّل من حيث النتائج).

و ذهب آخرون إلى أنّ المقصود من «بين أيديكم» الذنوب التى ارتكبت سابقا، فتكون التقوى منها بالتوبة و جبران ما تلف بواسطتها، و «ما خلفكم» الذنوب التى سترتكب لا حقا.

و البعض يرى بأنّ «بين أيديهم» الذنوب الظاهرة، و «ما خلفكم» الذنوب الباطنة و الخفيّة.

و قال البعض الآخر: «ما بين أيديكم» إشارة إلى أنواع العذاب فى الدنيا، و «ما خلفكم» إشارة إلى الموت (و الحال أنّ الموت ليس ممّا يتّقى منه!!).

و البعض- كصاحب تفسير «فى ظلال القرآن»- اعتبر هذين التعبيرين كناية عن إحاطة موجبات الغضب و العذاب الإلهى التى تحيط بالكافر من كلّ جانب.

و «الآلوسى» فى «روح المعانى» و «الفخر الرازى» فى «التّفسير الكبير» كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۰

منهما ذكر احتمالات متعدّدة، ذكرنا قسما منها.

و «العلّامة الطباطبائى» فى «الميزان» يرى أنّ «ما بين أيديكم» الشرك و المعاصى فى الحياة الدنيا، و «ما خلفكم» العذاب فى الآخرة[۱۸۷]. فى حين أنّ ظاهر الآية هو أنّ كلا الإثنين من جنس واحد، و ليس بينهما سوى التفاوت الزمنى، لا أنّ إحداهما إشارة إلى الشرك و الذنوب، و الاخرى إشارة إلى العقوبات الواقعة نتيجة ذلك.

على كلّ حال فأحسن تفسير لهذه الجملة هو ما ذكرناه أوّلا، و آيات القرآن المختلفة شاهد على ذلك أيضا، و هو أنّ المقصود من «ما بين أيديكم» هو عقوبات الدنيا و «ما خلفكم» عقوبا الآخرة.

الآية التالية تؤكّد نفس المعنى و تشير إلى لجاجة هؤلاء الكفّار و إعراضهم عن آيات اللّه و تعاليم الأنبياء، تقول الآية الكريمة: وَ ما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ

فلا الآيات الأنفسية تؤثّر فيهم، و لا الآفاقية، و لا التهديد و الإنذار، و لا البشارة و التطمين بالرحمة الإلهيّة، لا يتقبلون منطق العقل و لا أمر العواطف و الفطرة، فهم مبتلون بالعمى الكلّى بحيث لا يتمكّنون حتّى من رؤية أقرب الأشياء إليهم، و حتّى أنّهم لا يفرّقون بين ظلمة الليل و شمس الظهيرة.

ثمّ يشخّص القرآن الكريم أحد الموارد المهمّة لعنادهم و إعراضهم فيقول:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَ نُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ذلك المنطق الضعيف الذى يتمسّك به الأنانيون و البخلاء فى كلّ عصر و زمان و يقولون: إنّ فلانا أصبح فقيرا بسبب عمل ارتكبه و أدّى به إلى الفقر، مثلما أنّنا أغنياء بسبب عمل عملنا فشملنا لطف اللّه و رحمته، و عليه فليس فقره و لا غنانا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۱

كانا بلا حكمة. غافلين عن أنّ الدنيا إنّما هى دار إمتحان و ابتلاء، و اللّه سبحانه و تعالى إنّما يمتحن البعض بالفقر كما يمتحن البعض الآخر بالغنى و الثروة، و ربّما يضع اللّه الإنسان و فى وقتين مختلفين فى بوتقة الامتحان الغنى و الفقر، و ينظر هل يؤدّى الأمانة حال فقره و يتمتّع بمناعة الطبع و يلج مراتب الشكر اللائقة، أم أنّه يطأ كلّ ذلك بقدمه و يمرّ؟ و فى حال الغنى هل ينفق ممّا تفضّل اللّه به عليه، أم لا؟

و رغم أنّ البعض قد حصر الآية من حيث التطبيق فى مجموعة خاصّة كاليهود، أو المشركين فى مكّة، أو جميع الملاحدة الذين أنكروا الأديان الإلهيّة، و لكن يبدو أنّ للآية مفهوما عامّا يمكن أن تكون له مصاديق فى كلّ عصر و زمان، و إن كان مصداقها حين نزولها هم اليهود أو المشركون فتلك ذريعة عامّة يتشبّثون بها على مرّ العصور، و هى قولهم: إذا كان اللّه هو الرازق إذا لماذا تريدون منّا أن نعطى الفقراء من أموالنا؟ و إذا كان اللّه يريد أن يرى هؤلاء محرومين فلما ذا تريدون منّا إغناء من أراد اللّه حرمانه؟ غافلين عن أنّ نظام التكوين قد يوجب شيئا، و يوجب نظام التشريع شيئا غيره.

فنظام التكوين- بإرادة اللّه- أوجب أن تكون الأرض بجميع مواهبها و عطاياها مسخّرة للبشر، و أن يعطى البشر حريّة انتخاب الأعمال لطى طريق تكاملهم، و فى نفس الوقت خلق الغرائز التى تتنازع الإنسان من كلّ جانب.

و نظام التشريع أوجب قوانين خاصّة للسيطرة على الغرائز و تهذيب النفوس، و تربية الإنسان عن طريق الإيثار و التضحية و التسامح و الإنفاق، و ذلك الإنسان الذى لديه الأهلية و الاستعداد لأن يكون خليفة اللّه فى الأرض، إنّما يبلغ ذلك المقام الرفيع من هذا الطريق، فبالزكاة تطهر النفوس، و بالإنفاق ينتزع البخل من القلوب، و يتحقّق التكافؤ، و تقلّ الفواصل الطبقية التى تفرز آلاف العلل و المفاسد فى المجتمعات.

و ذلك تماما كما يقول شخص: لماذا ندرس؟ أو لماذا نعلّم غيرنا؟ فلو شاء اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۲

سبحانه و تعالى لأعطى العلم للجميع، فلا تكون هنالك حاجة إلى التعلّم! فهل يقبل ذلك عاقل ۱۸۸]؟

جملة قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا و التى ورد التأكيد فيها على صفة الكفر، فى حين يمكن أن يكتفى بالضمير، إشارة إلى أنّ هذا المنطق الخرافى و التعلّل إنّما ينبع من الكفر! و لسان حال المؤمنين بقولهم: أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ إشارة إلى أنّ المالك الأصلى فى الحقيقة هو اللّه سبحانه و تعالى، و إن كانت تلك الأموال أمانة فى أيدينا أو أيديكم لأيّام، و يا لهم من بخلاء أولئك الذين لم يكونوا حاضرين لأن يحولوا المال إلى آخرين بأمر صاحب المال؟! أمّا جملة: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فلتفسيرها توجد احتمالات ثلاثة:

الأوّل: أنّها تتمّة ما قاله الكفّار للمؤمنين.

الثانى: أنّه كلام اللّه سبحانه و تعالى يخاطب به الكفّار.

الثالث: أنّه تتمّة ما قاله المؤمنون للكفّار.

و لكن التّفسير الأوّل هو الأنسب، لأنّه يتّصل مباشرة بحديث الكفّار السابق، و فى الحقيقة إنّهم يريدون معاملة المؤمنين بالمثل و نسبتهم إلى الضلال المبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۳

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۴۸ الى ۵۳]

اشارة

وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۸) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ (۴۹) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (۵۰) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (۵۱) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (۵۲)

إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (۵۳)

التّفسير

صيحة النشور!

بعد ذكر المنطق الأجوف و الذرائع التى تشبّث بها الكفّار فى مسألة الإنفاق فى الآيات السابقة، تتعرّض هذه الآيات إلى الحديث عن استهزائهم بالقيامة، لتنسف بجواب قاطع منطقهم الفارغ حول إنكار المعاد.

مضافا إلى أنّها تكمل بحوث التوحيد التى مرّت فى الآيات السابقة بالبحث حول المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۴

تقول الآية الكريمة الاولى: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فإذا لم تستطيعوا تشخيص زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنّكم لستم صادقين فى حديثكم.

الآية التالية ترد على هذا التساؤل المقرون بالسخرية بجواب قاطع حازم، و تخبرهم بأنّ قيام الساعة ليس بالأمر المعقّد أو المشكل بالنسبة إلى اللّه سبحانه و تعالى: ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ

فكلّ ما يقع هو صيحة سماوية كافية لأن تقبض فيها أرواح جميع المتبقّين من الناس على سطح الأرض بلحظة واحدة و هم على حالهم، و تنتهى هذه الحياة المليئة بالصخب و الدعاوى و المعارك و الحروب، ليتخلّف وراءها صمت مطبق، و تخلو الأرض من أى صوت أو إزعاج.

و

فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «تقوم الساعة و الرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم، و الرجل يرفع أكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم، و الرجل يليط حوضه ليسقى ماشيته فما يسقيها حتّى تقوم»[۱۸۹].

جملة «ما ينظرون» هنا بمعنى «ما ينتظرون»، فكما يقول (الراغب) فى مفرداته «النظر تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشىء و رؤيته، و قد يراد به التأمّل و الفحص، و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، و هو الرويّة، و النظر الانتظار».

«صيحة» صاح: رفع الصوت، و أصله تشقيق الصوت من قولهم انصاح الخشب أو الثوب إذا انشقّ فسمع منه صوت، و صيح الثوب كذلك، و يقال: بأرض فلان شجر قد صاح، إذا طال فتبيّن للناظر لطوله، و دلّ على نفسه بصوته.

«يخصّمون» من مادّة «خصم» بمعنى النزاع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۵

أمّا فيم كانوا يختصمون؟ لم تذكر الآية ذلك، و لكن من الواضح أنّ المقصود هو التخاصم على أمر الدنيا و الأمور المعيشية الاخرى، و لكن البعض يرى: إنّه تخاصم فى أمر «المعاد»، و المعنى الأوّل أنسب على ما يبدو، و إن كان اعتبار شمول الآية لكلا المعنيين، و أى نوع من النزاع و الخصومة ليس ببعيد.

و من الجدير بالملاحظة أنّ الضمائر المتعدّدة فى الآية جميعها تعود على مشركى مكّة الذين كانوا يشكّكون فى أمر المعاد، و يستهزئون بذلك بقولهم: متى تقوم الساعة؟

و لكن المسلّم به أنّ الآية لا تقصد أشخاص هؤلاء، بل نوعهم «نوع البشر الغافلين عن أمر المعاد» لأنّهم ماتوا و لم يسمعوا تلك الصيحة السماوية أبدا «تأمّل بدقّة»!! على كلّ حال، فإنّ القرآن بهذا التعبير القصير و الحازم إنّما أراد تنبيههم إلى أنّ القيامة ستأتى و بشكل غير متوقّع، و هذا أوّلا و أمّا ثانيا فإنّ قيام الساعة ليس بالموضوع المعقّد بحيث يختصمون و يتنازعون فيه، فبمجرّد صيحة واحدة ينتهى كلّ شىء و تنتهى الدنيا بأسرها.

لذا فهو تعالى يضيف فى الآية التالية قائلا: فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ

فى العادة فإنّ الإنسان حينما تلم به حادثة و يحسّ بعدها بقرب أجله، يحاول جاهدا أن يوصل نفسه إلى أهله و منزله و يستقرّ بين عياله، ثمّ يقوم بإنجاز بعض الأمور المعلّقة، و يعهد بأبنائه أو متعلّقيه إلى من يثق به عن طريق الوصيّة أو غير ذلك. و يوصى بإنجاز بعض الأمور الاخرى.

و لكن هل تترك الصيحة السماوية فرصة لأحد؟ و لو سنحت الفرصة فرضا فهل بقى أحد حيّا ليستمع الوصيّة؟ أو يجتمع الأولاد مع امّهم على سرير الأب- مثلا- و يحتضنونه و يحتضنهم لكى يسلم الروح بطمأنينة؟ لا أبدا، فلا إمكان لأى من هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۶

الأمور.

و ما نلاحظه من تنكير التوصية فى التعبير القرآنى هنا إنّما هو إشارة إلى أنّ الفرصة لا تسنح حتّى لوصية صغيرة أيضا.

ثمّ تشير الآيات إلى مرحلة اخرى، مرحلة الحياة بعد الموت. فتقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

التراب و العظام الرميم تلبس الحياة من جديد، و تنتفض من القبر بشرا سويّا، ليحضر المحاكمة و الحساب فى تلك المحكمة العظيمة المهولة، و كما أنّهم ماتوا جميعا بصيحة واحدة، فبنفخة واحدة يبعثون أحياء من جديد، فلا هلاكهم يشكّل عقبة أمام قدرة اللّه سبحانه و تعالى، و لا حياتهم كذلك، تماما كما هو الحال فى جمع الجنود فى الجيوش، بنفخة بوق واحدة ينهضون جميعا من فرشهم و يخرجون من خيمهم، و يقفون فى صفّ واحد، و إحياء الموتى و بعثهم بالنسبة إلى اللّه سبحانه بهذه البساطة و السرعة.

«أجداث» جمع «جدث» و هو القبر، و التعبير يشير بوضوح إلى أنّ للمعاد جنبة جسمانية بالإضافة إلى الجنبة الروحية، و أنّ الجسد يعاد بناؤه جديدا من نفس المواد السابقة.

و استخدام صيغة الماضى فى الفعل «نفخ» إشارة إلى عدم وجود أدنى شكّ فى وقوع مثل هذا الأمر، و كأنّه لثباته و حتميته قد وقع فعلا.

«ينسلون» من مادّة «نسل» و النسل الانفصال عن الشىء- كما يقول الراغب فى المفردات و يضيف- يقال: نسل الوبر عن البعير و القميص عن الإنسان، و ..

و منه نسل إذا عدا، و النسل الولد لكونه ناسلا عن أبيه.

و قوله تعالى: رَبِّهِمْ كأنّها تلميح إلى أنّ ربوبية و مالكية و تربية اللّه كلّها توجب أن يكون هناك حساب و كتاب و معاد.

و على كلّ حال، فإنّه يستفاد من الآيات القرآنية أنّ نهاية هذا العالم و بداية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۷

العالم الآخر يكون كلاهما على شكل حركة عنيفة و غير متوقّعة، و سوف نتعرّض إلى تفصيل هذا الموضوع فى تفسير الآية (۶۸) من سورة الزمر إن شاء اللّه.

تضيف الآية التالية: قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا، هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

نعم فإنّ المشهد مهول و مذهل إلى درجة أنّ الإنسان ينسى جميع الخرافات و الأباطيل و لا يتمكّن إلّا من الاعتراف الواضح الصريح بالحقائق، الآية تصوّر القبور «بالمراقد» و النهوض من القبور (بالبعث) كما

ورد فى الحديث المعروف «كما تنامون تموتون و كما تستيقظون تبعثون».

ففى البدء يستغربون انبعاثهم و يتساءلون عمّن بعثهم من مرقدهم؟ و لكنّهم يلتفتون بسرعة و يتذكّرون بأنّ أنبياء اللّه الصادقين، و عدوهم بمثل هذا اليوم، فيجيبون أنفسهم قائلين: هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَ صَدَقَ الْمُرْسَلُونَ و لكن وا أسفاه إنّنا كنّا نستهزئ بكلّ ذلك!!

و عليه فإنّ هذه الجملة هى بقيّة حديث هؤلاء المتكبّرين الكفرة بالمعاد و البعث، و لكن البعض ذهب إلى أنّ حديث الملائكة أو المؤمنين، و ذلك على ما يبدو خلاف ظاهر الآية، و لا داعى و لا ضرورة له، لأنّ اعتراف الكفّار و المنكرين للمعاد فى ذلك اليوم لا

ينحصر بهذه الآية، ففى الآية (۹۷) من سورة الأنبياء وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذا هِيَ شاخِصَةٌ أَبْصارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يا وَيْلَنا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا بَلْ كُنَّا ظالِمِينَ

و على كلّ حال، فإنّ التعبير ب «مرقد»[۱۹۰] يوضّح أنّهم فى عالم البرزخ كانوا بحالة شبيهة بالنوم العميق، و كما ذكرنا فى تفسير الآية (۱۰۰) من سورة «المؤمنون»، فإنّ البرزخ بالنسبة إلى أكثر الناس الذين هم على الوسط من الإيمان أو الكفر هو حالة شبيهة بالنوم، و فى حال المؤمنين أصحاب المقامات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۸

الرفيعة، أو الكفّار الموغلين فى الكفر و الجحود فإنّ البرزخ بالنسبة إليهم عالم واضح المعالم، و هم فيه أيقاظ يهنأون فى النعيم أو يصطرخون فى العذاب.

احتمل بعضهم أيضا أنّ هول و دهشة القيامة شديدان إلى درجة أنّ العذاب فى البرزخ يكون شبه النوم بالنسبة إلى ما يرونه فى القيامة.

ثمّ تقول الآية لبيان سرعة النفخة: إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

و عليه فإحياء الموتى و بعثهم من القبور و إحضارهم فى محكمة العدل الإلهى لا يحتاج إلى مزيد وقت، كما كان الأمر عند هلاكهم، فالصيحة الاولى للموت، و الصيحة الثانية للحياة و الحضور فى محكمة العدل الإلهى.

و استخدام تعبير «الصيحة» و التأكيد عليها ب «واحدة» و كذلك التعبير ب «إذا» فى مثل هذه الموارد، إنّما هو للإشارة إلى وقوع غير المتوقّع، و التعبير ب هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ بصيغة الجملة الاسمية دليل على الوقوع السريع لهذا المقطع من القيامة.

و اللهجة الحازمة لهذه الآيات تترك أعمق الأثر فى القلوب، و كأن هذه الصيحة تقول: يا أيّها الناس النائمون، أيّتها الأتربة المتناثرة، أيّتها العظام المهترئة! انهضوا .. انهضوا و استعدّوا للحساب و الجزاء ... فما أجمل الآيات القرآنية، و ما أروع إنذاراتها المعبّرة!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۰۹

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۵۴ الى ۵۸]

اشارة

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۴) إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (۵۵) هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (۵۶) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ (۵۷) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (۵۸)

التّفسير

أصحاب الجنّة فاكهون!

هنا يبدأ البحث حول كيفية الحساب فى المحشر، ثمّ ينتقل فى الختام إلى تفصيل وضع المؤمنين الصلحاء و الكفّار الطالحين، فتقول الآية الكريمة الاولى:

فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً.

فلا ينقص من أجر و ثواب أحد شيئا، و لا يزاد على عقوبة أحد شيئا، و لن يكون هنالك أدنى ظلم أو اضطهاد لأحد حتّى بمقدار رأس الإبرة.

ثمّ تنتقل الآية لتوضّح تلك الحقيقة و تعطى دليلا حيّا عليها فتقول: وَ لا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

إنّ ظاهر الآية- و من دون تقدير مضمر- يهدف إلى القول بأنّ جزاءكم جميعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۰

هو نفس أعمالكم، فأى عدالة أفضل و أعلى من هذه العدالة؟! و بعبارة اخرى: فإنّ الأعمال الحسنة و السيّئة التى قمتم بها فى هذه الدنيا سترافقكم فى ذلك العالم أيضا، و نفس تلك الأعمال ستتجسّد هناك و ترافقكم فى جميع مراحل الآخرة، فى المحشر و بعد نهاية الحساب.

فهل أنّ تسليم حاصل عمل إنسان إليه أمر مخالف للعدالة؟

و هل أنّ تجسيد الأعمال و قرنها بعاملها ظلم؟

و من هنا يتّضح أن لا معنى للظلم أساسا فى مشهد يوم القيامة، و إذا كان يحدث فى الدنيا بين البشر أن تتحقّق العدالة حينا و يقع الظلم أحيانا كثيرة، فذلك لعدم إمكان ربط الأعمال بفاعليها.

جمع من المفسّرين تصوروا أنّ الجملة الأخيرة أعلاه تتحدّث عن الكفّار و المسيئين الذين سيرون عقابا على قدر أعمالهم، دون أن تشمل المؤمنين، بلحاظ أنّ اللّه سبحانه و تعالى قد جزاهم و أثابهم بأضعاف ما يعادل أعمالهم.

و لكن بملاحظة ما يلى ينحلّ هذا الاشتباه، و هو أنّ الحديث هنا هو حديث عن العدالة فى الثواب و العقاب و أخذ الجزاء حسب الاستحقاق، و هذا لا ينافى أنّ اللّه سبحانه و تعالى يريد أن يزيد المؤمنين من فضله، فهذه مسألة «تفضل» و تلك مسألة «استحقاق».

ثمّ تنتقل الآيات لتتعرّض إلى جانب من مثوبة المؤمنين العظيمة، و قبل كلّ شىء تشير إلى مسألة الطمأنينة و راحة البال فتقول: إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ

«شغل»:- على وزن سرر- و «شغل»- على وزن لطف-: كليهما بمعنى العارض الذى يذهل الإنسان و يصرفه عن سواه، سواء كان ممّا يبعث على المسرّة أو الحزن، و لكن لإلحاقه كلمة «فاكهون» التى هى جمع «فاكه» و هو المسرور الفرح الضاحك، يمكن استنتاج أنّ المعنى إشارة إلى الإنسان المشغول بنفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۱

و المنصرف تماما عن التفكير فى أى قلق أو ترقّب، و الغارق فى السرور و السعادة و النشاط بشكل لا يترك أى مجال للغمّ و الحسرة أن تعكّر عليه صفوه، و حتّى أنّه ينسى تماما هول قيام القيامة و الحضور فى محكمة العدل الإلهية، تلك المواقف التى لو لا نسيانها فإنّها حتما ستلقى بظلالها الثقيلة من الغمّ و القلق على القلب، و بناء على ذلك فإنّ أحد الآثار المترتبة على انشغال الذهن بالنعمة هو نسيان أهوال المحشر[۱۹۱].

و بعد التعرّض إلى نعمة الطمأنينة و راحة البال التى هى أساس جميع النعم الاخرى و شرط الاستفادة من جميع المواهب و النعم الإلهية الاخرى، ينتقل إلى ذكر بقيّة النعم فيقول تعالى: هُمْ وَ أَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ ۱۹۲].

«أزواج» تشير إلى الزوجة التى يعطيها اللّه فى الجنّة، أو الزوجة المؤمنة التى كانت معه فى الدنيا.

و أمّا ما احتمله البعض من أنّها بمعنى «النظائر» كما فى الآية- ۲۲ سورة الصافات احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ الآية فيبدو بعيدا. خصوصا أنّ (أرائك) جمع «أريكة» و هى الحجلة على السرير. كما يقول أرباب اللغة[۱۹۳].

التعبير ب «ظلال» إشارة إلى أنّ أشجار الجنّة تظلّل الأسرة و التخوت التى يجلس عليها المؤمنون فى الجنّة، أو إشارة إلى ظلال قصورهم، و كلّ ذلك يدلّل على وجود الشمس هناك، و لكنّها ليست شمسا مؤذية، نعم فإنّ لهم فى ذلك الظلّ الملائم لأشجار الجنّة سرورا و نشاطا عظيمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۲

إضافة إلى ذلك فإنّ لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ

يستفاد من آيات القرآن الاخرى أنّ غذاء أهل الجنّة ليس الفاكهة فقط، و لكن تعبير الآية يدلّل على أنّ الفاكهة- و هى فاكهة مخصوصة تختلف كثيرا عن فاكهة الدنيا- هى أعلى غذاء لهم، كما أنّ الفاكهة فى الدنيا- كما يقول المتخصّصون- أفضل و أعلى غذاء للإنسان.

«يدعون» أى يطلبون، و المعنى أنّ كلّ ما يطلبونه و يتمنّونه يحصلون عليه، فما يتمنّوه من شىء يحصل و يتحقّق على الفور.

يقول العلّامة «الطبرسى» فى مجمع البيان: العرب يستخدمون هذا التعبير فى حالة التمنّى، فيقول: «ادع علىّ ما شئت» أى تمنّ علىّ ما شئت ...

و عليه فإنّ كلّ ما يخطر على بال الإنسان و ما لا يخطر من المواهب و النعم الإلهية موجود هناك معدّ و مهيّأ، و اللّه عنده حسن الثواب.

و أهمّ من كلّ ذلك، المواهب المعنوية التى أشارت إليها آخر آية بقولها: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ۱۹۴].

هذا النداء الذى تخفّ له الروح، فيملؤها بالنشاط، هذا النداء المملوء بمحبّة اللّه، يجعل الروح الإنسانية تتسلّق الأفراح نشوى بالمعنويات التى لا يرقى إليها وصف و لا تعادلها أيّة نعمة اخرى. نعم فسماع نداء المحبوب، النداء الندى بالمحبّة، المعطّر باللطف، يغمر سكّان الجنّة بالحبور ... الحبور الذى تعادل اللحظة منه جميع ما فى الدنيا، بل و يفيض عليه.

ففى رواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بينا أهل الجنّة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرف من فوقهم فقال: السلام عليكم يا أهل الجنّة، و ذلك قول اللّه تعالى: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال فينظر إليهم و ينظرون إليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۳

فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتّى يحتجب عنهم و يبقى نوره و بركته عليهم فى ديارهم»[۱۹۵].

نعم فإنّ جذبة مشاهدة المحبوب، و رؤية لطفه، تبعث اللذّة و الشوق فى النفس بحيث أنّ لحظة واحدة من تلك المشاهدة العظيمة لا يمكن مقارنتها بأيّة نعمة، بل بالعالم أجمع، و عشّاق رؤيته و النظر إليه هائمون فى ذلك إلى درجة أنّه لو قطعت عنهم تلك الإفاضة المعنوية فإنّهم يحسّون بالحسرة و الألم، و كما

ورد فى حديث لأمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام «لو حجبت عنه ساعة لمتّ»[۱۹۶].

الملفت للنظر أنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ سلام اللّه الذى ينثره على المؤمنين فى الجنّة، هو سلام مستقيم بلا واسطة، سلام منه تعالى، و أى سلام ذلك الذى يمثّل رحمته الخاصّة! أى أنّه ينبعث من مقام رحيميته و جميع ألطافه و كراماته مجموعة فيه، و يا لها من نعمة عظيمة!!***

ملاحظة

أنواع «السلام» المنثور على أهل الجنّة

الجنّة هى «دار السلام» كما ورد فى الآية (۲۵) من سورة يونس حيث نقرأ:

وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ

و أهل الجنّة الذين يسكنون هناك، يقابلون بسلام الملائكة حينما يدخلون عليهم الجنّة وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ، سَلامٌ

عَلَيْكَمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ[۱۹۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۴

و ينـاديهم ساكنو الأعراف و يسـلّمون عليهم وَ نادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ [۱۹۸] و عنـد ما يدخلون الجنّة يقابلون بسـلام و تحيّة الملائكة.

و حينما تقبض الأرواح يتلقّى المؤمن هذا السـلام من ملائكة الموت: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [۱۹۹] و يسلّم بعضهم على بعض تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ [۲۰۰] و أخيرا، أسمى و أعظم سلام هو سلام اللّه عزّ و جلّ سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ

الخلاصة: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً.[۲۰۱] و السـلام ليس لفظا فحسب، بل سـلام يؤدّى إلى خلق الهدوء و السلامة، و ينفذ فى أعماق الروح الإنسانية و يغمرها بالهدوء و السلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۵

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۵۹ الى ۶۲]

اشارة

وَ امْتـازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (۵۹) أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يـا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۰) وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱) وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (۶۲)

التّفسير

لماذا عبدتم الشيطان؟!

مرّ فى الآيات السابقـة جانب من المصـير المشوّق لأهل الجنّة، و فى هذه الآيات مورد البحث جانب بئيس من مصـير أهل النار و عبدة الشيطان.

أوّلا: يخاطبون فى ذلك اليوم خطابا تحقيريا وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ

فأنتم ربّما دخلتم فى صـفوف المؤمنين فى الـدنيا و تلونتم بلونهم تارة، و اسـتفدتم من حيثيتهم و اعتبارهم، أمّا اليوم «فامتازوا عنهم» و أظهروا بشكلكم الأصلى الحقيقى.

هذا فى الحقيقة هو تحقّق للوعد الإلهى الوارد فى الآية (۲۸) من سورة ص حيث يقول البارى عزّ و جلّ: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۶

فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ.

و على كلّ حال، فظاهر الآيـة هو التمييز فى العرض بين المجرمين و المؤمنين، و إن كان بعض المفسّـرين قـد احتمل احتمالات اخرى من جملتها: تفريق صـفوف المجرمين أنفسـهم إلى مجموعات فيما بينهم، أو انفصال المجرمين عن شـفعائهم و معبوداتهم، أو انفصال المجرمين كلّ واحد عن الآخر، بحيث يكون ذلك العذاب الناتج عن الفراق مضافا على عذاب الحريق فى جهنّم.

و لكن شمولية الخطاب لجميع المجرمين، و محتوى جملة «و امتازوا» تقوّى المعنى الأوّل الذى أشرنا إليه.

الآية التالية تشير إلى لوم اللّه تعالى و توبيخه المجرمين فى يوم القيامة قائلا:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

إنّ هذا العهد الإلهى أخذ على الإنسان من طرق مختلفة، و كرّر على مسمعه مرّات و مرّات: يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ۲۰۲] جرى هذا التحذير و بشكل متكرّر على لسان الأنبياء و الرسل: وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۲۰۳].

و كذلك فى الآية (۱۶۸) من سورة البقرة نقرأ: وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

و من جانب آخر فإنّ هذا العهد أخذ على الإنسان فى عالم التكوين، و بلسان إعطاء العقل له، إذ أنّ الدلائل العقلية تشير بشكل واضح إلى أنّ على الإنسان أن لا يطيع من تصدّى لعداوته منذ اليوم الأوّل و أخرجه من الجنّة، و أقسم على إغواء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۷

أبنائه من بعده.

و من جانب ثالث فقد أخذ هذا العهد على الإنسان بالفطرة الإلهيّة للناس على التوحيد، و انحصار الطاعة فى اللّه سبحانه، و بهذا لم تتحقّق التوصية الإلهية هذه بلسان واحد، بل بعدّة ألسنة و أساليب، و امضى هذا العهد و الميثاق.

و الجدير بالملاحظة أيضا أنّ «العبادة» الواردة الإشارة إليها فى جملة لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ بمعنى «الطاعة»، لأنّ العبادة لا تنحصر بمعنى الركوع و السجود فقط، بل إنّ من مصاديقها الطاعة. كما ورد فى الآية (۴۷) من سورة «المؤمنون» أَ نُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنا وَ قَوْمُهُما لَنا عابِدُونَ و فى الآية (۳۱) من التوبة نقرأ:

اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً.

و الجميل أنّه

ورد فى رواية عن الصادق عليه السّلام تعليقا على الآية بقوله: «أما و اللّه ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم و لو دعوهم ما أجابوهم، و لكن أحلّوا لهم حراما و حرّموا عليهم حلالا فعبدوهم من حيث لا يشعرون»[۲۰۴].

و

عن الصادق عليه السّلام أيضا أنّه قال: «من أطاع رجلا فى معصية فقد عبده»[۲۰۵].

و

عن الباقر عليه السّلام أنّه قال: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّى عن اللّه فقد عبد اللّه، و إن كان الناطق يؤدّى عن الشيطان فقد عبد الشيطان»[۲۰۶].

الآية التالية تأكيد أشدّ و بيان لوظيفة بنى آدم، تقول الآية الكريمة: وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

أخذ على الإنسان العهد بأن لا يطيع الشيطان، إذ أنّه أعلن له عن عداوته بشكل واضح منذ اليوم الأوّل، فهل يطيع عاقل أوامر عدوّه!؟

.. هذا من جانب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۸

و من جانب آخر، أخذ عليه العهد بطاعة اللّه سبحانه و تعالى، لأنّ سبيله هو الصراط المستقيم، و هذا فى الحقيقة أعظم محرّك للبشر، لأنّ الإنسان- مثلا- لو كان فى وسط صحراء قاحلة محرقة، و كانت حياته و حياة عياله فى معرض خطر قطّاع الطرق و الضوارى، فأهمّ ما يفكّر به هو العثور على الطريق المستقيم الآمن الذى يؤدّى إلى المقصد، الطريق السريع و الأسهل للوصول إلى منزل النجاة.

و يستفاد كذلك من هذا التعبير ضمنا بأنّ الدنيا ليست بدار القرار، إذ أنّ الطريق لا يرسم لأحد إلّا لمن يريد الذهاب إلى مقصد آخر.

و للتعريف بهذا العدو القديم أكثر فأكثر يضيف تعالى: وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَ فَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ

ألا ترون ماذا أحلّ بأتباعه من المصائب.

ألم تطالعوا تأريخ من سبقكم لتروا بأعينكم أى مصير مشؤوم وصل إليه من عبد الشيطان؟ آثار مدنهم المدمّرة أمام أعينكم، و العاقبة المؤلمة التى وصلوا إليها واضحة لكلّ من يمتلك القليل من التعقّل و التفكّر.

إذن لماذا أنتم غير جادّين فى معاداة من أثبت أنّه عدو لكم مرّات و مرّات؟

و لا زلتم تتّخذونه صديقا بل قائدا و وليّا و إماما!! «الجبلّ» الجماعة تشبيها بالجبل فى العظم (كما يقول الراغب فى مفرداته).

و «كثيرا» للتأكيد على كثرة من اتّبع الشيطان من كافّة المستويات الاجتماعية فى كلّ مجتمع.

ذكر بعضهم أنّ «الجبلّ» بحدود عشرة آلاف نفر، أو أكثر، و ما دون ذلك لا يكون جبلّا[۲۰۷]، و لكن البعض الآخر لم يلتزم بتلك الأرقام ۲۰۸].

و على كلّ حال، فإنّ العقل السليم يوجب على الإنسان أن يحذر بشدّة من عدوّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۱۹

خطر كهذا، لا يتورّع عن أى شىء، و لا يرحم أى إنسان أبدا، و قرابينه فى كلّ زاوية و مكان هلكى صرعى، فلا ينبغى له أن يغفل عنه طرفة عين أبدا، و لنقرأ ما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه أفضل الصلاة و السلام: «فاحذروا- عباد اللّه- عدوّ اللّه، أن يعديكم بدائه، و أن يستفزّكم بندائه، و أن يجلب عليكم بخيله و رجله، فلعمرى لقد فوق لكم سهم الوعيد، و أغرق إليكم بالنزع الشديد، و رماكم من مكان قريب، فقال: ربّ بما أغويتنى لازيّنن لهم فى الأرض و لأغوينّهم أجمعين»[۲۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۰

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۳ الى ۶۸]

اشارة

هـذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۶۳) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۶۴) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۶۵) وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (۶۶) وَ لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ (۶۷)

وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ (۶۸)

التّفسير

يوم تسكت الألسن و تشهد الأعضاء!!

تعرّضت الآيات السابقة، إلى قسم من التوبيخات و التقريعات الإلهيّة و إلى مخاطبته سبحانه المجرمين فى يوم القيامة.

هذه الآيات تواصل البحث حول الموضوع نفسه أيضا.

نعم، ففى ذلك اليوم و حينما تظهر جهنّم للمجرمين الكافرين يذكّرهم اللّه بوعده، و الآية تشير إلى ذلك فتقول: هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۱

فقد بعث إليكم الأنبياء واحدا بعد واحد، و حذّروكم من مثل هذا اليوم و من مثل هذه النار، و لكنّكم لم تأخذوا أقوالهم إلّا على محمل السخرية و الاستهزاء اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۲۱۰].

ثمّ يشير تعالى إلى شهود يوم القيامة ... الشهود الذين هم جزء من جسد الإنسان، حيث لا مجال لإنكار شهادتهم، فيقول تعالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

نعم ففى ذلك اليوم لا تكون أعضاء الإنسان طوع إرادته و ميوله، فهى بأجمعها تتخلّى عن امتثال أمره و تستسلم لأمر اللّه سبحانه، و يا لها من محكمة عجيبة تلك المحكمة التى شهودها نفس أعضاء الإنسان. تلك الأعضاء التى كانت الوسائل لارتكاب المعاصى و الذنوب.

و يحتمل أن تكون شهادة الأعضاء، بسبب أنّ المجرمين حينما يرون بأنّهم سيصلون جهنّم جزاء أعمالهم، يميلون إلى إنكار ما ارتكبوا ظنّا منهم أنّه يمكن الإفلات بإخفاء الحقائق و الإنكار، إلّا أنّ الأعضاء تبدأ هنا بالشهادة، الأمر الذى يثير عجب أولئك المجرمين و وحشتهم و يغلق عليهم جميع طرق الفرار و الخلاص.

أمّا عن كيفية نطق تلك الأعضاء، فثمّة تفسيرات و احتمالات عديدة:

۱- إنّ اللّه سبحانه و تعالى يجعل فى كلّ واحد من تلك الأعضاء القدرة على التكلّم و الشعور، و هى تقوم بنقل الحقيقة بصدق، و ما هو العجب فى ذلك؟ فمن جعل فى قطعة من اللحم المسمّاة «لسان» أو «مخ الإنسان» القدرة على النطق، يستطيع أن يجعل هذه القدرة فى سائر أعضاء البدن أيضا.

۲- أنّ تلك الأعضاء لا تعطى الإدراك و الشعور، و لكن اللّه سبحانه و تعالى ينطقها، و فى الحقيقة فإنّ تلك الأعضاء ستكون محلا لظهور الكلام، و انكشاف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۲

الحقائق بإذن اللّه.

۳- أنّ أعضاء البدن الإنسانى تحتفظ بآثار الأعمال التى قامت بها فى الدنيا، إذ أنّ أى عمل فى هذه الدنيا لا يفنى، بل إنّ آثاره ستبقى على كلّ عضو من البدن، و فى الفضاء المحيط بها، و فى ذلك اليوم الذى هو يوم الظهور و التجلّى، ستظهر هذه الآثار على اليد و القدم و سائر الأعضاء، و ظهور تلك الآثار هو منزلة الشهادة.

و هذا تماما كما يرد فى لغتنا المعاصرة حينما نقول: «عينك تشهد على سهرك»، أو «الجدران تبكى صاحب الدار».

و على كلّ حال، فإنّ من المسلّمات شهادة الأعضاء فى يوم القيامة، و لكن هل أنّ كلّ عضو يكشف عن فعله فحسب، أو يكشف عن كلّ الأعمال؟ فلا شكّ أنّ الاحتمال الأوّل هو الأنسب، لذا فإنّ الآيات القرآنية الكريمة الاخرى تذكر شهادة الاذن و العين و الجلد، كما فى الآية (۲۰) من سورة فصلت حين يقول تعالى: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ أو ما ورد فى الآية (۲۴) من سورة النور من قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الجدير بالملاحظة أنّه تعالى فى سورة النور يقول: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ و فى الآية مورد البحث يقول: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ و من الممكن أن يكون ما يحصل هناك هو أن يختم على فم المجرم أوّلا لتشهد أعضاؤه، و بعد أن يرى بنفسه شهادة أعضائه، يفتح لسانه، و لأنّه لا مجال للإنكار فإنّ لسانه أيضا يقرّ بالحقيقة.

و كذلك يحتمل أن يكون المقصود من كلام اللسان هو الكلام الداخلى الذى ينبعث منه كما فى سائر الأعضاء، و ليس نطقه العادى.

آخر ما نريد قوله بخصوص موضوع تكلّم الأعضاء هو أنّ ذلك خاص بالمجرمين، و إلّا فالمؤمنون حسابهم واضح، لذا

ورد فى الحديث عن الباقر عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۳

«ليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه، قال اللّه عزّ و جلّ: فَمَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتابَهُمْ وَ لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا[۲۱۱].

الآية التالية تشير إلى أحد ألوان العذاب التى يمكن أن يبتلى اللّه تعالى بها المجرمين فى هذه الدنيا، تقول الآية الكريمة: وَ لَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ ۲۱۲].

و فى تلك الحالة التى يبلغ فيها الرعب الذروة عندهم: فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ فهم عاجزون حتّى عن العثور على الطريق إلى بيوتهم، ناهيك عن العثور على طريق الحقّ و سلوك الصراط المستقيم! و عقوبة مؤلمة اخرى لهم: انّنا لو أردنا لمسخناهم فى مكانهم على شكل تماثيل حجرية فاقدة للروح و الحركة، أو على أشكال الحيوانات بحيث لا يستطيعون التقدّم إلى الأمام، و لا الرجوع إلى الخلف: لَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَ لا يَرْجِعُونَ ۲۱۳].

«فاستبقوا الصراط» يمكن أن تكون بمعنى التسابق فيما بينهم للعثور على الطريق الذى يذهبون منه عادة، أو بمعنى الانحراف عن الطريق و عدم العثور عليه، على ضوء ما قاله بعض أرباب اللغة من أن «فاستبقوا الصراط» بمعنى «جاوزوه و تركوه حتّى ضلّوا»[۲۱۴].

و على كلّ حال، فطبقا للتفسير الذى قبل به أغلب المفسّرين الإسلاميين، فإنّ الآيتين أعلاه، تتحدّثان عن عذاب الدنيا، و عن تهديد الكفّار و المجرمين بأنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۴

سبحانه و تعالى قادر على تعريضهم لمثل هذا العذاب فى الدنيا، و لكن للطفه و رحمته فإنّه يمتنع عن ذلك، فقد ينتبه هؤلاء المعاندين و يرجعوا عن غيّهم إلى طريق الحقّ.

و لكن يوجد احتمال آخر أيضا، و هو أنّ الآيات تشير إلى العقوبات الإلهيّة فى يوم القيامة لا فى الدنيا، و فى الحقيقة فهو تعالى بعد أن أشار إلى «الختم على أفواههم» فى الآية السابقة، يشير هنا إلى نوعين آخرين من العقوبات التى لو شاء لأجراها عليهم:

الأوّل: الطمس على عيونهم بحيث لا يمكنهم رؤية «الصراط» أى طريق الجنّة.

الثانى: أنّ هؤلاء الأفراد بعد أن كانوا فاقدين للحركة فى طريق السعادة فإنّهم يتحوّلون إلى تماثيل ميتة فى ذلك اليوم و يظلّون حيارى فى مشهد المحشر، و ليس لهم طريق للتقدّم أو للتراجع، إنّ تناسب الآيات- طبعا- يؤيّد هذا التّفسير الأخير، و إن كان أكثر المفسّرين قد اتّفقوا على قبول التّفسير السابق ۲۱۵].

الآية الأخيرة من هذه المجموعة تشير إلى وضع الإنسان فى آخر عمره من حيث الضعف و العجز العقلى و الجسمى، لتكون إنذارا لهم و ليختاروا طريق الهداية عاجلا، و لتكون جوابا على الذين يلقون بمسؤولية تقصيرهم على قصر أعمارهم، و كذلك لتكون دليلا على قدرة اللّه سبحانه و تعالى، فالقادر على أن يعيد ذلك الإنسان القوى إلى ضعف و عجز الوليد الصغير .. قادر على مسألة المعاد بالضرورة، و على الطمس على عيون المجرمين و منعهم عن الحركة، كذلك تقول الآية الكريمة: وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَ فَلا يَعْقِلُونَ

«ننكّسه» من مادّة «تنكيس» و هو قلب الشيء على رأسه. و هى هنا كناية عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۵

الرجوع الكامل للإنسان إلى حالات الطفولة. فالإنسان منذ بدء خلقته ضعيف، و يتكامل تدريجيّا و يرشد، و فى أطواره الجنينية يشهد فى كلّ يوم طورا جديدا و رشدا جديدا، و بعد الولادة- أيضا- يستمرّ فى مسيره التكاملى جسميا و روحيا و بسرعة، و تبدأ القوى و الاستعدادات التى أخفاها اللّه فى أعماق وجوده بالظهور تدريجيّا الواحدة تلو الاخرى، فى طور الشباب، ثمّ طور النضج، ليبلغ الإنسان أوج تكامله الجسمى و الروحى.

و هنا تنفصل الروح عن الجسد فى تكاملها و نموّها، فتستمر فى تكاملها فى حال أنّ الجسد يشرع بالنكوص، و لكن العقل فى النهاية

يبدأ هو الآخر بالتراجع أيضا، فيعود تدريجيّا- و أحيانا بسرعة- إلى مراحل الطفولة، و يتساوق ذلك مع الضعف البدنى أيضا، مع الفارق طبعا، فالآثار التى تتركها حركات و روحيات الأطفال على النفس هى الراحة و الجمال و الأمل و لهذا فهى مقبولة منهم، و لكنّها من أهل الشيخوخة، قبيحة و منفّرة، و فى بعض الأحيان قد تثير الشفقة و الترحّم، فالشيخوخة أيّام عصيبة حقّا، يصعب تصوّر عمق آلامها.

فى الآية (۵) سورة الحجّ أشار القرآن المجيد إلى هذا المعنى، قائلا: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً. لذا فقد ورد فى بعض الروايات أنّ من جاوز السبعين حيّا فهو «أسير اللّه فى الأرض»[۲۱۶].

و على كلّ حال فإنّ جملة أَ فَلا يَعْقِلُونَ تشعّ تنبيها عجيبا بهذا الخصوص، و تقول للبشر: إنّ هذه القدرة و القوّة التى عندكم لو لم تكن على سبيل «العارية» لما أخذت منكم بهذه البساطة. اعلموا أنّ فوقكم يد قدرة اخرى قادرة على كلّ شىء، فقبل أن تصلوا إلى تلك المرحلة خلّصوا أنفسكم، و قبل أن يتبدّل هذا النشاط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۶

و الجمال إلى موت و ذبول. اجمعوا الورد من هذا الروض، و تزوّدوا بالزاد من هذه الدنيا لطريق الآخرة البعيد، لأنّه لم يمكنكم أداء أى عمل ذى قيمة فى وقت الشيب و الضعف و المرض. و لذا فإنّ من ضمن ما

أوصى به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أبا ذرّ أنّه قال: «اغتنم خمسا: قبل خمس: شبابك قبل هرمك، و صحّتك قبل سقمك، و غناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، و حياتك قبل موتك»[۲۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۷

الآيتان [سورة يس (۳۶): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشارة

وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ (۶۹) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۰)

التّفسير

انّه ليس بشاعر .. بل نذير!!

قلنا أنّ فى هذه السورة بحوثا حيّة و جامعة حول اصول الإعتقادات: التوحيد، و المعاد، و النبوّة، و تنتقل الآيات من بحث إلى آخر ضمن مقاطع مختلفة من الآيات.

طرحت فى الآيات السابقة بحوث مختلفة حول التوحيد و المعاد، و تعود هاتان الآيتان إلى البحث فى مسألة النبوّة، و قد أشارتا إلى أكثر الاتّهامات رواجا و التى أثيرت بوجه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، وردّت عليهم ردّا قويّا، منها اتّهام الرّسول بكونه شاعرا، فقالت: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ

لماذا اتّهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الاتّهام مع أنّه لم يقل الشعر أبدا؟

كان ذلك بسبب الجاذبية الخاصّة للقرآن الكريم و نفوذه فى القلوب، الأمر الذى كان محسوسا للجميع، بالإضافة إلى عدم إمكانية إنكار جمال ألفاظه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۸

و معانيه و فصاحته و بلاغته، و قد كانت جاذبية القرآن الكريم الخاصّة قد أثّرت حتّى فى نفوس الكفّار الذين كانوا أحيانا يأتون إلى جوار منزل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشكل خفى ليلا لكى يستمعوا إلى تلاوته للقرآن فى عمق الليل.

و كم من الأشخاص الذين تولّعوا و عشقوا الإسلام لمجرّد سماعهم القرآن الكريم و أعلنوا إسلامهم فى نفس المجلس الذى استمعوا فيه إلى بعض آياته.

و هنا حاول الكفّار من أجل تفسير هذه الظاهرة العظيمة، و لغرض استغفال الناس و صرف أنظارهم من كون ذلك الكلام و حيا إلهيّا، فأشاعوا تهمة الشعر فى كلّ مكان، و التى كانت بحدّ ذاتها تمثّل اعترافا ضمنيا بتميّز كلام القرآن الكريم.

و أمّا لماذا لا يليق بالرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يكون شاعرا، فلأنّ طبيعة الشعر تختلف تماما عن الوحى الإلهى، للأسباب التالية:

۱- إنّ أساس الشعر- عادة- هو الخيال و الوهم، فالشاعر غالبا ما يحلّق بأجنحة الخيال، و الحال أنّ الوحى يستمدّ وجوده من مبدأ الوجود و يدور حول محور الحقيقة.

۲- الشعر يفيض من العواطف الإنسانية المتغيّرة، و هى فى حال تغيّر و تبدّل مستمرين، أمّا الوحى الإلهى فمرآة الحقائق الكونية الثابتة.

۳- لطافة الشعر تنبع فى الغالب من الإغراق فى التمثيل و التشبيه و المبالغة، إلى درجة أن قيل «أحسن الشعر أكذبه»، أمّا الوحى فليس إلّا الصدق.

۴- الشاعر فى أغلب الموارد و جريا وراء التزويق اللفظى يكون مجبرا على السعى وراء الألفاظ، ممّا يضيع الكثير من الحقائق فى الأثناء.

۵- و أخيرا يقول أحد المفسّرين: إنّ الشعر مجموعة من الأشواق التى تحلّق منطلقة من الأرض باتّجاه السماء، بينما الوحى حقائق نازلة من السماء إلى الأرض، و هذان الاتّجاهان واضح تفاوتهما.

و هنا يجب أن لا ننسى تقدير مقام أولئك الشعراء الذين يسلكون هذا الطريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۲۹

باتّجاه أهداف مقدّسة، و يصونون أشعارهم من كلّ ما لا يرضى اللّه، و على كلّ حال فإنّ طبيعة أغلب الشعراء كما أوردناه أعلاه.

لذا فإنّ القرآن الكريم يقول فى آخر سورة الشعراء: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ [۲۱۸] طبعا فإنّ نفس هذه الآيات تشير فى آخرها إلى الشعراء المؤمنين الذين يسخّرون فنّهم فى سبيل أهدافهم السامية، و هم مستثنون من ذلك التعميم و لهم حساب آخر.

و لكن على أيّة حال فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يمكن أن يكون شاعرا، و عند ما يقول تعالى: وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ فمفهومه أنّه مجانب للشعر لأنّ جميع التعاليم النازلة إليه هى من اللّه تعالى.

و الملفت للنظر أنّ التأريخ و الروايات تنقل كثيرا من الأخبار التى تشير إلى أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما يريد الاستشهاد ببيت من الشعر، فإنّه غالبا ما يقوله بطريقة منثورة.

فعن عائشة أنّها قالت: كان رسول اللّه يتمثّل ببيت أخى بنى قيس فيقول:

ستبدى لك الأيّام ما كنت جاهلا* و يأتيك من لم تزوّد بالأخبار فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول اللّه فيقول: إنّى لست بشاعر و ما ينبغى لى ۲۱۹].

ثمّ يضيف تعالى فى آخر الآية لنفى الشعر عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ

و الهدف هو الإنذار و إتمام الحجّة: لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۰

[۲۲۰].

نعم، هذه الآيات «ذكر» و وسيلة تنبيه، هذه الآيات «قرآن مبين» يوضّح الحقّ بلا أدنى تغطية أو غمط، بل بقاطعية و صراحة، و لذا فهو عامل انتباه و حياة و بقاء.

مرّة اخرى نرى القرآن الكريم يجعل (الإيمان) هو (الحياة) و (المؤمنين) هم (الأحياء) و (الكفّار) هم «الموتى»، ففى جانب يذكر عنوان «حيّا» و فى الطرف المقابل عنوان «الكافرون»، فهذه هى الحياة و الموت المعنوى اللذان هما أعلى بمراتب من الموت و الحياة الظاهريين. و آثارهما أوسع و أشمل، فإذا كانت الحياة و المعيشة بمعنى «التنفّس» و «أكل الطعام» و «الحركة»، فإنّ هذه الأعمال كلّها تقوم بها الحيوانات، فهذه ليست حياة إنسانية، الحياة الإنسانية هى تفتّح أزهار العقل و الفهم و الملكات الرقيقة فى روح الإنسان، و كذلك التقوى و الإيثار و التضحية و التحكّم بالنفس، و التحلّى بالفضيلة و الأخلاق، و القرآن ينمى هذه الحياة فى وجود الإنسان.

و الخلاصة: أنّ الناس ينقسمون حيال دعوة القرآن الكريم إلى مجموعتين:

مجموعة حيّة يقظة تلبّى تلك الدعوة، و تلتفت إلى إنذاراتها، و مجموعة من الكفّار ذوى القلوب الميتة، الذين لا تؤمل منهم أيّة استجابة أبدا، و لكن هذه الإنذارات سبب فى إتمام الحجّة عليهم، و تحقّق أمر العذاب بحقّهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۱

بحث

حياة و موت القلوب:

فى الإنسان أنواع من الحياة و الموت:

الأوّل: الحياة و الموت النباتى الذى مظهره النمو و الرشد و التغذية و التوالد، و هو فى هذا الشأن يشابه جميع النباتات.

الثانى: الحياة و الموت الحيوانى. و أبرز مظاهرها «الإحساس» و «الحركة»، و هو مشترك فى هاتين الصفتين مع جميع الحيوانات.

أمّا النوع الثالث من الحياة الخاصّ بالإنسان فقط، فهو (الحياة الإنسانية و الروحية). و هو ما قصدته الروايات بقولها «حياة القلوب».

حيث أنّ المقصود بالقلب هنا «الروح و العقل و العواطف» الإنسانية.

ففى حديث أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام حول القرآن يقول:

«و تعلّموا القرآن فإنّه أحسن الحديث، و تفقّهوا فيه فإنّه ربيع القلوب»[۲۲۱].

و

فى حديث آخر له عليه أفضل الصلاة و السلام يقول عن الحكمة و التعلّم:

«و اعلموا أنّه ليس من شىء إلّا و يكاد صاحبه يشبع منه و يملّه إلّا الحياة، فإنّه لا يجد فى الموت راحة، و إنّما ذلك بمنزلة الحكمة التى هى حياة للقلب الميّت و بصر للعين العمياء»[۲۲۲].

و

قال عليه الصلاة و السلام: «ألا و إنّ من البلاء الفاقة، و أشدّ من الفاقة مرض البدن، و أشدّ من مرض البدن مرض القلب، ألا و إنّ من صحّة البدن تقوى القلوب»[۲۲۳].

و

يقول عليه الصلاة و السلام: «و من كثر كلامه كثر خطؤه، و من كثر خطؤه قلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۲

حياؤه، و من قلّ حياؤه قلّ ورعه، و من قلّ ورعه مات قلبه»[۲۲۴].

و من جهة اخرى فإنّ القرآن الكريم يشخّص للإنسان نوعا خاصّا من الإبصار و السماع و الإدراك و الشعور، غير النظر و السماع و الشعور الظاهرى، ففى الآية (۱۷۱) من سورة البقرة نقرأ: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ

و فى موضع آخر يقول تعالى: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً.[۲۲۵] كذلك يقول سبحانه: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.[۲۲۶] و حول مجموعة من الكافرين يعبّر تعبيرا خاصا فيقول تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ [۲۲۷] و فى موضع أخر يقول تعالى: إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ [۲۲۸] من مجموع هذه التعبيرات و تعبيرات كثيرة اخرى شبيهة لها يظهر بوضوح أنّ القرآن يعدّ محور الحياة و الموت، هو ذلك المحور الإنسانى و العقلانى، إذ أنّ قيمة الإنسان تكمن فى هذا المحور.

و فى الحقيقة فإنّ الحياة و الإدراك و الإبصار و السماع و أمثالها، تتلخّص فى هذا القسم من وجود الإنسان، و إن اعتبر بعض المفسّرين هذه التعبيرات مجازية، إذ أنّ ذلك لا ينسجم مع روح القرآن هنا، لأنّ الحقيقة فى نظر القرآن هى هذه التى يذكرها، و الحياة و الموت الحيوانيان هما المجازيان لا غير.

إنّ أسباب الموت و الحياة الروحية كثيرة جدّا، و لكن القدر المسلّم به هو أنّ النفاق و الكبر و الغرور و العصبية و الجهل و الكبائر، كلّها تميت القلب، ففى مناجاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۳

التائبين التى تروى

عن الإمام السجّاد عليه السّلام فى الصحيفة السجادية ورد «و أمات قلبى عظيم جنايتى».

و الآيات مورد البحث تأكيد على هذه الحقيقة.

فهل أنّ من يرضى من حياته فقط بأن يعيش غير عالم بشىء فى هذه الدنيا، و يجرى دائما مدار العيش الرغيد الرتيب، لا يعبأ بظلامة المظلوم، و لا يلبّى نداء الحقّ، يفكّر فى نفسه فقط، و يعتبر نفسه غريبا حتّى عن أقرب الأقرباء، هل يعتبر مثل هذا إنسانا حيّا؟

و هل هى حياة تلك التى تكون حصيلتها كميّة من الغذاء المصروف، و إبلاء بعض الألبسة، و النوم و الاستيقاظ المكرور؟ و إذا كانت تلك هى الحياة فما هو فرقها عن حياة الحيوان؟

إذا يجب أن نقرّ و نعترف بأنّ وراء هذه الحياة الظاهرية يكمن عقل و حقيقة أكّد عليها القرآن و تحدّث عنها.

الجميل أنّ القرآن يعتبر الموتى الذين كان لموتهم آثار الحياة الإنسانية أحياء، و لكن الأحياء الذين ليس فيهم أى من آثار الحياة الإنسانية فانّهم فى منطق القرآن الكريم أموات أذلّاء.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۴

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۱ الى ۷۶]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (۷۱) وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ (۷۲) وَ لَهُمْ فِيها

مَنافِعُ وَ مَشارِبُ أَ فَلا يَشْكُرُونَ (۷۳) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (۷۴) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (۷۵)

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ (۷۶)

التّفسير

فوائد الأنعام للإنسان!!

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى فى هذه الآيات إلى مسألة التوحيد و الشرك، و يشير- ضمن تعداد قسم من آثار عظمة اللّه فى حياة البشر، و حلّ مشكلاتهم و رفع حاجاتهم- إلى ضعف و عجز الأصنام، و بمقارنة واضحة يشطب على الشرك و يثبت بطلانه، و فى نفس الوقت يثبت حقّانية خطّ التوحيد.

تقول الآية الكريمة الاولى: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۵

لَها مالِكُونَ ۲۲۹].

و لكى يستفيدوا بشكل جيّد من هذه الحيوانات: وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ

و لا تنتهى منافعها إلى هذا الحدّ، بل وَ لَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَ مَشارِبُ و عليه أ فَلا يَشْكُرُونَ الشكر الذى هو وسيلة معرفة اللّه و تشخيص وليّ النعمة.

هنا يجب الالتفات إلى بعض الأمور:

۱- من بين النعم المختلفة التى تغمر الإنسان، أشارت الآية إلى نعمة وجود الأنعام، لأنّها تشكّل حضورا دائما فى حياة الإنسان اليومية، إلى حدّ أنّ حياة الإنسان اقترنت بها، بحيث لو أنّها حذفت من صفحة حياة الإنسان فإنّ ذلك سيشكّل عقدة و مشكلة بالنسبة إلى معيشته و أعماله، غير أنّ الإنسان لا يلتفت إلى أهمّيتها لأنّه تعوّد رؤيتها يوميا.

۲- جملة عَمِلَتْ أَيْدِينا كناية عن إعمال القدرة الإلهيّة بشكل مباشر، إذ أنّ أهمّ الأعضاء التى يمارس بها الإنسان قدرته و يعبّر عنها هى يداه، لهذا السبب كانت «اليد» كناية عن القدرة، كأن يقول أحدهم: «إنّ المنطقة الفلانية فى يدى» كناية عن أنّها تحت سيطرته و نفوذه، و يقول القرآن فى هذا الصدد يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ [۲۳۰] و ذكر «الأيدى» هنا بصيغة الجمع إشارة إلى مظاهر متنوّعة لقدرة البارى عزّ و جلّ.

۳- جملة فَهُمْ لَها مالِكُونَ المبتدأ بفاء التفريع، إشارة إلى أنّ الخلق مرتبط بقدرتنا، و أمّا المالكية فقد فوّضناها إلى الإنسان، و ذلك منتهى اللطف الإلهى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۶

و عليه فلا محلّ للإشكال الذى ظهر لبعض المفسّرين نتيجة وجود «فاء التفريع»، فالمعنى تماما كما نقول لشخص: هذا البستان زرعناه و أعمرناه، استفد منه أنت، و هذا منتهى إظهار المحبّة و الإيثار.

۴- جملة وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ إشارة إلى مسألة فى غاية الأهمية، و هى تذليل هذه الحيوانات للإنسان. فتلك الحيوانات القوية و التى تنسى فى بعض الأحيان ذلك التذليل الإلهى، و تثور و تغضب و تعاند فتصبح خطرة إلى درجة أنّ عشرات الأشخاص لا يمكنهم الوقوف أمامها. و فى حالاتها الاعتيادية فإنّ قافلة كاملة من الجمال يقودها تارة صبى لم يبلغ الحلم، و يدفعها فى الطريق الذى يرتئيه! إنّه لأمر

عجيب حقّا، فإنّ الإنسان غير قادر على خلق ذبابة، و لا حتّى ترويضها و تذليلها لخدمته، أمّا اللّه القادر المنّان فإنّه خلق ملايين الملايين من الحيوانات المختلفة، و ذلّلها للإنسان لتكون فى خدمته دوما.

۵- جملة فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ مع الالتفات إلى أنّ (ركوبهم) صفة مشبّهة بمعنى (مركوبهم)- إشارة إلى أنّ الإنسان ينتخب قسما منها للركوب و قسما آخر للتغذّى. و إن كان لحم أغلب الحيوانات المشهورة حلال بنظر الإسلام، إلّا أنّ الإنسان استفاد عمليّا من بعضها فقط للتغذية، فمثلا لحم الحمير لا يستفاد منه إلّا فى الضرورة القصوى.

و من الواضح انّ ذلك إذا اعتبرنا «منها» فى كلا الجملتين «للتبعيض الإفرادى»، أمّا لو اعتبرنا الاولى «للتبعيض الافرادى» و الثانية «للتبعيض الأجزائى» يكون معنى الآية (بعض الحيوانات تنتخب للركوب و ينتخب جزء من أجسامها للتغذية (إذ أنّ العظام و أمثالها غير قابلة للأكل).

۶- لَهُمْ فِيها مَنافِعُ إشارة إلى فوائد الحيوانات الكثيرة الاخرى التى تتحقّق للإنسان، و من جملتها الأصواف و الأوبار التى تصنع منها مختلف الملابس و الخيم و الفرش، و الجلود التى تصنع منها الحقائب و الملابس و الأحذية و وسائل اخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۷

مختلفة، و حتّى فى عصرنا الحاضر الذى تميّزت فيه الصناعات التقليدية من منتجات الطبيعة لا زال الإنسان فى مسيس الحاجة إلى الحيوانات من حيث التغذية و من حيث الفوائد الاخرى كالألبسة و وسائل الحياة الاخرى. و حتّى بعض أنواع الأمصال و اللقاحات ضدّ الأمراض التى يستفاد فيها من دماء بعض الحيوانات، بل حتّى أنّ أتفه الأشياء الحيوانية و هى روثها أصبح و منذ وقت طويل مورد استفادة الإنسان لتسميد المزارع و تغذية النباتات المثمرة.

۷- مَشارِبُ إشارة إلى الحليب الذى يؤخذ من تلك الدواب و يؤمّن مع منتجاته قسما مهمّا من المواد الغذائية للإنسان، بشكل أضحّت فيه صناعة الحليب و منتجاته تشكّل اليوم رقما مهمّا فى صادرات و واردات الكثير من الدول، ذلك الحليب الذى يشكّل غذاء للإنسان، و يخرج من بين دم و فرث لبنا سائغا يلتذّ به الشاربون، و يكون عاملا لتقوية الضعفاء.

۸- جملة أ فَلا يَشْكُرُونَ جاءت بصيغة الاستفهام الاستنكارى، و تهدف إلى تحريك الفطرة و العواطف الإنسانية لشكر هذه النعم التى لا تحصى، و التى ورد جانب منها فى الآيات أعلاه، و كما نعلم فإنّ «لزوم شكر المنعم» أساس لمعرفة اللّه، إذ أنّ الشكر لا يمكن أن يكون إلّا بمعرفة المنعم، إضافة إلى أنّ التأمّل فى هذه النعم و إدراك أنّ الأصنام ليس لها أدنى تأثير أو دخل فيها، سيؤدّى إلى إبطال الشرك.

لذا فإنّ الآية التالية، تنتقل إلى الحديث عن المشركين و وصف حالهم فتقول:

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ

فيا له من خيال باطل و فكر ضعيف؟ ذلك الذى يعتقد بهذه الموجودات الضعيفة التافهة التى لا تملك لنفسها- ناهيك عن الآخرين- ضرّا و لا نفعا، و يجعلونها إلى جانب اللّه سبحانه و تعالى و يقرنونها به تعالى، و يلجأون إليها لحلّ مشاكل حياتهم؟

نعم، فهم يلجأون إليها لتكون عزّا لهم: وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۸

عِزًّا.[۲۳۱] و يتوهّمون أنّها تشفع لهم عند اللّه وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ

على كلّ حال، فإنّ جميع هذه الأوهام نقش على الماء، و كما يقول القرآن الكريم فى الآية (۱۹۲) من سورة الأعراف: وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ

و عليه تضيف الآية التالية: إنّ المعبودات لا تستطيع نصرة المشركين، و سيكون هؤلاء المشركون جنودا مجنّدة يتقدّمونها إلى جهنّم:

لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ

و يا له من أمر أليم أن يصطف هؤلاء المشركون بصفوف تتقدّمها تلك الأصنام ليدخلوا جهنّم زمرا فى ذلك اليوم العظيم، دون أن يستطيعوا حلّ عقدة مشكلة واحدة من مشكلات هؤلاء المشركين فى ذلك الموقف الرهيب.

التعبير ب مُحْضَرُونَ يكون عادة للتحقير، لأنّ إحضار الأفراد دون أن يكون لموافقتهم أو عدمها أثر إنّما يدلّل على حقارتهم، و بناء على هذا التّفسير فإنّ الضمير الأوّل «هم» فى جملة وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ يعود على «المشركين»، و الضمير الثانى يعود على «الأصنام»، فى حال أنّ بعض المفسّرين احتملوا العكس بحيث تكون الأصنام و الأوثان هى التابعة للمشركين فى يوم القيامة. و فى نفس الوقت فإنّهم- المشركين- ليس لهم فى الأوثان أدنى أمل، و الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و على كلّ حال، فإنّ هذه التعابير تصدق- فقط- على المعبودات الحيّة ذات الشعور كالشياطين و العصاة من الجنّ و الإنس، و لكن يحتمل أيضا أنّ اللّه سبحانه و تعالى يبعث الروح فى تلك الأصنام و الأوثان و يعطيها العقل و الشعور لكى توبّخ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۳۹

هى أولئك الذين عبدوها فى الدنيا، و ضمنا نقول إنّ هذه الأوثان الحجرية و الخشبية ستكون هى الحطب الذى يؤجّج على أولئك المشركين نار جهنّم إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ [۲۳۲] أخيرا- و فى آخر آية من هذه الآيات، و لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تثبيت فؤاده إزاء مكر المشركين، و الفتن و الأعمال الخرافية- تقول الآية الكريمة:

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ تارة يقولون شاعر، و اخرى ساحر و أمثال ذلك من التهم إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ

فلا تخفى علينا نواياهم، و لا مؤامراتهم فى الخفاء، و لا جحودهم و تكذيبهم لآياتنا فى العلن، نعلم بكلّ ذلك، و نحفظ لهم جزاءهم إلى يوم الحساب، و ستكون أنت أيضا فى أمان من شرّهم فى هذه الدنيا.

و بهذا الحديث الإلهى المواسى يمكن لكلّ مؤمن أيضا- مضافا إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- أن يكون مطمئن القلب بأنّ كلّ شىء فى هذا العالم هو بعين اللّه، و سوف لن يصيبه شىء من مكائد الأعداء، فهو تعالى لا يترك عباده المخلصين فى اللحظات و المواقف العصيبة، و هو دوما حام لهم و حافظ.

***

بحث

الثقافة التوحيدية تمنح عباد اللّه المؤمنين طريقة خاصّة فى الحياة، تبعدهم عن السبل الملوثة بالشرك القائمة على أساس عبادة الأوثان، أو اللجوء إلى بعض البشر الضعاف.

و بصراحة و وضوح أكثر نقول: فى عالمنا اليوم و حيث تتحكّم فى البشرية قدرتان من الشرق و الغرب، فإنّ الدول الصغيرة- عادة- و كلّ ما عدا تلكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۰

القدرتين ستفكّر لأجل حفظ نفسها و البقاء بالاتّكاء على إحدى تلك القدرتين الصنمين، و تطلب حمايتها و الإفادة من قدرتها، فى حال أنّ التجارب أثبتت أنّ هاتين القدرتين عند بروز المشاكل و الحوادث المستعصية و الاضطرابات لا تستطيع حلّ مشكلاتها و لا مشكلات من يدور فى فلكها.

و ما أجمل ما يقوله القرآن واصفا هذه الحالة: وَ لا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْراً وَ لا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ و هذا تحذير لجميع المسلمين و سالكى طريق التوحيد الخالص، بأن يبتعدوا عن تلك الأصنام، و يلجأوا إلى ظلّ اللطف الإلهى، و أن يعتمدوا على أنفسهم، و على طاقة الإيمان، و أن لا يدعوا طريقا لهذه الأفكار الإشراكية الملوّثة تصل إلى فكرهم بحيث يلجأون إلى تلك القدرات و يستنجدونها فى

الملمّات، و أن يطهّروا الثقافة الإسلامية و المجتمعات الإسلامية من هذه الأفكار، و أن يعلموا بأنّهم قد نالوا ضربات عديدة حتّى الآن نتيجة هذا المنطق- سواء أمام إسرائيل الغاصبة أو الأعداء الآخرين- فى حال أنّه لو كان هذا الأصل القرآنى الأصيل يحكم فيهم فإنّ حالهم لم تكن لتبلغ هذا المستوى من الهزيمة و الانكسار، آملين أن نصل إلى اليوم الذى نعيد فيه بناء أفكارنا حسب المفاهيم و المبادئ القرآنية، و أن نعتمد على أنفسنا، و نلجأ إلى ظلّ اللطف الإلهى فنعيش أعزّاء مرفوعى الرؤوس أحرارا إن شاء اللّه.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۷۷ الى ۷۹]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (۷۷) وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ (۷۸) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (۷۹)

سبب النّزول

نقلت أغلب التفاسير

عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام أنّه قال: «جاء أبىّ بن خلف (أو العاص بن وائل) فأخذ عظما باليا من حائط ففته ثمّ قال: إذا كنّا عظاما و رفاتا إنّا لمبعوثون خلقا؟» فأنزل اللّه: قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

التّفسير

قلنا أنّ البحوث المختلفة حول المبدأ و المعاد و النبوّة فى سورة (يس) التى هى قلب القرآن وردت بشكل مقاطع مختلفة، فهذه السورة ابتدأت بمسألة النبوّة، و اختتمت بسبعة آيات تمثّل أقوى البيانات حول المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۲

فى البدء تأخذ بيد الإنسان و تشير له إلى بدء حياته فى ذلك اليوم حيث كان نطفة مهينة لا غير و تدعوه إلى التأمّل و التفكّر، فتقول: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۲۳۳]. يا له من تعبير حيوى؟ فالآية تؤكّد أوّلا على مخاطبة الإنسان، أيّا كان و أىّ إعتقاد كان يعتقد، و على أىّ مستوى كان من العلم، فهو يستطيع إدراك هذه الحقيقة.

ثمّ تتحدّث عن «النطفة» و التى هى لغويا بمعنى «الماء المهين» لكى يعلم هذا الإنسان المغرور المتكبّر- بقليل من التأمّل- ماذا كان فى البدء؟ كما أنّ هذا الماء المهين لم يكن هو السبب فى نشوئه و ظهوره، بل خليّة حيّة متناهية فى الصغر، لا ترى بالعين المجرّدة، من ضمن آلاف بل ملايين الخلايا الاخرى التى كانت تسبح فى ذلك الماء المهين، و باتّحادها مع خلية صغيرة اخرى مستقرّة فى رحم المرأة تكوّنت الخليّة البشرية الاولى، و دخل الإنسان إلى عالم الوجود! و تتواصل مراحل التكامل الجنينى الواحدة بعد الأخرى و التى هى ستّة مراحل كما نقلها القرآن الكريم فى بداية سورة «المؤمنون» (النطفة، العلقة، المضغة، العظام، اكتساء العظام باللحم، و تمثّل الخلق السوى). ثمّ إنّ الإنسان بعد الولادة كائن ضعيف جدّا، لا يملك القدرة على شىء، ثمّ يقطع مراحل نموّه بسرعة حتّى بلوغ الرشد الجسمانى و العقلى.

نعم، فهذا الموجود الضعيف العاجز، يصبح قويّا إلى درجة أن يجيز لنفسه النهوض لمحاربة الدعوات الإلهيّة، و ينسى ماضيه و مستقبله، ليكون مصداقا حيّا لقوله تعالى: فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ و اللطيف أنّ هذا التعبير يتضمّن جنبتين، إحداهما تمثّل جانب القوّة، و الاخرى جانب الضعف، و يظهر أنّ القرآن الكريم أشار إليهما جميعا.

إنّ هذا العمل لا يكون إلّا من إنسان يملك عقلا و فكرا و شعورا و استقلالا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۳

و إرادة، و نعلم بأنّ أهمّ مسألة فى حياة الإنسان هى التكلّم و الحديث الذى يهيّأ محتواه مسبقا فى الذهن، ثمّ يصبّ فى قالب من العبارات و يطلق باتّجاه الهدف كالرصاص المنطلق من فوهة البندقية، و هذا العمل لا يمكن حدوثه فى أى كائن حى عدا الإنسان.

و بذلك فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يجسّد قدرته فى إعطاء هذا الماء المهين هذه القوّة العظيمة .. هذا من جانب.

و من جانب آخر فإنّ الإنسان مخلوق مغرور و كثير النسيان، فهو يستغلّ كلّ هذه النعم التى أولاها إيّاه ولى نعمته ضدّه فى المجادلة و المخاصمة، فيا له من مغفّل أحمق!! و يكفى لمعرفة مدى غفلته و حمقه أنّه جاء: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ۲۳۴].

المقصود من ضرب المثل هنا، نفس المعنى بدون التشبيه و الكناية. فالمقصود هو الاستدلال و ذكر مصداق لإثبات مطلب معيّن. نعم فإنّ (أبىّ بن خلف أو اميّة بن خلف. أو العاص بن وائل) كان قد وجد قطعة متفسّخة من عظم لم يكن معلوما لمن؟ و هل مات موتا طبيعيا؟ أو فى واحدة من حروب العصر الجاهلى المهولة؟

أو مات جوعا؟ و ظنّ أنّه وجد فيه دليلا قويّا لنفى المعاد! فحمل تلك القطعة من العظم و ذهب حانقا و فرحا فى نفس الوقت و هو يقول: لأخصمن محمّدا.

فذهب إلى الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو فى عجلة من أمره ليقول له: قل لى من ذا الذى يستطيع أن يلبس هذا العظم البالى لباس الحياة من جديد؟ و فتّ بيده قسما من العظم و ذرّه على الأرض، و اعتقد بأنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيتحيّر فى الجواب و لا يملك ردّا!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۴

و الجميل أنّ القرآن الكريم أجابه بجملة وجيزة مقتضبة و هى قوله تعالى:

وَ نَسِيَ خَلْقَهُ و إن كان قد أردف مضيفا توضيحا أكثر.

فكأنّه يقول: لو لم تنس بدء خلقك لما استدللت بهذا الاستدلال الواهى الفارغ أبدا.

أيّها الإنسان الكثير النسيان، عد قليلا إلى الوراء و انظر فى خلقك، كيف كنت نطفة تافهة و كلّ يوم أنت فى لبس جديد من مراحل الحياة، فأنت فى حال موت و بعث مستمرين، فمن جماد أصبحت رجلا بالغا، و بكميّة من عالم النبات الجامد، و من عالم الحيوان الميّت أيضا أصبحت إنسانا، و لكنّك نسيت كلّ ذلك و صرت تسأل: من يحيى العظام و هى رميم؟ ألم تكن أنت فى البدء ترابا كما هو حال هذه العظام بعد تفسّخها؟! لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأن يقول لهذا المغرور الأحمق الناسى قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ.

فإذا كان بين يديك اليوم بقيّة من العظام المتفسّخة تذكّرك به، فقد مرّ يوم لم تكن فيه شيئا و لا حتّى ترابا، نعم، أ فليس سهلا على من خلقك من العدم أن يعيد الحياة إلى العظام المهترئة؟! و إذا كنت تعتقد بأنّ هذه العظام بعد تفسّخها تصبح ترابا و تنتشر فى الأصقاع، فمن يستطيع عند ذلك أن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة من نقاط انتشارها؟ فإنّ الجواب على ذلك أيضا واضح: وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

فمن كان له مثل هذا (العلم) و هذه (القدرة) فإنّ مسألة المعاد و إحياء الموتى لا تشكّل بالنسبة إليه أيّة مشكلة. فنحن نستطيع بقطعة

من «المغناطيس» جمع برادة الحديد المبثوثة فى كميّة من التراب و فى لحظات، و اللّه العالم القادر يستطيع كذلك بأمر واحد أن يجمع ذرّات بدن الإنسان من كلّ موضع كانت فيه من الكرة الأرضية. فهو العالم ليس بخلق الإنسان فقط، بل هو العالم بنواياه و أعماله أيضا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۵

المحيط بكلّ شيء علما و هو على كلّ شيء قدير و عليه فإنّ الحساب على الأعمال و النوايا و الإعتقادات المضمرة لا يشكّل له.

و عليه فإنّ الحساب على الأعمال و النوايا و الإعتقادات المضمرة لا يشكّل له تعالى أدنى مشكلة أيضا، فكما ورد فى الآية (۲۸۴) من سورة البقرة: وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ

و كذلك حينما أظهر فرعون شكّا فى قدرة اللّه على المعاد و إحياء القرون السابقة، أجابه موسى عليه السّلام: قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى [۲۳۵]***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۶

الآية [سورة يس (۳۶): آية ۸۰]

اشارة

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (۸۰)

التّفسير

تتابع هذه الآية البحوث المختلفة حول المعاد و الإشارات العميقة المعنى حول مسألة إمكان المعاد و رفع أى استبعاد لذلك، و الآية أعلاه شرح أوسع و أوضح حول هذه المسألة، تقول: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ و يا له من تعبير رائع ذلك الذى كلّما دقّقنا فيه أفاض علينا معانى أعمق و أدقّ؟! و كما نعلم فإنّ الآيات القرآنية لها معان متعدّدة من أبعاد مختلفة- فبعض معانيها واضح للغالبية من الناس فى كلّ زمان و مكان، و بعضها عميق يختصّ بفهمه البعض، و أخيرا فإنّ بعضها الآخر يتمثّل فيه العمق الذى لا يستطيع سبر غوره إلّا الخواص من العبّاد، و فى نفس الوقت فإنّ تلك المعانى لا تنافى بعضها البعض، بل إنّها تجمع كلّها فى قالب واحد و فى آن واحد. و الآية مورد البحث هكذا تماما.

التّفسير الأوّل الذى قال به الكثير من المفسّرين القدماء. و هو بسيط و واضح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۷

يمكن فهمه و استيعابه من قبل الغالبية و هو: أنّ المراد هو شجر «المرخ و العفار» الذى كان العرب قديما يأخذون منهما على خضرتهما، فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زندا أعلى، فيسحق الأعلى على الأسفل فتنقدح النار بإذن اللّه.

و فى الواقع فهو يمثّل الكبريت فى عصرنا الحالى. و اللّه سبحانه و تعالى يريد القول بأنّ الذى يستطيع إشعال النار من هذا الشجر الأخضر له القدرة على إلباس الموتى لباس الحياة.

فالماء و النار شيئان متضادّان، فمن يستطيع جعلهما معا فى مكان واحد، قادر على جعل الحياة و الموت معا فى مكان واحد. فالذى يخلق (النار) فى قلب (الماء) و (الماء) فى قلب (النار) فمن المسلّم أنّ إحياء بدن الإنسان الميّت لا يشكّل بالنسبة له أدنى صعوبة.

و إذا خطونا خطوة أبعد من هذا التّفسير فسوف نصل إلى تفسير أدقّ و هو: أنّ خاصيّة توليد النار بواسطة خشب الأشجار، لا تنحصر بخشب شجرتى «المرخ و العفار» بل إنّ هذه الخاصية موجودة فى جميع الأشجار و جميع الأجسام الموجودة فى هذا العالم و إن كان

لشجرتى المرخ و العفار- لتوفّر خصائص فيها- استعداد أكثر من غيرهما على هذا الأمر.

خلاصة القول، إنّ جميع خشب الأشجار إذا حكّ ببعضه بشكل متواصل فإنّه سيطلق شرر النار و حتّى (خشب الشجر الأخضر).

لهذا السبب تقع فى بعض الأحيان حرائق هائلة فى بعض الغابات المليئة بالأشجار، لا يعرف لها سبب من قبل الإنسان، إلّا أنّ هبوب الريح الشديدة التى تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدّة ممّا يؤدّى إلى انقداح شرر منها يؤدّى إلى اشتعال النار فيها، و تساعد الريح الشديدة على سرعة انتشارها، فالعامل الأصلى كان تلك الشرارة الناتجة عن الاحتكاك.

هذا التّفسير الأوسع، هو الذى يوضّح عملية جمع الأضداد فى الخلق. و يبسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۸

مفهوم وجود (البقاء) فى (الفناء) و بالعكس.

لكن ثمّة تفسير ثالث يعتبر أعمق بكثير من التّفسيرين السابقين. و الذى ظهر إلى الواقع نتيجة جهود العلماء فى عصرنا الحاضر و قد اخترنا أن نطلق عليه تسمية «انبعاث الطاقة».

و توضيح ذلك كما يلى: إنّ من أهمّ الوظائف التى تقوم بها النباتات هى عملية «التركيب الضوئى» و التى تعتمد أساسا على أخذ غاز «ثانى اوكسيد الكربون» من الهواء، و الإفادة منه بواسطة «المادّة الخضراء» أو ما يسمّى «بالكلورفيل» لصنع الغذاء بمساعدة الماء و ضوء الشمس. ذلك الغذاء الذى يؤدّى إلى تكوّن حلقات السليلوز فى النباتات من ذوات الفلقتين، و يكون ناتج عملية التركيب الضوئى الأوكسجين الذى يطلق فى الهواء مرّة اخرى.

و لو نظرنا إلى العملية بطريقة اخرى فإنّ النباتات تأخذ الغاز (ثانى أوكسيد الكاربون) و تجزّئه أثناء عملها لتحتفظ بالكاربون مركّبا مع غيره من الماء لتكوّن الخشب و تطلق الأوكسجين.

و المهمّ هنا أنّ العلماء يقولون: بأن أيّة عملية تركيب كيمياوى تحتاج إلى طاقة ما لكى يتمّ ذلك التفاعل الكيمياوى، أو أنّ ذلك التفاعل يؤدّى إلى إطلاق طاقة كناتج عنه. و بناء عليه فإنّ التفاعل الذى يتمّ نتيجة التركيب الضوئى إنّما يستفيد من الشمس كمصدر للطاقة لإتمام التفاعل.

و عليه فالشجرة إنّما تقوم بادّخار هذه الطاقة فى الخشب الذى يتكوّن نتيجة لهذه العملية. و عند ما نقوم نحن بحرق هذا الخشب فإنّنا إنّما نقوم بإطلاق عقال هذه الطاقة المدّخرة. و بذا فإنّنا نقوم بإعادة تركيب (الكاربون) مع (الأوكسجين) لينتج (ثانى أوكسيد الكاربون) الذى ينطلق فى الهواء مرّة اخرى، بالإضافة إلى بخار الماء.

و لو تحدّثنا بلغة اخرى لقلنا: إنّ تلك الحرارة الناجمة عن اشتعال الحطب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۴۹

المواقد البيتية القروية أو مواقد الفحم التى نستعملها فى بيوتنا أحيانا للتدفئة فى فصل الشتاء، هى فى الحقيقة حرارة و نور الشمس التى ادّخرت فى خشب هذه الأشجار لسنوات، و ما جمعته الشجرة على مدى عمرها من الشمس تعيده دفعة واحدة بدون نقص.

و يقال إنّ كلّ الطاقات فى الكرة الأرضية تعود إلى الشمس أساسا، و واحد من مظاهره ما ذكرنا.

و هنا و حيث بلغنا «انبعاث الطاقات» نلاحظ أنّ النور و الحرارة المبعثرة فى الجو و التى تقوم الأشجار بجمعها فى أخشابها لتنمو فإنّها لا تفنى أبدا. بل إنّها تتبدّل شكلا. و تختفى بعيدا عن أعيننا فى كلّ ذرّة من ذرّات الخشب، و عند ما نقوم بإيقاد النار بقطعة من الحطب، فإنّ انبعاثها يبدأ، و جميع ما كان فى ذرّات الخشب من النور و الحرارة و طاقة الشمس، فى تلك اللحظة- لحظة الحشر و النشر- تظهر من جديد. بدون أن ينقص منه حتّى بمقدار إضاءة شمعة واحدة (تأمّل بدقّة).

لا شكّ أنّ هذا المعنى كان خافيا على عوام الناس حين نزول الآية، و لكن- كما قلنا- فإنّ هذا الموضوع لا يشكّل أدنى مشكلة، لأنّ آيات القرآن لها معان متعدّدة و على مستويات مختلفة، لاستعدادات متفاوتة، ففى يوم يفهم من الآية معنى، و اليوم يفهم منها معنى

أوسع، و يمكن أنّ الأجيال القادمة تفهم منها معنى أوسع و أعمق، و فى نفس الوقت فكلّ هذه المعانى صحيحة و مقبولة بشكل كامل و مجموعة كلّها فى معنى الآية.

***

مسألتان

۱- شجر أخضر .. لماذا؟

يرد على الذهن أنّه لماذا عبّر القرآن هنا بالشجر الأخضر؟ فى حين أنّ توليد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۰

النار من الخشب الطرى و الرطب يتمّ بصعوبة بالغة، فكم كان جميلا لو عبّر عوضا عن ذلك «بالشجر اليابس»، لكى ينسجم مع المعنى تماما!!؟

النكتة هنا هو أنّ الشجر الأخضر الحى فقط يستطيع القيام بعملية التركيب الضوئى، و ادّخار نور الشمس و حرارتها، و أمّا الجذوع اليابسة للشجر لو بقيت مئات السنين متعرّضة للشمس فإنّها لن تستطيع زيادة الذخيرة الموجودة فيها.

و بناء عليه فإنّ (الشجر الأخضر) فقط يستطيع أن يصنع وقودا لنا، و يمكنه الاحتفاظ و ادّخار الحرارة و النور و زيادتها بصورة محوّرة، و لكنّها بمحض جفافها، فإنّ عملية التركيب الضوئى تتوقّف، و تتعطّل معها عملية ادّخار الطاقة الشمسية.

و بناء على هذا فإنّ التعبير أعلاه، يعتبر تجسيدا جميلا لعملية «انبعاث الطاقات» و معجزة علمية خالدة للقرآن الكريم! ..

فضلا عن أنّنا إذا رجعنا إلى التّفسيرات الاخرى التى أشرنا إليها سابقا، يبقى أيضا التعبير ب «الشجر الأخضر» جميلا و مناسبا، إذ أنّ الأشجار الخضراء عند احتكاكها ببعضها البعض تولّد شرارة تستطيع أن تكون مبعث نار كبيرة، و هنا نقف إزاء عظمة قدرة اللّه فى حفظه النار فى قلب الماء، و الماء فى قلب النار[۲۳۶].

۲- الفرق بين الوقود و الوقود:

«توقدون» من «وقود»- على زنة قبور- بمعنى اشتعال النار- و «الإيقاد» بمعنى إشعال النار، و «الوقود»- على زنة ثمود- بمعنى الحطب المعدّ للإحراق.

و عليه فإنّ جملة فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ إشارة إلى الحطب الذى تشتعل فيه النار، لا ما تبدأ به النار بالاشتعال كالزناد أو عود الكبريت.

و بناء عليه فإنّ القرآن الكريم يقول: «إنّ اللّه سبحانه و تعالى جعل لكم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۱

الشجر الأخضر حطبا توقدونه، و هو القادر على إعادة الموتى إلى الحياة» و هذا التعبير ينسجم تماما مع ما قلناه من «بعث الطاقات» «تأمّل بدقّة»!! و على كلّ حال، فإنّ مسألة إشعال النار فى خشب الأشجار مع أنّها مسألة بسيطة فى نظرنا، و لكن بقليل من الدقّة نعلم أنّها من أعجب المسائل، لأنّ المواد التى يتشكّل منها خشب الأشجار فى أغلبها ماء و تراب، و كلاهما غير قابل للاشتعال، فما هى تلك القدرة التى خلقت من الماء و التراب و الهواء- و هى مواد- طاقة لا زالت حياة البشر و منذ آلاف السنين مرتبطة بها بقوّة؟!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۲

الآيات [سورة يس (۳۶): الآيات ۸۱ الى ۸۳]

اشارة

أ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (۸۱) إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۸۲) فَسُبْحانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۳)

التّفسير

هو المالك و الحاكم على كلّ شيء!!

بعد ذكر دلائل المعاد و الفات الأنظار إلى الخلق الأوّل، و نشوء النار من الشجر الأخضر فى الآيات السابقة، تتابع الآية الاولى هنا بحث ذلك الموضوع من طريق ثالث و هو قدرة اللّه اللامتناهية، فتقول الآية الاولى: أ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ

الجملة الاولى بشروعها (بالاستفهام الإنكارى) تطرح سؤالا على الوجدان اليقظ و العقل السليم كالآتى: ألم تتطلّعوا إلى تلك السماء المترامية العظيمة بكلّ ثوابتها و سيّاراتها العجيبة، و بكلّ تلك المنظومات و المجرّات التى تشكّل كلّ زاوية منها دنيا واسعة هائلة؟ فالذى هو قادر على خلق كلّ هذه العوالم الخارقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۳

فى العظمة و المتناهية التنظيم و الدقّة فى قوانينها، كيف لا يكون قادرا على إحياء الموتى؟

و لكون الجواب على هذا السؤال واضحا، و كامنا فى كلّ قلب و روح، فإنّ الآية لا تنتظر الجواب، إنّما تردف مضيّفة «بلى» و تتابع مؤكّدة على صفتين للّه سبحانه و تعالى- الخالقية و العلم المطلق- و ذلك فى حقيقته دليل على الكلام المتقدّم، فإذا كنتم تشكّون فى قدرته على الخلق فهو «الخلّاق» (و هى صيغة مبالغة).

و إذا كان جمع هذه الذرّات يحتاج إلى علم أو معرفة فهو «العليم» المطلق.

أمّا على ماذا يعود الضمير فى «مثلهم» فقد احتمل المفسّرون احتمالات عديدة، و لكن أشهرها هو القول بعودة الضمير على «البشر» و المعنى: إنّ خالق السماء و الأرض قادر على خلق مثل البشر.

و هنا يأتى السؤال التالى و هو لماذا لم يقل: قادر على أن يخلقهم من جديد، بل قال: بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ

و للإجابة على هذا السؤال ذكرت أجوبة كثيرة، يبدو أقربها: أنّ بدن الإنسان عند ما يتحوّل- أو بالأحرى يتحلّل- إلى تراب، فإنّه يفقد الصورة النهائية التى كان عليها، و فى يوم القيامة عند ما يعاد خلق هذا الإنسان من جديد، فإنّه سيخلق من نفس المواد و لكن بصورة جديدة تشبه الصورة القديمة، بلحاظ أنّ عودة نفس الصورة القديمة- بالأخصّ إذا أخذنا فى الإعتبار قيد الزمن- غير ممكن، و خصوصا إذا علمنا- مثلا- أنّ الإنسان لا يحشر بجميع المواصفات و الكيفية التى كان عليها سابقا، فإنّ الشيبة و الشيوخ- مثلا- يحشرون شبّانا، و المعلولين يحشرون سالمين، و هكذا.

و بتعبير آخر، فإنّ بدن الإنسان كالطابوق الطينى غير المفخور- اللبن- الذى يمرّ عليه الزمان فيتهدّم و يصبح ترابا، ثمّ يجمع من جديد و تصنع منه خميرة الطين و يوضع فى قالب مرّة اخرى و يصنع لبنا جديدا مرّة اخرى. فهذا «اللبن» هو من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۴

جانب نفس «اللبن» القديم و من جانب آخر «مثله» «مادّته هى نفس المادّة و الصورة مثل الصورة السابقة» «دقّق النظر»[۲۳۷].

الآية اللاحقة تأكيد على ما ورد فى الآيات السابقة، و تأكيد على حقيقة أنّ أى خلق و إيجاد بالنسبة للّه سبحانه و تعالى و قدرته سهل و بسيط، و خلق السموات العظيمة و الكرة الأرضية يعادل فى سهولته إيجاد حشرة صغيرة، فكلاهما بالنسبة له تعالى أمر هيّن بسيط، يقول تعالى: إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فكلّ شىء مرتبط بأمره و إشارته فقط، و ذات بهذه القدرة كيف يشكّ فى تمكّنها فى إحياء الموتى؟! و بديهى أنّ الأمر الإلهى هنا ليس أمرا لفظيا، كما أنّ جملة «كن» ليست جملة يبيّنها اللّه سبحانه و تعالى بصورة لفظ، لأنّه تعالى لا يحتاج إلى تلك الألفاظ، بل المقصود هو مجرّد إرادته لإيجاد و إبداع شىء، و إنّما استخدم التعبير ب «كن» لأنّه ليس هناك تعبير أقصر و أصغر و أسرع يمكن تصوّره فى التعبير عن تلك الحقيقة.

نعم فإرادته لإيجاد شىء و وجود هذا الشىء هى عملية واحدة.

و بتعبير آخر: فإنّ اللّه سبحانه و تعالى ما إن يرد شيئا إلّا تحقّق فورا، و ليس بين إرادته و وجود ذلك الشىء أيّة فاصلة، و عليه فإنّ «أمره» و «قوله» و جملة «كن» كلّها توضيح لمسألة الخلق و الإيجاد. و كما ذكرنا فإنّ الأمر ليس لفظيّا أو قوليا، بل كلّها توضيح للتحقّق السريع بوجود كلّ ما أراده سبحانه و تعالى.

و ببيان أوضح، انّ أفعال اللّه سبحانه و تعالى تمرّ بمرحلتين لا ثالث لهما، مرحلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۵

الإرادة و مرحلة الإيجاد، و هى التى عبّرت عنه الآية بشكل أمر فى جملة «كن».

بعض المفسّرين القدماء توهّموا أنّ المعنى يشير إلى وجود قول و لفظ فى عملية الإيجاد و الخلق، و اعتبروا ذلك من أسرار الخلق غير المعروفة، و الظاهر أنّهم وقعوا فى عقدة اللفظ، و بقوا بعيدين عن المعنى، و قاسوا أعمال اللّه على مقاييسهم البشرية.

و ما أجمل ما

قاله أمير المؤمنين عليه أفضل الصلاة و السلام فى واحدة من خطبة التى أوردت فى نهج البلاغة: «يقول لما أراد لما كونه كن فيكون ۲۳۸] لا بصوت يقرع، و لا بنداء يسمع، و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، و لو كان قديما لكان ثانيا»[۲۳۹].

ناهيك عن أنّنا لو افترضنا وجود لفظ أو قول فى عملية الخلق فسنواجه إشكالين أساسيين:

الأوّل: أنّ (اللفظ) بحدّ ذاته مخلوق من مخلوقات اللّه و لأجل إيجاده يحتاج سبحانه إلى «كن» اخرى، و نفس الكلام ينطبق على «كن» الثانية بحيث نصبح فى عملية تسلسل غير منتهية.

الثانى: أنّ كلّ خطاب يحتاج إلى مخاطب، و فى الوقت الذى لم يوجد فيه شىء حينذاك فكيف يخاطبه اللّه سبحانه و تعالى بالقول «كن»، فهل أنّ المعدوم يمكن مخاطبته؟! و قد ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم نفس هذا المعنى بتعبيرات اخرى، كما فى الآية (۱۱۷) من سورة البقرة: وَ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ و كذا فى الآية (۴۰) من سورة النحل: إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۶

[۲۴۰].

الآية الأخيرة من هذه الآيات و هى فى ذات الوقت آخر آية من سورة «يس» تنهى البحث فى مسألة المبدأ و المعاد بشكل جميل و بطريقة الاستنتاج الكلّى فتقول: فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ «ملكوت» من أصل «ملك»- على وزن حكم- بمعنى الحكومة و المالكية، و إضافة (الواو) و (التاء) إليها للتأكيد و المبالغة، يتّضح أنّ معنى الآية كما يلى: إنّ الحاكمية و المالكية المطلقة بدون أدنى قيد أو شرط بيد قدرته المطلقة، و

كذلك فإنّ اللّه سبحانه منزّه و مبرّأ عن أى عجز أو نقص فى القدرة، و بهذا الشكل فإنّ إحياء الموتى و إلباس العظام المتفسّخة لباس الحياة من جديد، كلّ ذلك لن يشكّل لديه أيّة مشكلة، و لذلك فاعلموا يقينا أنّكم إليه ترجعون و أنّ المعاد حقّ.

***

بحوث

اشارة

لقد تقدّمت منّا الوعود بأن نتعرّض لبحث مركز فى مسألة المعاد فى ختام سورة (يس) و ها نحن نفى بهذه الوعود و نشبع هذه المسألة بحثا من خلال ستّة مباحث لنعرضها للقرّاء الأعزّاء كما يلى:

۱- الإعتقاد بالمعاد أمر فطرى:

إذا كان الإنسان قد خلق للفناء فيجب أن يكون عاشقا للفناء، و أن يلتذّ بنهاية عمره و بموته فى حين أنّنا نرى أنّ الموت بمعنى الفناء لم يكن سارا للإنسان فى أى وقت، و هو يفرّ منه بكلّ وجوده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۷

إنّ السعى لإبقاء أجسام الموتى عن طريق التحنيط، و بناء المقابر الخالدة كأهرام مصر، و الجرى وراء ما يسمّى بماء الحياة و دواء الشباب و ما يطيل العمر، كلّ ذلك دليل على عشق الإنسان لمفهوم البقاء.

فإذا كنّا قد خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء سوى أنّها علاقة شاغلة بلا جدوى و لا فائدة.

لا- تنسوا أنّنا نتابع البحث فى مسألة المعاد بعد الاتّفاق على الإعتقاد بوجود اللّه الحكيم العالم، و نحن نعتقد بأنّ كلّ ما خلقه اللّه سبحانه و تعالى فى وجودنا إنّما هو وفقا لحساب و غرض، و بناء عليه فإنّ عشق البقاء لا بدّ أن يكون له حساب خاصّ، منسجم مع الخلق و العالم بعد الدنيا.

و بتعبير آخر: فلو أنّ نظام الخلق أوجد فينا عطشا. فإنّ ذلك دليل على أنّ للماء وجودا فى العالم الخارجى، كذلك فإنّ وجود الغريزة الجنسية و الميل إلى الجنس الآخر يدلّل على وجود الجنس الآخر فى العالم الخارجى، و إلّا فإنّ الانجذاب بدون أن يكون له مدلول و موضوع خارجى لا يتّفق مع حكمة الخلق.

و من جهة اخرى فعند ما نبحث فى التأريخ البشرى منذ أيّام نشأة ذلك التأريخ فإنّنا نجد دلائل كثيرة على الإعتقاد الراسخ لدى الإنسان بالحياة بعد الموت.

فالآثار التى وصلت إلينا من البشر الغابرين- و حتّى إنسان ما قبل التأريخ- و بالأخصّ طريقة دفن الموتى، و كيفية بناء القبور، و حتّى دفن الأشياء المختلفة مع الموتى، كلّها دليل على ما ترسّخ فى وجدانهم من الإعتقاد بالحياة بعد الموت.

«صاموئيل كنيك» أحد علماء النفس المعروفين يقول: «إنّ التحقيقات الدقيقة تشير إلى أنّ المجموعات البشرية الاولى على سطح الأرض، كانت لهم اعتقادات معيّنة، لأنّهم كانوا يلحدون موتاهم بطريقة معيّنة فى الأرض، و يضعون معهم وسائل و آلات أعمالهم التى كانوا يمارسونها قبل الموت إلى جانبهم، و بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۸

الطريقة فإنّهم يثبتون اعتقادهم بوجود عالم ما بعد الموت»[۲۴۱].

فهؤلاء اعتقدوا بالحياة بعد الموت، و إن كانوا قد سلكوا طريقا خاطئا فى اعتقادهم كتوهّمهم أنّ تلك الحياة شبيهة بهذه الحياة تماما.

على كلّ حال، فلا يمكن قبول أنّ ذلك الإعتقاد القديم مجرّد و هم أو نتيجة للتلقين و العادة.

و من جهة ثالثة، فإنّ وجود محكمة «الوجدان»، دليل آخر على فطرية الإعتقاد بالمعاد. فكلّ إنسان عند ما ينجز عملا حسنا فإنّه يستشعر فى أعماقه و فى وجدانه الطمأنينة التى لا يمكن أحيانا وصفها بأى بيان أو كلام.

و على العكس عند ما يرتكب الذنوب و خصوصا الجنايات الكبرى، فإنّه يستشعر عدم الراحة، إلى حد تصل الحالة فى البعض إلى الانتحار، أو يسلّموا أنفسهم إلى المحاكم لنيل العقاب و التعلّق على أعواد المشانق.

كلّ ذلك دليل على عذاب الضمير و الوجدان.

و للإنسان أن يسأل نفسه: كيف يمكن أن يكون عالم صغير كعالم النفس له تلك المحكمة، و لا يكون لهذا العالم العظيم مثل هذا الوجدان و هذه المحكمة؟! و بهذا الشكل يتّضح أنّ الإعتقاد بمسألة المعاد و الحياة بعد الموت أمر فطرى، و من عدّة طرق:

من طريق العشق البشرى العام للبقاء.

و من طريق وجود ذلك الإعتقاد بالحياة بعد الموت على طول التأريخ البشرى.

و من طريق وجود النموذج المصغّر لها فى داخل الإنسان.

۲- أثر الإعتقاد بالمعاد على حياة البشر:

إنّ الإعتقاد بعالم ما بعد الموت و بقاء آثار الأعمال البشرية، و خلود الأعمال-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۵۹

سواء كانت خيرا أو شرّا- يترك أثره العميق على فكر و أعصاب و جسد الإنسان، و يمكنه أن يكون عاملا مؤثّرا فى التشجيع على الأعمال الحسنة.

إنّ تأثير الإيمان بالحياة بعد الموت فى إصلاح الأفراد الفاسدين و المنحرفين و تشجيع الأفراد المضحّين و المجاهدين، أكثر بكثير من تأثير المحاكم و العقوبات المعمول بها عادة فى الدنيا، للمزايا التى يتمتّع بها ذلك الإيمان عن المحاكم العادية، ففى محكمة المعاد لا وجود لإعادة النظر، و لا أثر للاضطهاد الفكرى على صاحبها، و لا فائدة من إعطاء وثائق كاذبة و مزوّرة، و لا تستغرق- عبر روتينها- مدّة من الزمن.

القرآن الكريم يقول: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ ۲۴۲].

كذلك يقول تعالى: وَ لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ ۲۴۳].

كذلك قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ ۲۴۴].

و إنّ حسابه تعالى سريع و حاسم كما نقلت بعض الروايات: «إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّها فى مقدار لمح البصر»[۲۴۵].

و لهذا السبب فقد اعتبر القرآن الكريم أنّ سبب الكثير من الذنوب هو نسيان يوم الجزاء، فقال تعالى: فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا[۲۴۶].

حتّى أنّه يستفاد من بعض الآيات أنّ الإنسان إذا كان معتقدا بالقيامة فإنّه يمتنع عن القيام بالكثير من الأعمال المخالفة، فقد ورد فى وصفه تعالى لمن يخسرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۰

المیزان فی البیع قوله تعالی: أ لا یَظُنُّ أُولئِکَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِیَوْمٍ عَظِیمٍ ۲۴۷].

و الحماسة الخالدة لمجاهدی الإسلام سابقا و حاضرا فی میادین الجهاد، و التضحیة و الفداء و الإیثار الذی یظهره الکثیر من المسلمین فی الدفاع عن بلدان الإسلام و عن المحرومین و المستضعفین، یدلّل علی أنه بجمیعه انعکاس لحالة الإعتقاد بالحیاة الخالدة فی الدار الآخرة، و قد دلّت الدراسات من قبل المفکّرین، و التجارب المختلفة علی أنّ تلک المظاهر لا یمکن أن تکون- فی المقیاس الواسع الشامل- إلّا عن طریق العقیدة بالحیاة بعد الموت.

فإنّ المجاهد الذی منطقه قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَی الْحُسْنَیَیْنِ ۲۴۸]. أی الوصول إلی إحدی السعادتین إمّا النصر أو الشهادة، و هو قطعا مجاهد لا یقبل الهزیمة.

إنّ الموت الذی یبعث علی الوحشة لدی کثیر من الناس، و حتّی أنّهم یحاذرون من ذکر اسمه أو کلّ ما یذکّر به، لیس موحشا و لا قبیحا قطّ بالنسبة إلی المعتقدین بالحیاة بعد الموت، بل إنّه بالنسبة إلیهم نافذة علی عالم رحیب، و تحطّم القفص الدنیوی و کسر القیود المادّیة التی تأسر الروح، و بلوغ الحریّة المطلقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص ۲۶۰

ّ مسألة المعاد تعتبر الخطّ الفاصل بین الإلهیین و المادّیین، لوجود نظرتین مختلفتین هنا:

فالمادّی یری الموت فناء مطلقا، و یفرّ منه بکلّ وجوده، لأنّ کلّ شیء سینتهی به.

و الإلهی یری الموت ولادة جدیدة، و ولوجا فی عالم واسع کبیر مشرق، و الانطلاق فی السماء اللامحدودة. و من الطبیعی فإنّ المعتقدین بهذا المذهب لا یفسحون المجال للخوف و الوحشة للدخول إلی أنفسهم عند سلوکهم طریق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۱

الموت و الشهادة. بل إنّهم یستلهمون من

قول أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب (علیه أفضل الصلاة و السلام) «و اللّه لابن أبی طالب آنس بالموت من الطفل بثدی أمّه»[۲۴۹]

و یستقبلون الموت فی سبیل الهدف برحابة صدر. و لهذا فإنّ أمیر المؤمنین حینما تلقّی الضربة السامّة من اللعین الخاسر «عبد الرحمن بن ملجم» لم یقل سوی

«فزت و ربّ الکعبة».

خلاصة القول: فإنّ الإیمان بالمعاد یجعل من الإنسان الخائف الضائع، إنسانا شجاعا شهما هادفا، تمتلئ حیاته بالحماسة و التضحیة و الصدق و التقوی.

۳- الدلائل العقلیّة علی المعاد:

اشارة

فضلا عن الدلائل النقلیة الکثیرة علی المعاد سواء الواردة فی القرآن المجید، و التی تشمل مئات الآیات بهذا الخصوص، فإنّ هناک أدلّة عقلیّة واضحة أیضا علی هذه المسألة، و التی نحاول ذکرها هنا بشکل مختصر:

أ- برهان الحکمة:

إذا نظرنا إلى هـذا العالم بـدون العالم الآخر، فسيكون فارغا و بلا معنى تماما، كما لو افترضـنا بوجود الحياة فى الأطوار الجنينية بدون الحياة فى هذه الدنيا.

فلو كان قانون الخلق يقضى بأنّ جميع المواليد الجدد يختنقون بمجرّد نزولهم من بطون امّهاتهم و يموتون، فإنّ الدور الجنينى سيكون بلا معنى؟ كذلك لو كانت الحياة فى هذا العالم مبتورة عن الحياة فى العالم الآخر، فسنواجه نفس الاضطراب و الحيرة، فما ضرورة أن نعيش سبعين عاما أو أكثر أو أقل فى هـذه الـدنيا وسط كلّ هـذه المشـكلات؟ فنبدأ الحياة و نحن لا نملك تجربة معيّنة، و حين بلوغ تلك المرتبة يهجم الموت و ينتهى العمر .. نسعى مدّة لتحصيل العلم و المعرفة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۲

و حينما نبلغ درجة منه بعد اشتعال الرأس شيبا يستقبلنا الموت.

ثمّ لأجل ماذا نعيش؟ الأكل و اللبس و النوم و الاستيقاظ المتكرّر يوميا، و استمرار هذا البرنامج المتعب لعشرات السنين، لماذا؟

فهـل حقّـا إنّ هـذه السـماء المترامية الأطراف و هـذه الأرض الواسعة، و كلّ هـذه المقـدّمات و المؤخّرات و كلّ هؤلاء الأساتـذة و المعلّمين و المربّين و كـلّ هـذه المكتبـات الضـخمة و كـلّ هـذه الأمور الدقيقـة و الأعمـال الـتى تـداخلت فى خلقنـا و خلـق بـاقى الموجودات، كلّ ذلك لمجرّد الأكل و الشرب و اللبس و الحياة المادية هذه؟

هنا يعترف الذين لا يعتقدون بالمعاد بتفاهة هذه الحياة، و يقدم بعضهم على الانتحار للتخلّص من هذه الحياة الخاوية، بل قد يفتخر به.

و كيف يمكن لمن يؤمن باللّه و بحكمته المتعالية أن يعتبر هذه الحياة الدنيا وحدها بدون ارتباطها بحياة اخرى ذات قيمة و ذات شأن؟

يقول تعـالى: أَ فَحَسِـبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ۲۵۰]. أىّ أنّه لو لم يكن رجوع بعـد هـذه الدنيا إلى اللّه، فإنّ الحياة فى هذه الدنيا ليست سوى عبث فى عبث.

نعم فإنّ الحياة فى هذه الدنيا تجد معناها و يكون لها مفهوما ينسجم مع حكمة اللّه سبحانه و تعالى عند ما تعتبر هذه:

«الدنيا مزرعة للآخرة»

و

«الدنيا قنطرة»

و مكان تعلّم، و جامعة للاستعداد للعالم الآخر و متجر لذلك العالم، تماما كما

يقول أمير المؤمنين على (عليه الصـلاة و السـلام) فى كلماته العميقـة المعنى «إنّ الـدنيا دار صـدق لمن صـدقها، و دار عاقبـة لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء اللّه، و مصلّى ملائكة اللّه، و مهبط وحى اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۳

و متجر أولياء اللّه»[۲۵۱].

خلاصـة القول، إنّ الفحص و المطالعة فى وضع هذا العالم يؤدّى إلى الاعتقاد بعالم آخر وراء هذا العالم وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ ۲۵۲].

ب- برهان العدالة:

التدقيق فى نظام الوجود و قوانين الخلق، يسـتنتج منه أنّ كلّ شـىء منها محسوب بدقّة متناهية. ففى مؤسـسة البدن البشرى، يحكم نظام عـادل دقيق، بحيث أنّه لو تعرّض لأـدنى تغيير أو عـارض مـا لأدّى إلى إصابته بالمرض أو حتّى الموت، حركات القلب، دوران الـدم، أجفان العين، و كلّ جزء من خلايا الجسم البشـرى مشـمول بهذا النظام الدقيق، الذى يحكم العالم بأسـره «و بالعدل قامت السـموات و

الأرض»[۲۵۳] فهل يستطيع الإنسان أن يكون وحده النغمة النشاز فى هذا العالم الواسع؟! صحيح أنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطى للإنسان بعض الحرية فى الإرادة و الإختيار لكى يمتحنه و لكى يتكامل فى ظلّ تلك الحرية و يطوى مسير تكامله بنفسه، و لكن إذا أساء الإنسان الاستفادة من تلك الحرية فما ذا سيكون؟! و لو أنّ الظالمين الضالّين المضلّين بسوء استفادتهم من هذه الموهبة الإلهية استمرّوا على مسيرهم الخاطئ فما ذا يقتضى العدل الإلهى؟! و صحيح أنّ بعضا من المسيئين يعاقبون فى هذه الدنيا و يلقون مصير أعمالهم- على الأقل قسم منهم- و لكن المسلّم أنّ جميعهم لا ينال جميع ما يستحقّ. كما أنّ جميع المحسنين الأطياب لا يتلقّون جزاء أعمالهم الطيّبة فى الدنيا، فهل من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۴

الممكن أن تكون كلا- المجموعتين فى كفّة عدالة اللّه سواء؟! و يقول القرآن الكريم: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [۲۵۴] و فى موضع آخر يقول تعالى: أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ.[۲۵۵] على كلّ حال، فلا شكّ فى تفاوت الناس و إطاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى، كما أنّ محاكم «القصاص و الثواب الدنيوية» و «محكمة الوجدان» و «الآثار الوضعية للذنوب» كلّ ذلك لا يكفى لإقرار العدالة على ما يبدو، و عليه يجب القبول بأنّه لأجل إجراء العدالة الإلهية يلزم وجود محكمة عدل عامّة تراعى بدقّة الخير أو الشرّ فى حساباتها، و إلّا فإنّ أصل العدالة لا يمكن تأمينه أبدا.

و بناء على ما تقدّم يجب الإقرار بأنّ قبول العدل الإلهى مساو بالضرورة لوجود المعاد و القيامة، القرآن الكريم يقول: وَ نَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ.[۲۵۶] و يقول: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ [۲۵۷]

ج- برهان الهدف:

على خلاف ما يتوهّمه المادّيون، فإنّ الإلهيين يرون أنّ هناك هدفا من خلق الإنسان، و الذى يعبّر عنه الفلاسفة ب «التكامل» و فى لسان القرآن و الحديث فهو «القرب إلى اللّه» أو «العبادة» وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [۲۵۸] فهل يمكن تحقيق هذا الهدف إذا كان الموت نهاية لكلّ شىء؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۵

يجب أن يكون عالم بعد هذا العالم و يستمرّ فيه سير الإنسان التكاملى، و هناك يحصد ما زرع فى هذا العالم، و كما قلنا فى موضع آخر فإنّه فى ذلك العالم الآخر يستمرّ سير الإنسان التكاملى ليبلغ هدفه النهائى.

الخلاصة: أنّ تحقيق الهدف من الخلق لا يمكن بدون الإعتقاد بالمعاد، و إذا قطعنا الارتباط بين هذا العالم و عالم ما بعد الموت، فكلّ شىء سيتحوّل إلى ألغاز، و سوف نفقد الجواب على الكثير من التساؤلات.

د- برهان نفى الاختلاف:

لا- شكّ أنّنا جميعا نتعذّب كثيرا من الاختلافات بين المذاهب و العقائد فى هذا العالم، و كلّنا نتمنّى أن تحلّ هذه الاختلافات، فى حين أنّ جميع القرائن تدلّل على أنّ هذه الاختلافات هى من طبيعة الحياة. و يستفاد من عدّة دلائل بأنّه حتّى بعد قيام المهدى عليه السّلام- و هو المقيم لحكومة العدل العالمية و المزيل لكثير من الاختلافات- ستبقى بعض الاختلافات العقائدية بلا حلّ تامّ، و كما يقول القرآن الكريم فإنّ اليهود و النصارى سيبقون على اختلافاتهم إلى قيام القيامة: فَأَغْرَيْنا بَيْنَهُمُ الْعَداوَةَ وَ الْبَغْضاءَ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ.[۲۵۹] و لكن اللّه سبحانه و تعالى الذى يقود كلّ شىء باتّجاه الوحدة سينهى تلك الاختلافات حتما، و لوجود الحجب الكثيفة لعالم المادّة فى الدنيا فإنّه لا يمكن حلّ هذا الأمر بشكل كامل فيها، و نعلم أنّ العالم الآخر هو عالم الظهور و الانكشاف، إذن فنهاية هذه المسألة ستكون نهاية عملية، و ستكون الحقائق جلية واضحة إلى درجة أنّ الاختلافات العقائدية ستحلّ بشكل نهائى تامّ.

الجميل أنّه تمّ التأكيد فى آيات متعدّدة من القرآن الكريم على هذه المسألة، يقول تعالى فى الآية (۱۱۳) من سورة البقرة: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۶

و فى الآيات (۳۸) و (۳۹) من سورة النحل يقول تعالى:

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلى وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ

۴- القرآن و مسألة المعاد:

تعتبر مسألة المعاد المسألة الثانية بعد مسألة التوحيد و التى تعتبر المسألة الأساس فى تعليمات الأنبياء بخصائصها و آثارها التربوية، لذا ففى بحوث القرآن الكريم نجد أنّ أكثر الآيات اختصّت ببحث مسألة المعاد، بعد الكثرة الكاثرة التى اختصّت ببحث مسألة التوحيد.

و المباحث القرآنية حول المعاد تارة تكون بشكل استدلالات منطقية، و اخرى بشكل بحوث خطابية و تلقينية شديدة الوقع بحيث أنّ سماعها فى بعض الأحيان يؤدّى إلى قشعريرة شديدة فى البدن بأسره. و الكلام الصادق- كالاستدلالات المنطقية- ينفذ إلى أعماق الروح الإنسانية.

فى القسم الأوّل، أى الاستدلالات المنطقية، فإنّ القرآن الكريم يؤكّد كثيرا على موضوع إمكانية المعاد، إذ أنّ منكرى المعاد غالبا ما يتوهّمون استحالته، و يعتقدون بعدم إمكانية المعاد بصورة معاد جسمانى يستلزم عودة الأجسام المهترئة و التراب إلى الحياة مرّة اخرى.

ففى هذا القسم، يلج القرآن الكريم طرقا متنوعة و متفاوتة تلتقى كلّها فى نقطة واحدة، و هى مسألة «الإمكان العقلى للمعاد».

فتارة يجسّد للإنسان النشأة الاولى، و بعبارة وجيزة و معبّرة واضحة تقول الآية: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ [۲۶۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۷

و تارة يجسّد حياة و موت النبات، و بعثه الذى نراه بامّ أعيننا كلّ عام، و فى الختام يقول إنّ بعثكم تماما كالنبات: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ ... وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ [۲۶۱] و فى موضع آخر يقول تعالى: وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ.[۲۶۲] و حينا يطرح مسألة قدرة اللّه سبحانه و تعالى على خلق السموات و الأرض فيقول: أ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.[۲۶۳] و حينا آخر يعرض عملية انبعاث الطاقة و اشتعال الشجر الأخضر كنموذج على قدرته، و جعل النار فى قلب الماء فيقول: الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً.[۲۶۴] و تارة يجسّد أمام ناظرى الإنسان الحياة الجنينية فيقول: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِى الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.[۲۶۵] و أخيرا فإنّ القرآن تارة يدلّل على البعث بالنوم الطويل- النوم الذى هو قرين الموت و أخوه، بل إنّه الموت بعينه من بعض الجوانب- كنوم أصحاب الكهف الذى استمر ثلاثمائة و تسع سنين، و بعد تفصيل جميل حول النوم و اليقظة يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۸

وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها.[۲۶۶] تلك هى الأساليب الستّة المختلفة التى طرحتها آيات القرآن الكريم لبيان إمكانية المعاد. علاوة على قصّة إبراهيم عليه السّلام و الطيور الأربعة (البقرة- ۲۶۰) و قصّة عزير (البقرة- ۲۵۹) و

قصّة الشهادة من بنی إسرائیل (البقرة- ۷۳)، و التی تشکّل کلّ واحدة منها نموذجا تأریخیا علی هذه المسألة و هی من الشواهد و الدلائل الاخری التی ذکرها القرآن بهذا الخصوص.

خلاصة القول، إنّ ما یعرضه القرآن الکریم عن المعاد و مظاهره المختلفة و معلوماته و نتائجه، و الدلائل الرفیعة التی یطرحها بهذا الخصوص، حیّة و مقنعة بحیث أنّ أیّ إنسان إذا کان لدیه ذرّة من الوجدان فإنّه یتأثّر بعمق ما یطرحه القرآن الکریم.

و علی قول البعض: فإنّ ألفا و مائتی آیة من القرآن الکریم تبحث فی مسألة المعاد، لو جمعت و فسّرت لأصبحت وحدها کتابا ضخما.

۵- المعاد الجسمانی:

المقصود من المعاد الجسمانی لیس إعادة الجسم وحده فی العالم الآخر، بل إنّ الهدف هو بعث الروح و الجسم معا، و بتعبیر آخر فإنّ عودة الروح أمر مسلّم به، و الحدیث حول عودة الجسم.

جمع من الفلاسفة القدماء کانوا یعتقدون بالمعاد الروحی فقط، و ینظرون إلی الجسد علی أنّه مرکّب، یکون مع الإنسان فی هذه الدنیا فقط، و بعد الموت یصبح الإنسان غیر محتاج إلیه فینزل الجسد و یندفع نحو عالم الأرواح.

و لکن العلماء المسلمین الکبار یعتقدون بأنّ المعاد یشمل الروح و الجسم، و هنا لا یقیّد البعض بعودة الجسم السابق، و یقولون بأنّ اللّه قیّض للروح جسدا، و لکن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۶۹

شخصیّة الإنسان بروحه فإنّ هذا الجسد یعدّ جسده.

فی حال أنّ المحقّقین یعتقدون بأنّ هذا الجسد الذی یصبح ترابا و یتلاشی، یتلبّس بالحیاة مرّة اخری بأمر اللّه الذی یجمعه و یکسوه بالحیاة، هذه العقیدة نابعة من متون الآیات القرآنیة الکریمة.

إنّ الشواهد علی المعاد الجسمانی فی الآیات القرآنیة الکریمة کثیرة جدّا، بحیث یمکن القول قطعا بأنّ الذین یعتقدون باقتصار المعاد علی المعاد الروحی فقط لا یملکون أدنی اطّلاع علی الآیات العدیدة التی تبحث فی موضوع المعاد، و إلّا فإنّ جسمانیة المعاد واضحة فی الآیات القرآنیة إلی درجة تنفی أدنی شکّ فی هذه المسألة.

فهذه الآیات التی قرأناها فی آخر سورة یس، توضّح هذه الحقیقة حیث حینما تساءل الإنسان: قالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ أجابه القرآن بصراحة و وضوح: قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ.

إنّ کلّ تعجّب المشرکین و المخالفین لمسألة المعاد هو هذه القضیّة، و هی کیف یمکن إحیاؤنا بعد الموت و بعد أن نصبح ترابا متناثرا و ضائعا فی هذه الأرض؟

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ.[۲۶۷] إنّهم یقولون: أَ یَعِدُکُمْ أَنَّکُمْ إِذا مِتُّمْ وَ کُنْتُمْ تُراباً وَ عِظاماً أَنَّکُمْ مُخْرَجُونَ [۲۶۸].

و تعجّبوا من هذه المسألة إلی درجة أنّهم اعتبروا إظهارها دلیلا علی الجنون أو الکذب علی اللّه قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ.[۲۶۹] لهذا السبب فإنّ استدلالات القرآن الکریم حول إمکانیة المعاد عموما تدور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۰

حول هذا المحور و هو «المعاد الجسمانی» و ما عرضناه فی الفصل السابق فی ستّة طرق کانت دلیلا و شاهدا علی هذا الادّعاء.

علاوة علی أنّ القرآن الکریم یذکر مرارا و تکرارا بأنّکم ستخرجون یوم القیامة من قبورکم و القبور مرتبطة بالمعاد الجسمانی.

و الأوصاف التی یـذکرها القرآن الکریم عن المواهب المادیة و المعنویة للجنّة، کلّها تدلّل علی أنّ المعاد معاد جسـمی و معاد روحی أیضا، و إلّا فلا معنی للحور و القصور و أنواع الأغذیة و النعیم فی الجنّة إلی جنب المواهب المعنویة.

علی کلّ حال، فلا یمکن أن یکون الإنسان علی جانب یسیر من المنطق و الثقافة القرآنیة و ینکر المعاد الجسـمانی. و بتعبیر آخر: فإنّ إنکار المعاد الجسمانی بنظر القرآن الکریم مساو لإنکار أصل المعاد.

علاوة علی هـذه الأدلّـة النقلیة، فإنّ هناک أدلّة عقلیة بهذا الخصوص لو أردنا إیرادها لاتّسع البحث کثیرا، لا شکّ أنّ الإعتقاد بالمعاد الجسـمانی سیثیر أسـئلة و إشـکالات کثیرة، منها شبهة الآکل و المأکول و التی ردّ علیها العلماء الإسلامیون و التی أوردنا تفصیلا عنها بشکل مختصر فی المجلّد الثانی عند تفسیر الآیة (۲۶۰) من سورة البقرة.

۶- الجنّة و النار

الکثیرون یتوهّمون بأنّ عالم ما بعـد الموت یشـبه هذا العالم تماما و لکنّه بشـکل أکمل و أجمل، غیر أنّ لدینا قرائن عدیدة تدلّل علی الفروق الکبیرة بین العالمین من حیث الکیفیة و الکمیّة، لو أردنا تشبیهها بالفروق بین العالم الجنینی و هذه الدنیا لظلّت المقایسة أیضـا غیر کاملة.

فوفقـا لصـریح الروایـات الواردة فی هـذا الشأن فإنّ فی عالم ما بعـد الموت ما لا عین رأت و لا اذن سـمعت و لا خطر علی فکر بشـر، القرآن الکریم یقول: فَلا تَعْلَمُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۱

نَفْسٌ مـا أُخْفِیَ لَهُـمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ [۲۷۰] الأنظمـة الحاکمـة فی ذلـک العالم أیضا تتفاوت تماما مع الأنظمـة فی هـذا العالم، ففی حین یستفاد فی هذا العالم من أفراد یسمّون «الشهود» فی المحاکمات، نری أنّ هناک تشهد الأیدی و الأرجل و حتّی الجلد الْیَوْمَ نَخْتِمُ عَلی أَفْواهِهِمْ وَ تُکَلِّمُنا أَیْدِیهِمْ وَ تَشْـهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما کانُوا یَکْسِبُونَ [۲۷۱] وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَیْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ[۲۷۲].

علی کـلّ حال، فما قیل عن العالم الآخر لا یرسم أمامنا سوی صورة باهتـة، و عادة فإنّ اللغـة التی نتحـدّث بها و الثقافـة التی لـدینا غیر قـادرة جمیعهـا علی الوصف الحقیقی لمـا هو موجود هنـاک، و لکن لاـ یترک المیسور بالمعسور. فالمقـدار المتیقّن هو أنّ الجنّـة هی مرکز کلّ النعم و المواهب الإلهیة سواء المادیة أو المعنویة، و جهنّم هی مرکز لکلّ أنواع العذاب الألیم المادّی و المعنوی أیضا.

أمّا بخصوص تفصـیل ذلک فإنّ القرآن الکریم أورد جزئیات نحن نؤمن بها، و لکن تفصـیلها بدقّة غیر ممکن بدون الرؤیة و المعاینة. و لنا بحث حول هذا الخصوص فی تفسیر الآیة (۳۳) من سورة آل عمران.

إلهی: آمنّا فی الفزع الأکبر.

إلهی: لا تحاسبنا بعدلک و لکن حاسبنا بلطفک و عدلک، فلیس لدینا من الأعمال ما یوجب رضاک.

اللهم افعل بنا ما یرضیک عنّا و یجعلنا من الناجین آمین ربّ العالمین.

نهایة سورة یس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۳

سورة الصّافات

اشارة

مكيّة و عدد آياتها مائة و اثنان و ثمانون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۵

سورة الصّافات

محتوى سورة الصّافات:

هـذه السورة بحكم كونهـا من السور المكيّة، فإنّها تمتلك كافّة خصائص السور المكيّة، فهى تسلّط الأضواء على اصول المعارف و العقائـد الإسـلامية الخاصّـة بالمبـدأ و المعاد. و تتوعّـد المشـركين بأشدّ العقاب و ذلك من خلال العبارات الحازمة و الآيات القصـيرة العنيفة الوقع، و توضّح- بالأدلّة القاطعة- بطلان عقائدهم.

بصورة عامّة يمكن تلخيص محتوى سورة الصافات فى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يبحث حول مجاميع من ملائكة الرحمن، و مجموعة من الشياطين المتمردين و مصيرهم.

القسم الثّانى: يتحدّث عن الكافرين، و إنكارهم للنبوّة و المعاد، و العقاب الذى ينتظرهم يوم القيامة، كما يستعرض الحوار الذى يدور بينهم فى ذلك اليوم، و يحملهم جميعا الذنب، و العذاب الإلهى الذى سيشملهم، كما يشرح هذا القسم جوانب من النعم الموجودة فى الجنّة إضافة إلى ملذّاتها و جمالها و سرور أهلها.

القسم الثّالث: يشـرح بصورة مختصـرة تأريخ الأنبياء أمثال (نوح) و (إبراهيم) و (إسـحاق) و (موسى) و (هارون) و (إلياس) و (لوط) و (يونس) و بصورة ذات تأثير قوى، كما يتحدّث هذا القسم بشكل مفصّل عن إبراهيم محطّم الأصنام و عن جوانب مختلفة من حياته، و الهدف الرئيسى من وراء سرد قصص الأنبياء- مع ذكر بعض الشواهد العينية من تأريخهم- هو تجسيد حوادث تلك القصص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۶

و تصويرها بشكل محسوس و ملموس.

القسم الرّابع: يعالج صورة معيّنة من صور الشرك و الذى يمكن اعتباره من أسوأ صور الشرك، و هو الإعتقاد بوجود رابطة القرابة بين اللّه سبحانه و تعالى و الجنّ و الملائكة، و يبيّن بطلان مثل هذه العقائد التافهة بعبارات قصيرة.

أمّا القسم الخامس و الأخير: فيتناول فى عـدّة آيات قصار انتصار جيوش الحقّ على جيوش الكفر و الشـرك و النفاق، و ابتلاءهم- أى الكـافرين و المشـركين و المنـافقين- بالعـذاب الإلهى، و تنزّه آيات هـذا القسم اللّه سـبحانه و تعالى و تقـدّسه عن الأشـياء التى نسـبها المشركون إليه، ثمّ تنتهى السورة بالحمد و الثناء على البارى عزّ و جلّ.

فضيلة تلاوة سورة الصافات:

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، جاء فيه: «من قرأ سورة الصافات اعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد كلّ جنّ و شيطان، و تباعدت عنه مردة الشياطين، و برىء من الشرك، و شهد له حافظاه يوم القيامة أنّه كان مؤمنا بالمرسلين»[۲۷۳].

و

فى حـديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام جاء فيه: «من قرأ سورة الصافات فى كلّ جمعـة لم يزل محفوظا من كلّ آفـة، مدفوعا عنه كلّ بليّة فى حياته الدنيا، مرزوقا فى الدنيا بأوسع ما يكون من الرزق، و لم يصـبه اللّه فى ماله و لا ولده و لا بدنه بسوء من شـيطان رجيـم، و لا جبّار عنيـد، و إن مـات فى يـومه أو ليلتـه بعثـه اللّه شـهيدا، و أمـاته شـهيدا، و أدخلـه الجنّة مع الشـهداء فى درجـة من الجنّة»[۲۷۴].

الثواب العظيم الذى يناله من يتلو سورة الصافات، جاء نتيجة لما تحويه هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۷

السورة المباركة، فنحن ندرك أنّ الهدف من التلاوة هو التفكّر، و من ثمّ الإعتقاد، و من بعد العمل. و من دون شكّ فإنّ الذى يتلو هذه السورة بتلك الصورة، سيحفظ من شرّ الشياطين، و يتطهّر من الشرك، و يمتلك الإعتقاد الصحيح القوى، و يمارس أعمالا صالحة، و يتّعظ من القصص الواقعية للأنبياء و الأقوام الماضية، و إنّه سيحشر مع الشهداء.

و ممّا يذكر فإنّ تسمية هذه السورة بالصافات جاءت نسبة إلى الآية الاولى فيها.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا (۱) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (۲) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (۳) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (۴)

رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ (۵)

التّفسير

الملائكة المستعدّة لتنفيذ المهام:

هذه السورة هى أوّل سورة فى القرآن الكريم تبدأ بالقسم، القسم الملىء بالمعانى و المثير للتفكّر، القسم الذى يجوب بفكر الإنسان فى جوانب مختلفة من هذا العالم، و يجعله متهيّئا لتقبّل الحقائق.

من المسلّم به أنّ اللّه تبارك و تعالى هو أصدق الصادقين، و ليس بحاجة إلى القسم، إضافة إلى أنّ قسمه إن كان للمؤمنين، فإنّهم مؤمنون به من دون قسم، و إن كان للناكرين، فإنّ أولئك لا يعتقدون بالقسم الإلهى.

و نلفت الانتباه إلى نقطتين لحلّ مشكلة القسم فى كلّ آيات القرآن التى سنتناولها من الآن فما بعد.

الاولى: أنّ القسم يأتى دائما بالنسبة إلى امور مهمّة و ذات قيمة، و لذلك فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۷۹

أقسام القرآن تشير إلى عظمة و أهميّة الأشياء المقسم بها. و هذا الأمر يدعو إلى التفكّر أكثر بالشىء المقسم به، التفكّر الذى يكشف للإنسان عن حقائق جديدة.

الثانية: أنّ القسم يأتى للتأكيد، و للدلالة على أنّ الأمور التى يقسم من أجلها هى امور جديّة و مؤكّدة.

و علاوة على ذلك أنّ المتحدّث لو تحدّث بصورة حازمة و مؤكّدة، فإنّ تأثير كلامه من الناحية النفسية سيكون أوقع على قلب المستمع، كما أنّه يقوّى المؤمنين و يضعّف الكافرين.

على كلّ حال، فإنّ بداية هذه السورة تذكر أسماء ثلاثة طوائف أقسم بها اللّه تعالى ۲۷۵].

الأولى: وَ الصَّافَّاتِ صَفًّا.

الثانية: فَالزَّاجِراتِ زَجْراً.

الثالثة: فَالتَّالِياتِ ذِكْراً.

فمن هى تلك الطوائف الثلاث؟ و على من أطلقت تلك الصفات؟ و ما الهدف النهائى منها؟

المفسّرون قالوا الكثير بهذا الشأن، إلّا أنّ المعروف و المشهور هو أنّ هذه الصفات تخصّ طوائف من الملائكة ...

طوائف اصطفّت فى عالم الوجود بصفوف منظمة، و هى مستعدّة لتنفيذ الأمر الإلهى.

و طوائف من الملائكة تزجر بنى آدم عن ارتكاب المعاصى و الذنوب، و تحبط وساوس الشياطين فى قلوبهم. أو الملائكة الموكّلة بتسيير السحاب فى السماء و سوقها نحو الأرض اليابسة لإحيائها.

و أخيرا طوائف من الملائكة تتلو آيات الكتب السماوية حين نزول الوحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۰

على الرسل ۲۷۶].

و ممّا يلفت النظر أنّ «الصافات» هى جمع كلمة «صافّة» و هى بدورها تحمل صفة الجمع أيضا، و تشير إلى مجموعة مصطفّة، إذن ف «الصافات» تعنى الصفوف المتعدّدة[۲۷۷].

و أمّا كلمة «الزاجرات» فإنّها مأخوذة من (الزجر) و يعنى الصرف عن الشىء بالتخويف و الصراخ، و بمعنى أوسع فإنّها تشمل كلّ منع و طرد و زجر للآخرين.

إذن فالزاجرات تعنى مجاميع مهمّتها نهى و صرف و زجر الآخرين.

و «التاليات» من (التلاوة) و هى جمع كلمة (تال) و تعنى طوائف مهمّتها تلاوة شىء ما[۲۷۸].

و نظرا لكثرة و اتّساع مفاهيم هذه الألفاظ، فليس من العجب أن يطرح المفسّرون تفاسير مختلفة لها دون أن يناقض بعضها الآخر، بل من الممكن أيضا أن تجتمع لتوضيح مفهوم هذه الآيات، فمثلا المقصود من كلمة «الصافات» هو صفوف الملائكة المستعدّة لتنفيذ الأوامر الإلهيّة، فى عالم الخلق، أو الملائكة النازلون بالوحى إلى الأنبياء فى عالم التشريع، و كذلك صفوف المقاتلين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۱

و المجاهدين فى سبيل اللّه، أو صفوف المصلّين و العباد.

رغم أنّ القرائن تشير إلى أنّ المراد من كلمة «الصافات» هو الملائكة، إضافة إلى أنّ بعض الروايات قد أشارت إلى ذلك المعنى ۲۷۹].

و ليس هناك أى مانع من أن تشمل كلمة «الزاجرات» الملائكة الذين يطردون وساوس الشياطين من قلوب بنى آدم، و الإنسان الذى يؤدّى واجب النهى عن المنكر.

و «التاليات» إشارة إلى كلّ الملائكة و الجماعات المؤمنة التى تتلو آيات اللّه، و تلهج بذكره تبارك و تعالى على الدوام.

هنا يطرح هذا السؤال: ظاهر هذه الآيات- و بمقتضى وجود العطف بحرف (الفاء) بين الجمل الثلاث- يبيّن أنّ الطوائف الثلاث جاءت الواحدة بعد الاخرى، فهل أنّ هذا الترتيب جاء بحكم الواجب المترتّب على كلّ طائفة؟ أم كلّ حسب مقامه؟ أم لكلا الأمرين؟

من الواضح أنّ الاصطفاف و الاستعداد قد جاءا كمرحلة اولى، ثمّ جاءت- كمرحلة ثانية- عملية إزالة العراقيل من الطريق. أمّا إعلان الأوامر و تنفيذها فقد كانت بمثابة المرحلة الثالثة.

و من جهة اخرى فإنّ المستعدّين لتنفيذ الأوامر الإلهيّة لهم مرتبة، و الذين يزيلون العراقيل لهم مرتبة أعلى، أمّا الذين يتلون الأوامر و ينفّذونها فلهم مرتبة أسمى من الجميع.

على أيّة حال فإنّ قسم اللّه سبحانه و تعالى بتلك الطوائف يوضّح عظم منزلتهم عند البارى عزّ و جلّ، و يشير إلى حقيقة مفادها أنّ سالكى طريق الحقّ عليهم للوصول إلى غايتهم أن يجتازوا تلك المراحل الثلاث و التى تبدأ بتنظيم الصفوف و وقوف كلّ مجموعة

فى الصفّ المخصّص لها، و من ثمّ العمل على إزالة العراقيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۲

من الطريق، و رفع الموانع بالصوت العالى، الصوت الذى يتناسب مع مفهوم الزجر، و من بعد تلاوة الآيات الإلهيّة و الأوامر الربّانية على القلوب المتهيّئة لتنفيذ مضامين تلك الأوامر.

فالمجاهدون السالكون لطريق الحقّ ليس أمامهم من سبيل سوى اجتياز تلك المراحل الثلاث، و بنفس الصورة على العلماء العاملين أن يستوحوا فى جهودهم الجماعية ذلك البرنامج.

و ممّا يذكر أنّ بعض المفسّرين فسّروا الآيات على أنّها تعود على المجاهدين، و البعض الآخر أكّد عودتها على العلماء، و لكن حصر مفهوم الآيات بالمجاهدين و العلماء فقط مستبعد بعض الشىء، و إن أعطيت الآيات طابعا عامّا فإنّها ستكون أقرب للواقع، و إذا اعتبرناها تخصّ الملائكة فإنّ الآخرين يمكنهم تنظيم حياتهم وفق مناهج الملائكة.

أمير المؤمنين على عليه السّلام عند ما يصف بخطبته فى نهج البلاغة الملائكة، فإنّه يقسّمهم إلى مجموعات مختلفة، و

يقول: «و صافون لا يتزايلون، و مسبّحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، و لا سهو العقول، و لا فترة الأبدان، و لا غفلة النسيان، و منهم أمناء على وحيه، و ألسنة إلى رسله»[۲۸۰].

أمّا آخر حديثنا عن الآيات الثلاث هذه، فهو أنّ البعض يعتقد بأنّ القسم فى هذه الآيات يعود إلى ذات اللّه، و كلمة (ربّ) مقدّرة فى جميع تلك الآيات، حيث يكون المعنى كالتالى: و ربّ الصافات صفّا، و ربّ الزاجرات زجرا، و ربّ التاليات ذكرا.

و الذين فسّروا الآيات على هذا النحو، فالظاهر أنّهم يعتقدون بأنّ العباد لا يحقّ لهم القسم بغير اللّه، لذا فإنّ اللّه لا يقسم إلّا بذاته، إضافة إلى أنّ القسم يجب أن يكون بشىء مهمّ، ألا و هو ذات اللّه المقدّسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۳

إلّا أنّ هؤلاء غفلوا عن هذه الحقيقة، و هى أنّ حساب اللّه لا علاقة له بالعباد، فاللّه تعالى- من أجل توجيه الإنسان- يقسم بآيات «الآفاق» و «الأنفس» و دلائل قدرته فى الأرض و السماء، و ذلك لكى يتفكّر الإنسان بتلك الآيات، و عن طريقها يعرف ربّه.

و جدير بالذكر أنّ بعض آيات القرآن المجيد، و منها آيات سورة الشمس تقسم بموجودات الكون إلى جانب القسم بذات اللّه المقدّسة، إذن فالتقدير هنا غير سديد، إذ يقول القرآن الكريم: وَ السَّماءِ وَ ما بَناها وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها[۲۸۱].

على أيّة حال، فإنّ ظاهر الآيات- محلّ البحث- يدلّ على أنّ المجموعات الثلاث هى المقسم بها، و تقدير الشىء هنا خلاف للظاهر، و لا يمكن قبوله بغير دليل.

الآن نرى ما هو المراد من هذه الأقسام المفعمة بالمعانى، أى القسم بالملائكة و الإنس؟

الآية التالية توضّح ذلك و تقول: إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ.

قسم بتلك المقدّسات التى ذكرناها فإنّ الأصنام ستزول و تدمّر، و إنّه ليس هناك من شريك و لا شبيه و لا نظير للّه سبحانه و تعالى.

ثمّ يضيف رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ رَبُّ الْمَشارِقِ

و هنا نطرح سؤالين:

۱- ما هى الضرورة لذكر «المشارق» بعد ذكر السماوات و الأرض و ما بينهما، رغم أنّ المشارق هى جزء منهما.

و يتّضح الجواب من خلال الالتفات إلى هذه النقطة و هى: إنّ المراد من «المشارق» هو الإشارة إلى مواقع شروق الشمس فى أيّام السنة، أو إلى مشارق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۴

النجوم المختلفة فى السماء، حيث أنّها جميعا لها نظام و برنامج خاصّ بها، إضافة إلى النظام السماوى و الأرضى الذى يوضّح العلم و

القدرة و التدبير المطلق للخالق.

فالشمس فى كلّ يوم تشرق من مكان غير المكان الذى أشرقت منه قبل يوم أو بعد يوم، و الفواصل الموجودة بين هذه النقاط منظمة و دقيقة للغاية، حيث أنّها لا تزيد و لا تقلّ بمقدار ۱/ ۱۰۰۰ من الثانية، و هذا التنظيم الدقيق موجود منذ ملايين السنين.

كما أنّ هذا النظام ينطبق على ظهور و غروب النجوم.

إضافة إلى ذلك فإنّ الشمس لو لم تكن تتحرّك ضمن مسير تدريجى طوال العام، لم يعد هناك وجود للفصول الأربعة و للنعم المختلفة التى تظهر خلال تلك الفصول، و هذا دليل آخر على عظمة و تدبير الخالق عزّ و جلّ.

و من المعانى الاخرى لكلمة «المشارق»، هو أنّ الأرض لكونها كروية الشكل، فإنّ كلّ نقطة عليها تعتبر بالنسبة إلى النقطة الاخرى إمّا مشرقا أو مغربا، و بهذا فإنّ الآية تؤكّد كروية الأرض و وجود المشارق و المغارب (و لا مانع من تحقّق المعنيين فى الآية المذكورة).

أمّا السؤال الثانى الذى يطرح نفسه فهو: لماذا لم تأت كلمة «مغارب» فى الآية فى مقابل «المشارق» كما جاء فى الآية (۴۰) من سورة المعارج فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ

و الجواب على هذا السؤال، هو أنّ قسما من الكلام ينسخ قسما آخر لوجود القرينة، و فى بعض الأحيان يأتيان معا، و هنا ذكر كلمة «المشارق» قرينة على «المغارب» و هذا التنوّع يوضّح فصاحة القرآن و بلاغته.

فيما قال بعض المفسّرين: إنّ ذكر كلمة (المشارق) يتناسب مع شروق الوحى بواسطة الملائكة فَالتَّالِياتِ ذِكْراً على قلب النّبى الطاهر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۵

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (۶) وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (۷) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (۸) دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (۹) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (۱۰)

التّفسير

حفظ السماء من تسلّل الشياطين!

الآيات السابقة تحدّثت عن طوائف الملائكة المكلّفة بتنفيذ المهام الجسام، و الآيات التالية- موضوع البحث- ستتحدّث عن الطائفة المقابلة لها، أى الشياطين و عن مصيرهم. و يمكن أن تكون هذه الآيات مقدّمة لدحض معتقدات مجموعة من المشركين الذين يعبدون الشياطين و الجنّ، و تتضمّن كذلك درسا فى التوحيد بين طيّاتها.

تبدأ الآية بالقول: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ ۲۸۳] فلو رفع أحدنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۶

ببصره نحو السماء فى إحدى الليالى المظلمة، لتجسّم فى بصره منظر جميل يسحر الإنسان.

و كأنّ الكواكب تتحدّث معنا بلسانها الصامت، لتكشف لنا أعن أسرار الخلق، و أحيانا تكون شاعرة تنشد لنا أجمل القصائد الغزلية و العرفانية، و إغماضها و تواريها، و من ثمّ إبراقها و لمعانها، يوضّح أسرار العلاقة الموجودة بين العاشق و المعشوق.

حقّا إنّ منظر النجوم فى السماء رائع الجمال، و لا تملّ أىّ عين من طول النظر إليه، بل إنّ النظر إليه يزيل التعب و الهمّ من داخل الإنسان. (ممّا يذكر أنّ أبناء المدن فى العصر الحاضر التى يغطّيها دخّان المصانع، لا يستمتعون بمشاهدة السماء و هى مرصّعة بالكواكب كما يشاهدها الإنسان القروى حيث يدركون هذه المقولة القرآنية- أى تزيين السماء بالكواكب- بصورة أفضل).

و من الجدير بالاهتمام قول الآية: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ فى حين كانت الفرضيات الشائعة فى ذلك الوقت فى أذهان العلماء و المفكّرين هى أنّ السماء العليا هى التى تضمّ الكواكب (السماء الثامنة طبقا لفرضيات بطليموس).

و كما هو معروف فإنّ العلم الحديث دحض تلك الفرضيات. و عدم اتّباع القرآن لما جاء فى تلك الفرضيات النادرة و المشهورة فى ذلك الزمان معجزة حيّة لهذا الكتاب السماوى.

و النقطة الاخرى التى تلفت النظر هى أنّ ارتعاش نور الكواكب الجميل و غمزها للناظر يعود- من وجهة نظر العلم الحديث- إلى وجود القشرة الهوائية حول الأرض، و هذا المعنى يتلاءم مع ما نصّت عليه الآية الكريمة السَّماءَ الدُّنْيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۷

أمّا فى خارج جو الأرض فإنّ النجوم تبدو نقاط منيرة على وتيرة واحدة و ليس لها ذلك التلألؤ، على عكس ما يشاهد داخل جوّ الأرض.

أمّا الآية وَ حِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ[۲۸۴] فإنّها تشير إلى حفظ السماء من تسلّل الشياطين إليها.

كلمة (مارد) مشتقّة من (مرد) التى تعنى الأرض المرتفعة الخالية من الزرع، كما يقال للشجرة التى تساقطت أوراقها كلمة (أمرد) و تطلق على الفتى الذى لا شعر فى وجهه. و هنا المقصود من كلمة (مارد) هو الشخص الخبيث العارى من الخير.

حفظ السماء من تسلّل الشياطين يتمّ بواسطة نوع من أنواع النجوم يطلق عليها اسم (الشهب)، و سيشار إليها فى الآيات القادمة.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: إنّ الشياطين لا تتمكّن من سماع حديث ملائكة الملأ الأعلى و معرفة أسرار الغيب التى عندهم، فكلّما حاولوا عمل شىء ما لسماع الحديث، رشقوا بالشهب من كلّ جانب لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ

نعم إنّهم يطردون من السماء بشدّة، و قد أعدّ لهم عذاب دائم، كما جاء فى قوله تعالى: دُحُوراً وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ

لا يَسَّمَّعُونَ بمعنى (لا يستمعون) و يفهم منها أنّ الشياطين يحاولون معرفة أخبار «الملأ الأعلى» إلّا أنّه لا يسمح لهم بذلك.

الْمَلَإِ الْأَعْلى تعنى ملائكة السماوات العلى، لأنّ كلمة (ملأ) تطلق فى الأصل على الجماعة التى لها وجهة نظر واحدة، و تعدّ فى نظر الآخرين مجموعة متّحدة و منسجمة، كما تطلق هذه الكلمة على الأشراف و الأعيان و الدائرين فى فلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۸

مراكز القوى، لأنّهم يعدّون فى نظر الآخرين متّحدين أيضا، و لكن عند ما يوصف الملأ ب (الأعلى) فذلك إشارة إلى الملائكة الكرام ذوى المقام الأرفع و الأسمى.

«يقذفون» مشتقّة من (قذف) و تعنى رمى الشىء إلى مكان بعيد، و المقصود هنا طرد الشياطين بواسطة الشهب، التى سنتطرّق لها فيما بعد، و هذا يوضّح أنّ البارى عزّ و جلّ لا يسمح للشياطين بالاقتراب من الملأ الأعلى.

«دحورا» مشتقة من (دحر)- على وزن (دهر)- و تعنى طرد الشىء و دفعه، أمّا كلمة (واصب) فإنّها تعنى المرض المزمن، و بصورة عامّة تعنى الدائم و المستمر، و فى بعض الأحيان تعنى (الخالص)[۲۸۵].

و هنا إشارة إلى أنّ الشياطين لا يطردون و لا يمنعون من الاقتراب من السماء فحسب، بل سيصيبهم فى النهاية- مع ذلك- عذاب دائم.

و أشارت الآية أيضا إلى طائفة من الشياطين الشريرة التى تحاول الصعود إلى السماء العليا لاستراق السمع، و إلى المصير الذى ينتظرها هناك، كما جاء فى الآية الشريفة إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ

«الخطفة» أى اختلاس الشىء بسرعة.

و «الشهاب» شيء مضيء متولّد من النار، و يرى نوره فى السماء على شكل خطّ ممتدّ.

و كما هو معروف فإنّ الشهب ليست نجوما، و إنّما تشبه النجوم، و هى عبارة عن قطع صغيرة من الحجر متناثرة فى الفضاء، عند ما تدخل فى مجال جاذبية الأرض، تنجذب نحوها، و نتيجة دخولها بسرعة إلى جوّ الأرض و احتكاكها الشديد مع الهواء المحيط بالكرة الأرضية فإنّها تشتعل و تحترق.

و كلمة «ثاقب» تعنى النافذ و الخارق، و كأنّه يخترق العين بنوره الشديد و يثقبها، و هذه إشارة إلى أنّ الشهاب يثقب كلّ شيء يصيبه و يحرقه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۸۹

و بهذا يكون هناك مانعان يحوّلان دون نفوذ الشياطين إلى السماء العليا:

الأوّل، هو رشق الشياطين من كلّ جانب و طردهم، و الذى يتمّ على الظاهر بواسطة الشهب.

و الثانى، هو رشقهم بواسطة أنواع خاصّة من الشهب يطلق عليها اسم الشهاب الثاقب، الذى يكون بانتظار كلّ شيطان يحاول التسلّل إلى الملأ الأعلى لاستراق السمع، و هذا المعنى نجده أيضا فى الآيتين (۱۷) و (۱۸) من سورة الحجر وَ حَفِظْناها مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ مُبِينٌ

و فى الآية الخامسة من سورة الملك وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ

و لكن هل يجب الالتزام بظواهر هذه الآيات؟ أم أنّ هناك قرائن تجبرنا على تفسيرها بخلاف الظاهر، كاستخدام الأمثال و التشبيه و الكناية؟

هناك وجهات نظر مختلفة بين المفسّرين، فالبعض منهم التزم بظاهر الآيات و بنفس المعانى التى استعرضت فى بداية الأمر، و قالوا: هناك طوائف من الملائكة تسكن السماء القريبة و البعيدة تعرف أخبار الحوادث التى ستقع فى العالم الأرضى قبل وقوعها، لذا تحاول مجموعة من الشياطين الصعود إلى السماء لاستراق السمع و معرفة بعض الأخبار، لكى تنقلها إلى عملائها فى الأرض أى الذين يرتبطون بها و يعيشون بين الناس، و لكن ما أن يحاولون الصعود يرشقون بالشهب التى تتّصف بأنّها كالنجوم المتحرّكة، فتجبرهم على التراجع، أو تصيبهم فتهلكهم.

و يقولون: من الممكن أن لا نفهم بصورة دقيقة ما تعنيه هذه الآيات فى الوقت الحاضر، إلّا أنّنا مكلّفون بحفظ ظواهرها، و ترك تفاصيلها للمستقبل.

و قد اختار هذا التّفسير العلّامة «الطبرسى» فى (مجمع البيان) و «الآلوسى» فى (روح المعانى) و «سيّد قطب» فى (الظلال)، إضافة إلى عدد آخر من المفسّرين.

فى حين يرى البعض الآخر أنّ الآيات المذكورة إنّما هى من قبيل الأمثال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۰

المضروبة تصوّر بها الحقائق الخارجة عن الحسّ فى صورة المحسوس لتقريبها من الحسّ، و هو القائل عزّ و جلّ: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ [۲۸۶] و أضافوا: إنّ المراد من السماء التى تسكنها الملائكة، عالم ملكوتى ذو أفق أعلى من عالمنا المحسوس، و المراد باقتراب الشياطين من السماء و استراقهم السمع و قذفهم بالشهب، هو أنّ هذه الشياطين كلّما حاولت الاقتراب من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخليفة و الحوادث المستقبلية، طردت من هناك بواسطة نور الملكوت الذى لا يطيقونه، و رمتهم الملائكة بالحقّ الذى يبطل أباطيلهم.

و إيراده تعالى قصّة استراق الشياطين للسمع و رميهم بالشهب، عقيب الإقسام بملائكة الوحى و حفظهم إيّاه عن مداخلة الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه ۲۸۷].

و يحتمل أيضا أنّ السماء هنا هى كناية عن سماء الإيمان و المعنويات التى يحاول الشياطين النفوذ إليها، إضافة إلى الانسلال إلى قلوب المؤمنين عن طريق الوساوس التى يبثّونها فى قلوبهم، إلّا أنّ الأنبياء و الصالحين و الأئمّة المعصومين من أهل البيت و السائرين على خطّهم الفكرى و العملى يهاجمون الشياطين بالشهاب الثاقب الذى يمتلكونه، ألا و هو العلم و التقوى، و يمنعون الشياطين من الاقتراب من هذه السماء.

التّفسير المذكور أوردناه هناك كاحتمال، و ذكرنا بعض الدلائل و الشواهد عليه فى نهاية الآية (۱۸) من سورة الحجرات.

هذه ثلاثة تفسيرات مختلفة للآيات مورد البحث و الآيات المشابهة لها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (۱۱) بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ (۱۲) وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (۱۳) وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (۱۴) وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۵)

التّفسير

الذين لا يقبلون الحقّ أبدا:

هذه الآيات تعالج قضيّة منكرى البعث، و تتابع البحث السابق بشأن قدرة البارى عزّ و جلّ خالق السموات و الأرض، و تبدأ بالاستفسار منهم و تقول: اسألهم هل أنّ معادهم و خلقهم مرّة ثانية أصعب أو خلق الملائكة و السماوات و الأرض:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ هُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا.

نعم، فنحن خلقناهم من مادّة تافهة، من طين لزج: إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ

فالمشركون الذين ينكرون المعاد، قالوا بعد سماعهم الآيات السابقة بشأن خلق السموات و الأرض و الملائكة. إنّ خلق الإنسان أصعب من خلق السموات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۲

و الأرض و الملائكة. إلّا أنّ القرآن الكريم أجابهم بالقول: إنّ خلق الإنسان مقابل خلق الأرض و السماء و الملائكة الموجودة فى هذه العوالم، يعدّ لا شىء، لأنّ أصل الإنسان يعود إلى حفنة من التراب اللزج.

«استفتهم» من مادّة «استفتاء» و تعنى الحصول على معلومات جديدة.

و هذا التعبير إشارة إلى أنّ المشركين لو كانوا صادقين فى أنّ خلقهم أهمّ و أصعب من خلق السماوات و الملائكة، فإنّهم قد جاؤوا بموضوع جديد لم يطرح مثله من قبل.

«لازب» يقول البعض: إنّ أصلها كان (لازم)، حيث استبدلت (الميم) (باء) و حاليا تستعمل بهذه الصورة، على أيّة حال فهى تعنى الطين المتلازم بعضه ببعض، يعنى الملتصق لأنّ أصل الإنسان كان من التراب الذى خلط بالماء، و بعد فترة أضحى طينا متجمعا ذا رائحة نتنة، ثمّ تحول إلى طين متماسك (و هذه الصورة هى جمع لحالات متعدّدة مذكورة فى عدّة آيات فى القرآن المجيد).

ثمّ يضيف القرآن الكريم: بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ

نعم أنت تتعجّب لإنكارهم بالمعاد، لأنّك بقلبك الطاهر ترى المسألة واضحة جدّا، و أمّا أصحاب القلوب السوداء فيعبدونها مستحيلة إلى حدّ أنّهم يستهزئون بها و ينكرونها.

و ما يمكن وراء تلك التصرفات القبيحة ليس هو الجهل- فقط- و عدم المعرفة، بل إنّها اللجاجة و العناد، إذ أنّهم كلّما ذكروا بدلائل المعاد و العقوبات الإلهيّة لا يتذكّرون وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ

و الأنكى من ذلك، أنّهم كلّما شاهدوا معجزة من معجزاتك، لا يكتفون بالاستهزاء، و إنّما يدعون الآخرين للاستهزاء أيضا وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ

وَ قالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

قولهم «هذا» المقصود منه تحقير المعجزات و الآيات الإلهية و الانتقاص منها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۳

و إطلاقهم كلمة «سحر» على تلك المعجزات لكونها من جهة أعمالا خارقة للعادة، و لا يمكن نكرانها. و من جهة اخرى فإنّهم لم يكونوا راغبين للاستسلام لتلك المعاجز، و كلمة السحر كانت الكلمة الوحيدة التى تعكس خبثهم و ترضى أهواءهم النفسية، و توضّح فى نفس الوقت اعترافهم بالتأثير الكبير للقرآن و لمعجزات النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

***

ملاحظتان

۱- يعتقد بعض المفسّرين أنّ عبارة «يستسخرون» تعنى «يسخرون»، و لا يوجد أى فرق بين العبارتين. فى حين يؤكّد البعض الآخر على وجود اختلاف بين المعنيين، بقولهم: إنّ «يستسخرون» جاءت من باب استفعال، و تعنى دعوة الآخرين إلى المشاركة فى الاستهزاء، و تشير إلى أنّهم لم يكتفوا لوحدهم بالاستهزاء بآيات القرآن المجيد، و إنّما سعوا لإشراك الآخرين فى ذلك، كى تصير المسألة عامّة فى المجتمع.

و البعض يعتبر هذا الاختلاف توكيد أكثر يستفاد من عبارة (يستسخرون).

فيما فسّر البعض الآخر هذه العبارة بأنّها «الإعتقاد بكون الشىء مثيرا للسخرية»، و يعنى أنّهم نتيجة انحرافهم الشديد كانوا فى قرارة أنفسهم يعتقدون- تماما- أنّ هذه المعجزات ليست أكثر من سخرية، و لكن المعنى الثانى يعدّ أكثر مناسبا من غيره.

۲- عزا بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآية إلى قضيّة مفادها أنّ «ركانة» رجل من المشركين من أهل مكّة، لقيه الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى جبل خال يرعى غنما له، و كان من أقوى الناس، فقال له: يا ركانة أ رأيت إنّ صرعتك أ تؤمن بى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۴

قال: نعم. فصرعه ثلاثا، ثمّ عرض عليه بعض الآيات و دعا عليه الصلاة و السلام شجرة فأقبلت، فلم يؤمن و جاء إلى مكّة فقال: «يا بنى هاشم ساحروا بصاحبكم أهل الأرض». فنزلت فيه و فى أضرابه هذه الآية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۵

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶ الى ۲۳]

اشارة

أ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۱۶) أ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۱۷) قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ (۱۸) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (۱۹) وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (۲۰)

هـذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۱) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ (۲۲) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ (۲۳)

التّفسير

هل نبعث من جديد؟

الآيات هذه تتابع سرد أقوال منكرى المعاد، و تواصل الردّ عليها، فالآية الاولى تعكس استبعاد البعث من قبل منكريه، بهذا النصّ أ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۲۸۸][۲۸۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۶

و هل سيبعث آباؤنا الأوّلون أيضا؟ أ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ فمن يستطيع جمع تلك العظام النخرة و أكوام التراب المتفرّقة المتبقّية من الإنسان؟ و من يتمكّن من إعادة الحياة إليها؟

فهؤلاء ذوى القلوب العمياء نسوا أنّهم كانوا ترابا فى اليوم الأوّل، و من التراب خلقوا، و إذ كانوا يشكّكون فى قدرة اللّه، فعليهم أن يعرفوا أنّ اللّه كان قد أراهم قدرته، و إن كانوا يشكّكون باستحالة التراب، فقد أثبت ذلك من قبل، و علاوة على هذا فإنّ خلق السماوات و الأرض بكلّ هذه العظمة لا تترك أى مجال للشكّ عند أحد فى قدرة البارى عزّ و جلّ المطلقة.

ممّا يذكر أنّ منكرى البعث صاغوا أقوالهم بشكل عبارات مؤكّدة (إذ أنّ جملة أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ هى جملة اسمية استخدمت فيها (إن) و (لام) و التى تأتى كلّ منهما للتأكيد) و ذلك لجهلهم و لجاجتهم.

و ممّا يلفت النظر أنّ كلمة (التراب) قدّمت على (العظام) و هذا الأمر يحتمل أنّه يشير إلى إحدى النقاط الثلاث الآتية:

أوّلا: إنّ الإنسان بعد وفاته يصير عظاما فى بداية الأمر، ثمّ يتحوّل إلى تراب، و بما أنّ إعادة التراب إلى الحياة يعدّ شيئا عجيبا، لهذا قدّمت كلمة التراب.

ثانيا: عند اندثار أبدان الأموات، فى البداية تتحوّل اللحوم إلى تراب و تبقى إلى جانب العظام، و لهذا فهناك تراب و عظام فى آن واحد.

ثالثا: التراب يشير إلى أجساد الأجداد الأوّلين، و العظام تشير إلى أبدان الآباء و التى لم تتحوّل بعد إلى تراب.

ثمّ يردّ القرآن على تساؤلاتهم بلهجة شديدة و عنيفة، عند ما يقول للرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: قل لهم: نعم أنتم و أجدادكم ستبعثون صاغرين مهانين أذلّاء، قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داخِرُونَ ۲۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۷

فهل تتصوّرون أنّ عمليّة إحيائكم و الأوّلين تعدّ مستحيلة، أو هى عمل عسير على اللّه القادر و القوى؟ كلّا، فإنّ صرخة عظيمة واحدة ممّن كلّفهم اللّه سبحانه و تعالى بذلك كافية لبعث الحياة بمن فى القبور، و نهوض الجميع فجأة من دون أىّ تمهيد أو تحضير من قبورهم ليشاهدوا بأعينهم ساحة المحشر التى كانوا بها يكذّبون فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ

(زجرة) مشتقّة من (زجر) و كما أشرنا إليها سابقا، فإنّها تعنى الطرد، و أحيانا تأتى بمعنى الصرخة، و هنا تفيد المعنى الثانى، و هى إشارة إلى النفخة و الصيحة الثانية لإسرافيل، و التى سنتحدّث بشأنها فى الآيات الأخيرة لسورة الزمر.

عبارة (ينظرون) تشير إلى نظر منكرى البعث لساحة المحشر و هم مدهوشون، أو النظر بعنوان انتظار العذاب، و فى كلا الحالتين فإنّ المقصود ليس- فقط- عودتهم إلى الحياة، و إنّما عودتهم إلى الشعور و النظر فور سماعهم الصيحة.

و تعبير زَجْرَةٌ واحِدَةٌ مع الالتفات إلى معنى الكلمتين، يشير إلى أنّ البعث يتمّ بسرعة و على حين غرّة، و إلى سهولته فى مقابل قدرة البارى عزّ و جلّ، إذ بصرخة واحدة (لملك البعث) المأمور بها تعود الحياة إلى حالتها الاولى.

و هنا تتعالى صرخات المشركين المغرورين و تبيّن ضعفهم و عجزهم و عوزهم، و يقولون: الويل لنا فهذا يوم الدين وَ قالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ

نعم، فعند ما تقع أعينهم على محكمة العدل الإلهى و شهودها و قضاتها، و على علامات العقاب فإنّهم- من دون أن يشعروا- يصرخون و يبكون، و يعترفون بحقيقة البعث، الاعتراف الذى يعجز عن إنقاذهم من العذاب، أو تخفيف العقاب الذى ينتظرهم.

و هنا يوجّه إليهم الخطاب من البارى عزّ و جلّ أو من ملائكته: نعم، اليوم هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۸

يوم الفصل الذى كنتم به تكذّبون، يوم فصل الحقّ عن الباطل، و فصل المجرمين عن المتّقين، و يوم المحكمة الإلهيّة الكبرى هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

و مثل هذه العبارات وردت فى آيات اخرى من آيات القرآن الكريم، و التى تتناول يوم القيامة، و تعتبره يوم الفصل، و هى عبارات عجيبة و رهيبة؟![۲۹۱].

الملاحظ، هو أنّ الكافرين يوم القيامة يطلقون على هذا اليوم اسم يوم الجزاء يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ

فيما يطلق عليه البارى عزّ و جلّ فى كتابه الحكيم اسم يوم الفصل هذا يَوْمُ الْفَصْلِ

إنّ الاختلاف بين التعبيرين يمكن أن يكون لهذا السبب، و هو أنّ المجرمين لا يفكّرون إلّا بالجزاء و العقاب الذى سينالهم، و لكن اللّه سبحانه و تعالى يشير إلى معنى أوسع من الجزاء الذى يعدّ أحد أبعاد ذلك اليوم، إذ يعتبر ذلك اليوم هو يوم الفصل، نعم يوم فصل صفوف المجرمين عن المتّقين، كما جاء فى الآية (۵۹) من سورة يس وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فالأمر فى ذلك اليوم موجّه إلى المجرمين أن انفصلوا عن المؤمنين، فهنا ليست دار الدنيا التى تجمع بين المجرمين و المتّقين.

و كم يكون هذا المشهد رهيبا عند ما يشاهدون أقاربهم و أبناءهم ينفصلون عنهم لإيمانهم باللّه، و يتّجهون نحو جنان الخلد.

و علاوة على أنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحقّ عن الباطل، فيجب أن تتبيّن كلّ الخطوط المتضادّة و البرامج الحقيقيّة و الكاذبة التى كانت مختلطة فى عالم الدنيا فى مكانها الخاصّ بها.

على أيّة حال، إنّ ذلك اليوم- أى يوم الفصل- يعنى أيضا يوم المحاكمة، ففى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۲۹۹

ذلك اليوم يقضى اللّه العالم العادل بين عباده و يصدر أحكاما دقيقة بحقّهم، و هنا يخزى المشركون.

إذن، فطبيعة الدنيا هى اختلاط الحقّ بالباطل، فى حين أنّ طبيعة البعث هو فصل الحقّ عن الباطل، و لهذا السبب فإنّ أحد أسماء يوم القيامة فى القرآن المجيد (يوم الفصل) و الذى كرّر عدّة مرّات، اليوم الذى تظهر فيه كافّة الخفايا و الأسرار، و لا يمكن تجنب عملية فصل الصفوف.

ثمّ يصدر البارى عزّ و جلّ أوامره إلى ملائكته المكلّفين بإرسال المجرمين إلى جهنّم أن احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْواجَهُمْ وَ ما كانُوا يَعْبُدُونَ

نعم احشروهم و ما كانوا يعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ

(احشروا) مشتقّة من (حشر) و يقول الراغب فى مفرداته: إنّها تعنى إخراج الجماعة عن مقرّهم و إزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها.

و هذه الكلمة تأتى بمعنى «تجميع» فى الكثير من الحالات.

على كلّ حال، فالخطاب هنا إمّا أن يكون من جانب اللّه عزّ و جلّ، أو من طائفة من الملائكة إلى طائفة اخرى مكلّفة بسوق المجرمين إلى الجحيم و النتيجة واحدة.

(أزواج) هنا إمّا أن تشير إلى زوجات المجرمين و المشركين، أو إلى من يعتقد اعتقادهم و يعمل عملهم و من هو على شاكلتهم، لأنّ هذه الكلمة تشمل المعنيين، حيث نقرأ فى سورة الواقعة الآية (۷) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً.

و بهذا يحشر المشركون مع المشركين و الأشرار، و ذوو القلوب العمياء مع نظائرهم، ثمّ يساقون إلى جهنّم.

أو أنّ المقصود من الأزواج هم الشياطين الذين كانوا يشابهونهم فى الشكل و العمل.

المهمّ، هو عدم وجود أى اختلاف بين هذه المعانى الثلاثة، و من الممكن أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۰

تجتمع فى مفهوم الآية.

جملة ما كانُوا يَعْبُدُونَ تشير إلى آلهة المشركين، كالأصنام و الشياطين و الطغاة المتجبّرين و الفراعنة و النماردة، و عبّرت عنها ب ما كانُوا يَعْبُدُونَ لكون أغلب تلك الآلهة موجودات عديمة الحياة و غير عاقلة، و قد اصطلح عليها بهذا التعبير لأنّه يعطى طابع التغليب.

(الجحيم) تعنى جهنّم، و هى من مادّة (جحمة) على وزن (ضربة) و تعنى شدّة تأجيج النار.

و الملاحظ فى الآية استخدامها عبارة فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ حقّا كم هذه العبارة عجيبة؟ ففى أحد الأيّام ارشدوا إلى الصراط المستقيم و لكنّهم لم يقبلوه، و اليوم يجب أن يهدوا إلى صراط الجحيم، و هم مجبرون على القبول به، و هذا توبيخ عنيف لهم يجعلهم يتحرّقون ألما فى أعماقهم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۲۴ الى ۳۲]

اشارة

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (۲۴) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (۲۵) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (۲۶) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۷) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (۲۸)

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (۲۹) وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (۳۰) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (۳۱) فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (۳۲)

التّفسير

الحوار بين القادة و الأتباع الضالّين:

الآيات السابقة استعرضت كيفية سوق ملائكة العذاب للظالمين و من يعتقد اعتقادهم برفقة الأصنام و الآلهة الكاذبة التى كانوا يعبدونها من دون اللّه، إلى مكان معيّن، و من ثمّ هدايتهم إلى صراط الجحيم.

و استمرارا لهذا الاستعراض يقول القرآن: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ۲۹۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۲

نعم علیهم أن یتوقّفوا و یجیبوا علی مختلف الأسئلة التی تطرح علیهم، و لکن عمّا ذا یسألون؟

قال البعض: یسألون عن البدع التی اختلقوها.

و قال البعض الآخر: یسألون عن أعمالهم القبیحة و أخطائهم.

و البعض أضاف: إنّهم یسألون عن التوحید و قول لا إله إلّا اللّه.

و ذهب آخرون: إنّهم یسألون عن النعم التی أنعمت علیهم، و عن شبابهم و صحّتهم و أعمارهم و أموالهم و نحوها، و هناک روایة یذکرها الشیعة و السنّة فی أنّهم یسألون عن ولایة أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام ۲۹۳].

و بالطبع فإنّ هذه التفاسیر لا یوجد أی تناقض بینها، لأنّ فی ذلک الیوم یتمّ السؤال عن کلّ شیء، عن العقائد و عن التوحید و الولایة، و عن الحدیث و العمل، و عن النعم و المواهب التی وضعها اللّه سبحانه و تعالی فی إختیار الإنسان.

و هنا یطرح هذا السؤال نفسه، و هو: کیف یساق أولئک أوّلا إلی صراط الجحیم، ثمّ یؤمرون بالتوقّف لاستجوابهم؟

ألا ینبغی تقدیم عملیة إیقافهم و مساءلتهم علی سوقهم إلی صراط الجحیم؟

هناک جوابان لهذا السؤال و هما:

أوّلا- کون أولئک من أهل جهنّم أمر واضح للجمیع، و حتّی لأنفسهم، و استجوابهم إنّما یتمّ لإعلامهم بمقدار و حجم الذنوب و الجرائم التی اقترفوها ..

ثانیا: طرح هذه الأسئلة علیهم لا لمحاکمتهم، و إنّما ذلک لتوبیخهم و معاقبتهم نفسیا.

و بالطبع فإنّ کلّ ذلک فی حالة کون الأسئلة متعلّقة بما أوردنا آنفا، أمّا إذا ارتبط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۳

الحدیث بالآیة التالیة و التی تسألهم عن عدم نصرتهم بعضهم البعض، فهنا لا تبقی أیّة مشکلة فی تفسیر الآیة، و لکن هذا التّفسیر لا یتطابق مع جاء فی عدّة روایات بهذا الشأن، إلّا إذا کان هذا السؤال جزء من أسئلة مختلفة.

علی أیّة حال، فعند ما یساق المجرمون إلی صراط الجحیم، تکون أیدیهم مقطوعة عن کلّ شیء و قاصرة عن تحصیل العون، و یقال لهم: أنتم الذین کان أحدکم یلجأ إلی الآخر فی المشکلات و یطلب العون منه، لم لا ینصر بعضکم بعضا الآن ما لَکُمْ لا تَناصَرُونَ نعم، فکلّ الدعائم التی تصوّرتم انّها دعامات مطمئنة فی الدنیا أزیلت عنکم، و لا یمکن أن یساعد بعضکم البعض، کما أنّ آلهتکم لیسوا بقادرین علی تقدیم العون لکم، لأنّهم عاجزون و منشغلون بأنفسهم.

یقال أنّ (أبا جهل) نادی یوم معرکة بدر «نحن جمیع منتصر»، و القرآن المجید أعاد تکرار قوله فی الآیة (۴۴) من سورة القمر أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُنْتَصِرٌ فیوم القیامة یسأل أبو جهل و أمثاله: لماذا لا یسعی بعضکم لمساعدة البعض الآخر؟ و لکن لا یمتلکون أی جواب لهذا السؤال، سوی سکوتهم الدالّ علی ذلّتهم.

الآیة التی تلیها تضیف: إنّهم فی ذلک الیوم مستسلمون لأوامر اللّه و خاضعون له، و لا یمکنهم إظهار المخالفة أو الاعتراض بَلْ هُمُ الْیَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۲۹۴].

و هنا یبدأ کلّ واحد منهم بلوم الآخر، و یسعی إلی إلقاء أوزاره علی عاتق الآخر، و التابعون یعتبرون رؤساءهم و أئمّتهم هم المقصّرون، فیقابلونهم وجها لوجه، و یبدأ کلّ منهم بسؤال الآخر، کما تقول الآیة: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلی بَعْضٍ یَتَساءَلُونَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۴

و هنا یقول التابعون لمتبوعیهم: إنّکم شیاطین، إذ کنتم تأتوننا بعنوان النصیحة و الهدایة و التوجیه و إرادة الخیر و السعادة لنا، و لکن لم یکن من وراء مجیئکم سوی المکر و الضیاع قالُوا إِنَّکُمْ کُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْیَمِینِ

إذ أنّنا- بحكم فطرتنا- كنّا نسعى وراء الخير و الطهارة و السعادة، و لذا لبّينا دعوتكم، لكنّنا لم نكن نعلم أنّكم تخفون وراء وجوهكم الخيّرة ظاهرا وجها آخر شيطانيا و قبيحا أوقعنا فى الخطيئة، نعم فكلّ الذنوب التى ارتكبناها أنتم مسئولون عنها، لأنّنا لم نكن نملك شيئا سوى حسن النيّة و طهارة القلب، و أنتم الشياطين الكذّابون لم يكن لديكم سوى الخداع و المكر.

كلمة (يمين) تعنى (اليد اليمنى) أو (الجهة اليمنى) و العرب تعتبرها فى بعض الأحيان كناية عن الخير و البركة و النصيحة، و كلّ ما يرد إليهم من جهة اليمين يتفاءلون به، و لذا فإنّ الكثير من المفسّرين يفسّرون كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ على أنّها تظهر الخير و النصيحة كما ذكرنا ذلك أعلاه.

على أيّة حال، الثقافة العامّة تعتبر العضو الأيمن أو الطرف الأيمن شريفا، و الأيسر غير شريف، و لهذا السبب تستعمل اليمين للإحسان و عمل الخيرات.

و قد ذكرت مجموعة من المفسّرين تفسيرا آخر و هو: إنّ المقصود هو أنّكم أتيتمونا باعتمادكم على القدرة، لأنّ الجهة اليمنى تكون عادة هى الأقوى، و بهذا الدليل فإنّ أغلب الناس ينجزون أعمالهم المهمّة و الصعبة باليد اليمنى، لذا فقد أصبح هذا التعبير كناية عن «القدرة».

و هناك تفسيرات اخرى تعود إلى هذين التّفسيرات أعلاه، و لكن لا شكّ أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و فى المقابل فإنّ المتبوعين و القادة لا يسكتون، بل يجيبون تابعيهم بالقول:

قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

فلو لم تكن أهواؤكم منحرفة، و لو لم تكونوا من طلّاب الشرّ و الشيطنة، لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۵

اتّبعتمونا بإشارة واحدة، و لماذا لم تستجيبوا لدعوة الأنبياء و الصالحين؟ إذا فالخلل فيكم أنتم، اذهبوا و لوموا أنفسكم و العنوها. و دليلنا واضح، إذ لم تكن لنا أى سلطة عليكم، و لم نضغط عليكم و نجبركم لعمل أى شىء وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ

إنّما أنتم قوم طغاة و معتدون، و أخلاقكم و طبيعتكم الظالمة صارت سبب تعاستكم بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ

و كم هو مؤلم أن يرى الإنسان قائده و إمامه الذى كان قد ارتبط به قلبيّا طوال عمره، قد تسبّب فى تعاسته و شقائه ثمّ يتبرّأ منه، و يلقى كلّ الذنوب على عاتقه؟

فى الحقيقة، إنّ كلا المجموعتين صادقة فى قولها، فلا هؤلاء، أبرياء و لا أولئك، فالغواية و الشيطنة كانت من أولئك، و تقبل الغواية و الاستسلام كان من هؤلاء.

فجدا لكم لا يؤدّى إلى نتيجة، و هنا يعترف أئمّة الضلال بهذه الحقيقة، و يقولون:

بهذا الدليل ثبت أمر اللّه علينا، و صدر حكم العذاب بحقّ الجميع، و سينالنا جميعا عذاب اللّه فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ

إنّكم كنتم طاغين، و هذا هو مصير الطغاة، أمّا نحن فقد كنّا ضالّين و مضلّين.

فنحن أضللناكم كما كنّا نحن أنفسنا ضالّين فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ

بناء على ذلك ما الذى يثير العجب فى أن نكون جميعا شركاء فى هذه المصائب و هذا العذاب؟

***

ملاحظتان

۱- السؤال أيضا عن ولاية أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام:

بالشکل الذی أشرنا إلیه سابقا، فإنّ روایات عدیدة وردت فی مصادر الشیعة و أهل السنّة بشأن تفسیر هذه الآیة وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ تبیّن أنّ من جملة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۶

القضایا التی یسأل عنها المجرمون یوم القیامة هو ما یتعلّق بولایة أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام.

فالشیخ «الطوسی» نقل فی کتابه (الأمالی) عن أنس بن مالک عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا کان یوم القیامة و نصب الصراط علی جهنّم لم یجز علیه إلّا من معه جواز فیه ولایة علی بن أبی طالب، و ذلک قوله تعالی: وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ یعنی عن ولایة علی بن أبی طالب علیه السّلام»[۲۹۵].

کما أکّد الکثیر من کتب أهل السنّة علی أنّ تفسیر هذه الآیة یخصّ السؤال بشأن ولایة علی بن أبی طالب علیه السّلام، و قد نقل هذه الروایة ابن عبّاس و أبی سعید الخدری عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، کما نقلها رواة آخرون منهم:

ابن حجر الهیثمی فی الصواعق المحرقة- الصفحة ۱۴۷.

عبد الرزاق الحنبلی فی کشف الغمّة- الصفحة ۹۲.

العلّامة سبط ابن الجوزی فی التذکرة- الصفحة ۲۱.

الآلوسی فی روح المعانی فی نهایة هذه الآیة.

أبو نعیم الأصفهانی فی کفایة الخصال- الصفحة ۳۶۰، و غیرهم من الرواة[۲۹۶].

و بالطبع، و کما قلنا مرارا، فإنّ مثل هذه الروایات لا تحدّ من المفهوم الواسع للآیات، بل تعکس- فی الحقیقة- مصادیقها الواضحة، بناء علی ذلک فإنّه لیس هناک أی مانع من أن یسأل عن جمیع العقائد، لکن بما أنّ للولایة موقعا خاصّا فی بحث العقائد فقد استند علیها.

و هناک نقطة جدیرة بالاهتمام، و هی أنّ الولایة لا تعنی علاقة عادیة أو اعتقادا جافّا، و إنّما الهدف هو قبول قیادة الإمام علی علیه السّلام فی المسائل العقائدیة و العلمیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۷

و الأخلاقیة و الاجتماعیة بعد النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و قد عکست خطب أمیر المؤمنین علیه السّلام و کلماته فی نهج البلاغة نماذج من تلک المسائل .. المسائل التی یعدّ الإیمان بها و العمل علی أساسها وسیلة مؤثّرة للخروج من صفّ أهل جهنّم و الاستقرار علی صراط اللّه المستقیم.

۲- المتبوعون و التابعون الضالّون:

الآیات المذکورة أعلاه و آیات اخری فی القرآن الکریم، تضمّنت إشارات ذات مغزی عن التخاصم الذی یقع بین الأتباع و المتبوعین یوم القیامة أو فی جهنّم و هذا تحذیر مفید لکلّ من یضع عقله و دینه تحت تصرّف أئمّة الضلال.

و مع أنّ کلّ واحد یسعی فی ذلک الیوم للتبرؤ من الآخر، و حتّی أنّه یحاول إلقاء تبعات ارتکاب الذنب علیه، و لکن بتلک الحال لا یستطیع أی واحد منهم إثبات براءته.

و شاهدنا فی الآیات المذکورة أعلاه أنّ أئمّة الغوایة و الضلال یقولون بصراحة لتابعیهم: إنّ سبب تأثیرنا علیکم هو وجود روح الطغیان فی داخلکم بَلْ کُنْتُمْ قَوْماً طاغِینَ

هذا الطغیان هیّأ لدیکم أرضیة التأثّر بإغوائنا، و عبّر هذا الطریق تمکّنا من نقل الخرافات إلیکم فَأَغْوَیْناکُمْ إِنَّا کُنَّا غاوِینَ

التوجّه الدقيق لمعنى (أغوى) و المشتقّة من (غى) يوضّح الموضوع، لأنّ كلمة (غىّ) كما يقول الراغب فى (مفرداته) تعنى الجهل الناشئ من المعتقدات الفاسدة، إذ أنّ أئمّة الضلال بقوا بعيدين عن معرفة حقائق الوجود و الحياة، و نقلوا جهلهم و معتقداتهم الفاسدة إلى تابعيهم الذين كانوا يحملون روح الطغيان فى مقابل أمر البارى عزّ و جلّ.

و بهذا الدليل يعترفون هناك بأنّهم هم و تابعوهم يستحقّون العذاب، فَحَقَّ عَلَيْنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۸

قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ

و كلمة (ربّ) هنا لها مغزى كبير، إذ أنّ الإنسان يصل إلى درجة بحيث أنّ اللّه الذى هو مالك ذلك الإنسان و مربّيه و لا يريد له سوى الخير و السعادة يأمر بالقائه فى أشدّ العذاب!! و هذا أيضا من شؤون ربوبيته.

على أيّة حال فإنّ ذلك اليوم هو حقّا (يوم الحسرة) حيث يندم فيه أئمّة الضلال و تابعوهم على أفعالهم، و لكن ما الفائدة؟ فليس هناك أى طريق للرجعة.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۰۹

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

اشارة

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (۳۳) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۳۴) إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (۳۵) وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (۳۶) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (۳۷)

إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (۳۸) وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۳۹) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۴۰)

التّفسير

مصير أئمّة الضلال و أتباعهم:

الآيات السابقة بحثت موضوع التخاصم الذى يدور بين أئمّة الضلال و تابعيهم يوم القيامة قرب جهنّم، أمّا الآيات أعلاه فقد وضّحت- فى موضع واحد- مصير المجموعتين، و شرحت أسباب تعاستهم بشكل يشخّص المرض و يصف الدواء الخاص لمعالجته.

ففى البداية تقول: إنّ التابع و المتبوع و الإمام و المأموم مشتركون فى ذلك اليوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۰

بالعذاب الإلهى فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ

و بالطبع فإنّ اشتراكهم فى العذاب لا يمنع من وجود اختلاف فى المكان الذى سيلقون به جهنّم، إضافة إلى اختلاف نوع العذاب الإلهى. إذ من الطبيعى أنّ الذى يتسبّب فى انحراف الآلاف من البشر لا يتساوى عذابه مع فرد ضالّ عادى، و هذه الآية تشبه الآية (۴۸) فى سورة غافر و التى يقول فيها المستكبرون لضعفاء الإيمان بعد محاججة و مخاصمة تجرى فيما بينهم: إنّنا جميعا فى جهنّم، لأنّ اللّه قد حكم بالعدل بين العباد قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ.

و هذه الآية لا تنافى الآية (۱۳) من سورة العنكبوت، و التى يقول فيها البارى عزّ و جلّ وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ أى إنّهم يحملون يوم القيامة أحمالهم الثقيلة، و أحمالا اخرى أضيفت إلى أحمالهم الثقيلة، و ذلك أثر إغوائهم و إضلالهم للآخرين و

تشجيعهم على ارتكاب الذنب.

و للتأكيد أكثر على تحقّق العذاب تقول الآية التى تلتها إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إنّ هذه هى سنّتنا، السنّة المستمدّة من قانون العدالة.

ثمّ توضّح السبب الرئيسى الكامن وراء تعاسة أولئك، و تقول: إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

نعم، إنّ التكبّر و الغرور، و عدم الانصياع للحقّ، و العمل بالعادات الخاطئة و التقاليد الباطلة بإصرار و لجاجة، و النظر إلى كلّ شىء باستخفاف و استحقار، تؤدّى جميعا إلى انحراف الإنسان.

فروح الاستكبار يقابلها الخضوع و الاستسلام للحقّ و الذى هو الإسلام الحقيقى، الاستكبار الذى هو أساس الظلام، فيما أنّ الخضوع و الاستسلام هو أساس السعادة.

و الذى يثير الاهتمام أنّ بعض آيات القرآن الكريم توضّح بصورة مباشرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۱

العذاب الإلهى الذى سيعذّب به المستكبرون فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ [۲۹۷] لكن هؤلاء برّروا ارتكابهم للذنوب الكبيرة بتبريرات أسوأ من ذنوبهم، كقولهم:

هل نترك آلهتنا و أصنامنا من أجل شاعر مجنون وَ يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ

لقد أطلقوا على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كلمة (شاعر) لأنّ كلامه كان ينفذ إلى قلوبهم و يحرّك عواطفهم، فأحيانا كان يتكلّم إليهم بكلام يفوق أفضل الأشعار وزنا، فى الوقت الذى لم يكن حديثه شعرا، و كانوا يعتبرونه (مجنونا) لكونه لم يتلوّن بلون المحيط الذى يعيش فيه، و وقف موقفا صلبا أمام العقائد الخرافية التى يعتقد بها المجتمع المتعصّب حينذاك، الموقف الذى اعتبره المجتمع الضالّ فى ذاك الوقت نوع من الانتحار الجنونى، فى الوقت الذى كان أكبر فخر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، هو عدم استسلامه للوضع السائد حينذاك.

و هنا تدخل القرآن لردّ ادّعاءاتهم التافهة و الدفاع عن مقام الوحى و رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، عند ما قال: بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ

فمحتوى كتابه من جهة، و توافق دعوته مع دعوات الأنبياء السابقين من جهة اخرى، هى خير دليل على صدق حديثه.

و أمّا أنتم أيّها المستكبرون الضالّون، فإنّكم ستذوقون العذاب الإلهى الأليم إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ

و لا تتصوّروا أنّ اللّه منتقم، و أنّه يريد الانتقام لنبيّه منكم، كلّا ليس كذلك وَ ما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و حقيقة الأمر أنّ أعمالكم سوف تتجسّد أمامكم، لتبقى معكم لتؤذيكم و تعذّبكم، و جزاؤكم إنّما هو نتيجة أعمالكم و تكبّركم و كفركم و عدم إيمانكم باللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۲

و زعمكم بأنّ آيات اللّه هى (شعر) و رسوله (مجنون) إضافة إلى ظلمكم و ارتكابكم القبائح.

آخر آية فى هذا البحث، و التى هى- فى الحقيقة- مقدّمة للبحث المقبل، تستثنى مجموعة من العذاب، و هى- مجموعة عباد اللّه المخلصين إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۲۹۸].

و كلمة عِبادَ اللَّهِ يمكنها لوحدها أن تبيّن ارتباط هذه المجموعة باللّه سبحانه و تعالى، و عند ما تضاف إليها كلمة مخلصين فإنّها تعطى لتلك الكلمة عمقا و حياة، و «مخلص» (بفتح اللام) جاءت بصيغة اسم مفعول، و تعنى الشخص الذى أخلصه اللّه سبحانه و تعالى لنفسه، أخلصه من كلّ أشكال الشرك و الرياء و من وساوس الشياطين و هوى النفس.

نعم فهذه المجموعة لا تحاسب على أعمالها، و إنّما يعاملها اللّه سبحانه و تعالى بفضله و كرمه، و يمنحها من الثواب بغير حساب.

***

ملاحظة

الإمعان فى آيات القرآن الكريم يبيّن أنّ كلمة (مخلص) بكسر اللام، قد استخدمت بكثرة فى المواقع التى تتحدّث عن حالة الإنسان الذى يعيش مراحل بناء نفسه، و لم يصل إلى التكامل، أمّا كلمة (مخلص) بفتح اللام، فتطلق على مرحلة وصل فيها الإنسان إلى مرتبة يصان فيها من نفوذ وساوس الشيطان إلى قلبه، بعد أنّ اجتاز مرحلة جهاد النفس و مراحل المعرفة و الإيمان، كما أنّ القرآن ينقل عن إبليس الخطاب التالى للّه سبحانه و تعالى فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

هذه الآية تكرّرت عدّة مرّات فى القرآن، و هى توضّح عظمة مقام المخلصين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۳

مقام يوسف الصدّيق بعد أن عبر ساحة الاختبار الكبيرة بنجاح، و أمثاله من المخلصين كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَ الْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ أى نحن أظهرنا البراهين ليوسف لنبعد عنه الفحشاء و السوء، لأنّه من عبادنا المخلصين (سورة يوسف- ۲۴).

فمقام المخلصين لا يناله إلّا من انتصر فى الجهاد الأكبر، و شمله اللطف الإلهى بإزالة كلّ شىء غير خالص من وجوده، و لا تبقى فيه سوى النفس الطاهرة الخالصة- كالذهب الخالص- عند إذابتها فى أفران الحوادث و الاختبار. و هنا فإنّ مكافأتهم لا تتمّ وفق معيار أعمالهم، و إنّما معيار مكافأتهم هو الفضل و الرحمة الإلهيّة.

و العلّامة الطباطبائى رحمة اللّه عليه يقول بهذا الشأن:

«يقول اللّه سبحانه و تعالى فى هذه الآية، إنّ كافّة الناس يأخذون مكافأة أعمالهم إلّا العباد المخلصين له، لأنّهم يدركون بأنّهم عبيد اللّه، و العبد هو الذى لا- يملك لنفسه شيئا من إرادة و لا- عمل، فهؤلاء لا يريدون إلّا ما أراده اللّه و لا يعملون إلّا له. و لكونهم من المخلصين، فقد أخلصهم لنفسه، و لا تعلّق لهم بشىء غير ذات اللّه تعالى. فقلوبهم خالية من حبّ الدنيا و زخارفها، و ليس فيها إلّا اللّه سبحانه.

و من المعلوم أنّ من كانت هذه صفته كان التذاذه و تنعّمه بغير ما يلتذّ و يتنعّم به غيره، و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواه، و إن شاركهم فى ضروريات المأكل و المشرب، و من هنا يتأيّد أنّ المراد بقوله: أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ الإشارة إلى أنّ رزقهم فى الجنّة رزق خاص لا يشبه غيره، (و أنّهم يرزقون من مظاهر ذات اللّه الطاهرة، و قلوبهم متعطّشة اشتياقا للّه، و غارقة فى العشق و الوصول إلى اللّه)[۲۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۴

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۴۱ الى ۴۹]

اشارة

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (۴۱) فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ (۴۲) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۴۳) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (۴۴) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۴۵)

بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (۴۶) لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (۴۷) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (۴۸) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (۴۹)

التّفسير

جوانب من النعم لأهل الجنّة:

الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحدّثت عن عباد اللّه المخلصين، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض العطايا و النعم غير المحدودة التى يهبها اللّه سبحانه و تعالى لأهل الجنّة، و يمكن توضيحها فى سبعة أقسام:

تقول الآية أوّلا: إنّ لهم رزقا معلوما و معيّنا أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ

فهل هذه هى خلاصة لتلك النعم التى ستبيّنها الآيات فيما بعد، و توضيح للنعم التى ستغدق عليهم بصورة خفيّة.

أو إشارة إلى نعم معنوية غير معروفة و غير قابلة للوصف، تتصدّر نعم أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۵

الجنّة.

بعض المفسّرين فسّرها بالشكل الأوّل، فيما فسّرها آخرون بالشكل الثانى، و تناسب البحث يتواءم مع المعنى الثانى، و بهذا فإنّ النعمة الاولى من النعم السبع- التى وردت فى آيات بحثنا- هى الهبات المعنوية و المتع الروحية و درك مظاهر ذات اللّه، و تناول الشراب الطاهر و الغمرة فى عشق اللّه. اللذّة التى لا يمكن أن يدركها العبد ما لم يتذوّقها و يعيش رحابها.

و السبب فى أنّ العطايا المادّية فى الجنّة قد ذكرت فى آيات القرآن الكريم بالتفصيل و الهبات المعنوية و الملذّات الروحية استعرضت بصورة خفيّة، فهو أنّ الأولى قابلة للوصف دون الثانية.

و أمّا بشأن معنى رِزْقٌ مَعْلُومٌ فلقد قيل عنها الكثير، هل هى بمعنى معلوم الوقت، أم بقاءه و دوامه، أم سائر خصائصه؟ و لكن كما قلنا قبل قليل فانّ «معلوم» تعبير خفى و مجمل عن المواهب التى لا تقبل الوصف.

ثمّ ينتقل إلى بيان نعم اخرى، و يعدّد قبل كلّ شىء بعض نعم الجنّة التى تقدّم لأهل الجنّة بكل احترام و تكريم فَواكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ و ليس بتلك الصورة التى يرمى فيها الطعام أمام الحيوان لتناوله، و إنّما يقدّم لهم الطعام بكلّ احترام و كأنّهم ضيوف أعزّاء.

هنا نترك الحديث عن أنواع الفواكه التى تقدّم لأهل الجنّة باحترام و تجليل، لنتطرّق إلى أماكنهم فى الجنّة، حيث أنّ القرآن الكريم يقول: إنّ أماكنهم فى حدائق خضراء مملوءة بنعم الجنّة فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

فأى نعمة يتمنّونها موجودة هناك، و كلّ ما يطلبون يجدونه أمامهم.

و أشارت الآيات إلى النعمة الرابعة، و هى استئناس أهل الجنّة بمجالس السمر التى يعقدونها مع أصدقائهم فى جوّ ملؤه الصفاء، إذ يجلسون على سرر متقابلة و ينظر كلّ منهم إلى الآخر عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۶

يتذاكرون فى كلّ شىء، فمرّة تراهم يتحدّثون عن ماضيهم فى الدنيا، و اخرى عن النعم العظيمة التى أغدقها عليهم البارى عزّ و جلّ فى الآخرة، و أحيانا يستعرضون صفات الجمال و الجلال عند اللّه، و فى أوقات يتحدّثون عن مقام الأولياء و كراماتهم، و يتذاكرون قضايا اخرى قد لا ندركها نحن المسجونون فى هذه الدنيا.

«سرر» هى جمع (سرير) و هى الأسرة التى يجلس عليها الناس فى مجالس سمرهم، كما أنّ لهذه الكلمة معان أوسع، حتّى أنّها تطلق أحيانا على تابوت الميّت، و يحتمل أن يكون إطلاق هذه التسمية على تابوت الميّت برجاء أن يكون التابوت مركب بهجة يسير به إلى الرحمة الإلهية و جنّة الخلد.

أمّا القسم الخامس فيتحدّث عن نعمة اخرى من النعم التى تغدق على أهل الجنّة، إذ تطرّق إلى الشراب الطهور الذى يطاف به عليهم بكؤوس مملوءة بأنواع الخمور الطاهرة، و متى ما أرادوا فإنّهم يسقون من ذلك الخمر ليغرقوا فى عالم من النشاط و الروحية يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

و هذه الكؤوس ليست فى مكان معيّن يذهبون إليها لأخذها، و إنّما يطاف بها عليهم يُطافُ عَلَيْهِمْ

كلمة (كأس) يطلقها أهل اللغة على إناء الشراب المملوء، فيما يطلقون كلمة (قدح) عليه إن كان خاليا، و قال الراغب فى مفرداته: الكأس الإناء بما فيه من الشراب.

أمّا كلمة (معين) مشتقّة من (معن) على وزن (صحن) و تعنى الجارى، إشارة إلى أنّ هناك عيونا جارية من الخمر الطاهر، تملأ منها- فى كلّ لحظة- الكؤوس، و من ثمّ يطاف بها على أهل الجنّة، و هذه العيون الجارية من الخمر الطاهر لا تنضب و لا تفسد، إضافة إلى أنّ الحصول عليها لا يحتاج إلى أى مشقّة أو تعب.

ثمّ ينتقل الحديث إلى وصف كؤوس الشراب، إذ يقول: إنّها بيضاء اللون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۷

و متلألئة و تعطى لذّة للشاربين بها بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

و كلمة (بيضاء) اعتبرها بعض المفسّرين صفة لكؤوس الشراب، فيما اعتبرها البعض الآخر صفة للشراب الطهور، و يعنى أنّ ذلك الشراب ليس كالأشربة الملوّنة فى الدنيا، بل إنّها أشربة طاهرة، خالية من الألوان الشيطانية، و بيضاء اللون شفّافة.

و بالطبع فإنّ المعنى الثانى أنسب لجملة لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

الآية السابقة التى تطرّقت إلى الشراب و الكؤوس ربّما تجلب إلى الأذهان مفاهيم اخرى، أمّا الآية التى تليها فتطرد فى جملة قصيرة كافّة تلك المفاهيم عن الأذهان لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ

أى أنّ ذلك الخمر هو شراب طاهر لا- يفسد العقل، و لا- يؤدّى إلى السكر و الغفلة، و إنّما يؤدّى إلى اليقظة و النشاط و فيه متعة للروح.

و كلمة (غول) على وزن (قول) تعنى الفساد الذى ينفذ إلى الشىء بصورة غير محسوسة، و لهذا يقال فى الأدب العربى لعمليات القتل التى تتمّ بصورة سريّة أو خفية بأنّه (قتل غيلة).

و كلمة (ينزفون) من مادّة (نزف) على وزن (حذف) و تعنى فقدان الشىء تدريجيّا، و عند ما تستخدم هذه الكلمة بشأن آبار المياه، فإنّها تعطى معنى استخراج الماء من البئر تدريجيّا حتّى ينضب، و يقال «نزيف الدم» و هو خروج الدم من الجسد تدريجيّا حتّى ينتهى تماما.

على أيّة حال، فإنّ المقصود فى هذه الآية ذهاب العقل تدريجيّا و الوصول إلى حالة السكرة، أمّا خمر الجنّة الطاهر فإنّه لا يسكر على الإطلاق، إذ لا يذهب بالعقل و لا يسبّب أى مضارّ.

هاتان العبارتان تتطرّقان فى آن واحد- بصورة ضمنية و دقيقة- إلى الشراب فى عالم الدنيا و الذى ينفذ إلى حياة الإنسان بصورة تدريجية و سرية، و يوجد عنده حالات الفساد و الضياع، حيث أنّها لا تؤدّى بعقل الإنسان و أعصابه إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۸

الدمار فحسب، بل إنّ تأثيرها السلبى و الذى لا يمكن إنكاره يمتدّ إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، إلى القلب و حتّى الشرايين، و إلى المعدة و الكلية و الكبد، و أحيانا تودى بحياة الإنسان و كأنّها تقتله غيلة، و كذلك تأثيرها على عقل و ذكاء الإنسان يشبه عملية سحب ماء البئر تدريجيّا حتّى يجفّ.

و لكن الشراب الطهور الإلهى فى يوم القيامة لا يحمل هذه الصفات ۳۰۰].

أمّا القسم السادس، فإنّه يشير إلى الحور العين فى جنّات النعيم وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ أى نرزقهم زوجات لا يعشقن سوى أزواجهن و يقصرن طرفهن عليهم فقط، و لهذه الزوجات أعينا واسعة و جميلة.

(طرف) فى الأصل تعنى جفن العين، و هذه الكلمة كناية عن النظر، إذ أنّ أجفان العين تتحرّك عند ما ينظر الإنسان إلى شىء ما، إذن

فإنّ عبارة قاصِراتُ الطَّرْفِ تعنى النساء اللواتى ينظرن نظرة قصيرة، كما أنّ هناك تفسيرات متعدّدة وردت بهذا الشأن يمكن درجها كالتالى:

الأوّل: هو أنّهن ينظرن إلى أزواجهنّ فقط، و لا تمتد أبصارهنّ إلى سواهم.

و الثانى: هذا التعبير كناية عن كونهنّ لا يعشقنّ إلّا أزواجهنّ، و قلوبهم متيّمة بمحبّتهم، و لا توجد محبّة اخرى فى قلوبهنّ، و هذا هو أكبر امتياز للمرأة التى تحبّ زوجها و تتأمّل به.

و التّفسير الثالث: هو أنّ لهنّ أعين سكرى، هذه الحالة الخاصّة التى طالما وصف فيها الشعراء جمال العين فى قصائدهم ۳۰۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۱۹

و بالطبع فإنّ المعنى الأوّل و الثانى يبدوان أنسب، مع أنّه لا مانع من الجمع بين المعانى.

كلمة (عين) على وزن (سين) و جمعها (عيناء) و تعنى المرأة ذات العين الواسعة.

و أخيرا، فإنّ آخر آية فى بحثنا هذا تعطينا وصفا آخر لزوجات الجنّة، إذ توضّح طهارتهنّ و قد استهن من خلال هذه العبارة كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ أى إنّهن نظيفات و ظريفات، و ذوات أجسام بيضاء صافية كالبيض الذى كنه الريش فى العشّ فلم تمسّه الأيدى و لم يصبه الغبار.

(بيض) جمع بيضة.

(مكنون) مشتقّة من (كن) على وزن (جنّ) و تعنى المستور بالادّخار.

هذا التشبيه القرآنى يتّضح بصورة جيّدة إذا نظر الإنسان إلى البيضة فى اللحظة التى تنفصل فيها عن الدجاجة، و لم تمسّها بعديد الإنسان لتستقرّ تحت جناح الدجاجة و ريشها، إذ تبدو عليها شفافية و صفاء عجيبان.

و بعض المفسّرين يرى بأنّ كلمة (مكنون) تعنى المحتويات الداخلية للبيضة المختفية تحت القشرة، و فى الواقع فإنّ التشبيه المذكور يشير إلى بيضة مطبوخة قد أزيلت قشرتها الخارجية لتوّها، و قد بدا عليها البياض اللامع و النعومة و اللطافة.

الملاحظ أنّ عبارات القرآن المجيد الخاصّة بتوضيح الحقائق، عميقة و مفعمة بالمعانى، فعبارة قصيرة و لطيفة واحدة توضّح حقائق كثيرة و بأسلوب لطيف.

***

ملاحظة

إلقاء نظرة عامّة على ما جاء فى الآيات السابقة:

الهبات التى من اللّه تعالى بها على أهل الجنّة- المذكورة فى الآيات السابقة- هى مجموعة من الهبات الماديّة و المعنوية، و نستشف من عبارة أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۰

مَعْلُومٌ أنّ أوّل هبة هى تلك المتعلّقة بالهبات المعنوية و الروحية التى يعجز اللسان عن وصفها.

أمّا الأقسام الستّة الاخرى و هى الفواكه، و الشراب الطاهر، و الزوجات الصالحات، و الاحترام الكامل، و المسكن الحسن، و الأصدقاء الجيدون فى الجنّة، فقد أعطت أبعادا مختلفة لنعم الجنّة، و التى غالبا ما تمزج بالعطايا و المنح المادية و المعنوية.

لكن كلّ ما طرحناه كان بلغتنا التى لا تستطيع أبدا أن تعكس كلّ جوانب النعم فى الجنّة، و من الطبيعى فإنّنا نحتاج إلى حواس سمع و

نظر و إدراك اخرى، إضافة إلى ألفاظ و جمل و كلام آخر، كى نتمكّن من شرح هذه الأمور.

و بعبارة اخرى، فإنّ حقيقة النعم التى تغدق على أهل الجنّة خفيّة عن أهل الدنيا، إلّا إذا ذهبوا إلى هناك و شاهدوها عن قرب ليدركوها.

على أيّة حال، فإنّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ و الذين وصلوا فى علومهم و إيمانهم إلى مرحلة الكمال، أعزّاء عند اللّه، و يشملهم اللطف الإلهى بصورة غير محدودة، و مهما تصوّرنا علو مقامهم، فإنّهم أفضل و أعلى من ذلك.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۵۰ الى ۶۱]

اشارة

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۵۰) قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كانَ لِى قَرِينٌ (۵۱) يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (۵۲) أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ (۵۳) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (۵۴)

فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَواءِ الْجَحِيمِ (۵۵) قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (۵۶) وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (۵۷) أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (۵۸) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (۵۹)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۶۰) لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (۶۱)

التّفسير

البحث عن رفيق السوء:

عباد اللّه المخلصون الذين استعرضت الآيات السابقة النعم المادية و المعنوية التى أغدقت عليهم، كالفاكهة، و الحور، و كأس المعين الذى يطاف به عليهم، و السرر المتقابلة التى يجلسون عليها، و الأصدقاء الطيبين الذين يجالسونهم و يتحدّثون معهم، و فجأة- خلال جلسات سمرهم فى الجنّة- يتذكّرون أصدقائهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۲

فى الدنيا، أصدقائهم الذين انفصلوا عنهم فى الطريق، و لم يجدوا لهم أى أثر فى الجنّة، فيسعون إلى معرفة مصيرهم.

نعم، ففى الوقت الذى كانوا فيه منشغلين بالحديث و السؤال عن أحوال بعضهم البعض، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ

فجأة خطر فى ذهن أحدهم أمر، فالتفت إلى أصحابه قائلا: لقد كان لى صديق فى الدنيا قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كانَ لِى قَرِينٌ

و مع الأسف، فإنّه انحرف عن الطريق الصحيح، و صار منكرا ليوم البعث، و كان دائما يقول لى: هل تصدّق هذا الكلام و تعتقد به؟ يَقُولُ أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ

هل أنّنا إذا متنا و كنا ترابا و عظاما نحيا مرّة اخرى، لنساق إلى الحساب، و الجزاء على ما اقترفناه من أعمال؟ إنّ هذا ممّا لا ينبغى أن يصدق: أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَدِينُونَ ۳۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۳۲۲

هنا يخاطب من كان يتحدّث معهم من أهل الجنّة، بالقول: ليتنى أعرف أين هو الآن؟ و فى أيّة ظروف يعيش؟ فمكانه خال بيننا ..

و يضيف: أيّها الأصدقاء، هل تستطيعون البحث عنه، و معرفة حاله، قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ۳۰۳].

و أثناء بحثه عن قرينه و صديقه ينظر إلى جهنّم، و يرى فجأة صديقه وسط جهنّم فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ ۳۰۴].

فيخاطبه قائلا: أقسم باللّه لقد كدت أن تهلكنى و تسقطنى فيما سقطت فيه قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۳

لقد أو شكت أن تؤثّر على صفاء قلبى بوساوسك، و أن تزجّ بى فى الخطّ المنحرف الذى كنت فيه، فلو لا لطف اللّه الذى منعنى من ذلك و نعمته التى سارعت لمساعدتى، لكنت اليوم من المحضرين للعذاب مثلك فى نار جهنّم وَ لَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ

فالتوفيق الإلهى كان رفيق دربى، و لطف هدايته كان الموجّه لى.

و هنا يلقى نظرة اخرى إلى صديقه فى جهنّم، و يقول له موبّخا إيّاه: أ لم تكن أنت القائل لى فى الدنيا بأنّنا لا نموت أَ فَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ سوى مرّة واحدة فى الدنيا، و بعدها لا حياة اخرى و لا عذاب إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

الآن انظر و لاحظ الخطأ الكبير الذى وقعت فيه! فبعد الموت كانت هذه الحياة و هكذا ثواب و عقاب، و الآن توضّحت لك كافة الحقائق، و لكن ما الفائدة فليس هناك طريق للعودة.

طبقا لتفسير الآيتين الأخيرتين، فإنّ حديث الذى هو فى الجنّة مع صديقه الذى فى جهنّم، كان مركزا على تذكيره بإنكاره للمعاد فى الحياة الدنيا.

لكن بعض المفسّرين يحتملون وجود تفسير آخر للآيتين المذكورتين، و هو أنّه بعد انتهاء حديث الذى هو فى الجنّة مع صديقه الذى فى جهنّم، يعود إلى أصحابه فى الجنّة للتسامر فيما بينهم، فيقول أحدهم من شدّة الفرح: أ حقّا أنّنا لن نموت مرّة اخرى؟ و أنّنا سنعيش هنا خالدين؟ و هل أنّه بعد الموت الأوّل لا يوجد موت آخر، و تبقى هذه النعم الإلهيّة معنا، و ما نحن بمعذّبين؟

بالطبع هذا الكلام ليس مصدره الشكّ و التردّد، إنّما هو نتيجة شدّة الفرح و السرور، فمثلهم كمثل الإنسان الذى يحصل بعد مدّة من الأمل و الانتظار على بيت واسع و فخم، فيقول و هو متعجّب: كلّ هذا لى؟ يا ربّى! ما هذه النعمة! و هل ستبقى عندى؟

على كلّ حال، هنا اختتم الحديث بجملة عميقة المعانى و حسّاسة و مؤثّرة جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۴

و مؤكّدة بأنواع التأكيدات إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

ما أعظم هذا الفوز الذى يغرق فيه الإنسان بنعمة الخلود و الحياة الأبدية، و تشمله الألطاف الإلهية؟ و ماذا يتصوّر أفضل و أعظم من ذلك؟

ثمّ يقول تبارك و تعالى فى ختام البحث جملة واحدة قصيرة توقظ القلوب و تهزّ الأعماق، لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ أى لمثل هذا فليعمل الناس، و من أجل نيل هذه النعم فليسع الساعون.

بعض المفسّرون يحتملون فى كون الآية الأخيرة أنّها من كلام أصحاب الجنّة، و هذا الاحتمال مستبعد جدّا، لأنّ الإنسان فى ذلك اليوم غير مكلّف، و بعبارة اخرى لا يوجد أى تكليف فى ذلك اليوم حتّى يستنتج من الكلام أنّه تشجيع للآخرين، فى الوقت الذى يوضّح فيه ظاهر الآية إنّها استنتاج للآيات السابقة، و أنّها تدفع الناس إلى الإيمان و التوجّه إلى العمل، لذا كان من المناسب أن يورد البارى عزّ و جلّ هذا الحديث فى نهاية هذا البحث.

***

بحوث

۱- الرابطة بين أهل الجنّة و أهل النار

يستشف من الآيات المذكورة أعلاه، وجود نوع من الرابطة بين أهل الجنّة و أهل النار، فكأنّ أهل الجنّة- الذين هم فى مرتبة عليا- يرون أهل النار- الذين هم فى الأسفل- [و قد استفيد هنا من عبارة (فاطّلع) و التى تعنى الإشراف من الأعلى على الأسفل .

و بالطبع فإنّ هذا ليس بدليل على كون الفاصل الموجود بين الجنّة و النار قليلا، فلربّما يمنحون قوّة نظر خارقة تغدو أمامها قضيّة المكان و الفاصل معدومة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۵

و قد جاء فى كلمات بعض المفسّرين أنّ للجنّة كوة ينظر منها أهل الجنّة إلى أهل النار.

و آيات سورة الأعراف توضّح بصورة جيّدة الرابطة الموجودة بين الفريقين وَ نادى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ [۳۰۶] كما يمكن الاستفادة من الآية (۴۶) فى سورة الأعراف بهذا الشأن وَ بَيْنَهُما حِجابٌ أى أنّ هناك حجاب بين أهل الجنّة و أهل النار.

و كلمة (نادى) يستخدمها- بصورة طبيعية- المتكلّم عند بعد، و توضّح فى الآية مكان و مرتبة الفريقين.

على أيّة حال، و كما ذكرنا عدّة مرّات، فإنّ أوضاع و أحوال يوم القيامة تختلف كثيرا عن أوضاع عالمنا الحالى، و نحن لا نستطيع تقييم الأوضاع هناك وفق معايير عالمنا.

۲- بحقّ من نزلت هذه الآيات

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ سبب نزول الآيات المذكورة أعلاه هو ما ورد فى سورة الكهف كمثال، وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً ....[۳۰۷] و قد جاء فى هذه الآيات أنّ أحد الشخصين كان متكبّرا و مغرورا جدّا، إضافة إلى أنّه كان ينكر المعاد، و الآخر كان مؤمن يعتقد بالقيامة، و فيما بعد نزل العذاب الإلهى على الشخص المغرور الكافر و هو فى هذه الدنيا، إذ فقد ثروته و أحاط به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۶

البلاء من كلّ جانب ۳۰۸].

لكن سياق آيات بحثنا هذا يختلف مع ما هى عليه آيات سورة الكهف، و يبيّن وجود فارق بين الحادثتين.

و يرى البعض الآخر: إنّها تخصّ شخصين شريكين أو صديقين كانا يمتلكان ثروة كبيرة، أحدهما كان ينفق بسخاء فى سبيل اللّه، أمّا الثانى الذى كان لا يؤمن بشىء- فقد امتنع عن الإنفاق، و بعد مدّة من الزمن أصيب المنفق بفاقة مالية، و تعرّض لاستهزاء صديقه، و الذى قال له بلغة السخرية، أَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۳۰۹].

فإن كانت أسباب النّزول تخصّ هذه الحادثة، إذا علينا قراءة كلمة (مصدّقين) بتشديد (الصاد) و التى تعنى هنا دفع الصدقة و الإنفاق.

فى حين أنّ المشهور بين القرّاء قراءة كلمة (مصدّقين) بدون تشديد (الصاد) و على هذا فإنّ سبب النّزول الآنف الذكر لا يتلاءم و القراءة المشهورة.

۳- لنيل مثل هذه النعم علينا المثابرة

هل من الصحيح أن يصرف الإنسان رأس مال عمره و القابليات الاخرى و العطايا الإلهية فى موارد هى كالفقاعات التى لا تدوم سوى لحظات فوق الماء؟

متاع بخس غير دائم، متاع ملىء بالآفات و المشاكل!!.

أو يستثمر هذه القوى العظيمة فى مجال يؤدّى إلى حياة خالدة و نعم دائمة، و مرضاة اللّه سبحانه و تعالى؟

فما أجمل التعبير الذى صاغته الآيات القرآنية المذكورة أعلاه، عند ما دعت المؤمنين إلى هذا الهدف، أى نيل الجنان المملوءة بالملذّات الروحية و الجسمية-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۷

التى تشمل الشراب الطاهر الذى يغرق الإنسان فى الظلّ الملكوتى، و القرناء و الأصدقاء الطيبين ذوى القلوب الصافية الذين تزيل مجالستهم كلّ أشكال الغمّ.

و ليس فيها همّ و لا غمّ و لا مشكلة.

نعم فمن يريد أن يكسب الجنان فعليه أن يسعى و يعمل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۶۲ الى ۷۰]

اشارة

أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (۶۲) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (۶۳) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (۶۴) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (۶۵) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۶۶)

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (۶۷) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (۶۸) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (۶۹) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (۷۰)

التّفسير

جوانب من العذاب الأليم لأهل النار:

بعد توضيح النعم الكثيرة و الخالدة التى يغدقها اللّه سبحانه و تعالى على أهل الجنّة، تستعرض الآيات أعلاه العذاب الأليم و المثير للأحزان الذى أعدّه اللّه لأهل جهنّم، و تقارنه مع النعم المذكورة سابقا، بحيث تترك أثرا عميقا فى النفوس يردعها عن ارتكاب الأعمال السيّئة و المحرّمة.

ففى البداية تقول: أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۲۹

كلمة (نزل) تعنى الشىء الذى يهيّأ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد، و البعض الآخر قال: إنّها تعنى الشىء الأوّل الذى يقدّم للضيف

حين وروده، و هذه إشارة إلى النعم المهيئة لورود الضيوف الأعزّاء و المحترمين إلى الجنّة.

و القرآن الكريم يقول: أذلك خير أم شجرة الزقوم؟ و لفظة (خير) ليست دليلا على أنّ شجرة الزقّوم شىء جيّد، و النعم التى أعدّها اللّه سبحانه و تعالى لأهل الجنّة أجود، إذ أنّ مثل هذه الألفاظ تستخدم أحيانا فى لغة العرب بشأن بعض الأشياء التى لا فائدة فيها أبدا، و يحتمل بأنّها نوع من الكناية، و مثلها كمثل شخص غارق بالذنوب و قد فضح أمام الناس، و هم يقولون له: هل هذه الفضيحة خير، أم الفخر و العزّة و الشرف؟

و أمّا «زقّوم» فقد قال أهل اللغة: إنّه اسم نبات مرّ و ذى طعم و رائحة كريهة[۳۱۰].

فيما قال بعض المفسّرين: إنّه اسم نبات يحمل أوراقا صغيرة مرّة و كريهة الرائحة و هو موجود فى أرض تهامة، و كان يعرفه المشركون ۳۱۱]. و أضاف صاحب تفسير (روح المعانى) أنّ لهذا النبات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم ۳۱۲].

و قال الراغب فى (مفرداته): الزقوم هو كلّ غذاء يثير اشمئزاز أهل جهنم.

و قال صاحب كتاب (لسان العرب): هذا اللفظ يأتى أساسا بمعنى بلع الشىء، و يضيف: عند ما نزلت هذه الآية قال أبو جهل، لا توجد مثل هذه الشجرة فى أرضنا، فمن منكم يعرف معنى زقّوم؟

و هنا أجابه شخص من أفريقيا قائلا: الزقّوم بلغة أهل أفريقيا تعنى الزبد و التمر، و فور ما سمع أبو جهل بجواب الأفريقى، نادى جاريته، و قال لها باستهزاء: زقمّينا بمقدار من التمر و الزبد. فكانوا يأكلون و يسخرون و يقولون: إنّ محمّد يخوّفنا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۰

هذا فى الآخرة، فنزلت آيات قرآنية قاطعة و حازمة تردّ على أبى جهل و بقيّة المشركين سنتطرّق إليها فيما بعد.

على كلّ حال فإنّ كلمة (شجرة) لا تأتى دائما بمعناها المعروف، و إنّما تعنى فى بعض الأحيان (النبات) و القرائن هنا تشير إلى أنّ المراد من الشجرة هو المعنى الثانى أى (النبات).

ثمّ يستعرض القرآن الكريم بعض خصائص هذه النبتة، و يقول: إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ

و لفظة (فتنة) تعنى المحنّة و العذاب، كما تعنى الامتحان، و غالبا ما جاء هذا المعنى فى موارد متعدّدة من سور القرآن المجيد، و هو إشارة إلى أنّ المشركين عند ما سمعوا كلمة (الزقّوم) عمدوا إلى السخرية و الاستهزاء، فيما كان هذا الأمر امتحانا لأولئك الطغاة.

و يضيف القرآن الحكيم إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ

و لكن الظالمين المغرورين يواصلون استهزاءهم، و يقولون: كيف يمكن لنبات أو شجرة ينبت فى قعر جهنّم؟ فأين النار و أين الشجر و النبات؟ و تبعا لذلك فإنّ سماع اسم هذا النبات و أوصافه هو اختبار دنيوى لهم، و سيكون سببا لعذابهم و محنتهم فى الآخرة.

و كأنّهم كانوا غافلين عن أنّ الأصول التى تحكم فى ذلك العالم- أى الآخرة- تختلف كثيرا عن الأصول الحاكمة فى العالم الدنيوى، فالأشجار و النباتات التى تنبت فى قعر جهنّم، و تنمو فى ذلك الظرف و يكون لونها بلون النار، ليست كالأشجار و النباتات النابتة فى حدائق و بساتين هذا العالم، و يحتمل عدم جهلهم بهذا الأمر، بل هدفهم الاستهزاء و السخرية فقط.

ثمّ يضيف القرآن الكريم طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ

(الطلع) يقال لأوّل ما يبدو من حمل النخلة، و له قشر أخضر اللون، و فى داخله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۱

فروع بيضاء اللون تتحوّل فيما بعد إلى عنقود يحمل التمر.

و كلمة (طلع) من مادّة (طلوع) و بهذه المناسبة أطلق على الثمر فى أوّل ظهوره.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أنّ الناس شاهدوا رؤوس الشياطين حتّى يشبّه القرآن ثمار الزقّوم بها؟

المفسّرون أعطوا أجوبة متعدّدة لهذا السؤال:

فقال البعض: إنّ إحدى معانى كلمة (الشيطان) هى حيّة كريهة المنظر، شبّهت بها ثمار الزقّوم.

و ذهب البعض الآخر إلى أنّه نوع من النبات ذو شكل قبيح، كما جاء فى كتاب (منتهى الارب) أنّ (رأس الشيطان) أو (رؤوس الشياطين) نبات.

إلّا أنّ الرأى الأصحّ، هو أنّ التشبيه هنا استخدم لبيان شدّة قباحة ثمار الزقّوم و شكلها الباعث على النفور و الاشمئزاز، لأنّ الإنسان عند ما يشمئز من شىء ترتسم صورة ذلك الشىء فى مخيلته بشكل قبيح و رهيب، فيما ترتسم صورة الشىء المحبوب بشكل جميل و وديع فى مخيلته.

لهذا فإنّ الناس يرسمون صورة الملائكة بشكل جميل، فيما يرسمون صورة الشياطين و العفاريت بأقبح صورة، فى الوقت الذى لم ير أحد منهم الملائكة و لا الشياطين. كما يشاهد استخدام هذا الأمر كثيرا فى المصطلحات اليومية، عند ما يقال: الشخص الفلانى كالعفريت، أو انّه يشبه الشيطان.

هذه كلّها تشبيهات مبنية على أساس الانعكاسات الذهنية للناس عن مفاهيم مختلفة، و هى تشبيهات لطيفة و حيّة.

و يواصل القرآن الكريم استعراض العذاب الذى سينال المشركين و الكافرين، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۳۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۲

هذا هو العذاب و الفتنة الذى أشرنا إليه فى الآيات السابقة، حيث إنّ أكل هذا النبات الذى ينبت فى جهنّم ذو الرائحة الكريهة و الطعم المرّ و اللبن الذى يورم و يحرق الأبدان فور ما يصيبها، و تناوله- و بكميّات كبيرة- يعدّ عذابا أليما.

و من البديهى، فإنّ من يتناول هذا الطعام السىء الطعم و المرّ، يصيبه العطش، و لكن حينما يشعر بالعطش ماذا يشرب؟ القرآن يجيب على هذا السؤال بالقول:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ

«الشوب» هو الشىء المخلوط أو الممزوج مع شىء آخر. و (حميم) هو الماء الحار البالغ فى حرارته، و طبقا لذلك فإنّ حتّى الماء الحار الذى يشربه أولئك الظالمون غير نقى، بل ملوّث.

و هذا هو غذاء أهل جهنّم، و هذا هو شرابهم، و بعد هذه الضيافة إلى أين يذهبون، فيجيب القرآن على هذا السؤال أيضا بالقول: ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ

بعض المفسّرين فسّروا هذه العبارة على أنّ الماء الحار الملوّث ينبع من عين خارج جهنّم، و أنّ أهل جهنّم يساقون كما تساق البهائم إلى الأماكن المخصّصة لشرب الماء، و بعد تناولهم الماء يرجعون إلى الجحيم.

فيما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنّه إشارة إلى وجود أماكن و مواقف مختلفة فى جهنّم، ينقل إليها الظالمون و المجرمون ليشربوا منها الماء الحار، و يرجعون بعد ذلك إلى المكان الذى كانوا فيه سابقا.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل يعدّ أنسب.

و كما أشرنا آنفا، فإنّه لا يمكن تصوّر النعم التى يغدقها اللّه سبحانه و تعالى على أهل الجنّة، كما أنّه لا يمكن تصوّر العذاب الذى ينال أهل جهنّم، بل إنّها تخيّلات- و حسب- تتراءى أمام أعيننا من خلال عبارات قصار (اللهمّ أعذنا بلطفك و احفظنا من العذاب).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۳

الآية الأخيرة فى بحثنا تناولت السبب الرئيسى الذى أدّى إلى دخول أولئك إلى جهنّم و نيلهم العذاب الأليم و الشديد هناك، تناولته فى آيتين قصيرتين مليئتين بالمعانى و الحقائق إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ

و إنّهم كانوا يسرعون على آثارهم و من دون أى إرادة فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ

و الملاحظ هنا أنّ لفظة (يهرعون) جاءت بصيغة المبنى للمجهول، و هى من مادّة (هرع) أى أسرع، و هى إشارة إلى أنّهم كانوا

یقلّدون آباءهم قلبا و دینا و إنّهم کانوا یحثّون الخطی علی آثارهم إلی درجة کأنّهم یسارعون فی ذلک من دون أی إرادة و إختیار، و إشارة اخری إلی تعصّبهم و تمسّکهم بالخرافات التی کان أجدادهم الضالّون یعتقدون بها.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۴

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۷۱ الی ۷۴]

اشارة

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَکْثَرُ الْأَوَّلِینَ (۷۱) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِیهِمْ مُنْذِرِینَ (۷۲) فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِینَ (۷۳) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ (۷۴)

التّفسیر

الأمم الضالّة السابقة:

بما أنّ المسائل السابقة المتعلّقة بالمجرمین و الضالّین لا تختّص بزمان و مکان معینین، فالقرآن یتوسّع فی الآیات التی تبحث بشکل مفصّل عن هذه المسائل، و یهیء الأرضیة فی عدّة آیات قصیرة و مختصرة لشرح امور کثیرة عن الأمم السابقة، و التی بالاطلاع علیها تکون أدلّة ناطقة للبحوث السابقة. و من تلک الأمم أقوام نوح و إبراهیم و موسی و هارون و لوط و یونس و غیرهم، إذ یقول: وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَکْثَرُ الْأَوَّلِینَ

فمشرکو مکّة لیسوا هم الوحیدین الذین ابتلوا بالضلال نتیجة سیرهم علی نهج أجدادهم الأوّلین، و إنّما ابتلیت قبلهم الکثیر من الأمم السابقة بنفس المصیر.

و التذکیر بهذا الأمر إنّما جاء لتسلیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الثلّة من أصحابه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۵

المؤمنین الذین کانوا فی مکّة- آنذاک- محاصرین من قبل العدو من کلّ الجوانب.

ثمّ یضیف القرآن المجید أنّ ضلالتهم لم تکن بسبب افتقادهم القائد و عدم موعظتهم وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا فِیهِمْ مُنْذِرِینَ

إذا أنّنا أرسلنا إلیهم أنبیاء لإنذارهم من خطر الشرک باللّه و الکفر به، و الظلم و الاعتداء، و تقلید الآخرین بصورة عمیاء، و لاطلاعهم علی مسئولیاتهم.

صحیح أنّ الرسل یحملون فی ید رسالة الإنذار، و فی الاخری رسالة البشارة، لکن الإنذار یشغل الجزء الأکبر من مواعظهم و نصائحهم، خاصّة بالنسبة لمثل تلک الأمم الضالّة و العاصیة، و لهذا أکّد علیه هنا.

ثمّ یقول فی عبارة قصیرة ذات معان عمیقة فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِینَ

المخاطب فی لفظة (فانظر) من الممکن أن یکون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو أی شخص عاقل یقظ. و فی الحقیقة إنّ هذه الآیة المبارکة تشیر إلی نهایة أقوام سنستعرض أحوالها و أوضاعها بصورة مفصّلة فی الآیات القادمة.

أمّا آخر آیة فی بحثنا فإنّها تستثنی جماعة من العذاب الإلهی إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِینَ

الملاحظ أنّ هذه الآیة تشیر إلی عاقبة هذه الأمم، و تدعو إلی التمعن فی العذاب الألیم الذی ابتلوا به، و الذی أهلکهم و أبادهم جمیعا

ما عدا عباد اللّه المؤمنين و المخلصين الذين نجوا من هذا العذاب ۳۱۴].

و جدير بالذكر أنّ كلمة (المخلصين)- بفتح اللام- كرّرت خمس مرّات، و هذا بيان لعلو منزلتهم و مرتبتهم، و كما أشرنا سابقا فإنّ عباد اللّه المخلصين هم الصفوة التى تسلّحت بالعلم و الإيمان، و انتصرت على النفس بعد مجاهدتها، و هم الذين أخلصهم اللّه لنفسه و أزال عنهم الشوائب ليجعلهم خالصين، و لهذا فإنّهم يمتلكون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۶

الحصانة الكاملة تجاه الانحرافات و الزلل.

و الشيطان عاجز و آيس من النفوذ إلى داخلهم، إذ قطع عليه الطريق المؤدّى إليهم منذ اليوم الأوّل، و اعترف هو بعجزه هذا.

كذلك فإنّ فتن المجتمع الذى يعيشون فيه و وساوس الغاوين، إضافة إلى وجود المتّبعين لنهج آبائهم و أجدادهم الأوّلين، و الثقافة الخاطئة و الطاغوتية، لا تؤثّر أبدا على عباد اللّه المخلصين و لا تحرفهم عن مسيرتهم.

حقيقة الأمر، أنّ هذه الآية هى خطاب اطمئنان لمؤمنى مكّة المقاومين و الصامدين فى ذلك الوقت، و إنّها دعوة لمسلمى عالم اليوم الملىء بالفتن، تدعوهم إلى الانفصال عن صفوف أعداء اللّه و الانضمام إلى عباد اللّه المخلصين.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۷

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۷۵ الى ۸۲]

اشارة

وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (۷۵) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۷۶) وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (۷۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۷۸) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (۷۹)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۸۰) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۸۱) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۸۲)

التّفسير

مقتطفات من قصّة نوح:

من هنا يبدأ سرد قصص تسعة أنبياء من أنبياء اللّه الكبار، و الذين كانت الآيات السابقة قد تطرّقت إليهم بصورة خفيّة، و تشرع الآيات بنوح شيخ الأنبياء و أوّل اولى العزم من الرسل.

بدأ البحث بالإشارة إلى دعاء نوح الشديد على قومه بعد أن يئس من هدايتهم وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۳۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۸

هذا الدعاء يمكن أن يكون إشارة إلى الدعاء الذى ورد فى سورة نوح وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً.[۳۱۶] أو إشارة إلى الدعاء الذى دعا به اللّه أثناء صعوده السفينة رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ [۳۱۷] أو أنّه إشارة إلى الدعاء الذى جاء فى الآية ۱۰ من سورة القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ.

و بالطبع فإنّه ليس هناك أى مانع من أن تكون الآية تشير إلى كلّ هذه الأدعية، و إنّ اللّه سبحانه و تعالى استجابها بأحسن وجه.

و لذا فإنّ اللّه سبحانه و تعالى يجيبه فى الآية التى تليها بالقول: وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۳۱۸].

فما هو هذا الغمّ الذى وصفته الآية المباركة بأنّه غمّ كبير آلم نوحا بشدّة؟

يمكن أن يكون ذلك الغمّ نتيجة استهزاء قومه الكافرين المغرورين به، و تجريحهم إيّاه بكلمات نابية و ساخرة تستهدف إهانته و أتباعه المؤمنين، أو نتيجة تكذيب قومه اللجوجين إيّاه، إذ كانوا يقولون له أحيانا: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا.[۳۱۹] و أحيانا اخرى يقولون له: يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [۳۲۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۳۹

أو يسخرون منه وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ [۳۲۱] و قد وصل إزعاجهم لنبى اللّه نوح- المعروف بصبره الكبير- و إساءتهم الأدب اتّجاهه و اتّهامه بالجنون إلى درجة لا تطاق، بحيث دعا نوح ربّه بالقول: رَبِّ انْصُرْنِي بِما كَذَّبُونِ [۳۲۲] و على أيّة حال، فإنّ مجموع هذه الحوادث السيّئة و أذاهم له كان يحزّ فى قلبه الطاهر بشدّة حتّى لحظة وقوع الطوفان، إذ أنقذه اللّه سبحانه و تعالى من قبضة قومه الطغاة، و أزال عنه الكرب العظيم و الغمّ الشديد.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ المراد من الْكَرْبِ الْعَظِيمِ هو الطوفان الذى لم ينج منه سوى نوح و أتباعه المؤمنين، و لكن هذا المعنى مستبعد.

و يضيف القرآن الكريم وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ

أ حقّا أنّ كلّ بنى الإنسان الذين يعيشون اليوم على ظهر الكرة الأرضية هم من ذريّة نوح؟ الآية المذكورة أعلاه تصرّح بذلك ..

أم المقصود هو أنّ مجموعة كبيرة من الأنبياء و الأولياء و الصالحين هم من ذريته، و ليس كلّ الناس؟ بهذا الشأن لدينا بحث، سنتطرّق إليه بعون اللّه.

و إضافة إلى ذلك يقول القرآن: أنّنا جعلنا لنوح ثناء و ذكرا جميلا فى الأجيال و الأمم اللاحقة: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ

فقد وصفه القرآن المجيد بالنّبى المقاوم و الشجاع و الصبور و الرحيم و العطوف، و أطلق عليه لقب شيخ الأنبياء. و تاريخه اسطورة للمقاومة و الثبات، كما يمكن أن يستلهم سالكو طريق الحقّ من برامجه عبرا و دروسا تمكّنهم من اجتياز العراقيل التى يضعها الأعداء و الجهلة أمامهم.

فبعد تحمّله كافّة الصعاب و الآلام، منحه اللّه سبحانه و تعالى و ساما خالدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۰

يفتخر به فى العالمين سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ

نعم، فهل هناك فخر أكبر من هذا، و هو أنّ اللّه يبعث بالسلام و التحيّات لنبيّه نوح، السلام الذى سيبقى يهدى إليه من قبل الأمم الإنسانية لحين قيام الساعة، و الملفت للنظر أنّه من النادر أن يوجد فى القرآن سلام بهذه السعة على أحد، خاصّة و أنّ المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعا محلّى بالألف و اللام (مفيدا للعموم) فيتّسع المعنى ليشمل عوالم البشر و أممهم و جماعاتهم إلى يوم القيامة و يتعدّاهم إلى عوالم الملائكة و الملكوتين.

و لكى تكون خصوصيات نوح عليه السّلام مصدر إشعاع للآخرين، أضاف القرآن الكريم إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ و إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

فى الحقيقة، إنّ درجة عبودية نوح للّه و إيمانه به- إضافة إلى إحسانه و عمله الصالح الذى ذكرته الآيتان الأخيرتان- كانت السبب الرئيسى وراء اللطف الإلهى الذى شمل نوحا و أنقذه من الغمّ الكبير، و بعث إليه بالسلام، السلام الذى يمكن أن يشمل كلّ من عمل بما عمل به نوح، لأنّ معايير الألطاف الإلهيّة لا تتخلّف، و لا تختّص بشخص دون آخر.

أمّا الآية الأخيرة فى بحثنا فقد وضّحت بعبارة قصيرة شديدة اللهجة مصير تلك الامّة الظالمة الشريرة الحاقدة ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ

إذ انهمر المطر سيلا من السماء، و تفجّرت الأرض عيونا، و غطّت المياه اليابسة كبحر هائج دكّ بأمواجه المتلاطمة الشامخة عروش

الطغاة و دمّرها، لافظا إيّاهم بعدئذ أجسادا هامدة لا حياة فيها و لا روح.

و الذى يلفت النظر أنّ اللّه سبحانه و تعالى استعرض ألطافه على نوح فى عدّة آيات، فيما بيّن عذابه لقوم نوح العاصين فى عبارة واحدة قصيرة يرافقها التحقير و عدم الاهتمام بهم، لأنّ حالة نصر المؤمنين و عزّتهم و تأييد البارى سبحانه لهم جديرة بالتوضيح، و بيان حال المعاندين و العاصين لا يجدر بالاهتمام و الاعتناء.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۱

ملاحظة

هل أنّ البشر الموجودين على الأرض هم من ذريّة نوح؟

فسّرت مجموعة من كبار المفسّرين الآية وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ بأنّ كلّ أجيال البشر التى أتت بعد نوح هى من ذريته.

و قد نقل الكثير من المؤرّخين بقاء ثلاثة أولاد من ذريّة نوح هم (سام) و (حام) و (يافث) بعد الطوفان، و كلّ القوميات الموجودة اليوم على الكرة الأرضية تنتهى إليهم.

و قد أطلق على العرق العربى و الفارسى و الرومى العرق السامى، فيما عرف العرق التركى و مجموعة اخرى بأنّهم من أولاد «يافث»، أمّا «حام» فإنّ ذريّته تنتشر فى السودان و السند و الهند و النوبة و الحبشة، كما أنّ الأقباط و البربر هم من ذريّته أيضا.

البحث فى هذه المسألة ليس المراد منه معرفة إلى أى من أولاد نوح ينتسب كلّ عرق، لأنّ المسألة بحدّ ذاتها هى مورد اختلاف بين الكثير من المؤرخين و المفسّرين، و لكن المتوخّى من البحث هو: هل أنّ كلّ القوميات البشرية تعود فى أصلها إلى أولاد نوح الثلاثة.

و هنا يطرح هذا السؤال نفسه و هو: ماذا كان مصير المؤمنين الذين ركبوا السفينة مع نوح خلال الطوفان؟ و هل أنّهم جميعا ماتوا من دون أن يتركوا أى خلف لهم و إن كان لهم ذريّة، فهل كانوا بنات تزوجنّ من أولاد نوح؟

هذه القضيّة من وجهة نظر التأريخ ما تزال غامضة.

على أيّة حال فإنّ هناك أحاديث و آيات قرآنية تشير إلى وجود أقوام و امم على الكرة الأرضية لا ينتهى أصلها إلى أولاد نوح.

منها ما

ورد فى تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السّلام فى توضيح الآية المذكورة أعلاه: «الحقّ و النبوّة و الكتاب و الإيمان فى عقبه، و ليس كلّ من فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۲

الأرض من بنى آدم من ولد نوح عليه السّلام قال اللّه عزّ و جلّ فى كتابه: احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ و قال اللّه عزّ و جلّ أيضا: ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ ۳۲۳].

و على هذا فإنّ انتهاء كلّ العروق الموجودة على الأرض إلى أبناء نوح أمر غير ثابت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۳

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۸۳ الى ۹۴]

اشارة

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (۸۳) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (۸۴) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (۸۵) أَ إِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (۸۶)

فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۸۷)

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (۸۸) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (۸۹) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (۹۰) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ (۹۱) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (۹۲)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (۹۳) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (۹۴)

التّفسير

خطّة إبراهيم الذكيّة فى تحطيم الأصنام:

آيات بحثنا هذا تتناول بشىء من التفصيل حياة النّبى الشجاع إبراهيم عليه السّلام محطّم الأصنام بعد آيات استعرضت جوانب من تاريخ نوح عليه السّلام الملىء بالحوادث.

ففى البداية تحدّثت القصّة عن تحطيم إبراهيم للأصنام، و الموقف الشديد الذى اتّخذه عبدة الأصنام تجاه إبراهيم، فيما يتطرّق القسم الآخر من القصّة للمشهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۴

الكبير الذى يتمثّل فى تضحيات إبراهيم الخليل و قضيّة ذبح ابنه إسماعيل، و الآيات التى تخصّ هذا القسم ذكرت هنا- فقط- بهذا التفصيل، و لم تذكر فى موضع آخر بهذا الشكل.

الآية الاولى، ربطت بين قصّة إبراهيم و قصّة نوح بهذه الصورة وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ

أى إنّ إبراهيم كان سائرا على خطى نوح عليه السّلام فى التوحيد و العدل و التقوى و الإخلاص، حيث إنّ الأنبياء يبلغون لفكر واحد، و هم أساتذة جامعة واحدة، و كلّ واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

كم هى جميلة هذه العبارة؟ إبراهيم من شيعة نوح، رغم أنّ الفاصل الزمنى بينهما كان كبيرا (قال بعض المفسّرين: إنّ الفاصل الزمنى بينهما يقدر ب ۲۶۰۰ سنة)، إذ أنّ العلاقات الإيمانية- كما هو معروف- لا يؤثّر عليها الفاصل الزمنى أدنى تأثير[۳۲۴].

بعد هذا العرض المختصر ندخل فى التفاصيل، قال تعالى: إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

حيث فسّر المفسّرون (قلب سليم) بعدّة صور، أشارت كلّ واحدة منها إلى أحد أبعاد هذه المسألة.

القلب الطاهر من الشرك.

أو القلب الخالص من المعاصى و الظلم و النفاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۵

أو القلب الخالى من حبّ الدنيا، لأنّ حبّ الدنيا هو مصدر كلّ الخطايا.

و أخيرا هو القلب الذى لا يوجد فيه شىء سوى اللّه.

فى الحقيقة إنّ كلمة (سليم) مشتقّة من (السلامة)، و عند ما تطرح السلامة.

بصورة مطلقة، فإنّها تشمل أيضا السلامة من كلّ الأمراض الأخلاقية و العقائدية.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً،[۳۲۵] أى إنّ قلوبهم مصابة بنوع من أنواع المرض، و إنّ اللّه سبحانه و تعالى أضاف أمراضا اخرى إلى ذلك المرض على أثر لجاجتهم و ارتكابهم المزيد من الذنوب.

و أجمل من فسّر عبارة (القلب السليم) هو

الإمام الصادق علیه السّلام عند ما قال: «القلب السلیم الذی یلقی ربّه و لیس فیه أحد سواه!»[۳۲۶].

حیث جمع بقوله کلّ الأوصاف المذکورة مسبقا.

و

قد جاء فی روایة اخری للإمام الصادق علیه السّلام «صاحب النیّة الصادقة صاحب القلب السلیم، لأنّ سلامة القلب من هواجس المذکورات تخلص النیّة للّه فی الأمور کلّها»[۳۲۷].

و اعتبر القرآن الکریم القلب السلیم رأس مال نجاة الإنسان یوم القیامة، حیث نقرأ فی سورة الشعراء، و فی الآیات ۸۸ و ۸۹ علی لسان النّبی الکبیر إبراهیم علیه السّلام قوله تعالی: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ ۳۲۸].

نعم، من هنا تبدأ قصّة إبراهیم ذی القلب السلیم، و الروح الطاهرة، و الإرادة الصلبة، و العزم الراسخ، مع قومه، إذ کلّف بالجهاد ضدّ عباد الأصنام، و بدأ بأبیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۶

و عشیرته إِذْ قالَ لِأَبِیهِ وَ قَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ ما هذه الأشیاء التی تعبدونها؟

ألیس من المؤسف علی الإنسان الذی کرّمه اللّه علی سائر المخلوقات، و أعطاه العقل أن یعظّم قطعة من الحجر و الخشب العدیم الفائدة؟ أین عقولکم؟

ثمّ یکمل العبارة السابقة التی کان فیها تحقیر واضح للأصنام، و یقول: أَ إِفْکاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِیدُونَ ۳۲۹].

استخدام کلمة (إفک) فی هذه الآیة، و التی تعنی الکذب العظیم أو القبیح، توضّح حزم و قاطعیة إبراهیم علیه السّلام بشأن الأصنام.

و اختتم کلامه فی هذا المقطع بعبارة عنیفة فَما ظَنُّکُمْ بِرَبِّ الْعالَمِینَ إذ تأکلون ما یرزقکم به یومیّا، و نعمه تحیط بکم من کلّ جانب، و رغم هذا تقصدون موجودات لا قیمة لها من دون اللّه، فهل تتوقّعون أنّه سیرحمکم و سوف لا یعذّبکم بأشدّ العذاب؟ کم هو خطأ کبیر و ضلال خطیر؟! عبارة بِرَبِّ الْعالَمِینَ تشیر إلی أنّ کلّ العالم یدور فی ظلّ ربوبیته تبارک و تعالی، و قد ترکتموه و اتّجهتم صوب مجموعة من الظنون و الأوهام الفارغة.

و جاء فی کتب التأریخ و التّفسیر، أنّ عبدة الأصنام فی مدینة بابل کان لهم عید یحتفلون به سنویا، یهیّئون فیه الطعام داخل معابدهم، ثمّ یضعونه بین یدی آلهتهم لتبارکه، ثمّ یخرجون جمیعا إلی خارج المدینة، و فی آخر الیوم یعودون إلی معابدهم لتناول الطعام و الشراب.

و بذلک خلت المدینة من سکّانها، فاستغلّ إبراهیم علیه السّلام هذه الفرصة الجیّدة لتحطیم الأصنام، الفرصة التی کان إبراهیم علیه السّلام ینتظرها منذ فترة طویلة، و لم یکن راغبا فی إضاعتها.

و حین دعاه قومه لیلا للمشارکة فی مراسمهم نظر إلی النجوم فَنَظَرَ نَظْرَةً فِی النُّجُومِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۷

فَقالَ إِنِّی سَقِیمٌ

و بهذا الشکل اعتذر عن مشارکتهم.

بعد اعتذاره ترکوه و أسرعوا لتأدیة مراسمهم فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِینَ

و هنا یطرح سؤالان.

الأوّل: لماذا نظر إبراهیم علیه السّلام فی النجوم، و ما هو هدفه من هذه النظرة؟

و الثانی: هل أنّه کان مریضا حقّا حینما قال: إنّنی مریض؟ و ما هو مرضه؟

جواب السؤال الأوّل، مع أخذ اعتقادات أهل بابل و عاداتهم بنظر الإعتبار، یتّضح أنّهم کانوا یستقرئون النجوم، و حتّی أنّهم کانوا

يقولون بأنّ أصنامهم كانت هياكل النجوم على الأرض، و لهذا السبب فإنّهم يكنّون لها الاحترام لكونها تمثّل النجوم.

و بالطبع فإلى جانب استقرائهم للنجوم، كانت هناك خرافات كثيرة فى هذا المجال شائعة فى أوساطهم، منها أنّهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثّر على حظوظهم، و كانوا يطلبون منها الخير و البركة، كما كانوا يستدلّون بها على الحوادث المستقبلية.

و لكى يوهمهم إبراهيم عليه السّلام بأنّه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء و قال حينذاك: إنّى سقيم، فتركوه ظنّا منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه.

أمّا بعض كبار المفسّرين، فقد احتملوا أنّه كان يريد من حركة النجوم تعيين الوقت الدقيق لمرضه، لأنّه كان مصابا بحمى تعتريه فى أوقات معيّنة، و لكن الاحتمال الأوّل يعدّ مناسبا أكثر، مع الأخذ بنظر الإعتبار معتقدات أهل بابل السائدة آنذاك.

فيما احتمل البعض الآخر أنّ نظرة إلى السماء هو التفكّر فى أسرار الخلق، رغم أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ نظراته إلى السماء هى نظرات منجم يريد من خلال حركة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۸

النجوم توقّع الحوادث القادمة.

أمّا بخصوص السؤال الثانى فقد ذكروا أجوبة متعدّدة:

منها: أنّه كان مريضا حقّا، و حتّى إن لم يكن مريضا فإنّه لن يشارك فى مراسم عيدهم، فمرضه كان عذرا جيّدا لعدم مشاركته فى تلك المراسم و فى نفس الوقت فرصة ذهبية لتحطيم الأصنام، و لا نمتلك دليلا يمكننا من القول بأنّه استخدم التورية، كما أنّ استخدام التورية من قبل الأنبياء يعدّ عملا غير مناسب.

و قال البعض الآخر: إنّ إبراهيم لم يكن مصابا بمرض جسدى، و إنّما روحه متعبة، من جرّاء الممارسات التافهة لقومه و كفرهم و ظلمهم و فسادهم، فبهذا أوضح لهم الحقيقة، رغم أنّهم تصوّروا شيئا آخر، و اعتقدوا أنّه يعانى من أمراض جسدية.

و احتمل البعض أنّه استخدم التورية فى كلامه معهم، فمثلا يأتى شخص و يطرق باب البيت، و يستفسر: هل فلان موجود فى البيت، فيأتيه الجواب: إنّه ليس هنا، و المراد من هنا هو خلف باب البيت و ليس البيت كلّه، فى حين أنّ السامع يفهم أنّه ليس موجودا فى البيت، (مثل هذه العبارات التى هى ليست بكذب و ظاهرها يعطى مفهوما آخر يطلق عليها فى الفقيه اسم «التورية») و مقصود إبراهيم عليه السّلام انّنى يمكن أنّ أمراض فى المستقبل، قال ذلك ليتخلّص منهم و يتركوه وحيدا.

و لكن التّفسير الأوّل و الثانى أنسب حسب الظاهر.

و بهذه الطريقة بقى إبراهيم عليه السّلام وحده فى المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متوجّهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله و نور الاشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر فى عينيه، إذ قربت اللحظات التى كان ينتظرها، و عليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام و إلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهزّ العقول التافهة لعبدتها و توقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، و نظر إلى صحون و أوانى الطعام المنتشرة فى المعبد، ثمّ نظر إلى الأصنام و صاح بها مستهزئا، ألا تأكلون من هذا الطعام الذى جلبه لكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۴۹

عبدتكم، إنّه غذاء دسم و لذيذ و متنوّع، ما لكم لا تأكلون؟ فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَ لا تَأْكُلُونَ ۳۳۰].

ثمّ أضاف، لم لا تتكلّمون؟ لم تعجز ألسنتكم عن النطق؟ ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ

و بهذا استهزء إبراهيم عليه السّلام بكلّ معتقداتهم الخرافية، و من دون أى شكّ فإنّه كان يعرف أنّها لا تأكل و لا تتحدّث، و أنّها جماد. و أراد من وراء ذلك عرض حادثة تحطيم الأصنام بصورة جميلة و لطيفة.

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس و انقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكلّ ما لديه من قوّة فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ

و المراد من (اليمين) إمّا يـد الإنسان اليمنى، و التى ينجز الإنسان بها معظم أعماله، أو أنّها كناية عن القدرة و القوّة، و يمكن أن تجمع بين المعنيين.

على أيّة حال، فإنّ انقضاض إبراهيم عليه السّلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربة موحشة، حيث لم يبق صنم على حالته الاولى، فالأيدى و الأرجل المحطّمة تفرّقت هنا و هناك داخل المعبد، و كم كان منظر المعبد بالنسبة لعبدة الأصنام مؤثّرا و مؤسفا و مؤلما فى نفس الوقت.

و بعد انتهائه من تحطيم الأصنام، غادر إبراهيم- بكلّ هدوء و اطمئنان- معبد الأصنام عائدا إلى بيته ليعدّ نفسه للحوادث المقبلة، لأنّه كان يعلم أنّ عمله كان بمثابة انفجار هائل سيهزّ المدينة برمّتها و مملكة بابل بأجمعها، و سيحدث موجة من الغضب العارم، الموجة التى سيكون إبراهيم عليه السّلام وحيدا فى وسطها. إلّا أنّ له ربّا يحميه، و هذا يكفيه.

و فى آخر اليوم عاد عبدة الأصنام إلى مدينتهم، و اتّجهوا فورا إلى معبدهم، فشاهدوا مشهدا رهيبا و غامضا، و من شدّة رهبة المشهد تجمّد البعض فى مكانه، فيما فقد البعض الآخر عقله و هو ينظر بدهشة و تحيّر لجذاذ آلهته المنتشرة هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۰

و هناك، تلك الأصنام التى خالوها ملجأ و ملاذا لهم يوم لا ملجأ لهم، أصبحت بلا ناصر و لا معين.

ثمّ تحوّل جوّ السكوت الذى خيّم عليهم لحظة مشاهدة المشهد، تحوّل إلى صراخ و استفسار عمّن فعل ذلك بآلهتهم؟

و لم يمرّ وقت طويلا، حتّى تذكّروا وجود شاب يعبد اللّه فى مدينتهم اسمه إبراهيم، كان يستهزئ بأصنامهم، و يهدّد بأنّه أعدّ مخطّطا خطيرا لأصنامهم.

من هنا استدلّوا على أنّ إبراهيم هو الفاعل، فأقبلوا عليه جميعا غاضبين فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ

«يزفّون» مشتقّة من (زفّ) على وزن (كفّ) و تستعمل بخصوص هبوب الرياح و الحركة السريعة للنعامة الممتزجة ما بين السير و الطيران، ثمّ تستخدم للكناية عن (زفاف العروس) إذ تعنى أخذ العروس إلى بيت زوجها.

على أيّة حال، المراد هنا هو أنّ عبدة الأصنام جاؤوا مسرعين إلى إبراهيم، و سنقرأ تتمّة الأحداث فى الآيات القادمة.

***

ملاحظات

۱- هل أنّ الأنبياء يستخدمون التورية؟

«التورية»- و يعبّر عنها أحيانا بلفظة (معاريض)- تعنى أن يقول الرجل شيئا يقصد به غيره و يفهم منه غير ما يقصده. فمثلا شخص يسأل آخر: متى رجعت من السفر؟ فيجيبه: قبل غروب الشمس، فى الوقت الذى كان قد عاد من سفره قبل الظهر، فالسائل يفهم من ظاهر الكلام، أنّه عاد قبل غروب الشمس بقليل، فى حين أنّه كان يقصد قبل الظهر، لأنّ قبل الظهر يعدّ أيضا قبل غروب الشمس. أو شخص يسأل آخر: هل تناولت الطعام، فيجيبه: نعم. فالسائل يفهم من الكلام أنّه تناول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۱

الطعام اليوم، فى حين أنّ قصد المجيب هو أنّه تناول الطعام يوم أمس.

مسألة هل أنّ التورية كذب أم لا؟ مطروحة فى الكتب الفقهية، فمجموعة من كبار العلماء و منهم الشيخ الأنصارى رضوان اللّه عليه يعتقدون أنّ التورية ليست كذبا، فلا العرف و لا الروايات تعدها كذبا، و إنّما وردت بشأنها روايات تنفى عنها صفة الكذب، إذ

قال الإمام الصادق عليه السّلام: «الرجل يستأذن عليه فيقول للجارية قولى ليس هو هاهنا. فقال عليه السّلام: لا بأس ليس بكذب»[۳۳۱].

و الحقّ هو لزوم القول بالتفصيل، و لا بدّ من وضع ضابطة كليّة: فإذا كان للفظ فى اللغة و العرف معنيان، و المخاطب تصوّر معنى خاصّا من تلك الكلمة، فى حين أنّ المتحدّث يقصد معنى آخر، مثل هذا يعدّ تورية و ليس بكذب، حيث يستخدم لفظ مشترك المعانى يفهم منه المخاطب شيئا، فى حين أنّ المتحدّث يقصد منه معنى آخر.

و على سبيل المثال، جاء فى شرح حال «سعيد بن جبير»، أنّ الطاغية الحجّاج بن يوسف الثقفى سأل سعيد بالقول: ما هو تقييمك لى، فأجابه سعيد: إنّك (عادل)، ففرح جلاوزة الحجّاج، فى حين قال الحجّاج: إنّه بكلامه هذا كفّرنى، لأنّ أحد معانى (العادل) هو العدول من الحقّ إلى الباطل.

أمّا إذا كان للفظ معنى لغوى و عرفى واحد من حيث المفهوم، و المتحدّث يترك المعنى الحقيقى و يستخدمه كمعنى مجازى من دون أن يذكر قرائن المجاز، فمثل هذه التورية- من دون أىّ شكّ- حرام، و لربّما تمكّنا بهذا التفصيل الجمع بين آراء مختلف الفقهاء.

و لكن، يجب الانتباه إلى أنّه فى بعض الأحيان حتّى فى الموارد التى لا تكون فيها التورية مصداقا للكذب، تكون للتورية أحيانا مفاسد و مضارّ و إيقاع الناس فى الخطأ، و من هذا الباب قد تصل فى بعض الأحيان إلى درجة الحرمة، و لكن إن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۲

لم تكن قد اشتملت على مفسدة، و لم تكن مصداقا للكذب، فليس هناك دليل على حرمتها. و رواية الإمام الصادق عليه السّلام هى من هذا القبيل.

بناء على ذلك فإنّ عدم وجود الكذب فى التورية ليس كافيا، بل يجب أيضا أن لا تشتمل التورية على مفاسد و مضارّ اخرى. و بالطبع ففى الحالات التى تقتضى الضرورة فيها أن يقول الإنسان كذبا، فمن المسلّم به جواز استعمال التورية ما دام هناك مجال لاستخدامها، لكى لا يكون كلامه مصداقا للكذب.

لكن هل أنّ التورية جائزة أيضا للأنبياء، أم لا؟

يجب القول: إنّه طالما كانت سببا فى تزلزل ثقة الناس المطلقة فهى غير جائزة، لأنّ الثقة المطلقة هذه هى رأسمال الأنبياء فى طريق التبليغ، و أمّا فى موارد مثل ما ورد عن تمارض إبراهيم عليه السّلام و نظره فى النجوم، و وجود هدف مهمّ فى ذلك العمل، دون أن تتسبّب فى تزلزل أعمدة الثقة لدى مريدى الحقّ، فلا تنطوى على أى إشكال.

۲- إبراهيم و القلب السليم:

كما هو معروف فإنّ كلمة (القلب) تعنى فى الاصطلاح القرآنى الروح و العقل، و لهذا فإنّ (القلب السليم) يعنى الروح الطاهرة السالمة الخالية من كافّة أشكال الشرك و الشكّ و الفساد.

و القرآن الكريم وصف بعض القلوب ب (القاسية) فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ....[۳۳۲] و أحيانا وصفها بأنّها غير طاهرة، كما ورد فى (سورة المائدة- ۴۱).

و اخرى وصفها بالمريضة (سورة البقرة- ۶).

و رابعة وصفها بالقلوب المغلقة المختوم عليها (سورة التوبة- ۸۷).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۳

و فى مقابل هذه القلوب طرح القلب السليم الخالى من العيوب المذكورة أعلاه، حيث أنّه صاف و رقيق ملىء بالعطف و سالم و لا

ينحرف عن الحقّ، القلب الذى وصف فى الروايات ب (حرم اللّه) إذ جاء

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: (القلب حرم اللّه فلا تسكن حرم اللّه غير اللّه)[۳۳۳].

و هو القلب الذى يتمكّن من رؤية الحقائق الغيبية و النظر إلى الملكوت الأعلى، إذ

ورد فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى الملكوت»[۳۳۴].

الملاحظ أنّ (القلب السليم) هو خير رأسمال للنجاة فى يوم القيامة، و به التحق إبراهيم عليه السّلام بملكوت ربّه و تسلّم أمر الرسالة.

نختتم هذا البحث بحديث آخر، إذ ورد فى الروايات

«إنّ للّه فى عباده آنية و هو القلب فأحبّها إليه (أصفاها) و (أصلبها) و (أرقّها): أصلبها فى دين اللّه، و أصفاها من الذنوب، و أرقّها على الاخوان»[۳۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۴

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۹۵ الى ۱۰۰]

اشارة

قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (۹۵) وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ (۹۶) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (۹۷) فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (۹۸) وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (۹۹)

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰۰)

التّفسير

فشل مخطّطات المشركين:

بعد أن حطّم إبراهيم الأصنام، استدعى إبراهيم بهذه التهمة إلى المحكمة، و هناك سألوه و طلبوا منه الجواب عن اليد التى نفذت هذا الفعل فى معبدهم، و قد شرح القرآن الكريم فى سورة الأنبياء الحادثة بصورة مفصّلة، بينما اكتفى القرآن فى آيات بحثنا بالإشارة لمقطع حسّاس واحد من مواقف إبراهيم عليه السّلام و هو آخر كلامه معهم فى مجال بطلان عقيدتهم فى عبادة الأصنام قالَ أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ

فهل هناك شخص عاقل يعبد شيئا من صنع يديه؟ و ما هو الدافع لأى ذى شعور للسجود لشىء صنعه هو بنفسه؟ فأى عقل و منطق يسمح بفعل هذا؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۵

فالمعبود يجب أن يكون خالق الإنسان، و ليس صنيعة يده، من الآن فكّروا و اعرفوا معبودكم الحقيقى وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ

فهو خالق الأرض و السماء، و مالك الوقت و الزمان، و يجب السجود لهذا الخالق و حمده و عبادته.

إنّ هذه الحجّة كانت من الوضوح و القوّة إلى حدّ جعلتهم يقفون أمامها مبهوتين و غير قادرين على ردّها و دحضها.

و (ما) فى عبارة ما تَعْمَلُونَ هى (ما) الموصولة و ليست (ما) المصدرية، و منها يراد القول، إنّ اللّه خلقكم و كذلك ما تصنعون، و عند ما يقال: إنّ الأصنام هى من صنع أو أعمل الإنسان، فذلك يعنى أنّ الإنسان أعطاها الشكل فقط، و إلّا فالمادّة التى تصنع منها الأصنام هى من خلق اللّه أيضا.

صحيح ما يقال من أنّ هذه السجّادة و ذلك البيت و تلك السيارة هى من صنع الإنسان، و لكن المراد ليس أنّ الإنسان هو الذى خلق المواد الأوّلية لتلك الأشياء، و إنّما الإنسان صاغ تلك المواد الأوّلية بشكل معيّن.

أمّا إذا اعتبرنا (ما) مصدرية، فالعبارة تعنى ما يلى: إنّ اللّه خلقكم و أعمالكم.

و بالطبع فإنّ المعنى هذا ليس خطأ، و على خلاف ما يظنّه البعض ليس فيه ما يدلّ على الجبر، لأنّ الأعمال التى نقوم بها رغم أنّها تتمّ بإرادتنا، إلّا أنّ إرادة و قدرة التصميم و غيرها من القوى التى تنفذ من خلالها أفعالنا كلّها من اللّه سبحانه و تعالى، و بهذا الشكل فإنّ الآية لا تقصد هذا الأمر، و إنّما تقصد الأصنام، و تقول:

إنّ اللّه خلقكم أنتم و الأصنام التى صنعتموها و صقلتموها. و جمال هذا الحديث يتجسّد هنا، لأنّ البحث يخصّ الأصنام و لا يخصّ أعمال البشر.

فى الحقيقة إنّ موضوع هذه الآية يشبه الموضوع الذى ورد فى قصّة موسى و السحرة و التى تقول: فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ ۳۳۶]، فالمقصود هنا الأفعى التى هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۶

من صنع السحرة.

و من المعروف أنّ الطغاة و الجبابرة لا يفهمون لغة المنطق و الدليل، و لهذا لم تؤثّر عليهم الأدلّة و البراهين الظاهرية و القويّة التى بيّنها إبراهيم عليه السّلام على قلوب الجبابرة الحاكمين فى بابل حينذاك، رغم أنّ مجموعات من أبناء الشعب المستضعف هناك استيقظت من غفلتها و آمنت بدعوة إبراهيم عليه السّلام.

و لإيقاف انتشار منطق التوحيد بين أبناء مدينة بابل، عمد الطغاة الذين أحسّوا بخطر انتشار على مصالحهم الخاصّة إلى استخدام منطق القوّة و النار ضدّ إبراهيم عليه السّلام، المنطق الذى لا يفهمون سواه. حيث هتفوا بالاعتماد على قدراتهم الدنيوية: أن ابنوا له بنيانا عاليا، و اشعلوا فى وسطه النيران ثمّ ارموه فيه قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ

و من هذه العبارة يستفاد أنّ الأوامر كانت قد صدرت ببناء أربعة جدران كبيرة، و من ثمّ إشعال النيران فى داخلها، و بناء الجدران الأربعة الكبيرة، إنّما تمّ- كما يحتمل- للحئول دون امتداد النيران إلى خارجها، و منع وقوع أخطار محتملة قد تنجم عنها، و لإيجاد جهنّم واقعية كتلك التى كان إبراهيم يتهدّد و يتوعّد عبدة الأوثان بها.

صحيح أنّ كميّة قليلة من الحطب كانت تكفى لحرق إنسان كإبراهيم، لكنّهم فعلوا ذلك ليطفؤا غيظ قلوبهم من جرّاء تحطيم أصنامهم، و بمعنى آخر الانتقام من إبراهيم بأشدّ ما يمكن، لعلّهم بذلك يعيدون العظمة و الابّهة لأصنامهم إضافة إلى أنّ عملهم هذا كان تخويفا و تحذيرا لمعارضيهم، كى لا تتكرّر مثل هذه الحادثة مرّة اخرى فى تأريخ بابل، لذلك فقد أوقدوا نارا عظيمة.

«الجحيم» فى اللغة هى النار التى تجتمع بعضها على بعض.

هذا، و قد فسّر البعض «البنيان» بأنّه المنجنيق، و المنجنيق- كما هو معروف- أداة لقذف الأشياء الثقيلة إلى مكان بعيد، لكن أكثر المفسّرين انتخبوا التّفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۷

الأوّل، أى أنّ البنيان هو ذلك البناء المكوّن من أربعة جدران كبيرة.

و آيات القرآن الكريم هنا لم تشر إلى دقائق و تفاصيل هذا الحادث الذى ورد فى سورة الأنبياء، و إنّما أنهت هذه الحادثة بخلاصة مركّزة و لطيفة فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ

(كيد) فى الأصل تعنى الاحتيال، أ كان بطريقة صحيحة أم غلط، مع أنّها غالبا ما تستعمل فى موارد مذمومة، و بما أنّها جاءت بحالة النكرة هنا، فإنّها تدلّ على عظمة الشىء و أهميّته، و هى إشارة إلى المخطّط الواسع الذى وضعه طغاة بابل للقضاء على دعوة إبراهيم

للناس بقوله و عمله و محو آثارها.

نعم، لقد وضعهم اللّه سبحانه و تعالى فى أسفل السافلين، فيما رفع إبراهيم عليه السّلام إلى أعلى علّيين، كما كان أعلى منطقا، و جعله هو الأعلى فى حادثة إشعال النيران، و أعداءه الأقوياء هم الأخسرين، فكانت النار عليه بردا و سلاما دون أن تحرق حتّى شعرة واحدة من جسد إبراهيم عليه السّلام و خرج سالما من ذلك البحر الجهنّمى.

فإرادته تقتضى أن ينجى فى يوم من الأيّام نوحا من «الغرق»، و فى يوم آخر ينقذ إبراهيم من «الحرق»، و ذلك لكى يوضّح أنّ الماء و النار عبدان مطيعان له سبحانه و تعالى و مستجيبان لأوامره.

إبراهيم عليه السّلام الذى نجا بإرادة اللّه من هذه الحادثة الرهيبة و المؤامرة الخطيرة التى رسمها أعداؤه له، و خرج مرفوع الرأس منها، صمّم على الهجرة إلى أرض بلاد الشام، إذ أنّ رسالته فى بابل قد انتهت، وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ

من البديهيات أنّ اللّه لا يحويه مكان، و الهجرة التى تتمّ فى سبيله من المجتمع الملوّث الفاسد إلى المجتمع الطاهر الصافى، فإنّها هجرة إلى اللّه.

فالهجرة إلى أرض الأنبياء و الأولياء و مهبط الوحى الإلهى، هى هجرة إلى اللّه، مثلما يعرف السفر إلى مكّة المكرّمة بأنّه سفر إلى اللّه، خاصّة و أنّ هجرة إبراهيم عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۸

كانت من أجل تنفيذ واجب رسالى إلهى، و أنّ اللّه كان هاديه و مرشده خلال السفر.

الآيات- هنا- عكست أوّل طلب لإبراهيم عليه السّلام من البارى عزّ و جلّ، إذ طلب الولد الصالح، الولد الذى يتمكّن من مواصلة خطّة الرسالى، و يتمم ما تبقّى من مسيرته، و ذلك حينما قال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ

إنّها حقّا لعبارة جميلة (الولد الصالح و اللائق) الصالح من حيث الإعتقاد و الإيمان، و الصالح من حيث القول و العمل، و الصالح من جميع الجهات.

و الذى يلفت النظر أنّ إبراهيم عليه السّلام كان قد طلب من اللّه فى إحدى المرّات أن يجعله من مجموعة الصالحين، كما نقل القرآن ذلك عن إبراهيم، رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [۳۳۷] فيما طلب من اللّه هنا أن يمنحه الولد الصالح، حيث أنّ كلمة صالح تجمع كلّ الأشياء اللائقة و الجيّدة فى الإنسان الكامل.

فاستجاب اللّه لدعاء عبده إبراهيم، و رزقه أولادا صالحين (إسماعيل و إسحاق) و ذلك ما وضحته الآيات التالية فى هذه السورة وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

و بخصوص إسماعيل يقول القرآن الكريم: وَ إِسْماعِيلَ وَ إِدْرِيسَ وَ ذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَ أَدْخَلْناهُمْ فِي رَحْمَتِنا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ۳۳۸].

بحثان

۱- خالق كلّ شيء:

وردت فى آيات بحثنا أنّ إبراهيم عليه السّلام خاطب عبدة الأصنام قائلا: وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ ما تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۵۹

و قد زعم البعض أنّ هذه الآيات تدلّ على ما جاء فى مذهب الجبر الفاسد، و ذلك عند ما اعتبروا (ما) فى عبارة ما تَعْمَلُونَ (ما)

المصدريـة، و قالوا: إنّ هـذه الآيـة تعنى أنّ اللّه خلقكم و أعمالكم، و بما أنّ أعمالنا هى من خلق اللّه، فإنّنا لا نمتلك الإختيار، أى إنّنا مجبرون.

هذا الكلام لا أساس له من الصحّة لعدّة أسباب:

أوّلا: كما قلنا فإنّ المراد من ما تَعْمَلُونَ هنا، هى الأصـنام التى كانوا يصـنعونها بأيـديهم، و ليست أعمال الإنسان، و من دون أى شـكّ فـإنّهم كـانوا يأخـذون المواد من هـذه الأـرض التى خلقهـا اللّه، و ينحتونهـا بالشـكل الـذى يروق لهم، و لهـذا فـإنّ (مـا) هنا هى (ما) الموصولة.

ثانيا: إذا كان مفهوم الآية كما تصوّر أولئك، فإنّها تكون دليلا لصالح عبدة الأصـنام، و ليس ضدّهم، لأنّهم يسـتطيعون القول: صـناعة الأصنام و عبادتها إنّما هو من خلق اللّه، و نحن فى هذه الحالة لسنا بمذنبين.

و ثالثا: على فرض أنّ معنى الآية هو هكذا، فليس هناك دليل على الجبر، لأنّه مع الحرية و الإرادة و الاختيار فإنّ اللّه هو خالق أعمالنا، لأنّ هـذه الحريـة و الإرادة و القدرة على التصـميم و كذلك القوى البدنية و الفكرية الماديّة و المعنوية لم يعطها غير اللّه؟ إذا فالخالق هو، مع أنّ الفعل هو باختيارنا نحن.

۲- هجرة إبراهيم عليه السّلام:

الكثير من الأنبياء هاجروا خلال فترة حياتهم من أجل أداء رسالتهم، و منهم إبراهيم الـذى اسـتعرضت آيات مختلفة فى القرآن المجيد قضيّة هجرته، و منها ما جاء فى سورة العنكبوت الآية (۲۶) وَ قالَ إِنِّى مُهاجِرٌ إِلى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فى الحقيقة، إنّ أولياء اللّه عند ما كانوا يتّمون مهام رسالتهم فى إحدى المناطق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۰

أو أنّهم كانوا يحسّون بأنّ المجتمع لا يتقبّل رسالتهم، كانوا يهاجرون كى لا تتوقّف رسالتهم.

و هـذه الهجرة كانت مصـدر بركات كثيرة على طول تاريـخ الأديان، حتّى أنّ تاريـخ الإسـلام من الناحيتين الظاهريـة و المعنوية يدور حول محور هجرة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لو لا الهجرة لكان الإسـلام قد غرق- و إلى الأبد- فى مستنقع عبدة الأصنام فى مكّة. فالهجرة هى التى أعطت روحا جديـدة للإسـلام و المسـلمين، و غيّرت كلّ شـىء لصالحهم، و خطت للبشـرية طريقا جديـدا للسير عليه.

و بعبارة واحـدة: فالهجرة برنامـج عام لكلّ مؤمن عنـد ما يشـعر فى وقت من الأوقات أنّ الجو الـذى يعيش فيه غير متناسب مع أهـدافه المقدّسة، و يبدو كأنّه مستنقع عفن يفسد كلّ ما فيه، فتكليفه الهجرة، و عليه أن يحزم حقائب السفر، و ينتقل إلى مناطق أفضل، فأرض اللّه واسعة.

و الهجرة قبـل أن تكون ذات طابع ذاتى خارجى، فهى ذات طابع ذاتى داخلى، ففى بدايـة الأمر يجب على القلب و الروح هجر الفساد إلى الطهارة، و هجر الشرك إلى الإيمان، و هجر المعاصى إلى طاعة اللّه العظيم.

فالهجرة الداخلية هى بداية تغيّر الفرد و المجتمع، و مقدّمة للهجرة الخارجية، و قد بحث هذا الموضوع بصورة مفصّلة فى هذا التّفسـير و فى موضوع يتحدّث عن الإسلام و الهجرة، و ذلك بعد الآية (۱۰۰) فى سورة النساء.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۰۱ الى ۱۱۰]

اشارة

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (۱۰۱) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (۱۰۲) فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (۱۰۳) وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (۱۰۴) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۰۵)

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (۱۰۶) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (۱۰۷) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۰۸) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (۱۰۹) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۱۰)

التّفسير

إبراهيم عند المذبح:

بحثنا فى الآيات السابقة انتهى عند هجرة إبراهيم عليه السّلام من بابل بعد أن أدّى رسالته هناك، و طلبه من اللّه أن يرزقه ولدا صالحا، إذ لم يكن له ولد.

و أوّل آية فى هذا البحث تتحدّث عن الاستجابة لدعاء إبراهيم، إذ قالت الآية:

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۲

فى الواقع إنّ ثلاثة بشائر جمعت فى هذه الآية، الاولى أنّه سيرزق طفلا ذكرا، و الثانية أنّ هذا الطفل يبلغ سنّ الفتوّة، أمّا الثالثة فهى أنّ صفته حليم.

و كلمة (حليم) تعنى الذى لا يعجّل فى الأمر قبل وقته مع القدرة عليه، و قيل:

الذى لا يعجّل بالعقوبة، و الذى له روح كبيرة و هو متسلّط على أحاسيسه.

و يرى «الراغب» فى مفرداته أنّ كلمة حليم تعنى الضابط نفسه فى لحظة الإثارة و الغضب، و بسبب كون هذه الحالة تنشأ من العقل و الإدراك، فإنّ كلمة و عكس تعنى- أحيانا- العقل و الإدراك.

و لكن المعنى الحقيقى لكلمة حليم هو المعنى الأوّل الذى ذكرناه.

و يمكن الاستفادة من هذا الوصف فى أنّ اللّه بشّر عبده إبراهيم فى أنّه سيعطى ابنه إسماعيل عمرا يمكن وصفه فيه بالحليم، كما أنّ الآيات التالية ستوضّح أنّ إسماعيل بيّن مرتبة حلمه أثناء قضيّة الذبح، مثلما وضّح أبوه إبراهيم حلمه فى أثناء قضيّة الذبح، و أثناء إحراقه بالنار.

و كلمة (حليم) كرّرت (۱۵) مرّة فى القرآن المجيد، و أغلبها وردت وصفا للّه، عدا ثلاث موارد جاءت فى وصف إبراهيم و ابنه إسماعيل من قبل القرآن الكريم، و الثالثة جاءت فى وصف شعيب و على لسان الآخرين.

و كلمة (غلام) حسب إعتقاد البعض تطلق على كلّ طفل لم يصل بعد مرحلة الشباب، و البعض يطلقها على الطفل الذى اجتاز عمره العشر سنوات و لم يصل بعد إلى سنّ البلوغ.

و يمكن الاستفادة من العبارات المختلفة الواردة بلغة العرب فى أنّ كلمة (غلام) تطلق على الذكر الذى اجتاز مرحلة الطفولة و لم يصل بعد إلى مرحلة الشباب.

أخيرا، ولد الطفل الموعود لإبراهيم وفق البشارة الإلهيّة، و أثلج قلب إبراهيم الذى كان ينتظر الولد الصالح لسنوات طوال، اجتاز الطفل مرحلة الطفولة و أضحى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۳

غلاما. و هنا يقول القرآن: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ

يعنى أنّه وصل إلى مرحلة من العمر يستطيع فيها السعى و بذل الجهد مع والده فى مختلف امور الحياة و إعانته على أموره.

و قال البعض: بأنّ (السعى) هنا يعنى العمل للّه و العبادة، و بالطبع فإنّ كلمة (السعى) لها مفاهيم و معان واسعة تشمل هذا المعنى أيضا، و لكنّها لا يقتصر معناها عليه. و (معه) تدلّ على أنّه كان يساعد والده فى امور الحياة.

على كلّ حال، فقد ذهب جمع من المفسّرين: إنّ عمر إسماعيل كان (۱۳) عاما حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، و الذى يدلّ على بدء إمتحان عسير آخر لهذا النّبى ذى الشأن العظيم، إذ رأى فى المنام أنّ اللّه يأمره بذبح ابنه الوحيد و قطع رأسه. فنهض من نومه مرعوبا، لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء فى نومهم هو حقيقة و ليس من وساوس الشياطين، و قد تكرّرت رؤيته هذه ليلتين أخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الأمر فورا.

و قيل: إنّ أوّل رؤيا له كانت فى ليلة التروية، أى ليلة الثامن من شهر ذى الحجّة، كما شاهد نفس الرؤيا فى ليلة عرفة، و ليلة عيد الأضحى، و بهذا لم يبق عنده أدنى شكّ فى أنّ هذا الأمر هو من اللّه سبحانه و تعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الذى نجح فى كافّة الامتحانات الصعبة السابقة و خرج منها مرفوع الرأس، الامتحان الذى يفرض عليه وضع عواطف الابوّة جانبا و الامتثال لأوامر اللّه بذبح ابنه الذى كان ينتظره لفترة طويلة، و هو الآن غلام يافع قوى.

و لكن قبل كلّ شىء، فكّر إبراهيم عليه السّلام فى إعداد ابنه لهذا الأمر، حيث قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى

الولد الذى كان نسخة طبق الأصل من والده، و الذى تعلم خلال فترة عمره القصيرة الصبر و الثبات و الإيمان فى مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهى بصدر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۴

واسع و طيبة نفس، و بصراحة واضحة قال لوالده: قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ.

و لا تفكّر فى أمرى، فانّك سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ

فما أعظم كلمات الأب و الابن و كم تخفى فى بواطنها من الأمور الدقيقة و المعانى العميقة؟! فمن جهة، الأب يصارح ولده البالغ من العمر (۱۳) عاما بقضيّة الذبح، و يطلب منه إعطاء رأيه فيها، حيث جعله هنا شخصيّة مستقلّة حرّة الإرادة.

فإبراهيم لم يقصد أبدا خداع ولده، و دعوته إلى ساحة الامتحان العسير بصورة عمياء، بل رغب بإشراكه فى هذا الجهاد الكبير ضدّ النفس، و جعله يستشعر حلاوة لذّة التسليم لأمر اللّه و الرضى به، كما استشعر حلاوتها هو.

و من جهة اخرى، عمد الابن إلى ترسيخ عزم و تصميم والده فى تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له: اذبحنى، و إنّما قال له: افعل ما أنت مأمور به، فإنّنى مستسلم لهذا الأمر، و خاصّة أنّه خاطب أباه بكلمة يا أَبَتِ كى يوضّح أنّ هذه القضيّة لا تقلّل من عاطفة الابن تجاه أبيه و لو بمقدار ذرّة، و أنّ أمر اللّه هو فوق كلّ شىء.

و من جهة ثالثة، أظهر أدبا رفيعا اتّجاه اللّه سبحانه و تعالى، و أن لا يعتمد أحد على إيمانه و إرادته و تصميمه فقط، و إنّما يعتمد على إرادة و مشيئة اللّه، و بعبارة اخرى: أن يطلب توفيق الاستعانة و الاستقامة من اللّه.

و بهذا الشكل يجتاز الأب و ابنه المرحلة الاولى من هذا الامتحان الصعب بانتصار كامل.

ماذا يدور فى هذا الوسط؟ القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث، و ركّز فقط على النقاط الحسّاسة فى هذه القصّة العجيبة.

كتب البعض: إنّ إسماعيل ساعد والده فى تنفيذ هذا الأمر الإلهى، و عمل على تقليل ألم و حزن والدته.

فعند ما أخذه والده للذبح وسط الجبال الجرداء و الحارقة فى أرض (منى) قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۵

إسماعيل لوالده:

يا أبت، أحكم من شدّ الحبل كى لا تتحرّك يدى و رجلى أثناء تنفيذك الأمر الإلهى، أخاف أن يقلّل ذلك من مقدار الجزاء الذى سأناله.

والدى العزيز اشحذ السكّين جيّدا، و امرره بسرعة على رقبتى كى يكون تحمّل ألم الذبح سهلا بالنسبة لى و لك.

والدى قبل ذبحى اخلع ثوبى من على جسدى كى لا يتلوّث بالدم، لأنّى أخاف أن تراه والدتى و تفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف: أوصل سلامى إلى والدتى، و إن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبى إليها كى يسلّى خواطرها و يهدّئ من آلامها، لأنّها ستشمّ رائحة ابنها منه، و كلّما أحسّت بضيق القلب، تضعه على صدرها ليخفّف الحرقة الموجودة فى أعماقها.

قربت اللحظات الحسّاسة، فالأمر الإلهى يجب أن ينفّذ، فعند ما رأى إبراهيم عليه السّلام درجة استسلام ولده للأمر الإلهى احتضنه و قبّل وجهه، و فى هذه اللحظة بكى الاثنان، البكاء الذى يبرز العواطف الإنسانية و مقدّمة الشوق للقاء اللّه.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر فى جملة قصيرة و لكنّها مليئة بالمعانى، فيقول تعالى: فَلَمَّا أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۳۳۹].

مرّة اخرى تطرّق القرآن هنا باختصار، كى يسمح للقارئ متابعة هذه القصّة بانشداد كبير.

قال البعض: إنّ المراد من عبارة تَلَّهُ لِلْجَبِينِ هو أنّه وضع جبين ولده- طبقا لاقتراحه- على الأرض، حتّى لا تقع عيناه على وجه ابنه فتهيج عنده عاطفة الابوّة و تمنعه من تنفيذ الأمر الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۶

على أيّة حال كبّ إبراهيم عليه السّلام ابنه على جبينه، و مرّر السكّين بسرعة و قوّة على رقبة ابنه، و روحه تعيش حالة الهيجان، و حبّ اللّه كان الشىء الوحيد الذى يدفعه إلى تنفيذ الأمر و من دون أى تردّد.

إلّا أنّ السكّين الحادّة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

و هنا غرق إبراهيم فى حيرته، و مرّر السكّين مرّة اخرى على رقبة ولده، و لكنّها لم تؤثّر بشىء كالمرّة السابقة.

نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكّين: اذبحى، لكنّ اللّه الجليل يعطى أوامره للسكّين أن لا تذبحى، و السكّين لا تستجيب سوى لأوامر البارى عزّ و جلّ.

و هنا ينهى القرآن كلّ حالات الانتظار و بعبارة قصيرة مليئة بالمعانى العميقة وَ نادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

إذ نمنحهم توفيق النجاح فى الامتحان، و نحفظ لهم ولدهم العزيز، نعم فالذى يستسلم تماما و بكلّ وجوده للأمر الإلهى و يصل إلى أقصى درجات الإحسان، لا يمكن مكافأته بأقلّ من هذا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ

عمليّة ذبح الابن البارّ المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عمليّة سهلة و بسيطة بالنسبة لأب انتظر فترة طويلة كى يرزقه اللّه بهذا الابن، فكيف يمكن إماتة قلبه تجاه ولده؟ و الأكثر من ذلك استسلامه و رضاه المطلق- من دون أى انزعاج- لتنفيذ هذا الأمر، و تنفيذه كافّة مراحل العملية من بدايتها إلى نهايتها، بصورة لا يغفل فيها عن أى شىء من الاستعداد لعملية الذبح نفسيا و عمليّا.

و الذى يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر اللّه، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح و اطمئنان يحفّه اللطف الإلهى، و استسلام فى مقابل هذا الأمر.

لذا فقد ورد فى بعض الروايات أنّ جبرئيل هتف «اللّه أكبر» «اللّه أكبر» أثناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۷

عمليّة الذبح لتعجّبه.

فيما هتف إسماعيل «لا إله إلّا اللّه، و اللّه أكبر».

ثمّ قال إبراهيم «اللّه أكبر و للّه الحمد»[۳۴۰].

و هذه العبارات تشبه التكبيرات التى نردّدها فى يوم عيد الأضحى.

و لكى لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصا، و تتحقّق أمنية إبراهيم فى تقديم القربان للّه، بعث اللّه كبشا كبيرا إلى إبراهيم ليذبحه بدلا عن ابنه إسماعيل، و لتصير سنّة للأجيال القادمة التى تشارك فى مراسم الحجّ و تأتى إلى أرض (منى) وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ

ما المراد بالذبح العظيم؟

هل أنّه يقصد منه الجانب الجسمى و الظاهرى؟

أو لأنّه كان فداء عن إسماعيل؟

أو لأنّه كان للّه و فى سبيل اللّه؟

أو لأنّ هذه الاضحية بعثها اللّه تعالى إلى إبراهيم؟

المفسّرون قالوا الكثير بشأنها، و لكن لا يوجد أى مانع يحول دون جمع كلّ ما هو مقصود أعلاه.

و إحدى دلائل عظمة هذا الذبح، هو اتّساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، و حاليا يذبح فى كلّ عام أكثر من مليون اضحية تيمنّا بذلك الذبح العظيم و إحياء لذلك العمل العظيم.

«فديناه» مشتقّة من (الفداء) و تعنى جعل الشىء مكان الشىء لدفع الضرر عنه، لذا يطلق على المال الذى يدفع لإطلاق سراح الأسير (الفدية) كما تطلق (الفدية) على الكفّارة التى يخرجها بعض المرضى بدلا عن صيامهم.

و بشأن كيفية وصول الكبش العظيم إلى إبراهيم عليه السّلام، أعرب الكثير من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۸

المفسّرين عن اعتقادهم فى أنّ جبرئيل أنزله، فيما قال البعض الآخر: إنّه هبط عليه من أطراف جبال (منى)، و مهما كان فإنّ وصوله إلى إبراهيم كان بأمر من اللّه.

النجاح الذى حقّقه إبراهيم عليه السّلام فى الامتحان الصعب، لم يمدحه اللّه فقط ذلك اليوم، و إنّما جعله خالدا على مدى الأجيال وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ

إذ غدا إبراهيم عليه السّلام «أسوة حسنة» لكلّ الأجيال، و «قدوة» لكلّ الطاهرين، و أضحت أعماله سنّة فى الحجّ، و ستبقى خالدة حتّى تقوم القيامة، إنّه أبو الأنبياء الكبار، و إنّه أبو هذه الامّة الإسلامية و رسولها الأكرم محمّد بن عبد اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و لمّا امتاز به إبراهيم عليه السّلام من صفات حميدة، خصّة البارى عزّ و جلّ بالسلام سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ

نعم، إنّا كذلك نجزى و نثيب المحسنين كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلا لسلام اللّه عزّ و جلّ عليه.

و عبارة كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تثير الانتباه، إذ أنّها أتت قبل عدّة آيات، و تكرّرت ثانية هنا، فهناك حتما علّة لهذا التكرار.

المرحلة الاولى ربّما كانت بسبب أنّ اللّه سبحانه و تعالى صادق على نجاح إبراهيم فى الامتحان الصعب، و أمضى نتيجة قبوله، و هذه بحدّ ذاتها أهمّ مكافأة يمنحها اللّه سبحانه و تعالى لإبراهيم، ثمّ تأتى قضيّة (الفدية بذبح عظيم) و (بقاء اسمه و سنّته خالدين على مدى التاريخ) و (إرسال البارى عزّ و جلّ سلامه و تحيّاته إلى إبراهيم) التى اعتبرت ثلاث نعم كبيرة منحها اللّه سبحانه و تعالى لعبده

إبراهيم بعنوان أنّها مكافأة و جزاء للمحسنين.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۶۹

بحوث

۱- من هو ذبيح اللّه؟

اختلف المفسّرون بشأن الولد الذى امر إبراهيم بذبحه، هل كان (إسماعيل أم إسحاق) الذى لقّب بذبيح اللّه؟ إذ أنّ هناك نقاشا بين المفسّرين، فمجموعة تقول:

إنّ (إسحاق) هو (ذبيح اللّه) فيما تعتبر مجموعة اخرى (إسماعيل) هو الذبيح، التّفسير الأوّل أكّد عليه الكثير من مفسّرى أهل السنّة، فيما أكّد مفسّر و الشيعة على أنّ إسماعيل هو الذبيح.

و ظاهر آيات القرآن الكريم المختلفة تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح اللّه، و ذلك للأسباب التالية:

أوّلا: فى إحدى آيات القرآن الكريم نقرأ وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [۳۴۱] هذه العبارة توضح بصورة جيّدة، أنّ اللّه سبحانه و تعالى بشّر إبراهيم بولادة إسحاق بعد قضيّة الذبح، نتيجة تضحياته، و لهذا فإنّ قضيّة الذبح لا تخصّه أبدا، إضافة إلى أنّ البارى عزّ و جلّ عند ما يبشّر أحدا بالنبوّة، فذلك يعنى بقاء ذلك الشخص حيّا، و هذا لا يتناسب مع قضيّة الذبح التى خصّت غلاما.

ثانيا: نقرأ فى الآية ۷۱ من سورة هود، قوله تعالى: فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ هذه الآية توضّح أنّ إبراهيم كان مطمئنا على بقاء ولده إسحاق، و أنّ اللّه سيرزق إسحاق ولدا اسمه يعقوب، و هذا يعنى أنّ الذبح لا يشمله أبدا. فالذين اعتبروا إسحاق هو الذبيح، يبدو أنّهم لم يأخذوا بنظر الإعتبار حقيقة هذه الآيات.

و

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حديث موثوق، جاء فيه: «أنا ابن الذبيحين»

و المقصود من الذبيحين، الأوّل هو والده (عبد اللّه) الذى كان أبوه عبد المطّلب قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۰

نذر بذبحه تقرّبا إلى اللّه تعالى و الذى (فداه) بأمر من اللّه ب (۱۰۰) بعير، و قصّته معروفة، و الثانى هو (إسماعيل) لأنّ من الأمور الثابتة كون نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو من أبناء إسماعيل و ليس من أبناء إسحاق ۳۴۲].

و

ورد فى الدعاء الذى رواه أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، (يا من فدا إسماعيل من الذبح)[۳۴۳].

و جاء فى روايات اخرى عن الإمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السّلام، أنّهما أجابا على أسئلة تستفسر عن الذبيح، فأجابا أنّه إسماعيل.

و

جاء فى حديث نقل عن الإمام الرضا عليه السّلام «لو علم اللّه عزّ و جلّ شيئا أكرم من الضأن لفدى به إسماعيل»[۳۴۴].

خلاصة الأمر، هو أنّ الروايات و الأحاديث التى وردت بهذا الشأن كثيرة، و إذا أردنا استعراضها جميعا، فإنّ البحث يتّسع كثيرا.

و فى مقابل هذه الروايات الكثيرة المتناسبة مع ظاهر الآيات القرآنية، هناك روايات شاذّة تدلّ على أنّ إسحاق هو المقصود (بذبيح

اللّه) و لا تتطابق مع روايات المجموعة الاولى و لا مع ظاهر الآيات القرآنية.

و بغضّ النظر عمّا قيل، فهناك قضيّة مسلّم بها، و هى أنّ الطفل الذى جاء به إبراهيم مع امّه إلى مكّة المكرّمة بأمر من اللّه ثمّ تركهما هناك، و ساعده من بعد فى بناء الكعبة المشرفة، و أدّى مراسم الطواف و السعى هو إسماعيل، و هذا يدلّ على أنّ الذبيح هو إسماعيل، لأنّ عملية الذبح تكمل الأعمال المذكورة أعلاه.

ممّا يذكر أنّ كتاب (التوراة) الحالى و المعروف بالعهد القديم يؤكّد على أنّ الذبيح كان إسحاق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۱

هنا يستشف أنّ بعض الروايات الإسلامية غير المعروفة و التى تؤكّد على أنّ إسحاق هو (ذبيح اللّه) متأثّرة ببعض الروايات الإسرائيلية، و يحتمل أنّ اليهود و ضعوها، و ذلك لأنّهم من ذريّة (إسحاق)، و قد حاولوا نسب هذا الفخر لهم، حتّى و لو كان عن طريق تزييف الوقائع و الحقائق، و سلبه من المسلمين الذين كان نبيّهم نبى الرحمة أحد أحفاد إسماعيل.

على أيّة حال، فإنّ ظواهر آيات القرآن الكريم هى أقوى دليل لنا، إذ توضّح بصورة كافية، أنّ الذبيح هو إسماعيل، رغم أنّه لا فرق بالنسبة لنا إن كان الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فالإثنان هما أبناء إبراهيم عليه السّلام، و كلاهما من أنبياء اللّه العظام، و لكن الهدف هو توضيح هذه الحادثة التاريخية.

۲- هل أنّ إبراهيم كان مكلّفا بذبح ابنه؟

من الأسئلة المهمّة الاخرى التى تطرح نفسها فى هذا البحث، و التى تثير التساؤل فى أوساط المفسّرين، هى: هل أنّ إبراهيم كان حقّا مكلّفا بذبح ابنه أم أنّه كان مكلّفا بتنفيذ مقدّمات الذبح؟

فإن كان مكلّفا بالذبح، فكيف ينسخ هذا الحكم الإلهى قبل تنفيذ عمليّة الذبح، فى حين أنّ النسخ قبل العمل غير جائز، و هذا المعنى ثابت فى علم (اصول الفقه).

و إن كان مكلّفا بتنفيذ مقدّمات عملية الذبح، فهذا لا يعتبر فخرا له. و ما قيل من أنّ أهميّة المسألة نشأت من أنّ إبراهيم بعد تنفيذه لهذا الأمر و تهيئة مقدّماته كان ينتظر نزول أمر بشأن الذبح و كان هذا هو الامتحان الكبير له- فهو كلام غير جدير بالردّ.

باعتقادنا، أنّ التقوّلات هذه ناشئة عن عدم التفريق بين الأوامر الامتحانية و غير الامتحانية، فالأمر الصادر إلى إبراهيم هو أمر امتحانى، و كما هو معروف فإنّ الأوامر الامتحانية لا تتعلّق فيها الإرادة الحقيقيّة بطبيعة العمل، و إنّما الهدف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۲

منها توضيح مقدار الاستعداد الموجود عند الإنسان الممتحن بالنسبة إلى طاعته للأوامر؟ كما أنّ الشخص الممتحن ليس له اطلاع بخفايا الأمور. و بهذا الشكل فإنّ عملية النسخ لم تحصل هنا حتّى تناقش قضيّة صحّتها و وقوعها قبل العمل.

مخاطبة البارى عزّ و جلّ عبده إبراهيم بعد الحادثة قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إنّما جاءت بسبب إثبات مقدرته على ذبح ابنه العزيز، و استعداده روحيّا لتنفيذ هذا الأمر، و نجاحه فى هذا الامتحان.

۳- كيف يمكن أن تكون رؤيا إبراهيم حجّة؟

بشأن (الرؤيا) هناك كلام كثير، و رد جزء يسير منه فى تفسير سورة يوسف بعد الآية الرابعة.

لا بدّ هنا من الالتفات إلى أمر و هو: كيف اعتبر إبراهيم منامه حجّة، و اتّخذه معيارا لعمله؟

فی الجواب علی هـذا السؤال، یقال: إنّ رؤیا الأنبیاء لا یمکن أن تکون رؤیا شـیطانیة، و إنّها لیست ناشـئة عن فعّالیـة قوّة وهمیة، و إنّما هی جانب من نظام النبوّة و الوحی.

و بتعبیر آخر: إنّ ارتباط الأنبیاء مع الوحی یکون أحیانا بشکل إلقاء فی القلب.

و أحیانا عن طریق مشاهدة الوحی.

و أحیانا عن طریق سماع أمواج صوتیة، بعثت بأمر من اللّه.

و أحیانا عن طریق المنام.

و بهذا الشکل لا یمکن وقوع أی خطأ أو اشتباه فی رؤیتهم، و الذی یشاهدونه فی منامهم هو کالذی یشاهدونه فی یقظتهم.

و قیل: إنّ إبراهیم أمر عن طریق الوحی أثناء یقظته بأن ینفّذ ما یراه بشأن الذبح فی المنام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۳

و قیل أیضا: إنّ القرائن المختلفـة التی کانت فی هذا المنام، و منها تکراره ثلاث لیال متتالیة، أوجد عنده علما و یقینا بأنّ ما شاهده فی المنام هو تکلیف إلهی و لیس أمرا آخر.

علی أیّة حال، یمکن أن تکون کلّ هذه التفاسیر صحیحة، و لا یوجد تناقض بینها، کما أنّها لا تتعارض و ظواهر آیات القرآن الکریم.

۴- عدم تأثّر روح إبراهیم الکبیرة بوساوس الشیطان:

لأنّ إمتحان إبراهیم کان من أکبر الامتحانات علی طول التاریـخ، إذ کان الهـدف منه إخلاء قلبه فی أیّ حبّ لغیر اللّه، و جعله متنوّرا- فقط- بعشق و حبّ اللّه، فقـد عمـد الشـیطان- کما جاء فی بعض الروایات- إلی تکریس کلّ طاقاته لعمل شـیء ما یحول دون خروج إبراهیم منتصرا من الامتحان.

فأحیانـا کان یـذهب إلی زوجته (هاجر) و یقول لها: أ تعلمین بماذا یفکّر إبراهیم؟ إنّه یفکّر بذبـح ولـده إسـماعیل الیوم! فکانت تجیبه هاجر: اذهب و لا تتحدّث بأمر محال، فإنّه أرحم من أن یقتل ولده، فهل یمکن العثور فی هذه الدنیا علی إنسان یذبح ولده بیده؟

الشیطان هنا یواصل وساوسه، و یقول: إنّه یزعم بأنّ اللّه أمره بذلک.

فتجیبه هاجر: إذا کان اللّه قد أمره بذلک فعلیه أن یطیع أوامر اللّه، و لیس هناک طریق آخر سوی الرضی و التسلیم لأمر اللّه.

و أحیانا کان یـذهب صوب (الولـد) لیوسوس فی قلبه، لکنّه فشل أیضا إذ لم یحصل علی أیّـة نتیجـة لأنّ إسـماعیل کان کلّه قطعة من الرضی و التسلیم لذلک الأمر.

و أخیرا اتّجه نحو الأب، و قال له: یا إبراهیم إنّ المنام الذی رأیته هو منام شیطانی! لا تطع الشیطان!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۴

فعرفه إبراهیم الذی کان یسطع بنور الإیمان و النبوّة، و صاح به: ابتعد من هنا یا عدوّ اللّه ۳۴۵].

و ورد فی حدیث آخر أنّ إبراهیم جاء فی البدایة إلی (المشـعر الحرام) لیذبح ابنه هناک، و لکن الشـیطان تبعه، فترک المحلّ و ذهب إلی مکان (الجمرة الاولی) فتبعه الشیطان أیضا، فرماه إبراهیم بسبع قطع من الحجارة، و عند وصوله إلی (الجمرة الثانیة) شاهد الشیطان أمامه أیضا فرماه بسـبع قطع اخری من الحجارة، و حالما وصل إلی جمرة العقبـة و شاهد الشـیطان ثالثة رماه بسـبع اخری، و بهذا جعل الشیطان ییأس منه إلی الأبد[۳۴۶].

من هنا یتّضـح أنّ وساوس الشـیاطین أثناء أداء الامتحان الکبیر یتعـدّد أشـکالها، إذ أنّها تعترض طریق الإنسان من عدّة جهات و تتلوّن بعدّة ألوان، فلذا یجب علی المؤمنین أن یکونوا کإبراهیم قادرین علی تشـخیص الشـیطان و معرفته بسـرعة مهما کان متسترا بشکل من

الأشكال، و إغلاق كلّ طريق يحتمل أن يرد منه و رميه بالحجارة، فما أعظم هذا الدرس!!

۵- فلسفة التكبيرات فى (منى):

و كما هو معروف فإنّ من الأعمال الواردة فى الروايات الإسلامية بشأن عيد الأضحى، هى التكبيرات الخاصّة التى يردّدها المسلمون بعد الصلاة، سواء كانوا من المشاركين فى مراسم الحجّ بمنى، أو ممّن لم يشارك فيها من المسلمين فى سائر بقاع الأرض. (غاية الأمر انّ الحجّاج فى منى يكبّرون بعده صلاة أوّلها بعد صلاة الظهر من يوم العيد، و فى المناطق الاخرى يكبّر المسلمون هذه التكبيرات بعد ۱۰ صلوات).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۵

و كيفيّة هذه التكبيرات هى: (اللّه أكبر، اللّه أكبر، لا إله إلّا اللّه، و اللّه أكبر، اللّه أكبر، و للّه الحمد، اللّه أكبر على ما هدانا). فعند ما نقارن بين هذا الأمر و الحديث الذى ذكرناه سابقا، تتّضح حقيقة هذه التكبيرات، و هى أنّها مجموع تكبيرات جبرئيل و إسماعيل و والده إبراهيم، و شىء أضيف إليه.

و بعبارة اخرى فإنّ هذه العبارات تحيى فى الأذهان خاطرة انتصار إبراهيم و ابنه إسماعيل فى الامتحان الكبير، و تعطى العبر لكلّ المسلمين، سواء كانوا فى منى أو فى غيرها.

و قد اتّضح من الروايات الإسلامية أنّ سبب تسمية أرض (منى) بهذا الاسم، إنّما يعود إلى أنّ إبراهيم عند ما وصل إلى هذه الأرض، بعد ما اجتاز- بنجاح- الامتحان الصعب، نزل عليه جبرئيل و قال له: اطلب ما شئت من ربّ العالمين، فتمنّى من اللّه أن يأمره بذبح كبش فدية عن ابنه إسماعيل، و قد تحقّقت أمنيته هذه ۳۴۷].

۶- الحجّ عبادة مهمّة تبنى الإنسان:

السفر للحجّ- فى الحقيقة- هو سفر عظيم، إذ أنّه سفر إلهى، و ساحة واسعة لبناء النفس و الجهاد الأكبر.

مراسم الحجّ توضّح- فى الواقع- عبادة ممزوجة- بصورة عميقة- بخاطرات جهاد إبراهيم و ابنه إسماعيل و زوجته هاجر، فلو أغفلنا عن هذه النقطة أثناء مطالعتنا الأمور الخاصّة بأسرار الحجّ، فإنّ الكثير من مراسمه ستبدو لنا كألغاز، نعم إنّ مفتاح حلّ هذه الألغاز هو الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الامتزاج العميق.

فعند ما نأتى إلى مكان ذبح الأضاحى فى أرضى (منى) نتعجّب لأىّ شىء تذبح هذه الأضاحى؟ فهل أنّ ذبح الحيوان يمكن أنّ يكون حلقة من مجموعة حلقات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۶

العبادة؟

إلّا أنّنا عند ما نتذكّر إيثار إبراهيم عليه السّلام الذى أراد ذبح أعزّ أعزّائه و أطيب ثمار عمره (إسماعيل) فى تلك الأرض فى سبيل اللّه، العملية التى غدت سنّة فيما بعد و بعنوان ذبح الأضاحى فى منى، ندرك فلسفة هذا العمل.

فالذبح إشارة إلى اجتياز كلّ شىء فى سبيل التوجّه إلى اللّه، و هو مظهر لإخلاء القلب من كلّ شىء عدا ذكر اللّه، و يمكن استمداد التربية الكافية من هذه المناسك، إذا تجسّد لنا مشهد ذبح إسماعيل، و معنويات الأب و ابنه إسماعيل أثناء عملية الذبح، و هذا المشهد يجعل معنويات الإنسان تسطع بأنوارها[۳۴۸].

أمّا أثناء توجّهنا إلى رمى الجمرات (و هى ثلاثة أعمدة مبنية من الحجر يرميها الحجّاج أثناء تأديتهم لمراسم الحجّ، و فى كلّ مرّة يرمون سبعة أحجار عليها وفق مراسم خاصّة) فيتبادر إلى أذهاننا السؤال التالى: ماذا يعنى رمى هذا المقدار من قطع الحجارة على عمود من الحجر لا روح فيه؟ و أى مشكلة سيحلّ هذا العمل؟

إلّا أنّنا عند ما نتذكّر أنّها تمثّل جهاد الموحّد إبراهيم ضدّ وساوس الشيطان الذى ظهر له ثلاث مرّات فى الطريق، و هو مصمّم على أن يثنى إبراهيم عن عزمه فى ساحة الجهاد الأكبر، و كلّما ظهر له رماه بالحجر، فإنّ محتوى هذه الشعيرة يتوضّح أكثر.

فمعنى هذه الشعيرة هو أنّكم طوال فترة عمركم تعيشون فى ساحة الجهاد الأكبر ضدّ وساوس الشيطان، و إن لم ترموا هذا الشيطان و تبعدوه عنكم فلن تنتصروا أبدا.

و إن كنتم تنتظرون أن يشملكم اللّه بلطفه و رحمته، كما شمل إبراهيم بذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۷

و بعث إليه بالسلام و أبقى رسالته و ذكراه خالدتين فى العالمين، عليكم أن تسيروا على خطاه.

وفور ما نصل إلى الصفا و المروة و نشاهد أفواجا أفواجا من الناس تنساب من هذا التل الصغير إلى ذلك التل الأصغر، و تعود مرّة اخرى من هنا إلى هناك، و تكرّر هذا العمل من دون أن تحصل على شىء، و أحيانا تهرول و أحيانا اخرى تمشى، و من الطبيعى أن يثير هذا العمل العجب، فما ذا يفعل هؤلاء هنا، و ما هى المفاهيم التى يحملها هذا العمل؟

إلّا أنّنا لو رجعنا إلى الوراء، و استذكرنا الجهود التى بذلتها تلك المرأة المؤمنة (هاجر) لإنقاذ حياة ابنها الرضيع (إسماعيل) فى تلك الأرض القاحلة و الحارقة، و كيف أنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطاها ما تريد بعد جهدها و سعيها، عند ما فجّر عين زمزم من تحت رجلى ولدها الرضيع، فجأة ترجع بنا عجلة الزمن إلى الوراء، و يكشف لنا عن الحجب، و نشاهد أنفسنا فى تلك اللحظة واقفين قرب هاجر عليها السّلام، فنشترك معها فى السعى و الجهد، لأنّ الذى لا يسعى و لا يبذل الجهد فى سبيل اللّه، لا يصل إلى نتيجة.

و بسهولة نستطيع تلخيص ما قلناه، و هو أنّ الحجّ يجب أن يقترن بتعلّم هذه الرموز، و تتجسّد ذكريات إبراهيم و ابنه و زوجته خطوة خطوة، كى يدرك الحاجّ فلسفة الحجّ و تشعّ أنوار آثاره الأخلاقية العميقة فى نفوس الحجيج، فبدون تلك المعانى و الدروس يكون الحجّ مجرّد قشر ليس أكثر.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱۱ الى ۱۱۳]

اشارة

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۱) وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۱۲) وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (۱۱۳)

التّفسير

إبراهيم ذلك العبد المؤمن:

الآيات الثلاث المذكورة أعلاه هى آخر الآيات التى تواصل الحديث عن قصّة إبراهيم و ابنه و تكملها، و فى الحقيقة إنّها دليل يوضّح

ما مضى، و فى نفس الوقت هى نتيجة له.

فى البداية تصف الآية القرآنية الكريمة إبراهيم إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

و فى الواقع إنّ هـذه الآية دليل على ما ذكر فيما قبل، كما توضّح حقيقة مفادها أنّ إيمان إبراهيم القوى دفعه إلى أن يضع كلّ وجوده و كيانه و حتّى ابنه العزيز البارّ، فى صحن الإخلاص فداء لربّه سبحانه و تعالى.

نعم كلّ هذه هى من ثمار الإيمان، و تجلّياته، و ما أعجب هذه الثمار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۷۹

و التجلّيات!! هـذا التعبير يعطى أبعادا أوسع و أعمّ لما جرى لإبراهيم و ابنه، و يخرج هـذه المجريات من بعدها الشخصـى و الخاص، و يوضّـح أنّه أينمـا كـان الإيمان كان هناك إيثار و حبّ و فـداء و عفو، و أنّ إبراهيم كان يختار كلّ ما يختاره اللّه و يريـد كلّ ما أراده اللّه، و كلّ مؤمن يستطيع أن يكون كذلك.

ثمّ تتناول هذه الآيات نعمة اخرى من النعم التى وهبها اللّه تعالى لإبراهيم وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

فبالانتباه إلى الآيـة فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ التى ذكرناها فى مقدّمة هذه الأحداث، يتّضح بصورة جيّدة أنّ هاتين البشارتين تتعلّقان بولدين، و بما أنّ البشـرى الأخيرة وفق ما جاء فى الآيـة تخصّ (إسـحاق)، فإنّ (الغلام الحليم) بالتأكيد هو (إسـماعيل) فالذين يصـرّون على أنّ الذبيـح هو (إسـحاق) عليهم أن يعرفوا أنّهم اعتبروا الآيتين تشـيران إلى موضوع واحـد مع هـذا التفاوت، و هو أنّ الآيـة الاولى بشّـرت بالولـد و الآيـة الثانيـة بشّـرت بـالنبوّة، و لكن هـذا المعنى مسـتبعد جـدّا، و الآيات المـذكورة أعلاه تبيّن بوضوح أنّ البشارتين تتعلّقان بولدين.

على أيّة حال فإنّ بشـرى النبوّة تكشف عن أنّ إسحاق يجب أن يبقى حيّا و أن يؤدّى تكاليف و مهمّة النبوّة، و هذا لا يتلاءم مع قضيّة الذبح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۳۷۹

ّة اخرى سـنتطرّق إلى عظمـة مرتبـة الصالحين، إذ وصـفت الآية الكريمة إسـحاق بأنّه (يجب أن يصـبح نبيّا و أن يكون من الصالحين) فكم هى رفيعة مرتبة الصالحين عند اللّه سبحانه و تعالى؟

الآية الأخيرة تتحدّث عن البركة التى أنزلها البارى جلّ و علا على إبراهيم و ابنه إسحاق وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلى إِسْحاقَ

و لكن البركة فى أى شىء؟ لم يرد بهذا الشأن أى توضيح، و كما هو معلوم فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۰

الفعل عنـد ما يأتى بصورة مطلقـة و من دون أى قيد أو شـرط، فإنّه يعطى معنى عاما، فبهذا تكون البركة شاملة لكلّ شـىء، فى الحياة، فى الأجيال القادمة، فى التأريخ، و الرسالة، و فى كلّ شىء.

فكلمة (بركة) مشتقّة من (برك) على وزن (درك) و تعنى صدر البعير، و عند ما يضع صدره على الأرض يقال (برك البعير).

و تدريجيّا أعطت هذه الكلمة معنى الثبات و بقاء شـىء ما، و لهذا يطلق على المكان الذى فيه ماء ثابت و مستقر (بركة) فى حين يقال لمّا كان خيره باقيا و ثابتا مبارك.

و من هنا يتّضح أنّ الآية مورد بحثنا تشـير إلى ثبات و دوام النعم الإلهيّة على إبراهيم و إسـحاق و على اسرتهم، و إحدى البركات التى أنعم اللّه بهـا على إبراهيم و إسـحاق أن جعل كلّ أنبياء بنى إسـرائيل من ذريّـة إسـحاق، فى حين أنّ نبى الإسـلام العظيم هو من ذريّة إسماعيل.

و هذه البركات لا تشـمل كلّ أفراد عائلة إبراهيم و عشيرته، و إنّما تشمل- فقط- المؤمنين و المحسنين منهم، إذ تقول الآية فى آخرها

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ

كلمة (محسن) جاءت هنا بمعنى المؤمن و المطيع للّه، و هل يتصوّر أنّ هناك إحسان و عمل حسن أرفع من هذا؟

و (ظالم) جاءت هنا بمعنى الكافر و المذنب.

و عبارة (لنفسه) إشارة إلى الكفر و ارتكاب الذنوب يعدّ أوّلا ظلم للنفس، الظلم الواضح و المكشوف.

فالآية المذكورة أعلاه تجيب اليهود و النصارى الذين افتخروا بكونهم من أبناء الأنبياء، و تقول لهم: إنّ صلة القربى لوحدها ليست مدعاة للافتخار، إن لم ترافقها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۱

صلة فى الفكر و الالتزام بالرسالة.

و كشاهد على هذا الكلام

فقد ورد حديث لنبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يخاطب فيه بنى هاشم «لا يأتينى الناس بأعمالهم و تأتونى بأنسابكم»

أى أنّهم مرتبطون بى رساليا و أنتم مرتبطون بى جسديا[۳۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۲

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۱۴ الى ۱۲۲]

اشارة

وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ (۱۱۴) وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (۱۱۵) وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۱۱۶) وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (۱۱۷) وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (۱۱۸)

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (۱۱۹) سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۲۱) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۲۲)

التّفسير

النعم التى منّ بها اللّه على موسى و هارون:

الآيات المباركة هذه تشير إلى جوانب من النعم الإلهيّة التى أغدقها اللّه جلّ شأنه على موسى و أخيه هارون، و البحث هنا ليتناغم و يتواءم مع البحوث السابقة بشأن نوح و إبراهيم فى الآيات السابقة، فمحتوى الآيات يشابه بعضه البعض، و نفس الألفاظ تتكرّر فى بعض الجوانب، و ذلك لتوجد نظاما تربويا منسجما للمؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۳

مرّة اخرى استخدم فى هذه الآيات أسلوب (الإجمال و التفصيل) الأسلوب الذى استخدمه القرآن فى نقل العديد من الحوادث.

الآية الاولى تشير إلى قوله تعالى: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ

«المنّة» فى الأصل من «المنّ» و يعنى الحجر الذى يستعمل للوزن، ثمّ أطلق على النعم الكبيرة و الثقيلة، فلو كانت لها جنبة عملية و موضوعية فالمنّة جميلة و محمودة، و لو اقتصرت على اللفظ و الكلام فهى سلبية و مذمومة، و الغالب إنّها تستعمل فى المحاورات العرفية بالمعنى الثانى، و هذا هو السبب فى تداعى المفهوم السلبى من هذه الآيات الكريمة، و لكن لا بدّ من القول انّ هذه المفردة

وردت فى اللغة و الآيات الكريمة بمعناها الواسع الذى يشمل المفهوم الأوّل منها.

(أى منع النعم و المواهب الكبيرة).

و على كلّ حال فانّ اللّه سبحانه و تعالى أنعم على الأخوين موسى و هارون بنعمة عظيمة.

أمّا الآيات التى تلتها فتشرح سبعة من هذه النعم، و كلّ واحدة منها أفضل من أختها.

ففى المرحلة الاولى، يقول سبحانه و تعالى: وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ

فهل هناك قلق أكثر من هذا، و هو أنّ بنى إسرائيل يعيشون فى قبضة الفراعنة المتجبّرين الطغاة؟ يذبحون أولادهم و يسخّرون نساءهم فى خدمتهم، و يستعبدون رجالهم و يستعملونهم فى الأعمال الشاقّة.

أليس فقدان الحرية و الابتلاء بسلطان جائر لا يرحم الكبير و لا الصغير، حتّى يبلغ به طغيانه إلى أن يتلاعب بنواميس الناس و شرفهم، أليس هذا كربا عظيما، و ألما شديدا، إذن فإنقاذهم من قبضة فراعنة مصر المتجبّرين، كانت أوّل نعمة يغدقها البارى عزّ و جلّ على بنى إسرائيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۴

و فى المرحلة الثانية، قال البارى عزّ و جلّ: وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ

ففى ذلك اليوم كان جيش الفراعنة ذا قوّة عظيمة و يتقدّمه الطاغية فرعون، فيما كان بنو إسرائيل قوم ضعفاء و عاجزين يفتقدون لرجال الحرب و للسلاح أيضا، إلّا أنّ المدد الإلهى وصلهم فى تلك اللحظات، و أغرق فرعون و جيشه وسط أمواج البحر، و أورث بنى إسرائيل قصور و ثروات و حدائق و كنوز الفراعنة.

و فى المرحلة الثالثة من مراحل إغداق النعم على بنى إسرائيل و شمولهم بعنايته، جاء فى محكم كتابه العزيز وَ آتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ

نعم (التوراة) هو كتاب مستبين، أى يوضّح لهم المجهولات المبهمة، و يجيبهم على كلّ ما يحتاجونه فى دينهم و دنياهم، كما أكّدت الآية (۴۴) فى سورة المائدة ذلك إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ.

و فى المرحلة الرابعة أشار القرآن الكريم إلى نعمة معنوية اخرى منّ بها جلّ شأنه على موسى و هارون، و هى هدايتهما إلى الصراط المستقيم، وَ هَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ

الطريق الصحيح الخالى من كلّ اعوجاج، ألا و هو طريق الأنبياء و الأولياء، و الذى لا يوجد فيه أى خطر من قبيل الانحراف و الضلال و السقوط.

و عند ما نقرأ سورة الحمد فى كلّ الصلوات و نطلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يهدينا إلى الصراط المستقيم، نقول: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ أى إنّنا نطلب منه أن يهدينا إلى طريق الأنبياء و الأولياء.

أمّا المرحلة الخامسة فإنّها أكّدت على استمرار رسالتهما و الثناء الجميل عليهما، إذ تقول الآية: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ

و هذه العبارة نفسها وردت فى الآيات السابقة بشأن إبراهيم و نوح، لأنّ كلّ الدعاة إلى اللّه السالكين لطريق الحقّ، يبقى اسمهم و تاريخهم خالدا على مرّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۵

الزمن، و يجب أن يبقى خالدا، لأنّهم لا يخصّون قوما أو شعبا معيّن، و إنّما كلّ الإنسانية.

و المرحلة السادسة تستعرض التحيّة الطيّبة المباركة التى وردت إلى كلّ من موسى و هارون من عند اللّه سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ

سلام من عند اللّه العظيم و الرحيم، السلام الذى هو رمز لسلامة الدين و الإيمان و الرسالة و الإعتقاد و المذهب، السلام الذى يوضّح النجاة و الأمن من العقاب و العذاب فى هذه الدنيا و فى الآخرة.

و فى المرحلة السابعة- الأخيرة- نصل إلى مرحلة الثواب و المكافأة الكبرى التى يقدّمها البارى عزّ و جلّ إليهما إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ

نعم إنّ حصولهما على كلّ هذه المفاخر لم يكن من دون دليل أو سبب، إذ كانا من المحسنين و المؤمنين و المخلصين و الطيّبين، فمثل هؤلاء جديرون بالثواب و المكافأة.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآية إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ تكرّرت فى هذه السورة عدّة مرّات، إذ جاءت بحقّ نوح و إبراهيم و موسى و هارون و إلياس، و عبارة مشابهة لها بشأن يوسف وردت فى سورة يوسف الآية (۲۲) كما وردت فى الآية (۸۴) فى سورة الأنعام عن أنبياء آخرين كان ثوابهم نفس الثواب، و كلّهم يقرّون بأنّ كلّ من يريد أن تشمله العناية الإلهيّة عليه أوّلا- أن ينضمّ إلى زمرة المحسنين كى تغدق عليه البركات الإلهيّة.

الآية الأخيرة فى بحثنا تشير إلى نفس الدليل الذى ورد فى قصّة نوح و إبراهيم من قبل إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

فالإيمان هو الذى ينير روح الإنسان و يعطيه القوّة، و يدفعه إلى الطهارة و التقوى و عمل الإحسان و الخير، الإحسان الذى يفتح أبواب الرحمة الإلهيّة على الإنسان، فتنزل عليه مختلف أشكال النعم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۶

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۲۳ الى ۱۳۲]

اشارة

وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۲۳) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۲۴) أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (۱۲۵) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۱۲۶) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۲۷)

إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۲۸) وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (۱۲۹) سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ (۱۳۰) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۳۱) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (۱۳۲)

التّفسير

النّبى إلياس و مواجهته للمشركين:

القصّة الرابعة فى هذه السورة استعرضت بصورة مختصرة حياة نبى اللّه (إلياس)، يقول تعالى: وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

الحديث حول «إلياس» و خصوصياته و نسبه و حياته سيأتى لا حقا فى آخر هذه الآيات- إن شاء اللّه.

ثمّ تبدأ الآيات بالتفصيل بعد الإجمال و تقول: و اذكر عند ما أنذر قومه إِذْ قالَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۷

لِقَوْمِهِ أَ لا تَتَّقُونَ

أى اتّقوا اللّه و اجتنبوا الشرك و عبادة الأصنام و ارتكاب الذنوب و المظالم، و كلّ ما يؤدّى بالإنسان إلى الباطل و الفساد.

أمّا الآية التى تلتها فقد تحدّثت بصراحة أكثر أَ تَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ

و من هنا يتّضح أنّ قومه كانوا يعبدون صنما اسمه (بعل) و يسجدون له، و أنّ هذا النّبى كان يدعوهم إلى ترك هذا العمل القبيح، و

التوجّه إلى اللّه سبحانه و تعالى خالق هذا الكون العظيم و توحيده و عبادته.

جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ إلياس كان مبعوثا إلى مدينة «بعلبك» إحدى مدن بلاد الشام ۳۵۰] لأنّ (بعل) هو اسم ذلك الصنم و (بك) تعنى مدينة، و من تركيب هاتين الكلمتين نحصل على كلمة (بعلبك) و قيل: إنّ الصنم (بعل) كان مصنوعا من الذهب و طوله حوالى (۲۰) ذراعا و له أربعة أوجه، و خدمته كانوا (۴۰۰) شخصا[۳۵۱].

و لكن البعض ذهبوا إلى أنّ (بعل) ليس اسما لصنم معيّن، بل يطلق بصورة عامّة على الأصنام، فيما قال البعض الآخر: إنّها تعنى (الربّ و المعبود). و قال (الراغب) فى مفرداته: إنّ كلمة «بعل» تعنى (الزوج) أمّا العرب فتطلقها على الأصنام التى تعبدها و التى بواسطتها يقربون إلى اللّه سبحانه و تعالى على حدّ زعمهم.

و عبارة أَحْسَنَ الْخالِقِينَ رغم أنّها تشير إلى أنّ اللّه سبحانه و تعالى خالق هذا الكون و لا يوجد خالق سواه، فهى تشير أيضا حسب الظاهر إلى الأشياء المصنوعة، أى التى يصنعها الإنسان بعد أن يغيّر شكل المواد الطبيعية، و من هنا سمّى بالخالق، رغم أنّه تعبير مجازى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۸

على أيّة حال، فقد عمد إلياس إلى توبيخ قومه بشدّة، و قال لهم: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

إذ أنّ اللّه ملككم و مربّيكم، و كلّ نعمة عندكم فهى منه، و أى مشكلة عندكم تتيسر بقدرته فغيره، لا يعدّ مصدرا للخير و البركة، و لا يمكنه دفع الشرّ و البلاء عنكم.

الظاهر هنا أنّ المشركين فى زمان إلياس، قالوا- كما قال المشركون فى زمان نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- إنّنا نتّبع سنن أجدادنا الأوّلين، فأجابهم إلياس عليه السّلام بقوله: اللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

و استخدام كلمة (ربّ) هنا أفضل منبّه للعقل و التفكير، لأنّ أهمّ قضيّة فى حياة الإنسان هى أن يعرف من الذى خلقه؟ و من هو مالكه و مربّيه و ولى نعمته اليوم؟

إلّا أنّ قومه اللجوجين و المتكبّرين لم يعطوا اذنا صاغية لنصائحه و مواعظه، و لم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم، و إنّما كذّبوه فَكَذَّبُوهُ

و مقابل تصرفاتهم هذه توعدهم اللّه سبحانه و تعالى بعذابه بعبارة قصيرة جاء فيها: إنّنا سنحضرهم إلى محكمة العدل الإلهى و سنعذّبهم فى جهنّم فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ لينالوا جزاء أعمالهم القبيحة و المنكرة.

و لكن يبدو أنّ هناك مجموعة من الأطهار المحسنين و المخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، و لكى لا يضيع حقّ هؤلاء، قال تعالى مباشرة بعد تلك الآية إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۳۵۲].

الآيات الأخيرة من بحثنا استعرضت نفس القضايا الأربعة التى وردت بحقّ الأنبياء الماضين (نوح، و إبراهيم، و موسى، و هارون) و لأهميّتها نستعرضها مرّة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۸۹

قوله تعالى: وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أى إنّ الأمم القادمة سوف لن تنسى الجهود الكبيرة التى بذلها الأنبياء الكبار من أجل حفظ خطّ التوحيد، و سقاية شجرة الإيمان، و ما دامت الحياة موجودة فى هذه الدنيا فإنّ رسالتهم ستبقى حيّة و خالدة.

و فى المرحلة الثانية أثنى اللّه سبحانه و تعالى و بعث بتحيّاته إلى آل ياسين، قال تعالى: سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ

استخدام عبارة (الياسين) بدلا عن (الياس) إمّا لكونها من الناحية اللغوية لفظا ل (إلياس) و اللتين لهما نفس المعنى، أو أنّها إشارة إلى (إلياس) و أتباعه المؤمنين، فوردت بصورة الجمع ۳۵۳].

و فى المرحلة الثالثة، قال تعالى: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

«الإحسان» هنا شمل، معنى واسعا و هو العمل بكلّ السنن و الأوامر، و من ثمّ الجهاد ضدّ كافّة أشكال الشرك و الانحراف و الذنوب و

الفساد.

أمّا المرحلة الرابعة فتطرح الإيمان كأمر أساسى يجب أن يتوفّر فى الأنبياء الذين استعرضتهم هذه السورة المباركة فتقول الآية هنا: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ

«الإيمان» و «العبودية» للّه هما مصدر الإحسان، و الإحسان يؤدّى إلى انضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۰

بحثان

۱- من هو إلياس؟

لا يوجد أىّ شكّ فى أنّ «إلياس» هو أحد أنبياء اللّه الكبار، و آيات بحثنا تصرّح بهذا الأمر، قال تعالى: إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

اسم نبى اللّه (إلياس) جاء فى آيتين من آيات القرآن المجيد، الاولى فى هذه السورة، أى سورة الصافات، و الثانية فى سورة الأنعام الآية (۸۵) إذ ذكر اسمه مع مجموعة اخرى من الأنبياء وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى وَ عِيسى وَ إِلْياسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ

و أبدى المفسّرون و جهات نظر متعدّدة بشأن إلياس، إذ أنّ البعض تساءل هل أنّ اسم «إلياس» هو اسم ثان لنبى واحد، أم أنّه يتعلّق ببنى ليس له اسم ثان، و ما هى صفات و خصائص هذا النبى؟

للإجابة على هذه التساؤلات نستعرض و جهات النظر المتعدّدة تلك:

أ- يعتقد البعض أنّ «إلياس» هو إدريس (لأنّ كلمة إدريس، تلفظ إدراس، و بعد أنّ طرأت عليها تغيّرات بسيطة أضحت إلياس).

ب- «إلياس» هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، و هو ابن (ياسين) أحد أحفاد هارون أخى نبى اللّه موسى عليه السّلام.

ج- مجموعة من المفسّرين اعتبرت «إلياس» هو الخضر.

فى حين أعربت مجموعة اخرى عن اعتقادها فى أنّ إلياس هو صديق الخضر، و كلاهما ما زال حيّا، و أنّ إلياس موكّل بالفيافى، و الخضر موكّل بالبحار و الجزر.

و مجموعة ثالثة أكّدت على أنّ إلياس موكّل بالصحارى و الخضر موكّل بالجبال، و يقولون بخلود الإثنين.

و البعض يرى أنّ إلياس ابن (اليسع).

د- إلياس هو نفسه (إيليا) نبى بنى إسرائيل الذى عاصر الملك (آجاب) و الذى أرسله البارى عزّ و جلّ لإنذار و هداية (آجاب) الطاغية المتجبّر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۱

و قال البعض: إنّه يحيى معمدان المسيح.

و لكن الذى يتناسب و ظاهر آيات القرآن الكريم هو أنّ هذا الاسم اسم أحد أنبياء اللّه غير تلك الأسماء التى وردت فى القرآن المجيد، و أنّه بعث لهداية قوم يعبدون الأصنام، فكذّبه أكثر القوم، عدا مجموعة من المؤمنين المخلصين الذين صدّقوه.

و كما أشرنا سابقا فإنّ البعض يعتقد بأنّه بعث إلى بلاد الشام، استنادا إلى اسم الصنم (بعل) الذى كان يعبده القوم الموجودون فى تلك المنطقة، و هى «بعلبك» التى هى اليوم إحدى مدن لبنان و تقع قرب الحدود السورية.

على أيّة حال، فقد وردت قصص مختلفة فى الكتب بشأن هذا النبى، و لأنّها غير معتمدة و موثوقة فقد صرف النظر عنها[۳۵۴].

۲- من هم إل یاسین؟

المفسّرون و المؤرخون أبدوا وجهات نظر مختلفة بشأن (الیاسین) منها:

أ- ذهب البعض إلی أنّ إلیاس و الیاسین هما لغتان، کما هو شائع بالنسبة ل (میکال) و (میکائیل) إذ أنّهما لغتان فی اسم واحد لأحد الملائکة، و ل (سیناء) و (سینین) حیث تطلقان علی مساحة من الأرض تقع بین مصر و فلسطین، و (إلیاس) و (الیاسین) هی أیضا لغتان فی اسم واحد لهذا النّبی الکبیر[۳۵۵].

ب- البعض الآخر یعتبرها جمعا، و بهذا الشکل (إلیاس) أضیفت إلیها (یاء) فأصبحت (الیاسی)، و بعد ذلک جمعت بإضافة الیاء و النون إلیها فأصبحت (الیاسین) و بعد تخفیفها غدت (الیاسین)، و طبقا لهذا یفهم منها أنّها تخصّ کلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۲

الذین أطاعوا الیاس و التزموا بنهجه ۳۵۶].

ج- (آلیاسین) بالألف الممدودة، مرکّبة من کلمتی (آل) و (یاسین) و قیل أنّ یاسین هو اسم والد (الیاس)، و وفق روایة اخری فإنّه أحد أسماء نبیّنا الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بهذا فإنّ کلمة (آل یاسین) تعنی عائلة نبی الإسلام أو عائلة یاسین والد الیاس.

الدلائل الواضحة الموجودة فی القرآن تؤیّد المعنی الأوّل، و الذی یقول: إنّ المقصود من (الیاسین) هو (الیاس) لأنّ الآیة التی تلی هذه الآیة المبارکة سَلامٌ عَلی إِلْیاسِینَ بآیة تقول: إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِینَ و عودة الضمیر المفرد علی (الیاسین) دلیل علی أنّه شخص واحد لا أکثر، و هو إلیاس.

و هناک دلیل آخر، هو أنّ الآیات الأربعة الأخیرة التی وردت فی نهایة قصّة إلیاس، هی نفس الآیات التی وردت فی نهایة قصص نوح و إبراهیم و موسی و هارون، و عند ما نضع هذه الآیات الواحدة إلی جنب الاخری نری أنّ سلام اللّه فی تلک الآیات مرسل إلی الأنبیاء الذین تتطرّق إلیهم الآیات المبارکة، سَلامٌ عَلی نُوحٍ فِی الْعالَمِینَ سَلامٌ عَلی إِبْراهِیمَ سَلامٌ عَلی مُوسی وَ هارُونَ

و طبقا لذلک فإنّ سَلامٌ عَلی إِلْیاسِینَ تعنی السلام علی إلیاس.

و النقطة التی ینبغی الالتفات إلیها، أنّ الکثیر من التفاسیر أوردت حدیثا بسند عن ابن عبّاس یصرّح بأنّ المراد من (آل یاسین) هم آل محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، لأنّ أحد أسماء نبیّنا هو یاسین.

روی الشیخ الصدوق فی کتابه (معانی الأخبار) فی باب تفسیر (آل یاسین) خمسة أحادیث بهذا الشأن، کلّها لا تنتهی من حیث السند إلی أهل البیت علیهم السّلام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۳

سوی واحد، و الراوی لهذا الحدیث شخص یدعی (کادح) أو (قادح)[۳۵۷] و هو مجهول و لا توجد ترجمته فی کتب الرجال.

و علی فرض- وفقا لهذه الأخبار- أنّ الآیة الآنفة تقرأ بصورة سلام علی آل یاسین و بغضّ النظر عن عدم تناسب الآیات، و رأینا أنّ إسناد هذه الرّوایات أیضا قابلة للنقاش، فمن الأفضل أن نتجنّب القضاء بخصوص هذه الرّوایات و نترک الحکم علیها لأهلها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۴

الآیات [سورة الصافات (۳۷): الآیات ۱۳۳ الی ۱۳۸]

اشارة

وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلاّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷)

وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۳۸)

التّفسير

تدمير قوم لوط:

«لوط» هو خامس نبى يذكر اسمه فى هذه السورة ضمن تسلسل الآيات التى تحدّثت بصورة مختصرة عن تأريخه لاستمداد العبر منه.

و طبقا لما جاء فى آيات القرآن بشأن لوط، يتّضح أنّه كان معاصرا لإبراهيم عليه السّلام، و أنّه من أنبياء الله العظام، و ذلك ما جاء فى الآية (۲۶) من سورة العنكبوت و الآية (۷۴) من سورة هود.

و قد ورد اسم «لوط» كثيرا فى آيات القرآن الكريم، و تكرّر البحث فى القرآن بشأنه هو و قومه عدّة مرّات، قومه المنحرفون الذين كشف القرآن الكريم (الآيات ۱۶۷ إلى ۱۷۳ من سورة الشعراء، و فى الآيات ۷۰ إلى ۸۳ من سورة هود، و فى الآيات ۵۴ إلى ۵۸ من سورة النمل و غيرها من السور) عن المصير الأليم الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۵

حلّ بهم.

بحثنا يبدأ بقوله تعالى: وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

و بعد هذا البيان الإجمالى يعمد القرآن إلى التفصيل و يبيّن جوانب من قصّة لوط، حيث قال: تذكر تلك الفترة الزمنية التى أنقذنا فيها لوطا و أهله إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ

عدا زوجته العجوز التى جعلناها مع من بقى فى العذاب إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ ۳۵۸].

ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ

الجمل القصيرة- التى وردت أعلاه- تشير إلى تأريخ قوم لوط الملىء بالحوادث، و التى ورد شرحها فى سور (هود) و (الشعراء) و (العنكبوت).

«لوط» كسائر الأنبياء بدأ دعوته بتوحيد اللّه، ثمّ عمد إلى الجهاد ضدّ الفساد الموجود فى المجتمع المحيط به، خاصّة ذلك الانحراف الخلقى المعروف باللواط، و الذى ظلّ كوصمة عار لقوم لوط على طول التاريخ.

فهذا النّبى العظيم عانى المرارة مع قومه، و بذل كلّ ما يمتلك من جهد لإصلاح قومه المنحرفين، و منعهم من الاستمرار فى ممارسة عملهم القبيح، و لكن جهوده لم تسفر عن شىء. و عند ما شاهد أنّ أفراد قلائل آمنوا به، قرّر إنقاذ نفسه و إنقاذهم من المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه.

و فى نهاية الأمر فقد لوط الأمل فى إصلاح قومه و عمد إلى الدعاء عليهم، حيث طلب من اللّه سبحانه و تعالى إنقاذه و عائلته، فاستجاب البارى عزّ و جلّ لدعائه و أنقذه و عائلته مع تلك الصفوة القليلة التى آمنت به، عدا زوجته العجوز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۶

التى لم ترفض فقط التمسّك بالتعليمات التى جاء بها، و إنّما عمدت- أحيانا- إلى تقديم العون لأعدائه.

و قد عذّب اللّه قوم لوط بأشدّ العذاب، إذ خسف بهم الأرض ثمّ أمطر عليهم حجارة من سجّيل، ليهلكوا عن آخرهم، و تمحى

أجسادهم من الوجود أيضا.

و باعتبار أنّ هذه الآيات كانت مقدّمة لإيقاظ الغافلين و المغرورين، فقد أضاف القرآن الكريم وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ أى إنّكم تمرّون فى كلّ صباح بجانب ديارهم الخربة من جرّاء العذاب.

كما تمرّون من هناك فى الليل أ فلا تعقلون؟ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ

هذه الآيات تخاطب قوافل أهل الحجاز التى كانت تذهب ليلا و نهارا إلى بلاد الشام عبر مدن قوم لوط، و تقول: لو كان لهم آذان حيّة لسمعوا الصراخ المذهل و العويل المفزع لهؤلاء القوم المعذّبين.

لأنّ آثار ديار قوم لوط الخربة تحكى بصمت دروسا كبيرة لكلّ المارّين من هناك، و تحذر من الابتلاء بمثل هذا العذاب.

نعم، إنّه درس ما أكثر العبر فيه، و لكن المعتبرين منه قليل «ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار»[۳۵۹].

و نظير هذا المعنى موجود فى الآية (۷۶) من سورة الحجر، و التى تقول بعد بيان قصّة قوم لوط وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ أى إنّ آثارهم تقع دائما فى طريق القوافل و المشاة المارّين من هناك.

و فسّرت

رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام الآية بشكل آخر، فعند ما سأله أحد أصحابه عن معنى الآية وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ أجاب الإمام الصادق قائلا: «تمرّون عليهم فى القرآن إذا قرأتم فى القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۷

فاقرؤوا ما قصّ اللّه عليكم من خبرهم»[۳۶۰].

هذا التّفسير قد يكون إشارة إلى تفسير ثان، على أيّة حال فالجمع بين التّفسيرين لا ضرر فيه، لأنّ آثار قوم لوط الباقية شاخصة للأبصار، إضافة إلى أنّ آيات القرآن الكريم تتطرّق لأخبار قوم لوط و العذاب الذى نزل عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۸

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۳۹ الى ۱۴۸]

اشارة

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۹) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۴۰) فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (۱۴۱) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۱۴۲) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (۱۴۳)

لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (۱۴۴) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ (۱۴۵) وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (۱۴۶) وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (۱۴۷) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (۱۴۸)

التّفسير

يونس فى بوتقة الامتحان:

الحديث هنا عن قصّة نبى اللّه «يونس» عليه السّلام و قومه التائبين، و التى هى سادس و آخر قصّة تتناول قصص الأنبياء و الأمم السابقة، و الذى يلفت النظر أنّ القصص الخمس التى تحدّثت عن قوم (نوح) و (إبراهيم) و (موسى و هارون) و (الياس) و (لوط)

أشارت إلى أنّ تلك الأقوام لم تصغ لنصائح الأنبياء الذين بعثوا إليها و بقيت غارقة فى نومها، فعمّها العذاب الإلهى، فيما أنقذ اللّه سبحانه و تعالى الأنبياء العظام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۳۹۹

الذين أرسلهم إلى تلك الأقوام مع القلّة القليلة ممّن اتّبعهم.

إلّا أنّ قضيّة نبى اللّه يونس تنتهى أحداثها بشكل معاكس لما انتهت إليه تلك القصص، إذ أنّ قوم يونس صحوا من غفلتهم و تابوا إلى اللّه فور مشاهدتهم دلائل العذاب الإلهى الذى سيحلّ لهم إن لم يؤمنوا، و أنّ اللّه شملهم بلطفه و أنزل عليهم بركاته الماديّة و المعنوية، و فى المقابل فإنّ نبى اللّه يونس ابتلى ببعض الابتلاءات و المشاكل لأنّه تعجّل فى ترك قومه و هجره إيّاهم، حتّى أنّ القرآن المجيد أطلق عليه كلمة (أبق) و التى تعنى هرب العبد من مولاه! و هذه القصّة بمثابة خطاب موجّه لمشركى قريش، و إلى كلّ البشر على طول التأريخ، جاء فيه: هل تريدون أن تكونوا كالأقوام الخمسة الماضية، أم كقوم يونس؟ و هل ترغبون فى أن تكون عاقبتكم الشؤم و الألم؟ أما ترغبون فى أن تنتهى عواقبكم بخير و سعادة؟ اعلموا أنّ ذلك مرتبط بما تعزمون عليه.

على أيّة حال، فإنّ ذكر هذا النّبى العظيم و قصّته مع قومه، وردت فى سور متعدّدة من سور القرآن المجيد (منها سورة الأنبياء، و يونس، و القلم، و فى هذه السورة أى الصافات) و عكست كلّ واحدة منها جوانب من أوضاعه و حياته، و سورة «الصافات» هذه تسلّط الأضواء أكثر على قضيّة هرب يونس و ابتلاءه، و من ثمّ نجاته من بطن الحوت.

فى البداية، و كما تعوّدنا فى القصص السابقة، فإنّ الحديث يكون عن مقام رسالته، إذ تقول الآية: وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

نبى اللّه «يونس» عليه السّلام كسائر الأنبياء العظام بدأ بالدعوة إلى توحيد اللّه و مجاهدة عبدة الأصنام، و من ثمّ محاربة الأوضاع الفاسدة التى كانت منتشرة فى مجتمعه آنذاك، إلّا أنّ قومه المتعصّبين الذين كانوا يقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الاستجابة لدعوته.

استمرّ يونس عليه السّلام بوعظ قومه بقلب حزين لأجلهم، مريدا لهم الخير و كأنّه أب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۰

رحيم لهم، فى حين كانوا يواجهون منطقه الحكيم بالسفسطة و المغالطة، عدا مجموعة قليلة منهم، يحتمل أن لا تتعدّى الشخصين (أحدهما يسمّى بالعابد و الثانى بالعالم) آمنت برسالته.

و بعد فترة طويلة من دعوته إيّاهم إلى عبادة اللّه و ترك عبادة الأصنام، يئس يونس من هدايتهم، و كما جاء فى بعض الروايات، فإنّ يونس عليه السّلام قرّر طبقا لاقتراح الرجل العابد، مع ملاحظة أوضاع و أحوال قومه الضالّين، قرّر الدعاء عليهم ۳۶۱].

و بالفعل فقد دعا عليهم، فنزل عليه الوحى و حدّد له وقت حلول العذاب الإلهى بهم، و مع حلول موعد نزول العذاب، رحل يونس- بمعيّته الرجل العابد- عن قومه و هو غاضب عليهم، و وصل إلى ساحل البحر، و شاهد سفينة عند الساحل غاصّة بالركاب فطلب منهم السماح له بالصعود إليها.

و هذا ما أشارت إليه الآية التالية، حيث قالت: إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

كلمة «أبق» مشتقّة من (إباق) و التى تعنى فرار العبد من سيّده، إنّها لعبارة عجيبة، إذ تبيّن أن ترك العمل بالأولى من قبل الأنبياء العظام ذوى المقام الرفيع عند اللّه، مهما كان بسيطا فإنّه يؤدّى إلى أن يتّخذ البارى عزّ و جلّ موقفا معاتبا و مؤنّبا للأنبياء، كإطلاق كلمة (الآبق) على نبيّه.

و من دون أى شكّ فإنّ نبى اللّه يونس عليه السّلام، معصوم عن الخطأ، و لكن كان الأجدر به أن يتحمّل آلاما اخرى من قومه، و أن يبقى معه حتّى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم و يتوبوا إلى اللّه سبحانه و تعالى.

حقّا إنّه دعا قومه إلى توحيد اللّه أربعين عاما- وفق ما ورد فى بعض الروايات- و لكن كان من الأجدر به أن يضيف عدّة أيام أو عدة

ساعات إلى ذلك الوقت ببقائه معهم، لذلك فعند ما ترك قومه و هجرهم شبهه القرآن بالعبد الآبق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۱

و وفق ما ورد فى الرّوايات، فقد صعد يونس عليه السّلام إلى السفينة، ثمّ إنّ حوتا ضخما وقف أمام السفينة، فاتحا فمه و كأنّه يطلب الطعام، فقال ركاب السفينة أنّ هناك شخصا مذنبا معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، و لم يجدوا سبيلا سوى الاقتراع لتحديد الشخص الذى يرمى للحوت، و عند ما اقترعوا خرج اسم يونس، و طبقا للرواية فإنّهم اقترعوا ثلاث مرّات و فى كلّ مرّة كان يخرج اسم يونس عليه السّلام، فأمسكوا بيونس و قذفوه فى فم الحوت العظيم، و قد أشار القرآن المجيد فى آية قصيرة إلى هذه الحادثة، قال تعالى: فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

«ساهم» فى مادّة (سهم) و تعنى اشتراكه فى الاقتراع، فالاقتراع تمّ على ظهر السفينة بالشكل التالى، كتبوا اسم كلّ راكب على (سهم) ثمّ خلطوا الأسهم و سحبوا سهما واحدا، فخرج السهم الذى يحمل اسم يونس عليه السّلام.

(مدحض) مشتقّة من (دحض) و تعنى إبطال مفعول الشىء أو إزالته أو التغلّب عليه، و المراد هنا أنّ اسمه ظهر فى عملية الاقتراع من بين بقيّة الأسماء.

و ورد بهذا الشأن تفسير آخر يقول: إنّ إعصارا هبّ فى البحر عرض السفينة و من فيها من الرّكاب للخطر بسبب ثقل حمولتها، و لم يكن لهم سبيل للنجاة سوى تخفيف وزن السفينة من خلال إلقاء بعض ركّابها فى وسط البحر، و عند ما اقترعوا على من يرمونه فى الماء خرج اسم يونس، و بعد رميه فى البحر ابتلعه حوت عظيم.

و قال القرآن الكريم: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ أى إنّ حوتا عظيما التقمه و هو مستحقّ للملامة.

«التقم» مشتقّة من (الالتقام) و تعنى (البلع).

(مليم) من مادّة (لوم) و تعنى التوبيخ و العتب (و عند ما تأتى بصفة الفعل فإنّها تعطى معنى استحقاق الملامة).

و من المسلّم أنّ هذه الملامة لم تكن بسبب ارتكابه ذنبا كبيرا أو صغيرا و إنّما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۲

بسبب تركه العمل بالأولى، و استعجاله فى ترك قومه و هجرانهم.

و بعد بلعه من قبل الحوت أعطى اللّه سبحانه و تعالى أمرا تكوينيا إلى الحوت أن لا تلحق الأذى بيونس، إذ أنّ عليه أن يقضى فترة فى السجن الذى لم يسبق له مثيل، كى يدرك تركه العمل بالأولى، و يسعى لإصلاحه.

و ورد فى إحدى الرّوايات أنّ

«أوحى اللّه إلى الحوت: لا تكسر منه عظما و لا تقطع له وصلا»[۳۶۲].

يونس عليه السّلام انتبه بسرعة للحادث، و توجّه على الفور إلى اللّه سبحانه و تعالى و تكامل وجوده مستغفرا اللّه على تركه العمل بالأولى، و طالبا العفو منه.

و نقلت الآية (۸۷) فى سورة الأنبياء صورة توجّه يونس عليه السّلام بالدعاء الذى يسمّيه أهل العرفان باليونسية، قال تعالى: فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ

أى إنّه نادى من بطن الحوت بأن لا معبود سواك، و أنّنى كنت من الظالمين، إذ ظلمت نفسى و ابتعدت عن باب رحمتك.

اعتراف يونس الخالص بالظلم، و تسبيحه اللّه المرافق للندم أدّى مفعوله، إذ استجاب اللّه له و أنقذه من الغمّ، كما جاء فى الآية (۸۸) من سورة الأنبياء، فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

و نلاحظ الآن ماذا تقول الآيات بشأن يونس عليه السّلام، قال تعالى: فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ أى لو لم يكن من المسبّحين لأبقيناه فى بطن الحوت حتّى يوم القيامة، و يعنى تبديل سجنه المؤقّت إلى سجن دائم، و من ثمّ تبديل سجنه

الدائم إلى مقبرة له.

و بخصوص بقاء يونس فى بطن الحوت حتّى يوم القيامة (على فرض أنّه ترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۳

تسبيح اللّه و التوبة إليه) فهل أنّه يعنى بقاءه حيّا أم ميّتا، المفسّرون ذكروا بهذا الشأن احتمالات متعدّدة منها:

أوّلا: بقاء الإثنين- أى يونس و الحوت- أحياء، و يونس يبقى إلى يوم القيامة مسجونا فى بطن الحوت.

ثانيا: وفاة يونس، و بقاء الحوت حيّا باعتباره قبرا متحركا لجثّة يونس.

ثالثا: وفاة الإثنين، و هنا يكون بطن الحوت قبرا ليونس، و الأرض قبرا للحوت، حيث يدفن فى قلب الحوت، و الحوت يدفن فى باطن الأرض إلى يوم القيامة.

الآية مورد البحث لا تدلّ على أى من الاحتمالات التى ذكرناها، فهناك آيات عديدة فى القرآن الكريم تؤكّد موت الجميع فى آخر الزمان، لذا فإنّ بقاء يونس أو الحوت أحياء حتّى يوم القيامة غير ممكن، و بهذا يعدّ الاحتمال الثالث أقرب الاحتمالات إلى الواقع [۳۶۳].

و هناك احتمال آخر يقول: إنّ هذه العبارة هى كناية عن طول المدّة، و تعنى أنّه سيبقى لمدّة طويلة فى هذا السجن.

و لا ننسى أنّ هذه الأمور كان يمكن أن تتحقّق لو أنّه كان قد ترك تسبيح اللّه و التوبة إليه، و لكن الذى حدث أنّ تسبيحه و توبته جعلاه مشمولا بالعفو الإلهى.

و يضيف القرآن، و قد ألقينا به فى منطقة جرداء خالية من الأشجار و النباتا، و هو مريض فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ

فالحوت الضخم لفظ يونس- الذى لم يكن غذاء صالحا لذلك الحوت- على ساحل خال من الزرع و النبات، و الواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثر على سلامة و صحّة جسم يونس، إذ أنّه تحرّر من هذا السجن و هو منهار و معتل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۴

إنّنا لا نعلم كم أمضى يونس من الوقت فى بطن الحوت، فمن المسلّم به أنّه لا يمكن تجنّب المؤثّرات هناك مهما كانت الفترة الزمينة التى قضاها فى بطن الحوت، صحيح أنّ الأمر الإلهى كان قد صدر فى أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت، و لكن هذا لا يعنى أن لا يتأثّر بعض الشىء بمؤثّرات ذلك السجن، لذا فقد كتب بعض المفسّرون أنّ يونس خرج من بطن الحوت و كأنّه فرخ دجاجة ضعيف و هزيل جدّا لا يمتلك القدرة على الحركة.

مرّة اخرى شمله اللطف الإلهى، لأنّ جسمه كان مريضا و متعبا، و كلّ عضو من أعضاء جسمه كان مرهقا و عاجزا، و كانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظلّ لطيف يظلّل جسده. و القرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهى بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة و الرطبة وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ

(اليقطين) تعنى- كما قال أصحاب اللغة و التّفسير- كلّ نبات لا ساق له و له أوراق كبيرة، مثل نبات البطّيخ و القرع و الخيار و ما يشابهها. و لكن الكثير من المفسّرين و رواة الحديث أعلنوا بأنّ المقصود من (اليقطين) هو (القرع)، و الذى يجب الالتفات إليه أنّ كلمة «الشجرة» فى اللغة العربية تطلق على النباتات التى لها ساق و أغصان و التى ليس لها ساق و أغصان، و بعبارة اخرى: تشمل كلّ الأشجار و النباتات، و نقلوا حديثا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قالوا فيه: إنّ شخصا سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّك تحبّ القرع؟ فأجاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«أجل هى شجرة أخى يونس»[۳۶۴].

و قيل: إنّ أوراق شجرة القرع، إضافة إلى أنّها كانت كبيرة و رطبة جدّا و يمكن الاستفادة منها كظلّ جيّد، فإنّ الذباب لا يتجمّع حول هذه الأوراق، و لهذا فإنّ يونس عليه السّلام التصق بتلك الأوراق كى يرتاح من حرقة الشمس و من الحشرات فى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۵

نفس الوقت، إذ أنّ بقاءه فی داخل بطن الحوت أدّی إلی أن یصبح جلده رقیقا جدّا و حسّاسا، بحیث یتألّم إن استقرّت علیه حشرة.

و یحتمل أنّ الباری عزّ و جلّ یرید من هذه المرحلة إکمال الدرس الذی أعطاه لیونس فی بطن الحوت، إذ کان علیه أن یحسّ بتأثیر حرارة الشمس علی جلده الرقیق، کی یبذل جهدا و سعیا أکثر- عند ما یتسلّم القیادة فی المستقبل- لإنقاذ امّته من نار جهنّم، و قد ورد هذا المضمون فی روایات متعدّدة[۳۶۵].

نترک الحدیث عن یونس و نعود إلی قومه، فبعد أن ترک یونس قومه و هو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبیّن لهم قرب موعد الغضب الإلهی، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّة و أعادتهم إلی رشدهم، و دفعتهم إلی اللجوء للشخص (العالم) الذی کان آمن بیونس و ما زال موجودا فی المدینة، و اتّخاذه قائدا لهم لیرشدهم إلی طریق التوبة.

و ورد فی روایات اخری أنّهم خرجوا إلی الصحراء، و فرّقوا بین المرأة و طفلها، و حتّی بین الحیوانات و أطفالها، و جلسوا یبکون و ینتحبون بأعلی أصواتهم، داعین اللّه سبحانه و تعالی بإخلاص أن یتقبّل توبتهم و یغفر ذنوبهم و تقصیرهم بعدم اتّباعهم نبی اللّه یونس.

و هنا أزاح اللّه عنهم سحب العذاب و أنزلها علی الجبال، و هکذا نجا قوم یونس التائبون المؤمنون بلطف اللّه ۳۶۶].

بعد هذا عاد یونس إلی قومه لیری ماذا صنع بهم العذاب الإلهی؟ و لکن ما إن عاد إلی قومه حتّی فوجئ بأمر أثار عنده الدهشة و العجب، و هو أنّه ترک قومه فی ذلک الیوم یعبدون الأصنام، و هم الیوم یوحّدون اللّه سبحانه.

القرآن یقول هنا: وَ أَرْسَلْناهُ إِلی مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ کانوا قد آمنوا باللّه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۶

و اغدقت علیهم النعم الإلهیة المادیة و المعنویة لمدّة معیّنة، فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ

و بالطبع فإنّهم بعد توبتهم کانوا یتمتّعون بإیمان بسیط، و قد إزداد بعد عودة یونس إلیهم، أی إزداد إیمانهم باللّه و برسوله یونس، و أخذوا ینفّذون تعلیماته و أوامره.

و یتبیّن من آیات القرآن الکریم أنّ یونس علیه السّلام بعث من جدید إلی قومه السابقین، أمّا الذین قالوا: إنّه بعث إلی قوم آخرین، فقولهم لا یتناسب مع ظاهر الآیات.

لأنّنا نقرأ من جهة قوله تعالی: فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ یعنی أنّ القوم الذین بعثنا إلیهم یونس کانوا قوما مؤمنین، و أنّنا قد أغدقنا علیهم النعم لمدّة محدودة.

و من جهة اخری، فقد ورد نفس هذا التعبیر فی سورة یونس بشأن قومه السابقین، و ذلک فی الآیة (۹۸) فَلَوْ لا کانَتْ قَرْیَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِیمانُها إِلَّا قَوْمَ یُونُسَ لَمَّا آمَنُوا کَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلی حِینٍ

و من هنا یتّضح أنّ المراد من إِلی حِینٍ هو لفترة معیّنة، أی إلی نهایة حیاتهم و حلول أجلهم الطبیعی.

سؤال یطرح نفسه: لماذا قالت الآیة المذکورة أعلاه: مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ یَزِیدُونَ

و ما المقصود من یزیدون أی عدد بعد المائة ألف؟ المفسّرون أعطوا تفسیرات مختلفة لها، و لکن الظاهر أنّ مثل هذه العبارات تأتی لتأکید شیء ما، و إعطائه هالة من العظمة، و لیس لخلق حالة من الترديد و الشکّ ۳۶۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۷

بحوث

۱- عرض موجز لحیاة یونس علیه السّلام

(یونس) بن (متی) و یلقّب ب (ذی النون) أی صاحب الحوت، و قد اعطی هذا اللقب لأنّ قصّته ارتبطت بالحوت، و هو من المعروفین، و علی الظاهر أنّه ولد بعد موسی و هارون.

و قال البعض: إنّه من أولاد (هود) و قد کلّف من قبل الباری عزّ و جلّ بهدایة من تبقّی من قوم ثمود.

و المنطقة التی بعث إلیها کانت إحدی مناطق العراق و تسمّی (نینوی)[۳۶۸].

و قال البعض: إنّ بعثته کانت قبل ولادة المسیح علیه السّلام بحوالی (۸۲۵) عاما، و حالیا هناک قبر قرب مدینة الکوفة علی ضعاف النهر یعرف بقبر (یونس).

و جاء فی بعض الکتب أنّ یونس کان من أبناء بنی إسرائیل و بعث إلی أهل نینوی بعد سلیمان. و قد شرح کتاب (یوناه) أحد کتب التوراة العهد القدیم فی بحوث مفصّلة حیاة النّبی یونس و تحت عنوان (یوناه بن متی). و طبقا لما جاء فی هذا الکتاب، فإنّ یونس کان مکلّفا بالذهاب إلی مدینة (نینوی) الکبیرة، و مجابهة شرور الطغاة هناک.

ثمّ تذکّر التوراة حوادث اخری، تشبه کثیرا ما جاء فی القرآن، مع وجود اختلاف، و هو أنّ الروایات الإسلامیة تقول: إنّ یونس دعا قومه إلی التوحید و نفّذ ما أوکل إلیه فی هذا المجال، و بعد أن رفض قومه دعوته دعا علیهم و ترکهم و حصل له ما حصل فی حادثة السفینة و الحوت، و لکن التوراة ذکرت عبارة غیر مقبولة، إذ قالت: إنّ یونس طلب قبل بعثه إلی قومه أن یعفی من هذه المهمّة، و لهذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۸

توقّف عن الدعوة و انهزم و حصلت له حادثة السفینة و الحوت.

و الذی یثیر العجب أکثر أنّ التوراة تقول: إنّ یونس تألّم و غضب کثیرا عند ما أزال اللّه سبحانه و تعالی العذاب عن قومه بعد ما أعلنوا توبتهم ۳۶۹].

و جاء فی أحد فصول التوراة- أیضا- أنّ یونس بعث مرّتین، امتنع فی الاولی و ابتلی بذلک المصیر المؤلم، و فی المرّة الثانیة بعث أیضا إلی المدینة (نینوی) نفسها، و کان أهلها قد تیقّظوا من غفلتهم و آمنوا باللّه، و تابوا إلیه و شملهم العفو الإلهی، ذلک العفو الذی لم یفرح قلب یونس.

و بمقارنة ما جاء فی القرآن المجید و الروایات الإسلامیة مع ما جاء فی کتاب التوراة الحالی یتّضح إلی أی درجة تحطّ (التوراة المحرّفة) من شأن نبی اللّه یونس، فأحیانا ینسب إلیه عدم قبوله حمل الرسالة التی کلّف بها، و أحیانا غضبه و سخطه علی قرار اللّه سبحانه و تعالی بشمول قومه التائبین بالعفو و الرحمة. و هذا یدلّ علی أنّ التوراة الحالیة کتاب لا یمکن الاعتماد علیه بأی شکل من الأشکال.

علی أیّة حال، فإنّ یونس من الأنبیاء الکبار الذین ذکرهم القرآن بأحسن و أفضل الذکر.

۲- کیف بقی یونس حیّا فی بطن الحوت؟

قلنا: إنّه لیس هناک دلیل واضح یبیّن کم أمضی یونس من الوقت فی بطن الحوت؟ هل أنّها کانت عدّة ساعات أم عدّة أیّام أم عدّة أسابیع؟

فقد ورد فی بعض الروایات أنّه أمضی (۹) ساعات فی بطن الحوت، فیما قالت روایات اخری: إنّه أمضی ثلاثة أیّام، و أکّدت اخری

أنّه أمضی أکثر، حتّی أنّ البعض قال: إنّه أمضی (۴۰) یوما فی بطن الحوت.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۰۹

و لکن لا یوجد لدینا دلیل ثابت علی أی من هذه الأقوال.

و قد جاء فی تفسیر علی بن إبراهیم نقلا عن حدیث لأمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام، أنّ یونس أمضی (۹) ساعات فی بطن الحوت ۳۷۰].

و قال بعض المفسّرین من أهل السنّة: إنّ المدّة التی أمضاها یونس فی بطن الحوت کانت ساعة واحدة فقط[۳۷۱].

و کم کانت المدّة؟ فإنّ مثل هذا الأمر- من دون أی شکّ- یعدّ أمرا غیر عادی، حیث إنّ الإنسان لا یستطیع أن یبقی حیّا لعدّة دقائق فی محیط فارغ من الهواء، و إذا رأینا أنّ الجنین یعیش عدّة أشهر فی بطن أمّه حیّا، فإنّما ذلک بسبب عدم عمل أجهزته التنفسیّة و حصوله علی الأوکسیجین اللازم عن طریق دم والدته.

و وفقا لهذا فإنّ ما جری لیونس إنّما هو معجزة من دون أی شکّ، و هذه لیست المعجزة الأولی التی نصادفها فی القرآن المجید، فالباری عزّ و جلّ- الذی حفظ إبراهیم علیه السّلام فی وسط النار، و أنقذ موسی و بنی إسرائیل من الغرق بعد أن أوجد لهم طریقا یابسا وسط البحر، و خلّص نوحا من الطوفان العظیم بواسطة سفینة بسیطة لیهبط من بعد علی الأرض الیابسة بسلام- قادر علی حفظ عبد من عباده المخلصین مدّة من الزمن فی بطن الحوت.

و بالطبع فإنّ وجود مثل تلک الحیتان الکبیرة فی الماضی و الحاضر لا یعدّ أمرا عجیبا، إذ یوجد حالیا نوع من أنواع الحیتان یطلق علیه اسم (بالن) طوله أکثر من (۳۰) مترا و یعدّ أکبر حیوان علی وجه الأرض، و قلبه یزن طنّا واحدا.

فی هذه السورة طالعنا قصص الأنبیاء السابقین الذین نجوا بإعجاز من قبضة البلاء، و یونس کان آخرهم فی هذه السلسلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۰

۳- دروس و عبر کبیرة فی قصص صغیرة:

و کما نعرف، فإنّ استعراض القرآن لهذه القصص یهدف إلی تربیة الإنسان، لأنّ القرآن لیس کتاب قصص و إنّما هو کتاب هدفه بناء الإنسان و تربیته.

من هذه القصّة العجیبة یمکن استخلاص الکثیر من المواعظ و العبر:

أ- ترک النّبی للعمل بالأولی یعدّ أمرا مهمّا عند اللّه، و یؤدّی إلی مجازاة ذلک النبی، لأنّ مرتبة الأنبیاء عالیة جدّا، و أبسط غفلة منهم تعادل ذنبا کبیرا یرتکبه عوام الناس، و لهذا السبب أطلق اللّه سبحانه و تعالی تسمیة (الآبق) علی عبده یونس فی هذه الآیة، و التی تعنی العبد الهارب.

و قد ورد فی بعض الروایات أنّ رکّاب السفینة کانوا یقولون: هناک شخص عاص بیننا! و عاقبة الأمر أنّ الباری عزّ و جلّ ابتلاه بسجن رهیب، ثمّ أنقذه منه بعد أن تاب و عاد إلی اللّه، و کان منهار القوی مریضا.

ذلک لیعرف الجمیع أنّ التوانی غیر مقبول من أی أحد، فعظمة مرتبة أنبیاء و أولیاء اللّه إنّما یحصلون علیها من طاعتهم الخالصة لأوامر اللّه سبحانه و تعالی، و إلّا فاللّه لا تربطه صلة قربی مع أی أحد، و إنّ الموقف الحازم الذی اتّخذه اللّه تجاه عبده یونس یوضّح عظمة مرتبة هذا النّبی الکبیر.

ب- أحداث هذه القصّة (و خاصّة ما ورد فی الآیة (۸۷) من سورة الأنبیاء) کشفت عن سبیل نجاة المؤمنین من الغمّ و الحزن و الابتلاءات و المشاکل، و هو نفس السبیل الذی انتهجه یونس، و هو اعترافه بخطئه أمام اللّه و تسبیحه اللّه و تنزیهه و العودة إلیه.

ج- هـذه القصّـة توضّح كيف أنّ قوما مذنبين مستحقّين للعذاب يستطيعون فى آخر اللحظات تغيير مسيرتهم التأريخية، بعودتهم إلى أحضان الرحمة الإلهيّة، و إنقاذ أنفسهم من العذاب، و هذا مشروط بالصحوة من غفلتهم قبل فوات الأوان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۱

و انتخاب شخص «عالم» قائدا لهم.

د- هذه الحادثة تبيّن أنّ الإيمان باللّه و التوبة من الذنوب علاوة على أنّها تتسبّب فى نزول الآثار و البركات المعنوية، فهى توجد النعم و الهبات الدنيوية و تجعلها فى إختيار الإنسان، و توجد حالة من العمران و البناء، و تطيل الأعمار، و نظير هـذا المعنى ورد أيضا فى قصّة نوح عليه السّلام و الذى سنقرأ شرحه بعون اللّه فى تفسير سورة نوح.

ه- أخيرا فإنّ مجريات هـذه القصّـة تستعرض قـدرة البارى عزّ و جلّ العظيمة التى لا يقف أمامها شـىء و لا يصعب عليها شـىء، إلى درجة تستطيع حفظ حياة إنسان فى فم و جوف حيوان كبير وحشـى، و إخراجه سالما من هناك، هذا الأمر يبيّن أنّ كلّ ما هو موجود فى هذا الكون هو أداة بيده تعالى و مسخّر لأوامره.

۴- الجواب على سؤال:

هنا يطرح هـذا السؤال: عنـد بيان قصـص الأقوام الاخرى فى القرآن المجيـد، نلاحظ أنّه عنـد نزول العـذاب عليهم (عـذاب الاستئصال الذى كان ينال كلّ الأقوام الطاغية و المتجبّرة) لا تكون التوبة مقبولة و الإنابة مؤثّرة، فكيف استثنى قوم يونس من هذا الأمر؟

هناك إجابتان على هذا السؤال:

الأولى: هى أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم، لأنّهم بمجرّد أن شاهدوا دلائل بسيطة تنذر بالعذاب، استغلّوا هذه الفرصة و آمنوا باللّه و تابوا إليه قبل حلول البلاء.

الثانيـة: أنّ عذابهم لم يكن لإهلاكهم، و إنّما كان بمثابة تنبيه و تأديب لهم قبل نزول العذاب المهلك، و هو الأسـلوب الذى كان يتّبع مع الأقوام السابقة، أى تظهر لهم بعض دلائل العذاب كآخر فرصة لهم، فإن آمنوا كفّ اللّه عنهم العذاب، و إن بقوا على طغيانهم أنزل اللّه العذاب عليهم ليهلكهم عن آخرهم، كما عذّب قوم فرعون بمختلف أنواع العذاب قبل أن يغرقهم اللّه فى البحر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۲

۵- القرعة و مشروعيتها فى الإسلام:

وردت أحاديث متعدّدة بشأن القرعة و مشروعيتها فى الإسلام،

فعن الإمـام الصـادق عليه السّـلام «أى قضـيّة أعـدل من القرعـة إذا فوّض الأـمر إلى اللّه، أليس اللّه عزّ و جـلّ يقول: فَسـاهَمَ فَكـانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۳۷۲].

و هـذا إشارة إلى أنّ القرعة هى طريق الحلّ الصـحيح فى حالة اسـتعصاء أمر ما و عدم وجود طريق آخر لحلّه، و تفويض الأمر للّه كما جاء فى قصّة يونس حيث انطبقت تماما مع الواقع.

و هذا المعنى ورد بصراحة

فى حـديث لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، قـال فيه: «ليس من قوم تنـازعوا (تقارعوا) ثمّ فوّضوا أمرهم إلى اللّه إلّا خرج لهم المحقّ»[۳۷۳].

و من يريد الاطلاع أكثر على هذه المسألة فليراجع كتاب القواعد الفقهيّة (للمؤلّف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۳

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۴۹ الى ۱۶۰]

اشارة

فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (۱۴۹) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ (۱۵۰) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (۱۵۱) وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۵۲) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (۱۵۳)

ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۱۵۴) أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۱۵۵) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (۱۵۶) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۵۷) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (۱۵۸)

سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۵۹) إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۰)

التّفسير

التهم القبيحة:

بعد استعراض ستّ قصص من قصص الأنبياء السابقين، و استخلاص الدروس التربوية منها، يغيّر القرآن موضوع الحديث، و يتناول موضوعا آخر يرتبط بمشركى مكّة آنذاك، و يستعرض لنا أنماطا مختلفة من شركهم و يحاكمهم بشدّة، ثمّ يدحض بالأدلّة القاطعة أفكارهم الخرافية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۴

و القضيّة هى أنّ مجموعة من المشركين العرب و بسبب جهلهم و سطحيّة تفكيرهم كانوا يقيسون اللّه عزّ و جلّ بأنفسهم، و يقولون: إنّ للّه عزّ و جلّ أولادا، و أحيانا يقولون: إنّ له زوجة.

قبائل (جهينة) و (سليم) و (خزاعة) و (بنى مليح) كانوا يعتقدون أنّ الملائكة هى بنات اللّه عزّ و جلّ، و مجموعة اخرى من المشركين كانت تعتقد أنّ (الجنّ) هم أولاد اللّه عزّ و جلّ، فيما قال البعض الآخر: إنّ (الجنّ) هم زوجات اللّه عزّ و جلّ.

الأوهام الخرافية هذه، كانت السبب الرئيسى لانحرافهم عن طريق الحقّ بصورة زالت معها كلّ آثار التوحيد و الإعتقاد بوحدانية اللّه سبحانه و تعالى من قلوبهم.

و قد ورد فى أحد الأحاديث أنّ النمل يتصوّر أنّ لخالقه قرنين إثنين مثلما هى تمتلك.

نعم، العقل الناقص للإنسان يدفعه إلى المقارنة، المقارنة بين الخالق و المخلوق، و هذه المقارنة من أسوأ الأسباب التى تؤدّى بالإنسان إلى الضلال عن معرفة اللّه.

على أيّة حال، فالقرآن الكريم يردّ على الذين يتصوّرون أنّ الملائكة هى بنات اللّه بثلاث طرق، أحدها تجريبى، و الآخر عقلى، و الثالث نقلى، و فى البداية يقول، اسألهم هل أنّ اللّه تعالى خصّ نفسه بالبنات، و خصّهم بالبنين، فَاسْتَفْتِهِمْ أَ لِرَبِّكَ الْبناتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ و كيف تنسبون ما لا تقبلون به لأنفسكم إلى اللّه، حيث أنّهم طبق عقائدهم الباطلة كانوا يكرهون البنات بشدّة و يحبّون الأولاد كثيرا، فالأولاد كان لهم دورا مؤثّرا خلال الحرب و الإغارة على بقيّة القبائل، فى حين أنّ البنات عاجزات عن تقديم مثل هذه المساعدة.

و من دون أى شكّ فإنّ الولد و البنت من حيث وجهة النظر الإنسانية، و من حيث التقييم عند اللّه سبحانه و تعالى متساوون، و ميزان

شخصيتهم هو التقوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۵

و الطهارة، و استدلال القرآن هنا إنّما يأتى من باب (ذكر مسلّمات الخصم) و من ثمّ ردّها عليه. و شبيه هذا المعنى ورد فى سور اخرى من سور القرآن، و منها ما جاء فى الآية (۲۱ و ۲۲) من سورة النجم أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى .

ثمّ ينتقل الحديث إلى عرض دليل حسّى على المسألة هذه، و بشكل استفهام استنكارى، قال تعالى: أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَ هُمْ شاهِدُونَ

و من دون أى شكّ فإنّ جوابهم فى هذا المجال سلبى، إذ لم يستطع أحدا منهم الادّعاء بأنّه كان موجودا أثناء خلق الملائكة.

مرّة اخرى يطرح القرآن الدليل العقلى المقتبس من مسلّماتهم الذهنية و يقول:

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ. وَلَدَ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ

هل تدركون ما تقولون و كيف تحكمون: ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

ألم يحن الوقت الذى تتركون فيه هذه الخرافات و الأوهام القبيحة و التافهة؟

أَ فَلا تَذَكَّرُونَ

إذن أنّ هذا الكلام باطل من الأساس بحيث لو أنّ أى إنسان له ذرّة من عقل و دراية، و يتفكّر فى الأمر جيّدا، لأدرك بطلان هذه المزاعم.

بعد إثبات بطلان ادّعاءاتهم الخرافية بدليل تجريبى و آخر عقلى، ننتقل إلى الدليل الثالث و هو الدليل النقلى، حيث يقول القرآن الكريم مخاطبا إيّاهم: لو كان ما تزعمونه صحيحا لذكرته الكتب السابقة، فهل يوجد لديكم دليل واضح عليه، أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ

و إذا كنتم صادقين فى قولكم فأتوا بذلك الكتاب فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

هذا الادّعاء فى أى كتاب موجود؟ و فى أى وحى مذكور؟ و على أى رسول نزل؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۶

هذا القول يشبه بقيّة الأقوال التى يخاطب بها القرآن عبدة الأصنام وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ

كلّا، إنّها لم ترد فى الكتب السماوية، بل انّها خرافات انتقلت من جيل إلى جيل و من جهلة إلى آخرين، و إنّها دعاوى مرفوضة و لا أساس لها، كما أشير إليها فى نهاية الآيات المذكورة أعلاه أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ

الآية اللاحقة تطرّقت إلى خرافة اخرى من خرافات مشركى العرب، و الّتى تزعم بوجود نسبة بين اللّه عزّ و جلّ و الجنّ، فالآية هنا لا تخاطبهم بصورة مباشرة و إنّما تخاطبهم بضمير الغائب، لأنّهم أناس تافهون، و لا تتوفّر فيهم الكفاءة و اللياقة للردّ على زعمهم وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً.

فما هى النسبة الموجودة بين اللّه و الجنّ؟

وردت عدّة تفاسير مختلفة لهذا السؤال، منها:

قال البعض: إنّهم كانوا ثنويين، و يعتقدون (نعوذ باللّه) أنّ اللّه و الشيطان إخوة، اللّه خالق المحبّة، و الشيطان خالق الشرور.

و هذا التّفسير مستبعد، لأنّ المذهب الثنوى لم يكن معروفا عند العرب، بل كان منتشرا فى إيران خلال عهد الساسانيين.

و اعتبر البعض الآخر الجنّ هم نفس الملائكة، لأنّ الجنّ موجودات لا تدركها الأبصار، و الملائكة كذلك، و لذلك أطلقوا كلمة «الجنّ» عليها. إذا، فالمراد من النسبة هى النسبة التى كان يدّعيها عرب الجاهلية من أنّ الملائكة بنات اللّه.

و يرد على هـذا التّفسـير أنّ ظاهر آيات بحثنا انّها تبحث فى موضوعين، إضافـة إلى أنّ إطلاق كلمـة (الجنّ) على الملائكة غير وارد و خاصّة فى القرآن الكريم.

و هناك تفسير ثالث يقول: إنّهم كانوا يعتبرون (الجنّ) زوجات اللّه، فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۷

يعتبرون الملائكة بناته.

و هذا التّفسير مستبعد أيضا، لأنّ إطلاق كلمة «نسب» على الزوجة غير وارد.

و التّفسـير الذى يعدّ أنسب من الجميع، هو أنّ المراد من كلمة (نسب) كلّ أشكال الرابطة و العلاقة، حتّى و لو لم يكن هناك أى صلة للقرابة فيها، و كما نعلم فإنّ مجموعة من المشـركين العرب كانوا يعبدون الجنّ و يزعمون أنّها شركاء للّه، و لهذا كانوا يقولون بوجود علاقة بينها و بين اللّه.

على أيّة حال، فالقرآن المجيد ينفى هذه المعتقدات الخرافية بشدّة، و يقول: إنّ الجنّ الذين كان المشركون يعبدونها و يقولون بوجود نسبة بينها و بين اللّه، يعلمون جيّدا أنّ المشركين سيحضرون فى محكمة العدل الإلهى و سيحاسبون و يجزون وَ لَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

و البعض الآـخر احتمـل أن يكون تفسـير الآيـة بالشـكل التالى: إنّ الجنّ الـذين يغوون الناس يعلمون أنّهم يوم القيامـة سيحضـرون فى محكمة العدل الإلهى ليحاسبوا و ينالوا جزاءهم.

و لكن التّفسير الأوّل يعدّ أنسب ۳۷۴].

و نزّه اللّه تعـالى نفسه عمّـا قـاله أولئك الضالّون فى صـفاته تعالى، قائلا: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ و اسـتثنى وصف عباده المخلصـين (الذين وصفوه عن علم و معرفة و دراية) حيث وصفوه بما يليق بذاته المقدّسة، قال تعالى: إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

و بهـذا الشـكل فـإنّ من النـادر أن نسـمع أناسـا عاديين يصـفون اللّه سـبحانه و تعالى وصـفا لائقا، كما يصـفه عباده المخلصون، العباد الخالصون من كلّ أشكال الشرك و هوى النفس و الجهل و الضلال، و الذين لا يصفون البارى عزّ و جلّ إلّا بما سمح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۸

لهم به ۳۷۵].

و حول عبارة عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فقد كان لنا بحث فى نهاية الآية (۱۲۸) من هذه السورة.

نعم، فلمعرفـة اللّه لاـ ينبغى اتّبـاع الخرافات الواردة عن أقوام الجاهليـة التى يخجل الإنسان من ذكرها، بل يجب اتّباع العباد المخلصـين الـذين يتحـدّثون بأحـاديث تجعـل روح الإنسـان محلّقـة فى عنـان السـماء، و تـذيبها فى أنوار الوحدانيـة، و تطهّر القلب من كلّ شائبة شرك، و تمحو كلّ تجسيم و تشبيه للّه من ذهن الإنسان.

ينبغى لنـا مراجعـة كلمات الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّـلام، و أدعية الإمام زين العابدين عليه السّلام فى صحيفته، كى نستنير بضياء وصفهم له جلّ و علا.

فأمير المؤمنين عليه السّـلام، يقول فى إحـدى كلماته: «لم يطلع العقول على تحديـد صـفته، و لم يحجبها عن واجب معرفته، فهو الذى تشهد له أعلام الوجود، على إقرار قلب ذى الجحود، تعالى اللّه عمّا يقوله المشبهون و الجاحدون له علوّا كبيرا»[۳۷۶].

و فى مكان آخر يصف اللّه عزّ و جلّ بالقول:

«لاـ تنـاله الأوهـام فتقـدّره، و لاـ تتوهّمه الفطن فتصوّره، و لا تـدركه الحواس فتحسّه، و لا تلمسه الأيـدى فتمسّه، و لا يتغيّر بحال، و لا يتبدّل فى الأحوال، و لا تبليه الليالى و الأيّام، و لا يغيّره الضياء و الظلام، و لا يوصف بشىء من الأجزاء، و لا بالجوارح و الأعضاء، و لا بعرض من الأعراض، و لا بالغيرية و الأبعاض، و لا يقال له حدّ و لا نهاية، و لا انقطاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۱۹

و لا غاية»[۳۷۷].

و فى مكان ثالث يقول:

«و من قال فيم؟ فقد ضمنه، و من قال علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كلّ شىء لا بمقارنة، و غير كلّ شىء لا بمزايلة»[۳۷۸].

أمّا

الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السّلام، فقد قال فى صحيفته السجّادية: «الحمد للّه الأوّل بلا أوّل كان قبله، و الآخر بلا آخر يكون بعده، الذى قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين و عجزت عن نعته أوهام الواصفين»[۳۷۹].

نعم، فلمعرفة اللّه جيّدا علينا مراجعة نهج هؤلاء (عباد اللّه المخلصين) و دراسة علوم معرفة اللّه فى مدارسهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۰

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۶۱ الى ۱۷۰]

اشارة

فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ (۱۶۱) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (۱۶۲) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (۱۶۳) وَ ما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (۱۶۴) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (۱۶۵)

وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (۱۶۶) وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (۱۶۷) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۶۸) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (۱۶۹) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۱۷۰)

التّفسير

الادّعاءات الكاذبة:

الآيات السابقة تحدّثت عن الآلهة المختلفة التى كان المشركون يعبدونها، أمّا الآيات- التى هى مورد بحثنا الآن- فتتابع ذلك الموضوع، حيث توضّح فى كلّ بضع آيات موضوعا يتعلّق بهذا الأمر.

بداية البحث تؤكّد الآيات على أنّ وساوس عبدة الأصنام لا تؤثّر على الطاهرين و المحسنين، و إنّما- قلوبكم المريضة و أرواحكم الخبيثة هى التى تستسلم لتلك الوساوس، قال تعالى: فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ

نعم، أنتم و ما تعبدون لا تستطيعون خداع أحد بوسائل الفتنة و الفساد عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۱

الطريق المؤدّى إلى اللّه ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ ۳۸۰] إلّا أولئك الذين يريدون أن يحترقوا فى نار جهنّم إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ

هذه الآيات- خلافا لما يتصوّره أتباع مذهب الجبر- دليل ضدّ هذا المذهب، و هى إشارة إلى أنّه لا يعذر أى أحد انحرف عن الطريق المستقيم، مدّعيا أنّه قد خدع، و انحرافه و عبادته للأوثان بسبب هذه الوساوس، و لذا تقول الآيات المباركة، أنتم- المشركون- لا قدرة لديكم على إضلال الأشخاص و خداعهم، إلّا إذا كان أولئك يتّجهون بإرادتهم نحو صراط الجحيم.

و عبارة صالِ الْجَحِيمِ شاهد على الكلام المذكور أعلاه، لأنّ كلمة (صالى) جاءت بصيغة اسم الفاعل، و عند ما تستخدم أى كلمة بصيغة اسم الفاعل بشأن موجود عاقل فإنّها تعطى مفهوم تنفيذ العمل بإرادته و إختياره، مثل (قاتل) و (جالس) و (ضارب)، إذن فإنّ صالِ الْجَحِيمِ تعنى رغبة الشخص فى الاحتراق بنار جهنّم، و بهذا تغلق كافّة طرق الأعذار أمام كلّ المنحرفين.

و الذى يثير العجب أنّ بعض المفسّرين المعروفين فسّروا الآية بالمعنى التالى:

(إنّكم لا تستطيعون خداع أحد، إن لم يكن مقدّرا له الاحتراق بنار جهنّم).

إن كان حقّا هذا هو معنى الآية، فلم يبعث الأنبياء؟ و لأى سبب تنزل الكتب السماوية؟ و ما معنى محاسبة و لوم و توبيخ عبدة الأوثان يوم القيامة التى نصّت عليها الآيات القرآنية؟ و أين ذهب عدل البارى عزّ و جلّ؟

نعم، يجب قبول هذه الحقيقة، و هى انّ الإقرار بمبدإ الجبر ضدّ مبدأ الأنبياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۲

تماما، و يمسخ كلّ المفاهيم التى بعثوا من أجل ترسيخها، و يقضى على كلّ القيم الإلهية و الإنسانية.

و من الضرورى الالتفات إلى هذه النقطة و هى أنّ (صالى) مشتقّة من (صلى) و تعنى إشعال النار و الدخول فيها أو الاحتراق بها و (فاتن) اسم فاعل مشتقّة من (فتنة) و تعنى الذى يثير الفتن و الذى يضلّ الآخرين.

بعد انتهاء بحثنا حول الآيات الثلاث السابقة التى وضّحت مسألة إختيار الإنسان فى مقابل فتن و إغراءات عبدة الأصنام، نواصل بحثنا حول الآيات الثلاث التالية و التى تتناول المرتبة العالية لملائكة اللّه، و تقول مخاطبة عبدة الأصنام: إنّ الملائكة التى كنتم تزعمون أنّها بنات اللّه لها مقام معيّن، و الجميل فى هذه العبارة أنّ الملائكة هى التى تتحدّث عن نفسها وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ ۳۸۱].

و تضيف ملائكة الرحمن: و إنّنا جميعا مصطفون عند اللّه فى انتظار أوامره، وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ

و إنّنا جميعا نسبّحه، و ننزّه عمّا لا يليق بساحة كبريائه وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ

نعم، نحن عباد اللّه، و قد وضعنا أرواحنا على الأكف بانتظار سماع أوامره، إنّنا لسنا أبناء اللّه، إنّنا ننزّه البارى عزّ و جلّ من تلك المزاعم الكاذبة و القبيحة و إنّنا منزعجين و مشمئزّين من خرافات و أوهام المشركين.

فى الحقيقة، إنّ الآيات المذكورة أعلاه أشارت إلى ثلاث صفات من صفات الملائكة.

الاولى: هى أنّ لكلّ واحد منهم مقام معيّن و مشخّص ليس له أن يتعدّاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۳

و الثانية: هى أنّهم مستعدّون دائما لإطاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى و تنفيذها فى عالم الوجود، و هذا الشىء مشابه لما ورد فى الآيتين (۲۶) و (۲۷) من سورة الأنبياء بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

و الثالثة: أنّهم يسبّحون اللّه دائما و ينزّهونه عمّا لا يليق بساحة كبريائه.

الآيتان إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ تعطيان مفهوم الحصر فى الأدب العربى، و بعض المفسّرين قالوا فى تفسير هاتين الآيتين: إنّ الملائكة تريد أن تقول: نحن فقط المطيعون لأوامر اللّه و المسبّحون الحقيقيون له، و هذه إشارة إلى أنّ طاعة الإنسان للّه تعالى و تسبيحه يعدّ لا شىء بالنسبة لطاعة و تسبيح الملائكة للّه، و لا يمكن المقارنة بينهما.

و الذى يلفت الانتباه أنّ مجموعة من المفسّرين نقلوا فى نهاية هذه الآيات

حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال فيه: «ما فى السموات موضع شبر إلّا و عليه ملك يصلّى و يسبّح»[۳۸۲].

و

جاء فى رواية اخرى: «ما فى السماء موضع قدم إلّا عليه ملك ساجد أو قائم»[۳۸۳].

و

فى رواية ثالثة ورد أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان جالسا مع مجموعة من أصحابه، فقال لهم: «أطت السماء و حقّ لها أن تأط! ليس فيها موضع قدم إلّا عليه ملك راكع أو ساجد، ثمّ قرأ: وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَ إِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ [۳۸۴].

العبارات المختلفة كناية لطيفة عن أنّ عالم الوجود مكتظّ بالمطيعين لأوامر اللّه و المسبّحين له.

الآيات الأربع الأخيرة من هذا البحث تشير إلى أحد الأعذار الواهية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۴

تذرّع بها المشركون فيما يخصّ هذه القضيّة و عبادتهم للأصنام، و تجيب عليهم قائلة: وَ إِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ ۳۸۵].

لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ

يقول المشركون: لا- تتحدّثوا كثيرا عن عباد اللّه المخلصين الذين أخلصهم اللّه لنفسه، و عن الأنبياء العظام أمثال نوح و إبراهيم و موسى، لأنّه لو كان اللّه قد شملنا بلطفه و أنزل علينا أحد كتبه السماوية لكنّا فى زمرة عباده المخلصين.

و هذا مشابه لما يقوله الطلاب الكسالى الراسبون فى دروسهم، من أجل التغطية على كسلهم و عدم مثابرتهم، لو كان لدينا معلّم و أستاذ جيّد لكنّا من الطلبة الأوائل.

الآية التالية تقول: لقد تحقّق ما كانوا يأملونه، إذ أنزل عليهم القرآن المجيد الذى هو أكبر و أعظم الكتب السماوية، إلّا أنّ هؤلاء الكاذبين فى ادّعاءاتهم كفروا به، و لم يفوا بما قالوا، و اتّخذوا موقفا معاديا إزاءه، فسيعلمون و بال كفرهم فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۳۸۶].

كفاكم كذبا و ادّعاء، و لا تعتقدوا أنّكم أكفّاء للانضمام إلى صفوف عباد اللّه المخلصين، فكذبكم واضح، و ادّعاءاتكم غير صادقة، فليس هناك كتاب خير من القرآن المجيد، و لا يوجد هناك نهج تربوى خير من نهج الإسلام، فكيف كان موقفكم من هذا الكتاب السماوى؟ فانتظروا العواقب الأليمة لكفركم و عدم إيمانكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۵

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۷۱ الى ۱۷۷]

اشارة

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (۱۷۱) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (۱۷۲) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (۱۷۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۴) وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۵)

أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (۱۷۶) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۷)

التّفسير

حزب اللّه هو المنتصر:

اشارة

لا زلنا نتابع البحث فى آيات هذه السورة المباركة، و التى شارفت على الانتهاء، بعد أن استعرضنا فى الأبحاث السابقة جهاد الأنبياء العظام و المصاعب و العراقيل التى أثارها و أوجدها المشركون.

ففى آيات بحثنا الحالى سنتطرّق لأهمّ القضايا الواردة فى هذه السورة، و التى تصوّر الخاتمة بأفضل صورة، إذ زفّت البشرى للمؤمنين بانتصار جيش الحقّ على جيش الشيطان، الوعد الإلهى الكبير هذا إنّما جاء لبعث الأمل فى صفوف المؤمنين فى صدر الإسلام الذين كانوا لحظة نزول هذه الآيات يرزحون تحت ضغوط أعداء الإسلام فى مكّة، و لكلّ المؤمنين و المحرومين فى كلّ زمان و مكان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۶

و لكى يكون حافزا لهم يدفعهم على نفض غبار اليأس عنهم، و الاستعداد لجهاد و مقاومة جيوش الباطل وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ

وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ إنّها لعبارة واضحة و صريحة، و إنّه لوعد يقوّى الروح و يبعث على الأمل.

نعم، فانتصار جيوش الحقّ على الباطل، و غلبة جند اللّه، و تقديم اللّه سبحانه و تعالى العون لعباده المرسلين و المخلصين، هى وعود مسلّم بها و سنن قطعيّة، و ذلك ما أكّدته الآية المذكورة أعلاه بعنوان سَبَقَتْ كَلِمَتُنا أى إنّ هذا الوعد و هذه السنّة كانت موجودة منذ البداية.

نظائر كثيرة لهذا الموضوع وردت فى آيات عديدة اخرى من آيات القرآن المجيد، إذ جاء فى الآية (۴۷) من سورة الروم وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

و فى الآية (۴۰) من سورة الحجّ وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ

و فى الآية (۵۱) من سورة غافر إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

و أخيرا فى الآية (۲۱) من سورة المجادلة كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي

و بديهى أنّ اللّه قادر على كلّ شىء، و ليس بمخلف للوعود، و لم يكن يوما ما ليخلف وعده، و قادر على أن يفى بهذا الوعد الكبير، كما أنزل فى السابق نصره على المؤمنين به.

الوعد الإلهى من أهمّ الأمور التى ينتظرها السائرون فى طريق الحقّ باشتياق، حيث يستمدّون منه القوى الروحية و المعنوية، و يسترفدون منه نشاطا جديدا كلّما أحسّوا بالكلل، فتسرى دماء جديدة فى شرايينهم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۷

سؤال مهمّ:

و هنا يطرح السؤال التالى، و هو: إن كانت مشيئة البارى عزّ و جلّ و إرادته تقضى بتقديم يد العون للأنبياء و نصرة المؤمنين، فلم نشاهد استشهاد الأنبياء على طول تأريخ الحوادث البشرية، و انهزام المؤمنين فى بعض الأحيان؟ فإن كانت هذه سنّة إلهيّة لا تقبل الخطأ، فلم هذه الاستثناءات؟

و نجيب على هذا السؤال بالقول:

أوّلا: إنّ الإنتصار له معان واسعة، و لا يعطى فى كلّ الأحيان معنى الإنتصار الظاهرى و الجسمانى على العدو، فأحيانا يعنى انتصار المبدأ، و هذا هو أهمّ انتصار، فلو فرضنا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان قد استشهد فى إحدى الغزوات، و شريعته عمّت العالم كلّه، فهل يمكن أن نعبّر عن هذه الشهادة بالهزيمة.

و هناك مثال أوضح و هو الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام حيث استشهدوا على أرض كربلاء، و كان هدفهم العمل على فضح بنى اميّة، الذين ادّعوا أنّهم خلفاء الرّسول، و كانوا فى حقيقة الأمر يعملون و يسعون إلى إعادة المجتمع الإسلامى إلى عصر الجاهلية، و قد تحقّق هذا الهدف الكبير، و أدّى استشهادهم إلى توعية المسلمين إزاء خطر بنى اميّة و إنقاذ الإسلام من خطر السقوط و الضياع،

فهل يمكن هنا القول بأنّ الحسين عليه السّلام و أصحابه الكرام خسروا المعركة فى كربلاء؟

المهمّ هنا أنّ الأنبياء و جنود اللّه- أى المؤمنون- تمكّنوا من نشر أهدافهم فى الدنيا و اتّبعهم أناس كثيرون، و ما زالوا يواصلون نشر مبادئهم و أفكارهم رغم الجهود المستمرّة و المنسّقة لأعداء الحقّ ضدّهم.

و هناك نوع آخر من الإنتصار، و هو الإنتصار المرحلى على العدو، و الذى قد يتحقّق بعد قرون من بدء الصراع، فأحيانا يدخل جيل معركة ما و لا يحقّق فيها أى انتصار، فتأتى الأجيال من بعده و تواصل القتال فتنتصر، كالانتصار الذى حقّقه المسلمون فى النهاية على الصليبيين فى المعارك التى دامت قرابة القرنين، و هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۸

النصر يحسب لجميع المسلمين.

ثانيا: يجب أن لا ننسى أنّ وعد اللّه سبحانه و تعالى بنصر المؤمنين وعد مشروط و ليس بمطلق، و أنّ الكثير من الأخطاء مصدرها عدم التوجّه إلى هذه الحقيقة، و كلمات (عبادنا) و (جندنا) التى وردت فى آيات بحثنا، و غيرها من العبارات و الكلمات المشابهة فى هذا المجال فى القرآن الكريم كعبارة حِزْبَ اللَّهِ و الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا و لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ و أمثالها، توضّح بسهولة شروط النصر.

نحن لا نريد أن نكون مؤمنين و لا مجاهدين و لا جنودا مخلصين، و نريد أن ننتصر على أعداء الحقّ و العدالة و نحن على هذه الحالة! نحن نريد أن نتقدّم إلى الإمام فى مسيرنا إلى اللّه و لكن بأفكار شيطانية، ثمّ نعجب من انتصار الأعداء علينا، فهل و فينا نحن بوعدنا حتّى نطلب من اللّه سبحانه و تعالى الوفاء بوعوده.

فى معركة احد وعد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين بالنصر، و قد انتصروا فعلا فى المرحلة الاولى من المعركة، إلّا أنّ مخالفة البعض لأوامر الرّسول و تركهم لمواقعهم لهثا وراء الغنائم، و سعى البعض الآخر لبثّ الفرقة و النفاق فى صفوف المقاتلين، أدّى بهم إلى الفشل فى الحفاظ على النصر الذى حقّقوه فى المرحلة الاولى، و هذا ما أدّى إلى خسرانهم المعركة فى نهاية الأمر.

و بعد انتهاء المعركة جاءت مجموعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و خاطبته بلهجة خاصّة: ماذا عن الوعد بالنصر و الغلبة، فأجابهم القرآن الكريم بصورة لطيفة يمكنها أن تكون شاهدا لحديثنا، و هى قوله تعالى فى سورة آل عمران الآية (۱۵۲): وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۲۹

عبارات (فشلتم) و (تنازعتم) و (عصيتم) التى وردت فى الآية المذكورة أعلاه، و ضحّت بصورة جيّدة أنّ المسلمين فى يوم احد تخلّوا عن شروط النصر الإلهى، لذا فشلوا فى الوصول إلى أهدافهم.

نعم، فالبارى عزّ و جلّ لم يعد كلّ من يدّعى الإسلام و أنّه من جند اللّه و حزب اللّه بأن ينصره دائما على أعدائه. الوعد الإلهى مقطوع لمن يرجو من أعماق قلبه و روحه رضى اللّه سبحانه و تعالى، و يسير فى النهج الذى وضعه اللّه، و يتحلّى بالتقوى و الأمانة.

و لقد تقدّم نظير لهذا السؤال فيما يخصّ (الدعاء) و (الوعد الإلهى بالاستجابة) و تطرّقنا للإجابة عليه فيما مضى ۳۸۷].

و لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و للتأكيد على أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، و فى نفس الوقت لتهديد المشركين، جاءت الآية التالية لتقول:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

نعم، إنّه تهديد مفعم بالمعانى و رهيب فى نفس الوقت، و يمكن أن يكون مصدر اطمئنان للمؤمنين فى أنّ النصر النهائى سيكون حليفهم، خاصّة أنّ عبارة حَتَّى حِينٍ جاءت بصورة غامضة.

فإلى أى مدّة تشير هذه العبارة؟ إلى زمان الهجرة؟ أم إلى حين معركة بدر؟ أم حتّى فتح مكّة؟ أم أنّها تشير إلى الزمان الذى تتوفّر فيه شروط الانتفاضة النهائية و الواسعة للمسلمين ضدّ الطغاة و المتجبّرين؟

بالضبط لا أحد يدرى ..

و آيات اخرى وردت فى القرآن الكريم تحمل نفس المعنى، كالآية (۸۱) من سورة النساء التى تقول: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ و الآية (۹۱) من سورة الأنعام، قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۰

و يؤكّد القرآن الكريم التهديد الأوّل بتهديد آخر جاء فى الآية التى تلتها، إذ تقول: انظر إلى لجاجتهم و كذبهم و اعتقادهم بالخرافات، إضافة إلى حمقهم.

فإنّهم سيرون جزاء أعمالهم القبيحة عن قريب وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ و سوف ترى فى القريب العاجل انتصارك و انتصار المؤمنين و انكسار و هزيمة المشركين المذلّة فى الدنيا.

و عن تكرار أولئك الحمقى لهذا السؤال على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أين العذاب الإلهى الذى واعدتنا به؟ و إن كنت صادقا، فلم هذا التأخير؟

يردّ القرآن الكريم عليهم بلهجة شديدة مرافقة بالتهديد، قائلا: أولئك الذين يستعجلون العذاب و أحيانا يتساءلون (متى هذا الوعد) و أحيانا اخرى يقولون متسائلين (متى هذا الفتح) أَ فَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ

فعند ما ينزل عذابنا عليهم، و نحيل صباحهم إلى ظلام حالك، فإنّهم فى ذلك الوقت سيفهمون كم كان صباح المنذرين سيّئا و خطيرا فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ ۳۸۸].

استخدام عبارة (ساحة) و التى تعنى فناء البيت أو الفضاء الموجود فى وسط البيت، جاء ليجسّم لهم نزول العذاب فى وسط حياتهم، و كيف أنّ حياتهم الطبيعيّة ستتحوّل إلى حياة موحشة و مضطربة.

عبارة صَباحُ الْمُنْذَرِينَ تشير إلى أنّ العذاب الإلهى سينزل صباحا على هؤلاء القوم اللجوجين و المتجبّرين، كما نزل صباحا على الأقوام السابقة، أو أنّها تعطى هذا المعنى، و هو أنّ كلّ الناس ينتظرون أن يبدأ صباحهم بالخير و الإحسان، إلّا أنّ هؤلاء ينتظرهم صباح حالك الظلمة. أو أنّها تعنى وقت الاستيقاظ فى الصباح، أى إنّهم يستيقظون فى وقت لم يبق لهم فيه أى طريق للنجاة من العذاب، و أنّ كلّ شىء قد انتهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۱

الآيات [سورة الصافات (۳۷): الآيات ۱۷۸ الى ۱۸۲]

اشارة

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (۱۷۸) وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (۱۷۹) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (۱۸۰) وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (۱۸۱) وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۸۲)

التّفسير

تولّ عنهم!

كما قلنا، فإنّ الآيات الأخيرة النازلة فى هذه السورة جاءت لمواساة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين الحقيقيين، و لتهديد الكافرين اللجوجين.

الآيتان الأوّليان فى بحثنا هذا، تشبهان الآيات التى وردت فى البحث السابق، و تكرارها هنا إنّما جاء للتأكيد، إذ تقول بلغة شديدة مرفقة بالتهديد: تولّ عنهم و اتركهم فى شأنهم لمدّة معيّنة وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ

و انظر إلى لجاجة أولئك الكافرين و كذبهم و ممارساتهم العدائية و نكرانهم لوجود اللّه، الذين سينالون جزاء أعمالهم عمّا قريب وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

التكرار- كما قلنا- جاء للتأكيد، و ذلك ليدرك أولئك الكافرون أنّ جزاءهم و هزيمتهم و خيبتهم أمر قطعى لا بدّ منه و سيكون ذلك عمّا قريب، و سيبتلون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۲

بالنتائج المريرة لأعمالهم، كما أنّ انتصار المؤمنين هو أمر قطعى و مسلّم به أيضا.

أو أنّه هدّدهم فى المرّة الاولى بالعذاب الدنيوى، و فى المرّة الثانية بجزاء و عقاب اللّه لهم يوم القيامة.

ثمّ تختتم السورة بثلاثة آيات ذات عمق فى المعنى بشأن (اللّه) و (الرسل) و (العالمين)، إذ تنزّه اللّه ربّ العزّة و القدرة من الأوصاف التى يصفه بها المشركون و الجاهلون سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ

فأحيانا يصفون الملائكة بأنّها بنات اللّه، و أحيانا يقولون بوجود نسبة بين اللّه و الجنّ، و أحيانا اخرى يجعلون مصنوعات لا قيمة لها من الحجر و الخشب بمرتبة البارى عزّ و جلّ.

و مجيء كلمة (العزّة)- أى ذو القدرة المطلقة و الذى لا يمكن التغلّب عليه- هنا تعطى معنى بطلان و عدم فائدة كلّ تلك المعبودات المزيّفة و الخرافية التى يعبدها المشركون.

فآيات سورة الصافات تحدّثت أحيانا عن تسبيح و تنزيه عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ و أحيانا عن تسبيح الملائكة، و هنا تتحدّث عن تسبيح و تنزيه البارى عزّ و جلّ لذاته المقدّسة.

و فى الآية الثانية شمل البارى عزّ و جلّ كافّة أنبيائه بلطفه غير المحدود، و قال:

وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ السلام الذى يوضّح السلامة و العافية من كلّ أنواع العذاب و العقاب فى يوم القيامة، السلام الذى هو صمّام الأمان أمام الهزائم و دليل للانتصار على الأعداء.

و ممّا يذكر أنّ اللّه سبحانه و تعالى أرسل فى آيات هذه السورة سلاما إلى كثير من أنبيائه و بصورة منفصلة، قال تعالى فى الآية (۷۹) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ و فى الآية (۱۰۹) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ و فى الآية سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ و فى الآية (۱۳۰) سَلامٌ عَلى إِلْياسِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۳

و قد جمعها هنا فى سلام واحد موجّه لكلّ المرسلين، قال تعالى: وَ سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

و أخيرا اختتمت السورة بآية تحمد اللّه وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

الآيات الثلاث الأخيرة يمكن أن تكون إشارة و استعراضا مختصرا لكلّ القضايا و الأمور الموجودة فى هذه السورة، لأنّ الجزء الأكبر منها كان بشأن التوحيد و الجهاد ضدّ مختلف أنواع الشرك، فالآية الاولى تعيد ما جاء بشأن تسبيح و تنزيه اللّه عزّ و جلّ عن الصفات التى وصف بها من قبل المشركين، و القسم الآخر من السورة يبيّن جوانب من أوضاع سبع أنبياء كبار أشارت إليها هنا الآية الثانية.

و الآية الثالثة استعرضت جزءا آخر من النعم الإلهية، و بالخصوص أنواع النعم الموجودة فى الجنّة، و انتصار جند اللّه على جنود الكفر، و الحمد و الثناء الذى جاء فى الآية الأخيرة، فيه إشارة لكلّ تلك الأمور.

المفسّرون الآخرون ذكروا تحليلات اخرى بخصوص الآيات الثلاث الواردة فى آخر هذه السورة، و قالوا: إنّ من أهمّ واجبات الإنسان العاقل معرفة أحوال ثلاثة:

الاولى: معرفة اللّه تعالى بالمقدار الممكن للبشر، و آخر ما يستطيعه الإنسان فى هذا المجال هو ثلاثة امور: تنزيهه و تقديسه عن كلّ ما لا يليق بصفات الالوهية، و التى وضّحتها لفظة (سبحان).

و وصفه بكلّ ما يليق بصفات الالوهية و الكمال، و كلمة (ربّ) إشارة دالّة على حكمته و رحمته و مالكيّته لكلّ الأشياء و تربيته للموجودات.

و كونه منزّها فى الالوهية عن الشريك و النظير، و التى جاءت فى عبارة عَمَّا يَصِفُونَ

و القضيّة الثانية المهمّة فى حياة الإنسان هى تكميل الإنسان لنواقصه، و الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۴

لا يمكن أن يتمّ دون وجود الأنبياء عليهم السّلام، و جملة سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ إشارة إلى هذه القضيّة.

و القضيّة الثالثة المهمّة فى حياة الإنسان هى أن يعرف أنّه كيف يكون حاله بعد الموت؟ و الانتباه إلى نعم ربّ العالمين و مقام غناه و رحمته و لطفه يعطى للإنسان نوعا من الاطمئنان وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ۳۸۹].

***

ملاحظة

التفكّر فى نهاية كلّ عمل:

جاء فى روايات عديدة عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام «من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى (من الأجر يوم القيامة) فليكن آخر كلامه فى مجلسه: سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون و سلام على المرسلين و الحمد للّه ربّ العالمين»[۳۹۰].

نعم، فلنختتم مجالسنا بتنزيه ذات اللّه، و إرسال السلام و التحيّات إلى رسله، و حمد و شكر اللّه على نعمه، كى تمحى الأعمال غير الصالحة أو الكلمات المحرّمة التى جاءت فى ذلك المجلس.

و

قد جاء فى كتاب التوحيد للشيخ الصدوق، أنّ أحد علماء الشام حضر عند الإمام الباقر عليه السّلام، فقال: جئت أسألك عن مسألة لم أجد أحدا يفسّرها لى، و قد سألت ثلاثة أصناف من الناس، فقال كلّ صنف غير ما قال الآخر.

فقال أبو جعفر عليه السّلام: «و ما ذلك»؟

فقال: أسألك ما أوّل ما خلق اللّه عزّ و جلّ من خلقه؟ فإنّ بعض من سألته قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۵

القدرة. و قال بعضهم: العلم. و قال بعضهم: الروح؟

فقال أبو جعفر عليه السّلام: «ما قالوا شيئا، أخبرك أنّ اللّه علا ذكره كان و لا شىء غيره، و كان عزيزا و لا عزّ، لأنّه كان قبل عزّه، و ذلك قوله تعالى: سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۳۹۱] و كان خالقا و لا مخلوق»

و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة (و هو إشارة إلى انّ ما قاله لك أولئك النفر لا يخلو من شرك و هو مشمول لهذه الآية،

فإنّ اللّه عزّ و جلّ كان قادرا و عالما و عزيزا منذ الأزل).

نهاية سورة الصافات***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۷

سورة ص

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمان و ثمانون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۳۹

سورة (ص)

محتويات السورة:

سورة (ص) يمكن اعتبارها مكمّلة لسورة الصافات، فمجمل مواضيعها يشابه كثيرا ما ورد فى سورة الصافات، و لكون السورة مكيّة النّزول فإن خصائصها كخصائص بقيّة السور المكيّة التى تبحث فى مجال البدء و المعاد و رسالة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما أنّها تحتوى على مواضيع حسّاسة اخرى، و فى المجموع بمثابة الدواء الشافى لكلّ الباحثين عن طريق الحقّ.

و يمكن تلخيص محتويات هذه الآية فى خمس أقسام:

الأوّل: يتحدّث عن مسألة التوحيد و الجهاد ضدّ الشرك و المشركين، و مهمّة نبوّة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عناد و لجاجة الأعداء تجاه الأمرين المذكورين أعلاه.

الثانى: يعكس جوانب من تأريخ تسع من أنبياء اللّه و من بينهم (داود) و (سليمان) و (أيّوب) حيث تتحدّث عنهم السورة أكثر من غيرهم، و يعكس- أيضا- المشكلات التى عانوا منها فى حياتهم و خلال دعوتهم الناس إلى اللّه. و ذلك لكى تكون درسا مفيدا يتّعظ منه المؤمنون الأوائل الذين كانوا فى ذاك الوقت يرزحون تحت أشدّ الضغوط من قبل المشركين.

الثالث: يتطرّق إلى مصير الكفرة الطغاة يوم القيامة و مجادلة بعضهم البعض فى جهنّم، و يبيّن للمشركين و للذين لا يؤمنون باللّه إلى أين ستؤدّى بهم أعمالهم.

الرابع: يتناول مسألة خلق الإنسان و علوّ مقامه و سجود الملائكة له، و يكشف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۰

عن الفاصل الكبير الموجود بين سمو الإنسان و انحطاطه، كى يفهم هؤلاء المعاندون قيمة وجودهم، و أن يعيدوا النظر فى نظمهم المنحرفة ليخرجوا من زمرة الشياطين.

القسم الخامس و الأخير: يتوعّد الأعداء المغرورين بالعذاب، و يواسى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و يبيّن هذه الحقيقة، و هى أنّ النّبى لا يريد جزاء من أحد مقابل دعوته، و لا يريد الشقاء و الأذى لأحد.

فضيلة تلاوة سورة (ص)

ورد فى أحد الروايات عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من قرأ سورة (ص) اعطى من الأجر بوزن كلّ جبل سخّره اللّه لداود حسنات عصمه اللّه أن يصرّ على ذنب صغيرا أو كبيرا»[۳۹۲].

كما

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام «من قرأ سورة (ص) فى ليلة الجمعة اعطى من خير الدنيا و الآخرة ما لم يعط أحد من الناس إلّا نبى مرسل أو ملك مقرّب، و أدخله اللّه الجنّة و كلّ من أحبّ من أهل بيته حتّى خادمه الذى يخدمه»[۳۹۳]

فإذا وضعنا محتوى هذه السورة إلى جانب فضلها و ثوابها، يتّضح لنا الارتباط و العلاقة الموجودة بين أجرها و ثوابها مع محتواها، و نؤكّد مرّة اخرى على هذه الحقيقة، و هى أنّ المراد من التلاوة هنا ليست تلك التلاوة الجافّة و الخالية من الروح، و إنّما التلاوة التى ترافق التفكير العميق و التصميم الجدّى، الذين يدفعان الإنسان إلى العمل بما جاء فى هذه السورة المباركة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۱

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ (۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ (۲) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ (۳)

أسباب النّزول

وردت فى كتب التّفسير و الحديث أسباب متشابهة لنزول الآيات الاولى من هذه السورة، و سنستعرض أحد هذه الأسباب لكونه مفصّلا و جامعا أكثر من الأسباب الاخرى،

ففى حديث نقله المرحوم العلّامة الكلينى عن الإمام الباقر عليه السّلام جاء فيه: «أقبل أبو جهل بن هشام و معه قوم من قريش فدخلوا على أبى طالب فقالوا: إنّ ابن أخيك قد آذانا و آذى آلهتنا، فادعه و مره فليكفّ عن آلهتنا و نكفّ عن إلهه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۴۴۱

فبعث أبو طالب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فدعاه، فلمّا دخل النّبى لم ير فى البيت إلّا مشركا فقال: (السلام على من اتّبع الهدى) ثمّ جلس فخبّره أبو طالب بما جاؤوا به، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أو هل لهم فى كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم»؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۲

فقال أبو جهل: نعم و ما هذه الكلمة؟

قال: «تقولون: لا إله إلّا اللّه».

و ما إن سمعوا هذه الكلمات حتّى وضعوا أصابعهم فى آذانهم و خرجوا و هم يقولون: ما سمعنا بهذا فى الملّة الآخرة إنّ هذا إلّا اختلاق، فأنزل اللّه فى قولهم:

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ- إلى قوله- إِلَّا اخْتِلاقٌ ۳۹۴].

التّفسير

انقضاء مهلة النّجاة:

مرّة اخرى تمرّ علينا سورة تبدأ آياتها الاولى بحروف مقطّعة و هو حرف ص و يطرح نفس السؤال السابق بشأن تفسير هذه الحروف المقطّعة: هل هذه إشارة إلى عظمة القرآن المجيد الذى يتألّف من مثل هذه الحروف المتيسّرة فى متناول الجميع كالحروف الهجائية، و الذى غيّرت محتوياته مجرى حياة الإنسانية فى هذا العالم ...

و أنّ قدرة اللّه العظمية هى التى أوجدت من هذه الحروف البسيطة تركيبا رائعا عظيما هو القرآن المجيد كلام اللّه، أم أنّها إشارة إلى رموز و أسرار بين اللّه سبحانه و تعالى و أنبيائه ..

أمّ أنّها تعنى أمورا أخرى؟

مجموعة من المفسّرين اعتبرت هنا حرف (ص) رمزا يشير إلى أحد أسماء اللّه، و ذلك لأنّ الكثير من أسمائه تبدأ بحرف الصاد مثل (صادق)، (صمد)، (صانع) أو أنّه إشارة إلى (صدق اللّه) التى اختصرت بحرف واحد.

و لا بدّ أنّكم طالعتم تفسير هذه الحروف المقطّعة بصورة مفصّلة فى تفسير بدايات آيات سور (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۳

ثمّ يقسم اللّه تعالى بالقرآن ذى الذكر و الّذى هو حقّا معجزة إلهيّة وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ[۳۹۵].

فالقرآن ذكر و يشتمل على الذكر، و الذكر يعنى التذكير و صقل القلوب من صدأ الغفلة، تذكّر اللّه، و تذكّر نعمه، و تذكّر محكمته الكبرى يوم القيامة، و تذكّر هدف خلق الإنسان.

نعم، فالنسيان و الغفلة هما من أهمّ عوامل تعاسة الإنسان، و القرآن الكريم خير دواء لعلاجهما.

فالقرآن الكريم يقول بشأن المنافقين فى الآية (۶۷) من سورة التوبة: نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ أى إنّهم نسوا اللّه، و اللّه فى المقابل نسيهم و قطع رحمته عنهم.

و نقرأ فى نفس هذه السورة الآية (۲۶) عن الضالّين، قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ

نعم، فالنسيان هو الابتلاء الكبير الذى ابتلى به الضالّون و المذنبون، حتّى أنّهم نسوا أنفسهم و قيمة وجودها، كما قال القرآن الكريم، كلام اللّه الناطق وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ [۳۹۶] فالقرآن خير وسيلة لتمزيق حجب النسيان، و هو نور لإزالة الظلمات و الغفلة و النسيان، حيث إنّ آياته تذكّر الإنسان باللّه و بالمعاد، و تعرّف الإنسان قيمة وجوده فى هذه الحياة.

الآية التالية تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إذا رأيت هؤلاء لا يستسلمون لآيات اللّه الواضحة و لقرآنه المجيد، فاعلم أنّ سبب هذا لا يعود إلى أنّ هناك ستارا يغطّى كلام الحقّ، و إنّما هم مبتلون بالتكبّر و الغرور اللذين يمنعان الكافرين من قبول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۴

الحقّ، كما أنّ عنادهم و عصيانهم- هما أيضا- مانع يحول دون تقبّلهم لدعوتك بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقاقٍ

«العزّة» كما قال الراغب فى مفرداته، هى حالة تحوّل دون هزيمة الإنسان (حالة الذى لا يقهر) و هى مشتقّة من (عزاز) و تعنى الأرض الصلبة المتينة التى لا ينفذ الماء خلالها، و تعطى معنيين، فأحيانا تعنى (العزّة الممدوحة) المحترمة، كما فى وصف ذات اللّه الطاهر بالعزيز، و أحيانا تعنى (العزّة بالإثم) أى الوقوف بوجه الحقّ و التكبّر عن قبول الواقع، و هذه العزّة مذلّة فى حقيقة الأمر.

«شقاق» مشتقّة من (شقّ)، و معناه واضح، ثمّ استعمل فى معنى المخالفة، لأنّ الاختلاف يسبّب فى أن تقف كلّ مجموعة فى شقّ، أى فى جانب.

القرآن هنا يعدّ مسألة العجرفة و التكبّر و الغرور و طىّ طريق الانفصال و التفرقة من أسباب تعاسة الكافرين، نعم هذه الصفات القبيحة

و السيّئة تعمى عين الإنسان و تصمّ آذانه، و تفقده إحساسه، و كم هو مؤلم أن يكون للإنسان عيون تبصر و آذان تسمع و لكنّه يبدو كالأعمى و الأصم.

فالآية (۲۰۶) من سورة البقرة تقول: وَ إِذا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَ لَبِئْسَ الْمِهادُ أى عند ما يقال للمنافق: اتّق اللّه، تأخذه العصبية و الغرور و اللجاجة، و تؤدّى به إلى التوغّل فى الذنب و السقوط فى نار جهنّم و إنّها لبئس المكان.

و لإيقاظ أولئك المغرورين المغفّلين، يرجع بهم القرآن الكريم إلى ماضى تأريخ البشر، ليريهم مصير الأمم المغرورة و المتكبرة، كى يتّعظوا و يأخذوا العبر منها و كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ

أى إنّ امما كثيرة كانت قبلهم قد أهلكناها (بسبب تكذيبها الأنبياء، و إنكارها آيات اللّه، و ظلمها و ارتكابها للذنوب) و كانت تستغيث بصوت عال عند نزول العذاب عليها، و لكن ما الفائدة فقد تأخّر الوقت! و لم يبق أمامهم متّسع من الوقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۵

لإنقاذ أنفسهم فَنادَوْا وَ لاتَ حِينَ مَناصٍ

فعند ما كان أنبياء اللّه فى السابق يعظونهم و يحذّرونهم عواقب أعمالهم القبيحة، لم يكتفوا بصمّ آذانهم و عدم الاستماع، و إنّما كانوا يستهزئون و يسخرون من الأنبياء و يعذّبون المؤمنين و يقتلونهم، فبذلك أضاعوا الفرصة و دمّروا كلّ الجسور التى خلفهم، فنزل العذاب الإلهى ليهلكهم جميعا، العذاب الذى رافقه انغلاق باب التوبة و العودة، وفور نزوله تبدأ أصوات الاستغاثة تتعالى، و التى لا تغنى عنهم يومئذ شيئا.

و كلمة (لات) جاءت للنفى، و هى فى الأصل (لا) نافية أضيفت إليها (تاء) التأنيث، لتعطى معنى التأكيد[۳۹۷].

«مناص» من مادّة (نوص) و تعنى الملاذ و الملجأ، و يقال: إنّ العرب عند ما كانت تقع لهم حادثة صعبة و رهيبة، و خاصّة فى الحروب كانوا يكرّرون هذه الكلمة و يقولون (مناص ... مناص) أى: أين الملاذ؟ أين الملاذ؟ و لأنّ هذا المفهوم يتناسب مع معنى الفرار، و أحيانا تأتى بمعنى إلى أين الفرار[۳۹۸].

على أيّة حال، فإنّ أولئك المغرورين المغفّلين لم يستفيدوا من الفرصة التى كانت بأيديهم للجوء إلى أحضان الرحمة و اللطف الإلهى، و عند ما أضاعوا الفرصة و نزل عليهم العذاب الإلهى، أخذوا ينادون و يستغيثون و يبذلون الجهد للعثور على طريق نجاة لهم، و لكن كلّ هذه الجهود تبوء بالفشل، حيث أنّهم مهما بذلوا من جهد و مهما استغاثوا فإنّهم لا يصلون إلى مقصدهم.

هذه كانت سنّة اللّه مع كلّ الأمم السابقة، و ستبقى كذلك، لأنّ سنّة اللّه لا تتغيّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۶

و لا تتبدّل.

و من المؤسف أنّ الناس- على الأغلب- غير مستعدّين للاتّعاظ من تجارب الآخرين، و كأنّهم راغبون فى تكرار تلك التجارب المرّة، التجارب التى تقع أحيانا مرّة واحدة فى طول عمر الإنسان، و لا تتكرّر ثانية، و بصورة أوضح: إنّها الاولى و الأخيرة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۴) أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (۵) وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ

مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (۶) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (۷)

أسباب النّزول

سبب نزول هذه الآيات يشبه سبب نزول الآيات السابقة، و غير مستبعد أن يكون هناك سبب واحد لنزول كلّ تلك الآيات.

و لكن بما أنّ سبب النّزول المذكور لهذه الآيات يحوى مطالب جديدة، نذكره كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم، حيث جاء فيه:

بعد أن أظهر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الدعوة، اجتمعت قريش إلى أبى طالب فقالوا: يا أبا طالب، إنّ ابن أخيك قد سفه أحلامنا، و سبّ آلهتنا، و أفسد شبابنا، و فرّق جماعتنا، فإن كان الذى يحمله على ذلك العدم، جمعنا له حالا حتّى يكون أغنى رجل فى قريش، و نملكه علينا.

فأخبر أبو طالب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فأجابه رسول اللّه قائلا: «لو وضعوا الشمس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۸

فى يمينى و القمر فى يسارى ما تركته، و لكن كلمة يعطونى يملكون بها العرب و تدين بها العجم و يكونون ملوكا فى الجنّة».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم و عشرة كلمات بدلا من واحدة، أى كلمة تقصد أنت؟

فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «تشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّى رسول اللّه».

تضايقوا كثيرا عند سماعهم هذا الجواب، و قالوا: ندع ثلاث مائة و ستّين إلها و نعبد إلها واحدا؟ إنّه لأمر عجيب؟ نعبد إلها واحدا لا يمكن مشاهدته و رؤيته.

و هنا نزلت هذه الآيات المباركة بل وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ ... إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ ۳۹۹].

هذا المعنى

ورد أيضا فى تفسير مجمع البيان مع اختلاف بسيط، إذ ذكر صاحب تفسير مجمع البيان فى آخر الرواية أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استعبر بعد أن سمع جواب زعماء قريش و قال: «يا عمّ و اللّه لو وضعت الشمس فى يمينى و القمر فى شمالى ما تركت هذا القول حتّى أنفذه أو اقتل دونه»

فقال له أبو طالب: امض لأمرك، فو اللّه لا أخذلك أبدا[۴۰۰].

***

التّفسير

هل يمكن قبول إله واحد بدلا من كلّ تلك الآلهة؟

المغرورون و المتكبّرون لا يعترفون بأمر لا يلائم أفكارهم المحدودة و الناقصة، إذ يعتبرون أفكارهم المحدودة و الناقصة مقياسا لكلّ القيم. لذا فعند ما رفع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لواء التوحيد فى مكّة، و أعلن الانتفاضة ضدّ الأصنام الكبيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۴۹

و الصغيرة فى الكعبة، و البالغ عددها (۳۶۰) صنما، تعجّبوا: لماذا جاءهم النذير من بينهم؟ وَ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ

كان تعجّبهم بسبب أنّ محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رجل منهم .. فلما ذا لم تنزل ملائكة من السماء بالرسالة؟ .. هؤلاء تصوّروا أنّ نقطة القوّة هذه نقطة ضعف، فالذى يبعث من بين قوم، هو أدرى باحتياجات و آلام قومه، كما أنّه أعرف بمشكلاتهم و تفصيلات

حياتهم، و يمكن أن يكون لهم أسوة و قدوة، إلّا أنّهم اعتبروا هذا الامتياز الكبير نقطة سلبية فى دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعجّبوا من أمر بعثته إليهم.

و أحيانا كانوا يجتازون مرحلة التعجّب إلى مرحلة اتّهام رسول اللّه بالسحر و الكذب وَ قالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ

و قلنا عدّة مرّات: إنّ اتّهامهم الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالسحر، إنّما نتج من جرّاء رؤيتهم لمعجزاته التى لا تقبل الإنكار و تنفذ بصورة مدهشة إلى أفكار المجتمع، و اتّهامه بالكذب بسبب تحدّثه بأمور تخالف سنّتهم الخرافية و أفكارهم الجاهلية التى كانت جزءا من الأمور المسلّم بها فى ذلك المجتمع، و ادّعاء الرسالة من اللّه.

و عند ما أظهر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعوته لتوحيد اللّه، أخذ أحدهم ينظر للآخر و يقول له: تعالى و اسمع العجب العجاب أَ جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ ۴۰۱].

نعم، فالغرور و التكبّر إضافة إلى فساد المجتمع، تساهم جميعا فى تغيّر بصيرة الإنسان، و جعله متعجّبا من بعض الأمور الواقعية و الواضحة، فى حين يصرّ بشدّة على التمسّك ببعض الخرافات و الأوهام الواهية.

و كلمة (عجاب) على وزن (تراب) تعطى معنى المبالغة، و تقال لأمر عجيب مفرط فى العجب.

فالسفهاء من قريش كانوا يعتقدون أنّه كلّما ازدادت عدد آلهتهم إزداد نفوذهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۰

و قدرتهم، و لهذا السبب فإنّ وجود إله واحد يعدّ قليلا من وجهة نظرهم، فى حين- كما هو معلوم- أنّ الأشياء المتعدّدة من وجهة النظر الفلسفية تكون دائما محدودة، و الوجود اللامحدود واحد لا أكثر، و لهذا السبب فإنّ كلّ الدراسات فى معرفة اللّه تنتهى إلى توحيده.

و بعد أن يئس طغاة قريش من توسّط أبى طالب فى الأمر و فقدوا الأمل، خرجوا من بيته، ثمّ انطلقوا و قال بعضهم لبعض، أو قالوا لأتباعهم: اذهبوا و تمسّكوا أكثر بآلهتكم، و اصبروا على دينكم، و تحمّلوا المشاق لأجله، لأنّ هدف محمّد هو جرّ مجتمعنا إلى الفساد و الضياع و زوال النعمة الإلهية عنّا بسبب تركنا الأصنام، و إنّه يريد أن يترأس علينا وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ.

«انطلق» مشتقّة من (انطلاق) و تعنى الذهاب بسرعة و التحرّر من عمل سابق، و هنا تشير إلى تركهم مجلس أبى طالب و علامات الضجر و الغضب بادية عليهم.

و (الملأ) إشارة إلى أشراف قريش المعروفين الذين ذهبوا إلى أبى طالب، و بعد خروجهم من بيته تحدّث بعضهم لبعض أو لأتباعهم أن لا تتركوا عبادة أصنامكم و أثبتوا على عبادة آلهتكم.

و جملة لَشَيْءٌ يُرادُ تعنى أنّ هناك أمرا يراد بنا. و لكونها جملة غامضة بعض الشيء، فقد ذكر المفسّرون لها تفاسير عديدة، منها: أنّها إشارة إلى دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إذ اعتبرت قريش هذه الدعوة مؤامرة ضدّها، و قالت: إنّ ظاهرها يدعو إلى اللّه، و باطنها يهدف إلى السيادة و الرئاسة علينا و على العرب، و ما هذه الدعوة إلّا ذريعة لتنفيذ ذلك الأمر، أى السيادة و الرئاسة، و دعت الناس إلى التمسّك أكثر بعبادة الأصنام، و ترك تحليل أمر هذه المؤامرة إلى زعماء القوم، و هذا الأسلوب طالما لجأ إليه أئمّة الضلال لإسكات أصوات السائرين فى طريق الحقّ، إذ يطلقون على الدعوة إلى اللّه لفظة (مؤامرة) المؤامرة التى يجب أن يتولّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۱

رجال السياسة تحليلها بدقّة لوضع الخطط و البرامج المنظّمة لمواجهتها، و أن يمرّ بها عامة الناس مرّ الكرام من دون أن يعيروا لها أى اهتمام، و أن يتمسّكوا أكثر بما عندهم، أى بأصنامهم.

و نظير هذا الحديث ورد فى قصّة نوح، عند ما قال الملأ من قوم نوح لعامّتهم ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ [۴۰۲] و

ذهب آخرون إلى أنّ المقصود من هذه العبارة هو: يا عبدة الأصنام أثبتوا و استقيموا على آلهتكم، لأنّ هذا هو المطلوب منكم.

أمّا البعض الآخر فقد قال: المقصود هو أنّ محمّدا يستهدفنا نحن، و أنّه يريد جرّ مجتمعنا إلى الفساد من خلال تركنا لآلهتنا، و فى نهاية الأمر ستزال النعم عنّا و ينزل علينا العذاب! فيما احتمل البعض الآخر أنّ المراد هو أنّ محمّدا لن يتوقّف عن دعوته و أنّه مصمّم على نشرها بعزم راسخ، و لهذا فإنّ المحادثات معه عقيمة، فاذهبوا و تمسّكوا أكثر بعقائدهم.

و أخيرا احتمل بعض المفسّرين أنّ المقصود هو أنّ المصيبة ستحلّ بنا، و على أيّة حال، علينا أن نتهيّأ لها و أن نتمسّك أكثر بسنّتنا.

و بالطبع، لكون هذه الجملة لها مفهوم عامّ، فإنّ أغلب التفاسير يمكن أن تعطى المعنى المطلوب، رغم أنّ التّفسير الأوّل يعدّ أنسب من بقيّة التفاسير.

و على أيّة حال، فإنّ زعماء المشركين أرادوا بهذا القول تقوية المعنويات المنهارة لأتباعهم، و الحيلولة دون تزعزع معتقداتهم أكثر، و لكن كلّ مساعيهم ذهبت أدراج الرياح.

و لخداع عوامّ الناس و إقناع أنفسهم، قال زعماء المشركين ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۲

فلو كان ادّعاء التوحيد و ترك عبادة الأصنام أمرا واقعيّا لكان آباؤنا الذين كانوا بتلك العظمة و الشخصيّة قد أدركوا ذلك، و كنّا قد سمعنا ذلك منهم، لذا فهو مجرّد حديث كاذب و ليست له سابقة.

و عبارة الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ يحتمل أنّها تشير إلى جيل آبائهم باعتباره آخر جيل بالنسبة لهم، و يمكن أن تكون إشارة إلى أهل الكتاب و خاصّة (النصارى) الذين كانوا آخر الملل، و دينهم كان آخر الأديان قبل ظهور نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى إنّنا لم نعثر فى كتب النصارى على شيء ممّا يقوله محمّد، و ذلك لأنّ كتب النصارى كانت تقول بالتثليث، أمّا التوحيد الذى دعا إليه محمّد فإنّه أمر جديد.

و لكن يتّضح من آيات القرآن الكريم أنّ عرب الجاهلية لم يكونوا معتمدين على كتب اليهود و النصارى، و إنّما اعتمادهم الأساس كان على سنن و شرائع أجدادهم و آبائهم، و هذا دليل على صحّة التّفسير الأوّل.

«اختلاق» مشتقّة من (خلق) و تعنى إبداء أمر لم تكن له سابقة، كما تطلق هذه الكلمة على الكذب، و ذلك لأنّ الكذّاب غالبا ما يطرح مواضيع لا وجود لها، و لهذا فإنّ المراد من كلمة (اختلاق) فى الآية- مورد البحث- أنّ التوحيد الذى دعا إليه هذا النبىّ مجهول بالنسبة لنا و لآبائنا الأوّلين، و هذا دليل على بطلانه.

***

ملاحظة

الخوف من الجديد!

الخوف من القضايا و الأمور المستحدثة و الجديدة كانت- على طول التاريخ- أحد الأسباب المهمّة التى تقف وراء إصرار الأمم الضالّة على انحرافاتها، و عدم استسلامها لدعوات أنبياء اللّه، إذ أنّهم يخافون من كلّ جديد، و لهذا كانوا ينظرون لشرائع الأنبياء بنظرة سيّئة جدّا، و حتّى الآن هناك امم كثيرة تحمل آثارا من هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۳

التفكير الجاهلى، فى الوقت الذى لم تكن فيه دعوة الرسل للتوحيد أمرا جديدا، و لا يمكن أن تكون حداثة الشيء دليلا على بطلانه،

فيجب أن نتّبع المنطق، و نستسلم للحقّ أينما كان و ممّن كان.

و الأمر العجيب أنّ مسألة الخوف من الأمر الجديد- مع شديد الأسف- قد طالت بعض العلماء أيضا- إذ يتّخذون موقفا معارضا للنظريات العلمية الحديثة و يقولون: إِنْ هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ

و هذا الأمر شوهد بصورة خاصّة فى تأريخ الكنيسة المسيحية، إذ أنّهم كانوا يتّخذون مواقف سلبية تجاه الاكتشافات العلمية لعلماء الطبيعة، و كان أحدهم «غاليلو» إذ تعرّض لأشدّ هجمات الكنيسة على أثر إعلانه عن أنّ الأرض تدور حول الشمس و حول نفسها، حيث كانوا يقولون: إنّ هذا الكلام بدعة.

و أكثر ما يثير العجب أنّ بعض العلماء الكبار، كانوا عند ما يتوصّلون إلى حقائق علمية جديدة، يعمدون إلى البحث فى امّهات الكتب لعلّهم يعثرون على علماء سابقين يوافقونهم فى الرأى، و ذلك خوفا من تعرضهم لهجمات المعارضين و بهذا الأسلوب استطاع كثير من العلماء إبداء وجهة نظرهم و كأنّها قديمة و ليست بجديدة، و هذا أمر مؤلم جدّا.

و مثال هذا الحديث يمكن مشاهدته فى كتاب (الأسفار) فيما ورد عن النظرية المعروفة ب (الحركة الجوهرية) لصدر المتألهين الشيرازى.

على أيّة حال فإنّ طريقة التعامل مع القضايا الحديثة و الابتكارات الجديدة أدّى إلى وقوع خسائر كبيرة فى المجتمع الإنسانى و فى عالم العلم و المعرفة، و على أصحاب العلاقة أن يعملوا بجدّ لإصلاح هذا الأمر، و إزالة الرسوبات الجاهلية من أفكار الرأى العامّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۴

إلّا أنّ هذا الحديث لا يعنى قبول كلّ رأى جديد لكونه جديدا، حتّى و لو كان بلا أساس، إذ يصبح حينئذ نفس التمسّك بالجديد بلاء عظيما كعشق القديم، فالاعتدال الإسلامى يدعونا إلى عدم الإفراط أو التفريط فى العمل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۵

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۸ الى ۱۱]

اشارة

أَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (۸) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (۹) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (۱۰) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (۱۱)

التّفسير

الجيش المهزوم:

الآيات السابقة تحدّثت عن المواقف السلبية التى اتّخذها المعارضون لنهج التوحيد و الإسلام، و نواصل فى هذه الآيات الحديث عن مواقف المشركين.

فمشركو مكّة بعد ما أحسّوا أنّ مصالحهم اللامشروعة باتت فى خطر، و إثر تزايد اشتعال نيران الحقد و الحسد فى قلوبهم، و من أجلّ خداع الناس و إقناع أنفسهم عمدوا إلى مختلف الادّعاءات بمنطق زائف لمحاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و منها سؤالهم بتعجّب و إنكار أ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا.

ألم يجد اللّه شخصا آخر لينزل عليه قرآنه، غير محمّد اليتيم و الفقير- خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۶

و أنّ فينا الكثير من الشيبة و كبار السنّ الأثرياء المعروفون.

هذا المنطق لم يكن منحصرا بذلك الزمان فقط، و إنّما يتعدّاه إلى كلّ عصر و زمان، و حتّى فى زماننا، فإن تولّى شخص ما مسئولية مهمّة طفحت قلوب الآخرين بالغيظ و الحسد، و بدأت ألسنتهم بالثرثرة و توجيه النقد و الطعن: ألم يكن هناك شخص آخر حتّى توكّل هذه المهمة بالشخص الفلانى الذى هو من عائلة فقيرة و غير معروفة؟

نعم، فأهل الكتاب من اليهود و النصارى يشتركون بعض الشىء مع المسلمين، و لكن حبّ الدنيا من جهة، و حسدهم من جهة اخرى، تسبّبا فى أنّ يبتعدوا عن الإسلام و القرآن، و يقولوا إلى عبدة الأصنام: إنّ الطريق الذى تسلكونه أفضل من الطريق الذى سلكه المؤمنون أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا.[۴۰۳] من البديهى أنّ إشكال التعجّب و الإنكار المتولّدة عن الخطأ فى «تحديد القيم» إضافة إلى الحسد و حبّ الدنيا، لا يمكن أن تكون معيارا منطقيا فى القضاء، فهل أنّ شخصيّة الإنسان تحدّد باسمه أو مقدار ماله أو مقامه أو حتّى سنّه؟ و هل أنّ الرحمة الإلهيّة تقسّم على أساس هذا المعيار؟

لهذا فإنّ تتمّة الآية تقول: إنّ مرض أولئك شىء آخر، إنّهم فى حقيقة الأمر يشكّكون فى أمر الوحى و أمر اللّه بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي

ملاحظاتهم التى لا قيمة لها على شخصيّة الرّسول ما هى إلّا أعذار واهية، و شكّهم و تردّدهم فى هذه المسألة ليس بسبب وجود إبهام فى القرآن المجيد، و إنّما بسبب أهوائهم النفسية و حبّ الدنيا و حسدهم.

و فى نهاية الأمر فإنّ القرآن الكريم يهدّدهم بهذه الآية بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أى إنّ هؤلاء لم يذوقوا العذاب الإلهى، و لهذا السبب جسروا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۷

و دخلوا المعركة ضدّ الوحى الإلهى بهذا المنطق الأجوف.

نعم، فهناك مجموعة من الناس لا ينفع معها المنطق و الكلام، و لكن سوط العذاب هو الوحيد الذى يحطّ من تكبّرهم و غرورهم، لذا يجب أن يعاقب أولئك بالعقاب الإلهى كى يشفوا من مرضهم.

و يضيف القرآن الكريم فى الردّ عليهم: هل يمتلكون خزائن الرحمة الإلهيّة كى يهبوا أمر النبوّة لمن يرغبون فيه، و يمنعونها عمّن لا يرغبون فيه؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ

فاللّه سبحانه و تعالى بمقتضى كونه (ربّ) هذا الكون و مالكه، و بارئ عالم الوجود و عالم الإنسانية، ينتخب لتحمل رسالته شخصا يستطيع قيادة الأمّة إلى طريق التكامل و التربية. و بمقتضى كونه (العزيز) فإنّه لا يقع تحت تأثير الآخرين و يسلّم مقام الرسالة إلى أشخاص غير لائقين، فمقام النبوّة عظيم، و اللّه سبحانه و تعالى هو صاحب القرار فى منحه. و لكونه (الوهّاب) فإنّه ينفذ أىّ شىء يريده، و يمنح مقام النبوّة لكلّ من يرى فيه القدرة على تحمّله.

ممّا يذكر أنّ كلمة (الوهّاب) جاءت بصيغة المبالغة، و تعنى كثير المنح و العطايا، و هى هنا تشير إلى أنّ النبوّة ليست نعمة واحدة، و إنّما هى نعم متعدّدة، تتّحد فيما بينها لتمكّن صاحب هذا المقام الرفيع من أداء مهمّته، و هذه النعم تشمل العلم و التقوى و العصمة و الشجاعة و الشهامة.

و نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة الزخرف نظير هذا الكلام، قال تعالى: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ أى إنّهم يشكلون عليك بسبب نزول القرآن عليك، فهل أنّهم هم المسؤولون عن تقسيم رحمة ربّ العالمين؟

هذا و يمكن الاستفادة من كلمة (رحمة) هنا فى أنّ النبوّة إنّما هى رحمة و لطف ربّ العالمين بعالم الإنسانية، و حقّا هى كذلك، فلو لا بعث الأنبياء لخسر الناس الدنيا و الآخرة، كما خسرها أولئك الذين ابتعدوا عن نهج الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۸

الآية اللاحقة واصلت تناول نفس الموضوع، و لكن من جانب آخر، حيث قالت: أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ

هذا الكلام فى حقيقته يعدّ مكمّلا للبحث السابق، إذ جاء فى الآية السابقة: إنّكم لا تمتلكون خزائن الرحمة الإلهية، كى تمنحوها لمن تنسجم أهواؤه مع أهوائكم، و الآن تقول الآية التالية لها: بعد أن تبيّن أنّ هذه الخزائن ليست بيدكم، و إنّما هى تحت تصرّف البارئ عزّ و جلّ، إذن فليس أمامكم غير طريق واحد، و هو أن ترتقوا إلى السماوات لتمنعوا الوحى أن ينزل على رسول اللّه و إنّكم تعرفون أنّ تحقيق هذا الأمر شيء محال، و أنتم عاجزون عن تنفيذه.

و على هذا، فلا «المقتضى» تحت اختياركم، و لا القدرة على إيجاد «المانع»، فما ذا يمكنكم فعله فى هذا الحال؟ إذا، موتوا بغيظكم و حسدكم، و افعلوا ما شئتم ..

و بهذا الشكل فإنّ الآيتين لا تكرّران موضوعا واحدا كما توهّمه مجموعة من المفسّرين، بل إنّ كلّ واحدة منهما تتناول جانبا من جوانب الموضوع.

الآية الأخيرة فى بحثنا جاءت بمثابة تحقير لأولئك المغرورين السفهاء، قال تعالى: جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ ۴۰۴] فهؤلاء جنود قلائل مهزومين ..

«هنالك» إشارة للبعيد، و بسبب وجودها فى الآية، فقد اعتبر بعض المفسّرين أنّها إشارة إلى هزيمة المشركين فى معركة بدر، التى دارت رحاها فى منطقة بعيدة بعض الشيء عن مكّة المكرّمة.

و استخدام كلمة (الأحزاب) هنا إشارة حسب الظاهر إلى كلّ المجموعات التى وقفت ضدّ رسل اللّه، و الذين أبادهم البارى عزّ و جلّ، و مجتمع مكّة المشرك هو مجموعة صغيرة من تلك المجموعات، و الذى سيبتلى بما ابتلوا به (الشاهد على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۵۹

هذا الحديث هو ما سيرد فى الآيات القادمة التى تتطرّق لهذه المسألة).

و لا ننسى أنّ هذه السورة من السور المكيّة، و نزلت فى وقت كان فيه عدد المسلمين قليلا جدّا، بحيث كان من اليسير على المشركين أن يبيدوهم بسهولة، قال تعالى: تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ [۴۰۵] و فى ذلك اليوم لم تكن هنالك أيّة دلائل توضّح إمكانية انتصار المسلمين، حيث لم تكن المعارك قد وقعت، و لا الانتصارات فى بدر و الأحزاب و حنين قد تحقّقت.

و لكن القرآن قال بحزم إنّ هؤلاء الأعداء- الذين هم مجموعة صغيرة- سيهزمون فى نهاية المطاف.

و اليوم يبشّر القرآن الكريم مسلمى العالم المحاصرين من كلّ الجهات من قبل القوى المعتدية و الظالمة بنفس البشائر التى بشّر بها المسلمين قبل (۱۴۰۰) عام، فى أنّ اللّه سبحانه و تعالى سينجز وعده فى هزيمة جند الأحزاب، إن تمسّك مسلمو اليوم بعهودهم تجاه اللّه كما تمسّك بها المسلمون الأوائل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۰

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱۲ الى ۱۶]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (۱۲) وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (۱۳) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (۱۴) وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ (۱۵) وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (۱۶)

التّفسير

تكفيهم صيحة سماوية واحدة:

تتمّة للآية الآنفة الذكر، التى بشّرت بهزيمة المشركين مستقبلا، و وصفتهم بأنّهم مجموعة صغيرة من الأحزاب، تناولت آيات بحثنا الحالى بعض الأحزاب التى كذّبت رسلها، و بيّنت المصير الأليم الذى كان بانتظارها.

إذ تقول، إنّ أقوام نوح و عاد و فرعون ذى الأوتاد كانت قد كذّبت قبلهم بآيات اللّه و رسله كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ.

كذلك أقوام ثمود و لوط و أصحاب الأيكة- أى قوم شعيب- كانت هى الاخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۱

قد كذّبت رسلهم وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ ۴۰۶].

نعم، هذه هى ستّة مجاميع من أحزاب الجهل و عبادة الأصنام، التى عملت ضدّ أنبياء اللّه، و رفضت قبول ما جاؤوا به من عند اللّه.

فقوم نوح واجهوا هذا النّبى العظيم.

و قوم عاد واجهوا نبىّ اللّه «هود».

و فرعون وقف ضدّ «موسى و هارون».

و قوم ثمود وقفوا بوجه «صالح».

و قوم لوط وقفوا بوجه نبى اللّه «لوط».

و أصحاب الأيكة واجهوا نبى اللّه «لوط ۲.

و أصحاب الأيكة واجهوا نبى اللّه «شعيب».

إذ كذّبوا و آذوا أنبياء اللّه و المؤمنين و بذلوا فى ذلك قصارى جهودهم، و لكن فى نهاية الأمر نزل عليهم العذاب الإلهى و جعلهم كعصف مأكول.

فقوم نوح أبيدوا بالطوفان و سيول الأمطار.

و قوم عاد أبيدوا بالأعاصير الشديدة.

و فرعون و أتباعه اغرقوا فى نهر النيل.

و قوم ثمود اهلكوا بالصيحة السماوية.

و قوم لوط بالزلزلة الرهيبة المقترنة بأمطار الحجارة السماوية.

و قوم شعيب ابيدوا بالصاعقة المهلكة التى نزلت عليهم من السحب الكثيفة التى غطّت سماء المنطقة، و بهذا الشكل فإنّ (الماء) و (الهواء) و (التراب) و (النار) التى تشكّل أسس حياة الإنسان، كانت السبب فى موت و إبادة تلك الأقوام الطائشة و العاصية، و جعلهم فى طى النسيان، حيث لم يبق لهم أىّ أثر. فعلى مشركى مكّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۲

أن يدركوا بأنّهم لا يعدّون سوى مجموعة صغيرة بالنسبة إلى تلك الأقوام، فلم لا يصحون من غفلتهم.

وصف (فرعون) ب (ذى الأوتاد) أى (صاحب الأوتاد القويّة) فى الآيات المذكورة أعلاه، و فى الآية (١٠) من سورة الفجر، كناية عن قوّة حكم فرعون و الفراعنة و ثباته، و تستعمل هذه الكناية بكثرة، فيقال: الشخص الفلانى أوتاده ثابتة، أو إنّ أوتاد هذا العمل ثابتة، أو إنّها مثبتة بأربعة أوتاد، و ذلك لأنّ الأوتاد دائما تستخدم لتثبيت أركان الخيمة.

و البعض اعتبرها إشارة إلى كثرة جيوش فرعون السائرة فى الأرض و كثرة أوتاد خيامهم.

و البعض الآخر قال: إنّها إشارة إلى التعذيب الوحشى الذى كان الفراعنة يعذّبون به معارضيهم، إذ كانوا يربطون الأشخاص بأربعة أوتاد على الأرض أو على الخشبة أو على الحائط، و كانوا يثبتون و تدين فى الرجلين، و و تدين آخرين فى اليدين و يتركون الشخص يتعذّب حتّى يموت.

و أخيرا، احتمل البعض أنّ الأوتاد تعنى الأهرامات الموجودة فى أرض مصر، و التى تقوم فى الأرض كالأوتاد، و لأنّ الفراعنة هم الذين بنوا الأهرامات، فإنّ هذا الوصف ينحصر بهم فقط.

على أيّة حال فإنّه لا يوجد أىّ اختلاف بين تلك الاحتمالات، و من الممكن جمعها لتعطى مفهوم هذه الكلمة.

أمّا (الأيكة) فإنّها تعنى الشجرة، و (أصحاب الأيكة) هم قوم نبى اللّه «شعيب» الذين كانوا يعيشون فى منطقة خضراء بين الحجاز و الشام، و قد تمّ التطرّق إليها بصورة موسّعة فى تفسير الآية (٧٨) فى سورة الحجرات.

نعم، فكلّ قوم من هذه الأقوام كذّب بما جاء به رسل اللّه، و أنزل العذاب الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۳

بحقّه إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ ۴۰۷].

و التأريخ بيّن كيف أنّ كلّ قوم من تلك الأقوام ابيد بشكل من أشكال العذاب، و كيف أنّ مدنهم تحوّلت إلى خرائب و أطلال خلال لحظات، و أصبح ساكنوها أجساد بلا أرواح!! فهل يتوقّع مشركو مكّة أن يكون مصيرهم أفضل من مصير أولئك من جرّاء الأعمال العدائية التى يقومون بها؟ فى حين أنّ أعمالهم هى نفس أعمال أولئك، و سنّة اللّه هى نفس تلك السنّة؟

لذا فإنّ الآية التالية تخاطبهم بلغة التهديد الحازمة و القاطعة: ما ينتظر هؤلاء من جرّاء أعمالهم إلّا صيحة سماوية واحدة تقضى عليهم و تهلكهم و ما لهم من رجوع، وَ ما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ فَواقٍ

يمكن أن تكون هذه الصيحة مماثلة للصيحات السابقة التى نزلت على الأقوام الماضية، كأن تكون صاعقة رهيبة أو زلزالا عنيفا يدمّر حياتهم و ينهيها.

و قد تكون إشارة إلى صيحة يوم القيامة، التى عبّر عنها القرآن الكريم ب (النفخة الاولى فى الصور).

اعترض بعض المفسّرين على التّفسير الأوّل، و اعتبروه مخالفا لما جاء فى الآية (٣٣) من سورة الأنفال التى تقول: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ

أمّا بالنظر إلى أنّ المشركين كانوا لا يعتقدون برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يؤمنون برسالته، بالإضافة إلى كون أعمالهم تشابه أعمال الأقوام السابقة التى أهلكت بالصيحات السماوية، لذا فعليهم أن يتوقّعوا مثل ذلك المصير و فى أىّ لحظة، لأنّ الآية تتحدّث عن (الانتظار).

كما اعترض آخرون على التّفسير الثانى بأنّ مشركى مكّة لن يبقوا أحياء حتّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۴

آخر الزمان كى تشملهم الصيحة.

و لكن هذا الاعتراض غير وارد، لنفس السبب الذى ذكرناه من قبل، و هو أنّه لا أحد من الناس يعلم لحظة نهاية العالم و قيام الساعة، و

لذا فعلى المشركين أن يترقّبوا لحظة بلحظة تلك الصيحة[۴۰۸].

على أيّة حال، فكأنّ أولئك الجهلة ينتظرون العذاب الإلهى جزاء تكذيبهم و إنكارهم لآيات اللّه سبحانه و تعالى، و تقوّلهم على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكلام لا يليق، و إصرارهم على عبادة الأصنام، و الظلم و إشاعة الفساد، العذاب الذى سيحرق حصيلة أعمارهم، أو الصيحة التى تنهى كلّ شىء فى العالم، و تؤدّى بأولئك إلى طريق لا رجعة فيه.

«فواق» على وزن (رواق) و قد ذكر أهل اللغة و التّفسير عدّة معان لها منها: أنّها الفاصل بين كلّ رضعتين، إذ بعد فترة معيّنة من حلب الثدى بصورة كاملة يعود فينزل إليه اللبن من جديد.

و قال البعض: إنّها الفاصل بين فتح الأصابع عن الثدى بعد حلبه و إعادتها لحلبه مرّة اخرى.

و بما أنّ الثدى يستريح قليلا بعد كلّ حلبة، فكلمة (فواق) يمكن أن تعطى معنى الهدوء و الراحة.

و بما أنّ هذه الفاصلة من أجل عودة الحليب مرّة اخرى إلى الثدى فإنّ هذه الكلمة تعطى مفهوم العودة و الرجوع، كما يقال للمريض الذى تتحسّن حالته الصحيّة بأن (أفاق) و ذلك لأنّه استعاد صحّته و سلامته، كما يقال لحالة السكران الذى يصحو من سكرته و للمجنون عند ما يستعيد عقله «إفاقة» عند عودتهما إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۵

الشعور و الإدراك و العقل ۴۰۹].

على أيّة حال، فالصيحة الرهيبة ليس بعدها رجوع و لا راحة و لا هدوء و لا إفاقة، ففور شروعها تغلق كلّ الأبواب أمام الإنسان، و لا ينفع الندم حينئذ، إذ لا مجال لإصلاح الماضى، و لا مجيب لصراخهم.

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى كلام آخر للكافرين حيث قالوا باستهزاء و سخريّة: ربّنا عجّل علينا العذاب قبل حلول يوم الحساب، وَ قالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ

فهؤلاء المغرورون بلغ بهم الغرور حتّى إلى الاستهزاء بعذاب اللّه و محكمته العادلة، و إلى القول: لم تأخّرت حصّتنا من العذاب؟! لماذا لا يوفّينا اللّه بسرعة حظّنا من العذاب؟

و الأقوام السابقة كانت تضمّ الكثير من أمثال هؤلاء السفهاء الذين نعقوا كالحيوانات فور نزول العذاب الإلهى عليهم، و لم يهتمّ لنعيقهم أحد.

«قط» على وزن (جنّ) تعنى قطع الشىء عرضا، فيما تعنى كلمة (قد) و هى على نفس الوزن السابق، قطع الشىء طولا! و كلمة (قط) هنا تعنى نصيبا أو سهما.

و أحيانا تعنى الورقة التى يرسم عليها، أو تكتب عليها أسماء أشخاص فازوا بالجوائز.

لهذا فإنّ بعض المفسّرين، قالوا فى تفسير الآية المذكورة أعلاه: إنّ المقصود منها هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى يسلّم عباده صحائف أعمالهم قبل حلول يوم الجزاء، و هذا الكلام قيل بعد نزول آيات قرآنية تؤكّد على أنّ هناك مجموعة تعطى صحائفها باليد اليمنى، و مجموعة اخرى تستسلم صحائفها باليد اليسرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۶

و هنا قالت مجموعة من مشركى مكّة و هى تستهزئ: ما أجمل أن تسلّم إلينا الآن صحف أعمالنا لنقرأها و نشاهد ماذا عملنا؟

على أيّة حال، فإنّ «الجهل» و «الغرور» صفتان قبيحتان مذمومتان، و لا تنفصل الواحدة عن الاخرى، إذ أنّ الجهلة مغرورون، و المغرورون جهلة، و شواهد هذا الوصف كانت موجودة بكثرة عند مشركى عصر الجاهلية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۱۷) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ (۱۸) وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (۱۹) وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ (۲۰)

التّفسير

تعلّم من داود:

نبىّ اللّه داود عليه السّلام أحد كبار أنبياء بنى إسرائيل و حاكما لدولة كبيرة، و قد ورد ذكر مقامه العالى فى عدّة آيات بيّنات من القرآن الكريم.

و تتمّة للبحوث السابقة التى استعرضت فيها آيات القرآن أذى المشركين لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نسبتهم إليه ما لا يليق به. فإنّ القرآن الكريم لمواساة رسول اللّه و أصحابه المؤمنين القلائل، طرح قصّة داود عليه السّلام، داود الذى منحه اللّه قدرة واسعة، حتّى أنّ الجبال و الطيور كانت مسخّرة له، ليبيّن تبارك و تعالى من خلال هذه القصّة لنبيّه الأكرم أنّ اللطف الإلهى إن شمل أحدا فإنّ عموم الناس لا يستطيعون عمل أى شىء إزاء هذا اللطف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۸

فداود- مع هذه القدرة العظيمة التى منحها إيّاه ربّ العالمين- لم يسلّم من تجريح الآخرين و بذاءة لسانهم، و فى هذا الكلام مواساة للنبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى أنّ هذه المسألة لا تنحصر بك فقط، و إنّما شاركك فيها كبار الأنبياء عليهم السّلام.

ففى البداية تقول آيات بحثنا: اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ

«الأيد» بمعنى القدرة، و تأتى أيضا بمعنى النعمة.

و قد توفّر المعنيان المذكوران أعلاه فى داود، إذ كان يتمتّع بقوّة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت، فأسقطه من فرسه مضرّجا بدمه خلال إحدى المعارك.

و قال البعض: إنّ الحجر مزّق صدر جالوت و خرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة و مستعدّة دائما لمواجهة الأعداء، بكلّ قوّة و اقتدار، حتّى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبّة الاستعداد من المساء حتّى الصباح فى أطراف محراب عبادته.

و من حيث قدرته الأخلاقية و المعنوية و العبادية، فإنّه كان يقوم معظم الليل فى عبادة اللّه، و يصوم نصف أيّام السنة.

و أمّا من حيث النعم الإلهيّة، فقد أنعم عليه البارئ عزّ و جلّ بالكثير من النعم الظاهرية و الباطنية.

خلاصة الحديث، إنّ داود كان رجلا ذا قوّة و قدرة فى الحروب و العبادات و العلم و المعرفة و فى السياسة، و كان أيضا صاحب نعمة كبيرة[۴۱۰].

«أوّاب» مشتقّة من (أوب) على وزن (قول) و تعنى العودة الاختيارية إلى أمر ما، و لكون (أوّاب) على صيغة المبالغة، فإنّها تشير إلى أنّه كان كثيرا ما يعود إلى اللّه سبحانه و تعالى، و كان يتوب عن أصغر غفلة و ترك للأولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۶۹

و طبقا لاسلوب القرآن فى الإيجاز و التفصيل فى ذكر القضايا المختلفة، فإنّ الآيات الآنفة بعد أن تطرّقت بصورة موجزة إلى نعم اللّه على داود، تشرح أنواعا من تلك النعم، قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ ۴۱۱].

كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كى تسبّح اللّه معه وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً.

فكلّ الطيور و الجبال مسخّرة لداود و مطيعة لأوامره، و تسبّح معه البارئ عزّ و جلّ، و تعود إليه، كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ

الضمير (له) يمكن أن يعود على داود، و طبقا لهذا فإنّ مفهوم الجملة ينطبق مع ما ذكرناه أعلاه، و هناك احتمال وارد أيضا و هو أنّ ضمير (له) يعود إلى ذات اللّه الطاهرة، و يعنى أنّ كلّ ذرّات العالم تعود إليه و مطيعة لأوامره.

هناك سؤال يطرح، و هو: كيف تردّد الطيور و الجبال صوت التسبيح مع داود؟

اختلف المفسّرون فى الإجابة على هذا السؤال، و ذكروا عدّة تفاسير و احتمالات له، منها:

۱- قال البعض: إنّ صوت داود الجذّاب كان يتردّد صداه عند ما تصطدم موجاته الصوتية بالجبال فيجذب الطيور إليه (و بالطبع فإنّ هذه لا تعدّ فضيلة كى يتطرّق إليها القرآن المجيد و بشىء من العظمة).

۲- و احتمل البعض الآخر أنّ تسبيحها كان توأما مع صوت ظاهرى، مرافقا لنوع من الإدراك و الشعور الذى هو فى باطن ذرّات العالم، و طبقا لهذا الاحتمال، فإنّ كلّ موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل و الشعور، و حينما تسمع صوت مناجاة هذا النّبى الكبير تردّد معه المناجاة، ليمتزج تسبيحها مع تسبيح داود عليه السّلام.

۳- و احتملوا أيضا أنّ هذا التسبيح هو التسبيح التكوينى الذى ينطق به لسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۰

حال كلّ مخلوق، و نظام خلقهم يقول: إنّ اللّه خال من العيوب و النقص، و إنّه مقدّس و منزّه و عالم و قادر، و يمتلك كافّة صفات الكمال.

و لكن هذا المعنى لا يختصّ بداود حتّى يعدّ من مناقبه، و لهذا فإنّ التّفسير الثانى يعدّ أنسب، و ما ذكر فيه غير مستبعد قياسا بقدرة اللّه.

فالمناجاة موجودة داخل جميع مخلوقات الكون، و ترانيمها تتردّد على الدوام فى بواطنها، و قد أظهرها اللّه سبحانه و تعالى لداود عليه السّلام، كما فى الحصاة التى كانت تسبّح اللّه و هى فى يد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و تواصل الآية التالية استعراض نعم اللّه على داود عليه السّلام، قال تعالى: وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ أى ثبّتنا و أحكمنا مملكته، بحيث كان العصاة و الطغاة من أعدائه يحسبون لمملكته ألف حساب لقوّتها.

و إضافة إلى هذا فقد آتيناه الحكمة و العلم و المعرفة وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ الحكمة التى يقول بشأنها القرآن المجيد وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً.

(الحكمة) هنا تعنى العلم و المعرفة و حسن تدبير امور البلاد، أو مقام النبوّة، أو جميعها.

و قد تكون «الحكمة» أحيانا ذات جانب علمى و يعبّر عنها ب «المعارف العالية»، و اخرى لها جانب عملى و يعبّر عنها (بالأخلاق و العمل الصالح) و قد كان لداود فى جميعها باع طويل.

و آخر نعمة إلهيّة أنعمت على داود هى تمكّنه من القضاء و الحكم بصورة صحيحة و عادلة وَ فَصْلَ الْخِطابِ

و قد استخدمت عبارة (فصل الخطاب) لأنّ كلمة «الخطاب» تعنى أقوال طرفى النزاع، أمّا (فصل) فإنّها تعنى القطع و الفصل.

و كما هو معروف فإنّ أقوال طرفى النزاع لا تقطع إلّا إذا حكم بينهم بالعدل، و لهذا فإنّ العبارة هذه تعنى قضائه بالعدل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۱

و هناك احتمال آخر لتفسير هذه العبارة، و هو أنّ اللّه سبحانه و تعالى أعطى داود منطقا قويّا يدلّل على سمو و عمق تفكيره، و لم

يكن هذا خاصّا بالقضاء و حسب، بل فى كلّ أحاديثه.

حقّا، ليس من المفروض أن ييأس أحد من لطف اللّه، اللّه الذى يستطيع أن يعطى الإنسان اللائق و المناسب كلّ تلك القوّة و القدرة. و هذه ليست مواساة للنبى الأكرم و المؤمنين فى مكّة الذين كانوا يعيشون فى تلك الأيّام تحت أصعب الظروف و أشدّها، بل مواساة لكلّ المؤمنين المضطهدين فى كلّ مكان و زمان.

***

بحث

الصفات العشر لداود عليه السّلام:

ذكر بعض المفسّرين من الآيات محلّ البحث عشر مواهب إلهيّة عظيمة كانت لداود عليه السّلام تعكس مقام هذا النّبى و منزلته العظيمة من جهة، و تعكس خصائص الإنسان الكامل من جهة اخرى:

۱- اللّه سبحانه و تعالى يأمر نبى الإسلام و الرحمة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رغم مكانته العالية بأن يتّخذ من داود أسوة له فى تحمّل الصبر اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ.

۲- القرآن وصف داود بالعبد، و فى الحقيقة أنّ أهمّ خصوصية لداود هى عبوديته للّه، قال تعالى: عَبْدَنا داوُدَ و نقرأ شبيه هذا المعنى بشأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مسألة المعراج سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ ... (الإسراء- ۱).

۳- امتلاكه للقدرة و القوّة (فى طاعة البارى عزّ و جلّ و الاحتراز عن ارتكاب المعاصى و حسن تدبيره لشؤون مملكته) ذَا الْأَيْدِ و جاءت أيضا بشأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ [۴۱۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۲

۴- وصفه بالأوّاب، و تعنى رجوعه المتكرّر و المستمر إلى اللّه سبحانه و تعالى، قال تعالى: إِنَّهُ أَوَّابٌ

۵- تسخير الجبال معه لتسبّح فى الصباح و المساء، و هذا الأمر يعدّ من مفاخره، قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ

۶- مناجاة الطيور و تسبيحها اللّه مع داود، و هذه من النعم التى أنعمها اللّه على داود، قال تعالى: وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً.

۷- استمرار الجبال و الطيور فى التسبيح مع داود، و كلّ مرّة يسبّح فيها تعود و تسبّح معه، قال تعالى: كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ

۸- أعطاه اللّه الملك و الحكومة التى أحكمت أسسها، إضافة إلى وضع كلّ الوسائل الماديّة و المعنوية التى يحتاجها تحت تصرّفه وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ

۹- منحه ثروة مهمّة اخرى، و هى العلم و المعرفة التى تفوق الحدّ الطبيعى، العلم و المعرفة التى هى منبع خير كثير و مصدر كلّ بركة و إحسان أينما كانت، قال تعالى:

وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ.

۱۰- و أخيرا فقد منّ اللّه عليه بمنطق قوى و حديث مؤثّر و نافذ، و قدرة كبيرة على القضاء و التحكيم بصورة حازمة و عادلة، قال تعالى: وَ فَصْلَ الْخِطابِ ۴۱۳].

حقّا إنّ أسس أى حكومة لا يمكن أن تصبح محكمة بدون هذه الصفات، العلم و المنطق و تقوى اللّه، و القدرة على ضبط النفس، و نيل مقام العبودية للّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۳

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (۲۱) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (۲۲) إِنَّ هـذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ (۲۳) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ (۲۴) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۲۵)

التّفسير

داود و الامتحان الكبير:

طرحت هـذه الآيات بحث بسيط و واضح عن قضاء داود، و نتيجة لتحريف و سوء تعبير بعض الجهلة فقد أثيرت ضجّة عظيمة فى أوساط المفسّرين، و كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۴

أمواج هذه الضجّة من القوّة بحيث جرفت معها بعض المفسّرين، و جعلتهم يحكمون بشىء غير مقبول، و يقولون ما لا يليق بهذا النّبى الكبير.

و فى هذا المجال نحاول بيان مفهوم الآيات دون شرح و تفصيل كى يفهم القارئ الكريم مفهوم الآيات بذهنية صافية، و بعد الانتهاء من تفسيرها باختصار نتطرّق إلى الآراء المختلفة التى قيلت بشأنها. و تتمّة للآيات السابقة التى استعرضت الصفات الخاصّة بداود و النعم الإلهيّة التى أنزلها البارى عزّ و جلّ عليه، يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيّة عرضت على داود.

ففى البداية يخاطب القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ هَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ

(الخصم) جاءت هنا كمصدر، و أكثر الأحيان تطلق على الطرفين المتنازعين، و تستعمل هذه الكلمة للمفرد و الجمع، و أحيانا تجمع على (خصوم).

(تسوّروا) مشتقّة من (سور) و هو الحائط العالى الذى يبنى حول البيت أو المدينة، و تعنى هذه الكلمة فى الأصل القفز أو الصعود إلى الأعلى.

«محراب» تعنى صدر المجلس أو الغرف العليا، و لأنّها أصبحت محلا للعبادة أخذ تدريجيّا يطلق عليها اسم المعبد. و تصطلح اليوم على المكان الذى يقف فيه إمام الجماعة لأداء مراسم صلاة الجماعة، و فى المفردات، نقل عن البعض أنّ سبب إطلاق كلمة «المحراب» على محراب المسجد، هو لكونه مكانا للحرب ضدّ الشيطان و هوى النفس.

على أيّة حال، فرغم أنّ داود عليه السّلام كان محاطا بأعداد كبيرة من الجند و الحرس، إلّا أنّ طرفى النزاع تمكّنا- من طريق غير مألوف- تسوّر جدران المحراب، و الظهور أمام داود عليه السّلام فجأة، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون استئذان و من دون إعلام مسبق، و ظنّ داود عليه السّلام أنّهم يكنّون له السوء، إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۵

إلّا أنّهما عمدا بسرعة إلى تطييب نفسه و إسكان روعه، و قالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ

فاحكم الآن بيننا و لا تتحيّز فى حكمك و أرشدنا إلى الطريق الصحيح فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ.

«تشطط» مشتقّة من (شطط) على وزن (فقط)، و تعنى البعيد جدّا، و لكون الظلم و الطغيان يبعدان الإنسان كثيرا عن الحقّ، فكلمة (شطط) تعنى الابتعاد عن الحقّ، كما تطلق على الكلام البعيد عن الحقيقة.

من المسلّم به أنّ قلق و روع «داود» قلّ بعض الشىء عند ما وضّح الأخوان هدف مجيئهما إليه، و لكن بقى هناك سؤال واحد فى ذهنه هو، إذا كنتما لا تكنّان السوء، فما هو الهدف من مجيئكما إلىّ عن طريق غير مألوف؟

و لذلك تقدّم أحدهما و طرح المشكلة على داود، و قال: هذا أخى، يمتلك (۹۹) نعجة، و أنا لا أمتلك إلّا نعجة واحدة، و إنّه يصرّ علىّ أن أعطيه نعجتى ليضمّها إلى بقيّة نعاجه، و قد شدّد علىّ فى القول و أغلظ إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ

«النعجة» هى الأنثى من الضأن. و قد تطلق على أنثى البقر الوحشى و الخراف الجبلية.

«أكفلنيها» مشتقّة من الكفالة، و هى هنا كناية عن التخلّى (و معنى الجملة اجعلها لى و فى ملكيتى و كفالتى، أى امنحنى إيّاها).

«عزّنى» مشتقّة من (العزّة) و تعنى التغلّب، و بذا يكون معنى الجملة إنّه تغلّب علىّ.

و هنا التفت داود عليه السّلام إلى المدّعى قبل أن يستمع كلام الآخر (كما يوضّحه ظاهر الآية) و قال: من البديهى أنّه ظلمك بطلبه ضمّ نعجتك إلى نعاجه قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۶

بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ

و هذا الأمر ليس بجديد، إذ أنّ الكثير من الأصدقاء و المخالطين بعضهم لبعض يبغى على صاحبه، إلّا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و هم قلّة: وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ قَلِيلٌ ما هُمْ ۴۱۴][۴۱۵].

نعم فالأشخاص الذين يراعون بصورة كاملة فى معاشرتهم و صداقتهم الطرف المقابل، و لا يعتدون عليه أدنى اعتداء و يؤدّون حقوق أصدقائهم و معارفهم بصورة كاملة قليلون جدّا، و هم المتزوّدون بالإيمان و العمل الصالح.

على أيّة حال، فالظاهر أنّ طرفى الخصام اقتنعا بكلام داود عليه السّلام و غادرا المكان.

و لكن داود غرق فى التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنّه كان يعتقد أنّه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثانى مخالفا لادّعاءات الطرف الأوّل- أى المدّعى- لكان قد اعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضيّة هى كما طرحها المدّعى.

و لكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يتريّث فى إصدار الأحكام و لا يتعجّل فى إصدارها، و كان عليه أن يسأل الطرف الثانى أيضا ثمّ يحكم بينهما، فلذا ندم كثيرا على عمله هذا، و ظنّ أنّما فتنة البارى عزّ و جلّ بهذه الحادثة وَ ظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ

و هنا أدركته طبيعته، و هى أنّه أوّاب، إذ طلب العفو و المغفرة من ربّه و خرّ راكعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۷

تائبا إلى اللّه العزيز الحكيم فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راكِعاً وَ أَنابَ

«خرّ» مشتقّة من (خرير) و تعنى سقوط شىء من علو و يسمع منه الصوت مثل صوت الشلالات، كما أنّها كناية عن السجود، حيث أنّ الأفراد الساجدين يهوون من حالة الوقوف إلى السجود و يقترن ذلك بالتسبيح.

كلمة (راكعا) التى وردت فى هذه الآية، إمّا أنّها تعنى السجود كما جاءت فى اللغة، أو لكون الركوع مقدّمة للسجود.

على أيّة حال، فاللّه سبحانه و تعالى شمل عبده داود بلطفه و عفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، كما توضّحه الآية التالية فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ و إنّ له منزلة رفيعة عند اللّه وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

«زلفى» تعنى المنزلة (و القرب عند اللّه) و (حسن مآب) إشارة إلى الجنّة و نعم الآخرة.

***

بحوث

۱- ما هى حقيقة وقائع قصّة داود؟

الذى وضّحه القرآن المجيد فى هذا الشأن لا يتعدّى أنّ شخصين تسوّرا جدران محراب داود عليه السّلام ليحتكما عنده، و أنّه فزع عند رؤيتهما، ثمّ استمع إلى أقوال المشتكى الذى قال: إنّ لأخيه (۹۹) نعجة و له نعجة واحدة، و إنّ أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجة إلى بقيّة نعاجه، فأعطى داود عليه السّلام الحقّ للمشتكى، و اعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلما و طغيانا، ثمّ ندم على حكمه هذا، و طلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يعفو عنه و يغفر له، فعفا اللّه عنه و غفر له.

و هنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضا: الاولى مسألة الامتحان، و الثانية مسألة الاستغفار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۸

القرآن الكريم لم يفصّل الحديث بشأن هاتين المسألتين، إلّا أنّ الدلائل الموجودة فى هذه الآيات و الروايات الإسلامية الواردة بشأن تفسيرها تقول: إنّ داود كان ذا علم واسع و ذا مهارة فائقة فى أمر القضاء، و أراد اللّه سبحانه و تعالى أن يمتحنه، فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الاعتيادية، كدخول الشخصين عليه من طريق غير اعتيادى و غير مألوف، إذ تسوّرا جدران محرابه، و ابتلائه بالاستعجال فى إصدار الحكم قبل الاستماع إلى أقوال الطرف الثانى، رغم أنّ حكمه كان عادلا.

و رغم أنّه انتبه بسرعة إلى زلّته، و أصلحها قبل مضىّ الوقت، و لكن مهما كان فإنّ العمل الذى قام به لا يليق بمقام النبوّة الرفيع، و لهذا فإنّ استغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى، و إنّ اللّه شمله بعفوه و مغفرته.

و الشاهد على هذا التّفسير إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل- هو الآية التى تأتى مباشرة بعد تلك الآيات، و التى تخاطب داود عليه السّلام: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و هذه الآية تبيّن أنّ زلّة داود كانت فى كيفية قضائه و حكمه.

و بهذا الشكل فإنّ الآيات المذكورة أعلاه لا تذكر شيئا يقلّل من شأن و مقام هذا النّبى الكبير.

۲- التوراة و القصص الخرافية بشأن داود

اشارة

الآن نتصفّح كتاب التوراة لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الواقعة، لنعثر على الأساس الذى اعتمد عليه بعض المفسّرين الجهلة و غير المطّلعين فى تفسير هذه الآيات.

جاء فى «التوراة» و فى الكتاب الثانى «اشموئيل» الإصحاح الحادى عشر من الجملة الثانية و حتّى السابعة و العشرين:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۷۹

«و كان فى وقت المساء، أنّ داود قام عن سريره و تمشّى على سطح بيت الملك، فرأى من على السطح امرأة تستحمّ و كانت المرأة جميلة المنظر جدّا.

فأرسل داود و سأل عن المرأة فقيل: إنّها (بتشبع)[۴۱۶] بنت (اليعام) و زوجة (أوريّا الحتّى)[۴۱۷].

فأرسل داود رسلا و أخذها فدخلت عليه، فاضطجع معها و هى طاهرة من طمثها، ثمّ رجعت إلى بيتها، و حبلت المرأة فأرسلت و أخبرت داود بأنّها حبلى.

و بعد علمه بحمل (بتشبع) بعث داود برسالة إلى (يوآب)[۴۱۸] طلب منه فيها أن يبعث (أوريّا) إليه، فبعث (يوآب) (أوريّا) إليه، وفور وصوله إلى قصر داود، استفسر منه عن سلامة (يوآب) و سلامة الجيش و عن سير المعارك.

و هنا أمر داود (أوريّا) بأن يذهب إلى بيته و يغسل رجليه، فخرج أوريّا من قصر داود، و بعث داود خلفه أنواعا من الطعام، إلّا أنّ أوريّا نام عند باب قصر داود مع بقيّة عبيد سيّده داود و لم يذهب إلى بيته، و عند ما علم داود أنّ أوريّا لم يذهب إلى بيته، قال داود لأوريا: ألم تكن قد عدت من السفر؟ فلما ذا لا تذهب إلى بيتك؟ فقال لداود: إنّ الصندوق و إسرائيل و يهودا و سيّدى (يوآب) و عبيد سيّدى يعيشون تحت الخيام فى الصحراء؟ فهل يصحّ أن أذهب إلى بيتى لآكل و أشرب و أنام فيه؟ أقسم بحياتك أنّى لا أفعل ذلك.

و فى الصباح بعث داود برسالة إلى (يوآب) بيد (أوريّا) و كتب فى الرسالة يقول: اجعلوا أوريّا فى وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت، ففعل به ذلك فقتل و أخبر داود بذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۰

فلمّا سمعت امرأة أوريّا أنّه قد مات ندبت بعلها، و لمّا مضت المناحة أرسل داود و ضمّها إلى بيته و صارت له امرأة، و أمّا الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الربّ»[۴۱۹].

خلاصة هذه القصّة إلى هنا تكون كالآتى: فى إحدى الأيّام صعد داود إلى سطح القصر فوقعت عيناه على البيت المجاور فرأى امرأة عارية تغتسل، فأحبّها، و تمكّن بإحدى الطرق من جلبها إلى بيته، فاضطجع معها فحملت منه.

و زوج هذه المرأة كان أحد الضبّاط المشهورين فى جيش داود و كان طاهرا نقيّا، قتله داود (نعوذ باللّه من هذا الكلام) بمؤامرة جبانة عند ما بعثه إلى منطقة خطرة جدّا فى ساحة الحرب، ثمّ تزوّج داود زوجته.

و الآن نواصل سرد بقيّة القصّة على لسان التوراة الحالى إذ جاء فى الإصحاح الثانى عشر من كتاب صموئيل الثانى «أنّ الربّ أرسل (ناثان) أحد أنبياء بنى إسرائيل و مستشار داود فى نفس الوقت، و قال له: كان رجلان فى مدينة واحدة، واحد منهما غنى و الآخر فقير، و كان للغنى غنم و بقر كثيرة جدّا، و أمّا الفقير فلم يكن له شىء إلّا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها و ربّاها، فجاء ضيف إلى الرجل الغنى فأبى أن يأخذ من غنمه و من بقره ليهيّئ للضيف الذى جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير و هيّأ لضيفه.

فحمى غضب داود، و قال لناثان، أقسم بالربّ أنّ الشخص الذى ارتكب هذا العمل يستحقّ القتل، و عليه أن يردّ النعجة بأربعة أضعاف. و هنا قال ناثان لداود:

إنّ ذلك الرجل هو أنت! فانتبه داود للعمل غير الصحيح الذى قام به، فدعا اللّه ليتوب عليه، فتاب اللّه عليه، و أنزل فى نفس الوقت ابتلاءات كبيرة على داود».

هذا و قد استخدمت التوراة عبارات يجلّ القلم عن ذكرها، لهذا نصرف النظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۱

عنها.

و فى هذا الجزء من القصّة التى استعرضتها التوراة يمكن للمتتبّع ملاحظة ما يلى:

۱- لم يأت أحد متظلّما و شاكيا إلى داود، و إنّما جاءه أحد أنبياء بنى إسرائيل، الذى هو مستشار داود فى نفس الوقت، و ذكر له قصّة

یستهدف منها وعظ داود، و القصّة هی بشأن شخصین الأوّل غنی و الثانی فقیر، الغنی یملک أعدادا کبیرة من الغنم و البقر، أمّا الفقیر فلا یملک سوی نعجة واحدة صغیرة، و الغنی أخذ نعجة الرجل الفقیر و هیّأها لضیفه.

إلی هذا المقدار من القصّة لا یوجد أی تطرّق لتسوّر جدران المحراب و فزع داود و تخاصم الشخصین عنده، إضافة إلی طلب العفو و المغفرة.

۲- داود علیه السّلام اعتبر الغنی طاغیة و یستحقّ القتل لماذا یقتل من أجل نعجة واحدة)؟! ۳- لماذا تسرّع داود علیه السّلام فی إصدار الحکم، إذ قال: یجب علی الغنی أن یردّ النعجة بأربعة أضعاف؟

۴- داود یعترف بذنبه مع زوجة أوریّا.

۵- لماذا یعفو اللّه عزّ و جلّ عنه و بهذه السهولة؟! ۶- اللّه سبحانه و تعالی یذکر عقوبات عجیبة ستطال داود من الأفضل عدم ذکرها هنا.

۷- هذه المرأة (مع ماضیها المشهور) هی امّ سلیمان علیه السّلام! رغم أنّ نقل مثل هذه القصص مؤلم حقّا، و لکن ما العمل، إذ أنّ بعض الجهلة غیر المطّلعین من المتأثّرین بالروایات الإسرائیلیّة، أساؤوا إلی تفسیر القرآن الکریم الطاهر، بإقحامهم مثل هذه الروایات فیه، و لا یوجد أمامنا سبیل إلّا ذکر أجزاء من تلک القصص الفاضحة لردّها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۲

و الآن نسأل:

۱- هل یمکن اتّهام نبی مدحه الباری عزّ و جلّ فی قرآنه الکریم بعشر صفات عظیمة، و دعا نبیّنا الأکرم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أن یستلهم من سیرته، هل یمکن اتّهامه بتلک التهم.

۲- هل تتطابق هذه الأراجیف مع آیات القرآن التالیة: یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ

۳- إذا ارتکب شخص عادی- و لیس أحد الأنبیاء- مثل هذا العمل الإجرامی للاعتداء علی زوجة ضابط وفیّ و طاهر و مؤمن و من خلال عملیة خبیثة، بماذا سیحکم الناس علیه و ما هی عقوبته؟ فالفاسق یتنزّه عن هذا العمل الشنیع، فکیف بنبی اللّه داود؟

و ممّا یجدر ذکره أنّ التوراة لا تعتبر داود نبیّا، و إنّما تعتبره ملکا عادلا له مکانة مرموقة، و أنّه مشیّد المعبد الکبیر لبنی إسرائیل.

۴- الطریف فی الأمر أنّ کتاب (مزامیر داود) هو أحد کتب التوراة، و قد جمعت فیه مناجات و أحادیث داود، فهل یمکن درج أحادیث و مناجاة مثل هذا الإنسان فی طیّات الکتب السماویة؟

۵- لو طرحت هذه القصص علی شخص لا یمتلک سوی القلیل من العقل و الإدراک، لأعترف بأنّ قصص التوراة المحرّفة حالیا ما هی إلّا خرافات، و أنّ أعداء نهج الأنبیاء أو أشخاص جهلة غیر مطّلعین صاغوا مثل هذه الخرافات، فکیف یمکن أن تکون هذه الخرافات معیارا للبحث؟

نعم فعظمة القرآن المجید تبرز من خلال خلوّه من هذه الخرافات.

۳- الأحادیث الإسلامیة و قصّة داود علیه السّلام

اشارة

الرّوایات و الأحادیث الإسلامیّة کذّبت بشدّة تلک القصص الخرافیة و القبیحة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۳

الواردة فى التوراة.

و من جملة تلك الأحاديث، ما

ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام يقول فيه: «لا اوتى برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أوريّا إلّا جلدته حدّين حدّا للنبوّة و حدّا للإسلام»[۴۲۰].

لماذا، لأنّ المزاعم المذكورة تتّهم من جهة إنسانا مؤمنا بارتكاب عمل محرّم، و من جهة اخرى تنتهك حرمة مقام النبوّة، و من هنا حكم الإمام بجلد من يفترى عليه عليه السّلام مرّتين (كلّ مرّة ۸۰ سوطا).

كما

ورد حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام يعطى نفس المعنى، جاء فيه «من حدّثكم بحديث داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة و ستّين»[۴۲۱].

و

فى حديث آخر نقله الشيخ الصدوق فى كتاب (الأمالى) عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «إنّ رضا الناس لا يملك، و ألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا داود إلى أنّه اتّبع الطير حتّى نظر إلى امرأة أوريّا فهواها، و أنّه قدّم زوجها أمام التابوت حتّى قتل ثمّ تزوّج بها!»[۴۲۲].

و أخيرا،

ورد حديث فى كتاب (عيون الأخبار) فى باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا عليه السّلام لابن الجهم: «و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه»؟

قال: يقولون: إنّ داود كان يصلّى فى محرابه إذ تصوّر له إبليس على هيئة طير أحسن ما يكون من الطيور، فقطع داود صلاته و قام يأخذ الطير إلى الدار فخرج فى أثره فطار الطير إلى السطح فصعد فى طلبه فسقط الطير فى دار أوريّا بن حيان.

فأطلع داود فى أثر الطير فإذا بامرأة أوريّا تغتسل؟ فلمّا نظر إليها هواها، و كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۴

قد أخرج أوريّا فى بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريّا أمام التابوت فقدّم فظفر أوريّا بالمشركين فصعب ذلك على داود، فكتب إليه ثانية أن قدّمه أمام التابوت فقدّم فقتل أوريّا و تزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الرضا عليه السّلام يده على جبهته و قال: «إنّا للّه و إنّا إليه راجعون، لقد نسبتم نبيّا من أنبياء اللّه إلى التهاون بصلاته حتّى خرج فى أثر الطير ثمّ بالفاحشة، ثمّ بالقتل».

فقال: يا ابن رسول اللّه، ما كانت خطيئته؟

فقال: «ويحك إنّ داود عليه السّلام إنّما ظنّ أنّه ما خلق اللّه خلقا هو أعلم منه، فبعث اللّه عزّ و جلّ إليه الملكين فتسوّرا المحراب فقال: خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ لا تُشْطِطْ وَ اهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ، إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَ عَزَّنِي فِي الْخِطابِ فعجّل داود على المدّعى عليه فقال: لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ و لم يسأل المدّعى البيّنة على ذلك، و لم يقبل على المدّعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه، ألا تسمع اللّه عزّ و جلّ يقول: يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ إلى آخر الآية.

فقال: يا ابن رسول اللّه، فما قصّته مع أوريّا؟

قال الرضا عليه السّلام: «إنّ المرأة فى أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبدا، فأوّل من أباح اللّه عزّ و جلّ له أن

يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود عليه السّلام فتزوّج بامرأة أوريّا لمّا قتل و انقضت عدّتها، فذلك الذى شقّ على الناس من قتل أوريّا»[۴۲۳].

يستفاد من هذا الحديث أنّ مسألة أوريّا كانت لها جذور حقيقيّة بسيطة، و أنّ داود نفّذ ما جاء فى الرسالة الإلهيّة، إلّا أنّ أعداء اللّه من جهة، و الجهلة من جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۵

اخرى، إضافة إلى مؤلّفى القصص الخيالية الذين يكتبون دائما قصص عجيبة و كاذبة من جهة ثالثة، اختلفوا سيقانا و أغصانا و أوراقا لهذه القصّة كى ينفّروا الإنسان من داود.

فأحدهم قال: لا يمكن أن يتمّ هذا الزواج ما لم تكن هنالك مقدّمات له؟

و الآخر قال: يحتمل أنّ بيت أوريّا كان مجاورا لبيت داود! و أخيرا لكى يؤكّدوا أنّ داود عليه السّلام شاهد زوجة (أوريّا) اصطنعوا قصّة الطير، و فى النهاية اتّهموا أحد أنبياء اللّه الكبار بارتكاب مختلف أنواع الذنوب الكبيرة و المخزية، و تناقلتها ألسنة الجهلة و البلهاء و لو لا انّها مذكورة فى الكتب المعروفة لكان من الخطأ ذكرها و التعرّض لها.

و بالطبع، فإنّ هذه الرواية لا تختلف عن حديث أمير المؤمنين عليه السّلام، لأنّ حديثه يشير إلى أنّها قصّة كاذبة مزيّفة تنسب ارتكاب الزنا و غيرها من المحرّمات- نعوذ باللّه- إلى أحد الأنبياء الكبار.

آراء المفسّرين

بعض المفسّرين ذكروا آراء اخرى لقصّة داود، رغم أنّها لا تتناسب مع ظاهر آيات القرآن المجيد، فإنّنا نرى من الضرورى الإشارة إلى بعضها لإكمال البحث:

منها: أنّ داود عليه السّلام كان قد قسّم ساعات يومه وفق برنامج منظّم، و لم يكن يسمح لأحد بمراجعته إلّا فى الساعات المخصّصة للمراجعة، و فى أحد الأيّام تسوّر شخصان المحراب و قد اتّفقا على قتل داود أثناء فترة عبادته للّه سبحانه و تعالى، تسوّرا سور المحراب، و لكن عند ما و صلا بالقرب من سور المحراب شاهدوا الجند و الحرس يحيطون به من كلّ جانب، و خوفا من أن ينكشف أمرهما، اختلقا قضيّة كاذبة، و ادّعيا أنّهما أتيا إلى داود عليه السّلام ليحكم بينهما، و شرحا القصّة التى تطرّق إليها القرآن الكريم، و قد قضى داود عليه السّلام بينهما، و لكون الهدف من هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۶

اللعبة كان قتله، فقد غضب و صمّم على الانتقام منهما، و لم يمض إلّا وقت قصير حتّى ندم داود على تصميمه هذا و استغفر اللّه ۴۲۴].

يقول العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان (و أكثر المفسّرين تبعا للروايات إنّ هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السّلام كانوا ملائكة أرسلهم اللّه سبحانه إليه ليمتحنه، و ستعرف حال الروايات لكن خصوصيات القصّة كتسوّرهم المحراب و دخولهم عليه دخولا غير عادى بحيث أفزعوه، و كذا تنبّهه بأنّه إنّما كان فتنة من اللّه له و ليس واقعة عادية، و قوله تعالى بعد: فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى الظاهر فى أنّ اللّه ابتلاه بما ابتلى ليتنبّهه و يسدّده فى خلافته و حكمه بين الناس، كلّ ذلك يؤيّد كونهم من الملائكة و قد تمثّلوا فى صورة رجال من الإنس.

(و المقصود من التمثّل هو عدم وجود هؤلاء الأشخاص واقعا و فى الخارج، بل أنّ ذلك انعكس فى ذهن داود و فى إدراكه).

و على هذا فالواقعة تمثّل فيه الملائكة فى صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة، يسألها آخر له تسع و تسعون نعجة، و سألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: (لقد ظلمك) إلخ و كان قوله عليه السّلام- لو كان قضاء منجزا- حكما منه فى ظرف التمثّل، كما لو كان رآهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم، و من المعلوم أن لا تكليف فى ظرف التمثّل، كما لا

تکلیف فی عالم الرؤیا و إنّما التکلیف فی عالمنا المشهود، و هو عالم المادّة، و لم تقع الواقعة فیه، و لا کان هناک متخاصمان و لا نعجة و لا نعاج إلّا فی ظرف التمثّل، فکانت خطیئة داود علیه السّلام فی هذا الظرف من التمثّل و لا تکلیف هناک، کخطیئة آدم علیه السّلام فی الجنّة من أکل الشجرة قبل الهبوط إلی الأرض و تشریع الشرائع و جعل التکالیف، و استغفاره و توبته ممّا صدر منه کاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه، و قد صرّح اللّه بخلافته فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۷

کلامه کما صرّح بخلافة آدم علیه السّلام فی کلامه)[۴۲۵].

و لکن من المسلّم به أنّ ظاهر الآیات یوضّح أنّ الشکوی و الخصام کان من قبل أفراد حقیقیین لهم وجود ظاهری، و فی هذه الحالة لم یکن قضاء داود ذنبا صادرا عنه، خاصّة بعد أن استمع لأقوال أحدهم و حصل عنده علم و یقین فی إعطاء الحکم، رغم أنّ الآداب المستحبّة فی القضاء توجب علیه أن یتأنّی فی إصدار الحکم و لا یتعجّل، و استغفاره إنّما کان لترکه العمل بالأولی.

و علی أیّة حال، لا توجد أیّة ضرورة لاعتبار وقوع حادثة التحکیم هذه فی ظرف التمثّل أو لأجل تنبیه داود علیه السّلام. و الأفضل أن نحافظ علی ظاهر الآیات و تفسیرها بالترتیب الآنف الذکر الذی حفظ ظاهر الآیات دون بروز أیّة مشاکل تمسّ مقام عصمة الأنبیاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۸

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۲۶ الی ۲۹]

اشارة

یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ (۲۶) وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما باطِلًا ذلِکَ ظَنُّ الَّذِینَ کَفَرُوا فَوَیْلٌ لِلَّذِینَ کَفَرُوا مِنَ النَّارِ (۲۷) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ کَالْمُفْسِدِینَ فِی الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِینَ کَالْفُجَّارِ (۲۸) کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ مُبارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ وَ لِیَتَذَکَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (۲۹)

التّفسیر

احکم بالعدل و لا تتّبع هوی النفس:

نواصل استعراض قصّة داود، و نقف هنا علی أعتابها النهائیة، حیث إن آیات بحثنا هذا هی آخر الآیات الواردة فی هذه السورة بشأن داود، إذ تخاطبه بلهجة حازمة و بعبارات مفعمة بالمعانی، شارحة له وظائفه و مسئولیاته الجسیمة بعد أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۸۹

وضحت مقامه الرفیع، إذ تقول: یا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناکَ خَلِیفَةً فِی الْأَرْضِ فَاحْکُمْ بَیْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوی فَیُضِلَّکَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ

محتوی هذه الآیة التی تتحدّث عن مقام داود الرفیع و الوظائف المهمّة التی کلّف بها، تبیّن أنّ القصص الخیالیة و الکاذبة التی نسجت بشأن زواج داود من زوجة (أوریا) کلّها کاذبة و لا أساس لها من الصحّة.

فهل یمکن أن ینتخب الباری عزّ و جلّ شخصا ینظر إلی شرف المؤمنین و المقرّبین منه بعین خؤونة و یلوّث یده بدم الأبریاء- خلیفة له فی الأرض، و یمنحه حکم القضاء المطلق؟! هذه الآیة تضمّ خمس جمل کلّ واحدة منها تتحدّث عن حقیقة معیّنة:

الاولى: خلافة داود فى الأرض، فهل المقصود منها خلافته للأنبياء السابقين، أمّ أنّها تعنى خلافة اللّه؟ المعنى الثانى أنسب و يتطابق مع ما جاء فى الآية (۳۰) من سورة البقرة: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

بالطبع فإنّ المعنى الواقعى للخلافة لا يتعلّق باللّه، لأنّه يأتى فى مورد وفاة شخص أو غيابه، و المراد من الخلافة هنا هو أن يكون نائبا للّه بين العباد، و المنفّذ لأوامر اللّه سبحانه و تعالى فى الأرض. هذه الجملة تبيّن أنّ الحكومة فى الأرض يجب أن تستلهم شرعيّتها من الحكومة الإلهيّة، و أى حكومة لا تستلهم شرعيتها من الحكومة الإلهيّة فإنّها حكومة ظالمة و غاصبة.

الجملة الثانية: تأمر داود قائلة: بعد أن منحك اللّه سبحانه و تعالى هذه النعمة الكبيرة، أى الخلافة، فإنّك مكلّف بأن تحكم بين الناس بالحقّ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِ

و فى واقع الأمر فإنّ إحدى ثمار خلافة اللّه هى ظهور حكومة تحكّم بالحقّ، و من هذه الجملة يمكن القول أنّ حكومة الحقّ تنشأ- فقط- عن خلافة اللّه، و أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۰

النتيجة المباشرة لها.

أمّا الجملة الثالثة: فإنّها تشير إلى أهمّ خطر يهدّد الحاكم العادل، ألا و هو اتّباع هوى النفس وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى

نعم، فهوى النفس ستار سميك يغطّى بصيرة الإنسان، و يباعد بينه و بين العدالة.

لهذا فإنّ الجملة الرابعة تقول: فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

فأينما وجد الضلال كان لهوى النفس ضلع فى ذلك، و أينما اتّبع هوى النفس فإنّ عاقبته الضلال.

فالحاكم الذى يتّبع هوى النفس، إنّما يفرّط بمصالح و حقوق الناس لأجل مطامعه، و لهذا السبب فإنّ حكومته تكون مضطربة و مصيرها الانهيار و الزوال.

و من الممكن أن يكون ل (هوى النفس) معانى واسعة، تضمّ فى نفس الوقت هوى نفس الإنسان، و هوى النفس عند كلّ الناس، و هكذا فإنّ القرآن يحكم ببطلان المناهج الوضعيّة التى تستند على أفكار عامّة الناس فى الحكم، لأنّ نتيجة الإثنين هو الضلال و الانحراف عن سبيل اللّه و صراط الحقّ.

و اليوم نشاهد الآثار السيّئة لهذا النوع من التفكير فى عالم يسمّى بالعالم المتطور و الحديث، فأحيانا نرى أشنع و أقبح الأعمال تأخذ شكلا قانونيا نتيجة الأخذ بآراء الناس، و رائحة الفضيحة فى هذا العالم قد أزكمت الأنوف، و القلم يجلّ عن ذكرها.

صحيح أنّ أسس الحكومة مستندة على الجماهير، و أنّ مشاركة الجميع فيها يحفظ أسسها، إلّا أنّ هذا لا يعنى أنّ رأى الأكثرية هو معيار الحقّ و الباطل فى كلّ شىء و فى كلّ مكان.

فالحكومة يجب أن يكون إطارها الحقّ، و لتطبيق الحقّ لا بأس بالاستعانة بطاقات أفراد المجتمع، و عبارة (الجمهورية الإسلامية) المتكوّنة من كلمتى (الجمهورية) و (الإسلامية) تعطى المعنى السابق، و بعبارة اخرى فإنّ أصولها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۱

مستمدّة من نهج الإسلام، و تنفيذ تلك الأصول يتمّ بمشاركة الجماهير.

و أخيرا فإنّ الجملة الخامسة تشير إلى أنّ كلّ ضلال عن سبيل اللّه لا ينفكّ عن نسيان يوم الحساب، و من ينسى يوم الحساب فإنّ عذاب اللّه الشديد ينتظره إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ

و من الطبيعى أنّ نسيان يوم القيامة هو مصدر الضلال، و كلّ ضلال مرتبط بالنسيان، و هذا المبدأ يوضّح التأثير التربوى فى الاهتمام بالمعاد فى حياة البشر.

و لقد وردت روايات بهذا الشأن فى المصادر الإسلاميّة، و منها حديث مشهور

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «أيّها الناس، إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوى، و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة»[۴۲۶].

أ ليس من الأفضل كتابة هذا الحديث بماء الذهب، و وضعه أمام الجميع خاصّة الحكّام و القضاة و المسؤولين.

و

فى رواية اخرى وردت عن الإمام الباقر عليه السّلام، جاء فيها: «ثلاث موبقات: شحّ مطاع، و هوى متّبع، و إعجاب المرء بنفسه»[۴۲۷].

و تتمّة للبحث الذى استعرض حال داود و خلافته فى الأرض، تتطرّق الآيات لأهداف خلق عالم الوجود، كى تشخّص أسباب الحكومة على الأرض التى هى جزء من ذلك العالم، و جاء فى قوله تعالى: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

هناك مسألة مهمّة تعدّ مصدرا لكلّ الحقوق، و هى: ما الهدف من وجود الخلق؟

فعند ما ننظر إلى هذا العالم الوسيع، و نوافق على أنّ هذا العالم الوسيع لم يخلقه اللّه عبثا، نتابع الهدف من وراء ذلك الخلق، الهدف الذى يمكن إيجازه فى كلمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۲

قصيرة و عميقة، و هى (التكامل) و (التعليم) و (التربية) و من هنا نستنتج أنّ الحكومات عليها أن تسير وفق هذا الخطّ، فعليها أن تثبت أسس التربية و التعليم لتكون أساس التكامل المعنوى عند الإنسان.

و بعبارة اخرى: إنّ الحقّ و العدل هما أساس عالم الوجود، و على الحكومات أن تعمل وفق موازين الحقّ و العدالة.

الجملة الأخيرة من الآية السابقة التى تطرّقت إلى نسيان يوم الجزاء، متطابقة بصورة كاملة مع الآية مورد بحثنا، لأنّ هدف خلق العالم يوجب عدم نسيان يوم الجزاء و الحساب، و كما قلنا فى بحث المعاد (فى آخر سورة يس) لو لم يكن هناك يوم للحساب، فإنّ خلق العالم يعدّ عبثا.

و نهاية هذه الآية تشير إلى خطوط واضحة تفصّل بين الإيمان و الكفر، و إعتقاد المذهب الإلحادى بعدم جدوى خلق العالم هو مثال للابتلاءات التى ابتلينا بها اليوم، إذ أنّ اتّباع ذلك المذهب يعلنون بصراحة أنّ خلق العالم لا فائدة فيه، و لا هدف يرتجى من ورائه، فمن يفكّر هكذا كيف يتمكّن من تطبيق الحقّ و العدالة فى حكومته؟! الحكومة الوحيدة التى تستطيع تطبيق الحقّ و العدالة، هى الحكومة التى تستلهم أفكارها و معتقداتها من المبادئ الإلهيّة، و التى تقول إنّ البارى عزّ و جلّ لم يخلق العالم عبثا و إنّما خلقه لأهداف و أغراض معيّنة، كى تسير الحكومات وفق تلك الأهداف، و إذا كان العالم الإلحادى قد وصل اليوم إلى طريق مسدود فى شؤون الحكم و الحرب و السلام و فى الإقتصاد و الثقافة، فالسبب الرئيسى يكمن فى ابتعادهم عن هذا الأمر، و لهذا فإنّ أسس حكوماتهم تقوم على الظلم و التسلّط، فكم تكون الدنيا موحشة و رهيبة إذا أصبحت تدار وفق هذا النوع من التفكير العشوائى! على أيّة حال، فإنّ البارى عزّ و جلّ حكيم، و من غير الممكن أن يخلق هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۳

العالم من دون هدف، فالعالم هذا مقدّمة لعالم آخر أكبر و أوسع من عالمنا هذا، و هو أبدى و خالد يوضّح الأهداف الحقيقيّة وراء خلق عالم الدنيا.

الآية التالية تضيف: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ[۴۲۸].

كما أنّ عدم وجود هدف من خلق العالم يعدّ أمرا مستحيلا، فمن المستحيل أيضا المساواة بين الصالحين و الطالحين، لأنّ المجموعة الاولى كانت تخطو خطواتها وفق أهداف خلق العالم للوصول إلى الغاية النهائية، بينما كانت المجموعة الثانية تسير باتّجاه مخالف لمسير المجموعة الاولى.

الواقع أنّ بحث المعاد بكافّة أبعاده قد تمّ تناوله فى هذه الآية و الآية التى سبقتها بشكل مستدلّ.

فمن جهة تقول: إنّ حكمة الخالق تقتضى أن يكون لخلق العالم هدف، و هذا الهدف لا يتحقّق بعدم وجود عالم آخر، لأنّ الأيّام القلائل التى يعيشها الإنسان فى هذه الدنيا لا قيمة لها بالنسبة للهدف الرئيسى الكامن وراء خلق هذا العالم الواسع.

و من جهة اخرى، فإنّ حكمة و عدالة البارى عزّ و جلّ تفرض أن لا يتساوى المحسن و المسىء و العادل و الظالم، و لهذا كان البعث و الثواب و العقاب و الجنّة و النار.

و بغضّ النظر عن هذا، فعند ما ننظر إلى ساحة المجتمع الإنسانى فى هذه الدنيا نشاهد الفاجر فى مرتبة المؤمن، و المسىء إلى جانب المحسن، و لربّما فى أكثر الأحيان نرى المفسدين المذنبين يعيشون فى حالة من الرفاه و التنعّم أكثر من غيرهم، فإذا لم يكن هناك عالم آخر بعد عالمنا هذا لتطبيق العدالة هناك، فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۴

وضع العالم هذا مخالف «للحكمة» و (للعدالة)، و هذا هو دليل آخر على مسألة المعاد.

و بعبارة اخرى، فلإثبات مسألة المعاد- أحيانا- يمكن الاستدلال عليها عن طريق برهان (الحكمة) و أحيانا اخرى عن طريق برهان (العدالة)، فالآية السابقة استدلال بالحكمة، و الآية التى بعدها استدلال بالعدالة.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى موضوع يوضّح- فى حقيقة الأمر- الهدف من الخلق، إذ جاء فى الآية الكريمة: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ

فتعليماته خالدة، و أوامره عميقة و أصيلة، و نظمه باعثة للحياة و هادية للإنسان إلى الطريق المؤدّى إلى اكتشاف هدف الخلق.

فالهدف من نزول هذا الكتاب العظيم لم يقتصر- فقط- على تلاوته و تلفّظ اللسان به، بل لكى تكون آياته منبعا للفكر و التفكّر و سببا ليقظة الوجدان، لتبعث بدورها الحركة فى مسير العمل.

كلمة (مبارك) تعنى شيئا ذا خير دائم و مستمر، أمّا فى هذه الآية فإنّها تشير إلى دوام استفادة المجتمع الإنسانى من تعليماته، و لكونها استعملت هنا بصورة مطلقة، فإنّها تشمل كلّ خير و سعادة فى الدنيا و الآخرة.

و خلاصة الأمر، فإنّ كلّ الخير و البركة فى القرآن، بشرط أن نتدبّر فى آياته و نستلهم منها و نعمل بها.

***

ملاحظتان

۱- التقوى و الفجور أمام بعضهما البعض

فى الآيات المذكورة أعلاه، ورد الفساد فى الأرض فى مقابل الإيمان و العمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۵

الصالح، و الفجور (الذى يعنى تمزيق حجب الدين) فى مقابل التقوى و الورع.

هل أنّ هذين الإثنين، يوضّحان حقيقة واحدة فى عبارتين، أم أنّهما يوضّحان موضوعين؟ من غير المستبعد أن يكون الاثنان تأكيدا لمعنى واحد، لأنّ (المتّقين) هم المؤمنون أصحاب العمل الصالح و (الفجّار) هم المفسدون فى الأرض.

و يحتمل فى أن تكون الجملة الاولى هى إشارة إلى الجوانب العملية و العقائدية لكلا الطرفين، إذ تقارن بين أصحاب العقائد الصحيحة و الأعمال الصالحة و بين أصحاب العقائد الفاسدة و الأعمال الخبيثة، فى حين أنّ الجملة الثانية تشير فقط إلى الجانب

العملى.

و يحتمل أيضا أنّ (التقوى و الفجور) شاهدان على كمال و نقص الإنسان، و العمل الصالح و الفساد فى الأرض شاهدان على الجوانب الاجتماعية، و لكن التأكيد يعدّ أنسب.

۲- لمن تعنى هذه الآيات؟

جاء فى إحدى الروايات التى تفسّر قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بأنّها إشارة إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام و أنصاره، فى حين أنّ بقيّة الآية كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ إشارة إلى أعدائه ۴۲۹].

و جاء فى حديث آخر نقله (ابن عساكر) عن ابن عباس، فى أنّ المقصودين فى الآية الَّذِينَ آمَنُوا «على» و «حمزة» و «عبيدة» الذين واجهوا فى معركة بدر كلا من «عتبة» و «الوليد» و «شيبة» و رموز جيش الكفر و الشرك (و تمكّنوا من قتلهم فى ساحة المعركة. فبهذا يكون عتبة و الوليد و شيبة هم المقصودين فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۶

كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ۴۳۰].

الواضح من معنى هذه الرّوايات أنّها لا تحصر مفهوم الآية فى أفراد معينين، و إنّما هى بيان لأسباب النّزول، أو أنّها مصداق واضح و بارز لهذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۷

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۳۰) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (۳۱) فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ (۳۲) رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ (۳۳)

التّفسير

سليمان عليه السّلام يستعرض قوّاته القتالية:

هذه الآيات تواصل البحث السابق بشأن داود عليه السّلام.

فالآية الاولى تزفّ البشرى لداود فى أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، و سيتولّى الحكم و أعباء الرسالة من بعده، و تقول: وَ وَهَبْنا لِداوُدَ سُلَيْمانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

هذه الجملة تبيّن عظمة مقام سليمان، و يحتمل كونها ردّا على الاتّهامات القبيحة و العارية من الصحّة الواردة فى التوراة المحرّفة عن ولادة سليمان من زوجة أوريا، و التى كانت شائعة فى المجتمع قبل نزول القرآن.

فعبارة (وهبنا) من جهة و (نعم العبد) من جهة اخرى، و للتعليل (إنّه أوّاب) أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۸

(الشخص المطيع للّه و الممتثل لأوامره، و الذى يتوب إلى البارى عزّ و جلّ إثر أبسط غفلة أو زلّة) من جهة ثالثة، كلّها تدلّ على عظمة مقام هذا النّبى الكبير.

و عبارة (إنّه أوّاب) هى نفس العبارة التى جاءت بحقّ والده داود فى الآية (۱۷) من نفس السورة، و رغم أنّ كلمة (أوّاب) صيغة مبالغة و تعنى كثير الرجوع و غير محدودة، فإنّها هنا تعنى العودة لطاعة الأمر الإلهى، العودة إلى الحقّ و العدالة، العودة من الغفلة و ترك العمل بالأولى.

الآية التالية تبدأ بقصّة خيل سليمان، التى فسّرت بأشكال مختلفة، حيث أنّ البعض فسّرها بصورة سيّئة و معارضة لموازين العقل، حتّى أنّه لا يمكن إيرادها بشأن إنسان عادى، فكيف ترد بحقّ نبى عظيم كسليمان عليه السّلام.

و لكن المحقّقين بعد بحثهم فى الدلائل العقليّة و النقلية أغلقوا الطريق أمام أمثال هذه التّفسيرات، و قبل أن نخوض فى الاحتمالات المختلفة الواردة، نفسّر الآيات وفق ظاهرها أو (وفق أقوى احتمال ظاهرى لها) لكى نوضّح أنّ القرآن الكريم خال من مثل هذه الادّعاءات المزيّفة التى فرضت على القرآن من قبل الآخرين.

إذ يقول القرآن: إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ.

«صافنات» جمع (صافنة) و قال معظم اللغويين و المفسّرين: إنّها تطلق على الجياد التى تقوم على ثلاث قوائم و ترفع أحد قوائمها الإمامية قليلا ـ ليمسّ الأرض على طرف الحافر، و هذه الحالة تخصّ الخيول الأصلية التى هى على أهبّة الاستعداد للحركة فى أيّة لحظة[۴۳۱].

«الجياد» جمع (جواد) و تعنى الخيول السريعة السير، و كلمة «جياد» مشتقّة فى الأصل من (جود)، و الجود عند الإنسان يعنى بذل المال، و عند الخيول يعنى سرعة سيرها. و بهذا الشكل فإنّ الخيول المذكورة تبدو كأنّها على أهبّة الاستعداد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۴۹۹

للحركة أثناء حالة توقّفها، و إنّها سريعة السير أثناء عدوها.

و يستشف من الآية مع القرائن المختلفة المحيطة بها، أنّه فى أحد الأيّام و عند العصر استعرض سليمان عليه السّلام خيوله الأصيلة التى كان قد أعدّه الجهاد أعدائه، إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السّلام فى استعراض منسّق و مرتّب. و بما أنّ الملك العادل و صاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشا قويّا، و الخيول السريعة إحدى الوسائل المهمّة التى يجب أن تتوفّر لدى ذلك الجيش، فقد جاء هذا الوصف فى القرآن بعد ذكر مقام سليمان باعتباره نموذجا من أعماله.

و لكى يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين فى أنّ حبّه لهذه الخيول القويّة ناتج من حبّة للدنيا، جاء فى قوله تعالى: فَقالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي انّى احبّ هذه الخيل من أجل اللّه و تنفيذ أمره، و أريد الاستفادة منها فى جهاد الأعداء.

لقد ورد أنّ العرب تسمّى «الخيل» خيرا، و

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال فيه: «الخير معقود بنواصى الخيل إلى يوم القيامة»[۴۳۲].

و استمرّ سليمان عليه السّلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدّة لجهاد أعداء اللّه، و هو يعيش حالة من السرور، حتّى توارت عن أنظاره حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ

كان هذا المشهد جميلا و لطيفا لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة اخرى رُدُّوها عَلَيَ و عند ما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السّلام إلى مسح سوقها و أعناقها فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ

و بهذا الشكل أشاد بجهود مدربى تلك الخيول، و أعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من الطبيعى لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد و وجهه و رقبته و شعر رقبته، أو يمسح على ساقه. و أبرز فى نفس الوقت تعلّقه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۰

الشدید بخیله التی تساعده فی تحقیق أهدافه العلیا السامیة، و تعلّق سلیمان الشدید بخیله لیس بأمر یبعث علی العجب.

«طفق» باصطلاح النحویین من أفعال المقاربة، و تأتی بمعنی «شرع».

«سوق» هی جمع (ساق) و (أعناق) جمع (عنق) و معنی الآیة هو أنّ سلیمان شرع بمسح سوق الجیاد و أعناقها.

ما ذکرناه بشأن تفسیر هذه الآیة یتطابق مع ما ذهب إلیه بعض المفسّرین کالفخر الرازی، کما تمّت الاستفادة من بعض ما ورد عن العالم الشیعی الکبیر السیّد المرتضی، إذ قال فی کتابه (تنزیه الأنبیاء) فی باب نفی الادّعاءات الباطلة و المحرّمة التی ینسبها بعض المفسّرین و رواة الحدیث إلی سلیمان (إنّ اللّه تعالی ابتدأ الآیة بمدحه و الثناء علیه فقال: نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ فلا یمکن أن یثنی علیه بهذا الثناء ثمّ یتبعه من غیر فصل بإضافة القبیح إلیه، و أنّه یتلّهی بعرض الخیل عن فعل المفروض علیه من الصلاة، و الذی یقتضیه الظاهر أنّ حبّه للخیل و شغفه بها کان عن إذن ربّه و بأمره و بتذکیره إیّاه، لأنّ اللّه تعالی قد أمرنا بإرباط الخیل و إعدادها لمحاربة الأعداء، فلا ینکر أن یکون سلیمان علیه السّلام مأمورا بمثل ذلک)[۴۳۳].

أمّا العلّامة المجلسی فقد ذکر فی کتابه (بحار الأنوار) فی باب النبوّة، تفسیرا لهذه الآیات یشابه کثیرا ما ذکر أعلاه ۴۳۴].

علی أیّة حال- وفق هذا التّفسیر- لم یصدر من سلیمان أی ذنب، و لم یحدث أی خلل فی ترتیب الآیات، و لا تبدو أیّة مشکلة حتّی نعمد إلی توضیحها[۴۳۵].

و الآن نستعرض تفاسیر اخری لمجموعة من المفسّرین بشأن هذه الآیات و أشهرها، ذلک التّفسیر الذی یعود بالضمیر فی جملتی (توارت) و (ردّوها) إلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۱

(الشمس) التی لم ترد فی تلک الآیات، و لکنّهم استدلّوا علیها من کلمة (العشی) (التی تعنی آخر النهار بعد الزوال) الموجودة فی آیات بحثنا.

و بهذا الشکل فإنّ الآیات تعطی المفهوم التالی، إنّ سلیمان کان غارقا فی مشاهدة الخیل و الشمس قد غربت و استترت خلف حجاب الأفق، فغضب سلیمان کثیرا لأنّه لم یکن قد صلّی صلاة العصر، فنادی ملائکة اللّه، و دعاها إلی ردّ الشمس، فاستجابت له الملائکة و ردّتها إلیه، أی رجعت فوق الأفق، فتوضّأ سلیمان (المراد بمسح السوق و الأعناق هو أداء الوضوء الذی کان حینذاک یعمل به وفق سنّة سلیمان، و بالطبع فإنّ کلمة (المسح) تأتی أحیانا فی لغة العرب بمعنی الغسل) ثمّ صلّی.

البعض ممّن لیس لدیهم الاطلاع الکافی تحدّثوا بأکثر من هذا، و نسبوا أمورا سیّئة و محرّمة اخری إلی هذا النّبی الکبیر، عند ما قالوا: إنّ المقصود من جملة فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَ الْأَعْناقِ هو أنّه أمر بضرب سوق و أعناق الخیل بالسیف، أو أنّه نفّذ هذا الأمر بشخصه، لأنّها شغلته عن ذکر اللّه و الصلاة.

طبیعی أنّ بطلان التّفسیر الأخیر لا یخفی علی أحد، لأنّ الخیول لا ذنب لها کی یقتلها سلیمان بحدّ السیف، فإن کان هناک ذنب فقد ارتکبه هو، لأنّه کان غارقا فی مشاهدة خیله، و نسی صلاته.

و أحیانا فإنّ قتل الخیل إسراف إضافة إلی کونه جریمة، فکیف یمکن أن یصدر مثل هذا العمل المحرّم من نبی، أمّا الروایات التی وردت من المصادر الإسلامیّة بشأن هذه الآیة فإنّها تنفی- بشدّة- هذه التهمة الموجّهة إلی سلیمان علیه السّلام.

أمّا التفاسیر السابقة التی قالت بنسیان سلیمان و غفلته عن أداء صلاة العصر، فهی موضع السؤال التالی، هل یمکن لنبی معصوم أن ینسی واجبا مکلّفا به؟ رغم أنّ استعراضه للخیول کان واجبا آخر مکلّفا به، إلّا إذا کانت الصلاة- کما قال

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۲

البعض- صلاة مندوبة أو مستحبّة، و نسیانها لا یسبّب أیّة مشاکل، و لکن إن کانت صلاة نافلة فلا ضرورة إذن لردّ الشمس.

إذا انتهینا من هذا، فهناک إشکالات اخری وردت بشأن هذا التّفسیر.

۱- كلمة (الشمس) لم تأت بصورة صريحة فى الآيات، فى حين أنّ الخيل الصَّافِناتُ الْجِيادُ جاء ذكرها صريحا، و نرى من المناسب أن نعود بالضمير على شيء صرّحت به الآيات.

۲- عبارة عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ظاهرها يعنى أنّ حبّ هذه الخيل إنّما هو ناشئ من ذكر و طاعة أمر اللّه، فى حين- طبقا للتفسير الأخير- تعطى كلمة (عن) معنى (على) و يكون معنى العبارة، إنّى آثرت حبّ الخيل على حبّ ربّى، و هذا المعنى مخالف لظاهر الآية.

۳- الأعجب من كلّ ذلك هى عبارة رُدُّوها عَلَىَ التى تحمل صفة الأمر، فهل يمكن أن يخاطب سليمان البارى عزّ و جلّ أو ملائكته بصيغة الأمر، أن ردّوا علىّ الشمس، كما يخاطب عبيده أو خدمه.

۴- قضيّة ردّ الشمس، رغم أنّها فى مقابل قدرة البارى عزّ و جلّ تعدّ أمرا يسيرا، إلّا أنّها تواجه بعض الإشكالات بحيث جعلتها أمرا لا يمكن قبوله من دون توفّر أدلّة واضحة عليها.

۵- الآيات المذكورة أعلاه تبدأ بمدح و تمجيد سليمان، فى حين أنّ التّفسير الأخير لها يعطى معنى الذمّ و التحقير.

۶- إذا كانت الصلاة المتروكة واجبة، فتعليلها يعدّ أمرا صعبا، أمّا إذا كانت نافلة فلا داعى لردّ الشمس.

السؤال الوحيد المتبقّى هنا، هو أنّ هذا التّفسير ورد فى عدّة روايات فى مصادر الحديث، و إذا دقّقنا جيّدا فى إسناد هذه الأحاديث، يتّضح لنا أنّها جميعا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۳

تفتقد السند الموثوق المعتبر، و أنّ أكثر هذه الروايات موضوعة.

أليس من الأفضل صرف النظر عن تلك الروايات غير الموثوقة، و إرجاع علمها إلى أصحابها، و تقبّل كلّ ما يبيّنه ظاهر الآيات بذهنية صافية و متفتّحة، لنريح أنفسنا من عناء الإشكالات الفارغة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۴

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۳۴ الى ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ (۳۴) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (۳۵) فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ (۳۶) وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (۳۷) وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (۳۸)

هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۳۹) وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ (۴۰)

التّفسير

الامتحان الصعب لسليمان و ملكه الواسع:

هذه الآيات تتحدّث عن أحداث اخرى من قصّة سليمان، و تبيّن أنّ الإنسان مهما امتلك من قوّة و قدرة، فإنّها ليست منه، بل إنّ كلّ ما عنده هو من اللّه سبحانه و تعالى، هذا الموضوع يزيل حجب الغرور و الغفلة عن عين الإنسان، و يجعله يشعر بصغر حجمه قياسا إلى هذا الكون.

القسم الأوّل من الآيات يتطرّق إلى أحد الامتحانات التى امتحن اللّه بها عبده

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۵

سليمان، الامتحان فى ترك العمل بالأولى، و كيف توجّه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى اللّه سبحانه و تعالى طالبا منه العفو و التوبة لتركه العمل بالأولى.

إيجاز محتوى الآيات، سمح مرّة اخرى لنا سجى قصص الخيال أن ينسجوا قصصا خيالية وهمية اخرى، و يلصقوا التّهم بهذا النّبى الكبير ما لا ـ يليق بالنّبوة، و يتنافى مع مقام العصمة، و يتنافى أساسا مع المنطق و العقل، و هذا بحدّ ذاته إمتحان للمحقّقين فى علوم القرآن، فلو أنّنا اكتفينا بما تطرحه آيات القرآن لما بقيت ثغرة لنفوذ الخرافات و الأباطيل.

الآية الاولى فى بحثنا هذا تقول: وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمانَ وَ أَلْقَيْنا عَلى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنابَ

«الكرسى» يعنى الأريكة ذات الأرجل القصيرة، و يبدو أنّه كان للسلاطين نوعان من الكراسى، الأوّل: له أرجل قصيرة يستخدم فى الأوقات العادية، و الثانى: له أرجل أطول يستخدمها السلاطين فى اجتماعاتهم الرسمية، و يطلق على الأوّل اسم (كرسى) و على الثانى اسم (عرش).

«الجسد» يعنى الجسم الذى لا ـ روح فيه، و كما يقول الراغب فى مفرداته: إنّ لها مفهوما أكثر محدودية من مفهوم الجسم، لأنّ كلمة الجسد لا تطلق على غير الإنسان إلّا نادرا، و لكن كلمة الجسم لها طابع عام.

يستفاد من هذه الآيات بصورة عامّة أنّ موضوع إمتحان سليمان كان بواسطة جسد خال من الروح القى على كرسيّه و أمام عينيه، أمر لم يكن يتوقّعه، و آماله كانت متعلّقة بشىء آخر، و القرآن لا يعطى تفصيلات اخرى فى هذا المجال.

و قد أورد المفسّرون و المحدّثون تفسيرات متعدّدة فى هذا المجال، أفضلها و أوضحها ما يلى:

إنّ سليمان عليه السّلام كان متزوجا من عدّة نساء، و كان يأمل أن يرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه فى إدارة شؤون البلاد و جهاد الأعداء، فحدّث نفسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۶

يوما قائلا: لأطوفنّ على نسائى كى ارزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدوننى فى تحقيق أهدافى، و لكونه غفل عن قول (إن شاء اللّه) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التى تبيّن توكّل الإنسان على اللّه سبحانه و تعالى فى كلّ الأمور و الأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقة جىء به و القى على كرسى سليمان عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۴ ؛ ص۵۰۶

يمان عليه السّلام غرق- هنا- فى تفكير عميق، و تألّم لكونه غفل عن اللّه لحظة واحدة و اعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى اللّه و عاد إليه.

و هناك تفسير آخر يمكن طرحه بعد التّفسير الأوّل و هو: إنّ اللّه سبحانه و تعالى امتحن سليمان بمرض شديد، بحيث طرحه على كرسيه كجسد بلا روح من شدّة المرض، و عبارة (جسد بلا روح) مألوفة و دارجة فى اللغة العربية إذ تطلق على الإنسان الضعيف و العليل.

و فى نهاية الأمر تاب سليمان إلى اللّه، و أعاد اللّه إليه صحّته، و عاد كما كان قبل مرضه (و المراد من (أناب) هنا عودة الصحّة و العافية إليه).

بالطبع هناك إشكال ورد على هذا التّفسير إذ أنّ عبارة (ألقينا) كان يجب أن تأتى بصورة (ألقيناه) حتّى تتناسب مع التّفسير المذكور أعلاه، يعنى أنّا ألقينا سليمان على كرسيّه جسدا بلا روح، فى حين أنّ هذه العبارة لم ترد فى الآية بتلك الصورة، و تقديرها مخالف

للظاهر.

عبارة (أناب) فى هذا التّفسير جاءت بمعنى عودة الصحّة و العافية إليه، و هذا أيضا مخالف للظاهر، أمّا إذا اعتبرنا أنّ معنى (أناب) هو التوبة و العودة إلى اللّه، فإنّها لا تلحق أى ضرر بالتّفسير، و لهذا فإنّ الشىء الوحيد المخالف لظاهر الآية- هنا- هو حذف ضمير عبارة (ألقيناه).

القصص الكاذبة و القبيحة التى تحدّثت عن فقدان خاتم سليمان، و عثور أحد الشياطين عليه، و جلوس ذلك الشيطان على عرش سليمان، كما ورد فى بعض الكتب التى لا يستبعد أن يكون مصدرها هو كتاب (التلمود) اليهودى الملىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۷

بالخرافات الإسرائيلية بما لا يتناسب مع العقل و المنطق.

و هذه القصص- فى حقيقة الأمر- دليل انحطاط أفكار مبتدعيها، و لهذا فإنّ المحقّقين المسلمين أينما ذكروها أعلنوا بصراحة زيفها و كونها مجرّد اختلاقات، و قالوا: إنّ مقام النبوّة و الحكومة الإلهية غير مرتبط بالخاتم، و لم يستردّ البارى عزّ و جلّ النبوّة من أحد أنبيائه بعد أنّ بعثه بها، حتّى يبعث الشيطان بصورة نبى ليجلس مكان سليمان (۴۰) يوما يحكم فيها بين الناس و يقضى بينهم ۴۳۶].

على أيّة حال، فإنّ القرآن الكريم- من خلال الآية التالية- يكرّر الحديث بصورة مفصّلة حول قضيّة توبة سليمان التى وردت فى آخر عبارة تضمّنتها الآية السابقة: قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَ هَبْ لِى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ***

هنا يطرح سؤالان:

۱- هل يستشفّ البخل من طلب سليمان عليه السّلام

ذكر المفسّرون أجوبة كثيرة على هذا السؤال، الكثير منها لا يتطابق مع ظاهر الآيات، و الجواب الذى يبدو أكثر تناسبا و منطقية من بقيّة التفاسير هو أنّ سليمان طلب من البارى عزّ و جلّ أن يهب له ملكا مع معجزات خاصّة، كى يتميّز ملكه عن بقيّة الممالك، لأنّنا نعرف أنّ لكلّ نبى معجزة خاصّة به، فموسى عليه السّلام معجزته العصا و اليد البيضاء، و معجزة إبراهيم عليه السّلام عدم إحراق النار له بعد أن القى فيها، و معجزة صالح عليه السّلام الناقة الخاصّة به، و معجزة نبيّنا الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو القرآن المجيد، و سليمان كان ملكه مقترنا بالمعجزات الإلهيّة، كتسخير الرياح و الشياطين له مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۸

مميّزات اخرى.

و هذا الأمر لا يعدّ عيبا أو نقصا بالنسبة للأنبياء الذين يطلبون من اللّه أن يؤيّدهم بمعجزة خاصّة، كى يبرهنوا للناس على صدق نبوّتهم، و لهذا فلا يوجد أى مانع فى أن يطلب الآخرون ملكا أوسع و أكبر من ملك سليمان، و لكن لا تتوفّر فيه الخصائص التى أعطيت لسليمان.

و الدليل على هذا الكلام الآيات التالية، و التى هى- فى الحقيقة- تعكس استجابة البارئ عزّ و جلّ لطلب سليمان، و تتحدّث عن تسخير الرياح و الشياطين لسليمان، و كما هو معروف فإنّ هذا الأمر هو من خصائص ملك سليمان.

و من هنا يتّضح جواب السؤال الثانى الذى يقول، وفقا لعقائدنا نحن المسلمون، فإنّ ملك المهدى (عجّل اللّه تعالى فرجه) سيكون ملكا عاليا، و بالنتيجة سيكون أوسع من ملك سليمان. لأنّ ملك المهدى (عجّل اللّه تعالى فرجه) مع سعته و خصائصه التى تميّزه عن بقيّة الممالك، فإنّه يبقى من حيث الخصائص مختلفا عن ملك سليمان، و ملك سليمان يبقى خاصّا به. خلاصة الأمر أنّ الحديث لم

يختّص بزيادة و نقصان و توسعة ملكه و طلب الإختصاص به، و إنّما اختصّ الحديث بكمال النبوّة و الذى يتمّ بوجود معجزات خصوصية، لتميّزه عن نبوّة الأنبياء الآخرين، و سليمان كان طلبه منحصرا فى هذا المجال.

و

لقد ورد فى بعض الرّوايات المنقولة عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السّلام فى ردّه على سؤال يقول: إنّ دعوة سليمان فيها بخل، إذ جاء فى الحديث أنّ أحد المقرّبين عن الإمام الكاظم عليه السّلام و هو على بن يقطين سأل الإمام عليه السّلام قائلا: أ يجوز أن يكون نبى اللّه عزّ و جلّ بخيلا؟

فقال: «لا».

فقلت له: فقول سليمان عليه السّلام: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ما وجهه و معناه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۰۹

فقال: «الملك ملكان: ملك مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار الناس، و ملك مأخوذ من قبل اللّه تعالى كملك آل إبراهيم و ملك طالوت و ذى القرنين، فقال سليمان عليه السّلام:

هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة و الجور و إجبار النّاس، فسخّر اللّه عزّ و جلّ له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب، و جعل غدوّها شهرا و رواحها شهرا، و سخّر اللّه عزّ و جلّ له الشياطين كلّ بناء و غوّاص، و علّم منطق الطير و مكّن فى الأرض، فعلم الناس فى وقته و بعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل و المالكين بالغلبة و الجور.

قال: فقلت له: فقول رسول اللّه: «رحم اللّه أخى سليمان بن داود ما كان أبخله»؟

فقال: «لقوله عليه السّلام وجهان: أحدهما: ما كان أبخله بعرضه و سوء القول فيه، و الوجه الآخر يقول: ما كان أبخله إن كان أراد ما كان يذهب إليه الجهّال»[۴۳۷].

الآيات التالية تبيّن- كما قلنا- موضوع استجابة اللّه سبحانه و تعالى لطلب سليمان و منحه ملكا يتميّز بامتيازات خاصّة و نعم كبيرة، يمكن إيجازها فى خمسة أقسام:

۱- تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير، كما تقول الآية: فَسَخَّرْنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخاءً حَيْثُ أَصابَ

من الطبيعى أنّ الملك الواسع الكبير يحتاج إلى واسطة اتّصال سريعة، كى يتمكّن صاحب ذلك الملك من تفقّد كلّ مناطق مملكته بسرعة فى الأوقات الضرورية، و هذا الامتياز منحه البارى عزّ و جلّ لسليمان عليه السّلام.

أمّا كيف كانت الرياح تطيع أوامره؟

و بأى سرعة كانت تسير؟

و على أى شىء كان سليمان و أصحابه يركبون أثناء انتقالهم من مكان إلى آخر عبر الرياح؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۰

و ما هى العوامل التى كانت تحفظهم من السقوط و من انخفاض و ارتفاع ضغط الهواء، و غيرها من المشاكل.

خلاصة الأمر: ما هى هذه الواسطة السريّة و ذات الأسرار الخفيّة التى كانت موضوعة تحت تصرّف سليمان فى ذلك العصر؟

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، و كلّ ما نعرفه أنّ تلك الأمور الخارقة توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم. و هذه القضايا ليست بقضايا عادية، و إنّما هى نعم خارقة و معجزات، و هذه الأشياء تعدّ شيئا بسيطا فى مقابل قدرة البارى عزّ و جلّ، و ما أكثر المسائل التى نعرف أصلها فى الوقت الذى لا نعرف أى شىء عن جزئياتها.

و هنا يطرح سؤال، و هو: كيف يمكن أن تتطابق عبارة (رخاء) الواردة فى هذه الآية، و التى تعنى (اللين) مع عبارة (عاصفة) و التى تعنى الرياح الشديدة و الواردة فى الآية (۸۱) من سورة الأنبياء: وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها.

لهذا السؤال جوابان:

الأوّل: وصف الرياح بالعاصفة لبيان سرعة حركتها، و وصفها بالرخاء لبيان حركتها الهادئة و الرتيبة، أى إنّ سليمان و أصحابه لم يكونوا يشعرون بأىّ انزعاج من جرّاء حركة الرياح السريعة، فهى كالوسائل السريعة السير الموجودة حاليا، التى يشعر الإنسان معها كأنّه جالس فى إحدى غرف بيته، بينما تسير به تلك الوسيلة بسرعة عالية جدّا.

و قد ذكر بعض المفسّرين جوابا آخر على ذلك السؤال، و هو: إنّ هاتين الآيتين تشيران إلى نوعين من الرياح سخّرهما اللّه سبحانه و تعالى لسليمان، إحداهما كانت سريعة السير، و الثانية بطيئة.

۲- النعمة الاخرى التى أنعمها البارئ عزّ و جلّ على عبده سليمان عليه السّلام، هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۱

تسخير الموجودات المتمردة و وضعها تحت تصرّف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التى يحتاجها وَ الشَّياطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ ۴۳۸].

أى إنّ مجموعة منها منشغلة فى البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، و اخرى منشغلة بالغوص فى البحر.

و بهذا الشكل فإنّ اللّه وضع تحت تصرّف سليمان قوّة مستعدّة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين- التى من طبيعتها التمرّد و العصيان- سخّرت لسليمان لتبنى له، و لتستخرج المواد الثمينة من البحر.

و مسألة تسخير الشياطين لسليمان و تنفيذها لما يحتاج إليه، لم ترد فى هذه الآية فقط، و إنّما وردت فى عدّة آيات من آيات القرآن المجيد، و لكن فى بعض الآيات- كالآية التى هى مورد بحثنا و الآية (۸۲) من سورة الأنبياء استخدمت كلمة (الشياطين) فيها، فيما استخدمت كلمة (الجنّ) فى الآية (۱۲) من سورة سبأ.

و كما قلنا سابقا فإنّ (الجنّ) موجودات مخفية عن أنظارنا، و لها عقول و شعور و قدرة، و بعضها مؤمن و بعضها الآخر كافر، و لا يوجد هناك أى مانع من أن توضع- بأمر من اللّه- تحت تصرّف بعض الأنبياء، لتنجز له بعض الأعمال.

و هناك احتمال وارد أيضا، و هو أنّ كلمة الشياطين لها معنى واسع قد يشمل حتّى العصاة من البشر، و قد استخدم هذا المعنى فى الآية (۱۱۲) من سورة الأنعام، و بهذا الترتيب فإنّ اللّه سبحانه و تعالى منح سليمان قوّة جعلت حتّى المتمردّين العصاة ينصاعون لأوامره.

۳- النعمة الاخرى التى أنعمها البارى عزّ و جلّ على سليمان، هى سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا فائدة فيه، و لا سبيل أمام سليمان سوى تكبيلهم بالسلاسل، كى يبقى المجتمع فى أمان من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۲

شرورهم، كما جاء فى القرآن المجيد وَ آخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ[۴۳۹].

«مقرّنين» مشتقّة من (قرن) و هى تشير إلى ربط الأيدى و الأرجل أو الرقاب بالسلاسل.

«أصفاد» جمع (صفد) على وزن (مطر) و تعنى القيود التى تكبّل بها أيدى السجناء.

و قال البعض: إنّ عبارة مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ تعنى الجامعة التى تجمع بين الرقبة و اليدين، و هذا المعنى قريب من معنى «مقرنين» اللغوى و أكثر مناسبة له.

و هناك رأى آخر محتمل، و هو أنّ المقصود من هذه العبارة هو أنّ كلّ مجموعة منهم مغلولة بسلسلة واحدة.

و هنا يطرح هذا السؤال: إن كان المراد من الشياطين هم شياطين الجنّ، فإنّ أولئك لهم جسم شفّاف لا يتناسب مع استخدام الأغلال و السلاسل و القيود.

لهذا قال البعض: إنّها كناية عن اعتقال و منع تلك الشياطين من أداء أى نشاط تخريبى، و إن كان المقصود من الشياطين هم المتمردون و العصاة من بنى آدم فإنّ الأغلال و القيود تبقى محافظة على مفهومها الأصلى، أى إنّ استخدامها هنا وارد.

۴- النعمة الرابعة التى أنعمها اللّه سبحانه و تعالى على نبيّه سليمان هى إعطاؤه الصلاحيات الواسعة و الكاملة فى توزيع العطايا و النعم على من يريد، و منعها عمّن يريد حسب ما تقتضيه المصلحة، هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ

عبارة بِغَيْرِ حِسابٍ إمّا أن تكون إشارة إلى أنّ البارئ عزّ و جلّ قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعة لن تكون مورد حساب أو مؤاخذة، و ذلك لصفة العدالة التى كان يتمتّع بها سليمان فى مجال استخدام تلك الصلاحيات، أو أنّ العطاء الإلهى لسليمان كان عظيما بحيث أنّه مهما منح منه فإنّه يبقى عظيما و كثيرا.

و قال بعض المفسّرين: إنّ هذه العبارة تخصّ- فقط- الشياطين المقرنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۳

بالأصفاد، و تخاطب سليمان بأنّه يستطيع إطلاق سراح أى منهم (إن رأى فى ذلك صلاحا، و إبقاء من يشاء فى قيوده إن رأى الصلاح فى ذلك.

إلّا أنّ هذا المعنى مستبعد، لأن لا يتلاءم مع ظاهر كلمة (عطائنا).

۵- و النعمة الخامسة و الأخيرة التى منّ اللّه سبحانه و تعالى بها على سليمان، هى المراتب المعنوية اللائقة التى شملته، كما ورد فى آخر آية من آيات بحثنا وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

هذه الآية- فى الحقيقة- هى الردّ المناسب على أولئك الذين يدنّسون قدسية أنبياء اللّه العظام بادّعاءات باطلة و واهية يستقونها من كتاب التوراة الحالى المحرّف، و بهذا الشكل فإنّها تبرئ ساحته من كلّ تلك الاتّهامات الباطلة و المزيّفة، و تشيد بمرتبته عند البارئ عزّ و جلّ، حتّى أنّ عبارة حُسْنَ مَآبٍ التى تبشّره بحسن العاقبة و المنزلة الرفيعة عند اللّه، هى- فى نفس الوقت- إشارة إلى زيف الادّعاءات المحرّفة التى نسبتها كتب التوراة إليه، و التى تدّعى أنّ سليمان انجرّ فى نهاية الأمر إلى عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، و عمد إلى بناء معبد للأصنام، إلّا أنّ القرآن الكريم ينفى و يدحض كلّ تلك البدع و الخرافات.

***

ملاحظتان

۱- الحقائق التى تبيّنها لنا قصّة سليمان

من دون أىّ شكّ، إنّ القرآن الكريم يهدف من ذكر تاريخ الأنبياء إتمام برامج التربية من خلال عكس عين الحقائق فى هذه القصص.

و من جملة الأمور التى رسمتها قصّة سليمان، ما يلى:

أ: إنّ إمساكه بزمام امور مملكة قويّة ذات إمكانيات ماديّة و اقتصاديّة واسعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۴

و حضارة ساطعة لا تتنافى مع المقامات المعنوية و القيم الإلهية و الإنسانية، كما ذكرت ذلك الآيات المذكورة أعلاه بعد انتهائها من سرد النعم الماديّة التى أجزلها اللّه على سليمان، إذ يقول القرآن المجيد: وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَ حُسْنَ مَآبٍ

و

فى حديث ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال فيه: «أرأيتم ما اعطى سليمان بن داود من ملكه؟ فإنّ ذلك لم يزده إلّا تخشعا، ما كان يرفع بصره إلى السماء تخشعا لربّه»[۴۴۰]!

ب: لإدارة شؤون مملكته كبيرة مترامية الأطراف، يجب توفّر وسيلة سريعة للاتّصال، كما ينبغى الاستفادة من الطاقات المختلفة، و الحيلولة دون نفوذ القوى المخرّبة، و الاهتمام بالقضايا العمرانية، و الحصول على الأموال عن طريق استخراج الثروات من البرّ و البحر، و وضع الإمكانات تحت تصرّف الولاة و العمّال المناسبين و الجديرين بتسلّم المناصب، كلّ هذه الأمور عكستها قصّة سليمان بصورة واضحة.

ج: الاستفادة من القوى البشرية بأقصى حدّ ممكن، بل و يمكن الاستفادة حتّى من الشياطين، إذ يمكن توجيهها و إرشادها للطريق الصحيح، و غلّ و تصفيد المتبقّى منها الذى لا يستفاد منه.

۲- سليمان فى القرآن و التوراة

القرآن المجيد وصف نبى اللّه سليمان فى الآيات المذكورة أعلاه بأنّه إنسان طاهر و صاحب قيم و مدبّر و عادل.

فى حين وصفه كتاب التوراة الحالى المحرّف (و العياذ باللّه) بأنّه رجل فاجر مطيع لهوى نفسه و ذو نقاط ضعف كثيرة. و العجيب فى الأمر أنّه استعرض إلى جانب هذه الصفات الكاذبة و المزيّفة مناجاة سليمان لربّه و أشعاره الدينيّة و أمثاله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۵

و حكمه، و التى تشهد على أنّه رجل حكيم و حرّ، و هذا تناقض عجيب يشاهد فى كتاب التوراة المحرّف الحالى.

و لمن يريد الاطلاع أكثر بهذا الشأن يمكنه مراجعة تفسير الآيات ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ من سورة سبأ، و الذى جاء تحت عنوان (صور سليمان فى القرآن و كتاب التوراة الحالى المحرّف).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۶

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

وَ اذْكُرْ عَبْدَنا أَيُّوبَ إِذْ نادى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ (۴۱) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ (۴۲) وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۴۳) وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (۴۴)

التّفسير

حياة أيّوب المليئة بالحوادث و العبر:

الآيات السابقة تحدّثت عن سليمان عليه السّلام و عن القدرة التى منحها إيّاه البارئ عزّ و جلّ، و التى كانت بمثابة البشرى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لمسلمى مكّة الذين كانوا يعيشون تحت ضغوط صعبة.

آيات بحثنا هذا تتحدّث عن أيّوب الذى كان أنموذجا حيّا للصبر و الاستقامة، و ذلك لتعطى درسا لمسلمى ذلك اليوم و يومنا الحاضر و غدا، درسا فى مقاومة مشاكل و صعاب الحياة، و لتدعوهم إلى الاتّحاد و التعاون، كما وضّحت العاقبة المحمودة للصبر و الصابرين.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۷

و أیّوب هو ثالث نبی من أنبیاء اللّه تستعرض هذه السورة (سورة ص) جوانب من حیاته، و هی بذلک تدعو رسولنا الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی تذکّر هذه القصّة، و حکایتها للمسلمین، کی یصبروا علی المشاکل الصعبة التی کانت تواجههم، و لا ییأسوا من لطف و رحمة اللّه.

اسم «أیّوب» أو قصّته وردت فی عدّة سور من سور القرآن المجید، منها الآیة (۱۶۳) فی سورة النساء، و الآیة (۸۴) فی سورة الأنعام التی ذکرت اسمه فی قائمة أنبیاء اللّه الآخرین، و بیّنت و أثبتت مقام نبوّته، بخلاف کتاب التوراة الحالی الذی لم یعتبره من الأنبیاء، و إنّما اعتبره أحد عباد اللّه المحسنین و الأثریاء و ذا عیال کثیرین.

کما أنّ الآیات (۸۳) و (۸۴) فی سورة الأنبیاء استعرضت بصورة مختصرة جوانب من حیاة أیّوب علیه السّلام، أمّا آیات بحثنا هذه فإنّها تستعرض حیاته بصورة مفصّلة أکثر من أیّ سورة اخری من خلال أربعة آیات:

فالاولی تقول: وَ اذْکُرْ عَبْدَنا أَیُّوبَ إِذْ نادی رَبَّهُ أَنِّی مَسَّنِیَ الشَّیْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ

«نصب» علی وزن (عسر)، و (نصب) علی وزن (حسد)، و کلاهما بمعنی البلاء و الشرّ.

هذه الآیة تبیّن أوّلا ـ علوّ مقام أیّوب عند الباری عزّ و جلّ، و ذلک من خلال کلمة «عبدنا»، و ثانیا فإنّها تشیر بصورة خفیّة إلی الابتلاءات الشدیدة التی لا تطاق، و إلی الألم و العذاب الذی مسّ أیّوب علیه السّلام.

و لم یرد فی القرآن الکریم شرحا مفصّلا لما جری علی أیّوب علیه السّلام، و إنّما نقرأ فی کتب الحدیث المعروفة و التفاسیر تفاصیل هذه القصّة.

ففی تفسیر نور الثقلین نقرأ أنّ أبا بصیر سأل الإمام الصادق عن بلیّة أیّوب التی ابتلی بها فی الدنیا لأیّ علّة کانت؟ (لعلّ السائل کان یظنّ أنّ أیّوب ابتلی بما ابتلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۸

به لمعصیة ارتکبها) فأجاب علیه السّلام

بقوله: «لنعمة أنعم اللّه عزّ و جلّ علیه بها فی الدنیا و أدّی شکرها، و کان فی ذلک الزمان لا یحجب إبلیس دون العرش، فلمّا صعد و رأی شکر نعمة أیّوب علیه السّلام حسده إبلیس، فقال: یا ربّ، إنّ أیّوب لم یؤدّ إلیک شکر هذه النعمة إلّا بما أعطیته من الدنیا، و لو حرمته دنیاه ما أدّی إلیه شکر نعمة أبدا، فسلّطنی علی دنیاه حتّی تعلم أنّه لم یؤدّ إلیک شکر نعمة أبدا».

(و لکی یوضّح الباری عزّ و جلّ إخلاص أیّوب للجمیع، و یجعله نموذجا حیّا للعالمین حتّی یشکروه حین النعمة و یصبروا حین البلاء، سمح الباری عزّ و جلّ للشیطان فی أن یتسلّط علی دنیا أیّوب).

«فقال له الباری عزّ و جلّ: قد سلّطتک علی ماله و ولده، قال: فانحدر إبلیس فلم یبق له مالا و لا ولدا إلّا أعطبه (أی أهلکه) فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا. قال:

فسلّطنی علی زرعه یا ربّ، قال: قد فعلت، فجاء مع شیاطینه فنفخ فیه فاحترق، فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا، فقال: یا ربّ سلّطنی علی غنمه، فسلّطه علی غنمه فأهلکها، فازداد أیّوب للّه شکرا و حمدا، فقال: یا ربّ سلّطنی علی بدنه فسلّطه علی بدنه ما خلا عقله و عینیه، فنفخ فیه إبلیس فصار قرحة واحدة من قرنه إلی قدمه، فبقی فی ذلک دهرا طویلا یحمد اللّه و یشکره».

(و لکن وقعت حادثة کسرت قلبه و جرحت روحه جرحا عمیقا، و ذلک عند ما زارته مجموعة من رهبان بنی إسرائیل).

«و قالوا له: یا أیّوب لو أخبرتنا بذنبک لعلّ اللّه کان یهلکنا إذا سألناه، و ما نری ابتلاک بهذا الابتلاء الذی لم یبتل به أحد إلّا من أمر کنت تستره؟ فقال أیّوب علیه السّلام:

و عزّة ربّی لم أرتکب أی ذنب، و ما أکلت طعاما إلّا و یتیم أو ضعیف یأکل معی»[۴۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۱۹

حقّا إنّ شماتة أصحابه كانت أكثر ألما عليه من أيّة مصيبة اخرى حلّت به، و رغم هذا لم يفقد أيّوب صبره، و لم يلوّث شكره الصافى كالماء الزلال بالكفر، و إنّما توجّه إلى البارئ عزّ و جلّ و ذكر العبارة التى ذكرناها آنفا، أى قوله تعالى:

أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطانُ بِنُصْبٍ وَ عَذابٍ و لكونه خرج من الامتحان الإلهى بنتيجة جيّدة، فتح البارى عزّ و جلّ- مرّة اخرى- أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمّل أيّوب، و أعاد عليه النعم التى افتقدها الواحدة تلو الاخرى، لا بل أكثر ممّا كان يمتلك من المال و الزرع و الغنم و الأولاد، و ذلك كى يفهم الجميع العاقبة الحسنة للصبر و التحمّل و الشكر.

بعض كبار المفسّرين، احتملوا أنّ الوساوس التى وسوس بها الشيطان فى قلب أيّوب هى المقصودة من أذى و عذاب الشيطان لأيّوب، إذ كان يقول له أحيانا: لقد طالت فترة مرضك، و يبدو أنّ ربّك قد نسيك! و أحيانا كان يقول له: ما زلت تشكر اللّه رغم أنّه أخذ منك النعم العظيمة و السلامة و القوّة و القدرة! يحتمل أنّهم ذكروا هذا التّفسير لكونهم يستبعدون إمكانية تسلّط الشيطان على الأنبياء كأيّوب، و لكن مع الانتباه إلى أنّ هذه السلطة: أوّلا: كانت بأمر من اللّه.

و ثانيا: محدودة و مؤقتة. و ثالثا: لامتحان هذا النّبى الكبير و رفع شأنه، فلا إشكال فى ذلك.

على أيّة حال، قيل: إنّ فترة ألمه و عذابه و مرضه كانت سبع سنين، و فى رواية اخرى قيل: إنّها كانت (۱۸) سنة، و حالته و صلت إلى حدّ بحيث تركه أصحابه و حتّى أقرب المقربين إليه، عدا زوجته التى صمدت معه و أظهرت وفاءها له. و هذا شاهد على وفاء بعض الزوجات! و أشدّ ما آذى و آلم روح أيّوب عليه السّلام من بين ذلك الأذى و العذاب الذى مرّ به، هو شماتة أعدائه، لذا فقد جاء فى إحدى الروايات أنّ أيّوب عليه السّلام سئل بعد ما عافاه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۰

اللّه، أىّ شىء كان أشدّ عليك ممّا مرّ؟ فقال: شماتة الأعداء.

فى النهاية خرج أيّوب عليه السّلام سالما من بودقة الامتحان الإلهى، و نزول الرحمة الإلهيّة عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هذا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَ شَرابٌ

«اركض» مشتقّة من (ركض) على وزن (فقر و تعنى دكّ الأرض بالرجل، و أحيانا تأتى بمعنى الركض، و هنا تعطى المعنى الأوّل.

فاللّه الذى فجّر عين زمزم فى صحراء يابسة و حارقة تحت أقدام الطفل الرضيع إسماعيل، هو الذى أصدر أمرا بتفجّر عين باردة لأيّوب ليشرب منها و يغتسل بمائها للشفاء من كافّة الأمراض التى أصابته (الظاهرية و الباطنية).

و يرى البعض أنّ تلك العين عبارة عن ماء معدنى صالح للشرب، و فيه شفاء لكلّ الأمراض، و مهما كان فإنّه من لطف اللّه و رحمته النازلة على نبيّه الصابر المقاوم أيّوب عليه السّلام.

(مغتسل) يعنى الماء الذى يغسل به، و قال البعض: إنّها تعنى محل الغسل، لكنّ المعنى الأوّل أصحّ.

و على أيّة حال، فإنّ وصف ذلك الماء بالبارد، قد يكون إشارة إلى التأثيرات الخاصّة التى يتركها الماء البارد على سلامة الجسم، و ذلك ما أثبته الطبّ الحديث اليوم. إضافة إلى أنّه إشارة لطيفة إلى أنّ كمال ماء الغسل يتمّ إن كان طاهرا و نظيفا كماء الشرب.

و الشاهد على هذا ما جاء فى الروايات من استحباب شرب جرعة من الماء قبل الاستحمام به ۴۴۲].

النعمة المهمّة الاولى التى أعيدت على أيّوب هى العافية و الشفاء و السلامة، أمّا بقيّة النعم التى أعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۱

وَ وَهَبْنا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ

و عن كيفية عودة عائلته إليه؟ وردت تفاسير متعدّدة، أشهرها يقول: إنّهم كانوا أمواتا فأحياهم اللّه مرّة اخرى.

و لكن البعض قال: إنّهم كانوا قد تفرّقوا عنه أيّام ابتلائه بالمرض، فجمعهم اللّه إليه بعد برئه.

و يحتمل أنّ جميعهم أو بعضهم ابتلى بمختلف أنواع الأمراض، و قد شملتهم الرحمة الإلهية و عادت إليهم صحّتهم و عافيتهم، ليجتمعوا مرّة اخرى حول أيّوب.

أمّا قوله تعالى: وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فإنّها إشارة إلى تناسلهم و زيادة عددهم إلى الضعف، و بهذا إزداد عدد أبناء أيّوب إلى الضعف.

و رغم أنّ الآيات لا تتطرّق إلى إعادة أموال أيّوب إليه، و لكن الدلائل كلّها تبيّن أنّ البارئ عزّ و جلّ أعاد إليه أمواله و أكثر من السابق.

الذى يلفت النظر فى آخر الآية- محلّ البحث- أنّ هدف إعادة النعم الإلهيّة على أيّوب تحدّد بأمرين:

الأوّل: (رحمة منّا) و التى كان لها صبغة فردية، و فى الحقيقة إنّها مكافأة و جائزة من البارئ عزّ و جلّ لعبده الصابر المقاوم أيّوب.

و الثّانى: إعطاء درس لكلّ أصحاب العقول و الفكر على طول التأريخ لأخذ العبر من أيّوب، كى لا يفقدوا صبرهم و تحمّلهم عند تعرّضهم للمشاكل و الحوادث الصعبة، و أن لا ييأسوا من رحمة اللّه، بل يزيدوا من أملهم و تعلّقهم به.

المشكلة الوحيدة التى بقيت لأيّوب عليه السّلام هى قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أيّام مرضه لئن برىء من مرضه ليجلدنّ امرأته مائة جلدة أو أقل لأمر أنكره عليها، و لكن بعد ما برىء من مرضه رغب أيّوب فى العفو عنها احتراما و تقديرا لوفائها و لخدماتها التى قدّمتها إليه أيّام مرضه، و لكن مسألة القسم باللّه كانت تحول دون ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۲

و هنا شمل البارئ عزّ و جلّ أيّوب عليه السّلام مرّة اخرى بألطافه و رحمته، و ذلك عند ما أوجد حلّا لهذه المشكلة المستعصية على أيّوب وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَ لا تَحْنَثْ

«ضغث» تعنى ملء الكفّ من الأعواد الرقيقة، كسيقان الحنطة و الشعير أو الورد و ما شابهها.

و عن الأمر الذى أنكرته زوجة أيّوب على زوجها و التى تدعى (ليا) بنت يعقوب، فقد اختلف المفسّرون فى تفسيره ...

فقد نقل عن (ابن عبّاس) أنّ الشيطان ظهر بصورته الطبيعية لزوجة أيّوب، و قال لها: إنّى أعالج زوجك بشرط أن تقولى حينما يتعافى: إنّى الوحيد الذى كنت السبب فى معافاته، و لا أريد أىّ اجرة على معالجته ... الزوجة التى كانت متألّمة و متأثّرة بشدّة لاستمرار مرض زوجها وافقت على الاقتراح، و عرضته على زوجها أيّوب فيما بعد، فتأثّر أيّوب كثيرا لوقوع زوجته فى شرك الشيطان، و حلف أن يعاقب زوجته.

و قال البعض إنّ أيّوب بعث زوجته لمتابعة عمل ما، فتأخّرت فى العودة إليه، فتأثّر أيّوب الذى كان يعانى من آلام المرض، و حلف أن يعاقب زوجته.

على أيّة حال، فإنّ زوجته كانت تستحقّ الجزاء من هذا الجانب، أمّا من جانب وفائها و خدمتها أيّوب طوال فترة مرضه فإنّه يجعلها تستحقّ العفو أيضا.

حقّا إنّ ضربها بمجموعة من سيقان الحنطة أو الشعير لا تعطى مصداقا واقعيا لحلفه، و لكنّه نفّذ هذا الأمر لحفظ احترام اسم اللّه، و الحيلولة دون إشاعة مسألة انتهاك القوانين، و هذا الأمر ينفّذ فقط بشأن الطرف الذى يستحقّ العفو، و فى الموارد الاخرى التى لا تستحقّ العفو لا يجوز لأحد القيام بمثل هذا العمل ۴۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۳

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا- التى هى بمثابة عصارة القصّة من أوّلها حتّى آخرها- تقول: إِنَّا وَجَدْناهُ صابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

و من الواضح أنّ دعاء أيّوب البارئ عزّ و جلّ، و طلبه دفع الوساوس الشيطانية عنه، و رفع البلاء و المرض عنه، كلّ هذه لا تتنافى مع مقام صبره و تحمّله، ذلك الصبر و التحمّل الذى استمرّ لمدّة سبع سنين، و فى روايات اخرى لمدّة ثمانية عشر عاما- للأوجاع و

الأمراض و الفقر و العسر و استمرار الشكر.

الذى يلفت النظر فى هذه الآية أنها أعطت ثلاثة أوصاف لأيّوب، كلّ واحد منها إن توفّر فى أى إنسان فهو إنسان كامل.

أوّلا: مقام عبوديته.

ثانيا: صبره و تحمّله و ثباته.

ثالثا: إنابته المتكرّرة إلى اللّه.

***

بحوث

۱- دروس مهمّة فى قصّة أيّوب

رغم أنّ قصة هذا النّبى الصابر أدرجت فى أربع آيات فى هذه السورة، إلّا أنّها وضّحت حقائق مهمّة، منها:

أ- الامتحان الإلهى واسع و كبير جدّا و يشمل حتّى الأنبياء الكبار، إذ يكون امتحانهم أشدّ و أصعب من الآخرين، لأنّ طبيعة الحياة فى هذه الدنيا بنيت على هذا الأساس، و من دون هذا الامتحان فإنّ الإمكانيات و الطاقات الكامنة فى الإنسان لا تتفجّر.

ب- الفرج بعد الشدّة نقطة اخرى تمكن فى مجريات هذه القصّة، فعند ما تشتدّ أمواج الحوادث و البلاء على الإنسان و تحيط به من كلّ جانب، عليه أن لا ييأس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۴

و يفقد الأمل، و إنّما عليه أن يدرك أنّها بداية تفتح أبواب الرحمة الإلهية عليه، كما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «عند تناهى الشدّة تكون الفرجة، و عند تضايق حلق البلاء يكون الرخاء»[۴۴۴].

ج- مجريات هذه القصّة توضّح بصورة جيّدة بعض غايات البلاء و الحوادث الصعبة فى الحياة، و تجيب على من يرى فى وجود الآفات و البلايا تناقضا مع برهان النظم فى بحوث التوحيد، لأنّ وجود مثل هذه الحوادث الصعبة و الشديدة فى حياة الإنسان- من أنبياء اللّه الكبار و حتّى عموم الناس- يعدّ أمرا ضروريا، فالامتحان- كما ذكرنا- يفجّر طاقات الإنسان الكامنة، و يوصله فى آخر الأمر إلى التكامل فى وجوده.

لذا

فقد ورد فى الروايات الإسلامية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ أشد الناس بلاء الأنبياء، ثمّ الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل»[۴۴۵].

كما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ فى الجنّة منزلة لا يبلغها عبد إلّا بالابتلاء»[۴۴۶].

د- أحداث هذه القصّة تعطى درسا فى الصبر لكلّ المؤمنين الواقعيين الرساليين، الصبر و التحمّل الذى يعقبه الظفر و الإنتصار فى كلّ المجالات، و نيل المقام المحمود و المنزلة الرفيعة عند البارئ عزّ و جلّ.

ه- أحيانا يكون إمتحان شخص ما، هو إمتحان فى نفس الوقت لأصدقائه و للمحيطين به، كى يعرف حجم صداقتهم و محبّتهم إيّاه، و مقدار وفائهم له، فعند ما فقد أيّوب أمواله و ثرواته و صحّته تفرّق عنه أصحابه، و لم يكتفوا بالابتعاد عنه، و إنّما اتّحدت ألسنتهم مع ألسنة أعدائه فى الشماتة به و إلقاء اللائمة عليه، و كشفوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۵

بفعلتهم هـذه عن حقيقـة أنفسـهم، و كما لاحظنا فإنّ أيّوب كان يتألّم من جراح ألسـنتهم أكثر من تألّمه من مرضه، و الشـعر المعروف يقول:

جراحات السنان لها التيامو لا يلتام ما جرح اللسان

جراح الكلام ليس لها التئام.

و- أحبّاء اللّه ليسوا من يـذكر اللّه عنـد الرخاء، و إنّما أحبّاء اللّه الواقعيون هم أولئك الذين يذكرون اللّه دائما فى السـرّاء و الضـرّاء، و فى البلاء و النعمة، و فى المرض و العافية، و فى الفقر و الغنى، و إنّ تأثيرات الحياة الماديّة لا تترك على إيمانهم و أفكارهم أدنى أثر. قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى خطبته الخاصّة بوصف المتّقين التى بيّنها لصاحبه المخلص «همام» و اسـتعرض فيها أكثر من (۱۰۰) صفة للمتّقين، قال فى إحدى تلك الصفات:

«نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء».

ز- هـذه القصّة أكّدت مرّة اخرى حقيقـة أنّ فقـدان الإمكانـات الماديّة، و نزول المصـائب، و حلول المشاكل و الفقر، لا تعنى عـدم شمول الإنسان بلطف البارئ عزّ و جلّ، كما أنّ امتلاك الإمكانات الماديّة ليس دليلا على بعد الإنسان عن اللّه سبحانه و تعالى، و إنّما يمكن أن يكون الإنسـان عبـدا مقرّبـا للّه مع امتلاـكه للكثير من الإمكانات الماديّة، بشـرط أن لا يكون عبـدا لأمواله و أولاده و مقامه الدنيوى، و إنّ فقدها لا يفقد الصبر معها.

۲- أيّوب عليه السّلام فى القرآن و التوراة

رغم أنّ البـارئ عزّ و جـلّ أشـاد بـالروح الكـبيرة لهـذا النّبى الكبير الـذى هو مظهر الصبر و التحمّل فى قرآنه المجيـد فى أوّل القصّة الخاصـة به و فى آخرها. فإنّ قصّة هـذا النّبى الكبير- ممّا يؤسف له- لم تحفظ من أيـدى الجهلـة و الأعـداء، حيث دسّوا فيها خرافات تافهة لا تليق بمقامه المحمود المنزّه عنها و المطهّر منها، و من تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۶

الخرافات القول بأنّ الدود غطّى بدنه أثناء فترة مرضه، و تعفّن جسده، بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعا و أخرجوه من قريتهم.

و دون أدنى شـكّ، فـإنّ مثـل هـذه الروايـات مزيّفـة رغم ورودها فى طيّات كتب الحـديث، لأنّ رسالـة الأنبياء تفرض أن يكون النّبى المرسـل- فى أى زمـان- بعيـدا عن مثـل تلـك التقوّلات، كى ينجـذب إليه الناس برغبـة و شوق، و أن لا تتوفّر فيه أشـياء تكون سـببا لتنفّرهم فيه و ابتعادهم عنه، كالأمراض و العيوب الجسديـة و الأخلاق السـيّئة، لأنّها تتناقض مع فلسـفة الرسالـة، فالقرآن المجيـد يقول بشأن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية (۱۵۹) من سورة عمران: فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

و هـذه الآيـة دليل على أنّ النّبى يجب أن لا يكون بحالـة تجعل المحيطين به يتفرّقون عنه. و لكن ورد فى التوراة جزء خاص بأيّوب و قبـل موضوع (مزامير داود) و هـذا الجزء يشـتمل على (۴۲) فصـلا، كلّ فصل يشـرح مواضـيع مختلفـة، و قد وردت فى بعض الفصول مواضـيع سـيّئة و قبيحـة، و منها ما ورد فى الفصل الثالث و الـذى يقول: إنّ أيّوب كان كثير الشـكوى، فى حين أنّ القرآن الكريم كان يعظّم و يشيّد بمقام صبره و تحمّله.

۳- إطلاق صفة (أوّاب) على الأنبياء الكبار

ثلاثة أنبياء كبار أطلقت عليهم صفة (أوّاب) فى هذه السورة، و هم: داود و سليمان و أيّوب، و فى سورة (ق) فى الآية (۳۲) اطلق هذا الوصف على كلّ أهل الجنّة، قوله تعالى: هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

هذه العبارات تبيّن أنّ مقامه فى المقام الأعلى، و عند ما نرجع إلى مصادر اللغة نشاهد أنّ كلمة (أوّاب) مشتقّة من كلمة (أوب) و تعنى الرجوع و العودة.

و هذا الرجوع و العودة (خاصّة و أنّ كلمة (أوّاب) هى اسم مبالغة تعنى كثرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۷

الرجوع و تكراره) يشير إلى أنّ الأوّابين حسّاسون جدّا تجاه الأسباب و العوامل التى تبعدهم عن اللّه، كالرزق و بريق الزخارف الدنيوية فى أعينهم، و وساوس النفس و الشيطان، و إن ابتعدوا لحظة واحدة عن اللّه عادوا إليه بسرعة، و إن غفلوا عنه لحظة تذكروه و سعوا فى جبرانها.

هذه العودة يمكن أن تكون بمعنى العودة إلى طاعة أوامر اللّه و اجتناب نواهيه، أى أنّ أوامره هى مرجعهم و سندهم أينما كانوا.

و كلمة (أوّاب) التى جاءت فى الآية العاشرة من سورة سبأ يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ و الخاصّة بداود- أيضا- تعطى معنا آخر، و هو ترديد الصوت، إذ أنّ الأوامر صدرت إلى الجبال و الطيور أن ردّدى الصوت مع داود، و لهذا فإنّ (أوّاب) تعنى كلّ من يردّد الأوامر الإلهيّة و التسبيح و الحمد الذى تردّده كلّ موجودات الكون حسب قوانين الخلقة، و ممّا يذكر أنّ أحد معانى كلمة (أيّوب) هى (أوّاب).

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۸

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ (۴۵) إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (۴۶) وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ (۴۷) وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ (۴۸)

التّفسير

الأنبياء الستّة:

متابعة للآيات السابقة التى تطرّقت باختصار إلى حياة (داود) و (سليمان) و بصورة أكثر اختصارا لحياة (أيّوب) إذ بيّنت أهم النقاط البارزة فى حياة هذا النّبى الكبير، و تستعرض آيات بحثنا هذا أسماء ستّة من أنبياء اللّه، و توضّح بصورة مختصرة بعض صفاتهم البارزة التى يمكن أن تكون أنموذجا حيّا لكلّ بنى الإنسان.

و الذى يلفت الانتباه، هو أنّ هذه الآيات استعرضت ستّ صفات مختلفة لأولئك الأنبياء الستّة، و لكلّ صفة معناها و مفهومها الخاصّ بها.

ففى البداية تخاطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وَ اذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَ إِسْحاقَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۲۹

وَ يَعْقُوبَ

مقام العبودية هو أوّل ميزة لأولئك الأنبياء، و حقّا فإنّ كلّ شيء جمع فى هذه الصفة فالعبودية للّه تعنى التبعية المطلقة له، و تعنى الاستسلام الكامل لإرادته، و الاستعداد لتنفيذ أوامره فى كلّ الأحوال.

العبودية للّه تعنى عدم الاحتياج لغيره، و عدم التوجّه لسواه، و التكفير بلطفه و رحمته فقط، هذا هو أوج تكامل الإنسان و أفضل شرف له.

ثمّ تضيف الآية: أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصارِ.

إنّه لتعبير مثير للعجب؟ أصحاب الأيدى و الأبصار! «أيدى» جمع (يد)، و (أبصار) جمع (بصر).

الإنسان يحتاج إلى قوّتين لتحقيق أهدافه، الاولى قوّة الإدراك و التشخيص، و الثانية حسن الأداء. و بعبارة اخرى: يجب عليه الاستفادة من (العلم) و (القدرة) للوصول إلى أهدافه.

و قد وصف البارئ عزّ و جلّ أنبياءه بأنّهم ذوو إدراك و تشخيص و بصيرة قويّة، و ذوو قوّة و قدرة كافية لإنجاز أعمالهم.

إنّ هؤلاء الأنبياء على مستوى عال من المعرفة، و أنّ مستوى علمهم بشريعة اللّه و أسرار الخلق و خفايا الحياة لا يمكن تحديده.

أمّا من حيث الإرادة و التصميم و حسن الأداء، فإنّهم غير كسولين أو عاجزين أو ضعفاء، بل هم أشخاص ذوو إرادة قويّة و تصميم راسخ، إنّهم قدوة لكلّ السائرين فى طريق الحقّ، فبعد مقام العبودية الكامل للّه تعالى، لتسلّحوا بهذين السلاحين القاطعين.

و ممّا يستنتج من هذا الحديث أنّه ليس المراد من اليد و العين أعضاء الحسّ التى يمتلكها غالبية الناس، لأنّ هناك الكثيرين ممّن يمتلكون هذين العضوين لكنّهم لا يمتلكون الإدراك و الشعور الكافى، و لا القدرة على التصميم، و لا حسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۰

الأداء فى العمل، و إنّما هى كناية عن صفتين هما (العلم و القدرة).

أمّا الصفة الرابعة لهم فيقول القرآن بشأنها: إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ[۴۴۷].

نعم، إنّهم يتطلّعون إلى عالم آخر، و أفق نظرهم لا ينتهى عند الحياة الدنيا و لذّاتها المحدودة، بل يتطّلعون إلى ما وراءها من حياة أبدية و نعيم دائم، و لهذا يبذلون الجهد و يسعون غاية السعى لنيلها.

و على هذا فإنّ المراد من كلمة (الدار) هى الدار الآخرة، لأنّه لا توجد دار غيرها، و إن وجدت فما هى إلّا جسر أو ممرّ يؤدّى إلى الآخرة فى نهاية الأمر.

بعض المفسّرين احتملوا أن يكون المراد من الدار هنا دار الدنيا، و عبارة ذِكْرَى الدَّارِ إشارة إلى الذكر الحسن الباقى لأولئك الأنبياء فى هذه الدنيا، و هذا الاحتمال مستبعد جدّا، و خاصّة أنّ كلمة (الدار) جاءت بشكل مطلق، و كذلك لا تتناسب مع كلمة (ذكرى).

و البعض الآخر احتمل أنّ المراد هو ذكرهم الحسن و الجميل فى دار الآخرة، و هذا مستبعد أيضا.

و على أيّة حال، فلعلّ الإنسان يتذكّر الآخرة بين حين و آخر، خاصّة عند وفاة أحد أصدقائه أو مشاركته فى مراسم التشييع أو مجالس الفاتحة، و هذا الذكر ليس خالصا و إنّما هو مشوب بذكر الدنيا، أمّا عباد اللّه المخلصون فإنّ لهم توجّها خالصا و عميقا و مستمرا بالنسبة للدار الآخرة، فهى على الدوام تتراءى أمام أعينهم، و عبارة (خالصة) فى الآية إشارة إلى هذا المعنى.

الصفتان الخامسة و السادسة جاءتا فى الآية التالية وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيارِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۱

[۴۴۸].

إنّ إيمانهم و عملهم الصالح كانا السبب فى اصطفاء البارئ عزّ و جلّ لهم من بين الناس لأداء مهام النبوّة و حمل الرسالة، و عملهم الصالح وصل إلى درجة.

استحقّوا بحقّ إطلاق كلمة (الأخيار) عليهم، فأفكارهم سليمة، و أخلاقهم رفيعة، و تصرفاتهم و أعمالهم طوال حياتهم متّزنة، و لهذا السبب فإنّ بعض المفسّرين يستفيدون من هذه العبارة و أنّ اللّه سبحانه و تعالى اعتبر أولئك أخيارا من دون أى قيد و شرط، كدليل على عصمة الأنبياء، لأنّه متى ما كان وجود الإنسان كلّه خيرا، فمن المؤكّد أنّه معصوم ۴۴۹].

عبارة (عندنا) مليئة بالمعانى العميقة، و تشير إلى أنّ اصطفاءهم و اعتبارهم من الأخيار لم يتمّ وفق تقييم الناس لهم، التقييم الذى لا يخلو من التهاون و غضّ النظر عن كثير من الأمور، و إنّما تمّ بعد التحقّق من كونهم أهلا لذلك و بعد تقييمهم ظاهريا و باطنيا.

و بعد أن أشارت الآية السابقة إلى مقام ثلاثة أنبياء بارزين، تشير الآية التالية، إلى ثلاثة آخرين، إذ تقول: وَ اذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ.

فكلّ واحد منهم كان مثالا و أسوة فى الصبر و الاستقامة و طاعة أوامر البارئ عزّ و جلّ، خاصّة «إسماعيل» الذى كان على استعداد كامل للتضحية بروحه فى سبيل اللّه، و لهذا السبب اطلق عليه لقب (ذبيح اللّه) و هو الذى ساهم مع والده إبراهيم عليه السّلام فى بناء الكعبة الشريفة و تثبيت أسس التجمّع العظيم الذى يتمّ فى موسم الحجّ كلّ عام.

و استعراض آيات القرآن الكريم لحياة أولئك العظام ليستلهم منها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۲

رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلّ المسلمين العبر، و مطالعة حياة أمثال هؤلاء الرجال العظام توجّه حياة الإنسان، و تبعث فيه روح التقوى و التضحية و الإيثار، و تجعله فى نفس الوقت صابرا صامدا أمام المشاكل و الحوادث الصعبة.

عبارة كُلٌّ مِنَ الْأَخْيارِ تشير إلى أنّ الأنبياء الثلاثة (إسماعيل، و اليسع، و ذو الكفل) تنطبق عليهم كافّة الصفات التى وصف بها الأنبياء الثلاثة السابقون (إبراهيم، و إسحاق، و يعقوب) الذين أطلقت عليهم الآية السابقة صفة (الأخيار)، كما أنّ (الخير المطلق) له معان واسعة تشمل (النبوّة) و (الدار الآخرة) و (مقام العبوديّة) و (العلم و القدرة).

أمّا (اليسع) فقد ورد اسمه مرتين فى القرآن المجيد، إحداها فى هذه السورة، و الاخرى فى الآية (۸۶) من سورة الأنعام، و ما جاء فى القرآن الكريم يوضّح أنّه من الأنبياء الكبار و من الذين يقول عنهم القرآن فى آياته: وَ كُلًّا فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ [۴۵۰] البعض يعتقد أنّ (اليسع) هو (يوشع بن نون) أحد أنبياء بنى إسرائيل المعروفين، و قد دخلت الألف و اللام على اسمه كما أبدلت الشين بالسين، و دخول الألف و اللام على الاسم غير العربى (و هذا اسم عبرى) أمر غير جديد، فمثلها مثل (إسكندر) التى تلفظ و تكتب بالعربية (الإسكندر) إذ هو نوع من التقريب.

فى حين أنّ البعض يعتبرها كلمة عربية مشتقّة من (يسع) و التى هى فعل مضارع مشتقّ من (وسعت) و لتحويله إلى اسم أضيف إليه الألف و اللام.

الآية (۸۶) من سورة الأنعام بيّنت أنّه من ذريّة إبراهيم، و لكن لم تبيّن إن كان من أنبياء بنى إسرائيل، أم لا؟

أمّا فصل الملوك فى كتاب التوراة فقد جاء فيه أنّ اسمه (اليشع) بن (شافات)، و معنى (اليشع) فى اللغة العبرية هو (الناجى) فيما تعنى (الشافات) (القاضى).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۳

و قد اعتبر قسم آخر أنّه (الخضر) و لم يتوفّر بعد أىّ دليل واضح على هذا القول.

و اعتبر قسم آخر أنّه (ذو الكفل) و هذا الكلام مخالف بوضوح لما جاء فى الآية مورد بحثنا، لأنّ ذا الكفل معطوفا على اليسع.

و على أيّة حال، فإنّ اليسع هو نبى له مقام رفيع و ذو استقامة، و ما ذكرناه بشأنه كاف للاستلهام منه.

و أمّا (ذو الكفل) فهو أيضا معروف بأنّه أحد أنبياء اللّه، و ذكره ورد مع أنبياء آخرين فى الآية (۸۵) من سورة الأنبياء، و جاء بالضبط بعد اسم إسماعيل و إدريس. و البعض يعتقد أنّه من أنبياء بنى إسرائيل، و أنّه من أبناء أيّوب و اسمه الحقيقى (بشر) أو (بشير) أو

(شرف) و البعض يرى أنّه (حزقيل) و ذو الكفل هو لقب اطلق عليه ۴۵۱].

و حول تسمية (ذى الكفل) بهذا الاسم (الكفل يعنى النصيب) و يعنى (الكفالة و التعهّد) وردت عدّة تفاسير، منها:

قال البعض: إنّه سمّى بذى الكفل لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أنزل عليه نصيبا وافرا من الثواب و شمله برحمته الواسعة.

و قال بعضهم: لأنّه التزم بتعهّده بقيام الليل بالعبادة، و صيام النهار، و عدم السخط من قضاء اللّه، و بهذا اطلق عليه هذا اللقب.

و بعض آخر قال: سمّى بذى الكفل لأنّه تكفّل بمجموعة من أنبياء بنى إسرائيل، و أنقذهم من ملوك زمانهم الجبّارين.

و على أيّة حال، فإنّ ما فى حوزتنا اليوم من معلومات عن نبى اللّه ذى الكفل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۴

يدلّ على استقامته فى طريق طاعة و عبادة اللّه، و مقاومة الجبابرة، و أنّه نموذج بارز ليومنا الحاضر و ما بعده، رغم أنّ البعد الزمنى بيننا و بينهم يحول دون المعرفة الدقيقة لتفاصيل أحوالهم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۵

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۴۹ الى ۵۴]

اشارة

هذا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (۴۹) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ (۵۰) مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ (۵۱) وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ (۵۲) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ (۵۳)

إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ (۵۴)

التّفسير

هذا ما وعد به المتّقون:

آيات هذه السورة انتقلت بنا إلى شكل آخر من الحديث، إذ أخذت تقارن بين المتّقين و العصاة المتجبّرين، و تشرح مصير كلّ منهما يوم القيامة، و هى بصورة عامّة تكمل بحوث الآيات السابقة.

فى البداية، و كخلاصة لشرح حال الأنبياء السابقين و النقاط المضيئة فى حياتهم، تقول الآية: هذا ذِكْرٌ[۴۵۲].

نعم، لم يكن الهدف من بيان مقاطع من تأريخ أولئك الأنبياء الرائع و المثير سرد بعض القصص، و إنّما الهدف الذكر و التذكّر، كما أكّدت عليه بداية هذه السورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۶

ص وَ الْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ.

فالهدف هو إيقاظ الأفكار، و رفع المستوى العلمى، و زيادة قوّة المقاومة و الصمود لدى المسلمين الذى نزلت إليهم هذه الآيات ۴۵۳].

ثمّ أخرجت الأمور من طابعها الخاصّ و بيان أوضاع و أحوال الأنبياء، إلى طابعها العامّ، لتشرح بصورة عامّة مصير المتّقين، إذ تقول: وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ۴۵۴].

بعد هذه الآية القصيرة ذات المعانى الخفيّة و التى توضّح تماما حال المتّقين بصورة مختصرة، يعمد القرآن المجيد مجدّدا إلى اتّباع أسلوبه الخاص، و هو أسلوب الإيجاز و التفصيل، ليشرح ما فاز به المتّقون جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ ۴۵۵].

«جنّات» إشارة إلى حدائق الجنّة، و (عدن) تعنى الاستقرار و الثبات، و لهذا اطلق على المنجم الذى تحوى أعماقه أنواع الفلزات و المواد الثمينة كلمة (معدن).

و على أيّة حال فالعبارة هنا تشير إلى خلود حدائق الجنّة.

و عبارة مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ إشارة إلى أنّهم لا يتكلّفون حتّى بفتح أبواب الجنّة، إذ أنّها تنفتح بدون عناء لاستقبال أهل الجنّة، إذ أنّ الجنّة بانتظارهم، و عند ما تراهم تفتح لهم أبوابها و تدعوهم للدخول إليها.

ثمّ تبيّن الهدوء و السكينة التى تحيط بأهل الجنّة، إذ تقول: مُتَّكِئِينَ فِيها يَدْعُونَ فِيها بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرابٍ ۴۵۶]. أى إنّهم متكئون على سرر فيها، و قد هيّئت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۷

لهم مختلف أنواع الفاكهة و الأشربة، و إنّهم متى ما طلبوها فإنّها تأتيهم فى الحال.

و هنا يطرح سؤال هو: هل أنّ هناك من يحمل تلك الفاكهة، و الأشربة و يقدّمها لأهل الجنّة، أم أنّها تأتيهم من دون أن يحملها أحد إليهم؟

كلا الاحتمالين واردان.

و التأكيد على «الفاكهة» و «الشراب» لعلّه إشارة إلى أنّ الفاكهة هى أكثر غذاء أهل الجنّة رغم وجود أنواع اخرى من الغذاء ذكر فى بعض آيات القرآن المجيد، كما هو الحال فى عالم الدنيا إذ أنّ الفاكهة تشكّل أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

صفة (كثيرة) تشير إلى وجود أنواع مختلفة من الفاكهة، و أنواع متعدّدة أيضا من الشراب الطاهر الذى يتوفّر فى الجنّة، و ذلك ما أشارت إليه أيضا آيات مختلفة فى القرآن المجيد.

بعد هذا تتطرّق الآيات للزوجات الصالحات فى الجنّة، إذ تقول: وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أَتْرابٌ

«الطرف» جفن العين، و أحيانا يأتى بمعنى النظر، و وصف آخر نساء الجنّة بقاصرات الطرف (أى ذوات النظرات القصيرة) يشير إلى اقتصار نظرهنّ على أزواجهنّ فقط، و حبّهن و عشقهنّ لهم و عدم تفكيرهم بسواهم، و هذه من أفضل مزايا و حسنات الزوجات.

و قال مفسّرون آخرون: إنّها تعنى التغطية بالخمار الذى يضفى على العين جمالا.

و لا يوجد مانع يحول بين جمع المعنيين.

كلمة (أتراب) تعنى (الأقران)، و هو وصف لنساء الجنّة، فاقتران عمر الزوج و الزوجة- أى تساويهما- يضاعف من المحبّة بين الزوجين، أو أنّه صفة لنساء أهل الجنّة، و إنّهنّ جميعا شابات و فى عمر واحد[۴۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۸

الآية الأخيرة فى هذا البحث تشير إلى النعم السبع التى يغدقها البارئ عزّ و جلّ على أهل الجنّة، و التى وردت فى الآيات السابقة، قال تعالى: هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسابِ

وعد لا يخلف، و يبعث فى نفس الوقت على النشاط لمضاعفة الجهد، نعم إنّه وعد من اللّه العظيم.

و للتأكيد على خلود هذه النعم، جاء فى قوله تعالى: إِنَّ هذا لَرِزْقُنا ما لَهُ مِنْ نَفادٍ[۴۵۸].

أى أنّ النعم فى الجنان خالدة و لا تنفد و لا تزول كما فى الحياة الدنيا، و أنّها تزداد دائما من خزائن اللّه المملوءة و غير المحدودة، و لا يظهر عليها أى نقص، لأنّ اللّه أراد ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۳۹

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۵۵ الى ۶۱]

اشارة

هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (۵۵) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ (۵۶) هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ (۵۷) وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ (۵۸) هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ (۵۹)

قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ (۶۰) قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ (۶۱)

التّفسير

و هذه هى عاقبة الطغاة!

الآيات السابقة استعرضت النعم السبع و غيرها من النعم التى يغدقها البارئ عزّ و جلّ على عباده المتّقين، أمّا آيات بحثنا فإنّها تستخدم أسلوب المقارنة الذى كثيرا ما استخدمه القرآن الكريم، لتوضيح المصير المشؤوم و العقوبات المختلفة التى ستنال الطغاة و العاصين، قال تعالى: هذا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ۴۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۰

فالمتّقون لهم (حسن مآب)، و لهؤلاء العاصين الطغاة (شرّ مآب).

ثمّ تعمد آيات القرآن المجيد إلى الاستفادة من أسلوب الإيجاز و التفصيل، إذ تقول: جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمِهادُ[۴۶۰]. أى إنّ جهنّم هى المكان المشؤوم الذى سيردونه، و إنّهم سيحترقون بنيرانها، فيا لها من فراش سيء.

و الظاهر أنّ عبارة (يصلونها) (أى يدخلون فى جهنّم و يحترقون بنيرانها) يراد منها بيان أن لا يتصوّر أحدهم أنّه سيرى جهنّم من مسافة بعيدة، أو أنّه سيستقرّ بالقرب منها، كلّا، بل إنّه سيرد إلى داخلها، و لا يتصوّر أحدهم أنّه سيعتاد على نار جهنّم و من ثمّ يستأنس بها، كلّا، فإنّه يحترق فيها على الدوام.

«مهاد» كما قلنا من قبل، تعنى الفراش المهيّأ للنوم و الاستراحة، كما تطلق على سرير الطفل.

و بالطبع فإنّ الفراش هو مكان استراحة، و يجب أن يكون مناسبا- فى كلّ الأحوال- لوضع الشخص و ملائما لرغبته، و لكن كيف سيكون حال الذين خصّصت لهم نار جهنّم فراشا؟! ثمّ تتطرّق الآيات إلى أنواع اخرى من العذاب الإلهى، إذ تقول: هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسَّاقٌ ۴۶۱]. أى يجب عليهم أن يشربوا الحميم و الغسّاق.

«الحميم» هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و الذى هو أحد أنواع أشربة أهل جهنّم، و يقابل (الشراب الطهور) الذى ذكرته الآيات السابقة المخصّص لأهل الجنّة.

و كلمة (غسّاق) من (غسق) على وزن (رمق) و تعنى شدّة ظلمات الليل. أمّا ابن عبّاس فقد فسّرها بأنّها شراب بارد جدّا (بحيث إنّ برودته تحرق و تجرح أحشاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۱

الإنسان) و لكن ليس هناك فى مفهوم هذه الكلمة ما يدلّ على هذا المعنى، غير مقارنتها بالحميم و هو الماء الحارّ الشديد الحرارة، و هذه المقارنة قد تكون منشأ هذا الاستنباط.

و قال الراغب فى مفرداته: إنّ (غسّاق) تعنى القيح الذى يسيل من جلود أهل جهنّم و من الجراحات الموجودة فى أجسامهم.

و لا بـدّ أن يكون لونه الغامق هو السبب فى إطلاق هـذه الكلمة عليه، لأنّ الذى يحترق فى نار جهنّم لا يبقى منه سوى هيكل محروق وقيح أسود اللون.

على أيّة حال، فإنّ ما يستشفّ من بعض الكلمات هو أنّ (غسّاق) تعنى الرائحة الكريهة النتنة التى تزعج الآخرين.

و فسّره البعض الآخر بأنّه أحـد أنواع العـذاب الذى لم يطلع عليه أحد سوى اللّه، و ذلك لأنّهم ارتكبوا ذنوبا و مظالم شديدة لم يطلع عليها أحـد سوى اللّه، فلـذلك جعل عقوبتهم سريّة و غير معروفـة، مثلما وعد البارئ عزّ و جلّ المتّقين بنعم لم يكشف عنها و أخفاها عنهم، لإخفائهم أعمالا صالحـة كانوا يقومون بها فى الحياة الـدنيا، و ذلك ما ورد فى الآية (۱۷) من سورة السـجدة: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ

آيات بحثنا تشير مرّة اخرى إلى نوع آخر من أنواع العذاب الأليم وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ ۴۶۲]. أى أنّ هناك عذاب آخر غير ذلك العذاب.

«أزواج» تعنى الأنواع و الأقسام، و هـذه إشارة موجزة إلى أنواع اخرى من العـذاب لا تختلف عن أنواع العـذاب السابقـة، و لكن آيات القرآن لم تفصح هنا عن أنواعها و قد لا يستطيع أحد فى هذه الدنيا فهمها و إدراكها.

و فى الحقيقة فإنّ هذه تقابل عبارة بِفاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ الواردة فى الآيات السابقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۲

التى تشير إلى أنواع مختلفة من النعم و فواكه الجنّة. و يمكن أن يكون هذا التشابه فى الشدّة و الألم، أو من جميع الجهات.

و آخر عـذاب لهم أنّ جلساءهم فى جهنّم ذوو ألسـنة بذيئـة لا تنطق إلّا بالقبيـح من الكلام، فعنـد ما يرد رؤساء الضـلال النار، و يرون بأعينهم تابعيهم يساقون نحو جهنّم يخاطب بعضهم البعض و يقول له: هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ۴۶۳].

فيجيبونهم لا مَرْحَباً بِهِمْ

ثمّ يضيفون إِنَّهُمْ صالُوا النَّارِ.

و عبارة هـذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ مقترنـة بالآيات التالية، و تنقل أحاديث أئمّة الضـلال، إذ يخاطب بعضـهم البعض فور ما يرون أتباعهم يساقون إلى جهنّم، بالقول: أولئك سيحشرون معكم.

بعض المفسّرين قال: إنّه خطاب توجّهه الملائكة إلى أئمّة الكفر و الضلال.

إلّا أنّ المعنى الأوّل يعدّ أكثر تناسبا.

«مرحبا» كلمة ترحيب للضيف، و ضدها «لا مرحبا» و مصدر هذه الكلمة «رحب»- على وزن محو- بمعنى المكان الواسع، و المراد هو: ادخل فالمكان وسيع و مناسب.

«مقتحم» من (اقتحام) و تعنى الدخول فى شـىء بمشقّة و بصعوبة و خوف، و غالبا ما تعطى معنى الدخول فى شىء من دون أى اطلاع و علم مسبق.

و توضّـح هـذه العبارة أنّ متّبعى سبيل الضـلال يردون نار جهنّم الرهيبة نتيجة تركهم البحث و التفكير، و اتّباعهم لأهوائهم، إضافة إلى تقليدهم الأعمى لآبائهم الأوّلين.

و على أيّـة حال، فإنّ الصوت يصل إلى مسامع الأتباع الـذين يغضـبون من كلام أئمّـة الضـلال، و يلتفتون إليهم قائلين: قالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنا فَبِئْسَ الْقَرارُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۳

الجملـة الأخيرة فَبِئْسَ الْقَرارُ تقابل جَنَّاتِ عَدْنٍ الواردة بحقّ المتّقين، و هى إشارة إلى المصاب العظيم الـذى حلّ بهم، و هو أنّ جهنّم ليست بمكان مؤقت لهم، و إنّما هى مقرّ دائم. و أراد الأتباع من جوابهم القول: بأنّ من حسن الحظّ أنّكم (أى أئمّة الضلال و الشرك)

مشتركون معنا فى هذا الأمر. و هذا يشفى غليل قلوبنا (و كأنّهم شامتون بأئمّتهم) أو هى إشارة إلى أنّ جريمتكم بحقّنا جريمة عظيمة، لأنّ جهنّم ستكون مقرّا دائما لنا و ليست مكانا مؤقتا.

لكن الأتباع لا يكتفون بهذا المقدار من الكلام، لأنّ أئمّة الضلال هم الذين كانوا السبب المباشر لارتكابهم الذنوب، و لذا فإنّهم يعتبرونهم أصحاب الجريمة الحقيقيين، و هنا يلتفتون إلى البارئ عزّ و جلّ قائلين: قالُوا رَبَّنا مَنْ قَدَّمَ لَنا هذا فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ.

العذاب الأوّل لأنّهم أضلّوا أنفسهم، و الثانى لأنّهم أضلّونا.

ما ورد فى هذه الآية مشابه لما ورد فى الآية (۳۸) من سورة الأعراف التى تقول: رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ رغم أنّ تتمّة هذه الآية أى الآية (۳۸) من سورة الأعراف تقول: إنّ لكليهما عذابا مضاعفا (لأنّ الأتباع هم الأداة التنفيذية لأئمّة الضلال، و هم الذين هيّئوا الأرضية لنشر الفساد و الضلال).

على أيّة حال، لا يوجد شكّ فى أنّ عذاب أئمّة الضلال أكبر بكثير من عذاب الآخرين، رغم أنّ للجميع عذابا مضاعفا.

نعم، هذه هى نهاية كلّ من عقد الصداقة مع المنحرفين و بايعهم على السير فى طرق الضلال و الانحراف، فانّهم عند ما يرون نتائج أعمالهم الوخيمة يلعن بعضهم بعضا و يتخاصمون فيما بينهم.

و الملفت للنظر هنا أنّ الآيات التى تذكر النعم التى يغدقها البارئ عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۴

على المتّقين كانت أكثر تنوّعا من الآيات التى استعرضت عذاب الطغاة المتجبّرين. إذ أشارت آيات القسم الأول إلى سبع نعم، بينما أشارت آيات القسم الثانى إلى خمسة أنواع من العذاب، يحتمل أن يكون السبب هو سبق رحمة الله لغضبه «يا من سبقت رحمته غضبه».

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۵

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۶۲ الى ۶۴]

اشارة

وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ (۶۲) أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ (۶۳) إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (۶۴)

التّفسير

تخاصم أهل النّار:

آيات بحثنا تواصل استعراض الجدال الدائر بين أهل جهنّم، الذى كان بعضه قد ورد فى الآيات السابقة، و تتحدّث عن مجادلات اخرى فيما بينهم ينكشف من خلالها أسفهم العميق و تألّمهم الشديد و حسرتهم.

تقول اولى تلك الآيات: وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ.

نعم، فعند ما يبحث أفراد اتّبعوا أئمّة الضلال، أمثال أبى جهل و أبى لهب، عن أشخاص آخرين مثل عمّار بن ياسر و خباب و صهيب و بلال، فى نار جهنّم يرجعون إلى ذاتهن متسائلين، و يستفسرون من الآخرين: أين أولئك الأشخاص؟

إذ كنّا نعتبرهم مجموعة من الفوضويين و الأشرار و المفسدين فى الأرض، يسعون إلى الإخلال بأمن و هدوء المجتمع و القضاء على مفاخر الأوّلين، يبدو أنّ اتّهامنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۶

إيّاهم كان باطلا.

و تضيف الآيات نقلا عن أهل جهنّم: أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ.

نعم، إنّنا كنّا نسخر من هؤلاء الرجال العظماء ذوى المقام الرفيع، و نصفهم بالأشرار، و أحيانا نصفهم بأوصاف أدنى من ذلك، و نعتبرهم أناسا حقراء لا يستحقّون أن ننظر إليهم، و لكن اتّضح لنا الآن أنّ جهلنا و غرورنا و أهواءنا هى التى أسدلت على أعيننا ستائر حجبت الحقيقة عنّا، فهؤلاء كانوا من المقربين للّه و مكانهم الآن فى الجنّة.

مجموعة من المفسّرين ذكروا تفسيرا آخر لهذه الآية، إذ قالوا: إنّ مسألة سخريتهم إشارة إلى أحوالهم فى عالم الدنيا، و جملة أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ إشارة إلى أحوالهم فى جهنّم، و تعنى هنا أنّ أبصارنا فى هذا المكان و بين هذه النيران و الدخان لا يمكنها رؤيتهم. و لكن المعنى الأوّل أصحّ.

و من الضرورى الالتفات إلى أنّ أحد أسباب عدم إدراك الحقائق هو عدم أخذها بطابع الجدّ إضافة إلى الاستهزاء بها، إذ يجب على الدوام مناقشة الحقائق بشكل جدّى للوصول إليها.

ثمّ تخرج الآية الأخيرة بالنتيجة التى تمخّض عنها الجدال بين أهل جهنّم، و تؤكّد على ما مضى بالقول: إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ[۴۶۴].

فأهل جهنّم مبتلون فى هذه الدنيا بالخصام و النزاع و الحروب. فالنزاع و الجدال يتحكّم بهم، و فى كلّ يوم يتخاصمون مع هذا و ذاك.

و فى يوم القيامة، ذلك اليوم الذى تبرز فيه الأسرار و ما تخفيه الصدور، تراهم يتنازعون فيما بينهم فى جهنّم، فأصدقاء الأمس أعداء اليوم، و التابعون فى الأمس صاروا معارضين اليوم، و يبقى- فقط- خطّ التوحيد و الإيمان، خطّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۷

الوحدة و الصفاء فى هذا العالم و ذاك.

الجدير بالذكر أنّ أهل الجنّة متكئون على الأسرّة، و يتحدّثون فيما بينهم بكلام ملؤه المحبّة و الصدق، كما ورد فى آيات مختلفة من آيات القرآن الحكيم، بينما تجد أهل النار يعيشون حالة من الصراع و الجدال، إذن فتلك نعمة كبيرة، و هذا عذاب أليم!***

ملاحظة

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأبى بصير «يا أبا محمّد، لقد ذكركم اللّه إذ حكى عن عدوّكم فى النار بقوله: وَ قالُوا ما لَنا لا نَرى رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرارِ. أَتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصارُ. و اللّه ما عنى و لا أراد بهذا غيركم، صرتم عند أهل هذا العالم شرار الناس، و أنتم و اللّه فى الجنّة تحبرون و فى النار تطلبون»[۴۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۸

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۶۵ الى ۷۰]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاّ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۶۵) رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۶۶) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (۶۷) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (۶۸) ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (۶۹)
إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (۷۰)

التّفسير

إنّما أنا نذيرا:

البحوث السابقة التى تناولت موضوع العقاب الأليم الذى سينال أهل جهنّم، و الاخرى التى استعرضت العذاب و العقاب الدنيوى الذى نزل بالأمم الظالمة البائدة، كلّها كانت تحمل طابع إنذار و تهديد للمشركين و العاصين و الظالمين.

أمّا آيات بحثنا فتتابع ذلك البحث، إذ جاء فى اولى آياتها قُلْ إِنَّما أَنَا مُنْذِرٌ.

صحيح أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبشّر أيضا، و أنّ القرآن الكريم يحوى كلا الأمرين، أى الإنذار و البشرى، و لكن بما أنّ البشرى تخصّ المؤمنين فإنّ الإنذار يخصّ المشركين و المفسدين، و الحديث هنا يخصّ المجموعة الأخيرة، و اعتمد فيه على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۴۹

الإنذار.

ثمّ يضيف وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

كلمة (القهّار) وردت فى هذه العبارة، كى لا يغترّ أحد بلطف اللّه، و يظنّ أنّه يعيش فى مأمن من قهر اللّه، و لكى لا يغرق فى مستنقع الكفر و ارتكاب الذنب.

و تطرح دلائل توحيد الخالق جلّ و علا فى الالوهيّة و العبوديّة بشكل مباشر، و تضيف رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.

فى الواقع هناك ثلاث صفات من صفات البارئ عزّ و جلّ ذكرت فى هذه الآية، و كلّ واحدة منها جاءت لإثبات مفهوم ما. الاولى «ربوبيته» لعالم الوجود، و مالكيته لكلّ هذا العالم، المالك المدبّر لشؤون عالم الوجود، فهو الوحيد الذى يستحقّ العبادة و الأصنام لا تملك من أمورها شيئا و لو بمقدار ذرّة.

و الصفة الثانية (عزّته) و كما هو معروف فإنّ كلمة (العزيز) تطلق فى اللغة على من لا يغلب، و على من بإمكانه فعل ما يشاء، و بعبارة اخرى: هو الغالب الذى لا يمكن لأحد التغلّب عليه.

فمن يمتلك مثل هذه القدرة كيف يمكن الفرار من قبضة قدرته؟! و كيف يمكن النجاة من عذابه؟! الصفة الثالثة هى (غفّار) و كثير الرحمة، بحيث أنّ أبواب رحمته مفتوحة أمام المذنبين، كى لا يتصوّروا أنّ كلمتى (القهّار و العزيز) تعطيان مفهوم غلق أبواب الرحمة و التوبة أمام عباده. إذ أنّ إحداهما جاءت لبيان (الخوف) و الثانية لبيان (الرجاء)، و انعدام حالة التوازن بين الحالتين السابقتين (أى الخوف و الرجاء) يؤدّى إلى عدم تكامل الإنسان، و ابتلائه بالغرور و الغفلة و الغرق فى دوّامة اليأس و فقدان الأمل.

و بعبارة اخرى فإنّ وصف البارى عزّ و جلّ ب (العزيز) و (الغفّار) دليل آخر على توحّده تعالى فى الالوهية، لأنّه الوحيد الذى يستحقّ العبادة و الطاعة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۰

و إضافة إلى ربوبيته فإنّه يمتلك القدرة على المعاقبة، و إضافة إلى امتلاكه للقدرة على المعاقبة، فإنّ أبواب رحمته و مغفرته مفتوحة

للجميع.

ثمّ يخاطب البارئ عزّ و جلّ نبيّه الأكرم فى عبارة قصيرة و قويّة قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ

فما هو هذا النبأ الذى أشارت إليه الآية و وصفته بأنّه عظيم؟

هل هو القرآن المجيد؟

أم أنّه رسالة النبىّ؟

أم هو يوم القيامة و مصير المؤمنين و الكافرين؟

أم هو توحيد اللّه؟

أم كلّ هذه الأمور؟

و لكون القرآن مشتملا على كلّ تلك الأمور، و هو الجامع بينها، و أنّ المشركين أعرضوا عنه، لذا فإنّ المعنى الأوّل أنسب.

نعم، فهذا الكتاب السماوى العظيم هو نبأ عظيم، و عظمته كعظمة الكون، و هو نازل من قبل خالق هذا الكون، أى من اللّه الخالق العزيز الغفّار و الواحد القهّار.

النبأ الذى لم يتقبّل عظمته الكثير من الناس حين نزوله، فمجموعة سخرت منه و استهزأت به، و اخرى اعتبرته سحرا، و مجموعة ثالثة اعتبرته شعرا، و لكن لم يمض بعض الوقت حتّى كشف هذا النبأ العظيم عن أسراره، ليغيّر مسيرة التأريخ البشرى، و يظلّ العالم بظلّه، و ليوجد حضارة عظيمة و مضيئة فى كلّ المجالات، و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الإعلان عن «النبأ العظيم» تمّ فى هذه السورة المكيّة فى وقت كان فيه المسلمون- على ما يبدو- فى أشدّ حالات الضعف و العجز، و كأنّ أبواب النصر و النجاة مغلقة أمامهم.

و ممّا ينبغى ذكره أنّ عظمة هذا النبأ العظيم ليست واضحة حتّى يومنا هذا للعالم بصورة عامّة، و للمسلمين بصورة خاصّة، و المستقبل سيوضّح تلك العظمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۱

و قوله تعالى: أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ما زال صادقا حتّى يومنا الحاضر، فإعراض المسلمين عنه تسبّب فى عدم ارتوائهم من هذا المنبع العذب الذى يطفح بالفيض الإلهى الكامل، و إلى عدم التقدّم على الآخرين بالاستفادة من أنواره المشعّة، و إلى عدم الرقى إلى قمم الفخر و الشرف.

ثمّ تقول الآية، مقدّمة لسرد قصّة خلق آدم، و المكانة الرفيعة التى يحتلّها الإنسان الذى سجدت له كافّة الملائكة: ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى إِذْ يَخْتَصِمُونَ

أى لا علم لى بالمناقشات التى دارت بين الملأ الأعلى و ملائكة العالم العلوى بخصوص خلق الإنسان، حيث أنّ العلم يأتينى عن طريق الوحى، و الشىء الوحيد الذى يوحى إلىّ هو أنّنى نذير مبين إِنْ يُوحى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

و رغم أنّ الملائكة لم تناقش و تجادل البارئ عزّ و جلّ، و لكنّ ذلك المقدار من الكلام الذى قالوه عند ما أخبرهم البارىّ عزّ و جلّ بأنّه سيجعل فى الأرض خليفة، فقالوا: أ تخلق فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء؟ فأجابهم قائلا: إنّى أعلم ما لا تعلمون: وَ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قالُوا أَ تَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَ يَسْفِكُ الدِّماءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ [۴۶۶] مثل هذا النقاش أطلق عليه اسم (التخاصم) و هى تسمية مجازية، و قد كانت هذه مقدّمة للآيات التالية التى تتحدّث عن خلق آدم.

و ثمّة احتمال وارد أيضا هو أنّ عبارة بِالْمَلَإِ الْأَعْلى لها مفهوم أوسع يشمل حتّى الشيطان، لأنّ الشيطان كان حينئذ فى زمرة الملائكة، و نتيجة تخاصمه مع البارئ عزّ و جلّ و اعتراضه على إرادة اللّه طرد إلى الأبد من رحمة اللّه.

و قد وردت روايات متعدّدة فى كتب الشيعة و السنّة بهذا الخصوص، جاء فى إحداها أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سأل

أحد أصحابه: «أ تدری فیما یختصم الملأ الأعلی؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۲

فقال: کلّا،

فأجاب رسول اللّه «اختصموا فی الکفّارات و الدرجات، فأمّا الکفّارات فإسباغ الوضوء فی السبرات، و نقل الأقدام إلی الجماعات، و انتظار الصلاة بعد الصلاة، و أمّا الدرجات فإنشاء السلام، و إطعام الطعام، و الصلاة فی اللیل و الناس نیام»[۴۶۷].

و بالطبع فإنّ هذا الحدیث لم یذکر أنّه ناظر إلی تفسیر الآیة المذکورة أعلاه، رغم تشابه بعض عباراته مع عبارات الآیة، و علی أیّة حال، یستفاد من الحدیث أنّ المراد من (اختصموا) هو أنّهم تباحثوا و تناقشوا، و لا یعنی الجدال فی الحدیث .. فهم تباحثوا و تناقشوا بشأن أعمال الإنسان و الأعمال التی تکون کفّارة لذنوبهم و تزید من درجات الإنسان و ترفع من شأنه، و یمکن أن یکون بحثهم حول عدد من الأعمال التی تعدّ مصدرا لتلک الفضائل، أو بشأن تعیین حدّ و میزان للدرجات الناتجة عن تطبیق الإنسان لتلک الأعمال، و بهذا الشکل یکون الحدیث تفسیرا ثالثا للآیة، و هو مناسب من عدّة جوانب، و لکنّه لا یتناسب مع الآیات التالیة، إذ ربّما کان المقصود هو بحث و مناقشات الملائکة فی موارد اخری، و لیس ذلک المتعلّق بالآیة.

و الجدیر بالذکر أنّ معنی عدم علم النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو أنّی لم أکن أعلم ذلک من نفسی، لأنّ علمی لیس من قبل نفسی و إنّما ینزل علیّ عن طریق الوحی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۳

الآیات [سورة ص (۳۸): الآیات ۷۱ الی ۸۳]

اشارة

إِذْ قالَ رَبُّکَ لِلْمَلائِکَةِ إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ (۷۱) فَإِذا سَوَّیْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِیهِ مِنْ رُوحِی فَقَعُوا لَهُ ساجِدِینَ (۷۲) فَسَجَدَ الْمَلائِکَةُ کُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (۷۳) إِلَّا إِبْلِیسَ اسْتَکْبَرَ وَ کانَ مِنَ الْکافِرِینَ (۷۴) قالَ یا إِبْلِیسُ ما مَنَعَکَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِیَدَیَّ أَسْتَکْبَرْتَ أَمْ کُنْتَ مِنَ الْعالِینَ (۷۵)

قالَ أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ (۷۶) قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّکَ رَجِیمٌ (۷۷) وَ إِنَّ عَلَیْکَ لَعْنَتِی إِلی یَوْمِ الدِّینِ (۷۸) قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِی إِلی یَوْمِ یُبْعَثُونَ (۷۹) قالَ فَإِنَّکَ مِنَ الْمُنْظَرِینَ (۸۰)

إِلی یَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (۸۱) قالَ فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ (۸۲) إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ (۸۳)

التّفسیر

تکبّر الشیطان و طرده من رحمة اللّه!

هذه الآیات- کما قلنا- توضیح لاختصام (الملأ الأعلی) و (إبلیس) و بحث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۴

حول مسألة خلق آدم علیه السّلام، و بصورة عامّة فإنّ الهدف من توضیح هاتین المسألتین:

أوّلا: تذکیر الإنسان بقیمة وجوده، و سجود کلّ الملائکة لجدّه آدم، فکیف بالإنسان الذی کرّمه البارئ عزّ و جلّ کلّ هذا التکریم یقع أسیرا فی حبائل الشیطان و هوی النفس؟ و کیف ینسی قیمة وجوده، أو یسجد لأصنام صنعها من الحجر و الخشب؟! من المعروف

أنّ أحد الأساليب المؤثّرة فى التربية، هو إعطاء شخصية للأفراد الذين يتلقّون التربية. و بعبارة أصحّ: تذكيرهم بشخصيتهم الرفيعة و قيمة وجودهم، فإن تذكّروا هذا الأمر، أحسّوا بأنّ الذلّة و الحقارة لا تلقيان بهم، فيتجنبوهما تلقائيا.

ثانيا: إنّ عناد الشيطان و غروره و تكبّره و حسده تسبّبت فى سقوطه من مقامه الشامخ الرفيع إلى الحضيض، و غرقه بوحل اللعنة و إلى الأبد، و يمكن أن يكون هذا المثال عبرة لكلّ لجوج و مغرور ليعتبر و يترك ممارسات الشيطان.

ثالثا: تعريف بنى آدم بعدوّهم الكبير الذى أقسم الشيطان على إغوائهم، كى يكونوا جميعا على حذر منه و يجتنبوا السقوط فى حبائل أسره.

كلّ هذه الأمور، هى تكملة للأبحاث السابقة، و على أيّة حال فإنّ الآية الاولى تذكر بإخبار اللّه عزّ و جلّ ملائكته بأنّه سيخلق بشرا من الطين: و إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ

و لكى لا يتصوّر البعض أنّ أصل خلق الإنسان هو ذلك الطين و حسب أضافت الآية التالية: فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ

و بهذا الشكل انتهت عملية خلق الإنسان، و ذلك بعد امتزاج روح البارئ عزّ و جلّ الطاهرة مع التراب. فخلق موجود عجيب لم يسبق له مثيل، و لم توضع لرقيّة و انحطاطه أيّة حدود. الموجود الذى زوّده البارئ عزّ و جلّ باستعدادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۵

خارقة تجعله لائقا لخلافة اللّه، و الذى سجدت له الملائكة بأجمعها فور اكتمال عملية خلقه فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ

إلّا أنّ إبليس كان الوحيد الذى أبى أن يسجد لآدم لتكبّره و تمرّده و طغيانه، و لهذا السبب أنزل من مقامه الرفيع إلى صفوف الكافرين: إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ

نعم، فالتكبر و الغرور من أقبح الأمور التى يبتلى بها الإنسان، إذ أنّهما يسدلان الستار على عينه و بصيرته، و يحرماه من إدراك الحقائق و فهمها، و يؤدّيان به إلى التمرّد و العصيان، و يخرجانه أيضا من صفوف المؤمنين المطيعين للّه إلى صفّ الكافرين الباغين و الطاغين، ذلك الصفّ الذى يترأسه إبليس و يقف فى مقدّمته.

و هنا استجوب البارئ عزّ و جلّ إبليس: قالَ يا إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَ من البديهى أنّ عبارة (يدى) لا تعنى الأيدى الحقيقيّة المحسوسة، لأنّ البارئ عزّ و جلّ منزّه عن كافّة أشكال الجسم و التجسيم، و إنّما «اليد» هنا كناية عن القدرة، و من الطبيعى أنّ الإنسان يستعمل يديه ليظهر قدرته على إنجاز العمل، و كثيرا ما تستخدم اليد بهذا المعنى فى محادثاتنا اليومية، إذ يقال: إنّ البلد الفلانى بيد المجموعة الفلانية، أو إنّ المسجد الفلانى بنى على يد الشخص الفلانى، و أحيانا يقال: إنّ يدى قصيرة، أو إنّ يدك مملوءة، اليد فى كلّ تلك الجمل ليس المقصود منها اليد الحقيقية التى هى أحد أعضاء الجسم، بل كناية عن القدرة و السلطة و التمكّن.

و من هنا فإنّ الإنسان ينفّذ أعماله المهمّة بكلتا يديه، و استخدامه كلتا يديه يبيّن اهتمامه و تعلّقه بذلك العمل، و مجىء هذه العبارة فى الآية المذكورة أعلاه إنّما هو كناية عن الاهتمام الخاصّ الذى أولاه البارئ عزّ و جلّ لعملية خلق الإنسان.

ثمّ تضيف الآية: أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ أى أ كان عدم سجودك لأنّك استكبرت، أم كنت من الذين يعلو قدرهم عن أن يؤمروا بالسجود؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۶

و من دون أى شكّ فإنّه لا أحد يستطيع أن يدّعى أنّ قدرته و منزلته أكبر من أن يسجد للّه (أو لآدم بأمر من اللّه) و بهذا فإنّ الاحتمال الوحيد المتبقّى هو الثانى، أى التكبر.

و قال بعض المفسّرين: إنّ كلمة (عالين) تعنى- هنا- الأشخاص الذين يسيرون دوما فى طريق الغرور و التكبّر، و طبقا لهذا فإنّ معنى

الآية يكون: هل أنّك استكبرت الآن، أم كنت دائما هكذا؟! و لكن المعنى الأوّل أنسب.

إلّا أنّ إبليس اختار- بكلّ تعجّب- الشقّ الثانى، و كان يعتقد بأنّه أعلى من أن يؤمر بذلك، لذلك قال- بكلّ وقاحة- أثناء تبيانه أسباب معارضته لأوامر البارئ عزّ و جلّ: قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

و علّل إبليس عدم سجوده لآدم و عصيانه أمر اللّه بالمقدّمات التالية:

أوّلا: إنّنى خلقت من نار، أمّا هو فقد خلق من طين، و هذه حقيقة صرّح بها القرآن المجيد فى الآيتين ۱۴ و ۱۵ من سورة الرحمن: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

ثانيا: إنّ الشيء المخلوق من النار أفضل من الشيء المخلوق من التراب، لأنّ النار أشرف من التراب.

ثالثا: لا يحقّ لأحد أن يأمر مخلوقا بالسجود لمخلوق آخر دنى منه.

و خطأ إبليس يكمن فى المقدّمتين الأخيرتين، و ذلك من عدّة وجوه:

أوّلا: لأنّ آدم لم يكن ترابا فقط، و إنّما نفخت فيه الروح الإلهية، و هذا هو سبب عظمته، و إلّا فأين التراب من كلّ هذا الفخر و الاستعداد و التكامل؟

ثانيا: التراب ليس بأدنى من النار، و إنّما هو أفضل منها بكثير، لأنّ كلّ الحياة أصلها من التراب، فالنباتات و كلّ الموجودات الحيّة بأجمعها تستمدّ غذاءها و مصدر حياتها من التراب، و كلّ المعادن الثمينة مخفية فى وسط التراب، خلاصة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۷

الأمر أنّ التراب هو مصدر كلّ أنواع البركة، و النار رغم أهميّتها الكبرى فى الحياة فإنّها لا تبلغ أبدا أهميّة التراب، و إنّما يستفاد منها فى الوسائل الترابية، و قد تكون أداة خطرة و مدمّرة. و الأهمّ من ذلك أنّ المواد التى يستفاد منها لإشعال النيران كالحطب و الفحم و النفط هى من بركة الأرض.

ثالثا: المسألة، هى مسألة إطاعة أوامر اللّه سبحانه و تعالى و تنفيذها، لأنّه خالقنا و نحن عبيده و يجب أن نطبّق أوامره.

و على أيّة حال، لو أمعنا النظر فى أدلّة إبليس لرأينا فيها كفرا عجيبا، لأنّه بكلامه أراد نفى حكمة اللّه، و التقليل من شأن أوامره (نعوذ باللّه)، و هذا الموقف المخزى لإبليس دليل على جهله التامّ، لأنّه لو كان قد اعترف بأنّ عدم سجوده إنّما كان لهوى هو هوى النفس، أو أنّ غروره و تكبّره حالا بينه و بين السجود لآدم، و ما إلى ذلك لكان الأمر أهون، إذ أنّه يكون هنا قد أقرّ بارتكاب ذنب واحد، إلّا أنّه بكلامه هذا و لتبرير عصيانه، عمد إلى نفى حكمة البارئ عزّ و جلّ و علمه و معرفته، و هذا يوضّح سقوطه إلى أدنى درجات الكفر و الانحطاط.

المخلوق مقابل خالقه يفتقد الاستقلال، إذ أنّ كلّ ما لديه هو من خالقه، و لهجة كلام إبليس توضّح أنّه كان يريد استقلالا و حكما فى مقابل حكم البارئ عزّ و جلّ، و هذا مصدر آخر من مصادر الكفر.

و يمكن القول أنّ أسباب ضلال الشيطان، تعود إلى عدّة امور منها الغرور و التكبّر و الجهل و الحسد، و هذه الصفات القبيحة اتّحدت و أسقطته إلى الحضيض بعد سنين طوال من مرافقة الملائكة، و كأنّه كان معلّما لهم .. أسقطته من أوج الفخر إلى أدنى الحضيض، و ما أخطر هذه الصفات القبيحة أينما وجدت!! و كما

قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى إحدى خطبه فى نهج البلاغة: «فاعتبروا بما كان من فعل اللّه بإبليس إذ أحبط عمله الطويل و جهده الجهيد و كان قد عبد اللّه ستّة آلاف سنة ... عن كبر ساعة واحدة فمن ذا بعد إبليس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۸

يسلم على اللّه بمثل معصيته»[۴۶۸].

نعم، فعمليّة بناء قصر عظيم قد تستغرق سنوات عديدة، و لكن عملية تدميره قد لا تستغرق سوى لحظات بتفجير قنبلة قويّة.

و هنا وجب إخراج هذا الموجود الخبيث من صفوف الملأ الأعلى و ملائكة العالم العلوى، فخاطبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ

الضمير (منها) فى عبارة فَاخْرُجْ مِنْها إمّا أنّه إشارة إلى صفوف الملائكة، أو إلى العوالم العلويّة، أو إلى الجنّة، أو إلى رحمة اللّه.

نعم، فيجب إخراج هذا الخبيث من هنا، فهذا المكان مكان الطاهرين و المقرّبين، و ليس بمكان المذنبين و العاصين ذوى القلوب المظلمة.

«رجيم» من (رجم)، و بما أنّ لازمها الطرد، فقد وردت بهذا المعنى هنا.

ثمّ أضاف البارئ عزّ و جلّ: وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلى يَوْمِ الدِّينِ فأنت خارج و مطرود من رحمتى إلى الأبد.

المهمّ انّ الإنسان عند ما يرى النتائج الوخيمة لأعماله السيّئة عليه أن يستيقظ من غفلته، و أن يفكّر فى كيفية إصلاح ذلك الخطأ، و لا شىء أخطر من بقاءه راكبا لموج الغرور و اللجاجة و استمراره فى السير نحو حافّة الهاوية، لأنّه فى كلّ لحظة يبتعد أكثر عن الصراط المستقيم، و هذا هو نفس المصير المشؤوم الذى وصل إليه إبليس.

و هنا تحوّل (الحسد) إلى (عداء)، العداء الشديد و المتأصّل، كما قال القرآن:

قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ

هذه الآية تبيّن أنّ الشيطان طلب من اللّه سبحانه و تعالى أن يمهله، فهل طلب أن يمهله ليسكب عبرات الحسرة و الندامة على ما فعله من قبل، أم أنّه طلب مهلة لإصلاح عصيانه القبيح؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۵۹

كلّا، إنّه طلب من البارئ عزّ و جلّ أن يمهله إلى يوم يبعثون كى ينتقم من أبناء آدم عليه السّلام و يدفعهم جميعا إلى طريق الضلال، رغم علمه بأنّ إضلاله لكلّ إنسان سوف يضيف لذنوبه حملا ثقيلا جديدا من الذنوب، و يغرقه فى مستنقع الكفر و العصيان، كلّ ذلك بسبب اللجاجة و التكبّر و الغرور و الحسد، فما أكثر المصائب التى تتولّد للإنسان من هذه الصفات الذميمة.

و فى الحقيقة، إنّه كان يريد الاستمرار فى إغواء بنى آدم حتّى آخر فرصة متاحة له، لأنّ فى يوم البعث تسقط التكاليف عن الإنسان، و لا معنى هناك للوساوس و الإغواءات، إضافة إلى هذا فقد طلب من اللّه عزّ و جلّ أن يبقيه حيّا إلى يوم القيامة، رغم أنّ كلّ الموجودين فى العالم يموتون فى هذه الدنيا.

و هنا اقتضت مشيئة اللّه سبحانه- بدلائل سنشير إليها- أن يستجيب اللّه لطلب إبليس، و لكن هذه الاستجابة كانت مشروطة و ليست مطلقة، كما توضّحه الآية التالية: قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ

و لكن ليس إلى يوم البعث الذى تبعث فيه الخلائق، و إنّما إلى زمان معلوم، قال تعالى: إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ

و هنا أعطى المفسّرون آراء مختلفة بشأن تفسير يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ حيث قال البعض: إنّه يوم نهاية العالم، لأنّ كلّ الموجودات الحيّة من ذلك اليوم تموت، و تبقى ذات اللّه المقدّسة فقط، كما ورد فى الآية (۸۸) من سورة القصص: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ و بهذا الشكل فقد استجيب لجزء من مطالب إبليس.

و البعض الآخر قال: إنّ ذلك اليوم هو يوم القيامة، و لكن هذا الاحتمال لا يتلاءم مع ظاهر آيات بحثنا التى يتّضح منها أنّ البارئ عزّ و جلّ لم يستجب لكلّ مطاليبه، كما أنّ هذا الاحتمال لا يتلاءم حتّى مع بقيّة آيات القرآن الكريم التى تتحدّث عن موت الجميع مع نهاية هذا العالم.

و قال البعض: إنّ هذه الآية يحتمل أنّها تشير إلى زمان لا يعرفه أحد سوى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۰

سبحانه و تعالى.

و لكن التّفسير الأوّل أنسب من بقيّة التفاسير، و قد وردت رواية فى تفسير البرهان نقلا عن الإمام الصادق عليه السّلام، و تقول بأنّ إبليس يموت فى الفترة ما بين النفخة الاولى و الثانية[۴۶۹].

هنا كشف إبليس عمّا كان يضمره فى داخله، و عن الهدف الحقيقى لطلبه البقاء خالدا إلى زمن معيّن إذ: قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

القسم بالعزّة يراد منه الاستناد على القدرة و الاستطاعة، و التأكيدات المتتالية فى الآية (القسم من جهة، و نون التوكيد الثقيلة من جهة اخرى، و كلمة أجمعين من جهة ثالثة) تبيّن أنّه مصمّم بصورة جديّة على المضى فى عمله، و أنّه سيبقى إلى آخر لحظة من عمره ثابتا على عهده بإغواء بنى آدم.

و بعد قسمه انتبه إبليس إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ هناك مجموعة من عباد اللّه المخلصين لا يمكن كسبهم بأى طريقة إلى داخل منطقة نفوذه، لذلك أجبر على الاعتراف بعجزه فى كسب أولئك فقال: إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ

أولئك الذين يسيرون فى طريق المعرفة و العبودية لك بصدق و إخلاص و صفاء، إنّك دعوتهم إليك، و أخلصتهم لك، و جعلتهم فى منطقة أمنك، و هذه هى المجموعة الوحيدة التى لا أتمكّن من الوصول إليها، أمّا البقيّة فإنّ بإمكانى إيقاعهم فى شباكى.

حدس و ظنّ إبليس كان صحيحا، إذ أنّه أوجد العراقيل لكلّ واحد من بنى آدم عدا المخلصين الذين نجوا من فخاخه و ذلك ما أكّده القرآن المجيد فى الآية (۲۰) من سورة سبأ: وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۱

بحثان

۱- فلسفة وجود الشيطان

هناك مسائل مهمّة تطرح بشأن الآيات المذكورة أعلاه، منها مسألة خلق الشيطان، و سبب سجود الملائكة لآدم، و سبب تفضيل آدم على الملائكة، و الشيطان على من سيتسلّط، و ما هى نتيجة التكبّر و الغرور، و ما المقصود من الطين و روح اللّه، و مسألة خلق آدم و خلقه المستقل فى مقابل فرضيات تكامل الأنواع؟ و مسائل اخرى من هذا القبيل تمّ تناولها و بصورة مفصّلة فى التّفسير الأمثل فى ذيل الآية (۳۴) من سورة البقرة، و فى ذيل الآية (۲۶) من سورة الحجر، و فى ذيل الآية (۱۱) من سورة الأعراف.

نعود مرّة اخرى إلى السؤال الأوّل الخاصّ بشأن فلسفة خلق الشيطان، فالكثير يتساءل إن كان الإنسان خلق من أجل التكامل و نيل السعادة عن طريق عبوديته للّه، فما هى أسباب وجود الشيطان الذى هو موجود مدمّر يعمل ضدّ تكامل الإنسان؟ و هو فى نفس الوقت موجود ذكى، مكّار، يثير العداوة و البغضاء. إلّا أنّنا لو تفكّرنا قليلا فسوف ندرك أنّ وجود هذا العدو عامل مساعد لدفع التكامل الإنسانى إلى الإمام و تقدّمه.

لا نذهب بعيدا، فقوّات المقاومة التى تدافع دائما و بشدّة ضدّ العدوّ تزداد قوّة يوما بعد آخر ..

و القادة و الجنود المدرّبون الأقوياء هم الأشخاص الذين يقاتلون الأعداء بعنف فى المعارك الكبيرة.

و السياسى المحنّك القوى هو الذى يتمكّن فى الأزمات السياسيّة الشديدة أن يتصدّى للأعداء الأقوياء و يتغلّب عليهم.

و أبطال المصارعة الكبار هم الذين نازلوا مصارعين أقوياء أشدّاء، إذن فلم العجب من أنّ عباد اللّه الكبار بجهادهم المستمر المرير ضدّ الشيطان، يصبحون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۲

أقوياء يوما بعد آخر.

فعلماء اليوم قالوا بشأن فلسفة وجود الميكروبات: لو لا وجود هذه الميكروبات لكان جسم الإنسان ضعيفا عديم الإحساس، و يحتمل أيضا توقّف نمو الإنسان بسرعة بحيث لا يتجاوز طوله الثمانين سنتيمترا، و لكان جميع البشر على شكل أقزام صغار، و بهذا الشكل فإنّ مبارزة جسم الإنسان للميكروبات المهاجمة تعطيه قوّة و قدرة على النمو.

و كذلك الحال بالنسبة إلى روح الإنسان فى جهادها ضدّ الشيطان و هوى النفس.

و هذا لا يعنى أنّ الشيطان مكلّف بإغواء عباد اللّه، فالشيطان كان طاهرا فى بداية خلقه، كبقيّة الموجودات، و لكن الانحراف و الانحطاط و التعاسة التى أصيب بها إنّما كان برغبته و إرادته، و بهذا فإنّ البارئ عزّ و جلّ لم يخلق إبليس منذ اليوم الأوّل شيطانا، و إنّما إبليس هو الذى أراد أن يكون شيطانا، و فى نفس الوقت فإنّ ممارساته الشيطانية لا تجلب الضرر لعباد اللّه المخلصين إطلاقا، بل قد تكون سلّما لرقيّهم و سموّهم.

و فى النهاية يبقى هذا السؤال: لماذا تمّت الموافقة على طلبه فى البقاء حيّا، و لماذا لم يهلك فى تلك اللحظة؟

جواب هذا السؤال هو ما ذكرناه أعلاه، و بعبارة اخرى:

إنّ عالم الدنيا هذا هو ساحة للاختبار و الامتحان (الاختبار الذى هو وسيلة لتربية و تكامل الإنسان) و كما هو معروف فإنّ الاختبار لا يتمّ من دون مواجهة عدو شرس و مجابهة مختلف أنواع الأعاصير و المشاكل.

و بالطبع، إن لم يكن هناك شيطان، فإنّ هوى النفس و وساوسها هى التى تضع الإنسان فى بودقة الاختبار، و لكن حرارة هذه البودقة تزداد بوجود الشيطان، لأنّ الشيطان سيكون فى هذه الحالة العامل الخارجى المؤثّر على الإنسان، و هوى النفس و الوساوس ستكون العامل الداخلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۳

۲- نيران الأنانية و الغرور تحرق رأسمال الوجود

من الأمور الحسّاسة جدّا التى تلفت النظر فى قضيّة طرد إبليس من رحمة اللّه، هو مدى تأثير عاملى الأنانية و الغرور على سقوط و تعاسة الإنسان، إذ يمكن القول بأنّهما من أهمّ و أخطر عوامل الانحراف. و قد تسبّبا- فى لحظة واحدة- فى هدم عبادة ستّة آلاف سنة، و إنّهما كانا السبب وراء تدنّى موجود كان فى صفّ ملائكة السماء الكبار إلى أدنى درجات الشقاء، و يستحقّ لعنة اللّه الأبدية.

الأنانية و الغرور يحجبان الحقيقة عن بصر الإنسان، فالأنانية مصدر الحسد، و الحسد مصدر العداوة و البغضاء، و العداوة و البغضاء سبب إراقة الدماء و ارتكاب الجرائم.

الأنانية تدفع الإنسان إلى الاستمرار فى ارتكاب الخطأ، و تحبط- فى نفس الوقت- مفعول أىّ عامل للصحوة من الغفلة، أى تحوّل بين ذلك العامل و بين الإنسان.

الأنانية و العناد يسلبان فرصة التوبة و إصلاح الذات من الإنسان، و يغلقان أمامه كلّ أبواب النجاة، و خلاصة الأمر فإنّ كلّ ما نقوله حول خطر هذه الصفات القبيحة و المذمومة يعدّ قليلا.

و كم هو جميل

قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «فعدو اللّه إمام المتعصّبين، و سلف المستكبرين، الذى وضع أساس العصبية، و نازع اللّه رداء الجبرية، و ادّرع لباس التعزّز، و خلع قناع التذلّل ألا ترون كيف صغّره اللّه بتكبره؟ و وضعه بترفّعه؟ فجعله فى الدنيا مدحورا، و أعدّ له فى الآخرة سعيرا».[۴۷۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۴

الآيات [سورة ص (۳۸): الآيات ۸۴ الى ۸۸]

اشارة

قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ (۸۴) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (۸۵) قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (۸۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۸۷) وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (۸۸)

التّفسير

آخر حديث بشأن إبليس!

آيات بحثنا هى آخر آيات سورة (ص)، و فى الحقيقة هى خلاصة لكلّ محتوى هذه السورة، و نتيجة للأبحاث المختلفة التى تناولتها السورة.

فى البداية ردّا على تهديد إبليس فى إغواء كلّ بنى آدم عدا المخلصين منهم- يجيبه البارئ عزّ و جلّ بالقول: قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ ۴۷۱] أقسم بالحقّ، و لا أقول إلّا الحقّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۵

فما ورد فى بداية السورة إلى هنا حقّ، و الذى ورد بشأن أحوال الأنبياء الكبار فى هذه السورة بسبب حروبهم و جهادهم حقّ، و الحديث فى هذه السورة عن القيامة و العذاب الأليم الذى سينزل بالطغاة و النعم التى سيغدقها البارىء عزّ و جلّ على أهل الجنّة حقّ، و نهاية السورة حقّ، و اللّه سبحانه يقسم بالحقّ و يقول الحقّ بأنّه سيملأ جهنّم بالشيطان و أتباعه، و ذلك جواب قاطع على كلام إبليس بشأن إغوائه بنى الإنسان، و بهذا وضّح البارئ عزّ و جلّ تكليف الجميع.

على أيّة حال، فإنّ هاتين الجملتين تشتملان على الكثير من التأكيد، فتؤكّدان مرتين على مسألة (الحقّ) و تقسمان بها، و عبارة (لأملأنّ) رافقتها نون التوكيد الثقيلة و (أجمعين) تأكيد مجدّد على كلّ ذلك، لكى لا يبقى لأحد أدنى شكّ و ترديد بهذا الشأن، إذ لا سبيل لنجاة الشيطان و أتباعه، و الاستمرار بالسير على خطاه يؤدّى إلى جهنّم.

و فى نهاية هذا البحث يشير البارئ عزّ و جلّ إلى أربعة امور فى عدّة عبارات قصيرة و واضحة؟

ففى المرحلة الاولى يقول: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

و بهذا وضع النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حدّا لذرائع المتذرّعين، و بيّن أنّه لا يبتغى من وراء ذلك سوى نجاة و سعادة البشر، و أنّه لا يريد منهم أىّ جزاء مادّى أو معنوى، و لا استحسان و لا شكر، و لا مقام و لا حكومة، و إنّما أجرى على اللّه، كما ذكرت ذلك آيات اخرى فى القرآن المجيد كالآية (۴۷) من سورة سبأ، و التى تقول: إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ

و هذه هى إحدى دلائل صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ الداعية الكذّاب إنّما يدعو للوصول إلى أطماع شخصيّة، و هذه الأطماع تظهر بشكل أو بآخر من خلال حديثه، و العكس ما نراه فى شخصيّة رسولنا الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى المرحلة الثانية يقول: أنا لست من المتكلّفين، فكلامى مستند على الأدلّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۶

و المنطق، و لا يوجد فيه أى تكلّف، و عباراتى واضحة و كلامى خال من الغموض و اللفّ و الدوران وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ

و فى الواقع فإنّ المرحلة الاولى تتناول أوصاف الداعية، و المرحلة الثانية تتطرّق لسبل الدعوة و محتواها.

أمّا المرحلة الثالثة فتبيّن الهدف الأصلى من هذه الدعوة الكبيرة من نزول هذا الكتاب السماوى إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

نعم، المهمّ هو أن يوقظ الناس من غفلتهم و يجعلهم يتعمّقون فى التفكير، لأنّ الطريق واضح، و علاماته ظاهرة، و الفطرة السليمة فى داخل الإنسان تمثّل دافعا قويّا تدفع الإنسان إلى سبيل التوحيد و التقوى، فالمهمّ هو الصحوة، و هذه هى الرسالة الرئيسيّة للأنبياء و لكتبهم السماوية.

هذه العبارة وردت مرّات عديدة فى القرآن، و كلّها تبيّن أنّ محتوى دعوة الأنبياء فى كلّ المراحل يتناسب مع الفطرة التى فطرنا عليها البارئ عزّ و جلّ، و أنّ الإثنين يسيران معا إلى الأمام.

و أمّا فى المرحلة الرابعة و الأخيرة، فإنّه يهدّد المعارضين و المخالفين بعبارة قصيرة غزيرة المعنى: وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ

يقول: من الممكن أن لا تأخذوا هذا الكلام مأخذ الجدّ، و تمرّون به مرّ الكرام، إلّا أنّه سيثبت لكم عاجلا صدق كلامى، سيثبت فى هذا العالم فى ساحات قتال الإسلام ضدّ الكفر، و فى ساحات العمل الاجتماعى و الفكرى، و فى العالم الآخر بواسطة العذاب الإلهى الأليم الذى ستعذّبون به، خلاصة الأمر أنّ السوط الإلهى مهيّأ للنزول على المستكبرين و الظالمين.***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۷

ملاحظة

من هو المتكلّف؟

قرأنا فى الآيات المذكورة أعلاه أنّ إحدى مفاخر رسولنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه غير متكلّف، و فى الروايات الإسلاميّة المزيد من الأبحاث التى توضّح علامات المتصنّع و المتظاهر بما ليس فيه، و منها:

ورد حديث فى (جوامع الجامع) عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قال فيه: «المتكلّف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، و يتعاطى ما لا ينال، و يقول ما لا يعلم»[۴۷۲]! و روى مثله فى الخصال عن الصادق عليه السّلام عن لقمان فى وصيته لابنه.

كما

ورد حديث آخر و هو من وصايا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأمير المؤمنين عليه السّلام «للمتكلّف ثلاث علامات: يتملّق إذا حضر، و يغتاب إذا غاب، و يشمت بالمصيبة»[۴۷۳].

إضافة إلى ذلك

روى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام، جاء فيه: «المتكلّف مخطئ و إن أصاب، و المتكلّف لا يستجلب فى عاقبة أمره إلّا الهوان، و فى الوقت إلّا التعب و العناء و الشقاء، و المتكلّف ظاهره رياء و باطنه نفاق، و هما جناحان بهما يطير المتكلّف، و ليس فى الجملة من أخلاق الصالحين، و لا من شعار المتّقين المتكلّف فى أى باب، كما قال اللّه تعالى لنبيّه قل ما أسألكم عليه من أجر و ما أنا من المتكلّفين»[۴۷۴].

من مجموع هذه الرّوايات يتّضح- بصورة جيّدة- أنّ المتكلّفين خارجون عن جادّة الحقّ و العدالة و الصدق و الأمانة، و أنّهم لا يرون الحقائق أمام أعينهم، و يتشبّثون بالأوهام و الخيال، يتبّئون بأمور ليسوا على اطّلاع بها، و يتدخّلون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۴، ص: ۵۶۸

بأمور لا يعرفونها، لهم ظاهر و باطن، و حضورهم و غيابهم متضادّ، يتعبون أنفسهم و يجهدونها، و لكنّهم لا يحصدون سوى الخيبة و

الخسران، أمّا المتّقون و الصالحون فإنّهم مطهّرون من هذه الصفة و منزّهون عنها.

إلهی! وفّقنا لتطهیر أنفسنا من کلّ آثار التکلّف و النفاق و التمرّد و الطغیان.

إلهی! اجعلنا فی صفوف المخلصین الذین یستظلّون بظلّ حمایتک و حفظک، و الذین یئس الشیطان منهم.

إلهی! ارزقنا الیقظة و الذکاء، کی نسارع فی إحیاء محتوی هذا القرآن الکبیر، و تعبئة کافّة القوی الإسلامیة فی أنحاء العالم، و نسیر فی طریقک بقلب و لسان واحد، لکسر شوکة أعداء الحقّ و الحقیقة.

آمین یا ربّ العالمین.

*** «انتهت سورة (ص)» «و انتهاء المجلد الرابع عشر»

---

[۱] (۱)- تفسیر فی ظلال القرآن، بدایة سورة فاطر.

[۲] (۲)- مجمع البیان، المجلّد ۴، صفحة ۳۹۹.

[۳] (۳)- نور الثقلین، المجلّد ۴، صفحة ۳۴۵، حدیث ۱.

[۴] (۱)- فیما یخصّ معنی« فاطر» و« فطر» تحدّثنا فی ذیل الآیة العاشرة من سورة إبراهیم، و کذلک فی تفسیر الآیة(۱۴) من سورة الأنعام.

[۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۴۹- ح ۲۰.

[۶] (۲)- نهج البلاغة، خطبة رقم ۱.

[۷] (۳)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لما نقله نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۳۴۹.

[۸] (۱)- فی معنی« العرش» راجع شرحنا لهذه الکلمة فی تفسیر الآیة(۵۴) من سورة الأعراف.

[۹] (۱)- البقرة، ۲۸۵.

[۱۰] (۲)- الأنبیاء، ۲۶.

[۱۱] (۳)- الأنبیاء، ۲۷.

[۱۲] (۴)- الحاقة، ۱۷.

[۱۳] (۵)- النازعات، ۵.

[۱۴] (۱)- الأعراف، ۳۷.

[۱۵] (۲)- الإنفطار، ۱۰- ۱۳.

[۱۶] (۳)- الأنعام، ۶۱.

[۱۷] (۴)- هود، ۷۷.

[۱۸] (۵)- الأحزاب، ۹.

[۱۹] (۶)- النحل، ۲.

[۲۰] (۷)- الشوری، ۵.

[۲۱] (۱)- بحار الأنوار، الجزء ۵۹، صفحة ۱۷۶ حدیث ۷.

[۲۲] (۲)- المصدر السابق، صفحة ۱۷۴- حدیث ۴. و قد نقلت روایات متعدّدة فی هذا الشأن فراجع.

[۲۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۷۵، ج ۶.

[۲۴] (۲)- الصافات، ۱۶۴- ۱۶۶.

[۲۵] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۵۹، صفحة ۱۷۴- حديث ۴.

[۲۶] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلّد ۲۶، ص ۵.

[۲۷] (۲)- الكهف، ۵۰.

[۲۸] (۳)- الأعراف، ۱۷.

[۲۹] (۴)- الأعراف، ۲۷.

[۳۰] (۱)- سفينة البحار، المجلد ۱، صفحة ۵۰۱- مادة ربع.

[۳۱] (۲)- لاحظ الآيات ۱۶۱ و ۲۰۸ من سورة البقرة، و الآيـة(۱۴۲) من سورة الأنعام، و الآيـة(۲۲) من سورة الأعراف، و الآيـة(۵) سورة يوسف، و الآية(۶۰) سورة يس، و الآية(۶۲) من سورة الزخرف.

[۳۲] (۳)- النحل، ۱۰۰.

[۳۳] (۱)- المجادلة، ۱۹.

[۳۴] (۱)- من هنا يتّضـح أنّ فى الآيـة جملة مقدّرة يمكن أن تكون« ... كمن ليس كذلك، أو كمن يحاسب نفسه و يرى سوء عمله سيّئا ... أو: هل يرجى له صلاح أو متاب» و هكذا.

[۳۵] (۲)- ذكر أيضا لهـذه الآية تفسـير آخر، و هو أنّ المقصود منها مخاطبة الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بأن لا يتألّم من شدّة أذى و مخالفات هؤلاء، إذ أنّ اللّه مطّلع على أعمالهم تماما و سينتقم منهم فى الوقت المناسب.

[۳۶] (۱)- ذكر المفسّـرون وجوهـا مختلفـة لتفسـير ظاهرة التنويع فى الأفعال و الضـمائر فى الجملـة، ف« أرسل» فعل ماض فى حين« فتثير» فعـل مضـارع، و الضـمير فى الأوّل غائب بينما فى« فسـقناه» متكلّم، و قـد أشـحنا عن ذكرها لما بـدا من عـدم دقّتها، و يمكن أن يكون ذلك للتفنّن فى البيان و التنويع فى الحديث.

[۳۷] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۴۰۹، الآية مورد الحديث.

[۳۸] (۱)- القصص، ۵۷.

[۳۹] (۱)- المنافقون، ۸.

[۴۰] (۱)- مريم، ۸۱.

[۴۱] (۲)- المنافقون، ۸.

[۴۲] (۱)- الشعراء، ۴۴.

[۴۳] (۱)-« نطفـة» كمـا ذكرنـا سابقـا، فى الأصل بمعنى« الماء» أو بالأخصّ« الماء القليل الصافى» ثمّ أطلقت لهـذا السـبب على الماء القليل الذى هو مبدأ انعقاد الجنين.

[۴۴] (۱)- المقصود من« الكتـاب» هو العلم الإلهى اللامحـدود، و ما ذكره البعض من أنّه« اللوح المحفوظ» أو« صـفحة حياة الإنسان» يعود بالنتيجة إلى ذلك العلم الإلهى.

[۴۵] (۱)-« عـذب» كمـا يـذكر الراغب فى مفرداته بمعنى« المـاء النقى البـارد» و فى لسـان العرب بمعنى:« الماء الطيّب»، و يمكن أن يكون النقى و البارد داخلان فى مفهوم« الطيّب».

[۴۶] (۱)- لقـد صـنعت حاليا سـفن حمولتها خمسـمائة الف طنّ لنقل النفط، و لا يمكن لأيّـة وسـيلة اخرى غير السـفينة أن تنقل هذا المقدار الضخم من النفط، كما أنّه لا يمكن لأى طريق أن يحمل مثل هذه الناقلة، كما أنّ قدرة السفن فى السابق كانت أكثر من قدرة

الحیوانات.

[۴۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، مجلّد ۴، صفحة ۳۵۴ و ۳۵۵.

[۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰] (۲)- سفینة البحار، المجلّد ۲، صفحة ۳۳- مادّة صدقة.

[۵۱] (۱)- بحثنا موضوع التغییر التدریجی للیل و النهار فی تفسیر الآیة(۲۷) من سورة آل عمران.

[۵۲] (۲)- سورة التکویر، ۱- ۲.

[۵۳] (۳)- تفسیر« روح البیان» و« أبو الفتوح الرازی».

[۵۴] (۱)- التعبیر ب« الذین» الذی هو عادة لجمع المذکّر العاقل، ذکرت هنا للأصنام بسبب إعتقاد المشرکین الوهمی بهذه الموجودات الجامدة، و قد ذکره القرآن هکذا، ثمّ ردّ علیه بشدّة.

[۵۵] (۱)- ورد هذا التّفسیر فی مجمع البیان، و تفسیر الآلوسی، و القرطبی.

[۵۶] (۱)- من کتاب(التوصّل إلی حقیقة التوسّل).

[۵۷] (۱)- الراغب فی مفرداته کتاب الواو.

[۵۸] (۱)-« مثقلة» بمعنی« الحامل لحمل ثقیل» و یقصد بها هنا حامل الوزر علی عاتقه، و(حمل): علی ما یقوله الراغب: معنی واحد اعتبر فی أشیاء کثیرة، فسوّی بین لفظة فی فعل و فرّق بین کثیر منها فی مصادرها، فقیل فی الأثقال المحمولة فی الظاهر کالشیء المحمول علی الظهر(حمل)، و فی الأثقال المحمولة فی الباطن(حمل) کالولد فی البطن و الماء فی السحاب و الثمرة فی الشجرة تشبیها بحمل المرأة، و لأنّ ما ورد فی هذه الآیة، هو تشبیه للذنب بالحمل المحمول علی العاتق، فیجب أن تقرأ بکسر الحاء.

[۵۹] (۲)- مع أنّ الحدیث ورد فی تفاسیر مختلفة حینا عن الفضیل بن عیّاض، و حینا عن ابن عبّاس، و لکن یستبعد أن یکون الحدیث عنهما مستقلا، فمن الممکن أن یکون أصل الحدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

راجع تفسیر(أبو الفتوح، و القرطبی، و روح البیان) و قد أوردناه بالمعنی.

[۶۰] (۱)- الکشّاف، الجزء ۳، ص ۶۰۸.

[۶۱] (۱)- راجع الآیات ۲۵۷: البقرة، ۱۵: المائدة، ۱۶: المائدة، ۱ و ۵: إبراهیم، ۲۲: الزمر، ۹: الحدید، ۱۱: الطلاق.

[۶۲] (۱)- تفسیر« روح البیان» ذیل الآیات مورد البحث: و ورد هذا الحدیث أیضا فی صحیح البخاری بتفاوت یسیر(صحیح البخاری، الجزء الخامس، ص ۹۷ باب قتل أبی جهل).

[۶۳] (۱)- کشف الارتیاب، ص ۱۰۹- کذلک فقد أشرنا إلی روایات(عرض الأعمال) عند تفسیر الآیة(۱۰۵) من سورة التوبة- راجع المجلّد السادس من هذا التّفسیر.

[۶۴] (۲)- صحیح مسلم، کتاب الجنائز، حدیث ۱ و ۲(المجلّد ۲، صفحة ۶۳۱).

[۶۵] (۱) نهج البلاغة، الکلمات القصار، جملة ۱۳۰.

[۶۶] (۱) یقول الراغب فی مفرداته: زبرت الکتاب کتبته کتابة عظیمة، و کلّ کتاب غلیظ یقال له زبور.

[۶۷] (۲)-(أخذت) من مادّة(أخذ) بمعنی حیازة الشیء و تحصیله، لکنّها هنا کنایة عن المجازاة، لأنّ الأخذ مقدّمة للعقاب.

[۶۸] (۱)- قال البعض بأنّ هذه الجملة الاستئنافیة« من الجبال» خبر مقدّم و« جدد» مبتدأ مؤخّر، و ذهب آخرون: إنّ تقدیر الجملة هکذا« ألم تر أنّ من الجبال جدد بیض و حمر مختلف ألوانها».

[۶۹] (۱)- استنادا إلی ما صرّحت به بعض کتب اللغة کلسان العرب فإنّ(سود) فی الآیة أعلاه هی بدل عن« غرابیب» لأنّه فی حالة

الألوان لا يقدّم التأكيد، لاحظ أنّ(غرابيب) أكثر إشباعا للتأكيد من ناحية السواد، لذا قيل إنّ الأصل كان« سود غرابيب».

[۷۰] (۲)- تفسير الميزان، مجلّد ۱۷، صفحة ۴۲.

[۷۱] (۱)- حول ما هو إعراب« كـذلك» أعطيت احتمالات عديـدة، بعضـهم قالوا بأنّها جملة مستقلّة تقديرها(الأمر كذلك) و نحن انتخبنـا فى تفسيرنا هـذا المعنى لكونه الأـنسب، و لكن البعض ربطوها بالجملـة السابقـة فقالوا: إنّ المعنى هو كما أنّ الثمرات و جـدد الجبـال مختلف ألوانها كـذلك الناس و الـدواب و الأنعام، و قـد احتمل أيضا أن تكون الجملـة مرتبطـة بما بعـدها و المعنى: كـذلك تختلف أحوال العباد فى الخشية.

[۷۲] (۱)- روضة الكافى، طبقا لنقل نور الثقلين، مجلّد ۴، صفحة ۳۵۹.

[۷۳] (۲)- مجمع البيان، تفسير الآيات مورد البحث.

[۷۴] (۳)- ...

[۷۵] (۱)- القصص- ۸۰

[۷۶] (۱)- يلاحظ أنّ« يرجون» خبر« أنّ».

[۷۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۷۸] (۱)- جملـة« ليوفّيهم» إمّا أنّها متعلّقة بجملة« يتلون كتاب اللّه ...» و عليه يكون معناها« إنّ هدفهم من التلاوة و الصـلاة و الإنفاق الحصول على الأجر الإلهى» أو أنّها متعلّقـة ب« لن تبور ...» و بذا يكون معناها« إنّ تجارتهم لن يصـيبها الفساد لأنّ المثيب لهم هو اللّه تعالى».

[۷۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۸۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۷.

[۸۱] (۱)- سورة الصف: آية ۱ و التوبة- آية ۱۱۱ و البقرة ۲۰۷ و النساء- ۷۴.

[۸۲] (۲)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، جملة ۴۵۶، صفحة ۵۵۶.

[۸۳] (۱)- يونس، ۳۲.

[۸۴] (۲)- يونس- ۵.

[۸۵] (۳)- البقرة- ۲۱۳.

[۸۶] (۴)- مفردات الراغب- مادّة حقّ.« مع تلخيص و اختصار».

[۸۷] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۶۱.

[۸۸] (۱)- أمّـا مـا احتمله البعض من أنّ التقسـيم الـوارد فى الآيـة يعـود على« عبادنـا» و ليس على« الـذين اصـطفينا»، بحيث أنّ هـذه المجموعـات الثلاثـة لا تـدخل ضـمن مفهوم ورثـة الكتاب، بل ضـمن مفهوم« عبادنا» و« الـذين اصـطفينا» فقط المجموعـة الثالثـة أى« السابقين بالخيرات»، فيبدو بعيدا، لأنّ الظّاهر هو أنّ هذه المجموعات ممّن ذكرتهم الآية، و نعلم أنّ الحديث فى الآية لم يكن عن كلّ العباد، بل عن i الَّذِينَ اصْطَفَيْنا\E، ناهيك عن إضافة« نا» إلى« عباد» و هو نوع من التمجيد و المدح، ممّا يجعل ذلك غير منسـجم مع التّفسير المذكور.

[۸۹] (۱)- راجع تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۶۱، كذلك الكافى، المجلّد ۱، باب من اصطفاه اللّه من عباده.

[۹۰] (۲)- ذهب بعض بأنّ السابق بالخيرات هم أعوان الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المقتصد طبقة التابعين، و الظالم لنفسـه أفرادا آخرون.

و البعض الآخر فسّـروا« سابق بالخيرات» بالـذين يفضّل باطنهم على ظاهرهم و« المقتصـد» بالذين يتساوى ظاهرهم و باطنهم، و« الظالم

لنفسه» بالذين يفضّل ظاهرهم على باطنهم.

و البعض الآخر قالوا إنّ« السابقين» هم الصحابة، و« المقتصدين» هم تابعيهم، و« الظالمين» هم المنافقون.

و قال آخرون بأنّ الآية تشير إلى المجموعات الثلاثة الواردة فى سورة الواقعة- الآيات ۷ إلى ۱۱\i. وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ E.

و فى حديث أنّ« السابق بالخيرات» هم الأئمّة على و الحسن و الحسين و شهداء آل محمّد عليهم الصلاة و السلام، و المقتصد المتديّنون المجاهدون، و الظالم لنفسه الذى خلط عملا صالحا و آخر غير صالح. و كلّ هذه التّفسيرات كما قلنا من قبيل بيان المصاديق، و كلّها قابلة للتعقّل، عدا التّفسير الأوّل الّذى لا يحتوى على مفهوم صحيح.

[۹۱] (۱)- مجمع البيان، تفسير الآية مورد البحث.

[۹۲] (۲)- تفسير أبو الفتوح الرازى، المجلّد ۹ تفسير الآيات مورد البحث.

[۹۳] (۱)-« جنّات عدن»: يمكن أن تكون خبرا لمبتدء محذوف تقديره« جزائهم» أو« أولئك لهم جنّات عدن»، نظير الآية(۳۱- سورة الكهف) بعضهم أيضا قال: إنّها(بدل) عن« الفضل الكبير»، و لكن باعتبار أنّ« الفضل الكبير» إشارة إلى ميراث الكتاب السماوى، فلا يمكن أن تكون« جنّات» بدلا عنها، إلّا إذا اعتبرنا المسبّب فى مقام السبب.

[۹۴] (۱)- مفردات الراغب.

[۹۵] (۱)- انظر تفسير روح المعانى، مجلّد ۲۲، صفحة ۱۸۴.

[۹۶] (۲)- المصدر السابق.

[۹۷] (۱)-« لا يقضى عليهم» بمعنى لا يحكم عليهم.

[۹۸] (۱)-« يصطرخون» من مادّة« صرخ» بمعنى الصياح الشديد الذى يطلقه الإنسان من القلب للاستغاثة و طلب النجدة، للتخلّص من الألم أو العذاب أو أى مشكل آخر.

[۹۹] (۲)- التوبة، ۳۷.

[۱۰۰] (۳)- الكهف، ۱۰۴.

[۱۰۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۱۰.

[۱۰۲] (۲)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۳)- المصدر السابق.

[۱۰۴] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۵، ص ۲۵۴.

[۱۰۵] (۲)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۱۰.

[۱۰۶] (۱)- المرحوم كاشف الغطاء فى كتاب أصل الشيعة و أصولها.

[۱۰۷] (۱)- جملة« أرأيتم» بمعنى: ألا ترون؟ أو: ألا تفكّرون؟ و لكن بعض المفسّرين يقولون بأنّها بمعنى« أخبرونى».

و قد أوردنا بحثا مطوّلا بهذا الخصوص فى تفسير آية(۴۰) من سورة الأنعام.

[۱۰۸] (۱)- جملة« أن تزولا» تقديرها« لئلا تزولا» أو« كراهة أن تزولا».

[۱۰۹] (۱)- أغلب التفاسير.

[۱۱۰] (۲)- لأنّ« إحدى» جاءت بصيغة المفرد، فمعنى الآية« أنّهم سيكونون أكثر اهتداء من واحدة من الأمم» و قد تكون الإشارة إلى اليهود(لأنّ صيغة المفرد فى الجملة المثبتة ليس فيها معنى العموم) يبدو ذلك للوهلة الاولى، و لكن كما أشار بعض المفسّرين فإنّ قرائن الحال تشير إلى أنّ المقصود من الآية العموم، لأنّ الحديث فى مقام المبالغة و التأكيد، و تشير إلى ادّعائهم بأنّه فى حال بعثة

رسول إليهم فانّهم سيكونون أهدى من جميع الأمم السابقة.

[۱۱۱] (۱)- أغلب المفسّرين قالوا بأنّ« استكبارا» هو« مفعول لأجله» من حيث التركيب النحوى و هى بيان لعلّة« النفور» و ابتعادهم عن الحقّ، و« مكر السيء» عطف على« استكبارا» فى حين أنّ البعض الآخر قال: إنّها عطف على« نفورا».

[۱۱۲] (۲)-« مكر السيئ» إضافة(للجنس) إلى(النوع)، كما هو نقول:« علم الفقه» لأنّ(مكر) بمعنى(البحث عن حلّ) سواء كان خيرا أو شرّا، لذا فإنّ هذه الكلمة تطلق كصفة للّه سبحانه i وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ E آل عمران- ۵۴، و لكن« السيء» تحصر المكر فى نوع خاصّ منه، و هو الاحتيال.

[۱۱۳] (۱)-« نظر» و« انتظار» تأتى أحيانا لتشير إلى نفس المعنى. كما يقول الراغب.

[۱۱۴] (۱)- لنا شرحا مفصّل بهذا الخصوص فى سورتى الأحزاب و الإسراء.

[۱۱۵] (۱)- جمع من المفسّرين فسّروا« تحويل» هنا بمعنى« نقل مكان العذاب» بمعنى أنّ اللّه سبحانه و تعالى ينقل عقوبته من شخص لينزلها على شخص آخر. و مع ملاحظة أنّ هذا التّفسير لا ينسجم على ما يبدو مع الآية أعلاه، فالحديث ليس عن نقل العذاب من شخص إلى آخر، بل عن عدم قبول السنن للزيادة و النقص أو التغيير و التبديل، فكأنّ هؤلاء المفسّرين خلطوا بين كلمتى« تحوّل» و« تحويل»، و قد ورد فى بعض متون اللغة كمجمع البحرين« التحويل: تصيير الشيء على خلاف ما كان. و التحوّل: التنقّل من موضع إلى موضع».

[۱۱۶] (۲)- جملة« ليعجزه» كما ذكرنا سابقا من مادّة« عجز» و هى هنا بمعنى: يجعله عاجزا، لذا ففى كثير من المواضع جاءت بمعنى الفرار من قدرة اللّه، أو بمعنى عدم التمكّن من شخص.

[۱۱۷] (۱)- جملة\i فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ E جملة شرطية، و جزاؤها يقع فى تقدير جواب الشرط هكذا« فإذا جاء أجلهم يجازى كلّ واحد بما عمل»، و عليه فإنّ جملة« فإنّ اللّه» من قبيل« علّة الجزاء» و هى تقوم مقام المعلول المحذوف. و يحتمل كذلك أنّ الجزاء هو\i لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ E كما ورد فى آيات اخرى من القرآن الكريم كالآية ۶۱ من سورة النحل، و عليه فإنّ جملة\i فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً\E إشارة إلى أنّ اللّه يعرفهم جميعا، و يعلم أيّا منهم أبلغ أجله لكى يأخذه بقدرته تعالى.

[۱۱۸] (۱)-« دابة» من مادة« دب» و الدب و الدبيب مشى خفيف، و يستعمل ذلك فى الحيوان و فى الحشرات أكثر، و يستعمل فى كل حيوان و إن اختصت فى التعارف بالخيل. و كذلك تطلق كلمة« الدواب» خاصة على الحيوانات التى تستعمل للركوب.

[۱۱۹] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۳۷۰ الحديث ۱۲۲.

[۱۲۰] (۱)- مجمع البيان، مجلّد ۴، صفحة ۴۱۳.

[۱۲۱] (۲)- مجمع البيان، مجلّد ۴، صفحة ۴۱۳.

[۱۲۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۱)- نور الثقلين، مجلد ۴، صفحة ۳۷۴ و ۳۷۵.

[۱۲۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۵.

[۱۲۵] (۱)- اختلف المفسّرون فى تركيب جملة\i عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ E بعضهم قال« إنّها جار و مجرور» متعلّقان ب« المرسلين»، بحيث يكون المعنى« رسالتك على صراط مستقيم» و بعضهم قال:« إنّها خبر بعد خبر» و المعنى« إنّك مستقر على صراط مستقيم»، و البعض الآخر اعتبروها(حال) منصوبة و المعنى« إنّك من المرسلين و حالك على صراط مستقيم»(من الطبيعى أن ليس هناك تفاوت كثير فى المعنى).

[۱۲۶] (۲)-« تنزيل» مفعول منصوب لفعل مقدّر و التقدير« نزل تنزيل العزيز الرحيم»، كذلك فقد وردت احتمالات اخرى لإعراب هذه الجملة.

[۱۲۷] (۱)- أعطى المفسّرون احتمالات مختلفة حول كون« ما» نافية أو غير ذلك، أغلبهم قالوا بأنّها« نافية»، و قد اعتمدنا ذلك نحن فى تفسيرنا، أوّلا: لأنّ جملة« فهم غافلون» دليل على ذلك المعنى، فعدم وجود المنذر سبب للغفلة. الآية الثالثة من سورة السجدة- أيضا- شاهد على ذلك، حيث يقول سبحانه و تعالى\:i لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ E.

و قال بعضهم بأنّ« ما» هنا موصولة، بحيث يكون معنى الجملة« لتنذر قوما بالذى انذر آباؤهم».

و بعض احتملوا أنّ« ما» مصدرية، و عليه يكون معنى الجملة« لتنذر قوما بنفس الإنذار الذى كان لآبائهم»، و لكن يبدو أنّ كلا الاحتمالين ضعيف.

[۱۲۸] (۱)- نهج البلاغة، خ ۳۳ و ۱۰۴.

[۱۲۹] (۱)- سورة النصر، الآية ۲.

[۱۳۰] (۲)- بناء على ما عرضناه يتضح بأنّ الضمير فى« أكثرهم» يعود على قادة القوم و ليس على القوم، و شاهد ذلك الآيات التالية لتلك الآية.

[۱۳۱] (۱)- مفردات الراغب، و قطر المحيط، و مجمع البحرين، مادّة غل.

[۱۳۲] (۲)- على ما أوردناه أصبح واضحا أنّ الضمير« هى» فى جملة\i فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ E يعود على« الأغلال» بحيث إنّها رفعت أذقانهم إلى الأعلى، و جملة« فهم مقمحون» تفريع على ذلك. و ما احتمله البعض من أنّ« هى» تعود على« الأيدى» التى لم يرد ذكرها فى الآية، يبدو بعيدا جدّا.

[۱۳۳] (۱)- تفسير الآلوسى، المجلّد ۲۲، صفحة ۱۹۹.

[۱۳۴] (۱)- تفسير الفخر الرازى الكبير، تفسير الآيات مورد البحث مجلّد ۲۶، ص ۴۵.

[۱۳۵] (۲)- تفسير القرطبى، تفسير الآيات مورد البحث، مجلّد ۱۵، ص ۱۰.

[۱۳۶] (۱)- انظر النحل: ۴۴ و فصّلت: ۴۱، و الزخرف: ۴۴ و القمر: ۲۵، و فى نفس الوقت فإنّ لفظة« ذكر» تكرّرت فى القرآن كثيرا بمعنى« التذكير المطلق».

[۱۳۷] (۱)- الأحزاب، ۲۱.

[۱۳۸] (۱)- الإسراء، ۱۴.

[۱۳۹] (۲)- الكهف، ۴۹.

[۱۴۰] (۱)- الجاثية، ۲۸.

[۱۴۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۸، ح ۲۵.

[۱۴۲] (۳)- تفسير القرطبى، ج ۱۵، ص ۱۲، نقل هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى، كما فى صحيح الترمذى و جاء مثله فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى أيضا، و قد ذكره مفسّرون آخرون كالآلوسى و الفخر الرازى و الطبرسى و العلّامة الطباطبائى- أيضا- بتفاوت يسير.

[۱۴۳] (۱)- معانى الأخبار للصدوق، باب معنى الإمام، صفحة ۹۵.

[۱۴۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۴، ص ۳۷۹.

[۱۴۵] (۱)- يعتقد البعض بأنّ« أصحاب القرية» مفعول أو للفعل« اضرب» و« مثلا» مفعول ثان مقدّم، و البعض يقول: إنّها بدل عن« مثلا»، و لكن الظاهر رجاحة الاحتمال الأوّل.

[۱۴۶] (۱)- بعض المفسّرين قالوا بأنّ كلمة« إذ» هنا بدل عن« أصحاب القرية»، و ذهب آخرون بأنّها متعلّق لفعل محذوف تقديره« اذكر».

[۱۴۷] (۱)- تقدّم الكلام عن« التطيّر» بالتفصيل فى تفسير سورة الأعراف، الآية ۱۳۱، و ذيل الآية ۴۷ من سورة النمل.

[۱۴۸] (۱)- تفسير القرطبى، ذيل الآيات محلّ البحث.

[۱۴۹] (۲)- و ذلك فى حال كون« لنرجمنّكم» من مادّة« رجم» بمعنى السبّ و الاتّهام و القذف.

[۱۵۰] (۱)- التقدير هو« أئن ذكّرتم قابلتمونا بهذه الأمور» أو« أئن ذكّرتم علمتم صدق ما قلنا».

[۱۵۱] (۱)- الآيات: ۱۰۹- ۱۲۷- ۱۴۵- ۱۶۴- ۱۸۰.

[۱۵۲] (۱)- راجع الآيات ۳ و ۳۲ يونس- ۳ و ۵۲ هود- ۲۴ النمل ۲۹- الكهف و غيرها.

[۱۵۳] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۵، ص ۱۸ و ۱۹.

[۱۵۴] (۲)- تفسير التبيان، ج ۸، ص ۴۱۴.

[۱۵۵] (۳)- آل عمران، ۱۶۹.

[۱۵۶] (۴)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۱۸.

[۱۵۷] (۱)- بخصوص موقع(ما) فى الجملة احتملت ثلاثة احتمالات: إمّا مصدرية، أو موصولة، أو استفهامية، و لكن يبدو أنّ احتمال كونها استفهامية بعيد، و يبقى أنّ الأقرب كونها موصولة، مع أنّ المعنى لا يختلف كثيرا حينما تكون مصدرية.

[۱۵۸] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸- صفحة ۲۰.

[۱۵۹] (۳)- الحجرات، ۱۳.

[۱۶۰] (۱)- الأنبياء، ۲۷.

[۱۶۱] (۲)- المعارج، ۳۵.

[۱۶۲] (۳)- الميزان، المجلّد ۱۷، صفحة ۸۲.

[۱۶۳] (۱)-« بولس» من المبلّغين المسيحيين المعروفين الذى سعى كثيرا فى نشر الديانة المسيحية.« برنابا»- بفتح الباء- اسمه الأصلى« يوسف» كان من أصدقاء بولس و مرقس، له إنجيل معروف ذكر فيه كثيرا البشارة بظهور نبى الإسلام، و لكن المسيحيين لا يعتقدون بصحّته و يقولون انّ هذا الإنجيل قد كتبه أحد المسلمين.

[۱۶۴] (۲)- تفسير« أبو الفتوح الرازى» و هامش العالم المرحوم« الشعرانى».

[۱۶۵] (۱)- مجمع البيان، المجلّد ۴(الجزء ۸)- صفحة ۴۱۹.

[۱۶۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱، صفحة ۳۱۹.

[۱۶۷] (۲)- ذكرنا رواية شريفة مفصّلة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال عند تفسير سورة(آل عمران) ذيل الآية ۱۶۹.

[۱۶۸] (۱)- مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۲۱ القرطبى- الميزان، نور الثقلين.

[۱۶۹] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، على ما نقله الميزان، المجلّد ۱۷، صفحة ۸۶.

[۱۷۰] (۱)- الاستفهام فى الآية أعلاه استفهام تقريرى و« كم» خبرية، و هى هنا بمعنى الكثرة فى محلّ مفعول به للفعل(يروا) و(من القرون) توضيح لذلك. و« قرون» كما ذكرنا سابقا تأتى بمعنى العصور و هى جمع(قرن) مائة سنة أو بمعنى(الجيل) الذى يعيش فى زمان معيّن.

[۱۷۱] (۱)- هذه الجملة بدل عن« كم أهلكنا» و التقدير« ألم يروا أنّهم إليهم لا يرجعون» البعض احتمل أيضا أنّ الجملة حالية(حال الهالكين).

[۱۷۲] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۸.

[۱۷۳] (۳)- المعروف بین المفسّرین حول ترکیب هذه الآیة:« إنّ» نافیة. و البعض قال: إنّها مخفّفة لذا فإنّها لا تنصب ما بعدها، و« لمّا» بمعنی« إلّا»، بلحاظ أنّ ذلک ورد فی کلام العرب، و(جمیع) بمعنی« مجموع» خبر« کلّ»(تنوین کل) بدل عن مضاف إلیه محذوف تقدیره« هم» و الأصل« کلّهم») و« محضرون» إمّا خبر بعد خبر، أو صفة ل« جمیع» و علی ذلک تکون الجملة فی التقدیر هکذا« و ما کلّهم إلّا مجموعون یوم القیامة محضرون لدینا».

[۱۷۴] (۱)- وردت احتمالات عدیدة فی إعراب الآیة، و لکن أوضحها علی ما یبدو، هو کون« آیة لهم» خبر مقدّم و« الأرض المیتة» مبتدأ مؤخّر، و« أحییناها» جملة استئنافیة و هی توضیح و تفسیر للجملة السابقة.

[۱۷۵] (۱)- من الجدیر بالملاحظة أنّ الصیغة الثلاثیة المجردة لها« فجر» بمعنی(الشقّ) و هنا استخدمت علی وزن« تفعیل» بمعنی التکثیر و التشدید.

[۱۷۶] (۱)-« سبحان» علی قول جماعة من المفسّرین و علماء الأدب هی« علم» للتسبیح، لأنّ العلم(الاسم الخاصّ) یکون أحیانا للأشخاص فیسمّی« علم الشخص»، و أحیانا للجنس فیسمّی« علم الجنس»، و أحیانا للمعنی فیسمّی« علم المعنی» بناء علی هذا فمفهوم« سبحان» هو تنزیه و تقدیس اللّه من کلّ عیب و نقص، تنزیها یتناسب و عظمة الخالق، و العلم لا یضاف إلّا فی« علم المعنی». قال البعض أیضا أنّ« سبحان» لها معنی مصدری، و مفعول مطلق لفعل مقدّر، و فی أیّة صورة فهی تبیّن التنزیه الإلهی بأوکد وجه.

[۱۷۷] (۱)- الراغب فی« المفردات» یقول: السلخ نزع جلد الحیوان، یقال سلخته فانسلخ، و عنه استعیر سلخت درعه نزعتها، و سلخ الشهر و انسلخ، و لکن بعض المفسّرین یقولون: إنّ ذلک فی حالة تعدّی« سلخ» بحرف الجرّ« عن» و إذا تعدّی بالحرف« من» یکون بمعنی الإخراج، و لکن لیس من دلیل واضح فی کتب اللغة علی هذا التفاوت- علی ما نعلم- و إن کان« لسان العرب» یقول:« انسلخ النهار من اللیل خرج منه خروجا» و الظاهر أنّ هذا مأخوذ من المعنی الأوّل.

[۱۷۸] (۲)- هذه الجملة لها إعرابان، فإمّا أن تکون معطوفة علی« اللیل» و التقدیر« و آیة لهم الشمس»، و إمّا أن تکون مبتدأ و خبر، فالشمس مبتدأ و(تجری) خبر، و قد اخترنا الإعراب الأوّل.

[۱۷۹] (۱)- طبق هذا التّفسیر فإنّ(اللام) فی« لمستقر لها» بمعنی« فی» و یکون التقدیر« فی مستقر لها».

[۱۸۰] (۱)-« عرجون» کما قال أغلب المفسّرین و أهل اللغة: من الانعراج و هو الاعوجاج و الانعطاف، و علیه فالنون زائدة و هو علی وزن فعلون، و یعتقد آخرون أنّه مأخوذ من« عرجن» فالنون لیست زائدة، و بمعنی: أصل عنقود الرطب المتّصل بالنخلة، و توضیح ذلک أنّ الرطب یظهر علی شکل عنقود من النخلة، و أصل ذلک العنقود یکون علی شکل مقوّس أصفر اللون یبقی معلّقا فی النخلة، و« قدیم»: بمعنی العتیق الذی مضی زمنه.

[۱۸۱] (۱)-« الجاثی علی رکبتیه»: مجموعة من النجوم التی تتشاکل فیما بینها لترسم صورة شخص جاث علی رکبتیه، و منه أخذت التسمیة.

[۱۸۲] (۲)- أی أنّ الشمس فی کلّ خمس و عشرین یوما من أیّامنا تدور دورة واحدة حول نفسها، و قد شخصت هذه المسألة من مراقبة العلماء للبقع الموجودة علی سطح الشمس، فقد لوحظ أنّها تتبادل مواقعها ثمّ تعود کما کانت خلال هذه المدّة.

[۱۸۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۵.

[۱۸۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۳.

[۱۸۵] (۳)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۳۸۷، ح ۵۴.

[۱۸۶] (۱)-« و إذا قیل لهم ...» جملة شرطیة، و جزاؤها محذوف یستفاد من الآیة اللاحقة، و التقدیر:« و إذا قیل لهم اتّقوا ... أعرضوا عنه».

[۱۸۷] (۱)- المیزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۹۶،(ذیل الآیات مورد البحث).

[۱۸۸] (۱)- بعض المفسّرین احتمل التّفسیر التالی و هو: أنّ العرب کانوا مشهورین بالضیافة فی ذلک الزمان، و ما کانوا یمتنعون عن الإنفاق، و کان هدف الکفّار هو الاستهزاء بالمؤمنین الذین کانوا ینسبون الأشیاء و الأمور جمیعها إلی المشیئة الإلهیة، فکانوا یقولون لهم: إذا أراد اللّه سبحانه و تعالی أن یغنی الفقراء فما الحاجة إلی إنفاقنا، و لکن یبدو أنّ التّفسیر الذی أوردناه هو الأنسب(راجع التبیان، و تفسیر القرطبی، و روح المعانی).

[۱۸۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۴، ص ۴۲۷. و ذکرت هذه الروایة بتفاوت قلیل فی تفسیر« القرطبی» و« روح المعانی» و غیرهما.

[۱۹۰] (۱)- یأتی تارة بمعنی اسم مکان، و اخری اسم للنوم، أی مصدر میمی.

[۱۹۱] (۱)- یری« الراغب» فی مفرداته بأنّ« فاکهة» تطلق علی کلّ أنواع الثمار و الفواکه، و« فاکه» الحدیث الذی یأنس به الإنسان و ینشغل به عن غیره. و یری« ابن منظور» فی لسان العرب أنّ« فکاه» بمعنی المزاح، و« فاکه» یطلق علی الإنسان المرح.

[۱۹۲] (۲)- هناک احتمالات عدیدة فی إعراب الجملة، و أفضلها أنّ« هم» مبتدأ، و« متکئون» خبر، و« علی الأرائک» متعلّق به، و« فی ظلال» متعلّق به أیضا أو متعلّق بمحذوف.

[۱۹۳] (۳)- لسان العرب- مفردات الراغب- مجمع البیان- القرطبی- روح المعانی- و تفاسیر اخری.

[۱۹۴] (۱)- اختلف حول إعراب« قولا» و أنسب ما ذکر هو اعتبارها(مفعول مطلق) لفعل محذوف تقدیره« یقول قولا».

[۱۹۵] (۱)- تفسیر روح المعانی، مجلّد ۲۳، صفحة ۳۵.

[۱۹۶] (۲)- روح البیان، مجلّد ۷، صفحة ۴۱۶.

[۱۹۷] (۳)- الرعد، ۲۴.

[۱۹۸] (۱)- الأعراف، ۴۶.

[۱۹۹] (۲)- النحل، ۳۲.

[۲۰۰] (۳)- إبراهیم، ۲۳.

[۲۰۱] (۴)- الواقعة، ۲۶.

[۲۰۲] (۱)- الأعراف، ۲۷.

[۲۰۳] (۲)- الزخرف، ۶۲.

[۲۰۴] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۸۹، حدیث ۱.

[۲۰۵] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۹۱، حدیث ۸ و ۹.

[۲۰۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۷] (۱)- انظر روح المعانی و الفخر الرازی.

[۲۰۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۹] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۲(القاصعة).

[۲۱۰] (۱)-« اصلوها» من(صلا) أصل الصّلی إیقاد النار، و یقال صلی بالنار و بکذا، أی بلی بها و اصطلی بها.

[۲۱۱] (۱)- تفسیر الصافی، مجلّد ۴، صفحة ۲۵۸

[۲۱۲] (۲)-« طمسنا» من طمس- علی وزن شمس- بمعنی إزالة الأثر بالمحو، هذه الإشارة إلی إزالة ضوء العین أو صورتها بشکل کلّی بحیث لا یبقی منها أثر.

[۲۱۳] (۳)-« مکانتهم» بمعنی محل التوقّف، و هی إشارة إلی أنّ اللّه سبحانه و تعالی قادر علی أن یخرجهم عن إنسانیتهم فی محل توقّفهم، یغیّر أشکالهم، و یفقدهم القدرة علی الحرکة، تماما کالتمثال الخالی من الروح.

[۲۱۴] (۴)- لسان العرب- قطر المحیط- المنجد« مادّة سبق».

[۲۱۵] (۱)- ذکر صاحب تفسیر« فی ظلال القرآن» هـذا التّفسیر علی انّه الوحیـد، فی حین انّ التّفسیر السابق اختاره کلّ من تفسیر: مجمع البیان- التبیان- المیزان- الصافی- روح المعانی- روح البیان- القرطبی- التّفسیر الکبیر.

[۲۱۶] (۱)- ورد هذا الحدیث فی سفینة البحار مادّة(عمر).

[۲۱۷] (۱)- بحار الأنوار، مجلّد ۷۷، صفحة ۷۵، حدیث- ۳.

[۲۱۸] (۱)- الشعراء، ۲۲۴- ۲۲۶.

[۲۱۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۴، ص ۴۳۳.

[۲۲۰] (۱)- جملـة« لینـذر ...» متعلّقـة ب« ذکر» الواردة فی الآیـة السابقة، و البعض اعتبرها متعلّقة ب« علمنا» أو« نزّلنا» تقدیرا، و لکن الاحتمال الأوّل هو الأنسب علی ما یبدو.

[۲۲۱] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۱۰، ۱۳۳ و کلمات قصار ۳۸۸.

[۲۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۲۲۳] (۳)- المصدر السابق.

[۲۲۴] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار کلمة ۳۴۵.

[۲۲۵] (۲)- البقرة- ۱۰.

[۲۲۶] (۳)- البقرة، ۷۴.

[۲۲۷] (۴)- المائدة، ۴۱.

[۲۲۸] (۵)- الأنعام، ۳۶.

[۲۲۹] (۱)- جملـة« أو لم یروا ...» جملـة معطوفـة علی سابقتها بواو العطف، و لکن حین دخول الهمزة الاسـتفهامیة علی الجملة فإنّها تتصدّرها،(و الرؤیة) هنا بمعنی المعرفة، أو الإبصار.

[۲۳۰] (۲)- الفتح، ۱۰.

[۲۳۱] (۱)- مریم، ۸۱.

[۲۳۲] (۱)- الأنبیاء، ۹۸.

[۲۳۳] (۱)-« خصیم» بمعنی المصرّ علی الخصومة و الجدال، و(الرؤیة) بمعنی(العلم).

[۲۳۴] (۱)-« رمیم» من مـادّة(رم) و هو إصـلاح الشـیء البـالی، و« الرّمّـة» تختص بـالعظم البـالی، و« الرّمّـة» تختص بالحبـل البالی،(مفردات الراغب مادّة(رم) صفحة ۲۰۳).

[۲۳۵] (۱)- طه، ۵۵.

[۲۳۶] (۱)- إذا اعتبرنا« من» فی جملة« منه توقدون» بمعنی« به» فإنّ ذلک یتساوق مع التّفسیرات الاخری.

[۲۳۷] (۱)- بعض المفسّـرین أعـادوا الضـمیر فی« مثلهم» علی السـموات و الأـرض، و قالوا بأنّ اسـتعمال ضـمیر الجمع العاقل لوجود الموجودات العاقلة فی الأرض و السماء کثیر.

البعض الآخر اسـتنتج من اسـتخدام کلمة« مثلهم» عدم ضـرورة عودة عین الجسم بمواده التی کان یتشـکّل منها فی الدنیا، لأنّ شخصیة الإنسان تتعلّق بروحه، و هذه الروح بأی مادّة تعلّقت تکون مثل الإنسان.

و لکن یجب الالتفات إلی أنّ الکلام لا ینسـجم مع ظاهر آیات القرآن الکریم- حتّی أنّه لا ینسجم مع ظاهر الآیات مورد البحث- لأنّ القرآن الکریم یقول بصراحة فی هذه الآیات: إنّه یخلق نفس تلک العظام المتفسّخة من جدید و یلبسها ثوب الحیاة.« تأمّل!!».

[۲۳۸] (۱)- ورد فی بعض النسخ« لمن أراد» و یبدو أن الأنسب هو النص الذی أوردناه« لما أراد».

[۲۳۹] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۶.

[۲۴۰] (۱)- هناک بحث آخر فی تفسیر جملة« کن فیکون» فی تفسیر الآیة(۱۱۷) من سورة البقرة.

[۲۴۱] (۱)- علم الاجتماع(ساموئیل کنیک) صفحة ۱۹۲(مع قلیل من التلخیص).

[۲۴۲] (۱)- البقرة، ۴۸.

[۲۴۳] (۲)- یونس، ۵۴.

[۲۴۴] (۳)- إبراهیم، ۵۱.

[۲۴۵] (۴)- مجمع البیان، المجلّد ۱، صفحة ۲۹۸، تفسیر سورة البقرة الآیة ۲۰۲.

[۲۴۶] (۵)- السجدة، ۱۴.

[۲۴۷] (۱)- المطفّفین، ۴.

[۲۴۸] (۲)- التوبة، ۵۲.

[۲۴۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۵ صفحة ۵۲.

[۲۵۰] (۱)- المؤمنون، ۱۱۵.

[۲۵۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار کلمة ۱۳۱.

[۲۵۲] (۲)- الواقعة، ۶۲.

[۲۵۳] (۳)- تفسیر الصافی، المجلّد الخامس، صفحة ۱۰۷.

[۲۵۴] (۱)- القلم، ۳۵ و ۳۶.

[۲۵۵] (۲)- ص، ۲۸.

[۲۵۶] (۳)- الأنبیاء، ۴۷.

[۲۵۷] (۴)- یونس، ۵۴.

[۲۵۸] (۵)- الذاریات، ۵۶.

[۲۵۹] (۱)- المائدة، ۱۴.

[۲۶۰] (۱)- الأعراف، ۲۹.

[۲۶۱] (۱)- سورة ق، ۹- ۱۱.

[۲۶۲] (۲)- فاطر، ۹.

[۲۶۳] (۳)- الأحقاف، ۳۳.

[۲۶۴] (۴)- سورة یس، ۸۰.

[۲۶۵] (۵)- الحجّ، ۵.

[۲۶۶] (۱)- الکهف، ۲۱.

[۲۶۷] (۱)- السجدة، ۱۰.

[۲۶۸] (۲)- المؤمنون، ۳۵.

[۲۶۹] (۳)- سورة سبأ، ۷.

[۲۷۰] (۱)- السجدة، ۱۷.

[۲۷۱] (۲)- سورة يس- ۶۵.

[۲۷۲] (۳)- سورة فصلت، ۲۱.

[۲۷۳] (۱)- مجمع البيان، أوّل تفسير سورة الصافات.

[۲۷۴] (۲)- تفسير مجمع البيان أوّل تفسير سورة الصافات- لقد ورد هذا الحديث فى تفسير البرهان نقلا عن الشيخ الصدوق، رحمة اللّه مع اختلاف بسيط.

[۲۷۵] (۱)- هذه العبارات الثلاث من جهة هى ثلاثة أقسام، و من جهة اخرى هى قسم واحد له ثلاث صفات.

[۲۷۶] (۱)- بالطبع وردت احتمالات اخرى فى تفسير الآيات المذكورة أعلاه،« منها» ما يشير إلى صفوف جند الإسلام فى ساحات الجهاد، الذين يصرخون بالأعداء و يزجرونهم عن الاعتداء على حرمة الإسلام و القرآن، و الذين يتلون كتاب اللّه دائما و من دون أى انقطاع، و ينوّرون قلوبهم و أرواحهم بنور تلاوته، و منها: أنّ بعض هذه الأوصاف الثلاثة هو إشارة إلى ملائكة اصطفّت بصفوف منظمة، و القسم الآخر يشير إلى آيات القرآن التى تنهى الناس عن ارتكاب القبائح، و القسم الثالث يشير إلى المؤمنين الذين يتلون القرآن فى أوقات الصلاة و فى غيرها من الأوقات. و يستبعد الفصل بين هذه الأوصاف، لأنّها معطوفة على بعضها البعض بحرف(الفاء)، و هذا يوضّح أنّها أوصاف لطائفة واحدة.

و قد ذكر العلّامة« الطباطبائى» فى تفسيره الميزان هذا الاحتمال، فى أنّ الأوصاف الثلاثة هى تطلق على ملائكة مكلّفة بتبليغ الوحى الإلهى، و الاصطفاف فى طريق الوحى لتوديعه، و زجر الشياطين التى تقف فى طريقه، و فى النهاية تلاوة آيات اللّه على الأنبياء.

[۲۷۷] (۲)- و لا ضير فى التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث« الصافات و الزاجرات و التاليات» لأنّ موصوفها الجماعة، و هى مؤنّث لفظى.

[۲۷۸] (۳)- ممّا يذكر أنّ بعض اللغويين قالوا بأنّ جمع كلمة(تال) هو(تاليات) و جمع(تالية)(توال).

[۲۷۹] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، الصفحة ۱۵، الدرّ المنثور، المجلّد ۵، الصفحة ۲۷۱.

[۲۸۰] (۱)- الخطبة الاولى فى نهج البلاغة.

[۲۸۱] (۱)- سورة الشمس، الآيات ۵- ۷.

[۲۸۲] (۱)- تفسير الميزان، المجلّد ۱۷.

[۲۸۳] (۱)-« الكواكب» هنا بدل من الزينة، و يحتمل كونها عطف بيان، و الزينة هنا اسم مصدر و ليست مصدرا، حيث غ جاء فى الكتب الأدبية أينما وجدت نكرة بدل عن المعرفة فيجب مرافقتها بوصف، و فى حالة العكس فإنّ الأمر غير واجب.

[۲۸۴] (۱)-(حفظا) على حدّ قول الكثير من المفسّرين مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير هو: و حفظناها حفظا.

و البعض احتمل أنّها معطوفة على(بزينة) التى هى(مفعول له)، و تقديرها إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء و حفظا.

[۲۸۵] (۱)- لقد تمّ بحث كلمة« واصب» أيضا فى نهاية الآية(۵۲) من سورة النحل.

[۲۸۶] (۱)- العنكبوت، ۴۳.

[۲۸۷] (۲)- تلخيص من تفسير الميزان، المجلّد السابع عشر، الصفحة(۱۲۵).

[۲۸۸] (۱)- تفسير روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۷۷.

[۲۸۹] (۲)- هذه الآية هى بحالة جملة شرطية و شرطها(أ إذا متنا) بينما جزاءها محذوف و جملة(أ إنّا لمبعوثون) قرينة عليها، لأنّ نفس هذه الجملة- طبقا للقواعد الأدبية- لا يمكن أن تكون جزاء.

[۲۹۰] (۱)-(داخر) من مادّة(دخر) على وزن فخر(دخور)، و كلتاهما تعطى معنى الذلّة و الحقارة. الآية أعلاه فيها جملة تقديرية هى جوابها، و البقيّة شىء إضافى عليها كى يكتسب القول قاطعية أكثر، فالتقدير سيكون هكذا(نعم إنّكم مبعوثون حال كونكم داخرين).

[۲۹۱] (۱)- الدخان، الآية ۴۰، المرسلات، الآيات ۱۳، ۱۴، ۳۸، النبأ الآية، ۱۷.

[۲۹۲] (۱)-(قفوهم) من مادّة(وقف) و أحيانا تأتى بصورة فعل متعد و تعنى(التوقيف و الحبس)، و أحيانا اخرى تأتى بصورة فعل لازم، و تعنى(التوقّف و الوقوف) و مصدر الاولى هو وقفة، و مصدر الثانية وقوف.

[۲۹۳] (۱)- الرواية هذه وردت فى(الصواعق) عن أبى سعيد الخدرى نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما وردت عن الحاكم بن أبو القاسم الحسكانى فى(شواهد التنزيل) نقلا عن رسول اللّه، كذلك وردت فى عيون أخبار الرضا نقلا عن الإمام الرضا عليه السّلام.

[۲۹۴] (۱)-(استسلام) من مادّة(السلامة) و لكونها من باب(استفعال) فهى بمعنى طلب السلامة و التى عادة تكون ملازمة للانقياد و الخضوع فى مقابل قوّة أعظم.

[۲۹۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الرابع، الصفحة ۴۰۱.

[۲۹۶] (۲)- لكسب المزيد من الاطلاع فى هذا المجال يراجع إحقاق الحقّ، المجلّد الثالث(الطبعة الجديدة) صفحة(۱۰۴)، و المراجعات، الصفحة ۵۸(المراجعة ۱۲).

[۲۹۷] (۱)- الأحقاف، ۲۰.

[۲۹۸] (۱)- العبارة هذه(استثناء منقطع) من ضمير(تجزون) أو(لذائقو).

[۲۹۹] (۱)- الميزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۱۴۱.

[۳۰۰] (۱)- الضميران(فيها) و(عنها) يعودان على« الخمر» التى لم ترد بصورة مباشرة فى الجملة، لكن ذلك يتّضح من سياق الكلام، و كما هو معروف فإنّ الخمرة هى مؤنث مجازى و(عن) فى(عنها) إنّما هى لبيان العلّة، و تعنى أنّ هذه الخمرة لا تسكر هؤلاء و لا تفقد عقلهم و شعورهم، و يجب الالتفات إلى أنّ للخمر معنيان مشتركان، إذ هى أحيانا تطلق على شراب يثير الفساد و يذهب بالعقل i إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ\ ...E(المائدة- ۹۰)، و أحيانا تطلق على الشراب الطاهر الذى يعطى لعباد اللّه المخلصين فى جنان الخلدi\ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ E(محمّد- ۱۵).

[۳۰۱] (۲)- روح المعانى، المجلّد ۳۳، صفحة ۸۱.

[۳۰۲] (۱)-(مدينون) من مادّة(دين) و تعنى الجزاء، و هنا تعنى: هل أنّنا سنجزى.

[۳۰۳] (۲)-(مطّلعون) من مادّة(اطّلاع) و تعنى التفتيش و البحث، و الإشراف على شىء من مكان عال، و أخذ المعلومات.

[۳۰۴] (۳)-(سواء) تعنى الوسط.

[۳۰۵] (۴)-(تردين) من مادّة(إرداء) و تعنى السقوط من مكان عال، و هلاك الساقط.

[۳۰۶] (۱)- الأعراف، ۴۴.

[۳۰۷] (۲)- سورة الكهف، الآيات ۳۲ إلى ۴۳.

[۳۰۸] (۱)- تفسير فخر الرازى، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۳۹.

[۳۰۹] (۲)- روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۸۳.

[۳۱۰] (۱)- مجمع البحرين، مادّة(زقم).

[۳۱۱] (۲)- تفسير روح المعانى، المجلّد ۷، الصفحة ۴۶۴.

[۳۱۲] (۳)- روح المعانى، المجلّد ۲۳، الصفحة ۸۵.

[۳۱۳] (۱)- ضمير(منها) يعود للشجرة، و هذا بذاته قرينة على أنّ المقصود من الشجرة هنا النبات و ليس الشجرة، لأنّ النبات يؤكّل لا الشجرة.

[۳۱۴] (۱)- هذه الجملة استثناء من محذوف یفهم من المذکور، تقدیره هکذا: فانظر کیف کان عاقبة المنذرین فإنّا أهلکناهم جمیعا إلّا عباد اللّه المخلصین.

[۳۱۵] (۱)-(مجیبون) جاءت بصیغة الجمع فی حین أنّ المقصود منها اللّه سبحانه و تعالی و الذی استجاب لدعاء نوح، هذا بسبب أنّ صیغة الجمع تأتی أحیانا للتعظیم، کما أنّ ضمیر جمع المتکلّم فی(نادانا) لذلک الغرض أیضا.

[۳۱۶] (۱)- سورة نوح، الآیات ۲۶ و ۲۷.

[۳۱۷] (۲)- سورة المؤمنون، الآیة ۲۹.

[۳۱۸] (۳)-(کرب) طبق قول الراغب فی مفرداته هی: الغم الشدید، و وصفه هنا بالعظیم للتأکید أکثر علی هذا المعنی.

[۳۱۹] (۴)- سورة هود، الآیة ۲۷.

[۳۲۰] (۵)- سورة هود، الآیة ۳۲.

[۳۲۱] (۱)- سورة هود، الآیة ۳۸.

[۳۲۲] (۲)- سورة مؤمنون، الآیة ۲۶.

[۳۲۳] (۱) هذا الحدیث ورد المجلّد الرابع من التفسیر نور الثقلین فی الصفحة ۴۰۵، کما ورد فی نهایة آیات البحث فی تفسیر الصافی.

[۳۲۴] (۱)- بعض المفسّرین أرجعوا ضمیر(شیعته) إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فی حین أنّ آیات القرآن الکریم تقول:

رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم اتّبع ملّة إبراهیم، علاوة علی ذلک فإنّ هذا المرجع لیس له فی الآیات السابقة و اللاحقة ضمیر یدلّ علیه، و من الممکن أنّهم تصوّروا أنّ تعبیر الشیعة هو دلیل علی أفضلیة نوح من إبراهیم، فی حین أنّ القرآن الکریم تحدّث عن شخصیة سامیة لإبراهیم، لکن هذا التعبیر خال من أیّة دلالة علی هذه المسألة، بل المقصود استمرار الخطّ الفکری و الدینی، کما أنّ أفضلیة رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بالنسبة لکافّة الأنبیاء لا تتنافی مع أتباعه لدین إبراهیم التوحیدی یقول القرآن، فی الآیة ۹۰ من سورة الأنعام i فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ E.

[۳۲۵] (۱)- سورة البقرة، الآیة ۱۰.

[۳۲۶] (۲)- ورد فی الکافی و نقله صاحب تفسیر الصافی فی ذیل الآیة(۸۹) من سورة الشعراء.

[۳۲۷] (۳)- المصدر السابق.

[۳۲۸] (۴)- فی مجال القلب السلیم ورد بحث مشروح فی ذیل الآیات(۸۸) و(۸۹) من سورة الشعراء(تحت عنوان القلب السلیم وحده رأسمال النجاة) ص ۲۷۳.

[۳۲۹] (۱)- فی ترکیب هذه الجملة ذکر المفسرون احتمالین: الأول: أن(إفکا) مفعول ب ل(تریدون) و(آلهة) بدله، و الآخر: أن(آلهة) مفعول به و(إفکا) مفعول لأجله تقدم للأهمیة.

[۳۳۰] (۱)-(راغ) من مادّة(روغ) و تعنی التوجّه و التمایل بشکل سرّی و مخفی أو بشکل مؤامرة و تخریب.

[۳۳۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلّد ۸، الصفحة ۵۸۰،(الباب ۱۴۱ فی أبواب العشرة الحدیث ۸).

[۳۳۲] (۱)- سورة المائدة، الآیة ۱۳.

[۳۳۳] (۱)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۲۵، باب حبّ اللّه الحدیث ۲۷.

[۳۳۴] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۵۹، باب القلب و صلاحه الحدیث ۳۹.

[۳۳۵] (۳)- بحار الأنوار، المجلّد ۶۷، الصفحة ۵۶، باب القلب و صلاحه الحدیث ۲۶.

[۳۳۶] (۱)- الأعراف، ۱۱۷.

[۳۳۷] (۱)- الشعراء، ۸۳.

[۳۳۸] (۲)- الأنبياء، ۸۵ و ۸۶.

[۳۳۹] (۱)-(تلّه) من مادّة(تلّ) و تعنی فی الأصل المكان المرتفع، و(تلّه للجبين) تعنی أنّه وضع أحد جوانب وجه ابنه علی مكان مرتفع من الأرض.

(جبين) تعنی أحد جانبی الجبهة أو الوجه، و طرفی الوجه أو الجبهة يقال لهما(جبينان).

[۳۴۰] (۱)- تفسير القرطبی، و تفسير روح البيان.

[۳۴۱] (۱)- الصافات، ۱۱۲.

[۳۴۲] (۱)- تفسير مجمع البيان فی ذيل الآيات المتعلّقة بالبحث.

[۳۴۳] (۲)- نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۱.

[۳۴۴] (۳)- نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۲.

[۳۴۵] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازی، المجلّد ۹، الصفحة ۳۲۶، فی ذيل الآيات المتعلّقة بالبحث.

[۳۴۶] (۲)- تفسير(أبو الفتوح الرازی) المجلّد(۹) الصفحة(۳۲۶) فی ذيل الآيات الخاصّة بالبحث.

[۳۴۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۲۰، الحديث ۶۸.

[۳۴۸] (۱)- ممّا يوسف له أنّ مراسم ذبح الأضاحی فی عصرنا الحالی لا تتمّ بالشكل المطلوب، و لذا علی علماء الإسلام أن يبذلوا الجهد لإنقاذ هذه المراسم العظيمة، و بهذا الشأن و بخصوص فلسفة الحجّ أوردنا بحوثا مفصّلة فی ذيل الآية(۳۸) من سورة الحجّ.

[۳۴۹] (۱)- روح البيان، المجلّد ۷، الصفحة ۴۷۹.

[۳۵۰] (۱)- بعلبك اليوم جزء من لبنان و تقع قرب الحدود السورية.

[۳۵۱] (۲)-« روح المعانی» ذيل الآيات الخاصّة بالبحث.

[۳۵۲] (۱)- وفقا لما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا الاستثناء هو استثناء متّصل من(الواو) فی« كذّبوه»، و تعنی أنّ كلّ قومه كذّبوه و ابتلوا بالعذاب الإلهی، عدا عباد اللّه المخلصين.

[۳۵۳] (۱)- فی البداية كانت(إلياس) ثمّ نسبت إليها ياء فأصبحت(الياسیّ)، ثمّ جمعت فأصبحت،(الياسيين) و عند تخفيفها أضحت(الياسين).

[۳۵۴] (۱)- تفسير(مجمع البيان) و تفسير(الميزان) و(روح البيان) و(فخر الرازی) و(فی ظلال) و(أعلام القرآن).

[۳۵۵] (۲)- البيان فی غريب إعراب القرآن، المجلّد ۲، صفحة ۳۰۸.

[۳۵۶] (۱)- المصدر السابق.

[۳۵۷] (۱)- معانی الأخبار: ص ۱۲۲.

[۳۵۸] (۱)-(غابر) من مادّة(غبور) علی وزن(عبور) و تعنی بقايا الشیء، فعند ما تتحرّك مجموعة من مكان ما و يبقی أحد أفرادها هناك يقال له(غابر) و لهذا السبب يقال لما يتبقّی من التراب(غبار)، و لما تبقّی من الحليب فی الثدی(غبرة) علی وزن(لقمة).

[۳۵۹] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۹۷.

[۳۶۰] (۱)- روضة الكافی، نقلا عن نور الثقلين، المجلّد ۴، صفحة ۴۳۲.

[۳۶۱] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، صفحة ۳۵.

[۳۶۲] (۱)- تفسير الفخر الرازی، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۶۵، كما ورد نفس المعنی مع اختلاف بسيط فی تفسير البرهان، المجلّد ۴،

الصفحة ۳۷.

[۳۶۳] (۱)- الملفت للنظر أنّ المفسّر الكبير العلّامة(الطبرسى) الذى غالبا ما يجمع الآراء المختلفة فى ذيل الآيات، اقتنع هنا بإيراد احتمال واحد فقط، و الذى يقول(لصار بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة).

[۳۶۴] (۱)- روح المعانى، المجلّد ۷، الصفحة ۴۸۹.

[۳۶۵] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۳۶، الحديث ۱۱۶.

[۳۶۶] (۲)- نقل صاحب تفسير البرهان، و فى المجلّد ۴، الصفحة ۳۵ هذا الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام.

[۳۶۷] (۱)- لهذا فإنّ(أو) هنا تأتى بمعنى،(بل).

[۳۶۸] (۱)- نينوى، اسم عدّة مناطق، الاولى: مدينة قرب الموصل، و الاخرى فى ضواحى الكوفة فى جهة كربلاء، و مدينة فى آسيا الصغرى، عاصمة مملكة آشور و تقع عاى ضفاف نهر دجلة(دائرة المعارف ده خدا) و البعض الآخر قال: إنّ نينوى هى أكبر مدن مملكة آشور الواقعة فى الضفّة الشرقية لنهر دجلة و قد بنيت مقابل الموصل(معجم قصص القرآن).

[۳۶۹] (۱)-(التوراة) كتاب(النّبى يوناه) الفصل الأوّل و الثانى و الثالث و الرابع.

[۳۷۰] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، وفقا لما ورد فى نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۳۶.

[۳۷۱] (۲)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸، الصفحة ۵۶۷.

[۳۷۲] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۴، الصفحة ۳۷ الحديث ۶.

[۳۷۳] (۲)-(الوسائل) كتاب القضاء، المجلّد ۱۸، باب الحكم بالقرعة فى القضايا المشكلة فى أبواب كيفية الحكم و أحكام الدعوى(الباب ۱۳) الحديث(۵).

[۳۷۴] (۱)- الضمير(هم) يعود فى الحالة الاولى على المشركين، و فى الحالة الثانية على(الجنّ).

[۳۷۵] (۱)- وفقا لهذا التّفسير، فإنّ عبارة(إلّا عباد اللّه) استثناء منقطع من ضمير(يصفون)، و البعض قال: إنّه استثناء منقطع من ضمير(محضرون) كما ذكروا آراء مختلفة اخرى، و لكن الرأى الأوّل أنسب. و على كلّ حال فهو استثناء منقطع.

[۳۷۶] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۴۹.

[۳۷۷] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

[۳۷۸] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱.

[۳۷۹] (۳)- الدعاء الأوّل فى الصحيفة السجّادية.

[۳۸۰] (۱)- التركيب النحوى لهذه الآية و التى تسبقها و الاخرى التى تأتى بعدها، و كما هو مشهور كذلك،(ما) فى جملة(ما تعبدون) هى(ما) الموصولة معطوفة على اسم أنّ، و جملة\i ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ E خبرها. و(ما) فى(ما أنتم) نافية، و ضمير(عليه) يعود على اللّه سبحانه و تعالى، و فى مجموعها نحصل على ما يلى(إنّكم و آلهتكم التى تعبدونها لا تقدرون على إضلال أحد على اللّه بسببها إلّا من يحترق بنار الجحيم بسوء إختياره).

و البعض الآخر اعتبر الآية\i فَإِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ E كلاما تامّا مستقلا و تعنى أنّكم و آلهتكم، ثمّ تقول فى الآية التالية: ما أنتم بحاملين على عبادة ما تعبدونه إلّا من هو صالّ الجحيم.

[۳۸۱] (۱)- نقرأ فى بعض الرّوايات التى نقلت عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأئمّة المعصومين هم المقصودون فى هذه الآية، و من الممكن أن يكون هذا التّفسير من قبيل تشبيه مقام الأئمّة بالملائكة، أى كما أنّ للملائكة مقاما و تكليفا معيّنا، فإنّ لنا مقاما و تكليفا معيّنا أيضا.

[۳۸۲] (۱)- تفسير القرطبى، المجلّد ۸، الصفحة ۵۸۱.

[۳۸۳] (۲)- المصدر السابق.

[۳۸۴] (۳)-(الدرّ المنثور) نقلا عن تفسیر المیزان المجلّد(۱۷) الصفحة ۱۸۸.

[۳۸۵] (۱)-(إنّ) مخفّفة من الثقیلة و تقدیرها(و إنّهم کانوا لیقولون).

[۳۸۶] (۲)- فی الکلام حذف تقدیره(فلمّا آتاهم الکتاب و هو القرآن کفروا به فسوف یعلمون عاقبة کفرهم).

[۳۸۷] (۱)- راجع ذیل الآیة(۱۸۶) من سورة البقرة.

[۳۸۸] (۱)- فی الکلام حذف تقدیره(فساء الصباح صباح المنذرین).

[۳۸۹] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، المجلّد ۲۶، الصفحة ۱۷۳.

[۳۹۰] (۲)- مجمع البیان، ذیل آیات البحث، و اصول الکافی، و من لا یحضره الفقیه نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۲] (۱)- مجمع البیان بدء سورة(ص)، المجلّد ۸، الصفحة ۴۶۳.

[۳۹۳] (۲)- نفس المصدر.

[۳۹۴] (۱)- اصول الکافی نقلا عن نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۰.

[۳۹۵] (۱)- جملة\i وَ الْقُرْآنِ ذِی الذِّکْرِ\E جملة قسم جوابها محذوف، و تقدیرها(و القرآن ذی الذکر إنّک صادق و إنّ هذا الکلام معجز).

[۳۹۶] (۲)- الحشر، ۱۹.

[۳۹۷] (۱)- البعض قال: إنّ(التاء) زائدة و اعتبرها للمبالغة کما فی کلمة(علامة) کما اعتبر البعض أنّ(لا) هنا(نافیة للجنس) و البعض شبّهها ب(لیس) و علی أیّة حال إضافة(التاء) إلی(لا) یوجد أحکاما خاصّة، منها من المؤکّد أنّها تستخدم للزمان، و الاخری أنّ اسمها أو خبرها محذوف دائما، و تذکر فی الکلام بإحدی الحالتین المذکورتین آنفا، و طبقا لهذا فإنّ عبارة(و لات حین مناص) تقدیرها(و لات الحین حین مناص).

[۳۹۸] (۲)- مفردات الراغب، تفسیر فخر الرازی، تفسیر روح المعانی، کتاب مجمع البحرین مادّة(نوص).

[۳۹۹] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۲ الحدیث ۷.

[۴۰۰] (۲)- مجمع البیان، المجلّد ۸، الصفحة ۴۶۵.

[۴۰۱] (۱)-« الجعل» بمعنی التصییر، و هو- کما قیل- تصییر بحسب القول و الإعتقاد و الدعوی لا بحسب الواقع.

[۴۰۲] (۱)- المؤمنون، ۲۴.

[۴۰۳] (۱)- النساء، ۵۱.

[۴۰۴] (۱)-(ما) تعدّ زائدة فی هذه العبارة، إنّما جاءت للتحقیر و التقلیل، و(جند) خبر لمبتدأ محذوف، و(مهزوم) خبر ثان و العبارة فی الأصل هی(هم جند ما مهزوم من الأحزاب) و البعض یعتقد بعدم وجود محذوف فی الجملة و(جند) مبتدأ و(مهزوم) خبر، و لکن الرأی الأوّل أنسب.

[۴۰۵] (۱) سورة الأنفال، ۲۶.

[۴۰۶] (۱)- عبارة(أولئک الأحزاب) مبتدأ و خبر، و(أولئک) إشارة إلی الأقوام الستّة المذکورة فی هاتین الآیتین، و(أحزاب) إشارة إلی الأحزاب التی وردت فی الآیتین السابقتین اللتین اعتبرتا مشرکی مکّة مجموعة صغیرة من تلک المجموعات.

[۴۰۷] (۱)- عبارة(فحقّ عقاب) فی الأصل(فحقّ عقابی)، و قد حذفت الیاء منها، طبقا للمعمول به، و أبقیت الکسرة لتدلّ علیها.(

حقّ) فعل و(عقاب) فاعل، يعنى أنّ عقابى وجب عليهم و سيتحقّق.

[۴۰۸] (۱)- أمّا الرأى الذى احتمله بعض المفسّرين فى أنّ المقصود هنا هو الصيحة الثانية، و التى تطلق لإحياء الموتى و سوقهم إلى محكمة العدل الإلهيّة، فإنّه أمر مستبعد جدّا، لأنّه لا ينسجم مع الآية التالية و الآيات السابقة.

[۴۰۹] (۱)- بعض اللغويين قالوا بوجود عدّة فروق بين كلمة(فواق) المفتوحة و(فواق) المضمومة، و البعض قال: إنّهما بمعنى واحد، و من يريد توضيحا أكثر عليه مراجعة مفردات الراغب، و تفسير روح المعانى، و الفخر الرازى، و تفسير أبى الفتوح، و القرطبى، و مصادر اللغة.

[۴۱۰] (۱)-(أيد) جمع(يد)، و قد استعملت هنا لكونها مظهر القوّة و النعمة و الملك، و قد حملت كلّ هذه المعانى هنا.

[۴۱۱] (۱)-(معه) من الممكن أن تكون متعلّقة بقوله(يسبّحن) و وفقا لهذا فإنّ اقتداء الجبال بداود فى التسبيح يوضّح نفس ما جاء فى الآية(۱۰) من سورة سبأi\ يا جِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ E و يمكن أن تكون(معه) متعلّقة ب(سخّرنا) و فى هذه الحالة فإنّ مفهوم العبارة يكون(إنّا سخّرنا له الجبال) و استخدام كلمة(معه) بدلا من(له) إنّما تمّ لتوضيح اشتراكهما فى التسبيح.

[۴۱۲] (۱)- الأنفال، ۶۲.

[۴۱۳] (۱) التفسير الكبير للفخر الرازى، ذيل آيات البحث المجلد ۲۶، الصفحة ۱۸۳.

[۴۱۴] (۱)-« خلطاء» جمع(خليط) و تعنى الأشخاص أو الأشياء المخلوطة بعضها مع بعض، كما تطلق على الصديق و الشريك و الجار، و رغم أنّ الظلم و الاعتداء لم يختصّ بالخلطاء، إلّا أنّ ذكر هذه المجموعة بسبب وجود الاتّصالات المتكرّرة فيما بينهم، و احتمال حدوث سوء تفاهم فيما بينهم، أو بسبب عدم توقّع حدوث أى ظلم و طغيان من قبل أولئك.

[۴۱۵] (۲)- تركيب الجملة هكذا(هم) مبتدأ و(قليل) خبر إنّ و(ما) زائدة وردت هنا للمبالغة فى القليل.

[۴۱۶] (۱)-(بتشبع) اسم تلك المرأة التى زعم كتاب التوراة أنّ داود رآها عارية عند ما كان يتمشّى على سطح بيته و عشقها، و هى بنت(اليعام) أحد المسؤولين حينذاك و الذى كان عبريا.

[۴۱۷] (۲)-(أوريا) بتشديد الياء، اسم أحد كبار قادة جيش داود و(حتى) بتشديد(الياء) و كسر(الحاء) تنسب إلى(حت) ابن كنعان، و عشيرة كانت تسمّى(بنى حت).

[۴۱۸] (۳)-(يوآب) هو القائد العام لقوّات داود.

[۴۱۹] (۱)- نقلا عن الإصحاح الحادى عشر من كتاب(صموئيل الثانى) الجمل(۲) إلى(۲۷).

[۴۲۰] (۱)- مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۴۲۱] (۲)- تفسير الفخر الرازى ذيل آيات البحث.

[۴۲۲] (۳)- الأمالى للشيخ الصدوق طبق ما نقله نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۶.

[۴۲۳] (۱)- عيون الأخبار طبق ما نقله نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۴۵.

[۴۲۴] (۱)- تفسير(الفخر الرازى) و(روح المعانى) ذكرا هذا الأمر كتوجيه و إرشاد، فيما وافق(المراغى) فى تفسيره على هذا الأمر.

[۴۲۵] (۱)- تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۱۹۳- ۱۹۴.

[۴۲۶] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة(۴۲).

[۴۲۷] (۲)- كتاب« الخصال» نقلا عن نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۵۳.

[۴۲۸] (۱)- بعض المفسّرين قالوا: إنّ(أمّ) هنا تعطى معنى(بل) للاضراب، و هنا احتمال آخر يقول: إنّ(أم) جاءت للعطف على استفهام محذوف، و تقدير الآية هو(أ خلقنا السموات و الأرض باطلا أم نجعل المتّقين كالفجّار؟).

[۴۲۹] (۱)- تفسير نور الثقلين، المجلّد الرابع، الصفحة ۴۵۳(الحديث ۳۷).

[۴۳۰] (۱)- تفسیر روح المعانی، المجلّد ۲۳، الصفحة ۱۷۱.

[۴۳۱] (۱)- و یری البعض: إنّ(صافنات)، تستعمل للمذکّر و المؤنث، و لهذا فإنّها لا تختّص بإناث الخیل.

[۴۳۲] (۱)- مجمع البیان فی ذیل الآیات مورد بحثنا، قال البعض: إنّ(خیر) الواردة فی الآیـة الآنفـة الذکر تعنی المال أو المال الکثیر، و هذا التّفسیر من الممکن أن یتطابق مع التّفسیر السابق، لأنّ مصداق المال هنا هو الخیل.

[۴۳۳] (۱)- تنزیه الأنبیاء، الصفحة ۹۳.

[۴۳۴] (۲)- بحار الأنوار، المجلّد ۱۴، الصفحة ۱۰۴.

[۴۳۵] (۳)- طبقا لهذا التّفسیر فإنّ الضمیر فی عبارتی(توارت) و(ردّوها) یعود علی الخیل الماهرة و الحاذقة(الصافنات الجیاد).

[۴۳۶] (۱)- و للإیضـاح أکثر فی أنّ کتب الیهود هی مصـدر مثـل هـذه الخرافات، یراجع کتاب(أعلام القرآن) موضوع سـلیمان فی القصص الصفحة ۳۹۲.

[۴۳۷] (۱)- کتاب علل الشرائع، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلّد ۴، الصفحة ۴۵۹.

[۴۳۸] (۱)-(الشیاطین) معطوفة علی(الریح) و التی هی مفعول(سخّرنا)، و(کلّ بنّاء و غوّاص) بدل من الشیاطین.

[۴۳۹] (۱)-« آخرین» معطوفة علی(کلّ بنّاء) و هی بمثابة مفعول(سخّرنا)، و(مقرنین) صفة ل(آخرین).

[۴۴۰] (۱)- روح البیان، المجلّد ۸، الصفحة ۳۹.

[۴۴۱] (۱)- هذه الروایة وردت فی تفسـیر نور الثقلین نقلا عن تفسـیر علی بن إبراهیم، و نفس المضمون ورد فی(تفسیر القرطبی) و(الفخر الرازی) و(الصافی) و غیرها مع اختلاف بسیط.

[۴۴۲] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد الأول، الباب الثالث عشر من أبواب آداب الحمام الحدیث ۱۳.

[۴۴۳] (۱)- نظیر هذا المعنی ورد فی باب الحدود الإسلامیة و تنفیذها بحقّ المرضی المذنبین(کتاب الحدود أبواب حدّ الزنا).

[۴۴۴] (۱)- نهج البلاغة، قصار الکلمات، الکلمة ۳۵۱.

[۴۴۵] (۲)- سفینة البحار مادّة(بلاء) المجلّد الأوّل، الصفحة ۱۰۵.

[۴۴۶] (۳)- المصدر السابق.

[۴۴۷] (۱)-(ذکری الـدار) من الممکن أن تکون خبرا لمبتـدأ محـذوف، و تقـدیر العبارة(هی ذکر الـدار)، و من الممکن أن تکون بدلا من(خالصة).

[۴۴۸] (۱)-(مصطفین)(بفتح الفاء) جمع مصطفی، و فی الأصل کانت(مصطفیین) حذفت یاؤها الاولی فأصبحت(مصطفین).

[۴۴۹] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، المجلّد ۲۶، الصفحة ۲۱۷.

[۴۵۰] (۱)- الأنعام- ۸۶.

[۴۵۱] (۱)- أعلام القرآن و تفسـیر القرطبی و تفسـیر روح البیان و تفسـیر المیزان، کلّ منها أشارت إلی جزء من الموضوع المـذکور أعلاه.

[۴۵۲] (۱)- قال بعض المفسرین فی تفسیر هذه العبارة: إن المراد من الذکر الجمیل هم الأنبیاء السابقون.

[۴۵۳] (۱)- مجموعـة من المفسّـرین اعتبرت(هـذا ذکر) إشارة إلی أنّ کلّ ما قیل بشأن الأنبیاء من ذکر خیر و ثناء جمیل کان إشارة إلی أولئـک، فیمـا تسـتعرض الآیـات التالیـة مرتبتهم فی الآـخرة، و لکن هـذا المعنی مسـتبعد، و ظـاهر الآیات لا یتناسب مع ما ذکرناه أعلاه.

[۴۵۴] (۲)-« مآب» تعنی المرجع، و إضافة(حسن) إلی(مآب) من قبیل إضافة الصفة إلی الموصوف.

[۴۵۵] (۳)-« جنّات عدن» بدل أو عطف بیان(مآب).

[۴۵۶] (۴)- الضمير(فيها) يعود فى كلا الحالتين على(جنّات عدن) و وصف الفاكهة بأنّها كثيرة دليل على وصف(الشراب) بهذا الوصف.(متكئين) حال للضمير(لهم).

[۴۵۷] (۱)-(أتراب) جمع(ترب) على وزن(شعر).

[۴۵۸] (۱)-(نفاد) تعنى(فناء) و إبادة، و(اللام) فى(لرزقنا) جاءت للتأكيد.

[۴۵۹] (۱)- كلمة(هذا) مبتدأ و خبرها محذوف، و تقديرها هو(هذا الذى ذكرناه للمتّقين).

[۴۶۰] (۱)-(جهنّم) عطف بيان أو بدل من(شرّ مآب)، و(يصلونها) حال لها.

[۴۶۱] (۲)- هذه الجملة فى الأصل كانت هكذا(هذا حميم و غسّاق فليذوقوه)، و للتأكيد وضعت عبارة(فليذوقوه) بين المبتدأ و الخبر. بعض المفسّرين احتملوا أنّ(هذا) خبر لمبتدأ محذوف كما أنّ(حميم و غسّاق) كذلك، و لكن يبدو أنّ الاحتمال الأوّل أدقّ و ألطف.

[۴۶۲] (۱)-(آخر) هى صفة لموصوف محذوف يكون مبتدأ و(أزواج) مبتدأ ثان، و(من شكله) خبرها، و تقديرها(و عذاب آخر أزواج من شكله).

[۴۶۳] (۱)- هنا يوجد محذوف تقديره:(يقول رؤساء الضلال بعضهم لبعض هذا فوج مقتحم معكم).

[۴۶۴] (۱)-(تخاصم أهل النار) بيان ل(ذلك).

[۴۶۵] (۱)- روضة الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۶۷.

[۴۶۶] (۱)- البقرة، ۳۰.

[۴۶۷] (۱)-« مجمع البيان» فى ذيل آيات البحث، كما ورد هذا الحديث فى تفسير الدرّ المنثور نقلا عن مجموعة كبيرة من صحابة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع بعض الاختلافات.

[۴۶۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲(الخطبة القاصعة).

[۴۶۹] (۱)- تفسير البرهان، المجلّد ۲، الصفحة ۳۴۲.

[۴۷۰] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ المعروفة بالقاصعة.

[۴۷۱] (۱)- تركيب هذه الجملة له عدّة احتمالات، فمن الممكن أن تكون(الحقّ) مبتدأ و(قسمى) خبر محذوف للمبتدأ، و من الممكن أن يكون(قولى) خبره(فالحقّ قولى) و يوجد احتمال آخر هو أنّ(الحقّ) خبر مبتدأ محذوف و التقدير(هذا هو الحقّ) أو(أنا الحقّ).

[۴۷۲] (۱)- جوامع الجامع نقلا عن تفسير الميزان، المجلّد ۱۷، الصفحة ۲۴۳.

[۴۷۳] (۲)- نور الثّقلين، المجلّد ۴، الصفحة ۴۷۳.

[۴۷۴] (۳)- المصدر السابق.

الجزء الخامس عشر

سورة الزّمر

محتوى سورة الزّمر:

هذه السورة نزلت فى مكّة المكرمة، و لهذا السبب فإنّها تتطرق للقضايا المتعلقة بالتوحيد و المعاد، و أهميّة القرآن، و مقام نبوّة نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما هو الحال فى بقية السور المكّية.

فالمرحلة التى قضاها المسلمون فى مكّة كانت مرحلة للبناء الإيمانى و العقائدى، و لذلك فإن السور المكية حوت أقوى البحوث و أكثرها تأثيرا فى هذا المجال. و كانت الأساس القوى المحكم الذى ظهرت آثاره العجيبة فى المدينة، و فى الغزوات و عند مواجهة العدو، و أمام عراقيل المنافقين، و فى قبول النظام الإسلامى، و إذا أردنا معرفة سر الانتصار السريع للمسلمين فى المدينة فإنّ علينا أن نطالع دروس مكّة المؤثرة.

و على أية حال فإنّ هذه السورة تضم عدّة أقسام مهمّة:

۱- تتطرق السورة إلى مسألة الدعوة إلى توحيد اللّه، توحيده فى الخلق، توحيده فى الربوبية، توحيده فى العبودية، كما تسلط الضوء على مسألة الإخلاص فى العبادة للّه، و آيات هذه السورة فى هذا المجال مؤثرة جدّا بحيث تجذب قلب الإنسان و تدفعه نحو الإخلاص.

۲- الأمر المهم الآخر الذى تكرر فى عدّة آيات فى هذه السورة من بدايتها و حتى نهايتها، هو مسألة (المعاد) و المحكمة الإلهية الكبرى، و مسألة الثواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶

و العقاب، و غرف الجنّة، و كور النّار فى جهنّم، و مسألة الخوف و الرهبة من يوم القيامة، و ظهور نتائج الأعمال فى ذلك اليوم، و تجسّدها فى ذلك المشهد الكبير، إضافة إلى أنّها تستعرض قضية اسوداد أوجه الكاذبين و الذين افتروا على اللّه الكذب، و سوق الكافرين صوب جهنم، و تعرض الكافرين لتوبيخ و ملامة ملائكة العذاب و دعوة أهل الجنّة إلى دخول الجنّة و تقديم ملائكة الرحمة التهانى و التبريكات لهم، و هذه الأمور التى تدور حول محور المعاد ممزوجة مع قضايا التوحيد بشكل كبير و كأنّها تشكل معها نسيجا واحدا.

۳- قسم آخر من السورة يتناول أهمية القرآن المجيد، و رغم قلّة عدد آيات هذا القسم، فهو يجسّد بصورة لطيفة القرآن و تأثيره القوى على القلوب و الأرواح.

۴- قسم آخر أيضا يبيّن مصير الأقوام السابقين و العذاب الإلهى الأليم الذى نزل بهم من جراء تكذيبهم لآيات اللّه الحقّ.

۵- و أخيرا قسم آخر من هذه السورة يتحدث عن مسألة التوبة، و كون أبواب التوبة مفتوحة لمن يرغب فى العودة إلى اللّه، و قد تضمّن هذا القسم أقوى آيات القرآن تأثيرا فى مجال التوبة، و يمكن القول بأن آيات هذا القسم تزف البشرى و تحمل أخبارا سارّة قد لا يوجد مثيل لها فى بقية آيات القرآن.

هذه السورة معروفة باسم سورة (الزّمر) و هذا الاسم مأخوذ من الآيتين (۷۱) و (۷۳) من هذه السورة، و تعرف أيضا باسم سورة (الغرف) و هذا الاسم مأخوذ من الآية (۲۰) إلّا أن هذه التسمية غير مشهورة.

فضيلة سورة الزمر:

لقد أولت الأحاديث الإسلامية أهمية كبيرة لتلاوة هذه السورة، و قد ورد حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «من قرأ سورة الزّمر لم يقطع اللّه رجاه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷

و أعطاه ثواب الخائفين الذين خافوا اللّه تعالى»[۱].

و ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام «من قرأ سورة الزمر أعطاه اللّه شرف الدنيا و الآخرة، و أعزه بلا مال و لا عشيرة، حتى يهابه من يراه و حرم جسده على النّار»[۲].

مقارنة فضائل تلاوة سورة الزمر مع محتوياتها فى مجال الخوف من اللّه، و رجاء رحمته، و الإخلاص فى العبودية، و التسليم المطلق

لذات اللّه، يوضح أنّ هذه المكافآت إنّما تعطى لمن كانت تلاوته مقدمة للتفكر و التفكر وسيلة للإيمان و العمل.

و بعبارة اخرى:

أن يتوغل محتوى السورة فى اعماق روحه. و يتجلّى فى كافة مظاهر الحياة الاجتماعية و الفردية. أجل فمثل هؤلاء الافراد لائقون لهذا الثواب العظيم و الرحمة الواسعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۲) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ (۳)

التّفسير

عليك الإخلاص فى الدين!

هذه السورة تبدأ بآيتين تتحدثان عن نزول القرآن المجيد: الأولى تقول: إن اللّه هو الذى أنزل القرآن، و الثانية: تبيّن محتوى و أهداف القرآن.

فى البداية تقول: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۳].

من الطبيعى أنّ كلّ كتاب تتمّ معرفته من خلال مؤلفه أو منزله، و عند ما ندرك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹

أنّ هذا الكتاب السماوى الكبير مستلهم من علم اللّه القادر و الحكيم، الذى لا يقف أمام قدرته المطلقة شىء، و لا يخفى على علمه المطلق أمر، لأيقنّا بلا عناء أن محتوياته حقّ و كلّها حكمة و نور و هداية.

مثل هذه العبارات عند ما ترد فى بدايات سور القرآن، ترشد المؤمنين إلى هذه الحقيقة، و هى أن كلّ ما هو موجود فى القرآن المجيد هو كلام اللّه و ليس بكلام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و رغم كون كلامه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بليغا و حكيما أيضا.

ثم تنتقل السورة إلى عرض محتويات هذا الكتاب السماوى و أهدافه إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِ

لا يوجد فيه غير الحقّ، و لهذا السبب يتبعه طلاب الحقّ، و الباحثون عن الحقيقة مشغولون بالبحث فى محتوياته، من هنا، و لكون هدف نزول القرآن يتحدد فى إعطاء الدين الخالص للبشرية، فإنّ آخر الآية يقول: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ

قد يكون المراد هنا من كلمة (دين) هو عبادة اللّه، لأنّ الجملة التى وردت قبلها فَاعْبُدِ اللَّهَ فيها أمر بالعبادة، و لذا فإنّ العبارة التى تليها مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ تبيّن شروط صحة العبادة و التى تتمثل فى الإخلاص و فى الشرك و الرياء.

على كلّ حال فإنّ اتساع مفهوم (الدين) و عدم ذكر قيد أو شرط له، يعطى معنى واسعا، بحيث يشمل العبادات و بقية الأعمال إضافة

إلى العقائد، و بعبارة أخرى فإنّ (الدين) يتناول مجموعة شؤون الحياة المادية و المعنوية للإنسان، و يجب على عباد اللّه المخلصين أن يخلصوا كلّ حياتهم للّه و أن يطهروا قلوبهم و أرواحهم و ساحة عملهم و دائرة حديثهم عن كل ما هو لغير اللّه، و أن يفكروا به و يعشقوه، و أن يتحدثوا عنه و يعملوا من أجله، و أن يسيروا دائما فى سبيل رضاه، و هذا هو (إخلاص الدين).

و لذا لا يوجد أىّ داع أو دليل واضح لتحديد مفهوم الآية فى شهادة (لا إله إلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰

اللّه) أو بخصوص (العبادة و الطاعة).

الآية التّالية تؤكد مرّة اخرى على مسألة الإخلاص، و تقول: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ و هذه العبارة ذات المعنيين:

الأوّل: هو أنّ البارئ عزّ و جلّ لا يقبل سوى الدين الخالص، و الاستسلام الكامل له من دون أىّ قيد أو شرط، و لا يقبل أى عمل فيه رياء أو شرك، أو خلط للقوانين الإلهية بغيرها من القوانين الوضعية.

و الثّانى: هو أنّ الذين و الشريعة الخالصة يجب أخذها من اللّه فقط، لأن أفكار الإنسان ناقصة و ممزوجة بالأخطاء و الأوهام.

و لكن وفق ما جاء فى ذيل الآية السابقة فإنّ المعنى الأوّل أنسب، لأن الذين يؤدون المطلوب منهم بإخلاص هم العباد، و لهذا فإنّ هذا الخلوص فى الآية مورد بحثنا يجب أن يراعى من جانب أولئك.

و هناك دليل آخر على هذا الكلام، و هو حديث

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، جاء فيه أن رجلا قال لرسول اللّه: يا رسول اللّه! إنّا نعطى أموالنا التماس الذكر، فهل لنا من أجر فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لا، قال: يا رسول اللّه! إنّا نعطى التماس الأجر و الذكر، فهل لنا أجر؟ فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن اللّه تعالى لا يقبل إلّا من أخلص له، ثمّ تلا هذه الآية: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ ۴].

و على أية حال، فإنّ هذه الآية فى الواقع استدلال للآية التى جاءت قبلها، فهناك تقول: فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ و هنا تقول: أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخالِصُ

مسألة الإخلاص تناولتها الكثير من الآيات القرآنية و الأحاديث الإسلامية، و بدء الجملة مورد بحثنا ب (ألا) التى تستعمل عادة لجلب الانتباه، هو دليل آخر على أهمية هذا الموضوع.

ثم تنتقل الآية إلى إبطال المنطق الواهى الضعيف للمشركين الذين تركوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱

طريق الخلاص، و ضاعوا فى طرق الشرك و الانحراف: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي ما هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۵]، و هنا سيتّضح للجميع فساد أفكارهم و أعمالهم و بطلان عقائدهم ..

هذه الآية هى تهديد قاطع للمشركين فى أنّ البارئ عزّ و جلّ سيحاكمهم فى يوم القيامة، اليوم الذى تنكشف فيه الالتباسات و تظهر فيه الحقائق، ليجزوا و يعاقبوا على ما ارتكبوه من الأعمال المحرّمة، إضافة إلى فضيحتهم أمام الجميع فى ساحة المحشر.

منطق عبدة الأصنام واضح هنا، فأحد أسباب عبادة الأصنام هى أنّ مجموعة كانت تزعم أنّ اللّه سبحانه و تعالى أجلّ من أن يحيط به الإدراك الإنسانى من عقل أو وهم أو حس، فهو منزّه عن أن يكون موردا للعبادة مباشرة، فلذا قالوا: من الواجب أن نتقرّب إليه بالتقرب إلى مقربيه من خلقه، و هم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم، فنتخذهم أربابا من دون اللّه ثمّ آلهة نعبدهم و نتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند اللّه و يقربونا إليه زلفى، و هؤلاء هم الملائكة و الجن و قد يسو البشر.

و لما أحسّوا بأن ليس باستطاعتهم الوصول إلى أولئك المقدسين، بنوا تماثيل لهم، و أخذوا يعبدونها، و هذه التماثيل هى نفسها الأصنام، و لأنّهم كانوا يزعمون أن لا فرق بين التماثيل و أولئك المقدسين و أنّ لهما نوعا من التوحّد، لذا عمدوا إلى عبادة الأصنام و اتخاذه آلهة لهم.

و بهـذا الشـكل فـإنّ الأربـاب فى نظرهم، هم أولئـك الـذين خلقهم اللّه و قربهم إلى نفسه، و فوض إليهم تـدبير شؤون العالم حسـب زعمهم، و كانوا يعتبرون البارئ عزّ و جلّ هو (رب الأرباب) و هو خالق عالم الوجود، و من النادر أن يوجـد من الوثنيين من يقول بأن هذه الأصنام المصنوعة من الحجر و الخشب، أو حتى آلهتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲

الوهميـة- أى الملائكة و الجن و أمثالهم- هى التى خلقت هذا الكون و أوجدته ۶] و بالطبع فإنّ هناك أسبابا أخرى لعبادة الأصنام، و منها أنّ الاحترام الفائق الـذى يكنونه فى بعض الأحيان للأنبياء و الصالحين يتسـبب فى احترام حتى التمثال الـذى ينحت أو يصـنع لهم بعد وفاتهم، و مع مرور الزمن تأخذ هذه لتماثيل طابعا اسـتقلاليا، و يتبدل الاحترام إلى عبادة، و لهذا فإنّ الإسـلام نهى بشدّة عن صـنع التماثيل.

و قـد ورد فى كتب التأريـخ أنّ عرب الجاهلية كانوا يكنون احتراما فائقا للكعبة الشـريفة و لأرض مكّة المكرّمة، و لهذا كانوا يأخذون معهم قطعة حجر صـغيرة من تلك الأرض عند ما يذهبون إلى مكان آخر، و يضفون عليها الاحترام و التقديس، و من ثمّ يعمدون إلى عبادتها.

و ما ورد فى قصـة (عمرو بن لحى) التى جاء فيها، أنّ عمرا فى إحـدى رحلاته إلى بلاد الشام شاهد بعض مشاهد عبدة الأصـنام، و فى طريق عودته إلى الحجـاز، اصـطحب معه صـنما من بلاـد الشـام، و منـذ ذلك الحين بـدأت عبادة الأصـنام فى الحجاز هـذه القصّـة لا تتعارض مع ما ذكرناه لأنّه يبيّن بعض جذور عبادة الأصنام، و هدف أهل الشام من عبادة الأصنام كان مأخوذا من أحد تلك الأمور أو نظائرها.

عبـادة الأصـنام- بـأى شـكل كـانت- مـا هى إلّا أوهام و خيالات لا صـحة لها ترشـحت من أفكار ضـعيفة و عاجزة، حرفت الناس عن الطريق الرئيسى الأصيل لمعرفة اللّه.

و القرآن المجيد يؤكّد بصورة خاصّة على أنّ الإنسان يسـتطيع أن يتصل باللّه من دون أى واسـطة، و أن يتحدث معه و يناجيه و يطلب منه حاجته، و يطلب العفو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳

و التّوبة، فكلّ هذه الأمور من اللّه و تحت تسـلط قدرته. و سورة الحمد توضّح هذه الحقيقة، لأنّ قراءة العباد المسـتمر لهذه السورة فى صلواتهم اليومية، تجعل العبد على اتصال مباشر مع البارئ، عزّ و جلّ، إذ أنّه يقرؤها و يطلب من اللّه- دون أى واسطة- حاجاته منه.

سبل الاسـتغفار و التوبة، و كذلك طلب العون من البارئ، عزّ و جلّ و ما ورد فى الأدعية المأثورة، كلها تبيّن أنّ الإسلام لا يرى وجود واسطة فى هذا الأمر، و هذه هى حقيقة التوحيد. حتى أن مسألة الشفاعة و التوسل بأولياء اللّه مشروطة بإذن البارئ عزّ و جلّ و سماحه، و هذا تأكيد على مسألة التوحيد.

و يجب أن تكون العلاقة هكذا، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى أقرب إلينا من أىّ شىء، كما يقول بذلك القرآن: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ[۷]، وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ ۸].

و بهـذا الشـكل فالبارئ، عزّ و جلّ ليس ببعيد عنّا، و لسـنا بعيدين عنه كى تكون هناك حاجة للوساطة بين الطرفين، إنّه أقرب إلينا من كلّ قريب، و موجود فى مكان و فى أعماق قلوبنا.

و فقأ لهـذا فإنّ عبادة الوسـطاء من الملائكة و الجنّ و نظائرهم، أو الأصـنام الحجرية و الخشبية، عمل باطل لا صـحّة له، إضافة إلى أنّه يعـدّ كفرا بنعمـة اللّه، لأنّ الذى يهب النعم أجدر بالعبادة من تلك الموجودات الميتة، أو المحتاجة إلى الآخرين من أعلى رأسـها إلى أخمص قدمها. لذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ.

فلا يهديه إلى الطريق الصحيح فى هذا العالم، و لا إلى الجنّة فى العالم الآخر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴

لأنّه أو صد بکلتا یدیه أبواب الهدایة أمامه، و لأنّ البارئ عزّ و جلّ یبعث فیض هدایته إلی من یراه لائقا و مستعدا لاستقبالها، و لا یبعثها إلی الذین تعمدوا قتل الاستعدادات الموجودة فی قلوبهم و ذاتهم.

ملاحظة

الفرق بین التنزیل و الإنزال:

فی الآیة الأولی وردت عبارة تَنْزِیلُ الْکِتابِ و فی الثانیة عبارة أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فما الفرق بین الإنزال و التنزیل؟ و ما المراد من تباین العبارتین فی هاتین الآیتین؟

کتب اللغة تقول: إنّ کلمة (تنزیل) تعنی نزول الشیء علی عدّة دفعات، فی حین أن کلمة (إنزال) لها معنی عام یشمل النّزول التدریجی و النّزول دفعة واحدة[۹].

قال بعضهم إنّ لکل منهما معنی خاصا بها و أن (تنزیل) تعنی- فقط- النّزول علی عدّة دفعات، و (إنزال) تعنی- فقط- النّزول دفعة واحدة[۱۰].

اختلاف العبارتین المذکورتین أعلاه إنّما یعود إلی أن القرآن المجید نزل بصورتین:

الأولی: نزل دفعة واحدة علی قلب النّبی محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی لیلة القدر فی شهر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵

رمضان المبارک کما ورد فی الآیات المبارکة: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ[۱۱] و إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ[۱۲] و شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ ۱۳].

و فی کلّ هذه الآیات استخدمت عبارة (الإنزال) التی تشیر إلی نزوله دفعة واحدة.

و یوجد نزول آخر تمّ بصورة تدریجیة استغرقت (۲۳) عاما، أی طوال فترة نبوّة الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إذا کانت تنزل فی کلّ حادثة و قضیة آیة تناسبها، و تنقل بالمسلمین من مرحلة إلی اخری لیرتقوا سلم الکمال المعنوی و الأخلاقی و العقائدی و الاجتماعی، کما ورد فی الآیة (۱۰۶) من سورة الإسراء: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَی النَّاسِ عَلی مُکْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِیلًا.

و الذی یثیر الانتباه، هو أنّ الکلمتین (تنزیل) و (إنزال) تأتیان أحیانا فی آیة واحدة للتعبیر عن مقصودین، کما ورد فی الآیة (۲۰) من سورة محمّد: وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْکَمَةٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ

فکأن المسلمین یطلبون أحیانا نزول السورة القرآنیة تدریجا کی یهضموا محتویاتها بصورة جیدة، لکن الضرورة کانت تستدعی فی بعض الحالات نزول السورة دفعة واحدة، و خاصة السور التی تتناول مسائل الجهاد فی سبیل اللّه، لأنّ نزولها التدریجی کان قد یؤدی إلی سوء استغلالها من قبل المنافقین الذین کانوا یتحینون الفرص لبث سمومهم. ففی مثل هذه الحالات- کما ذکرنا- کانت السورة تنزل دفعة واحدة. و هذا آخر شیء یمکن ذکره بشأن التباین الموجود بین العبارتین، و طبقا لهذا فإنّ آیات بحثنا أشارت إلی طریقتی النّزول بصورة جامعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶

کاملة.

و مع هذا فإنّه توجد هناك بعض الأمور الاستثنائية لتفسير و بيان الاختلاف المذكور أعلاه، كما ورد فى الآية (۳۲) من سورة الفرقان: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا.

بالطبع، لكل من (التنزيل) و (الإنزال) فوائد و آثار خاصّة به، سنتطرق إليها فى مواضعها[۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴ الى ۵]

اشارة

لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (۴) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (۵)

التّفسير

ما حاجة اللّه إلى الأولاد؟

المشركون إضافة إلى أنّهم يعتبرون الأصنام وسيطا و شفيعا لهم عند اللّه، كما استعرضت ذلك الآيات السابقة، فقد اعتقدوا- أيضا- أن بعض المخلوقات- كالملائكة- هى بنات اللّه، و الآية الأولى فى بحثنا تجيب على هذا الإعتقاد الخاطئ و التصور القبيح بالقول: لَوْ أَرادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفى مِمَّا يَخْلُقُ ما يَشاءُ سُبْحانَهُ هُوَ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ.

ذكر المفسرون آراء مختلفة فى تفسير هذه الآية:

قال البعض: يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا فى انتخاب ولد له، فلم ينتخب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸

البنات اللاتى تزعمون أنّهنّ لا قيمة لهنّ؟ فلم لا ينتخب له أبناء؟ و هذا- فى الحقيقة- نوع من أنواع الاستدلال وفق ذهنية الطرف المقابل كى يفهم أن كلامه لا أساس له من الصحة.

و قال آخر: إنّما يقصد منها لو أنّ اللّه كان راغبا فى انتخاب ولد له، لكان قد خلق موجودات اخرى أفضل و أرفى من الملائكة.

و بالنظر إلى كون مكانة الأنثى لا تقلّ عن مكانة الذكر عند البارى عزّ و جلّ، و بالنظر إلى كون الملائكة أو عيسى عليه السلام- و الذين اعتبرهم بعض المنحرفين أبناء اللّه- من الموجودات الشريفة و المحترمة، فإنّه لا يعدّ أىّ من التّفسيرين السابقين مناسبا.

و الأفضل هو القول بأنّ الآية تريد القول: إنّ الابن مطلوب إمّا لتقديم العون أو لمؤانسة الروح، و بفرض المحال فإنّ اللّه عزّ و جلّ لو كان محتاجا لمثل هذا الأمر، لاصطفى لهذا بعضا ممّن يشاء من أشرف خلقه، فلم يتخذ ولدا؟

و لكن لكونه الواحد الذى لا نظير له و القاهر و الغالب لكل شىء و الأزلى و الأبدى، فإنّه لا يحتاج إلى مساعدة أىّ أحد، و لا يستوحش من وحدانيته حتى يزيلها عن طريق الإنسان مع الآخرين، لهذا فهو منزّه و مقدّس عن الولد، حقيقيا كان أو منتخبا.

و إضافة إلى ما ذكرناه من قبل، فإنّ أولئك الجهلة الذين يتصورون أحيانا أن الملائكة هم أبناء اللّه، و أحيانا اخرى يقولون بوجود نسبة بين البارى، عزّ و جلّ و الجن، و أحيانا يقولون بأن (المسيح) أو (العزيز) هم أبناء اللّه، يجهلون الكثير من الحقائق الواضحة، فإن كان قصدهم هو الولد الحقيقى:

فأولا: يجب أن يكون البارى تعالى جسما.

ثانيا: التركيب من أجزاء (لأنّ الوالد جزء من الأب ينفصل عن وجود أبيه).

ثالثا: حتمية وجود شبيه و نظير له (لأنّ الأولاد على الدوام يشبهون الآباء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹

رابعا: احتياجه لزوجة، و اللّه منزّه و مقدّس عن كلّ تلك الأمور.

و إنّ كان المقصود هو الولد المنتخب أى (المتبنىّ) فإن ذلك إنّما يتمّ لأجل احتياجه لمساعدة جسدية أو لمؤانسة روحية، و اللّه القادر القاهر لا يحتاج إلى كلّ هذه الأمور. و بهذا فإنّ وصفه ب (الواحد) و (القهار) هو جواب مختصر على كلّ تلك الاحتمالات.

على أية حال، فإنّ عبارة (لو) التى تستخدم عادة للشرط المستحيل إشارة إلى أن هذا الفرض محال فى أن ينتخب البارئ عزّ و جلّ والدا له، و بفرض المحال أنّه يحتاج، فإنّه غير محتاج لما يقولونه من اتخاذ الولد، بل إن مخلوقاته المنتخبة هى التى تؤمن هذا الأمر.

و لإثبات حقيقة أنّ اللّه لا يحتاج إلى مخلوقاته، و لبيان دلائل توحيده و عظمته، يقول البارئ عزّ و جلّ: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

كون تلك الأمور حقّا دليل على وجود هدف كبير من وراء خلقها، و ذلك لتكامل المخلوقات و فى مقدمتها الإنسان، ثمّ لا تنتهى عند البعث.

بعد عرض هذا الخلق الكبير، تشير الآية إلى جوانب من تدبيره العجيب، و التغيرات التى تطرأ بحسابات دقيقة، و الأنظمة الدقيقة أيضا التى تحكم أولئك، إذ يقول القرآن المجيد: يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ وَ يُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ

ما أجملها من عبارة! فلو وقف الإنسان فى منطقة تقع خارج نطاق الكرة الأرضية، و نظر إلى مشهد حركة الأرض حول نفسها و تكوّن الليل و النهار اللذين يطوقان سطحها المكور، لشاهد- بصورة منتظمة- أن سواد الليل يستولى على طرف النهار من جهة و من الجهة المقابلة يرى بأن ضوء النهار يستولى محركة مستمرة على ظلام الليل.

«يكون» من (تكوير) و تعنى الشىء المتكور أو المنحنى، و يعتبر أصحاب اللغة تكوير العمامة على الرأس نموذجا للتكوير، و هذا التعبير القرآنى الجميل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰

يكشف عن بعض الأسرار، لكن الكثير من المفسّرين نتيجة عدم التفاتهم إلى كروية الأرض ذكروا مواضيع اخرى لا تناسب مفهوم كلمة (التكوير)، فمن هذه الآية يتجلّى لنا أن الأرض كروية و تدور حول نفسها، و من جراء هذا الدوران، يطّوق الأرض دائما شريطان، أحدهما سواد الليل، و الثّانى بياض النهار، و لا يبقى هذان الشريطان ثابتين، و إنّما يغطى الشريط الأسود الأبيض، من جهة و الشريط الأبيض يغطى الأسود من جهة اخرى، أثناء حركة الأرض حول نفسها.

و على أية حال، فإنّ القرآن المجيد يبيّن ظاهرة الليل و النهار و (النور) و (الظلمات) فى عدّة آيات مختلفة، كلّ واحدة منها تشير إلى نقطة معينة، و تنظر إلى هذه الظاهرة من زاوية خاصة، فأحيانا يقول: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ۱۵].

الحديث- هنا- يتطرق لتوغّل الليل فى النهار و توغل النهار فى الليل التى تتمّ بصورة بطيئة و هادئة.

و أحيانا اخرى يقول: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ[۱۶]، و هنا تمّ تشبيه الليل بستائر مظلمة تنزل على ضياء النهار و تحجبه.

ثمّ تنتقل إلى جانب آخر، ألا و هو التدبير و النظام الدقيق المسير لشؤون هذا العالم، قال تعالى: وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى

فلا يظهر فى حركة الشمس التى تدور حول نفسها، أو التى تتحرك مع بقية كواكب المجموعة الشمسية نحو نقطة خاصّة فى مجرة درب التبانة أدنى خلل، فهى تتحرك وفق نظام خاص و دقيق جدّا، و لا يظهر أى خلل فى حركة القمر أثناء دورانه حول الأرض أو حول نفسه، فالكلّ يخضع لقوانين (الخالق) و يتحرك وفقها، و سيستمر فى التحرك وفق هذه القوانين حتى آخر يوم من أجله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱

و يوجد احتمال آخر، و هو أنّ المراد من تسخير الشمس و القمر هو تسخيرها للإنسان بإذن اللّه، كما ورد فى الآية (۳۳) من سورة إبراهيم: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ دائِبَيْنِ و لكن بالالتفات إلى الجملة السابقة و اللاحقة فى هذه الآية مورد البحث، إضافة إلى عدم ورود كلمة (لكم) فى الآية، يجعل التّفسير المذكور أعلاه مستبعدا بعض الشىء.

نهاية الآية كانت بمثابة تهديد و ترغيب للمشركين إذ تقول: أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ فبحكم عزّته و قدرته المطلقة لا يمكن لأىّ مذنب و مشرك أن يهرب من قبضة عذابه، و بمقتضى كونه الغفّار، فإنّه يستر عيوب و ذنوب التائبين، و يظلمهم بظلّ رحمته.

«غفار» صيغة مبالغة مشتقّة من المصدر (غفران) و تعنى فى الأصل لبس الإنسان لشىء يقيه من التلوّث، و عند ما تستخدم بشأن البارى، عزّ و جلّ فإنّها تعنى ستره لعيوب و ذنوب عبادة النادمين و حفظهم من عذابه و جزائه، نعم فهو (غفار) فى أوج عزته و قدرته، و هو (قهار) فى أوج رحمته و غفرانه، و الهدف من ذكر هاتين الصفتين فى آخر الآية، هو إيجاد حالة من «الخوف» و «الرجاء» عند العباد، و هما عاملان رئيسيان وراء كلّ تحرك نحو الكمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶ الى ۷]

اشارة

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (۶) إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۷)

التّفسير

الجميع مخلوقون من نفس واحدة:

مرّة اخرى تستعرض آيات القرآن الكريم عظمة خلق اللّه، و تبيّن فى نفس الوقت بعض النعم الأخرى التى منّ بها اللّه سبحانه و تعالى على الإنسان.

فى البداية تتحدّث عن خلق الإنسان و تقول: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳

خلق كلّ بنى آدم من نفس واحدة إشارة إلى مسألة خلق آدم أبى البشر، إذ أنّ كل البشر و بتنوع خلقتهم و أخلاقهم و طبائعهم و استعداداتهم و أذواقهم المختلفة يعودون فى الأصل إلى آدم عليه السّلام.

و عبارة: ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها[۱۷] إشارة إلى أن اللّه خلق آدم فى البداية، ثمّ خلق حواء ممّا تبقى من طينته.

و على هذا الأساس فإنّ عملية خلق حواء تمّت بعد خلق آدم، و قبل خلق أبناء آدم.

عبارة (ثمّ) لا تأتى دائما كتأخير للزمان، و إنّما تأتى أحيانا كتأخير للبيان، فمثلا يقال: رأيت ما عملته اليوم ثمّ رأيت ما عملته بالأمس، فى حين أنّ عمل الأمس قد نفذ قبل عمل اليوم، و لكن المراد هنا أنّ مشاهدته تمّت بعد عمل اليوم.

و البعض اعتبر الآية المذكورة أعلاه تشير إلى (عالم الذّر) و خلق أبناء آدم بعد خلق آدم و قبل خلق حواء بشكل أرواح، هذا التّفسير

غير صحيح، و قد بيّنا هذا فى تفسير و توضيح «عالم الذّر» فى ذيل الآية (۱۷۲) من سورة الأعراف.

و ممّا يجدر ذكره أنّ زوجة آدم عليه السّلام لم تخلق من أى جزء منه، و إنّما خلقت ممّا تبقى من طينته التى خلق منها، و ذلك كما ورد فى الرّوايات الإسلامية، و أمّا الرّوايات التى تقول بأنّها خلقت من ضلع آدم الأيسر، فإنّه كلام خاطئ مأخوذ من بعض الرّوايات الإسرائيلية، و مطابق فى نفس الوقت لما جاء فى الفصل الثّانى من كتاب التّوراة (سفر التكوين) المحرّف، إضافة إلى كونه مخالفا للواقع و العقل، إذ أنّ تلك الرّوايات ذكرت أنّ أحد أضلاع آدم قد أخذ و خلقت منه حواء، و لهذا فإنّ الرجال ينقصهم ضلع فى جانبهم الأيسر، فى حين أنّنا نعلم بعدم وجود أىّ فارق بين عدد أضلع المرأة و الرجل، و هذا الاختلاف ليس أكثر من خرافة.

بعد هذا ينتقل الحديث إلى مسألة خلق أربعة أنواع من الانعام تؤمّن للإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴

ضروريات الحياة، حيث يستفيد من جلودها لملابسه، و من حليبها و لحمه الغذائه، و من جهة أخرى يصنع من جلودها و أصوافها عدّة أمور يستفيد منها فى حياته، و من جهة ثالثة يستخدمها كوسيلة لتنقّله و حمل أثقاله: وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ و المقصود من (الأزواج الثمانية) الذكر و الأنثى لكلّ من الإبل و البقر و الضأن و المعز، و من هنا فإنّ كلمة (زوج) تطلق على كلّ من الذكر و الأنثى، و لهذا فأنّ عدده يكون ثمانية أزواج. (و لذا فى بداية الآية هذه أطلقت كلمة زوج على حواء).

و عبارة أَنْزَلَ لَكُمْ و التى تخص هنا الأنعام الأربعة- كما بيّنا ذلك من قبل- لا تعنى فقط إنزال الشىء من كان عال، و إنّما فى مثل هذه الحالات تعنى (تدنى المقام) و النعم من مقام أعلى الى أدنى.

كما ذكروا احتمالا آخر فى أن (إنزال) مشتقّة هنا من (نزل) على وزن (رسل) و تعنى ضيافة الضيف، أو أوّل ما يقدم للضيف، و نظير هذا المعنى ورد فى الآية (۱۹۸) من سورة ال عمران بخصوص أهل الجنّة، قال تعالى: خالِدِينَ فِيها نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

و قد ذهب بعض المفسّرين الى أنّ الأنعام الأربعة مع أنّها لم تنزل من مكان أعلى إلى الأرض، فأنّ مقدّمات توفير متطلبات حياتها و تربيتها و التى هى قطرات المطر و أشعة الشمس هى التى تنزل من الأعلى إلى الأرض.

و ورد تفسير رابع لهذه العبارة هو أنّ كلّ الموجودات كانت من البداية موجودة فى خزائن علم و قدرة البارئ عزّ و جلّ، أى فى علم الغيب، ثمّ انتقلت من الغيب إلى الشهادة أى إلى (الظهور)، و لهذا أطلقوا على هذا الانتقال عبارة (الإنزال) كما ورد ذلك فى الآية (۲۱) فى سورة الحجر: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵

لكنّ التّفسير الأوّل أكثر مناسبة من غيره، رغم عدم وجود أى تعارض بين هذه التفاسير، بل من الممكن أن تصب جميعها فى نفس المفهوم و المعنى.

و

ورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام حديث فى تفسير هذه الآية جاء فيه: «إنزاله ذلك خلقه إياه»

أى أن إنزال تلك الأزواج الثمانية من الأنعام يعنى خلقها من قبل اللّه.

ظاهر الحديث يشير إلى التّفسير الأوّل، لأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق الخلق، و له المقام الأسمى و الأرفع.

و على أية حال، فرغم أنّ الأنعام المذكورة قليلا ما يستفاد منها اليوم فى عمليات النقل و حمل الأثقال، لكنّها تقوم بمنافع مهمّة اخرى يزداد و يتسع حجم الاحتياج إليها يوما بعد آخر، لأنّها تغطى اليوم الجانب الأعظم من احتياجات الإنسان الغذائية كالحليب و اللحوم، إضافة إلى أصوافها و جلودها التى كانت منذ السابق و حتى يومنا هذا تستخدم فى صناعة الألبسة و غيرها من الأمور التى يحتاج إليها الإنسان، حتى أنّ أحد المنابع المالية المهمّة بيد الدول الكبيرة فى العالم يأتى عن طريق تربيه و تكثير هذه الحيوانات.

ثمّ تتطرق الآيات إلى حلقة اخرى من حلقات خلق اللّه، و هى عملية نمو الجنين إذ تقول الآية: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ

بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ

يتضح أنّ المقصود من خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ هو الخلق المتكرر و المستمر، و ليس الخلق مرتين فقط.

«يخلقكم»: فعل مضارع يعطى معنى الاستمرارية، و هو هنا بمثابة إشارة قصيرة ذات معان عميقة إلى التحولات العجيبة و الصور المختلفة التى تطرأ على الجنين فى مراحل وجوده المختلفة فى بطن الأم. و طبقا لأقوال علماء علم الأجنّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶

فإنّ عملية خلق و نمو الجنين فى بطن الأمّ تعدّ من أعجب و أدقّ صور خلق البارئ عزّ و جلّ، و نادرا ما نلاحظ أنّ المطلعين على دقائق هذه القضايا لا تلهج ألسنتهم بحمد الخالق و ثنائه.

و قوله ظُلُماتٍ ثَلاثٍ إشارة إلى ظلمة بطن الأمّ و ظلمة الرحم و ظلمة المشيمة (الكيس الخاص الذى يستقر فيه الجنين) التى هى فى الحقيقة ثلاثة أغلفة سميكة تغطى الجنين.

فالمصورون- الآن- بحاجة إلى ضوء ساطع و نور من أجل التصوير، أمّا خالق الإنسان فيخطط فى تلك الظلمة بشكل عجيب و يصور بشكل يدهش العقول، و يمدّه بأسباب العيش فى مكان لا يمكن لأحد أن يوصل إليه رزقه الذى هو فى أمسّ الحاجة إليه للنمو.

الإمام الحسين عليه السّلام سيد الشهداء يقول فى دعائه المعروف بدعاء عرفه، الذى يعدّ دورة دراسية كاملة و عالية فى التوحيد، يقول عند استعراضه للنعم التى منّ بها البارى عزّ و جلّ عليه:

«و ابتدعت خلقى من منى يمنى، ثمّ أسكنتنى فى ظلمات ثلاث: بين لحم و جلد و دم لم تشهدنى خلقى، و لم تجعل إلىّ من أمرى ثمّ أخرجتنى إلى الدنيا تامّا سويّا»[۱۹].

(ممّا يذكر أنّنا قد تطرقنا إلى عجائب خلق الجنين و مراحل خلقه فى ذيل الآية (۶) من سورة آل عمران و فى ذيل الآية (۵) من سورة الحج).

و فى نهاية الآية، بعد ذكر الحلقات التوحيدية الثلاث الخاصة بخلق الإنسان و الأنعام و مراحل خلق الجنين، يقول البارئ عزّ و جلّ: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷

فأحيانا يصل الإنسان بعد مشاهدته لهذه الآثار التوحيدية العظيمة إلى مقام الشهود. ثمّ أشار تعالى إلى ذاته القدسية، حيث يقول: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ حقّا لو كانت هناك عين بصيرة فيمكنها أن تراه إنّه وراء هذه الآثار ... فعين الجسم ترى الآثار، و عين القلب ترى خالق الآثار.

عبارتى «ربّكم» و «له الملك» تدلان فى الحقيقة على حصر الربوبية بذاته الطاهرة المقدسة، و الذى اتضح بصورة جيدة فى عبارة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فعند ما يكون هو الخالق و المالك و المربى و الحاكم لكلّ عالم الوجود، فما هو دور غيره فى هذا العالم كى يستحق العبودية؟! و هنا تصرخ الآية بوجه مجموعة من النائمين و الغافلين قائلة: فَأَنَّى تُصْرَفُونَ أى كيف ضللتم و انحرفتم عن سبيل التوحيد[۲۰]؟

بعد ذكر هذه النعم الكبرة التى منّ بها البارئ عزّ و جلّ على عباده، تتطرق الآية التالية إلى مسألة الشكر و الكفر، و تناقش جوانب من هذه المسألة. و فى البداية تقول: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ اى إن تكفروا أن تشكروا فإنّ نتائجه تعود عليكم، و اللّه غنى عنكم فى حال كفركم و شكركم.

ثمّ تضيف، إنّ غناه و عدم احتياجه لا يمنعان من أن تشكروا و تتجنبوا الكفر، لأنّ التكليف إنّما هو لطف و نعمة إلهية، نعم، قال تعالى: وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۲۱].

و بعد استعراض هاتين النقطتين تستعرض الآية نقطة ثالثة و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸

تحمل شخص مسئولية أعماله، لأن قضية التكليف لا يكتمل معناها بدون هذا الأمر، قال تعالى: وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

و لأنّه لا ـ معنى للتكليف إن لم يكن هناك عقاب و ثواب، فالآية تشير فى المرحلة الرّابعة إلى قضية المعاد، و تقول: ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و لكون مسألة الحساب و العقاب لا يمكن أن تتمّ ما لم يكن هناك اطلاع و علم كاملين بالأسرار الخفية للإنسان، تختتم الآية بالقول: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

بهذا الشكل، و من خلال جمل قصار، استعرضت فلسفة التكليف و خصوصياته و مسئولية الإنسان و مسألة العقاب و الجزاء و الثواب.

و هذه الآية جواب قاطع لمن يتولى المذهب الجبرى، الذى انتشر- ممّا يؤسف له- فى صفوف بعض الطوائف الإسلامية، لأنّ الآيات الكريمة تقول و بصراحة: وَ لا يَرْضى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ.

و هذا دليل واضح على أن إرادة الكفر لم تفرض على الكافرين (كما يقول بذلك أتباع المذهب الجبرى) لأنّ من البديهى أنّ من لا يرتضى شيئا لا يأتى به، فهل يمكن أنّ تكون إرادة اللّه منفصلة عن رضاه؟ متعصبو المذهب الجبرى يثيرون العجب عند ما يعمدون إلى ستر هذه العبارة الواضحة من خلال حصر كلمة (العباد) بالمؤمنين أو المعصومين، فى حين أنّها كلمة ذات معنى مطلق و تشمل بصورة واضحة كلّ العباد، نعم، فالبارى، عزّ و جلّ لا يرتضى الكفر لأحد من عباده، مثلما يرتضى الشكر لكلّ عباده من دون أى استثناء[۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹

و هذه النقطة تلفت الانتباه، و هى أنّ أساس تحمّل كلّ إنسان لمسؤولية أعماله يعدّ من الأسس المنطقية و المسلم بها فى كلّ الأديان السماوية[۲۳].

و بالطبع يمكن أحيانا أن يكون الإنسان مشتركا فى ذنوب الآخرين، و ذلك عند ما يكون مضطلعا أو مساهما مع آخرين فى تهيئة مقدمات أو أسس ذلك العمل، كالذين يبتدعون البدع أو السنن الضالة، فى هذه الحالة تكون ذنوب أى شخص يرتكب تلك المحرمات فى ذمة مسببها الرئيسى دون أن تقل ذنوب ذلك الشخص الذى ارتكب الذنب ۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۸ الى ۹]

اشارة

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ (۸) أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (۹)

التّفسير

هل العلماء و الجهلة متساوون؟

الآيات السابقة تحدث بالأدلة و البراهين عن توحيد و معرفة البارئ عزّ و جلّ، و ذلك من خلال عرض بعض الظواهر العظيمة له فى

الآفاق و الأنفس، أما آیات بحثنا فتتحدث فی البدایة عن التوحید الفطری و توضح أن ما یدرکه الإنسان عن طریق العقل أو الفهم أو المطالعة فی شؤون الخلق موجود بصورة فطریة فی أعماقه، و أنّه یظهر أثناء المشاکل و أعاصیر الحوادث التی تعصف به، و لکن هذا الإنسان الکثیر النسیان یبتلی مرّة اخری بالغفلة و الغرور فور ما تهدأ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱

العواصف و المشاکل و تقول الآیة الکریمة: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِیباً إِلَیْهِ و نادما من ذنوبه و غفلته.

و عند ما یمنّ اللّه علی الإنسان بالنعم ینسی المشاکل و الابتلاءات السابقة التی دعا اللّه عزّ و جلّ من أجل کشفها عنه، قال تعالی: ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِیَ ما کانَ یَدْعُوا إِلَیْهِ مِنْ قَبْلُ ۲۵].

إذ یجعل للّه أندادا و شرکاء و یعمد إلی عبادتها، و لا یکتفی بعبادتها بل یعمد- أیضا- لإضلال و حرف الناس عن سبیل اللّه: وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ

المقصود هنا من (الإنسان) هم الناس العادیون الذین لم یتربّوا فی ظل إشعاعات أنوار تعالیم الأنبیاء، و لا یشمل هذا الکلام المؤمنین الذین یذکرون اللّه فی السراء و الضراء و یطلبون العون من لطفه دائما.

المراد من (ضر) هنا کلّ أذی أو محنة أو ضرر یصیب الجسم أو الروح.

«خولناه»: من مادة (خول) علی وزن (عمل) و تعنی المراقبة المستمرة لشیء ما، المراقبة و التوجّه الخاص یستلزم العطاء و البذل، فقد استخدمت هنا بمعنی الهبة.

و قال البعض: إنّ (خول) علی وزن (عمل) و تعنی الخادم، و لهذا فإنّ کلمة «خوله» تعنی الخادم الذین وهب لصاحبه، ثمّ استعملت فی کافة أشکال هبة النعم بالتخویل.

و البعض الآخر قال: إنّها تعنی الفخر و التباهی، و لهذا فإنّ العبارة المذکورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲

أعلاه تعنی حصول الإنسان علی الفخر عن طریق منحه و هبته النعم ۲۶].

و بصورة عامة فإنّ هذه الجملة تعکس إضافة إلی العطاء و الهبة، اهتمام البارئ عزّ و جلّ الخاصّ بعبده.

عبارة مُنِیباً إِلَیْهِ تبیّن أنّ الإنسان فی الحالات الصعبة یضع کافّة ستائر غروره و غفلته جانبا، و یترک وراءه کلّ ما کان یعبده أو یتمسک به من دون اللّه، و یعود إلی الباری، عزّ و جلّ، و یستشفّ من مفهوم (الإنابة) هذه الحقیقة و هی أن مبدأ الإنسان و مقصده و غایته هو اللّه تعالی.

«أندادا»: جمع (ند) علی وزن (ضد) و تعنی الشبیه و المثیل، مع وجود بعض الاختلاف و هو أنّ (مثل) لها مفهوم واسع، و لکن (ند) لها معنی واحد، و هو المماثلة فی الذات و الجوهر.

عبارة (جعل) تبیّن أن تصورات و خیالات الإنسان تصنع مثیلا و شبیها للّه، الأمر الذی لا یمکن أن ینطبق مع الواقع.

و عبارة لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِهِ تبیّن أن الضالین المغرورین لا یقتنعون بإضلال أنفسهم، و إنّما یعمدون لجر الآخرین إلی وادی الضلال.

و علی أیة حال، فإنّ آیات القرآن المجید أشارت- مرّات عدیدة- إلی العلاقة الموجودة بین (التوحید الفطری) و (الحوادث الصعبة فی الحیاة) کما عکست اضطراب الإنسان المغرور الذی یلجأ إلی اللّه و یوحده بإخلاص فور ما تعصف به العواصف و الأعاصیر، و کیف أنّه ینسی اللّه و یعود إلی غروره و لجاجته فور هدوء العاصفة لیسیر من جدید فی طریق الشرک و الضلال.

و ما أکثر أمثال هؤلاء الأشخاص المتلونون، و ما أقل من ینقلب و یتغیر عند ما یمنّ البارئ عزّ و جلّ علیه بالنصر و النعم و الاستقرار.

نعم، فأبسط نسمة هواء تمرّ علی حوض ماء تجعل میاه مضطربة، أمّا المحیط

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳

الهادى فإنّه لا يتأثر أبدا بأشدّ الأعاصير و لذا سمّى المحيط الهادى.

نهايـة الآيـة تخاطب مثل أولئك الأشـخاص بلغـة ملؤها التهديد الصـريح و الحازم و القاطع: قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ.

فهل يمكن أن يكون لإنسان كهـذا مصـير أفضل من هـذا؟! الآيـة التالية اسـتخدمت أسـلوب المقارنة، الأسـلوب الذى طالما اسـتخدمه القرآن المجيـد لإفهام الآخرين القضايا المختلفة، حيث تقول: هل أن مثل هذا الشـخص انسان لائق و ذو قيمه: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَ قائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۲۷].

أين ذلك الإنسان المشـرك و الغافل و المتلون و الضالّ و المضلّ من هذا الإنسان ذو القلب اليقظ الطاهر الساطع بالنور، الذى يسـجد للّه فى جوف الليل و الناس نيام، و يدعو ربّه خائفا راجيا؟! فهؤلاء فى حال النعمة لا يدعون أنفسـهم فى مأمن من العقاب و العذاب، و فى حال البلاء لا ييأسون من رحمته، و هذان العاملان يرافقان وجودهم أثناء حركتهم المستمرة بحذر و احتياط نحو معشوقهم.

«قانت» من مادة «قنوت» بمعنى ملازمة الطاعة المقرونة بالخشوع و الخضوع.

«آناء» هى جمع (انا)- على وزن كذا- و تعنى ساعة أو مقدارا من الوقت.

التأكيد هنا على ساعات الليل، لأنّ تلك الساعات يحضر فيها القلب أكثر، و تقلّ نسبة تلوثه بالرياء أكثر من أىّ وقت آخر.

قـدمت الآيـة السـجود على القيام، و ذلك لكون السـجود من أعلى درجات العبادة، و إطلاق الرحمة و عدم تقيّدها بالآخرة دليل على سعة الرحمة الإلهية التى تشمل الحياة الدنيا و الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴

و فى حـديث ورد فى كتاب «علل الشـرائع» و فى كتاب «الكافى» نقلا عن الإمام الباقر عليه السّـلام، إنّه فسّـر هـذه الآيـة: أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ بأنّها صلاة الليل ۲۸].

مـن الواضـح أن هـذا التّفسـير يشـبه الكـثير من التفاسـير الأـخرى الـتى بيّنت فى ذيـل آيـات مختلفـة فى القرآن الكريم من قبيـل ذكر مصاديقها الواضحة، و لا ينحصر مفهوم الآية بصلاة الليل.

و تتمة الآية تخاطب الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

كلا، إنّهم غير متساوين: إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ

لا شك فى أن السؤال المذكور أعلاه سؤال شامل، و أنّه يقارن ما بين الذين يعلمون و الذين لا يعلمون، أى بين العلماء و الجهلة، لأنّه قبل طرح هذا السؤال، كان هناك سؤال آخر قد طرح، و هو: هل يسـتوى المشـركون و المؤمنون الذين يحيون الليل بالعبادة، فالسؤال الثّانى يشـير أكثر إلى هـذه المسألـة و هو: هل أن الذين يعلمون بأن المشـركين المعاندين لا يتساوون مع المؤمنين الطاهرين، يتساوون مع الذين لا يعلمون بهذه الحقيقة الواضحة؟

و على أيـة حال فهـذه العبارة التى تبـدأ باسـتفهام اسـتنكارى، توضح أحد شـعارات الإسـلام الأساسـية و هو سـمو و علو منزلة العلم و العلمـاء فى مقابـل الجهـل و الجهلـة. و لأنّ عـدم التساوى- هـذا- ذكر بصورة مطلقـة، فمن البـديهى أن تكون هاتان المجموعتان غير متساويتين عنـد البارئ، عزّ و جلّ، و غير متساويين فى وجهـة نظر العقلاء، و لا يقفون فى صفّ واحد من الدنيا، و لا فى الآخرة و أنّهم مختلفون ظاهرا و باطنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵

ملاحظة

تتضمّن هاتان الآيتان إشارات لطيفة إلى نقاط مهمّة:

۱- فی الآیة الأولی، ذکرت فلسفة الحوادث المرّة و الصعبة، و انشکاف ستائر الغرور و الغفلة عن عین القلب، و صیرورة شعاع الإیمان شعلة وهّاجة، و العودة و الإنابة إلی للّه سبحانه و تعالی، و أجابت الآیة فی نفس الوقت أولئک الذین یتصورون أنّ وجود مثل تلک الحوادث الصعبة فی الحیاة إنّما هی نقص فی مسألة نظام الخلق و فی عدالة البارئ عزّ و جلّ.

۲- الآیة الثّانیة تبدأ بالدعوة إلی العمل و بناء الذات و تنتهی بالعلم و المعرفة، لأنّ من لم یبن ذاته، لا تشع أنوار المعرفة من قلبه، حیث لا یمکن أصلا فصل العلم عن بناء الذات.

۳- قوله تعالی: قانِتٌ آناءَ اللَّیْلِ وردت هنا بصیغة اسم فاعل، و کلمة (اللیل) جاءت مطلقة لتشیر إلی استمرار عبودیة و خضوع أولئک للّه سبحانه، لأنّ العمل إذا لم یستمر فیکون ضعیف جدّا.

۴- إنّ العلم الاضطراری المتولّد من نزول البلاء و الذی یربط الإنسان بخالقه، لا یکون مصداقا حقیقیا للعلم الّا إذا استمر إلی ما بعد هدوء العاصفة. لذا فإنّ الآیات المذکورة أعلاه تجعل الإنسان الذی یستیقظ حال نزول البلاء و یعود إلی غفلته عند زواله تجعله فی عداد الجهلة. إذن فإنّ العلماء الحقیقیین هم المتوجهون إلیه تعالی فی کلّ الحالات.

۵- ممّا یلفت الانتباه أنّ نهایة الآیة الأخیرة تقول: إنّ الفرق بین الجاهل و العالم لا یدرکه سوی أولی الألباب! لأنّ الجاهل لا یدرک قیمة العلم! و فی الحقیقة إنّ کلّ مرحلة من مراحل العلم هی مقدمة لمرحلة أخری.

۶- العلم فی هذه الآیة و بقیة الآیات لا یعنی معرفة مجموعة من المصطلحات، أو العلاقة المادیة بین الأشیاء، و إنّما یقصد به المعرفة الخاصة التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶

تدعو الإنسان إلی (القنوت) أی إلی طاعة البارئ عزّ و جلّ و الخوف من محکمته و عدم الیأس من رحمته، هذه هی حقیقة العلم، و إن کانت العلوم الدنیویة تؤدی إلی ما ذکرناه آنفا، فهی علم أیضا. و إلّا فهی سبب الغفلة و الظلم و الغرور و الفساد فی الأرض، و لا یحصل منها سوی «القیل و القال» و لیس «الکیفیة و الحال».

۷- علی عکس ما یعتقد به الجهلة الذین یعدّون الذین مخدرا (أفیونا)، فإنّ أهم ما یدعوا إلیه الأنبیاء هو طلب بالعلم و المعرفة، و قد أعلنوا عداءهم للجهل أینما کان، و إضافة إلی أنّ القرآن الحکیم استغل الکثیر من المناسبات کی یوضح هذا الأمر، کما وردت فی الروایات الإسلامیة أحادیث تصور عدم وجود شیء أفضل من العلم.

فقد ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «لا خیر فی العیش إلّا لرجلین: عالم مطاع، أو مستمع واع»[۲۹].

کما

ورد حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام، جاء فیه: «إنّ العلماء ورثة الأنبیاء و ذاک أنّ الأنبیاء لم یورثوا درهما و لا دینارا، و إنّما أورثوا أحادیث من أحادیثهم، فمن أخذ بشیء منها فقد أخذ حظا وافرا، فانظروا علمکم هذا عمن تأخذونه فإن فینا أهل البیت فی کلّ خلف عدولا ینفون عنه تحریف الغالین و انتحال المبطلین و تأویل الجاهلین»[۳۰].

۸- الآیة الأخیرة تتحدث عن ثلاث مجموعات، هم العلماء و الجهلة و أولو الألباب، و

قد شخصهم الإمام الصادق علیه السّلام فی حدیث له، عند ما قال: «نحن الذین یعلمون، و عدوّنا الذین لا یعلمون، و شیعتنا أولوا الألباب»[۳۱].

۹-

ورد فی الحدیث خرج أمیر المؤمنین علیه السّلام ذات لیلة من مسجد الکوفة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷

متوجّها إلى داره و قد مضى ربع من اللّيل و معه كميل بن زياد رحمة اللّه و كان من خيار شيعته و محبّيه فوصل فى الطّريق إلى باب رجل يتلو القرآن فى ذلك الوقت و يقرأ قوله تعالى أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ... الآية بصوت شجى حزين فاستحسن كميل ذلك فى باطنه و أعجبه حال الرّجل من غير أن يقول شيئا، فالتفت صلوات اللّه عليه إليه و قال: يا كميل لا يعجبك طنطنة الرّجل إنّه من أهل النّار سأنبئك بعد، فيما يصدر فتحيّر كميل مكاشفة له على ما فى باطنه و لشهادته بدخول النّار مع كونه فى هذا الأمر و تلك الحالة الحسنة و مضى مدّة متطاولة إلى أن ال حال الخوارج إلى ما ال و قاتلهم أمير المؤمنين عليه السّلام و كانوا يحفظون القرآن كما أنزل، فالتفت أمير المؤمنين عليه السّلام إلى كميل و هو واقف بين يديه و السيف فى يده يقطر دما و رؤوس أولئك الكفرة الفجرة مجلقة على الأرض فوضع رأس السيف على رأس من تلك الرؤوس و قال: يا كميل أمّن هو قانت ... الآية أى هو ذلك الشخص الذى كان يقرأ القرآن فى تلك الليلة فأعجبك حاله قبّل كميل قدميه عليه السّلام و استغفر اللّه ۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۰ الى ۱۶]

اشارة

قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ (۱۰) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ (۱۱) وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (۱۲) قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۱۳) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي (۱۴)

فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ (۱۵) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ (۱۶)

التّفسير

الخطوط الرئيسة لمناهج العباد المخلصين:

تتمة لما جاء فى بحث الآيات السابقة التى قارنت بين المشركين المغرورين و المؤمنين المطيعين للّه، و بين العلماء و الجهلة، فإنّ آيات بحثنا هذا تبحث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹

الخطوط الرئيسية لمناهج عباد اللّه الحقيقيين المخلصين و ذلك ضمن سبعة مناهج وردت فى عدّة آيات تبدأ بكلمة (قل).

الآية الأولى تحثّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على التقوى: قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۳۳].

نعم، فالتقوى هى الحاجز الذى يصدّ الإنسان عن الذنوب، و تجعله يحسّ بالمسؤولية و بتكاليفه أمام البارئ، عزّ و جلّ، هى المنهج الأوّل لعباد اللّه المؤمنين و المخلصين، فالتقوى هى الدرع الذى يقى الإنسان من النّار، و العامل الرئيسى الذى يردعه عن الانحراف، فالتقوى هى ذخيرته الكبيرة فى سوق القيامة، و هى ميزان شخصية و كرامة الإنسان عند البارئ عزّ و جلّ.

المنهج الثّانى يختص بالإنسان و العمل الصالح فى هذه الدنيا التى هى دار العمل، و قد شجعت الآية الناس و حثتهم على عمل الإحسان، من خلال بيان نتيجة ذلك العمل: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ[۳۴].

نعم فالإحسان بصورة مطلقة فى هذه الدنيا- سواء كان فى الحديث، أو فى العمل، أو فى نوع التفكر و التفكير بالأصدقاء و الغرباء-

يؤدّى إلى نيل ثواب عظيم فى الدنيا و الآخرة، لأنّ جزاء الإحسان هو الإحسان.

و فى الواقع فإنّ التقوى عامل ردع، و الإحسان عامل صلاح، و كلاهما يشمل (ترك الذنب) و (أداء الفرائض و المستحبات).

المنهج الثّالث يدعو إلى الهجرة من مواطن الشرك و الكفر الملوثة بالذنوب، قال تعالى: وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰

هذه الآية- فى الحقيقة- ردّ على ذوى الإرادة الضعيفة و المتذرعين بمختلف الذرائع الذين يقولون: إنّنا عاجزون عن أداء الأحكام الإلهية لأنّنا فى أرض مكّة التى يحكمها المشركون، و القرآن يردّ عليهم بأن أرض اللّه لا تقتصر على مكّة، فإن لم تتمكنوا من أداء فرائضكم فى مكّة فالمدينة موجودة، بل إن الأرض كلها للّه، هاجروا من المواطن الملوثة بالشرك و الكفر و الظلم التى لا يمكنكم فيها أداء الأحكام الإلهية بحرية إلى آخر.

مسألة الهجرة هى إحدى أهم المسائل التى لم تلعب دورا أساسيا فى صدر الإسلام بانتصار الحكومة الإسلامية فحسب، بل إنّ لها أهمية فى كلّ زمان، لأنّها من جهة تمنع مجموعة من المؤمنين أن يستسلموا لضغط و كبت محيطهم، و من جهة اخرى تكون عاملان مساعدا لتصدير الإسلام إلى نقاط مختلفة فى أنحاء العالم.

و القرآن المجيد يقول: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً[۳۵].

و هذا يوضح- بصورة جيدة- أنّ المؤمن الذى تحيط به الضغوط و الكبت، و يستطيع أن يهاجر فى سبيل اللّه عليه أن يهاجر، و إلّا فإنّه غير معذور أمام اللّه.

(بشأن أهمية الهجرة فى الإسلام و أبعادها المختلفة كانت لنا بحوث مختلفة و مفصلة فى ذيل الآية (۱۰۰) من سورة النساء، و فى ذيل الآية (۷۲) من سورة الأنفال).

و لأنّ الهجرة ترافقها بصورة طبيعية مشكلات كثيرة فى مختلف جوانب الحياة، فالمنهج الرابع إذن يتعلق بالصبر و الاستقامة، قال تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱

إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ۳۶].

و عبارة (يوفى) مشتقّة من (وفى) و تعنى إعطاؤه حقّه تاما كاملا. و عبارة (بغير حساب) تبيّن أن للصابرين أفضل الأجر و الثواب عند اللّه، و لا يوجد عمل آخر يبلغ ثوابه حجم ثواب الصبر و الاستقامة.

و الشاهد على هذا القول ما

جاء فى الحديث المعروف الذى رواه الإمام الصادق عليه السّلام عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى جاء فيه: «إذا نشرت الدواوين و نصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان، و لم ينشر لهم ديوان، ثمّ تلا هذه الآية:

إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ ۳۷].

و البعض يعتقد أنّ هذه الآية تخصّ الهجرة الأولى للمسلمين، أى هجرة مجموعة كبيرة من المسلمين إلى أرض الحبشة تحت قيادة جعفر بن أبى طالب عليه السّلام، و كما قلنا مرارا رغم أنّ أسباب النّزول توضيح مفهوم الآية، إلّا أنّها لا تحددها.

أمّا المنهج الخامس فقد ورد فيه أمر الإخلاص و التوحيد الخالى من شوائب الشرك، و هنا تتغير لهجة الكلام بعض الشىء، و يتحدث الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن وظائفه و مسئولياته، إذ يقول: قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ

ثم يضيف: وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ و هذا هو المنهج السادس الذى يعترف بأنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أول الناس إسلاما و تسليما لأوامر البارئ عزّ و جلّ.

أمّا المنهج السابع و الأخير فيتناول مسألة الخوف من عقاب البارئ عزّ و جلّ يوم القيامة، قال تعالى: قُلْ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲

التأمل فى هذه الآيات يكشف بوضوح عن أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو عبد من عباد اللّه، و هو مكلف أيضا بعبادة اللّه بإخلاص، لأنّه- هو أيضا- يخاف العذاب الإلهى، و هو مكلّف بإطاعة الأوامر الإلهية، كما أنّه مكلّف بتكاليف و واجبات أثقل و أعظم من تكاليف الآخرين، و لذا يجب أن يكون أفضل و أسمى من الآخرين.

إنّه لم يدّع الألوهية أبدأ، و لم يخط خطوة واحدة خارج مسير العبودية، بل إنّه يفتخر و يتباهى بهذا المقام، و لهذا السبب كان قدوة و أسوة، و هو (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لم يفضّل نفسه على الآخرين، و هذا دليل على عظمته و أحقّيته، فهو ليس كالمدّعين الكذّابين الذين كانوا يدعون الناس إلى عبادتهم، و يعتبرون أنفسهم أرقى من البشر، و أنّهم من معدن ثمين أفضل من الناس، و أحيانا يدعون أتباعهم إلى التبرع سنويا بالذهب و الجواهر بقدر وزنهم.

إنّه يقول: إنّى لست مثل السلاطين المتجبرين على رقاب الناس الذين يكلفون الناس ببعض التكاليف و يعتبرون أنفسهم «فوق تلك التكاليف» و هذا فى الواقع إشارة إلى موضوع تربوى هامّ، و هو أنّ كلّ إنسان- مربيا كان أم قائدا- عليه أن يكون السباق فى تنفيذ من أجلها ما يمليه عليه نهجه، فيجب أن يكون أوّل مؤمن بشريعته أو سنته و أكثر الساعين و المضحين كى يؤمن الناس بصدقه، و يتخذونه أسوة و قدوة لهم فى كلّ الأمور. و من هنا يتضح أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن أوّل مسلم من حيث الزمان و حسب، و إنّما كان أوّل إسلاما من كلّ النواحى، من ناحية الإيمان و الإخلاص، و العمل، و التضحية، و الجهاد، و الصمود، و المقاومة، و تأريخ حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤيد هذه الحقيقة بصورة جيدة.

بعد استعراض المناهج السبعة المذكورة فى الآيات أعلاه (التقوى، الإحسان، الهجرة، الصبر، الإخلاص، التسليم، الخوف).

و لكون مسألة الإخلاص لها ميزات خاصة فى مقابل العلل المختلفة للشرك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳

تعود الآيات لتؤكّد عليها مرّة أخرى، إذ تقول و بنفس اللهجة السابقة: قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ۳۸].

أما أنتم فاعبدوا ما شئتم من دون اللّه: فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ

ثمّ تضيف: قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

أى إنّهم لم يستثمروا طاقاتهم و عمرهم، و لا من عوائلهم و أولادهم لإنقاذهم، و لا لإعادة ماء الوجه المراق إليهم، و هذا هو الخسران العظيم: أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تصف إحدى صور الخسران المبين، إذ تقول: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ

و بهذا الشكل فإنّ أعمدة النيران تحيط بهم من كلّ جانب، فهل هناك أعظم من هذا؟ و هل هناك عذاب أشدّ من هذا؟

«ظلل» جمع (ظلّة) على وزن «سنّة» و تعنى الستر الذى ينصب فى الجهة العليا. و طبقا لهذا فإنّ إطلاق هذه الكلمة على ما يفرش تحت اهل النّار اطلاق مجازى و من باب التوسع فى معنى الكلمة.

بعض المفسّرين قالوا: بما أنّ أصحاب النّار يتقلبون بين طبقات جهنم، فإنّ ستائر النّار محيط بهم من فوق رؤوسهم و من تحت أرجلهم. و الآية (۵۵) من سورة العنكبوت تشبه هذه الآية: يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

هذا فى الحقيقة تجسيد لأحوالهم و أوضاعهم فى هذه الدنيا، إذ أن الجهل و الكفر و الظلم محيط بكلّ وجودهم، و مستحوذ عليهم من كلّ جانب، ثمّ تضيف الآية مؤكّدة و واعظة إياهم: ذلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ

إضافة كلمة (العباد) إلى لفظ الجلالة فى هذه الآية، و لعدّة مرّات اشارة إلى أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴

تهديد البارئ عزّ و جلّ لعباده بالعذاب إنّما هو لطف و رحمة منه، و ذلك كى لا يبتلى عباده بمثل هذا المصير المشؤوم، و من هنا يتضح أنّه لا حاجة لتفسير كلمة (العباد) هنا على أنّها تخصّ المؤمنين، فهى تشمل الجميع، كى لا يأمن أحد من العذاب الإلهى.

ملاحظات

۱- حقيقة الخسران!

يرى الراغب فى مفرداته أنّ الخسران يعنى ذهاب رأس المال كلّه أو بعضه، و أحيانا تنسب إلى الإنسان، عند ما يقال: (الشخص الفلانى خسر) و أحيانا تنسب إلى العمل عند ما يقولون: (خسرت تجارته).

و تستخدم كلمة (خسران) أحيانا فى حالة فقدان الثروة الظاهرية، كالمال و الجاه، الدنيوى، و أحيانا أخرى تستخدم فى حالة فقدان ثروة معنوية كالصحة و السلامة و العقل و الإيمان و الثواب، و هذا هو الشىء الذى سمّاه البارئ عزّ و جلّ (الخسران المبين) فكلّ خسران ذكره البارئ عزّ و جلّ فى القرآن الكريم إنّما يشير إلى المعنى الثّانى و ليس إلى الخسران الخاص بثروات الدنيا و تجارتها[۳۹].

و قد شبّه القرآن الإنسان بتجارة الأثرياء الذين يدخلون أسواق التجارة العالمية برؤوس أموال كبيرة، فالبعض منهم يجنى أرباحا كبيرة، و البعض الآخر يخسر خسارة فادحة.

آيات كثيرة فى القرآن المجيد تطرقت إلى مثل هذا التعبير و التشبيه، حيث توضح الحقيقة التالية: إنّ النجاة من العذاب الإلهى لا تتحقق بالجلوس و انتظار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵

هذا و ذاك، و إن السبيل الوحيد للنجاة هو الاستفادة من الثروة، و بذل الجهود و المساعى فى هذه التجارة الكبيرة، لأنّ كلّ شىء يعطى بثمن، و لا يعطى بالمعاذير! و قد يتساءل البعض: ما هى أسباب وصف خسارة المشركين و المذنبين بالخسران المبين؟

الجواب هو:

أوّلا: لأنّهم باعوا أفضل ثروة لديهم- أى العمر و العقل و الإدراك و العواطف الانسانية- بدون مقابل.

ثانيا: لو أنّهم باعوا تلك الثروة من دون أن يشتروا العذاب و العقاب لكان أمرا هينا بعض الشىء، لكنّ الأمر لم يكن كذلك إذ أنّهم بخسرانهم لتلك الثروة العظيمة هيأوا لأنفسهم عذابا أليما و عظيما.

ثالثا: إنّ هذه الخسارة التى لا يمكن أن تعوّض بأىّ ثمن، و هذه هى (الخسران المبين).

۲- ما هو المراد من الآية: فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ

عبارة فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ جاءت بصيغة أمر تهديدى، و هذا الأسلوب يستعمل عند ما لا تؤثر النصيحة و الموعظة بالشخص المجرم و المذنب، إذ أنّ آخر ما يقال له: (افعل ما تشاء، و لكن انتظر العقاب أيضا) و يعنى أنّك وصلت إلى درجة لا تستحقّ معها النصيحة و الموعظة، و أنّ مصيرك و علاجك هو العذاب الأليم.

۳- من هم الأهل؟

الآيات المذكورة أعلاه تقول: إنّ أولئك الخاسرين لم يخسروا ثروة وجودهم فحسب، و إنّما خسروا أهليهم أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶

بعض المفسّرين قال: إنّ المراد من (أهل) هم أتباع الإنسان و السائرون على نهجه.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنى الزوجات القاصرات الطرف فى الجنّة، اللواتى خسرهن المشركون و المجرمون.

و البعض الآخر يقول: إنّها تعنى العائلة و الأرقاب فى الدنيا.

و المعنى الأخير- مع الالتفات إلى أنّه المعنى الأصلى لهذه الكلمة- يعد أنسب من الجميع، لأن الكافر يخسر أهله يوم القيامة، إذ ينفصلون عنه و إن كانوا مؤمنين، و أما إذا كانوا مشركين فمضافا إلى أنّهم لا ينفعونهم، سيكونون سببا فى زيادة العذاب الأليم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى فَبَشِّرْ عِبادِ (۱۷) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ (۱۸) أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (۱۹) لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ (۲۰)

التّفسير

عباد اللّه الحقيقيون:

استخدم القرآن الكريم مرّة اخرى أسلوب المقارنة فى هذه الآيات، إذ قارن بين عباد اللّه الحقيقيين و المشركين المعاندين الذين لا مصير لهم سوى نار جهنّم، قال تعالى: وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَ أَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى

و لكون كلمة (البشرى) جاءت هنا بصورة مطلقة و غير محدودة، فتشمل كافة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸

أنواع البشرى بالنعم الإلهية المادية و المعنوية، و هذه البشرى بمعناها الواسع تختص فقط بالذين اجتنبوا عبادة الطاغوت و عمدوا إلى عبادة اللّه وحده من خلال إيمانهم به و عملهم الصالح.

و كلمة «طاغوت» من مادة (الطغيان) تعنى الاعتداء و تجاوز الحدود، و لذا فإنّها تطلق على كلّ متعدّ، و على كلّ معبود من دون اللّه، كالشيطان و الحكام المتجبرين (و تستعمل هذه الكلمة للمفرد و الجمع)[۴۰].

فعبارة اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ بمعناها الواسع تعنى الابتعاد عن كلّ أشكال الشرك و عبادة الأصنام و هو النفس و الشيطان، و تجنب الانصياع و الاستسلام للحكام المتجبرين الطغاة.

أمّا عبارة أَنابُوا إِلَى اللَّهِ فإنّها تجمع روح التقوى و الزهد و الإيمان، و أمثال هؤلاء يستحقون البشرى.

و يجب الالتفات إلى أنّ عبادة الطاغوت لا تعنى فقط الركوع و السجود له، و إنّما تشمل كلّ طاعة له، كما

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام «من أطاع جبارا فقد عبده»[۴۱].

ثم تعرج الآيـة على تعريف العبـاد الخاصّـين فتقول: فَبَشِّرْ عِبادِ[۴۲] الَّذِينَ يَسْـتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَـنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَـداهُمُ اللَّهُ وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ

الآيتان المذكورتان بمثابة شعار إسلامى، و قد بيّنتان حرية الفكر عند المسلمين، و حرية الإختيار فى مختلف الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹

ففى البدايـة تقول (بشـر عبـاد) ثمّ تعرّج على تعريف أولئك العباد المقربين بأنّهم أولئك الـذين لا يسـتمعون لقول هـذا و ذاك ما لم يعرفوا خصـائص و ميزات المتكلم، و الـذين ينتخبون أفضـل الكلاـم من خلاـل قوّة العقـل و الإـدراك، إذ لاـ تعصب و لا لجاجـة فى أعمالهم، و لا تحديد و جمود فى فكرهم و تفكيرهم، إنّهم يبحثون عن الحقيقة و هم متعطشون لها، فأينما وجدوها اسـتقبلوها بصدور رحبة، ليشربوا من نبعها الصافى من دون أىّ حتى يرتووا.

إنّهـم ليسـوا طـالبين للحـق و متعطشـين للكلاـم الحسن و حسب، بـل هم يختـارون الأـجود و الأـحسن من بين (الجيـد) و (الأـجود) و (الحسن) و (الأحسن)، و خلاصة الأمر فإنّهم يطمحون لنيل الأفضل و الأرفع، و هذه هى علامات المسلم الحقيقى المؤمن الساعى وراء الحق.

أمّا ما المقصود من كلمة (القول) فى عبارة يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فإنّ المفسّرين أعطوا عدّة آراء لتفسيرها، منها:

البعض فسّره بأنّه يعنى (القرآن) الذى يحتوى على الطاعات و المباحات، و اقتفاء الأحسن يعنى اقتفاء الطاعات.

و البعض الآخر فسّرها بأنّها تعنى مطلق الأوامر الإلهية المذكورة فى القرآن و غير المذكورة فيه.

و لكن لم يتوفّر أىّ دليـل على هـذين التّفسـيرين، بـل أن ظاهر الآيـة يشـتمل كلّ قول و حـديث، فالمؤمنون هؤلاء يختارون من جميع الكلمات و الأحاديث ما هو (أحسن)، ليترجموه فى أعمالهم.

و الطريف فى الأمر أنّ القرآن الكريم حصـر فى الآية المذكورة أعلاه الذين هداهم اللّه بأولئك القوم الذين يستمعون القول و يتبعون أحسـنه، كما أنّه اعتبر العقلاء ضـمن هذه المجموعة، و هذه إشارة إلى أنّ أفراد هذه المجموعة مشـمولون بالهداية الإلهية الظاهرية، و الباطنية، الهداية الظاهرية عن طريق العقل و الإدراك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰

و الهداية الباطنية عن طريق النور الإلهى و الإمداد الغيبى، و هاتان مفخرتان كبيرتان للباحثين وراء الحقيقة ذوى التفكير الحرّ.

و لكون رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم كـان يرغب- بشـدّة- فى هدايـة المشـركين و الضـالين، و كـان يتـألّم كثيرا لاـنحراف أولئك الـذين لم يعطوا آذانا صاغبـة للحقائق، فأنّ الآيـة التاليـة عمـدت الى مواساته بعد أن وضـحت له حقيقة أنّ عالمنا هذا هو عالم الحريـة و الامتحان، و مجموعة من الناس- فى نهاية الأمر- يجب أن تدخل جهنم، إذ قالت: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ[۴۳].

عبارة حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَـةُ الْعَـذابِ إشارة إلى آيات مشابهة، كالآية (۸۵) من سورة ص التى تقول بشـأن الشـياطين و أتباعهم: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

و من البـديهى أنّ حتميـة تعـذيب هـذه المجموعة لا تحمل أىّ طابع إجبارى، بل إنّهم يعذبون بسـبب الأعمال التى ارتكبوها، و نتيجة إصـرارهم على ارتكاب الظلم و الذنب و الفساد، بشكل يوضح أنّ روح الإيمان و التعقل كانت ميّتة فى أعماقهم، و أنّ وجودهم كان قطعة من جهنم لا أكثر.

من هنا يتبيّن أنّ قوله تعالى: أَ فَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ هو إشارة إلى حقيقة أنّ كونهم من أصحاب النّار يعد أمرا مسلما به و كأنّهم الآن

هم فى قلب جهنم، حتّى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى هو (رحمة للعالمين) لا يستطيع إنقاذهم من العذاب، لأنّهم قطعوا كافّة طرق الاتصال باللّه سبحانه و تعالى و لم يبقوا أىّ سبيل لنجاتهم.

و لبعث السرور فى قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لزيادة الأمل فى قلوب المؤمنين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱

جاء فى آخر الآية: لكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ

فإن كان أهل جهنم مستقرين فى ظلل من النّار، كما ورد فى الآية السابقة:

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ فإنّ لأهل الجنّة غرفا من فوقها غرف اخرى، و قصور فوقها قصور اخرى، لأنّ منظر الورود و الماء و الأنهار و البساتين من فوق الغرف يبعث على اللذة و البهجة بشكل أكثر.

«غرف» جمع «غرفة» من مادة «غرف» و على وزن حرف- بمعنى تناول الشىء و لذا يطلق على من يتناول الماء بكفه ليشربه «غرفة» ثمّ أطلقت على الطبقات العليا من المنازل.

و كشفت الآية أيضا عن أن غرف أهل الجنّة الجميلة قد زينت بأنهار تجرى من تحتها تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ نعم، هذا وعد اللّه وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعادَ[۴۴].

بحوث

۱- منطق حرية التفكير فى الإسلام

الكثير من المذاهب الوضعية تنصح أتباعها بعدم مطالعة و مناقشة مواضيع و آراء بقية المذاهب، إذ أنّهم يخافون من أن تكون حجّة الآخرين أقوى من حجّتهم.

الضعيفة و بالتالى فقدان اتباعهم.

إلّا أنّ الإسلام- كما شاهدنا فى الآيات المذكورة أعلاه- ينتهج سياسة الأبواب المفتوحة فى هذا المجال، إذ يعتبر المحققين هم عباد اللّه الحقيقيين الذين لا يرهبون سماع آراء الآخرين، و لا يستسلمون لشىء من دون أى قيد أو شرط،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲

و لا يتقبلون كلّ وسواس.

الإسلام الحنيف يبشّر الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، الذين لا يكتفون بترجيح الجيد على السىء، و إنّما ينتخبون الأحسن ثمّ الأحسن من كلّ قول و رأى.

و يوبّخ- بشدّة- الجهلة الذين يضعون أصابعهم فى آذانهم و يستغشون ثيابهم كلما سمعوا صوت الحق، كما ورد فى قول نوح صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما شكى قومه للبارئ عزّ و جلّ: وَ إِنِّى كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً[۴۵].

و أساسا فإنّ المذهب القوى الذى يملك منطقا قويا لا يرهب أقوال الآخرين، و لا يخاف من طرح آراء تلك المذاهب، لأنّه أقوى منها و هى التى ينبغى أن تخافه.

هذه الآية وضعت- فى نفس الوقت الذين يتبعون أىّ قول يقال لهم من دون أىّ تفكير فى مدى صدقه، و حتى أنّهم لا يحققون و لا يبحثون فيه بقدر ما تبحث الأغنام عن الغذاء الجيد فى المراعى، وضعتهم خارج صف (أولوا الألباب) و الذين (هداهم اللّه). فهاتان

الصفتان تختصّان بالذین لم یبتلوا الاستسلام المفرط من دون أیّ قید أو شرط، و الذین لم یفرطوا فی تعصبهم الجاهلی الأعمی.

۲- الردّ علی بعض الأسئلة

من الممکن أن تطرح علی ضوء البحث السابق عدّة أسئلة، منها:

۱- لماذا یمنع الإسلام بیع و شراء کتب الضلال.

۲- لماذا یحرم إعطاء القرآن الکریم بید الکفار.

۳- کیف یمکن لإنسان لیس له إلمام بموضوع ما أن ینتخب و یمیز الجید من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳

السیء، ألا یستلزم هذا المعنی الدور؟

الجواب علی السؤال الأوّل واضح، لأنّ البحث المتعلّق بالآیات المذکورة أعلاه یتناول أقوالا یؤمل منها الهدایة، ففی أی وقت یتضح بعد البحث و التحقیق أن الکتاب الفلانی هو مضل فإنّه یخرج من هذا الأمر، فالإسلام لا یسمح بأن یسلک الناس فی طریق ثبت انحرافه. و بالطبع فإنّه ما دام الأمر لم یثبت لأحد، أی ما زال الشخص فی حالة التحقیق عن المذاهب الأخری لقبول الدین الصحیح، لا بأس بمطالعة کلّ تلک الکتب، و لکن بعد ثبوت ذلک الأمر یجب اعتبارها مادّة سامّة، و یجب إبعادها عن متناول الجمیع.

أمّا بالنسبة إلی السؤال الثّانی، فإنّه لا یجوز إعطاء القرآن لغیر المسلم إن کان ذلک الشخص یهدف إهانة و هتک القرآن، و لکن إن حصل علم بأن ذلک الکافر یفکر حقّا بالتحقیق فی الإسلام من خلال القرآن للوصول إلی هذا الهدف، فإن إعطاء القرآن هنا لا یعدّ أمرا ممنوعا، بل یعدّ واجبا، و العلماء الذین حرّموا ذلک لا یقصدون هذا المعنی.

و لهذا فإنّ الجمعیات الإسلامیة الکبیرة تصرّ بشدّة علی ترجمة القرآن إلی بقیة اللغات الحیة فی العالم، لیوضع تحت تصرف المتعطشین لمعرفة الحقیقة.

و أمّا بشأن السؤال الثّالث، فیجب الالتفات إلی أنّه فی کثیر من الأحیان لا یستطیع شخص ما إنجاز عمل ما، و لکن عند ما ینجزه الآخرون یتمکن هو من تشخیص الجید من الردیء فی ذلک العمل.

و علی سبیل المثال، من الممکن أن یوجد شخص لا إطلاق له بفنّ الإعمار و البناء حتی أنّه لا یستطیع وضع لبنتین فوق بعضهما البعض بصورة صحیحة، و لکنّه یستطیع تمییز البناء الجید ذی الکیفیة العالیة من البناء السیء غیر المتناسق، کما أنّ هناک أشخاصا کثیرین لیسوا بشعراء، إلّا أنّهم یتمکون من تقییم أشعار شعراء کبار و تمیزها عن الأشعار الفارغة التی ینظمها بعض ناظمی الشعر. هناک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴

أشخاص لیسوا بریاضیین و لکنّهم یتمکنون من التحکیم بین الریاضیین، و انتخاب الجید منهم.

۳- نماذج من الروایات الإسلامیة التی تؤکد علی حریة التفکیر

وردت بعض الأحادیث الإسلامیة فی تفسیر الآیات المذکورة أعلاه، کما وردت أحادیث مستقلة تؤکّد علی هذا الموضوع، و منها ما ورد عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام، خاطب فیه أحد أصحابه و هو هشام بن الحکم قائلا: «یا هشام، إن اللّه تبارک و تعالی بشر أهل العقل و الفهم فی کتابه، فقال فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِینَ یَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَیَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ [۴۶].

و

ورد حديث آخر عن الأمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية المذكورة أعلاه، قال فيه: «هو الرجل يسمع الحديث فيحدث به كما سمعه، لا يزيد فيه و لا ينقص»[۴۷].

و بالطبع، فإنّ تفسير فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ هو المقصود فى هذا الحديث، لأن إحدى علامات اتباع القول الحسن، هو أن لا يضيف الإنسان من عنده أى شيء على القول، و ينقله ذاته للآخرين.

و نقرأ

فى البلاغة فى حقل الكلمات القصار لأمير المؤمنين عليه السّلام: (الحكمة ضالة المؤمن، فخذ الحكمة و لو من أهل النفاق»[۴۸].

۴- سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسبابا لنزول هذه الآيات، و منها، أنّ الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵

وَ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ ... و الآية التى تلتها نزلنا بحق ثلاثة أشخاص (لم يستسلموا فى عهد الجاهلية لغوغاء المشركين فى مكّة) كانوا يقولون لا إله إلا اللّه، و الثلاثة هم (سلمان الفارسى و أبو ذر الغفارى و زيد بن عمرو)[۴۹].

و قد ورد اسم (سعيد بن زيد) بدلا (زيد بن عمرو) فى بعض الرّوايات ۵۰].

و البعض الآخر قال: إنّ الآية: أَ فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذابِ ... نزلت بشأن (أبى جهل) و أمثاله ۵۱].

و غير مستبعد أن تكون هذه الرّوايات من قبيل تطبيق الآية على المصاديق الواضحة و ليس أسبابا للنزول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۲۱) أَ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۲)

التّفسير

الذين هم على مركب من نور!!

فى هذه الآيات يستعرض القرآن الكريم مرّة اخرى دلائل التوحيد و المعاد، ليكمل البحوث التى تناولت مسألة الكفر و الإيمان الواردة فى الآيات السابقة. إذ تشرح أحد آثار عظمة و ربوبية البارئ عزّ و جلّ فى نظام عالم الكون، و ذلك عند ما تشير إلى مسألة (نزول المطر) من السماء، ثمّ إلى نمو آلاف الأنواع من الزرع بمختلف الألوان بعد أن تسقى من ماء عديم اللون، و إلى مراحل نموها حتى وصولها إلى المرحلة النهائية و تقول موجهة الخطاب الى النبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره القدوة لجميع المؤمنين أَ لَمْ

تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسَلَكَهُ يَنابِيعَ فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷

الْأَرْضِ ۵۲].

قطرات المطر التى تبعث الحياة حينما تنزل من السماء تمتصها الطبقة الأولى من طبقات الأرض، و عند ما تنفذ إلى داخل هذه الطبقة تقف عند طبقة اخرى فى الأرض و لا تتمكن من النفوذ خلالها، لتبعث مرّة اخرى إلى سطح الأرض بصورة عيون و قنوت و آبار.

كلمة (سكله) تعنى (نفوذ مياه الأمطار فى داخل قشرة الأرض) و هذه إشارة مختصرة لما ذكرناه آنفا.

«ينابيع» هى جمع (ينبوع) مشتقّة من (نبع) و تعنى فوران الماء من داخل الأرض. و لو كانت للأرض قشرة واحدة لا تمتلك القابلية على الامتصاص، فإنّ مياه الأمطار النازلة سوف تتجه بأكملها بعد هطولها إلى البحار لتصب فيها من دون أن تخزن داخل قشرة الأرض، و فى هذه الحالة ينعدم وجود العيون و القنوات و الآبار. و إذا كانت الأرض ذات قشرة واحدة نفوذية تماما، فإنّ كلّ مياه الأمطار تتجه نحو أعمق مناطق باطن الأرض، و فى تلك الحالة يستحيل الوصول إليها و استخراجها، فتنظيم قشرة الأرض بحيث توجد طبقتان إحداها نفوذية و الأخرى غير نفوذية، و بدرجات معينة، كلّ ذلك ثمّ وفق حسابات خاصة، تبيّن قدرة البارئ عزّ و جلّ.

و الملفت للنظر أنّ قشرة الأرض تكون أحيانا ذات طبقات متعددة، بعضها نفوذى و البعض الأخرى غير نفوذى، و مرتبة الواحدة فوق الأخرى و يستفاد منها فى عمليات حفر الآبار (السطحية) و (العميقة) و (نصف العميقة).

و تضيف الآية فيما بعد: ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ذات الأشكال المختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸

أى مختلف الأنواع كالحنطة و الشعير و الزر و الذرة، ذات الأشكال المختلفة و الألوان الظاهرية المتعددة، فمنها الأخضر الغامق، و الأخضر الفاتح، و بعضها ذو أوراق عريضة و كبيرة، و البعض الآخر ذو أوراق دقيقة و صغيرة.

و ممّا يذكر أن كلمة (زرع) تطلق على النباتات ذات الساق الدقيق، فيما تطلق كلمة (شجر) على الأشجار ذات السيقان القوية، و كلمة (زرع) ذات معان كثيرة تشمل النباتات الطبيعية التى لا يمكن الاستفادة منها للغذاء، و أنواع الورد و نباتات الزينة و الأعشاب الطبيعة التى يؤخذ منها الدواء، و أحيانا نرى فى غصن واحد، و لربّما فى وردة واحدة عدّة ألوان جميلة جذابة، تسبح و توحد البارئ عزّ و جلّ بلسان صامت.

ثمّ تنتقل الآية إلى مرحلة اخرى من مراحل حياة هذه النباتات، إذ تقول:

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا[۵۳] حيث تعصف به الرياح من كلّ جانب لتقلعه من مكانه بسبب ضعف سيقانه و يضيف تعالى: ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطاماً.

نعم، إن فى هذا لذكرى لأصحاب القول و أهل العلم إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ

هذا المشهد يذكّر الإنسان بالنظام الدقيق و العظيم الذى وضعه البارئ عزّ و جلّ لعالم الوجود، و إنّه تذكير بنهاية الحياة و انطفاء شعلتها، و من ثمّ بمسألة البعث و عودة الأموات إلى الحياة. فرغم أنّ هذا المشهد يتعلّق بعالم النبات، إلّا أنّه ينبّه الإنسان إلى أن مثل هذا الأمر سوف يتكرر فى حياته و عمره هو أيضا مع وجود بعض الاختلاف فى مدّة الأعمار، و لكن الأساس واحد إذ يبدأ بالولادة يتدرج إلى النشاط و الشباب، و من ثمّ الذبول و الكهولة، و فى النهاية الموت.

و كتتمة لهذا الدرس الكبير فى التوحيد و المعاد، تنتقل الآيات إلى المقارنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹

بين المؤمنين و الكافرين، كى توضح حقيقة أنّ القرآن و الوحى السماوى هما كقطرات المطر التى تهطل على الأرض، و كما أنّ الأرض التى لها الاستعداد هى التى تستفيد من قطرات المطر، فكذلك القلوب المستعدة لبناء ذاتها بالاستعانة بلطف اللّه، هى- فقط-

التى تستفيد من آيات اللّه، و ذلك طبقا لقوله تعالى: أ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ۵۴] كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور!! أمّا القاسية قلوبهم، فهم الذين لا تؤثر بهم المواعظ و لا الوعيد و لا البشرى، و لا الآيات القرآنية المؤثرة، و لا ينمى مطر الوحى الباعث للحياة عندهم ثمار التقوى و الفضيلة، و بصورة موجزة يمكن القول بأنّهم كالنباتات التى لا طراوة فيها و لا أوراق و لا ثمار و لا ظلّ.

نعم أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

«القاسية» مشتقّة من (قسوة) و تعنى الخشونة و الصلابة و التحجر، لذلك تطلق صفة (قاسية) على الأحجار الصلبة، و يقال للقلوب التى لا تظهر أى استجابة لنور الحق و الهداية، و لا تلين و لا تستسلم لها، و لا تسمح بنفوذ نور الحقّ و الهداية إليها (قلوب قاسية).

على آية حال، فإنّ هذه العبارة جاءت فى مقابل (انشراح الصدر) وسعة الروح، لأنّ الرحابة و الاتساع كناية عن الاستعداد للاستقبال، فالشارع و البيت الواسع يمكنهما أن يضمّا أناسا كثيرين، و كذلك الصدر الواسع و الروح المنشرحة، فإنّها مستعدّة لتقبّل حقائق أكثر.

و نقرأ فى إحدى الرّوايات

أنّ ابن مسعود قال: سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن تفسير هذه الآية: أ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۰

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا دخل النور فى القلب انشرح و انفتح».

ثم قلنا: يا رسول اللّه ما هى علامات انشراح الصدر؟ فقال: «الإنابة إلى دار الخلود، و التجافى عن دار الغرور، و الاستعداد للموت قبل نزوله»[۵۵].

أمّا على بن إبراهيم فيقول فى تفسيره أن عبارة: أ فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ نزلت فى حقّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام. و قد ورد فى تفاسير اخرى أنّ عبارة: فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ نزلت بحقّ (أبى لهب و أبنائه)[۵۶].

و من الواضح أنّ أسباب النّزول هنا هى فى الحقيقة من باب تطبيق المفهوم العام على المصاديق الواضحة.

إنّ ما يلفت النظر فى عبارة: فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ أنّ النور و الضياء جعل هنا بمثابه مركبة يركبها المؤمنون تفسير بهم بسرعة عجيبة و مسير واضح و قدرة على طواف العالم كلّه.

بحث

عوامل (شرح الصدر) و (قسوة القلب)

الناس ليسوا على وتيرة واحدة من حيث قبول الحق و إدراك الأمور، فالبعض يتمكّن من إدراك الحقيقة بمجرّد إشارة واحدة أو جملة قصيرة، و هذا يعنى أنّ تذكيرا واحدا يكفى لإيقاظهم فورا، و موعظة واحدة قادرة على إحداث صيحات فى أرواحهم و فى حين أنّ البعض الآخر لا يتأثّر بأبلغ الكلمات و أوضح الأدلّة و أقوى العبارات، و هذه المسألة ليست بالأمر السهل أو الهيّن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۱

و كم هى جميلة التعابير القرآنية فى هذا المجال، و ذلك عند ما تصف البعض بأنّهم ذو و صدور منشرحة و أرواح واسعة، و تصف البعض الآخر بأنّهم ذو و صدور ضيقة، كما ورد فى الآية (۱۲۵) من سورة الأنعام: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ

يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ.

هذا الموضوع يتّضح بصورة كاملة فى حالة دراسة أوضاع و أحوال الأشخاص، فالبعض لهم صدور منشرحة رحبة تتسع لاستيعاب أىّ مقدار من الحقائق، فى حين أنّ البعض الآخر على العكس، إذ أنّ صدورهم ضيقة و أفكارهم محدودة لا يمكنها أحيانا استيعاب أىّ حقيقة، و كأن عقولهم محاطة بجدران فولاذية لا يمكن اختراقها. و بالطبع لكلّ واحد منهما أسبابه.

فالدراسة الدائمة و المستمرة و الاتصال بالعلماء و الحكماء الصالحين، و بناء الذات و تهذيب النفس، و اجتناب الذنوب و خاصة أكل الطعام الحرام، و ذكر اللّه دائما، كلها أسباب و عوامل لانشراح الصدر، و على العكس فإنّ الجهل و الذنب و العناد و الجدل و الرياء، و مجالسة أصحاب السوء و الفجار و المجرمين و عبيد الدنيا و الشهوات، كلّها تؤدّى إلى ضيق الصدر و قساوة القلب.

فعند ما يقول القرآن الكريم: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً. فهذه الإرادة و عدم الارادة ليست اعتباطية و بدون دليل. بل هى نابعة من اعماقنا و ذواتنا فى البداية.

و

قد ورد حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام جاء فيه: «أوحى اللّه عزّ و جلّ إلى موسى: يا موسى لا تفرح بكثرة المال، و لا تدع ذكرى على كلّ حال، فإن كثرة المال تنسى الذنوب، و إن ترك ذكرى يقسى القلوب»[۵۷].

و

فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام، جاء فيه: «ما جفت الدموع إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۲

لقسوة القلوب، و ما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب»[۵۸].

كما

ورد فى حديث ثالث أنّ من جملة كلام اللّه سبحانه و تعالى مع موسى عليه السّلام «يا موسى لا تطول فى الدنيا أملك، فيقسو قلبك، و القاسى القلب منى بعيد»[۵۹].

و أخيرا،

ورد حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام جاء فيه: «لمتان: لمة من الشيطان و لمة من الملك، فلمّة الملك الرقة و الفهم، و لمّة الشيطان السهو و القسوة»[۶۰].

على أية حال، فإن من يريد انشراح صدره و إزالة القساوة من قلبه، عليه أن يتوجه نحو البارئ عزّ و جلّ كى يبعث الأنوار الإلهية فى قلبه كما وعد بذلك الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و عليه أن يصقل مرآة قلبه من صدأ الذنوب، و يطهّر روحه من أوساخ هوى النفس و الوساوس الشيطانية، استعدادا لاستقبال المعشوق، و أن يسكب الدموع خوفا من اللّه و حبا له، فإنّ فى ذلك تأثيرا عجيبا لا نظير له على رقّة و لين القلب و رحابة الروح، و فى المقابل فان جمود العين هو إحدى علامات القلب المتحجر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۳

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۳ الى ۲۶]

اشارة

اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى

اللَّهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۲۳) أَ فَمَنْ يَتَّقِى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (۲۴) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (۲۵) فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۲۶)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرين عن (عبد اللّه بن مسعود) أنّ جمعا من الصحابة ملّوا و تضجّروا، فقالوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: حدّثنا حديثا يزيل السأم من نفوسنا و الملل من قلوبنا، فنزلت أول آية من الآيات المذكورة أعلاه معرّفة القرآن ب (أحسن الحديث)[۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۴

التّفسير

اشارة

الآيات السابقة تحدثت عن العباد الذين يستمعون القول و يتبعون أحسنه، كما تحدثت عن الصدور الرحبة المستعدة لتقبل الحقّ.

الآيات التى يدور حولها البحث تواصل التطرق إلى هذا الأمر، كى تكمل حلقات البحوث السابقة الخاصة بالتوحيد و المعاد مع ذكر بعض دلائل النبوّة، إذ تقول الفقرة الأولى من الآية: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ

ثم تستعرض خصائص القرآن الكريم، حيث تشرح الخصائص المهمّة للقرآن من خلال بيان ثلاث صفات له:

أمّا الخاصية الأولى فهى كِتاباً مُتَشابِهاً

المقصود من (متشابه) هنا هو الكلام المتناسق الذى لا تناقض فيه و يشبه بعضه البعض، فلا تعارض فيه و لا تضادّ، و كلّ آية فيه أفضل من الأخرى و المتماثل من حيث اللطف و الجمال و العمق فى البيان.

و هذا بالضبط على عكس العبارات التى يصوغها الإنسان، و التى مهما اعتنى بصياغته فإنّها لن تخلو من الاخطاء و الاختلافات و التناقضات، خصوصا عند ما يتسع مجالها و تأخذ أبعادا أوسع، إذ تلاحظ أنّ بعضها فى قمّة البلاغة، و البعض الآخر عادى و طبيعى، و دراسة آثار الكتّاب الكبار المعروفين فى مجالى النثر و الشعر هى خير شاهد على هذا الموضوع.

أمّا كلام اللّه المجيد فليس كذلك، إذ نرى فيه انسجاما خارقا، و تناسقا لا نظير له فى المفاهيم و الفصاحة و البلاغة، و هذا بحدّ ذاته يجعل آيات القرآن تحكم و تشهد بأنّه ليس من كلام البشر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۵

أما الخاصية الثّانية فهى مَثانِيَ أى المكرر-

و هذه الكلمة تشير إلى تكرار بحوثه المختلفة و قصصه و مواعظه، التكرار الذى لا يملّ منه الإنسان، و إنّما على العكس من ذلك، إذ

يتشوق لتلاوته أكثر، و هذه إحدى أسس الفصاحة، إذ يعمد الإنسان أحيانا إلى التكرار و بصور مختلفة و أساليب متنوعة، و ذلك إذا أراد التأكيد على أمر ما و جلب الانتباه إليه و التأثّر به، كى لا يملّ السامع أو يضجر منه.

إضافة إلى أنّ مواضيع القرآن المكررة تفسّر إحداها الأخرى، و تحل الكثير من ألغازه عن هذا الطريق.

بعضهم اعتبرها إشارة إلى تكرار تلاوة القرآن و بقائه غضا طريا من جراء تكرار تلاوته.

و البعض الآخر اعتبرها إشارة إلى تكرار نزول القرآن، فمرّة نزل دفعة واحدة على صدر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك فى ليلة القدر، و مرّة أخرى بصورة تدريجية استمرت لفترة (۲۳) عاما.

و من المحتمل أن يكون المراد من التكرار هو ملاءمة القرآن لكلّ زمان، و انكشاف بعض الأمور الغيبية فيه بمرور السنوات.

و التّفسير الأوّل أنسب من بقية التفاسير، رغم عدم وجود أىّ تعارض بين الجميع، بل من الممكن أن تكون جميعها صحيحة[۶۲].

أمّا الخاصية الثّالثة فهى تقشعر منه الجلود

و هذه الخاصية للقرآن فهى مسألة نفوذه و تأثيره العميقين و الخارقين تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۶

إنّه لوصف و تجسيد لطيف و جميل لنفوذ آيات القرآن العجيب إلى أعماق القلوب، إذ أنّه فى بداية الأمر يبعث فى القلب شيئا من الخوف و الرهبة، الخوف الذى يكون أساسا للصحوة و لبدء الحركة، و الرهبة التى تجعل الإنسان يتحسس مسئولياته المختلفة. ثمّ تأتى مرحلة الهدوء و قبول آيات اللّه و تتبعها السكينة و الاستقرار.

هذه الحالة التدريجية التى تبيّن مراحل (السلوك إلى اللّه) المختلفة، يمكن إدراكها بسهولة، فالقلوب تقشعر فور ما تسمع آيات التهديد و التحذير النازلة على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، ثمّ تهدأ فور ما تسمع آيات الرحمة.

التفكير بذات اللّه و مسألة أبديته و أزليته و عدم محدوديته يوجد عند الإنسان حالة من الرهبة فى كيفية معرفة اللّه، إلّا أنّ دراسة آثار و دلائل ذاته المقدسة فى الآفاق و الأنفس تمنح الإنسان نوعا من الارتياح و الهدوء[۶۳].

و التأريخ الإسلامى ملىء بالشواهد على التأثير العجيب للقرآن فى قلوب المؤمنين، و حتى غير المؤمنين من أصحاب القلوب المستعدة لتقبل الإيمان، فالجاذبية أو النفوذ الخارق للقرآن دليل واضح على أنّ القرآن كتاب نزل من السماء بواسطة الوحى.

و قد ورد حديث عن (أسماء)، جاء فيه (كان أصحاب النّبى حقا إذا قرئ عليهم القرآن- كما نعتهم اللّه- تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم)[۶۴].

أمير المؤمنين عليه السّلام وصف هذه الحقيقة بأفضل وجه فى الخطبة الخاصة بالمتقين، إذ قال: «أمّا الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۷

يحزنون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنوا أنّها نصب أعينهم، و إذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنوا أنّ زفير جهنم و شهيقها فى أصول آذانهم».

و فى نهاية الآية يقول تعالى بعد أن بيّن تلك الخصائص: ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ.

حقا إنّ القرآن نزل لهداية الجميع، لكن المتقين و طلاب الحقّ و الحقيقة هم المستفيدون- فقط- من نوره، أمّا أولئك الذين تعمدوا

إغلاق كافة نوافذ قلوبهم أمام نور القرآن الكريم، و الذين تتحكم بأرواحهم ظلمات التعصب و العناد فقط لا يستفيدون من نور القرآن، و إنّما يزدادون ضلالة من جراء عنادهم و عدائهم، لذلك فإن تتمة الآية تقول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.

فهذه الضلالة هى التى يضع الإنسان حجر أساسها بيده، و يحكم بناء أساسها بواسطة أعماله الخاطئة و السيئة، و لذلك لا تتنافى إطلاقا مع إرادة الإنسان و حريته.

الآية التالية تقارن بين مجموعة من الظالمين و المجرمين، و مجموعة من المؤمنين الذين استعرضت أوضاعهم فيما قبل، و ذلك كى تجعل الحقيقة أكثر وضوحا فى هذه المقارنة، إذ تقول: أَ فَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ[۶۵] كمن هو آمن فى ذلك اليوم و لا تمسّه النّار أبدا؟!.

الملاحظة التى ينبغى الالتفات إليها، هى قوله تعالى: يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ و كما هو معروف فإنّ الوجه أشرف أعضاء جسم الإنسان، لأنّ فيه (العينان و الفم و الأذنان) التى هى أهم حواسّ الإنسان، و أساسا فإنّ تشخيص الإنسان إنّما يتمّ عن طريق وجهه، و لهذه الخصائص الموجودة فى الوجه، فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۸

الإنسان عند ما يحسّ أنّ هناك خطرا سيصيب وجهه، فإنّه يضع يديه و ما يمكن من أعضاء جسمه أمام وجهه كدرع لدرء ذلك الخطر.

إلا أن أوضاع الظالمين فى جهنم فى ذلك اليوم تجبرهم على استخدم وجوههم كوسيلة دفاعية، لأنّ أيديهم و أرجلهم مقيدة بالسلاسل، كما ورد فى الآية (۸) من سورة يس: إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ

قال البعض: بما أنّ أهل جهنم يرمون على وجوههم فى النّار، لذا فإنّ الوجه هو أوّل عضو من أعضاء الجسم يحترق فى نار جهنم، كما ورد فى الآية (۹۰) من سورة النمل: مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ.

و البعض الآخر قال: إنّ هذه العبارة كناية عن عجز أهل جهنم من الدفاع عن أنفسهم مقابل نار جهنم.

التفاسير الثلاثة- هذه- لا تتعارض مع بعضها، و يمكن أن تعطى جميعها مفهوم الآية.

ثم تضيف نهاية الآية: وَ قِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

نعم، إنّ ملائكة العذاب هى التى توضح لهم هذه الحقيقة المرّة و المؤلمة، إذ يقولون لهم: إنّ أعمالكم ستبقى معكم و ستعذبكم، و هذا التوضيح هو تعذيب روحى آخر لهؤلاء.

و ممّا يلفت النظر أنّ هذه العبارة لا تقول: ذوقوا عقاب ما كنتم تكسبون، و إنّما تقول لهم: ذوقوا ما كنتم تكسبون، و هذا شاهد آخر على مسألة تجسيد الأعمال يوم القيامة.

إنّ ما قيل لحدّ الآن هو إشارة بسيطة لعذابهم الأليم فى يوم القيامة، و الآية التالية تتحدّث عن العذاب الدنيوى لهؤلاء، كى لا يتصور أحد أنّه يعيش فى أمان بهذه الدنيا، قال تعالى: كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتاهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۶۹

لا يَشْعُرُونَ

فالإنسان لا يتألم كثيرا إن أصيب بضربة كان يتوقعها، إلّا أنّه يتألم كثيرا إن وجهت إليه ضربة من طرف لم يتوقع أن تصدر منه، كأن تصدر عن أقرب أصدقائه، أو يلحق به أذى من أمور حيوية جدا و محبوبة له كالماء الذى هو مصدر حياة الإنسان، أو من نفحة النسيم التى هى مصدر نشاطه، أو من الأرض الهادئة التى هى مقر استراحته و أمنه.

نعم، إنّ نزول العذاب الإلهى بواسطة هذه الطرق يعدّ أمرا مؤلما جدّا، كالذى أصاب قوم نوح و عاد و ثمود و لوط و فرعون و قارون و أمثالهم، إذ لم يكن أى أحد منهم يتوقع أن يصيبه العذاب بواسطة إحدى الطرق المذكورة أعلاه.

الآيـة الأخيرة فى بحثنا هـذا تبيّن أنّ عـذاب هؤلاء الدنيوى لا يقتصـر على العذاب الجسدى، و إنّما يشـتمل أيضا على عقوبات نفسـية: فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا[۶۶].

نعم، فإن أصـيب الإنسان بمصـيبة فى هـذه الـدنيا، ثمّ خرج منها مرفوع الرأس حافظا لماء وجهه، فهـذه الحالـة ليست بعار و خزى على الإنسان، إنّما العار و الخزى للإنسان الـذى يخرج من هذه الدنيا رذيلا و ذليلا، و مبتلى بعذاب فاضح يريق ماء وجهه، وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۶۹

مة (أكبر) كناية عن شدّة العذاب و قسوته.

بحث

وردت عدّة روايات فى ذيل الآيات مورد البحث تجسّم أمامنا آفاقا أوسع مهما يفهم من الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۰

إذ

نقل العباس عم النّبى، حديثا عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم جاء فى، «إذا اقشعر جلد العبد من خشية اللّه تحاتت عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها»[۶۷].

و من الواضـح أن الشـخص الـذى يخشـى اللّه و يتأثر من ذلك الى هـذه الدرجـة لا بـدّ أن تتوفر فيه حالـة التوبـة و الانابة، و مثل هذا الشخص سيكون موردا لعفو اللّه و مغفرته حتما.

و روى عن (أسماء) إذ قالت عند ما سئلت عن أصحاب رسول اللّه فقالت:

(كان أصحاب النّبى حقا إذا قرئ عليهم القرآن- كما نعتهم اللّه- تدمع أعينهم و تقشعر جلودهم). و أضاف الراوى: سئلت أسماء: هل عنـدنا أحد يغمى عليه أو يفقد الوعى عند ما يسـمع آيات القرآن المجيد، فأجابت أسـماء: أعوذ باللّه تعالى من الشـيطان، (أى إنّه من عمل الشيطان)[۶۸].

هـذا الحـديث- فى الحقيقة- جواب لأولئك المتصوفة الذين يعقدون الاجتماعات و الحلقات، و يقرءون فيها بعض الآيات و الأذكار، ثمّ يقومون ببعض الحركات بعنوان حالة الوجد و السـرور، ثمّ يشـرعون بإطلاق بعض الصـيحات و إظهار أنفسـهم و كأنّهم قد أغشـى عليهم، و يحتمل أن البعض يغشـى عليه فعلا. مثل هـذه الأمور لم ينقلها أحـد أبـدا بشأن أصـحاب الرّسول، و ما هى إلّا بدعـة ابتـدعها المتصوفة.

و بالطبع يمكن أن ينـدهش الإنسان أحيانا و قد يغشـى عليه من شدّة خوفه من البارئ عزّ و جلّ، و هذا الأمر يختلف كثير عن ممارسـة الصوفيين الذين يعقدون الحلقات للذكر التى ذكرناها آنفا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۱

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

اشارة

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۲۷) قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (۲۸) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا

فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۲۹) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (۳۰) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (۳۱)

التّفسير

قرآن لا عوج فيه:

الآيات- هنا- تبحث خصائص القرآن المجيد أيضا، و تكمل البحوث السابقة فى هذا المجال.

ففى البداية تتحدّث عن مسألة شمولية القرآن، إذ تقول الآية الكريمة: وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

حيث تمّ فيه شرح قصص الطغاة و المتمردين الرهيبة، و عواقب الذنوب الوخيمة، و نصائح و مواعظ، و أسرار الخلق و نظامه، و أحكام و قوانين متينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۲

و بكلمة أنّه وضح فيه كلّ ما هو ضرورى لهداية الإنسان على شكل أمثال، لعلهم يتذكرون و يعودون من طريق الضلال إلى الصراط المستقيم لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

و ممّا يذكر أنّ «المثل» فى اللغة العربية هو الكلام الذى يجسّم الحقيقة، أو يصف الشىء، أو يشبه الشىء بشىء آخر، و هذه العبارة شملت كلّ حقائق و مواضيع القرآن، و بيّنت شموليته.

ثم تتطرق الآية إلى وصف آخر للقرآن، إذ تقول: قُرْآناً عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ۶۹].

فى الحقيقة، تمّ هنا ذكر ثلاث صفات للقرآن:

الأولى كلمة (قرآنا) التى هى إشارة إلى حقيقة أنّ الآيات الكريمة ستبقى تتلى دائما، فى الصلاة و فى غير أوقات الصلاة، فى الخلوات و فى أوساط الناس، و على طول التاريخ الإسلامى حتى قيام الساعة، و بهذا الترتيب فإن آيات القرآن ستبقى نور الهداية المضىء على الدوام.

الصفة الثّانية هى فصاحة و حلاوة و جاذبية هذا الكلام الإلهى، الذى عبّر عنه ب (عربيا) لأنّ إحدى معانى العربى هى الفصاحة، و المقصود منه هنا هذا المعنى.

الصفة الثّالثة، ليس فيه أى اعوجاج، فآياته منسجمة، و عباراته ظاهرة و يفسّر بعضها البعض ۷۰].

الكثير من اللغويين و أصحاب التّفسير قالوا: إنّ (عوج) (بكسر العين) تعنى الانحرافات المعنوية، فى حين أنّ (عوج) بفتح العين، تعنى الاعوجاج الظاهر.

و من النادر استعمال العبارة الأولى فى الاعوجاج الظاهرى، ما فى الآية (۱۰۷) من سورة طه: لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً لهذا فإنّ بعض اللغويين يعتبرونها أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۳

عمومية[۷۱].

و على أية حال، فإنّ الهدف من نزول القرآن الكريم- بكل هذه الصفات التى ذكرناها- هو لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية السابقة انتهت بعبارة: لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ و هنا انتهت بعبارة: لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ لأنّ التذكّر يكون دائما مقدّمة للتقوى و «التقوى» هى ثمرة شجرة «التذكر».

ثمّ يستعرض القرآن المجيد أحد الأمثال التى ضربت ليرسم من خلاله مصير الموحّد و المشرك، و ذلك ضمن إطار مثل ناطق و جميل، إذ يقول: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكاءُ مُتَشاكِسُونَ ۷۲].

أى إنّ هناك عبدا يمتلكه عدّة أشخاص، كلّ واحد منهم يأمره بتنفيذ أمر معين، فهذا يقول له: نفذ العمل الفلانى، و الآخرة ينهاه عن تنفيذ ذلك العمل، و هو فى وسطهم كالتائه الحيران، لا- يدرى أى أمر ينفّذ، فالأمران متناقضان و متضادان، و لا يدرى أيّا منهما يرضيه؟

و الأدهى من كلّ ذلك أنّه عند ما يطلب من أحدهم توفير مستلزمات حياته، يرميه على الآخر، و الآخر يرميه على الأوّل، و هكذا يبقى محروما محتاجا عاجزا تائها. و فى مقابله هناك رجل سلم لرجل واحد وَ رَجُلًا سَلَماً لِرَجُلٍ

فهذا الشخص خطه و منهجه واضح، و ولى أمره معلوم فلا تردد و لا حيرة و لا تضاد و لا تناقض، يعيش بروح هادئة و يخطو خطوات مطمئنة، و يعمل تحت رعاية فرد يدعمه فى كلّ شىء و فى كلّ أمر و فى كلّ مكان. فهل أنّ هذين الرجلين متساويان هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۴

هذا المثال ينطبق على (المشرك) و (الموحد) فالمشرك يعيش فى وسط المتضادات و المتناقضات، و كل يوم يتعلق قلبه بمعبود جديد، فلا- استقرار فى حياته و لا- اطمئنان و لا مسير واضح يسلكه. أما الموحّدون فإنّهم يعشقون اللّه وحده، و فى كلّ الأحوال يلجؤون إلى ظلّ لطفه، و لا تنظر عيونهم إلى سواه، فطريقهم و نهجهم واضح، و مصيرهم و نهايتهم واضحة أيضا.

و

جاء فى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام «أنا ذاك الرجل السلم لرسول اللّه»[۷۳].

و

ورد فى حديث آخر عنه أيضا «الرجل السلم للرجل حقا علىّ و شيعته»[۷۴].

و فى نهاية الآية يقول تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ فاللّه سبحانه و تعالى بذكره لتلك الأمثال يرشدكم إلى أفضل السبل، و يضع تحت تصرفكم أوضح الدلائل لتشخيص الحقّ عن الباطل، فالبارئ عزّ و جلّ يدعو الجميع إلى الإخلاص و فى ظل الإخلاص تكون السكينة و الراحة، فهل هناك نعمة أفضل من هذه، و هل هناك أمر آخر يستحق الحمد و الشكر أكثر من هذه النعمة؟! و لكن أكثرهم لا يعلمون رغم وجود هذه الدلائل الساطعة، إذ أنّ حبّ الدنيا و الشهوات الطاغية عليهم يجعلهم يضلون عن طريق الحقيقة: بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

و تتمّة لبحث الآيات السابقة بشأن التوحيد و الشرك، تتحدث الآية التالية عن نتائج الشرك و التوحيد فى موقف القيامة.

إذ تبدأ بمسألة الموت الذى هو بوابة القيامة، و تبيّن لكلّ البشرية أنّ قانون الموت عامّ، و شامل للجميع: إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۵

نعم، فالموت من الأمور التى تشمل جميع الناس، و لا يستثنى منه أحد، فهو طريق يجب أن يمرّ به الجميع فى نهاية المطاف.

قال بعض المفسّرين: إنّ أعداء رسول اللّه كانوا ينتظرون وفاته، و كانوا فى نفس الوقت فرحين مسرورين لكون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يموت فى نهاية الأمر، فالقرآن- هنا- أجابهم بالقول: إن مات رسول اللّه فهل تبقون أنتم خالدين، هذا ما نصت عليه الآية (۳۴) من سورة الأنبياء: أَ فَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخالِدُونَ

ثم ينتقل البحث إلى محكمة يوم القيامة، ليجسم المجادلة بين العباد فى ساحة المحشر، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

«تختصمون»: مشتقّة من (اختصام) و تعنى النزاع و الجدال بين شخصين أو مجموعتين تحاول كل، منهما تفنيد كلام الأخر، فأحيانا يكون أحدهم على حقّ و الآخر على باطل، و أحيانا يكون الاثنان على باطل، كما فى مجادلة و مخاصمة أهل النّار فيما بينهم، و قد اختلف المفسّرون فى كون هذا الحكم عاما أم لا.

قال البعض: إنّ المخاصمة تقع بين المسلمين و الكفار.

و قال البعض الآخر: إنّها تقع بين المسلمين أنفسهم، و فى رواية عن أبى سعيد الخدرى قال: لم يكن أحد فينا يفكر فى أن يقع خصام فيما بين المسلمين، و كنّا نقول: كيف نختصم نحن و ربّنا واحد، و نبيّنا واحد و ديننا واحد؟ فلما كان يوم صفين و شدّ الفريقان الذين كانا مسلمين (حيث كان أحدهما مسلما حقيقيا و الآخر يدعى الإسلام) بالسيوف على بعضهما البعض، قلنا: نعم، الآية تشملنا نحن أيضا[۷۶].

و لكن الآيات التالية تبيّن أنّ المخاصمة تقع بين الأنبياء و المؤمنين من جهة، و المشركين المكذبين من جهة اخرى.

لمّا توفّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قام عمر بن الخطاب، فقال: إنّ رجالا من المنافقين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۶

يزعمون أنّ رسول اللّه قد توفّى و اللّه رسول اللّه ما مات، و لكنّه ذهب الى ربّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثمّ رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، و و اللّه ليرجعنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال و أرجلهم زعموا أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مات؟.

و قال الرّاوى: و أقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر، و عمر يكلّم الناس، فلم يلفت إلى شىء حتى دخل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى بيت عائشة، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مسجّى فى ناحية البيت، عليه برد حبرة؟، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ثمّ قال الراوى: قال أبو بكر: على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلّا أن يتكلم ثمّ تلا أبو بكر هذه الآية: وَ ما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ

قال الرّاوى: فو اللّه لكأنّ الناس يعلموا أنّ هذه الآية ما نزلت حتى تلا أبو بكر ثمّ قال عمر: و اللّه ما هو إلّا أن سمعت أبا بكر تلاها فعفرت ۷۷] حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى، رجلاى ۷۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۷

بداية الجزء الرابع و العشرون من القران الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۷۹

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۲ الى ۳۵]

اشارة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ أَ لَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (۳۲) وَ الَّذِى جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (۳۳) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ (۳۴) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ (۳۵)

التّفسير

أولئك الذين يصدقون كلام اللّه:

هذه الآيات تواصل البحث الخاصّ بموقف الناس فى ساحة المحشر، و تخاصمهم فى تلك المحكمة الكبرى، و تقسم آيات بحثنا إلى مجموعتين هما (المكذبون) و (المصدقون).

و القرآن الكريم يعطى صفتين لأصحاب المجموعة الأولى، أى «المكذبين»، قال تعالى: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَ كَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جاءَهُ

الكافرون و المشركون يكذبون كثيرا على البارئ عزّ و جلّ، فأحيانا يعتبرون الملائكة بنات اللّه، و أحيانا يقولون: عيسى هو ابن اللّه، و أحيانا اخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۰

يعتبرون الأصنام شفعاء لهم عند اللّه، و أحيانا يبتدعون أحكاما كاذبة فى الحلال و الحرام و ينسبونها إلى اللّه، و ما شابه ذلك.

و أمّا الكلام الصادق الذى أنزل إليهم و كذّبوه فهو القرآن المجيد.

خاتمة الآية تبيّن فى جملة قصيرة جزاء أمثال هؤلاء الأفراد، قال تعالى:

أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ ۷۹].

أمّا المجموعة الثّانية فقد وصفها القرآن الكريم بوصفين، إذ قال: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ وَ صَدَّقَ بِهِ أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ

فبعض الرّوايات الواردة عن أئمّة الهدى عليهم السّلام فسّرت: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ بأنّها تعود على النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و صَدَّقَ بِهِ تعود على على عليه السّلام ۸۰]، و بالطبع فإن المقصود من ذلك هو باين مصداقية الآية، لأنّ عبارة: أُولئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ دليل على شمولية الآية.

و من هنا يتّضح أنّ تفسير الآية المذكورة أعلاه بأن المراد شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم الذى هو مهبط الوحى و المصدق به فى نفس الوقت، فهو أيضا من قبيل بيان مصداق الآية و ليس بيان المفهوم العام لها.

لذلك فإنّ مجموعة من المفسّرين فسّروا عبارة قوله تعالى: وَ الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ بأنّه يعنى كلّ الأنبياء و صَدَّقَ بِهِ يعنى أتباعهم الحقيقيين، و هم المتقون.

و هناك تفسير آخر للآية، لكنّه أوسع و أكثر شمولية من التفاسير الأخرى، رغم أنّه لم يحظ كثيرا باهتمام المفسّرين، لكنّه أكثر انسجاما مع ظاهر الآيات، و التّفسير هو أن الَّذِي جاءَ بِالصِّدْقِ ليس منحصرا فى الرّسل فقط، و إنّما يشمل كلّ الذين يبلغون نهج الأنبياء و يروجون كلام اللّه، و فى هذه الحالة فلا يوجد أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۱

مانع من القول بأن العبارتين تنطبقان على مجموعة واحدة (كما يوضح ذلك ظاهر الآية، لأنّ ضمير (و الذى ذكر مرّة واحدة فقط).

و بهذا الشكل فإنّ الآية تتحدّث عن أناس هم من حملة الرسالة و من العاملين به، و تتحدّث عن أولئك الذين ينشرون فى العالم ما ينزل به الوحى من كلام البارئ عزّ و جلّ و هم يؤمنون به و يعملون به، و هكذا فإنّ الآية تضم الأنبياء و الأئمّة المعصومين و الدعاء لنهج الأنبياء.

و الملفت للنظر أنّ الاية عبّرت عن الوحى «بالصدق» و هو اشارة إلى أن. الكلام الوحيد الذى لا يحتمل وجود الكذب و الخطأ فيه هو كلام اللّه الذى نزل به الوحى، فإن سار الإنسان فى ظلّ تعليمات نهج الأنبياء و صدقها فإنّ التقوى سوف تتفتح فى داخل روحه.

الآية التالية تبيّن أنّ هناك ثلاث مثوبات بانتظار أفراد هذه المجموعة، أى المصدقين، إذ تقول فى البداية: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ

لهذه الآية مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ النعم المادية و المعنوية التى يمكن تصورها و التى لا يمكن تصورها.

و على ضوء هذه الآية يطرح البعض السؤال التالى: إذا طلب أحدهم أن يكون مقامه أرفع من مقام الأنبياء و الأولياء، فهل يعطى ذلك؟

علينا أن لا نغفل عن كون أهل الجنّة يدركون عين الحقيقة، و لهذا لا يفكر أحد منهم بأمر يخالف الحقّ و العدالة، و لا يتناسب مع

أساس توازن اللياقات و الكفاءات.

بعبارة اخرى: لا يمكن أن يحصل أشخاص لهم درجات مختلفة فى الإيمان و العمل على نفس الجزاء، فكيف يأمل أصحاب الجنّة فى تحقيق أشياء مستحيلة؟! و فى نفس الوقت فإنّهم يعيشون فى حالة روحية خالية من الحسد و الغيرة، و هم راضون بما رزقوا به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۲

و كما هو معلوم فإنّ المكافاة الإلهية فى الآخرة و حتى التفضيل الإلهى للبعض دون البعض الآخر إنّما يتمّ على أساس اللياقة التى حصل عليها الإنسان فى هذه الدنيا، فالذى يعرف أنّ إيمانه و عمله فى هذه الدنيا لم يصل إلى درجة إيمان و عمل الآخرين لا يأمل يوما ما أن يكون بمرتبتهم، لإنّ ذلك أمل و رجاء غير منطقى.

و عبارة: عِنْدَ رَبِّهِمْ تبيّن عدم انقطاع اللطف الإلهى عن أولئك و كأنّهم ضيوف اللّه على الدوام، و كلّ ما يطلبونه يوفر لهم.

و عبارة: ذلِكَ جَزاءُ الْمُحْسِنِينَ أقيم فيها الظاهر مقام ضمير الإشارة، اشارة الى أن إحسانهم و عملهم الصالح كانا سببا فى حصولهم على الأجر المذكور.

أمّا المكافأتان الثانية و الثّالثة اللتان يمنحهما البارئ عزّ و جلّ للمصدقين، فيقول القرآن المجيد بشأنهما: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ ۸۱].

كم هى عبارة جميلة و لطيفة! فمن جانب يدعون اللّه سبحانه و تعالى ليكفّر عنهم أسوأ ما عملوا بظلّ لطفه، و يطهرهم من تلك البقع السوداء بماء التوبة، و من جهة اخرى يدعون اللّه ليجعل أفضل و أحسن أعمالهم معيارا للمكافأة، و أن يجعل بقية أعمالهم ضمن ذلك العمل.

إنّ ما يتّضح من الآيات الكريمة هو أنّ اللّه استجاب لدعواهم، عند ما غفر لهم و عفا عن أسوأ أعمالهم، و جعل أفضل الأعمال معيارا للمكافأة.

من البديهى، عند ما يشمل العفو الإلهى الزلّات الكبيرة، فإنّ الزلات الصغيرة أولى بالشمول، لأنّ الزلات الكبيرة هى التى تقلق الإنسان أكثر من أىّ شىء آخر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۳

و لهذا السبب فإنّ المؤمنين كثيرا ما يفكرون بها.

و ثمة سؤال يطرح نفسه هنا: إذا كانت الآيات السباقة تخص الأنبياء و المؤمنين من أتباعهم، فكيف اقترف هؤلاء تلك الزلات الكبيرة؟

الجواب على هذا السؤال يتّضح من خلال الانتباه إلى أنّه عند ما ينسب عمل ما إلى مجموعة، فهذا لا يعنى أنّ الجميع قاموا بذلك العمل، و إنّما يكفى أن تقوم به مجموعة صغيرة منهم، فمثلا عند ما نقول: إن بنى العباس خلفوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من دون أىّ حق، فإنّ هذا لا يعنى أنّ الكل اعتلوا كرسى الخلافة، و إنّما مجموعة منهم.

الآية المذكورة أعلاه تبيّن أنّ مجموعة من حملة الرسالة و أتباع نهجهم كانوا قد ارتكبوا بعض الأخطاء و الزلّات، و أنّ البارئ عزّ و جلّ صفح عنهم و غفر لهم بسبب أعمالهم الصالحة و الحسنة. على أيّة حال فإنّ ذكر الغفران و الصفح قبل ذكر الثواب، يعود إلى هذا السبب، و هو أنّ عليهم فى البداية أن يغتسلوا و يتطهروا، و من ثمّ الورود الى مقام القرب الالهى. يجب عليهم فى البداية أن يريحوا أنفسهم من العذاب الإلهى كى يتلذذوا بنعم الجنّة.

مسألة:

الكثير من المفسّرين المسلمين من الشيعة و السنة نقلوا الرّواية التالية بشأن تفسير هذه الآية، و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هو المقصود فى وَ الَّذِى جاءَ بِالصِّدْقِ و أن الإمام على عليه السّلام هو المقصود فى صَدَّقَ بِهِ

المفسّر الإسلامى الكبير العلّامة «الطبرسى» نقل ذلك فى تفسيره (مجمع البيان) عن أهل البيت الأطهار، و نقلها كذلك أبو الفتوح الرازى فى تفسير (روح الجنان) عن نفس المصدر السابق. كما نقلت مجموعة من المفسّرين السنة ذلك عن أبى هريرة نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و عن طرق اخرى، و من جملة من نقله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۴

العلّامة ابن المغازلى فى (المناقب) و (العلّامة الگنجى) فى (كفاية الطالب) و القرطبى فى تفسيره و العلّامة السيوطى فى (الدر المنثور) و كذلك (الآلوسى) فى (روح المعانى)[۸۲].

و مثلما أشرنا من قبل فإنّ نقل مثل هذه التفاسير هو بيان أوضح المصاديق، و من دون أىّ شكّ فإنّ الإمام علىّ عليه السّلام يقف فى مقدمة الصفّ الأوّل لأتباع النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المصدّقين به، و إنّه هو أول من صدّق برسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و لا يوجد أحد من العلماء من ينكر هذه الحقيقة.

و الاعتراض الوحيد الذى صدر عن بعض المفسّرين هو أنّ الإمام على عليه السّلام آمن بالرّسول و كان عمره ما بين (۱۰) إلى (۱۲) عاما، و أنّه لم يكن مكلّفا فى هذا السّن و لم يبلغ بعد سنّ الحلم.

هذا الكلام عجيب جدّا، فكيف يمكن أن يكون مثل هذا الاعتراض صحيحا، فى الوقت الذى قبل فيه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إسلام على عليه السّلام، و قال له بأنّه (وزيره) و (وصيه) و أكّد مرارا و تكرارا فى كلماته على أنّ عليا هو (أول المؤمنين) أو (أوّلكم إسلاما) و قد أوردنا فى نهاية الآية (۱۰) من سورة التوبة أدلة متعددة من كتب علماء أهل السنة و بصورة مفصلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۵

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۶) وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ (۳۷)

سبب النّزول

الكثير من المفسّرين قالوا: إنّ مشركى قريش كانوا يخوفون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من آلهتهم و يحذرونه من غضبها على أثر وصفه تلك الأوثان بأوصاف مزرية، و يوعدونه بأنّه إن لم يسكت عنها فستصيبه بالأذى، و للرد على كلامهم نزلت الآية المذكورة أعلاه ۸۳].

و البعض قال: عند ما عزم خالد على كسر العزى بأمر من النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال المشركون: إياك يا خالد فبأسها شديد. فضرب خالد أنفها بالفأس و هشمها و قال:

كفرانك يا عزى لا سبحانك، سبحان من أهانك، إنّى رأيت اللّه قد أهانك ۸۴].

و لكن قصة خالد هذه التى كانت بعد فتح مكّة كما يبدو، لا يمكن أن تكون سببا لنزول الآية لأنّ كلّ سورة الزمر (مكية) و لهذا لعلها من قبيل التطابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۶

التّفسير

إن اللّه كاف!

تتمة لتهديدات البارئ عزّ و جلّ التى وردت فى الآيات السابقة للمشركين، و الوعد التى لأنبيائه، تتطرق الآية الأولى فى بحثنا لتهديد الكفّار أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَ يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

إن قدرة البارئ عزّ و جلّ أقوى و أعظم من كلّ القدرات الأخرى، و هو الذى يعلم بكلّ احتياجات و مشكلات عباده، و الذى هو رحيم بهم غاية الرحمة و اللطف، كيف يترك عباده المؤمنين لوحدهم أمام أعاصير الحوادث و عدوان بعض الأعداء؟

و مع أن سبب نزول هذه الآية- طبقا لما جاء فى الرّوايات التى ذكرناها- هو للرد على التخويف و التهديد بغضب الأصنام، لكن معنى الآية أوسع، و يتّسع لكلّ تهديد يهدد به الإنسان بما هو دون اللّه.

على أية حال، فإنّ فى هذه الآية بشرى لكلّ السائرين فى طريق الحقّ و المؤمنين الحقيقيين، خاصّة أولئك الذين يعيشون أقلية فى بعض المجتمعات، و المحاطين بمختلف أشكال التهديد من كلّ جانب.

الآية تعطيهم الأمل و الثبات، و تملأ أرواحهم بالنشاط و تجعل خطواتهم ثابتة، و تمحو الآثار النفسية لصدمات تهديدات الأعداء، نعم فعند ما يكون اللّه معنا فلا نخاف غيره، و إن انفصلنا و ابتعدنا عنه فسيكون كلّ شىء بالنسبة لنا رهيبا و مخيفا.

و كتتمة للآية السابقة و الآية التالية اشارة إلى مسألة (الهداية) و (الضلالة) و تقسم الناس إلى قسمين: (ضالين) و (مهتدين) و كل هذا من اللّه سبحانه و تعالى، كى تبيّن أنّ جميع العباد محتاجون لرحمته، و من دون إرادته لا يحدث شىء فى هذا العالم، قال تعالى: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۷

وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍ

و من البديهى أنّ الضلالة لا تأتى من دون سبب، و كذلك الهداية بل إن كلّ حالة منهما هى استمرار لإرادة الإنسان و جهوده، فالذى يضع قدمه فى طريق الضلال، و يبذل أقصى جهوده من أجل إطفاء نور الحقّ، و لا يترك أدنى فرصة تتاح له لخداع الآخرين و إضلالهم، فمن البديهى أنّ اللّه سيضله، و لا يكتفى بعدم توفيقه و حسب، و إنّما يعطّل قوى الإدراك و التشخيص التى لديه عن العمل، و يوصد قلبه الأقفال و يغطى عينيه بالحجب، و هذه هى نتيجة الأعمال التى ارتكبها.

أمّا الذين يعزمون على السير إلى اللّه سبحانه و تعالى بنوايا خالصة، و يخطون الخطوات الأولى فى هذا المسير، فإنّ نور الهداية الإلهية يشعّ لينير لهم الطريق، و تهبّ ملائكة الرحمن لمساعدتهم و لتطهير قلوبهم من وساوس الشياطين، فتكون إرادتهم قوية، و خطواتهم ثابتة، و اللطف الإلهى ينقذهم من الزلّات.

و قد وردت آيات كثيرة فى القرآن المجيد كشاهد على تلك القضايا، و ما أشدّ جهل الذين فصلوا بين مثل هذه الآيات و بقية آيات القرآن و اعتبروها شاهدا على ما ورد فى المذهب الجبرى، و كأنّهم لا يعلمون أن آيات القرآن تفسّر إحداها الأخرى. بل إن القرآن الكريم يقول فى نهاية هذه الآية: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقامٍ و هو خير شاهد على هذا المعنى.

و كما هو معروف فإنّ الانتقام الإلهى هو بمعنى الجزاء على الأعمال المنكرة التى اقترفها الإنسان، و هذا يشير إلى أن إضلاله سبحانه و تعالى للإنسان هو بحدّ ذاته نوع من أنواع الجزاء وردّ فعل لأعمال الإنسان نفسه، و بالطبع فإن هدايته سبحانه و تعالى للإنسان هى بحد

ذاتها نوع أنواع الثواب، و هى ردّ فعل للأعمال الصالحة و الخالصة التى يقوم بها الإنسان ۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۸

بحثان

۱- الهداية و الإضلال من اللّه:

«الهداية»: فى اللغة تعنى التوجيه و الإرشاد بلطف و دقّة[۸۶]، و تنقسم إلى قسمين (بيان الطريق)، و (الإيصال إلى المطلوب) و بعبارة اخرى (هداية تشريعية) و (هداية تكوينية)[۸۷].

و لتوضيح ذلك نقول: إنّ الإنسان يصف أحيانا الطريق للسائل بدقّة و لطف و عناية و يترك السائل معتمدا على الوصف فى قطع الطريق و الوصول إلى المقصد المطلوب. و أحيانا اخرى يصف الإنسان الطريق للسائل و من ثمّ يمسك بيده ليوصله إلى المكان المقصود.

و بعبارة اخرى: الشخص المجيب فى الحالة الأولى يوضّح القانون و شرائط سلوك الطريق للشخص السائل كى يعتمد الأخير على نفسه فى الموصول إلى المقصد و الهدف، أمّا فى الحالة الثانية، فإضافة إلى ما جاء فى الحالة الأولى، فإنّ الشخص المجيب يهيء مستلزمات السفر، و يزيل الموانع الموجود، و يحلّ المشكلات، إضافة إلى أنّه يرافق الشخص السائل فى سلوك الطريق حتّى الوصول إلى مقصده النهائى لحمايته و الحفاظ عليه.

و (الإضلال) هو النقطة المقابلة ل (الهداية).

فلو ألقينا نظرة عامة على آيات القرآن لا تضح لنا- بصورة جيدة- أنّ القرآن يعتبر أنّ الضلالة و الهداية من اللّه، أى أن الاثنين ينسبان إلى اللّه، و لو أردنا أن نعدد كل الآيات التى تتحدث بهذا الخصوص، لطال الحديث كثيرا، و لكن نكتفى بذكر ما جاء فى الآية (۲۱۳) من سورة البقرة: وَ اللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۸۹

و فى الآية (۹۳) من سورة النحل: وَ لكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ. و أمثال هذه الآيات- الخاصة بالهداية أو الضلال أو أحدهما- ورد فى آيات كثيرة من القرآن المجيد[۸۸].

و أكثر من هذا، فقد جاء فى بعض الآيات نفى قدرة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم على الهداية و تحديد القدرة على الهداية باللّه سبحانه و تعالى، كما ورد فى الآية (۵۶) من سورة القصص: إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ. و فى الآية (۲۷۲) من سورة البقرة: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ.

الدراسة السطحية لهذه الآيات و عدم إدراك معانيها العميقة أدى الى زيغ البعض خلال تفسيرهم لها و انحرافهم عن طريق الهداية و وقوعهم فى فخاخ المذهب الجبرى، حتّى أنّ بعض المفسّرين المعروفين لم ينجوا من هذا الخطأ الكبير، حيث اعتبروا الضلالة و الهداية و فى كلّ مراحلها أمرا جبريا، و الأدهى من ذلك أنّهم أنكروا أصل العدالة كى لا ينتقض رأيهم، لأنّ هناك تناقضا واضحا بين عقيدتهم و بين مسألة العدالة و الحكمة الإلهية، فإذا كنا أساسا نقول بالجبر، فلا يبقى هناك داع للتكليف و المسؤولية و إرسال الرسل و إنزال الكتب السماوية.

أمّا المعتقدون بمذهب الإختيار و أن الإنسان مخير فى هذه الدنيا- و أن العقل السليم لا يقبل مطلقا بأن اللّه سبحانه و تعالى يجبر مجموعة من الناس على سلوك سبيل الضلال ثمّ يعاقبهم على عملهم ذلك، أو أنّه يهدى مجموعة اخرى إجباريا ثم يمنحها- من

دون أى سبب- المكافأة و الثواب، و يفضلها على الآخرين لأدائها عملا كانت قد أجبرت على القيام به- فهؤلاء انتخبوا لأنفسهم تفاسير اخرى لهذه الآيات، كان أهمها:

۱- إنّ المراد من الهداية الإلهية هى الهداية التشريعية التى تأتى عن طريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۰

الوحى و الكتب السماوية و إرسال الأنبياء و الأوصياء، إضافة إلى إدراك العقل و الشعور، أمّا انتهاج السبيل فهو فى عهدة الإنسان فى كافة مراحل حياته. و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يتطابق مع الكثير من الآيات القرآنية التى تتناول موضوع الهداية، و لكن هناك آيات كثيرة اخرى لا يمكن تطابقها مع هذا التّفسير، لأنّ فيها نوعا من الصراحة فيما يخص (الهداية التكوينية) و (الإيصال إلى الهدف) كما ورد فى الآية (۵۶) من سورة القصص: إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ. فى حين أنّنا نعرف أنّ الهداية التشريعية و التوجيه نحو الطريق الصحيح، هى الواجب الرئيسى للأنبياء.

۲- مجموعة اخرى من المفسّرين فسّروا الهداية و الضلال اللذين لهما هنا طابع تكوينى على أنّهما الثواب و العقاب، و الإرشاد إلى طريق الجنّة و النّار، و قالوا بأن البارئ عزّ و جلّ يهدى المؤمنين إلى طريق الجنّة، و يضل عنها الكافرين.

إن هذا المعنى صحيح بالنسبة لعدّة آيات فقط، و لكنّه لا يتطابق مع آيات اخرى تتحدث عن الهداية و الإضلال بصورة مطلقة.

۳- مجموعة ثالثة قالت: إنّ المراد من الهداية هو تهيئة الأسباب و المقدمات التى توصل إلى الغرض المطلوب، و المراد من الضلالة هو عدم توفير تلك الأسباب و المقدمات أو حجبها عنهم، و التى عبّر عنها البعض ب (التوفيق) و (سلب التوفيق) لأنّ التوفيق يعنى تهيئة المقدمات للوصول إلى الهدف، و سلب التوفيق يعنى عدم تهيئة تلك المقدمات.

و وفقا لهذا فإنّ الهداية الإلهية لا تعنى أنّ البارئ عزّ و جلّ يجبر الإنسان على الوصول إلى الهدف، و إنّما يضع الوسائل المطلوبة للوصول تحت تصرفهم و اختيارهم، و على سبيل المثال، وجود مربّ جيد، بيئة سالمة للتربية، أصدقاء و جلساء صالحين، و أمثالها، كلها من المقدمات، و رغم وجود هذه الأمور فإنّه لا يجبر الإنسان على سلوك سبيل الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۱

و ثمّة سؤال يبقى مطروحا، و هو: لماذا يشمل التوفيق مجموعة دون اخرى؟

المنحازون لهذا التّفسير عليهم أن ينتبهوا إلى حكمة أفعال البارئ عزّ و جلّ و يعطوا دلائل لهذا الاختلاف، فمثلا يقولون: إنّ عمل الخير هو سبب التوفيق الإلهى، و تنفيذ الأعمال الشريرة تسلب التوفيق من الإنسان.

و على أيّة حال فإنّ هذا التّفسير جيد و لكن الموضوع ما زال أعمق من هذا.

۴- إنّ أدق تفسير يتناسب مع كلّ آيات الهداية و الضلال، و يفسرها جميعا بصورة جيدة من دون أن يتعارض أدنى تعارض مع المعنى الظاهرى، و هو أنّ الهداية التشريعية التى تعنى (إراءة الطريق) لها خاصية عامّة و شاملة، و لا توجد فيها أى قيود و شروط، كما ورد فى الآية (۳) من سورة الدهر: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً و فى الآية (۵۱) من سورة آل عمران: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ و من البديهى أن دعوة الأنبياء هى مظهر دعوة اللّه تعالى. لأن كلّ ما عند النّبى هو من اللّه.

و بالنسبة إلى مجموعة من المنحرفين و المشركين ورد فى الآية (۲۳) من سورة النجم: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى

أمّا الهداية التكوينية فتعنى الإيصال إلى الغرض المطلوب، و الأخذ بيد الإنسان فى كلّ منعطفات الطريق، و حفظه و حمايته من كلّ الأخطار التى قد تواجهه فى تلك المنعطفات حتى إيصاله إلى ساحل النجاة، و هى أى الهداية التكوينية- موضع بحث الكثير من آيات القرآن الأخرى التى لا يمكن تقييدها بأية شروط، فالهداية، هذه تخصّ مجموعة ذكرت أوصافهم فى القرآن، أمّا الضلال الذى هو النقطة المقابلة للهداية فإنه يخص مجموعة اخرى ذكرت أوصافهم أيضا فى القرآن الكريم.

و رغم وجود بعض الآيات التى تتحدث عن الهداية و الإضلال بصورة مطلقة، إلا أن هناك الكثير من الآيات الأخرى التى تبيّن-

بدقة- محدوديتهما، و عند ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۲

تضع الآيات (المطلقة) إلى جانب (المحدودة) يتّضح المعنى بصورة كاملة، و لا يبقى أى غموض أو إبهام فى معين الآيات، كما أنّها- أى الآيات- تؤكد بشدة على مسألة الإختيار و حرية الإرادة عند الإنسان و لا تتعارض معهما.

الآن يجب الانتباه إلى التوضيح التالى:

القرآن المجيد يقول فى إحدى آياته: يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَ يَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفاسِقِينَ و فى مكان آخر يقول البارئ عزّ و جلّ: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۸۹] و هذا يبيّن أن الظلم مقدمة للظلال. و من هنا يتّضح أن الفسق، أى عدم إطاعة أوامر البارئ تعالى و هو مصدر الضلال.

و فى موضع آخر نقرأ: وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ۹۰]، و هنا اعتبر الكفر هو الذى يهيء أرضية الضلال.

و قد ورد فى آية اخرى: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ[۹۱] يعنى أنّ الكذب و الكفر هما مقدمة الضلال.

و الآية التالية تقول: إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۹۲] أى أن الإسراف و الكذب يسببان الضلالة.

و بالطبع، فإنّ ما أوردناه كان جزاء يسيرا من آيات القرآن التى تتناول هذا الموضوع، فبعض الآيات وردت مرات عديدة فى سورة القرآن المختلفة و هى تحمل المعانى و المفاهيم.

إن ما يمكن استنتاجه هو أنّ القرآن الكريم يؤكّد على أنّ الضلالة الإلهية تشمل كلّ من توفرت فيه هذه الصفات (الكفر) و (الظلم) و (الفسق) و (الكذب).

(الإسراف) فهل أن الضلالة غير لائقة بمن تتوفر فيه مثل هذه الصفات!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۳

و بعبارة اخرى: هل ينجو قلب من يتصف بتلك الصفات القبيحة، من الغرق فى الظلمات و الحجب؟! و بعبارة اخرى أوضح: أنّ لهذه الأعمال و الصفات آثارا تلاحق الإنسان شاء أم أبى، إذ ترمى بستائرها على عينيه و أذنيه و عقله، و تؤدى به إلى الضلال، و لكون خصوصيات كلّ الأشياء و تأثيرات كلّ الأسباب إنّما هى بأمر من اللّه، و من الممكن أيضا أن ينسب الإضلال إليه سبحانه و تعالى فى جميع هذه الموارد، و هذه النسبة هى أساس اختيار الإنسان و حرية إرادته.

هذا فيما يتعلق بالضلالة، أمّا فيما يخص الهداية، فقد وردت فى القرآن المجيد شروط و أوصاف تبيّن أنّ الهداية لا تقع من دون سبب و خلاف الحكمة الإلهية.

و قد استعرضت الآيات التالية بعض الصفات التى تجعل الإنسان مستحقا للهداية و محاطا باللطف الإلهى، منها: يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۹۳].

إذن فاتباع أمر اللّه، و كسب مرضاته يهيئان الأرضية للهداية الإلهية.

و فى مكان آخر نقرأ: إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ ۹۴] إذن فالتوبة و الإنابة تجعلان الإنسان مستحقا للهداية.

و فى آية اخرى ورد: وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا[۹۵] فالجهاد، و خاصة (الجهاد الخالص فى سبيل اللّه) هو من الشروط الرئيسية للهداية.

و أخيرا نقرأ فى آية اخرى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً ۹۶] أى أن قطع مقدار من طريق الهداية هو شرط للاستمرار فيه بلطف البارئ عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۴

نستنتج من ذلك أنّه لو لم تكن هناك توبة و إنابة من العبد، و لا اتباع لأوامر اللّه، و لا جهاد فى سبيله و لا بذل الجهد و قطع مقدار

من طريق الحق، فإن اللطف الإلهى لا يشمل ذلك العبد، و سوف لا يمسك البارئ بيده لإيصاله إلى الغرض المطلوب.

فهل أنّ شمول هؤلاء الذين يتحلون بهذه الصفات بالهداية هو أمر عبث، أو أنّه دليل على هدايتهم بالإجبار؟

من الملاحظ أنّ آيات القرآن الكريم فى هذا المجال واضحة جدّا و معناها ظاهر، و لكن الذين عجزوا عن الخروج بنتيجة صحيحة من آيات الهداية و الضلال ابتلوا بمثل هذا الابتلاء و (لأنّهم لم يشاهدوا الحقيقة فقد ساروا فى طيق الخيال).

إذن يجب القول بأنّهم هم الذين اختاروا لأنفسهم سبيل (الضلال).

على أية حال، فإنّ المشيئة الإلهية فى آيات الهداية و الضلال لم تأت عبثا و من دون أى حكمة، و إنّما تتمّ بشرائط خاصّة، بحيث تبيّن تطابق حكمة البارئ عزّ و جلّ مع ذلك الأمر.

۲- الاتكال على لطف اللّه

يعتبر الإنسان كالقشة الضعيفة فى مهب الرياح العاتية التى تهب هنا و هناك فى كلّ لحظة من الزمان، و يمكن أن تتعلق هذه القشة بورقة أو غصن مكسور تأخذه الرياح أيضا مع تلك القشة الضعيفة، و نرميهما جانبا، و حتى إذا تمكنت يد الإنسان من الإمساك بشجرة كبيرة فإنّ الأعاصير و الرياح العاتية تقتلع أحيانا تلك الشجرة من جذورها، أمّا إذا لجأ الإنسان إلى جبل عظيم فإن أعتى الأعاصير لا تتمكن من أن تزحزح ذلك الجبل و لو بمقدار رأس إبرة من مكانه.

الايمان باللّه بمثابة هذا الجبل و الاعتماد و الاتكال على غير اللّه بمثابة الاعتماد على الأشياء الواهية، و لهذا السبب يقول البارئ عزّ و جلّ فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۵

المذكورة أعلاه: أَ لَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ الإعتقاد و الإيمان بما جاء فى هذه الآية يضيف للإنسان شجاعة و اعتمادا على النفس، و تطمئن خواطره و تهدئها، كى يصمد و يثبت أمام الحوادث كالجبل، و لا يخاف حشود الأعداء، و لا يستوحش من قلّة عدد أتباعه أو أصحابه، و لا تعبث المشاكل الصعبة بروحه الهادئة المستقرة، و قد ورد فى الحديث «المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۶

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (۳۸) قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۹) مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (۴۰)

التّفسير

هل إن آلهتكم قادرة على حل مشاكلكم؟

الآيات السابقة تحدثت عن العقائد المنحرفة للمشركين و العواقب الوخيمة التى حلّت بهم، أمّا آيات بحثنا هذا فإنّها تستعرض دلائل

التوحيـد كى تكمل البحث السابق بالأدلـة، كما تحـدثت الآيات السابقة عن دعم البارئ عزّ و جلّ لعباده و كفاية هذا الدعم، و الآيات أعلاه تتابع هذه المسألة مع ذكر الدليل.

فى البداية تقول الآية: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۷

العقل و الوجدان لا يقبلان أن يكون هذا العالم الكبير الواسع بكل هذه العظمة مخلوق من قبل بعض الكائنات الأرضية، فكيف يمكن للعقل أن يقبل أنّ الأصـنام التى لا روح فيها و لا عقل و لا شـعور هى التى خلقت هذا العالم، و بهذا الشكل فإنّ القران يحاكم أولئك إلى عقولهم و شعورهم و فطرتهم، كى يثبّت أول أسس التوحيد فى قلوبهم، و هى مسألة خلق السماوات و الأرض.

و فى المرحلـة التاليـة تتحـدث الآيـات عن مسألـة الربـح و الخسـارة، و عن مـدى تأثيرهـا على نفع أو ضـرر الإنسان، كى تثبت لهم انّ الأصـنام لا دور لها فى هذا المجال، و تضيف قُلْ أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ ۹۷].

و الآن بعد أن اتّضح أنّ الأصـنام ليس بإمكانها أن تخلق شيئا و لا باستطاعتها أن تتدخل فى ربح الإنسان و خسارته، إذن فلم نعبدها و نترك الخالق الأصـلى لهـذا الكون، و الـذى له اليـد الطولى فى كلّ ربح و خسارة، و نمد أيدينا إلى هذه الموجودات الجامدة التى لا قيمة لها و لا شعور؟ و حتى إذا كانت الآلهة ممن يمتلك الشعور كالجن أو الملائكة التى تعبد من قبل بعض المشركين، فإنّ مثل هذا الإله ليس بخالق و لا يمكنه أن يتـدخل فى ربح الإنسان و خسارته، و كنتيجة نهائية و شاملة يقول البارئ عزّ و جلّ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ

آيات القرآن المجيد أكّدت- و لعدّة مرات- على أنّ المشركين يعتقدون بأنّ اللّه سبحانه و تعالى هو خالق السموات و الأرض ۹۸]. و هذا الأمر يبيّن أن الموضوع كان بالنسـبة للمشـركين من المسلّمات، و هذا أفضل دليل على بطلان الشرك، لأن توحيد خالق الكون و الاعتراف بمالكيته و ربوبيته أفضل دليل على (توحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۸

المعبود) و من كلّ هذا نخلص إلى أن التوكل لا يكون إلّا على اللّه مع صرف النظر عن عبادة غيره.

و إذا أمعنا النظر فى المواجهة التى حدثت بين إبراهيم محطم الأصنام و الطاغية نمرود الذى ادعى الربوبية و القدرة على إحياء الناس و إماتتهم، و الذى أنبهت و تحير فى كيفية تنفيذ طلب إبراهيم عليه السّلام عند ما طلب منه أن يجعل الشمس تشرق من المغرب إن كان صادقا فى ادعاءاته، مثل هذه الادعاءات التى يندر وجودها حتى فى أوساط عبدة الأصنام، لا يمكن أن تصدر إلا من أفراد ذوى عقول ضعيفة و مغرورة و بلهاء كعقل نمرود.

و الملفت للنظر أنّ الضمير العائد على تلك الآلهة الكاذبة فى هذه الآيات، إنّما جاء بصيغة جمع المؤنث (هن- كاشفات- ممسكات-) و ذلك يعود لأسباب:

أوّلا: إنّ الأصنام المعروفة عند العرب كانت تسمى بأسماء مؤنثة اللات و مناة و العزى).

ثانيا: يريـد البارئ عزّ و جلّ بهذا الكلام تجسـيد ضـعيف هذه الآلهة أمامهم، و طبقا لمعتقداتهم، لأنّهم كانوا يعتقدون بضـعف و عجز الإناث.

ثالثا: لأنّ هناك الكثير من الآلهـة لا روح فيها، و صـيغة جمع المؤنث تسـتخدم عادة بالنسـبة إلى تلك الموجودات الجامـدة، لـذا فقد استفيد منها فى آيات بحثنا هذا.

كما يجب الالتفات إلى أنّ عبارة عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ تعطى معنى الحصـر بسـبب تقـدم كلمة (عليه) و تعنى أن المتوكلين يتوكلون عليه فقط.

الآيـة التاليـة تخاطب أولئك الـذين لم يستسـلموا لمنطق العقل و الوجدان بتهديد إلهى مؤثر، إذ تقول: قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۹۹

ستعلمون بمن سيحل عذاب الدنيا المخزى و العذاب الخالد فى الآخرة مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ

و بهـذا الشـكل فـإنّ آخر كلام يقال لأولئك هو: إمّا أن تستسـلموا لمنطق العقل و الشـعور و تسـتجيبوا لنـداء الوجـدان، أو أن تنتظروا عـذابين سـيحلان بكم، أحـدهما فى الـدنيا و هو الـذى سـيخزيكم و يفضـحكم، و الثّانى فى الآخرة و هو عـذاب دائمى خالـد، و هذا العذاب أنتم اعددتموه لأنفسكم، و أشعلتم النيران فى الحطب الذى جمعتموه بأيديكم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۰

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۱ الى ۴۴]

اشارة

إِنَّا أَنْزَلْنـا عَلَيْـكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَـدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۴۱) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهـا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِهـا فَيُمْسِـكُ الَّتِي قَضـى عَلَيْهَـا الْمَوْتَ وَ يُرْسِـلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَـمًّى إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۴۲) أَمِ اتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُـفَعاءَ قُـلْ أَ وَ لَـوْ كـانُوا لا يَمْلِكُـونَ شَـيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ (۴۳) قُـلْ لِلَّهِ الشَّفاعَـةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۴۴)

التّفسير

اللّه سبحانه يتوفى الأنفس:

بعـد ذكر دلائل التوحيـد، و بيان مصير المشـركين و الموحدين، تبيّن الآية الأولى- فى هذا البحث- حقيقة مفادها أن قبول ما جاء فى كتاب اللّه أو عدم قبوله إنّما يعود بالفائدة أو الضرر عليكم، و إن كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يصرّ عليكم فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۱

المجال، فإنّه لم يكن ينبغى جنى الأرباح من وراء ذلك، و إنّما كان يؤدى واجبا إلهيا، إِنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِ ۱۰۰].

و تضيف الآية فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها.

على أية حال، فإنك لست مكلفا بإدخال الحق إلى قلوبهم بالإجبار، و إنّما عليك إبلاغهم و إنذارهم فقط وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ

هـذه القاعدة بأنّ كلّ من اتبع طريق الحق عاد بالربح على نفسه، و من اتبع سبيل الضـلال عاد بالخسارة على نفسه، تكررت عدّة مرات فى آيات القرآن الكريم، كما أنّه تأكيـد على حقيقـة أنّ اللّه غير محتاج لإيمان عباده و لا يخاف من كفرهم، و كـذلك رسوله، و إنّه لم يدفع عباده إلى عبادته كى يجنى من وراء ذلك الأرباح، و إنّما ليجود على عباده.

قوله تعـالى: وَ مـا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيـلٍ التى وردت فيها كلمـة (وكيل) بمعنى الشـخص المكلف بهدايـة الضالين و جعلهم يؤمنون باللّه- وردت عدّة مرات فى آيات القرآن، و بنفس التعبير أو ما يشابهه، و الغرض من تكرارها هو بيان أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ليس مسئولا عن إيمـان النـاس، لأنّ أسـاس الإيمان لا يأتى عن طريق الإجبار، و إنّه مكلّف بإبلاغ الأمر الإلهى إلى الناس من دون أن يظهر أدنى تقصير أو عجز، فإمّا أن يستجيبوا لدعوته و إمّا أن يرفضوها.

ثمّ لتوضح أنّ الحياة و الموت و كلّ شؤون الإنسان هى بيد اللّه سبحانه و تعالى، قالت الآية: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها[۱۰۱].

و بهذا الشكل فإن (النوم) يعد شقيق (الموت) لكن بأحد أشكاله الضعيفة، أى (أشكال الموت)، لأن العلاقة بين الروح و الجسد تصل إلى أدنى درجاتها أثناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۲

النوم، و تقطع الكثير من العلاقات و الوشائج بينهما.

و تضيف الآية فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَ يُرْسِلُ الْأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى نعم إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

من هذه الآية يمكن استنتاج عدة أمور:

۱- إنّ الإنسان عبارة عن روح و جسد، و الروح هى جوهر غير مادى، يرتبط بالجسد فيبعث فيه النور و الحياة.

۲- عند الموت يقطع اللّه العلاقة بين الروح، و الجسد، و يذهب بالروح إلى عالم الأرواح، و عند النوم يخرج البارئ عزّ و جلّ الروح و الجسد، و لكن ليس بتلك الحالة التى تقطع فيها العلاقات بصورة كاملة. و وفقا لهذا فإنّ الروح لها ثلاث حالات بالنسبة للجسد، و هى: ارتباط كامل (حالة الحياة و اليقظة) و ارتباط ناقص (حالة النوم) و قطع الارتباط بصورة كاملة (حالة الموت).

۳- النوم هو أحد الصور الضعيفة (للموت)، و (الموت) هو نموذج كامل (للنوم).

۴- النوم هو أحد دلائل استقلال و أصالة الروح، خاصة عند ما يرافق بالرؤيا الصادقة التى توضح المعنى أكثر.

۵- إنّ العلاقة التى تربط بين الروح و الجسد تضعف أثناء النوم، و أحيانا تقطع تماما ممّا يؤدى إلى عدم يقظة النائم إلى الأبد، أى موته.

۶- إنّ الإنسان عند ما ينام فى كلّ ليلة يشعر و كأنّه وصل إلى أعتاب الموت، و هذا الشعور بحد ذاته درسا يمكن الاعتبار منه، و هو كاف لإيقاظ الإنسان من غفلته.

۷- كلّ هذه الأمور تجرى بقدرة البارئ عزّ و جلّ، و إن كان قد ورد فى بعض الآيات ما يشير إلى أنّ ملك الموت هو الذى يقبض الأرواح، فهذا لا يعنى سوى أنّه ينفّذ أوامر البارئ عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۳

و على أية حال، فإنّ المراد من قوله تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ هو إثبات دلائل قدرة البارئ عزّ و جلّ، و مسألة الخلق، و المعاد، و ضعف و عجز الإنسان مقابل إرادة اللّه عزّ و جلّ.

و بعد ما أصبحت- حاكمية- (اللّه) على وجود الإنسان و تدبير أمره عن طريق نظام الحياة و الموت و النوم و اليقظة، أمرا مسلما من خلال الآيات السابقة، تناولت الآية اللاحقة خطأ اعتقاد المشركين فيما يخص مسألة الشفاعة، كى تثبت لهم أنّ مالك الشفاعة هو مالك حياة و موت الإنسان، و ليس الأصنام الجامدة التى لا شعور لها أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعاءَ[۱۰۲].

و كما هو معروف فإنّ إحدى الأعذار الواهية لعبدة الأوثان بشأن عبادتهم للأوثان، هى ما ورد فى مطلع هذه السورة ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى ۱۰۳]، إذ أنّهم كانوا يعدونها تماثيل و هياكل للملائكة للأرواح المقدسة، و يزعمون أنّ هذه الأحجار و الأخشاب الميتة لها قدرة هائلة.

و لكون الشفاعة تحصل من الشفيع الذى هو، أوّلا: يشعر و يدرك و يفهم، و ثانيا: قدير و مالك و حكيم، فإن تتمة الآية تجيبهم قُلْ أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَ لا يَعْقِلُونَ ۱۰۴].

إذا كنتم تتخذون من الملائكة و الأرواح المقدسة شفعاء لكم، فإنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا، لأن كلّ ما عندهم هو من اللّه، و إذا كنتم تتخذون من الأصنام المصنوعة من الخشب و الحجارة شفعاء لكم، فإنّهم علاوة على عدم امتلاكهم شيئا لأنفسهم، فهم

لا يمتلكون أدنى عقل أو شعور، فاتركوا هذه الأعذار، و عودوا إلى الذى يملك و يحكم كلّ هذا العالم، و إلى من إليه تنتهى كلّ الأمور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۴

لذا فإنّ اللّه جلّ و علا يضيف فى الآية التالية قُلْ لِلَّهِ الشَّفاعَةُ جَمِيعاً لأنّه لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و بهذا الشكل لم يبق لديهم شىء، لأنّ النظام المسيطر و الحاكم على كلّ العالم يقول: لا شفاعة هناك ما لم يأذن البارئ عزّ و جلّ بذلك مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۱۰۵].

أو كما يقول بعض المفسّرين: إنّ حقيقة الشفاعة، هى التوسل بأسماء اللّه الحسنى، التوسل برحمته و غفرانه و ستره، طبقا لهذا فإنّ كافة أشكال الشفاعة تعود فى النهاية إلى ذاته المقدسة، إذن كيف يمكن طلب الشفاعة من غيره و بدون إذنه ۱۰۶].

و بشأن ارتباط عبارة ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ بما قبلها، أظهر المفسّرون عدّة آراء مختلفة منها:

۱- هذه العبارة إشارة إلى أنّ شفاعة البارئ عزّ و جلّ لا تقتصر على هذه الدنيا، و إنّما تتعداها إلى الشفاعة فى الآخرة، و لذا يجب عدم اللجوء إلى غير اللّه لحل المشاكل و رفع المصائب كما كان يفعل المشركون.

۲- هذه العبارة هى دليل ثان على اختصاص الشفاعة باللّه، لأنّ الدليل الأوّل اعتمد على (مالكية) اللّه، و هنا تمّ الاعتماد على (عودة جميع الأشياء إليه).

۳- هذه الجملة هى بمثابة تهديد للمشركين، إذ تقول لهم: إنّكم سترجعون إلى اللّه، و ستشاهدون نتيجة أفكاركم و أعمالكم السيئة و القبيحة.

كلّ هذه التفاسير مناسبة إلّا أنّ التّفسيرين الأوّل و الثّانى أنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۵

ملاحظتان

۱- عجائب عالم الرؤيا؟

ما هى حقيقة النوم؟ و ما سبب ميل الإنسان إلى النوم؟

بهذا الشأن كتب العلماء أبحاثا كثيرة:

فالبعض منهم قال: إنّه يأتى نتيجة انتقال جزء كبير من الدم الموجود فى المخ إلى بقية أجزاء الجسم، و لذا فإنّ السبب هنا (فيزياوى).

و البعض الآخر يعتقد أنّ النشاط الإضافى للجسم يؤدى إلى تجمع مواد سامّة معينة فى الجسم، و هذه الحالة تؤثر على الأنظمة العصبية و تدفع الإنسان إلى النوم، و تستمر هذه الحالة عند الإنسان حتى تتمّ تجزئة تلك السموم و امتصاصها من قبل الجسد، و بهذا يكون السبب هنا (كيمياويا).

مجموعة اخرى تقول: إن سبب النوم إنّما يعود لأسباب عصبية لأنّ هناك جهازا عصبيا نشطا فى داخل مخ الإنسان، و هذا الجهاز هو مصدر الحركة المستمرة لبقية أعضاء الجسم، و هو يتوقف عن العمل إثر التعب الشديد الذى يصيبه فيحصل النوم.

النظريات المذكورة أعلاه عجزت عن إعطاء جواب مقنع فيما يخص مسألة النوم، رغم أنّنا لا يمكن أن ننكر تأثير هذه الأسباب و لو بمقدار ضئيل. نحن نعتقد أنّ التفكير المادى لعلماء اليوم هو السبب الرئيسى الذى يمكن وراء عجزهم عن إعطاء تفسير واضح لمسألة النوم، إذا أنّهم يريدون تفسير هذه المسألة من دون قبول أصالة و استقلالية الروح، فالنوم قبل أن يكون ظاهرة جسدية هو ظاهرة

روحية، و من دون معرفة الروح بصورة صحيحة، فإنّ تفسير النوم حالة متعذرة.

القرآن المجيد وضّح من خلال آياته المذكورة أعلاه أدقّ التفاسير لمسألة النوم، إذ يقول: إن النوم هو نوع من أنواع (قبض الروح) و انفصال الروح من الجسد، و لكن هذا الانفصال ليس انفصالا كاملا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۶

و بهذا الشكل فعند ما يخفت شعاع الروح فى الجسد بأمر من اللّه، و لا يبقى غير شعاع خافت اللون يشع فى ذلك الجسد، يتعطل جهاز الإدراك و الشعور عن العمل، و يتوقف الحسّ و الحركة عند الإنسان، عدا بعض الأجزاء التى تبقى تواصل نشاطها لحفظ و استمرار الحياة عند الإنسان، كضربات القلب و دوران الدم و نشاطات الجهاز التنفسى و الغذائى.

و

قد ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء، و بقيت روحه فى بدنه، و صار بينهما سبب كشعاع الشمس، فإن أذن اللّه فى قبض الأرواح أجابت الروح النفس، و إن أذن اللّه فى ردّ الروح أجابت النفس الروح، فهو قوله سبحانه: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها[۱۰۷].

و ثمّة مسألة مهمّة اخرى هى مسألة (الرؤيا) لأنّ الكثيرين يرون فى عالم الرؤيا أحلاما حدثت وقائعها أو ستحدث فيما بعد فى الواقع، مع اختلافات جزئية أو بدون أىّ اختلاف.

التفاسير المادية عاجزة عن توضيح مثل هذه الرؤيا و الأحلام، فى حين أن التفاسير الروحية تستطيع بسهولة توضيح هذا الأمر، لأنّه عند ما تنفصل روح الإنسان عن جسده و ترتبط بعالم الأرواح، تدرك حقائق كثيرة لها علاقة بالماضى و المستقبل، و هذه الحالة هى التى تشكل أساس الرؤيا الصادقة، و للتوضيح أكثر يراجع التفسير الأمثل) فى نهاية الآية (۴) من سورة يوسف، إذ أنّ هناك شرحا مفصلا بهذا الخصوص.

۲- النوم كما ورد فى الروايات الإسلامية:

يتضح جيدا من خلال روايات المفسّرين التى وردت فى نهاية الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۷

المذكورة أعلاه، أنّ النوم يعنى فى الإسلام حركة الروح نحو عالم الأرواح، فيما تعنى اليقظة عودة الروح إلى الجسد لبدء حياة جديدة.

و نقرأ

فى حديث ورد عن أمير المؤمنين عليه السّلام ضمن وصاياه لأصحابه: «لا ينام المسلم و هو جنب، لا ينام إلّا على طهور، فإن لم يجد الماء فليتيمم بالصعيد، فإنّ روح المؤمن ترفع إلى اللّه تعالى فيقبلها، و يبارك عليها، فإن كان أجلها قد حضر جعلها فى كنوز رحمته، و إن لم يكن أجله قد حضر بعث بها مع أمنائه من ملائكته، فيردونها فى جسده»[۱۰۸].

و

ورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام جاء فيه: «إذا قمت بالليل من منامك فقل: الحمد للّه الذى ردّ علىّ روحى لأحمده و أعبده»[۱۰۹].

و الأحاديث فى هذه الشأن كثيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۵ الى ۴۸]

اشارة

وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (۴۵) قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۴۶) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (۴۷) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۴۸)

التّفسير

الذين يخافون من اسم اللّه!

مرّة اخرى يدور الحديث عن التوحيد و الشرك، إذ عكست الآية الأولى إحدى الصور القبيحة و المشوهة للمشركين و لمنكرى المعاد من خلال تعاملهم مع التوحيد، قال تعالى: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۰۹

وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۱۱۰].

فأحيانا يستحسن الإنسان القبائح و يستقبح الحسنات بحيث ينزعج إذا سمع اسم الحق و يستبشر إذا سمع اسم الباطل لا يسجد و لا يركع أمام عظمة اللّه جلّ و علا خالق الكون، إلّا أنّه يسجد و يركع تعظيما لأصنام صنعها من الحجارة و الخشب أو لإنسان أو كائنات مثله.

و نظير هذا المعنى ورد فى الآية (۴۶) من سورة الإسراء، قال تعالى: وَ إِذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلى أَدْبارِهِمْ نُفُوراً.

و فى سورة نوح الآية (۷) عند ما شكى نبىّ اللّه نوح عليه السّلام ممن يفكر بمثل هذا التفكير المنحرف إلى اللّه سبحانه و تعالى وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

نعم، هذا هو حال المتعصبين اللجوجين و الجهلة المغرورين.

من هذه الآية يتضح بصورة جيدة أنّ مصدر شقاء هذه المجموعة أمران:

الأوّل: إنكارهم لأساس التوحيد، و الثّانى: عدم إيمانهم بالآخرة.

و فى المقابل نرى المؤمنين لدى سماعهم اسم اللّه ينجذبون إليه بدرجة أنّهم على استعداد لبذل كلّ ما لديهم فى سبيله، فاسم حبيبهم يحلّى أفواههم و يعطّر أنفاسهم و يضىء قلوبهم، كما أن سماع أى شىء يرتبط و يتعلق باللّه يبعث السرور و البهجة فى قلوبهم.

نعود إلى المشركين مرّة اخرى لنقول: إن الصفة القبيحة التى ذكرناها فى بداية البحث بشأن المشركين، لا تخصّ مشركى عصر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و إنّما فى عصر و زمان هناك منحرفون ذوو قلوب مظلمة يفرحون و يستبشرون فور سماعهم أسماء أعداء اللّه و أصحاب المذاهب الإلحادية، و سماعهم نبأ انتصار الظلم و الطغيان، أمّا سماع أسماء الطيبين و الطاهرين و مناهجهم و انتصاراتهم فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۰

يسبب لهم آلاما مبرحة، بعض الرّوايات فسّرت الآية على أنّها تعنى أولئك الذين ينزعجون من سماع فضائل أهل بيت النبوّة الأطهار

عليهم السّلام أو من يتبع نهجهم ۱۱۱].

و عنـد ما يصل الأمر إلى درجـة أنّ مجموعـة من اللجوجين و الجهلـة المغرورين ينفرون و يشـمئزون حتى من سـماع اسم اللّه، يوحى البـارئ عزّ و جلّ إلى نبيّه الكريم صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم أن يتركهم و يتوجه الى البارى عز و جل و يشـتكى إليه من هؤلاء بلحن ملىء بـالعواطف الرفيعـة و العشق الإلـهى لكى يبعث على تسـكين قلبه الملىء بـالغم من جهـة، و على تحريك العواطف الهامـدة عند أولئـك من جهـة اخرى: قُلِ اللَّهُمَّ فـاطِرَ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبادِكَ فِي ما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۱۱۲].

نعم أنت الحـاكم المطلق فى يوم القيامـة الـذى تنتهى فيه الاختلافـات و تظهر فيه كـلّ الحقـائق المخفيـة، لأنـك خـالق كلّ شـىء فى الوجود و عالم بكل الأسـرار فتنتهى الاختلافات بحكمك العادل، و هناك يدرك المعاندون مدى خطئهم، و يفكرون فى إصـلاح ما مضى، و لكن ما الفائدة؟

الآيـة التاليـة تقول: وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مـا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَـدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَـذابِ يَوْمَ الْقِيامَـةِ و لكن هـذا الأمر غير ممكن.

«الظلم»: هنا له معان واسعة تشمل الشرك أيضا و بقية المظالم.

ثم تضيف الآية وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ

و سيرون العذاب بأعينهم، العذاب الذى لم يكن يتوقعه أحد منهم، لأنّهم كانوا مغرورين بلطف اللّه، فى حين كانوا فى غفلة عن غضبه و قهره. و أحيانا كانوا يقومون بأعمال يتصورونها حسنة، فى حين أنّها كانت من الذنوب الكبيرة.

على أيّة حال، تظهر لهم فى ذلك اليوم أمور لم يكن يتصور أحد ظهورها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۱

ذلك الوعيد يأتى فى مقابل الوعود الطيبة التى قطعت للمؤمنين، قال تعالى:

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ۱۱۳].

و قـد نقل أنّ أحـد المسـلمين جزع عنـد الموت، فقيل له: أ تجزع، فقال: أخـذتنى هـذه الآية وَ بَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۱۱۴].

الآية التالية توضيح أو تتمة لموضوع طرحته الآية السابقة، إذ تقول: وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

فى الحقيقة هناك أربعة مواضيع تتعلق بالمشركين و الظالمين طرحت فى هذه الآيات:

أوّلا: إنّ هول و رهبـة العـذاب الإلهى فى ذلك اليوم سـتكون من الشـدّة بحيث تجعلهم يتمنون لو أنّ لـديهم فى تلك الساعة ضـعف الثروات و الأموال التى كانوا يمتلكونها فى عالم الدنيا ليفتدوا بها من سوء العذاب، و لكن من المسـتحيل أن يحدث مثل هذا الأمر فى يوم القيامة.

ثانيا: تظهر أمامهم أنواع من العذاب الإلهى الذى لم يكن أحد يتوقعه و لا يتصوره.

ثالثا: حضور أعمالهم السيئة أمامهم و تجسيدها لهم.

رابعا: مشاهدتهم حقيقة المعاد الذى لم يأخذوه مأخذ الجد، و من ثمّ انغلاق كلّ أبواب النجاة أمامهم.

الآية التى تقول: بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا و التى وردت آنفا، هى دليل آخر على مسألة تجسيد الأعمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

اشارة

فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۹) قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۵۰) فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ (۵۱) أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۵۲)

التّفسير

فى الشدائد يذكرون اللّه، و لكن ...

الآيات هنا تتحدث مرّة اخرى عن المشركين و الظالمين، و تعكس صورة اخرى من صورهم القبيحة.

فى البداية يقول فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا فذلك الإنسان الذى كان- وفق ما جاء الآيات السابقة- يشمئز من ذكر اسم اللّه. نعم، هو نفسه يلجأ إلى ظلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۳

اللّه عند ما يصيبه الضرّ و يتعرض للشدائد. لكن هذا اللجوء مؤقت، إذ ما إن يتفضّل عليه البارئ عزّ و جلّ و يكشف عنه الضر و الشدائد، حتى يتبجح ناكرا لهذه النعم، و زاعما بأنّه هو الذى أنقذ نفسه من ذلك الضر ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ ۱۱۵].

نظير هذا الكلام نقله القرآن فى الآية (۷۸) من سورة القصص عن لسان «قارون» عند ما نصحه علماء بنى إسرائيل بأن ينفق ممّا منّ اللّه به عليه فى سبيل اللّه، إذ قال: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي

إنّ أمثال هؤلاء الغافلين لا يتصورون أنّ العلوم و المعارفة التى يمتلكها الإنسان إنّما هى نعمة إلهية، فهل أنّ هؤلاء اكتسبوا العلم الذى كان يدرّ عليهم الأموال الطائفة من ذاتهم؟ أم أنّه كان فى ذاتهم منذ الأزل؟

بعض المفسّرين ذكروا احتمالا آخر لتفسير هذه العبارة، و قالوا: إنّ النعم التى منّ بها البارئ عزّ و جلّ علينا إنّما منّ بها علينا لعلمه بلياقتنا و استحقاقنا لها.

و مع أنّ هذا الاحتمال وارد بشأن الآية مورد بحثنا، لكنّه غير وارد بشأن الآية الآنفة التى تحدثت عن قارون، خاصة مع وجود كلمة (عندى) و هذه أحد القرائن لترجيح التّفسير الأوّل للآية التى هى مورد البحث.

ثم يجيب القرآن الكريم على أمثال هؤلاء المغرورين، الذين ينسون أنفسهم و خالقهم بمجرّد زوال المحنة و توفّر النعمة، قائلا: بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

فالهدف من ابتلائهم بالحوادث الشديدة و الصعبة، و من ثمّ إغداق النعم الكبيرة عليهم هو اظهار خباياهم و الكشف عن بواطنهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۴

هل ييأس الإنسان عند المصيبة و يغترّ و يطغى عند النعمة؟

هل أنّه يزداد تفكيرا باللّه عزّ و جلّ عند ما يحاط بهذه النعم، أم أنّه يغرق فى ملذات الدنيا؟

هل ينسى ذاته، أو أنّه يلتفت إلى نقاط ضعفه و يعود إلى ذكر اللّه أكثر؟

ممّا يؤسف له أنّ أكثر الناس مبتلون بالنسيان، و غير مطلعين على الحقائق التى تكررت مرات عديدة فى آيات القرآن المجيد، و هى أنّ العزيز الحكيم يجعل الإنسان أحيانا محاطا بالمشاكل و الابتلاءات الشديدة، و أحيانا يغدق عليه النعم، و ذلك ليمتحنه و يرفع من

شأنه و ليعرفه بأن كلّ شيء فى هذه الحياة هو من اللّه سبحانه و تعالى.

و من الطبيعى أنّ الشدائد تهيء الأرضيه لتفتتح الفطرة، كما أنّ النعم مقدمة للمعرفة (و فى هذا الخصوص أوردنا بحثا آخر فى تّفسيرنا الأمثل فى نهاية الآية (۶۵) من سورة العنكبوت).

و ممّا يدعوا إلى الانتباه تأكيد الآية على كلمة (إنسان) التى عرفته بأنّه كثير النسيان و الغرور، و هذه إشارة إلى الذين لم يتربوا وفق ما جاء فى الشرائع و السنن الإلهية، و الذين لم يكن لهم أىّ مربّ و مرشد .. الذين أطلقوا لشهواتهم العنان و استسلموا لأهوائهم، نعم فهؤلاء هم الذين يلجؤون إلى البارئ عزّ و جلّ كلّما مسّهم الضرّ و كلمّا ابتلوا بالشدائد و المحن، و لكن عند ما تهدأ أعاصير الحوادث و يشملهم لطف البارئ و عنايته، ينسونه و كأنّهم لم يدعوه إلى ضرّ مسّهم. و لمزيد من الاطلاع راجع موضوع: الإنسان فى القرآن الكريم. فى نهاية الآية (۱۲) من سورة يونس.

و تضيف الآية التالية قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ۱۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۵

نعم، فقارون و أمثاله من المغرورين يتصورون أنّهم حصلوا على الأموال بسبب لياقتهم و غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه و تعالى هو الذى منّ بهذه النعم عليهم و أنّه المصدر الأصل للنعم و الواهب الحقيقى لها، و أنّهم كانوا ينظرون فقط للأسباب الظاهرية، لكن التاريخ بيّن أنّه عند ما خسف البارئ عزّ و جلّ الأرض بأولئك لم يسرع أحد إلى مساعدتهم، و لم تنفعهم أموالهم، كما ورد فى سورة القصص الآية (۸۱) فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

و ليس قارون- وحده- ابتلى بهذا العذاب، و إنّما أقوام عاد و ثمود و سبأ و أمثالهم ابتلوا- أيضا- و كان لهم نفس المصير.

ثم يقول: فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا.

فكل واحد منهم ابتلى بنوع من العذاب الإلهى و هلك، كابتلائهم بالطوفان و السيل و الزلزال و الصيحة السماوية.

و يضيف: إنّ هذا المصير لا ينحصر بأولئك الأقوام و حسب بل إنّ مشركى مكّة سيبتلون فى القريب العاجل بعواقب أعمالهم السيئة، و لا يستطيع أحد منهم أن يفرّ من قبضة العذاب الإلهى الذى سينزل بهم جميعا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ

و سينال هذا العذاب و الابتلاء كلّ الطغاة و المغرورين و المشركين، و فى كلّ العصور و القرون.

و من جهة اخرى ورد احتمالان فى هل أنّ المراد من عبارة سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا هو العذاب الدنيوى أم العذاب الاخروى، و لكن بقرينة فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا فإنّ التّفسير الأوّل أنسب.

القرآن الكريم أجاب على ادعاءات الذين يزعمون أنّهم حصلوا على النعم الدنيوية بعلمهم و قدرتهم، عند ما دعاهم إلى مراجعة تأريخ الأولين للاطلاع على أنواع الابتلاءات و العذاب الذى ابتلوا به بسبب مزاعمهم الباطلة، و هذا هو ردّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۶

تأريخى و واقعى.

ثمّ يرد القرآن الكريم عليهم بردّ عقلى، إذ يقول: أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

فالكثير من الأشخاص الكفوئين نراهم يعيشون حياة المستضعفين و البسطاء، فى حين نرى أنّ الكثير من الأشخاص غير الكفوئين يعيشون أثرياء و متنعمين من كلّ النواحى، فلو كان الظفر المادىّ كلّه يأتى عن طريق جهد و سعى الإنسان إضافة إلى كفاءته، لما كنّا نرى مثل هذه المشاهد. إذن فمن هنا يستدل على وجود يد قوية اخرى خلف عالم الأسباب تدير الشؤون وفق منهج محسوب.

صحيح أنّه يجب على الإنسان أن يبذل الجهد و السعى فى حياته، و صحيح أنّ الجهاد و السعى هما مفتاح حلّ الكثير من المشاكل، و لكن إغفال مسبب الأسباب و النظر إلى الأسباب فقط، و اعتبار الكفاءة هى المؤثر الوحيد يعد خطأ كبيرا.

فإحدى أسرار إحاطة الفقر و الحرمان بمجموعة من العلماء المقتدرين، و إحاطة الغنى بمجموعة من الجهلة غير الأكفاء هو تنبيه لكلّ الناس التائهين فى عالم الأسباب بأن لا يعتمدوا فقط على قواهم الذاتية. لذا تضيف الآية إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ الآيات التى وضحها

أمير المؤمنين عليه السّلام عند ما قال: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حل العقود الهمم»[۱۱۷].

و هى كلمة سامية تدلّ على ضعف و عجز الإنسان كى لا يتيه و لا يبتلى بالغرور و التكبر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۵۳ الى ۵۵]

اشارة

قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵۳) وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ (۵۴) وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۵۵)

التّفسير

إنّ اللّه يغفر الذنوب جميعا عليهم السّلام

بعد التهديدات المتكررة التى وردت فى الآيات السابقة بشأن المشركين و الظالمين، فإنّ آيات بحثنا فتحت الأبواب أمام المذنبين و أعطتهم الأمل، لأنّ الهدف الرئيسى من كلّ هذه الأمور هو التربية و الهداية و ليس الانتقام و العنف، فبلهجة مملوءة باللطف و المحبة يفتح البارئ أبواب رحمته أمام الجميع و يصدر أوامر العفو عنهم، عند ما يقول: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً.

التدقيق فى عبارات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۸

تعطى الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة

قال بشأنها أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام: «ما فى القرآن آية أوسع من يا عبادى الذين أسرفوا ...»[۱۱۸].

و الدليل على ذلك واضح من وجوه:

۱- التعبير ب يا عِبادِيَ هى بداية لطف البارئ عزّ و جلّ.

۲- التعبير ب (إسراف) بدلا من (الظلم و الذنب و الجريمة) هو لطف آخر.

۳- التعبير ب عَلى أَنْفُسِهِمْ يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلّها عليه، و هذا التعبير هو علامة اخرى من علامات محبّة اللّه لعباده، و هو يشبه خطاب الأب الحريص لولده، عند ما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا! ۴- التعبير ب لا تَقْنَطُوا مع الأخذ بنظر الاعتبار أن «القنوط» يعنى- فى الأصل- اليأس من الخير، فإنّها لوحدها دليل على أن المذنبين يجب أن لا يقنطوا من اللطف الإلهى.

۵- عبارة مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ التى وردت بعد عبارة لا تَقْنَطُوا تأكيد آخر على هذا الخير و المحبّة.

۶- عند ما نصل إلى عبارة إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ التى بدأت بتأكيد، و كلمة «الذنوب» التى جمعت بالألف و اللام تشمل كلّ الذنوب

من دون أىّ استثناء، فإنّ الكلام يصل إلى أوجه، و عندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الالهية.

۷- إنّ ورود كلمة (جميعا) كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

۸ و ۹- وصف البارئ عزّ و جلّ بالغفور و الرحيم فى آخر الآية، و هما وصفان من أوصاف اللّه الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۱۹

نعم، لهذا السبب فإنّ الآية المذكورة أعلاه من أوسع و أشمل آيات القرآن المجيد، حيث تعطى الأمل بغفران كلّ أنواع الذنوب، و لهذا السبب فإنّها تبعث الأمل فى النفوس أكثر من بقية الآيات القرآنية. و حقّا، فإنّ الذى لا نهاية لبحر لطفه، و شعاع فيضه غير محدود، لا يتوقع منه أقل من ذلك.

و قد شغلت أذهان المفسّرين مسألتان، رغم أن حلهما كامنة فى هذه الآية و الآية التى تليها:

الأولى: هل أنّ عمومية الآية تشمل كلّ الذنوب حتّى الشرك و الذنوب الكبيرة الأخرى، فإذا كان كذلك فلم تقول الآية (۴۸) من سورة النساء: إنّ الشرك من الذنوب التى لا تغتفر إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ.

و الثّانية: هل أنّ الوعد الذى أعطاه اللّه بغفران الذنوب مطلق أم مشروط بالتوبة و نظير ذلك؟

و بالطبع فإنّ السؤال الأوّل مرتبط بالسؤال الثّانى، و الجواب عليهما سيتّضح خلال الآيات التالية بصورة جيدة، لأنّ هناك ثلاثة أوامر وردت فى الآيات التالية وضحت كلّ شىء أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ و الثّانية وَ أَسْلِمُوا لَهُ و الثّالثة وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ

هذه الأوامر الثّلاثة تقول: إنّ أبواب المغفرة و الرحمة مفتوحة للجميع من دون أى استثناء، و لكن شريطة أن يعودوا إلى أنفسهم بعد ارتكاب الذنب، و يتوجهوا فى مسيرهم نحو البارئ عزّ و جلّ، و يستسلموا لأوامره، و يظهروا صدق توبتهم و إنابتهم بالعمل، و بهذا الشكل فلا الشرك مستثنى من المغفرة و لا غيره، و كما قلنا فإنّ هذا العفو العام و الرحمة الواسعة مشروطان بشروط لا يمكن تجاهلها.

و إذا كانت الآية (۴۸) من سورة النساء تستثنى المشركين من هذا العفو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۰

و الرحمة، فإنّها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم، و ليس أولئك الذين صحوا من غفلتهم و اتبعوا سبيل اللّه، لأنّ أكثر مسلمى صدر الإسلام كانوا كذلك، أى أنّهم تركوا عبادة الأصنام و الشرك باللّه، و آمنوا باللّه الواحد القهار بعد دخولهم الدين الإسلامى.

إذا طالعنا الحالة النفسية عند الكثير من المجرمين بعد ارتكابهم للذنب الكبير، نرى أن حالة من الألم و الندم تصيبهم بحيث لا يتصورون بقاء طريق العودة مفتوحا أمامهم، و يعتبرون أنفسهم ملوثين بشكل لا يمكن تطهيره، و يتساءلون: هل من الممكن أن تغفر ذنوبنا؟ و هل أن الطريق إلى اللّه مفتوح أمامنا؟ و هل بقى خلفنا جسر غير مدمّر؟

إنّهم يدركون معنى الآية جيدا، و مستعدون للتوبة، و لكنّهم يتصورون استحالة غفران ذنوبهم، خاصّة إذا كانوا قد تابوا مرات عديدة من قبل ثمّ عادوا إلى ارتكاب الذنب مرّة اخرى.

هذه الآية تعطى الأمل للجميع فى أنّ طريق العودة و التوبة مفتوح أمامهم. لذا فإنّ (وحشى) المجرم المعروف فى التأريخ الإسلامى و الذى قتل حمزة سيد الشهداء عليه السّلام، كان خائفا من عدم قبول توبته، لأنّ ذنبه كان عظيما، مجموعة من المفسّرين قالوا: إن هذه الآية عند ما نزلت على الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فتحت أبواب الرحمة الإلهية أمام وحشى التائب و أمثاله! و لكن لا يمكن أن تكون هذه الحادثة سبب نزول هذه الآية، و لأن هذه السورة من السور المكّية، و لم تكن معركة أحد قد وقعت يوم نزول هذه الآيات، و لم تكن أيضا قصة شهادة حمزة و لا توبة وحشى، و إنّما هى من قبيل تطبيق قانون عام على أحد المصاديق، و على أية حال فإنّ شمول معنى الآية يمكن أن يشخص هذا المعنى.

يتضح ممّا تقدم أنّ إصرار بعض المفسّرين كالآلوسى فى تفسيره (روح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۱

المعانى) على أنّ الوعد بالمغفرة الذى ورد فى الآية المذكورة أعلاه ليس مشروطا بشىء غير صحيح، حتّى أنّ الأدلّة السبعة عشر التى ذكرها بشأن هذا الموضوع غير مقبولة، لأنّ فيها تعارضا واضحا مع الآيات التالية، و الكثير من هذه الأدلة السبعة عشر يمكن ادغامها فى بعضها البعض، و لا يفهم منها سوى أنّ رحمة اللّه واسعة تشمل حتّى المذنبين، و هذا لا يتعارض مع كون الوعد الإلهى مشروطا، بقرائن الآيات التالية، و سيأتى مزيد بحث فى نهاية هذا البحث. ترشد المجرمين و المذنبين على أبواب الدخول إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع إذ تقول: وَ أَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ و أصلحوا أموركم و مسير حياتكم وَ أَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ بعد طى هاتين المرحلتين «الإنابة» و «التسليم»، تتحدث الآية عن المرحلة الثّالثة و هى مرحلة (العمل)، إذ تقول: وَ اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ بَغْتَةً وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ

و بهذا الشكل فإنّ مسيرة الوصول إلى الرحمة الإلهية لا تتعدى هذه الخطوات الثلاث:

الخطوة الأولى: التوبة و الندم على الذنب و التوجه إلى اللّه تعالى.

الخطوة الثّانية: الإيمان باللّه و الاستسلام له.

الخطوة الثّالثة: العمل الصالح.

فبعد طى هذه المراحل الثلاث يكون الإنسان قد دخل إلى بحر الرحمة الإلهية الواسع طبقا لوعد اللّه المؤكد مهما كان ذلك الإنسان مثقلا بالذنوب.

أمّا بشأن المراد من اتَّبِعُوا أَحْسَنَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فقد ذكر المفسّرون تفسيرات متعددة. و التّفسير الذى هو أفضل من البقية هو أنّ أوامر متعددة و مختلفة نزلت من عند البارئ عزّ و جلّ، البعض منها واجب و الآخر مستحبّ، و البعض الآخر مباح، و المراد من (أحسن) هو انتخاب الواجبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۲

و المستحبات، مع الانتباه إلى تدرّجها.

و قال البعض: إنّه إشارة إلى كون القرآن هو أحسن الكتب السماوية النازلة، بدليل ما ورد فى الآية (۲۳) من هذه السورة الزمر اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ و بالطبع فإنّه لا يوجد هناك أى تعارض بين التّفسيرين.

بحثان

۱- باب التوبة مفتوح للجميع

من المشاكل التى تقف عائقا فى طريق بعض المسائل التربوية، هو إحساس الإنسان بعقدة الذنب من جزاء الأعمال القبيحة السابقة التى ارتكبها، خاصة إذا كانت هذه الذنوب كبيرة، إذ أنّ الذى يستحوذ على ذهن الإنسان إن أراد التوجّه نحو الطهارة و التقوى و العودة إلى اللّه، فكيف يتخلص من أعباء الذنوب الكبيرة السابقة.

هذا التفكير يبقى كابوسا مخفيا يرافقه كالظل، فكلّما خطا خطوة نحو تغيير منهاج حياته و سعى نحو الطهارة و التقوى، و تحدثه نفسه: ما الفائدة من التوبة؟

فسلاسل أعمالك السابقة تطوق يديك و رجليك، لقد اصطبغت ذاتك بلون الذنب، و هو لون ثابت و لا يمكن إزالته و المطلعون

على مسائل التربية و توبة المذنبين يدركون جيدا ما ذكرناه، يعلمون حجم هذه المشكلة الكبيرة.

التعاليم الإسلامية فى القرآن المجيد حلت هذه المشكلة عند ما أفصحت عن أنّ التوبة و الإنابة يمكن أن تكون أداة قاطعة و حازمة للانفصال عن الماضى و بدء حياة جديدة، أو حتى يمكن أن تكون بمثابة (ولادة جديدة) للتائب إذا تحققت بشرطها و شروطها، إذ تكرر الحديث فى الروايات الإسلامية بشأن بعض المذنبين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۳

التائبين، حيث ورد (كمن ولدته أمه).

و بهذا الشكل فإنّ القرآن الكريم يبقى أبواب اللطف الإلهى مفتّحة أمام كلّ الناس مهما كانت ظروفهم، و المثال على ذلك الآيات المذكورة آنفا التى تدعو المجرمين و المذنبين بلطف للعودة إلى اللّه، و تعدهم بإمكانية محو الماضى.

و نقرا

فى رواية وردت عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[۱۱۹].

كما

ورد حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام جاء فيه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، و المقيم على الذنب و هو مستغفر منه كالمستهزئ»[۱۲۰].

و من البديهى أن هذه العودة لا يمكن أن تتمّ بدون قيد أو شرط، لأنّ البارئ عزّ و جلّ حكيم و لا يفعل شيئا عبثا، فإذا كانت أبواب رحمته مفتحة أما عباده، و دعوته إيّاهم للتوبة مستمرة، فإنّ وجود الاستعداد عند العباد أمر لا بدّ منه.

و من جهة اخرى يجب أن تكون عودة الإنسان صادقة، و أن تحدث انقلابا و تغيرا فى داخله و ذاته.

و من ناحية ثانية يجب أن يبدأ الإنسان بعد توبته باعمار و بناء أسس الإيمان و العقيدة التى كانت قد دمّرت بعواصف الذنوب.

و من ناحية ثالثة يجب أن يصلح الإنسان بالأعمال الصالحة عجزه الروحى و سوء خلقه، فكلّما كانت الذنوب السابقة كبيرة، عليه أن يقوم بأعمال صالحة أكثر و أكبر، و هذا بالتحديد ما بيّنه القرآن المجيد فى الآيات الثلاث المذكورة أعلاه تحت عنوان (الإنابة) و (التسليم) و (اتباع الأحسن).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۴

۲- اصحاب الأحمال الثقيلة

بعض المفسّرين أوردوا أسبابا متعددة لنزول الآيات آنفة الذكر، و يحتمل أن تكون جميعها من قبيل التطبيق و ليس من قبيل أسباب النّزول.

و منها قصة (وحشى) الذى ارتكب أفظع جريمة فى ساحة معركة أحد، عند ما قتل حمزة عمّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم غدرا، و قد كان حمزة قائدا شجاعا كرّس كلّ حياته فى سبيل الدفاع عن النّبى الكريم. و بعبارة اخرى: إنّه كان درعا للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. فبعد أن بلغ الإسلام أوج عظمته و انتصر المسلمون على أعدائهم، أراد وحشى أن يدخل الدين الإسلامى، و لكنّه كان خائفا من عدم قبول إسلامه، و لما أسلم

قال له النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أ وحشى؟» قال: نعم، قال: «أخبرنى كيف قتلت عمىّ» فأخبره، فبكى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و قال: «غيب وجهك عنّى فإنّى لا أستطيع النظر إليك»

فلحق بالشام فمات فى الخمر[۱۲۱]. و هنا تساءل أحدهم: هل أن هذه الآية تخص وحشيا فقط أم تشمل كلّ المسلمين،

فأجاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: إنّها تشمل الجمیع.

و منها قصة النباش-

قال: دخل معاذ بن جبل علی رسول اللّه باکیا فسلّم فردّ علیه السّلام ثمّ قال: «ما یبکیک، یا معاذ؟» فقال: یا رسول اللّه، إنّ بالباب شابا طریّ الجسد نقی اللون حسن الصورة یبکی علی شبابه بکاء الثکلی علی ولدها یرید الدخول علیک.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «ادخل علیّ الشاب یا معاذ» فأدخله علیه فسلم فردّ علیه السّلام قال: «ما یبکیک یا شاب؟» قال: کیف لا أبکی و قد رکبت ذنوبا، إن أخذنی اللّه عزّ و جلّ ببعضها أدخلنی نار جهنم؟ و لا أرانی إلّا سیأخذنی بها و لا یغفر لی أبدا.

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «هل أشرکت باللّه شیئا؟».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۵

قال: أعوذ باللّه أن أشرک بربّی شیئا.

قال: «أ قتلت النفس التی حرّم اللّه؟».

قال: لا.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «یغفر اللّه لک ذنوبک، و إن کانت مثل الجبال الرواسی».

فقال الشاب: فإنّها أعظم من الجبال الرواسیّ.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «یغفر اللّه لک ذنوبک، و إن کانت مثل الأرضین السبع و بحارها و رمالها و أشجارها و ما فیها من الخلق».

قال: فإنها أعظم من الأرضین السبع و بحارها و رمالها، و أشجارها و ما فیه من الخلق.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «یغفر اللّه ذنوبک و إن کانت مثل السماوات و نجومها و مثل العرش و الکرسی».

قال: فإنّها أعظم من ذلک.

قال: فنظر النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلیه کهیئة الغضبان ثمّ قال: «و یحک یا شاب ذنوبک أعظم أم ربّک؟».

فخّر الشاب لوجهه و هو یقول: سبحان ربّی ما شیء أعظم من ربّی، ربّی أعظم یا نبیّ اللّه من کلّ عظیم.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: «فهل یغفر الذنب العظیم إلّا الربّ العظیم».

قال الشاب: لا و اللّه یا رسول اللّه، ثمّ سکت الشاب فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم:

«و یحک یا شاب ألا تخبرنی بذنب واحد من ذنوبک؟».

قال: بلی، أخبرک: إنّی کنت أنبش القبور سبع سنین، أخرج الأموات و أنزع الأکفان، فماتت جاریة من بعض بنات الأنصار فلمّا حملت إلی قبرها و دفنت و انصرف عنها أهلها و جنّ علیهم اللیل، أتیت قبرها فنبشتها ثمّ استخرجتها و نزعت ما کان علیها من أکفانها و ترکتها متجرّدة علی شفیر قبرها و مضیت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۶

منصرفا، فأتانی الشیطان فأقبل یزیّنها لی ... و لم أملک نفسی حتی جامعتها و ترکتها مکانها. فإذا أنا بصوت من ورائی یقول: یا شاب ویل لک من دیّان یوم الدین، ... فما أظن أنّی أشم رائحة الجنّة أبدا فما تری یا رسول اللّه.

فقال النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: تنحی عنّی یا فاسق، إنّی أخاف أن أحترق بنارک، فما أقربک من النّار! ...

فذهب فأتی المدینة فتزوّد منها ثمّ أتی بعض جبالها متعبّدا فیها، و لبس مسحا و غل یدیه جمیعا إلی عنقه، و نادی: یا ربّ هذا عبدک (بهلول) بین یدیک مغلول ...

ثمّ قال: اللّهم ما فعلت فى حاجتى إن كنت استجبت دعائى و غفرت خطيئتى فأوح إلى نبيّك، و إن لم تستجب لى دعائى ... فأنزل اللّه تبارك و تعالى على نبيّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ...[۱۲۲].

الظاهر أنّ تلاوة جبرائيل لهذه الآية هنا لم تكن لأوّل مرّة كى تعدّ من أسباب النّزول، و إنّما هى آية مكررة و نزلت من قبل، و تكرارها إنّما هو للتأكيد و جلب الانتباه أكثر، و إعلان عن قبول توبة ذلك الرجل المذنب. و نكرر مرّة اخرى: إن مثل أولئك الأشخاص الذين يحملون على أكتافهم ذنوبا ثقيلة عليهم أداء واجبات كثيرة لمحو آثار الماضى.

و قد ذكر «الفخر الرازى» أسبابا أخرى لنزول هذه الآيات إذ قال: إنّها نزلت فى أهل مكّة حيث قالوا: يزعم محمّد أنّ من عبد الأوثان و قتل النفس لم يغفر له، و قد عبدنا و قتلنا، فكيف نسلم؟![۱۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۷

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۵۶ الى ۵۹]

اشارة

أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (۵۶) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۵۷) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (۵۸) بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۵۹)

التّفسير

الندم لا ينفع فى ذلك اليوم:

الآيات السابقة أكّدت على التوبة و إصلاح الذات و إصلاح الأعمال السابقة، و آيات بحثنا الحالى تواصل التطرق لذلك الموضوع، ففى البداية تقول: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ۱۲۴].

«يا حسرتا»: هى فى الأصل (يا حسرتى)، (حسرة أضيفت إليها ياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۸

المتكلم)، و التحسر معناه الحزن ممّا فات وقته لانحساره ممّا لا يمكن استدراكه.

و يرى الراغب فى مفرداته (يا حسرتا) من مادة (حسر) على وزن (حبس) و تعنى التعرى و التجرد من الملابس، و بما أن الندم و الحزن على ما مضى بمنزلة زوال حجب الجهل، فلا اطلاق على هذه الموارد.

نعم، فعند ما يرد الإنسان إلى ساحة المحشر، و يرى بأمّ عينيه نتائج إفراطه و إسرافه و مخالفته و اتخاذه الأمور الجدية هزوا و لعبا، يصرخ فجأة (وا حسرتاه) إذ يمتلئ قلبه فى تلك اللحظات بغمّ كبير مصحوب بندم عميق، و هذه الحالة النفسية التى وردت فى الآيات المذكورة.

أما فيما يخصّ معنى جَنْبِ اللَّهِ هنا؟ فإنّ المفسّرين ذكروا تفاسير و معانى كثيرة لها. و كلمة (جنب) تعنى فى اللغة «الخاصرة»، كما تطلق على كلّ شىء يستقر إلى جانب شىء آخر، مثلما أن اليمين و اليسار يعنيان الطرف الأيمن و الأيسر للجسم، ثمّ يقال لكل شىء فى يسار أو يمين الجسم، و هنا جَنْبِ اللَّهِ تعنى أن الأمور ترجع إلى جانب اللّه، فأوامره و إطاعته و التقرب إليه، و الكتب السماوية كلها نزلت من جانبه، و كلها مجموعة فى هذا المعنى.

و بهذا الترتيب فإنّ المذنبين يكشفون فى ذلك اليوم عن ندامتهم و حسرتهم و أسفهم على تقصيرهم و تفريطهم تجاه اللّه سبحانه و تعالى، خاصة فيما يتعلق بسخريتهم و استهزائهم بآيات اللّه و رسله، لأنّ السبب الرئيسى لتفريطهم هو العبث و السخرية من هذه الحقائق الكبيرة بدافع الجهل و الغرور و التعصب.

ثمّ تضيف الآية أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ

يبدو أنّ هذا الكلام يقوله الكافر عند ما يوقف أمام ميزان الحساب، حيث يرى البعض يقادون إلى الجنّة و هم محملون بأعمالهم الحسنة، و هنا يتمنى الكافر لو أنّه كان أحد هؤلاء المتوجهين إلى جنّة الخلد.

و تضيف الآية مرّة اخرى أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۲۹

الْمُحْسِنِينَ

و هذا ما يقوله الكافر- أيضا- حينما تقوده الملائكة الموكلة بالنّار نحو جهنم، و ترى عيناه نار جهنم و منظر العذاب الأليم فيها، و هنا يتأوه من أعماق قلبه و يتوسل لكى يسمح له بالعودة مرّة اخرى إلى الحياة الدنيا ليطهر نفسه من الأعمال السيئة و القبيحة بأعمال صالحة تهيئه و تعده للوقوف فى صفوف المحسنين و الصالحين.

و الملاحظ أنّ كلّ عبارة من هذه العبارات الثلاث يقولها المجرمون عند مشاهدة مشهد معين من عذاب يوم القيامة الرهيب.

حيث أنّهم يتحسرون على ما فرطوا فى جنب اللّه فور دخولهم ساحة المحشر.

و يتمنون لو أنّهم فازوا بما فاز به المتقين، عند ما يرون الثواب الجزيل الذى أغدقه البارئ عزّ و جلّ على عباده المتقين.

و يتوسلون إلى البارئ عزّ و جلّ ليعيدهم إلى الحياة الدنيا ليصلحوا ماضيهم الفاسد، عند ما يرون العذاب الإلهى الأليم.

القرآن المجيد يردّ على القول الثّانى من بين الأقوال الثلاثة إذ يقول: بَلى قَدْ جاءَتْكَ آياتِي فَكَذَّبْتَ بِها وَ اسْتَكْبَرْتَ وَ كُنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ ۱۲۵].

إنّ قولك: لو كانت الهداية قد شملتنى لأصبحت من المتقين، فما هى الهداية الإلهية؟ هل هى غير الكتب السماوية و رسل اللّه، و آياته و علاماته الصادقة فى الآفاق و الأنفس؟! إنّك سمعت بأذنيك و شاهدت بعينيك كلّ هذه الآيات، فما كان ردّ فعلك إزاءها غير التكذيب و التكبير و الكفر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۰

فهل يمكن أن يعاقب البارئ عزّ و جلّ أحدا من دون أن يتمّ حجّته عليه؟

و هل كان هناك فرق بينك و بين الذين اهتدوا إلى طريق الحق من حيث المناهج التربوية الإلهية التى أعدّت لكم و لهم؟ لهذا فأنت المقصر الرئيسى، و أنت بنفسك جلبت اللعنة إليك! فمن بين تلك الأعمال الثلاثة يعد (الاستكبار) الجذر الرئيسى، و من بعد يأتى التكذيب بآيات اللّه، و حصيلة الاثنين هو الكفر و عدم الإيمان.

و لكن لماذا لم يجيب القرآن على القول الأول؟

الجواب: لأنّ هناك حقيقة لا مناص منها، و هى أنّهم يجب أن يتحسروا و يغرقوا فى الغم و الهم.

و أما بشأن قولهم الثّالث الذى يتوسلون فيه إلى البارئ عزّ و جلّ كى يسمح لهم بالعودة إلى الحياة الدنيا، فإنّ القرآن الكريم يجيبهم فى عدّة آيات منها الآية (۲۸) من سورة الأنعام: وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ و الآية (۱۰۰) من سورة المؤمنون، و لا حاجة لتكرار تلك الأجوبة.

و الملاحظ هنا أنّ الرد على قولهم الثّانى، يمكن أن يكون فى الوقت نفسه إجابة على السؤال الثّالث أيضا، لأنّهم ماذا يهدفون من عودتهم إلى الحياة الدنيا؟

هـل أنّه أمر آخر غير إتمـام الحجـة، فى حين أنّ البـارئ عزّ و جـلّ أتمّ الحجـة عليهم بصورة كاملـة لا نقص فيها، فانتباه المجرمين من غفلتهم فور مشاهـدتهم للعـذاب، إنّما هو نوع من اليقظة الاضـطرارية التى لا يبقى لها أى أثر عند ما يعودون إلى حالتهم الطبيعية. حقا إنّه نفس الموضوع الذى يشير إليه القرآن الكريم بشأن الكافرين و المشركين الذين يدعون اللّه مخلصين له الدين عند ما يبتلون بخطر مـا فى وسط البحر المتلاطم الأمواج، ثمّ ينسون اللّه بمجرّد أن ينجيهم و يوصـلهم بسـلام إلى ساحل النجاة فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۱

إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ ۱۲۶].

ملاحظتان

۱- التفريط فى جنب اللّه

قلنا: إنّ جَنْبِ اللَّهِ التى وردت فى آيات بحثنا لها معان واسعة، تشمل كلّ ما يرتبط باللّه سبحانه و تعالى، و بهذا الشكل فإنّ التفريط فى جنب اللّه يشمل كلّ أنواع التفريط فى طاعة أوامر اللّه، و اتباع ما جاء فى الكتب السماوية، و التأسى بالأنبياء و الأولياء.

و لهـذا السـبب ورد فى العديـد من روايات أئمّـة أهل البيت عليهم السّـلام أنّ الأئمّة الأطهار هم المقصودون ب جَنْبِ اللَّهِ و من تلك الروايات ما

ورد فى أصول الكافى نقلا عن الإمام موسـى الكاظم عليه السّـلام إذ قال فى تفسـير: يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ «جنب اللّه أمير المؤمنين و كذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهى الأمر إلى آخرهم»[۱۲۷].

كما نقرأ

فى تفسير علىّ بن إبراهيم نقلا عن الإمام الصادق عليه السّلام: «نحن جنب اللّه»[۱۲۸].

و المعنى ذاته ورد فى روايات اخرى لأئمّة أهل البيت الأطهار عليهم السّلام.

و كما قلنا مرارا فإنّ هذه التفاسـير إنّما هى من قبيل بيان المصاديق الواضـحة، لأنّ من المسلّم أنّ اتباع نهج الأئمّة إنّما هو اتباع للرسول و طاعة للّه، إذ أنّ الأئمة عليهم السلام لا ينطقون بشىء من عندهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۲

و فى حديث آخر تمّ تعريف العلماء غير العالمين بأنّهم مصداق واضح للمتحسرين، و حيث

ورد فى كتاب (المحاسن) حديث للإمام الباقر عليه السّلام، جاء فيه: «إن أشد الناس حسرة يوم القيامة الذين وصفوا بالعدل ثمّ خالفوه، و هو قول اللّه عزّ و جلّ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب اللّه»[۱۲۹].

۲- على أعتاب الموت أو القيامة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۱۳۲

أنّ تلك الأقوال الثلاثة قالها المجرمون عند ما شاهدوا العذاب الإلهى فى الدنيا و هو عذاب الاستئصال و الهلاك فى نهاية أعمارهم؟

أم عن زمان دخولهم ساحة القيامة؟

المعنى الثّانى أنسب، لأنّ الآيات السابقة تتحدث عن عذاب الاستئصال و الآية التالية تتحدث عن يوم القيامة، و الشاهد على هذا القول هو الآية (۳۱) من سورة الأنعام التى تقول: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذا جاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قالُوا يا حَسْرَتَنا عَلى ما فَرَّطْنا فِيها.

و الروايات المذكورة أعلاه خير شاهد على هذا المعنى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۳

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۰ الى ۶۴]

اشارة

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ (۶۰) وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۶۱) اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (۶۲) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۶۳) قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ (۶۴)

التّفسير

اللّه خالق كلّ شىء و حافظه:

الآيات السابقة تتحدث عن المشركين الكذابين و المستكبرين الذين يندمون يوم القيامة على ما قدمت أيديهم و يتوسلون لإعادتهم إلى الدنيا، و لكن هيهات أن يستجاب لهم طلبهم، و آيات بحثنا هذه تواصل الحديث عن هذا الأمر، إذ تقول:

وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ.

ثم تضيف أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ

لا شكّ أن عبارة كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ لها مفاهيم و معان واسعة و عميقة، لكن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۴

الآية- هنا- تستهدف أولئك الذين قالوا بوجود شريك للّه، أو باتخاذ اللّه ولدا من الملائكة أو الذين يزعمون أنّ المسيح عليه السّلام هو ابن اللّه، و أمثال هذه المزاعم و الادعاءات.

و كلمة «مستكبر» تطلق دائما على أولئك الذين يرون أنفسهم ذات شأن و قدر كبير، و لكن المراد منها- هنا- أولئك الذين يستكبرون على الأنبياء، و الذين يتركون اتباع الشريعة الحقة، و يرفضون قبولها و اتباعها.

اسوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلتهم و هوانهم و افتضاحهم، و كما هو معروف فإن ساحة القيامة هى ساحة ظهور الأسرار و الخفايا و تجسيد أعمال و أفكار الإنسان، فالذين كانت قلوبهم سوداء و مظلمة فى الدنيا، و أعمالهم و أفكارهم سوداء و مظلمة أيضا، يخرج هذا السواد و الظلام من أعماقهم إلى خارجهم فى يوم القيامة ليطفح على وجوههم التى تكون فى ذلك اليوم مسودّة و مظلمة.

و بعبارة اخرى فإنّ ظاهر الإنسان يطابق باطنه يوم القيامة، و لون الوجه يكون بلون القلب، فالذى قلبه أسود و مظلم، يكون وجهه مظلما و أسود، و الذى قلبه ساطع بالنور يكون وجهه كذلك ساطعا بالنور.

و هو ما ورد فى الآيتين (۱۰۶) و (۱۰۷) من سورة آل عمران يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و الملفت للنظر أنّه قد ورد فى بعض الروايات أهل البيت عليهم السلام، أن الكذب على اللّه، الذى هو أحد أسباب اسوداد الوجه يوم القيامة، له معان واسعة تشمل حتى الادعاء بالإمامة و القيادة كذبا، كما ذكر ذلك الشيخ الصدوق فى كتاب (الاعتقادات) نقلا عن الإمام الصادق عليه السّلام عند ما أجاب الإمام على سؤال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۵

يتعلق بتفسير هذه الآية، و قال: «من زعم أنّه إمام و ليس بإمام، قيل: و إن كان علويا فاطميا؟ قال: و إن كان علويا فاطميا»[۱۳۰].

و هذا فى الحقيقة بيان لمصداق بارز، لأنّ الادعاء المزيف بالإمامة و القيادة الإلهية هو أوضح مصاديق الكذب على اللّه.

و كذلك فإنّ من نسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو إلى الإمام المعصوم حديثا مختلقا، اعتبر كاذبا على اللّه، لأنّهم لا ينطقون عن الهوى.

لهذا

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من تحدث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوما فإن صدق علينا فإنّما يصدق على اللّه و على رسوله، و إن كذب علينا فإنّه يكذب على اللّه و رسوله، لأنّا إذا حدثنا لا نقول قال فلان و قال فلان، إنّما نقول قال اللّه و قال رسوله ثمّ تلا هذه الآية وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ...[۱۳۱].

الحديث المذكور يبيّن بصورة واضحة أنّ أئمة أهل البيت الأطهار، لم يقولوا شيئا من عندهم، و إن كلّ الأحاديث التى وردت عنهم صحيحة و موثوقة، لأنّها تعود إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و هذه الحقيقة مهمّة جدا، و على علماء الإسلام أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامة أهل البيت عليهم السلام، عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التى يرويها أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، إنّما هى منقولة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و بهذا الشأن

ورد فى كتاب الكافى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «حديثى حديث أبى، و حديث أبى حديث جدى، و حديث جدى حديث الحسين، و حديث الحسين حديث الحسن، و حديث الحسن حديث أمير المؤمنين، و حديث أمير المؤمنين حديث رسول اللّه، و حديث رسول اللّه قول اللّه عزّ و جلّ»[۱۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۶

هذا الكلام يدعو إلى الإمعان و التأمل أكثر فى آيات القرآن المجيد، لأن التكبر هو المصدر الرئيسى للكفر، كما نقرأ ذلك بشأن الشيطان أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ ۱۳۳]. و لهذا السبب فلا يمكن أن يكون للمستكبرين مكان آخر غير جهنم ليحترقوا بنارها، و

قد ورد فى حديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

«إنّ فى جهنم لواد للمتكبرين يقال له سقر، شكى إلى اللّه عزّ و جلّ شدة حرّه، و سأله أن يتنفس فأذن له فتنفس فأحرق جهنم»[۱۳۴].

الآية التالية تتحدث عن طائفة تقابل الطائفة السابقة، حيث تتحدث عن المتقين و ابتهاجهم فى يوم القيامة، إذ تقول: وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ ۱۳۵].

ثم توضح فوزهم و انتصارهم من خلال جملتين قصيرتين مفعمتين بالمعانى، لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ

نعم، إنّهم يعيشون فى عالم لا يوجد فيه سوى الخير و الطهارة و السرور، و هذه العبارة القصيرة جمعت- حقّا- كلّ الهبات الإلهية فيها.

الآية التالية تتطرق من جديد إلى مسألة التوحيد و الجهاد ضدّ الشرك، و تواصل مجادلة المشركين، حيث تقول: اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ

هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

العبارة الأولى فى هذه الآية تشير إلى (توحد اللّه فى الخلق) و الثانية تشير إلى (توحده فى الربوبية).

فمسألة (توحده فى الخلق) هى حقيقة اعترف بها حتى المشركون، كما ورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۷

فى الآية (۳۸) من السورة هذه وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

و لكنّهم ابتلوا بالانحراف فيما يتعلق بمسألة (توحده فى الربوبية)، فى بعض الأحيان اعتبروا الأصنام هى التى تحفظهم و تحميهم و تدبر أمرهم، و كانوا يلجؤون إليها عند ما يواجهون أى مشكلة. و القرآن المجيد- من خلال الآية المذكورة أعلاه- يشير إلى حقيقة أنّ تدبير أمور الكون و حفظه هى بيد خالقه، و ليس بيد أحد آخر، و لهذا يجب اللجوء إليه دائما.

و قد ذكر «ابن منظور» فى كتاب (لسان العرب) معانى متعددة لكلمة (وكيل) منها: الكفيل، و الحافظ، و المدبر للأمر.

و من هنا يتضح أنّ الأصنام ليست مصدر خير أو شر، و أنّها عاجزة عن حل أبسط عقدة، حيث أنّها موجودات ضعيفة و عاجزة، و لا يمكن أن تقدم أدنى فائدة للإنسان.

و قد عمد بعض المؤيدين للمذهب الجبرى إلى الاستدلال على بعض الأمور من عبارة اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لتأكيد ما جاء فى معتقداتهم المنحرفة، إذ قالوا: إنّ هذه الآية تشمل الأعمال أيضا، و لهذا فإنّ أعمالنا تعد من خلق اللّه، رغم أنّ أعضاءنا هى التى تقوم بها.

إنّ خطأ أولئك هو أنّهم لم يدركوا هذه الحقيقة جيدا، و هى أنّ خالقية اللّه سبحانه و تعالى لا يوجد فيها أى تعارض مع حرية الإرادة و الإختيار لدينا، لأنّ التناسب فيما بينهما طولى و ليس عرضى.

فأعمالنا تتعلق باللّه، و تتعلق بنا أيضا، لأنّه لا يوجد هناك شىء فى هذا الكون يمكن أن يكون خارج إطار سلطة البارئ عزّ و جلّ، و على هذا الأساس فإن أعمالنا هى من خلقه، و إنه أعطانا القدرة و العقل و الإختيار و الإرادة و حرية العمل، و من هذه الناحية يمكن أن ننسب أعمالنا إليه، حيث إنّه أراد أن نكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۸

أحرارا و ننفذ الأعمال بأختيارنا، كما أنّه وضع كلّ ما نحتاجه تحت تصرفنا.

لكننا فى الحال ذاته أحرار مخيرون فى تنفيذ الأعمال، و على ذلك فإنّ أفعالنا منسوبة إلينا و نحن المسؤولون عنها.

فإذا قال أحد: إنّ الإنسان يخلق أعماله، و لا دخل للّه عزّ و جلّ فيها، فإنّه قد أشرك لأنّه فى هذه الحالة يعتقد بوجود خالقين، خالق كبير و خالق صغير، و إذا قال آخر: إنّ أعمالنا هى من خلق اللّه و لا دخل لنا فيها، فقد انحرف، لأنّه أنكر بقوله هذا حكمة و عدالة اللّه، إذ لا يصح أن يجبرنا فى الأعمال، ثمّ يحمّلنا مسئوليتها! لأنّ فى هذه الحالة، يصبح الجزاء و الثواب و الحساب و المعاد و التكليف و المسؤولية كلّها عبثا.

لذا فإن الاعتقاد الإسلامى الصحيح و الذى يمكن أن يستشف من مجموع آيات القرآن المجيد، هو أن كلّ أعمالنا منسوبة للّه و إلينا، و هذه النسبة لا يوجد فيها أى تعارض، لأنّها طولية و ليست عرضية.

أمّا الآية التالية فقد تطرقت (توحيد اللّه فى المالكية) لتكمل بحث التوحيد الذى ورد فى الآيات السابقة، إذ تقول: لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«مقاليد»: كما يقول أغلب اللغويين، جمع (مقليد) (مع أن الزمخشرى يقول فى الكشاف: إن هذه الكلمة ليس لها مفرد من لفظها) و (مقليد) و (إقليد) كلاهما تعنى المفتاح، و على حدّ قول صاحب كتاب (لسان العرب) و آخرين غيره فإن كلمة (مقليد) مأخوذة من (كليد) الفارسية الأصل، و من العربية تستعمل بنفس المعنى، و لذا فإن مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ تعنى مفاتيح السماوات و الأرض.

هذه العبارة تستخدم ككناية عن امتلاك شىء ما أو التسلط عليه كأنّ يقول أحد: مفتاح هذا العمل بيد فلان. لذا فإنّ الآية المذكورة أعلاه يمكن أن تشير إلى (وحدانية اللّه فى الملك) و فى نفس الوقت تشير إلى وحدانيته فى التدبير و الربوبية و الحاكمية على هذا العالم الكونى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۳۹

و لهذا السبب أوردت الآية المذكورة بمثابة استنتاج وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

لأنّهم تركوا المصدر الرئيسى و المنبع الحقيقى لكل الخيرات و البركات و تاهوا فى صحارى الضلال عند ما أعرضوا بوجوههم عن مالك مفاتيح السماوات و الأرض، و توجهوا نحو موجودات عاجزة تماما عن تقديم أدنى عمل لهم.

و

قد ورد فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه طلب من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم توضيح معنى كلمة (مقاليد) فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «يا على، لقد سئلت عن عظيم المقاليد، هو أن تقول عشرا إذا أصبحت، و عشرا إذا أمسيت، لا إله الّا اللّه و اللّه أكبر و سبحان اللّه و الحمد للّه و استغفر اللّه و لا قوة إلا باللّه (هو) الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن له الملك و له الحمد (يحيى و يميت) بيده الخير و هو على كلّ شىء قدير»[۱۳۶].

ثم أضاف: «من قالها عشرا إذا أصبح، و عشرا إذا أمسى، أعطاه اللّه خصالا ستا ... أوّلها يحرسه من الشيطان و جنوده فلا يكون لهم عليه سلطان».

أمّا من ردد هذه الكلمات بصورة سطحية فإنّه- حتما- لا يستحق كل، هذه المكافآت، فيجب الإيمان بمحتواها و التخلق بها.

هذا الحديث يمكن أن يشير إلى أسماء اللّه الحسنى التى هى أصل الحاكمية و المالكية لهذا العالم الكونى.

من مجموع كلّ الأمور التى ذكرناها فى الآيات السابقة بشأن فروع التوحيد، يمكن الحصول على نتيجة جيدة، و هى أنّ التوحيد فى العبادة هو حقيقة لا يمكن نكرانها و على كلّ إنسان عاقل أن لا يسمح لنفسه بالسجود للأصنام، و لهذا فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۰

البحث ينتهى بآية تتحدث بلهجة حازمة و متشددة قُلْ أَ فَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ

هذه الآية- و بالنظر الى أنّ المشركين و الكفرة كانوا أحيانا يدعون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إلى احترام آلهتهم و عبادتها، أو على الأقل عدم الانتقاص منها أو الهى عن عبادتها،- أعلنت و بمنتهى الصراحة أنّ مسألة توحيد اللّه و عدم الإشراك به هى مسألة لا تقبل المساومة و الاستسلام أبدا، إذ يجب أن تزال كافة أشكال الشرك و تمحى من على وجه الأرض.

فالآية تعنى أنّ عبدة الأصنام على العموم هم أناس جهلة، لأنّهم لا يجهلون فقط البارئ عزّ و جلّ، بل يجهلون حتى مرتبة الإنسان الرفيعة.

إنّ التعبير ب «تأمرونى»، الذى ورد- فى الآية الآنفة- يشير إلى أنّ الجهلة كانوا يأمرون رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بأن يعبد أصنامهم بدون أىّ دليل منطقى، و هذا الموقف ليس بعجيب من أفراد جهلة.

أليس من الجهل و الغباء أن يترك الإنسان عبارة البارى عزّ و جلّ رغم مشاهدته للكثير من الأدلّة فى هذا العالم و التى تدلّ على علمه و قدرته و تدبيره و حكمته، ثمّ يتمسّك بعبادة موجودات تافهة لا قيمة لها و عاجزة عن تقديم أدنى مساعدة و عون لعبدتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۱

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۵ الى ۶۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۶۵) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۶۶) وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۶۷)

التّفسير

الشرك محبط للأعمال:

آيات بحثنا تواصل التطرق للمسائل المتعلقة بالشرك و التوحيد و التى كانت قد استعرضت فى الآيات السابقة أيضا.

الآية الأولى تتحدث بلهجة قاطعة و شديدة حول أخطار الشرك، و تقول:

وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ

و بهذا الترتيب، فإنّ للشرك نتيجتين خطيرتين، تشملان حتى أنبياء اللّه فى مالو أصبحوا مشركين- على فرض المحال-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۲

النتيجة الأولى: إحباط الأعمال، و الثانية: الخسران و الضياع.

و إحباط الأعمال يعنى محو آثار ثواب الأعمال السابقة، و ذلك بعد كفره و شركه باللّه، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الاعتقاد بأصل التوحيد، و لا يقبل أى عمل بدون هذا الاعتقاد.

فالشرك هو النّار التى تحرق شجرة أعمال الإنسان.

و الشرك هو الصاعقة التى تهلك كلّ ما جمعه الإنسان خلال فترة حياته.

و الشرك هو عاصفة هو جاء تدمر كلّ أعمال الإنسان و تأخذها معها، كما ورد فى الآية (۱۸) من سورة إبراهيم مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ.

لذا

ورد فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّ اللّه تعالى يحاسب كلّ خلق إلّا من أشرك باللّه فإنّه لا يحاسب و يؤمر به إلى النّار»[۱۳۷].

و أمّا خسارتهم فإنّها بسبب بيعهم أكبر ثروة يمتلكونها، ألا- و هى العقل و الإدراك و العمر فى سوق التجارة الدنيوية، و شراؤهم الحسرة و الألم بثمنها.

و هنا يطرح هذا السؤال: هل من الممكن أن يسير الأنبياء العظام فى طريق الشرك حتى تخاطبهم الآية الآنفة بهذه اللهجة؟

الجواب على هذا السؤال واضح، و هو أنّ الأنبياء لم يشركوا قطّ، مع أنّهم يمتلكون القدرة و الإختيار الكاملين فى هذا الأمر، و معصوميتهم لا تعنى سلب القدرة و الإختيار منهم، إلّا أنّ علمهم الغزير و ارتباطهم المباشر و المستمر مع البارئ عزّ و جلّ يمنعهم حتى من التفكير و لو للحظة واحدة بالشرك، فهل يمكن أن يتناول السمّ طبيب عالم و حاذق و مطلع بصورة جيدة على تأثير تلك المادة السامة و الخطرة، و هو فى حالة طبيعية؟! الهدف هو اطلاع الجميع على خطر الشرك، فعند ما يخاطب البارئ عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۳

أنبياء العظام بهذه اللهجة الشديدة، فعلى الأمة أن تحسب حسابها، هذا الأسلوب من قبيل ما نصّ عليه المثل المعروف (إيّاك أعنى و اسمعى يا جارة).

و نفس المعنى

ورد فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أثناء إجابته على سؤال وجهه إليه المأمون، إذ قال: يا بن رسول اللّه أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال عليه السّلام: «بلى» قال: فما معنى قول اللّه إلى أن قال: فأخبرنى عن قول اللّه: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ

قال الرضا عليه السّلام: «هذا ممّا نزل بإيّاك أعنى و اسمعى يا جارة، خاطب اللّه بذلك نبيّه و أراد به أمته» و كذلك قوله: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ... و قوله تعالى:

وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا قال: صدقت يا ابن رسول اللّه ۱۳۸].

الآية التالية تضيف للتأكيد أكثر بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۱۳۹].

تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر، و ذلك يعنى أن ذات اللّه المنزهة يجب أن تكون معبودك الوحيد، ثمّ تأمر الآية بالشكر، لأن الشكر على النعم التى أغدقت على الإنسان هى سلم يؤدى إلى معرفة اللّه، و نفى كلّ أشكال الشرك، فالشكر على النعم من الأمور الفطرية عند الإنسان، و قبل الشكر يجب معرفة المنعم، و هنا فإن خط الشكر يؤدى إلى خط التوحيد، و ينكشف بطلان عبادة الأصنام التى لا تهب للإنسان آية نعمة.

الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تكشف عن الجذر الرئيسى لانحرافهم، و تقول:

وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ و لهذا تنزلوا باسمه المقدس حتى جعلوه رديفا للأوثان!! نعم، فمصدر الشرك هو عدم معرفة البارئ عزّ و جلّ بصورة صحيحة، فالذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۴

يعلم:

أوّلا: أنّ اللّه مطلق و غير محدود من جميع النواحى.

و ثانيا: أنّه خالق كلّ الموجودات التى تحتاج إليه فى كلّ لحظة من لحظات وجودها.

و ثالثا: أنّه يدير الكون و يحل كلّ عقد المشاكل، و أنّ الأرزاق بيده، و حتى الشفاعة إنّما يتمّ بإذنه و أمره، فما معنى توجه من يعلم بكلّ هذه الحقائق إلى غير اللّه.

و أساسا فإنّ وجود مثل هذه الصفات فى موجودين اثنين أمر محال، لأنّه من غير الممكن عقلا وجود موجودين مطلقين من جميع الجهات.

ثمّ يأتى القرآن بعبارتين كنائيتين بعد العبارة السابقة، و ذلك لبيان عظمة و قدرة البارئ عزّ و جلّ، إذ يقول كلام اللّه المجيد: وَ الْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ السَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ

«القبضة»: الشىء الذى يقبض عليه بجميع الكف، تستخدم- عادة- للتعبير عن القدرة المطلقة و التسلط التام، مثلما نقول فى الاصطلاحات اليومية الدارجة:

إن المدينة الفلانية هى بيدى، أو الملك الفلانى هو بيدى و فى قبضتى.

«مطويات»: من مادة (طى) و تعنى الثنى، و التى تستعمل أحيانا كناية عن الوفاة و انقضاء العمر، أو عن عبور شىء ما.

و العبارة المذكورة أعلاه استخدمت بصورة واضحة بشأن السماوات فى الآية (۱۰۴) من سورة الأنبياء يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ

فالذى يثنى طومارا و يحمله بيده اليمنى يسيطر بصورة كاملة على الطومار الذى يحمله بتلك اليد، و انتخبت اليد اليمنى هنا لأن أكثر الأشخاص يؤدون أعمالهم المهمّة باليد اليمنى و يحسون بأنّها ذات قوة و قدرة أكثر.

خلاصة الكلام، أنّ كلّ هذه التشبيهات و التعابير هى كناية عن سلطة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۵

المطلقة على عالم الوجود فى العالم الآخر، حتى يعلم الجميع أن مفتاح النجاة و حل المشاكل يوم القيامة هو بيد القدرة الإلهية، كى لا يعمدوا إلى عبادة الأصنام و غيرها من الآلهة بذريعة أنّها ستشفع لهم فى ذلك اليوم.

و لكن هل أنّ السماء و الأرض ليستا فى قبضته فى الحياة الدنيا؟ فلم الحديث عن الآخرة؟

الجواب: إنّ قدرة البارئ عزّ و جلّ تظهر و تتجلّى فى ذلك اليوم أكثر من أىّ وقت مضى، و تصل إلى مرحلة التجلّى النهائى، و كل إنسان يدرك و يشعر أنّ كلّ شىء هو من عند اللّه و تحت تصرفه. إضافة إلى أنّ البعض اتجه إلى غير اللّه بذريعة أنّ أولئك سينقذونه يوم القيامة، كما فعل المسيحيون، إذ أنّهم يعبدون عيسى عليه السّلام متصورين أنّه سينقذهم يوم القيامة، و طبقا لهذا فمن المناسب التحدث عن قدرة البارئ عزّ و جلّ فى يوم القيامة.

و يتّضح بصورة جيدة ممّا تقدم أنّ طابع الكناية يطغى على هذه العبارات، و بسبب قصور الألفاظ المتداولة فإنّنا نجد أنفسنا مضطرين إلى صبّ تلك المعانى العميقة فى قو هذه الألفاظ البسيطة، و لا يرد إمكانية تجسيم البارئ عزّ و جلّ من خلالها، إلّا إذا كان الشخص الذى يتصور ذلك ذا تفكير ساذج و عقل بسيط جدّا، حيث نفتقد ألفاظا تبيّن مقام عظمة البارئ عزّ و جلّ بصورة واضحة، إذن فيجب الاستفادة بأقصى ما يمكن من الكنايات التى لها مفاهيم كثيرة و متعددة.

على أية حال، فبعد التوضيحات التى ذكرت آنفا، يعطى البارئ عزّ و جلّ فى آخر الآية نتيجة مركزة و ظاهرية، إذ يقول: سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ

فلو لم يكن بنو آدم قد أصدروا أحكامهم على ذات اللّه المقدسة المنزهة وفق مقاييس تفكيرهم الصغيرة و المحدودة، لما انجر أحد منهم إلى حبائل الشرك و عبادة الأصنام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۶

ملاحظتان

۱- مسألة إحباط الأعمال

هل يمكن حقّا أن تحبط الأعمال الصالحة للإنسان بسبب أعمال سيئة يرتكبها؟ و هل أنّ هذه المسألة لا تتعارض مع عدالة البارئ عزّ و جلّ من جهة، و مع ظواهر الآيات التى تقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .

البحث فى هذه المسألة طويل و عريض سواء من حيث الأدلة العقلية أو النقلية، و قد أوردنا جزاء منه فى ذيل الآية (۲۱۷) من سورة البقرة، و سندكره فى نهاية بعض الآيات التى تتناسب مع الموضوع فى المجلدات القادمة إن شاء اللّه.

و ممّا تجب الإشارة إليه هنا هو: إذا كان هناك شك فى مسألة (إحباط الأعمال) بسبب المعاصى، فإنّه لا ينبغى أن يشكّ أبدا فى تأثير الشرك على إحباط الأعمال، لأن آيات كثيرة فى القرآن المجيد أشير إلى بعضها آنفا- تقول و بصراحة (إنّ الوفاة على الإيمان) هى شرط قبول الأعمال، و بدونها لا يقبل من الإنسان أى عمل.

فقلب المشرك كالأرض السبخة التى مهما بذرت فيها أنواع بذور الورد، و مهما هطل عليها المطر الذى هو مصدر الحياة، فإنّ تلك البذور سوف لن تنبت أبدا.

۲- هل عرف المؤمنون اللّه؟

قرأنا فى الآيات الآنفة أنّ المشركين لم يعرفوا اللّه حق معرفته، إذ أنّهم لو عرفوه لما ساروا فى طريق الشرك و معنى هذا الكلام أن المؤمنين الموحدين هم وحدهم الذين عرفوا اللّه حق معرفته.

و هنا يطرح هذا السؤال و هو: كيف يتلاءم هذا الكلام مع الحديث المشهور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۷

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الذى يقول فيه: «ما عرفناك حق معرفتك، و ما عبدناك حق عبادتك».

و للجواب على هذا السؤال يجب القول: إنّ للمعرفة مراحل، أعلاها هى تلك المعرفة التى تخص ذات اللّه المقدسة، و التى لا يمكن لأى أحد أن يعرفها أو يطلع عليها غير ذاته المقدسة التى تعرف كنه ذاته المقدسة، و الحديث الشريف المذكور يشير إلى هذا المعنى.

أمّا بقية المراحل التى تأتى بعد هذه المرحلة و التى يمكن للعقل البشرى أن يتعرف عليها، هى مرحلة معرفة صفات اللّه بصورة عامة و معرفة أفعاله بصورة مفصلة، و هذه المرحلة كما ذكرنا ممكنة بالنسبة للإنسان، و المراد من معرفة اللّه الوصول إلى هذه المرحلة، و الآية مورد بحثنا تحدثت عن هذه المرحلة، حيث أن المشركين يجهلون هذا المقدار من المعرفة أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۸

الآية [سورة الزمر (۳۹): آية ۶۸]

اشارة

وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ (۶۸)

التّفسير

(النفخ فى الصور) و موت و إحياء جميع العباد:

الآيات الأخيرة فى البحث السابق تحدثت عن يوم القيامة، و آية بحثنا الحالى تواصل الحديث عن ذلك اليوم مع ذكر إحدى الميزات المهمة له، إذ تبدأ الحديث بنهاية الحياة فى الدنيا، و تقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ يتّضح بصورة جيدة من هذه الآية أنّ حادثتين تقعان مع نهاية العالم و عند البعث، فى الحادثة الأولى يموت الأحياء فورا، و فى الحادثة الثانية- التى تقع بعد فترة من وقوع الحادثة الأولى- يعود كلّ الناس إلى الحياة مرّة اخرى، و يقفون بانتظار الحساب.

القرآن المجيد عبّر عن هاتين الحادثتين ب «النفخ فى الصور»، و هذا التعبير كناية عن الحوادث المفاجئة و المتزامنة التى ستقع و «الصور» بمعنى البوق الذى يتخذ من قرن الثور و يكون مجوفا عادة حيث يستخدم مثل هذا البوق فى حركة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۴۹

القوافل أو الجيش و توقفها، و طبعا هناك تفاوت بين النفخة للحركة و النفخة للتوقف.

كما يبيّن هذا التعبير سهولة الأمر و يوضح كيف أن البارئ عزّ و جلّ- من خلال أمر بسيط و هو النفخ فى الصور- يميت كلّ من فى السماء و الأرض، و كيف أنّه يبعثهم من جديد بنفخة صور اخرى.

و قلنا سابقا إنّ الألفاظ التى نستخدمها فى حياتنا اليومية عاجزة عن توضيح الحقائق المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة أو نهاية العالم و بدء

عالم آخر بدقّة، و لهذا السبب يجب الاستفادة من أوسع معانى الألفاظ الدارجة و المتداولة مع الالتفات إلى القرائن الموجودة.

توضيح: لقد وردت تعبيرات مختلفة فى القرآن المجيد عن نهاية الحياة فى هذا العالم و بدء حياة اخرى فى عالم آخر، حيث ورد الحديث عن (النفخ فى الصور) فى أكثر من عشر آيات ۱۴۰].

فى إحداها استخدمت عبارة النفر فى الناقور فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ[۱۴۱].

و فى بعضها استخدمت عبارة (القارعة) كما فى الآيات (۱ و ۲ و ۳ من سورة القارعة) الْقارِعَةُ، مَا الْقارِعَةُ، وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ.

و أخيرا استخدمت فى بعضها عبارة «صحيحة» و التى تعنى الصوت العظيم، كما ورد ذلك فى الآية (۴۹) من سورة يس ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ التى تتحدث عن الصيحة التى تقع فى نهاية العالم و تفاجئ كل بنى آدم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۰

أمّا الآية (۵۳) من سورة يس إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ فإنّها تتحدث عن صيحة (الإحياء) التى تبعث الناس من جديد و تحضرهم إلى محكمة العدل الإلهية.

من مجموع هذه الآيات يمكن أن يستشف بأن نهاية أهل السموات و الأرض تتمّ بعد صيحة عظيمة و هى (صيحة الموت) و أنّهم يبعثون من جديد و هم قيام بصيحة عظيمة أيضا، و هذه هى (صيحة بعث الحياة).

و أمّا كيف تكون هاتان الصيحتان؟

و ما هى آثار الصيحة الأولى و تأثير الصيحة الثانية؟ فلا علم لأحد بهما إلّا اللّه سبحانه و تعالى، و لذا ورد فى بعض الرّوايات التى تصف (الصور) الذى ينفخ فيه «إسرافيل» فى نهاية العالم، عن على بن الحسين عليه السّلام:- «و للصور رأس واحد و طرفان، و بين طرف رأس كلّ منهما إلى الآخر مثل ما بين السماء إلى الأرض» قال: فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذى بلى الأرض فلا يبقى فى الأرض ذو روح إلّا صعق و مات، و يخرج الصوت من الطرف الذى بلى السماوات فلا يبقى فى السماوات ذو روح إلّا صعق و مات إلّا إسرافيل، قال: فيقول اللّه لإسرافيل: يا إسرافيل، مت، فيموت إسرافيل ...»[۱۴۲].

على أية حال، فإنّ أكثر المفسّرين اعتبروا (النفخ فى الصور) كناية لطيفة عن كيفية نهاية العالم و بدء البعث، و لكن مجموعة قليلة من المفسّرين قالوا: إن (صور) هى جمع (صورة) و طبقا لهذا القول، فقد اعتبروا النفخ فى الصور يعنى النفخ فى الوجه، مثل نفخ الروح فى بدون الإنسان، و وفق هذا التّفسير ينفخ مرّة واحدة فى وجوه بنى آدم فيموتون جميعا، و ينفخ مرة اخرى فيبعثون جميعا[۱۴۳].

هذا التّفسير إضافة إلى كونه لا يتطابق مع ما جاء فى الروايات، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۱

لا يتطابق أيضا مع الآية مورد بحثنا، لأنّ الضمير فى عبارة ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى مفرد مذكر يعود على الصور، فى حين لو كان يراد منه المعنى الثّانى لكان يجب استعمال ضمير المفرد المؤنث فى العبارة لتصبح (نفخ فيها).

إنّ النفخ فى الوجه فى مجال إحياء الأموات يعد أمرا مناسبا (كما فى معجزات عيسى عليه السّلام) إلّا أنّ هذا التعبير لا يمكن استخدامه فى مجال قبض الأرواح.

بحوث

۱- هل أنّ النفخ فى الصور يتمّ مرتين، أو أكثر؟

المشهور بين علماء المسلمين أنّه يتمّ مرّتين فقط، و ظاهر الآية يوضّح هذا أيضا، كما أنّ مراجعة آيات القرآن الأخرى تبيّن أنّ هناك

نفختين فقط، لكن البعض قال: إنّها ثلاث نفخات، و البعض الآخرة قال: إنّه أربع.

و بهذا الشكل فالنفخة الأولى يقال لها نفخة (الفزع)، و هذه العبارة وردت فى الآية (٨٧) من سورة النمل وَ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ

و النفختان الثانية و الثّالثة يعتبرونها للإماتة و الإحياء، و التى أشير إليها فى آيات بحثنا و فى آيات قرآنية اخرى، أولاهما يطلقون عليها نفخة (الصعق) (الصعق تعنى فقدان الإنسان حالة الشعور، أى يغشى عليه، و تعنى أيضا الموت) و الثانية يطلق عليها نفخة (القيام).

أمّا الذين احتملوا أن النفخات أربع، فيبدو أنّهم استشفوا ذلك من الآية (٥٣) من سورة يس و التى تقول بعد نفخة الإحياء إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ و هذه النفخة هى (لجمعهم و إحضارهم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ١٥٢

و الحقيقة أنّه ليس هناك أكثر من نفختين، و مسألة الفزع و الرعب العام فى الواقع هى مقدمة لموت جميع البشر و الذى يتم بعد النفخة الأولى أو الصيحة الأولى، كما أن نفخة الجميع هى تتمة لنفخة الإحياء و البعث، و بهذا الشكل فلا يوجد أكثر من نفختين (نفخة الموت) و (نفخة الإحياء)، و هناك شاهد آخر على هذا القول و هو الآيتان (٦ و ٧) من سورة النازعات، اللتان تقولان: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.

٢- ما هو صور إسرافيل:

هناك سؤال يتبادر إلى الذهن، و هو: كيف تملأه أمواج الصور الصوتية كلّ العالم فى نفس اللحظة؟ رغم أنّنا نعلم أنّ سرعة الأمواج الصوتية بطيئة و لا تتجاوز ال (٢۴٠) مترا فى الثانية، فى حين أنّ سرعة الضوء هى أكثر بمليون مرة من هذه السرعة إذ تبلغ (٣٠٠) ألف كيلومتر فى الثانية.

يجب الاعتراف فى البداية بأنّ معلوماتنا بشأن هذا الموضوع هى كمعلوماتنا بشأن الكثير من المسائل المتعلقة بيوم القيامة، فهى معلومات عامة لا أكثر، إذ نجهل الكثير من تفاصيل ذلك اليوم كما قلنا.

و التدقيق فى الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية بشأن تفسير كلمة (الصور) تبيّن عكس ما يتصور البعض من أنّ (الصور) هو (زمارة) أو (مزمار) أو (بوق) اعتيادى.

و

قد جاء فى رواية عن الإمام زين العابدين عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الصور قرن عظيم له رأس واحد و طرفان، و بين الطرف الأسفل الذى يلى الأرض إلى الطرف الأعلى الذى يلى السماء مثل تخوم الأرضين إلى فوق السماء السابعة، فيه أثقاب بعدد أرواح الخلائق»[١۴۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٥، ص: ١٥٣

و

فى حديث ورد عن رسول اللّه، جاء فيه: «الصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد»[١۴٥].

طرح مسألة النور هنا بمثابة جواب على السؤال الثّانى المذكور أعلاه، و يوضح أن الصيحة العظيمة ليست من قبيل الأمواج الصوتية الاعتيادية، و إنّما هى صيحة أعظم و أعظم، و تكون أمواجها ذات سرعة فائقة و غير طبيعية حتى أنّها أسرع من الضوء الذى يجتاز السماء و الأرض بفترة زمنية قصيرة جدّا، ففى المرّة الأولى تكون مميتة، فى المرة الثانية تكون باعثة للأموات.

أمّا كيف يتسبب مثل هذا الصوت فى إماتة العالمين، فإنّ كان هذا الأمر عجيبا فى السابق، فإنه غير عجيب اليوم، لأننا سمعنا كثيرا بأن

الأمواج الانفجاریة تسببت فی تمزق أجساد البعض و إصابة آخرین بالصمیم، و رمی آخرین إلی مسافة بعیدة عن مکانهم، و تسببت فی تدمیر البیوت أیضا، کما شاهد الکثیر منّا کیف أنّ زیادة سرعة الطائرة و بعبارة اخری (اختراق حاجز الصوت) یولّد صوتا مرعبا و أمواجا مدمّرة، قد تحطم زجاج نوافذ الکثیر من العمارات و البیوت.

فإذا کانت الأمواج الصوتیة الصغیرة التی هی من صنع الإنسان تحدث مثل هذا التأثیر، فما هی الآثار التی تترکها الصیحة الإلهیة العظیمة، هی بلا شکّ انفجار عالمی کبیر.

و لهذا السبب لا عجب أیضا إن قلنا بوجود أمواج تقابل تلک الأمواج، و أنّها تهز الإنسان و توقظه و تحییه، رغم أنّه من العسیر علینا تصور هذا المعنی، و لکننا نری دائما کیف یوقظ النائم من نومه بواسطة الصوت، و کیف یعود الإنسان المغمی علیه إلی حالته الطبیعیة بواسطة عدّة صعقات شدیدة، و نکرر القول مرّة اخری، و نقول: إنّ علمنا المحدود لا یمکنه إدراک سوی ظلّ هذه الأمور و من بعید.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۴

۳- من هم المستثنون؟

کما مرّ علینا فی الآیة المبحوثة عنها فإنّ کلّ أهل السموات و الأرض یموتون سوی مجموعة واحدة إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ فمن هی هذه المجموعة؟ هناک اختلاف بین المفسّرین بشأن هذا الأمر:

فمجموعة من المفسّرین قالوا: إنّهم ملائکة اللّه الکبار، کجبرائیل و میکائیل و إسرافیل و عزرائیل، و قد أشارت روایة إلی هذا المعنی [۱۴۶].

البعض أضاف إلی أولئک الملائکة الکبار حملة عرش اللّه (کما وردت فی روایة اخری)[۱۴۷].

و مجموعة اخری قالت: إنّ أرواح الشهداء مستثناة من الموت، وفقا لما جاء فی آیات القرآن المجید أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ کما ورد فی روایة تشیر إلی هذا المعنی ۱۴۸].

و بالطبع فإنّ هذه الروایات لا تتعارض مع بعضها البعض، و لکن فی کلّ الصور فإنّ هذه المجموعة المتبقیة تموت فی نهایة الأمر، کما أوضحته تلک الرّوایات، و لا یبقی أحد حیا فی هذا العالم سوی البارئ عزّ و جلّ إذ هو الْحَیِّ الَّذِی لا یَمُوتُ

و عن کیفیة موت الملائکة و أرواح الشهداء و الأنبیاء و الأولیاء، فیحتمل أنّ المراد من موت أولئک هو قطع ارتباط الروح عن قالبها المثالی، أو تعطیل نشاط الروح المستمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۵

۴- فجائیة النفختین:

آیات القرآن الکریم توضح بصورة جیدة أنّ النفختین تقعان بصورة مفاجئة، و النفخة الأولی تکون فجائیة بحیث أنّ مجموعة کبیرة من الناس تکون منشغلة بالتجارة و الجدال و النقاش فی أموالهم و بیعهم و شرائهم، و فجأة یسمعون الصیحة، فیسقطون فی أماکنهم میتین، کما صرحت بذلک الآیة (۲۹) فی سورة یس إِنْ کانَتْ إِلَّا صَیْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ

و أمّا (الصیحة الثانیة) فإنّ آیات القرآن الکریم- و منها الآیة التی هی مورد بحثنا- تبیّن بأنّها تقع فجأة أیضا.

۵- ما هی الفاصلة الزمنیة بین النفختین؟

الآيات القرآنيـة لم تـذكر توضـيحا حول هـذا الأمر، سوى كلمة (ثم) التى وردت ضـمن آية بحثنا و التى تدل على وجود فاصل زمنى بين النفختين، إلّا أنّ بعض الرّوايات ذكرت بأن هـذه الفاصـلة مقـدارها (۴۰) عاما[۱۴۹]. و المجهول بالنسـبة لنا هو معيار هذه السـنين، فهل هى سنوات اعتيادية كالتى نعيشها نحن، أم أنّها سنوات و أيّام كسنوات و أيّام القيامة.

على أيـة حال فالتفكر فى نفخـة الصور و نهايـة العالم، و كذلك بالنفخة الثانية و بدء عالم جديد، و مع ملاحظة الإشارات التى وردت فى القرآن المجيـد، و التفاصـيل الأخرى فى الرّوايات الإسـلامية بهذا الشأن، يعطى دروسا تربوية عميقة للإنسان، و خاصة أنّها توضـح هـذه الحقيقة، و هى البقاء على اسـتعداد دائم لاسـتقبال مثل هذا الحادث العظيم و الرهيب فى كلّ لحظة، لأنّه لم يحدد لوقوعها تاريخ معين، إذ يحتمل وقوعها فى أيـة لحظة، إضافة إلى أنّها تقع من دون مقدمات، لذا ورد فى ذيل إحدى الرّوايات الخاصة بنفخ الصور و المذكورة آنفا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۶

الراوى قال، عنـد ما وصل الكلام إلى هـذا الأمر «رأيت على بن الحسـين يبكى عنـد ذلك «بكاء شديـدا»، إذ كان قلقا جـدّا من مسألة نهاية العالم و يوم القيامة، و إحضار الناس للحساب فى محكمة العدل الإلهية»[۱۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۷

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۶۹ الى ۷۰]

اشارة

وَ أَشْـرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ وُضِعَ الْكِتابُ وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۶۹) وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ (۷۰)

التّفسير

ذلك اليوم الذى تشرق الأرض بنور ربّها:

آيتا بحثنا تواصـلان اسـتعراض الحـديث عن القيامـة و الـذى بدأ قبل عدّة آيات، و هاتان الآيتان تضـمان سـبع عبارات منسـجمة، كلّ واحدة تتناول أمرا من أمور المعاد، لتكمل بعضها البعض، أو أنّها تقيم دليلا على ذلك.

فى البداية تقول: وَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها.

و قد اختلف المفسّرون فى معنى إشراق الأرض بنور ربها، إذ ذكروا تفسيرات عديدة، اخترنا ثلاثا منها، و هى:

۱- قالت مجموعـة: إنّ المراد من نور الرب هما الحق و العدالة، الذى ينير بهما ربّ العالمين الأرض فى ذلك اليوم، حيث قال العلامة المجلسى فى بحار الأنوار: «أى أضاءت الأرض بعدل ربها يوم القيامة، لأن نور الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۸

بالعدل»[۱۵۱].

و البعض الآخر اعتبر الحديث النبوى (الظلم ظلمات يوم القيامة) شاهدا على هذا المعنى ۱۵۲].

فيما قال «الزمخشـرى» فى تفسـير الكشاف: (و أشرقت الأرض بما يقيمه فيها من الحق و العدل و يبسطه من القسط فى الحساب و وزن

الحسنات و السيئات).

۲- البعض الآخر يعتقد أنّه إشارة إلى نور غير نور الشمس و القمر، يخلقه اللّه فى ذلك اليوم خاصة.

۳- أمّا المفسّر الكبير العلّامة الطباطبائى أعلى اللّه مقامه الشريف صاحب تفسير الميزان فقد قال: إنّ المراد من إشراق الأرض بنور ربّها هو ما يخصّ يوم القيامة من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدو الأعمال من خير أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين. و قد استدل العلّامة الطباطبائى على هذا الرأى بالآية (۲۲) من سورة (ق) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. و هذا الإشراق- و إن كان عاما لكل شيء يسعه النور- لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان.

و بالطبع فإن هذه التفاسير لا تتعارض فيما بينها، و يمكن القول بصحتها جميعا، مع أن التّفسيرين الأوّل و الثّالث أنسب من غيرهما.

و من دون شك فإنّ هذه الآية تتعلق بيوم القيامة، و إن وجدنا بعض روايات أهل البيت الأطهار (عليهم السلام) تفسّرها على أنّها تعود إلى ظهور القائم المهدى المنتظر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف، فهى فى الواقع نوع من التطبيق و التشبيه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۵۹

و تأكيد لهذا المعنى، و هو عند ظهور المهدى (عج) تصبح الدنيا نموذجا حيا من مشاهد القيامة، إذ يملأ هذا الإمام بالحق و نائب الرّسول الأكرم و خليفة اللّه الأرض بالعدل إلى الحد الذى ترتضيه الحياة الدنيا.

و

نقل (المفضل بن عمر) عن الإمام الصادق عليه السّلام «إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها و استغنى العباد عن ضوء الشمس و ذهبت الظلمة»[۱۵۳].

العبارة الثّانية فى هذه الآية تتحدث عن صحائف الأعمال، إذ تقول: وَ وُضِعَ الْكِتابُ

الصحائف التى تتضمن جميع صغائر و كبائر أعمال الإنسان، و كما يقول القرآن المجيد فى الآية (۴۹) من سورة الكهف لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.

و تضيف العبارات التى تتحدث عن الشهود وَ جِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَ الشُّهَداءِ.

فالأنبياء يحضرون ليسألوا عن أدائهم لمهام الرسالة، كما ورد فى الآية (۶) من سورة الأعراف وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ

كما يحضر شهداء الأعمال فى محكمة العدل الإلهية ليدلوا بشهاداتهم، صحيح أن البارئ عزّ و جلّ مطلع على كلّ الأمور، و لكن للتأكيد على مقام العدالة يدعو شهداء الأعمال للحضور فى تلك المحكمة.

ذكر المفسّرون آراء عديدة بشأن أولئك الشهداء على الأعمال، حيث قال البعض: إنّهم الصالحون و الطاهرون و العادلون فى الأمّة، الذين يشهدون على أداء الأنبياء لرسالتهم، و على أعمال الناس الذين كانوا يعاصرونهم، و (الأئمة المعصومون) هم فى طليعة شهداء الأعمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۰

فى حين يعتقد البعض الآخر بأنّ الملائكة هم الشهداء على أعمال الإنسان، و الآية (۲۱) فى سورة (ق) تعطى الدليل على هذا المعنى وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

و قال البعض: إن أعضاء بدن الإنسان و مكان و زمان الطاعة و المعصية هم الذين يشهدون على الإنسان يوم القيامة.

و يبدو أن كلمة (شهداء) لها معان واسعة، أشار كلّ مفسر إلى جانب منها فى تفسيره.

و احتمل البعض أنّها تخص «الشهداء» الذين قتلوا فى سبيل اللّه، و لكن هذا الاحتمال غير وارد و بعيد، لأن الحديث هو عن شهداء محكمة العدل الإلهى، و ليس عن شهداء طريق الحق، مع إمكانية انضمامهم إلى صفوف الشهود.

العبارة الرّابعة تقول: وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ

و الخامسة تضيف: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

فمن البديهيات، عند ما يكون الحاكم هو البارئ عزّ و جلّ، و تشرق الأرض بنور عدالته، و تعرض صحائف أعمال الإنسان التى تبيّن كلّ صغيرة و كبيرة بدقّة، و يحضر الأنبياء و الشهود و العدول، فلا يحكم البارئ عزّ و جلّ إلا بالحق، و فى مثل هذا المحاكم لا وجود للظالم و الاستبداد مطلقا.

العبارة السادسة فى الآية التالية أكملت الحديث بالقول: وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ

إنّ جزاء الأعمال و عواقبها سترد إليهم، و هل هناك مكافأة و مجازاة أعلى من أن يريد عمل الإنسان بصورة كاملة إلى الإنسان نفسه (نلفت الانتباه إلى أن كلمة (وفيت) تعنى الأداء بصورة كاملة) و يبقى مرافقا له إلى الأبد.

فالذى يتمكن من تنفيذ مثل هذه المناهج العادلة بدقّة، هو الذى أحاط علمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۱

بكل شىء، لهذا فإن العبارة السابعة و الأخيرة فى هذا البحث تقول: وَ هُوَ أَعْلَمُ بِما يَفْعَلُونَ

إذن فلا حاجة حتى للشهود، لأنّ اللّه هو أعلم من كلّ أولئك الشهود، و لكن لطفه و عدله يقتضيان إحضار الشهود، نعم فهذا هو مشهد يوم القيامة، فليستعد الجميع لذلك اليوم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۲

الآيتان [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۱ الى ۷۲]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ (۷۱) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۲)

التّفسير

الذين يدخلون جهنم زمرا:

تواصل الآيات هنا بحث المعاد، و تستعرض بالتفصيل ثواب و جزاء المؤمنين و الكافرين الذى استعرض بصورة مختصرة فى الآيات السابقة. و تبدأ بأهل جهنم، إذ تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً.

فمن الذى يسوقهم إلى جهنم؟

كما هو معروف فإن ملائكة العذاب هى التى تسوقهم حتى أبواب جهنم، و نظير هذه العبارة ورد فى الآية (۲۱) من سورة (ق)، إذ تقول: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۳

عبارة «زمر» تعنى الجماعة الصغيرة من الناس، و توضح أن الكافرين يساقون إلى جهنم على شكل مجموعات مجموعات صغيرة و متفرقة.

و «سيق» من مادة (سوق) و تعنى (الحث على أسير).

ثم تضيف حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ وَ يُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا[۱۵۴].

يتّضح بصورة جيدة من خلال هذه العبارة، أن أبواب جهنم كانت مغلقة قبل سوق أولئك الكفرة، و هى كأبواب السجون المغلقة التى تفتح أمام المتهمين الذين يراد سجنهم، و هذا الحدث المفاجئ يوجد رعبا و وحشة كبيرة فى قلوب الكافرين، و قبل دخولهم يتلقاهم خزنة جهنم باللوم و التوبيخ، الذين يقولون استهجانا و توبيخا لهم: لم كفرتم و قد هيئت لكم كافة أسباب الهداية، ألم يرسل إليكم أنبياء منكم يتلون آيات اللّه عليكم باستمرار، و معهم معجزات من خالقكم، و إنذار و إعلام بالأخطار التى ستصيبكم إن كفرتم باللّه ۱۵۵]؟ فكيف وصل بكم الحال إلى هذه الدرجة رغم إرسال الأنبياء إليكم؟

حقّا إنّ كلام خزنة جهنم يعد من أشد أنواع العذاب على الكافرين الذين يواجهون بمثل هذا اللوم فور دخولهم جهنم.

على أية حال، فإنّ الكافرين يجيبون خزنة جهنم بعبارة قصيرة ملؤها الحسرات، قائلين: قالُوا بَلى وَ لكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ عَلَى الْكافِرِينَ

مجموعة من المفسّرين الكبار اعتبروا كَلِمَةُ الْعَذابِ إشارة إلى قوله تعالى حين هبط آدم على الأرض، أو حينما قرر الشيطان إغواء بنى آدم، كما ورد فى الآية (۳۹) من سورة البقرة وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۴

و حينما قال الشيطان: لأغوينهم جميع إلّا عبادك المخلصين، فأجابه البارئ عزّ و جلّ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ۱۵۶].

و بهذا الشكل اعترفوا بأنّهم كذبوا الأنبياء و أنكروا آيات اللّه، و بالطبع فإن مصيرهم لن يكون أفضل من هذا.

كما يوجد احتمال فى أنّ المراد من حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذابِ هو ما تعنيه الآية السابعة فى سورة (يس) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

و هو إشارة إلى أن الإنسان يصل أحيانا- بسبب كثرة ذنوبه و عدائه و لجاجته و تعصبه أمام الحق- إلى درجة يختم معها على قلبه و لا يبقى أمامه أىّ طريق للعودة، و فى هذه الحالة يصبح مستحقا تماما للعذاب.

و على أيّة حال، فإن مصدر كلّ هذه الأمور هو عمل الإنسان ذاته، و ليس من الصحيح الاستدلال على معنى الجبر و فقدان حرية الإرادة.

هذا النقاش القصير ينتهى مع اقترابهم من عتبة جهنم قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

فأبواب جهنم- كما أشرنا إليها من قبل- يمكن أن تكون قد نظمت حسب أعمال الإنسان، و إن كلّ مجموعة كافرة تدخل جهنم من الباب الذى يتناسب مع أعمالها، و ذلك مثل أبواب الجنّة التى يطلق على أحد أبوابها اسم «باب المجاهدين» و

قد جاء فى كلام لأمير المؤمنين «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة»[۱۵۷].

و الذى يلفت النظر هو أن ملائكة العذاب تؤكد على مسألة التكبر من بين بقية الصفات الرذيلة التى تؤدى بالإنسان إلى السقوط فى نار جهنم، و ذلك إشارة إلى أن التكبر و الغرور و عدم الانصياع و الاستسلام أمام الحق هو المصدر الرئيسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۵

للكفر و الانحراف و ارتكاب الذنب.

نعم، فالتكبر ستار سميك يغطى عينى الإنسان و يحول دون رؤيته للحقائق الساطعة المضيئة، و لهذا نقرأ

فى رواية عن الإمامين المعصومين الباقر و الصادق عليهما السلام «لا يدخل الجنّة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر»[۱۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۶

الآيات [سورة الزمر (۳۹): الآيات ۷۳ الى ۷۵]

اشارة

وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ (۷۳) وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (۷۴) وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۷۵)

التّفسير

المتقون يدخلون الجنّة أفواجا!!

هـذه الآيات- التى هى آخر آيات سورة (الزمر)- تواصل بحثها حول موضوع المعاد، حيث تتحدث عن كيفية دخول المؤمنين المتقين الجنّة، بعد أن كانت الآيات السابقة قد استعرضت كيفية دخول الكافرين جهنم، لتتوضح الأمور أكثر من خلال هذه المقارنة.

فى البداية تقول: وَ سِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً.

استعمال عبارة (سيق) (و التى هى من مادة (سوق) على وزن (شوق) و تعنى الحث على السير). أثار التساؤل، كما لفت أنظار الكثير من المفسّرين، لأنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۷

التعبير يستخدم فى موارد يكون تنفيذ العمل فيها من دون أى اشتياق و رغبة فى تنفيذه، و لذلك فإنّ هذه العبارة صحيحة بالنسبة لأهل جهنم، و لكن لم استعملت بشأن أهل الجنّة الذين يتوجهون إلى الجنّة بتلهف و اشتياق؟

قال البعض: إنّ هذه العبارة استعملت هنا لأنّ الكثير من أهل الجنّة ينتظرون أصدقاءهم.

و البعض الآخر قال: إنّ تلهف و شوق المتقين للقاء البارئ عزّ و جلّ يجعلهم يتحينون الفرصة لذلك اللقاء بحيث لا يقبلون حتّى بالجنّة.

فيما قال البعض: إنّ هناك وسيلة تنقلهم بسرعة إلى الجنّة.

مع أنّ هذه التّفسيرات جيدة و لا يوجد أى تعارض فيما بينهما، إلّا أنّ هناك نقطة اخرى يمكن أن تكون هى التّفسير الأصح لهذه العبارة، و هى مهما كان حجم عشق المتقين للجنّة، فإن الجنّة و ملائكة الرحمة مشتاقة أكثر لوفود أولئك عليهم، كما هو الحال بالنسبة إلى المستضيف المشتاق لضيف و المتلهف لوفوده عليه إذ أنّه لا يجلس لانتظاره و إنّما يذهب لجلبه بسرعة قبل أن يأتى هو بنفسه إلى بيت المستضيف، فملائكة الرحمة هى كذلك مشتاقة لوفود أهل الجنّة.

و الملاحظة أن (زمر) تعنى هنا المجموعات الصغيرة، و تبيّن أن أهل الجنّة يساقون إلى الجنّة على شكل مجموعات مجموعات كلّ حسب مقامه.

ثم تضيف الآية حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ ۱۵۹].

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول بشأن أهل جهنم: إنّهم حينما يصلون إلى قرب جهنم تفتح لهم الأبواب، و يقول بشأن أهل الجنّة، إن أبواب الجنّة مفتحة لهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۸

من قبل، و هـذه إشارة إلى الاحترام و التبجيل الذى يستقبلون به من قبل ملائكة الرحمة، كالمستضيف المحب الذى يفتح أبواب بيته للضيوف قبل وصولهم، و يقف عند الباب بانتظارهم.

و قد قرأنا فى الآيات السابقة أن ملائكة العذاب يستقبلون أهل جهنم باللوم و التوبيخ الشديدين، عند ما يقولون لهم: قد هيئت لكم أسباب الهداية، فلم تركتموها و انتهيتم إلى هذا المصير المشؤوم؟

أمّا ملائكة الرحمة فإنّها تبادر أهل الجنّة بالسلام المرافق للاحترام و التبجيل، و من ثمّ تدعوهم إلى دخول الجنّة.

عبارة «طبتم» من مادة (طيب) على وزن (صيد) و تعنى الطهارة، و لأنّها جاءت بعد السلام و التحية، فمن الأرجح القول بأن لها مفهوما إنشائيا، و تعنى:

لتكونوا طاهرين مطهرين و نتمنى لكم السعادة و السرور.

و بعبارة اخرى: طابت لكم هذه النعم الطاهرة، يا أصحاب القلوب الطاهرة.

و لكن الكثير من المفسّرين ذكروا لهذه الجملة معنى خبريا عند تفسيرها، و قالوا: إنّ الملائكة تخاطبهم بأنّكم تطهرتم من كلّ لوث و خبث، و قد طهرتم بإيمانكم و بعملكم الصالح قلوبكم و أرواحكم، و تطهرتم من الذنوب و المعاصى، و نقل البعض رواية تقول: إنّ هناك شجرة عند باب الجنّة، تفيض من تحتها عينا ماء صافيتان، يشرب المؤمنون من إحداهما فيتطهر باطنهم، و يغتسلون بماء العين الأخرى فيتطهر ظاهرهم، و، هنا يقول خزنة الجنّة لهم: سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ ۱۶۰].

الملاحظ أن «الخلود» استخدم بشأن كلّ من أهل الجنّة و أهل النّار، و ذلك لكى لا يخشى أهل الجنّة من زوال النعم الإلهية، و لكى يعلم أهل النّار بأنّه لا سبيل لهم للنجاة من النّار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۶۹

الآية التّالية تتكون من أربع عبارات قصار غزيرة المعانى تنقل عن لسان أهل الجنّة السعادة و الفرح اللذين غمراهم، حيث تقول: وَ قالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنا وَعْدَهُ

و تضيف فى العبارة التالية وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ

المراد من الأرض هنا أرض الجنّة. و استخدام عبارة (الإرث) هنا، إنّما جاء لكونهم حصلوا على كلّ هذه النعم فى مقابل جهد قليل بذلوه، إذ- كما هو معروف- فإنّ الميراث هو الشىء الذى يحصل عليه الإنسان من دون أى عناء مبذول.

أو أنّها تعنى أن لكل إنسان مكان فى الجنّة و آخر فى جهنم، فإن ارتكب عملا استحق به جهنم فإن مكانه فى الجنّة سوف يمنح لغيره، و إن عمل عملا صالحا استحق به الجنّة، فيمنح مكانا فى الجنّة و يترك مكانه فى جهنم لغيره.

أو تعنى أنّهم يتمتعون بكامل الحرية فى الاستفادة من ذلك الإرث، كالميراث الذى يحصل عليه الإنسان إذ يكون حرا فى استخدامه.

هذه العبارة- فى الواقع- تحقق عينى للوعد الإلهى الذى ورد فى الآية (۶۳) من سورة مريم تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا.

العبارة الثّالثة تكشف عن الحرية الكاملة التى تمنح لأهل الجنّة فى الاستفادة من كافة ما هو موجود فى الجنّة الواسعة، إذ تقول: نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ.

يستشف من الآيات القرآنية أن فى الجنّة الكثير من البساتين و الحدائق و قد أطلقت عليها فى الآية (۷۲) من سورة التوبة عبارة جَنَّاتِ عَدْنٍ و أهل الجنّة وفقا لدرجاتهم المعنوية يسكنون فيها، و أن لهم كامل الحرية فى التحرك فى تلك الحدائق و البساتين فى الجنّة.

أمّا العبارة الأخيرة فتقول: فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ

و هذه إشارة إلى أن هذه النعم الواسعة إنّما تعطى فى مقابل العمل الصالح (المتولد من الايمان طبعا) ليكون صاحبه لائقا و مستحقا لنيل مثل هذه النعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۰

و هنا يطرح هذه السؤال و هو: هل أنّ هذا القول صادر عن أهل الجنّة، أم أنّه كلام اللّه جاء بعد كلام أهل الجنّة؟

المفسّرون وافقوا الرأيين، و لكنّهم رجحوا المعنى الأوّل الذى يقول: إنّه كلام أهل الجنّة و يرتبط بالعبارات الأخرى فى الآية.

و فى النهاية تخاطب الآية- مورد بحثنا و هى آخر آية من سورة الزمر- الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قائلة: وَ تَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يسبحون اللّه و يقدّسونه و يحمدونه.

إذ تشير إلى وضع الملائكة الحافين حول عرش اللّه، أو أنّها تعبر عن استعداد أولئك الملائكة لتنفيذ الأوامر الإلهية، أو أنّها إشارة إلى خفايا قيمة تمنح فى ذلك اليوم للخواص و المقرّبين من العرش الإلهى، مع أنّه لا يوجد أى تعارض بين المعانى الثلاثة، إلا أن المعنى الأوّل أنسب.

و لهذا تقول العبارة التالية وَ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِ

و باعتبار هذه الأمور هى دلائل على ربوبية البارئ عزّ و جلّ و استحقاق ذاته المقدسة و المنزّهة لكل أشكال الحمد و الثناء، فإنّ الجملة الأخيرة تقول:

وَ قِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و هنا يطرح هذا السؤال: هل أن هذا الخطاب صادر عن الملائكة، أم عن أهل الجنّة المتقين، أم أنّه صادر عن الاثنين؟

المعنى الأخير أنسب من غيره، لأنّ الحمد و الثناء على اللّه هو منهاج كلّ أولى الألباب، و منهاج كلّ الخواص و المقربين، و استعمال كلمة (قيل) و هى فعل مبنى للمجهول يؤيد ذلك.

نهاية سورة الزّمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۱

سورة المؤمن

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس و ثمانون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۳

«سورة المؤمن»

نظرة مختصرة فى محتوى السورة:

سورة المؤمن هى طليعة الحواميم، و الحواميم فى القرآن الكريم سبع سور متتالية يلى بعضها بعضا، نزلت جميعا فى مكّة، و هى تبدأ ب «حم».

هذه السورة كسائر السور المكّية، تثير فى محتواها قضايا العقيدة و، تتحدث عن أصول الدين الإسلامى و مبانيه و فى ذلك تلبى حاجة المسلمين فى تلك المرحلة إلى تشييد و إقامة قواعد الدين الجديد.

و محتوى هذه السورة يضم بين دفتيه الشدة و اللطف، و يجمع فى نسيجه بين الإنذار و البشارة ... السورة- إذا- مواجهة منطقية حادّة مع الطواغيت و المستكبرين، كما هى نداء لطف و رحمة و محبة بالمؤمنين و أهل الحق.

و تمتاز هذه السورة أيضا بخصوصية تنفرد بها دون سور القرآن الأخرى، إذ تتحدّث عن «مؤمن آل فرعون» و هو مقطع من قصة

موسى عليه السّلام، و قصد مؤمن آل فرعون لم ترد فى كتاب اللّه سوى فى سورة «المؤمن».

إنّ قصة «مؤمن آل فرعون» هى قصة ذلك الرجل المؤمن المخلص الذى كان يتحلى بالذكاء و المعرفة فى الوقت الذى هو من بطانة فرعون، و محسوب- ظاهرا- من حاشيته- لقد كان هذا الرجل مؤمنا بما جاء به موسى عليه السّلام، و قد احتل و هو يعمل فى حاشية فرعون- موقعا حساسا مميزا فى الدفاع عن موسى عليه السّلام و عن دينه، حتى أنّه- فى الوقت الذى تعرضت فيه حياة موسى عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۴

للخطر- تحرّك من موقعه بسلوك فطن و ذكى و حكيم لكى يخلّص موسى من الموت المحقق الذى كان قد أحاط به.

إنّ اختصاص السورة باسم «المؤمن» يعود إلى قصة هذا الرجل الذى تحدّثت عشرون آية منها عن جهاده، أى ما يقارب ربع السورة.

يكشف الأفق العام أنّ حديث السورة عن «مؤمن آل فرعون» ينطوى على أبعاد تربوية لمجتمع المسلمين فى مكّة، فقد كان بعض المسلمين ممّن آمن بالإسلام يحافظ على علاقات طيبة مع بعض المشركين و المعاندين، و فى نفس الوقت فإن إسلامه و انقياده لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ليس عليهما غبار.

لقد كان الهدف من هذه العلاقة مع المشركين هو توظيفها فى أيّام الخطر لحماية الرسالة الجديدة و دفع الضر عن أتباعها، و فى هذا الإطار يذكر التاريخ أنّ أبا طالب عليه السّلام عمّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان من جملة هؤلاء، كما يستفاد ذلك من بعض الرّوايات الإسلامية المروية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام ۱۶۱].

و بشكل عام يمكن النظر إلى محتوى السورة فى إطار ما تثيره النقاط و الأقسام الآتية:

القسم الأوّل: و هو يضم طليعة آيات السورة التى تتحدث عن بعض من أسماء اللّه الحسنى، خصوصا تلك التى ترتبط ببعث معانى الخوف و الرجاء فى القلوب، مثل قوله تعالى: غافِرِ الذَّنْبِ و شَدِيدِ الْعِقابِ

القسم الثّانى: تهديد الكفّار و الطواغيت بعذاب هذه الدنيا الذى سبق و أن نال أقواما اخرى فى ماضى التأريخ، بالإضافة إلى التعرّض لعذاب الآخرة، و تتناول بعض الصور و المشاهد التفصيلية فيه.

القسم الثّالث: بعد أن وقفت السورة على قصة موسى و فرعون، بدأت بالحديث- بشكل واسع- عن قصة ذلك الرجل المؤمن الواعى الشجاع الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۵

اصطلح عليه ب «مؤمن آل فرعون» و كيف واجه البطانة الفرعونية و خلّص موسى عليه السّلام من كيدها.

القسم الرّابع: تعود السورة مرّة اخرى للحديث عن مشاهد القيامة، لتبعث فى القلوب الغافلة الروح و اليقظة.

القسم الخامس: تتعرض السورة المباركة فيه إلى قضيتى التوحيد و الشرك، بوصفهما دعامتين لوجود الإنسان و حياته، و فى ذلك تتناول جانبا من دلائل التوحيد، بالإضافة إلى ما تقف عليه من مناقشة لبعض شبهات المشركين.

القسم السّادس: تنتهى السورة- فى محتويات القسم الأخير هذا- بدعوة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم للتحمل و الصبر، ثمّ تختم بالتعرض إلى خلاصات سريعة ممّا تناولته مفصلا من قضايا ترتبط بالمبدأ و المعاد، و كسب العبرة من هلاك الأقوام الماضية، و ما تعرضت له من أنواع العذاب الإلهى فى هذه الدنيا، ليكون ذلك تهديدا للمشركين. ثمّ تخلص السورة فى خاتمتها إلى ذكر بعض النعم الإلهية.

لقد أشرنا فيما مضى إلى أنّ تسمية السورة ب «المؤمن» يعود إلى اختصاص قسم منها بالحديث عن «مؤمن آل فرعون». أما تسميتها ب «غافر» فيعود إلى كون هذه الكلمة هى بداية الآية الثّالثة من آيات السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة:

فى سلسلة الرّوايات الإسلامية المروية عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، نرى كلاما واسعا من فضل تلاوة سور «الحواميم» و بالأخص سورة «غافر» منها.

ففى بعض هذه الأحاديث نقرأ

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «الحواميم تاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۶

القرآن»[۱۶۲].

و عن ابن عباس ممّا يحتمل نقله

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليه السّلام قال: «لكل شىء لباب و لباب القرآن الحواميم»[۱۶۳].

و

فى حديث عن الإمام الصادق نقرأ قوله عليه السّلام: «الحواميم ريحان القرآن، فحمدوا اللّه و اشكروه بحفظها و تلاوتها، و إنّ العبد ليقوم يقرأ الحواميم فيخرج من فيه أطيب من المسك الأذفر و العنبر، و إنّ اللّه ليرحم تاليها و قارئها، و يرحم جيرانه و أصدقاءه و معارفه و كلّ حميم أو قريب له، و إنّه فى القيامة يستغفر له العرش و الكرسى و ملائكة اللّه المقربون»[۱۶۴].

و

فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «الحواميم سبع، و أبواب جهنّم سبع، تجىء كلّ «حاميم» منها فتقف على باب من هذه الأبواب تقول: اللّهم لا تدخل من هذا الباب من كان يؤمن بى و يقرأنى»[۱۶۵].

و فى قسم من

حديث مروى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «من قرأ «حاميم المؤمن» لم يبق روح نبىّ و لا صديق و لا مؤمن إلّا صلّوا عليه و استغفروا له»[۱۶۶].

و من الواضح أنّ هذه الفضائل الجزيلة ترتبط بالمحتوى الثمين للحواميم، هذا المحتوى الذى إذا واظب الإنسان على تطبيقه فى حياته و العمل به، و الالتزام بما يستلزمه من مواقف و سلوك، فإنّه سيكون مستحقا للثواب العظيم و الفضائل الكريمة التى قرأناها.

و إذا كانت الرّوايات تتحدث عن فضل التلاوة، فإنّ التلاوة المعنية هى التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۷

تكون مقدمة للاعتقاد الصحيح، فيما يكون الإعتقاد الصحيح مقدمة للعمل الصحيح. إذا التلاوة المعنية هى تلاوة الإيمان و العمل، و قد رأينا فى واحد من الأحاديث- الآنفة الذكر- المنقولة

عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم تعبير «من كان يؤمن بى و يقرأنى».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۲) غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ ذِى الطَّوْلِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳)

التّفسیر

صفات تبعث الأمل فی النفوس:

تواجهنا فی مطلع السورة الحروف المقطعة و هی هنا من نوع جدید لم نعهده فی السور السابقة، حیث افتتحت السورة ب «جاء» و «میم».

و بالنسبة للحروف المقطعة فی مطلع السور کانت لنا بحوث کثیرة فی معانیها و دلالاتها، تعرضنا إلیها أثناء الحدیث عن بدایة سورة «البقرة»، و سورة «آل عمران» و «الأعراف» و سور اخری.

الشیء الذی تضیفه هنا، هو أنّ الحروف التی تبدأ به سورة المؤمن التی نحن الآن بصددها، تشیر- کما یستفاد ذلک من بعض الرّوایات و من آراء المفسّرین- إلی أسماء اللّه التی تبدأ بحروف هذه السورة، أی «حمید» و «مجید» کما ورد ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۷۹

عن الامام الصادق علیه السّلام ۱۶۷].

البعض الآخر ذهب إلی أنّ «ح» إشارة إلی أسمائه تعالی مثل «حمید» و «حلیم» و «حنان»، بینما «م» إشارة إلی «ملک» و «مالک» و «مجید».

و هناک احتمال فی أن حرف «الحاء» یشیر إلی الحاکمیة، فیما یشیر حرف «المیم» إلی المالکیة الإلهیة.

عن ابن عباس، نقل القرطبی «فی تفسیره» أن «حم» من أسماء اللّه العظمی ۱۶۸].

و یتّضح فی نهایة الفقرة أنّ لیس ثمّة من تناقض بین الآراء و التفاسیر الآنفة الذکر، بل هی تعمد جمیعا إلی تفسیر الحروف المقطعة بمعنی واحد.

فی الآیة الثّانیة- کما جری علی ذلک الأسلوب القرآنی- حدیث عن عظمة القرآن، و إشارة إلی أنّ هذا القرآن بکل ما ینطوی علیه من عظمة و إعجاز و تحدّ، إنّما یتشکّل فی مادته الخام من حروف الألف باء ... و هنا یمکن معنی الإعجاز.

یقول تعالی: تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ

إنّ قدرته تعالی تعجز الأشیاء الأخری عن الوقوف إزاءه، فقدرته ماضیة فی کل شیء، و عزته مبسوطة، أمّا علمه تعالی فهو فی أعلی درجات الکمال، بحیث یستوعب کلّ احتیاجات الإنسان و یدفعه نحو التکامل.

و الآیة التی بعدها تعدّد خمسا من صفاته تعالی، یبعث بعضها الأمل و الرجاء، بینما یبعث البعض الآخر منها علی الخوف و الحذر.

و یقول تعالی: غافِرِ الذَّنْبِ

قابِلِ التَّوْبِ ۱۶۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۰

شَدِیدِ الْعِقابِ

ذِی الطَّوْلِ ۱۷۰].

لا إِلهَ إِلَّا هُوَ إِلَیْهِ الْمَصِیرُ.

أجل إنّ من له هذه الصفات هو المستحق للعبادة و هو الذی یملک الجزاء فی العقاب و الثواب.

ملاحظات

تنطوی الآیات الثلاث الآنفة الذکر علی مجموعة من الملاحظات، نقف علیها من خلال النقاط الآتیة:

أولا: فی الآیات أعلاه (آیـة ۲ و ۳) بعد ذکر اللّه و قبل ذکر المعاد إِلَیْهِ الْمَصِیرُ اشـتملت الآیتان علی ذکر سـبع صفات للذات الإلهیة، بعضها من «صفات الذات» و البعض الآخر منها من «صفات الفعل» التی انطوت علی إشارات للتوحید و القدرة و الرحمة و الغضب، ثمّ ذکرت «عزیز» و «علیم» و جعلتهما بمثابة القاعدة التی نزل الکتاب الإلهی (القرآن) علی أساسهما.

أمّا صفات «غافر الذنب» و «قابل التوب» و «شدید العقاب» و «ذی الطول» فهی بمثابة المقدمات اللازمة لتربیة النفوس و تطویعها لعبادة الواحدة الأحد.

ثانیا: ابتدأت الصفات الآنفة الذکر بصفة «غافر الذنب» أوّلا و «ذی الطول» أخیرا، أی صاحب النعمة و الفضل کصفة أخیرة. و فی موقع وسط جاءت صفة «شدید العقاب» و هکذا ذکرت الآیة الغضب الإلهی بین رحمتین. ثمّ إنّنا نلاحظ أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۱

الغضب الإلهی جاء وسط حدیث الآیة عن ثلاث صفات من صفات الرحمة الإلهیة، و فی کلّ ذلک دلیل علی المعنی المکنون فی «یا من سبقت رحمته غضبه».

ثالثـا: لاـ یقتصـر المعنی فی جملـة إِلَیْهِ الْمَصِیرُ علی عودة الجمیع و رجوعهم کافـة إلیه تعـالی فی یوم القیامـة، و إنّمـا تشـیر أیضا إلی الانتهاء المطلق لکل الأمور فی هذا العالم و العالم الآخر إلیه تعالی، و انتهاء سلسلة الوجود إلی قدرته و إرادته.

رابعا: جاء تعبیر لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فی ختام الصفات، و هو حکایة عن مقام التوحید و العبودیة الذی لا یلیق بغیر اللّه تعالی، حیث تنتهی أمام عبودیته کل العبودیات الأخری. و هکذا یکون تعبیر «لا إله إلّا هو» بمثابة النتیجة النهائیة الأخیرة للبیان القرآنی فی هذا المورد.

و لـذلک نقرأ فی حـدیث عن ابن عباس أنّه تعالی: غافِرِ الـذَّنْبِ للشـخص الذی یقول: لا إله إلّا اللّه و هو تعالی: قابِلِ التَّوْبِ للذی یقرّ بالعبودیة و یقول: لا إله إلّا اللّه. و هو شَدِیدِ الْعِقابِ للذی لا یقرّ و لا یقول: لا إله إلا اللّه. و هو ذِی الطَّوْلِ و غنی عن الشخص الذی لا یقول: لا إله إلا اللّه.

من کلّ ذلک یتّضح أن محور الصفات المذکورة هو التوحید، الذی یدور مدار الإعتقاد الصحیح و العمل الصالح.

خامسا: من وسائل الغفران فی القرآن:

ثمّة فی کتاب اللّه أمور کثیرة تکون أسبابا و عناوین للمغفرة و محو الذنوب و السیئات، و فیما یلی تشیر إلی بعض هذه العناوین:

۱- التوبـة: إذ فی آیة (۸) من سورة التحریم قوله تعـالی: یـا أَیُّهَـا الَّذِینَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوْبَـةً نَصُوحـاً عَسـی رَبُّکُمْ أَنْ یُکَفِّرَ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ

۲- الإیمان و العمل الصالح: حیث نقرأ فی سورة (محمّد- آیة ۲) قوله تعالی:

وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلی مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ کَفَّرَ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۲

۳- التقوی: و نری مصداقها فی قوله تعالی: إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ یَجْعَلْ لَکُمْ فُرْقاناً وَ یُکَفِّرْ عَنْکُمْ سَیِّئاتِکُمْ ۱۷۱].

۴- الهجرة و الجهاد و الشـهادة: و مصداقها قوله تعالی فی الآیة (۱۹۵) من سورة «آل عمران»: فَـالَّذِینَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أُوذُوا فِی سَبِیلِی وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُکَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَیِّئاتِهِمْ

۵- صدقـة السـر: و ذلـک قـوله تعـالی: إِنْ تُبْـدُوا الصَّدَقـاتِ فَنِعِمَّا هِیَ وَ إِنْ تُخْفُوهـا وَ تُؤْتُوهَـا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَیْرٌ لَکُمْ وَ یُکَفِّرُ عَنْکُمْ مِنْ

سَيِّئاتِكُمْ ۱۷۲].

۶- الإقراض: كما فى قوله تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ۱۷۳].

۷- اجتناب كبائر الذنوب: حيث يقول تعالى فى ۱۷۴]: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ

و هكذا يتبيّن لنا أن أبواب المغفرة الإلهية مفتوحة من كلّ مكان، و أنّ عباد اللّه بوسعهم طرق هذه الأبواب و الولوج إلى المغفرة الإلهية. و قد رأينا فى الآيات الآنفة الذكر سبعة من هذه الأبواب التى تضمن الخلاص لمن يلج أى واحد منها، أو كلّها جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ (۴) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (۵) وَ كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۶)

التّفسير

الأمر الإلهى الحاسم:

بعد أن تعرضت الآيات السابقة إلى نزول القرآن، و إلى بعض الصفات الإلهية التى تستهدف بعث الخوف و الرجاء، ورد كلام فى الآيات التى بين أيدينا عن قوم امتازوا بالمجادلة و المنازعة حيال آيات اللّه ... الآية الكريمة توضح مصير هذه المجموعة ضمن تعبير قصير و قاطع، فتقول: ما يُجادِلُ فِي آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا.

صحيح أنّ هذه المجموعة قد تملك العدة و العدد، إلّا أنّ ذلك لن يدوم إلّا لفترة، فلا تغتر و تنخدع إذا لتحركهم فى البلاد و تنقلهم فى المدن المختلفة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۴

و استعراضهم لقوّتهم: فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ.

إنّها أيّام تنقضى بين الكرّ و الفرّ، ثمّ تنتهى هذه الضجة لتزول معها هذه المجموعة و تمحى تماما، كما تزول الفقاعات من على سطح الماء، أو كما يتلاشى الرماد عند هبوب العواصف! «يجادل» مشتقّة من «جدل» و هى فى الأصل تعنى لف الحبل و إحكامه، ثمّ عمّ استخدامها فى الأبنية و الحديد و ما شابه، و لهذا فإنّ كلمة (مجادلة) تطلق على عمل الأشخاص المتقابلين و يريد كلّ شخص أن يلقى حجته و يثبت كلامه و يغلب خصمه.

و لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ كلمة (المجادلة) لا تعتبر مذمومة دائما فى اللغة العربية، بل تعتبر إيجابية و مطلوبة إذا كانت المجادلة فى طريق الحق و تستند على المنطق، و تهدف إلى تبيين الحقائق و إرشاد الأشخاص الجهلة ... أمّا إذا كانت على أسس واهية من التعصب و الجهل و الغرور، و تستهدف خداع هذا و ذاك، فتكون عند ذلك مذمومة.

القرآن الكريم استخدم كلمة (المجادلة) فى كلا مورديها، إذ نقرأ فى الآية (۱۲۵) من سورة النحل قوله تعالى: وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إلّا أنّه فى موارد اخرى- كما فى الآيـة أعلاه و فيما بعـدها- وردت (المجادلـة) لغرض الـذم، و هناك بحث حول الجـدال و المجادلة سنتعرض له فيما بعد إن شاء اللّه.

«تقلب» مشـتقّة من «قلب» و تعنى التغيير، و «تقلّب» هنا بمعنى التصـرّف فى المناطق و البلاد، المختلفة للسـيطرة و التسلّط عليها، و تعنى الذهاب و الإياب فيها أيضا.

إنّ هـدف الآيـة تحـذير للرسول صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم و المؤمنين به- فى بدايـة البعثـة- من الـذين كانوا من الطبقة المستضـعفة المحرومة، بأن لا يركنوا إلى الإمكانات المالية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۵

أو القوّة السياسـية و الاجتماعية للكفار، و يعتبرونها دليلا على حقانيتهم أو سـببا لقوّتهم الحقيقية، إذ هناك الكثير منهم فى تأريخ هذه الدنيا، و قد انكشف ضـعفهم و سـقطت عنهم سـرابيل القوّة المزعومة ليبيّن عجزهم حيال العقاب الإلهى، ليسـقطوا كما تسقط الأوراق الخريفية الذابلة فى العواصف الهوجاء.

إنّنـا فى عـالم اليوم نشاهـد الكفـار و المسـتكبرين و الظـالمين و هم يقومون بشـتى المحاولاـت، من زيـارات و مؤتمرات و أحلاـف و تكتّلات و مناورات عسـكرية، و توقيع لاتفاقات سياسـية و عسكرية، و اعتماد لوسائل القمع و الإرهاب إزاء المستضعفين و المحرومين فى العالم، و لكى يسـلكوا من خلال ذلك طريقا إلى تحقيق أهـدافهم المشؤومـة. لـذلك ينبغى للمؤمنين أن يكونوا يقظين و حذرين حتى لا يروحوا ضحية هذه الأساليب القديمة و حتى لا يسكتهم الرعب و الخوف فيفتنون بهذا الوضع.

لـذلك توضـح الآيـة التى بعـدها عاقبة بعض الأمم السابقة التى ضـلّت الطريق و انكفأت عن جادة الحق و الصواب، فتقول فى عبارات قاطعة واضحة تحكى عاقبة قوم نوح و حالهم و من تلاهم من أقوام و جماعات: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ

المقصود من «الأـحزاب» هم قوم عـاد و ثمود و حزب الفراعنـة و قوم لوط، و أمثـال هؤلاـء ممّن أشـارات إليهم الآيتان (۱۲- ۱۳) من سورة «ص» فى قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ

هؤلاء هم «الأحزاب» الذين تآزروا و وقفوا ضدّ دعوات الأنبياء الإلهيين، لتعارض مصالحهم مع روح هذه الدعوات و مضامينها الربانية.

إنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الوقوف ضدّ الدعوات النبوية الكريمة، بل خططت كلّ أمّة منهم لأن تمسك بنبيّها فتسـجنه و تؤذيه، بل و حتى تقتله: وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۶

بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ

ثم لم يكتفوا بهذا القدر أيضا، بل لجأوا إلى الكلام الباطل لأجل القضاء على الحق و محوه، و أصروا على إضلال الناس و صدّهم عن شريعة اللّه: وَ جادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَ ۱۷۵].

إلّا أنّ هـذا الوضع لم يسـتمر طويلا، و لم يبق لهم الخيرا دوما، إذ حينما حان الوقت المناسب جاء الوعـد الإلهى: فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ

لكم- أيّها الناس- أن تشاهدوا خرائب مدنهم حين سـفركم و أثناء تجوالكم ... انظروا عاقبتهم المشؤومة المظلمة مدونة على صفحات التأريخ و فى صدور أهل العلم، فانظروا و اعتبروا! ليس هناك أفضل من هذا المصـير الذى ينتظر أشـقياء مكّة من الكفار و المشـركين الظالمين، إلّا أن يثوبوا إلى أنفسهم و يعيدوا تقييم أعمالهم.

إذا، الآيـة أعلاه تلخص برنامـج «الأحزاب» الطاغية و مخططهم فى ثلاثة أقسام هى: (التكذيب و الإنكار) ثمّ (التآمر للقضاء على رجال الحق) و أخيرا (الدعاية المستمرة لإضلال عامّة الناس).

أمّا مشـركو العرب على عهد البعثة النّبوية فقد قاموا بتكرار هذه الأقسام الثلاثة حيال رسول الإسـلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و حيال

رسالته، لـذلك فليس ثمّة من عجب أن يهددهم القرآن الكريم بما حلّ بأسـلافهم و بمن سـبقهم من الأحزاب ... نفس العاقبة و نفس الجزاء! الآيـة الأخيرة- فى المقطع الـذى بين أيـدينا- تشـير إلى الجزاء الأخروى الـذى ينتظر هؤلاء، بالإضافـة إلى قسـطهم من العقاب الدنيوى كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

إنّ المعنى الظاهرى للآية واسع، يشمل جميع الكفار و المعاندين من جميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۷

الأقوام، و الآية بهذا المعنى لا تختص بكفار مكّة، كما يتصور بعض المفسّرين.

إنّ حتميـة العقـاب الإلـهى لهؤلاـء القوم يعود إلى ذنوبهم المسـتمرة، و الأعمال التى يقومون بها بملء إرادتهم خلافا لرسالـة اللّه ... و لكن العجيب أنّ بعض المفسّـرين- كالفخر الرازى- يتصور أنّ هـذه الآية هى من أدلة عقيدة الجبر و المصـير الجبرى الإلزامى للأقوام المختلفـة، و دليـل سـلب الإـرادة عنهم، فى حين أنّنا لو دققنا فى نفس الآيـة مع ترك التعصّب المـذهبى جانبا، فسـيتوضح لنا أنّ هـذا المصـير الإـلهى الـذى ينتظرهم هو بسـبب سـلوكهم لطريق الانحراف المظلم، و بسـبب إصـرارهم على السـير، بهـذا الطريق بأرجلهم و بكامل حريتهم و ملء إرادتهم.

بحثان

أوّلا: استعراض الكفار لقواهم الظاهرية

يواجهنا فى الآيات القرآنيـة و فى أماكن متعدّدة مؤدّى يفيد أنّ المؤمنين المحرومين ينبغى لهم أن لا يتصوروا أنّ الإمكانات الكبيرة و القوى الظاهرة الواقعة فى حوزة الظالمين و الكفار، هى دليل على سعادتهم، أو شرط لانتصارهم فى نهاية المطاف.

- و من أجـل القضـاء على هـذا التصور المنحرف الخـاطئ الـذى يلازم فى العـادة الضـعفاء ذوى الأفكار المحـدودة و الأفق الإيمانى الضـيق، و من الـذين يرون فى إمكانات الخصم دليلا معنويا على حقانيته، فالقرآن يعالـج هـذه الظاهرة من خلال تفحص و اسـتعراض تأريـخ الأقوام السابقـة، و يشـير فى اسـتعراضه لهم إلى نماذج واضـحة و معروفة منهم كالفراعنة فى مصـر، و النماردة فى بابل، و أقوام نوح و عـاد و ثمود فى العراق و الحجـاز و الشام، حتى لا يشـعر المؤمنون المستضـعفون بالضـعف و الهوان، و لكى ييأسوا من جـدوى المواجهة فى حرب هى سجال بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۸

الطرفين، لكنّها بالوعد الإلهى الحتمى لا بدّ أن تنتهى لصالح أهل الحق.

إنّ القـانون الإـلهى لاـ يقضـى دائما بتعجيل العقوبـة الآنيـة لكل من يرتكب عملا منافيا، أو لمن يخرج عن جادة الصواب و يحيـد عن سبيل الرشد، و إنّما الأمر كما تقول الآية (۵۹) من سورة الكهف، وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً.

و فى مكان آخر من الكتاب الإلهى العظيم نقرأ قوله تعالى: فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً[۱۷۶].

و فى الآية (۱۷۸) من «آل عمران» نلتقى فى هذا المورد مع قوله تعالى: إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً.

نسـتطيع أن ننهى القول فى أنّ الهـدف من هـذا «الإمهال» هو إما لإتمام الحجـة على الكافرين، أو لاختبار المؤمنين، أو قد يكون زيادة فى ذنوب الذين قطعوا جميع طرق العودة على أنفسهم.

و فى عالمنا اليوم تشـبه هذه الحالة الشـعور بالدونية و الحقارة الذى تعيشه بعض الشعوب المسلمة المختلفة ماديا إزاء الدول الكبرى و المتقدمة، و لكن ينبغى مكافحة هذا الشعور بشدة بأسلوب المنطق القرآنى أعلاه.

علاوة علی هـذا یجب علی هؤلاء أن یدرکوا أنّ أشـکال التخلف و الحرمان المادی إنّما تعود بدرجة کبیرة إلی ظلم الظالمین، فإذا ما تحطّمت سلاسل الظلم و العبودیة أمکن تجاوز التخلف بالمثابرة و الکدح.

ثانیا: المجادلة فی القرآن الکریم

لقـد وردت کلمـة «المجادلـة» خمس مرات فی هـذه السورة المبارکـة، و هی جمیعـا تختص بالمجادلـة السـلبیة الباطلـة، و الآیات التی اشتملت علی ذکر المجادلة هی (۴، ۵، ۳۵، ۵۶، ۶۹) و بهذه المناسبة لا بأس بالتعرّض إلی بحث عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۸۹

الجدال من وجهة النظر القرآنیة.

«الجدال» و «المراء» موضوعان وردا کثیرا فی الآیات القرآنیة، و فی الأحادیث و الرّوایات الإسـلامیة أیضا. و کتوطئة للبحث ینبغی أولا أن نمیّز أقسـام الجـدال (الجـدال الإیجابی و الجـدال السـلبی) و ما هو المقصود من کلّ واحـد منها، و علائم کلّ واحـد منها، و أخیرا أضرار «الجدال السلبی» و کذلک عوامل الغلبة فی «الجدال الإیجابی».

و فی هذا الصدد أمامنا النقاط و العناوین الآتیة:

أ- مفهوم «جدال» و «مراء»

«الجدال» و «المراء» و «الخصام» ثلاث مفردات متقاربة من حیث المعنی، و فی نفس الوقت یوجد ثمّة اختلاف بینها[۱۷۷].

«الجدال» یعنی فی الأصل اللغوی لف الحبل، ثمّ أخذ یطلق بعد ذلک علی لفّ الطرف المقابل و النقاش الذی یتضمّن الغلبة.

«مراء» علی وزن «حجاب» و تعنی الکلام فی شیء ما فیه مریة أو شک.

أمّا «الخصومة» و المخاصـمة فتعنی فی الأصل إمساک شخصین کلّ منهما للآخر من جانبه، ثمّ أطلقت بعد ذلک علی التشاجر اللفظی و الأخذ و الرد فی الکلام.

و کمـا یقول العلامـة المجلسـی فی (بحـار الأنـوار) فـإنّ الجـدال و المراء أکثر مـا یسـتخدمان فی القضایـا العلمیـة، فی حین تسـتخدم المخاصمة فی الأمور و المعاملات الدنیویة.

و یحدّد بعضهم الاختلاف بنی الجدال و المراء فی أنّ هدف المراء هو إظهار الفضل و الکمال، فی حین أنّ الجدال یستهدف تعجیز و تحقیر الطرف المقابل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۰

و قالوا أیضا فی الفرق بینهما: إن الجدال فی القضایا العلمیة، و المراء أعم من ذلک.

و قالوا أخیرا: إنّ المراء ذو طابع دفاعی فی قبال هجوم الخصم، بینما الجدال أعم من الدفاع و الهجوم.

ب: الجدال السلبی و الإیجابی

یظهر من الآیات القرآنیة أنّ للفظ الجدال معانی واسعة، و یشمل کلّ أنواع الحدیث و الکلام الحاصل بین الطرفین، سواء کان إیجابیا أم سلبیا، ففی الآیة (۱۲۵) من سورة «النحل» نقرأ أمر الخالق تبارک و تعالی لرسوله الکریم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی قوله تعالی:

وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

و فى الآية (۷۴) من سورة «هود» نقرأ عن إبراهيم عليه السّلام: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ و الآية تشير إلى النوع الإيجابى من المجادلة.

و لكن أغلب الإشارات القرآنية حول المجادلة تشير إلى النوع السلبى منها، كما نرى ذلك واضحا فى سورة «المؤمن» التى نحن بصددها، حيث أشارت إلى «المجادلة» بمعناها السلبى خمس مرّات.

و فى كلّ الأحوال يتبيّن أنّ البحث و الكلام و الاستدلال و المناقشة لأقوال الآخرين، إذا كان لإحقاق الحقّ و إبانة الطريق و إرشاد لجاهل، فهو عمل مطلوب يستحق التقدير، و قد يندرج أحيانا فى الواجبات.

فالقرآن لم يعارض أبدا البحث و النقاش الاستدلالى و الموضوعى الذى يستهدف إظهار الحق، بل حث ذلك فى العديد من الآيات القرآنية.

و فى مواقف معينة طالب القرآن المعارضين بالإتيان بالدليل و البرهان فقال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۱

هاتُوا بُرْهانَكُمْ ۱۷۸].

و فى المواقف التى كانت تتطلب إظهار البرهان و الدليل، ذكر القرآن أدلة مختلفة، كما نقرأ ذلك فى آخر سورة «يس» حين جاء ذلك الرجل إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هو يمسك بيده عظما فقال له سائلا: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ۱۷۹] فذكر القرآن عددا من الأدلة على لسان الرّسول الأكرم فى المعاد و قدرة الخالق على إحياء الموتى.

و فى القرآن نماذج اخرى واضحة على الجدال الإيجابى، كما فى الآية (۲۵۸) من سورة البقرة، التى تعكس كلام إبراهيم عليه السّلام و أدلته القاطعة أمام نمرود.

و الآيات (۴۷- ۵۴) من سورة «طه» تعكس تحاجج موسى و فرعون.

و كذلك نجد القرآن ملىء بالأدلة المختلفة التى أقامها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم مقابل عبدة الأصنام و المشركين و أصحاب الذرائع.

و من جهة اخرى يذكر القرآن الكريم نماذج اخرى من مجادلات أهل الباطل لإثبات دعاواهم الباطلة من خلال استخدام السفسطات الكلامية و الحجج الواهية لابطال الحق و غواية عوام الناس.

إنّ السخرية و الاستهزاء و التهديد و الافتراء و الإنكار الذى لا يقوم على دليل، هى مجموعة من الأساليب التى يعتمدها الظالمون الضالّون إزاء الأنبياء و دعواتهم الكريمة، أمّا الاستدلال الممزوج بالعاطفة و الحبّ و الرأفة بالناس فهو أسلوب الأنبياء، رسل السماء إلى الأرض.

فى الرّوايات الإسلامية و التأريخ الإسلامى آثار كثيرة و غنية عن مناظرات الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام مع المعارضين، و إذا ما توفر جهد معين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۲

على جمعها و تصنيفها فإنّها ستشكّل كتابا كبيرا و ضخما للغاية. (و قد قام العلّامة الشيخ الطبرسى بجمع بعضها فى كتابه «الإحتجاج»).

و بالطبع لم ينحصر مقام المجادلة بالتى هى أحسن و مناظرة الخصوم على المعصومين، بل إن الأئمّة عليهم السّلام كانوا يحثون من يجدون فيه القدرة الكافية و المنطق القوى المتين للقيام بهذه الوظيفة، و الّا فقد تضعف جبهة الحق و يقوى عود خصومها، و يجدون فى أنفسهم الجرأة فى مواجهة الحق و التمادى فى عنادهم.

و فى هذا الاتجاه نقرأ فى حديث، أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام يلقّب ب «الطيار» و يدعى (حمزة بن محمّد) جاء إلى

الإمام الصادق علیه السّلام و قال له: «بلغنی أنک کرهت مناظرة الناس» فأجابه الإمام علیه السّلام
بقوله: «أما مثلک فلا یکره، من إذا طار یحسن أن یقع، و إن وقع یحسن أن یطیر، فمن کان هذا لا نکرهه»[۱۸۰].
کلام جمیع یشیر بوضوح کاف إلی القوة و المتانة فی قدرة الاستدلال و المناظرة و خصم الطرف المقابل لمن یرید خوض المناظرة مع الخصوم، کی یکون بمقدوره استخلاص النتائج و إنهاء البحث، فلا بدّ من حضور اشخاص مستعدین و لهم تسلط کاف علی البحوث الاستدلالیة، حتی لا یحسب ضعف منطقهم بأنّه من ضعف دینهم و مذهبهم.

ج: الآثار السیئة للجدال السلبی

صحیح أنّ البحث و النقاش هو مفتاح لحل المشاکل، إلّا أنّ هذا الأمر یصح فی حال رغبة الطرفین فی نشدان الحق و البحث عن الطریق الصحیح، أو علی الأقل یکون أحد الطرفین متمسکا بالحق و مستهدفا السبیل إلیه فیما یخوض من
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۳
نقاش و مناظرة.
أمّا أن یکون النقاش و الجدل بین الطرفین بهدف التفاخر و استعراض القوة، و فرض الرأی علی الطرف الثّانی عن طریق إثارة الضجة، فإنّ عاقبة هذا الأمر لا تکون سوی الابتعاد عن الحق و عشعشة الظلمة فی القلوب و تجذّر العداء و الحقد لا غیر.
و لهذا السبب نهت الروایات و الأحادیث الإسلامیة عن المراء و الجدال الباطل، و فی هذه المرویات إشارات کبیرة المعنی إلی الآثار السیئة لهذا النوع من الجدال.
ففی حدیث عن أمیر المؤمنین علیّ بن أبی طالب نقرأ قوله علیه السّلام: «من ضنّ بعرضه فلیدع المراء»[۱۸۱].
لأنّ فی هذا النوع من النقاش سوف ینحدر بالکلام تدریجیا لیصل إلی مناحی الاستهانة و عدم الاحترام و تبادل الکلام المبتذل القبیح، و ترامی الاتهامات الباطلة.
و
فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین أیضا نقرأ وصیته علیه السّلام إذ یقول: «إیّاکم و المراء و الخصومة فإنّهما یمرضان القلوب علی الإخوان، و ینبت علیهما النفاق»[۱۸۲].
إنّ مثل هذا النوع من الجدال و الذی یکون عادة فاقدا للالتزام بالأصول الصحیحة للبحث و الاستدلال، سیقوی روح اللجاجة و التعصّب و العناد لدی الأشخاص، بحیث یستخدم کلّ طرف- بهدف التغلب علی خصمه و الإنتصار لنفسه- کلّ الأسالیب حتی تلک التی تنطوی علی الکذب و التهمة، و مثل هذا العمل لا یمکن أن تکون عاقبته إلّا السوء و الحقد و تنمیة جذور النفاق فی الصدور.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۱۹۴
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۴
إنّ واحدة من المفاسد الکبیرة الأخری للجدال السلبی المنهیّ عنه، هو تمسک الطرفین بانحرافاتهم و أخطائهم و إصرارهم علی اشتباهاتهم، فی موقف عنید بعید عن الحق و الصواب، ذلک لأنّ کلّ طرف یحاول ما استطاع التمسّک بأی دلیل و التشبّث بالباطل لفرض رأیه و إثبات کلامه، و هو فی ذلک مستعد لإنّ یتجاهل الکلام الحق الذی یصدر من خصمه، أو أنّه ینظر إلیه بعدم الرضا و القبول.
و هذا بحدّ ذاته یزید من الانحراف و الاشتباه و الخطأ.

د: أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن:

لا يستهدف «الجدال الإيجابى» تحقير الطرف الآخر أو الإنتصار عليه، بل يهدف النفوذ إلى عمق أفكاره و روحه، لهذا فإنّ أسلوب المجادلة بالتى هى أحسن يختلف كليا عن الجدال السلبى أو الباطل.

و لكى يؤثر الطرف المجادل معنويان على الطرف الآخر، عليه الاستفادة من الأساليب الآتية التى أشار إليها القرآن الكريم بشكل جميل:

۱- ينبغى عدم الإصرار على الطرف المقابل بقبول الكلام على أنّه هو الحق، بل على المجادل إذا استطاع أن يجعل الطرف المقابل يعتقد بأنّه هو الذى توصّل إلى هذه النتيجة، و هذا الأسلوب سيكون أكثر تأثيرا. بعبارة اخرى: من المفيد للطرف المقابل أن يعتقد بأنّ النتيجة أو الفكرة نابعة من أعماقه و هى جزاء من روحه، كى يتمسك بها أكثر و يذعن لها بشكل كامل.

و قد يكون هذا الأمر هو سر ذكر القرآن للحقائق المهمّة كالتوحيد و نفى الشرك و غير ذلك على شكل استفهام، أو أنّه بعد أن ينتهى من استعراض و ذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۵

أدلة التوحيد يقول: أَ إِلهٌ مَعَ اللَّهِ ۱۸۳].

۲- يجب الامتناع عن كلّ من ما يثير صفة العناد و اللجاجة لدى الطرف الآخر، إذ يقول القرآن الكريم: وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۱۸۴]. كى لا يصر هؤلاء على عنادهم و يهينوا الخالق جلّ و علا بتافه كلامهم.

۳- يجب مراعاة منتهى الإيضاح فى النقاش مع أى شخص أو أى مجموعة، كى يشعر الطرف المقابل بأنّ المتحدّث إليه يبغى حقّا توضيح الحقائق لا غير، فعند ما يتحدث القرآن عن مساوئ الخمر و القمار، فهو لا يتجاهل المنافع الثانوية المادية و الاقتصادية التى يمكن أن يحصل عليها البعض منهما، فيقول:

قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما.

إنّ هذا الطراز من الحديث يحمل آثارا إيجابية كبيرة على المستمع.

۴- يجب عدم الرّد بالمثل حيال المساوئ و الأحقاد التى قد تطفح من الخصم، بل يجب سلوك طريق الرأفة و الحبّ و العفو ما استطاع الإنسان إلى ذلك سبيلا، إذ أنّ الرّد بهذا الأسلوب الودود يؤثر كثيرا فى تليين قلوب الأعداء المعاندين، كما يقول القرآن الكريم و يحث على ذلك: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۱۸۵].

و الخلاصة، إنّنا عند ما ندقق فى أسلوب نقاشات الأنبياء عليهم السلام مع الأعداء و الظالمين و الجبارين، كما يعكسها القرآن الكريم، أو كما تعكسها تلك المناظرات العقائدية بين رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السّلام و بين أعدائهم و خصومهم، ننتهى إلى دروس تربوية فى هذا المجال تطوى فى تضاعيفها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۶

أدق الأساليب و الوسائل النفسية التى تسهّل لنا النفوذ إلى أعماق الآخرين.

و بهذا الخصوص ينقل العلّامة المجلسى فى (بحار الأنوار) رواية مفصّلة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يضمنها مناظرة طويلة بين الرّسول الأكرم و بين خمسة مجاميع مخاصمة هى: اليهود و النصارى و الدهريين و الثنويين (أتباع عقدية التثنية فى التأليه) و مشركى العرب، تنتهى بسبب الأسلوب الحكيم الجميل و المؤثر الذى استخدمه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إلى قبول هؤلاء بالحق و إذعانهم و تسليمهم له.

إنّ هذه المناظرة المربية بإمكانها أن تكون لنا درسا بناء فی مناظراتنا و أساليب جدلنا و مناقشاتنا مع الآخرين ۱۸۶].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷ الی ۹]

اشارة

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۷) رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۸) وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹)

التّفسير

دعاء حملة المستمر للمؤمنين:

يتضح من أسلوب الآيات السابقة أنّها نزلت فی فترة كان فيها المسلمون قلّة محرومة، بينما كان الأعداء فی أوج قوتهم، يتمتعون بالإمكانات الكبيرة و يسيطرون على السلطة.

بعد ذلك نزلت الآيات التی نحن بصددها لتكون بشری للمؤمنين الحقيقيين

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۸

و الصابرين، بأنّكم لستم وحدكم، فلا تشعروا بالغربة أبدا، فحملة العرش الإلهی و المقربون منه، و كبار الملائكة معكم يؤيدونكم، إنّهم فی دعاء دائم لكم، و يطلبون لكم من اللّه النصر فی الدنيا و حسن الثواب فی الآخرة ... و هذا هو أفضل أسلوب للتعاطف مع المؤمنين فی ذلك اليوم، و هذا اليوم، و غدا.

فالقرآن يقول: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

أمّا قولهم و دعاؤهم فهو: رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فأنت عالم بذنوب عبادك المؤمنين و رحيم بهم فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَ قِهِمْ عَذابَ الْجَحِيمِ

يوضح هذا الكلام للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم الذين تعبدون اللّه و تسبحونه و تحمدونه، فقبلكم الملائكة المقرّبون و حملة العرش و من يطوف حوله، يسبحون الخالق جلّ و علا و يحمدونه.

و هی من جانب آخر تحذر الكفّار و تقول لهم: إنّ إيمانكم أو عدمه ليس مهمّا، فاللّه غنی عن العباد لا يحتاج إلی إيمان أحد، و هناك الملائكة يسبحون بحمده و يحمدونه و هم من الكثرة بحيث لا يمكن تصوّرهم بالرغم من أنّه غير محتاج إلی حمد هؤلاء و تسبيحهم.

و من جانب ثالث، فی الآية إخبار للمؤمنين بأنّكم لستم وحدكم فی هذا العالم- بالرغم من أنّكم أقلية فی محيطكم- فأعظم قوّة غيبية فی العالم و حملة العرش هم معكم و يساندونكم و يدعون لكم، و هم فی نفس الوقت يسألون اللّه أن يشملكم بعفوه و رحمته الواسعة، و أن يتجاوز عن ذنوبكم و ينجيكم من عذاب الجحيم.

و فی هذه الآية تواجهنا مرة اخری كلمة (العرش) حيث ورد كلام عن حملته و الملائكة الذين يحيطون به، و بالرغم من أنّنا تحدثنا عن هذا الموضوع فی تفسير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۱۹۹

بعض السور، فإنّنا سنقف عليه مرّة اخرى فى باب البحوث إن شاء اللّه ۱۸۷].

فى الآية التى تليها استمرار دعاء حملة العرش للمؤمنين، يقول تعالى:

رَبَّنا وَ أَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ

و أيضا: وَ مَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَ أَزْواجِهِمْ وَ ذُرِّيَّاتِهِمْ ۱۸۸].

لماذا؟ ل إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

هذه الآية التى تبدأ بكلمة (ربّنا) التى يطلب حملة العرش و الملائكة المقرّبون بها من خالقهم- بإصرار- أن يتلطف بعباده المؤمنين، و يركّزون فى هذا الطلب على مقام ربوبيته تعالى، و هؤلاء لا يريدون من خالقهم انقاذ المؤمنين من عذاب القيامة و حسب، بل إدخالهم فى جنات خالدة، ليس وحدهم و إنّما مع آبائهم و أزواجهم و أبنائهم السائرين على خطّهم فى الاستقامة و الإيمان ... إنّهم يطلبون الدعم من عزّته و قدرته، أمّا الوعد الإلهى الذى أشارت إليه الآية فهو نفس الوعد الذى ورد مرارا على لسان الأنبياء لعامة الناس.

أمّا تقسيم المؤمنين إلى مجموعتين، فهو فى الواقع يكشف عن حقيقة أنّ هناك مجموعة تأتى بالدرجة الأولى، و هى تحاول أن تتبع الأوامر الإلهية بشكل كامل.

أمّا المجموعة الأخرى فهى ليست بدرجة المجموعة الأولى و لا فى مقامها، و إنّما بسبب انتسابها إلى المجموعة الأولى و محاولتها النسبية فى اتباعها سيشملها دعاء الملائكة.

بعد ذلك تذكر الآية الفقرة الرّابعة من دعاء الملائكة للمؤمنين: وَ قِهِمُ السَّيِّئاتِ وَ مَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ

ثم ينتهى الدعاء بهذه الجملة ذات المعنى الكبير: وَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۰

هل هناك فوز أعظم من أن تغفر ذنوب الإنسان، و يبتعد عنه العذاب لتشمله الرحمة الإلهية و يدخل الجنّة الخالدة، و ثم يلتحق به أقرباؤه الذين يودّهم؟

بحوث

أوّلا: الأدعية الأربعة لحملة العرش

قد يطرح هنا هذا السؤال: ما هو التفاوت الموجود بين الأدعية الأربعة؟

أليس بعضها مكررا؟

عند التأمل و التدقيق يتبيّن أنّ كلّ واحد منها يشير إلى موضوع مختلف. ففى البداية يطلب الملائكة غسل المؤمنين و تطهيرهم من آثار الذنوب، و هذا الأمر إضافة لكونه مطلوبا بذاته، فهو يعتبر مقدمة للوصول إلى أى نعمة كبيرة. و إلّا فهل هناك موهبة أعلى من أن يشعر الإنسان بأنّه أصبح طاهرا مطهرا، و أنّ خالقه جلّ و علا راض عنه، و هو أيضا راض عن خالقه الكريم؟

إنّ هذا الإحساس- بغض النظر عن قضية الجنّة و النّار يعتبر أمرا عظيما و فخرا كبيرا بالنسبة للعباد.

فى مرحلة ثانية يطلب حملة العرش و الملائكة إبعاد المؤمنين و إنقاذهم من عذاب جهنّم. و هذا الأمر بحد ذاته يعتبر من أهم وسائل تحقيق الراحة و الرضا النفسيّين.

المرحلة الثّالثة تنطوى على دعاء الملائكة و حملة العرش للمؤمنين فى طلب الجنّة لهم و لأقربائهم أيضا، حيث يعتبر هؤلاء الأقرباء

الصالحون عاملا من عوامل الراحة و الاستقرار النفسی.

و بسبب وجود (مؤذیات) اخری مهمّة فی یوم القیامة غیر نار جهنّم، کهول المطّلع و المحشر، و الفضیحة أمام الخلائق، و طول الوقفة للحساب و أمثال ذلک، لذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۱

طلبت الملائکة و حملة العرش فی أدعیتهم الأخری أن یحفظ اللّه المؤمنین و یقیهم من أی سوء أو مکروه فی ذلک الیوم، کی یدخلوا جنّة الخلد براحة بال و اطمئنان و احترام کامل.

ثانیا: آداب الدعاء

فی هذه الآیات یعلّم حملة العرش و الملائکة المؤمنین أسلوب الدعاء.

ففی البدایة ینبغی بالتمسک بکلمة «ربّنا».

ثمّ مناداته تعالی بصفات الجلال و الجمال، و طلب العون من مقام رحمته المطلقة و علمه غیر المتناهی: وَسِعْتَ کُلَّ شَیْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً.

و أخیرا الدعاء و طلب الحاجة بحسب أهمیتها و بشروط توفّر الأرضیة للاستجابة: فَاغْفِرْ لِلَّذِینَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِیلَکَ

ثم ینتهی الدعاء بذکر صفاته تعالی الجمالیة و الجلالیة، و التوسّل برحمته تعالی مرّة اخری.

و الطّریف فی الأمر أنّ حملة العرش الإلهی یعتمدون علی خمسة أوصاف إلهیة مهمّة فی دعائهم و هی: الربوبیة، و الرحمة، و القدرة، و العلم، و الحکمة.

ثالثا: لماذا تبدأ الأدعیة بکلمة «ربّنا»؟

عند قراءة آیات القرآن الکریم نری أنّ أولیاء اللّه- سواء منهم الأنبیاء أو الملائکة أو الصالحون- کانوا یبدأون کلامهم ب «ربّنا» أو «ربّی» عند الدعاء ...

فآدم علیه السّلام یقول: رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا.

و نوح علیه السّلام یقول: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَ و إبراهیم علیه السّلام یقول: رَبَّنَا اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِلْمُؤْمِنِینَ یَوْمَ یَقُومُ الْحِسابُ

أما یوسف علیه السّلام فیقول: رَبِّ قَدْ آتَیْتَنِی مِنَ الْمُلْکِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۲

و موسی الکلیم علیه السّلام یقول: رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ

أما سلیمان علیه السّلام فیقول: رب هب لِی مُلْکاً لا یَنْبَغِی لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِی

أما عیسی المسیح علیه السّلام فیقول: رَبَّنا أَنْزِلْ عَلَیْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ[۱۸۹].

و الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم یقول: رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّیاطِینِ ۱۹۰].

و علی لسان المؤمنین نقرأ فی أماکن متعدّدة کلمة «ربّنا» فی فاتحة الدعاء، ففی آخر سورة «آل عمران» نری دعائهم: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.

من خلال هذه النماذج و المواقف نستنتج أنّ أفضل الدعاء هو ما یبدأ بالربوبیة صحیح أنّ الاسم المبارک «اللّه» هو أکثر شمولیة

لأسـماء الخالق، و لكن لارتباط الحاجات بمقام الرّبوبيـة، هذا المقام الذى يرتبط به الإنسان منذ اللحظة الأولى من وجوده و حتى آخر عمره، و تستمر بعد ذلك صفة الارتباط ب «الربوبية» التى تغرق الإنسان بالألطاف الإلهية، لذا فإنّ ذكر هذه الكلمة فى بداية الأدعية يعتبر أكثر تناسبا من باقى الأسماء الأخرى ۱۹۱].

رابعا: ما هو العرش الإلهى؟

لقد أشرنا مرارا إلى أن ألفاظنا- الموضوعة أصلا لتوضيح مشخصات الحياة المحدودة- لا تستطيع أن توضّح عظمة الخالق، أو حتى أن تحيط بعظمة مخلوقاته جلّ و علا، لهذا السبب فليس أمامنا سوى استخدام ألفاظ و معانى للكناية عن تلك العظمة.

و فى طليعة الألفاظ التى يشملها هذا الوضع كلمة (العرش) التى تعنى لغويا (السقف) أو (السرير ذا المسند المرتفع) فى قبال (الكرسى) الذى هو (سرير ذو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۳

مسند منخفض). ثمّ استخدمت هذه الكلمة لتشمل (عرش) القدرة الإلهية.

و للمفسّرين و الفلاسفة و المناطقة كلام كثير حول المقصود بالعرش، و ما ينطوى عليه من معنى كنائى.

فأحيانا فسّروا العرش بمعنى (العلم اللامتناهى للّه تبارك و تعالى).

و اخرى قالوا بأن المعنى هو (المالكية و الحاكمية الإلهية).

و فسّروا العرش أيضا بأنّه إشارة إلى أى واحدة من الصفات الكمالية و الجلالية للّه تبارك و تعالى، لأنّ كلّ واحدة من هذه الصفات توضح عظمة منزلته جلّ و علا، كما أنّ عرش السلطان (و الأمثال تضرب و لا تقاس) يوضح عظمته.

فالخالق جلّ و علا يملك عرش العلم، و عرش القدرة، و عرش الرحمانية، و عرش الرحيمية.

و طبقا للتفاسير و الآراء الثلاثة هذه، فإنّ مفهوم (العرش) يعود إلى صفات الخالق جل و علا، و لا يعنى وجود خارجى آخر له.

و فى بعض الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليه السّلام، ما يشير إلى هذا المعنى، ففى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه أجاب عند ما سئل عن معنى قوله تعالى: وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ أنّ المقصود بذلك علمه تعالى شأنه ۱۹۲].

و فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا أنّه فسّر (العرش) بأنّه «العلم» الذى كشفه و علّمه اللّه للأنبياء عليهم السلام، بينما (الكرسى) هو «العلم» الذى لم يعلمه لأحد و لم يطلع عليه أحد[۱۹۳].

و بين أيدينا تفاسير اخرى استندت إلى روايات إسلامية، ففسّرت العرش و الكرسى بأنّهما موجودات عظيمة من مخلوقات اللّه تبارك و تعالى.

قالوا- مثلا- إنّ المقصود بالعرش هو مجموع عالم الوجود.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۴

و قالوا أيضا: هو مجموع الأرض و السماء المتجسدة ضمن هذا الكرسى، بل إنّ السماء و الأرض كالخاتم فى الصحراء الواسعة مقايسة بينهما و بين (الكرسى) ثم قالوا: إنّ «الكرسى» فى مقابل العرش كالخاتم فى الصحراء الواسعة.

و فى تفاسير اخرى تستند بدورها إلى روايات إسلامية، أطلقوا كلمة (العرش) للكناية عن قلوب الأنبياء و الأوصياء و المؤمنين التامين الكاملين، كما جاء ذلك

فى الحديث: «إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن»[۱۹۴].

و

فی حدیث قدسی نقرأ قوله تعالی: «لم یسعنی سمائی و لا أرضی، و وسعنی قلب عبدی المؤمن»[۱۹۵].

أما أفضل الطرق لإدراک معنی العرش- بمقدار ما تسمح به قابلیة الإنسان و استیعابه- فهو أن نبحث موارد استعمال هذه الکلمة فی القرآن الکریم، و نتفحص مدلولاتها بشکل متأن.

فی آیات کثیرة من کتاب اللّه نلتقی مع هذا التعبیر، کما فی قوله تعالی: ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ ۱۹۶]. ثمّ یرد تعبر یُدَبِّرُ الْأَمْرَ فی بعض الآیات التی تأتی بعد مفاد الآیة أعلاه (آیة العرش) أو ترد جمل اخری تعبّر عن علم اللّه و درایة الخالق جلّ و علا.

فی آیة اخری من القرآن الکریم یوصف العرش بالعظمة: وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِیمِ ۱۹۷].

و أحیانا تتحدث الآیة عن حملة العرش، کما فی الآیة التی نحن بصددها.

و من الآیات ما تتحدث عن الملائکة المحیطة بالعرش، کما فی قوله تعالی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۵

وَ تَرَی الْمَلائِکَةَ حَافِّینَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ۱۹۸] و فی آیة اخری نقرأ قوله تعالی: وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ.

من خلال مجموع هذه الموارد، و التعابیر الأخری الواردة فی الأحادیث و الروایات الإسلامیة، نستنتج بشکل واضح أنّ کلمة (العرش) تطلق علی معانی مختلفة بالرغم من أنّها تشترک فی أساس واحد.

فأحد معانی العرش هو مقام (الحکومة و المالکیة و خلق عالم الوجود) إذ تلاحظ أنّ الاستخدام الشائع للعرش یدلل- من خلال الکنایة- علی سیطرة الحاکم علی أمور دولته، فنقول مثلا: «فلان شلّ عرشه» و التعبیر کنایة عن انهیار قدرته و حکومته.

و المعنی الآخر من معانی العرش هو، «مجموع عالم الوجود» لأنّ کلّ الوجود هو دلیل علی العظمة.

و أحیانا یستخدم العرش بمعنی «العالم الأعلی» و الکرسی بمعنی «العالم الأدنی».

و یستخدم العرش أحیانا بمعنی (عالم ما وراء الطبیعة) و الکرسی بمعنی (مجموع عالم المادة) بما فی ذلک الأرش و السماء، کما جاء فی آیة الکرسی:

وَسِعَ کُرْسِیُّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

و لأنّ علم الخالق لا ینفصل عن ذاته المنزهة، لذا فانّ کلمة (عرش) تطلق أحیانا علی «علم اللّه».

و إذا أطلق وصف (عرش الرحمن) علی القلوب الطاهرة لعباد اللّه المؤمنین، فذلک یعود إلی أنّ هذا المکان هو محل معرفة الذات الإلهیة المنزهة، و هو بحدّ ذاته أحد أدلة عظمته و قدرته جلّ و علا.

من کلّ ذلک یتضح أنّ کافة معانی العرش- التی وردت آنفا- توضح عظمة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۶

الخالق جلّ و علا.

و فی الآیة التی نحن بصدد بحثها یمکن أن یکون المقصود من العرش هو نفس حکومة اللّه تعالی و تدبیره لعالم الوجود، و حملة العرش یقومون بتنفیذ إرادة اللّه الحاکمة فی الخلق.

و یمکن أن یکون المعنی هو مجموع عالم الوجود أو عالم ما وراء الطبیعة. أمّا حملة العرش الإلهی فهم الملائکة الذین تقع علیهم مسئولیة تدبیر أمر هذا العالم بأمر اللّه تعالی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۷

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۱۰ الی ۱۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ (۱۰) قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (۱۱) ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (۱۲)

التّفسير

اعترفنا بذنوبنا فهل من خلاص؟

تحدثت الآيات السابقة عن شمول الرحمة الإلهية للمؤمنين، أمّا مجموعة الآيات التى بين أيدينا فهى تتحدث عن «غضب» اللّه تعالى على الكافرين، كى يكون بالمستطاع المقارنة بين صورتين و مشهدين متقابلين.

فى البداية تقول الآية: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ

من الذى ينادى هؤلاء بهذا النداء؟

يبدو أن ملائكة العذاب ينادونهم بهذا النداء لتوبيخهم و فضحهم، فى مقابل ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۸

تفعله ملائكة الرحمة من إكرام المؤمنين و الصالحين.

و يحتمل أن يكون هذا النداء من نوع التخاطب و التخاصم الذى يقوم بين الكفار فى القيامة، لكن المعنى الأوّل أرجح كما يبدو، و على كلّ حال سينطلق هذا النداء يوم القيامة، كما أنّ الآيات اللاحقة شاهد على هذا المعنى.

«المقت» تعنى فى اللغة البغض و العداوة الشديدة. و هذه الآية تبيّن أن غضب اللّه تعالى على الكافرين هو أشد من عداوتهم لأنفسهم أمّا فيم يتعلق بمقت الكفار لأنفسهم، فهناك تفسيران:

الأوّل: يتمثل فى ارتكاب هؤلاء فى الحياة الدنيا لأكبر عداوة إزاء أنفسهم برفضهم لنداء التوحيد، فهم لم يهملوا مصابيح الهداية و حسب، بل عمدوا إلى تحطيمها. فهل ثمّة عداء للنفس أكثر من أن يغلق الإنسان أمامه أبواب السعادة الأبدية، و يفتح على نفسه أبواب العذاب.

و طبقا لهذا التّفسير يكون قوله تعالى: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ بيانا لكيفية مقت و عداوة الكافرون أنفسهم.

الثّانى: أن يكون المقصود بغضبهم و عدائهم لأنفسهم هو أن تصيبهم حالة من الألم و الندم الشديد عند ما يشاهدون يوم القيامة نتيجة أعمالهم و ما اقترفت أيديهم فى هذه الدنيا، حيث ترتفع آهاتهم و صرخاتهم، و يعضون على أناملهم من الندم، و لات ساعة مندم يقول تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ ۱۹۹]. و يتمنون أن يكونوا ترابا: وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً[۲۰۰].

و فى ذلك اليوم تنفتح آفاق البصر: فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ[۲۰۱] و تنكشف الأسرار و الحقائق الخفية: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۲۰۲]. و فى ذلك اليوم تنشر الصحف و تكشف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۰۹

الأعمال: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۲۰۳]. و عندها تكون النتيجة: كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً[۲۰۴]. لذلك سيلوم هؤلاء أنفسهم بشدة و يتنفرون منها و يبكون على مصيرهم.

و هنا يأتى النداء: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ

و طبقا لهذا التّفسير تكون جملة: إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمانِ فَتَكْفُرُونَ بيانا لدليل شدة الغضب الإلهى عليهم ۲۰۵].

بالطبع فإن كلا التّفسيرين مناسب، إلّا أنّ التّفسير الأوّل بلحاظ بعض الأمور- أرجح.

عند ما يشاهد المجرمون أوضاع يوم القيامة و أهوالها، و يرون مشاهد الغضب الإلهى حيالهم، سينتبهون من غفلتهم الطويلة و يفكرون بطريق للخلاص، فيعترفون بذنوبهم و يقولون: قالُوا رَبَّنا أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ وَ أَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنا بِذُنُوبِنا فَهَلْ إِلى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ

عند ما تزول حجب الغرور و الغفلة، و ينظر الإنسان بالعين الحقيقية، فلا سبيل عندها سوى الاعتراف بالذنوب! إنّ هؤلاء كانوا يصرون على إنكار المعاد، و يستهزئون بوعيد الأنبياء لهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۰

و لكن بعد توالى الموت و الحياة لا يبقى مجال للإنكار، و قد يكون سبب تكرارهم للموت و الحياة، أنّهم يريدون القول: يا خالقنا الذى تملك الموت و الحياة، أنت قادر على أن تعيدنا إلى الدنيا مرة اخرى كى نعوّض ما مضى.

ذكر المفسرون عدّة تفاسير حول المقصود من قوله تعالى: أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ و أَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ و من بين هذه التفاسير هناك ثلاثة آراء نقف عليها فيما يلى:

أوّلا- أن يكون المقصود من أَمَتَّنا اثْنَتَيْنِ هو الموت فى نهاية العمر، و الموت فى نهاية البرزخ. أمّا المقصود من أَحْيَيْتَنا اثْنَتَيْنِ فهى الإحياء فى نهاية البرزخ و الإحياء فى القيامة.

و لتوضيح لذلك، نرى أنّ للإنسان حياة اخرى بعد الموت تسمى الحياة البرزخية، و هذه الحياة هى نفس حياة الشهداء التى يحكى عنها قوله تعالى: بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۲۰۶]، و هى نفس حياة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، حيث يسمعون سلامنا و يردون عليه.

و هى أيضا نفس حياة الطغاة و الأشقياء كالفراعنة الذين يعاقبون صباحا و مساء بمقتضى قوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا[۲۰۷].

و من جانب آخر نعرف أنّ الجميع، من الملائكة و البشر و الأرواح، ستموت فى نهاية هذا العالم مع أوّل نفخة من الصور: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ ۲۰۸]. و لا يبقى أحد سوى الذات الإلهية (بالطبع على خلاف ما أوضحناه فى نهاية الآية (۸۶) من سورة الزمر بين موت و حياة الملائكة و الأرواح، و بين موت و حياة الإنسان).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۱

و على هذا الأساس فإنّ هناك حياة جسمانية و حياة برزخية، ففى نهاية العمر يحل الموت بحياتنا الجسمانية، لكن فى نهاية العالم يحل بحياتنا البرزخية.

يترتب على ذلك أن تكون هناك حياتان بعد هذين الموتتين: حياة برزخية، و حياة فى يوم القيامة.

و هنا قد يطرح البعض هذا السؤال: إنّنا فى الواقع نملك حياة ثالثة هى حياتنا فى هذه الدنيا، و هى غير هاتين الحياتين، و قبلها أيضا كنّا فى موت قبل أن نأتى إلى هذه الدنيا، و بهذا سيكون لدينا ثلاث موتات و ثلاثة إحياءات.

و لكن الجواب يتوضح عند التدقيق فى نفس الآية، فالموت قبل الحياة الدنيا (أى فى الحالة التى كنّا فيها ترابا) يعتبر «موتا» لا «إماتة» و أمّا الحياة فى هذه الدنيا فالبرغم من أنّها مصداق للإحياء، إلا أنّ القرآن لم يشر إلى هذا الجانب فى الآية أعلاه، لإنّ هذا الإحياء لا يشكّل عبرة كافية بالنسبة للكافرين، إذ الشىء الذى جعلهم يعون و يعترفون بذنوبهم هو الحياة البرزخية أوّلا، و الحياة عند البعث ثانيا.

ثانيا: إنّ المقصود بالحياتين، هو الإحياء فى القبر لأجل بعض الأسئلة، و الإحياء فى يوم القيامة، و إنّ المقصود بالموتتين، هما الموتة فى نهاية العمر، و الموتة فى القبر.

لذلك اعتبر بعض المفسّرين هذه الآية دليلا على الحياة المؤقتة فى القبر.

أمّا عن كيفية حياة القبر، و فيما إذا كانت جسمانية أو برزخية. أو نصف جسمانية، فهذه كلّها بحوث ليس هنا مجال الخوض فيها.

ثالثا: إنّ المقصود بالموتـة الأولى، هو الموت قبل وجود الإنسان فى هـذه الـدنيا، إذ أنّه كان ترابا فى السابق، لذا فإنّ الحياة الأولى هى الحياة فى هذه الدنيا، و الموت الثّانى هو الموت فى نهاية هذا العالم، فيما الحياة الثانية هى الحياة عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۲

البعث.

و الذين يعتقدون بهذا التّفسير يستدلون بالآية (۲۸) من سورة «البقرة» حيث قوله تعـالى: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

إلّا أنّ الآية التى نبحثها تتحدث عن إماتتين، فى حين أنّ آية سورة البقرة تتحدّث عن حياة واحدة و إماتة واحدة[۲۰۹].

يتّضح من مجموع التفاسير الثّلاثة هذه أنّ التّفسير الأوّل هو الأرجح.

و لا بأس أن نشير إلى أنّ بعض مؤيدى «التناسخ» أرادوا الاستدلال بهذه الآية على الحياة و الموت المكرّر للإنسان، و عودة الروح إلى الأجساد الجديـدة فى هـذه الـدنيا، فى حين أنّ الآيـة أعلاه تعتبر إحدى الأدلة الحية على نفى التناسخ، لأنّها تتحدّد الموت و الحياة فى مرّتين، إلّا أنّ أنصـار عقيـدة «التناسـخ» يقولون بالموت و الحياة المتعـدّدة و المتوالى، و يعتقـدون بأنّ روح الإنسان الواحـد يمكن أن تتجسّد و تحل مرأت اخرى فى أجساد جديدة، و نطف جديدة و ترجع إلى هذه الدنيا.

من الطبيعى أن يكون الجواب على طلب الكـافرين بـالعودة إلى هـذه الـدنيا للتكفير عمّا فاتهم هو الرفض. و هـذا الرفض من الوضوح بحيث لم تشر إليه الآيات التى نبحثها.

لكن نستطيع أن نعتبر الآية التى بعدها دليلا على ما نقول، إذ تقول: ذلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَ إِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا.

فعنـد ما يـدور الكلام عن التوحيـد و التقوى و الأوامر الحقـة تشـمئزون و تحزنون، أما إذا دار الحـديث عن الكفر و النفاق و الشـرك فستفرحون و تنبسط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۳

أساريركم، لذلك ستكون عاقبتكم ما رأيتم.

و هنا نطرح هذا السؤال: كيف نربط هذا الجواب مع طلبهم العودة إلى هذه الدنيا؟

إنّ الآيـة تفيد أنّ حقيقة أعمال هؤلاء لم تكن محدودة بزمن معين، و لم تكن مؤقتة، بل كانت دائمية، لذلك فلو عادوا إلى الحياة مرّة اخرى فإنهم سيسـتمرون على هذا الوضع، أمّا هذا الإيمان و التسـليم و الإذعان الذى رأيناه منهم يوم القيامة، فهو اضطرارى و ليس عن قناعة حقيقية.

ثمّ إنّ اعتقادات هؤلاء و أعمالهم و نياتهم السابقة تستوجب خلودهم فى الجحيم، لذا فلا يمكن عودة هؤلاء إلى الدنيا مع هذا الوضع.

و هذا الوضع يختص بالأفراد الذين تجذّر الكفر و الشـر و الذنب فى أعماقهم، و هؤلاء هم الذين يصـفهم القرآن بأنّ نفوسـهم تشـمئز عند ذكر اللّه تعالى وحده، و يفرحون عند ذكر الأصنام: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ إِذا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۲۱۰].

إنّ هـذا الوصف لا يختص بالمشـركين فى زمن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم فحسب، إذ يشـهد زماننـا مثل هؤلاء من ذوى القلوب الميتة، الذين يفرون من الإيمان و التوحيد و التقوى، و يقبلون على الكفر و النفاق و الفساد.

لـذلك نقرأ فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السّـلام، فى تفسـير هذه الآية، أنّها تختص بقضـية (الولاية) إذ يتأذى البعض عند سماعها (أى الولاية) و يفرحون عند سـماع أسـماء أعداء أهل البيت عليهم السّـلام هذا التّفسـير هو من باب انطباق المفهوم، العام على المصداق، و ليس من باب تقييد كلّ المفهوم الذى تطوية الآية بهذا المصداق).

و فى نهاية الآية، و من أجل أن لا ييأس هؤلاء المشركون ذوو القلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۴

المظلمـة، تقول الآيـة إنّ الحاكميـة تختص بـذات اللّه سبحانه و تعـالى: فَـالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ إذ لاـ يوجـد غيره قاض و حاكم فى محكمـة الآـخرة، و لاـ يوجـد غيره على و كبير، فلا يستطيع أحـد أن يغلبه أو أن يؤثّر عليه أو على حكمه بفديـة أو غرامـة أو وساطه، فالحاكم المطلق هو، و الجميع يطيعونه، و لا يوجد طريق للهرب من حكمه.

ملاحظة

الدعاء البعيد عن الإجابة!

ليست هذه المرّة الأولى التى تواجهنا فيها طلبات أهل النّار أو الكفار الذين يريدون العودة إلى هذه الدنيا، فيكون الجواب بالنفى.

لقد طرحت الآيات بالقرآنية هذا الموضوع عدّة مرّات.

ففى سورة الشورى الآية (۴۴) نقرأ أن الظالمين بعد أن يروا العذاب يقولون:

هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ

و فى الآية (۵۸) من سورة الزمر، ورد على لسان المـذنبين و غير المؤمنين عنـد رؤيتهم العـذاب: أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَـذابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ

و فى الآية (۱۰۷) من سورة «المؤمنون» نقرأ قوله تعالى حكاية على لسان أمثال هؤلاء القوم: رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ مجموعـة أخير عنـد ما يحل بها الموت و ترى ملائكـة الموت تطلب من اللّه تعالى العودة فتقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ۲۱۱].

إلّا أنّ هذه الطلبات تردع دوما بكلمة «كلّا» أو ما شابه ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۵

و بذلك يتضح أنّ المفهوم القرآنى يؤكّد على أنّ الحياة فى هذه الدنيا هى تجربة لا يمكن تكرارها بالنسـبة للشخص، لذا يجب إبعاد هـذا الوهم من العقول بأنّنا إذا متنا و واجهنا العـذاب فسوف نعود الى هـذه الدنيا و نجبر ما فات حيث لا إمكان للعودة إلى هذه الحياة بعد الموت.

و ملاـك هـذا الأمر واضـح، ففى قانون التكامل لا يمكن الرجوع و العودة، كما لا يمكن عودة الطفل إلى بطن أمّه وفقا لهـذا القانون، سواء كان هذا الطفل قد اكتمل نموه فى بطن أمه أو لم يكتمل و ولد ناقصا، إذ العودة غير ممكنة أصلا.

كذلك الموت الذى هو فى الواقع ولادة ثانوية، و انتقال من عالم الدنيا هذه إلى عالم آخر، و هناك تعتبر العودة ضربا من المحال.

إضافـة إلى ذلـك لاـ يمكن اعتبـار اليقظـة الاضـطرارية التى تنتـاب النـاس- الـذين تتحـدث عنهم الآيـة- دليلا على الاقتناع أو اليقظة الحقيقيـة، إذ عند ما تخف أسـبابها سـيعود النسـيان و الغفلة مرة اخرى، و سـيتم تكرار نفس الأعمال، كما نرى ذلك واضـحا فى هذه الـدنيا لـدى الكثير من الناس الـذين يتوجهون إلى خالقهم عنـد ما تضـيق عليهم الحياة، و يلجون أبواب التوبـة، إلّا أنّهم بمجرّد هـدوء العواصف ينسون كل شىء و كأنّهم لم يدعوا اللّه إلى ضر مسّهم!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۶

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۳ الى ۱۵]

اشارة

هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیـاتِهِ وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّمـاءِ رِزْقـاً وَ مـا یَتَـذَکَّرُ إِلاَّ مَنْ یُنِیبُ (۱۳) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِـینَ لَهُ الـدِّینَ وَ لَوْ کَرِهَ الْکافِرُونَ (۱۴) رَفِیعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ یُلْقِی الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِیُنْذِرَ یَوْمَ التَّلاقِ (۱۵)

التّفسير

ادع اللّه وحده رغما على الكافرين:

هذه الآيات المتضـمنة للنصـيحة و التهديد و الإنذار اسـتدلال على المسائل المطروحة فى الآيات السابقة، فهى استدلال على التوحيد و الرّبوبية و نفى الشرك و عبادة الأصنام.

تقول الآية أوّلا: هُوَ الَّذِی یُرِیکُمْ آیاتِهِ

فهى نفس الآيات و العلائم الآفاقية و الأنفسـية التى تملأ عالم الوجود، و تسـتوعب بإشـراقتها أركانه، و تضع بصماتها و آثارها العجيبة على جدران الوجود و جميع أرجاءه.

ثم توضح واحدة من هذه الآيات: وَ یُنَزِّلُ لَکُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۷

قطرات المطر تعطى الحياة، و نور الشـمس يحيى الكائنات، و الهواء سرّ الوجود و الحياة، حياة جميع الكائنات، حيوانات نباتات، أناس ... كلّها تنزل من السماء. و تشكّل هذه الأثافى الثلاث فيما بينها قوام الحياة، حيث تتفرع الأشياء الأخرى من أصولها.

بعض المفسّرين أطلق على السماء اسم «عالم الغيب» و على الأرض اسم «عالم الشهود» و نزول الرزق من السماء إلى الأرض هو بمعنى الظهور من عالم الغيب إلى عالم الشهود.

و لكن هـذا التّفسـير فضـلا عن منافاته لظاهر الآية، لم نعثر له على دليل و شاهد، صـحيح أنّ الوحى و الآيات، هما غذاء الروح، ينزلان من سـماء الغيب، و أنّ المطر و الشـمس و النور التى تعتبر غذاء الجسد تنزل من السـماء الظاهرية، و هما متناسـقان مع بعضهما. و لكن ينبغى أن لا نتصوّر أن عبارة (آياته) التى نحن بصـددها تشـير إلى مفهوم أوسع، أو تشـير بالخصوص إلى الآيات التشـريعية، لأنّ عبارة يُرِیکُمْ آیاتِهِ وردت مرارا فى القرآن الكريم، و هى عادة ما تطلق على الآيات الدالة على التوحيد فى عالم الوجود.

مثلا فى أواخر هـذه السـورة (المؤمن) و بعـد ذكر النعم الإلهيـة، من قبيـل الزواحف و الفلـك تقول: وَ یُرِیکُمْ آیـاتِهِ فَأَیَّ آیـاتِ اللَّهِ تُنْکِرُونَ ۲۱۲].

إنّ تعبير «يريكم» ينسـجم فى العـادة مع الآيـات التكوينيـة، بينما جرت العادة فى الآيات التشـريعية على اسـتخدام تعابير مثل (أوحى) و (يأتيكم).

من هنا يتبيّن أنّ اعتبار هـذه الآيات بمعنى الآيات التشـريعية، و أنّها أعم من التشـريعية و التكوينيـة، كما يـذهب بعض كبار المفسّـرين القدماء و المحدثين إلى ذلك، لا يستند إلى دليل، و لا تقوم عليه حجّة.

و لكن من الضرورى أن نلتفت إلى أنّ القرآن يختار الإشارة إلى آية الرزق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۸

من بين آيـات اللّه المبثوثـة فى السـماء و الأـرض و فى وجود الإنسان، ذلك لأنّ الرزق هو أكثر ما يشـغل البال و الفكر، و أحيانا نرى الإنسان يستنجد بالأصنام من أجل زيادة الرزق، و إنقاذه من وضعه المتردى، لذا يأتى القرآن ليؤّكد أن جميع الأرزاق هى بيد اللّه و لا

تستطيع الأصنام أو غيرها أن تفعل أى شىء.

و أخيرا تضيف الآية الكريمة: برغم جميع هذه الآيات البينات التى تسود هذا العالم الواسع، و تغمد الوجود بضيائها، إلّا أنّ العيون العمياء و القلوب المحجوبة لا تكاد ترى شيئا، و إنّما يتذكر- فقط- من ينيب إلى خالقه و يغسل قلبه و روحه من الذنوب: وَ ما يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ

الآية التى بعدها ترتب نتيجة على ما سبق فتقول: فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ انهضوا و اضربوا الأصنام و حطموها بفؤوس الإيمان، و امحوا آثارها من ذاكرة الفكر و الثقافة و المجتمع.

و من الطبيعى أنّ وقفتكم الرّبانية هذه ستؤذى الكافرين و المعاندين، لكن عليكم أن لا تسمحوا للخوف أن يسترّب الى قلوبكم، أخلصوا نيّاتكم: وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

ففى المجتمع الذى يشكل فيه عبدة الأصنام الغالبية، يكون طريق أهل التوحيد موحشا فى بادئ الأمر، مثل شروق الشمس فى بدايات الصباح الأولى وسط عالم الظلام و الخفافيش، لكن عليكم أن لا تركنوا إلى ردود الأفعال غير المدروسة، تقدموا بحزم و إصرار، و ارفعوا راية التوحيد و الإخلاص، و انشروها فى كلّ مكان.

تصف الآية التى تليها خالق الكون و مالك الحياة و الموت، بعض الصفات المهمّة، فتقول: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ فهو تعالى يرفع درجات العباد الصالحين كما فى قوله تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ۲۱۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۱۹

و حتى بين النّبيين فقد فضّل اللّه بعضهم على بعض بسبب اجتيازهم للامتحان و الاختبار أكثر من غيرهم، فأخلصوا للّه تعالى بمراتب أعلى و أفضل: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ ۲۱۴].

لقد استخلف اللّه الإنسان فى هذه الأرض، و جعل منه خليفته، و فضّل البعض على البعض الآخر وفقا لاختلاف الخصائص و القابليات لدى الإنسان: وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ ۲۱۵].

فإذا كانت الآية السابقة قد دعت إلى الإخلاص فى الدين، فإنّ الآية التى بين أيدينا تقول: إنّ اللّه تبارك و تعالى سوف يرفع درجاتكم بمقدار إخلاصكم، فهو رفيع الدرجات.

إنّ صحة كلّ هذه المعانى منطوة بتفسير (رفيع) بالرافع، إلّا أنّ البعض ذهب إلى أنّ (رفيع) فى الآية بمعنى (المرتفع) و بناء على هذا المعنى فإنّ رَفِيعُ الدَّرَجاتِ تشير إلى الصفات العالية الرفيعة للّه تعالى، فهو رفيع فى علمه، و فى قدرته، و فى جميع أوصافه الكمالية و الجمالية، هو تعالى رفيع فى أوصافه بحيث أنّ عقل الإنسان برغم قابليته و استعداده لا يستطيع أن يدركها.

و بحكم أنّ اللغة تعطى صلاحية متساوية للمعنيين الآنفين لكلمة (رفيع) فإنّ التّفسيرين واردان، و لكن لأنّ الآية تتحدث عن إعطاء الأجر لعباد اللّه الصالحين، و الذى هو الدرجات الرفيعة، لذا فإنّ المعنى الأوّل أظهر.

لكن لا مانع من الجمع بين التّفسيرين، لأننا نعتقد جواز استخدام اللفظ لأكثر من معنى، خصوصا فى إطار الآيات التى تشتمل ألفاظها على معانى كبيرة و واسعة.

تضيف الآية بعد ذلك قوله تعالى: ذُو الْعَرْشِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۰

فكل عالم الوجود تحت حكومته و فى قبضته، و لا منازع له فى حكومته، و هذا بحد ذاته دليل على أنّ تحديد درجات العباد حسب أفضليتهم إنّما يتمّ بقدرته تعالى.

و بما إنّنا تحدثنا بالتفصيل عن «العرش» فلا حاجة هنا للتكرار.

و فى وصف ثالث تضيف الآية أنّه هو تعالى الذى: يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ و هذه الروح هى نفس القرآن و مقام

النبوّة و الوحى، حيث تحيى هذه الأمور القلوب، و تكون فى الإنسان كالروح بالنسبة لجسد الإنسان.

إنّ قدرته من جانب، و درجاته الرفيعة من جانب آخر، تقتضى أن يعلن عزّ و جلّ عن برنامجه و تكاليفه عن طريق الوحى، و هل ثمّة تعبير أجمل من الروح، هذه الروح التى هى سرّ الحياة و الحركة و النشاط و التقدم.

لقد ذكر المفسّرون احتمالات متعدّدة لمعنى الروح، لكن من خلال القرائن الموجودة فى الآية، و ممّا تفيده الآية (۲) من سورة «النحل» التى تقول: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ و كذلك ممّا تفيده آية (۵۲) من سورة «الشورى» التى تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و توضح له نزول القرآن و الإيمان و الروح بقوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ من كلّ ذلك يتبيّن أنّ المقصود بالروح فى الآية التى نحن بصددها، هو الوحى و القرآن و التكليف الإلهى.

تفيد عبارة (من أمره) أنّ ملك الوحى المكلّف بإبلاغ هذه الروح، إنّما يتحدث و يتكلّم بأمر اللّه لا من عند نفسه.

أمّا قوله تعالى: عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فلا تعنى أنّ هبة الوحى تعطى لأى كان، لأن مشيئته تعالى هى عين حكمته، و كل من يجده مؤهلا لهذا المنصب يخصه بهذا الأمر، كما نقرأ فى الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام حيث قوله تعالى: اللَّهُ أَعْلَمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۱

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

و عند ما نجد بعض الرّوايات المروية عن أهل البيت عليهم السّلام تفسّر الروح فى الآية أعلاه ب «روح القدس» و تخصّها بالنبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة المعصومين من أهل البيت عليهم السّلام، فإنّ ذلك لا يتعارض مع ما قلناه، لأنّ «روح القدس» هى نفس الروح العلوية المقدسة و المنصب المعنوى العظيم الذى يتجسّد كاملا فى الأنبياء و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، و كثيرا ما يتجلّى جزء منها فى الأشخاص الآخرين الذى متى ما ساعدتهم فيوضات روح القدس فإنّه سيقومون بأعمال مهمّة، و تنطق لسانهم بالحكمة. (لمزيد من التوضيح يمكن مراجعة تفسير الآية ۸۷ من سورة البقرة).

و الملفت للنظر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن رزق الأجساد من مطر و نور و هواء، فيما تتحدث هذه الآيات عن الرزق «الروحى» و المعنوى المتمثل فى نزول الوحى.

و الآن لنرى ما هو الهدف من إنزال روح القدس على الأنبياء عليهم السّلام، و لماذا يسلك الأنبياء هذه الطرق الطويلة المليئة بالعقبات و الصعاب.

الإجابة يقدمها القرآن فى نهاية الآية بقوله: لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ

أنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بخالقهم ...

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه السابقون باللاحقين ...

إنّه اليوم الذى يجمع على ساحة القيامة بين رموز الحق و قادته، و رموز الباطل و زعامته و أنصاره ...

إنّه يوم لقاء المستضعفين بالمستكبرين ...

إنّه يوم التقاء الظالم و المظلوم ...

هو يوم التقاء الإنسان و الملائكة ...

و أخيرا، يوم التلاق، هو يوم التقاء الإنسان مع أعماله و أقواله فى محكمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۲

العدل الإلهى.

إذا، هدف بعثة الأنبياء و نزول الكتب السماوية هو تحذير الإنسان من يوم التلاقى الكبير ... إنّه لاسم عجيب (يوم التلاق) الذى انتخبته

الآية اسما ليوم القيامة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۳

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۶ الى ۱۷]

اشارة

يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (۱۶) الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (۱۷)

التّفسير

يوم التلاقى!

هذه الآيات و التى تليها، هى توضيح و تفسير (ليوم التلاق) و هو اسم ليوم القيامة.

فى هاتين الآيتين تمّ ذكر بعض خصوصيات القيامة و كلّ واحدة أكثر إثارة من الأخرى.

يبيّن تعالى أن يوم التلاقى، هو: يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ ... إنّه اليوم الذى تزول فيه جميع الحجب و الأستار، و كتوطئة له ستزول الموانع المادية كالجبال الراسيات مثلا، و تصبح الأرض قاعاً صَفْصَفاً كما يصفها القرآن فى الآية (۱۰۶) من سورة طه».

و من جانب آخر سيخرج الناس من قبورهم، ثمّ تنكشف الأسرا الباطنية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۴

و المخفية: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۲۱۶].

و يوم تخرج الأرض ما تطويه فى بطونها: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها[۲۱۷].

و يوم تنشر صحف الأعمال و ينكشف محتواها: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۲۱۸].

فى يوم التلاق تتجسّد الأعمال التى اقترفها الإنسان و تبدو حاضرة أمامه:

يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ۲۱۹].

و فى ذلك اليوم تنكشف الأسرار التى كان يطويها الإنسان بداخله و يتكتم عليها: بَلْ بَدا لَهُمْ ما كانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ ۲۲۰].

و فى ذلك اليوم المهول ستشهد الأعضاء على أعمال الإنسان، و ستشهد- أيضا- الأرض و تكشف ما ارتكب عليها: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۲۲۱].

فى ذلك اليوم سيطوى الكون، و سيظهر الإنسان بكل وجوده، و يبرز الكون و ما عليه، و لا تبقى من خافية: وَ بَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً[۲۲۲].

إنّه منظر مهول و مشهد موحش!! و يكفينا لتصور هول ذلك اليوم نتخيّل ... و لو للحظة واحدة ... منظر هذه الدنيا و قد حلّت بها شرائط القيامة؟ لنرى أىّ فزع سينتاب البشرية و تحل بها! و كيف تتقطع العلائق و الروابط فى ذلك اليوم لذلك على الإنسان أن يستعد، و أن يعيش بشكل لا يخشى فيه انكشاف المستور من أوضاعه، و أن تكون أعماله و أفعاله بحيث لا يقلق منها لو ظهرت و انكشفت أمام الملأ.

الوصف الثّانى لذلك اليوم المهول، هو انكشاف أمر الناس بحيث لا يخفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۵

شيء منها على اللّه تعالى: لا يَخْفى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

بالطبع ... فى هـذه الحياة لا يخفى من أمر الإنسان شـيء على اللّه العالم المطلق، إذ يتساوى لـذى ذاته المطلقة غير المتناهية المخفى و الظاهر، و الشاهد و الغائب. فلما ذا- إذا- ذكر القرآن الجملة أعلاه على أنّها تفسير لجملة يَوْمَ هُمْ بارِزُونَ

إن سـبب ذلك يعود إلى أنّ «البروز» فى ذلك اليوم يكون مؤكّدا أكثر، بحيث أنّ الآخرين سـيطّلعون على أسـرار بعضـهم البعض. أمّا بالنسبة للّه فالمسألة لا تحتاج إلى بحث أو كلام.

الخصوصـية الثّالثـة ليوم التلاـقى هو انبسـاط الحاكميـة المطلقـة للّه تعالى، و يظهر ذلك من خلال نفس الآيـة التى تسأل عن الحكم و الملك فى ذلك اليوم: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ

يأتى الجواب: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

من الذى يطرح السؤال، و من الذى يجيب عليه؟

الآية لا تتحدّث عن ذلك، و التفاسير مختلفة فى هذا الصدد.

ذهب البعض الى أنّ السؤال يطرح من قبل اللّه جلّ و علا، أمّا الجواب فيأتى من الجميع، مؤمنين و كافرين ۲۲۳].

و ذهب آخرون الى أن السؤال و الجواب كلاهما من قبل الخالق عزّ و جلّ ۲۲۴].

قسم ثالث يعتقد أنّ «المنادى الإلهى» هو الذى يطرح السؤال، و هو الذى يجيب عليه.

و لكن يبـدو من الظـاهر أنّ هـذا السؤال و جوابه لاـ يطرحـان من قبـل فرد معين، بـل هو سؤاله يطرحه الخالق و المخلوق، الملائكـة و الإنسان، المؤمن و الكافر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۶

تطرحه جميع ذرات الوجود، و كلّهم يجيبون عليه بلسان حالهم، بمعنى أنّك أينما تنظر تشاهد آثار حاكميته، و أينما تدقق ترى علائم قاهريته واضحه.

فلو أصحت السمع إلى أى ذرة من ذرات الوجود، لسمعتها تقول: لِمَنِ الْمُلْكُ و فى الجواب تسمعها نفسها تقول: لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و قـد نرى فى هـذه الـدنيا نموذجا مصـغرا لـذلك، فعنـد ما نـدخل إلى بيت أو مدينة أو بلد معين، فإنّنا نحسن بقدرة شـخص معين، و بانبسـاط حـاكميته، و كـأنّ الجميع يقولون- كـلّ بلسان حاله- إنّ المالك أو الحاكم هو فلان، و تشـهد على ذلك حتى الجـدران!! و بالطبع، فى هـذا اليوم أيضا تطغى الحاكميـة الإلهيـة على كلّ شـيء، و تبسط قـدرتها فى كلّ الأرجاء، لكن فى يوم القيامة سـيكون لها ظهور و بروز من نوع جديـد، فهنـاك لاـ يوجـد كلاـم عن حكومـة الجبارين، و لا نسـمع ضـجيج الطواغيت السـكارى، و لا نرى أثرا لإبليس و جنوده و جيوشه من الإنس و الجن.

الخصوصية الرابعة لذلك اليوم، هو كونه يوم جزاء: الْيَوْمَ تُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ أجل، إن ظهور و بروز الاحاطة العلمية للّه تعالى و حاكميته و مالكيته و قهاريته كلها أدلة واضحة على هذه الحقيقة العظيمة المخيفة من جهة، و المفرحة من جهة اخرى.

أمّا الخصوصية الخامسة لذلك اليوم، فهى ما يختصره قوله تعالى: لا ظُلْمَ الْيَوْمَ

و كيف يمكن أن يحصل الظلم، فى حين أن الظلم إمّا أن يكون عن جهل، و اللّه عز و جل قد أحاط بكل شيء علما.

و إمّا أن يكون عن عجز، و اللّه عز و جل هو القاهر و المالك و الحاكم على شيء، لذا لا مجال لظلم أحد فى محضر القدس الإلهى و فى ساحة القضاء الإلهى العادل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۷

الصفة السادسة و الأخيرة ليوم التلاقى، هى سرعة الحساب لأعمال العباد، كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ

و سرعة الحساب بالنسبة للّه تعالى تجرى كلمح البصر، و هى بدرجة بحيث نقرأ عنها

فى حديث: «إنّ اللّه تعالى يحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر»[۲۲۵].

و أساسا فإنّه مع القبول بمسألة تجسّم الأعمال و بقاء آثار الخير و الشر فإن مسألة الحساب مسألة محلولة؟ فهل أنّ الأجهزة المتطورة فى هذه الدنيا التى تحسب مقدار العمل فى أثناء العمل بحاجة الى زمان؟! و قد يكون الغرض من تكرار سَرِيعُ الْحِسابِ فى مواضع مختلفة من القرآن الكريم هو عدم انخداع الناس العاديين بوساوس الشيطان و إغواءاته، و من يتبعه من الذين يثيرون الشكوك بإمكانية محاسبة الخلائق على أعمالهم التى قاموا بها خلال آلاف سحيقة من السنين و عصور التأريخ.

إضافة إلى أنّ هذا التعبير يستبطن معنى التحذير لجميع الناس بأنّ ذلك اليوم لا مجال فيه للمجرمين و الظالمين و القتلة، و لا تعطى لهم الفرصة كما يحصل فى هذه الدنيا، حيث يترك ملف الظلمة و القتلة لشهور و سنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۸

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۱۸ الى ۲۰]

اشارة

وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ كاظِمِينَ ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ (۱۸) يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ (۱۹) وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۲۰)

التّفسير

يوم تبلغ القلوب الحناجر:

هذه الآيات تستمر- كالآيات السابقة- فى وصف القيامة- يوم التلاقى- و تحدّد سبع خصائص للقيامة و الحوادث المهولة و المدهشة التى تدفع بكل انسان مؤمن نحو التفكير و التأمل بالحياة و المصير.

يقول تعالى: وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ.

«الآزفة» باللغة بمعنى (القريب) و يا لها من كناية عجيبة، حيث أطلق سبحانه على يوم القيامة يوم الآزفة كى لا يظن الجهلة أن هناك فترة طويلة تفصلهم عن ذلك اليوم، فلا ينبغى- و الحال هذه- أن ينشغل المرء بالتفكير به! و إذا نظرنا بتأمّل فسنجد أنّ عمر الدنيا بأجمعه لا يعادل سوى لحظة زائلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۲۹

حيال يوم القيامة، و لأنّ اللّه تبارك و تعالى لم يذكر أىّ تأريخ لهذا اليوم المهول، حتى للأنبياء عليهم السّلام، لذا يجب الاستعداد دائما لاستقبال ذلك اليوم.

الوصف الثّانى ليوم الأزقة هو: إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ من شدة الخوف.

فعند ما تواجه الإنسان الصعوبات يشعر و كأنّ قلبه يفر من مكانه، و كأنّه يريد أن يخرج من حنجرته، و العرب فى ثقافتها اللغوية التى نزل بها القرآن تطلق على هذه الحالة وصف «بلغت القلوب الحناجر».

و يمكن أن يكون (القلب) كناية عن (الروح) بمعنى أنّ روحه بلغت حنجرته هلعا و خوفا، كأنما تريد أن تفارق بدنه تدريجيا و لم يبق منها سوى القليل.

إنّ هول الخوف من الحساب الإلهى الربانى الدقيق، و الخشية من الافتضاح و انكشاف الستر و الحجب أمام جميع الخلائق، و تحمّل

العذاب الأليم الذى لا يمكن الخلاص منه، كلّ هذه أمور سيواجهها الإنسان و لا يمكن وصفها و شرحها بأى بيان.

الصفة الثّالثة لذلك اليوم تعبر عنها الآية ب كاظِمِينَ أى إنّ الهم و الغم سيشمل كل وجودهم، إلّا أنّهم لا يستطيعون إظهار ذلك أو إبداءه.

«كاظم» مشتقّة من «كظم» و هى فى الأصل تعنى غلتى فوهة القربة المملوءة بالماء، ثمّ أطلقت بعد ذلك على الأشخاص المملوئين غضبا إلّا أنّهم لا يظهرونه لسبب من الأسباب.

قد يستطيع الإنسان المغموم المحزون أن يهدأ او يستريح بالصراخ، لكن المصيبة حينما لا يستطيع هذا الإنسان حتى عن الصراخ ... فما ذا ينفع الصراخ فى محضر الخالق جلّ و علا و فى ساحة عدله و عند ما تنكشف جميع الأسرار امام جميع الخلائق.

الصفة الرّابعة ليوم التلاقى هو يوم: ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ أى صديق نعم، أنّ تلك المجموعة من الأصدقاء الكاذبين التى تحيط بالشخص كذبا و تملقا- كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۰

يحيط بالذباب بالحلويات- طمعا فى مقامه و قدرته و جاهه و ماله. إنّ هؤلاء فى هذا اليوم مشغولون بأنفسهم لا ينفعون أحدا ... و هو يوم لا تنفع فيه لا صداقة و لا خلّة.

الصفة الخامسة تقول عنها الآية: وَ لا شَفِيعٍ يُطاعُ

ذلك أنّ شفاعة الشفعاء الحقيقيين كالأنبياء و الأولياء إنّما تكون بإذن اللّه تعالى، و على هذا الأساس لا مجال لتلك التصورات السقيمة لعبدة الأصنام، الذين كانوا يعتقدون فى الحياة الدنيا أنّ أصنامهم ستشفع لهم فى حضرة اللّه جلّ و علا.

و فى المرحلة السادسة تذكر الآية أحد صفات الخالق جلّ و علا، و التى تعتبر فى نفس الوقت وصفا لكيفية القيامة، حيث تقول: يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ[۲۲۶].

إنّ اللّه تبارك و تعالى يعلم الحركات السرية للعيون و ما تخفيه الصدور من أسرار، و سيقوم تعالى بالحكم و القضاء العادل عليها، و هو بعلمه سيجعل صباح الظالمين المذنبين مظلما.

و عند ما سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن معنى الآية فأجاب:

«ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشىء و كأنّه لا ينظر إليه، فذلك خائنة الأعين»[۲۲۷].

أى يوهم أنّه لا ينظر إليه.

قد يتأول البعض بنظره إلى أعراض الناس و إلى ما يحرم النظر إليه، و قد يستطيع الفاعل أن يخفى فعلته عن الآخرين، لكن ذلك لا يخفى عن علم اللّه المحيط بكل ذرات الوجود إذ: لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۱

[۲۲۸].

و قد روى أنّه (لما جىء بعبد اللّه بن أبى سرح إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بعد ما اطمأن أهل مكّة و طلب له الأمان عثمان صمت رسول اللّه طويلا ثمّ قال (نعم) فلما انصرف

قال رسول اللّه لمن حوله: «ما صمّت طويلا إلّا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه» فقال رجل من الأنصار: فهلا أو أومأت إلىّ يا رسول اللّه، فقال: «إن النّبى لا تكون له خائنة الأعين»[۲۲۹].

و بالطبع فإنّ لخيانة العين أشكال مختلفة، إذ تتمثل فى بعض الأحيان باستراق النظر إلى ما يحرم كالنساء و غيرهن، و أحيانا تتمثل بإشارات معينة للعين تهدف تحقير الآخرين و الاستهزاء بكلامهم. و قد تكون حركات العين مقدمة المخططات شيطانية ضدّ الآخرين.

إنّ من يؤمن بالحساب الدقيق فى الآخرة، عليه أن يراعى حدود التقوى فى خائنة الأعين و خطرات الفكر، و واضح أنّ استحضار

عناصر الرقابة هذه لها مؤدّاها التربوى الكبير فى سلوك الإنسان و حياته.

و فى قصص الوعظ المتداولة فى مجالس العلماء، يقال أن أحد كبار العلماء عند ما أنهى دراسته الدينية فى النجف الأشرف، طلب من أستاذه عند ما أراد الرجوع إلى بلده أن يعظه و ينصحه، فقال له الأستاذ: بعد كلّ هذا التعب و تحمّل مضايق الدراسة و التحصيل فإنّ آخر نصيحتى لك هى أن لا تنسى أبدا قوله تعالى أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى ۲۳۰].

المؤمن الحقيقى يعتبر العالم كلّه حاضرا عند اللّه تعالى، و إنّ كلّ الأعمال تتمّ فى حضوره، و ينبغى لهذا الحضور الإلهى أن يكون رادعا كافيا للخجل و الكف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۲

عن المعاصى و الذنوب.

الآية التى تليها تتحدث عن صفة سابعة للقيامة تتمثل فى قوله تعالى: وَ اللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِ

أمّا غيره: وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ.

فى ذلك اليوم يختص اللّه وحده بالقضاء، و هو جلّ جلاله لا يقضى إلّا بالحق، لأنّ القضاء بغير الحق- بالظلم مثلا و الانحياز- إمّا أن يعود إلى الجهل و عدم المعرفة، و اللّه محيط بكل شىء، حتى بما يموج فى الضمائر و ما تكنّه السرائر. أو أنّه يكون نتيجة للعجز و الاحتياج، و هذه صفات هى أبعد ما تكون عن ذات اللّه جلّ جلاله.

إنّ هذا التعبير يحمل فى مؤدّاه دليلا كبيرا على توحيد المعبود و العبادة، لأنّ من يكون له حق القضاء فى النهاية يستحق العبادة حتما أمّا الأصنام التى لا تنفع شيئا فى هذا العالم، و لا تكون فى القيامة مرجعا للحكم و القضاء، فكيف تستحق العبادة.

و من الضرورى أن نشير أيضا إلى أنّ للحكم و القضاء بالحقّ معانى واسعة، إذ هى تشمل عالم التكوين و عالم التشريع، حيث، وردت كلمة «قضى» فى الآيات القرآنية لتشمل المعنيين، ففى مكان نقرأ قوله تعالى: وَ قَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۲۳۱] حيث تنطوى الآية على القضاء التشريعى. و فى آية اخرى نقرأ قوله تعالى: إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۲۳۲].

و فى الختام و للتأكيد على المطالب المذكورة فى الآيات السابقة تضيف الآية (إن اللّه هو السميع البصير).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۳

فهو تعالى سميع و بصير بمعنى الكلمة، أى إنّ كلّ المسموعات و المبصرات حاضرة عنده، و هذا تأكيد على إحاطته و علمه بكل شىء، و قضاوته بالحق، إذ ما لم يكن الشخص سميعا و بصيرا مطلقا فلا يستطيع أن يقضى بالحق،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۴

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۱ الى ۲۲]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ (۲۱) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ (۲۲)

التّفسير

اعتبروا بعاقبة أسلافكم الظالمين:

إنّ أسلوب القرآن الكريم فى كثير من الآيات أنّه بعد أن يتعرض لكليات القضايا الحساسة و المهمّة يمزجها ببعض المسائل الجزئية و المحسوسة و يأخذ بيد الإنسان ليريه الحوادث الماضية و الحالية. لذلك فإنّ الآيات التى بين أيدينا تتحدث عن أحوال الأمم الظالمة السابقة و منهم فرعون و الفراعنة و ما حلّ بهم من جزاء أليم، و تدعوا الناس للاعتبار بمصير أولئك، بعد ما كانت الآيات السابقة قد حدّثتنا عن يوم القيامة و صفاته و طبيعة الحساب الدقيق الذى ينطوى عليه.

يقول تعالى: أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۵

مِنْ قَبْلِهِمْ

إنّ الذى تحكيه الآيات و تدعونا للاعتبار به ليس تأريخا مدونا نستطيع أن نشكّك فى طبيعة الوثائق و النصوص المكوّنة له، و إنّما هو تأريخ حى ينطق عنه نفسه، و ينبض بالعبرة و العظمة، فهذه قصور الظالمين الخربة، و ما تركوه، من جنات و عيون، و هذه مدن الأشقياء التى نزل بساحتها العذاب و الانتقام الإلهى، و ها هى عظامهم النخرة التى يطويها التراب، و القصور المدفونة تحت الأرض ... ها هى كلّها تحكى عظمة الدرس، و عظيم العبرة، خصوصا و أنّ القرآن يزيدنا معرفة بهؤلاء فيقول عنهم: كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ

كانوا يملكون السلطات القوية، و الجيوش العظيمة، و المدنية الباهرة التى لا يمكن مقايستها بحياة مشركى مكّة.

إنّ تعبير أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً يكشف عن قوتهم السياسية و العسكرية، و عن قوته الاقتصادية و العلمية أيضا.

أمّا التعبير فى قوله تعالى: آثاراً فِي الْأَرْضِ فلعله إشارة إلى تقدمهم الزراعى العظيم، كما ورد فى الآية (۹) من سورة «الروم» فى قوله تعالى: أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها.

و قد يكون التعبير القرآنى إشارة إلى البناء المحكم العظيم للأمم السابقة، ممّا قاموا به فى أعماق الجبال و بين السهول، كما يصف القرآن ذلك فى حال قوم «عاد»: أ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَ تَتَّخِذُونَ مَصانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۲۳۳].

و لكن عاقبة هؤلاء القوم، بكل ما انطوت عليه حياتهم من مظاهر قوّة و حياة و نماء، هى كما يقول تعالى: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ

فلم تنفعهم كثرتهم و لم تمنعهم أموالهم و قدرتهم و شوكتهم من العذاب الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۶

عند ما نزل بساحتهم.

لقد وردت كلمة «أخذ» مرارا فى القرآن الكريم بمعنى العقاب، و هى إشارة إلى «أخذ» القوم أو الجماعة قبل أن ينزل بها العقاب، تماما كما يقبض أوّلا على الشخص المجرم، ثمّ يتمّ عقابه.

الآية التى بعدها فيها تفصيل لما قيل سابقا بإيجاز، بقوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَكَفَرُوا. فلم يكن الأمر أنّهم كانوا غافلين و لم يعرفوا الأمر، و لم يكن كفرهم و ارتكابهم الذنوب بسبب عدم إتمام الحجّة عليهم، فلقد كانت تأتيهم رسلهم تترا، كما يستفاد من قوله تعالى: كانَتْ تَأْتِيهِمْ إلّا أنّهم لم يخضعوا للأوامر الإلهية، كانوا يحطمون مصابيح الهداية، و يديرون ظهورهم للرسل، و كانوا- أحيانا- يقتلونهم! و حينئذ: فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ و عاقبتهم أشدّ العقاب- إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقابِ إذ هو فى مواطن الرأفة أرحم الراحمين و فى مواضع الغضب أشد المعاقبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۳ الى ۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (۲۵) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (۲۶) وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (۲۷)

التّفسير

ذرونى أقتل موسى!!

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى العاقبة الأليمة للأقوام السابقة، فقد شرعت الآيات التى بين أيدينا بشرح واحدة من هذه الحوادث، من خلال قصة موسى و فرعون، و هامان و قارون.

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ قصة موسى عليه السّلام مكررة فى أكثر من سورة من سور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۸

القرآن الكريم، و لكن التأمّل فى هذه الموارد يظهر خطأ هذا التصوّر، إذ يتبيّن أن القرآن يتطرف الى ذكر القصة فى كلّ مرّة من زاوية معينة، و فى هذه السورة يتعرض القرآن للقصة من زاوية دور «مؤمن آل فرعون» فيها. و الباقى هو بمثابة أرضية ممهّدة لحكاية هذا الدور.

يقول تعالى وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ

أرسله تعالى: إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ

لقد ذكر المفسرون عدّة تفاسير فى الفرق بين «الآيات» و «السلطان المبين» فالبعض اعتبر «الآيات» الأدلة الواضحة، بينما «السلطان المبين» هى المعجزات.

و البعض الآخر اعتبر «الآيات» آيات التوراة، بينما «السلطان المبين» المعجزات.

و احتمل البعض الثّالث أنّ «الآيات» تشمل كلّ معاجز موسى عليه السّلام، أمّا «السلطان المبين» فهو المعاجز الكبيرة كالعصا و اليد البيضاء، التى تسببت فى غلبته الواضحة على فرعون.

و منهم من اعتبر «الآيات» المعجزات، بينما فسّر «السلطان المبين» بالسلطة القاهرة و النفوذ الإلهى لموسى عليه السّلام و الذى كان سببا فى عدم قتله و عدم فشل دعوته.

لكن الملاحظ أنّ هذه الآراء بمجموعها لا تقوم على أدلة قوية واضحة، و لكن نستفيد من الآيات القرآنية الأخرى أنّ «السلطان المبين» يعنى- فى العادة- الدليل الواضح القوى الذى يؤدى إلى السلطة الواضحة، كما نرى ذلك واضحا فى الآية (۲۱) من سورة «النمل» أثناء الحديث عن قصة سليمان عليه السّلام و الهدهد حيث يقول تعالى على لسان سليمان: وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ فالسلطان المبين هنا هو الدليل الواضح للغيبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۳۹

و فى الآية (۱۵) من سورة الكهف قوله تعالى: لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ

أمّا «الآيات» فقد وردت فى القرآن مرارا بمعنى المعاجز.

و بناء على هـذا فإنّ «آيات» فى الآية التى نحن بصددها تشير إلى «معجزات موسى» بينما يشير «سلطان مبين» إلى منطق موسى عليه السّلام القوى و أدلته القاطعة فى مقابل الفراعنة.

إنّ موسى عليه السّلام كان يزاوج بين منطق العقل، و بين الأعمال الإعجازية التى تعتبر علامة كافية على ارتباطه بعالم الغيب و باللّه تعالى، و لكن فى المقابل لم يكن للفراعنة من منطق سوى اتهامه بالسحر أو الكذب. لقد اتهموه بالسحر فى مقابل الآيات و المعجزات التى أظهرها، و كذّبوه مقابل منطقه و استدلاله العقلانى على الأمور. و هـذا ما يؤيد الرأى الذى اخترناه فى تفسير «آيات» و «سلطان مبين».

و بالنسبة للطواغيت و الفراعنة لا يملكون أصلا سوى منطق الاتهام، و أسلوب إطلاق الشبهات على رجال الحق و دعاته.

و الذى يلفت النظر فى الآية الكريمة إشارتها إلى ثلاثة أسماء، كلّ واحد منها يرمز لشىء معين فى سياق الحالة السائدة آنذاك، و التى يمكن أن تجد مماثلاتها فى أى عصر.

«فرعون» نموذج للطغاة و العصاة و حكّام الظلم و الجور.

«هامان» رمز للشيطنة و الخطط الشيطانية.

«قارون» نموذج للأثرياء البغاة، و المستغلين الذين لا يهمهم أى شىء فى سبيل الحفاظ على ثرواتهم و زيادتها.

و بذلك كانت دعوة موسى عليه السّلام تستهدف القضاء على الحاكم الظالم، و المخططات الشيطانية لرموز السياسة فى حاشية السلطان الظالم، و بتر تجاوزات الأثرياء المستكبرين، و بناء مجتمع جديد يقوم على قواعد العدالة الكاملة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۰

المجالات السياسية و الثقافية و الاقتصادية. و لكن من وقعت مصالحه اللامشروعة فى خطر! قصدوا لمقاومة هذه الدعوة الإلهية.

الآية التى بعدها تتعرض إلى بعض مخططات هؤلاء الظلمة فى مقابل دعوة النّبى موسى عليه السّلام: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ

و ما نستفيده من الآية هو أنّ قضية قتل الأبناء و الإبقاء على النساء فقط لم يقتصر- كأسلوب طاغوتى- على الفترة التى سبقت ولادة موسى عليه السّلام فحسب، و إنّما تمّ تكرار هذه الممارسة أثناء نبوة موسى عليه السّلام، فالآية (۱۲۹) من سورة الأعراف تؤيد هذا الرأى، حيث تحكى على لسان بنى إسرائيل قولهم لموسى عليه السّلام:

أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا.

لقد صدر هذا القول عن بنى إسرائيل بعد أن قام فرعون بقتل أبناء المؤمنين منهم بدعوة موسى عليه السّلام.

و فى كلّ الأحوال، يعبّر هذا الأسلوب عن واحدة من الممارسات و الخطط المشؤومة الدائمة للقدرات الشيطانية الظالمة التى تستهدف إبادة و تعطيل الطاقات الفعّالة، و ترك غير الفاعلين للإفادة منهم فى خدمة النظام.

لقد كان «بنور إسرائيل» قبل موسى عليه السّلام عبيدا للفراعنة، لذلك لم يكن من العجيب أن تبادر سلطات فرعون بعد بعثة موسى عليه السّلام و شيوع دعوته إلى اعتماد الخطة المعادية فى قتل الأبناء و استحياء النساء، بهدف الانتقام و الإبادة الشديدة لبنى إسرائيل كى تتعطل فيهم عوامل الصمود و المقاومة.

و لكن ما هى نتيجة كلّ هذا الكيد؟

القرآن يجيب: وَ ما كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ

أعمالهم سهام تطلق فى ظلام الجهل و الضلال فلا تصيب سوى الحجارة! لقد قضى اللّه تعالى بمشيئته أن ينتصر الحق و أهله، و أن

یزهق الباطل و أنصاره.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۱

لقد اشتد الصراع بین موسی علیه السّلام و أصحابه من جانب، و بین فرعون و أنصاره من جانب آخر. و وقعت حوادث کثیرة، لا یذکر القرآن عنها کثیرا فی هذه الفقرة، و لتحقیق هدف خاص یذکر القرآن أنّ فرعون قرّر قتل موسی علیه السّلام لمنع انتشار دعوته و للحیلولة دون ذیوعها، لکنّ المستشارین من «الملأ» من القوم عارضوا الفکرة.

یقول تعالی: وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِی أَقْتُلْ مُوسی وَ لْیَدْعُ رَبَّهُ

نستفید من الآیة أنّ أکثریة مستشاریة أو بعضهم علی الأقل کانوا یعارضون قتل موسی، لخوفهم أن یطلب علیه السّلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما کانوا یرون من معجزاته و أعماله غیر العادیة، إلّا أنّ فرعون- بدافع من غروره- یصیر علی قتله مهما تکن النتائج.

و بالطبع، فإنّ سبب امتناع «الملأ» عن تأیید فکرة فرعون فی قتل موسی غیر معلوم، فهناک احتمالات کثیرة قد یکون بعضها أو کلّها صحیحة ....

فقد یکون الخوف من العذاب الإلهی- کما احتملنا- هو السبب.

و قد یکون السبب خشیة القوم من تحوّل موسی علیه السّلام بعد استشهاده إلی هالة مقدّسة، و هو ممّا یؤدی إلی زیادة عدد الأتباع و المؤمنین بدعوته، خاصة إذا ما وقعت حادثة قتله بعد قضیة لقاء موسی مع السحرة و انتصاره الإعجازی علیهم.

و ما یؤکّد هذا المعنی هو أنّ موسی جاء فی بدایة دعوته بمعجزتین کبیرتین (العصا و الید البیضاء) و قد دعا هذا الأمر فرعون إلی أن یصف موسی علیه السّلام بالساحر، و أن یدعوه للمنازلة مع السحرة فی میقات یوم معلوم (یوم الزینة) و کان یأمل الإنتصار علی موسی علیه السّلام عن هذا الطریق، لذا بقی فی انتظار هذا الیوم.

و بمشاهدة هذا الوضع ینتفی احتمال أن یکون فرعون قد صمّم علی قتل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۲

موسی قبل حادث یوم الزینة خشیة من تبدّل دین أهل مصر[۲۳۴].

خلاصة القول: إنّ هؤلاء یعتقدون أنّ موسی علیه السّلام مجرّد حادث صغیر و محدود، بینما یؤدی قتله فی مثل تلک الظروف إلی أن یتحول إلی تیار ... تیار کبیر یصعب السیطرة علیه.

البعض الآخر من المقربین لفرعون ممّن لا یمیل إلیه، کان یرغب ببقاء موسی علیه السّلام حیا حتی یشغل فکر فرعون دائما، کی یتمکن هؤلاء من العیش بارتیاح بعیدا عن عیون فرعون، و یفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

و هذا الأمر یعبّر عن «سلیقة» فی بلاط السلاطین، إذ یقوم رجال الحاشیة- من هذا النوع- بتحریک بعض أعداء السلطة حتی ینشغل الملک أو السلطان بهم، و لیأمنوا هم من رقابته علیهم، کی یفعلوا ما یریدون! و قد استدل فرعون علی تصمیمه فی قتل موسی علیه السّلام بدلیلین، الأوّل ذو طابع دینی و معنوی، و الآخر ذو طابع دنیوی و مادی، فقال الأول، کما یحکی القرآن ذلک: إِنِّی أَخافُ أَنْ یُبَدِّلَ دِینَکُمْ

و فی الثّانی: أَوْ أَنْ یُظْهِرَ فِی الْأَرْضِ الْفَسادَ.

فإذا سکتّ أنا و کففت عن قتله، فسیظهر دین موسی و ینفذ فی أعماق قلوب أهل مصر، و ستتبدل عبادة الأصنام التی تحفظ منافعکم و وحدتکم، و إذا سکتّ الیوم فإنّ الزمن کفیل بزیادة أنصار موسی علیه السّلام و أتباعه، و هو أمر تصعب معه مجاهدته فی المستقبل، إذ ستجر الخصومة و الصراع معه إلی إراقة الدماء و الفساد و شیوع القلق فی البلاد، لذا فالمصلحة تقتضی أن أقتله أسرع ما یمکن.

بالطبع، لم یکن فرعون یقصد من الدین شیئا سوی عبادته أو عبادة الأصنام،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۳

و هذا الأسلوب فى استخدام لباس الدين و اسمه و تبنّى شعاراته، يستهدف منه السلطان (فرعون) تحذير الناس و تجهيلهم من خلال إعطاء طابع الدين على مواقفه و كيانه و سلطته.

أمّا الفساد فهو من وجهة نظر فرعون يعنى الثورة ضدّ استكبار فرعون من أجل تحرير عامّة العباد، و محو آثار عبادة الأصنام، و إحياء معالم التوحيد، و تشييد الحياة على أساسها.

إنّ استخدام لباس الدين و رفع شعاراته، و كذلك «التدليس» على المصلحين بالاتهامات، هما من الأساليب التى يعتمد هما الظلمة و الطغاة فى كلّ عصر و مصر، و عالمنا اليوم يموج بالأمثلة على ما نقول! و الآن لنر كيف كان رد فعل موسى عليه السّلام و الذى يبدو أنّه كان حاضر المجلس؟

يقول القرآن فى ذلك: وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ

قال موسى عليه السّلام هذا الكلام بقاطعية و اطمئنان يستمدان جذورهما من إيمانه القوى و اعتماده المطلق على اللّه تعالى، و أثبت بذلك بأنّه لا يهتز أو يخاف أمام التهديدات.

و يستفاد من قول موسى عليه السّلام أيضا أنّ من تحل فيه صفتا «التكبر» و «عدم الإيمان بيوم الحساب» فهو إنسان خطر، علينا أن نستعيذ باللّه من شرّه و كيده.

فالتكبر يصبح سببا لأن لا يرى الإنسان سوى نفسه و سوى أفكاره، فهو يعتبر كما فى حال فرعون- الآيات و المعجزات الإلهية سحرا، و يعتبر المصلحين مفسدين، و نصيحة الأصدقاء و المقربين ضعفا فى النفس.

أمّا عدم الإيمان بيوم الحساب فيجعل الإنسان حرا طليقا فى أعماله و برامجه، لا يفكر بالعواقب، و لا يرى لنفسه حدودا يقف عندها، و سيقوم بسبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۴

انعدام الضوابط و فقدان الرقابة بمواجهة كلّ دعوة صالحة و يحارب الأنبياء.

و لكن ماذا كان عاقبة تهديد فرعون؟

الآيات القادمة تنبئنا بذلك، و تكشف كيف استطاع موسى عليه السّلام أن يفلت من مخالب هذا الرجل المتكبر المغرور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۵

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (۲۸) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (۲۹)

التّفسير

أ تقتلون رجلا أن يقول ربّى اللّه!

مع هذه الآيات تبدأ مرحلة جديدة من تأريخ موسى عليه السّلام و فرعون، لم تطرح فى أى مكان آخر من القرآن الكريم. المرحلة

التی نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذی کان من المقربین إلی فرعون، و لکنّه اعتنق دعوة موسی التوحیدیة من دون أن یفصح عن إیمانه الجدید هذا، و إنّما تکتم علیه و اعتبر نفسه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۶

من موقعه فی بلاط فرعون- مکلفا بحمایة موسی علیه السّلام من أی خطر یمکن أن یتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعند ما شاهد أنّ حیاة موسی فی خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء علی هذا المخطط.

یقول تعالی: وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ یَکْتُمُ إِیمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ یَقُولَ رَبِّیَ اللَّهُ

أ تقتلوه فی حین أنّه: وَ قَدْ جاءَکُمْ بِالْبَیِّناتِ مِنْ رَبِّکُمْ

هل فیکم من یستطیع أن ینکر معاجزه، مثل معجزة العصا و الید البیضاء؟ أ لم تشاهدوا بأعینکم انتصاره علی السحرة، بحیث أن جمیعهم استسلموا له و أذعنوا لعقیدته عن قناعة تامة، و لم یرضحوا لا- لتهدیدات فرعون و وعیده، و لا- لإغراءاته و أمنیاته، بل استرخصوا الأرواح فی سبیل الحق، فی سبیل دعوة موسی، و إله موسی ... هل یمکن أن نسمّی مثل هذا الشخص بالساحر؟

فکروا جیدا، لا تقوموا بعمل عجول، تحسّبوا لعواقب الأمور و إلّا فالندم حلیفکم.

ثم إنّ للقضیة بعد ذلک جانبین: وَ إِنْ یَکُ کاذِباً فَعَلَیْهِ کَذِبُهُ وَ إِنْ یَکُ صادِقاً یُصِبْکُمْ بَعْضُ الَّذِی یَعِدُکُمْ

إنّ حبل الکذب قصیر- کما یقولون- و سینفضح أمره فی النهایة إذا کان کاذبا، و ینال جزاء الکاذبین، و إذا کان صادقا و مأمورا من قبل السماء فإنّ توعده لکم بالعذاب حاصل شئتم أم أبیتم، لذا فإنّ قتله فی کلا الحالین أمر بعید عن المنطق و الصواب.

ثم تضیف الآیات: إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ کَذَّابٌ

فإذا کان موسی سائرا فی طریق الکذب و التجاوز فسوف لن تشمله الهدایة الإلهیة، و إذا کنتم أنتم کذلک فستحرمون من هدایته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۷

و لنا أن نلاحظ أنّ العبارة الأخیرة برغم أنّها تحمل معنیین إلّا أن «مؤمن آل فرعون» یهدف من خلالها إلی توضیح حال الفراعنة.

و التعبیر الذی یلیه یفید أنّ فرعون، أو بعض الفراعنة- علی الأقل- کانوا یؤمنون باللّه، و إلّا فإن تعبیر «مؤمن آل فرعون» فی خلاف هذا التأویل سیکون دلیلا علی إیمانه بإله موسی علیه السّلام و تعاونه مع بنی إسرائیل، و هذا ما لا یتطابق مع دوره فی تکتمه علی إیمانه، و لا یناسب أیضا مع أسلوب «التقیة» التی کان یعمل بها.

و بالنسبة للتعبیر الآنف الذکر وَ إِنْ یَکُ کاذِباً ... فقد طرح المفسّرون سؤالین:

الأوّل: إذا کان موسی علیه السّلام کاذبا، فإنّ عاقبة کذبه سوف لن تقتصر علیه و حسب، و إنّما سوف تنعکس العواقب السیئة علی المجتمع برمته.

الثّانی: أما لو کان صادقا، فستتحقق کلّ تهدیداته و وعیده لا بعض منها، کما فی تعبیر «مؤمن آل فرعون»؟

بالنسبة للسؤال الأول، نقول: إنّ المراد هو معاقبة جریمة الکذب التی تشمل شخص الکذّاب فقط و یکفینا العذاب الالهی لدفع شرّه. و إلّا فکیف یمکن لشخص أن یکذب علی اللّه، و یترکه سبحانه لشأنه کی یکون سببا لإضلال الناس و إغوائهم؟

و بالنسبة للسؤال الثّانی، من الطبیعی أن یکون قصد موسی علیه السّلام من التهدید بالعذاب، هو العذاب الدنیوی و الأخروی، و التعبیر ب «بعض» إنّما یشیر إلی العذاب الدنیوی، و هو الحد الأدنی المتیقّن حصوله فی حالة تکذیبکم إیّاه.

و فی کلّ الأحوال تبدو جهود «مؤمن آل فرعون» واضحة فی النفوذ بشتی الوسائل و الطرق إلی أعماق فرعون و جماعته لتثنیهم عن قتل موسی علیه السّلام.

و نستطیع هنا أن نلخص الوسائل التی اتبعها بما یلی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۸

أوضح لهم أولا أنّ عمل موسى عليه السّلام لا يحتاج إلى ردّة فعل شديدة كهذه.

ثم عليكم أن لا تنسوا أنّ الرجل يملك «بعض» الأدلة، و يظهر أنّها أدلة معتبرة، لذا فإنّ محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطرا واضحا.

و الموضوع برمته لا ـ يحتاج إلى موقف منكم، فإذا كان كاذبا فسينال جزاءه من قبل اللّه، و لكن يحتمل أن يكون صادقا، و عندها لن يتركنا اللّه لحالنا.

و لم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، و إنّما استمرّ يحاول معهم بلين و حكمة، حيث قال لهم كما يحكى ذلك القرآن من أنّه قال لهم أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهى.

يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا.

و يحتمل أن يكون غرضه: إنكم اليوم تملكون كلّ أنواع القوّة، و تستطيعون اتخاذ أى تصميم تريدونه اتجاه موسى عليه السّلام، و لكن لا تغرنكم هذه القوّة، و لا تنسوا النتائج المحتملة و عواقب الأمور.

و يظهر أنّ هذا الكلام أثر فى حاشية فرعون و بطانته، فقلّل من غضبهم و غيظهم، لكن فرعون لم يسكت و لم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى و هو إنّى ارى من المصلحة قتل موسى و لا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثمّ إننى: وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ.

و هذه هو حال كافة الطواغيت و الجبّارين على طول التأريخ، فهم يعتبرون كلامهم الحق دون غيره، و لا يسمحون لأحد فى إبداء وجهة نظر مخالفة لما يقولون، فهم يظنون أن عقلهم كامل، و أن الآخرين لا يملكون علما و لا عقلا ...

و هذا هو منتهى الجهل و الحماقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۴۹

بحوث

أوّلا: من هو مؤمن آل فرعون؟

نستفيد من الآيات القرآنية أنّ «مؤمن آل فرعون» هو رجل من قوم فرعون آمن بموسى عليه السّلام، و يظلّ يتكتم على إيمانه، و يعتبر نفسه مكلفا بالدفاع عنه عليه السّلام.

لقد كان الرجل- كما يدل عليه السياق- ذكيا و لبقا، يقدّر قيمة الوقت، ذا منطق قوى، حيث قام فى اللحظات الحسّاسة بالدّفاع عن موسى عليه السّلام و إنقاذه من مؤامرة كانت تستهدف حياته.

تتضمن الرّوايات الإسلامية و تفاسير المفسّرين أوصافا أخرى لهذا الرجل سنتعرض لها بالتدريج.

البعض مثلا ـ يعتقد أنّه كان ابن عم- أو ابن خالة- فرعون، و يستدل هذا الفريق على رأيه بعبارة (آل فرعون) إذ يرى أنّها تطلق على الأقرباء، بالرغم من أنّها تستخدم أيضا للأصدقاء و المقربين.

و البعض قال: إنّه أحد أنبياء بنى إسرائيل كان يعرف اسم «حزبيل» أو «حزقيل»[۲۳۵].

فيما قال البعض الآخر: إنّه خازن خزائن فرعون، و المسؤول عن الشؤون المالية[۲۳۶].

و ينقل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هناك ثلاثة رجال من بين الفراعنة آمنوا بموسى عليه السّلام، و هم آل فرعون، و زوجة فرعون، و الرجل الذى أخبر موسى قبل نبوته بتصميم الفراعنة على قتله، حينما أقدم موسى على قتل القبطى، و نصحه بالخروج من مصر بأسرع وقت:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۰

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی قالَ یا مُوسی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِینَ ۲۳۷].

لکن القرائن تفید أن ثمّة مجموعة قد آمنت بموسی علیه السّلام بعد مواجهة موسی مع السحرة، و یظهر من السیاق أنّ قصة مؤمن آل فرعون کانت بعد حادثة السحرة.

و البعض یحتمل أنّ الرجل کان من بنی إسرائیل، لکنّه کان یعیش بین الفراعنة و یعتمدون علیه، إلّا أنّ هذا الاحتمال ضعیف جدا، و لا یتلاءم مع عبارة «آل فرعون» و أیضا نداء «یا قوم».

و لکن یبقی دوره مؤثرا فی تأریخ موسی علیه السّلام و بنی إسرائیل حتی مع عدم وضوح کلّ خصوصیات حیاته بالنسبة لنا.

ثانیا: التقیة أداة مؤثّرة فی الصراع

(التقیة) أو (کتمان الإعتقاد) لیست من الضعیف أو الخوف کما یظن البعض، بل غالبا ما توظّف کأسلوب مؤثّر فی إدارة مع الظالمین و الجبارین و الطغاة، إذ أن کشف أسرار العدو لا یمکن أن یتمّ إلّا عن طریق الأشخاص الذین یعملون بأسلوب التقیة.

و کذلک الضربات الموجعة و المباغتة للعدو، لا تتمّ إلّا عن طریق التقیة و کتمان الخطط و أسالیب الصراع.

لقد کانت «تقیة» مؤمن آل فرعون من أجل خدمة دین موسی علیه السّلام، و الدفاع عنه فی اللحظات الصعبة. ثمّ هل هناک أفضل من أن یحظی الإنسان بشخص مؤمن بقضیته و دعوته یزرعه فی جهاز عدوه بحیث یستطیع من موقعه أن ینفذ إلی أعماق تنظیمات العدو، و یحصل علی المعلومات و الأسرار لیفید بها قضیته و دعوته، و یخبر بها أصحابه و قد تقضی الضرورة النفوذ فی ذهنیة العدو أیضا و تغییرها لمصالح قضیته و دعوته ما استطاع إلی ذلک سبیلا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۱

الآن نسأل: هل کان بوسع مؤمن آل فرعون إسداء کلّ هذه الخدمات لدعوة موسی علیه السّلام لو لم یستخدم أسلوب التقیة؟ لذلک کلّه

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق قوله علیه السّلام: التقیة دینی و دین آبائی، و لا دین لمن لا تقیة له، و التقیة ترس اللّه فی الأرض، لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل»[۲۳۸].

إنّ فاعلیة هذا المبدأ تکتسب أهمیة استثنائیة فی الوقت الذی یکون فیه المؤمنون قلّة خاضعة للأکثریة التی لا ترحم و لا تتعامل وفق المنطق، فالعقل لا یسمح بإظهار الإیمان (باستثناء الضرورات) و التفریط بالطاقات الفعّالة، بل الواجب یقضی بکتمان العقیدة و التخفی علی المعتقد فی مثل هذا الوضع لکی یصار إلی تجمیع الطاقات و القوی و الإفادة منها لتسدید الضربة النهائیة و القاصمة فی الوقت و الظرف المناسبین.

إنّ الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم التزم بنفسه هذا المبدأ، حینما أبقی دعوته سریّة لبضع سنوات، و حینما ازداد أتباعه و تشکّلت النواة الإیمانیة القادرة للحفاظ علی الدعوة الجدیدة صدع صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بأمره تعالی أمام القوم.

و من بین الأنبیاء الآخرین نری إبراهیم علیه السّلام الذی استخدم أسلوب التقیة، و وظّف هذا المبدأ فی عمله الشجاع الذی حطّم فیه الأصنام، و إلّا فلولا التقیة لم یکن بوسعه أن ینجح فی عمله أبدا.

کذلک استفاد أبو طالب عم الرسول من أسلوب التقیة فی حمایة رسول اللّه و دعوته الناشئة، إذ لم یعلن عن صریح إیمانه برسول اللّه و بالإسلام إلّا فی فترات و مواقف خاصّة، کی یستطیع من خلال ذلک لنهوض بأعباء دوره المؤثر فی حفظ حیاة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیال مکائد و طغیان الشرک القرشی.

من هنا یتبیّن خطأ رأی من یعتقد بأنّ «التقیة» کمبدأ و کأسلوب، تختص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۲

بالشیعة دون غیرهم، أو أنّها کدلیل علی الضعف و الجبن، فیما هی موجودة فی جمیع المذاهب دون استثناء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۲۵۲

لمزید من التوضیح، باستطاعة القارئ الکریم أن یرجع إلی بحثنا فی تفسیر الآیة ۲۸ من آل عمران و الآیة ۱۰۶ من النحل.

ثالثا: من هم الصدّیقون؟

فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «الصدیقون ثلاثة: (حبیب النجار) مؤمن آل یس الذی یقول: اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِینَ اتَّبِعُوا مَنْ لا یَسْئَلُکُمْ أَجْراً و (حزقیل) مؤمن آل فرعون و (علی بن أبی طالب و هو أفضلهم».

و الملاحظ فی هذا الحدیث أنّه یروی فی مصادر الفریقین ۲۳۹].

إنّ تأریخ النبوات یظهر مکانة هؤلاء فی دعوات الرسل، إذ صدّقوهم فی أحرج اللحظات، و کانوا فی المقدمة، فاستحقوا لقب «الصدّیق» خاصة أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام، الذی وقف منذ مطلع عمره الشریف و حتی نهایته مناصرا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی حیاته و بعد رحلته و ذابا عن الدعوة الجدیدة، و استمرّ فی کلّ المراحل و الأشواط فی تقدیم التضحیات بمنتهی الإخلاص.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۳

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۳۰ الی ۳۳]

اشارة

وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِینَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ یُرِیدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (۳۱) وَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ یَوْمَ التَّنادِ (۳۲) یَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِینَ ما لَکُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ یُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳)

التّفسیر

التحذیر من العاقبة!

کان الشعب المصری آنذاک یمتاز نسبیا بمواصفات التمدّن و الثقافة، و قد اطّلع علی أقوال المؤرخین بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح و عاد و ثمود الذین لم تکن أرضهم تبعد عنهم کثیرا، و کانوا علی علم بما آل إلیه مصیرهم.

لذلک کلّه فکّر مؤمن آل فرعون بتوجیه أنظار هؤلاء إلی أحداث التأریخ و أخذ یحذرهم من تکرار العواقب الألیمة التی نزلت بغیرهم، عساهم أن یتیقظوا و یتجنّبوا قتل موسی علیه السّلام یقول القرآن الکریم حکایة علی لسانه: وَ قالَ الَّذِی آمَنَ یا قَوْمِ إِنِّی أَخافُ عَلَیْکُمْ مِثْلَ یَوْمِ الْأَحْزابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۴

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأننى خائف عليكم عن العادات و التقاليد السيئة التى كانت متفشّية فى الأقوام السالفة. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۲۴۰].

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما كانت عليه من الكفر و الطغيان، إذ قتل من قتل منهم بالطوفان العظيم، و أصيب آخرون منهم بالريح الشديدة، و بعضهم بالصواعق المحرقة، و مجموعة بالزلازل المخرّبة.

و اليوم يخاطبهم مؤمن آل فرعون: ألا تخشون أن تصيبكم إحدى هذه البلايا العظيمة بسبب إصراركم على الكفر و الطغيان؟ هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك، أو أن العقوبات الإلهية لا تشملكم، ترى ماذا عمل أولئك حتى أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، و فى بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإنى أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم!؟

و لكن ينبغى أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم و يقع بساحتكم هو من عند أنفسكم و بما جنت أيديكم: وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ.

لقد خلق اللّه الناس بفضله و كرمه، و وهبهم من نعمه ظاهرة و باطنة، و أرسل أنبياءه لهدايتهم، و لصدّ طغيان العتاة عنهم، لذلك فإنّ طغيان العباد و صدّهم عن السبيل هو السبب فيما ينزل بهم من العذاب الأليم.

ثم تضيف الآية على لسانه: وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ أى يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلّا أصواتكم لا تصل إلى أى مكان.

«التناد» مأخوذة أصلا من كلمة «ندا» و تعنى «المناداة» (و هى فى الأصل (التنادى) و حذفت الياء و وضعت الكسرة فى محلّها) و المشهور بين المفسّرين أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۵

(يوم التناد) هو من أسماء يوم القيامة، و قد ذكروا أسبابا لهذه التسمية متشابهة تقريبا، فمنهم من يقول: إن ذلك يعود إلى مناداة أهل النّار لأهل الجنّة، كما يقول القرآن: وَ نادى أَصْحابُ النَّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ فجاءهم الجواب: إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ ۲۴۱][۲۴۲]. أو أنّ التسمية تعود إلى مناداة الناس بعضهم لبعض طلبا للعون و المساعدة.

و هناك من قال: إن سبب التسمية يعود إلى أنّ الملائكة تناديهم للحساب، و هم يطلبون العون من الملائكة.

أو لأنّ منادى المحشر ينادى: أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۲۴۳].

و قال بعضهم: إنّ السبب يعود إلى أنّ المؤمن عند ما يشاهد صحيفة أعماله ينادى برضى و شوق: هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ ۲۴۴] بينما الكافر من شدة خوفه و هول ما يحلّ به يصرخ و ينادى: يا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ ۲۴۵].

و لكن يمكن تصور معنى أوسع للآية، بحيث يشمل «يوم التناد فى هذه الدنيا أيضا، لأنّ المعنى- كما رأينا- يعنى (يوم مناداة البعض بعض الآخر) و هذا المعنى يعبّر عن ضعف الإنسان و عجزه عند ما تنزل به المحن و تحيطه المصاعب و الملمّات، و ينقطع عنه العون و أسباب المساعدة، فيبدأ بالصراخ و لكن بغير نتيجة.

و فى عالمنا هذا ثمّة أمثلة عديدة على «يوم التناد» مثل الأيّام التى ينزل فيها العذاب الإلهى، أو الأيّام التى يصل فيها المجتمع إلى طريق مسدودة لكثرة ما ارتكب من ذنوب و خطايا، و قد نستطيع أن نتصور صورا أخرى عن يوم التناد فى حياتنا من خلال الحالات التى يمرّ بها الناس بالمشاكل و الصعاب المختلفة حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۶

يصرخ الجميع عندها طالبين للحل و النجاة! الآية التالية تفسّر يوم التناد بقولها: يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ

و مثل هؤلاء حق عليهم القول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ إنّ هؤلاء الذين ضلّوا فى الحياة الدنيا بابتعادهم عن سبل الرشاد و الهداية و تنكبهم عن الطريق المستقيم، سيضلّون فى الآخرة عن الجنّة و الرضوان و النعم الإلهية الكبرى.

و قد يكون فى التعبير القرآنى إيماءة خفيفة إلى قول فرعون: ما أَهْدِيكَمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۷

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۴ الى ۳۵]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (۳۴) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵)

التّفسير

عجز المتكبرين عن الإدراك الصحيح!

هـذا المقطع من الآيات الكريمـة يسـتمر فى عرض كلام مؤمن آل فرعون، و من خلال نظرة فاحصة فى سـياق الآيات، يظهر أنّ مؤمن آل فرعون طرح كلامه فى خمسـة مقاطع، كلّ منها اكتسـى بلون من المخاطبـة، و شـكل من الـدليل، الذى يسـتهدف النفوذ إلى قلب فرعون و المحيطين به، بغية محو الصدأ و آثار الكفر السوداء منهاكى تذعن للّه و رسالاته و أنبيائه، و تترك التكبر و الطغيان:

المقطع الأوّل: راعى فيه مؤمن آل فرعون الاحتياط، و دعا القوم إلى الحذر من الأضـرار المحتملة من جهتين: (قال لهم: لو كان موسى كاذبا فسينال جزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۸

كذبه، أمّا لو كان صادقا فيشملنا العذاب، إذا عليكم أن لا تتركوا العمل بالاحتياط).

المقطع الثّانى: و فيه وجّه مؤمن آل فرعون الـدعوة إلى التأمّل بما حلّ بالأقوام السابقـة و ما نال الأمم الداثرة من المصـير و الجزاء، كى يأخـذوا العبرة من ذلـك المصـير! المقطع الثّـالث: كـأمن فى الآيات القرآنيـة التى بين أيـدينا، إذ تـذكر هم الآيات- من خلال خطاب مؤمن آل فرعون- بجزء من تأريخهم، هـذا التأريخ الذى لا يبعد كثيرا عنهم، و لم تمحى بعد أواصـر الارتباط الذهنى و التأريخى فيما بينهم و بينه، و هذا الجزء يتمثل فى نبوة يوسف عليه السّلام، الذى يعتبر أحد أجداد موسى، حيث يبدأ قصة التذكير معهم بقوله تعالى: وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ ۲۴۶] و بالدلائل الواضحة لهدايتكم و لكنكم: فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ

و شـككم هنا ليس بسـبب صـعوبة دعوته أو عـدم اشـتمالها على الأدلـة و العلائم الكافيـة، بل بسـبب غروركم حيث أظهرتم الشك و التردد فيها.

و لأجل أن تتنصلوا من المسؤولية، و تعطوا لأنفسكم الذرائع و المبررات، قلتم: حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا.

بناء على ذلك كلّه لم تشملكم الهداية الإلهية بسبب أعمالكم و مواقفكم:

كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ

لقد سلكتم سبيل الإسراف و التعدى على حدود اللّه تعالى كما قمتم بالتشكيك فى كلّ شىء، حتى غدا ذلك كلّه سببا لحرمانكم من اللطف الإلهى فى الهداية، فسدرتم فى وادى الضلال و الغى، كى تنتظركم عاقبة هذا الطريق الغاوى.

و اليوم- و السياق ما زال يحكى خطاب مؤمن آل فرعون لهم- اتبعتم نفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۵۹

الأسلوب حيال دعوة موسى عليه السّلام، إذ تركتم البحث فى أدلة نبوته و علائم بعثته و رسالته، فابتعدت عنكم أنوار الهداية، و ظلت قلوبكم سوداء محجوبة عن إشعاعاتها الهادية الوضّاءة.

الآية الكريمة التى تليها تعرّف «المسرف المرتاب» بقول اللّه تبارك و تعالى:

الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ۲۴۷].

هؤلاء يرفضون آيات اللّه البينات من دون أى دليل واضح من عقل أو نقل، بل يستجيبون فى ذلك إلى أهوائهم المغرضة و وساوسهم المضلّة الواهية، كى يستمروا فى رفع راية الجدل و المعارضة.

و للكشف عن قبح هذه المواقف عند اللّه و عند الذين آمنوا، تقول الآية: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا[۲۴۸].

ذلك لأنّ الجدال بالباطل (الجدال السلبى) و اتخاذ المواقف ضدّ الوقائع و الآيات القائمة على أساس الدليل المنطقى، يعتبر أساسا لضلال المجادلين و تنكبهم عن جادة الهداية و الصواب، و كذلك فى إغواء للآخرين، حيث تنطفئ أنوار الهداية فى تلك الأوساط، و تتقوى أسس و دعائم حاكمية الباطل.

فى النهاية، و بسبب عدم تسليم هؤلاء أمام الحق، تقرّر الآية قوله تعالى: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ[۲۴۹].

أجل، إنّ العناد فى مقابل الحق يشكّل ستارا مظلما حول فكر الإنسان، و يسلب منه قابليته على التشخيص الهادى الصحيح، بحيث ينتهى الأمر إلى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۰

يتحول القلب إلى مثل الإناء المغلق، الذى لا يمكن افراغه من محتواه الفاسد، و لا إدخال المحتوى الهادى الصحيح.

إنّ الأشخاص الذين يقفون فى وجه الحق و أهله بسبب اتصاف بصفتى التكبر و التجبر، فإنّ اللّه تعالى سوف يسلب منهم روح طلب الحقيقة الى درجة أن الحق سيكون مرا فى مذاقهم، و الباطل حلوا.

و فى كلّ الأحوال، لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التى وقفنا عليها آنفا، فانتهى- كما سيظهر فى الآية اللاحقة- إلى أجهاض مخطط فرعون فى قتل موسى عليه السّلام، أو على الأقل وفّر الوقت الكافى فى تأخير تنفيذ هذا لمخطط إلى أن استطاع موسى عليه السّلام أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمّة عظيمة أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع، الذى انصب جهده فى هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة الموسوية على إنقاذ حياة كليم اللّه عليه السّلام:

و كما سيتضح لا حقا من احتمال أن هذا الرجل ضحى بحياته أيضا فى هذا السبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۱

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۶ الى ۳۷]

اشارة

وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (۳۶) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (۳۷)

التّفسير

أريد أن أطلع إلى إليه موسى!!

بالرغم من النجاح الذى أحرزه مؤمن آل فرعون فى أثناء عزم فرعون عن قتل الكليم، عليه السّلام، إلّا أنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره و تكبره و تعاليه إزاء الحق، لأنّ فرعون لم يكن ليملك مثل هذا الاستعداد أو اللياقة الكافية للهداية، لذلك نراه يواصل السير فى نهجه الشرير، إذ يأمر وزيره هامان ببناء برج للصعود إلى السماء (!!) كى يجمع المعلومات عن إله موسى، يقول تعالى فى وصف هذا الموقف: وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أى لعلى أحصل على وسائل و تجهيزات توصلنى الى السماوات.

أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۲

و لكن ماذا كانت النتيجة؟! كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ

«الصرح» فى الأصل تعنى الوضوح، و «التصريح» بمعنى التوضيح، ثمّ عمّم معنى الكلمة على الأبنية المرتفعة و القصور الجميلة العالية، و ذلك لأنّها واضحة و مميّزة بشكل كامل، و قد ذكر هذا المعنى العديد من المفسّرين و اللغويين.

«تباب» تعنى الخسارة و الهلاك.

إنّ أول ما يطالعنا هنا هو السؤال عن الهدف الذى كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا.

هل كان فرعون بهذا المقدار من الغباء و الحماقة و السذاجة بحيث يعتقد أن إله موسى موجود فعلا فى مكان ما من السماء؟ و إذا كان موجودا فى السماء، فهل يستطيع الوصول إليه بواسطة إقامة بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافها إزاء جبال الكرة الأرضية؟

إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغاية، ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره و تكبره، فقد كان يمتاز بالذكاء و القدرة السياسية التى أهّلته للسيطرة على شعب كبير لسنين مديدة من خلال أساليب القهر و القوة و الخداع.

لذلك كلّه نرى الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرف الفرعونى لمعرفة دواعيه و أهدافه الشيطانية.

فمن خلال عملية التأمّل و التمحيص، يمكن أن تنتهى إلى ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء هذا التصرّف و الأهداف هذه هى:

أولا- أراد فرعون أن يختلق وضعا يعمد من خلاله إلى إلهاء الناس و صرف أذهانهم عن قضية نبوة موسى عليه السّلام و ثورة بنى إسرائيل. و قضية بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس، و تهيمن على اهتماماتهم الفكرية، و بالتالى إلى صرفهم عن القضية الأساسية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۳

و فى هذا الإطار يلاحظ بعض المفسّرين أن فرعون خصص لبناء صرحه مساحة واسعة من الأراضى، و وظّف فى إقامته خمسين ألفا من العمال و البنائين المهرة، بالإضافة إلى من انشغل بتهيئة وسائل العمل و التمهيد لتنفيذ المشروع، و كلما كان البناء يرتفع أكثر كلّما ازداد تأثيره فى الناس، و أخذ يجلب إليه الاهتمام و الأنظار أكثر، إذ أصبح الصرح حديث المجالس، و الخبر الأوّل الذى يتناقله الناس، و فى مقابل ذلك يتناسون قضية انتصار موسى عليه السّلام على السحرة- و لو مؤقتا- خصوصا مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الاهتزاز العنيف الذى ألحق بجهاز فرعون و أساط الناس.

ثانيا: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، و على الأخص العاطلين منهم، لكى يجد هؤلاء فى هذا الشغل عزاء- و لو مؤقتا- عن مظالم فرعون و ينسون جرائمه و ظلمه. و من ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدى إلى ارتباطهم بخزانة فرعون و أمواله، و بالتالى ارتباطهم بنظامه و سياساته! ثالثا: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلى أعلى نقطة فيه، و يرمق السماء ببصره، أو يرمى سهما نحو السماء، و يرجع الى الناس فيقول لهم: لقد انتهى كلّ شىء بالنسبة لإله موسى. و الآن انصرفوا إلى أعمالكم براحة بال!! أما بالنسبة إلى فرعون نفسه، فقد كان يعلم أنّه حتى لو ارتقى الجبال الشامخات التى

تتطاول فى علوها على صرحه، فإنّه سوف لن يشاهد أى شىء آخر يفترق عمّا يشاهده و هو يقف على الأرض المستوية يتطلع نحو السماء! و الطريف فى الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى رجع خطوة إلى الوراء فنزل عن يقينه إلى الشك، حيث قال بعد ذلك: وَ إِنِّى لَأَظُنُّهُ كاذِباً إذ استخدم تعبير «أظن»!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۴

و الجدير بالإشارة هنا أنّ القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ ذكر ثلاث قضايا ذات محتوى كبير بجمل قصيرة، حيث قال أولا: إن السبب الرئيسى فى انحراف فرعون عن جادة الصواب يعود إلى تزيين عمله القبيح فى نظره بسبب غروره و تكبره.

ثم تناول بعد ذلك نتيجة ذلك متمثلة بالضلال عن طريق الحق و الهدى و النور.

و فى الجملة الثّالثة لخصت الآية مال مخططات فرعون، هذا المآل الذى تمثل بالفشل الذريع و التباب و الخسران.

طبعا، يمكن للخطط السياسة و المواقف المضلّلة أن تخدع الناس شطرا من الزمان، و تؤثر فيهم لفترة من الوقت، إلّا أنّها تنتهى بالفشل على المدى البعيد.

فقد ورد فى بعض الرّوايات أنّ «هامان» قد زاد فى ارتفاع الصرح الفرعونى إلى الدرجة التى باتت الرياح الشديدة مانعا عن الاستمرار بالعمل و عندها اعتذر هامان لفرعون عن الاستمرار بالبناء.

و لكن لم تمض فترة وجيزة من الزمن حتى حطمت الرياح الشديدة ذلك البناء[۲۵۰].

و اتضح أن قوة فرعون متعلقة فى ثباتها بالرياح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۵

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (۳۸) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (۳۹) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (۴۰)

التّفسير

اتبعون أهدكم سبيل الرشاد:

أشرنا آنفا إلى أنّ مؤمن آل فرعون أوضح كلامه فى مجموعة من المقاطع، و فى هذه المجموعة من الآيات الكريمة نقف أولا على المقطع الرابع، بعد أن أشرنا فى الآيات السابقة إلى ثلاثة منها.

إنّ هذا المقطع من كلام مؤمن آل فرعون ينصب فى مضمونه على إلفات نظر القوم إلى الحياة الدنيوية الزائلة، و قضية المعاد و الحشر و النشر، إذ أنّ تركيز هذه القضايا فى حياة الناس له تأثير جذرى فى تربيتهم.

يقول تعالى: وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۶

لقد قرأنا سابقا أنّ فرعون كان يقول: إنّ ما أقوله هو طريق الرشد و الصلاح، إلّا أنّ مؤمن آل فرعون أبطل هذا الادّعاء الفارغ، و أفهم

الناس زوره، و حذرّهم أن يقعوا فريسة هذا الادّعاء، إذ أنّ خططه ستفشل و سيصاب بسوء العاقبة، فالطريق هو ما أقوله، إنّه طريق التقوى و عبادة اللّه.

ثم تضيف الآية: يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ.

يريد أن يقول لهم: لنفرض أنّنا انتصرنا ببذل الحيل و التوسّل بوسائل الخداع و المكر، و تركنا الحق وراء ظهورنا، و ارتكبنا الظلم و تورطنا بدماء الأبرياء، ترى ما مقدار عمرنا فى هذا العالم؟ إنّ هذه الأيّام المعدودة ستنتهى و سنقع فى قبضة الموت الذى يجرنا من القصور الفخمة إلى تحت التراب و تكون حياتنا فى مكان آخر.

إنّ القضية ليست فناء هذه الدنيا و بقاء الآخرة و حسب، بل الأهم من ذلك هى قضية الحساب و الجزاء، حيث يقول تعالى: مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ

إنّ مؤمن آل فرعون- بكلامه هذا- آثار أولا قضية عدالة اللّه تبارك و تعالى، حيث يقاضى الإنسان بما اكتسبت يداه خيرا أو شرّا.

و من جهة ثانية أشار فى كلامه إلى الثواب و الفضل الالهى لذوى العمل الصالح، إنّه الجزاء الذى لا يخضع لموازين الحساب الكمية، إذ يهب اللّه تبارك و تعالى للمؤمنين بغير حساب، ممّا لم تره عين أو تسمعه أذن و لا يخطر على فكر إنسان.

و من جهة ثالثة أشار للتلازم القائم بين الإيمان و العمل الصالح.

و رابعة يشير أيضا إلى مساواة الرجل و المرأة فى محضر اللّه تبارك و تعالى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۷

و فى القيم الإنسانية.

لقد استخلص مؤمن آل فرعون من خلال طرحه الآنف الذكر فى أنّ الحياة الدنيا و إن كانت متاعا لا يغنى شيئا عن الحياة الأخرى، إلّا أنّه يمكن أن يكون وسيلة للجزاء اللامتناهى هى و العطايا التى تصدر عن المطلق جلّ و علا. إذن هل هناك تجارة أربح من هذا؟

كما ينبغى أن نقول: إنّ عبارة «مثلها» تشير إلى أنّ العقاب فى العالم الآخر يشبه نفس العمل الذى قام به الإنسان فى هذه الدنيا، متشابهة كاملة بكل ما للكلمة من دلالة و معنى.

أمّا تعبير «غير حساب» فيمكن أن يكون إشارة إلى حساب العطايا يختص بالاشخاص من ذوى المواهب المحدودة، أمّا المطلق (جلّ و علا) الذى لا تنقص خزائنه مهما بذل للآخرين (لأن كلّ ما يؤخذ من اللانهاية يبقى بلا نهاية) لذلك فهو عطاء لا يحتاج إلى حساب.

و بقيت مسألة بحاجة إلى جواب، و هى: هل ثمّة تعارض بين هذه الآية و ما جاء فى الآية (۱۶۰) من سورة الأنعام، حيث قوله تعالى: مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ

فى الجواب على هذا التساؤل نقول: إنّ «عشر أمثالها» إشارة للحد الأدنى من العطاء الإلهى، إذ هناك الجزاء الذى يصل إلى (۷۰۰) مرّة و أكثر، ثمّ قد يصل العطاء الإلهى إلى مستوى الجزاء ب «غير حساب» و هو ممّا لا يعلم حدّه و لا يمكن تصوره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۸

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴۱ الى ۴۶]

اشارة

وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (۴۴) فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ

سُوءُ الْعَذابِ (۴۵)

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (۴۶)

التّفسير

الكلام الأخير:

فى خامس- و آخر- مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب و الأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كلّ ما هو ضرورى، أمّا القوم من ملأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۶۹

فرعون، فكان لهم- كما سنرى ذلك- قرارهم الخطير بشأنه! يفهم من خلال القرائن أنّ أولئك المعاندين و المغرورين لم يسكتوا حيال كلام هذا الرجل الشجاع المؤمن، و إنّما قاموا بطرح «مزايا» الشرك فى مقابل كلامه، و دعوه كذلك إلى عبادة الأصنام.

لذا فقد صرخ قائلا: وَ يا قَوْمِ ما لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ.

إننى أطلب سعادتكم و أنتم تطلبون شقائى، إننى أهديكم إلى الطريق الواضح الهادى و أنتم تدعوننى إلى الانحراف و الضلال! نعم، إنّكم: تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ.

نستفيد من الآيات القرآنية المختلفة، و من تأريخ مصر، أنّ هؤلاء القوم لم يقتصروا فى عبادتهم و شركهم و ضلالهم على الفراعنة و حسب، و إنّما كانت لهم أصنام يعبدونها من دون الواحد القهار، كما نستفيد ذلك بشكل مباشر من قوله تعالى فى الآية (۱۲۷) من سورة «الأعراف» حيث قوله تعالى: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ و الآية تحكى خطاب أصحاب فرعون و الملأ من قومه لفرعون.

و قد تكرّر نفس المضمون على لسان يوسف عليه السّلام، إذ قال لرفاقه فى سجن الفراعنة: أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ[۲۵۱].

لقد ذكّرهم مؤمن آل فرعون من خلال مقارنة واضحة أنّ دعوتهم إلى الشرك لا تستند على دليل صحيح، و الشرك طريق و عر مظلم محفوف بالمخاطر و سوء العاقبة و المصير، بينما دعوته (مؤمن آل فرعون) دعوة للهدى و الرشاد و سلوك طريق اللّه العزيز الغفّار.

إنّ عبارة (العزيز) و (الغفار) تشير من جانب إلى مبدأ (الخوف و الرجاء) و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۰

جانب ثان تشير إلى إلغاء ألوهية الأصنام و الفراعنة، حيث لا يملكون العزة و لا العفو.

ينتقل الخطاب القرآنى- على لسان مؤمن آل فرعون- إلى قوله تعالى: لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيا وَ لا فِي الْآخِرَةِ[۲۵۲] فهذه الأصنام لم ترسل الرسل إلى الناس ليدعوهم إليهم، و هى لا تملك فى الآخرة الحاكمية على أى شىء.

إنّ هذه الموجودات لا تملك الحس و الشعور، إنّها أصنام لا تتكلم و لا تضر و لا تنفع، و إنّ عليكم أن تعلموا: وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ فهو سبحانه و تعالى الذى أرسل رسله إلى النسا لأجل هدايتهم، و هو الذى يثيبهم و يعاقبهم على أعمالهم.

و يجب أن تعلموا أيضا: وَ أَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ.

و هكذا كشف مؤمن آل فرعون ما كان يخفى من إيمانه، و بذلك فقد انكشف هنا خطّه الإيمانى التوحيدى، و انفصل علينا عن خط

الشرك الملوث الذى يصبغ بآثامه و أوحاله الحكّام الفراعنة و من يلف حولهم، لقد رفض الرجل دعوتهم و وقف لوحده إزاء باطلهم و انحرافهم.

فى آخر كلامه- و بتهديد ذى مغزى- يقوله لهم: فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُولُ لَكُمْ

إنّ ما قلته لكم ستذكرونه فى الدنيا و الآخرة، و ستعلمون صدقى عند ما تصيبكم المصائب، و ينزل بساحتكم الغضب الإلهى، لكن سيكون ذلك كلّه بعد فوات الأوان، فإن كان فى الآخرة فلا طريق الرجوع، و إن كان فى الدنيا فهو لا يتم إلّا حين يحل بكم العذاب الإلهى، و عندها ستغلق جميع أبواب التوبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۱

ثم تضيف الآية على لسان الرجل المؤمن: وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ.

لهذا كلّه لا أخشى تهديداتكم، و لا أرهب كثرتكم و قوتكم، و لا تخيفنى وحدتى بيّن أيديكم، لأنى وضعت نفسى بين يدى المطلق ذى القدرة اللامتناهية، و المحيط علمه بكل شيء، و بأحوال عباده أينما كانوا و حلّوا.

إنّ هذا التعبير يستبطن فى طياته دعاء مهذبا انطلق من الرجل المؤمن الذى وقع أسيرا فى قبضة هؤلاء الأشقياء الظالمين. لذلك طلب بشكل مؤدب من خالقه (جلّ و علا) أن يحميه بحمايته و ينقذه ممّا هو فيه.

اللّه تبارك و تعالى لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيدا و إنّما: فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا.

إنّ التعبير ب سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا يفيد أنّهم وضعوا خططا مختلفة ضدّه ... ترى ما هى هذه الخطط؟

فى الواقع، إنّ القرآن لم يذكرها بل تركها مجهولة، لكنّها- حتما- لا تخرج عن ألوان العقاب و التعذيب ينزلونه بالرجل قبل أن يحل به القتل و الإعدام، إلّا أنّ اللطف الإلهى أبطل مفعولها جميعا و أنجاه منهم.

تفيد بعض التفاسير أنّ مؤمن آل فرعون انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسى عليه السّلام، و عبّر البحر مع بنى إسرائيل. و قيل أيضا: أنّه هرب إلى الجبل عند ما صدر عليه قرار الموت، و بقى هناك مختفيا عن الأنظار[۲۵۳].

و من الطبيعى أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين، إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أولا، ثمّ التحق ببنى إسرائيل.

و قد يكون من مؤامراتهم عليه، محاولتهم فرض عبادة الأصنام عليه و إخراجه من خط التوحيد، إلّا أن اللّه تبارك و تعالى أنجاه من مكرهم و رسخ قدمه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۲

فى طريق الإيمان و الهدى.

أمّا القوم الظالمون فقد كان مصيرهم ما يرسمه لنا القرآن الكريم: وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ ۲۵۴].

إنّ العذاب و العقاب الإلهى أليم بمجمله، إلّا أنّ تعبير «سوء العذاب» يظهر أنّ اللّه تبارك و تعالى انتخب لهم عذابا أشد إيلاما من غيره، و هو ما تشير إليه الآية التى بعدها، حيث قوله تعالى: النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا[۲۵۵] ثم: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ

و هنا نلفت النظر إلى الملاحظات الثلاث الآتية:

أولا: استخدام تعبير (آل فرعون) إشارة إلى العائلة و الأنصار و الأصحاب الضالين، و عند ما يكون هذا هو مصير الآل، ترى ماذا يكون مصير نفس فرعون؟

ثانيا: تقول الآية: إنهم يعرضون على النّار صباحا و مساء، ثمّ تقول: فى يوم القيامة يكون العذاب أشد ما يمكن. و هذا دليل على أنّ العذاب الأوّل يختص بعالم البرزخ، و هو ممّا يلى موت الإنسان و مغادرة روحه جسده، و يقع قبل يوم القيامة ... إنّ العرض على نار جهنّم يهز الإنسان و يجعله يرتعد خوفا و هلعا.

ثالثا: إن تعبير ب (الغدو) و (العشى) قد تكون فيه إشارة إلى استمرار العذاب.

أو قد يفيد انقطاع العذاب البرزخى ليقتصر على (الغدو) و (العشى) أى الصبح و المساء، و هو الوقت الذى يقترن فى حياة الفراعنة و أصحابهم و مع أوقات لهوهم و استعراضهم لقوتهم و جبروتهم فى حياتهم الدنيا.

و ينبغى أن لا نتعجب هنا من كلمتى (الغدو) و (العشى) فنسأل: و هل فى البرزخ ثمّة صباح و مساء؟ لأنّ الصبح و الليل موجودان حتى فى يوم القيامة، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۳

نقرأ فى قوله تعالى: وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا[۲۵۶].

و هذا الأمر لا يتعارض مع دوام نعم الجنّة و استمرارها، كما جاء فى الآية (۳۵) من سورة (الرعد) حيث قوله تعالى: أُكُلُها دائِمٌ وَ ظِلُّها حيث يمكن أن تشمل الألطاف الإلهية أهل الجنّة فى خصوص هذين الوقتين، بينما تكون نعم الجنّة دائمة باقية.

بحوث

أوّلا: مؤمن آل فرعون و الدرس العظيم فى مواجهة الطواغيت

إنّ القليل من الناس يؤمنون بالأديان الإلهية و المذاهب السماوية فى بداية الأمر و يقومون بتحدى الجبابرة و الطواغيت، و إذا توجست هذا القلّة المخلصة خوفا من أعدائها، أو أنّها شكت بأنّ كثرة دليل على حقانيتهم، فلن يكون بمقدور الأديان الإلهية أن تمتد و تنتشر فى الدنيا.

إنّ الأساس الذى يتحكم فى منطلق هذه البرامج الهادية و الأطروحات الوضّاءة، هو

قول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «أيّها الناس، لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلّة أهله»[۲۵۷].

لقد كان مؤمن آل فرعون نموذجا لهذه المدرسة، و كان من الأوائل فى هذا الطريق، و أثبت أنّ الإنسان المؤمن يستطيع بعزمه و إرادته القوية- النابعة من إيمانه باللّه تعالى- التأثير حتى فى إرادة الفراعنة الجبابرة؛ بل و أن يوفّر سبل النجاة لنبى كبير من أنبياء أولى العزم.

إنّ تأريخ حياة هذا الرجل الشجاع الذكى، يثبت ضرورة أن تكون خطوات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۴

أهل الدعوة و الحق على غاية قصوى من الدقة و الحذر، إذ يجب أحيانا التكتم على الإيمان و إخفاء القناعات الحقة، كما يجب فى أحيان اخرى الجهر بدعوة الحق و إظهار الإيمان.

إنّ التقية ليست سوى إخفاء اعتقاد الإنسان و التكتم عليه فى فترة معينة فى سبيل الأهداف المقدّسة.

و كما يعتبر التسلّح بالسلاح المادى الظاهرى من ضرورات المنعة و أسباب دحر العدو، كذلك فإنّ المنطق القوى و الحجّة البالغة هى سلاح ضرورى قد يعادل فى تأثيره السلاح المادى عدة مرّات. لذا فإنّ العمل الذى قام به (مؤمن آل فرعون) بواسطة منطقة و قوة حجته و حكمة تصرفه لم يكن ليعادله أى سلاح آخر.

ثم إنّ قصة هذا الرجل المؤمن تظهر أنّ اللّه جلّ و علا لا يترك عباده المؤمنين وحيدين، بل يحميهم بلطفه عن الأخطار.

و أخيرا فإن من الضرورى أن نشير إلى حياة مؤمن آل فرعون انتهت كما فى بعض الروايات إلى الاستشهاد، و أنّ ما يقوله القرآن من حفظ اللّه له و وقايته له يمكن تأويله بإنقاذه من براثن خططهم الشيطانية فى إغوائه و جرّه إلى ساحة الضلال و الشرك، و أنّ اللّه

أنجاه من سوء المنقلب و انحراف العقيدة[۲۵۸].

ثانيا: تفويض الأمور إلى اللّه

فيما يخص التفويض إلى اللّه تبارك و تعالى يكفى أن نفتتح الحديث
بقول لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، جاء فيه: «الإيمان له أربعة أركان: التوكل على اللّه، و تفويض الأمر إلى اللّه عزّ و جلّ و الرضى بقضاء اللّه، و التسليم لأمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۵
اللّه»[۲۵۹].
و فى حديث آخر
عن الإمام الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال: «المفوض أمره إلى اللّه فى راحة الأبد، و العيش الدائم الرغد، و المفوض حقّا هو العالى عن كلّ همه دون اللّه»[۲۶۰].
«التفويض» كما يقول الراغب فى مفرداته، يعنى «التوكل، لذا فإنّ تفويض الأمر إلى اللّه يأتى بمعنى توكيل الأعمال إليه، و هذا لا يعنى أن يترك الإنسان الجد و الجهد، إذ أنّ هذا السلوك ينطوى على فهم محرّف لمعنى التفويض، بل عليه أن يبذل كلّ جهده و لا يتخوّف الصعاب التى تواجهه، أو يترك العمل إذعانا لها، بل عليه أن يسلّم أمره و عمله إلى اللّه، و يستمر فى بذل الجهد بعزم راسخ و همة عالية.
و بالرغم من أنّ «التفويض» يشبه «التوكل» إلى حد كبير، إلّا أنّه يعتبر مرحلة أفضل منه. لأنّ حقيقة (التوكل) هى أن يعتبر الإنسان اللّه تبارك و تعالى وكيلا عنه، لكن التفويض يعنى التسليم المطلق للّه تعالى. و فى حياتنا العملية نرى أنّ الإنسان الذى يتخذ لنفسه وكيلا يواصل إشرافه على عمله. إلّا أنّه فى حالة التفويض لا يبقى أى مجال لإشراف من أى نوع، بل تترك الأمور إلى من فوّضت إليه.

ثالثا: عالم البرزخ

«البرزخ»- كما يدل عليه اسمه- هو عالم يتوسط بين عالمنا هذا و العالم الآخر. و فى القرآن الكريم يكثر الحديث عن العالم الآخر، و لكنّه قليل عن عالم البرزخ. و لهذا السبب هناك هالة من الغموض و الإبهام تحيط بالبرزخ، و بالتالى لا نعرف الكثير من خصائصه و جزئياته، و لكن عدم معرفة التفاصيل الجزئية لا تؤثر على أصل الاعتقاد بالبرزخ الذى صرّح القرآن بأصل وجوده.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۶
إنّ الآيات أعلاه تعتبر من الآيات التى عبّرت بصراحة عن وجود هذا العالم، حينما قالت: إنّ آل فرعون يعرضون صباحا و مساء على النّار قبل القيامة، و ذلك كنوع من العقاب البرزخى لهم.
من جانب آخر، فإنّ الآيات التى تتحدث عن حياة الشهداء الخالدة بعد الموت، و الثواب العظيم الذى ينالهم، تدل هى الأخرى على وجود (البرزخ).
و
فى حديث عن رسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشى، إن كان من أهل الجنّة

فمن الجنّة، و إن كان من أهل النّار فمن النّار، يقال: هذا مقعدك حيث يبعثك اللّه يوم القيامة»[۲۶۱].

أما

الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فيقول عن البرزخ: «ذلك فى الدنيا قبل يوم القيامة لأنّ فى نار القيامة لا يكون غدو و عشى» ثمّ قال: «إن كانوا يعذبون فى النّار غدوا و عشيا ففيما بين ذلك هم من السعداء، لا و لكن هذا فى البرزخ قبل يوم القيامة، ألم تسمع قوله عزّ و جلّ: و يوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب»[۲۶۲].

الإمام عليه السّلام لم يقل بعدم وجود الصباح و السماء فى القيامة، بل يقول: إنّ نار جهنّم أبدية خالدة لا تعرف الصباح و المساء. أمّا العقاب الذى له مواقيت فى الصباح و السماء فهو عالم البرزخ، ثمّ يدلل عليه السّلام على الجملة التى بعدها و التى تتحدث عن القيامة، على أنّها قرينة باختصاص الجملة السابقة بالبرزخ.

لقد تعرضنا إلى عالم البرزخ مفصلا أثناء الحديث عن الآية (۱۰۰) من سورة «المؤمنون».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشارة

وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ (۴۷) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ (۴۸) وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ (۴۹) قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا بَلى قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (۵۰)

التّفسير

نقاش الضعفاء و المستكبرين فى جهنّم:

لقد لفت مؤمن آل فرعون فى نهاية كلامه نظر القوم إلى القيامة و العذاب و جهنم، لذلك جاءت هذه المجموعة من الآيات الكريمة و هى تقف بشكل رائع دقيق على تحاجج و تخاصم أهل النّار فيما بينهم، و بالذات تحاجج المستضعفين مع المستكبرين.

يقول تعالى: وَ إِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۸

لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ[۲۶۳].

المراد من «الضعفاء» هنا هم أولئك الذين يفتقدون العلم الكافى و الاستقلال الفكرى، إذ كان هؤلاء يتبعون زعماء الكفر الذى يطلق عليهم القرآن اسم المستكبرين، و كانت التبعية مجرّد انقياد أعمى بلا تفكير أو وعى.

و لكن هؤلاء الأتباع يعلمون أنّ العذاب سيشمل زعماءهم و لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فلما ذا إذن يستغيثون بهم و يلجأون إليهم كى يتحملوا عنهم قسطا من العذاب.

ذهب البعض إلى أنّ ذلك يحصل تبعا لعادتهم فى الانقياد إلى زعمائهم فى هذه الدنيا، لذلك تكون استغاثتهم بهم فى الآخرة كنوع من الانقياد اللّاإرادى وراء قادتهم.

و لكن الأفضل أن نقول: إن الإستغاثة هناك هى نوع من السخرية و الاستهزاء و اللوم، يوم يثبت أنّ كلّ ادعاءات المستكبرين مجرّد

تقولات زائفة عارية عن المضمون و الحقيقة[۲۶۴].

(و فى الحقيقة فان الإمام أمير المؤمنين- يحذر بهذا الكلام أولئك الذين سمعوا وصايا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى يوم الغدير- أو أنّها وصلتهم بطريق صحيح- ثمّ اعتذروا بأنّهم نسوها ليتبعوا أناسا آخرين).

إنّ المستكبرين لم يسكتوا على هذا الكلام و ذكورا جوابا يدل على ضعفهم الكامل و ذلتهم فى ذلك الموقف المهول، إذ يحكى القرآن على لسان قولهم: قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ.

يريدون أن يقولوا: لو كان بمستطاعنا حل مشاكلكم فالأحرى بنا و الأجدر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۷۹

أن نحل مشاكلنا و ما حلّ بنا، و لكنا لا نستطيع أن نمنع العذاب عن أنفسنا و لا عنكم، و لا أن نحتمل عنكم جزاء من العقاب! و الملاحظ هنا أنّ الآية (۲۱) من سورة «إبراهيم» تتضمن نفس هذا الاقتراح من قبل الضعفاء إزاء المستكبرين، الذين قالوا جوابا على هذا: لَوْ هَدانَا اللَّهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ

و المقصود بالهداية هنا هى الهداية الى طريق الخلاص من العذاب.

و هكذا يظهر أنّ هذين الجوابين لا يتعارضان فيما بينهما، بل يكمل أحدهما الآخر.

و عند ما تغلق فى وجههم السبل، سبل النجاة و الخلاص، يتوجه الجميع إلى خزنة النّار: وَ قالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ ۲۶۵].

إنهم يعلمون أنّ العذاب الإلهى لا يرتفع، لذلك يطلبون أن يتوقف عنهم و لو ليوم واحد كى يرتاحوا قليلا... إنّهم قانعون بهذا المقدار! لكن إجابة الخزنة تأتى منطقية واضحة: قالُوا أَ وَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّناتِ

و فى الجواب قالوا: قالُوا بَلى

فيستطرد الخزنة: قالُوا فَادْعُوا وَ ما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ

إنّكم بأنفسكم اعترفتم بأنّ الأنبياء و الرسل جاءوا بالدلائل الواضحة، و لكنّكم كفرتم بما جاءكم و كذبتم الأنبياء. لذلك لا ينفعكم الدعاء، لأنّ اللّه لا يستجيب لدعاء الكافرين.

بعض المفسّرين يرى فى تفسير الجملة الاخيرة أنّ المراد هو أنّنا لا نستطيع الدعاء لكم بدون اذن من اللّه تعالى، فادعوا أنتم بذلك، و ذلك اشارة الى انغلاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۰

سبل النجاة أمامكم.

صحيح أنّ الكافر يصبح مؤمنا فى يوم القيامة، إلّا أنّ هذا الإيمان لا يقلل من آثار كفره، لذلك يلازمه لقب الكافر.

لكن يبدو أنّ التّفسير الأوّل أفضل و أكثر قبولا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۱

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۵۱ الى ۵۵]

اشارة

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (۵۱) يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (۵۲) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ (۵۳) هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ (۵۴) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ اسْتَغْفِرْ

لِذَنْبِكَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (۵۵)

التّفسير

الوعد بنصر المؤمنين:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن تحاجج أهل النّار و عجزهم عن أن ينصر أحدهم الآخر، و بعد أن تحدثت الآيات التى سبقتها عن مؤمن آل فرعون و حماية اللّه له من كيد فرعون و آل فرعون، عادت هذه المجموعة من الآيات البينات تتحدث عن شمول الحماية و النصر الإلهى لأنبياء اللّه و رسله و للذين آمنوا، فى هذه الدنيا و فى الآخرة.

إنّها تتحدث عن قانون عام تنطق بمضمونه الآية الكريمة: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۲

وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

إنّها الحماية المؤكّدة بأنواع التأكيد، و التى لا ترتبط بقيد أو شرط، و التى يستتبعها الفوز و النصر، النصر فى المنطق و البيان، و فى الحرب و الميدان، و فى إرسال العذاب الإلهى على القوم الظالمين، و فى الإمداد الغيبى الذى يقوى القلوب و يشد الأرواح و يجذبها إلى بارئها جلّ و علا.

إنّ الآية تواجهنا باسم جديد ليوم القيامة هو: يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

«أشهاد» جمع «شاهد» أو «شهيد» (مثل ما أنّ أصحاب جمع صاحب، و أشراف جمع شريف) و هى تعنى الذى يشهد على شىء ما.

لقد ذكرت مجموعة من الآراء حول المقصود بالأشهاد، نستطيع اجمالها بما يلى:

۱- الأشهاد هم الملائكة الذين يراقبون أعمال الإنسان.

۲- هم الأنبياء الذين يشهدون على الأمم.

۳- هم الملائكة و الأنبياء و المؤمنون الذين يشهدون على أعمال الناس.

أمّا احتمال أن تدخل أعضاء الإنسان ضمن هذا المعنى، فهو أمر غير وارد، بالرغم من شمولية مصطلح «الأشهاد» لأنّ تعبير يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ لا يتناسب و هذا الاحتمال.

إنّ التعبير يشير إلى معنى لطيف، حيث يريد أن يقول أنّ: يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ الذى تنبسط فيه الأمور فى محضر اللّه تبارك و تعالى، و تنكشف السرائر و الأسرار لكافة الخلائق، هو يوم تكون الفضيحة فيه أفظع ما تكون، و يكون الإنتصار فيه أروع ما يكون ... إنّه اليوم الذى ينصر اللّه فيه الأنبياء و المؤمنين و يزيد فى كرامتهم.

إنّ يوم الأشهاد يوم افتضاح الكافرين و سوء عاقبة الظالمين، هو: يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۳

فمن جهة هو يوم لا تنفع المعذرة فيه، و لا يحول شىء دون افتضاح الظالمين أمام الأشهاد.

و من جهة اخرى هو يوم تشمل اللعنة الإلهية فيه الظالمين، و اللعنة هنا البعد عن الرحمة.

و من جهة ثالثة هو يوم ينزل فيه العذاب الجسمانى على الظالمين، و يوضعون فى أسوأ مكان من نار جهنم.

سؤال:

إنّ الآيـة تفتـح المجال واسـعا للسؤال التالى،: إذا كان اللّه (تبارك و تعالى) قد وعد حتما بانتصار الأنبياء و المؤمنين، فلما ذا نشاهد،- على طول التأريـخ- مقتل مجموعـة من الأنبياء و المؤمنين على أيـدى الكفار؟ و لماذا ينزل بهم الضـيق و الشدة من قبل أعداء اللّه، ثمّ لماذا تلحق بهم الهزيمة العسكرية؟ و هل يكون ذلك نقضا للوعد الإلهى الذى تتحدث عنه الآية الكريمة؟

الجواب على كلّ هذه الأسئلة المتشعبة يتضح من خلال ملاحظة واحدة هى:

إن أكثر الناس ضـحية المقاييس المحـدودة فى تقييم مفهوم النصـر، إذ يعتبرون الإنتصار يتمثل فقط فى قدرة الإنسان على دحر عدوه، أو السـيطرة على الحكم لفترة وجيزة! إنّ مثـل هؤلاـء لا يرون أى اعتبار لانتصار الهـدف و تقـدم الغايـة، أو تفوق و انتشار المـذهب و الفكرة، هؤلاء لا ينظرون إلى قيمة المجاهد الشـهيد الذى يتحول إلى نموذج و قدوة فى حياة الناس و على مدى الأجيال. و لا ينظرون إلى القيمة الكبرى التى يستبطنها مفهوم العزة و الكرامة و الرفعة التى ينادى بها أحرار البشر و القرب من اللّه تعالى و نيل رضاه.

و بديهى إنّ الانحباس فى إطار هذا التقييم المحدود يجعل من العسير الجواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۴

على ذلك الاشـكال، أما الانطلاق إلى أفق المعانى الواسـعة الوضّاءة لمفهوم النصـر الإلهى و الأخـذ بنظر الاعتبار القيم الواقعية للنصـر سيؤدى بنا الى معرفة المعنى العميق للآية.

ثمّـة كلاـم لطيف لسـيّد قطب فى تفسـيره «فى ظلاـل القرآن» ينـاسب هـذا المقام، إذ يورد فيه ذكرى بطل كربلاء الإمام الحسـين عليه السّـلام كمثال على المعنى الواسع لمفهوم النصـر فيقول: «... و الحسـين- رضوان اللّه عليه و هو يستشـهد فى تلك الصورة العظيمة من جـانب، المفجعـة من جـانب، أ كـانت هـذه نصـرا أم هزيمـة؟ فى الصورة الظـاهرة و بالمقياس الصـغير كانت هزيمـة. فأمّا فى الحقيقة الخالصـة و بالمقياس الكبير فقـد كانت نصـرا. فما من شـهيد فى الأرض تهتز له الجوانح بالحب و العطف و تهفوا له القلوب و تجيش بالغير و الفداء كالحسين رضوان اللّه عليه، يستوى فى هذا المتشيعون و غير المتشيعين من المسلمين و كثير من غير المسلمين»[۲۶۶].

و ينبغى أن نضـيف إلى هـذا الكلاـم أن شـيعة أهل البيت عليهم السـلام يشاهـدون كل يوم بأعينهم آثار الخير من حياة سـيّد الشـهداء الإمام أبى عبد اللّه الحسـين عليه السّـلام و يلمسون آثار استشـهاده و استشـهاد صحبه البررة من أهل بيته و أصحابه؛ إن مجالس العزاء التى تقام للحـديث عن مناقب الحسـين و صـحبه الكرام هى ينبوع الخير لحركة عظيمة ثرّة ما زال عطاؤها لم و لن ينضب! لقد شاهدنا بأعيننا و من خلال النموذج الثورى الـذى شـهدته أرض إيران المسـلمة، كيف اسـتطاع الملايين من أبناء الإسـلام أن يتحركوا فى أيّام عاشوراء للقضاء على الظلم و الطغيان و الاستكبار.

لقـد شاهـدنا بأعيننا كيف اسـتطاع هـذا الجيل المضـحى الـذى تربى فى مدرسـة أبى الشـهداء الحسـين عليه السّـلام و تغذى ممّا تدره مجالس عزائه، أن يحطّم بأيد خالية عرش أقوى السلاطين الجبّارين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۵

نعم، لقـد شاهدنا دم الحسـين الشـهيد و قد سـرى فى العروق عزة و حركة و انتفاضة، و غيرت الحسابات السياسـية و العسـكرية للدول الكبرى.

بعـد كلّ ذلك، و مع كلّ العطاء الثر الهادى الـذى اسـتمدته كلّ الأجيال- خلال التأريخ- من ذكرى الطف و سـيّد الشـهداء، ألا يعتبر الحسين عليه السّلام منتصرا حتى باتت آثار نصره الظافر حاضرة فينا بالرغم من مرور أكثر من ثلاثة عشر قرنا على استشهاده!؟

سؤال آخر

ثمـة سؤال آخر يتبلور من المقابلـة بين الآيـة التى بين أيـدينا و الآية (۳۶) من سورة «المرسـلات» إذ نقرأ الآيـة التى نحن بصـددها أنّ

اعتذار الظالمين لا يؤثر و لا ينفعهم يوم القيامة، فيما تنص الآية من سورة المرسلات على أنّه لا يسمح لهم بالاعتذار أصلا، حيث قوله تعالى: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ فكيف يا ترى نوفّق بين الإثنين؟

قبل الإجابة ينبغى الانتباه إلى ملاحظتين:

الأولى: أنّ ليوم القيامة مواقف معينة تختلف شرائطها، ففى بعضها يتوقف اللسان عن العمل و تنطق الأرجل و الأيدى و الجوارح، و تقوم بالشهادة على عمل الإنسان. و فى مواقف اخرى ينطلق اللسان بالنطق و الكلام (كما تحكى ذلك الآية ۶۵ من سورة «يس» و الآيات السابقة فى هذه السورة التى تحدث عن تحاجج أهل النّار).

بناء على هذا، فلا مانع من عدم السماح لهم بالاعتذار فى بعض المواقف، فى حين يسمح لهم فى مواقف اخرى، و إن كان الاعتذار لا يجدى شيئا و لا يغير من المصير.

الملاحظة الثانية: إنّ الإنسان يتحدث فى بعض الأحيان بكلام لا فائدة منه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۶

ففى مثل هذه الموارد يكون الشخص كمن لم يتكلّم أصلا. بناء على هذا يمكن أن تكون الآية الدالة على عدم السماح لهم بالاعتذار تقع وفق هذا المعنى، أى أنّ اعتذارهم برغم خروجه من أفواههم، إلّا أنّه لا فائدة ترجى منه.

تنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك للحديث عن أحد الموارد التى انتصر فيها الرسل نتيجة الحماية الإلهية و الدعم الربّانى لهم، فتتحدث عن النّبى الكليم عليه السّلام:

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَ أَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ

إنّ هداية اللّه لموسى تنطوى على معانى واسعة إذ تشمل مقام النبوة و الوحى، و الكتاب السماوى (التوراة) و المعاجز التى وقعت على يديه عليه السّلام أثناء تنفيذه لرسالات ربّه و تبليغه إيّاها.

إن استخدام كلمة «ميراث» بالنسبة إلى التوراة يعود إلى أنّ بنى إسرائيل توارثوه جيلا بعد جيل، و كان بإمكانهم الاستفادة منه بدون مشقة، تماما مثل الميراث الذى يصل إلى الإنسان بدون عناء و تعب، و لكنّهم فرّطوا بهذا الميراث الإلهى الكبير.

الآية التى بعدها تضيف: هُدىً وَ ذِكْرى لِأُولِي الْأَلْبابِ ۲۶۷].

الفرق بين «الهداية» و «الذكرى» أنّ الهداية تكون فى مطلع العمل و بدايته، أما التذكير فهو يشمل تنبيه الإنسان بأمور سمعها مسبقا و آمن بها لكنّه نسيها.

و بعبارة اخرى: إنّ الكتب السماوية تعتبر مشاعل هداية و نور فى بداية انطلاقة الإنسان، و ترافقه فى أشواط حياته تبث من نورها و هداها عليه.

و لكن الذى يستفيد من مشاعل الهدى هذه هم «أولو الألباب» و أصحاب العقل، و ليس الجهلة و المعاندون المتعصبون.

الآية الاخيرة- من المقطع الذى بين أيدينا- تنطوى على وصايا و تعليمات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۷

مهمّة للرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هى فى واقعها تعليمات عامة للجميع، بالرغم من أنّ المخاطب بها هو شخص الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

يقول تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

عليك أن تصبر على عناد القوم و لجاجة الأعداء.

عليك أن تصبر حيال جهل بعض الأصدقاء و المعارف، و تتحمل أحيانا أذاهم و تخاذلهم.

و عليك أيضا أن تصبر إزاء العواطف النفسية.

إنّ سر انتصارك فى جميع الأمور يقوم على أساس الصبر و الاستقامة.

ثم اعلم أنّ وعد اللّه بنصرك و أمتك لا يمكن التخلف عنه، و إيمانك- و إيمانهم- بحقانية الوعد الإلهى يجعلك مطمئنا و مستقيما فى عملك، فتهون الصعاب عليك و على المؤمنين.

لقد أمر اللّه تعالى رسوله مرّات عديدة بالصبر، و الأمر بالصبر جاء مطلقا فى بعض الموارد، كما فى الآية التى بصددها، و جاء مقيدا فى موارد اخرى و يختص بأمر معين، كما فى الآيتين (۳۹- ۴۰) من سورة «ق»: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ

و كذلك يخاطبه تعالى فى الآية (۲۸) من سورة الكهف بقوله تعالى: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً.

إنّ جميع انتصارات الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المسلمين الأوائل إنّما تمّت بفضل الصبر و الاستقامة و اليوم لا بدّ أن نسير على خطى رسول اللّه، و نصبر كما صبر الرّسول و أصحابه إذ لولاه لما حالفنا النصر مقابل أعدائنا الألداء.

الفقرة الأخرى من التعليمات الربانية تقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ

واضح أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم معصوم لم يرتكب ذنبا و لا معصية، لكنّا قد أشرنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۸

فى غير هذا المكان إلى أنّ أمثال هذه التعابير فى القرآن الكريم، و التى تشمل فى خطابها الرّسول الأكرم و سائر الأنبياء، إنّما تشمل ما نستطيع تسميته ب «الذنوب النسبية» لأنّ من الأعمال ما هو عبادة و حسنة بالنسبة للناس العاديين، بينما هى ذنب للرسل و الأنبياء لأنّ: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

فالغفلة- مثلا- لا- تليق بمقامهم، و لو لحظة واحدة. و كذلك الحال بالنسبة لترك الأولى، إذ أن منزلتهم الرفيعة و معرفتهم العالية تتوجب أن يحذروا هذه الأمور و يستغفروا منها متى ما صدرت عنهم.

و ما ذهب إليه البعض من أنّ المقصود بالذنوب هى ذنوب المجتمع، أو ذنوب الآخرين التى ارتكبوها بشأن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو أنّ الاستغفار تعبدى فهو بعيد.

الفقرة الأخيرة فى الآية الكريمة تقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ.

«العشى» فترة ما بعد الظهر إلى قبل غروب الشمس، أما «الإبكار» فهو ما بين الطلوعين.

و يمكن أن تطلق لفظتا (العشى و الإبكار) على الوقت المعيّن بالعصر و الصباح، حيث يكون الإنسان مهيأ للحمد و تسبيح خالقه تبارك و تعالى بسبب عدم شروعه بعد بعمله اليومى، أو أنّه قد انتهى منه.

و قد اعتبر البعض أنّ هذا الحمد و التسبيح إشارة إلى صلاة الصبح و العصر، أو الصلوات اليومية الخمس، فى حين أنّ ظاهر الآية ينطوى على مفهوم أوسع من ذلك الصلوات هى إحدى مصاديقها.

فى كلّ الأحوال تعتبر التعليمات الثلاث الآنفة الذكر شاملة بناء الإنسان و إعداده للرقى فى ظل اللطف و الرعاية الإلهية، و هى إلى ذلك زاده فى سيره للوصول نحو الأهداف الكبيرة.

فهناك أولا- و قبل كلّ شىء- التحمّل و الصبر على الشدائد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۸۹

و الصعوبات، ثمّ تطهير النفس من آثار الذنوب. و أخيرا تكليل كلّ ذلك بذكر اللّه، حيث تسبيحه و حمده يعنى تنزيهه من كلّ عيب و نقص، و حمده فوق كلّ حسن و كمال.

إنّ الحمد و التسبيح الذى يكون للّه تعالى يؤثر فى قلب الإنسان و يطهره من جميع العيوب، و من سيئات الغفلة و اللهو، و يجعله يتصف باليقظة و الكمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۰

الآیات [سورة غافر (۴۰): الآیات ۵۶ الی ۵۹]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی صُدُورِهِمْ إِلَّا کِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغِیهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْبَصِیرُ (۵۶) لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَکْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۵۷) وَ ما یَسْتَوِی الْأَعْمی وَ الْبَصِیرُ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لا الْمُسِیءُ قَلِیلًا ما تَتَذَکَّرُونَ (۵۸) إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِیَةٌ لا رَیْبَ فِیها وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یُؤْمِنُونَ (۵۹)

التّفسیر

ما یستوی الأعمی و البصیر!

دعت الآیات السابقة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إلی الصبر و الاستقامة أمام المعارضین و أکاذیبهم و مخططاتهم الشیطانیة، و الآیات التی نحن بصددها تذکر سبب مجادلتهم للحق.

یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یُجادِلُونَ فِی آیاتِ اللَّهِ بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ إِنْ فِی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۱

صُدُورِهِمْ إِلَّا کِبْرٌ.

«المجادلة»- کما أشرنا سابقا- تعنی العناد فی الکلام و إطالته بأحادیث غیر منطقیة، و إن کانت تشمل أحیانا فی معناها الواسع الحق و الباطل.

أما قوله تعالی: بِغَیْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ فهی للتأکید علی ما یستفاد من معنی المجادلة حیث تعنی «سلطان» الدلیل و البرهان الذی یکون سببا لهیمنة الإنسان علی خصمه.

أما «آتاهم» فهی إشارة إلی الأدلة و البراهین التی أوحی اللّه بها إلی أنبیائه علیهم السلام، و لا ریب أنّ الوحی هو أفضل الطرق و أکثرها اطمئنانا لإثبات الحقائق.

أما المقصود ب «آیات اللّه» التی کانوا یجادلون فیها، فهی معجزات و آیات القرآن و الأحادیث المختصة بالمبدأ و المعاد، حیث کانوا یعتبرونها سحرا، أو أنّها علامات الجنون، أو أساطیر الأولین! من ذلک یتبیّن أن لیس لهؤلاء من دلیل حی و منطقی فی المجادلة سوی التعالی و الغرور و التکبر عن الانصیاع إلی الحق، لذلک کانوا یرون أنّ أفکار الآخرین و عقائدهم باطلة و أن عقائدهم و أفکارهم حقّة! تشیر کلمة (إن) إلی أنّ السبب الوحید لعنادهم فی هذه الموارد هو الغرور و التکبر، و إلّا کیف یصرّ الإنسان علی کلامه و موقفه دون دلیل أو برهان.

«الصدور» تشیر هنا إلی القلوب، و المقصود بالقلب هو الفکر و الروح، حیث ورد هذا المعنی مرّات عدّة فی آیات الکتاب المبین.

أمّا کلمة (کبر) فی الآیة فقد فسّرها بعض المفسّرین بالحسد.

و بذلک اعتبر هؤلاء أن سبب مجادلتهم لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم هو حسدهم له و لمنزلته و مقامه المعنوی الظاهری.

لکن «کبر» لا تعنی فی اللغة المعنی الآنف الذکر، لکنّه یمکن أن یلازمها، لأنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۲

من يتكبّر يحسد، إذ لا يرى المتكبّر المواهب إلّا لنفسه، و يتألم إذا انصرفت لغيره حسدا منه و جهلا.

ثم تضيف الآية: ما هُمْ بِبالِغِيهِ

إنّ هدفهم أن يروا أنفسهم كبارا، يفاخرون بذلك و يفتخرون على غيرهم، لكنّهم لن يحصدوا سوى الذلة و الخسران، و لن يصلوا بطريق التكبر و الغرور و العلو و المجادلة بالباطل إلى ما يبتغونه ۲۶۸].

فى نهاية الآية تعليمات قيمة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بأن يستعيذ باللّه من شر هؤلاء المتكبرين المغرورين الذين لا منطق لهم، حيث يقول تعالى: فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

فهو- تعالى- يسمع أحاديثهم الباطلة الواهية، و ينظر إلى مؤامراتهم و أعمالهم القبيحة و خططهم الشريرة.

و الاستعاذة باللّه لا تنبغى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم وحده و حسب، و إنّما تجب على كل السائرين فى طريق الحق عند ما تتعاظم الحوادث و يستعر الصدام مع المتكبرين عدمى المنطق! لذلك نرى استعاذة يوسف عليه السّلام عند ما تواجهه العاصفة الشديدة المتمثلة بشهوة «زليخا» يقول: مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ فكيف أخون عزيز مصر الذى أكرمنى و أحسن وفادتى.

و فى آيات سابقة من نفس هذه السورة نقرأ أنّ كليم اللّه موسى عليه السّلام قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۳

إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ ۲۶۹].

إنّ قضية المعاد و عودة الروح للإنسان بعد موته، تعتبر من أكثر القضايا التى يجادل فيها الكفار، و يعاندون بها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لذلك تنتقل الآية التالية إلى التذكير بهذه القضية، و إعادة طرحها وفق منطق قرآنى آخر، إذ يقول تعالى: لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

إنّ خالق هذه المجرّات العظيمة و مدبّرها يستطيع- بصورة أولى- أن يحيى الموتى، و إلّا كيف يتسق القول بخلقه السماوات و الأرض و عجزه من إعادة الإنسان إلى الحياة بعد الموت؟

إنّ هذا المنطق يعبّر عن جهل هؤلاء الذين لا يستطيعون إدراك هذه الحقائق الكبرى! أغلب المفسّرين اعتبر هذه الآية ردّا على مجادلة المشركين بشأن قضية المعاد، بينما احتمل البعض أنّها رد على كبر المتكبرين و المغرورين الذين كانوا يتصورون أن ذواتهم و أفكارهم عظيمة غير قابلة للردّ أو النقض، فى حين آنها تافهة بالقياس إلى عظمة عالم الوجود[۲۷۰].

هذا المعنى غير مستبعد، و لكن إذا أخذنا بنظر الإعتبار الآيات التى بعدها يكون المعنى الأوّل أفضل.

لقد تضمنت الآية الكريمة سببا آخر من أسباب المجادلة متمثلا ب «الجهل» فى حين طرحت الآيات السابقة عامل «الكبر». و العاملان يرتبطان مع بعضهما، لأن أصل و أساس «الكبر» هو «الجهل» و عدم معرفة الإنسان لحدوده و قدره، و لعدم تقديره لحجم علمه و معرفته.

الآية التى بعدها، و فى إطار مقارنة واضحة تكشف عن الفرق بين حال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۴

المتكبرين الجهلة إزاء المؤمنين الواعين، حيث يقول: وَ ما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَ الْبَصِيرُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ لَا الْمُسِيءُ[۲۷۱].

إلّا أنكم بسبب جهلكم و تكبركم: قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ ۲۷۲].

إنّ المبصرين يرون صغر أنفسهم إزاء عظمة العالم المحيط بهم، و بذلك فهم يعرفون قدر أنفسهم و معرفتهم و موقعهم، إلّا أنّ الأعمى لا يدرك موقعه أو حجمه فى الزمان و المكان و فى عموم الوجود المحيط به. لذلك فهو يخطئ دائما فى تقييم أبعاد وجوده، و يصاب بالكبر و الغرور و الوهم الذى يدفعه إلى ما هو قبيح و سيّء.

و نستفيد أيضا من خلال ارتباط الجملتين ببعضهما البعض أنّ الإيمان و العمل الصالح ينوّر بصائر القلب و الفكر بنور المعرفة و التواضع و الاستقرار، بعكس الكفر و العمل الطالح الذى يجعل الإنسان أعمى فاقدا لبصيرته، مشوّها فى رؤيته للأشياء و المقاييس.

الآية الأخيرة فى المجموعة القرآنية التى بين أيدينا تتعرض إلى وقوع القيامة و قيام الساعة حيث يقول تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ

«إن» و «اللام» فى (لاتية) و جملة (لا ريب فيها) كلها للتأكيد المكرّر الذى يستهدف تأكيد المضمون و المعنى المراد، و هو قيام القيامة.

لقد عالجت الرؤية القرآنية قضية القيامة فى أكثر من مكان و مورد، بمختلف الأدلة و وسائل الإقناع، ذلك نرى بعض الآيات تذكر قيام الساعة و القيامة بدون مقدمات أو دليل، مكتفية بما ورد من أدلة و مقدمات فى أماكن اخرى من الكتاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۵

المبين.

«الساعة» كما يقول «الراغب» فى «المفردات» هى بمعنى: أجزاء من أجزاء الزمان.

إنّ الإشارة التى يطويها هذا الاستخدام لكلمة (الساعة) يشير إلى السرعة الّتى يتم فيها محاسبة الناس هناك.

لقد استخدمت الكلمة عشرات المرّات فى القرآن الكريم، لتدل بشكل عام على المعنى الآنف الذكر، لكنّها نعنى فى بعض الأحيان نفس القيامة، فيما تعنى فى أحيان اخرى الإشارة إلى انتهاء العالم و مقدمات البعث و النشور. و بسبب من الارتباط القائم بين الحدثين و القضيتين، و أنّ كلاهما يحدث بشكل مفاجئ، لذا تمّ استخدام كلمة «الساعة». (يمكن للقارىء الكريم أن يعود إلى بحث مفصل حول «الساعة» فى تفسير سورة الروم).

أما سبب القول: ب وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ فلا يعود إلى أن قيام القيامة من القضايا المجهولة و المبهمة، بل ثمّة ميل فى الإنسان نحو «الحرية» فى الاستفادة غير المشروطة أو المقيدة من ملذات الدنيا و شهواتها، بالإضافة إلى الأمل الطويل العريض الذى يلازم الإنسان فينساق مع الحياة، و يغفل عن التفكير بالقيامة، أو الاستعداد لها.

ملاحظة

اليهود المغرورون:

لقد ذكر بعض المفسّرين فى سبب نزول الآية الأولى- من مجموعة الآيات التى بين أيدينا- بحثا مفاده أن اليهود كانوا يقولون: سيخرج المسيح الدجال فنعينه على محمّد و أصحابه و نستريح منهم، و نعيد الملك إلينا (مجمع البيان- الجزء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۶

الثامن- صفحة (۸۲۲) طبعة دار المعرفة).

يمكن أن يشمل هذا السبب فيما يتضمّن من ادعاءات اليهود معنيين: الأول:

أنّهم أرادوا أن ينتصر المسيح على الدّجال، من خلال ادعائهم أنّ «المسيح المنتظر» هو منهم و تطبيق الدجّال، و العياذ باللّه، على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

أو أنّهم كانوا حقا فى انتظار الدجّال الذى كانوا يعتبرونه من أنفسهم.

ذلك أنّ المسيح و كما ذكر «الراغب» فى «المفردات» و ابن منظور فى «لسان العرب» تطلق على «عيسى» عليه السّلام بسبب سيره و

سياحته فى الأرض، أو بسبب شفائه للمرضى بأمر اللّه عند ما كان يمسح بيده عليهم. و كانت تطلق أيضا على «الدجال» لأنّ الدجال له عين واحدة، بينما كان مكان العين الأخرى ممسوحا.

و يحتمل أن يكون اليهود ينتظرون خروج الدجال ليتعاونوا معه فى دحر المسلمين الذين هزموهم مرات عديدة ممّا أثار غضبهم على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قد يكونوا فى انتظار المسيح، كما يستفاد من قاموس الكتاب المقدس حيث يظهر أنّ المسيحيين و اليهود ينتظرون خروج المسيح، لأنّهم يعتقدون بأنّ المسيح سيحارب الدجال و يقضى عليه. لذلك أرادوا تطبيق هذا المعنى على ظهور الإسلام.

و قد استنتج بعض المفسّرين من سبب نزول هذه الآية على أنّها مدنية دون غيرها من آيات السورة المكية. و لكن عدم ثبوت سبب النّزول، كما أن عدم وضوح مفاد الآية و إبهامها تستوجب ضعف هذا الاستنتاج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۰ الى ۶۳]

اشارة

وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ (۶۰) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (۶۱) ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (۶۲) كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (۶۳)

التّفسير

ادعونى أستجب لكم:

لقد تضمنت الآيات السابقة ألوان الوعيد و التهديد لغير المؤمنين من المتكبرين و المغرورين، المجموعة التى بين أيدينا من الآيات الكريمة تفيض حبّا إليها و لطفا، و تنتجس بالرحمة الشاملة للتائبين.

يقول تعالى أولا: وَ قالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ

لقد فسّر الكثير من المفسّرين «الدعاء» بمعناه المعروف، و ما يؤكّد ذلك هو جملة «استجب لكم» بالإضافة إلى ما تفيده الروايات العديدة الواردة بخصوص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۸

هذه الآية و ثواب الدعاء، و التى سنشير إلى بعض منها فيما بعد.

و لكن بعض المفسّرين تبع (ابن عباس) فى رأيه بأن الدعاء هنا بمعنى التوحيد و عبادة الخالق جلّ و علا، أى «اعبدونى و اعترفوا بوحدانيتى» إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأظهر.

و نستفيد من الآية أعلاه مجموعة ملاحظات هى:

۱- أنّ اللّه يحب الدعاء و يريده و يأمر به.

۲- لقد وعد اللّه بإجابة الدعاء، لكن هذا الوعد مشروط و ليس مطلقا. فالدعاء واجب الإجابة هو ما اجتمعت فيه الشروط اللازمة للدعاء و الداعى و موضوع الدعاء.

و فی هذا الإطار شرحنا ما یتعلق بهذا الموضوع فی تفسیر الآیة (۱۸۶) من سورة البقرة.

۳- الدعاء فی نفسه نوع من العبادة، لأنّ الآیة أطلقت فی نهایتها صفة العبادة علی الدعاء.

تتضمّن الآیة فی نهایتها تهدیدا قویا للذین یستنکفون عن الدعاء، حث یقول تعالی: إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِینَ ۲۷۳].

أهمیة الدعاء و شروط الاستجابة

ثمّة تأکید کبیر علی أهمیة الدعاء فی الروایات المنقولة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و الأئمّة المعصومین علیهم السّلام:

۱-

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «الدعاء هو العبادة»[۲۷۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۲۹۹

۲-

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه سئل: ما تقول فی رجلین دخلا المسجد جمیعا، کان أحدهما أکثر صلاة، و الآخر دعاء فأیهما أفضل؟ قال «کلّ حسن».

لکن السائل عاد و سأل الإمام علیه السّلام: قد علمت، و لکن أیهما أفضل؟ أجاب الإمام علیه السّلام:

«أکثرهما دعاء، أما تسمع قول اللّه تعالی: ادْعُونِی أَسْتَجِبْ لَکُمْ إِنَّ الَّذِینَ یَسْتَکْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِی سَیَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِینَ ثمّ أضاف بعد ذلک: «هی العبادة الکبری»[۲۷۵].

۳-

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه أجاب عن أفضل العبادات بقوله: «ما من شیء أفضل عند اللّه من أن یسأل و یطلب ممّا عنده، و ما أحد أبغض إلی اللّه عزّ و جلّ ممن یستکبر عن عبادته، و لا یسأل ما عنده»[۲۷۶].

۴-

فی حدیث آخر عن الإمام جعفر الصادق أنّه علیه السّلام قال: «إنّ عند اللّه عزّ و جلّ منزلة لا تنال إلّا بمسألة، و لو أنّ عبدا سدّ فاه و لم یسأل لم یعط شیئاه فاسأل تعط، إنّه لیس من باب یقرع إلا یوشک أن یفتح لصاحبه»[۲۷۷].

۵- لقد ورد فی بعض الرّوایات أنّ الدعاء أفضل حتی من تلاوة القرآن، کما أشار إلی ذلک الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و حفیداه من أئمة المسلمین الإمام الباقر و الصادق علیهما السّلام، حیث قالوا:

«الدعاء أفضل من قراءة القرآن»[۲۷۸].

و فی نطاق تحلیل قصیر نستطیع أن ندرک عمق مفاد هذه الأحادیث، فالدعاء یقول الإنسان من جانب إلی معرفة اللّه تبارک و تعالی، و هذه المعرفة هی أفضل رصید للإنسان فی وجوده.

و من جانب آخر یدفع الدعاء الإنسان إلی الإحساس العمیق بالفقر و الخضوع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۰

تجاه خالقه جلّ و علا و یبعده عن التعالی و الغرور اللذین یعدّان الأرضیه المناسبة للمجادلة فی آیات اللّه و الانحراف عن جادة الصواب و الوقوع فی المهالک.

من جانب ثالث یعمق الدعاء لدی الإنسان الشعور بأنّه جلّ و علا منبع النعم و مصدره و یدفعه إلی العشق و الارتباط العاطفی مع اللّه

جلّ جلاله.

و من جانب رابع يشعر الإنسان بالحاجة الى اللّه تعالى و انه رهين نعمته، و لذلك فهو موظف بطاعته و تنفيذ أوامره، و يرهف إحساسه بالعبودية للّه تعالى.

و خامس بما أنّه يعلم أنّه للإجابة شروطها، و من شروطها خلوص النية، و صفاء القلب، و التوبة من الذنوب، و قضاء حوائج المحتاجين، و السعى فى مسائل الناس من الأقرباء و الأصدقاء و غيرهم، فلذلك يهتم ببناء الذات و إصلاح النفس و تربيتها.

و سادس يركّز الدعاء فى نفس الإنسان الداعى عوامل المنعة و الإرادة و الثقة، و يجعله أبعد الناس عن اليأس و القنوط أو التسليم للعجز (و قد تحدثنا عن الدعاء و فلسفته و شرائطه ذيل الآيات ۷۷ من سورة الفرقان).

ثمّة ملاحظة مهمّة هنا، هى أن الدعاء لا يلغى بذل الوسع و الجهد من قبل الإنسان، و إنّما حسبما تفيد الروايات و الأحاديث فى هذا الشأن- على الإنسان أن يسعى و يبذل و يجهد، و يترك الباقى على اللّه تعالى. لذا لو جعل الإنسان الدعاء بديلا عن العمل و الجهد فسوف لا يجاب إلى مطلبه حتما.

لذلك نقرأ

فى حديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السّلام أنّه قال: «أربعة لا تستجاب لهم دعوة: رجل جالس فى بيته يقول: اللّهم ارزقنى، فيقال له: ألم آمرك بالطلب؟. و رجل كانت له امرأة فدعا عليها، فيقال له: ألم أجعل أمرها إليك؟

و رجل كان له مال فأفسده، فيقول: اللهم ارزقنى، فيقال له: ألم آمرك بالاقتصاد؟

ألم آمرك بالإصلاح؟ و رجل كان له مال فأدانه بغير بيّنة، فيقال له: ألم آمرك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۱

بالشهادة؟![۲۷۹].

و من الواضح أنّ الموارد التى يتحدّث عنها الحديث الشريف، إنّما منع فيها الإنسان عن إجابة دعوته لعدم بذله قصارى جهده و سعيه، فعليه أن يتحمّل تبعة تقصيره و تفريطه.

من هنا يتضح أنّ أحد عوامل عدم استجابة الدعاء يتمثل فى التباطؤ و ترك الجهد المناسب للعمل و اللجوء إلى الدعاء و قد جرت سنة اللّه تعالى على عدم إجابة مثل هذه الدعوات.

طبعا، هنا عوامل و أسباب اخرى لعدم استجابة بعض الأدعية. فمثلا عادة ما يحدث أن يخطئ الإنسان فى تشخيص مصالحه و مفاسده، إذ يصر أحيانا على موضوع معين و يطلبه من الخالق جلّ و علا فى حين ليس من مصلحته ذلك. و لكنّه يفهم ذلك فيما بعد.

و هذا الأمر يشبه إلى حد كبير الطفل أو المريض الذى يطلب بعض الأطعمة و الأشربة و يشتهيها، فلا يجاب لطلبه و لا تلبّى رغباته، لأنّها قد تؤدى إلى مضاعفة الخطر على صحته أو حتى المجازفة بحياته. ففى مثل هذه الموارد لا يستجيب اللّه تعالى لدعاء العبد، بل يدخر له الثواب يوم القيامة، مضافا إلى أن لاجابة الدعاء شروطا مذكورة فى الآيات و الرّوايات الشريفة و قد بحثنا هذا الموضوع مفصلا فى المجلد الأوّل من هذا التّفسير[۲۸۰].

موانع استجابة الدعاء

لقد ذكرت بعض الروايات ذنوبا متعدّدة إذا ارتكبها الإنسان تحول بينه و بين إجابة دعائه، مثل سوء النية، النفاق، تأخير الصلاة عن وقتها، اللسان البذىء الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۲

يخشاه الناس، الطعام الحرام، و ترك الصدقة و الإنفاق فى سبيل اللّه تعالى ۲۸۱].

و فى إطار هذه النقطة بالذات ثمّة حديث جامع عن الإمام الصادق عليه السّلام ينقله «الشيخ الطبرسى» فى «الإحتجاج» أنّه سئل: أ ليس يقول اللّه: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ و قد نرى المضطر يدعوه و لا يجاب له، و المظلوم يستنصره على عدوه فلا ينصره؟

قال: «و يحك! ما يدعوه أحد إلّا استجاب له، أما الظالم فدعاؤه مردود إلى أن يتوب، و أمّا المحقق فإذا دعا استجاب له و صرف عنه «البلايا من حيث لا ـ يعلمه، أو ادخر له ثوابا جزيلا ـ ليوم حاجته إليه، و إن لم يكن الأمر الذى سأل العبد خير له إن أعطاه، أمسك عنه»[۲۸۲].

نعود الآن إلى الآية الكريمة ... فبما أن الدعاء و طلب الحوائج من اللّه تعالى يعتبر فرعا لمعرفته، لذا تتحدث الآية التى تليها عن حقائق تؤدى إلى ارتقاء مستوى المعرفة لدى الإنسان، و تزيد شروطا جديدا لإجابة الدعاء، متمثلا بالأمل فى الإجابة، بل و انتظار تنجز الحاجة و تمامها.

يقول تعالى: اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

إنّ ظلمة الليل و هدوءه و سكونه يعتبر- من جانب- سببا قهريا لتعطيل الحركة اليومية لعمل الإنسان السوى و نشاطه. و الظلمة- من ناحية اخرى- تمحو عن الإنسان تعب النهار، و تدفعه إلى الاستقرار و الرأفة لجسده و أعصابه، فى حين يعتبر النور و النهار أساس الحياة و الحركة.

لذلك يضيف تعالى قوله تعالى: وَ النَّهارَ مُبْصِراً.

فى النهار المبصر يضاء محيط الحياة و تدب الحركة و النشاط فى روح الإنسان و كيانه.

و الطريف أنّ «مبصرا» تعنى الذى يبصر. و عند ما يوصف النهار بهذا الوصف،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۳

فانه فى الحقيقة نوع من التأكيد فى جعل الناس مبصرين. (ثمة بحث عن فلسفة النور و الظلام و الليل و النهار، ورد أثناء الحديث عن الآيات ۲۸۳].

ثم تضيف الآية: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ

إنّ النظام الدقيق كتناوب الليل و النهار و الظلمة و النور، يعتبر واحدا من مواهب اللّه تبارك و تعالى و عطاياه لعباده، و سر من أسرار الحركة فى الحياة و فى منظومة الوجود الكونى.

فبدون النور ليس ثمّة حياة أو حركة، و من دون أن يتناوب الليل و النهار- أو الظلام و النور- سيؤدى إلى تعطيل حركة الحياة، بل و جعلها مستحيلة. فشدّة النور- مثلا- ستشل الموجودات و تعطّل نمو النبات، و كذلك الظلمة الدائمية لها أضرارها. و لكن الناس- و بدواعى العادة و الألفة- لم يلتفتوا إلى هذه المواهب الإلهية و ما تستبطنه من منافع لهم.

و الملفت للنظر أن القاعدة تقتضى أن يكون هناك «ضمير» بدل «الناس» الثانية، فيكون القول: لكن أكثرهم لا يشكرون، إلّا أنّ ذكر «الناس» بدلا عن الضمير كأنّه يشير إلى أن طبع الإنسان الجاهل هو كفران النعم و ترك الشكر، كما نقرأ ذلك واضحا فى الآية (۳۴) من سورة إبراهيم، فى قوله تعالى: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ. (يلاحظ هذا المعنى فى تفسير الميزان و روح المعانى).

أمّا إذا ملك الإنسان عينا بصيرة و قلبا عارفا بحيث يرى النعم الإلهية اللامتناهية فى كلّ مكان يحل به، و ينظر إلى فيض النعم و العطايا و المواهب الربانية، فسيضطر طبيعيا إلى الخضوع و العبودية و الشكر، و يرى نفسه صغيرا مدينا إلى خالق هذه العظمة و واهب هذه العطايا. (عن معنى الشكر و أقسامه يمكن مراجعة البحث الخامس فى تفسير الآية «۷» من سورة إبراهيم).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۴

الآية التى تليها تبدأ من توحيد الرّبوبية و تنتهى بتوحيد الخالقية و الرّبوبية.

فتقول أوّلا: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ و مربيكم الذى من صفاته أنّه: خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

و لا معبود إلّا اللّه: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

فى الواقع إنّ وجود كلّ هـذه النعم دليل على الربوبيـة و التـدبير، و خالق كلّ شـىء عنوان لصـفة التوحيـد فى الربوبيـة، لأنّ الخالق هو المالك و المربى. و من المعلوم أنّ الخلق يستدعى الرعاية الدائمة لأن الخالقية لا تعنى أنّ اللّه يخلق الخلق و يتركها و شأنها، بل لا بدّ و أن يكون الفيض الالهى مستمرا فى كلّ لحظة على جميع الموجودات. و لذلك فهذه الخالقية لا تنفصل عن الرّبوبية.

و من الطبيعى أن هذا الإله هو الوحيد الذى يستحق العبادة، و أن ترجع إليه الأشياء.

لذا فإنّ جملة خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تعتبر الدليل ل ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ و إنّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ هى النتيجة لذلك.

و تتساءل الآية فى نهايتها: كيف يسوّغ الإنسان لنفسه الانحراف و التنكّب عن الجادة المستقيمة؟ فيقول تعالى: فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۲۸۴].

و لماذا تتركون عبادة اللّه الواحد الأحد إلى عبادة الأصنام؟

و الملاحـظ أن «تؤفكـون» صـيغة مجهول، بمعنى أنّهـا تحرفكم عن طريق الحق، و كـأنّ المراد هو أنّ المشـركين فاقـدون للاـرادة الى درجـة أنّهم يساقون فى هـذا المسـير دون اختيار أىّ نسـبة من الحريـة و الإرادة و الإختيار فى هذا المجال! الآية الأخيرة- من مجموعة الآيات التى نبحثها- تأتى و كأنّها تأكيد لمواضيع الآيات السابقة، فيقول تعالى: كَذلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كانُوا بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ

«يجحدون» مشتقّة من مادة «جحد» و هى فى الأصل تعنى إنكار الشىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۵

الموجود فى القلب و النفس. بمعنى أنّ الإنسـان يقر فى نفسه و قلبه بعقيـدة أو نشـىء مـا، و فى نفس الوقت ينفيه و يتظـاهر بعكسه أو يعتقد بعدمه فى نفسه و يثبته فى لسانه.

و يطلق وصف الجحود على البخلاء و الـذين لا يؤمّل منهم الخير و يتظاهرون بالفقر دائما. أما «الأرض الجحدة» فهى التى لا ينبت فيها النبات إلا قليلا[۲۸۵].

بعض علماء اللغة أوجز فى تفسير «جحد» و «جحود» بقولهم: الجحود الإنكار مع العلم ۲۸۶].

و بناء على ما تقدم فإن الجحود يتضـمّن فى داخله نوعا من معانى العناد فى مقابل الحق، و من الطبيعى أن من يتعامل مع الحقائق بهذا المنظور لاـ يمكن أن يسـتمر فى طريق الحق، فما لم يكن الإنسان باحثا عن الحقيقـة و طالبا لها و مـذعنا أمام منطقها فسوف لن يصـل إليها مطلقا.

لـذا فإنّ الوصول إلى الحق يحتاج مسـبقا إلى الاسـتعداد و البناء الـذاتى، أىّ التقوى قبل الإيمان، و هو الـذى أشار إليه تعالى فى مطلع سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۴ الى ۶۶]

اشارة

اللَّهُ الَّذِى جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَراراً وَ السَّمـاءَ بِنـاءً وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبـاتِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۶۴) هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۵) قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِى الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّى وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶۶)

التّفسير

ذلكم اللّه ربّكم:

تستمر هذه المجموعة من الآيات الكريمة بذكر المواهب الإلهية العظيمة و شمولها للعباد، كى تهب لهم المعرفة، و تربى فى نفوسهم الأمل بالدعاء و التسليم و طلب الحوائج من اللّه تعالى.

و الطريف فى الأمر هنا أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن «النعم الزمانية» من ليل و نهار، بينما تتحدث هذه المجموعة عن «النعم المكانية» أى الأرض القرار، و السقف المرفوع (السماء) حيث تقول: اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۷

قَراراً.

لقد خلق اللّه للإنسان الأرض كى تكون مقرّا هادئا و مستقرا آمنا له إنّه المكان الخالى من المعوقات الصعبة، متناسق فى تشكيلته مع تكوين الإنسان الروحى و الجسدى، حيث تتوفر فى الأرض المصادر المختلفة للحياة و الوسائل المتنوعة و المجانية التى يحتاجها لمعيشته.

ثم تضيف الآية: وَ السَّماءَ بِناءً أى كالسقف و القبة فوقكم.

و «بناء» كما يقول «ابن منظور» فى لسان العرب، تعنى البيوت التى كان عرب البادية يستفيدون منها و يستظلون تحتها كالخيم و ما يستظل الإنسان تحته.

إنّه تعبير جميل و دال حيث يصوّر السماء كالخيمة التى تغطى أطراف الأرض و لا تنقص منها شيئا. و المقصود السماء هنا الغلاف الجوى الذى يحيط بالأرض.

إنّ الخيمة الإلهية الكبيرة هذه تقلل من شدّة أشعة الشمس، و عدمها يعرض الأرض إلى الأشعة الكونية الحارقة القاتلة لجميع الكائنات الحية الموجودة على الأرض، لذلك نرى أنّ رواد الفضاء مضطرين لارتداء ملابس خاصة تحميهم من هذه الإشاعات.

إضافة إلى ما تقدم، تمنع الخيمة السماوية سقوط الأحجار التى تنجذب من السماء نحو الأرض، حيث تقوم بإحراقها بمجرّد وصولها إلى غلاف الأرض ليصل رمادها بهدوء الى الأرض.

و إلى هذا المعنى تشير الآية (۳۲) من سورة الأنبياء، حيث يقول تعالى:

وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً.

ثمّ ينتقل الحديث من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فيقول تعالى:

وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ القامة متوازنة خالية من الانحراف، وجه فى تقاطيع جميلة لطيفة و فى منتهى النظم و الاستحكام، إذ يمكن بلمحة واحدة التمييز بين الكائن البشرى و بين الموجودات و الكائنات الأخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۸

إنّ الهيكل الإنسانى الخاص يؤهل الإنسان لإنجاز مختلف الأعمال من الصناعة و الزراعة و التجارة و الإرادة، و هو بامتلاكه للأعضاء المختلفة يعيش مرتاحا مستفيدا من مواهب الحياة و عطايا الخالق.

الإنسان على خلاف أغلب الحيوانات التى تشرب الماء بفمها، فإنّه يحمل المشروبات و المأكولات بيديه، و يقوم بشرب الماء فى منتهى الدّقة و اللطافة، و هذا الأمر يجعل الإنسان أقدر على انتخاب ما يشاء من الأشربة و الأطعمة.

و يجعل ما يتناوله نظيفا غير مخلوط مع غيره. فهو مثلا يقشّر الفاكهة و يهذبها قبل تناولها، و يرمى الأجزاء الزائدة.

لقد ذهب بعض المفسّرين فى تفسير: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ إلى معنى أوسع من الصورة و الشكل الظاهرى و التكوين الداخلى،

فقال: إن المعنى يتضمن كل الاستعدادات و الأذواق التى خلقها اللّه فى الإنسان و أودعها فيه، ففضله بها على كثير ممن خلق.

و فى آخر الحديث عن سلسلة هذه العطايا و المواهب الإلهية، تتحدث الآية عن النعمة الرّابعة، و هى الرزق الطيب بقوله تعالى: وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ

«الطيبات» تشتمل على معنى وسيع جدّا، و هى تشمل الجيد من الطعام و اللباس و الزوجة و المسكن و الدواب، و هى أيضا تشمل الكلام و الحديث الطيب الزكى النافع.

الإنسان يقوم بسبب جهله و غفلته بتلويث هذه المواهب الطاهرة و الطيبات اللذيذة، إلّا أنّ اللّه أبقى على نقائها و طهرها فى عالم الوجود.

بعد بيان هذه المجموعة الرباعية من النعم الإلهية التى تتوزع بين الأرض و السماء و بين خلق الإنسان، تعود الآية للقول: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۰۹

الْعالَمِينَ ۲۸۷].

إنّ هذه المواهب تعود للّه مدبر الكون خالق السماوات و الأرض، لذلك فهو الذى يليق بمقام الرّبوبية لا غير.

الآية التى بعدها تستمر فى إثارة قضية توحيد العبودية من طريق آخر.

فتؤكد انحصار الحياة الواقعية باللّه تعالى و تقول: هُوَ الْحَيُ

إنّ حياته عين ذاته، و لا تحتاج إلى الغير. حياته (جلّ و تعالى) أبدية لا يطالها الموت، بينما جميع الكائنات الحية تتمتع بحياة مقرونة بالموت و حياتها محدودة و موقتة تسترفد هذه الحياة من الذات المقدسة.

لذلك ينبغى للإنسان الفانى المحدود المحتاج أن يرتبط فى عبادته بالحى المطلق، من هنا تنتقل الآية مباشرة إلى تقرير معنى الوحدانية فى العبودية من خلال قوله تعالى: لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

و على أساس هذه الوحدانية تتقرّر قضية اخرى يتضمنها قوله تعالى:

فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ و اتركوا جانبا كلّ شىء غيره. لأنّها جميعا فانية، و حتى فى حال حياتها فهى فى تغيّر دائم «فالذى لا يتغيّر هو اللّه تعالى فقط.

و الذى لم يمت و لن يموت هو سبحانه فحسب».

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و التعبير القرآنى درس للعباد بأن يتوجهوا الشكر و الحمد إلى الخالق جلّ و علا دون غيره، فهو جزيل العطايا كثير المواهب مطلق النعم على عباده، خاصّة نعمة الحياة و الوجود بعد العدم.

الآية الأخيرة من المجموعة القرآنية، هى فى الواقع خلاصة لكل البحوث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۰

التوحيدية الآنفة، و جاءت لكى تقضى على أدنى بارقة أمل قد يحتمل وجودها فى نفوس المشركين، إذ يقول تعالى موجها كلامه إلى النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جاءَنِى الْبَيِّناتُ مِنْ رَبِّى

و لم ينهانى ربّى عن عبادة غيره فحسب، بل: وَ أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ نهى عن عبادة الأصنام يتبعه- مباشرة- بدليل منطقى من البراهين و البينات و من العقل و النقل، فى أن يسلم ل: «ربّ العالمين» و فى هذه العبارة أيضا دليل آخر على المقصود لأن كونه ربّ العالمين دليل كاف على ضرورة التسليم فى مقابله.

و من الضرورى أن نشير إلى افتراق الأمر و النهى فى هذه الآية، فهناك أمر بالتسليم للّه جلّ و علا، و نهى عن عبادة الأصنام، و قد

يعود السبب فى التفاوت بين النهى و الأمر إلى أنّ الأصنام قد تختص بصفة «العبادة» و حسب، لذلك جاء النهى عن عبادتها. أما بالنسبة للّه تعالى فبالإضافة إلى عبادته يجب التسليم له و الانصياع و الانقياد إلى أوامره و تعليماته.

لذلك نقرأ فى الآيتين (۱۱- ۱۲) من سورة «الزمر» قوله تعالى: قُلْ إِنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ

إنّ أمثال هذه الصيغ و الأساليب المؤثرة يمكن أن نلمسها فى كلّ مكان من كتاب اللّه العزيز، فهى تجمع الليونة و الأدب حتى إزاء الأعداء و الخصوم، بحيث لو كانوا يملكون أدنى قابلية لقبول الحق فسيتأثرون بالأسلوب المذكور.

ينبغى أن نلاحظ أيضا التعبير فى قوله تعالى: أُمِرْتُ ... إِنِّى نُهِيتُ أىّ عليكم أنتم أن تحاسبوا أنفسكم من دون أن يثير فيهم حسّ اللجاجة و العناد.

الكلام الأخير فى هذه المجموعة من الآيات هو أنّها أعادت وصف الخالق ب «ربّ العالمين» فى ثلاث آيات متتالية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۱

تقول أولا: فَتَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ

ثم: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ

و أخيرا: أُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

إنّه نوع من أنواع الترتيب المنطقى الذى يصل بين أجزائها و جوانبها فالآية الأولى تشير إلى البركة و ديموميتها، و الثانية إلى اختصاص الحمد و الثناء بذاته المقدسة دون غيره، و أخيرا تخصيص العبودية و حصرها به دون غيره عزّ اسمه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۲

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۷ الى ۶۸]

اشارة

هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۶۷) هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (۶۸)

التّفسير

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۳۱۲

المراحل السبع لخلق الإنسان:

تتميما لما تحدثت به الآيات السابقة عن قضية التوحيد، تستمر الآيات التى بين أيدينا فى إثارة نفس الموضوع من خلال الحديث عن «الآيات الأنفسية» و المراحل التى تطوى خلق الإنسان و تطوره، من البدء إلى النهاية.

الآية الكريمة تتحدث عن سبع مراحل تكشف عن عظمة الخالق جلّ و علا و جزيل مواهبه و نعمه على العباد.

يقول تعالى: هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۳

مُسَمًّى وَ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

يتضح من سياق الآية الكريمة أنّ المرحلة الأولى أو بداية الإنسان فى مسيرة الخلق و الوجود تكون من التراب، حيث خلق اللّه أبانا الأوّل آدم عليه السّلام من تراب، أو أنّ جميع البشر خلقوا من التراب، ذلك أنّ المواد الغذائية التى تشكل قوام الإنسان و وجوده، بما فى ذلك النطفة، سواء كانت حيوانية أم نباتية كلّها تستمد أساسها و أصولها من التراب.

المرحلة الثانية، هى مرحلة النطفة التى تشمل جميع البشر كأصل ثان فى وجودهم عدا آدم و زوجته حوّاء.

المرحلة الثّالثة التى تتكامل فيها النطفة و تنمو بشكل مستمر و تتحول إلى قطعة دم و المسمى بمرحلة «العلقة».

بعد ذلك تتحول «العلقة» إلى «مضغة» أشبه ما تكون باللحم «الممضوغ» مرحلة ظهور الأعضاء، ثمّ مرحلة الحس و الحركة، و الآية لا تشير هنا إلى هذه المراحل الثلاث، لكن الآيات الأخرى أشارت إلى ذلك بشكل واضح.

المرحلة الرّابعة تتمثل فى ولادة الجنين. بينما تتمثل المرحلة الخامسة فى تكامل القوّة الجسمية التى قيل إنها تتم فى سن الثلاثين، حيث سيحرز الجسم الإنسانى أكبر قدر ممكن من نموه و تكامل قواه.

و قال البعض: إنّ الإنسان يصل هذه المرحلة قبل هذا السن، و من الممكن أن تختلف هذه المرحلة عند الأشخاص إلى أن يحرز الإنسان فيها مرحلة «بلوغ الأشد» حسب التعبير القرآنى.

بعد ذلك تبدأ مرحلة الرجوع القهقرى إلى الوراء، فيفقد الإنسان قواه تدريجيا، فيصل إلى الشيب الذى يعتبر المحطة السادسة من محطات الإنسان.

أخيرا، تنتهى حياة كلّ إنسان فى الأرض بالموت و الانتقال إلى العالم الآخر.

بعد كلّ هذه التغيرات و التطورات، هل ثمّة من شك فى قدرة و عظمة مبدئ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۴

عالم الوجود، و ألطاف اللّه و مواهبه على الخلق؟! الطريف أنّ الآية تستخدم فى الإشارة إلى المراحل الأربع الأولى تعبير «خلقكم» لأنّ ليس للإنسان أى دور فيها، حيث يتطور من التراب إلى النطفة ثمّ إلى العلقة فطفلا صغيرا من دون أن يكون له أى دور فى هذه التحولات. لكن فى المراحل الثلاث التى تلى الولادة، أى مرحلة الوصول إلى أقصى القوة الجسمية ثمّ مرحلة الشيب و انتهاء العمر، استخدمت الآية تعبير «لتبلغوا» و «لتكونوا» و فيها إشارة إلى كيان الإنسان الحرّ و فيها أيضا ما يشير إلى الحقيقة التى تقول: إنّ نمو الإنسان و وجوده عبر هذه المراحل الثلاث، و تقدمه باطّراد أو تأخره، و يرتبط بشكل أو بآخر بحسن تدبير الإنسان أو سوء تدبير، حيث يبلغ من الشيخوخة أو يموت مبكرا، و هذا يدل على مدى الدقّة فى استخدام التعابير القرآنية الآنفة الذكر.

و سبق أن أشرنا إلى أنّ التعبير ب «يتوفى» الذى يتضمن معنى الموت، لا يعنى الفناء التام وفق المنطق القرآنى، بل إنّ ملك الموت يمسك الروح و يقبضها بإذنه تعالى و بحسب الأجل الإلهى المحتوم، فتنقل الأرواح إلى عالم آخر ألا و هو عالم «البرزخ».

إن تكرار مفاد هذا التعبير فى القرآن الكريم، يبيّن بوضوح نظرة الإسلام تجاه الموت، هذا المفهوم الذى يخرج عن نطاق الفهم المادى الضيق الذى يقرن الموت بالفناء و العدم، بينما الموت لا يعبّر إلّا عن انتقال الروح من هذا العالم إلى عال آخر هو عالم البقاء.

و قوله تعالى: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ قد يكون إشارة إلى حصول الموت قبل مرحلة الشيخوخة، أو قد يعنى الإشارة إلى المراحل السابقة بأجمعها، بمعنى أنّ الموت قد يصيب الإنسان قبل أن يبلغ إلى مرحلة من المراحل السابقة.

و من الضرورى أن نشير هنا إلى أنّ جميع المراحل، عدا المرحلة الأخيرة (أى بلوغ نهاية العمر و حلول الوفاة) قد عطفت ب «ثم» و هى إشارة إلى السياق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۵

التسلسلى الترتيبى فى سياق وجودها فى حياة الإنسان، فمرحلة «المضغة» لا تسبق- مثلا- مرحلة «النطفة» و هكذا. و فى هذا النوع من العطف إشارة أيضا إلى وجود الفاصلة بين مرحلة و اخرى.

أما عطف المرحلة الأخيرة ب (الواو) فقد يكون السبب فيه أنّ نهاية العمر لا تكون بالضرورة بعد انتهاء مرحلة الشيخوخة، إذ كثيرا ما يموت الإنسان قبل بلوغه إلى مرحلة الشيوخة (هناك بحث عن «الأجل المسمى» ذيل الآية ۲ سورة الأنعام و الآية ۳۴ من سورة الأعراف و الآية ۶۱ من سورة النحل).

الآية الأخيرة فى هذا البحث تتحدث عن أهم مظهر من مظاهر قدرة اللّه تبارك و تعالى متمثلة بقضية الحياة و الموت، هاتان الظاهرتان اللتان لا تزالان بالرغم من تقدم العلم و تطوره فى نطاق الأمور الغامضة و المجهولة فى معرفة الإنسان و علمه.

قول تعالى: هُوَ الَّذِى يُحْيِى وَ يُمِيتُ

إنّ الحياة و الموت- بالمعنى الواسع للكلمة- بيد اللّه، سواء تعلق ذلك بالإنسان أو النبات أو أنواع الحيوان و الموجودات الأخرى التى تتجلى فيها الحياة بأشكال متنوعة.

إنّ نماذج الحياة تعتبر أكثر النماذج تنوعا فى عالم الوجود و كل الكائنات تنتهى بأجل معين إلى الموت، سواء فى ذلك الكائن ذو الخلية الواحدة أو الحيوانات الكبيرة، أو التى تعيش فى الأعماق المظلمة للمحيطات و البحار، أو الطيور التى تعانق السماء، و من الاحياء احادية الخلية السابحة فى أمواج المحيطات إلى الأشجار التى يبلغ طولها عشرات الأمتار، فإنّ لكل واحد منها حياة خاصّة و شرائط معينة، و بهذه النسبة تتفاوت عملية موتها، و بدون شك فإن اشكال الحياة هى أكثر اشكال الخلقة تنوعا و أعجبها.

إنّ الانتقال من عالم إلى آخر، من الوجود المادى الى الحياة، و من الحياة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۶

هذه الدّنيا الى ما بعد الموت يستبطن أسرارا و عجائب بليغة تحكى عظمة الخالق و مدى قدرته فى هذه الخليقة العجيبة المتنوعة و كل واحدة من هذه القضايا المعقدة و المتنوعة لا تعتبر مشكلة و عسيرة فى متناول قدرة الخالق جلّ و علا، حيث تتحقق بمجرّد إرادته.

لذلك تقول الآية فى نهايتها بيانا لهذه الحقيقة: فَإِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

إنّ كلمة «كن» و بعدها «فيكون» هى من باب عدم قدرة الألفاظ على استيعاب حقيقة الإرادة و القدرة الإلهية، و إلّا فليس ثمّة من حاجة إلى هذه الجملة، لأنّ إرادة اللّه هى نفسها حدوث الكائنات و وجودها[۲۸۸] بدون فصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۶۹ الى ۷۶]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ (۶۹) الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۷۰) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ (۷۱) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (۷۲) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (۷۳)
مِنْ دُونِ اللَّهِ قالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ (۷۴) ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (۷۵) ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (۷۶)

التّفسير

عاقبة المعاندين المغرورين:

مرة اخرى تعود آيات اللّه البينات للحديث عن الذين يجادلون فى آيات اللّه و لا يخضعون إلى منطق الحق و دلائل النبوّة و مضامين دعوات الأنبياء و الرسل.

هذه الآيات تتحدث عن مصير هؤلاء، فتقول: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۸

اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ

إنّ هذه المجادلة بالباطل المقترنة مع التعصب الأعمى جعلتهم يحيدون عن الصراط المستقيم، لأنّ الحقائق لا تظهر أو تبيّن إلّا فى الروح الباحثة عن الحقيقة و من ثمّ الإذعان لمنطقها.

إنّ طرح هذه القضية من قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بصيغة الاستفهام يؤكّد أنّ من يتمتع بذوق سليم و منطق قويم يثيره العجب من إنكار هذه الفئة لكل هذه الآيات البينات و الدلائل و المعجزات.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان أمرهم عند ما تقول: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتابِ وَ بِما أَرْسَلْنا بِهِ رُسُلَنا.

من الضرورى أن نشير أولا- إلى أنّ السورة التى بين أيدينا تحدّثت أكثر من مرّة عن الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ جاء ذلك فى الآيتين (۳۵) و (۵۶) و هذه الآية. و نستفيد من القرائن أنّ المقصود ب «آيات اللّه» هى دلائل النبوّة و علائمها على الأكثر، بالإضافة إلى ما تحويه الكتب السماوية. و طالما تتضمّن الكتب السماوية آيات التوحيد، و المسائل الخاصة بالمبدأ و المعاد، لذا فإنّ هذه القضايا مشمولة بجدال القوم و خصومتهم للحق.

و هل يستهدف التكرار تأكيد قضية هذا الموضوع، أم أنّ كلّ آية تختص بطرح و موضوع يختلف عن أختها؟

الاحتمال الثّانى أقرب الى المراد. إذ يلاحظ أنّ لكل آية موضوع خاص.

فالآية (۵۶) تتحدث عن دواعى المجادلة و أهدافها أى الكبر و الغرور فى حين تتحدث الآية (۳۵) عن عقابهم الدنيوى متمثلا بأن ختم اللّه على قلوبهم.

أمّا الآية التى نتحدث عنها الآن فهى تتحدث عن العقاب الأخروى، و أوصافهم فى النّار ذات السعير.

من الضرورى أن نشير أيضا إلى أنّ «يجادلون» فعل مضارع يدل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۱۹

الاستمرار. و هذه إشارة إلى أنّ مثل هؤلاء الأفراد الذين يكذبون بآيات اللّه لتبرير عقائدهم و أعمالهم السيئة المشينة، إنّما يقومون بالمجادلة بشكل مستمر من خلال الأقوال و الذرائع الواهية.

و تنتهى الآية بتهديد من خلال قوله تعالى: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ أى سوف يعلمون نتيجة أعمالهم و عاقبة أعمالهم السيئة و ذلك فى وقت إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَ السَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ أىّ يلقى بهم فى الماء المغلى ثمّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۲۸۹].

«يسجرون» من كلمة «سجر» على وزن «فجر» و تعنى إشعال النّار و زيادة لهيبها- كما ذهب إليه الراغب فى مفرداته- أمّا الآخرون من أرباب اللغة و التّفسير فيقولون: إنها تعنى ملء التنور بالنار[۲۹۰].

لذلك يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ هذه المجموعة من الكفّار تصبح وقودا للنار، كما نقرأ ذلك فى الآية (۲۴) من سورة البقرة: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

البعض الآخر يقول: إنّ معنى الآية هو أنّ هؤلاء ستملأ النّار كلّ وجودهم و تستوعب كامل كيانهم. (طبعا ليس ثمّة تعارض بين المعنيين).

هذا النوع من العقاب للمعاندين و المتكبرين و المجادلين يعتبر فى الواقع انعكاس لأعمالهم فى هذه الدنيا، حيث كذّبوا بآيات اللّه بسبب كبريائهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۰

و غرورهم، و قيدوا أنفسهم بسلاسل التقليد الأعمى، و فى يوم الجزاء و القيامة ستطوقهم السلاسل من الأعناق بمنتهى الذلّة، و سيسحبون أذلاء إلى نار جهنم و بئس المصير.

إضافة إلى هذا العذاب الجسمانى سيعاقبون بمجموعة من أنواع العذاب الروحى و النفسى كما تشير إليه الآية التالية، حيث يقول تعالى: ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ! أى أين شركاؤكم من دون اللّه كى ينقذوكم من هذا العذاب الأليم و أمواج النّار المتلاطمة؟ ألم تقولوا: إنّكم تعبدونهم و تطيعونهم و تتخذونهم أربابا ليشفعوا لكم، إذا أين شفاعتهم الآن؟! فيجيبون بخضوع يغشاهم و ذلك يعلوهم: قالُوا ضَلُّوا عَنَّا[۲۹۱] أىّ اختفوا و هلكوا و أبيدوا بحيث لم يبق منهم أثر.

و لا ريب، فإنّ من كانوا يدعونه من دون اللّه هم فى نار جهنم، و قد يكونون بجانبهم، إلّا أنّهم لا ينفعون و لا يؤثرون و كأنّهم قد اختلفوا! و عند ما يرى هؤلاء أنّ اعترافهم بعبادة الأصنام أصبح عارا عليهم و علامة تميزهم، فإنّهم يبدأون بالإنكار فيقولون: بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً.

لقد كانت الأصنام مجرّد أوهام، لكنّا كنّا نظن أنّها تمثل حقائق ثابتة، لكنّها أصبحت كالسراب الذى يتصوره العطشان ماء. أمّا اليوم فقد ثبت لنا أنّها لم تكن سوى أسماء من غير مسمى و ألفاظ ليس لها معنى، و أنّ عبادتها لم تنفعنا بشىء سوى الضلال. لذلك فهؤلاء اليوم بمواجهة الواقع الذى لا سبيل إلى إنكاره.

هناك احتمال آخر فى تفسير الآية، هو أنّهم سيكذبون لينقذوا أنفسهم من الفضيحة، كما نقرأ ذلك فى الآيتين (۲۳) و (۲۴) من سورة الأنعام:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۱

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و أخيرا يقول تعالى: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكافِرِينَ

إنّ كفرهم و عنادهم سيكون حجابا على قلوبهم و عقولهم، و لذلك سيتركون طريق الحق و يسلكون سبيل الباطل، فيحرمون يوم القيامة من الجنّة و ينتهى مصيرهم إلى النّار. و هكذا يضل اللّه الكافرين.

الآية التى بعدها تشير إلى علة مصائب هذه المجموعة، حيث يقول تعالى:

ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ

كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء و قتل المؤمنين و التضييق على المحرومين، و كانوا يشعرون بالعظمة عند ارتكاب الذنوب و ركوب المعاصى. و اليوم عليهم أن يتحملوا ضريبة كلّ ذلك الفرح و الغفلة و الغرور من خلال هذه النيران و السلاسل و السعير.

«تفرحون» من «فرح» و تعنى السرور و الابتهاج. و قد يكون الفرح ممدوحا و مطلوبا فى بعض الأحيان، كما تفيد الآيتان (۴) و (۵) من سورة «الروم» فى قوله تعالى: وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ

و فى بعض الأحيان يكون الفرح مذموما و باطلا، كما ورد فى قصة قارون، الآية (۷۶) من سورة «القصص» حيث نقرأ قوله تعالى: إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ

طبعا ينبغى التفريق بين الموردين من خلال القرائن، و لا ريب من أن «الفرح» فى الآية التى نبحثها من النوع الثّانى.

«تمرحون» مشتقّة من «مرح» على وزن «فرح» و هى كما يقول اللغويون و المفسرون، تأتى بمعنى شدة الفرح، و قال آخرون: إنّها تعنى الفرح بسبب بعض القضايا الباطلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۲

فى حين ذهبت جماعة ثالثة إلى اعتبارها حالة من الفرح المتزامن مع نوع من الطرب و الاستفادة من النعم الإلهية فى طريق الباطل.

و الظاهر أنّ هذه المعانى جميعا تعود إلى موضوع واحد، ذلك أنّ شدّة الفرح و الإفراط فيه يشمل جميع المواضيع و الحالات السابقة.

و فى نفس الوقت فهو يتزامن مع أنواع الذنوب و الآثام و الفساد و الشهوة[۲۹۲].

إنّ هذه الأفراح المتزامنة مع الغرور و الغفلة و الشهوة، تبعد الإنسان بسرعة عن اللّه تبارك و تعالى و تمنعه من إدراك الحقيقة، فتكون الحقائق لديه غامضة و المقاييس معكوسة.

و لمثل هؤلاء يصدر الخطاب الإلهى: ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

هذه الآية تؤكد مرّة اخرى على أنّ التكبر هو أساس المصائب، ذلك أنّ التكبر هو قاعدة الفساد، و يحجب البصائر عن رؤية الحق و يجعل الإنسان يخالف دعوة الأنبياء عليهم السّلام.

ثم تشير الآية إلى أبواب جهنّم بقوله تعالى: أَبْوابَ جَهَنَّمَ

و لكن هل الدخول من أبواب جهنّم يعنى أن لكل مجموعة باب معين تدخل منه، أو أنّ كلّ مجموعة منهم تدخل من أبواب متعدّدة؟ أى أنّ جهنّم تشبه السجون المخيفة التى تتداخل فيها الأبواب و الدهاليز و الممرات و الطبقات، فبعض الضالين المعاندين يجب أن يسلكوا كلّ هذه الأبواب و الممرات و الطبقات قبل أن يستقروا فى قعر جهنّم.

و ممّا يؤيد هذا التّفسير ما

يروى عن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه أجاب عن سؤال فى تفسير قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۳

لَها سَبْعَةُ أَبْوابٍ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ [۲۹۳] أنّه قال: إنّ جهنّم لها سبعة أبواب، أطباق بعضها فوق بعض، و وضع إحدى يديه على الأخرى، فقال هكذا»[۲۹۴].

و ثمة تفسير آخر نستطيع أن نقف على خلاصته بالشكل الآتى: إنّ أبواب جهنم- كأبواب الجنّة- إشارة إلى العوامل المختلفة التى تؤدى بالإنسان إلى دخولها، فكل نوع من الذنوب أو نوع من أعمال الخير يعتبر بابا.

و ثمّة ما يشير الى ذلك فى الروايات الإسلامية، و وفق هذا المعنى فإنّ العدد (۷) هو كناية عن الكثرة، و ما ورد فى القرآن الكريم من أنّ للجنّة ثمانية أبواب هو إشارة إلى ازدياد عوامل الرحمة على عوامل العذاب (راجع ذيل الآية ۴۴ سورة الحجر).

و هذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۴

الآيتان [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷۷ الى ۷۸]

اشارة

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (۷۷) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْمُبْطِلُونَ

(۷۸)

التّفسير

فاصبر ... حتى يأتيک وعد اللّه:

بعد سلسلة البحوث السابقة عن جدال الكافرين و غرورهم و تكذيبهم الآيات الإلهية و الدلائل النبوية، تأتى هاتان الآيتان لمواساة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تأمرانه بالصبر و الاستقامة فى مواجهة المشاكل و الصعاب.

يأتى الأمر أوّلا فى قوله تعالى: فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ

إنّ وعده بالنصر حق، و وعده بمعاقبة المستكبرين المغرورين حق، و كلاهما سيتحققان، على أعداء الحق أن لا يظنّوا بأنّهم يستطيعون الهروب من العذاب الإلهى بسبب تأخر عقابهم، لذلک تضيف الآية: فَإِمَّا نُرِيَنَّکَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۵

نَتَوَفَّيَنَّکَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ ۲۹۵].

إنّ مسئوليتک هى التبليغ البليغ و إتمام الحجة على الجميع، حتى تتنور القلوب اليقظة ببلاغک، و لا يبقى للمعاندين عذر! عليک أن تهتم بإنجاز مهمتک و لا تنتظر أن تحقق الوعيد عاجلا بإنزال العقاب على هذه الفئة الضالة.

و الكلام يتضمّن تهديدا إلى تلک الفئة لكى يعلموا أنّ العذاب لا بدّ مصيبهم، و نازل بساحتهم، فكما نال بعضهم العقاب الذى يستحقونه فى هذه الدنيا فى «بدر» و غيرها، فهناک أيضا يوم القيامة و العذاب المنتظر.

ثم تشير الآية الكريمة إلى الوضع المشابه الذى واجهه الرسل و الأنبياء قبل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كى تكون فى هذه الذكرى مواساة أكثر للرسول الكريم، حيث واجه الأنبياء السابقين مثل هذه المشاكل، إلّا أنّهم استمروا فى طريقهم و احتفظوا بمسارهم المستقيم.

يقول تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلًا مِنْ قَبْلِکَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنا عَلَيْکَ وَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْکَ

لقد واجه كلّ منهم ما تواجهه أنت اليوم، فصبروا و كان حليفهم النصر و الغلبة على الظالمين.

و من جهة ثانية كان الجميع يطلبون من الرسل الإتيان بالمعجزة، و مشركو مكّة لم يشذوا على غيرهم فى طلب المعاجز من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لذلک يخاطب اللّه تعالى رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بقوله: وَ ما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

إنّ جميع المعاجز هى من عند اللّه و بيده، و بذلک فهى لا تخضع إلى أمزجة الكفّار و المشركين، بل إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لا ينبغى له الاستسلام أمام «معجزاتهم المقترحة» بل ما يكون من المعجزة ضروريا لهداية الناس و إحقاق الحق يظهره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۶

اللّه على أيدى الأنبياء.

ثم تهدّد الآية من كان يقول: لماذا لا يشملنا العذاب الإلهى إذا كان هذا الرّسول صادقا؟ فتقول الآية: فَإِذا جاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْمُبْطِلُونَ

فى ذلک اليوم المهول تغلق أبواب التوبة، و لا تنفع الآهات و الصرخات، و يخسر أهل الباطل صفقتهم، و يشملهم العذاب الإلهى الأليم، إذا فلما ذا كلّ هذا الإصرار على مجىء ذلک اليوم؟! وفقا لهذا التّفسير ينصرف معنى الآية و المقصود بالعذاب فيها إلى

«عذاب الاستئصال».

و لكن بعض المفسّرين اعتبر هذه الآية بمثابة بيان للعذاب فى يوم القيامة.

فهناك يكون القضاء الحق بين الجميع، و يشاهد أنصار الباطل خسرانهم المريع.

إنّ فيما تضمّنته الآية (۲۷) من سورة «الجاثية» يؤكّد هذا التّفسير، إذ يقول تعالى: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

و لكن تمّ استخدام «أمر اللّه» و ما شابهها فى الآيات المتعدّدة التى تختص بعذاب الدنيا[۲۹۶].

و يحتمل أن يكون للآية معنى أوسع يشمل عذاب الدنيا و الآخرة، و فى المشهدين يتوضح خسران المبطلين.

و من الضرورى هنا الإشارة إلى الحديث الذى

رواه الشيخ الصدوق رحمة اللّه فى أماليه بإسناده إلى أبى عبد اللّه عليه السّلام «قال: كان فى المدينة رجل يضحك الناس، فقال: قد أعيانى هذا الرجل أن أضحكه- يعنى على بن الحسين عليه السّلام- قال: فمرّ عليه السّلام و خلفه موليان له، فجاء الرجل حتى انتزع رداءه من رقبته، ثمّ مضى فلم يلتفت إليه الإمام عليه السّلام فاتبعوه و أخذوا الرداء منه، فجاءوا به فطرحوه عليه فقال لهم: من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۷

هذا؟ فقالوا: هذا رجل بطال يضحك أهل المدينة، فقال: قولوا له إن للّه يوما يخسر فيه المبطلون»[۲۹۷].

ملاحظة فى عدد الأنبياء؟!

للمفسّرين كلام كثير حول عدد أنبياء اللّه و رسله.

و الرواية المشهورة فى هذا المجال تذكر أنّ عددهم مائة و عشرون ألف نبى، فى حين تقتصر روايات اخرى على ثمانية آلاف، أربعة آلاف منهم هم أنبياء بنى إسرائيل، و الباقون من غيرهم ۲۹۸].

و

قد جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قال: «خلق اللّه عزّ و جلّ مائة ألف نبى و أربعة و عشرين ألف نبىّ، أنا أكرمهم على اللّه و لا فخر، و خلق اللّه عزّ و جلّ مائة ألف وصى و أربعة و عشرين ألف وصى، و على أكرمهم على اللّه و أفضلهم»[۲۹۹].

و

فى رواية اخرى عن أنس بن مالك أنّ رسول اللّه قال: «بعثت على أثر ثمانية آلاف نبىّ، منهم أربعة آلاف من بنى إسرائيل»[۳۰۰].

هذان الحديثان لا- يتناقضان فيما بينهما، إذ يمكن أن يكون الحديث الثّانى قد أشار إلى الأنبياء العظام، كما يذكر ذلك العلّامة المجلسى فى توضيح هذا الكلام.

و فى حديث آخر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أجاب على سؤال لأبى ذر رضى اللّه عنه عن عدد الأنبياء قائلا- بأنّهم (۱۲۴) ألف نبى، و عن سؤال حول عدد الرسل منهم، أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۸

(۳۱۳) رسول فقط[۳۰۱].

و

فى حديث آخر أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد أن ذكر العدد (۱۲۴) ألف قال:

خمسة منهم أولو العزم: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ۳۰۲].

و هناك روايات اخرى فى هذا المجال تؤيد العدد المذكور أعلاه.

من هنا يتضح أنّ هذه الرواية (حول عدد الأنبياء) ليست خبرا واحدا كما يقول «برسوئى» نقلا عن بعض العلماء فى تفسير «روح البيان»، بل هناك روايات متعدّدة و مستفيضة تؤكد أنّ عدد الأنبياء الإلهيين كان (۱۲۴) ألف نبى. و أنّ مثل هذه الروايات موجودة فى المصادر الإسلامية المختلفة.

و الطريق فى الأمر أن عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم هو (۲۶) نبى فقط هم: آدم- نوح- إدريس- صالح- هود- إبراهيم- إسماعيل- إسحاق- يوسف- لوط- يعقوب- موسى- هارون- زكريا- شعيب- يحيى- عيسى- داود- سليمان- إلياس- اليسع- ذو الكفل- أيوب- يونس- عزير- و محمّد (عليهم الصّلاة و السلام).

و لكن هناك أنبياء آخرون أشار إليهم القرآن و إن لم يذكر أسماءهم صراحة مثل «أشموئيل» الذى ورد ذكره فى الآية (۲۴۸) من سورة «البقرة» فى قوله تعالى: وَ قالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ

و النّبى «أرميا» الوارد فى الآية (۲۵۹) من سورة البقرة فى قوله تعالى: أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ ...[۳۰۳].

و «يوشع» المذكور فى الآية (۶۰) من سورة «الكهف» فى قوله تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۲۹

و «الخضر» الوارد ذكره إشارة فى الآية (۶۵) من سورة الكهف فى قوله تعالى: فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا.

و ورد ذكر لأسباط بنى إسرائيل، و هم زعماء قبائل بنى إسرائيل كما فى قوله تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ[۳۰۴].

و إذا كان هناك أنبياء من بين إخوة يوسف عليه السّلام فقد أشير إليهم مرات عديدة فى سورة يوسف.

و خلاصة القول هنا أنّ القرآن أشار إلى قصص و حوادث ترتبط بأكثر من (۲۶) نبيا و هم المصرّح بأسمائهم مباشرة فى القرآن الكريم.

و يستفاد من بعض الروايات الواردة فى مصادر السنة و الشيعة أنّ اللّه بعث بعض الأنبياء من ذوى البشرة السوداء، كما يقول العلامة الطبرسى مثلا فى «مجمع البيان»

روى عن على أنّه قال: «بعث اللّه نبيّا أسود لم يقص قصته»[۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۰

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۷۹ الى ۸۱]

اشارة

اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۹) وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (۸۰) وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَىَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (۸۱)

التّفسير

منافع الأنعام المختلفة:

تعود الآيات التى بين أيدينا للحديث مرّة اخرى عن علائم قدرة الخالق (جلّ و علا) و مواهبه العظيمة لبنى البشر، و تشرح جانبا منها

كى تزيد من وعى الإنسان و معرفته باللّه تعالى، و ليندفع نحو الثناء و الشكر فيزداد معرفة بخالقه.

يقول تعالى: اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْها وَ مِنْها تَأْكُلُونَ

فبعضها يختص بالغذاء كالأغنام، و بعضها للركوب و الغذاء كالجمال التى تعتبر بحق سفن الصحارى.

«أنعام» جمع «نعم» على وزن «قلم» و تطلق فى الأصل على الجمال، لكنّها توسعت فيما بعد لتشمل الجمال و البقرة و الأغنام، و المصطلح مشتق من «النعمة»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۱

بسبب أنّ أحد أكبر النعم على الإنسان هى هذه الأنعام. و فى يومنا هذا- بالرغم من تقدم التكنولوجيا فى مجال النقل البرى و الجوى- إلّا أنّ الإنسان ما زال يستفيد من الأنعام، خصوصا فى الأماكن الصحراوية الرملية، التى يصعب فيها استخدام وسائل النقل الأخرى. و يتمّ استخدام الأنعام و الحيوانات فى بعض المضايق و المناطق الجبلية، حيث يتعذر استخدام غيرها من وسائل النقل الحديث.

لقد خلق اللّه الأنعام بأشكال مختلفة، و بروح تستسلم للإنسان و تنصاع إليه و تخضع لأوامره و تلبى له احتياجاته، فى حين أنّ بعضها أقوى من أقوى الناس، و هذا الانصياع فى حدّ ذاته دليل من أدلة الخالق العظيم الذى سخّر لعباده هذه الأنعام.

إنّ من الحيوانات الصغيرة ما يكون خطره مميتا للإنسان، فى حين أن قافلة من الجمال يكفى صبى واحد لقيادها! إضافة لما سبق تقول الآية التى بعدها: إنّ هناك منافع اخرى: وَ لَكُمْ فِيها مَنافِعُ

الإنسان يستفيد من لبنها و صوفها و جلدها و سائر أجزائها الأخرى، بل يستفيد حتى من فضلاتها فى تسميد الأرض و إخصاب الزرع.

و خلاصة القول: إنّه لا يوجد شىء غير نافع فى وجود هذه الأنعام، فكل جزء منها مفيد و نافع، حتى أنّ الإنسان بدأ يستخلص بعض الأدوية من امصال هذه الحيوانات، و الملفت أن «منافع» جاءت نكرة فى الآية لتبيّن أهمية ذلك).

ثم تضيف الآية: وَ لِتَبْلُغُوا عَلَيْها حاجَةً فِى صُدُورِكُمْ

احتمل بعض المفسّرين أن معنى الآية ينصرف إلى حمل الأثقال الذى يتمّ بواسطة الأنعام، لكن يحتمل أن يكون المقصود بقوله تعالى: حاجَةً فِى صُدُورِكُمْ الإشارة إلى بعض المقاصد و الأهداف و الرغبات الشخصية، إذ يستفاد من الإنعام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۲

فى الترفيه و الهجرة و السياحة و التسابق و التفاخر، و ما إلى ذلك من رغبات تنطوى عليها نفس الإنسان.

و لأنّ الأنعام تعتبر وسيلة سفر على اليابسة، لذلك تقول الآية فى نهايتها:

وَ عَلَيْها وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ هناك بحث عن منافع الحيوانات يمكن مراجعته أثناء الحديث عن الآية الخامسة من سورة النحل).

لقد جاء التعبير القرآنى «عليها» (أى الأنعام) بالرغم من الإشارة المباشرة إليها سابقا، ليكون مقدمة لذكر (الفلك). و المعنى أنّ اللّه جلّ و علا سخّر لكم الوسائل فى البر و البحر للانتقال و لحمل الأثقال كى تستطيعوا أن تبلغوا مقاصدكم بسهولة.

لقد جعلت للسفينة صفة خاصة بحيث تستطيع أن تبقى على سطح الماء بالرغم من الأثقال و الأوزان الكبيرة التى عليها، و جعل اللّه تعالى الحركة فى الريح بحيث تستطيع الفلك الاستفادة منها لتحديد وجهة سفر الإنسان و مقصده.

الآية الأخيرة هى قوله تعالى: وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ هل تستطيعون إنكار آياته فى الآفاق و فى أنفسكم؟ أم هل تنكرون آياته فى خلقكم من تراب و تحويلكم عبر مراحل الخلق إلى ما أنتم عليه، أم أنّكم تنكرون آياته فى الحياة و الموت و المبدأ و المعاد؟ و هل يمكنكم إنكار آياته فى خلق السماء و الأرض أو الليل و النهار، أو خلقه لأمور تساعد فى استمرار حياتكم كالأنعام و غيرها؟

أينما تنظر و تمد البصر فثمة آيات اللّه و آثار العظمة فى خلقه سبحانه و تعالى:

«عميت عين لا تراك».

يقول المفسّر الكبير العلّامة «الطبرسى» فى تفسيره «مجمع البيان» فى جوابه على هذا السؤال: ما هو سبب مثل هذا الإنكار مع وضوح الدلائل و العلامات؟

يقول: إنّ ذلك يمكن أن يعود إلى ثلاثة أسباب هى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۳

۱- عبادة الأهواء و الانقياد إليها، لأنّ ذلك يؤدى إلى حجب الإنسان عن رؤية الحق، (و ينساق وراء غرائزه، لأنّ الحق يحدّد هذه الغرائز من خلال فرض التكاليف و الوظائف الربانية. لذلك يعمد هؤلاء إلى إنكار الحق برغم دلائله الواضحة).

۲- التقليد الأعمى للآخرين- خصوصا السابقين- و هذا أمر يحجب الإنسان عن الحق.

۳- الأحكام و الإعتقادات الباطلة المترسخة فى وعى الإنسان، فيذعن لها و تحجبه عن دراسة الحق و الانفتاح على آيات اللّه تبارك و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۴

الآيات [سورة غافر (۴۰): الآيات ۸۲ الى ۸۵]

اشارة

أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۸۲) فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۸۳) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (۸۴) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ (۸۵)

التّفسير

لا ينفع الإيمان عند نزول العذاب:

هذه الآيات هى آخر مجموعة من سورة المؤمن، و نستطيع أن نعتبرها نوعا من الاستنتاج للبحوث السابقة، فبعد بيان كلّ الآيات الإلهية فى الآفاق و الأنفس، و كل تلك المواعظ اللطيفة التى تحدثت عن المعاد، و محكمة البعث الكبيرة، هددت هذه الآيات الكافرين المستكبرين و المنكرين المعاندين تهديدا شديدا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۵

و واجهتهم بالمنطق و الاستدلال، و أوضحت لهم عاقبة أعمالهم.

فأوّلا تقول: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

فإذا كان عندهم شك فى صحة التأريخ المدون على الأوراق، فهل عندهم شك فيما يلمسونه من الآثار الموجودة على سطح الأرض، من القصور الخربة للملوك، و العظام النخرة تحت التراب، أو المدن التى أصابها البلاء و العذاب و بقيت آثارها شاهدة على ما جرى عليها؟! فأولئك: كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ حيث يمكن معرفة عددهم و وقّتهم من آثارهم المتمثلة فى قبورهم و قصورهم و مدنهم.

عبارة: آثاراً فِي الْأَرْضِ سبق تفسيرها فى الآية (۲۱) من نفس السورة- فلعلها إشارة إلى تقدمهم الزراعى، كما جاء فى الآية (۹) من

سورة الروم، أو إشارة إلى النباء العظيم للأقوام السابقين فى قلب الجبال و السهول ۳۰۶].

و مع هذه القوّة و العظمة التى كانوا يتمتعون بها، فإنّهم لم يستطيعوا مواجهة العذاب الإلهى: فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ۳۰۷].

بل إنّ كلّ قواهم و قدراتهم أبيدت خلال لحظات قصيرة، حيث خربت القصور و هلكت الجيوش التى كان يلوذ بها الظالمون ... و سقطوا كما تسقط أوراق الخريف، أو أغرقوا فى خضم الأمواج العاتية.

فإذا كان هذا هو مصير أولئك السابقين مع كلّ ما لديهم، فبأى مصير- يا ترى- يفكّر مشركو مكّة و هم أقل من أولئك؟! الآية التى بعدها تنتقل للحديث عن تعاملهم مع الأنبياء و معاجز الرسل البينة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۶

حيث يقول تعالى: فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ۳۰۸] أىّ إنّهم فرحوا بما عندهم من المعلومات و الأخبار، و صرفوا وجوههم عن الأنبياء و أدلتهم. و كان هذا الأمر سببا لأن ينزل بهم العذاب الالهى: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

و ذكر المفسّرون احتمالات عديدة عن حقيقة العلم الذى كان عندهم، و الذى اغتروا به و شعروا معه بعدم الحاجة إلى تعليمات الأنبياء، و الاحتمالات هذه هى:

أوّلا: لقد كانوا يظنون أنّ الشبهات الواهية و السفسطة الفارغة هى العلم، و يعتمدون عليها. لقد ذكر القرآن الكريم أمثلة متعدّدة لهذا الاحتمال، كما فى قوله تعالى: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ۳۰۹] و الآية حكاية على لسانهم.

و ممّا حكاه القرآن عنهم أيضا، قوله تعالى: أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ[۳۱۰].

و قولهم فى الآية (۲۴) من سورة الجاثية: ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ.

و هناك أمثلة اخرى لإعاءاتهم.

ثانيا: المقصود بها العلوم المرتبطة بالدنيا و تدبير أمور الحياة، كما كان يدّعى «قارون» مثلا، كما يحكى عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ۳۱۱].

ثالثا: المقصود بها العلوم ذات الأدلة العقلية و الفلسفية، حث كان يعتقد البعض ممن يمتلك هذه العلوم أنّ لا حاجة له للأنبياء، و بالتالى فهو لا ينصاع لنبواتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۷

و دلائل إعجازهم.

التفاسير الآنفة الذكر لا تتعارض فيما بينها، لأنّها جميعا تقصد اعتماد البشر على ما لديهم، و استعلاءهم بهذه «المعرفة» على دعوات الرسل و معاجز الأنبياء.

بل و اندفع هؤلاء حتى إلى السخرية بالوحى و المعارف السماوية.

لكن القرآن الكريم يذكر مآل غرور هؤلاء و علوّهم و تكبرهم إزاء آيات اللّه، حينما يقول: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ

ثم تأتى النتيجة سريعا فى قوله تعالى: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا.

لماذا؟ لأنّه عند نزول «الاستئصال» تغلق أبواب التوبة، و عادة ما يكون مثل هذا الإيمان إيمانا اضطراريا ليس له ثمرة الإيمان الاختيارى، إذ أنّه تحقق فى ظل شروط غير عادية، لذا من المحتمل جدّا أن يعود هؤلاء إلى سابق وضعهم عند ما ترتفع الشروط الاستثنائية التى حلّت بهم.

لذلك لم يقبل من «فرعون» إيمانه و هو فى الأنفاس الأخيرة من حياته و عند غرقه فى النيل.

و هذا الحكم لا يختص بقوم دون غيرهم، بل هو: سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ

ففى ذلك اليوم عند ما ينزل العذاب بساحتهم سيفهم هؤلاء بأنّ رصيدهم فى الحياة الدنيا لم يكن سوى الغرور و الظنون و الأوهام، فلم يبق لهم من دنياهم سوى التبعات و العذاب الإلهى الأليم، و هل ثمّة خسران أكبر من هذا؟! و هكذا تنتهى السورة المباركة (المؤمن) التى بدأت بوصف حال الكافرين المغرورين، ببيان نهاية هؤلاء و ما آل إليه مصيرهم من العذاب و الخسران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۸

المغرورون بالعلم!

فى الآيات المختلفة لهذه السورة المباركة- كما أوضحنا ذلك- يتبيّن أنّ أساس انحراف قسم كبير من الناس هو التكبر و الغرور.

قد يكون امتلاك المال من أسباب العلو و التكبر، أو كثرة الأفراد و امتلاك القدرات العسكرية. أو كمية محدودة من المعلومات فى فرع من فروع المعرفة، يظن الإنسان أنّها كبيرة و كثيرة، فتدفعه إلى العلو و الاستغناء السخرية.

إنّ حالة عصرنا الراهن تعكس نموذج «الغرور العلمى» بشكل جلّى واضح، ففى ظل التقدم السريع الذى أحرزته المجتمعات المادية فى المجالات العلمية و التقنية، نراها عمدت إلى إلغاء دور الدين من الحياة، و قد سيطر الغرور العلمى على بعض علماء الطبيعة الى درجة أنّهم تصوروا أن لا يوجد فى هذا العالم شىء خارج اطار علومهم و معارفهم، و بما أنّهم لم يروا اللّه فى مختبراتهم أنكروا وجوده و جحدوا نعمته.

لقد ذهب بهم الغرور إلى أكثر من ذلك عند ما أصبحوا يجهرون أن الدين و وحى الأنبياء إنّما كانا بسبب الجهل أو الخوف، أما و قد حلّ عصر التقدم العلمى فإنّ الحاجة إلى مثل هذه المسائل انعدمت تماما، بل و عمدوا إلى فرض تفسير معين لتطوّر الحياة يماشى ادعاءهم هذا، فقالوا: إنّ الحياة الفكرية للبشر مرّت عبر المراحل الآتية:

۱- مرحلة الأساطير.

۲- مرحلة الدين.

۳- مرحلة الفلسفة.

۴- مرحلة العلم، و المقصود بها العلوم الطبيعية.

بالطبع، نحن لا ننكر أنّ السلطة الديكتاتورية للكنيسة على عقول الناس فى أوروبا، و شيوع الخرافات و أنواع التفكير الأسطورى لقرون مديدة فى تأريخ تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۳۹

القارة، بالإضافة إلى القمع الذى كانت تمارسه طبقة رجال الدين الكنسى (الإكليروس) هناك؛ كلّ هذه العوامل ساهمت- إلى درجة كبيرة- فى نمو المذاهب التى تقوم على أساس رفض الدين و الإيمان و الغيب، و الاعتماد بدلا عنها على أسس المادة و التجربة و الإلحاد.

و لحسن الحظ لم تستمر هذه المرحلة طويلا، إذا اجتمعت مجموعة عوامل و ساعدت للقضاء على مثل هذه التصورات المنحرفة، و كأنّ العذاب قد مسّهم عند ما ركبهم الغرور و العلو.

فمن ناحية أظهرت الحرب العالمية الأولى و الثانية أنّ التقدم العلمى و الصناعى قد جعل البشرية على حافة السقوط و الدمار.

و من ناحية ثانية، فإنّ ظهور المفاسد الأخلاقية و الاجتماعية و القتل و الإبادة و أنواع الأمراض النفسية، و سلسلة الاعتداءات المالية و الجنسية، كلّ ذلك كشف عن عجز العلوم و قصورها لوحدها عن بناء الحياة الإنسانية بشكل سليم صحيح.

من جانب ثالث، عملت المساحات المجهولـة فى وعى الإنسان العلمى و قصوره عن الإحاطـة بكافة أسـباب الظواهر الطبيعية و الحياتية إلى اعترافه بالعجز عن إدراك مطلق لأسباب المعرفة من خلال العلم وحده، فعاد الكثير من العلماء إلى ساحة الإيمان و جادّة الدين، و ضعفت نوازع الدعاوى الإلحادية.

و فى المعترك الصعب هذا تألق الإسلام بتعليماته الشاملة و الجامعة، و بدأت موجات العودة نحو الإسلام الأصيل.

و نأمل أن تكون هـذه اليقظـة عميقـة شاملـة قبل أن يشـمل البأس الإلهى مرّة اخرى أجزاء من هـذا العالم، و نأمل أن تزول آثار ذلك الغرور باسم العلم حتى لا يكون مدعاة للخسران الكبير.

اللّهم احفظنا من الغرور و من التكبر و العناد و حبّ الذات الذى يقودنا إلى الهلاك و سوء العاقبة و الافتضاح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۰

إلهى، اهد المجتمعات البشرية فى عصرنا الحاضر إلى ظل تعليمات أنبيائك، قبل أن يشملهم بأسك الشديد أناس هذا العصر.

اللّهم، اجعلنا ممن يأخذ العبرة من مصير الأقوام السالفة لكى لا نمسى عبرة للآخرين ...

أمين رب العالمين نهاية سورة المؤمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۱

سورة فصّلت

اشارة

مكيّة و عدد آياتها أربع و خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۳

«سورة فصّلت»

نظرة فى المحتوى العام للسورة:

سورة «فصـلت» من السور المكيـة، و هى بـذلك لا تخرج فى مضامينها الأساسـية عن مثيلاتها، بل تعكس فى محتواها كامل خصائص السور المكّيـة، من التأكيـد على المعارف الإسـلامية التى تتصل بالعقيـدة و بالحساب و الجزاء، و الوعيـد و الإنـذار، و بالبشـرى للذين آمنوا.

لكن كون السورة مكّية لا يعنى عدم اختصاصها بمواضيع معينة قد لا نجدها فيما سواها من السور القرآنية الأخرى.

بشكل عام يمكن الحديث عن محتويات السورة من خلال الخطوط العريضة الآتية:

أوّلا- التركيز على موضوع القرآن و مـا يتصـل به من بحوث، كالإشـارة الصـريحة إلى حاكميـة القرآن فى جميع الأدوار و العصور، و صيـانته من أىّ تحريف، و قوّة منطقه و تماسـكه بحيث رأينا أعـداء اللّه يخشون حتى من الاسـتماع إلى آياته، بل و يمنعون الناس من مجرّد الإنصات إليه.

الآيتان (۴۱) و (۴۲) من السورة تتحدثان عن هذه النقطة بوضوح كامل، إذ يقول تعالى: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ

ثانيا: إثارة قضية خلق السماء و الأرض، خاصة ما يتعلق ببداية العالم الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۴

خلق من مادّة (الدخان) ثمّ مراحل نشوء الكرة الأرضية و الجبال و النباتات الحيوانات.

ثالثا: ثمّة فى السورة إشارات إلى عاقبة الأقوام المغرورين الأشقياء من الأمم السابقة، مثل قوم عاد و ثمود، و هناك إشارة قصيرة إلى قصة موسى عليه السّلام.

رابعا: تتضمّن السورة تهديد المشركين و إنذار الكافرين، مع ذكر آيات القيامة و ما يتعلق بشهادة أعضاء جسم الإنسان عليه، و توبيخ اللّه تبارك و تعالى لأمثال هؤلاء.

خامسا: تتناول السورة قسما من أدلة البعث و القيامة و خصوصياتهما.

سادسا: المواعظ و النصائح المختلفة التى تبعث فى الروح الحياة من خلال الدعوة إلى الاستقامة فى طريق الحق، و توجيه المؤمن نحو أسلوب التعامل المنطقى مع الأعداء و كيفية هدايتهم نحو اللّه.

سابعا: تنتهى السورة ببحث لطيف قصير عن آيات الآفاق و الأنفس، و تعود كرة اخرى إلى قضية المعاد.

فضيلة تلاوة السورة:

ورد فى الحديث الشريف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ «حم السجدة» أعطى بكل حرف منها عشر حسنات»[۳۱۲].

و

فى حديث آخر حول فضيلة قراءة هذه السورة، قال الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ «حم السجدة» كانت له نورا يوم القيامة مد بصره و سرورا، و عاش فى هذه الدنيا مغبوطا محمودا»[۳۱۳].

و

فى حدث عن «سنن البيهقى» أنّ «خليل بن مرّة» كان يقول: إنّ النّبى لم ينم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۵

ليلة من الليالى قبل أن يقرأ سورتى «تبارك» و «حم السجدة».[۳۱۴]

و طبيعى أنّ هذه السورة المباركة بكل ما تتضمّن فى مضامينها العالية من أنوار و معارف و مواعظ إنّما تكون مؤثرة فيما لو تحولت تلاوتها إلى نور ينفذ إلى أعماق النفس، فتتحول فى حياة الإنسان المسلم إلى دليل من نور يقوده فى يوم القيامة نحو الصراط و الخلاص، لأنّ التلاوة مقدمة للتفكير، و التفكير مقدمة للعمل. إنّ تسمية السورة ب «فصلت» مشتق من الآية الثّالثة فيها. و إطلاق «حم السجدة» عليها لأنّها تبدأ ب «حم» و الآية (۳۷) فيها هى آية السجدة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۶

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ (۲) كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (۳) بَشِيراً وَ نَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (۴)

وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ (۵)

التّفسير

عظمة القرآن:

تذكر الرّوايات أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان لا يكف عن عيب آلهة المشركين، و يقرأ عليهم القرآن فيقولون: هذا شعر محمّد. و يقول بعضهم: بل هو كهانة. و يقول بعضهم: بل هو خطب.

و كان الوليد بن المغيرة شيخا كبيرا، و كان من حكّام، العرب يتحاكمون إليه فى الأمور، و ينشدونه لأشعاره فما اختاره من الشعر كان مختارا، و كان له بنون لا يبرحون من مكّة، و كان له عبيد عشرة عند كلّ عبد ألف دينار يتجر بها، و ملك القنطار فى ذلك الزمان (القنطار: جلد ثور مملوء ذهبا) و كان من المستهزئين برسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۷

و فى يوم سأل أبو جهل الوليد بن المغيرة قائلا له:

يا أبا عبد شمس، ما هذا الذى يقول محمّد؟ أسحر أم كهان أم خطب؟

فقال: دعونى أسمع كلامه، فدنا من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هو جالس فى الحجر، فقال: يا محمّد أنشدنى من شعرك.

قال صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ما هو بشعر، و لكنّه كلام اللّه الذى به بعث أنبياءه و رسله.

فقال: اتل علىّ منه.

فقرأ عليه رسول اللّه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فلمّا سمع (الوليد) الرحمن استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمّى الرحمن، قال: لا، و لكنى أدعو إلى اللّه و هو الرحمن الرحيم.

ثم افتتح سورة «حم السجدة»، فلمّا بلغ إلى قوله تعالى: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ فلمّا سمعه اقشعر جلده، و قامت كلّ شعرة فى رأسه و لحيته، ثمّ قام و مضى إلى بيته و لم يرجع إلى قريش.

فقالت قريش: يا أبا الحكم، صبأ أبو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع إلينا؟ و قد قيل قوله و مضى إلى منزله، فاغتمت قريش من ذلك غما شديدا.

و غدا عليه أبو جهل فقال: يا عم، نكست برؤوسنا و فضحتنا.

قال: و ما ذلك يا ابن أخ؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت، و إنى على دين قومى و آبائى، و لكنى سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود.

قال أبو جهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هى؟

قال: إن الخطب كلام متصل، و هذا كلام منثور، و لا يشبه بعضه بعضا، له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۸

طلاوة.

قال: فكهانة هى؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعنى أفكّر فيه.

فلمّا كان من الغدو قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول؟

قال: قولوا هو سحر، فإنّه آخذ بقلوب الناس، فأنزل اللّه تعالى فيه: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً وَ بَنِينَ شُهُوداً إلى قوله: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ[۳۱۵][۳۱۶].

إنّ هـذه الرّوايهٔ الطويلهٔ تكشف بوضوح مدى تأثير آيات هذه السورهٔ، بحيث أنّ أكثر المتعصبين من مشـركى مكّهٔ أبدى تأثره بآياتها، و ذلك يظهر جانبا من جوانب العظمهٔ فى القرآن الكريم.

نعود الآن إلى المجموعهٔ الأولى من آيات هذه السورهٔ المباركهٔ، التى تطالعنا بالحروف المقطعهٔ فى أوّلها حم

لقـد تحـدثنا كثيرا عن تفسـير هـذه الحروف، و لاـ نرى حاجـهٔ للإعـادهٔ سوى أنّ البعض اعتبر حم اسـما للسورهٔ. أو أنّ (ح) إشارهٔ إلى «حميد» و (م) إشارهٔ إلى «مجيد» و حميد و مجيد هما من أسماء اللّه العظمى.

ثم تتحدث عن عظمهٔ القرآن فتقول: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إنّ «الرحمـهٔ العامـهٔ» و «الرحمـهٔ الخاصهٔ» للّه تعالى هما باعث نزول هذه الآيات الكريمهٔ التى هى رحمهٔ للعدو و الصديق. و لها بركات خاصهٔ للأولياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۴۹

فى الواقع إنّ الرحمـهٔ هى الصـفهٔ البارزهٔ لهـذا الكتاب السـماوى العظيم، التى تتجسّد من خلال آياته العطرهٔ التى تفوح بشذاها و نورها فتضىء جوانب الحياهٔ، و تسلك بالإنسان مسالك النجاهٔ و الرضوان.

بعـد التوضـيح الاجمـالى الـذى أبـدته الآيـهٔ الكريمـهٔ حول القرآن، تعود الآيـات التاليـهٔ إلى بيان تفصـيلى حول أوصاف هـذا الكتاب السماوى العظيم، و ذكرت له خمسهٔ صفات ترسيم الوجه الأصلى للقرآن:

فتقـول أوّلاـ: إنّه كتـاب ذكرت مطـاليبه و مواضـيعه بالتفصـيل كـلّ آيـهٔ فى مكانهـا الخـاص، بحيث يلـبّى احتياجـات الإنسـان فى كلّ المجالات و الأدوار و العصور، فهو: كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ ۳۱۷].

و هو كتاب فصيح و ناطق قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و هذا الكتاب بشير للصالحين نذير للمجرمين: بَشِيراً وَ نَذِيراً إلّا أنّ أكثرهم: فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ۳۱۸].

بناء على ذلك فإنّ أول خصائص هذا الكتاب هو أنّه يتضـمّن فى تشريعاته و تعاليمه كلّ ما يحتاجه الإنسان و فى جميع المستويات، و يلبى ميوله و رغباته الروحيهٔ.

الصفهٔ الثانيهٔ أنّه متكامل، لأنّ «قرآن» مشتق من القراءهٔ، و هى فى الأصل بمعنى جمع أطراف و أجزاء الكلام.

الصـفهٔ الثّالثهٔ تتمثل بفصاحهٔ القرآن و بلاغته، حيث يذكر الحقائق بدقّهٔ بليغهٔ دون أى نواقص. و فى نفس الوقت يعكسها بشكل جميل و جذّاب.

الصـفتان الرابعهٔ و الخامسهٔ تكشـفان عن عمق التأثير التربوى للقرآن الكريم، عن طريق أسـلوب الإنذار و الوعيد و التهديد و الترغيب، فآيهٔ تقوم بتشويق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۰

الصـالحين و المحسـنين بحيث أنّ النفس الإنسانيـهٔ تكاد تطير و تتماوج فى أشواق الملكوت و الرحمـهٔ. و أحيانا تقوم آيـهٔ بالتهديـد و

الإنذار بشكل تقشعر منه الأبدان لهول الصورة و عنف المشهد.

إنّ هذين الأصلين التربويين (الترغيب و التهديد) متلازمان فى الآيات القرآنية و مترابطان فى أسلوبه.

و مع ذلك فإنّ المتعصبين المعاندين لا يتفاعلون مع حقائق الكتاب المنزل، و كأنّهم لا يسمعونها أبدا بالرغم من السلامة الظاهرية لأجهزتهم السمعية، إنّهم فى الواقع يفتقدون لروح السماع و إدراك الحقائق، و وعى محتويات النذير و الوعيد القرآنى.

و هؤلاء- كمحاولة منهم لثنى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن دعوته، و ايغالا منهم فى الغى و فى زرع العقبات- يتحدثون عند رسول اللّه بعناد و علو و غرور حيث يحكى القرآن عنهم: وَ قالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ

ما دام الأمر كذلك فاتركنا و شأننا، فاعمل ما شئت فإننا عاكفون على عملنا:

فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ

حال هؤلاء كحال المريض الأبله الذى يهرب من الطبيب الحاذق، و يحاول أن يبعد نفسه عنه بشتى الوسائل و الأساليب.

إنّهم يقولون: إنّ عقولنا و أفكارنا موضوعة فى علب مغلقة بحيث لا يصلها شىء.

«أكنّة» جمع «كنان» و تعنى الستار. أى أن الأمر لا يقتصر هنا على ستار واحد، بل هى ستائر من العناد و التقليد الأعمى، و أمثال ذلك ممّا يحجب القلوب و يطبع عليها.

و قالوا أيضا: مضافا إلى أنّ عقولنا لا تدرك ما تقول، فإنّ آذاننا لا تسمع لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۱

تقول أيضا، و هى منهم إشارة إلى عطل المركز الأصلى للعمل و الوسائل المساعدة الأخرى.

و بعد ذلك، فإن بيننا و بينك حجاب سميك، بحيث حتى لو كانت آذاننا سالمة فإننا لا نسمع كلامك، فلما ذا- إذا- تتعب نفسك، لماذا تصرخ، تحزن، تقوم بالدعوة ليلا و نهارا؟ اتركنا و شأننا فأنت على دينك و نحن على ديننا.

هكذا ... بمنتهى الوقاحة و الجهل، يهرب الإنسان بهذا الشكل الهازل عن جادة الحق.

و الطريف أنّهم لم يقولوا: «و بيننا و بينك حجاب» بل أضافوا للجملة كلمة «من» فقالوا: وَ مِنْ بَيْنِنا وَ بَيْنِكَ حِجابٌ و ذلك لبيان زيادة التأكيد، لأنّ بزيادة هذه الكلمة يصبح مفهوم الجملة هكذا: إنّ جميع الفواصل بيننا و بينك مملوءة بالحجب، و طبيعى أن يكون حجاب مثل هذا سميكا عازلا للغاية ليستوعب كلّ الفواصل بين الطرفين، و بذلك سوف لا ينفع الكلام مع وجود هذا الحجاب.

و قد يكون الهدف من قول المشركين: فَاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ محاولتهم زرع اليأس عند النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. أو قد يكون المراد نوعا من التهديد له، أى اعمل ما تستطيعه و نحن سوف نبذل ما نستطيع ضدّك و ضدّ دينك، و التعبير يمثل منتهى العناد و التحدى الأحمق للحق و لرسالاته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۲

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (۶) الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۸)

التّفسير

من هم المشركون؟

الآيات التى بين أيدينا تستمر فى الحديث عن المشركين و الكافرين، و هى فى الواقع إجابة لما صدر عنهم فى الآيات السابقة، و إزالة لأى و همّ قد يلصق بدعوة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

يقول تعالى لرسوله الكريم: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ.

فلا أدّعى أنّى ملك، و لست إنسانا أفضل منكم، و لست بربّكم، و لا ابن اللّه بل أنا إنسان مثلكم، و أختلف عنكم بتعليمات التوحيد و النبوّة و الوحى، لا أريد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۳

أفرض عليكم دينى حتى تقفوا أمامى و تقاومونى أو تهددوننى، لقد أوضحت لكم الطريق، و إليكم يعود التصميم و القرار النهائى.

ثمّ تستمر الآية: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ ۳۱۹].

ثمّ تضيف الآية محذّرة: وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ

الآية التى تليها تقوم بتعريف المشركين، و تسلّط الضوء على جملة من صفاتهم و تختص هذه الآية بذكرها، حيث يقول تعالى: الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

إنّ هؤلاء يعرفون بأمرين: ترك الزكاة، و إنكار المعاد.

لقد أثارت هذه الآية كلاما واسعا فى أوساط المفسّرين، و ذكروا مجموعة احتمالات تفى تفسيرها، و السبب فى كلّ ذلك هو أنّ الزكاة من فروع الدين، فكيف يكون تركها دليلا على الكفر و الشرك؟

البعض أخذ بظاهر الآية و قال: إنّ ترك الزكاة يعتبر من علائم الكفر، بالرغم من عدم تلازمه مع إنكار وجوبه.

البعض الآخر اعتبر الترك مع تلازم الإنكار دليلا على الكفر، لأنّ الزكاة من ضروريات الإسلام و منكرها يعتبر كافرا.

و قال آخرون: الزكاة هنا بمعنى التطهير و النظافة، و بذلك يكون المقصود بترك الزكاة، ترك تطهير القلب من لوث الشرك، كما جاء فى الآية (۸۱) من سورة الكهف فى قوله تعالى: خَيْراً مِنْهُ زَكاةً.

إلّا أنّ كلمة (لا يؤتون) لا تناسب المعنى أعلاه، لذلك يبقى الإشكال على حاله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۴

لذلك لا يبقى من مجال سوى أن يكون المقصود منها هو أداء الزكاة.

المشكلة الأخرى التى تواجهنا هنا، هى أن الزكاة شرّعت فى العام الثّانى من الهجرة المباركة، و الآيات التى بين أيدينا مكية، بل يذهب بعض كبار المفسّرين إلى أنّ سورة «فصلت» هى من أوائل السور النازلة فى مكّة، لذلك كلّه- و بغية تلافى هذه المشكلة- فسّر المفسّرون الزكاة هنا بأنها نوع من الإنفاق فى سبيل اللّه، أو أنّهم تأولوا المعنى بقولهم: إنّ أصل وجوب الزكاة نزل فى مكّة، إلّا أنّ حدودها و مقدارها و النصاب الشرعى لها نزل تحديده فى العام الثّانى من الهجرة المباركة.

يتبيّن من كلّ ما سلف أنّ أقرب مفهوم لمقصود الزكاة فى الآية هو المعنى العام للإنفاق، أما كون ذلك من علائم الشرك، فيكون بسبب أنّ الإنفاق المالى فى سبيل اللّه يعتبر من أوضح علامات الإيثار و الحب للّه، لأنّ المال يعتبر من أحبّ الأشياء إلى قلب الإنسان و نفسه، و بذلك فإنّ الإنفاق- و عدمه- يمكن أن يكون من الشواخص الفارقة بين الإيمان و الشرك، خصوصا فى تلك المواقف التى يكون فيها المال بالنسبة للإنسان أقرب إليه من روحه و نفسه، كما نرى ذلك واضحا فى بعض الأمثلة المنتشرة فى حياتنا.

بعبارة اخرى: إنّ المقصود هنا هو ترك الإنفاق الذى يعتبر أحد علامات عدم إيمانهم بالخالق جلّ و علا، و الأمر من هذه الزاوية

بالذات يقترن بشكل متساوى مع عدم الإيمان بالمعاد، أو يكون ترك الزكاة ملازما لإنكار وجوبه.

و ثمّة ملاحظة اخرى تساعد فى فهم التّفسير، و هى أنّ الزكاة لها وضع خاص فى الأحكام و التعاليم الإسلامية، و إعطاء الزكاة يعتبر علامة لقبول الحكومة الإسلامية و الخضوع لها، و تركها يعتبر نوعا من الطغيان و لمقاومة فى وجه الحكومة الإسلامية، و نعرف أنّ الطغيان ضدّ الحكومة الإسلامية يوجب الكفر.

و الشاهد على هذا المطلب ما ذكره المؤرخون من «اصحاب الرّدة» و أنّهم من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۵

«بنى طى» و «غطفان» و «بنى اسد» الذين امتنعوا عن دفع الزكاة لعمال الحكومة الإسلامية فى ذلك الوقت، و بهذا رفعوا لواء المعارضة فقاتلهم المسلمون و قضوا عليهم.

صحيح أنّ الحكومة الإسلامية لم يكن لها وجود حين نزول هذه الآية و لكن هذه الآية يمكنها أن تكون إشارة مجملة الى هذه القضية.

و قد ذكر فى التواريخ أن أهل الردّة قالوا بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أمّا الصلاة فنصلى، و أمّا الزكاة فلا يغصب أموالنا» و هكذا رأى المسلمون ضرورة قتالهم و قمع الفتنة.

الآية الأخيرة تقوم بتعريف مجموعة تقف فى الجانب المقابل لهؤلاء المشركين البخلاء، و تتعرض إلى جزائهم حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون» مشتق من «منّ» و تعنى هنا القطع أو النقص، لذا فإنّ غير ممنون تعنى هنا غير مقطوع أو منقوص.

و قيل إنّ مصطلح «منون»- على وزن «زبون»- و يعنى الموت مشتق من هذه المفردة، و كذلك المنّة باللسان، لأنّ الأوّل يعنى القطع و نهاية العمر، بينما الثانى يعنى قطع النعمة و الشكر[۳۲۰].

و ذهب بعض المفسّرين إلى القول بأنّ المقصود ب غَيْرُ مَمْنُونٍ أنّه لا توجد أىّ منّة على المؤمنين فيما يصلهم من أجر و جزاء و عطاء. لكن المعنى الأوّل أنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۶

ملاحظة

الأهمية الاستثنائية للزكاة فى الإسلام:

الآية أعلاه تعتبر تأكيدا مجدّدا و شديدا حول أهمية الزكاة كفريضة إسلامية، سواء كانت بمعنى الزكاة الواجبة أو بمفهومها الواسع، و ينبغى أن يكون ذلك، لأنّ الزكاة تعتبر أحد الأسباب الرئيسية لتحقيق العدالة الاجتماعية، و محاربة الفقر و المحرومية، و ملء الفواصل الطبقية، بالإضافة إلى تقوية البنية المالية للحكومة الإسلامية، و تطهير النفس من حبّ الدنيا و حبّ المال، و الخلاصة: إنّ الزكاة وسيلة مثلى للتقرب إلى اللّه تبارك و تعالى:

و قد ورد فى الروايات الإسلامية أن ترك الزكاة يعتبر بمنزلة الكفر، و هو تعبير يشبه ما ورد فى الآية التى نحن بصددها.

و فى هذا المجال نستطيع أن نقف مع الأحاديث الآتية:

أوّلا:

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ من وصايا رسول اللّه لأمير المؤمنين على بن أبى طالب قوله له: «يا على كفر باللّه العظيم

من هـذه الأئمّـة عشـرة، و عـدّ منهم مانع الزكاة ... ثمّ قال: يا على من منع قيراطا من زكاة ماله فليس بمؤمن و لا مسـلم و لا كرامـة، يا على: تارك الزكاة يسأل اللّه الرجعة إلى الدنيا، و ذلك قوله عزّ و جلّ: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ...[۳۲۱].

ثانيا:

فى حـديث آخر عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه قـال: «إنّ اللّه عزّ و جـلّ فرض للفقراء فى أموال الأغنيـاء فريضـة لا يحمـدون إلا بأدائها، و هى الزكاة، بها حقنوا دماءهم و بها سموا مسلمين»[۳۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۷

ثالثا: أخيرا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «من منع قيراطا من الزكاة فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا»[۳۲۳].

و تقدم بحث مفصل عن أهمية الزكاة فى الإسلام و فلسفتها و تأريخ وجوب الزكاة فى الإسلام، و كل ما يتعلق بها من أمور، فى تفسير الآية (۶۰) من سورة التوبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۸

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْـداداً ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ (۹) وَ جَعَلَ فِيها رَواسِـىَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَواءً لِلسَّائِلِينَ (۱۰) ثُمَّ اسْـتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِىَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ (۱۱) فَقَضاهُنَّ سَـبْعَ سَـماواتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِى كُلِّ سَـماءٍ أَمْرَها وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الـدُّنْيا بِمَصابِيـحَ وَ حِفْظاً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (۱۲)

التّفسير

مراحل خلق السماوات و الأرض:

الآيات أعلاه نماذج للآيات الآفاقية، و علائم العظمة، و قدرة الخلق جلّ و علا فى خلق الأرض و السماء، و بداية خلق الكائنات، حيث يأمر تعالى النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بمخاطبة الكافرين و المشركين و سؤالهم: هل يمكن إنكار خالق هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۵۹

العوالم الواسعة العظيمة؟

لعلّ هذا الأسلوب يوقظ فيهم إحساسهم و وجدانهم فيحتكمون للحق.

يقول تعالى: قُلْ أَ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ و تجعلون للّه تعالى شركاء و نظائر: وَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْداداً.

إنّه لخطأ كبير، و كلام يفتقد إلى الدليل. ذلِكَ رَبُّ الْعالَمِينَ

إنّ الذى يدبّر أمور هذا العالم، أ ليس هو خالق السـماء و الأرض؟ فإذا كان سـبحانه و تعالى هو الخالق، فلما ذا تعبدون هذه الأصنام و تجعلونها بمنزلته؟! إنّ الذى يستحق العبادة هو الذى يقوم بالخلق و التدبير، و يملك هذا العالم و يحكمه.

الآية التى تليها تشـير إلى خلق الجبال و المعادن و بركات الأرض و المواد الغذائية، حيث تقول: وَ جَعَلَ فِيها رَواسِىَ مِنْ فَوْقِها وَ بارَكَ

فِيها وَ قَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ و هذه المواد الغذائية هى بمقدار حاجة المحتاجين: سَواءً لِلسَّائِلِينَ ۳۲۴].

و بهذا الترتيب فإنّ تبارك و تعالى قد دبّر لكلّ شىء قدره و حاجته، و ليس ثمّة فى الوجود من نقص أو عوز، كما فى الآية (۵۰) من سورة «طه» حيث قوله تعالى: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى

المقصود من «السائلين» هنا هم الناس، أو أنّها تشمل بشكل عام الإنسان و الحيوان و النبات [و إذا ذكرت بصيغة الجمع للعاقب فهى من باب التغليب .

و وفق هذا التّفسير فإنّ اللّه تعالى لم يحدّد احتياجات الإنسان لوحده منذ البداية و حسب، و إنّما فعل ذلك للحيوانات و النباتات أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۰

و هنا يثار هذا السؤال: تذكر الآيات القرآنية- أعلاه- أنّ خلق الأرض تمّ فى يومين، و خلق الجبال و البركات و الطعام فى أربعة أيّام. و بعد ذلك خلق السماوات فى يومين، و بذا يكون المجموع ثمانية أيّام، فى حين أن أكثر من آية فى كتاب اللّه تذكر أنّ خلق السماوات و الأرض تمّ فى ستة أيّام، أو بعبارة اخرى: فى ستة مراحل ۳۲۵]؟

سلك المفسّرون طريقان فى الإجابة على هذا السؤال:

الطريق الأوّل: و هو المشهور المعروف، و مفاده أنّ المقصود بأربعة أيّام هو تتمة الأربعة أيّام، بأن يتم فى اليومين الأولين من الأربعة خلق الأرض، و فى اليومين الآخرين خلق باقى خصوصيات الأرض. مضافا إلى ذلك اليومين لخلق السماوات، فيكون المجموع ستة أيّام أو ست مراحل.

و شبيه ذلك ما يرد فى اللغة العربية من القول مثلا بأنّ المسافة من هنا إلى مكّة يستغرق قطعها عشرة أيّام، و إلى المدينة المنورة (۱۵) يوما، أى إنّ المسافة بن مكّة و المدينة تكون خمسة أيام و من هنا إلى مكّة عشرة أيّام ۳۲۶].

و هذا التّفسير صحيح لوجود مجموعة الآيات التى تتحدث عن الخلق فى ستة أيّام، و إلّا ففى غير هذه الحالة لا يمكن الركون له، من هنا تتبين أهمية ما يقال من أنّ القرآن يفسّر بعضه بعضا.

الطريق الآخر الذى اعتمده المفسّرون للإجابة على الإشكال أعلاه هو قولهم:

إنّ أربعة أيّام لا تختص ببداية الخلق، بل هى إشارة إلى الفصول الأربعة للسنة، و التى هى بداية ظهور الأرزاق و نمو المواد الغذائية التى تنفع الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۱

و الحيوان ۳۲۷].

لكن هذا التّفسير فضلا عن أنّه لا يلائم الآيات أعلاه، فإنّه أيضا يقصر «اليوم» فيما يتعلق بالأرض و لمواد الغذائية و حسب، لأنّ معناه يتعلق بالفصول الأربعة فقط، بينما لا حظنا أن «يوم» فى معنى خلق السماوات و الأرض يعنى بداية مرحلة! مضافا لذلك تكون النتيجة اختصاص يومين من الأيّام الستة لخلق الأرض، و يومين آخرين لخلق السماوات، أمّا اليومان الباقيان اللذيان يتعلقان بخلق الكائنات بين السماء و الأرض «ما بينهما» فليس هناك إشارة إليهما! من كلّ ذلك يتبيّن أنّ التّفسير الأوّل أجود.

و قد لا تكون هناك حاجة للقول بأنّ «اليوم» فى الآيات أعلاه هو حتما غير اليوم العادى، لأنّ اليوم بالمعنى العادى لم يكن قد وجد قبل خلق السماوات و الأرض، بل المقصود بذلك هو مراحل الخلق التى استنفذت من الزمن أحيانا ملايين بل و بلايين السنين.[۳۲۸]

ملاحظات

تبقى أمامنا ملاحظتان ينبغى أن نشير إليهما:

أوّلا: ما هو المقصود من قوله تعالى: بارَكَ فِيها؟

الظاهر أنّها إشارة إلى المعادن و الكنوز المستودعة فى باطن الأرض، و ما على الأرض من أشجار و أنهار و نباتات و مصادر للماء الذى هو أساس الحياة و البركة، حيث تستفيد منها جميع الاحياء الأرضية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۲

ثانيا: بما تتعلق الأيام الاربعة فى عبارة: فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ

بعض المفسّرين يعتقد أنّها تخص «الأقوات» فقط. لكنّها ليست كذلك، بل تشمل الأقسام الثلاثة المذكورة فى الآية (أى خلق الجبال، خلق المصادر و بركات الأرض، خلق الموارد الغذائية) لأنّه- خلافا لذلك- فإنّ بعض هذه الأمور سوف لا تدخل فى الأيام الواردة فى الآيات أعلاه، و هذا أمر لا يتناسب مع نظم الآيات و نظامها.

بعد الانتهاء من الكلام عن خلق الأرض و مراحلها التكاملية، بدأ الحديث عن خلق السماوات حيث تقول الآية: ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَ هِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً.

فكانت الإجابة: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

و فى هذه الأثناء: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ ثم: وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها و أخيرا: وَ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ حِفْظاً نعم: ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ

فى الآيتين المتقدمتين تستلفت النظر عشر ملاحظات سنقف عليها خلال النقاط الآتية، التى ننهى من خلالها البحث فى هذه المجموعة من الآيات، و هى:

أولا- كلمة «ثم» تأتى عادة للإشارة إلى التأخير فى الزمان، و تأتى أحيانا للدلالة على التأخير فى البيان. فإذا كان المعنى الأوّل هو المقصود فسيكون المفهوم هو أنّ خلق السماوات تمّ بعد خلق الأرض و خلق الجبال و المعادن و المواد الغذائية. أما إذا كان المعنى الثّانى هو المقصود، فليس هناك مانع من أن تكون السماوات قد خلقت و بعدها تمّ خلق الأرض، و لكن عند البيان ذكرت الآية أوّلا خلق الأرض و الأرزاق و مصادرها التى يحتاجها البشر، ثمّ عرجت إلى ذكر قضية خلق السماء.

المعنى الثّانى بالإضافة إلى أنّه أكثر تناسقا و انسجاما مع الاكتشافات العلمية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۳

فهو أيضا يتفق مع الآيات القرآنية الأخرى، كقوله تعالى فى الآيات (۲۷- ۳۳) من سورة «النازعات»: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها وَ الْجِبالَ أَرْساها مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ

إنّ هذه المجموعة من الآيات الكريمة تكشف بوضوح أنّ دحو و توسيع الأرض و تفجر العيون و نبات الأشجار و الموارد الغذائية، قد تمّ جميعا بعد خلق السماوات. أما لو فسّرنا معنى «ثم» بالتأخير فى الزمان، فعلينا أن نقول: إنّ كلّ تلك قد تكونت قبل خلق السماء، و هذا يتنافى مع المعنى الواضح للمراد من قوله تعالى: بَعْدَ ذلِكَ أى أن كلّ ما ذكر قد تم خلقه بعد ذلك (أى بعد السماوات).

و بذلك نفهم أن (ثم) هنا قد استخدمت للتدليل على التأخير البيانى ۳۲۹].

ثانيا: «استوى» من «استواء» و تعنى الاعتدال أو مساواة شيئين ببعضهما، و لكن ذهب علماء اللغة و التّفسير إلى أنّ هذه الكلمة عند ما تتعدّى ب «على» يصبح معناها الاستيلاء و التسلّط على شىء ما مثل الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى ۳۳۰].

و عند ما تتعدى ب «إلى» فهى تعنى القصد، كما فى الآية التى نبحثها ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ اى قصد الى السماء.

ثالثا: جملة «هى دخان» تبيّن أن بداية خلق السماوات كان من سحب الغازات الكثيفة الكثيرة، و هذا الأمر يتناسب مع آخر ما توصلت إليه البحوث العلمية بشأن بداية الخلق و العالم.

و الآن فإنّ الکثیر من النجوم السماویة هی علی شکل سحب مضغوطة من الغازات و الدخان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۴

رابعا: قوله تعالی: فَقالَ لَها وَ لِلْأَرْضِ ائْتِیا طَوْعاً أَوْ کَرْهاً لا تعنی أن کلاما قد جری باللفظ، و إنّما قول الخالق و أمره هو نفسه الأمر التکوینی، و هو عین إرادته فی الخلق. أما التعبیر ب «طوعا أو کرها» فهو إشارة إلی أنّ الإرادة الإلهیة الحتمیة قد ارتبطت یتکوّن السماوات و الأرض. و المعنی أنّه یجب أن یحدث هذا الأمر شاءت أم أبت.

خامسا: الجملة فی قوله تعالی: أَتَیْنا طائِعِینَ تشیر إلی أنّ المواد التی تتشکل منها السماء و الأرض من ناحیة التکوین و الخلقة، کانت مستسلمة تماما لإرادة اللّه و أمره، فتقبلت شکلها المطلوب و لم تعترض أمام هذا الأمر الإلهی مطلقا.

و من الواضح أنّ هذا الأمر و هذا الامتثال لیس لهما طبیعة تکلیفیة و تشریعیة، بل حدثت بمحض التکوین فقط.

سادسا: قوله تعالی: فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِی یَوْمَیْنِ یشیر إلی وجود مرحلتین فی خلق السماوات، کلّ مرحلة استمرت لملایین أو ملیارات السنین، و کل مرحلة تتضمن مراحل اخری، و من المحتمل أن تکون هاتان المرحلتان هما مرحلة تبدیل الغازات المضغوطة إلی سوائل و مواد مذابة، ثمّ مرحلة تبدیل المواد المذابة إلی مواد جامدة.

کلمة «یوم» استخدمت هنا- کما أشرنا سابقا- بمعنی مرحلة، و هو ممّا یشبع استخدامه فی عدّة لغات، و یشبع استخدامه أیضا فی کلامنا الیومی، فعند ما تقول مثلا: یوم لک و یوم علیک، إنّما تشیر إلی مراحل الحیاة المختلفة. (هناک بحث مفصل حول هذا الموضوع فی نهایة تفسیر الآیة (۵۴) من سورة الأعراف).

سابعا: إنّ العدد «سبع» ربّما جاء هنا للکثرة، بمعنی أنّ هناک سماوات کثیرة و أجرام کثیرة. و من المحتمل أن یکون الرقم للعدد، أی إن عدد السماوات هی سبع بالتحدید. و مع هذا التقیید فإنّ جمیع ما نری من کواکب و نجوم ثابتة و سیّارة هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۵

من السماء الأولی، و بذلک یکون عالم الخلقة متشکلا من سبع مجموعات کبری، واحدة منها فقط أمام أنظار البشریة، و إنّ الأجهزة العلمیة الفلکیة الدقیقة و بحوث الإنسان، لم تتوصل إلی ما هو أبعد من السماء الأولی.

و لکن کیف تکون العوالم الستة لأخری؟ و ممّ تتشکّل؟ فهو أمر لا یعلمه إلّا اللّه تعالی.

و المعتقد هنا أنّ هذا التّفسیر هو الأصح. (فی هذا الموضوع یمکن مراجعة نهایة تفسیر الآیة (۲۹) من سورة البقرة).

ثامنا: قوله تعالی: وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها تشیر إلی أنّ المسألة لم تنته بخلق السماوات و حسب، بل إنّ فی کل منها مخلوقات و کائنات و نظام خاص و تدبیر معین، بحیث أن کلّ واحدة تعتبر بحد ذاتها دلیلا علی العظمة و القدرة و العلم.

تاسعا: قوله تعالی: وَ زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِمَصابِیحَ تدل علی أنّ جمیع النجوم زینة للسماء الأولی، و تبدو فی نظر الإنسان کالمصابیح المعلقة فی سقف هذه السماء الزرقاء، و هی لیست للزینة و حسب، حیث تجذب بتلألؤها الخاص المتعاقب قلوب عشاق أسرار الخلقة، بل فی اللیالی المعتمة تکون مصابیح للتائهین و أدلة لمن یسیر فی الطریق، تعینهم علی تعیین اتجاه الحرکة.

أمّا «الشهب» التی تظهر کنجوم سریعة تظهر فی السماء بومیض سریع قبل أن تنطفئ، فهی فی الواقع سهام تستقر فی قلوب الشیاطین و تحفظ السماء من نفوذهم. (راجع تفسیر الآیة ۱۷ من سورة الحجر و نهایة الآیة السابعة من سورة الصافات).

عاشرا: قوله تعالی: ذلِکَ تَقْدِیرُ الْعَزِیزِ الْعَلِیمِ تکملة للجمل التسع السابقة، و تشکل بمجموعها عشرة کاملة، تقول: إنّ ما حدث فی السماء و الأرض منذ بدایة الخلق إلی مرحلة التشکّل و النظام الدقیق، کان وفق برنامج محسوب و مقدّر، تمّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۶

تنظیمه من قبل المبدأ الأزلی ذی العلم و القدرة المطلقتین، و إن أی تفکیر فی أی بحر من هذه البحور یقودنا نحو المبدأ العظیم جلّت قدرته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۷

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۱۳ الی ۱۶]

اشارة

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ (۱۳) إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۱۴) فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۱۵) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزى وَ هُمْ لا يُنْصَرُونَ (۱۶)

التّفسیر

أحذرکم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود!

بعد البحث المهم الذی تضمّنته الآیات السابقة حول التوحید و معرفة الخالق جلّ و علاه تنذر الآیات- التی بین أیدینا- المعارضین و المعاندین الذین تجاهلوا کلّ هذه الدلائل الواضحة و الآیات البینات، و تحذرهم أن نتیجة الإعراض نزول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۸

العذاب بهم، یقول تعالی: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ[۳۳۱].

علیکم أن تخافوا هذه الصاعقة المیتة المحرقة التی إذا نزلت بساحتکم تنفیکم و تحل بداراکم الدمار.

لاحظنا فی بدایة هذه السورة المبارکة أنّ بعض زعماء الشرک فی مکّة مثل «الولید بن المغیرة» و بروایة اخری «عتبة بن ربیعة» جاءوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم للتحقیق حول القرآن و دعوة الرّسول و طرحوا علیه بعض الأسئلة و فی سیاق إجابة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لهم تلا علیهم الآیات الاولی من هذه السورة، و عند ما وصل النّبی فی تلاوته إلی الآیات أعلاه و هدّدهم بصاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود، ارتعشت أجسادهم و أصیبوا بالخوف بحیث أنّهم لم یکونوا قادرین علی الاستمرار فی الکلام، لذلک عادوا إلی قومهم و ذکروا لهم تأثرهم العمیق و اضطرابهم و وجلهم من هذه الکلمات.

«الصاعقة» کما یقول الراغب فی المفردات، تعنی الصوت المهیب فی السماء، و یشتمل علی النّار أو الموت أو العذاب. (و لهذا السبب تطلق الصاعقة علی الموت أحیانا، و علی النّار و فی أحیان اخری).

و الصاعقة- وفقا للتحقیقات العلمیة الراهنة- هی شرارة کهربائیة عظیمة تحدث بین مجموعة من الغیوم التی تحمل الشحنات الکهربائیة الموجبة، و بین الأرض التی تکون شحنتها «سالبة» و تصیب عادة قمم الجبال و الأشجار و أی شیء مرتفع، و فی الصحاری المسطحة تصیب الإنسان و الأنعام، کما أن حرارتها شدیدة للغایة بحیث أنّها تحیل أی شیء تصیبه إلی رماد، و تحدث صوتا مهیبا و هزّة أرضیة قویة فی المکان الذی تضربه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۶۹

اللّه تبارک و تعالی- کما تنص علی ذلک آیات القرآن- عاقب بعض الأقوام الأشقیاء من الأمم السابقة بالصاعقة.

و الطریف هنا أنّ عالم الیوم برغم التقدم الهائل فی العلوم، بقی عاجزا عن اکتشاف وسیلة لمنع الصاعقة.

و سیبقی هذا السؤال: لماذا ذکر هنا قوم عاد و ثمود من بین جمیع الأقوام السابقة؟

السبب يعود إلى أنّ العرب كانوا على اطّلاع بخبر أولئك الأقوام، و كانوا قد شاهدوا بأعينهم آثار مدنهم المدمّرة، إضافة إلى أنّهم كانوا يعرفون أخطار الصواعق، لأنّهم يعيشون فى الصحراء و البادية.

يواصل الحديث القرآنى سياقه بالقول: إِذْ جاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ

إنّ استخدام تعبير مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ هو إشارة إلى ما ذكرناه أعلاه من أنّ الأنبياء قد استخدموا جميع الوسائل و الأساليب لهدايتهم، و حاولوا طرق كلّ الأبواب حتى ينفذوا إلى قلوبهم المظلمة.

و قد يكون التعبير إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا خلال أزمنة مختلفة إلى هؤلاء الأقوام، و طرحوا عليهم نداء التوحيد.

لكن لنرى ماذا كان جوابهم حيال هذه الجهود العظيمة الواسعة لرسل اللّه تعالى؟

يقول تعالى: قالُوا لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً لإبلاغ رسالته بدلا من إرسال الناس.

و الآن و ما دام الأمر كذلك: فَإِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ و ما جئتم به لا نعتبره من اللّه.

إنّ مفهوم هذا الكلام لا يعنى إيمان هؤلاء بأنّ هؤلاء رسل اللّه حقّا، و. أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۰

لا يؤمنون بهم، و إنّما مفهوم الكلام رفض هؤلاء دعوة الرسل فى أنّهم مبلغوا رسالات اللّه من الأساس، حيث حملوهم على الكذب و الادّعاء. (ذلك فإنّ جملة بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ هى للاستهزاء أو السخرية، أو أن يكون المقصود بها هو: طبقا لادعائكم بأنّكم رسل اللّه تبلغون عنه).

إنّها نفس الذريعة التى ينقلها القرآن مرارا على لسان منكرى النبوات و رسالات اللّه و مكذبى الرسل، من الذين كانوا يتوقعون أن يكون الأنبياء دائما ملائكة، و كأنما البشر لا يستحقون مثل هذا المقام.

مثال ذلك قولهم فى الآية (۷) من سورة الفرقان: وَ قالُوا ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.

إنّ قائد البشر يجب أن يكون من صنف البشر، كى يعرف مشاكل الإنسان و احتياجاته و يحس آلامهم و يتفاعل مع قضاياهم، و كى يستطع أن يكون القدوة و الأسوة، لذلك يصرح القرآن فى الآية (۹) من سورة «الأنعام» بقوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلًا.

بعد المجمل الذى بينته الآيات أعلاه، تعود الآيات الآن- كما هو أسلوب القرآن الكريم- إلى تفصيل ما أوجز من خبر قوم عاد و ثمود، فتقول: فَأَمَّا عادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً.

إنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى أرض «الأحقاف» من (حضرموت) جنوب الجزيرة العربية، و كانوا يتصفون بوضع استثنائى فريد من حيث القوّة الجسمانية و المالية و التمدّن المادى، فكانوا يبنون القصور الجميلة و القلاع المحكمة، خاصة فى الأماكن المرتفعة، حيث يرمز ذلك إلى قدرتهم و يكون وسيلة لاستعلائهم.

لقد كانوا رجالا مقاتلين أشدّاء، فأصيبوا بالغرور بسبب قدراتهم الظاهرية و مجدهم المادى، حتى ظنّوا أنّهم أفضل من الجميع، و أنّ قوّتهم لا تقهر، و لذلك قاموا بتكذيب الرسل و الإنكار عليهم، و تكالبوا على نبيّهم «هود».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۱

لكن القرآن يرد على هؤلاء و دعواهم بالقول: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً.

أليس الذى خلقهم خلق السماوات و الأرض؟

بل هل يمكن المقايسة بين هاتين القدرتين، فأين القدرة المحدودة الفانية من القدرة المطلقة اللامتناهية الأزلية؟! ما للتراب و ربى الأرباب ۳۳۲]؟! تضيف الآية فى النهاية قوله تعالى: وَ كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ

نعم، إنّ الإنسان الضعيف المحدود سوف يطغى بمجرّد أن يشعر بقليل من القدرة و القوة، و أحيانا بدافع من جهله، فيتوهم أنّه يصارع

اللّه جلّ و علا!! لکن ما أسهل أن یبدل اللّه عوامل حیاته إلی موت و دمار، کما تخبرنا الآیة عن مآل قوم عاد: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ رِیحاً صَرْصَراً فِی أَیَّامٍ نَحِساتٍ لِنُذِیقَهُمْ عَذابَ الْخِزْیِ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا.

إنّ هذه الریح الصرصر، و کما تصرح بذلک آیات اخری، کانت تقتلعهم من الأرض بقوّة ثمّ ترطمهم بها، بحیث أصبحوا کأعجاز النخل الخاویة. (یلاحظ الوصف فی سورة «القمر» الآیة ۱۹- ۲۰ و سورة الحاقة الآیة ۶ فما بعد).

لقد استمرت هذه الریح سبع لیال و ثمانیة أیّام، و حطّمت کیانهم و کل وسائل عیشهم، نکالا بما رکبوا من حماقة و علوا و غرور، و لم یبق منهم سوی أطلال تلک القصور العظیمة، و آثار تلک الحیاة المرفهة.

هذا فی الدنیا، و هناک فی الآخرة: وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَخْزی

إنّ العذاب الأخروی هو فی الواقع کالشرارة فی مقابل بحر لجی من النّار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۲

و الأنکی من ذلک أن لیس هناک من ینصرهم: وَ هُمْ لا یُنْصَرُونَ

فبعد عمر من الجد و العمل فی سبیل التظاهر بالعظمة و العلو، یصیبهم اللّه تعالی بعذاب أذلهم فی هذه الدنیا، و فی العالم الآخر ینتظرهم ما هم أشد و أصعب! «صرصر»: علی وزن (دفتر) مشتقّة فی الأصل من کلمة «صرّ» علی وزن «شرّ» و تعنی الغلق بإحکام، لذا تستعمل کلمة «صرّه» للکیس الذی یحتوی علی المال و هو مغلق بشکل جیّد. ثمّ أطلقت علی الریاح الباردة جدا، أو التی فیها صوت عال، أو الریاح المسمومة القاتلة. و قد تکون الریاح العجیبة التی شملت قوم «عاد» تحمل کلّ هذه الصفات جمیعا.

أَیَّامٍ نَحِساتٍ تعنی الأیام المشؤومة التی اعتبرها البعض بأنّها الأیّام المليئة بالتراب و الغبار، أو الأیّام الباردة جدا، و هذه المعانی یمکن أن تکون مرادة من الآیات التی نحن بصددها.

لقد أشار أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام فی خطب نهج البلاغة إلی قصة عاد، کی تکون درسا أخلاقیا تربویا یتعظ منه الآخرون.

یقول علیه السّلام: «و اتعظوا فیها بالذین قالوا: من أشدّ منّا قوّة؟ حملوا إلی قبورهم، فلا یدعون رکبانا، و أنزلوا الأجداث فلا یدعون ضیفانا، و جعل لهم من الصفیح أجنان، و من التراب أکفان، و من الرفات جیران»[۳۳۳].

ملاحظتان

أوّلا: ما هی وسیلة فناء قوم عاد؟

وفقا للآیة (۱۳) من هذه السورة، فإنّ قوم عاد و ثمود أهلکوا بالصاعقة. فی حین أنّ الآیات التی نبحثها تقول: إنّهم أبیدوا بالریح الصرصر العاتیة، فهل هناک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۳

تعارض بین الاثنین؟

فی الجواب ذکر المفسّرون و علماء اللغة معنیین للصاعقة، أحدهما عام، و الآخر خاص.

فالصاعقة بمعناها العام تعنی أی شیء یهلک الإنسان، و هی کما یقول العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان: «المهلکة من کلّ شیء».

أمّا المعنی الخاص، فالصاعقة شرارة عظیمة من النّار تنزل من السماء، و تحرق کلّ ما یوجد فی طریقها، کما وضحنا ذلک آنفا.

بناء علی هذا، لو کانت الصاعقة بالمعنی الأوّل فلا تعارض بینها و بین الریاح القویة.

يقول الراغب فى المفردات: «قال بعض أهل اللغة: الصاعقة على ثلاثة أوجه:

الموت كقوله: فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ و قوله: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ و العذاب كقوله: أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ و النّار كقوله: وَ يُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ و ما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة فإن الصاعقة هى الصوت الشديد من الجوّ، ثمّ يكون منه نار فقط أو عذاب أو موت و هى فى ذاتها شىء واحد و هذه الأشياء تأثيرات منها».

و ثمة احتمال آخر، هو أن قوم عاد قد شملهم نوعان من العذاب: الأوّل الرياح الشديدة التى دمّرت كلّ شىء و التى سلطها اللّه عليهم أيّاما عديدة، ثم جاء بعد ذلك دور الصاعقة النّارية المميتة التى شملتهم بأمر اللّه.

لكن المعنى الأوّل يبدو أكثر تناسبا مع الموضوع، خصوصا إذا لا حظنا الآيات الأخرى التى تتحدث عن عقاب قوم عاد و هلاكهم. (راجع الآيات فى سورة الذاريات- آية ۴۱، و سورة الحاقة- آية ۶، و القمر الآيتان «۱۸» و «۱۹»).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۴

ثانيا: أيام قوم عاد النحسة

البعض يعتقد أنّ أيّام السنة نوعان: أيّام نحسة مشؤومة، و أيام سعيدة مباركة.

و يستدلون على ذلك بالآيات أعلاه، فيقولون: هناك تأثيرات مجهولة تؤثر فى الليالى و الأيّام، و نشعر نحن بآثار ذلك، بينما أسبابها ما تزال مبهمة بالنسبة لنا.

و قال البعض: إنّ الأيام النحسة فى الآية التى نبحثها هى الأيّام المملوءة بالتراب و الغبار.

و قوم عاد قد أصيبوا بمثل هذه الرياح الشديدة بحيث باتوا لا يرى أحدهم الآخر، كما تفيد ذلك الآيتان (۲۴- ۲۵) من سورة «الأحقاف» فى قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۳۷۴

فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ، تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

و سوف نقوم ببحث مفصل حول مفهوم الأيّام النحسة و الأيّام السعيدة، فى نهاية حديثنا عن الآية (۱۹) من سورة القمر، إن شاء اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۵

الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۷ الى ۱۸]

اشارة

وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۷) وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ (۱۸)

التّفسير

عاقبة قوم ثمود:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قوم عاد، تبحث هاتان الآيتان فى قضية قوم ثمود و مصيرهم، حيث تقول: إنّ اللّه قد بعث الرسل و الأنبياء لهم مع الدلائل البينة، إلّا أنّهم: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى

لذلك: فَأَخَذَتْهُمْ صاعِقَةُ الْعَذابِ الْهُونِ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و هؤلاء مجموعة تسكن «وادى القرى» (منطقة بين الحجاز و الشام) و قد وهبهم اللّه أراضى خصبة خضراء مغمورة، و بساتين ذات نعم كثيرة و كانوا يبذلون الكثير من جهدهم فى الزراعة. و لقد وهبهم اللّه العمر الطويل و الأجسام القوية، و كانوا مهرة فى البناء القوى المتماسك، حيث يقول القرآن عنهم فى ذلك: وَ كانُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۶

يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ ۳۳۴].

لقد جاءهم نبيّهم بمنطق قوى و قلب ملؤه الحبّ، و معه المعاجز الإلهية، إلّا أنّ هؤلاء القوم المغرورين المستعلين لم يرفضوا دعوته- و حسب- بل آذوه و أتباعه القليلين، لذلك شملهم اللّه بعقابه فى الدنيا، و لن يغنى ذلك عن عذاب الآخرة شيئا.

نقرأ فى الآية (۷۸) من سورة الأعراف أنّهم أصيبوا بزلزلة عظيمة، فبقيت أجسادهم فى المنازل بدون حراك: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ

و فى الآية (۵) من سورة الحاقة قوله تعالى بشأنهم: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ.

أمّا الآية (۶۷) من سورة هود فتقول عنهم: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ

أمّا الآية التى نحن بصددها فقد استخدمت تعبير «صاعقة».

قد يتصور البعض أن هناك تعارضا بين هذه التعابير، و لكن عند التدقيق يظهر أنّ الكلمات الأربع أعلاه (رجفة، طاغية، صيحة، صاعقة) ترجع جميعا إلى حقيقة واحدة، لأنّ الصاعقة،- كم قلنا سابقا- لها صوت مخيف، بحيث يمكن أن نسميها بالصيحة السماوية، و لها أيضا نارا محرقة، و هى عند ما تسقط على منطقة معينة تحدث هزّة شديدة، و كذلك هى وسيلة للتخريب.

فى الواقع إنّ البلاغة القرآنية تستوجب أن تبيّن الأبعاد المختلفة للعذاب الإلهى بتعابير مختلفة و فى سياق آيات عديدة كيما تخلّف أثرا عميقا فى نفس الإنسان.

و هؤلاء القوم قد واجهتهم عوامل مختلفة للموت فى إطار حادثة واحدة، بحيث أن كلّ عامل لوحده يكفى لإبادتهم كالصيحة المميتة مثلا، أو الهزة الأرضية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۷

القاتلة، أو النّار المحرقة، و أخيرا الصاعقة المخفية.

و لكن قد يتساءل عن مصير الأشخاص الذين آمنوا بصالح عليه السّلام بين هذه الأمواج القاتلة من الصواعق، فهل احترقوا بنيران غيرهم؟

القرآن يجيبنا على ذلك بقول اللّه عزّ و جلّ: وَ نَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَ كانُوا يَتَّقُونَ

لقد أنجى هذه المجموعة إيمانها و تقواها، بينما شمل العذاب تلك الكثرة الطاغية بسبب كفرها و عنادها، و المجموعتان يمكن أن تكونا نموذجا لفئات من هذه الأمة.

قال بعض المفسّرين: لقد آمن بنبىّ اللّه صالح (۱۱۰) أشخاص من بين مجموع القوم، و لقد أنقذ اللّه هؤلاء و أنجاهم فى الوقت المناسب.

ملاحظة

أنواع الهداية الإلهية:

الهدايـة على نوعين: أوّلا «الهداية التشـريعة» و هى تشـمل إبانة الطريق و الكشف عنه بجميع العلائم. ثمّ هناك «الهداية التكوينية» التى هى فى واقعها إيصال إلى المطلوب أو الوصول إلى الهدف.

لقـد تجمعت الهدايتان معا فى الآيات التى نبحثها، فالآيات تتحدث أولا عن هداية ثمود و هذه هى الهداية التشـريعية التى اسـتبانوا من خلالها الطريق.

ثم أضافت الآية عن وصف حالهم بأنّهم استحبوا العمى على الهدى، و هذه هى عين الهداية التكوينية و التوصّل نحو الهدف.

و هكـذا فإنّ الهدايـة بمعناه الأوّل قـد تمّت من خلال بعثـة الرسل و الأنبياء، أمّا الهدايـة بمعناها الثّانى و التى ترتبط بإرادة و اختيار أى إنسان، فلم تتمّ بسبب غرور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۸

القوم و تكبرهم و علوهم، لأنّهم: فَاسْتَحَبُّوا الْعَمى عَلَى الْهُدى

إنّ هذا- بحدّ ذاته- دليل على مبدأ «حرية الإرادة الإنسانية» و عدم الجبر.

و لكن- برغم صراحة و وضوح الآيات- نرى أنّ بعض المفسّرين كالفخر الرازى يصرون على إنكار دلالة الآية، و ذكروا كلاما لا يليق بمنزلة الباحث المحقق، و ذلك بسبب ميولهم نحو عقيدة الجبر[۳۳۵]!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۱۹ الى ۲۳]

اشارة

وَ يَوْمَ يُحْشَـرُ أَعْـداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۹) حَتَّى إِذا مـا جاؤُها شَـهِدَ عَلَيْهِمْ سَـمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۰) وَ قـالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَـهِدْتُمْ عَلَيْنـا قـالُوا أَنْطَقَنَـا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُـلَّ شَـيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۲۱) وَ ما كُنْتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَنْ يَشْـهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَ لا- أَبْصـارُكُمْ وَ لا- جُلُودُكُمْ وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (۲۲) وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۲۳)

التّفسير

كانت الآيات السابقـة تتحـدث عن الجزاء الدنيوى للكفار المغرورين و الظالمين و المجرمين. أمّا الآيات التى نبحثها الآن فتتحدث عن العذاب الأخروى، و عن مراحل مختلفة من عقاب أعداء اللّه.

يقول تعالى: وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۰

و كى تتصل الصفوف ببعضها يتمّ تأخير الصفوف ۳۳۶] حتى تلتحق بها الصفوف الأخرى: فَهُمْ يُوزَعُونَ

و حينذاك: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۳۳۷].

يا لهم من شـهود؟ فأعضاء الإنسان تشـهد بنفسـها عليه و لا يمكن إنكار شهادتها، لأنّها كانت حاضرة فى جميع المشاهد و المواقف و ناظرة لكل الأعمال، و هى إذ تتحدث فبأمر اللّه تعالى.

و هنـا يثـار سؤال: هـل تعنى شـهادة هـذه الأعضـاء من جسم الإنسـان أنّ اللّه تبـارك و تعالى يخلق فيها قـدرة الإحساس و الإدراك و الشعور، و بالتالى القدرة على الكلام؟

أم أنّ آثار الـذنوب سوف تظهر فى ذلك اليوم (يوم البروز) لأنّها مطبوعـة عليها طوال عمر الإنسان، كما نقول فى تعبيراتنا الشائعة: إن صفحة وجهه تحكى و تخبر ما يخفيه فلان فى سرّه؟

أو أنّ الأمر يكون كما فى حال الشجرة التى أوجد اللّه تعالى فيها الصوت و أسمعه موسى عليه السّلام؟

فى الواقع يمكن قبول كلّ هذه التفاسير، و قد جاءت مبثوثة فى تفاسير المفسّرين.

طبعا لا يوجد مانع من أن يقوم تعالى بخلق الإدراك و الشـعور فى الأعضاء، فتشـهد فى محضر اللّه تعالى عن علم و معرفة، خصوصا و أن ظاهر الآيات يشير للوهلة الأولى إلى هذا المعنى. و هو ما يعتقده البعض فيما يخص تسبيح و حمد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۱

و سجود ذرات العالم و كائنات الوجود بين يدى اللّه تبارك و تعالى.

و المعنى الثّانى محتمـل أيضـا لأننـا نعلم أنّ أى كـائن فى هـذا العـالم لا ـ يفنى من الوجود، و أنّ آثـار أقوالنا و أفعالنا سوف تبقى فى أعضائنـا و جوارحنا، و من الطبيعى أن تعتبر «الشـهادة التكوينيـة» هـذه من أوضـح الشـهادات و أجلاها، إذ لا مجال لإنكارها، كما فى اصفرار الوجه- الذى يعتبر عادة دليلا- على الخوف لا يمكن إنكاره، و احمراره دليل على الغضب أو الخجل.

و إطلاق النطق على هذا المعنى يكون مقبولا أيضا.

أمّـا الاحتمـال الأـخير فى أن تنطق الأعضاء بإذن اللّه تعالى دون أن يكون لها شـعور بـذلك أو يظهر منها اثر تكوينى، فإنّ ذلك بعيد ظاهرا، لأنّه فى مثل هذه الحالة لا تعتبر الحالة مصداقا للشـهادة التشـريعية و لا مصداقا للشـهادة التكوينية، فلا عقل هناك و لا شعور، و لا الأثر الطبيعى للعمل، و سوف تفقد قيمة الشهادة فى المحكمة الإلهية الكبرى.

و من الضرورى الانتباه إلى أنّ قوله تعالى: حَتَّى إِذا ما جاؤُها يبيّن أنّ شهادة أعضاء الإنسان تتمّ فى محكمة النّار، فهل مفهوم ذلك أنّ الشهادة تتمّ فى النّار، فى حين أنّ النّار هى نهاية المطاف، أم أنّ المحكمة تنعقد بالقرب من النّار؟

الاحتمال الثّانى هو الأقرب كما يظهر.

ثمّ ما هو المقصود من (جلود) بصيغة الجمع؟

الظاهر أنّ المقصود بذلك هو جلود الأعضاء المختلفة للجسم، جلد اليد و الرجل و الوجه و غير ذلك.

أمّا الروايات التى تفسّر ذلك ب «الفروج» فهى فى الحقيقة من باب بيان المصداق، و ليس حصر مفهوم الجلود فى ذلك.

و من جانب آخر ربّ سائل يسأل: لماذا تشـهد العين و الأذن و الجلود فقط، دون أعضاء الجسم الأخرى؟ و هل الشـهادة مقتصرة على هذه الأعضاء، أو أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۲

هناك أعضاء اخرى تشهد؟

ما نسـتفيده من الآيات القرآنيـة الأخرى أنّ هناك أعضاء اخرى فى جسم الإنسان تشـهد عليه، إذ نقرأ فى الآيـة (۶۵) من سورة «يس» قوله تعالى: وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و فى الآية (۲۴) من سورة «النور» قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ

و هكـذا يتضـح أنّ هنـاك أعضـاء اخرى تقوم بالإدلاء بالشـهادة، إلّا أنّ ما تـذكره الآيـة التى بين أيـدينا من أعضاء تعتبر فى الـدرجة

الأولى، لأنّ معظم أعمال الإنسان تتم بمساعدة العين و الأذن، و إنّ الجلود هى أول من يقوم بملامسة الأعمال.

المجرمون يستغربون هذه الظاهرة، و آية استغرابهم قوله تعالى: وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا.

لسان حالهم يقول: لقد كنّا لسنين مديدة نحافظ عليكم من الحر و البرد و نعتنى بنظافتكم، فلما ذا أنتم هكذا؟

و فى الجواب يقولون: قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

لقد أعطانا اللّه مهمّة القيام بالشهادة على أعمالكم فى هذه المحكمة العظيمة، و لا نملك نحن سوى الطاعة، فالذى أعطى غيرنا من الكائنات قابلية النطق أعطانا- أيضا- هذه القابلية[۳۳۸].

و الطريف هنا أن أولئك يسألون جلودهم دون باقى الأعضاء من الشهود كالعين و الأذن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۳

قد يكون السبب فى ذلك أنّ شهادة الجلود هى أغرب و أعجب من جميع الأعضاء الأخرى، و أوسع منها جميعا، فتلك الجلود التى يجب عليها أن تذوق طعم العذاب الإلهى- قبل غيرها من الأعضاء- تقوم بمثل هذه الشهادة، و هذا الأمر محيّر حقّا! ثم تستمر الآية بقوله تعالى: وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

و مرة اخرى تضيف: وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لا أَبْصارُكُمْ وَ لا جُلُودُكُمْ

و إنّ سبب إخفائكم لأعمالكم هو: وَ لكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ

كنتم غافلين عن أنّ اللّه يسمع و يرى، يشهد أعمالكم فى كلّ حال و مكان، و يعلم أسراركم ما بطن منها و ما ظهر، ثمّ هناك عناصر الرقابة التى ترافقكم و هى معكم فى كلّ مكان، فهل تستطيعون إنجاز عمل مخفى عن أعينكم و آذانكم و جلودكم؟

إنّكم فى قبضة القدرة الإلهية و تحت نظر الشهود المستترين و الظاهرين حتى أدوات ذنبكم تشهد ضدكم؟! يروى المفسّرين أنّ الآية أعلاه نزلت فى ثلاثة نفر من كفار قريش و طائفة من بنى ثقيف ذوى بطون كبيرة و رؤوس صغيرة اجتمعوا بجوار الكعبة و هم يتسارّون، فقال أحدهم: أ تظنون أن اللّه يسمع كلامنا و حديثنا هذا؟

فأجاب آخر: تكلّم بهدوء و اخفض صوتك، فإذا تحدثنا بصوت عال فهو (أى اللّه جلّ جلاله) يسمعه، و إذا خفضنا أصواتنا فلا يسمعنا.

فقال الثّالث: إذا كان اللّه يسمع الكلام العالى فهو حتما يسمع الصوت الضعيف أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۴

و هنا نزلت الآية الكريمة: وَ ما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ ...[۳۳۹].

ثم يقول تعالى: وَ ذلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْداكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ ۳۴۰][۳۴۱].

هل أن هذا الحديث هو من قبل اللّه تعالى، و أن كلام الأعضاء و الجوارح ينتهى إلى قوله تعالى: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ، أم أنّ ما يليه استمرار له؟

المعنى الثّانى يبدو أكثر توافقا، و عبارات الآية تتلاءم معه أكثر، بالرغم من أن أعضاء الجسم و جوارحه إنّما تتحدث هنا بأمر اللّه تعالى و بإرادته، و المعنى فى الحالتين واحد تقريبا.

بحثان

الأوّل: حسن الظن و سوء الظن باللّه تعالى

توضح الآیات بشکل قاطع خطورة سوء الظن باللّه تعالی، و مآل ذلک إلی الهلاک و الخسران.

و بعکس ذلک فإنّ حسن الظن باللّه تعالی سبب للنجاة فی الدنیا و الآخرة.

و

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام یقول: «ینبغی للمؤمن أن یخاف اللّه خوفا کأنّه یشرف علی النّار، و یرجوه رجاء کأنّه من أهل الجنّة، إنّ اللّه تعالی یقول:

وَ ذلِکُمْ ظَنُّکُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّکُمْ ... ثم قال: إنّ اللّه عند ظن عبده، إن خیرا فخیر، و إن شرا فشر»[۳۴۲].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۵

و

روی عن الصادق علیه السّلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: أنّ اللّه إذا حاسب الخلق یبقی رجل قد فضلت سیئاته علی حسناته، فتأخذه الملائکة إلی النّار و هو یلتفت، فیأمر اللّه بردّه، فیقول له: لم التفت؟- و هو تعالی أعلم به- فیقول: یا ربّ ما کان هذا ظنّی بک، فیقول اللّه تعالی: یا ملائکتی! و عزّتی و جلالی و الائی و علوی و ارتفاع مکانی، ما ظن بی عبدی هذا ساعة من خیر قط، و لو ظنّ بی ساعة من خیر ما ودعته بالنّار، أجیزوا له کذبه و أدخلوه الجنّة». ثمّ أضاف رسول اللّه: لیس من عبد یظن باللّه عزّ و جلّ خیرا إلّا کان عند ظنّه به و ذلک قوله عزّ و جلّ: وَ ذلِکُمْ ظَنُّکُمُ الَّذِی ظَنَنْتُمْ بِرَبِّکُمْ أَرْداکُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخاسِرِینَ ۳۴۳].

الثّانی: الشهود فی محکمة القیامة

عند ما تقول: إنّ جمیع الناس سیحاکمون فی العالم الآخر، فقد یتبادر إلی الذهن أنّ المحکمة هناک تشبه محاکم هذه الدنیا، إذ سیحضر کلّ فرد أمام القاضی و بیده ملفه، و ثمّة شهود فی القضیة، ثمّ یبدأ السؤال و الجواب قبل أن یصدر الحکم النهائی.

و قد أشرنا مرارا إلی أنّ الألفاظ سیکون لها مفهوم أعمق فی ذلک العالم بحیث یصعب أو یستحیل علینا تصوّر مدالیلها، لأننا سجناء هذه الدنیا و مقاییسها.

و لکن نستطیع- مع ذلک- أن نقترب من بعض حقائق العالم الآخر من خلال ما نستفیده من الآیات القرآنیة و الأحادیث المرویة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و أئمّة المسلمین من أهل بیته علیهم السّلام، و تبیّن لنا آثار عن عظمة و عمق الحیاة فی ذلک العالم و محکمة یوم البعث، و لو بشکل إجمالی.

فمثلا عند ما یقال: «میزان الأعمال» قد ینصرف الذهن إلی المعنی الذی نتصوّر فیه أعمالنا فی ذلک الیوم خفیفة أو ثقیلة، حیث توزن فی میزان ذی کفتین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۶

و لکن عند ما نقرأ فی روایات المعصومین علیهم السّلام أنّ أمیر المؤمنین علی علیه السّلام هو میزان الأعمال، بمعنی أنّ قیمة الأعمال و شخصیة الأفراد ستقاس بمقیاس یکون مرکزه شخصیا الإمام العظیم و بمقدار مشابهة الإنسان لسلوک هذا الإمام العظیم و اقترابه منه سیکون له وزن أکثر، و بمقدار بعده عنه سیکون خفیفا فی میزان أعماله و حسابه.

و من خلال هذا المعنی نفهم ماذا یعنی میزان الأعمال هناک.

و فی مسألة «الشهود» فإنّ الآیات القرآنیة تکشف لنا الستار- کذلک- عن حقائق اخری، إذ یتبیّن أنّ مفهوم الشهود هناک یختلف عن شهود محاکم هذه الدنیا.

و فی قضیة الشهود- بالذات- نستفید من آیات القرآن الکریم أنّ هناک ستة أنواع من الشهود فی تلک المحکمة:

۱- أنّ أول الشهود و أعلاهم شأنا هو الذات الإلهية الطاهرة: وَ ما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَ ما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۳۴۴].

إنّ شهادة اللّه تكفى لكل شىء، إلّا أنّ مقتضى اللطف الإلهى و العدالة الربوبية تستوجب أن يضع تعالى شهودا آخرين.

۲- الأنبياء و الأوصياء: يقول القرآن الكريم: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً[۳۴۵].

و نقرأ

فى حديث ورد فى (الكافى) عن الإمام الصادق عليه السّلام حول نزول هذه الآية و هو قوله عليه السّلام: «نزلت فى أمّة محمّد خاصة، فى كلّ قرن منهم إمام منّا، شاهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۷

عليهم و محمّد شاهد علينا»[۳۴۶].

۳- شهادة اللسان و اليد و الرجل و العين و الاذن: كما فى قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۳۴۷].

و من الآية التى نحن بصددها نستفيد أنّ العين و الأذن هما من قائمة الشهود أيضا، و نستفيد كذلك من بعض الرّوايات أنّ كلّ أعضاء الجسم ستقوم بدورها بالشهادة على الأعمال التى قامت بها[۳۴۸].

۴- شهادة الجلود: لقد تحدثت الآيات التى نحن بصددها عن هذا الموضوع بصراحة، بل و أضافت أنّ المذنبين لم يكونوا يتوقعون أن تشهد عليهم جلودهم، فخاطبوها بالقول: لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا؟ فيأتى الجواب من جلودهم: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۳۴۹].

۵- الملائكة: يقول تعالى: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ[۳۵۰]. و مفهوم الآية الكريمة أنّ كلّ إنسان يحشر إلى القيامة، يكون معه ملك يسوقه نحو الحساب و تشهد الملائكة عليه.

۶- الأرض: إنّ الأرض التى تحت أقدامنا، و تؤمن لنا مختلف البركات و النعم، تقوم أيضا بمراقبتنا بدقّة، و تحدّث فى ذلك اليوم ما كان منّا عليها، يقول تعالى: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۳۵۱].

۷- شهادة الزمان: بالرغم من عدم إشارة نصوص الآيات القرآنية إلى هذه الشهادة، و لكن نستفيد هذه الشهادة من أحاديث الأئمة المعصومين عليهم السّلام،

فعن أمير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۸

المؤمنين على بن أبى طالب قوله عليه السّلام: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم! أنا يوم جديد، و أنا عليك شهيد، فقل فىّ خيرا و اعمل فىّ خيرا، أشهد لك يوم القيامة»[۳۵۲].

ما أعجب هذه الشهود التى تشهد علينا فى تلك المحكمة! إنّه خليط عجيب من الملائكة و أعضاء الجسم و الأنبياء و الأوصياء، و الأعظم من ذلك هى شهادة اللّه تبارك و تعالى علينا الذى يسمع و يرى و يحيط علمه بكل شىء، فيراقب أعمالنا و يشهد علينا ... لكنّا لا نبالى!!؟

ألا يكفى الإيمان بوجود مثل هؤلاء الشهود أن يسير الإنسان فى طريق الحق و العدالة و التقوى و النزاهة!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۸۹

الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۴ الى ۲۵]

اشارة

فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (۲۴) وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (۲۵)

التّفسير

قرناء السوء:

فى أعقاب البحث السابق الذى تحدثت فى الآيات الكريمة عن مصير «أعداء اللّه» جاءت الآيتان أعلاه لتشيران إلى نوعين من العقاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء فى الدنيا و الآخرة.

يقول تعالى: فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ۳۵۳] و لا يمكنهم الخلاص منها لأنّها مصيرهم سواء صبروا أو لم يصبروا.

«مثوى» من «ثوى» على وزن «هوى» و تعنى المقر و محل الاستقرار.

و الآية الكريمة هذه تشبه الآية (۱۶) من سورة «الطور» حيث قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۰

اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ

و كذلك تشبه الآية (۲۱) من سورة «إبراهيم» حيث قوله تعالى: سَواءٌ عَلَيْنا أَ جَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ

و للتأكيد على هذا الأمر تضيف الآية: وَ إِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَما هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ

«يستعتبون» مأخوذه فى الأصل من (العتاب) و تعنى إظهار الخشونة، و مفهوم ذلك أنّ الشخص المذنب سيستسلم للوم صاحب الحق كى يعفو عنه و يرضى عنه، لذلك فإنّ كلمة (استعتاب) تعنى الاسترضاء و طلب العفو[۳۵۴].

ثم تشير الآية الثانية إلى العذاب الدنيوى لهؤلاء فتقول: وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ حيث قام هؤلاء الجلساء بتصوير المساوئ لهم حسنات.

«قيضنا» من (قيض) على وزن (فيض) و تعنى فى الأصل قشرة البيضة الخارجية، ثمّ قيلت لوصف الأشخاص الذين يسيطرون على الإنسان بشكل كامل، كسيطرة القشرة على البيضة.

و هذه إشارة إلى أنّ أصدقاء السوء و الرفاق الفاسدين يحيطون بهم من كل مكان، حيث يصادرون أفكارهم، و يهيمنون عليهم بحيث يفقدون معه قابلية الإدراك و الإحساس المستقل، و عندها ستكون الأمور القبيحة السيئة جميلة حسنة فى نظرهم، و بذلك ينتهى الإنسان إلى الوقوع فى مستنقع الفساد و تغلق بوجهه أبواب النجاة.

فى بعض الأحيان تستخدم كلمة «قيضنا» لتبديل شىء مكان شىء آخر، و وفقا لهذا المعنى سيكون مقصود الآية، هو أنّنا سنأخذ منهم الأصدقاء الصالحين و نسلب منهم رفاق الخير، لنبدلهم بأصدقاء السوء و القرناء الفاسدين.

لقد ورد فهذا المعنى بشكل أوضح فى الآيتين (۳۶- ۳۷) من سورة «الزخرف»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۱

فى قوله تعالى: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ التمعّن بالمجتمعات الفاسدة و الفئات المنحرفة الضالة ينتهى بنا- بسهولة- إلى اكتشاف آثار أقدام الشياطين فى حياتهم، إذ يحاصرهم رفاق السوء و قرناء الشر من كلّ جانب و صوب، و يسيطرون على أفكارهم و يقلبون لهم الحقائق.

قوله تعالى: ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ لعله إشارة لإحاطة الشياطين من كل جانب و تزيين الأمور لهم.

و قيل أيضا فى تفسيرها أنّ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى لذات الدنيا و زخارفها، وَ ما خَلْفَهُمْ هو إنكار القيامة و البعث.

و قد يكون ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى وضعهم الدنيوى وَ ما خَلْفَهُمْ إلى المستقبل الذى سينتظرهم و أبناءهم، إذ عادة ما يرتكب هذه الجرائم تحت شعار تأمين المستقبل.

و بسبب هذا الوضع تضيف الآية بأن الأمر الالهى صدر بعذابهم و ان مصيرهم هو مصير الأمم السالفة: وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ ۳۵۵].

ثم تنتهى الآية بقوله تعالى: إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ

إنّ هذه الآيات تعتبر- فى الواقع- الصورة المقابلة و الوجه الآخر، و سوف تتحدث الآيات القادمة عن المؤمنين الصالحين المنصورين فى الدنيا و الآخرة بالملائكة التى تبشرهم بكل خير، و تكشف عنهم الغم و الحزن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۲

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (۲۶) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۷) ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ (۲۸) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (۲۹)

التّفسير

الضجيج فى مقابل صوت القرآن!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الماضين كقوم عاد و ثمود، و تحدثت عن جلساء السوء و قرناء الشر، تتحدث المجموعة التى بين أيدينا من الآيات البينات عن جانب من جوانب الانحراف لمشركى عصر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لقد ورد فى بعض الرّوايات أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ما أن يرفع صوته فى مكّة ليتلو القرآن بصوته الجميل و أسلوبه الخاشع، حتى كان المشركون يقومون بإبعاد الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۳

عنه و يقولون: أطلقوا الصفير و ارفعوا أصواتكم بالشعر حتى لا تسمعوا كلامه ۳۵۶]! القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى فى هذه الآيات، حيث يقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ

هذا الأسلوب فى مواجهة تأثير الحق و نفوذه بالرغم من كونه أسلوبا قديما، إلّا أنّه يستخدم اليوم بشكل أوسع و أخطر لصرف أفكار الناس و خنق أصوات المنادين بالحق و العدالة، فهؤلاء يقومون بملء المجتمع بالضوضاء حتى لا يسمع صوت الحق. و مع الالتفات الى أن معنى كلمة «و الغوا» المشتقة من «لغو» لها معنى واسع يشمل أى كلام فارغ، ندرك جيدا سعة هذا المنهج المتبع.

فتارة يتمّ اللغو بواسطة الضجة و الضوضاء و الصفير.

و اخرى بواسطة القصص الكاذبة و الخرافية.

و ثالثة بواسطة قصص الحب و العشق المثيرة للشهوات! و قد يتجاوز مكرهم مرحلة القول فيقومون بتأسيس مراكز خاصة بالفساد و أنواع الأفلام المبتذلة و المطبوعات المنحرفة الرخيصة،، و الألاعيب السياسية الكاذبة و المثيرة، إنّهم يعمدون إلى الاستعانة بأى أسلوب يؤدى إلى حرف أفكار الناس و اهتماماتهم عن الحق.

و الانكى من ذلك طرح بعض البحوث و القضايا الفارغة التافهة فى الاوساط العلمية لتثأر حولها ضجة تهيمن على اهتمامات الناس و وعيهم، و تصدّهم عن التفكير بالقضايا الأساسية و الأمور المهمّة.

لكن .. هل استطاع المشركون التغلّب على القرآن الكريم بأعمالهم هذه؟! لقد عمّهم الفناء و ذهبت أساليبهم الشريرة ادراج الرياح، و امتد القرآن و اتسع فى تأثيره حتى استوعب أرجاء الدنيا.

الآية الأخرى تشير إلى عذاب هؤلاء فتقول: فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذاباً شَدِيداً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۴

خاصة أولئك الذين يمنعون الناس من سماع آيات اللّه.

و هذا العذاب يمكن أن يشملهم فى الدنيا بأن يقتلوا على أيدى أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو يقعوا فى أسرهم، و قد يكون فى الآخرة، أو يكون العذاب فى الدنيا و الآخرة معا.

قوله تعالى: وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ

فهل لهؤلاء عمل أسوأ من الكفر و الشرك و إنكار آيات اللّه و منع الناس و صدّهم عن سماع كلام الحق؟

لكن لماذا أشارت الآية إلى «أسوأ» بالرغم من أنّهم يرون جزاء كلّ أعمالهم؟

قد يكون هذا التعبير للتأكيد على موضوع الجزاء و التهديد به بيان حديثه، و فيه إشارة لمنعهم الناس عن سماع كلام النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

كما أنّ قوله تعالى: كانُوا يَعْمَلُونَ دليل على أنّه سيتمّ التأكيد على الأعمال التى كانوا يقومون بها دائما، و بعبارة اخرى: إنّ ما يعملونه لم يكن أمرا مؤقتا بل كانت سنتهم و سيرتهم الدائمة.

و للتأكيد على قضية العذاب، يأتى قوله تعالى: ذلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللَّهِ النَّارُ[۳۵۷].

و هذه النّار ليست مؤقتة زائلة بل: لَهُمْ فِيها دارُ الْخُلْدِ نعم، فذلك: جَزاءً بِما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ ۳۵۸].

إنهم لم ينكروا الآيات الإلهية و حسب، بل منعوا الآخرين من سماعها.

«يجحدون» من «جحد» على وزن «عهد» و تعنى فى الأصل كما يرى «الراغب» فى «المفردات»: إلغاء و نفى شىء ثابت فى القلب، أو إثبات شىء منفى فى القلب. أو هو بعبارة اخرى: إنكار الحقائق مع العلم بها، و هذا من أسوأ أنواع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۵

الكفر (راجع نهاية الآية (۱۴) من سورة النمل).

إنّ الإنسان عند ما يصاب ببلاء معين، خاصة إذا كان بلاء شديدا، فإنّه يفكر بمسببه الأصلى كى يعثر عليه و ينتقم منه، و أحيانا يود تقطيعه قطعة قطعة إذا استطاع ذلك.

لذلك تشير الآية التالية إلى هذا المعنى الذى سيشمل الكفار و هم فى الجحيم فيقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانا مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ نَجْعَلْهُما تَحْتَ أَقْدامِنا لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ

إنّ أولئك كانوا ينهونا عن سماع قول النّبى و كانوا يقولون: إنّه ساحر مجنون، ثم كانوا يكثرون من اللغو حتى لا نسمع صوته و

كلامه، و بدلا عن ذلك كانوا يشغلوننا بأساطيرهم و أكاذيبهم.

أمّا الآن و قد فهمنا أن كلامه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هو روح الحياة الخالدة، و أنّ نغمات صوته حياة النفوس الميتة، و لكن «و لات ساعة ندم».

لا ريب أنّ المقصود من الجن و الإنس- فى الآية هم الشياطين، و الناس الذين يقومون بالغواية مثل الشياطين، و ليس هما شخصان معينان.

و لا مانع من تثنية الفعل عند ما يكون الفاعل مجموعتان، كما فى قوله تعالى:

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

قال بعض المفسّرين فى تفسير قوله تعالى: لِيَكُونا مِنَ الْأَسْفَلِينَ المقصود أنّ المضلين من الجن و الإنس سيكونون فى أسفل درك من الجحيم، و لكن الأظهر منه أنّ شدة غضبهم يدفعهم إلى وضع من أغواهم تحت أقدامهم ليركلونهم و يكونوا فى أدنى مقام فى مقابل ما كان لهم من مقام و مكانة عليا فى الحياة الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۶

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۰ الى ۳۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (۳۰) نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ (۳۱) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (۳۲)

التّفسير

نزول الملائكة على المؤمنين الصامدين:

يعتمد القرآن الكريم فى أسلوبه وضع صور متقابلة و متعارضة للحالات التى يتناولها كى يوضحها بشكل جيد من خلال المقايسة و المقارنة فبعد أن تحدث عن المنكرين المعاندين الذين يصدون عن آيات اللّه، و أبان جزاءهم و عقوبتهم، بدأ الآن (فى الصورة المقابلة) فى الحديث عن المؤمنين الراسخين فى إيمانهم، و أشار إلى سبعة أنواع من الثواب الذى يشملهم جزاء و مثوبة لهم.

يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۷

إنّه تعبير جميل و شامل يتضمّن كلّ الخير و الصفات الحميدة، فأولا يوجّه القلب إلى اللّه و يوثق الإيمان به تعالى و يقويه، ثمّ سيطرة هذا الإيمان و هيمنته على كلّ مرافق الحياة، و ثبات السير فى هذا الطريق، طريق الاستقامة[۳۵۹].

هناك الكثير من الذين يدّعون محبة اللّه، إلّا أنّنا لا نرى الاستقامة واضحة فى عملهم و سلوكهم، فهم ضعفاء و عاجزون بحيث عند ما يشملهم طوفان الشهوة يودّعون الإيمان و يشركون فى عملهم، و عند ما تكون منافعهم فى خطر يتنازلون عن إيمانهم الضعيف ذلك.

ففى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه بعد أن تلا الآية قال: «قد قالها الناس ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها»[۳۶۰].

و

فى نهج البلاغة يفسّر الإمام على عليه السّلام هذه الآية بعبارات حيّة و ناطقة عميقة المعنى يقول عليه السّلام: «و قد قلتم «ربنا اللّه» فاستقيموا على كتابه، و على منهاج أمره، و على الطريقة الصالحة من عبادته، ثمّ لا تمرقوا منها، و لا تبتدعوا فيها، و لا تخالفوا عنها»[۳۶۱].

و فى مكان آخر نرى أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أجاب فى تفسير معنى الاستقامة

بقوله: «هى و اللّه ما أنتم عليه»[۳۶۲].

و هذا لا يعنى أنّ الاستقامة تختص بالولاية فقط، بل إنّ قبول قيادة أئمّة أهل البيت عليهم السّلام سيضمّن بقاء خط التوحيد، و الطريق الإسلامى الأصيل، و استمرار العمل الصالح، و هذا هو تفسيره عليه السّلام لمعنى الاستقامة.

و خلاصة القول أن قيمة الإنسان هى بالإيمان و العمل الصالح، و هذه القيمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۸

يتحدث عنها اللّه تبارك و تعالى بقوله: قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا.

لذلك

فقد روى أنّ رجلا جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فقال له: أخبرنى بأمر أعتصم به؟ فقال رسول اللّه: «قل ربّى اللّه ثمّ استقم».

ثم سأل الرجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم عن أخطر شىء ينبغى عليه أن يخشاه. فمسك رسول اللّه لسانه و قال: هذا[۳۶۳].

و الآن لنر ما هى المواهب الإلهية التى سيشمل من يتمسك بهذين الأصلين؟

القرآن الكريم يشير إلى سبع مواهب عظيمة تبشرهم ملائكة اللّه بها عند ما تهبط عليهم. ففى ظل الإيمان و الاستقامة يصل الإنسان إلى مرحلة بحيث تنزل عليه الملائكة و تعلمه.

فبعد البشارتين الأولى و الثانية و المتمثلتين بعدم (الخوف) و (الحزن) تصف الآية المرحلة الثّالثة بقوله تعالى: وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

و البشارة الرّابعة يتضمّنها قوله تعالى: نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِى الْآخِرَةِ فلن نترككم وحيدين، بل نعينكم فى الخير و تعصمكم عن الانحراف حتى تدخلوا الجنّة.

و البشارة الخامسة قوله تعالى: وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ أى فى الجنّة.

أمّا البشارة السادسة فلا تختص بالنعم المادية و ما تريدونه. بل الاستجابة إلى العطايا و المواهب المعنوية: وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ

أمّا البشارة السابعة و الأخيرة فهى أنّكم ستحلون ضيوفا لدى البارئ عزّ و جلّ و فى جنته الخالدة، و ستقدم لكم كلّ النعم تماما مثلما يتمّ الترحيب بالضيف العزيز من قبل المضيف: نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۳۹۹

ملاحظات

فى طيات هذه الآيات المبينة، و التعابير القرآنية القصيرة البليغة ذات المعانى الكبيرة، ثمّة ملاحظات دقيقة و لطيفة نقف عليها من خلال النقاط الآتية:

۱- هل نزول الملائكة على المؤمنين المستقيمين يتمّ أثناء الموت و الانتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر، كما يحتمل ذلك بعض المفسّرين، أم أن نزولهم يكون فى ثلاثة مواطن، عند (الموت) و عند (دخول القبر) و عند (الإحياء و البعث و النشور)، أو إنّ هذه البشائر تكون دائمة و مستمرة، و تتمّ بواسطة الإلهام المعنوى، حيث تستقر الحقائق فى أعماق المؤمنين بالرغم من أنّها فى لحظة

الموت و لحظة الحشر تکون بشائر الملائکة أجلی و أوضح؟

یبدو أن المعنی الأخیر أنسب، و ذلک لعدم وجود قید أو شرط فی الآیة.

و یؤید ذلک أنّ الملائکة تقول فی البشارة الرّابعة: نَحْنُ أَوْلِیاؤُکُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ فِی الْآخِرَةِ و هذا دلیل علی أنّ المؤمنین من ذوی الاستقامة یسمعون هذا الکلام من الملائکة فی الدنیا عند ما یکونون أحیاء، إلّا أنّ ذلک لا یکون باللسان و اللفظ، بل یسمعون ذلک بأذان قلوبهم بما یشعرون به من هدوء و استقرار و سکینة و إحساس کبیر بالراحة عند المشاکل و الصعاب.

صحیح أنّ بعض الروایات قیدت نزول الملائکة و حضورهم عند الموت، إلّا أن ثمّة روایات اخری إشارات إلی معنی أوسع یشمل الحیاة أیضا[۳۶۴].

و یمکن أن نستنتج من مجموع الروایات أنّ ذکر خصوص الموت هو بعنوان المصداق لهذا المفهوم الواسع، و نعرف هنا أنّ التفاسیر الواردة فی الروایات غالبا ما توضح المصادیق.

إنّ بشائر الملائکة ستشع فی أرواح المؤمنین و أعماق ذوی الاستقامة حتی تهبهم القوّة و القدرة علی مواجهة أعاصیر الحیاة و مشقاتها، و تثبت أقدامهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۰

السقوط و الانحراف.

۲- قال بعض المفسّرین فی التفریق بین الخوف و الحزن، أنّ (الخوف) یختص بالحوادث التی تثیر القلق لدی الإنسان لکنّها تقع فی المستقبل، فیبقی الإنسان قلقا حذرا إزاءها و منتظر وقوعها. أمّا (الحزن) فهو ممّا یختص بالحوادث المؤسفة التی وقعت فی الماضی.

و علی أساس هذا المعنی یأتی خطاب الملائکة: أن لا تقلقوا من الصعوبات التی تنتظرکم، سواء فی هذه الدنیا أو عند الموت أو فی مراحل البعث، و لا تحزنوا علی ذنوبکم الماضیة أو الأبناء الذین سیبقون بعدکم.

و تقدیم (الخوف) علی (الحزن) قد یکون بسبب أنّ المؤمن أکثر ما یکون قلقا إزاء حوادث المستقبل، خاصة ما یتعلق منها بالحشر و الجزاء و الیوم الآخر.

و قال البعض أیضا: إنّ (الخوف) من العذاب، بینما (الحزن) علی ما فات من الثواب، و الملائکة تقوم بزرع الأمل عندهم فی الحالتین بواسطة الألطاف الإلهیة و المواهب و العطایا الربانیة.

۳- قوله تعالی: کُنْتُمْ تُوعَدُونَ هو تعبیر جامع تتداعی فیه کلّ صفات الجنّة فی ذهن المؤمنین ذوی الاستقامة، بمعنی أنّ الجنّة کلّها و بکل ما سمعتم عنها و عن نعیمها مسخّرة لکم، و من حورها و قصورها إلی مواهبها الکثیرة و عطایاها المعنویة التی لا یدرکها الإنسان، و لم تخطر ببال أحد: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِیَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْیُنٍ ۳۶۵].

۴- فی البشارة الرّابعة تعرّف الملائکة نفسها بأنّها تلتزم جانب المؤمنین فی الدنیا و الآخرة، تقوم بنصرهم و إنزال السکینة علیهم، و هی صورة تقابل الآیات السابقة من هذه السورة المبارکة عند ما وصفت أعداء اللّه من الکفار من المعاندین و المکذبین، و کیف أنّهم یتأوهون من عذاب النّار و یمتلئون غیظا و غضبا علی من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۱

أضلّهم فی الحیاة الدنیا، و یریدون الانتقام منهم.

۵- الفرق بین البشارة الخامسة و السادسة، أنّ فی الخامسة یقال لهم: إنّ ما ترغبونه و تریدونه موجود هناک، فإنّ مجرّد رغبتکم فی شیء ما یتزامن مع مثوله أمامکم.

و لکن قوله تعالی فی تَشْتَهِی أَنْفُسُکُمْ یستخدم للإشارة إلی الرغبات و اللذات المادیة، و إنّ قوله تعالی فی ما تَدَّعُونَ یشیر إلی ما تریدونه من المواهب المعنویة و العطایا و الملذات الروحانیة.

و خلاصة الکلام: أنّ کلّ شیء موجود هناک، سواء کان ماديا أم معنويا.

۶- «نزل» تعنی کما أشرنا سابقا، ما یقدمه المضیف إلی ضیفه، بینما فسّرها البعض بأوّل ما یقدّم إلی الضیف. و التعبیر فی کلّ الأحوال یکشف عن أن جمیع المؤمنین ذوی الاستقامة هم ضیوف اللّه و نزل رحمته و جنته و مائدته.

۷- إنّ التدقیق فی هذا البشائر و وعود الحق من قبل البارئ جلّ و علا، و التی تعطی للمؤمنین بواسطة ملائکة اللّه الکرام، سوف تحرک فی وجود الإنسان الدوافع نحو الإیمان و الاستقامة، تجعل الروح البشریة تتعشق السیر فی هذا الطریق.

و فی ظل هذه الأجواء المضیئة بالطاعة و البشری، استطاع الإسلام العزیز أن یصنع من عرب الجاهلیة مجموعة نموذجیة لا تتوانی عن الإیثار و التضحیة بالغالی و العزیز فی سبیل منعة الإسلام و المسلمین و انتصارهم علی کلّ المشاکل و العقبات.

و ینبغی أن ننتبه هنا إلی أنّ «الاستقامة» مثلها مثل «العمل الصالح» هی ثمرة لشجرة الإیمان، إذ الإیمان یدعو الإنسان إلی الاستقامة متی ما نفذ إلی عمق الإنسان، و تأسست قواعد وجوده النفسی علی التقوی، مثلما تعمق الاستقامة فی طریق الحق و الإیمان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۲

و هکذا یکون لهذین العاملین أثران متبادلان متقابلان.

و الذی نستفیده، من الآیات القرآنیة الأخری، أنّ الإیمان و الاستقامة لا یجلبان البرکات المعنویة و الروحیة و حسب، و إنّما یرفل الإنسان من خلالهما بالبرکات المادیة التی تسود عالمنا هذا، إذ نقرأ فی الآیة (۱۶) من سورة الجن قول الله تعالی: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْناهُمْ ماءً غَدَقاً و ستشملهم فیما یشملهم سنوات ملأی بالخیر و العطاء و البرکة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۳

الآیات [سورة فصلت (۴۱): الآیات ۳۳ الی ۳۶]

اشارة

وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَی اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِی مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۳۳) وَ لا تَسْتَوِی الْحَسَنَةُ وَ لا السَّیِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِی بَیْنَکَ وَ بَیْنَهُ عَداوَةٌ کَأَنَّهُ وَلِیٌّ حَمِیمٌ (۳۴) وَ ما یُلَقَّاها إِلاَّ الَّذِینَ صَبَرُوا وَ ما یُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِیمٍ (۳۵) وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۳۶)

التّفسیر

ادفع السیئة بالحسنة:

ما زالت هذه المجموعة من الآیات الکریمة تتحدث عن الصورة الأخری، عن المؤمنین الذین یتبعون أحسن القول.

یقول تعالی: وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعا إِلَی اللَّهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِی مِنَ الْمُسْلِمِینَ

و بالرغم من أنّ الآیة استفهامیة، إلّا أنّ الاستفهام هنا إنکاری، بمعنی أنّه لیس هناک أفضل من کلام الشخص الذی یدعو إلی اللّه و ینادی بالتوحید، ثمّ یؤکّد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۴

دعوته اللفظیة هذه و یقرنها بالفعل و العمل الصالح.

إنّ اعتقاد هؤلاء بالإسلام و تسلیمهم للباری جلّ و علا، یدعم عملهم الصالح.

إنّ الآية الكريمة هذه ترسم ثلاث صفات لذى القول الحسن هى: الدعوة إلى اللّه، و العمل الصالح، و التسليم، حيال الحق.

إنّ أمثال هؤلاء فضلا عن تمسكهم بالأركان الإيمانية الثلاثة (الإقرار باللسان، و العمل بالأركان، و الإيمان بالقلب) فإنّهم تمسكوا بركن رابع هو التبليغ و الدعوة و نشر دين الحق، و إقامة الدليل على أصول الدين، و دفع آثار الشرك و التردد من قلوب عباد اللّه.

إنّ هؤلاء المنادين، بصفاتهم الأربع، يعتبرون أفضل المنادين و الدعاة فى العالم.

و برغم ما ذهب إليه بعض المفسّرين من قولهم بانطباق الصفات السابقة على شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو هو و الأئمّة الذين يدعون إلى الحق، أو المؤذنين خاصة. لكن من الواضح أنّ للآية مفهوما أوسع بحيث يشمل كلّ المنادين بالتوحيد ممّن تشملهم الصفات المذكورة. بالرغم من أن أفضل مصداق لذلك هو الرسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم [خاصة فى فترة نزول الآية] ثمّ يأتى بعد ذلك الأئمّة من أهل البيت عليهم السّلام، و بعدهم جميع العلماء و المجاهدين فى طريق الحق، و الآمرين بالمعروف و الناهين عن المنكر، و الداعين للإسلام من أى طائفة كانوا.

إنّ هذه الآية فخر عظيم و عزّ كبير لكل أولئك، كى تتقوى عزائمهم و يربط على قلوبهم.

و إذا قيل بأن الآية مدح لبلال الحبشى المؤذن الخاص لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فذلك بسبب أنّه أطلق نداء التوحيد فى فترة من أحلك الفترات و أوحشها فى تأريخ الدعوة الإسلامية، و عرّض روحه للخطر.

ثم كمّل هذه الأوصاف بإيمانه الراسخ، و استقامته التى لا نظير لها، و أعماله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۵

الصالحة، و الاستمرار على نهج الإسلام الصحيح.

أمّا قوله تعالى: وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ فللمفسّرين فيه قولان:

الأوّل: أنّ (قال) هنا من (قول) و تعنى الاعتقاد، و يكون المعنى: الذى عنده الاعتقاد الراسخ بالإسلام.

الثّانى: أنّ (قول) بمعنى الحديث و التحدّث، و حين ذلك يكون المعنى: الذى يفتخر و يتباهى بالدين الإلهى، و ينادى بصوت مرتفع إننى من المسلمين.

المعنى الأوّل يبدو أكثر قبولا بالرغم من أنّ مفهوم الآية يتحمل المعنيين.

بعد بيان الدعوة إلى اللّه و أوصاف الدعاة إلى اللّه، شرحت الآيات أسلوب الدعوة و طريقتها، فقال تعالى: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ[۳۶۶].

فى الوقت الذى لا يملك فيه أعداؤكم سوى سلاح الافتراء و الاستهزاء و السخرية و الكلام البذىء و أنواع الضغوط و الظلم، و يجب أن يكون سلاحكم- أنتم الدعاة- التقوى الطهر و قول الحق و اللين و الرفق و المحبّة.

إنّ المذهب الحق يستفيد من هذه الوسائل، بعكس المذاهب المصطنعة الباطلة.

و بالرغم من أنّ (الحسنة) و (السيئة) تنطويان على مفهومين واسعين، إذ تشمل الحسنة كلّ إحسان و جميل و خير و بركة، و السيئة تشمل كلّ انحراف و قبح و عذاب، إلّا أنّ الآية تقصد ذلك الجانب المحدّد من السيئة و الحسنة، الذى يختص بأساليب الدعوة.

لكن بعض المفسّرين فسّر الحسنة بمعنى الإسلام و التوحيد، و السيئة بمعنى الشرك و الكفر.

و قال البعض: (الحسنة) هى الأعمال الصالحة. و (السيئة) الأعمال القبيحة.

و هناك من قال: إنّ (الحسنة) هى الصفات الإنسانية النبيلة، كالصبر و الحلم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۶

و المداراة و العفو، بينما السيئة بمعنى الغضب و الجهل و الخشونة.

و لكن التّفسير الأوّل هو الأفضل حسب الظاهر.

فى حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال فى تفسير الآية أعلاه: «الحسنة التقية، السيئة الإذاعة»[۳۶۷].

و طبعا فان هـذا الحـديث الشـريف ناظر الى الموارد التى تكون فيها الاذاعة سببا فى إتلاف الطاقات و الكوادر الجيدة و افشاء الخطط للأعداء.

ثم تضيف الآية: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

ادفع الباطل بالحق، و الجهل و الخشونـة بالحلم و المـداراة، و قابل الإساءة بالإحسان، فلا ترد الإساءة بالإساءة، و القبح بالقبح، لأنّ هذا أسلوب من همّه الانتقام، ثمّ إنّ هذا الأسلوب يقود إلى عناد المنحرفين أكثر.

و تشير الآية فى نهايتها إلى فلسفة و عمق هذا البرنامج فى تعبير قصير، فتقول:

إنّ هذا التعامل سيقود إلى: فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ

إنّ ما يبيّنه القرآن هنا، مضافا إلى ما يشبهه فى الآية (۹۶) من سورة المؤمنين فى قوله تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ يعتبر من أهم و أبرز أساليب الدعوة، خصوصا حيال الأعداء و الجهلاء و المعاندين. و يؤيد ذلك آخر ما توصلت إليه البحوث و الدراسات فى علم النفس.

لأنّ كلّ من يقوم بالسيئة ينتظر الرد بالمثل، خاصة الأشخاص الـذين هم من هـذا النمط، و أحيانا يكون جواب السيئة الواحـدة عـدّة سيئات. أمّا عنـد ما يرى المسـىء أنّ من أساء إليه لا يرد السيئة بالسيئة و حسب، و إنّما يقابلها بالحسنة، عنـدها سيحدث التغيير فى وجوده، و سيؤثر ذلك على ضميره بشدّة فيوقظه، و ستحدث ثورة فى أعماقه، سيخجل و يحس بالحقارة و ينظر بعين التقدير و الأكبار إلى من أساء إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۷

و هنا ستزول الأحقاد و العداوات من الداخل و تترك مكانها للحبّ و المودّة.

و من الضـرورى أن نشـير هنا إلى أنّ هذا الأمر لا يمثل قانونا دائما، و إنّما هو صـفة غالبة، لأنّ هناك أقلية تحاول أن تسـىء الاستفادة من هذا الأسلوب، فما لم ينزل بها ما تستحق من عقاب فإنّها لا تترك أعمالها الخاطئة.

و لكن فى نفس الوقت الـذى نسـتخدم العقوبة و الشدة ضدّ هذه الأقلية، علينا أن لا نغفل عن أنّ القانون المتحكم بالأكثرية هو قانون: «ادفع السيئة بالحسنة».

لـذلك رأينا أنّ رسول الإسـلام صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم و القادة من أئمة أهل البيت عليهم السّـلام كانوا يسـتفيدون دائما من هذا الأسلوب القرآنى العظيم، ففى فتح مكّة مثلا كان الأعداء- و حتى الأصدقاء- ينتظرون أن تسفك الدماء و تؤخذ الثارات من الكفار و المشـركين و المنافقين الـذين أذاقوا المؤمنين ألوان الأذى و العذاب فى مكّة و خارجها، من هنا رفع بعض قادة الفتح شـعار «اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، اليوم أذلّ اللّه قريشا» لكن ما كان من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تنفيذا لأخلاقية «ادفع السيئة بالحسـنة» إلّا أن عفا عن الجميع و أطلق كلمته المشـهورة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ثمّ أمر صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم أن يستبدل الشعار الانتقامى بشعار آخر يفيض إحسانا و كرما هو: «اليوم يوم المرحمة، اليوم أعزّ اللّه قريشا»[۳۶۸].

لقـد أحدث هذا الموقف النبوى الكريم عاصـفة فى أرض مشـركى مكّة حتى أنّه على حدّ وصف كتاب اللّه تعالى بدأوا: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً[۳۶۹].

لكن برغم ذلـك، نرى أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم اسـتثنى بعض الأشـخاص من العفو العام هـذا، كما نقله أصـحاب السـيرة، لأنّهم كانوا خطرين و لم يسـتحقوا العفو النبوى الكريم الـذى عبّر فيه رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم عن خلق الإسـلام و منطق النّبيين حينما

قال: «لا أقول لكم إلّا كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۸

أرحم الراحمين»[۳۷۰].

«ولى» هنا بمعنى الصديق. و (حميم) تعنى فى الأصل الماء الحار المغلى، و إذا قيل لعرق جسم الإنسان (حميم) فذلك لحرارته، و لهذا السبب يطلق اسم «الحمّام» على أماكن الغسل، و يقال أيضا للأصدقاء المخلصين و المحبين للشخص «حميم» و الآية تقصد هذا المعنى.

و ضرورى أن نشير إلى أنّ قوله تعالى: كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ حتى و إن لم تكن تعنى أنّ الشخص لم يكن كذلك حقا، إلا- أنّ ظاهره سيكون كذلك على الأقل.

إنّ هذا الأسلوب من التعامل مع المعارضين و الأعداء ليس بالأمر العادى السهل، و الوصول إليه يحتاج إلى بناء أخلاقى عميق، لذلك فإنّ الآية التى بعدها تبين الأسس الأخلاقية لمثل هذا التعامل فى تعبير قصير ينطوى على معانى كبيرة، حيث يقول تعالى: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا[۳۷۱].

و كذلك: وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ

على الإنسان أن يجاهد نفسه مدّة طويلة حتى يستطيع أن يسيطر على غضبه، يجب أن تكون روحه قوية فى ظلّ الإيمان و التقوى حتى لا يستطيع أن يتأثر بسرعة و بسهولة بإيذاء الأعداء، و لا يطغى عنده حب الانتقام، فتلزمه الروح الواسعة و انشراح الصدر بالمقدار الكافى، حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الكمال بحيث يقابل السيئات بالإحسان. و عليه أن يتجاوز مرحلة العفو ليصل إلى منزلة «دفع السيئة بالحسنة» و أن يحتسب كلّ ذلك فى سبيل اللّه تعالى بغية تحقيق الأهداف المقدّسة.

و هنا أيضا- كما تلاحظون- تواجهنا قضية «الصبر» بوصف هذه الخصلة الأساس المتين لكل الملكات الأخلاقية الفاضلة، و هى شرط فى التقدم المعنوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۰۹

و المادى ۳۷۲].

إنّ هناك- بلا- شك- موانع تحول دون الوصول إلى هذا الهدف العظيم، و إنّ وساوس الشيطان تمنع الإنسان من تحقيق ذلك بوسائل مختلفة، لذلك نرى الآية الأخيرة تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بوصفه الأسوة و القدوة فتقول له: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۳۷۳].

«نزغ» تعنى الدخول فى عمل ما لإفساده، و لهذا السبب يطلق على الوساوس الشيطانية «نزغ» و هذا التحذير بسبب ما يراود ذهن الإنسان من مفاهيم مغلوطة خطرة، إذ يقوم بعض أدعياء الصلاح بتوجيه النصائح على شاكلة قولهم: لا يمكن إصلاح الناس إلّا بالقوّة. أو يجب غسل الدم بالدم. أو الترحم على الذئب ظلم للخراف و أمثال ذلك من الوساوس التى تنتهى إلى مقابلة السيئة بالسيئة.

القرآن الكريم يقول: إيّاكم و السقوط فى مهاوى هذه الوساوس، و لا تلجأوا إلى القوّة إلّا فى موارد معدودة، و عند ما يواجهكم أمثال هذا الكلام فاستعينوا باللّه و اعتمدوا عليه لأنّه يسمع الكلام و يعلم النيات.

و أخيرا، تتضمّن الآية الدعوة إلى الاستعاذة باللّه على مفهوم واسع، و ما ذكر هو أحد المصاديق لذلك.

ملاحظتان

أوّلا: برنامج الدعاء إلى اللّه

لقد تضمّنت الآيات الأربع- أعلاه- أربعة بحوث بالنسبة إلى كيفية الدعوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۰

إلى اللّه تعالى. و الخطوات الأربع هى:

أوّلا: البناء الذاتى للدعاة من حيث الإيمان و العمل الصالح.

ثانيا: الاستفادة من أسلوب «دفع السيئة بالحسنة».

ثالثا: تهيئة الأرضية الأخلاقية لإنجاز هذا الأسلوب و العمل به.

رابعا: رفع الموانع من الطريق و محاربة الوساوس الشيطانية.

لقد قدّم لنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام خير أسوة و قدوة فى تنفيذ هذا البرنامج و الالتزام به، و الالتزام بهذا البرنامج يعتبر أحد الأسباب التى أدّت بالإسلام فى ذلك العصر المظلم الى الاتساع و الانتشار.

و اليوم يشهد علم النفس العديد من البحوث و الدراسات حول وسائل التأثير على الآخرين، إلّا أنّها تعتبر شيئا تافها فى مقابل عظمة الآيات أعلاه، خصوصا و أن البحوث هذه عادة ما تتعامل مع ظواهر الإنسان و تستهدف الكسب السريع العاجل و لو من خلال التمويه و الخداع، لكن البرنامج القرآنى يخوض فى أعماق النفس البشرية و يؤسس قواعد تأثيره على مضمون الإيمان و التقوى.

و اليوم، ما أحلى أن يلتزم المسلمون ببرنامج دينهم، و يعمدون إلى نشر الإسلام فى عالم متلهف إلى قيم السماء.

أخيرا تنهى هذه الفقرة بإضاءة نبوية نقتبسها عن تفسير «على بن إبراهيم» الذى ورد فيه: «أدّب اللّه نبيّه فقال: وَ لا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ قال: ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك، حتى يكون الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ [۳۷۴].

ثانيا: الإنسان فى مواجهة عواصف الوسواس:

ثمّة منعطفات صعبة فى حياة المؤمنين يمكن فيها الشيطان، و يحاول أن ينزغ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۱

و يحيد بالإنسان عن طريق السعادة و كسب رضا اللّه تعالى.

و على الإنسان فى مقابل وسواس الشيطان أن يعتمد فى تجاوزها على اللّه، و إلّا فإنّه لا يستطيع ذلك لوحده، فعليه أن يتوكل على اللّه ليجتاز عقبات الطريق و مخاطره، و يتمسك بحبل اللّه المتين.

لقد ورد، فى الحديث أن شخصا أساء لآخر فى محضر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فثار الغضب فى قلبه و اشتعلت فيه هواجس الثار، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم».

فقال الرجل: أ مجنونا ترانى؟

فاستند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم إلى القرآن و تلا قوله تعالى: وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۳۷۵].

و هذه إشارة إلى أنّ ثورة الغضب من وساوس الشيطان، مثلما تعتبر ثورة الشهوة و الهوى من وسواسه أيضا.

و نقرأ فى كتاب «الخصال» أنّ أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام علّم أصحابه أربعمائة باب تنفع المسلمين فى الدين و الدنيا، من ضمنها

قوله عليه السّلام لهم: «إذا وساوس الشيطان إلى أحدكم فليستعذ باللّه و ليقل: آمنت باللّه مخلصا له الدين»[۳۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۲

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۳۷ الى ۳۹]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (۳۷) فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ (۳۸) وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۳۹)

التّفسير

السّجدة للّه تعالى:

تعتبر هذه الآيات بداية فصل جديد فى هذه السورة، فهى تختص بقضايا التوحيد و المعاد، و دلائل النبوة و عظمة القرآن، و هى فى الواقع مصداق واضح للدعوة إلى اللّه فى مقابل دعوة المشركين إلى الأصنام.

تبدأ أوّلا من قضية التوحيد، فتدعو الناس إلى الخالق عن طريق الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۳

الآفاق ۳۷۷]: وَ مِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ وَ النَّهارُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ فالليل و ظلمته للراحة، و النهار وضوءه للحركة.

و هذان التوأمان يقومان بإدارة عجلة حياة الناس بشكل متناوب و منظم، بحيث لو كان أحدهما دائميا أو استمر لمدة أطول، فستصاب جميع الكائنات بالفناء، لذا فإنّ الحياة تنعدم على سطح القمر حيث تعادل لياليه (۱۵) ليلة أرضية و نهاره بهذا المقدار أيضا.

إنّ لياليه المظلمة الباردة تجعل كلّ شىء جامدا، أمّا نهاره الطويل الحار فإنّه يحرق كلّ شىء، لذلك لا يستطيع الإنسان و كائنات أرضنا أن تعيش على القمر.

أمّا الشمس فهى مصدر كلّ البركات المادية فى منظومتنا، فالضوء و الحرارة و الحركة و نزول المطر، و نمو النباتات و نضج الفواكه، و حتى ألوان الورود الجميلة، كل ذلك يدين فى وجوده إلى الشمس.

القمر يقوم بدوره بإضاءة الليالى المظلمة، وضوءه دليل السائرين فى دروب الصحراء، و هو يجلب الخيرات بتأثيره على مياه البحار و حدوث الجزر و المد فيه.

و لعلّ البعض قام بالسجود لهذين الكوكبين السماويين و بعبادتهما بسبب الخيرات و البركات الآنفة الذكر، فتاهوا فى عالم الأسباب، و لم يستطيعوا الوصول إلى مسبّب الأسباب.

و لذلك نرى القرآن بعد هذا البيان يقول مباشرة: لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَ لا لِلْقَمَرِ وَ اسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۳۷۸].

فما ذا لا تتوجهوا بالسجود و العبادة إلى خالق الشمس و القمر؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۴

و لماذا تعبدون كائنات هى نفسها خاضعة لقوانين الخلقة و نظام الوجود، و لها شروق و غروب و تخضع التغييرات؟

إنّ السجود لا ـ ينبغى إلّا للّه خالق هذه الموجودات! إنّ خالق هذه الموجودات و مودع النظم و القوانين فيها لا يغرب و لا يأفل و لا تمتد يد التغيير إلى محضر كبريائه عزّ و جلّ.

و بهذا الشكل تنفى الآيات أحد الفروع الواسعة لانتشار الشرك و عبادة الأصنام المتمثلة فى عبادة الكائنات الطبيعية النافعة، فينبغى للجميع أن يبحثوا عن علة العلل و أن لا يتوقفوا عند المعلول، نعم ينبغى البحث عن خالق هذه الموجودات! إنّ هذه الآية تستدل- فى الواقع- على وجود الخالق الواحد عن طريق النظام الواحد الذى يتحكم بالشمس و القمر و الليل و النهار، و إن حاميته تعالى على هذه الموجودات تعتبر دليلا على وجوب عبادته.

قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فيه إشارة إلى ملاحظة مؤدّاها: إذا كنتم تريدون عبادة الخالق فعليكم إلغاء غيره من الشركاء فى العبادة، لأنّ عبادته لا تكون إلى جانب عبادة غيره.

و إذا لم يؤثر هذا الدليل المنطقى فى أفكار هؤلاء، و استمروا مع ذلك فى عبادة الأصنام و الموجودات الأخرى، و نسوا المعبود الحقيقى، فاللّه تعالى يخاطبهم بعد ذلك بقوله: فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ هُمْ لا يَسْأَمُونَ ۳۷۹].

فليس مهما أن لا تسجد مجموعة من الجهلة و الغافلين حيال جبروت اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۵

و ذاته المقدّسة الطاهرة، فهذا العالم الواسع ملىء بالملائكة المقرّبين الذين يركعون و يسجدون و يسبحون له دائما و لا يفترون أبدا.

ثم إنّ هؤلاء هم بحاجة إلى عبادة اللّه و لا يحتاج تعالى لعبادتهم، لأنّ فخرهم و كمالهم لا يتمّ إلّا فى ظل العبودية له سبحانه و تعالى.

و لقد ذكرنا أنّ الآيات أعلاه هى من آيات السجدة،، و ثمّة اختلاف بين فقهاء أهل السنة فى أنّ السجدة هل تكون واجبة بعد بداية الآية الأولى (تعبدون) أو أنّها تكون كذلك بعد تمام الآيتين (يسأمون)؟

ذهب الشافعى و مالك إلى الاحتمال الأول، بينما رجح آخرون كأبى حنيفة و أحمد بن حنبل الاحتمال الثّانى.

إلّا أنّ موقع السجدة الواجبة حسب اعتقاد علماء الإمامية، وفقا للرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام، هى الآية الأولى (تعبدون) و الآية الكريمة هى من آيات السجدة الواجبة فى القرآن الكريم.

و ضرورى أن نشير هنا إلى أنّ الواجب هو أصل السجدة، أمّا الذكر فهو مستحب، و نقرأ فى رواية أنّ أقل هذا الذكر فى السجدة هو القول:

«لا إله إلّا اللّه حقّا حقّا، لا إله إلا اللّه إيمانا و تصديقا، لا إله إلا اللّه عبودية و رقا سجدت لك يا ربّ تعبدا ورقا، لا مستنكفا و لا مستكبرا بل أنا عبد ذليل خائف مستجير»[۳۸۰].

نعود مرّة اخرى إلى آيات التوحيد التى تعتبر الأرضية للمعاد، و إذا كان الحديث قد شمل فى السابق الشمس و القمر و الآيات السماوية، فإنّ الحديث هنا يدور حول الآيات الأرضية.

يقول تعالى: وَ مِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ

هذه الأرض الميتة اليابسة الخالية من الحركة و آثار الحياة، أى قدرة حولتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۶

إلى نبض دائم يمور بالحياة و الحركة، إنّه الماء، و إنّه لدليل كبير على قدرة اللّه الأزلية، و علامة على وجود ذاته المقدّسة.

ثم تنتقل الآية من قضية التوحيد المتمثلة هنا بالحياة التى ما زالت تحيطها الكثير من الأسرار و الخفايا و الغموض، إلى قضية المعاد، حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى

نعم: إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فدلائل قدرته واضحة فى كلّ مكان، و مع هذا الوضع فكيف نشكّ بالمعاد و نعتبره محالا، أليس هذا سوى الجهل و الغفلة؟

«خاشعة» من (الخشوع) و تعنى فى الأصل التضرع و التواضع الملازم للأدب.

و استخدام هذا التعبير بخصوص الأرض الميتة اليابسة، يعتبر نوعا من الكناية.

فالأرض اليابسة الفاقدة للماء ستخلو من أى نوع من أنواع الثبات، و ستشبه الإنسان الساقط أرضا أو الميت الذى لا حراك فيه، إلّا أن نزول المطر سيهب لها الحياة و يجعلها تتحرك و تنمو.

«ربت» من (ربو) على وزن (غلو) و تعنى الزيادة و النمو، و الربا مشتق من نفس هذه الكلمة، لأنّ المرابى يطلب دينه مع الزيادة.

«اهتزت» من «هز» على وزن «حظ» و تعنى التحريك الشديد.

و حول «المعاد الجسمانى» و أدلته و كيفية استدلال عليه من عالم النبات تقدم بحث مفصّل فى نهاية سورة «يس» من هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۷

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۰ الى ۴۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴۰) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ (۴۱) لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (۴۲)

التّفسير

محرفوا آيات الحق:

المجموعة التى بين أيدينا من آيات السورة الكريمة، بدأت بتهديد الذين يقومون بتحريف علائم التوحيد، و تضليل الناس، حيث يقول تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آياتِنا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنا.

من الممكن لهؤلاء أن يضلّوا الناس بأسلوب المغالطة و باستخدام السفسطة الكلامية، و يخفوا ذلك عن الناس. إلّا أنّه ليس بوسعهم إخفاء ذرّة ممّا يقومون به عن اللّه تبارك و تعالى.

«يلحدون» من (إلحاد) و هى فى الأصل من (لحد) على وزن (عهد) و تعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۸

الحفرة الواقعة فى جانب واحد، و لهذا السبب يطلق على الحفرة فى جانب القبر اسم «اللحد».

ثمّ أطلقت كلمة (إلحاد) على أى عمل يتجاوز الحد الوسط إلى الإفراط أو التفريط، و هى لذلك تطلق لوصف الشرك و عبادة الأصنام، و يقال لمن لا يؤمن باللّه تعالى (الملحد).

و المقصود من «الإلحاد فى آيات اللّه» هو إيجاد الوساوس و التمويه فى أدلة التوحيد و المعاد التى ذكرتها الآيات السابقة بعنوان «و من آياته» أو جميع الآيات الإلهية، سواء منها الآيات التكوينية السابقة أو الآيات التشريعية النازلة فى القرآن الكريم و الكتب السماوية الأخرى.

إنّ المذاهب المادية و الإلحادية فى عالمنا اليوم التى تعتبر الدين وليد الجهل أو الخوف أو نتاج العامل الاقتصادى و الأمور الأخرى لإضلال الناس، هى بلا شك من مصاديق الخطاب فى هذه الآية الكريمة.

القرآن الكريم أوضح جزاء هؤلاء فى إطار مقارنة واضحة فقال تعالى:

أَ فَمَنْ يُلْقى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيامَةِ؟

الأشخاص الذين يحرقون ايمان الناس و عقائدهم بنيران الشبهات و التشكيكات سيكون جزاؤهم نار جهنّم، بعكس الذين أوجدوا المحيط الآمن للناس بهدايتهم الى التوحيد و الإيمان، فإنّهم سيكونون فى أمان يوم القيامة أليس ذلك اليوم هو يوم تتجسد فيه أعمال الإنسان فى هذه الدنيا؟

و قال بعض المفسّرين: إنّ الآية تقصد «أبا جهل» «أبو جهل» كنموذج للغواية و لأهل النّار، و فى الجانب المقابل ذكروا «حمزة» عم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أو «عمار بن ياسر» لكن من الواضح أنّ هذا القول لا يعدو أن يكون مصداقا للآية ذات المفهوم الواسع.

و الطريق فى هذا الجزء من الآية أنّ التعبير القرآنى يستخدم كلمة (إلقاء) فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۱۹

مخاطبة أهل النّار كدليل على عدم امتلاكهم الخيار فى أمرهم، بينما يستخدم كلمة «يأتى» فى مخاطبة أهل الجنّة، كدليل على احترامهم و حريتهم و إرادتهم فى اختيار الأمن و الهدوء.

و فوق كلّ هذا فقد استخدمت الآية تعبير الأمان من العذاب كناية عن الجنّة، بينما استخدمت نار جهنم بشكل مباشر، و فى ذلك إشارة إلى أنّ أهم قضية فى ذلك اليوم هى «الأمن».

و عند ما ييأس الإنسان من هداية شخص يخاطبه بقوله: افعل ما شئت. لذا فالآية تقول لأمثال هؤلاء: اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ

لكن عليكم أن تعلموا: إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

لكن هذا الأمر لا يعنى أنّ لهم الحرية فى أن يعملوا ما يشاءون، أو أن يتصرفوا بما يرغبون، بل هو تهديد لهم بأنّهم لا يصغون لكلام الحق، إنّه تهديد يتضمّن توعّد هؤلاء و الصبر على أعمالهم إلى حين.

الآية التى بعدها تتحول من الحديث عن التوحيد و المعاد إلى القرآن و النبوّة، و تحذّر الكفار المعاندين بقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جاءَهُمْ ۳۸۱].

إنّ إطلاق وصف «الذكر» على القرآن يستهدف تذكير الإنسان و إيقاظه، و شرح و تفصيل الحقائق له بشكل إجمالى عن طريق فطرته، و قد ورد نظير ذلك فى الآية (۹) من سورة «الحجر» فى قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ

ثمّ تنعطف الآية لبيان عظمة القران فتقول: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ.

إنّه كتاب لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله أو أن يتغلب عليه، و منطقه عظيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۰

و استدلاله قوى، و تعبيره بليغ منسجم و عميق، تعليماته جذرية، و أحكامه متناسقة متوافقة مع الاحتياجات الواقعية للبشر فى أبعاد الحياة المختلفة.

ثم تذكر الآية صفة اخرى مهمّة حول عظمة القرآن و حيويته، فيقول تعالى:

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ لأنّه: تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

أفعال اللّه عز و جل لا تكون إلّا وفق الحكمة و فى غاية الكمال. لهذا فهو أهل للحمد دون غيره.

لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول قوله تعالى: لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ ... إلّا أن أشملها هو أنّ أى باطل لا يأتيه، من أى طريق كان، و مهما كان الأسلوب، و هذا يعنى عدم وجود تناقض فى مفاهيمه، و لا ينقض بشىء من العلوم، أو بحقائق الكتب السابقة، و لا يعارض كذلك بالاكتشافات العلمية المستقبلية.

لا يستطيع أحد أن يبطل حقائقه، و لا يمكن أن ينسخ فى المستقبلية.

لا يوجد أى تعارض فى معارفه و قوانينه و وصاياه و أخباره، و لا يكون ذلك فى المستقبل أيضا.

لم تصل إليه يد التحريف بزيادة أو نقص فى آية أو كلمة، و لن يطاله ذلك مستقبلا.

إنّ هذه الآية تعبير آخر لمضمون الآية (۹) من سورة «الحجر» حيث قوله تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ۳۸۲].

و من خلال ما قلناه نستنتج أن قوله تعالى: مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ كناية عن جميع الجوانب و الجهات، بمعنى أنه لن يصيبه البطلان أو الفساد من جميع الأوجه و الجوانب، و ما ذهب إليه البعض من أن ذلك كناية للحال و المستقبل، فان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۱

قولهم هذا مصداق للمفهوم الأول.

«الباطل» كما يرى الراغب فى مفرداته: هو ما يقابل الحق، و لكن قد يفسّر أو يراد به أحيانا أحد مصاديقه كالشرك و الشيطان و المعدوم و الساحر.

و يطلق على الشجاع ب «البطل» لأنّه يبطل أعداءه و يقتلهم أو يلقى بهم خارجا.

لكن «باطل» فى الآية تنطوى على مفهوم مطلق غير محدّد بمصداق معين.

و التعبير الأخير فى الآية تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ دليل واضح على عدم وصول الباطل بأى طريق من الطرق إلى القرآن الكريم، فالباطل قد يسرى الى الكلام الذى يصدر من الأفراد ذوى العلم المحدود و القدرات النسبية.

أمّا الذى يتصف بالعلم المطلق و الحكمة المطلقة و يجمع كلّ الصفات الكمالية التى تجعله أهلا للحمد، فلا يطرأ على كلامه التناقض و الاختلاف، و لا ينسخ أو ينقض، أو تمتد إليه يد التحريف، و لا يتناقض كلامه مع الكتب السماوية و الحقائق السابقة، و لا يعارض بالمكتشفات العلمية الراهنة، أو تلك التى يكشفها المستقبل.

و أخيرا، الآية واضحة الدلالة على نفى التحريف عن القرآن الكريم، سواء من جهة الزيادة أو النقصان (هناك بحث مفصل حول نفى التحريف أوردناه فى نهاية الحديث عن الآية (۹) من سورة «الحجر».

سؤال:

قد يقال: إذا كان الباطل هو ما أشرنا إليه، أى كلّ ما يتصف بأنّه «المخالف الحق» فإننا فى التفسير الآية (و كذلك المفسّرين الآخرين) فسّرناه بمعنى «المبطل» فكيف يتسق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تكمن فى ملاحظة دقيقة فى الأسلوب القرآنى، فالقرآن لا يقول: سوف لا يأتى باطل بعد هذا الكتاب السماوى، بل يقول لا يأتى الباطل إلى هذا الكتاب (أى القرآن) [ينبغى الانتباه إلى ضمير جملة: يأتيه .

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۲

و معنى الكلام أن لا شىء يستطيع أن يصل إليه و يبطله. (فدقق فى ذلك).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۳

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۳ الى ۴۶]

اشارة

ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ (۴۳) وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ

بَعِيدٍ (۴۴) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۴۵) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۴۶)

التّفسير

كتاب الهداية و الشفاء:

قام الكفار و المشركون بمحاربة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تكذيبه، و التصدى للإسلام و القرآن و الآيات السابقة كانت تحكى عن الحادهم و كفرهم بآيات اللّه لذلك جاءت الآية الأولى من الآيات التى بين أيدينا لمواساة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و ارشاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۴

المسلمين الذين يواجهون الأذى بأنّ لا محيص لهم عن الاستقامة و الصبر.

يقول تعالى: ما يُقالُ لَكَ إِلَّا ما قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ

فإذا كانوا يتهمونك بالجنون و الكهانة و السحر، فقد أطلقوا هذه الأوصاف على من قبلك من الأنبياء و المرسلين.

إنّ دعوتك لدين الحق ليست جديدة، و إنّ ما تواجهه و أنت تدعو للدين الجديد ليس جديدا أيضا، لذلك ما عليك- يا رسول اللّه- إلّا أن ترابط بقوّة و تلزم ما أنت عليه و لا تهتم بكلام هؤلاء، لأنّ اللّه معك.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الآية هو: أنّ الكلام الذى قيل لك من قبل اللّه هو نفس الكلام الذى قيل لمن قبلك من الأنبياء[۳۸۳].

لكن المعنى الأوّل أنسب فى المقام، خاصة مع ملاحظة سياق الآيات القادمة.

يقول اللّه تبارك و تعالى فى نهاية الآية: إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَ ذُو عِقابٍ أَلِيمٍ

فرحمته و مغفرته للمصدّقين، و عذابه للمكذبين و المعارضين.

و هذا الجزء من الآية هو بشارة للمؤمنين و تشويق لهم، و إنذار للكفار و تهديد لهم.

إنّ تقديم (المغفرة) على (العقاب) يشبه- فى الواقع- الموارد الأخرى، و هو دليل على تقدّم رحمته تعالى على غضبه، كما جاء فى المأثور من الدعاء: «يا من سبقت رحمته غضبه»[۳۸۴].

الآية التى بعدها تتحدث عن ذرائع هؤلاء المعاندين، و ترد على واحدة منها، إذ هم كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن بلسان الأعاجم حتى نهتم به أكثر و يستفيد منه غير العرب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۵

إنّها حجّة عجيبة! و لعلّهم كانوا يستهدفون منها عدم فهم الناس القرآن حتى لا يضطروا إلى منعهم عنه، كما حكى القرآن عن سلوكهم هذا فى آية سابقة فى قوله تعالى:

لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ ۳۸۵].

و هنا يجيب القرآن على هذا القول بقوله: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ

ثم يضيفون: يا للعجب قرآن أعجمى من رسول عربى؟: ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ

أو يقولون: كتاب أعجمى لأمّة تنطق بالعربية؟! و الآن و بالرغم من نزوله بلسان عربى، و الجميع يدرك معانيه بوضوح و يفهم عمق

دعوة القرآن، إلّا أنّهم و مع ذلك نراهم يصرخون: لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِيهِ

إنّ الآيـة تتحـدث فى الواقع عن المرض الكامن فى نفوس هؤلاء و عجزهم عن مواكبة الهدى و النور الذى أنزل عليهم من ربّهم، فإذا جاءهم بلسانهم العربى قالوا: هو السحر و، الأسطورة، و إذا جاءهم بلسان أعجمى فإنّهم سيعتبرونه غير مفهوم، و إذا جاءهم مزيجا من الألفاظ العربية و الأعجمية عندها سيقولون بأنّه غير موزون ۳۸۶]!! و ينبغى الانتباه هنا إلى أنّ كلمـة (أعجمى) من «عجمـة» على وزن «لقمـة» و تعنى عـدم الفصاحـة و الإبهـام فى الكلاـم، و تطلق «عجم» على غير العرب لأـن العرب لاـ يفهمون كلامهم بوضوح، و تطلق «أعجم» على من لا يجيد الحديث و الكلام سواء كان عربيا أو غير عربى.

بناء على هذا فإنّ (أعجمى) هى (أعجم) منسوبة بالياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۶

ثم يخاطب القرآن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالقول: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ.

أمّا لغيرهم: وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ أىّ «ثقل» و لذلك لا يدركونه.

ثم إنّه: وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۳۸۷]. أىّ أنّهم لا يرونه بسبب عماهم، فهؤلاء كالاشخاص الذين ينادون من بعيد: أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ.

و من الواضـح أنّ مثـل هؤلاء الأشـخاص لا يسـمعون و لا يبصـرون. فلأجل العثور على الطريق و الوصول إلى الهـدف لا يكفى وجود النور وحده، فيجب أن تكون هناك عن تبصر، كذلك يقال فى مسألة التعلّم، حيث لا يكفى وجود المبلّغ و الداعية الفصيح، بل ينبغى أن تكون هنـاك أذن تسـمع و تعى، فلاـ شـك فى بركـة المطر و تأثيره فى نمو النباتات. و لكن المسألـة فى الأرض. طيبـة أم خبيثـة!! فالذين يتعاملون مع القرآن بروح تبحث عن الحقيقة سيهتدون و ستشفى نفوسهم و صدورهم به، حيث يعالج القرآن الكريم الأمراض الأخلاقية و الروحية، ثم يشدّون الرحال للسفر نحو الآفاق العالية فى ظل نور القرآن و هداه.

أمّا ماذا يستفيد المعانـدون و المتعصـبون و أعداء الحق و الحقيقة و أعداء الأنبياء و الرسل، من كتاب اللّه تعالى، فهم فى الواقع مثلهم مثـل الأـعمى و الأـصم و من ينـادى من مكان بعيـد، فهل تراه يسـمع النـداء أو يسـتجيب لهـداه، إنّهم كمن أصـيب بالعمى و الصـمم المضاعف، و هو بعد ذلك فى مكان بعيد!! و نقل بعض المفسّرين أنّ أهل اللغة يقولون لمن يفهم: أنت تسمع من قريب.

و يقولون لمن لا يفهم: أنت تنادى من بعيد[۳۸۸].

«و ثمّة شرح مفصل حول شفاء القرآن و معالجته لآلام الإنسان الروحية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۷

يمكن مراجعته ذيل الآية (۸۲) من سورة الإسراء.» الآية التالية تستمر فى مواساة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و المؤمنين معه و تقول لهم: إنّ للعناد و الإنكار تأريخ طويل فى حياة النبوات: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ

و إذ ترى أنّنا لا نعجل فى عقاب هؤلاء الأعـداء المعاندين، فذلك لأنّ المصـلحة، تقتضـى أن يكونوا أحرارا حتى تتمّ الحجّة عليهم: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ أى لكان العقاب قد شملهم بسرعة.

إنّ التأجيل الإلهى إنما يتم هنا لمصـلحة الناس و من أجل المزيـد من فرص الهدايـة و النور، و بغيـة إتمام الحجـة عليهم، و هذه السـنّة كانت نافذة فى جميع الأقوام السابقة، و هى تجرى فى قومك أيضا.

لكنّهم لم يصدّقوا بهذه الحقيقة بعد: وَ إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ

«مريب» من «ريب» بمعنى الشك الممزوج بسوء الظن و القلق، لذلك فمعنى الآية: إنّ المشركين لا يشكون فى كلامك و حسب، بل يزعمون وجود القرائن على بطلانه و التى تؤدى بزعمهم إلى الريب.

بعض المفسّـرين احتمـل أنّ مراد الجملـة الأخيرة هم اليهود و كتاب موسـى عليه السّـلام، بمعنى أنّ هؤلاء القوم لا يزالون يشـكون فى

التوراة، لكن بعد هذا المعنى يرجح التّفسير الأول ۳۸۹].

فى الآيـة الأخيرة- من المجموعـة- نقف أمام قانون عام يرتبط بأعمال الناس، و قـد أكّده القرآن مرارا. و هـذا القانون يكمل البحث السابق بشأن استفادة المؤمنين من القرآن، بينما يحرم غير المؤمنين أنفسهم من فيض النور الإلهى و الهدى الرّبانى.

يقول تعالى فى هذا القانون:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۸

مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

لـذا فـإنّ من لم يؤمن بهـذا الكتـاب و الـدين العظيم فسوف لن يضـروا اللّه تعـالى و لا يضـروك، لأن الحسـنات و السـيئات تعود إلى أصحابها، و هم الذين سينالون حلاوة أعمالهم و مرارتها.

مسائل:

أوّلا: الإختيار و العدالة

قوله تعالى: وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيـدِ دليل واضح على قانون الإختيار و حرية الإرادة، و فيه حقيقة أنّ اللّه لا يعاقب أحدا بدون سـبب، و لا يزيـد فى عقاب أحـد دون دليل، فسياسـته فى عباده العدالـة المحضة، لأنّ الظلم يكون بسـبب النقص و الجهل و الأهواء النفسـية، و الذات الإلهية المقدسة منزّهة عن كلّ هذه العيوب و النواقص.

كلمة «ظلّام» و التى هى صيغة مبالغة بمعنى «كثير الظلم»، يمكن أن تشير- هنا و فى آيات قرآنية اخرى- إلى أنّ العقاب دون سبب من قبل الخالق العظيم يعتبر مصداقا للظلم الكثير، لأنّه تعالى منزّه عن هذا الفعل.

و ذهب بعضهم الى أن اللّه تعالى له عباد كثر، فلو أراد أن يظلم كلّ واحد منهم بجزء يسير قليل، عندها سيكون مصداقا ل «ظلّام».

و هذان التّفسيران لا يتعارضان فيما بينهما.

المهم هنـا أنّ القرآن و فى هـذه الآيات البينات نفى الجبر الـذى يؤدى الى اشاعـة الفساد و ارتكاب أنواع القبائـح، و الاعتقاد به يؤدى إلى إلغاء أى نوع من المسؤولية و التكليف، بينما الجميع مسئولون عن أعمالهم، نتائجها تعود بالدرجة الأولى عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۲۹

لذلك نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام فى الإجابة على هذا السؤال: هل يجبر اللّه عباده على المعاصى؟

فقال: «لا، بل يخيرهم و يمهلهم حتى يتوبوا».

فسئل عليه السّلام مجددا: هل كلف عباده ما لا يطيقون؟

أجاب الإمام عليه السّلام: «كيف يفعل ذلك و هو يقول: وَ ما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ».

ثم أضاف الإمام الرضا عليه السّلام: «إنّ أبى موسـى بن جعفر نقل عن أبيه جعفر بن محمّد من زعم أنّ اللّه يجبر عباده على المعاصى أو يكلفهم ما لا يطيقون فلا تأكلوا ذبيحته، و لا تقبلوا شهادته، و لا تصلوا وراءه و لا تعطوه من الزكاة شيئا»[۳۹۰].

إنّ هـذا الحديث الشـريف يشـير- ضـمنا- إلى هذه الملاحظة الدقيقة. و هى إنّ الجبريين ينتهون فى عقيدتهم إلى القول ب «التكليف بما لا يطاق» لأنّ الإنسان إذا كان مجبورا على الـذنب من ناحيـة، و ممنوعا عنه من ناحيـة اخرى، فهذا يكون مصداقا واضـحا للتكليف بما لا يطاق.

ثانيا: الذنوب و سلب النعم

فى حديث عميق الدلالة لأمير المؤمنين نقرأ

قوله عليه السّلام: «و أيم اللّه! ما كان قوم قط فى غض نعمة من عيش فزال عنهم إلّا بذنوب اجترحوها، لأنّ اللّه ليس بظلام للعبيد».

ثم أضاف عليه السّلام:

«و لو أنّ الناس حين تنزل بهم النقم، و تزول عنهم النعم، فزعوا إلى ربّهم بصدق من نياتهم، و وله من قلوبهم، لردّ عليهم كلّ شارد، و أصلح لهم كلّ فاسد.»[۳۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۴۲۹

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۰

إنّ هذا النص العلوى الكريم يوضح- بجلاء- علاقة الذنوب بسلب النعم و زوالها.

ثالثا: لماذا كلّ هذا التحجج؟!

لا شك أنّ اللغة العربية أغنى اللغات و أوسعها، و لكن مع هذا فإنّ عظمة القرآن ليست لأنّه باللغة العربية، بل تعود عربية القرآن إلى أنّ اللّه يرسل الرسل بلسان قومهم كى يؤمنوا أولا، ثمّ ينتشر الدين إلى الآخرين.

لكن أصحاب الذرائع و الحجج يطرحون فى كلّ موقف حجة أو ذريعة غير منطقية، و هم يعلمون أنّهم بأسلوبهم هذا لا يبحثون عن الحقيقة و لا ينشدونها.

إنّهم يقولون مرّة: لماذا نزل القرآن بالعربية؟ ألم يكن من الأفضل أن ينزل كلّه أو جزء منه بلغة اخرى حتى يفهمه الآخرون؟ (فى حين أنّهم كانوا يهدفون إلى تحقيق شىء آخر هو أن لا ينجذب عامة العرب نحو القرآن الكريم).

و لو حقّق لهم هذا الطلب فسيقولون: كيف يكون الرّسول عربيا و كتابه غير عربى؟

هؤلاء إنّما يهربون من الحق من خلال هذا التذرّع. و عادة ما يكون أسلوب التذرّع و إثارة الحجج دليلا على وجود علة اخرى و هدف آخر يخفيه الإنسان و يغطّى عليه، و علّة هؤلاء القوم كانت أنّ عامة الناس شغفوا بالقرآن الكريم و انجذبوا إليه، فأصبحت مصالحهم فى خطر، لذا فقد استخدموا كلّ الوسائل المتاحة لهم لمواجهة الإسلام دعوة و كتابا و نبيّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۱

بداية الجزء الخامس و العشرون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۳

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۷ الى ۴۸]

اشارة

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (۴۷) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۴۸)

التّفسير

اللّه العالم بكلّ شيء:

الآية الأخيرة- فى المجموعة السابقة- تحدثت عن قانون تحمّل الإنسان لمسؤولية أعماله خيرا كانت أم شرا، و عودة آثار أعماله على نفسه، و هى إشارة ضمنية لقضية الثواب و العقاب فى يوم القيامة.

و هنا يطرح المشركون هذا السؤال: متى تكون هذه القيامة التى تتحدّث عنها؟ الآيتان اللتان نبحثهما تجيبان أولا عن هذا السؤال، إذ يقول القرآن: إنّ اللّه وحده يختص بعلم قيام الساعة: إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ.

فلا يعلم بذلك نبىّ مرسل و لا ملك مقرّب، و يجب أن يكون الأمر كذلك لأغراض تربوية يكون فيها المكلّف على استعداد دائم للمحاسبة فى أى ساعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۴

ثم تضيف الآية: ليس علم الساعة لوحدها من مختصات العلم الإلهى فحسب، بل يندرج معها أشياء اخرى مثل أسرار هذا العالم، و ما يختص بالكائنات الظاهرة و المخفية: وَ ما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وَ ما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَ لا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۳۹۲]. إنّ النباتات لا تنمو، و الحيوانات لا تتكاثر، و لا يضع الإنسان نطفة إلّا بأمر الخالق العظيم و، بمقتضى علمه و حكمته.

«أكمام» جمع «كم» على وزن «جم» و تعنى الغلاف الذى يغطّى الفاكهة و «كم» على وزن «قم» تعنى الجزء من الرداء الذى يغطّى اليد. أمّا «كمة» على وزن «قبة» فهى القلنسوة على الرأس ۳۹۳].

قال العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: تكمم الرجل فى ثوبة، أى غطّى الشخص نفسه بلباسة.

أمّا الفخر الرازى فيفسّر «الأكمام» بمعنى القشرة التى تغطى الفاكهة.

و هناك من المفسّرين من فسروها بأنّها: «وعاء الثمرة»[۳۹۴].

و يبدو أنّ جميع هذه الآراء تعود إلى معنى واحد، و لأنّ أدق المراحل فى عالم الكائن الحى هى مرحلة النمو فى الرحم و الولادة، لذلك أكّد القرآن على هاتين القضيتين، سواء فى عالم الإنسان و الحيوان، أم فى عالم النبات.

فاللّه هو الذى يعلم بالنطف و زمان انعقادها فى الأرحام و لحظة ولادتها، و يعلم متى تتشكل الثمار و تنمو، و متى تخرج من أغلفتها.

ثم يضيف السياق القرآنى: إنّ هذه المجموعة التى تنكر القيامة و تستهزئ بها، ستتعرض إلى مشهد يقال لهم فيه: وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ[۳۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۵

فما كنّا نقوله هو كلام باطل كان كلاما نابعا من الجهل و العناد و التقليد و الأعمى، و اليوم عرفنا مدى بطلان ادعاءاتنا الواهية.

و هؤلاء فى نفس الوقت الذى يسجلون اعترافهم السابق، فهم أيضا لا يشاهدون أثرا للمعبودات التى كانوا يعبدونها من دون اللّه من قبل: وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ

إنّ مشهد القيامة مشهد موحش مهول بحيث يأخذ منهم الألباب، فينسون خواطر تلك الأصنام و المعبودات التى كانوا يعبدونها و يسجدون لها و يذبحون لها القرابين، بل و كانوا أحيانا يضحون بأرواحهم فى سبيلهم، و كانوا يظنون أنّها تحل لهم مشكلاتهم و تنفعهم يوم الحاجة ... إنّ كلّ ذلك أصبح وهما كالسراب.

ففى ذلك اليوم سيعلمون: وَ ظَنُّوا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ

«محيص» من «حيص» على وزن «حيف» و تعنى العدول و التنازل عن شيء، و لأنّ (محيص) اسم مكان، فهى تعنى هنا الملجأ و المفر.

«ظنوا» من «ظنّ» و لها فى اللغـة معنى واسع، فهى أحيانا بمعنى اليقين، و تأتى أيضا بمعنى الظن. و فى الآيـة مورد البحث جاءت بمعنى اليقين، إذ أنّهم سيحصل لهم فى ذلك اليوم اليقين حيث لا مفرّ و لا نجاة من عذاب اللّه.

يقول الراغب الأصـفهانى فى المفردات: «ظن» تعنى الاعتقـاد الحاصـل من الـدليل و القرينـة، و هـذا الاعتقـاد قـد يكون قويا فى بعض الأحيان و يصل إلى مرحلة اليقين، و أحيانا يكون ضعيفا لا يتجاوز حدّ الظن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۶

الآيات [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۴۹ الى ۵۲]

اشارة

لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ (۴۹) وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ (۵۰) وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ (۵۱) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ (۵۲)

التّفسير

فى نفس الاتجاه الـذى تحـدّثت فيه الآيات السابقـة، نلتقى مع مضـمون المجموعة الجديدة من الآيات التى بين أيدينا، و التى تواصـل حديثها عن صور اخرى حيّة و ناطقة من حياة أناس من عديمى الإيمان و ضـعافه، الذين يحملون أفكارا غير ناضـجة و مواقف مهزوزة و لا يمتلكون القدرة على تحمل الصعاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۷

يقول تعالى: لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ.

فليس لحرص الإنسان من نهاية، فكلما يحصل على شىء يطالب بالمزيد، و مهما يعطى لا يكتفى بذلك.

و لكنّه: وَ إِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَؤُسٌ قَنُوطٌ.

و المقصود بالإنسان هنا الإنسان غير المتربى بعـد بأصول التربيـة الإسـلامية، و الـذى لم يتنور قلبه بالمعرفـة الإلهية و الإيمان باللّه، و لم يحسّ بالمسؤولية بشكل كامل. إنّها كناية عن الناس المتقوقعين فى عالم المادة بسبب الفلسفات الخاطئة، فهم لا يملكون الروح العالية التى تؤهلهم للصبر و الثبات، و تجاوز الحدود المادية إلى ما وراءها من القيم العظيمة.

هؤلاء يفرحون إذا أقبلت الـدنيا عليهم، و ييأسون و يحزنون إذا ما أدبرت عنهم، و لا يملكون ملجأ يلجأون إليه، و لا يـدخل نور الأمل و الهداية إلى قلوبهم.

و ينبغى أن نشير أيضا إلى أنّ «دعاء» تأتى أحيانا بمعنى المناداة، و أحيانا بمعنى الطلب، و فى الآية التى نبحثها جاءت بالمعنى الثّانى.

لذا فقوله تعالى: لا يَسْأَمُ الْإِنْسانُ مِنْ دُعاءِ الْخَيْرِ يعنى لا يمل و لا يتعب الإنسان أبدا من طلب الخير و الجميل.

و ثمّة بيّن المفسّرين اختلاف فى الرأى حول «يؤوس» و «قنوط» فيما إذا كانا بمعنى واحد أم لا؟

يرى البعض أنّهما بمعنى واحد، و التكرار للتأكيد[۳۹۶].

و قال البعض الآخر: «يؤوس» من «يئس» بمعنى اليأس فى القلب، أمّا «قنوط» فتعنى إظهار اليأس على الوجه و فى العمل ۳۹۷].

أمّا «الطبرسى» فقد قال فى مجمع البيان: إنّ الأوّل هو اليأس من الخير، بينما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۸

الثّانى هو اليأس من الرحمة[۳۹۸].

و لكن الذى نستفيد، من الاستخدام القرآنى أنى الاثنين يستخدمان تقريبا للدلالة على معنى واحد، فنقرأ فى قصة يوسف- مثلا- أنّ يعقوب عليه السّلام حذّر أبناءه من اليأس من رحمة اللّه، فى حين كانت قلوبهم يائسة من العثور على يوسف، و كانوا أيضا يظهرون علامات اليأس.[۳۹۹].

و فى حالة إبراهيم عليه السّلام نرى أنّه عجب من البشارة التى زفتها إليه الملائكة بالولد، لكن الملائكة قالت له: بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ ۴۰۰].

الآية التالية تشير إلى صفة اخرى من صفات الإنسان الجاهل البعيد عن العمل و الإيمان متمثلة بالغرور: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي ۴۰۱] أى إنّنى مستحق و لائق لمثل هذه المواهب و المقام.

إنّ الإنسان المغرور ينسى أنّ البلاء كان من الممكن أن يشمله عوضا عن النعمة، تماما كما قال قارون: قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ۴۰۲].

تضيف الآية بعد ذلك أنّ هذا الغرور يقود الإنسان فى النهاية إلى إنكار الآخرة حيث يقول: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً. و لنفرض أنّ هناك قيامة فإنّ حالى سيكون أحسن من هذا: وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى

إنّ هذه الحالة تشابه ما استمعنا إليه فى سورة الكهف من قصة الرجلين الذين كان أحدهما غنيا مغرورا، و الثّانى عارفا مؤمنا، حيث حكت الآية على لسان الثرى المغرور قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۳۹

ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً، وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً[۴۰۳].

لكنّ اللّه يحذّر أمثال هؤلاء بقوله تعالى: فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِما عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ.

«العذاب الغليظ» هو العذاب الشديد المتراكم.

نفس هذا المعنى لاحظناه فى مكان آخر من القرآن، فى قوله تعالى فى الآية (۱۰) من سورة هود: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.

الآية التى بعدها تذكر حالة ثالثة لمثل هؤلاء، هى حالة النسيان عند النعمة و فزع و الجزع عند المصيبة.

يقول تعالى: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ أما: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ

«نآ» من «نأى» على وزن «رأى» و تعنى الابتعاد، و عند ما تقترن مع كلمة «بجانبه» فتكون كناية عن التكبر و الغرور، لأنّ المتكبرين ينأون بوجوههم دون اهتمام و يبتعدون.

«العريض» مقابل الطويل، و يستخدم العرب هاتين الكلمتين للدلالة على الزيادة و الكثرة.

و فى الاية (۱۲) من سورة يونس نرى معانى شبيهة لما نحن بصدده، حيث يقول تعالى: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ الإنسان الذى يفتقد الإيمان و التقوى يكون عرضة لمثل هذه الحالات، فهو مع إقبال النعم مغرور ناس للّه، و إذا أدبرت عنه قنوط يائس كثير الجزع.

و فى الجانب المقابل نرى أنّ رجال الحق و أتباع الأنبياء و الرسل لا يتغيرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۰

إذا أقبلت عليهم النعم، و لا يهنون أو ييأسون أن يجزعون عند إدبارها، إنّهم مصداق قوله تعالى: رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ

ذِكْرِ اللَّهِ فأربح التجارة لا تنسيهم ربّهم، إنّهم عارفون حق المعرفة بفلسفة النعمة و البلاء فى هذه الدنيا، يعلمون أنّ الابتلاءات ناقوس خطر لهم، بينما النعم اختبار و امتحان إلهى لهم.

و من الابتلاء ما يكون أحيانا عقوبة للغفلة و النسيان، و النعم لإثارة دوافع الشكر لدى العباد.

و يلفت النظر هنا طرافة الاستخدام القرآنى لكلمتى «أذقنا» و «مسه» و التى تعنى أنّهم مع قليل جدا من إقبال الدنيا عليهم يتغيرون و ينسون و يصابون بالغرور، و هؤلاء مع «مسّة» قليلة من ضرر أو بلاء يصابون باليأس و القنوط.

من هنا نقف على قيمة سعة الروح، و تدفق النفس بالإيمان، و اتساع آفاق الفكر، و انشراح الصدر، و استعداد الإنسان لمواجهة المشاكل و الصعاب، و تحدى المزالق و الأهواء، التى تعتبر جميعا من ثمار الإيمان و التقى.

يقول شهيد المحراب الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى أحد أدعيته التى تعتبر درسا لأصحابه:

«نسأل اللّه سبحانه أن يجعلنا و إيّاكم ممن لا- تبطره نعمة، و لا- تقصر به عن طاعة ربّه غاية، و لا- تحل به بعد الموت ندامة و كئابة»[۴۰۴].

الآية الأخيرة تتضمن الخطاب الأخير لهؤلاء، و تبيّن لهم- بوضوح- الأصل العقلى المعروف بدفع الضرر المحتمل، حيث تخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فتقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقاقٍ بَعِيدٍ[۴۰۵].

و من الواضح أن هذا الكلام إنّما يقال للاشخاص الذين لا ينفع معهم أىّ دليل منطقى لشدّة عنادهم و تعصبهم. فالآية تقول لهؤلاء: إذا كنتم ترفضون حقانية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۱

القرآن و التوحيد و وجود عالم ما بعد الموت و تصرون عليه، فأنتم لا تملكون حتما دليلا قاطعا على هذا الرفض، لذا يبقى ثمّة احتمال فى أن تكون دعوة القرآن و قضية المعاد حقيقة موجودة، عندها عليكم أن تتصوروا المصير الأسود الموحش الذى ينتظركم لعنادكم و ضلالكم و معارضتكم الشديدة إزاء الدين الإلهى.

إنّه نفس الأسلوب الذى نقرأ عنه فى محاججة أئمّة المسلمين لأمثال هؤلاء الأفراد، كما نرى ذلك واضحا فى الحادثة التى ينقلها العلّامة الكلينى فى «الكافى» حيث يذكر فيه الحوار الذى دار بين الإمام الصادق عليه السّلام و ابن أبى العوجاء.

فمن المعروف أنّ «عبد الكريم بن أبى العوجاء» كان من ملاحظة عصره و دهرييها، و قد حضر الموسم (الحج) أكثر من مرّة و التقى مع الإمام الصادق فى مجالس حوار، انتهت إلى رجوع بعض أصحابه عنه إلى الإسلام، و لكنّ ابن أبى العوجاء لم يسلم، و قد صرح الإمام (ع) بأن سبب ذلك هو إنّه أعمى و لذلك لا يسلم.

و الحادثة موضع الشاهد هنا، هى

أنّ الإمام بصر بابن أبى العوجاء فى الموسم فقال له: ما جاء بك إلى هذا الموضع؟

فأجاب ابن أبى العوجاء: عادة الجسد، و سنة البلد، و لننظر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمى الحجارة! فقال له الإمام: أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبد الكريم ۴۰۶].

و عند ما أراد أن يبدأ بالمناقشة و الجدال

قال له الإمام عليه السّلام: لا جدال فى الحج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۲

ثم قال له: إن يكن الأمر كما تقول، و ليس كما نقول، نجونا و نجوت. و إن يكن الأمر كما نقول، و هو كما نقول نجونا و هلكت.

فأقبل عبد الكريم على من معه و قال: وجدت فى قلبى حزازة (ألم) فردّونى، فردوه فمات ۴۰۷].

مسألة:

يثار هنا السؤال الآتى: لقد قرأنا فى الآيات التى نبحثها قوله تعالى: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ و لكنّا نقرأ فى سورة «الإسراء» قوله تعالى: وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً[۴۰۸] و السؤال هنا كيف نوفق بين الآيتين، إذ المعروف أنّ الدعاء دليل الأمل، فى حين تتحدث الآية الأخرى عن يأس أمثال هؤلاء؟

أجاب بعض المفسّرين على هذا السؤال بتقسيم الناس إلى مجموعتين، مجموعة تيأس نهائيا عند ما تصاب بالشر و البلاء، و اخرى تصر على الدعاء برغم ما بها من فزع و جزع ۴۰۹].

البعض الآخر قال: إنّ اليأس يكون من تأمّل الخير أو دفع الشر عن طريق الأسباب المادية العادية، و هذا لا ينافى أن يلجأ الإنسان إلى اللّه بالدعاء[۴۱۰].

و يحتمل أن تكون الإجابة من خلال القول بأنّ المقصود من فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۳

هو ليس الطلب من اللّه، بل الجزع و الفزع الكثير، و دليل ذلك قوله تعالى فى الآية (۲۰) من سورة المعارج: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

أو أن الآيتين تعبّران عن حالتين، إذ أنّ هؤلاء الأفراد يقومون أولا بالدعاء و طلب الخير من النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و هم فزعون جزعون، ثمّ لا تمرّ فترة قصيرة إلّا و يصابون باليأس الذى يستوعب وجودهم كلّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۴

الآيتان [سورة فصلت (۴۱): الآيات ۵۳ الى ۵۴]

اشارة

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳) أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (۵۴)

التّفسير

علائم الحق فى العالم الكبير و الصغير:

الآيتان الختاميتان فى هذه السورة تشيران إلى موضوعين مهمين، و هما بمثابة الخلاصة الأخيرة لبحوث هذه السورة المباركة.

فالآية الأولى تتحدث عن التوحيد (أو القرآن)، و الثانية عن المعاد.

يقول تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

«آيات الآفاق» تشمل خلق الشمس و القمر و النجوم و النظام الدقيق الذى يحكمها، و خلق أنواع الأحياء و النباتات و الجبال و البحار و ما فيها من عجائب و أسرار لا تعد و لا تحصى، و ما فى عالم الأحياء من عجائب لا تنتهى، إنّ كلّ هذه الآيات هى دليل على التوحيد و على وجود اللّه.

أمّا «الآيات النفسية» مثل خلق أجهزة جسم الإنسان، و النظام المحير الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۵

يتحكم بالمخ و حركات القلب المنتظمة و الشرايين و العظام و الخلايا، و انعقاد النطفة و نمو الجنين فى ظلمات الرحم. ثمّ أسرار الروح العجيبة. إنّ كلّ ذلك هى كتاب مفتوح لمعرفة الإله الخالق العظيم.

صحيح أنّ هذه الآيات قد طرقت سابقا بمقدار كاف من قبل اللّه تعالى، إلّا أنّ هذه العملية و الإراءة مستمرة، لأنّ (سنريهم) فعل مضارع يدل على الاستمرار، و إذا عاش الإنسان مئات الآلاف من السنين، فسوف تنكشف له فى كلّ زمان علامات و آيات إلهية جديدة، لأنّ أسرار العالم لا تنتهى.

إنّ كافة كتب و بحوث العلوم الطبيعية و ما يتصل بمعرفة الإنسان فى أبعاده المختلفة (التشريح، فسلجة الأعضاء، علم النفس، و التحليل النفسى) و كذلك العلوم التى تختص بمعرفة النباتات و الحيوانات و الهيئة و الطبيعة و غير ذلك، تعتبر فى الواقع كتبا و بحوثا فى التوحيد و معرفة الخالق (جلّ و علا) لأنّها عادة ما ترفع الحجب عن الأسرار العجيبة لتبيّن قدرا من حكمة الخالق العظيم، و قدرته الأزلية، و علمه الذى أحاط بكل شىء.

أحيانا يستحوذ علم واحد من هذه العلوم، بل فرع من فروعه المتعدّدة على اهتمام عالم من العلماء فيصرف عمره فى سبيله، و فى النهاية يقرّر قائلا: مع الأسف لا زلت لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع، و ما علمته لحد الآن تجعلنى أغوص أكثر فى أعماق جهلى، نعود الآن إلى الآية التى تنتهى بجملة ذات مغزى حيث يقول تعالى: أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[۴۱۱].

و هل هناك شهادة أفضل و أعظم من هذه التى كتبت بخط القدرة التكوينية على ناصية جميع الكائنات، على أوراق الشجر، فى الأوراد و الزهور، و بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۶

طبقات المخ العجيبة، و على الأغشية الرقيقة للعين، و فى آفاق السماء و بواطن الأرض، و فى كلّ شىء من الوجود تجد أثرا يدل على الخالق، و شهادة تكوينية على وحدانيته و قدرته و حكمته و علمه (سبحانه و تعالى).

إنّ ما قلناه أعلاه هو أحد التّفسيرين المعروفين للآية، إذ بناء على هذا التّفسير فإن الآية بجميعها تتحدث عن قضية التوحيد، و تجلّى آيات الحق فى الآفاق و الأنفس.

أمّا التّفسير الثّانى فيذهب إلى قضية إعجاز القرآن، و خلاصته أنّ اللّه يريد أن يقول: لقد عرضنا معجزاتنا و دلائلنا المختلفة لا فى جزيرة العرب و حسب، و إنّما فى نواحى العالم المختلفة، و فى هؤلاء المشركين أنفسهم، حتى يعلموا بأنّ هذا القرآن على حق.

فمن آيات الآفاق ما تمثّل بانتصار الإسلام فى ميادين الحرب المختلفة، و فى ميدان المواجهة الفكرية و المنطقية، ثمّ انتصاره فى المناطق التى فتحها و حكم فيها على أفكار الناس.

ثم إنّ نفس المجموعة من المسلمين التى كانت فى مكّة، كيف يسّر اللّه لها أمرها بالهجرة، ثمّ انطلقت إلى بقاع الدنيا، لتدين لدينها الشعوب فى مناطق واسعة من العالم و رفع راية الإسلام.

و من آيات الأنفس ما تمثل فى انتصار المسلمين على مشركى مكّة فى معركة بدر، و فى يوم فتح مكّة، و نفوذ نور الإسلام إلى قلوب العديد منهم.

إنّ هذه الآيات الآفاقية و الأنفسية أثبتت أنّ القرآن على حق.

و هكذا فإنّ الخالق العظيم الذى يشهد على كلّ شىء، شهد أيضا على حقانية القرآن عن هذا الطريق.

و بالرغم من أنّ لكل واحد من هذين التّفسيرين قرائن و أدلة ترجحه، إلّا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۷

التأمل فى نهاية الآية و الآية التى تليها يكشف عن رجاحة التّفسير الأوّل ۴۱۲].

و ثمّة أقوال اخرى فى تفسير الاية تركناها لعدم جدواها.

الآية الأخيرة فى السورة تشير إلى الأساس و السبب فى شقاء هذه المجموعة المشركة الفاسدة، إذ يقول تعالى عنهم: أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقاءِ رَبِّهِمْ

و لأنّهم لا يؤمنون بيوم الحساب و الجزاء، فهم يقومون بأنواع الجرائم و المعاصى مهما كانت، و مهما بلغت. إنّ حجب الغفلة و الغرور تهيمن على هؤلاء فتنسيهم لقاء اللّه، ممّا يؤدى بهم إلى السقوط عن مصاف الإنسانية.

و لكنّهم يجب أن يعلموا: أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ.

إنّ جميع أعمالهم و نواياهم حاضرة فى علم اللّه، و كل ذلك يسجّل لمحكمة القيامة و الحشر.

«مرية» على وزن «جزية» و «قرية» تعنى التردّد فى اتخاذ القرار، و البعض اعتبرها بمعنى الشك و الشبهة العظيمة، و الكلمة مأخوذة فى الأصل من «مريت الناقة» بمعنى عصر ثدى الناقة بعد حلبها أملا بوجود بقايا الحليب فيه، و لأنّ هذا العمل مع الشك و التردّد، فقد وردت هذه الكلمة بهذا المعنى.

و عند ما نسمع إطلاق كلمة «المراء» على «المجادلة» فذلك لما يحاوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۸

الإنسان من إخراج ما فى ذهن الطرف الآخر.

و الآية- فى هذا الجزء منها- رد على شبهات الكفار بخصوص المعاد، فهؤلاء يقولون: كيف يمكن لهذا التراب المتناثر المختلط مع بعضه البعض أن ينفصل؟ و من يستطيع أن يجمع أجزاء الإنسان؟ و الأكثر من ذلك: من الذى يحيط بنيات الناس و أعمالهم على مدى تأريخ البشرية؟

القرآن يجيب على كلّ ذلك بالقول: كيف يمكن للخالق المحيط بكل شىء أنّ لا تكون هذه الأمور طوع قدرته و واضحة بالنسبة له؟ ثم إنّ دليل إحاطة علمه بكل شىء، هو تدبيره لكل هذه الأمور، فكيف يجوز له أن لا يعلم بأمور ما خلق و دبّر؟

بعض المفسّرين اعتبر أنّ الآية تختص بالتوحيد و ليس بالمعاد، حيث يقول العلامة الطباطبائى فى ذلك: «الذى يفيده السياق أنّ فى الآية تنبيها على أنّهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كلّ شىء، و هو أقوى براهين التوحيد و أوضحها لمن تعقل، لأنّهم فى مرية و شك من لقاء ربّهم، و هو تعالى غير محجوب بصفاته و أفعاله عن شىء من خلقه»[۴۱۳].

و لكن هذا التّفسير مستبعد نظرا لأنّ تعبير «لقاء اللّه» عادة ما يأتى للكناية على يوم القيامة.

بحوث

أوّلا: التوحيد بين دليل «النظم» و دليل «الصدّيقين»

أشار الفلاسفة فى بحوثهم حول التوحيد إلى الأهمية الكبيرة لنوعين من الاستدلال على الخالق جلّ و علا: أحدهما الاستدلال من خلال «النظم».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۴۹

و الآخر دليل «الصديقين».

و دليل «النظم» كما يظهر من اسمه، يبدأ من نظام عالم الوجود و أسراره و دقائقه، ليرشد إلى مصدر العلم و القدرة و الخلق الذى أوجد ذلك و دبره، و القرآن الكريم مليء بهذا النوع من الاستدلال، فهو يذكر نماذج كثيرة عن آيات اللّه فى السماء و الأرض و فى

مظاهر الحياة و نظمها و ما يمور فيها من كائنات، و ينتهى من هذا الطريق إلى إثبات وجود الصانع المدبّر (جلّ و علا).

إنّ كلّ شخص يستطيع استيعاب هذا النوع من الاستدلال مهما كان مستواه و على قدر ما يجمل من علم و إدراك، إذ يستفيد منه أكبر العلماء على قدر استعداده و ثقافته استيعابه، فى نفس الوقت الذى يستفيد منه الأمّى و غير المتعلّم و غير المطّلع على فنون العلوم و المعرفة.

أمّا دليل «الصديقين» فهو نوع من الاستدلال يقوم بالوصول إلى (الذات) بواسطة (الذات) نفسها، و مثل هؤلاء يعرفونه تعالى من خلال وجوب وجوده.

بعبارة اخرى: إنّ الممكنات و المخلوقات لا تكون هنا واسطة لإثبات وجوده، بل إنّ ذاته بنفسه تدل على ذاته، و يكون تعالى مصداقا ل

«يا من دلّ على ذاته بذاته»[۴۱۴]

و مصداقا أيضا ل شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ[۴۱۵].

إنّ هذا الاستدلال استدلال فلسفى معقد بحيث لا يستطيع أن يحيط بكنهه و بأعماقه إلّا من يحيط بمبادئه، و ليس من قصدنا هنا تبسيط الدليل فذلك شأن الكتب الفلسفية، و إنّما أردنا من خلال هذا العرض أن نقف على آراء بعض المفسّرين من الذين يعتقدون بأنّ مطلع الآية فى قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ يتضمّن إشارة إلى دليل «النظم» و العلة و المعلول. بينما اعتبروا نهاية الآية فى قوله تعالى: أ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إشارة إلى دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۰

«الصديقين».

و لكن ليس ثمّة قرائن واضحة من نفس الآية تؤيد فكرة هذا الاستنتاج!

ثانيا: حقيقة إحاطة اللّه بكل شيء

يجب أن لا- نتصور- مطلقا- أنّ إحاطة الخالق جلّ و علا بالموجودات و الكائنات تشبه إحاطة الهواء الذى يلف الكرة الأرضية و يغلّفها، لأنّ مثل هذه الإحاطة هى دليل المحدودية، بل الإحاطة المعنية هنا تتضمن معنى دقيقا و لطيفا يتمثل فى ارتباط كلّ الكائنات و الموجودات بالذات المقدسة.

و بعبارة اخرى: لا يوجد فى عالم الوجود سوى وجود أصيل واحد قائم بذاته، و بقية الموجودات و الكائنات تعتمد عليه و ترتبط به، بحيث لو زال هذا الارتباط لحظة واحدة فلا يبقى شيء منها.

إنّ هذه الإحاطة نتلمّس كنهها و حقيقتها فى الكلمات الواردة عن أمير المؤمنين عليه السّلام إذ يقول: «مع كلّ شيء لا بمقارنة، و غير كلّ شيء لا بمزايلة».

و قد نلمح هذا المعنى بعينه فيما ذكره الإمام الحسين عليه السّلام فى دعاء عرفة ذى المحتوى العميق، إذ

يقول فيه: «أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ و متى بعدت حتى تكون الآثار هى التى توصل إليك؟ عميت عين لا- تراك عليها رقيبا، و خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا»[۴۱۶].

ثالثا: آيات الآفاق و الأنفس

لو أتيح للإنسان أن ينكر كلّ ما يستطيع، فهو لا يستطيع أن ينكر وجود نظام دقيق قائم يعم بنسقه عالم الوجود، فأحيانا يقضى عالم معين كلّ عمره بالدرس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۱

و المطالعة حول تركيب العين و أسرارها أو المخ أو القلب، و يقرأ الكتب الكثيرة ممّا كتب حول الموضوع، إلّا أنّه أخيرا يعترف بأنّ هناك أسرارا كثيرة حول موضوعه لا تزال مجهولة.

و هنا يجب أن لا يغيب عن بالنا أنّ علوم علماء اليوم، ليست هى سوى نتيجة متراكمة لجهود و دراسات آلاف العلماء عبر تأريخ البشر. إنّ العالم اليوم ينطق فى كلّ جزء من أجزائه بوجود قدرة أزلية تمكن وراءه، فكل شىء يدل على الصانع لمدبّر، و أى نبات ينبت على الأرض يهتف «وحده لا شريك له».

نستطيع هنا أن نترك الحديث عن القضايا العلمية المعقدة، و نتجه إلى ظواهر عادية ممّا ينتشر حولنا، لنتلمّس فيها أدلة واضحة على إثبات الصانع العظيم.

و لا بأس هنا من ذكر هذين المثالين:

المثال الأول: الجميع يعرف أنّ هناك تقوّس فى أخمص قدم كلّ إنسان بحيث لا يبدو الأمر ملفتا للنظر مطلقا، و لكنّا نسمع فى معاملات الفحص الطبى الخاص بأداء الخدمة العسكرية، أنّ الشاب الذى يفتقد مثل هذا التقوّس يعفى من الخدمة العسكرية أو يحال إلى الأعمال المكتبية الإدارية.

إنّ الإنسان الذى يفتقد مثل هذا التقوس يتعب بسرعة، و لا يملك الاستعداد الكافى لأداء الخدمة العسكرية التى تستدعى المشى الطويل.

و هكذا كلّ شىء فى هذا العالم و فى وجود الإنسان مخلوق بدقّة و نظم، حتى التقوس البسيط فى أخمص قدم الإنسان! المثال الثّانى: فى داخل فم الإنسان و عينه منابع فوّارة منتظمة و دقيقة الإفراز، يخرج من فتحتها الصغيرة على مدى حياة الإنسان سائلان مختلفان تماما، لولاهما لما استطاع الإنسان أن يكون قادرا على الرؤية أو التحدّث أو مضغ الطعام و بلعه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۲

بعبارة اخرى: إنّ الحياة مستحيلة بدون هذين السائلين العاديين ظاهرا! فبدون أن يكون سطح العين رطبا بشكل دائم يستحيل دوران الحدقة التى ستصاب بآلام كثيرة و الأذى بمجرّد ملامستها لأجسام صغيرة، بل ستمنعها هذه الأجسام عن الحركة.

كذلك إذا لم يكن فم الإنسان و بلعومه رطبا، فإنّ الكلام يصبح أمرا مستحيلا بالنسبة له، و كذلك مضغ الطعام و بلعه. بل و حتى التنفس إذا كان الفم جافا.

و كذلك ينبغى أن تكون التجاويف الأنفية رطبة دائما حتى يسهل دخول الهواء و مروره باستمرار.

و الدقيق هنا أنّ ماء العين ينزل عبر قنوات خاصة من العين إلى الأنف للمحافظة على رطوبته، و إذا قدّر لهذا المجرى أن يغلق ليوم واحدا فقط- كما نشاهد ذلك فى حال بعض المرضى- فإن الدموع ستسيل على الوجه بشكل دائم و سيكون لها منظر مزعج مؤذ.

و نفس الكلام يقال بالنسبة للغدد اللعابية فى الفم، فقلّة إفرازاتها تزيد من جفاف اللسان و الفم و البلعوم، و كثرته تعوق التحدث و تجعل اللعاب يسيل من الفم إلى الخارج.

ثم إنّ المذاق الملحى للغدد الدمعية يؤدى إلى حفظ أنسجة العين ضدّ الأجسام الغريبة بمجرّد دخولها إلى العين.

بينما يفتقد اللعاب لأى طعم، كى يستطيع الإنسان أن يشعر بالمذاق الخاص للأطعمة، بينما تساعد الأملاح الموجودة فيه على هضم الطعام.

و إذا تـدبرنا فى طبيعة التكوين الكيمياوى و الفيزيائى لسوائل هذه الغدد و أنظمتها الدقيقة و منافعها، نتبيّن عندها أنّ وجودها لا يمكن أن يكون مجرّد صدفـة عميـاء لاـ تعقـل و لا تعى، بل هى من آيات اللّه الأنفسـية و مصـداق لقوله الحق جلّ و علا: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۳

و فى إشارة عابرة لكنّها كبيرة الدلالة و المعنى، يتحدث الإمام الصادق فى الحديث المعروف بتوحيد المفضّل، الذى هو غنى جدّا فى الإشارة إلى الآيات الآفاقية و الأنفسية للّه فى الوجود،

يقول عليه السّلام: «أى مفضـل! تأمـل الريق و مـا فيه من المنفعـة، فـإنّه جعـل يجرى جريانـا دائمـا إلى الفم، ليبل الحلق و اللهوات فلا يجف، فإنّ هذه المواضع لو جعلت كذلك كان فيه هلاك الإنسان، ثمّ كان لا يسـتطيع أن يسـيغ طعاما إذا لم يكن فى الفم بلة تنفذه، تشهد بذلك المشاهدة»[۴۱۷].

فـإذا تجاوزنـا جسم الإنسـان فـإنّ روحه بؤرة للعجـائب بحيث حيّرت جميع العلماء. و ثمّة آلاف الآلاف من هـذه الآيات البينات التى تشهد جميعا «أنّه الحق».

و هنا يلتقى صوتنا- بدون إرادة منّا- مع صوت الحسين عليه السّلام، و نقول:

«عميت عين لا تراك»!!

نهاية سورة فصّلت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۵

سورة الشّورى

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثلاث و خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۷

«سورة الشورى»

نظرة عامة فى محتوى السورة:

إنّ إطلاق اسم «الشورى» على هذه السورة المباركة يعود إلى محتوى الآية (۳۸) منها و التى تدعو المسلمين إلى المشورة فى أمورهم. و لكن بالإضافـة إلى هـذا الموضـوع، و إلى مـا تتضـمنه السورة من بحوث و مضـامين السور المّكيـة من بحث فى المبـدأ و المعـاد، و القرآن و النبوّة، فإنّها تتناول قضايا اخرى يمكن الإشارة إليها مختصرا بما يلى من نقاط:

القسم الأول: و هو أهم أقسام السورة، يشـتمل البحث فيه على قضـية الوحى الذى يمثل طريق ارتباط الأنبياء عليهم السّلام باللّه تبارك و تعالى.

و الملاحظ أنّ هذا الموضوع يلقى بظلاله على جميع أجزاء السورة، فالسورة تبدأ بالإشارة إليه و تنتهى به أيضا.

و كامتداد لهذا الموضوع تثير السورة بحوثا حول القرآن و نبوة نبىّ الإسلام و بداية الرسالة منذ أيام نبىّ اللّه نوح عليه السّلام.

القسم الثّانى: إشارات عميقة المعنى إلى دلائل التوحيد، و آيات اللّه فى الآفاق و الأنفس التى تكمّل البحث فى موضوع الوحى.

و فى هذا القسم ثمّة بحوث حول توحيد الربوبية.

القسم الثّالث: فى السورة إشارات إلى قضية المعاد و مصير الكفار فى القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۸

و هو محدود قياسا إلى الأقسام الأخرى.

القسم الرابع: تشتمل السورة على مجموعة من البحوث الأخلاقية التى تعكسها السورة بشكل خاص و دقيق. فهى تدعو أحيانا إلى ملكات خاصة مثل الاستقامة و التوبة و العفو و الصبر و إطفاء نار الغضب.

و تنتهى فى المقابل عن الرذيلة، و الطغيان فى مقابل النعم الإلهية، أو العناد و عبادة الدنيا، و كذلك تنهى عن الفزع و الجزع عند ظهور المشاكل.

إنّ السورة تنطوى على مجموعة متكاملة من دروس الهدى هى فى الواقع شفاء للصدور و مسالك نور فى طريق الحق.

فضيلة تلاوة السورة:

جاء

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «من قرأ سورة حم عسق كان ممن تصلّى عليه الملائكة، و يستغفرون له و يترحمون عليه»[۴۱۸].

و

فى حديث آخر عن الصادق نقرأ قوله عليه السّلام «من قرأ حم عسق بعثه اللّه يوم القيامة و وجهه كالقمر ليلة البدر، حتى يقف بين يدى اللّه عزّ و جلّ فيقول: عبدى أدمنت قراءة حم عسق و لم تدر ما ثوابها، أمّا لو دريت ما هى و ما ثوابها لما مللت من قراءتها، و لكن سأجزيك جزاءك، أدخلوه الجنّة».

و عند ما يدخل الجنّة يرفل بأنواع النعم الإلهية التى ذكرها الإمام الصادق فى الحديث الآنف بشكل مفصل ۴۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) عسق (۲) كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (۴)

تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۵)

التّفسير

تكاد السماوات يتفطّرن!

مرة اخرى تواجهنا الحروف المقطّعة فى مطلع السورة، و هى هنا تنعكس بشكل مفصل، إذ بين أيدينا خمسة حروف.

«حم» موجودة فی بدایة سبع سور قرآنیة (المؤمن، فصلت، الشوری، الزخرف، الدخان، الجاثیة، و الأحقاف) و لکن فی سورة الشوری أضیف إلیها مقطع عسق

و قد ذکرنا مرارا أنّ للمفسّرین آراء و بحوثا کثیرة حول هذه الحروف، یجملها صاحب مجمع البیان العلّامة الطبرسی فی أحد عشر قولا، و قد ذکرنا أهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۰

تلک الأقوال فی مطلع الحدیث عن سور: البقرة، آل عمران، و الأعراف، و مریم، و غضضنا الطرف عن غیر المهم منها.

و نذکر الآن بعضا لا بأس به من هذه الأقوال بالرغم من عدم قیام دلیل قاطع علی صحتها.

فمنها قولهم أنّ هذه الحروف جاءت کأسلوب للفت أنظار الناس إلی القرآن، لأنّ المشرکین و المعاندین کانوا قد تواصوا فیما بینهم علی عدم استماع آیات اللّه، خاصّة عند ما کان رسول اللّه یقرؤها علیهم، إذ کانوا یثیرون الضوضاء، لذلک جاءت الحروف المقطعة (فی ۲۹ سورة قرآنیة) لتکون أسلوبا جدیدا فی جلب الانتباه.

و قد ذکر العلّامة الطباطبائی احتمالا آخر یمکن أن نضیفه إلی ما استخلصه العلّامة الطبرسی من الأقوال الأحد عشر لیکون المجموع اثنا عشر تفسیرا.

و ما ذکره العلامة الطباطبائی و إن کان مثله مثل غیره من الأقوال ممّا لم یقم الدلیل القاطع علیه، إلّا أنّه من المفید أن نستعرضه بإیجاز.

یقول العلّامة الطباطبائی: «إنک إن تدبرت بعض التدبّر فی هذه السور التی تشترک فی الحروف المفتتح بها مثل المیمات و الراءات و الطواسین و الحوامیم، وجدت فی السور المشترکة فی الحروف من تشابه المضامین، و تناسب السیاقات ما لیس بینها و بین غیرها من السور».

«و یؤکّد ذلک ما فی مفتتح أغلبها من تقارب الألفاظ، کما فی مفتتح الحوامیم من قوله: تَنْزِیلُ الْکِتابِ مِنَ اللَّهِ أو ما هو فی معناه، و ما فی مفتتح الراءات من قوله: تِلْکَ آیاتُ الْکِتابِ أو ما فی معناه، و نظیر ذلک فی مفتتح الطواسین، و ما فی مفتتح المیمات من نفی الریب عن الکتاب أو ما هو فی معناه».

«و یمکن أن یحدس من ذلک أن بین هذه الحروف المقطعة و بین مضامین السور المفتتحة بها ارتباطا خاصا، و یؤید ذلک ما نجده فی سورة الأعراف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۱

المصدّرة ب «المص» فی مضمونها کأنّها جامعة بین مضامین المیمات و ص [أی ما افتتح ب «ألم» و «ص»] و کذا سورة الرعد المصدّرة ب «المر» فی مضمونها کأنّها جامعة بین مضامین المیمات و الراءات».

«و لعلّ المتدبر لو تدبر فی مشترکات هذه الحروف، و قایس مضامین السور التی وقعت فیها بعضها إلی بعض، لتبیّن له الأمر أزید من ذلک»[۴۲۰].

و ثمّة تفسیر آخر أشرنا إلیه سابقا، و هو احتمال أن تکون هذه الحروف إشارات و رموزا لأسماء الخالق و نعمه و قضایا اخری.

مثلا، فی السورة التی نبحثها اعتبروا الحاء إشارة إلی الرحمن، و المیم إلی المجید، و العین إلی العلیم، و السین إلی القدوس، و القاف إلی القاهر[۴۲۱].

یعترض البعض علی هذا الکلام بقولهم: لو کان المقصود من الحروف المقطعة أن لا یعلم بها الآخرون فإنّ ذلک غیر صحیح، لأنّ هناک آیات اخری تصرّح بأسماء اللّه، و لکن یجب الانتباه إلی أنّ الرموز و الإشارات لا ـ تعنی دائما أن یبقی الموضوع أو المعنی سرّیا، بل قد تکون أحیانا علامة للاختصار، و هذا الأمر کان موجودا سابقا، و هو مشهور فی عصرنا الراهن، بحیث أنّ أسماء العدید من المؤسسات و المنظمات الکبیرة، تکون علی شکل مجموعة مختصرة من الحروف المقطّعة التی یرمز کلّ منها إلی جزء من الاسم

الأصيل.

بعد الحروف المقطعة تتحدث الآية الكريمة عن الوحى، فتقول: كَذلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

«كذلك» إشارة إلى محتوى السورة و مضامينها.

و مصدر الوحى واحد، و هو علم اللّه و قدرته، و محتوى الوحى فى الأصول و الخطوط العريضة واحد أيضا بالنسبة لجميع الأنبياء و الرسالات، بالرغم من أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۲

هناك خصوصيات بين دعوة نبى و آخر بحسب حاجة الزمان و المسيرة التكاملية للبشر[۴۲۲].

و ضرورى أن نشير إلى أنّ الآيات التى نبحثها أشارت إلى سبع صفات من صفات اللّه الكمالية، لكل منها دور فى قضية الوحى بشكل معين، و من ضمنها الصفتان اللتان نقرؤهما فى هذه الآية: الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فعزته تعالى و قدرته المطلقة تقتضى سيطرته على الوحى و محتواه العظيم.

و حكمته تستوجب أن يكون الوحى الإلهى حكيما متناسقا مع حاجات الإنسان التكاملية فى جميع الأمور و الشؤون.

و تعبير «يوحى» دليل على استمرار الوحى منذ خلق اللّه آدم عليه السّلام حتى عصر النّبى الخاتم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار.

قوله تعالى: لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

إنّ مالكيته تعالى لما فى السماء و الأرض تستوجب ألّا يكون غريبا عن مخلوقاته و ما يؤول إليه مصيرها، بل يقوم بتدبير أمورها و حاجاتها عن طريق الوحى، و هذه هى الصفة الثّالثة من الصفات السبع.

أمّا «العلىّ» و «العظيم» اللذان هما رابع و خامس صفة له (سبحانه و تعالى) فى هذه الآيات، فهما يشيران إلى عدم حاجته لأى طاعة أو عبودية من عباده، و إنّما قام تعالى بتدبير أمر العباد عن طريق الوحى من أجل أن ينعم على عباده.

الآية التى بعدها تضيف: تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَ ۴۲۳] و ذلك بسبب نزول الوحى من قبل اللّه، أو بسبب التهم الباطلة التى كان المشركون و الكفّار ينسبونها إلى الذات المقدسة و يشركون الأصنام فى عبادته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۳

و يتّضح ممّا سلف أنّ للجملة معنيين:

الأوّل: أنّها تختص بموضوع الوحى الذى هو حديث الآيات السابقة، و هو فى الواقع يشبه ما جاء فى الآية (۲۱) من سورة «الحشر» فى قوله تعالى: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

إنّه كلام اللّه الذى يزلزل السماوات عند نزوله و تكاد تتلاشى، فلو أنّه نزل على الجبال لتصدّعت، لأنّه كلام عظيم من خالق حكيم.

و الويل لقلب الإنسان، فهو الوحيد الذى لا يلين و لا يستسلم، و يصر على عناده و تكبره.

التّفسير الثّانى: أنّ السماوات تكاد تتفطّر و تتلاشى بسبب شرك المشركين و عبادتهم للأصنام من دون اللّه، بل هم يساوون بين أدنى الكائنات و الموجودات و بين المبدأ العظيم خالق الكون جلّ و علا.

التّفسير الأوّل يناسب الآيات التى نبحثها و التى تنصب حول الوحى و التّفسير الثّانى يناسب ما نقرؤه فى الآيتين (۹۰، ۹۱) من سورة «مريم» حيث يقول تعالى بعد أن يذكر قول الكفار- و قبح قولهم- باتخاذه ولدا (!!): تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً.

و من الواضح أن ليس ثمّة تعارض بين التّفسيرين.

أمّا عن كيفية انفطار السماوات و انهدام الجبال و هى موجودات جامدة، فقد ذكروا كلاما و أقوالا متعدّدة فى الموضوع تعرضنا لها فى

نهاية حديثنا عن الآيتين المذكورتين من سورة مريم.

و إذا أردنا أن نقف على استخلاص عام لما قلناه هناك، فيمكن أن نلاحظ أنّ مجموعة عالم الوجود من جماد و نبات و غير ذلك لها نوع من العقل و الشعور، بالرغم من عدم إدراكنا له، و هم على هذا الأساس يسبحون اللّه و يحمدونه، و يخضعون له و يخشعون لكلامه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۴

أو أن يكون التعبير كناية عن عظمة و أهمية الموضوع، مثلما نقول مثلا: إنّ الحادثة الفلانية كانت عظيمة جدّا و كأنّما انطبقت معها السماء على الأرض.

بقية الآية، قوله تعالى: وَ الْمَلائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

أمّا الرابطة بين هذا الجزء من الآية و الجزء الذى سبقه، فهو- وفقا للتفسير الأوّل- أنّ الملائكة الذين هم حملة الوحى العظيم و واسطته، يسبحون و يحمدون اللّه دائما، يحمدونه بجميع الكمالات، و ينزهونه عن جميع النواقص، و عند ما ينحرف المؤمنون أحيانا، تقوم الملائكة بنصرهم و يطلبون المغفرة لهم من اللّه تعالى.

أمّا وفق التّفسير الثّانى، فإنّ تسبيح الملائكة و حمدهم إنّما يكون لتنزيهه تعالى عما ينسب إليه من شرك، و هم يستغفرون كذلك للمشركين الذين آمنوا و سلكوا طريق التوحيد و رجعوا إلى بارئهم جلّ جلاله.

و عند ما تستغفر الملائكة لمثل هذا الذنب العظيم لدى المؤمنين، فهى حتما- و من باب أولى- تستغفر لجميع ما لهم من ذنوب اخرى. و قد يكون الإطلاق فى الآية لهذا السبب بالذات.

نقرأ نظيرا لهذه البشرى العظيمة فى الآية (۷) من سورة المؤمن فى قوله تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَ مَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَ عِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَ اتَّبَعُوا سَبِيلَكَ

و أخيرا تشير نهاية الآية الكريمة إلى سادس و سابع صفة من صفات اللّه تبارك و تعالى، و تنصب حول الغفران و الرحمة، و تتصل بقضية الوحى و محتواه، و بخصوص وظائف المؤمنين، حيث يقول تعالى: أَلا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

و بهذا الترتيب أتمّت الآيات الكريمات الإشارة إلى مجموعة متكاملة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۵

الأسماء الحسنى المختصة باللّه تعالى و المرتبطة بالوحى.

و فى نهاية الآية ثمّة إشارة لطيفة إلى استجابة دعاء الملائكة بخصوص استغفارهم للمؤمنين، بل أنّه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور ممّا يدل على عظيم فضله.

أمّا عن مسألة الوحى فسيكون لنا كلام مفصل فى نهاية هذه السورة إن شاء اللّه عند ما نتحدّث عن الآيتين (۵۱، ۵۲).

هل تستغفر الملائكة للجميع؟

قد يطرح السؤال الآتى حول قوله تعالى: وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ

و هو: الآية تفيد استغفار الملائكة لمطلق أهل الأرض سواء المؤمن منهم أو الكافر، فهل يمكن ذلك؟

لقد أجابت الآية (۷) من سورة المؤمن على هذا السؤال من خلال قوله تعالى: يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و بناء على هذا فإنّ شرط الاستغفار هو الإيمان، إضافة إلى كونهم معصومين، و هم بذلك لا يطلبون المستحيل للذين يفتقدون إلى أرضية الغفران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۶

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (۶) وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (۷) وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۸)

التّفسير

انطلاقة من «أم القرى»:

تحدثت الآيات السابقة عن قضية الشرك، لذلك فإنّ الآية الأولى فى المجموعة الجديدة، تتناول بالبحث نتيجة عمل المشركين و عاقبة أمرهم حيث يقول تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ

حتى يحاسبهم فى الوقت المناسب، و يعاقبهم جزاء أعمالهم.

ثم تخاطب الآية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بقوله تعالى: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ إنّ مسئوليتك هى تبليغ الرسالة و إيصال نداء اللّه الى جميع العباد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۷

و ثمّة فى كتاب اللّه آيات اخرى تشير إلى هذا المعنى:

قوله تعالى: لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ[۴۲۴].

قوله تعالى: ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ[۴۲۵].

قوله تعالى: وَ ما جَعَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً[۴۲۶].

قوله تعالى: ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ ۴۲۷].

إنّ هذه الآيات تبيّن حقيقة حرية العباد و اختيارهم الطريق الذى يريدونه بإرادتهم و حريتهم، لأنّ القيمة الحقيقة للإيمان و العمل الصالح تمكن فى حرية الإختيار، و ليس للإيمان أو العمل الإجبارى أى قيمة معنوية.

يعود القرآن إلى قضية الوحى مرّة اخرى، و إذا كانت الآيات السابقة قد تحدّثت عن أصل الوحى، فإنّ الكلام هنا ينصب حول الهدف النهائى له، إذ يقول تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها و «امّ القرى» هى مكّة المكرمة، ثمّ تنذر الناس من يوم القيامة و هو يوم الجمع الذى يجتمع فيه الناس للحساب و الجزاء: وَ تُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ

و فى ذلك اليوم ينقسم الناس إلى مجموعتين: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

و قد يكون التعبير ب «كذلك» إشارة إلى أنّه مثلما أوحينا إلى الأنبياء السابقين بلسانهم، فإنّنا كذلك أوحينا إليك بلسانك، هذا القرآن العربى.

و عليه تكون «كذلك» إشارة إلى: وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ

و يمكن أن تكون إشارة إلى ما بعدها، يعنى أنّا أوحيناه إليك بهذه الصورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۸

قرآنا عربيا يهدف إلى الإنذار.

صحيح أنّنا نستفيد من نهاية الآية أىّ من قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ أنّ مسئولية النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هى التبشير و الإنذار، و لكن بسبب ما للإنذار من تأثير أعمق فى نفوس الأفراد المعاندين و الجهلة، لذا فإنّ الآية استندت إلى «الإنذار» مرّتين فقط، مع اختلاف بينهما، إذ أنّ الكلام شمل فى المرحلة الأولى إنذار المستمعين، بينما شمل فى الثانية تخويفهم من شىء يجب أن يخافوه، يعنى القيامة و ما فيها من حساب و فضيحة ستكون مؤلمة و صعبة للغاية، بسبب حضور الأشهاد و الملائكة و الناس ۴۲۸].

و قد يتساءل البعض هنا: إنّنا نستفيد من قوله تعالى: لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها أنّ الهدف من نزول القرآن هو لإنذار أهل مكّة و أطرافها. أ فلا يتنافى هذا المعنى مع مفهوم عالمية الإسلام؟

الجواب على هذا الاستفهام يتمّ من خلال ملاحظة المعنى الذى تستبطنه أُمَّ الْقُرى

إنّ كلمة «أمّ القرى» و هى أحد أسماء مكّة المكرّمة، مؤلّفة من كلمتين هما: «أمّ» و تعنى فى الأصل الأساس و البداية فى كلّ شىء، و لهذا السبب تسمى الأمّ بهذا الاسم لأنّها أساس و أصل الأبناء.

ثمّ كلمة «قرى» جمع «قرية» بمعنى أى منطقة معمورة أو مدينة، سواء كانت المدينة كبيرة أم صغيرة، أو مجرّد قرية.

و فى القرآن الكريم ثمّة أدلة كثيرة على هذا المعنى.

و الآن لنر لماذا سمّيت «مكّة» بأمّ القرى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۶۹

الرّوايات الإسلامية تصرّح بأنّ الأرض كانت فى البداية مغطاة جميعها بالماء، ثمّ بدأت اليابسة تظهر بشكل تدريجى من تحت هذه المياه. (تؤيد النظريات العلمية الآن هذا المعنى).

ثمّ تخبرنا الرّوايات بأنّ منطقة الكعبة كانت أوّلا منطقة ظهرت من تحت الماء، ثمّ بدأت اليابسة بالاتساع من جوار الكعبة، و يعرف ذلك بدحو الأرض.

و هكذا يتّضح أن مكّة هى أصل و أساس لجميع القرى و المدن على سطح الأرض، لذا فمتى قيل أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها فالمعنى سيشمل جميع الناس على سطح الكرة الأرضية[۴۲۹].

مضافا إلى ذلك، نحن نعرف أنّ الإسلام بدأ بالانتشار تدريجيا، ففى البداية أمر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بإنذار المقرّبين إليه، كما ورد فى قوله تعالى: وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۴۳۰] كى تتقوى قاعدة الإسلام و تصلب نواته، و يكون أكثر قدرة و استعدادا للانتشار.

ثم جاءت المرحلة الثانية المتمثلة بإنذار العرب، كما ورد فى قوله تعالى:

قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۴۳۱].

و كذلك فى قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ

و عند ما ترسخت أعمدة الإسلام بين هؤلاء القوم، و قوى عوده أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بأوسع من ذلك، أن ينذر العالم و الناس كافة، كما نقرأ فى أوّل سورة الفرقان فى قوله تعالى: تَبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً و فى آيات اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۰

و بسبب هذا التكليف قام رسول اللّه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم خارج الجزيرة العربية، و دعا كسرى و قيصر و النجاشى و غيرهم إلى الإسلام.

و وفق هـذه التعليمـات قـام أتبـاعه من بعـده بالـدعوة إلى الإسـلام فى مختلف بقـاع العـالم، و نشـروا تعـاليم الإسـلام فى جميع أرجاء المعمورة.

أمّا لماذا سمّى يوم القيامة بيوم الجمع؟ فهناك أقوال مختلفة منها:

بسبب ما يكون فيه من جمع بين الأرواح و الأجساد.

أو بسبب الجمع بين الإنسان و عمله.

أو بسبب الجمع بين الظالم و المظلوم.

و لكن يظهر أنّ السـبب يتمثـل فى الجمع بين الخلائق من الأولين و الآخرين كما نقرأ ذلك واضـحا فى قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۴۳۲].

و بمـا أن قوله تعالى: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ يقسّم الناس إلى فئتين، فإنّ الآيـة التى بعـدها تضـيف: وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً واحِدَةً على الهداية.

إلّا أنّ الإيمان الإجبارى ليست له قيمة، و كيف يمكن لمثل هذا الإيمان أن يكون معيارا للكمال الإنسانى؟

إنّ التكامل الحقيقى هو أن يسير الإنسان بإرادته و بمنتهى الإختيار و الحرية.

إنّ الآيات القرآنيـة مليئـة بأدلة حرية الإنسان، و مثل هذا الإختيار هو ما يميّز الإنسان عادة عن غيره من الكائنات الأخرى، و إذا سـلبت منه إرادته و اختياره فكأنما سلبت منه إنسانيته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۱

و كما أن سمة الحرية و الإختيار طريق إلى التكامل، فهى أيضا سنّة إلهية لا قبل التغيير.

و لكن العجيب أمر البعض الـذين مـا زالوا على عقيـدة الجبر، و هم يـدعون أتباعهم للأنبياء، فى حين أنّ قبول الجبر يساوى فى الواقع نفى مضمون دعوة جميع الأنبياء، فلا معنى للتكليف حينئذ، و لا للحساب و السؤال و الجواب، و لا النصيحة و الموعظة، و بشكل أولى الثواب و العقاب! و مع عقيدة الجبر لا معنى لتردّد الإنسان فى أعماله، و لا معنى لندمه و عزيمته على تصـحيح الأخطاء! تشـير الآية بعد ذلك إلى وصف أهل الجنّة و السـعادة حيال أهل النّار، فيقول تعالى: وَ لكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ.

و عند ما يشخّص أهل النّار بوصف «الظلم» فيبيّن أنّ المراد من «من يشاء» فى الجملة الأولى هم المجموعة التى لا ترتكب الظلم.

و على هذا الأساس يكون أهل العدل هم أصحاب الجنّة فى مقابل أهل الظلم الذى هم أهل النّار.

و لكن ينبغى الانتبـاه إلى أنّ «ظـالم» هنـا، و فى العديـد من الآيات القرآنيـة الأخرى لها معنى واسع و لا تشـمل الـذين يظلمون غيرهم فقط، بل تشمل الذين يظلمون أنفسهم أيضا، و تشمل المنحرفين عقائديا، و هل هناك ظلم أعلى من الشرك و الكفر؟

يقول لقمان لابنه و هو يعظه: يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۴۳۳].

و فى آية اخرى نقرأ قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۲

أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ

و قال بعضهم فى الفرق بين «ولى» و «نصير» أنّ «الولى» الذى يقوم بمساعدة الإنسان دون طلبه. أما النصير فأعلم من ذلك ۴۳۴].

و يحتمل أن تشير كلمة «ولى» إلى المشرف الذى يقوم بالحماية و المساعدة بحكم ولايته و دون أى طلب.

أمّا «النصير» فالذى يقوم بنصر الإنسان و مساعدته بعد أن يطلب العون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۳

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۹) وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (۱۰) فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (۱۱) لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۲)

التّفسير

الولى المطلق:

أوضحت الآيات السابقة أن لا وليّ و لا نصير سوى اللّه، و الآيات التى بين أيدينا تعطى أدلة على هذه القضية، و تنفى الولاية لما دونه سبحانه و تعالى.

تقول الآية بأسلوب التعجب و الإنكار: أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ[۴۳۵]. إلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۴

أنّه: فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُ

فلو أراد هؤلاء أن يختاروا وليا، فعليهم أن يختاروا اللّه، لأنّ أدلة ولايته واضحة فى الآيات السابقة، مع بيان أوصافه الكمالية، فالعزيز و الحكيم، و المالك و العلى و العظيم، و الغفور و الرحيم، هذه الصفات السبع التى مرّت علينا تعتبر- لوحدها- أفضل دليل على اختصاص الولاية به.

ثم تذكر دليلا آخر فتقول: وَ هُوَ يُحْيِ الْمَوْتى

و يجب اللجوء إليه لا لغيره، لأنّ المعاد و البعث بيده، و أنّ أكثر ما يخشاه الإنسان هو مصيره بعد الموت.

ثم تذكر دليلا ثالثا فتقول: وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و هذه إشارة إلى أنّ الشرط الرئيسى للولى هو امتلاكه للقدرة الحقيقة.

الآية التى بعدها تشير إلى الدليل الرابع لولايته تعالى فتقول: وَ مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ فهو التوحيد الذى يستطيع أن يحل مشاكلكم.

إنّ من اختصاصات الولاية أن يستطيع الولى إنهاء اختلافات من هم تحت ولايته بحكمه الصائب، فهل تستطيع الأصنام و الشياطين التى تعبدونها أن تقوم بذلك، أم أنّ هذا الأمر يختص باللّه الحكيم و العالم و القادر على حل مشاكل عباده، و تنفيذه لحكمه و إرادته دون غيره؟

إذن فاللّه العزيز الحكيم هو الحاكم لا غيره.

لقد حاول بعض المفسّرين حصر مفهوم الاختلاف الذى تشير إليه الآية فى قوله تعالى: مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فى الاختلاف الوارد فى الآيات المتشابهة، أو فى الاختلاف و المخاصمات الحقوقية فقط، إلّا أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك، إذ هى تشمل الاختلاف سواء كان فى المعارف الإلهية و العقائد، أم الأحكام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۵

الشرعية، أم القضايا الحقوقية و القضائية، أم غير ذلك ممّا يحدث بين الناس لقلّة معلوماتهم و محدوديتها، إنّ ذلك ينبغى أن يحل عن طريق الوحى، و بالرجوع إلى علم اللّه و ولايته.

و بعد ذكر الدلائل المختلفة على اختصاص الولاية باللّه، تقول الآيات على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى ۴۳۶] فهو الذى يتصف بهذه الأوصاف الكمالية و لهذا السبب: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ أىّ أعود إليه فى المشكلات و الشدائد و الزلات.

جملة: ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى تشير إلى الربوبية المطلقة للّه بمعنى الحاكمية المتزامنة مع التدبير. و نحن نعلم أنّ للربوبية قسمين: القسم التكوينى الذى يعود إلى إرادة نظام الوجود، و القسم التشريعى الذى يقوم بتوضيح الأحكام و وضع القوانين و إرشاد الناس بواسطة الرسل و الأنبياء عليهم السّلام.

و على أساس ذلك طرحت الآية فيما بعد قضية «التوكل» و «الإنابة» حيث تعنى الأولى رجوع جميع الأمور الذاتية فى النظام التكوينى إلى الخالق جلّ و علا.

و الثّانية تعنى رجوع الأمور التشريعية إليه ۴۳۷].

الآية التى تليها يمكن أن تكون دليلا خامسا على ولاية اللّه المطلقة، أو دليلا على ربوبيته، و استحقاقه دون غيره للتوكل و الإنابة، إذ تقول: فاطِرُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

«فاطر» من مادة «فطر» و تعنى فى الأصل فتق شىء ما، و يقابلها «قط» التى تعنى بقول البعض الشق العرضى.

و كأنّما الآية تشير إلى تفتق ستار العدم المظلم عند خلق الكائنات و خروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۶

الموجودات منه.

و بهذه المناسبة فإنّ «فطر» تطلق على «طلاع» التمر عند ما يتفتق و يخرج منه التمر.

و المقصود بالسماوات و الأرض هنا جميع السماوات و الأرض و ما فيها من كائنات و ما بينها، لأنّ الخالقية تشملها جميعا.

ثم تشير الآية إلى وصف آخر من أفعاله تعالى فتقول: جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً وَ مِنَ الْأَنْعامِ أَزْواجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۴۳۸].

و هذه لوحدها تعتبر إحدى الدلائل الكبيرة على تدبير اللّه و ربوبيته و ولايته، حيث خلق سبحانه و تعالى للناس أزواجا من أنفسهم، و هو يعتبر أساسا لراحة الروح و سكون النفس، و من جانب آخر يعتبر الزواج أساسا لبقاء النسل و استمراره، و تكاثره.

و بالرغم من أنّ خطاب الآية موجّه للإنسان، و المعنى منصب عليه من خلال «يذرؤكم» إلّا أنّ هذا الأمر هو حكم سائد و سنة جارية فى جميع الأنعام و الموجودات الحية الأخرى التى تسرى عليها التكاثر بالمثل.

و فى الواقع إنّ توجيه الخطاب للإنسان دونها يشير الى مقامه الكريم، و أما أمر البقية فيتبيّن من خلال الإنسان كمثال.

الصفة الثّالثة التى تذكرها الآية هو قوله تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ.

إنّ هذا الجزء من الآية يتضمّن حقيقة أساسية فى معرفة صفات اللّه الأخرى، و بدونها لا يمكن التوصّل إلى أى صفة من صفات اللّه، لأنّ أكبر منزلق يواجه السائرين فى طريق معرفة اللّه يتمثل فى «التشبيه» حيث يشبهون الخالق جلّ و علا بصفات مخلوقاته، و هو أمر يؤدى للسقوط فى وادى الشرك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۷

إنّ وجود اللّه تعالى ليس له نهاية و لا يحد بحد، و كل شىء غيره له نهاية و حد من حديث القدر و العمر و العلم و الحياة و الإرادة و الفعل ...، و فى كلّ شىء.

و هذا هو خط تنزيه الخالق من نقائص الممكنات.

لذا فإنّ ما يثبت لغيره لا يصح عليه (سبحانه و تعالى) و لا ينطبق على ذاته المنزّهة، بل و لا معنى له.

فبالنسبة إلينا تكون بعض الأمور سهلة و الأخرى صعبة، و بعض الأحداث وقع فى الماضى و بعضها يقع الآن، و منها ما يقع فى المستقبل. و بعض الأشياء صغير و بعضها كبير.

إنّ مقاييس هذه الأشياء و مدلولاتها و مفاهيمها تحتكم إلى وجودنا المحدود، و هى تلائم إدراكنا و حاجتنا إلى مقايسة الأشياء بغيرها.

أمّا هذه المواصفات و المقاييس و المصطلحات المحدودة، فإنّ أيا منها لا ينطبق على صفات اللّه، إذ لا معنى لديه للقرب و البعد، فالكل قريب و فى متناول إرادته، و لا معنى للصعب و السهل، فكل شىء سهل و طوع إرادته المطلقة، و لا يوجد مستقبل و ماض، فكل شىء بالنسبة إليه تعالى حضور و حال.

إنّ إدراك هذه المعانى غير مستطاع من دون تفريغ الذهن و تخليته ممّا هو فيه.

لهذا السبب يقال: إنّ من السهل معرفة أصل وجود الخالق جلّ و علا، لكن من الصعب معرفة صفاته.

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام فى هذا الشأن: «و ما الجليل و اللطيف، و الثقيل و الخفيف، و القوى و الضعيف فى خلقه إلّا سواء»[۴۳۹].

تشير نهاية الآية إلى صفات اخرى من صفات اللّه: وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

هو الخالق و المدبّر، و السميع و البصير، و فى نفس الوقت ليس له شبيه أو نظير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۸

أو مثيل، و لهذا لا ينبغى الاستظلال إلّا تحت ولايته، و لا تصح العبودية و الربوبية إلّا له، و ذلك لا يكون ألّا بفك قيود عبودية الغير، و تصريفها إليه دون غيره سبحانه و تعالى.

الآية التى بعدها تتحدّث عن ثلاثة أقسام أخرى من صفات الفعل و الذات حيث توضح كلّ واحدة منها قضية الولاية و الربوبية فى بعد خاص.

يقول تعالى: لَهُ مَقالِيدُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

فكل ما يملكه مالك هو منه سبحانه و تعالى، و كل ما يرغب به راغب ينبغى أن يطلبه منه، لأنّ له تعالى خزائن السماوات و الأرض و ليس «مفاتيحها» و حسب وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۴۴۰].

«مقاليد» جمع «مقليد» و تعنى المفتاح، و هى تستخدم ككناية للسيطرة الكاملة على كلّ شىء ما، فيقال مثلا: إنّ مفتاح هذا الأمر بيدى، يعنى أنّ برنامجه و طريقه و شرائطه كلّها تحت قدرتى و فى يدى.[۴۴۱].

و فى الصفة الأخرى، و التى هى فى الواقع ثمرة و نتيجة للصفة السابقة تقول الآية: يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ لأنّ بيده تعالى جميع خزائن السماوات و الأرض فإنّ جميع الأرزاق فى قبضته، و يقسمها وفقا لمشيئته التى تصدر بمقتضى حكمته، و يلاحظ فيها مصلحة العباد.

إنّ من مقتضيات استفادة جميع الكائنات من رزقه تعالى هو العلم بمقدار حاجتها، و مكانها و سائر شؤون حياتها الأخرى، لذا تضيف الآية فى آخر صفة قوله تعالى: إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

و هناك ما يشبه هذا الأمر و هو ما جاء فى الآية (۶) من سورة «هود» فى قوله تعالى: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۷۹

و بذلك يتّضح أنّ الآيات الأربع التى بحثناها ذكرت إحدى عشرة صفة من صفات اللّه الكمالية سواء الذاتية منها أو الفعلية.

فقد وصفته بصفات الولاية المطلقة، إحياء الموتى، قدرته على كلّ شىء، خلقه للسماوات و الأرض، خلقه للأزواج و تكثير النسل، لا

یوجد مثیل له، سمیع، بصیر، له خزائن السماوات و الأرض، رزاق، و علیم بکل شیء.

إنّها صفات تکمل الواحدة منها الأخری من حیث البیان، و کلّها دلیل علی ولایته و ربوبیته، و بالنتیجة تعتبر طریقا لإثبات توحیده فی العبادة.

بحوث

۱- معرفة صفات اللّه تعالی

إنّ علمنا و علوم الکائنات جمیعا محدود، لذا لا نستطیع أن نصل إلی کنه و حقیقة ذات الخالق غیر المحدودة، لأنّ المعرفة بحقیقة شیء ما تعنی الإحاطة به، فکیف یستطیع الکائن المحدود أن یحیط بالذات غیر المحدودة؟

و کذلک الحال بالنسبة لصفات اللّه، إذ لا یمکن معرفتها بالنسبة لنا، خصوصا و أنّ صفاته هی عین ذاته.

لذلک فعلمنا بذات الخالق و صفاته هو علم إجرائی، و أکثر ما یدور حول آثاره جلّ و علا.

من جانب آخر لا تستطیع ألفاظنا أن تبیّن ذات اللّه و صفاته المطلقة غیر المحدودة، لأنّ ألفاظنا موضوعة لتلبیة حاجاتنا فی حیاتنا الیومیة، لذلک سوف نصل إلی معانی خاطئة من خلال استخدام ألفاظنا فی توصیف صفات الخالق الکمالیة، کالعلم و القدرة و الحیاة و الولایة و المالکیة، و سائر الصفات الأخری.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۰

نقول مثلا: إنّ اللّه هو «الأول» و هو أیضا «الآخر» هو «الظاهر» و هو «الباطن» هو مع کلّ شیء و لیس مع شیء، و بعید عن کلّ شیء إلّا أنّه لیس غریبا عنه.

قد یبدو فی بعض هذه الألفاظ تناقض أو تضاد، لأنّ معانی الألفاظ نقیسها علی الأشیاء و الموجودات المحدودة، فیمکن أن یکون هو الأوّل و لا یکون الآخر، و الظاهر و لا یکون باطن، و لکن التفکیر الدقیق فی ذات اللّه و صفاته یوصلنا إلی إمکانیة انطباق معانی هذه الألفاظ علیه، فهو الأوّل فی نفس الوقت الذی هو الآخر، و هو الباطن فی نفس الوقت الذی یکون فیه هو الظاهر أیضا.

و علینا أن نعترف هنا بأنّ المهم فی معرفة أوصافه الجمالیة و الجلالیة هو أن ننتبه إلی حقیقة: لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ.

یشیر

أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السّلام إلی هذه الحقیقة بوضوح فیقول: «ما وحده من کیفه، و لا حقیقته أصاب من مثله، و لا إیّاه عنی من شبهه، و لا صمده من أشار إلیه و توهمه»[۴۴۲].

و فی مکان آخر

یقول علیه السّلام: «کل مسمّی بالوحدة غیر قلیل»[۴۴۳].

خلاصة القول: یجب ولوج البحث فی صفات الخالق علی ضوء قوله تعالی:

لَیْسَ کَمِثْلِهِ شَیْءٌ و علینا أن ننظر إلی ذاته المقدسة من خلال قوله تعالی: وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ و عبارة «سبحان اللّه» فی العبادات و غیرها تشیر إلی هذه الحقیقة.

۲- ملاحظة أدبیة

إنّ الكاف فى جملة لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ للتشبيه، و تعنى المثل أيضا. لذا فإنّ هذا التكرار أصبح سببا لأن يعتبر الكثير من المفسّرين أنّها زائدة، و أنّها جاءت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۱

للتأكيد. و أمثال ذلك كثير فى الكلمات الفصحى.

و لكن ثمّة تفسير أجمل، و هو أن يقال أحيانا: مثلك لا يهرب من ساحة الأحداث. أىّ أنّ الذى يملك الشجاعة و العقل و الذكاء مثلك، لا ينبغى عليه الهرب (و الخلاصة أن من يملك مثل صفاتك يجب أن يكون هكذا و هكذا).

و فى الآية التى نبحثها سيكون المعنى هكذا: مثل الخالق الذى ذكرنا أوصافه- كالعلم الواسع و القدرة العظيمة اللامتناهية ليس له مثل».

ذهب أرباب اللغة و علماؤها إلى أنّ هناك بعض المصطلحات لها نفس معنى (مثل) إلّا أنّها ليست مثلها فى- المفهوم من زاوية عموميتها و شموليتها، مثلا:

«ند» على وزن «ضد» و تقال عند ما يكون القصد من التشبيه الإشارة إلى المشابهة فى الجوهر و الماهية.

«شبه» و تقال عند ما يكون الكلام عن الكيفية فقط.

«مساوى» و تقال عند ما يكون الكلام عن الكمية فقط.

«شكل» و تقال عند ما يكون الكلام فى التشبيه عن المقدار و المساحة.

إلّا أنّ «مثل» لها مفهوم أوسع و أكثر عمومية، بحيث تشمل جميع المفاهيم الآنفة الذكر.

لذا فإنّ اللّه عند ما يريد أن ينفى عن ذاته أى شبيه أو نظير يقول: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[۴۴۴].

۳- بعض الملاحظات حول الرزق الإلهى:

أ: معيار بسط الرزق و تقديره:

يجب أن لا نتصوّر أبدا أن بسط الرزق يعنى محبة اللّه لنا، أو أن تضييق المعيشة هى دليل غضبه، لأنّ اللّه قد يختبر الإنسان بواسطة البسط فى رزقه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۲

و أحيانا يريد أن يمتحن صبره و مقاومته عن طريق التضييق بالمعيشة عليه.

و عن هذا الطريق يصار إلى تربية الإنسان.

إنّ الثروة الكبيرة قد تكون أحيانا سببا لعذاب أهلها و تعبهم و سلب استقرارهم و راحتهم النفسية، حيث يقول القرآن فى الآية (۵۵) من سورة التوبة.

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كافِرُونَ

و فى الآيتين (۵۵- ۵۶) من سورة المؤمنين، نقرأ قوله تعالى: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ

ب: تحديد الأرزاق لا يتعارض مع بذل الجهود:

إنّ الآيات التى تتحدث عن تحديد مقدار الرزق لا تتنافى مع سعى الإنسان فى مجال تحصيله للرزق. و ينبغى أن لا يكون الأمر مبعثا للخمول و الكسل و الهروب من تحمل مسئوليات الجهاد الفردى الاجتماعى، إذ هناك آيات قرآنية كثيرة تؤكد أهمية و قيمة السعى

الإنسانى.

إنّ الهدف هو أن ندرك أنّنا رغم سعينا و عملنا فهناك يد خفية تقوم أحيانا بحجب نتائج هذه الجهود، و تقوم فى بعض الأحيان بعكس ذلك، حتى لا ينسى الناس فى حياتهم الاجتماعية الطويلة أن ثمّة قدرة اخرى هى قدرة مسبب الأسباب و هى التى تدبر شؤون العالم.

و ينبغى هنا أن لا نلقى تبعات الكسل و الإهمال و التقاعس على مفهوم الرزق الإلهى المحدود لكل إنسان، لأنّه تعالى صرّح بأن عطاء الرزق يساوى ما يبذله الفرد من جهد و عناء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۳

ج: عدم اقتصار الرزق على المفهوم المادى:

للرزق معنى واسع بحيث يشمل الرزق المعنوى، بل إنّ الرزق الأصلى هو الرزق المعنوى، و فى الأدعية نلتقى مع أمثلة كثيرة تؤكّد ذلك، فنقول حول الحج مثلا:

«اللهم ارزقنى حج بيتك الحرام».

و فى أدعية طلب الطاعة تقول:

«اللهم ارزقنى توفيق الطاعة و بعد المعصية».

و فى أدعية أيام شهر رمضان نقول:

«اللهم ارزقنى فيه طاعة الخاشعين»

(دعاء اليوم الخامس عشر).

و هكذا بالنسبة للهبات المعنوية الأخرى.

د: القرآن و الأسباب التى تؤدى إلى زيادة الرزق:

لقد ذكر القرآن الكريم بعض الأمور التى تعتبر بحدّ ذاتها درسا لتربية الإنسان و بنائه، ففى الآية «۷» من سورة «إبراهيم» نقرأ قوله تعالى: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ

و فى الآية «۱۵» من سورة «الملك» قوله تعالى: هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

و فى سورة الأعراف، آية «۹۶» قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

ه: التضييق فى الرزق و القضية التربوية:

أحيانا يكون ضيق الرزق لمنع الناس عن الطغيان، كما نقرأ فى قوله تعالى:

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ ۴۴۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۴

ز: الرّزاق هو اللّه يؤكّد القرآن الكريم أنّ الذى يعطى الرزق للناس هو اللّه، و عليهم أن لا يطلبوا من غيره، و عليهم بعد الإيمان و التوكل أن يعتمدوا على وسعهم و طاقاتهم، كما ورد فى الآية (۳) من سورة «فاطر» فى قوله تعالى: هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ

و الآية «۱۷» من «العنكبوت» فى قوله تعالى: فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ

و هكذا تقطع التربية القرآنية روح الحاجة لدى الإنسان إلى عباد مثله، و تجعله مرتبطا بخالقه و بارئه و رازقه، فتنمى فيه روح الإباء، و العبودية و الانقطاع إلى اللّه.

و لدينا بحيث مفصل بخصوص الأرزاق و السعى للحياة، و أسباب الرزق و مصادره فى نهاية تفسير الآية «۷۱» من سورة «النحل» و

كذلك فى نهاية تفسير الآية «۶» من سورة «هود»، فليراجع هناك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۵

الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۳ الى ۱۴]

اشارة

شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (۱۳) وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (۱۴)

التّفسير

الإسلام عصارة شرائع جميع الأنبياء:

بما أن العديد من بحوث هذه السورة تتعلق بالمشركين، و أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن نفس هذا الموضوع أيضا، لذا فإنّ الآيات التى نبحثها تبيّن هذه الحقيقة، و هى أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ليست دعوة جديدة، إنّها دعوة جميع الأنبياء أولى العزم، و ليس أصل التوحيد فحسب، بل إن جميع دعوات الأنبياء فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۶

القضايا الأساسية و فى مختلف الأديان السماوية كانت واحدة.

تقول الآية: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً و الذى هو أوّل نبىّ من أولى العزم.

و أيضا: وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى

و بهذا الشكل فما كان موجودا فى شرائع جميع الأنبياء موجود فى شريعتك أيضا و «ما يمتلكه الصالحون جميعا تملكه لوحدك».

إنّ عبارة (من الدين) تبيّن أن التنسيق بين جميع الشرائع السماوية لم يكن بخصوص التوحيد أو أصول العقائد فحسب، بل فى كلّ مجموعة الدين الإلهى، فمن حيث الأساس و الجذور كانت واحدة، بالرغم من أن تكامل المجتمع الإنسانى يقتضى أن تكون التشريعات و القوانين الفرعية متناسقة مع تكامل الناس، و تسير نحو التكامل حتى تصل إلى الحد النهائى و تختتم الأديان.

لهذا السبب هناك أدلة كثيرة فى آيات قرآنية اخرى تبيّن أن الأصول العامة للعقائد و القوانين و التعليمات واحدة فى جميع الأديان.

فمثلا نقرأ فى القرآن الكريم بخصوص شرح حال العديد من الأنبياء، أنّ أوّل دعوة لهم كانت: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ۴۴۶].

و فى مكان آخر نقرأ: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ

و أيضا فقد ورد الإنذار بالبعث فى دعوة العديد من الأنبياء (الأنعام ۱۳۰، الأعراف ۵۹، الشعراء ۱۳۵، طه ۱۵، مريم ۳۱).

أمّا موسى و عيسى و شعيب عليه السّلام فيتحدثون عن الصلاة (طه ۱۴، مريم ۳۱، هود ۸۷).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۴۸۶

إبراهيم يدعو إلى الحج (الحج ۲۷).

و كان الصوم مشرّعا عند جميع الأقوام السابقين (البقرة ۱۸۳).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۷

لذا، و كتعليمات عامّة لجميع الأنبياء العظام تقول الآية فى الجملة الأخرى:

أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ

فهى توصى بأمرين مهمّين:

الأوّل: إقامة دين الخالق فى كلّ الأرض (و ليس العمل فحسب، بل إقامته و إحياؤه و نشره).

الثّانى: الاحتراز عن البلاء العظيم، يعنى الفرقة و النفاق فى الدين.

و بعد ذلك تقول: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ

فلقد تطبع هؤلاء على الشرك و عبادة الأصنام بسبب الجهل و التعصب لسنين طويلة، و عشعش ذلك فى أعماقهم بحيث أصبحت الدعوة إلى التوحيد تخيفهم و توحشهم، إضافة لذلك فإن مصالح زعماء المشركين اللامشروعة محفوظة فى الشرك، فى حين أن التوحيد هو أساس ثورة المستضعفين، و يقف حائلا دون أهواء الطغاة و مظالمهم.

و كما أن انتخاب الأنبياء بيد الخالق، كذلك فإنّ هداية الناس بيده أيضا: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ

ملاحظات

و هناك ملاحظات فى هذه الآية يجب الانتباه إليها:

۱- (شرع) من كلمة (شرع) و هى فى الأصل تعنى الطريق الواضح، حيث يقال (الشريعة) للطريق المؤدى إلى النهر، ثمّ استخدمت هذه الكلمة بخصوص الأديان الإلهية و الشرائع السماوية، لأن طريق السعادة الواضح يتمثل فيها، و هى طريق الوصول إلى الإيمان و التقوى و الصلح و العدالة.

و بما أنّ الماء هو أساس النظافة و الطهارة و الحياة، لذا فإنّ لهذا المصطلح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۸

تناسب واضح مع الدين الإلهى الذى يؤدّى نفس هذه الأعمال من الناحية المعنوية مع روح الإنسان و المجتمع البشرى ۴۴۷].

۲- لقد أشارت هذه الاية إلى خمسة من الأنبياء الإلهيين فقط (نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد عليهم السلام) لأنّ هؤلاء الخمسة هم الأنبياء أولو العزم، أىّ أصحاب الدين و الشرائع، و فى الحقيقة فإنّ الآية تشير إلى انحصار الشريعة بهؤلاء الخمسة من الأنبياء.

۳- فى البداية ذكرت الآية نوحا، لأنّ أوّل شريعة (أو الدين الذى يحتوى على كلّ القوانين العبادية و الاجتماعية) نزلت عن طريقه، و كانت هناك تعليمات و برامج محدودة للأنبياء الذين سبقوه ۴۴۸].

و لهذا السبب لم يشر القرآن و لا الرّوايات الإسلامية إلى الكتب السماوية قبل نوح عليه السّلام.

۴- من الضرورى أن نشير إلى أنّه عند ذكر هؤلاء الخمسة، ثمّ ذكر نوح عليه السّلام فى البداية ثمّ نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بعد ذلك إبراهيم عليه السّلام و موسى عليه السّلام و عيسى عليه السّلام، و هذا الترتيب بسبب أن نوحا كان هو البادئ و الفاتح، و نبىّ الإسلام ذكر بعد ذلك بسبب عظمته، و ذكر الآخرون حسب الترتيب الزمنى لظهورهم.

۵- من الضرورى أيضا أن نشير إلى هذه الملاحظة، و هى أن القرآن يستخدم عبارة: أَوْحَيْنا إِلَيْكَ بخصوص نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، إلّا أنّه استخدم عبارة «وصيّنا» بالنسبة الى الآخرين، قد يكون هذا الاختلاف فى التعبير بسبب أهمية الإسلام بالنسبة لسائر الأديان السماوية الأخرى.

۶- وردت عبارة (من يشاء) بالنسبة الى كيفية انتخاب الأنبياء فى نهاية الآية، و التى قد تكون إشارة مجملة للمؤلهات الذاتية للرسل

الإلهيين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۸۹

أمّا بخصوص الأمم فقد تم استخدام عبارة (من ينيب) «و التى تعنى الرجوع إلى الخالق و التوبة عن الذنب» حتى يتّضح معيار الهداية الإلهية و شرائطها للجميع، و يعثروا على طريق الوصول إلى بحر رحمته.

جاء فى الحديث القدسى «من تقرب منّى شبرا تقربت منه ذراعا، و من أتانى يمشى أتيته هرولة»[۴۴۹].

و قد ورد هذا الاحتمال أيضا فى تفسير الجملة الأخيرة، و هو أن (الاجتباء) لا يختص بالأنبياء فحسب، بل يشمل جميع العباد المخلصين الذين لهم المقام المحمود عند الخالق.

و بما أن أحد أركان دعوة الأنبياء أولى العزم هو عدم التفريق فى الدين، فقد كانوا يدعون لذلك حتما، لذا فقد يطرح هذا السؤال: ما هو أساس كلّ هذه الاختلافات المذهبية؟

و قد أجابت الآية الأخرى على هذا السؤال و ذكرت أساس الاختلافات الدينية بأنّه: وَ ما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فالاختلافات لم تحدث إلّا بسبب حب الدنيا و المنصب و الظلم و الحسد و العداوة.

نعم، فعبيد الدنيا الظلمة و الحسودون الحاقدون وقفوا حيال أديان الأنبياء جميعا، و دفعوا كلّ مجموعة باتجاه معين كيما يثبتوا أركان زعامتهم و يؤمّنوا مصالحهم الدنيوية، و يكشفوا- علانية- حسدهم و عداوتهم للمؤمنين الحقيقيين دين الأنبياء، و لكن كلّ هذا حصل بعد إتمام الحجة.

و بهذا الترتيب فإنّ أساس التفرق فى الدين لم يكن الجهل، بل كان الظلم و البغى و الانحراف عن الحق، و الأهواء و الآراء الشخصية. «فالعلماء الذين يطلبون الدنيا» و «و الحاقدون من الناس و المتعصبون» اتحدوا معا لزرع هذه الاختلافات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۰

و تعتبر هذه الآية ردّا واضحا على الذين يقولون بأن الدين أوجد الاختلاف بين البشر، و أدى الى إراقة دماء كثيرة على مدى التاريخ، فلو دققوا فى الأمر لوجدوا أن الدين دائما هو أساس لوحدة و الاتحاد فى المجتمع (كما حصل للإسلام و قبائل الحجاز و حتى الأقوام فى خارج الجزيرة حيث انتهت الاختلافات و أصبحوا أمة واحدة).

إلّا أن السياسات الاستعمارية هى التى أوجدت الفرقة بين الناس، و حرضت على الاختلافات، و كانت أساسا لإراقة الدماء، ففرض سياساتها و أهوائها على الأديان السماوية كان عاملا كبيرا آخر فى إيجاد الفرقة، و هذا بحد ذاته ينبع من (البغى) أيضا.

«البغى» كما يكشف أساسه اللغوى، يعنى (طلب التجاوز و الانحراف عن خط الوسط و الميل نحو الإفراط أو التفريط) سواء تمّ تطبيق هذا الطلب أم لا، و تختلف كميته و كيفيته، و لهذا السبب فغالبا ما يستخدم بمعنى الظلم.

و أحيانا يقال لأى طلب بالرغم من كونه أمرا جيدا و مرغوبا.

لذا فإنّ الراغب فى مفرداته يقسم (البغى) إلى نوعين: (ممدوح) و (مذموم) فالأوّل يتجاوز حد العدالة و يصل إلى الإحسان و الإيثار، و تجاوز الواجبات و الوصول إلى المستحبات، و الثّانى يتجاوز الحق نحو الباطل.

ثم يضيف القرآن الكريم: وَ لَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حيث يهلك أتباع الباطل و ينصر أتباع الحق.

نعم، فالدنيا هى محل الاختبار و التربية و التكامل، و لا يحصل هذا بدون حرية العمل، و هذا هو الأمر التكوينى الإلهى الذى كان موجودا منذ بدء خلق الإنسان و لا يقبل التغيير. إن هذه هى طبيعة الحياة الدنيوية، و لكن ما يمتاز به عالم الآخرة هو أن جميع هذه الاختلافات ستنتهى و سوف تصل الإنسانية إلى الوحدة الكاملة، و لهذا السبب يتمّ استخدام عبارة (يوم الفصل) للقيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۱

أمّا آخر جملة فتقوم بتوضيح حال الأشخاص الذين جاؤوا بعد هذه المجموعة، أى الذين لم يدركوا عصر الرسل، بل جاؤا فى فترة

طبع فيها المنافقون و المفرقون المجتمع البشرى بطابعهم الشيطانى، لذا لم يستطيعوا إدراك الحق بشكل جيد، حيث تقول: وَ إِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۴۵۰].

و قد ذكروا فى حقيقة معنى كلمة (ريب) أن هذه الكلمة تطلق على الشك الذى يتبدل إلى الحقيقة أخيرا بعد أن يزال الستار عنه، و قد يكون هذا الأمر إشارة إلى ظهور نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالأدلة الواضحة، حيث محى آثار الشك و الريب من قلوب طلّاب الحق.

ملاحظة

نقل تفسير على بن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى قول اللّه تعالى: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ قال الأمام، وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كناية عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام ثمّ قال: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ من أمر ولاية على اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشاءُ كناية عن على (ع)[۴۵۱].

و بديهى أنّ المقصود ليس تحديد الدين فى ولاية على عليه أفضل الصلاة و السلام، بل الهدف هو بيان هذه الحقيقة، و هى أنّ قضية ولاية أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام تعتبر من أركان الدين أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۲

الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۱۵]

اشارة

فَلِذلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۱۵)

التّفسير

فاستقم كما أمرت!

بما أن الآيات السابقة تحدثت عن تفرق الأمم بسبب البغى و الظلم و الانحراف، لذا فإنّ الآية التى نبحثها تأمر النّبى بمحاولة حل الاختلافات و إعادة الحياة إلى دين الأنبياء، و أن يبذل منتهى الاستقامة فى هذا الطريق، فتقول:

فَلِذلِكَ فَادْعُ ۴۵۲] أى ادعوهم إلى الدين الإلهى الواحد و امنع الاختلافات.

ثم تأمره بالاستقامة فى هذا الطريق، فتقول: وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ

و لعل جملة «كما أمرت» إشارة إلى المرحلة العالية من الاستقامة، أو إلى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۳

الاستقامة يجب أن تكون من حيث الكمية و الكيفية و الزمن و الخصوصيات الأخرى مطابقة للقانون الإلهى.

و بما أن أهواء الناس تعتبر من الموانع الكبيرة فى هذا الطريق، لذا تقول الآية فى ثالث أمر لها: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ لأن كلّ مجموعة ستدعوك إلى أهوائها و مصالحها الشخصية، تلك الدعوة التى يكون مصيرها الفرقة و الاختلاف و النفاق، فعليك القضاء على هذه

الأهواء، و جمع الكل فى ظل الدين الإلهى الواحد.

و بما أن لكل دعوة نقطة بداية، لذا فإن نقطة البداية هى شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، حيث تقول الآية فى رابع أمر لها: وَ قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ فأنا لا أفرّق بين الكتب السماوية، اعترف بها جميعا، و كلها تدعو إلى التوحيد و المعارف الدينية الطاهرة و التقوى و الحق و العدالة، و فى الحقيقة فإن دينى جامع لها و مكملها.

فأنا لست مثل أهل الكتاب حيث يقوم كلّ واحد بإلغاء الآخرين، فاليهود يلغون المسيحيين، و المسيحيون يلغون اليهود، و حتى أن أتباع كلّ دين أيضا يقبلون ما يتلاءم مع حاجاتهم و رغباتهم من كتبهم الدينية، فانا أقبل بالكل لأن الكل له أصول أساسية واحدة.

و بما أن رعاية (أصل العدالة) ضرورى لإيجاد الوحدة، لذا فإن الآية تطرح ذلك فى خامس أمر لها فتقول: وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ سواء فى القضاء و الحكم، أو فى الحقوق الاجتماعية و القضايا الأخرى ۴۵۳].

و بهذا الشكل فإنّ الآية التى نبحثها مؤلفة من خمس تعليمات مهمّة، حيث تبدأ من أصل الدعوة، ثمّ تطرح وسيلة انتشارها- يعنى الاستقامة- ثمّ تشير إلى الموانع فى الطريق «كعبادة الأهواء» ثمّ تبين نقطة البداية التى تبدأ من النفس، و أخيرا الهدف النهائى و الذى هو توسيع و تعميم العدالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۴

بعد هذه التعليمات الخمس، تشير إلى المشتركات بين الأقوام و التى تتلخص بخمس فقرات، حيث تقول: اللَّهُ رَبُّنا وَ رَبُّكُمْ و كل واحد مسئول عن اعماله لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ و ليس بيننا نزاع و خصومة، و لا امتياز لأحدنا على الآخر و ليست لدينا أغراض شخصية اتجاهكم.

و عادة لا توجد حاجة إلى الاستدلال و الإحتجاج، لأن الحق واضح، إضافة إلى ذلك فإننا جميعا سوف نجتمع فى مكان واحد: اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنا[۴۵۴].

و الذى سوف يقضى بيننا فى ذلك اليوم هو الأحد الذى: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

و على هذا الأساس فإنّ إلهنا واحد، و نهايتنا ستكون فى مكان واحد، و القاضى الذى إليه المصير واحد، و بالرغم من كلّ هذا فإننا مسئولون جميعا حيال أعمالنا، و ليس هناك فرق لإنسان على آخر إلّا بالإيمان و العمل الصالح.

و ننهى هذا البحث بحديث جامع،

فقد ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «ثلاث منجيات، و ثلاث مهلكات، فالمنجيات: العدل فى الرضا و الغضب، و القصد فى الغنى و الفقر، و خشية اللّه فى السر و العلانية، و المهلكات:

شح مطاع، و هوى متبع، و إعجاب المرء بنفسه»[۴۵۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۵

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

وَ الَّذِينَ يُحاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۱۶) اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (۱۷) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (۱۸)

التّفسير

لا تستعجلوا بالساعة!!

الآيات السابقة كانت تتحدث عن واجبات النبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، كاحترامه لمحتوى الكتب السماوية، و تطبيق العدالة بين جميع الناس و ترك أى محاججة أو خصومة بينه و بينهم. أمّا الآيات التى نبحثها، فلكى تكمّل البحث السابق و تثبت أن حقانية نبىّ الإسلام لا تحتاج إلى دليل، تقول: وَ الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ داحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ و بما أن نقاشهم و محاججتهم ليس لكشف الحقيقة، بل للعناد و الإصرار تقول الاية وَ عَلَيْهِمْ غَضَبٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۶

وَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ لعدم وجود غير هذا الجزاء للمعاندين.

و قد ذكر المفسّرون تفاسير مختلفة حول المقصود من جملة: مِنْ بَعْدِ ما اسْتُجِيبَ لَهُ

فقالوا: إنّ المقصود هو استجابة عامة الناس من ذوى القلوب الطاهرة، و الذين ليست لهم نوايا خبيثة، يستسلمون للحق و يخضعون له مستلهمين ذلك من الفطرة الإلهية و مشاهدة محتوى الوحى و المعاجز المختلفة للنبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قد يكون المقصود بها استجابة دعاء الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بحق معارضيه كما فى يوم معركة بدر، حيث أدى ذلك إلى فناء قسم عظيم من جيش العدو و انكسار شوكته.

و أحيانا اعتبروا ذلك إشارة إلى قبول أهل الكتاب، حيث كانوا ينتظرون نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل ظهوره، و يذكرون علامات ظهوره للناس من خلال كتبهم، و كانوا يظهرون الإيمان و الحب له، إلّا أنّه بعد ظهور الإسلام أنكروا كلّ ذلك، لأن مصالحهم غير المشروعة أصبحت فى خطر.

و يبدو أن التّفسير الأوّل هو الأفضل، لأن التّفسير الثّانى يقتضى أن تكون هذه الآيات نازلة بعد معركة بدر، فى حين أنّه لا دليل على هذا الأمر، و يظهر أن جميع هذه الآيات نزلت فى مكّة.

و التّفسير الثّالث لا يتلاءم مع أسلوب الآية، لأنّه يجب أن يقال: «من بعد ما استجابوا له».

إضافة إلى أن ظاهر جملة: يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ يشير إلى محاججة المشركين بخصوص الخالق، و ليس أهل الكتاب بالنسبة الى النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و لكن ما هى المواضيع المطروحة المشار إليها فى هذه المحاججة الباطلة؟ هناك اختلاف بين المفسّرين:

فقال البعض: إنّ المقصود هو ادعاء اليهود الذين يقولون بأن دينهم كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۷

موجودا قبل الإسلام و إن اسبقيته دليل على أفضليته.

أو، ما دمتم تدّعون الوحدة فتعالوا و آمنوا بدين موسى عليه السّلام لأن الطرفين يقبلانه.

و لكن- كما قلنا- فإن من المستبعد أن يكون الكلام فى هذه الآيات مع اليهود أو أهل الكتاب، لأن «المحاججة فى اللّه» أكثر ما تخص المشركين، لذا فإنّ الجملة أعلاه تشير إلى الأدلة الواهية للمشركين فى قبولهم بالشرك، و التى منها شفاعة الأصنام أو اتباع دين الآباء و الأجداد.

على أية حال، فالمعاندون الذين يصرون على عنادهم بعد وضوح الحق، سيفتضح أمرهم بين خلق اللّه، و سيشملهم غضب الخالق فى هذا العالم و العالم الآخر.

ثم يشير القرآن إلى أحد أدلة التوحيد و قدرة الخالق، و فى نفس الوقت يتضمّن إثبات النبوة حيال المتحاججين ذوى المنطق الواهى، حيث تقول الآية:

اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ وَ الْمِيزانَ

«الحق» كلمة جامعة تشمل المعارف و العقائد الحقة، و الأخبار الصحيحة و البرامج المتطابقة مع الحاجة الفطرية و الاجتماعية، و ما شابه ذلك، لأن الحق هو الشيء الموجود الذى يطابق مصداقه الخارجى، و ليس له جنبة ذهنية و خيالية.

و أمّا «الميزان» فله معنى عام فى مثل هذه الموارد، بالرغم من أن معناه اللغوى هو وسيلة لقياس الوزن، إلّا أنّه فى معناه الكنائى يطلق على أى معيار للقياس و القانون الإلهى الصحيح، و حتى شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الأئمّة عليهم السّلام، حيث أن وجودهم معيار لتشخيص الحق من الباطل و ميزان يوم القيامة، و الميزان فى القيامة يراد به هذا المعنى.

بناء على هذا فإنّ الخالق أنزل كتابا على نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بحيث يعتبر هو الحق، و الميزان للتقييم، و التدقيق فى محتوى هذا الكتاب سواء معارفه و عقائده،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۸

و استدلالاته المنطقية، أو قوانينه الاجتماعية، و حتى برامجه لتهذيب النفوس و تكامل البشر ... كلّ ذلك يعتبر دليلا على حقانيته.

إنّ هذا المحتوى العظيم- بهذا العمق- من شخص أمّى لا- يعرف القراءة و الكتابة، و قد نشا فى مجتمع يعتبر من أكثر المجتمعات تخلفا، يعتبر بحدّ ذاته دليلا على عظمة الخالق، و وجود عالم ما وراء الطبيعة، و حقانية من جاء به.

و هكذا فإنّ الجملة أعلاه تعتبر جوابا للمشركين و لأهل الكتاب.

و بما أن نتيجة كلّ هذه الأمور، خاصة ظهور الحق بشكل كامل و العدالة و الميزان تتّضح فى يوم القيامة، لذا فإن الآية تقول فى نهايتها: وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ

فالقيامة عند ما تقام يحضر الجميع فى محكمة عدله، و يواجهون الميزان الذى يقيس حتى حبّة الخردل أو أصغر منها.

ثم يشير القرآن إلى موقف الكفار و المؤمنين حيال القيامة، فتقول الآية:

يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِها.

فهؤلاء لا يقولون ذلك بسبب عشقهم للقيامة و الوصول إلى لقاء المحبوب أبدا، إنّ كلامهم هذا من قبيل الاستهزاء و الإنكار، و لو كانوا يعلمون ما سيحل عليهم يوم القيامة لم يطلبوا مثل هذا الأمر.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْها وَ يَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُ ۴۵۶].

طبعا لحظة قيام القيامة خافية على الجميع، حتى بالنسبة للأنبياء المرسلين و الملائكة المقربين، ليكون هذا الأمر أسلوبا تربويا مستمرا للمؤمنين، و اختبارا و إتمام حجة للمنكرين، و لكن لا يوجد أى شك فى أصل وقوعها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۴۹۹

و من هنا يتّضح مدى التأثير التربوى العميق للإيمان بالقيامة و محكمة العدل الإلهى الكبيرة على المؤمنين خاصة فى احتمالهم حصول هذا الأمر فى أية لحظة من اللحظات.

و كإعلان عام، تقول الآية فى نهايتها: أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعِيدٍ لأن نظام هذا العالم يعتبر- بحد ذاته- دليلا على أنّه مقدمة لعالم آخر و بدونه سيكون خلق هذا العالم عبثا و ليس له أى معنى، و هذا لا يتناسب مع حكمة الخالق و لا مع عدالته.

و تشير عبارة (ضلال بعيد) إلى أنّ الإنسان قد يضل الطريق أحيانا، إلّا أنّه لا يبتعد عنه كثيرا، و بقليل من البحث و الجهد يمكنه أن يكتشف الطريق و أحيانا يكون البعد كبيرا جدا بحيث يصعب- أو يستحيل- عليه العثور على الطريق مرّة اخرى.

و الطريف فى الأمر أنّنا نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «سأل رجل رسول اللّه فى إحدى سفراته و بصوت مرتفع: يا محمّد ...، فأجابه الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و بصوت مرتفع مثل صوته «ما تقول؟».

قال الرجل: متى الساعة؟

قال الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «إنّها كائنة فما أعددت لها؟».

قال الرجل: حبّ اللّه و رسوله! قال الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «أنت مع من أحببت»[۴۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۰

الآيتان [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (۱۹) مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (۲۰)

التّفسير

مزرعة الدنيا و الآخرة:

بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن العذاب الإلهى الشديد و عن طلب منكرى المعاد للتعجيل بقيام القيامة، لذا فإنّ أوّل آية نبحثها هنا تقرن «الغضب» الالهى مع «اللطف» الالهى فى معرض ردها على استعجال منكرى المعاد: اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ

فعند ما يهددهم بالعذاب الشديد فى موضع، يعدهم باللطف فى موضع آخر، ذلك اللطف الواسع غير المحدود و لا يعجّل فى عقاب الجاهلين المغرورين.

ثم تطرح الآية أحد مظاهر لطفه العام و هو الرزق، فتقول: يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ. و هذا لا يعنى أن هناك جماعة محرومون من رزقه، بل المقصود البسط فى الرزق لمن يشاء، كما جاء فى الآية ۲۶ من سورة الرعد: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۱

يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

و نقرأ فى آية قادمة فى هذا السورة: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ۴۵۸].

و واضح أن (الرزق) هنا يشمل الرزق المعنوى و المادى، و الجسمانى و الروحانى فعند ما يكون هو مصدر اللطف و الرزق، فلما ذا تتوجهون نحو الأصنام التى لا ترزق و لا تتلطف، لا تحل مشاكلكم.

و تقول الآية فى نهايتها: وَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ.

و عند ما يعد اللّه تعالى عباده بالرزق و اللطف فهو قادر على إنجاز هذا الأمر، و لهذا السبب لا يوجد أى تخلف فى وعوده أبدا.

و من الضرورى الانتباه إلى هذه الملاحظة و هى أن (لطيف) لها معنيان: الأوّل:

أنّه صاحب اللطف و المحبة و الرحمة. و الثّانى: علمه بجميع الأمور الصغيرة و الخافية، و بما أن رزق العباد يحتاج إلى الإحاطة و العلم بالجميع و فى أى مكان كانوا، سواء فى السماء أو فى الأرض، لذا فإن الآية تشير فى البداية إلى لطفه ثمّ إلى رزقه، كما أن القرآن يضيف فى الآية (۶) من سورة هود و بعد أن يذكر: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها قوله: وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها.

و طبعا لا يوجد أى تناقض بين هذين المعنيين، بل يكمل أحدهما الآخر، فاللطيف هو الشخص الذى يكون كاملا من حيث المعرفة و العلم، و من حيث اللطف و المحبّة لعباده، و بما أن الخالق يعلم باحتياجات عباده بشكل جيد فانه يسدد احتياجاتهم بأفضل وجه، لذا

فهو الاجدر بهذا الاسم.

على أية حال، فإنّ الآية أعلاه أشارت إلى أربعة صفات من أوصاف الخالق:

اللطف، و الرزق، و القوّة، و العزّة، و هى أفضل دليل على مقام (ربوبيته)، لأن (الرب) يجب أن تتوفر فيه هذه الصفات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۲

الآية التى بعدها شبّهت أفراد العالم حيال رزق الخالق و كيفية الاستفادة منه بالمزارعين الذين يقوم قسم منهم بالزراعة للآخرة و القسم الآخر للدنيا، و تحدد عاقبة كلّ قسم منهم وفق تشبيه لطيف حيث تقول: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۴۵۹].

إنه لتشبيه لطيف و كناية جميلة، فجميع الناس مزارعون، و هذه الدنيا مزرعة لنا، أعمالنا هى البذور، و الإمكانات الإلهية هى المطر لهذه المزرعة، إلّا أن هذه البذور تختلف كثيرا، فبعضها غير محدودة النتاج و أبدية، أشجارها دائمة الخضرة و مثمرة و بعضها الآخر قليل النفع جدا، و تنتهى بسرعة، و تحمل ثمارا مرّة.

و فى الحقيقة، فإن عبارة (يريد) تشير إلى اختلاف الناس فى النيات، و مجموع هذه الآية يعتبر توضيحا لما جاء فى الآية السابقة من المواهب و الرزق الإلهى، فالبعض يستفيد من هذه المواهب على شكل بذور للآخرة، و البعض الآخر يستعملها للتمتع الدنيوى.

و الطريف فى الأمر أن الآية تقول بخصوص الذين يزرعون للآخرة: نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ إلّا أنّها لا تقول أنّه لا يصيبهم شىء من متاع الدنيا، و بالنسبة لمن يزرع للدنيا تقول: نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ

و على هذا الأساس فلا طلّاب الدنيا يصلون إلى ما يريدون، و لا طلّاب الآخرة يحرمون من الدنيا، و لكن مع الفارق، و هو أن المجموعة الأولى تذهب إلى الآخرة بأيد فارغة، و المجموعة الثانية بأيد مملوءة.

و قد جاء ما يشبه نفس هذا المعنى فى الآية ۱۸ و ۱۹ من سورة الإسراء، و لكن بشكل آخر:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۳

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعاجِلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فِيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاها مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَ مَنْ أَرادَ الْآخِرَةَ وَ سَعى لَها سَعْيَها وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.

عبارة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ تتلاءم مع ما ورد فى آيات قرآنية اخرى، مثل:

مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها[۴۶۰] و لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۴۶۱].

على أية حال، فالآية أعلاه صورة ناطقة تعكس التفكير الإسلامى بالنسبة الى الحياة الدنيا، الدنيا المطلوبة لذاتها، و الدنيا التى تعتبر مقدمة للعالم الآخر و مطلوبة لغيرها، فالإسلام ينظر إلى الدنيا على أنّها مزرعة يقتطف ثمارها يوم القيامة.

و العبارات الواردة فى الروايات أو فى آيات قرآنية اخرى تؤكد هذا المعنى.

فمثلا تشبّه الآية (۲۱۶) من سورة البقرة المنفقين بالبذر الذى له سبعة سنابل، و فى كلّ سنبلة مائة حبة، و أحيانا أكثر. و هذا نموذج لمن يبذر البذور للآخرة.

و نقرأ

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم. «و هل يكب الناس على مناخرهم فى النّار إلّا حصائد ألسنتهم»[۴۶۲].

و

جاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السّلام: «إن المال و البنين حرث الدنيا، و العمل الصالح حرث الآخرة، و قد يجمعهما اللّه لأقوام»[۴۶۳].

و يمكن أن نستفيد هذه الملاحظة من الآية أعلاه، و هى أن الدنيا و الآخرة تحتاجان إلى السعى، و لا يمكن نيلهما دون تعب و أذى،

کما أن البـذر و الثمر لا یخلوان من التعب و الأذی، لـذا فالأفضل للإنسان أن یزرع شـجرة و یبذل جهده فی تربیتها، لیکون ثمرها حلو المذاق و دائمیا و أبدیا، و لیست شجرة تموت بسرعة و تفنی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۴

و ننهی هذا الکلام

بحدیث عن الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و اله و سلّم حیث یقول: «من کانت نیّته الدنیا فرق اللّه علیه أمره، و جعل الفقر بین عینیه، و لم یأته من الدنیا إلّا ما کتب له، و من کانت نیّته الآخرة جمع اللّه شمله، و جعل غناه فی قلبه، و أتته الدنیا و هی راغمة»[۴۶۴].

و ما هو مشهور بین العلماء أن

(الدنیا مزرعة الآخرة)

فهو فی الحقیقة اقتباس من مجموع ما ذکرناه أعلاه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۵

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۲۱ الی ۲۳]

اشارة

أَمْ لَهُمْ شُـرَکاءُ شَـرَعُوا لَهُمْ مِنَ الـدِّینِ مـا لَمْ یَـأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَ لَوْ لا کَلِمَـةُ الْفَصْلِ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِینَ لَهُمْ عَـذابٌ أَلِیمٌ (۲۱) تَرَی الظَّالِمِینَ مُشْـفِقِینَ مِمَّا کَسَـبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِی رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما یَشاؤُنَ عِنْـدَ رَبِّهِمْ ذلِکَ هُوَ الْفَضْلُ الْکَبِیرُ (۲۲) ذلِـکَ الَّذِی یُبَشِّرُ اللَّهُ عِبـادَهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحـاتِ قُـلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَکُورٌ (۲۳)

سبب النّزول

لقد ورد فی تفسیر مجمع البیان سبب نزول للآیات ۲۳ و حتی ۲۶ من هذه السورة أنّه ذکر أبو حمزة الثمالی فی تفسیره حدثنی عثمان بن عمیر عن سـعید بن جبیر عن عبـد اللّه بن عباس أنّ رسول اللّه حین قـدم المدینة و اسـتحکم الإسـلام قالت الأنصار فیما بینها: نأتی رسول اللّه فنقول له إن تعروک أمور فهذه أموالنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۶

تحکم فیهـا غیر حرج و لاـ محظور علیـک فـأتوه فی ذلـک فنزلت: قُـلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی فقرأها علیهم و قال تودون قرابتی من بعـدی فخرجوا من عنده مسـلّمین لقوله فقال المنافقون: إن هذا لشـیء افتراه فی مجلسه أراد بذلک أن یذللنا لقرابته من بعـده، فنزلت: أَمْ یَقُولُونَ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً فأرسل إلیهم فتلاها علیهم فبکوا و اشـتد علیهم فانزل اللّه: وَ هُوَ الَّذِی یَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ الآیة، فأرسل فی أثرهم فبشرهم و قال: (و یستجیب الذین، آمنوا و هم الذین سلّموا لقوله تعالی)[۴۶۵].

التّفسیر

أجر الرسالة فی مودة أهل البیت علیهم السّلام

بما أنّ الآية ۱۳ من هـذه السورة كانت تتحـدث عن تشـريع الدين من قبل الخالق بواسـطة الأنبياء أولى العزم، لذا فإن أوّل آية فى هذا البحث- كاستمرار للموضوع- تقول فى مجال نفى تشريع الآخرين، و أن جميع القوانين ليست معتبرة قبال القانون الإلهى، و أن التقنين يختص بالخالق: أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ

فهو خالق و مالك و مـدبر عالم الوجود، و لهذا السـبب تنفرد ذاته المنزهة بحق التقنين، و لا يسـتطيع شـخص أن يتدخل فى تشـريعاته دون إذن، لذا فكل شىء باطل قبال تشريعه.

و بعد ذلك يقوم القرآن بتهديد المشرعين بالباطل، حيث تقول الآية: وَ لَوْ لا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ حيث يصدر الأمر بعذابهم.

و فى نفس الوقت يجب عليهم أن لا ينسوا هذه الحقيقة و هى: وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۷

المقصود من (كلمـة الفصـل) هى المـدّة المقررة المعطاة من قبل الخالق لمثل هؤلاء الأفراد، كى تكون لهم حريـة العمل و تتم الحجة عليهم.

كما أن عبارة (ظالمين) تتحـدث عن المشـركين الـذين لهم عقائـد منحرفـة قبال القوانين الإلهيـة و ذلك بسـبب اتساع مفهوم الظلم، و إطلاقه على أى عمل ليس فى مورده.

و يظهر أن المقصود من (العـذاب الأليم) هو عـذاب يوم القيامـة، لأن هـذه العبارة عادة ما تسـتخدم بهـذا المعنى فى القرآن الكريم، و الآية التى بعدها تشهد على هذه الحقيقة، و ما قاله بعض المفسّرين (كالقرطبى) من أن ذلك يشمل عذاب الدنيا و الآخرة مستبعد.

ثم تذكر الآية بيانا مجملا حول (عذاب الظالمين) ثمّ بيانا مفصـلا عن (جزاء المؤمنين)، فتقول: تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَ هُوَ واقِعٌ بِهِمْ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ

«روضات» جمع (روضة) و تعنى المكان الذى يشـتمل على الماء و الشـجر الكثير، لذا فإن كلمة (روضة) تطلق على البساتين الخضراء، و نسـتفيد من هـذه العبارة بشـكل واضـح أن بساتين الجنّة متفاوتـة، و المؤمنون من ذوى الأعمال الصالحـة فى أفضل بساتين الجنّة، و مفهوم هذا الكلام أنّ المؤمنين المذنبين سيدخلون الجنّة بعد أن يشملهم العفو الإلهى بالرغم من أن مكانهم ليس فى (الروضات).

إلّا أن الفضل الإلهى بخصوص المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة لا ينتهى هنا، فسوف يشـملهم اللطف الإلهى بحيث: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و لهـذا الترتيب لاـ يوجـد أى قياس بين (العمل) و (الجزاء)، بل إن جزاءهم غير محـدود من جميع الجهات، لأن جملـة: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ تكشف عن هذه الحقيقة.

و الأجمل من ذلك عبارة عِنْدَ رَبِّهِمْ حيث توضح اللطف الإلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۸

اللامتنـاهى بشـأنّهم، و هـل هناك فوز أكبر من أن يصـلوا إلى قرب مقام الخالق؟ فكما يقول بخصوص الشـهداء: بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ كذلك يقول بشأن المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و ليس غريبا أن تقول الآية فى نهايتها: ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.

و قد قلنا- مرارا- أنّه لا يمكن شرح نعم الجنّة من خلال الكلام، فنحن المكبلون بقيود عالم المادة، لا نستطيع أن ندرك المفاهيم التى تتضمّنها جملة:

لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ فما ذا يريـد المؤمنون؟ و ما هى الألطاف الموجودة فى جوار قربه تعالى؟! و عادة عنـد ما يقوم الخالق العظيم بوصف شىء ما بالفضل الكبير، فإنّ ذلك يكشف عن مقدار العظمة بحيث يكون أعظم من كلّ ما نفكر به.

و بعبـارة اخرى: سوف يصـل الأـمر بهؤلاـء العباد الخلّص أنّه سـيتوفر لهم كلّ ما يريـدونه، يعنى سـيظهر فى وجودهم شـعاع من قـدرة

الخالق الأزلية، أى إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۴۶۶]، فهل هناك فضيلة موهبة أعظم من هذه؟

و لبيان عظمة هذا الجزاء تقول الآية التى بعدها: ذلِكَ الَّذِى يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ

يبشرهم حتى لا تصعب عندهم آلام الطاعة و العبودية و مجاهدة هوى النفس و الجهاد حيال أعداء اللّه، و يقوم هذا الجزاء العظيم بترغيبهم و يعطيهم القدرة و الطاقة الكبيرة لسلوك طرق الحياة المليئة بالصعوبات و المشاكل للوصول إلى رضا الخالق.

و قد يتوهم أن نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يريد جزاء و أجرا على إبلاغ هذه الرسالة، لذا فإنّ القرآن يأمر الرّسول بعد هذا الكلام ليقول: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى أى حبّ اهل بيتى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۰۹

و مودة ذوى القربى و محبتهم- كما سيأتى بيانها بشكل مفصل- ترتبط بقضية الولاية و قبول قيادة الأئمة المعصومين عليهم السلام من آل الرّسول حيث تعتبر فى الحقيقة استمرارا لقيادة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و استمرارا للولاية الإلهية، و جلىّ أن قبول هذه الولاية و القيادة كقبول نبوة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ستكون سببا لسعادة البشرية نفسها و ستعود نتائجها إليها.

توضيح

هناك بحوث متعددة و تفاسير مختلفة للمفسّرين فى تفسير هذه الجملة، بحيث إذا ما نظرنا إليها بدون أى موقف مسبق نشاهد أنّها ابتعدت عن المفهوم الأصلى للآية بسبب الدوافع المختلفة، و ذكروا احتمالات لا تتلاءم مع محتوى الآية، و لا مع سبب نزولها، و لا مع سائر القرائن التأريخية و الروائية.

و بشكل عام هناك أربعة تفاسير معروفة للآية:

۱- هو ما قلناه أعلاه، حيث أن المقصود من ذوى القربى هم أقرباء الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و حبّهم يعتبر وسيلة لقبول إمامة و قيادة الأئمّة المعصومين عليهم السّلام من نسل الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، و دعما لتطبيق الرسالة.

و قد اختار هذا المعنى جمع من المفسّرين الأوائل، و جميع المفسّرين الشيعة، و وردت روايات كثيرة من طرق الشيعة و السنّة فى هذا المجال سنشير إليها لاحقا.

۲- المقصود هو أن جزاء الرسالة و أجرها هو حب أمور معينة تقربكم من اللّه.

هذا التّفسير الذى ذكره بعض مفسّرى أهل السنة لا يتلاءم مع ظاهر الآية أبدا، لأن معنى الآية سيصبح هكذا: إننى أريد منكم أن تحبوا طاعة الخالق، و تودونه فى قلوبكم، فى حين أنّه يجب أن يقال: إننى أريد منكم أن تطيعوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۰

الخالق، (و ليس مودة الطاعة الإلهية).

إضافة إلى ذلك فإنّه لا يوجد أحد بين المخاطبين فى الآية لا يرغب بالتقرب من الخالق، و حتى المشركين كانوا يرغبون بذلك، و كانوا يظنون أن عبادة الأصنام تعتبر وسيلة لهذا الأمر.

۳- المقصود حبّ أقرباءكم بعنوان أجر الرسالة، أى بصلة الرحم. و بملاحظة هذه التّفسير لا يوجد أى ترابط بين الرسالة و أجرها، لأنّه ماذا يستفيد الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم من حبّ الشخص أقرباءه؟ و كيف يمكن اعتبار هذا الأمر أجرا للرسالة؟! ۴- المقصود أن أجرى هو أن تحفظوا قرابتى منكم، و لا تؤذوننى، لأننى أرتبط برابطة القرابة مع أكثر قبائلكم (لأن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان يرتبط بقبائل قريش نسبيا، و بالقبائل الأخرى سببيا (عن طرق الزواج)، و عن طريق أمه بعض أهالى المدينة من قبيلة بنى النجار، و عن طريق مرضعته بقبيلة بنى سعد).

هـذه العبارة هى أسوأ تفسير مـذكور للآية، لأن طلب أجر الرسالة هو من الأشـخاص الذين آمنوا بها، و مع هؤلاء الأشـخاص لا توجد حاجـة إلى مثـل هـذا الكلام، فأولئك كانوا يحترمون النّبى صـلّى اللّه عليه و اله و سـلّم لأنّه مرسل إلهى، و لا توجـد حاجـة لاحترامه بسـبب قرابته، لأن الاحترام الناشـئ بسبب قبول الرسالة فوق جميع هذه الأمور، و فى الواقع يجب اعتبار هذا التّفسير من الأخطاء الكبيرة التى أصابت بعض المفسّرين و مسخت مفهوم الآية بشكل كامل.

و لكى نفسه حقيقة محتوى الآية بشكل أفضل، علينا طلب العون من الآيات القرآنية الأخرى:

نقرأ فى العديد من آيات القرآن المجيد: ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ ۴۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۱

و هناك عبارات مختلفة تخصّ الرّسول، فقد ورد فى القرآن: قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۴۶۸].

و فى مكان آخر نقرأ: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا.

و أخيرا: قُلْ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ ما أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۴۶۹].

و عنـد مـا نضع هـذه الآيات الثلاثـة إلى جانب الآيـة التى نبحثها، يسـهل علينا الاسـتنتاج: ففى مكان تنفى الآيـة الأجر و الجزاء بشـكل كامل.

و فى مكان آخر تقول الآية: إننى أطلب الأجر من الأشخاص الذين يريدون سلوك الطريق إلى الخالق.

و بخصوص الآية الثّالثة فإنّها تقول: إنّ الأجر الذى أطلبه منكم إنّما هو لكم.

و أخيرا فإن الآية التى نبحثها تضـيف: إن مودّة القربى هى أجر رسالتى، يعنى أن الأجر الذى طلبته منكم و يشـمل هذه الخصوصـيات: لا يعود نفعه إلىّ أبدا، بل ينفعكم بالكامل، و يعبّد الطريق أمامكم للوصول إلى الخالق.

و على هذا الإساس، فهل تعنى الآية شيئا آخر سوى قضية استمرار خط رسالة النّبى الكريم بواسطة القادة الإلهيين و خلفاءه المعصومين الذين كانوا جميعهم من عائلته؟ لكن لأن المودة هى أساس هذا الارتباط نرى أن الآية أشارت بصراحة إلى ذلك.

و الطريف فى الأمر أن هناك خمسـة عشـر موردا فى القرآن المجيد- غير الذى ذكرنا- ذكر فيه كلمة (القربى) حيث أن جميعها تعنى الأقرباء، و مع هذا الوضع لا نعلم لماذا يصـر البعض بحصر معنى كلمة القربى فى (التقرب إلى اللّه) و يتركون المعنى الواضح و الظاهر المستخدم فى جميع الآيات القرآنية؟.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۲

و من الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، و هى أنّه ورد فى آخر الآية:

وَ مَنْ يَقْتَرِفْ حَسَـنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهـا حُسْـناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَـكُورٌ. و هـل هنـاك حسـنة أفضـل من أن يكون الإنسان دائما تحت رايـة القادة الإلهيين، يحبّهم بقلبه، و يستمر على خطهم، يطلب منهم التوضيح للقضايا المبهمة فى كلام الخالق، يعتبرهم القدوة و الأسوة و سيرتهم و عملهم هو المعيار.

الروايات الواردة فى تفسير هذه الآية

الدليل الآخر على التّفسـير أعلاه هو الروايات المتعددة الواردة فى مصادر أهل السـنة و الشيعة، و المنقولة عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، حيث توضح أن المقصود من (القربى) هم أهل البيت و المقربون و خاصة الرّسول، و على سبيل المثال نذكر:

۱-

ينقل (أحمد بن حنبل) فى فضائل الصحابة بسنده عن سعيد بن جبير عن عامر: لما نزلت: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبى

قالوا: یا رسول اللّه! و من قرابتک؟ من هؤلاء الذین وجبت علینا مودّتهم؟ قال: «علی و فاطمة و ابناهما علیهم السلام، و قالها ثلاثا»[۴۷۰].

۲-

ورد فی (مستدرک الصحیحین) أن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام قال: عند استشهاد أمیر المؤمنین الإمام علی علیه السّلام، وقف الحسن بن علی علیه السّلام یخطب فی الناس، و کان ممّا قال: إنا من أهل البیت الذین افترض اللّه مودتهم علی کلّ مسلم، فقال تبارک و تعالی لنبیّه: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً فاقتراف الحسنة مودتنا أهل البیت ۴۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۳

۳-

ذکر (السیوطی) فی (الدر المنثور) فی نهایة الآیة التی نبحثها عن مجاهد عن ابن عباس أنّه قال فی تفسیر آیة: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی أن تحفظونی فی أهل بیتی و تودوهم بی ۴۷۲].

و من هنا یتّضح ضعف ما ینقل عن ابن عباس بطریق آخر من أن المقصود هو عدم إیذاء النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بسبب قرابته مع القبائل العربیة المختلفة.

۴- ینقل (ابن جریر الطبری) فی تفسیره بسنده عن (سعید بن جبیر) و بسند آخر عن (عمر بن شعیب) أن المقصود من هذه الآیة هم قربی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم ۴۷۳].

۵- و

ینقل العلّامة الطبرسی عن (شواهد التنزیل) للحاکم الحسکانی، الذی هو من المفسّرین و المحدثین المعروفین لأهل السنة، عن (أبی أمامة الباهلی) أن رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم قال: «إن اللّه خلق الأنبیاء من أشجار شتی، و أنا و علی من شجرة واحدة، فأنا أصلها، و علی فرعها، و فاطمة لقاحها، و الحسن و الحسین ثمارها، و أشیاعنا أوراقها- حتی قال- لو أن عبدا عبد اللّه بین الصفا و المروة ألف عام، ثمّ ألف عام، ثمّ ألف عام، حتی یصیر کالشن البالی، ثمّ لم یدرک محبتنا کبه اللّه علی منخریه فی النّار، ثمّ تلا: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی .

و الطریف فی الأمر أن هذا الحدیث اشتهر بدرجة بحیث أن الشاعر المعروف الکمیت أشار إلی ذلک فی أشعاره، فقال:

وجدنا لکم فی آل حامیم آیةتأوّلها منا تقیّ و معرب ۴۷۴]

۶- و

ینقل السیوطی أیضا فی (الدر المنثور) عن ابن جریر عن أبی الدیلم: عند ما تأسّر علی بن الحسین علیه السّلام، و أوقفوه فی بوابة دمشق، قال رجل من أهل الشام:

الحمد للّه الذی قتلکم و استأصلکم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۴

قال علی بن الحسین علیه السّلام: هل قرأت القرآن؟

قال: نعم قال: هل قرأت سور حم.

قال: لا.

قال: أ لم تقرا هذه الآیة: قُلْ لا أَسْئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی

قال: أ أنتم الذین أشارت لهم هذه الآیة؟

قال: بلی ۴۷۵].

۷- نقل (الزمخشری) حدیثا فی «تفسیر الکشاف» و قد اقتبسه أیضا الفخر الرازی و القرطبی فی تفسیرهما، حیث یوضح هذا الحدیث مقام آل محمّد و أهمیة حبّهم، فیقول:

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم: من مات علی حب آل محمّد مات شهیدا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مغفورا له ألا و من مات علی حب آل محمّد مات تائبا ألا و من مات علی حب آل محمّد مات مؤمنا مستکمل الإیمان ألا و من مات علی حب آل محمّد بشره ملک الموت بالجنة ثمّ منکر و نکیر ألا و من مات علی حب آل محمّد فتح له فی قبره بابان إلی الجنّة ألا و من مات علی حب آل محمّد جعل اللّه قبره مزار ملائکة الرحمة ألا و من مات علی حب آل محمّد مات علی السنة و الجماعة ألا و من مات علی بغض آل محمّد جاء یوم القیامة مکتوب بین عینیه آیس من رحمة اللّه ألا و من مات علی بغض آل محمّد مات کافرا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۵

ألا و من مات علی بغض آل محمّد لم یشم رائحة الجنّة

[۴۷۶].

و الطریف فی الأمر أن (الفخر الرازی) بعد ذکر هذا الحدیث الشریف الذی أرسله «صاحب الکشاف» إرسال المسلمات، یقول: «و أنا أقول: آل محمّد هم الذین یؤول أمرهم إلیه، فکل من کان أمرهم إلیه أشد و أکمل کانوا هم الآل، و لا شک أن فاطمة و علیا الحسن و الحسین کان التعلق بینهم و بین رسول اللّه أشد التعلقات، و هذا کالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن یکونوا هم الآل، و أیضا اختلف الناس فی الآل فقیل هم الأقارب و قیل هم أمته فإن حملناه علی القرابة فهم الآل و إن حملناه علی الأمة الذین قبلوا دعوته فهم أیضا آل، فثبت أن علی جمیع التقدیرات هم الآل، و أما غیرهم فیدخلون تحت لفظ الآل؟ فمختلف فیه.

و

روی فیه صاحب الکشاف أنّه لما نزلت هذه الآیة قیل: یا رسول اللّه من قرابتک هؤلاء الذین وجبت علینا مودتهم؟ فقال علی و فاطمة و ابناهما

فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النّبی، و إذا ثبت هذا وجب أن یکونوا مخصوصین بمزید التعظیم و یدل علیه وجوه:

الأول: قوله تعالی: إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی و وجه الاستدلال به ما سبق.

الثّانی: لا شک أن النبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یحب فاطمة و

قال (فاطمة بضعة منی یؤذینی ما یؤذیها)

و ثبت بالنقل المتواتر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه کان یحب علیا و الحسن و الحسین و إذا ثبت ذلک وجب علی کلّ الأمة مثله لقوله: وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّکُمْ تَهْتَدُونَ و لقوله تعالی: فَلْیَحْذَرِ الَّذِینَ یُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ و لقوله: قُلْ إِنْ کُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی یُحْبِبْکُمُ اللَّهُ و لقوله سبحانه: لَقَدْ کانَ لَکُمْ فِی رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.

الثّالث: أن الدعاء للآل منصب عظیم و لذلک جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۶

فی الصلاة و هو قوله اللهم صل علی محمّد و علی آل محمّد و أرحم محمّدا و آل محمّدا. و هذا التعظیم لم یوجد فی حق غیر الآل، فکل ذلک یدل علی أن حبّ آل محمّد واجب.

و قال الشافعی رضی اللّه عنه:

یا راکبا قف بالمحصب من منیو اهتف بساکن خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجیج إلی منیفیضا کما نظم الفرات الفائض

إن کان رفضا حب آل محمّدفلیشهد الثقلان أنی رافضی ۴۷۷]

نعم فهـذا مقـام آل محمّـد الـذین نتمسـک بهم و نؤمن بهم کقادة لنا، و سـراج لـدیننا و دنیانا، و نعتبرهم أسوة و قـدوة لنا، و نری أن استمرار خط النبوة فی إمامتهم.

و طبعا، فإن هناک روایات کثیرة اخری غیر التی ذکرناها أعلاه، فی المصادر الإسلامیة، و قد اکتفینا بسبع روایات مراعاة للاختصار، و لکن لا بأس من ذکر هـذه الملاحظة، و هی أنّه فی بعض المصادر الکلامیة کإحقاق الحق و شـرحه المبسوط، ورد الحدیث المعروف أعلاه بشأن تفسیر الآیة: قُلْ لا أَسْـئَلُکُمْ عَلَیْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی منقولا عن خمسین کتابا تقریبا من کتب أهل السنة، حیث یبیّن هـذا الأمر مـدی انتشار هـذه الروایـة و اشـتهارها، بغض النظر عن المصادر الکثیرة التی تنقل هـذا الحدیث عن طریق أهل البیت علیهم السّلام.

بحوث

۱- کلام مع المفسر المعروف (الآلوسی)

اشارة

فی هذا المجال یطرح سؤال ذکره الآلوسی فی تفسیر روح المعانی بشکل اعتراض علی الشیعة، و نحن نذکر ذلک علی شکل سؤال و نقوم بمناقشته: یقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۷

«و من الشـیعة من أورد الآیة فی مقام الاستدلال علی إمامة علی کرم اللّه تعالی وجهه قال: علی کرم اللّه تعالی وجهه، واجب المحبة و کل واجب المحبـة واجب الطاعـة و کل واجب الطاعـة صاحب الإمامـة، ینتـج، علی رضـی اللّه عنه صاحب الإمامة و جعلوا الآیة دلیل الصـغری، و لاـ یخفی ما فی کلامهم هـذا من البحث أمّا أوّلا: فلأن الاسـتدلال بالآیـة علی الصـغری لا یتمّ إلّا علی القول بأن معناها لا أسـألکم علیه أجرا إلاـ أن تودوا قرابتی و تحبوا أهل بیتی و قـد ذهب الجمهور إلی المعنی الأوّل و قیل فی هـذا المعنی: إنّه لا یناسـب شـأن النبوّة لمـا فیه من التهمـة فإن أکثر طلبـة الـدنیا یفعلون شـیئا و یسألون علیه ما یکون فیه نفع لأولادهم و قراباتهم و أیضا فیه منافاة لقوله تعـالی: وَ مـا تَسْـئَلُهُمْ عَلَیْهِ مِنْ أَجْرٍ و أمّـا ثانیا: فلأنا لا نسـلم أن کلّ واجب المحبـة واجب الطاعـة فقـد ذکر ابن بابویه فی کتاب الإعتقادات أن الإمامیة اجمعوا علی وجوب محبة العلویة مع أنّه لا یجب طاعة کلّ منهم.

و أمّا ثالثا: فلا لا نسـلم إن کلّ واجب الطاعة صاحب الإمامة أی الزّعامة الکبری و إلّا لکان کلّ نبی فی زمنه صاحب ذلک و نص: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَکُمْ طالُوتَ مَلِکاً یأبی ذلک و أمّا رابعا: فلأن الآیة تقتضـی أن تکون الصـغری أهل البیت واجبو الطاعة و متی کانت هذه صغری قیاسـهم لا ینتـج النتیجـة التی ذکروها و لو سـلمت جمیع مقـدماته، بل ینتج أهل البیت صاحبوا الإمامة و هم لا یقولون بعمومه ...»[۴۷۸].

تحلیل و مناقشة:

یمکن توضیح جواب العدید من هذه الإشکالات إذا راجعنا تصورنا لهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۸

الآیة- التی نبحثها- وفقا للقرائن المتعددة القویة الموجودة فی نفس هذه الآیة، و سائر الآیات القرآنیة الأخری:

قلنا: إن هـذه المحبّـة لیست أمرا عادیا، بل هی جزاء للنبوّة و أجرا للرسالة، و لا بد أن یکون الأجر و الثمن مساویا للمثمن، حتی یمکن اعتباره جزاء له.

من جانب ثان فإن الآیات القرآنیة تؤکد أنّ نفع هذه المحبة لیس شیئا یعود إلی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، بل ان حاصل ذلک یعود إلی المؤمنین أنفسهم، أو بعبارة اخری یعتبر أمرا معنویا یؤثر فی هدایة المسلمین و تکاملهم.

و بهـذا الترتیب فبالرغم من أنّه لا یسـتفاد من الآیـة سوی وجوب المحبـة هـذه- بمراعاة القرائن المذکورة- لها علاقة بقضیة الإمامة التی تعتبر السند لمقام النبوة و الرسالة.

و مع هذا التوضیح المختصر سنقوم ببحث الإشکالات أعلاه:

۱- یجب القول أنّ بعض الترسبات الذهنیة و اتخاذ المواقف المسبقة کانت سببا لعدم تفسیر بعض المفسّرین للآیة بمودة أهل البیت، فمثلا فسّر بعضـهم (القربی) لمعنی (التقرب من الخالق) فی حین أنّها وردت بمعنی الأقرباء فی جمیع الآیات القرآنیة التی تحتوی علی هذه الکلمة.

أو أنّ البعض فسّر ذلک بمعنی قرابة النّبی مع سائر القبائل العربیة، فی حین أن هذا التّفسیر یخل بنظام الآیة بشکل کامل، فأجر الرسالة یطلب من الذین قبلوا تلک الرسالة، فهل توجد حاجة للاهتمام بالقرابة و غض النظر عن الأذی لمن آمن برسالة الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم؟

إضافة إلی ذلک، لماذا نترک الرّوایات المتعددة التی تفسّر الآیة بولایة أهل بیت النّبیّ؟

لـذا یجب الاعتراف بأنّ هذه المجموعة من المفسّـرین لم یفسـروا الآیة بأذهان خالیة من المواقف المسـبقة، و إلّا فإنه لا یوجد موضوع معقد ضمنها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۱۹

و من هنا یتوضـح أن طلب مثل هـذا الأجر لا یتعارض، لا مع منزلـة النبوة، و لا یشـبه تقالید اصـحاب الدنیا، و یتناسق بشـکل کامل مع الآیة (۱۰۴) من سـورة یوسـف الـتی تنفی أی نوع من الأـجر، لأـن أجر مودة أهـل الـبیت فی الحقیقـة- لاـ یسـتفید منه النّبی، بـل إن المسلمین هم الذین یستفیدون منه.

۲- صـحیح أن وجوب المحبـة العادیة لا تکون دلیلا أبدا علی وجوب الطاعة، لکن عند ما تکون هذه المحبة بمسـتوی الرسالة، عندها سنتیقن بأنّها تشمل وجوب الطاعة، و من هنا یتّضح أن قول ابن بابویه (الشیخ الصدوق) لا یتعارض مع ما قلناه.

۳- صـحیح أن أی طاعة واجبة لا یکون دلیلا علی منزلة الإمامة و الزعامة الکبری، و لکن یجب الانتباه إلی أن وجوب الطاعة التی هی أجر للرسالة بما یناسب مقامها لا یمکن أن یکون شیئا سوی الإمامة.

۴- الإمام- بمعنی القائـد- لا یمکن أن یکون أکثر من واحـد فی أی عصـر، و بناء علی ذلک فإنّه لا یوجـد أی معنی إمامـة أئمّة أهل البیت علیهم السّلام جمیعهم، إضافة لذلک یجب الاستفادة من دور الروایات فی هذا المجال لفهم معنی الآیة.

و الملفت للنظر أن الآلوسی نفسه یهتم کثیرا بمودة أهل البیت، و یقول فی بضع سطور قبل هذا البحث:

«و الحق وجوب محبة قرابته علیه الصـلاة و السـلام من حیث أنّهم قرابته ... و کلما کانت جهة القرابة أقوی کان طلب المودّة أشدّ ... و آثار تلک المودة التعظیم و الاحترام و القیام بأداء الحقوق أتمّ قیام و قـد تهاون کثیر من الناس بذلک حتی عدوا من الرفض السـلوک فی هاتیک المسالک. و أنا أقول قول الشافعی الشافی:

یا راکبا قف بالمحصّب من منیو اهتف بساکن خیفها و الناهض

سحرا إذا فاض الحجیج إلی منیفیضا کملتطم الفرات الفائض

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۰

إن کان رفضا حب آل محمّدفلیشهد الثقلان أنی رافضی

و مع هـذا لا أعتقـد الخروج عما یعتقـده أکابر أهل السـنة فی الصـحابة رضـی اللّه تعالی عنهم دینا، و أری حبّهم فرضا علی مبینا، فقد أوجبه الشارع و قامت علی ذلک البراهین السواطع»[۴۷۹].

۲- سفینة النجاة

ذکر الفخر الرازی فی نهایـة هذا البحث ملاحظة، کما ذکرها الآلوسـی أیضا فی روح المعانی بعنوان (ملاحظة لطیفة) و ذلک نقلا عن الفخر الرازی، حیث یعتقد أن بعض التناقضات ستزول من خلال هذه الملاحظة هی:

إن الرّسول الأکرم قال من جانب: «مثل أهل بیتی کمثل سفینة نوح من رکب فیها نجی»

و من جانب آخر قال: أصحابی کالنجوم بأیهم اقتدیتم اهتدیتم.

فنحن الآن تائهون فی بحر التکالیف، و أمواج الشبهات و الشهوات تعصف بنا من کلّ جانب، و من یرید أن یعبر هذا البحر یحتاج إلی شیئین:

الأول: السفینة الخالیة من أی عیب أو نقص.

و الثّانی: النجوم المتلألئة التی توضح الطریق.

فعند ما یرکب الإنسان فی السـفینة و تراقب عیناه النجوم الوضاءة، عندها سیکون هناک أمل بالنجاة. و بالمثل فأی واحد من أبناء السنة عند ما یرکب فی سـفینة حب آل محمّد و ینظر إلی الأصـحاب (النجوم) عندها سـیکون هناک أمل بأن یوصـله الخالق جل و علا إلی السعادة و السلامة فی الدنیا و الآخرة[۴۸۰].

و کلنـا نقول أن هـذا التشبیه الشاعری لیس دقیقا بالرغم من جماله، لأن سـفینة نوح کانت مرکب النجاة فی ذلک الیوم، عنـد ما غطت الأمواج العاصفة و المیاه کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۱

العالم، و کانت فی حرکة دائبة، و لیست مثل السفن العادیة التی لها مرفأ تتجه إلیه مقتدیة بالنجوم.

لقد کان الهدف السفینة نفسها، و النجاة من الغرق، حتی غاظ الماء و استوت علی الجودی.

إضافة إلی ذلک فإنّ بعض الرّوایات الواردة فی کتب أهل السنة تنقل

عن الرّسول الأکرم صـلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق و أهل بیتی أمان لأمتی من الاختلاف فی الدین»[۴۸۱].

۳- تفسیر «و من یقترف حسنة ...»

«اقترف» فی جملة: وَ مَنْ یَقْتَرِفْ حَسَـنَةً نَزِدْ لَهُ فِیها حُسْناً مأخوذة فی الأصل من (قرف) علی وزن (حرف) و تعنی قطع القشرة الإضافیة من الشـجرة، أو من الجروح الحاصـلة، حیث تکون أحیانـا علامـة علی شـفاء الجرح و تحسـنه، هـذه الکلمـة اسـتخدمت فیمـا بعـد فی

الاكتساب سواء كان حسنا أو سيئا.

و لكن كما يقول الراغب- فإن هذا المصطلح استخدم فى السيئات أكثر ممّا هو فى الحسنات (بالرغم من أن الآية التى نبحثها استخدمته فى الحسنات). لذلك فإن هناك مثل معروف يقول: الاعتراف يزيل الاقتراف.

و الطريف فى الأمر أنّ بعض التفاسير تنقل عن ابن عباس و (السدّ) أن المقصود من (اقتراف الحسنة) فى الآية الشريفة هو مودة آل محمّد[۴۸۲].

و

جاء فى حديث ذكرناه سابقا عن الإمام الحسن بن على عليه السّلام: «اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۲

و واضح أنّ المقصود من هذه التفاسير أن معنى اكتساب الحسنة لا يتحدد بمودّة أهل البيت عليهم السّلام، بل له معنى أوسع و أشمل و لكن بما أن هذه الجملة وردت بعد قضية مودّة ذى القربى، لذا فإن أوضح مصداق لاكتساب الحسنة هو هذه المودّة.

۴- مكان نزول هذه الآيات

هذه السورة (سورة الشورى) من السور المكّية، كما قلنا فى البداية، إلّا أن بعض المفسّرين يعتقدون أن هذه الآيات الأربع (۲۳- ۲۶) نزلت فى المدينة، و سبب النّزول الذى ذكرناه فى بداية تفسير هذه الآيات يشهد على هذا المعنى.

و أيضا فإنّ الرّوايات التى تفسر أهل البيت بعلى و فاطمة و ابنيهما الإمام الحسن و الحسين عليهما السلام تناسب هذا المعنى، لأنّنا نعلم أن زواج على من سيدة النساء عليهما السّلام تمّ فى المدينة، و ولادة الحسن و الحسين عليهما السّلام كانتا فى العام الثّالث و الرابع الهجرى على ما رواه المؤرخون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۳

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۴ الى ۲۶]

اشارة

أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۴) وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (۲۵) وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ (۲۶)

التّفسير

يقبل التوبة عن عباده:

هذه الآيات تعتبر استمرارا للآيات السابقة فى موضوع الرسالة و أجرها، و مودّة ذوى القربى و أهل البيت عليهم السّلام.

فأوّل آية تقول: إن هؤلاء القوم لا يقبلون الوحى الإلهى، بل: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً و هذا الإعتقاد وليد أفكارهم حيث ينسبونه إلى الخالق.

فى حين: فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ و يجردك من قابلية إظهار هذه الآيات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۴

و فى الحقيقة، فإن هذا الأمر إشارة إلى الاستدلال المنطقى المعروف، و هو أنّه إذا ادعى شخص النبوة، و جاء بالآيات البينات و المعاجز، و شمله النصر الإلهى، فلو كذب على الخالق فإن الحكمة الإلهية تقتضى سحب المعاجز منه و فضحه و عدم حمايته، كما ورد فى الآيات (۴۴) إلى (۴۶) من سورة الحاقة: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ

و قد ذكر بعض المفسّرين احتمالات اخرى فى تفسير هذه الجملة، إلّا أن ما قلناه أعلاه هو أفضل و أوضح التفاسير كما يظهر.

و نلاحظ أيضا أن إحدى التهم التى نسبها الكفار و المشركون إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم هى أنّه يعتبر أجر الرسالة فى مودّة أهل بيته و أنّه يكذب على الخالق فى هذا الأمر: (جاء ذلك وفقا للبحث فى الآيات السابقة) إلّا أن الآية أعلاه نفت هذه التهمة عنه صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و لكن بالرغم من هذا، فإن مفهوم الآية لا يختص بهذا المعنى، فأعداء الرّسول كانوا يتهمونه بهذه التهمة فى كلّ القرآن و الوحى كما تقول الآيات القرآنية الأخرى، حيث نقرأ فى الآية (۳۸) من سورة يونس: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

و ورد نفس هذا المعنى باختلاف بسيط فى الآيات (۱۳) و (۳۵) من سورة هود، و قسم آخر من الآيات القرآنية، حيث أنّ هذه الآيات دليل لما انتخبناه من تفسير للآية أعلاه.

ثم تقول الآية لتأكيد هذا الموضوع: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْباطِلَ وَ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ ۴۸۳].

فهذه هى مسئولية الخالق فى توضيح الحق و فضح الباطل وفقا لحكمته، و إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۵

فكيف يسمح لشخص بالكذب عليه و فى نفس الوقت ينصره و يظهر على يديه المعاجز؟

كما أن من الاخطاء الكبيرة أن يتصور البعض قيام الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بهذا العمل مخفيا ذلك عن علم الخالق: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

و كا قلنا فى تفسير الآية ۳۸ من سورة فاطر، فإنّ (ذات) لا- تعنى فى اللغة العربية عين الأشياء و حقيقتها، بل هو مصطلح من قبل الفلاسفة[۴۸۴]، حيث أن ذات تعنى- (الصاحب)، عندها سيكون مفهوم جملة: إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ إن الخالق عليم بالأفكار و العقائد المسيطرة على القلوب، و كأنما هى صاحبة هذا القلب و مالكته.

و هذه إشارة لطيفة إلى استقرار الأفكار و حاكميتها على قلوب و أرواح الناس (فدقق فى ذلك).

و بما أن الخالق يبقى طريق الرجعة مفتوحا أمام العباد، لذا فإن الآيات القرآنية بعد ذم أعمال المشركين و المذنبين القبيحة تشير إلى أن الأبواب التوبة مفتوحة دائما: و لذا تقول الآية محل البحث: وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ

إلّا أنكم إذا تظاهرتم بالتوبة و أخفيتم أعمالا اخرى، فلا تتصوروا أن ذلك يخفى عن علم الخالق، لأنّه: وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ

و قلنا فى سبب النّزول الذى ذكرناه فى بداية الآيات السابقة، أنّه بعد نزول آية المودّة، قال بعض المنافقين و ضعفاء الإيمان: إنّ هذا الكلام افتراه محمّد على الخالق، و يريد به أن يذلنا بعده لأقربائه، عندها نزلت آية: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ردّا عليهم، و عند ما علموا بنزول هذه الآية تندم بعضهم و بكى و بات قلق البال، فى ذلك الوقت نزلت الآية: وَ هُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ ... و بشرتهم بغفران

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۶

الذنب إذا تابوا إلى اللّه توبة نصوحا.

أمّا آخر آية فتوضح الجزاء العظيم للمؤمنين، و العذاب الأليم للكافرين فى جمل قصيرة فتقول: إنّ اللّه تعالى يستجيب لدعاء المؤمنين و طلباتهم: وَ يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ بل: وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ و سوف يعطيهم ما لم يطلبوا. وَ الْكافِرُونَ لَهُمْ عَذابٌ

شَدِيدٌ.

و قد تمّ ذكر تفاسير مختلفة لأمر الذى سيستجيبه من المؤمنين، حيث أن بعض المفسّرين حدد ذلك فى طلبات معينة، منها:

أنّه سيستجيب دعاء المؤمنين أحدهم للآخر.

و منها أنّه سيقبل عباداتهم و طاعاتهم.

و منها أن ذلك مختص بشفاعتهم لإخوانهم.

و لكن لا يوجد أى دليل على هذا التحديد، حيث أن الخالق سيستجيب أى طلب للمؤمنين الذين يعملون الصالحات و الأكثر من ذلك فإنّه سيهبهم من فضله أمورا قد لا تخطر على بالهم و لم يطلبوها، و هذا غاية اللطف و الرحمة الإلهية بخصوص المؤمنين.

و

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى تفسير:

وَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ «الشفاعة لمن وجبت له النّار ممن أحسن إليهم فى الدنيا»[۴۸۵].

و لا يعنى هذا الحديث العظيم فى معناه اقتصار الفضل الإلهى بهذا الأمر فحسب، بل يعتبر أحد مصاديقه الواضحة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۷

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

اشارة

وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (۲۷) وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (۲۸) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ (۲۹) وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ (۳۰) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (۳۱)

سبب النّزول

نقل عن الصحابى المعروف (خباب بن الأرث) أن الآية الأولى: وَ لَوْ بَسَطَ ... نزلت فينا، و ذلك بسبب أنّنا كنّا ننظر إلى الأموال الكثيرة لبنى قريظة و بنى النظير و بنى القينقاع من اليهود، و كنّا نرغب بامتلاكنا لمثل هذه الأموال، إلّا أن هذه الآية نزلت و حذرتنا من أن الخالق لو بسط لنا فى الرزق فسوف نطغى ۴۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۸

و فى تفسير (الدر المنثور) ورد حديث آخر، و هو أن هذه الآية نزلت فى أهل الصفّة، لأنّهم كانوا يأملون بتحسن وضع دنياهم ۴۸۷].

و هناك تفصيل فى نهاية الآيات بخصوص أصحاب الصفة و من هم؟

التّفسير

المترفون الباغون:

قد يكون ارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة بلحاظ ما ورد فى آخر آية من الآيات السابقة من أن الخالق يستجيب دعوة المؤمنين، و فى أعقاب ذلك يطرح هذا السؤال: لماذا نرى البعض منهم فقراء، و لا ينالون ما يرغبونه مهما يدعون؟ تقول الآية: وَ لَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَ لكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يَشاءُ.

و بهذا الترتيب فإنّ تقسيم الأرزاق يقوم على حساب دقيق من قبل الخالق تجاه عباده، و هذا يحدث بسبب: إِنَّهُ بِعِبادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ.

فهو يعلم بمقدار استيعاب أى شخص فيعطيه الرزق وفقا لمصلحته، فلا يعطيه كثيرا لئلا يطغى، و لا قليلا لئلا يستغيث من الفقر.

و جاء ما يشبه هذا المعنى فى الآية (۶) و (۷) من سورة العلق: إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى

و هو حقّا كذلك، فالبحث فى أحوال الناس يدل على هذه الحقيقة الصادقة، و أنّه عند ما تقبل الدنيا عليهم و يعيشون فى رفاهية وسعة، ينسون الخالق و يبتعدون عنه و يغرقون فى بحر الشهوات، و يفعلون ما لا ينبغى فعله، و يشيعون الظلم و الجور و الفساد فى الأرض.

و فى تفسير آخر عن (ابن عباس) فى هذه الآية ورد أن المقصود من (البغى)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۲۹

ليس الظلم و الجور، و إنّما (بغى) تعنى (طلب) أى يكون معنى الآية أنّهم يطلبون أكثر و لا يشبعون.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل مقبول من قبل عدّة مفسّرين و هو الأفضل كما يظهر، لأن عبارة: يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ وردت عدة مرات فى الآيات القرآنية بمعنى الفساد و الظلم فى الأرض، مثل: فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ ۴۸۸] و إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ ۴۸۹].

صحيح أن (بغى) وردت بمعنى (طلب) أيضا، إلّا أنّها متى ما تذكر مع كلمة (فى الأرض) فإنها تعنى الفساد و الظلم فى الأرض.

و هنا يطرح سؤالان:

الأوّل: لو كان تقسيم الأرزاق وفق هذا البرنامج، فلما ذا إذن نرى أشخاصا لهم رزق وفير و قد أفسدوا و طغوا كثيرا فى الدنيا و لم يمنعهم الخالق، سواء على مستوى الأفراد، أو الدول الناهبة و الظالمة؟

و فى الجواب على هذا السؤال يجب الانتباه إلى هذه الملاحظة، و هى أن بسط الرزق أحيانا قد يكون أسلوبا للامتحان و الاختبار، لأن جميع الناس يجب أن يختبروا فى هذا العالم، فقسم منهم يختبرون بواسطة المال.

و أحيانا قد يكون بسط الرزق لبعض الافراد لكى يعلموا بأن الثروة لا تجلب السعادة، فعسى أن يعثروا على الطريق و يرجعوا إلى خالقهم، و نحن الان نرى بعض المجتمعات غرقى بأنواع النعم و الثروات، و فى نفس الوقت شملتهم مختلف المصائب و المشاكل، كالخوف، و القتل، و التلوث الخلقى، و القلق بأنواعه المختلفة.

فأحيانا تكون الثروة غير المحدودة نوعا من العقاب الإلهى الذى يشمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۰

بعض الناس، فإذا نظرنا إلى حياتهم من بعيد نراها جميلة، أمّا إذا تفحصناها عن قرب فسوف نشاهد التاسعة بأدنى حالاتها!، و فى هذا المجال هناك قصص عديدة لسلاطين الثروة فى الدنيا، حيث يطول بنا المقام لو أردنا سردها.

السؤال الآخر هو: ألا يعنى هذا الكلام أنّه متى ما كان الإنسان فقيرا فلا ينبغى له السعى للتوسع فى الرزق، لأن الخالق جعل مصلحته فى هذا الفقر؟

و للجواب على هذا السؤال نقول: إنه قد تكون قلة الرزق بسبب كسل الإنسان و تهاونه أحيانا، فهذا النقص و الحرمان ليس ما يريده

اللّه حتما، بل بسبب أعماله، و الإسلام يدعو الجميع إلى الجهد و الجهاد و المثابرة وفقا لتأكيده على أصل السعى و بذل الجهد الذى يشير إليه القرآن فى آيات عديدة، و سنة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و الائمة الأطهار عليهم السّلام.

و لكن عند ما يبذل الإنسان منتهى جهده، و رغم ذلك تغلق الأبواب فى وجهه، عليه أن يعلم بأن هناك مصلحة معينة فى هذا الأمر، فلا يجزع، و لا ييأس، و لا ينطق بالكفر، و يستمر فى محاولاته و يستسلم لرضا الخالق أيضا.

و تجدر الإشارة إلى هذه الملاحظة و هى أن كلمة (عباده) لا تتعارض أبدا مع الطغيان عند بسط الرزق، لأن هذه العبارة تستخدم فى الأفراد الصالحين و السيئين و المتوسطى الحال، مثل: قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

صحيح أن الخالق ينزل الرزق بقدر حتى لا يطغى العباد، إلّا أنّه لا يمنعهم أو يحرمهم، لذا فإن الآية التى بعدها تقول: وَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

و لماذا لا يكون هذا: وَ هُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ؟

هذه الآية تتحدث عن آيات و علائم التوحيد فى نفس الوقت الذى تبيّن فيه نعمة و لطف الخالق، لأن نزول المطر يشتمل على نظام دقيق للغاية و محسوب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۱

فعند ما تشرق الشمس على المحيطات تفصل ذرات الماء الدقيقة عن الأملاح و ترسلها على شكل سحب إلى السماء، ثمّ تقوم طبقات الجو العليا الباردة بتكثيفها، ثمّ تحملها الرياح إلى الأراضى اليابسة، ثمّ تتحول أخيرا إلى قطرات مطر بسبب برودة الهواء و ضغطه الخاص و تهطل على الأرض، و تنفذ فيها دون تخريب.

نعم، فلو دققنا النظر فى هذا النظام، فسنجد علائم قدرة الخالق و علمه متجلية فيه، فهو الولى الحميد الذى يقوم بتأمين كلّ حاجات العباد و تشملهم ألطافه العديدة.

و لا بدّ القول أن كلمة (غيث) تعنى المطر النافع، كما يقول العديد من المفسّرين و بعض علماء اللغة، فى حين أن (المطر) يطلق على جميع الأنواع الأخرى النافعة و الضارة.

لذا، فبعد تلك الجملة وردت عبارة: وَ يَنْشُرُ رَحْمَتَهُ

يا له من تعبير لطيف و شامل! فهو ينشر رحمته لإحياء الأراضى الميتة، و نمو النباتات و تنظيف الهواء، و تأمين ماء الشرب للإنسان و باقى الكائنات الحية، و الخلاصة فى جميع المجالات.

فلو أراد الإنسان أن يدرك مفهوم هذه الجملة القرآنية، فإنّ عليه أن يتوجه نحو الجبال و السهول بعد نزول المطر و عند ما تشرق الشمس، كى يشاهد الجمال و اللطافة و رحمة الخالق الواسعة و هى تعمر كلّ مكان.

و قد تكوه الاستفادة من كلمة (غيث) بسبب أن لها جذورا مشتركة مع (غوث) المأخوذة من الإغاثة، و لهذا السبب فإن بعض المفسّرين اعتبر الكلمة أعلاه إشارة إلى أى إغاثة من قبل الخالق بعد اليأس و نشر رحمته ۴۹۰].

و لهذه المناسبة- أيضا- فإن الآية التى بعدها تتحدث عن أهم آيات علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۲

و قدرة الخالق، حيث تقول: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ.

فالسموات بعظمتها، بمجراتها و كواكبها، بملايين الملايين من النجوم العظيمة اللامعة، بنظامها الدقيق الذى يبهت الإنسان عند مطالعته لها. و الأرض بمنابعها الحياتية و نباتاتها المتنوعة و لورود و الفواكه بمختلف البركات و المواهب و الجمال! كلها تعتبر آيات و علائم تدل عليه ... هذا من جانب.

و من جانب آخر فالأحياء فى الأرض و السماء، كأنواع الطيور، و مئات الآلاف من الحشرات، و أنواع الحيوانات الأليفة و المتوحشة، و

الزواحف، و الأسماک بأنواعها و أحجامها، و العجائب المختلفة الموجودة فی کلّ نوع من هذه الأنواع، و الأهم من ذلک حقیقة (الحیاة) و أسرارها التی لم یستطع أحد التوصل إلی کنهها بعد آلاف السنین من البحوث لملایین العلماء، کلّ ذلک هو من آیات الخالق.

و الملفت للنظر أن (دابة) تشمل الکائنات الحیة المجهریة التی لها حرکات لطیفة و عجیبة، و تشمل الحیوانات الکبیرة العملاقة التی یصل طولها إلی عشرات الأمتار و وزنها إلی عشرات الأطنان، فکل صنف یسبّح علی طریقته الخاصة و یحمد الخالق، و یبیّن عظمته تعالی و قدرته و علمه اللامحدود، بلسان حاله.

و تقول الآیة فی نهایتها: وَ هُوَ عَلی جَمْعِهِمْ إِذا یَشاءُ قَدِیرٌ[۴۹۱].

أمّا ما هو المقصود من جمع الأحیاء الذی تذکره هذه الآیة؟ فقد ذکر العدید من المفسّرین أنّه الجمع للحساب و جزاء الأعمال فی القیامة، و یمکن اعتبار الآیات التی تذکر القیامة بعنوان (یوم الجمع) دلیلا علی هذا المعنی (مثل الآیة ۷ من نفس هذه السورة و الآیة ۹ من سورة التغابن).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۳

و هنا قد یطرح هذا السؤال و هو: هل أن جمیع الأحیاء سیحشرون یوم القیامة، حتی غیر الإنسان؟ حیث یقال أحیانا أن کلمة (دابة) تطلق علی غیر الإنسان. و هنا ستطرح هذه المشکلة و هی کیف ستحشر الأحیاء من غیر الإنسان للحساب. فی حین أنّها لا تتمتع بعقل و لا اختیار و لا تکلیف؟

و قد ورد جواب هذا السؤال فی نهایة الآیة (۳۸) من سورة الأنعام: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ یَطِیرُ بِجَناحَیْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُکُمْ ما فَرَّطْنا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیْءٍ ثُمَّ إِلی رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ

و قلنا أن حیاة العدید من الحیوانات مقترنة مع نظام بدیع و عجیب، فما المانع من أن تکون أعمالها نتاج نوع من العقل و الشعور فیها؟ و هل هناک ضرورة لإرجاع جمیع هذه الأمور إلی الغریزة؟ و فی هذه الحالة یمکن تصور نوع من الحشر و الحساب لها (اقرأ شرحا أکثر لهذا الموضوع فی ذیل تفسیر الآیة ۳۸ من سورة الأنعام).

و یحتمل فی تفسیر الآیة أعلاه أن المقصود من (الجمع) الجانب المقابل ل (بث)، أی أن (بث) تشیر إلی خلق أنواع الکائنات الحیة باختلافها، ثمّ إذا شاء الخالق (جمعها) و أفناها. فکما أن العدید من الأحیاء- (علی مدی التاریخ)- انتشرت بشکل عجیب، ثمّ انقرضت و اختفت فیما بعد. کذلک جمعها و إبادتها یکون بید الخالق، فهی فی الحقیقة تشبه الآیات التی تقول: یحیی و یمیت (أی الخالق).

و بهذا فإنّ قضیة حساب الحیوانات سوف تکون أجنبیة عن هذه الآیة.

النجوم السماویة الآهلة:

من الاستنتاجات المهمّة التی نستنتجها من خلال هذه الآیة، أنّها تدل علی وجود مختلف الأحیاء فی السماوات، و بالرغم من عدم صدور الرأی النهائی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۴

للعلماء بهذا الخصوص، إلّا أنّهم یقولون و علی نحو الإیجاز: هناک احتمال قوی بوجود عدد کبیر من النجوم من بین الکواکب السماویة تحتوی علی کائنات حیة، إلّا أن القرآن یصرح بهذه الحقیقة، من خلال: وَ ما بَثَّ فِیهِما مِنْ دابَّةٍ.

و ما یقوله بعض المفسّرین من احتمال تخصص (فیهما) بالکرة الأرضیة غیر سدید، لوجود ضمیر المثنی و الذی یعود إلی السماء و الأرض معا، و کذلک لا یصح ما قیل فی تفسیر (دابة) بالملائکة، لأن دابة تطلق عادة علی الکائنات المادیة.

و يمكن استفادة هذا المعنى أيضا من خلال الآيات القرآنية المتعددة الأخرى.

و

فى حديث ورد عن الإمام على بن أبى طالب عليه السّلام أنّه قال: «هذه النجوم التى فى السماء مدائن مثل المدائن التى فى الأرض مربوطة كلّ مدينة إلى عمود من نور»[۴۹۲].

و هناك روايات اخرى متعددة فى هذا المجال (يمكن مراجعة كتاب «الهيئة و الإسلام» لمزيد من المعلومات).

و بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرحمة الإلهية، لذا يطرح سؤال فى هذا المجال، و هو كيف تجتمع الرحمة و كل هذه المصائب التى تصيبنا؟

الآية الأخرى تجيب على هذا السؤال و تقول: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ

ثم إن هذا الجزاء ليس جزاء على جميع أعمالكم القبيحة، لأنّه وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۵

ملاحظات

علّة المصائب:

و من الضرورى الانتباه إلى بعض الملاحظات الواردة فى هذه الآية:

۱- تبيّن هذه الآية و بوضوح أن المصائب التى تصيب الإنسان هى نوع من التحذير و العقاب الإلهى (بالرغم من وجود بعض الاستثناءات التى سنشير إليها فيما بعد).

و بهذا الترتيب سيتوضح لنا جانب من فلسفة الحوادث المؤلمة و المشاكل الحياتية.

و الطريف فى الأمر أنّنا نقرأ فى حديث عن الإمام على عليه السّلام أنّه

نقل عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قوله: «خير آية فى كتاب اللّه هذه الآية، يا على ما من خدش عود، و لا نكبة قدم إلا بذنب، و ما عفى اللّه عنه فى الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه، و ما عاقب عليه فى الدنيا فهو أعدل من أن يثنى على عبده»[۴۹۳].

و هكذا فإنّ هذه المصائب إضافة إلى أنّها تقلل من حمل الإنسان، فإنها تجعله يتزن فى المستقبل.

۲- بالرغم من عمومية الآية و شمولها كلّ المصائب، لكن توجد استثناءات لكم عامّ، مثل المصائب و المشاكل التى أصابت الأنبياء و الأئمة المعصومين عليهم السّلام بهدف الاختبار أو رفع مقامهم.

و أيضا المصائب بهدف الاختبار التى تشمل غير المعصومين. أو المصائب التى تحدث بسبب الجهل أو عدم الدقة فى الأمور و عدم الاستشارة و التساهل و التى هى آثار تكوينية لأعمال الإنسان نفسه.

و بعبارة اخرى فإن الجمع بين الآيات القرآنية المختلفة- و الأحاديث-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۶

يقتضى التخصيص فى بعض الموارد بالنسبة لهذه الآية العامة، و ليس هذا موضوعا جديدا ليكون محل نقاش بعض المفسّرين.

و خلاصة القول فإنّ هناك غايات مختلفة للمصائب و المشاكل التى تصيب الإنسان، حيث تمّت الإشارة إليها فى المواضيع التوحيدية و بحوث العدل الإلهى.

فالملكات تنمو و تتكامل تحت ضغط المصائب، و يكون هناك حذر بالنسبة للمستقبل، و يقظة من الغرور و الغفلة و كفارة للذنب و

...

و بما أن أغلب أعمال الأفراد لها طبیعة جزائیة و تکفیریة، لذا فإنّ الآیة تطرح ذلک بشکل عام.

و لـذا فقـد ورد فی الحـدیث أنّه و عنـد ما دخل علی بن الحسـین علیه السّـلام علی یزیـد بن معاویـة، نظر إلیه یزیـد و قال: یا علی، ما أصابکم من مصیبة فبما کسبت أیدیکم (إشارة إلی أنّ مأساة کربلاء هی نتیجة أعمالکم).

إلّا أنّ الإمام علیه السّلام أجابه مباشرة:

«کلاـ ما نزلت هـذه فینا، إنّما نزل فینا: ما أَصابَ مِنْ مُصِـیبَةٍ فِی الْأَرْضِ وَ لا فِی أَنْفُسِـکُمْ إِلَّا فِی کِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِـیرٌ لِکَیْلاـ تَأْسَوْا عَلی مـا فـاتَکُمْ وَ لاـ تَفْرَحُـوا بِمـا آتـاکُمْ فنحـن الـذین لاـ نأسـی علی مـا فاتنـا مـن أمر الـدنیا، و، لاـ نفرح بما أوتینا»[۴۹۴].

و ننهی هذا الکلام

بحدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّـلام فعند ما سـئل عن تفسـیر الآیة أعلاه قال: تعلمون أن علیا و أهل بیته قد أصیبوا بالمصائب من بعـده، فهل کان ذلک بسـبب أعمالهم؟ فی حین أنّهم أهل بیت الطهر، و العصـمة من الـذنب، ثمّ أضاف: نص إنّ رسول اللّه کان یتوب إلی اللّه و یستغفر فی کلّ یوم و لیلة مائة مرة من غیر ذنب، إنّ اللّه یخص أولیاءه بالمصائب لیأجرهم علیها من غیر ذنب ۴۹۵].

۳- البعض یشکک فی أن یکون المقصود من المصائب فی هذه الآیة مصائب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۷

الدنیا، لأن الدنیا هی دار العمل و لیس دار الثواب و الجزاء.

و هـذا خطأ کبیر، لوجود آیات و روایات متعـددة تؤکـد أن الإنسان یری- أحیانا- جانبا من نتیجة أعماله فی هذه الدنیا، و ما یقال من أن الدنیا لیست دارا للجزاء و لا تتم فیها تصـفیة جمیع الحسابات، لا یعنی عدم الجزاء بشـکل مطلق، حیث أن إنکار هذه الحقیقة یشـبه إنکار البدیهیات، کما یقول المطّلعون علی المفاهیم الاسلامیة.

۴- أحیانا قـد تکون المصائب جماعیة، و بسـبب ذنوب الجماعة، کما نقرأ فی الآیة (۴۱) من سورة الروم: ظَهَرَ الْفَسـادُ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ لِیُذِیقَهُمْ بَعْضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ

و واضح أن هذا یختص بالمجتمعات الإنسانیة التی أصیبت بالمصائب بسبب أعمالها.

و ورد فی الآیة ۱۱ من سورة الرعد: إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ

و هـذه الآیات تدل علی وجود ارتباط و علاقة قریبة بین أعمال الإنسان و النظام التکوینی للحیاة، فإذا سار الناس وفقا لأصول الفطرة و قوانین الخلق فستشملهم البرکات الإلهیة، و عند فسادهم یفسدون حیاتهم.

و أحیانا قد یصدق هذا الأمر بخصوص آحاد الناس، فکل إنسان سیصاب فی جسمه و روحه أو أمواله و متعلقاته الأخری بسبب الذنب الذی یرتکبه، کما جاء فی الآیة أعلاه ۴۹۶].

علی أیة حال، فقد یتصور البعض أنّهم یستطیعون الهروب من هذا القانون الإلهی الحتمی. لذا فإن آخر آیة فی هذا البحث تقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۸

وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِینَ فِی الْأَرْضِ ۴۹۷]. و فی السـماء بطریق اولی و کیف تستطیعون الهروب من قدرته و حاکمیته فی حین أن کلّ عالم الوجود هو فی قبضته و لا منازع له؟

و إذا کنتم تعتقدون بوجود من سیساعدکم و ینصرکم، فاعلموا: وَ ما لَکُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا نَصِیرٍ.

قد یکون الفرق بین (الولی) و (النصـیر) هو أن الولی هو الذی یقوم بجلب المنفعة، و النصـیر هو الذی یقوم بدفع الضـرر، أو أن الولی یقال لمن یدافع بشکل مستقل، و النصیر یقال لمن یقف إلی جانب الإنسان و یقوم بنصرته.

و فی الحقیقة فإن آخر آیة تجسد ضعف و عجز الإنسان، و الآیة التی قبلها عدالة الخالق و رحمته ۴۹۸].

مسائل مهمّة

الاولی: مصائبکم بما کسبت أیدیکم:

یتصور العدیـد من النـاس أن علاقـة أعمال الإنسان بالجزاء الإلهی مثل العقود الدنیویـة و ما تحتویه من الأجر و العقاب، فی حین قلنا- مرارا- إن هذه العلاقة أقرب ما تکون إلی الارتباط التکوینی منه إلی الارتباط التشریعی.

و بعبـارة اخری فإنّ الأجر و العقاب أکثر ما یکون بسـبب النتیجـة الطبیعیـة و التکوینیـة لأعمال الإنسان حیث یشـملهم ذلک. و الآیات أعلاه خیر شاهد علی هذه الحقیقة.

و بهذا الخصوص هناک روایات کثیرة فی المصادر الإسلامیة نشیر إلی بعضها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۳۹

لتکمیل الموضوع:

۱-

ورد فی إحـدی خطب نهـج البلاغـة: «ما کان قوم قط فی غض نعمـة من عیش، فزال عنهم إلّا بـذنوب اجترحوها، لأن اللّه لیس بظلام للعبیـد، و لو أنّ النـاس حین تنزل بهم النقم، و تزول عنهم النعم، فزعوا إلی ربّهم بصـدق من نیـاتهم، و وله من قلوبهم، لردّ علیهم کلّ شارد، و أصلح لهم کلّ فاسد»[۴۹۹].

۲- و هناک

حـدیث آخر عن أمیر المؤمنین الإمـام علی علیه السّـلام فی (جـامع الأخبـار) حیث یقول: «إنّ البلاء للظالم أدب، و للمؤمن امتحان، و للأنبیاء درجة، و للأولیاء کرامة»[۵۰۰].

و هذا الحدیث خیر شاهد للاستثناءات التی ذکرناها لهذه الآیة.

و

ورد فی حـدیث آخر عن الإمـام الصـادق علیه السّـلام فی الکـافی أنّه قـال: «إنّ العبـد إذا کثرت ذنوبه، و لم یکن عنـده من العمـل ما یکفرها، ابتلاه بالحزن لیکفرها»[۵۰۱].

۴- و هناک باب خاص لهذا الموضوع فی کتاب أصول الکافی یشمل ۱۲.

حدیثا[۵۰۲].

و کل هذه هی غیر الذنوب التی صرحت الآیة أعلاه بأن الخالق سیشملها بعفوه و رحمته، حیث أنّها- بحد ذاتها- کثیرة.

الثانیة: اشتباه کبیر

قد یسـتنتج البعض بشکل خاطئ من هذه الحقیقة القرآنیة و یقول بوجوب الاستسلام لأی حادثة مؤسفة، إلّا أن هذا الأمر خطیر للغایة، لأنّه یستفید من هذا الأصل القرآنی التربوی بشکل معکوس و یستنتج نتیجة تخدیریة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۰

فالقرآن لا يقول أبدا بالاستسلام حيال المصائب و عدم السعى لحل المشاكل، و الركون للظلم و الجور و المرض، بل يقول: إذا شملتك المصائب بالرغم من سعيك و محاولاتك لدفعها، فاعلم أن ذلك هو كفارة الذنوب التى قمت بها و ارتكبتها، عليك أن تفكر بأعمالك السابقة، و تستغفر لذنوبك، و تصلح نفسك و تكتشف نقاط ضعفك.

و إذا ورد فى الروايات أن هذه الآية من أفضل آيات القرآن، فذلك بسبب تأثيرها التربوى المهم، و من جانب آخر تقوم بتخفيف هموم الإنسان، و تعيد الأمل و عشق الخالق إلى قلبه و روحه.

الثّالثة: من هم أصحاب الصفة؟

الذين يذهبون إلى زيارة قبر النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فى المدينة، يشاهدون مكانا مرتفعا قليلا عن الأرض فى زاوية المسجد و قرب القبر الشريف حيث عزلت أطرافه بشكل جميل عن باقى المسجد، كما أن الكثير ينتخب هذا المكان لتلاوة القرآن و الصلاة.

هذا المكان يذكرنا بمكان (الصفّة) و هو المحل الذى هيأه النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لمجموعة من الغرباء الذين اعتنقوا الإسلام و لم يكن لديهم مأوى سوى المسجد[۵۰۳].

توضيح:

أوّل شخص غريب اعتنق الإسلام و لم يكن يملك مكانا فى المدينة هو شاب من أهل اليمامة يسمى (جويبر) حيث أن قصة زواجه الشهيرة مع (الذلفاء) تعتبر من أجمل حوادث محاربة الفواصل الطبقية فى التاريخ الإسلامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۱

و قد سمح له الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بالمبيت ليلا فى المسجد، لأنّه لا يملك مكانا للاستراحة و السكن، و عند ما كثر عدد الغرباء- و كلهم سكن المسجد- أدى ذلك إلى وضع سلبى للمسجد، أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بإخراجهم من المسجد و تطهيره، و أغلقت أبواب بيوت الصحابة التى كانت شارعة إلى المسجد بأمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم ما عدا بيت على و فاطمة عليهما السّلام.

عندها أمر الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بتسقيف مكان معين بسعف النخل ليكون محلا لسكن الغرباء و الفقراء، و كان بنفسه يزورهم و يعطيهم الماء و التمر و الخبز و المواد الغذائية الأخرى، و قام باقى المسلمين بالاهتمام بهم و مساعدتهم عن طريق الزكاة و أنواع الإنفاق الأخرى.

و قد اشترك هؤلاء فى المعارك الإسلامية و جاهدوا بإخلاص، و قد وردت بعض الآيات القرآنية لتذكر فضلهم و صفاءهم و طهرهم، و قد سمّوا (بأصحاب الصفّة) لأنّهم سكنوا تلك (الصفّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۲

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۳۲ الى ۳۶]

اشارة

وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۳۲) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (۳۳)

أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (۳۴) وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۵) فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (۳۶)

التّفسير

هبوب الرياح المنتظمة و حركة السفن عليهم السّلام

مرّة اخرى نشاهد أنّ هذه الآيات تقوم بتبيان علائم الخالق و أدلة التوحيد، و تستمر فى البحث الذى أشارت إليه الآيات السابقة بهذا الخصوص.

و هنا تذكر موضوعا يتعامل معه الإنسان كثيرا فى حياته المادية، خصوصا المسافرين عبر البحار و سكان السواحل، حيث تقول الآية: وَ مِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۵ ؛ ص۵۴۲

جوار» جمع (جارية) و هى صفة للسفن حيث لم تذكر للاختصار، و عادة فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۳

الآية تقصد حركة السفن، و لذا فقد استخدمت هذه الصفة.

و يقال للبنت الشابة «جارية» لأن الشباب و النشاط يجرى فى عروقها و وجودها.

«أعلام» جمع (علم) على وزن (قلم) و تعنى الجبل، إلّا أنّها فى الأصل بمعنى العلامة و الأثر الباقى الذى يخبر عن شىء معين، مثل (علم الطريق) و (علم الجيش) و ما شابه.

أمّا لماذا سمّى الجبل بالعلم؟ فذلك لأنّه ظاهر من بعيد، و أحيانا كانوا يشعلون النّار فوق قمته حتى تكون منارا للسائرين، إلّا أنّ وجود النّار و عدمها لا يؤثر فى التسمية.

و على هذا الأساس فإنّ القرآن يعتبر حركة السفن العملاقة فى هذه الآية- كما فى الآيات المتعددة الأخرى- بسبب هبوب الرياح المنتظمة، من آيات الخالق.

فليس مهمّا حركة السفينة الصغيرة أو الزوارق على سطح الماء بسبب هبوب الرياح، المهم حركة السفن و البواخر العملاقة بحمولتها الكبيرة و مسافريها المتعددين عند هبوب الرياح، فتقطع آلاف الأميال و تصل إلى مرساها.

فمن الذى خلق هذه المحيطات بخصوصياتها و مياهها و عمقها؟ من أعطى للخشب الذى تصنع منه السفن خاصية الطفو على سطح الماء؟

و من يأمر الرياح بالهبوب بشكل منظم على سطح البحار و المحيطات كى يستطيع الإنسان أن يصل من نقطة إلى اخرى بالاستفادة من هذه الرياح؟

نعم، فلو أخذنا بعين الإعتبار الخرائط التى يملكها البحارة بخصوص حركة الرياح، و المعلومات التى يملكها البشر حول هبوب الرياح من القطبين نحو خط الإستواء و من خط الإستواء إلى القطبين، و أيضا هبوب الرياح المتناوبة من السواحل و اليابسة نحو البحار و بالعكس، عندها سندرك أن هذا الأمر مخطط و له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۴

نظام.

فى زماننا، تقوم المحركات الضخمة بتحريك السفن و دفعها إلى الأمام، إلّا أنّ الرياح تبقى مؤثرة أيضا فى حركة هذه السفن.

و للتأكيد أكثر تقول الآية: إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ

و كاستنتاج تضيف الآية فى نهايتها: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

نعم، فهبوب الرياح، و حركة السفن، و خلق البحار، و النظام الخاص المتناسق الذى يتحكم بهذه الأمور ... كلّها آيات مختلفة للذات المقدسة.

و نعلم أن هبوب الرياح يتمّ بسبب الاختلاف فى درجة الحرارة بين منطقتين على الكرة الأرضية، لأنّ الهواء يتمدد بسبب الحرارة و يتحرك نحو الأعلى، و يضغط على الهواء المحيط به و يقوم بتحريكه، و من جانب آخر يترك مكانه للهواء المجاور له عند تحركه نحو الطبقات العليا، فلو سحب الخالق هذه الخاصية (خاصية التمدد) من الهواء، عندها سيطغى السكون و الهدوء القاتل و ستقف السفن الشراعية فى عرض البحار دون أية حركة.

«صبار» و (شكور) صيغتا مبالغة حيث تعطى الأولى معنى كثرة الصبر، و الثانية كثرة الشكر. و هذان الوصفان الواردان فى هذه الآية- و فى موارد اخرى ۵۰۴]- يشيران إلى ملاحظات لطيفة.

فهاتان الصفتان توضحان حقيقة الإيمان، لأن المؤمن صبور فى المشاكل و الابتلاءات و شكور فى النعم، و

قد ورد فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم: «الإيمان نصفان: نصف صبر و نصف شكر»[۵۰۵].

إضافة إلى ذلك، فإنّ البحث فى أسرار نظام الخلق يحتاج إلى الصبر و الاستمرار و تخصيص الوقت الكافى، و من جانب ثان يستحق شكر لمنعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۵

فمتى ما توفر هذان العاملان عندها يكون الإنسان مؤهلا للبحث فى هذه الآيات، و عادة فإنّ البحث فى أسرار الخلق يعتبر بحد ذاته نوعا من الشكر.

و من جانب ثالث، فإنّ هاتين الصفتين تتجسدان فى الإنسان أكثر من أى وقت مضى متى ما ركب فى السفينة، حيث الصبر حيال حوادث و مشاكل البحار، و الشكر عند الوصول إلى الساحل.

مرّة اخرى، لتجسيد عظمة هذه النعمة الإلهية، تقول الآية الأخرى: أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِما كَسَبُوا أىّ لو شاء لأباد هذه السفن بسبب الأعمال التى ارتكبها المسافرون.

و كما قرأنا فى الآيات الماضية، فإنّ المصائب التى تصيب الإنسان غالبا ما ما تكون بسبب أعماله.

إلّا أنّه بالرغم من ذلك فإن اللطف الإلهى يشمل الإنسان: وَ يَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

فلو لا عفو الخالق لم يكن لينجو أحد من عذاب الخالق سوى المعصومين و الخواص و الطاهرين، كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۵) من سورة فاطر: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى

نعم، فهو يستطيع أن يمنع الرياح من الهبوب حتى تقف السفن فى وسط البحار و المحيطات، أو يحوّل هذه الرياح إلى عواصف هو جاء تدمر هذه السفن و البواخر، إلّا أن لطفه العام يمنع هذا العمل.

وَ يَعْلَمَ الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِنا ما لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ۵۰۶] و ما لهم من ملجأ سوى ذاته المنزهة.

فهؤلاء سوف لا يشملهم العفو الإلهى، لأنّهم عارضوه بعلم و وعى، و استمروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۶

فى محاربته عن عداوة و عناد، فهؤلاء سوف لا يشملهم عفوه و رحمته، و لا خلاص لهم من عذابه.

«محيص» مأخوذة من كلمة (حيص) على وزن (حيف) و تعنى الرجوع و العدول عن أمر ما، و بما أن (محيص) اسم مكان، لذا وردت هذه الكلمة، بمعنى محل الهروب أو الملجأ.

و الكلام فى آخر آية موجّه إلى الجميع حيث تقول: فَما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا.

فلا تتصوروا أنّه سيبقى لكم، لأنّه كالوميض الذى يبرق ثمّ يخبو، و كالشمعة فى مهبّ الريح و الفقاعة على سطح الماء، و لكن وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

فلو استطعتم أن تستبدلوا هذا المتاع الدنيوى الزائل المحدود التافه بمتاع أبدى خالد، فتلك هى التجارة المربحة العديمة النظير.

فالمواهب فى هذه الدنيا لا- تخلو من المشاكل، حيث توجد الأشواك دائما إلى جانب الورود، و المحبطات إلى جانب الآمال، فى حين أن الأجر الإلهى لا يحتوى على أى إزعاجات، بل هو خير خالص و متكامل.

و من جانب آخر فإن هذه المواهب مهما كانت فستزول حتما، إلّا أن الجزاء الأخروى أبدى خالد، عندها هل يقبل العقل أن يستغنى الإنسان عن هذه التجارة المربحة، أو يصاب بالغرور و الغفلة و تبهره زخارف الدنيا؟

لذا فإننا نقرأ فى الآية ۳۸ من سورة التوبة: أَ رَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ

و أساسا، فإنّ «الحياة الدنيا» (بالمعنى المتقدم) تشير إلى الحياة الدنية و الحقيرة، و طبيعى أن أى متاع أو وسائل للاستفادة من مثل هذه الحياة ستكون- أيضا- مثلها فى القيمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۷

لذا

فقد ورد فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «و اللّه ما الدنيا فى الآخرة إلّا مثل أن يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع؟!»[۵۰۷].

و الملفت للنظر أنّه ورد فى هذه الآية التأكيد على الإيمان و التوكل، و هذا بسبب أن نيل الأجر الإلهى هو للذين يفوضون أمورهم فى جميع الأعمال و يستسلمون له تعالى إضافة إلى الإيمان، لأن التوكل يعنى تفويض الأمور.

و تقابل هذه المجموعة أشخاص يجادلون فى آيات اللّه بسبب حب الدنيا و الارتباط بالمتاع الزائل، و يقلبون الحقائق، و بهذا الترتيب فإن آخر آية هى بمثابة تعليل للآية التى قبلها، و التى كانت تتحدث عن الذين يجادلون فى آيات اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۸

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۳۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (۳۷) وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ وَ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۳۸) وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (۳۹) وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (۴۰)

التّفسير

المؤمنون لا يستسلمون للظلم:

هذه الآيات استمرار للبحث الوارد فى الآيات السابقة بخصوص الأجر الإلهى للمؤمنين المتوكلين.

فبعد ذكر الإيمان و التوكل اللذين لهما طبيعة قلبية، تشير هذه الآيات إلى سبعة أنواع من البرامج العملية للصفتين السابقتين سواء كانت إيجابية أو سلبية، فردية أو اجتماعية، مادية أو معنوية، و هذه البرامج توضح أسس المجتمع الصالح و الحكومة الصالحة القوية.

و الملفت للنظر أنّ هذه الآيات نزلت فى مكّة- كما يظهر- و فى ذلك اليوم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۴۹

يكن قد تأسس المجتمع الإسلامى بعد، و لم يكن هناك وجود للحكومة الإسلامية، إلّا أن هذه الآيات أعطت التفكير الإسلامى الصحيح فى هذا الخصوص منذ ذلك اليوم، حيث كان الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يعلّمهم و يربّيهم لغرض الاستعداد لبناء المجتمع الإسلامى فى المستقبل.

فأوّل صفة تبدأ من التطهير حيث تقول الآية أن الثواب الإلهى العظيم سوف يكون من نصيب المؤمنين المتوكلين: وَ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ ۵۰۸].

«كبائر» جمع «كبيرة» و تعنى الذنوب الكبيرة، أمّا ما هو المعيار فى الكبائر؟

البعض فسّرها بالذنوب التى توعد القرآن فى آياته بعذاب النّار لها، و أحيانا الذنوب التى تستوجب الحدّ الشرعى.

و قد احتمل البعض أنّها إشارة للبدع و إيجاد الشبهات الاعتقادية فى أذهان الناس.

و لكننا لو رجعنا إلى المعنى اللغوى كلمة «كبيرة» فإنّها تعنى الذنب الذى يكون كبيرا و مهما من وجهة نظر الإسلام، و أحد علائم أهميته أنّه ورد فى القرآن المجيد و توعد بالعذاب عليه، و قد ورد تفسير للكبائر فى روايات أهل البيت عليهم السّلام بأنّها:

«التى أوجب اللّه عزّ و جلّ عليها النّار»[۵۰۹].

و على هذا الأساس فلو توضحت أهمية و عظمة الذنب بطرق اخرى، عندها سيشمله عنوان (الكبائر).

«فواحش» جمع «فاحشة» و تعنى الأعمال القبيحة للغاية و الممقوتة، و ذكر هذه العبارة بعد كلمة (الكبائر) من قبيل ذكر الخاص بعد العام، و فى الحقيقة فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۰

التأكيد على الذنوب القبيحة للغاية بعد ذكر اجتناب المؤمنين الحقيقيين عن جميع الذنوب الكبائر، للتأكيد على أهمية ذلك.

و على هذا الأساس فإنّ أوّل علائم الإيمان و التوكل هو الاجتناب عن (الكبائر)، فكيف يمكن للإنسان أن يدعى الإيمان و التوكل على الخالق، فى حين أنّه مصاب بأنواع الذنوب و قلبه و كر من أوكار الشيطان؟! أمّا ثانى صفة، و التى لها طبيعة تطهيرية أيضا، فهى السيطرة على النفس عند الغضب الذى يعتبر من أشدّ حالات الإنسان حيث تقول الآية: وَ إِذا ما غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ

فهؤلاء لا يفقدون السيطرة على أنفسهم عند الغضب و لا يرتكبون الجرائم عنده، و الأكثر من ذلك غسل قلوبهم و قلوب الآخرين من الحقد بواسطة مياه العفو و الغفران.

و هذه الصفة لا تتوفر إلّا فى ظل الإيمان الحقيقى و التوكل على الحق.

و الطريف فى الأمر أن الآية لا تقول: إنّهم لا يغضبون، لأنّ الغضب من طبيعة الإنسان، و هناك ضرورة له فى بعض الأحيان خاصة عند ما يكون للّه و فى طريق إحقاق الحق، بل تقول: إنّهم لا يلوثون أنفسهم بالذنب عند الغضب، و بكل بساطة يعفون و يغفرون، و يحب أن يكونوا هكذا، فكيف يمكن للإنسان أن ينتظر العفو الإلهى فى حين أن أعماقه مليئة بالحق و حب الانتقام، و لا يعترف بأى قانون عند الغضب؟ و إذا شاهدنا التأكيد على الغضب هنا، فذلك لأنّ هذه الحالة كالنار الحارقة التى تلتهب فى داخل أعماق الإنسان، و هناك الكثيرون الذين لا يستطيعون ضبط أنفسهم فى تلك الحالة، إلّا أن المؤمنين الحقيقيين لا يستسلمون أبدا للغضب.

و

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من ملك نفسه إذا رغب، و إذا رهب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۱

و إذا غضب، حرم اللّه جسده على النّار»[۵۱۰].

الآية الأخرى تشير إلى الصفة الثّالثة و الرّابعة و الخامسة و السادسة، حيث تقول: وَ الَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمْ

وَ أَقامُوا الصَّلاةَ.

أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ ۵۱۱].

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ

فالآية السابقة كانت تتحدث عن تطهير النفس من الذنوب و التغلب على الغضب، إلّا أنّ الآية التى نبحثها تتحدث عن بناء النفس فى المجالات المختلفة، و من أهمها إجابة دعوة الخالق، و التسليم حيال أوامره، حيث أن الخير كلّ الخير تجسد فى هذا الأمر. فهم مستسلمون بكل وجودهم لأوامره، و ليست لهم إرادة إزاء إرادته، و يجب أن يكونوا هكذا، لأنّ الاستسلام و الاستجابة أمران حتميان بعد تطهير القلب و الروح من آثار الذنب الذى يعيق السير نحو الحق.

و نظرا لوجود بعض القضايا المهمّة فى التعليمات الإلهية يجب الإشارة إليها بالخصوص، لذا نرى أن الآية أشارت إلى بعض المواضيع المهمّة و خاصة (الصلاة) التى هى عمود الدين و حلقة الوصول بين المخلوق و الخالق و مربية النفوس، و تعتبر معراج المؤمن و تنهى عن الفحشاء و المنكر.

بعد ذلك تشير الآية إلى أهم قضية اجتماعية و هى «الشورى» فبدونها تعتبر جميع الأعمال ناقصة، فالإنسان الواحد مهما كان قويا فى فكره و بعيدا فى نظره، إلّا أنّه ينظر للقضايا المختلفة من زاوية واحدة أو عدّة زوايا، و عندها ستختفى عنه الزوايا و الأبعاد الأخرى، إلّا أنّه و عند التشاور حول القضايا المختلفة تقوم العقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۲

العقول و التجارب المختلفة بمساعدة بعضها البعض، عند ذلك ستتوضح الأمور و تقل العيوب النواقص و يقل الانحراف.

لذا

فقد ورد فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم أنّه قال: «ما من رجل يشاور أحدا إلّا هدى إلى الرشد».

و الملفت للنظر أن العبارة وردت هنا على شكل برنامج مستمر للمؤمنين، ليس فى عمل واحد و مؤقت، بل يجب أن يكون التشاور فى جميع الأعمال.

و الطريف فى الأمر أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان أيضا يتشاور مع أتباعه و أنصاره فى القضايا الاجتماعية المهمّة و التنفيذية و الصلح و الحرب و الأمور المهمّة الأخرى بالرغم من تكامل عقله و ارتباطه بمصدر الوحى، و كان يشاور أصحابه أحيانا بالرغم من المشكل التى تحصل من جراء ذلك، لكى يكون أسوة و قدوة للناس، لأن بركات الاستشارة أكثر بكثير من احتمالات ضررها.

و هناك تفصيلات فى نهاية الآية (۱۵۹) من سورة آل عمران بخصوص (الاستشارة) و (شروط الشورى) و (أوصاف الذين يجب استشارتهم) و (مسئولية المستشار) حيث لا نرى ضرورة إلى إعادة ذلك، إلّا أنّه يجب أن نضيف بعض الملاحظات الأخرى:

أ- الشورى تختص بالأعمال التنفيذية و معرفة الموضوع و ليست لمعرفة الأحكام، لأنّها يجب أن تؤخذ من مصدر الوحى و من الكتاب و السنة، و عبارة (أمرهم) تشير إلى هذا المعنى أيضا، لأن الأحكام ليست من شأن الناس، بل هى من أمر الخالق.

و لذا فلا أساس لما يقوله بعض المفسّرين كالآلوسى من أن الشورى تشمل الأحكام أيضا، حيث لا يوجد نص خاص بذلك، خاصة و أنّنا نعتقد بعدم وجود أى أمر فى الإسلام ليس له نص عام أو خاص صادر بشأنه، و إلّا فما فائدة الْيَوْمَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۳

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ۵۱۲] [يجب قراءة تفصيلات عن هذا المعنى فى كتب أصول الفقه بخصوص بطلان الاجتهاد بمعنى التقنين فى الإسلام .

ب- قال بعض المفسّرين إن شأن نزول عبارة: أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ خاص بالأنصار بخصوص الأنصار، إما لأن أعمالهم قبل الإسلام كانت وفقا للشورى، أو هى إشارة إلى تلك المجموعة من الأنصار الذين آمنوا قبل هجرة النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و بايعوه فى (العقبة)، و دعوه إلى المدينة (لأن هذه السورة مكية، و الآيات أعلاه نزلت فى مكّة كما يظهر أيضا).

و على أية حال، فإن الآية لا تختص بسبب نزولها، بل توضح برنامجا عاما و جماعيا.

و ننهى هذا الكلام بحديث

عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السّلام حيث يقول: «لا ظهير كالمشاورة، و الاستشارة عين الهداية»[۵۱۳].

و من الضرورى الإشارة إلى أن آخر صفة وردت فى هذه الآية لا تشير إلى الإنفاق المالى فحسب، و إنّما إنفاق كلّ ما أعطاه الخالق من الرزق كالمال و العقل و الذكاء و التجربة، و التأثير الاجتماعى، و الخلاصة: الإنفاق من كلّ شىء.

و تقول الآية بخصوص سابع صفة للمؤمنين الحقيقيين: وَ الَّذِينَ إِذا أَصابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ أىّ أنّهم إذا تعرضوا للظلم لا يستسلمون له، بل يطلبون النصر من الآخرين.

و واضح أنّ الآخرين مكلفون بالانتصار ضد الظلم، لأن طلب النصر دون النصرة يعتبر لغو و لا فائدة فيه، و فى الحقيقة فإن المظلوم مكلف بمقاومة الظالم و طلب النصرة، و أيضا فإن المؤمنين مكلفون بإجابته، كما ورد فى الآية (۷۲) من سورة الأنفال حيث نقرأ: وَ إِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۴

هذا البرنامج الإيجابى البناء يحذر الظالمين من مغبة ظلم المؤمنين، حيث أنّهم لا يسكتون على ذلك و يقفون بوجوههم. و هو أيضا يؤمّل المظلومين بأن الآخرين سوف ينصرونكم عند استغاثتكم.

«ينتصرون» من كلمة «انتصار» و تعنى طلب النصر، إلّا أن البعض فسرها بمعنى «التناصر» و النتيجة واحدة للتوضيح الذى ذكرناه.

على أية حال، فأى مظلوم إذا لم يستطع أن يقف بوجه الظلم بمفرده، فعليه ألا يسكت، بل يستفيد من طاقات الآخرين و النهوض بوجه الظلم، و مسئولية جميع المسلمين الاستجابة لاستغاثته و ندائه.

و لكن بم أنّ التناصر يجب أن لا يخرج عن حد العدل و ينتهى إلى الانتقام و الحقد و التجاوز عن الحد، لذا فإن الآية التى بعدها اشترطت ذلك بالقول:

وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

يجب أن لا تتجاوزوا عن الحد بسبب أن أصدقاءكم هم الذين ظلموا فتنقلبوا إلى أشخاص ظالمين، و خاصة الإفراط فى الرد على الظلم فى مجتمعات كالمجتمع العربى فى بداية الإسلام، لذا يجب التمييز بين نصرة المظلوم و الانتقام.

و عمل الظالم يجب أن يسمى ب (سيئة) إلّا أن جزاءه و عقابه ليس (سيئة) و إذا وجدنا أنّ الآية عبّرت عن ذلك بالسيئة فبسبب التقابل بالألفاظ و استخدام القرائن، أو أنّ الظالم يعتبرها (سيئة) لأنّه يعاقب، أو يحتمل أن يكون استخدام لفظة (السيئة) لأنّ العقاب أليم و مؤذ، و الألم و الأذى بحدّ ذاته (سىء) بالرغم من أن قصاص الظالم و معاقبته يعتبر عملا حسنا بحد ذاته.

و هذا يشبه العبارة الواردة فى الآية (۱۹۴) من سورة البقرة: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ

على أية حاله، فإنّ هذه العبارة يمكن أن تكون مقدمة للعفو الوارد فى الجملة التى بعدها، و كأنّما تريد الآية القول: إنّ العقاب مهما كان فهو نوع من الأذى، و إذا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۵

ندم الشخص عندها یستحق العفو.

لذا ففی مثل هذه الموارد ینبغی علیکم العفو، لأن فَمَنْ عَفا وَ أَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

صحیح أنّه فقد حقه و لم یحصل علی شیء فی الظاهر، إلّا أنّه بسبب عفوه، العفو الذی یعتبر أساس انسجام المجتمع و التطهّر من الأحقاد و زیادة أواصر الحب و زوال ظاهرة الانتقام و الاستقرار الاجتماعی، فقد تعهد الخالق بأن یعطیه من فضله الواسع، و یا لها من عبارة لطیفة (علی اللّه) حیث أن الخالق یعتبر نفسه مدینا لمثل هؤلاء الأشخاص و یقول بأن أجرهم علیّ.

و تقول الآیة فی نهایتها: إِنَّهُ لا یُحِبُّ الظَّالِمِینَ

و قد تکون هذه الجملة إشارة إلی بعض الملاحظات:

فأوّلا: قد یکون العفو بسبب أن الإنسان لا یستطیع أحیانا السیطرة علی نفسه بدقة عند العقاب و القصاص، و قد یتجاوز الحد و یکون فی عداد الظالمین.

و ثانیا: إن هذا العفو لیس بمعنی الدفاع عن الظالمین، لأن اللّه لا یحب الظالمین أبدا، بل إن الهدف هو هدایة الضالین و تثبیت الأواصر الاجتماعیة.

و ثالثا: إنّ الذین یستحقون العفو هم الذین یکفون عن الظلم و یندمون علی ما ارتکبوه فی الماضی، و یقومون بإصلاح أنفسهم، و لیس للظالمین الذین یزدادون جرأة بواسطة هذا العفو.

و بعبارة أوضح، فإنّ کلّا من العفو و العقاب له موقعه الخاص، فالعفو یکون عند ما یستطیع الإنسان الانتقام، و هذا یسمی العفو البناء، لأنّه یمنح المظلوم المنتصر قابلیة السیطرة علی النفس و صفاء الروح، و أیضا یفرض علی الظالم المغلوب إصلاح نفسه.

و العقاب و الانتقام و الردّ بالمثل یکون عند ما یبقی الظالم مستمرا فی غیه و ضلاله، و المظلوم لم یثبّت أرکان سیطرته بعد، فالعفو هنا یکون من موقع الضعف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۶

فیجب الردّ بالمثل.

و

قد ورد فی حدیث عن الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم أنّه قال: «إذا کان یوم القیامة نادی مناد: من کان أجره علی اللّه فلیدخل الجنّة، فیقال: من ذا الذی أجره علی اللّه؟

فیقال: العافون عن الناس، فیدخلون الجنّة بغیر حساب»[۵۱۴].

و هذا الحدیث- فی الحقیقة- هو النتیجة المستوحاة من آخر آیة فی هذا البحث، و الإسلام الأصیل هو هذا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۷

الآیات [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۴۱ الی ۴۳]

اشارة

وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ ما عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ (۴۱) إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ (۴۲) وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (۴۳)

التّفسیر

الظلم و الإنتصار:

تعتبر هذه الآیات- فی الحقیقة- تأکیدا و توضیحا و تکمیلا للآیات السابقة بشأن الإنتصار و معاقبة الظالم و العفو فی المکان المناسب، و الهدف من ذلک أن معاقبة الظالم و الانتقام منه من حق المظلوم، و لا یحق لأحد منعه عن حقه، و فی نفس الوقت فإذا صادف أن سیطر المظلوم علی الظالم و انتصر علیه، و عند ذلک صبر و لم ینتقم فإن ذلک یعتبر فضیلة کبری.

فأوّلا تقول الآیة: وَ لَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِکَ ما عَلَیْهِمْ مِنْ سَبِیلٍ ۵۱۵] فلا یحق لأحد أن یمنع هذا العمل، و لا یلوم ذلک الشخص أو یوبخه أو یعاقبه،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۸

و لا یتوانی فی نصر مثل هذا المظلوم، لأن الإنتصار و طلب العون من الحقوق الطبیعیة لأی مظلوم، و نصر المظلومین مسئولیة کلّ إنسان حر و متیقظ الضمیر.

إِنَّمَا السَّبِیلُ عَلَی الَّذِینَ یَظْلِمُونَ النَّاسَ وَ یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ

و إضافة إلی عقابهم الدنیوی أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِیمٌ ینتظرهم فی الآخرة.

یقول بعض المفسّرین حول الاختلاف بین جملة یَظْلِمُونَ النَّاسَ و جملة یَبْغُونَ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِ أن الجملة الأولی إشارة إلی موضوع (الظلم) و الثانیة إلی (التکبر)[۵۱۶].

البعض الآخر اعتبر الأولی إشارة إلی (الظلم) و الثانیة إشارة إلی (الوقوف بوجه الحکومة الإسلامیة).

«بغی» تعنی فی الأصل الجد و المثابرة و المحاولة للحصول علی شیء ما، و لکن کثیرا ما تطلق علی المحاولات لغصب حقوق الآخرین، و التجاوز عن حدود و حقوق الخالق، لذا فإن للظلم مفهوما خاصا و للبغی مفهوما عاما یشمل أی تعد أو تجاوز للحقوق الإلهیة.

عبارة (بغیر الحق) تأکید لهذا المعنی، و علی هذا الأساس فإنّ الجملة الثانیة من باب ذکر العام بعد ذکر الخاص.

أمّا آخر آیة فتشیر مرّة اخری إلی الصبر و العفو، لکی تؤکّد أن الانتقام و العقاب و القصاص من الظالم لا یمنع المظلوم من العفو، حیث تقول: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِکَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[۵۱۷].

«العزم» فی الأصل یعنی (التصمیم لإنجاز عمل معین)، و یطلق علی الإرادة القویة، و قد تکون عبارة (عزم الأمور) إشارة إلی أن هذا العمل من الأعمال التی أمر اللّه بها و لا یمکن أن تنسخ، أو أنّه من الأعمال التی یجب أن یشد الإنسان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۵۹

العزم لها، و أیا کان من المعنیین فهو یدل علی أهمیة هذا العمل.

و الملفت للنظر ذکر (الصبر) قبل (الغفران)، لأنّه مع عدم وجود الصبر لا یمکن أن یحصل العفو و الغفران، حیث یفقد الإنسان السیطرة علی نفسه و یحاول الانتقام مهما کان.

و مرة اخری نذکّر بهذه الحقیقة، و هی أن العفو و الغفران مطلوبان فی حال القوة و الاقتدار، و أن یستفید الطرف المقابل من ذلک بأفضل شکل أیضا، و قد تکون عبارة «من عزم الأمور» لتأکید هذا المعنی أیضا، لأنّ التصمیم بخصوص شیء معین یحدث عند ما یکون الإنسان قادر علی إنجاز ذلک الشیء، علی أیة حال فإن العفو الذی یکون مفروضا من قبل الظالم، أو یشجعه فی عمله و یجرئه علی ذلک، غیر مطلوب.

بعض الرّوایات فسّرت الآیات أعلاه بثورة الإمام المهدی (عج) و انتقامه و انتصاره علی الظالمین و المفسدین فی الأرض. و کما قلنا

عدّة مرات سابقا فإن مثل هذه التفاسير من قبيل بيان المصداق الواضح و لا تمنع من عمومية مفهوم الآية و شموليته ۵۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۰

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۴ الى ۴۶]

اشارة

وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (۴۴) وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ (۴۵) وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (۴۶)

التّفسير

هل من سبيل للرجعة؟

الآيات السابقة كانت تتحدث عن الظالمين، أمّا الآيات التى نبحثها فتشير إلى عاقبة هذه المجموعة و جوانب من عقابها.

فهى تعتبرهم من الضالين الذين لا يملكون أى ولى، فتقول: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۱

الملمّون بتعابير القرآن بخصوص الهداية و الضلالة، يعرفون بوضوح أنّه لا الهداية و لا الضلالة مفروضة و جبرية، إنّما هما نتيجتان مباشرتان لأعمال الناس.

فأحيانا يقوم الإنسان بعمل معين و بسببه يسلب الخالق منه التوفيق و يطمس على قلبه و يمنع عنه نور الهداية و يتركه سابحا فى الظلمات.

و هذا هو عين الإختيار و الحرية، فلو أن شخصا أصر على شرب الخمر و أصيب بأنواع الأمراض، فإنه هو الذى جلب هذا الوضع و هذه الأمراض إلى نفسه، فالخالق مسبب الأسباب و يعطى التأثيرات المختلفة للأشياء، و لهذا السبب تربط النتائج به أحيانا[۵۱۹].

على أية حال، فإن هذا أحد أكثر العقوبات ألما بالنسبة للظالمين، ثمّ تضيف الآية: وَ تَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ

فقد تحدث القرآن المجيد عدة مرات عن طلب الكافرين و الظالمين العودة، فأحيانا عند الموت مثل الآية (۹۹) و (۱۰۰) من سورة المؤمنون: حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ

و أحيانا عند القيامة عند ما يقتربون من الجحيم، كما تقول الآية (۲۷) من سورة الأنعام: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

و لكن مهما كانت هذه الطلبات فإنها ستواجه بالرفض، لأن العودة غير ممكنة أبدا، و هذه سنة إلهية لا تقبل التغيير، فكما أن الإنسان لا يمكنه الرجوع من الكهولة إلى الشباب، أو من الشباب إلى الطفولة، أو من الطفولة إلى عالم الأجنة، كذلك يستحيل الرجوع إلى الوراء و العودة إلى الدنيا من عالم البرزخ أو الآخرة.

الآية الأخرى تذكر ثالث عقاب لهذه المجموعة حيث تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۲

وَ تَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ ۵۲۰].

فالقلق و الخوف الشديد يسيطران على وجودهم، و الذلة و الاستسلام يطغيان عليهم، و انتهى كلّ شيء من التكبير و محاربة و ظلم و إيذاء المظلومين، و ينظرون من طرف خفى إلى النّار.

هذه صورة لحالة شخص يخشى من شيء أشد خشية و لا يريد أن ينظر إليه بعينين مفتوحتين، و فى نفس الوقت لا يستطيع أن يتغافل عنه، لذا فهو مجبور على النظر إليه، لكن بطرف خفى.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ جملة (طرف خفى) تعنى هنا النظر بعين نصف مفتوحة، لأنّهم لا يستطيعون فتح العين كاملة من شدة الخوف و الهول العظيم، أو أنّهم من شدة الانهيار و الإعياء لا يستطيعون فتح العين بشكل كامل.

فعند ما تكون حالة الإنسان هكذا قبل أن يدخل النّار ... فما ذا سيجرى عليه عند ما يطؤها و يهوى فى أعماقها؟! أمّا آخر عقاب ذكر هنا، فهو سماع اللوم و التوبيخ الأليم من المؤمنين، كما جاء فى آخر الآية: وَ قالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ.

فهل هناك خسارة أعظم من أن يخسر الإنسان نفسه، ثمّ زوجه، و أبناءه و أقرباءه؟ و نصيبه نار الفراق و هو فى داخل العذاب الإلهى؟!

ثم تضيف: يا أهل المحشر: أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذابٍ مُقِيمٍ

إنّه العذاب الذى ليس هناك أمل بانتهائه، و لا يتحدد بزمان معين. إنّه العذاب الذى يحرق أعماق الروح و ظاهر الجسد على السواء.

و ليس من لمستبعد أن يكون القائل لهذا الكلام هم المؤمنون الحقيقيون، و هم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۳

الأنبياء و الأولياء و أتباعهم الخاصين، حيث أنّهم مطهرون من الذنب، و المظلومين الذين أوذوا كثيرا من قبل هؤلاء الظالمين، و من حقهم التحدث بهذا الكلام فى ذلك اليوم (و قد أشارت روايات أهل البيت عليهم السلام إلى هذا المعنى)[۵۲۱].

و من الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، و هى أن (العذاب الخالد) لهؤلاء الظالمين، يدل على أن المقصود هم الكافرون، كما ورد فى بعض الآيات القرآنية:

وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ

الآية التى بعدها تشهد على هذه الحقيقة، حيث تقول: وَ ما كانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِياءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

فهؤلاء قطعوا أواصر ارتباطهم بالعباد المخلصين و الأنبياء و الأولياء، لذلك لا يملكون ناصرا أو معينا فى ذلك اليوم، و القوى المادية سينتهى مفعولها فى ذلك اليوم أيضا، و لهذا السبب سيواجهون العذاب الإلهى بمفردهم.

و لتأكيد هذا المعنى تقول الآية فى نهايتها: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ سَبِيلٍ

و فى الآيات السابقة قرأنا: وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ

فهناك تنفى الولى، و هنا تنفى السبيل، حيث أنّه و لأجل الوصول إلى الهدف، يجب أن يكون هناك طريق، و يجب أن يتوفّر الدليل، إلّا أن هؤلاء الضالين محرومون من هذا و ذاك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۴

الآيات [سورة الشورى (۴۲): الآيات ۴۷ الى ۵۰]

اشارة

اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ (۴۷) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ

عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلاغُ وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ (۴۸) لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ (۴۹) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (۵۰)

التّفسير

الأولاد ... هبة الرحمن:

بما أنّ الآيات السابقة ذكرت جانبا من العقاب الأليم الموحش للكافرين و الظالمين، فإنّ الآيات أعلاه تحذر جميع الناس من هذا المصير المشؤوم، و تدعوهم إلى الاستجابة لدعوة الخالق و العودة إلى طريق الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۵

فأوّل آية تقول: اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۵۲۲].

و إذا كنتم تتصورون وجود ملجأ آخر سوى لطفه، و أحدا يحميكم غير رحمته، فإنّكم على خطا، لأن: ما لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَ ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ.

عبارة يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ تشير إلى يوم القيامة، و ليس إلى يوم الموت.

كما أن عبارة (من اللّه) تشير إلى أن أحدا لا يستطيع أن يتخذ قرارا بعدم العودة قبال أمر الخالق جلّ و علا.

و على أية حال، فجميع الطرق التى يعتقد أنّها تنقذ الشخص من العذاب الإلهى تكونن مغلقة فى ذلك اليوم، و أحدها هو العودة إلى عالم الدنيا و التكفير عن الذنوب و الخطايا.

أمّا الآخر فهو وجود ملجإ يأمن الإنسان عند اللجوء إليه.

و أخيرا وجود من يقوم بالدفاع عن الإنسان.

فكل جملة من الجمل الثلاث- للآية أعلاه- تنفى واحدا من هذه الطرق.

و قد فسّر بعضهم جملة ما لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ بمعنى أنكم لا تستطيعون أن تنكروا ذنوبكم هناك، لأن الأدلة و الشهود كثيرون بحيث لا مجال للإنكار، إلّا أن المعنى الأوّل أفضل كما يبدو.

الآية التى بعدها تخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و تواسيه قائلة: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً فلا تحزن عليهم لأنّك لست مسئولا عن حفظهم من الانحراف.

إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلاغُ سواء قبلوا بذلك أم لم يقبلوا.

يجب عليك أن تقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية بأفضل وجه، و تتم الحجّة عليهم، أمّا القلوب المهيأة فسوف تقبل بذلك بالرغم من أن كثيرا من الجاهلين سوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۶

يعرضون عنها، و لكنك لست مسئولا عنهم.

و قد ورد ما يشبه هذا المعنى فى بداية هذه السورة فى قوله تعالى: وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۵۲۳].

ثمّ ترسم صورة لحال هذه الجماعة غير المؤمنة و المعرضة عن الحق فتقول:

وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها و يغفل عن ذكر الخالق: وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ.

فلا النعم الإلهيـة و شـكر المنعم توقظ هـذا الإنسان و تجرّه نحو الشـكر و المعرفـة و الطاعـة، و لا العقوبات التى تصـيبه بسـبب الذنوب توقظه من نوم الغفلة، و لا تؤثر فيه دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

فعوامل الهدايـة من حيث «التشـريع» هى دعوة رسل الخالق، و من حيث «التكوين» قـد تكون النعم و قـد تكون المصائب، إلّا أن هؤلاء الجهلـة ذوى القلوب الميتـة لاـ تؤثر فيهم أىّ من هـذه العوامل، و هـذا بسـببهم أنفسـهم و ليس بسـببك، لأنّك قمت بمسؤوليتك فى الإبلاغ.

و قـد تكون عبارة «إذا أذقنا» فى الآيـة أعلاه (و هى هنا بخصوص رحمـة الخالق، و فى آيات قرآنيـة اخرى بخصوص العذاب الإلهى) إشارة إلى أن النعم و المصائب فى هذه الدنيا تعتبر لا شـىء بالنسبة إلى نعم و مصائب الآخرة. أو قد تكون بمعنى أن هؤلاء الأشخاص يصابون بالغرور و الطغيان بمجرّد قليل من النعمة، و اليأس و الكفر بقليل من المصائب.

و من الضرورى الإشارة إلى هذه الملاحظة، و هى أن الخالق يوكل النعم إلى نفسه، لأن رحمته تقتضى ذلك، بينما يوكل المصائب و الابتلاءات إليهم، لأنّها نتيجة أعمالهم.

و استخدام كلمة (الإنسان) فى مثل هذه الآيات تشير إلى طبيعة (الإنسان غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۷

المهذّب) حيث أنّه ذو تفكير قصير و نفسية ضعيفة، و تكرار ذلك- فى الآية أعلاه- يؤكّد على هذا المعنى.

ثمّ لبيان حقيقية أن أى نعمة و رحمة فى هذا العالم مصدرها الخالق، و لا يملك الأفراد شـيئا من عندهم، أشارت الآية إلى قضـية عامة و مصداق واضح لهذه الحقيقة، حيث تقول: لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَخْلُقُ ما يَشاءُ.

و لهذا السبب فإنّ الكل يأكل من مائدة نعمه، و يحتاج إلى لطفه و رحمته، فليس منطقيا الغرور عند النعمة، و لا اليأس عن المصيبة.

و «نموذج» واضـح لهـذه الحقيقة و أن كلّ ما موجود هو منه، و الأفراد لا يملكون شـيئا من عندهم هو أنّه: يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْراناً وَ إِناثاً وَ يَجْعَلُ مَنْ يَشاءُ عَقِيماً.

و بهـذا الترتيب فإن الناس يقسّـمون إلى أربع مجاميع: من عنده الأولاد الذكور و يريد البنات، و من عنده البنات و يريد الذكور، و من عنده الذكور و الإناث، و المجموعة التى تفتقد الأبناء و يأملون و يرغبون فيهم.

و العجيب أن أى شـخص لا يستطيع الانتخاب فى هذا المجال سواء فى الماضى أو فى الوقت الحاضر، بالرغم من تقدم و تطور العلوم، و رغم المحاولاـت العديـدة فـإن أحـدا لم يسـتطع أن يهب الأبناء للعقيم الحقيقى، أو يعين نوع المولود وفقا لرغبـة الإنسان بالرغم من دور بعض الأطعمـة أو الأدويـة فى زيادة احتمال ولادة الذكر أو الأنثى، إلّا أن هذا يبقى مجرّد احتمال و لا توجد أية نتيجة حتمية لهذا الأمر.

و هذا نموذج واضح لعجز الإنسان، و دليل على المالكية و الحاكمية و الخالقية للبارئ جلّ و علا، و هل هناك مثال أوضح من هذا؟

و الطريف فى الأمر أن هذه الآيات قدّمت الإناث على الذكور، لكى توضح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۸

الأهميـة التى يعطيها الإسـلام لمنزلة المرأة، و من جانب ثان تقول للذين لهم تصورات خاطئة عن ولادة البنت أو الأنثى- و يكرهونها- أن الخالق يعطى الشىء الذى يريده هو و ليس ما تريدونه أنتم، و هذا دليل على أنّه هو الذى ينتخب.

إن اسـتخدام عبـارة (يهب) تعتبر دليلاـ واضـحا على أن الإناث و الـذكور من هـدايا الخالق و هباته، و ليس صـحيحا للمسـلم الحقيقى التفريق بين الإثنين.

كمـا أن اسـتخدام عبـارة (يزوجهم) لاـ تعنى التزويـج هنـا، بـل تعنى جمع الهبتين (الإناث و الـذكور) لبعض الناس و بعبارة اخرى فإن مصـطلح (التزويج) يأتى أحيانا بمعنى المجمع بين الأشياء المختلفة أو الأنواع المتعددة، لأن (زوج) تعنى فى الأصل شيئين أو شخصين

متقارنين.

و اعتبر بعضهم هذه الآية بمعنى ولادة الذكور و الإناث على الترتيب، و البعض الآخر اعتبرها بمعنى ولادة التوائم، يعنى الذكر و الأنثى.

و لكن العبارة أعلاه لا تدل على أى من التفاسير المذكورة.

إضافة إلى ذلك فإنها لا تتناسب مع ظاهر الآية، لأن الآية تريد الكلام عن مجموعة ثالثة رزقها اللّه البنات و البنين.

و على أية حال، فإن المشيئة الإلهية هى التى تتحكم فى كلّ شىء و ليس فى قضية ولادة الأبناء فحسب، فهو القادر و العليم و الحكيم، حيث يقترن علمه بقدرته، لذا فإنّ الآية تقول فى نهايتها: إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

و من الضرورى أن نشير إلى أن كلمة (عقيم) المأخوذة من كلمة (عقم)- على وزن (بخل) و كذلك على وزن (فهم)- و تعنى فى الأصل الجفاف و التصلب المانع من قبول التأثير، و النساء العقيمات تطلق على اللواتى تكون أرحامهن غير مستعدة لتقبل النطفة و نمو الطفل، كما تسمى بعض الرياح بالرياح العقيمة لعدم قدرتها على ربط الغيوم الممطرة، و «اليوم العقيم» يطلق على اليوم الذى ليس فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۶۹

سرور و فرح، كما يسمى يوم القيامة باليوم العقيم بسبب عدم وجود يوم بعد ذلك اليوم يمكن فيه التعويض عن الماضى.

و أخيرا فإن الغذاء (المعقم) يطلق على الغذاء الذى تم القضاء على جميع ميكروباته، بحيث لا يمكنها النمو فى ذلك المحيط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۰

الآية [سورة الشورى (۴۲): آية ۵۱]

اشارة

وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (۵۱)

سبب النّزول

فيما يلى خلاصة لما ذكره بعض المفسّرين من سبب النّزول فى هذه الآية:

جاء عدد من اليهود إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم و قالوا له: لماذا لا تتكلم مع الخالق؟ و لماذا لا تنظر إليه؟ فلو كنت نبيّا حقّا فافعل مثل موسى حيث نظر إلى الخالق و تحدث معه، و سوف لا نؤمن بك أبدا حتى تفعل ما نطلبه منك، عندها أجابهم النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم:

إنّ موسى لم ير الخالق أبدا، هنا نزلت الآية أعلاه (حيث وضحت كيفية الارتباط بين الأنبياء و الخالق)[۵۲۴].

التّفسير

طرق ارتباط الأنبياء بالخالق:

هذه السورة، كما قلنا فى بدايتها، تهتم بشكل خاص بقضية الوحى و النبوّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۱

فهى تبدأ بالوحى و تنتهى به، لأن الآيات الأخيرة تتحدث عن هذا الموضوع (أى الوحى).

و بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن النعم الإلهية، لذا فإنّ هذه الآيات تتحدث عن أهم نعمة إلهية و أكثرها فائدة لعالم البشرية، ألا و هى قضية الوحى و الارتباط بين الأنبياء و الخالق.

فى البداية تقول الآية: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً لأنّ الخالق منزه عن الجسم و الجسمانية.

أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ كما كان يفعل موسى حيث أنّه كان يتحدث فى جبل الطور، و كان يسمع الجواب عن طريق الأمواج الصوتية التى كان يحدثها الخالق فى الفضاء، دون أن يرى أحدا، لأنّه لا يمكن مشاهدة الخالق بالعين المجرّدة.

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا كما كان يقوم به جبرائيل الأمين و ينزل على الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ.

نعم، فلا يوجد طريق آخر سوى هذه الطرق الثلاثة لتحدث الخالق مع عبادة ل إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ

فهو أعلى و أجل من أن يرى أو يتكلم عن طريق اللسان، و كل أفعاله حكيمة، و يتمّ ارتباطه بالأنبياء وفق برنامج.

هذه الآية تعتبر- فى الحقيقة- ردا على الذين يتصورون- بجهالة- أن الوحى يعنى مشاهدة الأنبياء للخالق و هم يتكلمون معه، حيث أن الآية تعكس بشكل دقيق و مختصر حقيقة الوحى و الروح.

و من مجمل الآية نستفيد أن الارتباط بين الأنبياء و الخالق يتمّ عبر ثلاثة طرق هى:

۱- الإيحاء، حيث كان كذلك بالنسبة للعديد من الأنبياء مثل نوح، حيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۲

تقول الآية: فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا[۵۲۵].

۲- مِنْ وَراءِ حِجابٍ كما كان الخالق يتكلم مع موسى فى جبل طور، وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً[۵۲۶].

و قد اعتبر البعض أيضا أن مِنْ وَراءِ حِجابٍ تشمل الرؤيا الصادقة و الحقيقية.

۳- إرسال الرّسول، كما فى الوحى الى الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فالآية تقول:

مَنْ كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۵۲۷].

و لم يقتصر الوحى على هذا الطريق بالنسبة للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم بل كان يتمّ بطرق اخرى أيضا.

و من الضرورى أن نشير إلى أن الوحى قد يتمّ أحيانا فى اليقظة، كما أشير إلى ذلك أعلاه، و أحيانا فى المنام عن طريق الرؤيا الصادقة، كما جاء بشأن إبراهيم و أمره بذبح ابنه إسماعيل عليهما السّلام [بالرغم من اعتبار بعضهم أن ذلك مصداق ل مِنْ وَراءِ حِجابٍ

و بالرغم من أن الطرق الثلاثة التى ذكرتها الآية تعتبر الطرق الرئيسية للوحى، إلّا أن بعضا من هذه الطرق لها فروع بحد ذاتها، فالبعض يعتقد أن الملائكة تقوم بإنزال الوحى عبر أربعة طرق:

۱- يقوم الملك بإلقاء الوحى إلى روح النّبى و قلبه دون أن يتجسد أمامه أىّ النفث فى الروع كما نقرأ ذلك

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حيث تقول: «إن روح القدس نفث فى روعى أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا اللّه و اجملوا فى الطلب».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۳

۲- يتقمص الملك أحيانا شكل الإنسان و يتحدث مع النّبى (حيث تذكر الأحاديث أن جبرئيل ظهر بصورة دحية الكلبى)[۵۲۸].

۳- و أحيانا يكون على شكل رنين الجرس الذى يدوى صوته فى الآذان، و كان هذا أصعب أنواع الوحى بالنسبة للرسول حيث كان يتصبب عرقا حتى فى الأيّام الباردة، و إذا كان راكبا على دابة فإنّها كانت تقف و تجثو على الأرض.

۴- كما كان يظهر جبرئيل أحيانا بصورته الأصلية التى خلقه اللّه عليها، و هذا ما حدث مرتين فقط طوال حياة رسول صلّى اللّه عليه و

اله و سلّم [کما سیأتی تفصیل ذلک فی سورة النجم- الآیة ۱۲][۵۲۹].

بحثان

الأوّل: الوحی فی اللغة و القرآن و السنة

یری الراغب فی مفرداته إن أصل الوحی یعنی الإشارة السریعة سواء بالکلام الخافت، أو الصوت الخالی من التراکیب الکلامیة، أو الإشارة بالأعضاء (بالعین و الید و الرأس) أو بالکتابة.

و من خلال ذلک نستفید أن الوحی یشتمل علی السرعة من جانب و الإشارة من جانب آخر، لذا فإن هذه الکلمة تستخدم للارتباط الخاص و السریع للأنبیاء مع عالم الغیب، و ذات الخالق المقدسة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۴

و هناک معان مختلفة (للوحی) فی القرآن المجید و فی لسان الأخبار، فأحیانا تکون بخصوص الأنبیاء، و أحیانا للناس الآخرین، و أحیانا تطلق للارتباط الخاص بین الناس، و أحیانا الارتباط الخاص بین الشیاطین، و أحیانا بخصوص الحیوانات.

و أفضل کلام فی هذا المجال هو ما ورد عن علی علیه السّلام فی رده لشخص سأل عن الوحی، حیث قسمه الإمام إلی سبعة أقسام هی:

۱- وحی الرسالة و النبوّة: مثل إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِیسی وَ أَیُّوبَ وَ یُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَیْمانَ وَ آتَیْنا داوُدَ زَبُوراً[۵۳۰].

۲- الوحی بمعنی الإلهام: مثل وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ ۵۳۱].

۳- الوحی بمعنی الإشارة: مثل فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَ عَشِیًّا[۵۳۲].

۴- الوحی بمعنی التقدیر: مثل وَ أَوْحی فِی کُلِّ سَماءٍ أَمْرَها[۵۳۳].

۵- الوحی بمعنی الأمر: مثل وَ إِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَ بِرَسُولِی ۵۳۴] ۶- الوحی بمعنی الأکاذیب: مثل وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا شَیاطِینَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً[۵۳۵].

۷- الوحی بمعنی الإخبار: مثل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۵

وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَیْنا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْراتِ ۵۳۶].

و یمکن أن تکون لبعض هذه الأقسام السبعة فروعا اخری تزید عند استعمالها من استخدامات الوحی فی الکتاب و السنة، لذا فإن «التفلیسی» ذهب فی کتابه (وجوه القرآن) الی وجود عشر معانی أو أوجه للوحی، و بعضهم ذکر عددا أکثر من هذا.

و من خلال هذه الاستخدامات المختلفة للوحی و مشتقاته نستنتج أن الوحی الإلهی علی نوعین: (وحی تشریعی) و (وحی تکوینی).

فالوحی التشریعی هو ما کان ینزل علی الأنبیاء، و یمثل العلاقة الخاصة بینهم و بین الخالق، حیث کانوا یستلمون الأوامر الإلهیة و الحقائق عن هذا الطریق.

أمّا الوحی التکوینی فهو فی الحقیقة وجود الغرائز و القابلیات و الشروط و القوانین التکوینیة الخاصة التی أوجدها الخالق فی أعماق جمیع الکائنات فی هذا العالم.

الثّانی: حقیقة (الوحی) المجهولة

اشارة

لقد قیل الکثیر حول حقیقة الوحی، و لکن بما أن هذا الارتباط المجهول خارج حدود إدراکاتنا، لذا فإن هذه الکلمات لا تستطیع أن تعطی صورة الواضحة للموضوع، و أحیانا تؤدی الی الانحراف عن جادة الصواب، و قد ذکرنا آنفا ما یمکن قوله فی هذا المجال، و فی الحقیقة فإن ما یمکن قوله بشکل جمیل و مختصر، و لم تصل بحوث المفکرین و العلماء لأکثر من ذلک، و فی نفس الوقت لا بدّ هنا من ذکر بعض التفاسیر التی طرحها الفلاسفة القدماء و الجدد حول الوحی:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۶

۱- تفسیر بعض الفلاسفة القدماء

اشارة

یری هؤلاء- وفقا لمقدمات مفصلة- أن الوحی هو عبارة عن الاتصال الخارق (لنفس الرّسول) مع (العقل الفعّال) المسیطر بظله علی عالم (الحس المشترک) و (الخیال).

و توضیح ذلک:

أنّ القدماء کانوا یعتقدون أن الروح الإنسانیة لها ثلاث قوی: قوّة الحس المشترک و بواسطتها یدرک الإنسان صور المحسوسات، و (قوّة الخیال) و بواسطتها یدرک بعض الصور الذهنیة، و (القوة العقلیة) التی یدرک بواسطتها الصور الکلیة.

و من جانب آخر، فهم یعتقدون بنظریة الأفلاک التسعة لبطلیموس، و کانوا یعتقدون بوجود (النفس المجرّدة) لها مثل (الروح لأجسادنا) و یضیفون: إن هذه النفوس الفلکیة تستلهم من کائنات مجرّدة تسمی (العقول)، و علی هذا الأساس فهم یقولون بوجود (تسعة عقول) تختص (بالأفلاک التسعة).

و من جانب ثالث کانوا یعتقدون أن النفوس الإنسانیة و أرواحها یجب أن تستلهم من الکائن المجرد الذی یسمی ب (العقل الفعال) و ذلک لأجل إظهار القابلیات و إدراک الحقائق، حیث کان یسمی ب (العقل العاشر)، أمّا سبب تسمیته بالفعال فلأنّه أساس حدوث القابلیات للعقول الجزئیة.

و من جانب رابع کانوا یعتقدون أنّه مهما قویت الروح الإنسانیة فإنّه سیزداد ارتباطها و اتصالها بالعقل الفعال الذی هو خزانة و مصدر المعلومات، لذا فإنّ الروح القویة و الکاملة تستطیع أن تکتسب أوسع المعلومات من (العقل الفعال) بأمر من الخالق، و ذلک فی أقصر مدة.

و أیضا فإذا قویت (قوّة الخیال) فانّها تستطیع أن تنقل هذه المفاهیم إلی الحس بشکل أفضل، و عند ما یقوی الحس المشترک الإنسان أن یدرک القضایا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۷

المحسوسة الخارجیة بشکل أفضل أیضا.

و من خلال هذه المقدمات سیتنتجون أن روح النّبی لها ارتباط و اتصال کبیر جدا بالعقل الفعال، لأنّها قویة بشکل خارق، و لهذا السبب تستطیع أن تأخذ المعلومات بشکل عام من العقل الفعال فی أکثر الأوقات.

و بما أن القوة الخیالیة للنبی قویة جدا أیضا، و فی نفس الوقت تتبع القوة العقلیة، لذا فإنها (أی القوة الخیالیة) تستطیع أن تعطی صورا محسوسة مناسبة للصور الکلیة المأخوذة من العقل الفعال، و، أن ترى نفسها ضمن أطر حسیة فی أفق الذهن، فمثلا لو کانت تلک الحقائق العامة من باب المعانی و الأحکام فسیسمعها من لسان شخص بمنتهی الکمال، و ذلک علی شکل ألفاظ موزونة بمنتهی الفصاحة و البلاغة.

و لأن قوته الخیالیة مسیطرة بشکل کامل علی الحس المشترک، لذا فإنّها تستطیع أن تعطی طبیعة حسیة لهذه الصور، و یستطیع النّبی أن یری ذلک الشخص بعینه و یسمع ألفاظه بإذنه.

نقد و تحلیل

هذه النظریة تعتمد علی مقدمات یعتبر القسم الأعظم منها مرفوضا فی الوقت الحاضر، فمثلا- أفلاک بطلیموس التسع و النفوس و العقول المرتبطة بها تعتبر جزءا من الأساطیر، لعدم وجود أی دلیل علی إثباتها، بل و توجد أدلة ضدها.

و من جانب آخر فإن هذه الفریضة لا- تتلاءم مع الآیات القرآنیة بخصوص الوحی، لأن الآیات القرآنیة تصرّح بأن الوحی نوع من الارتباط مع الخالق الذی قد یکون عن طریق الإلهام أحیانا، و أحیانا اخری عن طریق الملک أو سماع الأمواج الصوتیة أمّا القول بأنّه ولید القوة الخیالیة و الحس المشترک و أمثال ذلک فهو فی غایة الضعف و عدم الانسجام مع الآیات القرآنیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۸

و من الإشکالات الأخری علی هذا الکلام هو تصنیفه للنبی فی قائمة الفلاسفة و النوابغ بعقل و روح أقوی، فی حین أنّنا نعلم أن طریق الوحی مغایر تماما لطریق الإدراکات العقلیة.

فهذه المجموعة من الفلاسفة أساءت لأساس الوحی و النبوة دون قصد و لأنّهم لم یلمّوا بالحقیقة سلکوا طریق الخیال و الأسطورة.

و هناک تفصیلات أکثر عن هذا الموضوع تأتی ضمن البحوث القادمة.

۲- تفسیر بعض الفلاسفة الجدد

اشارة

هذه المجموعة من الفلاسفة اعتبرت الوحی باختصار نوعا من (الشعور الباطن) و جاء فی (دائرة معارف القرن العشرین) حول الوحی ما یلی:

(کان الغربیون إلی القرن السادس عشر کجمیع الأمم المتدینة یقولون بالوحی لأن کتبهم مشحونة بأخبار الأنبیاء، فلما جاء العلم الجدید بشکوکه و مادیاته ذهبت الفلسفة الغربیة إلی أن مسألة الوحی من بقایا الخرافات القدیمة و تغالت حتی أنکرت الخالق و الروح معا و عللت ما ورد عن الوحی فی الکتب القدیمة بأنّه إمّا اختلاف من المتنبأة أنفسهم لجذب الناس إلیهم و تسخیرهم لمشیئتهم، و إمّا إلی هذیان مرض یعتری بعض العصبیین فیخیل إلیهم أنّهم یرون أشباحا تکلمهم و هم لا یرون فی الواقع شیئا. رواج هذا التعلیل فی العالم الغربی حتی صار مذهب العلم الرسمی، فلما ظهرت آیة الأرواح فی امریکا سنة ۱۸۴۶ و سرت منها إلی أوروبا کلها و أثبت للناس بدلیل محسوس وجود عالم روحانی آهل بالعقول الکبیرة و الأفکار الثاقبة تغیر وجه النظر فی المسائل الروحانیة، و حییت مسألة الوحی بعد أن کانت فی عداد الأضالیل القدیمة، و أعاد العلماء النحت فیها علی قاعدة العلم التجریبی المقرر لا علی أسلوب التقلید الدینی و لا من طریق الغرب فی مهامة الخیالات، فتأدوا إلی نتائج و إن کانت غیر ما قرره علماء الدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۷۹

الإسلامی إلا أنّها خطوة کبیرة فی سبیل إثبات أمر عظیم کان قد أحیل إلی عالم الأمور الخرافیة)[۵۳۷].

و الکلام فی هذا المجال کثیر، إلّا أن خلاصته أنّهم اعتبروا الوحی تجلیا للوجدان الخفی و إظهارا لعالم اللاشعور فی الإنسان الذی هو أقوی بکثیر من عالم الشعور فیه و بما أنّ الأنبیاء کانوا رجالا متمیّزین فقد کانوا یتمتعون بوجدان قوی جدّا و ذی ترشحات مهمّة.

نقد و تحلیل

واضح أن ما تقوله هذه المجموعة هو افتراض بحت، حیث لم یذکروا أیّ دلیل علی ذلک، و فی الحقیقة فقد اعتبروا الأنبیاء أفرادا لهم نبوغ فکری و شخصیة عظیمة، دون أن یقبلوا ارتباطهم بمصدر عالم الوجود (الخالق العظیم) و اکتسابهم للعلوم عن طریقه و من خارج کیانهم.

إنّ مصدر خطئهم هو أنّهم أرادوا قیاس الوحی وفقا لمعاییر العلوم التجریبیة، و نفی أی شیء خارج دائرتها، و جمیع الموجودات فی هذا العالم یجب أن تدرک بهذا المعیار، و إلّا فهو غیر موجود.

هذا الأسلوب من التفکیر ترک آثاره السیئة، لیس فی موضوع الوحی فحسب، بل فی العدید من البحوث الفلسفیة و العقائدیة الأخری. لذا فإن هذا التفکیر مرفوض من أساسه، لأنّهم لم یذکروا أیّ دلیل علی تقیید جمیع الکائنات فی العالم بالکائنات المادیة و ما ینتج عنها.

۳- النبوغ الفکری

البعض الآخر تجاوز هذه الأقوال و أعلن بشکل رسمی أن الوحی نتیجة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۰

للنبوغ الفکری للأنبیاء، و یقول: إنّ الأنبیاء کانوا أفرادا ذوی فطرة طاهرة و نبوغ خارق، حیث کانوا یدرکون مصالح المجتمع الإنسانی، و بواسطته یضعون له المعارف و القوانین.

و هذا الکلام فی الواقع ینکر بصراحة نبوّة الأنبیاء، و یکذب أقوالهم، و یتهمهم بأنواع الأکاذیب (العیاذ باللّه).

و بعبارة أوضح فإنّ أیّا ممّا ذکرناه لا یعتبر تفسیرا للوحی، و إنّما هی افتراضات مطروحة فی حدود الأفکار، و لأنّهم أصروا علی عدم الاعتراف بوجود قضایا اخری خارج إطار معلوماتهم، لذا فإنّهم واجهوا الطریق المسدود.

الکلام الحق فی الوحی:

لا- یمکننا الاحاطة- بلا- شک- بحقیقة الوحی و ارتباطاته، لأنّه نوع من الإدراک خارج عن حدود إدراکنا، و هو ارتباط خارج عن حدود ارتباطاتنا المعروفة. فعالم الوحی بالنسبة لنا عالم مجهول و فوق إدراکاتنا، فکیف یستطیع إنسان ترابی أن یرتبط مع مصدر عالم الوجود؟! و کیف یرتبط الخالق الأزلی الأبدی مع مخلوق محدود و ممکن الوجود! و کیف یتیقن النّبی عند نزول الوحی أن هذا الارتباط معه؟

هذه أسئلة یصعب الجواب علیها بالنسبة لنا، و لا داعی للإصرار علی فهمها.

أمیا الموضوع الذی یعتبر معقولا بالنسبة لنا و یمکن قبوله فهو وجود- أو إمکانیة وجود- هذا الارتباط المجهول.

فنحن نقول: لا یوجد أیّ دلیل عقلی ینفی إمکانیة مثل هذا الأمر، بل علی العکس من ذلک حیث نری ارتباطات مجهولة فی عالمنا نعجز عن تفسیرها، و هذه الارتباطات تؤکد وجود مرئیات و مدرکات اخری خارج حدود حواسنا و ارتباطاتنا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۱

و لا بأس من ذکر مثال لتوضیح هذا الموضوع ...

لنفرض أنّنا كنا فى مدينة كلّ أهلها من العميان (عميان منذ الولادة) و نحن الوحيدون ننظر بعينين، فكل أهل المدينة لهم أربعة حواس (على فرض أن الحواس الظاهرية للإنسان خمسة) و نحن الوحيدون نملك خمسة حواس. عندها سنشاهد أحداثا كثيرة فى هذه المدينة، و عند ما نخبر أهل هذه المدينة سيتعجبون جميعهم من هذه الحاسة الخامسة التى تستطيع أن تدرك هذه الحوادث المتعددة، و مهما حاولنا شرح حاسة النظر لهم و فوائدها و آثارها فإنّهم لا يستطيعون فهم ذلك. فمن جانب لا يستطيعون نكران ذلك لإدراكهم آثارها، و من جانب آخر لا يقدرون على درك حقيقة حاسة النظر، لأنّهم غير قادرين على النظر طيلة حياتهم و لو للحظة واحدة.

و لا نريد القول أن الوحى هو (الحاسة السادسة)، بل هو نوع من الارتباط و الإدراك لعالم الغيب و الذات الإلهية المقدسة، و لأننا نفقد ذلك لا نستطيع أن ندرك كنهه بالرغم من إيماننا بوجود الوحى لوجود آثاره.

إنّنا نرى رجالا- عظماء يدعون الناس الى أمور هى فوق مستوى أفكار البشر، و يدعوهم إلى الدين الإلهى، و عندهم من المعاجز الخارقة ما يفوق طاقة الإنسان، حيث توضح هذه المعاجز ارتباطهم بعالم الغيب، فالآثار واضحة إلّا أن الحقيقة مخفية.

هل توصلنا- نحن إلى معرفة جميع أسرار هذا العالم، كى ننفى الوحى لصعوبة إدراكه بالنسبة لنا؟! و حتى فى عالم الحيوانات، فهناك ظواهر مجهولة نعجز عن تفسيرها، فهل توضحت لنا الحياة المجهولة لبعض الطيور المهاجرة التى قد تقطع ثمانية عشر ألف كيلومتر من القطب الشمالى و حتى الجنوبى أو العكس؟ فكيف تعرف هذه الطيور الطريق بدقة مع أنّها قد تسافر أحيانا فى النهار و أحيانا اخرى فى الليالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۲

المظلمة، فى حين أنّنا لا نستطيع أحيانا أن نسير مقدارا يسيرا من طريقها ما لم يكن لدينا أجهزة و وسائل معينة توضح لنا لمسير؟

و هناك بعض الأسماك التى تعيش فى أعماق البحار و المحيطات، و عند ما تريد أن تضع بيوضها تعود إلى مسقط رأسها الذى يبعد أحيانا آلاف الكيلومترات، فكيف تستطيع هذه الأسماك أن تهتدى إلى مسقط رأسها بهذه السهولة؟! و هناك العديد من هذه الأمثلة المجهولة فى حياتنا تمنعنا انكار و نفى كل شىء، و تذكرنا بوصية الفيلسوف «ابن سينا» الذى يقول: «كل ما قرع سمعك من الغرائب فضعه فى بقعة الإمكان ما لم يزدك عنه قاطع البرهان.» و الآن لنر ادلّة الماديين فى إنكار الوحى.

منطق منكرى الوحى:

يذكر بعض الماديين لدى طرح مسألة الوحى بأن الوحى خلاف العلم! و إذا سألناهم كيف ذلك؟ يقولون بلهجة المغرورة و الواثق من نفسه: إنّه يكفى لانكار شىء أن العلوم الطبيعية لم تثبته. و نحن لا- نقبل إلّا المواضيع التى أثبتتها العلوم التجريبية وفق معاييرها الخاصة.

و إضافة لذلك فنحن لم نواجه فى تحقيقاتنا العلمية حول جسم الإنسان و روحه، شيئا مجهولا يستطيع أن يربطنا بعالم ما وراء الطبيعة. كيف يمكننا أن نصدق بأن الأنبياء، الذين هم بشر مثلنا، لهم إحساس غير إحساسنا و إدراك فوق إدراكنا؟

الإيراد الدائمى و الرد الدائمى:

مثل هذا التعامل للماديين مع الوحى لا يرتبط بهذا الخصوص فحسب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۳

فهؤلاء لهم مثل هذا التحليل حيال جميع القضايا التى تختص بما وراء الطبيعة، و لأجل التوضيح نقول لهم دائما: لا تنسوا أن حدود العلم هى عالم المادة، و الأجهزة و الوسائل المستخدمة فى البحوث العلمية- كالمختبرات و التلسكوبات و الميكروسكوبات و قاعات التشريح- كلها محدود بحدود هذا العالم، فهذه العلوم و أجهزتها لا تستطيع أن تتحدث أبدا عما هو موجود خارج حدود عالم المادة،

لا بالنفی و لا بالإثبات، و الدلیل علی ذلک واضح، لأن هذه الأجهزة و الوسائل لها قدرة محدودة و محیط خاص بها.

بل إنّ أجهزة کلّ واحد من العلوم الطبیعیة لا ـ یستطیع أن یکون فاعلا ـ بالنسبة للعلم الآخر، فمثلا ـ نحن لا ـ نستطیع أن ننکر وجود میکروب السل إذا لم نشاهده بواسطة التلسکوب العظیم المستخدم فی النجوم، أو ننفی وجود کوکب البلوتون لأنّنا لم نشاهده بواسطة المیکروسکوب أو المجهور.

فالوسائل تتناسب مع نوع العلم دائما، أما الوسائل المستخدمة لمعرفة ما وراء الطبیعة، فهی لیست سوی الاستدلالات العقلیة القویة التی تفتح لنا الآفاق نحو ذلک العالم الکبیر.

فالذین یخرجون العلم عن محیطه و حدوده لیسوا علماء و لا فلاسفة، إنّما یدعون ذلک، و فی نفس الوقت هم خاطئون و ضالون.

المهم إنّنا نری أشخاصا عظاما جاؤوا و ذکروا لنا أمورا هی خارج حدود معرفة البشر، و هذا یؤکّد ارتباطهم بما وراء عالم المادة. أمّا کیف یکون هذا الارتباط المجهول؟ فهذا ما لم یتضح لنا، إنّما المهم هو أنّنا نعلم بوجود مثل هذا الارتباط.

بعض الأحادیث بخصوص قضیة الوحی:

هناک روایات عدیدة وردت فی المصادر الإسلامیة بخصوص الوحی، حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۴

توضح جوانب من هذا الارتباط المجهول للأنبیاء بمصدر الوحی:

۱- یمکن الاستفادة من بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان فی حالة عادیة عند نزول الوحی علیه عن طریق الملک، إلّا أنّه کان یشعر بحالة خاصة عند الارتباط المباشر- بدون واسطة- و أحیانا یشعر بالغشیة، کما

ورد فی کتاب التوحید للشیخ الصدوق عن الإمام الصادق علیه السّلام عند ما سألوه عن الغشیة التی کانت تصیب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و اله و سلّم إذا نزل علیه الوحی قال: «ذلک إذا لم یکن بینه و بین اللّه أحد، ذاک إذا تجلّی اللّه له ۵۳۸]».

۲- کان جبرئیل ینزل علی النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم بشکل مؤدب و باحترام کامل، کما

ورد فی الحدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «کان جبرئیل إذا أتی النّبی قعد بین یدیه قعدة العبید و کان لا یدخل حتی یستأذنه»[۵۳۹].

۳- یمکن الاستفادة من روایات اخری أن النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم کان یشخص جبرئیل بشکل جید، و ذلک بتوفیق من اللّه (و الشهود الباطنی) کما جاء

فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام حیث یقول: «ما علم رسول اللّه أن جبرئیل من قبل اللّه إلّا بالتوفیق»[۵۴۰].

۴- هناک تفسیر لقضیة غشیة النّبی صلّی اللّه علیه و اله و سلّم عند نزوله الوحی ورد فی حدیث منقول عن ابن عباس حیث یقول: کان النّبی إذا نزل علیه الوحی وجد منه ألما شدیدا و یتصدع رأسه، و یجد ثقلا (و ذلک) قوله تعالی: إِنَّا سَنُلْقِی عَلَیْکَ قَوْلًا ثَقِیلًا و سمعت أنّه نزل جبرئیل علی رسول اللّه ستین ألف مرّة[۵۴۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۵

الآیتان [سورة الشوری (۴۲): الآیات ۵۲ الی ۵۳]

اشارة

وَ کَذلِکَ أَوْحَیْنا إِلَیْکَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما کُنْتَ تَدْرِی مَا الْکِتابُ وَ لا الْإِیمانُ وَ لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَ إِنَّکَ

لَتَهْدِی إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۵۲) صِراطِ اللَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ أَلا إِلَی اللَّهِ تَصِیرُ الْأُمُورُ (۵۳)

التّفسير

القرآن روح من الخالق:

بعد البحث العام الذى ورد فى الآية السابقة بخصوص الوحى، تتحدث الآيات التى نبحثها عن نزول الوحى على شخص الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم حيث تقول: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا.

قد تكون عبارة (كذلك) إشارة إلى الأنواع ثلاثة للوحى الواردة فى الآية السابقة، و التى تحققت جميعها بالنسبة للنّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم، فأحيانا كان يرتبط بذات الخالق المنزهة و المطهرة بشكل مباشر، و أحيانا عن طريق ملك الوحى، و أحيانا عن طريق سماع لحن خاص يشبه الأمواج الصوتية، كما أشارت الرّوايات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۶

الإسلامية إلى جميع ذلك، و بيّنا شرح ذلك فى نهاية الآية السابقة.

و هناك قولان للمفسرين بخصوص المقصود من كلمة (روح) فى هذه الآية:

الأوّل: إن المقصود هو القرآن الكريم، لأنّه أساس حياة القلوب و حياة جميع الأحياء، و قد اختار هذا القول أكثر المفسّرين ۵۴۲].

و يقول الراغب فى مفرداته: سمى القرآن روحا فى قوله: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا و ذلك لكون القرآن سبب للحياة الأخروية.

و هذا المعنى يتلاءم بشكل كامل مع القرائن المختلفة الموجودة فى الآية مثل عبارة (كذلك) التى تشير إلى قضية الوحى، و عبارة (أوحينا) و عبارات اخرى بخصوص القرآن وردت فى نهاية هذه الآية.

و بالرغم من أن (روح) وردت غالبا بمعانى اخرى سائر آيات القرآن، إلّا أنّه- وفقا للقرائن أعلاه- يظهر أنّها وردت هنا بمعنى القرآن.

و قد قلنا أيضا فى تفسير الآية ۲ من سورة النحل: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلی مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أن كلمة (روح) فى هذه الآية- وفقا للقرائن- وردت بمعنى (القرآن و الوحى و النبوة) و فى الحقيقة فإن هاتين الآيتين تفسر إحداهما الأخرى.

فكيف يمكن للقرآن أن لا- يكون روحا فى حين أنّنا نقرأ فى الآية (۲۴) من سورة الأنفال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ

التّفسير الثّانى: أنّ المقصود هو (روح القدس) (أو ملك أفضل حتى من جبرائيل و ميكائيل و كان يلازم النّبى دائما).

و وفقا لهذا التّفسير فإن (أوحينا) تكون بمعنى (أنزلنا) يعنى أنزلنا روح القدس عليك، أو ذلك الملك العظيم (بالرغم من أنّنا لم نر كلمة (أوحينا) لهذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۷

المعنى فى الآيات القرآنية الأخرى). و يؤيد ذلك بعض الروايات المذكورة فى مصادر الحديث المعروفة، و لكن- كما قلنا- فإن التّفسير الأوّل ملاءمة مع الآية لوجود القرائن المتعددة، لذا يمكن أن تكون مثل هذه الرّوايات التى تفسر الروح بمعنى روح القدس أو الملك المقرب من الخالق، إشارة إلى المعنى الباطنى للآية.

على أية حال، فإنّ الآية تضيف: ما كُنْتَ تَدْرِی مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِی بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا.

فهذا هو اللطف الإلهى الذى شملك أنزل عليك هذا الوحى السماوى و آمنت بكل ما يحتويه.

فالإرادة الإلهية كانت تقتضى أن يهدى عباده الآخرين فى ظل هذا النور السماوى، و أن يشمل الشرق و الغرب- بل و جميع القرون و الأعصار حتى النهاية- إضافة إلى هدايتك أنت إلى هذا الكتاب السماوى الكبير و تعليماته.

بعض المنحرفين فكريا كانوا يتصورون أن هذه الجملة تبيّن أن الرّسول لم يكن يؤمن باللّه قبل نبوته، فى حين أن معنى الآية واضح، حيث أنّها تقول: إنّك لم تكن تعرف القرآن قبل نزوله و لم تكن تعرف تعليماته و تؤمن به و هذا لا يتعارض أبدا مع اعتقاد الرّسول التوحيدى و معرفته العالية بأصول العبادة للّه و عبوديته له.

و الخلاصة، إن عدم معرفة محتوى القرآن يختلف عن موضوع عدم معرفة اللّه.

فحياة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل مرحلة النبوة و الواردة فى كتب التاريخ، تعتبر دليلا حيا على هذا المعنى. و الأوضح من ذلك ما

ورد عن أمير المؤمنين على عليه السّلام فى نهج البلاغة: «و قد قرن اللّه به من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم، ليله و نهاره»[۵۴۳].

و تضيف الآية فى نهايتها: وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

فالقرآن نور للجميع و ليس لك فحسب، و هو وسيلة لهداية البشر إلى الصراط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۸

المستقيم، و موهبة إلهية عظيمة بالنسبة للسائرين على طريق الحق، و هو ماء الحياة بالنسبة للعطاشى كى ينتهلوا منه.

و قد ورد نفس هذا المعنى بعبارة اخرى فى الآية (۴۴) من سورة فصلت حيث تقول الآية: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ.

ثم تقول الآية مفسرة للصراط المستقيم: صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

و هل هناك طريق أكثر استقامة من الطريق الذى ينتهى بخالق عالم الوجود؟

و هل هناك أحسن من هذا الطريق؟

فالسعادة الحقيقية هى السعادة التى يدعو إليها الخالق، و الوصول إليها يجب أن يكون عبر الطريق الوحيد الذى انتخبه البارئ لها.

أمّا آخر جملة فى هذه الآية- و هى آخر آية فى سورة الشورى- فهى فى الحقيقة دليل على أن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذى يوصل إلى الخالق، حيث تقول: أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ.

فبما أنّه يملك عالم الوجود و يحكمه و يدبره لوحده، و بما أن برامج تكامل الإنسان يجب أن تكون تحت إشراف هذا المدبّر العظيم، لذا فإن الطريق المستقيم هو الطريق الوحيد الذى يوصل إليه، و الطرق الأخرى منحرفة و تؤدى إلى الباطل، و هل هناك حق فى هذا العالم غير ذاته المقدسة؟! هذه الجملة بشرى للمتقين، و هى فى نفس الوقت تهديد للظالمين و المذنبين، لأن الجميع سوف يرجعون إلى الخالق.

و هى دليل على أن الوحى يجب أن يكون من الخالق فقط، لأن جميع الأمور ترجع إليه و تدبير كلّ شىء بيده، و لهذا السبب وجب أن يكون البارئ تعالى هو مصدر الوحى بالنسبة للأنبياء حتى تتمّ الهداية الحقيقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۸۹

و هكذا نرى أن بداية و نهاية هذه الآيات منسجمة فيما بينها و مترابطة، و نهاية السورة- أيضا- يتلاءم مع بديتها و الموضوع العام السارى عليها.

ملاحظات

۱- ماذا كان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

لا يوجد شك فى أن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لم يسجد لصنم قبل بعثته أبدا، و لم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنى، إلّا أن العلماء يختلفون فى الدين الذى كان عليه:

فذهب بعضهم أنّه دين المسيح عليه السّلام، لأن المسيحية كانت الدين الوحيد الرسمى غير المنسوخ قبل بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم.

و قال البعض الآخر: إنه دين إبراهيم عليه السّلام، لأنّه (شيخ الأنبياء) و أبوهم، و قد ذكرت بعض آيات القرآن أن دين الإسلام هو دين إبراهيم: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ ۵۴۴].

أمّا البعض الآخر فلم يذكر شيئا و اكتفى بالقول بأننا نعلم بأنّه كان على دين معين إلّا أنّه لم يتوضح لنا ما هو.

و بالرغم من أن كلا من هذه الأقوال يستند إلى دليل معين، إلّا أنّها ليست قطعية، و أفضلها قول آخر و هو: لقد كان الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم يملك برنامجا خاصا من قبل الخالق و كان يعمل به، و فى الحقيقة فقد كان له دين خاص حتى زمان نزول الإسلام عليه.

و الدليل على هذا الكلام الجملة التى ذكرناها قبل قليل، و الوارد فى نهج البلاغة، و هو «و لقد قرن اللّه به و من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹۰

يسلك به طريق المكارم، و محاسن أخلاق العالم ليله و نهاره».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

و الدليل الآخر هو أنّ التاريخ لم يذكر لنا أبدا أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم انشغل بالعبادة فى معابد اليهود أو النصارى أو الأديان الأخرى، و لم يكن إلى جوار الكفار فى معابدهم، و لا إلى جوار أهل الكتاب فى كنائسهم، و فى نفس الوقت فقد استمر فى سلوك طريق التوحيد و كان متمسكا بقوة بالأصول الأخلاقية و العبادة الإلهية.

و قد وردت عدّة روايات- وفقا لنقل العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار- فى المصادر الإسلامية عن أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان مؤيدا منذ بداية عمره بروح القدس.

و حتما فإنّه كان يعمل وفقا لما يستلهمه من روح القدس ۵۴۵].

و يرى العلّامة المجلسى أن الرّسول صلّى اللّه عليه و اله و سلّم كان نبيا قبل أن يكون رسولا، فالملائكة كانت تتحدث معه أحيانا و كان يسمع صوتها، و أحيانا كان الإلهام الإلهى ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقية الصادقة، و بعد أربعين سنة وصل إلى منزلة الرسالة و نزل القرآن و الإسلام عليه، و قد ذكر لذلك ستة أدلة حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه (للاستزادة راجع المجلد ۱۸ من بحار الأنوار ص ۲۷۷ فما بعدها).

۲- الجواب على سؤال

بعد هذا البحث قد يطرح هذا السؤال: لماذا تقول الآية: ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ رغم ما ذكرناه من إيمان و أعمال النّبى صلّى اللّه عليه و اله و سلّم قبل نبوّته؟

و بالرغم من أنّه ورد جواب هذا السؤال بشكل موجز فى تفسير الآية، إلّا أنّه من الأفضل إعطاء توضيح أكثر بهذا الخصوص.

المقصود أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم لم یکن یعرف بتفصیلات هذا الدین و لا بمحتوی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹۱

القرآن، قبل نزوله و قبل تشریع الإسلام.

أمّا کلمة الإیمان، فلو لا حظنا أن هذه الکلمة وردت بعد الکتاب، و بملاحظة الجمل الأخری الواردة بعدها فی الآیة، یتضح أن المقصود بها هو الإیمان بمحتوی هذا الکتاب السماوی و لیس مطلق الإیمان، لذا لا یوجد أی تعارض مع ذکرناه، و لا یمکن أن تکون هذه الجملة وسیلة لذوی النفوس المریضة کی یستدلوا بها علی نفی الإیمان بشکل مطلق عن الرّسول، و ینکرون الحقائق التاریخیة فی هذا المجال.

و قد ذکر بعض المفسّرین أجوبة اخری لهذا السؤال منها:

أ- المقصود من الإیمان لیس الإعتقاد لوحده، بل مجموع الإعتقاد و الإقرار باللسان و الأعمال و هذا هو المقصود به فی التعبیر الإسلامی.

ب- المقصود من الإیمان هو الإعتقاد بالتوحید و الرسالة، و نحن نعلم أن النّبی کان موحدا، إلّا أنّه لم یکن یؤمن برسالته بعد.

ج- المقصود من الإیمان هو أرکان الإیمان التی لا یتوصل إلیها الإنسان عن طریق العقل، و الطریق الوحید لذلک هو الأدلة النقلیة (مثل العدید من خصوصیات المعاد).

د- هناک محذوف فی هذه الآیة و فی التقدیر: ما کنت تدری کیف تدعو الخلق إلی الإیمان [۵۴۶].

و لکن حسب اعتقادنا فإن المعنی الأوّل أفضل المعانی و أکثرها تلاؤما مع محتوی الآیة.

۳- ملاحظة أدبیة

هناک کلام کثیر حول الضمیر فی جملة: لکِنْ جَعَلْناهُ نُوراً لمن یعود،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۵، ص: ۵۹۲

فذهب البعض أن المقصود هو القرآن نفسه، الکتاب السماوی العظیم لرسول الإسلام صلّی اللّه علیه و اله و سلّم، و یحتمل أن یکون هذا النور هو النور الإلهی ل (الإیمان).

و لکن الأفضل أن یعود هذا الضمیر إلی الإثنین (القرآن و الإیمان)، فما داما ینتهیان بحقیقة واحدة، لذا فلا مانع من أن یعود الضمیر المفرد إلیهما.

إلهی، نور قلوبنا دائما بنور إیمانک، و اهدنا بلطفک إلی الخیر و السعادة.

إلهی، ترحّم علینا بالصبر و التحمل حتی لا نطغی عند النعم و لا نجزع عند المصائب و الفتن.

إلهی، اجعلنا فی صفّ المؤمنین المخلصین فی ذلک الیوم الذی یکون فیه الظالمون و المستکبرون حیاری تائهین، و المؤمنون مصونین فی ظل حمایتک، آمین ربّ العالمین نهایة سورة الشوری

---

[۱] (۱)- مجمع البیان بدایة سورة الزمر.

[۲] (۲)- مجمع البیان و ثواب الأعمال و تفسیر نور الثقلین.

[۳] (۱)-i تَنْزِيلُ الْكِتابِ E خبر لمبتدأ محذوف و التقدير« هذا تنزيل الكتاب»، و احتمل بعض المفسّرين أن« تنزيل الكتاب» مبتدأ و« من اللّه» خبر. لكن الرأى الأوّل أصحّ، و« تنزيل» مصدر بمعنى المفعول. فتكون إضافته إلى الكتاب من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، و المعنى(هذا الكتاب منزل من اللّه).

[۴] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۳، الصفحة ۲۱۲ ذيل آيات البحث.

[۵] (۱)- من الواضح أنّ فى الآية المذكورة أعلاه و قبل عبارة\i ما نَعْبُدُهُمْ E جملة تقديرها« و يقولون ما نعبدهم».

[۶] (۱)- تفسير الميزان، المجلد ۱۷، الصفحة ۲۴۷ مع بعض التغييرات.

[۷] (۱)- سورة ق، ۱۶.

[۸] (۲)- سورة الأنفال، ۲۴.

[۹] (۱)- مفردات الراغب مادة(نزل) و الفرق بين الإنزال و التنزيل فى وصف القرآن و الملائكة، أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا و مرّة بعد اخرى و الإنزال عام.

[۱۰] (۲)- هذا الاختلاف ورد فى التّفسير الكبير للفخر الرازى نقلا عن آخرين.

[۱۱] (۱)- القدر، ۱.

[۱۲] (۲)- سورة الدخان، ۳.

[۱۳] (۳)- سورة البقرة، ۱۸۵.

[۱۴] (۱)- هناك بحث مفصل عن فوائد النّزول التدريجى للقرآن تعرضنا له لدى تفسير الآية(۳۴) من سورة فرقان.

[۱۵] (۱)- سورة فاطر، ۱۳.

[۱۶] (۲)- سورة الأعراف، ۵۴.

[۱۷] (۱)- فى قوله تعالى\i: ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها\E محذوف تقديره(خلقكم من نفس واحدة خلقها، ثمّ جعل منها زوجها).

[۱۸] (۱)- تفسير الميزان؛ و روح المعانى ذيل آيات البحث.

[۱۹] (۱)- دعاء عرفة، مصباح الزائر، ابن طاووس.

[۲۰] (۱)- نلفت الانتباه إلى أن(أنّى) تأتى أحيانا بمعنى(اين) و أحيانا أخرى بمعنى(كيف).

[۲۱] (۲)- وفق القراءات المشهورة، فإن(يرضه) تقرأ بضم الهاء و بدون إشباع الضمير، لأنّها كانت فى الأصل(يرضاه) و قد أسقطت الألف بسبب الجزم و أصبحت(يرضه) و الضمير فيها يعود على الشكر. و رغم أن كلمة(شكر) لم ترد من العبارة السابقة بصورة صريحة، إلّا أن عبارة(إن تشكروا) تدل عليها، كما هو الحال بالنسبة إلى الضمير فى i اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى E الذى يعود على العدالة.

[۲۲] (۱)- هناك بحث مفصل فى ذيل الآية(۵) من سورة إبراهيم- عن أهمية و فلسفة الشكر و عن مفهومها الحقيقى و أبعادها.

[۲۳] (۱)- بهذا الخصوص هناك بحث فى ذيل الآية(۱۵) من سورة الإسراء.

[۲۴] (۲)- هناك بحث بهذا الشأن فى ذيل الآية(۱۴) من سورة الأنعام.

[۲۵] (۱)- هناك اختلاف بين المفسّرين حول المعنى الذى تعطيه(ما) فى عبارة\i: نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ E البعض يعتقد أن(ما) موصولة تشير إلى(ضر) و لكون هذا المعنى هو الأنسب، فقد قدم على المعانى الأخرى، و قال البعض أيضا: إن(ما) موصولة و المراد منها هو اللّه سبحانه و تعالى: و مجموعة أخرى قالت: إن(ما) مصدرية و تعنى الدعاء، و إمعان النظر فى الآية(۱۲) من سورة يونس\i: وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ E يبيّن أن هذه الآية شاهد على صحة المعنى الأوّل.

[۲۶] (۱)- یراجع(لسان العرب) و(مفردات الراغب) و تفسیر(روح المعانی).

[۲۷] (۱)- فی هذه العبارة شق محذوف، و التقدیر(أ هذا الذی ذکرنا خیر أمن هو قانت آناء اللیل).

[۲۸] (۱)- علل الشرائع، و الکافی نقلا عن نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۷۹.

[۲۹] (۱)- الکافی، المجلد الأوّل، باب صفة العلم و فضله الحدیث(۷).

[۳۰] (۲)- الکافی، المجلد الأوّل، باب صفة العلم و فضله الحدیث(۲).

[۳۱] (۳)- تفسیر مجمع البیان ذیل آیات البحث.

[۳۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثّانی، الصفحة ۴۹۶ أحوال کمیل.

[۳۳] (۱)- من البدیهی أنّ الخطاب بعبارة« یا عبادی» هو من اللّه، و إن کان المخاطب هو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فالمقصود هنا أن أبلغهم خطابی.

[۳۴] (۲)- أغلب المفسّرین اعتبروا عبارة(فی هذه الدنیا) تعود علی عبارة(أحسنوا)، و استنادا لهذا فإن« حسنة» مطلقة تشمل کل حسنة فی الدنیا و الآخرة، و مع انتباه إلی أن استعمال التنوین فی مثل هذه الموارد إنّما هو لإعطاء الکلمة طابع التفخیم و العظمة، فإنه یفید بیان عظمة الثواب.

[۳۵] (۱)- النساء، ۹۷.

[۳۶] (۱)-« بغیر حساب» من الممکن أن تکون متعلقة ب(یوفی)، أو أنها(حال) ل(أجرهم) لکن الاحتمال الأول أنسب.

[۳۷] (۲)- تفسیر مجمع البیان ذیل آیات البحث، و نفس المعنی مع اختلاف بسیط ورد فی تفسیر القرطبی نقلا عن الإمام الحسین بن علی علیهما السلام عن جده رسول الله صلی الله علیه و آله و سلم.

[۳۸] (۱)- تقدیم(اسم الجلالة) و الذی هو مفعول(اعبد) یفید الحصر هنا، و قوله(مخلصا له دینی) التی هی حال یؤکّد معنی الحصر.

[۳۹] (۱)- مفردات الراغب مادة(خسر).

[۴۰] (۱)- بعض المفسّرین، و منهم الزمخشری صاحب الکشّاف یعتقدون أنّ أصل کلمة(طاغوت) هو(طغوت) علی وزن(فعلوت)(کملکوت)، ثمّ تقدمت لام الفعل علی عین الفعل و أصبحت(طغوت)، و بعد إبدال الواو بالألف أصبحت(طاغوت) و یستدل صاحب الکشّاف علی هذا الکلام من عدّة مصادر(تفسیر الکشاف ج ۴ ص ۱۲۰).

[۴۱] (۲)- مجمع البیان، الجزء السابع، الصفحة ۴۹۳، ذیل آیة البحث.

[۴۲] (۳)-(عباد) کانت فی الأصل(عبادی) و قد حذفت الیاء و عوض عنها بالکسرة.

[۴۳] (۱)- فی الحقیقة، إنّ الآیة تحوی جملة محذوفة تدل علیها الجملة التی تلتها، و تقدیرها(أ فأنت تخلصه) إذ یصبح تقدیر الجملة کالتالی(أ فمن حق علیه کلمة العذاب أ فأنت تخلصه(بقرینة الجملة التالیة) أ فأنت تنقذ من فی النّار) و قال البعض الآخر: إن تقدیر الآیة هو کالتالی(أ فمن حقت علیه کلمة العذاب ینجو منه).

[۴۴] (۱)- یقول« الزمخشری» فی الکشاف\i: وَعْدَ اللَّهِ E منصوب لکونه مفعولا مطلقا للتأکید، و لأنّ عبارة\i لَهُمْ غُرَفٌ E تعنی و عدهم الله غرفا.

[۴۵] (۱)- سورة نوح، الآیة ۷.

[۴۶] (۱)- الکافی، المجلد الأول، کتاب العقل الحدیث(۱۲).

[۴۷] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۶، الحدیث ۳۴.

[۴۸] (۳)- نهج البلاغة، قصار الکلمات، الخطبة(۸۰).

[۴۹] (۱)- تفسير القرطبى، و مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۵۰] (۲)- الدر المنثور نقلا عن تفسير الميزان، المجلد ۱۷، صفحة ۲۶۷.

[۵۱] (۳)- القول هذا أورده صاحب تفسير روح المعانى نقلا عن آخرين.

[۵۲] (۱)-« ينابع» على ما هو المشهور يكون منصوبا بنزع الخافض، و هو جمع ينبوع من نبع الماء(راجع تفسير روح المعانى، ج ۲۳، ص ۲۵۶، روح البيان، ج ۸، ص ۹۳.

[۵۳] (۱)-« يهيج» من مادة(هيجان) و لها معنيان فى اللغة، الأوّل هو جاف النبات و اصفراره، و الثّانى هو التحرك و الانتفاض، و من الممكن أو يعود المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات حينما يجفّ فإنه يستعد للانفصال و الانتشار و التحرك و الهيجان.

[۵۴] (۱)- هذه الآية تتضمّن جملة محذوفة تتضح من خلال الجملة التى تليها و عند تقديرها تصبح الآية(أ فمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نور من ربّه كمن هو قاسى القلب لا يهتدى بنور).

[۵۵] (۱)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، الصفحة ۵۶۹۱(تفسير سورة الزمر ذيل آيات البحث) نقل هذا الحديث مع اختلاف جزئى عن(روضة الواعظين) للشيخ المفيد.

[۵۶] (۲)- تفسير الصافى ذيل آيات البحث.

[۵۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، الصفحة ۵۵، الحديث ۲۳.

[۵۸] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، الصفحة ۵۵، الحديث ۲۴.

[۵۹] (۲)- الكافى، المجلد الثّانى، باب القسوة الحديث(۱).

[۶۰] (۳)- نفس المصدر السابق الحديث(۳).

[۶۱] (۱)- سبب النّزول ورد باختلاف يسير فى تفسير(الكشاف) المجلد الرابع ص ۱۲۳ و فى تفسير(القرطبى) و(الآلوسى) و(أبو- الفتوح الرازى) و غيرها، و ذلك فى ذيل آيات البحث.

[۶۲] (۱)- قال الزمخشرى فى الكشاف: إن(مثانى) يمكن أن تكون جمع(مثنى) على وزن(مصلّى) و تعنى المكرّر، و يمكن أن تكون جمع(مثنى) على وزن(مبنى) من التثنية بمعنى التكرار، الكشاف، المجلد الرابع، الصفحة ۱۲۳.

[۶۳] (۱)-(تقشعر) من مادة(قشعريرة) و قد ذكر اللغويون و المفسّرون معانى مختلفة و متقاربة بعض الشىء، فالبعض قال: إنّها تعنى انكماش جلد البدن(حالة نصيب الإنسان أثناء خوفه) و البعض قال: إنّها الرجفة التى تصيب الإنسان فى حالة الخوف، و البعض الآخر قال: إنّها تعنى وقوف شعر البدن، و فى الحقيقة فإنّ كلّ حالة من هذه الحالات ملازمة للأخرى.

[۶۴] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد الثامن، الصفحة ۵۶۹۳، عن التأثير العميق و الخارق لآيات القرآن، أوردنا روايات عديدة فى ذيل الآية ۹۲ من سورة آل عمران.

[۶۵] (۱)- هذه العبارة فيها محذوف، التقدير(أ فمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن لا تمسه النار).

[۶۶] (۱)- كلمة(خزى) تعنى الذلّ و الهوان كما تعنى الفضيحة(يراجع لسان العرب).

[۶۷] (۱)-(مجمع البيان) ذيل آيات البحث، كما نقل هذه الرواية أبو الفتوح الرازى و القراطبى مع شىء من الاختلاف.

[۶۸] (۲)- أورد الآلوسى هذا الحديث فى روح المعانى، المجلد ۲۳، الصفحة ۲۳۵، كما أورده بعض المفسّرين فى ذيل الآية.

[۶۹] (۱)- الموقع الإعرابى لقوله تعالى\:i قُرْآناً عَرَبِيًّا\E حال ل(القرآن) التى ذكرت من قبل، و لكون كلمة(قرآنا) لا تحمل طابع الوصف فقد قال البعض: إنّها توطئة للحال الذى هو(عربيا) و ذهب البعض الى أنها بمعنى(مقروءا) و تعطى معنى الوصف، و البعض قال: إنّها منصوبة على المدح بتقدير فعل.

[۷۰] (۲)- كلمة(عوج) جاءت بصورة نكرة فى سياق النفى، و تعطى معنى النفى العام لعدم لوجود أى انحراف و انعطاف فى

القرآن.

[۷۱] (۱)- يراجع(مفردات الراغب) و(لسان العرب) و غيرها من التفاسير.

[۷۲] (۲)-« متشاكسون»: أصلها من(شكاسة) و تعنى سوء الخلق و التنازع و الاختصام، و لهذا يقال« متشاكس» لمن يتخاصم و يتنازع بعصبية و سوء خلق.

[۷۳] (۱)- نقله(الحاكم أبو القاسم الحسكانى) فى شواهد التنزيل.

[۷۴] (۲)- نقله العياشى فى تفسيره مجمع البيان، ذيل آيات البحث.

[۷۵] (۳)- عبارة\i إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ E على الظاهر تعطى معنى موت الجميع فى الوقت الحاضر، و هى من قبيل(المضارع المتحقق الوقوع) الذى يأتى أحيانا بصورة حال و أحيانا اخرى بصورة الماضى.

[۷۶] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۸، الصفحة ۴۹۷.

[۷۷] (۱)- غفرت: وحشت

[۷۸] (۲)- سيرة ابن هشام، المجلد الرابع، الصفحات ۳۰۵ و ۳۰۶، نقلا عن الكامل لابن الأثير، المجلد الثّانى، الصفحة ۳۲۳ و ۳۲۴، مع شىء من التلخيص.

[۷۹] (۱)-« مثوى»: من مادة(ثواء) و تعنى الإقامة المستمرة فى مكان ما و لهذا فإنّ(مثوى) هنا تعنى المكان و المنزل الدائم.

[۸۰] (۲)- مجمع البيان ذيل آيات البحث.

[۸۱] (۱)- فى عودة قوله تعالى\i: لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ E ذكر المفسّرون آراء شتى بهذا الشأن و لكن التّفسير الذى يبدو أنسب هو أنّها تعود على الفعل(أحسنوا) و يفهم ذلك من كلمة المحسنين، و التقدير(ذلك جزاء المحسنين أحسنوا ليكفر اللّه عنهم) نعم إنّهم عمدوا إلى عمل الإحسان كى يكفر اللّه عهم سيئاتهم و يغفر زلاتهم و يعطيهم أفضل الثواب.

[۸۲] (۱)- لمن يرغب الاطلاع أكثر عليه مراجعة كتاب إحقاق الحق، المجلد الثّالث، الصفحة ۱۷۷ فما بعد، و كتاب المراجعات، الصفحة ۶۴(المراجعة ۱۲).

[۸۳] (۱)- تفسير الكشاف و مجمع البيان و أبو الفتوح الرازى و فى ظلال مع اختلافات جزئية.

[۸۴] (۲)- مجمع البيان ذيل آيات البحث(هذه الرواية وردت أيضا فى الكشاف و القرطبى و بصورة مختصرة).

[۸۵] (۱)- يقول الراغب فى مفرداته: كلمة(نقمة) تعنى العقوبة و الجزاء.

[۸۶] (۱)-« مفردات» مادة(هدى).

[۸۷] (۲)- نلفت الانتباه إلى أن الهدآية التكوينية هنا قد استخدمت بمعناها الواسع، حيث تشمل كل أشكال الهدآية عدا الهدآية التى تأتى عن طريق بيان الشرائع و التوجيه إلى الطريق.

[۸۸] (۱)- و منها ما ورد فى السور و الآيات التالية(فاطر- ۸) و(الزمر- ۲۳) و(المدثر- ۳۱) و(البقرة- ۲۷۲) و(الأنعام- ۸۸) و(يونس- ۲۵) و(الرعد- ۲۷) و(إبراهيم- ۴).

[۸۹] (۱)- البقرة، ۲۵۸.

[۹۰] (۲)- البقرة، ۲۶۴.

[۹۱] (۳)- الزمر، ۳.

[۹۲] (۴)- غافر، ۲۸.

[۹۳] (۱)- المائدة، الآية ۱۶.

[۹۴] (۲)- الرعد، الآية ۲۷.

[۹۵] (۳)- العنكبوت، الآية ۶۹.

[۹۶] (۴)- محمّد، الآية ۱۷.

[۹۷] (۱)- المفسّرون و اللغويون يفسّرون(أ فرأيتم) بأنّها تعطى معنى(أخبرونى) فى الوقت الذى لا يوجد فيه أى مانع من تفسيرها بمعناها الأصلى و هو رؤية العين أو القلب.

[۹۸] (۲)- العنكبوت(۶۱) و(۶۳)، لقمان(۳۱)، الزخرف(۹) و(۸۷).

[۹۹] (۱)- ما هو أصل كلمة(مكانة)؟ و ماذا تعنى؟ أغلب المفسّرين و اللغويين قالوا: إنّها تعنى المكان و المنزلة، و هى من مادة(كون) و لأنّها تستخدم كثيرا بمعنى المكان لهذا يتصور أنّ الميم فيها أصلية، و لذا أصبح جمع تكسيرها(أمكنة) أما صاحب(لسان العرب)، فقد ذكر أنّ أصلها(مكنة) و(تمكن) و التى تعنى القدرة و الاستطاعة، و على أية حال فإنّ مفهوم الآية يكون فى الحالة الأولى: ابقوا على مواقفكم، و فى الحالة الثانية: ابذلوا كلّ ما لديكم من جهد و طاقة.

[۱۰۰] (۱)-« بالحق»: من الممكن أن تكون حالا ـ ل(كتاب) أو للفاعل فى i أَنْزَلْنا\E، مع أنّ المعنى الأوّل أنسب، و لذا فإنّ مفهوم الآية يكون:(إنا أنزلنا عليك القرآن مترافقا بالحق).

[۱۰۱] (۲)- كلمة(توفى) تعنى قبض الشىء بالتمام، كلمة(أنفس) تعنى الأرواح. و كلمة(منام) لها معنى مصدرى و تعنى النوم.

[۱۰۲] (۱)-« أم»: هنا منقطعة و تعنى(بل) و لو كانت متصلة، لكان يجب تقدير القسم الثّانى لها، و هذا خلاف الظاهر.

[۱۰۳] (۲)- الزمر، ۳.

[۱۰۴] (۳)- عبارة\i أَ وَ لَوْ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئاً\E فيها محذوف، و التقدير:(أ يشفعون لكم و لو كانوا لا يملكون شيئا).

[۱۰۵] (۱)- البقرة، ۵۷.

[۱۰۶] (۲)- الميزان، المجلد ۱۷، الصفحة ۲۸۶.

[۱۰۷] (۱)- مجمع البيان ذيل آية البحث و تفسير الصافى. كلمة(روح) فى هذه الرواية تعنى(الروح الحيوانية) و عمل أجهزة الجسم الرئيسية، و كلمة(نفس) تعنى روح الإنسان.

[۱۰۸] (۱)- خصال الصدوق، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۸.

[۱۰۹] (۲)- أصول الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۸۸.

[۱۱۰] (۱)-« اشمأزت»: من مادة(اشمئزاز) و تعنى الانقياض و النور عن الشىء،(وحده) منصوب حال أو مفعول مطلق.

[۱۱۱] (۱)- صول الكافى، و روضة الكافى، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۰.

[۱۱۲] (۲)-« فاطر السموات» منصوب بعنوان منادى مضاف.

[۱۱۳] (۱)- الم سجدة، ۱۷.

[۱۱۴] (۲)- تفسير مجمع البيان و تفسير القرطبى ذيل آية البحث.

[۱۱۵] (۱)-« خول»: من مادة(تخويل) و تعنى الإعطاء على نحو الهبة، و قد شرحت بالتفصيل فى ذيل الآية الثامنة من هذه السورة(الزمر)، ضمير(أوتيته) رغم أنّه يعود على(نعمة) فقد جاء بصيغة المذكر، لأنّ المقصود منه(شىء من النعمة) أو(قسم من النعمة).

[۱۱۶] (۱)- ضمير(قد قالها) راجع إلى القول السابق باعتبار أنّه مقالة أو كلمة، و المراد منها عبارة\i إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ E.

[۱۱۷] (۱)- نهج البلاغة، قصار الكلمات، الكلمة ۲۵۰.

[۱۱۸] (۱)- مجمع البيان و تفسير القرطبى و تفسير الصافى ذيل الآية مورد البحث.

[۱۱۹] (۱)- سفينة البحار، المجلد الاول، الصّفحة ۱۲۷، مادة التوبة.

[۱۲۰] (۲)- أصول الكافى، المجلد ۲، الصفحة ۲۱۶، باب التوبة، الحديث ۱۰.

[۱۲۱] (۱)- سفینة البحار، المجلد ۲، الصفحة ۶۳۷، مادة(وحش) و تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۷، الصفحة ۴، و تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۳.

[۱۲۲] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۲۴(طبع بیروت).

[۱۲۳] (۲)- التّفسیر الکبیر لفخر الرازی، المجلد ۲۷، الصفحة ۴ ذیل آیات البحث.

[۱۲۴] (۱)- فی بدایة الآیة عبارة تتعلق بالآیات السابقة، و یکون التقدیر(لئلا تقول نفس) أو(حذرا أن تقول نفس) و فی الحالة الثانیة تکون مفعولا له لعبارة(أنیبوا و اسلموا و اتبعوا).(إن) فی عبارة(و إن کنت لمن الساخرین) مخففة من الثقیلة إذ أنّها کانت فی الأصل،(إنّی کنت من الساخرین).

[۱۲۵] (۱)- رغم أنّ المتحدّث هی النفس و هی مؤنث، و أنّ القرآن أورد أوصافها و أفعالها بصیغة المؤنث فی آیاته، و لکن فی هذه الآیة ورد ضمیر(کذبت) و ما بعدها بصیغة المذکر، و ذلک لأنّ المقصود هنا هو الإنسان، و قد قال البعض: إنّ(النفس) یمکن أن تأتی بصیغتی المذکر و المؤنث.

[۱۲۶] (۱)- سورة العنکبوت، الآیة ۶۵.

[۱۲۷] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الرابع، الصفحة ۴۹۵.

[۱۲۸] (۳)- تفسیر نور الثقلین المجلد الرابع الصفحة ۴۹۵.

[۱۲۹] (۱)- المصدر السابق، ص ۴۹۶.

[۱۳۰] (۱)- الإعتقادات الإمامیة، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۶، و نفس المعنی نقل عن تفسیر علی بن إبراهیم و کتاب الکافی(یراجع المجلد الأوّل من کتاب الکافی(باب من ادعی الإمامة و لیس لها بأهل) الحدیث الأوّل و الثّالث).

[۱۳۱] (۲)- مجمع البیان ذیل آیة البحث.

[۱۳۲] (۳)- أصول الکافی، المجلد ۱، صفحة ۵۱(باب روایة الکتب و الأحادیث) الحدیث ۱۴.

[۱۳۳] (۱)- البقرة، ۳۴.

[۱۳۴] (۲)- تفسیر علی بن إبراهیم، نقلا عن تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۴۹۶، کما ورد نفس المعنی فی تفسیر الصافی فی ذیل آیات البحث.

[۱۳۵] (۳)-« مفازة»: مصدر میمی بمعنی الفوز و الظفر، و(الباء) فی(بمفازتهم) للملابسة أو السببیة، و بالنسبة إلی الحالة الأولی یکون المعنی إن اللّه یعطیهم النجاة المقترنة بالخلاص و الفلاح، أمّا بالنسبة إلی الحالة الثانیة فالمعنی یکون(إن اللّه أنقذهم و نجاهم بسبب إخلاصهم) کنایة عن الأعمال الصالحة و الإیمان-.

[۱۳۶] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد الثامن، الصفحة ۵۷۱۹، و تفسیر أبو الفتوح الرازی، المجلد ۹، الصفحة ۴۱۷ ذیل آیات البحث(مع اختصار ذیل الحدیث).

[۱۳۷] (۱)- نور الثقلین، المجلد ۴۹، الصفحة ۴۹۷.

[۱۳۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۲)-(الفاء) فی(فاعبد) زائدة للتأکید علی ما قیل، و قال البعض: إنّها(فاء) الجزاء و قد حذف شرطه و التقدیر(إن کنت عابدا فاعبد اللّه)، ثمّ حذف الشرط، و قدم المفعول مکانه.

[۱۴۰] (۱)- الآیات التی ورد فیها ما یشیر إلی النفخ فی الصور هی:(الکهف- ۹۹) و(المؤمنون-(۱۰۱)،(یس- ۵۱)،(الزمر- ۶۸)،(ق- ۲۰)،(الحاقة- ۱۳)،(الأنعام- ۷۳)،(طه- ۱۰۲)،(النمل- ۸۷)،(النبأ- ۱۸).

[۱۴۱] (۲)- المدثر، الآیة ۸.

[۱۴۲] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۲.

[۱۴۳] (۲)- یرجی الانتباه إلی أنّ(صور) هی علی وزن(نور)، و(صور) هی علی وزن(زحل) هما جمع(الصورة).

[۱۴۴] (۱)- لئالی الأخبار، الصفحة ۴۵۳.

[۱۴۵] (۱)- علم الیقین، الصفحة ۸۹۲.

[۱۴۶] (۱)- مجمع البیان ذیل آیات البحث.

[۱۴۷] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۳۲۹.

[۱۴۸] (۳)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۳، الحدیث ۱۱۹.

[۱۴۹] (۱)- نور الثقلین، المجلد ۴، الصفحة ۵۰۳، الحدیث ۱۱۹.

[۱۵۰] (۱)- تفسیر الصافی ذیل آیة البحث.

[۱۵۱] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶، الصفحة ۳۲۱.

[۱۵۲] (۲)- روح المعانی و روح البیان ذیل آیة البحث.

[۱۵۳] (۱)- إرشاد المفید و الخبر ذاته فی تفسیر الصافی و نور الثقلین فی ذیل آیات البحث، و نفس المعنی، ورد فی المجلد الثّانی و الخمسین الصفحة ۳۳۰ من بحار الأنوار للمرحوم العلّامة المجلسی، مع شیء من الاختصار.

[۱۵۴] (۱)-« خزنة» جمع(خازن) من مادة(خزن) علی وزن(جزم) و تعنی حافظ الشیء، و(خازن) تطلق علی المحافظ و الحارس.

[۱۵۵] (۲)-« یتلون» و« ینذرون»: کلیهما فعل مضارع و دلیل علی الاستمراریة.

[۱۵۶] (۱)- الم السجدة، ۱۳.

[۱۵۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة(۲۷).

[۱۵۸] (۱)- الکافی، المجلد الثّانی، باب الکبر الحدیث. ۶.

[۱۵۹] (۱)- ما هو جواب الجملة الشرطیة(إذا جاؤها)؟ ذکر المفسّرون آراء متعددة، أنسبها الذی یقول: إن عبارة(قال لهم خزنتها) جوابها و الواو زائدة. کما احتملوا أن جواب الجملة محذوف، و التقدیر(سلام من اللّه علیکم)، أو أن حذف الجواب إشارة إلی أن سعة الموضوع و علوه لا یمکن وصفها، و البعض قال:(فتمت) هی الجواب و(الواو) زائدة.

[۱۶۰] (۱)- تفسیر القرطبی المجلد(۸) الصفحة. ۵۷۳.

[۱۶۱] (۱)- الغدیر، المجلد الثامن، ص ۳۸۸.

[۱۶۲] (۱)- هذه الأحادیث فی مجمع البیان فی بدایة تفسیر سورة المؤمن.

[۱۶۳] (۲)- المصدر السابق

[۱۶۴] (۳)- مجمع البیان أثناء تفسیر السورة

[۱۶۵] (۴)- البیهقی طبقا لما نقله عنه الآلوسی فی روح المعانی، المجلد ۲۴، صفحة ۳۶.

[۱۶۶] (۵)- مجمع البیان فی مقدمة تفسیر السورة.

[۱۶۷] (۱)- یلاحظ« معانی الأخبار» للشیخ الصدوق، صفحة ۲۲، باب معنی الحروف المقطعة فی أوائل السور.

[۱۶۸] (۲)- تفسیر القرطبی أثناء تفسیر الآیة.

[۱۶۹] (۳)-« توب» یمکن أن تکون جمع« توبة» و أن تکون مصدرا(یلاحظ مجمع البیان).

[۱۷۰] (۱)-« طول» علی وزن« قول» بمعنی النعمة و الفضل، و بمعنی القدرة و القوة و المکنة و ما یشبه ذلک. بعض المفسّرین یقول: إنّ« ذی الطول» هو الذی یبذل النعم الطویلة و الجزیلة للآخرین، و لذلک فإن معناها أخص من معنی« المنعم» کما یقول صاحب

مجمع البیان.

[۱۷۱] (۱)- الأنفال، آیة ۲۹.

[۱۷۲] (۲)- البقرة، آیة ۲۷۱.

[۱۷۳] (۳)- التغابن، الآیة ۱۷.

[۱۷۴] (۴)- النساء، آیة ۳۱.

[۱۷۵] (۱)-« لیدحضوا» مصدرها ثلاثی(إدحاض) و تعنی الإزالة و الإبطال.

[۱۷۶] (۱)- الطارق، الآیة ۱۷.

[۱۷۷] (۱)- الألفاظ الثلاثة مصدرها فی باب المفاعلة.

[۱۷۸] (۱)- البقرة، الآیة ۱۱۱.

[۱۷۹] (۲)- سورة یس، الآیة ۷۸.

[۱۸۰] (۱)- رجال« الکشی، صفحة ۲۹۸.

[۱۸۱] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۳۶۲.

[۱۸۲] (۲)- أصول الکافی، المجلد الثّانی، باب المراء و الخصومة، الحدیث الأول.

[۱۸۳] (۱)- النمل، لآیة ۶۰.

[۱۸۴] (۲)- الأنعام- ۱۰۸.

[۱۸۵] (۳)- فصلت، الآیة ۳۴.

[۱۸۶] (۱)- یمکن ملاحظة نصّها الکامل فی بحار الأنوار، المجلد التاسع، صفحة ۲۵۷ فما بعد.

[۱۸۷] (۱)- کما فی نهایة الآیة(۵۴) من الأعراف، نهایة الآیة(۷) من هود، و نهایة الآیة(۲۵۵) من البقرة.

[۱۸۸] (۲)- جملة(من صلح) معطوفة علی الضمیر فی جملة« و أدخلهم».

[۱۸۹] (۱)- المائدة، الآیة ۱۱۴.

[۱۹۰] (۲)- المؤمنین، الآیة ۹۷.

[۱۹۱] (۳)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی فی نهایة الآیة مورد البحث.

[۱۹۲] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۲۸، الحدیث رقم ۴۶، ۴۷.

[۱۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۴] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۳۹.

[۱۹۵] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۳۹.

[۱۹۶] (۳)- الأعراف، الآیة ۵۴.

[۱۹۷] (۴)- التوبة، الآیة ۱۲۹.

[۱۹۸] (۱)- الزمر، الآیة ۷۵.

[۱۹۹] (۱)- فرقان، الآیة ۲۷.

[۲۰۰] (۲)- نبأ، الآیة ۴۰.

[۲۰۱] (۳)- سورة ق، الآیة ۲۲.

[۲۰۲] (۴)- الطارق، الآیة ۹.

[۲۰۳] (۱)- التكوير، آية ۱۰.

[۲۰۴] (۲)- الإسراء، الآية ۱۴

[۲۰۵] (۳)- طبقا للتفسير الأوّل تكون(إذ) ظرفية و متعلقة ب« مقتكم أنفسكم» أمّا طبق التّفسير الثّانى فتعتبر(إذ) تعليلية و متعلقة ب« مقت اللّه» و الجدير بالملاحظة أنّ المقتين الواردين فى الآية أعلاه يرتبطان بأربعة احتمالات هى:

الأوّل: أن يكون مكان الإثنين فى يوم القيامة.

الثّانى: أن يكون مكانهما فى هذه الدنيا.

الثّالث: أن يكون المقت الأوّل فى الدنيا و الثّانى فى الآخرة.

أما الرابع: فهو عكس الثّالث.

و لكن الأفضل وفقا للتفسير أعلاه أن يختص الأوّل بالآخرة. و الثّانى بالدنيا، أو أن يختص الاثنان بالآخرة.

[۲۰۶] (۱)- آل عمران، الآية ۱۶۹.

[۲۰۷] (۲)- غافر، الآية ۴۶.

[۲۰۸] (۳)- الزمر، الآية ۶۸.

[۲۰۹] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أنّ الآية أعلاه تشير إلى« الرجعة» إلّا أنّ مراعاة عمومية الآية و شمولها جميع الكافرين، و عدم ثبوت عمومية الرجعة لهم جميعا، يجعل هذا التّفسير قابلا للنقاش.

[۲۱۰] (۱)- الزمر، الآية ۴۵.

[۲۱۱] (۱)- المؤمنون، الآيتان ۹۹- ۱۰۰.

[۲۱۲] (۱)- المؤمن، الآية ۸۱.

[۲۱۳] (۱)- المجادلة، الآية ۱۱.

[۲۱۴] (۱)- البقرة، الآية ۲۵۳.

[۲۱۵] (۲)- الأنعام، الآية ۱۶۵.

[۲۱۶] (۱)- الطارق، الآية ۹.

[۲۱۷] (۲)- الزلزال، الآية ۲.

[۲۱۸] (۳)- التكوير، الآية ۱۰.

[۲۱۹] (۴)- النبأ، الآية ۴۰.

[۲۲۰] (۵)- الأنعام، الآية ۲۸.

[۲۲۱] (۶)- الزلزال، الآية ۴.

[۲۲۲] (۷)- إبراهيم، الآية ۲۱.

[۲۲۳] (۱)- مجمع البيان، أثناء تفسير الآية.

[۲۲۴] (۲)- الميزان: ذيل الآية مورد البحث.

[۲۲۵] (۱)- فى مجمع البيان، نهاية الحديث عن الآية(۲۰۲) من سورة البقرة.

[۲۲۶] (۱)- هناك احتمالان من حيث التركيب النحوى لجملة« يعلم خائنة الأعين»: الأول: أن(خائنة) لها معنى مصدرى و تعنى الخيانة(مثل كاذبة و لاغية بمعنى كذب و لغو). و يحتمل أن تكون(اسم فاعل) من باب تقديم الصفة، أى أنها تعنى فى الأصل(الأعين الخائنة).

[۲۲۷] (۲)- تفسير الصافى أثناء الحديث عن الآية.

[۲۲۸] (۱)- سبأ، الآية ۳.

[۲۲۹] (۲)- تفسير القرطبى ذيل الآية.

[۲۳۰] (۳)- العلق، الآية ۱۴.

[۲۳۱] (۱)- الإسراء، الآية ۲۳.

[۲۳۲] (۲)- آل عمران، الآية ۴۷.

[۲۳۳] (۱)- الشعراء، الآية ۱۲۸- ۱۲۹.

[۲۳۴] (۱)- ورد فى تفسير الميزان عند الحديث عن الآية(۳۶) من سورة الشعراء\:i قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ E إنّ الآية دليل على أنّ هناك مجموعة منعت فرعون من قتل« موسى» عليه السّلام إلّا أنّ التدقيق فى الآيات الخاصة بقصة موسى تظهر أنّه لم تكن هناك نية لقتله فى ذلك الوقت، و إنّما كان الهدف اختبار النوايا لمعرفة الصادق من الكاذب، أما التصميم على القتل فقد كان بعد حادثة السحرة و انتصار موسى عليه السّلام عليهم و نفوذ تأثيره فى أعماق قلوب أهل مصر، حيث خشى فرعون العواقب.

[۲۳۵] (۱)- يستفاد هذا المعنى من روآية عن رسول الله صلى الله عليه و اله و سلم(تلاحظ فى أمالى الصدوق طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۱۹) و لكن بما أن الشائع أن« حزقيل» هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، فعندها سيضعف هذا الاحتمال، إلا إذا كان« حزقيل» هذا غير النبى المعروف فى بنى إسرائيل. ثم إن الروآية ضعيفة السند.

[۲۳۶] (۲)- ورد هذا المعنى فى تفسير على بن إبراهيم، كما نقل صاحب نور الثقلين فى المجلد الرابع، صفحة ۵۱۸.

[۲۳۷] (۱)- القصص، الآية ۲۰.

[۲۳۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۱.

[۲۳۹] (۱)- يلاحظ الصدوق فى« الأمالى» و ابن حجر فى الفصل الثّانى الباب التاسع من« الصواعق».

[۲۴۰] (۱)-« داب» على وزن(ضرب) تعنى فى الأصل الاستمرار فى السير، و(دائب) تطلق على الكائن الذى يستمر فى سيره ثمّ أصبحت بعد ذلك تستعمل لأى عادة مستمرة ... و المقصود هنا من(دأب قوم نوح) هو قيامهم و استمرارهم و اعتيادهم على الشرك و الطغيان و الظلم و الكفر.

[۲۴۱] (۱)- الأعراف، الآية ۵۰.

[۲۴۲] (۲)- ورد هذا المعنى أيضا فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى كتاب« معانى الأخبار» للصدوق.

[۲۴۳] (۳)- هود، الآية ۱۸.

[۲۴۴] (۴)- الحاقة، الآية ۱۹.

[۲۴۵] (۵)- الحاقة، الآية ۲۵.

[۲۴۶] (۱)- تعتبر هذه الآية هى الوحيدة فى القرآن الكريم التى تشير صراحة إلى نبوة يوسف عليه السّلام، و إن كنّا لا نعدم إشارات متفرقة لهذه النبوّة فى سياق آيات قرآنية اخرى.

[۲۴۷] (۱)-(الذين) هنا بدل عن« مسرف مرتاب» إلّا أنّ المبدل عنه مفرد، فى حين أنّ البدل جاء على صيغة الجمع! السبب فى ذلك أنّ الخطاب لا يستهدف شخصا معينا و إنّما يشتمل على النوع.

[۲۴۸] (۲)- فاعل« كبر» هو(الجدال) حيث نستفيد ذلك من الجملة السابقة، أمّا« مقتا» فهى تمييز، فيما يرى بعض المفسّرين أنّ الفاعل هو« مسرف مرتاب» إلّا أنّ الرأى الأوّل أفضل.

[۲۴۹] (۳)-« متكبر جبار» وصف للقلب، و ليست وصفا لشخص، بالرغم من أنّها مضافة. اشارة الى أنّ أساس التكبر و التجبر إنما ينبع

من القلب، و لأنّ القلب يسيطر على كلّ أعضاء و وجود الإنسان، فإنّ كلّ الوجود الإنسانى سيكتسى هذا الطابع الفاسد البذىء.

[۲۵۰] (۱)- يمكن ملاحظة ذلك فى بحار الأنوار، المجلد ۱۳، صفحة ۱۲۵، نقلا عن تفسير على بن إبراهيم.

[۲۵۱] (۱)- يوسف، الآية ۳۹.

[۲۵۲] (۱)- قلنا سابقا: إنّ« لا- جرم» مركبة من(لا-) و(جرم) على وزن(حرم) و هى فى الأصل تعنى القطع و اقتطاف الثمر، و هى ككلمة مركبة تعنى: لا يستطيع أى شىء أن يقطع هذا العمل أو يمنعه. لذلك تستخدم بشكل عام بمعنى(حتما) و تأتى أحيانا بمعنى القسم.

[۲۵۳] (۱)- يراجع تفسير مجمع البيان فى نهاية الحديث عن الآية مورد البحث.

[۲۵۴] (۱)-(حاق) بمعنى أصاب و نزل، و لكن احتملوا أيضا أن يكون أصلها(حق) فتغيرت إحدى القافين فيها إلى ألف فأصبحت(حاق)[يلاحظ ذلك فى مفردات الراغب كلمة حاق . ضمنا فإنّ(سوء العذاب) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، إذ كانت فى الأصل(العذاب السوء).

[۲۵۵] (۲)-« النّار» بدل عن(سوء العذاب).

[۲۵۶] (۱)- مريم- ۶۲.

[۲۵۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۲۰۱.

[۲۵۸] (۱)-

\i\i جاء فى كتاب(محاسن البرقى): عن الإمام الصادق عليه السّلام E فى تفسير قوله تعالى\:E

\i\i فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا\E قوله عليه السّلام:« أما لقد سطوا عليه و قتلوه و لكن أ تدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه فى دينه\»i نور الثقلين، المجلد الرابع، ص ۵۲۱.\E\E

[۲۵۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۶۸، صفحة ۳۴۱.

[۲۶۰] (۲)- سفينة البحار، المجلد الثّانى، صفحة ۳۸۴، مادة« فوض».

[۲۶۱] (۱)- ينقل هذه الرواية كلّ من البخارى و مسلم فى صحيحيهما(طبقا كما يذكره الطبرسى و صاحب الدر المنثور و القرطبى، أثناء حديثهم عن الآية المذكورة أعلاه) أما صحيح مسلم فيعقد بابا حول الروايات المتعلقة بالبرزخ، إذ يمكن مراجعته فى المجلد الرابع، صفحة ۲۱۹۹.

[۲۶۲] (۲)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۶.

[۲۶۳] (۱)- يتصور البعض أنّ الضمير فى« يتحاجون» يعود إلى آل فرعون، إلّا أنّ القرائن تفيد أنّ الآية تنطوى على مفهوم عام يشمل جميع الكفّار.

[۲۶۴] (۲)-« تبعا» جمع تابع، و البعض يحتمل أن تكون مصدرا، خصوصا و أنّ إطلاق المصدر على الأشخاص الموصوفين بصفة معينة أمر متعارف. و المعنى فى هذه الحال هو: إنّنا كنا لكم عين التبعية.

[۲۶۵] (۱)-« خزنة» جمع خازن، و تعنى الحارس.

[۲۶۶] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۱۸۹- ۱۹۰.

[۲۶۷] (۱)- يمكن أن تكون« هدى و ذكرى» مفعولا لأجله أو مصدرا بمعنى الحال، أى(هاديا و مذكرا لأولى الألباب) لكن البعض احتمل أن تكون بدلا أو خيرا لمبتدأ محذوف، إلّا أن ذلك غير مناسب كما يبدو.

[۲۶۸] (۱)- ثمة بين المفسرين كلام حول مرجع الضمير فى قوله:« بالغيه» أشهره قولان.

الأول: أن يعود الضمير إلى« كبر» و تكون« ما هم ببالغيه» جملة وصفية ل(كبر) و يكون المعنى هكذا: إنهم لا يصلون إلى مقتضى و

هدف تكبرهم(فى الواقع حذف هنا المضاف و التقدير« ما هم ببالغى مقتضى كبرهم»).

الثانى: أن يعود الضمير إلى« جدال» الذى يستفاد من جملة« يجادلون» و المعنى أنهم لن يصلوا إلى هدف جدالهم المتمثل بإبطال الحق. و لكن فى هذه الحالة لا تستطيع أن نقول: إن الجملة صفة(كبر) بل ينبغى أن نعطفها على ما سبقها مع حذف العاطف.

[۲۶۹] (۱)- المؤمن- ۲۷.

[۲۷۰] (۲)- يلاحظ الرأى الأوّل فى مجمع البيان، تفسير الفخر الرازى، الكشاف، روح المعانى، الصافى و روح البيان.

[۲۷۱] (۱)- النظرة الأولية فى الآية قد لا توجب معنى ل« لا النافية» فى قوله تعالى\:i وَ لَا الْمُسِيءُ\E و لكن تأكيد النفى من ناحية، و تجلية المقصود من الجملة من ناحية ثانية، أوجب تكرار النفى، مضافا إلى أن طول الجملة قد يؤدى إلى نسيان الإنسان للنفى الأول، الأمر الذى يوجب التكرار.

[۲۷۲] (۲)-« ما» فى قوله تعالى\:i قَلِيلًا ما تَتَذَكَّرُونَ E زائدة، و هى للتأكيد.

[۲۷۳] (۱)- داخر من« دخور» و تعنى الذلة، و هذه الذلة هى عقوبة ذلك التكبّر و الاستعلاء.

[۲۷۴] (۲)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۸.

[۲۷۵] (۱)- مجمع البيان، المجلد الثامن، صفحة ۵۲۹.

[۲۷۶] (۲)- الكافى، مجلد ۲، باب: فضل الدعاء و الحث عليه. صفحة ۳۳۸.

[۲۷۷] (۳)- الكافى، المجلد الثّانى،(باب فضل الدعاء و الحث عليه) ص: ۳۳۸.

[۲۷۸] (۴)- مكارم الأخلاق، طبقا للميزان، المجلد ۲، ص ۳۴.

[۲۷۹] (۱)- أصول الكافى، المجلد الثّانى، باب من لا يستجاب له دعوة الحديث رقم(۲).

[۲۸۰] (۲)- البقرة، الآية ۱۸۶.

[۲۸۱] (۱)- معانى الأخبار. طبقا لما أورده نور الثقلين فى المجلد الرابع. صفحة(۵۳۴) و أصول الكافى.

[۲۸۲] (۲)- تفسير الصافى أثناء تفسير الآية الكريمة.

[۲۸۳] (۱)- يونس- ۸۷ و النمل- ۸۶ و القصص- ۷۱.

[۲۸۴] (۱)-« تؤفكون» من« إفك» و تعنى الانحراف و الرجوع عن طريق الحق و جادة الصواب. و لهذا السبب يقال للرياح المضادة« المؤتفكات». و يعبّر عن« الكذب» ب« الإفك» بسبب ما فيه من انحراف عن بيان الحق.

[۲۸۵] (۱)- الراغب فى المفردات مادة« جحد».

[۲۸۶] (۲)- لسان العرب نقلا عن« الجوهرى»

[۲۸۷] (۱)-« ذلكم» اسم إشارة للبعيد، و استخدامها فى مثل هذه الموارد كناية على العظمة و علو المقام.

[۲۸۸] (۱)- راجع تفسير قوله تعالى\:i كُنْ فَيَكُونُ E فى أثناء الحديث عن الآية(۱۱۷) من سورة البقرة.

[۲۸۹] (۱)-« الأغلال» جمع« غل» و تعنى الطوق حول العنق أو الرجل. و هى فى الأصل مأخوذة من كلمة« غلل» على وزن« أجل» بمعنى الماء الذى يجرى بين الأشجار. و يطلق على« الخيانة»(غلول) و على الحرارة الناشئة من العطش« غليل» و ذلك بسبب نفوذها تدريجا إلى داخل أعماق الإنسان.

« السلاسل» فهى جمع« سلسلة، و« يسحبون» من كلمة« سحب» على وزن(سهو).

[۲۹۰] (۲)- يلاحظ ذلك فى« تفسير الصافى» و« روح المعانى» و« الكشاف» فى نهاية الآيات التى نبحثها. و فى لسان العرب: المعنى الأصلى ل« سجر» هو الملء. فيقال« سجرت النهر» أى ملأته ماء.

[۲۹۱] (۱)- لقد ذكر المفسرون معنيين لكلمة« ضلوا» فالبعض اعتبرها بمعنى ضاعوا و هلكوا، بينما قال البعض الآخر: إنها بمعنى«

غابوا» کقولنا« ضلت الدابة» أی غابت فلم یعرف مکانها.

[۲۹۲] (۱)- یقول الراغب فی المفردات:« الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة، و أکثر ما یکون ذلک فی اللذات البدنیة. و المرح شدة الفرح و التوسع فیه».

[۲۹۳] (۱)- الحجر، الآیة ۴۴.

[۲۹۴] (۲)- مجمع البیان، المجلد ۵- ۶، صفحة ۳۳۸، نهایة الآیة ۴۴ من سورة الحجر. هناک روایات اخری ذکرها العلّامة المجلسی فی المجلد ۸، من بحار الأنوار، صفحة ۲۸۹، و ۳۰۱ و ۲۸۵.

[۲۹۵] (۱)- یلاحظ مثلها فی الآیة(۴۶) من سورة یونس.

[۲۹۶] (۱)- کما فی« هود» الآیات:(۴۳)،(۷۶)،(۱۰۱).

[۲۹۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۴، ص ۵۲۷، حدیث ۱۱۸.

[۲۹۸] (۲)- مجمع البیان: أثناء الحدیث عن هذه الآیة.

[۲۹۹] (۳)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۰، حدیث رقم ۲۱.

[۳۰۰] (۴)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۱، حدیث رقم ۲۲.

[۳۰۱] (۱)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۳۲، حدیث رقم ۲۴.

[۳۰۲] (۲)- بحار الأنوار، مجلد ۱۱، صفحة ۴۱، حدیث رقم ۲۴.

[۳۰۳] (۳)- ثمّة بحث بین المفسّرین عن اسم هذا النّبی، إذ فیهم من قال: إنّه« أرمیا» و البعض قال: إنّه« الخضر» و قال جمع: إنّه« عزیر».

[۳۰۴] (۱)- النساء- ۱۶۳.

[۳۰۵] (۲)- مجمع البیان نهایة الآیة التی تبحثها. و فی هوامش تفسیر الکشّاف هناک روایات عدیدة فی هذا المجال. یلاحظ المجلد الرابع، صفحة ۱۸۰، طبعة دار الکتاب العربی.

[۳۰۶] (۱)- کما تذکره الآیات(۱۲۸) و(۱۲۹) من سورة الشعراء.

[۳۰۷] (۲)- هناک احتمالان فی(ما) فی جملة« ما أغنی» فإمّا نافیة أو استفهامیة، لکن یظهر أنّ الأوّل هو الصحیح، و هناک أیضا احتمالان فی« ما» فی جملة(ما کانوا یکسبون) فإما موصولة أو مصدریة و لکن الأوّل هو المرجح

[۳۰۸] (۱)- احتمل البعض أن یعود الضمیر فی(جاءتهم) إلی الأنبیاء، لذا یکون المقصود بالعلوم علوم الأنبیاء، بینما المقصود من(فرحوا) هو ضحک و استهزاء الکفّار بعلوم الأنبیاء، لکن هذا التّفسیر احتماله بعید.

[۳۰۹] (۲)- سورة یس، الآیة ۷۸.

[۳۱۰] (۳)- السجدة، الآیة ۱۰.

[۳۱۱] (۴)- القصص، الآیة ۷۸.

[۳۱۲] (۱)- مجمع البیان مطلع الحدیث عن السورة، المجلد ۹، صفحة ۲.

[۳۱۳] (۲)- مجمع البیان مطلع الحدیث عن السورة، المجلد ۹، صفحة ۲.

[۳۱۴] (۱)- روح المعانی، المجلد ۲۴، ص صفحة ۸۴.

[۳۱۵] (۱)- المدثر، الآیة ۱۱- ۳۰.

[۳۱۶] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۷، صفحة ۲۱۱ فما فوق، و یمکن ملاحظة القصة فی کتب اخری منها: تفسیر القرطبی فی مطلع حدیثه عن السورة. المجلد الثامن، صفحة ۵۷۸۲.

[۳۱۷] (۱)-« کتاب» خبر بعد الخبر، و بهذا الترتیب فإنّ« تنزیل» خبر لمبتدأ محذوف و« کتاب» خبر بعد الخبر.

[۳۱۸] (۲)-« لقوم یعلمون» یمکن أن تکون متعلقة ب« فصلت» أو ب« تنزیل».

[۳۱۹] (۱)-« فاستقیموا» مأخوذة من« الاستقامة» و هی هنا بمعنی التوجه بشکل مستقیم نحو شیء معین، لذا فإنها تعدت بواسطة الحرف(إلی) لأنّها تعطی مفهوم(استواء).

[۳۲۰] (۱)- یلاحظ مادة« من» فی مفردات الراغب.

[۳۲۱] (۱)- وسائل الشیعة، المجلد السادس، الصفحات ۱۸ و ۱۹« باب ثبوت الکفر و الارتداد و القتل بمنع الزکاة استحلالا و جحودا» و قد اعتبر بعض الفقهاء کصاحب الوسائل مثلا، أنّ الروایات أعلاه تختص بإنکار الزکاة.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۲۴] (۱)- هناک احتمالات متعدّدة حول محل(سواء) و(للسائلین) من الأعراب و بما تختص.

الأوّل: أنّ(سواء) حال ب(أقوات) و(للسائلین) متعلق ب(سواء) و تکون النتیجة هی التّفسیر الذی أوردناه أعلاه.

الثّانی: أنّ(سواء) صفة للأیام، یعنی أنّ هذه المراحل الأربع تتساوی فیما بینها. و أما(للسائلین) فإما أن تتعلق ب(قدر) أو بمحذوف و یکون التقدیر(کائنة للسائلین) یعنی أنّ الأیّام الأربع هذه تعتبر جوابا للسائلین. لکن التّفسیر الأوّل أوضح.

[۳۲۵] (۱)- یمکن مراجعة الآیات(۵۴) من سورة الأعراف و(۳) من سورة هود و(۵۹) من سورة الفرقان و(۴) من سورة السجدة و(۳۸) سورة ق و(۴) من سورة الحدید.

[۳۲۶] (۲)- فی ضوء هذا التفسیر یکون للآیة تقدیرها بالصیغة الآتیة ... و قدّر فیها أقواتها فی تتمة أربعة أیّام أو یکون التقدیر کما جاء فی تفسیر« الکشاف»:« کل ذلک فی أربعة أیّام».

[۳۲۷] (۱)- ثمّة حدیث بهذا المضمون فی تفسیر علی بن إبراهیم.

[۳۲۸] (۲)- راجع الآیة(۵۴) من سورة الأعراف.

[۳۲۹] (۱)- أما ما نقل عن ابن عباس من قوله: إنّ خلق الأرض کان قبلا، و أما« دحو الأرض» فجاء بعد ذلک، فهو لا یحل المشکلة، و کأن ابن عبّاس لم یهتم عما بعد الآیة من حدیث عن خلق الجبال و المواد الغذائیة!

[۳۳۰] (۲)- طه، الآیة ۵.

[۳۳۱] (۱)-« الفاء» فی« فإن اعرضوا» هی« فاء التفریع» کما قیل، بناء علی ذلک فإنّ هذا الإنذار الحاسم یعتبر فرعا و نتیجة للإعراض عن الآیات التوحیدیة السابقة.

[۳۳۲] (۱)- إنّ هذا التعبیر یشبه فی الواقع جملة:« اللّه أکبر» حیث تقوم بتعریف اللّه(جلّ و علا) بأنّه أعظم و أکبر من جمیع الموجودات، ذلک أنّنا نعلم أن لا قیاس بین الإثنین(التراب و رب الأرباب) و لکن اللّه یتحدّث إلیها بلساننا، لذلک نری أمثال هذه الألفاظ و التعابیر فی کلامه تعالی

[۳۳۳] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم(۱۱۱).

[۳۳۴] (۱)- الحجر، الآیة ۸۲.

[۳۳۵] (۱)- یلاحظ الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر فی نهایة حدیثه عن هذه الآیة.

[۳۳۶] (۱)-« یوزعون» من« وزع» و هی بمعنی المنع، و عند ما تستخدم للجنود أو الصفوف الأخری، فإن مفهومها یعنی أن یبقی المجموع إلی أن یلتحق بهم آخر نفر.

[۳۳۷] (۲)-« ما» فی قوله تعالی\i:ِإذا ما جاؤُها\E زائدة، و هی هنا للتأکید.

[۳۳۸] (۱)- هـذا التّفسـیر وارد عند ما یکون معنی الآیة\i: أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِی أَنْطَقَ کُلَّ شَیْءٍ\E نـاطق و لکن یحتمـل أن یکون معنی أنطق کل شـیء بالمعنی المطلق، بمعنی أنّ اللّه الذی أنطق جمیع الموجودات، و هو یکشف عن جمیع الأسـرار الیوم، هو الذی أنطقنا، فلا تتعجبوا من کلامنا فجمیع کائنات العالم ستنطق فی هذا الیوم.

[۳۳۹] (۱)- نقل هذه الحادثة(باختلاف) الکثیر من المفسّرین، منهم: القرطبی، الطبرسی، الفخر الرازی، الألوسی، المراغی، و کذلک نقل الحادثة کلّ من البخاری و مسلم و الترمذی، و ما أوردناه أعلاه مأخوذ عن القرطبی مع التصرّف. المجلد الثامن، صفحة ۵۷۹۵.

[۳۴۰] (۲)-« ذلکم» مبتدأ و(ظنکم) خبر له. لکن البعض احتمل أنّ(ظنکم) بدل و(أرداکم) خبر(ذلکم).

[۳۴۱] (۳)-« أرداکم» من« ردی» علی وزن« رأی» و تعنی الهلاک.

[۳۴۲] (۴)- عن مجمع البیان نهایة تفسیر الآیة مورد البحث.

[۳۴۳] (۱)- عن تفسیر علی بن إبراهیم کما نقل عنه تفسیر نور الثقلین، المجلد الرابع، صفحة ۵۴۴.

[۳۴۴] (۱)- یونس، الآیة ۶۱.

[۳۴۵] (۲)- النساء، الآیة ۴۱.

[۳۴۶] (۱)- أصول الکافی، المجلد الأول، صفحة ۱۹۰

[۳۴۷] (۲)- النور، الآیة ۲۴.

[۳۴۸] (۳)- لئالی الأخبار، صفحة ۴۶۲.

[۳۴۹] (۴)- فصلت، الآیة ۲۱.

[۳۵۰] (۵)- سورة ق، الآیة ۲۱.

[۳۵۱] (۶)- الزلزال، الآیة ۴.

[۳۵۲] (۱)- سفینة البحار، المجلد الثّانی، مادة یوم.

[۳۵۳] (۱)- یکون التقدیر هکذا:« فإن یصبروا أو لا یصبروا فالنار مثوی لهم».

[۳۵۴] (۱)- یلاحظ« مفردات الراغب» و« لسان العرب» فی مادة« عتب».

[۳۵۵] (۱)-« فی أمم» متعلقـة بفعل محـذوف، و فی التقـدیر تکون الجملة:« کائنین فی أمم قد خلت». و من المحتمل أن تکون« فی» هنا بمعنی« مع».

[۳۵۶] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد ۲۴، صفحة ۱۲۵، و تفسیر روح المعانی، المجلد ۲۴، أیضا، صفحة ۱۰۶.

[۳۵۷] (۱)-« النّار» یمکن أن تکون« عطف بیان» أو« بدل» ل« جزاء» أو أن تکون(خیرا لمبتدأ محذوف) و التقدیر هو النّار».

[۳۵۸] (۲)-« جزاء» یمکن أن تکون مفعولا لفعل محذوف تقدیره« یجزون جزاء» أو أن تکون مفعولا لأجله.

[۳۵۹] (۱)-« اسـتقاموا» مـن« الاسـتقامة» و تعنی الثبـات علی الطریـق المسـتقیم الخـط الصـحیح. و فسـرها بعض علمـاء اللغـة بمعنی« الاعتدال» و لا یستبعد الجمع بین المعنیین.

[۳۶۰] (۲)- مجمع البیان فی نهایة الحدیث عن الآیة.

[۳۶۱] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۷۶.

[۳۶۲] (۴)- مجمع البیان فی نهایة الحدیث عن الآیة.

[۳۶۳] (۱)- روح البیان، المجلد الثامن، صفحة ۲۵۴.

[۳۶۴] (۱)- یمکن ملاحظة ذلک فی نور الثقلین، المجلد الرابع، الصفحات ۵۴۶ و ۵۴۷ الروایات رقم: ۳۸- ۴۰- ۴۵- ۴۶.

[۳۶۵] (۱)- الم سجدة، الآیة ۱۷.

[۳۶۶] (۱)- تكرار« لا» فى« و لا السيئة» هو لتأكيد النفى.

[۳۶۷] (۱)- مجمع البيان نهاية الحديث عن الآية.

[۳۶۸] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۲۱، صفحة ۱۰۹.

[۳۶۹] (۲)- سورة النصر، آية ۲.

[۳۷۰] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۲۱، صفحة ۱۳۲.

[۳۷۱] (۲)- يرجع ضمير(يلقاها) إلى(الخصلة) أو(الوصية) المستفادة من الجملة السابقة.

[۳۷۲] (۱)- اعتقد بعض المفسّرين أن قوله تعالى\:i وَ ما يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ E إشارة إلى الثواب العظيم لمثل هؤلاء الأشخاص العافين الذى ينالهم فى الآخرة، لكن هذا التّفسير مستبعد بسبب أنّ الآية تريد أن تبين الأساس الأخلاقى لهذا العمل العظيم.

[۳۷۳] (۲)-« نزغ» فى الآية الكريمة يمكن أن تكون بنفس معناها المصدرى أو أن تكون« اسم فاعل».

[۳۷۴] (۱)- نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ۵۴۹.

[۳۷۵] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۴، صفحة ۱۱۱.

[۳۷۶] (۲)- نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۱۵۵۱.

[۳۷۷] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أنّ السجدة هنا واجبة فى حال سماع الآية أو تلاوتها.

[۳۷۸] (۲)- يرجع ضمير التأنيث فى(خلقهن) إلى الليل و النهار و الشمس و القمر كما يقول علماء اللغة و أصحاب التّفسير، إذ أنّ ضمير جمع المؤنث العاقل قد يعود أحيانا إلى جمع غير العاقل كما يقال مثلا(الأقلام بريتهنّ) و البعض يعتقد أنّ الضمير هنا يرجع للآيات التى هى جمع مؤنث لغير العاقل.

و احتمل البعض أن الضمير يعود على الشمس و القمر فقط باعتبار آنها جنس تشمل جميع الكواكب و كأنّها تتمتع بعقل و شعور.

[۳۷۹] (۱)-« لا يسأمون»: من كلمة(السئامة) و تعنى التعب من الاستمرار فى العمل أو فى موضوع معين.

ضمنا فإنّ جملة(فإن استكبروا) جملة شرطية جزاؤها محذوف، و التقدير هو: فإن استكبروا عن عبادة اللّه و توحيده فإن ذلك لا يضرّه شيئا».

[۳۸۰] (۱)- وسائل الشيعة، كتاب الصلاة، المجلد الرابع، صفحة ۸۸۴،[باب ۴۶ من أبواب قراءة القرآن، حديث رقم(۲)].

[۳۸۱] (۱)- لقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات حول خبر« إنّ الذين» أنسبها أن تقول بأنّ الخبر هو جملة(لا يخفون علينا) حيث حذف بقرينة الآية السابقة. و قال البعض: إنّ الخبر هو جملة« يلقون فى النّار» المستفادة من الآية السابقة، بينما قال البعض بأنّه جملة« أولئك ينادون من مكان بعيد» التى ترد فى الآيات القادمة، لكن الرأى الأوّل أرجح.

[۳۸۲] (۱)- لقد اختيار هذا التّفسير الزمخشرى فى كشافه، و للعلّامة الطباطبائى حديث يشبه هذا فى تفسير الميزان، فى حين حدّد بعض المفسّرين مصطلح الباطل بالشيطان أو المحرفين، أو الكذب، و ما شابه، و قد ورد فى حديث عن الباقر و الصادق قولهما عليهما السلام:« إنّه ليس فى أخباره عما مضى باطل، و لا فى أخباره عمّا يكون فى المستقبل باطل» كما نقل عنهما عليهما السلام صاحب مجمع البيان، و واضح أن ما ذكر هو مصاديق لمفهوم الآية.

[۳۸۳] (۱)- هذا الاحتمال يمكن ملاحظته فى تفسير« مجمع البيان» و« التّفسير الكبير» و لكنّ كليهما رجح التفسير الأوّل.

[۳۸۴] (۲)- عن دعاء الجوشن الكبر. الفصل(۱۹) الجملة الثامنة.

[۳۸۵] (۱)- فى تفسير الفخر الرازى نقرأ قوله: نقلوا فى سبب نزول هذه الآية أنّ الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم».

[۳۸۶] (۲)- بعض المفسّرين فسّر قوله تعالى\:i ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ E بنفس معناه المباشر أى مزيج و خليط بين العربى و الأعجمى.

[۳۸۷] (۱)- بعض المفسّرين ذهب إلى القول بأنّ الجملة أعلاه معناها هو: أنّ القرآن هو سبب فى عمى هذه الفئة و عدم رؤيتها» فى

حین أنّ الراغب فی المفردات و ابن منظور فی لسان العرب اعتبروا قول العرب« عمی علیه» بمعنی أنّه« اشتبه حتی صار الإضافة إلیه کالأعمی» و بناء علی هذا یکون المراد من الآیة هو ما ذهبنا إلیه فی المتن.

[۳۸۸] (۲)- یلاحظ ذلک فی تفسیر القرطبی حدیثه عن الآیة.

[۳۸۹] (۱)- ینبغی أن یلاحظ أن الآیة بعینها وردت فی سورة هود آیة(۱۱۰).

[۳۹۰] (۱)- عیون أخبار الرضا، نقلا عن نور الثقلین، المجلد ۴، صفحة ۵۵۵.

[۳۹۱] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۸.

[۳۹۲] (۱)-« من» فی« من الثمرات» و« من أثنی» و کذلک فی« من شهید» تأتی فی نهایة الآیة کلّها، زائدة جاءت هنا للتأکید.

[۳۹۳] (۲)- یلاحظ الراغب فی المفردات.

[۳۹۴] (۳)- تفسیر المیزان و تفسیر المراغی.

[۳۹۵] (۴)-« آذناک» من« إیذان» بمعنی الإعلان، و جملة« یوم یناديهم» تتعلق بمحذوف. و التقدیر:« اذکر یوم یناديهم ...».- لقد ذکروا لهذه الجملة تفسیرا آخر هو: لا یوجد بیننا الیوم من یشهد بوجود شریک لک، و الکل ینکر وجود الشریک.

[۳۹۶] (۱)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۷، صفحة ۴۲۶.

[۳۹۷] (۲)- الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، المجلد ۲۷، صفحة ۱۳۷، و روح المعانی، المجلد ۲۵، صفحة ۴.

[۳۹۸] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۱۸.

[۳۹۹] (۲)- یوسف، الآیة ۸۷ فما فوق.

[۴۰۰] (۳)- الحجر- ۵۵.

[۴۰۱] (۴)- ذهب بعض المفسرین للقول بأن جملة« هذا لی» تعنی أن هذه النعمة ستبقی دائما لی، أی إنها فی الحقیقة توضح دوام ذلک، إلا أن التفسیر الذی عرضناه أعلاه أنسب بالرغم من إمکان الجمع بین الإثنین، أی إنهم یعتبرون أنفسهم مستحقین للنعم، و یتصورونها دائمة لهم أیضا.

[۴۰۲] (۵)- القصص، الآیة ۷۸.

[۴۰۳] (۱)- الکهف، الآیات، ۳۵- ۳۷.

[۴۰۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۶۴.

[۴۰۵] (۲)-« أرأیتم» تأتی عادة بمعنی« أخبرونی» و تفسّر بنفس المعنی.

[۴۰۶] (۱)- یناديه الإمام بهذا الاسم، و هو اسمه الحقیقی مع کونه منکرا للّه لکی یشعره مهانة ما هو علیه و هذا اسمه.

[۴۰۷] (۱)- الکافی، المجلد الأول، ص ۷۷- ۷۸، کتاب التوحید باب حدوث العالم.

[۴۰۸] (۲)- الإسراء، الآیة ۸۳.

[۴۰۹] (۳)- تفسیر روح البیان، المجلد الثامن، صفحة ۲۸۰.

[۴۱۰] (۴)- تفسیر المیزان، مجلد ۱۷، ص ۴۲۸، لکن هذا التفسیر لا یناسب المقام کثیرا، خاصة و إن الآیات أعلاه هی بصدد ذم مثل هؤلاء الأشخاص، فی حین أن قطع الأمل من الأسباب الظاهریة و التوجه نحو الله لیس عیبا و حسب، بل یستحق التنویه و المدح.

[۴۱۱] (۱)- ذهب الکثیر من المفسّرین إلی أنّ« الباء» زائدة و« ربک» تقوم مقام الفاعل. و جملة« أنّه علی کلّ شیء شهید»« بدل» ذلک، و المعنی یکون هکذا:« أولم یکفهم أن ربّک علی کلّ شیء شهید».

[۴۱۲] (۱)- التّفسیر الأوّل له أربعة مرجحات هی:

أولا: إنّ أکثر ما تؤکد علیه الآیات هو قضیة التوحید و أدلته.

ثانيا: إنّ تعبيرى« آفاق و أنفس» أكثر تناسبا مع آيات التوحيد.

ثالثا: نشير نهاية الآية فى قوله تعالى\i:أ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ\E إلى قضية التوحيد، و شهادة اللّه التكوينية على حقانية ذاته المنزّهة.

رابعا: الآية التى تليها تتحدث عن المعاد، و نحن نعرف أنّ المبدأ و المعاد غالبا ما يقترن أحدهما بالآخر.

أما التّفسير الأوّل فله ثلاثة مرجحات هى:

أوّلا: إنّ ضمير« إنّه» مفرد للغائب، فى حين أنّ ضمير« آياتنا» متكلّم مع الغير، و هذه إشارة إلى أنّ كلّ ضمير من الضميرين يختص بمتابعة موضوع خاص.

ثانيا: إنّ الآية السابقة كانت حول القرآن بالخصوص.

ثالثا: إنّ جملة« سنريهم» التى هى فعل مضارع للاستمرار، تفيد هذا المعنى بالذات، أى أنّ الآيات المذكورة سنعرضها فيما بعد.

[۴۱۳] (۱)- تفسير الميزان. المجلد(۱۷). صفحة(۴۰۵).

[۴۱۴] (۱)- هذا المقطع من دعاء الصباح المنقول عن أمير المؤمنين عليه السّلام.

[۴۱۵] (۲)- آل عمران، الآية ۱۸.

[۴۱۶] (۱)- مقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السّلام فى يوم عرفة، و هو ممّا تذخر به كتب الأدعية.

[۴۱۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۳، صفحة ۷۷.

[۴۱۸] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹- ۱۰، ص ۳۱، طبعة دار المعرفة.

[۴۱۹] (۲)- ثواب الأعمال، نقلا عن تفسير نور الثقلين، المجلد الرابع، صفحة ۵۵۶.

[۴۲۰] (۱)- الميزان، للعلّامة محمد حسين الطباطبائى، المجد ۱۸، صفحة ۸- ۹.

[۴۲۱] (۲)- يستفاد هذا التّفسير عن حديث للإمام الصادق عليه السّلام. يراجع تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۵۸۲۲.

[۴۲۲] (۱)- بالرغم من الكلام الكثير للمفسّرين حول المشار إليه فى اسم الإشارة« كذلك» لكن يظهر أنّ المشار إليه هو نفس هذه الآيات النازلة على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و اله و سلّم لذا يكون مفهوم الآية: إنّ الوحى هو بهذا الشكل الذى أنزله اللّه عليك و على الأنبياء السابقين، و قد استخدم اسم الإشارة للبعيد بالرغم من قرب المشار إليه، و ذلك للتعظيم و الاحترام.

[۴۲۳] (۲)-« يتفطرن» من كلمة« فطر» على وزن« سطر» و تعنى فى الأصل الشق الطولى.

[۴۲۴] (۱)- الغاشية، الآية ۲۲.

[۴۲۵] (۲)- سورة ق، الآية ۴۵.

[۴۲۶] (۳)- الأنعام، الآية ۱۰۷.

[۴۲۷] (۴)- المائدة، الآية ۹۹.

[۴۲۸] (۱)- ينبغى الانتباه، إلى أنّ(تنذر) تتعدى إلى مفعولين، و فى الآية مورد البحث ذكر مفعولها الأوّل فى الجملة الأولى، و الثّانى فى الجملة الثانية. و قد يصحب المفعول الثّانى بالباء فيقال: أنذره بذلك.

[۴۲۹] (۱)- جاء هذا التعبير فى سورة الأنعام كذلك الآية(۹۲) و قد ذكرنا هناك توضيحا أوسع، فليراجع.

[۴۳۰] (۲)- الشعراء، الآية ۲۱۴.

[۴۳۱] (۳)- فصلت، الآية ۳، إنّ ما قلناه هو فى حال اعتبارنا كلمة(عربى) بمعنى اللغة العربية، أمّا إذا فسرناها بالمعنى الفصيح فسيكون للآية مفهوم آخر.

[۴۳۲] (۱)- الواقعة، الآية ۵۰.

[۴۳۳] (۱)- لقمان، الآیة ۱۳.

[۴۳۴] (۱)- یلاحظ ذلک فی مجمع البیان، المجلد ۸، صفحة ۷۷۹، ذیل الآیة(۲۲) من العنکبوت.

[۴۳۵] (۱)- اعتبر بعض المفسّرین(کالزمخشری فی الکشاف و الفخر، الرازی فی التّفسیر الکبیر- أنّ« أم» هنا بمعنی الاستفهام- الإنکاری، أما البعض الآخر- کالطبرسی فی« مجمع البیان» و القرطبی فی« الجامع لأحکام القرآن»- فقد اعتبروها بمعنی« بل».

[۴۳۶] (۱)- فی بدایة هذه الجملة تکون کلمة« قل» مقدّرة، فهذه الجملة و ما بعدها تتحدث عن لسان النبیّ فقط، أمّا جملة\i مَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ\E فهی استمرار لحدیث الخالق جلّ و علا. و الذین اختاروا غیر ذلک لم یسلکوا الطریق الصحیح فی الظاهر.

[۴۳۷] (۲)- المیزان، المجلد ۱۸، الصفحة ۲۳.

[۴۳۸] (۱)- الضمیر فی« فیه» یعود إلی« التدبیر» أو« جعل الأزواج» و« یذرؤ» من« ذرأ» علی وزن« زرع» و تعنی« الخلق» لکنّه الخلق الذی یقترن و یتزامن مع إظهار الأفراد. و قد وردت أیضا بمعنی الانتشار.

[۴۳۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۱۸۴.

[۴۴۰] (۱)- المنافقون، آیة ۷.

[۴۴۱] (۲)- بهذا الخصوص لدینا بحث مفصل یمکن مراجعته فی نهایة الحدیث عن الآیة(۶۳) من سورة« الزمر».

[۴۴۲] (۱)- الخطبة رقم(۱۸۶).

[۴۴۳] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة رقم ۶۵.

[۴۴۴] (۱)- لاحظ مفردات الراغب مادة« مثل».

[۴۴۵] (۱)- الشوری، الآیة ۲۷.

[۴۴۶] (۱)- الأعراف(۵۹، ۶۵، ۷۳، ۸۵) هود(۵۰، ۶۱، ۸۴) حیث جاءت بالترتیب بخصوص نوح، هود و صالح علیهم السّلام.

[۴۴۷] (۱)- لقد جاء هذا المعنی بشکل مجمل فی لسان العرب و المفردات للراغب و بقیة کتب اللغة.

[۴۴۸] (۲)- هناک شرح أوردناه بهذا الخصوص فی نهایة الآیة ۲۱۳ من سورة البقرة.

[۴۴۹] (۱)- التّفسیر الکبیر للفخر الرازی، المجلد ۲۷، ص ۱۵۷(نهایة الآیات التی نبحثها).

[۴۵۰] (۱)- وفقا لهذا التّفسیر الذی یتناسق بشکل کامل مع الجمل السابقة، فإن ضمیر(بعدهم) یعود إلی الأمم الأولی التی أوجدت الفرقة بین المذاهب و الأدیان، و لیس إلی الأنبیاء المذکورین فی الآیة السابقة(فدقق ذلک).

[۴۵۱] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۶۷.

[۴۵۲] (۱)- بعض المفسّرین اعتبر« اللام» فی« لذلک» بمعنی« إلی»، و البعض الآخر بمعنی(التعلیل) و فی الحالة الأولی تکون کلمة(ذلک) إشارة إلی دین الأنبیاء السابقین، و فی الحالة الثانیة إشارة إلی اختلاف الأمم.

[۴۵۳] (۱)- بعض المفسّرین حدّد(العدالة) هنا بالقضاء، فی حین أنّه لا توجد قرینة علی هذه المحدودیة فی الآیة.

[۴۵۴] (۱)- الضمیر المتکلم مع الغیر فی(بیننا) یشیر إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم و المؤمنین، و ضمیر الجمع فی(بینکم) یشیر إلی جمیع الکفار، سواء کانوا أهل الکتاب أو المشرکین.

[۴۵۵] (۲)- مجمع البیان، نهایة الآیات التی نبحثها. و تحف العقول کلمات الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و اله و سلّم.

[۴۵۶] (۱)-« مشفقون» من کلمة(إشفاق) و تعنی العلاقة المقترنة مع الخوف، فمتی ما تعدت بحرف(من) یطغی جانب الخوف علیها، و عند ما تتعدی بحرف(علی) یطغی جانب الانتباه و المراقبة علیها، و لذا فإن الإنسان یقول لصاحبه و صدیقه:« أنا مشفق علیک»(تفسیر روح المعانی و مفردات الراغب).

[۴۵۷] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد الخامس و العشرون، ص ۳۲.

[۴۵۸] (۱)- الآیة ۲۷- نفس هذه السورة.

[۴۵۹] (۱)- مصطلح(حرث) کما یقول الراغب فی مفرداته: تعنی فی الأصل: رمی البذر فی الأرض و تهیئتها للزراعة، و فی القرآن الکریم استخدمت عدة مرات بهذا المعنی، و لکن لا یعلم سبب اعتبار بعض المفسرین أنها تعنی(العمل و الکسب).

[۴۶۰] (۱)- الأنعام، الآیة ۱۶۰.

[۴۶۱] (۲)- فاطر، الآیة ۳۰.

[۴۶۲] (۳)- المحجة البیضاء، المجلد الخامس، ص ۱۹۳(کتاب آفات اللسان).

[۴۶۳] (۴)- الکافی، وفقا لنقل نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۶۹.

[۴۶۴] (۱)- مجمع البیان، نهایة الآیات التی نبحثها.

[۴۶۵] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۹.

[۴۶۶] (۱)- سورة یس، الآیة ۸۲.

[۴۶۷] (۱)- سورة الشعراء، الآیة ۱۰۹، ۱۲۷، ۱۴۵، ۱۶۴، ۱۸۰.

[۴۶۸] (۱)- سبأ، الآیة ۴۷.

[۴۶۹] (۲)- سورة ص، الآیة ۸۶.

[۴۷۰] (۱)- إحقاق الحق، المجلد الثّالث، ص ۲، کما ذکر القرطبی: أیضا هذه الروایة فی نهایة الآیة التی نبحثها المجلد الثامن، ص ۵۸۴۳.

[۴۷۱] (۲)- مستدرک الصحیحین، المجلد الثّالث، ص ۱۷۲، و قد نقل محب الدین الطبری نفس هذا الحدیث فی الذخائر ص ۱۳۷، کما ذکر ابن حجر ذلک أیضا فی الصواعق المحرقة، ص ۱۰۱.

[۴۷۲] (۱)- الدر المنثور، نهایة الآیة التی نبحثها، المجلد السادس، ص ۷.

[۴۷۳] (۲)- تفسیر الطبری- المجلد ۲۵- ص ۱۶ و ۱۷.

[۴۷۴] (۳)- مجمع البیان، المجلد التاسع، ص ۲۹.

[۴۷۵] (۱)- الدر المنثور، المجلد السادس، ص ۷.

[۴۷۶] (۱)- تفسیر الکشاف، المجلد الرابع، ص ۲۲۰ و ۲۲۱، تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۷، ص ۱۶۵ و ۱۶۶، تفسیر القرطبی، المجلد الثامن، ص ۵۸۴۳، تفسیر الثعلبی، نهایة الآیة التی نبحثها عن جلیل بن عبد اللّه البجلی(وفقا لنقل المراجعات رسالة رقم ۱۹).

[۴۷۷] (۱)- تفسیر فخر الرازی ۲۷/ ۱۶۶.

[۴۷۸] (۱)- تفسیر روح المعانی ج ۲۵، ص ۳۲- ۳۳.

[۴۷۹] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۵، ص ۳۲.

[۴۸۰] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، المجلد ۲۷، ص ۱۶۷.

[۴۸۱] (۱)- نقل(الحاکم) هذا الحدیث عن ابن عباس فی المجلد الثّالث(المستدرک) ص ۱۴۹، ثمّ یقول: هذا حدیث صحیح الإسناد و لم یخرجاه.

[۴۸۲] (۲)- مجمع البیان- نهایة الآیات التی نبحثها، و تفسیر الصافی و القرطبی.

[۴۸۳] (۱)- لاحظوا أنّ« یمح» هی فی الأصل کانت(یمحو) حیث سقطت الواو لأن الرسم القرآنی- عادة- هکذا، مثل i وَ یَدْعُ الْإِنْسانُ بِالشَّرِّE(الإسراء- ۱۱) وi سَنَدْعُ الزَّبانِیَةَE(العلق- ۱۸)، إلّا أنّه وفقا للرسم الحدیث فإن الواو تذکر فی جمیع هذه الکلمات، إلّا أنّها تحذف فی القرآن غالبا.

[۴۸۴] (۱)- راجع مفردات الراغب.

[۴۸۵] (۱)- تفسیر« مجمع البیان» نهایة الآیات التی نبحثها.

[۴۸۶] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، تفسیر أبو الفتوح الرازی، و تفسیر القرطبی(نهایة الآیة التی نبحثها).

[۴۸۷] (۱)- ینقل الدر المنثور هذا الحدیث عن الحاکم و البیهقی و أبی نعیم(ج ۶ ص ۸).

[۴۸۸] (۱)- یونس، الآیة ۲۳.

[۴۸۹] (۲)- آیة ۴۲ من نفس هذه السورة.

[۴۹۰] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: الغوث یقال فی النصرة، و الغیث فی المطر.

[۴۹۱] (۱)-(إذا) و کما یقول صاحب الکشاف، تدخل علی الفعل المضارع کما تدخل علی الفعل الماضی، مثل i وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی E و لکن الفعل أکثر ما یکون بعد(إذا) علی شکل الماضی و قلیل جدا علی شکله المضارع.

[۴۹۲] (۱)- سفینة البحار- کلمة نجم- المجلد الثّانی- ص ۵۷۴، نقلا عن تفسیر علی بن إبراهیم القمی.

[۴۹۳] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، ص ۳۱(نهایة الآیات التی نبحثها) و قد ورد ما یشبه هذا الحدیث فی(الدر المنثور) و تفسیر(روح المعانی) مع بعض الاختلاف و ذلک فی نهایة الآیات التی نبحثها، و الأحادیث فی هذا المجال کثیرة.

[۴۹۴] (۱)- تفسیر علی بن بن إبراهیم طبقا لنور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۰.

[۴۹۵] (۲)- أصول الکافی طبقا لنور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۱.

[۴۹۶] (۱)- المیزان، المجلد ۱۸، ص ۶۱.

[۴۹۷] (۱)-« معجزین» من کلمة(إعجاز) إلّا أنّها وردت فی العدید من الآیات القرآنیة بمعنی الهروب من محیط القدرة الإلهیة و من عذابه، حیث یقتضی معناها ذلک.

[۴۹۸] (۲)- فی ظلال القرآن- المجلد السابع ص ۲۹۰.

[۴۹۹] (۱)- نهج البلاغة- الخطبة ۱۷۸.

[۵۰۰] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۸۱، ص ۱۹۸.

[۵۰۱] (۳)- الکافی،- المجلد الثّانی، کتاب الإیمان و الکفر- باب تعجیل عقوبة الذنب- الحدیث ۲.

[۵۰۲] (۴)- المصدر السابق.

[۵۰۳] (۱)-« صفة» علی وزن(غصّة) و تعنی فی اللغة الصیفیة المغطاة بسعف النحل.

[۵۰۴] (۱)- إبراهیم- ۵، لقمان- ۳۱، سبأ- ۱۹، و الآیة التی نبحثها.

[۵۰۵] (۲)- تفسیر الصافی، مجمع البیان، الفخر الرازی، و القرطبی نهایة الآیة(۳۱) من سورة لقمان.

[۵۰۶] (۱)- جملة\i وَ یَعْلَمَ الَّذِینَ یُجادِلُونَ\ ...E کما یقول الزمخشری فی کشافه: وردت منصوبة بسبب عطفها علی تعلیل محذوف و تقدیره: لینتقم منهم و یعلم الذین یجادلون ... فالهدف أن ینتقم الخالق من هذه المجموعة، و الهدف أن یعلم المجادلون بعدم وجود طریق للنجاة.

[۵۰۷] (۱)- روح البیان، المجلد الثّالث، ص ۴۲۹(نهایة الآیة ۳۸ من سورة التوبة)

[۵۰۸] (۱)- یعتقد غالب المفسّرین أن i الَّذِینَ یَجْتَنِبُونَ E عطف ل\i لِلَّذِینَ آمَنُوا\E فی الآیة السابقة، بالرغم من احتمال البعض أنّها مبتدأ خبره محذوف(و فی التقدیر و الذین یجتنبون ... لهم مثل ذلک من الثواب) إلّا أن المعنی الأوّل أفضل ظاهرا.

[۵۰۹] (۲)- نور الثقلین، المجلد الأوّل، ص ۴۷۳.

[۵۱۰] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم- طبقا لنقل نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۳.

[۵۱۱] (۲)- یقول بعض المفسّرین أنّه متی ما کانت(شوری) مصدرا و تعنی المشاورة یجب أن تضاف لها کلمة(ذو) و یصبح تقدیر الجملة(أمرهم ذو شوری بینهم) ... أو للمبالغة و التأکید، لأن ذکر(المصدر) بدلا من(الصفة) یوصل هذا المعنی عادة، لکن إذا کانت شوری کما یقول الراغب فی مفرداته بمعنی(الأمر الذی یتشاور فیه) عندها لا حاجة للتقدیر(لاحظ ذلک).

[۵۱۲] (۱)- المائدة، الآیة ۳.

[۵۱۳] (۲)- وسائل الشیعة، المجلد الثامن، ص ۴۲۵(باب ۲۱ من أبواب الأحکام العشرة).

[۵۱۴] (۱)- مجمع البیان- نهایة الآیة التی نبحثها.

[۵۱۵] (۱)- عبارة(ظلمه) هی من باب إضافة المصدر إلی المفعول.

[۵۱۶] (۱)- تفسیر(الکشاف)،(روح المعانی) و(روح البیان) نهایة الآیات التی نبحثها.

[۵۱۷] (۲)- اللام فی(لمن صبر) هی لام القسم و فی(لمن عزم الأمور) للتأکید، و الاثنان یوضحان أهمیة هذا الأمر الإلهی أی(العفو).

[۵۱۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۵.

[۵۱۹] (۱)- هناک شرح مفصل فی هذا الخصوص فی نهایة الآیة(۳۶) من سورة الزمر، حیث أوضحنا جمیع جوانب هذا الموضوع.

[۵۲۰] (۱)-« طرف»« بتسکین الراء» مصدر و تعنی دوران العین، و طرفة العین تعنی حرکة واحدة للعین، و الضمیر فی(علیها) یعود إلی العذاب، صحیح أن العذاب مذکر لکنّه یعنی هنا النّار و جهنم و ضمیر المؤنث یعود إلیها.

[۵۲۱] (۱)- نور الثقلین، المجلد الرابع، ص ۵۸۶.

[۵۲۲] (۱)- قد تکون عبارة(من اللّه) فی الجملة أعلاه بمعنی(من قبل اللّه) یعنی لا توجد عودة من قبل الخالق، و قد تکون بمعنی(فی مقابل اللّه) یعنی لا یوجد من یستطیع أن یعیدکم إلی هذه الدنیا ضد إرادة الخالق.

[۵۲۳] (۱)- الشوری، الآیة ۶.

[۵۲۴] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد الثامن، ص ۵۸۷۳.

[۵۲۵] (۱)- المؤمنون، الآیة ۲۷.

[۵۲۶] (۲)- النساء، الآیة ۱۶۴.

[۵۲۷] (۳)- البقرة، الآیة ۹۷.

[۵۲۸] (۱)-« دحیة بن خلیفة الکلبی» هو أخو الرّسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم فی الرضاعة، و کان من أجمل الناس فی ذلک الزمان، حیث کان جبرئیل یظهر علی صورته عند مجیئه للرسول صلّی اللّه علیه و اله و سلّم مجمع البحرین- کلمة دحی ، و کان من أشهر صحابة الرّسول و معروفا بالوجه الحسن، و قد أرسله النّبی الأکرم إلی قیصر الروم(هرقل) حاملا رسالة منه فی العام السادس أو السابع للهجرة، و بقی حیا إلی أیّام خلافة معاویة.

[۵۲۹] (۲)- فی ظلال القرآن، المجلد السابع، ص ۳۰۶.

[۵۳۰] (۱)- النساء، الآیة ۱۶۳.

[۵۳۱] (۲)- النحل، الآیة ۶۸.

[۵۳۲] (۳)- مریم، الآیة ۱۱.

[۵۳۳] (۴)- فصلت، الآیة ۱۲.

[۵۳۴] (۵)- المائدة، الآیة ۱۱۱.

[۵۳۵] (۶)- الأنعام، الآیة ۱۱۲.

[۵۳۶] (۱)- الأنبياء، الآية ۷۳.

بحار الأنوار- المجلد ۱۸- ص ۲۵۴.

[۵۳۷] (۱)- دائرة المعارف القرن العشرين ۱۰/ مادة(وحى).

[۵۳۸] (۱)-(توحيد الصدوق) نقلا عن بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۳۹] (۲)- علل الشرائع نقلا عن بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۴۰] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۵۶.

[۵۴۱] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۱۸، ص ۲۶۱.

[۵۴۲] (۱)- الطبرسى فى مجمع البيان، الشيخ الطوسى فى التبيان، الفخر الرازى فى التّفسير الكبير المراغى فى تفسير المراغى و جماعة آخرون.

[۵۴۳] (۱)- نهج البلاغة- الخطبة ۱۹۲(الخطبة القاصعة).

[۵۴۴] (۱)- الحج، الآية ۷۸.

[۵۴۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۸۸.

[۵۴۶] (۱)- الآلوسى فى روح المعانى، المجلد ۲۵، ص ۵۵، و قد ذكر احتمالات اخرى إلّا أنّنا لم نذكرها لعدم أهميتها.

الجزء السادس عشر

سورة الزّخرف

محتوى سورة الزّخرف:

سورة الزخرف من السورة المكيّة، إلّا الآية (۴۵) منها، فإنّ جمعا من المفسّرين اعتبرها مدنيّة، و ربّما كان السبب هو أنّ ما تبحثه الآية يتعلق على الأغلب بأهل الكتاب، أو بقصّة المعراج، و كلا البحثين يتناسب مع المدينة أكثر. و سنوضّح المطلب فى تفسير هذه الآية إن شاء اللّه تعالى.

و على أيّة حال، فإنّ طبيعة السور المكّية- و التى تدور غالبا حول محور العقائد الإسلاميّة من المبدأ و المعاد و النبوّة و القرآن و الإنذار و التبشير- منعكسة و متجلّية فيها.

و يمكن تلخيص مباحث هذه السورة بصورة موجزة، فى سبعة فصول:

الفصل الأوّل: و هو بداية السورة، و يتحدّث عن أهمّية القرآن المجيد، و نبوّة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مواجهة المشركين لهذا الكتاب السماوى.

الفصل الثّانى: يذكر قسما من أدلّة التوحيد فى الآفاق، و نعم اللّه المختلفة على البشر.

الفصل الثّالث: و يكمّل هذه الحقيقة عن طريق محاربة الشرك، و نفى ما ينسب إلى اللّه عزّ و جلّ من الأقاويل الباطلة، و محاربة التقاليد العمياء، و الخرافات و الأساطير، كالتشاؤم من البنات، أو الإعتقاد بأنّ الملائكة بنات اللّه عزّ و جلّ.

الفصل الرّابع: ينقل جانبا من قصص الأنبياء الماضين و أممهم، و تاريخهم لتجسيد هذه الحقائق. و يؤكّد على حياة إبراهيم و موسى و عيسى عليهم السّلام بصورة

خاصّة.

الفصل الخامس: يتعرض إلى مسألة المعاد، و جزاء المؤمنين، و مصير الكفّار المشؤوم، و يحذّر المجرمين و يهدّدهم بتهديدات و تحذيرات و إنذارات قويّة.

الفصل السّادس: و هو من أهمّ فصول هذه السورة، و يتناول القيم الباطلة التى كانت و لا تزال حاكمة على أفكار الأشخاص المادّيين، و وقوعهم فى مختلف الاشتباهات حينما يقيّمون مسائل الحياة و يزنونها بالميزان الدنيوىّ حتّى أنّهم كانوا يتوقّعون أن ينزل القرآن الكريم على رجل غنى عظيم الثراء، لأنّهم كانوا يعتبرون قيمة الإنسان فى ثرائه! لهذا نرى القرآن فى آيات عديدة من هذه السورة يهاجم هذا النمط من التفكير الساذج و الجاهل و يحاربه، و يوضح المثل الإسلاميّة و الإنسانيّة السامية.

الفصل السّابع: و هو فصل المواعظ و النصائح العميقة المؤثّرة حيث يكمل الفصول الأخرى، ليجعل من مجموع آيات السورة دواء شافيا تماما يترك أقوى الأثر فى نفس السامع.

و قد أخذ اسم هذه السورة (الزخرف) من الآية (۳۵) منها، و التى تتحدث فى القيم المادّية.

فضل تلاوة السّورة

لقد ذكر فضل عظيم لتلاوة هذه السورة فى الرّوايات الإسلاميّة فى مختلف كتب التّفسير و الحديث، و من جملتها ما

ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الزخرف، كان ممن يقال له يوم القيامة: يا عباد لا خوف عليكم اليوم و لا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّة»[۱].

لا شكّ أنّ الخطاب ب يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ هو عين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹

ما ورد فى الآية (۶۸)، و جملة ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أخذت من الآية (۷۰)، و جملة بِغَيْرِ حِسابٍ من لوازم الكلام، و قد وردت فى عدّة من آيات القرآن الأخرى.

و على أيّة حال، فإنّ هذه البشارة العظمى، و الفضيلة التى لا تقدّر، لا تحصل بمجرّد التلاوة الخالية من التدبر و الإيمان و العمل الصالح، لأنّ التلاوة مقدّمة للفكر، و الإيمان و العمل الصالح ثمرة له.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۳) وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (۴)

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (۵) وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (۶) وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۷) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (۸)

التّفسير

ذنوبكم لا تمنع رحمتنا!

مرّة أخرى نواجه الحروف المقطّعة فی بدایة هذه السورة، و هی حروف (حم)، و هذه رابع سورة تبدأ ب حم و تتلوها ثلاث سور أخرى أيضا، فتشكّل هذه السور السبعة بمجموعها (أسرة حم) و هی بالترتيب: المؤمن، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، و الأحقاف.

و قد بحثنا الحروف المقطّعة بصورة مفصّلة فيما سبق (راجع بداية سورة البقرة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱

بداية آل عمران، أوّل الأعراف، بداية سورة «فصلت» فی خصوص حم).

و يقسم تعالى بالقرآن الكريم فی الآية الثّانية، فيقول: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ قسما بهذا الكتاب الواضحة حقائقه، و البيّنة معانيه و مفاهيمه، و الظاهرة دلائل صدقه، و المبيّنة طرق هدايته و رشاده.

ثمّ يضيف: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۲].

إنّ كون القرآن عربيّا، إمّا بمعنى أنّه «نزل بلغة العرب التی هی أوسع لغات العالم فی بيان الحقائق، و قادرة على تبيان دقائق المطالب بكل جمال و دقّة فی التعبير.

أو بمعنى فصاحته- لأنّ أحد معانی كلمة (عربی) هو «الفصيح» و هی إشارة إلى أنا قد جعلناه فی منتهى الفصاحة و غايتها، لتظهر الحقائق جيّدا من خلال كلماته و جمله، و يدركها الجميع جيدا.

و الطّريف أنّ القسم و جوابه- هنا- شیء واحد، فهو تعالى يقسم بالقرآن أنّه جعل القرآن عربيّا ليستفيد الجميع منه و يعقلوا آياته، و ربّما كان هذا إشارة إلى أنّه لم يكن هناك شیء أجلّ من القرآن ليقسم به، فإنّ ما هو أسمى من القرآن نفس القرآن، لأنّ كلام اللَّه سبحانه، و كلام اللَّه مبيّن لذاته المقدّسة.

و لا يدلّ التعبير ب (لعل) على أنّ اللَّه سبحانه يشكّ فی تأثير القرآن، أو أنّ الكلام هنا عن الرجاء و الأمل الذی يصعب الوصول إليه و تحقّقه، بل إنّه يشير إلى تفاوت الأرضيّات الفكرية و الأخلاقيّة لسامعی آيات القرآن الكريم، و يشير أيضا إلى أنّ تأثير القرآن يستلزم توفر شروطا معيّنة أشير إليها إجمالا بكلمة (لعل). و قد أوردنا تفصيلا أكثر لهذا المعنى فی ذيل الآية (۲۰۰) من آل عمران.

ثمّ يتطرق القرآن إلى بيان ثلاث صفات أخرى لهذا الكتاب السماوی، فيقول:

وَ إِنَّهُ فِی أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ و يشير فی الصفة الأولى إلى أنّ القرآن الكريم قد حفظ و أثبت فی أمّ الكتاب لدى اللَّه سبحانه، كما نقرأ ذلك أيضا فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲

الآية (۲۲) من سورة البروج: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِی لَوْحٍ مَحْفُوظٍ.

و الآن، لنر ما هو المراد من «أم الكتاب»، أو «اللوح المحفوظ»؟

«الأم» فی اللغة تعنی أصل كل شیء و أساسه، و إنّما يقول العرب للأم أمّا لأنّها أساس العائلة و مأوى الأولاد، و على هذا فإنّ (أم الكتاب) يعنی الكتاب الذی يكون أساسا لكل الكتب السماويّة، و هو ذلك اللوح المحفوظ لدى اللَّه سبحانه، و المصون من كل تغيير و تبديل و تحريف .. إنّه كتاب علم اللَّه المحفوظ لديه، و الذی أدرجت فيه كل حقائق العالم، و كل حوادث الماضی و المستقبل، و كل الكتب السماويّة، و لا يستطيع أی أحد أن يصل إليه و يعلم ما فيه، إلّا إذا أراد اللَّه سبحانه أن يعلم أحدا بالمقدار الذی يريده عزّ و جلّ.

و هذا وصف عظيم للقرآن الذی ينبع من علم اللَّه اللامتناهی، و أصله و أساسه لديه سبحانه، و لهذا يقول فی الصفة الثّانية: (لعلیّ) و فی الثالثة (حكيم).

إنّ الشيء الذى ينبعث من علم اللَّه اللامتناهى يجب أن يكون بهذه الصفات.

و اعتقد البعض أنّ سموّ القرآن و علوّ مقامه نابع من أنّه فاق كلّ الكتب السماويّة، و نسخها جميعا، و هو فى أرفع مراتب الإعجاز.

و اعتبر البعض الآخر علوّ القرآن لاحتوائه على حقائق لا تدركها أفكار البشر، و هى بعيدة عن مدى ما تستوعبه عقولهم- إضافة إلى الحقائق التى يفهمها الجميع من ظاهر القرآن.

و لا تتضارب هذه المعانى فيما بينها حيث تجتمع كلّها فى مفهوم (علىّ).

و هنا مسألة تستحق الانتباه، و هى أنّ (الحكيم) صفة للشخص عادة، لا الكتاب، لكن لمّا كان هذا الكتاب السماوى بنفسه معلما عظيما و ناطقا بالحكمة ناشرا لها، فإنّ هذا التعبير فى محله تماما.

و قد وردت كلمة «الحكيم» بمعنى المستحكم الحصين أيضا، و كلّ هذه المعانى جمعت فى اللفظة المذكورة، و هى صادقة فى شأن القرآن الكريم، لأنّه حكيم بكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳

هذه المعانى.

و فى الآية التّالية يخاطب المنكرين للقرآن و المعرضين عنه، فيقول:

أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ

صحيح أنّكم لم تألوا جهدا فى مخالفتكم للحق و عدائه، و وصلتم فى المخالفة إلى حدّ الإفراط و الإسراف، إلّا أنّ رحمة اللَّه سبحانه واسعة بحدّ لا تشكل هذه الأعمال المناوئة حاجزا فى طريقها، و نظر ننزل باستمرار هذا الكتاب السماوى الذى يوقظكم، و آياته التى تبعث الحياة فيكم، حتّى تهتزّ القلوب التى لها أدنى حظ من الاستعداد و تثوب إلى طريق الحقّ، و هذا هو مقام رحمة اللَّه العامّة، أى: رحمانيته التى تشمل العدوّ، و الصديق، و المؤمن و الكافر.

جملة أَ فَنَضْرِبُ عَنْكُمُ جاءت هنا بمعنى: أ فنضرب عنكم، لأنّ الراكب إذا أراد أن يحوّل دابّته إلى طريق آخر، فإنّه يحوّله بضربه بالسوط أو بشيء آخر، و لذلك فإنّ كلمة الضرب تستعمل فى مثل هذه الموارد بدلا من الصرف ۳].

«الصفح» فى الأصل بمعنى جانب الشيء و طرفه، و يأتى أيضا بمعنى العرض و السعة، و هو فى الآية بالمعنى الأوّل، أى: أ نحول عنكم هذا القرآن الذى هو أساس التذكرة إلى جانب و طرف آخر؟

«المسرف» من الإسراف، و هو تجاوز الحدّ، إشارة إلى أنّ المشركين و أعداء النبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم لم يقفوا عند حدّ فى خلافهم و عدائهم مطلقا.

ثمّ يقول فى عبارة قصيرة كشاهد على ما قيل، و تسلية لخاطر النبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و تهديدا للمنكرين المعاندين: وَ كَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ* وَ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

إنّ هذه المخالفات و أنواع السخرية لم تكن لتمنع لطف اللَّه و رحمته أبدا، فإنّها فيض متواصل من الأزل إلى الأبد، و وجود يعمّ عطاؤه كلّ العباد، بل إنّه سبحانه قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴

خلقهم للرحمة وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ ۴]، و لهذا فإنّ إعراضكم و عنادكم سوف لا يمنع لطفه مطلقا، و ينبغى أن لا يفتر النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و المؤمنون الحقيقيّون، فإنّ لهذا الإعراض عن الحق و اتباع الشهوات و الهوى و الميول تاريخا طويلا.

لكن، و من أجل أن لا يتصور هؤلاء بأنّ لطف اللَّه اللامتناهى سيحول دون عقابهم فى النهاية، لأنّ العقاب بنفسه من مقتضى حكمته، و لذلك يضيف فى الآية التالية: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ

فالآية تخاطب النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، بأنّنا سبق و أن ذكرنا لك نماذج كثيرة من هذه الأقوام العاصية الطاغية، و أوحينا

إليك تفصيل حالهم بدون زيادة أو نقصان، و كان من بينهم أقوام أقوى و أشدّ من مشركى العرب كثيرا، و لهم إمكانيّات و ثروات و أفراد و جيوش و إمكانات واسعة ... كفرعون و آل فرعون، و التاريخ، و أوضح من ذلك أن تتدبّروا ما نزل فى القرآن فى شأنهم لتعلموا أيّها الطغاة المعاندون أنّكم لستم فى مأمن من عذاب اللَّه الأليم أبدا.

«البطش»- كما يقول الراغب فى المفردات- بمعنى أخذ الشىء بالقوّة، و هنا اقترن بكلمة «أشدّ» و تعطى مفهوم شدّة القوّة و القدرة أكثر.

و الضمير فى مِنْهُمْ يعود على مشركى العرب الذين خوطبوا فى الآيات السابقة، إلّا أنّهم ذكروا هنا بصيغة الغائب، لأنّهم ليسوا أهلا للاستمرار فى مخاطبتهم من قبل اللَّه تعالى.

و اعتبر بعض كبار المفسّرين جملة وَ مَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ إشارة إلى المطالب التى جاءت فى السورة السابقة- سورة الشورى- حول جماعة من هؤلاء. إلّا أنّه لا دليل لدينا على هذا التحديد، خاصّة و أنّه قلّما أشير إلى حوادث الأمم الماضية فى سورة الشورى، فى حين وردت بحوث مفصّلة حولهم فى سور أخرى من القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵

و على أيّة حال، فإنّ هذه الآية تشبه ما مرّ فى الآية (۷۸) من سورة القصص، حيث تقول: أ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً؟! أو ما مرّ فى الآية (۲۱) من سورة المؤمن حيث حذّرت مشركى العرب إذ تقول: أ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ كانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ ما كانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ واقٍ !***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۹ الى ۱۴]

اشارة

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (۹) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (۱۰) وَ الَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (۱۱) وَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳)

وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)

التّفسير

بعض أدلّة التوحيد:

من هنا يبدأ البحث حول التوحيد و الشرك، فتستعين الآيات بفطرة هؤلاء و طينتهم لإثبات التوحيد، و بعد أن تبيّن الأدلّة الموجودة فى عالم الوجود، و تذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷

خمسة نماذج من مواهب اللَّه العظيمة و تثير فيهم حسّ الشكر، تتطرّق إلى إبطال اعتقادهم الخرافى فيما يتعلق بالأصنام و مختلف

أنواع الشرك.

يقول سبحانه فى القسم الأوّل: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ

إنّ هـذا التعبير الـذى ورد بتفاوت يسير فى أربع آيات من القرآن الكريم- العنكبوت/ ۶۱، لقمان/ ۲۵، الزمر/ ۳۸ و الزخرف فى الآية التى نبحثها[۵]- دليل على كون معرفة اللَّه سـبحانه أمر فطرى مغروس فى طينة البشـر و طبيعتهم من جانب. و من جانب آخر يدلّ على أنّ المشـركين كـانوا مقرّين بـأن خـالق السـماوات و الأـرض هو اللَّه سـبحانه، و لم يكونوا يعترفون بأنّ معبوداتهم خالقـة إلّا فى موارد نادرة.

و من جانب ثالث فإنّ هذا الاعتراف أساس و دعامة لإبطال عبوديّة الأصـنام، لأنّ الذى يكون أهلا للعبادة هو خالق الكون و مدبّره، لا الموجودات التى لاـ حظّ لهـا فى هـذا المجـال، و بنـاء على هـذا، فـإنّ اعترافهم بكون اللَّه سـبحانه خالقـا كان دليلا قاطعا على بطلان مذهبهم و دينهم الفاسد.

و التعبير بـالعزيز الحكيـم و الـذى يـبيّن قـدرة اللَّه المطلقـة، و علمـه و حكمتـه، و إن كـان تعـبيرا قرآنيّا، إلّا أنّـه لـم يكن أمرا ينكره المشـركون، لأنّ لازم الاعتراف بكون اللَّه سـبحانه خالقا للسماء و الأرض وجود هاتين الصفتين فيه. و هؤلاء المشركين كانوا يعتقدون بعلم أصنامهم و قدرتها، فكيف باللَّه الذى يعتقدون أنّ أصنامهم وسيلة إليه، و تقربّهم إليه زلفى؟! ثمّ يشير سبحانه إلى خمس نعم من نعم اللَّه العظيمة، و التى تعتبر كلّ منها نموذجا من نظام الخلقة، و آية من آيات اللَّه سبحانه، فيقول أولا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸

الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً.

إنّ لفظتى «المهـد» و «المهاد» تعنى المحلّ الذى أعدّ للجلوس و النوم و الاستراحة، و يقال فى الأصل للمكان الذى يضـعون فيه الطفل لينام «مهد».

أجل ... إنّ اللَّه سـبحانه جعل الأرض مهـدا للإنسان، و مع أنّ لها عدّة حركات بفعل قانون الجاذبيّة، و رغم الطبقة الغازيّة العظيمة التى أحاطت بها من كلّ جانب، فإنّها هادئـة و مسـتقرّة بحيث لا يشـعر ساكونها بأىّ إزعاج و نعلم أنّ الهدوء النفسـى هو الدعامة الأساسـيّة للاسـتفادة من النعم الأخرى و التنعّم بها، و لا شكّ أنّ هـذه العوامل المختلفـة ما لم تنسـجم مع بعضـها، و يكمل بعضـها بعضا، فليس بالإمكان تحقّق هذا الهدوء و الاطمئنان مطلقا.

ثمّ يضيف سبحانه لتبيان النعمة الثانية: وَ جَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

لقد أشـير إلى هذه النعمة عدّة مرات فى القرآن المجيد (سورة طه- ۵۳، الأنبياء- ۳۱، النحل- ۱۵ و غيرهنّ)، و هى من النعم التى غفل عنها الكثيرون، لأنّا نعلم أنّ التضاريس تعمّ كلّ اليابسة تقريبا، و فيها الجبال العظيمة و الصـغيرة و التلال و الهضاب، و البديع أن توجد بين أعظم سـلال جبال العالم فواصل يستطيع الإنسان أن يشقّ طريقه من خلالها، و قلما اتفق أن تكون هذه الجبال سببا لانفصال أقسام الكرة الأرضية عن بعضها تماما، و هذا واحد من أسرار نظام الخلقة، و من مواهب اللَّه سبحانه و عطاياه للعباد.

و إضافـة إلى ما مرّ، فإنّ كثيرا من أجزاء الكرة الأرضـية ترتبط مع بعضـها بواسـطة طرق المواصـلات البحريّة، و هـذا يـدخل أيضا فى عموم معنى الآية[۶].

و اتضح ممّا قلناه أنّ المراد من جملة لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ هو الهداية إلى الهدف، و اكتشاف مناطق الأرض المختلفة، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹

الهداية لأمر التوحيد و معرفة اللَّه. و لا مانع من جمع هذين المعنيين.

و ذكرت الموهبة الثالثة- و هى موهبة نزول المطر، و إحياء الأراضى الميّتة- فى الآية التالية: وَ الَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ

بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ من قبوركم يوم البعث.

إنّ التعبير بكلمة «قدر» إشارة لطيفة إلى النظام الخاص الذى يحكم نزول الأمطار، حيث أنّها تنزّل بمقدار كاف يكون مفيدا و مثمرا، و لا يؤدّى إلى الخسارة و الإتلاف.

صحيح أنّه قد يؤدّى بعض الأحيان إلى حدوث فيضانات، و جريان سيول، و تدمير الأراضى، إلّا أنّ هذه الحالات استثنائية، و لها صبغة التحذير، فالأعمّ الأغلب من الأمطار مفيدة و مربحة، فنموّ كلّ الأشجار و النباتات و الأزهار و المزارع المثمرة، من بركة نزول المطر الموزون هذا، و لو لم يكن لنزول المطر نظام، لما حصلت كلّ هذه البركات.

الآية الثانية تستخدم جملة «أنشرنا»- من مادّة النشور- لتجسيد انبعاث عالم النباتات، فإنّ الأراضى اليابسة التى تضمّ بدور النباتات كما تضمّ القبور أجساد الموتى، تتحرك و تحيا بنفخة صور نزول المطر، و تهتزّ فتخرج أموات النبات رؤوسها من التراب، و يقوم محشرها و تقع قيامتها التى تمثل صورة لقيامة البشر، و التى أشير إليها فى نهاية هذه الآية و فى آيات عديدة أخرى من القرآن المجيد.

و بعد ذكر نزول المطر و حياة النباتات، يشير فى المرحلة الرّابعة إلى خلق أنواع الحيوانات، فيقول سبحانه: وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها.

إنّ التعبير ب «الأزواج» كناية عن أنواع الحيوانات بقرينة ذكر النباتات فى الآية السابقة، بالرغم من أنّ البعض اعتبرها إشارة إلى كلّ أنواع الموجودات، سواء الحيوان و النبات و الجماد، لأنّ قانون الزوجيّة يحكمها جميعا، فلكلّ جنس ما يخالفه: السماء و الأرض، الليل و النهار، النور و الظلام، المرّ و الحلو، اليابس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰

و الرطب، الشمس و القمر، الجنّة و النّار، إلّا ذات اللَّه المقدّسة فإنّها أحديّة، و لا سبيل للزوجيّة إليها أبدا.

لكن كما قلنا، فإنّ القرائن الموجودة توحى بأنّ المراد هو «أزواج الحيوانات»، و نعلم أنّ قانون الزوجيّة سنّة حياتيّة فى كلّ الكائنات الحيّة، و العيّنات النادرة الاستثنائية لا تقدح بعموميّة هذا القانون.

و اعتبر البعض «الأزواج» بمعنى أصناف الحيوانات، كالطيور و الدواب و المائيّات و الحشرات و غيرها.

و فى المرحلة الخامسة تبيّن الآيات آخر نعمة من هذه السلسلة، و هى المراكب التى سخّرها اللَّه سبحانه للبشر لطىّ الطرق البريّة و البحريّة، فيقول سبحانه:

وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ

إنّ هذه النعمة هى إحدى مواهب اللَّه سبحانه للبشر، و كراماته التى منّ بها عليهم، و هى لا تلاحظ فى الأنواع الأخرى من الموجودات، و ذلك أنّ اللَّه سبحانه قد حمل الإنسان على المراكب التى تعينه فى رحلاته البحريّة و الصحراويّة، كما جاء ذلك فى الآية (۷۰) من سورة الإسراء: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِى آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِى الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

و الحقّ أنّ وجود هذه المراكب يضاعف أنشطة الإنسان و يوسّع حياته عدّة أضعاف، و حتّى الوسائل السريعة السير التى نراها اليوم، و التى صنعت بالاستفادة من مختلف خواصّ الموجودات، و وضعت تحت تصرّف الإنسان، فإنّها من ألطاف اللَّه الظاهرة، تلك الوسائل التى غيّرت وجه حياته، و منحت كلّ شىء السرعة، و أهدت له كلّ أنواع الراحة.

و تذكر الآية التالية الهدف النهائى لخلق هذه المراكب فتقول: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱

إنّ جملة: لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ إشارة إلى أنّ اللَّه سبحانه قد خلق هذه المراكب على هيئة تستطيعون معها ركوبها بصورة جيّدة، و تصلون إلى مقاصدكم براحة و يسر[۷].

لقد أوضحت هذه الآية هدفين لخلق هذه المراكب البحريّة و البريّة، من الفلك و الأنعام، أحدهما: ذكر نعم اللَّه سبحانه حين الإستواء على ظهورها، و الآخر: تنزيه اللَّه سبحانه الذى سخّرها للإنسان، فقد جعل الفلك على هيئة تقدر أن تشقّ صدر الأمواج و تسير نحو المقصد، و جعل الدواب و الأنعام خاضعة لأمر الإنسان و منقادة لإرادته.

«مقرنين» من مادة «إقران»، أى امتلاك القدرة على شىء، و قال بعض أرباب اللغة: إنّه يعنى مسك الشىء و حفظه، و فى الأصل بمعنى وقوع الشىء قرينا لشىء آخر، و لازم ذلك القدرة على حفظه ۸].

بناء على هذا، فإنّ معنى جملة وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ هو أنّه لو لم يكن لطف اللَّه و عنايته لما كان بإمكاننا السيطرة على هذه المراكب و حفظها، و لتحطمت بفعل الرياح المخالفة لحركة السفن، و كذلك الحيوانات القويّة التى تفوق قوّتها قوّة الإنسان أضعافا، ما كان الإنسان ليستطيع أن يقترب منها مطلقا لو لا روح التسليم التى تحكمها، و لذلك حين يغضب أحد هذه الحيوانات و يفقد روح التسليم، فإنّه سيتحوّل إلى موجود خطر لا يقوى عدّة أشخاص على مقابلته، فى حين أن من الممكن فى حالة سكونها و دعتها- أن ترتبط عشرات، بل مئات منها بحبل و زمام، و يسلّم بيد صبى ليذهب بها حيث يشاء، و كأنّ اللَّه سبحانه يريد أن يبيّن للإنسان نعمة الحالة الطبيعيّة للحيوانات من خلال بيان الحالة الاستثنائيّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲

و تذكر آخر آية- من هذه الآيات- قول المؤمنين لدى ركوبهم المركب، إذ يقولون: وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ

هذه الجملة إشارة إلى مسألة المعاد بعد الحديث حول التوحيد، لأنّ الانتباه إلى الخالق و المبدأ، يلفت نظر الإنسان نحو المعاد دائما.

و هى أيضا إشارة إلى أن لا تغترّوا عند ما تركبون هذه المراكب و تتسلّطون عليها، و لا تغرقوا فى مغريات الدنيا و زخارفها، بل يجب أن تكونوا دائما ذاكرين للآخرة غير ناسين لها، لأنّ حالات الغرور تشتد و تتعمّق فى مثل هذه الموارد خاصّة، و الأشخاص الذين يتّخذون مراكبهم و وسائط نقلهم وسيلة للتعالى و التكبّر على الآخرين ليسوا بالقليلين.

و من جهة ثالثة، فإنّ الإستواء على المركب و الانتقال من مكان إلى آخر يذكّرنا بانتقالنا الكبير من هذا العالم إلى العالم الآخر.

نعم .. فنحن أخيرا ننقلب إلى اللَّه سبحانه.

***

ملاحظة

ذكر اللَّه عند الانتفاع بالنعم:

من النكات الجميلة التى تلاحظ فى آيات القرآن الكريم، أنّ المؤمنين قد علّموا أدعية يقرءونها عند التنعّم بمواهب اللَّه سبحانه و نعمه ... تلك الأدعية التى تصقل روح الإنسان و تهذّبها بمحتوياتها البنّاءة، و تبعد عنها آثار الغرور و الغفلة.

فيأمر اللَّه سبحانه نوحا عليه السّلام أن: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۹].

و يأمره أيضا أن يقول عند طلب المنزل المبارك:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳

رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ۱۰].

و هو سبحانه يأمرنا فى هذه الآيات أن نشكر نعم اللَّه تعالى، و أن نسبّح اللَّه عزّ و جلّ عند الإستواء على ظهورها.

فإذا تحوّل ذكر المنعم الحقيقى عند كلّ نعمة ينعم بها إلى طبع و ملكة فى الإنسان، فسوف لا يغرق فى ظلمة الغفلة، و لا يسقط فى

هاوية الغرور، بل إنّ المواهب و النعم الماديّة ستكون له سلّما إلى اللّه سبحانه! و

قد ورد فى سيرة الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه ما وضع رجله فى الركاب إلّا و قال: «الحمد للّه»، و إذا ما استوى على ظهر الدابّة فإنّه يقول: الحمد لله على كل حال، سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ ۱۱].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام أنّه رأى رجلا ركب دابّة فقال: سبحان الذى سخّر لنا هذا، فقال له: «ما بهذا أمرت، أمرت أن تقول: «الحمد للّه الذى هدانا للإسلام، الحمد للّه الذى منّ علينا بمحمّد، و الحمد للّه الذى جعلنا من خير أمّة أخرجت للناس، ثمّ تقول: سبحان الذى سخّر لنا هذا»[۱۲]،

إشارة إلى أنّ الآية لم تأمر بأن يقال: سبحان الذى سخّر لنا هذا، بل أمرت أوّلا بذكر نعم اللّه العظيمة: نعمة الهداية إلى الإسلام، نعمة نبوّة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، نعمة جعلناه فى زمرة خير أمّة، ثمّ تسبيح اللّه على تسخيره لما نركب! و ممّا يستحقّ الانتباه أنّه يستفاد من الرّوايات أنّ من قال عند ركوبه: سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَ إِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ فسوف لن يصاب بأذى بأمر اللّه! و قد روى هذا المطلب فى حديث فى الكافى عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام ۱۳].

و نكتشف من خلال ذلك البون الشاسع بين تعليمات الإسلام البنّاءة هذه، و بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴

ما يلاحظ من جماعة من المغرورين و متّبعى الأهواء و الميول الذين يتّخذون وسائط نقلهم وسيلة للفخر و لإظهار أنفسهم بمظهر العزيز الوجيه، و قد يجعلونها سببا لارتكاب أنواع المعاصى كما ينقل «الزمخشرى» فى الكشّاف عن بعض السلاطين أنّه يركب مركبه الخاص يريد الذهاب من مدينة إلى أخرى التى تبعد عنها مسافة شهر فكان يكثر من شرب الخمر لئلّا يحسّ بطول الطريق و تعبه، و لا يفيق من سكره إلّا حين يصل تلك المدينة!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشارة

وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (۱۵) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (۱۶) وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ (۱۷) أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (۱۸) وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ (۱۹)

التّفسير

كيف تزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه؟

بعد تثبيت دعائم التوحيد بوسيلة ذكر آيات اللّه سبحانه فى نظام الوجود، و ذكر نعمه و مواهبه، تتناول هذه الآيات ما يقابل ذلك، أىّ محاربة الشرك و عبادة غير اللّه تعالى، فتطرّقت أوّلا إلى أحد فروعها، أىّ عبادة الملائكة فقالت: وَ جَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً فظنّوا أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه، و أنّها آلهتهم، و كانت هذه الخرافة القبيحة رائجة بين الكثيرين من عبدة الأوثان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶

إنّ التعبير ب «الجزء» يبيّن من جانب أنّ هؤلاء كانوا يعتبرون الملائكة أولاد اللّه تعالى، لأنّ الولد جزء من وجود الأب و الأمّ، و ينفصل عنهما كنطفة تتكوّن و تتلقّح، و إذا ما تلقّحت تكوّن الولد من تلك اللحظة. و يبيّن من جانب آخر قبولهم عبادتها، لأنّهم كانوا يظنّون الملائكة جزءا من الآلهة فى مقابل اللّه سبحانه.

ثمّ إنّ هذا التعبير استدلال واضح على بطلان اعتقاد المشركين الخرافى، لأنّ الملائكة إن كانت أولادا للّه سبحانه، فإنّ ذلك يستلزم أن يكون للّه جزء، و نتيجة ذلك أنّ ذات اللّه، مركّبة سبحانه، فى حين أنّ الأدلّة العقليّة و النقليّة شاهدة على بساطة وجوده و أحديّته، لأنّ الجزاء مختصّ بالموجودات الممكنة.

ثمّ تضيف: إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ فمع كل هذه النعم الإلهيّة التى أحاطت بوجوده، و التى مرّ ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، فإنّه بدل أن يطأطئ رأسه إعظاما لخالقه، و إجلالا لولى نعمته، سلك سبيل الكفر و اتّجه إلى مخلوقات اللّه ليعبدها! فى الآية التى بعدها يستثمر القرآن الثوابت الفكريّة لدى هؤلاء من أجل إدانة هدا التفكير الخرافى، لأنّهم كانوا يرجّحون جنس الرجل على المرأة، و كانوا يعدّون البنت عارا- عادة- يقول تعالى: أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَ أَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ فإذا كان مقام البنت أدنى فى اعتقادكم، فكيف ترجّحون أنفسكم و تعلونها على اللّه، فتجعلون نصيبه بنتا، و نصيبكم ولدا؟

صحيح أنّ المرأة و الرجل متساويان فى القيم الإنسانيّة السامية عند اللّه سبحانه، إلّا أنّ الاستدلال باعتقادات المخاطب يترك أحيانا فى فكره أثرا يدفعه إلى إعادة النظر فيما يعتقد.

و تتابع الآية التالية هذا البحث ببيان آخر، فتقول: وَ إِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَ هُوَ كَظِيمٌ

و المراد من بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا هم الملائكة الذين كانوا يعتبرونهم بنات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷

اللّه، و كانوا يعتقدون فى الوقت نفسه أنّها آلهتهم، و أنّها شبيهة به- سبحانه- و مثله.

إنّ لفظة (كظيم) من مادّة «كظم»، و تعنى الحلقوم، و جاءت أيضا بمعنى غلق فم قربة الماء بعد امتلائها، و لذلك فإنّ هذه الكلمة استعملت للتعبير عمّن امتلأ قلبه غضبا أو غمّا و حزنا. و هذا التعبير يحكى جيّدا عن خرافة تفكير المشركين البله فى عصر الجاهليّة فيما يتعلق بولادة البنت، و كيف أنّهم كانوا يحزنون و يغتمّون عند سماعهم بولادة بنت لهم، إلّا أنّهم فى الوقت نفسه كانوا يعتقدون بأنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه! و تضيف فى الآية الكريمة: أَ وَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَ هُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۱۴].

لقد ذكر القرآن هنا صفتين من صفات النساء غالبا، تنبعثان من ينبوع عاطفتهنّ، إحداهما: تعلّق النساء الشديد بأدوات الزينة، و الأخرى: عدم امتلاكهنّ القدرة الكافية على إثبات مرادهنّ أثناء المخاصمة و الجدال لحيائهنّ و خجلهنّ.

لا شكّ أنّ بعض النسوة ليس لداهنّ هذا التعلّق الشديد بالزينة، و لا شكّ أيضا أنّ التعلّق بالزينة و محبّتها فى حدود الاعتدال لا يعد عيبا فى النساء، بل أكّد عليها الإسلام، إلّا أنّ المراد هو أكثريّة النساء اللاتى تعوّدن على الإفراط فى الزينة فى أغلب المجتمعات البشريّة، و كأنّهن يولدن بين أحضان الزينة و يتربّين فى حجرها.

و كذلك لا يوجد أدنى شكّ فى أنّ بعض النسوة ارتقين أعلى الدرجات فى قوّة المنطق و البيان، لكن لا يمكن إنكار ضعف النساء عند المخاصمة و البحث و الجدال، إذا ما قورنت بقدرة الرجال، و ذلك بسبب خجلهنّ و حيائهنّ.

و الهدف بيان هذه الحقيقة، و هى: كيف تظنّون و تعتقدون بأنّ البنات أولاد اللّه سبحانه، و أنّكم مصطفون بالبنين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸

و تذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- هذا المطلب بصراحة أكثر، فتقول:

وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً.

أجل ... إنّهم عباد اللّه، مطيعون لأمره، و مسلمون لإرادته، كما ورد ذلك فى الآيتين (۲۶)، (۲۷) من سورة الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

إنّ التعبير بكلمة (عباد) فى الواقع ردّ على ظنّ هؤلاء، لأنّ الملائكة لو كانت مؤنّثا لوجب أن يقول: (عبدات)، لكن ينبغى الانتباه إلى أنّ العباد تطلق على جمع المذكّر و على الموجودات التى تخرج عن إطار المذكر و المؤنث كالملائكة، و يشبه ذلك استعمال ضمائر المفرد المذكّر فى حقّ اللَّه سبحانه، فى حين أنّه تعالى فوق كلّ هذه التقسيمات.

و جدير بالذكر أنّ كلمة (عباد) قد أضيفت إلى (الرحمن) فى هذه الجملة، و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أن أغلب الملائكة منفذون لرحمة اللَّه، و مدبرون لقوانين عالم الوجود و أنظمته، و كل ذلك رحمة.

لكن لماذا وجدت هذه الخرافة بين عرب الجاهليّة؟ و لماذا بقيت ترسباتها إلى الآن فى أذهان جماعة من الناس؟ حتى أنّهم يرسمون الملائكة و يصورونها على هيئة المرأة و البنت، بل حتى إذا أرادوا أن يرسموا ما يسمى بملك الحرية فإنّهم يرسمونه على هيئة امرأة جميلة طويلة الشعر! يمكن أن يكون هذا الوهم نابعا من أنّ الملائكة مستورون عن الأنظار، و النساء مستورات كذلك، و يلاحظ هذا المعنى فى بعض موارد المؤنث المجازى فى لغة العرب، حيث يعتبرون الشمس مؤنثا مجازيّا و القمر مذكرا، لأنّ قرص الشمس مغطى عادة بأمواج نورها فلا سبيل للنظر إليه، بخلاف قرص القمر.

أو أن لطافة الملائكة و رقتها قد سببت أن يعتبروها كالنساء، حيث أن النساء اكثر رقّة و لطافة إذا قيست بالرجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹

و العجيب أنّه بعد كل هذه المحاربة الإسلامية لهذا التفكير الخرافى و إبطاله، فإنّهم إذا ما أرادوا أن يصفوا امرأة فإنّهم يقولون: إنّها ملك، أمّا فى شأن الرجال فقلما يستعمل هذا التعبير. و كذلك قد يختارون كلمة الملك و الملاك اسما للنساء! ثمّ تجيبهم الآية بصيغة الاستفهام الإنكارى فتقول: أ شَهِدُوا خَلْقَهُمْ

و تضيف فى النهاية: سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَ يُسْئَلُونَ

لقد ورد ما قرأناه فى هذه الآيات بصورة أخرى فى سورة النحل الآيات (۵۶- ۶۰) أيضا، و قد أوردنا هناك بحثا مفصّلا حول عقائد عرب الجاهليّة فيما يتعلق بمسألة الوأد، و عقيدتهم فى جنس المرأة، و كذلك حول دور الإسلام فى إحياء شخصيّة المرأة و مقامها السامى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۰ الى ۲۲]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (۲۰) أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (۲۱) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ (۲۲)

التّفسير

لا دليل لهم سوى تقليد الآباء الجاهلين!

أعطت الآيات السابقة أوّل جواب منطقى على عقيدة عبدة الأوثان الخرافيّة، حيث كانوا يظنون أنّ الملائكة بنات اللَّه، و الجواب هو:

إنّ الرؤیة و الحضور فی موقف ما ضروری قبل کل شیء لإثبات ادعاء ما، فی حین لا یقوی أی عابد، وثن أن یدّعی أنّه کان حاضرا حین خلق الملائکة، و أنّه رأی کیفیّة ذلک الخلق بعینه.

و تتابع هذه الآیات نفس الموضوع، و تسلک مسالک أخری لإبطال هذه الخرافة القبیحة، فتتعرض أوّلا- و بصورة مختصرة- لأحد الأدلة الواهیة لهؤلاء ثمّ تجیب علیه، فتقول: وَ قالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱

إنّ هذا التعبیر قد یکون إشارة إلی أنّ هؤلاء کانوا یعتقدون بالجبر، و أن کل ما یصدر منا فهو بإرادة اللَّه، و کل ما نفعله فهو برضاه أو أنّه لو لم یکن راضیا عن أعمالنا و عقائدنا لوجب أن ینهانا عنها، و لما لم ینهنا عنها فإنّ ذلک دلیل علی رضاه.

الحقیقة، أنّ هؤلاء اختلقوا خرافات جدیدة من أجل توجیه عقائدهم الخرافیة الفاسدة الأولی، و افتروا أکاذیب جدیدة لإثبات أکاذیبهم الأولی، و أیّا من الاحتمالین- أعلاه- کان مرادهم، فهو فاسد من الأساس.

صحیح أنّ کل شیء فی عالم الوجود لا یکون إلّا بإذن اللَّه تعالی، إلّا أنّ هذا لا یعنی الجبر، إذ یجب أن لا ننسی أنّ اللَّه سبحانه هو الذی أراد لنا أن نکون مختارین و أحرارا فی اختیارنا و تصرفنا، لیختبرنا و یربینا.

و صحیح أیضا أنّه یجب أن ینهی اللَّه سبحانه عباده عن الباطل، لکن لا یمکن إنکار أنّ جمیع الأنبیاء قد تصدّوا لردع الناس عن کل نوع من أنواع الشرک و الازدواجیّة فی العبادة.

إضافة إلی ذلک، فإنّ عقل الإنسان السلیم ینکر هذه الخرافات أیضا ألیس العقل- هو رسول اللَّه الداخلی- فی أعماق الإنسان؟! و تجیب الآیة فی النهایة بجملة قصیرة علی هذا الاستدلال الواهی لعبدة الأصنام، فتقول: ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَخْرُصُونَ

إنّ هؤلاء لا علم و لا إیمان لهم حتی بمسألة الجبر أو رضی اللَّه سبحانه عن أعمالهم، بل هم- ککثیر من متبعی الهوی و المجرمین الآخرین- یتخذون مسألة الجبر ذریعة لهم من أجل تبرئة أنفسهم من الذنب و الفساد، فیقولون: إنّ ید القضاء و القدر هی التی جرتنا إلی هذا الطریق و حتمته علینا! مع علمهم بأنّهم یکذبون، و أن هذه ذریعة لیس إلّا، و لذلک فإنّ أحدا لو اغتصبهم حقّا فإنّهم غیر مستعدین أبدا لغض النظر عن معاقبته مطلقا، و لا یقولون: إنّه کان مجبرا علی عمله هذا!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲

«یخرصون» من الخرص، و هو فی الأصل بمعنی التخمین، و أطلقت هذه الکلمة أوّلا علی تخمین مقدار الفاکهة، ثمّ أطلقت علی الحدس و التخمین، و لما کان الحدس و التخمین یخطئ أحیانا و لا یطابق الواقع، فقد استعملت هذه الکلمة بمعنی الکذب أیضا، و «یخرصون» فی هذه الآیة من هذا القبیل.

و علی أیّة حال، فیظهر من آیات قرآنیة عدیدة بأنّ عبدة الأوثان کانوا یستدلون- مرارا- بمسألة المشیئة الإلهیّة من أجل توجیه خرافاتهم، و من جملة ذلک أنّهم کانوا قد حرّموا علی أنفسهم أشیاء و أحلّوا أخری، و نسبوا ذلک إلی اللَّه سبحانه، کما جاء ذلک فی الآیة (۱۴۸) من سورة الأنعام: سَیَقُولُ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکْنا وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ شَیْءٍ.

و تکرر هذا المعنی فی الآیة (۳۵) من سورة النحل أیضا: وَ قالَ الَّذِینَ أَشْرَکُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ نَحْنُ وَ لا آباؤُنا وَ لا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْءٍ.

و قد کذّبهم القرآن الکریم فی ذیل آیة سورة الأنعام، حیث یقول: کَذلِکَ کَذَّبَ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّی ذاقُوا بَأْسَنا و یصرح فی ذیل آیة سورة النحل: فَهَلْ عَلَی الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ ! و فی ذیل الآیة مورد البحث ینسبهم إلی التخمین و الکذب کما رأینا، و کلها ترجع فی الحقیقة إلی أساس و مصدر واحد.

و تشیر الآیة التالیة إلی دلیل آخر یمکن أن یکونوا قد استدلوا به، فتقول: أَمْ آتَیْناهُمْ کِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِکُونَ ۱۵]؟ أی یجب علی هؤلاء أن یتمسّکوا بدلیل العقل لإثبات هذا الادّعاء، أو بدلیل النقل، فی حین لم یکن لهؤلاء دلیل لا من العقل و لا من النقل،

فإنّ كل الأدلّة العقلية تدعوا إلى التوحيد، و كذلك دعا كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳

الأنبياء و الكتب السماوية إلى التوحيد.

و أشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى ذريعتهم الأصلية، و هى فى الواقع خرافة لا أكثر، أصبحت أساسا لخرافة أخرى، فتقول: بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ

لم يكن لهؤلاء دليل إلّا التقليد الأعمى للآباء و الأجداد، و العجيب أنّهم كانوا يظنون أنّهم مهتدون بهذا التقليد، فى حين لا يستطيع أى إنسان عاقل حر أن يستند إلى التقليد فى المسائل العقائدية و الأساسية التى يقوم عليها بناؤه الفكرى، خاصة إذا كان التقليد تقليد «جاهل لجاهل»، لأنا نعلم أن آباء أولئك المشركين لم يكن لهم أدنى حظ من العلم، و كانت أدمغتهم مليئة بالخرافات و الأوهام، و كان الجهل حاكما على أفكارهم و مجتمعاتهم، كما توضح ذلك الاية (۱۷۰) من سورة البقرة:

أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ

التقليد يصحّ فى المسائل الفرعية و غير الأساسية فقط، و أيضا يجب أن يكون تقليدا لعالم، أى رجوع الجاهل إلى العالم، كما يرجع المريض إلى الطبيب، و غير المتخصصين إلى أصحاب الإختصاص، و بناء على هذا فإنّ تقليد هؤلاء كان باطلا بدليلين.

لفظة «الأمّة» تطلق- كما يقول الراغب فى المفردات- على الجماعة التى تربط بعضها مع البعض الآخر روابط، إمّا من جهة الدين، أو وحدة المكان، أو الزمان، سواء كانت حلقة الاتصال تلك اختيارية أم إجباريّة. و من هنا استعملت هذه الكلمة أحيانا بمعنى المذهب، كما هو الحال فى الآية مورد البحث، إلّا أن معناها الأصلى هو الجماعة و القوم، و إطلاق هذه الكلمة على الدين يحتاج إلى قرينة[۱۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۳ الى ۲۵]

اشارة

وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ (۲۳) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (۲۴) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (۲۵)

التّفسير

عاقبة هؤلاء المقلدين:

تواصل هذه الآيات موضوع الآيات السابقة حول الدليل الأصلى للمشركين فى عبادتهم للأصنام، و هو تقليد الآباء، و الأجداد، فتقول: إن هذا مجرّد ادعاء واه من مشركى العرب: وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ

يستفاد من هذه الآية جيدا أنّ المتصدين لمحاربة الأنبياء، و الذين كانوا يقولون بمسألة تقليد الآباء و يدافعون عنها بكل قوّة، كانوا من المترفين و الأثرياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵

السكارى و المغرورين، لأنّ (المترف) من مادة (الترفّه) أى كثرة النعمة، و لما كان كثير من المنعمين يغرقون فى الشهوات و الأهواء، فإنّ كلمة «المترف» تعنى من طغى بالنعمة و غرق فى سكرتها و أصبح مغرورا[۱۷]، و مصداق ذلك- على الأغلب- الملوك و الجبابرة و الأثرياء المستكبرون و الأنانيون.

نعم، هؤلاء هم الذين تتعرض مصالحهم و أنانيّاتهم للفناء بثورة الأنبياء، و يحدق الخطر بمنافعهم و ثرواتهم اللامشروعة، و يتحرّر المستضعفون من مخالبهم، و لهذا كانوا يسعون إلى تخدير الناس و إبقائهم جهلاء بمختلف الأساليب و الحيل. و أغلب فساد الدنيا ينبع من هؤلاء المترفين الذين يتواجدون فى أماكن الظلم و التعدى و المعصية و الفساد و الرذيلة.

و جدير بالذكر، أنّنا قرأنا فى الآية السابقة أن هؤلاء كانوا يقولون: إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ و هنا يذكر القرآن أنّهم يقولون: وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ و بالرغم من أن التعبيرين يعودان إلى معنى واحد فى الحقيقة، إلّا أنّ التعبير الأوّل إشارة إلى دعوى أحقيّة مذهب الآباء، و التعبير الثّانى إشارة إلى إصرار هؤلاء.

و ثباتهم على اتباع الآباء و الاقتداء بهم.

و على أية حال فإنّ هذه الآية نوع من التسلية لخاطر النّبى الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين ليعلموا أن ذرائع المشركين و استدلالاتهم هذه ليست بالشىء الجديد، إذ أنّ هذا الطريق سلكه كل المنحرفين الضالين على مر التأريخ.

و تبيّن الآية التالية جواب الأنبياء السابقين على حجج هؤلاء المشركين و المنحرفين بوضوح تام، فتقول: قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ ۱۸]؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶

هذا التعبير هو أكثر التعابير المؤدبة الممكن طرحها أمام قوم عنيدين مغرورين، و لا يجرح عواطفهم أو يمسها مطلقا، فهو لا يقول: إن ما تقولونه كذب و خرافة، بل يقول: إنّ ما جئت به أهدى من دين آبائكم، فتعالوا و انظروا فيه و طالعوه.

إنّ مثل هذه التعبيرات القرآنية تعلمنا آداب المحاورة و المجادلة و خاصّة أمام الجاهلين المغرورين.

و مع كل ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا غرقى الجهل و التعصب و العناد بحيث لم يؤثّر فيهم حتى هذا المقال المؤدب الرقيق، فكانوا يجيبون أنبياءهم بجواب واحد فقط:

قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ دون أن يأتوا بأىّ دليل على مخالفتهم، و دون أن يتأملوا فى الاقتراح المعقول المتين لأنبياء اللَّه و رسله.

من البديهى أنّ مثل هؤلاء الأقوام الطاغين المعاندين، لا يستحقون البقاء، و ليست لهم أهليّة الحياة، و لا بدّ أن ينزل عذاب اللَّه ليقتلع هذه الأشواك من الطريق و يطهره منها، و لذلك فإنّ آخر آية- من هذه الآيات- تقول: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فبعضهم بالطوفان، و آخرون بالزلزلة المدمرة، و جماعة بالعاصفة و الصاعقة، و خلاصة القول: إنّا دمّرنا كل فئة منهم بأمر صارم فأهلكناهم.

و أخيرا وجهت الآية الخطاب إلى النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم من أجل أن يعتبر مشركو مكّة أيضا، فقالت: فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ فعلى مشركى مكّة المعاندين أن يتوقعوا مثل هذا المصير المشؤوم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (۲۶) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (۲۷) وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ

يَرْجِعُونَ (۲۸) بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ (۲۹) وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ (۳۰)

التّفسير

التوحيد كلمة الأنبياء الخالدة:

أشارت هذه الآيات إشارة موجزة إلى قصّة إبراهيم، و ما جرى له مع قوم بابل عبدة الأوثان، لتكمل بذلك بحث ذم التقليد، الذى ورد فى الآيات السابقة، و ذلك لأنّه:

أوّلا- إنّ إبراهيم عليه السّلام كان الجد الأكبر للعرب، و كانوا يعدونه محترما و يقدّسونه، و يفتخرون بتأريخه، فإذا كان اعتقادهم و قولهم هذا حقّا فيجب عليهم أن يتبعوه عند ما مزّق حجب التقليد. و إذا كان سبيلهم تقليد الآباء، فلما ذا يقلّدون عبدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸

الأوثان و لا يتّبعون إبراهيم عليه السّلام.

ثانيا: إنّ عبدة الأصنام استندوا إلى هذا الاستدلال الواهى- و هو اتباع الآباء- فلم يقبله إبراهيم منهم أبدا، كما يقول القرآن الكريم فى سورة الأنبياء- ۵۳، ۵۴:

قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

ثالثا: إنّ هذه الآية نوع من التطييب لخاطر الرّسول الأعظم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و المسلمين الأوائل ليعلموا أنّ مثل هذه المخالفات و التوسّلات بالمعاذير و الحجج الواهية كانت موجودة دائما، فلا ينبغى أن يضعفوا أو ييأسوا.

تقول الآية الأولى: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۱۹]، و لما كان كثير من عبدة الأصنام يعبدون اللَّه أيضا، فقد استثناه إبراهيم مباشرة فقال:

إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

إنّه عليه السّلام يذكر فى هذه العبارة الوجيزة دليلا على انحصار العبوديّة باللَّه تعالى، لأنّ المعبود هو الخالق و المدبر، و كان الجميع مقتنعين بأنّ الخالق هو اللَّه سبحانه، و كذلك أشار عليه السّلام فى هذه العبارة إلى مسألة هداية اللَّه التكوينيّة و التشريعيّة التى يوجبها قانون اللطف ۲۰].

و قد ورد هذا المعنى فى سورة الشعراء، الآيات ۷۷- ۸۲ أيضا.

و لم يكن إبراهيم عليه السّلام من أنصار أصل التوحيد، و محاربة كل اشكال الشرك طوال حياته و حسب، بل إنّه بذل قصارى جهده من أجل إبقاء كلمة التوحيد فى هذا العالم إلى الأبد، كما تبيّن ذلك الآية التالية إذ تقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹

وَ جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۲۱].

و الطريف أنّ كل الأديان التى تتحدّث عن التوحيد اليوم تستلهم دعوتها و أفكارها من تعليمات إبراهيم عليه السّلام التوحيديّة، و أنّ ثلاثة من أنبياء اللَّه العظام- و هم موسى عليه السّلام و عيسى عليه السّلام و محمّد صلى اللَّه عليه و آله و سلّم- من ذرّيته، و هذا دليل على صدق تنبؤ القرآن فى هذا الباب.

صحيح أنّ أنبياء آخرين قبل إبراهيم عليه السّلام- كنوح عليه السّلام- قد حاربوا الشرك و الوثنيّة، و دعوا البشر إلى التوحيد، إلّا أنّ الذى منح هذه الكلمة الاستقرار و الثبات، و رفع رايتها فى كلّ مكان، كان إبراهيم عليه السّلام محطّم الأصنام. فهو عليه السّلام لم

يسع لاستمرار خطّ التوحيد فى زمانه و حسب، بل إنّه طلب استمرار هذا الأمر من اللّه سبحانه فى أدعيته إذ قال: وَ اجْنُبْنِي وَ بَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ۲۲].

ثمّة تفسير آخر، و هو: إنّ الضمير فى (جعل) يعود إلى اللّه سبحانه، فيكون معنى الجملة: إنّ اللّه سبحانه قد جعل كلمة التوحيد فى أسرة إبراهيم.

غير أنّ رجوع الضمير إلى إبراهيم عليه السّلام- و هو التّفسير الأوّل يبدو أنسب، لأنّ الجمل السابقة تتحدّث عن إبراهيم، و من المناسب أن يكون هذا الجزء من جملة أعمال إبراهيم، خاصّة و أنّه قد أكّد على هذا المعنى فى آيات عديدة من القرآن الكريم، و إنّ إبراهيم كان مصرّا على أن يبقى بنوه و عقبه على دين اللّه، كما نقرأ فى الآيتين (۱۳۱)، (۱۳۲) من سورة البقرة: إِذْ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ* وَ وَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وَ يَعْقُوبُ يا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

و التصوّر بأنّ (جعل) يعنى الخلق، و أنّه مختصّ باللّه سبحانه، تصوّر خاطئ، لأنّ (الجعل) يطلق على أعمال البشر و غيرهم أيضا، و فى القرآن نماذج كثيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰

لذلك، فمثلا- عبّر القرآن عن إلقاء يوسف فى البئر من قبل إخوته، بالجعل: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَ أَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ ۲۳] اتّضح ممّا قلناه أنّ ضمير المفعول فى (جعلها) يعود إلى كلمة التوحيد و شهادة (لا إله إلّا اللّه) و يستفاد هذا من جملة: إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ التى تخبر عن مساعى إبراهيم من أجل استمرار خط التوحيد فى الأجيال القادمة.

و ورد فى روايات عديدة من طرق أهل البيت عليهم السّلام اعتبار مرجع الضمير إلى مسألة الإمامة، و ضمير الفاعل يرجع إلى اللّه طبعا، أى إنّ اللّه سبحانه قد جعل مسألة الإمامة مستمرّة فى ذرّيّة إبراهيم عليه السّلام، كما يستفاد من الآية (۱۲۴) من سورة البقرة، إذ لما قال اللّه سبحانه لإبراهيم: إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً طلب إبراهيم عليه السّلام أن يكون أبناؤه أئمّة أيضا، فاستجاب اللّه دعاءه، إلّا فى الذين ظلموا و تلوّثوا بالمعصية و الجور: قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً قالَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِي قالَ لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

إلّا أنّ الإشكال الذى يتبادر لأوّل وهلة هو أنّه لا كلام عن الإمامة فى الآية مورد البحث، اللهمّ إلّا أن تكون جملة (سيهدين) إشارة إلى هذا المعنى، لأنّ هداية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و الأئمّة عليهم السّلام شعاع من هداية اللّه المطلقة، و حقيقة الهداية و الإمامة واحدة.

و الأفضل من ذلك أن يقال: إنّ مسألة الإمامة مندرجة فى كلمة التوحيد، لأنّ للتوحيد فروعا أحدها التوحيد فى الحاكميّة و الولاية و القيادة، و نحن نعلم أنّ الأئمّة يأخذون ولايتهم و زعامتهم من اللّه سبحانه، لا أنّهم مستقلّون بأنفسهم، و بهذا فإنّ هذه الرّوايات تعتبر من قبيل بيان مصداق و فرع من المعنى العام ل جَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً و لهذا فإنّه لا منافاة مع التّفسير الذى ذكرناه فى البداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱

(فتأمّل!)[۲۴].

و الجدير بالملاحظة هنا: هو أنّ المفسّرين قد احتملوا عدّة احتمالات فى تفسير فِي عَقِبِهِ ففسّرها البعض بكلّ ذرّيّة إبراهيم و أسرته، و اعتبرها آخرون خاصّة بقوم إبراهيم و أمّته، و فسّرها جماعة بآل محمّد عليهم السّلام إلّا أنّ الظاهر هو أنّ لها معنى واسعا يشمل كل ذريته إلى انتهاء الدنيا، و التّفسير بآل محمّد عليهم السّلام من قبيل بيان المصداق الواضح لها.

و الآية التالية جواب عن سؤال فى الحقيقة، و هو: فى مثل هذه الحال لم لا يعذّب اللّه مشركى مكّة؟ أ لم نقرأ فى الآيات السابقة: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ

فتقول الآية مجيبة: بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَ آباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَ رَسُولٌ مُبِينٌ فنحن لم نكتف بحكم العقل ببطلان الشرك و الوثنيّة، و لا- بحكم وجدانهم بالتوحيد بل أمهلناهم لإتمام الحجّة عليهم حتّى يقوم هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من

خلفه، و هذا النّبى العظيم محمّد صلى اللَّه عليه و آله و سلّم بهدايتهم.

و بتعبير آخر، فإنّ جملة لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فى الآية السابقة توحى بأنّ الهدف من مساعى إبراهيم عليه السّلام الحثيثة كان رجوع كل ذرّيته إلى خط التوحيد، فى حين أن العرب كانت تدعى أنّها من ذرية إبراهيم عليه السّلام و رغم ذلك لم ترجع، إلّا أنّ اللَّه سبحانه أمهلهم مع ذلك حتى يأتى النّبى العظيم بالكتاب الجديد ليوقظ هؤلاء من نومهم، و بالفعل فقد استيقظت جماعة عظيمة منهم.

إلّا أنّ العجيب أنّه: وَ لَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَ إِنَّا بِهِ كافِرُونَ نعم. لقد عدوّا القرآن المجيد سحرا، و النّبى الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم ساحرا، و إذا لم يرجعوا عمّا قالوا فإنّ عذاب اللَّه سيحيط بهم و يأخذهم من حيث لا يشعرون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲

الآيتان [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (۳۱) أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (۳۲)

التّفسير

لم لم ينزل القرآن على أحد الأغنياء؟

كان الكلام فى الآيات السابقة فى ذرائع المشركين فى مواجهة دعوة الأنبياء، فكانوا يتّهمونهم بالسحر تارة، و يتوسلون تارة أخرى بتقليد الآباء و ينبذون كلام اللَّه وراء ظهورهم، و تشير الآيات- مورد البحث- إلى حجّة واهية أخرى من حجج أولئك المشركين، فتقول: وَ قالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أى مكّة و الطائف.

لقد كانوا معذورين بتشبثهم بمثل هذه الذريعة من جهة، إذ كان المعيار فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳

تقييمهم للبشر هو المال و الثروة و المقام الظاهرى و الشهرة.

إنّ صغار العقول هؤلاء كانوا يتصوّرون أنّ الأثرياء، و زعماء قبائلهم الظلمة هم أقرب الناس إلى اللَّه سبحانه، و لذلك فإنّهم كانوا يتعجبون لماذا لم تنزل موهبة النبوّة و الرحمة الإلهيّة العظيمة هذه على رجل من قبيل هؤلاء الأفراد و نزلت على يتيم فقير خالى اليد اسمه محمّد! إن هذا لشىء عجاب لا يكاد يصدق! نعم، إنّ نظام القيم الخاطئ يستتبع مثل هذا الاستنباط، و هذا هو السبب فى بلاء المجتمعات البشرية العظيم، و العامل الأساس فى انحرافها الفكرى، حيث تقلب الحقائق تماما فى بعض الأحيان.

إنّ حامل هذه الدعوة الإلهيّة يجب أن يكون إنسانا تغمر وجوده روح التقوى ..

أن يكون إنسانا واعيا، ذا إرادة و تصميم، شجاعا عادلا، عارفا بآلام المحرومين و المظلومين، ذائقا لمرارتها ...

هذه هى القيم التى يلزم توفّرها من أجل حمل هذه الرسالة السماويّة، لا الألبسة الفاخرة الجميلة، و القصور الفخمة الفارهة المزيّنة بأنواع الزينة و الزخارف، خاصّة و إن أيّا من أنبياء اللَّه لم يكن متمتعا بهذه الصفات و المزايا المادية، لئلّا تشتبه القيم الأصيلة بالقيم المزيّفة.

و للمفسّرين أقوال فى مراد المشركين من الرجل فى مكّة و الطائف؟ إلّا أنّ أغلبهم اعتبروا «الوليد بن المغيرة» رجل مكّة، و «عروة بن

مسعود الثقفى» رجل الطائف، و إن كان البعض قد ذكر أن عتبة بن ربيعة من مكّة، و حبيب بن عمر الثقفى من الطائف.

إلّا أنّ الظاهر أن قول أولئك المشركين لم يكن يدور حول شخص معين، بل كان هدفهم الإشارة إلى أحد الأثرياء المعروفين، و له عشيرة مشهورة.

و يردّ القرآن الكريم بأجوبة قاطعة على هذا النمط من التفكير المتسافل الخرافى، و يجسد النظرة الإلهيّة الإسلاميّة تماما، فيقول أوّلا: أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴

رَبِّكَ فيمنحوا النبوّة من يشاءون، و ينزلوا عليه الكتاب السماوى، و إذا لم يعجبهم إنسان أهملوه؟

هؤلاء على خطأ كبير، فإنّ ربّك هو الذى يقسم رحمته، و هو يعلم- أفضل من سواه- من يستحق هذا المقام العظيم، و من هو أهل له، كما ورد ذلك فى الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام أيضا: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ

فضلا عن ذلك، فإنّ وجود التفاوت و الاختلاف بين البشر من ناحية مستوى المعيشة، لا يدلّ على تفاوتهم فى المقامات و المنازل المعنويّة مطلقا، بل: نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا.

لقد نسى هؤلاء أنّ حياة البشر حياة جماعيّة، و لا يمكن أن تدار هذه الحياة إلّا عن طريق التعاون و الخدمة المتبادلة، فإذا ما تساوى كلّ الناس فى مستوى معيشتهم و قابليّاتهم و مكانتهم الاجتماعية، فإنّ أصل التعاون و الخدمة المتبادلة سيتزلزل.

بناء على هذا فينبغى أن لا يخدعهم هذا التفاوت، و يظنّوا أنّه معيار القيم الإنسانية، إذ: وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ بل إن كل المقامات و الثروات لا تعدل جناح بعوضة فى مقابل رحمة اللَّه و القرب منه.

إنّ التعبير ب «ربّك» الذى تكرّر مرّتين فى هذه الآية، إشارة لطيفة إلى لطف اللَّه الخاص بنبى الإسلام الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، و منحه مقام النبوّة و الخاتميّة.

***

سؤالين مهمّين:

عند مطالعة الآية أعلاه يتبادر إلى الذهن سؤالان يستخدمهما أعداء الإسلام كحربة للطعن فى الفلسفة الإسلاميّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵

الأوّل: كيف أقرّ القرآن استخدام الإنسان و تسخيره من قبل الإنسان؟ ألا يماثل هذا نظام الطبقات الاقتصاديّة، أى نظام المستثمرين و المستثمرين؟

الثّانى: أنّ الأرزاق و المعايش إذا كانت مقسّمة من قبل اللَّه تعالى، فأى ثمرة يمكن أن تنتج عن جهودنا و مساعينا؟ ألّا يعنى هذا إطفاء مشاعل السعى و مصابيح الجهاد من أجل الحياة؟

إنّ الإباحة على هذه الأسئلة تتّضح بالتدقيق فى متن الآية، لأنّ هؤلاء يتصورون أنّ معنى الآية هو أنّ جماعة معيّنة من البشر تسخر جماعة أخرى لأنفسها تسخيرا ظالما يمتصّ الدماء و الجهود، فى حين أن الأمر ليس كذلك، بل هو استخدام الناس بعضهم بعضا، أى أنّ كل جماعة من الناس لهم إمكانيّات و استعدادات خاصّة يستطيعون العمل بواسطتها فى مجال ما من شؤون الحياة، و هم بطبيعة الحال يقدمون خدماتهم فى ذلك الحقل إلى الآخرين، كما أنّ خدمات الآخرين فى الحقول الأخرى تقدم إليهم.

و الخلاصة: هو استخدام متبادل، و خدمة ذات طرفين، و بتعبير آخر: فإنّ الهدف من التسخير هو التعاون فى أمر الحياة، و لا شىء آخر.

و لا ـ يخفى أنّ البشر لو كانوا متساوين جميعا من ناحية الذكاء و الاستعداد الروحى و الجسمى، فسوف لن تتهيّأ مستلزمات الحياة الاجتماعيّة، و النظم الحياتيّة مطلقا، كما أن خلايا جسم الإنسان لو كانت متشابهة من ناحية البنية و الرقة و المقاومة لا ختل نظام الجسم، فأين خلايا عظم كعب القدم القويّة جدّا من خلايا العين الرقيقة؟ إن لكل من هاتين مهمّة خاصّة بنيت على أساسها.

و المثال الحى الذى يمكن أن يضرب لهذا الموضوع هو الخدمات المتبادلة فى جهاز التنفّس، و دوران الدم، و التغذية، و سائر أجهزة بدن الإنسان، التى هى مصداق واضح ل لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا فى إطار نشاطات البدن الداخليّة، فهل يمكن الإشكال على مثل هذا التسخير؟ و هل فيه خلل أو نقص؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶

فإن قيل: إنّ جملة: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ دليل على عدم العدالة الاجتماعية.

قلنا: هذا يصحّ فى حالة تفسير العدالة بالمساواة، فى حين أنّ العدالة تعنى وضع كلّ شىء فى محلّه ضمن منظومته، فهل أنّ وجود سلسلة المراجع و الرتب فى فرقة عسكريّة، أو تنظيم إدارى، أو فى الدولة، دليل على وجود الظلم فى تلك الأجهزة؟

من الممكن أن يستعمل بعض الناس كلمة «المساواة» فى مجال الشعارات من دون الالتفات إلى معناها الواقعى، أمّا فى الواقع العملى فلا يمكن أن يتمّ أو يقوم أى نظام بدون الاختلاف و التفاوت، غير أنّ هذا التفاوت يجب أن لا يكون ذريعة لأنّ يستغل الإنسان أخاه الإنسان أبدا، بل يجب أن يكون الجميع أحرارا فى استعمال قواهم الخلاقة، و تنمية نبوغهم و إبداعهم، و الاستفادة من نتائج نشاطاتهم بدون زيادة أو نقصان، و أمّا فى حال عجزهم فيجب على القادرين أن يجدوا و يجتهدوا فى رفع النواقص و سد ما يحتاجونه.

و أمّا فيما يتعلق بالسؤال الثّانى، و هو: كيف يمكن المحافظة على شعلة الجهاد و السعى و الاجتهاد و هاجة مع كون الرزق معينا؟ فإنّ الاشتباه ناشئ من تصورهم أن اللَّه سبحانه لم يجعل لسعى الإنسان و اجتهاده أى أثر أو دور.

صحيح أنّ اللَّه سبحانه خلق القابليات متفاوتة لمختلف النشاطات، و صحيح أنّ العوامل الخارجة عن إرادة الإنسان مؤثّرة فى مسير حياته، لكن مع ذلك فإنّه سبحانه قد جعل سعيه، و اجتهاده أيضا أحد العوامل الأساسيّة، و أوضح سبحانه ببيان أصل: أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ۲۵]، أنّ سعادة الإنسان و ما يجنيه و يحصل عليه يرتبط بسعيه و اجتهاده.

و على أيّة حال، فإنّ النكتة الغامضة و الدقيقة تكمن فى أنّ البشر ليسوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷

كالأوانى المتساوية الصفات الى صنعت فى معمل واحد، فى شكل واحد، و على وتيرة واحدة، و بحجم واحد، و لغاية واحدة فى الاستعمال، و لو كانوا كذلك لما أمكنهم التعايش بعضهم مع البعض الآخر يوما واحدا.

و أيضا ليس الناس من قبيل أجهزة و أدوات سيارة نظمها مهندسها على هيئة ما، فهى تقوم بعملها بصورة إجبارية، بل لديهم حرية الإرادة، و عليهم مسئولية و واجب فى نفس الوقت الذى تختلف فيه قابلياتهم و لياقاتهم، و هذا هو المركب الخاص الذى يسمونه الإنسان، و الاعتراضات و الإيرادات التى تطرح غالبا تنبع من عدم معرفة هذا الإنسان.

و خلاصة القول: إنّ اللَّه سبحانه لم يفضل أى إنسان على الآخرين من كل الجهات، بل إنّ جملة: رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ إشارة إلى الامتيازات التى تمتاز بها كل جماعة على الجماعة الأخرى، و تسخير كل فئة لأخرى و استخدامها لها نابع من هذه الامتيازات تماما، و هذا عين العدالة و التدبير و الحكمة[۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۳۳ الى ۳۵]

اشارة

وَ لَوْ لا ـ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (۳۳) وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (۳۴) وَ زُخْرُفاً وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (۳۵)

التّفسير

قصور فخمة سقفها من فضة؟ (قيم كاذبة)

تستمر هذه الآيات فى البحث حول «نظام القيم فى الإسلام»، و عدم اعتبار كون المال و الثروة و المناصب المادية هى المعيار فى التقييم، فتقول الآية الأولى:

وَ لَوْ لا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ[۲۷].

و لجعلنا لهم بيوتا لها عدّة طوابق و لها سلالم جميلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹

وَ مَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ ۲۸].

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد أن السلالم مصنوعة من الفضة، و عدم تكرار كلمة الفضة لوضوح المراد. و كأنّهم لم يعتبروا وجود السّلام لوحدها دليلا على أهمية البيوت، و الأمر ليس كذلك، إذ أن وجود السلالم الكثيرة دليل على عظمة النباء و تكونه من عدّة طوابق.

«السقف» جمع سقف، و يعتقد البعض أنها جمع سقيفة، أى المكان المسقف، إلّا أنّ القول الأوّل أشهر.

ثمّ تضيف الآية الأخرى: وَ لِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَ سُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ

و ربّما كانت هذه الجملة إشارة إلى الأبواب و الأسرّة الفضية، لأنّ الآية السابقة لما تحدثت عن السّقف الفضية امتنع التكرار. و يمكن أيضا أن يكون وجود الأبواب و الأسرّة المتعددة- خاصّة و أن (أبوابا) و (سررا) نكرة، و قد وردت هنا لبيان الأهمية- دليلا بنفسه على عظمة تلك القصور، لأنّهم يجعلون لبيت حقير عدّة أبواب أبدا، بل هى مختصة بالقصور و البيوت الفخمة، و كذلك الحال بالنسبة لوجود الأسرّة.

و لم تكتف الآية بهذا، بل استطردت أنّه إضافة إلى كل ذلك فقد جعلنا لهم مباهج و انواع الزينة وَ زُخْرُفاً[۲۹] لتكمل الحياة المادية و زخارفها و زبارجها من كل الجهات، القصور الفخمة المتعددة الطبقات الأبواب و الأسرّة المتعددة، و كل وسائل الزينة و النقوش و الرسوم و سائر الجواذب التى يتحقّق فيها مراد عبيد الدنيا و أمانيهم.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ الْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰

«الزخرف» فى الأصل بمعنى كل زينة مقترنة بالرسم و التصوير، و لما كان الذهب أحد أهم وسائل الزينة، فقد قيل له: زخرف، و إنّما قيل للكلام الأجوف الذى لا فائدة فيه: كلام مزخرف، لأنهم يحيطونه و يلبسونه المزوقات ليصبح مقبولا.

و خلاصة القول: إنّ هذه الأسس المادية و وسائل الزينة الدنيوية، حقيرة لا قيمة لها عند اللَّه تعالى فلا ينبغى أن تكون إلّا من نصيب الأفراد الذين لا قيمة لهم كالكافرين و منكرى الحق، و لو لم يتأثر الناس من طلاب الدنيا و يميلوا إلى الكفر لجعل اللَّه تعالى هذه الأمور من نصيب هذه الفئة فقط، ليعلم الجميع أن هذه الأمور ليست هى المعيار و المقياس لشخصية الإنسان و قيمته و مقامه.

***

ملاحظتان

۱- الإسلام يحطم القيم الخاطئة

حقّا لا- يمكن العثور على تعبير أبلغ مما ورد فى الآيات أعلاه لتحطيم المقاييس و القيم الكاذبة و القضاء عليها، و تغيير بناء ذلك المجتمع الذى يدور محور تقييم شخصية الأفراد فيه حول مقدار ما يملكون من الإبل، و مقدار الدراهم و الدنانير، و عدد الغلمان و الجوارى و البيوت و أدوات الزينة، حتى أنّهم يتعجبون لماذا اختير محمّد صلى اللَّه عليه و آله و سلّم للنبوة و هو اليتيم الفقير ماديا؟!

إن أهم عمل لرسالة السماء هو تحطيم أطر القيم الخاطئة هذه، و بناء القيم الإنسانية الأصيلة كالتقوى، و العلم، الإيثار و التضحية، الشهامة و الحلم على أنقاضها، و إلّا فإنّ كل الإصلاحات ستكون فوقية و سطحية و غير ثابتة.

و هذا هو الذى قام به الإسلام و القرآن و الرّسول الأعظم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم على أحسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱

وجه، و لهذا فإنّ المجتمع الذى كان أكثر المجتمعات البشرية تخلفا و خرافة، قد تسلق سلّم الرشد و الرقى حتى أصبح فى المرتبة الأولى فى مدّة قصيرة.

و الطريف أنّنا نقرأ

فى حديث عن النّبى الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، فى تكملة هذا البحث: «لو وزنت الدنيا عند اللَّه جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء»[۳۰].

و

يبلغ أمير المؤمنين على عليه السّلام الكلام فى هذا الباب غايته حيث يقول: «و لقد دخل موسى بن عمران و أخوه هارون عليهما السّلام على فرعون و عليهما مدارع الصوف و بأيديهما العصى، فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه و دوام عزّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لى دوام العزّ و بقاء الملك و هما بما ترون من حال الفقر و الذل، فهلّا ألقى عليهما أساورة من ذهب، إعظاما للذهب و جمعه، و احتقارا للصوف و لبسه، و لو أراد اللَّه سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان، و معادن العقيان، و مغارس الجنان، و أن يحشر معهم طيور السماء و وحوش الأرض لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء».

و

يقول فى موضع آخر من هذه الخطبة: «ألا- ترون ان اللَّه سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم صلوات اللَّه عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر و لا تنفع، و لا تبصر و لا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياما. ثمّ وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا، و أقل نتائق الأرض مدرا، و أضيق بطون الأودية قطرا، بين جبال خشنة، و رمال دمثة، و عيون وشلة، و قرى منقطعة، لا يزكو بها خف، و لا حافر و لا ظلف. ثمّ أمر آدم و ولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابة لمنتجع أسفارهم ...».

«و لو أراد اللَّه سبحانه أن يضع بيته الحرام و مشاعره العظام بين جنات و أنهار، و سهل و قرار، جم الأشجار، دانى الثمار، ملتف البنا، متصل القرى، بين برة سمراء، و روضة خضراء، و أرياف محدقة، و عراص مغدقة، و طرق عامرة، لكان قد صغر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲

قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء»[۳۱].

و عند ذلك كان الناس سينشغلون بالقيم الظاهرية الخداعة، و يغفلون عن القيم الإلهيّة الواقعية.

علی أیة حال، فإنّ أساس الثورة الإسلامیة هو تغییر القیم، و إذا ما أصبح مسلمو الیوم یعانون من ظروف صعبة خانقة، و تحت ضغط الأعداء الجلادین القساة، فإنّ ذلک ناتج عن ترکهم لقیم الأصیلة، و انتشار القیم و الأعراف الجاهلیة بینهم مرّة أخری، فأصبح المال و المنصب الدنیوی مقیاس التقییم، و نسوا العلم و الفضیلة و التقوی، و غرقوا فی بحر المغریات و الزخارف المادیة، و أضحوا غرباء عن الإسلام، و ما دام الوضع کذلک فیجب أن یدفعوا کفارة هذا الذنب العظیم، و ما داموا لم یشرعوا بالتغییر ابتداء من القیم الحاکمة علی وجودهم، فسوف لن تشملهم رحمة اللَّه و لطفه، و ذلک: إِنَّ اللَّهَ لا یُغَیِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ۳۲].

۲- جواب عن سؤال

بمطالعة الآیات المذکورة حول التحقیر الشدید للزینة الظاهریة، و الثروة و المقام المادی، یطرح هذا السؤال نفسه، و هو: إذا کان الحق کذلک، فلما ذا یقول القرآن فی موضع آخر: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَةَ اللَّهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّیِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِینَ آمَنُوا فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا خالِصَةً یَوْمَ الْقِیامَةِ کَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآیاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ [۳۳] أو یقول فی موضع آخر: یا بَنِی آدَمَ خُذُوا زِینَتَکُمْ عِنْدَ کُلِّ مَسْجِدٍ[۳۴]، فکیف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳

تتوافق هاتان الفئتان مع الآیات؟

ینبغی الالتفات فی الجواب إلی أن الهدف فی الآیات- مورد البحث- هو القضاء علی القیم الکاذبة الخاطئة، الهدف هو أن لا یعد الناس شخصیة الإنسان متقومة بثروته و زینته، و لا یغنی هذا أنّ الإمکانیات المادیة شیء سیّء، بل المهم أن تکون مجرّد أدوات و مظاهر للنظر، و لیس کهدف سام و غایة تبلغ.

ثمّ إنّ هذه الإمکانیات تکون ذات قیمة عند ما تکون فی حد المعقول و اللائق بالحال، و خالیة من کلّ أنواع الإسراف و التبذیر، لا أن تبنی القصور من الذهب و الفضة، و تدّخر الثروات الطائلة منهما.

و من هنا یتّضح أن وجود جماعة من الکفّار و الظالمین بهذه القدرة المادیة لیس دلیلا علی رفعة شخصیتهم، و لا أن حرمان المؤمنین منها، أو من التمتع بها فی حد المعقول کأدوات للزینة، یضر بإیمانهم و تقواهم، و هذا هو التفکیر الإسلامی و القرآنی الصحیح.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴

الآیات [سورة الزخرف (۴۳): الآیات ۳۶ الی ۴۰]

اشارة

وَ مَنْ یَعْشُ عَنْ ذِکْرِ الرَّحْمنِ نُقَیِّضْ لَهُ شَیْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِینٌ (۳۶) وَ إِنَّهُمْ لَیَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِیلِ وَ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (۳۷) حَتَّی إِذا جاءَنا قالَ یا لَیْتَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ بُعْدَ الْمَشْرِقَیْنِ فَبِئْسَ الْقَرِینُ (۳۸) وَ لَنْ یَنْفَعَکُمُ الْیَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّکُمْ فِی الْعَذابِ مُشْتَرِکُونَ (۳۹) أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِی الْعُمْیَ وَ مَنْ کانَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (۴۰)

التّفسیر

أقران الشیاطین!

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن عبدة الدنيا الذين يقيّمون كل شىء على أساس المعايير المادية، فإنّ الآيات- مورد البحث- تتحدث عن أحد الآثار المميتة الناشئة عن الارتباط بالدنيا و التعلق بها، ألا و هو الابتعاد عن اللَّه سبحانه.

تقول الآية الأولى: وَ مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵

قَرِينٌ ۳۵][۳۶].

نعم، إنّ الغفلة عن ذكر اللَّه، و الغرق فى لذات الدنيا، و الانهيار بزخارفها و مغرياتها يؤدى إلى تسلط شيطان على الإنسان يكون قرينة دائما، و يلقى لجاما حول رقبته يشدّه به، و يجرّه إليه ليذهب به حيث يشاء! من البديهى أنّه لا مجال لأن يتصور أحد معنى الجبر فى هذه الآية لأنّ هذه نتيجة الأعمال التى قام بها هؤلاء أنفسهم، و قد قلنا مرارا: إنّ أولى نتائج أعمال الإنسان- و خاصة الانغماس فى ملاذ الدنيا، و التلوث بأنواع المعاصى- هو تكوّن حجاب على القلب و السمع و البصر يبعده عن اللَّه سبحانه، و يسلط الشياطين عليه، و قد يستمرّ هذا الحال بالنسبة إليه حتى يغلق بوجهه باب الرجوع، لأنّ الشياطين و الأفكار الشيطانية تكون حينئذ قد أحاطت به من كل جانب، و هذه نتيجة عمل الإنسان نفسه، و إن كانت نسبتها إلى اللَّه سبحانه بلحاظ كونه سبب الأسباب صحيحة أيضا، و هذا هو نفس الشىء الذى عبّر عنه فى آيات القرآن الأخرى بعنوان تزيين الشياطين فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ۳۷]، أو بعنوان ولاية الشيطان فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ [۳۸] و ممّا يستحق الانتباه أن جملة نُقَيِّضْ و بالالتفات إلى معناها اللغوى، تدل على استيلاء الشياطين، كما تدل على كونهم أقرانا، و فى الوقت نفسه فقد جاءت جملة: فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ بعدها لتؤكّد هذا المعنى، و هو أنّ الشياطين لا يفارقون مثل هؤلاء الأفراد، و لا يبتعدون عنهم مطلقا!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶

و التعبير ب «الرحمن» إشارة لطيفة إلى أنّه كيف يعرض هؤلاء عن اللَّه الذى عمّت رحمته العامّة الجميع و شملتهم، و يغفلون عن ذكره؟ فهل يستحق أمثال هؤلاء غير هذا المصير و يكونون أقرانا للشياطين، يتبعون أوامرهم، و ينفذون ما يملون عليهم؟

و احتمل بعض المفسّرين أن يكون للشياطين هنا معنى واسع بحيث يشمل حتى شياطين الإنس، و اعتبروا الكلمة إشارة إلى رؤوس الضلالة و زعمائها الذين يتسلطون على الغافلين عن ذكر اللَّه سبحانه فيكونون أقرانا لهم، و هذا التوسع فى المعنى ليس ببعيد.

ثمّ أشارت الآية التالية إلى أمر مهم كانت الشياطين تقوم به فى شأن هؤلاء الغافلين، فقالت: وَ إِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ۳۹].

فكلما صمّموا على التوبة و الرجوع إلى طريق الصواب و الرشاد كانت الشياطين تلقى فى طريقهم الأحجار و العقبات، و تنصب الموانع فى طريق عودتهم حتى لا يعودوا إلى الصراط المستقيم أبدا. و تزين الشياطين طريق الضلال لهم إلى الحد الذى يظنون: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ كما نقرأ ذلك فى الآية (۳۸) من سورة العنكبوت حول عاد و ثمود: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ

و هكذا تستمر هذه الحالة على هذا المنوال، فيبقى الإنسان الغافل الجاهل على ضلاله، و تستمر الشياطين فى إضلاله، حتى ترفع الحجب، و تنفتح عين رؤيته على الحقيقة: حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ

إنّ كل أنواع العذاب من جهة، و مجالسة قرين السوء هذا من جهة اخرى و النظر إلى وجهه المشؤوم يجسد أمام عينيه كل ذكريات ضياعه و تعاسته، فويل له إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷

أصبح قرين من كان يزين له كل القبائح و يسلكه طريق الضلال على أنّه سبيل الخير و الفلاح، و طريق الانحراف على أنّه طريق الهدى و الصلاح، و ويل له إذا أصبح مقيّدا معه بنفس الأصفاد فى نفس السجن! نعم، إن عرصة القيامة تجسيد واسع لمشاهد هذه

الدنيا، و القرين و الرفيق و القائد و الدليل هنا و هناك واحد، بل إنّهما- برأى بعض المفسّرين- يقرنان بسلسلة واحدة! من المعلوم أنّ المراد من المشرقين: المشرق و المغرب، لأنّ العرب عند ما يريدون أن يثنوا جنسين مختلفين بلفظ واحد، فإنّهم يختارون أحد اللفظين، كما يقولون: الشمسان، إشارة إلى الشمس و القمر، و الظهران، إشارة إلى صلاتى الظهر و العصر، و العشاء ان، إشارة إلى صلاتى المغرب و العشاء.

و قد ذكروا تفاسير أخرى لا تبدو مناسبة للآية من أى وجه، كقولهم: إنّ المراد هو مشرق بداية الشتاء، و مشرق بداية الصيف، و إن كان هذا التّفسير مناسبا فى موارد أخرى.

و على أية حال، فإنّ هذا التعبير كناية عن أبعد مسافة يمكن تصورها، حيث يضرب المثل ببعد المشرق عن المغرب فى هذا الباب.

إلّا أن هذا الأمل لا يتحقق مطلقا، و لا يمكن أن يقع الإفتراق أو البون بين هؤلاء و بين الشياطين، و لذلك فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ فيجب أن تذوقوا عذاب قرين السوء هذا مع أنواع العذاب الأخرى إلى الأبد[۴۰].

و بهذا فإنّ القرآن الكريم يبدل أمل هؤلاء فى الإفتراق عن الشياطين إلى يأس دائم، و كم هو مضن تحمل هذا الجوار؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۸

و هناك احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآية، منها أن الإنسان قد يشعر بخفة آلامه عند رؤية متألمين آخرين، لأنّ المعروف (أن البلية إذا عمّت طابت) غير أنّه يقال لهؤلاء: لا يوجد هناك مثل تسلية الخاطر هذه، بل ستغوصون فى العذاب، و عذاب الشياطين المشتركين معهم لا يبعث على تسلية الخاطر[۴۱].

و احتملوا أيضا أن المصيبة عند ما تقع، تخف وطأتها عند ما يجد الإنسان ثقلها موزعا بينه و بين أصدقائه، و لكن هذه المسألة لا توجد هناك أيضا، لأنّ لكل فرد سهما وافرا من العذاب، من دون أن ينقص من عذاب الآخرين شيء! لكن بملاحظة أن هذه الآية تكملة للآية السابقة، فإنّ التّفسير الأوّل الذى اخترناه هو الأنسب.

و يترك القرآن هنا هذه الفئة و شأنها، و يوجه الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يتحدث عن الغافلين عمى القلوب الذى كذبوا ارتباطه باللّه، و هم من جنس من تقدم الكلام عنهم فى الآيات السابقة، فيقول: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَ مَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و قد ورد نظير هذا المعنى فى آيات أخرى من القرآن الكريم، حيث شبه المعاندين الذين لا أمل فى هدايتهم، و الغارقين فى الذنوب بالعمى و الصم، بل و بالأموات أحيانا.

فقد جاء فى الآية (۴۲) من سورة يونس: أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ

و جاء فى الآية (۸۰) من سورة النمل: إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ و آيات أخرى.

إن كل هذه التعابير توضح أن القرآن يقول بنوعين من السمع و البصر و الحياة للإنسان: السمع و البصر و الحياة الظاهريّة، و السمع و البصر و الحياة الباطنية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۹

و المهم هو القسم الثّانى من الإدراك و النظر و الحياة، فإنّها إذا تعطلت فلا ينفع حينئذ موعظة و إرشاد، و لا إنذار و تحذير! و مما يستحق الانتباه أنّ الآيات السابقة قد شبهت هذه الفئة بالأفراد العمش العيون، و المحدودى البصر، و تشبههم الآية الأخيرة هنا بالصم و العمى، و ذلك لأنّ الإنسان إذا اشتغل بالدنيا فحاله كمن يشكو ألما بسيطا فى عينه، فكلما زاد تعلقه بالدنيا و اشتغاله بها، و مال إلى الماديات أكثر، و أهمل المسائل الروحية و المعنوية، فسيضعف بصره نتيجة ذلك الألم فى عينه، حتى يصل بعدها إلى مرحلة العمى، و هذا هو الشيء الذى أثبتته الأدلّة القطعية فى مجال التشديد على المعنويات السلبية و الإيجابية فى الإنسان، و رسوخ الملكات فيه

نتيجة تكرار العمل و الإصرار عليه، و قد راعى القرآن الكريم هذا التسلسل أيضا[۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (۴۱) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (۴۲) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (۴۳) وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ (۴۴) وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵)

التّفسير

استمسک بالذى اوحى إليک:

متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدث عن الكفّار المعاندين الظالمين الذين لا أمل فى هدايتهم، تخاطب هذه الآيات نبىّ الإسلام الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم مهدّدة الكفار أشدّ تهديد من جانب، و مسليّة خاطر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، فتقول: فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ

و سواء كان المراد من الذهاب بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من بين أولئك القوم وفاته أم هجرته من مكّة إلى المدينة، فإنّه إشارة إلى أنّك حتى و إن لم تكن شاهدا و ناظرا لأمرهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۱

فإنّا سنعاقبهم أشدّ عقاب إن استمروا فى طريق ضلالتهم و غيهم، لأنّ «الانتقام» فى الأصل يعنى الجزاء و العقوبة، و إن كان المستفاد من آيات قرآنية عديدة أخرى- نزلت فى هذا المعنى- إن المراد من الذهاب بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وفاته، كما جاء فى الآية (۴۶) من سورة يونس: وَ إِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ

و جاء هذا المعنى أيضا فى سورة الرعد- الآية ۴۰، و سورة غافر- الآية ۷۷، و على هذا فإنّ تفسير الآية بالهجرة لا يبدو مناسبا.

ثمّ تضيف الآية: أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فهم فى قبضتنا على أية حال، سواء كانت بينهم أم لم تكن، و العقاب و الانتقام الإلهى حتمى فى حقّهم إذا ما استمروا فى أعمالهم، سواء كان ذلك فى حياتك أم بعد مماتك، فقد يتقدم أو يتأخر، إلّا أنّه لا بدّ من وقوعه.

إنّ هذه التأكيدات القرآنية قد تكون إشارة إلى قلّة صبر الكفّار الذى كانوا يقولون: «إن كنت محقا و صادقا فيما تقول، فلما ذا لا ينزل علينا العذاب»؟ هذا من جهة. و من جهة أخرى كانوا فى انتظار موت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ظنّا منهم أن النّبى إن أغمض عينه و غاب شخصه فسينتهى كل شىء! بعد هذه التحذيرات تأمر الآية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن: فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ فليس فى دينك و كتابك أدنى اعوجاج أو زيغ، و عدم قبول جماعة من هؤلاء به لا يدل على عدم حقانيتك، فاستمر فى طريقك بكل ما أوتيت من قوّة، و الباقى علينا.

ثمّ تضيف الآية الأخرى: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ فإنّ الهدف من نزوله إيقاظ البشر، و تعريفهم بتكاليفهم: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ

و بناء على هذا التّفسير فإنّ الذكر فى هذه الآية يعنى ذكر اللّه سبحانه، و معرفة الواجبات الدينيّة، و الاطلاع على تكاليف البشر، كما

ورد هذا المعنی فی الآیتین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۲

۵ و ۳۶ من هذه السورة، و ککثیر من آیات القرآن الأخری.

و من المعروف أنّ الذکر أحد أسماء القرآن الکریم، و الذکر بمعنی ذکر اللّه سبحانه، و نقرأ هذه الجملة عدّة مرات فی سورة القمر: وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ الآیات ۱۷- ۲۲- ۳۲- ۴۰.

إضافة إلی أن جملة: وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ تشهد بأنّ المراد هو السؤال عن العمل بهذا البرنامج الإلهی.

لکن- مع کل ذلک- فالعجیب أنّ کثیرا من المفسّرین اختاروا تفسیرا آخر لهذه الآیة لا یتناسب مع ما قلناه، فمن جملة ما قالوا: إنّ معنی الآیة هو: إنّ هذا القرآن هو أساس الشرف و العزة، أو الذکر الحسن و السمعة الطیبة لک و لقومک، و هو یمنح العرب و قریشا أو أمتک الشرف، لأنّه نزل بلغتهم، و سیسألون قریبا عن هذه النعمة[۴۳].

صحیح أن القرآن رفع نداء نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و العرب، بل و کل المسلمین عالیا فی أرجاء العالم، و أن اسم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یذکر بإعظام بکرة و عشیا علی المآذن منذ أکثر من أربعة عشر قرنا، و أن عرب الجاهلیة الخاملی الذکر قد عرفوا فی ظل اسمه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و علا صوت الأمّة الإسلامیة فی ربوع العالم بفضله.

و صحیح أن الذکر قد ورد بهذا المعنی فی القرآن المجید أحیانا، إلّا أنّ ممّا لا شک فیه أنّ المعنی الأوّل أکثر ورودا فی آیات القرآن، و أکثر ملاءمة مع هدف نزول القرآن و الآیات مورد البحث.

و اعتبر بعض المفسّرین الآیة (۱۰) من سورة الأنبیاء شاهدا علی التّفسیر الثانی، و هی: لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَیْکُمْ کِتاباً فِیهِ ذِکْرُکُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ ۴۴]. فی حین أن الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۳

تناسب التّفسیر الأوّل أیضا، کما فصلنا ذلک فی التّفسیر الأمثل، فی ذیل هذه الآیة[۴۵].

و قد وردت روایات فی هذه الآیة فی المصادر الحدیثیة، و ستأتی فیما بعد إن شاء اللّه تعالی.

ثمّ تطرّقت الآیة الأخیرة إلی نفی عبادة الأصنام و إبطال عقائد المشرکین بدلیل آخر، فقالت: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً یُعْبَدُونَ

إشارة إلی أنّ کل أنبیاء اللّه قد دعوا إلی التوحید، و وقفوا جمیعا ضد الوثنیة بحزم، و علی هذا فإنّ نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مخالفته الأصنام لم یقم بعمل لم یسبقه به أحد، بل أحیا بفعله سنة الأنبیاء الأبدیة، و إنّما کان عبدة الأصنام و المشرکون هم الذین یسیرون علی خلاف مذهب الأنبیاء.

و طبقا لهذا التّفسیر فإنّ السائل و إن کان نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم، إلّا أنّ المراد کل الأمّة، بل و حتی مخالفیه.

و المسؤولون هم أتباع الأنبیاء السابقین، أتباعهم المخلصون، بل و مطلق أتباعهم، إذ یحصل الخبر المتواتر من مجموع کلامهم، و هو یبیّن دین الأنبیاء التوحیدی.

و ینبغی التذکیر بأنّه حتی المنحرفین عن أصل التوحید- کالمسیحیین الذین یؤمنون بالتثلیث الیوم- یتحدثون عن التوحید أیضا، و یقولون: إنّ تثلیثنا لا ینافی التوحید الذی هو دین جمیع الأنبیاء! و بهذا فإنّ الرجوع إلی هذه الأمم کاف فی إبطال دعوی المشرکین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۴

إلّا أنّ بعض المفسّرین احتملوا احتمالا آخر فی تفسیر هذه الآیة مستوحی من بعض الروایات ۴۶]، و هو أن السائل هو النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم نفسه و أن المسؤولین هم الأنبیاء السابقون. ثمّ أضافوا: إنّ هذا الأمر قد تمّ فی لیلة المعراج، لأنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قد التقی بأرواح الأنبیاء الماضین، و من أجل تأکید أمر التوحید طرح هذا السؤال و سمع الجواب.

و أضاف البعض: إنّ مثل هذا اللقاء كان ممكنا بالنسبة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حتى فى غير ليلة المعراج، لأنّ المسافات الزمانية و المكانية ليست مانعا و لا عائقا فى مسألة اتصال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأرواح الأنبياء، و كان بإمكان ذلك العظيم أن يتصل بهم فى أية لحظة، و فى أى مكان طبعا، ليس على هذه التفاسير أى إشكال عقلى، لكن لما كان الهدف من الآية نفى مذهب المشركين، لاطمأنة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- إذ أنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان مستغرقا فى مسألة التوحيد، و مشمئزا من الشرك إلى الحدّ الذى لا يحتاج معه إلى سؤال، و لم يكن التقاء النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الروحى بأرواح الأنبياء الماضين استدلالا مقنعا أمام المشركين- اذن فالتّفسير الأوّل يبدوا أكثر ملاءمة، و التّفسير الثّانى قد يكون إشارة إلى باطن الآية لا ظاهرها، لأنّ لآيات القرآن ظهرا و بطنا.

و هناك أمر يستحق الانتباه، و هو أنّ اسم (الرحمن) قد اختير فى هذه الآية من بين أسماء اللّه سبحانه، و هو إشارة إلى أنّه كيف يمكن أن يترك هؤلاء اللّه الذى وسعت رحمته العامّة كل شىء، و يتوجهون إلى أصنام لا تضر و لا تنفع؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۵

ملاحظة

من هم قوم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم؟

توجد ثلاثة احتمالات فى المراد من «القوم» فى آية: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ

الأوّل: أنّهم كل الأمّة الإسلامية.

و الثّانى: أنّهم العرب.

و الثّالث: أنّهم قبيلة قريش.

و لما كان القوم فى منطق القرآن الكريم قد أطلقت فى موارد كثيرة على أمم الأنبياء، أو الأقوام المعاصرين لهم، فالظاهر أنّه هو المعنى المراد فى الآية أيضا.

و بناء على هذا، فإنّ القرآن أساس الذكر و الوعى و اليقظة لكل الأمة الإسلامية حسب التّفسير الأوّل، و أساس الافتخار و الشرف لهم جميعا حسب التّفسير الثّانى.

إلّا أننا نطالع فى الروايات العديدة الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من القوم فى الآية هم أهل بيت النّبى و عترته [۴۷].

لكن لا يبعد أن تكون هذه الروايات من قبيل بيان المصاديق الواضحة، سواء كان معنى القوم كل الأمة الإسلامية، أو أمة العرب، أو أهل بيت نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، ففى كل الأحوال يعتبر أئمّة أهل البيت عليهم السّلام من أوضح مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۶

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا

لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰)

التّفسير

الفراعنة المغرورون و نقض العهد:

فى هـذه الآيـات إشارة إلى جانب ممّا جرى بين نبىّ اللّه موسـى بن عمران عليه السّـلام و بين فرعون، ليكون جوابا لمقالـة المشـركين الواهية بأن اللّه إن كان يريد أن يرسل رسولا، فلما ذا لم يختر رجلا من أثرياء مكّة و الطائف لهذه المهمّة العظمى؟

و ذلك لأنّ فرعون كان قد أشـكل على موسـى نفس هذا الإشكال، و كان منطقه عين هذا المنطق، إذ جعل موسى فى معرض التقريع و التوبيخ و السخرية للباسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۷

الصوفى، و عـدم امتلاـكه لأـدوات الزينـة، فقـالت الآيـة الأـولى: وَ لَقَـدْ أَرْسَـلْنا مُوسـى بِآياتِنـا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ

المراد من «الآيات»: المعجزات التى كانت لدى موسى، و التى كانت يثبت حقانيته بواسطتها، و كان أهمها العصا و اليد البيضاء.

«الملاء»- كما قلنا سابقا- من مادة الملأ، أى القوم أو الجماعة الذين يتبعون هدفا واحدا، و ظاهرهم يملأ العيون لكثرتهم، و قرآنيا فإنّ هذه الكلمة تعنى الأشراف و الأثرياء أو رجال البلاط عادة.

و التأكيد على صفة: رَبِّ الْعالَمِينَ هو فى الحقيقة من قبيل بيان مدعى مقترن بالدليل، لأنّ ربّ العالمين و مالكهم و معلمهم هو الوحيد الذى يستحق العبوديّة لا المخلوقات الضعيفة المحتاجة كالفراعنة و الأصنام! و لنر الآن ماذا كان تعامل فرعون و آل فرعون مع الأدلة المنطقية و المعجزات البينة لموسى عليه السّلام؟

يقول القرآن الكريم فى الآيـة التاليـة: فَلَمَّا جـاءَهُمْ بِآياتِنـا إِذا هُمْ مِنْهـا يَضْـحَكُونَ و هـذا الموقف هو الموقف الأوّل لكل الطواغيت و الجهـال المسـتكبرين أمـا القـادة الحقيقيين، إذ لاـ يأخـذون دعوتهم و أدلتهم بجديـة ليبحثوا فيها و يصـلوا إلى الحقيقـة، ثمّ يجيبونهم بسخرية و استهزاء ليفهموا الآخرين أن دعوة هؤلاء لا تستحق البحث و التحقيق و الإجابة أصلا، و ليست أهلا للتلقى الجاد.

إلّا أننا أرسلنا بآياتنا الواحدة تلو الأخرى لإتمام الحجة: وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها[۴۸].

و الخلاصـة: أنّنا أريناهم آياتنا كل واحـدة أعظم من أختها و أبلغ و أشـد، لئلا يبقى لهم أى عـذر و حجّـة، و لينزلوا عن دابة الغرور و العجب و الأنانية، و قد أريناهم بعد معجزتى العصا و اليد البيضاء معاجز الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۸

و غيرها[۴۹] ثمّ تضـيف الآيـة: وَ أَخَـذْناهُمْ بِالْعَـذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فمرّة أتـاهم الجفـاف و القحط و نقص الثمرات كما جاء فى الآية (۱۳۰) من سورة الأعراف: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ

و كان العـذاب أحيانا بتبـدل لون ماء النيل إلى لون الـدم، فلم يعـد صالحا للشـرب، و لا للزراعة، و أحيانا كانت الآفات النباتية تقضـى على مزارعهم.

إنّ هذه الحوادث المرّة الأليمة و إن كانت تنبه هؤلاء بصورة مؤقتة، فيلجئون إلى موسى، غير أنّهم بمجرّد أن تهدأ العاصفة ينسون كل شىء، و يجعلون موسـى غرضا لسـهام أنواع التهم، كما نقرأ ذلك فى الآيـة التالية: وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ

أى تعبير عجيب هذا؟! فهم من جانب يسمونه ساحرا، و من جانب آخر يلجؤون إليه لرفع البلاء عنهم، و من جانب ثالث يعدونه بتقبل الهداية! إن عدم الانسجام بين هذه الأمور الثلاثة فى الظاهر أصبح سببا فى اختلاف التفاسير:

فذهب البعض: إنّ الساحر هنا يعنى العالم، لأنّهم كانوا يعظمون السحرة فى ذلك الزمان، و خاصّة فى مصر، و كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى العلماء.

و احتمل البعض أن يكون السحر هنا بمعنى القيام بأمر مهم، كما نقول فى محادثاتنا اليومية: إنّ فلانا ماهر فى عمله جدّا حتى كأنه يقوم بأعمال سحرية! و قالوا تارة: إنّ المراد أنّه ساحر بنظر جماعة من الناس.

و أمثال هذه التفاسير.

إلّا أنّ العارفين بطريقة تفكير و تحدث الجاهلين المعجبين بأنفسهم و المستكبرين المغرورين و الطواغيت يعلمون أنّ لهؤلاء الكثير من هذه التعابير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۶۹

المتناقضة، فلا عجب من أن يسمّوه ساحرا أوّلا، ثمّ يلجؤون إليه لرفع البلاء، و أخيرا يعدونه بالاهتداء.

بناء على هذا فيجب الحفاظ على ظاهر تعبيرات الآية و الوقوف عندها، إذ لا تبدو هناك حاجة إلى توجيهات و تفاسير أخرى.

و على أية حال، فيظهر من أسلوب الآية أنّهم كانوا يعدون موسى عليه السّلام و عودا كاذبة فى نفس الوقت الذى هم بأمس الحاجة إليه، و حتى فى حال المسكنة و عرض الحاجة لم يتخلوا عن غرورهم، و لذلك عبروا فى طلبهم من موسى ب رَبَّكَ و بِما عَهِدَ عِنْدَكَ و لم يقولوا: ربّنا، و ما وعدنا، أبدا. مع أن موسى قال لهم بصراحة: إنّ رسول ربّ العالمين، لا رسول ربّى.

أجل، إن ضعاف العقول و المغرورين إذا ما تربعوا على عرش الحكم، فسيكون هذا منطقهم و عرفهم و أسلوبهم.

إلّا أن موسى رغم كل هذه التعبيرات اللاذعة و المحقرة لم يكفّ عن السعى لهدايتهم مطلقا، و لم ييأس بسبب عنادهم و تعصبهم، بل استمرّ فى طريقه، و دعا ربّه مرات كى تهدأ عواصف البلاء، و هدأت، لكنّهم كما تقول الآية التالية: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ

كل هذه دروس حيّة و بليغة للمسلمين، و تسلية للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لكى لا ينثوا مطلقا أمام عناد المخالفين و تصلبهم، و لا يدعوا اليأس يخيم على أرواحهم و أنفسهم، بل ينبغى أن يشقوا طريقهم بكل ثبات و رجولة و حزم، كما ثبت موسى عليه السّلام و بنو إسرائيل على مواقفهم، و استمرّوا فى طريقهم حتى انتصروا على الفراعنة.

و هى أيضا تحذير للأعداء اللجوجين المعاندين، بأنهم ليسوا أقوى من فرعون و آل فرعون و لا أشد، فلينظروا عاقبة أمر أولئك، و ليتفكروا فى عاقبتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۰

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۱ الى ۵۶]

اشارة

وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵)

فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶)

التّفسير

إذا كان نبيا فلم لا يملك أسورة من ذهب؟

لقد ترك منطق موسى عليه السّلام من جهة، و معجزاته المختلفة من جهة أخرى، و الابتلاءات و المصائب التى نزلت على رؤوس أهل مصر و التى رفعت ببركة دعاء موسى عليه السّلام من جهة ثالثة، أثرا عميقا فى ذلك المحيط، و زعزعت أفكار الناس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۱

و اعتقادهم بفرعون، و وضعت كل نظامهم الاجتماعى و الدينى موضع سؤال و استفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته و مغالطته أن يمنع نفوذ موسى عليه السّلام عن التأثير فى أفكار شعب مصر، فالتجأ إلى القيم الواهية المنحطة التى كانت حاكمة فى ذلك المحيط، و قارن بينه و بين موسى عليه السّلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقا على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ ۵۰].

أمّا موسى فما ذا يملك؟ لا شىء سوى عصا و لباس صوف! فلمن الشأن الرفيع و المكانة السامية، له أم لى؟ أهو يقول الحق أم أنا؟ افتحوا عيونكم جيدا و تأمّلوا دقيقا فى المسألة.

و بهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعة السيئة، و جعل المال و المقام و الجاه هى معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام فى عصر الجاهلية فى موقفهم أمام نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

التعبير ب «نادى» يوحى بأن فرعون عقد مجلسا عظيما لخبراء البلد و مستشاريه، و خاطبهم جميعا بصوت عال فقال ما قال، أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرسالة فى جميع أنحاء البلاد.

و التعبير بالأنهار، المراد منه نهر النيل، بسبب أن هذا النهر العظيم كالبحر المترامى الأطراف، و كان يتشعب إلى فروع كثيرة تروى كل المناطق العامرة فى مصر.

و قال بعض المفسّرين: كان لنهر النيل (۳۶۰) فرعا، و كان أهمها: نهر الملك، و نهر طولون، و نهر دمياط، و نهر تنيس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۲

أمّا لماذا يؤكّد فرعون على نهر النيل خاصّة؟ فذلك لأنّ كل عمران مصر و ثروتها و قوتها و تطورها كان يستمد طاقته من النيل، من هنا فإنّ فرعون كان يدلّ به، و يفتخر به على موسى.

و التعبير بتجرى من تحتى لا يعنى أن نهر النيل يمر من تحت قصرى، كما قال ذلك جمع من المفسّرين، لأنّ نهر النيل كان أعظم من أن يمرّ من تحت قصر فرعون و لو كان المراد أنّه يمرّ بمحاذاة قصره، فإنّ كثيرا من قصور مصر كانت على هذه الحال، و كان أغلب العمران على حافتى هذا الشط العظيم، بل المراد أنّ هذا النهر تحت أمرى، و نظام تقسيمه على المزارع و المساكن حسب التعليمات التى أريدها.

ثمّ يضيف: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ ۵۱] و بهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين- حكومة مصر، و ملك النيل- و ذكر لموسى نقطتى ضعف: الفقر و لكنة اللسان.

هذا فى الوقت الذى لم يكن بموسى أية لكنة فى اللسان، لأنّ اللّه تعالى قد استجاب دعاءه، و رفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي ۵۲]، و من المسلّم أن دعاءه قد استجيب، و القرآن شاهد على ذلك أيضا.

ليس عيبا عدم امتلاك الثروة الكثيرة، و الألبسة الفاخرة، و القصور المزينة، و التى تحصل عادة عن طريق ظلم المحرومين و الجور عليهم، بل هو فخر و كرامة و سمو.

إنّ التعبير ب «مهين» لعله إشارة إلى الطبقات الاجتماعيّة فى ذلك الزمان، حيث كانوا يظنون أن الأشراف الأقوياء و الأثرياء طبقة متعالية، و الكاد حين الفقراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۳

طبقة واطئة، أو أنّه إشارة إلى أصل موسى حيث كان من بنى إسرائيل، و كان الأقباط يرون أنهم ساداتهم و كبراؤهم.

ثمّ تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال، فَلَوْ لا- أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۵۳] فلو أنّ اللَّه قد جعله رسوله فلما ذا لم يعطه أساور من ذهب، و معاونين له كباقى الرسل؟

يقولون: إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور و القلائد الذهبية، و لذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينة هذه، بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعى الصوفية، و هذا هو حال المجتمع الذى يكون معيار تقييم الشخصية فى نظره الذهب و الفضة و أدوات الزينة.

أمّا أنبياء اللَّه فإنّهم باطراحهم هذه المسائل- بالذات- جانبا كانوا يريدون أن يبطلوا هذه المقاييس الكاذبة، و أن يزرعوا محلها القيم الإنسانية الأصيلة- أى العلم و التقوى و الطهارة- لأنّ نظام القيم إذا لم يصلح فى مجتمع فسوف لن يرى ذلك المجتمع وجه السعادة أبدا.

على أية حال، فإنّ ذريعة فرعون هذه تشبه الذريعة التى نقلت عن مشركى مكّة قبل عدّة آيات حيث كانوا يقولون: لم لم ينزل القرآن على عظيم من مكّة و الطائف؟! و الحجّة الثانية هى تلك الحجّة المعروفة التى كانت تطرحها كثير من الأمم الضالة العاصية فى مواجهة الأنبياء، فكانوا يقولون أحيانا: لماذا أرسل اللَّه بشرا و ليس ملكا؟ و أحيانا أخرى: إذا كان إنسانا فلما ذا لم يأت معه ملك؟

فى حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم، و يحسوا بمشاكلهم و مسائلهم و يجيبوهم، و ليقدروا على أن يكونوا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۴

الناحية العملية قدوة و أسوة لهم ۵۴].

و يلزم أن نذكر هنا أن «الأسورة» جمع سوار، سواء كان من الذهب أم من الفضة.

و تشير الآية التالية إلى نكتة لطيفة، و هى: إنّ فرعون لم يكن غافلا عن واقع الأمر تماما، و كان ملتفتا إلى أن لا قيمة لهذه القيم و المعايير، إلّا أنّه: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ

إنّ طريقة كل الحكومات الجبارة الفاسدة من أجل الاستمرار فى تحقيق أهدافها و أنانياتها، هى الإبقاء على الناس فى مستوى مترد من الفكر و الثقافة و الوعى، و تسعى إلى تركهم حمقى لا يعون ما حولهم باستخدام أنواع الوسائل، فتجعلهم غرقى فى حالة من الغفلة عن الوقائع و الأحداث و الحقائق، و تنصب لهم قيما و موازين كاذبة منحطة بدلا من الموازين الحقيقية، كما تمارس عملية غسل دماغ تام متواصل لهذه الشعوب، و ذلك لأنّ يقظتها و وعيها، و تنامى رشدها الفكرى يشكل أعظم خطر على الحكومات، و يعتبر أكبر عدو للحكومات المستبدة، فهذا الوعى بمثابة ما رد يجب أن تحاربه بكل ما أوتيت من قوّة.

إنّ هذا الأسلوب الفرعونى- أى استخفاف العقول- حاكم على كل المجتمعات الفاسدة فى عصرنا الحاضر، بكل قوّة و استحكام، و إذا كان تحت تصرف فرعون وسائل محدودة توصله إلى نيل هدفه، فإنّ طواغيت اليوم يستخفون عقول الشعوب بواسطة وسائل الاتصال الجماعية، الصحف و المطبوعات، شبكات الراديو و التلفزيون، أنواع الأفلام، بل و حتى الرياضة فى قالب الانحراف، و ابتداع أنواع الأساليب المضحكة المستهجنة، لتغرق هذه الشعوب فى بحر الغفلة، فيطيعوهم و يستسلموا لهم، و لهذا كانت المسؤولية الملقاة على عاتق علماء الدين و الملتزمين به- و الذين يحيون خط الأنبياء الفكرى و العقائدى- ثقيلة فى محاربة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۵

برامج استخفاف العقول، فهى من أهم واجباتهم.

و الطريف أنّ الآية المذكورة تنتهى بجملة: إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم الضالين لو لم يكونوا فاسقين و متمردين على طاعة اللَّه عزّ و جلّ و حكم العقل، لما كانوا يستسلمون لمثل هذه الدعايات و الخزعبلات و يصغون إليها، فهم قد هيؤوا أسباب ضلالهم بأيديهم، و لذلك فإنّهم ليسوا معذورين فى هذا الضلال أبدا.

صحيح أنّ فرعون قد سرق عقول هؤلاء و حملهم على طاعته، إلّا أنّهم قد أعانوه على هذه السرقة باتباعهم الأعمى له.

نعم، كان هؤلاء قوما فاسقين يتبعون فاسقا.

كانت هذه جنايات فرعون و آل فرعون و مغالطاتهم فى مواجهة رسول اللَّه موسى عليه السّلام، لكننا نرى الآن إلى أين وصلت عاقبة أمرهم بعد كل هذا الوعظ و الإرشاد و إتمام الحجج من طرق مختلفة، إذ لم يسملوا للحق:

تقول الآية: فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ فقد اختار اللَّه سبحانه لهؤلاء عقوبة الإغراق بالخصوص من بين كل العقوبات، و ذلك لأنّ كلّ عزّتهم و شوكتهم و افتخارهم و قوّتهم كانت بنهر النيل العظيم و فروعه الكثيرة الكبيرة، و الذى كان فرعون يؤكّد عليه من بين كل مصادر قوته، إذ قال أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي

نعم، يجب أن يكون مصدر حياتهم و قوّتهم، سبب هلاكهم و فنائهم، و يكون قبرا لهم ليعتبر الآخرون! «آسفونا» من مادة الأسف، و هو الحزن و الغم، و يأتى بمعنى الغضب، بل إنّه يقال للحزن المقترن بالغضب أحيانا- على قول الراغب فى مفرداته ۵۵]- و قد يقال لكل منهما على الانفراد. و حقيقته ثوران دم القلب، شهوة الانتقام، فمتى كان ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۶

على من دونه انتشر فصار غضبا، و متى كان على من فوقه انقبض فصار حزنا، و لذلك سئل ابن عباس عن الحزن و الغضب فقال: «مخرجهما واحد و اللفظ مختلف».

و فسر بعضهم «آسفونا» ب (آسفوا رسلنا)، إلّا أن هذا التّفسير يبدو بعيدا، و لا ضرورة لمثل هذا الخلاف الظاهرى.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى أنه لا معنى للحزن و الغم بالنسبة إلى اللَّه سبحانه، و لا الغضب بالمعنى المتعارف بيننا، بل إن غضب اللَّه يعنى «إرادة العقاب»، و رضاه يعنى «إرادة الثواب».

و تقول الآية الأخيرة كاستخلاص لنتيجة مجموع ما مر من كلام: فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ

«السلف» فى اللغة يعنى كل شىء متقدم، و لذلك يقال للأجيال السابقة: سلف، و للأجيال الآتية: خلف، و يسمّون المعاملات التى تتمّ قبل الشراء «سلفا»، لأنّ ثمن المشترى يدفع من قبل.

و المثل يقال للكلام الدائر بين الناس كعبرة، و لما كانت قصة فرعون و الفراعنة و مصيرهم المؤلم عبرة عظمى، فقد ذكرت فى هذه القصة كعبرة للأقوام الآخرين.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۷

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۵۷ الى ۶۲]

اشارة

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (۵۷) وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (۵۸) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ (۵۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (۶۰) وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ

فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۱)
وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (۶۲)

سبب النّزول

جاء فی سیرة ابن هشام: «و جلس رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم یوما- فیما بلغنی- مع الولید بن المغیرة فی المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتی جلس معهم فی المجلس، و فی المجلس غیر واحد من رجال قریش، فتکلم رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم فعرض له النضر بن الحارث، فکلمه رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم حتی أفحمه ثمّ تلا علیه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۸

و علیهم: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ* لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها وَ كُلٌّ فِيها خالِدُونَ ....

ثمّ قام رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم، و أقبل عبد اللَّه بن الزبعری السهمی حتی جلس، فقال الولید بن المغیرة له، و اللَّه ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا و ما قعد، و قد زعم محمّد أنا و ما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد اللَّه: أما و اللَّه لو وجدته لخصمته، فسلوا محمّدا: أکل ما یعبد من دون اللَّه فی جهنم مع من عبده؟

فنحن نعبد الملائکة، و الیهود تعبد عزیرا، و النصاری تعبد عیسی بن مریم علیهم السّلام، فعجب الولید و من کان معه فی المجلس من قول عبد اللَّه بن الزّبعری، و رأوا أنّه قد احتجّ و خاصم، فذکر ذلک لرسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم من قول ابن الزبعری، فقال رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم: «إن کل من أحبّ أن یعبد من دون اللَّه فهو مع من عبده، إنّهم إنّما یعبدون الشیاطین و من أمرتهم بعبادته»[۵۶].

فنزلت الآیة الشریفة (۱۰۱) من سورة الأنبیاء: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ و کذلک نزلت الآیة: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

***

التّفسیر

أی الالهة فی جهنم؟

تتحدث هذه الآیات حول مقام عبودیة المسیح علیه السّلام، و نفی مقولة المشرکین بألوهیته و ألوهیة الأصنام، و هی تکملة للبحوث التی مرت فی الآیات السابقة حول دعوة موسی و محاربته للوثنیة الفرعونیة، و تحذیر لمشرکی عصر النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم و کل مشرکی العالم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۷۸

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۷۹

و بالرغم من أنّ الآیات تتحدث بإبهام، إلّا أنّ محتواها لیس معقّدا و لا غامضا للقرائن الموجودة فی نفس الآیات، و آیات القرآن الأخری، رغم التفاسیر المختلفة التی ذکرها المفسّرون.

تقول الآیة الأولی: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۵۷].

أىّ مثل كان هذا؟ و من الذى قاله فى حقّ عيسى بن مريم؟

هذا هو السؤال الذى اختلف المفسّرون فى جوابه على اقوال، إلّا أنّ الدقّة فى الآيات التالية توضح أنّ المثل كان من جانب المشركين، و ضرب فيما يتعلق بالأصنام، لأنّا نقرأ فى الآيات التالية: ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا.

بملاحظة هذه الحقيقة، و ما جاء فى سبب النّزول، يتّضح أن المراد من المثل هو ما قاله المشركون استهزاء لدى سماعهم الآية الكريمة: إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ۵۸]، و كان ما قالوه هو أن عيسى بن مريم قد كان معبودا، فينبغى أن يكون فى جهنم بحكم هذه الآية، و أى شىء أفضل من أن نكون نحن و أصنامنا مع عيسى؟! قالوا ذلك و ضحكوا و استهزءوا و سخروا! ثمّ استمرّوا: وَ قالُوا أَ آلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فإذا كان من أصحاب الجحيم، فإنّ آلهتنا ليست بأفضل منه و لا أسمى.

و لكن، اعلم أنّ هؤلاء يعلمون الحقيقة، و ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۵۹].

إنّ هؤلاء يعلمون جيدا أنّ الآلهة الذين يردون جهنم هم الذين كانوا راضين بعبادة عابديهم، كفرعون الذى كان يدعوهم إلى عبادته، لا كالمسيح عليه السّلام الذى كان و لا يزال رافضا لعملهم هذا، و متبرءا منه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۰

بل: إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَ جَعَلْناهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرائِيلَ فقد كانت ولادته من غير أب آية من آيات اللَّه، و تكمله فى المهد آية أخرى، و كانت كل معجزة من معجزاته علامة بينة على عظمة اللَّه سبحانه، و على مقام النبوّة.

لقد كان عيسى مقرا طوال حياته بالعبودية للَّه، و دعا الجميع إلى عبوديته سبحانه، و لما كان موجودا فى أمته لم يسمح لأحد بالانحراف عن مسير التوحيد، و لكن المسيحيين أوجدوا خرافة ألوهية المسيح، أو التثليث، بعده ۶۰].

و الطريف أن نقرأ فى روايات عديدة وردت عن طريق الشيعة و السنة،

أنّ النبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «إنّ فيك مثلا من عيسى، أحبّه قوم فهلكوا فيه، و أبغضه قوم فهلكوا فيه»

فقال المنافقون: أما رضى له مثلا إلّا عيسى، فنزل قوله تعالى:

وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ

و ما قلناه متن رواية أوردها الحافظ أبو بكر بن مردويه- من علماء أهل السنة المعروفين- فى كتاب المناقب. طبقا لنقل كشف الغمة صفحة ۹۵.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۱

و قد نقل جمع آخر من علماء السنة، و كبائر علماء الشيعة هذه الحادثة فى كتب عديدة، تارة بدون ذكر الآية أعلاه، و أخرى مع ذكرها[۶۱].

إنّ القرائن الموجودة فى الآيات توحى بأن هذا الحديث المعروف من قبيل تطبيق المصداق، لا أنه سبب النّزول، و بتعبير آخر: فإنّ سبب نزول الآية هو قصة عيسى و قول المشركين و أصنامهم، لكن لما وقع لعلى عليه السّلام حادث شبيه لذاك بعد ذلك القول التاريخى للنبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، فإنّه صلى اللَّه عليه و آله و سلّم تلا هذه الآية هنا ليبين أنّ هذا الحادث كان مصداقا لذاك من جهات مختلفة.

و لئلا يتوهموا أنّ اللَّه سبحانه محتاج لعبوديتهم، و أنّه يصر عليها، فإنّه تعالى يقول فى الآية التالية: وَ لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ملائكة تخضع لأوامر اللَّه، و لا تعرف عملا إلّا طاعته و عبادته.

و اختار جمع من المفسّرين تفسيرا آخر للآية، يصبح معنى الآية على أساسه:

و لو نشاء لجعلنا أبناءكم ملائكة يخلفونكم فى الأرض. بناء على هذا فلا تعجبوا من أن يولد المسيح من دون أب، فإنّ اللَّه عزّ و جلّ قادر على أن يخلق ملكا من الإنسان، و هو نوع يختلف عنه ۶۲].

و لما كان تولد الملك من الإنسان لا يبدوا مناسبا، فقد فسّره بعض كبار المفسّرين بولادة الأبناء الذين يتمتعون بصفات الملائكة، و قالوا: إنّ المراد: لا تعجبوا من أن تكون لعبد كالمسيح القدرة على إحياء الموتى، و إبراء المرضى بإذن اللَّه، و هو فى الوقت نفسه عبد مخلص مطيع لأمر اللَّه، فإنّ اللَّه قادر على أن يخلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۲

من أبنائكم من تكون فيه كل صفات الملائكة و طبائعهم ۶۳].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية أكثر من الجميع، و هذه التفاسير بعيدة[۶۴].

و الآية التالية إشارة إلى خصيصة أخرى من خصائص المسيح عليه السّلام فتقول: إنّ عيسى سبب العلم بالساعة وَ إِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ إمّا أن ولادته من غير أب دليل على قدرة اللَّه اللامتناهية، فتحل على ضوئها مسألة الحياة بعد الموت، أو من جهة نزول المسيح عليه السّلام من السماء فى آخر الزمان طبقا لروايات عديدة، و نزوله هذا دليل على اقتراب قيام الساعة.

يقول جابر بن عبد اللَّه: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلّم يقول: «ينزل عيسى بن مريم، فيقول أميرهم: تعالى صلّ بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة من اللَّه لهذه الأمّة»[۶۵].

و نقرأ

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم و إمامكم منكم»[۶۶].

و على أية حال، فإنّ إطلاق (العلم) على المسيح نوع من التأكيد و المبالغة، و هو إشارة إلى أن نزوله من علامات القيامة حتما.

و احتمل أيضا أن يعود الضمير فى (أنه) على القرآن، و على هذا يكون معنى الآية: إنّ نزول القرآن الذى هو آخر الكتب السماوية، دليل على اقتراب الساعة، و يخبر عن قيام القيامة.

غير أنّ الآيات السابقة و اللاحقة حول عيسى تقوى التّفسير الأوّل.

ثمّ تقول الآية بعد ذلك: إنّ قيام الساعة حتم، و وقوعها قريب، فَلا تَمْتَرُنَّ بِها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۳

لا من حيث الإعتقاد بها و لا من حيث الغفلة عنها.

وَ اتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ و أى صراط أكثر استقامة من الذى يخبركم بالمستقبل الخطير الذى ينتظركم، و يحذركم منه، و يدلكم على طريق النجاة من أخطار يوم البعث؟! إلّا أن الشيطان يريد أن يبقيكم فى عالم الغفلة و الارتباط بها، فاحذروا: وَ لا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

لقد أظهر عداءه لكم منذ اليوم الأوّل، مرّة عند وسوسته لأبيكم و أمكم- آدم و حواء- و إخراجهما من الجنّة، و أخرى عند ما أقسم على إضلال بنى آدم و إغوائهم، إلّا المخلصين منهم، فكيف تخضعون أمام هكذا عدو لدود أقسم على أذاكم و دفعكم إلى الهاوية السحيقة؟ و كيف تسمحون له أن يتسلط على قلوبكم و أرواحكم، و أن يمنعكم عن طريق الحق بوساوسه المستمرة؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۴

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۶۳ الى ۶۵]

اشارة

وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۶۳) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (۶۴) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۶۵)

التّفسير

الذين غالوا فى المسيح:

مرت الإشارة إلى جانب من خصائص حياة المسيح عليه السّلام فى الآيات السابقة، و تكمل هذه الآيات ذلك البحث، و تؤكّد بالخصوص على دعوة المسيح إلى التوحيد الخالص، و نفى كل شكل من أشكال الشرك.

تقول الآية أوّلا: وَ لَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و بهذا فقد كانت «البينات»- أى آيات اللَّه و المعجزات- رأسمال عيسى، إذ كانت تبين حقانيته من جانب، و تبين من جانب آخر الحقائق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۵

المرتبطة بالمبدأ و المعاد و احتياجات حياة البشر.

و يصف عيسى عليه السّلام محتوى دعوته ب «الحكمة» فى عبارته، و نحن نعلم أن أساس الحكمة هو المنع من شىء بقصد إصلاحه، ثمّ أطلقت على كل العقائد الحقّة، و برامج الحياة الصحيحة التى تصون الإنسان من أنواع الانحراف فى العقيدة و العمل، و تتناول تهذيب نفسه و أخلاقه، و على هذا فإنّ للحكمة هنا معنى واسعا يشمل «الحكمة العلمية» و «الحكمة العملية».

و لهذه الحكمة- إضافة إلى ما مرّ- هدف آخر، و هو رفع الاختلافات التى تخلّ بنظام المجتمع، و تجعل الناس حيارى مضطربين، و لهذا السبب نرى المسيح عليه السّلام يؤكّد على هذه المسألة.

و هنا يطرح سؤال التفت إليه أغلب المفسّرين، و هو: لماذا يقول: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ و لم لا يبيّن الجميع؟

و قد ذكرت أجوبة عديدة لهذا السؤال، و أنسبها هو:

إنّ الاختلافات التى بين الناس نوعان: منها ما يكون مؤثرا فى مصيرهم من الناحية العقائدية و العملية، و منها ما يكون فى الأمور غير المصيرية، كالنظريات المختلفة حول نشأة المنظومة الشمسية و السماوات، و كيفية الأفلاك، و النجوم، و ماهية روح الإنسان، و حقيقة الحياة، و أمثال ذلك.

و من الواضح أنّ الأنبياء مكلّفون أن ينهوا الاختلافات من النوع الأوّل و يقتلعوها بواسطة تبيان الحقائق، و لكنّهم غير مكلّفين برفع أى اختلاف كان حتى و إن لم يكن له تأثير فى مصير الإنسان مطلقا.

و يحتمل أيضا أن تبيان بعض الاختلافات نتيجة و غاية لدعوة الأنبياء، أى إنّهم سيوفقون أخيرا فى حل بعض هذه الاختلافات، أمّا حلّ جميع الاختلافات فى الدنيا فإنّه أمر غير ممكن، و لذلك تبيّن آيات متعددة من القرآن المجيد أن أحد خصائص القيامة هو ارتفاع كل الاختلافات و انتهاؤها، فنقرأ فى الآية (۹۲) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۶

سورة النحل: وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ ما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

و قد جاء هذا المعنى فى الآيات، ۵۵- آل عمران، ۴۸- المائدة، ۱۶۴- الأنعام، ۶۹- الحج، و غيرها[۶۷].

و تضيف الآية فى النهاية: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ

بعد ذلك، و من أجل أن ترفع كل نوع من الإبهام فى مسألة عبوديته، تقول الآية:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَ رَبُّكُمْ

الملفت للانتباه تكرار كلمة «الرب» مرّتين فى هذه الآية، مرّة فى حقّه، و أخرى فى حق الناس، ليوضح للناس أنّى و إيّاكم متساوون، و

ربّى و ربّكم واحد. و أنا مثلكم محتاج فى كل وجودى إلى الخالق المدبر، فهو مالكى و دليلى.

و للتأكيد أكثر يضيف: فَاعْبُدُوهُ إذ لا يستحق العبادة غيره، و لا تليق إلّا به، فهو الرب و الكل مربوبون، و هو المالك و الكل مملوكون.

ثمّ يؤكّد كلامه بجملة أخرى حتى لا تبقى لمتذرع ذريعة، فيقول: هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ۶۸].

نعم، إنّ الصراط المستقيم هو طريق العبودية للَّه سبحانه ... ذلك الطريق الذى لا انحراف فيه و لا اعوجاج، كما جاء فى الآية (۶۱) من سورة يس: وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ

لكن العجب أن يختلف أقوام من بعده مع كل هذه التأكيدات: (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)[۶۹]:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۷

فالبعض ذهب إلى أنّه الرب الذى نزل إلى الأرض! و بعض آخر اعتبره ابن ربّه.

و آخرون بأنّه أحد الأقانيم الثلاثة (الذوات المقدسة الثلاثة: الأب، و الابن، و روح القدس).

و هناك فئة قليلة فقط هم الذين اعتبروه عبد اللَّه و رسوله، غير أن عقيدة الأغلبية هى التى هيمنت، و عمت مسألة التثليث و الآلهة الثلاثة عالم المسيحية.

و قد نقل فى هذا الباب حديث تاريخى جميل أوردناه فى ذيل الآية (۳۶) من سورة مريم.

و يحتمل أيضا فى تفسير الآية، أنّ هذا الاختلافات لم يكن بين المسيحيين و حسب، بل حدث بين اليهود و النصارى فى المسيح، فغالى أتباعه فيه، و أو صلوه إلى مقام الألوهية، فى حين اتهمه و أمّه الطاهرة أعداؤه بأشنع الاتهامات، و هكذا سلوك الجاهلين و عرفهم، بعضهم صوب الإفراط، و آخرون نحو التفريط، أو هم- على حد تعبير أمير المؤمنين على عليه السّلام- بين محب غال و بين مبغض قال، حيث

يقول عليه السّلام: «هلك فىّ رجلان: محب غال، و مبغض قال»[۷۰]!

و كم هى متشابهة أحوال هذين العظيمين! و هددهم اللَّه سبحانه فى نهاية الآية بعذاب يوم القيامة الأليم، فقال: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ۷۱].

نعم، إنّ يوم القيامة يوم أليم، فطول حسابه أليم، و عقوباته أليمة، و حسرته و غمه أليمان، و خزيه و فضيحته أليمان أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۸

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۶۶ الى ۶۹]

اشارة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۶۶) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (۶۷) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (۶۸) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ (۶۹)

التّفسير

ماذا تنتظرون غير عذاب الآخرة؟

كان الكلام فى الآيات السابقة يدور حول عبدة الأوثان العنودين، و كذلك حول المنحرفين و المشركين فى أمّة عيسى عليه السّلام، و الآيات مورد البحث تجسد عاقبة أمرهم، يقول تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ

لقد طرح هذا السؤال بصورة الاستفهام الإنكارى، و هو فى الحقيقة بيان لواقع حال أمثال، هؤلاء الأفراد، كما نقول فى مقام ذم شخص

لا يصغى إلى نصيحة ناصح، و يهيء عوامل فنائه بيده: إنّه بانتظار حتفه فقط!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۸۹

و المراد من «الساعة» فى هذه الآية- ككثير من آيات القرآن الأخرى- هو يوم القيامة، لأنّ الحوادث تقع سريعة حتى كأنّها تحدث فى ساعة واحدة.

و جاءت هذه الكلمة- أيضا- بمعنى لحفظة انتهاء الدنيا، و لما لم يكن بين هذين المعنيين كبير فرق، فمن الممكن أن يكون هذا التعبير شاملا لكلا المعنيين.

و على أية حال، فقد وصف قيام الساعة، الذى يبدأ بانتهاء الدنيا المفاجئ، بوصفين فى الآية أعلاه: الأوّل: كونه بغتة، و الآخر: عدم علم عامة الناس بتأريخ وقوعها و حدوثها.

من الممكن أن يحدث حدث فجأة، و لكنّا نتوقع حدوثه من قبل، و نكون على استعداد لمواجهة المشاكل التى تنجم عنه، إلّا أن سوء الحظ و التعاسة فى أن تقع فاجعة قاسية و صعبة جدّا، بصورة مفاجئة و نحن غافلون عنها تماما.

هكذا بالضبط حال المجرمين، فهم يؤخذون و هم فى غفلة تامة، بحيث تصور الروايات الواردة

عن نبيّ الإسلام الأكرم صلى اللَّه عليه و آله و سلّم ذلك فتقول: «تقوم الساعة و الرجلان يحلبان النعجة، و الرجلان يطويان الثوب، ثمّ قرأ صلى اللَّه عليه و آله و سلّم: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ ۷۲].

و أى شيء آلم من أن يكون الإنسان غافلا أمام مثل هذه الحادثة التى ليس فيها أى طريق أو منفذ للرجوع و الخلاص، و يغرق فى أمواجها من دون أن يكون معدّا لمستلزمات النجاة؟

ثمّ رفعت الآية الغطاء عن حالة الأخلاء الذين يودّ بعضهم بعضا، و يسيرون معا فى طريق المعصية و الفساد، و الاغترار بزخارف الدنيا، فتقول: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۰

إن هذه الآية التى تصف مشهدا من مشاهد القيامة، تبيّن بوضوح أنّ المراد من الساعة فى الآية السابقة هو يوم القيامة أيضا، اليوم الذى تنفصم فيه عرى العلاقات الأخوية و الصداقة و الرفقة، إلّا العلاقات التى قامت للَّه و فى اللَّه و باسمه.

إن تبدل مثل هذه المودة إلى عداوة فى ذلك اليوم أمر طبيعى، لأنّ كلا منهم يرى صاحبه أساس تعاسته و سوء عاقبته، فأنت الذى دللتنى على هذا الطريق و دعوتنى إليه، و أنت الذى زينت الدنيا فى نظرى و رغبتنى فيها و أطمعتنى.

نعم، أنت الذى أغرقتنى فى بحر الغفلة و الغرور، و جعلتنى جاهلا بمصيرى، غافلا عنه.

و هكذا يقول كل واحد منهم لصاحبه مثل هذه المطالب، إلّا المتقين الذين تبقى روابط أخوتهم، و أواصر مودّتهم خالدة، لأنّها تدور حول محور القيم و المعايير الخالدة، و تتّضح نتائجها المثمرة فى عرصة القيامة أكثر، فتمنحها قوّة إلى قوّتها.

من الطبيعى أنّ الأخلاء يعين بعضهم بعضا فى أمور الحياة، فإن كانت خلتهم على أساس الشرّ و الفساد، فهم شركاء فى الذنب و الجريمة، و إن كانت على أساس الخير و الصلاح فهم شركاء فى الثواب و العطية، و على هذا فلا مجال للعجب من أن يتبدل الخليل من القسم الأوّل الى عدوّ، و من القسم الثّانى إلى خليل يشتد حبّه و مودّته أكثر من ذى قبل.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «ألا كل خلّة كانت فى الدنيا فى غير اللَّه عزّ و جلّ فإنّها تصير عداوة يوم القيامة»[۷۴].

و الآية التالية- فى الحقيقة- تبيان لأوصاف المتقين و أحوالهم، و بيان لعاقبتهم التى تبعث على الفخر و الاعتزاز.

فى ذلك اليوم العصيب يقول لهم اللَّه تعالى: يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۱

كم هو جميل هذا النداء؟! نداء مباشر من اللَّه سبحانه من دون واسطة توصله ...

نـداء يبـدأ بـأحسن الصـفات: يـا عبـاد اللّه! نـداء يزيل قلق الإنسان فى يوم ليس فيه إلّا القلق و الاضـطراب ... نـداء يطهر القلب من غم الماضى و حزنه، و ينقيه ...

نعم، لهذا النداء هذه المزايا الأربعة المذكورة.

و تبيّن آخر آيـة- من هـذه الآيات- هؤلاء المتقين و العباد المكرمين بصورة أكثر وضوحا، بـذكر جملتين أخريين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ

أجل، هؤلاء هم الذين يخاطبون بمثل هذا الخطاب العظيم، و يسبحون فى تلك النعم.

إن هـاتين الجملتين تعريف بليغ باعتقادات هؤلاء و أعمالهم، فهما تبينان إيمانهم الـذى هو أساس عقيـدتهم الثابت، و تبينان إسـلامهم فى تسليمهم لأمر اللّه سبحانه و تنفيذ أوامره.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۲

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۰ الى ۷۳]

اشارة

ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (۷۰) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (۷۱) وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷۲) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ (۷۳)

التّفسير

اشارة

فيها ما تشتهيه الأنفس و تلذ الأعين:

تبيّن هـذه الآيات جزاء عباد اللّه المخلصـين، و المؤمنين الصالحين الـذين مرّ وصـفهم فى الآيات السابقة، و تبشـرهم بالجنّة الخالدة مع ذكر سبع نعم من نعمها النفيسة الغالية.

تقول أوّلا: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ و بذلك فإنّ مضيفهم الحقيقى هو اللّه تعالى الذى يدعو ضيوفه و يقول لهم: أدخلوا الجنّة.

ثمّ أشـارت إلى أول نعمـة من تلـك النعم، فقـالت: أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ و من الواضـح أنّ كـون المؤمنين الرحمـاء إلى جـانب زوجـاتهم المؤمنات يمنحهما معا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۳

اللذة و السرور، فإذا كانا شريكين فى همّ الدنيا، فإنّهما سيكونان شريكين فى سرور الآخرة و نشوتها.

و قـد فسّـر بعضـهم «الأزواج» هنا بالمتساوين فى الدرجـة و الأصدقاء و الأقارب، فلو صحّ فوجودهم نعمة عظيمة، إلّا أنّ ظاهر الآية هو المعنى الأوّل.

ثمّ تضيف: تُحْبَرُونَ

«تحبرون» من مادة حبر- وزن فكر- أى الأثر المطلوب، و تطلق أحيانا على الزينة و آثار الفرح التى تظهر على الوجه، و إذا قيل للعلماء أحبار، فلآثارهم التى تبقى بين المجتمعات البشرية، كما

يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام: «العلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة، و أمثالهم فى القلوب موجودة»[۷۵].

و تقول فى بيان النعمة الثالثة: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ أَكْوابٍ فهم يضافون و يخدمون بأفضل الأوانى، و ألذّ الأطعمة، فى منتهى الهدوء و الاطمئنان و الصفاء.

«الصحاف» جمع صحفة، و هى فى الأصل من مادة صحف، أى التوسع، و تعنى هنا الأوانى الكبيرة الواسعة و الأكواب جمع كوب، و هى أقداح الماء التى لا عروة لها.

و مع أنّ الكلام فى الآية عن الصحاف الذهبية، دون طعامهم و شرابهم، إلّا أن من البديهى أنّ الذين يخدمونهم لا يطوفون عليهم بصحاف خالية مطلقا.

و تشير فى الرابعة و الخامسة إلى نعمتين أخريين جمعت فيهما كلّ نعم العالم المادية و المعنوية، فتقول: وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ و على قول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: لو أنّ جميع الخلائق قد اجتمعت لوصف أنواع نعم الجنّة، فسوف لا يقدرون أن يضيفوا شيئا على ما جاء فى هذه الجملة أبدا.

و أى تعبير أجمل من هذا التعبير و أجمع منه؟ فهو تعبير بسعة عالم الوجود،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۴

و بسعة ما يخطر فى أذهاننا اليوم و ما لا يخطر، تعبير ليس فوقه تعبير.

و الطريف أن مسألة شهية النفس قد بيّنت منفصلة عن لذة العين، و هذا الفصل عميق المعنى: فهل هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، من جهة أنّ للذّة النظر أهمية خاصّة تفوق اللذات الأخرى؟ أم هو من جهة أن جملة: ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ تبيّن لذات الذوق، و الشم و السمع و اللمس، أمّا جملة: تَلَذُّ الْأَعْيُنُ فهى تبيان للذة العين و النظر.

و يعتقد البعض أنّ جملة: ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ إشارة إلى كلّ اللذات الجسمية، فى حين أن جملة: تَلَذُّ الْأَعْيُنُ مبينة للذات الروحية، و أى لذة فى الجنة أسمى من أن ينظر الإنسان بعين القلب إلى جمال اللَّه الذى لا يشبهه جمال، فإنّ لحظة من تلك اللحظات تفوق كل نعم الجنة المادية.

و من البديهى أنّ شوق الحبيب كلما زاد، كانت لذة الإلقاء أعظم.

سؤال:

و هنا يطرح سؤال، و هو: هل أنّ سعة عمومية مفهوم هذه الآية، دليل على أنّهم يطلبون من اللَّه هناك أن يمنحهم أمورا كانت حراما فى الدنيا؟

و الجواب:

إنّ طرح هذا السؤال ناتج عن عدم الالتفات إلى نكتة، و هى أنّ المحرمات و القبائح كالغذاء المضر لروح الإنسان، و من المسلم أنّ الروح السالمة الصحيحة لا تشتهى مثل هذه الغذاء، و تلك التى تميل أحيانا إلى السموم و الأغذية المضرة هى الأرواح المريضة.

إنّنا نرى، بعض المرضى يميلون حتى فى حالة المرض إلى تناول التراب أو أشياء أخرى من هذا القبيل، إلّا أنّهم بمجرّد أن يزول عنهم المرض تزول عنهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۵

هذه الشهية الكاذبة.

نعم، إنّ أصحاب الجنّة سوف لا ـ يميلون أبدا إلى مثل هذه الأعمال، لأن ميل الروح و انجذابها إليها من خصائص أرواح أصحاب الجحيم المريضة.

إنّ هذا السؤال يشبه ما

ورد فى الحديث من أن أعرابيا أتى النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم، و قال:

هل فى الجنّة إبل؟ فإنّى أحبّها حبّا جمّا، فالتفت إليه النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم الذى كان يعلم أن فى الجنّة نعما سينسى معها الأعرابى الإبل، و أجابه بعبارة قصيرة فقال: «يا أعرابى، إن أدخلك اللَّه الجنّة أصبت فيها ما اشتهت نفسك و لذت عينك»[۷۶].

و بتعبير آخر: فهناك العالم الذى ينسجم فيه الإنسان مع الحقائق تماما.

و على كل حال، لما كانت قيمة النعمة فى كونها خالدة، فقد طمأنت الآية أصحاب النعيم من هذه الجهة عند ما ذكرت الصفة السادسة فقالت: وَ أَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ لئلّا يكدر التفكير فى زوال هذه النعمة صفو عيشهم و لذّتهم، فيقلقوا من المستقبل و ما يخبئه.

و هنا، من أجل أن يتّضح أن كل نعم الجنّة هذه تعطى جزاء لا اعتباطا و عبثا، تضيف الآية: وَ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و الطريف فى الأمر أنّ الآية تطرح مجازاة الأعمال و كون الجنّة فى مقابلها من جهة، و من جهة أخرى تجعلها إرثا، و هو يستعمل عادة فى الموارد التى تصل فيها النعمة إلى الإنسان من دون أن يبذل جهدا أو سعيا فى تحصيلها، و هذه إشارة إلى أنّ أعمالكم هى أساس خلاصكم و نجاتكم، إلّا أن ما تحصلون عليه إذا ما قورن بأعمالكم فهو كالشىء المجانى المعطى من قبل اللَّه تعالى، و كالهبة حصلتم عليها بفضله.

و يعتبر البعض هذا التعبير إشارة إلى ما قلناه سابقا من أن لكل إنسان منزلا فى الجنّة و محلا فى الجحيم، فيرث أصحاب الجنّة منازل أصحاب النّار، و يرث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۶

أصحاب النّار أمكنة أصحاب الجنّة! إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو هو الأنسب.

و الكلام فى النعمة السابعة و الأخيرة فى ثمار الجنّة التى هى من أفضل نعم اللَّه، فتقول الآية: لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ

لقد كانت الصحاف و الأكواب بيانا لأنواع الأطعمة و الأشربة فى الواقع، أمّا الفواكه فلها حسابها الخاص، و قد أشير إليه فى آخر آية من هذه الآيات.

و الجميل أنّها تبيّن بتعبير (منها) حقيقة أنّ فاكهة الجنّة كثيرة جدّا بحيث لا ـ تتناولون إلّا جزءا منها، و على هذا فإنّها لا تفنى، و أشجارها مثمرة دائما.

و

جاء فى الحديث: «لا ينزع رجل فى الجنّة ثمرة من ثمرها إلّا نبت مثلها مكانها»[۷۷].

كانت هذه بعض نعم الجنّة التى تبعث الحياة فى النفوس، و هى بانتظار ذوى الإيمان القوى البيّن، و الأعمال الصالحة النبيلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۷

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۷۴ الى ۸۰]

اشارة

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (۷۴) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (۷۵) وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (۷۶) وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (۷۷) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (۷۸)
أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (۷۹) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (۸۰)

التّفسير

نتمنى أن نموت لنستريح من العذاب:

لقد فصّلت هذه الآيات القول فى مصير المجرمين و الكافرين فى القيامة، ليتّضح الفرق بينه و بين مصير المؤمنين- المطيعين لأمر اللَّه- المشرف السعيد من خلال المقارنة بين المصيرين.

تقول الآية الأولى: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ

«المجرم» من مادة جرم، و هو فى الأصل بمعنى القطع الذى يستعمل فى قطع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۸

الثمار من الشجرة- أى القطف- و كذلك فى قطع نفس الشجرة، إلّا أنّه استعمل فيما بعد فى القيام بكل عمل سيء، و ربّما كان سبب هذا الاستعمال هو أنّ هذه الأعمال تفصل الإنسان عن ربّه و عن القيم الإنسانية، و تبعده عنهما.

لكن من المسلم هنا أنّه لا يريد كل المجرمين، و إنّما المراد هم المجرمون الذين اتخذوا سبيل الكفر سبيلا لهم، بقرينة ذكر مسألة الخلود و العذاب الخالد، و بقرينة المقارنة بالمؤمنين الذين مرّ الكلام عنهم فى الآيات السابقة. و يبدو بعيدا ما قاله بعض المفسّرين من أنها تشمل كل المجرمين.

و لما كان من الممكن أن يخفف العذاب الدائمى بمرور الزمان، و تقل شدته تدريجيا، فإنّ الآية التالية تضيف: لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ و على هذا فإنّ عذاب هؤلاء دائم من ناحيتى الزمان و الشدّة، لأنّ الفتور يعنى السكون بعد الحدة، و اللين بعد الشدة، و الضعف بعد القوّة كما يقول الراغب فى مفرداته.

«مبلس» من مادة «إبلاس»، و هى فى الأصل الحزن الذى يصيب الإنسان من شدة التأثر و الانزعاج، و لما كان هذا الهم و الحزن يدعو الإنسان إلى السكوت، فقد استعملت مادة الإبلاس بمعنى السكوت و الامتناع عن الجواب أيضا. و لما كان الإنسان ييأس من خلاص نفسه و نجاته فى الشدائد العصيبة، فقد استعملت هذه المادة فى مورد اليأس أيضا، و لهذا المعنى سمى «إبليس» إبليس، إذ أنّه آيس من رحمة اللَّه.

على أية حال، فإنّ هاتين الآيتين قد أكدتا على ثلاث مسائل: مسألة الخلود، و عدم تخفيف العذاب، و الحزن و اليأس المطلق. و ما أشد العذاب الذى تمتزج فيه هذه الأمور الثلاثة و تجتمع.

و تنبه الآية التالية إلى أنّ هؤلاء هم الذين أرادوا هذا العذاب الأليم، و اشتروه بأعمالهم و بظلمهم لأنفسهم، فتقول: وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ

فكما أن الآيات السابقة قد بينت أن منبع كل تلك النعم اللامتناهية هى أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۹۹

المؤمنين المتقين، فإن هذه الآيات تعد أعمال هؤلاء الظالمين سبب هذا العذاب الخالد و منبعه. و أى ظلم أكبر من أن يكذّب الإنسان بآيات اللّه سبحانه، و يضرب جذور سعادته بمعول الكفر و الافتراء: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ [۷۸] نعم، إن القرآن يرى

ارادة الإنسان و أعماله السبب الأساسى لكل سعادة أو شقاء، لا المسائل الظنية و الوهمية التى اصطنعها البعض لأنفسهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى بيان جانب من مذلة هؤلاء و مسكنتهم، فقالت، وَ نادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ فمع أن كل امرئ يهرب من الموت و يريد استمرار الحياة و بقاءها، إلّا أنّه عند ما تتوالى عليه المصائب أحيانا و يضيق عليه الخناق يتمنى على اللّه الموت، و إذا كانت هذه الأمنية قد تحدث أحيانا لبعض الناس فى الدنيا، فانّها تعمّ جميع المجرمين هناك، فكلهم يتمنى الموت.

و لكن حيث لا فائدة من ذلك، فإنّ مالك النّار و خازنها يجيبهم: قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ ۷۹].

و العجيب أنّ خازن النّار يجيبهم بعد ألف سنة- برأى بعض المفسّرين- و بكل احتقار و عدم اهتمام، فما أشد إيلام هذا الاحتقار[۸۰].

قد يقال: كيف يطلب هؤلاء مثل هذا الطلب مع يقينهم أن لا- موت هناك؟ غير أن مثل هذا الطلب طبيعى من إنسان أحاطت به المصائب و الآلام، و قطع أمله من كل شىء.

أجل، إنّ هؤلاء عند ما يرون كل سبل النجاة مغلقة فى وجوههم، سيطلقون هذه الصرخة من أعماق قلوبهم، و لكن حق القول عليهم بالعذاب، فلا فائدة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۰

صراخهم، و لا صريخ لهم.

أمّا لماذا لا يطلب هؤلاء الموت من اللّه مباشرة، بل يقولون لمالك: لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ فلأنّهم فى ذلك اليوم محجوبون عن ربّهم، كما نقرأ ذلك فى الآية (۱۵) من سورة المطففين: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ و لذلك يطلبون طلبتهم هذه من ملك العذاب. أو بسبب أن مالكا ملك مقرب عند اللّه سبحانه.

و تقول الآية الأخرى، و التى هى فى الحقيقة علة لخلود هؤلاء فى نار جهنم:

لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ

و للمفسّرين رأيان مختلفان فى أن هذا الكلام هل هو من قبل مالك خازن النّار، و أن ضمير الجمع يعود على الملائكة و منهم مالك، أم أنّه كلام اللّه تعالى؟

السياق يوجب أن يكون الكلام كلام مالك، لأنّه أتى بعد كلامه السابق، إلّا أنّ محتوى نفس الآية ينسجم مع كونه كلام اللّه تعالى، و الشاهد الآخر لهذا الكلام الآية (۷۱) من سورة الزمر: وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ فهنا يعد الملائكة الرسل هم الذين جاؤوا بالحق، لا هم.

و للتعبير «بالحق» معنى واسع يشمل كل الحقائق المصيرية، و إن كانت مسألة التوحيد و المعاد و القرآن تأتى فى الدرجة الأولى.

و هذا التعبير يشير- فى الحقيقة- إلى أنّكم لم تخالفوا الأنبياء فحسب، و إنّما خالفتم الحق فى الواقع، و هذه المخالفة هى التى ساقتكم إلى العذاب الخالد الأبدى.

و تعكس الآية التالية جانبا من كراهية هؤلاء للحق و اشمئزازهم منه، و كذلك مناصرتهم للباطل و التمسك به، فتقول: أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۸۱] فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس و دبروا المؤامرات لإطفاء نور الإسلام، و قتل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتورعوا فى إنزال الضربات بالإسلام و المسلمين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۱

و فى المقابل أردنا أن نجازى هؤلاء فى هذه الحياة الدنيا، و فى الآخرة بأشد العذاب.

و يرى بعض المفسّرين أن سبب نزول هذه الآية هو قضية مؤامرة قتل النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل الهجرة، و التى أشير إليها فى الآية (۳۰) من سورة الأنفال: وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...[۸۲].

و الظاهر أن هذا من قبيل التطبيق، لا أنه سبب النّزول ...

و الآيـة الأـخرى بيان لإحـدى علل التآمر، فتقول: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَ نَجْواهُمْ فإن الأمر ليس كـذلك، إذ نحن نسـمع و رسلنا: بَلى وَ رُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ

«السر» هو ما يضمره الإنسان فى قلبه، أو ما يودعه من أسراره لدى إخوانه و أصدقائه، و «النجوى» هى الهمس فى الأذن.

نعم، فـإنّ اللّه سـبحانه لا يسـمع نجواهم و همسـهم فيما بينهم فحسب، بل يعلم ما يضـمرونه فى أنفسـهم أيضا، فإن السـر و العلن لـديه سواء.

و الملائكـة المكلفون بتسـجيل أعمال البشـر و أقوالهم يكتبون هـذه الكلمات فى صـحائف أعمالهم دائما، و إن كانت الحقائق بـدون ذلك واضحة أيضا، ليروا جزاء أعمالهم و أقوالهم و مؤامراتهم فى الدنيا و الآخرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۲

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۸۱ الى ۸۵]

اشارة

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (۸۱) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (۸۲) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (۸۳) وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (۸۴) وَ تَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۸۵)

التّفسير

ذرهم فى خوضهم يلعبون:

لمـا كـان البحث فى الآيـات السابقـة- و خاصـة فى بدايـة السورة- عن مشـركى العرب و اعتقـادهم بأنّ للّه ولـدا، و أنّهم كانوا يظنون الملائكـة بنـات اللّه، و لمـا مر البحث فى عـدة آيات مضت عن المسـيح عليه السّـلام و دعوته إلى الوحدانيـة الخالصـة و العبوديـة للّه وحده، فقد ورد البحث فى هذه الآيات فى نفى هذه العقائد الفاسدة عن طريق آخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۳

تقول الآيـة: قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ لأن ايمانى باللّه أقوى من ايمانكم جميعا، و معرفتى به أكبر، و عليه فيجب أن أعظّم ولده و أطيعه قبلكم.

و بالرغم من أنّ مضـمون هذه الآية بدا معقدا لجماعة من المفسّـرين، فذكروا توجيهات مختلفة له كان بعضها عجيبا جدّا[۸۳]، لكن لا يوجـد فى الواقع أى تعقيـد فى محتوى الآيـة، و هذا الأسـلوب الرائع يسـتعمل مع الأفراد العنودين المتعصبين، كما لو قال شـخص: إنّ فلانا أعلم من الجميع، فى حين أنّه لا يعلم شيئا، فيقال له:

إذا كان هو الأعلم فأنا أوّل من يتبعه، و ذلك ليبذل القائل جهده فى البحث عن دليل يدعم به مدعاه، و عند ما يصـطدم بصخرة الواقع يستيقظ من غفلته.

غاية ما فى الأمر أنّ هناك نكتتين يجب الالتفات إليهما:

الأـولى: أنّ العبـادة لا تعنى العبادة فى كل الموارد، فقـد تأتى أحيانا بمعنى الطاعـة و التعظيم و الاحترام، و هى هنا بهـذا المعنى، فعلى فرض أن للّه ولـدا- و هو فرض محال- فلا دليل على عبادته، لكنّه لما كان- طبقا لهـذا الفرض- ابن اللّه فيجب أن يكون مورد احترام

و تقدير و طاعة.

و الأخرى: أنّ (لو) تستعمل بدل (أن) فى مثل هذه الموارد عادة فى أدب العرب، و هى تدل على كون الشىء مستحيلا، و إنّما لم تستعمل فى الآية- مورد البحث- مماشاة و انسجاما فى الكلام مع الطرف المقابل.

و على هذا، فإنّ النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: لو كان للّه ولد لبادرت قبلكم إلى احترامه و تعظيمه، ليطمئن هؤلاء من استحالة أن يكون للّه ولد.

بعد هذا الكلام ذكرت الآية دليلا واضحا على نفى هذه الادعاءات، فقالت:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۴

سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ فإنّ من كان مالكا للسماوات و الأرض و مدبرا لها، و ربّا للعرش العظيم، لا يحتاج إلى الولد، فهو الوجود اللامتناهى، و المحيط بكل عالم الوجود، و مربى كل عالم الخلقة، بل يحتاج الولد من يموت، و لا يستمر وجوده إلّا عن طريق الولد.

الولد لازم لمن يحتاج العون و الأنس فى وقت العجز و الوحدة.

و أخيرا فإن وجود الولد دليل على الجسمانية و الانحصار فى حيّز الزمان و المكان.

إنّ ربّ العرش، و السماء و الأرض، و المنزّه عن كل هذه الأمور، غنى عن الولد.

و التعبير ب رَبِّ الْعَرْشِ بعد رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ من قبيل ذكر العام بعد الخاص، لأنّ العرش- و كما قلنا سابقا- يقال لمجموع عالم الوجود، و الذى هو عرش حكومة اللّه عزّ و جلّ.

و يحتمل أيضا أن يكون العرش إشارة إلى عالم ما وراء الطبيعة، فيكون فى مقابل السماوات و الأرض التى تشير إلى عالم المادة.

لمزيد الاطلاع على معنى العرش، راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية (۲۵۵) من سورة البقرة، و أوسع منه ما جاء فى ذيل الآية (۷) من سورة المؤمن.

ثمّ تضيف الآية الأخرى كاحتقار لهؤلاء المعاندين و تهديد لهم، و هو بحد ذاته أسلوب آخر من أساليب البحث مع أمثال هؤلاء الأفراد فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ليجنوا عاقبة أعمالهم، و ليذوقوا و بال أمرهم.

من الواضح أن المراد من هذا اليوم الموعود هو يوم القيامة، و ما احتمله البعض من أن المراد هو لحظة الموت فيبدوا بعيدا جدّا، لأنّ الجزاء على الأعمال يكون فى يوم القيامة لا فى لحظة الموت.

إنّه نفس اليوم الموعود الذى أقسم اللّه تعالى به فى الآية (۲) من سورة البروج، حيث تقول الآية: وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۵

و تواصل الآيتان التاليتان البحث حول مسألة التوحيد، و هما تشكلان نتيجة للآيات السابقة من جهة، و من جهة أخرى دليلا لتكملتها و إثباتها. و فيهما سبع من صفات اللّه سبحانه، و لجميعها أثر فى تحكيم و تقوية مبانى التوحيد.

فتقف الآية الأولى بوجه المشركين الذين كانوا يعتقدون بانفصال إله السماء عن إله الأرض، بل ابتدعوا للبحر إلها، و للصحراء إلها و آخر للحرب، و رابعا للصلح و السلم، و آلهة مختلفة و متعددة بتعدد الموجودات، فتقول: وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ لأنّ كونه إلها فى السماء و الأرض يثبت كونه ربّا و معبودا فيهما- و قد مرّ ذلك فى الآيات السابقة- لأنّ المعبود الحقيقى هو ربّ العالم و مدبره، لا الأرباب المختلفة، و لا الملائكة، و لا المسيح و لا الأصنام، فكلها ليست أهلا لأن تكون أربابا و آلهة، إذ ليس لها مقام الربوبية، فكلها مخلوقة فى أنفسها و مربوبة، و تتمتع بأرزاق اللّه، و كلها تعبده سبحانه.

و تقول فى الصفتين الثّانية و الثّالثة وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ فكل أعماله تقوم على أساس الدقّة و الحساب و النظم، و هو عليم بكل شىء و محيط به، و بذلك فإنّه يعلم أعمال العباد جيدا، و يجازيهم عليها طبقا لحكمته.

و تتحدث الآية الثانية فى الصفتين الرابعة و الخامسة، بركات وجوده الدائمة الوفيرة، و عن امتلاكه السماء و الأرض و ما بينهما، فتقول: تَبارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما.

«تبارك» من مادة بركة، و تعنى امتلاك النعمة الوفيرة، أو الثبات و البقاء، أو كليهما، و كلاهما يصدقان فى شأن اللّه تعالى، فإنّ وجوده باق و خالد، و هو مصدر النعم الكثيرة.

و ليس للخير الكثير كمال المعنى إذا لم يكن ثابتا و باقيا، فإنّ الخيرات مهما كانت كثيرة، فهى تعد قليلة إذا كانت مؤقتة و سريعة الزوال.

و تضيف فى الصفتين السّادسة و السّابعة: وَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۶

و على هذا فإذا أردتم الخير و البركة فاطلبوها منه لا من الأصنام، فإن مصائركم إليه يوم القيامة، و هو المرجع الوحيد لكم، و بيده كل شىء، و ليس للأصنام و الآلهة أى دور فى هذه الأمور.

***

ملاحظات

۱- لقد تكررت (السماوات و الأرض) فى هذه الآيات ثلاث مرات: مرّة لبيان كون اللّه ربّا و مدبرا لهما، و أخرى فى كونه إلها فيهما، و ثالثة فى كونه مالكا و حاكما، و هذه الأمور الثلاثة مترابطة ببعضها، و هى فى الحقيقة علة و معلول لبعضها البعض، فهو مالك، و لذلك فهو ربّ، و هو فى النتيجة إله. و وصفه بالحكيم و العليم إكمال لهذه المعانى.

۲- يستفاد من بعض الرّوايات الإسلامية أن تعبير الآيات المذكورة ب وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ كان قد أصبح وسيلة لبعض الزنادقة و المشركين لإثبات مدعاهم، و كانوا يفسّرون الآية- حسب سفسطتهم- بأن فى السماء إلها، و فى الأرض إلها آخر غيره، فى حين أنّ الآية تقول بعكس ذلك، فهى تقول: إنّه الإله الذى يعبد فى السماء و فى الأرض، أى إنّه تعالى هو المعبود فى كل مكان.

و مع ذلك، فإنّ الزنادقة عند ما كانوا يطرحون هذا المطلب كسؤال أمام الأئمّة المعصومين، فإنّهم عليهم السّلام كانوا يجيبونهم على طريقة النقض و الحل:

فمن جملة ذلك ما

ورد فى الكافى عن هشام بن الحكم، أنّه قال: قال أبو شاكر الديصانى ۸۴]: إن فى القرآن آية هى قولنا، قلت: ما هى؟ قال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۷

وَ هُوَ الَّذِى فِى السَّماءِ إِلهٌ وَ فِى الْأَرْضِ إِلهٌ فلم أدر بما أجيبه.

فحججت فخبرت أبا عبد اللّه عليه السّلام، فقال: «هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنّه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك فى البصرة؟ فإنّه يقول: فلان، فقل: كذلك اللّه ربّنا، فى السماء إله، و فى الأرض إله، و فى البحار إله، و فى القفار إله، و فى كل مكان إله».

قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز[۸۵].

و ذكر المفسّر الكبير العلّامة الطبرسى لتكرار لفظ الإله، فى هذه الآية علتين:

إحداهما: التأكيد على كون اللّه تعالى إلها فى كل مكان.

و الأخرى: أنه إشارة إلى أن ملائكة السماء تعبده، و البشر فى الأرض يعبدونه أيضا، و على هذا فإنه إله الملائكة و بنى آدم و كل الموجودات فى السماوات و الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۸

الآيات [سورة الزخرف (۴۳): الآيات ۸۶ الى ۸۹]

اشارة

وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۸۶) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (۸۷) وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (۸۸) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (۸۹)

التّفسير

من يملك الشفاعة؟

لا زال الحديث فى هذه الآيات- و هى آخر آيات سورة الزخرف- حول إبطال عقيدة الشرك و تفنيدها، و عاقبة المشركين المرّة، و هى توضح بطلان عقيدتهم بدلائل أخرى.

تقول الآية الأولى: وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ فلا تقام الشفاعة عند اللّه إلّا بإذنه، و لم يأذن اللّه الحكيم بها لهذه الأحجار و الأخشاب التى لا قيمة لها، و الفاقدة للعقل و الشعور و الإدراك مطلقا.

لكن لما كانت الملائكة و أمثالها من بين آلهة هؤلاء، فقد استثنوا فى ذيل الآية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۰۹

فقالت: إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ و هم الذين أسلموا لوحدانية اللّه سبحانه فى جميع المراحل، و أذعنوا لها. نعم، هؤلاء هم الذين يشفعون بإذن اللّه تعالى.

لكن ليس الأمر كما تتوهمون أنّهم يشفعون لأى كان، حتى و إن كان وثنيا و مشركا و منحرفا عن طريق التوحيد و ضالا عن الصراط المستقيم، بل وَ هُمْ يَعْلَمُونَ جيدا لمن يشفعون.

و على هذا فإنّهم يقطعون الأمل من شفاعة الملائكة لسببين:

الأوّل: أنّها كانت بنفسها تقرّ بوحدانية اللّه و تشهد بها، و لذلك حصلت على إذن الشفاعة.

و الآخر: أنهم يعرفون جيدا من له أهلية الشفاعة و مستحقها[۸۶].

و اعتبر البعض جملة وَ هُمْ يَعْلَمُونَ مكملة لجملة إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِ و على هذا يصبح معنى الآية: إنّ الذين يشهدون بالتوحيد و يعلمون حقيقته هم الذين يملكون حق الشفاعة فقط. إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و على أية حال، فإن هذه الآية تبيّن الشرط الأساس الذى ينبغى توفره فى الشفاعة عند اللّه تعالى، و هم الشاهدون بالحق، و العالمون به على الدوام و المحيطون بروح التوحيد جيدا، و هم كذلك عالمون بأحوال المشفوع لهم و أوضاعهم.

ثمّ تدين المشركين من أفواههم، و تجيبهم جوابا قاطعا، فتقول: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

لقد قلنا مرارا إن من النادر أن يوجد من بين مشركى العرب و غيرهم من يعتقد أن الأصنام هى الخالقة لهم، فإنّ الأعم الأغلب منهم يعتبرون الأصنام وسائط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۰

و شفعاء يقربونهم إلى اللّه زلفى، أو أنها دلائل و علامات لأولياء اللّه المقدسين، ثمّ يضمون إليها ذريعة أن معبودنا يجب أن يكون موجودا ملموسا و محسوسا لنأنس به، فيعبدونها، و لذا فإنّهم متى ما سئلوا عن خالقهم فسيقولون: اللّه.

و قد ذكّر القرآن مرارا بحقيقة أن العبادة لا تليق إلّا بخالق هذا الكون و مدبره، و إذا كنتم تعلمون أن اللّه هو الخالق و المدبر، فلم يبق لكم إلّا أن تقصروا عبادتكم عليه، و تخصوه بها.

و لذلك فإنّ الآية تقول فى نهايتها فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ و هو لوم و توبيخ لهم ..

فإنّكم إذا علمتم حقيقة الأمر فلم تعرضون عن اللّه و تعبدون غيره؟

و تحدثت الآية التالية عن شكوى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى اللّه سبحانه من هؤلاء القوم المتعصبين الذين لا منطق لديهم، فقالت: وَ قِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ

إنّه يقول: لقد تحدثت مع هؤلاء، القوم ليلا و نهارا، فأتيتهم من طريق التبشير و الإنذار، و ذكرت لهم قصص الأقوام الماضين المؤلمة، و حذرتهم من عذابك، و رغبتهم فى رحمتك إن هم رجعوا عن طريق الضلال، و خلاصة القول: إنّى أبلغتهم الأمر ما استطعت إلى ذلك سبيلا، و قلت كل ما ينبغى أن يقال، إلّا أن حرارة كلامى لم تؤثر فى برودة قلوبهم، فهى كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلم يؤمنوا[۸۷].

و يأمر اللّه سبحانه نبيّه فى آخر آية أن فَاصْفَحْ عَنْهُمْ و لا يكن إعراضك عنهم إعراض افتراق و غضب و أذى و جرح للمشاعر، بل أعرض عنهم وَ قُلْ سَلامٌ لا سلام تحية و محبّة، بل سلام وداع و افتراق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۱

إنّ هذا السلام يشبه ذلك السلام الذى ورد فى الآية (۶۳) من سورة الفرقان:

وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً سلام هو علامة اللامبالاة بهم ممتزجة بالعلوّ و العزة.

و مع ذلك فإنّه تعالى يهددهم و يحذرهم بجملة عميقة المعنى، لئلا يتصوروا أن اللّه تاركهم بعد هذا الفراق و الوداع، فيقول: فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

نعم، سوف يعلمون أى نار محرقة قد أوقدوها لأنفسهم بعنادهم، و أى عذاب أليم قد هيأوا أسبابه ليطالهم فيما بعد؟

و قد ذكر البعض سبب نزول الآية وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ... و هو: أن «النضر بن الحارث» و نفرا من قريش قالوا: إنّ كان ما يقوله محمّد حقا، فلا حاجة لنا بشاعته، فإننا نحبّ الملائكة و هم أولياؤنا، و هم أحق بالشفاعة، فنزلت هذه الآية و نبهتهم على أن الملائكة لا تشفع يوم القيامة إلّا لمن يشهدون بالحق، أى للمؤمنين.

و هنا تنتهى سورة الزخرف.

اللّهم، قربنا منك و من أوليائك يوما بعد يوم، و زدنا حبا لك و لهم حتى تنالنا شفاعتهم.

اللّهم، احفظنا من كل شرك خفى و جلى.

إلهنا، قد وصفت يوم القيامة فى كتابك بصفات مهولة و مفزعة و تجعل الناس سكارى و ما هم بسكارى ..

اللهم فعاملنا بفضلك فى ذلك اليوم و لا تعاملنا بعدلك، يا أرحم الراحمين.

آمين ربّ العالمين.

نهاية سورة الزخرف***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۳

سورة الدّخان

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۵

«سورة الدخان»

محتوی سورة الدّخان:

هـذه السورة هی خامس الحوامیم السبعة، و لما کانت من السورة المکیة، فإنّها تتضـمن الأبحاث العامة لتلک السور، أی البحث حول المبـدأ و المعـاد و القرآن بصورة تامّـة. و قـد نسـجت آیاتها و نظمت فی هـذا الباب تنظیما تنزل معه ضـرباتها الحاسـمة المفزعـة علی القلوب الغافلة الذاهلة عن ربها، و تدعوها إلی الإیمان و التقوی، و الحق و العدالة.

و یمکن تلخیص فصول هذه السورة فی سبعة:

۱- بدایة السورة بالحروف المتقطعة، ثمّ بیان عظمة القرآن، مع تبیان نزوله فی لیلة القدر أوّل مرة.

۲- و تتحدث فی الفصل الثّانی عن التوحید و وحدانیة اللّه سبحانه، و بیان بعض مظاهر عظمته فی عالم الوجود.

۳- و یتحدث قسم مهم منها عن مصیر الکفار و عاقبتهم، و أنواع العقوبات الألیمة التی نزلت و ستنزل بهم.

۴- و تتحـدث السورة فی فصـل آخر عن قصـة موسـی علیه السّـلام و بنی إسـرائیل مع قوم فرعون، و هزیمـة قوم فرعون و هلاـکهم و فنائهم، من أجل إیقاظ هؤلاء الغافلین.

۵- و تشـکل مسألـة القیامـة و أنواع العذاب الألیم الذی سـینال أصـحاب الجحیم، و المثوبات العظیمة التی تسـر الروح، و التی سـینالها المتقون، فصلا آخر من آیات هذه السورة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۶

۶- و من المواضیع الأخری التی طرحت فی هذه السورة موضوع الغایة من الخلق، و عدم کون خلق السماء و الأرض عبثا.

۷- و أخیرا تنتهی السورة ببیان عظمة القرآن الکریم کما بدأت بذلک.

و لما کان الکلام فی الآیة العاشرة من هذه السورة عن «الدخان المبین»، فقد سمیت بسورة الدخان.

فضل تلاوة هذه السورة

جـاء فی حـدیث عن نبیّ الإسـلام صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم: «من قرأ سورة الـدخان لیلـة الجمعـة و یوم الجمعـة بنی اللّه له بیتـا فی الجنّة»[۸۸]

و

روی عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الدخان فی لیلة أصبح یستغفر له سبعون ألف ملک»[۸۹].

و

فی حدیث آخر عن أبی حمزة الثمالی، عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من قرأ سورة الدخان فی فرائضه و نوافله بعثه اللّه من الآمنین یوم القیامة، و أظله تحت ظل عرشه، و حاسبه حسابا یسیرا، و أعطی کتابه بیمینه»[۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۷

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (۱) وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (۳) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۴)
أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۵) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۷) لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۸)

التّفسير

نزول القرآن فى الليلة المباركة:

نلاحظ فى بداية هذه السورة- و كالسور الأربعة السابقة، و السورتين الآتيتين، و التى يكون مجموعها سبع سور هى سور الحواميم- الحروف المقطعة (حم)، و قد بحثنا كثيرا فيما مضى حول الحروف المقطعة فى القرآن بصورة عامة[۹۱]، و بحثت حروف (حم) خاصة فى بداية أوّل سورة من الحواميم (سورة المؤمن) و فى بداية سورة فصلت.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۸

و جدير بالانتباه أن بعض المفسّرين فسّر (حم) هنا بالقسم، فيصبح فى الآية قسمان متتابعان: قسم بحروف الهجاء ك (حم)، و قسم بهذا الكتاب المقدس الذى يكون من هذه الحروف.

و كما قلنا، فإنّ الآية الثانية أقسمت بالقرآن الكريم، حيث تقول: وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ ذلك الكتاب الواضح محتواه، و البينة معارفه ... الحية تعليماته، البناءة أحكامه، الدقيقة برامجه و خططه، و هو الكتاب الذى يدل بنفسه على كونه حقّا، كما أن بزوغ الشمس دليل على الشمس.[۹۲] لكن لنر الآن ما هو القصد من وراء ذكر هذا القسم؟

الآية التالية توضح هذا الأمر، فتقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ.

«المبارك» من مادة بركة، و هى الربح و المنفعة و الخلود و الدوام، فأى ليلة هذه التى تكون مبدأ الخيرات، و منبع الإحسان و العطايا الدائمة؟

لقد فسّرها أغلب المفسّرين بليلة القدر، تلك الليلة العظيمة التى تغيرت فيها مقدرات البشر بنزول القرآن الكريم ... تلك الليلة التى تقدر فيها مصائر الخلائق ...

نعم، لقد نزل القرآن على قلب النّبى المطهر فى ليلة حاسمة مصيرية.

و تجدر الإشارة إلى أنّ ظاهر الآية هو أنّ القرآن كله قد نزل فى ليلة القدر.

أمّا ما هو الهدف الأساس من نزوله؟ نهاية الآية أشارت إليه إذ قالت: إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فإن سنتنا الدائمة هى إرسال الرسل لإنذار الظالمين و المشركين، و كان إرسال نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا الكتاب المبين آخر حلقة من هذه السلسلة المباركة المقدسة.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السّلام ينذرون من جانب، و يبشرون من جانب آخر، لكن لما كان أساس دعوتهم هو مواجهة الظالمين و المجرمين و محاربتهم، كان أغلب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۱۹

کلامهم عن الإنذار و التخویف.

نزول القرآن الدفعی و التدریجی:

۱- نحن نعلم أن القرآن الکریم نزل علی مدی ثلاث و عشرین سنة- و هی فترة نبوةّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إضافة إلی أن لمحتوی القرآن ارتباطا و علاقة بالحوادث المختلفة التی وقعت فی حیاة النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین طوال هذه ال (۲۳) سنة، بحیث أنها إذا فصلت عن القرآن الکریم فسیکون غیر مفهوم، و إذا کان الحال کذلک فکیف نزل القرآن الکریم کاملا فی لیلة القدر؟

و فی معرض الإجابة علی هذا السؤال، ذهب البعض هذا المعنی ببدایة نزول القرآن، و بناء علی هذا فلا مانع من أن تکون بدایة نزوله فی لیلة القدر، و ینزل الباقی خلال (۲۳) سنة.

غیر أن هذا التّفسیر- و کما قلنا- لا ینسجم مع ظاهر الآیة مورد البحث، و مع آیات أخری فی القرآن المجید.

و للاجابة علی هذا السؤال یجب الانتباه إلی أننا نقرأ فی هذا الآیة إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ من جهة، و من جهة أخری جاء فی الآیة (۱۸۵) من سورة البقرة شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِی أُنْزِلَ فِیهِ الْقُرْآنُ و من جهة ثالثة نقرأ فی سورة القدر إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ فیستفاد جیدا من مجموع هذه الآیات أن اللیلة المبارکة فی هذه الآیة إشارة إلی لیلة القدر التی هی من لیالی شهر رمضان المبارک.

و إضافة إلی ما مر، فإنه یستفاد من آیات عدیدة أن النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان عالما بالقرآن قبل نزوله التدریجی، کالآیة (۱۱۴) من سورة طه وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یُقْضی إِلَیْکَ وَحْیُهُ

و جاء فی الآیة (۶) من سورة القیامة لا تُحَرِّکْ بِهِ لِسانَکَ لِتَعْجَلَ بِهِ

من مجموع هذه الآیات یمکن الاستنتاج أنه کان للقرآن نزولان:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۰

الأوّل: نزوله دفعة واحدة، حیث نزل من اللّه سبحانه علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الطاهر فی لیلة القدر من شهر رمضان.

و الثّانی: النّزول التدریجی، حیث نزل علی مدی (۲۳) سنة بحسب الظروف و الحوادث و الاحتیاجات.

و الشاهد الآخر لهذا الکلام أن بعض الروایات قد عبرت بالإنزال، و بعضها الآخر بالنّزول، و الذی یفهم من متون اللغة أن التنزیل یستعمل فی الموارد التی ینزل فیها الشیء تدریجیا و متفرقا، أما الإنزال فله معنی واسع یشمل النّزول التدریجی و النّزول دفعة واحدة.[۹۳] و الطریف أنّ کل الآیات المذکورة التی تتحدث عن نزول القرآن فی لیلة القدر و شهر رمضان قد عبرت بالإنزال، و هو یتوافق مع النّزول دفعة واحدة، فی حین عبر بالتنزیل فقط فی الموارد التی دار الکلام فیها حول النّزول التدریجی للقرآن.

لکن، کیف کان هذا النّزول جملة علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم؟ هل کان علی هیئة هذا القرآن الذی بین أیدینا بآیاته و سورة المختلفة، أم أنّ مفاهیمه و حقائقه قد نزلت بصورة مختصرة جامعة؟

لیس الأمر واضحا بدقّة، بل القدر المتیقن الذی نفهمه من القرائن- أعلاه- أن هذا القرآن قد نزل دفعة واحدة فی لیلة واحدة علی قلب النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مرّة، و نزل علی مدی (۲۳) سنة بصورة تدریجیة مرّة أخری.

و الشاهد الآخر لهذا الکلام، أنّ للتعبیر بالقرآن- فی الآیة أعلاه- ظهورا فی مجموع القرآن.

صحیح أنّ کلمة القرآن تطلق علی کل القرآن و جزئه، لکن لا یمکن إنکار أن ظاهر هذه الکلمة هو مجموع القرآن عند عدم وجود قرینة أخری معها. و التی فسر بها البعض هذه الآیة بأنها بدایة نزول القرآن، و قالوا: إنّ أوّل آیات القرآن نزلت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۱

فی شهر رمضان و لیلة القدر، الأمر الذی یخالف ظاهر الآیات.

و أضعف منه قول القائل: لما کانت سورة الحمد- التی هی خلاصة لمجموع القرآن- قد نزلت فی لیلة القدر، فقد عبر ب إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ.

إن کل هذه الاحتمالات مخالفة لظاهر الآیات، لأن ظاهرها أن کل القرآن قد نزل فی لیلة القدر.

الشیء الوحید الذی یبقی هنا هو ما نقرؤه فی روایات عدیدة

رویت فی تفسیر علی بن إبراهیم. عن الإمام الباقر و الصادق و أبی الحسن موسی بن جعفر علیهم السّلام أنّهم قالوا فی تفسیر إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةٍ مُبارَکَةٍ: «هی لیلة القدر، أنزل اللّه عزّ و جلّ القرآن فیها إلی البیت المعمور جملة واحدة، ثمّ نزل من البیت المعمور علی رسول اللّه فی طول عشرین سنة».[۹۴]

(التفتوا جیدا إلی أن الروایة قد عبرت عن النّزول جملة واحد ب (أنزل) و عن النّزول التدریجی ب (نزل).

و أین هو «البیت المعمور»؟ صرحت روایات عدیدة- سیأتی تفصیلها فی ذیل الآیة (۴) من سورة الطور، إن شاء اللّه تعالی- بأنه بیت فی السماوات بمحاذاة الکعبة، و هو محل عبادة الملائکة، و یحج إلیه کل یوم سبعون ألف ملک لا یعودون إلیه إلی یوم القیامة.

لکن فی أی سماء هو؟ الرّوایات مختلفة، ففی کثیر منها أنه فی السماء الرابعة، و فی بعضها أنه فی السماء الأولی- السماء الدنیا- و جاء فی بعضها أنه فی السماء السابعة.

و نطالع

فی الحدیث الذی نقله العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان فی تفسیر سورة الطور عن علی علیه السّلام: «هو البیت فی السماء الرابعة بحیال الکعبة، تعمره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۲

الملائکة بما یکون منها فیه من العبادة، و یدخله کل یوم سبعون ألف ملک ثمّ لا یعودون إلیه أبدا»[۹۵].

و علی أیة حال، فإنّ نزول القرآن جملة واحدة إلی البیت المعمور فی لیلة القدر لا ینافی علم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم به مطلقا، فإنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم لا سبیل له إلی اللوح المحفوظ الذی هو مکنون علم اللّه، إلّا أنّه عالم بالعوالم الأخری.

و بتعبیر آخر، فإن ما استفدناه و فهمناه من الآیات السابقة، بأن القرآن نزل علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مرتین: نزولا دفعیا فی لیلة القدر، و نزولا تدریجیا طوال (۲۳) عاما، لا ینافی الحدیث المذکور الذی یقول: إنّه نزل فی لیلة القدر إلی البیت المعمور، لأن قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم مطلع علی البیت المعمور.

و قد اتضح من خلال ما قیل فی الجواب عن هذا السؤال، الإجابة عن سؤال آخر یقول: إذا کان القرآن نزل فی لیلة القدر، فکیف کانت بدایة بعثة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی السابع و العشرین من شهر رجب طبقا للروایات المشهورة؟ حیث کان لنزوله فی رمضان صفة الجمع و الکلیة، فی حین أن أوّل آیاته نزلت فی (۲۷) رجب، کبدایة للنزول التدریجی، و بذلک فلا مشکلة من هذه الناحیة.

و الآیة التالیة وصف و توضیح للیلة القدر، حیث تقول: فِیها یُفْرَقُ کُلُّ أَمْرٍ حَکِیمٍ

التعبیر ب (یفرق) إشارة إلی أن کل الأمور و المسائل المصیریة تقدر فی تلک اللیلة، و التعبیر ب «الحکیم» بیان لاستحکام هذا التقدیر، و عدم تغیره، و کونه حکیما. غایة ما فی الباب أن هذه الصفة تذکر عادة للّه سبحانه، و وصف الأمور الأخری بها من باب التأکید.[۹۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۳

و هذا البيان ينسجم مع الرّوايات الكثيرة التى تقول: إنّ مقدرات كل بنى آدم لمدّة سنة تقدر فى ليلة القدر، و كذلك تفرق الأرزاق و الآجال و الأمور الأخرى فى تلك الليلة.

و سيأتى تفصيل الكلام فى هذا البحث و المسائل الأخرى التى ترتبط بليلة القدر، و عدم التناقض بين هذا التقدير، و بين حرية البشر، فى تفسير سورة القدر، إن شاء اللّه تعالى.

و تقول الآية الأخرى لتأكيد أنّ القرآن منزل من قبل اللّه تعالى: أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ [۹۷] و لأجل تبيان العلة الأساسية لنزول القرآن و إرسال النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كون المقدرات فى ليلة القدر، تضيف الآية: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [۹۸] نعم، فإن رحمته التى لا تحدّ توجب أن لا يترك العباد و شأنهم، بل يجب أن ترسل إليهم التعليمات اللازمة لترشدهم فى سيرهم إلى اللّه عبر ذلك المسير التكاملى الملىء بالالتواءات و التعرجات، فإن كل عالم الوجود يصدر عن رحمته الواسعة و ينبع منها، و البشر أكثر تنعما بهذه الرحمة من كل الموجودات.

و تذكر نهاية هذه الآية- و الآيات التالية- سبع صفات للّه سبحانه، و كلها تبين توحيده و وحدانيته، فتقول: إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يسمع طلبات العباد، و هو عليم بأسرار قلوبهم.

ثمّ تقول، مبينة للصفة الثالثة رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۴

[۹۹][۱۰۰] لمّا كان كثير من المشركين يعتقدون بوجود آلهة و أرباب عديدين، و كانوا يظنون أن لكل موجود من الموجودات إله. و لمّا كان التعبير ب (ربّك) فى الآية السابقة يمكن أن يوهم أن ربّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم غير ربّ الموجودات الأخرى، فإن هذه الآية أبطلت كل هذه الأوهام بجملة رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما و أثبتت أن ربّ كل موجودات العالم واحد.

و جملة إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ التى وردت هنا بصيغة الجملة الشرطية، تبعث على التساؤل: هل أن كون ربّ العالم ربّا، مشروط بمثل هذا الشرط؟

الظاهر أن المراد من ذكر هذه الجملة هو بيان أحد معنيين أو كليهما:

الأوّل: إذا كنتم طلاب يقين، فإنّ السبيل إلى ذلك هو أن تتفكروا فى ربوبية اللّه المطلقة.

و الآخر: إذا كنتم من أهل اليقين فإن أفضل مورد لتحصيل هذا اليقين هو أن تتفكروا فى آثار رحمة اللّه، فإنّكم إذا نظرتم إلى الآثار فى كل عالم الوجود دلتكم على أن اللّه ربّ كل شىء، و إذا فلقتم قلب كل ذرّة رأيتم فيه دلالة على هذه الربوبية، ثمّ إذا لم توقنوا بعد هذا بكونه تعالى ربا، فبأى شىء فى هذا العالم يمكن أن توقنوا و تؤمنوا؟

و تقول فى الصفة الرابعة و الخامسة و السادسة لا إِلهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ ۱۰۱] فحياتكم و مماتكم بيده، و هو سبحانه ربكم و رب العالمين، و على هذا فلا إله سواه، أو يكون من ليس له مقام الربوبية و لا أهليتها، و لا يملك الحياة و الموت ربّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۵

و معبودا؟! و تضيف فى الصفة السابعة وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فإذا قلتم: إنّكم إنّما تعبدون الأصنام، لأنّ الأصنام، لأن آباءكم كانوا يعبدونها، فاعلموا أن ربّهم هو اللّه الواحد الأحد أيضا، و علاقتكم بآبائكم و ارتباطكم بهم يوجب عليكم أن لا تعبدوا إلّا اللّه، و أن لا تخضعوا إلّا له، و إذا كان سبيلهم غير هذا السبيل فقد كانوا على خطأ بلا ريب.

من الواضح أنّ مسألة الحياة و الموت من شؤون اللّه و تدبيره، و إذا كانت الآية قد ذكرتها بالخصوص، فلأن لها أهمية فائقة من جهة، و لأنّها إشارة ضمنية إلى مسألة المعاد من جهة أخرى، و ليست هذه هى المرة الأولى التى يؤكّد فيها القرآن على مسألة الحياة و الموت، بل بيّنها مرارا على أنّها من الأفعال المختصة باللّه تعالى، لأن مسألة الحياة و الموت أكثر المسائل تأثيرا فى حياة البشر و

مصائرهم، و هی فی الوقت نفسه أعقد مسائل عالم الوجود، و أوضح دلیل علی قدرة اللّه تعالی.

***

ملاحظة

علاقة القرآن بلیلة القدر:

ممّا یجدر الانتباه إلیه أنه ورد فی هذه الآیات تلمیحا، و فی آیات سورة القدر تصریحا، أن القرآن نزل فی لیلة القدر، و کم هو عمیق هذا الکلام؟! ففی تلک اللیلة التی تقدر فیها مقدرات العباد و أرزاقهم، ینزل القرآن الکریم علی قلب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الطاهر، ألا یدل هذا علی أن هناک علاقة صمیمیة بین مقدراتکم و مصائرکم و بین محتوی هذا الکتاب السماوی؟

ألا یعنی هذا الکلام أن هناک علاقة لا تقبل الانفصال بین القرآن و بین حیاتکم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۶

المعنویة، بل و حتی حیاتکم المادیة؟ فقد أدّی الی انتصارکم علی الأعداء، و شموخکم و حریتکم و استقلالکم، و عمران مدنکم و رقیکم.

أجل، فی تلک اللیلة التی کانت تقدر فیها المقدرات، أنزل القرآن أیضا.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۷

الآیات [سورة الدخان (۴۴): الآیات ۹ الی ۱۶]

اشارة

بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ (۹) فَارْتَقِبْ یَوْمَ تَأْتِی السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِینٍ (۱۰) یَغْشَی النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِیمٌ (۱۱) رَبَّنَا اکْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (۱۲) أَنَّی لَهُمُ الذِّکْری وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِینٌ (۱۳)

ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (۱۴) إِنَّا کاشِفُوا الْعَذابِ قَلِیلًا إِنَّکُمْ عائِدُونَ (۱۵) یَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْکُبْری إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (۱۶)

التّفسیر

الدّخان القاتل:

لما کان الکلام فی الآیات السابقة فی أنّ هؤلاء إن کانوا طلّاب یقین، فإنّ سبل تحصیله کثیرة، و تضیف أوّل آیة من هذه الآیات بَلْ هُمْ فِی شَکٍّ یَلْعَبُونَ فإنّ شک هؤلاء فی حقانیة هذا الکتاب السماوی و فی نبوّتک، لیس نابعا من کون المسألة معقدة صعبة، بل من عدم جدیتهم فی التعامل معها، فهم یتعاملون معها بهزل، فیستهزءون و یسخرون تارة، و یصفون أنفسهم بعدم الاطلاع و الإلمام و بالجهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۸

تارة أخرى، و يشغلون أنفسهم كل يوم بأسلوب لعب جديد.

«يلعبون» من مادة اللعاب- على قول الراغب- و هو البزاق السائل، و لما لم يكن للإنسان هدف مهم من اللعب، فقد شبه بالبزاق الذى يبصقه الفرد لا إراديا.

و مهما كان، فإن الحقيقة هى أن التعامل الجدى مع المسائل يعين الإنسان فى معرفة الحقائق، أمّا التعامل الهازل الفارغ فإنّه يلقى الحجب عليها و يمنعه من الوصول إليها.

ثمّ انتقلت الآية التالية إلى تهديد هؤلاء المنكرين المعاندين المتعصبين، فى الوقت الذى وجهت الخطاب إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ

عند ذلك سيعم الخوف و الاضطراب كل وجودهم، و تزول الحجب من أمام أعينهم، فيقفون على خطئهم الكبير، و يتجهون إلى اللّه تعالى بالقول: رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ

إلّا أنّ اللّه عزّ و جلّ يرفض طلب هؤلاء و يقول: أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ رسول كان واضحا فى نفسه و تعليماته و برامجه و آياته و معجزاته، و مبينا لها جميعا.

غير أنّ هؤلاء بدل أن يذعنوا له، و يؤمنوا باللّه الواحد الأحد، و يتقبلوا أوامره بكل وجودهم، أعرضوا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ

فكانوا يقولون تارة: إنّ غلاما روميا سمع قصص الأنبياء و أخبارهم يعلمه إياها، و هذه الآيات من اختراعه و إملائه على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ۱۰۲] و يقولون تارة أخرى: إنّه مصاب بالاختلال الفكرى و العقلى، و هذه الكلمات وليدة فقدانه التوازن الفكرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۲۹

ثمّ تضيف الآية التالية: إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ و من هنا يتّضح أنّهم عند ما يقعون فى قبضة العذاب، يندمون على ما بدر منهم من أفعال، و يصممون على تعديل سلوكهم و إصلاحه، إلّا أن هذا الموقف الجديد مؤقت و سريع الزوال، فما أن تهدأ عاصفة الأحداث حتى يعودوا لما كانوا عليه من قبل.

و يقول سبحانه فى آخر آية من هذه الآيات يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ [۱۰۳] «البطش» هو تناول الشىء بصولة، و هنا بمعنى الأخذ للانتقام الشديد، و وصف البطشة بالكبرى إشارة إلى العقوبة الشديدة التى تنتظر هذه الفئة.

و الخلاصة: أنّه على فرض تخفيف العقوبات المؤقتة فى حق هؤلاء، فإن العقوبات النهائية العسيرة تنتظرهم، و لا مفرّ لهم منها.

«منتقمون» من مادة الانتقام، و كما قلنا سابقا فإنّها تعنى العقوبة و الجزاء، و إن كانت كلمة الانتقام تعطى معنى آخر فى محادثاتنا اليومية فى عصرنا الحاضر، حيث تعنى العقوبة المقترنة بإخماد نار الغضب و تفريغ ما فى القلب من انفعال و حب الانتقام، إلّا أن هذا الأمر لا وجود له فى المعنى اللغوى للكلمة.

***

ملاحظة

ما المراد من الدخان المبين؟

هناك أقوال بين المفسّرين حول المراد من الدخان الذى ذكر فى هذه الآيات كتعبير عن العذاب الإلهى، و توجد هنا نظريتان

أساسيتان:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۰

۱- إنّه إشارة إلى العقاب و العذاب الذى ابتلى به كفار قريش فى عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّه لعنهم و دعا عليهم قال: «اللهم سنين كسنى يوسف».

و بعد ذلك أصاب مكّة قحط شديد، حتى أنّهم كانوا يرون كأن بين السماء و الأرض عمودا من الدخان من شدة الجوع و العطش، و عسر الأمر عليهم حتى أكلوا الميتة و عظام الحيوانات الميتة.

فأتوا إلى النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: يا محمّد، تأمرنا بصلة الرحم و قد هلك قومك! لئن رفع عنا العذاب لنؤمنن. فدعا النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فارتفع العذاب و عم الخير و النعمة الوفيرة، لكنّهم لم يعتبروا بذلك، بل عادوا إلى الكفر مرة أخرى.[۱۰۴] طبقا لهذا التّفسير فقد اعتبرت غزوة بدر هى البطشة الكبرى- أى العقوبة الشديدة- لأن المشركين تلقوا من المسلمين فى بدر ضربات مهلكة ماحقة.

و طبقا لهذا التّفسير لم يكن للدخان وجود فى الحقيقة، بل إن السماء قد بدت للناس العطاشى الجائعين كعمود الدخان، و على هذا فذكر الدخان هنا من باب المجاز، و هو يشير إلى تلك الحالة الصعبة المؤلمة.

و قال البعض: إنّ الدخان يستعمل عادة فى كلام العرب كناية عن الشر و البلاء الذى يعم و يغلب.[۱۰۵] و يعتقد بعض آخر أنّه حين القحط و قلّة المطر تغطى السماء عادة أعمدة الغبار، و قد عبر هنا عن هذه الحالة بالدخان، لأن المطر ينزل بالغبار إلى الأرض فيصفو الأفق.[۱۰۶] و مع كل هذه الصفات، فإنّ استعمال كلمة الدخان هنا مجازا طبقا لهذا التّفسير.

۲- إن المراد من «الدخان المبين» هو ذلك الدخان الغليظ الذى سيغطى السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۱

فى نهاية العالم، و على أعتاب القيامة، فهو علامة لحلول اللحظات الأخيرة لهذه الدنيا، و بداية عذاب اللّه أليم للظالمين و المفسدين.

عند ذلك سينتبه هؤلاء الظالمون من نوم غفلتهم، و يطلبون رفع العذاب و الرجوع إلى الحياة الدنيوية العادية، لكن أيديهم ترد فى أفواههم.

و طبقا لهذا التّفسير فإنّ الدخان معناه الحقيقى، و يكون مضمون هذه الآيات هو نفس ما ورد فى آيات القرآن الأخرى، و هو أنّ المجرمين و الكافرين يرجون و هم على أعتاب القيامة أو فيها- رفع العذاب عنهم، و الرجوع إلى الدنيا، لكن ذلك لا يقبل منهم و لا يحقق رجاؤهم.[۱۰۷] الإشكال الوحيد الذى يرد على هذا التّفسير أنّه لا ينسجم مع جملة إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ لأنّ العذاب الإلهى لا يخفف عند انتهاء الدنيا أو فى القيامة ليعود الناس إلى حالة الكفر و المعصية.

أما إذا اعتبرنا هذه الجملة قضية شرطية- و إن كان ذلك يخالف الظاهر- فسيرتفع الإشكال حينئذ، لأن معنى الآية يصبح: كلما كشفنا عنهم قليلا من العذاب فإنّهم يعودون إلى طريقتهم الأولى، و هذا فى الواقع شبيه بالآية (۲۸) من سورة الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ

اضافة إلى أنّ تفسير «البطشة الكبرى» بأحداث يوم بدر، يبدو بعيدا عن الصواب، لكن تفسيرها بعقوبات القيامة[۱۰۸] مع الآية تماما.

و الشاهد الآخر للتفسير الثّانى هو الروايات الواردة عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و التى تفسّر الدخان بالدخان الذى سيملأ العالم على أعتاب قيام القيامة، كالرواية التى

يرويها حذيفة بن اليمان عن النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه ذكر أربع علامات لاقتراب القيامة: الأولى ظهور الدجال، و الأخرى نزول عيسى عليه السّلام، و الثالثة النّار التى تظهر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۲

من أرض عدن، و الدّخان.

فسأل حذيفة، يا رسول اللّه، و ما الدّخان؟ فتلا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ يملأ ما بين المشرق و المغرب، يمكث أربعين يوما و ليلة، أمّا المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، و أمّا الكافر فبمنزلة السكران يخرج من منخريه و أذنيه و دبره»[۱۰۹].

و

جاء فى حديث آخر عن أبى مالك الأشعرى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ ربّكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ منه المؤمن كالزكمة، و يأخذ الكافر فينفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، و الثانية الدابة، و الثالثة الدجال»[۱۱۰]

و قد قدمنا توضيحا كافيا حول دابة الأرض فى ذيل الآية (۸۲) من سورة النمل.

و روى شبيه هذا المعنى حول الدخان عن أبى سعيد الحذرى عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم.[۱۱۱] و يلاحظ نظير هذه التعبيرات، بصورة أكثر تفصيلا، فى الروايات الواردة عن طرق أهل البيت عليهم السّلام، و من جملتها ما نقرأه

فى رواية عن أمير المؤمنين على عليه السّلام، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «عشر قبل الساعة لا بدّ منها: السفيانى، و الدجال، و الدخان، و الدّابة، و خروج القائم، و طلوع الشمس من مغربها، و نزول عيسى، و خسف بالمشرق، و خسف بجزيرة العرب، و نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر».[۱۱۲]

و من مجموع ما قيل، نستنتج أن التّفسير الثّانى هو الأنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۳

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۱۷ الى ۲۱]

اشارة

وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (۲۱)

التّفسير

إذا لم تؤمنوا فلا تصدّوا الآخرين عن الإيمان:

متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدث حول تمرد مشركى العرب و عدم إذعانهم للحق، تشير هذه الآيات إلى نموذج من الأمم الماضية التى سارت فى نفس هذا المسير، و ابتليت أخيرا بالعذاب الأليم و الهزيمة النكراء، ليكون ذلك تسلية للمؤمنين، و تحذيرا للمنكرين المعاندين. و ذلك النموذج هو قصّة موسى و فرعون، حيث تقول الآية: وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

«فتنّا» من مادة فتنة، و هى فى الأصل تعنى وضع الذهب فى فرن النّار لتخليصه من الشوائب، ثمّ أطلقت على كل امتحان و اختبار يجرى لمعرفة نسبة خلوص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۴

البشر ... ذلك الاختبار الذى يعم كل حياة الإنسان و المجتمعات البشرية، و بتعبير آخر، فإن كل مراحل حياة الإنسان فى هذه الدنيا

تطوى فى هذه الاختبارات، فإن هذه الدنيا دار امتحان و ابتلاء.

لقد كان قوم فرعون يعيشون أوج قوتهم و عظمتهم بامتلاكهم حكومة قوية، و ثروات ضخمة، و إمكانيات واسعة، فغرتهم هذه القدرة العظيمة، و تلوثوا بأنواع المعاصى و الظلم و الجور.

ثمّ تضيف الآية وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ فهو كريم من ناحية الخلق و الطبيعة، و كريم من ناحية العظيمة و المنزلة عند اللّه، و كريم من ناحية الأصل و النسب، و لم يكن هذا الرّسول إلّا موسى بن عمران عليه السّلام.[۱۱۳] لقد خاطبهم موسى عليه السّلام بأسلوبه المؤدب جدّا، الملى بالود و المحبة، فقال: أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ [۱۱۴] و طبقا لهذا التّفسير، فإنّ عِبادَ اللَّهِ بحكم المخاطب، و المراد منهم الفراعنة، و بالرغم من أنّ هذا التعبير يستعمل فى آيات القرآن فى شأن العباد الصالحين، إلا أنّه أطلق أيضا فى موارد عديدة على الكفار و المجرمين، من أجل تحريك وجدانهم، و جذب قلوبهم نحو الحق ۱۱۵].

بناء على هذا، فإنّ المراد من أَدُّوا إطاعة أمر اللّه سبحانه و تنفيذ أوامره.

و قد ذكر جماعة من المفسّرين تفسيرا آخر لهذه الجملة، فقالوا: المراد من عِبادَ اللَّهِ بنو إسرائيل، و من أَدُّوا إيداعهم بيد موسى، و رفع الذلة و العبودية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۵

عنهم، كما جاء فى الآية (۱۷) من سورة الإسراء أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ و ورد نظير هذا المعنى فى الآية ۱۰۵- الأعراف، و ۴۷- طه أيضا.

و الأمر الذى لا ينسجم مع هذا التّفسير، هو أن جملة أَدُّوا تستعمل عادة فى أداء الأموال و الأمانات و التكاليف، لا فى مورد إيداع الأشخاص، و يتّضح هذا الموضوع جيدا بملاحظة موارد استعمال هذه الكلمة.

و على أية حال، فإنّه يضيف فى بقية الآية إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ و ذلك لنفى كل اتهام عن نفسه.

إنّ هذا التعبير- فى الحقيقة- داحض للاتهامات الباطلة التى ألصقها به الفراعنة، كالسحر، و السعى إلى التفوق و استلام الحكم فى أرض مصر، و طرد أصحابها الأصليين، و التى أشير إليها فى الآيات المختلفة.

ثمّ يقول لهم موسى عليه السّلام بعد أن دعاهم إلى طاعة اللّه سبحانه، أو إطلاق سراح بنى إسرائيل و تحريرهم: إنّ مهمّتى الأخرى أن أقول لكم: وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ معجزاته بينة، و أدلته منطقية واضحة.

و المراد من عدم العلو على اللّه سبحانه، هو عدم القيام بأى عمل لا ينسجم مع أصول العبودية، من المخالفة و التمرد، و حتى إيذاء رسل اللّه، أو ادعاء الألوهية و أمثال ذلك.

و لما كان المستكبرون و عبيد الدنيا لا يدعون أى تهمة و افتراء، إلّا و ألصقوهما بمن يرونه مخالفا لمنافعهم و مصالحهم اللامشروعة بل لا يتورعون حتى عن قتله و إعدامه، لذا فإنّ موسى عليه السّلام يضيف للحد من مسلكهم هذا وَ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ

إنّ هذا التعبير لعله إشارة إلى أنّى لا- أخاف تهديداتكم، و سأصمد حتى آخر نفس، و اللّه حافظى و حارسى، و كانت مثل هذه التعبيرات تمنع القادة الإلهيين حزما أكبر فى دعوتهم، و تزيد فى انهيار إرادة الأعداء و معنوياتهم، و تزيد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۶

جانب آخر ثبات المحبين و المؤمنين و استقامتهم، لأنّهم يعلمون أن إمامهم و قائدهم يقاوم حتى اللحظات الأخيرة.

و ربّما كان التأكيد على مسألة الرجم من جهة أن كثيرا من رسل اللّه قبل موسى عليه السّلام قد هددوا بالرجم، و من جملتهم نوح عليه السّلام قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۱۱۶] و كذلك الحال بالنسبة إلى إبراهيم عليه السّلام لما هدده آزر و قال له: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۱۱۷]، و شعيب لما هدده الوثنيون قالوا له: وَ لَوْ لا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ ۱۱۸] أمّا اختيار الرجم من بين أنواع

القتل، فلأنّه أشدّها جميعا. و على قول بعض أرباب اللغة فإن هذه الكلمة جاءت بمعنى مطلق القتل أيضا.[۱۱۹] و احتمل كثير من المفسّرين أن يكون الرجم بمعنى الاتهام و إساءة الكلام، لأن هذه الكلمة قد استعملت فى هذا المعنى أيضا. و كانت هذه الاستعاذة فى الحقيقة مانعا من تأثير التهم التى اتهموا بها موسى فيما بعد.

و يمكن أن تكون هذه الكلمة قد استعملت فى معناها الواسع الذى يشمل كلا المعنيين.

و تخاطب الآية الأخيرة هؤلاء القوم فتقول: وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ لأن موسى عليه السّلام كان واثقا من نفوذه بين أوساط الناس، و مختلف طبقاتهم، بامتلاكه تلك المعجزات الباهرات، و الأدلة القوية، و السلطان المبين، و أن ثورته ستؤتى أكلها بعد حين، و لذلك كان يرضى من هؤلاء القوم أن يتنحوا عن طريقه و لا يكونوا حاجزا بينه و بين الناس.

لكن، هل يمكن أن يهدأ هؤلاء الجبابرة المغرورون و هم يرون الخطر يهدد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۷

مصالحهم و ثرواتهم اللامشروعة، و يقبلوا مثل هذا الاقتراح و يدعوا موسى و شأنه؟

الآيات الآتية كفيلة بأن تبيّن تتمة هذه الأحاديث.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۸

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۲۲ الى ۲۹]

اشارة

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۲۶)

وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹)

التّفسير

تركوا القصور و البساتين و الكنوز و ارتحلوا! لقد استخدم موسى عليه السّلام كلّ وسائل الهداية للنفوذ إلى قلوب هؤلاء المجرمين الظلمة، إلّا أنّها لم تؤثر فيهم أدنى تأثير، و طرق كلّ باب ما من مجيب.

لذلك يئس منهم، و لم ير لهم علاجا إلّا لعنهم و الدعاء عليهم، لأنّ الفاسدين الذين لا أمل فى هدايتهم لا يستحقون الحياة فى قانون الخلقة، بل يجب أن ينزل عليهم عذاب اللّه و يجتثهم و يطهر الأرض من دنسهم، لذلك تقول الآية الأولى من هذه الآيات: فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۳۹

انظر إلى أدب الدعاء، إنّه لا يقول: اللّهم افعل كذا و كذا، بل يكتفى بأنّ يقول:

اللّهمّ إن هؤلاء قوم مجرمون لا أمل فى هدايتهم و حسب! و قد استجاب اللّه سبحانه دعاءه، و كمقدمة لنزول العذاب على الفراعنة، و نجاة بنى إسرائيل منهم، أمر موسى عليه السّلام أنّ فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ لكن لا تقلق من ذلك، فيجب أن يتبعكم هؤلاء ليلاقوا المصير الذى ينتظرهم.

إنّ موسى عليه السّلام مأمور بأنّ يتحرك ليلا بصحبة عباد اللّه المؤمنين، أى بنى إسرائيل، و جماعة من أهل مصر الذين مالت قلوبهم

إلی الإیمان و لبّت دعوة موسی، و أن یأتی النیل، و یعبره بطریقة إعجازیة، ثمّ یسیر إلی الأرض الموعودة، «فلسطین».

صحیح أنّ حرکة موسی و أنصاره قد تمّت لیلا، إلّا أنّ من المحتم أنّ لا تبقی حرکة جماعیة عظیمة کهذه خافیة، عن أنظار الفراعنة مدة طویلة، و ربّما لم تمض عدّة ساعات حتی أوصل جواسیس فرعون هذا الخبر المهور- أو قل فرار العبید الجماعی- إلی مسامعه، فأمر بمطاردتهم بجیش جرار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۱۳۹

الطریف أنّ کلّ هذه الأمور التی حدثت جاءت ضمن إشارة موجزة فی الآیات أعلاه إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ

إن ما حذف هنا من أجل الاختصار وضّح فی آیات أخری من القرآن بعبارات موجزة، فمثلا نقرأ فی الآیة (۷۷) من سورة طه وَ لَقَدْ أَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنْ أَسْرِ بِعِبادِی فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِیقاً فِی الْبَحْرِ یَبَساً لا تَخافُ دَرَکاً وَ لا تَخْشی

ثمّ تضیف الآیة التی بعدها: عند ما تصل إلی الساحل الآخر علیک أن تترک البحر بهدوء وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً و المراد من البحر فی هذه الآیات هو نهر النیل العظیم.

لقد ذکر المفسّرون و أرباب اللغة معنیین للرهو: هما الهدوء، و السعة و الانفتاح، و لا مانع هنا من اجتماعهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۰

لکن لماذا صدر مثل هذا الأمر لموسی علیه السّلام؟

من الطبیعی أنّ موسی علیه السّلام و بنی إسرائیل کانوا راغبین فی أن یجتازوا البحر حتی تتصل المیاه مرّة أخری و تملأ هذا الفراغ، و یبتعدوا بسرعة عن منطقة الخطر، و یتجهوا بسلامة إلی الوطن الموعود، إلّا أنّهم أمروا أنّ لا یعجلوا أثناء عبورهم نهر النیل، بل لیدعوا فرعون و آخر جندی من جنوده یردون النیل، فإنّ أمر إهلاکهم و إماتتهم قد صدر إلی أمواج النیل المتلاطمة الغاضبة، و لذلک تقول الآیة فی ختامها إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

هذا هو أمر اللّه عزّ و جلّ الحتمی الصادر بحق هؤلاء القوم، بأنّهم یجب أن یغرقوا جمیعا فی نهر النیل العظیم، الذی کان أساس ثروتهم و قوّتهم! و بأمر إلهی واحد تحول هذا النهر الذی کان عصب حیاتهم إلی أداة فنائهم و موتهم.

نعم، عند ما وصل فرعون و جنوده إلی شاطئ النیل کان بنو إسرائیل قد خرجوا من الجانب الآخر، و کان ظهور مثل ذلک الطریق الیابس وسط النیل کافیا وحده لأن یلفت نظر حتی الطفل الساذج إلی تحقق إعجاز إلهی عظیم فی البحر، إلّا أنّ کبر أولئک الحمقی و غرورهم لم یسمح لهم بإدراک هذه الحقیقة الواضحة فیقفوا علی اشتباهاتهم و أخطائهم، و یتوجهوا إلی اللّه سبحانه! ربّما کانوا یظنون أنّ هذا التغیر الذی طرأ علی النیل قد تمّ بأمر فرعون أیضا! و ربّما قال هذا الکلام لجنوده، ثمّ ورد بنفسه ذلک الطریق فتبعه جنوده حتی الجندی الأخیر! لکن، أمواج النیل تلاطمت فجأة و انهالت علیهم کبناء شاهق انهدمت قواعده فانهار إلی الأرض، فغرقوا جمیعا.

و لنکتة التی تلفت النظر فی هذه الآیات، هی اختصارها الفائق، و کونها بلیغة و معبرة فی الوقت نفسه، فقد ذکر قصة مفصلة فی ثلاث آیات- أو جمل- بحذف الجمل الإضافیة التی تفهم من القرائن أو الجمل الأخری، و نراها اکتفت بالقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۱

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ. فَأَسْرِ بِعِبادِی لَیْلًا إِنَّکُمْ مُتَّبَعُونَ، وَ اتْرُکِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ

إنّ التعبیر ب «مغرقون» مع أنّهم لم یکونوا قد غرقوا بعد إشارة إلی أنّ هذا الأمر الإلهی حتمی و قطعی.

و لنر الآن ماذا جری من الحوادث التی تدعو إلی الاعتبار بها، بعد غرق فرعون و الفراعنة.

یبیّن القرآن الکریم فی الآیات التالیة ترکة الفراعنة العظیمة التی ورثها بنو إسرائیل، ضمن خمسة مواضیع تکن الفهرس العام لکلّ حیاة

الفراعنة، فيقول أوّلا: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

لقد كانت البساتين و العيون ثروتين من أهم و أروع ثروات هؤلاء، لأنّ مصر كانت أرضا خصبة مليئة بالبساتين بوجود نهر النيل. و هذه العيون يمكن أن تكون إشارة الى العيون التى كانت تنبع هنا و هناك، أو أنّها جداول كانت تستمد مياهها من النيل، و تمر فى بساتين أولئك و حدائقهم الغناء الخضراء، و ليس بعيدا إطلاق العين على هذه الجداول.

ثمّ يضيف القرآن الكريم وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ و كانت هاتان ثروتين مهمتين أخريين، فمن جهة كانت الزراعة العظيمة التى تعتمد على النيل، حيث أنواع المواد الزراعية الغذائية و غيرها، و المحصولات التى امتدت فى جميع أنحاء مصر، و كانوا يستخدمونها غذاء لهم و يصدرون الفائض منها إلى الخارج، و من جهة أخرى كانت القصور و المساكن العامرة، حيث أنّ من أهم مستلزمات حياة الإنسان هو المسكن المناسب.

لا شك أنّ هذه القصور كريمة من الناحية الظاهرية، و من وجهة نظر هؤلاء أنفسهم، و إلّا فإنّ مساكن الطواغيت المزينة هذه، و التى تسبب الغفلة عن اللّه، لا قيمة لها فى منطق القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۲

و احتمل البعض أن يكون المراد من المقام الكريم مجالس الأنس و الطرب، أو المنابر التى كان يرتقيها المدّاحون و الشعراء للثناء على فرعون.

لكن، الظاهر أنّ المعنى الأوّل أنسب من الجميع.

و لما كان هؤلاء يمتلكون وسائل رفاه كثيرة غير الأمور الأربعة المهمّة التى مرّ ذكرها، فقد أشار القرآن إليها جميعا فى جملة مقتضبة، فقال: وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ ۱۲۰][۱۲۱].

ثمّ يضيف كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ۱۲۲].

و المراد من قَوْماً آخَرِينَ هم بنو إسرائيل، حيث صرّح بذلك فى الآية (۹۵) من سورة الشعراء. و التعبير بالإرث إشارة إلى أنّهم حصلوا على كلّ هذه الأموال و الثروات من دون أن يبذلوا أدنى جهد، أو يتحملوا أقل تعب و مشقّة، كما يحصل الإنسان على الإرث دون أن يشقى و يجهد فى تحصيله.

و الجدير بالانتباه أنّ الآية المذكورة و نظيرتها فى سورة الشعراء توحيان بأنّ بنى إسرائيل قد عادوا إلى مصر بعد غرق الفراعنة و ورثوا ميراثهم، و حكموا هناك، و سير الحوادث يقتضى- أيضا- أنّ لا يدع موسى عليه السّلام مصر تعيش فراغا سياسيا بعد انهيار دعائم حكومة الفراعنة فيها.

لكن هذا الكلام لا ينافى ما ورد فى آيات القرآن الكريم من أنّ بنى إسرائيل قد ساروا إلى الأرض الموعودة، أرض فلسطين، بعد خلاصهم من قبضة الفراعنة، و الذى جاء مفصلا فى القرآن، فمن الممكن أن تكون جماعة منهم قد أقاموا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۳

مصر بعد استيلائهم عليها كوكلاء لموسى عليه السّلام، و سار القسم الأعظم إلى فلسطين.

و لمزيد من الإيضاح حول هذا الكلام انظر ذيل الآية (۵۹) من سورة الشعراء.

و تقول الآية الأخيرة من هذه الآيات فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ

إنّ عدم بكاء السماء و الأرض ربّما كان كناية عن حقارتهم، و عدم وجود ولى و لا نصير لهم ليحزن عليهم و يبكيهم، و من المتعارف بين العرب أنّهم إذا أرادوا تبيان أهمية مكانة الميت، يقولون: بكت عليه السماء و الأرض، و أظلمت الشمس و القمر لفقده.

و احتمل أيضا أنّ المراد بكاء أهل السماوات و الأرض، لأنّهم يبكون المؤمنين المقربين عند اللّه، لا الجبابرة و الطواغيت و أمثاله.

و قال البعض: إنّ بكاء السماء و الأرض بكاء حقيقى، حيث تظهر احمرارا خاصا غير احمرار الغروب و الطلوع، كما نقرأ

فى رواية: «لما قتل الحسين بن على بن أبى طالب عليه السّلام بكت السماء عليه، و بكاؤها حمرة أطرافها»[۱۲۳].

و

فى رواية أخرى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «بكت السماء على يحيى بن زكريا و على الحسين بن على (عليهما السلام) أربعين صباحا، و لم تبك إلّا عليهما» قلت:

و ما بكاؤها؟ قال: «كانت تطلع حمراء، و تغيب حمراء»[۱۲۴].

غير أننا نقرأ

فى حديث روى عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما من مؤمن إلّا و له باب يصعد منه عمله، و باب ينزل منه رزقه، فإذا مات بكيا عليه»[۱۲۵].

و لا منافاة بين هذه الرّوايات، حيث كان لشهادة الحسين عليه السّلام و يحيى بن زكريا عليه السّلام صفة العموم فى كلّ السماء، و لما ورد فى الرّوايات الأخيرة صفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۴

الخصوص ۱۲۶].

على أى حال، فلا تضاد بين هذه التفاسير، و يمكن جمعها فى معنى الآية.

نعم لم تبك السماء لموت هؤلاء الضالين الظالمين، و لم تحزن عليهم الأرض، فقد كانوا موجودات خبيثة، و كأنّما لم تكن لهم أدنى علاقة بعالم الوجود و دنيا البشرية، فلما طرد هؤلاء الأجانب من العالم لم يحس أحد بخلو مكانهم منهم، و لم يشعر أحد بفقدهم، لا على وجه الأرض، و لا فى أطراف السماء، و لا فى أعماق قلوب البشر، و لذلك لم تذرف عين أحد دمعة لموتهم.

و ننهى الكلام فى هذه الآيات بذكر رواية عن أمير المؤمنين عليه السّلام.

فقد ورد فى رواية أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام لما مرّ على المدائن، و رأى آثار كسرى مشرفة على السقوط و الانهيار، أنشد أحد أصحابه الذين كانوا معه:

جرت الرياح على رسومهم* فكأنّهم كانوا على ميعاد! فقال أمير المؤمنين على عليه السّلام: «أ فلا قلت كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ ... فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ ۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۵

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۰ الى ۳۳]

اشارة

وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلاؤُا مُبِينٌ (۳۳)

التّفسير

بنو إسرائيل فى بوتقة الاختبار:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن غرق الفراعنة و هلاكهم، و انكسار شوكتهم و انتهاء حكومتهم، و انتقالها إلى الآخرين. و تتحدث

هـذه الآيـات فى النقطـة المقابلـة لـذلك أى نجاة بنى إسـرائيل و خلاصـهم، فتقول: وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَـذابِ الْمُهِينِ من العـذاب الجسـمى و الروحى و الشاق، و الـذى نفـذ إلى أعماق أرواحهم .. من ذبح الأطفال الذكور، و اسـتحياء البنات لخدمة و قضاء المآرب، من السخرة و الأعمال الشاقة جدّا، و أمثال ذلك.

فكم هو مؤلم أن يكون مصير أمة بيد هكذا عدوّ دموى شيطانى، و أن تبتلى بهكذا ظلمة لا يعرفون الرحمة و لا الانسانية؟

نعم، لقد نجّى اللّه سبحانه هذه الأمّة المظلومة من قبضة هؤلاء الظالمين، أعظم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۶

سفـاكى الـدماء فى التأريـخ، فى ظـل ثورة موسـى بن عمران عليه السّـلام، الرّبانيـة، لـذلك تضـيف الآيـة مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ

ليس المراد من «عاليا» هنا علو المنزلـة، بل هو إشارة إلى استشـعاره العلو، و إنّما علوه فى الإسـراف و التعدى، كما جاء ذلك أيضا فى الآية (۴) من سورة القصص إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ حتى أنّه ادعى الألوهية، و سمى نفسه الرب الأعلى.

و «المسـرف» من مادة «إسـراف»، أى كلّ تجاوز للحـدود، سواء فى الأقوال أم الأفعال، و لـذلك اسـتعملت كلمـة المسـرف فى آيات القرآن المختلفـة فى شأن المجرمين الـذين يتعـدون الحدود فى ظلمهم و فسادهم، و كذلك أطلقت على العصاة المسـرفين، كما نقرأ ذلك فى الآية (۵۳) من سورة الزمر قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ

و تشـير الآيـة التاليـة إلى نعمة أخرى من نعم اللّه سـبحانه على بنى إسـرائيل، فتقول: وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ إلّا أنّهم لم يعرفوا قدر هذه النعمة، فكفروا و عوقبوا.

و على هـذا فـإنّهم كـانوا الأمـة المختـارة فى عصـرهم، لأنّ المراد من العـالمين البشـر فى ذلـك العصـر و الزمـان لا فى كلّ القرون و الأعصار، لأنّ القرآن يخاطب الأمة الإسلامية بصراحة فى الآية (۱۱۰) من سورة آل عمران و يقول: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

و كـذلك الحال بالنسـبة إلى الأراضـى التى ورثها بنو إسـرائيل، إذ يقول القرآن الكريم فى الآيـة (۱۳۷) من سورة الأعراف وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها فى حين أنّ بنى إسـرائيل لم يرثوا كلّ الأرض، و المراد شـرق منطقتهم و غربها.

و يعتقد بعض المفسّـرين أنّه كان لبنى إسرائيل بعض الميزات التى كانت منحصرة فيهم على مرّ التأريخ، و من جملتها كثرة الأنبياء، إذ لم يظهر فى أى قوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۷

هذا العدد من الأنبياء.

إلّا أنّ هـذا الكلام، إضافـة إلى أنّه لا يثبت مزيتهم المطلقـة هـذه، فإنّه يـدل على أنّها ليست مزية أساسا، فربّما كانت كثرة الأنبياء فيهم دليلا على غاية تمرد هؤلاء القوم و قمة عصـيانهم، كما بيّنت الحوادث المختلفة بعد ظهور موسى عليه السّلام أنّهم لم يتركوا شيئا سيئا لم يفعلوه ضد هذا النّبى العظيم.

و على أية حال، فإنّ ما ذكرناه أعلاه فى تفسير الآية، هو المقبول من قبل كثير من المفسّرين فى شأن أهلية بنى إسرائيل النسبية.

غير أنّ هؤلاء القوم المعانـدين كـانوا يؤذون أنبيـاءهم دائمـا- حسب مـا يـذكره القرآن- و كانوا يقفون أمام أحكام اللّه سـبحانه بكلّ تصـلب و عناد، بل إنّهم بمجرّد أنّ نجوا من النيل و أهواله طلبوا من موسـى أن يجعل لهم آلهـة يعبدونها! و هذا يدلنا على إمكانية أن يكون الهـدف من الآيـة ليس بيـان خصـيصة لبنى إسـرائيل، بـل بيـان حقيقـة أخرى. و عليه يصـبح معنى الآيـة: مع أننـا نعلم أنّ هؤلاء سيسيئون استغلال نعم اللّه و مواهبه، فقد منحناهم التفوق لنختبرهم.

كما يستفاد من الآية التالية- أيضا- أنّ اللّه سبحانه قد منحهم مواهب اخرى ليبلوهم.

و لـذا فإنّ هـذا الاختبار الإلهى لا يـدل على كونه مزيـة لهؤلاء، و ليس هـذا و حسب، بل هو ذم ضـمنى أيضا، لأنّهم لم يشـكروا هذه النعمة، و لم يؤدّوا حقها، و لم ينجحوا فى الامتحان.

و تشـير آخر آيـة من هـذه الآيات إلى بعض المواهب الأخرى التى منحهم اللّه إيّاها، فتقول: وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ فمرة ظللنا عليهم الغمام فى صـحراء سـيناء، و فى وادى التيه و أخرى أنزلنا عليهم مائدة خاصة من المن و السلوى، و ثالثة أجرينا لهم العيون من الصخور الصماء، و منحناهم أحيانا نعما مادية و معنوية أخرى. إلّا أنّ كلّ ذلك كان لغرض الابتلاء و الامتحان، لأنّ اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۸

سبحـانه يختبر قوما بالمصـيبة، و آخرين بالنعمـة، كما نقرأ ذلك فى الآيـة (۱۶۸) من سورة الأـعراف: وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَـناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

و ربّما كان الهدف من ذكر قصة بنى إسرائيل للمسلمين الأوائل، هو أنّ لا يخافوا من كثرة الأعداء، و تعاظم قوّتهم، و ليطمئنوا بأنّ اللّه الـذى أهلك الفراعنة و دمرهم، و أورثت بنى إسـرائيل ملكهم و حكومتهم، سـيمنّ عليهم فى القريب العاجل بمثل هذا النصـر، و كما اختبر أولئك بهذه المواهب، فإنّكم ستوضعون أيضا فى بوتقة الامتحان و الاختبار، ليتّضح ماذا ستفعلون بعد الانتصار و تقلد الحكم؟

و هـذا تحـذير لكـلّ الأـمم و الأـقوام فيمـا يتعلق بالانتصارات و المواهب التى يحصـلون عليها بفضل اللّه و لطفه، فإنّ الامتحان عنـدئذ عسير.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۴۹

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۴ الى ۳۶]

اشارة

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (۳۴) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى وَ ما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (۳۵) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۳۶)

التّفسير

لا شىء بعد الموت!

بعد أنّ جسدت الآيات السابقة مشـهدا من حياة فرعون و الفراعنة، و عاقبة كفرهم و إنكارهم، تكرر الكلام عن المشركين مرّة أخرى، و أعادت هـذه الآيات مسألة شـكهم فى مسألة المعاد- و التى مرّت فى بداية السورة- بصورة أخرى، فقالت: إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى و سوف لا نعود إلى الحياة إطلاقا[۱۲۸] و ما يقوله محمّـد عن المعاد و الحياة بعد الموت و الثواب و العقاب، و الجنّة و النّار لا حقيقة له، فلا حشر و لا نشر أبدا! و هنا سؤال يطرح نفسه، و هو: لماذا يؤكّد المشركون على الموتة الأولى فقط،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۰

و التى تعنى عـدم وجود موت آخر بعـد هـذا الموت، فى حين أنّ مرادهم نفى الحياة بعـد الموت، لا إنكار الموت الثانى و بتعبير آخر فإنّ الأنبياء كانوا يخبرون بالحياة بعد الموت، لا بالموت مرة ثانية.

و نقول فى الإجابة: إنّ مرادهم عدم وجود حالة أخرى بعد الموت، أى إنّنا نموت مرّة واحدة و ينتهى كلّ شـىء، و بعد ذلك لا توجد هناك حياة أخرى و لا موت آخر، فكل ما هو موجود هذا الموت لا غير. (فتأمل!)[۱۲۹].

و هذا یشبه کثیرا ما ورد فی الآیة (۲۹) من سورة الأنعام، حیث تقول: وَ قالُوا إِنْ هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِینَ ثمّ تنقل کلام هؤلاء الذین تشبثوا بدلیل واه لإثبات مدعاهم، إذا قالوا: فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ

قال البعض: إنّ هذا کان کلام أبی جهل، حیث أنّه التفت إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: إن کنت صادقا فابعث جدک قصی بن کلاب، فإنّه کان رجلا صادقا لنسأله عمّا یکون بعد الموت ۱۳۰].

من البدیهی أنّ کلّ ذلک کان تذرعا، و مع أنّ سنّة اللّه لم تقم علی أن یحیی الأموات فی هذه الدنیا لیأتوا بأخبار ذلک العالم إلی هذا العالم، لکن علی فرض أن یتمّ هذا العمل من قبل الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فسیعزف هؤلاء المتذرعون نغمة جدیدة، و یضربون علی وتر آخر، فیسمون ذلک الفعل سحرا مثلا، کما طلبوا المعاجز عدّة مرات، فلما أتاهم النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بها أنکروها أشد إنکار.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۱

ملاحظة

عقیدة المشرکین فی المعاد:

لم یکن للمشرکین بعامة- و مشرکی العرب بخاصة- مسلک متحد فی مسائلهم العقائدیة، بل إنّهم کانوا متفاوتین فیما بینهم مع أنّهم یشترکون فی الأصل فی عقیدة الشرک.

فبعضهم لم یکن یعترف باللّه و لا بالمعاد، و هم الذین یتحدث القرآن عنهم بأنّهم کانوا یقولون: ما هِیَ إِلَّا حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ[۱۳۱] و بعضهم الآخر کانوا یعتقدون باللّه عزّ و جلّ، و یعتقدون أیضا أنّ الأصنام شفعاؤهم عند اللّه، إلّا أنّهم کانوا ینکرون المعاد، و هم الذین کانوا یقولون: مَنْ یُحْیِ الْعِظامَ وَ هِیَ رَمِیمٌ ۱۳۲]، فأولئک کانوا یحجون إلی الأصنام، و یقدمون القرابین لها، و کانوا یعتقدون بالحلال و الحرام، و کان أکثر مشرکی العرب من هذه الفئة.

لکن هناک شواهد تدل علی أنّ هؤلاء کانوا یعتقدون ببقاء الروح بشکل ما، سواء علی هیئة التناسخ و انتقال الأرواح إلی الأبدان جدیدة أم بشکل آخر[۱۳۳].

و اعتقادهم بطیر اسمه (هامة) معروف، فقد ورد فی قصص العرب أنّه کان من بین العرب من یعتقد بأنّ روح الإنسان طائر انبسط فی جسمه، و عند ما یرحل الإنسان عن هذه الدنیا أو یقتل، یخرج هذا الطائر من جسمه و یدور حول جسده بصورة مرعبة، و ینوح عند قبره.

و کانوا یعتقدون- أیضا- أنّ هذا الطائر یکون صغیرا فی البدایة ثمّ یکبر حتی یصبح بحجم البوم، و هو یعیش دائما فی خوف و اضطراب، و یسکن الدیار الخالیة، و الخرائب، و القبور و مصارع القتلی!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۲

و کذلک کانوا یعتقدون أنّ شخصا إذا قتل ستصیح هامة علی قبره: اسقونی فإنی صدیة أی عطشانة[۱۳۴].

لقد أبطل الإسلام کلّ هذه المعتقدات الخرافیة، و لذلک

روی عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لا هامة»[۱۳۵].

و علی أیة حال، فیبدو أنّ هؤلاء و إن لم یکونوا یعتقدون بالمعاد و حیاة الإنسان بعد موته، إلّا أنّهم کانوا یقولون بالتناسخ و بقاء الأرواح بشکل ما.

أمّا المعاد الجسمانى على الهيئة التى يذكرها القرآن الكريم، بأنّ تراب الإنسان يجمع مرة أخرى، و يعود إلى الحياة من جديد، و أن لكلا الجسم و الروح معادا مشتركا، فإنّهم كانوا ينكرونه تماما، و لا ينكرونه فحسب، بل كانوا يخافونه. و قد أوضحه لهم القرآن بأساليب مختلفة و أثبته لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۳

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۳۷ الى ۳۹]

اشارة

أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (۳۷) وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (۳۸) ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۳۹)

التّفسير

قوم تبع:

لقد كانت أرض اليمن- الواقعة فى جنوب الجزيرة العربية- من الأراضى العامرة الغنية، و كانت فى الماضى مهد الحضارة و التمدن، و كان يحكمها ملوك يسمّون «تبّعا»- و جمعها تبابعة- لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر و يتبعه فى الحكم.

و مهما يكن، فقد كان قوم تبع يشكلون مجتمعا قويا فى عدته و عدده، و لهم حكومتهم الواسعة المترامية الأطراف.

و هذه الآيات تواصل البحث الذى ورد حول مشركى مكّة و عنادهم و إنكارهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۴

للمعاد- فتهدد أولئك المشركين من خلال الإشارة إلى قصة قوم تبع، بأنّ ما ينتظركم ليس العذاب الإلهى فى القيامة و حسب، بل سوف تلاقون فى هذه الدنيا أيضا مصيرا كمصير قوم تبّع المجرمين الكافرين، فتقول: أَ هُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ

من المعلوم أنّ سكان الحجاز كانوا مطلعين على قصة قوم تبع الذين كانوا يعيشون فى جوارهم، و لذلك لم تفصل الآية كثيرا فى أحوالهم، بل اكتفت بالقول:

أنّ احذروا أن تلاقوا نفس المصير الذى لاقاه أولئك الأقوام الآخرون الذين كانوا يعيشون قربكم و حواليكم، و فى مسيركم إلى الشام، و فى أرض مصر. فعلى فرض أن بإمكانكم إنكار القيامة، فهل تستطيعون أن تنكروا العذاب الذى نزل بساحة هؤلاء القوم المجرمين العاصين؟

و المراد من الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أمثال قوم نوح و عاد و ثمود.

و سنبحث المراد من قوم تبع، فى ما يأتى، إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ تعود الآية التى بعدها إلى مسألة المعاد مرّة أخرى، و تثبت هذه الحقيقة باستدلال رائع، فتقول: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ۱۳۶].

نعم، فإنّ لهذا الخلق العظيم الواسع هدفا، فإذا كان الموت بزعمكم نقطة النهاية بعد أيام من المأكل و المشرب و المنام و قضاء الشهوات الحيوانية، و بعد ذلك ينتهى كلّ شىء بالموت، فسيكون هذا الخلق لعبا و لهوا و عبثا، لا فائدة من ورائه و لا هدف.

و لا يمكن التصـديق بأنّ اللّه القادر الحكيم قد خلق هذا النظام و الخلق العظيم من أجل عدّة أيّام سـريعة الانقضاء لا هدف من ورائها، مع ما تقترن به أيّام الحياة هذه من أنواع الآلام و المصائب و المصاعب، أ فينتهى كلّ شىء بانتهائها!؟ إنّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۵

الأمر لا ينسجم مطلقا مع حكمة اللّه.

بناء على هـذا، فإنّ مشاهـدة وضع هذا العالم و تنظيمه، تلزمنا التصديق بأنّه مدخل و ممر إلى عالم أعظم أبدى، فلما ذا لا تتفكرون فى ذلك؟

لقـد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرارا فى سور المختلفة، فيقول فى الآية (۱۶) من سورة الأنبياء: وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ

و يقول فى الآية (۶۲) من سورة الواقعة: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ

و على أيـة حال، فإنّ هنالك غايـة وراء خلق هـذا العالم، و هناك عالما آخر يتبعه، فى حين أنّ المـذاهب الإلحاديـة و المنكرة للمعاد ترى بأنّ هذا الخلق عبث لا فائدة من ورائه و لا هدف.

ثمّ تضيف الآية التى بعدها لتأكيد الكلام: ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِ

إن كون هـذا الخلق حقا يوجب أن يكون له هـدف عقلائى، و ذلك الهـدف لا يتحقق إلّا بوجود عالم آخر. إضافة إلى أنّ كونه حقا يقضى بأنّ لا يتساوى المحسنون و المسيئون، و لما كنا نرى كل واحد من هاتين الفئتين قلّما يرى جزاء عمله فى هذه الدنيا، فلا بد من وجود عالم آخر يجرى فيه الحساب و الثواب و العقاب، ليتلقى كل إنسان جزاء عمله، خيرا أم شرا.

و خلاصة القول، فإنّ الحق فى هذه الآية إشارة إلى الهدفية فى الخلق، و اختبار البشـر و قانون التكامل، و كذلك تنفيذ أصول العدالة: وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ لأنّهم لا يعملون الفكر فى التوصل إلى الحقائق، و إلّا فإنّ أدلة المبدأ و المعاد واضحة بينة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۶

بحث

من هم قوم تبّع؟

لقـد وردت كلمة (تبّع) فى القرآن الكريم مرتين فقط: مرة فى الآيات مورد البحث، و أخرى فى الآية ۱۴ من سورة (ق) حيث تقول: وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.

و كمـا أشـرنا من قبـل، فـإنّ «تبعا» كان لقبا عاما لملوك اليمن، ككسـرى لسـلاطين إيران، و خاقان لملوك الترك، و فرعون لملوك مصر، و قيصر لسلاطين الروم.

و كانت كلمة (تبع) تطلق على ملوك اليمن من جهة أنّهم كانوا يدعون الناس إلى اتباعهم، أو لأنّ أحدهم كان يتبع الآخر فى الحكم. لكن يبدو أنّ القرآن الكريم يتحدث عن أحد ملوك اليمن خاصة- كما أنّ فرعون المعاصـر لموسى عليه السّلام، و الذى يتحدث عنه القرآن كان معينا و محددا- و ورد فى بعض الرّوايات أنّ اسمه «أسعد أبا كرب».

و يعتقـد بعض المفسّـرين أنّه كان رجلا مؤمنا، و اعتبروا تعبير «قوم تبّع» الـذى ورد فى آيتين من القرآن دليلا على ذلك، حيث أنّه لم يذمّ فى هاتين الآيتين، بل ذم قومه، و الرّواية المروية عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم شاهدة على ذلك، ففى هذه

الرواية أنّه قال: لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم ۱۳۷].

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ تبّعا قال للأوس و الخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبى، أمّا لو أدركته لخدمته و خرجت معه»[۱۳۸].

و ورد فى رواية أخرى: إنّ تبعا لما قدم المدينة- من أحد أسفاره- و نزل بفنائها، بعث إلى أحبار اليهود الذين كانوا يسكنونها فقال: إنّى مخرب هذا البلد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۷

حتى لا تقوم به يهودية، و يرجع الأمر إلى دين العرب.

فقال له شامول اليهودى- و هو يومئذ أعلمهم- أيها الملك إنّ هذا بلد يكون إليه مهاجر نبى من بنى إسماعيل، مولده بمكّة اسمه أحمد. ثمّ ذكروا له بعض شمائل نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال تبّع- و كأنّه كان عالما بالأمر- ما إلى هذا البلد من سبيل، و ما كان ليكون خرابها على يدى ۱۳۹].

بل ورد فى رواية فى ذيل تلك القصة أنّه قال لمن كان معه من الأوس و الخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإنّ خرج النّبى الموعود فآزروه و انصروه، و أوصوا بذلك أولادكم، حتى أنّه كتب رسالة أودعهم إياها ذكر فيها إيمانه بالرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم ۱۴۰].

و يروى صاحب أعلام القرآن أنّ تبّعا كان أحد ملوك اليمن الذين فتحوا العالم، فقد سار بجيشه إلى الهند و استولى على بلدان تلك المنطقة. و قاد جيشا إلى مكّة، و كان يريد هدم الكعبة، فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

و كان من بين حاشيته جمع من العلماء، كان رئيسهم حكيما يدعى شامول، فقال له: إنّ مرضك بسبب سوء نيتك فى شأن الكعبة، و ستشفى إذا صرفت ذهنك عن هذه الفكرة و استغفرت، فرجع تبع عما أراد و نذر أن يحترم الكعبة، فلما تحسن حاله كسا الكعبة ببرد يمانى.

و قد وردت قصّة كسوة الكعبة فى تواريخ أخرى حتى بلغت حد التواتر. و كان تحرك الجيش هذا، و مسألة كسوة الكعبة فى القرن الخامس الميلادى، و يوجد اليوم فى مكّة مكان يسمى «دار التابعة»[۱۴۱].

و على أية حال، فإنّ القسم الأعظم من تأريخ ملوك التبابعة فى اليمن لا يخلو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۸

من الغموض من الناحية التاريخية، حيث لا نعلم كثيرا عن عددهم، و مدّة حكومتهم، و ربّما نواجه فى هذا الباب روايات متناقضة، و أكثر ما ورد فى الكتب الإسلامية- سواء كتب التّفسير أو التأريخ أو الحديث- يتعلق بذلك الملك الذى أشار إليه القرآن فى موضعين.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۵۹

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۴۰ الى ۴۲]

اشارة

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (۴۰) يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۱) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

(۴۲)

التّفسير

يوم الفصل!

تمثل هـذه الآيات فى الحقيقـة نتيجـة الآيات السابقة التى بحثت مسألة المعاد، و التى اسـتدل بها عن طريق حكمة خلق هذا العالم على وجود البعث و الحياة الأخرى.

فتستنتج الآية الأولى من هذا الاستدلال: إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ

كم هو جميـل هـذا التعبير عن يوم القيامـة بيوم الفصـل! ذلك اليوم الـذى فصل فيه الحق عن الباطل، و تمتاز صـفوف المحسـنين عن المسيئين، و يعتزل فيه الإنسان أعزّ أصدقائه، و أقرب أخلائه .. نعم، إنّه موعد كلّ المجرمين ۱۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۰

ثمّ ذكرت الآية التالية شرحا موجزا ليوم الفصل هذا، فقالت: يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

أجل، ذلك اليوم هو يوم الفصل و الافتراق، يوم يفارق الإنسان فيه كلّ شيء إلّا عمله، و لا يملك المولى- بأى معنى كان، الصاحب، الولى، ولى النعمة، القريب، الجار، الناصر و أمثال ذلك- القدرة على حل أصغر مشكلة من مشاكل القيامة.

«المولى» من مـادة ولاء، و هى فى الأصل تعنى الاتصال بين شـيئين بحيث لا يوجـد بينهما حاجز، و له مصاديق كثيرة وردت فى كتب اللغة كمعان مختلفة، تشترك جميعا فى معناها الأصلى و جذرها[۱۴۳].

فى ذلـك اليوم لاـ يجيب الرفيق رفيقه، و ترى الأقارب لا يحل بعضـهم مشـكلة بعض، بل و تتبخر كلّ الخطط و تتقطع جميع الأواصـر الدنيوية كما نقرأ هذه الصورة فى الآية (۴۶) من سورة الطور: يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

أمّا ما هو الفرق بين «لا يغنى» و بين «لا هم ينصرون»؟ فإنّ أحسن ما يقال هو:

أنّ الأوّل إشـارة إلى أنّ أى فرد لاـ يقـدر فى ذلك اليوم على حل مشـكلة فرد آخر بصورة انفراديـة مسـتقلة، و الثّانى إشارة إلى أنّهم عـاجزون عن حـل المشاكل حتى و إن تعاونوا فيما بينهم، لأنّ النصـرة تقال فى موضع يهبّ فيه شـخص لمعونـة آخر و مسانـدته حتى ينصره على المشاكل.

لكن هناك جماعة واحدة مستثناة فقط، و هى التى أشارت إليها الآية التالية، فقالت: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ

لاـ شـك أنّ هـذه الرحمـة الإلهيـة لاـ تمنـح اعتباطا، بل تشـمل الـذين آمنوا و عملوا الصالحات فقط، و إذا كانوا قـد بـدر منهم زلل و معصية، فإنّها لا تبلغ حدّا تقطع فيه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۱

علاقتهم باللّه سبحانه، فهم يرفعون أكفهم إلى اللّه و يرجون رحمته، فيتنعمون بها، و يرتوون منها، و يتمتعون بشفاعة أوليائه.

من هنا يتّضـح أنّ نفى وجود صـديق و ولى و نصـير فى ذلك اليوم لا ينافى مسألة الشـفاعة، لأنّ الشـفاعة أيضا لا تحصل إلّا بإذن اللّه تعالى.

و الطريف أنّ الآية قرنت وصفه سبحانه بكونه عزيزا و رحيما، و الأوّل إشارة إلى قدرته اللامتناهية التى لا تعرف الهزيمة و الضعف، و الثّانى إشارة إلى رحمته التى لا حدود لها، و المهم أن تكون رحمته عين قدرته.

و قد روى فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من جملة: إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ وصى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمير

المؤمنين على عليه السّلام و شيعته ۱۴۴].

و لا يخفى أنّ الهدف منها هو بيان المصداق الواضح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۲

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۴۳ الى ۵۰]

اشارة

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (۴۳) طَعامُ الْأَثِيمِ (۴۴) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (۴۵) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (۴۶) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (۴۷) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ (۴۸) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴۹) إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (۵۰)

التّفسير

شجرة الزقوم!

تصف هذه الآيات أنواعا من عذاب الجحيم وصفا مرعبا يهز الأعماق، و هى تكمل البحث الذى مرّ فى الآيات السابقة حول يوم الفصل و القيامة، فتقول: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ فهؤلاء المجرمون هم الذين يأكلون هذا النبات المر القاتل، و الخبيث الطعام النتن الرائحة.

«الزّقوم» كما قلنا فى تفسير الآية (۶۲) من سورة الصافات- على قول المفسّرين و أهل اللغة، اسم شجرة لها أوراق صغيرة و ثمرة مرّة خشنة اللمس منتنة الرائحة، تنبت فى أرض تهامة من جزيرة العرب، كان المشركون يعرفونها، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۳

شجرة عصيرها مرّ، و إذا أصابت البدن تورّم ۱۴۵].

و يعتقد البعض أنّ الزقوم فى الأصل يعنى الابتلاع ۱۴۶]، و يقول البعض: إنّها كلّ طعام خبيث فى النّار[۱۴۷].

و جاء فى حديث أنّ هذه الكلمة لما نزلت فى القرآن قال كفار قريش: ما نعرف هذه الشجرة، فأيّكم يعرف معنى الزقوم؟ و كان هناك رجل من أفريقية قال: هى عندنا التمر و الزبد- و ربّما قال ذلك استهزاء- فلما سمع أبو جهل ذلك قال مستهزئا: يا جارية زقمينا، فأتته الجارية بتمر و زبد، فقال لأصحابه: تزقموا بهذا الذى يخوفكم به محمّد[۱۴۸].

و ينبغى الالتفات إلى أنّ «الشجرة» تأتى فى لغة العرب و الاستعمالات القرآنية بمعنى الشجرة أحيانا، و بمعنى مطلق النبات أحيانا.

و «الأثيم» من مادة إثم، و هو المقيم على الذنب، و المراد هنا الكفار المعاندون المعتقدون، المصرون على الذنوب و المعاصى المكثرون منها.

ثمّ تضيف الآية: كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ

«المهل»- على قول كثير من المفسّرين و أرباب اللغة- الفلز المذاب، و على قول آخرين- كالراغب فى المفردات- هو دردىّ الزيت، و هو ما يترسب فى الإناء، و هو شىء مرغوب فيه جدا، لكن يبدو أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«و الحميم» هو الماء الحار المغلى، و تطلق أحيانا على الصديق الوثيق العلاقة و الصداقة، و المراد هنا هو المعنى الأول.

على أى حال، فعند ما يدخل الزقوم بطون هؤلاء، فإنّه يولد حرارة عاليه لا تطاق، و يغلى كما يغلى الماء، و بدل أن يمنحهم هذا الغذاء القوة و الطاقة فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۴

يهبهم الشقاء و العذاب و الألم و المشقة.

ثمّ يخاطب سبحانه خزنة النّار، فيقول: خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ

«فاعتلوه» من مادة العتل، و هى الأخذ و السحب و الإلقاء. و هو ما يفعله حماة القانون و الشرطة مع المجرمين المتمردين، الذى لا يخضعون لأى قانون و لا يطبقونه.

«سواء» بمعنى الوسط، لأنّ المسافة إلى جميع الأطراف متساوية، و أخذ أمثال هؤلاء الأشخاص و إلقاؤهم فى وسط جهنم باعتبار أنّ الحرارة أقوى ما تكون فى الوسط، و النّار تحيط بهم من كلّ جانب.

ثمّ تشير الآية التالية إلى نوع آخر من أنواع العقاب الأليم الذى يناله هؤلاء فتقول: ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ۱۴۹] و بهذا فإنّهم يحترقون من الداخل، و تحيط النّار بكلّ وجودهم من الخارج، و إضافة إلى ذلك يصب على رؤوسهم الماء المغلى فى وسط الجحيم.

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۱۹) من سورة الحج حيث تقول: يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ

و بعد كلّ أنواع العذاب الجسمى هذه، تبدأ العقوبات الروحية و النفسية، فيقال لهذا المجرم المتمرد العاصى الكافر: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ فأنت الذى كنت قد قيدت البؤساء فباتوا فى قبضتك تظلمهم كيف شئت، و تعذبهم حسبما تشتهى، و كنت تظن أنّك قوى لا تقهر، و عزيز لا يمكن أنّ تهان و يجب على الجميع احترامك و تقديرك.

نعم، أنت الذى ركبك الغرور فلم تدع ذنبا لم ترتكبه، و لا موبقة لم تأتها، فذق الآن نتيجة أعمالك التى تجسدت أمامك، و كما أحرقت أجسام الناس و آلمت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۵

أرواحهم، فليحترق الآن داخلك و خارجك بنار غضب اللّه و الماء المغلى الذى يصهر ما فى بطونهم و الجلود.

و

جاء فى حديث أنّ النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ يوما بيد أبى جهل و قال: «أولى لك فأولى» فغضب أبو جهل و جرّ يده و قال: بأى شىء تهددنى؟ ما تستطيع أنت و صاحبك أن تفعلا بى شيئا، إنّى لمن أعز هذا الوادى و أكرمه.

و الآية ناظرة إلى هذا المعنى، فتقول: عند ما يلقونه فى جهنم يقولون له: ذق يا عزيز مكّة و كريمها[۱۵۰].

و يضيف القرآن الكريم فى آخر آية- من الآيات مورد البحث- مخاطبا إيّاهم:

إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ فكم ذكّرناكم بحقّانية هذا اليوم و حقيقته فى مختلف آيات القرآن و بمختلف الأدلة؟! ألم نقل لكم: كَذلِكَ الْخُرُوجُ [۱۵۱].

ألم نقل: كَذلِكَ النُّشُورُ؟[۱۵۲].

ألم نقل: وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ؟[۱۵۳].

ألم نقل: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ [۱۵۴].

و خلاصة القول: قد قلنا لكم الحقيقة و أوضحناها بطرق مختلفة، لكن لم تكن لكم آذان تسمعون بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۶

بحث

العقوبات الجسمية و الروحية:

نحن نعلم، و طبقا لصريح القرآن، أنّ للمعاد جانبا جسميا، و آخر روحيا، و على ذلك فمن الطبيعى أن تكون العقوبات و المثوبات متصفتين بهما كذلك، و لذلك أشير فى آيات القرآن الكريم و الرّوايات الإسلامية إلى كلا القسمين، غاية ما فى الأمر أنّ انتباه الناس و إحساسهم لمّا كان منصبا على الأمور الجسمية غالبا، لذلك يلاحظ أنّ التفصيل فى العقوبات و المثوبات المادية أكثر، لكن لا يعنى هذا أن الإشارة إلى المثوبات و العقوبات المعنوية قليلة.

و قد رأينا فى الآيات أعلاه نموذجا لهذا المطلب، فمع ذكر عدّة أقسام من العقوبات الجسمية الأليمة، هناك إشارة وجيزة عميقة المحتوى إلى الجزاء الروحى الذى سينال المستكبرين.

و تلاحظ فى آيات أخرى من القرآن الإشارة إلى المثوبات الروحية أيضا، فيقول اللّه تعالى فى موضع: وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ[۱۵۵].

و يقول فى موضع آخر: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيم ۱۵۶].

و أخيرا يقول فى موضع ثالث: وَ نَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ۱۵۷].

و لا يخفى أنّه لا يمكن وصف اللذائذ المعنوية غالبا و خاصّة فى ذلك العالم الواسع، و لذلك فقد أشير إليها فى القرآن إشارة غامضة عادة، أمّا العقوبات الروحية التى تكون بالتحقير و الإهانة، التوبيخ و التقريع، و الأسف و الهم و الحزن، فقد وصفتها الآيات و أوضحتها، و قد قرأنا نماذج منها فى الآيات أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۷

الآيات [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۵۱ الى ۵۷]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (۵۱) فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۲) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (۵۳) كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۵۴) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (۵۵)

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۵۶) فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۵۷)

التّفسير

المتقون و مختلف نعم الجنّة:

لما كان الكلام فى الآيات السابقة عن العقوبات الأليمة لأهل النّار، فإنّ هذه الآيات تذكر المواهب و النعم المعدة لأهل الجنّة، لتتضح أهمية كلّ منهما من خلال المقارنة بينهما.

و قد لخصت هذه المواهب فى سبعة أقسام:

الأولى: هى إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ ۱۵۸] على هذا فلا يصيبهم أى إزعاج أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۸

خوف، بل هم فى أمن كامل من الآفات و البلايا، من الغم و الأحزان، و من الشياطين و الطواغيت.

ثمّ تطرقت الآيات إلى النعمة الثانية فقال: فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

إن التعبير بالجنات يمكن أن يكون إشارة إلى تعدد الحدائق و البساتين التى يتمتع بها كلّ فرد من أهل الجنّة، فهى تحت تصرفه، أو تكون إشارة إلى مقاماتهم المختلفة و درجاتهم المتفاوتة، لأنّ حدائق الجنّة و بساتينها غير متساوية، بل تختلف باختلاف درجات أصحاب الجنّة.

و تشير الثالثة إلى ملابسهم الجميلة، فتقول: يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ

«السندس» يقال للأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة، و أضاف البعض قيد كونها مذهّبة.

و «الإستبرق» هى الأقمشة الحريرية السميكة، و يعتقد بعض المفسّرين و أهل اللغة أنها معربة من الكلمة الفارسية (أستبر) أو (ستبر) أى السميك. و يحتمل أن يكون أصلها عربيا مأخوذا من البرق أى التلألؤ، حيث أنّ لهذه الأقمشة بريقا خاصّا.

طبعا، ليس فى الجنّة حرّ شديد أو برد قارص ليتوقاه أهل الجنّة بارتداء هذا الملابس، بل هذه إشارة إلى الألبسة المتنوعة المعدة لهم.

و كما قلنا سابقا، فإنّ كلماتنا و ألفاظنا- هذه التى وضعت لرفع حاجات الحياة اليومية فى دنيانا- عاجزة عن وصف مسائل ذلك العالم الكامل العظيم، بل هى قادرة على الإشارة إليها و حسب.

و اعتقد البعض أنّ اختلاف هذه الألبسة إشارة إلى تفاوت مقامات القرب بين أصحاب النعيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۶۹

ثمّ إنّ كون أهل الجنّة متقابلين مع بعضهم البعض، و زوال أى تفاوت و تكبر لأحد على آخر، إشارة إلى روح الأنس و الأخوة التى تسود مجالسهم، تلك المجالس و الحلقات التى لا يرى فيها إلّا الصفاء و المودّة و تسامى الروح.

و تصل النوبة فى النعمة الرابعة إلى أزواجهم، فتقول: كَذلِكَ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ

«الحور» جمع حوراء و أحور، و تقال لمن اشتد سواد عينه، و اشتد بياض بياضها. و «العين» جمع أعين و عيناء، أى أوسع العين، و لما كان أكثر جمال الإنسان فى عينيه، فإنّ الآية تصف عيون الحور العين الجميلة الساحرة. و قد ذكرت محاسنهن الأخرى بأسلوب رائع فى آيات أخرى من القرآن.

ثمّ تناولت الآية الأخرى النعمة الخامسة لأصحاب الجنّة فقالت: يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ فلا توجد فى الجنّة تلك هنا المشكلات و الصعوبات التى كانوا يعانونها فى تناول فاكهة الدنيا، فإنّها قريبة منهم و فى متناولهم، و على هذا فليس هناك بذل جهد لاقتطاف الأثمار من الأشجار العالية، إذ قُطُوفُها دانِيَةٌ[۱۵۹].

و إليهم يرجع اختيار الفاكهة التى يشتهونها: وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۱۶۰].

و لا أثر هنا للأمراض و الاضطرابات التى قد تحدث فى هذه الدنيا على أثر تناول الفواكه، و كذلك لا خوف من فسادها و قلتها، فهم فى راحة و أمن و اطمئنان من الجهات.

و على أية حال، فإذا كان الزقوم طعام أهل النّار الذى يغلى فى بطونهم كغلى الحميم، فإنّ طعام الجنّة هى الفواكه اللذيذة الخالية من كلّ أذى و إزعاج.

خلود الجنّة و نعمها هى النعمة السادسة من نعم اللّه سبحانه على المتقين، لأنّ الذى يقلق فكر الإنسان عند الوصال و اللقاء هو خوف الفراق، و لذلك تقول الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۰

لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى

و الطريف أنّ القرآن الكريم قد بيّن كون نعم الجنّة خالدة بتعابير مختلفة، فيقول تارة: خالِدِينَ فِيها[۱۶۱] و يقول أخرى: عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ[۱۶۲] أمّا لماذا عبر ب الْمَوْتَةَ الْأُولى فسيأتى بيانه فى التأملات، إن شاء اللّه تعالى.

و أخيرا يبيّن القرآن الكريم السابع من النعم و آخرها، فيقول: وَ وَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ فإنّ كمال هذه النعم إنما يتم عند ما يخلو فكر

أصحاب الجنّة من احتمال العذاب، و عدم انشغالهم به، لئلا يقلقوا فيتكدر صفوهم فلا تكمل تلك النعم حينئذ.

و هـذا التعبير يشـير إلى أنّ المتقين إن كانوا خائفين مما بدر منهم من هفوات، فإنّ اللّه سـبحانه سـيعفو عنها بلطفه و كرمه، و يطمئنهم بأنّ لا يدعوا للخوف إلى أنفسـهم سبيلا. و بتعبير آخر، فإنّ غير المعصومين مبتلون بالهفوات شاؤوا أم أبوا، و هم فى خوف و قلق منها ما داموا غير مطمئنين بشمول العفو الإلهى لهم، و هذه الآية تمنحهم الاطمئنان و الراحة و الأمان من هذه الجهة.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إنّ بعض المؤمنين يقضون مـدّة فى الجحيم بـذنوب اقترفوها، ليتطهروا منها، ثمّ يدخلون الجنّة، فهل تشـملهم الآية المذكورة؟

و يمكن القول فى معرض الإجابة عن هذا السؤال، بأنّ الآية تتحدث عن المتقين ذوى الدرجات السامية، و الذين يردون الجنّة من أوّل وهلة، أما الفئة الأخرى فهى ساكتة عنهم.

و يحتمل أيضا أنّ هؤلاء عنـد ما يدخلون الجنّة فلن يخشوا بعد ذلك العودة إلى النّار، بل يبقون من الأمن الدائم، و هذا يعنى أنّ الآية أعلاه ترسم صورة هؤلاء و حالهم بعد دخولهم الجنّة.

و أشارت آخر آية- من هذه الآيات- إلى جميع النعم السبعة، و كنتيجة لما مر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۱

تقول: فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۱۶۳].

صحيـح، إنّ المتقين قـد عملوا الكثير من الصالحات و الحسـنات، إلّا أنّ من المسـلّم أن تلك الأعمال جميعا لا تسـتحق كلّ هذه النعم الخالدة، بل هى فضل من اللّه سبحانه، إذ جعل كلّ هذه النعم و العطايا تحت تصرفهم و وهبهم إيّاها.

هذا إضافة إلى أنّ هؤلاء لم يكونوا قادرين على كسب كلّ هذه الحسنات و لا على فعل الحسنات لو لم يشملهم فضل اللّه و توفيقه، و لطفه، فهو الذى منحهم العقل و العلم، و هو الذى أرسل الأنبياء و الكتب السماوية، و هو الذى غمرهم بتوفيق الهداية و العمل.

نعم، إنّ اسـتغلال هذه المنح العظمى، و الوصول إلى كلّ تلك العطايا و الثواب، إنّما تمّ بفضله سبحانه إذ وهبهم إيّاها، و لم يكن هذا الفوز العظيم ليحصل إلّا فى ظل لطفه و كرمه.

بحث

ما هى الموتة الأولى؟

قرأنا فى الآيات المذكورة أعلاه، أنّ أصحاب الجنة لا يذوقون إلّا الموتة الأولى، و هنا تطرح أسئلة ثلاثة:

الأـول: مـا المراد من الموتـة الأـولى؟ فإنّ كان المراد الموت الـذى تنتهى به الحياة الـدنيا، فلما تقول الآيـة: لا يَـذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى فى حين أنّهم قد ذاقوها، و عليه يجب أن يأتى الفعل بصيغة الماضى لا المضارع؟

و للإجابة عن هذا السؤال اعتبر البعض (إلّا) فى جملة إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۲

بمعنى (بعد)، و قالوا: إنّ معنى الآية هو أنّهم لا يذوقون موتا بعد موتتهم الأولى.

و قدّر البعض الآخر تقديرا فى الكلام فقالوا: إنّ التقدير هو: إلّا الموتة الأولى التى ذاقوها[۱۶۴].

الثانى: هو: لماذا ورد الكلام عن الموتـة الأولى فقط، فى حين أننا نعلم أنّ الإنسان يذوق الموت مرّتين: مرّة عند انتهاء حياته، و أخرى بعد حياة البرزخ؟

و قد ذكروا للإجابة على هذا السؤال عدة إجابات كلها غير مرضية، فآثرنا عدم ذكرها لعدم استحقاقها الذكر.

و الأفضل أن يقال: إنّ الحياة و الموت فى البرزخ لا يشبهان أبدا الحياة و الموت العاديين، بل إنّ حياة القيامة تشبه الحياة الدنيا من وجوه عديدة بمقتضى المعاد الجسمانى، غاية ما هناك أنّها فى مستوى أعلى و أسمى، و لذلك يقال لأصحاب الجنّة: لا موتة بعد الموتة الأولى التى ذقتموها، و لما كانت الحياة و الموت فى البرزخ لا شباهة لهما بحياة الدنيا و موتها لذا لم يرد الكلام حولهما[۱۶۵].

السؤال الثّالث هو: إنّ عدم وجود الموت فى القيامة لا ينحصر بأصحاب الجنّة، بل أصحاب النّار لا يموتون أيضا، فلما ذا أكّدت الآية على أصحاب الجنّة؟

للمرحوم الطبرسى جواب رائع عن ذلك، فهو يقول: إنّ ذلك بشارة لأهل الجنّة، بأن لهم حياة خالدة هنيئة، أما أصحاب النّار الذين يعتبر كلّ لحظة من لحظات حياتهم موتا، و كأنّهم يحيون و يموتون دائما، فلا معنى لهذا الكلام فى حقهم.

و على أية حال، فإنّ التعبير هنا ب لا يَذُوقُونَ إشارة إلى أنّ أصحاب الجنّة لا يرون و لا يعانون أدنى أثر من آثار الموت.

و جميل أنّ نقرأ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ اللّه تعالى يقول لبعض أهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۳

الجنّة: «و عزتى و جلالى، و علوى و ارتفاع مكانى لأنحلنّ لهم اليوم خمسة أشياء:

ألا إنّهم شباب لا يهرمون، و أصحاء لا يسقمون، و أغنياء لا يفتقرون، و فرحون لا يحزنون، و أحياء لا يموتون» ثمّ تلا هذه الآية: لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى ۱۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۴

الآيتان [سورة الدخان (۴۴): الآيات ۵۸ الى ۵۹]

اشارة

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۸) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (۵۹)

التّفسير

ارتقب فإنهم مرتقبون!

قلنا: إنّ سورة الدخان بدأت ببيان عظمة القرآن و عمقه، و تنتهى بهذه الآيات التى تبيّن كذلك التأثير العميق لآيات القرآن الكريم، لتنسجم بذلك بداية السورة مع نهايتها، و ما هو مبيّن أيضا بين البداية و النهاية هو التأكيد على مواعظ القرآن و نصحه.

تقول الآية الأولى: فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فمع أنّ محتواه عميق جدا، و أبعاده مترامية، لكنه بسيط واضح، يفهمه الجميع، و تقتبس من أنواره كلّ الطبقات، أمثاله جميلة رائعة، و تشبيهاته واقعية بليغة، و قصصه حقيقية تربوية، دلائله واضحة محكمة، و بيانه مع عمقه بسيط سهل، مختصر عميق المحتوى، و هو فى الوقت نفسه ذو حلاوة و جاذبية، ينفذ إلى أعماق قلوب البشر، فينبه الغافلين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۵

و يعلم الجاهلين، و يذكر من كان له قلب.

و قد ذكر بعض المفسّرين تفسيرا آخر لهذه الآية، يكون معنى الآية طبقا له: إنّك و إن كنت أميّا لم تدرس و تتعلم، لكنك تستطيع أن تقرأ بكلّ يسر و سهولة هذه الآيات العميقة الغنية المحتوى، و التى تبين الوحى و الإعجاز الإلهى. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و هذه الآية- فى الواقع- شبيهة بالآية التى تكررت عدّة مرات فى سورة القمر:

وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟! لكن لما كان هناك جماعة لم يذعنوا لأمر اللّه، و لم يسلموا و يستسلموا رغم ذكر كل هذه الأوصاف، فقد هددتهم الآية الأخيرة و حذرتهم فقالت: فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ فانتظر ما وعدك اللّه بالنصر على الكفار، و لينتظروا الهزيمة و الخسران ...

انتظر نزول عذاب اللّه الأليم على هؤلاء المعاندين الظالمين، ودعهم ينتظرون هزيمتك و عدم تحقق أهدافك السامية، ليعلم أى الانتظارين هو الصحيح؟

بناء على هذا، ينبغى أنّ لا يستفاد أبدا من الآية أنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه أن يكف كليا عن إبلاغهم رسالته، و ينهى نشاطه و فعالياته و جهاده، و يكتفى بأنّ يكون منتظرا للنتيجة، و إنّما هو نوع تهديد لأولئك المتعصبين عسى أن يستيقظوا من سباتهم، و ينتبهوا من غفلتهم.

***

ملاحظات

۱- «ارتقب» فى الأصل مأخوذة من الرقبة، و لما كان من ينتظر شيئا يمد رقبته نحوه دائما، فقد جاءت بمعنى انتظار الشىء و مراقبته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۶

۲- إنّ الآيات إعلاء تبين بوضوح أنّ القرآن الكريم لا يختص بطبقة خاصّة أو قوم معينين، بل هو لإفهام الجميع و تذكيرهم و إثارة تفكرهم، و على هذا، فإنّ أولئك الذين يجعلون القرآن مجموعة من المفاهيم المبهمة الألغاز المحيرة التى لا يفهمها و لا يعلمها إلّا طبقة خاصّة، بل و حتى هذه الطبقة لا تفهم منه شيئا و لا تدرك أبعاده، غافلون فى الحقيقة عن روح القرآن.

إنّ القرآن يجب أن يحيا بين الناس و يحضر بينهم حيثما كانوا، فى المدينة و القرية، فى الخلاء و الملأ فى المدار الابتدائية و الجامعات، فى المسجد و ميادين الحرب، و فى كلّ مكان يوجد فيه إنسان، لأنّ اللّه سبحانه قد يسّره ليتذكر الجميع و يقتبسوا من أنواره ما يضيئون به حياتهم.

و كذلك قضت هذه الآية ببطلان أفكار أولئك الذين حبسوا القرآن فى إطار طريقة تلاوته و قواعد تجويده و تعقيداتها، و أصبح همهم الوحيد أداء ألفاظه من مخارجها، و مراعاة آداب الوقف و الوصل فتقول لهم: إنّ كلّ ذلك من أجل التذكر الذى يكون عامل حركة و باعثا على العمل فى الحياة، فإنّ رعاية ظواهر الألفاظ صحيح فى محله، إلّا أنّه ليس الهدف النهائى، بل الهدف هو فهم معانى القرآن لا ألفاظه.

۳-

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لولا تيسيره لما قدر أحد من خلقه أن يتلفظ بحرف من القرآن، و أنى لهم ذلك و هو كلام من لم يزل و لا يزال»[۱۶۷].

اللّهمّ اجعلنا ممن يتعظ بالقرآن العظيم، و يتذكر و يتدبر فيه، و يجعل حياته فى جميع أبعادها تبعا لمفاهيمه و أحكامه.

اللّهمّ امنحنا من ذلك الأمن الذى و هبته المتقين، فجعلتهم مطمئنين موقنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۷

أمام عواصف الأحداث و المصاعب الجمة التى تعترضهم.

إلهنا ... إنّ مواهبك لا تحصى، و رحمتك لا تحد، و عذابك أليم، و ليست أعمالنا بالتى تجعلنا مؤهلين لنيل رحمتك و النجاة من عذابك.

اللّهمّ فانشر علينا من رحمتك، و أفض علينا من فضلك الذى وعدت به المتقين من عبادك، و إلّا فلا سبيل لنا إلى جنتك الخالدة.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة الدخان

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۷۹

سورة الجاثية

اشارة

مكيّة و عدد آياتها سبع و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۱

«سورة الجاثية»

محتوى السورة:

هذه السورة- و هى سادس الحواميم- من السورة المكية، و قد نزلت فى وقت كانت المواجهة بين المسلمين و مشركى مكّة قد اشتدت و سادت الأجواء الاجتماعية فى مكّة، و لذلك فإنّها أكّدت على المسائل المتعلقة بالتوحيد، و محاربة الشرك، و تهديد الظالمين بمحكمة القيامة، و التنبيه إلى كتابة الأعمال و تسجيلها، و كذلك التنبيه إلى عاقبة الأقوام المتمردين الماضين.

و يمكن تلخيص محتوى هذه السورة فى سبعة فصول:

۱- عظمة القرآن المجيد و أهميته.

۲- بيان جانب من دلائل التوحيد أمام المشركين.

۳- ذكر بعض ادعاءات الدهريين، و الردّ عليها بجواب قاطع.

۴- إشارة وجيزة إلى عاقبة بعض الأقوام الماضين- كبنى إسرائيل- كشاهد على مباحث هذه السورة.

۵- تهديد الضالين المصرين على عقائدهم المنحرفة و المتعصبين لها تهديدا شديدا.

۶- الدعوة إلى العفو و الصفح، لكن مع الحزم و عدم الانحراف عن طريق الحق.

۷- الإشارات البليغة المعبرة إلى مشاهد القيامة المهولة، و خاصة صحيفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۲

الأعمال التى تشتمل على كلّ أعمال الإنسان دون زيادة أو نقصان.

و تبدأ هذه السورة بصفات و أسماء اللّه عزّ و جلّ العظيمة كالعزيز و الحكيم، و تنتهى بها أيضا.

و اسمها مقتبس من الآية ۲۸ منها، و «الجاثية» تعنى الجثو على الركب، و هى إشارة الى وضع كثير من الناس فى ساحة القيامة، فى محكمة العدل الإلهية تلك.

و قد ذكر المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان اسما آخر لهذه السورة غير مشهور، و هو (الشريعة) مستلهم من الآية (۱۸) من هذه

السورة.

فضل تلاوة السورة:

نقرأ

فى حديث عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ حاميم الجاثية ستر اللّه عورته، و سكن روعته عند الحساب»[۱۶۸].

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ سورة الجاثية كان ثوابها أنّ لا يرى النّار أبدا، و لا يسمع زفير جهنم و لا شهيقها، و هو مع محمّد»[۱۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (۳) وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۴)

وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۵) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ (۶)

التّفسير

آيات اللّه فى كلّ مكان:

قلنا: إنّ هذه هى السورة هى سادس السور التى تبدأ بالحروف المتقطعة (حم) و هى تشكل مع السورة الآتية- أى سورة الأحقاف- سور الحواميم السبعة.

و قد بحثنا مرارا فى تفسير الحروف المتقطعة فى بدايات سورة البقرة و آل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۴

عمران، و كذلك فى الحواميم.

يقول المرحوم الطبرسى فى بداية هذه السورة: إنّ أحسن ما يقال هو أنّ (حم) اسم هذه السورة. ثمّ ينقل عن بعض المفسّرين، أنّ تسمية هذه السورة ب (حم) للإشارة إلى أنّ هذا القرآن المعجز بتمامه يتكون من حروف الألف باء.

نعم، إنّ كتاب النور و الهداية و الإرشاد و حل المعضلات و معجزة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم الخالدة هذا، يتركب من هذه الحروف البسيطة، و غاية العظمة أن يتكون أمر بهذه الأهمية من هذه الحروف السهلة البسيطة.

و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تتحدث الآية التالية عن عظمة القرآن مباشرة فتقول: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۱۷۰].

«العزيز» هو القوى الـذى لاـ يقهر، و «الحكيم» هو العـارف بأسـرار كـلّ شـىء، و تقوم كـل أفعـاله على أساس الحكمـة و الدقـة، و من الواضح أنّ الحكمة التامة و القوّة اللامحدودة من لوازم تنزيل مثل هذا الكتاب العظيم، و هما غير موجودتين إلّا فى اللّه العزيز المتعال.

و الطريف أنّ هـذه الآيـة قـد وردت على هـذه الهيئة فى بداية أربع سور من القرآن الكريم، ثلاث منها من الحواميم- و هى المؤمن و الجاثيـة و الأحقاف- و الأخرى من غير الحواميم، و هى سورة الزمر. و هـذا التكرار و التأكيـد يهدف إلى جلب انتباه الجميع إلى عمق أسرار القرآن و عظمة محتواه، لئلا ينظروا ببساطة و عدم تدبر إلى أية عبارة أو تعبير من تعابيره، و لئلا يظنوا أنّ هذه الكلمة أو تلك لا محل لها و لا فائـدة من ذكرها، لكى لا يقنعوا بحـدّ معين من فهمه و إدراكه، بل ينبغى أن يكونوا فى سـعى دؤوب للتوصل إلى أعمق ممّا أدركوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۵

و هنا نكتة تستحق الالتفات، و هى أنّ صفة (العزيز) قد وردت أحيانا لوصف نفس القرآن، مثل: وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ[۱۷۱]، فإنّه عزيز لا تصل إليه أيـدى الذين يقولون بعدم فائدته، و لا ينقص مر الزمان من أهميته، و لا تبلى حقائقه و لا تفقد قيمتها، و يفضح المحرفين أو من يحاول تحريفه، و يشق طريقه إلى الأمام دائما رغم كل ما يوضع أمامه من عراقيل.

و قد تأتى هذه الصفة فى حق منزله جل و علا، كما فى هذه الآية، و كلاهما صحيح.

ثمّ تنـاولت الآيـة التى بعـدها بيـان آيـات اللّه سـبحانه و دلائـل عظمته فى الآفـاق و الأنفس، فقالت: إِنَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

إن عظمـة السـماوات من جانب، و نظامها العجيب الذى مرّت عليه ملايين السـنين الذى لم ينحرف عما سار عليه قيد أنملة، من جانب آخر، و نظام خلقة الأرض و عجائبها، من جانب ثالث، يكون كلّ منها آية من آيات اللّه سبحانه.

إنّ للأرض- على قول بعض العلماء- أربع عشـرة حركـة، و تـدور حول نفسـها بسـرعة مذهلـة، و كذلك تدور حول الشـمس بحركة سريعة، و أخرى مع المنظومة الشمسـية ضـمن مجرّة «درب التبانة»، و هى تسـير فى طريق لا نهاية له، و سفر لا حدّ له، و مع ذلك فهى من الهدوء و الاستقرار بمكان، بحيث يستقر عليها الإنسان و كل الموجودات الحية فلا يشعرون بأى اضطراب و تزلزل، حتى و لا بقدر رأس الإبرة.

و هى ليست بتلـك الصـلابة التى لاـ يمكن معهـا أن تزرع، و تبنى عليهـا الـدور و البنايـات، و لا هى رخوة و لا يمكن الثبات عليها، و الاستقرار فيها.

و قد هيئت فيها أنواع المعادن و وسائل الحياة لمليارات البشر، سواء الماضون منهم و الحاضرون و الآتون، و هى جميلة تسحر الإنسان، و تفتنه.

و الجبال و البحار و جو الأرض- أيضا- كلّ منها آية و سرّ من الأسرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۶

غير أنّ علامات التوحيـد هذه، و عظمة اللّه تعالى إنّما يلتفت إليها و ينتفع بها المؤمنون، أى طلاب الحق و السائرون فى طريق اللّه، أمّا عمى القلوب المغرورون المغفلون، فهم محرومون من إدراكها و الإحساس بها.

ثمّ انتقلت السورة من آيات الآفاق إلى آيات الأنفس، فقالت: وَ فِي خَلْقِكُمْ وَ ما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

كما ورد فى العبارة المعروفة و المنسوبة إلى أمير المؤمنين على عليه السّلام: «أ تحسب انّك جرم صغير، و فيك انطوى العالم الأكبر»، و كلّ ما هو موجود فى ذلك العالم الكبير يوجد منه نموذج مصغر فى داخل جسم الإنسان و روحه.

إنّ خصاله و صفاته مركبة من خصال الكائنات الحية و صفاتها، و تنوع خلقته عصارة مجموعة من حوادث هذا العالم الكبير.

إنّ بناء خليـة من خلاياه كبناء مدينة صـناعية عظيمة مليئة بالأسـرار، و خلق شـعرة منه- بخصائصـها و أسـرارها المختلفة التى اكتشـفت

بقدرة العلم و تطوره- آية عظيمة من آيات اللّه العظيم.

إنّ وجود آلاف الكيلو مترات من العروق و الشرايين و الأوردة الكبيرة و الصغيرة، و الأوعية الدموية الصغيرة جدّا و الشعيرات المتناهية فى الصغر فى بدن الإنسان، و آلاف الكيلومترات من طرق المواصلات و أسلاك الاتصالات فى سلسلة الأعصاب، و كيفية ارتباطها و اتصالها بمركز القيادة فى المخ، و الذى هو مزيج فذّ من العقد و الأسرار، و قوى فى الوقت نفسه، و كذلك طريقة عمل كلّ جهاز من أجهزة البدن الداخلية و انسجامها العجيب فى مواجهة الأحداث المفاجئة، و الدفاع المستميت للقوى المحافظة على البدن ضد هجوم العوامل الخارجية ... كلّ واحد من هذه الأمور يشكل- بحد ذاته- آية عظمى من آيات اللّه سبحانه.

و إذا تجاوزنا الإنسان، فإنّ مئات الآلاف من أنواع الكائنات الحية، ابتداء من الحيوانات المجهرية و حتى الحيوانات العملاقة، بخصائصها و بناء أجهزتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۷

المختلفة تماما، و التى قد يصرف جمع من العلماء كلّ أعمارهم أحيانا لمطالعة حياة و سلوك نوع واحد منها، و مع أنّ آلاف الكتب قد كتبت حول أسرار هذه المخلوقات، فإنّ ما نعلمه عنها قليل بالنسبة إلى ما نجهله منها ... كلّ واحد من هذه المخلوقات آية بنفسه، و دليل على علم مبدئ الخلقة و حكمته و قدرته اللامتناهية.

لكن، لماذا يعيش جماعة عشرات السنين فى ظل هذه الآيات، و يمرون عليها، دون أن يطلعوا حتى على واحدة منها!؟

إنّ سبب ذلك هو ما يقرره القرآن الكريم من أنّ هذه الآيات خاصّة للمؤمنين و طلاب اليقين و أصحاب الفكر و العقل، و لأولئك الذين فتحوا أبواب قلوبهم لمعرفة الحقيقة، بكلّ وجودهم الظامئ للعلم و اليقين ليرتووا من صافى نبعه و فيضه، فلا تعزب عن نظرهم أدنى حركة و لا أصغر موجود، و يفكرون فيه الساعات الطوال، ليجعلوا منه سلما للارتقاء إلى اللّه سبحانه، و سجلا لمعرفته جلّ و علا، و ليذوبوا فى مناجاته، و ليملؤوا أقداح قلوبهم من خمرة عشقه فينتشوا منها.

و تذكر الآية التالية ثلاث مواهب أخرى لكلّ منها أثره الهام فى حياة الإنسان و الكائنات الحية الأخرى، و كل منها آية من آيات اللّه تعالى، و هى مواهب «النور» و «الماء» و «الهواء»، فتقول: وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ تَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

إنّ نظام «النور و الظلمة»، و حدوث الليل و النهار حيث يخلف كلّ منهما الآخر نظام موزون دقيق جدّا، و هو عجيب فى وضعه و سنته و قانونه، فإذا كان النهار دائميا، أو أطول من اللازم، فسترتفع الحرارة حتى تحترق الكائنات الحية، و لو كان الليل سرمدا، أو طويلا جدّا لانجمدت الموجودات من شدّة البرد.

و يحتمل فى تفسير الآية أنّ لا يكون المراد من اختلاف الليل و النهار تعاقبهما، بل هو إشارة إلى اختلاف المدة و تفاوت الليل و النهار، فى فصول السنة، فيعود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۸

نفعه على الإنسان من خلال ما ينتج عن هذا الاختلاف من المحاصيل الزراعية المختلفة و النباتات و الفواكه، و نزول الثلوج و هطول الأمطار و البركات الأخرى.

و الطريف أنّ العلماء يقولون: بالرغم من التفاوت الشديد بين مناطق الأرض المختلفة من ناحية طول الليل و النهار و قصرهما، فإنّنا إذا حسبنا مجموع أيام السنة فسنرى أنّ كلّ المناطق تستقبل نفس النسبة من أشعة الشمس تماما[۱۷۲].

ثمّ تتناول الحديث فى الفقرة الثانية عن الرزق السماوى، أى «المطر» و الذى لا كلام فى لطافة طبعه و رقته، و لا بحث فى قدرته على الإحياء، و بعثه الحياة فى كلّ الأرجاء و منحها الجمال و الروعة.

و لم لا يكون كذلك، و الماء يشكل الجانب الأكبر و القسم الأساسى من بدن الإنسان، و كثير من الحيوانات الأخرى، و النباتات؟

ثمّ تتحدث فى الفقرة الثالثة عن هبوب الرياح .. تلك الرياح التى تنقل الهواء الملىء بالأوكسجين من مكان إلى آخر، و تضعه تحت تصرف الكائنات الحية، و تبعد الهواء الملوث بالكاربون إلى الصحارى و الغابات لتصفيته، ثمّ إعادته إلى المدن.

و العجيب أنّ هاتين المجموعتين من الكائنات الحية- أى الحيوانات و النباتات- متعاكسة فى العمل تماما، فالأولى تأخذ الأوكسجين و تعطى غاز ثانى أوكسيد الكاربون، و الثانية على العكس تتنفس ثانى أوكسيد الكاربون و تزفر الأوكسجين، ليقوم التوازن فى نظام الحياة، و لكى لا ينفذ مخزون الهواء النقى المفيد من جو الأرض بمرور الزمان.

إنّ هبوب الرياح، إضافة إلى ذلك فانّه يلقح النباتات فيجعلها حاملة للأثمار و المحاصيل، و ينقل أنواع البذور إلى الأراضى المختلفة لبذرها هناك، و ينمى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۸۹

المراتع الطبيعية و الغابات، و يهيج الأمواج المتلاطمة فى قلوب المحيطات، و يبعث الحركة و الحياة فى البحار و يثير أمواجها العظيمة، و يحفظ الماء من التعفن و الفساد، و هذه الرياح نفسها هى التى تحرك السفن على وجه المحيطات و البحار و تجريها[۱۷۳].

و الطريف أنّ هذه الآيات تتحدث أوّلا عن آيات السماء و الأرض و تقول فى نهاية الآية الأولى: إنّها آيات «للمؤمنين»، ثمّ تتناول الحديث فى خلق الكائنات الحية فتقول فى نهاية الآية الثانية: إنّها آيات «للموقنين»، و بعد ذلك تتكلم فى أنظمة النور و الظلمة، و الرياح و الأمطار، ثمّ تقول: إنّها آيات للذين «يعقلون».

إنّ هذا التفاوت فى التعبير لعله بسبب أنّ الإنسان يطوى ثلاث مراحل فى سيره إلى معرفة اللّه سبحانه ليصل إلى هدفه، فالأولى مرحلة «التفكر»، و الثانية مرحلة «اليقين» و العلم، و بعدها مرحلة «الإيمان» أو ما يسمى بعقد القلب، و لما كان الإيمان أشرف هذه المراحل، ثمّ يأتى بعده اليقين، و فى المرحلة الثالثة يأتى التفكير، فقد وردت هذه المراحل حسب هذا الترتيب فى الآيات المذكورة، و إن كانت المراحل من ناحية الوجود الخارجى تبدأ بمرحلة التفكر، ثمّ اليقين، ثمّ الإيمان.

و بتعبير آخر فإنّ أهل الإيمان يرتقون إلى هذه المرحلة من خلال مشاهدة آيات اللّه سبحانه، أمّا الذين ليسوا منهم فليصلوا إلى مرحلة اليقين أو إلى مرحلة التفكر على أقل التقادير.

و قد ذكر المفسّرون فى هذا الباب وجوها أخرى أيضا، و ما قلناه هو الأنسب.

و تقول الآية الأخيرة، إجمالا للبحوث الماضية، و تبيانا لعظمة آيات القرآن و أهميتها: تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِ

هل أنّ كلمة «تلك» إشارة إلى آيات القرآن، أم إلى آيات اللّه و العلامات الدالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۰

عليه فى الآفاق و الأنفس، و التى مرّت الإشارة إليها فى الآيات السابقة؟

كلّ محتمل، إلّا أنّ الظاهر هو أنّ المراد الآيات القرآنية بقرينة التعبير بالتلاوة، غاية ما فى الأمر أنّ هذه الآيات القرآنية آيات اللّه سبحانه فى كلّ عالم الوجود، و على هذا فيمكن الجمع بين التّفسيرين (فتأمل!).

و على أية حال، فإنّ (التلاوة) من مادة (تلو) أى الإتيان بالكلام بعد الكلام متعاقبا، و بناء على هذا فإنّ تلاوة آيات القرآن تعنى قراءتها بصورة متوالية متعاقبة.

و التعبير بالحق إشارة إلى محتوى هذه الآيات، و هو أيضا إشارة إلى كون نبوّة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الوحى الإلهى حقّا.

و بعبارة أخرى، فإنّ هذه الآيات بليغة معبرة تضمنت فى طياتها الاستدلال على حقانيتها و حقانية من جاءها.

و حقّا إذا لم يؤمن هؤلاء بهذه الآيات فبأى شىء سوف يؤمنون؟ و لذلك تعقب الآية: فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ ۱۷۴].

و على قول «الطبرسى» فى مجمع البيان، فإنّ الحديث إشارة إلى قصص الأقوام الماضين، و أحداثهم التى تبعث على الإعتبار بهم، فى حين أنّ الآيات تقال للدلائل التى تميز الحق من الباطل و الصحيح من السقيم، و آيات القرآن المجيد تتحدث عن الإثنين معا.

حقا إنّ للقرآن الكريم محتوى عميقا من ناحية الاستدلال و البراهين على التوحيد، و كذلك فهو يحتوى على مواعظ و إرشادات تجذب العباد إلى اللّه سبحانه حتى القلوب التى لها أدنى استعداد- أو أرضية صالحة- و تدعوا كلّ مرتبط بالحق الى الطهارة و التقوى، فإذا لم تؤثر هذه الآيات البينات فى أحد فلا أمل فى هدايته بعد ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۱

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (۷) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۸) وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۹) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (۱۰)

التّفسير

ويل لكلّ أفاك أثيم:

رسمت الآيات السابقة صورة عن فريق يسمعون كلام اللّه مدعما بمختلف أدلة التوحيد و المواعظ و الإرشاد، فلا يترك أثرا فى قلوبهم القاسية.

أمّا هذه الآيات فتتناول بالتفصيل عواقب أعمال هذا الفريق، فتقول: أوّلا:

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

«الأفاك» صيغة مبالغة، و هى تعنى الشخص الذى يكثر الكذب جدّا، و تقال أحيانا لمن يكذب كذبة عظيمة حتى و إن لم يكثر من الكذب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۲

و «الأثيم» من مادة إثم، أى المجرم و العاصى، و تعطى أيضا صفة المبالغة.

و يتّضح من هذه الآية جيدا أنّ الذين يقفون موقف الخصم العنيد المتعصب أمام آيات اللّه سبحانه هم الذين غمرت المعصية كيانهم، فانغمسوا فى الذنوب و الآثام و الكذب، لا أولئك الصادقون الطاهرون، فإنّهم يذعنون لها لطهارتهم، و نقاء سريرتهم.

ثمّ تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها[۱۷۵] و لهذا فإنّه بحكم تلوثه بالذنب و الكذب، و الغرور و الكبر و العجب، يمر كأن لم يسمع كلّ هذه الآيات، و كأنه أصم أو أنّه يعتبر نفسه كذلك، كما ورد لك فى الآية (۷) من سورة لقمان:

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً.

و تهدده الآية فى نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ فكما أنّه آذى قلب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين و آلمهم، فإنّنا سنبتليه بعذاب أليم أيضا، لأنّ عذاب القيامة تجسم لأعمال البشر فى الحياة الدنيا.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين ذكر سبب نزول لهذه الآية و الآية التى تليها، و اعتبروهما إشارة إلى أبى جهل أو النظر بن الحارث، ذلك أنّهم كانوا قد جمعوا قصصا و أساطير من العجم ليلهوا بها الناس و يصرفوهم عن دين الحق.

لكن من الواضح أنّ هذه الآية لا تختص بهم، بل و لا بمشركى العرب أيضا، فهى تشمل كلّ المجرمين الكاذبين المستكبرين فى كلّ عصر و زمان، و كلّ الذين يصرون كأن لم يسمعوا آيات اللّه سبحانه و نداءات الأنبياء و كلمات الأئمّة و العظماء، لأنّها لا تنسجم مع شهواتهم و ميولهم و رغباتهم المنحرفة، و لا تؤيد أفكارهم الشيطانية، و لا توافق عاداتهم الخاطئة و أعرافهم البالية و تقاليدهم العمياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۳

نعم، بشّر كلّ أولئك بالعذاب الأليم.

و لما كان العذاب لا ينسجم مع البشارة، فإنّ هذا التعبير ورد من باب السخرية و الاستهزاء.

ثمّ تضيف الآية التى بعدها: وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً[۱۷۶].

فى الحقيقة، توجد لدى هؤلاء الجاهلين الأنانيين حالتان:

الأولى: أنّهم غالبا ما يسمعون آيات اللّه فلا يعبؤون بها، و يمرون عليها دون اهتمام و تعظيم، فكأنّهم لم يسمعوها أيضا.

و الأخرى: أنّهم إذا سمعوها و أرادوا أن يهتموا بها، فليس لهم من رد فعل إزاءها إلّا الاستهزاء و السخرية. و كلهم مشتركون فى هاتين الحالتين، فمرّة هذه، و أخرى تلك، و بناء على هذا فلا تعارض بين هذه الآية و التى قبلها.

و الطريف أنّها تقول أوّلا: وَ إِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً ثمّ لا تقول: إنّه يستهزئ فيما بعد بما علم، بل تقول: إنّه يتخذ كلّ آياتنا هزوا، سواء التى علمها و التى لم يعلمها، و غاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئا أو يستهزئ به و هو لم يفهمه أصلا، و هذا خير دليل على عناد أولئك و تعصبهم.

ثمّ تصف الآية عقاب هؤلاء فى النهاية فتقول: أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ و لم لا يكون الأمر كذلك، فإنّ هؤلاء كانوا يريدون أن يضفوا على أنفسهم الهيبة و العزة و المكانة الاجتماعية من خلال الاستهزاء بآيات اللّه سبحانه، إلّا أنّ اللّه تعالى سيجعل عقابهم تحقيرهم و مذلتهم و هوانهم، و يبتليهم بعذاب القيامة المهين المذل، فيسحبون على وجوههم مصفّدين مكبّلين ثمّ يرمون على تلك الحال فى جهنم، و يلاحقهم مع ذلك تقريع ملائكة العذاب و سخريتهم.

و من هنا يتّضح لماذا وصف العذاب بالأليم فى الآية السابقة، و بالمهين هنا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۴

و بالعظيم فى الآية التالية، فكلّ منها يناسب نوعية جرم هؤلاء و كيفيته.

و توضح الآية التالية العذاب المهين، فتقول: مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ

إن التعبير بالوراء مع أنّ جهنّم أمامهم و سيصلونها فى المستقبل، يمكن أن يكون ناظرا إلى أنّ هؤلاء قد أقبلوا على الدنيا و نبذوا الآخرة و العذاب وراء ظهورهم، و هو تعبير مألوف، إذ يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمر، تركه وراء ظهره، و القرآن الكريم يقول: إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا[۱۷۷].

و قال جمع من المفسّرين أيضا: إنّ كلمة (وراء) من مادة المواراة، و تقال لكلّ شىء خفى على الإنسان و حجب عنه، سواء كان خلفه و لا يراه، أم أمامه لكنّه بعيد لا يراه، و على هذا فإنّ لكلمة (وراء) معنى جامعا يطلق على مصداقين متضادين ۱۷۸].

و ليس ببعيد إذا قلنا: إنّ التعبير بالوراء إشارة إلى مسألة العلة و المعلول، فمثلا نقول: إذا تناولت الغذاء الفلانى غير الجيد فستمرض بعد ذلك، أى إنّ تناول الغذاء يكون علة لذلك المرض، و هنا أيضا تكون أعمال هؤلاء علة لعذاب الجحيم المهين.

و على أية حال، فإنّ الآية تضيف مواصلة الحديث أنّ هؤلاء إن كانوا يظنون أنّ أموالهم الطائلة و آلهتهم التى ابتدعوها ستحل شيئا من أثقالهم، و أنّها ستغنى عنهم من اللّه شيئا، فإنّهم قد وقعوا فى اشتباه عظيم، حيث: وَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَ لا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ.

و لما لم يكن هناك سبيل نجاة و فرار من هذا المصير، فإنّ هؤلاء يجب أن يبقوا فى عذاب اللّه و نار غضبه: وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۵

و لقد استصغر هؤلاء آيات اللّه سبحانه، و لذلك سيعظم اللّه عذابهم، و قد اغتر هؤلاء و تفاخروا فألقاهم اللّه فى العذاب الأليم! إن هذا العذاب عظيم من كلّ الجهات، فهو عظيم فى خلوده، و شدته، و باقترانه بالتحقير، و الإهانة، و عظيم فى نفوذه إلى نخاع و قلوب المجرمين ..

نعم .. إنّ الذنب العظيم، أمام اللّه العظيم، لا يكون جزاؤه إلّا العذاب العظيم.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۶

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

هذا هُدىً وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (۱۱) اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۱۲) وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۱۳) قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۵)

التّفسير

كل شىء مسخر للإنسان:

مواصلة للبحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول عظمة آيات اللّه، تتناول هذه الآيات نفس الموضوع، فتقول: هذا هُدىً فهو يميز بين الحق و الباطل، و يضىء حياة الإنسان، و يأخذ بيد سالكى طريق الحق ليوصلهم إلى هدفهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۷

و منزلهم المقصود، لكن: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ

«الرجز» يعنى الاضطراب و الاهتزاز و عدم الانتظار، كما يقول الراغب فى مفرداته، و تقول العرب: رجز البعير إذا تقاربت خطواته و اضطرب لضعف فيه.

و تطلق هذه الكلمة أيضا على مرض الطاعون و الابتلاءات الصعبة، أو العواصف الثلجية الشديدة، و الوساوس الشيطانية و أمثال ذلك، لأنّ كلّ هذه الأمور تبعث على الاضطراب و التزلزل و عدم الانتظام و الانضباط، و إنّما يقال لأشعار الحرب (رجز) لأنّها مقاطع قصيرة متقاربة، أو لأنّها تلقى الرعب و الاضطراب بين صفوف الأعداء.

ثمّ تحول زمان الحديث إلى بحث التوحيد الذى مرّ ذكره فى الآيات الأولى لهذه السورة، فتعطى المشركين دروسا، بليغة مؤثرة فى توحيد اللّه سبحانه و معرفته.

فتارة تدغدغ عواطفهم، و تقول: اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

من الذى أودع فى مادة السفن الأصلية خاصية الطفو على الماء و عدم الغطس؟ و من الذى جعل الماء فراشا ناعما حركتها حتى استطاعت أن تسير فيه بكلّ سهولة و يسر؟ و من الذى أمر الرياح أن تمرّ على سطح المحيطات بصورة منتظمة لتحرك السفن و

تسيرها؟ أو يحل قوّة البخار محل الهواء ليزيد من سرعة هذه السفن العظيمة؟

نحن نعلم أنّ أكبر وسائط نقل الإنسان و أهمها فى الماضى و الحاضر هى السفن الصغيرة و الكبيرة، و التى تنقل على مدار السنة ملايين البشر، و أكثر من ذلك البضائع التجارية من أقصى نقاط العالم إلى المناطق المختلفة، و قد تكون السفن أحيانا بسعة مدينة صغيرة، و سكانها بعدد سكانها، و هى مجهزة بمختلف الوسائل و الأموال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۸

حقا لو لم تكن هذه القوى الثلاث، أ فيكون بمقدور الإنسان أن يحل مشاكل حمله و نقله بواسطة المراكب العادية البسيطة؟ حتى هذه المراكب و الوسائط البسيطة هى بحدّ ذاتها من نعمه سبحانه، و هى فعالة فى مجالها.

و الطريف أنّ الآية (۳۲) من سورة إبراهيم تقول: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ أمّا هنا فإنّ الآية تقول: سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ لأنّ التأكيد هناك كان على تسخير البحار، و لذلك اتبعتها بقولها: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ أمّا هنا فإنّ الآية ناظرة إلى تسخير الفلك، و على أية حال، فإنّهما معا مسخران للإنسان بأمر اللّه سبحانه، و هما فى خدمته.

إنّ الهدف من هذا التسخير هو أن تبتغوا من فضل اللّه، و هذا التعبير يأتى عادة فى مورد التجارة و النشاطات الاقتصادية، و من الطبيعى أنّ نقل المسافرين من مكان الى آخر فى ضمن هذا التسخير.

و الهدف من الاستفادة من فضل اللّه هو إثارة حسن الشكر لدى البشر، لتعبئة عواطفهم لأداء شكر المنعم، و بعد ذلك يسيرون فى طريق معرفة اللّه سبحانه.

كلمة «الفلك»- و كما قلنا سابقا- تستعمل للمفرد و الجمع.

و لمزيد من التفصيل حول تسخير البحار و الفلك، و منافعها و بركاتها، راجعوا ذيل الآية (۱۴) سورة النحل.

بعد بيان السفن التى لها تماس مباشر بحياة البشر اليومية، تطرقت الآية التى بعدها إلى مسألة تسخير سائر الموجودات بصورة عامة، فتقول: وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ

فقد كرّمكم إلى درجة أنّ سخر لكم كلّ موجودات العالم، و جعلها فى خدمتكم و لتأمين مصالحكم و منافعكم، فالشمس و القمر، و الرياح و المطر، و الجبال و الوديان، و الغابات و الصحارى، و النباتات و الحيوانات، و المعادن و المنابع الغنية التى تحت الأرض، و بالجملة فإنّه أمر كلّ هذه الموجودات أن تكون فى خدمتكم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۱۹۹

و مطيعة لأمركم، و منفذة لإرادتكم، لتتمتعوا بنعمه و مواهبه سبحانه، و لا تذهلوا فى سكرة الغفلة عنه.

و مما يستحق الانتباه أنّه يقول: جَمِيعاً مِنْهُ ۱۷۹] فإذا كانت كلّ النعم منه، و هو خالقها و ربها و مدبرها جميعا، فلما ذا يعرض الإنسان عنه و يلجأ إلى غيره، و يتسكع على اعتبار المخلوقات الضعيفة، و يبقى فى غفلة و ذهول عن المنعم الحقيقى عليه؟ و لذلك تضيف الآية فى النهاية: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لقد كانت الآية السابقة تلامس عاطفة الإنسان و تحاول إثارتها، و هنا تحاول هذه الآية تحريك عقل الإنسان و فكره، فما أعظم رحمة ربّنا سبحانه!! إنّه يتحدث مع عباده بكلّ لسان و أسلوب يمكن أن يطبع أثره، فمرّة بحديث القلب، و أخرى بلسان الفكر، و الهدف واحد من كلّ ذلك، ألا و هو إيقاظ الغافلين و دفعهم إلى سلوك السبيل القويم.

و قد أوردنا بحثا مفصلا حول تسخير مختلف موجودات العالم فى ذيل الآيات ۳۱- ۳۳ من سورة إبراهيم.

ثمّ تطرقت الآية التالية إلى ذكر قانون أخلاقى يحدد كيفية التعامل مع الكفار لتكمل أبحاثها المنطقية السابقة عن هذا الطريق، فحولت الخطاب إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالت: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

فمن الممكن أن تكون معاملة هؤلاء قاسية، و تعبيراتهم خشنة غير مؤدبة، و ألفاظهم بذيئة، و ذلك لبعدهم عن مبادئ الإيمان و أسس

التربیة الإلهیة، غیر أنّ علیکم أن تقابلوهم بکلّ رحابة صدر لئلا یصروا علی کفرهم و یزیدوا فی تعصبهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۰

فتعبد المسافة بینهم و بین الحق.

إنّ حسن الخلق و الصفح و رحابة الصدر یقلل من ضغوط هؤلاء و عدائهم من جهة، کما أنّه یمکن أن یکون عاملا لجذبهم إلی الإیمان و إقبالهم علیه.

و قد ورد نظیر هذا الأمر الأخلاقی کثیرا فی القرآن الکریم کقوله تعالی:

فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَ قُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ ۱۸۰] إنّ التصلب فی التعامل مع الجاهلین و الإصرار علی عقوبتهم لا یثمر فی العادة، بل إن تجاهلهم و الاعتزاز بالنفس أمامهم هو الأسلوب الناجح فی إیقاظهم، و هو عامل مؤثر فی هدایتهم.

و لیس هذا قانونا عاما بالطبع، إذ لا یمکن إنکار وجود حالات لا یمکن معالجتها و مواجهتها إلّا بالغلظة و الشدّة، غیر أنّها قلیلة.

و النکتة الأخری هنا أنّ کلّ الأیّام هی أیّام اللّه، إلّا أنّ (أیّام اللّه) قد أطلقت علی أیّام خاصّة، للدلالة علی عظمتها و أهمیتها.

لقد ورد هذا التعبیر فی موضعین من القرآن المجید: أحدهما فی هذه الآیة، و الآخر فی سورة إبراهیم، و له هناک معنی أوسع و أشمل.

و قد فسّرت «أیّام» فی الرّوایات الإسلامیة بتفاسیر مختلفة، و من جملتها ما ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم بأنّ أیّام اللّه ثلاثة: یوم قیام المهدی، و یوم الموت، و یوم القیامة[۱۸۱].

و نقرأ فی حدیث آخر عن النّبی الأکرم (صلی اللّه علیه و آله و سلّم): «أیام اللّه نعماؤه و بلاؤه ببلائه»[۱۸۲].

و علی أیة حال، فإنّ هذا التعبیر یبین أهمیة یوم القیامة، یوم تجلی حاکمیة اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۱

تعالی علی کلّ فرد، و علی کلّ شیء، و هو یوم العدل و القانون و المحکمة الکبری.

لکن، و من أجل أنّ لا یستغل مثل هؤلاء الأفراد هذا الصفح الجمیل و العفو و التسامی، فقد أضافت الآیة: لِیَجْزِیَ قَوْماً بِما کانُوا یَکْسِبُونَ

لقد اعتبر بعض المفسّرین هذه الجملة تهدیدا للکفار و المجرمین، فی حین أنّ البعض الآخر اعتبرها بشارة للمؤمنین لهذا العفو و الصفح. لکن لا مانع من أن تکون تهدید لتلک الفئة من جانب، و بشارة لهذه الجماعة من جانب آخر، کما أشیر إلی هذا المعنی فی الآیة التالیة أیضا.

تقول الآیة: مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَیْها ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ

إن هذا التعبیر الذی ورد فی القرآن الکریم مرارا، و بعبارات مختلفة، یشکل جوابا لمن یقول: ماذا یضر عصیاننا اللّه تعالی، و ما تنفعه طاعتنا؟ و لماذا هذا الإصرار علی طاعة و أوامره، و الانتهاء عن معاصیه؟

فتقول هذه الآیات: إنّ کلّ ضرر ذلک و کلّ نفعه یعود علیکم، فأنتم الذین تسلکون مراقی الکمال فی ظل الأعمال الصالحة، و تحلقون إلی سماء قرب اللّه عزّ و جلّ، کما أنّکم أنتم الذین تهوون إلی الحضیض نتیجة ارتکابکم الآثام و المعاصی، فتبتعدون عن اللّه عزّ و جلّ و تستحقون بذلک اللعنة الأبدیة.

إن کلّ أمور التکلیف، و إرسال الرسل، و إنزال الکتب تهدف إلی هذا المراد السامی، و لذلک یقرر القرآن الحکیم وَ مَنْ یَشْکُرْ فَإِنَّما یَشْکُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ کَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِیٌّ حَمِیدٌ[۱۸۳] و یقول فی موضع آخر: فَمَنِ اهْتَدی فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما یَضِلُّ عَلَیْها[۱۸۴] و نقرأ فی موضع ثالث: وَ مَنْ تَزَکَّی فَإِنَّما یَتَزَکَّی لِنَفْسِهِ وَ إِلَی اللَّهِ الْمَصِیرُ[۱۸۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۲

و خلاصة القول: إنّ أمثال هذه التعابير تبين حقيقة أنّ دعوة الداعين إلى اللّه سبحانه خدمة للبشر فى جميع أبعادها، و ليست خدمة للّه الغنى عن كلّ شىء، و لا لأنبيائه الذين أجرهم على اللّه فقط.

إنّ الانتباه إلى هذه الحقيقة يعدّ عاملا مهما فى السير نحو طاعة اللّه سبحانه، و الابتعاد عن معصيته.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۳

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۱۶ الى ۲۰]

اشارة

وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (۱۶) وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (۱۷) ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۱۸) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (۱۹) هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (۲۰)

التّفسير

آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ كل ذلك، و لكن ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۲۰۳

ابعة للبحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول نعم اللّه المختلفة و شكرها و العمل الصالح، تتناول هذه الآيات نموذجا من حياة بعض الأقوام الماضين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۴

الذين غمرتهم نعم اللّه سبحانه، إلّا أنّهم كفروا بها و لم يرعوها حق رعايتها.

تقول الآية الأولى: وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

تبيّن هذه الآية فى مجموعها خمس نعم أنعم اللّه بها على بنى إسرائيل، و بالإضافة إلى النعمة الأخرى التى سيأتى ذكرها فى الآية التالية تشكل ست نعم عظيمة.

النعمة الأولى هى الكتاب السماوى، أى التوراة التى كانت مبينة للمعارف الدينية و الحلال و الحرام، طريق الهداية و السعادة.

و الثانية مقام الحكومة و القضاء، لأنا نعلم أنّهم كانوا يمتلكون حكومة قوية مترامية الأطراف، فلم يكن داود و سليمان وحدهما حاكمين و حسب، بل إنّ كثيرا من بنى إسرائيل قد تسلموا زمام الأمور فى زمانهم و عصورهم.

«الحكم» فى التعبيرات القرآنية يعنى عادة القضاء و الحكومة، لكن لما كان مقام القضاء، يشكل جزء من برنامج الحكومة دائما، و لا يمكن للقاضى أن يؤدى واجبه من دون حماية الدولة و قوّتها، فإنّه يدل دلالة التزامية على مسألة التصدى و تسلم زمام الأمور.

و نقرأ فى الآية (۴۴) من سورة المائدة فى شأن التوراة: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا.

أمّا النعمة الثالثة فقد كانت نعمة مقام النبوة، حيث اصطفى اللّه سبحانه أنبياء كثيرين من بنى إسرائيل.

و قد ورد فى رواية أنّ عدد أنبياء بنى إسرائيل بلغ ألف نبى ۱۸۶]، و فى رواية أخرى: إن عدد أنبياء بنى إسرائيل أربعة آلاف نبى

.[۱۸۷

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۵

و كل هذه كانت مواهب و نعما من اللّه سبحانه.

و تتحدث الآية فى الفقرة الرابعة حديثا جامعا شاملا عن المواهب المادية، فتقول: وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ

النعمة الخامسة، هى تفوقهم و قوّتهم التى لا ينازعهم فيها أحد، كما توضح الآية ذلك فى ختامها فتضيف: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ

لا شك أنّ المراد من «العالمين» هنا هم سكان ذلك العصر، لأنّ الآية (۱۱۰) من سورة آل عمران تقول بصراحة: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

و كذلك نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم هو أشرف الأنبياء و سيدهم، و بناء على هذا فإنّ أمته أيضا تكون خير الأمم، كما ورد ذلك فى الآية (۸۹) من سورة النحل:

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ.

و تشير الآية التالية إلى الموهبة السادسة التى منحها اللّه سبحانه لهؤلاء المنكرين للجميل، فتقول: وَ آتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ.

«البينات» يمكن أن تكون إشارة إلى المعجزات الواضحة التى أعطاها اللّه سبحانه موسى بن عمران عليه السلام و سائر أنبياء بنى إسرائيل، أو أنّها إشارة إلى الدلائل و البراهين المنطقية الواضحة، و القوانين و الأحكام المتقنة الدقيقة.

و قد احتمل بعض المفسّرين أن يكون هذا التعبير إشارة إلى العلامات الواضحة التى تتعلق بنبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و التى علمها هؤلاء، و كان باستطاعتهم أن يعرفوا نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم من خلالها كمعرفتهم بأبنائهم: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ۱۸۸].

لكن لا مانع من أن تكون كلّ هذه المعانى مجتمعة فى الآية.

و على أية حال، فمع وجود هذه المواهب و النعم العظيمة، و الدلائل البينة الواضحة لا يبقى مجال للاختلاف، إلّا أنّ الكافرين بالنعم هؤلاء ما لبثوا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۶

اختلفوا، كما يصور القرآن الكريم ذلك فى تتمة هذه الآية إذ يقول: فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ

نعم، لقد رفع هؤلاء راية الطغيان، و أنشبت كلّ جماعة أظفارها فى جسد جماعة أخرى، و اتخذوا حتى عوامل الوحدة و الألفة و الانسجام سببا للاختلاف و التباغض و الشحناء، و تنازعوا أمرهم بينهم فذهبت ريحهم و ضعفت قوتهم، و أفل نجم عظمتهم، فزالت دولتهم، و أصبحوا مشردين فى بقاع الأرض ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا.

و قال البعض: إنّ المراد هو الاختلاف الذى وقع بينهم بعد علمهم و اطلاعهم الكافى على صفات نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يهددهم القرآن الكريم فى نهاية الآية بقوله: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ و بهذا فقد فقدوا قوتهم و عظمتهم فى هذه الدنيا بكفرانهم النعمة، و اختلافهم فيما بينهم، و اشتروا لأنفسهم عذاب الآخرة.

بعد بيان المواهب التى منّ اللّه تعالى بها على بنى إسرائيل، و كفرانها من قبلهم، ورد الحديث عن موهبة عظيمة أهداها اللّه سبحانه لنبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المسلمين، فقالت الآية: ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ.

«الشريعة» تعنى الطريق التى تستحدث للوصول إلى الماء الموجود عند ضفاف الأنهر التى يكون مستوى الماء فيها أخفض من الساحل، ثمّ أطلقت على كلّ طريق يوصل الإنسان إلى هدفه و مقصوده.

إن استعمال هذا التعبير فى مورد دين الحق، بسبب أنّه يوصل الإنسان إلى مصدر الوحى و رضى اللّه سبحانه، و السعادة الخالدة التى

هى بمثابة الماء للحياة المعنوية.

لقد استعملت هذه الكلمة مرّة واحدة فى القرآن الكريم، و فى شأن الإسلام فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۷

و المراد من «الأمر» هنا هو دين الحق الذى مرّت الإشارة إليه فى الآية السابقة أيضا، حيث قالت: بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ.

و لما كان هذا المسير مسير النجاة و النصر، فإنّ اللّه سبحانه يأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذلك أنّ فَاتَّبِعْها.

و كذلك لما كانت النقطة المقابلة ليس إلّا اتباع أهواء الجاهلين و رغباتهم، فإنّ الآية تضيف فى النهاية: وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

فى الحقيقة، لا يوجد إلّا طريقان: طريق الأنبياء و الوحى، و طريق أهواء الجاهلين و ميولهم، فإذا ولّى الإنسان دبره للأوّل فسيقع فى الثّانى، و إذا توجه الإنسان إلى ذلك السبيل فسينفصل عن خط الأنبياء و يبتعد عنهم، و بذلك فإنّ القرآن أبطل كلّ البرامج الإصلاحية التى لا تستمد تعليماتها من مصدر الوحى الإلهى.

و الجدير بالانتباه أنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ رؤساء قريش أتوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: ارجع إلى دين آبائك، فإنّهم كانوا أفضل منك و أسلم. و كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يزال فى مكّة، فنزلت الآية أعلاه ۱۸۹] و أجابتهم بأن طريق الوصول إلى الحق هو الوحى السماوى الذى نزل عليك، لا ما يمليه هوى هؤلاء الجاهلين و رغبتهم.

لقد كان القادة المخلصون يواجهون دائما وساوس الجاهلين هذه عند ما يأتون بدين جديد و يطرحون أفكارا بناءة طاهرة، فقد كان الجهال يطرحون عليهم: أ أنتم أعلم أم الآباء السابقون و العظماء الذين جاؤوا قبلكم؟ و كانوا يصرون على الاستمرار فى ذلك الطريق، و إذا كان مثل هذا الاقتراح يمكن أن ينزل إلى حيز التطبيق و الواقع العملى، فليس بوسع الإنسان أن يخطو خطوة فى طريق التكامل.

و تعتبر الآية التالية تبيانا لعلة النهى عن الاستسلام أمام مقترحات المشركين و قبول طلباتهم، فتقول: إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فإذا ما اتبعت دينهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۸

الباطل فأحاط بك عذاب اللّه تعالى فإنّهم عاجزون عن أن يهبوا لنجدتك و إنقاذك، و لو أنّ اللّه سبحانه سلب منك نعمة فإنّهم غير قادرين على إرجاعها إليك.

و مع أنّ الخطاب فى هذه الآيات موجه إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ المراد منه جميع المؤمنين.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ فكلهم من جنس واحد، و يسلكون نفس المسير، و نسجهم واحد، و كلهم ضعفاء عاجزون.

لكن لا تذهب بك الظنون بأنك وحيد، و من معك قليل و لا ناصر لكم و لا معين، بل: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ

صحيح أنّ جمع هؤلاء عظيم فى الظاهر، و فى أيديهم الأموال الطائلة و الإمكانيات الهائلة، لكن كلّ ذلك لا يعتبر إلّا ذرة عديمة القيمة إزاء قدرة اللّه التى لا تقهر، و خزائنه التى لا تفنى.

و كتأكيد لما مرّ، و دعوة إلى اتباع دين اللّه القويم، تقول آخر آية من هذه الآيات:

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

«البصائر» جمع بصيرة، و هى النظر، و مع أنّ هذه اللفظة أكثر ما تستعمل فى و جهات النظر الفكرية و النظريات العقلية، إلّا أنّها تطلق على كلّ الأمور التى هى أساس فهم المعانى و إدراكها.

و الطريف أنّها تقول: إنّ هذا القرآن و الشريعة بصائر، أى عين البصيرة، ثمّ أنّها ليست، بصيرة، بل بصائر، و لا تقتصر على بعد واحد، بل تعطى الإنسان الأفكار و النظريات الصحيحة فى كافة مجالات حياته.

و قد ورد نظير هذا التعبير فى آيات أخرى من القرآن الكريم، كالآية (۱۰۴) من سورة الأنعام، حيث تقول: قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ و قد طرحت هنا فى هذه الآية ثلاثة مواضيع: البصائر و الهدى و الرحمة، و هى حسب التسلسل علة و معلول لبعضها البعض، فإنّ الآيات الواضحة و الشريعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۰۹

المبصّرة تدفع الإنسان نحو الهداية بدورها أساس رحمة اللّه.

و الجميل فى الأمر أنّ الآية تذكر أنّ البصائر لعامة الناس، أمّا الهدى و الرحمة فخصت الموقنين بهما، و يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنّ آيات القرآن ليست مقصورة على قوم بالخصوص، بل يشترك فيها كلّ البشر الذين دخلوا فى كلمة (الناس) فى كلّ زمان و مكان، غير أنّ من الطبيعى أن يكون الهدى فرع اليقين، و أن تكون الرحمة وليدته، فلا تشمل الجميع حينئذ.

و على أية حال، فإنّ ما تقوله الآية من أنّ القرآن عين البصيرة، و عين الهداية و الرحمة، تعبير جميل يعبر عن عظمة هذا الكتاب السماوى و تأثيره و عمقه بالنسبة لأولئك السالكين طريقه، و الباحثين عن الحقيقة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۰

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۱ الى ۲۳]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۲۱) وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (۲۲) أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۲۳)

التّفسير

ليسوا سواء محياهم و مماتهم:

متابعة للآيات السابقة التى كان الكلام فيها يدور حول فئتين هما: المؤمنون و الكافرون، أو المتقون و المجرمون، فإنّ أولى هذه الآيات قد جمعتهما فى مقارنة أصولية بينهما، فقالت: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ

هل يمكن أن يتساوى النور و الظلمة، و العلم و الجهل، و الحسن و القبيح،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۱

و الإيمان و الكفر؟

هل يمكن أن تكون نتيجة هذه الأمور غير المتساوية متساوية؟

كلا، فإنّ الأمر ليس كذلك، إذ المؤمنون ذوو الأعمال الصالحات يختلفون عن المجرمين الكافرين، و يفترقون عنهم فى كلّ شىء، إذ أنّ كلا من الإيمان و الكفر، و العمل الصالح و الطالح، يصبغ كلّ الحياة بلونه.

و هذه الآية نظير الآية (۲۸) من سورة ص، حيث تقول: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ

الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟

أو كالآيتين ۳۵، ۳۶، من سورة القلم حيث: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

«اجترحوا» فى الأصل من الجرح الذى يصيب بدن الإنسان أثر مرض ضرر، و لما كان ارتكاب الذنب و المعصية كأنّما يجرح روح المذنب، فقد استعملت كلمة الاجتراح بمعنى ارتكاب الذنب، و تستعمل أحيانا بمعنى أوسع يدخل فيه كلّ اكتساب. و إنّما يقال لأعضاء البدن: جوارح، لأنّ الإنسان يحقق مقاصده و رغباته بواسطتها، و يحصل على ما يريد، و يكتسب ما يشاء بواسطتها.

و على أية حال، فإنّ الآية تقول: إنّه لظن خاطئ أن يتصوروا أنّ الإيمان و العمل الصالح، أو الكفر و المعصية، لا يترك أثره فى حياة الإنسان، فإنّ حياة هذين الفريقين و مماتهم يتفاوتان تماما:

فالمؤمنون يتمتعون باطمئنان خاص فى ظل الإيمان و العمل الصالح، بحيث لا تؤثر فى نفوسهم أصعب الحوادث و أقساها، فى حين أنّ الكافرين و الملوثين بالمعصية و الذنوب مضطربون دائما، فإنّ كانوا فى نعمة فهم معذبون دائما من خوف زوالها و فقدانها، و إن كانوا فى مصيبة و شدّة فلا طاقة لهم على تحملها و مواجهتها.

و تصور الآية (۸۲) من سورة الأنعام حال المؤمنين، فتقول: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۲

يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

إنّ المؤمنين مطمئنون بمواعيد اللّه سبحانه، و هم يرتعون فى رحمته و لطفه: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ.

فنور الهداية يضىء قلوب الفريق الأوّل لتشرق بنور ربّها، فيسيرون بخطى ثابتة نحو هدفهم المقدس: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ[۱۹۰].

أمّا الفريق الثّانى، فليس لديهم هدف واضح يطمحون إلى بلوغه، و لا هدى بيّن يسيرون فى ظله، بل هم سكارى تتقاذفهم أمواج الحيرة فى بحر الضلالة و الكفر:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ

هذا فى الحياة الدنيا، أما عند الموت الذى هو نافذة تطل على عالم البقاء، و باب للآخرة، فإنّ الحال كما تصوره الآية (۳۲) من سورة النحل حيث تقول:

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أمّا المجرمون الكافرون، فإنّ الآيتين (۲۸)- (۲۹) من سورة النحل تتحدثان معهم بأسلوب آخر، فتقولان: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ

و خلاصة القول، فإنّ التفاوت و الاختلاف موجود بين هاتين الفئتين فى كافة شؤون الحياة و الموت، و فى عالم البرزخ و القيامة[۱۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۳

أمّا الآية التالية فإنّه فى الحقيقة تفسير لسابقتها و تعليل لها، إذ تقول: وَ خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ فكل العالم يوحى بأنّ خالقه قد خلقه و جعله يقوم على محور الحق، و أن يحكم العدل و الحق كلّ مكان، و إذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يجعل اللّه الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمجرمين الكافرين، فيكون هذا الأمر استثناء من قانون الخلقة؟

من الطبيعى أنّه يجب أن يتمتع أولئك الـذين يتحركون حركـة تنسـجم مع قانون الحق و العدالـة هـذا، و لا يحيدون عنه ببركات عالم الوجود و ينعمون بألطاف اللّه سبحانه، كما يجب أن يكون أولئك الـذين يسـيرون عكس هـذا الطريق و يخالفون القانون طعمة للنّار المحرقة، و محطا لغضب اللّه عزّ و جلّ، و هذا ما تقتضيه العدالة.

و من هنـا يتّضـح أنّ العدالـة لاـ تعنى المسـاواة، بـل العدالـة أن يحصـل كلّ فرد على ما يناسـبه من المواهب و النعم حسب مؤهلاته و قابلياته.

و كـذلك فإنّ الآية الأخيرة من هذه الآيات توضـيح و تعليل آخر لعدم المساواة بين الكافرين و المؤمنين، إذ تقول: أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ

و هنا سؤال يطرح نفسه، و هو: كيف يمكن أن يتخذ الإنسان إلهه هواه؟

غير أنّ من الواضـح الجلى أنّ الإنسان عنـد ما يضـرب صـفحا عن أوامر اللّه سـبحانه، و يتبع ما تمليه عليه شـهواته، و يقدم طاعتها على طاعة اللّه سبحانه و يعتبر ذلك حقّا، فقد عبد هواه، و هذا عين معنى العبادة، إذ أنّ أحد المعانى المعروفة للعبادة هو الطاعة.

و قد ورد فى القرآن الكريم الكثير ممّا يبيّن هذا المعنى كعبادة الشيطان أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۴

عبادة أحبار اليهود، فيقول القرآن- مثلا- فى الآية (۶۰) من سورة يس: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ

و يقول فى الآية (۳۱) من سورة التوبة: اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ

و

جاء فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السـلام أنهما قالا: «أما و اللّه ما صاموا لهم، و لا صلوا، و لكنّهم أحلوا لهم حراما و حرموا عليهم حلالا، فاتبعوهم، و عبدوهم من حيث لا يشعرون»[۱۹۲].

غير أنّ بعض المفسّـرين يعتبر هذا التعبير إشارة إلى الوثنيين من قريش، الذين إذا ما عشـقوا شـيئا و أحبوه صنعوا على صورته صنما ثمّ عبدوه و عظموه، و كلما رأوا شـيئا آخر أعجبهم أكثر من صنمهم أعرضوا عن الأوّل و توجهوا إلى عبادة الثّانى، و على هذا فإنّ إلههم كان الشىء الذى ترتضيه أنفسهم و تهواه ۱۹۳].

إلّا أنّ تعبير: مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ أكثر انسجاما مع التّفسير الأوّل.

أما فى مورد جملة: أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ فالتّفسـير المعروف هو أنّ اللّه سـبحانه قد أضلهم لعلمه بأنّهم لا يستحقون الهداية، و هو إشارة إلى أنّ هؤلاء قد أطفأوا بأيديهم كلّ مصابيح الهداية و حطموها، و أغلقوا فى وجوههم كلّ سبل النجاة، و دمروا وراءهم جسور العودة إلى طريق الحق، فعند ذلك سـلبهم اللّه تعالى رحمته و لطفه، و أفقدهم القدرة على تشخيص الصالح من الطالح، و تركهم فى ظلمات لا يبصرون، و كأنّما ختم على قلبهم و سمعهم، و جعل على أبصارهم غشاوة.

و ما كلّ ذلك فى الحقيقة إلّا آثار لما اختط هؤلاء لأنفسهم من مسير، و نتيجة مشؤومة لعبادة الآلهة التى اتخذوها.

و لا صنم فى الحقيقة أخطر من إتباع هوى النفس الذى يوصد كلّ أبواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۵

الرحمة و طرق النجاة بوجه الإنسان؟ و كم هو بليغ و عميق

الحديث المروى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى اللّه من الهوى»[۱۹۴].

إلّا أنّ بعض المفسّـرين يعتبر هـذه الجملة إشارة إلى أنّ متبعى الهوى هؤلاء قد اختاروا طريق الضـلالة طريقا لهم عن علم و دراية، لأنّ العلم لا يقارن الهداية دائما، كما لا تكون الضلالة دائما قرينة الجهل.

إنّ العلم الـذى يتمسـك الإنسـان بلوازمه أسـاس الهدايـة، فعليه كى يصل إلى مراده و هـدفه أن يتحرك على هـدى هـذا العلم، و ألا

يكون كأولئك الكفار العنودين الذين قال بحقهم القرآن: وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ۱۹۵][۱۹۶].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظة أنّ مرجع الضمائر فى الآية إلى اللّه سبحانه، لأنّها تقول: أَضَلَّهُ اللَّهُ (عَلى عِلْمٍ) وَ خَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ

ممّا قلناه يتّضح جيدا أنّ الآية تدل- من قريب أو بعيد- على مذهب الجبرية، بل هى تأكيد على أصل الإختيار و تعيين الإنسان مصيره بنفسه.

لقد أوردنا بحوثا أكثر تفصيلا و إيضاحا حول ختم اللّه على قلب الإنسان و سمعه، و إلقاء الغشاوة على قلبه فى ذيل الآية (۷) من سورة البقرة[۱۹۷].

***

ملاحظات

۱- أخطر الأصنام صنم هوى النفس

قرأنا فى حديث أنّ أبغض الآلهة إلى اللّه هوى النفس، و لا مبالغة فى هذا الحديث قط، لأنّ الأصنام العادية موجودات لا خصائص لها و لا صفات فعالة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۶

مهمة، أما صنم الهوى و أتباعه، فإنّه يغوى الإنسان و يسوقه إلى ارتكاب أنواع المعاصى، و الانزلاق فى هاوية الانحراف.

و بصورة عامّة، يمكن القول بأنّ لهذا الصنم من الخصوصيات ما جعله مستحقا لصفة أبغض الآلهة و الأصنام، فهو يزين القبائح و السيئات فى نظر الإنسان حتى يصل إلى درجة يفخر عندها بتلك الأعمال الطالحة، و يكون مصداقا لقوله تعالى:

وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً[۱۹۸].

۲- أفضل طريق لنفوذ الشيطان هو اتباع الهوى: فما دام الشيطان لا يمتلك قاعدة و أساسا يستند إليه فى داخل الإنسان، فلا قدرة له على الوسوسة و دفع الإنسان الى الانحراف و المعصية، و ما تلك القاعدة و الأساس إلّا اتباع الهوى و هو ذات الشىء الذى أسقط الشيطان و أرداه، و طرده من صف الملائكة، و أبعده عن مقام القرب من اللّه.

۳- إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان أهم وسائل الهداية، و هى الإدراك الصحيح للحقائق، و يلقى الحجب على عقل الإنسان و عينه، و قد أشارت هذه الآيات إلى هذا الموضوع بصراحة بعد ذكر مسألة اتباع الهوى و اتخاذه إلها، و آيات القرآن الأخرى شاهدة على هذه الحقيقة أيضا.

۴- إنّ اتباع الهوى يوصل الإنسان إلى مرحلة محاربة اللّه- و العياذ باللّه- كما ابتلى بها إمام عباد الهوى- أى الشيطان الرجيم- فاعترض على حكمة اللّه سبحانه لمّا أمره بالسجود لآدم، و اعتبره أمرا عاريا عن الحكمة! ۵- عواقب اتباع الهوى مشؤومة و أليمة، بحيث أنّ لحظة من لحظات اتباع الهوى قد يصاحبها عمر من الندامة و الأسف و الحسرة، و لحظة- يتبع فيها الهوى- قد تجعل كلّ حسنات الإنسان و أعماله الصالحة التى عملها طوال عمره هباء منثورا، و لذلك ورد التأكيد على الحيطة و اليقظة فى هذا الأمر و التحذير الشديد منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۷

فى آيات القرآن و الرّوايات الإسلامية.

فقد ورد فی الحدیث المعروف عن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إن أخوف ما أخاف علی أمتی الهوی و طول الأمل، أما الهوی فإنّه یصد عن الحق، و أمّا طول الأمل فینسی الآخرة»[۱۹۹].

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه سئل: أی سلطان أغلب و أقوی؟ قال: «الهوی»[۲۰۰].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام زین العابدین علیه السّلام: «إن اللّه تعالی یقول:

و عزتی و عظمتی، و جلالی و بهائی، و علوی و ارتفاع مکانی، لا یؤثر عبد هوای علی هواه إلّا جعلت همه فی آخرته، و غناه فی قلبه، و کففت عنه ضیعته، و ضمنت السماوات و الأرض رزقه، و أتته الدنیا و هی راغمة»[۲۰۱].

و

ورد فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السّلام: «احذروا أهواءکم کما تحذرون أعداءکم، فلیس شیء أعدی للرجال من اتباع أهوائهم و حصائد ألسنتهم»[۲۰۲].

و أخیرا

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنی لأرجو النجاة لهذه الأمة لمن عرف حقنا منهم إلّا لأحد ثلاثة: صاحب سلطان جائر، و صاحب هوی، و الفاسق المعلن»[۲۰۳].

و فی هذا الباب آیات و روایات کثیرة غنیة المضمون.

و ننهی هذا الحدیث بجملة عمیقة المعنی ذکرها البعض کسبب نزول، و کشاهد علی مرادنا، فیقول أحد المفسّرین: طاف أبو جهل بالبیت ذات لیلة و معه الولید بن المغیرة، فتحدثا فی شأن النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فقال أبو جهل: و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۸

فقال له: مه، و ما دلک علی ذلک؟

قال: یا أبا عبد شمس، کنا نسمیه فی صباه الصادق الأمین، فلما تم عقله، و کمل رشده نسمیه الکذاب الخائن! و اللّه إنی لأعلم أنّه صادق.

قال: فما یمنعک من أن تصدقه و تؤمن به؟

قال: تتحدث عنی بنات قریش أنی اتبعت یتیم أبی طالب من أجل کسرة! و اللات و العزی لن أتبعه أبدا.

فنزلت الآیة: وَ خَتَمَ عَلی سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ ۲۰۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۱۹

الآیتان [سورة الجاثیة (۴۵): الآیات ۲۴ الی ۲۵]

اشارة

وَ قالُوا ما هِیَ إِلاَّ حَیاتُنَا الدُّنْیا نَمُوتُ وَ نَحْیا وَ ما یُهْلِکُنا إِلَّا الدَّهْرُ وَ ما لَهُمْ بِذلِکَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا یَظُنُّونَ (۲۴) وَ إِذا تُتْلی عَلَیْهِمْ آیاتُنا بَیِّناتٍ ما کانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۵)

التّفسیر

عقائد الدهريين:

فى هذه الآيات بحث آخر حول منكرى التوحيد، غاية ما هناك أنّه ذكر هنا اسم جماعة خاصّة منهم، و هم «الدهريون» الذين ينكرون وجود صانع حكيم لعالم الوجود مطلقا، فى حين أنّ أكثر المشركين كانوا يؤمنون ظاهرا باللّه، و كانوا يعتبرون الأصنام شفعاء عند اللّه، فتقول الآية أولا: وَ قالُوا ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا فكما يموت من يموت منا، يولد من يولد منّا و بذلك يستمر النسل البشرى: وَ ما يُهْلِكُنا إِلَّا الدَّهْرُ و بهذا فإنّهم ينكرون المعاد كما ينكرون المبدأ، و الجملة الأولى ناظرة إلى إنكارهم المعاد، أمّا الجملة الثانية فتشير إلى إنكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۰

المبدأ.

و الجدير بالانتباه أنّ هذا التعبير قد ورد فى آيتين أخريين من آيات القرآن الأخرى، فنقرأ فى الآية (۲۹) من سورة الأنعام: وَ قالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

و جاء فى الآية (۳۷) من سورة المؤمنون: إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَ نَحْيا وَ ما نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

إلّا أنّ التأكيد فى الآيتين على إنكار المعاد و حسب، و لم يرد إنكار المبدأ و المعاد معا إلّا فى هذه الآية مورد البحث.

و من الواضح أنّ هؤلاء إنّما كانوا يؤكدون على المعاد أكثر من المبدأ لخوفهم و اضطرابهم منه الذى قد يغير مسير حياتهم المليئة بالشهوات و الخاضعة لها.

و قد ذكر المفسّرون عدّة تفاسير لجملة نَمُوتُ وَ نَحْيا:

الأوّل: و هو ما ذكرناه، بأنّ الكبار يغادرون الحياة ليحل محلهم المواليد.

الثّانى: أنّ الجملة من قبيل التأخير و التقديم، و معناها: إنّنا نحيا ثمّ نموت، و لا شىء غير هذه الحياة و الموت.

الثّالث: أنّ البعض يموتون و يبقى البعض الآخر، و إن كان الجميع سوف يموتون فى النهاية.

الرّابع: أننا كنا فى البداية أموات لا روح فينا، ثمّ منحنا الحياة و دبت فينا.

غير أنّ التّفسير الأوّل هو أنسب الجميع و أفضلها.

و على أية حال، فإنّ جماعة من الماديين فى العصور الخالية كانوا يعتقدون أنّ الدهر هو الفاعل أو الزمان فى هذا العالم- أو بتعبير جماعة آخرين: إنّ الفاعل هو دوران الأفلاك و أوضاع الكواكب- و كانوا ينهون سلسلة الحوادث إلى الأفلاك، و يعتقدون أنّ كلّ ما يقع فى هذا العالم بسببها[۲۰۵]، حتى أنّ جماعة من فلاسفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۱

الدهريين و أمثالهم كانوا يقولون بوجود عقل للأفلاك، و يعتقدون أنّ تدبير هذا العالم بيدها.

إن هذه العقائد الخرافية انقرضت بمرور الزمان، خاصّة و قد ثبت بتقدم علم الهيئة عدم وجود شىء باسم الأفلاك- الكرات المتداخلة الصافية- فى الوجود الخارجى أصلا، و أن لنجوم العالم العلوى بناء كبناء الكرة الأرضية بتفاوت ما غاية فى الأمر أنّ بعضها مظلم و يكتسب نوره من الكرات الأخرى، و بعضها الآخر مشتعل و منير.

إنّ الدهريين كانوا يذمون الدهر و يسبونه أحيانا عند ما تقع حوادث مرّة مؤلمة.

غير أنّه

ورد فى الأحاديث الإسلامية عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم «لا تسبوا الدهر، فإنّ اللّه هو الدهر»[۲۰۶]،

و هو إشارة إلى أنّ الدهر لفظ ليس إلّا، فإنّ اللّه سبحانه هو مدبر هذا العالم و مديره، فإنّكم إنّ أسأتم القول بحق مدبر هذا العالم و

مديره، فقد أسأتم بحق اللّه عزّ و جلّ من حيث لا تشعرون.

و الشاهد على هذا الكلام حديث آخر

روى كحديث قدسى عن اللّه تعالى أنّه قال: «يؤذينى ابن آدم يسب الدهر، و أنا الدهر! بيدى الأمر، أقلب الليل و النهار»[۲۰۷].

لكن قد استعمل الدهر فى بعض التعبيرات بمعنى أبناء الأيّام، و أهل الزمان الذين شكا العظماء من عدم وفائهم، كما نقل

فى الشعر المنقول عن الإمام الحسين عليه السّلام، حيث أنشد ليلة عاشوراء:

يا دهر أف لك من خليل* كم لك بالإشراق و الأصيل من صاحب و طالب قتيل* و الدهر لا يقنع بالقليل

و على هذا فللدهر معنيان: الدهر بمعنى الأفلاك و الأيّام، و الذى كان محل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۲

اهتمام الدهريين، حيث كانوا يظنونه حاكما على نظام الوجود و حياة البشر.

و الدهر بمعنى أهل العصر و الزمان و أبناء الأيّام.

و من المسلّم أنّ الدهر بالمعنى الأوّل أمر وهمى، أو نقول أنّه اشتباه فى التعبير حيث أطلق اسم «الدهر» بدل اسم اللّه المتعالى الحاكم على كلّ عالم الوجود. أمّا الدهر بالمعنى الثّانى فهو الشىء الذى ذمه كثير من الأئمة و العظماء، لأنّهم كانوا يرون أهل زمانهم خادعين مذبذبين لا وفاء لهم.

على أية حال، فإنّ القرآن الكريم أجاب هؤلاء العبثيين بجملة وجيزة عميقة، تلاحظ فى موارد أخرى من القرآن الكريم أيضا، فقال: وَ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۲۸) من سورة النجم فى من يظنون أنّ الملائكة بنات اللّه سبحانه: وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

و قد ورد هذا المعنى أيضا فى القول بقتل المسيح، النساء- ۱۵۷، و عقيدة مشركى العرب فى الأصنام، يونس- ۶۶.

و هذا أبسط و أوضح دليل يلقى على هؤلاء بأنّكم لا تملكون أى شاهد أو دليل منطقى على مدعاكم، بل تستندون فى دعواكم إلى الظن و التخمين فقط.

و أشارت الآية التالية إلى إحدى ذرائع هؤلاء الواهية و حججهم الباطلة فيما يتعلق بالمعاد، فقالت: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۲۰۸].

كان هؤلاء يرددون أنّ إذا كان حياة الأموات و بعثهم حقّا فأحيوا آباءنا كنموذج لادعائكم، حتى نعرف مدى صدقكم، و لنسألهم عمّا يجرى بعد الموت، و هل يصدّقون ما تقولونه أم يكذبونه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۳

نعم، هذا هو دليلهم الأجوف لأنّ اللّه سبحانه قد أبان للبشر قدرته على إحياء الأموات بطرق مختلفة، فإنشاء أوّل الإنسان من التراب، و تحولات النطفة العجيبة فى الرحم، و خلق السماء الواسعة و الأرض، و إحياء الأراضى الميتة بعد هطول الأمطار عليها، ذكرت كلها كأسانيد حية على إمكان القيامة و البعث الجديد، و كأفضل دليل على هذا المعنى، و بعد كلّ هذا لا حاجة إلى دليل آخر.

و بغض النظر عن ذلك، فإنّ هؤلاء كانوا قد أثبتوا أنّهم لا هدف لهم إلّا التذرع و التوسل بالحجج، للاستمرار فى ضلالهم و اعتقادهم المنحرف، فإذا كشف لهم عن مشهد إحياء الأموات فرضا فرأوه بأم أعينهم، فإنّهم سيقولون مباشرة: إنّه سحر، كما قالوا ذلك فى الموارد المشابهة.

إنّ التعبير ب «الحجة» فى مورد قول هؤلاء الفارغ هو كناية فى الحقيقة عن أنّ هؤلاء لا دليل لهم إلّا عدم الدليل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۴

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۲۶ الى ۳۱]

اشارة

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۲۶) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (۲۷) وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۸) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۲۹) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (۳۰)

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (۳۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۵

التّفسير

الكلّ جاث فى محكمة العدل الإلهى:

هـذه الآيات فى الحقيقـة جواب آخر على كلام الـدهريين، الـذين كانوا ينكرون المبـدأ و المعاد، و قد أشـير إلى كلامهم، فى الآيات السابقة، فتقول الآية أوّلا: قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ

لم يكن هؤلاء يعتقدون باللّه و لا باليوم الآخر، و محتوى هذه الآية استدلال عليهما معا، حيث أكّدت على مسألة الحياة الأولى. و بتعبير آخر، فـإنّ هؤلاء لا يسـتطيعون أن ينكروا أصل وجود الحياة الأولى، و نشأة الموجودات الحيـة من موجودات ميتـة، و هـذا يشـكل من جهـة دليلا على وجود عقل و علم كلى شامل، إذ هل يمكن أن توجـد الحياة على هـذه الهيئـة المدهشـة، و التنظيم الـدقيق و الأسـرار العجيبة المعقدة، و الصور المتعددة، و التى أذهلت عقول كلّ العلماء، من دون أن يكون لها خالق قادر عالم؟

و لهذا نرى آيات القرآن المختلفة تؤكّد على مسألة الحياة كأحد آيات التوحيد و أدلته البينة.

و من جهة أخرى، تقول لهم: كيف يكون القادر على إنشاء الحياة الأولى عاجزا عن إعادتها ثانيا؟

أمّا التعبير ب لا رَيْبَ فِيهِ حول القيامـة، و الـذى يخبر عن حتمية وقوعها و حدوثها، لا عن إمكانها، فهو إشارة إلى قانون العدل الإلهى، حيث لم يصـل كلّ صاحب حق الى حقّه فى هـذه الحياة الـدنيا، و لم يلاق كلّ المعتـدين و الظالمين جزاءهم، و لو لا محكمـة القيامة العادلة، فإن العدالة الإلهية لا مفهوم لها حينئذ.

و لما كان كثير من الناس لا يتأمل هذه الدلائل و لا يدقق النظر فيها، فإنّ الآية تضيف فى النهاية: وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

إن أحد أسماء يوم القيامة المار ذكره فى هذه الآية هو: يَوْمَ الْجَمْعِ لأنّ جميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۶

الخلق من الأولين و الآخرين، و على اختلاف طبقات البشـر و أصـنافهم يجمعون فى ذلك اليوم فى مكان واحـد. و قد ورد هذا التعبير فى عدّة آيات أخرى من القرآن الكريم أيضا، و من جملتها الشورى- ۷، و التغابن- ۹.

أمّـا الآيـة التاليـة فهى دليـل آخر على مسألـة المعاد، و قـد قرأنا الشـبهة المطروحـة حوله فى آيات القرآن الأخرى، فتقول: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ فلمـا كـان مالكـا لتمام عالم الوجود الواسع و حاكما عليه، فمن المسـلم أن يكون قادرا على إحياء الموتى، و مع

وجود تلك القدرة المطلقة لا تكون عملية الإحياء بالأمر العسير.

لقد جعل اللّه سبحانه هذا العالم مزرعة للآخرة، و متجرا وافر الربح إلى ذلك العالم، و لذلك يقول سبحانه فى نهاية الآية: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ لأنّهم فقدوا رأس مالهم- و هو العمر- و لم يتجروا فيه، و لم يشتروا متاعا إلّا الحسرة و الندم.

إنّ الحياة و العقل و الذكاء و مواهب الحياة الأخرى هى رأس مال الإنسان فى سوق التجارة هذا، لكن اتباع الباطل يبادلونه بمتاع فان سريع الزوال، و لذلك فإنّهم حين يأتون يوم القيامة، يوم لا ينفع إلّا القلب السليم و الإيمان و العمل الصالح سيرون خسارتهم الباهظة بأم أعينهم، و لات ساعة مندم.

«يخسر» من الخسران، و هو فقدان رأس المال، و ينسب أحيانا إلى نفس الإنسان- كما يقول الراغب فى المفردات- فيقال: خسر فلان، و أحيانا إلى تجارته فيقال: خسرت تجارته.

و مع أنّ أبناء الدنيا لا يستعملون هذا التعبير إلّا فى موارد المال و المقام و المواهب المادية، مع أنّ الأهم من الخسارة المادية هو فقدان رأس مال العقل و الإيمان و الثواب.

أمّا «المبطل»- من مادة «إبطال»- فلها فى اللغة معان مختلفة، كإبطال الشيء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۷

و الكذب، و الاستهزاء و المزاح، و طرح أمر باطل و ذكره، و كلّ هذه المعانى يمكن أن تقبل فى مورد الآية.

الأشخاص الذين أبطلوا الحق، و الذين نشروا عقيدة الباطل و أهدافه، و الذين كذبوا أنبياء اللّه، و سخروا من كلامهم، سيرون خسرانهم المبين فى ذلك اليوم.

و تجسّد الآية التالية مشهد القيامة بتعبير بليغ مؤثر جدّا، فتقول: وَ تَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً.

يستفاد من بعض كلمات المفسّرين أنّ أصحاب الدعوى فى الماضى كانوا يجلسون على هذه الهيئة فى مجلس القضاء ليميزوا عن الآخرين، و سيجثو الجميع يوم القيامة فى تلك المحكمة الكبرى لتتم محاكمتهم.

و يمكن أيضا أن يكون هذا التعبير علامة على استعدادهم لتقبل أى أمر أو حكم يصدر بحقّهم، لأنّ من كان على أهبة الاستعداد يجثو على الركب.

أو أنّه إشارة إلى ضعف هؤلاء و عجزهم و خوفهم و اضطرابهم الذى سيعانونه.

و جمع كلّ هذه المعانى فى مفهوم الآية ممكن أيضا.

و للجاثية معان أخرى، من جملتها الجمع الكثير المتراكم، أو جماعة جماعة، و يمكن أن تكون إشارة إلى تراكم البشر و ازدحامهم فى محكمة العدل الإلهى، أو جلوس كلّ أمة و فئة على حدة و بمعزل عن الأمم الأخرى. إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب و الأشهر.

ثمّ تبيّن الآية ثانى مشاهد القيامة، فتقول: كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فإنّ هذا الكتاب صحيفة أعمال سجلت فيها كلّ الحسنات و السيئات، و القبائح و الأفعال الجميلة، و أقوال الإنسان و أعماله، و على حدّ تعبير القرآن الكريم: لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها[۲۰۹].

و تعبير كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا يوحى بأنّ لكلّ أمة كتابا يتعلق بأفرادها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۸

جميعا، إضافة إلى صحيفة الأعمال الخاصّة بكلّ فرد و لا يبدو هذا الأمر عجيبا إذا علمنا أنّ للإنسان نوعين من الأعمال: الأعمال الفردية، و الأعمال الجماعية، و لذلك فإن وجود نوعين من صحائف الأعمال يبدو طبيعيا جدّا من هذه الناحية[۲۱۰].

و التعبير ب «تدعى» يوحى بأنّ هؤلاء يدعون إلى قراءة ما فى كتبهم، و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآية (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

ثمّ يأتيهم الخطاب من قبل اللّه مرّة أخرى، فيقول مؤكّدا: هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ فقد كنتم تفعلون كلّ ما يحلو لكم، و لم تكونوا تصدقون مطلقا أنّ كلّ أعمالكم هذه تسجل فى مكان ما، و لكن إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

«نستنسخ» من مادة «استنساخ»، و هى فى الأصل مأخوذة من النسخ، و هو إزالة الشىء بشىء آخر، فيقال مثلا: نسخت الشمس الظل. ثمّ استعملت فى كتابة كتاب عن كتاب آخر من دون أن يمحى الكتاب الأوّل.

و هنا يبدو سؤال، و هو: إذا كان اللّه سبحانه قد أمر باستنساخ أعمال ابن آدم، ذلك يستلزم أن يكون هناك كتاب قبل النسخ تكتب فيه تلك الأعمال؟ و لذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ صحائف أعمال كلّ البشر قد كتبت فى اللوح المحفوظ، و الملائكة الموكلون بحفظ أعمال الإنسان يستنسخونها من ذلك اللوح المحفوظ.

إلّا أنّ هذا المعنى لا يتلاءم كثيرا مع الآية مورد البحث، بل الملائم أحد معنيين هما: إمّا أن يكون الاستنساخ هنا بمعنى أصل الكتابة- كما قاله بعض المفسّرين- أو أنّ نفس أعمال الإنسان كالكتاب التكوينى تنسخ عنه الملائكة الحفظة و تصوره، و لذلك فقد ورد فى آيات أخر من القرآن الكريم التعبير بالكتابة بدل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۲۹

الاستنساخ، كما نقرأ ذلك فى الآية (۱۲) من سورة يس: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ ۲۱۱].

و قد ورد تفصيل أوسع حول أنواع الكتب التى تسجل فيها الأعمال- صحيفة الأعمال الشخصية، و صحيفة أعمال الأمم، و الكتاب الجامع العام لكلّ أفراد البشر- فى ذيل الآية (۱۲) من سورة يس.

و تبيّن الآية التالية الجلسة الختامية للمحكمة و إصدار قرار الحكم، حيث تنال كلّ فئة جزاء أعمالها، فتقول: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

إن ذكر «فاء التفريع» هنا دليل على أنّ نتيجة حفظ الأعمال و المحاسبة و تلك المحكمة الإلهية العادلة، هى دخول المؤمنين فى رحمة اللّه سبحانه.

و طبقا لهذه الآية، فإنّ الإيمان- وحده- غير كاف لأنّ يجعل المؤمنين يتنعمون بهذه الموهبة العظيمة و العطية الجزيلة، بل إنّ العمل الصالح شرط لذلك أيضا.

و التعبير ب «ربّهم» يحكى عن لطف اللّه الخاص، يكتمل بتعبير «الرحمة» بدل «الجنّة».

و تبلغ بهم نهاية الآية أوج الكمال حينما تقول: ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

إنّ ل «رحمة اللّه» معنى واسعا يشمل الدنيا و الآخرة، و قد أطلقت فى آيات القرآن الكريم على معان كثيرة، فتارة تطلق على مسألة الهداية، و أخرى على الإنقاذ من قبضة الأعداء، و ثالثة على المطر الغزير المبارك، و رابعة على نعم أخرى كنعمة النور و الظلمة، و أطلقت فى موارد كثيرة على الجنّة و مواهب اللّه سبحانه فى القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۰

جملة ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ تكررت مرّة أخرى فى الآية (۱۶) من سورة الأنعام، غاية ما هناك أنّ الفوز المبين قيل هناك لأولئك الذين ينجون من عذاب اللّه عزّ و جلّ: مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ أمّا هنا فقد قيلت فيمن دخل الجنّة و فى رحمة اللّه، و كلاهما فى الواقع فوز عظيم: النجاة من العذاب، و الدخول فى مستقر رحمة اللّه سبحانه.

و هنا قد يرد هذا السؤال، و هو: هل أنّ المؤمنين الذين ليس لهم عمل صالح لا يدخلون الجنّة؟

و الجواب: إنّهم يدخلونها لكن بعد أن يروا جزاءهم فى جهنم حتى يطهروا، فإنّ الذين يردون مستقر رحمة اللّه هذا بعد الحساب مباشرة هم أصحاب العمل الصالح مضافا إلى إيمانهم، و حسب.

كلمة «الفوز»- كما يقول الراغب فى مفرداته- تعنى الظفر المقترن بالسلامة، و قد استعملت فى (۱۹) موردا من آيات القرآن المجيد،

فوصف الفوز مرّة بـالمبين، و أخرى بـالكبير، أمّـا فى غـالب الآيـات فقـد وصف بـالعظيم. و هو مسـتعمل عـادة فى شأن الجنّـة، إلّا أنّه استعمل فى بعض الموارد فى شأن التوفيق لطاعة اللّه و مغفرة الذنوب و أمثال ذلك.

و تذكر الآية الآتية مصير من يقع فى الطرف المقابل لأولئك السابقين، فتقول:

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَ فَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ

و ممّا يلفت النظر أنّ الكلام فى هذه الآية عن الكفر فقط، و أمّا أعمال السوء التى هى عامل الدخول فى عذاب اللّه و سببه فلم يجر لها ذكر، و ذلك لأنّ الكفر وحده كاف لأنّ يدخل صاحبه العذاب، أو لأنّ التعبير بالمجرمين فى ذيل الآية كاف لبيان هذا المعنى.

و النكتـة الأـخرى هنا أنّه لم يرد كلام عن عقوبات الجحيم، بل الكلام عن التوبيـخ الإلهى لهم و تقريعهم، و هو يعتبر أشـد العـذاب و أكبره، و تهون معه الجحيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۱

كلّ عذابها.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى: أنّه يستفاد من هذه الآية أنّ اللّه سبحانه لن يعذب أحدا من دون أن يبعث الأنبياء و يرسل الرسل و ينزل آياته- أو كما يصطلح عليه تأكيد أحكام العقل بأحكام الشرع- و هذا منتهى لطفه و رحمته سبحانه.

و آخر ملاحظة هى أنّ أكبر مشاكل هؤلاء القوم هو استكبارهم على آيات اللّه من جهة، و تماديهم فى المعصية و الإجرام من جهة أخرى، و هذا يستفاد من جملة وَ كُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۲

الآيات [سورة الجاثية (۴۵): الآيات ۳۲ الى ۳۷]

اشارة

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (۳۲) وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۳۳) وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۳۴) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۳۵) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۳۶)

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳۷)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۳

التّفسير

يوم تبدو السيئات:

الآيـة الأولى من هـذه الآيات توضـيح لما ذكر فى الآيات السابقـة بصورة مجملـة، توضـيح لمسألة اسـتكبار الكافرين على آيات اللّه و دعوة الأنبياء، فتقول:

وَ إِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ السَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَ ما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ

التعبير ب ما نَدْرِى مَا السَّاعَةُ فى حين أنّ معنى القيامة لم يكن غامضا عليهم أو مبهما، و إن كان شك كلّ لديهم ففى وجودها، ممّا يوحى بأنّهم كانوا فى موضع تكبر و عدم اهتمام، و لو كانت لدى هؤلاء روح تتبع الحق و طلبه لرأوا أنّ ماهية يوم القيامة أمر واضح، كما أنّ الدليل عليها بيّن جلى. و من هنا يتّضح الجواب عن سؤال طرح هنا، و هو: أنّ هؤلاء إنّ كانوا- حقا- فى شكّ الأمر، فلا تثريب عليهم و لا إثم؟ لكن الشك لم يكن ناشئا من عدم وضوح الحق، بل ناتج عن الكبر و الغرور و العناد التعصب.

و يحتمل أيضا أن يكون هدفهم من تهافت كلامهم و تناقضه السخرية و الاستهزاء.

و تتحدث الآية التالية عن جزاء هؤلاء و عقابهم، ذلك الجزاء الذى لا يشبه عقوبات المحاكم الدنيوية، فتقول: وَ بَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا فستتجسد القبائح و السيئات أمام أعينهم، و تتّضح لهم، و تكون لهم قرينا دائما يتأذون من وجوده إلى جانبهم و يتعذبون من صحبته: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ۲۱۲].

و الأشد ألما من كلّ ذلك هو الخطاب الذى يخاطبهم به اللّه الرحمن الرحيم، فيقول سبحانه: وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۴

لقد ورد هذا التعبير بصيغ مختلفة فى القرآن الكريم مرارا، ففى الآية (۵۱) من سورة الأعراف: فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا. و جاء هذا المعنى أيضا بأسلوب آخر فى الآية (۱۴) من سورة ألم السجدة.

لا شك أنّ النسيان لا معنى له بالنسبة إلى اللّه سبحانه الذى يحيط علمه بكلّ عالم الوجود، لكنّه هنا كناية لطيفة عن احتقار الإنسان المجرم العاصى و عدم الاهتمام به، و يلاحظ هذا التعبير حتى فى محادثاتنا اليومية، فنقول: انس فلانا الذى لا وفاء له، أى عامله كإنسان منسى، و لا تمنحه المحبة و العطف و الوداد، و اترك تفقد أحواله، و لا تذهب إليه أبدا.

ثمّ إنّ هذا التعبير تأكيد آخر- بصورة ضمنية- على مسألة تجسم الأعمال، و تناسب الجريمة و العقاب، لأنّ نسيانهم يوم القيامة فى الدنيا يؤدى إلى أن ينساهم اللّه يوم القيامة، و ما أعظم مصيبة نسيان اللّه الرحمن الرحيم لفرد من الأفراد، و حرمانه من جميع ألطافه و مننه.

و ذكر المفسّرون هنا تفاسير مختلفة للنسيان تتلخص جميعا فى المعنى المذكور أعلاه، و لذلك لا نرى حاجة لتكرارها.

ثمّ إنّ المراد من نسيان لقاء يوم القيامة، نسيان لقاء كلّ المسائل و الحوادث التى تقع فى ذلك اليوم، سواء الحساب أم غيره، حيث كانوا ينكرونها.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد نسيان لقاء اللّه سبحانه فى ذلك اليوم، لأنّ يوم القيامة قد وصف فى القرآن المجيد بيوم لقاء اللّه، و المراد منه الشهود الباطنى.

و تتابع الآية الحديث، فتقول: وَ مَأْواكُمُ النَّارُ و إذا كنتم تظنون أنّ أحدا سيهب لنصرتكم و غوثكم، فاقطعوا الأمل من ذلك، و اعلموا أنّه وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ

أمّا لماذا ابتليتم بمثل هذا المصير؟ ف ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَ غَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا.

و أساسا فإنّ «الغرور» و «الاستهزاء» لا ينفصلان عن بعضهما عادة، فإنّ الأفراد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۵

المغرورين و المتكبرين الذين ينظرون إلى الآخرين بعين الاحتقار يتخذونهم هزوا و يسخرون منهم، و مصدر الغرور فى الواقع هو متاع الدنيا و قدرتها و ثروتها الزائلة المؤقتة، و التى تدع الأفراد الضيقى الصدور فى غفلة تامة لا يعيرون معها لدعوة رسل اللّه أدنى اهتمام، و لا يكلفون أنفسهم حتى النظر فيها للوقوف على صوابها من عدمه.

و تكرر الآية ما ورد فى الآية السابقة و تؤكّده بأسلوب آخر، فتقول:

فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۲۱۳]، فقد كان الكلام هناك عن مأواهم و مقرهم الثابت، و الكلام هنا عن عدم خروجهم من النّار .. حيث قال هناك: ما لهم من ناصرين، و هنا يقول: لا يقبل منهم عذر، و النتيجة هى أنّ لا سبيل لنجاتهم.

و فى نهاية هذه السورة، و لإكمال بحث التوحيد و المعاد، و الذى كان يشكل أكثر مباحث هذه السورة، تبيّن الآيتان الأخيرتان وحدة ربوبية اللّه و عظمته، و قدرته و حكمته، و تذكر خمس صفات من صفات اللّه سبحانه فى هذا الجانب، فتقول أولا: فَلِلَّهِ الْحَمْدُ لأنّه رَبِّ السَّماواتِ وَ رَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ

«الرّب» بمعنى المالك و المدبر، و الحاكم و المصلح، و بناء على هذا فكلّ خير و بركة تأتى منه سبحانه و لذلك، ترجع إليه كلّ المحامد و الثناء، فحتى الثناء على الورد، و صفاء العيون، و عذوبة النسيم، و جمال النجوم، حمد له و ثناء عليه، فإنّها جميعا تصدر عنه، و تنمو بفضله و رعايته.

و الطريف أنّه يقول مرّة: ربّ السماوات، و أخرى: ربّ الأرض، و ثالثة: ربّ عالم الوجود و العالمين، ليفند الإعتقاد بالآلهة المتعددة التى جعلوها للموجودات المختلفة، و يدعو الجميع إلى توحيد اللّه سبحانه و الإعتقاد بأحديته.

و بعد وصف ذاته المقدسة بمقام الحمد و الربوبية، تضيف الآية فى الصفة الثالثة:

وَ لَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لأنّ آثار عظمته ظاهرة فى السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۶

المترامية الأطراف، و الأرض الواسعة الفضاء، و فى كلّ زاوية من زوايا العالم.

لقد كان الكلام فى الآية السابقة عن مقام الربوبية، أى كونه تعالى مالكا لأمور عالم الوجود و مدبرا لها، و الكلام هنا عن عظمته، فكلما دققنا النظر فى خلق السماء و الأرض و تأملناه، سنزداد معرفة بهذه الحقيقة، و تزداد بصيرتنا بها.

و أخيرا تقول الآية فى الوصفين الرابع و الخامس: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ و بذلك تكمل مجموعة العلم و القدرة و العظمة و الربوبية و المحمودية، و التى هى مجموعة من أهم صفات اللّه، و أسمائه الحسنى.

و لعلها تشير إلى أن: له الحمد فاحمدوه، و هو الرب فاشكروا له، و له الكبرياء فكبروه، و هو العزيز الحكيم فأطيعوه.

و بوصف اللّه سبحانه بالعزيز و الحكيم تنتهى سورة الجاثية كما بدأت بهما، و كل محتواها و ما تضمنته شاهد على عزّة اللّه سبحانه و حكمته السامية.

اللّهمّ، إنا نقسم عليك بكبريائك و عظمتك، و بمقام ربوبيتك، و عزتك و حكمتك، تثبت أقدامنا فى طريق طاعة أوامرك.

اللّهمّ، إنّ كلّ حمد و ثناء نؤديه فبتوفيق منك، و كلّ ما لدينا من بركاتك و ألطافك، فأدم اللّهمّ هذه النعم و زدها علينا.

إلهنا: نحن غارقون فى بحر إحسانك و كرمك، فوفقنا لأداء شكرك.

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الجاثية***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۷

بداية الجزء السّادس و العشرون من القرآن الكريم

سورة الأحقاف

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس و ثلاثون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۳۹

سورة الأحقاف

محتوى السورة:

هـذه السورة من السور المكيـة- و إن كان جمع من المفسّـرين ذهبوا إلى أنّ بعض آياتها قـد نزلت فى المدينـة، و سـنبحث ذلك فى شرح تلك الآيات إن شاء اللّه تعالى- و لما كان زمان نزولها و ظروفه زمان مواجهـة الشـرك، و الدعوة إلى التوحيد و المعاد و مسائل الإسلام الأساسية، فإنها تتحدث حول هذه الأمور، و تدور حول هذه المحاور.

و يمكن القول باختصار، أنّ هذه السورة تتابع الأهداف التالية:

۱- بيان عظمة القرآن.

۲- محاربة كلّ أنواع الشرك و الوثنية بشكل قاطع.

۳- توجيه الناس إلى مسألة المعاد و محكمة العدل الإلهى.

۴- إنذار المشـركين و المجرمين من خلال بيان جانب من قصة قوم عاد، الذين كانوا يسكنون أرض «الأحقاف»، و منها أخذ اسم هذه السورة.

۵- الإشارة إلى سـعة دعوة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كونها عامّة تتخطى حتى حدود البشر، أى إنّها تشمل طائفة الجن أيضا.

۶- ترغيب المؤمنين و ترهيب الكافرين و إنذارهم، و إيجاد دوافع الخوف و الرجاء.

۷- دعوة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى التحلى بالصبر و الاستقامة الى أبعد الحدود،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۰

و الاقتداء بسيرة الأنبياء الماضين.

فضل هذه السورة:

ورد فى حديث عن النّبى الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سلّم فى فضل هذه السورة: «من قرأ سورة الأحقاف أعطى من الأجر بعدد كلّ رمل فى الدنيا عشر حسنات، و محى عنه عشر سيئات، و رفع له عشر درجات»[۲۱۴].

و لما كانت «الأحقاف» جمع حقف، و هى الكثبان الرمليـة التى تتجمع على هيئات مختلفة، مسـتطيلة و متعرجة نتيجة هبوب الرياح فى الصـحارى، و كـان يقـال لأـرض قوم عاد «الأحقاف» لأنّها كانت حصـباء على هـذه الشاكلـة، فإنّ تعبير الحـديث أعلاه ناظر إلى هـذا المعنى.

و من البديهى أنّ كلّ هذه الحسـنات و الدرجات لا تمنح لمجرّد التلاوة اللفظية، بل التلاوة البناءة المؤدية إلى السـير فى طريق الإيمان و التقوى، و لمحتوى سورة الأحقاف هذا الأثر حقّا إذا كان الإنسان طالب حقيقة و مستعدا للعمل و التطبيق.

و

جاء فى حـديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصـبه اللّه عزّ و جلّ بروعة فى الحياة الدنيا، و آمنه من فزع يوم القيامة إن شاء»[۲۱۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
حم (۱) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۲) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (۳)

التّفسير

خلق هذا العالم على أساس الحق:

هذه السورة هى آخر سورة تبدأ ب حم و تسمى جميعا الحواميم.
و قد كانت لنا بحوث كثيرة حول الحروف المتقطعة بعامة، و (حم) بخاصة، فى بدايات سور البقرة و آل عمران و الأعراف سور الحواميم السابقة، فلا حاجة لتكرارها هنا.
و نكتفى هنا بالقول بأنّ هذه الآيات التى تهزّ الأعماق، و تحرك الوجدان، و التى تضمنها القرآن الكريم بين دفتيه تتكون من حروف الهجاء البسيطة، من الألف و الباء، و الحاء و الميم و أمثالها، و كفى بها دليلا على عظمة اللّه سبحانه إذ أظهر هذا المركّب العظيم من مثل هذه المفردات البسيطة، و لو تأملنا فيه كثيرا، و فكرنا فى أسراره حتى القيامة فسيبقى فيه من الأسرار الخافية الكثير الكثير.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۲
و ربّما كان هذا هو السبب فى أن تضيف الآية مباشرة: تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ
إنّه نفس التعبير الذى ورد فى بداية ثلاث سور من الحواميم، و هى: المؤمن، و الجاثية، و الأحقاف.
و لا شكّ فى الحاجة إلى قوّة لا تقهر، و حكمة لا حد لها، لكى تنزل مثل هذا الكتاب.
ثمّ تحولت الآيات من كتاب التدوين إلى كتاب التكوين، فتحدثت الآية عن عظمة السماوات و الأرض و كونهما حقا، فقالت: ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِ فلا ترى فى كتاب سمائه كلمة تخالف الحق، و لا تجد فى مجموع عالم خلقه شيئا نشازا لا ينسجم و الحق، فالكل منسق منتظم، و كله مقترن بالحق.
لكن، كما أنّ لهذا الكون بداية، فإنّ له نهاية أيضا، و لذلك تضيف الآية: وَ أَجَلٍ مُسَمًّى فإذا حل الأجل ستفنى الدنيا بما فيها، و لما كان هذا العالم مقترنا بالحق و يسير ضمن منهجه، و له هدف مرجو، فمن الطبيعى أن يوجد عالم آخر تبحث فيه الأعمال و تعلن فيه النتائج، و بناء على هذا، فإنّ كون هذا العالم حقّا دليل بنفسه على وجود المعاد، و إلّا فإنّه سيكون لغوا و عبثا لا فائدة فيه، و سيقترن حين ذلك بكثير من المظالم و المفاسد.
لكن مع أنّ القرآن حق، و خلق العالم حق أيضا: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ فالآيات القرآنية تهددهم و تنذرهم بصورة متلاحقة متوالية، و تحذرهم بأن محكمة عظمى أمامهم، هذا من جانب، و من جانب آخر فإنّ نظام الخلقة بدقته و أنظمته الخاصّة يدل بنفسه على أنّ فى الأمر حسابا و نظاما، غير أنّ هؤلاء الغافلين لم يلتفتوا لا إلى هذا و لا إلى ذلك.
كلمة «معرضون»- من الإعراض- تشير إلى أنّ هؤلاء إذا نظروا إلى آيات
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۳

التكوين و التدوين فسيدركون الحقائق، إلّا أنّهم أعرضوا بوجوههم عنها، و فروا من الحق لئلا يغير من أسلوب تقاليدهم و أهوائهم و ميولهم و شهواتهم و إتباعهم لها.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۴

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴) وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ (۵) وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (۶)

التّفسير

أضل الناس:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن خلق السماوات و الأرض و أنّها جميعا من صنع اللّه العزيز الحكيم، و لازم ذلك أن لا يكون فى الكون إله سواه، لأنّ من له أهلية الألوهية هو خالق العالم و مدبره، و هاتان الصفتان قد جمعتا فى الذات المقدسة.

و من أجل تكملة هذا البحث، تخاطب هذه الآيات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول: قُلْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۵

أَ رَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ

إذا كنتم تقرون بأنّ الأصنام لا دخل لها فى خلق الموجودات الأرضية مطلقا، و لا فى خلق الشمس و القمر و النجوم و موجودات العالم العلوى، و تقولون بصراحة بأن اللّه هو خالقها جميعا[۲۱۶]، فعلام تمدون أكفكم إلى الأصنام التى لا تضرّ و لا تنفع، و لا تسمع و لا تعقل، تستمدون منها العون فى حلّ معضلاتكم، و دفع البلاء عنكم، و استجلاب البركات إليكم؟

و إذا قلتم- على سبيل الفرض- إنّها شريكة فى أمر الخلق و التكوين ف ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و خلاصة القول، فإنّ الدليل إمّا أن يكون نقليا عن طريق الوحى السماوى، أو عقليا منطقيا، أو بشهادة العلماء و تقريرهم، أمّا أنتم فلستم مستندين إلى الوحى و الكتاب السماوى فى دعواكم حول الأصنام، و غير قادرين من طريق العقل على إثبات اشتراكها فى خلق السماوات و الأرض و بالتالى إثبات كونها آلهة، و لم يرد أثر من أقوال العلماء الماضين ما يؤيد رأيكم و يدعم اعتقادكم، و من هنا يتبيّن أنّ دينكم و معتقدكم لا يعدو كونه حفنة من الخرافات المستهجنة، و الأوهام الكاذبة.

بناء على هذا، فإنّ جملة أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ... إشارة إلى دليل العقل، و جملة ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا إشارة إلى الوحى السماوى، و التعبير ب أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إشارة إلى سنن الأنبياء الماضين و أوصيائهم، أو آثار العلماء السابقين ۲۱۷]. و قد ذكر علماء اللغة و المفسّرون عدّة معان لكلمة «أثارة»- على وزن حلاوة- فمنها: بقية الشىء، الرواية، العلامة. لكنّ الظاهر أنّها تعود إلى معنى واحد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۶

و هو الأثر الذى يبقى من الشىء و يدل على وجوده.

و قد وردت مثل هذه المناظرة و المحاكمة مع الوثنيين فى الآية (۴۰) من سورة فاطر، حيث تقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً.

و ممّا يلفت النظر أنّه يقول فى مورد الأرض: ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أمّا فى مورد السماء فيقول: أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أى إنّ الكلام فى الموردين عن الاشتراك، لأنّ الشرك فى العبادة يجب أن ينشأ من الشرك فى الخالقية و تدبير النشأة.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إذا كان المشركون يعتقدون- عادة- أنّ أمر الخلق مختص باللّه سبحانه، فلما ذا يطالبون بأحد هذه الأدلة الثالثة؟

و يمكن الإجابة بأنّ هذه المطالبة موجهة إلى فئة قليلة بين عبدة الأوثان، يحتمل أنّهم كانوا يقولون باشتراك الأصنام فى الخلق، أو أنّها طرحت على سبيل الفرض، أى إنّكم إذا ظننتم يوما أنّ الأصنام شريكة فى خلق العالم، فاعلموا أن لا دليل لكم على ذلك، لا من النقل و لا من العقل.

بعد ذلك تبيّن الآية التالية عمق ضلالة هؤلاء المشركين و انحرافهم، فتقول:

وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ و لا يقف الأمر عند عدم إجابتهم و حسب، بل إنّهم لا يسمعون كلامهم: وَ هُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ

و يرى بعض المفسّرين أنّ مرجع الضمير فى هذه الآية إلى الأصنام الجامدة الميتة، باعتبار أنّ أكثر آلهة مشركى العرب كانت الأصنام.

و اعتبره البعض إشارة إلى الملائكة و البشر الذين عبدوا من دون اللّه، لأنّ عبدة الملائكة و الجن لم يكونوا قلّة بين العرب، و التعبيرات المختلفة لهذه الآية، و المتناسبة مع ذوى العقول تؤيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۷

هذا المعنى.

لكن لا مانع من أن نفسر الآية بمعناها الواسع، فتدخل فيه كلّ هذه المعبودات، سواء الحية و الميتة، العاقلة و غير العاقلة، فتكون التعابير متناسبة مع ذوى العقول من باب التغليب.

و عند ما تقول الآية: إنّهم لا يجيبونهم إلى يوم القيامة، فإنّ ذلك لا يعنى أنّهم سيجيبونهم يوم القيامة- ما ظن البعض ذلك- بل إنّ هذا التعبير متداول فى النفى المؤيد، كما نقول مثلا: لو أصررت على فلان إلى يوم القيامة لما أقرضك، أى أنّه سوف لا يقوم بها العمل أبدا، لا أنّه سيلبى طلبك فى يوم القيامة.

و سبب ذلك معلوم أيضا، لأنّ كلّ سعى و جهد و تلبية طلب و قضاء حاجة نافع فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتهت انتهى معها إمكان القيام بكلّ هذه الأعمال.

و الأشد أسفا من ذلك أنّه: وَ إِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَ كانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ

أمّا المعبودات من العقلاء، فإنّهم سيهبون لإظهار عدائهم لهؤلاء الضالين، فالمسيح عليه السّلام يظهر اشمئزازه و تنفره من عابديه، و تتبرأ الملائكة منهم، بل و حتى الشياطين و الجن تظهر عدم رضاها. و أمّا المعبودات التى لا عقل لها و لا حياة، فإنّ اللّه سبحانه سمحها العقل و الحياة لتنطق بالبراءة من هؤلاء العبدة و تبدى غضبها عليهم.

لقد ورد نظير هذا المعنى فى آيات القرآن الأخرى، و من جملتها الآية (۱۴ من سورة فاطر، حيث تقول: إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ. و كررت فى الآيات مورد البحث كلّ هذه المسائل بتفاوت يسير.

لكن كيف ينكر المعبودون عبادة عابديهم، و هى ممّا لا ينكر؟

ربّما كان ذلك إشارة إلى أنّهم كانوا يعبدون أهواءهم فى الحقيقة، و لم يكونوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۸

يعبدون تلك الآلهة، لأنّ أساس الوثنية عبادة الهوى.

و هنا نكتة تستحق الانتباه، و هى: إنّ عداء المعبودين لعبدتهم يوم القيامة لم يرد التأكيد عليه هنا فقط، بل نقرأ ذلك أيضا فى الآية (۲۵) من سورة العنكبوت على لسان إبراهيم عليه السّلام بطل التوحيد و محطم الأصنام إذ يقول: وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

و جاء فى الآية (۸۲) من سورة مريم: كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۴۹

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۷) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۸) قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ كَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰)

التّفسير

لم أكن أوّل نبىّ!!

يستمر الحديث فى هذه الآيات عن حال المشركين، و كيفية تعاملهم مع آيات اللّه، فتقول: وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۰

سِحْرٌ مُبِينٌ فهم لا يستطيعون إنكار نفوذ القرآن السريع فى القلوب، و جاذبيته التى لا تقاوم من جهة، و هم من جهة أخرى غير مستعدين لأن يخضعوا أمام عظمته و كونه حقّا، و لذلك فإنّهم يفسّرون هذا النفوذ القوى بتفسير خاطئ منحرف و يقولون: إنّه سحر مبين، و هذا القول- بحدّ ذاته- اعتراف ضمنى واضح بتأثير القرآن الخارق فى قلوب البشر.

بناء على هذا فإنّ «الحق»- فى الآية المذكورة- إشارة إلى آيات القرآن، و إن كان البعض قد فسّرها بالنبوّة، أو الإسلام، أو معجزات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الأخرى، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب بملاحظة بداية الآية.

غير أنّ هؤلاء لم يكتفوا بإطلاق هذه التهمة و إلصاقها به، بل إنّهم تمادوا فخطوا خطوة أوسع، و أكثر صراحة: أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ

إنّ اللّه سبحانه يأمر نبيّه هنا بأن يجيبهم بجواب قاطع، و يعطيهم البرهان الجلى بأنّه قل لهم إذا كان كذلك فاللازم أن يفضحنى و لا تستطيعون الدفاع عنّى مقابل عقابه: قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً[۲۱۸] فكيف يمكن أن يظهر اللّه سبحانه هذه الآيات

البينات و المعجزة الخالدة على يد كذّاب؟ إنّ هذا بعيد عن حكمة اللّه و لطفه.

و هـذا كما ورد فى الآيات (۴۴)- (۴۷) من سورة الحاقـة: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنـا بَعْضَ الْأَقاوِيـلِ لَأَخَـذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ

بناء على هذا، هل يمكن أن أقدم على مثل هذا العمل الخطير من أجلكم؟

و كيف تصدّقون أنّ بالإمكان أن أكذب مثل هذه الكذبة ثمّ يبقينى اللّه حيا، بل و يمنحنى معاجز أخر؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۱

ثمّ يضيف مهددا: هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ۲۱۹] و سيعاقبكم فى الوقت اللازم.

نعم، إنّه يعلم كـلّ مـا رميتمـونى به من التهم، و أنّكم وقفتم بوجه رسوله، و كنتم تصـدون النـاس عن الإيمـان بـالحق بنفثكم السـموم بينهم.

ثمّ يقول فى الجملـة التاليـة كتأكيـد أكبر مقترن بتعامل مؤدب جـدّا: كَفى بِهِ شَـهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ فهو يعلم صـدق دعوتى، و سـعيى و جهدى فى إبلاغ الرسالة، كما يعلم كذبكم و افتراءكم و العوائق التى تضعونها فى طريقى، و هذا كاف لى و لكم.

و من أجـل أن يـدلهم على طريـق الرجـوع إلى الحق، و يعلمهم بـأنّه مفتوح إن أرادوا العودة، يقول: وَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ فهو يعفو عن التائبين و يغفر لهم، و يدخلهم فى رحمته.

و يضيف فى الآية التالية: قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَ ما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

إنّ هـذه الجمل الوجيزة الغنية المحتوى تجيب عن كثير من إشـكالات المشـركين، و من جملتها أنّهم كانوا يتعجبون أحيانا- فى مسألة بعثة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- كيف يمكن أن يتصل إنسان باللّه و يرتبط به؟

و أحيانا كانوا يقولون: لماذا يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق؟

و تارة كانوا يطلبون معاجز عجيبة غريبة، و كان كلّ منهم يتمنى شيئا.

و كانوا يظنون أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مستودع لعلم الغيب، فيطلبون منه أن يخبرهم بكلّ حوادث المستقبل.

و أخيرا فإنّهم كانوا يعجبون أحيانا من دعوته لنبذ الآلهة و التوجّه إلى عبادة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۲

و توحيده.

و هذه الآية إشارة إجمالية إلى أجوبة جميع هذه الأسئلة، و قطع لكلّ تلك الأعذار الواهية.

يقول النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم أنـا لست أوّل نبىّ دعـا إلى التوحيـد، فقـد جـاء قبلى أنبيـاء كثيرون كلهم كانوا بشـرا، و كانوا يلبسون الثيـاب و يأكلون الطعام، و لم يـدّع أحـد منهم أنّه يعلم الغيب المطلق، بل كانوا يقولون: إنّنا نعلم من أمور الغيب ما يعلمنا اللّه إيّاه فقط.

و لم يستسلم أحد منهم أمام المعاجز التى كان يقترحها الناس، و التى كانت تقوم على أساس الرغبة و الميول.

كل ذلك ليعلم الجميع أنّ النّبى أيضا عبـد من عباد اللّه، و علمه و قـدرته محدودة بما يريده اللّه سـبحانه و يمنحه، فإنّ العلم المطلق و القدرة المطلقة للّه جلّ و علاء و حسب.

هذه الحقائق كان يجب على الناس أن يعلموها و يدركوها، لينتهوا من إشكالاتهم الجوفاء.

كل ذلك ورد بعـد البحث الـذى مرّ فى الآيات السابقـة، حيث كانوا يرمون النبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم بالسـحر مرّة، و بالافتراء أخرى، ليعلم أنّ منبع هذه الاتهامات و مصدرها هو تلك الأوهام التى أجيب عنها فى هذه الآية.

و من هنا يتّضـح أن مفاد هـذه الآية لا يتنافى مع الآيات الأخرى التى توحى بأنّ النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم يعلم الغيب، كالذى

ورد فی سورة الفتح حول فتح مکّة و دخول المسجد الحرام- الآیة ۲۷ من سورة الفتح- أو ما ورد فی شأن المسیح علیه السّلام حیث یقول: أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِكُمْ ۲۲۰]، و أمثال ذلک، لأنّ الآیة مورد البحث تنفی علم الغیب المطلق، لا مطلق علم الغیب، و بتعبیر آخر، فإنّ الآیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۳

تنفی علم الغیب الاستقلالی، أمّا تلک الآیات فتتحدث عن علم الغیب الذی ینال ببرکة التعلیم الإلهی.

و الشاهد علی هذا الکلام الآیتان (۲۶)- (۲۷) من سورة الجن: عالِمُ الْغَیْبِ فَلا یُظْهِرُ عَلی غَیْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضی مِنْ رَسُولٍ

و قد ذکر بعض المفسّرین سبب نزول للآیة مورد البحث، فقالوا: إنّ عبء المشاکل و ضغطها لما زاد علی أصحاب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی مکّة، رأی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی المنام أنّه یهاجر إلی أرض ذات نخیل و أشجار و ماء کثیر، فذکر ذلک لأصحابه، ففرحوا لذلک و ظنّوا أنّهم سیرون فرجا وسعة بعد أذی المشرکین، فصبروا مدّة فلم یروا أثرا لذلک، فقالوا: یا رسول اللّه، لم نر ما أخبرتنا به، فمتی سنهاجر إلی تلک الأرض التی رأیتها فی منامک؟ فسکت النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فنزلت هذه الآیة: وَ ما أَدْرِی ما یُفْعَلُ بِی وَ لا بِكُمْ ۲۲۱].

إلّا أنّ سبب النّزول هذا یبدو بعیدا، لأنّ المخاطبین فی هذه الآیات أعداء النّبی لا أصحابه، لکن یمکن أن یکون هذا من باب التطبیق، أی أنّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تمسّک بهذه الآیة و أجاب بها أصحابه حینما طرحوا هذا السؤال.

و تضیف آخر آیة من هذه الآیات، و لتکملة ما ورد فی الآیات السابقة: قُلْ أَ رَأَیْتُمْ إِنْ کانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ کَفَرْتُمْ بِهِ وَ شَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِی إِسْرائِیلَ عَلی مِثْلِهِ فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ ۲۲۲].

و للمفسّرین أقوال فی الشاهد من بنی إسرائیل الذی شهد علی کون القرآن المجید حقّا ...

قال البعض: إنّه موسی بن عمران علیه السّلام الذی أخبر فی عصره بظهور نبیّ الإسلام، و أعطی أوصافه و علاماته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۴

إلّا أنّ هذا الاحتمال غیر صحیح بملاحظة جملة: فَآمَنَ وَ اسْتَکْبَرْتُمْ التی توحی بأنّ هذا الشاهد من بنی إسرائیل قد آمن بنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی الوقت الذی استکبر فیه المشرکون و لم یؤمنوا، لأنّ ظاهر الجملة یوحی بأنّ هذا الشاهد کان موجودا فی عصر نبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و آمن به، بینما اختار الآخرون طریق الاستکبار و الکفر.

و قال آخرون: إنّه کان رجلا من علماء أهل الکتاب، کان یحیا فی مکّة. و مع أنّ أنصار الدین الیهودی و المسیحی کانوا قلة فی مکّة، لکن لا یعنی هذا أنّ أحدا منهم لم یکن فیها، و مع ذلک فلا یعرف من کان هذا العالم من بنی إسرائیل؟ و ما هو اسمه؟

و هذا التّفسیر باطل منهم أیضا لأنّه لم یکن هناک عالم معروف من أهل الکتاب فی مکّة فی عصر ظهور النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و لم تذکر التواریخ اسما له ۲۲۳].

طبعا، یمتاز هذا التّفسیر و الذی قبله بأنّهما ینسجمان مع کون کلّ سورة الأحقاف مکیة.

و التّفسیر الثّالث الذی ارتضاه أکثر المفسّرین، هو أنّ هذا الشاهد کان «عبد اللّه بن سلام» عالم الیهود المعروف، الذی آمن فی المدینة و التحق بصفوف المسلمین.

و

قد ورد- فی حدیث- أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم انطلق حتی دخل کنیسة الیهود یوم عیدهم، فکرهوا دخوله علیهم، فقال لهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «یا معشر الیهود أرونی اثنی عشر رجلا منکم یشهدون أن لا إله إلّا اللّه و أنّ محمّدا رسول اللّه، یحط اللّه عن کلّ یهودی تحت أدیم السماء الغضب الذی علیه» فسکتوا فما أجابه منهم أحد، ثمّ ردّ علیهم فلم یجبه أحد ثلاثا، فقال: «أبیتم، فو اللّه لأنا الحاشر، و أنا العاقب، و أن المقض، آمنتم أو کذبتم» ثمّ انصرف حتی کاد یخرج، فإذا رجل من خلفه، فقال: کما

أنت يا محمّد فأقبل، فقال ذلك الرجل: أى رجل تعلمونى فيكم يا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۵

معشر اليهود؟ فقالوا: و اللّه ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب اللّه و لا أفقه منك و لا من أبيك و لا من جدك، فقال: فإنّى أشهد باللّه إنّه النّبى الذى تجدونه مكتوبا فى التوراة و الإنجيل، قالوا: كذبت، ردوا عليه و قالوا شرّا، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «كذبتم، لن يقبل منكم قولكم»- و لم يكن هذا الرجل غير عبد اللّه بن سلام- فنزلت الآية:

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...[۲۲۴].

و طبقا لهذا التّفسير، فإنّ هذه الآية نزلت فى المدينة بالرغم من أنّ السورة مكيّة، و هذا ليس منحصرا بالآية مورد البحث، بل يلاحظ- أحيانا- فى سور القرآن الأخرى وجود آيات مكية فى طيات السور المدنية و بالعكس، و هذا يبيّن أنّ النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يأمر بوضع الآية مع ما يناسبها من مفاد السورة من دون الالتفات إلى تاريخ نزولها.

و يبدو من جهات عديدة أنّ هذا التّفسير هو الأنسب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۶

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (۱۱) وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (۱۲) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (۱۳) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون أسباب نزول عديدة للآية الأولى من هذه الآيات:

۱- إنّ هذه الآية نزلت فى «أبى ذر الغفارى» الذى أسلم فى مكّة، ثمّ تابعته فى الإيمان قبيلته- بنو غفار- و لما كانت قبيلة بنى غفار من سكان البادية و كانوا فقراء، قال كفار قريش- و كانوا أثرياء من أهل المدن-: لو كان الإسلام خيرا ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۷

سبقنا إليه غفار الحلفاء، فنزلت هذه الآية و أجابتهم.

۲- كانت فى مكّة جارية رومية يقال لها «زنيرة»[۲۲۵]، لبت دعوة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى الإسلام، فقال زعماء قريش: لو كان ما جاء به محمّد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة.

۳- إنّ جماعة من قبائل البوادى أسلموا قبل سكان مكّة، فقال أشراف مكّة: لو كان الإسلام خيرا ما سبقتنا إليه رعاة الإبل.

۴- إنّ جماعة من الرجال الطاهرين و الفقراء كبلال و صهيب و عمار، قد اعتنقوا الإسلام، فقال زعماء مكّة: أ يمكن أن يكون دين محمّد خيرا و يسبقنا إليه هؤلاء؟

۵- إنّ عبد اللّه بن سلام و جماعة من أصحابه لما آمنوا، قال جماعة من اليهود:

لو كان دين محمّد خيرا ما سبقونا إليه ۲۲۶].

و يمكن تلخيص أسباب النّزول الأربعة الأولى بالقول بأنّ الإسلام لاقى ترحيبا واسعا و امتدادا سريعا بين الطبقات الفقيرة و سكان البوادى، و ذلك لأنّهم لم يكونوا يمتلكون منافع غير مشروعة لتهدد بالخطر، و لم يكن الغرور قد ركبهم و ملأ عقولهم، و قلوبهم أطهر من قلوب المترفين و متبعى الشهوات و الرغبات.

لقد عدّ الإقبال الواسع على الإسلام من قبل هذه الفئة، و الذى كان يشكل أقوى نقاط هذا الدين، نقطة ضعف كبيرة من قبل المستكبرين فقالوا: أى دين هذا الذى يتبعه سكان البوادى و الفقراء و الحفاة و الجوارى و العبيد؟ إذا كان دينا مقبولا و معقولا فلا ينبغى أن يكون أتباعه من طبقة فقيرة واطئة اجتماعيا، و نتخلف نحن أعيان المجتمع و أشرافه عن اتباعه.

و الطريف أنّ نمط التفكير المنحرف هذا من أكثر أنماط التفكير رواجا اليوم بين الأثرياء و المترفين فيما يتعلّق بالدين، حيث يقولون: إنّ الدين ينفع الفقراء و الحفاة، و كلّ منهما ينفع صاحبه و ينسجم معه، و نحن فى مستوى أسمى منه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۸

و أعلى.

و قد أجاب القرآن هؤلاء جوابا شافيا كافيا سيتّضح فى تفسير هذه الآيات.

أمّا سبب النّزول الخامس الذى ذكر أعلاه، و القائل بأنّ المراد هو عبد اللّه بن سلام و أصحابه، فمع أنّه نقل عن أكثر المفسّرين على قول الطبرسى فى مجمع البيان، و القرطبى فى تفسيره، إلّا أنّه يبدو بعيدا من جهتين:

الأولى: إنّ التعبير ب الَّذِينَ كَفَرُوا بصورة مطلقة يستعمل عادة فى مورد المشركين، لا فى أهل الكتاب و اليهود و النصارى.

و الأخرى: إنّ عبد اللّه بن سلام لم يكن رجلا مجهولات أو ضعيف الشخصية بين اليهود ليقولوا فيه: إنّ الإسلام لو كان خيرا ما سبقنا هذا و أصحابه إليه.

***

التّفسير

شرط الإنتصار الإيمان و الاستقامة:

تستمر هذه الآيات فى تحليل أقوال المشركين و أفعالهم، ثمّ تقريعهم و ملامتهم بعد ذلك، فتشير أوّلا إلى ما نطق به هؤلاء من كلام بعيد عن المنطق السليم، مبنىّ على أساس الكبر و الغرور، فتقول: وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ ۲۲۷].

فما هؤلاء إلّا حفنة من الفقراء الحفاة من سكان القرى، و العبيد الذين لا حظ لهم من العلم و المعرفة إلّا القليل، فكيف يمكن أن يعلم هؤلاء الحق و أن يقبلوا عليه و نحن- أعيان المجتمع و أشرافه- فى غفلة عنه؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۵۹

لقد غفل هؤلاء عن أن العيب فيهم لا فى الإسلام، فلو لا حجب الكبر و الغرور الملقاة على قلوبهم و لولا أنّهم سكرى من خمرة المال و الجاه و المقام، و لو لا أنّ غرورهم و تكبرهم يمنعهم من التحقيق فى أمر هذا الدين، إذن لا نجذبوا بسرعة الى الإسلام كما انجذب الفقراء إليه.

و لذلك فإنّ الآية تجيبهم فى نهايتها بهذا التعبير اللطيف: وَ إِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۲۲۸] أى إنّ هؤلاء ما أرادوا أن يهتدوا بآيات القرآن، لا أن القصور فى قابلية القرآن على الهداية.

و التعبير ب «الإفك القديم» شبيه بتهمة أخرى حكيت عنهم فى آيات القرآن الأخرى، إذ قالوا: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۲۲۹].

جملة «سيقولون» بصيغة المضارع، تدل على أنّهم كانوا يرمون القرآن بهذه التهمة دائما، و كانوا يتخذون هذا الاتهام غطاء لعدم إيمانهم.

ثمّ تطرقت الآية إلى دليل آخر لإثبات كون القرآن حقا، و لنفى تهمة المشركين إذ كانوا يقولون: هذا إفك قديم، فقالت: إنّ من علامات صدق هذا الكتاب العظيم أنّ كتاب موسى الذى يعتبر إماما أى قدوة للناس و رحمة قد أخبر عن هذا النبى و صفاته. و هذا القرآن أيضا كتاب منسجم فى آياته و فيه العلائم المذكورة فى التوراة: وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً وَ هذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ و إذا كان الأمر كذلك، فكيف تقولون: هذا إفك قديم؟

لقد أكّد القرآن فى آياته مرارا على أنّه مصدق للتوراة و الإنجيل، أى إنّه يتفق مع العلامات و الصفات التى وردت فى هذين الكتابين السماويين حول نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قد كانت هذه العلامات دقيقة إلى الحد الذى يقول القرآن الكريم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۰

الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ۲۳۰].

و قد ورد نظير معنى الآية مورد البحث فى الآية (۱۷) من سورة هود: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ

و التعبير ب إِماماً وَ رَحْمَةً يحتمل أن يكون من جهة أن ذكر الإمام يستدعى أحيانا أن تخطر فى الذهن مسألة التكليف الشاق الصعب، نتيجة الذكريات التى كانت لديهم عن أئمتهم، إلّا أنّ ذكر الرحمة يبدل هذا الخطور الذهنى إلى ما يبعث على الاطمئنان، فهو يقول: إنّ هذا الإمام توأم الرحمة و مقترن بها، فحتى إذا أتاكم بالتكاليف و الأوامر فهى رحمة أيضا، و أى رحمة أعم و أسمى من تربية نفوس هؤلاء القوم؟! ثمّ تضيف بعد ذلك: لِساناً عَرَبِيًّا يفهمه الجميع و يستفيدون منه.

ثمّ تبيّن فى النهاية الهدف الرئيسى من نزول القرآن فى جملتين قصيرتين، فتقول: لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ بُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ و إذا لا حظنا أنّ جملة (ينذر) مضارعة تدل على الاستمرار و الدوام، فسيتّضح أنّ إنذار القرآن كبشارته دائمى مستمر، فهو يحذر الظالمين و المجرمين على مدى التأريخ و يخوفهم و ينذرهم، و يبشر المحسنين على الدوام.

و ممّا يلفت النظر أنّ الآية جعلت الظالمين فى مقابل المحسنين لأنّ للظلم هنا معنى واسعا يشمل كلّ إساءة و مخالفة، و من الطبيعى أنّ الظلم إمّا بحق الآخرين أو بحق النفس.

و الآية التالية تفسير للمحسنين الذين ورد ذكرهم فى الآية التى قبلها، فتقول:

إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ ۲۳۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۱

لقد جمعت فى الواقع كلّ مراتب الإيمان، و كلّ الأعمال الصالحة فى هاتين الجملتين، لأنّ التوحيد أساس كلّ المعتقدات الصحيحة، و كلّ أصول العقائد ترجع الى أصل التوحيد. كما أنّ الاستقامة و الصبر و التحمل و الصمود أساس كلّ الأعمال الصالحة، لأنّا نعلم أنّه يمكن تلخيص كلّ أعمال الخير فى ثلاثة: «الصبر على الطاعة»، و «الصبر عن المعصية»، و «الصبر على المصيبة».

و بناء على هذا، فإنّ «المحسنين» هم السائرون على خط التوحيد من الناحية العقائدية، و فى خط الاستقامة و الصبر من الناحية العملية.

و من البديهى أنّ أمثال هؤلاء الأفراد لا يخافون من حوادث المستقبل، و لا يغتمون لما مضى.

و قد ورد نظير هذا المعنى- بتوضيح أكثر- فى الآية (۳۰) من سورة فصلت حيث تقول: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

إنّ هذه الآية تضيف شيئين:

الأوّل: أنّهم بشروا بعدم الخوف و الحزن من قبل الملائكة، فى حين سكتت الآية مورد البحث عن هذا.

و الثّانى: أنّه إضافة إلى نفى الخوف و الحزن عنهم، فقد وردت البشارة بالجنّة أيضا فى آية سورة فصلت، فى حين أنّ هذه البشارة وردت فى الآية اللاحقة فى محل كلامنا.

و على أية حال، فإنّ الآيتين تبحثان مطلقا واحدا، غايته أن أحداهما أكثر تفصيلا من الأخرى.

و نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم فى تفسير جملة: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا قال: استقاموا على ولاية على أمير المؤمنين عليه السّلام. و ذلك أنّ إدامة خط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۲

أمير المؤمنين عليه السّلام فى جوانب العلم و العمل، و العدالة و التقوى، و خاصّة فى العصور المظلمة الحالكة، أمر لا يمكن تحققه بدون الاستقامة، و بناء على هذا فإنّه يعد أحد مصاديق الواضحة للآية مورد البحث، لا أنّ معناها منحصر به، بحيث لا تشمل الاستقامة فى الجهاد و طاعة اللّه سبحانه، و محاربة هوى النفس و الشيطان.

و قد أوردنا شرحا مفصلا حول مسألة الاستقامة فى ذيل الآية (۳۰) من سورة فصلت ۲۳۲].

و تبشر آخر آية من هذه الآيات الموحدين المحسنين بأهم بشارة و أثمنها، فتقول: أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

إنّ ظاهر الآية يعطى مفهوم الحصر، كما استفاد ذلك البعض، أى أنّ أصحاب الجنّة هم أهل التوحيد و الاستقامة فقط، أمّا الذين ارتكبوا المعاصى منهم، فإنّهم و إن كانوا فى النتيجة من أصحاب الجنّة، إلّا أنّهم ليسوا من أصحابها منذ بداية الأمر.

التعبير ب «الأصحاب» إشارة إلى اجتماعهم الدائم و تنعمهم الخالد بنعم الجنّة.

و تعبير: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ يدل من جهة على أنّ الجنّة لا تمنح مجانا، بل إنّ لها تمنا يجب أن يؤدى، و يشير من جهة أخرى إلى أصل حرية الإنسان و اختياره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۱۵ الى ۱۶]

اشارة

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۱۵) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (۱۶)

التّفسير

أيّها الإنسان أحسن إلى والديك:

هذه الآيات و التى تليها، توضيح- فى الحقيقة- لما يتعلق بالفريقين: الظالم و المحسن، اللذين أشير إليهما إجمالا فى الآيات السابقة.

و تتناول الآية الأولى وضع المحسنين، و تبدأ بمسألة الإحسان إلى الوالدين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۴

و شكر جهودهم و أتعابهم التى بذلوها، و الذى يعتبر مقدمة لشكر اللّه سبحانه، فتقول: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً[۲۳۳].

«الوصية» و «التوصية» بمعنى مطلق الوصية، و لا ينحصر معناها بالوصايا بما بعد الموت، و لذلك فسّرها جماعة هنا بأنّها الأمر و التشريع.

ثمّ تطرّقت إلى سبب وجوب معرفة حقّ الأمّ، فقالت: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَ وَضَعَتْهُ كُرْهاً وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً تضحى خلالها الأم أعظم التضحيات، و تؤثر ولدها على نفسها أيّما إيثار.

إنّ حالة الأم تختلف منذ الأيّام الأولى لانعقاد النطفة، فتتوالى عليها الصعوبات، و هناك حالة تسمى حالة (الوحام) هى أصعب الحالات التى تواجهها الأم، و يقول الأطباء عنها: إنّها تنشأ نتيجة قلّة المواد التى تحدث فى جسم الأم نتيجة إيثارها ولدها على نفسها.

و كلما تكامل نمو الجنين امتص موادا أكثر من عصارة روح الأم و جسدها، تترك أثرها على عظامها و أعصابها، فيسلبها أحيانا نومها و غذاءها و راحتها و هدوأها، أمّا فى آخر فترة الحمل فيصعب عليها حتى المشى و الجلوس و القيام، إلّا أنّها تتحمل كلّ هذه المصاعب بصبر و رحابة صدر و عشق للوليد الذى سيفتح عينيه على الدنيا عمّا قريب، و يبتسم بوجه أمّه.

و تحل فترة وضع الحمل، و هى من أعسر لحظات حياة الأم، حتى أنّ الأم أحيانا تبذل نفسها و حياتها من أجل سلامة الوليد.

على كلّ حال، تضع الأم حملها الثقيل لتبدأ مرحلة صعبة أخرى، مرحلة مراقبة الطفل المستمرة ليل نهار ... مرحلة يجب أن تلبى فيها كلّ احتياجات الطفل الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۵

ليست لديه أية قدرة على بيانها و توضيحها، فإن آلمه شىء لا يقوى على تعيين محل الألم، و إذا كان يشكو من الجوع و العطش، و الحر و البرد، فهو عاجز عن التعبير عن شكواه، إلّا بالصراخ و الدموع، و يجب على الأم أن تحدد كلّ واحدة من هذه الاحتياجات و تؤمنها بتفحصها و صبرها و طول أناتها.

إنّ نظافة الوليد فى هذه المرحلة مشكلة مضنية، و تأمين غذائه الذى يستخلص من عصارة الأم، إيثار كبير.

و الأمراض المختلفة التى تصيب الطفل فى هذه المرحلة، مشكلة أخرى يجب على الأم أن تتحملها بصبرها الخارق.

إنّ القرآن الكريم عند ما تحدّث عن مصاعب الأم هنا، و لم يورد شيئا عن الأب، لا لأنّه لا أهمية للأب، فهو يشارك الأم فى كثير من هذه المشاكل، بل لأنّ سهم الأم من المصاعب أوفر، فلهذا أكّد عليها.

و هنا يطرح سؤال، و هو: إنّ فترة الرضاع ذكرت فى الآية (۲۳۳) من سورة البقرة على أنّها سنتان كاملتان- ۲۴- شهرا-: وَ الْوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ فى حين أنّ الآية مورد البحث قد ذكرت أنّ مجموع فترة الحمل و الرضاع ثلاثون شهرا، فهل من الممكن أن تكون مدّة الحمل ستّة أشهر؟

لقد أجاب الفقهاء و المفسّرون، عن هذا السؤال- استلهاما من الرّوايات الإسلامية- بالإيجاب و قالوا: إنّ أقل مدّة الحمل ستة أشهر، و أكثر مدّة تفيد فى الرضاع (۲۴) شهرا، حتى نقل عن جماعة من الأطباء القدامى كجالينوس و ابن سينا أنّهم قالوا: إنّهم كانوا قد شاهدوا بأمّ أعينهم وليدا ولد ستة أشهر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۲۶۵

ّ إنّه يمكن أن يستفاد من هذا التعبير القرآنى أنّه كلما قصرت فترة الحمل يجب أن تطول فترة الرضاع بحيث يكون المجموع (۳۰) شهرا.

و قد نقل عن ابن عباس أنّ فترة الحمل إن كانت (۹) أشهر فيجب أن يرضع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۶

الولد (۲۱) شهرا، و إن كان الحمل ستة أشهر وجب أن يرضع الطفل (۲۴) شهرا.

و القانون الطبيعى يوجب ذلك أيضا. لأنّ نواقص فترة الحمل يجب أن تجبر بفترة الرضاع.

ثمّ تضيف الآية: إنّ حياة هذا الإنسان تستمر حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً[۲۳۴].

يعتقد بعض المفسّرين أنّ بلوغ الأشد منسجم مع بلوغ الأربعين سنة، و هو للتأكيد، إلّا أنّ ظاهر الآية هو أنّ بلوغ الأشد إشارة إلى البلوغ الجسمى، و بلوغ الأربعين سنة إشارة إلى البلوغ الفكرى و العقلى، لأنّ من المعروف أنّ الإنسان يصل إلى مرحلة الكمال العقلى فى سن الأربعين غالبا، و قالوا: إنّ أغلب الأنبياء قد بعثوا فى سن الأربعين.

ثمّ إنّ هناك بحثا فى أنّ بلوغ القدرة الجسمية فى أى سن يتم؟ فالبعض يعتبره سن البلوغ المعروف، و الذى أشير إليه فى الآية (۳۴) من سورة الإسراء فى شأن اليتامى، فى حين صرّحت بعض الروايات بأنّه سن الثامنة عشرة عاما.

طبعا، لا مانع من أن يعطى هذا التعبير معانى مختلفة فى موارد مختلفة تتّضح من خلال القرائن.

و

قد ورد فى حديث: «إنّ الشيطان يمر يده على وجه من زاد على الأربعين و لم يتب، و يقول: بأبى وجه لا يفلح»[۲۳۵].

و نقل عن ابن عباس: من أتى عليه الأربعون سنة فلم يغلب خيره شرّه، فليتجهز إلى النّار.

و على أى حال، فإنّ القرآن الكريم يضيف فى متابعة هذا الحديث: إنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۷

العاقل المؤمن إذا بلغ سن الأربعين، يطلب من ربّه ثلاث طلبات، فيقول أولا:

قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَىَ ۲۳۶].

إنّ هذا التعبير يوحى بأنّ الإنسان يدرك فى هذه السن عمق نعم اللّه سبحانه وسعتها، و كذلك يدرك ما تحمله أبواه من الجهود المضنية حتى بلغ هذا المقدار من العمر، و ذلك لأنّه غالبا ما يصبح فى هذا العمر أبا إن كان ذكرا، و أمّا إن كانت أنثى، و يرى بأم عينه كلّ تلك الجهود التى بذلت من أجله، و مدى الإيثار الذى آثره أبواه فى سبيله، و شكرا لسعيهما يتوجّه لا إراديا لشكر اللّه سبحانه.

أمّا طلبه الثّانى فهو: وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ

و أخيرا يقدم طلبه الأخير فيقول: وَ أَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِى

إنّ التعبير ب (لى) يشير ضمنية إشارة إلى أنّه يرجو أن يكون أولاده فى وضع من الصلاح و الخير بحيث تعود نتائجه و حسناته عليه.

و التعبير ب (فى ذريتى) بصورة مطلقة، يشير الى استمرار الخير و الصلاح فى كلّ نسله و ذريته.

و الطريف أنّه يشرك أبويه فى دعائه الأوّل، و أولاده فى الدعاء الثالث، أمّا الدعاء الثّانى فيخص نفسه به، و هكذا يكون الإنسان الصالح، فإنّه إذا نظر إلى نفسه بعين، ينظر بالأخرى إلى الآخرين الذين تفضلوا عليه و لهم حق فى رقبته.

و تبيّن الآية فى نهايتها مطلبين، كلّ منهما تبيان لبرنامج عملى مؤثر، فتقول:

إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ فقد بلغت مرحلة يجب أن أعين فيها مسير حياتى، و أسير فى ذلك الخط ما حييت.

نعم، لقد بلغت الأربعين، و يقبح بعبد مثلى أن يأتيك و لم يغسل نفسه بماء التوبة، و لم يطهرها بالعودة إلى طريق ربّه و يقرع باب رحمته.

و الآخر: وَ إِنِّى مِنَ الْمُسْلِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۸

إنّ هاتين الجملتين تأكيد لتلك الأدعية الثلاثة و مترتبة عليها، و معناهما: بما إنّى تبت إليك، و أسلمت لأوامرك، فأنت أيضا منّ علىّ

برحمتك، و اشملنى بنعمك و فضلك.

و الآيـة التاليـة، بيـان بليغ لأجر هؤلاء المؤمنين الشاكرين و ثوابهم، و قـد أشارت إلى مكافآت مهمّـة ثلاث، فقالت أوّلا: أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا.

أى بشارة أعظم من أن يتقبل اللّه القادر المنان عمل عبـد ضـعيف لا قـدر له، و هذا القبول بحدّ ذاته، و بغض النظر عن آثاره الأخرى، فخر عظيم، و موهبة معنوية عالية.

إنّ اللّه سبحانه يتقبل كلّ الأعمال الصالحة، فلما ذا يقول هنا: نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا؟

و فى معرض الإجابـة على هذا السؤال، قال جمع من المفسّـرين: إنّ المراد من أحسن الأعمال: الواجبات و المسـتحبات التى تكون فى مقابل المباحات التى هى أعمال حسنة لكنّها لا تقع موقع القبول، و لا يتعلق بها أجر و ثواب ۲۳۷].

و الجواب الآخر: إنّ اللّه سـبحانه يجعل أحسن أعمال هؤلاء معيارا للقبول، و حتى أعمالهم التى تأتى فى مرتبـة أدنى من الأهميـة، فإنّه يجعلها كأحسن الأعمال بفضـله و رحمته. إنّ هـذا يشـبه تماما أن يعرض بائع أجناسا مختلفـة بأسـعار متفاوتـة، إلّا أنّ المشترى يشتريها جميعا بثمن أعلاها و أفضلها تكرما منه و فضلا، و مهما قيل فى لطف اللّه و فضله فليس عجبا.

و الهبة الثّانية هى تطهيرهم، فتقول: وَ نَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ

و الموهبة الثّالثة هى أنّهم فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ[۲۳۸]، فيطهرون من الهفوات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۶۹

كانت منهم، و يكونون فى جوار الصالحين المطهرين المقربين عند اللّه سبحانه.

و يسـتفاد بصورة ضـمنية من هـذا التعبير أنّ المراد من أَصْحابِ الْجَنَّةِ هنـا العبـاد المقرّبون الـذين لم يصـبهم غبار المعاصـى، و هؤلاء المؤمنون التائبون يكونون فى مصافهم بعد أن ينالوا غفران اللّه و رضاه.

و تضـيف الآيـة فى نهايتها- كتأكيـد على هـذه النعم التى مرّ ذكرها- وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ ۲۳۹] و كيف لا- يكون وعد صدق فى حين أنّ خلف الوعد أمّا أن يكون عن ندم أو جهل، أم عن ضعف و عجز، و اللّه سبحانه منزه عن هذه الأمور جميعا.

***

ملاحظات

۱- إنّ هذه الآيات تجسـيد للإنسان المؤمن من أصحاب الجنّة، الذى يطوى أوّلا مرحلة الكمال الجسمى، ثمّ مرحلة الكمال العقلى، ثمّ يصل إلى مقام شـكر نعم اللّه تعالى، و شـكر متاعب والـديه، و التوبة عمّا بدر منه من هفوات و سـقطات و معاص، و يهتم أكثر بالقيام بالأعمال الصالحـة، و من جملتها تربيـة الأولاد، و أخيرا يرقى إلى مقام التسـليم المطلق للّه تعالى و لأوامره، و هـذا هو الـذى يغمره فى رحمة اللّه و مغفرته و نعمه المختلفة التى لا تحصى.

نعم، ينبغى أن يعرف أهل الجنّة من هذه الصفات.

۲- إنّ التعبير ب وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ إشارة إلى أنّ مسألة الإحسان إلى الوالدين من الأصول الإنسانية، ينجذب إليها و يقوم بها حتى أولئك الـذين لا يلتزمون بـدين أو مـذهب، و بناء على هـذا، فإنّ الـذين يعرضون عن أداء هذه الوظيفة، و يرفضون القيام بهذا الواجب، ليسوا مسلمين حقيقيين، بل لا يستحقون اسم الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۰

۳- إنّ التعبير ب «إحسانا» و بملاحظـة أنّ النكرة فى هذه الموارد لبيان عظمة الأمر و أهميته، و يشـير إلى أنّه يجب- بأمر اللّه سـبحانه- الإحسان إلى الأبوين إحسانا جميلا مقابلة لخدماتهم الجليلة التى أسدوها.

۴- لأنّ آلام و معاناة الأم فی طریق تربیة الطفل محسوسة و ملموسة أکثر، و لأنّ جهود الأم أکثر أهمیة إذا ما قورنت بجهود الأب، کان التأکید أکثر علی قدر الأم فی الرّوایات الإسلامیة.

فقد ورد فی حدیث أنّ رجلا أتی رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: من أبر؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أمّک»، قال: ثمّ من؟ قال: «أباک»[۲۴۰].

و

جاء فی حدیث آخر، أنّ رجلا کان قد حمل أمّه العجوز العاجزة، و کان یطوف بها، فأتی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و قال: هل أدیت حقّها: قال: «لا و لا بزفرة واحدة»[۲۴۱].

۵- لقد أولت الآیات القرآنیة العلاقات العائلیة، و احترام الأبوین و إکرامهم، و العنایة بتربیة الأولاد، اهتماما فائقا، و قد أشیر إلیها جمیعا فی الآیات المذکورة، و ذلک لأنّ المجتمع الإنسانی الکبیر یتکون من خلایا و تشکیلات أصغر تسمی العائلة، کما أنّ البنایة الضخمة تتکون من غرف، و هی بدورها من الطابوق و الحجر.

من البدیهی أنّه کلّما کانت هذه التقسیمات الصغیرة أکثر انسجاما و ترابطا، کان أساس المجتمع أقوی و أشد ثباتا، و أحد عوامل التمزق و الاختلال الاجتماعی فی المجتمعات الصناعیة فی عصرنا الحاضر هو انحلال نظام العائلة، فلا احترام من قبل الأولاد، و لا عطف من الآباء و الأمهات، و لا علاقة حب و حنان و عاطفة من الأزواج.

إنّ المشهد المؤلم لدور رعایة المسنین فی المجتمعات الصناعیة الیوم، و التی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۱

تحتضن العجزة من الآباء و الأمهات الذین طردوا من العائلة، شاهد معبر جدّا عن هذه الحقیقة المرّة.

فالرجال و النساء الذین صرفوا عمرا طویلا فی الخدمة لمنح المجتمع أبناء عدیدین، یطردون تماما فی الأیّام التی یکونون فیها بأشد الحاجة إلی عواطف الأبناء و محبتهم و معونتهم، و یبقون فی تلک الدور یعدون الأیّام فی انتظار لحظة الموت، و قد سمّروا أعینهم فی الباب بانتظار صدیق أو قریب یفتحها ... و لا تفتح علیهم إلّا مرّة أو مرّتین فی السنة! حقا، إنّ تصور مثل هذه الحالة ینغص علی الإنسان عیشه منذ البدایة، و هذا هو عرف دنیا المادة و التمدن و أسلوبها حینما یطرح منها الإیمان و الدین.

۶- إنّ جملة: وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ تبیّن أنّ العمل الصالح هو العمل الذی یبعث علی رضی اللّه سبحانه، و تعبیر: أَحْسَنَ ما عَمِلُوا و الذی ورد فی آیات عدیدة من القرآن المجید، یبیّن فضل اللّه الذی لا یحصی فی مقام مکافأة العباد و جزائهم، حیث یجعل أحسن أعمالهم معیارا لکلّ أعمالهم الحسنة فی الحساب.

و المثوبة.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۲

الآیات [سورة الأحقاف (۴۶): الآیات ۱۷ الی ۱۹]

اشارة

وَ الَّذِی قالَ لِوالِدَیْهِ أُفٍّ لَکُما أَ تَعِدانِنِی أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِی وَ هُما یَسْتَغِیثانِ اللَّهَ وَیْلَکَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَیَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِیرُ الْأَوَّلِینَ (۱۷) أُولئِکَ الَّذِینَ حَقَّ عَلَیْهِمُ الْقَوْلُ فِی أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ کانُوا خاسِرِینَ (۱۸) وَ لِکُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَ لِیُوَفِّیَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَ هُمْ لا یُظْلَمُونَ (۱۹)

التّفسير

مضيّعو حقوق الوالدين:

كان الكلام فى الآيات السابقة عن المؤمنين الذين سلكوا طريق القرب من اللّه، فبلغوا الغاية و وسعتهم رحمة اللّه، و كرمهم لطفه، و كلّ ذلك فى ظل الإيمان و العمل الصالح، و شكر نعم اللّه سبحانه، و الالتفات إلى حقوق الأبوين و الذرية و أدائها.

أمّا هذه الآيات، فيدور الكلام فيها عمّن يقفون فى الطرف المقابل، و هم الكافرون المنكرون للجميل و الحق، و العاقون لوالديهم، فتقول: وَ الَّذِى قالَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۳

لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَ تَعِدانِنِى أَنْ أُخْرَجَ وَ قَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى ۲۴۲].

إلّا أنّ أبويه المؤمنين لم يستسلما أمام هذا الولد العاق الضال، فتقول الآية:

وَ هُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ غير أنّه يأبى إلّا أن يسير فى طريق الضلالة و العناد الذى اختطه لنفسه، و لذلك نراه يجيبهما بكلّ تكبر و غرور و لا مبالاة: فَيَقُولُ ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ فما تقولانه عن المعاد و الحساب ليس إلّا خرافات و قصص كاذبة أتتكم من الماضين من قبلكم، و لست بالذى يعتقد بها و ينقاد لها.

إنّ الصفات التى يمكن أن تستخرج من هذه الآية حول هذه الفئة من الأبناء الضالين عدّة صفات: عدم احترام منزلة الأبوين، و الإساءة لهما، لأنّ (أف) فى الأصل تعنى كلّ شىء قذر، و هى تقال فى مقام التحقير و الإهانة[۲۴۳].

و قال البعض: إنّها تعنى الأقذار التى تجتمع تحت الأظافر، و هى قذرة ملوثة، و لا قيمة لها[۲۴۴].

و الصفة الأخرى هى أنّهم مضافا إلى عدم إيمانهم بيوم القيامة و البعث و الجزاء، فإنّهم يسخرون منه و يستهزئون به، و يعدونه من الأساطير و الأوهام الخرافية الباطلة.

و الصفة الأخرى أنّهم لا أذن سامعة لهم، و لا يذعنون للحق، و قد امتلأت نفوسهم بروح الغرور و الكبر و الأنانية.

نعم، فبالرغم من أن الأبوين الحريصين يبذلان قصارى جهودهما، و كلّ ما فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۴

وسعهما لإنقاذه من دوامة الجهل و الغفلة، لئلا يبتلى هذا الابن العزيز بعذاب اللّه الأليم، إلّا أنّه يأبى إلّا الاستمرار فى طريق غيه و كفره، و يصر على ذلك، و أخيرا يتركه أبواه و شأنه بعد اليأس منه.

و كما بيّنت الآيات السابقة ثواب المؤمنين العاملين للصالحات، فإنّ هذه الآيات تبيّن عاقبة أعمال الكافرين الضالين المتجرئين على اللّه، فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ ۲۴۵]، و أى خسارة أعظم من أنّهم خسروا كلّ رأس مال وجودهم إذا اشتروا به غضب اللّه عزّ و جلّ و سخطه.

و من خلال المقارنة بين هذين الفريقين- أصحاب النعيم و أصحاب الجحيم- فى هذه الآيات نقف على هذه الأمور:

إنّ أولئك يطوون مدارج رشدهم و كمالهم، فى حين أنّ هؤلاء فقدوا كلّ ما يملكون، فهم خاسرون.

أولئك يقدرون الجميل و يشكرونه حتى من أبويهم، و هؤلاء منكرون للجميل معتقدون لا أدب لهم حتى مع والديهم.

أولئك مع المقربين إلى اللّه فى الجنّة، و هؤلاء مع الكافرين فى النّار، فكلّ منهم يلتحق بأمثاله و من على شاكلته.

أولئك يتوبون من الهفوات التى تصدر عنهم، و يذعنون للحق، أمّا هؤلاء فهم قوم طغاة عتاة متمردون، أنانيّون و متكبرون.

و ممّا يستحق الالتفات أنّ هؤلاء المعاندين يستندون فى انحرافاتهم إلى وضع الأقوام الماضين و سيحشرون معهم إلى النّار أيضا.

أمّا الآية الأخيرة من هذه الآيات فإنّها تشير أوّلا إلى تفاوت درجات كلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۵

الفريقين، فتقول: وَ لِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا[۲۴۶] فليس كلّ أصحاب الجنّة أو أصحاب النّار فى درجة واحدة، بل إنّ لكلّ منهما درجات و مراتب تختلف باختلاف أعمالهم، و حسب خلوص نيّتهم و ميزان معرفتهم، و أصل العدالة هو الحاكم هنا تماما.

«الدرجات» جمع درجة، و تقال عادة للسلالم التى يصعد الإنسان بتسلقها إلى الأعلى، و «الدركات» جمع درك، و هى تقال للسلّم الذى ينزل منه الإنسان إلى الأسفل، و لذلك يقال فى شأن الجنّة: درجات، و فى شأن النّار: دركات، لكن لما كانت الآية مورد البحث قد تحدثت عنهما معا، و لأهمية مقام أصحاب الجنّة، ورد لفظ (الدرجات) للاثنين، و هو من باب التغليب ۲۴۷].

ثمّ تضيف الآية: وَ لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ و هذا التعبير إشارة أخرى إلى مسألة تجسم الأعمال، حيث أنّ أعمال ابن آدم ستكون معه هناك، فتكون أعماله الصالحة باعثا على الرحمة به و اطمئنانه، و أعماله الطالحة سببا للبلاء و العذاب الألم.

و تقول الآية أخيرا كتأكيد على ذلك: وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ لأنّهم سيرون أعمالهم و جزاءها، فكيف يمكن تصور الظلم و الجور؟

هذا إضافة إلى أنّ درجات هؤلاء و دركاتهم قد عيّنت بدقّة، حتى أنّ لأصغر الأعمال، حسنا كان أم قبيحا، أثره فى مصيرهم، و مع هذه الحال لا معنى للظلم حينئذ.

***

ملاحظة كيف حرّفت هذه الآية من قبل بنى أمية؟

ورد فى رواية أنّ «معاوية» أرسل رسالة إلى «مروان»- و إليه على المدينة-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۶

يأمره بأخذ البيعة من الناس لابنه يزيد، و كان «عبد الرحمن بن أبى بكر» حاضرا فى المجلس، فقال: يريد معاوية أن يجعل هذا الأمر هرقليا و كسرويا- ملكى الروم و فارس- إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مكانهم، و إن لم يكونوا أهلا لذلك، أو كانوا فساقا؟

فصاح مروان من على المنبر: صه، فأنت الذى نزلت فيه: وَ الَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما.

و كانت «عائشة» حاضرة، فقالت: كذبت، و إنّى لأعلم فيمن نزلت هذه الآية، و لو شئت لأخبرتك باسمه و نسبه، لكن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لعن أباك و أنت فى صلبه، فأنت فضض من لعنة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۴۸].

أجل ... و لقد كان ذنب عبد الرحمن عشقه و محبّته لأمير المؤمنين على عليه السّلام، و هو أمر كان يسوء بنى أمية كثيرا، هذا من جهة.

و من جهة أخرى فإنّه كان مخالفا لصيرورة الخلافة وراثية، و تبديلها إلى سلطنة، و كان يعتبر أخذ البيعة ليزيد نوعا من الانحراف نحو الكسروية و الهرقلية، و لذلك أصبح غرضا لأعداء الإسلام الألداء، أى آل أميّة، فحرّفوا آيات القرآن فيه.

و كم هو مناسب الجواب الذى أجابت به عائشة مروان بأنّ اللّه سبحانه لعن أباك إذ كنت خلفه، و هو إشارة إلى الآية (۶۰) من سورة الإسراء حيث تقول:

وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۲۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۷

الآية [سورة الأحقاف (۴۶): آية ۲۰]

اشارة

وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (۲۰)

التّفسير

الزهد و الادخار للآخرة:

تستمر هذه الآية فى البحث حول عقوبة الكافرين و المجرمين، و تذكر جانبا من أنواع العذاب الجسمى و الروحى الذى سينال هؤلاء، فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ...[۲۵۰].

نعم، فقد كنتم غارقين فى الشهوات، و لم تكونوا تعرفون شيئا إلّا التمتع بطيّبات هذا العالم و نعمه المادية، و من أجل أن تكونوا متحللين من كلّ القيود فى هذا المجال، أنكرتم المعاد لتطلقوا لأنفسكم العنان، و سخرتم هذه المواهب من أجل إنزال كلّ أنواع الظلم و الجور بحق الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۸

فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ فاليوم ترون جزاء كلّ ذلك التمتع الباطل، و اتباع الشهوات الأعمى، و عبادة الهوى، و الاستكبار و الفسق و الفجور و تذوقون العذاب المذل و المهين بسبب تلكم الأعمال.

***

بحوث

۱- تقول هذه الآية: إنّ الكفار يعرضون على النّار فى القيامة، و قد ورد نظير هذا فى الآية (۴۶) من سورة المؤمنين حول عذاب الفراعنة فى البرزخ، إذ تقول:

النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَ عَشِيًّا فى حين أنّنا نقرأ فى بعض آيات القرآن الأخرى أنّ جهنّم تعرض على الكافرين: وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً[۲۵۱].

لذلك قال بعض المفسّرين: إنّ فى القيامة نوعين من العرض: فقبل الحساب تعرض جهنّم على المجرمين ليملأ وجودهم الخوف و الهلع، و هذا بحدّ ذاته عقاب و عذاب نفسى، و بعد الحساب و إلقائهم فى جهنّم يعرضونهم على عذاب اللّه ۲۵۲].

و قال البعض: إنّ فى العبارة نوع قلب، و إنّ المراد من عرض الكفار على النّار هو عرض النّار على الكافرين، إذ لا عقل و لا إدراك للنار حتى يعرض عليها الكافرون، فى حين أنّ العرض يتم فى الموارد التى يكون المعروض عليه فيها ذا شعور و إدراك.

لكن لا يمكن أن يرد على هذا الجواب بأنّ بعض الآيات ذكرت وجود إدراك و شعور لدى النّار، حتى أنّ اللّه سبحانه يخاطبها و تجيب، فيقول سبحانه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۷۹

هَلِ امْتَلَأْتِ فتقول: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ[۲۵۳].

و الحق أنّ حقيقة العرض هى رفع الموانع بين شيئين حتى يتقابلا و يكونا وجها لوجه، و كذا الحال بالنسبة إلى الكافرين و النّار، فإنّ الحواجز ترفع من بينهما، فيمكن القول فى هذه الصورة: إنّ الكافرين يعرضون على النّار، كما تعرض عليهم، و كلا التعبيرين صحيح.

و على أيـة حال، فلا حاجـة لأن نعتبر العرض بمعنى الـدخول فى النّار كما ذكره «الطبرسـى» فى مجمع البيان، بل إنّ هـذا العرض بحدّ ذاته نوع من العـذاب الأـليم المرعب، حيث يرى الكـافرون بأعينهم كلّ أقسام جهنّم من الخارج قبل أن يردوها، و ليشاهـدوا مصـيرهم المشؤوم و يتعذّبوا و يتألموا له.

۲- إنّ جملة: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ تعنى التمتع بلذائذ الدنيا، و التعبير ب «أذهبتم» لأنّ هذه اللذائذ و النعم تفنى بالتمتع بها و استهلاكها.

و من المسلّم أنّ التمتع بمواهب اللّه و نعمه فى هـذه الدنيا ليس أمرا مذموما قبيحا، بل المذموم هو الغرق فى اللذات المادية، و نسـيان ذكر اللّه و القيامة، أو التمتع بها بصورة غير مشروعة و التلوث بالمعاصى عن طريقها، و غصب حقوق الآخرين فيما يتعلق بها.

و ممّا يلفت الانتباه أنّ هـذا التعبير لم يرد إلّا فى هذه الآية من القرآن الكريم، و هو إشارة إلى أنّ الإنسان يعزب أحيانا عن لذات الدنيا و يعرض عنها، أو أنّه لا يأخذ منها إلّا ما يقوّم به صـلبه، و يتقوّى به على القيام بالواجبات الإلهية، و كأنّه فى هذه الصورة قد ادخر هذه الطيبات لآخرته.

غير أنّ الكثيرين يتكالبون على هـذه التمتعات الدنيويـة كالحيوانات و لا يحـدّهم شـىء فى الالتـذاذ بهذه الطيبات و افنائها جميعا، و لا يكتفون بعدم ادخار شىء لآخرتهم، بل يحملون معهم أحمالا من الأوزار، و لهؤلاء يقول القرآن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۰

أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا.

و قـد نقل فى بعض كتب اللغـة أنّ المراد من الجملـة: أنفقتم طيبات ما رزقتم فى شـهواتكم و فى ملاذ الـدنيا، و لم تنفقوها فى مرضاة اللّه ۲۵۴].

۳- للطيبات معنى واسع يشـمل كلّ مواهب الـدنيا، و مع أنّ بعض المفسّـرين قد فسّـرها بقوّة الشـباب فقط، إلّا أنّ الحق هو أنّ الشـباب يمكن أن يكون مصداقا لا غير.

۴- إنّ التعبير ب عَذابَ الْهُونِ بمثابة ردّ فعل لاسـتكبار هؤلاء فى الأرض، لأنّ العقوبة الإلهية، تتناسب تماما مع نوع الذنب و المعصـية، فأولئك الذين تكبّروا على خلق اللّه، بل و حتى على أنبيائه، و لم يخضـعوا لأى تشـريع إلهى، يجب أن يلاقوا جزاءهم بذلة و حقارة و مهانة.

۵- لقـد ذكر فى ذيل هـذه الآية ذنبان لأصـحاب الجحيم، الأوّل: الاسـتكبار، و الثّانى: الفسق. و يمكن أن يكون الأوّل إشارة إلى عدم إيمانهم بآيات اللّه و بعث عن ترك أصول الدين، و الآخر عن تضييع فروع الدين ۲۵۵].

۶- إنّ التعبير بغير الحق لا يعنى أنّ الاستكبار نوعان: حق، و غير حق، بل إنّ هذه التعابير تقال عادة للتأكيد، و نظائرها كثير.

۷- زهد الأئمة العظماء لقد وردت فى مختلف مصادر الحديث و التّفسـير روايات كثيرة عن زهد أئمّة الإسـلام العظماء، و اسـتندوا فيه بالخصوص إلى الآية مورد البحث، و من جملتها:

جاء فى حديث أنّ عمر أتى يوما رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى مشربة أم إبراهيم- و هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۱

موضع قرب المدينة- و كان مضـطجعا على حصـير من الخوص، و جزء من بدنه الشريف على التراب، و كانت تحت رأسه و سادة من ليف النخل، فسـلّم و جلس، و قال: أنت نبىّ اللّه و أفضل خلقه، هذا كسرى و قيصر ينامان على أسرة الذهب و فرش الديباج و الحرير، و أنت على هـذا الحـال؟! فقـال صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم: «أولئـك قوم عجلت طيّبـاتهم و هى و شـيكة الانقطـاع، و إنّما أخرت لنا طيباتنا»[۲۵۶].

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه أتى يوما بحلوى، فامتنع من تناولها، فقالوا: أ تراها حراما؟ قال: «لا، و لكنى أخشى أن تتوق نفسى فأطلبه، ثمّ تلا هذه الآية: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا ...[۲۵۷].

و

جاء فى حديث آخر: «أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام اشتهى كبدا مشوية على خبزة لينة، فأقام حولا يشتهيها، و ذكر ذلك للحسن عليه السّلام و هو صائم يوما من الأيّام فصنعها له، فلما أراد أن يفطر قرّبها إليه، فوقف سائل بالباب، فقال: يا بنى احملها إليه، لا تقرأ صحيفتنا غدا: أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَ اسْتَمْتَعْتُمْ بِها[۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۲

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۲۱) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۲) قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۳) فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (۲۴) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (۲۵)

التّفسير

قوم عاد و الريح المدمرة:

لما كان القرآن يذكر قضايا كلية، ثمّ يتطرق إلى بيان مصاديق واضحة لها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۳

ليطبق تلك الكليات. فإنّه هنا يسلك نفس السبيل، فبعد أن فصل حال المستكبرين المتمردين، تطرّق إلى ذكر قصة قوم عاد الذين هم صورة واضحة لأولئك العتاة، فتقول الآية: وَ اذْكُرْ أَخا عادٍ.

إنّ التعبير بالأخ يعكس منتهى صفاء هذا النّبى العظيم و حرصه على قومه، و قد ورد هذا التعبير فى القرآن المجيد- كما نعلم- فى مورد عدة أنبياء عظام كانوا إخوة لأقوامهم حريصين رحماء بهم، لم يبخلوا من أجلهم بأى نوع من الإيثار و التضحية.

و يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى علاقة القرابة و الرحم بين هؤلاء الأنبياء و أقوامهم.

ثمّ تضيف الآية: إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ

«الأحقاف»- كما قلنا سابقا- تعنى الكثبان الرملية التى تتشكل على هيئة مستطيل أو تعرجات و منحنيات، على أثر هبوب العواصف فى الصحارى، و يتّضح من هذا التعبير أنّ أرض قوم عاد كانت أرضا حصباء كبيرة.

و ذهب البعض أنّها فى قلب جزيرة العرب بين نجد و الأحساء و حضرموت و عمان.

إلّا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا، حيث يظهر من آيات القرآن الأخرى- فى سورة الشعراء- أنّ قوم عاد كانوا يعيشون فى مكان كثير المياه و الأشجار الجميلة، و مثل هذا الحال بعيد جدّا عن قلب الجزيرة.

و ذهب جمع آخر من المفسّرين أنّها فى الجزء الجنوبى للجزيرة حول اليمن، أو فى سواحل بحر العرب ۲۵۹].

و احتمل البعض أنّ الأحقاف كانت منطقة فى أرض العراق فى مناطق كلدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۴

و بابل ۲۶۰].

و نقل عن الطبرى أنّ الأحقاف اسم جبل فى الشام ۲۶۱].

لكن يبدو أنّ القول بأنّ هذه المنطقة تقع جنوب الجزيرة العربية قرب أرض اليمن، هو الأقرب، بملاحظة ملاءمته المعنى اللغوى للأحقاف، و بملاحظة أنّ أرضهم كانت غزيرة المياه و فيرة الأشجار، فى نفس الوقت الذى لم تكن فيه بمأمن من العواصف الرملية.

و جملة: وَ قَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ إشارة إلى الأنبياء الذين بعثوا قبله، بعضهم قريب عهد به، و هم الذين عبّر عنهم القرآن ب مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ و البعض الآخر تقادمت الفترة الزمنية بينهم و بينه الذين عبّر عنهم ب مِنْ خَلْفِهِ

أمّا ما احتمله البعض من أنّ المراد من هذه الجملة الأنبياء الذين جاؤوا قبل هود و بعده، فيبدو بعيدا جدّا، و لا ينسجم مع جملة: وَ قَدْ خَلَتِ التى تعنى الزمن الماضى.

و لنر الآن ماذا كان محتوى دعوة هذا النّبى العظيم؟

يقول القرآن الكريم: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ثمّ هدّدهم بقوله: إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

و بالرغم من أنّ التعبير ب يَوْمٍ عَظِيمٍ جاء بمعنى يوم القيامة غالبا، إلّا أنّه أطلق أحيانا فى آيات القرآن على الأيّام القاسية المرعبة التى مرّت على الأمم، و هذا المعنى هو المراد هنا، لأنّنا نقرأ فى متابعة هذه الآيات أنّ قوم عاد قد ابتلوا بعذاب اللّه فى يوم عسر مرعب و انتهى أمرهم.

إلّا أنّ هؤلاء القوم المتمردين وقفوا بوجه هذه الدعوة الإلهية، و خاطبوا هودا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۵

قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [۲۶۲] هاتين الجملتين تبيّنان بوضوح مدى انحراف هؤلاء القوم و تعصبهم، فهم فى الجملة الأولى يقولون: إنّ دعوتك كاذبة: لأنّها تخالف آلهتنا التى تعوّدنا على عبادتها، و هى إرث ورثناه عن آبائنا.

و نراهم فى الجملة الثّانية يطلبون وقوع العذاب! ذلك العذاب الذى إن نزل بهم فلا رجعة معه مطلقا، و أى ذى لب يتمنّى نزول مثل هذا العذاب، حتى و إن لم يكن لديه يقين بوقوعه؟

إلّا أنّ هودا عليه السّلام قال فى ردّه على هذا الطلب المتهور الذى يدل على الجنون:

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ فهو الذى يعلم متى و فى أى ظروف ينزل عذاب الاستئصال، فلا هو مرتبط بطلبكم و تمنيكم، و لا هو تابع لرغبتى، بل يجب أن يتمّ الهدف و يتحقق، ألا و هو إتمام الحجّة عليكم، فإنّ حكمته سبحانه تقتضى ذلك.

ثمّ يضيف: وَ أُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ فهو مهمتى الأساسية، و مسئوليتى الرئيسية، أمّا اتخاذ القرار فى شأن طاعة اللّه و أوامره فهو أمر يتعلق بكم، و إرادة نزول العذاب و مشيئته تتعلق به سبحانه.

وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ و جهلكم هذا هو أساس تعاستكم و شقائكم، فإنّ الجهل المقترن بالكبر و الغرور و هو الذى يمنعكم من دراسة دعوة رسل اللّه، و لا يأذن لكم فى التحقيق فيها ... ذلك الجهل الذى يحملكم على الإصرار على نزول عذاب اللّه ليهلككم، و لو كان لديكم أدنى وعى أو تعقل لكنتم تحتملون- على الأقل- وجود احتمال إيجابى فى مقابل كلّ الاحتمالات السلبية، و الذى إذا ما تحقق فسوف لا يبقى لكم أثر.

و أخيرا لم تؤثر نصائح هود عليه السّلام المفيدة، و إرشاداته الأخوية فى قساة القلوب أولئك، و بدل أن يقبلوا الحق لجّوا فى غيّهم و باطلهم، و تعصبوا له، و حتى نوح عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۶

كذّبه قومه بهذا الادعاء الواهى و هو أنّك إن كنت صادقا فيما تقول فأين عذابك الموعود؟

و الآن، و قد تمّت الحجة بالقدر الكافى، و أظهر أولئك عدم أهليتهم للبقاء، و عدم استحقاقهم للحياة، فإنّ حكمة اللّه سبحانه توجب أن يرسل عليهم «عذاب الاستئصال»، ذلك العذاب الذى يجتث كلّ شىء و لا يبقى و لا يذر.

و فجأة رأوا سحابا قد ظهر فى الأفق، و اتسع بسرعة: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا[۲۶۳].

قال المفسّرون: إنّ المطر انقطع مدّة عن قوم عاد، و أصبح الهواء حارا جافا خانقا، فلمّا وقع بصر قوم عاد على السحب المظلمة الواسعة فى الأفق البعيد، و هى تتجه صوبهم فرحوا لذلك جدّا و هبّوا لاستقبالها، و جاؤوا إلى جوانب الوديان و السهول و مجارى السيول و المياه. ليروا منظر نزول المطر المبارك ليحيوا من جديد، و تسر بذلك نفوسهم.

لكن، قيل لهم سريعا بأنّ هذا ليس سحابا ممطرا: بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ

و الظاهر أنّ المتكلم بهذا الكلام هو اللّه سبحانه، أو أنّ هودا لمّا سمع صرخات فرحهم و استبشارهم قال لهم ذلك.

نعم، إنّها ريح مدمّرة: تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها.

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من كُلَّ شَيْءٍ البشر و دوابهم و أموالهم، لأنّ الجملة التالية تقول: فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلَّا مَساكِنُهُمْ و هذا يوحى بأنّ مساكنهم كانت سالمة، أمّا هم فقد هلكوا، و ألقت الرياح القوية أجسادهم فى الصحارى البعيدة، أو فى البحر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۷

و قال البعض: إنّهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه السحب السوداء هى رياح قوية مغبرة، إلّا عند ما وصلت قريبا من ديارهم، و رفعت دوابهم و رعاتهم- الذين كانوا فى الصحارى المحيطة بهم- من الأرض و رمتهم فى الهواء، و رأوا أنّها تقتلع الخيام من مكانها و تلقيها فى الهواء حتى كانت تبدو كالجواد! عند ما رأوا ذلك المشهد، فروا و التجأوا إلى دورهم و أغلقوا الأبواب عليهم، إلّا أنّ الأعاصير اقتلعت الأبواب و ألقتها على الأرض- أو حملتها معها- و رمت أجساد هؤلاء بالأحقاف، و هى الرمال المتحركة.

و جاء فى الآية (۷) من سورة الحاقة: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ و هكذا بقى هؤلاء القوم يئنّون تحت تل من الرمال و التراب، ثمّ أزالت الرياح القوية التراب فظهرت أبدانهم مرّة أخرى، فحملتها و ألقتها فى البحر[۲۶۴].

و تشير الآية فى النهاية إلى حقيقة، و هى أنّ هذا المصير غير مختص بهؤلاء القوم الضالين، بل: كَذلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ

و هذا إنذار و تحذير لكلّ المجرمين العصاة، و الكافرين المعاندين الأنانيين، بأنّكم إن سلكتم هذا الطريق فسوف لن يكون مصيركم أحسن حالا من هؤلاء، فإنّه تعالى قد يأمر الرياح بأن تهلككم، ذات الرياح التى يعبر القرآن الكريم بأنّها:

بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ لأنّ الرياح تتصف بصفة الأمر الإلهى المطلوب منها.

و قد يبدل الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و اطمئنانه، إلى قبر له بزلزلة شديدة.

و قد يبدّل المطر الذى هو أساس حياة كلّ الكائنات الحية، إلى سيول جارفة تغرق كل شىء.

نعم، إنّه عزّ و جلّ يجعل جنود الحياة جنود موت و فناء، و كم هو مؤلم الموت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۸

الذى يأتى من سبب الحياة و أساسها؟ خاصّة إذا كان الأمر كما فى قوم هود إذ فرحوا و سروا فى البداية ثمّ جاءتهم البطشة ليكون العذاب أشد و آلم.

و الطريف أنّه يقول: إنّ هذه الرياح، هى فى الأصل أمواج هوائية لطيفة تتحوّل إعصار يدمّر كلّ شىء بأمر اللّه ۲۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۸۹

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (۲۶) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۲۷) فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (۲۸)

التّفسير

لستم بأقوى من قوم عاد أبدا:

إنّ هـذه الآيـات بمثابـة اسـتنتاج للآيات السابقـة التى كانت تتحـدث عن عقاب قوم عاد الأليم، فتخاطب مشـركى مكّـة و تقول: وَ لَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۰

فِيهِ ۲۶۶] فقد كانوا أقوى منكم من الناحية الجسمية، و أقدر منكم من ناحية المال و الثروة و الإمكانات المادية، فإذا كان بإمكان القوّة الجسمية و المال و الثروة و التطور المادى أن تنقذ أحدا من قبضة الجزاء الإلهى، فكان ينبغى على قوم عاد أن يصمدوا أمام العاصفة و لا يكونوا كالقشـة فى مهب الرياح، تتقاذفهم كيف شاءت و لا يبقى من آثارهم إلّا أطلال مساكنهم! إنّ هـذه الآيـة شبيهة بما ورد فى سورة الفجر فى شأن قوم عاد: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ[۲۶۷].

أو هى نظير ما جاء فى الآية (۳۶) من سورة ق: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً.

و خلاصة القول: إنّ الذين كانوا أشدّ منكم و أقوى، عجزوا عن الوقوف أمام عاصفة العذاب الإلهى، فكيف بكم إذن؟

ثمّ تضـيف الآيـة: وَ جَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَ أَبْصاراً وَ أَفْئِدَةً[۲۶۸] فقـد كـانوا أقويـاء فى مجال إدراك الحقائق و تشخيصـها أيضا، و كانوا يـدركون الأمور جيـدا، و كانوا يسـتغلون هـذه المواهب الإلهية من أجل تأمين حاجاتهم و مآربهم المادية على أحسن وجه، لكن: فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَ لا أَبْصارُهُمْ وَ لا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ ۲۶۹] و أخيرا: وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ نعم، لقد كان أولئك مجهزين بالوسائل المادية، و بوسائل إدراك الحقيقة، إلّا أنّهم لما كانوا يتعاملون مع آيات اللّه بمنطق الاسـتكبار و العناد، و كانوا يتلقون كلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۱

الأنبياء بالسخرية و الاستهزاء، لم ينفذ نور الحق إلى قلوبهم، و هذا الكبر و الغرور و العداء للحق هو الذى أدى إلى أنّ لا يستفيدوا و لا يسـتخدموا وسائل الهدايـة و المعرفة كالعين و الأذن و العقل، ليجدوا طريق النجاة و يسـلكوه، فكانت عاقبتهم أن ابتلوا بذلك المصـير المشؤوم الذى أشارت إليه الآيات السابقة.

فـإذا كـان أولئـك القوم قـد عجزوا عن القيام بأى عمل مع كلّ تلك القـدرات و الإمكانيات التى كانوا يمتلكونها، و أصـبحت جثثهم الهامدة، كالريشة فى مهب الرياح تتقاذفهم من كلّ جانب بكلّ مذلة و احتقار، أولى لكم أن تعتبروا إذا أنتم أضعف منهم و أعجز.

و ليس عسـيرا على اللّه تعالى أن يأخذكم بأشد العذاب نتيجة أعمالكم و جرائمكم، و أن يجعل عوامل حياتكم أسـباب فنائكم، و هذا خطاب لمشركى مكّة، و لكلّ البشر المغرورين الظالمين العتاة على مر التأريخ، و فى كلّ الأعصار و الأمصار.

و حقـا فـإنّ الأـمر كما يقول القرآن الكريم، فلسـنا أوّل من وطأ الأرض، فقـد كان قبلنا أقوام كثيرون يعيشون فيها، و لـديهم الكثير من الإمكانيات و القدرات، فكم هو جميل أن نجعل تأريخ أولئك مرآة لأنفسنا لنعتبر به، و لنرى من خلاله مستقبلنا و مصيرنا.

ثمّ تخاطب الآيـة مشـركى مكّـة من أجل التأكيـد على هـذا المعنى، و لزيادة الموعظـة و النصـيحة، فتقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى

أولئـك الأـقوام الـذين لاـ تبعـد أوطـانهم كثيرا عنكم، و كـان مسـتقرهم فى أطراف جزيرة العرب، فقوم عـاد كانوا يعيشون فى أرض الأحقاف فى جنوب الجزيرة، و قوم ثمود فى أرض يقال لها «حجر» فى شـمالها، و قوم سـبأ الذين لاقوا ذلك المصير المؤلم فى أرض اليمن، و قـوم شـعيب فى أرض مـدين فى طريقكم الشـام، و كـان قـوم لوط يعيشون فى هـذه المنطقـة، و ابتلوا بـأنواع العـذاب لكـثرة معاصيهم و كفرهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۲

لقـد كان كلّ قوم من أولئك عبرة، و كان كلّ منهم شاهدا ناطقا معبرا، يسأل: كيف لا يستيقظ هؤلاء و لا يعون مع كلّ وسائل التوعية هذه؟! ثمّ تضـيف الآية بعد ذلك: وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فتارة أريناهم المعجزات و خوارق العادات، و أخرى أنعمنا عليهم، و ثالثة بلوناهم بالبلاء و المصائب، و رابعة عن طريق وصف الصالحين المحسنين، و أخرى بوصف المجرمين، و أخرى وعظناهم بعذاب الاستئصال الذى أهلكنا به الآخرين. إلّا أنّ الكبر و الغرور و العجب لم يدع لهؤلاء سبيلا إلى الهداية.

و توبخ الآية الأخيرة من هذه الآيات هؤلاء العصاة، و تذمهم بهذا البيان: فَلَوْ لا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً[۲۷۰].

حقّا، إذا كانت هـذه آلهـة على حق، فلما ذا لا تعين أتباعها و عبادها، و تنصـرهم فى تلك الظروف الحساسـة، و لا تنقـذهم من قبضـة العـذاب المهول المرعب؟ إنّ هـذا بنفسه دليل محكم على بطلان عقيـدتهم حيث كانوا يظنّون أنّ هـذه الآلهة المخترعة هى ملجأهم و حماهم فى يوم تعاستهم و شقائهم.

ثمّ تضـيف: بَلْ ضَـلُّوا عَنْهُمْ فإنّ هـذه الموجودات التى لا قيمـة لها و لا أهميـة، و التى ليست مبدأ لأى أثر، و لا تأتى بأى فائدة، و هى عند العسر صماء عمياء، فكيف تستحق الألوهية و تكون أهلا لها؟

و أخيرا تقول الآيـة: وَ ذلِكَ إِفْكُهُمْ وَ ما كانُوا يَفْتَرُونَ فإنّ هـذا الهلاك و الشـقاء، و هـذا العذاب الأليم، و اختفاء الآلهة وقت الشدّة و العسر، كان نتيجة لأكاذيب أولئك و أوهامهم و افتراءاتهم ۲۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۳

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۲۹ الى ۳۲]

اشارة

وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (۲۹) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (۳۰) يـا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۳۱) وَ مَنْ لاـ يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۳۲)

سبب النّزول

وردت روايات مختلفـة فى سـبب نزول هذه الآيات، و من جملتها: أنّ رسول اللّه صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم خرج من مكّة إلى سوق عكاظ فى الطائف- و كان معه زيـد بن حارثـة- من أجل أن يدعو الناس إلى الإسـلام، إلّا أنّ أحدا لم يجبه، فاضـطر الى الرجوع إلى مكّة، و فى طريق عودته وصل إلى موضع يقال له: وادى الجن، فبدأ بتلاوة القرآن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۴

فی جوف اللیل، و کانت طائفة من الجن یمرون من هناک، فلما سمعوا قراءة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم للقرآن أصغوا إلیه و قال بعضهم لبعض: اسکتوا و أنصتوا، فلما أتمّ رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم تلاوته آمنوا به، و أتوا قومهم کرسل یدعونهم إلی الإسلام، فآمن لهم جماعة، و أتوا جمیعا الی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فعلّمهم رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم الإسلام، فنزلت هذه الآیات و آیات سورة الجن ۲۷۲].

و نقل جماعة عن ابن عباس سبب نزول آخر یقرب من سبب النّزول السابق، باختلاف: إنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان مشتغلا بصلاة الصبح و کان یقرأ القرآن فیها، و کان جماعة من الجن فی حالة بحث و تحقیق، إذا کان انقطاع أخبار السماء عنهم قد أقلقهم، فسمعوا صوت تلاوة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فقالوا: هذا سبب انقطاع أخبار السماء عنّا، فرجعوا إلی قومهم و دعوهم إلی الإسلام ۲۷۳].

و قد أورد العلّامة الطبرسی فی مجمع البیان سببا ثالثا للنزول هنا، و هو یرتبط بقصة سفر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الطائف و خلاصته:

بعد وفاة أبی طالب صعب الأمر علی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فرحل إلی الطائف لعله یجد أنصار، فبرز إلیه أشراف الطائف و کذّبوه أشدّ تکذیب، و رموا النّبی بالحجارة حتی سالت الدماء من قدمیه، فأعیاه التعب، فأتی إلی جنب بستان و استظل بظل نخلة، و کانت الدماء تسیل منه.

و کان البستان لعتبة بن ربیعة و شیبة بن ربیعة، و کانا من أثریاء قریش، فتأذی النبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم من رؤیتهما لعلمه بعدائهما للإسلام من قبل، فأرسلا غلامهما «عداسا»- و کان رجلا نصرانیا- إلی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بطبق من العنب، فقال النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لعداس:

«من أی أرض أنت»؟ قال: من نینوی، قال: «من مدینة العبد الصالح یونس بن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۵

متی»، فقال: و ما یدریک من یونس بن متی؟ قال: «أنا رسول اللّه، و اللّه تعالی أخبرنی خبر یونس بن متی» فعرف عداس صدق النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم فخرّ ساجدا للّه تعالی، و وقع علی قدمی النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یقبلهما.

فلما رجع لامه عتبة و شیبة علی ما صنع، فقال: لقد أخبرنی هذا الرجل الصالح بما یجهله أهل هذه البلاد من أمر نبیّنا یونس، فضحکا و قالا: لا یفتننک عن نصرانیتک، فإنّه رجل خداع! فرجع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم إلی مکّة، و لم یکن حاصل سفره هذا إلّا مؤمن واحد، فوصل نخلا فی جوف اللیل، فما إن حلّ حتی تهیّأ للصلاة، و کان جماعة من الجن من أهل نصیبین أو الیمن یمرون من هناک، فسمعوا صوت تلاوة القرآن فی صلاة الصبح فأصغوا إلیه و آمنوا[۲۷۴].

***

التّفسیر

إیمان طائفة من الجن:

جاء فی هذه الآیات- و کما أشیر فی سبب النّزول- بحث مختصر حول إیمان طائفة من الجن بنبیّ الإسلام صلی اللّه علیه و آله و سلّم و کتابه السماوی، لتوضح لمشرکی مکّة حقیقة، هی: کیف تؤمن طائفة من الجن البعیدین- ظاهرا- بهذا النبی الذی هو من الإنس، و

بعث من بين أظهركم، و أنتم تصرون على الكفر، و تستمرون فى عنادكم و مخالفتكم؟

و سيكون لنا بحث مفصل حول (الجن) و خصوصياته فى تفسير سورة الجن إن شاء اللّه تعالى، و نتناول هنا تفسير الآيات مورد البحث فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۶

لقد كانت قصة قوم عاد تحذيرا لمشركى مكّة فى الحقيقة، و قصة إيمان طائفة من الجن تحذيرا آخر.

تقول الآية أوّلا: وَ إِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ

إنّ التعبير ب (صرفنا)- من مادة صرف، يعنى نقل الشىء و تبديله من حالة إلى اخرى- و لعله إشارة إلى أنّ الجن كانوا يصغون إلى أخبار السماء عن طريق استراق السمع، و مع ظهور نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم رجعوا إليه و اتّجهوا نحو القرآن.

و «النفر» كما يقول الراغب فى مفرداته- عدّة رجال يمكنهم النفر، و المشهور بين أرباب اللغة أنّه الجماعة من الثلاثة إلى العشرة، و أوصلها البعض إلى الأربعين.

ثمّ تضيف الآية: فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا و ذلك حينما كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يتلو آيات القرآن فى جوف الليل، أو فى صلاة الصبح.

«انصتوا» من مادة إنصات، و هو السكوت مع الاستماع و الانتباه.

و أخيرا أضاء نور الإيمان قلوب هؤلاء، فلمسوا فى أعماقهم كون آيات القرآن حقا، و لذلك: فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ و هذا دأب المؤمنين دائما، فى أن يطلعوا الآخرين على الحقائق التى اطلعوا عليها، و يدلوهم على مصادر إيمانهم و منابعه الفياضة.

و تبيّن الآية التالية كيفية دعوة هؤلاء قومهم عند عودتهم إليهم، تلك الدعوة المتناسقة الدقيقة، الوجيزة و العميقة المعنى: قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى

و من صفاته أنّا رأيناه يصدق الكتب السماوية السالفة و يتطابق معها فى محتواها، و فيه العلائم الواردة فى تلك الكتب: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ۲۷۵].

و صفته الأخرى أنّه: يَهْدِي إِلَى الْحَقِ بحيث أنّ كلّ من يستند إلى عقله و فطرته يرى آيات حقانيته واضحة جلية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۷

و آخر صفة أنّه يهدى إلى الرشد: وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

إنّ التفاوت بين الدعوة إلى الحق و الى الصراط المستقيم، يكمن ظاهرا فى أنّ الأوّل إشارة إلى العقائد الحقة، و الثّانى إلى البرامج العملية المستقيمة الصحيحة.

و جملة: أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى و جملة: مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ تؤيدان أنّ هذه الطائفة كانوا مؤمنين بالكتب السماوية السابقة، و خاصة كتاب موسى عليه السّلام، و كانوا يبحثون عن الحق.

و إذا رأينا أنّ الكلام لم يرد عن كتاب عيسى الذى أنزل بعد موسى عليه السّلام، فليس ذلك بسبب ما روى عن ابن عباس من أنّ الجن لم يكونوا مطلعين على نزول الإنجيل مطلقا، إذ أنّ الجن كانوا مطلعين على أخبار السماوات و عالمين بها، فكيف يمكن أن يغفلوا عن أخبار الأرض إلى هذا الحد؟ بل بسبب أنّ التوراة كانت هى الكتاب الأساسى، فحتى المسيحيون كانوا قد أخذوا و يأخذون أحكام شريعتهم عنها.

ثمّ أضافوا: يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ إذ ستمنحون حينها مكافأتين عظيمتين: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ۲۷۶].

المراد من: داعِيَ اللَّهِ نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان يرشدهم إلى اللّه سبحانه، و لما كان أغلب خوف الإنسان و

اضطرابه من الذنوب و عذاب القيامة الأليم، فقد ذكروا لهم الأمن تجاه هذين الأمرين، ليلفت انتباههم قبل كلّ شيء.

و اعتبر جمع من المفسّرين كلمة (من) فى (من ذنوبكم) زائدة، ليكون ذلك تأكيدا على غفران جميع الذنوب فى ظل الإيمان. فى حين اعتبرها البعض تبعيضية، و أنّها إشارة إلى تلك الذنوب التى اقترفوها قبل إيمانهم، أو الذنوب التى تتعلق باللّه سبحانه، لا بحق الناس.

غير أنّ الأنسب هو كون (من) زائدة و للتأكيد، و الآية الشريفة تشمل كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۸

الذنوب.

و تذكر الآية الأخيرة- من هذه الآيات- كلام مبلغى الجن، فتقول: وَ مَنْ لا يُجِبْ داعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَ لَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءُ ينصرونه من عذاب اللّه، و لذلك فإنّ: أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

أى ضلال أشد و أسوأ و أجلى من أن يهبّ الإنسان إلى محاربة الحق و نبىّ اللّه، بل حتى إلى محاربة اللّه الذى لا ملجأ له سواه فى كلّ عالم الوجود، و لا يستطيع الإنسان أن يفر من حكومته إلى مكان آخر؟! و قد قلنا مرارا: إنّ (معجز)- أو سائر مشتقات هذه الكلمة- تعنى فى مثل هذه الموارد العجز عن المطاردة و التعقيب و المجازاة، و بتعبير آخر: الفرار من قبضة العقاب.

و عبارة (فى الأرض) إشارة إلى أنّكم حيثما تذهبون فى الأرض فإنّه ملك اللّه و سلطانه، و لا يمكن أن تكونوا خارج حدود قدرته و قبضته، و إذا كانت الآية لا تتحدث عن السماء، فلأنّ مكان الإنس و الجن هو الأرض على كلّ حال.

***

بحثان

۱- الإعلام المؤثر

كما قلنا سابقا، فإنّ البحث حول الجن و كيفية حياتهم و الخصوصيات الاخرى المتعلقة بهم ستأتى فى تفسير سورة الجن إن شاء اللّه تعالى، و الذى يستفاد من هذه الآيات أنّ الجن موجودات عاقلة لها إدراك و شعور، و هم مكلّفون بالواجبات الإلهية، و فيهم المؤمن و الكافر، و لديهم الاطلاع الكافى على الدعوات الإلهية.

و المسألة الملفتة للنظر فى هذه الآيات هو الأسلوب الذى اتبعه هؤلاء للتبليغ من أجل الإسلام بين قومهم، فهم بعد حضورهم عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و سماعهم آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۲۹۹

القرآن، و اطلاعهم على محتواها، أتوا قومهم مسرعين و شرعوا بدعوتهم.

لقد تحدّثوا أوّلا عن كون القرآن حقّا، و أثبتوا ذلك بأدلة ثلاثة، ثمّ بدأوا بترغيبهم، فبشروهم بالنجاة و الخلاص من قبضة عذاب الآخرة فى ظل الإيمان بهذا الكتاب السماوى، و كان ذلك تأكيدا على مسألة المعاد من جانب، و صرف الاهتمام إلى قيم الآخرة الأصيلة فى مقابل قيم الدنيا الزائلة الفانية من جانب آخر.

ثمّ نبّهوهم فى المرحلة الثّالثة على أخطار ترك الإيمان، و حذروهم تحذيرا مقترنا بالاستدلال و الحرص، و أخيرا بيّنوا لهم عاقبة الانحراف عن هذا المسير، فالانحراف عنه هو الضلال المبين.

إنّ هذا الأسلوب فى التبليغ و الإعلام أسلوب مؤثر نافع لكلّ فرد و لكلّ فئة.

۲- أفضل دليل على عظمة القرآن محتواه

يظهر جليا من الآيات أعلاه- و آيات سورة الجن- أنّ هذه الفرقة من الجن قد انجذبوا إلى القرآن و انشدوا إليه بمجرّد سماع آياته، و لا يوجد أى دليل على أنّهم قد طلبوا من نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم معجزة أخرى.

لقد اعتبر هؤلاء انسجام القرآن المجيد مع آيات الكتب السابقة من جهة، و أنّه يدعوا الى الحق من جهة ثانية، و استقامة برامجه العملية و تخطيطه من جهة ثالثة، كافيا لأن يدل على كونه حقّا.

و الحق أنّ الأمر كذلك، فإنّ التدبّر فى محتوى القرآن و التحقيق فيه يغنينا عن الحاجة إلى أى دليل آخر.

إنّ كتابا لشخص أمى لم يدرس، و فى محيط ملىء بالجهل و الخرافات، يكون فيه هذا المحتوى السامى، و العقائد الطاهرة النقية، و التوحيد الخالص، و القوانين المحكمة المنسجمة، و الاستدلالات القوية القاطعة، و البرامج المتينة البنّاءة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۰

و المواعظ و الإرشادات العالية الجلية، و بتلك الجاذبية القوية، و الجمال المذهل، كل ذلك يشكل بنفسه أفضل دليل على حقانية هذا الكتاب السماوى، فإنّ ظهور الشمس دليل على ظهورها- كما يقول المثل-[۲۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۱

الآيات [سورة الأحقاف (۴۶): الآيات ۳۳ الى ۳۵]

اشارة

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۳۳) وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَ رَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (۳۴) فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (۳۵)

التّفسير

فاصبر كما صبر أولوا العزم:

تواصل هذه الآيات- و هى آخر آيات سورة الأحقاف- البحث حول المعاد، حيث جاءت الإشارة إلى مسألة المعاد فى الآيات السابقة حكاية عن لسان مبلغى الجن. هذا من جهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۲

و من جهة أخرى فإنّ سورة الأحقاف تتحدث فى فصولها الأولى عن مسألة التوحيد، و عظمة القرآن المجيد، و إثبات نبوة نبى الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تبحث فى آخر فصل من هذه السورة مسألة المعاد لتكمل بذلك البحث فى الأصول الاعتقادية الثلاثة.

تقول الآية الأولى: أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ لَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ فإنّ خلق السماوات و الأرض مع موجوداتها المختلفة المتنوعة علامة قدرته تعالى على كلّ شىء، لأنّ كل ما يقع فى دائرة

مخلوق للّه فى هـذا العـالم، فإذا كان الأمر كـذلك، فكيف يمكن أن يكون عاجزا عن إعادة حياة البشـر؟ و هـذا بحـدّ ذاته دليل قاطع مفحم على مسألة إمكان المعاد.

و أساسا فإنّ أفضل دليل على إمكان أى شـىء وقوعه، فكيف نـدع إلى أنفسـنا سبيلا للشك فى قدرة اللّه المطلقة على مسألة المعاد و نحن نرى نشأة الموجودات الحية و تولدها من موجودات ميتة، و على هذا النطاق الواسع؟

هذا أحد أدلة المعاد العديدة التى يؤكد عليها القرآن و يستند إليها فى آيات مختلفة، و من جملتها الآية (۸۱) من سورة يس ۲۷۸].

و تجسّد الآية التالية مشهدا من العذاب الأليم المحيط بالمجرمين و منكرى المعاد، فتقول: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ.

أجل، فمرّة تعرض النّار على الكافرين، و أخرى يعرضون الكافرين على النّار، و لكل من العرضين هدف أشير إليه قبل عدّة آيات.

و عند ما يعرضون الكافرين على النّار، و يرون ألسـنة لهبها العظيمة المحرقة المرعبة يقال لهم: أَ لَيْسَ هذا بِالْحَقِ و هل تستطيعون اليوم أن تنكروا البعث و محكمة اللّه العادلة، و ثوابه و عقابه، و تقولون: ما هذا إلّا أساطير الأولين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۳

غير أنّ أولئك الذين لا حيلة لهم: قالُوا بَلى وَ رَبِّنا فهنا يقول اللّه سبحانه، أو ملائكة العذاب: قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

و بهـذا فإنّهم يرون كلّ الحقائق بأم أعينهم فى ذلك اليوم و يعترفون بـذلك الاعتراف الـذى لن ينفعهم، و سوف لن تكون نتيجته إلّا الهم و الحسرة، و تأنيب الضمير و العذاب الروحى.

و يأمر اللّه سـبحانه نبيّه فى آخر آيـة من هذه الآيات، و هى آخر آية فى سورة الأحقاف، على أساس ملاحظة ما مرّ فى الآيات السابقة حول المعاد و عقاب الكافرين، أن: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ فلست الوحيـد الـذى واجه مخالفـة هؤلاء القوم و عـداوتهم، فقد واجه أولو العزم هذه المشاكل و ثبتوا أمامها و اسـتقاموا، فنبىّ اللّه العظيم نوح عليه السّـلام دعا قومه (۹۵۰) سنة، و لم يؤمن به إلّا فئة قليلة، و كان قومه يؤذونه دائما، و يسخرون منه.

و ألقوا إبراهيم عليه السّـلام فى النّار، و هددوا موسـى عليه السّـلام بالقتل، و كان قلبه قد امتلأ قيحا من عصـيانهم، و كانوا يريدون قتل المسيح عليه السّلام بعد أن آذوه كثيرا، فأنجاه اللّه منهم.

و خلاصـة القول: إنّ الأمر كان و ما يزال كـذلك ما كانت الـدنيا، و لا يمكن التغلب على هذه المشاكل إلّا بقوّة الصبر و الاسـتقامة و الثبات.

من هم أولو العزم من الرسل؟

هنـاك بحث و اختلاف كبير جـدّا بين المفسّـرين فى: من هم أولو العزم؟ و قبل أن نحقق فى هـذا، ينبغى أن نحقق فى معنى (العزم)، لأنّ (أولو العزم) بمعنى ذوى العزم.

«العزم» بمعنى الإرادة الصلبة القوية، و يقول الراغب فى مفرداته: إنّ العزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر.

و قد استعملت كلمة العزم فى مورد الصبر فى آيات القرآن المجيد أحيانا، كقوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۴

تعالى: وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ[۲۷۹].

و جاءت أحيانا بمعنى الوفاء بالعهد، كقوله تعالى: وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً[۲۸۰].

لكن بملاحظة أنّ أصـحاب الشـرائع و الأديان الجديدة من الأنبياء قد ابتلوا بمشاكل أكثر، و واجهوا مصاعب أشد، و كانوا بحاجة إلى عزم و إرادة أقوى و أشـد لمواجهتهـا، فقـد أطلق على هـذه الفئـة من الأنبيـاء (أولو العزم) و الآيـة مورد البحث إشارة إلى هـذا المعنى

ظاهرا. و هى تشير ضمنا إلى أن نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم من هذه الفئة، لأنّها تقول: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ

و إذا كـان البعض قـد فسّـر العزم و العزيمـة بمعنى الحكم و الشـريعة فمن هـذه الجهـة، و إلّـا فإنّ كلمـة العزم لم تأت فى اللغـة بمعنى الشريعة.

و على أية حال، فطبقا لهذا المعنى تكون (من) فى (من الرسل) تبعيضـية، و إشارة إلى فئة خاصّة من الأنبياء كانوا أصـحاب شـريعة، و هم الذين أشارت إليهم الآية ۷ من سورة الأحزاب: وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً.

فقد أشارت الآية إلى هؤلاء الأنبياء الخمسة بعد ذكر جميع الأنبياء بصيغة الجمع، و هذا دليل على خصوصيتهم.

و تتحدث الآية (۱۳) من سورة الشورى عنهم أيضا، فتقول: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى

و قد رويت فى هذا الباب روايات كثيرة فى مصادر الشيعة و السنّة، تدل على أنّ الأنبياء أولى العزم كانوا خمسة، كما

ورد فى حديث عن الإمامين الباقر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۵

و الصادق عليهما السلام: «و منهم خمسة: أولهم نوح، ثمّ إبراهيم ثمّ موسى، ثمّ عيسى، ثمّ محمّد»[۲۸۱].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «منهم خمسة أولو العزم من المرسلين: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى و محمّد».

و عند ما يسأل الراوى: لم سموا (أولو العزم)؟

يقول الإمام عليه السّلام مجيبا: «لأنّهم بعثوا إلى شرقها و غربها، و جنّها و إنسها»[۲۸۲].

و كذلك

ورد فى حـديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «سادة النبيّين و المرسـلين خمسـة، و هم أولو العزم من الرسل، و عليهم دارت الرحى: نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمّد»[۲۸۳].

و روى هذا المعنى فى تفسير الدر المنثور عن ابن عباس أيضا، بأنّ الأنبياء أولى العزم هم هؤلاء الخمسة[۲۸۴].

إلّا أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ (أولو العزم) إشارة إلى الأنبياء الذين أمروا بمحاربة الأعداء و جهادهم.

و اعتبر البعض عددهم (۳۱۳) نفرا[۲۸۵]، و يرى البعض أنّ جميع الأنبياء (أولو عزم) أى أصحاب إرادة[۲۸۶] صلبة و طبقا لهذا القول، فإنّ (من) فى (من الرسل) بيانية لا تبعيضية.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أصح منها جميعا، و تؤيده الروايات الإسلامية.

ثمّ يضيف القرآن بعد ذلك: وَ لا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ أى للكفار لأنّ القيامة ستحل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۶

سريعـا، و سـيرون بأعينهم ما أطلقوه عليها و ادعوه فيها، و يجزون أشـدّ العـذاب، و عنـدها سـيطلعون على أخطائهم، و يعرفون ما كانوا عليه من الضلالة و الغى.

إنّ عمر الدنيا قصير جدّا بالنسبة إلى عمر الآخرة، حتى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ.

إنّ هـذا الإحساس بقصـر عمر الـدنيا بالنسـبة إلى الآخرة، إمّا بسـبب أنّ هـذه الحياة ليست إلّا ساعـة أمام تلك الحياة الخالـدة حقيقة و

واقعا، أو لأنّ الدنيا تنقضى عليهم سريعا حتى كأنّها لم تكن إلّا ساعة، أو من جهة أنّهم لا يرون حاصل كلّ عمرهم الذى لم يستغلوه و يستفيدوا منه الاستفادة الصحيحة إلّا ساعة لا أكثر.

هنا سيغطى سيل الأحزان و الحسرة قلوب هؤلاء، و لات حين ندم، إذ لا سبيل الى الرجوع.

لهذا نرى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و

قد سئل: كم ما بين الدنيا و الآخرة؟ فقال: «غمضة عين، ثمّ يقول: قال اللّه تعالى: كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ»[۲۸۷].

و هذا يوحى بأنّ التعبير بالساعة لا تعنى مقدار الساعة المتعارفة، بل هو إشارة إلى الزمان القليل القصير.

ثمّ تضيف الآية كتحذير لكلّ البشر «بلاغ»[۲۸۸] لكلّ أولئك الذين خرجوا عن خط العبودية للّه تعالى .. لأولئك الغارقين فى بحر الحياة الدنيا السريعة الزوال و الفناء، و العابدين شهواتها .. و أخيرا هو بلاغ لكلّ سكان هذا العالم الفانى.

و تقول فى آخر جملة تتضمن استفهاما عميق المعنى، و ينطوى على التهديد:

فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۷

ملاحظة كان نبىّ الإسلام مثال الصبر و الاستقامة:

إنّ حياة أنبياء اللّه العظام- و خاصة نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم- تبيان لمقاومتهم اللامحدودة أمام الحوادث الصعبة و الشدائد العسيرة، و العواصف الهوجاء، و المشاكل القاصمة، و لما كان طريق الحق مليئا بهذه المشاكل دائما، فيجب على سالكيه أن يستلهموا العبر من أولئك العظماء فى هذا المسير.

إنّنا ننظر عادة من نقطة مضيئة فى تاريخ الإسلام إلى أيّام مرّت على الإسلام و نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم صعبة مظلمة، و هذه النظرة من المستقبل إلى الماضى تجسم الوقائع و الحقائق بشكل آخر، فينبغى علينا أن ندرك أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان وحيدا فريدا لا يرى فى أفق الحياة أية علامة للانتصار.

فأعداؤه شمروا عن سواعدهم للفتك به، حتى أنّ أقاربه و عشيرته كانوا فى الخط الأوّل فى هذه المجابهة! كان يذهب دائما إلى قبائل العرب و يدعوهم، و لكن لم يكن يجيبه أحد.

كانوا يرجمونه حتى تسيل الدماء من عقبيه، لكنه لم يكن يكف عن عمله.

لقد فرضوا عليه الحصار الاجتماعى و الاقتصادى و السياسى بحيث أغلقوا جميع الأبواب و الطرق بوجهه و بوجه أتباعه، حتى مات بعضهم جوعا، و أقعد المرض بعضهم الآخر.

لقد مرّت على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيّام يصعب على القلم و اللسان وصفها، فعند ما جاء إلى الطائف ليدعو الناس إلى الإسلام، لم يكتفوا بعدم إجابة دعوته، بل رموه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه.

لقد كانوا يحثون الجهلاء من الناس على أن يصرخوا، و يسيئوا فى كلامهم إليه، فيضطر إلى أن يلتجئ إلى بستان و يستظل بظل شجرة، و يناجى ربّه

فيقول: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتى، و قلة حيلتى، و هو انى على الناس، يا أرحم الراحمين: أنت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۸

رب المستضعفين، و أنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ...»[۲۸۹].

كانوا يسمونه ساحرا تارة، و أخرى يخاطبونه بالمجنون.

كانوا يلقون التراب و الرماد على رأسه حينا، و حينا يجمعون على قتله، فيحاصرون بيته بالسيوف و الرماح.

إلّا أنّه رغم كلّ تلك الظروف استمر فى صبره و صموده و استقامته.

و أخيرا جنى الثمرة الطيبة لهذه الشجرة المباركة، فقد عمّ دينه شرق العالم و غربه، لا جزيرة العرب وحدها، و يدوّى اليوم صوت انتصاره صباح مساء فى كلّ أرجاء الدنيا، و فى قارات العالم الخمسة، و هذا هو معنى: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

و هذا هو طريق محاربة الشياطين، و طريق الإنتصار عليهم، و الوصول إلى الأهداف الإلهية السامية.

إذا كان الأمر كذلك، فكيف يطمح طلاب الراحة و السلامة إلى أن يصلوا إلى أهدافهم الكبيرة من دون صبر و تحمل للعذاب و الآلام؟

و كيف يأمل مسلمو اليوم أن ينتصروا على كلّ هؤلاء الأعداء الذين اجتمعت كلمتهم على إفنائهم و القضاء عليهم، دون الاستلهام من دين نبى الإسلام الأصيل؟

و القادة الإسلاميون بخاصة مأمورون بهذا الأمر قبل الجميع، كما

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «إنّ الصبر على ولاة الأمر مفروض، لقول اللّه عزّ و جلّ لنبيّه: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ و إيجابه مثل ذلك على أوليائه و أهل طاعته بقوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ»[۲۹۰].

اللّهمّ امنحنا هذه الموهبة العظيمة، هذه العطية السماوية، و هذا الصبر و الثبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۰۹

و الاستقامة أمام المشاكل.

اللّهمّ وفقنا لحفظ مشعل النور الذى حمله أولو العزم من أنبيائك، و خاصة خاتم النبيين محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم، من أجل هداية البشرية بعد تحملهم الجهود المضنية، و وفقنا لأن نكون أهلا لحراسته.

إلهنا! إنّ أعداء الحق متحدون و متحزّبون ضده، و لا يرتدعون عن اقتراف أية جريمة و جناية، اللّهمّ فامنحنا صبرا و ثباتا أعظم مما لديهم لئلا نركع أمام سيل المشاكل و عظمتها، و وفقنا لأن نتخطى الأمواج و العواصف و نتركها وراءنا، و هذا لا يتمّ إلّا بعونك و لطفك اللامحدود.

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الأحقاف***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۱

سورة محمّد

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثمان و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۳

«سورة محمّد»

محتوى السورة:

سمّیت هـذه السورة بسورة محمّـد صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم لأنّ اسـمه الشـریف قـد ذکر فی الآیـة الثانیة، و اسـمها الآخر هو سورة القتال، و الواقع أنّ مسألـة الجهاد و قتال أعداء الإسـلام هو أهم موضوع ألقی ظلاله علی هذه السورة، فی حین أنّ جزءا مهما آخر من آیات هذه السورة یتناول المقارنة بین حال المؤمنین و الکافرین و خصائصهم و صفاتهم، و کذلک المصیر الذی ینتهی إلیه کلّ منهما فی الحیاة الآخرة.

و یمکن تلخیص محتوی السورة بصورة عامة فی عدة فصول:

۱- مسألة الإیمان و الکفر، و المقارنة بین أحوال المؤمنین و الکفار فی هذه الدنیا و فی الحیاة الآخرة.

۲- بحوث معبرة بلیغة و صریحة حول مسألة الجهاد و قتال المشرکین، و التعلیمات الخاصة فیما یتعلق بأسری الحرب.

۳- شرح أحوال المنافقین الذین کان لهم نشاطات هدّامة کثیرة حین نزول هذه الآیات فی المدینة.

۴- فصل آخر یتناول مسألة السیر فی الأرض، و تدبر مصیر الأقوام الماضین و عاقبتهم، کدرس للاعتبار و الاتعاظ.

۵- و فی جانب من آیات هذه السورة ذکرت مسألة الاختبار الإلهی لمناسبتها موضوع القتال و الجهاد.

۶- ورد الحدیث فی فصل آخر عن مسألة الإنفاق الذی یعتبر بحدّ ذاته نوعا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۴

من الجهاد، و جاء الحدیث عن مسألة البخل الذی یقع فی الطرف المقابل.

۷- و تناولت بعض آیات هـذه السورة- لمناسـبة موضوعها- مسألة الصـلح مع الکفار- الصـلح الذی یکون أساسا لهزیمة المسـلمین و ذلّتهم- و نهت عنه.

و بالجملـة، فبملاحظـة أنّ هـذه السورة قد نزلت فی المدینة حینما کان الاشـتباک شدیدا بین المسـلمین و أعداء الإسـلام، و علی قول بعض المفسّرین أنّها نزلت أثناء معرکة أحد أو بعدها بقلیل، فإنّ أهم مسألة فیها هی قضیة الجهاد و الحرب، و تدور بقیة المسائل حول ذلک المحور .. الحرب المصـیریة التی تمیّز المؤمنین عن الکافرین و المنافقین .. الحرب التی کانت تثبت دعائم الإسلام، و ردّت کید الأعداء الذین هبّوا للقضاء علی الإسلام و المسلمین فی نحورهم- و أوقفتهم عند حدّهم.

فضل تلاوة السورة:

جـاء فی حـدیث عن نبی الإسـلام الأـکرم صـلی اللّه علیه و آله و سـلّم: «من قرأ سورة محمّـد کـان حقّـا علی اللّه أن یسـقیه من أنهار الجنّة»[۲۹۱].

و

روی فی کتاب ثواب الأعمال عن الصادق علیه السّـلام، أنّه قال: «من قرأ سورة الـذین کفروا- سورة محمّد لم یرتب أبدا، و لم یدخله شکّ فی دینه، و لم یبتله اللّه بفقر أبـدا، و لا خوف سـلطان أبدا، و لم یزل محفوظا من الشـرک و الکفر أبدا حتی یموت، فإذا مات و کلّ اللّه به فی قبره ألف ملک یصـلون فی قبره، و یکون ثواب صـلاتهم له و یشـیعونه حتی یوقفوه موقف الأمن عنـد اللّه عزّ و جلّ، و یکون فی أمان اللّه، و أمان محمّد»[۲۹۲].

من الواضح أنّ الذین جری محتوی هذه السورة فی دمائهم، و تشبّعت به

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۵

أرواحهم، و هم أشـداء فی جهاد الأعداء اللدودین القساة، و الذین لم یدعوا للشک و التزلزل الی أنفسـهم سبیلا، تکون أسـس دینهم قویة، و إیمانهم صلبا، و لا یملکهم خوف و لا تنالهم ذلة و لا یعتریهم فقر، و هم فی الآخرة منعمون فی جوار رحمة اللّه.

و

جاء فى حديث آخر أنّ الإمام عليه السّلام قال: «من أراد أن يعرف حالنا و حال أعدائنا فليقرأ سورة محمّد فإنّه يراها آية فينا و آية فيهم»[۲۹۳].

و قد نقل هذا الحديث مفسرو السنّة أيضا، كالآلوسى فى روح المعانى ۲۹۴] و السيوطى فى الدر المنثور[۲۹۵].

و هذه السورة تبيان لحقيقة أنّ أهل بيت النّبى عليه السّلام كانوا نموذجا لأكمل الإيمان و أتمه، و أنّ بنىّ أمية كانوا المثال البارز للكفر و النفاق.

صحيح أنّه لم يرد تصريح باسم أهل البيت و لا باسم بنى أمية فى هذه السورة، لكن لمّا كان البحث فيها عن فئة المؤمنين و المنافقين و خصائص كلّ منهما، فإنّها تشير قبل كلّ شىء إلى مصداقين واضحين، و لا مانع فى نفس الوقت من أن تشمل السورة سائر المؤمنين و المنافقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۶

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۱) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ (۲) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (۳)

التّفسير

المؤمنون أنصار الحق، و الكافرون أنصار الباطل:

إنّ هذه الآيات الثلاث تعتبر فى الحقيقة مقدمة لأمر حربى مهم صدر فى الآية الرابعة، فبيّنت الأولى منها وضع الكافرين و حالهم، و الثانية حال المؤمنين، و قارنت ثالثتهما بين الإثنين، و ذلك لتتهيأ الأرضية و الاستعداد للجهاد الدينى ضد الأعداء الظالمين العتاة باتضاح حال الفئتين.

تقول الآية الأولى: الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۷

إشارة الى زعماء الكفر و مشركى مكّة الذين كانوا يشعلون نار الحروب ضد الإسلام، و لم يكتفوا بكونهم كفارا، بل كانوا يصدون الآخرين عن سبيل اللّه بأنواع الحيل و الخدع و المخططات.

و مع أنّ بعض المفسّرين- كالزمخشرى فى الكشّاف- فسّر «الصدّ» هنا بمعنى الإعراض عن الإيمان، فى مقابل الآية التالية التى تتحدث عن الإيمان، إلّا أنّ الإحاطة بموارد استعمال هذه الكلمة فى القرآن الكريم توجب الحفاظ على معناها الأصلى، و هو المنع.

و المراد من: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أنّه يحبطها و يجعلها هباء منثورا، لأنّ الإحباط و الإضاعة كناية عن بقاء الشىء بدون حماية و لا عماد، و لازم ذلك زواله و فناؤه.

و على أية حال، فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الجملة إشارة إلى الذين نحروا الإبل يوم بدر و أطعموها الناس، إذ نحر أبو جهل

عشرة من الإبل، و مثله صفوان، و سهيل بن عمر، لإطعام جيش الكفر[۲۹۶]. لكن لمّا كانت هذه الأعمال من أجل التفاخر و مكائد الشيطان فقد أحبطت جميعا.

غير أنّ الظاهر أنّها لا تنحصر بهذا المعنى، بل إنّ كلّ أعمالهم التى قاموا بها، و ظاهرها معونة للفقراء و الضعفاء، أو إقراء للضيف، أو غير ذلك ستحبط لعدم إيمانهم.

و بغض النظر عن ذلك، فإنّ ذلك، فإنّ اللّه سبحانه قد أحبط كلّ مؤامراتهم و ما قاموا به من أعمال لمحو الإسلام و القضاء على المسلمين، و حال بينهم و بين الوصول إلى أهدافهم الخبيثة.

و الآية التالية وصف لوضع المؤمنين الذين يقفون فى الصف المقابل للكافرين الذين وردت صفاتهم فى الآية السابقة، فتقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۸

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ أَصْلَحَ بالَهُمْ ۲۹۷].

إنّ ذكر الإيمان بما نزل على نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذكر الإيمان بصورة مطلقة، تأكيد على تعليمات هذا النّبى العظيم و مناهجه، و هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام، و تبيان لحقيقة أنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يتمّ أبدا بدون الإيمان بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان باللّه تعالى، و لها جانب عقائدى، و هذه الجملة إشارة إلى الإيمان بمحتوى الإسلام و تعليمات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و لها الجانب العملى.

و بتعبير آخر، فإنّ الإيمان باللّه سبحانه لا يكفى وحده، بل يجب أن يؤمنوا بما نزل على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و أن يكون لهم إيمان بالقرآن، إيمان بالجهاد، إيمان بالصلاة و الصوم، و إيمان بالقيم الأخلاقية التى نزلت عليه. ذلك الإيمان الذى يكون مبدأ للحركة، و تأكيدا على العمل الصالح.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ الآية تقول بعد ذكر هذه الجملة: وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ و هى تعنى أنّ إيمانهم لم يكن تقليدا، أو أنّه لم يقم على دليل و حجة، بل إنّهم آمنوا بعد أن رأوا الحق فيه.

و عبارة مِنْ رَبِّهِمْ تأكيد على حقيقة أنّ الحق يأتى دائما من قبل اللّه سبحانه، فهو يصدر منه، و يعود إليه.

و الجدير بالالتفات إليه أنّ الآية تبيّن ثوابين للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، فى مقابل العقابين اللذين ذكرا للكفار الصادين عن سبيل اللّه: أو لهما:

التكفير عن السيئات التى لا يخلو منها أى إنسان غير معصوم، و الثانى: إصلاح البال.

لقد جاء «البال» بمعان مختلفة، فجاء بمعنى الحال، العمل، القلب، و على قول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۱۹

الراغب: بمعنى الحالات العظيمة الأهمية، و بناء على هذا فإنّ إصلاح البال يعنى تنظيم كلّ شؤون الحياة و الأمور المصيرية، و هو يشمل- طبعا- الفوز فى الدنيا، و النجاة فى الآخرة، على عكس المصير الذى يلاقيه الكفار، إذ لا يصلون إلى ثمرة جهودهم و مساعيهم، و لا نصيب لهم إلّا الهزيمة و الخسران بحكم: أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ

و يمكن القول بأنّ غفران ذنوبهم نتيجة إيمانهم، و أنّ إصلاح بالهم نتيجة أعمالهم الصالحة.

إنّ للمؤمنين هدوءا فكريا و اطمئنانا روحيا من جهة، و توفيقا و نجاحا فى برامجهم العملية من جهة ثانية، فإنّ لإصلاح البال إطارا واسعا يشمل الجميع، و أى نعمة أعظم من أن تكون للإنسان روح هادئة، و قلب مطمئن، و برامج مفيدة بنّاءة.

و بيّنت الآية الأخيرة العلة الأساسية لهذا الإنتصار و تلك الهزيمة من خلال مقارنة مختصرة بليغة، فقالت: ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ

هنا يكمن سرّ المسألة بأنّ خطّى الإيمان و الكفر يتفرعان عن خطّى الحق و الباطل، فالحق يعنى الحقائق العينية، و أسماها ذات اللّه المقدّسة، و تليها الحقائق المتعلقة بحياة الإنسان، و القوانين الحاكمة فى علاقته باللّه تعالى، و فى علاقته بالآخرين.

و الباطل يعنى الظنون، و الأوهام، و المكائد و الخدع، و الأساطير و الخرافات، و الأفعال الجوفاء التى لا هدف من ورائها، و كلّ نوع من الانحراف عن القوانين الحاكمة فى عالم الوجود.

نعم، إنّ المؤمنين يتبعون الحق و ينصرونه، و الكفار يتبعون الباطل و يؤازرونه، و هنا يكمن سرّ انتصار هؤلاء، و هزيمة أولئك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۰

يقول القرآن الكريم: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا[۲۹۸].

و فسّر البعض «الباطل» بالشيطان، و آخرون بالعبثية، لكن كما قلنا، فإنّ للباطل معنى واسعا يشمل هذين التّفسيرين و غيرهما.

و تضيف الآية فى النهاية: كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ أى: كما أنّه سبحانه قد بيّن الخطوط العامّة لحياة المؤمنين و الكفار، و عقائدهم و برامجهم العملية و نتائج أعمالهم فى هذه الآيات، فإنّه يوضح مصير حياتهم و عواقب أعمالهم.

يقول الراغب فى مفرداته: المثل عبارة عن قول يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة يبيّن أحدهما الآخر.

و يستفاد من كلام آخر له أنّ هذه الكلمة تستعمل أحيانا بمعنى «المشابهة»، و أحيانا بمعنى «الوصف».

و الظاهر أنّ المراد فى هذه الآية هو المعنى الثانى، أى إنّ اللّه سبحانه يصف حال الناس هكذا، كما مثّل الجنّة فى الآية (۱۵) من سورة محمّد: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ

و على أية حال، فالذى يستفاد من هذه الآية جيدا، أنّنا كلما اقتربنا من الحق اقتربنا من الإيمان، و سنكون أبعد عن حقيقة الإيمان و أقرب إلى الكفر بتلك النسبة التى تميل بها أعمالنا نحو الباطل، فإنّ أساسى الإيمان و الكفر هما الحق و الباطل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۱

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (۴) سَيَهْدِيهِمْ وَ يُصْلِحُ بالَهُمْ (۵) وَ يُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (۶)

التّفسير

يجب الحزم فى ساحة الحرب:

كما قلنا سائقا، فإنّ الآيات السابقة كانت مقدمة لتهيئة المسلمين من أجل إصدار أمر حربى مهم ذكر فى الآيات مورد البحث، فتقول الآية: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ ۲۹۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۲

من البديهى أن «ضرب الرقاب» كناية عن القتل، و على هذا فلا ضرورة لأن يبذل المقاتلون قصارى جهدهم لأداء هذا الأمر بالخصوص، فإنّ الهدف هو دحر العدو و القضاء عليه، و لما كان ضرب الرقاب أوضح مصداق له، فقد أكّدت الآية عليه.

و على أيـة حال، فإنّ هـذا الحكم مرتبط بساحـة القتال، لأنّ «لقيتم»- من مادة اللقاء- تعنى الحرب و القتال فى مثل هذه الموارد، و فى نفس هذه الآية قرائن عديدة تشـهد لهذا المعنى كمسألة أسـر الأسرى، و لفظة الحرب، و الشهادة فى سبيل اللّه، و التى وردت فى ذيل الآية.

و خلاصـة القول: إنّ اللقاء يسـتعمل- أحيانا- بمعنى اللقاء بأى شـكل كان، و أحيانا بمعنى المواجهـة و المجابهـة فى ميدان الحرب، و استعمل فى القرآن المجيد بكلا المعنيين، و الآية مورد البحث ناظرة إلى المعنى الثّانى.

و من هنا يتّضح أنّ أولئك الذين حوّروا هذه الآية و فسّروها بأنّ الإسلام يقول:

حيثما وجـدتم كافرا فاقتلوه، لم يريـدوا إلّا الإساءة إلى الإسـلام، و اتخاذ الآية بمعناها المحرّف حربة ضد الدين الحنيف، محاولة منهم لتشويه صورة الإسلام الناصعة، و إلّا فإنّ الآية صريحة فى اللقاء فى ساحة الحرب و ميدان القتال.

من البـديهى أنّ الإنسان إذا واجه عدوا شـرسا فى ميدان القتال، و لم يقابله بحزم و لم يكل له الضـربات القاصـمة و لم يذقه حرّ سـيفه ليهلكه، فإنّه هو الذى سيهلك، و هذا القانون منطقى تماما.

ثمّ تضيف الآية: حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ

«أثخنتموهم» من مادة ثخن، بمعنى الغلظة و الصلابة، و لهذا تطلق على النصر و الغلبة الواضحة، و السيطرة الكاملة على العدو.

و بالرغم من أنّ أغلب المفسّـرين فسّـروا هذه الجملة بكثرة القتل فى العدو و شدّته، إلّا أنّ هذا المعنى لا يوجد فى أصلها اللغوى، كما قلنا، و لكن لمّا كان دفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۳

خطر العدو غير ممكن أحيانا إلّا بكثرة القتل فيه، فيمكن أن تكون مسألة القتل أحد مصاديق هذه الجملة فى مثل هذه الظروف، لا أنّها معناها الأصلى ۳۰۰].

و على كلّ حال، فإنّ الآية المذكورة تبيّن تعليما عسكريا دقيقا، و هو أنّه يجب أن لا يقدم على أسر الأسرى قبل تحطيم صفوف العدو و القضاء على آخر حصن لمقاومته، لأنّ الإقدام على الأسـر قد يكون سـببا فى تزلزل وضع المسـلمين فى الحرب، و سـيعوق المسلمين الاهتمام بأمر الأسرى و نقلهم إلى خلف الجبهات عن أداء واجبهم الأساسى.

و عبارة فَشُـدُّوا الْوَثاقَ و بملاحظـة أنّ الوثاق هو الحبل، أو كلّ ما يربط به، يشـير الى إتقان العمل فى شـدّ وثاق الأسـرى، لئلا يسـتغل الأسير فرصة يفر فيها، ثمّ يوجّه ضربة إلى الإسلام و المسلمين.

و تبيّن الجملـة التاليـة حكم أسـرى الحرب الـذى يجب أن يقام بحقّهم بعـد انتهاء الحرب، فتقول: فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَ إِمَّا فِداءً و على هذا لا يمكن قتل الأسـير الحربى بعد انتهاء الحرب، بل إنّ ولى أمر المسلمين- طبقا للمصلحة التى يراها- يطلق سراحهم مقابل عوض أحيانا، و بلا عوض أحيانا أخرى، و هذا العوض- فى الحقيقة- نوع من الغرامة الحربية التى يجب أن يدفعها العدو.

طبعا يوجد حكم ثالث فى الإسـلام فيما يتعلق بهذا الموضوع، و هو اسـتعباد الأسرى، إلّا أنّه ليس أمرا واجبا، بل هو راجع إلى ولى أمر المسلمين ينفّذه عند ما يراه ضرورة فى ظروف خاصة، و لعلّه لم يرد فى القرآن بصراحة لهذا السبب، بل بيّنته الرّوايات الإسلامية فقط.

يقول فقيهنا المعروف «الفاضل المقداد» فى «كنز العرفان»: إنّ ما روى عن مذهب أهل البيت عليهم السّلام أنّ الأسير لو أسر بعد انتهاء الحرب فإنّ إمام المسلمين مخيّر بين ثلاث: إمّا إطلاقه دون شرط، أو تحريره مقابل أخذ الفدية، أو جعله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۴

عبدا، و لا يجوز قتله بأى وجه.

و يقول فى موضع آخر من كلامه: إنّ مسألة الرق استفيدت من الروايات، لا من متن الآية[۳۰۱].

و قد وردت هذه المسألة فى سائر الكتب الفقهية أيضا[۳۰۲].

و سنشير إلى هذا المطلب فى بحث الرق الذى سيأتى فى ذيل هذه الآيات.

ثمّ تضيف الآية بعد ذلك: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها[۳۰۳] فلا تكفوا عن القتال حتى تحطّموا قوى العدو و يصبح عاجزا عن مواجهتكم، و عندها سيخمد لهيب الحرب.

«الأوزار» جمع وزر، و هو الحمل الثقيل، و يطلق أحيانا على المعاصى، لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

و الطريف أنّ هذه الأوزار نسبت إلى الحرب فى الآية، إذ تقول: حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها و هذه الأحمال الثقيلة كناية عن أنواع الأسلحة و المشاكل الملقاة على عاتق المقاتلين، و التى يواجهونها، و هى بعهدتهم ما كانت الحرب قائمة.

لكن متى تنتهى الحرب بين الإسلام و الكفر؟

سؤال أجاب عنه المفسّرون إجابات مختلفة:

فالبعض- كابن عباس- قال: حتى لا تبقى و ثنية على وجه البسيطة، و حتى يقتلع دين الشرك و تجتث جذوره.

و قال البعض الآخر: إنّ الحرب بين الإسلام و الكفر قائمة حتى ينتصر المسلمون على الدجال، و هذا القول يستند إلى حديث روى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و الجهاد ماض مذ بعثنى اللّه إلى أن يقاتل آخر أمّتى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۵

الدجال»[۳۰۴].

البحث حول «الدجّال» بحث واسع، لكن القدر المعلوم أنّ الدجّال رجل خدّاع، أو رجال خدّاعون ينشطون فى آخر الزمان من أجل إضلال الناس عن أصل التوحيد و الحق و العدالة، و سيقضى عليهم المهدى (عج) بقدرته العظيمة، و على هذا فإنّ الحرب قائمة بين الحق و الباطل ما عاش الدجّالون على وجه الأرض.

إنّ للإسلام نوعين من المحاربة مع الكفر: أحدهما الحروب المرحلية كالغزوات التى غزاها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كانت السيوف تغمد بعد انتهاء كل غزوة. و الآخر هو الحرب المستمرة ضد الشرك و الكفر، و الظلم و الفساد، و هذا النوع مستمر حتى زمن اتساع حكومة العدل العالمية، و ظهورها على الأرض جميعا على يد المهدى (عج).

ثمّ تضيف الآية: ذلِكَ وَ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ۳۰۵] بالصواعق السماوية، و الزلازل، و العواصف، و الابتلاءات الأخرى، لكن باب الاختبار و ميدانه سيغلق فى هذه الصورة: وَ لكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ

هذه المسألة هى فلسفة الحرب، و النكتة الأساسية فى صراع الحق و الباطل، ففى هذه الحروب ستتميز صفوف المؤمنين الحقيقيين و العاملين من أجل دينهم عن المتكلمين فى المجالس المتخاذلين فى ساعة العسرة، و بذلك ستتفتح براعم الاستعدادات، و تحيا قوّة الاستقامة و الرجولة، و يتحقق الهدف الأصلى للحياة الدنيا، و هو الابتلاء و تنمية قوّة الإيمان و القيم الإنسانية الأخرى.

إذا كان المؤمنون يتوقعون على ذواتهم و ينشغلون بالحياة اليومية الرتيبة، و فى كل مرة تطغى فيها جماعة من المشركين و الظالمين يدحضهم اللّه سبحانه بالقوى الغيبية، و يدمّرهم بالطرق الإعجازية، فإنّ المجتمع سيكون خاملا ضعيفا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۶

عاجزا، ليس له من الإسلام و الإيمان إلّا اسمه.

و خلاصة القول: إنّ اللّه سبحانه غنى عن سعينا و جهادنا من أجل تثبيت دعائم دينه، بل نحن الذين نتربّى فى ميدان جهاد الأعداء، و نحن الذين نحتاج إلى هذا الجهاد المقدّس.

و قد ذكر هذا المعنى فى آيات القرآن الأخرى بصيغ أخرى، فنقرأ فى الآية (۱۴۲) من سورة آل عمران: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمَ الصَّابِرِينَ

و جاء فی الآیة التی سبقتها: وَ لِیُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ یَمْحَقَ الْکافِرِینَ

و تحدّثت آخر جملة من الآیة مورد البحث عن الشهداء الذین قدّموا أرواحهم هدیة لدینهم فی هذه الحروب، و لهم فضل کبیر علی المجتمع الإسلامی، فقالت:

وَ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ فَلَنْ یُضِلَّ أَعْمالَهُمْ

فلن تذهب جهودهم و آلامهم و تضحیاتهم سدی، بل کلها محفوظة عند اللّه سبحانه، فستبقی آثار تضحیاتهم فی هذه الدنیا، و کلّ نداء (لا إله إلّا اللّه) یطرق سمع البشر یمثل ثمرة جهود أولئک الشهداء، و کلّ سجدة یسجدها مسلم بین یدی اللّه هی من برکات تضحیاتهم، فبمساعیهم تحطّمت قیود المذلّة و العبودیة، و عزّة المسلمین و رفعتهم رهینة ما بذلوه من الأرواح و التضحیات.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۳۲۶

ه هی أحدی مواهب اللّه فی شأن الشهداء.

و هناک ثلاث مواهب أخری أضیفت فی الآیات التالیة:

تقول الآیة أوّلا: سَیَهْدِیهِمْ إلی المقامات السامیة، و الفوز العظیم، و رضوان اللّه تعالی.

و الأخری: یُصْلِحُ بالَهُمْ فیهبهم هدوء الروح، و اطمئنان الخاطر، و النشاط المعنوی و الروحی، و الانسجام مع صفاء ملائکة اللّه و معنویاتهم، حیث یجعلهم جلساءهم و ندماءهم فی مجالس أنسهم و لذّتهم، و یدعوهم إلی ضیافته فی جوار

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۷

رحمته.

و الموهبة الأخیرة هی: وَ یُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ

قال بعض المفسّرین: إنّه تعالی لم یبیّن لهم الصفات الکلیة للجنّات العلی و روضة الرضوان و حسب، بل عرف لهم صفات قصورهم فی الجنّة و علاماتها، بحیث أنّهم عند ما یردون الجنّة یتوجّهون إلی قصورهم مباشرة[۳۰۶].

و فسر البعض (عرّفها) بأنّها من مادة «عرف»- علی زنة فکر- و هو العطر الطیب الرائحة، أی إنّ اللّه سبحانه سیدخلهم الجنّة التی عطّرها جمیعا استقبالا لضیوفه.

إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو هو الأنسب.

و قال البعض: إذا ضممنا هذه الآیات إلی آیة: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً[۳۰۷]، سیتّضح أنّ المراد من إصلاح البال إحیاؤهم حیاة یصلحون بها للحضور عند ربّهم بانکشاف الغطاء[۳۰۸].

***

بحوث

۱- مقام الشهداء السامی

تمرّ فی تأریخ الشعوب أیام تحدق الأخطار فیها بتلک الأمم و الشعوب، و لا یمکن دفع هذه الأخطار و الحفاظ علی الأهداف المقدّسة العظیمة إلّا بالتضحیة و الفداء و تقدیم القرابین الکثیرة، و هنا یجب أن یتوجّه المؤمنون المضحّون إلی ساحات القتال، لیحفظوا دین الحق بسفک دمائهم، و یسمی هؤلاء الأفراد فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۸

منطق الإسلام ب «الشهداء».

إنّ إطلاق کلمة الشـهید- من مادة الشـهود- علی هؤلاء، إمّا لحضورهم فی میدان الجهاد ضد أعداء الحق، أو لأنّهم یشاهدون ملائکة الرحمة لحظة شـهادتهم، أو لمشاهدتهم النعم العظیمة التی أعدّت لهم، أو لحضورهم عند اللّه، کما جاء فی الآیة الشریفة: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِینَ قُتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْیاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ یُرْزَقُونَ ۳۰۹].

و قلّ من یصل إلی درجة الشـهید فی الإسـلام .. أولئک الشـهداء الذین یذهبون ساحة الحرب بین الحق و الباطل عن وعی و خلوص نیّة، و یقدّمون آخر قطرة من دمائهم الزکیة فی هذا السبیل.

و تلاحظ فی المصادر الإسلامیة روایات عجیبة حول مقام الشهداء، تحکی عظمة عمل الشهداء، و قیمته الفذّة.

فتقرأ

فی حدیث عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ فوق کلّ بر برا حتی یقتل الرجل شهیدا فی سبیل اللّه»[۳۱۰].

و

جاء فی حدیث آخر روی عنه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «المجاهدون فی اللّه قوّاد أهل الجنّة»[۳۱۱].

و نطالع

فی حـدیث آخر عن الإمـام البـاقر علیه السّـلام: «ما من قطرة أحبّ إلی اللّه من قطرة دم فی سبیل اللّه، أو قطرة من دموع عین فی سواد اللیل من خشیة اللّه، و ما من قدم أحبّ إلی اللّه من خطوة إلی ذی رحم، أو خطوة یتمّ بها زحفا فی سبیل اللّه»[۳۱۲].

و إذا قلبنا أوراق تأریخ الإسلام، فسنری الشهداء قد سجّلوا القسم الأعظم من الافتخارات، و هم الذین قدّموا القسط الأوفر من الخدمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۲۹

و لیس هـذا فی الأـمس فقط، فإنّ ثقافة الشـهادة المصـیریة الیوم ترعب العـدو أیضا، و تمزّق صـفوفه، و تمنعه من النفوذ إلی حصون الإسلام، و تزرع الیأس فی نفسه من إمکان تخطّیها، فما أکثر برکة ثقافة الشهادة للمسلمین، و ما أشدّها علی أعداء الدین.

لکن، لاـ شکّ أنّ الشـهادة لیست هـدفا، بل الهـدف هو الإنتصار علی العـدو، و حراسـة دین اللّه و الحفاظ علیه، إلّا أنّ هؤلاء الحراس علی دینهم یجب أن یکونـوا علی أهبّة الاسـتعداد، بحیث إذا احتـاج الحـال بـذل النفوس و الـدماء فـإنّهم لاـ یتـأخّرون عن بـذلها، بل یبادرون إلی البذل و التضحیة و الإیثار، و هذا هو معنی کون الأمّة منجبة للشهداء، لا أنّهم یطلبون الشهادة کهدف نهائی.

لهذا نقرأ

فی نهایة حدیث مفصل روی عن أمیر المؤمنین علیه السّـلام عن رسول اللّه صـلی اللّه علیه و آله و سلّم فی شأن مقام الشهداء أنّ النّبی صلی اللّه علیه و آله و سـلّم أقسم و قـال: «و الـذی نفسـی بیـده، لو کـان الأنبیاء فی طریقهم لترجلوا لهم لمّا یرون من بهائهم، و یشـفع الرجل منهم فی سبعین ألفا من أهل بیته و جیرته» (۱).

و هناک نکتة تستحق الاهتمام، و هی أنّ للشهادة فی ثقافة الإسلام معنیین مختلفین: معنی «خاص»، و آخر «عام» واسع.

أمّا الخاص فهو القتل فی سبیل اللّه فی معرکة الجهاد، و له أحکامه الخاصة فی الفقه الإسـلامی، و من جملتها أنّ الشـهید لا یغسل و لا یکفن، بـل یـدفن بثیـابه و دمـائه إذا توفی فی میـدان المعرکـة!! أمّا المعنی العام الواسع للشـهادة، فهو أن یقتل الإنسان فی طریق تأدیة الواجب الإلهی، فإنّ کلّ من یرحل عن الدنیا و هو فی حالة أداء هذا الواجب یعد شهیدا، و لذلک ورد فی الروایات الإسلامیة أنّ عدة فئات یغادرون الدنیا و هم شهداء:

۱-

روی عن نبی الإسلام الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا جاء الموت طالب العلم و هو علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۰

هذا الحال مات شهیدا»[۳۱۳].

۲-

یقول أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «من مات علی فراشه و هو علی معرفة حق ربّه، و حق رسوله و أهل بیته، مات شهیدا»[۳۱۴].

۳- نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «من قتل دون ماله فهو شهید»[۳۱۵].

و کذلک آخرون یقتلون فی طریق الحق، أو یموتون فیه، و من هنا تتّضح عظمة ثقافة الإسلام هذه، و مدی سعتها.

و ننهی هذا البحث بحدیث

عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام، عن آبائه عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «أوّل من یدخل الجنّة الشهید»[۳۱۶].

۲- أهداف القتال فی الإسلام

إنّ القتال لا یعتبر فی الإسلام قیمة من القیم، بل یعتبر ضد القیم من جهة کونه باعثا علی الخراب و التدمیر، و إزهاق الأنفس، و إهدار القوی و الإمکانیات التی یمکن أن تسخّر لخدمة الإنسان و سعادته و رفاهه، و لذلک جعل فی بعض الآیات القرآنیة فی مصاف العقوبات الإلهیة، فنری الآیة (۶۵) من سورة الأنعام تقول:

قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلی أَنْ یَبْعَثَ عَلَیْکُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِکُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِکُمْ أَوْ یَلْبِسَکُمْ شِیَعاً وَ یُذِیقَ بَعْضَکُمْ بَأْسَ بَعْضٍ

فقد اعتبر القتال هنا بمثابة الصاعقة و الزلزلة و الابتلاءات الأرضیة و السماویة، و لذلک فإنّ الإسلام یمتنع عن القتال و الحرب ما استطاع إلی ذلک سبیلا.

أمّا إذا تعرّض وجود الأمّة للخطر، أو أنّ أهدافه المقدّسة السامیة أصبحت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۱

مهددة بالسقوط، فإنّ القتال هنا یعتبر قیمة سامیة، و یکتسب عنوان الجهاد فی سبیل اللّه، و لذلک توجد فی الإسلام أنواع من الجهاد: الجهاد الابتدائی، المحرر للأمم، و الجهاد الدفاعی، و الجهاد من أجل إخماد نار الفتنة و الشرک و الوثنیة، و قد أوردنا تفصیلها فی موضع آخر[۳۱۷].

بناء علی هذا فإنّ الجهاد الإسلامی علی خلاف ما یدّعیه أعداء الإسلام من أنّه یعنی فرض العقیدة علی الآخرین، بل إنّ العقیدة المفروضة لا قیمة لها فی الإسلام، لکن الجهاد یتعلق بالموارد التی یشن فیها العدو الحرب ضد الأمّة الإسلامیة، أو عند ما یسلبها الحریات التی منحها اللّه إیّاها، أو أنّه یرید أن یهدر حقوقها و یصادرها، أو أنّ ظالما قد أخذ بأنفاس مظلوم فیجب علی المسلمین حینئذ أن یهبوا لنصرة المظلوم، حتی و إن أدّی الأمر إلی قتال القوم الظالمین.

و قد عکست الآیات السابقة هذا المعنی فی عبارة لطیفة وجیزة، حینما تقول:

ذلِکَ بِأَنَّ الَّذِینَ کَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِینَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ و علی هذا فإنّ الحرب هی حرب بین الحق و الباطل، لا أنّها وسیلة لتکوین الدولة، و محاولة توسیع رقعتها، و الإغارة علی أموال الآخرین، و التسلّط و إعمال القوة و الإرهاب.

و لهذا السبب- أیضا- قرأنا فی الروایة التی أوردناها فی تفسیر هذه الآیات أنّ نار الحرب لن تخمد فی المجتمع الإنسانی إلّا بعد القضاء علی الدجّالین، و تطهیر الأرض من دنسهم.

و هنا نکتة تستحق الانتباه، و هی أنّ الإسلام قد أکّد علی مسألة التعایش السلمی مع أتباع الأدیان السماویة الأخری، و قد وردت فی

الآيات و الرّوايات و الفقه الإسلامى بحوث مفصلة فى هذا الباب تحت عنوان (أحكام أهل الذمّة) فإذا كان الإسلام يؤيّد فرض العقيدة و الإكراه عليها، و يتوسّل بالقوة و السيف من أجل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۲

تحقيق أهدافه، فأى معنى إذن لقانون أهل الذمّة و التعايش السلمى؟

۳- أحكام أسرى الحرب

قلنا: يجب على المسلمين أن لا يفكروا فى أسر أفراد العدو إلّا بعد هزيمة العدو الكاملة و اندحاره التام، لأنّ هذا التفكير و الانشغال بالأسرى قد يتضمّن أخطارا جسيمة.

غير أنّ أسلوب الآيات- مورد البحث- يدل على وجوب الإقدام على أسر أفراد العدو بعد هزيمته، فالآية تقول: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ ثمّ تضيف: حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ و على هذا يجب أسرهم بدل قتلهم بعد الإنتصار عليهم، و هو أمر لا بدّ منه، لأنّ العدو إذا ترك و شأنه فمن الممكن أن ينظم قواه مرّة أخرى ليهجم على المسلمين من جديد.

إلّا أنّ الحال يختلف بعد الأسر، إذ يكون الأسير أمانة إلهية بيد المسلمين رغم كلّ الجرائم التى ارتكبها، و يجب أن تراعى فيه حقوق كثيرة.

إنّ القرآن يمجد أولئك الذين آثروا الأسير على أنفسهم، و قدّموا له طعامهم، فيقول: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً و هذه الآية- طبقا لرواية معروفة- نزلت فى على و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام، إذ كانوا صائمين و أعطوا إفطارهم لمسكين مرّة و ليتيم أخرى، لأسير ثالثة.

و حتى الأسرى الذين يقتلون بعد الحرب استثناء، إمّا لكونهم خطرين، أو لارتكابهم جرائم خاصّة، فإنّ الإسلام أمر أن يحسن إليهم قبل تنفيذ الحكم بحقّهم، كما نرى ذلك

فى حديث عن على عليه السّلام: «إطعام الأسير و الإحسان إليه حق واجب، و إنّ قتلته من الغد»[۳۱۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۳

و الأحاديث فى هذا الباب كثيرة[۳۱۹]، حتى أنّه

ورد فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: «إذا أخذت أسيرا فعجز عن المشى و ليس معك محمل فأرسله و لا تقتله، فإنّك لا تدرى ما حكم الإمام فيه»[۳۲۰].

بل ورد فى التأريخ فى أحوال أئمة أهل البيت عليهم السّلام أنّهم كانوا يطعمون الأسرى من نفس الطعام الذى كانوا يتناولونه.

إلّا أنّ حكم الأسير- و كما قلنا فى تفسير الآيات- بعد انتهاء الحرب أحد ثلاثة: إمّا إطلاق سراحه من دون قيد أو شرط، أو إطلاق سراحه مقابل دفع غرامة مالية هى الفدية، أو استرقاقه، و اختيار أحد هذه الأمور الثلاثة منوط بنظر إمام المسلمين، فهو الذى يختار ما يراه الأصلح بعد الأخذ بنظر الإعتبار ظروف الأسرى، و مصالح الإسلام و المسلمين من الناحية الداخلية و الخارجية، و بعد ذلك يأمر بتنفيذ ما اختاره.

بناء على هذا، فليس لأخذ الفدية أو الاسترقاق صفة الإلزام و الوجوب، بل هما تابعان للمصالح التى يراها إمام المسلمين، فإذا لم تكن مصلحة فيهما فله أن يغض النظر عنهما، و يطلق سراح الأسرى دون طلب الفدية.

و قد بحثنا حول فلسفة أخذ الفدية بصورة مفصلة لدى تفسير الآية ۷۰ من سورة الأنفال.

۴- الرق فی الإسلام

اشارة

بالرغم من أنّ مسألة «استرقاق أسرى الحرب» لم ترد فی القرآن المجید کحکم حتمی، لکن لا یمکن إنکار ورود أحکام فی القرآن فیما یتعلق بالعبید، و هی تثبت وجود أصل الرقیة حتی فی زمان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و صدر الإسلام، کالأحکام المتعلقة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۴

بالزواج من العبید، أو کونهم محرما، أو مسألة المکاتبة (و هی اتفاق یتحرر بموجبه العبد بعد أدائه مبلغا من المال یتفق علیه) و قد وردت هذه الأحکام فی آیات عدیدة من القرآن فی سورة النساء، النحل، المؤمنون، النور، الروم، و الأحزاب.

و هنا یعترض البعض علی الإسلام بأنّه: لماذا لم یلغ هذا الدین الإلهی مسألة الرق تماما مع ما یحتویه من القیم الإنسانیة السامیة، و لم یعلن تحریر کلّ العبید من خلال إصدار حکم قطعی؟! صحیح أنّ الإسلام أوصی کثیرا بالرقیق، إلّا أنّ المهم هو تحریرهم بدون قید شرط، فلما ذا یکون الإنسان مملوکا لإنسان آخر مثله، و یفقد الحریة التی هی أعظم عطایا اللّه سبحانه؟!

الجواب:

یجب القول فی جملة موجزة: إنّ للإسلام برنامجا دقیقا مدروسا لتحریر العبید، تؤدی نهایته إلی تحریر جمیع العبید تدریجیا، دون أن یکون لهذه الحریة ردّ فعل سلبی فی المجتمع.

و قبل أن نتناول توضیح هذه الخطة الإسلامیة الدقیقة، نری لزاما ذکر عدة نقاط کمقدمة:

۱- الإسلام لم یکن المبتدع للرق مطلقا، بل إنّه لمّا ظهر کانت مسألة العبودیة و الرقیق قد عمّت أرجاء العالم، و کانت معجونة بظلام المجتمعات البشریة و بوجودها، بل استمرت مسألة الرقیق فی کلّ المجتمعات حتی بعد الإسلام أیضا، و بقیت مستمرة حتی قبل مائة عام حیث بدأت ثورة تحریر الرقیق، حیث لم تعد مسألة الرقیق مقبولة بشکلها القدیم نتیجة اختلاف نظام حیاة البشر، و تغیره عمّا کان علیه.

إنّ إلغاء العبودیة بدأ من أوربا، ثمّ اتسع فی سائر الدول و من جملتها أمریکا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۵

و آسیا.

لقد استمر الرق فی إنجلترا حتی سنة ۱۸۴۰، و فی فرنسا حتی سنة ۱۸۴۸، و فی هولندا إلی سنة ۱۸۶۳، و فی أمریکا إلی سنة ۱۸۶۵، ثمّ عقد مؤتمر بروکسل فأصدر قرارا بإلغاء الرق فی أنحاء العالم، و کان ذلک سنة ۱۸۹۰، أی قبل أقل من مائة عام.

۲- تغییر شکل الرق فی دنیا الیوم: صحیح أنّ الغربیین کانوا قد سبقوا إلی إلغاء الرق، إلّا أنّنا عند ما نحقق فی المسألة بدقة، نری أنّ الرق لم تقتلع جذوره، بل إنّه تحور من حالة إلی أخری أخطر و أکثر رعبا، أی إنّه اتخذ شکل استعمار الشعوب، و استرقاق المستعمرات، بحیث کلما ضعف الرق الفردی قوی الاسترقاق الجماعی و الاستعمار، فإنّ الإمبراطوریة البریطانیة التی کانت سبّاقة إلی إلغاء الرق، تعتبر السبّاقة أیضا فی استعمار الشعوب.

إنّ الجرائم التی ارتکبها المستعمرون الغربیون طوال مدة استعمارهم لم تکن أقل من جرائم مرحلة العبودیة، بل کانت أوسع و أشدّ إجراما.

و حتی بعد تحرر المستعمرات، فإنّ استعباد الأمم قد استمر، لأنّ هذه الحریة کانت حریة سیاسیة، أمّا الاستعمار الاقتصادی و الثقافی فلا یزال حاکما فی کثیر من المستعمرات التی نالت حریتها، و غیرها.

و أمّا الـدول الشـيوعية التى نادت قبل الجميع بإلغاء العبودية، و اتخذتها ذريعة فى ثورتها، فإنّها بالذات مبتلاة بنوع من الاسترقاق العام الـذى ينـدى له الجبين، فإنّ الشـعوب التى تعيش فى ظل هـذه الـدول تكون كالعبيـد تماما لا يملكون من أمرهم شـيئا، و يعيّن أعضاء الحزب الشـيوعى كـلّ مقـدراتهم و مـا يتعلق بشؤون حيـاتهم، و إذا مـا أبـدى أحـد وجهـة نظر مخالفـة فإمّـا أن يرسـل إلى المخيّمات الإجبارية، أو يلقى فى دهاليز السجون، و إذا كان من العلماء فإنّه يبعث إلى دار المجانين باعتباره مختل العقل و مصابا بمرض نفسى و عصبى.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۶

و الخلاصة: إنّ الرق لا يتبع الاسم، فإنّ القبيح و المرفوض هو محتوى الرق، و نحن نعلم أنّ مفهوم الرق قائم فى الدول الاسـتعمارية و الدول الشيوعية بأسوأ أشكاله.

و النتيجة: إنّ إلغاء الرق فى العالم كان صوريا، و لم يكن فى الحقيقة إلّا تبديل للصورة و الشكل الظاهرى.

۳- مصير الرقيق المؤلم فى الماضى

لقـد كان للرقيق على مرّ التاريخ مصـير مؤلم جدّا، و لنأخذ على سبيل المثال عبيد الرومان- باعتبارهم قوما متمدنين- كنموذج، فإنّهم- على حـدّ قول كـاتب «روح القوانين»- كـانوا تعسـاء بحيث لم يكونوا عبيـدا لفرد، و إنّمـا كـانوا يعتبرون عبيـدا لكـل المجتمع، و كان باسـتطاعة كلّ شـخص أن يعـذّب عبده و يؤذيه كما يحلو له دون خوف من القانون. لقد كانت حياة أولئك أسوأ من حياة الحيوانات فى الواقع.

لقـد كـان الكثير من الرقيق يموتون فى الفترة بين اصـطيادهم من المسـتعمرات الأفريقيـة و حتى عرضـهم فى الأسواق للبيع، و ما تبقى منهم كـان يتخـذ وسـيلة للاسـتغلال فى العمـل. و كان تجار العبيـد الطامعون لا يعطونهم من الغـذاء إلّا ما يبقيهم أحيآء و قادرين على العمـل، أمّـا عنـد كبرهم و عجزهم و ابتلائـهم بأمراض يصـعب علاجها، فإنّهم كانوا يتركونهم و شأنهم ليسـلموا الروح بشـكل أليم. و لذلك كان اسم الرق يقترن بسيل من الجرائم المرعبة على مرّ التاريخ.

و باتضاح هذه النكات نعود إلى خطة الإسلام فى تحريره العبيد تدريجيا، و نتناولها بصورة مختصرة.

۴- خطة الإسلام لتحرير العبيد

اشارة

إنّ ما يغفل عنه غالبا هو أنّ ظاهرة سلبية إذا توغّلت فى مفاصل المجتمع،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۷

فهناك حاجة إلى فترة زمنية لاقتلاع جذورها، و لكلّ حركة غير مدروسة ردّ فعل سلبى، تماما كما إذا ابتلى إنسان بمرض خطير، و قد اسـتفحل هذا المرض فى بدنه، أو من اعتاد على تناول المخدرات لعشـرات السـنين حتى تطبع على هذه الطبيعة المسـتهجنة، ففى هذه الموارد يجب الاعتماد على برامج زمنية لعلاجه قد تطول و قد تقصر.

و نقول بأسلوب أكثر صراحة: لو أنّ الإسلام كان قد أصدر أمرا عاما بتحرير كل العبيد، فربّما كان الضرر أكثر، و قد يهلك منهم عدد أكثر، لأنّ الرقيق كـانوا يشـكلون نصف المجتمع أحيانـا، و ليس لهم عمل مسـتقل يتكسـبون به، و لا دار أو ملجأ، أو وسـيلة ما لإدامة الحياة.

إنّ هؤلاء لو تحرّروا فى ساعة معينة من يوم معين فستظهر على الساحة فجأة جماعة عظيمة عاطلة عن العمل، و عندها ستكون حياتهم مهددة و ربّما أدّى إلى إرباك نظام المجتمع، و عند ما يلح عليه الحرمان فسيجد نفسه مضطرا إلى الهجوم على ممتلكات الآخرين، فتنشب الصراعات و الاشتباكات و نزف الدماء.

هنا ندرك الغاية من التحرير التدريجى، و ذلك ليستوعبهم المجتمع و لا يشمئز منهم، و حينئذ سوف لا تتعرض أرواحهم للخطر، كما لا يتهدد أمن المجتمع، و قد اتبع الإسلام هذا البرنامج الدقيق تماما.

إنّ تطبيق و ترجمة هذا البرنامج الإنسانى على أرض الواقع العملى له قواعد كثيرة نذكر هنا رؤوس نقاطها بصورة موجزة و كفهرس، أمّا تفصيلها فيحتاج إلى كتاب مستقل:

المادة الأولى: غلق مصادر الرق

لقد كان للرق على طول التاريخ أسباب كثيرة، فلم يقتصر الاستبعاد على أسرى الحرب، و المدينين الذين يعجزون عن أداء ديونهم، حيث كانت القوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۸

و الغلبة تبيح الاسترقاق و الاستعباد، بل إنّ الدولة القوية كانت ترسل فرق من جيوشها و هم مدجّجون بأنواع الأسلحة إلى الدول الأفريقية المتخلفة و أمثالها، ليأسروا شعوب تلك الدول جماعات جماعات، ثمّ يرسلونهم بواسطة السفن إلى أسواق بلدان آسيا و أوربا.

لقد منع الإسلام كلّ هذه المسائل، و وقف حائلا دونها، و لم يبح الاسترقاق إلّا فى مورد واحد، و هو أسرى الحرب، و حتى هذا لم يكن يتصف بالوجوب و الإلزام، بل إنّ الإسلام قد أجاز- و كما قلنا فى تفسير الآيات المذكورة- إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية يؤدّونها تبعا لمصلحة الإسلام و المسلمين.

و لم تكن فى تلك الأيام سجون يسجن فيها أسرى الحرب حتى يتبيّن وضعهم و ماذا يجب فعله معهم، بل كان الطريق الوحيد هو تقسيمهم بين العوائل، و الاحتفاظ بهم كرقيق.

من البديهى أنّ هذه الظروف إذا تغيّرت فلا دليل على أنّ إمام المسلمين ملزم بأن يرضى برق الأسرى، بل هو قادر على تحريرهم إمّا منّا أو فداء، لأنّ الإسلام خيّر الإمام المسلمين فى هذا الأمر، كى يقدم على اختيار الأصلح من خلال مراعاة المصلحة، و بهذا فإنّ مصادر الرق الجديدة قد أغلقت فى الإسلام.

المادة الثانية: فتح نافذة الحرية

لقد وضع الإسلام برنامجا واسعا لتحرير العبيد، بحيث أنّ المسلمين لو عملوا بموجبه فإنّ كلّ العبيد كانوا سيتحررون فى مدة وجيزة و بصورة تدريجية، و كان المجتمع سيستوعبهم و يؤمّن لهم ما يحتاجونه من اللوازم الحياتية، من عمل و مسكن و غير ذلك.

و إليك رؤوس نقاط هذا البرنامج:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۳۹

أ- إنّ أحد الموارد الثمانية لصرف الزكاة فى الإسلام شراء العبيد و عتقهم ۳۲۱]، و بهذا فقد خصصت ميزانية دائمية فى بيت المال لتنفيذ هذا الأمر، و هى مستمرة حتى إعتاق العبيد جميعا.

ب- و لتكميل هذا المطلب وضع الإسلام أحكاما يستطيع العبيد من خلالها أن يعقدوا اتفاقيات مع مالكيهم، على أن يؤدّوا إليهم مبلغا من المال يتفق عليه مقابل الحصول على حريتهم. و قد جاء فى الفقه الإسلامى فصل فى هذا الباب تحت عنوان المكاتبة[۳۲۲].

ج- إنّ عتق العبيد يعتبر أحد أهم العبادات و الأعمال الصالحة فى الإسلام، و قد كان أئمة أهل البيت عليهم السّلام من السابقين فى هذا المضمار، حتى كتبوا فى أحوال على عليه السّلام أنّه أعتق ألف مملوك من كد يده ۳۲۳].

د- لقد كان أئمة أهل البيت عليهم السّلام يعتقون العبيد لأدنى عذر ليكونوا قدوة للآخرين، حتى أنّ أحد غلمان الإمام الباقر عليه السّلام عمل عملا صالحا،

فقال له الإمام: «اذهب فأنت حر، فإنّى أكره أن أستخدم رجلا من أهل الجنّة»[۳۲۴].

و جاء فى أحوال الإمام السجاد على بن الحسين عليه السّلام، أنّ جارية كانت تسكب عليه الماء، فسقط الإبريق من يدها فشجّه، فرفع رأسه إليها، فقالت: وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ، قال: «قد كظمت غيظى» قالت: وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ قال: «عفا اللّه عنك»، قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ قال: «فاذهبى فأنت حرّة لوجه اللّه»[۳۲۵].

ه- ورد فى بعض الرّوايات الإسلامية أنّ العبيد يتحرّرون تلقائيا بعد مرور سبع سنين،

ففى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من كان مؤمنا فقد عتق بعد سبع سنين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۰

أعتقه صاحبه أم لم يعتقه، و لا يحل خدمة من كان مؤمنا بعد سبع سنين»[۳۲۶].

و

روى فى هذا الباب حديث من النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «ما زال جبرئيل يوصينى بالمملوك حتى ظننت أنّه سيضرب له أجلا يعتق فيه»[۳۲۷].

و- إذا كان العبد مشتركا بين اثنين، و أعتق أحدهما نصيبه، وجب عليه شراء نصيب شريكه و أعتقا العبد[۳۲۸].

و إذا أعتق مالك العبد بعضه سرت الحرية إلى باقيه فيعتق جميعه ۳۲۹].

ز- إذا ملك إنسان أباه، أو أمّه، أو أجداده، أو أبناءه، أو عمّه، أو عمّته، أو خاله، أو خالته، أو أخاه، أو أخته، أو ابن أخيه، أو ابن أخته، فإنّهم يعتقون فورا.

ح- إذا استولد المالك جاريته فلا يجوز بيعها، و تعتق من سهم ولدها من الميراث. و قد كان هذا الأمر سببا فى عتق الكثير من العبيد، لأنّ الجوارى كن بمنزلة زوجات مالكيهن، و كان لهن أولاد منهم.

ط- لقد جعل عتق العبيد كفارة لكثير من الذنوب من الإسلام، ككفارة القتل الخطأ، و كفارة ترك الصوم عمدا، و كفارة اليمين، و غيرها.

ى- إذا عاقب المالك عبده ببعض العقوبات الشديدة، فإنّ العبد ينعتق تلقائيا[۳۳۰].

المادة الثالثة: إحياء شخصية الرقيق

عند ما كان العبيد يطوون مسيرهم نحو الحرية طبقا لبرنامج الإسلام الدقيق، أقدم الإسلام على خطوات واسعة لإحياء حقوقهم و شخصيتهم الإنسانية، حتى أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۱

لم يفرق أبدا بين العبيد و الأحرار من ناحية الشخصية الإنسانية، و جعل التقوى معيارا للتمييز بينهم، و لذلك أجاز للعبيد أن يتقلّدوا مسئوليات مهمّة، و يتسنّموا مناصب اجتماعية مهمّة، حتى أنّ العبيد يمكنهم أن يشغلوا منصب القضاء[۳۳۱].

و قد أنيطت بالعبيد فى زمن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مراكز هامة و حسّاسة، ابتداء من قيادة الجيش، و حتى المناصب

الحسّاسة الأخرى.

و قد كان الكثير من كبار صحابة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عبيدا، أو رقيقا أعتقوا، و كان الكثير منهم يؤدّون واجبهم كمستشارين و معاونين لعظماء الإسلام و قادته، و يمكن ذكر أسماء سلمان و بلال و عمار بن ياسر و قنبر من ضمن هذه القافلة.

و بعد أن انتهت غزوة بنى المصطلق تزوّج النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بجارية عتيقة من هذه القبيلة، و كان هذا الزواج سببا فى إطلاق سراح كلّ أسرى القبيلة.

المادة الرابعة: المعاملة الإنسانية مع العبيد

لقد وردت فى الإسلام تعليمات كثيرة حول الرفق بالعبيد و مداراتهم، حتى أنّها أشركتهم فى حياة مالكيهم.

يقول النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إخوانكم جعلهم اللّه تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل، و ليكسه ممّا يلبس، و لا يكلفه ما يغلبه، فإن كان ما يغلبه فليعنه»[۳۳۲].

و

يقول على عليه السّلام لغلامه قنبر: «أنا أستحيى من ربّى أن أتفضل عليك، لأنّ رسول اللّه يقول: ألبسوهم ممّا يلبسون، و أطعموهم ممّا تأكلون»[۳۳۳].

و

يقول الإمام الصادق عليه السّلام: «و إن كان أبى ليأمرهم- أى غلمانه- فيقول: كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۲

أنتم، فيأتى، فإن كان ثقيلا قال: بسم اللّه، ثمّ عمل معهم»[۳۳۴].

لقد كانت معاملة الإسلام مع العبيد فى هذه المرحلة الانتقالية حسنة إلى الحدّ الذى أكّد عليها حتى الغرباء عن الإسلام و حمدوها و مجّدوها.

و كنموذج لذلك نذكر ما يقوله «جرجى زيدان» فى تأريخ تمدّنه: إنّ الإسلام رحيم بالعبيد كلّ الرحمة، و قد أوصى نبىّ الإسلام بالعبيد كثيرا، و من جملة ما قاله:

لا تكلفوا العبد ما لا يطيق، و أطعموه ممّا تأكلون.

و يقول فى موضع آخر: لا- تنادوا مماليككم بيا غلام، و يا جارية، بل قولوا: يا بنى، و يا ابنتى! و القرآن أيضا أوصى بالرقيق وصايا رائعة، فهو يقول: اعبدوا اللّه و لا تشركوا به شيئا، و لا تعاملوا آباءكم و أمّهاتكم و أولى أرحامكم و اليتامى و الفقراء و الجيران، البعيد منهم و القريب، و الأصدقاء، و المشرّدين، و الرقيق، إلّا بالحسنى، فإنّ اللّه لا يرضى بالعجب و الرضى من النفس ۳۳۵].

المادة الخامسة: أقبح الأعمال بيع الإنسان

يعد بيع العبيد و شراؤهم من أبغض المعاملات فى الإسلام، حتى ورد فى

حديث عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «شرّ الناس من باع الناس»[۳۳۶].

و هذا التعبير كاف لتوضيح وجهة نظر الإسلام فى شأن العبيد، و يبيّن اتجاه حركة البرامج الإسلامية، و ما تريد تحقيقه و الوصول إليه.

و الأروع من ذلك أنّ الإسلام قد اعتبر سلب حرية البشر، و تبديلهم إلى سلعة تباع و تشترى، من الذنوب التى لا تغفر،

فقد ورد فى حديث عن نبىّ الإسلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۳

الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّ اللّه تعالى غافر كلّ ذنب إلّا من جحد مهرا، أو اغتصب أجيرا أجره، أو باع رجلا حرا»[۳۳۷].

و طبقا لهذا الحديث فإنّ اغتصاب حقوق النساء، و العمال، و سلب حرية البشر ثلاثة ذنوب لا تغفر.

و كما قلنا سابقا، فإنّ الإسلام لم يبح الاسترقاق إلّا فى مورد أسرى الحرب، و حتى فى هذا المورد لا يكون الاسترقاق إلزاميا، و كان ذلك فى عصر ظهور الإسلام، غير أنّنا نرى العبودية و الاسترقاق متفشّية فى الدول الغربية بعد عدّة قرون من ظهور الإسلام حيث كان المستعمرون يشنّون الحملات و الهجمات الشرسة على بلدان السود، و يقبضون على البشر الأحرار و يحوّلونهم إلى رقيق يباعون و يشترون، و قد بلغ بيع و شراء العبيد حدّا رهيبا، بحيث كان يباع فى كلّ سنة (۰۰۰، ۲۰۰) عبدا فى بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر، و كانوا يأخذون مائة ألف نسمة من أفريقيا كل عام، و يرسلونهم إلى أمريكا كعبيد[۳۳۸].

و خلاصة القول: إنّ الذين يعترضون على برنامج الإسلام فى مسألة الرقيق قد سمعوا كلاما لم يتأمّلوا فيه، و لم يطّلعوا الاطلاع الكافى على أصول البرنامج و هدفه، و هو «تحرير العبيد تدريجيا»، و من دون خسائر، أو إنّهم وقعوا تحت تأثير المغرضين الذين يظنون أنّ هذه نقطة ضعف كبيرة فى الإسلام، و طلبوا لها و زمروا، و سخّروا لها وسائل الإعلام، إلّا أنّ الظنّ لا يغنى من الحق شيئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۷ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (۷) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (۸) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۹) أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (۱۰) ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (۱۱)

التّفسير

إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ: تستمر هذه الآيات فى ترغيب المؤمنين فى جهاد أعداء الحق، و هى ترغّبهم فى الجهاد بتعبير رائع بليغ، فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ

إنّ التأكيد على مسألة «الإيمان» إشارة إلى أنّ إحدى علامات الإيمان الحقيقى هو جهاد أعداء الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۵

و عبارة تَنْصُرُوا اللَّهَ تعنى- بوضوح- نصرة دينه، و نصرة نبيّه، و شريعته و تعليماته، و لذلك وردت نصرة اللّه إلى جانب نصرة رسوله فى بعض آيات القرآن الكريم، كما نقرأ فى الآية (۸) من سورة الحشر: وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

و مع أنّ قدرة اللّه سبحانه غير محدودة، و لا قيمة لقدرة المخلوقات حيال قدرته، غير أنّه يعبّر بنصرة اللّه ليوضح أهمية الجهاد و الدفاع عن دين اللّه، و لا يوجد تعبير أعظم من هذا لتبيان أهمية هذا الموضوع.

و لنر ما هو هذا الوعد الذى وعد اللّه به المجاهدين إذا ما دافعوا عن دينه؟

يقول أوّلا- يَنْصُرْكُمْ أمّا كيف يتمّ ذلك؟ فإنّ الطرق كثيرة، فهو سبحانه يلقى فى قلوبكم نور الإيمان، و فى نفوسكم و أرواحكم التقوى، و فى إرادتكم القوّة و التصميم أكثر، و فى أفكاركم الهدوء و الاطمئنان.

و من جانب آخر يرسل الملائكة لمدكم و نصرتكم، و يغيّر مسار الحوادث لصالحكم، و يجعل أفئدة الناس تهوى إليكم، و يجعل كلماتكم نافذة فى القلوب، و يصيّر نشاطاتكم و جهودكم مثمرة. نعم، إنّ نصرة اللّه تحيط بالجسم و الروح، من الداخل و الخارج.

إلّا أنّه سبحانه يؤكّد على مسألة تثبيت الأقدام من بين كلّ أشكال النصرة، و ذلك لأنّ الثبات أمام العدو أهم رمز للانتصار، و إنّما يكسب الحرب الذين يصمدون و يستقيمون أكثر، و لذلك نقرأ فى قصة محاربة طالوت- القائد العظيم لبنى إسرائيل- لجالوت- المتسلّط الجائر القوى- أنّ المؤمنين القليلين الذين كانوا معه عند ما واجهوا جيش العدو الجرار، قالوا: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ ثَبِّتْ أَقْدامَنا وَ انْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ

و نقرأ فى الآية التى بعدها: فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ

أجل، إنّ نتيجة ثبات القدم هى النصر المؤزّر على العدو.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۶

و لمّا كانت حشود العدو العظيمة، و أنواع معداتهم و تجهيزاتهم قد تشغل فكر المجاهدين فى سبيل اللّه أحيانا، فإنّ الآية التالية تضيف: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ ۳۳۹].

«تعس»- على وزن نحس- بمعنى الانزلاق و الهوى، و ما فسّره البعض بأنّه الهلاك و الانحطاط، فهو لازمه فى الواقع لا معناه.

و على كلّ حال، فإنّ المقارنة بين هذين الفريقين عميقة المعنى جدّا، فالقرآن يقول فى شأن المؤمنين يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ و فى شأن الكافرين أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ

و بصيغة اللعنة، ليكون التعبير أبلغ و أكثر جاذبية و تأثيرا.

نعم، إنّ الكافرين إذا انزلقوا و زلّت أقدامهم، فليس هناك من يأخذ بأيديهم لينقذهم من الهلكة، بل إنّهم سينحدرون إلى الهاوية سريعا و بسهولة، أمّا المؤمنون، فإنّ الملائكة الرحمة تهب لنجدتهم و نصرتهم، و يحفظونهم من المنزلقات و المنحدرات، كما نقرأ ذلك فى موضع آخر، حيث تقول الآية (۳۰) من سورة فصلت: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ.

إنّ أعمال المؤمنين مباركة، أمّا أعمال الكافرين فإنّها بائرة و لذلك فهى تزول و تفنى سريعا.

و تبيّن الآية التالية علّة سقوط هؤلاء، و جعل أعمالهم هباء منثورا، فتقول:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ

لقد أنزل اللّه سبحانه دين التوحيد قبل كلّ شىء، إلّا أن هؤلاء نبذوه وراء ظهورهم و أقبلوا نحو الشرك.

لقد أمر اللّه سبحانه بالحق و العدالة، و العفّة و التقوى، غير أنّهم أعرضوا عنها جميعا، و اتجهوا صوب الظلم و الفسّاد، بل إنّهم تشمئز قلوبهم إذا ذكر اسم اللّه تعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۷

وحده: وَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ[۳۴۰].

و إذا كان هؤلاء يتنفّرون من هذه الأمور، فمن الطبيعى أن لا يخطوا خطوة فى هذا المسير، و لقد كانت كلّ مساعيهم و جهودهم فى مسير الباطل و خدمته، فمن الطبيعى أيضا أن تحبط كلّ هذه الأعمال.

و جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «كرهوا ما أنزل اللّه فى حق على»[۳۴۱].

و معلوم أنّ التعبير ما أَنْزَلَ اللَّهُ معنى واسعا، و مسألة ولاية أمير المؤمنين على عليه السّلام أحد مصاديقه الواضحة، لا أنّ معناه منحصر فيها.

و لمّا كان القرآن الكريم فى كثير من الموارد يعرض للظالمين العاصين نماذج محسوسة، فقد دعاهم هنا أيضا إلى التدبّر فى أحوال الماضين، فقال: أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

و من أجل أن لا يظنّ هؤلاء أنّ ذلك المصير المشؤوم كان مختصّا بالأقوام الطاغين الماضين، فقد أضافت الآية: وَ لِلْكافِرِينَ أَمْثالُها[۳۴۲].

فلا يظنّوا أنّهم فى منأى من العقاب المشابه لذلك العقاب إن هم عملوا أعمالا تشابه أعمال الماضين، فليسيروا فى الأرض و لينظروا آثار الذين من قبلهم، ثمّ لينظروا مستقبلهم من خلال سنن التأريخ.

و الجدير بالانتباه أنّ (دمّر) من مادة (تدمير)، و هى من الأصل بمعنى الإهلاك و الإفناء، أمّا إذا أتت مع (على) فإنّها تعنى إهلاك كلّ شىء حتى الأولاد و الأهل و العشيرة و الأموال الخاصّة بالإنسان ۳۴۳]. و على هذا فإنّ هذا التعبير بيان لمصيبة أليمة، خاصة بملاحظة لفظ (على) الذى يستعمل عادة فى مورد التسلط، و بذلك يصبح معنى الجملة، إنّ اللّه عزّ و جلّ قد صبّ عذابه على رؤوس هؤلاء الأقوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۸

و أموالهم و كلّ ما يتعلّق بهم فأفناها جميعا.

و قد بحثنا موضوع «السير فى الأرض»- و الذى يؤكّد عليه القرآن المجيد مرارا كبرنامج توعية مؤثر- بصورة مفصّلة فى ذيل الآية (۱۳۷) من سورة آل عمران، و الآية (۴۵) من سورة الروم.

و تناولت آخر آية- من الآيات مورد البحث- سبب حماية اللّه المطلقة للمؤمنين و دفاعه عنهم، و إهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ ۳۴۴].

«المولى» بمعنى الولى و الناصر، و بذلك فإنّ اللّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين و دفاعه عنهم، و إهلاكه الكافرين الطغاة، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ، مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ ۳۴۵].

«المولى» بمعنى الولى و الناصر، و بذلك فإنّ اللّه سبحانه قد تولّى أمر المؤمنين و نصرتهم، أمّا الكافرون فقد أخرجهم من ظل ولايته، و من الواضح أنّه تعالى يعين أولئك المستظلين بظل ولايته، و يدفع عنهم النوائب، و يزيل عن طريقهم العراقيل، و يثبّت أقدامهم، و أخيرا فإنّهم ينالون مرادهم بنصرة اللّه و معونته. أمّا أولئك الخارجون عن ولايته فإنّ أعمالهم ستحبط، و تكون عاقبتهم الهلاك.

و هنا يأتى سؤال، و هو: إنّ الآية مورد البحث قد ذكرت أنّ اللّه سبحانه مولى المؤمنين فقط، فى حين أنّه سبحانه وصف فى بعض آيات القرآن الأخرى بأنّه مولى الجميع حتى الكافرين، كما فى الآية (۳۰) من سورة سورة يونس حيث تقول: وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ

و تتّضح الإجابة على هذا السؤال بملاحظة نكتة واحدة، و هى: إنّ ولاية اللّه العامّة- و هى كونها خالقا مدبّرا- تعم الجميع، أمّا الولاية الخاصّة، و عنايته الخاصة المقترنة بأنواع الحماية و النصرة، فإنّها لا تشمل إلّا المؤمنين ۳۴۶].

و قال البعض: إنّ هذه الآية أرجى آية فى القرآن، لأنّها أدخلت كلّ المؤمنين،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۴۹

العالم منهم و الجاهل، الزاهد و الراغب، الصغير و الكبير، المرأة و الرجل، الشاب و الكهل، أدخلتهم تحت حماية اللّه و رعايته الخاصة، و لم تستثن حتى المؤمنين العاصين، فهو سبحانه يظهر رعايته فى المواقف الحسّاسة و اللحظات الحرجة، و الحوادث و المصائب و النكبات، و كلّ فرد منّا قد أحسّ بهذه الرعاية طيلة مدة حياته، و فى التأريخ شواهد كثيرة على ذلك.

و

قد ورد فى حديث أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان بعد غزوة تحت شجرة وحيدا فحمل عليه مشرك بسيف فقال له: من يخلّصك منّى؟ فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «اللّه» فسقط المشرك- فأخذت الكافر رعدة، و هوى على الأرض- السيف، فأخذه النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له: «فمن يخلّصك منّى»؟ قال: لا أحد، ثمّ أسلم ۳۴۷].

نعم، اللّه مولى الذين آمنوا، و إنّ الكافرين لا مولى لهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۰

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (۱۲) وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (۱۳) أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۴)

التّفسير

عاقبة المؤمنين و الكافرين:

لمّا كانت الآيات السابقة تتحدّث عن الصراع الدائم بين الحق و الباطل، و الإيمان و الكفر، فإنّ الآيات مورد البحث تبيّن عاقبة المؤمنين و الكفّار من خلال مقارنة واضحة، و هى بذلك تريد أن توضح أنّ هذين الفريقين لا يختلفان فى الحياة الدنيا و حسب، بل إنّ الاختلاف بينهما سيكون أوسع فى الآخرة، فتقول:

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۱

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَ يَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ ۳۴۸].

صحيح أنّ كلا الفريقين يعيشون فى الدنيا، و يتنعّمون بمواهبها و لذّاتها، إلّا أنّ الفرق يكمن فى أنّ هدف المؤمنين هو القيام بالأعمال الصالحة، و الأعمال المفيدة البنّاءة لجلب رضى اللّه تعالى. أمّا الكافرون فإنّ هدفهم ينصب على الأكل و الشرب و النوم و التمتّع بالذّات الحياة.

المؤمنون يتحرّكون حركة واعية هادفة، و الكافرون يحيون بلا هدف، و يموتون بلا هدف، كالأنعام تماما.

المؤمنون يضعون شروطا كثيرة للتمتع بنعم الحياة، فهم يدقّقون فى مشروعية طرق الحصول عليها، كما يدقّقون كيف ينفقونها، أمّا الكافرون فإنّهم كالدّواب لا يهمها أن يكون علفها من أرض صاحبها أن يكون مغصوبا، و سواء كان من حق يتيم أو عجوز بائسة أم لا؟

عند ما يتنعّم المؤمنون بنعمة، فإنّهم يفكّرون فى واهبها، و يتدبّرون فى آياته، و يشكرونه عليها، أمّا الكافر الغافل فلا يفكّر فى أى شىء لغفلته، و هو يضيف إلى حمله حملا جديدا من الظلم و الذنوب باستمرار، و يدنى نفسه من الهلاك بعد أن تثقله الأوزار، حاله فى ذلك حال الأغنام السمينة، فهى كلّما تأكل أكثر، و تسمن أكثر، تكون أقرب إلى الذبح.

و قال البعض: إنّ الفرق بين المؤمنين و الكافرين، أنّ المؤمن لا يخلو أكله من ثلاث: الورع عند الطلب، و استعمال الأدب، و الأكل للسبب. و الكافر يطلب للنهمة، و يأكل للشهوة، و عيشه فى غفلة.

و ممّا يستحق الانتباه أنّ القرآن الكريم يقول فى شأن المؤمنين: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ و يقول فى الكافرين وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ فإنّ التعبير الأوّل يدلّ على احترام المؤمنين و تقديرهم، و إنّ اللّه سبحانه يدخلهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۲

الجنّة، أمّا التعبير الثّانى، فإنّه يوحى باحتقار الكفّار الذين خرجوا من ولايته، و عدم الاهتمام بهم.

و استفاد بعض المفسّرين من جملة: وَ النَّارُ مَثْوىً لَهُمْ أى محلهم النّار- أنّهم الآن فى النّار، لأنّ الجملة ليست بصيغة الفعل المضارع و المستقبل، و إنّما هى تخبر عن الحال.

و الحقيقة كذلك، لأنّ أعمال هؤلاء و أفكارهم نار بحد ذاتها، و هم مبتلون بها، و قد أحاطت بهم جهنّم من كلّ مكان، و إن كان هؤلاء الذين هم كالأنعام فى غفلة، كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۹) من سورة التوبة: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

و فى بعض آيات القرآن الأخرى شبّه أصحاب النّار بالأنعام، بل هم أضلّ منها:

أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ۳۴۹]، و قد أوردنا فى ذيل هذه الآية شرحا مفصّلا.

و من أجل إكمال هذا الهدف تقارن الآية التالية بين مشركى مكّة و عبدة الأوثان الماضين، و بعبارة أوضح، فإنّها تهدّدهم تهديدا شديدا، و تؤكّد ضمنيا على بعض جرائمهم الشنيعة التى تدلّ على جواز قتالهم فتقول: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ

فلا يظنّ هؤلاء أنّ الدنيا مستوسقة لهم إلى درجة أنّهم اجترؤوا على إخراج أشرف رسل اللّه من أقدس المدن، فإنّ الأمر لا يدوم كذلك، فهم بالقياس إلى قوم عاد و ثمود و الفراعنة، و جيش أبرهة موجودات ضعيفة عاجزة، و اللّه قادر على تدميرهم بكلّ سهولة، و القضاء عليهم يسير على اللّه سبحانه.

و

جاء فى رواية عن ابن عباس: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا خرج من مكّة إلى غار ثور، توجّه إلى مكّة و قال: «أنت أحبّ البلاد إلى اللّه، و أنت أحبّ البلاد إلىّ، و لو لا المشركون أهلك أخرجونى لما خرجت منك»

، فنزلت الآية أعلاه تبشّر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۳

بنصر اللّه، و تهدّد الأعداء بالعذاب و العقاب ۳۵۰].

و طبقا لسبب النّزول هذا تكون الآية مكيّة، لكن يبدو أنّ سبب النّزول هذا يتعلّق بالآية (۸۵) من سورة القصص، و قد ذكره كثير من المفسّرين هناك، فهو ينسجم مع تلك الآية أكثر، إذ تقول: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ[۳۵۱].

و الملفت للنظر أنّ الآية نسبت الإخراج إلى نفس مكّة، فى حين أنّ المراد أهلها، و هذه كناية لطيفة عن تسلّط فئة معيّنة، على مقدرات المدينة، و قد ورد نظير ذلك فى مواضع أخرى من القرآن المجيد.

ثمّ إنّ التعبير بالقرية- و كما قلنا ذلك مرارا- يطلق على كلّ مدينة و أرض عامرة مسكونة، و لا يخص المعنى المتعارف للقرية.

و تطرح آخر الآيات- مورد البحث- مقارنة أخرى بين المؤمنين و الكفار ... بين فئتين تختلفان فى كلّ شىء، فإحداهما مؤمنة تعمل الصالحات، و تحيا الاخرى حياة حيوانية بكلّ معنى الكلمة .. بين فريقين، أحدهما مستظل بظل ولاية اللّه سبحانه، و الآخر لا مولى له و لا ناصر، فتقول: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ

إنّ الفريق الأوّل قد اختاروا طريقهم عن معرفة صحيحة، و رؤية واقعية، و عن يقين و دليل و برهان قطعى، و هم يرون طريقهم و هدفهم بوضوح، و يسيرون نحوه بسرعة.

أمّا الفريق الثّانى فقد ابتلوا بسوء التشخيص، و عدم إدراك الواقع، و ظلمة المسير و الهدف، فهم فى ظلمات الأوهام حائرون. و العامل الأساس فى هذه الحيرة و الضلالة هو اتباع الهوى و الشهوات، لأنّ الهوى و الشهوات تلقى الحجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۴

على عقل الإنسان و فكره، فتصوّر له القبيح حسنا، كما نرى أناسا يفخرون بأعمالهم التى ينـدى لها الجبين، و هى وصمة عار فى جباههم، كما جاء ذلك فى الآية (۱۰۳) من سورة الكهف: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً.

«البينة» تعنى الدليل الواضح الجلى، و هى هنا إشارة إلى القرآن، و معاجز الرّسول الأعظم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و الدلائل العقلية الأخرى.

و من الواضح أنّ الاستفهام فى جملة: أَ فَمَنْ كانَ ... استفهام إنكارى، أى إنّ هذين الفريقين لا يتساويان أبدا.

و لكن من الذى يزيّن أعمال السوء فى أنظار عبدة الهوى و متبعيه؟ أهو اللّه سبحانه، أم هم أنفسهم، أم الشياطين؟

ينبغى أن يقال: إنّها تصح جميعا، لأنّ التزيين نسب إلى الثلاثة فى آيات القرآن، فتقول الآية (۴) من سورة النمل: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ

و جاء فى آيات عديدة أخرى، و من جملتها الآية (۳۸) من سورة العنكبوت، التى تقول: وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ

و ظاهر الآية مورد البحث، و بملاحظة الجملة: وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ أنّ هذا التزيين ناشئ عن اتباع الهوى، و قضية كون الهوى و الشهوات تسلب الإنسان القدرة على الحس و التشخيص و الإدراك الصحيح للحقائق، قضية يمكن إدراكها بوضوح.

إنّ نسبة التزيين إلى الشيطان- طبعا- صحيحة أيضا، لأنّه هو الذى ينصب المكائد و يوسوس للإنسان أن يلجها، و يزيّن له اتباع الهوى.

و أمّا نسبته إلى اللّه سبحانه فلأنّه مسبب الأسباب، و إليه يرجع كلّ سبب، فهو الذى أعطى النّار الأحراق، و منح الهوى قدرة تغطية الحقائق و إلقاء الحجب عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۵

لئلا يدركها من يتبعه، و قد أظهر هذا التأثير و أعلنه من قبل، و لذلك فإنّ أصل المسؤولية يرجع إلى نفس الإنسان.

و يعتقد البعض أنّ جملة: أَ فَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ إشارة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الجملة التالية ناظرة إلى كفار مكّة، غير أنّ الظاهر هو أنّ للآية معنى واسعا، و هذا من مصاديقه.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۶

الآية [سورة محمد (۴۷): آية ۱۵]

اشارة

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (۱۵)

التّفسير

وصف آخر للجنّة:

إنّ هذه الآية وصف لمصير كلّ من المؤمنين و الكافرين، فالفئة الأولى الذين يعملون الصالحات، و الثانية زيّن لهم سوء أعمالهم.

و قد رفعت هذه الآية الغطاء عن ستة أنواع من نعم أهل النعيم، و عن نوعين من أنواع العذاب الأليم لأصحاب الجحيم، و هى تحدد

عاقبة كلا الفريقين و توضحها.

تتحدث الآية عن أربعة أنهار فى الجنّة، لكلّ منها سائله و محتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواكه الجنّة، و أخيرا عن بعض المواهب المعنوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۷

تقول الآية أوّلا: مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ ۳۵۲].

«الآسن» يعنى النتن، و بناء على هذا، فإنّ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ تعنى الماء الذى لا يتغيّر طعمه و رائحته لطول بقائه و غيره ذلك، و هذا أوّل نهر من أنهار الجنّة، و فيه ماء زلال جار طيب الطعم و الرائحة.

ثمّ تضيف: وَ أَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ و ذلك أنّ الجنّة مكان لا يعتريه الفساد، و لا تتغيّر أطعمة الجنّة بمرور الزمن، و إنّما تتغيّر الأطعمة فى هذه الحياة الدنيا، لوجود أنواع الميكروبات التى تفسد المواد الغذائية بسرعة.

ثمّ تطرّقت إلى ثالث نهر من أنهار الجنّة، فقالت: وَ أَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

و أخيرا تبيّن الآية رابع أنهار الجنّة بأنّه: وَ أَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى

و علاوة على هذه الأنهار المختلفة التى خلق كلّ منها لغرض، فقد تحدّثت الآية عن فواكه الجنّة فى الموهبة الخامسة، فقالت الآية: وَ لَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ۳۵۳] فستوضع بين أيديهم و تحت تصرفهم كلّ الثمرات و الفواكه المتنوّعة الطعم و الرائحة، سواء التى يمكن تصوّرها، أو التى لا يمكن أن تخطر على أذهاننا اليوم و يصعب تصوّرها.

و أخيرا تتحدث عن الموهبة السادسة التى تختلف عن المواهب المادية السابقة، إذ أنّ هذه الهبة معنوية روحية، فتقول: وَ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ إذ ستمحو رحمته الواسعة كل هفواتهم و سقطاتهم، و سيمنحهم اللّه الاطمئنان و الهدوء و الرضى، و يجعلهم من المرضيين عنده و المحبّبين إليه، و سيكونون مصداق لقوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۸

تعالى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۳۵۴].

و بذلك فإنّ المؤمنين الطاهرين الصالحين يتمتّعون بأنواع المواهب المادية و المعنوية فى الجنان الخالدة، و فى جوار رحمة اللّه.

و لنر الآن ماذا سيكون مصير الفريق المقابل للمؤمنين، أى الكفار؟

تقول الآية متابعة لحديثها: كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ ۳۵۵].

«الأمعاء» جمع «معى»- على وزن سعى- و «معا»- على وزن غنا- و تطلق أحيانا على كلّ ما فى البطن، و تقطيعها إشارة إلى شدّة حرارة هذا الشراب الجهنّمى المرعب، و قوّة إحراقه.

***

ملاحظات

۱- أنهار الجنّة الأربعة

يستفاد من آيات القرآن المجيد جيدا أنّ فى الجنّة أنهارا و عيونا مختلفة، و لكلّ منها فائدة و لذّة خاصّة، و قد ورد ذكر أربعة نماذج منها فى الآية المذكورة، و ستأتى نماذج أخرى فى سورة الدهر، و سنذكرها فى تفسيرها، إن شاء اللّه تعالى.

إنّ التعبير ب «الأنهار» فى شأن هذه الأنواع الأربعة، يوحى بأنّ كلا منها ليس نهرا واحدا، بل أنهار عديدة.

لقد قلنا مرارا: إنّ نعم الجنّة ليست بالشىء الذى يمكن التحدّث عنه بألفاظ محادثاتنا اليومية فى حياتنا الدنيا، فإنّ هذه الألفاظ قاصرة عن أن تجسدها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۵۹

تماما، أو أن تعبر عنها بما يعكس حقيقتها، و كلّ ما تقدر عليه هو أن ترسم فى الأذهان شبحا باهت اللون عن تلك الحقائق العظيمة.

لقد أشارت الآية- مورد البحث- إلى أنهار الماء و اللبن و الخمر و العسل، إذ يمكن أن يكون الأوّل لرفع العطش، و أمّا الثّانى كغذاء، و الثّالث يبعث النشاط و الحيوية، و الرابعة يوجد القوّة و اللذّة.

و الطريف أنّه يستفاد من آيات القرآن الأخرى أنّ كلّ أصحاب الجنّة لا يشربون من كل هذه الأشربة، بل أنّ لها مراتب يشرب أصحاب كلّ مرتبة من الأشربة الموجودة فى درجتهم، فنقرأ فى الآية (۲۸) من سورة المطففين: عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ

۲- الشراب الطهور

لا يخفى أنّ خمر الجنّة و شرابها لا علاقة له بخمر الدنيا الملوّث مطلقا، بل هو كما يصفه القرآن فى موضع آخر: لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ ۳۵۶]، و ليس فيه إلّا العقل و النشاط و اللذّة الروحية.

۳- أشربة لا يعتريها الفساد

جاء فى وصف أنهار الجنّة مرة أنّ ماءها غَيْرِ آسِنٍ و أخرى لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ و هو يوحى بأنّ أشربه الجنّة و أطعمتها تبقى على طراوتها وجدتها، و لم لا تكون كذلك؟ و إنّما تتغيّر الأطعمة و تفسد بفعل الميكروبات المفسدة، و لولاها فإنّ أطعمة الدنيا تبقى هى الأخرى على حالتها الأولى، و لما لم يكن للموجودات المفسدة مكان فى الجنّة، فإنّ كلّ أشيائها صافية و نظيفة و طرية طازجة دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۰

۴- لماذا الفواكه؟

لقد أكّدت الآية مورد البحث، و كثير من آيات القرآن الأخرى على الفواكه من بين الأطعمة، الفواكه المتنوّعة المذاق، و هذا يبيّن أنّ الفاكهة أهم أغذية الجنّة، و حتى فى هذه الدنيا، فإنّ الفاكهة أفضل و أسلم غذاء للإنسان.

۵- جملة سُقُوا بصيغة الفعل المبنى للمجهول، توضح أنّ أصحاب الجحيم يسقون الماء الحميم بالقوة، لا بإرادتهم، و بدل الارتواء فى تلك النّار المحرقة فإنّه يقطّع أمعاءهم، و كما هى طبيعة الجحيم، فإنّهم يرجعون إلى حالتهم الأولى، حيث لا موت هناك.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۱

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (۱۶) وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ (۱۷) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (۱۸) فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ (۱۹)

التّفسير

ظهرت علامات القيامة!

تعكس هذه الآيات صورة عن وضع المنافقين، و طريق تعاملهم مع الوحى الإلهى، و كلمات النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و مسألة قتال أعداء الإسلام و محاربتهم.

و قد ورد الحديث حول المنافقين فى السور المدنية كثيرا، فى حين لا نرى أثرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۲

للحديث حولهم فى السور المكية، و ذلك لأنّ مسألة النفاق ظهرت بعد انتصار الإسلام و تسلّمه السلطة و القوّة، حيث أصبح المشركون فى موقع ضعف و انهيار، بحيث لم يكن باستطاعتهم إظهار مخالفتهم، و لذلك اضطروا إلى التلبّس بالإسلام ليأمنوا غضب المسلمين الحقيقيين، أمّا فى الباطن فإنّهم لم يألوا جهدا فى التآمر ضد الإسلام، و كان يهود المدينة الذين كانوا يتمتّعون بقوة عسكرية و اقتصادية لا يستهان بها، يعتبرون سندا للمنافقين.

و على أى حال، فقد توغّل هؤلاء بين المسلمين المخلصين، و كانوا يحضرون عند النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يشاركون فى صلاة الجمعة، إلّا أنّ تعاملهم تجاه آيات القرآن كان يفضح ما تنطوى عليه سرائرهم و قلوبهم المريضة.

تقول الآية الأولى من الآيات مورد البحث: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً و كان مرادهم من ذلك الرجل هو النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّ تعبير هؤلاء فى شأن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كلماته البليغة، كان من القبح و البذاءة إلى درجة تدل على أنّهم لم يؤمنوا بالوحى السماوى قط.

«آنفا» من مادة (أنف)، و لما كان للأنف بروزا متميّزا فى وجه الإنسان، فإنّ هذه الكلمة تستعمل فى شأن أشراف القوم، و كذلك تستعمل فى مورد الزمان المتقدم على زمان الحال، كما جاء فى الآية مورد البحث.

ثمّ إنّ التعبير ب لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ يوحى بأنّ إحدى علامات المؤمن امتلاكه الوعى الكافى، فكما أنّ العلم مصدر الإيمان، فكذلك هو وليد الإيمان و حاصله.

إلّا أنّ القرآن الكريم قد أجابهم جوابا قاطعا، فقال: إنّ كلام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن غامضا و لا معقّدا، بل أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ

و فى الحقيقة فإنّ الجملة الثّانية علّة للجملة الاولى، أى إنّ اتباع الهوى يسلب الإنسان القدرة على إدراك الحقائق و تمييزها، و يلقى الحجاب على قلبه، بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۳

أنّ قلوب متبعى الهوى تصبح كالظرف المختوم، فلا يدخله شىء، و لا يخرج منه شىء.

و يقف المؤمنون الحقيقيون فى الطرف المقابل لهؤلاء، و عنهم تتحدّث الآية التالية فتقول: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ

تَقْواهُمْ

نعم، لقد خطا هؤلاء الخطوة الأولى بأنفسهم، و استخدموا عقلهم و فطرتهم فى هذا المسير، ثمّ أخذ اللّه سبحانه بيدهم كما وعدهم من قبل، فزادهم هدى إلى هداهم، و ألقى نور الإيمان فى قلوبهم، و شرح صدورهم و رزقهم حسن الفكرة و النظر. هذا من الناحية العقائدية.

و أمّا من الناحية العملية فإنّه سبحانه يحيى فيهم روح التقوى، حتى أنّهم يشمئزون من الذنب و المعصية، و يعشقون الطاعة و العمل الصالح.

إنّ هؤلاء يقفون من الناحيتين فى الطرف المقابل للمنافقين الذين أشارت إليهم الآية السابقة، فقد طبع على قلوبهم فلا يفقهون شيئا من جهة، و من جهة اخرى فإنّهم يتّبعون أهواءهم فى العمل، أمّا المؤمنون فإنّ هدايتهم تعظم يوما بعد يوم، و تتضاعف تقواهم فى مجال العمل.

و تحذّر الآية التالية أولئك المستهزئين الذين لا إيمان لهم، فتقول: فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ

أجل، إنّ هؤلاء لم يذعنوا للحق حيث كان الإيمان واجبا عليهم، و مفيدا لهم، بل كانوا فى طغيانهم يعمهون، و بآيات اللّه يستهزئون، غير أنّهم يوم يرون الحوادث المرعبة و بداية القيامة تهزّ العالم و تزلزله، يصيبهم الفزع و يظهرون خضوعهم و يؤمنون، و لا ينفعهم يومئذ إيمانهم و خضوعهم.

إنّ هذه العبارة تشبه تماما أن نقول لإنسان: أ تنتظر حتى يشرف بك مرضك على الموت، و لا ينفع حينئذ علاج، ثمّ تدعو الطبيب و تأتى بالدواء؟ انهض و اسرع إلى المعالجة و تناول الدواء قبل أن تفقد هذه الفرصة، فإنّ السعى الآن ذو فائدة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۴

و بعد اليوم لا ينفع.

«الأشراط» جمع (شرط)، و هى العلامة، و على هذا فإنّ أشراط الساعة إشارة إلى علامات اقتراب القيامة.

و للمفسرين أقوال كثيرة حول المراد من علامات اقتراب القيامة هنا، حتى كتبت رسائل مختصرة و مفصّلة، فى هذا الباب. إلّا أنّ الكثير يعتقدون أنّ المراد من «أشراط الساعة» فى الآية- مورد البحث- هو ظهور شخص النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و يشهد لذلك

الحديث المروى عنه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعة كهاتين» و ضمّ إصبعيه السبابة و الوسطى ۳۵۷].

و عدّ البعض مسألة «شقّ القمر»، و قسما آخر من حوادث عصر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من أشراط الساعة أيضا.

لقد وردت أحاديث عديدة فى هذا الباب، و قد اعتبرت شيوع كثير من المعاصى بين الناس بالذات من علامات اقتراب القيامة، كالحديث الذى

يرويه «الفتال النيسابورى» (ره) فى روضة الواعظين، عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من أشراط الساعة أن يرفع العلم، و يظهر الجهل، و يشرب الخمر، و يفشو الزنا»[۳۵۸].

بل، حتى الحوادث المهمّة و المؤثرة، كقيام المهدى- أرواحنا له الفداء- عدّت من أشراط الساعة.

لكن ينبغى أن نذكر أنّنا نبحث تارة فى أشراط الساعة بصورة مطلقة، فنسأل: ما هى علامات اقتراب القيامة؟ و أخرى نبحث فى مورد خصوص الآية. و المطلب فى مورد الآية هو ما قلناه. و أمّا حول علامات اقتراب القيامة بصورة مطلقة فقد وردت بحوث و روايات كثيرة فى الكتب الإسلامية المعروفة، و سنشير إليها فيما يأتى ۳۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۵

هل أن ظهور النبى من علامات قرب القيامة؟

يطرح هنا سؤال، و هو: كيف عدوا ظهور النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من علامات اقتراب القيامة، و قد مرّ إلى الآن خمسة عشر قرنا و لا أثر للقيامة؟

و الإجابة عن هذا السؤال تتّضح بملاحظة واحدة، و هى أنّنا يجب أن نقارن بين ما مرّ من الدنيا و ما بقى منها، و سيظهر من خلال هذه المقارنة أن ما بقى من عمر الدنيا قليل جدا، و هو سريع الانقضاء، كما

ورد فى حديث عن النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه كان يخطب فى أصحابه قبيل الغروب، فقال: «و الذى نفس محمّد بيده ما مثل ما مضى من الدنيا فيما بقى منها إلّا مثل ما مضى من يومكم هذا فيما بقى منه، و ما بقى منه إلّا اليسير»[۳۶۰].

و تقول آخر آية من هذه الآيات و كاستخلاص لنتيجة البحوث التى وردت فى الآيات السابقة حول الإيمان و الكفر، و مصير المؤمنين و الكفّار: فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ أى: اثبت على خط التوحيد، فإنّه الدواء الشافى، و اعلم أنّ أفضل وسيلة للنجاة هو التوحيد الذى بيّنت الآيات السالفة آثاره.

و بناء على هذا، فلا يعنى هذا الكلام أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن عالما بالتوحيد بل المراد الاستمرار فى هذا الخط، و هذا يشبه تماما ما ذكروه فى تفسير الآية: اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ فى سورة الحمد، بأنّها لا تعنى عدم الهداية من قبل، بل تعنى: ثبّتنا على خط الهداية.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد التدبّر فى أمر التوحيد أكثر، و الارتقاء إلى المقامات الأسمى، حيث أنّه كلمّا تدبّر البشر فيه أكثر، و طالعوا آيات اللّه بدقّة أكبر، فإنّهم سيصلون إلى مراتب أرقى، و التدبّر بما قيل فى الآيات السالفة فى مورد الإيمان و الكفر، عامل يؤثر بحدّ ذاته فى زيادة الإيمان و الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۶

و التّفسير الثّالث أنّ المراد: الجوانب العملية للتوحيد، أى: اعلم أنّ الملجأ و المأوى الوحيد فى العالم هو اللّه تعالى، فالتجئ إليه، و لا تطلب حل معضلاتك إلّا منه، و لا تخف سيل المشاكل، و لا تخش كثرة الأعداء.

و لا تنافى بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجمع فى معنى الآية.

و بعد هذه المسألة العقائدية، تعود الآية إلى مسألة التقوى و العفّة عن المعصية، فتقول: وَ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ

لا ـ يخفى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لم يرتكب ذنبا قط بحكم مقام العصمة، و أمثال هذه التعابير إشارة إلى ترك الأولى، فإنّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين، أو إلى أنّه قدوة للمسلمين.

و

جاء فى حديث: أنّ حذيفة بن اليمان يقول: كنت رجلا ذرب اللسان على أهلى، فقلت: يا رسول اللّه إنّى لأخشى أن يدخلنى لسانى فى النّار، فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم:

«فأين أنت من الاستغفار؟ إنّى لأستغفر اللّه فى اليوم مائة مرّة»[۳۶۱]. و جاء فى بعض الروايات أنّه كان يستغفر فى اليوم سبعين مرّة.

إذا كان الآخرون يستغفرون ممّا ارتكبوا من المعاصى و الذنوب، فإنّ النّبى الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم يستغفر اللّه من تلك اللحظة التى شغل فيها عن ذكره، أو أنّه ترك فعل الأحسن و فعل الحسن.

و هنا نكتة جديرة بالانتباه، و هى أنّ اللّه سبحانه قد شفع للمؤمنين و المؤمنات، و أمر نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستغفر لهم لتسعهم رحمته، و من هنا يتبيّن عمق مسألة «الشفاعة» فى الدنيا و الآخرة، و كذلك تتبيّن أهمية التوسّل و كونه مشروعا.

و يقول سبحانه فى ذيل الآية، و كتبيان للعلّة وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَ مَثْواكُمْ فهو يعلم ظاهركم و باطنكم، كتمانكم و علانيتكم، سرّكم و نجواكم، بل و يعلم حتى نيّاتكم، و ما توسوس به أنفسكم، و يخطر على أذهانكم، و ما يجرى فى ضمائركم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۷

و یعلم حرکاتکم و سکناتکم، و لهذا وجب علیکم التوجّه إلیه و رفع الأکف بین یدیهو و طلب العفو و المغفرة و الرحمة منه.

«المتقلّب»: هو المکان الذی یکثر التردّد علیه، و «المثوی» هو محل الاستقرار[۳۶۲].

و الظاهر أنّ لهاتین الکلمتین معنی واسعا یشمل کلّ حرکات ابن آدم و سکناته، سواء التی فی الدنیا أم فی الآخرة، فی فترة کونه جنینا أم کونه من سکان القبور، و إن کان کثیر من المفسّرین قد ذکر لهما معانی محددة:

فقال بعضهم: إنّ المراد حرکة الإنسان فی النهار، و سکونه فی اللیل.

و قال آخرون: إنّ المراد مسیر الإنسان فی الحیاة الدنیا، و استقراره فی الآخرة.

و قال بعض آخر: إنّ المراد تقلّب الإنسان فی أصلاب الآباء و أرحام الأمهات، و ثباته فی القبر.

و أخیرا ذکر البعض أنّ المراد: حرکاته فی السفر، و سکناته فی الحضر.

و لکن کما قلنا، فإنّ للآیة معنی واسعا یشمل کلّ هذه المعانی.

***

بحث

ما هی أشراط الساعة؟

قلنا سابقا: إنّ الأشراط جمع شرط، و هی العلامة، و یقال لعلامات اقتراب القیامة: أشراط الساعة، و قد بحثت کثیرا فی مصادر الشیعة و السنّة، و لم یشر القرآن إلیها إلّا فی هذه الآیة.

و من أجمع الأحادیث و أکثرها تفصیلا فی هذا الباب، الحدیث الذی

رواه ابن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۸

عباس عن النّبی الأکرم صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی قضیة حجّة الوداع، و هو یعلّمنا کثیرا من المسائل، و یحتوی علی نکات و دقائق کثیرة، و لهذا نورده کاملا:

قال ابن عباس: حججنا مع رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم حجّة الوداع و هی آخر حجّة حجّها رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم فی حیاته- فأخذ بحلقة باب الکعبة ثمّ أقبل علینا بوجهه فقال:

«ألا أخبرکم بأشراط الساعة»؟ فکان أدنی الناس منه یومئذ سلمان رحمة اللّه علیه فقال: بلی یا رسول اللّه.

قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ من أشراط الساعة إضاعة الصلوات، و اتباع الشهوات، و المیل مع الأهواء، و تعظیم أصحاب المال، و بیع الدین بالدنیا، فعندها یذاب قلب المؤمن فی جوفه کما یذاب الملح فی الماء مما یری من المنکر فلا یستطیع أن یغیّره».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها یلیهم أمراء جورة، و وزراء فسقة، و عرفاء ظلمة، و أمناء خونة».

فقال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها یکون المنکر معروفا، و المعروف منکرا، و یؤتمن الخائن، و یخوّن الأمین، و یصدّق

الکاذب، و یکذّب الصادق».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: فعندها تکون إمارة النساء، و مشاورة الإماء، و قعود الصبیان علی المنابر، و یکون الکذب ظرفا، و الزکاة مغرما، و الفیء مغنما، و یجفو الرجل والدیه و یبرّ صدیقه، و یطلع الکوکب المذنب».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها تشارک المرأة زوجها فی التجارة [و یبذل کل منهما قصاری جهد خارج المنزل لتحصیل المال و یکون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۶۹

المطر غیضا، و یغیض الکرام غیضا، و یحتقر الرجل المعسر، فعندها تقارب الأسواق، قال هذا: لم أبع شیئا، و قال هذا: لم أربح شیئا، فلا تری إلّا ذاما للّه».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: فعندها یلیهم أقوام إن تکلّموا قتلوهم، و إن سکتوا استباحوهم، لیستأثرون بفیئهم، و لیطؤن حرمتهم، و لیسفکن دماءهم، و لیملؤن قلوبهم دغلا و رعبا، فلا تراهم إلّا وجلین خائفین مرعوبین مرهوبین».

فقال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها یؤتی بشیء من المشرق، و شیء من المغرب [فقوانین من الشرق، و قوانین من الغرب یلون أمّتی، فالویل لضعفاء أمّتی منهم، و الویل لهم من اللّه، لا یرحمون صغیرا، و لا یوقّرون کبیرا، و لا یتجافون عن مسیء، جثّتهم جثة الآدمیین، و قلوبهم قلوب الشیاطین».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها یکتفی الرجال بالرجال و النساء بالنساء، و یغار علی الغلمان کما یغار علی الجاریة فی بیت أهلها، و تشبه الرجال بالنساء، و النساء بالرجال، و ترکب ذوات الفروج السروج [و یظهرن أنفسهن فعلیهن من أمّتی لعنة اللّه».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: إنّ عندها تزخرف المساجد کما تزخرف الکنائس و تحلی المصاحف [دون أن یعمل بها] و تطول المنارات، و تکثر الصفوف، قلوب متباغضة، و ألسن مختلفة».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها تحلّی ذکور أمّتی بالذهب، و یلبسون الحریر و الدیباج، و یتّخذون جلود النمور صفافا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۰

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها یظهر الزنا، و یتعاملون بالعینة و الرشا، و یوضع الدین و ترفع الدنیا».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها یکثر الطلاق، فلا یقام للّه حد، و لن یضرّوا اللّه شیئا [و إنّما یضرّون أنفسهم ».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها تظهر القینات و المعازف، و تلیهم أشرار أمّتی».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: و عندها یحج أغنیاء أمّتی للنزهة، و یحج أوساطها للتجارة، و یحج فقراؤهم للریاء و السمعة، فعندها یکون أقوام یتعلّمون القرآن لغیر اللّه، و یتّخذونه مزامیر، و یکون أقوام یتفقّهون لغیر اللّه، و یکثر أولاد الزنا، و یتغنّون بالقرآن، و یتهافتون بالدنیا».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: ذاک إذا انتهکت المحارم، و اکتسبت المآثم، و سلّط الأشرار علی الأخیار، و یفشو الکذب، و تظهر اللجاجة، و تفشو الفاقة، و یتباهون فی اللباس، و یمطرون فی غیر أوان المطر، و یستحسنون الکوبة و المعازف، و ینکرون الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر، حتی یکون المؤمن فی ذلک الزمان أذلّ من الأمة، و یظهر قرّاؤهم و عبادهم فیما بینهم التلاوم، فأولئک یدعون فی ملکوت السماوات الأرجاس الأنجاس».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: فعندها لا یخشی الغنی علی الفقیر،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۱

حتی أنّ السائل یسأل فی الناس فیما بین الجمعتین لا یصیب أحدا یضع فی کفه شیئا».

قال سلمان: و إنّ هذا لکائن یا رسول اللّه؟

قال: «إی و الذی نفسی بیده. یا سلمان: فعندها یتکلم الرویبضة».

قال سلمان: ما الرویبضة یا رسول اللّه فداک أبی و أمّی؟

قال: «یتکلّم فی أمر العامة من لم یکن یتکلّم، فلم یلبثوا إلّا قلیلا- حتی تخور الأرض خورة، فلا- یظن کلّ قوم إلّا أنّها خارت فی ناحیتهم، فیمکثون ما شاء اللّه، ثمّ یمکثون فی مکثهم، فتلقی لهم الأرض أفلاذ أکبادها» قال: «ذهبا و فضة»، ثمّ أومأ بیده إلی الأساطین، فقال: مثل هذا، فیومئذ لا ینفع ذهب و لا فضة- و یحل أمر اللّه- فهذا یعنی معنی قوله: فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها[۳۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۲

الآیات [سورة محمد (۴۷): الآیات ۲۰ الی ۲۴]

اشارة

وَ یَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَوْ لا- نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْکَمَةٌ وَ ذُکِرَ فِیهَا الْقِتالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ یَنْظُرُونَ إِلَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلی لَهُمْ (۲۰) طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَکانَ خَیْراً لَهُمْ (۲۱) فَهَلْ عَسَیْتُمْ إِنْ تَوَلَّیْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِی الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَکُمْ (۲۲) أُولئِکَ الَّذِینَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمی أَبْصارَهُمْ (۲۳) أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها (۲۴)

التّفسیر

یخافون حتی من اسم الجهاد!

تبیّن هذه الآیات المواقف المختلفة للمؤمنین و المنافقین تجاه الأمر بالجهاد، تکملة للأبحاث التی مرّت فی الآیات السابقة حول هذین

الفريقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۳

تقول الآيـة الأـولى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ لاـ نُزِّلَتْ سُورَةٌ سورة يكون فيهـا أمر بالجهاد، يوضـح واجبنا تجاه الأعـداء القساة الجلّادين الذين لا منطق لهم ...

سورة تبعث آياتها نور الهداية فى قلوبنا، و تضىء أرواحنا بنورها الوهّاج، هذا حال المؤمنين.

و أمّا المنافقون: فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَ ذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فعنـد سـماع اسم الحرب يصـيبهم الهلع، و يضـطرب كيـانهم أجمع، و تتوقف عقولهم عن التفكير، و تتسـمّر عيونهم، و ينظرون إليك كمن يوشك على الموت، و هذا أبلغ و أروع تعبير عن حال المنافقين الجبناء الخائفين.

إنّ سبب اختلاف تعامل المؤمنين و المنافقين مع أمر الجهاد، ينبع من أن الفريق الأوّل قد علقوا آمالهم باللّه سبحانه لإيمانهم القوى به، فهم يرجون عنايته و لطفه و نصرته، و لا خوف لديهم من الشهادة فى سبيله.

إنّ ميدان الجهاد بالنسـبة إلى هؤلاء ميدان إظهار عشـقهم لمحبوبهم، ميدان الشرف و الفضيلة، ميدان تفجّر الاستعدادت و القابليات، و هو ميدان الثبات و المقاومة و الإنتصار، و لا معنى للخوف فى مثل هذا الميدان.

إلّا أنّه بالنسـبة إلى المنافقين ميـدان موت و فناء و تعاسـة، ميـدان هزيمـة و مفارقـة لذائذ الدنيا، و هو أخيرا ميدان مظلم يعقبه مسـتقبل مرعب غامض! و المراد من «السورة المحكمة»- باعتقاد بعض المفسّـرين- هى السور التى ذكرت فيها مسألة الجهاد. لكن لا دليل على هـذا التّفسـير، بـل الظاهر أنّ «المحكم» هنا بمعنى المسـتحكم و الثابت و القاطع، و الخالى من أى غموض أو إبهام، حيث يقع المتشابه فى مقابلة أحيانا، و لمّا كانت آيات الجهاد تتمتّع عادة بحزم اسـتثنائى، فإنّها تنسـجم مع مفهوم هذه اللفظ أكثر، إلّا أنّها ليست منحصرة فيه.

و التعبير ب الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ تعبير يستعمل فى لسان القرآن فى شأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۴

المنافقين عادة، و ما احتمله بعض المفسّـرين من أنّ المراد ضـعفاء الإيمان لا ينسـجم مع سائر آيات القرآن، بل و لا مع الآيات السابقة لهذه الآيات و التى بعدها، التى تتحدّث جميعا عن المنافقين.

و على أية حال، فإنّ الآية تضيف فى النهاية جملة قصيرة، فتقول: فَأَوْلى لَهُمْ

إنّ جملة فَأَوْلى لَهُمْ تعبّر فى الأدب العربى عن التهديد و اللعنة، و تمنّى التعاسة و الفناء للآخر[۳۶۴].

و فسّرها البعض بأنّها تعنى: الموت أولى لهم، و لا مانع من الجمع بينها كما أوردنا فى تفسير الآية.

و تضيف الآية التالية: طاعَةٌ وَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ۳۶۵].

إنّ التعبير ب قَوْلٌ مَعْرُوفٌ يمكن أن يكون فى مقابـل الكلمات الهزيلـة المنكرة التى كان يتفوّه بها المنافقون بعـد نزول آيات الجهاد، فقـد كـانوا يقولون تارة لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ[۳۶۶]، و أخرى: وَ إِذْ يَقُـولُ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُـوبِهِمْ مَرَضٌ مـا وَعَـدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً[۳۶۷]، و ثالثة كانوا يقولون: هَلُمَّ إِلَيْنا[۳۶۸]، من أجل إضعاف المؤمنين و إعاقتهم عن التوجّه إلى ميدان الجهاد.

و لم يكونوا يكتفون بعـدم ترغيب النـاس فى أمر الجهـاد، بـل كـانوا يبـذلون قصارى جهودهم من أجل صـدّهم عن الجهاد، أو تثبيط معنوياتهم و عزائمهم على الأقل.

ثمّ تضيف الآية: فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ و سيرفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۵

رؤوسهم فى الدنيا، و يمنحهم العزّة و الفخر، و يؤدّى إلى أن ينالوا الثواب الجزيل، و الأجر الكبير، و الفوز العظيم فى الآخرة.

و جملة عَزَمَ الْأَمْرُ تشير فى الأساس إلى استحكام العمل، إلّا أنّ المراد منها هنا الجهاد، بقرينة الآيات التى سبقتها و التى تليها.

و تضيف الآية التالية: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ ۳۶۹] لأنّكم إن أعرضتم عن القرآن و التوحيد، فإنّكم سترجعون إلى جاهليّتكم حتما، و لم يكن فى الجاهلية إلّا الفساد فى الأرض، و الإغارة و القتل و سفك الدماء، و قطيعة الرحم، و وأد البنات. هذا إذا كانت «توليّتم» من مادة «تولّى» بمعنى الإعراض.

غير أنّ كثيرا من المفسّرين احتمل أن تكون من مادة «ولاية»، أى: الحكومة، فيكون المعنى: إنّكم إذا توليّتم زمام السلطة فلا يتوقع منكم إلّا الضلال و الفساد و سفك الدماء و قطيعة الرحم.

و كأنّ جمعا من المنافقين قد اعتذر من أجل أن يفرّ من ميدان الجهاد بأنّا كيف نطأ ساحة الحرب و نقتل أرحامنا و نسفك دماءهم، و عندها سنكون من المفسدين فى الأرض؟

فيجيبهم القرآن قائلا: ألم تقتلوا أرحامكم و تسفكوا دماءهم، و لم يظهر منكم إلّا الفساد فى الأرض يوم كانت الحكومة بأيديكم؟ إن هذا إلّا تذرّع و تهرّب، فإنّ الهدف من الحرب فى الإسلام هو إخماد نار الفتنة، لا الفساد فى الأرض، و الهدف اقتلاع جذور الظلم و إزالته من الوجود، لا قطع الرحم.

و قد ورد فى بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ هذه الآية فى بنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۶

أمية الذين لم يرحموا صغيرا و لا كبيرا، بل سفكوا دماء الجميع حتى أقاربهم لمّا تسلّموا زمام الحكم ۳۷۰].

من المعلوم أنّ بنى أمية جميعا، ابتداء من أبى سفيان إلى أبنائه و أحفاده، كانوا مصداقا واضحا لهذه الآية، و هذا هو المراد من الرواية، إذ أنّ للآية معنى واسعا يشمل كلّ المنافقين الظالمين و المفسدين.

و توضح الآية التالية المصير النهائى لهؤلاء القوم المنافقين المفسدين المتذرّعين بأوهى الحجج فتقول: أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ

إنّ هؤلاء يظنّون أنّ الجهاد الإسلامى القائم على أساس الحق و العدالة، قطيعة للرحم، و فسادا فى الأرض، أمّا كلّ الجرائم التى ارتكبوها فى الجاهلية، و الدماء البريئة التى سفكوها أيّام تسلطهم، و الأطفال الأبرياء الذين وأدوهم و دفنوهم و هم أحياء يستغيثون، كانت قائمة على أساس الحق و العدل! لعنهم اللّه إذ لا أذن واعية لهم، و لا عين ناظرة بصيرة! و نقرأ

فى رواية عن الإمام على بن الحسين، أنّه قال لولده الإمام الباقر عليه السّلام: «إيّاك و مصاحبة القاطع لرحمه، فإنّى وجدته ملعونا فى كتاب اللّه عزّ و جلّ فى ثلاثة مواضع، قال اللّه عزّ و جلّ: فهل عسيتم ...»[۳۷۱].

«الرحم» فى الأصل محل استقرار الجنين فى بطن أمّه، ثمّ أطلق هذا التعبير على كل الأقرباء، لأنّهم نشأوا و ولدوا من رحم واحد.

و

جاء فى حديث آخر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «ثلاثة لا يدخلون الجنّة: مدمن خمر، و مدمن سحر، و قاطع رحم»[۳۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۷

و لا يخفى أنّ لعن اللّه تعالى لهؤلاء القوم، و طردهم من رحمته، و كذلك سلبهم القدرة على إدراك الحقائق، لا يستلزم الجبر، لأنّ ذلك جزاء أعمالهم، وردّ فعل لسلوكهم و أفعالهم.

و تناول آخر آية من هذه الآيات ذكر العلة الحقيقية لانحراف هؤلاء القوم التعساء، فقالت: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها؟ نعم، إنّ عامل مسكنة هؤلاء و ضياعهم أحد اثنين: إمّا أنّهم لا يتدبّرون فى القرآن، برنامج الهداية الإلهية، و الوصفة الطبية الشافية تماما، أو أنّهم يتدبّرونه، إلّا أنّ قلوبهم مقفلة نتيجة اتباع الهوى و الأعمال التى قاموا بها من قبل، و هى مقفلة بشكل لا تنفذ معه أى

حقيقة إلى قلوبهم.

و بتعبير آخر، فإنّهم كرجل ضلّ طريقه فى الظلمات، فلا سراج فى يده، و لا هو يبصر إذ هو أعمى، فلو كان معه سراج، و كان مبصرا، فإنّ الاهتداء إلى الطريق فى أى مكان سهل و يسير.

«الأقفال» جمع قفل، و هى فى الأصل من مادة القفول أى الرجوع، أو من القفيل، أى الأشياء اليابسة، و لمّا كان المتعارف أنّهم إذا أغلقوا الباب و قفلوها بقفل، فكلّ من يأت يقفل راجعا، و كذلك لمّا كان القفل شيئا صلبا لا ينفذ فيه شىء، لذا فقد أطلقت هذه الكلمة على هذه الآلة الخاصة.

***

بحث

القرآن كتاب فكر و عمل:

تؤكّد آيات القرآن المختلفة على حقيقة أنّ هذا الكتاب السماوى العظيم ليس للتلاوة و حسب، بل إنّ الهدف النهائى منه هو الذكر، و التدبّر فى عواقب الأمور و الإنذار، و إخراج البشر من الظلمات، و الشفاء و الرحمة و الهداية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۸

فنقرأ فى الآية (۵۰) من سورة الأنبياء: وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ

و فى الآية (۲۹) من سورة ص: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ

و جاء فى الآية (۱۹) من سورة الأنعام: وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ

و تقول الآية الأولى من سورة إبراهيم: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

و أخيرا، جاء فى الآية (۸۲) من سورة الإسراء: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ

و لهذا، فإنّ القرآن الكريم يجب أن يأخذ مكانه من حياة المسلمين، و يكون فى صميمها لا على هامشها، و عليهم أن يجعلوه قدوتهم و أسوتهم، و أن ينفذوا كلّ أوامره، و أن يجعلوا خطوط حياتهم و طبيعتها منسجمة معه.

لكنّ، جماعة من المسلمين- مع الأسف الشديد- لا يتعاملون مع القرآن إلّا على أنّه مجموعة أوراد و أذكار، فهم يتلونه جميعا تلاوة مجرّدة، و يهتمون أشدّ الاهتمام بالتجويد و مخارج الحروف و حسن الصوت، و أكثر شقاء المسلمين و تعاستهم يكمن فى أنّهم أخرجوا القرآن عن كونه دستورا جامعا لحياة البشر، و اكتفوا بترديد ألفاظه، و قنعوا بذلك.

و الجدير بالانتباه أنّ الآيات مورد البحث تقول بصراحة: إنّ هؤلاء المنافقين المرضى القلوب لم يتدبّروا فى القرآن، فلاقوا هذا المصير الأسود.

«التدبّر» من مادة دبر، و هو تحقيق و بحث نتائج الشىء و عواقبه، بعكس «التفكر» الذى يقال غالبا عن علل الشىء و أسبابه، و استعمل كلا التعبيرين فى القرآن.

لكن، ينبغى أن لا ننسى أنّ الاستفادة من القرآن تحتاج إلى نوع من تهذيب النفس و جهادها، و إن كان القرآن بنفسه معينا فى تهذيبها، لأنّ القلوب إذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۷۹

مقفلة بأقفال الهوى و الشهوة، و الكبر و الغرور، و اللجاجة و التعصّب، فسوف لا يلجها نور الحق، و قد أشارت الآيات- مورد البحث-

إلى هذا المعنى.

و ما

أروع كلام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى خطبته حول صفات المتّقين، إذ يقول: «أمّا الليل فصافون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا يحزنون به أنفسهم، و يستثيرون به دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، و تطّلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنّوا أنّها نصب أعينهم، و إذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنّوا أنّ زفير جهنّم و شهيقها فى أصول آذانهم»[۳۷۳].

حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام:

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير جملة: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها: «إنّ لك قلبا و مسامع، و إنّ اللّه إذا أراد أن يهدى عبدا فتح مسامع قلبه، و إذا أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبدا، و هو قول اللّه عزّ و جلّ: أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها[۳۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۰

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ (۲۵) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (۲۶) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ (۲۷) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (۲۸)

التّفسير

أ فلا يتدبّرون القرآن:

تواصل هذه الآيات الكلام حول المنافقين و مواقفهم المختلفة، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى لَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص ۳۸۰

بالرغم من أنّ البعض احتمل أنّ هذه الآية تتحدّث عن جماعة من الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۱

كفروا من أهل الكتاب الذين كانوا يذكرون علامات النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قبل ظهوره، و ذلك استنادا إلى ما ورد فى كتبهم السماوية، و كانوا ينتظرونه على أحر من الجمر، إلّا أنّهم أعرضوا عنه بعد ظهوره و اتضاح هذه العلامات و تحقّقها، و منعتهم شهواتهم و مصالحهم من الإيمان به.

بالرغم من ذلك، فإنّ القرائن الموجودة فى الآيات السابقة و اللاحقة تبيّن جيدا أنّ هذه الآية تتحدث أيضا عن المنافقين الذين جاؤوا

و رأوا بأمّ أعينهم الدلائل الدالّة على حقانية النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و سمعوا آياته، إلّا أنّهم أدبروا اتباعا لأهوائهم و شهواتهم، و طاعة لوساوس الشيطان.

«سوّل» من مادة سؤل- على وزن قفل- و هى الحاجة التى يحرص عليها الإنسان ۳۷۵]، و «التسويل» بمعنى الترغيب و التشويق إلى الأمور التى يحرص عليها، و نسبته إلى الشيطان بسبب الوساوس التى يلقيها فى نفس الإنسان، و تمنع من هدايته.

و جملة وَ أَمْلى لَهُمْ من مادة «إملاء»، و هو زرع طول الأمل فيهم، و الآمال البعيدة المدى، و التى تشغل الإنسان، فتصدّه عن الحق و الهدى.

و تشرح الآية التالية علّة هذا التسويل و التزيين الشيطانى، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ و هذا دأب المنافقين فى البحث عن العصاة و المخالفين، و إذا لم يكونوا مشتركين و متفقين معهم فى كلّ المواقف، فإنّهم يتعاونون معهم على أساس المقدار المتفق عليه من مواقفهم، بل و يطيعونهم إذا اقتضى الأمر.

بل قد اتجه منافقو المدينة نحو يهود المدينة- و هم «بنو النضير» و «بنو قريظة»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۲

الذين كانوا يبشرون بالإسلام قبل بعثة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا بعد ظهوره و مبعثه، و تعرّض مصالحهم للخطر، و لحسدهم و كبرهم، فإنّهم اعتبروا الإسلام دينا باطلا، و غير سليم- و لمّا كان هناك قدر مشترك بين المنافقين و اليهود فى مخالفتهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، و تآمرهم ضد الإسلام، فإنّهم اتفقوا مع اليهود على العمل المشترك ضد الإسلام و المسلمين.

و ربّما كان تعبير فِي بَعْضِ الْأَمْرِ إشارة إلى أنّنا نتعاون معكم فى هذا الجزء فقط، فإنّكم تخالفون عبادة الأصنام، و تعتقدون بالبعث و القيامة، و نحن لا نتفق معكم فى هذه الأمور[۳۷۶].

هذا الكلام شبيه بما جاء فى الآية (۱۱) من سورة الحشر: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ

و تهدد الآيات هؤلاء فى نهايتها فتقول: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ فهو عليم بكفرهم الباطن و نفاقهم، و بتآمرهم مع اليهود، و سيعاقبهم و يجازيهم فى الوقت المناسب. و عليم بما كان يخفيه اليهود من حسدهم و عدائهم و عنادهم، فقد كانوا يعرفون علامات نبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما يعرفون أبناءهم بشهادة كتابهم، و كانوا يذكرون هذه العلامات للناس من قبل، إلّا أنّهم أخفوها جميعا بعد ظهوره، و اللّه عليم بهذا الإخفاء و محاولة طمس الحق.

و

جاء فى حديث عن الإمامين الباقر و الصادق عليهما السّلام: أنّ المراد من كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ بنو أميّة الذين كرهوا نزول أمر اللّه تعالى فى ولاية على عليه السّلام ۳۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۳

و واضح أنّ هذا النوع تطبيق و بيان مصداق، و ليس حصرا لمعنى الآية.

و الآية التالية بمثابة توضيح لهذا التهديد المبهم، فتقول: فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ ۳۷۸].

نعم، إنّ هؤلاء الملائكة مأمورون أن يذيقوا هؤلاء العذاب و هم على أعتاب الموت ليذوقوا و بال الكفر و النفاق و العناد، و هم يضربون وجوههم لأنّها اتجهت نحو أعداء اللّه، و يضربون أدبارهم لأنّهم أدبروا عن آيات اللّه و نبيّه.

و هذا المعنى نظير ما ورد فى الآية (۵۰) من سورة الأنفال حول الكفار و المنافقين: وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ أَدْبارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ

و تناولت آخر آية من هذه الآيات بيان علّة هذا العذاب الإلهى و هم على إعتاب الموت، فتقول: ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَ

كَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ

لأنّ رضى اللّه سبحانه هو شرط قبول الأعمال و كلّ سعى و جهد، و بناء على هذا، فمن الطبيعى أن تحبط أعمال أولئك الذين يصرون على إغضاب اللّه عزّ و جلّ و إسخاطه، و يخالفون ما يرتضيه، و يودعون هذه الدنيا و هم خالو الوفاض، قد أثقلتهم أوزارهم، و أرهقتهم ذنوبهم.

إنّ حال هؤلاء القوم يخالف تماما حال المؤمنين الذين تستقبلهم الملائكة بوجوه ضاحكة عند ما يشرفون على الموت، و تبشّرهم بما أعد اللّه لهم: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۳۷۹].

و ممّا يلفت النظر أنّ الجملة فعلية فى مورد غضب اللّه تعالى: ما أَسْخَطَ اللَّهَ و هى أسمية فى مورد رضاه: رِضْوانَهُ و قال بعض المفسّرين: إنّ هذا التفاوت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۴

فى التعبير يتضمن نكتة لطيفة، و هى أنّ غضب اللّه قد يحدث و قد لا يحدث، أمّا رضاه و رحمته فهى مستمرة دائمة.

و واضح أيضا أنّ غضب اللّه تعالى و سخطه لا يعنى التأثر النفسى، كما أنّ رضاه سبحانه لا يعنى انبساط الروح و انشراح الأسارير، بل هما كما

ورد فى حديث الإمام الصادق عليه السّلام: «غضب اللّه عقابه، و رضاه ثوابه»[۳۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۵

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۲۹ الى ۳۱]

اشارة

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (۲۹) وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (۳۰) وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (۳۱)

التّفسير

يعرف المنافقون من لحن قولهم:

تشير هذه الآيات إلى جانب آخر فى صفات المنافقين و علاماتهم، و تؤكّد بالخصوص على أنّهم يظنّون أنّ باستطاعتهم أن يخفوا واقعهم و صورتهم الحقيقية عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين دائما، و أن ينقذوا أنفسهم بذلك من الفضيحة الكبرى، فتقول أوّلا: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ ۳۸۱].

«الأضغان» جمع ضغن، و هو الحقد الشديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۶

نعم، لقد كانت قلوب هؤلاء مملوءة غيظا و حقدا شديدا على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و كانوا يتحيّنون الفرص لإنزال الضربة بهم، فهنا يحذّرهم القرآن بأن لا يظنّوا أنّ بإمكانهم أن يخفوا وجههم الحقيقى دائما، و لذلك فإنّ الآية التالية تضيف: وَ لَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ فنجعل فى وجوههم علامات تعرفهم بها إذا رأيتهم، و تراهم رأى العين فتنظر واقعهم عند ما تنظر ظاهرهم.

ثمّ تضيف: وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ فيمكنك فى الحال أن تعرفهم من خلال نمط كلامهم.

يقول الراغب فى مفرداته: «اللحن» عبارة عن صرف الكلام عن قواعده و سننه، أو إعرابه على خلاف حاله، أو الكناية بالقول بدلا من الصراحة. و المراد فى الآية مورد البحث هو المعنى الثّالث، أى: يمكن معرفة المنافقين مرضى القلوب من خلال الكناية فى كلامهم، و تعبيراتهم المؤذية التى تنطوى على النفاق.

حينما يكون الكلام عن الجهاد، فإنّهم يسعون إلى إضعاف إرادة الناس و معنوياتهم، و حينما يكون الكلام عن الحق و العدالة، فإنّهم يحرّفونه بنحو من الأنحاء، و إذا ما أتى الحديث عن الصالحين المتّقين السابقين إلى الإسلام، فإنّهم يسعون إلى تشويه سمعتهم، و تقليل أهميتهم و مكانتهم، و لذلك روى عن «أبى سعيد الخدرى» حديثه المعروف الذى يقول فيه: لحن القول بغضهم على بن أبى طالب، و كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول اللّه ببغضهم على بن أبى طالب [۳۸۲].

نعم، لقد كانت إحدى العلامات البارزة للمنافقين أنّهم كانوا يعادون أوّل من آمن من الرجال، و أول مضح فى سبيل الإسلام، و يبغضونه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۷

إنّ الإنسان لا- يستطيع عادة أن يكتم ما ينطوى عليه ضميره لمدة طويلة دون أن يظهر ذلك فى كنايات كلامه و إشاراته و لحنه، و لذلك نقرأ

فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام: «ما أضمر أحد شيئا إلّا ظهر فى فلتات لسانه، و صفحات وجهه»[۳۸۳].

و قد ذكرت آيات القرآن الأخرى كلمات المنافقين الجارحة، و التى هى مصداق للحن القول هذا، أو حركاتهم المشبوهة، و لعلّه لهذا السبب قال بعض المفسّرين: إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعرف المنافقين جيدا، من خلال علاماتهم، بعد نزول هذه الآية.

و الشاهد على هذا الكلام هو أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمر بأن لا يصلّى على من مات منهم و لا يقوم على قبره داعيا اللّه له: وَ لا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَ لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ۳۸۴].

لقد كان الجهاد بالذات من المواقف التى كان المنافقون يعكسون فيها ما يعيشونه فى داخلهم، و قد أشارت آيات كثيرة فى القرآن الكريم، و خاصّة فى سورة التوبة و الأحزاب إلى وضع هؤلاء قبل الحرب حين جمع المساعدات و إعداد العدّة للحرب، و فى أثناء الحرب فى ساحتها إذا اشتد هجوم العدو و استعرت حملته، و بعد الحرب عند تقسيم الغنائم، حتى وصل الأمر بالمنافقين إلى أن يعرفهم حتى المسلمون العاديّون فى هذه المشاهد و المواقف.

و اليوم أيضا لا تصعب معرفة المنافقين من لحن قولهم و مواقفهم المضادة فى المسائل الاجتماعية المهمة، و خاصة عند الاضطرابات أو الحروب، و يمكن التعرف عليهم بأدنى دقة فى أقوالهم و أفعالهم، و ما أروع أن يعى المسلمون أمرهم و يستيقظوا و يستلهموا من هذه الآية تعليماتها ليعرفوا هذه الفئة الحاقدة الخطرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۸

و يفضحوها.

و أخيرا تضيف الآية: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ فهو يعلم أعمال المؤمنين ما ظهر منها و ما بطن، و يعلم أعمال المنافقين، و إذا افترضنا أنّ هؤلاء قادرون على إخفاء واقعهم الحقيقى عن الناس، فهل باستطاعتهم إخفاءه عن اللّه الذى هو معهم فى سرّهم و علانيهم، و خلوتهم و اجتماعهم؟

و تضيف الآية التالية مؤكّدة و موضحة طرقا أخرى لتمييز المؤمنين عن المنافقين: وَ لَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَ الصَّابِرِينَ الحقيقيين من المتظاهرين بالجهاد و الصبر.

و مع أنّ لهذا الابتلاء و الاختبار أبعادا واسعة، و مجالات رحبة تشمل الصبر و الثبات فى أداء كلّ الواجبات و التكاليف، و لكن المراد منه هنا الامتحان فى ساحة الحرب و القتال لمناسبته كلمة «المجاهدين»، و الآيات السابقة و اللاحقة، و الحق أنّ ميدان الجهاد ساحة اختبار عسير و شديد، و قلّما يستطيع المرء أن يخفى واقعه فى أمثال هذه الميادين.

و تقول الآية الأخيرة: وَ نَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ

قال كثير من المفسّرين: إنّ المراد من الأخبار هنا أعمال البشر، و ذلك أن عملا ما إذا صدر من الإنسان، فإنّه سينتشر بين الناس كخبر.

و قال آخرون: إنّ المراد من الأخبار هنا: الأسرار الداخلية، لأنّ أعمال الناس تخبر عن هذه الأسرار.

و يحتمل أن تكون الأخبار هنا بمعنى الأخبار التى يخبر بها الناس عن وضعهم و عهودهم و مواثيقهم، فالمنافقون- مثلا- كانوا قد عاهدوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يرجعوا عن القتال، فى حين أنّهم نقضوا عهدهم: وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ[۳۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۸۹

و نراهم فى موضع آخر: وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِراراً[۳۸۶].

و بهذا فإنّ اللّه سبحانه يختبر أعمال البشر، كما يختبر أقوالهم و أخبارهم. و طبقا لهذا التّفسير فإنّ لهاتين الجملتين فى الآية مورد البحث معنيين متفاوتين، مع أنّ إحداهما تؤكّد الأخرى طبقا للتفاسير السابقة.

و على أية حال، فليست هذه المرة الأولى التى يخبر اللّه سبحانه الناس فيها بأنّى أبلوكم لتمييز صفوفكم، و ليعرف المؤمنون الحقيقيون و ضعفاء الإيمان و المنافقون، و قد ذكرت مسألة الامتحان و الابتلاء هذه فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

و قد بحثنا المسائل المتعلقة بالاختبار الإلهى فى ذيل الآية (۱۵۵) من سورة البقرة، و كذلك وردت فى بداية سورة العنكبوت.

ثمّ إنّ جملة حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ لا- تعنى أنّ اللّه لا- يعلمهم، بل المراد تحقق هذا المعلوم عمليا، و تشخيص هؤلاء المجاهدين، فالمعنى: ليتحقق علم اللّه سبحانه فى الخارج، و تحصل العينية، و تتميز الصفوف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۰

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۲ الى ۳۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (۳۲) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا- تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (۳۳) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (۳۴)

التّفسير

الذين يموتون على الكفر لن يغفر اللّه لهم:

بعد البحوث المختلفة التى دارت حول المنافقين فى الآيات السابقة، تبحث هذه الآيات وضع جماعة أخرى من الكفار، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ شَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ حتى و إن عملوا خيرا، لأنّه لم يكن مقترنا بالإيمان.

هؤلاء يمكن أن يكونوا مشركى مكّة، أو الكفار من يهود المدينة، أو كليهما، لأنّ التعبير ب «الكفر»، و «الصد عن سبيل اللّه»، و شَاقُّوا الرَّسُولَ قد ورد بحقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۱

الفريقين فى آيات القرآن الكريم.

أمّا «تبيّن الهدى»، فقد كان عن طريق المعجزات بالنسبة إلى مشركى مكّة، و عن طريق الكتب السماوية بالنسبة إلى أهل الكتاب.

و «إحباط أعمالهم» إمّا أن يكون إشارة إلى أعمال الخير التى قد يقومون بها أحيانا كإقراء الضيف، و الإنفاق، و معونة ابن السبيل، أو أن يكون إشارة إلى عدم تأثير خطط هؤلاء و مؤامراتهم ضد الإسلام.

و على أية حال، فقد كان هؤلاء الجماعة متّصفين بثلاث صفات: الكفر، و الصد عن سبيل اللّه، و العداء للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم، إذ كانت إحداها تتعلق باللّه سبحانه، و الأخرى بعباد اللّه، و الثالثة برسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعد أن تبيّن حال المنافقين، و الخطوط العامة لأوضاعهم، وجّهت الآية التالية الخطاب إلى المؤمنين مبيّنة خطهم و حالهم، فقالت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ

فى الواقع، إنّ أسلوب حياة المؤمنين و برنامجهم يقع فى الطرف المقابل للكفار و المنافقين فى كلّ شىء، فهؤلاء يعصون أمر اللّه سبحانه، و أولئك يطيعونه، هؤلاء يعادون النبى، و أولئك يطيعون أمر هو هؤلاء تحبط أعمالهم لكفرهم و ريائهم و منّتهم، أمّا أولئك فإنّ أعمالهم محفوظة عند اللّه سبحانه و سيثابون عليها، لاجتنابهم هذه الأمور.

و على كلّ حال، فإنّ أسلوب الآية يوحى بأنّ من بين المؤمنين أفرادا كانوا قد قصروا فى طاعة اللّه و رسوله و فى حفظ أعمالهم عن التلوث بالباطل، و لذلك فإنّ اللّه سبحانه يحذّرهم فى هذه الآية.

و الشاهد لهذا الكلام سبب النّزول الذى ذكره البعض لهذه الآية، و هو: إنّ «بنى أسد» كانوا قد أسلموا و أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: إنّنا نؤثرك على أنفسنا، و نحن و أهلونا رهن إشارتك و أمرك. غير أنّ أسلوبهم فى الكلام كانت تلوح منه المنّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۲

فنزلت الآية أعلاه، و حذّرتهم من ذلك.

و استدل بعض الفقهاء بجملة: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ على حرمة قطع الصلاة، و لكنّ الآية مورد البحث و ما قبلها و ما بعدها شاهدة على أنّها لا تتعلق بهذا الأمر، بل عدم الإبطال عن طريق الشرك و الرياء و المن و أمثال ذلك.

و جاءت الآية الأخيرة من هذه الآيات موضحة و مؤكّدة لما مرّ فى الآيات السابقة حول الكفار، و تهدى إلى الصراط المستقيم من يريد التوبة إلى طريق الرجوع، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لأنّ أبواب التوبة ستغلق بنزول الموت، و يحمل هؤلاء أوزارهم و أوزار الذين يضلّونهم، فكيف يغفر اللّه لهم؟

و بهذا، فقد ورد الحديث فى مجموع هذه الآيات عن ثلاث مجموعات: الكفّار، و المنافقون، و المؤمنون، و تحدّدت صفات كلّ منهم و مصيره.

***

بحث

عوامل إحباط ثواب العمل:

من المسائل الأساسية التى أكدت عليها آيات القرآن المختلفة، و منها الآية مورد البحث، هى أن يحذر المؤمنون من أن تحبط أعمالهم كالكفار، و بتعبير آخر:

فإنّ نفس العمل شىء، و الحفاظ عليه شىء أهمّ، فإنّ العمل الصالح السالم المفيد، هو العمل الذى يكون منذ البداية سالما من العيوب و أن يحافظ عليه من الخلل و العيب حتى نهاية العمر.

و العوامل التى تؤدى إلى إحباط أعمال الإنسان، أو تهددها بذلك الخطر كثيرة، و من جملتها:

۱- المن و الأذى كما يقول القرآن الكريم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۳

صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِى يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ[۳۸۷]. فهنا ذكر عاملان لبطلان العمل: أحدهما المنّ و الأذى، و الآخر الرياء و الكفر، فالأوّل يأتى بعد العمل و الثّانى قرينه، و هما كالنّار يحرقان الأعمال الصالحة.

۲- العجب عامل آخر فى إحباط آثار العمل، كما

ورد ذلك فى الحديث: «العجب يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»[۳۸۸].

۳- الحسد- أيضا- أحد هذه الأسباب، و الذى ورد فيه تعبير شبيه بما ورد فى العجب، فقد روى عن الرّسول الأكرم صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إيّاكم و الحسد، فإنّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب»[۳۸۹].

و كما تذهب الحسنات السيئات إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ۳۹۰]، فإنّ السيئات تمحو كلّ الحسنات أحيانا.

۴- المحافظة على الإيمان إلى آخر لحظات العمر، و هذا أهم شرط لبقاء آثار العمل، لأنّ القرآن يقول بصراحة: وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ ۳۹۱].

من هنا نعرف أهمية و مشاكل و صعوبات مسألة المحافظة على الأعمال، و لذلك

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «الإبقاء على العمل أشدّ من العمل»، قال- أى الراوى-: و ما الإبقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصلة، و ينفق نفقة للّه وحده لا شريك له فكتب له سرّا، ثمّ يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۴

يذكرها فتمحى و تكتب له رياء»[۳۹۲].

و قد أشارت الآية- مورد البحث- إشارة خفية إلى هذه الأمور حيث تقول:

وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ ۳۹۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۵

الآية [سورة محمد (۴۷): آية ۳۵]

اشارة

فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (۳۵)

التّفسير

الصلح المذل!!

متابعة للآيات السابقة التى كانت تتحدّث حول مسألة الجهاد، تشير هذه الآية إلى أحد الأمور الهامة فى مسألة الجهاد، و هو أنّ ضعفاء الإيمان يطرحون غالبا مسألة الصلح للفرار من مسئولية الجهاد، و مصاعب ميدان الحرب.

من المسلّم أنّ الصلح خير و حسن جدّا، لكن فى محله، إذ يكون حينها صلحا يحقق الأهداف الإسلامية السامية، و يحفظ ماء وجه المسلمين و حيثيتهم و هيبتهم و عظمتهم. أمّا الصلح الذى يؤدى إلى ذلّتهم و انكسار شوكتهم فلا، و لذلك تقول الآية الشريفة: الآن و قد سمعتم الأوامر الإلهية فى الجهاد فَلا تَهِنُوا وَ تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ ۳۹۴].

أى: الآن و قد لاحت علائم انتصاركم و تفوّقكم، كيف تذلّون أنفسكم و ترضون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۶

بالمهانة باقتراح الصلح الذى لا يعنى إلّا التراجع و الهزيمة؟ فليس هذا صلحا فى الواقع، بل هو استسلام و خضوع ينبع من الضعف و الانهيار، و هو نوع من طلب الراحة و العافية، و يقبح بكم أن تتحملوا عواقبه الأليمة الخطرة.

و من أجل رفع معنويات المسلمين المجاهدين تضيف الآية: وَ اللَّهُ مَعَكُمْ وَ لَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ فإنّ من كان اللّه معه تكون كلّ عوامل الإنتصار مسخّرة له، فلا يحس بالوحشة أبدا، و لا يدع للضعف و الانهزام سبيلا إلى نفسه، و لا يستسلم للعدو باسم الصلح و لن يدع نتائج دماء الشهداء و مكاسبها تذهب سدى فى اللحظات الحسّاسة.

لَنْ يَتِرَكُمْ من مادة «الوتر»، و هو المنفرد، و لذلك يقال لمن قتل قريبه، و بقى وحيدا: وتر. و جاء أيضا بمعنى النقصان.

و فى الآية- مورد البحث- كناية جميلة عن هذا المطلب، بأنّ اللّه سبحانه لن يترككم وحدكم، بل سيقرنكم بثواب أعمالكم، خاصّة و أنّكم تعلمون أنّكم لن تخطوا خطوة إلّا كتبت لكم، فلم يكن اللّه لينقص من أجركم شيئا، بل سيضاعفه و يزيد عليه من فضله و كرمه.

اتضح ممّا قلناه أنّ الآية مورد البحث لا تنافى مطلقا الآية (۶۱) من سورة الأنفال حيث تقول: وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ لنجعل إحداهما ناسخة للأخرى، بل إنّ كلا منها ناظرة إلى مورد خاص، فإحداهما تنظر إلى الصلح المعقول، و الأخرى إلى الصلح الذى ليس فى محله فإنّ أحدهما صلح يحفظ مصالح المسلمين، و الآخر صلح يطرحه ضعفاء المسلمين و هم على أبواب النصر، و لذلك فإنّ تتمة آية سورة الأنفال تقول: وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ

و

قد أشار أمير المؤمنين على عليه السّلام إلى كلا الصالحين فى عهده لمالك الأشتر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۷

حيث يقول: «و لا تدفعنّ صلحا دعاك إليه عدوّك و للّه فيه رضى»[۳۹۵].

إنّ طرح قضية الصلح من ناحية العدو من جهة، و كونه مقترنا برضى اللّه سبحانه من جهة أخرى، يبيّن انقسام الصلح إلى القسمين اللذين أشرنا إليهما فيما قلناه.

و على أية حال، فإنّ أمراء المسلمين و أولياء أمورهم يجب أن يكونوا فى غاية الحذر فى تشخيص موارد الصلح و الحرب، و التى هى من أعقد المسائل و أدقّها، لأنّ أدنى اشتباه فى المحاسبة سيستتبع عواقب و خيمة فى هذا المجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۸

الآيات [سورة محمد (۴۷): الآيات ۳۶ الى ۳۸]

اشارة

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (۳۶) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (۳۷) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (۳۸)

التّفسير

إن تتولّوا سيمنح اللّه الرسالة قوما آخرين:

قلنا: إنّ سورة محمّد هى سورة الجهاد، فبأمر الجهاد بدأت، و به تنتهى، و الآيات مورد البحث- و هى آخر آيات هذه السورة- تتناول مسألة أخرى من مسائل حياة البشر فى هذا الميدان، فتطرح كون الحياة الدنيا لا قيمة لها لزيادة ترغيب المسلمين و دعوتهم إلى طاعة اللّه سبحانه عموما، و الى أمر الجهاد بالخصوص، لأنّ حبّ الدنيا و الانشداد إليها أحد عوامل المهمّة التى تعوّق عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۳۹۹

الجهاد، فتقول: إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ.

«اللعب» يقال للأعمال التى تتصف بنوع من الخيال للوصول إلى هدف خيالى، و «اللهو» يقال لكلّ عمل يشتغل الإنسان به فيصرفه عن المسائل الأساسية.

و الحق أنّ الدنيا لعب و لهو ليس إلّا، فلا يحصل منها أنس و ارتياح، و ليس لها دوام و بقاء، و إنّما هى لحظات كلمح البصر، و لذات زائلة تحفّها الآلام و المتاعب.

ثمّ تضيف الآية: وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ ۳۹۶] فلا- أنّ اللّه يسألكم أجرا مقابل الهداية و الرشاد و كلّ تلك الهبات العظيمة فى الدنيا و الآخرة، و لا رسوله، فإنّ اللّه تعالى غنى عن العالمين، و لا يحتاج رسوله إلى غير اللّه.

و إذا كان الشىء الزهيد من أموالكم يؤخذ كزكاة و خمس و حقوق شرعية أخرى، فإنّه يعود عليكم و يصرف فيكم، لحماية يتاماكم و مساكينكم و ضعفائكم و أبناء السبيل منكم، و للدفاع عن أمن بلادكم و استقلالها، و لاستقرار النظام و الأمن، و لتأمين احتياجاتكم، و عمران دياركم.

بناء على هذا، فحتى هذا المقدار اليسير هو من أجلكم و منفعتكم، فإنّ اللّه و رسوله فى غنى عنكم، و بذلك فلا منافاة بين مفهوم هذه الآية و آيات الزكاة و الإنفاق و أمثالها.

ثمّة احتمالات أخرى عديدة فى تفسير جملة: وَ لا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ و لرفع ما يبدو فى الظاهر تناقضا:

فقال البعض: إنّه تعالى لا يسألكم شيئا من أموالكم مقابل الهداية و الثواب.

و قال آخرون: إنّه تعالى لا يسألكم كلّ أموالكم، بل يريد قسما منها فقط.

و قال جماعة: إنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ أموال الجميع من اللّه سبحانه، و إن كانت ودائع بأيدينا أيّاما قليلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۰

لكن أفضلها جميعا هو التّفسير الأول.

و على أية حال، فلا ينبغى نسيان أنّ جانبا من الجهاد هو الجهاد بالأموال، و من الطبيعى أنّ كلّ جهاد للعدو و قتال ضده يحتاج إلى أموال و ميزانيات يجب أن تجمع و تهيّأ من قبل المسلمين الزاهدين فى الدنيا و غير المتعلّقين بها. و الآيات مورد البحث تهيء- فى الحقيقة- الأرضية الفكرية و الثقافية لهذه المسألة.

و لتبيان تعلّق أغلب الناس بأموالهم و ثرواتهم الشخصية تضيف الآية التالية:

إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَ يُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ

«يحفكم» من مادة إحفاء، أى: الإصرار و الإلحاح فى المطالبة و السؤال، و هى فى الأصل من حفأ، و هو المشى حافيا، و هذا التعبير كناية عن الأعمال التى يتابعها الإنسان إلى أبعد الحدود، و من هنا كان إحفاء الشارب يعنى تقصيره ما أمكن.

و «الأضغان» جمع ضغن، و هو بمعنى الحقد الشديد، و قد أشرنا إليه سابقا.

و خلاصة القول: فإنّ الآية تبيّن التعلّق الشديد لكثير من الناس بالأمور المالية، و هى فى الحقيقة نوع من اللوم و لتوبيخ لهؤلاء، و فى نفس الوقت ترغيب فى ترك هذا الارتباط، و تشويق إلى هذا المعنى، فإنّ تعلّقهم بلغ حدّا أنّ اللّه سبحانه إذا سألهم شيئا من أموالهم فإنّهم يغضبون و يحقدون عليه! و بذلك فإنّ الآية ترديد أن توقظ أرواح البشر الغاطّة فى نومها العميق بسوط التقريع و الملامة و العتاب، ليرفعوا عن أعناقهم قيود الذل و العبودية للأموال، و يصبحوا فى حال يضحّون عندها بكلّ ما لديهم فى سبيل اللّه، و يقدّمون ما عندهم بين يديه، و لا يرجون فى مقابل ما يعطون إلّا الإيمان به و تقواه و رضاه عنهم.

و الآية الأخيرة- من الآيات مورد البحث، و هى آخر آية من سورة محمّد- تأكيد آخر على ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل المادية و تعلّق الناس بها، و مسألة الإنفاق فى سبيل اللّه، فتقول: ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۱

و هنا يأتى سؤال، و هو: إنّ الآيات السابقة قد ذكرت أنّ اللّه لا يسألكم أموالكم، فكيف أمرت هذه الآية بالإنفاق فى سبيل اللّه؟

غير أنّ تتمة الآية تجيب عن هذا السؤال عن طريقين، فتقول أولا: وَ مَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ۳۹۷] لأنّ ثمرة الإنفاق تعود عليكم أنفسكم فى الدنيا و الآخرة، حيث يقل التفاوت الطبقى، و عندها سيعم الأمن و الهدوء فى المجتمع، و تحل المحبّة و الصفاء محل العداوة و الحقد. هذا ثوابكم الدنيوى.

و أمّا فى الآخرة، فستمنحون مقابل كلّ درهم أو دينار تنفقونه الهبات و النعم العظيمة التى لم تخطر على قلب بشر، و على هذا فإنّ من يبخل يبخل عن نفسه! و بتعبير آخر: فإنّ الإنفاق هنا يعنى أكثر ما يعنى الإنفاق فى أمر الجهاد، و التعبير ب فِي سَبِيلِ اللَّهِ يلائم هذا المعنى أيضا، و من الواضح أنّ أى نوع من المساهمة فى تقدّم أمر الجهاد سيضمن وجود المجتمع و استقلاله و شرفه.

و الجواب الآخر هو: وَ اللَّهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ فهو غنى عن إنفاقكم فى سبيله، و غنى عن طاعتكم، و إنّما أنتم الفقراء إلى لطفه و رحمته و ثوابه و كرمه فى الدنيا و الآخرة.

إنّ الموجودات الممكنة- و ما سوى اللّه سبحانه- متسربلة فى الفقر جميعا، و الغنى بذاته هو اللّه سبحانه لا غير، فإنّها فقيرة إليه دائما، حتى فى أصل وجودها، و تستمد العون من منبع الفيض الأزلى كلّ لحظة، فإذا انقطعت عنها رعايته و لطفه لحظة، فسينتهى وجودها، و تخرّ أبدانها جثثا هامدة! و تحذر الجملة الأخير جميع المسلمين أن اعرفوا قدر هذه النعمة الجليلة، و الموهبة العظيمة، حيث جعلكم سبحانه حماة دينه القويم و أنصار دينه و أتباع رسوله و أصحابه، فحذار أن تقصروا فى تعظيم هذه النعمة و إكبارها، إذ: وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۲

أجل، إنّ هذا الحمل لن يسقط على الأرض أبدا، و هذه الرسالة العظيمة لا يمكن أن يتوقّف مسيرها، فإن أنتم لم تستمروا فى موقفكم فى الذب عن دين اللّه، و استصغرتم شأن هذه الرسالة العظيمة، فإنّ اللّه سبحانه سوف يأتى بقوم يتحمّلون أعباء هذه الرسالة .. أولئك قوم يفوقونكم مرّات فى الإيثار و التضحية و بذل الأنفس و الأموال و الإنفاق فى سبيل اللّه! و قد جاء نظير هذا التهديد فى الآية (۵۴) من سورة المائدة، حيث تقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ

و الطریف أنّ أکثر المفسّرین قد نقلوا فی ذیل الآیة- مورد البحث-

أنّ جماعة من أصحاب رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم سألوه بعد نزول هذه الآیة: من هؤلاء الذین ذکرهم اللّه فی کتابه؟ و کان «سلمان» جالسا قریبا من النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم، فضرب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بیده علی فخذ سلمان- و فی روایة علی کتفه- و قال: «هذا و قومه، و الذی نفسی بیده لو کان الإیمان منوطا بالثریا لتناوله رجال من فارس».

لقد أورد هذا الحدیث و أمثاله محدّثو السنّة المعروفون فی کتبهم المعروفة، کالبیهقی و الترمذی، و علیه اتفاق مفسّری الشیعة و السنّة المشهورین، کصاحب تفسیر القرطبی، و روح البیان، و مجمع البیان، و الفخر الرازی، و المراغی، و أبی الفتوح الرازی و أمثالهم.

و ورد فی تفسیر الدر المنثور عدة أحادیث فی هذا الباب فی ذیل الآیة مورد البحث ۳۹۸].

و

روی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام، یکمل الحدیث السابق، إذ یقول: «و اللّه أبدل بهم خیرا منهم الموالی»[۳۹۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۳

إذا نظرنا إلی تاریخ الإسلام و العلوم الإسلامیة بدقّة، و بنظرة بعیدة عن التعصّب، و لا- حظنا سهم المسلمون غیر العرب الإیرانیین خاصة- فی میادین الجهاد و محاربة العدو من جهة، و تنقیح العلوم الإسلامیة، و تدوینها من جهة أخری، فسنطلع علی حقیقة هذا الحدیث، و تفصیل هذا الکلام طویل.

اللّهمّ! ثبّت أقدامنا فی طریق الجهاد و الإیثار و التضحیة فی سبیل دینک القویم.

اللّهمّ! لا تسلبنا ما منحتنا من الفخر العظیم إذ جعلتنا دعاة لدینک الحنیف.

إلهنا! زد فی قوّتنا و إیماننا، و تضحیاتنا و إخلاصنا فی هذا الوقت الذی هبّت فیه عواصف الشرق و الغرب الهوجاء لمحو آثار دینک.

آمین یا رب العالمین.

نهایة سورة محمّد***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۵

سورة الفتح

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها تسع و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۷

سورة الفتح

محتوی السورة

هذه السورة کما هو ظاهر من اسمها تحمل رسالة الفتح و النصر! الفتح و النصر علی أعداء الإسلام، الفتح المبین و الأکید «سواء کان هذا الفتح متعلقا بفتح مکّة أو بصلح الحدیبیّة أو فتح خیبر أو کان هذا الفتح بشکل مطلق».

و من أجل أن نفهم محتوی هذه السورة فینبغی أن نعرف- قبل کلّ شیء- أنّ هذه السورة نزلت فی السنة السادسة للهجرة بعد قضیّة «صلح الحدیبیة».

و بیان ذلک .. أنّ النّبی الکریم صلی اللّه علیه و آله و سلّم صمّم فی السنّة السادسة للهجرة مع أصحابه من المهاجرین و الأنصار و

باقى المسلمين أن يتحرّكوا نحو مكّة للعمرة، و كان من قبل قد أخبر المسلمين بأنّه رأى رؤيا فى منامه و كأنّه مشغول بأداء مناسكه مع أصحابه فى المسجد الحرام معتمرين فعقد المسلمون إحرامهم عند «ذى الحليفة» «المنطقة التى تقرب من المدينة المنوّرة» و تحرّكوا نحو مكّة المكرّمة فى إبل كثيرة لتنحر «يوم الهدى» هناك.

و كانت الحالة التى يتحرك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عليها توحى بصورة جيدة أنّه لا هدف لديه سوى هذه العبادة الكبرى ... إلى أن وصل النّبى منطقة الحديبيّة «و هى قرية على مقربة من مكّة و لا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو مترا».

إلّا أنّ قريشا علمت بوصول النّبى إلى الحديبيّة فأوصدت بوجهه الطريق و منعته من الدخول إلى مكّة المكرمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۸

و بهذا ألغت قريش جميع السنن التى ترتبط بأمن المسجد الحرام و ضيوف اللّه و الشهر الحرام و وضعتها تحت أقدامها .. إذ كانت تعتقد بحرمة الأشهر الحرام «و من ضمنها شهر ذى القعدة الذى عزم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فيه على العمرة» و خاصّة إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغى التعرّض لهم حتى لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم، و رئى محرما فى مناسكه فلا يمس بسوء أبدا».

و فى هذا المكان أى «الحديبية» جرى ما جرى بين رسول اللّه و المشركين من الكلام حتى انتهى إلى عقد معاهدة الصلح بين المسلمين و بين المشركين من أهل مكّة و قد سمّى هذا الصلح بصلح الحديبيّة و سنتحدث عنه فى الصفحات المقبلة بإذن اللّه.

و على كلّ حال فقد منع النّبى أن يدخل مكّة و يؤدى مناسك العمرة .. فاضطر النبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يأمر أصحابه بأن ينحروا إبلهم و يحلقوا رؤوسهم و يحلّوا من إحرامهم! و أن يعودوا نحو المدينة! و هنا غمر المسلمين طوفان من الحزن و الغم و ربّما تغلّب الشك و الترديد على قلوب بعض الأفراد ضعيفى الإيمان! و عن عبد اللّه بن مسعود قال: أقبل رسول اللّه من الحديبيّة فجعلت ناقته تثقل فتقدّمنا فأنزل اللّه عليه إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً فأدركنا رسول اللّه و به من السرور ما شاء اللّه. فأخبر أنّها نزلت عليه ۴۰۰].

و من هنا فإنّه يبدو واضحا هذا الجو الخاص الحاكم على هذه السورة و بمراجعة إجمالية للسورة يمكن القول إنّها تتألف من سبعة أقسام! ..

۱- تبدأ السورة بموضوع البشرى بالفتح كما أنّ آياتها الأخيرة لها علاقة بهذا الموضوع أيضا، و فيها تأكيد على تحقق رؤيا النّبى التى تدور حول دخوله و أصحابه مكّة و أداء مناسك العمرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۰۹

۲- يتحدّث قسم آخر من هذه السورة عن الحوادث المتعلّقة بصلح الحديبية و نزول السكينة على قلوب المؤمنين و «بيعة الرضوان» و ما إلى ذلك! ..

۳- و يتحدّث قسم ثالث منها عن مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و هدفه الأسمى.

۴- و يكشف القسم الرابع الستار عن غدر المنافقين و نقضهم العهد و نكثهم له و يعطى أمثلة من أعذارهم الواهية فى مسألة عدم مشاركتهم النّبى جهاده المشركين و الكفّار.

۵- و فى قسم آخر يقع الكلام على طلبات «المنافقين» فى غير محلّها.

۶- و القسم السادس يوضح من هم المعذورون الذين لا حرج عليهم! ۷- و أخيرا ... فإنّ القسم السابع يتحدّث عن خصائص أصحاب النّبى و أتباعه فى طريقته و سنّته و صفاتهم التى يتميّزون بها .. و بشكل عام فإنّ آيات هذه السورة حسّاسة للغاية كما أنّها مصيريّة و خاصّة لمسلمى اليوم الذين يواجهون الحوادث المختلفة فى مجتمعاتهم الإسلامية ففيها إلهام كبير لهم! ...

فضيلة تلاوة سورة الفتح:

تلاحظ روايات عجيبة فى فضيلة هذه السورة فى المصادر الإسلامية ففى حديث عن أنس أنّه قال: حين كنّا نعود من الحديبيّة و كان المشركون قد منعونا من الدخول الى مكّة و أداء مناسك العمرة فكنّا فى حزن و غم شديدين فأنزل اللّه آيته إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً ....

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «لقد أنزلت علىّ آية هى أحبّ إلىّ من الدنيا كلّها»

و

فى بعض الروايات: «لقد أنزلت علىّ سورة هى أحبّ من الدنيا كلّها»[۴۰۱].

و يقول عبد اللّه بن مسعود حين كنّا نرجع من الحديبيّة و نزلت إِنَّا فَتَحْنا على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۰

النّبى سرّ سرورا لا يعلم مداه إلّا اللّه ۴۰۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «من قرأها فكأنّما شهد مع محمّد فتح مكّة».

و

فى رواية «فكأنّما كان مع من بايع محمّدا تحت الشجرة»[۴۰۳].

و أخيرا نقرأ

حديثا للإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه: «حصّنوا أموالكم و نساءكم و ما ملكت إيمانكم من التلف بقراءة إِنَّا فَتَحْنا فإنّه إذا كان ممّن يدمن قراءتها نادى مناد يوم القيامة حتى يسمع الخلائق أنت من عبادى المخلصين، الحقوه بالصالحين من عبادى و أدخلوه جنّات النعيم و اسقوه من رحيق مختوم بمزاج الكافور»[۴۰۴].

و من الواضح أنّ كلّ هذه الفضيلة و الفخر لا يحصل بتلاوة خالية من التفكّر، بل الهدف الأصلى من تلاوة هذه السورة هو تطبيق أعمال القارئ و خلقه و طبعه على مفاد هذه السورة و مضامينها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۱

الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (۱)

التّفسير

الفتح المبين:

فى الآية الأولى من هذه السورة بشرى عظيمة للنبىّ صلى اللّه عليه و آله و سلّم بشرى هى عند النّبى طبقا لبعض الرّوايات أحبّ إليه من الدنيا و ما فيها إذ تقول الآية: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً.

... فَتْحاً مُبِيناً تظهر آثاره فى حياة المسلمين فى فترة وجيزة، و فى فترة مديدة أيضا .. و ذلك فى انتشار الإسلام ... فتحا يقل نظيره أو

ينعدم نظيره فى طول تاريخ الإسلام و على امتداده.

و هنا كلام عريض و بحث طويل بين المفسّرين ... حول المراد من هذا الفتح أىّ فتح هو؟! فأكثر المفسّرين يرون أنّه إشارة إلى ما كان من نصيب للمسلمين من الفتح الكبير على أثر «صلح الحديبية»[۴۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۲

و بعض ذهبوا إلى أنّه «فتح مكّة».

و آخرون قالوا بأنّه «فتح خيبر».

و آخرون أنّه إشارة إلى انفتاح أسرار العلوم على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

غير أنّ قرائن كثيرة لدينا ترجح أنّ هذا الفتح هو ما يتعلّق بموضوع صلح الحديبية.

و من الأفضل و قبل الولوج فى تفسير الآيات أن نعرض و لو بشكل مضغوط قصة صلح الحديبيّة ليتّضح «المقام» و ليكون هذا العرض الموجز بمثابة شأن نزول الآيات أيضا.

قصّة «صلح الحديبية»:

فى السنة السادسة للهجرة و فى شهر ذى القعدة منها تحرّك النّبى نحو مكّة لأداء مناسك العمرة و رغب المسلمين جميعا فى هذا الأمر .. غير أنّ قسما منهم امتنع عن ذلك، فى حين أنّ معظم المهاجرين و الأنصار و جماعة من أهل البادية عزموا على الاعتمار[۴۰۶] مع النّبى فساروا نحو مكّة! ...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذين كانوا مع النّبى و كان عددهم فى حدود «الألف و الأربعمائة» و لم يحملوا من أسلحة الحرب شيئا سوى السيوف التى كانت تعدّ أسلحة للسفر فحسب!.

و لمّا وصل النّبى إلى «عسفان» التى لا تبعد عن مكّة كثيرا أخبر أنّ قريشا تهيّأت لصدّه و صمّمت على منعه من الدخول إلى مكّة. و لمّا بلغ النّبى الحديبيّة [و هى قرية على مسافة عشرين كيلو مترا من مكّة و سمّيت بذلك لوجود بئر فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۳

أو شجرة] أمر أصحابه أن يحطّوا رحالهم فيها. فقالوا: يا رسول اللّه ليس هنا ماء و لا كلأ، فهيّأ النّبى عن طريق الاعجاز لهم ماء من البئر الموجودة فى تلك المنطقة .. و بدأ التزاور بين سفراء النّبى و ممثليه و سفراء قريش و ممثليها لتحلّ المشكلة على أى نحو كان، و أخيرا جاء عروة بن مسعود الثقفى الذى كان رجلا حازما عند النّبى فقال له النبى: «إنّا لم نجىء لقتال أحد و لكن جئنا معتمرين ...».

و هذا و قد لاحظ عروة الثقفى، ضمنا حالة الأصحاب و هم يكتنفون نبيّهم عند وضوئه فلا يدعون قطرة تهوى إلى الأرض منه.

و حين رجع عروة إلى قريش قال: لقد ذهبت إلى قصور كسرى و قيصر و النجاشى فلم أر قائدا فى قومه فى عظمته كعظمة محمّد بين أصحابه ... و قال عروة لرجال قريش أيضا إذا كنتم تتصورون أنّ أصحاب محمّد يتركونه فأنتم فى خطأ كبير ... فأنتم فى مواجهة أمثال هؤلاء الرجال الذين يؤثرون على أنفسهم فاعرفوا كيف تواجهونهم!؟

ثمّ أنّ النّبى أمر عمر أن يمضى إلى مكّة ليطلع أشراف قريش على الهدف من سفر النّبى فاعتذر عمر و قال إنّ بينه و بين قريش عداوة شديدة و هو منها على حذر فالأفضل أن يرسل عثمان بن عفان ليبادر إلى هذا العمل، فمضى عثمان إلى مكّة و لم تمض فترة حتى شاع بين المسلمين خبر مفاده أنّ عثمان قتل، فاستعد النّبى لأن يواجه قريشا بشدّة! فطلب بتجديد البيعة من أصحابه فبايعوه تحت الشجرة بيعة سمّيت «بيعة الرضوان» و تعاهدوا على مواصلة الجهاد حتى آخر نفس؛ إلّا أنّه لم يمض زمن يسير حتى عاد عثمان سالما و أرسلت قريش على أثره سهيل بن عمرو للمصالحة مع النّبى غير أنّها أكّدت على النّبى أنّه لا يدخل مكّة فى عامه هذا أبدا.

و بعد كلام طويل تمّ عقد الصلح بين الطرفين و كان من موادّه ما بيّناه آنفا و هو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمرة لذلك العام و أن يأتوا فى العام القابل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۴

الى مكّة شريطة أن لا يمكثوا فى مكّة أكثر من ثلاثة أيّام و أن لا يحملوا سلاحا غير سلاح السفر كما كان من مواد العقد أمور أخرى تدور حول سلامة الأرواح و الأموال التى تعود للمسلمين و الذين يأتون مكّة منهم [من قبل المدينة] و من مواد العقد أيضا إيقاف القتال بين المسلمين و المشركين لعشر سنين و أن يكون مسلمو مكّة أحرارا فى أداء مناسكهم و فرائضهم الإسلامية.

و كان هذا العقد [أو هذه المعاهدة] بمثابة عدم التعرض لكلا الجانبين و لحسم المعارك المستمرّة بين المسلمين و المشركين بصورة مؤقتة.

و كان مؤدّى هذه المعاهدة و ما يتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالى:

«قال النّبى لعلى اكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم: فقال سهيل بن عمرو الذى كان سفير المشركين لا أعرف هذه العبارة بل ليكتب بسمك اللّهمّ! فقال النّبى لعلى اكتب: بسمك اللّهمّ: ثمّ قال النّبى لعلى اكتب: هذا ما صالح عليه محمّد رسول اللّه سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنّا نعرفك رسول اللّه لما حاربناك فاكتب اسمك و اسم أبيك فحسب. فقال النبىّ: لا مانع من ذلك اكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد اللّه سهيل بن عمرو أن يترك القتال عشر سنين ليجد الناس مأمنهم ثانية، و إضافة إلى ذلك من يأت محمّدا من قريس مسلما دون إذن وليّه فيجب إعادته الى أهله و من جاء قريشا من أصحاب محمّد فلا يجب إعادته إلى محمّد! و الجميع أحرار فمن شاء دخل فى عهد محمّد و من شاء دخل فى عهد قريش! و يتعهّد الطرفان أن لا يخون كلّ منهما [صاحبه الآخر و أن يحترم ماله و نفسه! ثمّ بعد هذا ليس لمحمّد هذا العام أن يدخل مكّة، لكن فى العام المقبل تخرج قريش من مكّة لثلاثة أيّام و يأتى محمّد و أصحابه إلى مكّة على أن لا يمكثوا فيها أكثر من ثلاثة أيّام و يؤدّوا مناسك العمرة ثمّ يعودوا إلى أهلهم شريطة أن لا يحملوا معهم سلاحا سوى السيف الذى هو من عدة السفر و أن يكون فى الغمد و شهد على هذه المعاهدة جماعة من المسلمين و جماعة من المشركين و أملى المعاهدة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۵

بن أبى طالب عليه السّلام»[۴۰۷].

و ذكر العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» مواد أخرى منها: «ينبغى أن يكون الإسلام فى مكّة غير خفى و أن لا يجبر أحد فى اختيار مذهبه و أن لا ينال المسلمين أذى من المشركين»[۴۰۸].

و هذا المضمون كان موجودا فى التعبير السابق بصورة إجمالية.

و هنا أمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تنحر الإبل التى جىء بها مع المسلمين و أن يحلق المسلمون رؤوسهم و أن يتحلّلوا من إحرامهم! ..

لكن هذا الأمر كان على بعض المسلمين عسيرة للغاية و غير مستساغ أيضا ..

لأنّ التحلل من الإحرام فى نظرهم دون أداء العمرة غير ممكن!! لكنّ النّبى تقدّم بنفسه و نحر «هديه» و تحلّل من إحرامه و أشعر المسلمين أنّ هذا «استثناء» فى قانون الإحرام أمر به اللّه سبحانه نبيّه! و لمّا رأى المسلمون ذلك من نبيّهم أذعنوا للأمر الواقع و نفذوا أمر النّبى بدقة و عزموا على التوجّه نحو المدينة من هناك، غير أنّه كان بعضهم يحسّ كأنّ جبلا من الهم و الحزن يجثم على صدره لأنّ ظاهر القضية أنّ هذا السفر كان غير موفّق بل مجموعة من الهزائم! لكنّ مثل هذا و أضرابه لم يعلموا ما ينطوى وراء صلح الحديبية من انتصارات للمسلمين و لمستقبل الإسلام. و فى ذلك الحين نزلت سورة الفتح و أعطت للنبى الكريم بشرى كبرى بالفتح المبين [۴۰۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۶

الآثار السیاسیة و الاجتماعیة و المذهبیة لصلح الحدیبیة:

یتّضح بمقایسة إجمالیة بین حال المسلمین فی السنة السادسة للهجرة «أی عند صلح الحدیبیة» و حالهم بعدها بسنتین حیث تحرّک المسلمون لفتح مکّة بعشرة آلاف مقاتل لیردّوا علی نقض العهد بشدّة، و قد فتحوا مکّة دون أیة مواجهة عسکریة لأنّ قریشا لم تجد فی نفسها القدرة علی المقاومة أبدا.

یتّضح بهذه المقایسة الإجمالیة- سعة ردّ الفعل- التی أحدثتها معاهدة صلح الحدیبیة! ..

و باختصار فإنّ المسلمین حصلوا علی امتیازات عدیدة من وراء هذا الصلح و فتحا کبیرا نذکرها علی النحو التالی:

۱- بیّنوا عملیا للمضللین من أهل مکّة أنّهم لیس لدیهم نیّة للحرب و سفک الدماء و أنّهم یحترمون مکّة و کعبتها المقدسة و کان هذا الأمر سببا لاکتساب قلوب الکثیرین نحو الإسلام.

۲- اعترفت قریش لأوّل مرّة بالإسلام و المسلمین «بصورة رسمیة» و کان ذلک سببا لتثبیت موقعهم فی جزیرة العرب! ...

۳- استطاع المسلمون بعد صلح الحدیبیّة أن یمضوا حیث یشاءون و أن تبقی أرواحهم و أموالهم فی مأمن من الخطر و اتصلوا بالمشرکین من قریب اتصالا أثمر نتیجته، فکان أن عرف المشرکون الإسلام بصورة أکثر و استرعی أنظارهم نحوه!.

۴- انفتح الطریق بعد صلح الحدیبیّة لنشر الإسلام فی الجزیرة العربیة. و أثار موقف النّبی الإیجابی من الصلح القبائل العربیة و أصلح نظرتها إلی الإسلام و رسوله الکریم. و حصل المسلمون علی مجال إعلامی واسع فی هذا الصدد.

۵- هیّأ صلح الحدیبیّة الطریق لفتح «خیبر» و استئصال هذه الغدة السرطانیة «المتمثلة بالیهود» و التی کانت تشکل خطرا مهمّا «بالفعل و القوّة» علی الإسلام و المسلمین!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۷

۶- و أساسا فإنّ استیحاش قریش من مواجهة الجیش الذی کان یتألّف من ألف و أربعمائة مسلم فحسب و لا یحمل أی منهم سلاحا سوی سلاح السفر و قبول قریش بمعاهدة الصلح کان بنفسه أیضا عاملا مهما علی تقویة المعنویات عند المسلمین و هزیمة أعداء الإسلام إلی درجة أنّهم کانوا یتهیّبون من مواجهة المسلمین!.

۷- و بعد صلح الحدیبیّة کتب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کتبا و (رسائل) متعددة إلی رؤساء الدول الکبری (إیران و الروم و الحبشة) و ملوک العالم البارزین یدعوهم فیها إلی الإسلام، و هذا بنفسه یدل علی أن صلح الحدیبیّة أعطی المسلمین الثقة بأنفسهم و أن ینفتحوا لا علی الجزیرة العربیة فحسب بل علی آفاق العالم قاطبة!*** و الآن لنعد ثانیة إلی تفسیر الآیات! ...

نستطیع أن ندرک ممّا ذکر آنفا- بشکل جید- أنّ صلح الحدیبیّة کان بحق انتصارا للإسلام و فتحا للإسلام و المسلمین فلا غرابة أن یعبّر عنه القرآن بالفتح المبین!.

ثمّ بعد هذا کله فإنّ هناک قرائن کثیرة تؤید هذا التّفسیر ..

۱- جملة- فتحنا- التی جاءت بصیغة الفعل الماضی تدل علی أنّ هذا الأمر قد تحقق عند نزول الآیات فی حین أنّه لم یکن وقتئذ أی شیء سوی صلح الحدیبیة!.

۲- زمان نزول الآیات المشار إلیها آنفا و الآیات الأخری المذکورة فی هذه السورة التی تمدح المؤمنین و تذم المنافقین و المشرکین فی صلح الحدیبیّة کلّ ذلک شاهد آخر علی هذا المعنی، و الآیة (۲۷) من سورة الفتح التی تؤکّد علی تحقق رؤیا النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ هی شاهد بلیغ علی أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۸

هذه السورة نزلت بعد الحديبيّة و قبل فتح مكّة!.

۳- هناك روايات كثيرة تعبّر عن صلح الحديبيّة بأنّه «الفتح المبين»! و من ضمنها ما ورد فى تفسير «جوامع الجامع» أنّه حين كان النّبى راجعا من الحديبيّة و نزلت عليه سورة الفتح .. قال أحد أصحابه: ما هذا الفتح؟! لقد صددنا عن البيت و صدّ هدينا!.

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «بئس الكلام «هذا» بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراع و يسألوكم القضيّة! و رغبوا إليكم فى الأمان و قد رأوا منكم ما كرهوا ...»[۴۱۰].

ثمّ ذكّرهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما تحمل المشركون من مساءة يوم بدر و يوم الأحزاب فصدّق المسلمون رسولهم على أنّ هذا أعظم الفتوح و أنّهم قضوا عن عدم اطلاعهم بما قالوا[۴۱۱].

يقول «الزهرى» و هو من التابعين: لم يكن فتح أعظم من الحديبيّة و ذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام فى قلوبهم و أسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام.

ففى هذه الأحاديث إشارة إلى جانب من الامتيازات التى حصل عليها المسلمون ببركة صلح الحديبية.

إلّا أنّ حديثا واحدا ورد عن الإمام الرضا «على بن موسى» عليه السّلام يقول إِنَّا فَتَحْنا نزلت بعد «فتح مكّة»[۴۱۲].

بيد أنّه يمكن توجيه هذه الرواية ببساطة بالقول بأنّ صلح الحديبيّة كان مقدمة لفتح مكّة بعد سنتين، فيرتفع الإشكال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۱۹

أو بتعبير آخر أنّ «صلح الحديبية» كان سببا لفتح خيبر فى فترة وجيزة «فى السنة السابعة للهجرة» و أوسع من ذلك كان سببا لفتح مكّة (السنة الثامنة للهجرة) و انتصارات الإسلام فى مجالات شتى من حيث النفوذ فى قلوب العالمين!.

و بهذا يمكن الجمع بين التفاسير الأربعة مع هذا القيد و هو أنّ صلح الحديبيّة يشكل المحور الأصلى لهذه التفاسير!.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۰

الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲ الى ۳]

اشارة

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲) وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (۳)

التّفسير

نتائج الفتح المبين الكبرى:

فى هاتين الآيتين بيان للنتائج المباركة من «الفتح المبين» [صلح الحديبية] و التى ورد ذكره فى الآية السابقة فتقول الآيتان: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ وَ يُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَ يَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً، وَ يَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً.

و بهذا فإنّ اللّه منح نبيّه الكريم فى ظل هذا الفتح المبين أربع مواهب عظيمة هى «المغفرة»، و «إتمام النعمة»، و «الهداية» و «النصر».

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۱

بحثان

۱- الإجابة على بعض الأسئلة المهمة:

تثار هنا أسئلة كثيرة دأب المفسّرون منذ زمن قديم حتى يومنا هذا بالإجابة على هذه الأسئلة! و من هذه الأسئلة، الأسئلة الثلاثة التالية حول قوله تعالى لنبيّه: ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر!.

۱- ما المراد من العبارة الآنفة لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مع أنّ النّبى معصوم من الذنب؟! ۲- و على فرض أن نغض النظر عن هذا الإشكال! فما علاقة المغفرة بالفتح و صلح الحديبية؟! ۳- و إذا كان المقصود من قوله تعالى «و ما تأخّر» هو الذنوب المستقبلية! فكيف يمكن أن تكون الذنوب الآتية تحت دائرة العفو و المغفرة. أليس مثل هذا التعبير ترخيصا لارتكاب الذنب؟! و قد أجاب كلّ من المفسّرين بنحو خاص على مثل هذه الإشكالات، و لكن للحصول على الإجابة «الجامعة» لهذه الإشكالات و التّفسير الدقيق لهذه الآيات لا بدّ من ذكر مقدمة لهذا البحث و هى:

إنّ المهم هو العثور على العلاقة الخفيّة بين فتح الحديبيّة و مغفرة الذنب لأنّها المفتاح الأصيل للإجابة على الأسئلة الثّلاثة المتقدّمة! و بالتدقيق فى الحوادث التاريخية و ما تمخّضت عنه نصل إلى هذه النتيجة، و هى أنّه حين يظهر أىّ مذهب حق و يبرز فى عالم الوجود فإنّ أصحاب السنن الخرافية الذين يرون أنفسهم و وجودهم فى خطر يكيلون التهم و الأمور التافهة إليه و يشيعون الشائعات و الأباطيل و ينشرون الأراجيف الكاذبة بصدده و ينسبون إليه الذنوب العديدة و ينتظرون عاقبته و إلى أين ستصل؟! فإذا واجه هذا المذهب فى مسيره الانحدار فإنّ ذلك يكون ذريعة قوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۲

لإثبات النسب الباطلة ضدّه على أيدى أعدائه و يصرخون: ألم نقل كذا و كذا!! و لكن حين ينال الانتصار و تحظى مناهجه و خططه بالموفقية فإنّ تلك النسب تمضى كما لو كانوا قد رقموا على الماء!! و تتبدّل جميع أقوالهم إلى حسرات و ندامة و يقولون عندئذ لم نكن نعلم! و خاصّة فى شأن النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم كانت هذه التصوّرات و الذنوب التى و صموها به كثيرة!! إذ عدّوه باغيا للحرب و القتال و مثيرا لنار الفتنة معتدا بنفسه لا يقبل التفاهم و ما إلى ذلك! و قد كشف صلح الحديبيّة أنّ مذهبه على خلاف ما يزعمه أعداؤه إذ كان مذهبا «تقدّميا» إلهيا .. و كان آيات قرآنه ضامنة لتربية النفوس الإنسانية و طاوية لصحائف الظلم و الاضطهاد و الحرب و النزيف الدموى!.

فهو يحترم كعبة اللّه و بيته العتيق و لا يهاجم أية جماعة أو قبيلة دون سبب، فهو رجل منطقىّ و يعشقه اتباعه، و يدعو جميع الناس بحقّ إلى محبوبهم «اللّه» و إذا لم يضطره أعداؤه إلى الحرب فهو داعية للسلام و الصلح و الدعة! ..

و على هذا فقد غسل صلح الحديبيّة جميع الذنوب التى كانت قبل الهجرة و بعد الهجرة قد نسبت إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو جميع الذنوب التى نسبت إليه قبل هذا الحادث أو ستنسب إليه فى المستقبل احتمالا ... و حيث أنّ اللّه جعل هذا الفتح نصيب النّبى فيمكن أن يقال أن اللّه غفر للنبى ذنوبه جميعا.

و النتيجة أنّ هذه الذنوب لم تكون ذنوبا حقيقية أو واقعية بل كانت ذنوبا تصورية و فى أفكار الناس و ظنّهم فحسب، و كما نقرأ فى الآية (۱۴) من سورة الشعراء فى قصة موسى قوله مخاطبا ربّه وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ فى حين أنّ ذنبه لم يكن سوى نصرة المظلوم من بنى إسرائيل و سحق ظلم الفراعنة لا غير!.

و بديهى أنّ هذا الفعل لا يعدّ ذنبا، بل دفاع عن المظلومين و لكنّه كان يعدّ ذنبا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۳

فى نظر الفراعنة و أتباعهم.

و بتعبير آخر أنّ «الذنب» فى اللغة يعنى الآثار السيئة و التبعات التى تنتج عن العمل غير المطلوب، فكان ظهور الإسلام فى البداية تدميرا لحياة المشركين، غير أنّ انتصاراته المتلاحقة و المتتابعة كانت سببا لنسيان تلك التبعات.

فمثلا لو كان لدينا بيت قديم يوشك على الخراب و لكنّنا نلتجئ إليه و لنا به علاقة وطيدة فقام أحد الناس بتخريبه فإنّنا نغضب منه و نخطّئه على فعله و لكنّه بعد بنائه من جديد محكما سامقا فإنّ أحكامنا السابقة تمضى أدراج الرياح! و هكذا بالنسبة لمشركى مكّة سواء قبل هجرة النّبى أم بعدها إذ كانت أفكارهم و أذهانهم مبلبلة عن الإسلام و شخص النّبى بالذات، غير أنّ انتصارات الإسلام أزالت هذه التصورات و الأفكار! أجل: لو أخذنا مسألة العلاقة بين مغفرة هذه الذنوب و فتح الحديبيّة بنظر الاعتبار لا تضح الموضوع بجلاء، و استفدنا العلاقة من «اللام» فى «ليغفر لك اللّه» فى كونها مفتاح «الرمز» لفتح معنى الآية المغلق! غير أنّ من لم يلتفت إلى هذه «اللطيفة» ... جعل عصمة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم موضع استفهام و قال: «و العياذ باللّه» أنّ لديه ذنوبا غفرها اللّه بفتح «الحديبية» أو حمل الآية على خلاف ظاهر معناها و أنّ المراد (الذنوب عامّة).

و قال بعضهم: بل هى ذنوب الناس التى ارتكبوها فى حقّ النّبى كأذاهم و الإساءة إليه و قد غفرها اللّه بفتح «الحديبية» [و فى هذه الصورة يكون الذنب قد أضيف إلى مفعوله معنى لا إلى فاعله .

أو حملوا الذنب على [ترك الأولى .

و بعضهم فسّر ذلك بالفرض فقال: ليغفر لك الذنب الذى لو كنت عملته فرضا أو ستعمله فقد غفر اللّه كلّ ذلك لك!.

لكن من المعلوم أنّ كلّ هذه التفاسير لا تتجاوز التكلّف و التمحّل و دون أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۴

دليل! إذ لو خدشنا فى عصمة الأنبياء .. لأنكرنا فلسفة وجودهم، لأنّ النّبى ينبغى أن يكون قدوة فى كلّ شىء، فكيف يمكن المذنب أن يفى بهذا المنهج و يؤدّى حقّه؟! زد على ذلك، فالمذنب بنفسه يحتاج إلى قائد يرشده و يدلّه ليهتدى به.

و هناك تفاسير أخرى تخالف ظاهر الآية، و الإشكال المهم فيها أنّها تقطع العلاقة ما بين مغفرة الذنب و الفتح «صلح الحديبية».

فأحسن التفاسير هو ما ذكرناه آنفا، و هو ما يجيب على الأسئلة الثلاثة المتقدّمة فى مكان واحد! و يبيّن ارتباط الجمل فى الآية ..

كل ذلك هو فى شأن الموهبة الأولى من المواهب الأربعة التى وهبها اللّه نبيّه فى صلح الحديبية!.

أمّا «إتمام النعمة» على النّبى و هدايته إيّاه الصراط المستقيم و نصره النصر العزيز .. بعد الفتح فى الحديبيّة فليست هذه الأمور ممّا تخفى على أحد .. فقد انتشر الإسلام بسرعة و سخّر القلوب المهيّأة! و ظهرت عظمة تعليماته للجميع و أبطل السموم (المضادّة) و تمّت نعمة اللّه على النّبى و على المسلمين و هداهم الصراط المستقيم نحو الانتصارات حتى أنّ جيش الإسلام لم يجد أية مقاومة فى فتح مكّة و فتح أكبر حصن للمشركين!.

۲- المراد من «ما تقدّم» و «ما تأخّر» ..

قرأنا فى الآية السابقة قوله تعالى: لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ فما المراد من هذا النص «ما تقدّم و ما تأخّر» اختلف المفسّرون فى بيان الآية:

فقال بعضهم: المراد بما تقدّم هو عصيان آدم و حواء و ترك الأولى من قبلهما، أمّا المراد بما تأخّر فهو ذنوب أمّة محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قال بعضهم: «ما تقدّم» إشارة إلى المسائل المتعلّقة بما قبل النبوة، و «ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۵

تأخّر» إشارة إلى المسائل المتعلّقة بما بعدها ..

و قال بعضهم: المراد بما تقدّم هو ما تقدّم على صلح الحديبية، و ما تأخّر أى ما تأخّر عنها من أمور و حوادث!.

و لكن مع ملاحظة التّفسير الذى أوضحناه فى أصل معنى الآية و خاصة العلاقة بين مغفرة الذنب مع مسألة فتح الحديبية، يبدو بجلاء أنّ المراد هو التهم الباطلة التى و صمها المشركون- بزعمهم- بالنّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى ما سبق و ما لحق و لو لم يتحقّق هذا النصر العظيم لكانوا يتصوّرون أنّ جميع هذه الذنوب قطعية ..

غير أنّ هذا الانتصار الذى تحقّق للنبى طوى جميع الأباطيل و التهم (المتقدّمة) فى حقّ النّبى و ما سيتّهم به فى المستقبل فى حال عدم انتصاره!.

و الشاهد الآخر على هذا التّفسير هو

الحديث المنقول عن الإمام الرضا على بن موسى عليهما السلام إذ سأله المأمون عن تفسير هذه الآية فقال: «لم يكن أحد عند مشركى أهل مكّة أعظم ذنبا من رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّهم كانوا يعبدون من دون اللّه ثلاثمائة و ثلاثين صنما فلمّا جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص «التوحيد» كبر ذلك عليهم و قالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا إنّ هذا لشىء عجاب إلى أن قالوا ما سمعنا بهذا فى الملّة الآخرة إن هذا إلّا اختلاق ۴۱۳].

فلمّا فتح اللّه تعالى على نبيّه مكّة قال اللّه تعالى: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ عند مشركى أهل مكّة بدعائك إلى توحيد اللّه فيما تقدّم و ما تأخّر لأنّ مشركى مكّة أسلم بعضهم و خرج بعضهم عن مكّة و من بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم مغفورا بظهوره عليهم» فلمّا سمع المأمون كلام الرضا قال له: «أحسنت، باركك اللّه فيك يا أبا الحسن».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۶

الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۴]

اشارة

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (۴)

التّفسير

نزول السكينة على قلوب المؤمنين:

ما قرأناه فى الآيات السابقة هو ما أعطاه اللّه من مواهب عظيمة لنبىّ الإسلام صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالفتح المبين «صلح الحديبية»، أمّا فى الآية أعلاه فالكلام عن الموهبة العظيمة التى تلطف اللّه بها على جميع المؤمنين إذ تقول الآية:

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ

و لم لا تنزل السكينة و الاطمئنان على قلوب المؤمنين؟ وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

ماذا كانت هذه السكينة؟!

من الضرورى هنا أن نعود إلى قصة «صلح الحديبيّة» و أن نتصوّر أنفسنا فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۷

فضاء الحديبيّة و فى جوّها لنطّلع على عمق هذه الآية.

لقد كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى رؤيا «رحمانية و إلهية» أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، و على أثر رؤياه تحرّك نحو زيارة بيت اللّه مع أصحابه و كان أغلب أصحابه يتوقّعون أنّ هذه الرؤيا الصالحة سيتحقّق تعبيرها فى هذا السفر نفسه، لكنّ الذى قدّره اللّه كان شيئا آخر! هذا كلّه من جانب.

و من جانب آخر كان المسلمون قد أحرموا و جاءوا بالإبل ليهدوها أو ينحروها، و لكنّهم و على خلاف ما توقّعوا لم يوفّقوا لزيارة بيت اللّه، و أمر النّبى أن ينحروا الإبل فى الحديبيّة التى توقّفوا فيها هناك. و أن يحلّوا من إحرامهم، و كان ذلك أمرا صعبا عليهم و لا يمكن تصديقه، لأنّ آدابهم و سننهم و تعليمات الإسلام أيضا تنصّ على عدم الخروج و الإحلال من الإحرام ما لم يتمّ أداء المناسك الخاصة بالعمرة.

و من جانب ثالث كان من مواد معاهدة الصلح فى الحديبية، مادة تقضى بإعادة المسلمين من يلجأ إليهم من قريش و يعلن إسلامه و يدخل المدينة! و لا يلزم العكس، و كان هذا الموضوع صعبا على المسلمين للغاية.

و من جانب رابع، فإنّ قريشا لم ترغب أن تكتب كلمة «رسول اللّه» التى كان يدعى بها النّبى محمّد و أصرّ ممثلها سهيل بن عمرو على حذف الكلمة من معاهدة الصلح، و لم يوافق حتى على كتابة بسم اللّه الرحمن الرحيم، و أصرّ أن يكتب مكانها «بسمك اللّهمّ»، التى كانت تنسجم مع سنّة أهل مكّة، فهذه الأمور كلّ واحد منها كان غير مرغوب فيه، فكيف بجميعها؟ و لذلك تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإيمان من أصحاب النّبى إلى درجة أنّه حين نزلت سورة إِنَّا فَتَحْنا قالوا أى فتح هذا؟! هنا ينبغى أن يشمل لطف اللّه حال المسلمين و أن ينزل عليهم السكينة و الاطمئنان و أن لا يوجد فى قلوبهم الضعف و الفتور فحسب، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۸

لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ و تنطبق مصداقية الآية عليهم، فإنّ الآية نزلت فى مثل هذه الظروف.

«السكينة» فى الأصل مشتقة من «السكون»، و معناها الاطمئنان و الدعة و ما يزيل كل أنواع الشك و التردّد و الوحشة من الإنسان و يجعله ثابت القدم فى طوفان الحوادث! و هذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدى فيزيل ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملى بحيث يهب الإنسان ثبات القدم و المقاومة و الاستقامة و الصبر.

و بالطبع فإنّ البحوث السابقة و تعبيرات الآية نفسها تتناسب مع استعمال السكينة فى معناها الأوّل أكثر.

فى حين أنّها فى الآية (۲۴۸) من سورة البقرة فى قصة «طالوت و جالوت» تعوّل على الأسس العملية أكثر! و قد ذكر جماعة من المفسّرين معانى أخر للسكينة و ترجع فى نهايتها إلى هذا التّفسير أيضا.

الطريف أنّ «السكينة» فى بعض الرّوايات فسّرت بالإيمان ۴۱۴] كما فسّرت فى بعضها بنسيم الجنّة الذى يبدو فى هيئة الإنسان و يمنح المؤمنين الاطمئنان ۴۱۵]! و كل هذه التفاسير تأييد لما قلناه، لأنّ السكينة وليدة الإيمان، و هى تهب الاطمئنان كنسيم الجنّة! و ينبغى الالتفات أيضا إلى هذه اللطيفة فى شأن السكينة، إذ عبّر عنها بالإنزال هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ و نعلم أنّ هذا التعبير فى القرآن قد يعنى الخلق و الإيجاد و إيلاء النعمة أحيانا .. و حيث أنّها من عال إلى دان فقد ورد فى شأنها التعبير بالإنزال!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۲۹

ملاحظات

۱- السكينة التى لا نظير لها!

إذا لم يكن للإيمان أية ثمرة سوى مسألة السكينة لكان على الإنسان أن يتقبّله! فكيف به و هو يرى آثاره و ثمراته و بركاته!.

و التحقيق فى حال المؤمنين و حال غير المؤمنين يكشف هذه الحقيقة، و هى أنّ الفئة الثّانية يعانون حالة الاضطراب و القلق الدائم، فى حين أنّ الجماعة الأولى فى اطمئنان خاطر عديم النظير ...

و فى ظل الاطمئنان، فإنّهم لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ۴۱۶].

كما أنّهم فى مواصلة نهجهم لا يؤثر اللوم و التهديد فيهم أبدا وَ لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ۴۱۷].

و هم يتمسّكون بأصلين مهمّين فى حفظ هذه السكينة، و هما: عدم الحزن على ما فاتهم، و عدم التعلّق و الفرح بما لديهم، فهم مصداق لقوله تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ ۴۱۸].

و أخيرا فإنّهم لا يضعفوا أبدا أمام الشدائد، و لا يركعوا مقابل الأعداء و يتحلّون بشعار وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۴۱۹].

إنّ المؤمن لا يرى نفسه وحيدا فى ميدان الخطوب و الحوادث بل يحسّ بيد اللّه على رأسه و يلمس إعانة الملائكة و نصرتهم له، فى حين أنّ غير المؤمنين يحكمهم الاضطراب فى أحاديثهم و سلوكهم و لا سيما عند هبوب العواصف و طوفان الأحداث إذ يرى كلّ ذلك منهم بصورة بيّنة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۰

۲- سلسلة مراتب الإيمان:

الإيمان، سواء بمعنى العلم و المعرفة، أم روح التسليم و الإذعان للحق فإنّ له درجات و سلسلة مراتب، لأنّ العلم له درجات، و التسليم و الإذعان لهما درجات مختلفة أيضا، حتى العشق و الحب الذى هو توأم الإيمان يتفاوت من حالة إلى أخرى! فالآية محل البحث التى تقول: لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ تأكيد على هذه الحقيقة أيضا .. و على هذا فلا ينبغى للمؤمن أن يتوقّف فى مرحلة واحدة من مراحل الإيمان، بل عليه أن يتسامى إلى درجاته العليا عن طريق بناء شخصيّته و العلم و العمل.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنّه قال: «إنّ الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة»[۴۲۰].

كما

نقرأ عنه حديثا آخر إذ قال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر و الصدق و اليقين و الرضا و الوفاء و العلم و الحلم فمن جعل فيه السبعة الأسهم فهو كامل محتمل و قسّم لبعض الناس السهم و السهمين و لبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى (ال) سبعة».

ثمّ يضيف الإمام عليه السّلام: «لا تحملوا على صاحب السهم سهمين و لا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم» .. ثمّ قال كذلك حتى انتهى إلى (ال) سبعة[۴۲۱].

و من هنا يتّضح ما نقل عن بعضهم أنّ الإيمان ليس فيه زيادة و لا نقصان لا أساس له، لأنّه لا ينسجم مع الثوابت العلميّة و لا مع الرّوايات الإسلامية!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۱

۳- ركنى السكينة:

قرأنا فى ذيل الآية محل البحث جملتين، كلّ منهما تمثّل ركنا من أركان «السكينة» و الاطمئنان للمؤمنين.

فالأولى جملة وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و الأخرى جملة وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً.

فالأولى تقول للإنسان: إذا كنت مع اللّه فإنّ جميع ما فى الأرض و السماء معك!.

و الأخرى تقول: إنّ اللّه يعلم حاجاتك و مشاكلك كما يعلم سعيك و طاعتك و عبادتك.

و مع الإيمان بهذين «الأصلين» كيف يمكن أن لا يحكم الاطمئنان و سكينة القلب وجود الإنسان!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۲

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۵ الى ۷]

اشارة

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (۵) وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ لَعَنَهُمْ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً (۶) وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۷)

التّفسير

نتيجة أخرى من الفتح المبين:

نقل جماعة من مفسّرى الشيعة و أهل السنّة أنّه حين بشّر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم «بالفتح المبين» و «إتمام النعمة» و «الهداية» و «النصرة» .. قال بعض المسلمين ممّن كان مستاء من صلح الحديبيّة: هنيئا لك يا رسول اللّه! لقد بيّن لك اللّه ماذا يفعل بك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۳

فما ذا يفعل بنا فنزلت الآية لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ۴۲۲].

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآيات تتحدّث عن علاقة صلح الحديبيّة و آثاره وردّ الفعل المختلف فى أفكار الناس و نتائجه المثمرة، و كذلك عاقبة كلّ من الفريقين اللذين امتحنا فى هذه «البوتقة» و المختبر- فتقول الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها. فلا تسلب هذه النعمة الكبرى عنهم أبدا ...

و إضافة إلى ذلك فإنّ اللّه يعفو عنهم وَ يُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ كانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً[۴۲۳].

و بهذا فإنّ اللّه قد وهب المؤمنين بإزاء ما وهب لنبيّه فى فتحه المبين من المواهب الأربعة موهبتين عظميين هما «الجنّة خالدين فيها» و «التكفير عن سيّئاتهم» بالإضافة إلى إنزال السكينة على قلوبهم و مجموع هذه المواهب الثلاث يعدّ فوزا عظيما لأولئك الذين خرجوا من الامتحان بنجاح و سلامة!.

و كلمة «الفوز» التى توصف فى القرآن غالبا ب «العظيم» و أحيانا توصف ب «المبين» أو «الكبير» بناء على ما يقول «الراغب» فى «مفرداته» معناها الانتصار و نيل الخيرات المقرون بالسلامة، و ذلك فى صورة ما لو كان فيه النجاة فى الآخرة و إن اقترن مع زوال

بعض المواهب الدنيوية.

و طبقا للرواية المعروفة عن أمير المؤمنين على عليه السّلام حين ضربه اللعين عبد الرحمن بن ملجم فى محراب العبادة بالسيف على أمّ رأسه قال هاتفا

«فزت و ربّ الكعبة»

و كأنّه يقول فزت بأنّى أمضيت ختم صحيفتى بدم رأسى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۴

أجل قد تبلغ الامتحانات الإلهية درجة أن تضعضع الإيمان الضعيف و تغيّر القلوب، و إنّما يثبت المؤمنين الصادقون الذين تحلّوا بالسكينة و الاطمئنان و سينعمون فى يوم القيامة بنتائجه، و ذلك هو الفوز العظيم حقّا!.

غير أنّ إزاء هذه الجماعة، جماعة المنافقين و المشركين الذين تتحدّث الآية التالية عن عاقبتهم بهذا الوصف فتقول: وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

أجل، لقد ظنّ المنافقون حين تحرّك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و معه المؤمنون من المدينة أن لا يعودوا نحوها سالمين كما تتحدّث عنهم الآية (۱۲) من هذه السورة ذاتها فتقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

كما ظنّ المشركون أيضا أنّ محمّدا لن يعود إلى المدينة سالما مع قلّة العدد و العدد و سيأفل كوكب الإسلام عاجلا ... ثمّ يفصل القرآن ببيان عذاب هؤلاء و عقابهم و يجعله تحت عناوين أربعة فيقول أوّلا: عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ[۴۲۴].

«الدائرة» فى اللغة هى الحوادث و ما ينجم عنها أو ما يتّفق للإنسان فى حياته، فهى أعم من أن تكون حسنة أو سيئة غير أنّها هنا بقرينة كلمة «السوء» يراد منها الحوادث غير المطلوبة!.

و ثانيا: وَ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

و ثالثا: وَ لَعَنَهُمْ

و رابعا و أخيرا: فإنّه بالمرصاد وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ ساءَتْ مَصِيراً.

و الذى يسترعى الانتباه أنّه فى الحديبيّة كان أغلب الحاضرين من المسلمين رجالا، و فى مقابلهم من المنافقين و المشركين رجالا أيضا، غير أنّ الآيات الآنفة أشركت الرجال و النساء فى ذلك الفوز العظيم، و هذا العذاب الأليم، و ذلك لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۵

الرجال المؤمنين أو المنافقين الذين يقاتلون فى «ساحات القتال» لا يحقّقون أهدافهم إلّا أن تدعمهم النساء بالدعم اللازم.

و أساسا فإنّ الإسلام ليس دين الرجال فحسب فيهمل شخصيّة المرأة، بل يهتمّ بها، فى كلّ موطن يوهم الكلام بالاقتصار على الرجل مع عدم ذكر المرأة فيه يصرّح بذكرها ليعلم أنّ الإسلام دين الجميع دون استثناء رجالا و نساء.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة أخرى إلى عظمة قدرة اللّه فتقول الآية: وَ لِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

و قد ورد هذا التعبير مرّة فى ذيل مقامات أهل الإيمان و مواهبهم، و مرّة هنا فى ذيل الآية التى تحكى عن عقاب المنافقين و المشركين ... ليتّضح أنّ اللّه الذى له جنود السماوات و الأرض جميعا قادر على الأمرين، فهو قادر أن تشمل رحمته مستحقيها من عباده الصالحين و ناصريه، كما أنّه قادر على أن ينزل غضبه و انتقامه نارا تحرق المجرمين.

و ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن حين يذكر المؤمنين يصف اللّه بالعلم و الحكمة، و هما يناسبان مقام الرحمة، و لكنّه حين يذكر المنافقين و المشركين يصف اللّه بالعزة و الحكمة، و هما يناسبان العذاب!

ما المراد من «جنود السماوات و الأرض»؟!

هـذا التعبير له معنى واسع حيث يشـمل الملائكـة «و هى من جنود السـماء» كما يشـمل جنودا أخر كالصواعق و الزلازل و الطوفانات و السيول و الأمواج و القوى الغيبية غير المرئية التى لا نعرف عنها شيئا ... لأنّ جميع هذه الأشياء هى جنود اللّه و هى مطيعة لأوامره!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۶

من هم الظانّون باللّه ظنّ السوء؟!

قـد يكون سوء الظن تـارة بالنفس، و قـد يكون سوء الظن بالآخرين، كما قـد يكون باللّه، و بهـذا التقسـيم و على منواله يكون «حسـن الظن» أيضا.

أمّا سوء الظن بالنفس إذا لم يبلغ درجة الإفراط فهو سلّم إلى التكامل و يدفع الإنسان إلى التدقيق فى أعماله و الإخلاص فيها، و يكون حاجزا عن العجب و الغرور منه عند قيامه بالأعمال الصالحة.

و بهذا

فإنّ الإمام عليا عليه السّلام يصف المتّقين فى جوابه لهمّام قائلا: «فهم لأنفسـهم متّهمون، و من أعمالهم مشـفقون، إذا زكّى أحد منهم خـاف ممّـا يقال له، فيقول: أنا أعلم بنفسـى من غيرى و ربّى أعلم بى منّى بنفسـى، اللّهمّ لا تؤاخـذنى بما يقولون و اجعلنى أفضل ممّا يظنّون و اغفر لى ما لا يعلمون»[۴۲۵].

و إذا كان سوء الظن بالناس فهو ممنوع إلّا أن يغلب الفساد فى المجتمع حيث لا ينبغى هناك حسن الظن «و سيأتى بيان هذا الموضوع بإذن اللّه ذيل الآية ۱۲ من سورة الحجرات».

أمّا سوء الظن باللّه أى سوء الظن بوعده أو رحمته و كرمه الذى لا حدّ له فهو قبيح و مذموم، و قد يدلّ على ضعف الإيمان و ربّما دلّ على عدم الإيمان! و يشير القرآن عدّة مرّات إلى سوء ظنّ ضعاف الإيمان أو عديمى الإيمان ..

و خاصـة عنـد بروز الحوادث الاجتماعيـة الصـعبة و طوفـان الابتلاء و الامتحـان، و كيف أنّ المؤمنين يبقون ثـابتى الأقـدام عنـد هـذه الحوادث و هم فى كمال حسن الظن و الاطمئنان بلطف اللّه .. و لكنّ ضعيفى الإيمان يطلقون لسان الشكوى، كما كان ذلك فى قصة الحديبيّة، حيث إنّ المنافقين و من على شاكلتهم أساءوا الظنّ، و قالوا أنّ محمّدا و أصحابه يمضون فى سفرهم هذا و لا يعودون بعده، فكأنّهم نسوا و عود اللّه أو أنّهم اتهموها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۷

و النموذج الآخر ما حدث فى ساحة يوم الأحزاب حين زلزل المسـلمون زلزالا شديدا و وقعوا تحت التأثير و المحنة الصـعبة فهناك ذمّ اللّه المسـيئين الظنّ به فقال: إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا، هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً[۴۲۶].

و قد عبّرت الآية (۱۵۴) من سورة آل عمران عن مثل هذه الظنون ب «ظنّ الجاهلية».

و على كلّ حال، فظنّ حسن الظن باللّه و رحمته و وعـده و كرمه و لطفه و عنايته من علائم الإيمان المهمّـة و من الأسـباب المؤثّرة فى النجاة و السعادة!.

حتى أنّه

ورد فى بعض أحاديث الرّسول صلى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «ليس من عبد يظنّ باللّه خيرا إلّا كان عند ظنّه به»[۴۲۷].

كما

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال: «أحسن باللّه الظن فإنّ اللّه عزّ و جلّ يقول أنا عند ظنّ عبدى المؤمن بى إن خير فخير و إن شر فشر»[۴۲۸].

و أخيرا

فقد ورد حديث آخر عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: «إنّ حسن الظنّ باللّه عزّ و جلّ ثمن الجنّة»[۴۲۹]!.

فأى قيمة أيسر من هذا ... و أىّ متاع أعظم قيمة منه!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۸

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۸) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۹) إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (۱۰)

التّفسير

مكانة النّبى و واجب الناس تجاهه!

قلنا إنّ بعض الجهلاء اعترضوا بشدّة على صلح الحديبيّة و حتى أنّ بعض تعبيراتهم لم تخل من عدم الاحترام بالنسبة إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كان مجموع هذه الأمور يستوجب أن يؤكّد القرآن مرّة أخرى على عظمة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و جلالة قدره!.

لذلك فإنّ الآية الأولى من الآيات أعلاه تخاطب النّبى فتقول: إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً.

و هذه ثلاثة أوصاف بارزة هى من أهم ما يتمتّع به النّبى من صفات و مقام. كونه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۳۹

«شاهدا» و «مبشّرا»، و «نذيرا».

«شاهدا» على جميع الأمّة الإسلامية، بل هو شاهد على جميع الأمم كما نقرأ هذا التعبير فى الآية (۴۱) من سورة النساء فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

و نقرأ فى الآية (۵) من سورة التوبة قوله تعالى: وَ قُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ

و أساسا فإنّ لكلّ إنسان شهودا كثيرين!.

أولهم اللّه الذى هو عالم الغيب و الشهادة المطّلع على جميع أعماله و نيّاته!.

و من بعده الملائكة المأمورون بحفظ أعماله كما ورد التعبير فى الآية (۲۱) من سورة (ق) وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

ثمّ أعضاء بدن الإنسان و حتى جلده شاهد عليه ... يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۴۳۰].

و جاء فى الآية ۲۱ من سورة فصلت فى هذا الصدد أيضا: وَ قالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

و «الأرض» أيضا، من زمرة الشهود و كما جاء فى سورة الزلزلة يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها.

و طبقا لبعض الروايات فإنّ «الزمان» أحد الشهود أيضا، إذ نقرأ

فى بعض أحاديث الإمام على عليه السّلام قوله: «ما من يوم يمرّ على بنى آدم إلّا قال له ذلك اليوم أنا يوم جديد و أنا عليك شهيد فافعل فىّ خيرا و اعمل فىّ خيرا، اشهد لك يوم القيامة فإنّك لن ترانى بعد هذا أبدا»[۴۳۱]،[۴۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۰

و لا شك أنّ شهادة اللّه وحدها كافية، لكنّ تعدّد الشهود فيه إتمام للحجّة أكثر و له أثر تربوىّ- أقوى- فى الناس ...

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم بيّن هذه الأوصاف الثلاثة و هى الشهادة و البشارة و الإنذار التى هى من الأوصاف الأساسية للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لتكون مقدمة لما ورد فى الآية التى بعدها.

و فى الآية التالية خمسة أوامر مهمّة- هى فى الحقيقة بمثابة الهدف من سمات النبى المذكورة آنفا: و تشكل أمرين فى طاعة اللّه و تسبيحه و تقديره، و ثلاثة أوامر منها فى «طاعة» رسوله و «الدفاع عنه» و «تعظيم مقامه»، إذ تقول الآية: لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُعَزِّرُوهُ وَ تُوَقِّرُوهُ وَ تُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا.

كلمة «تعزّروه» مشتقة من مادة تعزير، و هو فى الأصل يعنى «المنع» ثمّ توسّعوا فيه فأطلق على كلّ دفاع و نصرة و إعانة للشخص فى مقابل أعدائه كما يطلق على بعض العقوبات المانعة عن الذنب «التعزير» أيضا.

و كلمة «توقّروه» مشتقة من مادة توقير، و جذورها «الوقر» و معناها الثقل ..

فيكون معنى التوقير هنا التعظيم و التكريم.

و طبقا لهذا التّفسير فإنّ الضميرين فى «تعزّروه» و «توقّروه» يعودان على شخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الهدف من ذلك هو الدفاع عنه بوجه أعدائه و تعظيمه و احترامه «و قد اختار هذا التّفسير الشيخ الطوسى فى «التبيان» و «الطبرسى» فى مجمع البيان و غيرهما أيضا».

غير أنّ جماعة من المفسّرين ۴۳۳] ذهبوا إلى أنّ جميع الضمائر فى الآية تعود على اللّه، و المراد بالتعزيز و التوقير هنا نصرة دين اللّه و تعظيمه و تكريمه دينه و دليلهم على هذا التّفسير انسجام جميع الضمائر بعضها مع بعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۱

غير أنّ التّفسير الأوّل يبدو أقرب، لأنّ «التعزير» أولا: معناه فى الأصل المنع و ذبّ الأعداء و الدفاع عن «الشخص»، و لا يصحّ ذلك فى شأن اللّه إلّا على سبيل «المجاز» فحسب! و أهم من ذلك هو شأن نزول الآية، إذ أنّها نزلت بعد صلح الحديبية و كان بعضهم يسىء التعامل مع النّبى و لا يحترم مقامه الكريم، و قد نزلت الآية لتنبه المسلمين على ما ينبغى عليهم من الوظائف بالنسبة إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ لا ينبغى أن ننسى أنّ الآية هى بمثابة النتيجة للآية السابقة التى وصفت النّبى بأنّه «شاهد و مبشر و نذير» و هذا الأمر يهىء الأرضية المناسبة للآية التى بعدها.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة قصيرة إلى مسألة «بيعة الرضوان» و قد جاء التفصيل عنها فى الآية (۱۸) من السورة ذاتها! و توضيح ذلك هو: كما قلناه آنفا إنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم رأى فى منامه كما تقول التواريخ أنّه دخل مع أصحابه مكّة، فتوجّه على أثر هذه الرؤيا مع ألف و أربعمائة صحابى إلى مكّة، إلّا أنّ قريشا صمّمت على منعه و هو على مقربة من مكّة ... فتوقف النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه فى منطقة الحديبيّة ... و تمّ تبادل المبعوثين بين قريش و النّبى حتى انتهى الأمر إلى معاهدة صلح الحديبيّة! و فى عملية تبادل السفراء و المبعوثين، أمر عثمان مرّة أن يبلغ أهل مكّة- من قبل النّبى- أنّه لا يريد الحرب و لا القتال و إنّما يريد العمرة فحسب، إلّا أنّ المشركين من أهل مكّة أوقفوا عثمان مؤقتا و كان هذا الأمر سببا أن يشيع بين المسلمين خبر قتل عثمان، و لو كان هذا الموضوع صحيحا لكان دليلا على إعلان قريش الحرب و منازلة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم

لذلك

فإنّ النّبى قال: «لا نبارح مكاننا «الحديبيّة» حتى نأخذ البيعة من قومنا»،

فطلب تجديد البيعة ... فاجتمع المسلمون و بايعوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم تحت شجرة هناك على أن لا يتركوا النبى وراءهم ظهريّا و أن يقاتلوا مع النّبى أعداءه و يذبّوا عنه ما دام فيهم طاقة على ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۲

فبلغ هذا الأمر سمع المشركين و دبّ الرعب فيهم، و هذا ما دعاهم إلى الصلح مع النبى. و من هنا سمّيت مبايعة المسلمين نبيّهم تحت الشجرة بيعة الرضوان حيث وردت الإشارة إليها فى الآية (۱۸) من السورة ذاتها: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

و على كلّ حال فإنّ القرآن يتحدّث عن مبايعة المسلمين فى الآية محلّ البحث فيقول: إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ و «البيعة» معناها المعاهدة على اتّباع الشخص و طاعته، و كان المرسوم أو الشائع بين الناس أنّ الذى يعاهد الآخر و يبايعه يمد يده إليه و يظهر وفاءه و معاهدته عن هذا الطريق لذلك الشخص أو لذلك «القائد» المبايع!.

و حيث أنّ الناس يمدّون أيديهم «بعضهم إلى بعض» عند البيع و ما شاكله من المعاملات و يعقدون المعاملة بمد الأيدى و «المصافحة» فقد أطلقت كلمة «البيعة» على هذه العقود و العهود أيضا. و خاصة أنّهم عند «البيعة» كأنّما يقدّمون أرواحهم لدى العقد مع الشخص الذى يظهرون وفاءهم له.

و على هذا يتّضح معنى يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ .. إذ إنّ هذا التعبير كناية عن أنّ بيعة النّبى هى بيعة اللّه، فكأنّ اللّه قد جعل يده على أيديهم فهم لا يبايعون النّبى فحسب بل يبايعون اللّه، و أمثال هذه الكناية كثيرة فى اللغة العربية!.

و بناء على هذا التّفسير فإنّ من يرى بأنّ معنى هذه الجملة يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ هو أنّ قدرة اللّه فوق قدرتهم أو أنّ نصرة اللّه أعظم من نصرة الناس و أمثال ذلك لا يتناسب تأويله مع شأن نزول الآية و مفادها و إن كان هذا الموضوع بحدّ ذاته صحيحا.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَ مَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً[۴۳۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۳

كلمة «نكث» مشتقة من «نكث» و معناها الفتح و البسط ثمّ استعملت فى نقض العهد[۴۳۵].

و القرآن فى هذه الآية ينذر جميع المبايعين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ يثبتوا على عهدهم و بيعتهم فمن ثبت على العهد فسيؤتيه اللّه أجرا عظيما و من نكث فإنّما يعود ضرره عليه و لا ينال اللّه ضرره أبدا .. بل إنّه يهدّد وجود المجتمع و كرامته و عظمته و يعرّضه للخطر بنقضه البيعة!.

و

قد ورد- فى كلام- عن أمير المؤمنين عليه السّلام قوله: «إنّ فى النّار لمدينة يقال لها الحصينة، أ فلا تسألونى ما فيها؟! فقيل له: ما فيها يا أمير المؤمنين؟! قال: فيها أيدى الناكثين»[۴۳۶].

و من هنا يتّضح بجلاء قبح نقض البيعة من وجهة نظر الإسلام!! و فى هذا المجال هناك بحوث فى «البيعة فى الإسلام» و حتى «قبل الإسلام» و كيفية البيعة و أحكامها ستأتى بأذن اللّه فى ذيل الآية (۱۸) من هذه السورة ذاتها!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۴

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۱ الى ۱۴]

اشارة

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۱۱) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (۱۲) وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (۱۳) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۱۴)

التّفسير

اعتذار المخلفين:

ذكرنا- فى تفسير الآيات الآنفة- أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم توجّه من المدينة إلى مكّة مع ألف و أربعمائة من صحابته «للعمرة»!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۵

و قد أبلغ عن النّبى جميع من فى البادية من القبائل أن يحضروا معه فى سفره هذا، إلّا أنّ قسما من ضعيفى الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر و أعرضوا عنه و كان تحليلهم هو أنّ المسلمين لا يستطيعون الحفاظ على أرواحهم فى هذا السفر فى حين أنّ كفار قريش كانوا فى حالة حرب مع المسلمين و قاتلوهم فى أحد و الأحزاب على مقربة من المدينة، فإذا توجّهت هذه الجماعة القليلة العزلاء من كلّ سلاح نحو مكّة و عرّضت نفسها إلى العدو المدجّج بالسلاح. فكيف ستعود إلى بيوتها بعدئذ؟! إلّا أنّهم حين رأوا المسلمين و قد عادوا إلى المدينة ملاء الأيدى وافرين قد حصلوا على امتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيّة دون أن تراق من أحدهم قطرة دم، عرفوا حينئذ خطأهم الكبير و جاؤوا إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ليعتذروا إليه، و يبرّروا تخلّفهم عنه و يطلبوا منه أن يستغفر لهم! غير أنّ الآيات آنفة الذكر نزلت ففضحتهم و أماطت عنهم اللثام.

و على هذا، فالآيات هذه- تبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّنت الآيات السابقة حال المنافقين و المشركين لتتمّ حلقات البحث و يرتبط بعضها ببعض! تقول هذه الآيات: سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَ أَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى فى توبتهم! فأبلغهم يا رسول و قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً؟! فليس على اللّه بعزيز و لا عسير أن يحفكم بأنواع البلاء و المصائب و أنتم فى دار أمنكم و بين أهليكم و أبنائكم كما لا يعزّ عليه أن يجعلكم فى حصن حصين من بأس الأعداء و لو كنتم فى مركزهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۶

إنّما هو جهلكم الذى دعاكم إلى هذا التصور و الاعتقاد! أجل بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً.

و أقصى من هذا فهو خبير بأسراركم و نيّاتكم و هو يعلم جيدا أنّ هذه الحيل و الحجج الواهية لا صحة لها و لا واقعيّة .. و الواقع هو أنّكم متردّدون ضعيفو الإيمان. و هذه الأعذار لا تخفى على اللّه و لا تحول دون عقابكم أبدا! الطريف هنا أنّه يستفاد من لحن الآيات و من التواريخ أيضا أنّ هذه الآيات نزلت عند عودة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم إلى المدينة، أى أنّها قبل مجيء المخلّفين للاعتذار إليه- أماطت اللثام عنهم و كشفت الستار و فضحتهم!.

و من أجل أن ينجلى الأمر و يتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جميع الأستار فيقول: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَ الْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً.

أجل، إنّ السبب فى عدم مشاركتكم النّبى و أصحابه فى هذا السفر التاريخى لم يكن هو كما زعمتم- انشغالكم بأموالكم و أهليكم- بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم باللّه، و كنتم تتصوّرون خطأ أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنبى و أصحابه و ينبغى الاجتناب عنه! و ما ذلك إلّا ما وسوست به أنفسكم وَ زُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَ ظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ.

لأنّكم تخيّلتم أنّ اللّه أرسل نبيّه فى هذا السفر و أودعه فى قبضة أعدائه و لن يخلصه و يحميه عنهم! وَ كُنْتُمْ قَوْماً بُوراً- أى هالكين- فى نهاية الأمر!.

و أى هلاك أشدّ و أسوأ من عدم مشاركتهم فى هذا السفر التأريخى و بيعة الرضوان و حرمانهم من المفاخر الأخر ... ثمّ الفضيحة الكبرى ... و بعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد فى الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة!.

و حيث أنّ هؤلاء الناس- ضعاف الإيمان- أو المنافقين هم أناس جبناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۷

و تائقون الى الدعة و الراحة و يفرّون من الحرب و القتال فإنّ ما يحلّلونه إزاء الحوادث لا ينطبق على الواقع أبدا .. و مع هذه الحال فإنّهم يتصوّرون أنّ تحليلهم صائب جدّا.

و بهذا الترتيب فإنّ الخوف و الجبن و طلب الدعة و الفرار من تحمل المسؤوليات يجعل سوء ظنّهم فى الأمور واقعيا، فهم يسيئون الظنّ فى كلّ شىء حتى بالنسبة الى اللّه و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و نقرأ

فى نهج البلاغة من وصية للإمام على عليه السّلام إلى مالك الأشتر قوله: «إنّ البخل و الجبن و الحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظنّ باللّه»[۴۳۷].

حادثة «الحديبيّة» و الآيات محل البحث، كلّ ذلك هو الظهور العينى لهذا المعنى، و يدلّل كيف أنّ مصدر سوء الظنّ هو من الصفات القبيحة حاله حال البخل و الحرص و الجبن!.

و حيث أنّ هذه الأخطاء مصدرها عدم الإيمان فإنّ القرآن يصرّح فى الآية التالية قائلا: وَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً[۴۳۸].

و «السعير» معناه اللهيب.

و فى آخر آية من الآيات محل البحث يقول القرآن و من أجل أن يثبت قدرة اللّه على معاقبة الكفار و المنافقين: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و ممّا يسترعى النظر أنّ موضوع المغفرة مقدّم هنا على العذاب، كما أنّ فى آخر الآية تأكيدا على المغفرة و الرحمة أيضا، و ذلك لأنّ الهدف من هذه التهديدات جميعا هو التربية، و موضوع التربية يوجب أن يكون طريق العودة مفتوحا بوجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۸

الآثمين حتى الكفار. و خاصة أنّ أساس كثير من هذه الأمور السلبية هو الجهل و عدم الاطلاع- فينبغى أن يبعث فى مثل هؤلاء الأفراد الأمل على المغفرة بمزيد من الرجاء، فلعلّهم يؤوبون نحو السبيل!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۴۴۸

*

ملاحظة

تعلیل الذنب و توجیهه مرض عام:

مهما کان الذنب کبیرا فإنّه لیس أکبر من تبریره و توجیهه، لأنّ المذنب المعترف بالذنب غالبا ما یؤوب للتوبة، لکنّ المصیبة تبدأ حین یقوم المذنب بتبریر ذنوبه، فلا ینغلق باب التوبة بوجه الإنسان فحسب بل یتجرّأ علی الذنب و یشتدّ علی مقارفته! و هذا التعلیل أو التوجیه یقع أحیانا لحفظ ماء الوجه و تحسبا من الافتضاح، و لکنّ أسوأ من هذا کلّه حین ینخدع به الضمیر و «الوجدان»! و هذا التعلیل لیس أمرا جدیدا، و یمکن العثور علی أمثال له علی امتداد التاریخ البشری، و کیف وجّه أکبر مجرمی التاریخ جناياتهم لخداع أنفسهم بتوجیهات مضحکة تجعل کلّ إنسان غارقا فی ذهوله و تعجّبه منها!.

و القرآن المجید الذی یسعی لتربیة و صناعة الإنسان یعالج مسائل من هذا الباب کثیرة منها ما قرأناه فی الآیات الآنفة- محلّ البحث- و لا بأس بأن نقف علی آیات أخری لإکمال البحث فی هذا الصدد.

۱- کان العرب المشرکون یتذرّعون أحیانا بسیرة السلف لتوجیه شرکهم و تبریره و کانوا یقولون: إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلی أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلی آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [۴۳۹].

کما کانوا یتذرّعون أحیانا بنوع من الإجبار فکأنّهم مجبرون! و یقولون:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۴۹

لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَکْنا وَ لا آباؤُنا[۴۴۰].

۲- کما کان بعض ضعفاء الإیمان یأتون إلی النّبی أحیانا متذرّعین عن عدم مشارکتهم فی الحرب بأن بیوتهم عورة وَ یَسْتَأْذِنُ فَرِیقٌ مِنْهُمُ النَّبِیَّ یَقُولُونَ إِنَّ بُیُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِیَ بِعَوْرَةٍ إِنْ یُرِیدُونَ إِلَّا فِراراً[۴۴۱].

۳- و ربّما تذرّعوا بعدم ذهابهم إلی الحرب لأنّ وجوه نساء الرومان النضرة تسلب قلوبهم و تفتنهم!! وَ مِنْهُمْ مَنْ یَقُولُ ائْذَنْ لِی وَ لا تَفْتِنِّی [۴۴۲].

۴- و ربّما تذرّعوا بانشغالهم بأموالهم و أهلیهم و نسائهم فیوجّهون ذنبهم الکبیر فی الفرار عن طاعة أمر رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم کما هی الحال فی الآیات الآنفة- محل البحث- ۵- و الشیطان أیضا وجّه عدم طاعته للّه بمقایسة خاطئة فقال: أَنَا خَیْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِی مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِینٍ [۴۴۳].

۶- و فی العصر الجاهلی و من أجل أن یوجّهوا ذنبهم الکبیر و خطأهم فی وأد البنات کانوا یقولون نخشی أن تؤسر بناتنا فی الحرب و إن غیرتنا و ناموسنا یدعوننا إلی قتلهن و دسّهنّ فی التراب! و ربّما قالوا إنّما نقتل الأطفال خشیة الاملاق کما صرّحت به سورة الإسراء و غیرها فی القرآن.

کما أنّه یظهر من بعض الآیات أنّ المجرمین یتشبّثون بالکبراء و الاقتداء بهم فی توجیه ذنوبهم وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ کُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِیلَا[۴۴۴].

و الخلاصة إنّ بلاء توجیه الذنب بلاء واسع شمل طائفة عظیمة من الناس عامّهم و خاصهم، و خطره الکبیر أنّه یغلق سبل الإصلاح فی وجوههم و ربّما غیّر حتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۰

الواقعیات و أعطاها وجها آخر عند المذنبین! فکثیر من یوجّه الخوف و الجبن بأنّه: احتیاط.

و الحرص بأنّه تأمین علی الحیاة فی «المستقبل».

و التهوّر بأنّه حسم و جرأة.

و ضعف النفس بالحیاء! و عدم الاکتراث بالزهد.

و ارتكاب الحرام بالحيلة الشرعية.

و الفرار من تحمّل المسؤولية بعدم ثبوت الموضوع!! و التقصير و التفريط بالقضاء و القدر.

و هكذا يغلق الإنسان بيده سبيل نجاته! و بالرغم من أنّ هذه المفاهيم كلّا منها له معنى صحيح فى محلّه و موقعه، و لكن الإشكال فى أنّها حرّفت و اتخذت نتيجة مقلوبة، و كم نال المجتمعات البشرية و الأسر و الأفراد من أضرار من هذا المنفذ!! ... حفظنا اللّه جميعا من هذا البلاء العظيم «آمين».

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۱

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۵ الى ۱۷]

اشارة

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (۱۵) قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (۱۷)

التّفسير

المخلّفون الانتهازيّون:

يعتقد أغلب المفسّرين أنّ هذه الآيات ناظرة إلى «فتح خيبر» الذى كان فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۲

بداية السنة السابعة للهجرة و بعد صلح الحديبيّة! و توضيح ذلك أنّه طبقا للرّوايات حين كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يعود من الحديبيّة بشّر المسلمين المشتركين بالحديبيّة- بأمر اللّه- بفتح خيبر، و صرّح أن يشترك فى هذه الحرب من كان فى الحديبيّة من المسلمين فحسب، و أنّ الغنائم لهم وحدهم و لن ينال المخلّفين منها شىء أبدا.

إلّا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لمّا فهموا من القرائن أنّ النّبى سينتصر فى المعركة المقبلة قطعا- و أنّه ستقع غنائم كثيرة فى أيدى جنود الإسلام- أفادوا من الفرصة فجاءوا الى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و طلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك فى حرب خيبر، و ربّما توسّلوا بهذا العذر، و هو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق و التوبة من الذنب و أن يتحمّلوا عبء المسؤولية، و الخدمة الخالصة للإسلام و القرآن و يريدون الجهاد مع رسول اللّه فى هذا الميدان، و قد غفلوا عن نزول الآيات آنفا و أنّها كشفت حقيقتهم من قبل كما نقرأ ذلك فى الآية الأولى من الآيات محل البحث- سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ ....

و لا نجد ذلك فى هذا المورد فحسب، بل فى موارد كثيرة نجد هؤلاء الطامعين يركضون وراء اللقمة الدسمة التى لا تقترن بألم. و يهربون من المواطن الخطيرة و ساحات القتال كما نقرأ ذلك فى الآية (۴۲) من سورة التوبة: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَ سَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَ لكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ

و على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم يقول ردا على كلام هؤلاء الانتهازيين و طالبى الفرص يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ ثمّ يضيف قائلا

للنبى: قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا.

و ليس هذا هو كلامى بل كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ و أخبرنا عن مستقبلكم أيضا.

إنّ أمر اللّه أن تكون غنائم خيبر خاصّة بأهل الحديبيّة و لن يشاركهم فى ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۳

أحد. لكنّ هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا فى تبجّحهم و اتهموا النّبى و من معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا.

و هكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و يعدّون أساس منعهم من الاشتراك فى معركة خيبر الحسد فحسب.

و فى ذيل الآية يصرّح القرآن عن حالهم فيقول: بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا.

أجل إنّ أساس جميع شقائهم و سوء حظهم هو جهلهم و عدم فقاهتهم، فالجهل ملازم لهم أبدا، جهلهم باللّه سبحانه و عدم معرفة مقام النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و جهلهم عن مصير الإنسان و عدم توجّههم إلى أنّ الثروة فى الدنيا لا قرار فيها، فهى زائلة لا محالة!.

صحيح أنّهم أذكياء فى المسائل المادية و المنافع الشخصية، و لكن أى جهل أعظم من أن يبيع الإنسان جميع كيانه و كلّ شىء منه بالثروة! و أخيرا و طبقا لما نقلته التواريخ فإنّ النّبى الأكرم وزّع غنائم خيبر على أهل الحديبيّة فحسب، حتى الذين لم يشتركوا فى خيبر و كانوا فى الحديبيّة جعل لهم النّبى سهما من غنائم خيبر، و بالطبع لم يكن لهذا المورد أكثر من مصداق واحد و هو «جابر بن عبد اللّه الأنصارى»[۴۴۵].

و استكمالا لهذا البحث فإنّ الآية التالية تقترح على المخلّفين عن الحديبيّة اقتراحا و تفتح عليهم باب العودة فتقول: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً.

فمتى ما ندمتم عن أعمالكم و سيرتكم السابقة و رفعتم اليد عن عبادة الدنيا و طلب الراحة، فينبغى أن تؤدّوا امتحان صدقكم فى الميادين الصعبة و أن تسهموا فيها مرّة أخرى، و إلّا فإنّ اجتناب الميادين الصعبة، و المساهمة فى الغنائم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۴

و ميادين الراحة غير مقبول بأى وجه و دليل على نفاقكم أو ضعف إيمانكم و جبنكم.

الطريف هنا أنّ القرآن كرر التعبير بالمخلّفين فى آياته، و بدلا من الاستفادة من الضمير فقد عوّل على الاسم الظاهر.

و هذا التعبير خاصة جاء بصيغة اسم المفعول «المخلّفين» أى المتروكين وراء الظهر، و هو إشارة إلى أنّ المسلمين المؤمنين حين كانوا يشاهدون ضعف هؤلاء و تذرعهم بالحيل كانوا يخلّفونهم وراء ظهورهم و لا يعتنون أو يكترثون بكلامهم! و يسرعون إلى ميادين الجهاد!.

و لكنّ من هم هؤلاء القوم المعبّر عنهم ب «أولى بأس شديد» فى الآية و أى جماعة هم؟! هناك كلام بين المفسّرين ...

و جملة تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ تدلّ على أنّهم ليسوا من أهل الكتاب، لأنّ أهل الكتاب لا يجبرون على قبول الإسلام، بل يخيّرون بين قبوله أو دفع الجزية و الحياة مع المسلمين على شروط أهل الذمّة.

و إنّما الذين لا يقبل منهم إلّا الإسلام هم المشركون و عبدة الأصنام فحسب، لأنّ الإسلام لا يعترف بعبادة الأصنام دينا و يرى انّه لا بدّ من إجبار الناس على ترك عبادتها.

و مع الالتفات إلى أنّه لم تقع معركة مهمّة فى عصر النّبى بعد حادثة الحديبيّة مع المشركين سوى فتح مكّة و غزوة حنين، فيمكن أن

تكون الآية المتقدّمة إشارة إلى ذلك و خاصّة غزوة حنين لأنّها اشترك فيها أولو بأس شديد من «هوازن» و «بنى سعد».

و ما يراه بعض المفسّرين من احتمال أنّ الآية تشير إلى غزوة (مؤتة) التى حدثت مع أهل الروم فهذا بعيد، لأنّ أهل الروم كانوا كتابيين.

و احتمال أنّ المراد منها الغزوات التى حدثت بعد النّبى و من جملتها غزوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۵

فارس و اليمامة، فهذا أبعد بكثير، لأنّ لحن الآيات مشعر بأنّ الحرب ستقع فى زمان النبىّ و لا يلزمنا أبدا أن نطبّق ذلك على الحروب التى حدثت بعده، و يظهر أنّ للدوافع السياسية أثرا فى بعض الأفكار المفسّرين فى هذه القضية!.

و هنا ملاحظة جديرة بالتأمّل و هى أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لا يعدهم بالقول أنّهم سيغنمون فى الحروب و المعارك المقبلة، لأنّ الهدف من الجهاد ليس كسب الغنائم بل المعوّل عليه هو ثواب اللّه العظيم و هو عادة إنّما يكون فى الدار الآخرة! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّ الآية (۸۳: من سورة التوبة تردّ ردّا قاطعا على هؤلاء المخلّفين فتقول: فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ

فى حين أنّ الآية محل البحث تدعوهم إلى الجهاد و القتال فى ميدان صعب سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ. فما وجه ذلك؟

و لكن مع الالتفات إلى الآية (۸۳) فى سورة التوبة تتعلق بالمخلّفين فى معركة تبوك الذين قطع النّبى الأمل منهم، أمّا الآية محل البحث فتتحدّث عن المخلّفين عن الحديبيّة، و ما يزال النّبى يأمل فيهم المشاركة، فيتّضح الجواب على هذا الاشكال!.

و حيث أنّ من بين المخلّفين ذوى أعذار لنقص عضوى فى أبدانهم أو لمرض و ما الى ذلك فلم يقدروا على الاشتراك فى الجهاد، و لا ينبغى أن نجحد حقهم، فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تبيّن أعذارهم و خاصّة أنّ بعض المفسّرين قالوا إنّ جماعة من المعوّقين جاؤوا إلى النّبى بعد نزول الآية و تهديدها للمخلّفين بقولها يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً، فقالوا: يا رسول اللّه ما هى مسئوليتنا فى هذا الموقع؟

فنزل قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَ لا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

و ليس الجهاد وحده مشروطا بالقدرة، فجميع التكاليف الإلهيّة هى سلسلة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۶

الشرائط العامة و من ضمنها الطاقة و القدرة، و كثيرا ما أشارت الآيات القرآنية إلى هذا المعنى و فى الآية (۲۸۶) من سورة البقرة نقرأ تعبيرا كليا عن هذا الأصل و هو:

لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها.

و هذا الشرط ثابت بالأدلة النقلية و العقليّة!.

و بالطبع فإن هذه الجماعة و إن كانت معذورة من الاشتراك فى ميادين الجهاد، إلّا أنّ عليها أن تساهم بمقدار ما تستطيع لتقوية قوى الإسلام و تقدّم الأهداف الإلهية كما نقرأ ذلك فى الآية (۹۱) من سورة التوبة: لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَ لا عَلَى الْمَرْضى وَ لا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ

أى أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يؤدّوا عملا بأيديهم، فلا ينبغى أن يألوا جهدا فيما يقدرون عليه و لا يعتذروا بألسنتهم عنه، و هذا التعبير الطريف يدلّ على أنّه لا ينبغى الإغماض عن القدرات أبدا، و بتعبير آخر أنّهم إذا لم يستطيعوا أن يشاركوا فى الجبهة فعلى الأقل عليهم أن يحكموا المواضع الخلفية للجبهة! و لعلّ الجملة الأخيرة فى الآية محل البحث تشير أيضا إلى هذا المعنى فتقول:

وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً.

و هذا الاحتمال وارد أيضا، و هو أنّ بعض الأفراد فى المواقع الاستثنائية يعتذرون عن المساهمة [و يسيئون فهم النص فالقرآن هنا

يحذّرهم أنّهم إذا لم يكونوا معذورين واقعا فإنّ اللّه أعدّ لهم عذابا أليما.

و من نافلة القول أنّ كون المريض و الأعمى و الأعرج معذورين خاص بالجهاد، أمّا فى الدفاع عن حمى الإسلام و البلد الإسلامى و النفس فيجب أن يدافع كلّ بما وسعه، و لا استثناء فى هذا المجال!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۷

الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۱۸ الى ۱۹]

اشارة

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (۱۸) وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (۱۹)

التّفسير

رضى اللّه عن المشتركين فى بيعة الرضوان:

ذكرنا آنفا أنّه فى الحديبيّة جرى حوار بين ممثلى قريش و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و كان من ضمن السفراء «عثمان بن عفان» الذى تشدّه أواصر القربى بأبى سفيان، و لعلّ هذه العلاقة كان لها أثر فى انتخابه ممثلا عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فبعثه إلى أشراف مكّة و مشركى قريش ليطلعهم على أنّ النّبى لم يكن يقصد الحرب و القتال بل هدفه زيارة بيت اللّه و احترام الكعبة المشرّفة بمعية أصحابه ... إلّا أنّ قريشا أوقفت عثمان مؤقتا و شاع على أثر ذلك بين المسلمين أنّ عثمان قد قتل!

فقال النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم: لا أبرح مكانى هذا حتى أقاتل عدوّى!

ثمّ جاء إلى شجرة هناك فطلب من المسلمين تجديد البيعة تحتها، و طلب منهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۸

أن لا يقصّروا فى قتالهم المشركين و أن لا يولّوا أدبارهم من ساحات القتال ۴۴۶].

فبلغ صدى هذه البيعة مكّة و اضطربت قريش من ذلك بشدّة و أطلقوا عثمان.

و كما نعرف فإنّ هذه البيعة عرفت ببيعة الرضوان و قد أفزعت المشركين و كانت منعطفا فى تاريخ الإسلام.

فالآيتان محل البحث تتحدّثان عن هذه القصة فتقول الأولى: لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

و الهدف من هذه البيعة الانسجام أكثر فأكثر بين القوى و تقوية المعنويات و تجديد التعبئة العسكرية و معرفة الأفكار و اختبار ميزان التضحية من قبل المخلصين الأوفياء! و هذه البيعة أعطت روحا جديدا فى المسلمين لأنّهم أعطوا أيديهم إلى النبى و أظهروا وفاءهم من أعماق قلوبهم.

فأعطى اللّه هؤلاء المؤمنين المضحّين و المؤثرين على أنفسهم نفس رسول اللّه فى هذه اللحظة الحسّاسة و الذين بايعوه تحت الشجرة أعطاهم أربعة أجور، و من أهمّ تلك الأجور و الاثابات الأجر العظيم و هو «رضوانه» كما عبّرت عنه الآية (۷۲) من سورة التوبة وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ... أيضا.

ثمّ تضيف الآية قائلة: فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ

سكينة و اطمئنانا لا حدّ لهما، و هم بين سيل الأعداء فى نقطة بعيدة عن الأهل و الديار و العدو مدجّج بالسلاح، فى حين أن المسلمين

عزّل من السلاح «لأنّهم جاؤوا بقصد العمرة لا من أجل المعركة» فوقفوا كالجبل الأشم لم يجد الخوف طريقا إلى قلوبهم!.

و هذا هو الأجر الثّانى و الموهبة الإلهية الأخرى، و أساسا فإنّ الألطاف الخاصة و الإمدادات الإلهية تشمل حال المخلصين و الصادقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۵۹

لذلك فإنّنا نقرأ حديثا

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول فيه!: «إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول يا ربّ ارزقنى حتى افعل كذا و كذا من البرّ و وجوه الخير فإذا علم اللّه عزّ و جلّ ذلك منه بصدق نيّته كتب اللّه له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله إنّ اللّه واسع كريم»[۴۴۷].

و فى ذيل هذه الآية إشارة إلى الأجر الثّالث إذ تقول الآية: وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً.

أجل، هذا الفتح و هو فتح خيبر كما يقول أغلب المفسّرين [و إن كان يرى بعضهم أنّه فتح مكّة] هو ثالث أجر و ثواب للمؤمنين المؤثرين، المضحّين.

و التعبير ب «قريبا» تأييد على أنّ المراد منه «فتح خيبر»، لأنّ هذا الفتح حدث و تحقّق بعد بضعة أشهر من قضيّة الحديبيّة و فى بداية السنة السابعة للهجرة! و الأجر الرابع أو النعمة الرابعة التى كانت على أثر بيعة الرضوان من نصيب المسلمين كما تقول الآية التالية هى: وَ مَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها.

و واحدة من هذه الغنائم الكثيرة هى «غنائم خيبر» التى وقعت فى أيدى المسلمين بعد فترة قصيرة من قضية الحديبيّة، و مع الالتفات إلى ثروة اليهود الكثيرة جدّا تعرف أهمية هذه الغنائم.

إلّا أنّ تحديد هذه الغنائم بغنائم خيبر لا دليل قطعى عليه، و يمكن عدّ الغنائم الأخرى التى وقعت فى أيدى المسلمين خلال الحروب الإسلامية بعد فتح (الحديبيّة) فى هذه الغنائم الكثيرة! و حيث أنّ على المسلمين أن يطمئنوا بهذا الوعد الإلهى اطمئنانا كاملا فإنّ الآية تضيف فى الختام: وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً.

فإذا ما أمركم فى الحديبيّة أن تصالحوا فإنّما هو على أساس من حكمته، حكمة كشف عن إسرارها الأستار مضى الزمن، و إذا ما وعدكم بالفتح القريب و الغنائم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۰

الكثيرة فهو قادر على أن يلبس وعده ثياب الإنجاز و التحقّق! و هكذا فإنّ المسلمين المضحّين الأوفياء أولى الإيمان و الإيثار اكتسبوا فى ظل بيعة الرضوان فى تلك اللحظات الحسّاسة انتصارا فى الدنيا و الآخرة، فى حين أنّ المنافقين الجهلة و ضعاف الإيمان احترقوا بنار الحسرات! و نختم حديثنا بكلام لأمير المؤمنين عليه السّلام حيث يتحدّث عن بسالة المسلمين الأوائل و ثباتهم و جهادهم الذى لا نظير له و يخاطب ضعاف الإيمان موبّخا إيّاهم على خذلانهم

فيقول: «فلمّا رأى اللّه صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت و أنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام ملقيا جرانه و متبوّئا أوطانه و لعمرى لو كنّا نأتى ما أتيتم. ما قام للدين عمود. و لا اخضرّ للإيمان عود و أيم اللّه لتحتلبنّها دما و لتتبعنّها ندما!»[۴۴۸].

***

بحث

البيعة و خصوصيّاتها!

«البيعة» من مادة «بيع» و هى فى الأصل إعطاء اليد عند إقرار المعاملة. ثمّ أطلق هذا التعبير على مدّ اليد على المعاهدة، و هكذا كانت

حين كان الشخص يريد أن يعلم الآخر بوفائه له و أن يطيع أمره و يعرفه رسميّا فيبايعه و يمدّ له يده، و لعلّ إطلاق هذه الكلمة من جهة أنّ كلّا من الطرفين يتعهّد كما يتعهّد ذوا المعاملة فيما بينهما، و كان المبايع مستعدا أحيانا أن يضحّى بروحه أو بماله أو بولده فى سبيل الطاعة! و الذى يقبل البيعة يتعهّد على رعايته و حمايته و الدفاع عنه! ...

يقول «ابن خلدون» فى مقدمة تأريخه فى هذا الصدد «كانوا إذا بايع الأمير جعل أيديهم فى يده تأكيدا فأشبه ذلك فعل البائع و المشترى»[۴۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۱

و تدل القرائن على أنّ البيعة ليست من إبداعات المسلمين، بل هى سنّة متّبعة بين العرب قبل الإسلام، و لهذا السبب فإنّ طائفة من «الأوس و الخزرج» جاءوا فى بداية الإسلام خلال موسم الحج من المدينة لى مكّة و بايعوا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى العقبة، و كان تعاملهم فى قضية البيعة يوحى بأنّها أمر معروف، و بعدها و خلال فرص و مناسبات متعدّدة جدّد النّبى البيعة مع المسلمين، و كانت إحداها هذه البيعة التى عرفت ببيعة الرضوان فى الحديبيّة، و أوسع منها البيعة التى كانت عند فتح مكّة، و سيأتى بيانها و شرحها فى تفسير «سورة الممتحنة» بإذن اللّه! و لكن كيف تتم البيعة؟! .. بصورة عامّة تتمّ البيعة كما يلى:

يمدّ المبايع يده إلى يد المبايع و يبدى الطاعة و الوفاء بلسان الحال أو المقال! ..

و ربّما ذكر شروطا أو حدودا لبيعته كأن يعقد البيعة على بذل ماله! أو بذل روحه أو بذل جميع الأشياء حتى الولد و المرأة! و قد تقع البيعة أحيانا على أن لا يفرّ المبايع أبدا أو أن يبقى على عهده و بيعته حتى الموت «و كان هذان المعنيان جميعا فى بيعة الرضوان كما صرّحت بذلك التواريخ».

و كان النّبى الكريم يقبل بيعة النساء أيضا لكن لا على أن يمددن أيديهنّ إلى يده الكريمة بل كان يأمر بإناء كبير فيه ماء فيدخل يده فى طرف منه و تدخل يدها فى طرف آخر.

و كان يشترط فى البيعة أحيانا على عمل معيّن أو ترك عمل معيّن كما اشترط النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم على النساء المبايعات له بعد مكّة على أَلّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ ...[۴۵۰].

و على كلّ حال فإنّ فى أحكام البيعة بحوثا مختلفة نشير إليها هنا على نحو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۲

الإيجاز و الاختصار و إن كانت مسائل هذا البحث محاطة بهالة من الإبهام فى الفقه الإسلامى:

۱- «ماهية البيعة» نوع من العقد و المعاهدة بين المبايع من جهة و المبايع من جهة أخرى، و محتواها الطاعة و الإتّباع و الدفاع عن المبايع، و لها درجات طبقا للشروط الذى يذكرونها فيها: و يستفاد من لحن الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية أنّ البيعة نوع من العقد اللازم من جهة المبايع، و يجب العمل طبقا لما بايع عليه، و يكون مشمولا بالقانون الكلّى «أوفوا بالعقود» فعلى هذا لا يحقّ للمبايع الفسخ، و لكن المبايع له أن يفسخ البيعة إن وجد فى الأمر صلاحا و فى هذه الصور يتحرر للمبايع من بيعته ۴۵۱].

۲- و يرى البعض أنّ البيعة شبيهة بالانتخابات أو نوعا منها، فى حين أنّ الانتخابات على العكس منها تماما، أى أنّ ماهيتها نوع من إيجاد المسؤولية الوظيفة و المقام للمنتخب، أو بتعبير آخر هى نوع من التوكيل فى عمل ما بالرغم من أنّ الانتخاب يقتضى وظائف على المنتخب أيضا «كسائر الوكالات» فى حين أنّ البيعة ليست كذلك! و بتعبير آخر إنّ الانتخابات تعنى إعطاء «المقام» و كما قلنا هى شبيهة بالتوكيل فى حين أنّ البيعة تعهد بالطاعة! و من الممكن أن يتشابه كلّ من البيعة و الانتخاب فى بعض الآثار، لكن هذا التشابه لا يعنى وحدة المفهوم و الماهية أبدا ..

و لذلك لا يمكن للمبايع أن يفسخ البيعة، فى حين أنّ المنتخبين لهم الحق فى الفسخ فى كثير من المواطن بحيث يستطيع جماعة ما

أن يعزلوا المنتخب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۳

«فلاحظوا بدقة»! ۳- و بالنسبة للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين المنصوبين من قبل اللّه تعالى لا حاجة لهم بالبيعة، أى أنّ طاعة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الإمام المعصوم و المنصوب من قبل اللّه واجبة سواء على من بايع أو لم يبايع! و بتعبير آخر: إنّ لازم مقام النبوّة و الإمامة وجوب الطاعة كما يقول القرآن الكريم: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۴۵۲].

لكن ينقدح هنا هذا السؤال و هو إذا كان الأمر كذلك فعلام أخذ النّبى من أصحابه- البيعة كرارا- أو المسلمين الجدد، و قد ورد فى القرآن الإشارة إلى حالتين منها بصراحة إحداهما «بيعة الرضوان»- محل البحث- و الأخرى «البيعة مع أهل مكّة» المشار إليها فى سورة الممتحنة!.

و فى الإجابة على هذا السؤال نقول: لا شك أنّ هذه المبايعات كانت نوعا من التأكيد على الوفاء، و قد أديّت فى ظروف خاصة و لا سيما فى مواجهة الأزمات و الحوادث الصعبة لتنبض فى ظلّها روح جديدة فى الأفراد كما وجدنا تأثيرها المذهل فى بيعة الرضوان فى البحث السابق!.

إلّا أنّه فيما يتعلّق بمبايعة الخلفاء فقد كانت البيعة على أساس أنّها قبول لمقام الخلافة و إن كنّا لا نعتقد بخلافة من يخلف النّبى و التى تؤخذ البيعة لها عن طريق الناس، بل هى من قبل اللّه و تتحقّق بالنص من قبل النّبى أو الإمام السابق على اللاحق! و من هذا المنطلق فإنّ البيعة التى بايعها المسلمين لعلى عليه السّلام أو للحسن أو الحسين عليهما السّلام فيها (جنبة) تأكيد على الوفاء و هى شبيهة ببيعة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

۴- هل البيعة فى العصر الحاضر مقبولة على أنّها أصل إسلامى، أو بتعبير آخر:

هل يمكن تعميم البيعة، و هل للجماعة الفلانية أن تختار شخصا لائقا و واجدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۴

للشرائط الشرعية كأن يكون آمرا للقوات المسلّحة أو رئيسا للجمعية أو رئيسا للحكومة فتبايعه؟ فهل أنّ مثل هذه البيعة مشمول بأحكام الشارع للبيعة؟! و حيث أنّه لا يوجد عموم و لا إطلاق فى القرآن و السنّة فى خصوص البيعة فمن المشكل تعميم هذه المسألة و إن كان الاستدلال بعموم الآية أَوْفُوا بِالْعُقُودِ غير بعيد! و لكن مع هذا الإبهام فى المسائل المرتبطة بالبيعة فإنّ هناك مانعا من أن نعوّل بصورة قطعية على أَوْفُوا بِالْعُقُودِ و خاصة أنّنا لا نجد فى الفقه أى مورد للبيعة لغير النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و الإمام المعصوم.

و ينبغى الالتفات إلى هذه «اللطيفة» و هى أن مقام نيابة الولىّ الفقيه فى نظرنا مقام منصوص عليه من قبل الأئمة المعصومين عليهم السّلام و لا حاجة له بالبيعة و بالطبع فإنّ اتباع الناس للولى الفقيه و طاعتهم له يمنحه الإمكان من الاستفادة من هذا المقام و يعطيه- كما هو مصطلح عليه- بسط اليد، لكنّ هذا لا يعنى أنّ مقامه مشروط بتبعيّة الناس له، ثمّ إنّ اتباع الناس إيّاه لا علاقة له بالبيعة، بل هو عمل بحكم اللّه فى شأن ولاية الفقيه «فلاحظوا بدقّة».

۵- و على كلّ حال فإنّ البيعة مرتبطة بالمسائل الإجرائية و لا علاقة لها بالأحكام، أى إنّ البيعة لا تمنح أحدا حق «التشريع و التقنين» أبدا ... بل يجب أن تؤخذ القوانين من الكتاب و السنّة ثمّ تنفذ فى حيّز الواقع، و لا كلام لأحد فى هذا.

۶- يستفاد من الرّوايات أنّ البيعة مع الإمام المعصوم ينبغى أن تكون خالصة للّه، و بتعبير آخر هى من الأمور التى يلزم فيها قصد القربة.

فقد ورد عن النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ثلاثة لا يكلمهم اللّه عزّ و جلّ يوم القيامة و لا ينظر إليهم و لا يزكّيهم و لهم عذاب أليم، رجل بايع إماما لا يبايعه إلّا للدنيا، إن أعطاه ما يريده و فى له و إلّا كفّ و رجلا بايع رجلا بسلعته بعد العصر فحلف باللّه

عزّ و جلّ لقد أعطى بها كذا و كذا فصدّقه و أخذها و لم يعط فيها ما قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۵

و رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه ابن السبيل»[۴۵۳].

«و التعبير بالعصر لعلّه لشرف هذا الوقت أو لأنّ كثيرا من الباعة يبيعون أجناسهم بالقيمة التى اشتروها فى هذا الوقت».

۷- «نكث البيعة» من الذنوب الكبيرة، و نقرأ

حديثا عن الإمام موسى بن جعفر أنّه قال: «ثلاث موبقات، نكث الصفقة، و ترك السنّة، و فراق الجماعة»[۴۵۴].

و يظهر أنّ المراد من «ترك السنّة» هى ترك القوانين التى جاء بها النّبى محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و فراق الجماعة معناها الإعراض عنها لا محض عدم المشاركة فى الجماعة.

۸- البيعة فى كلام الإمام على عليه السّلام هناك فى نهج البلاغة كلمات تؤكّد على البيعة و قد عوّل الإمام على عليه السّلام عليها مرارا و أنّ الناس بايعوه.

و من جملتها

أنّه قال فى بعض خطبه: «أيّها الناس إنّ لى عليكم حقّا و لكم علىّ حق فأمّا حقكم علىّ فالنصيحة لكم و توفير فيئكم عليكم و تعليمكم كيلا تجهلوا و تأديبكم كيما تعملوا» ثمّ يضيف عليه السّلام: «و أمّا حقى عليكم فالوفاء بالبيعة و النصيحة بالمشهد و المغيب و الإجابة حين أدعوكم و الطاعة حين أمركم»[۴۵۵].

و

يقول عليه السّلام- فى مكان آخر: «لم تكن بيعتكم إيّاى فلتة»[۴۵۶].

و فى خطبته التى خطبها قبل حرب الجمل و التحرّك من المدينة نحو البصرة أشار الى بيعة الناس إيّاه و أن يثبتوا على ما بايعوه فقال عليه السّلام: «و بايعنى الناس غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۶

مستكرهين و لا مجبرين بل طائعين مخيّرين»[۴۵۷].

و نقرأ أخيرا فى بعض كتبه لمعاوية حين لم يبايع الإمام عليّا و كان يريد الانتقاد من

على عليه السّلام قوله: «بايعنى القوم الذين بايعوا أبا بكر و عمر و عثمان على ما بايعوهم عليه فلم يكن للشاهد أن يختار و لا للغائب أن يرد»[۴۵۸].

و يستفاد من بعض عبارات النهج أنّ البيعة ليست أكثر من مرة واحدة و لا سبيل لتجديد النظر فيها و ليس فيها اختيار الفسخ، و من يخرج منها فهو طاعن، و من يتريث و يفكر فى قبولها أو ردّها فهو منافق.

[إنّها بيعة واحدة لا يثنّى فيها النظر و لا يستأنف فيها الخيار؛ الخارج منها طاعن و المروّى فيها مداهن [۴۵۹].

و يستفاد من مجموع هذه التعابير أنّ الإمام عليه السّلام استدلّ على من لم يقبلوا بأنّ إمامته منصوص عليها من قبل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم- و كانوا يتذرّعون بحجج واهية- بالبيعة التى كانت عندهم من المسلم بها، و لم تكن لهم الجرأة على أن يرفضوا طاعة الإمام و يسمعوا لمعاوية و أمثال معاوية، فكما أنّهم يرون مشروعية الخلافة للخلفاء الثلاثة السابقين، فعليهم أن يعتقدوا بأنّ خلافة الإمام مشروعة أيضا و أن يذعنوا له «بل إنّ خلافته أكثر شرعية لأنّ بيعته كانت أوسع و كانت حسب رغبة الناس و رضاهم».

فبناء على هذا لا منافاة بين الاستدلال بالبيعة و مسألة نصب الإمام بواسطة اللّه و النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و تأكيد البيعة.

لذلك فإنّ الإمام يشير فى مكان من (نهج البلاغة) نفسه بحديث الثقلين الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۷

هو من نصوص الإمامة[۴۶۰] كما يشير فى مكان آخر إلى مسألة الوصية و الوراثة[۴۶۱].

[فلاحظوا بدقّة].

كما يشير عليه السّلام فى بعض عباراته الأخرى إلى لزوم الوفاء بالبيعة و عدم إمكان الفسخ و النكث و تجديد النظر و عدم الحاجة إلى التكرار و هذه هى مسائل مقبولة بالنسبة للبيعة أيضا.

و يستفاد من هذه التعابير ضمنا بصورة جيّدة أنّ البيعة إذا كانت فيها «جنبة» إكراه أو إجبار أو أخذت على حين غرّة من الناس فلا عبرة بها و لا قيمة لها بل البيعة الحق التى تكون فى حال الاختيار و الحرية و الإرادة و التفكّر و التدبّر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۸

الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۰ الى ۲۱]

اشارة

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (۲۰) وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (۲۱)

التّفسير

من بركات صلح الحديبيّة مرّة أخرى!

تتحدّث هاتان الآيتان كالآيات السابقة المتعلّقة بصلح الحديبيّة و الوقائع التالية لها- عن البركات و ما حصل عليه المسلمون من غنائم فى هذا الطريق.

فتقول الآية الأولى منهما: وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ

و يدلّ لحن الآية أنّ المراد من المغانم الكثيرة هنا جميع المغانم التى جعلها اللّه للمسلمين سواء فى أمد قصير أم بعيد حتى أنّ جمعا من المفسّرين يعتقدون أنّ المغانم التى تقع فى أيدى المسلمين إلى يوم القيامة داخلة فى هذه العبارة أيضا.

أمّا قوله: فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ فيرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد منه مغانم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۶۹

خيبر التى توفّرت خلال أمد قصير جدا بعد حادثة الحديبيّة! غير أنّ البعض يرى أنّ كلمة «هذه» إشارة إلى فتح الحديبيّة الذى يعدّ أكبر غنيمة معنوية! ..

ثمّ يشير القرآن إلى لطف آخر من ألطاف اللّه على المسلمين- فى هذه الحادثة- فيقول: وَ كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ

و هذا لطف كبير أن يكون المسلمون على قلة العدد و العدد و فى نقطة نائية عن الوطن و فى مقربة من العدو- فى مأمن منه و أن يلقى اللّه رعبا و وحشة منهم فى قلوب الأعداء بحيث يخشون التحرش بهم!.

و يرى جماعة من المفسّرين أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما جرى فى خيبر إذ كانت بعض القبائل من «بنى أسد» و «بنى غطفان» قد صمّموا أن يهجموا على المدينة فى غياب المسلمين و أن ينهبوا أموالهم و يأسروا نساءهم! أو أنّها إشارة إلى تصميم جماعة من هاتين القبيلتين على أن ينهضوا لنصرة يهود خيبر فألقى اللّه الرعب فى قلوبهم فصرفهم عن ذلك.

غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب ظاهرا! لأنّنا نشاهد شرطا لهذا التعبير بعد بضعة آيات ورد فى شأن أهل مكّة كما جاء فى الآية محل البحث، و هو منسجم مع أسلوب القرآن الذى هو أسلوب إجمال و تفصيل! المهم أنّه طبقا للرّوايات المشهورة فإنّ سورة الفتح جميعها نزلت بعد حادثة الحديبيّة و خلال عودة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة! ثمّ يضيف القرآن فى تكملة الآية مشيرا إلى نعمتين كبريين أخريين من مواهب اللّه و نعمه إذ يقول: وَ لِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَ يَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ الضمير فى لتكون عائد على الغنائم الكثيرة الموعودة، و بعضهم يراه عائدا على حماية المسلمين و كف أيدى الناس عنهم، غير أنّ المناسب أن يعود الضمير إلى جميع حوادث الحديبية و مجرياتها بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۰

ذلك .. لأنّ كلّا منها آية من آيات اللّه و دليل على صدق النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و وسيلة لهداية الناس إلى الصراط المستقيم، و كان فى قسم منها (جنبة) أخبار بالمغيّبات، و كان بعضها لا ينسجم مع الظروف العادية، و هى فى المجموع تعدّ معجزة واضحة من معاجز النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

و فى الآية التالية أعطى اللّه بشارة أخرى للمسلمين إذ قال: وَ أُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً.

و هناك كلام بين المفسّرين فى أنّ هذا الوعد يشير إلى أية غنيمة؟ و الى أى نصر؟! يرى بعضهم أنّه إشارة إلى فتح مكّة و غنائم حنين.

و يرى آخرون أنّه إشارة إلى الفتوحات و الغنائم التى كانت نصيب المسلمين بعد النّبى (كفتح فارس و الروم و مصر) كما يحتمل أيضا أنّه إشارة لجميع ما تقدّم ذكره ۴۶۲].

عبارة لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها إشارة إلى أنّ المسلمين لم يحتملوا قبل ذلك أن يظفروا بمثل هذه الفتوحات و الغنائم، إلّا أنّه و ببركة الإسلام و الإمدادات الإلهية نالوا هذه القدرة و القوّة! و استنبط بعض المفسّرين من هذه الجملة أنّ المسلمين كانوا يتحدّثون عن مثل هذه الفتوحات، إلّا أنّهم كانوا يرون أنفسهم غير قادرين و خاصّة أنّنا نقرأ فى قصة الأحزاب يوم بشّر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين بفتح بلاد فارس و الروم و اليمن اتخذ المنافقون كلامه هزوا! و جملة قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها إشارة إلى إحاطة قدرة اللّه على هذه الغنائم أو الفتوحات، و يرى بعض المفسّرين أنّها إشارة إلى إحاطة علمه، غير أنّ المعنى الأوّل أكثر انسجاما مع تعابير الآية الأخرى، و بالطبع لا مانع فى الجمع بينهما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۱

و أخيرا فإنّ آخر جملة فى الآية وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً هى فى الحقيقة بمنزلة بيان العلة للجملة السابقة، و هى إشارة إلى أنّه مع قدرة اللّه على كلّ شىء فلا عجب أن ينال المسلمون مثل هذه الفتوحات!.

و على كلّ حال فإنّ الآية من إخبار القرآن بالمغيّبات و الحوادث الآتية، و قد حدثت هذه الفتوحات فى مدة قصيرة و كشفت عن عظمة هذه الآيات بجلاء!***

ملاحظة

قصة غزوة خيبر:

لمّا عاد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم من الحديبيّة نحو المدينة أمضى شهر ذى الحجة كلّه و أياما من شهر محرم الحرام من السنة السابعة للهجرة فى المدينة، ثمّ تحرّك بألف و أربعمائة نفر من المسلمين الذين كانوا حضروا الحديبيّة نحو «خيبر» [حيث كان مركزا

للتحرّکات المناوئة للإسلام و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم یتحیّن الفرص لتدمیر ذلک المرکز للفساد].

و قد صمّمت قبیلة غطفان فی البدایة أن تحمی یهود خیبر غیر أنّها خافت بعدئذ عواقب أمرها (فاجتنبت حمایتها لهم).

فلمّا وصل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قریبا من قلاع خیبر أمر أصحابه أن یقفوا ثمّ رفع رأسه الشریف للسماء و دعا بهذا الدعاء: «اللّهمّ ربّ السماوات و ما أظللن و ربّ الأرضین و ما أقللن، نسألک خیر هذه القریة و خیر أهلها و نعوذ بک من شرّها و شرّ أهلها و شرّ ما فیها».

ثمّ قال صلی اللّه علیه و آله و سلّم: «أقدموا بسم اللّه»،

و هکذا وصلوا خیبر لیلا و عند الصباح- حیث علم أهل خیبر بالخبر- وجدوا أنفسهم محاصرین من قبل جنود الإسلام، ثمّ فتح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۲

النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم القلاع قلعة بعد اخری حتی بلغ أقوی القلاع و أمنعها و آخرها و کان فیها «مرحب» قائد الیهود المعروف.

و فی هذه الأیّام أصاب رأس النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم وجع شدید کان ینتابه أحیانا حتی أنّه لم یستطع الخروج من خیمته- یوما أو یومین .. و فی هذه الأثناء و طبقا لما ورد فی التاریخ الإسلامی، حمل أبو بکر الرایة فی یده و توجّه بالمسلمین نحو معسکر الیهود غیر أنّه سرعان ما عاد و هو صفر الیدین دون نتیجة، و مرّة أخری أخذ عمر الرایة و حمل بالمسلمین بصورة أشد فما أسرع ما عاد دون جدوی ...

فلمّا بلغ الخبر مسمع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم

قال: «و اللّه لأعطینها غدا رجلا یحبّ اللّه و رسوله و یحبّه اللّه و رسوله یأخذها عنوة!».

فاشرأبت الأعناق من کلّ جانب تری من هو المقصود، و قد حدس جماعة منهم أنّ مقصوده (علی) علیه السّلام، إلّا أنّ علیا کان مصابا بوجع فی عینه فلم یکن حاضرا حینئذ، و لمّا کان الغد أمر النّبی بأن یدعو له علیا، فجاء راکبا علی بعیر له حتی أناخ قریبا من خباء رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم، و هو أرمد قد عصّب عینیه.

فقال رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم: ما لک؟

قال علی علیه السّلام: رمدت بعدک.

فقال له: أدن منی، فدنا منه، فتفل فی عینیه، فما شکا وجعا حتی مضی بسبیله.

ثمّ أعطاه الرایة.

فتوجّه علی علیه السّلام بجیش الإسلام نحو القلعة الکبری (من خیبر) فرآه رجل یهودی من أعلی الجدار فسأله من أنت؟ فقال: أنا علی بن أبی طالب. فنادی الیهودی: أیّتها الجماعة حان اندحارکم، فجاء «مرحب» آمر الحصن و نازل علیا فما کان إلّا أن هوی إلی الأرض صریعا بضربة علی علیه السّلام، فالتحمت الحرب بین المسلمین و الیهود بشدّة فاقترب علی علیه السّلام من باب الحصن فقلعه فدحاه فرماه بقوّة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۳

خارقة إلی مکان آخر، و هکذا فتحت القلعة و دخلها المسلمون فاتحین.

و استسلم الیهود و طلبوا من النّبی أن یحقن دماءهم لاستسلامهم، فقبل النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و غنم الجیش الإسلامی الغنائم المنقولة، و أودع النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم الأرض و الأشجار بأیدی الیهود علی أن یعطوا المسلمین نصف حاصلها[۴۶۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۲ الى ۲۵]

اشارة

وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (۲۲) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (۲۳) وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (۲۴) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۲۵)

التّفسير

لو حدثت الحرب فى الحديبيّة!؟

هذه الآيات تتحدّث أيضا عن أبعاد أخر لما جرى فى الحديبيّة و تشير إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۵

«لطيفتين» مهمّتين فى هذا الشأن! الأولى: هى أنّه لا تتصوّروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم و بين مشركى مكّة فى الحديبيّة لانتصر المشركون و الكفرة! وَ لَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً.

و ليس هذا منحصرا بكم بل: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

فهذا هو قانون إلهى دائم، فمتى واجه المؤمنون العدوّ بنيّات خالصة و قلوب طاهرة و لم يضعفوا فى أمر الجهاد نصرهم اللّه على عدوّهم، و ربّما حدث فى هذا الشأن إبطاء أو تعجيل لامتحان المؤمنين أو لأهداف أخرى، و لكنّ النصر النهائى على كل حال هو حليف المؤمنين ..

لكن فى موارد كمعركة أحد مثلا حيث أنّ جماعة لم يتّبعوا أمر الرّسول و مالت طائفة منهم إلى الدنيا و زخرفها فلوّثت نياتها و عكفت على جمع الغنائم فإنّها ذاقت هزيمة مرّة، و هكذا بعد! اللطيفة المهمّة التى تبيّنها الآيات هى أن لا تجلس قريش فتقول: مع الأسف إنّنا لم نقاتل هذه الطائفة القليلة العدد، أسفا إذا بلغ «الصيد» مكّة فغفلنا عنه .. أبدا ليس الأمر كذلك .. فبالرغم من أنّ المسلمين كانوا قلّة و بعيدين عن الوطن و المأمن و فاقدين للأعتدة و المؤن. و لكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشركين و المؤمنين لانتصر المؤمنون ببركة قوى الإيمان و نصر اللّه أيضا .. ألم يكونوا فى بدر أو الأحزاب قلة و أعداؤهم كثرة، فكيف انهزم الجمع و ولّوا الدبر فى المعركتين؟! و على كلّ حال فإنّ بيان هذه الحقيقة كان سببا لتقوية روحية المؤمنين و تضعيف روحية الأعداء و إنهاء القيل و القال من قبل المنافقين، و دلّ على أنّه حتى لو حدثت حرب فى هذه الظروف غير الملائمة بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۶

حليف المؤمنين الخلّص! ..

و اللطيفة الأخرى التى بيّنتها هذه الآيات أنّها قالت: وَ هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً.

حقا .. كان ما حدث مصداقا جليّا «للفتح المبين» و نعم ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدوّ الذى زحف بجيشه مرارا نحو المدينة و

سعى سعيا عجيبا لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلّا أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم فى حريمه و دياره يمتلكه الرعب منهم حتى أنّه يقترح الصلح معهم، فأىّ فتح مبين أكبر من هذا الفتح إذ ينال المسلمون هذا التفوّق على العدو دون أن تسفك قطرة دم واحدة من المسلمين!؟

و لا شكّ أنّ ما جرى فى الحديبيّة كان يعدّ فى جزيرة العرب عامة نصرا للمسلمين و هزيمة لقريش.

هذا و قد ذكر جماعة من المفسّرين فى نزول هذه الآية أنّ مشركى مكّة عبّؤوا أربعين رجلا للهجوم على المسلمين (بصورة خفية) فى الحديبيّة، غير أنّ المسلمين أفشلوا مؤامرتهم و أجهضوا مكيدتهم- بفطنتهم- فأسر المسلمون هؤلاء الأربعين جميعا و جاءوا بهم إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فخلّى عنهم سبيلهم.

و قال بعضهم: أنّهم كانوا ثمانين أرادوا أن يهجموا على المسلمين من جبل التنعيم عند صلاة الغداة و بالاستفادة من العتمة، و قال بعضهم: كان النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يستظلّ تحت الشجرة ليكتب معاهدة الصلح مع ممثل قريش و على مشغول بالإملاء، فحمل عليه ثلاثون شابّا من أهل مكّة بأسلحتهم و لكن بمعجزة مذهلة فشلت خطتهم و أسر جميعهم و خلّى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم عنهم سبيلهم ۴۶۴].

و طبقا لشأن النّزول هذا فإنّ جملة مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۷

الإنتصار على هذه الطائفة، فى حين أنّه طبقا للتفسير السابق يكون المقصود هو النصر الكلّى للمسلمين على المشركين و هذا التّفسير أكثر انسجاما مع مفاد الآية ..

ممّا يستلفت النظر أنّ القرآن يؤكّد على عدم القتال فى بطن مكّة، و هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى لطيفتين:

الأولى: إنّ مكّة كانت مركزا لقوّة العدو، و على القاعدة كان على أهل مكّة [المشركين أن يغتنموا الفرصة المناسبة فيحملوا على المسلمين فقد كانوا يبحثون عنهم و عن فرصة للقضاء عليهم فإذا هم فى دارهم و فى قبضتهم فما كان ينبغى أن يتركوا هذه الفرصة بهذه البساطة، لكنّ اللّه سلب عنهم قدرتهم و صرفهم عنهم! الثانية: إنّ مكّة كانت حرم اللّه الآمن. فلو وقع القتال فيها لسألت الدماء فتهتك حرمة الحرم من جانب، و تكون عارا على المسلمين و عيبا أيضا. إذ سلبوا أمن هذه الأرض المقدّسة، و لذلك فإنّ من نعم اللّه على نبيّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم و على المسلمين أنّه و بعد هذه القضية بسنتين فتح عليهم مكّة و كان ذلك من دون سفك دم أيضا ..

و فى آخر آية من الآيات محل البحث إشارة إلى لطيفة أخرى تتعلّق بمسألة صلح الحديبيّة و حكمتها إذ تقول الآية: هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَ الْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۴۶۵].

كان أحد ذنوبهم كفرهم، و الذنب الآخر صدّهم إيّاكم عن العمرة زيارة بيت اللّه و لم يجيزوا أن تنحروا الهدى فى محله، أى مكّة (الهدى فى العمرة ينحر [أو يذبح فى مكّة و فى الحج بمنى) على حين ينبغى أن يكون بيت اللّه للجميع و صدّ المؤمنين عنه من أعظم الكبائر، كما يصرّح القرآن بذلك فى مكان آخر من سورة:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ۴۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۸

و مثل هذه الذنوب يستوجب أن يسلّطكم اللّه عليهم لتعاقبوهم بشدّة! لكنّ اللّه تعالى لم يفعل ذلك فلما ذا؟! ذيل الآية يبيّن السبب بوضوح إذ يقول: وَ لَوْ لا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَ نِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۴۶۷] ..

و هذه الآية تشير إلى طائفة (من الرجال و النساء) المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام فى مكّة و لم يهاجروا إلى المدينة لأسباب خاصة.

فلو قاتل المسلمون أهل مكّة لأوقعوا أرواح هؤلاء المستضعفين فى خطر و لامتدت ألسنة المشركين بالقول: إنّ جنود الإسلام لم

يرحموا لا أعداءهم و مخالفيهم و لا أتباعهم و مؤالفيهم، و هذا عيب و عار كبير! و قال بعضهم أيضا، إنّ المراد من هذا العيب لزوم الكفارة و دية قتل الخطأ، لكنّ المعنى الأوّل أكثر مناسبة ظاهرا.

«المعرّة» من مادة «عرّ» على زنة «شرّ» «و العرّ على زنة الحر» فى الأصل معناه مرض الجرب و هو من الأمراض الجلدية التى تصيب الحيوانات أو الإنسان أحيانا ثمّ توسّعوا فى المعنى فأطلقوا هذا اللفظ على كلّ ضرر يصيب الإنسان.

و لإكمال الموضوع تضيف الآية: لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ.

أجل، كان اللّه يريد للمستضعفين المؤمنين من أهل مكّة أن تشملهم الرحمة و لا تنالهم أية صدمة ..

كما يرد هذا الاحتمال أيضا و هو أنّ أحد أهداف صلح الحديبيّة أنّ من المشركين من فيه قابلية الهداية فيهتدى ببركة هذا الصلح و يدخل فى رحمة اللّه.

و التعبير ب «من يشاء» يراد منه الذين فيهم اللياقة و الجدارة، لأنّ مشيئة اللّه تنبع من حكمته دائما، و الحكيم لا يشاء إلّا بدليل و لا يعمل عملا دون دقّة و حساب ..

و لمزيد التأكيد تضيف الآية الكريمة: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً أى لو افترقت و انفصلت صفوف المؤمنين و الكفار فى مكّة و لم يكن هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۷۹

خطر على المؤمنين لعذّبنا الكفار بأيديكم عذابا أليما.

صحيح أنّ اللّه قادر على أن يفصل هذه الجماعة عن الآخرين عن طريق الإعجاز، و لكنّ سنّة اللّه- فى ما عدا الموارد الاستثنائية- أن تكون الأمور وفقا للأسباب العاديّة.

جملة «تزيلوا» من مادة زوال، و هنا معناها الانفصال و التفرّق.

و يستفاد من روايات متعدّدة منقولة عن طرق الشيعة و السنّة حول ذيل هذه الآية أنّ المراد منها أفراد مؤمنون كانوا فى أصلاب الكافرين و اللّه سبحانه لأجل هؤلاء لم يعذّب الكافرين ..

و من جملة هذه الروايات نقرأ

فى الرواية أنّه سأل رجل الإمام الصادق عليه السّلام: ألم يكن على عليه السّلام قويا فى دين اللّه؟ قال عليه السّلام: بلى. فقال: فعلام إذ سلّط على قوم (فى الجمل) لم يفتك بهم فما كان منعه من ذلك؟! فقال الإمام: آية فى القرآن! فقال الرجل: و أية آية؟! فقال الصادق عليه السّلام قوله تعالى: لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً ..

ثمّ أضاف عليه السّلام: أنّه كان للّه عزّ و جلّ و ودائع مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين و منافقين، و لم يكن على ليقتل الآباء حتى تخرج الودائع .. و كذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتى تظهر و ودائع اللّه عزّ و جلّ ۴۶۸].

أى أن اللّه سبحانه يعلم أنّ جماعة سيولدون منهم فى ما بعد و سيؤمنون عن اختيارهم و إرادتهم و لأجلهم لم يعذب اللّه ءاباءهم و قد أورد هذا القرطبى فى تفسيره بعبارة اخرى.

و لا يمنع أن تكون الآية مشيرة إلى المؤمنين المختلطين بالكفّار فى مكّة و إلى المؤمنين الذين هم فى أصلاب الكافرين و سيولدون فى ما بعد! ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۰

الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۲۶]

اشارة

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَ كانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۲۶)

التّفسير

التعصّب «و حمية الجاهلية» أكبر سدّ فى طريق الكفّار:

هذه الآية تتحدّث مرّة أخرى عن (مجريات) الحديبيّة و تجسّم ميادين أخرى من قضيتها العظمى .. فتشير أوّلا إلى واحد من أهم العوامل التى تمنع الكفار من الإيمان باللّه و رسوله و الإذعان و التسليم للحق و العدالة فتقول: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ[۴۶۹].

و لذلك منعوا النّبى و المؤمنين أن يدخلوا بيت اللّه و يؤدّوا مناسكهم و ينحروا «الهدى» فى مكّة. و قالوا لو دخل هؤلاء- الذين قتلوا آباءنا و إخواننا فى الحرب-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۱

أرضنا و ديارنا و عادوا سالمين فما عسى أن تقول العرب فينا؟! و أية حيثية و اعتبار لنا بعد؟

هذا الكبر و الغرور و الحميّة- حمية الجاهلية- منعتهم حتى من كتابة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» بصورتها الصحيحة عند تنظيم معاهدة صلح الحديبيّة، مع أنّ عاداتهم و سننهم كانت تجيز العمرة و زيارة بيت اللّه للجميع، و كانت مكّة عندهم حرما آمنا حتى لو وجد أحدهم قاتل أبيه فيها أو أثناء المناسك فلا يناله منه سوء و أذى لحرمة البيت عنده، فهؤلاء- بهذا العمل- هتكوا حرمة بيت اللّه و الحرم الآمن من جهة، و خالفوا سننهم و عاداتهم من جهة أخرى، كما أسدلوا ستارا بينهم و بين الحقيقة أيضا، و هكذا هى آثار حمية الجاهلية المميتة! «الحمية» فى الأصل من مادة حمى- على وزن حمد- و معناها حرارة الشمس أو النّار التى تصيب جسم الإنسان و ما شاكله، و من هنا سمّيت الحمّى التى تصيب الإنسان بهذا الاسم «حمّى» على وزن كبرى، و يقال لحالة الغضب أو النخوة أو التعصّب المقرون بالغضب حمية أيضا.

و هذه الحالة السائدة فى الأمم هى بسبب الجهل و قصور الفكر و الانحطاط الثقافى خاصة بين «الجاهليّين» و كانت مدعاة لكثير من الحروب و سفك الدماء! ..

ثمّ تضيف الآية الكريمة- و فى قبال ذلك- فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ..

هذه السكينة التى هى وليدة الإيمان و الإعتقاد باللّه و الاعتماد على لطفه دعتهم الى الاطمئنان و ضبط النفس و أطفأت لهب غضبهم حتى أنّهم قبلوا- و من أجل أن يحفظوا و يرعوا أهدافهم الكبرى- بحذف جملة «بسم اللّه الرحمن الرحيم» التى هى رمز الإسلام فى بداية الأعمال و أن يثبتوا- مكانها «بسمك اللّهمّ» التى هى من موروثات العرب السابقين- فى أوّل المعاهدة و حذفوا حتى لقب «رسول اللّه» التى يلى اسم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۲

و قبلوا بالعودة إلى المدينة من الحديبيّة دون أن يستجيبوا لهوى عشقهم بالبيت و يؤدّوا مناسك العمرة! و نحروا هديهم خلافا للسنّة التى فى الحج أو العمرة فى المكان ذاته و أحلّوا من إحرامهم دون أداء المناسك! ..

أجل، لقد رضوا بمرارة أن يصبروا إزاء كلّ المشاكل الصعبة، و لو كانت فيهم حميّة الجاهلية لكان واحد من هذه الأمور الآنفة كفيلا أن يشعل الحرب بينهم فى تلك الأرض! أجل .. إنّ الثقافة الجاهلية تدعو إلى «الحمية» و «التعصّب» و «الحفيظة الجاهلية»، غير أنّ

الثقافة الإسلامیة تدعو إلی «السکینة» و «الاطمئنان» و «ضبط النفس».

ثمّ یضیف القرآن فی هذا الصدد قائلا: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها ..

(کلمة) هنا بمعنی «روح»، و معنی الآیة أنّ اللّه ألقی روح التقوی فی قلوب أولئک المؤمنین و جعلها ملازمة لهم و معهم، کما نقرأ- فی هذا المعنی- أیضا الآیة (۱۷۱) من سورة النساء فی شأن عیسی بن مریم إذ تقول الآیة: إِنَّمَا الْمَسِیحُ عِیسَی ابْنُ مَرْیَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ

و احتمل بعض المفسّرین أنّ المراد من «کلمة التقوی» ما أمر اللّه به المؤمنین فی هذا الصدد! إلّا أنّ المناسب هو «روح التقوی» التی تحمل مفهوما تکوینیا، و هی ولیدة الإیمان و السکینة و الالتزام القلبی بأوامر اللّه سبحانه، لذا ورد فی بعض الروایات عن النبیّ صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المراد بکلمة التقوی هو کلمة لا إله إلّا اللّه ۴۷۰]، و فی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه فسّرها بالإیمان ۴۷۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۳

و نقرأ

فی بعض خطب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: «نحن کلمة التقوی و سبیل الهدی»[۴۷۲]

و شبیه بهذا التعبیر ما

نقل عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام قوله: «و نحن کلمة التقوی و العروة الوثقی»[۴۷۳]!

و واضح أنّ الإیمان بالنبوّة و الولایة مکمل للإیمان بأصل التوحید و معرفة اللّه لأنّهما جمیعا داعیان إلی اللّه و منادیان للتوحید.

و علی کلّ حال فإنّ المسلمین لم یبتلوا فی هذه اللحظات الحسّاسة بالحمیّة و العصبیة و النخوة و الحفیظة، و ما کتب اللّه لهم من العاقبة المشرفة فی الحدیبیّة لم تمسسه نار الحمیة و الجهالة! لأنّ اللّه یقول: وَ أَلْزَمَهُمْ کَلِمَةَ التَّقْوی وَ کانُوا أَحَقَّ بِها وَ أَهْلَها.

و بدیهی أنّه لا ینتظر من حفنة عتاة و جهلة و عبدة أصنام سوی (حمیّة الجاهلیة) و لا ینتظر من المسلمین الموحّدین الذین تربّوا سنین طویلة فی مدرسة الإسلام مثل هذا الخلق و الطباع الجاهلیة، ما ینتظر منهم هو الاطمئنان و السکینة و الوقار و التقوی، و ذلک ما أظهروه فی الحدیبیّة و لکن بعض حادیّ الطبع و المزاج أوشکوا علی کسر هذا السدّ المنیع بما یحملوه من أنفسهم من ترسبات الماضی و أثاروا البلبلة و الضوضاء، غیر أنّ سکینة النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم و وقاره کانا کمثل الماء المسکوب علی النّار فأطفأها! و تختتم الآیة بقوله سبحانه: وَ کانَ اللَّهُ بِکُلِّ شَیْءٍ عَلِیماً. فهو سبحانه یعرف نیّات الکفّار السیئة و یعرف طهارة قلوب المؤمنین أیضا فینزل السکینة و التقوی علیهم هنا، و یترک أولئک فی غیّهم و حمیّتهم حمیّة الجاهلیة، فاللّه یشمل کلّ قوم و أمّة بما تستحقّه من اللطف و الرحمة أو الغضب و النقمة!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۴

ملاحظة

ما هی حمیّة الجاهلیة؟!

قلنا أنّ «الحمیّة» فی الأصل من مادة «حمی» و معناها الحرارة، ثمّ صارت تستعمل فی معنی الغضب، ثمّ استعملت فی النخوة و التعصّب الممزوج بالغضب أیضا ..

و هذه الکلمة قد تستعمل فی هذا المعنی المذموم «مقرونة بالجاهلیة أو بدونها» بعض الأحیان، و قد تستعمل فی المدح حینا آخر،

فتكون عندئذ بمعنى التعصّب فى الأمور الإيجابية البنّاءة!

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حين انتقده بعض أصحابه الضعاف المعاندين:

«منيت بمن لا يطيع إذا أمرت و لا يجيب إذا دعوت أما دين يجمعكم و لا حميّة تحشمكم»[۴۷۴].

غير أنّ هذه الكلمة غالبا ما ترد فى الذم كما

ذكرها الإمام على عليه السّلام مرارا فى خطبته القاصعة ذامّا بها إبليس أمام المستكبرين: «صدّقه به أبناء الحمية و أخوان العصبية و فرسان الكبر و الجاهلية»[۴۷۵].

و فى مكان آخر من هذه الخطبة يقول محذّرا من العصبيات الجاهلية:

«فأطفئوا ما كمن فى قلوبكم من نيران العصبية و أحقاد الجاهلية فإنّما تلك الحمية تكون فى المسلم من خطرات الشيطان و نخواته و نزعاته و نفثاته»[۴۷۶].

و على كلّ حال فلا شكّ أنّ وجود مثل هذه الحالة فى الفرد أو المجتمع باعث على تخلّف ذلك المجتمع و تكبيل العقل و الفكر الإنسانى و منعه من الإدراك الصحيح و التشخيص السالم .. و ربّما تذر جميع مصالحه مع الرياح! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۵

و أساسا فإنّ انتقال السنن الخاطئة من جيل لآخر و من قوم لآخرين ما كان إلّا فى ظل هذه الحميّة المشؤومة، و مقاومة الأمم للأنبياء و القادة غالبا ما تكون عن هذه السبيل أيضا ..

ينقل عن الإمام على بن الحسين حين سئل عن «العصبية» أنّه قال عليه السّلام: «العصبية التى يأثم عليها صاحبها أن يرى شرار قومه خيرا من خيار قوم آخرين و ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه و لكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»[۴۷۷].

إنّ خير سبيل لمقاومة هذه السجية السيئة و النجاة من هذه المهلكة العظمى السعى و الجد لرفع المستوى الثقافى و الفكرى و إيمان كلّ قوم و جماعة ..

و فى الحقيقة إنّ القرآن عالج هذا المرض بالآية المتقدّمة- محل البحث- حيث يتحدّث عن المؤمنين ذوى السكينة و التقوى، فحيث توجد التقوى فلا توجد حميّة الجاهلية، و حيث توجد حميّة الجاهلية فلا تقوى و لا سكينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۶

الآية [سورة الفتح (۴۸): آية ۲۷]

اشارة

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷)

التّفسير

رؤيا النّبى الصادقة:

هذه الآية- أيضا- ترسم جانبا آخر من جوانب قصة الحديبيّة المهمّة، و القصة كانت على النحو التالى:

رأى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فى المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه

فسرّوا جمیعا، غیر أنّه لمّا کان جماعة من أصحابه یتصوّرون أنّ تعبیر الرؤیا سیتحقق فی تلک السنة ذاتها و منعهم المشرکون من الدخول إلی مکّة أصابهم الشک و التردّد .. تری هل من الممکن أن تکون رؤیا النّبی غیر صادقة؟ ألم یکن البناء أن نعتمر هذا العام؟! فأین هذا الوعد؟ و أین صارت هذه الرؤیا الرحمانیة؟! فکان جواب النّبی لهم: هل قلت لکم أنّ هذه الرؤیا ستتحقق هذا العام؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۷

فنزلت الآیة الآنفة فی هذا الصدد و النّبی عائد من الحدیبیة إلی المدینة و أکّدت أنّ هذه الرؤیا کانت صادقة و لا بدّ أنّها کائنة ... تقول الآیة: لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْیا بِالْحَقِ ۴۷۸] فما رآه النّبی فی المنام کان حقّا و صدقا.

ثمّ تضیف الآیة قائلة: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِینَ مُحَلِّقِینَ رُؤُسَکُمْ وَ مُقَصِّرِینَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا و کان فی هذا التأخیر حکمة:

فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِکَ فَتْحاً قَرِیباً.

***

ملاحظات

اشارة

و فی الآیة الکریمة عدّة ملاحظات تلفت النظر:

۱- ینبغی الالتفات إلی أنّ «اللام» فی لَتَدْخُلُنَ هی لام القسم، و أنّ «النون» فی آخر الفعل هی للتوکید، بأنّ هذا هو وعد إلهی قطعی فی المستقبل و تنبؤ معجز صریح عن أداء المناسک و العمرة فی کامل الأمان و منتهی الطمأنینة- و کما سنبیّن- کان هذا التوقّع و التنبّؤ صادقا فی شهر ذی القعدة ذاته من السنة المقبلة، و هکذا أدّی المسلمون مناسک العمرة بهذه الصورة! ۲- جملة إِنْ شاءَ اللَّهُ هنا لعلّها نوع من تعلیم العباد لکی یعوّلوا علی مشیئة اللّه عند الإخبار عن المستقبل و أن لا ینسوا إرادة اللّه، و أن لا یجدوا أنفسهم غیر محتاجین أو مستقلّین عنه. و ربّما هی إشارة للظروف التی یهیّؤها اللّه لهذا التوفیق «توفیق اللّه المسلمین لزیارة بیته فی المستقبل القریب» و البقاء علی خط «التوحید و السکینة و التقوی» ...

کما یمکن أن تکون إشارة إلی بعض المسلمین الذین تنتهی أعمارهم فی هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۸

الفترة و الفاصلة الزمانیة و لا یوفّقون إلی زیارة بیت اللّه، و الجمع بین هذه المعانی کلها لا مانع منه أبدا ...

۳- التعبیر ب فَتْحاً قَرِیباً کما یعتقد کثیر من المفسّرین هو إشارة إلی صلح الحدیبیّة الذی عبّر عنه القرآن بالفتح المبین، و نعرف أنّ هذا الفتح کان السبیل إلی دخول المسجد الحرام فی السنة التالیة.

علی حین أنّ جماعة آخرین یعتقدون أنّ فَتْحاً قَرِیباً إشارة إلی «فتح خیبر».

و بالطبع فإنّ کلمة (قریبا) فیها تناسب أکثر مع «فتح خیبر» لأنّه کان- «تحقّقه العینی» بعد هذه الرؤیا فی فترة أقل زمنا من فتح مکّة بعدها، ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن یقول فی الآیة (۱۸) من هذه السورة ذاتها عند الکلام علی بیعة الرضوان: فَأَنْزَلَ السَّکِینَةَ عَلَیْهِمْ وَ أَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِیباً. و کما قلنا- و یعتقد بذلک أکثر المفسّرین أیضا- أنّ المراد من هذا الفتح هو «فتح خیبر» و القرائن الموجودة فی الآیة تحکی عن هذا الفتح أیضا، و مع الالتفات إلی أنّ الآیة محل البحث تنسجم مع تلک الآیة فیبدو أنّ الآیتین بمعنی واحد ...[۴۷۹].

و فی تفسیر علی بن إبراهیم روایة تشیر إلی هذا المعنی أیضا[۴۸۰].

۴- جملة «محلّقين رؤوسكم و مقصّرين» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة و آدابها و هو «التقصير» و به يخرج المحرم من إحرامه و قد استدل بعضهم بالآية فى التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير فى تقليم الأظافر الحلق، لأنّ الجمع بينهما ليس واجبا قطعا.

۵- جملة «فعلم ما لم تعلموا» إشارة إلى مسائل مهمّة مطوية فى صلح الحديبيّة و قد انكشفت بمرور الزمن- إذ قويت قواعد الإسلام و انتشر صوته و ترامت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۸۹

اصداؤه فى كلّ مكان و طويت نزعة الحرب عند المسلمين و استطاعوا أن يفتحوا «خيبر» بفارغ البال و قرار البلبال، و أرسلوا المبلّغين إلى أطراف الجزيرة العربية و بعث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم رسائله إلى أعظم رؤوساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكنّ اللّه كان يعلمها ...

۶- نواجه فى هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، و هى رؤيا النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم الصادقة التى تعدّ (غصنا من غصون) الوحى و هى مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السّلام و ذبح ولده إسماعيل الواردة فى سورة الصافات (الآية ۱۰۲).

«و لمزيد الإيضاح و تفصيل البيان حول الرؤيا و تعبير الأحلام من المناسب مراجعة تفسير سورة يوسف فى هذا التّفسير».

۷- الآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التى أخبر عنها القرآن، و هى شاهد على أنّ هذا الكتاب سماوىّ و أنّه من معاجز النّبى الكريم حيث يخبر قاطعا عن أداء مناسك العمرة و دخول المسجد الحرام فى المستقبل القريب و عن الفتح القريب قبله أيضا، و كما نعلم أنّ هذين التنبّؤين قد حدثا فعلا، و قد ذكرنا قصة «فتح خيبر» و الآن نتحدّث عن قصة «عمرة القضاء»:

***

عمرة القضاء:

عمرة القضاء هى العمرة التى أدّاها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أى فى ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول و أصحابه مكّة).

و تسمية «عمرة القضاء» بهذا الاسم لأنّها فى الحقيقة تعد قضاء عن السنة السابقة ...

و توضيح ذلك: أنّه طبقا لإحدى مواد معاهدة الحديبيّة أصبح من المقرر أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۰

يؤدّى المسلمون العمرة و زيارة بيت اللّه فى العام المقبل على أن لا- يمكثوا فى مكّة أكثر من ثلاثة أيام، و فى الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة و رؤساء قريش أيضا، لئلا- يقع نزاع محتمل بين الطرفين و لئلا- يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العبادة «التوحيدية».

و قد ورد فى بعض التواريخ أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أحرم فى السنة المقبلة مع أصحابه و الجمال المساقة للهدى و تحرّكوا جميعا حتى بلغوا أطراف «الظهران» و نواحيه فأرسل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ما كان عنده من أسلحة و خيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه و اسمه «محمّد بن مسلمة» فلمّا رأى المشركون هذه الخطة فزعوا و خافوا خوفا شديدا و ظنّوا أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم يريد أن يقاتلهم و ينقض المعاهدة الممضاة لعشر سنين و أخبروا أهل مكّة بذلك.

غير أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين وصل منطقة قريبة من مكّة أمر أن توضع الأسلحة من السهام و الرماح و غيرها من الأسلحة فى منطقة تدعى «ياجج»، و دخل هو و أصحابه مكّة بالسيوف المغمدة.

فلمّا رأى أهل مكّة من النّبى ما رأوا فرحوا إذ وفى النّبى بوعده [فكأنّ النبى باقدامه هذا أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد و أرادوا

أن ينازلوا المسلمين فهم على أتم الاستعداد].

فخرج رؤوساء مكّة منها لئلّا تتأثر عواطفهم و قلوبهم بهذه «المناظر» و لا تثيرهم مناسك العمرة من قبل المسلمين.

غير أنّ بقيـة أهل مكّة من الرجال و النساء و الأطفال اجتمعوا فى السطوح و حول الكعبة و خلال الطريق ليروا كيف يؤدّى المسلمون مناسكهم ...

فدخل النّبى مكّة بهذه الأبّهة الخاصة و كانت معه جمال كثيرة مسوقة للهدى فعامل أهل مكّة بمنتهى اللطف و المحبّة و أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف و أن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلا لتبدو علائم القدرة و القوّة فيهم و أن تترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۱

هـذه الحالـة فى أفكار أهل مكّة و أنفسـهم تأثيرا كبيرا و دليلا حيّا على قوة المسلمين و حكمتهم! و على كلّ حال فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبارة كما كانت فى الوقت ذاته عرضا «للعضلات المفتولة» و ينبغى القول أنّ «فتح مكّة» الذى تحقّق بعد سنة أخرى كان قد نثر بذره فى هذه السنة و هيّأ الأرضية لاستسلام أهل مكّة للفاتحين (المسلمين).

و كان هذا الأمر مدعاة لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنّهم بعثوا رجلا بعد مضـى ثلاثة أيّام إلى النّبى يطلب منه أن يغادر بسرعة هو و أصحابه مكّة طبقا للمعاهدة ...

الطريف هنا أنّ النّبى تزوّج أرملة من نساء قريش و كانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين و ذلك ليشدّ أواصره بهم و يخفّف من غلوائهم و بغضائهم.

و حين سمع النّبى اقتراحهم بالمغادرة

قال: «ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاما فحضر تموه».

قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنّا.

و لو كان تمّ ذلك لكان له أثره فى نفوذ أمر النّبى فى قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه ۴۸۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۲

الآيتان [سورة الفتح (۴۸): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَـهِيداً (۲۸) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُـجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِـيماهُمْ فِى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَـطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْـتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً (۲۹)

التّفسير

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ

فى هـاتين الآـيتين اللتين بهمـا تنتهى سورة الفتـح إشارة إلى مسألتين مهمّتين من «الفتـح المبين» أى «صـلح الحديبيّـة» إحـداهما تتعلّق بعالميّة الإسلام و الثانية تتعلّق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۳

بأوصاف أصحاب النّبى و خصائصهم و ما وعدهم اللّه سبحانه به! فالأولى منهما تقول: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً.

و هذا وعد صريح و قاطع من اللّه سبحانه فى غلبة الإسلام و ظهوره على سائر الأديان.

أى لا تعجبوا لو أخبركم اللّه عن طريق رؤيا نبيّه محمّد بالانتصار و أن تدخلوا المسجد الحرام بمنتهى الأمان و تؤدّوا مناسك العمرة دون أن يجرأ أحد على إيذائكم، كما لا تعجبوا أن يبشّركم اللّه بالفتح القريب- فتح خيبر «فأوّل الغيث قطرة» و سيكون الإسلام باسطا ظلاله فى أرجاء المعمورة و يظهر على جميع الأديان ...

و لم لا يكون كذلك و محتوى دعوة النّبى هداية اللّه إذ «أرسله بالهدى» و دينه «دين الحق» و يستطيع كلّ ناظر غير منحاز أن يرى حقّانيته فى آيات القرآن و أحكام الإسلام الفرديّة و الاجتماعية و القضائية و السياسية! و كذلك تعليماته الأخلاقية و الإنسانية. و أن يعرف علاقة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم باللّه حقّا من خلال إخباره بالمغيّبات و تنبّؤاته التى تقع فى المستقبل بصورة قاطعة.

أجل: إنّ منطق الإسلام المتين و محتواه الغنى الغزير يطهّر الأرض من أديان الشرك الملوّثة، و تخضع له الأديان السماوية المحرّفة الأخرى و أن يشدّ بأسلوبه الشائق ۴۸۲] القلوب إليه.

و لكن ما المراد ب «الظهور على الدين كلّه»؟ أهو الظهور المنطقى؟! أم الظهور (و الغلبة) العسكريان؟! هناك اختلاف بين المفسّرين ..

يعتقد جماعة منهم أنّ هذا الظهور هو الظهور المنطقى و الاستدلالى فحسب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۴

و هذا الأمر متحقق، لأنّ الإسلام متفوّق من حيث الاستدلال و القدرة المنطقية على جميع الأديان.

و لكنّ جماعة آخرين فسّروا هذا الظهور بالغلبة الظاهرية و غلبة القوة، و موارد استعمال كلمة «يظهر» و مشتقاتها أيضا دليل على الغلبة الخارجية ... و لهذا يمكن القول أنّه بالإضافة إلى نفوذ الإسلام فى مناطق كثيرة واسعة من الشرق و الغرب و هى تحت لوائه اليوم و تدين به أكثر من أربعين دولة إسلامية بنفوس يقدّر إحصاؤها بأكثر من مليارد نسمة فإنّه سيأتى زمان على الناس يستوعب الإسلام جميع أرجاء المعمورة «رسميّا» و سيكتمل هذا الأمر بظهور المهدى أرواحنا فداء إن شاء اللّه.

و كما

نقل عن بعض أحاديث النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر و لا وبر إلّا أدخله اللّه كلمة الإسلام»[۴۸۳].

و سبق أن بحثنا فى هذا المجال فى نفس هذا التّفسير ذيل الآية (۳۳) من سورة التوبة المشابهة لهذه الآية محل البحث.

و هنا ملاحظة تلتفت النظر إليها و هى أنّ البعض ذهب إلى أنّ التعبير بالهدى إشارة الى استحكام العقائد الإسلامية، فى حين أنّ التعبير ب «دين الحق» ناظر إلى حقّانية فروع الدين، إلّا أنّه لا دليل لدينا على هذا التقسيم، و الظاهر أنّ الهداية و الحقّانية هما فى الأصول و الفروع معا ...

و فى عود الضمير فى «ليظهره» هل يعود على الإسلام أم على النبى؟ للمفسّرين احتمالان، إلّا أنّ القرائن تدل بوضوح على أنّ المقصود هو دين الحق، لأنّه قريب من الضمير، هذا من حيث النظم و السبك اللغوى، كما أنّ المناسب ظهور الدين على الدين الآخر لا ظهور الشخص على الدين- أيضا-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۵

و آخر ما نريد بيانه فى شأن هذه الآية أنّ جملة كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً إشارة إلى هذه الحقيقة و هى أنّ هذا التوقع أو التنبّؤ لا يحتاج إلى أى شاهد، لأنّ شاهده اللّه، و رسالة رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا لا تحتاج إلى شاهد آخر، لأنّ الشاهد هو اللّه أيضا، و

إذا لم يوافق سهيل بن عمرو و أمثاله على كتابة عنوان (رسول اللّه) بعد اسم النّبى محمّد فليس ذلك مدعاة للتأثر أبدا.

و فى آخر آية وصف بليغ لأصحاب النّبى الخاصّين و الذين كانوا على منهاجه على لسان التوراة و الإنجيل و هو مدعاة افتخار لهم إذ أبدوا شهامتهم و رجولتهم فى الحديبيّة و المراحل الأخر كما أنّه درس اختبار لجميع المسلمين على مدى القرون و الأعصار! ...

فتقول الآية فى البداية: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

سواء رضى به خفافيش الليل كسهيل بن عمرو أم لم يرض به؟! و اخفوا أنفسهم عن هذه الشمس التى أشرقت على العالم أجمع أم لم يخفوا؟! فاللّه يشهد على رسالته و يشهد بذلك العارفون.

ثمّ تصف الآية أصحابه و خلالهم (و سجاياهم) الباطنية و الظاهرية ضمن خمس صفات إذ تقول فى وصفهم: وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ.

و صفتهم الثانية أنّهم: رُحَماءُ بَيْنَهُمْ

أجل: هم منطلق للمحبّة و الرحمة فيما بينهم كما أنّهم نار ملتهبة و سد محكم بوجه أعدائهم الكفّار ...

و فى الحقيقة أنّ عواطفهم و أفكارهم تتلخّص فى هاتين الخصلتين: «الرحمة» و «الشدّة» ... لكن لا تضادّ فى الجمع بينهما أوّلا، و لا رحمتهم فيما بينهم و شدّتهم على الكفّار تقتضى أن تحيد أقدامهم عن جادّة الحق ثانيا ...

ثمّ تضيف الآية مبيّنة وصفهم الثّالث فتقول: تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً.

هذا التعبير يجسد العبادة بركنيها الأساسيين: «الركوع و السجود» على أنّها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۶

حالة دائمية لهم، العبادة التى هى رمز للتسليم أمام أمر اللّه الحق، و نفى الكبر و الغرور و الأنانية عن وجودهم.

أمّا الوصف الرابع الذى تذكره الآية عن هؤلاء الأصحاب فهو بيان نيّتهم الخالصة الطاهرة فتقول: يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً فهم لا يعملون رياء و لا يبتغون من الخلق الثواب، بل هدفهم رضا اللّه و فضله فحسب، و الباعث على تحرّكهم فى حياتهم جميعا هو هذا الهدف ليس إلّا! ...

حتى التعبير ب «فضلا» يدل على أنّهم معترفون بتقصيرهم و يرون أعمالهم أقل من أن يطلبوا الثواب من اللّه، بل إنّهم مع كلّ عبادتهم و أعمالهم الصالحة ما يزالون قائلين: لو لا فضلك يا ربّنا فالويل لنا ...

أمّا الوصف الخامس فهو عن سيماهم المشرق إذ تقول الآية: سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ[۴۸۴].

«سيما» فى الأصل معناها العلامة و الهيأة، سواء أ كانت هذه العلامة فى الوجه أم فى مكان آخر و إن كانت فى الاستعمال العرفى تشير إلى علامة الوجه! و الأثر الظاهرىّ له ...

و بعبارة أخرى أنّ قيافتهم تدلّ بصورة جيدة أنّهم أناس خاضعون أمام اللّه و الحق و القانون و العدالة، و ليست العلامة فى وجوههم فحسب، بل فى جميع وجودهم و حياتهم تبدو هذه العلامة ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين يرى بأنّ «السيماء» هى الأثر الظاهر فى الجبهة من السجود أو أثر التراب عليها من مكان السجدة ... غير أنّ هذه الآية كما يظهر لها مفهوم أوسع ترتسم ملامحه على وجوه هؤلاء الرجال الربّانيين ...

و قال بعضهم: هذه الآية إشارة إلى إشراق وجوههم يوم القيامة كالبدر من كثرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۷

سجودهم ...

و بالطبع يمكن أن تكون جباههم و وجوههم على هذه الهيّأة يوم القيامة إلّا أنّ الآية تتحدّث عن وضعهم الظاهرى فى الدنيا ...

و قد ورد فى حديث عن الإمام الصادق فى تفسير هذه الجملة أنّه قال: «هو السهر فى الصلاة!»[۴۸۵].

و لا مانع من الجمع بين هذه المعانى كلّها! ...

و على كلّ حال فإنّ القرآن يضيف بعد بيان هذه الأوصاف: ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ! فهذه حقيقة مقولة قبلا و أوصاف وردت فى كتاب سماوى نزل منذ أكثر من ألفى عام ...

و لكن لا ينبغى أن ننسى أنّ التعبير ب وَ الَّذِينَ مَعَهُ يحكى عن معيّة النّبى فى كلّ شىء، فى الفكر و العقيدة و الأخلاق و العمل لا عن أولئك الذين كانوا فى عصره- و إن اختلفوا و إيّاه فى المنهج.

ثمّ يتحدّث القرآن عن وصفهم فى كتاب سماوى كبير آخر و هو الإنجيل فيقول:

وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ ۴۸۶].

«الشطأ»: معناه الفسيل أو البرعم الذى يخرج إلى جانب الساق الأصلى للزرع ... و «آزره» مشتقّ من المؤازرة أى المعاونة.

و «استغلظ» مشتقّ من مادة الغلظة، أى أنّه متين ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۸

و جملة «استوى على سوقه» مفهومها أنّ هذا الزرع بلغ قدرا من المتانة بحيث ثبت على سيقانه: و «سوق» جمع ساق- و التعبير ب «يعجب الزرّاع» يعنى أنّ هذا الزرع يكون سريع النمو كثير البراعم وافر النتاج إلى درجة يسرّ به الزراع و يعجبون منه، و الطريف أنّ وصفهم الثّانى فى الإنجيل جاء على خمسة أمور أيضا هى:

۱- أخراج الشطأ. ۲- و المؤازرة للنموّ. ۳- و الاستغلاظ. ۴- و الإستواء.

۵- و النمو المعجب.

و فى الحقيقة إنّ أوصافهم المذكورة فى «التوراة» تتحدّث عن أبعاد وجودهم من جهة العواطف و الأهداف و الأعمال و صورتهم الظاهرية ...

و أمّا الأوصاف الواردة فى «الإنجيل» فهى تتحدّث عن حركتهم و نموّهم و تكاملهم فى جوانب مختلفة (فلاحظوا بدقة).

أجل هم أناس متّصفون بصفات عليا لا يفترون عن الحركة لحظة واحدة ...

و تتنامى براعمهم دائما و يثمرون و يتآزرون كلّ حين ... و ينشرون الإسلام بأقوالهم و أعمالهم فى العالم و يوما بعد يوم يزداد عددهم فى المجتمع الإسلامى! ...

أجل، إنّهم لا- يتكاسلون فى حركتهم المتّجهة إلى الإمام دائما، و هم فى حال عبادتهم مجاهدون، و فى حال جهادهم عابدون ظاهرهم سوى، و باطنهم سليم، و عواطفهم صادقة، و نيّاتهم خالصة، و هم مظهر غضب اللّه بوجه أعداء الحق، و مظهر الرحمة بوجه إخوانهم.

ثمّ تضيف الآية معقّبة: أنّ هذه الأوصاف العليا و هذا النمو و التكامل السريع و هذه الحركة المباركة بقدر ما تعجب المحبّين و تسرّهم فهى فى الوقت ذاته:

لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ[۴۸۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۴۹۹

و يضيف القرآن مختتما هذه الآية المباركة: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً.

بديهى أنّ أوصاف أصحاب النّبى التى وردت فى بداية الآية محل البحث جمعت فيها الإيمان و العمل الصالح، فتكرار هذين الوصفين إشارة إلى استمرارهما و ديمومتهما: أى أنّ اللّه وعد أولئك الذين بقوا على نهجهم من أصحاب محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و استمروا بالإيمان و العمل الصالح، و إلّا فإنّ من كان يوما مع النّبى و يوما آخر مع سواه و على خلاف طريقته فلا يشملون بهذا الوعد أبدا.

و التعبير ب «منهم» مع الالتفات إلى هـذه المسألـة، و هى أنّ الأصل فى كلمـة «من» فى مثل هـذه الموارد التبعيض، و ظاهر الآية يعطى هـذا المعنى أيضا، و هـذا التعبير يـدلّ على أنّ أصـحاب النّبى ينقسـمون قسـمين- فطائفة منهم- يواصـلون إيمانهم و عملهم الصالح و تشملهم رحمة اللّه الواسعة و أجره العظيم، و طائفة يحيدون عن نهجه فيحرمون من هذا الفيض العظيم! ...

و ليس معلوما السبب فى إصرار بعض المفسّرين على أنّ «من» فى كلمة «منهم» بيانيّة حتما، فى حين لو ارتكبنا خلاف الظاهر و قلنا إنّ من هنا بيانية فكيف يمكن أن ندع القرائن العقلية هنا، فلا أحد يدّعى أبدا أنّ جميع أصـحاب النّبى معصومون و فى هذه الصورة يزول احتمال أنّ كلّ واحـد منهم بقى على عمله الصالـح و إيمانه، و مع هـذه الحال فكيف يعـدهم اللّه بالمغفرة و الأجر العظيم دون قيـد و شرط سواء عملوا الصالحات فى طول مسيرتهم، أو أن يعملوا الصالحات فى وقت، ثمّ ينحرفوا من منتصف الطريق! ...

و هـذه اللطيفـة تسـتدعى الالتفـات و هى أنّ جملـة: وَ الَّذِينَ مَعَهُ لاـ تعنى المرافقـة الجسديـة مع النّبى صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم و المصاحبة الجسمانية لأنّ المنافقين كانوا على هذه الشاكلة أيضا ... بل المراد من «معه» هو المعيّة من جهة أصول الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۰

و التقوى قطعا ... فبناء على هذا لا يمكننا أن نسـتنتج حكما كليّا من الآية الآنفة فى شأن جميع المعاصرين و المجالسين للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم ...

***

بحثان

۱- قصة تنزيه الصحابة!

المعروف بين علمـاء أهـل السـنّة أنّ صـحابة رسول اللّه جميعـا أولو امتياز خاص دون سائر الناس من أمّـة محمّـد فهم مطهّرون أزكياء معصومون من الزلـل و ليس لنـا الحق فى انتقاص أى منهم أو انتقاده و يحرم الإساءة إليهم بالكلام و غيره، حتى أنّ بعضـهم قال بكفر من يفعل ذلك و اسـتدلّوا على ذلك بآيات من الـذكر الحكيم منها هـذه الآية: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً ...

و بالآية (۱۰۰) من سورة التوبة إذ تعبّر عن المهاجرين و الأنصار بعد ذكرهم فى آيات سابقة بقولها: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ...

و لكنّنا إذا ابتعدنا عن الأحكام المسـبقة الاعتباطية، فسنجد أمامنا قرائن تتزلزل عندها هذه العقيدة! الأولى: إنّ جملة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ الواردة فى سورة التوبـة لاـ تخصّ المهـاجرين و الأنصـار فحسب، لأـنّ فى الآيـة تعبيرا آخر و هو: وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسـانٍ يشمل كلّ من يتّبعهم بالإحسان و الصلاح إلى يوم القيامة ...

فكما أنّ «التابعين» إذا كانوا فى خط الإيمان يوما و فى خط الكفر و الإساءة يوما آخر يخرجون من خيمة رضا اللّه، فإنّ الموضوع ذاته وارد فى الصـحابة لأنّهم فى آخر سورة الفتـح مقيّـدون بالإيمان و العمل الصالـح أيضا بحيث لو خرجوا عن هذا القيد و لو يوما واحدا لخرجوا عن رضوان اللّه سبحانه ...

و بتعبير آخر: إنّ كلمة «بإحسان» هى فى شأن التابعين و المتبوعين جميعا، فأى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۱

منهما خرج عن خطّ الإحسان فلن يشمله رضا اللّه و لطفه ...

الثانية: أنّه يسـتفاد من الروايات الإسـلامية أنّ أصـحاب النّبى و إن امتازوا بشـرف صحبته، إلّا أنّ من يأتى بعدهم فى الفترات المقبلة و

هم ذوو عمل صالح و إیمان راسخ أفضل منهم من جهة واحدة و هی أنّ أصحاب النّبی شهدوا معاجزه بجمیع أنواعها غیر أنّ الآخرین اتبعوا منهاجه دون مشاهدتها و ساروا علی هداه بالإفادة من الدلائل الأخر ...

و نقرأ

فی بعض أحادیث النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه سأله أصحابه: «نحن إخوانک یا رسول اللّه؟! قال: لا أنتم أصحابی، و إخوانی الذین یأتون بعدی. آمنوا بی و لم یرونی، و قال: للعامل منهم أجر خمسین منکم، قالوا: بل منهم یا رسول اللّه؟! قال: بل منکم ردّدها ثلاثا، ثمّ قال: لأنّکم تجدون علی الخیر أعوانا»[۴۸۸].

کما

نقل فی صحیح مسلم عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «وددت أنّا قد رأینا إخواننا، قالوا: أو لسنا إخوانک یا رسول اللّه؟! فقال: أنتم أصحابی و إخوانا الذین لم یأتوا بعد»[۴۸۹].

و یؤیّد العقل و المنطق هذه المقولة أیضا حیث إنّ من لم یدرکوا رسول اللّه و لم یتعلّموا بین یدیه و هم فی الوقت ذاته مثل أصحابه من حیث الإیمان و العمل الصالح فهم أفضل من الصحابة ...

الثالثة: إنّ هذا الکلام من وجهة النظر التاریخیة مقدوح فیه کثیرا لأنّ بعض الصحابة بعد زمان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بل حتی فی عصره حاد عن جادّة الصواب ...

فکیف یمکن أن نبرّئ الذین أشعلوا نار فتنة «الجمل» و قتلوا ما قتلوا و حملوا علی خلیفة رسول اللّه حقّا بالسیف و لا نعدّهم آثمین خاطئین ...

أو أن نقول إنّ الذین اجتمعوا فی النهروان و صفّین و ثاروا علی وصی رسول اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۲

و خلیفته المنتخب من قبل المسلمین و سفکوا الدماء الغزیرة مشمولون برضوان اللّه و لا غبار علیهم من الذنب و الإثم؟! و أعجب من ذلک کله أن یعتذر- عن أولئک الذین أخطأوا کلّ هذه الأخطاء و فعلوا ما فعلوا- بأنّهم مجتهدون، و المجتهد معذور! هکذا وجّهوا الأمر!! و إذا أمکن أن توجّه أمثال هذه الذنوب الکبیرة علی أنّها اجتهاد فلا مجال لملامة أی قاتل، و لا داعی لإقامة حدود اللّه فی شأنه!! فلعلّه اجتهد فأخطأ!! ...

و بتعبیر آخر: أنّه قد تقابلت فی معرکة الجمل و صفّین و النهروان طائفتان متحاربتان و من المسلّم به قطعا أنّهما لم تکونا جمیعا علی الحق، لأنّ الجمع بین الضدّین محال، فمع هذا التقدیر کیف یمکن القول بأنّ الطائفتین کلتیهما مشمولتان برضا اللّه، و المسألة لم تکن من المسائل العویصة الملتویة و لم یکن التمییز بین الحق و الباطل صعبا و لا مشکلا ... فالجمیع کانوا یعرفون أنّ علیا علیه السّلام أمّا طبقا لنص النّبی علیه أو بانتخاب المسلمین هو الخلیفة الحق و مع هذا فقد واجهوه بالسیف، فکیف یوجه هذا العمل عن طریق الاجتهاد؟

و لم لا یوجّهون قیام «أصحاب الردّة» فی زمان أبی بکر عن طریق الاجتهاد و عدوّهم مرتدّین رسما ... غیر أنّهم برّأوا أصحاب الجمل و صفّین و النهروان من أی ذنب و إثم!!؟

و علی کلّ حال ... یبدو أنّ مسألة «تنزیه الصحابة» بصورة مطلقة کانت حکما سیاسیا لتحفّظ جماعة بعد النّبی موقعها و تعوّل علی هذا الحکم، و تصون نفسها من الانتقاد ...

و هذا الموضوع لا ینسجم مع حکم العقل و لا مع التواریخ الإسلامیة المسلّم بها ...

و ما أحسن أن نحتکم فی شأن أصحاب النّبی فی الوقت الذی نجلّهم و نحترمهم ذاته- إلی معیار یقضی علیهم بالحق من خلال أعمالهم و عقائدهم عبر حیاتهم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۳

البدایة حتی النهایة، ذلک المعیار الذی أفدناه من القرآن الکریم و ذلک المعیار الذی وزن النّبی به صحابته ...

۲- المحبّة الإسلامیة المتبادلة

فی الروایات الإسلامیة الواردة فی تفسیر الآیة الأخیرة من سورة الفتح تأکید لا مزید علیه علی قوله تعالی: رُحَماءُ بَیْنَهُمْ و من بین هذه الروایات ما نقرأه

عن الإمام الصادق علیه السّلام: «المسلم أخو المسلم، لا یظلمه و لا یخذله و لا یخونه و یحقّ علی المسلم الاجتهاد فی التواصل و التعاون علی التعاطف و المواساة لأهل الحاجة و تعاطف بعضهم علی بعض، حتی تکونوا کما أمرکم اللّه عزّ و جلّ رحماء بینکم متراحمین، مغتّمین لما غاب عنکم من أمرهم علی ما مضی علیه معشر الأنصار علی عهد رسول اللّه»[۴۹۰].

إلّا أنّ العجیب أنّ المسلمین فی هذا العصر لا یقتدون بتعالیم هذه الآیة المؤثرة و ما تنقله من خصائص أصحاب رسول اللّه و المؤمنین الصادقین، و ربّما تحامل بعضهم علی بعض و أثار الحفیظة و سفک الدماء و هو ما لم یفعله أعداء الإسلام أحیانا ...

و ربّما ارتبطوا بالکفّار و أنشئوا علائق المحبّة حتی تظن أنّهم إخوان من أصل واحد و نسب واحد.

فلا خبر عن الرکوع و السجود و لا النیّات الخالصة و لا ابتغاء فضل اللّه و لا آثار السجود فی سیماهم و لا الزرع الذی أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوی علی سوقه!! و العجیب أیضا ... أنّه کلّما ابتعدنا عن الأصول القرآنیة هذه منینا بالذل و النکبة أکثر فأکثر و مع ذلک لا نلتفت من أین نؤکل؟! و ما تزال حمیّة الجاهلیة تصدّنا عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۴

التفکیر و إعادة النظر و العودة نحو القرآن ...

اللّهمّ نبّهنا من نومة الغافلین! ...

اللّهمّ وفّقنا أن نحیی فیها خلال أصحاب رسول اللّه و صفاتهم التی ذکرتها هذه الآیات البیّنات ...

اللّهمّ ارزقنا الشدّة علی أعدائنا و الرحمة فیما بیننا و التسلیم لأمرک، و الاهتمام الی ما تولیه إیّانا من العنایات الخاصّة و الجد و السعی إلی النهوض بالمجتمع الإسلامی إلی الخیر و الازدهار.

اللّهمّ ارزقنا فتحا مبینا یتحرّک فی ظلّه المجتمع الإسلامی و أن نوفّق إلی نشر تعالیم هذا الدین القویم الذی یهب الحیاة للناس فی هذا العصر الذی هو أحوج الی المعنویات من أی وقت آخر، و أن نفتح کلّ یوم قلوبا جدیدة إلی نور الإسلام ...

آمین یا ربّ العالمین انتهت سورة الفتح

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۵

سورة الحجرات

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمانی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۷

«سورة الحجرات»

محتوى السورة:

هذه السورة التى لا تتجاوز ۱۸ آية تحمل فى ما تحمل مسائل مهمة تتعلّق بشخص النّبى الكريم صلى اللّه عليه و آله و سلّم و المجتمع الإسلامى بعضه ببعض و حيث أنّ أغلب المسائل الأخلاقية تدور فى هذه السورة فيمكن أن نسمّى هذه السورة ب «سورة الأخلاق و الآداب» ...

و يمكن على الإجمال تقسيم مضامين السورة على النحو التالى:

القسم الأوّل: آيات بداية السورة و هى تبين طريقة التعامل مع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و آدابها و ما ينبغى على المسلمين مراعاته من أصول عند حضرة النبى.

الثّانى: تشتمل هذه السورة على سلسلة من أصول «الأخلاق الاجتماعية» المهمّة التى إن عمل بها و على هداها حفظت المحبّة و الصفاء و الأمن و الاتحاد فى المجتمع الإسلامى، و على العكس من ذلك لو أهملت تكون سببا للشقاء و النفاق و التفرّق و عدم الأمن ...

الثّالث: الأوامر الإرشادية المتعلّقة بكيفية مواجهة الاختلافات و التنازع أو القتال الذى قد يقع بين المسلمين أحيانا ...

الرابع: يتحدّث عن معيار قيمة الإنسان عند اللّه و أهمية التقوى! ...

الخامس: يعالج قضية أنّ الإيمان ليس بالقول فحسب بل لا بدّ من ظهور آثاره فى أعمال الإنسان و الجهاد بالمال و النفس- إضافة إلى الإعتقاد فى القلب- السادس: يتحدّث عن أنّ الإيمان و الإسلام هما هدية إلهية للمؤمنين و بدلا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۸

أن يمنّوا بالإسلام أو الإيمان ينبغى أن يشكروا اللّه على هذه الهدية إذ شملهم بها ...

السابع: و الأخير يتحدّث عن علم اللّه و اطلاعه و عن جميع أسرار الوجود الخفية و أعمال الإنسان، و هذا القسم بمثابة الضامن لتنفيذ جميع هذه الأقسام الواردة فى هذه السورة! و تسمية هذه السورة بسورة «الحجرات» لورود هذه الكلمة فى الآية الرابعة منها و سنبيّن تفسيرها فى السطور التالية ...

فضيلة تلاوة هذه السورة!

يكفى أن نعرف فضيلة هذه السورة من حديث نقرؤه

عن النّبى فى فضلها! ...

«من قرأ سورة الحجرات اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع اللّه و عصاه».

كما نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق فى فضلها يقول: «من قرأ سورة الحجرات فى كلّ ليلة أو فى كلّ يوم كان من زوّار محمّد» ...

و بديهى أنّ كلّ هذه الحسنات التى هى بعدد المطيعين و العاصين إنّما تكون فى صورة ما لو أخذنا بنظر الإعتبار كلا من الفريقين و أن نفكّر جيدا فنجعل مسيرنا وفقا لمنهج المطيعين و نبتعد عن منهج العاصين.

و نيل زيارة النّبى أيضا فرع على أن نعمل وفق الآداب المذكورة فى الحضور عنده صلى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ التلاوة فى كلّ مكان مقدمة للعمل ...

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۰۹

الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَـدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ (۱) يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (۲) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۳) إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (۴)
وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۵)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون لنزول الآية الأولى من هذه السورة شأنا بل شؤونا كما ذكروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۰

لنزول الآيات التى بعدها شؤونا أخر! فمن الشؤون التى ذكروها لنزول الآية الأولى أنّه: حين أراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يتوجّه إلى خيبر رغب فى أن يخلّف شخصا معيّنا مكانه فى المدينة و ينصّبه خليفة عنه، فاقترح عمر شخصا آخر، فنزلت الآية الآنفة و أمرت أن لا تقدموا بين يدى اللّه و رسوله ۴۹۱].

و قال آخرون: كان بعض المسلمين بين الفينة و الأخرى يقولون لو نزلت فينا آية لكان أفضل، فنزلت الآية أن لا تقدموا بين يدى اللّه و رسوله ۴۹۲].

و قال بعضهم، إنّ الآية تشير إلى أعمال بعض المسلمين الذين كانوا يؤدّون عباداتهم قبل أوانها، فنزلت الآية لتنهاهم عن مثل هذه الأعمال ۴۹۳].

و أمّا فى شأن الآية الثانية فقد قال المفسّرون إنّ طائفة من «بنى تميم» و أشرافهم و ردوا المدينة، فلمّا دخلوا مسجد النّبى نادوا بأعلى صوتهم من وراء الحجرات التى كانت للنبى: يا محمّد أخرج إلينا. فأزعجت هذه الصرخات غير المؤدّبة النبى، فخرج إليهم فقالوا له: جئناك لنفاخرك فأجز شاعرنا و خطيبنا ليتحدّث عن مفاخر قبيلتنا، فأجازهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فنهض خطيبهم و تحدّث عن فضائلهم الخيالية الوهميّة كثيرا ...

فأمر النّبى (ثابت بن قيس) أن يردّ عليهم ۴۹۴] فنهض و خطب خطبة بليغة فلم يبق لخطبة أولئك من أثرا! ...

ثمّ نهض شاعرهم و ألقى قصيدة فى مدحهم فنهض «حسان بن ثابت» فردّ عليه بقصيدة شافية كافية! فقام رجل من أشراف تلك القبيلة و اسمه «الأقرع» فقال: إنّ هذا الرجل يعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۱

محمّدا خطيبه أبلغ من خطيبنا و شاعره أجدر من شاعرنا و صدى صوته أبعد مدى من صوتنا ...

فأمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن تهدى لهم هدايا ليكتسب قلوبهم إليه فكان أن تأثّروا بمثل هذه المسائل فاعترفوا بنبوّته!

فالآيات محل البحث ناظرة إلى هذه القضية و الأصوات من خلف الحجرات.

و هناك شأن آخر لنزول الآية بل هو يتعلّق بالآية الأولى و ما بعدها و هو أنّه فى السنة التاسعة للهجرة [حين كانت القبائل تفد على

النّبى للسلام عليه أو للمعاهدة معه و قد عرف العام ذلك «بعام الوفود» و عند وصول ممثلى قبيلة تميم إلى النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم قال أبو بكر: ليكن «القعقاع» (أحد أشراف تلك القبيلة) أميرها، و اقترح عمر أن يكون «الحابس بن أقرع» أميرها. فقال أبو بكر لعمر أردت أن تخالفنى، فردّ عليه عمر بأنّه لم يرد مخالفته أبدا، فتعالى الصياح و الضجيج بينهما، فنزلت الآيات الآنفة ... أى لا تقترحوا فى الأمور على النّبى شيئا و لا تتقدّموا عليه فى العمل و لا ترفعوا أصواتكم عند بيت النبى ۴۹۵].

***

التّفسير

آداب الحضور عند النبى:

كما أشرنا آنفا أنّ فى محتوى هذه السورة قسما من المباحث الأخلاقية المهمّة و الأوامر و التعليمات الانضباطية التى تدعونا إلى تسمية هذه السورة بسورة الأخلاق، و هذه المسائل و التعليمات تقع فى الآيات الأوّل من السورة محل البحث- و الآيات هذه على نحوين من التعليمات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۲

الأول: عدم التقدّم على اللّه و رسوله و عدم رفع الصوت عند رسول اللّه صلى اللّه عليه و آله و سلّم ...

فتقول الآية الأولى فى هذا الصدد: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

و المراد من عدم التقديم بين يدى اللّه و رسوله هو أن لا يقترح عليهما فى الأمور، و ترك العجلة و الإسراع أمام أمر اللّه و رسوله ...

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرين أرادوا أن يحدّدوا مفهوم الآية و جعلوه منحصرا بأداء العبادات قبل وقتها، أو التكلّم قبل كلام رسول اللّه و أمثال ذلك، إلّا أنّه من الواضح أنّ للآية مفهوما واسعا يشمل أى تقدّم و إسراع فى كلّ خطّة و منهج ۴۹۶].

إنّ مسئولية انضباط السائرين إزاء القادة و خاصة إزاء القادة الإلهيين تقتضى ألّا يتقدّموا عليهم فى أى عمل و قول و لا يعجل أحد عندهم.

و بالطبع فإنّ هذا الكلام لا يعنى بأنّه لا يجوز لهم أن يتشاوروا مع النّبى إذا كان لديهم شىء يجدر بيانه، بل المراد منه إلّا يعجلوا و يبادروا بالتصميم قبل أن يوافق النّبى على ذلك! حتى أنّه لا ينبغى أن تثار أسئلة و مناقشات أكثر ممّا يلزم فى شأن المسائل، بل ينبغى أن يترك الأمر للقائد نفسه أن يبيّن المسائل فى حينها، لا سيما إذا كان القائد معصوما الذى لا يغفل عن أى شىء! كما أنّه لو سئل المعصوم أيضا، لا يحقّ للآخرين أن يجيبوا السائل قبل أن يردّ عليه المعصوم، و فى الحقيقة أنّ الآية جمعت كلّ هذه المعانى فى طيّها.

و الآية الثانية تشير إلى الأمر الثّانى فتقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَ لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۵۱۲

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۳

و الجملة الأولى: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِي إشارة إلى أنّه لا ينبغى رفع الصوت على صوت النبى، فهو بنفسه نوع من الإساءة الأدبية فى محضره المبارك، و النّبى له مكانته. و هذا الأمر لا يجدر أن يقع أمام الأب و الأم و الأستاذ لأنّه مخالف للاحترام و الأدب أيضا.

أمّا جملة: لا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ فيمكن أن تكون تأكيدا على المعنى المتقدّم فى الجملة الأولى، أو أنّها إشارة إلى مطلب آخر، و هو ترك مخاطبة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالنداء «يا محمّد» و العدول عنه بالقول: «يا رسول اللّه»! ...

غير أنّ جماعة من المفسّرين قالوا فى الفرق بين الجملتين آنفتى الذكر ما يلى:- إنّ الجملة الأولى ناظرة إلى زمان يتحادث الناس فيه مع النبى، فلا ينبغى لأحد أن يرفع صوته فوق صوت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أمّا الجملة الثانية فناظرة الى زمان يكون الرّسول فيه صامتا و أصحابه يحدّثونه، ففى هذه الحالة أيضا لا ينبغى رفع الصوت عنده.

و الجمع بين هذه المعنى و المعنى السابق أيضا- لا مانع منه كما أنّه ينسجم مع شأن نزول الآية، و على كلّ حال فظاهر الآية هو بيان أمرين مختلفين ...

و بديهى أنّ أمثال هذه الأعمال إن قصد بها الإساءة و الإهانة لشخص النّبى و مقامه الكريم فذلك موجب للكفر، و إلّا فهو إيذاء له و فيه إثم أيضا ...

و فى الصورة الأولى تتّضح علة الحبط و زوال الأعمال، لأنّ الكفر يحبط العمل و يكون سببا فى زوال ثواب العمل الصالح ...

و فى الصورة الثانية أيضا، لا يمنع أن يكون مثل هذا العمل السيء باعثا على زوال ثواب الكثير من الأعمال.

و قلنا سابقا فى بحث الحبط أنّه لا مانع من زوال ثواب بعض الأعمال بسبب بعض الذنوب الخاصة، كما أنّ زوال أثر بعض الذنوب بسبب الأعمال الصالحة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۴

قطعىّ أيضا ... و هناك دلائل كثيرة فى الآيات القرآنية أو الأحاديث الشريفة على هذا المعنى و رغم أنّ هذا المعنى لم يثبت على أنّه قانون كلّى فى جميع الحسنات و السيئات، إلّا أنّه توجد دلائل نقلية فى شأن بعض الحسنات و السيئات المهمّة و لا يوجد دليل عقلى مخالف لها![۴۹۷].

و

قد ورد فى رواية أنّه حين نزلت الآية آنفة الذكر قال «ثابت بن قيس» خطيب النّبى الذى كان له صوت جهورى عال: أنا الذى رفعت صوتى فوق صوت النّبى فحبطت أعمالى و أنا من أهل النّار ...

فبلغ ذلك سمع النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «هو من أهل الجنّة»[۴۹۸].

لأنّه حين فعل ذلك للمؤمنين أو أمام المخالفين و كان ذلك أداء لوظيفة إسلامية.

كما أنّ ابن العباس بن عبد المطلب نادى بأمر النّبى الذين فرّوا فى معركة «حنين» بصوت عال ليعودوا إلى ساحات القتال! و فى الآية الأخرى مزيد تأكيد على الثواب الذى أعدّه اللّه لأولئك الذين يمتثلون أمر اللّه و يراعون الآداب عند رسول اللّه فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۴۹۹].

كلمة «يغضون» مشتقة من غضّ- على وزن حظّ- و معناها تقليل النظر أو خفات الصوت و يقابل هذه الكلمة الإمعان بالنظر و الجهر بالصوت.

و كلمة «امتحن» مشتقة من الامتحان، و الأصل فى استعمالها إذابة الذهب و تطهيره من غير الخالص، كما أنّها تستعمل فى بسط الجلد المعدّ للدّبغ، ثمّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۵

استعملت بعدئذ فى مطلق الاختبار كما هى الحال بالنسبة للآية محل البحث، و نتيجة ذلك خلوص القلب و بسطه لقبول التقوى ...

و ممّا يسترعى الانتباه أنّ الآية السابقة ورد فيها التعبير بالنبى، إلّا أنّ هذه الآية ورد التعبير فيها عنه برسول اللّه، و كلتا الآيتين تشير إلى هذه «اللطيفة»: و هى أنّ النّبى ليس عنده شيء من نفسه، بل هو رسول اللّه و نبيّه، فإساءة الأدب إليه إساءة الأدب إلى اللّه و رعاية

الأدب إليه رعاية للّه.

و نكّرت كلمة «مغفرة» للتعظيم و الأهمية ... أى أنّ اللّه يجعل نصيبهم المغفرة الكبرى و التامة، و بعد تطهيرهم من الذنب يرزقهم الأجر العظيم، لأنّه لا بدّ من التطهير من الذنب أولا، ثمّ الانتفاع من الأجر العظيم من قبل اللّه ...

أمّا الآية الأخرى فتشير إلى جهل أولئك الذين يجعلون أمر اللّه وراء ظهورهم، و عدم إدراكهم فتقول: إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ

فأى عقل يدفع الإنسان إلى أن ينادى برفيع صوته أمام أعظم سفير إلهى فلا يلتفت الى آداب النداء كما فعلت قبيلة بنى تميم فنادت النّبى بصوت مزعج يا محمّد يا محمّد أخرج إلينا و هو مركز المحبّة و العطف الإلهى؟! و أساسا كلّما ترقّى عقل الإنسان زيد فى أدبه فيعرف القيم الأخلاقية بصورة أحسن و من هنا فإنّ إساءة الأدب دليل على عدم العقل، أو بتعبير آخر إنّ إساءة الأدب عمل الحيوان، أمّا الأدب أو رعاية الأدب فهو من عمل الإنسان ...

جملة أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ «الأكثر» فى لغة العرب يطلق أحيانا بمعنى الجميع، و إنّما استعمل هذا اللفظ رعاية للاحتياط فى الأدب حتى لو أنّ واحدا أستثنى من الشمول لا يضيع حقّه عند التعبير بالأكثر، فكأنّ اللّه يريد أن يقول: إنّى أنا اللّه الذى أحطت بكلّ شىء علما، عند الكلام على مثل هذه الأمور أراعى الأدب فى ذلك فعلام لا تراعون فى كلامكم هذه الناحية؟! أو لأنّه يوجد فيهم أناس يعقلون حقّا، و لعادة الناس و عدم التفاتهم فى رفع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۶

الصوت يريد القرآن أن يحذّرهم بهذا الأسلوب أن لا ينسوا الأدب و أن يستعملوا عقولهم و أفكارهم عند الكلام ...

«الحجرات»: جمع «حجرة» و هى هنا إشارة إلى البيوت ۵۰۰] المتعددة لأزواج النّبى المجاورة للمسجد ...

و أصل الكلمة مأخوذ من «الحجر» على وزن الأجر: أى المنع لأنّ الحجرة تمنع الآخرين من الدخول فى حريم «حياة» الإنسان ... و التعبير ب «وراء» هنا كناية عن الخارج من أى جهة كان! لأنّ أبواب الحجرات كانت تتفتح على المسجد أحيانا فيقف الجهلة عندها فينادون: يا محمّد أخرج إلينا، فمنعهم القرآن و نهاهم عن ذلك! ...

و يضيف القرآن إكمالا للمعنى فى نهاية الآية قائلا: وَ لَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ

صحيح أنّ العجلة قد تجعل الإنسان أحيانا يبلغ قصده بسرعة، إلّا أنّ الصبر فى مثل هذا «المقام» و التأنّى مدعاة إلى المغفرة و الأجر العظيم.

و حيث أنّ بعضهم قد ارتكبوا جهلا هذا الخطأ من قبل، و استوحشوا من هذا الأمر و حاسبوا أنفسهم بعد نزول الآية، فإنّ القرآن يضيف قائلا إنّهم تشملهم الرحمة عند التوبة: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

***

بحوث

۱- الأدب أغلى القيم

اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بمسألة رعاية الأدب، و التعامل مع الآخرين مقرونا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۷

بالاحترام و الأدب سواء مع الفرد أم الجماعة، و نشير إلى طائفة من الأحاديث الشريفة هنا على أنّها شواهد و أمثال لهذا العنوان ...

۱-

یقول الإمام علی علیه السّلام: «الآداب حلل مجدّدة»[۵۰۱].

و

یقول فی مکان آخر: الأدب یغنی عن الحسب ۵۰۲].

کما أنّنا نقرأ حدیثا آخر

عن الإمام الصادق علیه السّلام یقول فیه: «خمس من لم تکن فیه لم یکن کثیر فیه مستمتع؛ قیل: و ما هنّ یا ابن رسول اللّه قال علیه السّلام: الدین و العقل و الحیاء و حسن الخلق و حسن الأدب»[۵۰۳].

و نقرأ فی مکان آخر

حدیثا عنه علیه السّلام أیضا یقول فیه: لا یطمعنّ ذو الکبر فی الثناء الحسن و لا الخبّ فی کثرة الصدیق و لا السیء الأدب فی الشرف ۵۰۴] ...

و لذلک فإنّنا حین نقرأ تأریخ حیاة القادة فی الإسلام و ننعم النظر فیها نلاحظ أنّهم یراعون أهم النقاط الحسّاسة و اللطائف الدقیقة فی الأخلاق و الآداب حتی مع الأناس البسطاء، و أساسا فإنّ الدین مجموعة من الآداب، الأدب بین یدی اللّه و الأدب بین یدی الرّسول و الأئمة المعصومین، و الأدب بین یدی الأستاذ و المعلم، أو الأب و الأم و العالم و المفکّر ...

و التدقیق فی آیات القرآن الکریم یکشف عن أنّ اللّه سبحانه بما له من مقام العظمة حین یتکلّم مع عباده، یراعی الآداب بتمامها ...

فحیث یکون الأمر علی هذه الشاکلة فمن المعلوم عندئذ ما هی وظیفة الناس أمام اللّه؟ و ما هو تکلیفهم؟! و نقرأ فی بعض الأحادیث الإسلامیة أنّه حین نزلت الآیات الأولی من سورة «المؤمنون» و أمرتهم بسلسلة من الآداب الإسلامیة، و منها مسألة الخشوع فی الصلاة، و کان النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم ینظر أحیانا إلی السماء عند

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۸

الصلاة ثمّ ینظر إلی الأرض مطرقا برأسه «لا یرفعه»[۵۰۵].

و فی ما یخص النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کان هذا الموضوع ذا أهمیة أیضا إذ صرّح القرآن فی آیاته بالإعراض عن اللغو عنده و عدم رفع الصوت و الصخب، فکلّ ذلک موجب للحبط فی الأعمال و اضمحلال الثواب.

و واضح أنّه لا- تکفی رعایة هذه المسألة الخلقیّة عند النّبی فحسب، بل هناک أمور أخری ینبغی مراعاتها فی حضوره، و کما یعبّر الفقهاء ینبغی إلغاء الخصوصیة هنا و تنقیح المناط بما سبق أشباهه و نظائره! و نقرأ فی سورة النور الآیة (۶۳) منها: لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَیْنَکُمْ کَدُعاءِ بَعْضِکُمْ بَعْضاً ... و قد فسّرها جماعة من المفسّرین بأنّه «عند ما تنادون النّبی فنادوه بأدب و احترام یلیقان به لا کما ینادی بعضکم بعضا» ...

الطریف هنا أنّ القرآن عدّ أولئک الذین یغضون أصواتهم عند رسول اللّه و یراعون الأدب بأنّهم مطهّرو القلوب و هم مهیّئون للتقوی، و جدیرون بالمغفرة و الأجر العظیم ... فی حین أنّه یعدّ الذین ینادونه من وراء الحجرات و یسیئون الأدب عنده- کالأنعام- أکثرهم لا یعقلون.

حتی أنّ بعض المفسّرین توسّعوا فی الآیات محل البحث و جعلوا لها مراحل أدنی أیضا بحیث تشمل المفکّرین و العلماء و القادة من المسلمین، فوظیفة المسلمین أن یراعوا الآداب بین أیدیهم ...

و بالطبع فإنّ هذه المسألة أکثر وضوحا فی شأن الأئمة أولی العصمة، حتی أنّه بلغنا بعض الروایات الواردة عن أهل البیت أنّه «حین دخل أحد الأصحاب علی الإمام بادره الإمام دون مقدّمة: أما تعلم

أنّه لا ینبغی للجنب أن یدخل بیوت الأنبیاء»[۵۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۱۹

و ورد التعبیر فی روایة أخری بهذه الصورة:

«أنّ بیوت الأنبیاء و أولاد الأنبیاء لا یدخلها الجنب».

و ملخص القول أنّ مسألة رعایة الآداب أمام الکبیر و الصغیر تشمل قسما کبیرا من التعلیمات الإسلامیة بحیث لو أردنا أن ندرجها ضمن بحثنا هذا لخرجنا عن تفسیر الآیات، إلّا أنّنا نختم بحثنا بحدیث عن الإمام علی بن الحسین (السجّاد) فی «رسالة الحقوق» حیث قال فی «مورد رعایة الأدب أمام الأستاذ»:

«و حقّ سائسک بالعلم التعظیم له و التوقیر لمجلسه و حسن الاستماع إلیه و الإقبال علیه و أن لا ترفع علیه صوتک و لا تجیب أحدا یسأله عن شیء حتی یکون هو الذی یجیب و لا تحدّث فی مجلسه أحدا و لا تغتاب عنده أحدا و أن تدفع عنه إذا ذکر عندک بسوء و أن تستر عیوبه و تظهر مناقبه و لا تجالس له عدوا و لا تعادی له ولیا فإذا فعلت ذلک شهدت لک ملائکة اللّه بأنّک قصدته و تعلّمت علمه للّه جلّ اسمه لا للناس»[۵۰۷].

۲- رفع الصوت عند قبر الرسول

قال جماعة من العلماء و المفسّرین أنّ الآیات محل البحث کما أنّها تمنع رفع الصوت عند النّبی حال حیاته فهی کذلک شاملة للمنع بعد وفاته ۵۰۸].

و إذا کان المراد من تعبیرهم آنفا شمول العبارة فی الآیة، فظاهر الآیة یخصّ زمان حیاته صلی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّها تقول: لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِ و ذلک فی حالة ما یکون النّبی له حیاة جسمانیة و هو یتکلّم مع أحد فلا یجوز رفع الصوت فوق صوته ...

لکن إذا کان مرادهم- المناط- و فلسفة الحکم- و هی واضحة فی هذه الموارد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۰

و أمثالها- و أهل العرف- یلغون «الخصوصیة»، فلا یبعد التعمیم المذکور. لأنّه من المسلّم به- أنّ الهدف هنا رعایة الأدب و احترام ساحة قدس النبی، فعلی هذا متی ما کان رفع الصوت عند قبره نوعا من هتک الحرمة فهو بدون شکّ غیر جائز، إلّا أن یکون أذانا للصلاة أو تلاوة للقرآن أو إلقاء خطبة ... و أمثال ذلک فإنّ هذه الأمور لیس فیه أی إشکال لا فی حیاة النّبی و لا بعد وفاته ...

و نقرأ حدیثا

فی أصول الکافی نقل عن الإمام الباقر فی شأن ما جری للحسن بعد وفاته و ممانعة عائشة عن دفنه فی جوار رسول اللّه جاء فیه أنّه حین ارتفعت الأصوات استدل الإمام الحسین علیه السّلام بالآیة: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَکُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِیِ

و

نقل عن رسول اللّه صلی اللّه علیه و آله و سلّم قوله: إنّ اللّه حرّم من المؤمنین أمواتا ما حرّم منهم أحیاء[۵۰۹].

و هذا الحدیث شاهد آخر علی عموم مفهوم الآیة!

۳- الانضباط الإسلامی فی کلّ شیء و فی کلّ مکان!

إنّ مسألة المدیریة لا تتم بدون رعایة الانضباط، و إذا أرید للناس العمل تحت مدیریة و قیادة- حسب رغبتهم، فإنّ اتساق الأعمال

سينعدم عندئذ و إن كان المديرون و القادة جديرين.

و كثير من الأحداث و النواقص التى نلاحظها تحدّث عن هذا الطريق، فكم من هزيمة أصابت جيشا قويا أو نقصا حدث فى أمر يهمّ جماعة و ما إلى ذلك كان سببه ما ذكرناه آنفا ... و لقد ذاق المسلمون أيضا مرارة مخالفة هذه التعاليم مرارا فى عهد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أو بعده، و من أوضح الأمور قصة هزيمة المسلمين فى معركة أحد لعدم الانضباط من قبل جماعة قليلة من المقاتلين.

و القرآن يثير هذه المسألة المهمّة فى عبارة موجزة فى الآية الآنفة و بأسلوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۱

جامع طريف إذ يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ

و مفهوم الآية كما أشرنا سابقا واسع إلى درجة أنّها تشمل أى نوع من أنواع التقدّم و التأخّر و الكلام و التصرّفات الذاتية الخارجية عن تعليمات القيادة ...

و مع هذه الحال فإنّنا نلاحظ فى تاريخ حياة النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم موارد كثيرة يتقدّم فيها بعض الأفراد على أمره أو يتخلّفون و يلون رؤوسهم فيكونون موضع الملامة و التوبيخ الشديد ... و من ذلك ما يلى ...

۱- حين تحرّك النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لفتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة كان ذلك فى شهر رمضان و كان معه جماعة كثيرة، منهم الفرسان و منهم المشاة، و لمّا بلغ (منزل) كراع الغميم أمر بإناء ماء، فتناول منه الرّسول و أفطر ثمّ أفطر من كان معه، إلّا أنّ العجيب أنّ جماعة منهم (تقدّم على النبى) و لم يوافقوا على الإفطار و بقوا صائمين فسمّاهم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم بالعصاة[۵۱۰]! ۲- و مثل آخر ما حدث فى حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة حيث أمر النبىّ أن ينادى المنادى: «من لم يسق منكم هديا فليحلّ و ليجعلها عمرة، و من ساق منكم هديا فليقم على إحرامه» ثمّ يؤدّى مناسك الحج و أنّ من جاء بالهدى (و حجّه حجّ إفراد) فعليه أن يبقى على إحرامه ... ثمّ

قال صلى اللّه عليه و آله و سلّم «لولا أنّى سقت الهدى لأحللت، و جعلتها عمرة، فمن لم يسق هديا فليحلّ».

إلّا أنّ جماعة أبوا و قالوا كيف يمكننا أن نحل و ما يزال النّبى محرما أليس قبيحا أن نمضى للحج بعد أداء العمرة و يسيل منّا ماء الغسل «من الجنابة».

فساء النّبى ما قالوا و وبّخهم و لامهم ۵۱۱].

۳- قصة التخلّف عن جيش أسامة عند ما أراد النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أن يلتحق بالرفيق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۲

الأعلى معروفة حيث أمر صلى اللّه عليه و آله و سلّم المسلمين أن ينفّذوا جيش أسامة بن زيد و يتحرّكوا إلى حرب الروم و أمر المهاجرين و الأنصار أن يتحرّكوا مع هذا الجيش ...

و لعلّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أراد ألّا تقع عند رحلته مسائل فى أمر الخلافة- و قد وقعت- حتى أنّه لعن المتخلّفين عن جيش أسامة و مع كلّ ذلك تخلّف جماعة بحجة أنّهم لا يستطيعون أن يتركوا النّبى فى مثل هذه الظروف ۵۱۲]!! ...

۴- قصة «القلم و الدواة» معروفة أيضا و هى فى الساعات الأخيرة من عمر النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنّها مثيرة و الأحسن أن ننقل ما جاء من عبارة

فى صحيح مسلم بعينها هنا: «لمّا حضر رسول اللّه و فى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبى: هلمّ اكتب لكم كتابا لا تضلّون بعده، فقال عمر إنّ رسول اللّه قد غلب عليه الوجع، و عندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه، فاختلف أهل البيت، فاختصموا فمنهم من يقول:

قرّبوا يكتب لكم رسول اللّه كتابا لن تضلّوا بعده و منهم من يقول ما قال عمر فلمّا أكثروا اللغو و الاختلاف عند رسول اللّه قال رسول

اللّه قوموا»[۵۱۳]! ...

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذا الحديث عينه نقله البخارى فى صحيحه باختلاف يسير جدا «صحيح البخارى، ج ۶، باب مرض النبى، ص ۱۱».

و هذه القضية من الحوادث المهمّة فى التأريخ الإسلامى التى تحتاج إلى تحليل و بسط ليس هنا محلّه و لكنّها على كلّ حال من أجلى موارد التخلّف عن أمر النّبى و مخالفة الآية محل البحث: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۳

و ما يهمّنا هنا أنّ رعاية الانضباط الإسلامى و الإلهى تحتاج إلى روح التسليم المطلق و قبول القيادة «الإلهية» فى جميع شؤون الحياة و الإيمان المتين بمقام القائد الشامخ ...

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۴

الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (۶) وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (۷) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۸)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان: هناك قولان فى شأن نزول الآية الأولى من الآيات أعلاه، و لكنّ بعضهم اكتفى بقول واحد منهما كالقرطبى و سيد قطب، و نور الثقلين.

فالقول الأوّل فى شأن نزول الآية محل البحث الذى ذكره أغلب المفسّرين أنّ الآية الكريمة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ نزلت فى «الوليد بن عقبة» و ذلك أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أرسله لجمع الزكاة من قبيلة «بنى المصطلق» فلمّا علم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۵

بنو المصطلق أنّ مبعوث الرّسول قادم إليهم سرّوا كثيرا و هرعوا لاستقباله، إلّا أنّ الوليد حيث كانت له خصومة معهم فى زمان الجاهلية، شديدة، تصوّر أنّهم يريدون قتله.

فرجع إلى النّبى «و من دون أن يتحقّق فى الأمر» و قال: يا رسول اللّه إنّهم امتنوا عن دفع الزكاة «و نعرف أنّ عدم دفع الزكاة هو نوع من الوقوف بوجه الحكومة الإسلامية فبناء على ذلك فإنّ مدّعى الوليد يقتضى أنّهم مرتدّون»!! فغضب النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم لذلك و صمّم على أن يقاتلهم فنزلت الآية آنفة الذكر[۵۱۴] ...

و أضاف بعضهم أنّ النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم حين أخبره الوليد بن عقبة بارتداد قبيلة (بنى المصطلق) أمر خالد بن الوليد بن المغيرة أن يمضى نحوها و أن لا يقوم بعمل حتى يتريث و يعرف الحقّ ...

فمضى خالد ليلا و صار قريبا من قبيلة بنى المصطلق و بعث عيونه ليستقصوا الخبر فعادوا إليه و أخبروا بأنّهم مسلمون «أوفياء لدينهم» و سمعوا منهم صوت الآذان و الصلاة، فغدا خالد عليهم فى الصباح بنفسه فوجد ما قاله أصحابه صدقا فعاد إلى النّبى و أخبره بما رأى

فنزلت الآية آنفة الذكر، و عقّب النّبى عليها ...

«التأنّى من اللّه و العجلة من الشيطان»[۵۱۵].

و ذكر بعض المفسّرين قولا آخر فى شأن نزول الآية و عوّلوا عليه فحسب، و هو أنّ الآية نزلت فى «مارية القبطية» زوج النّبى و أم إبراهيم عليه السّلام، لأنّه

قيل للنبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ لها ابن عمّ «يدعى جريحا» تتردّد إليه أحيانا «و بينهما علاقة غير مشروعة» فأرسل النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم خلف على عليه السّلام فقال له «يا أخى خذ السيف فإن وجدته عندها فاضرب عنقه ...» فأخذ أمير المؤمنين السيف ثمّ قال بأبى أنت و أمى يا رسول اللّه: أكون فى أمرك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۶

إذا أرسلتنى كالسكة المحماة؛ أمضى لما أمرتنى أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فقال صلى اللّه عليه و آله و سلّم: «بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب»، قال على: فأقبلت متوشّحا بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلمّا عرف أنّى أريده أتى نخلة فرقى إليها ثمّ رمى بنفسه على قفاه و شغر برجليه فإذا أنّه أجبّ امسح مال ممّا للرجال قليل و لا كثير فرجعت فأخبرت النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: «الحمد للّه الذى يصرف عنّا السوء أهل البيت»[۵۱۶].

و ورد هذا الشأن ذاته فى تفسير نور الثقلين ج ۵ مع اختلاف يسير فى العبارات ...

***

التّفسير

لا تكترث بأخبار الفاسقين:

كان الكلام فى الآيات الآنفة على ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون و وظائفهم أمام قائدهم و نبيّهم محمّد صلى اللّه عليه و آله و سلّم و قد ورد فى الآيات المتقدّمة أمران مهمّان، الأوّل أن لا يقدموا بين يديه و الآخر هو مراعاة الأدب عند الكلام معه و عدم رفع الصوت فوق صوته ...

أمّا الآيات محل البحث فهى تبيّن الوظائف الأخرى على هذه الأمّة إزاء نبيّها.

و تقول ينبغى الاستقصاء عند نقل الخبر إلى النّبى فلو أنّ فاسقا جاءكم بنبإ فتثبّتوا و تحقّقوا من خبره، و لا تكرهوا النّبى على قبول خبره حتى تعرفوا صدقه ... فتقول الآيات أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا.

ثمّ تبيّن السبب فى ذلك فتضيف: أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۷

فلو أنّ النّبى قد أخذ بقول «الوليد بن عقبة» و عدّ قبيلة بنى المصطلق مرتدّين و قاتلهم لكانت فاجعة و مصيبة عظمى! ...

و يستفاد من لحن الآية التالية أنّ جماعة من أصحاب الرّسول اصرّوا على قتال بنى المصطلق، فقال لهم القرآن إنّ هذا هو الجهل بعينه و عاقبته الندم.

و استدل جماعة من علماء الأصول على حجّية خبر الواحد بهذه الآية لأنّها تقول إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا ... و مفهومها أنّ العادل لو جاء بنبإ فلا يلزم التبيّن ... و يصح قبول خبره إلّا أنّه أشكل على هذا الاستدلال بمسائل عديدة أهمها مسألتان:

المسألة الأولى: إنّ الاستدلال المتقدّم ذكره متوقّف على قبول «حجّية مفهوم الوصف»، و المعروف أنّه لا حجّية لمفهوم الوصف [517] ...

المسألة الثانية: إنّ العلة المذكورة فى ذيل الآية فيها من السعة ما يشمل خبرى العادل و الفاسق معا لأنّ العمل بالخبر الظنّى- مهما كان- ففيه احتمال الندم.

لكنّ هاتين المسألتين يمكن حلّهما، لأنّ مفهوم الوصف و أى قيد آخر فى الموارد التى يراد منها بيان القيد فى مقام الاحتراز حجة، و ذكر هذا القيد «قيد الفاسق» فى الآية المتقدّمة طبقا للظهور العرفى لا فائدة منه تستحق الملاحظة سوى حجّية خبر العادل! و أمّا فى مورد التعليل الوارد فى ذيل الآية فالظاهر أنّه لا يشمل كلّ عمل بالأدلة الظنّية، بل هو ناظر إلى الموارد التى يكون العمل فيها بجهالة، أى العمل بسفاهة و حمق، لأنّ الآية عوّلت على الجهالة، و نعرف أنّ أغلب الأدلة التى يعوّل عليها العقلاء جميعا فى العالم فى المسائل اليومية هى دلائل ظنّية «من قبيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۸

ظواهر الألفاظ و قول الشاهد، و قول أهل الخبرة، و قول ذى اليد و أمثالها».

و معلوم أنّه لا يعدّ أىّ ممّا أشير إليه آنفا بأنّه جهالة و لو لم يطابق الواقع أحيانا، فلا تتحقّق هنا مسألة الندم فيه لأنّه طريق عام ...

و على كلّ حال فإنّنا نعتقد بأنّ هذه الآية من الآيات المحكمات التى فيها دلالة على حجّية خبر الواحد حتى فى الموضوعات، و هناك بحوث كثيرة فى هذا الصدد- ليس هنا مجال شرحها ...

إضافة إلى ذلك فإنّه لا يمكن إنكار أنّ مسألة الاعتماد على الأخبار الموثقة هى أساس التاريخ و الحياة البشرية. بحيث لو حذفنا مسألة حجيّة خبر العادل أو الموثّق من المجتمعات الإنسانية لبطل كثير من التراث العلمى و المعارف المتعلّقة بالمجتمعات البشرية القديمة و حتى كثير من المسائل المعاصرة التى نعمل على ضوئها اليوم ...

و لا يرجع الإنسان إلى الوراء فحسب، بل تتوقف عجلة الحياة، لذلك فإنّ العقلاء جميعا يرون حجّيته و الشارع المقدّس أمضاه أيضا «قولا و عملا».

و بمقدار ما يعطى خبر الواحد «الثقة» الحياة نظامها فإنّ الاعتماد على الأخبار غير الموثّقة خطير للغاية، و مدعاة إلى اضطراب نظام المجتمع، و يجر الوبال و المصائب المتعدّدة، و يهدّد الحيثيات و حقوق الأشخاص بالخطر و يسوق الإنسان إلى الانحراف و الضلال و كما عبّر القرآن الكريم تعبيرا طريفا فى الآية محل البحث: فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ

و هنا لطيفة تسترعى الانتباه أيضا، و هى أنّ صياغة الأخبار الكاذبة و التعويل على الأخبار غير الموثّقة من الأساليب القديمة التى تتّبعها النظم الاستعمارية و الديكتاتورية لتخلق جوّا كاذبا ينخدع به الجهلة من الناس و المغفّلون فتنهب أموالهم و أرصدتهم بهذه الأساليب و ما شاكلها ...

فلو عمل المسلمون بهذا الأمر الإلهى الوارد فى هذه الآية على نحو الدقّة و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۲۹

يأخذوا بأخبار الفاسقين دون تبيّن لكانوا مصونين من هذه البلايا الخطيرة! و الجدير بالذكر أنّ المسألة المهمّة هنا هى الوثوق و الاعتماد على الخبر ذاته، غاية ما فى الأمر قد يحصل هذا الوثوق من جهة الاعتماد على الشخص المخبر تارة، و تارة من القرائن الأخر الخارجية ... و لذلك فإنّنا قد نطمئن إلى «الخبر» أحيانا و إن كان «المخبر» فاسقا ...

فعلى هذا الأساس، فإنّ هذا الوثوق أو الاعتماد كيف ما حصل، سواء عن طريق العدالة و التقوى و صدق القائل أم عن طريق القرائن الخارجية، فهو معتبر عندنا، و سيرة العقلاء التى أمضاها الشارع الإسلامى مبنية على هذا الأساس ...

و لذا فإنّنا نرى فى الفقه الإسلامى كثيرا من الأخبار ضعيفة السند لكن لأنّها جرى عليها «عمل المشهور» و وقف على صحة الخبر من

خلال قرائن خاصة، فلذلك أصبحت هذه الأخبار (الضعيفة السند) صالحة للعمل و جرت فتاوى الفقهاء على وفقها.

و على العكس من ذلك قد تقع أخبار عندنا قائلها معتبر و لكنّ القرائن الخارجية لا تساعد على قبوله، فلا سبيل لنا إلّا الاعراض عنه و إن كان المخبر عادلا و «معتبرا» ...

فبناء على هذا- إنّ المعيار هو الاعتماد على الخبر نفسه- فى كلّ مكان- و إن كان الغالب كون الوسيلة هى عدالة الراوى و صدقه- لهذا الاعتماد- إلّا أنّ ذلك ليس قانونا كليّا. (فلاحظوا بدقّة).

و الآية التالية- و للتأكيد على الموضوع المهم فى الآية السابقة- تضيف قائلة:

وَ اعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ۵۱۸].

و تدلّ هذه الجملة- كما قاله جماعة من المفسّرين أيضا- أنّه بعد أن أخبر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۰

«الوليد» بارتداد طائفة «بنى المصطلق» ... ألحّ جماعة من المسلمين البسطاء السذّج ذوى النظرة السطحية على الرّسول أن يقاتل الطائفة آنفة الذكر ...

فالقرآن يقول: من حسن حظّكم أنّ فيكم رسول اللّه و هو مرتبط بعالم الوحى فمتى ما بدت فيكم بوادر الانحراف فسيقوم بإرشادكم عن هذا الطريق، فلا تتوقّعوا أن يطيعكم و يتعلّم منكم و لا تصرّوا و تلحّوا عليه، فإنّ ذلك فيه عنت لكم و ليس من مصلحتكم ...

و يشير القرآن معقّبا فى الآية إلى موهبة عظيمة أخرى من مواهب اللّه سبحانه فيقول: وَ لكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ كَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْيانَ

و فى الحقيقة أنّ هذه التعابير إشارة لطيفة إلى قانون اللطف أى «اللطف التكوينى».

و توضيح ذلك أنّه حين يريد الشخص الحكيم أن يحقّق أمرا فإنّه يوفّر له جميع ما يلائمه من كلّ جهة و يصدق هذا الأصل فى شأن الناس تماما ...

فاللّه يريد أن يطوى الناس جميعا طريق الحق دون أن يقعوا تحت تأثير الإجبار بل برغبتهم و إرادتهم، و لذا يرسل إليهم الرسل و الكتب السماوية من جهة، و يحبّب إليهم الإيمان من جهة أخرى، و يضرى شعلة العشق نحو طلب الحق و البحث عنه فى داخل النفوس و يكرّه إليها الكفر و الفسوق و العصيان ...

و هكذا فإنّ كلّ إنسان مفطور على حبّ الإيمان و الطهّارة و التقوى، و البراءة من الكفر و الذنب.

إلّا أنّه من الممكن أن يتلوّث ماء المعنويات المنصبّ فى وجود الناس فى المراحل المتتالية و ذلك نتيجة للاختلاط بالمحيطات الموبوءة فيفقد صفاءه و يكتسب رائحة الذنب و الكفر و العصيان ...

هذه الموهبة الفطرية تدعو الناس إلى إتباع رسول اللّه و عدم التقدّم بين يديه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۱

و ينبغى التذكير بهذه اللطيفة أيضا، و هى أنّ محتوى الآية لا ينافى المشاورة أبدا، لأنّ الهدف من المشاورة أو الشورى أن يعرب كلّ عن عقيدته و وجهة نظره، إلّا أنّ الرأى الأخير و النظر النهائى لشخص النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم كما يستفاد ذلك من آية الشورى أيضا ...

و بتعبير آخر ... إنّ الشورى هى موضوع مستقل، و فرض الرأى موضوع آخر، فالآية محل البحث تنفى فرض الرأى لا المشاورة.

و فى أنّ المراد من «الفسوق» المذكور فى الآية ما هو؟! قال بعض المفسّرين هو الكذب، إلّا أنّه مع الالتفات إلى سعة مفهومه اللغوى فإنّه يشمل كلّ خروج على الطاعة، فعلى هذا يكون التعبير ب «العصيان» بعده تأكيدا عليه، كما أنّ جملة وَ زَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ تأكيد على الجملة السابقة لها: حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ

و قال بعضهم إنّ كلمة «الفسوق» إشارة إلى الذنوب الكبيرة فى حين أنّ «العصيان» أعم منه ... إلّا أنّه لا دليل على ذلك ...

و على كلّ حال، فإنّ القرآن يقرّر قاعدة كلية و عامة فى نهاية هذه الآية لواجدى الصفات المذكورة [فيها] فتقول: أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ

أى لو حفظتم هذه الموهبة الإلهية «العشق للإيمان و التنفّر من الكفر و الفسوق» و لم تلوّثوا هذا النقاء و الصفات الفطرية فإنّ الرشد و الهداية دون أدنى شكّ فى انتظاركم ...

و ممّا يستجلب النظر أنّ الجمل السابقة فى الآية كانت بصيغة الخطاب للمؤمنين لكنّ هذه الجملة: أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ تتحدّث عنهم بصيغة «الغائب» و يبدو أنّ هذا التفاوت فى التعبير جاء ليدلّ على أنّ هذا الحكم غير مختصّ بأصحاب النبى، بل هو قانون عام، فكلّ من حفظ صفاءه الفطرى فى أى عصر و زمان هو من أهل الرشد و الهداية و النجاة.

أمّا آخر الآيات محل البحث فتوضّح هذه الحقيقة و هى أن محبوبية الإيمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۲

و التنفّر من الكفر و العصيان من المواهب الإلهية العظمى على البشر إذ تقول:

فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ نِعْمَةً وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۵۱۹].

فعلمه و حكمته يوجبان أن يخلق فيكم عوامل الرشد و السعادة و يكملها بدعوة الأنبياء إيّاكم و يجعل عاقبتكم الوصول إلى الهدف المنشود ... «و هو الجنّة».

و الظاهر أنّ الفضل و النعمة كليهما إشارة إلى حقيقة واحدة، هى المواهب الإلهية التى يمنحها عباده، غاية ما فى الأمر أنّ «الفضل» إنّما سمّى فضلا لأنّ اللّه غير محتاج إليه و «النعمة» إنّما سمّيت نعمة لأنّ العباد محتاجون إليها، فهما بمثابة الوجهين لعملة واحدة! ...

و لا شكّ أنّ علم اللّه بحاجة العباد و حكمته فى مجال التكامل و تربية المخلوقات توجبان أن يتفضّل بهذه النعم المعنوية الكبرى على عباده (و هى محبوبية الإيمان و التنفّر من الكفر و العصيان).

***

ملاحظات

۱- هداية اللّه و حريّة الإرادة

إنّ الآيات الآنفة تجسيد بيّن لوجهة نظر الإسلام فى مسألة «الجبر و الإختيار» و الهداية و الإضلال، لأنّها توضح هذه اللطيفة- بجلاء- و هى أنّ اللّه يهيئ المجال «و الأرضية» للهداية و الرشد، فمن جهة يبعث رسوله و يجعله بين الناس و ينزل القرآن الذى هو نور و منهج هداية؛ و من جهة يلقى فى النفوس العشق للإيمان و محبّته؛ و التنفّر و البراءة من الكفر و العصيان، لكن فى النهاية يوكل للإنسان أن يختار ما يشاء و يصمّم بنفسه، و يشرع سبحانه التكاليف فى هذا المجال! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۳

و طبقا للآيات المتقدّمة فإنّ عشق الإيمان و التنفّر من الكفر موجودان فى قلوب جميع الناس دون استثناء و إذا لم يكن لدى بعضهم ذلك فإنّما هو من جهة اخطائهم و سلوكياتهم و أعمالهم، فإنّ اللّه لم يلق فى قلب أىّ شخص حبّ العصيان و بغض الإيمان ...

۲- القيادة و الطاعة

هذه الآیات تؤکد مرّة أخری أنّ وجود القائد «الإلهی» ضروری لرشد جماعة ما، بشرط أن یکون مطاعا لا مطیعا و أن یتّبع أصحابه و جماعته أوامره لا أن یؤثّروا علیه و یفرضوا علیه آراءهم (ابتغاء مقاصدهم و مصالحهم).

و هذه المسألة لا- تختصّ بالقادة الإلهیین فحسب، بل ینبغی أن تکون حاکمة فی المدیریة و القیادة فی کلّ مکان. و حاکمیة هذا الأصل لا تعنی استبداد القادة، و لا ترک الشوری کما أشرنا آنفا و أوضحنا ذلک.

۳- الإیمان نوع من العشق لا إدراک العقل فحسب ...

هذه الآیات تشیر ضمنا إلی هذه الحقیقة و هی أنّ الإیمان نوع من العلاقة الإلهیة الشدیدة «و المعنویة» و إن کانت من الاستدلالات العقلیة ... و لذلک فإنّنا نقرأ

حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام حین سألوه: هل الحب و البغض من الإیمان، فأجاب علیه السّلام: «و هل الإیمان إلّا الحبّ و البغض»؟! ثمّ تلا هذه الآیة: ... وَ لکِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَیْکُمُ الْإِیمانَ وَ زَیَّنَهُ فِی قُلُوبِکُمْ وَ کَرَّهَ إِلَیْکُمُ الْکُفْرَ وَ الْفُسُوقَ وَ الْعِصْیانَ أُولئِکَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۵۲۰].

و

ورد فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام قوله فی هذا المجال «و هل الدین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۴

إلّا الحبّ»؟! ثمّ استدلّ علیه السّلام ببعض الآیات منها هذه الآیة محل البحث و قال بعدئذ:

«الدین هو الحبّ و الحبّ هو الدین»[۵۲۱].

إلّا أنّه و دون أدنی شکّ یجب أن ترفد هذه المحبّة- کما نوّهنا آنفا- بالوجوه الاستدلالیة و المنطقیّة لتکون مثمرة عندئذ ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۵

الآیتان [سورة الحجرات (۴۹): الآیات ۹ الی ۱۰]

اشارة

وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَی الْأُخْری فَقاتِلُوا الَّتِی تَبْغِی حَتَّی تَفِیءَ إِلی أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَیْنَهُما بِالْعَدْلِ وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الْمُقْسِطِینَ (۹) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَیْنَ أَخَوَیْکُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّکُمْ تُرْحَمُونَ (۱۰)

سبب النّزول

ورد فی شأن نزول الآیتین- هاتین- أنّ خلافا وقع بین قبیلتی «الأوس» و «الخزرج» «و هما قبیلتان معروفتان فی المدینة» أدّی هذا الخلاف إلی الاقتتال بینهما و أن یتنازعا بالعصی و الهراوات و الأحذیة فنزلت الآیتان آنفتا الذکر و علّمت المسلمین سبیل المواجهة مع أمثال هذه الحوادث ۵۲۲].

و قال بعضهم: حدث بین نفرین من الأنصار خصومة و اختلاف! فقال أحدهما للآخر: سآخذ حقّی منک بالقوة لأنّ قبیلتی کثیرة، و

قال الآخر: لنمض و نحتكم عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۶

رسول اللّه، فلم يقبل الأوّل، فاشتدّ الخلاف و تنازع جماعة من قبيلتيهما بالعصى و الأحذية و «حتى» بالسيوف، فنزلت الآيتان آنفتا الذكر و بيّنت وظيفة المسلمين فى مثل هذه الأمور[۵۲۳].

التّفسير

المؤمنون أخوة:

يقول القرآن هنا قولا هو بمثابة القانون الكلّى العام لكلّ زمان و مكان: وَ إِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما[۵۲۴].

و صحيح أنّ كلمة «اقتتلوا» مشتقّة من مادة القتال و معناها الحرب، إلّا أنّها كما تشهد بذلك القرآن تشمل كلّ أنواع النزاع و إن لم يصل إلى مرحلة القتال و المواجهة «العسكرية» و يؤيّد هذا المعنى أيضا بعض ما نقل فى شأن نزول الآية ...

بل يمكن القول: إنّه لو توفّرت مقدّمات النزاع كالمشاجرات اللفظية مثلا التى تجرّ إلى المنازعات الدامية فإنّه ينبغى و طبقا لمنطوق الآية أن يسعى إلى الإصلاح بين المتنازعين، لأنّه يمكن أن يستفاد هذا المعنى من الآية المتقدّمة عن طريق إلغاء الخصوصية.

و على كلّ حال، فإنّ من واجب جميع المسلمين أن يصلحوا بين المتنازعين منهم لئلّا تسيل الدماء و أن يعرفوا مسئوليتهم فى هذا المجال، فلا- يكونوا متفرّجين كبعض الجهلة الذين يمرّون بهذه الأمور دون اكتراث و تأثّر! فهذه هى وظيفة المؤمنين الأولى عند مواجهة أمثال هذه الأمور.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثانية على النحو التالى: فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى و لم تستسلم لاقتراح الصلح فَقاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۷

و بديهى أنّه لو سالت دماء الطائفة الباغية و الظالمة- فى هذه الأثناء- فإثمها عليها، أو كما يصطلح عليه إنّ دماءهم هدر، و إن كانوا مسلمين، لأنّ الفرض أنّ النزاع واقع بين طائفتين من المؤمنين ...

و هكذا- فإنّ الإسلام يمنع من الظلم و إن أدّى إلى مقاتلة الظالم، لأنّ ثمن العدالة أغلى من دم المسلمين أيضا، و لكن لا يكون ذلك إلّا إذا فشلت الحلول السلمية.

ثمّ يبيّن القرآن الوظيفة الثالثة فيقول: فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ

أى لا- ينبغى أن يقنع المسلمون بالقضاء على قوة الطائفية الباغية الظالمة بل ينبغى أن يعقب ذلك الصلح و أن يكون مقدّمة لقلع جذور عوامل النزاع، و إلّا فإنّه بمرور الزمن ما أن يحسّ الظالم فى نفسه القدرة حتى ينهض ثانية و يثير النزاع.

قال بعض المفسّرين: يستفاد من التعبير «بالعدل» أنّه لو كان حقّ مضاع بين الطائفتين أو دم مراق و ما إلى ذلك ممّا يكون منشأ للنزاع فيجب إصلاحه أيضا، و إلّا فلا يصدق عليه «إصلاح بالعدل»[۵۲۵].

و حيث أنّه تميل النوازع النفسية أحيانا فى بعض الجماعات عند الحكم و القضاء الى إحدى الطائفتين المتخاصمتين و تنقض «الاستقامة» عند القضاة فإنّ القرآن ينذر المسلمين فى رابع تعليماته و ما ينبغى عليهم فيقول: وَ أَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۵۲۶].

و الآية التالية تضيف- لبيان العلّة و التأكيد على هذا الأمر قائلة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۸

فكما تسعون للإصلاح بين الأخوين فى النسب، فينبغى أن لا تألوا جهدا فى الدخول بصورة جادّة للإصلاح بين المؤمنين المتخاصمين بعدالة تامّة! و ما أحسنه من تعبير و كم هو بليغ إذ يعبّر القرآن عن جميع المؤمنين بأنّهم «أخوة» و أن يسمّى النزاع بينهم نزاعا بين الأخوة! و أنّه ينبغى أن يبادر إلى إحلال الإصلاح و الصفاء مكانه ...

و حيث أنّه فى كثير من الأوقات تحل «الروابط» فى أمثال هذه المسائل محل «الضوابط» فإنّ القرآن يضيف فى نهاية هذه الآية مرّة أخرى قائلا: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

و هكذا تتّضح إحدى أهم المسؤوليات الاجتماعية على المسلمين فى ما بينهم فى تحكيم العدالة الاجتماعية بجميع أبعادها.

بحثان

الأوّل: شروط قتال أهل البغى «البغاة»

هناك باب فى الفقه الإسلامى بعنوان: «قتال أهل البغى» ضمن كتاب الجهاد، و المراد منه قتال الظلمة الذين ينهضون بوجه «الإمام العادل فى المسلمين» و قد وردت فيهم أحكام كثيرة فى هذا الباب ...

إلّا أنّ ما أثارته الآية الآنفة موضوع آخر، و هو النزاع الواقع بين الطائفتين المؤمنين، و ليس فى هذا النزاع نهوض بوجه إمام المسلمين العادل و لا نهوض بوجه الحكومة الإسلامية الصالحة. و قد أراد بعض الفقهاء أو المفسّرين أن يستفيدوا من هذه الآية «فى المسألة السابقة» إلّا أنّ هذا الاستدلال كما يقول الفاضل «المقداد» فى «كنز العرفان» خطأ بيّن ۵۲۷]. لأنّ القيام و النهوض بوجه الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۳۹

العادل موجب للكفر، فى حين أنّ النزاع بيّن المؤمنين موجب للفسق فحسب لا الكفر، و لذلك فإنّ القرآن المجيد عبّر عن الطائفتين بالمؤمنين و سمّاهم أخوة، فلا يصحّ تعميم أحكام أهل البغى على أمثال هؤلاء! ...

و من المؤسف أنّنا لم نعثر على بحث فى الفقه فى شأن أحكام هذه الطائفة، إلّا أنّ ما يستفاد من الآية المتقدمة بضميمة القرائن الأخر و خاصة ما ورد من إشارات فى باب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر هى الأحكام التالية! ...

۱- إنّ الإصلاح بين الطوائف المتنازعة «من المسلمين» أمر واجب كفائى.

۲- ينبغى لتحقّق هذا الأمر أن يشرع أوّلا من المراحل البسيطة و أن تراعى قاعدة «الأسهل فالأسهل» إلّا أنّه إذا لم ينفع ذلك فيجوز عندئذ المواجهة المسلّحة بل تلزم أحيانا ...

۳- ما يسفك من دم البغاة فى هذا السبيل و ما تذهب منهم من أموال كلّها هدر، لأنّ حكم الشرع قد امتثل و أديّت الوظيفة الواجبة، و الأصل فى مثل هذه الموارد عدم الضمان! ۴- لا حاجة لإذن حاكم الشرع فى مراحل الإصلاح عن طريق الكلام و المباحثات، إلّا أنّه لا بدّ من الإذن عند اشتداد العمل و لا سيما إذا انتهى الأمر إلى سفك الدماء، فلا يجوز عندئذ الإقدام بأىّ عمل إلّا بأمر الحكومة الإسلامية و حاكم الشرع! إلّا فى الموارد التى لا يمكن الوصول إلى حاكم الشرع بأى وجه، فللعدول عندئذ و أهل الخبرة من المؤمنين أن يتّخذوا القرار الذى يرونه ...

۵- فى حالة ما لو سفكت الطائفة الباغية و الظالمة دما من «الجماعة المصلحة» أو نهبت أموالا منها، فهى ضامنة بحكم الشرع و يجرى القصاص منها فى صورة وقوع قتل العمد، و كذلك فى مورد تسفك فيه دماء من الطائفة المظلومة أو تتلف منها أموالها فإنّ حكم القصاص و الضمان ثابت أيضا و ما يقال من أنه بعد وقوع الصلح لا تتحمل الطائفة الباغية مسئولية الدماء المسفوكة و الأموال المهدورة لأنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۰

لم تشر إليه الآية- محل البحث- غير صحيح، و الآية ليست فى مقام بيان جميع هذا المطلب، بل المرجع فى مثل هذه الموارد هو سائر الأصول و القواعد الواردة فى أبواب القصاص و الإتلاف ...

۶- حيث أنّ الهدف من هذه المقاتلة و الحرب حمل الطائفة الباغية على قبول الحق، فعلى هذا لا تثار فى الحرب مسألة «أسرى الحرب و الغنائم» لأنّ الطائفتين بحسب الفرض مسلمتان، إلّا أنّه لا مانع من الأسر مؤقتا لإطفاء نائرة النزاع و لكن بعد حل النزاع و الصلح يجب إطلاق الأسرى فورا ...

۷- قد يتفق أحيانا أن يكون طرفا النزاع باغيين، فهذا الطرف قتل جماعة من القبيلة الأخرى و سلب ماله، و ذلك الطرف قتل جماعة من هذه القبيلة و الطائفة و سلب أموالها دون أن يقنع كلّ منهما بالمقدار اللازم من الدفاع سواء كان الطرفان «الطائفتان» بمستوى واحد من الظلم و البغى أو بعضهما أكثر اعتداء و الآخر أقل! و بالطبع فإنّ الحكم فى شأن هذا المورد لم يرد صراحة فى القرآن، لكن يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق إلغاء الخصوصية من الآية محل البحث، و هو أنّ وظيفة المسلمين أن يصلحوا بين الطرفين، و إذا لم يوافقا على الصلح فلا بدّ من قتالهم جميعا حتى يفىء كل إلى أمر اللَّه، ما ذكرناه آنفا من أحكام فى شأن الباغى و الظالم جار فى الطرفين ...

و فى ختام هذا الكلام نؤكّد مرّة أخرى أنّ حكم هؤلاء البغاة منفصل عن حكم الذين يقفون بوجه الإمام المعصوم أو الحكومة الإسلامية العادلة، فإنّ لهذه الطائفة الأخيرة أحكاما أشدّ و أصعب واردة فى كتاب الجهاد من الفقه الإسلامى.

الثّانى: أهميّة الأخوة الإسلامية

إنّ جملة: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ الواردة فى الآيات المتقدّمة واحدة من الشعارات الأساسية و «المتجذّرة» فى الإسلام، فهى شعار عميق، بليغ، مؤثر و ذو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۱

معنى غزير ...

إنّ الآخرين حين يريدون إظهار مزيد من العلاقة بمن يشاركهم فى المنهج و العمل، يعبّرون عنهم بالرفاق، «أو الرفيق للمفرد» إلّا أنّ الإسلام رفع مستوى الارتباط و الحب بين المسلمين إلى درجة جعلها بمستوى أقرب العلائق بين شخصين و هى علاقة الأخوين التى تقوم العلاقة بينهما على أساس المساواة و التكافؤ.

فعلى هذا الأصل الإسلامى المهم فإنّ المسلمين على اختلاف قبائلهم و قوميّاتهم و لغاتهم و أعمارهم يشعرون فيما بينهم بالأخوّة و إن عاش بعضهم فى الشرق و الآخر فى الغرب ...

ففى مناسك الحج مثلا حيث يجتمع المسلمون من نقاط العالم كافة فى مركز التوحيد تبدو هذه العلاقة و الارتباط و الانسجام و الوشائج محسوسة و ميدانا للتحقق العينى لهذا القانون الإسلامى المهم ...

و بتعبير آخر إنّ الإسلام يرى المسلمين جميعا بحكم الأسرة الواحدة و يخاطبهم جميعا بالإخوان و الأخوات ليس ذلك فى اللفظ و الشعار، بل فى العمل و التعهدات المتماثلة أيضا، جميعهم (أخوة و أخوات).

و فى الروايات الإسلامية تأكيد على هذه المسألة أيضا و لا سيما فى ما يخص الجوانب العملية و نحن نذكر هنا على سبيل المثال بعضا من الأحاديث التالية:

۱-

ورد عن النّبی الأکرم صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «المسلم أخو المسلم لا یظلمه و لا یخذله و لا یسلمه»[۵۲۸].

۲- و

ورد عنه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «مثل الأخوین مثل الیدین تغسل إحداهما الأخری»[۵۲۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۲

۳- و

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «المؤمن أخو المؤمن کالجسد الواحد إذا اشتکی شیئا منه وجد ألم ذلک فی سائر جسده و أرواحهما من روح واحدة»[۵۳۰].

۴- کما

نقرأ حدیثا آخر عنه علیه السّلام یقول فیه: «المؤمن أخو المؤمن عینه و دلیله لا یخونه و لا یظلمه و لا یغشّه و لا یعده عدة فیخلفه»[۵۳۱].

و هناک روایات کثیرة فی مصادر الحدیث الإسلامیة المعروفة فی ما یتعلّق بحق المؤمن علی أخیه المسلم و أنواع حقوق المؤمنین بعضهم علی بعض و ثواب زیارة الإخوان المؤمنین «و المصافحة و المعانقة» و ذکرهم و إدخال السرور علی قلوبهم و خاصة قضاء حاجاتهم و السعی فی إنجازها و إذهاب الهم و الغم عن القلوب و إطعام الطعام و إکسائهم الثیاب و إکرامهم و احترامهم، و یمکن مطالعتها فی أصول الکافی فی أبواب مختلفة تحت العناوین الآنفة.

۵- و فی ختام هذا المطاف نشیر إلی روایة هی من أکثر الروایات «جمعا» فی شأن حقوق المؤمن علی أخیه المؤمن التی تبلغ ثلاثین حقّا! ...

قال رسول اللَّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم: «للمسلم علی أخیه ثلاثون حقّا، لا براءة له منها إلّا بالأداء أو العفو! یغفر زلّته، و یرحم عبرته، و یستر عورته، و یقیل عثرته، و یقبل معذرته، و یرد غیبته، و یدیم نصیحته، و یحفظ خلّته و یرعی ذمّته، و یعود مرضه، و یشهد میّته، و یجیب دعوته، و یقبل هدیته، و یکافئ صلته، و یشکر نعمته، و یحسن نصرته، و یحفظ حلیلته، و یقضی حاجته، و یشفع مسألته، و یسمّت عطسته، و یرشد ضالّته، و یردّ سلامه، و یطیب کلامه، و یبرّ أنعامه، و یصدق أقسامه، و یوالی ولیّه، و لا یعادیه، و ینصره ظالما و مظلوما، فأمّا نصرته ظالما فیردّه عن ظلمه، و أمّا نصرته مظلوما فیعینه علی أخذ حقّه، و لا یسلمه و لا یخذله، و یحب له من الخیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۳

ما یحبّ لنفسه، و یکره له من الشر ما یکره لنفسه»[۵۳۲].

و علی کلّ حال فإنّ واحدا من حقوق المسلمین بعضهم علی بعض هو مسألة الإعانة و إصلاح ذات البین کما ورد فی الآیات المتقدّمة و الروایات الآنفة «و کان لنا فی التفسیر الأمثل بحث فی «إصلاح ذات البین» ذیل الآیة الأولی من سورة الأنفال» ...

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۴

الآیتان [سورة الحجرات (۴۹): الآیات ۱۱ الی ۱۲]

اشارة

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسی أَنْ یَکُونُوا خَیْراً مِنْهُمْ وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسی أَنْ یَکُنَّ خَیْراً مِنْهُنَّ وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَکُمْ وَ

لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۱۱) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَ لا تَجَسَّسُوا وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (۱۲)

سبب النّزول

ذكر المفسّرون لهاتين الآيتين شأنا «فى نزولهما» بل شؤونا مختلفة، منها أنّ جملة لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ نزلت فى «ثابت بن قيس» خطيب النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم الذى كان ثقيل السمع و كان حين يدخل المسجد يجلس إلى جنب النّبى و يوّفر له المكان عنده ليسمع حديث النبى، و ذات مرّة دخل المسجد و المسلمون كانوا قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۵

فرغوا من صلاتهم و جلسوا فى أماكنهم، فكان يشقّ الرجوع و يقول: تفسّحوا، تفسّحوا حتى وصل إلى رجل من المسلمين فقال له: اجلس (مكانك هنا) فجلس خلفه مغضبا حتى انكشفت العتمة فقال ثابت لذلك الرجل: من أنت فقال: أنا فلان فقال له ثابت: ابن فلانة؟! و ذكر اسم أمّه بما يكره من لقبها .. و كانت تعرف به فى زمان الجاهلية فاستحيى ذلك الرجل و طأطأ برأسه إلى الأرض، فنزلت الآية و نهت المسلمين عن مثل هذا العمل ...

و قيل إنّ جملة وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ نزلت فى أم سلمة إحدى أزواج النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم لأنّها كانت تلبس لبوسا خاصا أو لأنّها كانت قصير فكانت النساء يسخرن منها، فنزلت الآية و نهت عن مثل هذه الأعمال!.

و قالوا إنّ جملة وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً نزلت فى نفرين من الصحابة اغتابا صاحبهما «سلمان» لأنّهما كانا قد بعثاه نحو النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم ليأتيهما بطعام منه، فأرسل النّبى سلمان نحو «أسامة بن زيد» الذى كان مسئول بيت المال فقال أسامة ليس عندى شىء الآن .. فاغتابا أسامة و قالا إنّه بخيل و قالا فى شأن سلمان: لو كنّا أرسلناه إلى بئر سميحة لغاض ماؤها «و كانت بئرا غزيرة الماء» ثمّ انطلقا ليأتيا أسامة و ليتجسّسا عليه،

فقال لهما النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم إنّى أرى آثار أكل اللحم على أفواهكما: فقالا يا رسول اللَّه لم نأكل اللحم هذا اليوم فقال رسول اللَّه: أجل تأكلون لحم سلمان و أسامة. فنزلت الآية و نهت المسلمين عن الاغتياب ۵۳۳].

التّفسير

الاستهزاء و سوء الظنّ و الغيبة و التجسّس و الألقاب السيئة حرام!

حيث أنّ القرآن المجيد اهتمّ ببناء المجتمع الإسلامى على أساس المعايير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۶

الأخلاقية فإنّه بعد البحث عن وظائف المسلمين فى مورد النزاع و المخاصمة بين طوائف المسلمين المختلفة بين فى الآيتين محل البحث قسما من جذور هذه الاختلافات ليزول الاختلاف (بقطعها) و يحسم النزاع! ففى كلّ من الآيتين الآنفتين تعبير صريح و بليغ عن ثلاثة أمور يمكن أن يكون كلّ منها شرارة لاشتعال الحرب و الاختلاف، إذ تقول الآية الأولى من الآيتين محل البحث أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ

لأنّه عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ

وَ لا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَ

و الخطاب موجّه هنا إلى المؤمنين كافة فهو يعم الرجال و النساء و ينذر الجميع أن يجتنبوا هذا الأمر القبيح، لأنّ أساس السخرية و الاستهزاء هو الإحساس بالاستعلاء و الغرور و الكبر و أمثال ذلك إذ كانت تبعث على كثير من الحروب الدامية على امتداد التاريخ! و هذا الاستعلاء أو التكبر غالبا ما يكون أساسه القيم المادية و الظواهر المادية فمثلا، فلان يرى نفسه أكثر مالا من الآخر أو يرى نفسه أجمل من غيره أو أنّه يعد من القبيلة المشهورة و المعروفة أكثر من سواها، و ربما يسوقه تصوّره بأنّه أفضل من الجماعة الفلانية علما و عبادة و معنوية إلى السخرية منهم، فى حين أنّ المعيار الواقعى عند اللَّه هو «التقوى» التى تنسجم مع طهارة القلب و خلوص النيّة و التواضع و الأخلاق و الأدب!.

و لا يصحّ لأى أحد أن يقول أنا أفضل عند اللَّه من سواى، و لذلك عد تحقير الآخرين و التعالى بالنفس من أسوأ الأمور و أقبح العيوب الأخلاقية التى يمكن أن تكون لها انعكاسات سلبية فى حياة الناس جميعا.

ثمّ تقول الآية فى المرحلة الثانية: وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ

كلمة «تلمزوا» هى من مادة «لمز» على زنة «طنز» و معناها تتّبع العيوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۷

و الطعن فى الآخرين، و فسّر بعضهم الفرق بين «الهمز» و «اللمز» بأنّ «اللمز» عدّ عيوب الناس بحضورهم، و «الهمز» ذكر عيوبهم فى غيابهم، كما قيل أنّ «اللمز» تتبع العيوب بالعين و الإشارة فى حين أنّ «الهمز» هو ذكر العيوب باللسان «و سيأتى تفصل هذا الموضوع بإذن اللَّه فى تفسير سورة الهمزة» ...

الطريف أنّ القرآن فى تعبير «بأنفسكم» يشير إلى وحدة المؤمنين و أنّهم نسيج واحد، و يبيّن هنا بأنّ جميع المؤمنين بمثابة النفس الواحدة فمن عاب غيره فإنما عاب نفسه فى الواقع!.

و تضيف الآية فى المرحلة الثالثة أيضا قائلة: وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ

هناك الكثير من الأفراد الحمقى قديما و حديثا، ماضيا و حاضرا مولعون بالتراشق بالألفاظ القبيحة، و من هذا المنطلق فهم يحقّرون الآخرين و يدمّرون شخصياتهم و ربما انتقموا منهم أحيانا عن هذا الطريق و قد يتّفق أنّ شخصا كان يعمل المنكرات سابقا، ثمّ تاب و أناب و أخلص قلبه للَّه، و لكن مع ذلك نراهم يرشقونه بلقب مبتذل كاشف عن ماضيه! الإسلام نهى عن هذه الأمور بصراحة و منع من إطلاق أى اسم أو لقب غير مرغوب فيه يكون مدعاة لتحقير المسلم ...

و نقرأ

فى بعض الأحاديث أنّ «صفية بنت حيى بن أخطب» المرأة اليهودية التى أسلمت بعد فتح خيبر و أصبحت زوجة النّبى- جاءت صفية يوما إلى النّبى و هى باكية العين فسألها النّبى عن سبب بكائها فقالت: إنّ عائشة توبّخنى و تقول لى يا ابنة اليهودى، فقال لها النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم: فلم لا قلت لها: أبى هارون و عمّى موسى و زوجى محمّد فكان أن نزلت هذه الآية-

محل البحث-[۵۳۴].

و لذلك فإنّ الآية تضيف قائلة: بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ أى قبيح جدّا على من دخل فى سلك الإيمان أن يذكر الناس بسمات الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۸

و احتمل بعض المفسّرين احتمالا آخر لهذه الجملة المذكورة آنفا و هى أنّ اللَّه نهى المؤمنين أن يرضوا بأسماء الفسق و الجاهلية لأنفسهم بسبب سخرية الناس و لتحاشى استهزائهم.

و لكن مع الالتفات إلى صدر الآية و شأن النّزول المذكور يبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب.

و تختتم الآية لمزيد التأكيد بالقول: وَ مَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و أى ظلم أسوأ من أن يؤذى شخص بالكلمات اللاذعة و «اللاسعة» و التحقير و اللمز قلوب المؤمنين التى هى «مركز عشق» اللّه و أن يطعن فى شخصياتهم و يبتذل كرامتهم التى هى أساس شخصيتهم.

ماء وجوههم الذى هو أساس حياتهم الأهم.

و قلنا إنّ فى كل من الآيتين- محل البحث- ثلاثة أحكام فى مجال الأخلاق الاجتماعية. فالأحكام الثلاثة فى الآية الأولى هى «عدم السخرية» و «ترك اللمز» و «ترك التنابز بالألقاب».

و الأحكام الثالثة فى الآية الثانية هى «اجتناب سوء الظن» و «التجسّس» و «الاغتياب».

فى هذه الآية يبدأ القرآن فيقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ

و المراد من «كثيرا من الظن» الظنون السيّئة التى تغلب على الظنون الحسنة بين الناس لذلك عبّر عنها ب «الكثير» و إلّا فإنّ حسن الظن لا- أنّه غير ممنوع فحسب، بل هو مستحسن كما يقول القرآن فى الآية (۱۲) من سورة النور: لَوْ لا- إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً.

و ممّا يلفت النظر أنّه قد نهى عن كثير من الظنّ، إلّا أنّه فى مقام التعليل تقول الآية: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و لعلّ هذا الاختلاف فى التعبير ناشئ من أنّ الظنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۴۹

السيّئة بعضها مطابق للواقع و بعضها مخالف له، فما خالف الواقع فهو إثم لا محالة، و لذلك قالت الآية: إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ و على هذا فيكفى هذا البعض من الظنون الذى يكون إثما أن نتجنّب سائر الظنون لئلا- نقع فى الإثم! و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو أنّ الظنّ السيء أو الظن الحسن ليسا اختياريين (غالبا) و إنّما يكون كل منهما على أثر سلسلة من المقدّمات الخارجة عن اختيار الإنسان و التى تنعكس فى ذهنه، فكيف يصح النهى عن ذلك؟! و فى مقام الجواب يمكن القول بأنّه:

۱- المراد من هذا النهى هو النهى عن ترتيب الآثار، أى متى ما خطر الظنّ السيء فى الذهن عن المسلم فلا ينبغى الاعتناء به عمليّا، و لا ينبغى تبديل أسلوب التعامل معه و لا تغيير الروابط مع ذلك الطرف، فعلى هذا الأساس فإنّ الإثم هو إعطاء الأثر و ترتّبه عليه.

و لذلك نقرأ فى هذا الصدد

حديثا عن نبىّ الإسلام يقول فيه: «ثلاث فى المؤمن لا يستحسن، و له منهنّ مخرج فمخرجه من سوء الظن ألّا يحقّقه»[۵۳۵] ...

إلى آخر الحديث الشريف.

۲- يستطيع الإنسان أن يبعد عن نفسه سوء الظن بالتفكير فى المسائل المختلفة، بأن يفكر فى طريق الحمل على الصحة، و أن يجسّد فى ذهنه الاحتمالات الصحيحة الموجودة فى ذلك العمل، و هكذا يتغلب تدريجا على سوء الظنّ! فبناء على هذا ليس سوء الظن شيئا (ذا بال) بحيث يخرج عن اختيار الإنسان دائما! لذلك

فقد ورد فى الروايات أنّه: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه، و لا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءا و أنت تجد لها فى الخير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۰

محملا»[۵۳۶].

و على كلّ حال فإنّ هذا الأمر واحد من أكثر الأوامر و التعليمات جامعيّة و دقّة فى مجال روابط الإنسان الاجتماعية الذى تضمن الأمن فى المجتمع بشكل كامل! و سيأتى بيانه و تفصيله فى فقرة البحوث.

ثمّ تذكر الآية موضوع «التجسّس» فتنهى عنه بالقول: وَ لا تَجَسَّسُوا!.

و «التجسّس» و «التحسّس» كلاهما بمعنى البحث و التقصّى، إلّا أنّ الكلمة الأولى غالبا ما تستعمل فى البحث عن الأمور غير المطلوبة، و الكلمة الثانية على العكس حيث تستعمل فى البحث عن الأمور المطلوبة أو المحبوبة! و منه ما ورد على لسان يعقوب فى وصيته ولده! يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَ أَخِيهِ ۵۳۷].

و فى الحقيقة إنّ سوء الظن باعث على التجسّس، و التجسس باعث على كشف الأسرار و ما خفى من أمور الناس، و الإسلام لا يبيح أبدا كشف أسرار الناس! و بتعبير آخر إنّ الإسلام يريد أن يكون الناس فى حياتهم الخاصة آمنين من كل الجهات، و بديهى أنه لو سمح الإسلام لكلّ أحد أن يتجسّس على الآخرين فإنّ كرامة الناس و حيثيّاتهم تتعرض للزوال، و تتولد من ذلك «حياة جهنمية» يحسّ فيها جميع أفراد المجتمع بالقلق و التمزّق!.

و بالطبع فإنّ هذا الأمر لا ينافى وجود أجهزة «مخابرات» فى الحكومة الإسلامية لمواجهة المؤامرات، و لكنّ هذا لا يعنى أنّ لهذه الأجهزة حق التجسّس فى حياة الناس الخاصّة «كما سنبيّن ذلك بإذن اللَّه فيما بعد».

و أخيرا فإنّ الآية تضيف فى آخر هذه الأوامر و التعليمات ما هو نتيجة الأمرين السابقين و معلولهما فتقول: وَ لا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۱

و هكذا فإنّ سوء الظن هو أساس التجسس، و التجسس يستوجب إفشاء العيوب و الأسرار، و الاطلاع عليها يستوجب الغيبة، و الإسلام ينهى عن جميعها علة و معلولا! و لتقبيح هذا العمل يتناول القرآن مثلا بليغا يجسّد هذا الأمر فيقول: أَ يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ .

أجل، إنّ كرامة الأخ المسلم و سمعته كلحم جسده، و ابتذال ماء وجهه بسبب اغتيابه و إفشاء أسراره الخفية كمثل أكل لحمه.

كلمة «ميتا» للتعبير عن أنّ الاغتياب إنّما يقع فى غياب الأفراد، فمثلهم كمثل الموتى الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، و هذا الفعل أقبح ظلم يصدر عن الإنسان فى حق أخيه!.

أجل، إنّ هذا التشبيه يبيّن قبح الاغتياب و إثمه العظيم.

و تولى الروايات الإسلامية- كما سيأتى بيانها- أهمية قصوى لمسألة الاغتياب، و نادرا ما نجد من الذنوب ما فيه من الإثم إلى هذه الدرجة.

و حيث أنّه من الممكن أن يكون بعض الأفراد ملوّثين بهذه الذنوب الثلاثة و يدفعهم وجدانهم إلى التيقّظ و التنبّه فيلتفتون إلى خطئهم، فإنّ السبيل تفتحه الآية لهم إذ تختتم بقوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ

فلا بدّ أن تحيا روح التقوى و الخوف من اللَّه أوّلا: و على أثر ذلك تكون التوبة و الإنابة لتشملهم رحمة اللَّه و لطفه.

بحوث

۱- الأمن الاجتماعى الكامل

! إنّ الأوامر أو التعليمات الستة الواردة فى الآيتين آنفتى الذكر (النهى عن السخرية و اللمز و التنابز بالألقاب و سوء الظن و التجسس و الاغتياب) إذا نفّذت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۲

فى المجتمع فإنّ سمعة و كرامة الأفراد فى ذلك المجتمع تكون مضمونة من جميع الجهات، فلا يستطيع أحد أن يسخر من الآخرين-

على أنه أفضل- و لا يمدّ لسانه باللمز، و لا يستطيع أن يهتك حرمتهم باستعمال الألقاب القبيحة و لا يحقّ له حتى أن يسىء الظن بهم، و لا يتجسس عن حياة الأفراد الخاصة و لا يكشف عيوبهم الخفية (باغتيابهم).

و بتعبير آخر إنّ للإنسان رؤوس أموال أربعة و يجب أن تحفظ جميعا فى حصن هذا القانون و هى: «النفس و المال و الناموس و ماء الوجه».

و التعابير الواردة فى الآيتين محل البحث و الروايات الإسلامية تدل على أنّ ماء وجه الأفراد كأنفسهم و أموالهم بل هو أهم من بعض الجهات.

الإسلام يريد أن يحكم المجتمع أمن مطلق، و لا يكتفى بأن يكفّ الناس عن ضرب بعضهم بعضا فحسب، بل أسمى من ذلك بأن يكونوا آمنين من ألسنتهم، بل و أرقى من ذلك أن يكونوا آمنين من تفكيرهم و ظنّهم أيضا ... و أن يحسّ كل منهم أنّ الآخر لا يرشقه بنبال الاتهامات فى منطقة أفكاره.

و هذا الأمن فى أعلى مستوى و لا يمكن تحقّقه إلّا فى مجتمع رسالى مؤمن.

يقول النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد: «إنّ اللَّه حرّم من المسلم دمه و ماله و عرضه و أن يظنّ به السوء»[۵۳۸].

إنّ سوء الظن لا- أنّه يؤثر على الطرف المقابل و يسقط حيثيّته فحسب، بل هو بلاء عظيم على صاحبه لأنّه يكون سببا لإبعاده عن التعاون مع الناس و يخلق له عالما من الوحشة و الغربة و الانزواء كما

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «من لم يحسن ظنّه استوحش من كلّ أحد»[۵۳۹].

و بتعبير آخر، إنّ ما يفصل حياة الإنسان عن الحيوان و يمنحها الحركة و الرونق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۳

و التكامل هو روح التعاون الجماعى، و لا يتحقق هذا الأمر إلّا فى صورة أن يكون الاعتماد على الناس (و حسن الظن بهم) حاكما ... فى حين أنّ سوء الظن يهدم قواعد هذا الاعتماد، و تنقطع به روابط التعاون، و تضعف به الروح الاجتماعية.

و هكذا الحال فى التجسس و الغيبة أيضا.

إنّ سيئ النظرة و الظن يخافون من كلّ شىء و يستوحشون من كلّ أحد و تستولى على أنفسهم نظرة الخوف، فلا يستطيعون أن يقفوا على ولى و مؤنس يطوى الهموم، و لا- يجدون شريكا للنشاطات الاجتماعية، و لا معينا و نصيرا ليوم الشدّة! و لا بأس بالالتفات إلى هذه اللطيفة، و هى أنّ المراد من «الظن» هنا هو الظن الذى لا يستند إلى دليل، فعلى هذا إذا كان الظن فى بعض الموارد مستندا إلى دليل فهو ظنّ معتبر، و هو مستثنى من هذا الحكم، كالظن الحاصل من شهادة نفرين عادلين.

۲- لا تجسّسوا!

رأينا أنّ القرآن يمنع جميع أنواع التجسس بصراحة تامّة، و حيث إنّه لم يذكر قيدا أو شرطا فى الآية فيدل هذا على أنّ التجسس فى أعمال الآخرين و السعى إلى إذاعة أسرارهم إثم، إلّا أنّ القرائن الموجودة داخل الآية و خارجها تدل على أنّ هذا الحكم متعلّق بحياة الأفراد الشخصية و الخصوصية.

و يصدق هذا الحكم أيضا فى الحياة الاجتماعية فى صورة أن لا يؤثر فى مصير المجتمع.

لكن من الواضح أنّه إذا كان لهذا الحكم علاقة بمصير المجتمع أو مصير الآخرين فإنّ المسألة تأخذ طابعا آخر، و من هنا فإنّ النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم كان قد أعدّ أشخاصا و أمرهم أن يكونوا عيونا لجمع الأخبار و استكشاف المجريات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۴

و استقصائها ليحيطوا بما له علاقة بمصير المجتمع.

و من هذا المنطلق أيضا يمكن للحكومة الإسلامية أن تتّخذ أشخاصا يكونون عيونا لها أو منظمة واسعة للإحاطة بمجريات الأمور، و أن يواجهوا المؤامرات ضد المجتمع أو التى يراد بها إرباك الوضع الأمنى فى البلاد، فيتجسّسوا للمصلحة العامة حتى لو كان ذلك فى إطار الحياة الخاصة للأفراد! إلّا أنّ هذا الأمر لا ينبغى أن يكون ذريعة لهتك حرمة هذا القانون الإسلامى الأصيل، و أن يسوّغ بعض الأفراد لأنفسهم أن يتجسّسوا فى حياة الأفراد الخاصة بذريعة التآمر و الإخلال بالأمن، فيفتحوا رسائلهم مثلا، أو يراقبوا الهاتف و يهجموا على بيوتهم بين حين و آخر!! و الخلاصة أنّ الحدّ بين التجسس بمعناه السلبى و بين كسب الأخبار الضرورية لحفظ أمن المجتمع دقيق و ظريف جدا، و ينبغى على مسئولى إدارة الأمور الاجتماعية أن يراقبوا هذا الحدّ بدقّة لئلّا تهتك حرمة أسرار الناس، و لئلّا يتهدّد أمن المجتمع و الحكومة الإسلامية!.

۳- الغيبة من أعظم الذنوب و أكبرها!

قلنا إنّ رأس مال الإنسان المهم فى حياته ماء وجهه و حيثيّته، و أى شىء يهدّده فكأنّما يهدّد حياته بالخطر.

و أحيانا يعدّ اغتيال و قتل الشخصية أهم من اغتيال الشخص نفسه، و من هنا كان إثمه أكبر من قتل النفس أحيانا.

إنّ واحدة من حكم تحريم الغيبة أن لا يتعرّض هذا الإعتبار العظيم للأشخاص و رأس المال آنف الذكر لخطر التمزّق و التلوّث و أن لا تهتك حرمة الأشخاص و لا تلوّث و حيثيّاتهم، و هذا مطلب مهم تلقاه الإسلام باهتمام بالغ! و الأمر الآخر إنّ الغيبة تولّد النظرة السيئة و تضعف العلائق الاجتماعية و توهنها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۵

و تتلف رأس المال الاعتماد و تزلزل قواعد التعاون «الاجتماعى»! و نعرف أنّ الإسلام أولى أهمية بالغة من أجل الوحدة و الانسجام و التضامن بين أفراد المجتمع، فكلّ أمر يقوى هذه الوحدة فهو محل قبول الإسلام و تقديره، و ما يؤدّى إلى الإخلال بالأواصر الاجتماعية فهو مرفوض، و الاغتياب هو أحد عوامل الوهن و التضعيف ...

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ الاغتياب ينثر فى القلوب بذور الحقد و العداوة و ربّما أدّى أحيانا إلى الاقتتال و سفك الدماء فى بعض الأحيان.

و الخلاصة أنّنا حين نقف على أنّ الاغتياب يعدّ واحدا من كبائر الذنوب فإنّما هو لآثاره السيئة فردية كانت أم اجتماعية! و فى الروايات الإسلامية تعابير مثيرة فى هذا المجال نورد هنا على سبيل المثال بعضا منها!

قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه و آله و سلّم: «إنّ الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند اللَّه فى الخطيئة من ست و ثلاثين زنية يزنيها الرجل و أربى الربى عرض الرجل المسلم»[۵۴۰].

و ما ذلك إلّا لأنّ الزنا و إن كان قبيحا و سيئا، إلّا أنّ فيه جنبة حق اللَّه، و لكن الربا و ما هو أشدّ منه كإراقة ماء وجه الإنسان و ما إلى ذلك فيه جنبة حق الناس.

و

قد ورد فى رواية أخرى أن النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم خطب يوما بصوت عال و نادى:

«يا معشر من آمن بلسانه و لم يؤمن بقلبه! تغتابوا المسلمين و لا تتّبعوا عوراتهم فإنّه من تتّبع عورة أخيه تتّبع اللَّه عورته و من تتّبع اللَّه عورته يفضحه فى جوف بيته»[۵۴۱].

كما

ورد فى حديث ثالث أن اللَّه أوحى لموسى عليه السّلام قائلا: «من مات تائبا من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۶

الغیبة فهو آخر من یدخل الجنة، و من مات مصرا علیه فهو أوّل من یدخل النّار»[۵۴۲].

کما نقرأ

حدیثا آخر عن النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «الغیبة أسرع فی دین الرجل المسلم من الأکلة فی جوفه»[۵۴۳].

و هذا التشبیه یدلّ علی أن الاغتیاب کمثل الجرب الذی یأکل اللحم، فإنّه یذهب بالإیمان بسرعة.

و مع الالتفات إلی أنّ بواعث الغیبة و دوافعها أمور متعدّدة کالحسد و التکبّر و البخل و الحقد و الأنانیة و أمثالها من صفات دمیمة و قبیحة یتّضح السرّ فی سبب کون الغیبة و تلویث سمعة المسلمین و هتک حرمتهم لها هذا الأثر المدمّر لإیمان الشخص.

و الروایات الإسلامیة فی هذا الصدد کثیرة، و نختتم بحثنا هذا بذکر حدیث آخر

نقل عن الإمام الصادق علیه السّلام إذ یقول: «من روی علی مؤمن روایة یرید بها شینه و هدم مروّته لیسقط من أعین الناس أخرجه اللَّه من ولایته إلی ولایة الشیطان فلا یقبله الشیطان»[۵۴۴].

إنّ جمیع هذه التأکیدات و العبارات المثیرة إنما هی للأهمیة القصوی التی یولیها الإسلام لصون ماء الوجه و حیثیّة المؤمنین الاجتماعیة، و کذلک للأثر المخرّب- الذی تترکه الغیبة- فی وحدة المجتمع و الاعتماد المتبادل فی القلوب، و أسوأ من کل ذلک أنت الغیبة تسوق إلی إشعال نار العداوة و البغضاء و النفاق و إشاعة الفحشاء فی المجتمع. لأنّه حین تنکشف عیوب الناس الخفیّة عن طریق الغیبة لا تبقی لها خطورة فی أعین الناس و یکون التلوّث بها فی غایة البساطة!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۷

۴- مفهوم الاغتیاب؟

«الغیبة» أو الاغتیاب کما هو ظاهر الاسم ما یقال فی غیاب الشخص، غایة ما فی الأمر أنّه بقوله هذا یکشف عیبا من عیوب الناس. سواء کان عیبا جسدیا أو أخلاقیا أو فی الأعمال أو فی المقال بل حتی فی الأمور المتعلّقة به کاللباس و البیت و الزوج و الأبناء و ما إلی ذلک! فبناء علی هذا ما یقال عن الصفات الظاهرة للشخص، الآخر لا یعدّ اغتیابا، إلّا أن یراد منه الذم و العیب فهو فی هذه الصورة حرام، کما لو قیل فی مقام الذم أنّ فلانا أعمی أو أعور أو قصیر القامة أو شدید الأدمة و السمرة أکوس اللحیة إلخ ...

فیتّضح من هذا أنّ ذکر العیوب الخفیة بأی قصد کان یعدّ غیبة و هو حرام أیضا، و ذکر العیوب الظاهرة إذا کان بقصد الذم فهو حرام، سواء أدخلناه فی مفهوم الغیبة أم لا؟! کل هذا فی ما لو کانت هذه العیوب فی الطرف الآخر واقعیة، أمّا إذا لم تکن أصلا فتدخل تحت عنوان «البهتان» و إثمه أشدّ من الاغتیاب بمراتب.

ففی حدیث ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «الغیبة أن تقول فی أخیک ما ستره اللَّه علیه، و أمّا الأمر الظاهر فیه مثل الحدّة و العجلة فلا، و البهتان أن تقول ما لیس فیه»[۵۴۵].

و من هنا یتبیّن أنّ ما یتبجّح به العوام من أعذار فی الغیبة غیر مقبول کأن یقول المغتاب: لیس هذا اغتیابا بل هو صفته، فی حین إذا لم یکن قوله الذی یعیبه فیه صفة له فهو بهتان لا أنّه غیبة.

أو أن یقول: هذا کلام أقوله فی حضوره أیضا، فی حین أنّ کلامه أمام الطرف الآخر لا یترتّب علیه إثم الاغتیاب فحسب، بل یتحمّل بسبب الإیذاء إثما أکبر و وزرا أثقل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۸

۵- علاج الغيبة و التوبة منها!

إنّ الغيبة كسائر الصفات الذميمة تتحوّل تدريجا إلى صورة مرض نفسى بحيث يلتذ المغتاب من فعله و يحس بالاغتباط و الرضا عند ما يريق ماء وجه فلان، و هذه مرتبة من مراتب المرض القلبى الخطير جدا.

و من هنا فينبغى على المغتاب أن يسعى إلى علاج البواعث الداخلية للاغتياب التى تكمن فى أعماق روحه و تحضّه على هذا الذنب، من قبيل البخل و الحسد و الحقد و العداوة و الاستعلاء و الأنانية! فعليه أن يطهّر نفسه عن طريق بناء الشخصية و التفكير فى العواقب السيئة لهذه الصفات الذميمة و ما ينتج عنها من نتائج مشؤومة، و يغسل قلبه عن طريق الرياضة النفسية ليستطيع أن يحفظ لسانه من التلوّث بالغيبة.

ثمّ يتوجّه إلى مقام التوبة، و حيث أنّ التوبة من الغيبة فيها «جنبة» حق الناس، فإنّ عليه إذا كان ممكنا و لا يحصل له أىّ مشكل أو معضل- أن يعتذر ممّن اغتابه حتى و لو بصورة مجملة أو معمّاة كأن يقول: إنّنى أغتابك أحيانا لجهلى فسامحنى و اعف عنى و لا يطيل فى بيان الغيبة و شرحها لئلّا يحدث عامل آخر للفساد أو الإفساد! و إذا لم يستطع الوصول إلى الطرف الآخر، أو لا يعرفه، أو أنّه مضى إلى ربّه فيستغفر له و يعمل صالحا، فلعلّ اللّه يغفر له ببركة العمل الصالح و يرضى عنه الطرف الآخر.

۶- موارد الاستثناء! و آخر ما ينبغى ذكره فى شأن الغيبة أنّ قانون الغيبة كأى قانون آخر له استثناءات، من جملتها أنّه يتفق أحيانا فى مقام «الاستشارة» مثلا لانتخاب الزوج أو الشريك فى الكسب و ما إلى ذلك أن يسأل إنسان أنسانا آخر، فالأمانة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۵۹

المشورة التى هى قانون إسلامى مسلّم به توجب أن تبيّن العيوب إن وجدت فى الشخص الآخر لئلّا يتورّط المسلم فى مشكلة، فمثل هذا الاغتياب بمثل هذا القصد لا يكون حراما.

و كذلك فى الموارد الأخرى التى فيها أهداف مهمّة كهدف المشورة فى العمل أو لإحقاق الحق أو التظلّم و ما إلى ذلك.

و بالطبع فإنّ «المتجاهر بالفسق» خارج عن موضوع الغيبة، و لو ذكر إثمه فى غيابه فلا إثم على مغتابه، إلّا أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ هذا الحكم خاص بالذنب الذى يتجاهر به فحسب.

و ممّا يسترعى الالتفات أيضا هو أنّ الغيبة ليست حراما فحسب، فالاستماع إليها حرام أيضا، و الحضور فى مجلس الاغتياب حرام، بل يجب طبقا لبعض الروايات أن يردّ على المغتاب، يعنى أن يدافع عن أخيه المسلم الذى يراد إراقة ماء وجهه، و ما أحسن مجتمعا تراعى فيه هذه الأصول الأخلاقية بدقّة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۰

الآية [سورة الحجرات (۴۹): آية ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (۱۳)

التّفسير

التقوى أغلى القيم الإنسانية:

كـان الخطـاب فى الآيات السابقـة موجّها للمؤمنين و كان بصـيغة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و قـد نهى الـذكر الحكيم فى آيات متعـدّدة عمّا يوقع المجتمع الإسلامى فى خطر، و تكلّم فى جوانب من ذلك.

فى حين أنّ الآية محل البحث تخاطب جميع الناس و تبيّن أهم أصل يضـمن النظم و الثبات، و تميّز الميزان الواقعى للقيم الإنسانية عن القيم الكاذبة و المغريات الباطلة. فتقول: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا.

و المراد ب خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى هو أصل الخلقـة و عودة أنساب الناس إلى «آدم و حواء»، فطالما كان الجميع من أصل واحد فلا ينبغى أن تفتخر قبيلة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۱

أخرى من حيث النسب، و إذا كان اللَّه سـبحانه قد خلق كلّ قبيلة و أولاها خصائص و وظائف معيّنة فإنّما ذلك لحفظ نظم حياة الناس الاجتماعيـة! لأنّ هـذه الاختلافـات مـدعاة لمعرفـة الناس، فلو، كانوا على شاكلـة واحـدة و متشابهين لساد الهرج و المرج فى المجتمع البشرى أجمع.

و قد اختلف المفسّـرون فى بيان الفرق بين «الشـعوب» جمع شـعب- على زنة صعب- (الطائفة الكبيرة من الناس) و «القبائل» جمع قبيلة فاحتملوا احتمالات متعدّدة:

قال جماعة إنّ دائرة الشعب أوسع من دائرة القبيلة، كما هو المعروف فى العصر الحاضر أن يطلق الشعب على أهل الوطن الواحد.

و قال بعضهم: كلمة «شعوب» إشارة إلى طوائف العجم، و أمّا «القبائل» فإشارة طوائف العرب.

و أخيرا فـإنّ بعضـهم قال بأنّ «الشـعوب» اشارة إلى انتساب الناس إلى المناطق «الجغرافيـة» و «القبائل» إشارة إلى انتسابهم إلى العرق و الدم.

لكنّ التّفسـير الأوّل أنسب من الجميع كما يبـدو! و على كلّ حال فإنّ القرآن بعـد أن ينبـذ أكبر معيار للمفاخرة و المباهات فى العصـر الجاهلى و يلغى التفاضل بالأنساب و القبائل يتّجه نحو المعيار الواقعى القيم فيضيف قائلا: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ

و هكذا فإنّ القرآن يشطب بالقلم الأحمر على جميع الامتيازات الظاهرية و المادية، و يعطى الأصالة و الواقعية لمسألة التقوى و الخوف من اللَّه، و يقول إنّه لا شىء أفضل من التقوى فى سبيل التقرّب إلى اللَّه و ساحة قدسه.

و حيث أنّ «التقوى» صـفة روحانيـة و باطنيـة ينبغى أن تكون قبل كلّ شـىء مسـتقرّة فى القلب و الروح، و ربّما يوجـد مدّعون للتقوى كثيرون و المتّصفون بها قلة منهم، فإنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية قائلا: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۲

فـاللَّه يعرف المتّقين حقّـا و هو مطلع على درجات تقواهم و خلوص نيّاتهم و طهارتهم و صـفائهم، فهو يكرمهم طبقا لعلمه و يثيبهم، و أمّا المدّعون الكذبة فإنّه يحاسبهم و يجازيهم على كذبهم أيضا.

بحثان

۱- القيم الحقّة و القيم الباطلة

لا شكّ أنّ كلّ إنسان يرغب بفطرته أن يكون ذا قيمة و افتخار، و لذلك فهو يسعى بجميع وجوده لكسب القيم ..

إلّا معرفـة معيار القيم يختلف باختلاف الثقافات تماما، و ربّما أخـذت القيم الكاذبـة مكانا بارزا و لم تبق للقيم الحقة مكان فى قاموس الثقافة للفرد.

فجماعة ترى بأن قيمتها الواقعية فى الانتساب إلى القبيلة المعروفة، و لذلك فإنّهم من أجل أن تعلو سمعة قبيلتهم و طائفتهم و يظهرون نشاطات و فعاليات عامة ليكونوا برفعة القبيلة و سمّوها كبراء أيضا.

و كان الاهتمام بالقبيلة و الافتخار بالانتساب إليها من أكثر الأمور الوهميّة رواجا فى الجاهلية إلى درجة كانت كلّ قبيلة تعدّ نفسها أشرف من القبيلة الأخرى، و من المؤسف أن نجد رواسب هذه الجاهلية فى أعماق نفوس الكثيرين من الأفراد و المجتمعات!! و جماعة أخرى تعوّل على مسألة المال و الثروة و امتلاكها للقصور و الخدم و الحشم و أمثال هذه الأمور، فتعدّها دليلا على القيمة الشخصيّة و تسعى من أجل كلّ ذلك دائما.

و جماعة تعتبر (المقامات) السياسية و الاجتماعية العليا معيارا للشخصية و القيم الاجتماعية! و هكذا تخطو كلّ جماعة فى طريق خاص و تنشدّ قلوبها إلى قيمة معينة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۳

و تعدّها معيارها الشخصى! و حيث أنّ هذه الأمور جميعها أمور متزلزلة و مسائل ذاتية و مادية و عابرة فإنّ مبدأ سماويا كمبدأ الإسلام لا يمكنه أن يوافق عليها أبدا ... لذلك يشطب عليها بعلامة البطلان و يعتبر القيمة الحقيقية للإنسان فى صفاته الذاتية و خاصة تقواه و طهارة قلبه و التزامه الدينى.

حتى أنّه لا يكترث بموضوعات مهمّة كالعلم و الثقافة إذا لم تكن فى خطّ «الإيمان و التقوى و القيم الأخلاقية» ...

و من العجيب أن يظهر القرآن فى محيط يهتمّ بالقيمة القبلية أكثر من اهتمامه بالقيم الأخرى، إلّا أنّ القرآن حطّم هذه الوثنية و حرّر الإنسان من أسر العرق و الدم و القبيلة و اللون و المال و المقام و الثروة و قاده إلى معرفة نفسه و العثور على ضالّته داخل نفسه و صفاتها العليا.

الطريف أنّ فى ما ذكر فى شأن نزول الآية محل البحث لطائف و دقائق تحكى عن عمق هذا الدستور الإسلامى.

منها: إنّ النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم أمر «بلالا» بعد فتح مكّة أن يؤذّن، فصعد بلال و أذّن على ظهر الكعبة، فقال «عتّاب بن أسيد» الذى كان من الأحرار: أشكر اللَّه أن مضى أبى من هذه الدنيا و لم ير مثل هذا اليوم .. و قال «الحارث بن هشام»: ألم يجد رسول اللَّه غير هذا الغراب الأسود للأذان؟! «فنزلت الآية الآنفة و بيّنت معيار القيم الواقعية»[۵۴۶].

و قال بعضهم: نزلت الآية عند ما أمر الرّسول صلى اللَّه عليه و آله و سلّم بتزويج بعض الموالى من بنات العرب «و الموالى تطلق على العبيد الذين عتقوا من ربقة أسيادهم أو على غير العرب (المسلمين)». فتعجّبوا و قالوا: يا رسول اللَّه أ تأمرنا أن نزوّج بناتنا من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۴

الموالى «فنزلت الآية و أبطلت هذه الأفكار الخرافية»[۵۴۷].

و نقرأ

فى بعض الروايات الإسلامية أنّ النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم خطب يوما فى مكّة فقال:

«يا أيّها الناس إنّ اللَّه قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية و تعاظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برّ تقى كريم على اللَّه و فاجر شقى هيّن على اللَّه و الناس بنو آدم و خلق اللَّه آدم من تراب قال اللَّه تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[۵۴۸].

و

قد جاء فى كتاب «آداب النفوس» للطبرى أنّ النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم التفت إلى الناس و هو راكب على بعيره فى أيّام التشريق بمنى «و هى اليوم الحادى عشر و الثّانى عشر و الثّالث عشر» من ذى الحجة فقال: «يا أيّها الناس! ألا إنّ ربّكم واحد و إنّ أباكم واحد ألا- لا- فضل لعربى على عجمى و لا لعجمى على عربى و لا لأسود على أحمر و لا لأحمر على أسود إلّا بالتقوى ألا هل

بلّغت: قالوا نعم! قال: لیبلغ الشاهد الغائب»[۵۴۹].

کما ورد فی حدیث آخر بهذا المعنی ضمن کلمات قصیرة ذات معانی غزیرة

أنّه صلی اللَّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّ اللَّه لا ینظر إلی أحسابکم و لا إلی أنسابکم و لا الی أجسامکم و لا إلی أموالکم و لکن ینظر إلی قلوبکم، فمن کان له قلب صالح تحنّن اللَّه علیه و إنّما أنتم بنو آدم و أحبّکم إلیه أتقاکم»[۵۵۰].

إلّا أنّ العجیب أنّه مع هـذه التعلیمات الواسعة الغنیة ذات المغزی الکبیر ما یزال بین المسلمین من یعوّل علی الدم و النسب و اللسان و یقدّمون وحدة الدم و اللغة علی الأخوة الإسلامیة و الوحدة الدینیة و یحیون العصبیة الجاهلیة مرّة أخری،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۵

و بالرغم من الضربات الشدیدة التی یتلقّونها من جراء ذلک، إلّا أنّهم حسب الظاهر لا یریدون أن یتیقّظوا و یعودوا إلی حکم الإسلام و حظیرة قدسه! حفظ اللَّه الجمیع من شر العصبیة الجاهلیة.

إنّ الإسلام حارب العصبیة الجاهلیة فی أی شکل کانت و فی أیّة صورة لیجمع المسلمین فی العالم من أی قوم و قبیلة و عرق تحت لواء واحد!- لواء القومیة و لا سواه- لأنّ الإسلام لا یوافق علی هذه النظریات المحدودة و یعدّ جمیع هذه الأمور وهمیة و لا أساس لها حتی أنّه

ورد فی حدیث عن النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «دعوها فإنّها منتنة»[۵۵۱].

و لکنّ لماذا بقیت هـذه الفکرة المنتنة مترسّخة فی عقول الکثیرین ممّن یدّعون أنّهم مسلمون و یتّبعون القرآن و الأخوة الإسلامیة ظاهرا؟! لا- ندری!! و ما أحسن أن یبنی المجتمع علی أساس معیار القیم الإسلامی إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ و إن تطوی القیم الکاذبة من قومیّة و مال و ثروة و مناطق جغرافیة و طبقیة عن هذا المجتمع.

أجل، التقوی الإلهیة و الإحساس بالمسؤولیة الداخلیة و الوقوف بوجه الشهوات و الالتزام بالحق و الصدق و الطهارة و العدل، هی وحدها معیار القیم الإنسانیة لا غیر، بالرغم من أنّ هذه القیم الأصیلة نسیت و أهملت فی سوق المجتمعات المعاصرة و حلّت محلها القیم الکاذبة.

فی نظام القیم الجاهلیة الذی کان یدور حول محور «التفاخر بالآباء و الأموال و الأولاد» لم ینتج سوی حفنة سرّاق و ناهبین، غیر أنّه بتبدّل هذا النظام و إحیاء أصل إِنَّ أَکْرَمَکُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاکُمْ الکبیر کان من ثمراته أناس أمثال سلمان و أبو ذر و عمّار و یاسر و المقداد. و المهم فی ثورات المجتمعات الإنسانیة هو الثورة علی القیم» و إحیاء هذا الأصل الإسلامی الأصیل!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۶

و نختتم کلامنا هذا

بحدیث للنبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم إذ قال: «کلکم بنو آدم و آدم خلق من تراب و لینتهین قوم یفخرون بآبائهم أو لیکونن أهون علی اللَّه من الجعلان»[۵۵۲].

۲- حقیقة التقوی

کما رأینا من قبل، فإنّ القرآن جعل أکبر امتیاز للقوی، و عدّها معیارا لمعرفة القیم الإنسانیة فحسب! و فی مکان آخر عدّها خیر الزاد و الشراب إذ یقول: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَیْرَ الزَّادِ التَّقْوی ۵۵۳].

أمّا فی سورة الأعراف فقد عبّر عنها باللباس: وَ لِباسُ التَّقْوی ذلِکَ خَیْرٌ[۵۵۴].

کما أنه عبّر عنها فی آیات أخر بأنّها واحدة من أول أسس دعوة الأنبیاء، و یسمو بها فی بعض الآیات إلی أن یعبّر عن اللَّه بأنه أهل

التقوى فيقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ[۵۵۵].

و القرآن يعدّ التقوى نورا من اللَّه، فحيثما رسخت التقوى كان العلم و المعرفة إذ يقول: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۵۵۶].

و يقرن التقوى بالبرّ فى بعض آياته فيقول: وَ تَعاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوى

أو يقرن العدالة بالتقوى فيقول: اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى

و الآن ينبغى أن نرى ما هى «حقيقة التقوى» التى هى أعظم رأس مال معنوى و افتخار للإنسان.

أشار القرآن إشارات تكشف أستارا عن حقيقة التقوى، فيذكر فى آيات متعدّدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۷

«القلب» مكانا للتقوى، و من ضمنها قوله تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى ۵۵۷].

و يجعل القرآن «التقوى» فى مقابل «الفجور» كما نقرأ ذلك فى الآية (۸) من سورة الشمس: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها.

و يعدّ القرآن كلّ عمل ينبع من روح الإيمان و الإخلاص و النية الصادقة أساسه التقوى، كما جاء فى وصفه فى شأن «مسجد قبا» (فى المدينة) حيث بنى المنافقون فى قباله «مسجد ضرار» فيقول: لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ۵۵۸].

و يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ التقوى هى الإحساس بالمسؤولية و التعهّد الذى يحكم وجود الإنسان و ذلك نتيجة لرسوخ إيمانه فى قلبه حيث يصدّه عن الفجور و الذنب و يدعوه إلى العمل الصالح و البر و يغسل أعمال الإنسان من التلوّثات و يجعل فكره و نيّته فى خلوص من أية شائبة.

و حين نعود إلى الجذر اللغوى لهذه الكلمة نصل إلى هذه النتيجة أيضا لأنّ «التقوى» مشتقّة من «الوقاية» و معناها المواظبة و السعى على حفظ الشىء، و المراد فى هذه الموارد حفظ النفس من التلوّث بشكل عام، و جعل القوى تتمركز فى أمور يكون رضا اللَّه فيها:

و قد ذكر بعض الأعاظم للتقوى ثلاث مراحل:

۱- حفظ النفس من (العذاب الخالد) عن طريق تحصيل الإعتقادات الصحيحة.

۲- تجنّب كلّ إثم و هو أعم من أن يكون تركا لواجب أو فعلا لمعصية.

۳- التجلّد و الاصطبار عن كلّ ما يشغل القلب و يصرفه عن الحق، و هذه تقوى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۸

الخواص بل خاص الخاص ۵۵۹].

و فى نهج البلاغة للإمام أمير المؤمنين على عليه السلام تعابير حيّة و بليغة فى شأن التقوى، حيث ذكرت التقوى فى كثير من خطب الإمام و كلماته القصار! ففى بعض كلماته يقارن عليه السلام بين التقوى و الذنب

فيقول: «ألا- و إنّ الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها و خلعت لجمها فتقحّمت بهم فى النّار ألا و إنّ التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها و أعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنّة»[۵۶۰].

و طبقا لهذا التشبيه اللطيف فإنّ التقوى هى حالة ضبط النفس و التسلّط على الشهوات، فى حين أنّ عدم التقوى هو الاستسلام للشهوات و عدم التسلّط عليها.

و

يقول الإمام على فى مكان آخر: «اعلموا عباد اللَّه أنّ التقوى دار حصن عزيز و الفجور دار حصن ذليل لا يمنع أهله و لا يحرز من لجأ إليه ألا و بالتقوى تقطع حمة الخطايا»[۵۶۱].

و

يضيف فى مكان آخر أيضا: «فاعتصموا بتقوى اللَّه فإنّ لها حبلا وثيقا عروته و معقلا منيعا ذروته»[۵۶۲].

و تتّضح حقيقة التقوى و روحها من خلال مجموع التعبيرات آنفة الذكر.

و ينبغى الالتفات إلى هـذه «اللطيفـة» و هى أنّ التقوى ثمرة شـجرة الإيمان، و من أجل الحصول على هذه الثمرة النادرة و الغالية ينبغى أن تكون قاعـدة الإيمان راسـخة و محكمـة! و بالطبع فإنّ ممارسـة الطاعـة و تجنّب المعصـية و الالتفات إلى المناهـج الأخلاقية تجعل التقوى راسـخة فى النفس، و نتيجتهـا ظهور نور اليقين و الإيمـان فى نفس الإنسـان، و كلّما إزداد نور التقوى إزداد نور اليقين أيضا، و لذلك نجد التقوى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۶۹

بعض الروايات الإسلامية على أنّها درجة أعلى من الإيمان و أدنى من اليقين!

يقول الإمام على بن موسـى الرضا عليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة و التقوى فوق الإيمان بدرجة و اليقين فوق التقوى بدرجة و ما قسم فى الناس شىء أقلّ من اليقين».

و نختتم بحثنا بأبيات تجسّد حقيقة التقوى ضمن مثال جلى:

خل الذنوب صغيرهاو كبيرها فهو التقى

و اصنع كماش فوق أرض‌الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرةإنّ الجبال من الحصى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۰

الآيتان [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۴ الى ۱۵]

اشارة

قـالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْـلَمْنا وَ لَمَّا يَـدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۱۵)

سبب النّزول

ذكر كثير من المفسّرين شأنا لنزول الآيتين و خلاصته ما يلى ...

ورد المدينة جماعة من «بنى أسد» فى بعض سنين الجدب و القحط و أظهروا الشهادتين على ألسنتهم أملا فى الحصول على المساعدة من النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و قالوا للرسول أنّ قبائل العرب ركبت الخيول و حاربتكم إلّا أنّنا جئناك بأطفالنا و نسائنا دون أن نحاربك، و أرادوا أن يمنّوا على النّبى عن هـذا الطريق! فنزلت الآيتان آنفتا الـذكر و كشـفتا أنّ إسـلامهم ظاهرى و لم يتغلغل الإيمان فى أعماق قلوبهم، ثمّ إذا كانوا مؤمنين فما ينبغى عليهم أن يمنّوا على الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۱

بالإيمان بل اللَّه يمن عليهم أن هداهم للإيمان ۵۶۳].

و لكنّ وجود شأن النزول هذا لا يمنع من عمومية مفهوم الآية.

التّفسير

الفرق بين الإسلام و الإيمان:

كان الكلام فى الآيـة المتقدّمـة على معيار القيم الإنسانيـة أى التقوى، و حيث أنّ التقوى ثمرة لشـجرة الإيمان الإيمان النافذ فى أعماق القلوب، ففى الآـيتين الآـنفتين بيـان لحقيقـة الإيمـان إذ تقول الآيـة الأـولى: قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ

و طبقا لمنطوق الآية فإنّ الفرق بين «الإسـلام» و «الإيمان» فى أنّ: الإسـلام له شـكل ظاهرى قانونى، فمن تشـهد بالشهادتين بلسانه فهو فى زمرة المسلمين و تجرى عليه أحكام المسلمين.

أمّا الإيمـان فهو أمر واقعى و بـاطنى، و مكـانه قلب الإنسـان لاـ مـا يجرى على اللسـان أو ما يبـدو ظاهرا! الإسـلام ربّما كان عن دوافع متعـدّدة و مختلفـة بمـا فيها الـدوافع الماديّـة و المنافع الشخصـية، إلّا أنّ الإيمان ينطلق من دافع معنوى، و يسترفـد من منبع العلم، و هو الـذى تظهر ثمرة التقوى اليانعـة على غصن شـجرته الباسـقة! و هـذا ما أشار إليه الرّسول الأكرم صـلى اللّه عليه و آله و سـلّم فى تعبيره البليغ الرائع:

«الإسلام علانية و الإيمان فى القلب»[۵۶۴].

كما إنّا نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق يقول فيه: الإسلام يحقن الدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۲

و تؤدّى به الأمانة و تستحل به الفروج و الثواب على الإيمان ۵۶۵].

و ربما كان لهذا السـبب أنّ بعض الروايات تحصـر مفهوم الإسلام بالإقرار اللفظى، فى حين أنّ الإيمان إقرار باللسان و عمل بالأركان، إذ تقول الرواية

«الإيمان إقرار و عمل، و الإسلام إقرار بلا عمل»[۵۶۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۶ ؛ ص۵۷۲

هذا المعنى نفسه وارد فى تعبير آخر فى بحث الإسلام و الإيمان،

يقول «فضـيل بن يسار» سـمعت الإمام الصادق عليه السـلام يقول: إنّ الإيمان يشارك الإسلام و لا يشاركه الإسلام، إنّ الإيمان ما وقر فى القلوب و الإسلام ما عليه المناكح و المواريث و حقن الدماء[۵۶۷].

و هـذا التفـاوت فى المفهومين فيمـا إذا اجتمع اللفظـان معـا، إلّـا أنّه إذا انفصـل كـل عن الآـخر فربما أطلق الإسـلام على ما يطلق عليه بالإيمان، أى أنّ اللفظين قد يستعملان فى معنى واحد أحيانا.

ثمّ تضـيف الآية محل البحث فتقول: وَ إِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً و سيوفّيكم ثواب أعمالكم بشكل كامل و لا ينقص منها شيئا.

و ذلك ل إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لا يَلِتْكُمْ مشتق من «ليت» على زنة (ريب) و معناه الإنقاص من الحق ۵۶۸].

و العبارات الأخيرة فى الحقيقة إشارات إلى أصل قرآنى مسلّم به و هو أنّ شـرط قبول الأعمال «الإيمان»، إذ مضمون الآية أنّه إذ كنتم مؤمنين بـاللّه و رسوله إيمانـا قلبيا و علامته طاعتكم للّه و الرّسول فإنّ أعمالكم مقبولـة، و لا ينقص من أجركم شـىء، و يثيبكم اللّه، و ببركة هذه الأعمال يغفر ذنوبكم لأنّ اللّه غفور رحيم.

و حيث أنّ الحصول على هذا الأمر الباطنى أى الإيمان ليس سهلا، فإنّ الآية التالية تتحدّث عن علائمه، العلائم التى تميّز المؤمن حقّا عن المسلم و الصادق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۳

عن الكاذب، و أولئك الذين استجابوا للّه و للرسول رغبة و شوقا منهم عن أولئك الذين استجابوا طمعا أو للوصول إلى المال و الدنيا فتقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أجل، إنّ أوّل علامة للإيمان هى عدم التردّد فى مسير الإسلام، و العلامة الثانية الجهاد بالأموال، و العلامة الثالثة التى هى أهم من الجميع الجهاد بالنفس.

و هكذا فإنّ الإسلام يستهدف فى الإنسان أجلى العلائم «ثبات القدم و عدم الشك و التردّد من جهة، و الإيثار بالمال و النفس من جهة أخرى».

فكيف لا يرسخ الإيمان فى القلب و الإنسان لا يقصّر عن بذل المال و الروح فى سبيل المحبوب!؟

و لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول مؤكّدة: أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

هذا هو المعيار الذى حدّده الإسلام لمعرفة المؤمنين الحق و تمييزهم عن الكاذبين المدّعين بالإسلام تظاهرا، و ليس هذا المعيار منحصرا بفقراء جماعة بنى أسد، بل هو معيار واضح و جلى و يصلح لكلّ عصر و زمان لفصل المؤمنين عن المتظاهرين بالإسلام، و لبيان قيمة أولئك الذين يمنّون بأنّ أسلموا على النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك بحسب الظاهر فحسب، إلّا أنّه عند التطبيق و العمل لا يوجد فيهم أقلّ علامة من الإيمان أو الإسلام.

و فى قبال أولئك رجال لا يدّعون شيئا و لا يمنّون، بل يرون أنفسهم مقصّرين دائما، و فى الوقت ذاته هم فى طليعة المضحّين و المؤثرين بأموالهم و أنفسهم فى سبيل اللّه.

و لو أنّا اتخذنا معيار القرآن لمعرفة المؤمنين الواقعيين و تمييزهم عن سواهم لما كان معلوما من خلال هذا العدد الهائل من آلاف الآلاف و «الملايين» ممن يدّعون الإسلام كم هم المؤمنون حقّا؟! و كم هم المسلمون فى الظاهر فحسب؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۴

الآيات [سورة الحجرات (۴۹): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۶) يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۱۷) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸)

سبب النزول

اشارة

قال جماعة من المفسّرين إنّه بعد نزول ما تقدّم من الآيات آنفا جاء النّبى طائفة من الأعراب و حلفوا أنّهم صادقون فى ادّعائهم بأنّهم المؤمنون و ظاهرهم و باطنهم سواء، فنزلت الآية الأولى من الآيات محل البحث و أنذرتهم أن لا يحلفوا، فاللّه يعرف باطنهم و ظاهرهم، و لا يخفى عليه خافية فى السماوات و لا فى الأرض ۵۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۵

التّفسير

لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ

كانت الآيات السابقة قد بيّنت علائم المؤمنين الصادقين، و حيث أنّا ذكرنا فى شأن النّزول أنّ جماعة جاؤوا النّبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و قالوا إنّ ادّعاءهم كان حقيقة و إنّ الإيمان مستقر فى قلوبهم، فإنّ هذه الآيات تنذرهم و تبيّن لهم أنّه لا حاجة إلى الإصرار و القسم، كما أنّ هذا البيان و الإنذار هو لجميع الذين على شاكلة تلك الجماعة، فمسألة (الكفر و الإيمان) إنّما يطّلع عليها اللَّه الخبير بكل شىء! و لحن الآيات فيه عتاب و ملامة، إذ تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: قُلْ أَ تُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

و لمزيد التأكيد تقول الآية أيضا: وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فذاته المقدّسة هى علمه بعينه و علمه هو ذاته بعينها[۵۷۰] و لذلك فإنّ علمه أزلى أبدى! ذاته المقدّسة فى كلّ مكان حاضرة، و هو أقرب إليكم من حبل الوريد، و يحول بين المرء و قلبه، فمع هذه الحال لا حاجة لادّعائكم، و هو يعرف الصادقين من الكاذبين و مطّلع على أعماق أنفسهم حتى درجات إيمانهم المتفاوتة ضعفا و قوّة، و قد تنطلى عليهم أنفسهم، إلّا أنّه يعرفها بجلاء، فعلام تصرون أن تعلّموا اللَّه بدينكم؟! ثمّ يعود القرآن لكلمات الأعراب من أهل البادية الذين يمنّون على النّبى بأنّهم أسلموا و أنّهم أذعنوا لدينه فى الوقت الذى حاربته القبائل العربية الأخرى.

فيقول القرآن جوابا على كلماتهم هذه: يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۶

«المنة» كما بيّنا سابقا من مادة «المن» و معناه الوزن الخاص الذى يوزن به، ثمّ استعمل هذا اللفظ على كلّ نعمة غالية و ثمينة، و المنّة على نوعين: فإذا كان فيها جانب عملى كعطاء النعمة و الهبة فهى ممدوحة، و منن اللَّه من هذا القبيل، و إذا كان فيها جانب لفظى، كمن كثير من الناس بالقول بعد العمل، فهى قبيحة و غير محبوبة! الطريف أن صدر الآية يقول «يمنّون عليك أن أسلموا» و هذا تأكيد آخر على أنّهم غير صادقين فى إيمانهم.

و فى ذيل الآية يأتى التعبير قائلا: بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

و على كلّ حال فهذه مسألة مهمّة أن يتصوّر قاصر و التفكير غالبا أنّهم بقبول الإيمان و أداء العبادات و الطاعات يقدمون خدمة لساحة قدس اللَّه أو للنبى صلى اللَّه عليه و آله و سلّم و أوصيائه، و لذلك فهم ينتظرون الثواب و الأجر.

فى حين أنّه لو أشرق نور الإيمان فى قلب أحد، و نال هذا التوفيق بأن كان فى زمرة المؤمنين، فقد شمله لطف عظيم من اللَّه عز و جل.

فالإيمان و قبل كلّ شىء يمنح الإنسان إدراكا جديدا عن عالم الوجود، و يكشف عنه حجب الأنانية و الغرور، و يوسع عليه أفق نظرته، و يجسّد له عظمة خلقه فى نظره! انّه يلقى على عواطفه النور و الضياء و يربّيها و يحيى فى نفسه القيم الإنسانية، و ينمّى استعداداته العالية فيه، و يمنحه العلم و القوة و الشهامة و الإيثار و التضحية و العفو و التسامح و الإخلاص، و يجعل منه إنسانا قويا ذا عطاء و ثمر بعد أن كان موجودا ضعيفا.

إنّه يأخذ بيده و يصعد به فى مدارج الكمال إلى قمة الفخر، و يجعله منسجما مع عالم الوجود، و يسخّر عالم الوجود طوع أمره!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۷

أ هـذه النعمـة التى أنعمهـا اللَّه على الإنسـان ذات قيمـة، أم مـا يمنّه الإنسـان على النبى؟!! كـذلك كـلّ عبادة و طاعـة هى خطوة نحن التكامـل، إذ تمنـح القلب صـفاء و تسـيطر على الشـهوات، و تقوّى فيه روح الإخلاص، و تمنـح المجتمع الإسـلامى الوحـدة و القوّة و العظمـة فكـأنّه نسـيج واحـد! فكل واحـدة منها درس كبير فى التربيـة، و مرحلـة من المراحل التكامليـة! و من هنا كان على الإنسان أن يؤدّى شـكر نعمة اللَّه صباح مساء، و أن يهودى إلى السجود بعد كلّ صلاة و عبادة، و أن يشكر اللَّه على جميع هذه الأمور! فإذا كانت نظرة الإنسـان- فى هـذا المسـتوى- من الإيمان و الطاعـة فإنه لا يرى نفسه متفضـلا، بل يجـد نفسه مـدينا للَّه و لنبيّه و غريق إحسانه. و يؤدّى عبـادته بلهفـة، و يسـعى فى سبيل طاعته على الرأس لا على القـدم و إذا ما أثابه اللَّه أجرا فهو تفضّل آخر منه و لطف، و إلّا فإنّ أداء الأعمال الصالحة يكون بنفع الإنسان، و الحقيقة أنّه بهذا التوفيق يضاف على ميزانه عند اللَّه.

فهدايـة اللَّه- بناء على ما بيّنا- لطف، و دعوة النّبى صـلى اللَّه عليه و آله و سـلّم لطف آخر، و التوفيق للطاعـة مضاعف، و الثواب لطف فوق لطف! و فى آخر آيـة من الآيات محل البحث التى هى آخر سورة الحجرات تأكيـد آخر على ما ورد فى الآية الآنفة إذ تقول: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمـا تَعْمَلُونَ فلاـ تصـرّوا على أنّكم مؤمنون حتما و لا حاجـة للقسم ... فهو حاضـر فى أعماق قلوبكم، و هو عليم بما يجرى فى غيب السـماوات و الأرض جميعا، فكيف لا يعلم ما فى قلوبكم و ما تنطوى عليه صـدوركم؟!

اللّهم: مننت علينا بنور الإيمان، فنقسم عليك بعظيم نعمة الهداية أن تثبّت أقدامنا فى هذا الطريق و تقودنا فى سبيل الكمال ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۶، ص: ۵۷۸

إلهنا، أنت عالم بما فى قلوبنا، و تعلم نيّاتنا و دوافعنا، فاستر عيوبنا عن أنظار عبادك، و أصلح ما فسد منّا بكرمك.

ربّنـا، وفّقنـا للتحلّى بجميـل الصـفات و محـاسن الأخلاق التى ذكرتها فى هـذه السورة حتى تتجـذّر فى وجودنا و تتعمّق فى أرواحنا و أفكارنا ...

آمين ربّ العالمين انتهاء سورة الحجرات و نهاية المجلد السادس عشر

---

[۱] (۱) مجمع البيان، بداية، سورة الخزوف.

[۲] (۱)- الواو فى(و الكتاب المبين) للقسم، و جواب هذا القسم جملة\i(إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا\)E.

[۳] (۱)- مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

[۴] (۱)- هود، الآية ۱۱۹.

[۵] (۱)- جـاء فى موضـعين آخرين من القرآن اعتراف هؤلاـء بكون الله خالقـا، غـايته أن أحـدهما فى شأن نزول المطر من السـماء(العنكبوت- ۶۳) و الآخر فى كون الله سبحانه خالقهم(الزخرف- ۸۷).

[۶] (۱)- كلمة« السبل»- جمع سبيل»- تطلق على الطرق البرّية و البحريّة، كما نقرأ فى الفقرة(۴۲) من دعاء الجوشن« يا من فى البرّ و البحر سبيله».

[۷] (۱)- الضـمير فى« على ظهوره» يعود على« ما» الموصولـة و التى وردت فى جملـة« ما تركبون» و هى تشـمل السـفن و الدواب، و كونه مفردا لظاهر اللفظ.

[۸] (۲)- جاء فى لسان العرب:« أقرن له و عليه»: أطاق و قوى عليه و اعتلى، و فى التنزيل العزيز\i:وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ E.

[۹] (۱)- المؤمنون، الآية ۲۸.

[۱۰] (۱)- المؤمنون، الآية ۲۹.

[۱۱] (۲)- تفسير الفخر الرازى، المجلد ۲۷، صفحة ۱۹۹.

[۱۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۳] (۴)- نور الثقلين، المجلد ۴، صفحة ۵۹۳.

[۱۴] (۱)-« ينشّؤا» من مادة« الإنشاء»، أى إيجاد الشىء، و هنا بمعنى تربية الشىء، و تنميته، و« الحلية» تعنى الزينة، و« الخصام» هو المجادلة و النزاع على شىء ما.

[۱۵] (۱)-« أم» هنا متصلة، و هى معطوفة على(اشهدوا خلقهم)، و الضمير فى(من قبله) يعود إلى القرآن. و ما احتمله البعض من أن(أم) هنا منقطعة، أو أن الضمير يرجع إلى الرّسول، لا يتناسب كثيرا مع القرائن التى فى الآية.

[۱۶] (۱)- فى جملة\i إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ E مهتدون خبر(إن) و« على آثارهم» متعلق به، و أمّا ما احتمله البعض من أن« على آثارهم» خبر أوّل، و(مهتدون) خبر ثان، فيبدو بعيدا عن الصواب.

[۱۷] (۱)- تقرأ فى لسان العرب: أترفته النعمة، أى: أطغته.

[۱۸] (۲)- لهذه الجملة محذوف تقديره: أتتبعون آباءكم و لو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم. تفسير الكشاف المراغى، القرطبى، و روح المعانى.

[۱۹] (۱)-« براء» مصدر، و هى تعنى التبرؤ، و لها فى مثل هذه الموارد معنى الوصف بشكل مؤكد و المبالغة، ك(زيد عدل) و لما كانت مصدرا فقد تساوى فيها المفرد و الجمع، و المذكر و المؤنث.

[۲۰] (۲)- طبقا لهذا التفسير، فإن الاستثناء فى جملة« إلا الذى فطرنى» متصل، لأن كثيرا من عبدة الأوثان لم يكونوا منكرين لله، بل كانوا يشركون معه غيره، إلاـ أنه احتمل أيضا أن يكون الاستثناء منقطعا، و(إلا) بمعنى(لكن) لأن التعبير ب(ما تعبدون) يشير إلى الأصنام، فإن هذا التعبير غير متعارف فى شأن الله تعالى.(تأمل).

[۲۱] (۱)-« العقب» فى الأصل بمعنى كعب القدم، إلّا أن هذه الجملة استعملت فيما بعد فى الأولاد و أولاد الأولاد بصورة واسعة.

[۲۲] (۲)- إبراهيم، الآية ۳۵.

[۲۳] (۱)- يوسف، الآية ۱۵.

[۲۴] (۱)- نقل صاحب نور الثقلين هذه الأحاديث فى المجلّد ۴، صفحة ۵۹۶- ۵۹۷، و وردت أيضا فى تفسير البرهان، المجلد ۴، صفحة ۱۳۸- ۱۳۹.

[۲۵] (۱)- النجم، الآية ۳۹.

[۲۶] (۱)- كان لنا بحث مفصّل فى هذا الباب فى ذيل الآية(۳۲) من سورة النساء، و بحث آخر فى ذيل الآية(۱۶۵) من سورة الأنعام.

[۲۷] (۱)-« لبيوتهم» بدل اشتمال ب(لمن يكفر بالرحمن) و تكرار(اللام) لهذا المعنى، أو بمعنى(على) أى: على بيوتهم، لكن الاحتمال الأول أصح.

[۲۸] (۱)-« المعارج» جمع معراج، و هو الوسيلة التى يستخدمها الإنسان للصعود إلى الطبقات العليا.

[۲۹] (۲)- اعتبر البعض(زخرفا) عطفا على(سقفا)، و يعتقدون أنها إشارة إلى وسائل الزينة المستقلة التى توضع تحت تصرف أمثال هؤلاء الأفراد. و البعض اعتبرها عطفا على(من فضة) و كانت فى الأصل(من زخرف) ثم نصبت بنزع الخافض، و على هذا يصبح معنى الجملة: إنا جعلنا بعض سقوف و أسرة بيوت هؤلاء من ذهب و بعضها من فضة.(تأمل!).

[۳۰] (۱)- تفسير الكشّاف، المجلد ۴، صفحة ۲۵۰.

[۳۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲. الخطبة القاصعة.

[۳۲] (۲)- الرعد، الآية ۱۱.

[۳۳] (۳)- الأعراف، الآية ۳۲.

[۳۴] (۴)- الأعراف، الآية ۳۱.

[۳۵] (۱)-« يعش» من مادة العشو، فإن عديت ب(إلى):(عشوت إليه) فهى تعنى الهداية بواسطة شىء ما بعين ضعيفة، و إن عديت ب(عن):(عشا عنه)، و أعطت معنى الإعراض عن الشىء، و هو المراد فى الآية المذكورة. لسان العرب(عشو).

[۳۶] (۲)-« نقيّض» من مادة قيض، و هى فى الأصل بمعنى الغشاء الذى يغطى البيضة، ثمّ جاءت بمعنى جعل شىء مستوليا على شىء آخر.

[۳۷] (۳)- النحل، الآية ۶۳.

[۳۸] (۴)- النحل، الآية ۶۳.

[۳۹] (۱)- ضمير الجمع فى« أنّهم» و الجملة التالية يعود إلى الشياطين، و مع أنه قد جاء بصيغة المفرد من قبل، إلّا أنّه كان بمعنى الجمع.

[۴۰] (۱)- على هذا فإن فاعل« ينفع» هو القول السابق حيث كانوا يأملون أن يكون البعد بينهم و بين الشياطين كما بين المشرق و المغرب، و جملة(إذ ظلمتم) بيان لعلة عدم النفع، و جملة\i أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ E نتيجة هذا الظلم و الجور.

[۴۱] (۱) بناء على هذا التّفسير، فإنّ جملة\i أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ E ستكون فاعل(ينفع) لا نتيجته.

[۴۲] (۱) التّفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد ۲۷، صفحة ۲۱۴- ۲۱۵.

[۴۳] (۱) مجمع البيان، التّفسير الكبير للفخر الرازى، تفسير القرطبى، تفسير المراغى، و تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآية مورد البحث.

[۴۴] (۲)- تفسير القرطبى، ذيل الآية مورد البحث.

[۴۵] (۱) الأمر الآخر الذى يمكن أن يكون دليلا على التّفسير المشهور، هى كلمة(القوم) التى وردت فى الآية المذكورة، لأنّ القرآن منهاج لتذكير كل البشر، لا قوم النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و حسب، أو خصوص أمة الإسلام.

إلّا أن هذا الكلام يمكن الإجابة عليه بأن هؤلاء القوم قد استفادوا من تذكير القرآن قبل الآخرين، و لذلك كان التأكيد عليهم.

[۴۶] (۱) رويت هذه الرواية عن ابن عباس فى تفسير القرطبى و تفسير الفخر الرازى و مجمع البيان، و رويت فى تفسير نور الثقلين روايتان مفصلتان فى هذا الباب عن كتاب الإحتجاج و تفسير على بن إبراهيم. يراجع المجلد ۴، ص ۶۰۵- ۶۰۷.

[۴۷] (۱) جمع هذه الأحاديث مؤلف تفسير نور الثقلين، فى المجلد ۴، صفحة ۶۴- ۶۵.

[۴۸] (۱) التعبير ب« الأخت» فى لغة العرب يعنى ما يوازى الشىء فى الجنس و المرتبة كالأختين.

[۴۹] (۱)- جاء تفصيل المعجزات التسع لموسى بن عمران عليه السّلام فى ذيل الآية(۱۰۱) من سورة الإسراء.

[۵۰] (۱) الواو فى جملة\i وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي E يمكن أن تكون عاطفة على(ملك مصر) و يمكن أن تكون حالية(تفسير الكشاف). إلّا أن الاحتمال الأوّل يبدو هو الأنسب.

[۵۱] (۱)- اعتبر جماعة(أم) فى الجملة أعلاه منقطعة، و أنها بمعنى(بل)، و ذهب البعض أنها متصلة، و متعلقة بجملة(أ فلا تبصرون).

و تقدير الجملة: أ فلا تبصرون أم تبصرون أنا خير من هذا ...

[۵۲] (۲)- طه، الآية ۲۷.

[۵۳] (۱)- جاءت کلمة« مقترنین» هنا بمعنی المتتابعین أو المتعاضدین، و قال البعض: إنّ الاقتران هنا بمعنی التقارن.

[۵۴] (۱)- ورد فی التّفسیر الأمثل، ذیل الآیة(۹) من سورة الأنعام بحث مفصل فی هذا الباب.

[۵۵] (۱)- مفردات الراغب، مادة(أسف).

[۵۶] (۱)- سیرة ابن هشام، المجلد الأوّل، صفحة ۳۸۵، بتلخیص قلیل.

[۵۷] (۱)-« یصدون» من مادة صد، و یکسر مضارعها، و هی تعنی الضحک و الصراخ، و إحداث الضجیج و الغوغاء، حیث یضعون یدا بید عند السخریة و الاستهزاء عادة، یراجع لسان العرب، مادة: صدد.

[۵۸] (۲)- الأنبیاء، الآیة ۹۸.

[۵۹] (۳)-« خصمون» جمع خصم، و هو الشخص الذی یجادل و یخاصم کثیرا.

[۶۰] (۱)- احتملوا فی تفسیر الآیات أعلاه احتمالات أخری، و کل منها لا یتناسب مع محتوی الآیات:

۱- فقال البعض: إنّ المراد من المثل الذی ضربه المشرکون هو أنّهم قالوا بعد ذکر المسیح و قصته فی آیات القرآن: إنّ محمّدا یهیء الأرضیة لیدعونا إلی عبادته، و القرآن فی مقام الدفاع عن النّبی صلی اللَّه علیه و آله و سلّم یقول: لم یکن المسیح مدعیا للألوهیة، و سوف لن یدعیها هو أیضا.

۲- و قال البعض الآخر: إنّ المراد من المثل فی الآیات المذکورة هو التشبیه الذی ذکره اللَّه سبحانه فی شأن المسیح فی الآیة(۵۹) من سورة آل عمران، حیث یقول\i:إِنَّ مَثَلَ عِیسی عِنْدَ اللَّهِ کَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ E فإذا کان عیسی قد ولد من غیر أب فإن ذلک لا یثیر العجب، لأنّ آدم قد ولد من غیر أب و أم، بل من التراب بأمر اللَّه تعالی.

۳- و احتمل بعض آخر أنّ المراد من المثل هو قول المشرکین حیث کانوا یقولون: إذا کان النصاری یعبدون المسیح، فلما ذا لا تکون آلهتنا التی هی أسمی منه، لائقة للعبادة و أهلا لها؟

غیر أنّ الالتفات إلی الخصوصیات التی ذکرت فی هذه الآیات یوضح أن أیّا من هذه التّفسیرات الثلاثة لا یصح، لأنّ الآیات تبیّن جیدا:

أوّلا: أنّ المثل کان من ناحیة المشرکین.

ثانیا: کان الموضوع قد أثار ضجة و صخبا، و کان مضحکا بنظرهم.

ثالثا: کان شیئا علی خلاف مقام عبودیة المسیح علیه السّلام.

رابعا: أنّه کان یحقق هدف هؤلاء، و هو الجدال فی أمر کان کاذبا.

و هذه الخصائص لا تتناسب إلّا مع ما قلناه فی المتن فقط.

[۶۱] (۱)- لمزید الاطلاع راجعوا: کتاب إحقاق الحق، المجلد ۳، صفحة ۳۹۸ و ما بعدها، تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، صفحة ۶۰۹. و ما بعدها، و تفسیر مجمع البیان ذیل الآیات مورد البحث.

[۶۲] (۲)- اختار التّفسیر الأوّل، الطبرسی فی مجمع البیان، و الشیخ الطوسی فی التبیان، و أبو الفتوح الرازی و آخرون.

أما التّفسیر الثّانی فقد نقله القرطبی و الآلوسی فی روح المعانی، و الزمخشری فی الکشاف، و المراغی، علی أنه المعنی الوحید للآیة، أو أنّه أحد معنیین لها.

[۶۳] (۱)- المیزان، ذیل الآیة مورد البحث.

[۶۴] (۲)- طبقا للتفسیر الأوّل، فإنّ(من) للبدلیة، و بناء علی التّفسیرین الثّانی و الثّالث فإنّ(من) للإنشاء، و الابتداء.

[۶۵] (۳)- نقل هذا الحدیث صاحب مجمع البیان عن صحیح مسلم فی ذیل الآیات مورد البحث.

[۶۶] (۴)- مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث، و تفسیر روح المعانی، المجلد ۵، صفحة ۸۸.

[۶۷] (۱)- قال بعض آخر من المفسّرين: إنّ(بعض) هنا بمعنى الكل، أو أن التعبير ب i(بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ\)E إضافة موصوف إلى الصفة، أو أن هذا التعبير إشارة إلى أنّى أبيّن لكم أمور الدين و حسب، لا اختلافاتكم فى أمر الدنيا. إلّا أن أيّا من هذه التفاسير لا يستحق الاهتمام.

[۶۸] (۲)- ورد نظير هذه الآية بتفاوت يسير فى سورة مريم- ۳۶، و سورة الأنعام- ۵۱، و تكرار هذا المعنى تأكيد على أن عيسى عليه السّلام قد أتمّ الحجة على جميع هؤلاء فى مورد عبوديته و كونه عبد اللَّه سبحانه.

[۶۹] (۳)- الضمير فى(بينهم) يعود إلى الذين خاطبهم المسيح عليه السّلام فى الآية السابقة، و دعاهم إلى عبودية اللَّه سبحانه.

[۷۰] (۱)- نهج البلاغة. الكلمات القصار: ۱۱۷.

[۷۱] (۲)- ينبغى الانتباه إلى أن(أليم) صفة لليوم لا للعذاب.

[۷۲] (۱)- تفسير روح البيان، المجلد ۲۵، صفحة ۸۹.

[۷۳] (۲)-« الأخلاء» جمع(خليل)- من مادة خلة- بمعنى المودّة و المحبّة، و أصلها من الخلل- على وزن شرف- أى الفاصلة بين جسمين، و لما كانت المحبة و الصداقة كأنّها تنفذ فى أعماق القلب و ثناياه، فقد استعملت فيها هذه الكلمة.

[۷۴] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، طبق نقل نور الثقلين، ج ۴: صفحة ۶۱۲.

[۷۵] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار ۱۴۷.

[۷۶] (۱)- روح البيان، المجلد ۸، صفحة ۳۹۱.

[۷۷] (۱)- تفسير روح البيان، الجزء ۸، صفحة ۱۹۲.

[۷۸] (۱)- الصف، الآية ۷.

[۷۹] (۲)-« ماكثون» من مادة(مكث)، و هو فى الأصل التوقف المقترن بالانتظار، و ربّما كان هذا التعبير من مالك استهزاء، كما تقول- أحيانا- لمن يطلب شيئا لا يستحقه انتظر!

[۸۰] (۳)- مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث و قال البعض: إنّ المسافة بين السؤال و الجواب مائة سنة، و آخرون: أربعون سنة، و مهما تكن فإنّها دليل على الاحتقار و عدم الاهتمام.

[۸۱] (۱)-« أم» فى الآية منقطعة، و هى بمعنى(بل) و الإبرام بمعنى الإحكام.

[۸۲] (۱)- الفخر الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

[۸۳] (۱)- فمثلا: إنّ بعض المفسّرين قد فسّر(إن) هنا بمعنى النفى، و(أنا أول العابدين) بمعنى أول من عبد اللّه، و على هذا التّفسير فإن معنى الآية يصبح: لا ولد للّه أبدا، و أنا أوّل من عبد للّه! و فسر البعض الآخر(العابدين) بالذى يأبى العبادة، و على هذا يكون المعنى: إنّ كان للّه ولد فإنى سوف لا أعبد مثل هذا الرب أبدا، لأنه بأبوته لا يمكن أن يكون ربا.

و واضح أن مثل هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية بأى وجه من الوجوه.

[۸۴] (۱)- كان أبو شاكر الديصانى أحد علماء فرقة الديصانية، الذين كانوا يعتقدون بعبادة إلهين، و يقولون بإله النور و إله الظلمة.(لغت نامه دهخدا مادة ديصان).

[۸۵] (۱)- أصول الكافى، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الحركة و الانتقال حديث ۱۰.

[۸۶] (۱)- طبقا لهذا التّفسير فإن استثناء(إلّا من شهد بالحق) استثناء متصل، لكنه يصبح منقطعا فيما إذا كان المراد من جملة(الذين يدعون من دونه الشفاعة) خصوص الأصنام. لكن يبدو أن المعنى الأوّل هو الأنسب، خاصة بملاحظة(الذين) و هى للعاقل، أو التغليب من العاقل و غير العاقل.

[۸۷] (۱)- هنا اختلاف كبير بين المفسّرين فى أن(قيله) معطوفة على ماذا؟ فالبعض يعتقد أنها معطوفة على الساعة التى مرت قبل

ثلاث آیات، و علی هذا یصبح معنی الجملة: إنّ اللّه عنده علم الساعة، و شکوی النّبی من الکفار.

و البعض الآخر اعتبرها معطوفة علی(علم الساعة) بشرط أن تکون(علم) مقدرة قبل(قیله) کمضاف محذوف. و هو لا یختلف کثیرا عن التّفسیر الأول.

و اعتبر جماعة الواو واو القسم. و هناک احتمالات أخری لو ذکرناها هنا لطال بنا المقام.

و هنا احتمال آخر لعله أفضل من کل ما قیل فی هذا الباب، و هو أنّها معطوفة علی محذوف جملة:(انی یؤفکون)، و تقدیر ذلک: (أنی یؤفکون عن عبادته و عن قیله یا رب إن هؤلاء قوم لا یؤمنون).

[۸۸] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، بدایة سورة الدخان.

[۸۹] (۲)- المصدر السابق.

[۹۰] (۳)- المصدر السابق.

[۹۱] (۱)- راجع تفسیر بدایة سورة البقرة، بدایة سورة آل عمران، بدایة سورة الأعراف.

[۹۲] (۱)- سنبحث حول فلسفة الأیمان و القسم فی القرآن، و الهدف الأساسی منها، فی تفسیر الجزء الأخیر من القرآن الکریم، فی ذیل الآیات الکثیرة التی یلاحظ القسم فیها مکررا. إن شاء اللّه تعالی.

[۹۳] (۱)- تراجع مفردات الراغب، مادة نزل.

[۹۴] (۱)- تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، ص ۶۲۰. و قد ذکر هذا الحدیث أن القرآن نزل تدریجیا فی عشرین سنة، فی حین أننا نعلم فترة النبوة التی نزل فیها القرآن کانت(۲۳) سنة، و لعله هذا القول اشتباه من الراوی، أو غلط فی نسخ الحدیث.

[۹۵] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۱۶۳. و قد جمع العلّامة المجلسی فی بحار الأنوار، المجلد ۵۸، صفحة ۵۵ و ما بعدها، الروایات المتعلقة بالبیت المعمور.

[۹۶] (۲)- ذکر فی تفسیر المیزان تفسیر آخر لهذه الآیة، خلاصته، إن الأمور هذا العالم مرحلتین: مرحلة الإجمال و الإبهام، و التی عبر عنها ب(حکیم)، و مرحلة التفصیل و الکثرة، و التی عبر عنها ب(یفرق) المجلد ۱۸، صفحة ۱۴۰.

[۹۷] (۱)- هناک احتمالات مختلفة فی محل جملة(أمرا من عندنا ..) من الإعراب، و إلی أی من بحوث الآیات السابقة تنظر؟

و أنسب هذه الاحتمالات أن تکون جملة(أمرا من عندنا) حالا لضمیر مفعول(إنا أنزلناه)، أی: إنا أرسلنا القرآن، و کان ذلک أمرا من عندنا. و هذا الاحتمال ینسجم فی هذه الصورة تماما من جملة(إنا کنا مرسلین) و التی تتحدث عن إرسال النبی صلی الله علیه و آله و سلم.

و یحتمل أیضا أن یکون توضیحا ب(کل أمر حکیم) و نصبها علی الاختصاص، فیکون المعنی: أعنی بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا.

[۹۸] (۲)-(رحمة من ربک) مفعول لأجله ب(إنا أنزلناه)، أو ل(یفرق کل أمر حکیم)، أو لکلیهما.

[۹۹] (۱)- کلمة(ربّ) فی هذه الآیة بدل من(ربّ) فی الآیة السابقة.

[۱۰۰] (۲)- جزاء الجملة الشرطیة(إن کنتم موقنین) محذوف، و تقدیر الکلام: إن کنتم من أهل الیقین، أو فی طلب الیقین، علمتم أن اللّه ربّ السماوات و الأرض و ما بینهما.

[۱۰۱] (۳)- یمکن أن تکون جملة(لا إله إلا هو) استئنافیة، أو خبرا لمبتدأ محذوف تقدیره: هو لا إله إلا هو لا. إلا أن الاحتمال الأول هو الأنسب.

[۱۰۲] (۱)- النحل، الآیة ۱۰۳.

[۱۰۳] (۱)- احتمل المفسّرون فی ترکیب هذه الجملة احتمالات کثیرة، و أکثرها قبولا من قبل المفسّرین، و هو المناسب أیضا لسیاق

الآية: إن(يوم) متعلق بفعل(ننتقم) الذى يفهم من جملة(إنا منتقمون) و على هذا يكون التقدير: ننتقم منهم يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون.

[۱۰۴] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۶۲، ذيل الآيات مورد البحث.

[۱۰۵] (۲)- يقول الفخر الرازى: إنّ العرب يسمّون الشر الغالب بالدخان. المجلد ۲۷، صفحة ۲۴۲.

[۱۰۶] (۳)- روح المعانى، المجلد ۲۵، ص ۱۰۷.

[۱۰۷] (۱)- تراجع الآيات ۲۷- ۳۰، من سورة الأنعام.

[۱۰۸] (۲)- يقول الراغب فى المفردات، البطش: هو تناول الشىء بصولة، و هو مقدمة العقوبة عادة.

[۱۰۹] (۱)- تفسير الدر المنثور، الجزء ۶، صفحة ۲۹.

[۱۱۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۱۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۱۲] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۵۲، صفحة ۲۰۹.

[۱۱۳] (۱)- يقول الراغب فى المفردات: الكرم إذا وصف اللّه تعالى به فهو اسم لإحسانه و إنعامه، نحو قوله\:i فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ E و إذا وصف ربّه الإنسان فهو اسم للأخلاق و الأفعال المحمودة التى تظهر منه.

و لقد ورد هذا الوصف لأمور أخرى أيضا القرآن المجيد، مثل: كتاب كريم، كل زوج كريم، رزق كريم مقام كريم، أجر كريم

[۱۱۴] (۲)-« أن» فى جملة\:i أَنْ أَدُّوا إِلَىَّ عِبادَ اللَّهِ E تفسير لفعل مقدر يفهم من الكلام السابق، و التقدير:(جئتكم أن أدّوا إلىّ عباد اللّه).

[۱۱۵] (۳)- كالآية ۱۷- الفرقان، و ۱۳- سبأ، و ۵۸- الفرقان، و غيرها.

[۱۱۶] (۱)- الشعراء، الآية ۱۱۶.

[۱۱۷] (۲)- مريم، الآية ۴۶.

[۱۱۸] (۳)- هود، الآية ۹۱.

[۱۱۹] (۴)- لسان العرب، ماده رجم.

[۱۲۰] (۱)-« نعمة» بفتح النون تعنى التنعم، و بكسرها تعنى الإنعام، و قد صرح جماعة من المفسّرين و أرباب اللغة بهذا المعنى، فى حين يعتقد جمع آخر أنّ للإثنين معنى واحدا يشمل كلّ المنافع التى تستحق الالتفات و النظر.

[۱۲۱] (۲)- فسّرت كلمة« فاكهين» بالاستمتاع بالفواكه تارة، و أخر بالأحاديث الفكاهية السارة، و ثالثة بالتنعم و التلذذ، و المعنى الأخير أجمع من الجميع.

[۱۲۲] (۳)-« كذلك» خبر لمبتدأ محذوف و التقدير: الأمر كذلك، و يستعمل هذا التعبير للتأكيد. و احتمل البعض احتمالات أخرى فى تركيبها.

[۱۲۳] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۶۵ ذيل الآية مورد البحث.

[۱۲۴] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۵] (۳)- المصدر السابق.

[۱۲۶] (۱)- روى فى الدر المنثور حديث فى باب الجمع بين هذه الروايات. الدر المنثور، طبقا لنقل الميزان، المجلد ۱۸، صفحة ۱۵۱.

[۱۲۷] (۲)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۵۳۱(مادة مدن).

[۱۲۸] (۱)- هنا اختلاف فى مرجع ضمير(هى) فأرجعه بعض المفسّرين الى(الموتة)، و هو المستفاد من سياق الكلام، و بناء على

هذا یکون المعنی: ما الموتة إلّا موتتنا الأولی(تفسیر التبیان و مجمع البیان و الکشاف).

فی حین اعتبر البعض الآخر مرجع الضمیر هو العاقبة و النهایة، و علی هذا یکون المعنی: ما عاقبة أمرنا إلّا الموتة الأولی(روح المعانی و المیزان) و لیس بینهما من تفاوت کثیر من ناحیة النتیجة.

[۱۲۹] (۱)- ذکر المفسّرون احتمالات أخری فی تفسیر هذه الجملة، و تبدو جمیعا بعیدة، و من جملتها: أنّهم فسّروا الموتة الأولی بالموت قبل الحیاة فی هذه الدنیا، و بناء علی هذا یکون معنی الآیة: إنّ الموت الذی تکون بعده حیاة هو الموت الذی متنا من قبل، أمّا الموت الثّانی فلا حیاة بعده أبدا.

[۱۳۰] (۲)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۶۶، و بعض التفاسیر الأخری.

[۱۳۱] (۱)- الجاثیة، الآیة ۲۴.

[۱۳۲] (۲)- سورة یس، الآیة ۷۸.

[۱۳۳] (۳)- شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید المعتزلی، المجلد ۱، صفحة ۱۱۷.

[۱۳۴] (۱)- بلوغ الأرب، المجلد ۲، صفحة ۳۱۱.

[۱۳۵] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۶] (۱)-« لاعب» من مادة(لعب)، و یقول الراغب فی المفردات: لعب فلان إذا کان فعله غیر قاصد به مقصدا صحیحا. و التثنیة فی(ما بینهما) من أجل أنّ المراد جنس السماء و الأرض.

[۱۳۷] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۶۶ ذیل الآیة مورد البحث، و أورد نظیر هذا المعنی فی تفسیر الدر المنثور، و کذلک ورد فی روح المعانی، المجلد ۲۵، صفحة ۱۱۶.

[۱۳۸] (۲)- مجمع البیان ذیل الآیة مورد البحث.

[۱۳۹] (۱)- روح المعانی، المجلد الأوّل ۲۵، صفحة ۱۱۸.

[۱۴۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۱] (۳)- أعلام القرآن، ص ۲۵۷- ۲۵۹(بتلخیص).

[۱۴۲] (۱)- احتمل المفسّرون احتمالات عدیدة فی مرجع الضمیر فی(میقاتهم) فالبعض أرجعه إلی کلّ البشر، و البعض خصوص الأقوام الذین أشیر إلیهم فی الآیات السابقة، أی قوم تبع و العصاة من قبلهم. غیر أنّ المعنی الأوّل هو الأصح.

[۱۴۳] (۱)- لقد ذکرت للمولی معان کثیرة فی اللغة، وعدها البعض سبعة و عشرین معنی: ۱- الرب ۲- العم ۳- ابن العم ۴- الابن ۵- ابن الأخت ۶- المعتق ۷- المعتق ۸- العبد ۹- المالک ۱۰- التابع ۱۱- المنعم علیه ۱۲- الشریک ۱۳- الحلیف ۱۴- الصاحب ۱۵- الجار ۱۶- النزیل ۱۷- الصهر ۱۸- القریب ۱۹- المنعم ۲۰- الفقید ۲۱- الولی ۲۲- الأولی بالشیء ۲۳- السید غیر المالک و المعتق ۲۴- المحبّ ۲۵- الناصر ۲۶- المتصرف فی الأمر ۲۷- المتولی فی الأمر.(الغدیر، المجلد ۱، صفحة ۳۶۲).

[۱۴۴] (۱)- نور الثقلین، المجلد ۴، صفحة ۶۲۹.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البیان، تفسیر روح البیان، تفسیر روح المعانی.

[۱۴۶] (۲)- لسان العرب مادة« زقم».

[۱۴۷] (۳)- مفردات الراغب مادة(زقم).

[۱۴۸] (۴)- تفسیر القرطبی، المجلد ۸، صفحة ۵۵۲۹ ذیل الآیة(۶۲) من سورة الصافات.

[۱۴۹] (۱)- عذاب الحمیم من قبیل الإضافة البیانیة، أی إنّ هذا الماء المحرق عذاب یصب علی هؤلاء.

[۱۵۰] (۱)- تفسیر المراغی، المجلد ۲۵، صفحة ۱۳۵ ذیل الآیات مورد البحث، و تفسیر روح المعانی، و التّفسیر الکبیر للفخر الرازی.

[۱۵۱] (۲)- سورة ق، الآیة ۱۱.

[۱۵۲] (۳)- سورة فاطر، الآیة ۹.

[۱۵۳] (۴)- سورة التغابن، الآیة ۷.

[۱۵۴] (۵)- سورة ق، الآیة ۱۵.

[۱۵۵] (۱)- سورة التوبة، الآیة ۷۲.

[۱۵۶] (۲)- سورة یس، الآیة ۵۸.

[۱۵۷] (۳)- سورة الحجر، الآیة ۴۷.

[۱۵۸] (۱)- ممّا یستحق الانتباه أنّ(أمین) قد ذکر وصفا للمقام، فکأن مقام أهل الجنّة أمین بنفسه و لا یخون أهل الجنّة مطلقا، و مثل هذه التعبیرات تأتی عادة للتأکید و المبالغة.

[۱۵۹] (۱)- سورة الحاقة، الآیة ۲۳.

[۱۶۰] (۲)- سورة الواقعة، الآیة ۲۰.

[۱۶۱] (۱)- ورد هذا التعبیر فی آیات کثیر من القرآن، و من جملتها: آل عمران- ۱۵، ۱۳۶ النساء- ۱۳، ۱۲۲، المائدة- ۸۵، و غیرها.

[۱۶۲] (۲)- سورة هود، الآیة ۱۱۰.

[۱۶۳] (۱)- احتملت عدّة احتمالات فی إعراب(فضلا): أحدها: إنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدیر: فضلهم فضلا، و الآخر: أنّه مفعول لأجله، أو أنّها حال.

[۱۶۴] (۱)- بناء علی هذا فإنّ الاستثناء أعلاه منقطع أیضا لأنّ أصحاب الجنّة لا یذوقون مثل هذا الموت، بل ذاقوه من قبل(فتأمل!).

[۱۶۵] (۲)- الحیاة و الموت فی البرزخ فی ذیل الآیة(۱۱) من سورة المؤمن.

[۱۶۶] (۱)- أصول الکافی، طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، المجلد ۴، صفحة ۶۳۴.

[۱۶۷] (۱)- تفسیر روح البیان، المجلد ۸، صفحة ۴۳۳.

[۱۶۸] (۱)- تفسیر مجمع البیان، بدایة سورة الجاثیة.

[۱۶۹] (۲)- تفسیر البرهان، بدایة سورة الجاثیة، المجلد ۴، ص ۱۶۷.

[۱۷۰] (۱)-(تنزیل الکتاب) خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر:(هذا تنزیل الکتاب)، ثمّ إنّ(تنزیل) مصدر جاء هنا بمعنی اسم المفعول، و هو من قبیل إضافة الموصوف إلی الصفة، و تقدیر الکلام: هذا کتاب منزل ...

[۱۷۱] (۱)- سورة فصلت، ۴۱.

[۱۷۲] (۱)- وردت بحوث مفصلة حول اختلاف اللیل و النهار، فی سورة البقرة- ذیل الآیة ۱۶۴ و فی سورة آل عمران ذیل الآیة ۱۹۰، و فی سورة یونس ذیل الآیة ۶، و فی ذیل الآیة ۷۱ من سورة القصص.

[۱۷۳] (۱)- لقد وردت بحوث مفصلة حول آثار الریاح و الأمطار فی ذیل الآیات ۴۶- ۵۰ من سورة الروم.

[۱۷۴] (۱)- للتعبیر ب(بعد اللّه) محذوف، و التقدیر: فبأی حدیث بعد حدیث اللّه.

[۱۷۵] (۱)- یمکن أن تکون عبادة(یسمع آیات اللّه) جملة مستأنفة، أو هی وصف آخر ل(کل).

[۱۷۶] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ ضمیر(اتخذها) لا یعود علی(شیئا)، بل علی(آیاتنا).

[۱۷۷] (۱)- سورة الدهر، الآیة ۲۷.

[۱۷۸] (۲)- قال البعض أیضا: إنّ کلمة(وراء) إنّ أضیفت إلی الفاعل أعطت معنی الوراء، و إن أضیفت إلی المفعول أعطت معنی الأمام.

روح البیان، المجلد ۸، صفحة ۴۳۹. لکن لا دلیل علی هذا المدعی.

[۱۷۹] (۱)- ثمّة احتمالات عدیدة فی إعراب(جمیعا منه) و ترکیبها، فقد احتمل الزمخشری فی الکشاف احتمالین: الأول: إنّ(جمیعا منه) حال ل(ما فی السموات و ما فی الأرض) أی إنّها جمیعا مسخرة لکم لکنّها منه سبحانه. و الآخر: إنّه خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: هی منه جمیعا.

و احتمل البعض أیضا أن تکون تأکیدا ل(ما فی السموات و ما فی الأرض).

[۱۸۰] (۱)- سورة الزخرف، الآیة ۸۹.

[۱۸۱] (۲)- تفسیر نور الثقلین، المجلد ۲، صفحة ۵۲۶.

[۱۸۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۸۳] (۱)- لقمان، الآیة ۱۲.

[۱۸۴] (۲)- الزمر، الآیة ۴۱.

[۱۸۵] (۳)- فاطر، الآیة ۱۸.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۷۵.

[۱۸۷] (۲)- بحار الأنوار، الطبعة الجدیدة، المجلد ۱۱ صفحة ۳۱.

[۱۸۸] (۱)- البقرة، الآیة ۱۴۶.

[۱۸۹] (۱)- التفسیر الکبیر للفخر الرازی، المجلد ۲۷، صفحة ۲۶۵.

[۱۹۰] (۱)- البقرة، الآیة ۲۵۷.

[۱۹۱] (۲)- ثمّة احتمالات أخری فی تفسیر الآیة المذکورة و من جملتها ما ذکر من أنّ المراد من جملة(سواء محیاهم و مماتهم) أنّ موت المجرمین الکافرین و حیاتهم واحد لا فرق فیه، فلا خیر فیهم و لا طاعة لهم حال حیاتهم، و لا فی موتهم، فهم أحیاء لکنّهم أموات، و علی هذا التّفسیر فإنّ کلا الضمیرین یعودان علی المجرمین.

و الاحتمال الآخر: أنّ المراد من الحیاة یوم القیامة، أی أنّ المؤمنین و الکافرین لا یتساوون عند الموت و عند بعثهم یوم القیامة. إلّا أن ظاهر الآیة هو ما ذکرناه أعلاه.

[۱۹۲] (۱)- نور الثقلین، المجلد ۲، صفحة ۲۰۹.

[۱۹۳] (۲)- تفسیر الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۳۵.

[۱۹۴] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد ۹، صفحة ۵۹۸۷، و تفسیر روح البیان، و تفسیر المراغی ذیل الآیات مورد البحث.

[۱۹۵] (۲)- النمل، الآیة ۱۴.

[۱۹۶] (۳)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۱۸۷.

[۱۹۷] (۴)- المجلد الأول، التّفسیر الأمثل، ذیل الآیة(۷) من سورة البقرة.

[۱۹۸] (۱)- الکهف، الآیة ۱۰۴.

[۱۹۹] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، صفحة ۷۵، ۷۶، ۷۷.

[۲۰۰] (۲)- المصدر السابق.

[۲۰۱] (۳)- المصدر السابق.

[۲۰۲] (۴)- أصول الکافی، المجلد ۲ باب أتباع الهوی الحدیث ۱.

[۲۰۳] (۵)- بحار الأنوار، المجلد ۷۰، صفحة ۷۶.

[۲۰۴] (۱)- تفسير المراغى، المجلد ۲۵، صفحة ۲۷.

[۲۰۵] (۱)- احتمل البعض احتمالا خامسا فى تفسير هذه الجملة، و هو أنّها إلى عقيدة التناسخ التى كان يعتقد بها جمع من- الوثنيين، حيث كانوا يقولون: إنّنا نموت دائما ثمّ نحيا فى أبدان أخرى فى هذا العالم. إلّا أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع جملة(و ما يهلكنا إلّا الدهر) و التى تتحدث عن الهلاك و الفناء فقط.(فتأمل!).

[۲۰۶] (۱)- تفسير مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۷۸.

[۲۰۷] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۵۹۹۱.

[۲۰۸] (۱)-« حجتهم» فى الآية المذكورة خبر كان، و(أن قالوا ...) اسمها.

[۲۰۹] (۱)- الكهف، الآية ۴۹.

[۲۱۰] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من الكتاب فى الآية أعلاه، هو الكتاب السماوى الذى أنزل على تلك الأمة. إلّا ظاهر الآية يدل على أنّه صحيفة الأعمال، خاصة بملاحظة الآية التالية، و أكثر المفسّرين على ذلك أيضا.

[۲۱۱] (۱)-

\i'i ورد فى رواية عن أمير المؤمنين على عليه السّلام\:E« إن للّه ملائكة ينزلون كلّ يوم يكتبون فيه أعمال بنى آدم\».E و يقول الشيخ الطوسى فى التبيان فى ذيل الآية مورد البحث بعد نقل هذه الرواية: و معنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقونه من ثواب و عقاب، و نلقى ما عداه ممّا أثبته الحفظة، لأنّهم يثبتونه جميعا.

[۲۱۲] (۱)-« حاق» من مادة(حوق)، و هى فى الأصل بمعنى الورود، و النّزول، و الإصابة، و الإحاطة. و قال البعض: إنّ أصلها(حق)- بمعنى التحقيق- فأبدلت القاف الأولى إلى واو، ثمّ إلى ألف.

[۲۱۳] (۱)- أعطينا التوضيح اللازم حول معنى(يستعتبون) و أصلها فى ذيل الآية(۵۷) من سورة الروم.

[۲۱۴] (۱)- تفسير مجمع البيان، بداية سورة الأحقاف.

[۲۱۵] (۲)- تفسير مجمع البيان، و نور الثقلين بداية سورة الأحقاف.

[۲۱۶] (۱)- لقد ورد هذا المعنى فى أربع آيات من القرآن، و طالعوا تفصيلا أكثر حول هذا المطلب فى ذيل الآية(۲۵) من سورة الزخرف من التّفسير الأمثل.

[۲۱۷] (۲)- نقرأ

\i'i فى حديث روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى أصول الكافى فى تفسير جملة(أو أثارة من علم) أنّه قال\:E« إنّما عنى بذلك علم أوصياء الأنبياء\».i نور الثقلين، المجلد ۵، صفحة ۹\.E\E

[۲۱۸] (۱)- جملة(إن افتريته) جملة شرطية حذف جزاؤها، و التقدير: إن افتريته أخذنى و عاجلنى بالعقوبة.

[۲۱۹] (۱)-« ما» فى جملة(ما تفيضون فيه) يمكن أن تكون موصولة، و تعنى التهم غير الصحيحة، و التى كان يعلمها النّبى صلى اللّه عليه و آله و سلّم و بناء على هذا فإنّ ضمير(فيه) يعود إليها. و إن كانت مصدرية فإنّ الضمير(فيه) يعود إلى القرآن أو إلى الحق، و هنا تكون(تفيضون) بمعنى الدخول فى عمل ما بقصد الإفساد و التخريب.

[۲۲۰] (۱)- آل عمران، الآية ۴۹.

[۲۲۱] (۱)- تفسير الفخر الرازى، المجلد ۲۸، صفحة ۸.

[۲۲۲] (۲)- جزاء الجملة الشرطية:(إن كان من عند اللّه) محذوف، و تقديره:(من أضل منكم).

[۲۲۳] (۱)- التعبير هنا ب(شاهد) بصيغة النكرة للتعظيم، و هو يوحى بأنّه كان شخصا معروفا عظيما.

[۲۲۴] (۱)- تفسير المراغى، المجلد ۲۶، صفحة ۱۴.

[۲۲۵] (۱)- كانت« زنيّرة» بكسر الزاى و تشديد النون من السابقات إلى الإسلام، و لذلك كان أبو جهل يؤذيها و يعذبها.

[۲۲۶] (۲)- تفسير القرطبى، المجلد ۹، صفحة ۶۰۰۹.

[۲۲۷] (۱)- بحث المفسّرون كثيرا فى معنى« اللام» فى(الذين آمنوا) إلّا أنّ أنسب الاحتمالات جميعا هو أن« اللام» بمعنى(فى) و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة: إنّ الكافرين قالوا فى المؤمنين، و لا يأتى فى هذه الحالة إشكال من جهة كون فعل(سبقونا) للغائب. فى حين أنّ البعض قد اعتبر اللام لام التعليل! و قال آخرون(الذين آمنوا) هنا مخاطبون، و جملة(سبقونا) بمعنى سبقتمونا!

[۲۲۸] (۱)-(إذ) فى هذه الآية ظرفية، و يعتقد البعض أنّها متعلقة(سيقولون)، و يقولون: إنّ وجود الفاء غير مانع. إلّا أنّ البعض الآخر- كالزمخشرى فى الكشاف- يرى أنّه بما أنّ الفعل بعدها ماض، و(سيقولون) فعل مضارع فلا يمكن أن يكون متعلقها، بل متعلقها محذوف، و التقدير:« و إذا لم يهتدوا به ظهر عنادهم» إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاما مع معنى الآية.

[۲۲۹] (۲)- الفرقان، الآية ۵.

[۲۳۰] (۱)- البقرة، الآية ۱۴۶.

[۲۳۱] (۲\)-i الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ E مبتدأ، و جملة(لا خوف عليهم) خبره، و الفاء لا تأتى مع الخبر إلّا فى الموارد التى يكون فى الجملة مفهوم الشرطية كالآية مورد البحث.

[۲۳۲] (۱)- راجع التّفسير الأمثل، سورة فصلت، الآية ۳۰.

[۲۳۳] (۱)-« التوصية» تتعدى عادة بمفعولين، غايته أنّ المفعول الثّانى يقترن بالباء أو(الى)، و بناء على هذا فإنّ(إحسانا) لا يمكن أن تكون المفعول الثّانى فى الجملة، إلّا أن نعتبر(وصينا) بمعنى(ألزمنا) التى تتعدى بمفعولين دون حاجة إلى حرف جر، أو أن نقول: إنّ فى الآية محذوفا، نقدره: و وصينا الإنسان بأن يحسن بوالديه إحسانا، ففى هذه الحالة تكون(إحسانا) مفعولا مطلقا لفعل محذوف.

[۲۳۴] (۱)-(حتى) هنا غاية لجملة محذوفة، و التقدير: و عاش الإنسان و استمرت حياته حتى إذا بلغ أشدّه. و اعتبرها البعض غاية ل(وصينا) أو لمراقبة الوالدين لولدهما، و كلاهما يبدو بعيدا، إذ لا تنتهى توصية اللّه سبحانه بالإحسان إلى الوالدين فى سن الأربعين، و لا تستمر مراقبة الوالدين لولدهما حتى يصل الأربعين.

[۲۳۵] (۲)- تفسير روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۱۷.

[۲۳۶] (۱)-« أوزعنى» من مادة(الإيزاع) التى وردت بعدّة معان: الإلهام، و المنع من الانحراف، و إيجاد العشق و المحبة، و التوفيق.

[۲۳۷] (۱)- الطبرسى فى مجمع البيان، و العلّامة الطباطبائى فى الميزان، و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير، و غيرهم فى ذيل الآية مورد البحث.

[۲۳۸] (۲)-(فى أصحاب الجنّة) متعلق بمحذوف هو حال لضمير(هم) و التقدير: حال كونهم موجودين فى أصحاب الجنّة.

[۲۳۹] (۱)-(وعد الصدق) مفعول مطلق لفعل محذوف، و التقدير: يعدهم وعد الصدق الذى كانوا يوعدون بلسان الأنبياء و الرسل.

[۲۴۰] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۱۶.

[۲۴۱] (۲)- فى ظلال القرآن، المجلد ۷، صفحة ۴۱۵.

[۲۴۲] (۱)-« و الذى قال» مبتدأ، و خبره- باعتقاد كثير من المفسّرين-(أولئك الذين) .. الذى ورد فى الآية التالية، و لا منافاة بين كون المبتدأ مفردا و الخبر- أولئك- جمعا، لأنّ المراد منه الجنس.

لكن يحتمل أيضا أن يكون خبره محذوفا، و تقديره الكلام:« و فى مقابل الذين مضى وصفهم الذى قال لوالديه» و فى هذه الحالة تكون الآية التالية مستقلة، كما أن آية\:i أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ\ ...E مستقلة.

[۲۴۳] (۲)- مفردات الراغب.

[۲۴۴] (۳)- أوردنا بحوثا أخرى حول معنى(أف) فى سورة الإسراء الآية ۲۳.

[۲۴۵] (۱)- جملـة(حقّ علیهم القول) إشارة إلی کلام اللّه الـذی قاله سـبحانه فی عقوبـة الکافرین و المجرمین، و التقدیر: حقّ علیهم القول بأنّهم أهل النّار ... و(فی أمم) فی محل حال.

[۲۴۶] (۱)-(من) فی(ممّا عملوا) للابتداء- أو کما تسمی نشویة- أو بمعنی التعلیل، أی: من أجل ما عملوا.

[۲۴۷] (۲)-« درک»- بسـکون الوسط- و درک- بفتحه- بمعنی أعمق نقطـة فی العمق، و جاءت- أحیانا- الـدرک- بالفتحة- بمعنی الخسارة، و الدرک- بالسکون- بمعنی فهم الشیء و إدراکه، لمناسبته الوصول إلی عمقه و حقیقته.

[۲۴۸] (۱)- أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، المجلد ۱۰، صفحة ۱۵۹، و نقل هذه الروایة بتفاوت یسیر فی مجلد ۹، صفحة ۶۰۱۷.

[۲۴۹] (۲)- یراجع لتفسـیر هـذه الآیة ذیل الآیة(۶۰) مـن سـورة الإسـراء. و ینبغی الالتفـات إلی أنّ« مروان بن الحکم» هـو ابن« أبی العاص»، و هذا بدوره ابن« أمیّة» أیضا.

[۲۵۰] (۱)-(یوم) ظرف متعلق بفعـل محـذوف یسـتفاد من الجمل التالیـة، و التقـدیر: و یوم یعرض الـذین کفروا علی النّار یقال لهم أذهبتم طیّباتکم ...

[۲۵۱] (۱)- الکهف، الآیة ۱۰۰.

[۲۵۲] (۲)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۲۳ ذیل الآیات مورد البحث.

[۲۵۳] (۱)- سورة ق، الآیة ۳۰.

[۲۵۴] (۱)- مجمع البحرین، مادة ذهب.

[۲۵۵] (۲)- تفسیر المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۲۴.

[۲۵۶] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۸۸.

[۲۵۷] (۲)- تفسیر البرهان، المجلد ۴، صفحة ۱۷۵، ذیل الآیة مورد البحث.

[۲۵۸] (۳)- سفینة البحار، الجزء الثانی، مادة کبد.

[۲۵۹] (۱)- فی ظلال القرآن، ذیل الآیات مورد البحث.

[۲۶۰] (۱)- طبقا لنقل المرحوم الشعرانی فی هامش تفسیر أبی الفتوح الرازی، المجلد ۱۰، صفحة ۱۶۵.

[۲۶۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۲] (۱)-« لتأفکنا» من مادة« إفک»، أی الکذب و الانحراف عن الحق.

[۲۶۳] (۱)-« عارض» من مادة(عرض)، و هنا بمعنی السـحاب الذی ینتشـر فی عرض السـماء، و ربّما کان هذا أحد علامات السحب الممطرة بأنّها تتسع فی ذلک الأفق ثمّ تصعد. و« الأودیة» جمع واد، و هو المنخفض و مجری السیول و المیاه.

[۲۶۴] (۱)- تفسـیر الفخر الرازی، المجلـد ۲۸، صفحة ۲۸، ذیـل الآیـات مورد البحث، و جـاء هـذا المعنی أیضا فی تفسـیر القرطبی، المجلد ۹، صفحة ۶۰۲۶.

[۲۶۵] (۱)-« تدمّر» من مادة تدمیر، و هو الإهلاک و الإفناء.

[۲۶۶] (۱)-« إن» فی جملـة(إن مکّنـاکم فیه) نافیـة و لـدینا شواهـد متعـددة من آیات القرآن الکریم وردت فی المتن. إلّا أنّ البعض اعتبرها شرطیة، أو زائدة و لا نری ذلک صوابا.

[۲۶۷] (۲)- الفجر، الآیات ۶ إلی ۸.

[۲۶۸] (۳)- یجدر الانتباه إلی أنّ الأبصار و الأفئدة وردت بصیغة الجمع، فی حین أنّ السمع قد ورد بصیغة المفرد، و یمکن أن یکون هذا الاختلاف بسبب أنّ للسـمع معنی المصدر، و المصدر یستعمل دائما بصیغة المفرد، أو لوحدة المسموعات أما تفاوت المرئیات و المدرکات.

[۲۶۹] (۴)- من فى(من شىء) زائدة و للتأكيد، أى لم ينفعهم أى شىء.

[۲۷۰] (۱)- المفعول الأوّل ل(اتخذوا) محذوف، و(آلهة) مفعولها الثانى، و(قربانا) حال، و التقدير: اتخذوهم آلهة من دون اللّه حال كونهم متقربا بهم، و يحتمل أيضا أن تكون(قربانا) مفعولا- لأجله. و قد احتملت احتمالات أخرى فى تركيب الآية، لكنّها لا تستحق الاهتمام.

[۲۷۱] (۲)- بناء على هذا فإنّ للآية محذوفا، و التقدير: و ذلك نتيجة إفكهم. و يحتمل أيضا أن لا يحتاج الآية إلى محذوف، و فى هذه الحالة يصبح المعنى: كان هذا كذبهم و افتراءهم، غير أنّ المعنى الأوّل يبدو هو الأنسب.

[۲۷۲] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ۵، صفحة ۱۹، باختصار يسير.

[۲۷۳] (۲)- ورد هذا الحديث الذى أوردنا ملخصه فى صحيح البخارى و مسلم و مسند أحمد بصورة مفصلة، طبقا لنقل فى ظلال القرآن، المجلد ۷، صفحة ۴۲۹.

[۲۷۴] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۹۲. و أورد هذه القصة باختلاف يسير ابن هشام فى تأريخه(السيرة النبوية)، المجلد ۲، صفحة ۶۲- ۶۳.

[۲۷۵] (۱)- لقد أوردنا تفسير هذه الجملة مفصلا فى ذيل الآية ۴۱ من سورة البقرة.

[۲۷۶] (۱)-« يجركم» من مادة(إجارة)، و قد وردت بمعان مختلفة: الإغاثة، الإنقاذ من العذاب الإيواء، و الحفظ.

[۲۷۷] (۱)- كان لنا بحث مفصّل حول إعجاز القرآن فى التّفسير الأمثل، ذيل الآية(۲۳) من سورة البقرة.

[۲۷۸] (۱)- طالع التفصيل حول هذا الموضوع، و أدلّة المعاد المختلفة فى ذيل آخر آيات سورة يس.

[۲۷۹] (۱)- الشورى، الآية ۴۳.

[۲۸۰] (۲)- سورة طه، الآية ۱۱۵.

[۲۸۱] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۹۴، ذيل الآيات مورد البحث.

[۲۸۲] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۱، صفحة ۵۸، حديث ۶۱، و يتحدث الحديث ۵۵، صفحة ۵۶، من المجلد المذكور بصراحة فى هذا الباب.

[۲۸۳] (۳)- الكافى، المجلد ۱، باب طبقات الأنبياء و الرسل، حديث ۳.

[۲۸۴] (۴)- الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۴۵.

[۲۸۵] (۵)- المصدر السابق.

[۲۸۶] (۶)- المصدر السابق.

[۲۸۷] (۱)- روضة الواعظين، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ۵، صفحة ۲۵.

[۲۸۸] (۲)-« بلاغ» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: هذا القرآن بلاغ، أو: هذا الوعظ و الإنذار بلاغ.

[۲۸۹] (۱)- سيرة ابن هشام، المجلد ۲، صفحة ۶۱.

[۲۹۰] (۲)- احتجاج الطبرسى طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ۵، صفحة ۲۳.

[۲۹۱] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، بداية سورة محمّد.

[۲۹۲] (۲)- ثواب الأعمال، طبقا لنقل نور الثقلين، المجلد ۵، صفحة ۲۵.

[۲۹۳] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، أوّل السورة.

[۲۹۴] (۲)- روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۳۳.

[۲۹۵] (۳)- الدر المنثور، المجلد ۶، ص ۴۶.

[۲۹۶] (۱)- روح المعانى، المجلد ۲۶، صفحة ۳۳.

[۲۹۷] (۱)- اعتبر جماعة من المفسّرين جملة(و هو الحق من ربّهم) جملة معترضة.

[۲۹۸] (۱)- سورة ص، الآية ۲۷.

[۲۹۹] (۱)-« ضرب» مصدر مفعول مطلق لفعل مقدر، و التقدير: اضربوا ضرب الرقاب، كما صرّحت الآية(۱۲) من سورة الأنفال بذلك إذ قالت\:i فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ E.

[۳۰۰] (۱)- ينقل صاحب لسان العرب عن ابن الأعرابى أنّ: أثخن: إذا غلب و قهر.

[۳۰۱] (۱)- كنز العرفان، المجلد ۱، صفحة ۳۶۵.

[۳۰۲] (۲)- الشرائع، كتاب الجهاد. شرح اللمعة، أحكام الغنيمة.

[۳۰۳] (۳)-« حتى» غاية ل(فضرب الرقاب). و احتملت احتمالات أخرى لا تستحق الاهتمام.

[۳۰۴] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۹۸.

[۳۰۵] (۲)-« ذلك» خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير: الأمر كذلك.

[۳۰۶] (۱)- مجمع البيان، المجلد ۹، صفحة ۹۸.

[۳۰۷] (۲)- آل عمران، الآية ۱۶۹.

[۳۰۸] (۳)- الميزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۴۴.

[۳۰۹] (۱)- آل عمران، الآية ۱۶۹.

[۳۱۰] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۰، صفحة ۱۵.

[۳۱۱] (۳)- المصدر السابق.

[۳۱۲] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۰، صفحة ۱۴.

[۳۱۳] (۱)- سفينة البحار، المجلد الأول، مادة شهد.

[۳۱۴] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۰، آخر الخطبة.

[۳۱۵] (۳)- سفينة البحار، المجلد الأول، مادة شهد.

[۳۱۶] (۴)- بحار الأنوار، المجلد ۷۱، صفحة ۲۷۲.

[۳۱۷] (۱)- التّفسير الأمثل، ذيل الآية ۱۹۳ من سورة البقرة.

[۳۱۸] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۱، صفحة ۶۹.

[۳۱۹] (۱)- يراجع فروع الكافى، المجلد ۵، صفحة ۳۵، باب الرفق بالأسير و إطعامه.

[۳۲۰] (۲)- المصدر السابق.

[۳۲۱] (۱)- التوبة، الآية ۶۰.

[۳۲۲] (۲)- كان لنا بحث مفصل حول المكاتبة و أحكامها الرائعة فى ذيل الآية(۳۴) من سورة النور.

[۳۲۳] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۴۱، صفحة ۴۳.

[۳۲۴] (۴)- الوسائل، المجلد ۱۶، صفحة ۳۲.

[۳۲۵] (۵)- نور الثقلين، المجلد ۱، ص ۳۹۰.

[۳۲۶] (۱)- وسائل الشيعة، المجلد ۱۶، صفحة ۳۶.

[۳۲۷] (۲)- المصدر السابق، صفحة ۳۷.

[۳۲۸] (۳)- الشرائع، کتاب العتق، وسائل الشیعة، المجلد ۱۶، صفحة ۲۱.

[۳۲۹] (۴)- الشرائع، کتاب العتق.

[۳۳۰] (۵)- وسائل الشیعة، المجلد ۱۶، صفحة ۲۶.

[۳۳۱] (۱)- الشرائع، کتاب القضاء.

[۳۳۲] (۲)- بحار الأنوار، المجلد ۷۴، صفحة ۱۴۱، حدیث ۱۱.

[۳۳۳] (۳)- المصدر السابق، صفحة ۱۴۴، حدیث ۱۹.

[۳۳۴] (۱)- المصدر السابق، صفحة ۱۴۲، حدیث ۱۳.

[۳۳۵] (۲)- تاریخ التمدّن، المجلد ۴، صفحة ۵۴.

[۳۳۶] (۳)- المستدرک، المجلد ۲، کتاب التجارة، باب ۱۹، حدیث ۱.

[۳۳۷] (۱)- بحار الأنوار، المجلد ۱۰۳، صفحة ۱۶۸، حدیث ۱۱.

[۳۳۸] (۲)- المیزان، الجزء ۶، صفحة ۳۶۸.

[۳۳۹] (۱)-« تعسا» مفعول مطلق لفعل مقدّر، و التقدیر: تعسهم تعسا، و جملة(أضلّ أعمالهم) عطف علی هذا الفعل المقدّر، و کلاهما بصیغة اللعنة، مثل(قاتلهم اللّه)، و من الواضح أنّ اللعنة من قبل اللّه تعنی وقوعها.

[۳۴۰] (۱)- الزمر، الآیة ۴۵.

[۳۴۱] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث.

[۳۴۲] (۳)- ضمیر« أمثالها» یعود إلی العاقبة التی تستفاد من الجملة السابقة.

[۳۴۳] (۴)- تفسیر روح المعانی، و روح البیان، و الفخر الرازی.

[۳۴۴] (۱، ۲)- المشار إلیه ب(ذلک) هی عاقبة المؤمنین الحسنة، و عاقبة الکافرین المشؤومة، و اللتان أشیر إلیهما فی الآیات السابقة.

[۳۴۵] (۱، ۲)- المشار إلیه ب(ذلک) هی عاقبة المؤمنین الحسنة، و عاقبة الکافرین المشؤومة، و اللتان أشیر إلیهما فی الآیات السابقة.

[۳۴۶] (۳)- فسّر البعض- کالآلوسی فی روح المعانی-« المولی» فی الآیة مورد البحث بالناصر، و فی آیة سورة یونس و أمثالها. بالمالک

[۳۴۷] (۱)- روح البیان، المجلد ۸، صفحة ۵۰۳.

[۳۴۸] (۱)- کما تأکل .. فی محل نصب مفعول مطلق مقدّر، و التقدیر: یأکلون أکلا کما تأکل الأنعام.

[۳۴۹] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۷۹.

[۳۵۰] (۱)- تفسیر القرطبی، المجلد ۹، صفحة ۶۰۵۵.

[۳۵۱] (۲)- لمزید من التفصیل حول هذا المطلب یراجع تفسیر الآیة(۸۵) من سورة القصص.

[۳۵۲] (۱)- للمفسّرین بحوث کثیرة حول ترکیب هذه الآیة الشریفة، و الأنسب منها جمیعا أن یقال:(مثل الجنّة) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدیر: مثل الجنّة التی وعد المتقون جنّة فیها أنهار، و هذه الآیة تشبه- فی الحقیقة- الآیة(۳۵) من سورة الرعد التی تقول\:i مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِی وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ\E.

[۳۵۳] (۲)- للجملة محذوف، و للتقدیر: لهم فیها أنواع من کل الثمرات.

[۳۵۴] (۱)- سورة المائدة، ۱۱۹.

[۳۵۵] (۲)- لقد وردت أبحاث کثیرة فی ترکیب هذه الآیة أیضا، و الأنسب منها جمیعا أنّ للآیة تقدیرا هو: أ فمن هو خالد فی الجنّة التی هذه صفاتها کمن هو خالد فی النّار؟

[۳۵۶] (۱)- سورة الصافات، ۴۷.

[۳۵۷] (۱)- مجمع البیان، تفسیر القرطبی، تفسیر فی ظلال القرآن، و تفاسیر أخری، فی ذیل الآیات مورد البحث، بتفاوت یسیر فی التعبیر.

[۳۵۸] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۳۷.

[۳۵۹] (۳)- یتّضح ممّا قلناه أنّ لیس المراد من جملة:(فقد جاء أشراطها) تحقق کلّ علامات القیامة و ظهورها فی عصر النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم بل المراد أنّ بعضها قد ظهر، و هو یخبر عن اقتراب القیامة، و إنّ کانت بعض الأشراط ستتحقق و تتّضح فیما بعد.

[۳۶۰] (۱)- روح المعانی، المجلد ۲۶، صفحة ۴۸.

[۳۶۱] (۱)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۱۰۲، ذیل الآیات مورد البحث.

[۳۶۲] (۱)- بناء علی هذا، فإنّ(متقلّب) اسم مفعول جاء هنا بمعنی المکان، إلّا أنّ جماعة یعتبرونه مصدرا میمیا یعنی الانتقال من حال الی حال. غیر أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب بملاحظة قرینة مقابلته بالمثوی الذی لا ریب فی کونه اسم مکان.

[۳۶۳] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم طبقا لنقل نور الثقلین، و تفسیر الصافی، ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۶۴] (۱)- اعتقد جماعة أنّ معنی الجملة یصبح: یلیه مکروه، و هو یعادل معنی ویل لهم.

[۳۶۵] (۲)-(طاعة) مبتدأ، و خبره محذوف، و التقدیر: طاعة و قول معروف أمثل لهم، و اعتبرها البعض خبرا لمبتدأ محذوف، و کان التقدیر: أمرنا طاعة، إلّا أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

[۳۶۶] (۳)- التوبة، الآیة ۸۱.

[۳۶۷] (۴)- الأحزاب، الآیة ۱۲.

[۳۶۸] (۵)- الأحزاب، الآیة ۱۸.

[۳۶۹] (۱)- بالرغم من أنّ القلیل من المفسّرین قد بحث فی ترکیب هذه الآیة، لکن یبدو أنّ(إن تولیّتم) جملة شرطیة وقعت بین اسم« عسی» و خبرها، و جزاء إن الشرطیة مجموع جملة(فهل عسیتم أن تفسدوا فی الأرض)، و التقدیر: إن تولیّتم عن کتاب اللّه فهل یترقب منکم إلّا الفساد فی الأرض؟

[۳۷۰] (۱)- راجع: نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۴۰.

[۳۷۱] (۲)- أصول الکافی، المجلد ۲، باب« من تکره مجالسته»، الحدیث ۷. أمّا الآیتان اللتان وردتا فی بقیة الحدیث فإحداهما الآیة(۲۵) من سورة الرعد، و الأخری الآیة(۲۷) من سورة البقرة، و قد ورد اللعن فی إحداهما صریحا، و فی الأخری کنایة و تلمیحا.

[۳۷۲] (۳)- التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۷۷) من سورة المائدة(نقلا عن الخصال).

[۳۷۳] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۳، المعروفة بخطبة همام.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلین، المجلد ۵، صفحة ۴۱.

[۳۷۵] (۱)- و لذلک فإنّ البعض قد فسّرها بمعنی الأمل، کما نقرأ ذلک فی الآیة(۳۶) من سورة طه\:i قَدْ أُوتِیتَ سُؤْلَکَ یا مُوسی .E

[۳۷۶] (۱)- ثمّة احتمالات عدیدة أخری فی تفسیر هذه الآیة، لا ینسجم أی منها مع الآیات السابقة و اللاحقة، و لذلک أعرضنا عن ذکرها.

[۳۷۷] (۲)- مجمع البیان، المجلد ۹، صفحة ۱۰۵.

[۳۷۸] (۱)- کیف، خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: فکیف حالهم ...

[۳۷۹] (۲)- النحل، الآیة ۳۲.

[۳۸۰] (۱)- توحید الصدوق، طبق نقل المیزان، المجلد ۱۸، صفحة ۲۶۶.

[۳۸۱] (۱)- اعتبر البعض(أم) فی الآیة أعلاه استفهامیة، و البعض الآخر اعتبرها منقطعة بمعنی بل، و یبدو أنّ الأوّل هو الأفضل.

[۳۸۲] (۱)- مجمع البیان، ذیل الآیات مورد البحث. ثمّ إنّ جماعة من کبار العامّة نقلوا مضمون هذا الحدیث فی کتبهم، و من جملتهم:

أحمد بن حنبل فی کتاب الفضائل، و ابن عبد البر فی الإستیعاب، و الذهبی فی تاریخ أوّل الإسلام، و ابن الأثیر فی جامع الأصول، و العلّامة الگنجی فی کفایة الطالب، و محب الدین الطبری فی الریاض النضرة، و السیوطی فی الدر المنثور، و الآلوسی فی روح المعانی، و أورده جماعة آخرون فی کتبهم، و هو یبیّن أنّها إحدی الروایات المسلمة عن الرّسول الأعظم صلی اللّه علیه و آله و سلّم لمزید من الإیضاح یراجع إحقاق الحق، المجلد الثّالث، صفحة ۱۱۰ و ما بعدها.

[۳۸۳] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الجملة ۲۶.

[۳۸۴] (۲)- التوبة، الآیة ۸۴.

[۳۸۵] (۱)- الأحزاب، الآیة ۱۵.

[۳۸۶] (۱)- الأحزاب، الآیة ۱۳.

[۳۸۷] (۱)- البقرة، الآیة ۲۶۴.

[۳۸۸] (۲)- روح البیان، المجلد ۸، صفحة ۵۲۲.

[۳۸۹] (۳)- بحار الأنوار، المجلد ۷۳، صفحة ۲۵۵.

[۳۹۰] (۴)- هود، الآیة ۱۱۴.

[۳۹۱] (۵)- الزمر، الآیة ۶۵.

[۳۹۲] (۱)- الکافی، المجلد الثانی، باب الریاء، الحدیث ۱۶.

[۳۹۳] (۲)- لمزید من الإیضاح و التفصیل حول مسألة إحباط العمل راجع ذیل الآیة(۲۱۷) من سورة البقرة.

[۳۹۴] (۱)-« تدعوا» مجزوم، و هو معطوف علی(لا تهنوا)، و المعنی: لا تهنوا و لا تدعوا إلی السلم.

[۳۹۵] (۱)- نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۳۹۶] (۱)- جملة(لا یسألکم) مجزومة، و معطوفة علی جزاء الجملة الشرطیة، أی: یؤتکم.

[۳۹۷] (۱)-« البخل» یتعدّی مرة بعن، و أخر بعلی، و علی الأوّل یعنی المنع، و علی الثّانی یعنی الإضرار.

[۳۹۸] (۱)- الدر المنثور، المجلد ۶، صفحة ۶۷.

[۳۹۹] (۲)- تفسیر مجمع البیان، الجزء ۹، صفحة ۱۰۸.

[۴۰۰] (۱)- مجمع البیان، سورة الفتح، و مثله فی تفسیر القمی و فی ظلال القرآن.

[۴۰۱] (۱)- مجمع البیان، الجزء التاسع، الصفحة ۱۰۸.

[۴۰۲] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۰۹.

[۴۰۳] (۲)- مجمع البیان الجزء التاسع، ص ۱۰۸.

[۴۰۴] (۳)- ثواب الأعمال طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۶.

[۴۰۵] (۱)- اختار هذا التّفسیر جماعة منهم أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، و الآلوسی فی روح المعانی، و الفیض الکاشانی فی تفسیر الصافی و العلّامة الطباطبائی فی المیزان .. فی حین أنّ بعض المفسّرین یرجحون أنّ المراد من هذا الفتح هو فتح مکّة کما هو فی

تفسیر التبیان للطوسی، و الکشاف للزمخشری و تفسیر الفخر الرازی و غیرهم .. أمّا العلّامة الطبرسی فقد جمع بین القولین فی مجمع البیان مع أقوال أخری إلّا أنّه یمیل إلی تفسیر الطائفة الثانیة ..

[۴۰۶] (۱)- الاعتمار مصدر من: اعتمر و العمرة أو اسم مصدر من عمر و کلا المصدرین بمعنی واحد و هو الزیارة مطلقا(لغة) غیر أنّه اصطلح علیهما فی زیارة بیت اللّه خاصّة.

[۴۰۷] (۱)- منقول بتصرّف یسیر عن تأریخ الطبری، ج ۲، ص ۲۸۱.

[۴۰۸] (۲)- بحار الأنوار، الجزء العشرون، ص ۳۵۲.

[۴۰۹] (۳)- راجع سیرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۲۱- ۳۲۴، تفسیر مجمع البیان و تفسیر فی ظلال القرآن و الکامل لابن الأثیر، ج ۲ و مصادر أخری مع شیء من التلخیص طبعا].

[۴۱۰] (۱)- جوامع الجامع« طبقا لنور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸، الحدیث التاسع».

[۴۱۱] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۶۸- ۳- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸.

[۴۱۲] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸.

[۴۱۳] (۱)- راجع فی هذا الصدد سورة فی الآیة ۴- ۷ و تفسیر الصافی نقلا عن عیون الأخبار- و راجع نور الثقلین الجزء الخامس، ص ۵۶.

[۴۱۴] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۱۴.

[۴۱۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۶] (۱)- الأحزاب، الآیة ۳۹.

[۴۱۷] (۲)- المائدة، الآیة ۵۴.

[۴۱۸] (۳)- الحدید، الآیة ۲۳.

[۴۱۹] (۴)- آل عمران، الآیة ۱۳۹.

[۴۲۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۱۶۵.

[۴۲۱] (۲)- الکافی، ج ۲، باب درجات الإیمان، حدیث ۱.

[۴۲۲] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۶، ص ۸۵ و تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۰، ص ۲۶ و تفسیر روح المعانی للآلوسی، ج ۲۶، ص ۸۶.

[۴۲۳] (۲)- طبقا لهذا البیان فإنّ جملتی« لیدخل» و کذلک« و یعذّب» اللتین هما فی الآیة التالیة معطوفان علی جملة لیغفر، و قد اختار جماعة من المفسّرین هذا الرأی کالشیخ الطوسی فی« التبیان» و الطبرسی فی« مجمع البیان» و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، غیر أنّ جماعة آخرین قالوا أنّ ما سبق آنفا معطوف علی جملة لیزدادوا إیمانا و هذا لا ینسجم مع شأن النّزول و لا مجازاة الکفّار.

[۴۲۴] (۱)-« سوء» علی زنة« نوع» کما یقول صاحب صحاح اللغة فیه معنی مصدری، و السوء) علی وزن(نور) اسم مصدر، غیر أنّ صاحب الکشّاف یقول أنّ کلیهما، بمعنی واحد.

[۴۲۵] (۱)- نهج البلاغة.

[۴۲۶] (۱)- الأحزاب، الآیتان ۱۰- ۱۱.

[۴۲۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۳۸۴.

[۴۲۸] (۳)- بحار الأنوار ج ۷۰، ص ۳۸۵.

[۴۲۹] (۴)- المصدر السابق.

[۴۳۰] (۱)- النور، الآیة ۲۴.

[۴۳۱] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۲.

[۴۳۲] (۳)- مرّ البحث عن الشهود فی محکمة القیامة ذیل الآیات ۲۰- ۲۲ من سورة فصلت.

[۴۳۳] (۱)- منهم الزمخشری فی« الکشاف» و الآلوسی فی« روح المعانی» و« الفیض الکاشانی» فی تفسیر الصافی و« العلّامة الطباطبائی فی المیزان».

[۴۳۴] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ کلمة(علیه) فی الآیة الآنفة جاءت علی خلاف ما نعهده، إذ ضمّ الضمیر و هو الهاء هنا، و قد وجّه بعض المفسّرین إلی أنّ هذا أصله« هو» و بعد حذف الواو یأتی مضمونا أحیانا مثل له و عنه و یأتی مکسورا أحیانا لأنه یلی الیاء ککلمة« علیه اللّه» و حیث أنّ کلمة« علیه» هنا تلاها لفظ الجلالة فقد ضم الضمیر فی« علیه» ینسجم مع تضخیم اللام فی لفظ الجلالة« اللّه».

[۴۳۵] (۱)-« النکث» بفتح النون مصدر و« النکث» بکسر النون اسم مصدر.

[۴۳۶] (۲)- بحار الأنوار، الجزء ۶۷، الصفحة ۱۸۶.

[۴۳۷] (۱)- نهج البلاغة: من رسالة له« برقم ۵۹».

[۴۳۸] (۲)- أسلوب الجملة و نظمها کان ینبغی أن یکون: فقل:« إنّا اعتدنا لهم سعیرا»: إلّا أنّ القرآن حذف الضمیر خاصة و جعل مکانه الاسم الصریح« الکافرین» لیبیّن أنّ علة هذا المصیر المشؤوم هو الکفر بعینه ...

[۴۳۹] (۱)- سورة الزخرف، ۲۳.

[۴۴۰] (۱)- الأنعام، الآیة ۱۴۸.

[۴۴۱] (۲)- الأحزاب، الآیة ۱۳.

[۴۴۲] (۳)- التوبة، الآیة ۴۹.

[۴۴۳] (۴)- الأعراف، الآیة ۱۲.

[۴۴۴] (۵)- سورة الأحزاب، ۶۷.

[۴۴۵] (۱)- سیرة ابن هشام، الجزء ۳، الصفحة ۳۶۴.

[۴۴۶] (۱)- مجمع البیان ذیل الآیات محل البحث.

[۴۴۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۹۹.

[۴۴۸] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۵۶.

[۴۴۹] (۲)- مقدمة ابن خلدون، صفحة ۱۷۴.

[۴۵۰] (۱)- الممتحنة، الآیة ۱۲.

[۴۵۱] (۱)- نقرأ فی حادثة کربلاء

i\ أنّ الإمام الحسین علیه السّلام خطب أصحابه لیلة العاشر من المحرم و أحلّ بیعته من أصحابه بعد أن أظهر تقدیره لهم و شکرهم علی مواساتهم إیّاه لینطلقوا حیث یشاءون فقال:« انطلقوا فی حلّ منّی لیس علیکم منّی ذمام» لکنّهم لم یترکوا الحسین علیه السّلام و بقوا علی وفائهم i[الکامل: لابن الأثیر، ج ۴، ص ۵۷\].E\E

[۴۵۲] (۱)- النساء، الآیة ۵۹.

[۴۵۳] (۱)- الخصال: باب الثلاثة- الحدیث ۷۰.

[۴۵۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۱۸۵.

[۴۵۵] (۳)- نهج البلاغة الخطبة ۳۴.

[۴۵۶] (۴)- نهج البلاغة الخطبة ۱۳۶.

[۴۵۷] (۱)- نهج البلاغة من كتاب له عليه السّلام رقم ۱.

[۴۵۸] (۲)- من كتاب له رقم ۶، و ينبغى الالتفات إلى أنّ التعويل على بيعة الخلفاء السابقة هو لأنّ معاوية كان منصوبا من قبلهم و كان يدافع عنهم فلا منافاة بين هذا و ما جاء فى الخطبة المعروفة بالشقشقية.

[۴۵۹] (۳)- نهج البلاغة: من كتاب له برقم ۷.

[۴۶۰] (۱)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۸۷.

[۴۶۱] (۲)- نهج البلاغة: الخطبة رقم ۲.

[۴۶۲] (۱)- أخرى: هنا صفة لمحذوف تقدير(و مغانم أخرى لم تقدروا عليها) و هى منصوبة لعطفها على(وعدكم اللّه مغانم كثيرة) ..

[۴۶۳] (۱)- نقلا بتلخيص عن الكامل فى التاريخ لابن الأثير] ج ۲، ص ۲۱۶- ۲۲۱.

[۴۶۴] (۱)-(مجمع البيان) ج ۹، ص ۱۲۳، مع شىء من التصرف كما ذكر هذا الشأن(القرطبى) بتفاوت يسير و(أبو الفتوح الرازى) و(الآلوسى فى روح المعانى) و(الشيخ الطوسى فى التبيان) و(المراغى) و أضرابهم.

[۴۶۵] (۱)-« معكوفا» مشتق من العكوف و معناها المنع عن الحركة و البقاء فى المكان.

[۴۶۶] (۲)- البقرة، الآية ۱۱۴.

[۴۶۷] (۱)- جواب لولا فى الجملة الآنفة محذوف و التقدير: لمّا كفّ أيديكم عنهم، أو: لوطأتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم ..

[۴۶۸] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۰، و روايات أخر متعددة وردت أيضا فى هذا المجال!.

[۴۶۹] (۱)- يستوفى الفعل(جعل) مفعولا واحدا أحيانا و ذلك إذا كان معناه« الإيجاد» كالآية محل البحث و فاعله الذين كفروا و مفعوله الحمية و المراد بالإيجاد هنا البقاء على هذه الحالة و التعلّق بها، و قد يستوفى هذا الفعل(جعل) مفعولين و ذلك إذا كان بمعنى(صار).

[۴۷۰] (۱)- الدر المنثور، الجزء ۶، ص ۸۰.

[۴۷۱] (۲)- أصول الكافى طبقا لما نقل فى تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳.

[۴۷۲] (۱)- خصال الصدوق: عن نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳.

[۴۷۳] (۲)- المصدر السابق، ص ۷۴.

[۴۷۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۳۹.

[۴۷۵] (۲)- نهج البلاغة الخطبة القاصعة ۱۹۲.

[۴۷۶] (۳)- نهج البلاغة: المصدر السابق.

[۴۷۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۳، الحديث السبعون.

[۴۷۸] (۱)-« صدق» فعل ماض قد يستوفى مفعولين كما هى الحال فى الآية الآنفة فرسوله مفعول به أوّل و الرؤيا مفعول ثان، و قد يستوفى فى هذا الفعل مفعولا واحدا يتعدّى إلى المفعول الثّانى بفى كقولك صدقته فى حديثه.

[۴۷۹] (۱)- التعبير ب« من دون ذلك» إمّا بمعنى قبل ذلك، أى قبل أداء العمرة يفتح اللّه عليكم فتحا قريبا فى السنة المقبلة، أو بمعنى« غير ذلك» أى سينال المؤمنون فتحا قريبا غير زيارة بيت اللّه و العمرة أيضا.

[۴۸۰] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۷۶.

[۴۸۱] (۱)- مجمع البیان للطبرسی، ج ۹، ص ۱۲۷- فی ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۱۱، تاریخ الطبری، ج ۲، ص ۳۱۰ مع شیء من التلخیص ..

[۴۸۲] (۱)- یجری علی ألسنة الناس و بعض الأدباء قولهم هذا أسلوب شیّق، و هذا التعبیر خطأ، و الصحیح« شائق» أی مثیر للشوق أمّا الشیّق فهو المشتاق(المصحّح).

[۴۸۳] (۱)- تفسیر مجمع البیان، الجزء ۵، ص ۲۵، القرطبی نقل هذه الروایة عن النّبی أیضا ذیل الآیة ۵۵ من سورة النور، ج ۷، ص ۴۶۹۲.

[۴۸۴] (۱)- سیماهم: مبتدأ و« فی وجوههم» خبره و« من أثر السجود» قد یکون حالا عن السیماء و الأفضل أن تعد(من) نشویة أی: « سیماهم فی وجوههم و هذه السیماء و العلامة من أثر سجودهم».

[۴۸۵] (۱)-« من لا یحضره الفقیه» و« روضة الواعظین»، طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۸.

[۴۸۶] (۲)- هناک کلام بین المفسّرین فی جملة« و مثلهم فی الإنجیل» أ هی جملة مستقلة و وصف آخر عن أصحاب محمّد صلی اللّه علیه و آله و سلّم غیر ما وصفوا فی التوراة، أم هی معطوفة علی جملة ذلک مثلهم فی التوراة؟ فیکون الوصفان مذکورین فی کتابین سماویین! الظاهر أنّ الآیة ذکرت الوصفین کلّا علی حدة فی کتاب سماوی و لذلک کرّرت کلمة« مثلهم» و لو کان هذا الوصف معطوفا علی السابق لاقتضت الفصاحة أن یکون التعبیر: ذلک مثلهم فی التوراة و الإنجیل.

[۴۸۷] (۱)- یری کثیر من المفسّرین أنّ اللام فی جملة« لیغیظ بهم الکفّار» هی لام التعلیل، فیکون مفهوم الجملة: إنّ هذه القوّة و القدرة جعلها اللّه نصیب أصحاب محمّد لیغیظ بهم الکفّار ..

[۴۸۸] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۹، ص ۶۱.

[۴۸۹] (۲)- صحیح مسلم، ج ۱، الحدیث ۳۹.

[۴۹۰] (۱)- أصول الکافی- طبقا لتفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۷، الحدیث ۹۱.

[۴۹۱] (۱، ۲، ۳)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۲] (۱، ۲، ۳)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۳] (۱، ۲، ۳)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۲۱.

[۴۹۴] (۴)- کان« ثابت بن قیس» خطیب الأنصار و خطیب النّبی صلی اللّه علیه و آله و سلّم کما کان حسّان بن ثابت شاعره أسد الغابة، ج ۱، ص ۲۲۹].

[۴۹۵] (۱)- نقل ذلک القرطبی فی تفسیره، ج ۹، ص ۶۱۲۱، و سید قطب فی ظلاله، ج ۷، ص ۵۲۴، و ابن هشام فی سیرته ص ۲۰۶ فما بعد(مع شیء من التفاوت و الاختلاف) کما ورد فی صحیح البخاری، ج ۶، ص ۱۷۲، فی تفسیره سورة الحجرات ..

[۴۹۶] (۱)- ورد الفعل« لا تقدموا» علی صیغة الفعل المتعدی إلا أن المفعول محذوف هنا و تقدیره: لا تقدموا أمرا بین یدی الله و رسوله و قد احتمل بعضهم أن هذا الفعل لازم هنا و مفهومه لا تتقدموا بین یدی الله و بالرغم من أن الفعلین مختلفان شکلا إلا أن المعنی أو النتیجة واحدة ..

[۴۹۷] (۱)- لمزید الاطلاع بحثنا مسألة الحبط فی ذیل الآیة(۲۱۷) من سورة البقرة فلیراجع.

[۴۹۸] (۲)- یراجع مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۰، و قد ورد هذا الحدیث بتفاوت فی بعض الکلمات عند کثیر من المفسّرین و لا سیما البخاری فی صحیحه و سید قطب فی ظلاله و غیرهما.

[۴۹۹] (۳)-« اللام» فی کلمة« التقوی» فی الحقیقة هی لام الغایة و لیست(لام العلّة) أی أنّ اللّه یجعل قلوب أولئک مهیّأة للقبول و التقوی، لأنّ القلب إذا لم یخلص و لم یصف فلا یکون محلا للتقوی حقیقة.

[۵۰۰] (۱)- بیوت جمع بیت و هـذا اللفظ یطلق علی الغرفـة الواحـدة[أو مجموع الغرف فی مکان واحد لعائلة معیّنة] و هو مشـتقّ من المبیت لیلا ...

[۵۰۱] (۱)- نهج البلاغة الحکمة- ۵.

[۵۰۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۶۸.

[۵۰۳] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۷.

[۵۰۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۰۵] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان و تفسیر الفخر الرازی، ذیل الآیة ۲ سورة المؤمنون.

[۵۰۶] (۲)- بحار الأنوار، ج ۲۷، ص ۲۵۵.

[۵۰۷] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۳، ص ۴۵۰، باب آداب الصحبة و المعاشرة.

[۵۰۸] (۲)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۲۵.

[۵۰۹] (۱)- أصول الکافی- طبقا لما نقل فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۸۰.

[۵۱۰] (۱)- نقل هـذا الحدیث کثیر من المؤرخین و المحدّثین و منها ما ورد فی الجزء السابع من وسائل الشـیعة، الصـفحة ۱۲۵، باب من یصح منه الصوم مع شیء من التلخیص.

[۵۱۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۳۸۶(بشیء من التصرّف و الاختصار).

[۵۱۲] (۱)- ذکر هذه القصة مؤرّخون کثر فی کتب التاریخ الإسـلامی و هی من الحوادث المهمّة فی تاریخ الإسـلام« لمزید الاطلاع یراجع کتاب المراجعات- المراجعة ۹۰- منه».

[۵۱۳] (۲)- صحیح مسلم، ج ۳، کتاب الوصیة، الحدیث ۲۲.

[۵۱۴] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲.

[۵۱۵] (۲)- القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۳۱.

[۵۱۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲، کما ورد فی تفسیر نور الثقلین بصورة مسهبة، ج ۵، ص ۸۱.

[۵۱۷] (۱)- یتصوّر بعضـهم أنّ المسألـة هنا من قبیل مفهوم الشـرط و مفهوم الشـرط حجّة، فی حین أنّه لا علاقة هنا بمفهوم الشـرط، إضافـة الی ذلـک فإنّ الجملـة الشـرطیة هنا لبیان الموضوع و نعرف أنّه فی مثل هـذه الموارد لا مفهوم للجملـة الشـرطیة أیضا فلاحظوا بدقّة.

[۵۱۸] (۱)- کلمة« لعنتّم»: مشـتقّة من مادة العنت و معناه الوقوع فی عمل یخاف الإنسان عاقبته أو الأمر الذی یشقّ علی الإنسان، و من هنا قیل للألم الحاصل من العظم المکسور عند تعرّضه للضربة بأنّه عنت ..

[۵۱۹] (۱)-(فضـلا و نعمـة) نصـبا علی أنّهمـا[مفعولاـن لأـجله للفعـل حبّـب إلیکم أو أنّهمـا مفعولاـن مطلقـان لفعلین محـذوفین و تقدیرهما: هکذا أفضل فضلا و أنعم نعمة ..

[۵۲۰] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الحب فی اللّه و البغض فی اللّه، الحدیث ۵.

[۵۲۱] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۸۳، و ص ۸۴.

[۵۲۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۲.

[۵۲۳] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۳۶.

[۵۲۴] (۲)- مع أنّ کلمة(طائفتان) مثنی طائفة، إلّا أنّ فعلها جاء بصیغة الجمع اقتتلوا لأنّ کلّ طائفة مؤلفة من مجموعة من الأفراد.

[۵۲۵] (۱)- تفسیر المیزان ج ۱۸، ص ۳۴۲.

[۵۲۶] (۲)- کلمة« المقسطین» مأخوذة من القسط و معناها فی الأصل التقسیم بالعدل، و حین ترد علی صیغة الفعل الثلاثی قسط علی زنة ضرب تعنی الظلم و التجاوز علی حصّة الآخرین ظلما، إلّا أنّه حین تأتی ثلاثی مزید فیقال« أقسط» فإنّها تعنی إعطاء الحصة عدلا، و هل القسط و العدل بمعنی واحد أم لا؟ هناک بحث ذکرناه فی ذیل الآیة(۲۹) من سورة الأعراف لا بأس بمراجعتها ...

[۵۲۷] (۱)- کنز العرفان فی فقه القرآن، کتاب الجهاد، باب أنواع أخر من الجهاد- الجزء الأول، ص ۳۸۶.

[۵۲۸] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۳، ص ۳۳۲(کتاب الصحبة و المعاشرة) الباب الثانی.

[۵۲۹] (۲)- المصدر السابق.

[۵۳۰] (۱، ۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۳۳(باب أخوة المؤمنین بعضهم لبعض الحدیث ۳ و ۴).

[۵۳۱] (۱، ۲)- أصول الکافی، ج ۲، ص ۱۳۳(باب أخوة المؤمنین بعضهم لبعض الحدیث ۳ و ۴).

[۵۳۲] (۱) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۲۳۶.

[۵۳۳] (۱)- راجع تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۵، و القرطبی فی تفسیره، إذ ذکر هذا الشأن مع شیء من التفاوت.

[۵۳۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۶.

[۵۳۵] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۵، ص ۲۶۹.

[۵۳۶] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب التهمة و سوء الظن، الحدیث ۳، و قد ورد شبیه هذا المعنی فی نهج البلاغة مع شیء من التفاوت فی« الکلمات القصار، رقم ۳۶۰».

[۵۳۷] (۲)- یوسف، الآیة ۸۷.

[۵۳۸] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۵، ص ۲۶۸.

[۵۳۹] (۲)- غرر الحکم الصفحة ۶۹۷.

[۵۴۰] (۱)- المحجّة البیضاء ج ۵، ص ۲۵۳.

[۵۴۱] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۵۲.

[۵۴۲] (۱)- المصدر السابق.

[۵۴۳] (۲)- أصول الکافی، ج ۲، باب الغیبة، الحدیث ۱- الآکلة نوع من الأمراض الجلدیة.

[۵۴۴] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸، الباب ۱۵۷، الحدیث ۲، الصفحة ۶۰۸.

[۵۴۵] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الغیبة و البهت، الحدیث ۷.

[۵۴۶] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۹۰، کما ورد فی تفسیر القرطبی ص ۶۱۶۰ ج ۹.

[۵۴۷] (۱)- المصدر السابق.

[۵۴۸] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۶۱.

[۵۴۹] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۱۶۲، و التعبیر« بالأحمر» فی هذه الروایة لا یعنی من بشرته حمراء بل من بشرته حنطیّة لأنّ أغلب الناس فی ذلک المحیط کانوا بهذه الصفة و من الطریف أن یطلق الأحمر علی الحنطة أیضا

[۵۵۰] (۴)- المصدر السابق.

[۵۵۱] (۱)- صحیح مسلم طبقا لما نقل فی ظلال الإسلام، ج ۷، ص ۵۳۸.

[۵۵۲] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۳۸.

[۵۵۳] (۲)- البقرة، الآیة ۱۹۷.

[۵۵۴] (۳)- الأعراف، الآیة ۲۶.

[۵۵۵] (۴)- المدّثر، الآیة ۵۶.

[۵۵۶] (۵)- البقرة، الآیة ۲۸۲.

[۵۵۷] (۱)- الحجرات، الآیة ۳.

[۵۵۸] (۲)- سورة التوبة: ۱۰۸.

[۵۵۹] (۱)- بحار الأنوار ج ۷۰، ص ۱۲۶.

[۵۶۰] (۲)- نهج البلاغة الخطبة رقم ۱۶.

[۵۶۱] (۳)- نهج البلاغة الخطبة ۱۵۷.

[۵۶۲] (۴)- نهج البلاغة الخطبة ۱۹۰.

[۵۶۳] (۱)- تفسیر المیزان و روح البیان و فی ظلال القرآن، ذیل الآیات محل البحث.

[۵۶۴] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۳۸.

[۵۶۵] (۱)- الکافی، ج ۲، باب أنّ الإسلام یحقن به الدم، الحدیثان ۱، ۲.

[۵۶۶] (۲)- المصدر السابق.

[۵۶۷] (۳)- أصول الکافی، ج ۲، باب أنّ الإیمان یشرّک الإسلام، الحدیث ۳.

[۵۶۸] (۴)- فعلی هذا یکون الفعل لیت أجوف یائیا و إن کان الفعل ولت بهذا المعنی أیضا.

[۵۶۹] (۱)- مجمع البیان، المیزان، روح البیان، و تفسیر القرطبی.

[۵۷۰] (۱)- یشیع علی ألسنة بعضهم التعبیر ب« صفاته عین ذاته و ذاته عین صفاته» و ما أشبه ذلک و هذا التعبیر رکیک و الصحیح ما ورد فی المتن(المصحّح).

الجزء السابع عشر

سورة ق

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها خمس و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷

سورة ق

محتوی السورة:

إنّ محور بحوث هـذه السورة هو موضوع «المعاد» و جمیع هـذه الآیات- تقریبا- تدور حول هذا المحور و بعض المسائل الاخری التی لها تعلّق به أیضا.

و من المسائل المرتبطة بالمعاد تمت الإشارة فی هذه السورة إلی الأمور التالیة:

۱- إنکار الکافرین مسألة المعاد و تعجّبهم منها «المراد بالمعاد هنا هو المعاد الجسمانی».

۲- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الالتفات إلی مطلق التکوین و الخلق و خاصّة إحیاء الأرض المیتة بنزول الغیث.

۳- الاستدلال علی مسألة المعاد عن طریق الالتفات إلی الخلق الأوّل.

۴- الإشارة إلی مسألة ثبت الأعمال و الأقوال لیوم الحساب.

۵- المسائل المتعلّقة بالموت و الانتقال من هذه الدنیا إلی الدار الاخری.

۶- جانب من حوادث یوم القیامة و أوصاف الجنّة و النار.

۷- إشارة إلی حوادث نهایة هذا العالم المذهلة و المثیرة التی تعتبر بدورها بدایة العالم الآخر! و فی الأثناء إشارات (موجزة و ذات تأثیر بلیغ) عن حال الأمم الماضیة و طغیانها و عاقبتها الوخیمة أمثال قوم فرعون و عاد و قوم لوط و قوم شعیب و قوم تبع و ما ورد من تعلیمات للنبی فی التوجّه إلی اللّه تعالی .. کما وردت فی بدایة السورة و نهایتها إشارة موجزة إلی عظمة القرآن!.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸

فضیلة تلاوة سورة «ق»:

یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أنّ النّبی کان یهتمّ اهتماما کبیرا بسورة «ق» حتّی أنّه کان یقرؤها فی خطبة صلاة کلّ یوم جمعة[۱].

کما ورد فی حدیث آخر أنّه کان یقرؤها فی کلّ عید و جمعة[۲] و إنّما کان ذلک فلأنّ یومی الجمعة و العید یومان یتیقّظ فیهما الناس و ینتهبون، و فیما تکون العودة إلی الفطرة الاولی، و التوجّه إلی اللّه و یوم الحساب، و حیث أنّ آیات هذه السورة تتحدّث عن مسائل المعاد و الموت و حوادث یوم القیامة و أنّ لاسلوبها تأثیرا بالغا فی إیقاظ الناس من الغفلة و تربیتهم، لذلک کانت موضع اهتمام النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم.

و

قد ورد فی بعض أحادیث النّبی صلّی اللّه علیه و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة (ق) هوّن اللّه علیه تارات الموت و سکراته»[۳].

کما

ورد عن الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من أدمن فی فرائضه و نوافله سورة (ق) وسّع اللّه فی رزقه و أعطاه کتابا بیمینه و حاسبه حسابا یسیرا».

و لا حاجة للتذکیر بأنّ کلّ هذه الفضیلة و الفخر لا یحصل بقراءة الألفاظ فحسب، بل القراءة هی بدایة لتیقّظ الأفکار، و هی بدورها مقدّمة للعمل الصالح و الانسجام مع محتوی السورة هذه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹

الآیات [سورة ق (۵۰): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِیدِ (۱) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْکافِرُونَ هذا شَیْءٌ عَجِیبٌ (۲) أَ إِذا مِتْنا وَ کُنَّا تُراباً ذلِکَ رَجْعٌ بَعِیدٌ (۳)

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا کِتابٌ حَفِیظٌ (۴)

بَلْ کَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِی أَمْرٍ مَرِیجٍ (۵)

التّفسیر

المنکرون المعاندون فی أمر مریج!

مرّة اخرى نواجه هنا بعض الحروف المقطّعة! و هو الحرف «ق»، و كما قلنا من قبل أنّ واحدا من التفاسير المتينة هو أنّ هذا القرآن على عظمته مؤلّف من حروف بسيطة هى ألف باء إلخ .. و هذا يدلّ على أنّ مبدع القرآن و منزله لديه علم لا محدود و قدرة مطلقة بحيث خلق هذا التركيب الرفيع العالى من هذه الوسائل البسيطة المألوفة! و بالطبع فإنّ هناك تفاسير أخر للحروف المقطّعة و يمكن مراجعتها فى بدايات سور «البقرة، آل عمران، الأعراف و سور حم أيضا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰

قال بعض المفسّرين أنّ «ق» إشارة إلى بعض أسماء اللّه تعالى «كالقادر و القيّوم» و ما إلى ذلك من الأسماء المبدوءة بحرف القاف.

كما ورد فى كثير من التفاسير أنّ «ق» اسم لجبل عظيم يحيط بالكرة الأرضية! و لكن أى جبل هو بحيث يحيط بالكرة الأرضية أو مجموع العالم؟! و ما المراد منه؟ ليس هنا محلّ الكلام عنه! لكن ما ينبغى ذكره هنا أنّه من البعيد جدّا أن يكون «ق» فى هذه السورة إشارة إلى جبل قاف! لأنّه ليس هذا لا يتناسب مع مواضيع السورة و ما ورد فيها فحسب، بل حرف «القاف» هنا كسائر الحروف المقطّعة الواردة فى بدايات السور فى القرآن، أضف إلى ذلك لو كان «ق» إشارة إلى جبل «قاف» لكان ينبغى أن يقترن بواو القسم كقوله تعالى: و الطور و أمثال ذلك، و ذكر كلمة ما من دون مبتدأ و لا خبر أو واو القسم لا مفهوم لها.

ثمّ بعد هذا كلّه، فإنّ الرسم القرآنى لجميع المصاحف هو ورود الحرف «ق» مفردا، فى حين أنّ جبل «قاف» يكتب رسمه على هيئة اسمه الكامل «قاف».

و من جملة الأمور التى تثبت على أنّ هذا الحرف «ق» هو من الحروف المقطّعة المذكورة لبيان عظمة القرآن هو مجىء القسم مباشرة- بعد هذا الحرف- بالقرآن المجيد إذ يقول سبحانه: ق وَ الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ.

كلمة «المجيد» مشتقّة من المجد و معناها الشرف الواسع، و حيث أنّ القرآن عظمته غير محدودة و شرفه بلا نهاية، فهو جدير بأن يكون مجيدا من كلّ جهة، فظاهره رائق، و محتواه عظيم، و تعاليمه عالية، و مناهجه مدروسة، تبعث الروح و الحياة فى نفوس العباد.

و لسائل أن يسأل: ما المراد من ذكر هذا القسم؟ أو ما هو المقسم له؟! هناك بين المفسّرين احتمالات كثيرة، و لكن مع الالتفات إلى ما بعد القسم من الآيات فإنّه يبدو أنّ المقصود بالقسم أو جواب القسم هو مسألة النبوّة نبوة محمد أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱

نشور الناس و بعضهم بعد موتهم ۴].

ثمّ يبيّن القرآن جانبا من إشكالات الكفّار و المشركين العرب الواهية فيذكر إشكالين منها .. الأوّل هو حكايته منهم: بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ

و هذا إشكال طالما أشار إليه القرآن وردّ عليه، و تكرار هذا الإشكال يدلّ على أنّه من إشكالات الكفّار الأساسية التى كانوا يكرّروها دائما!.

و لم يكن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم وحده قد أشكلوا عليه بهذا الإشكال، فالرسل أيضا أشكلوا عليهم أيضا بذلك بقولهم: إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا[۵] و كانوا يقولون أحيانا: ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۶].

و ربّما أضافوا أحيانا لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.[۷] إلّا أنّ جميع هذه الأمور كانت حججا واهية و ذريعة لعدم التسليم للحقّ.

و القرآن فى هذه الآيات محلّ البحث لا يردّ على هذا الإشكال، لأنّه أجاب عليه مرارا، و هو إن أردنا أن نرسل ملكا لجعلناه على صورة بشر .. أى أنّ قادة الناس ينبغى أن يكونوا منهم فحسب ليكونوا قادرين على معرفة همومهم و آلامهم و رغباتهم و حاجاتهم و

مسائل حياتهم، و ليكونوا أسوة لهم من الناحية العملية و لئلّا يقولوا لو كانوا أمثالنا لما ظلّوا طاهرين أنقياء! فمناهج الملائكة تتناسب معهم و لا تتناسب مع طموحات البشر و آلامهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲

و بعد إشكالهم الأوّل على نبوّة النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم و هو كيف يكون النّبى بشرا؟! كان لهم إشكال آخر على محتوى دعوته و وضعوا أصابع الدهشة على مسألة اخرى كانت عندهم أمرا غريبا و هى إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ[۸].

و على كلّ حال، كانوا يتصوّرون أنّ العودة للحياة مرّة اخرى بعيدة لا يصدّقها العقل، بل كانوا يرونها محالا و يعدوّن من يقول بها ذا جنّة! كما نقرأ ذلك فى الآيتين ۷ و ۸ من سورة سبأ إذ: قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ.

و لم يكن هذا الإشكال الذى أوردوه على النّبى هنا فحسب، بل أشكلوا عليه به عدّة مرّات و سمعوا ردّه عليهم، إلّا أنّهم كرّروا عليه ذلك عنادا.

و على كلّ حال، فإنّ القرآن، يردّ عليهم بطرق متعدّدة! فتارة يشير إلى علم اللّه الواسع فيقول: قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ.

إذا كان إشكالكم هو أنّه كيف تجتمع عظام الإنسان النخرة و لحمه الذى صار ترابا و ذرّاته التى تبدلّت إلى بخار و غازات متفرّقة فى الهواء، و من يجمعها؟! أو من يعرف عنها شيئا؟! فجواب ذلك معلوم ... فاللّه الذى أحاط بكلّ شىء علما يعرف جميع هذه الذرّات و يجمعها متى شاء، كما أنّ ذرّات الحديد المتناثرة فى تلّ من الرمل يمكن جمعها بقطعة من «المغناطيس» فكذلك جمع ذرّات الإنسان أيسر على اللّه من ذلك.

و إذا كان إشكالهم أنّه من يحفظ أعمال الإنسان ليوم المعاد، فالجواب على ذلك أنّ جميع أعمال الناس فى لوح محفوظ، و لا يضيع أى شىء فى هذا العالم، و كلّ شىء- حتّى أعمالكم- سيظلّ باقيا و إن تغيّر شكله.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳

كِتابٌ حَفِيظٌ معناه الكتاب الذى يحفظ جميع أعمال الناس و غيرها، و هو إشارة إلى «اللوح المحفوظ» الذى بيّنا معناه بتفصيل فى ذيل الآية (۳۹) من سورة الرعد.

ثمّ يردّ القرآن عليهم بجواب آخر، و فيه منحى نفسى أكثر إذ يقول: بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ

أى إنّهم جحدوا الحقّ مع علمهم به، و إلّا فإنّه لا غبار على الحقّ، و كما سيتّضح فى الآيات المقبلة فإنّهم يرون صورة مصغّرة للمعاد بأعينهم مرارا فى هذه الدنيا و ليس عندهم مجال للشّك و التردّد! لذلك فإنّ القرآن يختتم هذه الآية مضيفا: فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ فلأنّهم كذّبوا الرسالة فهم دائما فى تناقض فى القول و حيرة فى العمل و اضطراب فى السلوك.

فتارة يتّهمون النّبى بأنّه مجنون أو أنّه شاعر أو كاهن.

و تارة يعبّرون عن كلماته بأنّها «أساطير الأوّلين».

و تارة يقولون بأنّه يعلّمه بشر.

و تارة يقولون عنه بأنّه ساحر لنفوذ كلماته فى القلوب.

و تارة يقولون بأنّنا نستطيع أن نأتى بمثله.

و هذه الكلمات المتفرّقة و المتناقضة تدلّ على أنّهم فهموا الحقّ، إلّا أنّهم يتذرّعون بحجج واهية شتّى، و لذلك لا يقرّون على كلام واحد أبدا.

و كلمة «مريج» مشتقّة من مرج- على زنة حرج- و معناها الأمر المختلط و المشتبه و المشوش، و لذلك فقد أطلقوا على الأرض التى

تكثر فيها النباتات المختلفة و المتعدّدة بأنّها «مرج» أو «مرتع».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۶ الى ۱۱]

اشارة

أَ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ (۶) وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (۷) تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (۸) وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ (۹) وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (۱۰)

رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (۱۱)

التّفسير

انظروا إلى السماء لحظة!

هذه الآيات تواصل البحث عن دلائل المعاد، فتارة تتحدّث عن قدرة اللّه المطلقة لإثبات المعاد، و اخرى تستشهد له بوقائع و نماذج تحدث فى الدنيا تمثّل حالة المعاد.

فهى تستجلب و تلفت أنظار المنكرين إلى خلق السماوات فتقول: أ فَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَ زَيَّنَّاها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵

و المراد بالنظر هنا هو النظر المقترن بالتفكير الذى يدعو صاحبه لمعرفة عظمة الخالق الذى خلق السماء الواسعة و ما فيها من عجائب مذهلة و تناسق و جمال و استحكام و نظم و دقّة.

جملة وَ ما لَها مِنْ فُرُوجٍ أى لا انشقاق فيها، إمّا أن يكون بمعنى عدم وجود النقص و العيب و ارتباك كما ذهب إليه بعض المفسّرين، أو أن يكون معناه عدم الإنشقاق و الإنفطار فى السماء المحيطة بأطراف الأرض و هى ما يعبّر عنها بالغلاف الجوّى للأرض أو ما يعبّر القرآن عنه بالسقف المحفوظ كما ورد ذلك فى سورة الأنبياء الآية (۳۲) إذ توصد الطريق بوجه النيازك و السدم و الشهب التى تهوى باستمرار نحو الأرض و بسرعة هائلة و قبل أن تصل إلى الأرض تستحيل إلى شعلة فرماد، كما أنّها تحجب الأشعّة الضارّة للشمس و غيرها من الأشعّة الكونية، و إلّا فإنّ السماء معناها الفضاء الواسع الذى تسبح فيه الأجرام الكروية المعروفة بالنجوم.

و هنا احتمال ثالث أيضا، و هو أنّ الجملة السابقة إشارة إلى نظرية وجود «الأثير» .. و طبقا لهذه النظرية فإنّ جميع عالم الوجود بما فيه الفواصل التى تقع ما بين النجوم- ملىء من مادّة عديمة اللون و الوزن تدعى ب «الأثير» و هى تحمل أمواج النور و تنقلها من نقطة لأخرى، و طبقا لهذه النظرية فإنّه لا وجود لأيّة فرجة و لا فجوة و لا انشقاق فى عالم الإيجاد و الخلق، و جميع الأجرام السماوية و الكواكب السيارة تموج فى الأثير! و بالطبع فإنّه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة و إن كانت النظرية الثالثة التى تعتمد على فرضية الأثير لا يعوّل عليها و لا يمكن الركون إليها، لأنّ موضوع الأثير ما يزال قيد الدرس و لم يثبت بصورة قطعيّة عند جميع العلماء لحدّ الآن! ثمّ تشير الآيات إلى عظمة الأرض فتقول: وَ الْأَرْضَ مَدَدْناها وَ أَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶

أجل، خلق الأرض من جهة، ثمّ اتّساعها «و خروجها من تحت الماء» من جهة اخرى، و وجود الجبال «الرواسى» عليها و ارتباط بعضها

ببعض كأنّها السلاسل التى تشدّ الأرض و تحفظها من الضغوط الداخلية و الخارجية و الجزر و المدّ الحاصلين من جاذبية الشمس و القمر من جهة ثالثة ... و وجود أنواع النباتات بما فيها من عجائب و اتّساق و جمال من جهة رابعة جميعها تدلّ على قدرته اللّامحدودة[۹].

و التعبير ب مِنْ كُلِّ زَوْجٍ إشارة إلى مسألة الزوجية فى عالم النباتات التى لم تكن معروفة كأصل كلّى حين نزول الآيات محلّ البحث، و بعد قرون و سنين متطاولة استطاع العلم أن يميط النقاب عنها. أو أنّه إشارة إلى اختلاف النباتات و أنواعها المتعدّدة، لأنّ التنوّع و الاختلاف فى عالم النبات عجيب و مذهل.

أمّا الآية التالية فهى بمثابة الاستنتاج إذ تقول: تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۱۰].

أجل إنّ من له القدرة على خلق السماوات بما فيها من عظمة و جمال و جلال، و الأرض بما فيها من نعمة و جمال و دقّة، كيف لا يمكنه أن يلبس الموتى ثوب الحياة مرّة اخرى و أنّ يجعل لهم معادا و حياة اخرى!؟

ترى أ ليست هذه القدرة المذهلة العظيمة دليلا واضحا على إمكان المعاد؟! أمّا الآية التالية ففيها استدلال آخر على هذا الأمر إذ تقول: وَ نَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَ حَبَّ الْحَصِيدِ.

«الجنّات» هنا إشارة إلى بساتين الثمار، أمّا حَبَّ الْحَصِيدِ فإشارة إلى الحبوب التى تعدّ مادّة أساسيّة لغذاء الإنسان كالحنطة و الشعير و الذرّة و غيرها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷

ثمّ تضيف الآية: وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ كلمة: «باسقات» جمع باسقة بمعنى الشجرة المرتفعة العالية و «الطلع» ثمر النخل و ما يكون منه الرطب و التمر بعدئذ، و كلمة «النضيد» معناها المتراكم بشكل دقيق، و المعروف أنّ عذق النخل قبل أن ينشقّ، يحمل داخله طلعا متراكبا متراكما و حين ينشقّ هذا الطلع يكون مذهلا و عجيبا.

و الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقول: رِزْقاً لِلْعِبادِ وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ ۱۱].

و هكذا فانّ هذه الآيات ضمن بيان النعم العظمى للعباد و تحريك إحساس الشكر فيهم فى مسير المعرفة تذكّرهم بأنّهم يرون مثلا للمعاد كلّ سنة فى حياتهم فى هذه الدنيا، فالأرض الميتة الخالية و اليابسة تهتزّ و تنبت النباتات عليها عند نزول قطرات الغيث و كأنّ أصداء القيامة تترنّم على شفاه النباتات قائلة: «وحده لا شريك له».

فهذه الحركة العظيمة نحو الحياة فى عالم النباتات تكشف عن هذه الحقيقة، و هى أنّ بارئ عالم الموجودات قادر على إحياء الموتى مرّة اخرى، لأنّ وقوع الشيء أقوى دليل على إمكانه!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۲ الى ۱۵]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ (۱۲) وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ (۱۳) وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (۱۴) أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (۱۵)

التّفسير

لست وحدك المبتلى بالعدو

تعالج هذه الآيات مسألة المعاد من خلال نوافذ متعدّدة! ففى البداية و من أجل تثبيت قلب النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم و تسليته تقول: لست وحدك المرسل الذى كذّبه الكفّار و كذّبوا محتوى دعواته و لا سيّما المعاد فإنّه: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ أَصْحابُ الرَّسِّ وَ ثَمُودُ!.

و جماعة «ثمود» هم قوم صالح النّبى العظيم إذ كانوا يقطنون منطقة «الحجر» شمال الحجاز.

أمّا «أصحاب الرسّ» فهناك أقوال عند المفسّرين، فالكثير من المفسّرين يعتقدون أنّهم طائفة كانت تقطن اليمامة، و كان عندهم نبىّ يدعى حنظلة فكذّبوه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹

و ألقوه فى البئر فى آخر الأمر «من معانى الرسّ هو البئر» و المعنى الآخر الأثر اليسير الباقى من الشىء، و قد بقى من هؤلاء القوم الشىء اليسير فى ذاكرة التاريخ!.

و يرى بعض المفسّرين أنّهم «قوم شعيب» لأنّهم كانوا يحفرون الآبار، و لكن مع الالتفات إلى أنّ «أصحاب الأيكة» المذكورين فى الآيات التالية هم قوم شعيب أنفسهم ينتفى هذا الاحتمال أيضا.

و قال بعض المفسّرين: هم بقايا قوم- صالح- أى ثمود، و مع الالتفات إلى ذكر ثمود على حدة فى الآية فإنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا أيضا.

فعلى هذا يكون التّفسير الأوّل هو الأنسب، و هو ما اشتهر على أقلام المفسّرين و ألسنتهم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: وَ عادٌ وَ فِرْعَوْنُ وَ إِخْوانُ لُوطٍ و المراد بإخوان لوط هم قومه، و قد عبّر القرآن عن لوط بأنّه أخوهم، و هذا التعبير مستعمل فى اللغة العربية بشكل عام.

و كذلك من بعدهم: وَ أَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَ قَوْمُ تُبَّعٍ و الأيكة: معناها الأشجار الكثيرة المتداخلة بعضها ببعض- أو الملتفّة أغصانها- و «أصحاب الأيكة» هم طائفة من قوم شعيب كانوا يقطنون منطقة غير «مدين» و هى منطقة ذات أشجار كثيرة[۱۲]! و المراد من «قوم تبّع» طائفة من أهل اليمن، لأنّ «تبّع» لقب لملوك اليمن، باعتبار أنّ هؤلاء القوم يتبعون ملوكهم، و ظاهر تعبير القرآن هنا و فى آية اخرى منه (۳۷- الدخان) هو ملك مخصوص من ملوك اليمن اسمه (أسعد أبو كرب) كما نصّت عليه بعض الرّوايات، و يعتقد جماعة من المفسّرين بأنّه كان رجلا صالحا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰

مؤمنا يدعو قومه إلى اتّباع الأنبياء، إلّا أنّهم خالفوه ۱۳].

ثمّ إنّ الآية هذه أشارت إلى جميع من ذكرتهم من الأقوام الثمانية فقالت:

كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ.

و ما نراه فى النصّ من أنّ جميع هؤلاء كذّبوا الرسل و الحال أنّ كلّ قوم كذّبوا رسولهم فحسب لأنّ الفعل الصادر منهم جميعا التكذيب نال الأنبياء جميعا و إن كان كلّ قوم قد كذّبوا نبيّهم وحده فى زمانهم.

أو لأنّ تكذيب أحد النّبيين و الرسل يعدّ تكذيبا لجميع الرسل، لأنّ محتوى دعوتهم سواء.

و على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأمم كذّبوا أنبياءهم و كذّبوا مسألة المعاد و التوحيد أيضا، و كانت عاقبة أمرهم نكرا و وبالا عليهم، فمنهم من ابتلى بالطوفان، و منهم من أخذته الصاعقة، و منهم من غرق بالنيل، و منهم من خسفت به الأرض أو غير ذلك، و أخيرا فإنّهم ذاقوا ثمرة تكذيبهم المرّة!! فكن مطمئنا يا رسول اللّه أنّه لو واصل هؤلاء تكذيبهم لك فلن يكونوا أحسن حالا من السابقين.

ثمّ يشير القرآن إلى دليل آخر من دلائل إمكان النشور و يوم القيامة فيقول:

أ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۱۴].

ثمّ يضيف القرآن: إنّهم لا- يشكّون و لا يتردّدون فى الخلق الأوّل لأنّهم يعلمون أنّ خالق الإنسان هو اللّه و لكنّهم يشكّون فى المعاد مع كلّ تلك الدلائل الواضحة: بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ.

و فى الحقيقة إنّهم فى تناقض بسبب هوى النفس و التعصّب الأعمى، فمن جهة يعتقدون بأنّ خالق الناس أوّلا هو اللّه إذ خلقهم من تراب، إلّا أنّهم من جهة اخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱

حين يقع الكلام على المعاد و خلق الإنسان ثانية من التراب يعدّون ذلك أمرا عجيبا و لا يمكن تصوّره و قبوله، فى حين أنّ الأمرين متماثلان: «و حكم الأمثال فى ما يجوز و ما لا يجوز واحد».

و هكذا فإنّ القرآن يستدلّ على المعاد فى هذه الآيات و الآيات الآنفة بأربعة طرق مختلفة، فتارة عن طريق علم اللّه، و أخرى عن طريق قدرته، ثالثة عن طريق تكرّر صور المعاد و مشاهده فى عالم النباتات، و أخيرا عن طريق الالتفات إلى الخلق الأوّل.

و متى ما عدنا إلى آيات القرآن الاخر فى مجال المعاد وجدنا هذه الأدلّة بالإضافة إلى أدلّة أخر وردت فى آيات مختلفة و بصورة مستقلّة، و قد أثبت القرآن المعاد بالمنطق القويم و التعبير السليم و الأسلوب الرائع (القاطع) للمنكرين و بيّنه بأحسن وجه .. فلو خضعوا لمنطق العقل و تجنّبوا الأحكام المسبقة و التعصّب الأعمى و التقليد الساذج فسرعان ما يذعنوا لهذه المسألة و سيعلمون بأنّ المعاد أو يوم القيامة ليس أمرا ملتويا و عسيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (۱۶) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (۱۷) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (۱۸)

التّفسير

كتابه جميع الأقوال:

يثار فى هذه الآيات قسم آخر من المسائل المتعلّقة بالمعاد، و هو ضبط أعمال الإنسان و إحصاؤها لتعرض على صاحبها عند يوم الحساب.

تبدأ الآيات فتتحدّث عن علم اللّه المطلق و إحاطته بكلّ شىء فتقول: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَ نَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ

كلمة «توسوس» مشتقّة من الوسوسة و هى- كما يراه الراغب فى مفرداته- الأفكار غير المطلوبة التى تخطر بقلب الإنسان، و أصل الكلمة «الوسواس» و معناه الصوت الخفى و كذلك صوت أدوات الزينة و غيرها.

و المراد من الوسوسة فى الآية هنا هى أنّ اللّه لمّا كان يعلم بما يخطر فى قلب الإنسان و الوساوس السابحة فى أفكاره، فمن البديهى أنّه عالم بجميع عقائده

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳

و أعماله و أقواله، و سوف يحاسبه عليها يوم القيامة.

و جملة وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ خالق البشر محال أن لا يعلم بجزئيات خلقه؟! الخلق الدائم و المستمر، لأنّ الفيض أو الجود منه يبلغ البشر لحظة بعد لحظة، و لو انقطع الفيض لحظة لهلكنا، كنور الشمس الذى ينتشر فى الفضاء من منبع الفيض و هو الكرة الشمسية «بل كما سنبيّن فإنّ ارتباطنا بذاته المقدّسة أسمى ممّا مثّلنا- (بنور الشمس)».

أجل، هو الخالق، و خلقه دائم و مستمر و نحن مرتبطون به فى جميع الحالات، فمع هذه الحال كيف يمكن أن لا يعلم باطننا و ظاهرنا؟! و يضيف القرآن لمزيد الإيضاح فى ذيل الآية قائلا: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ.

ما أبلغ هذا التعبير!! فحياتنا الجسمانية متعلّقة بعصب يوصل الدم إلى القلب و يخرجه منها بصورة منتظمة و ينقله إلى جميع أعضاء البدن، و لو توقّف هذا العمل لحظة واحدة لمات الإنسان ... فاللّه أقرب إلى الإنسان من هذا العصب المسمّى بحبل الوريد.

و هذا ما أشار إليه القرآن فى مكان آخر إذ قال: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ [۱۵] و بالطبع فإنّ هذا كلّه تشبيه تقريبى، و اللّه سبحانه أقرب من ذلك و أسمى رغم كون المثال المذكور أبلغ تصوير محسوس على شدّة القرب، فمع هذه الإحاطة للّه تعالى بمخلوقاته، و كوننا فى قبضة قدرته، فإنّ تكليفنا واضح، فلا شىء يخفى عليه لا الأفعال و لا الأقوال و لا الأفكار و النيّات و لا تخفى عليه حتّى الوساوس التى تخطر فى القلوب!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يوقظ الإنسان، و يكون على بيّنة من أمره و ما هو مذخور له فى صحيفة أعماله عند محكمة عدل اللّه .. فيتحوّل من إنسان غافل إلى موجود واع ملتزم ورع تقىّ ..

ورد فى حديث أنّ أبا حنيفة جاء إلى الصادق عليه السّلام يوما فقال: رأيت ولدك موسى يصلّى و الناس يعبرون من أمامه إلّا أنّه لم ينههم عن ذلك، مع أنّ هذا العمل غير صحيح!.

فقال الصادق عليه السّلام ادعوا لى ولدى موسى فدعى له فكرّر الإمام الصادق حديث أبى حنيفة لولده موسى بن جعفر فأجاب موسى بن جعفر قائلا: إنّ الذى كنت اصلّى له كان أقرب إلىّ منهم يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ .. فاحتضنه الإمام الصادق و قال: بأبى أنت و أمّى يا مستودع الأسرار[۱۶].

و للمفسّرين آراء عديدة فى معنى «الوريد» .. فمنهم من يعتقد بأنّ «الوريد» هو العصب المتّصل بقلب الإنسان أو كبده، و يعتقد بعضهم بأنّ الوريد جميع الأعصاب فى بدن الإنسان .. فى حين أنّ بعضهم يعتقد بأنّه عصب الرقبة فحسب! إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر تناسبا، و لا سيّما إذا لا حظنا الآية ۲۴ من سورة الأنفال آنفة الذكر! و كلمة «الوريد»- ضمنا- مأخوذة من الورود، و معناه الذهاب نحو الماء، و حيث إنّ الدم- يرد من هذا العصب إلى القلب و يخرج منه إلى سائر أعضاء بدن الإنسان سمّى بالوريد.

و لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ الاصطلاح المتداول فى هذا العصر فى شأن «الوريد و الشريان»- يعنى المجارى التى توصل الدم من سائر أعضاء الجسم إلى قلب الإنسان، و بالعكس- هذا الاصطلاح خاصّ بعلم الأحياء و لا علاقة له بالمفهوم اللغوى للوريد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ[۱۷].

أى أنّه بالإضافة إلى إحاطة علم اللّه «التامّة» على ظاهر الإنسان و باطنه، فهنالك ملكان مأموران بحفظ ما يصدر منه عن يمينه و شماله، و هما معه دائما و لا ينفصلان عنه لتتمّ الحجّة عليه عن هذا الطريق أكثر، و لتتأكّد مسألة الحساب (حساب الأعمال).

كلمة «تلقّى» معناها الأخذ و التسلّم، و «المتلقّيان» هما ملكان مأموران بثبت أعمال الناس.

و كلمة «قعيد» مأخوذة من القعود و معناها «جالس»[۱۸] و المراد بالقعيد هنا الرقيب و الملازم للإنسان، و بتعبير آخر أنّ الآية هذه لا تعنى أنّ الملكين جالسين عن يمين الإنسان و عن شماله، لأنّ الإنسان يكون فى حال السير تارة، و اخرى فى حال الجلوس، بل التعبير

هنا هو كناية عن وجودهما مع الإنسان و هما يترصّدان أعماله.

و يحتمل أيضا أنّهما قعيدان على كتفى الإنسان الأيمن و الأيسر، أو أنّهما قعيدان عند نابيه أو ناجذيه دائما و يسجّلان أعماله، و هناك إشارة إلى هذا المعنى فى بعض الرّوايات غير المعروفة «كما فى بحار الأنوار ج ۵۹ ص ۱۸۶ رقم الرّواية ۳۲».

و ممّا يجدر التنويه عليه أنّه ورد فى الرّوايات الإسلامية أنّ ملك اليمين كاتب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶

الحسنات، و ملك الشمال كاتب السيّئات، و صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال، فإذا عمل الإنسان حسنة كتبها له صاحب اليمين بعشر أمثالها، و إذا عمل سيّئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين أمسك فيمسك عنه سبع ساعات، فإذا استغفر اللّه منها لم يكتب عليه شيء، و إن لم يستغفر اللّه كتب له سيّئة واحدة.

كما يظهر من بعض الرّوايات

أنّهما يقولان بعد موت المؤمن: ربّنا قبضت روح عبدك فإلى أين؟ قال: سمائى مملوءة بملائكتى يعبدوننى و أرضى مملوءة من خلقى يطيعوننى اذهبا إلى قبر عبدى فسبّحانى و كبّرانى و هلّلانى فاكتبا ذلك فى حسنات عبدى ۱۹].

و

فى رواية اخرى عن النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم أنّه قال: «ما من أحد من المسلمين يبتلى ببلاء فى جسده إلّا أمر اللّه تعالى الحفظة فقال: اكتبوا لعبدى ما كان يعمل و هو صحيح ما دام مشدودا فى وثاقى» ثمّ أضاف صلّى اللّه عليه و سلّم من مرض أو سافر كتب اللّه تعالى له ما كان يعمل صحيحا مقيما»[۲۰].

و هذه الرّوايات جميعها إشارة إلى لطف اللّه الواسع.

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث فتتحدّث عن الملكين أيضا فتقول: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ[۲۱].

و كان الكلام فى الآية الآنفة عن كتابة جميع أعمال الإنسان، و فى هذه الآية اهتمام بخصوص ألفاظه، و هذا الأمر هو للأهميّة القصوى للقول و أثره فى حياة الناس، حتّى أنّ جملة واحدة أو عبارة قصيرة قد تؤدّى إلى تغيير مسير المجتمع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷

نحو الخير أو الشرّ!! كما أنّ بعض الناس لا يعتقدون بأنّ الكلام جزء من أعمالهم ..

و يرون أنفسهم أحرارا فى الكلام مع أنّ أكثر الأمور تأثيرا و أخطرها فى حياة الناس هو الكلام!.

فبناء على ذلك فإن ذكر هذه الآية بعد الآية المتقدّمة هو من قبيل ذكر الخاص بعد العام.

كلمة «الرقيب» معناها المراقب و «العتيد» معناها المتهيئ للعمل، لذلك يطلق على الفرس المعدّة للركض بأنّها فرس عتيد كما يطلق على من يعدّ شيئا أو يدّخره بأنّه عتيد، و هى من مادّة العتاد على زنة الجهاد و معناها الادّخار!.

و يعتقد أغلب المفسّرين أنّ الرقيب و العتيد اسمان للملكين المذكورين فى الآية المتقدّمة و هما «المتلقيان» فاسم ملك اليمين «رقيب» و اسم ملك الشمال «عتيد»، و بالرغم من أنّ الآية محلّ البحث ليس فيها قول صريح على هذا الأمر، إلّا أنّ هذا التّفسير و بملاحظة مجموع الآيات يبدو غير بعيد! و لكن أىّ كلام يكتب هذان الملكان؟ هناك أقوال بين المفسّرين قال بعضهم يكتبان كلّ كلام حتّى الصرخات من الألم، فى حين أنّ بعضهم الآخر يعتقد بأنّهما يكتبان ألفاظ الخير و الشرّ و الواجب و المستحبّ أو الحرام و المكروه، و لا يكتبان ما هو مباح! إلّا أنّ عموميّة التعبير يدلّ على أ الملكين يكتبان كلّ لفظ و قول يقوله الإنسان.

الطريف أنّنا نقرأ

رواية عن الإمام الصادق يقول فيها: «إنّ المؤمنين إذا قعدا يتحدّثان قالت الحفظة بعضها لبعض اعتزلوا بنا فلعلّ لهما سرّا و قد ستر اللّه عليهما! يقول الراوى: ألم يقل اللّه تعالى ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸

فيجيب الإمام عليه السّلام: إن كانت الحفظة لا تسمع فإنّ عالم السرّ يسمع و يرى»[۲۲].

و يستفاد من هذه الرّوايات أنّ اللّه سبحانه يكتم بعض أحاديث المؤمن التى فيها (جانب سرّى) احتراما و إكراما له، إلّا أنّه حافظ لجميع هذه الأسرار.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ حفظة الليل غير حفظة النهار، كما بيّنا هذا المعنى فى تفسير الآية ۷۸ من سورة الإسراء من نفس هذا التّفسير.

ملاحظة

الحبيب أقرب إلى الإنسان من نفسه!!

يقول بعض الفلاسفة: كما أنّ شدّة البعد توجب الخفاء فإنّ شدّة القرب كذلك، فمثلا لو كانت الشمس بعيدة عنّا جدّا لما رأيناها و لو كانت قريبة منّا جدّا أو اقتربنا منها كثيرا فإنّ نورها سيذهلنا إلى درجة بحيث لا نستطيع رؤيتها.

و فى الحقيقة إنّ ذات اللّه المقدّسة كذلك: «يا من هو اختفى لفرط نوره»! و فى الآيات محلّ البحث تشبيه رائع لقرب اللّه إلى العباد إذ قالت حاكية عنه سبحانه: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ أى أنّ اللّه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

و التشبيهات التى تقول مثلا العالم جميعه جسم و اللّه روحه، أو العالم كشعاع الشمس و هو قرصها و أمثال هذه لا يمكن أن توضّح العلاقة القريبة كما وصفتها الآية.

و لعلّ أفضل تعبير هو ما

ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السّلام فى خطبته الاولى من نهج البلاغة إذ قال عنه سبحانه: «مع كلّ شىء لا بمقارنة و غير كلّ شىء لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹

بمزايلة».

و قد شبّه بعض الفلاسفة لبيان هذا القرب تشبيها آخر، فقالوا إنّ ذات اللّه المقدّسة هى المعنى الاسمى و الموجودات هى المعنى الحرفى.

و توضيح ذلك: حين نقول: توجّه إلى الكعبة، فإنّ كلمة (إلى) لا مفهوم لها وحدها، و ما لم تضف الكعبة إليها فستبقى مبهمة، فعلى هذا ليس للمعنى الحرفى مفهوم إلّا تبعا للمفهوم الاسمى، فوجود جميع موجودات العالم على هذه الشاكلة، إذ دون ارتباطها بذاته لا مفهوم لها و لا وجود و لا بقاء لها أصلا .. و هذا يدلّ على نهاية قرب اللّه إلى العباد و قربهم إليه و إن كان الجهلة غافلين عن ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۱۹ الى ۲۲]

اشارة

وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (۱۹) وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (۲۰) وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ

شَهِيدٌ (۲۱) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (۲۲)

التّفسير

القيامة- و البصر الحديد-

تعكس الآيات أعلاه مسائل اخرى تتعلّق بيوم المعاد: «مشهد الموت» و «النفخ فى الصور» و «مشهد الحضور فى المحشر»! فتقول أوّلا:

وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ

سكرة الموت: هى حال تشبه حالة الثمل السكران إذ تظهر على الإنسان بصورة الاضطراب و الانقلاب و التبدّل، و ربّما استولت هذه الحالة على عقل الإنسان و سلبت شعوره و إختياره.

و كيف لا تكون كذلك مع أنّ الموت مرحلة انتقالية مهمّة ينبغى أن يقطع الإنسان فيها جميع علائقه بالدنيا التى تعلّق بها خلال سنين طويلة، و أن يخطو فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱

عالم جديد عليه ملىء بالأسرار، خاصّة أنّ الإنسان- لحظة الموت- يكون عنده إدراك جديد و بصر حديد- فهو يلاحظ عدم استقرار هذا العالم بعينيه و يرى الحوادث التى بعد الموت، و هنا تتملّكه حالة الرعب و الاستيحاش من قرنه إلى قدمه فتراه سكرا و ليس بسكر[۲۳].

حتّى الأنبياء و أولياء اللّه الذين يواجهون حالة النزع و الموت باطمئنان كامل ينالهم من شدائد هذه الحالة نصيب، و يصابون ببعض العقبات فى حالة الانتقال، كما قد ورد فى حالات انتقال روح النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و سلّم إلى بارئها عند اللحظات الأخيرة من عمره الشريف المبارك أنّه كان يدخل يده فى إناء فيه ماء و يضعها على وجهه و يقول: لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ثمّ يقول: إن للموت سكرات [۲۴].

و للإمام على كلام بليغ يرسم لحظة الموت و سكراتها بعبارات حيّة بليغة إذ

يقول: «اجتمعت عليهم سكرت الموت و حسرت الفوت ففترت لها أطرافهم و تغيّرت لها ألوانهم ثمّ إزداد الموت فيهم و لوجا فحيل بين أحدهم و منطقه و انّه لبيّن أهله ينظر ببصره و يسمع باذنه على صحّة من عقله و بقاء من لبّه يفكّر فيم أفنى عمره؟ و فيم أذهب دهره؟ و يتذكّر أموالا جمعها أغمض فى مطالبها و أخذها من مصرحاتها و مشتبهاتها قد لزمته تبعات جمعها و أشرف على فراقها تبقى لمن وراءه ينعمون فيها و يتمتّعون بها»[۲۵].

كما أنّ هذا المعلّم الكبير ينذر فى مكان آخر البشرية فيقول:

«إنّكم لو عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم و وهلتم و سمعتم و أطعتم و لكن محجوب عنكم ما قد عاينوا و قريب ما يطرح الحجاب»[۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲

ثمّ يضيف القرآن فى ذيل الآية قائلا: ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ[۲۷] أجل إنّ الموت حقيقة يهرب منها أغلب الناس لأنّهم يحسبونه فناء لا- نافذة إلى عالم البقاء، أو أنّهم لعلائقهم و ارتباطاتهم الشديدة بالدنيا و المواهب المادية التى لهم فيها لا يستطيعون أن يصرفوا قلوبهم عنها، أو لسواد صحيفة أعمالهم.

أيّا كان فهم منه يهربون .. و لكن ما ينفعهم و مصيرهم المحتوم فى انتظار الجميع و لا- مفرّ لأحد منه، و لا بدّ أن ينزلوا إلى حفرة

الموت و يقال لهم هذا ما كنتم منه تفرّون!!.

و قائل هذا الكلام ربّما هو اللّه أو الملائكة أو الضمائر اليقظة أو الجميع!.

و القرآن بيّن هذه الحقيقة فى آيات أخر كما هو فى الآية (۷۸) من سورة النساء إذ يقول: أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ!.

و قد ينسى الإنسان المغرور جميع الحقائق التى يراها بامّ عينيه على أثر حبّ الدنيا و حبّ الذات حتّى يبلغ درجة يقسم فيها أنّه خالد كما يقول القرآن فى هذا الصدد: أَ وَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ

و لكن سواء أقسم أم لم يقسم، و صدّق أم لم يصدّق فإنّ الموت حقيقة تحدق بالجميع و تحيق بهم و لا مفرّ لهم منها.

ثمّ يتحدّث القرآن عن النفخ فى الصور فيقول: وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ.

و المراد من «النفخ فى الصور» هنا هو النفخة الثانية، لأنّه كما نوّهنا آنفا فإنّ الصور ينفخ فيه مرّتين: فالنفخة الاولى تدعى بنفخة الفزع أو الصعق و هى التى تكون فى نهاية الدنيا و يموت عند سماعها جميع الخلق و يتلاشى نظام العالم الدنيوى، و النفخة الثانية هى نفخة «القيام و الجمع و الحضور» و تكون فى بداية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳

البعث و النشور و القيامة و بها يحيى الناس جميعهم و يخرجون «و ينسلون» من الأجداث و القبور إلى ربّهم و حساب «عدله» و جزائه.

«النفخ» معناه معروف، و «النفخة» بمعنى المرّة منه، و «الصور» هو المزمار أو «البوق» و الذى يستعمل فى القضايا العسكرية عادة لجمع الجنود أو تفريقهم أو الاستعداد أو الذهاب للراحة و النوم، و استعماله فى صور إسرافيل نوع من الكناية و التشبيه «و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى ذيل الآية ۶۸ من سورة الزمر».

و على كلّ حال، فمع الالتفات و ملاحظة جملة «ذلك يوم الوعيد» يتّضح أنّ المراد من نفخة الصور هنا هو النفخة الثانية و يوم النشور و القيامة.

و فى الآية التالية بيان لحال الناس يوم المحشر بهذه الصورة: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

فالسائق يسوقه نحو محكمة عدل اللّه، و الشهيد يشهد على أعماله! و هى كمحاكم هذا العالم إذ يسوق المأمورون المتّهمين و يأتون معهم للمحكمة و يشهد عليهم الشهود.

و احتمل بعض المفسّرين أنّ السائق هو من يسوق الصالحين نحو الجنّة و الصالحين نحو جهنّم، و لكن مع ملاحظة كلمة «الشهيد» معها يكون المعنى الأوّل و هو السوق نحو محكمة عدل اللّه أنسب.

و لكن من هما السائق و الشهيد؟ أ هما «ملكان» من الملائكة أو سواهما، هناك تفاسير متعدّدة.

قال بعضهم: إنّ «السائق» هو الملك الذى يكتب الحسنات، و «الشهيد» هو الملك الذى يكتب السيّئات، فيكون المراد بهما الملكين الوارد ذكرهما فى الآيات المتقدّمة.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ «السائق» ملك الموت و «الشهيد» رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم و لكن هذه الرّواية مع ملاحظة لحن الآيات تبدو ضعيفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴

و قال بعضهم: «السائق» الملك الذى يسوق كلّ إنسان و «الشهيد» عمل الإنسان.

كما قيل أنّ «السائق» ملك و «الشهيد» أعضاء جسم الإنسان أو صحيفة أعماله أو الكتاب الذى فى عنقه.

و يحتمل أنّ السائق و الشهيد ملك واحد، و عطف اللفظين بعضهما على الآخر هو لاختلاف الوصفين، أى أنّ مع الإنسان ملكا يسوقه إلى محكمة عدل اللّه و يشهد عليه أيضا.

إلّا أنّ أغلب هـذه التفاسير مخالف لظاهر الآيـة، و ظاهر الآيـة كما فهم منه أغلب المفسّرين أنّ ملكين يأتيان مع كلّ إنسان، فواحد يسوقه و الآخر يشهد على أعماله.

و من الواضح أنّ شهادة بعض الملائكة لا تنفى وجود شهادة اخرى لبعض الشهود فى يوم القيامة، الشهود الذين هم من قبيل الأنبياء و أعضاء البدن، و صحائف الأعمال و الزمان و المكان الذين وقع عمل الإنسان فيهما أو أثم فيهما.

و على كـلّ حـال فالملـك الأوّل يمنع الإنسـان عن الفرار، و الملـك الثـانى يمنع عن الإنكار، و هكـذا فإنّ كلّ إنسان فى ذلك اليوم مبتلى بأعماله و لا مفرّ له من جزاء أعماله أبدا.

و هنا يخاطب المجرمون أو جميع الناس (فردا فردا) فيقال: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.

أجل، إنّ أسـتار عالم المادّة من الآمال و العلاقـة بالـدنيا و الأولاد و المرأة و الأنانية و الغرور و العصبية و الجهل و العناد و حبّ الذات لم تكن تسـمح أن تنظر إلى هـذا اليوم مع وضوح دلائـل المعـاد و النشور، فهـذا اليوم ينفض عنك غبار الغفلـة، و تماط عنك حجب الجهل و التعصّب و اللجاجـة، و تنشقّ أسـتار الشـهوات و الآمال، و ما كان مسـتورا وراء حجاب الغيب يبدو ظاهرا اليوم، لأنّ هذا اليوم يوم البروز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵

و يوم الشهود و يوم تبلى السرائر! و لذلك فقد وجدت عينا حادّة البصر و يمكن أن تدرك جميع الحقائق بصورة جيّدة.

أجل، إنّ وجه الحقيقة لم يكن مخفيا و لا لثام على جمال الحبيب، و لكن ينبغى أن ينفض غبار الطريق ليمكن رؤيته.

إلّا أنّ الغرق فى بحر الطبيعـة و الابتلاء بأنواع الحجب لا يسـمحان للإنسان أن يرى الحقائق بصورة واضـحة، لكنّه فى يوم القيامة حيث تنقطع كـلّ هـذه العلائـق فمن البـديهى أن يحصـل للإنسـان إدراك جديـد و نظرة ثاقبـة، و أساسا فإنّ يوم القيامـة يوم الظهور و بروز الحقائق! حتّى فى هـذه الدنيا اسـتطاع البعض تخليص أنفسـهم من قبضة الأهواء و اتّباع الشـهوات و أن يلقوا الحجب عن عيون قلوبهم لرزقوا بصرا حديدا يرون به الحقائق، أمّا أبناء الدنيا فمحرومين منه.

و ينبغى الالتفات إلى أنّ الحديـد نوع من المعـدن كما يطلق على السـيف و المديـة، ثمّ توسّعوا فيه فأطلقوه على حـدّة البصـر و حـدّة الذكاء، و من هنا يظهر أنّ المراد بالبصر ليس العين الحقيقية الظاهرة، بل بصر العقل و القلب.

يقول الإمام على عليه السّلام فى أولياء اللّه فى أرضه: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة، و باشروا روح اليقين و استلانوا ما استعوره المترفون و أنسوا بمـا اسـتوحش منه الجـاهلون و صـحبوا الـدنيا بأبـدان أرواحهـا معلّقـة بالمحـل الأعلى أولئك خلفاء اللّه فى أرضه و الدعاة إلى دينه»[۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶

بحوث

۱- حقيقة الموت

يتصوّر أغلب النـاس أنّ الموت أمر عـدمى و معنـاه الفنـاء، إلّا أنّ هـذه النظرة لا تنسـجم مع ما ورد فى القرآن المجيـد و ما تـدلّ عليه الدلائل العقلية و لا توافقها أبدا.

فالموت فى نظر القرآن أمر وجودى، و هو انتقال و عبور من عالم إلى آخر، و لذلك عبّر عن الموت فى كثير من الآيات ب «توفّى» و يعنى تسلّم الروح و استعادتها من الجسد بواسطة الملائكة.

و التعبیر فی الآیات المتقدّمة وَ جاءَتْ سَکْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ هو إشارة إلی هذا المعنی ۲۹] أیضا، و قد جاء فی بعض الآیات التعبیر عن الموت بالخلق: الَّذِی خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَیاةَ (الملک- ۲).

و هناک تعبیرات متعدّدة عن حقیقة الموت فی الرّوایات الإسلامیة،

ففی روایة أنّ الإمام علی بن الحسین سئل: ما الموت؟ فقال: علیه السّلام: «للمؤمن کنزع ثیاب وسخة قملة و فکّ قیود و أغلال ثقیلة و الاستبدال بأفخر ثیاب و أطیبها روائح و أوطئ المراکب و آنس المنازل و للکافر کخلع ثیاب فاخرة و النقل عن منازل أنیسة و الاستبدال بأوسخ الثیاب و أخشنها و أوحش المنازل و أعظم العذاب».

و

سئل الإمام محمّد بن علیّ علیه السّلام السؤال الآنف ذاته فقال: «هو النوم الذی یأتیکم کلّ لیلة إلّا أنّه طویل مدّته لا ینتبه منه إلّا یوم القیامة»[۳۰].

و قد قلنا فی المباحث المتعلّقة بالبرزخ أنّ حالات الأشخاص متفاوتة فی البرزخ، فبعضهم کأنّهم یغطّون فی نوم عمیق، و بعضهم «کالشهداء فی سبیل اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷

و المؤمنین الراسخین» ینعّمون بأنواع النعم بینما یعذّب الأشقیاء و الجبابرة بعذاب اللّه الألیم! و قد بیّن الإمام الحسین علیه السّلام لأصحابه حقیقة الموت یوم عاشوراء عند اشتداد المأزق و القتال بتعبیر لطیف بلیغ

فقال: «صبرا بنی الکرام، فما الموت إلّا قنطرة تعبر بکم عن البؤس و الضرّاء إلی الجنان الواسعة، و النعم الدائمة، فأیّکم یکره أن ینتقل من سجن إلی قصر و ما هو لأعدائکم إلّا کمن ینتقل من قصر إلی سجن و عذاب إنّ أبی حدّثنی عن رسول اللّه إنّ الدنیا سجن المؤمن و جنّة الکافر و الموت جسر هؤلاء إلی جنانهم و جسر هؤلاء إلی جحیمهم»[۳۱].

و نقرأ

فی حدیث آخر أنّ الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام دخل علی رجل یعانی سکرات الموت و لم یکلّم أحدا، فسأل الحاضرون الإمام موسی بن جعفر: یا بن رسول اللّه وددنا لو عرفنا کیف الموت و کیف هو حال صاحبنا؟

فقال علیه السّلام: «الموت هو المصفاة یصفّی المؤمنین من ذنوبهم فیکون آخر ألم یصیبهم کفّارة آخر وزر بقی علیهم و یصفّی الکافرین من حسناتهم فیکون آخر لذّة أو راحة تلحقهم و هو آخر ثواب حسنة تکون لهم، و أمّا صاحبکم هذا فقد نخل من الذنوب نخلا و صفّی من الآثام تصفیة و خلص حتّی نقی کما ینقّی الثوب من الوسخ و صلح لمعاشرتنا أهل البیت فی دارنا دار الأبد»[۳۲].

۲- سکرات الموت

کان الکلام فی الآیات الآنفة علی سکرات الموت، و قلنا أنّ «السکرات» جمع سکرة، و معناها الحالة التی تشبه حالة الثمل علی أثر اشتداد حالة الإنسان اضطرب منها فیری سکرا و لیس بسکر! صحیح أنّ الموت هو للمؤمنین بدایة انتقال إلی عالم أوسع ملیء بمواهب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸

اللّه، إلّا أنّه مع ذلک فإنّ هذه الحالة الانتقالیة لیست سهلة لأی إنسان، لأنّ روحه تطبّعت مع البدن سنین طوالا و ارتبطت به.

و لذلک فإنّه حین یسأل الإمام الصادق علیه السّلام عن سبب اضطراب الجسد حین خروج الروح منه یجیب:

لأنّه نما علیها البدن ۳۳].

و هذا یشبه تماما حالة قلع السنّ الفاسد من اللثّة، فإنّه عند قلعه یحسّ الإنسان بالألم إلّا أنّه یشعر بالراحة بعدئذ.

و نقرأ فى الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان يستوحش من ثلاثة أيّام، يوم يولد فيه فيرى هذا العالم الذى لم يعرفه، و يوم يموت و يرى عالم ما بعد الموت، و يوم القرآن يقول فى شأن يحيى بن زكريا: وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا[۳۴] .. و يحكى على لسان عيسى بن مريم مثل هذا الكلام، فهذان النبيّان مشمولان بعناية اللّه فى هذه الأيّام الثلاثة!.

و بالطبع فإنّه من المسلّم به أنّ المرتبطين بهذه الدنيا يكون انتقالهم منها أصعب و قطع القلوب منها أشدّ، كما أنّ الآثمين و أصحاب الذنوب تكون عليهم سكرات الموت أكثر ألما و مرارة!.

۳- الموت حقّ

ليست الآيات محلّ البحث وحدها تتحدّث عن الموت بأنّه حقّ، بل هناك آيات كثيرة فى القرآن تصرّح بأنّ الموت حقّ و يقين، إذ نقرأ فى الآية (۹۹) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹

سورة الحجر وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ و فى الآية (۴۷) من سورة المدثر نقرأ ما يشبه هذا التعبير أيضا.

كلّ ذلك لأنّ الإنسان إذا أنكر كلّ شيء فليس بوسعه أن ينكر أنّ الموت حقّ و أنّه لا بدّ أن يطرق بابه، فالموت يطرق أبواب الجميع و يأخذهم معه أخيرا.

و الالتفات- إلى حقيقة الموت- يعدّ إنذارا لجميع الناس ليفكّروا أكثر و أحسن و يعرفوا طريقهم المقدمين عليه و ما هو أمامهم و يستعدّوا له! الطريف أنّنا نقرأ

فى بعض الرّوايات أنّ رجلا جاء إلى عمر فقال: إنّى أحبّ الفتنة و أكره الحقّ و أشهد على ما لم أره، فأمر عمر به فحبس، فبلغ ذلك عليا عليه السّلام فقال: يا عمر إنّ حبسه ظلم و قد أثمت على ذلك. فقال: و لم؟ فقال على: إنّه- يحبّ أمواله و أولاده

و قد قال اللّه عنهما فى بعض آياته أنّهما فتنة إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ[۳۵] و يكره الموت و القرآن يعبّر عنه بأنّه حقّ وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ ۳۶] و يشهد بوحدانية اللّه و هو لم يره. فقال عمر: لو لا على لهلك عمر[۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۲۳ الى ۳۰]

اشارة

وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (۲۳) أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (۲۴) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (۲۵) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (۲۶) قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (۲۷)

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (۲۸) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (۲۹) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (۳۰)

التّفسير

قرناء الإنسان من الملائكة و الشياطين:

مرّة اخرى ترتسم فى هذه الآيات صورة اخرى عن المعاد، صورة مثيرة مذهلة حيث أنّ الملك- قرين الإنسان- يبيّن محكومية الإنسان بين الملأ و يصدر حكم اللّه لمعاقبته و جزائه.

تقول الآية الاولى من هذه الآيات: يقول صاحبه و قرينه هذا كتاب أعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱

هذا الإنسان حاضر لدىّ: وَ قالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ فيكشف الستار عن كلّ صغيرة و كبيرة صدرت منه.

و لكن ما المراد من «قرينه»؟ للمفسّرين أقوال كثيرة، إلّا أنّ أغلبهم يرى أنّ المراد منه هو الملك الذى يرافق الإنسان فى الدنيا و الذى كان مأمورا بتسجيل أعماله و ضبطها ليشهد عليه هناك فى محكمة عدل اللّه.

و الآيات السابقة التى كانت تشير إلى أنّ من يرد عرصات المحشر فإنّ معه سائقا يسوقه و شهيدا يشهد عليه، تدلّ على هذا المعنى أيضا. زد على ذلك لحن الآية نفسها و الآية التى تليها تتناسبان مع هذا المعنى أيضا [فلاحظوا بدقّة].

إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكر أنّ المراد من قرينه هو «الشيطان»، لأنّ كلمة «قرين» أطلقت فى كثير من آيات القرآن على الشيطان الذى يصطحب الإنسان ...

فيكون معنى الآية على هذا التقدير هكذا: «و قال الشيطان قرين الإنسان: «إنّنى أعددت هذا المجرم لجهنّم و بذلت أقصى ما فى وسعى من جهد فى هذا السبيل».

إلّا أنّ هذا المعنى لا أنّه لا يتناسب مع الآيات السابقة و اللاحقة فحسب، بل لا ينسجم مع تبرئة الشيطان نفسه من إغوائه الإنسان على الذنب كما تصرّح بذلك الآية الواردة بعد عدّة آيات من هذه الآية محلّ البحث.

فطبقا لهذا التّفسير للآية فإنّ الشيطان يعترف بمسؤوليته فى إغواء الإنسان، و الحال أنّ الآيات المقبلة نقرأ فيها قوله: قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ فيقع التضادّ بين القولين كما تلاحظون.

و هناك تفسير ثالث و هو أبعد ممّا ذكر آنفا و لا قرينة عليه أبدا، و هو أنّ المراد من «قرينه» هو من رافق الإنسان فى حياته من البشر!!

ثمّ يخاطب اللّه الملكين المأمورين بتسجيل أعمال الإنسان فيقول لهما:

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ.

كلمة «عنيد» مشتقّة من العناد، و معناها التكبّر و حبّ الذات و عدم الخضوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲

للحقّ! و من هم المخاطبين هنا؟ هناك تفاسير متعدّدة أيضا، فمنهم من اختار التّفسير آنف الذكر، و منهم من قال بأنّهما خازنا النيران.

و قال بعضهم- أيضا- من المحتمل أن يكون المخاطب واحدا فحسب، و هو الشاهد الذى يرد عرصة القيامة مع المجرم، و صرّحت به الآيات آنفة الذكر، و تثنية الفعل هو من أجل التأكيد، فكأنّه يؤكّد مرتين: «الق، الق» و استعمال التثنية فى خطاب المفرد وارد فى لغة العرب، إلّا أنّ هذا التّفسير بعيد جدّا. و خير التفاسير و أنسبها هو التّفسير الأوّل.

و فى الآية التالية إشارة إلى بعض الأوصاف التى يتّصف بها هؤلاء الكفّار- الذميمة المنحطّة إذ تقول الآية: مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ

«المنّاع» بحكم كونه صيغة مبالغة فإنّه يطلق على الشخص الذى يمنع كثيرا من الأمور، فيكون التعبير ب «منّاع للخير» يقصد به من يمنع كلّ عمل صالح فيه خير و بأيّة صورة كانت.

و قد ورد فى بعض الرّوايات أنّ الآية نزلت فى «الوليد بن المغيرة» حيث أنّه كان يمنع أبناء أخيه عن الإسلام و يقول لهم: طالما كنت حيّا فلن أعينكم فى حياتكم ۳۸].

و كلمة «معتد» معناها المتجاوز على الحدود، سواء أ كان متجاوزا لحقوق الآخرين أو لحدود اللّه و أحكامه! و كلمة «مريب» مشتقّة من الريب، و تعنى من هو فى شكّ، الشكّ المقرون بسوء الظنّ، أو من يخدع الآخرين فيجعلهم بما يقول أو يعمل فى شكّ من

أمرهم ..

فيضلّوا عن سواء السبيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳

ثمّ تضيف الآية التالية لتذكر وصفا ذميما لمن كان من طائفة الكفّار فتقول:

الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

أجل: فَأَلْقِياهُ فِى الْعَذابِ الشَّدِيدِ.

و فى هذه الآيات بيان ستّة أوصاف لأهل النار، فالأوصاف الخمسة المتقدّمة بعضها لبعض بمثابة العلّة و المعلول، أمّا الوصف السادس فإيضاح للجذر الأصيل لهذه الأوصاف.

لأنّ معنى الكفّار هو من أصرّ على كفره كثيرا، و ينتهى هذا الأمر إلى العناد.

و المعاند أو العنيد يصرّ على منع الخير أيضا، و مثل هذا الشخص بالطبع يكون معتديا متجاوزا على حقوق الآخرين و حدود اللّه.

و المعتدون يصرّون على إيقاع الآخرين فى الشّك و الريب و سلب الإيمان عنهم.

و هكذا تبيّن أنّ هذه الأوصاف الخمسة أى «الكفّار و العنيد و المنّاع للخير و المعتدى و المريب» يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا، و بعضها لبعض يشكّل علاقة اللازم بالملزوم.

و فى الوصف السادس أى الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ يكمن الجذر الأصيل و الأساس لجميع الانحرافات الآنف ذكرها، و المراد من هذا الوصف هو الشرك، لأنّ التدقيق فيه يكشف أنّ الشرك هو الباعث على جميع هذه الأمور المتقدّمة! و فى الآية التالية يكشف الستار عن مشهد آخر و صورة اخرى ممّا يجرى على هؤلاء الكفّار و عاقبتهم، و هو المجادلة بينهم و بين الشيطان الغوىّ فى يوم القيامة، فكلّ من الكفّار يلقى التبعات على الشياطين، إلّا أنّ قرينه «الشيطان» يردّ عليه و يقول كما يحكى عنه القرآن: قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَ لكِنْ كانَ فِى ضَلالٍ بَعِيدٍ. فلم أجبره على سلوك طريق الغواية و الضلالة، بل هو الذى سلكه باختياره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴

و إرادته و اختار هذا الطريق.

و هذا التعبير يشبه ما ورد فى سورة إبراهيم الآية (۲۲) إذ يتبرّأ الشيطان من أتباعه فيقول: ... وَ ما كانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ ! و بالطبع فإنّ الشيطان لا يريد أن ينكر أثره فى إغواء الإنسان إنكارا كليّا، بل يريد أن يثبت أنّه لم يجبر أحدا على إغوائه، بل الإنسان بمحض استجابته و رغبته قبل وساوس الشيطان، فعلى هذا الأساس لا تضادّ بين هذه الآية و الآية (۸۲) من سورة (ص): لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ

و بالرغم من أنّ هذه الآيات تتحدّث عن دفاع الشيطان عن نفسه فحسب، و لا يظهر فيها كلام على اعتراض الكفّار و ردّهم على الشيطان، إلّا أنّه و بقرينة سائر الآيات التى تتحدّث عن مخاصمتهم فى يوم القيامة و بقرينة الآية التالية يتّضح جدال الطرفين إجمالا، لأنّها تقول حاكية عن ربّ العزّة: قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ و أخبرتكم عن هذا المصير.

إشارة إلى قوله تعالى للشيطان من جهة: اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤُكُمْ جَزاءً مَوْفُوراً[۳۹].

و من جهة اخرى فقد أنذر سبحانه من تبعه من الناس لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ [۴۰] و هذا التهديد و الوعيد واردة فى سائر آيات القرآن، و هى حاكية جميعا عن أنّ اللّه أتمّ الحجّة على الشياطين و الإنس كلّهم .. و حذّر كلا الفريقين من الإغواء و الغواية و الإضلال و الضلال.

و لمزيد التأكيد تقول الآية التالية حاكية عن لسان ربّ العزّة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵

ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَ ما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ[۴۱].

و المراد من «القول» هنا هو التهديد أو الوعيد الذى أشار إليه اللّه سبحانه مرارا فى آيات متعدّدة و ذكرنا آنفا أمثلة منها.

و التعبير ب «ظلّام» و هو صيغة مبالغة معناه كثير الظلم، مع أنّ اللّه لا يصدر منه أقل ظلم، و لعلّ هذا التعبير هو إيذان بأنّ مقام عدل اللّه و علمه فى درجة بحيث لو صدر منه أصغر ظلم لكان يعدّ كبيرا جدّا و لكان مصداقا للظلّام، فعلى هذا فإنّ اللّه بعيد عن أى أنواع الظلم.

أو أنّ هذا التعبير ناظر إلى الأفراد و المصاديق، إذ لو نال عبدا ظلم من اللّه فهناك نظراء لهذا العبد، و فى المجموع يكون الظلم كثيرا.

و على كلّ حال، فإنّ هذا التعبير دليل على أنّ العباد مخيّرون و لديهم الحريّة «فى الإرادة» فلا الشيطان مجبور على شيطنته و عمله، و لا الكفّار مجبورون على الكفر و أتباع طريق الشيطان، و لا العاقبة و المصير القطعى الخارج عن الإرادة قد تقرّرا لأحد أبدا.

و هنا ينقدح هذا السؤال! و هو:

كيف يقول سبحانه ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَ مع أنّ جماعة من العباد يشملهم عفوه و غفرانه؟

و الجواب على هذا السؤال: أنّ العفو أيضا وفقا لمنهج دقيق و فرع على عمل أدّاه الإنسان بحيث أنّه على رغم جرمه فهو جدير بالعفو، و هذا بنفسه أحد السنن الإلهيّة، و هو أنّ من يستحقّ العفو يشمله عفوه، و هذا أيضا لا يتغيّر.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث إشارة إلى جانب قصير و مثير من مشاهد يوم القيامة إذ تقول الآية: يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَ تَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶

[۴۲].

و المراد من هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ما هو؟ هناك تفسيران:

الأوّل: أنّه استفهام إنكارى، أى أنّ جهنّم تقول لا مجال للزيادة، و بهذا فينسجم هذا المعنى مع الآية ۱۳ من سورة السجدة: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ و هو تأكيد على أنّ تهديد اللّه يتحقّق فى ذلك اليوم تماما و أنّ جهنّم تمتلئ فى يوم القيامة من الكفّار و المجرمين.

و الثّانى: إنّ هذه الجملة فيها طلب للزيادة! أى هل يوجد غير هؤلاء ليدخلوا النار، و أساسا فإنّ طبيعة كلّ شىء أن يبحث عن سنخه دائما، فلا النار تشبع من الكفّار و لا الجنّة تشبع من المؤمنين الصالحين.

إلّا أنّ هذا السؤال سيبقى بلا جواب، و هو أنّ مفهوم هذا الطلب أنّ جهنّم ما تزال غير ممتلئة، فلا تنسجم مع الآية ۱۳ من سورة السجدة آنفة الذكر التى تقول:

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ

و لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ طلب المزيد لا يدلّ على عدم الامتلاء لأنّه:

أوّلا: قد يكون إناء ملىء بالطعام مثلا، إلّا أنّ شخصا ما يزال يتمنّى أن لو أضيف إليه فيكون متراكما أكثر! ثانيا: هذا الطلب يمكن أن يكون طلبا لتضييق المكان على أهل جهنّم و عقابهم الأليم أو تمنّى السعة لاستيعاب أنفار آخرين أكثر.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآية تدلّ دلالة واضحة أنّ أهل جهنّم كثيرون، و أنّ صورة جهنّم مرعبة و موحشة و أنّ تهديد اللّه جدّى و حقّ يربك الفكر فى كلّ إنسان فيهزّه و يحذّره ألّا يكون واحدا من أهلها! و هذا التفكير يمكن أن يصيّره ورعا ملتزما فلا يقدم على الذنوب الكبيرة و الصغيرة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷

و ينقدح سؤال آخر، و هو كيف تخاطب النار و هى موجود غير عاقل فتردّ و تجيب على الخطاب! و لهذا السؤال توجد إجابات ثلاث:

الاولى: إنّ هـذا التعبير نوع من التشبيه و بيان لسان الحال! أى أنّ اللّه يسأل بلسان التكوين جهنّم و هى تجيب بلسان الحال، و نظير هذا التعبير كثير فى اللغات المختلفـة! الثّانيـة: إنّ الـدار الآخرة دار حياة واقعيـة، فحتّى الموجودات المادية كالجنّة و النار يكون لها نوع من الإدراك، و الحياة و الشعور، فالجنّة تشتاق إلى المؤمنين، و جهنّم تنتظر المجرمين.

و كمـا أنّ أعضـاء جسم الإنسـان تنطق فى ذلك اليوم و تشـهد على الإنسان، فلا عجب أن تكون الجنّـة و النار كـذلك! بل و حسـب إعتقاد بعض المفسّرين إنّ ذرّات هـذا العالم جميعها لها إدراك و إحساس خاصّ، و لـذلك فهى تسبّح اللّه و تحمـده، و قد أشارت إليه بعض آيات القرآن كالآية (۴۴) من سورة الإسراء[۴۳].

و الثّالثة: إنّ المخاطبين هم خزنة النار و هم الذين يردون على هذا السؤال.

و جميع هذه التفاسير يمكن قبولها، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب كما يبدو!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۳۱ الى ۳۷]

اشارة

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (۳۱) هـذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (۳۲) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (۳۳) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (۳۴) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ (۳۵)

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (۳۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ (۳۷)

التّفسير

ادخلوا الجنّة .. أيّها المتّقون!

مع الالتفات إلى أنّ أبحاث هـذه السورة يـدور أغلبها حول محور المعاد و الأمور التى تتعلّق به، و مع ملاحظـة أنّ الآيات آنفـة الـذكر تتحـدّث عن كيفيـة إلقاء الكفّار المعانـدين فى نار جهنّم و ما يلاقونه من عـذاب شديد و بيان صـفاتهم التى جرّتهم و ساقتهم إلى نار جهنّم! ففى هـذه الآيات محلّ البحث تصوير لمشـهد آخر، و هو دخول المتّقين الجنّة بمنتهى التكريم و التجلّة و إشارة إلى أنواع النعم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹

الجنّة، كما أنّ هذه الآيات تبيّن صفات أهل الجنّة لتتّضح الحقائق أكثر بهذه المقارنة ما بين أهل النار و أهل الجنّة.

فتبدأ الآيات بالقول: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ.

«أزلفت»: من مادّة زلفى- على زنة كبرى- و معناها القرب، أى قرّبت.

و الطريف هنـا أنّ القرآن لا ـ يقول: و قرّب المتّقين إلى الجنّـة، بـل يقول و أزلفت أى و قرّبت الجنّـة للمتّقين، و هـذا أمر لا ـ يمكن أن يتصوّر تبعـا للظروف الدنيويـة و شـروطها، و لكن حيث إنّ الأـصول الحاكمـة على العالم الآخر تختلف اختلافا بالغا عمّا هى فى هـذه الدنيا، فلا ينبغى التعجّب إطلاقا أن يقرّب اللّه الجنّة للمتّقين بمنتهى التكريم بدلا من أن يذهبوا هم إليها.

كما أنّنا نقرأ فى الآيتين (۹۰) و ۹۱) من سورة الشعراء: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغاوِينَ

و هذا منتهى اللطف الإلهى لعباده المؤمنين حيث لا يتصوّر فوقه لطف آخر!.

و التعبير ب غَيْرَ بَعِيدٍ[۴۴] تأكيد على هذا المعنى أيضا.

و على كلّ حال، فمفهوم الآيـة أنّ هـذه القضيّة تقع فى القيامة رغم أنّه عبّر عنها بالماضـى «أزلفت» لكن الحوادث المسـتقبلية القطعية كثيرا ما يعبّر عنها بالماضى- لأنّ وقوعها سيتحقّق حتما-.

و قيل: إنّ إزلاف الجنّة للمتّقين يتحقّق فى الـدنيا، لأنّه لا يفصـلهم شـىء عن الجنّة و التعبير بالماضـى يراد به الماضـى حقيقـة. و عند الموت سيجدون أنفسـهم فى الجنّة. لكن مع ملاحظـة الآيات السابقـة و اللاحقـة التى تتحدّث عن مشاهد القيامة يبدو أنّ هذا المعنى بعيد، و المناسب هو التّفسير الأوّل.

ثمّ تبيّن الآيات أوصاف أهل الجنّة فتقول: هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰

و قد أشير فى هذه الآية إلى وصفين من أوصافهم و هما «أوّاب» .. «و حفيظ».

و كلمة «الأوّاب»: من مادّة [أوب - على زنة ذوب- و معناها العودة، و لعلّها تعنى التوبة عن الذنوب الكبيرة و الصغيرة.

أو أنّها تعنى العودة إلى الطاعـة، و مع ملاحظـة أنّ هـذه الصـيغة هى للمبالغـة فإنّها تدلّ على أنّ أهل الجنّة رجال متّقون بحيث إنّ أىّ عامـل أو مؤثّر أراد أن يبعـدهم عن طاعـة اللّه فهم يلتفتون و يتـذكّرون فيرجعون إلى طـاعته فورا، و يتوبون عن معاصـيهم و غفلاـتهم ليبلغوا مقام «النفس المطمئنة».

«الحفيظ» معناه الحافظ، فما المراد منه؟ هل هو الحافظ لعهـد اللّه إذ أخـذه من بنى آدم ألّا يعبدوا الشـيطان كما ورد فى الآية (۶۰) من سورة يس، أم هو الحافظ لحدود اللّه و قوانينه أو الحافظ لذنوبه و المتذكّر لها ممّا يسـتلزم التوبة و الجبران، أو يعنى جميع ما تقدّم من احتمالات؟

و مع ملاحظة أنّ هذا الحكم ورد بصورة مطلقة، فإنّ التّفسير الأخير الجامع لهذه المعانى يبدو أقرب.

و اسـتدامة لبيان هـذه الأوصاف فإنّ الآية التالية تشـير إلى وصـفين آخرين منها، و هما فى الحقيقة بمثابة التوضـيح و التّفسـير لما سـبق ذكره، إذ تقول الآية: مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَ جاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ

عبـارة مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ إشارة إلى أنّهم رغم عـدم رؤيتهم اللّه بأعينهم، إلّا أنّهم يؤمنون به عن طريق آثاره و الاسـتدلال بها. فيؤمنون إيمانا مقرونا بالإحساس بتحمّل المسؤولية.

و يحتمل أنّ المراد من «الغيب» هو ما غاب عن أعين الناس، أى أنّهم لا يرتكبون الإثم لا بمرأى من الناس و لا فى خلوتهم و ابتعادهم عنهم.

و هذا الخوف «أو الخشية» يكون سببا للإنابة، فيكون قلبهم متوجّها إلى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱

و يقبل على طاعته دائما و يتوب من كلّ ذنب، و أن يواصلوا هذه الحالة حتّى نهاية العمر و يردّوا عرصات المحشر على هذه الكيفية!.

ثمّ تضـيف الآيـة الاخرى بأنّ أولئك الـذين يتمتّعون بالصـفات الأربع هـذه حين تتلقّاهم الملائكة عند أبواب الجنّة يقولون لهم بنهاية التجلّة و الإكرام ادْخُلُوها بِسَلامٍ

«السلام» من كلّ أنواع الأذى و السوء و العذاب و المعاقبة، السلامة الكاملة فى لباس الصحّة و العافية.

و لطمأنتهم يضاف أنّ ذلك اليوم يوم الدعّة و ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ.

و إضافة لهاتين البشارتين بشرى الدخول بسلام، و بشرى الخلود فى الجنّة، يبشّرهم اللّه بشريين أخريين بحيث تكون مجموع البشريات أربعا كما أنّهم يتّصفون بأربع صفات يقول: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها.

و إضافة إلى كلّ ذلك فإنّه لَدَيْنا مَزِيدٌ من النعم التى لم تخطر ببال أحد.

و لا يمكن أن يتصوّر تعبير أبلغ من هذا التعبير و أوقع منه فى النفس، إذ يقول القرآن أوّلا: لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها على سعة معنى العبارة و ما تحمله من مفهوم إذ لا ـ استثناء فيها، ثمّ يضاف عليها المزيد من قبل اللّه ما لم يخطر بقلب أحد، حيث أنّ اللّه الذى أنعم على المتّقين فشملهم بألطافه الخاصّة و هم يتنعمّون فيها، و هكذا فإنّ نعم الجنّة و مواهبها ذات أبعاد واسعة لا يمكن أن توصف بأىّ بيان.

كما يستفاد من هذا التعبير ضمنا أنّه لا مقايسة بين أعمال المؤمنين و ثواب اللّه، بل هو أعلى و أسمى منها كثيرا، و الجميع فى يوم القيامة يواجهون فضله أو عدله! و نجازى بعدله! و بعد الانتهاء من بيان الحديث حول أهل الجنّة و أهل النار و درجاتهما، فإنّ القرآن يلفت أنظار المجرمين للعبرة و الاستنتاج فيقول: وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ فكانت تلك الأقوام أقوى من هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۲

و كانوا يفتحون البلدان و يتسلّطون عليها، إلّا أنّهم و بسبب كفرهم و ظلمهم أهلكناهم .. فهل وجدوا منفذا و مخرجا للخلاص من الموت و العذاب الإلهى هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ! «القرن» و «الاقتران» فى الأصل هو «القرب» أو «الاقتراب» ما بين الشيئين أو الأشياء، و يطلق لفظ «القرن» على الجماعة المتزامنة فى فترة واحدة، و يجمع على «قرون» ثمّ أطلق هذا اللفظ على فترة من الزمن حيث يطلق على ثلاثين سنة أحيانا كما يطلق على مائة سنة أيضا، فإهلاك القرون معناه إهلاك الأمم السابقة.

و «البطش» معناه حمل الشىء و أخذه بالقوّة و القدرة، كما يستعمل هذا اللفظ بمعنى الفتك و الحرب.

و «نقّبوا»: فعل من مادّة نقب، و معناه الثقب فى الجدار أو الجلد، غير أنّ الثقب يطلق على ما يقع فى الخشب، و النقب معناه أعمّ و أوسع.

و هذه المفردة إذا استعملت كفعل كما هو فى الآية فيعنى ذلك الحركة و السير و شقّ الطريق، كما يعنى السيطرة على البلدان و النفوذ فيها أيضا.

«المنقبة»: من المادّة ذاتها، و تطلق على الصفات البارزة فى الشخص و أفعاله الكريمة التى لها تأثير و نفوذ فى نفوس الآخرين، أو أنّها تشقّ له الطريق فى الارتقاء و السمو! و «النقيب»: هو من يبحث عن أحوال جماعة ما و يطّلع على أخبارهم و ينفذ فى أنفسهم.

و «المحيص»: كلمة مشتقّة من الحيص على زنة «الحيف»، و معناها الانحراف و العدول عن الشىء، و من هنا فقد استعملت هذه الكلمة فى الفرار من المشاكل و الهزيمة عن المعركة!.

و على كلّ حال فإنّ الآية تنذر الكفّار المعاصرين للنّبى صلّى اللّه عليه و سلّم أن يستقرئوا تاريخ الماضين و أن ينظروا فى قصصهم للاعتبار، ليروا ما صنع بهؤلاء المعاندين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۳

.. الذين كانوا امما و أقواما أشدّ من هؤلاء «و ليفكّروا بعاقبتهم أيضا» و هذا المعنى ورد مرارا فى القرآن منها الآية ۸ من سورة الزخرف إذ نقرأ قوله تعالى: فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً.

و يرى بعض المفسّرين أنّ الآية محلّ البحث تشير إلى «ثمود» هذه الطائفة التى كانت تسكن مناطق جبلية تدعى «بالحجر» و تقع شمال الحجاز، فكانت تقطنها و تنقّب فى الجبال و تحفر صخورها فتصنع منها القصور الرائعة، غير أنّ ظاهر النصّ أنّ هذه الآية مفهومها واسع، فيشمل هؤلاء و غيرهم أيضا.

أمّا جملة هَلْ مِنْ مَحِيصٍ فيحتمل أن تكون سؤالا على لسان الكفّار السابقين حين أحدق بهم العذاب، فكانوا يسألون: هل من فرار و محيص عنه، كما يحتمل أن يكون سؤالا من قبل اللّه للكفّار المعاصرين للنبى صلّى اللّه عليه و سلّم أى هل استطاع من كان قبلكم من الكفرة الفرار من قبضة العذاب؟ أو هل يستطيع من يعاند النّبى أن يهرب من مثل هذا لو أحدق به؟! و يضيف القرآن فى آخر آية من

الآيات محل البحث مؤكّدا أكثر فيقول: إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَ هُوَ شَهِيدٌ.

و المراد ب «القلب» هنا و فى الآيات الآخر من القرآن التى تتكلّم على إدراك المسائل هو العقل و الشعور و الإدراك، كما أنّ كتب اللغة تشير إلى أنّ واحدا من معانى القلب هو العقل، أمّا الراغب فقد فسّر القلب فى الآية محلّ البحث بالعلم و الفهم، كما نقرأ فى لسان العرب أنّ القلب قد يطلق على العقل أيضا[۴۵].

كما

ورد فى تفسير عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام لهذه الآية أنّه قال: إنّ القلب هو العقل ۴۶].

و الجذر اللغوى لكلمة «قلب» فى الأصل: التغيير و التحوّل، و اصطلاحا معناه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۴

الانقلاب، و حيث أنّ فكر الإنسان أو عقله فى تقلّب دائم و فى حال مختلفة فقد أطلقت عليه كلمة «القلب» .. و لذلك فإنّ القرآن يعوّل على اطمئنان القلب و السكينة فيقول: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ۴۷] كما يقول فى آية اخرى: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [۴۸] أجل إنّما يهدّئ هذا الموجود المضطرب ذكر اللّه فحسب.

أمّا أَلْقَى السَّمْعَ فكناية عن الإصغاء و منتهى الاستماع بدقّة، و هناك تعبير فى العرف يشبه هذا التعبير يقول «اذنى معك» أى إنّنى أصغى إليك بدقّة! و «الشهيد» يطلق على من هو حاضر القلب، أو كما يقال قلبه فى المجلس و هو يتابع المسائل بدقّة!.

و هكذا فإنّ مضمون الآية بمجموعة يعنى ما يلى: إنّ هناك فريقين ينتفعان بهذه المواعظ و النصيحة ... فالفريق الأوّل من يتمتّع بالذكاء و العقل .. و يستطيع بنفسه أن يحلّل المسائل بفكره! أمّا الفريق الآخر فليس بهذا المستوى، إلّا أنّه يمكن أن يلقى السمع للعلماء و يصغى لكلماتهم بحضور القلب و يعرف الحقائق عن طريق الإرشاد.

و يشبه هذا التعبير ما نقرؤه فى الآية ۱۰ من سورة الملك على لسان أهل النار، إذ ورد هكذا: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ! لأنّ علائم الحقّ واضحة، فأهل التحقيق يعرفونها جيّدا .. و من لم يكن كذلك فيستطيع أن يعرفها عن طريق إرشاد المخلصين من العلماء.

فعلى هذا يجب أن يتمتّع الإنسان بعقل كاف و علم واف .. أو يتمتّع بإذن واعية[۴۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۵

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (۳۸) فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ (۳۹) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ (۴۰)

التّفسير

خالق السموات و الأرض قادر على إحياء الموتى:

تعقيبا على ما ورد فى الآيات آنفة الذكر و دلائلها المتعدّدة فى شأن المعاد، تشير الآيات محلّ البحث إلى دليل آخر من دلائل إمكان المعاد .. ثمّ تأمر النّبى بالصبر و الاستقامة و التسبيح بحمد اللّه ليبطل دسائس المتآمرين و ما يحيكونه ضدّه، فتقول الآية الاولى من

هذه الآيات: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ

«اللغوب» بمعنى «التعب» و بديهى أنّ من لديه قدرة محدودة و أراد أن يعمل عملا فوق طاقته و قدرته فإنّه يتعب و يناله اللغوب و النصب، إلا أنّ من كان ذا قدرة لا نهاية لها، و قوّة لا حدّ لها فإنّ التعب و النصب و اللغوب لا تعنى شيئا لديه .. فعلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۶

هذا من كان قادرا على إيجاد السماوات و الأرض و خلق الكواكب و المجرّات و أفلاكها جميعا، قادر على إعادة الإنسان بعد موته و أن يلبسه ثوبا جديدا من الحياة.

بعض المفسّرين ذكر فى شأن نزول الآية أنّ اليهود كانوا يتصوّرون أنّ اللّه خلق السماوات و الأرض فى ستّة أيّام «ستّة أيّام من أيّام الأسبوع»! ثمّ استراح فى اليوم السابع «السبت» فوضع رجلا على رجل اخرى!! و هكذا فإنّهم يرون أنّ الجلوس على هذه الشاكلة غير لائق، و أنّه خاصّ باللّه، فنزلت الآية آنفة الذكر و حسمت الكلام فى مثل هذه الخرافات المضحكة[۵۰]! إلّا أنّ هذا الشأن لا يمنع من أن يتابع مسألة إمكان المعاد فى الوقت الذى هو دليل على توحيد اللّه و قدرته و علمه، إذ خلق السماوات و الأرض بما فيهما من عجائب و (ملايين) الأحياء و الأسرار المذهلة و نظمها الخاصّة بحيث أنّ التفكّر فى زاوية واحدة من هذا الخلق يسوقنا إلى الخالق الذى حرّكت يد قدرته هذه الكواكب و نثرت نور الحياة فى كلّ مكان ليكون دليلا عليه.

و قد تكرّر موضوع خلق السماوات و الأرض فى ستّة أيّام فى آيات متعدّدة من القرآن ۵۱].

و كلمة «يوم» يراد منها الفترة الزمنية لا بمعنى أربع و عشرين ساعة أو اثنتى عشرة ساعة، كأن نقول «كان الناس يعيشون فى ظلّ النّبى يوما، و سلّط عليهم بنو اميّة يوما و بنو العبّاس يوما آخر! .. إلخ».

و واضح أنّ كلمة «اليوم» فى هذه التعبيرات و أمثالها يراد منها الفترة الزمانية سواء كانت سنّة أو شهرا أو جيلا .. أو آلاف السنين .. فنقول مثلا: كانت الكرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۷

الأرضية قطعة متلهّبة يوما، و بردت يوما فغدت مهيّأة للحياة، فجميع هذه التعبيرات تشير إلى الفترات الزمنية.

فيستفاد من التعبيرات الواردة فى الآية آنفة الذكر أنّ اللّه خلق جميع السماوات و الأرض و الموجودات الاخرى فى ستّ مراحل أو ستّ فترات زمانية. «و تفصيل هذا الكلام مبيّن فى ذيل الآية ۵۴ من سورة الأعراف فلا بأس بمراجعته».

إذا، لا يبقى مجال للسّؤال بأنّه لم يكن قبل خلق السماء و الأرض ليل أو نهار فكيف خلقتهما فى ستّة أيّام؟! و بعد ذكر دلائل المعاد المختلفة و تصوير مشاهد المعاد و يوم القيامة المتعدّدة فإنّ القرآن يخاطب النّبى و يأمره بالصبر- لأنّ هناك طائفة لا تذعن للحقّ و تصرّ على الباطل فيقول: فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ إذ بالصبر و الاستقامة- وحدهما- يستطاع التغلّب على مثل هذه المشاكل.

و حيث أنّ الصبر و الاستقامة يحتاجان إلى دعامة و معتمد، فخير دعامة لهما ذكر اللّه و الارتباط بالمبدأ- مبدأ العلم القادر على إيجاد العالم- لذلك فإنّ القرآن يضيف تعقيبا على الأمر بالصبر قائلا: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ و كذلك: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ.

فهذا الذكر و التسبيح و المستمر ينصبّ على صعيد قلبك كانصباب الغيث على الأرض ليهبها الحياة و يسقيها الرواء، فالتسبيح أيضا يلهم قلبك النشاط و الاستقامة بوجه الأعداء المعاندين.

و هناك أقوال مختلفة بين المفسّرين فى المراد من «التسبيح» فى الأوقات الأربعة «قبل طلوع الشمس و بعد الغروب و من الليل و أدبار السجود!».

فبعضهم يعتقد أنّ المراد من هذه التعبيرات هو الصلوات الخمس اليومية ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۸

و بعضا من النوافل الفضلى على الترتيب و النحو التالى.

ف قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إشارة إلى صلاة الصبح، لأنّ فى آخر وقتها تطلع الشمس فينبغى أداؤها قبل طلوع الشمس.

و قبل الغروب إشارة إلى صلاتى الظهر و العصر لأنّ الشمس تغرب آخر وقتيهما.

أمّا قوله: وَ مِنَ اللَّيْلِ فيشير إلى صلاتى المغرب و العشاء و قوله: وَ أَدْبارَ السُّجُودِ ناظر إلى النوافل بعد صلاة المغرب، و قال ابن عبّاس بهذا التّفسير- مع هذا القيد- و هو أنّ المراد من إدبار السجود هو جميع النوافل التى تؤدّى بعد الفرائض و لكن حيث أنّا نعتقد بأنّ ما يؤدّى من النوافل اليومية بعد الفرائض هما نافلة المغرب و نافلة العشاء فحسب، فلا يصحّ هذا التعميم آنفا.

كما فسّر بعضهم قوله «قبل طلوع الشمس» بصلاة الصبح، «و قبل الغروب» بصلاة العصر، «و من الليل فسبّحه» بصلاتى المغرب و العشاء، فلم يذكروا شيئا عن صلاة الظهر هنا، و هذا دليل على ضعف هذا التّفسير.

و نقرأ

فى بعض الرّوايات المنقولة عن الإمام الصادق أنّه حين سئل عن الآية:

وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ .. قال عليه السّلام: «تقول حين تصبح و تمسى عشر مرّات لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له له الملك و له الحمد يحيى و يميت و هو على كلّ شىء قدير»[۵۲].

و لا يتنافى هذا التّفسير مع التّفسير الأوّل و يمكن أن يجتمعا فى الآية معا.

و ممّا ينبغى الالتفات إليه هو ورود نظير هذا المعنى باختلاف يسير فى الآية.

(۱۳۰) من سورة طه أيضا إذ تقول الآية: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِها وَ مِنْ آناءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ أَطْرافَ النَّهارِ لَعَلَّكَ تَرْضى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۹

جملة «لعلّك ترضى»- تدلّ على أنّ لهذا التسبيح و الذكر فى هذه الأوقات أثرا مهمّا فى اطمئنان القلب و رضا الخاطر، إذ يمنح القلب قوّة و شدّة بوجه الحوادث.

و هناك لطيفة تسترعى النظر و هى أنّ الآية (۴۹) من سورة الطور تقول هكذا:

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ ۵۳].

و

قد ورد فى حديث عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «المراد ب أَدْبارَ السُّجُودِ ركعتا نافلة تؤدّيان بعد صلاة المغرب «ينبغى الالتفات إلى أنّ نافلة المغرب أربع ركعات و قد أشير إلى إثنين منهما هنا فحسب» و إدبار النجوم ركعتا نافلة الصبح إذ تؤدّيان عند غروب النجوم و تفرّقها و قبل صلاة الصبح»[۵۴].

كما ورد فى رواية اخرى أنّ المراد من «ادبار السجود» هو نافلة الوتر التى تؤدّى آخر الليل ۵۵].

و على كلّ حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب من الجميع و أكثر تناسبا و إن كان مفهوم التسبيح و سعته شاملا لكثير من التفاسير المشار إليها فى الرّوايات آنفا.

ملاحظة

الصبر مفتاح لكلّ فلاح:

لم يكن تعويل القرآن و اعتماده على الصبر بوجه المشاكل لأوّل مرّة هنا فحسب، فطالما أمر النّبى و المؤمنون عامّة فى الآيات مرارا بالصبر و أكّد على هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۰

الموضوع كما أنّ التجارب تدلّ على أنّ النصر و الغلبة من نصيب أولئك الذين تمتّعوا بالصبر و الاستقامة.

ففى حديث عن الإمام الصادق أنّه أمر بعض أصحابه «و لعلّه كان لا يطيق بعض الظروف الصعبة فى ذلك الزمان»: «عليك بالصبر فى جميع أمورك. ثمّ قال عليه السّلام إنّ اللّه بعث محمّدا و أمره بالصبر و المداراة فصبر حتّى نسبوا إليه ما لا يليق فضاق صدره فأنزل اللّه عليه الآية: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ

فصبر فكذّبوه أيضا، و رشقوه بنبال التّهم من كلّ جانب فحزن و تأثّر لذلك، فأنزل اللّه عليه تسلية قوله: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا.

ثمّ يضيف الإمام عليه السّلام أنّ النّبى و اصل صبره إلّا أنّهم تجاوزوا الحدّ فكذّبوا اللّه فقال النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قد صبرت فى نفسى و أهلى و عرضى و لا صبر لى على ذكر إلهى فأنزل اللّه عزّ و جلّ: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ .. أى خلقنا السماوات و الأرض فى عدّة فترات و لم نعجل و لم يمسّنا تعب و نصب، فعليك أن تصبر، فصبر النّبى فى جميع أحواله ما كان يواجهه حتّى انتصر على أعدائه»[۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۱

الآيات [سورة ق (۵۰): الآيات ۴۱ الى ۴۵]

اشارة

وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۴۱) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (۴۲) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ (۴۳) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (۴۴) نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (۴۵)

التّفسير

يخرج الجميع أحياء عند صيحة القيامة:

هذه الآيات محلّ البحث التى تختتم بها سورة- «ق» كسائر آياتها تتحدّث على المعاد و القيامة كما أنّها تعرض جانبا منهما أيضا و هو موضوع النفخة فى الصور، و خروج الأموات من القبور فى يوم النشور .. فتقول: وَ اسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ ... يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ

و المخاطب بالفعل «استمع» هو النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم نفسه إلّا أنّه من المسلّم به أنّ المقصود جميع الناس.

و المراد من «استمع» إمّا هو الانتظار و الترقّب، لأنّ من ينتظر حادثة تبدأ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۲

بصوت مهول يرى فى حالة ترقّب دائما، فهو منتظر لأن يسمع الصوت، أو هو الإصغاء إلى كلام اللّه فيكون المعنى «استمع كلام اللّه»

إذ يقول: يوم يسمعون الصيحة إلخ ۵۷].

لكن من هو هذا المنادى؟ يحتمل أن يكون الذات المقدّسة جلّ و علا، و لكن الاحتمال الأقوى هو «إسرافيل» الذى ينفخ فى الصور .. و قد وردت الإشارة فى آيات القرآن إليه لا بالاسم بل بتعبيرات خاصّة.

عبارة مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ إشارة إلى أنّ هذه الصيحة ينتشر صداها فى الفضاء بدرجة أنّها كما لو كانت فى أذن كلّ أحد، و جميعهم يسمعونها بدرجة واحدة من القرب.

نحن اليوم نستطيع أن نسمع كلام أى إنسان و فى أيّة نقطة كان بوسائل مختلفة فكأنّ المتكلّم على مقربة منّا، و يتحدّث معنا، إلّا أنّ يوم القيامة يسمع الناس كلّهم الصحية دون حاجة إلى مثل هذه الوسائل و هى قريبة منهم ۵۸].

و على كلّ حال، فليست هذه الصيحة هى الصيحة الاولى التى تقع مؤذنة بنهاية العالم، بل هى الصيحة الثانية، أى الصيحة للنشور و الحشر، و فى الحقيقة أنّ الآية الثانية توضيح للآية السابقة و تفسير لها إذ تقول: يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ من القبور و البعث و النشور.

و لكى يعرف من الحاكم فى هذه المحكمة الكبرى، فإنّ القرآن يضيف قائلا:

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَ نُمِيتُ وَ إِلَيْنَا الْمَصِيرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۳

و المراد من «نحيى» هو الحياة الاولى فى الدنيا، و المراد من «نميت» هو فى نهاية العمر، و جملة «إلينا المصير» إشارة إلى الأحياء فى يوم القيامة.

و فى الحقيقة أنّ الآية تشير إلى هذه الحقيقة و هى كما أنّ الحياة و الموت فى الدنيا بأيدينا، فكذلك المعاد، و قيام الساعة بأيدينا أيضا.

ثمّ يضيف القرآن فيخبر عن ميقات النشور فيقول: يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً أى يخرجون مسرعين من القبور[۵۹] و يضيف مختتما: ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ.

و «الحشر» معناه الجمع من كلّ جهة و مكان.

و واضح أنّ خالق السماوات و الأرض و ما بينهما من اليسير عليه أن ينشر الموتى و يحشرهم للحساب و الثواب أو العقاب.

و أساسا، فإنّ موضوع الصعوبة و اليسر يقال فى من يتمتع بقدرة محدودة، إلّا أنّ القادر على كلّ شىء و لا حدّ لقدرته فكلّ شىء عليه سهل و يسير.

الطريف هنا أنّنا نقرأ فى بعض الرّوايات: أنّ أوّل من يبعث و يخرج من قبره و يرد المحشر هو النّبى الأكرم محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم و على معه ۶۰].

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث و هى آخر آية من سورة ق ذاتها فهى تخاطب النّبى و تسرّى عنه و تسلّى قلبه لما يلاقيه من المعاندين و الكفرة فتقول:

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَ ما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ.

فمسؤوليتك البلاغ و الدعوة نحو الحقّ و البشارة و النذارة: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ[۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۴

و قد ورد فى تفسير القرطبى عن ابن عبّاس أنّه قال جاء جماعة إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فقالوا أنذرنا يا رسول اللّه و بشّرنا، فنزلت الآية محلّ البحث و قالت:

فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ[۶۲].

و ذلک إشارة إلی أنّ القرآن کاف للإنـذار و إیقاظ المؤمنین، فکلّ صـفحة منه تـذکر بیوم القیامـة و آیاته المختلفة التی تتحدّث عن قصـص الماضـین و عاقبتهم و تصف أهل النار و أهل الجنّـة و ما یقع عنـد قیام الساعة فی محکمة عدل اللّه هی خیر موعظة و نصـیحة لجمیع الناس.

و الحقّ أن تذکر مشهد تشقّق الأرض و ولوج الأرواح فی الموتی و خروجهم من القبر و اکتسائهم ثوب الحیاة و تحرکهم فی حال من الوحشة و الاضطراب من القرن حتّی القدم و هم یساقون إلی محکمة عدل اللّه هذا المشهد مثیر جدّا.

و لا سیّما أنّ بعض القبور یضمّ فی لحده علی تقادم الزمان و مرور الأعوام أجسادا متعدّدة من الناس بعضـهم صالح و بعضهم طالح و بعضهم مؤمن و بعضهم کافر و کما یقول المعرّی:

ربّ قبر قد صار قبرا مراراضاحک من تزاحم الأضداد

و دفین علی بقایا دفین‌فی طویل الآجال و الآماد!

ربّنا اجعلنا من الذی یخافون وعیدک و یتّعظون بالقرآن.

اللهمّ ارحمنا یوم یستوحش الناس و یضطربون فیه و ألق فی نفوسنا السکینة و الطمأنینة.

إلهنا .. إنّ أیّام العمر مهما طالت فهی تمضـی سـراعا و ما هو خالـد فذاک الیوم الآخر و الدار الآخرة، فارزقنا حسن العاقبة و النجاة فی الآخرة! آمّین یا رب العالمین انتهاء سورة ق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۵

سورة الذّاریات

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ستّون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۷

«سورة الذّاریات»

محتوی السورة:

یـدور محـور هـذه السورة فی الدرجـة الاـولی حول المسائـل المتعلّقـة بالمعـاد و یوم القیامـة و الثواب و العقـاب لکـلّ من المؤمنین و الکافرین، و لکنّها لیست کسورة (ق) محورها المعاد، بل فیها محاور أخر کما یلاحظها القارئ.

و یمکن أن یقال بشکل إجمالی أنّ مباحث هذه السورة تدور حول خمسة محاور و هی:

۱- کما قلنا آنفا إنّ القسم المهمّ منها یتکلّم عن المعاد و بدایة السورة و نهایتها أیضا هما حول المعاد.

۲- القسم الآخر من هذه السورة ناظر إلی مسألة توحید اللّه و آیاته فی نظام الخلق و الوجود، و هی تکمل مبحث المعاد طبعا.

۳- و فی قسم آخر یقع الکلام علی ضـیف إبراهیم من الملائکـة و ما أمروا به من تـدمیر مـدن قوم لوط! ۴- و الآیات الاخر من هـذه السورة فیها إشارات قصـیرة إلی قصّة موسـی علیه السّـلام و بعض الأمم کعاد و ثمود و قوم نوح، و بهذا فهی تنذر الکفّار الآخرین بما آل إلیه السابقون.

۵- و أخیرا فـإنّ قسـما من هـذه السورة- یتحـدّث عن مواجهـة الأـمم المعانـدین لأنبیائهم و تأمر النّبی صـلّی اللّه علیه و سـلّم بالصبر و الاستقامة بوجه المشاکل و الشدائد و تسرّی عنه و تسلّی قلبه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۸

فضیلة تلاوة هذه السورة:

ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الذاریات فی یومه أو لیلته أصلح اللّه له معیشته و أتاه برزق واسع و نور له قبره بسراج یزهر إلی یوم القیامة»[۶۳].

و قد قلنا مرارا أنّ مجرّد التلاوة باللسان غیر کافیة لبلوغ هذا الثواب العظیم، بل الهدف هو التلاوة بتفکّر ... التفکّر الباعث علی العمل.

و تسمیة «الذاریات»- ضمنا- تعود إلی ورود الآیة الاولی من هذه السورة وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۶۹

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً (۱) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (۲) فَالْجارِیاتِ یُسْراً (۳) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (۴)

إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (۵) وَ إِنَّ الدِّینَ لَواقِعٌ (۶)

التّفسیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۶۹

قسما بالأعاصیر و السحب الذاریات:

هذه السورة هی الثانیة بعد سورة «الصافات» التی تبدأ بالقسم المتکرّر، القسم العمیق و الباعث علی التفکّر، القسم الذی یوقظ الإنسان و یمنحه الوعی و الاطّلاع! و کثیر من سورة القرآن التی سنواجهها- فی المستقبل إن شاء اللّه- بالبحث و التّفسیر- هی علی هذه الشاکلة .. و الطریف فی الأمر أنّ هذا القسم غالبا ما یوطّئ للمعاد، سوی بعض المواطن التی یمهّد فیها للتوحید و المسائل المتعلّقة به.

کما أنّ ممّا یلفت النظر أنّ هذا القسم یرتبط محتواه بمحتوی یوم القیامة و النشور .. و هو یتابع بظرافة و رونق خاصّ هذا البحث المهمّ من جوانب متعدّدة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۰

و الحقیقة أنّ کلّ قسم فی القرآن هو بنفسه- و إن کثرت الأقسام- أو الأیمان- وجه من وجوه إعجاز القرآن هذا الکتاب السماوی، و هو من أجمل جوانبه و أبهاها و سیأتی تفصیل کلّ ذلک فی موقعه.

و فی مستهلّ السورة یقسم اللّه سبحانه بخمسة أشیاء مختلفة، و قد جاء القسم بأربعة أشیاء متوالیة سردا و جاء القسم بخامسها فردا.

فیقول اللّه فی البدایة: وَ الذَّارِیاتِ ذَرْواً[۶۴] أی قسما بالریاح التی تحمل السحب فی السماء و تذروا البذور علی الأرض فی کلّ مکان ...

ثمّ يضيف: فَالْحامِلاتِ وِقْراً[۶۵] قسما بالسحب التى تحمل أمطارا ثقيلة معها ...

فَالْجارِياتِ يُسْراً[۶۶] «و الجاريات هنا هى السفن» أى قسما بالسفن التى تجرى فى الأنهار العظيمة و البحار الشاسعة بيسر و سهولة ..

فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً «و المقسمات «هنا» معناها الملائكة الذين يقسّمون الأمور.

و نقرأ

حديثا نقله كثير من المفسّرين ذيل هذه الآية أنّ «ابن الكوا»[۶۷] سأل مرّة عليا عليه السّلام و هو على المنبر خطيبا: ما الذَّارِياتِ ذَرْواً؟

فقال عليه السّلام: هى الرياح.

فقال: فَالْحامِلاتِ وِقْراً فأجاب عليه السّلام: هى السحاب.

فقال: فَالْجارِياتِ يُسْراً فقال عليه السّلام: هى السفن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۱

فقال: فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً فقال: الملائكة.

و مع هذه الحال فهناك تفاسير أخر يمكن ضمّها إلى هذا التّفسير، منها أنّ المراد ب «الجاريات» هى الأنهار التى تجرى بماء المزن و «المقسمات أمرا» هى الأرزاق التى تقسّم بواسطة الملائكة عن طريق الزراعة.

و على هذا فإنّ الكلام عن الرياح ثمّ الغيوم و بعدها الأنهار و أخيرا نمو النباتات فى الأرض يتناسب تناسبا قريبا مع مسألة المعاد، لأنّنا نعرف أنّ واحدا من أدلّة إمكان المعاد هو إحياء الأرض الميتة بنزول الغيث و قد ذكر ذلك عدّة مرّات فى القرآن بأساليب مختلفة.

كما يردّ هذا الاحتمال أيضا: و هو أنّ هذه الأوصاف الأربعة جميعها للرياح- الرياح المولّدة للسحب، و الرياح التى تحملها على متونها، و الرياح التى تجرى بها إلى كلّ جانب، و الرياح التى تنثر و تقسّم قطرات الغيث لكلّ جهة[۶۸]!.

و مع ملاحظة أنّ هذه التعبيرات الواردة فى الآيات جميعها جامعة و كليّة فيمكن أن تحمل المعانى آنفة الذكر كلّها، إلّا أنّ التّفسير الأساس هو التّفسير الأوّل.

و هنا ينقدح هذا السؤال .. و هو:

إذا كان المراد من «المقسمات» هو الملائكة فما ذا تقسم الملائكة؟! نجيب على هذا السؤال أنّ تقسيم العمل هنا لعلّه راجع إلىّ كلّ التدبير فى العالم بحيث أنّ جماعات من الملائكة مأمورة بتدبير أموره، كما يحتمل أنّها مأمورة بتدبير الأرزاق، أو تقسيم قطرات الغيث على المناطق المتعدّدة فى الأرض ۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۲

و بعد ذكر هذه الأقسام الأربعة التى تبيّن أهميّة الموضوع الذى يليها يقول القرآن: إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ ۷۰].

و مرّة اخرى لمزيد التأكيد يضيف قائلا: وَ إِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ الدين: هنا معناه الجزاء كما جاء بهذا المعنى فى قوله تعالى: مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ أى يوم الجزاء.

و أساسا فإنّ واحدا من أسماء يوم القيامة هو «يوم الدين» و «يوم الجزاء» و يتّضح من ذلك أنّ المراد من الوعود الواقعة «هنا» هى ما يوعدون عن يوم القيامة و ما يتعلّق بها من حساب و ثواب و عقاب و جنّة و نار و سائر الأمور المتعلّقة بالمعاد، فعلى هذا تكون الجملة الاولى شاملة لجميع الوعود، و الجملة الثانية تأكيد آخر على مسألة الجزاء.

و بعد عدّة جمل أخر سيأتى الكلام على يوم الدين، و كما أشرنا آنفا فإنّ الأقسام الواردة فى بداية السورة لها علاقة و تناسب بيّن مع نتيجة هذه الأقسام! لأنّ حركة الرياح و نزول الغيث و نتيجة لكلّ ذلك فإنّ حياة الأرض بعد موتها بنفسها مشهد من مشاهد القيامة و المعاد يبدو فى هذه الدنيا.

قال بعض المفسّرين إِنَّما تُوعَدُونَ يحمل معنى واسعا يشمل جميع الوعود الإلهيّة المتعلّقة بيوم القيامة و الدنيا و تقسيم الأرزاق و مجازاة المجرمين فى هذه الدنيا و الدار الآخرة و انتصار المؤمنين الصالحين، فالآية (۲۲) من هذه السورة ذاتها التى تقول: وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَ ما تُوعَدُونَ يمكن أن تكون تأكيدا أو تأييدا لهذا المعنى، و حيث أنّ لفظ الآية مطلق فلا تبعد هذه العمومية.

و على كلّ حال فإنّ الوعود الإلهية جميعها صادقة لأنّ خلف الوعد إمّا ناشئ عن الجهل أو العجز! .. الجهل الباعث على تغيير فكر الواعد، و العجز المانع من الوفاء به، إلّا أنّ اللّه العالم و القادر لا تتخلّف و عوده أبدا .. تعالى اللّه عن ذلك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۳

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۷ الى ۱۴]

اشارة

وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (۷) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (۸) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (۹) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (۱۰) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (۱۱) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (۱۲) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (۱۳) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (۱۴)

التّفسير

و السّماء ذات الحبك:

تبدأ هذه الآيات كالآيات المتقدّمة بالقسم و تتحدّث عن اختلاف الكفّار وجد لهم حول يوم الجزاء و القيامة و مسائل أخر متعدّدة من بينها شخصية النّبى (محمّد) و مسألة التوحيد.

فتقول الآيات فى البداية: قسما بالسماء ذات الخطوط و التعرّجات الجميلة:

وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ

و فى اللغة معان كثيرة لكلمة «الحبك» على زنة «كتب» و هى جمع «حباك» على وزن- كتاب-.

من ضمن هذه المعانى الطرق و التعاريج التى تبدو على الرمل نتيجة للرياح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۴

أو التى تبدو على صفحة الماء أو على السحب فى السماء! كما تطلق الحبك على الشعر المجعّد.

و قد تفسّر الحبك على الشعر المجعّد.

و قد تفسّر الحبك بالزينة و الجمال! كذلك تأتى بمعنى الشكل الموزون و الرتيب.

و الجذر الأصلى لها «حبك» و معناه هو الشدّ و الإحكام ۷۱]! و يبدو أنّ جميع هذه المعانى تعود إلى معنى واحد و هى التجاعيد و التعاريج الجميلة التى تظهر على صفحات الرمل فى الصحراء أو صفحات الماء أو التجاعيد فى الشعر أو السحب فى السماء.

و أمّا تطبيق هذا المعنى على السماء و وصفها بها وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ هو إمّا لنجومها ذات المجاميع المختلفة و صورها الفلكية «تطلق على مجموعات النجوم الثابتة التى لها شكل خاصّ بالصورة الفلكية»! و إمّا للأمواج الجميلة التى ترتسم فى السحب و قد تكون جميلة إلى درجة بحيث تحدق العين فيها لفترة طويلة! أو لمجرّاتها العظيمة التى تبدو و كأنّها تجاعيد الشعر على صفحة السماء، و خاصّة صورها التى التقطت «بالتلسكوب» إذ تشبه هذه الصور التجاعيد فى الشعر تماما.

فعلى هذا يكون معنى وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ أنّ القرآن يقسم بالسماء و مجراتها العظيمة التى لم تكتشفها يومئذ العيون الحادّة ببصرها

و لا علم الإنسان يومئذ أيضا.

و مع ملاحظة أنّ الجمع بين المعانى المتقدّمة ممكن و لا منافاة فيه فيحتمل أن تكون هذه المعانى كلّها مجتمعة فى القسم، و نقرأ فى الآية (۱۷) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۵

«المؤمنون» أيضا قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرائِقَ ۷۲].

كما يجدر الالتفات إلى أنّ الجذر الأصلى للحبك يمكن أن يكون إشارة إلى استحكام السماء و ارتباط الكرات بعضها ببعض كالكواكب السيارة و المجموعة أو المنظومة الشمسية التى ترتبط بقرص الشمس.

أمّا الآية التالية فهى جواب للقسم و بيان لما وقع عليه القسم إذ تقول مؤكّدة:

إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ

فدائما أنتم تتناقضون فى الكلام، و كأنّ هذا التناقض فى كلامكم دليل على أنّه لا أساس لكلامكم أبدا.

ففى مسألة المعاد تقولون أحيانا: لا نصدّق أبدا أن نعود أحياء بعد أن تصير عظامنا رميما.

و تارة تقولون نحن نشكّ فى هذه القضيّة و نتردّد! و تارة تضيفون أن هاتوا آباءنا و أسلافنا من قبورهم ليشهدوا أنّ بعد الموت قيامة و نشورا لنقبل بما تقولون! و تقولون فى شأن النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و سلّم تارة بأنّه شاعر، أو بأنّه ساحر، و تارة تقولون أنّه لمجنون، و تارة تقولون إنّما يعلمه بشر فهو معلّم!! كما تقولون فى شأن القرآن بأنّه: أساطير الأوّلين تارة، أو تقولون بأنّه شعر، و تارة تسمّونه سحرا، و حينا آخر تقولون أنّه كذب افتراه و أعانه عليه قوم آخرون! .. إلخ.

فقسما بحبك السماء و تجاعيدها إنّ كلامكم مختلف و ملىء بالتناقض، و لو كان لكلامكم أساس لكنتم على الأقل تقفون عند موضوع خاصّ و مطلب معيّن و لما تحوّلتم منه كلّ يوم إلى موضوع آخر!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۶

و هذا التعبير فى الحقيقة إنّما هو استدلال على بطلان ادّعاء المخالفين فى شأن التوحيد و المعاد و النّبى و القرآن «و إن كان اعتماد هذه الآيات فى الأساس على مسألة المعاد كما تدلّ عليه القرينة فى الآيات التالية»!.

و نعرف أنّه يستند دائما لكشف كذب المدّعين الكذبة سواء فى المسائل القضائية أو المسائل الاخرى على تناقض كلامهم و تضادّه، فكذلك القرآن يعوّل على هذا الموضوع تماما! و فى الآية التالية يبيّن القرآن علّة الانحراف عن الحقّ فيقول: يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ أى يؤفك عن الإيمان بالقيامة و البعث كلّ مخالف للحقّ! و إلّا فإنّ دلائل الحياة بعد الموت واضحة و جليّة! و ينبغى الالتفات إلى أنّ تعبير الآية عامّ و مغلق، و ترجمتها الحرفية هى «ليصرف عنه من هو مصروف».

لأنّ «الإفك» فى الأصل يطلق على صرف الشىء، فلذا يطلق على الكذب الذى فيه تأثير انحرافى بأنّه إفك، كما يطلق على الرياح المختلفة بأنّها «المؤتفكات».

و لكن مع ملاحظة أنّ الكلام كان فى الآيات المتقدّمة على المعاد و القيامة، فمن المعلوم أنّ المراد الأصلى من الانحراف و الإفك هنا هو الانحراف عن هذه العقيدة .. كما أنّه حيث كان الكلام فى الآية المتقدّمة عن اختلاف كلام الكفّار و تناقضهم فيعلم أنّ المراد هنا من الآية هم أولئك المنحرفون عن الإيمان بالمعاد الذين انحرفوا عن مسير الدليل العقلى و المنطق السليم الباحث عن الحقّ! و بالطبع لا مانع أن يكون المراد من «الإفك» هنا هو الانحراف عن قبول الحقّ أيّا كان نوعه، سواء كان هذا الانحراف عن القرآن أم التوحيد أو النبوّة أو المعاد «و من هذا القبيل مسألة ولاية الأئمّة المعصومين الواردة فى بعض الرّوايات» و لكن مسألة القيامة و المعاد على كلّ حال التى هى الموضوع الأصلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۷

داخلة فيه قطعا.

و فى الآية التالية ذمّ شديد للكاذبين و تهديد لتخرّصاتهم إذ تقول: قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ

و «الخرّاص» من مادّة «خرص»- على زنة درس- و معناه فى الأصل كلّ كلام يقال تخمينا أو ظنّا، و حيث أنّ مثل هذا الكلام غالبا ما يكون كذبا فقد استعملت هذه الكلمة فى الكذب أيضا .. فيكون المعنى من «الخراصون» هو:

أولئك الذين يطلقون كلمات عارية من الصحّة و لا أساس لها، و المراد منها هنا- بقرينة الآيات التالية- هو: أولئك الذين يحكمون أو يقضون فى شأن القيامة و المعاد بكلام لا أساس له بعيد عن المنطق.

على كلّ حال، فإنّ هذا التعبير هو فى شكل دعاء عليهم .. دعاء يدلّ على أنّهم «موجودات» تستحقّ الفناء و القتل، فعدمهم خير من وجودهم! كما فسّر بعضهم «القتل» هنا بالطرد و اللعن و المحروميّة عن رحمة اللّه.

و من هنا يمكن أن يستفاد من هذا الحكم الكلّى أيضا أنّ القضاء بلا دليل و لا مدرك أو مستند بيّن بل على الظنّ و الحدس هو عمل يسوق إلى الضلال و يستحقّ اللعن و العذاب.

ثمّ يعرّف القرآن هؤلاء الخراصين الكذبة فيقول: الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ

«الغمرة» فى الأصل معناها الماء الغزير الذى يغطّى محلا ما .. ثمّ استعملت على الجهل السحيق الذى يغطّى عقل الشخص! و كلمة «ساهون» جمع ل «ساه» و هى مشتقّة من «السهو» و المراد بها هنا الغفلة.

و قال بعضهم إنّ الجهل على مراحل. فالاولى هى «السهو و الاشتباه»، ثمّ «الغفلة» و بعدها «الغمرة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۸

فيكون المعنى بناء على هذا أنّهم ابتدوا من مرحلة السهو، ثمّ انساقوا إلى مرحلة الغفلة، و لما استمرّوا و واصلوا فى هذا الطريق غرقوا فى الجهل تماما، و الجمع بين هذين التعبيرين «السهو» و «الغمرة» فى هذه الآية لعلّه إشارة إلى بداية هذه الحركة و نهايتها.

فعلى هذا يكون المراد من كلمة «الخراصون» هم الغارقون فى جهلهم و كلّ يوم يتذرّعون بحجّة واهية فرارا من الحقّ.

و لذلك فهم دائما: يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ

جملة «يسألون» و الفعل للمضارع يدلّ على أنّهم يثيرون هذا السؤال أيّان يوم الدين؟! باستمرار ... على أنّه ينبغى أن يكون يوم القيامة و موعده مخفيا.

ليحتمل كلّ أحد أنّه محتمل الوقوع فى كلّ أىّ زمان، و يحصل منه الأثر التربوى للإيمان بيوم القيامة الذى هو بناء الشخصية و الاستعداد الدائم.

و هذا الكلام يشبه تماما كلام المريض إذ يسأل طبيبه مثلا: متى يكون آخر عمرى و يكرّر عليه السؤال باستمرار، فكلّ أحد يعدّ هذا السؤال هذرا و يقول:

المهمّ أن تعرف أنّ الموت حقّ لتعالج نفسك و لئلّا تبتلى بالموت السريع.

إلّا أنّهم لم يكن لهم من هدف سوى الاستهزاء أو التذرّع بالحجج الواهية و لم يكن سؤالهم عن تاريخ يوم القيامة و زمانه بحقّ! إلّا أنّه و مع هذه الحال فإنّ القرآن يردّ عليهم مجيبا بلغة شديدة و يعنّفهم يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ

و عندئذ يقال لهم هنالك: ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ و الفتنة فى الأصل اختبار الذهب فى موقد النار ليمتاز الخالص من غيره، و من هنا فقد استعملت «الفتنة» على أىّ نوع كان من أنواع الامتحان أو الاختبار، كما استعملت على دخول الإنسان النار، كما تستعمل فى البلاء و العذاب و عدم الراحة كما تشير إليه الآية محل البحث هنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۷۹

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۱۵) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (۱۶) كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (۱۷) وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (۱۸) وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۱۹)

التّفسير

ثواب المستغفرين بالأسحار

تعقيبا على الكلام المذكور فى الآيات آنفة الذكر الذى كان يدور حول الكذبة و الجهلة و منكرى القيامة و عذابهم، فى الآيات محلّ البحث يقع الكلام عن المؤمنين المتّقين و أوصافهم و ثوابهم لتتجلّى بمقارنة الفريقين- كما هو عليه أسلوب القرآن- الحقائق أكثر فأكثر.

تقول الآيات هنا: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ و صحيح أنّ البستان بطبيعته يكون ذا سواق و روافد، لكن ما ألطف أن تتدفّق مياه العيون فى داخل البستان نفسه و تسقى أشجاره .. فهذا هو ما تمتاز به بساتين الجنّة .. فهى ليست ذات عين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۰

واحدة بل فيها عيون ماء متعدّدة تجرى متدفّقه هناك ۷۳].

ثمّ يضيف القرآن مشيرا إلى نعم الجنّات الاخر فيتحدّث عنها بتعبير مغلق فيقول: آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ

أى أنّهم يتلقّون هذه المواهب الإلهيّة بمنتهى الرضا و الرغبة و الشوق ..

و يعقّب القرآن فى ختام الآية بأنّ هذه المواهب و هذا الثواب كلّ ذلك ليس اعتباطا بل إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ ۷۴] و «الإحسان» هنا يحمل معنى وسيعا بحيث يشمل طاعة اللّه و الأعمال الصالحة الاخر أيضا.

و الآيات التالية تبيّن كيفية إحسانهم، فتعرض ثلاثة أوصاف من أوصافهم فتقول: أوّلا: كانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ

كلمة «يهجعون» مشتقّة من الهجوع: و معناه النوم ليلا. قال بعضهم المراد من هذا التعبير أنّهم كانوا يقظين يحيون أكثر الليل أو يحيون الليل .. و ينامون قليلا منه.

و لكن حيث أنّ هذا الحكم و الدستور الشرعى بصورته العامّة و الكليّة للمحسنين و المتّقين يبدو بعيدا، فلا يناسب هذا التّفسير المقام، بل المراد أنّهم قلّ أن يناموا تمام الليل، و بتعبير آخر إنّ الليل هنا المراد منه العموم و الجنس.

فعلى هذا فهم كلّ ليلة يحبّون قسما منها بالعبادة و صلاة الليل. أمّا الليالى التى يرقدون فيها حتّى مطلع الفجر .. و تفوت عليهم العبادة فيها كليّا .. فهى قليلة جدّا.

و هذا التّفسير منقول عن الإمام الصادق فى بعض أحاديثه أيضا[۷۵] و هناك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۱

تفاسير أخر لهذه الآية أعرضنا عن ذكرها لأنّها[۷۶] بعيدة.

و الوصف الثانى من أوصافهم يذكره القرآن بهذا البيان: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ

فحيث أنّ عيون الغافلين هاجعة آخر الليل و المحيط هادئ تماما، فلا صخب و لا ضجيج و لا شىء يشغل فكر الإنسان و يقلق باله .. ينهضون و يقفون بين يدى اللّه و يعربون له عن حاجتهم و فاقتهم، و يصفّون أقدامهم، و يصلّون و يستغفرون عن ذنوبهم خاصّة.

و يرى الكثير من المفسّرين أنّ المراد من «الاستغفار» هنا هو «صلاة الليل» لأنّ «الوتر» منها مشتمل على الاستغفار.

و «الأسحار» جمع سحر على زنة «بشر» و معناه فى الأصل الخفى أو المغطّى، و حيث أنّه فى الساعات الأخيرة من الليل يغطّى كلّ شىء خفاء خاصّ، فقد سمّى آخر الليل سحرا.

و كلمة «سحر»- بكسر السين- تطلق أيضا على ما يغطّى وجه الحقائق أو يخفى أسرارها عن الآخرين!.

و

قد جاء فى رواية فى تفسير «الدرّ المنثور» أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: «إنّ آخر الليل فى التهجّد أحبّ إلىّ من أوّله، لأنّ اللّه يقول: و بالأسحار هم يستغفرون»[۷۷].

و نقرأ حديثا آخر

عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول: «كانوا يستغفرون اللّه فى الوتر سبعين مرّة فى السحر»[۷۸].

ثمّ يذكر القرآن الوصف الثالث لأهل الجنّة المتّقين فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۲

وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ

كلمة «حقّ» هنا هو إمّا لأنّ اللّه أوجب ذلك عليهم: كالزكاة و الخمس و سائر الحقوق الشرعية الواجبة، أو لأنّهم التزموه و عاهدوا أنفسهم على ذلك، و فى هذه الصورة يدخل فى هذا المفهوم الواسع حتّى غير الحقوق الشرعية الواجبة.

و يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذه الآية ناظرة إلى القسم الثانى فحسب، فهى لا تشمل الحقوق الواجبة .. لأنّ الحقوق الواجبة واردة فى أموال الناس جميعا، المتّقين و غير المتّقين حتّى الكفّار.

فعلى هذا حين يقول القرآن: وَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ فإنّما يعنى أنّه إضافة إلى واجباتهم و حقوقهم أوجبوا على أنفسهم حقّا ينفقونه من مالهم فى سبيل اللّه للسائل و المحروم.

إلّا أنّه يمكن أن يقال أنّ الفرق بين المحسنين و غيرهم هو أنّ المحسنين يؤدّون هذه الحقوق، فى حين أنّ غيرهم ليسوا مقيدين بذلك.

كما يمكن أن يقال فى تفسير الآية أنّ المراد بالسائل فى ما يخصّ الحقوق الواجبة، لأنّه يحقّ له السؤال و المطالبة بها .. و المراد بالمحروم فى ما يخصّ الحقوق المستحبّة إذ ليس له حقّ المطالبة بها.

و يصرّح «الفاضل المقداد» فى كتابه «كنز العرفان» أنّ المراد من قوله: حَقٌّ مَعْلُومٌ هو الحقّ الذى ألزموه أنفسهم فى أموالهم و يرون أنفسهم مسئولين عنه ۷۹].

و جاء نظير هذا المعنى فى سورة المعارج الآيتين ۲۴ و ۲۵ إذ يقول سبحانه:

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ

و مع ملاحظة أنّ حكم وجوب الزكاة نزل فى المدينة و آيات هذه السورة جميعها مكيّة، فيتأيّد الرأى الأخير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۳

و ما وصلنا من روايات عن أهل البيت عليهم السّلام يؤكّد أيضا أنّ المراد من «حقّ معلوم» شىء غير الزكاة الواجبة. إذ نقرأ حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام يقول ۸۰]: «لكنّ اللّه عزّ و جلّ فرض فى أموال الأغنياء حقوقا غير الزكاة فقال عزّ و جلّ وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ فالحقّ المعلوم غير الزكاة و هو شىء يفرضه الرجل على نفسه فى ماله ... إن شاء فى كلّ يوم و إن شاء فى كلّ جمعة و إن شاء فى كلّ شهر».

و فى هذا المجال أحاديث متعدّدة أخر منقولة عن الإمام على بن الحسين و الإمام الباقر و الإمام الصادق أيضا[۸۱].

و هکذا فإنّ تفسیر الآیة واضح بیّن.

و هناک کلام فی الفرق بین «السائل» و «المحروم»، فقال بعضهم «السائل» هو من یطلب العون من الناس، أمّا «المحروم» فمن یحافظ علی ماء وجهه و یبذل قصاری جهده لیعیش دون أن یمدّ یده إلی أحد، أو یطلب العون من أحد، بل یصبّر نفسه.

و هذا هو ما یعبّر عنه بالمحارف، لأنّه قیل فی کتب اللغة فی معنی «المحارف» بأنّه الشخص الذی لا ینال شیئا مهمّا سعی وجدّ فکأنّ سبل الحیاة مغلقة بوجهه! و علی کلّ حال، فهذا التعبیر یشیر إلی هذه الحقیقة و هی لا تنتظروا أن یأتیکم المحتاجون و یمدّوا أیدیهم إلیکم، بل علیکم أن تبحثوا عنهم و تجدوا الأفراد المحرومین الذین یعبّر عنهم القرآن بأنّهم یَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِیاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ۸۲] .. لتساعدوهم و تحفظوا ماء أوجههم، و هذا دستور مهم لحفظ حیثیة المسلمین المحرومین و ینبغی الاهتمام به.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۴

و هؤلاء الأشخاص یمکن معرفتهم- کما صرّح بذلک القرآن «تعرفهم بسیماهم».

أجل فبرغم سکوتهم إلّا أنّ فی عمق وجوههم آثار الهموم و ما تحمله أنفسهم من آلام یعرفها المطّلعون، و یخبر لون وجههم عن کربتهم.

بحوث

۱- التوجّه نحو اللّه و خلق اللّه

ما ورد فی هذه الآیات عن المتّقین و أوصافهم یتلخّص- فی الحقیقة- فی قسمین «التوجّه نحو اللّه» «الخالق» و ذلک فی ساعات یتوفّر فیها من جمیع الجهات الاستعداد لبیان الحاجة عنده مع حضور القلب، و تبلغ أسباب انشغال الفکر و انصراف الذهن إلی أدنی حدّ أی فی أواخر اللیل! و الآخر «التوجّه نحو الخلق» و معرفة احتیاج المحتاجین سواء أظهروا حاجتهم أم کتموها.

و هذا المطلب هو ما أشار إلیه القرآن فی آیاته مرارا و أوصی به، و الآیات التی یرد فیها ذکر الصلاة، ثمّ یتلوها ذکر الزکاة، و تعول علی الإثنین معا، تشیر إلی هذه المسألة، لأنّ الصلاة أبرز مظهر لعلاقة الإنسان بالخالق، و الزکاة أجلی مظهر لعلاقته بخلق اللّه.

۲- السهر دیدن العشّاق

مع أنّ صلاة اللیل من الصلوات المستحبّة و النافلة إلّا أنّ القرآن المجید أشار إلیها مرارا، و هذا دلیل علی أهمیّتها القصوی حتّی أنّ القرآن عدّها وسیلة لبلوغ «المقام المحمود» و أساسا لقرّة العین «کما هو فی الآیة ۷۹ من سورة الإسراء

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۵

و الآیة ۱۷ من سورة ألم السجدة».

و فی الرّوایات الإسلامیة أیضا اهتمام بالغ علی هذه القضیّة و بیان الحاجة «فی صلاة اللیل» و السهر فی السحر: ففی مکان یعدّها النّبی بأنّها کفّارة عن الذنوب فیقول:

«یا علی ثلاث کفّارات: ... منها: التهجّد باللیل و الناس نیام»[۸۳].

و فی حدیث آخر

ورد عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أشراف امّتی حملة القرآن و أصحاب اللیل»[۸۴].

و أیضا

فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یوصی علیا علیه السّلام إذ قال أربع مرّات: علیک بصلاة اللیل ۸۵].

و ینقل عن الإمام الصادق فی تفسیر الآیة محلّ البحث: کانُوا قَلِیلًا مِنَ اللَّیْلِ ما یَهْجَعُونَ أنّه

قال: کانوا أقلّ اللیالی تفوتهم لا یقومون فیها[۸۶].

کما

ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: الرکعتان فی جوف اللیل أحبّ إلیّ من الدنیا و ما فیها[۸۷].

کما

نقرأ حدیثا عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال لسلیمان الدیلمی «أحد أصحابه»: لا تدع قیام اللیل فإنّ المغبون من حرم قیام اللیل ۸۸].

و بالطبع فإنّ الرّوایات فی هذا الصدد کثیرة و یلاحظ فیها تعابیر مثیرة و طریفة جدّا و لا سیّما التعبیر بأنّ صلاة اللیل وسیلة «لمحو الذنوب» و «تیقّظ الفکر» و «إشراق القلب» و «جلب الرزق» و «سعة العیش» و «الصحّة»، و لو جمعنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۶

هذه الرّوایات لحصلنا علی کتاب مستقل ۸۹].

و قد کان لنا بحوث أخر فی هذا المجال ذیل الآیة (۷۹) من سورة الإسراء و ذیل الآیة (۱۷) من سورة الم السجدة فلا بأس بمراجعتها.

۳- حقّ السائل و المحروم!

ممّا ینبغی ذکره أنّنا قرأنا فی الآیات المتقدّمة أنّ فی أموال الصالحین و المحسنین حقّا للسائل و المحروم، و هذا التعبیر یدلّ بوضوح أنّهم یعدّون أنفسهم مدینین للمحتاجین و المحرومین، و یعدّون السائل أو المحروم ذا حقّ علیهم، حقّ ینبغی دفعه إلیه دون امتنان و لا أذی، فکأنّه دین من سائر الدیون.

و کما قلنا آنفا فإنّ هذا التعبیر کما تدلّ علیه القرائن المتعدّدة لا علاقة له بالزکاة الواجبة و أمثالها، بل هو ناظر إلی النفقة المستحبّة التی یعدّها المتّقون دینا علیهم ۹۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۷

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۲۰ الی ۲۳]

اشارة

وَ فِی الْأَرْضِ آیاتٌ لِلْمُوقِنِینَ (۲۰) وَ فِی أَنْفُسِکُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۲۱) وَ فِی السَّماءِ رِزْقُکُمْ وَ ما تُوعَدُونَ (۲۲) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّکُمْ تَنْطِقُونَ (۲۳)

التّفسیر

آیات اللّه و آثاره فی أنفسکم:

تعقيبا على الآيات المتقدّمة التى كانت تتحدّث عن مسألة المعاد و صفات أهل النار و أهل الجنّة، تأتى هذه الآيات- محلّ البحث- لتتحدّث عن آيات اللّه و دلائله فى الأرض و فى وجود الإنسان نفسه ليطّلع على مسألة التوحيد و معرفة اللّه و صفاته التى هى مبدأ الحركة نحو الخيرات كلّها من جهة، و على قدرته على مسألة المعاد و الحياة بعد الموت من جهة اخرى، لأنّ خالق الحياة على هذه الأرض و ما فيها من عجائب قادر على تجديد الحياة بعد الموت كذلك! تقول هذه الآية أوّلا: وَ فِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ

و الحقّ أنّ دلائل اللّه و قدرته غير المتناهية و علمه و حكمته التى لا حدّ لها فى هذه الأرض كثيرة و فيرة إلى درجة أنّ عمر أىّ إنسان مهما كان لا يكفى لمعرفتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۸

جميعا.

فحجم الأرض و بعدها عن الشمس و حركتها حول نفسها و حركتها حول الشمس و القوى الجاذبة و الدافعة التى تنتج عن حجمها و حركتها و هى متعادلة فيما بينها تماما و متناسقة فجميع هذه الأمور مجتمعة توفّر الحياة على سطح الأرض و كلّ ذلك من آيات اللّه الكبرى.

فى حين أن لو تغيّرت حركة من هذه الحركات و اختلفت الخصائص أقل اختلاف، لاضطربت الموازين و تبدلّت ظروف الحياة على سطح الأرض.

فالمواد التى تتشكّل منها الأرض و المنابع التى هى فوق سطح الأرض و داخلها- المعدّة للحياة- كلّ منها آية من آيات اللّه و دلائله.

الجبال و السهول و الهضاب و الأنهار و العيون التى كلّ منها له أثره فى استمرار الحياة و اتّساق ظروفها دلائل اخرى من دلائله و آياته.

مئات الآلاف من أنواع النباتات و الحشرات و الحيوانات .. أجل، مئات الآلاف كلّ منها بخصائصه و عجائبه عند مطالعة كتب الأحياء و «البايلوجيا» و كتب الجيولوجيا و التربة و علم النبات و علم الحيوان تدع الإنسان يستغرق فى حيرة مذهلة!.

و فى كلّ زاوية أو جانب من هذه الكرة الأرضية أسرار مثيرة قلّ أن يلتفت إليها أحد، إلّا أنّ الباحثين و العلماء كشفوا النقاب عن جزء منها و أظهروا عظمة الخالق و قدرته.

و لا بأس أن ننقل هنا جانبا من كلمات بعض العلماء المعروفين فى العالم الذين لهم دراسات كثيرة فى هذا الصدد: إنّه «كرسى موريسين» فلنصغ إليه قائلا:

«لقد روعى منتهى الدقّة فى تنظيم العوامل الطبيعية فلو تضخّمت القشرة الخارجية للكرة الأرضية أكثر ممّا كانت عليه عشر مرّات لانعدم الأوكسجين الذى هو المادّة الأصلية للحياة، و لو أنّ أعماق البحار كانت أكثر عمقا ممّا هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۸۹

عليه قليلا أو كثيرا، لأنجذب جميع الأوكسجين و الكربون من سطح الأرض و لم يعد أى إمكان لحياة النبات أو الحيوان على سطح الأرض»! و يقول فى مكان آخر فى الغلاف الجوّى الذى يحيط بالأرض: لو أنّ هذا الغلاف الذى يحيط بالأرض من الهواء كان رقيقا لخرقته الشهب الثواقب التى تأتى كلّ يوم بنحو عدّة ملايين فتصيب الأرض حيث ما وقعت، إلّا أنّ هذا الغلاف الجوّى يمنعها لكثافته فتتلاشى و تحترق عنده فلا تصل إلى الأرض.

و لو أنّ الشهب الثواقب خفّت سرعتها لما احترقت عند اصطدامها بالهواء و لوقعت على الأرض و دمّرت الكثير.

و يقول فى مكان آخر أنّ نسبة الأوكسجين فى الهواء هى إحدى و عشرين بالمائة فحسب، فلو كانت هذه النسبة خمسين بالمائة لاحترق به كلّ ما من شأنه الاشتعال فى هذا العالم .. و لو وصلت شظية صغرى من النار إلى شجرة فى غابة لاحترقت الغابة جمعاء»! إنّ نسبة كثافة الهواء المحيط بالأرض إلى درجة بحيث يوصل الأشعّة المناسبة لرشد النباتات و نموّها و تعدم المكروبات الضارّة فى الفضاء نفسه و تنتج الفيتامينات النافعة.

و مع وجود الأبخرة المختلفة التى خرجت من باطن الأرض خلال القرون المتمادية و انتشرت فى الهواء و أغلبها أبخرة سامّة فمع ذلك فإنّ الهواء المحيط بالأرض لم يتلوّث و ما يزال باقيا على حالته الطبيعية المناسبة للحياة الإنسانية.

و الجهاز الذى يوجد هذه الموازنة و يحفظ هذا التعادل هو البحر و المحيط الذى منه تستمدّ المواد الحياتية و الغذاء و الأمطار و اعتدال الهواء و النباتات و أخيرا فإنّ وجود الإنسان نفسه يستمدّ منه أيضا.

فكلّ من يدرك هذه المعانى فعليه أن يطأطئ رأسه للبحر تعظيما و أن يشكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۰

مواهبه و خالق البحر»[۹۱].

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ أى أ فلا تبصرون هذه الآيات فى أنفسكم أيضا؟! و لا شكّ أنّ الإنسان أعجوبة عالم الوجود و ما هو فى العالم الأكبر موجود فى عالم الإنسان الأصغر أيضا، بل فى الإنسان عجائب لا توجد فى أى مكان من العالم! و العجب أنّ هذا الإنسان على عظمته و عقله و علمه و هذا الابتداع و الابتكار و الصنع العجيب كان أوّل يومه على صورة نطفة صغرى لا قيمة لها!! لكن ما أن استقرّت فى الرحم حتّى تكاملت بسرعة و تبدلّت يوما بعد يوم و لحظة بعد اخرى فإذا هذه النطفة التى لا قيمة لها تغدو إنسانا كاملا سويّا! خليّة واحدة التى هى أصغر جزء فى بدن الإنسان تشكّل بناية ضخمة متداخلة عجيبة فهى على حدّ تعبير بعض العلماء تعادل «مدينة صناعية».

يقول أحد علماء «علم الأحياء» إنّ هذه المدنية العظمى مع آلاف الأبواب أو البوابات المثيرة و آلاف المعامل و المخازن و شبكات المجارى و التأسيسات الكثيرة و الارتباطات و الأعمال الحياتية المختلفة كلّ ذلك فى مساحة صغيرة جدّا بمقدار خلية من أكثر الأمور تعقيدا و إثارة، إذ لو أردنا أن نهيّئ تأسيسات مثلها و لن نستطيع أبدا- لكان علينا أن نشغل مساحة آلاف الهكتارات من الأرض و عليها البنايات و الماكنات المختلفة المعقّدة لنصل إلى مثل هذه الخطّة!! إلّا أنّ الطريف أنّ جهاز الخلقة جعل كلّ ذلك فى مساحة تعدل خمسة عشر ميلونيم الميليمتر فحسب ۹۲].

إنّ الأجهزة الموجودة فى بدن الإنسان كالقلب و الكلية و الرئة و خاصّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۱

عشرات آلاف الكيلومترات من الأعصاب الرقيقة أو الكبيرة و الأعصاب الدقيقة التى لا ترى بالعين المجرّدة و جميعها مسئولة عن إيصال الغذاء و الماء و التهوية إلى عشرة مليون مليارد خلية، و الحواس المختلفة كالسمع و البصر و الحواس الاخر كلّ منها آية عظمى من آيات اللّه.

و أهمّ من كلّ ذلك لغز الحياة التى لم تعرف أسرارها و بناء الروح أو العقل الإنسانى الذى يعجز عن إدراكه عقول جميع الناس و هنا- ينحنى الإنسان و يتمتم بالتسبيح و الحمد و الثناء للّه دون إختياره و يترنّم بهذه الأشعار:

فيك يا أعجوبة الكون غدا الفكر كليلا

أنت حيّرت ذوى اللبّ و بلبلت العقولا

كلّما قدّم فكرى فيك شبرا فرّ ميلاناكصا يخبط فى عمياء لا يهدى سبيلا

و

قد ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه»[۹۳].

أجل إنّ معرفة النفس فى جميع المراحل طريق لمعرفة اللّه و التعبير: «أ فلا تبصرون» تعبير لطيف: أى إنّ هذه الآيات حولكم و فى داخلكم و فى تمام وجودكم بحيث لو فتحتم أعينكم و لو قليلا لأبصرتم آيات اللّه و لا رتوت أرواحكم من إدراك عظمته!.

و فى الآية الثالثة من الآيات- محلّ البحث- إشارة إلى القسم الثالث من دلائل عظمة الخالق و قدرته على المعاد إذ تقول: وَ فِي السَّماءِ

رِزْقُكَمْ وَ ما تُوعَدُونَ

و بالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية تفسّر «الرزق» فى هذه الآية ب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۲

«المطر» الذى يمنح الحياة و هو مصدر الخير و البركة فى الأرض جميعا، و الآية (۵) من سورة الجاثية أيضا توافق هذا التّفسير إذ تقول: وَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إلّا أنّ هذا المعنى يمكن أن يكون مصداقا جليّا من مصاديق الآية، فى حين أنّ سعة مفهوم الرزق تشمل حبّات المطر و غيرها كنور الشمس الذى يأتى من السماء و له أثره الفاعل فى الحياة، و الهواء الذى هو أساس حياة الموجودات.

كلّ هذا لو أخذنا مفهوم السماء بالمعنى اللغوى أى السماء التى فوقنا، إلّا أنّ بعضهم فسّرها بعالم الغيب و ما وراء الطبيعة أو اللوح المحفوظ الذى تقدّر منه أرزاق العباد! و بالطبع فإنّ الجمع بين التّفسيرين ممكن، و أن كان التّفسير الأوّل أنسب و أوضح!.

و أمّا جملة و ما تُوعَدُونَ فيمكن أن تكون تأكيدا على مسألة الرزق و وعد اللّه فى هذا المجال، أو أنّ المراد منها الجنّة الموعودة، لأنّنا نقرأ الآية ۱۵ من سورة النجم عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أو أنّها إشارة إلى كلّ خير و بركة أو عذاب ينزل من السماء! أو أنّ «ما توعدون» ناظر إلى جميع هذه المعانى، لأنّ مفهوم «ما توعدون» واسع جدّا.

و على كلّ حال، فهذه الآيات الثلاث فيها ترتيب لطيف، فالآية الاولى تتحدّث عن أسباب وجود الإنسان و حياته، و الآية الثانية تتحدّث عن الإنسان نفسه، و الآية الثالثة تتحدّث عن أسباب بقائه و دوامه!.

و جدير بالالتفات أيضا أنّ ما يمنع البصيرة و يصدّها عن مطالعة أسرار الخلق و أسرار الأرض و عجائب وجود الإنسان هو «الحرص على الرزق»، فاللّه سبحانه يطمئن الإنسان فى الآية الأخيرة بأنّ رزقه مضمون، ليستطيع أن ينظر إلى عجائب العالم و يتحقّق فيه قوله: أَ فَلا تُبْصِرُونَ !

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۳

لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث تقسم فتقول: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ

و قد بلغ الأمر حدّا أن يقسم اللّه على ما لديه من عظمة و قدرة ليطمئن عباده الشاكّين ضعاف الأنفس الحريصين إنّ ما توعدون فى مجال الرزق و الثواب و العقاب و القيامة جميعه حقّ و لا ريب فى كلّ ذلك ۹۴].

و التعبير ب مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ تعبير لطيف و دقيق إذ يتحدّث عن أكثر الأشياء لمسا، لأنّه قد يخطئ الإنسان فى الباصرة أو السمع بأن يتوهّم أنّه سمع أو رأى، إلّا أنّه لا يمكن أن يتوهّم أنّه قال شيئا مع أنّه لم يقله .. لذلك فإنّ القرآن يقول: كما أنّ ما تنطقون محسوس عندكم و له واقع، فإنّ الرزق و الوعد الإلهى عنده كذلك! ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ النطق بنفسه واحد من أكبر الأرزاق و المواهب الإلهيّة التى لم يتمتّع بها أى موجود حىّ سوى الإنسان، و ليس بخاف أثر الكلام و النطق فى الحياة الاجتماعية و تعليم الناس و تربيتهم و انتقال العلوم و حلّ مشاكل الحياة على أحد.

بحوث

۱- قصّة الأصمعى المثيرة

ينقل الزمخشرى فى كشّافه عن الأصمعى ۹۵] أنّه قال خرجت من مسجد البصرة فبصرت بأعرابى من أهل البادية راكبا على دابته فواجهنى و سألنى: من أى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۴

القبائل أنت؟! فقلت من بنی الأصمع ... فقال من أین تأتی؟ فقلت: من مکان یقرأ فیه کلام اللّه فقال لی: اقرأ لی منه، فقرأت له آیات من سورة الذاریات حتّی بلغت وَ فِی السَّماءِ رِزْقُکُمْ فقال کفی. ثمّ نهض و عمد إلی بعیر عنده فنحره و قسّم لحمه علی المحتاجین من الذاهبین و الآئبین ثمّ عمد إلی سیفه و قوسه فکسّرهما أیضا و ألقاهما جانبا و استدار إلی الوراء و مضی و انتهت هذه القصّة!.

و حین مضیت إلی حجّ بیت اللّه الحرام بمعیّة هارون الرشید و کنت مشغولا فی الطواف إذا أنا برجل ینادینی بصوت ضعیف فنظرت فإذا هو ذلک الأعرابی و کان نحیلا مصفّر الوجه «و کان یظهر علیه العشق الملتهب الذی لم یدع له قرارا» فسلّم علیّ و طلب منّی أن أعید علیه سورة الذاریات فلمّا بلغت الآیة آنفة الذکر صرخ:

و قال وجدنا وعد ربّنا حقّا .. ثمّ أضاف هل هناک آیة بعدها؟! فقرأت فورب السماء و الأرض أنّه لحقّ: فصرخ ثانیة و قال یا سبحان اللّه من ذا الذی أغضب الجلیل حتّی حلف لیصدّقوه بقوله حتّی ألجأوه إلی الیمین ۹۶].

۲- أین الجنّة؟!

کما ذکرنا فی الآیات آنفة الذکر فإنّ بعض المفسّرین یری أنّ جملة وَ ما تُوعَدُونَ معناها الجنّة. و قالوا: یستفاد من هذه الآیة أنّ الجنّة فی السماء، إلّا أنّ هذا الکلام لا ینسجم مع الآیة التی تتحدّث عن الجنّة فتقول: عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ ۹۷] و کما قلنا- إنّ هذا التّفسیر لجملة وَ ما تُوعَدُونَ لا دلیل علیه، بل یمکن أن یکون إشارة إلی وعد اللّه برزقه أو عذاب السماء.

و إذا کان فی الآیة (۱۵) من سورة النجم قد ورد أنّ جنّة المأوی فی السماء عند سدرة المنتهی فلیس ذلک دلیلا علی هذا المعنی، لأنّ «جنّة المأوی» قسم من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۵

بساتین الجنّة لا جمیع الجنّة .. (فلاحظوا بدقّة).

۳- الاستفادة من آیات اللّه تحتاج إلی قابلیة!

حین تتحدّث آیات القرآن عن أسرار الخلق و دلائل اللّه فی عالم الوجود تقول تارة أنّ فی ذلک لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ یونس الآیة ۶۷.

و تارة تقول: لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ الرعد الآیة ۳.

و اخری تقول: لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ الرعد الآیة ۴.

أو تقول: لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ النحل الآیة ۷۹.

و فی مکان آخر تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِأُولِی النُّهی سورة طه الآیة ۵۴.

و تارة تقول: إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِینَ الحجر الآیة ۷۵.

و أخیرا تقول: لَآیاتٍ لِلْعالِمِینَ الروم الآیة ۲۲.

و الآیات محلّ البحث تقول: أَ فَلا تُبْصِرُونَ ! أی إنّ آیات اللّه فی الأرض و فی أنفسکم واضحة جلیّة لأولئک الذین لهم بصر ثاقب.

و هذه التعبیرات تدلّ دلالة واضحة علی أنّ الاستفادة من الآیات التی لا تحصی- الدالّة علی وجود ذاته المقدّسة فی الأرض تحتاج إلی استعداد کاف، عین باصرة، اذن سمیعة، فکر یقظ، قلب ذکی و روح مهیّأة لقبول الحقائق متعطّشة لها .. و إلّا فمن الممکن أن یعیش الإنسان سنین بین هذه الآیات إلّا أنّ مثله کمثل الحیوانات التی همّها علفها.

۴- الرزق حقّ

من جملة الأمور التی یحکمها نظام دقیق هی «مسألة الرزق» التی أشیر إلیها فی الآیات محلّ البحث إشارات واضحة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۶

صحیح أنّ الاستفادة من مواهب الحیاة مشروطة بالجدّ و السعی و المثابرة و أنّ الکسل و الخنوع مدعاة للتأخّر و الحرمان من الحیاة .. إلّا أنّه من الخطأ البیّن أن نتصوّر أنّ رزق الإنسان یزداد بالحرص و الولع و الأعمال الکثیرة و أنّ رزقه یقلّ بالتعفّف و التجلّد و ما إلی ذلک.

و نلاحظ فی الأحادیث الإسلامیة تعابیر طریفة فی هذا المجال:

ففی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ الرزق لا یجرّه حرص حریص و لا یصرفه کره کاره»[۹۸].

و

فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام جوابا علی بعض أصحابه و قد طلب منه أن یعظه و ینصحه فقال علیه السّلام «... و إن کان الرزق مقسوما فالحرص لماذا»[۹۹]؟!

و الهدف من بیان هذه الأحادیث لیس هو الوقوف بوجه الجدّ و السعی بل هو تنبیه الحریصین أن یلتفتوا إلی أنّ رزقهم مقدّر لیرتدعوا عن حرصهم!.

و هنا لطیفة جدیرة بالالتفات و هی أنّ الرّوایات الإسلامیة ذکرت أمورا کثیرة علی أنّها مدعاة للرزق أو مانعة له، و کلّ منها مهمّ فی نفسه! نقرأ

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «و الذی بعث جدّی بالحقّ نبیّا انّ اللّه تبارک و تعالی یرزق العبد علی قدر المروءة و أنّ المعونة تنزل علی قدر شدّة البلاء»[۱۰۰].

و

عنه علیه السّلام أنّه قال: «کفّ الأذی و قلّة الصخب یزیدان فی الرزق»[۱۰۱].

کما

نقل عن نبی الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «التوحید نصف الدین و استنزل الرّزق بالصدقة»[۱۰۲].

و هناک امور أخر ذکرت علی أنّها مدعاة لزیادة للرزق کتنظیف نواحی البیت و غسل الأوانی و تنظیفها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۷

الآیات [سورة الذاریات (۵۱): الآیات ۲۴ الی ۳۰]

اشارة

هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ ضَیْفِ إِبْراهِیمَ الْمُکْرَمِینَ (۲۴) إِذْ دَخَلُوا عَلَیْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْکَرُونَ (۲۵) فَراغَ إِلی أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِینٍ (۲۶) فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ قالَ أَ لا تَأْکُلُونَ (۲۷) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِیمٍ (۲۸)
فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ (۲۹) قالُوا کَذلِکَ قالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ (۳۰)

التّفسیر

ضيوف إبراهيم عليه السّلام

من هـذا المقطع- فما بعـد- يتحـدّث القرآن فى هـذه السورة عن قصـص الأنبياء الماضـين و الأمم المتقدّمـة تأكيدا و تأييدا للموضوع آنف الـذكر و ما حواه من مسائل، و أوّل جانب يثيره هذا المقطع هو قصّة الملائكة الذين جاءوا لعذاب قوم لوط، و مرّوا على إبراهيم عليه السّلام على صورة بشر، ليبشّروه بالولد، مع أنّ إبراهيم بلغ سنّا كبيرا فهو فى مرحلة المشيب و امرأته كانت عقيما كذلك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۸

فمن جهـة .. يعـدّ إعطاء هـذا الولد لإبراهيم و زوجه و هما فى مرحلة الكبر و اليأس من الإنجاب تأكيدا على كون الأرزاق مقدّرة كما أشير إلى ذلك فى الآيات المتقدّمة.

و من جهة اخرى يعدّ دليلا آخر على قدرة الحقّ و آية من آيات معرفة اللّه التى ورد البحث عنها فى الآيات آنفا.

و من جهـة ثالثـة يعـدّ بشـرى للأمم المؤمنـة بأنّها فى رعايـة الحقّ- كما أنّ الآيات التالية تتحدّث عن عذاب قوم لوط و هى فى الوقت ذاته تهديد للمجرمين.

ففى البدء يوجّه اللّه سبحانه الخطاب لنبيّه فيقول: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۱۰۳].

و التعبير ب «المكرمين» إمّـا لأنّ هؤلاء الملائكـة كانوا مأمورين من قبل الحقّ، و قـد ورد التعبير عنهم فى الآيـة (۲۶) من سورة الأنبياء أيضا بمثل هذا- بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ أو لأنّ إبراهيم عليه السّلام أكرمهم، أو للوجهين معا.

ثمّ يبيّن القرآن حالهم فيقول: إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۱۰۴].

قال بعضـهم: جملة أنّهم «قوم منكرون» لم يصـرّح بها إبراهيم، بل حدّث بها نفسه لأنّ هذا الكلام لا ينسـجم مع وافر الاحترام للضـيف الكرام.

إلّا أنّه كما هو المعتاد قد يقول المضيّف للضيف فى حال الاحترام و الترحيب:

«لا أدرى أين التقيت بك من قبل- أو يبدو انّك غريب ..»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۹۹

فبنـاء على هـذا يمكن التمسّـك بظـاهر الآيـة و أنّ إبراهيم قـال هـذا الكلام صـراحة و إن كـان الاحتمـال الأوّل غير بعيـد. خاصّـة أنّ «الضيف» لم يردّوا على هذا الكلام، و لو كان إبراهيم قال مثل هذا الكلام صراحة، فلا بدّ أن يجيبوه.

و على كلّ حال فإنّ إبراهيم أدّى ما عليه من حقّ الضيافة فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ

و الفعـل «راغ» كمـا يقول الراغب فى مفرداته مشـتقّ من «روغ»- على وزن «شوق»- و معنـاه التحرّك مقرونـا بخطّه خفيّـة، لأنّ إبراهيم فعل «كـذلك» و قام بذلك خفاء لئلّا يلتفت الضـيف فلا يقبلوا بضـيافته التى تسـتلزم نفقة كثيرة! إلّا أنّه لم هيّأ إبراهيم طعاما كثيرا؟ مع أنّ ضيفه كانوا كما يقول بعض المفسّرين «ثلاثة» و قال بعضهم: كانوا اثنى عشر- و هذا أقصى ما قاله بعض المفسّرين ۱۰۵]-.

فـذلك لأنّ الكرماء لا يهيّؤون الطعام بمقـدار الضـيف فحسب، بل يهيّؤون طعاما يسـتوعب حتّى العمّال ليشاركوهم فى الأكل، و ربّما أخـذوا بنظر الإعتبار حتّى الجار و الأقارب فعلى هـذا لا يعـدّ مثل هذا الطعام الذى هيّأه إبراهيم إسـرافا، و يلاحظ هذا المعنى فى يومنا هذا عند بعض العشائر التى تعيش على طريقتها القديمة.

و «العجـل» على وزن «طفـل» معناه ولـد البقر «و ما يراه بعضـهم أنّه الخروف فلا ينسـجم مع متون اللغـة»! .. و هـذه الكلمـة مأخوذة فى الأصل من العجلة، لأنّ هذا الحيوان فى هذه السنّ و فى هذه المرحلة يتحرّك حركة عجلى، و حين يكبر تزول عنه هذه الصفة تماما.

و «السمين» معناه المكتنز لحمه، و انتخاب مثل هذا العجل إنّما هو لإكرام الضيف و ليسع المتعلّقين و الأكلة الآخرين!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۰

و فی الآیة التاسعة و الستّین من سورة هود جاء و صف هذا العجل بأنّه «حنیذ» أی مشویّ، و بالرغم من أنّ الآیة محلّ البحث لم تذکر شیئا عن هذا العجل، إلّا أنّه لا منافاة بین التعبیرین.

ثمّ تضیف الآیة بالقول عن إبراهیم و ضیفه فَقَرَّبَهُ إِلَیْهِمْ إلّا أنّه لاحظ أنّ أیدیهم لا تصل إلی الطعام فتعجّب و قالَ أَ لا تَأْکُلُونَ

و کان إبراهیم یتصوّر أنّهم من الآدمیین فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِیفَةً لأنّه کان معروفا فی ذلک العصر و فی زماننا أیضا بین کثیر من الناس الملتزمین بالتقالید العرفیة، أنّه متی ما أکل شخص من طعام صاحبه فلن یناله أذی منه و لا یخونه ..

و لذلک فإنّ الضیف إذا لم یأکل من طعام صاحبه، یثیر الظنّ السیء بأنّه جاء لأمر محذور، و قد قیل علی سبیل المثل فی لغة العرب: من لم یأکل طعامک لم یحفظ ذمامک»! و «الإیجاس» مشتقّ من وجس- علی وزن مکث- و معناه فی الأصل الصوت الخفی و من هنا فقد أطلق الإیجاس علی الإحساس الداخلی و الخفی، فکأنّ الإنسان یسمع صوتا داخله و حین یقترن الإیجاس بالخیفة یکون معناه الإحساس بالخوف.

و هنا قال له الضیف کما ورد فی الآیة (۷۰) من سورة هود طمأنة له ف قالُوا لا تَخَفْ

و یضیف القرآن: وَ بَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِیمٍ

و بدیهی أنّ الغلام عند ولادته لا یکون علیما، إلا أنّه من الممکن أن یکون له استعداد بحیث یکون فی المستقبل عالما کبیرا ... و المراد به هنا هو ذلک المعنی!.

و هذا الغلام من هو؟ هل هو إسحاق أم إسماعیل؟! هناک أقوال بین المفسّرین و إن کان المشهور أنّه إسحاق و احتمال کونه إسماعیل- مع ملاحظة الآیة (۷۱) من سورة هود التی تقول فبشّرناها بإسحاق- یبدو غیر صحیح، فبناء علی ذلک لیس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۱

من شکّ أنّ المرأة التی یأتی ذکرها فی الآیات التالیة هی سارة زوج إبراهیم و ولدها هذا هو إسحاق! فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِی صَرَّةٍ فَصَکَّتْ وَجْهَها وَ قالَتْ عَجُوزٌ عَقِیمٌ و نقرأ فی الآیة (۷۲) من سورة هود قوله تعالی: قالَتْ یا وَیْلَتی أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِی شَیْخاً!؟

فبناء علی هذا فصراخها کان صراخ تعجّب مقرون بالسرور، و کلمة «صرّة» مشتقّة من الصرّ علی وزن الشرّ، و معناه فی الأصل الشدّ و الارتباط، کما یطلق علی الصوت العالی و الصراخ و الجماعة المتراکمة لأنّها ذات شدّة و ارتباط.

و یطلق علی الریح الباردة «صرصر» لأنّها تصرّ الإنسان و «الصرورة» کلمة تطلق علی من لم یحجّ رجلا کان أو امرأة! کما تطلق علی من لم یرغب فی الزواج [منهما] لأنّ فی ذلک نوعا من الامتناع أو الارتباط، و الصرّة فی الآیة محلّ البحث معناها هو الصوت العالی الشدید.

أمّا «صکّت» فمشتقّة من مادّة صکّ علی وزن شکّ- و معناها الضرب الشدید أو الضرب، و المراد منها هنا هو أنّ امرأة إبراهیم حین سمعت بالبشری ضربت بیدها علی وجهها- کعادة سائر النساء- تعجّبا و حیاء! و طبقا لما یقول بعض المفسّرین و ما ورد فی سفر التکوین فإنّ امرأة إبراهیم کانت آنئذ فی سنّ التسعین و إبراهیم نفسه کان فی سنّ المائة عاما .. أو أکثر.

إلّا أنّ الآیة التالیة تنقل جواب الملائکة لها فتقول: قالُوا کَذلِکِ قالَ رَبُّکِ إِنَّهُ هُوَ الْحَکِیمُ الْعَلِیمُ

فبالرغم من کونک امرأة عجوزا و بعلک مثلک شیخا إلّا أنّ أمر اللّه إذا صدر فی شیء ما فلا بدّ أن یتحقّق دون أدنی شکّ!.

حتّی خلق العالم الکبیر کعالمنا هذا إنّما هو علیه سهل إذ تمّ بقوله: کن فکان! و التعبیر ب «الحکیم» و «العلیم» إشارة إلی أنّه لا یحتاج إلی الإخبار بکونک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۲

امرأة عقیما عجوزا و بعلک شیخا، فاللّه یعرف کلّ هذه الأمور، و إذا لم یرزقک حتّی الآن ولدا و أراد أن یهبک فی هذه السنّ ولدا

فإنّما هو لحكمته! الطريف أنّنا نقرأ فى الآية (۷۳) من سورة هود أنّ الملائكة قالوا لها:

أ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

و وجود الفرق بين هذين التعبيرين هو لأنّ الملائكة قالوا كلّ ذلك لسارة ..

منتهى الأمر أنّ قسما منه أشارت إليه سورة هود، و هنا إشارة إلى القسم الآخر، ففى سورة هود جاء الكلام عن «رحمة اللّه و بركاته» و هما يتناسبان مع كونه حميدا مجيدا.

أمّا هنا فالكلام على علمه بعدم استعداد هذين الزوجين للإنجاب و الولد و يأس المرأة بحسب الأسباب الطبيعية «الظاهرية» و يتناسب مع هذا الكلام أن يقال أنّه هو العلم، و إذ سئل لم لم يرزقهما فى فترة الشباب ولدا. فيقال: أنّ فى ذلك حكمة و هو الحكيم سبحانه.

ملاحظة

كرم الأنبياء:

كثيرا ما يظنّ الممسكون البخلاء أنّ السخاء و النظرة البعيدة ضرب من الإفراط و الإسراف و التبذير، و التشدّد و ضيق النظرة نوع من الزهد و التدبير!! و القرآن يكشف عن هذه الحقيقة فى هذه الآيات و الآيات التى مرّت فى سورة هود، و هى أنّ الضيافة بسعتها و بشكلها المعقول ليست مخالفة للشرع، بل طالما قام النّبى بمثل هذا العمل، فهو دليل على أنّ هذا الأمر محبوب، و بالطبع فإنّ ضيافة كهذه الضيافة التى تستوعب الآخرين إنّما هى سنّة الكرماء الشرفاء.

و اللّه سبحانه لم يحرّم التمتّع بمواهب الحياة و كون الإنسان ذا مال حلال كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۳

كان إبراهيم- فلا ضير أن يتصرّف بماله كما فعل إبراهيم عليه السّلام أيضا.

فإبراهيم مع كونه ثريّا ذا مال لم يغفل عن ذكر اللّه لحظة واحدة و لم يكن قلبه أسير ثروته و لم يجعل منافعه منحصرة به وحده.

يقول القرآن فى الآية ۳۲ من سورة الأعراف: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

و فى هذا الصدد كان لنا بحث مفصّل ذيل الآية ۳۲ من سورة الأعراف .. «فلا بأس بمراجعته هناك».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۵

بداية الجزء السابع و العشرون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۷

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۱ الى ۳۷]

اشارة

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵)

فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۳۷)

التّفسير

مدن قوم لوط المدمرة آية و عبرة:

تعقيبا على ما سبق من الحديث عن الملائكة الذين حلّوا ضيفا على إبراهيم و بشارتهم إيّاه فى شأن الولد «إسحاق» تتحدّث هذه الآيات عمّا دار بينهم و بين إبراهيم فى شأن قوم لوط.

توضيح ذلك .. أنّ إبراهيم بعد ما ابعد إلى الشام .. و اصل دعوة الناس إلى اللّه و مواجهته لكلّ أنواع الشرك و عبادة الأصنام .. و قد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام و يحتمل أنّه كان مأمورا من قبله بتبليغ الناس و هداية الضالّين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أى مدن سدوم» فحلّ فى قوم مجرمين ملوّثين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۸

بالشرك و المعاصى الكثيرة، و كان أقبحها تورّطهم فى الانحراف الجنسى و اللواط، و أخيرا فقد أمر رهط من الملائكة بعذابهم و هلاكهم إلّا أنّهم مرّوا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

و قد عرف إبراهيم من حال الضيف (الملائكة) أنّهم ماضون لأمر مهمّ، و لم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولّد إسحاق، لأنّ واحدا منهم كان كافيا لمهمّة «البشارة». أو لأنّهم كانوا عجلين فأحسّ بأنّ لديهم «مأموريّة» مهمّة.

لذلك فإنّ أوّل آية من الآيات محلّ البحث تحكى بداية المحاورة فتقول:

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۱۰۶].

فأماط الملائكة اللثام عن «وجه الحقيقة» و مأموريتهم ف قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ

إنّهم قوم متلوّثين- إضافة إلى عقيدتهم الفاسدة- بأنواع الآثام و الذنوب المختلفة المخزية القبيحة[۱۰۷].

ثمّ أضافوا قائلين: لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ و التعبير ب «حجارة من طين» هو ما أشارت إليه الآية ۸۲ من سورة هود بالقول من «سجّيل» و سجّيل كلمة فارسية الأصل مأخوذ من (سنگ+ گل) ثمّ صارت فى العرب سجّيل، فهى ليست صلبة كالحجر و لا رخوا كالورد، و لعلّها فى المجموع إشارة إلى هذا المعنى و هو أنّ هلاك قوم لوط المجرمين لم يكن يستلزم إنزال أحجار عظيمة و صخور و جلاميد من السماء، بل كان يكفى أن يمطروا بأحجار صغيرة ليست صلبة جدّا كأنّها حبّات «المطر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۰۹

ثمّ أضاف الملائكة قائلين: مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ كلمة مسوّمة تطلق على ما فيه علامة و وسم، و هناك أقوال بين المفسّرين فى كيفية أنّها «مسوّمة»؟! قال بعضهم إنّها كانت فى شكل خاصّ يدلّ على أنّها ليست أحجارا كسائر الأحجار الطبيعية، بل كانت وسيلة للعذاب.

و قال جماعة كان لكلّ واحدة منها علامة و كانت لشخص معيّن و علامتها فى نقطة خاصّة ليعلم الناس أنّ عقاب اللّه فى منتهى الدقّة بحيث يعلم من هذه الأحجار المسوّمة أنّ أىّ مجرم ينال واحدة منها فيهلك بها.

كلمة «المسرفين» إشارة إلى كثرة ذنوبهم بحيث تجاوزت الحدّ و خرقوا أستار الحياء و الخجل، و لو قدّر لبعض الدارسين أن يتفحّص حالات قوم لوط و أنواع ذنوبهم للاحظ أنّ هذا التعبير فى حقّهم ذو مغزى كبير[۱۰۸].

و كلّ إنسان من الممكن أن يقع فى الذنب أحيانا، فلو تيقّظ بسرعة و أصلح نفسه يرتفع الخطر، و إنّما يكون خطيرا حين يبلغ حدّ الإسراف!.

و يكشف هذا التعبير عن مطلب مهمّ آخر، و هو أنّ هذه الحجارة السماوية التى أعدت لتنزل على قوم لوط لا تختّص بهؤلاء القوم، بل

معدّة لجميع المسرفين و العصاة المجرمين.

و القرآن هنا يكشف عمّا جرى لرسل اللّه إلى نبيّه لوط على أنّهم حلّوا ضيفا عنده، و قد تبعهم قوم لوط بلا حياء و لا خجل ظنّا منهم أنّهم غلمان نضرون ليقضوا منهم وطرهم!! إلّا أنّهم سرعان ما أحسّوا بخطئهم فإذا هم عمى العيون، فيذكر قول اللّه فيهم ۱۰۹] فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۰

أجل فنحن لا- نحرق الأخضر و اليابس معا، و عدالتنا لا تسمح أن يبتلى المؤمن بعاقبة الكافر حتّى و لو كان بين آلاف الآلاف من الكافرين رجل مؤمن طاهر لأنجيناه! و هذا هو ما أشارت إليه الآيتان ۵۹ و ۶۰ من سورة الحجر بالقول: إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ

و نقرأ فى سورة هود الآية ۸۱ مثله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ

أمّا فى سورة العنكبوت فقد وردت الإشارة فى الآية (۳۲) كما يلى: قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

كما أنّ هذا الموضوع ذاته مشار إليه فى الآية (۸۳) من سورة الأعراف:

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ

و كما تلاحظون، أنّ هذا القسم من قصّة قوم لوط ورد فى هذه السور الخمس فى عبارات مختلفة و جميعها يتحدّث عن حقيقة واحدة .. إلّا أنّه حيث يمكن أن ينظر إلى حادثة ما من زوايا متعدّدة و كلّ زاوية لها بعدها الخاصّ .. فإنّ القرآن ينقل الحوادث التاريخية- على هذه الشاكلة- غالبا، و التعابير المختلفة فى الآيات المتقدّمة شاهدة على هذا المعنى.

أضف إلى ذلك أنّ القرآن كتاب تربوى و إنسانى- و فى مقام التربية يلزم أحيانا أن يعول على مسألة مهمّة مرارا لتترك أثرها العميق فى ذهن القارئ ..

غاية ما فى الأمر ينبغى أن يكون هذا التكرار بتعابير طريفة و مثيرة و مختلفة لئلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۱

يقع السأم و يملّ الإنسان، و أن يكون الأسلوب فصيحا بليغا!.

«و لمزيد التوضيح فى شأن ضيف إبراهيم و ما دار بينهم و بينه ثمّ عاقبة قوم لوط المرّة يراجع ذيل الآيات ۸۳ من سورة الأعراف و ۸۱ من سورة هود و ۵۹ و ۶۰ من سورة الحجر و ۳۲ من سورة العنكبوت».

و على كلّ حال فإنّ اللّه سبحانه زلزل مدن قوم لوط و قلب عاليها سافلها ثمّ أمطرها بحجارة من سجّيل منضود و لم يبق منها أثرا ... حتّى أنّ أجسادهم دفنت تحت الأنقاض و الحجارة! لتكون عبرة لمن يأتى بعدهم من المجرمين و الظالمين غير المؤمنين.

و لذلك فإنّ القرآن يضيف قائلا فى آخر آية من الآيات محلّ البحث:

وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ

و هذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ من يعتبر و يتّعظ بهذه الآيات هم الذين لديهم استعداد للقبول فى داخل كيانهم و يحسّون بالمسؤولية.

بحث

أين تقع مدن قوم لوط؟

من المسلّم به أنّ إبراهيم الخليل جاء إلى الشام بعد أن هاجر من العراق و «بابل» و يقال أنّ لوطا كان يقطن معه إلّا أنّه بعد فترة توجّه نحو «سدوم» ليدعو إلى التوحيد و يكافح الفساد.

و «سدوم» واحدة من مدن قوم لوط و أحيائهم التى كانت من بلاد الأردن على مقربة من البحر الميّت .. و كانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار، إلّا أنّ هذه الأرض بعد نزول العذاب الإلهى على هؤلاء الظالمين من قوم لوط قلب عاليها سافلها و تهدّمت مدنها و سمّين بالمؤتفكات «أى المقلوبات».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۲

و ذهب بعضهم أنّ آثار هذه المدن الخربة غرقت فى الماء و يزعمون أنّهم رأوا فى زاوية من البحر الميّت أعمدتها و آثارها و خرائبها الاخرى.

و ما نقرؤه فى بعض التفاسير الإسلامية هو أنّ المراد من جملة «و تركنا فيها آية» هو المياه العفنة و المستنقعات التى غطّت أماكن هذه المدن، و لعلّه إشارة إلى هذا المعنى و هو أنّه بعد الزلازل الشديدة و انشقاق الأرض انفتح طريق من البحر الميّت نحو هذه الأرض فغرقت جميع آثارها تحت الماء.

فى حين أنّ بعضهم يعتقد أنّ مدن لوط لم تغرق بعد و ما تزال على مقربة من البحر الميّت منطقة مغطّاة بالصخور السود و يحتمل أن تكون هى محلّ مدن قوم لوط! و قيل أنّ مركز إبراهيم كان فى مدينة «حبرون» على فاصلة غير بعيدة من «سدوم» و حين نزل العذاب و الصاعقة من السماء أو الزلزلة فى الأرض و احترقت «سدوم» كان إبراهيم واقفا قريبا من حبرون و شاهد دخان تلك المنطقة المتصاعد فى الفضاء بامّ عينيه ۱۱۰]!.

و من مجموع هذه الكلمات تتّضح الحدود التقريبية لهذه المدن و إن كانت جزئياتها ما تزال وراء ستار الإبهام باقية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۳

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۳۸ الى ۴۶]

اشارة

وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ (۴۰) وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (۴۱) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (۴۲)

وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (۴۳) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ (۴۴) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (۴۵) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۴۶)

التّفسير

دروس العبرة من الأقوام السالفة:

يتحدّث القرآن فى هذه الآيات محلّ البحث- تعقيبا على قصّة قوم لوط و عاقبتهم الوخيمة- عن قصص أقوام آخرين ممّن مضوا فى العصور السابقة.

فيقول أوّلا: وَ فِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۴

«السلطان» ما يكون به التسلّط، و المراد به هنا المعجزة أو الدليل و المنطق العقلى القوىّ أو كلاهما، و قد واجه موسى فرعون بهما.

و التعبير ب بِسُلْطانٍ مُبِينٍ جاء فى آيات القرآن المتعدّدة و المختلفة كثيرا ..

و غالبا ما يراد منه الدليل المنطقى البيّن و الواضح إلّا أنّ فرعون لم يسلّم لمعجزات موسى الكبرى التى كانت شاهدا على ارتباطه باللّه و لم يطأطئ رأسه للدلائل المنطقية .. بل بقى مصرّا لما كان فيه من غرور و تكبر فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَ قالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ

«الركن» فى الأصل القاعدة الأساسية أو الاسطوانة[۱۱۱] و القسم المهمّ من كلّ شىء، و هو هنا لعلّه إشارة إلى أركان البدن، أى أنّ فرعون أدار ظهره لموسى تماما! و قال بعضهم المراد بالركن هنا جيشه، أى أنّه اعتمد على أركان جيشه و تولّى عن رسالة الحقّ. أو أنّه صرف نفسه عن أمر اللّه و صرف أركان حكومته- و جيشه جميعا عن ذلك أيضا[۱۱۲].

و الطريف أنّ الجبابرة المتكبّرين حين كانوا يتّهمون الأنبياء بالكذب و الافتراء كانوا يتناقضون تناقضا عجيبا. فتارة يتّهمونهم بأنّهم سحرة، و اخرى بأنّهم مجانين، مع أنّ الساحر ينبغى أن يكون ذكيا و أن يعوّل على مسائل دقيقة و يعرف نفوس الناس حتّى يسحرهم و يخدعهم بها .. و المجنون بخلافه تماما.

إلّا إنّ القرآن يخبر عن فرعون الجبّار و أعوانه بقوله: فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَ هُوَ مُلِيمٌ

«اليمّ»: كما هو مذكور فى كتب اللغة و كتب الأحاديث يطلق على البحر، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۵

يطلق على الأنهار العظيمة كالنيل مثلا[۱۱۳] جملة «فنبذناهم» إشارة إلى أنّ فرعون و جنوده كانوا فى درجة من الضعف أمام قدرة اللّه بحيث ألقاهم فى اليمّ كأنّهم موجود لا قيمة و لا مقدار له.

و التعبير ب وَ هُوَ مُلِيمٌ إشارة إلى أنّ العقاب الإلهى لم يمحه فحسب بل التاريخ من بعده يلومه على أعماله المخزية و يذكرها بكلّ ما يشينه و يلعنه ..

و يفضح غروره و تكبره بإماطة النقاب عنهما.

ثمّ يتناول القرآن عاقبة قوم آخرين بالذكر و هم «قوم عاد» فيقول: وَ فِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ

و كون الريح عقيما هو عند ما تأتى الريح غير حاملة معها السحب الممطرة، و لا تلقح النباتات و لا تكون فيها أيّة فائدة و لا بركة و ليس معها إلّا الدمار و الهلاك! ثمّ يذكر القرآن سرعة الريح المسلّطة على عاد فيقول: ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ

«الرميم» مأخوذ من الرمّة على زنة (المنّة)- و هى العظام النخرة البالية.

و الرمّة- على وزن القبّة- هى الحبل المتآكل أو الخيط البالى و الرّم ۱۱۴] على وزن الجنّ- ما يسقط من الخشب أو التبن على الأرض و «الترميم» معناه إصلاح الأشياء المتآكلة[۱۱۵]! و هذا التعبير يدلّ على أنّ سرعة الريح المسلّطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعيّة، بل إضافة إلى تخريبها البيوت و هدمها المنازل، فهى محرقة و ذات سموم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۶

ممّا جعلت كلّ شىء رميما.

أجل، هذه قدرة اللّه التى تدمّر القوم الجبّارين بسرعة الريح المذهلة فلا تبقى منهم و من ضجيجهم و صخبهم و غرورهم إلّا أجسادا تحوّلت رميما.

و هكذا أشارت الآية آنفة الذكر إشارة عابرة عن عاقبة قوم «عاد» الأثرياء الأقوياء الذين كانوا يقطنون الأحقاف و هى منطقة «ما بين عمان و حضرموت» ثمّ تصل النوبة إلى ثمود قوم صالح إذ أمهلهم اللّه قليلا ليتلقوا العذاب بعد ذلك .. فيقول اللّه فيهم: وَ فِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ

و المراد ب حَتَّى حِينٍ هو الأيّام الثلاثة المشار إليها فى الآية (۶۵) من سورة هود إمهالا لهم: فَعَقَرُوها فَقالَ تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ

ذلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ

و مع أنّ اللّه قد أنذرهم بواسطة نبيّهم «صالح» عليه السّلام مرارا .. إلّا أنّه إتماما للحجّة أمهلهم ثلاثة أيّام فلعلّهم يتداركون ما فرطوا فى ماضيهم الأسود و يغسلوا صدأ الذنوب- بماء التوبة- عن قلوبهم و أرواحهم.

بل كما يقول بعض المفسّرين: ظهرت خلال الأيّام الثلاثة بعض التغيّرات فى أبدانهم إذ صارت صفراء ثمّ حمرا ثمّ تحوّلت سودا .. لتكون نذيرا لهؤلاء القوم المعاندين، إلّا أنّهم و للأسف لم يؤثّر فيهم أى شىء من هذه الأمور و لم ينزلوا عن مركب غرورهم.

أجل: فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ

كلمة «عتوا» مشتقّة من العتوّ- على وزن غلوّ- و معناه الإعراض «بالوجه»، و الانصراف عن طاعة اللّه، و الظاهر أنّ هذه الجملة إشارة إلى ما كان منهم من إعراض طوال الفترة التى دعاهم فيها نبيّهم صالح كالشرك و عبادة الأوثان و الظلم و عقرهم الناقة التى كانت معجزة نبيّهم، لا الإعراض الذى كان منهم خلال الأيّام الثلاثة فحسب، و بدلا من أن يتوبوا و ينيبوا غرقوا فى غرورهم و غفلتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۷

و الشاهد على ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف: فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَ قالُوا يا صالِحُ ائْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۱۱۶] و الصاعقة و الصاقعة كلّا اللفظين بمعنى واحد تقريبا، و أصلهما الهوّى المقرون بالصوت الشديد، مع تفاوت بينهما، و هو أنّ الصاعقة تطلق على ما يقع فى الأشياء السماوية و الصاقعة فى الأشياء فوق الأرض.

و كما يقول بعض أهل اللغة فإنّ «الصاعقة» تعنى الموت حينا أو العذاب أو النار حينا آخر، و هذه الكلمة تطلق غالبا على الصوت الشديد الذى يسمع فى السماء مقرونا بالنار المهلكة.

و قد أشرنا من قبل أنّ السحب ذات الشحنات الموجبة إذا اقتربت من الأرض التى تحتوى على شحنات سالبة، يحدث و ميض كهربائى شديد من هذين مقرونا بصوت مرعب و نار محرقة يهتزلها مكان الحادث.

و فى القرآن الكريم استعملت هذه الكلمة فى الآية (۱۹) من سورة البقرة بهذا المعنى بجلاء، لأنّه بعد أن يتحدّث القرآن عن الصيّب و البرق و الرعد يضيف قائلا:

يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ

و أخيرا فإنّ آخر جملة تتحدّث عن شأن هؤلاء القوم المعاندين تقول: فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَ ما كانُوا مُنْتَصِرِينَ

أجل: هكذا تدمّر الصاعقة حين تقع على الأرض بصورة مفاجئة، فلا يستطيع الإنسان أن ينهض من الأرض، و لا يقدر على الصريخ و الإستنصار، و على هذه الحال هلك قوم صالح و كانوا عبرة للآخرين.

أجل: إنّ قوم صالح (ثمود) الذين كانوا من القبائل العربية و كانوا يقطنون «الحجر» و هى منطقة تقع شمال الحجاز مع إمكانات مادية هائلة و ثروات طائلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۸

و عمّروا طويلا فى قصور مشيّدة .. اهلكوا بسبب إعراضهم عن أمر اللّه و طغيانهم و عنادهم و الشرك و الظلم، و بقيت آثارهم درسا بليغا من العبر للآخرين.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث إشارة قصيرة إلى عاقبة خامس أمّة من الأمم، و هى قوم نوح فتقول: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ ۱۱۷].

و «الفاسق» يطلق على من يخرج على حدود اللّه و أمره، و يكون ملوّثا بالكفر أو الظلم أو سائر الذنوب.

و التعبير ب «من قبل» لعلّه إشارة إلى أنّ قوم فرعون و قوم لوط و عادا و ثمود كان قد بلغهم ما انتهى إليه قوم نوح من عاقبة وخيمة، إلّا أنّهم لم يتنبهوا، فابتلوا بما ابتلى به من كان قبلهم من قوم نوح!

تعقيب

۱- أوجه عذاب اللّه!

ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّه ورد فى الآيات الآنفة الإشارة إلى قصص خمس امم من الأمم المتقدّمة «قوم لوط، فرعون، عاد، ثمود، و قوم نوح» و قد أشير إلى جزاء أربع من هذه الأمم و ما عوقبت به، إلّا أنّه لم ترد الإشارة فى كيفية عقاب قوم نوح.

و حين نلاحظ بدقّة نجد كلّ امّة من الأمم الأربع المتقدّم ذكرها عوقبت بنوع من العناصر الأربعة المعروفة! فقوم لوط عوقبوا بالزلزلة و الحجارة (من السماء) أى أنّهم أهلكوا بالتراب، و قوم فرعون أهلكوا بالماء غرقا- و عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية (سريعة) و ثمود أهلكوا بالصاعقة و «النار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۱۹

و صحيح أنّ هذه الأشياء الأربعة لا تعدّ اليوم (عنصرا) أى جسما بسيطا، لأنّ كلّا منها مركب من أجسام أخر، إلّا أنّه لا يمكن الإنكار أنّها تمثّل أربعة أركان حياة الإنسان المهمّة، و متى ما حذف أى منها فلا يمكن أن يواصل الإنسان حياته فكيف بحذف جميعها؟! أجل إنّ اللّه سبحانه أهلك هذه الأمم بشىء يعدّ عامل البقاء و الحياة الأصيل و لم يستطيعوا بدونه أن يواصلوا الحياة .. و هذه قدرة (غائية) عجيبة! و إذا لم نجد بيانا عن ما عوقب به قوم نوح عليه السّلام خلال السياق، فلعلّه لأنّهم عوقبوا بمثل ما عوقب به قوم فرعون أى اهلكوا بالغرق (و الطوفان) و لم تكن حاجة هنا للتكرار!

۲- الرياح اللواقح و الرياح العقيم!

قرأنا فى الآيات الآنفة أنّ عادا أهلكوا بالريح العقيم، و نقرأ فى الآية (۲۲) من سورة الحجر وَ أَرْسَلْنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً! و بالرغم أنّ هذه الآية ناظرة إلى تلقيح الغيوم و اتّصال بعضها ببعض لنزول الغيث .. إلّا أنّها و بشكل عام تبيّن أثر الرياح فى حياة الإنسان ... أجل إنّ أثرها و عملها التلقيح، تلقيح الغيوم و تلقيح النباتات، و حتّى أنّها تؤثّر أحيانا على تهيأة مختلف الحيوانات للتلاقح! إلّا أنّ هذه الريح حين تحمل الأمر بالعذاب، فبدلا من أن تهب الحياة تكون عاملا على الهلاك، و كما يعبّر القرآن فى الآية (۲۰) من سورة القمر التى تتكلّم على عاد فتقول: تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۰

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۴۷ الى ۵۱]

اشارة

وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ (۴۷) وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (۴۸) وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (۴۹) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۰) وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۵۱)

التّفسير

و السماء بنيناها بأيد و إنا لموسعون:

مرّة اخرى تتحدّث هذه الآيات عن موضوع آيات عظمة اللّه فى عالم الخلق، و هى فى الحقيقة تتمّة لما ورد فى الآيتين (۲۰) و ۲۱) من هذه السورة فى شأن آياته فى الأرض و فى نفس «الإنسان» و وجوده- و هى ضمنا دليل على قدرة اللّه على المعاد و الحياة فتقول أوّلا: وَ السَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ وَ الْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ

«الأيد» على وزن الصيد، معناه القدرة و القوّة- و قد تكرّر هذا المعنى فى آيات القرآن المجيد، و هو هنا بمعنى قدرة اللّه المطلقة العظيمة فى خلق السماوات!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۱

و دلائل هذه القدرة العظيمة واضحة جليّة فى عظمة السماوات و نظامها الخاصّ الحاكم عليها أيضا[۱۱۸].

و هناك كلام بين المفسّرين فى المراد من وَ إِنَّا لَمُوسِعُونَ

فقال بعضهم معناه توسعة الرزق من قبل اللّه على العباد بواسطة نزول الغيث، و قال بعضهم معناه توسعة الرزق من جميع الجهات، و قال بعضهم معناه غنى اللّه و عدم حاجته، لأنّ خزائنه من السعة بحيث لا تنفذ و لا تنقص مهما كان عطاؤه! إلّا أنّه مع ملاحظة موضوع خلق السماء فى الجملة السابقة و مع الأخذ بنظر الإعتبار ما اكتشفه العلماء من اتّساع العالم عن طريق المشاهدات الحسّية المؤيّدة، يمكن الوقوف على معنى أكثر لطافة لهذه الآية، و هو أنّ اللّه خلق السماوات و يوسعها دائما.

و العلم الحديث [المعاصر] يقول ليست الكرة الأرضية وحدها تتضخّم و تثقل على أثر جذب المواد السماوية تدريجا، بل السماء أيضا فى اتّساع دائم، أى أنّ بعض النجوم المستقرّة فى المجرّات تبتعد عن مركز مجرّاتها بسرعة هائلة حتّى أنّ هذه السرعة لها أثرها فى الاتّساع فى كثير من المواقع!.

و نقرأ فى كتاب «حدود النجوم» بقلم الكاتب «فرد هويل»: أنّ أقصى سرعة لابتعاد النجوم عن مركزها حتّى الآن ۶۶ ألف كيلومتر فى الثانية، و المجرّات التى هى أبعد منها- فى نظرنا- و مض نورها قليل جدّا حتّى أنّه من الصعب تحديد سرعتها، و الصور الملتقطة من السماء تدلّ على أهميّة هذا الكشف و أنّ الفاصلة ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۲

بين هذه المجرّات تتّسع أكثر من المجرّات القريبة منّا بسرعة[۱۱۹].

ثمّ يتحدّث المؤلّف عن سرعة هذه المجرّات «السنبلة و الأكليل و الشجاع و غيرها» فيبيّن سرعتها العجيبة المذهلة فى هذا الكتاب [۱۲۰].

و لنصغ إلى بعض العبارات للاستاذ «جان الدر» إذ يقول:

«إنّ أحدث و أدقّ تقدير طول الأمواج التى تبثّها النجوم يكشف الستار عن وجه حقيقة عجيبة و محيّرة أى أنّها تكشف لنا أنّ مجموع النجوم التى يحويها العالم تبتعد عن مركزها بسرعة دائما و كلّما كانت الفاصلة بينها و بين مركزها ازدادت سرعتها.

فكأنّ جميع النجوم كانت مجتمعة فى هذا المركز ثمّ تفرّقت عنه مجاميع كبيرة من النجوم و اتّجه كلّ منها إلى اتّجاه خاصّ».

و يستنتج العلماء من ذلك أنّ العالم كانت له نقطة بداية و شروع ۱۲۱].

و يقول «جورج جاموف» فى كتاب خلق العالم فى هذا الصدد «إنّ فضاء العالم المتشكّل من ملياردات المجرّات فى حالة انبساط سريعة، و الحقيقة هى أنّ عالمنا ليس فى حالة من السكون، بل انبساطه مقطوع به .. و الإذعان إلى أنّ عالمنا منبسط يهيئ المفتاح لخزينة أسرار معرفة العالم لأنّه إذا كان العالم الآن فى حالة الانبساط فيلزم أن يكون فى زمان ما فى حالة انقباض شديد[۱۲۲].

و ليس العلماء المذكورون آنفا يعترفون بهذه الحقيقة فحسب .. فإنّ هناك آخرين ذكروا هذا المعنى فى كتاباتهم و يجرّنا نقل

كلماتهم إلى الإطالة.

و ممّا يستجلب النظر أنّ التعبير ب إِنَّا لَمُوسِعُونَ دالّة على الدوام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۳

و الاستمرار، فهى جملة اسمية ذات اسم فاعل، كما أنّها تدلّ على أنّ هذا الاتّساع موجود دائما و كان و لا يزال، و هذا يؤيّد تماما ما وصل إليه العلم الحديث أنّ جميع النجوم و المجرّات كانت مجتمعة فى البداية فى مركز واحد «بوزن خاصّ له ثقل خارق» ثمّ انفجرت انفجارا عظيما مثيرا (مرعبا) و على أثر ذلك تلاشت أجزاء العالم و ظهرت بصورة كرات و هى بسرعتها فى حالة الاتّساع و الابتعاد (عن المركز).

و أمّا التعبير الوارد فى شأن خلق الأرض فَنِعْمَ الْماهِدُونَ ففى كلمة «ماهدون» لطافة تدلّ على أنّ اللّه مهّد الأرض بجميع وسائل الراحة للإنسان، لأنّ «الماهد» مأخوذ من المهد، و معناه ما يعدّ للطفل من الفراش أو أى محل للاستراحة، فمثل هذا المحل ينبغى أن يكون هادئا محفوظا ليّنا دافئا مطمئنا، و جميع هذه الأمور متوفّرة فى الأرض!.

و بأمر اللّه أضحت الحجارة ليّنة و تبدلّت إلى تراب هذا من جهة، و صلابة الجبال و قشر الأرض القوى من جهة ثانية جعلت الأرض تقاوم الجزر و المدّ، و من جهة ثالثة فإنّ الغلاف الجوّى المحيط بالأرض يخفّف من وطأة حرارة الشمس و يحفظها و هو بمثابة اللحاف لها كما أنّه يصدّ النيازك و الأحجار العظيمة التى تهوى من السماء إلى الأرض فيمنعها من النفوذ إليها فتتلاشى عنده و تتحوّل رمادا.

و هكذا فإنّ اللّه هيّأ جميع وسائل الراحة لاستقبال الإنسان الذى هو ضيف اللّه فى هذه الكرة الأرضية.

و بعد خلق السماء و الأرض تصل النوبة إلى خلق الموجودات المختلفة فى السماء و الأرض و أنواع النباتات و الحيوانات فتقول الآية التالية فى هذا الشأن وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

و يعتقد كثير من المفسّرين أنّ كلمة «الزوجين» هنا معناها الأصناف المختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۴

و أنّ الآية تشير إلى أصناف الموجودات المختلفة فى هذا العالم التى تبدو على شكل زوج زوج كالليل و النهار، و النور و الظلمة، و البحر و اليابسة، و الشمس و القمر، و الذكر و الأنثى و غيرها.

إلّا أنّه كما ذكرنا سابقا ذيل الآيات المشابهة لهذه الآيات أيضا أنّ الزوجية فى مثل هذه الآيات يمكن أن تكون إشارة إلى معنى أدقّ، لأنّ كلمة «الزوج» تطلق عادة على جنسى الذكر و الأنثى، سواء فى عالم الحيوانات أو النباتات، و إذا ما توسّعنا فى استعمال هذه الكلمة فإنّها ستشمل جميع الطاقات الموجبة و السالبة (- و+) و مع ملاحظة ما جاء فى القرآن وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ و يشمل جميع الموجودات لا الموجودات الحيّة فحسب. فيمكنها أن تشير إلى هذه الحقيقة و هى أنّ جميع أشياء العالم مخلوقة من ذرّات موجبة و سالبة، و من المسلّم به هذا اليوم من الناحية العلمية أنّ الذرّات مؤلّفة من أجزاء مختلفة، منها ما يحمل طاقة سالبة تدعى بالألكترون، و منها ما يحمل طاقة موجبة و تدعى بالبروتون.

فبناء على ذلك لا داعى أن نفسّر الشىء بالحيوان أو النباتات حتما أو أنّ نفسّر الزوج بمعنى الصنف «لمزيد الإيضاح ذكرنا شرحا مفصّلا ذيل الآية ۷ من سورة الشعراء» و ينبغى الالتفات أنّه فى الوقت ذاته يمكن الجمع بين التّفسيرين.

و جملة لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ تشير إلى أنّ الزوجية و التعدّد فى جميع أشياء العالم تذكّر الإنسان بأنّ اللّه خالق هذا العالم واحد أحد، لأنّ التثنية و التعدّد من خصائص المخلوقات.

و قد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إذ قال: «بمضادته بين الأشياء عرف أن لا ضدّ له و بمقارنته بين الأشياء عرف

أن لا ـ قرين له، ضاد النور بالظلمة، و اليبس بالبلل و الخشن باللين، و الصرد بالحرور مؤلّفا بين متعادياتها مفرقا بين متدانياتها دالّة بتفريقها على مفرقها، و بتأليفها على مؤلّفها و ذلك قوله: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۵

تَذَكَّرُونَ [۱۲۳].

و يضيف القرآن فى الآية التالية مستنتجا ممّا تقدّم من الأبحاث التوحيدية قائلا: فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ

و التعبير ب «الفرار» هنا تعبير لطيف و بليغ، لأنّ الفرار يطلق فى ما إذا واجه الإنسان موجودا أو حادثا مخيفا من جهة، و هو من جهة اخرى يعرف مكانا يلتجئ إليه فيسرع من مكان المواجهة إلى ذلك المكان و يلتجئ إلى نقطة الأمن و الأمان .. فالآية تقول: فرّوا من عقيدة الشرك الموحشة و عبادة الأصنام إلى التوحيد الخالص الذى هو منطقة الأمن و الأمان الواقعى.

ففرّوا من عذاب اللّه و توجّهوا نحو رحمته! فرّوا من عصيانه و عناده و توسّلوا بالتوبة إليه.

و الخلاصة: فرّوا من السيّئات و القبائح و عدم الإيمان و ظلمة الجهل و العذاب الدائم و التجأوا إلى رحمة الحقّ و سعادته الأبدية.

و لمزيد التأكيد، يستند القرآن إلى وحدانية العبادة للّه الأحد فيقول:

وَ لا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ.

و يحتمل أنّ الآية السابقة- تدعوا إلى أصل الإيمان باللّه! و هذه الآية تدعو إلى وحدانية ذاته المقدّسة فيكون تكرار جملة: «إنّى لكم منه نذير مبين» فى المورد الأوّل على أنّه إنذار على ترك الإيمان باللّه، و فى المورد الآخر إنذار على الشرك و عبادة الأصنام، و هكذا فإنّ كلّ جملة و إن تكرّرت تشير إلى موضوع مستقلّ! و جاء فى بعض الرّوايات عن الإمام الصادق أنّ المراد من قوله: فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ هو الحجّ و زيارة بيت اللّه ۱۲۴] و واضح أنّ المراد هنا ذكر مصداق واحد من المصاديق الواضحة للفرار إلى اللّه، لأنّ الحجّ يعرّف الإنسان حقيقة التوحيد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۶

و التوبة و الإنابة إلى اللّه و يمنحه الالتجاء إلى ألطاف اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۷

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۲ الى ۵۵]

اشارة

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (۵۲) أَ تَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۵۳) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (۵۴) وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (۵۵)

التّفسير

إنّ الذكرى تنفع المؤمنين:

قرأنا فى الآية ۳۹ من هذه السورة أنّ فرعون اتّهم موسى عليه السّلام عند ما دعاه إلى اللّه و ترك الظلم أنّه ساحر أو مجنون، فهذا الاتّهام ورد على لسان المشركين فى زمان النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا إذ اتّهموه بمثل ما اتّهم فرعون موسى و قد عزّ ذلك على المؤمنين الأوائل و القلائل كما كان يؤلم روح النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فالآيات محلّ البحث و من أجل تسلية النّبى و المؤمنين تقول: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۱۲۵].

كانوا يتّهمون الرسل السابقين بأنّهم سحرة لأنّهم لم يجدوا جوابا منطقيا لمعاجزهم الباهرة، و كانوا يخاطبون رسولهم بأنّه «مجنون» .. لأنّه لم يكن على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۸

غرارهم و متلوّنا بلون المحيط و لم يستسلم للأمور الماديّة.

فبناء على ذلك لا تحزن و لا تكترث و واصل المسير بالصبر و الاستقامة، لأنّ مثل هذه الكلمات قيلت فى أمثالك يا رسول اللّه من رجال الحقّ و أهله.

ثمّ يضيف القرآن هل أنّ هذه الأقوام الكافرة تواصت فيما بينها على توجيه هذه التّهمة إلى جميع الأنبياء: أَ تَواصَوْا بِهِ ! و كان عملهم هذا إلى درجة من الانسجام، و كأنّهم اجتمعوا فى مجلس- فى ما وراء التاريخ- و تشاوروا و تواصوا على أن يتّهموا الأنبياء عامّة بالسحر و الجنون ليخفّفوا من وطأة نفوذهم فى نفوس الناس! و لعلّ كلّا منهم كان يريد أن يمضى من هذه الدنيا و يوصى أبناءه و أحبابه بذلك! و يعقّب القرآن على ذلك قائلا: بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ ۱۲۶].

و هذه هى إفرازات روح الطغيان حيث يتوسّلون بكلّ كذب و اتّهام لإخراج أهل الحقّ من الساحة، و حيث إنّ الأنبياء يأتون الناس بالمعجزات فإنّ خير ما يلصقونه بهم من التّهم أن يسموهم بالسحر أو الجنون، فبناء على ذلك يكون عامل «وحدة عملهم» هذا هى الروحية الخبيثة و الطاغية الواحدة لهم.

و لمزيد التسرّى عن قلب النّبى و تسليته يضيف القرآن: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ

و كن مطمئنا بأنّك قد أدّيت ما عليك من التبليغ و الرسالة فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ

و إذا لم يستجب أولئك للحقّ فلا تحزن فهناك قلوب متعطّشة له جديرة بحمله و هى فى انتظاره.

و هذه الجملة فى الحقيقة تذكر بالآيات السابقة التى تدلّ على أنّ النّبى كان يتحرّق لقومه حتّى يؤمنوا و يتأثّر غاية التأثّر لعدم إيمانهم حتّى كاد يهلك نفسه من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۲۹

أجلهم.

كما تشير الآية (۶) من سورة الكهف حيث نقرأ فيها: فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً.

.. و بالطبع فإنّ القائد الحقّ ينبغى أن يكون كذلك.

قال المفسّرون: لمّا نزلت هذه الآية حزن النّبى و المؤمنون لأنّهم تصوّروا أنّ هذا آخر الكلام فى شأن المشركين و أنّ وحى السماء قد انقطع و يوشك أن يحيق بهم العذاب .. إلّا أنّه لم تمض فترة قصيرة حتّى نزلت الآية بعدها لتأمر النّبى بالتذكير: وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۱۲۷].

فكان أن أحسّ الجميع بالاطمئنان! و الآية تشير إلى أنّ هناك قلوبا مهيّأة تنتظر كلامك يا رسول اللّه و تبليغك ..

فإذا ما عاند جماعة و نهضوا بوجه الحقّ مخالفين، فإنّ هناك جماعة آخرين تتوق إلى الحقّ من أعماق قلوبهم و أرواحهم و يؤثّر فيها كلامك اللّين!

ملاحظة

لا بدّ من قلوب مهيّأة .. لقبول الحقّ:

لاحظوا المزارع و الفلّاح الـذى ينثر البذور، فقد تقع بعض هذه البذور على الأحجار، و من الواضح أنّ ما يقع على الأحجار و الصـخور لا ينمو! و بعض هـذه البـذور يقع على طبقـة رقيقـة من التراب الـذى يغطّى الصـخر، فتثبت هـذه البذور و تمدّ جذورها، إلّا أنّ المكان حيث كان حرجا لا يساعد على امتداد الجذور (لكون الأرض صخرية) فما أسرع من أن تجفّ البراعم و تموت الجذور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۰

و يقع قسم من البـذور على أرض ذات تراب صالحـة، إلّا أنّ نبات الشوك و العلف تنمو إلى جانبها، فحتّى لو أورقت تلك البـذور إلّا أنّها ما أسرع أن تغلبها الأشواك و تلتفّ عليها فتموت.

و أحسن هـذه البـذور حظّا تلك البـذور التى تسـتقرّ فى تربـة صالحة و لا تعوقها نباتات اخرى .. فلا يمضـى زمن حتّى تنبت و تنمو و تورق و تستوى على سوقها و تعطى ثمارها.

فكلمات الحقّ التى تخرج من أفواه الأنبياء و رسل اللّه و خلفائهم المعصومين كهـذه البذور، فالقلوب الصـخرية لا تتقبّل هذه الكلمات من الأساس، و القلوب الضـعيفة تتقبّلها مؤقتا ثمّ تعرض عنها، و هناك قلوب مهيّأة للقبول، لكن الأهواء و الصـفات الرذيلة و الشـهوات نابتة فيها، و هذه الأمور تبطل تأثير تلك الكلمات الحقّة.

القلوب- الوحيـدة- التى تتقبّل كلمات هؤلاء الأئمّـة العظام و تنمو فيها و تثمر هى القلوب التى تطلب الحقّ و يحكم عليها البحث عن الحقّ! و خالية من الصفات السلبية و الدوافع الدنيوية أيضا .. و تلك هى قلوب المؤمنين.

أجل .. وَ ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۶ الى ۵۸]

اشارة

وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (۵۶) ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (۵۷) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۵۸)

التّفسير

هدف خلق الإنسان من وجهة نظر القرآن:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۱۳۱

أهمّ الأسـئلة التى تختلـج فى خـاطر كـلّ إنسـان هو لم خلقنا؟! و ما الهـدف من خلق الناس و المجىء إلى هـذه الـدنيا؟! فالآيات آنفة الـذكر تجيب على هـذا السؤال المهم و العام بتعابير موجزة ذات معنى غزير، و تكمّل البحث الوارد فى آخر آيـة من الآيات المتقـدّمة حول تـذكير المؤمنين، لأنّ ذلك من أهمّ الأصول التى ينبغى على النّبى أن يتابعها .. كما توضّـح- ضـمنا- معنى الفرار إلى اللّه الوارد فى الآيات السابقة.

تقول الآيات حاكية عن اللّه سبحانه: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ

و أنّه غير مفتقر إلى أىّ منهم أبدا ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ بل إنّ اللّه تعالى هو الذى يرزق عباده و مخلوقاته .. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۲

ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ

فهـذه الآيـات التى هى فى منتهى الوجـازة و الاختصار تكشف سـتارا عن الحقيقـة التى يطلبها الجميع و يريـدون معرفتها و تجعلنا أمام الهدف العظيم.

توضيح ذلک:

لا ـ شـكّ أنّ كـلّ فرد عاقـل و حكيـم حين يقـوم بعمـل فإنّمـا يهـدف من وراء عمله إلى هـدف معيّن، و حيث أنّ اللّه أعلم من جميع مخلوقاته و أعرفهم بالحكمة، بل لا ينبغى قياسه بأى أحد، فينقدح هذا السؤال و هو لم خلق اللّه الإنسان؟! هل كان يشعر بنقص فارتفع بخلق الإنسان؟! هل كان محتاجا إلى شىء فارتفع الاحتياج بخلقنا؟

و لكنّنا نعلم أنّ وجوده كامل من كلّ الجهات (و لا محدود فى اللّامحدود) و هو غنى بالذات! إذا، فطبقا للمقدّمة، الاولى يجب القبول على أنّه كان له هدف، و طبقا للمقدّمة الثانية- ينبغى القبول أنّ هدفه من خلق الإنسان ليس شيئا يعود إلى ذاته المقدّسة.

فالنتيجـة ينبغى أن يبحث عن هـذا الهـدف خارج ذاته، هذا الهدف يعود للمخلوقين أنفسـهم و أساس كمالهم .. هذا من جانب! و من جانب آخر ورد فى القرآن تعابير كثيرة مختلفـة فى شأن خلق الإنسان و الهدف منه! فنقرأ فى إحدى آياته: الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا،[۱۲۸] و هنا يبيّن مسألة الامتحان للإنسان و حسن العمل على أنّه هدف (من أهداف خلق الإنسان).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۳

و جاء فى آية اخرى اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً!.[۱۲۹] و هنا يبيّن القرآن أنّ علمنا بعلم اللّه و قدرته هو الهدف من خلق السماوات و الأرض (و ما بينهما).

و نقرأ فى آيـة اخرى وَ لَوْ شـاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ [۱۳۰] و طبقا لهاتين الآيتين فالهدف من خلق الإنسان هو رحمة اللّه.

و الآيات محلّ البحث تسـتند إلى مسألة العبوديّة فحسب، و تعبّر عنها بصراحة بأنّها الهدف النهائى من خلق الجنّ و الإنس! و بقليل من التأمّل فى مفهوم هذه الآيات و ما شابهها نرى أنّه لا تضادّ و لا اختلاف بين هذه الآيات، ففى الحقيقة بعضـها هدف مقدّمى، و بعضـها هدف متوسّط، و بعضها هدف نهائى، و بعضها نتيجة!.

فالهـدف الأصـلى هو «العبوديـة» و هو ما أشـير فى هذه الآيات محلّ البحث، أمّا العلم و الامتحان و أمثالهما فهى أهداف ضـمن مسـير العبودية للّه، و رحمة اللّه الواسعة نتيجة العبودية للّه.

و هكـذا يتّضـح أنّنـا خلقنـا لعبـادة اللّه، لكن المهمّ أن نعرف مـا هى حقيقـة هـذه العبادة؟! فهل المراد منها أداء المراسم أو المناسـك (اليومية) و أمثالها كالركوع و السجود و القيام و الصلاة و الصوم، أو هو حقيقة وراء هذه الأمور و إن كادت العبادة الرسميّة كلّها أيضا واجدة للأهميّة!؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۴

و للإجابـة على هـذا السؤال ينبغى معرفة معنى كلمة «العبد» و العبودية و تحليلهما! «العبد»: لغة هو الإنسان المتعلّق بمولاه و صاحبه من قرنه إلى قدمه! ..

و إرادته تابعة لإرادته و ما يطلب و يبتغيه تبع لطلب سيّده و ابتغائه، فلا يملك فى قباله شيئا و ليس له أن يقصّر فى طاعته.

و بتعبير آخر: إنّ العبودية- كما تبيّن معناها كتب اللغة- هى إظهار منتهى الخضوع للمعبود، و لذلك فالمعبود الوحيد الذى له حقّ العبادة على الآخرين هو الذى بذل منتهى الإنعام و الإكرام، و ليس ذلك سوى اللّه سبحانه! فبناء على ذلك فالعبودية هى قمّة التكامل و أوج بلوغ الإنسان و اقترابه من اللّه! و العبودية منتهى التسليم لذاته المقدّسة! و العبودية هى الطاعة بلا قيد و لا شرط و الامتثال للأوامر الإلهية فى جميع المجالات! و أخيرا فإنّ العبودية الكاملة هى أن لا يفكّر الإنسان بغير معبوده الواقعى أى الكمال المطلق، و لا يسير إلّا فى منهجه اللاحب و أن ينسى سواه حتّى (نفسه و شخصه).

و هذا هو الهدف النهائى من خلق البشر الذى أعدّ اللّه له الامتحان و الاختبار لنيله، و منح الإنسان العلم و المعرفة، و جعل نتيجة كلّ ذلك فيض رحمته للإنسان.

بحوث

۱- اللّه غنى على الإطلاق

إنّ جملة: ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ ما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ هى فى الحقيقة إشارة إلى استغناء اللّه عن كلّ أحد و عن كلّ شىء، و إذا ما دعا العباد إلى عبادته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۵

فليس ذلك ليستفيد منهم، بل يريد أن يجود عليهم، و هذا على العكس من العبودية بين الناس، لأنّهم يطلبون الرقّ و العبيد ليحصلوا بهم الرزق أو المعاش، أو أن يخدموهم فى البيت، فيقدّموا لهم الطعام و الشراب، و فى كلتا الحالين فإنّما يعود نفعهم على مالكيهم، و هذا الأمر ناشئ عن احتياج الإنسان، إلّا أنّ جميع هذه المسائل لا معنى لها فى شأن اللّه، إذ ليس غنيّا عن عباده فحسب، بل هو يضمن لعباده الرزق بلطفه و كرمه «و رزق الجميع على اللّه».

۲- اللّه ذو القوّة المتين

«المتين» كلمة مشتقّة من متن، و هو فى الأصل ما يكتنف العمود الفقرى من لحم و عصب التى تشدّ الظهر و نجعله مهيّأ لتحمّل الأعباء، و لذلك فقد استعمل «المتن» بمعنى القوّة الكاملة و الطاقة و القدرة، فبناء على ذلك فإنّ ذكر «المتين» بعد ذكر كلمة «ذو القوّة» إنّما هو للتأكيد، لأنّ «ذو القوّة» إشارة إلى أصل قدرة اللّه! «و المتين» إشارة إلى كمال القدرة، و حين تقترن هذه الكلمة ب «الرزّاق» و هو صيغة مبالغة أيضا تدلّ على هذه الحقيقة، و هى أنّ اللّه له منتهى القدرة و التسلّط فى إيلاء الرزق و إعطائه لمن يشاء، و هو يوصل الرزق إلى أيّة جهة كانت و أى مكان كان .. فى أعماق البحار، و فى قمم الجبال، و فى سفوح التلال و على ضفاف الأنهار، و فى الوديان و الصحارى و البرارى .. و جميع ما فى الوجود و من فى الوجود مجتمعون على مائدته الكريمة، إذا فخلق اللّه للإنسان و سائر الموجودات لم يكن لحاجته إليهم، بل ليفيض عليهم من لطفه العميم.

۳- لم قدّم ذكر الجنّ

مع أنّه یستفاد من آیات القرآن بشکل واضح أنّ الإنس أفضل من الجنّ، إلّا أنّه قدّم ذکر الجنّ علی الإنس فی الآیة الآنفة، و لعلّ الظاهر منه أنّ الجنّ خلقوا قبل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۶

أن یخلق آدم کما نقرأ ذلک فی الآیة (۲۷) من سورة الحجر إذ تقول: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ۱۳۱] مِنْ نارِ السَّمُومِ

۴- الحکمة من الخلق فی نظر الفلسفة

ذکرنا آنفا أنّه قلّ أن نجد من لا یسأل نفسه أو غیره عن الهدف من خلق الإنسان! فدائما تولّد جماعة و تمضی جماعة اخری و تنطفئ إلی الأبد، فما المراد من هذا المجیء و الذهاب؟! و الحقّ أنّنا- کأناس لو لم نکن نعیش علی وجه هذه الکرة الأرضیة فما ذا سیحدث؟ و هل یجب علینا أن نعرف لم نأتی و لم نمضی؟ و لو أردنا أن نعرف السرّ فهل نستطیع ذلک؟! و هکذا تری الأسئلة الاخر علی فکر الإنسان و تحیط به ...

و عند ما یطرح هذا السؤال من قبل الماديين فالظاهر أنّهم لا جواب لهم علیه، لأنّ المادّة أو الطبیعة لیس لها عقل و لا شعور حتّی یکون لها هدف لذلک، فقد أراحوا أنفسهم من هذا السؤال و هم یعتقدون بعبثیّة الخلق و أنّه لا هدف من ورائه! و کم هو مثیر و مقلق أن یتّخذ الإنسان لجزئیات حیاته سواء أ کانت للعمل أم الکسب أو الصحّة أو الریاضة أهدافا منظّمة و أن یعتقد أنّ الحیاة بمجموعها ضرب من العبث و اللغو!؟

لذلک فلا مجال للعجب أنّ جماعة من الماديين حینما یفکّرون فی هذه المسائل یترکون هذه الحیاة التی لا هدف ورائها و یقدّمون علی الانتحار! إلّا أنّ هذا السؤال حین یلقیه معتقد باللّه، فإنّه لا یواجه طریقا مسدودا، لأنّه یعلم أنّ خالق هذا العالم حکیم و قد خلق هذا العالم عن حکمة حتما و إن جهلناها، و هذا من جانب، و من جانب آخر حین یری أعضاءه عضوا عضوا یجد لکلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۷

فلسفة و حکمة و هدفا، لا- الأعضاء المهمّة ظاهرا کالقلب و اللسان و العروق و الأعصاب بل حتّی الأظفار و خطوط الید و البنان و تقوّس القدم أو هیأة الید و فسلجتها کلّ له فلسفة یعرفها العلم الحدیث المعاصر! فإلی أیّ درجة من السذاجة أن یری لجمیع هذه الأعضاء أهدافا إلّا أنّ المجموع یکون بلا هدف!! و أی قضاء متهافت أن نجد لکلّ بناء فی المدینة فلسفة خاصّة- إلّا أنّنا نقضی علی المدینة بأنّها لا فلسفة فیها و لا هدف من ورائها!! تری هل من الممکن أن یبنی مهندس ما بناء عظیما فیه الغرف و الأبواب و النوافذ و الأحواض و الحدائق و «الدیکورات» و کلّ من هذه الأمور هو لأمر خاصّ و لهدف معیّن، إلّا أنّ مجموع البناء لا هدف من ورائه؟! هذه الأمور هی التی تمنح المؤمن باللّه و المعتقد به الاطمئنان بأنّ خلقه له هدف عظیم، و علیه أن یسعی و یجدّ حتّی یکتشفه بقوّة العقل و العلم.

و العجیب أنّ أصحاب نظریة العبث (فی الخلق) حین یردون أیّة زاویة من زوایا العلوم الطبیعیة- یبحثون عن الهدف لتفسیر الظواهر المختلفة و لا یهدأون حتّی یجدوا الهدف! حتّی أنّهم لا یرتضون أن تبقی غدّة صغیرة فی بدن الإنسان دون عمل و غایة، و لربّما یقضون سنوات بالبحث عن الحکمة من وجود مثل هذه الغدّة ... إلّا أنّهم حین یبلغون أصل خلق الإنسان یقولون بصراحة: لا هدف من ورائه.

فما أعجب هذا التناقض!! و علی کلّ حال فالإیمان بحکمة اللّه تعالی من جانب، و ملاحظة فلسفة أجزاء (وجود) الإنسان من جانب آخر، کلّ ذلک یدعونا إلی الإیمان أنّ وراء خلق الإنسان هدفا کبیرا.

و الآن ینبغی علینا أن نبحث عن هذا الهدف و أن نحدّده ما بوسعنا- و أن نسیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۸

فی منهاجه اللاحب.

إنّ ملاحظة عدّة مقدّمات- یمکن لها- أن تسلّط الأضواء علی هدفنا للکشف عن هذا المجهول المظلم.

۱- نحن دائما نقصد فی أعمالنا إلی هدف ما، و عادة یکون هذا الهدف إشباع حاجة و رفعها و إتمام النواقص. و حتّی الخدمة للآخرین أو إنقاذ مبتلی من بلائه ..

أو قمنا بعمل إنسانی و آثرنا سوانا علی أنفسنا فذلک أیضا نوع من الحاجات المقدّسة، و برفعها نزداد معنویة و کمالا! و لمّا کنّا نقیس أحیانا صفات اللّه مع أنفسنا فقد یخطر مثل هذا التصوّر و هو ما هی الحاجة عند اللّه حتّی ترتفع بخلقنا؟ أو إذا کانت الآیات الآنفة تقول وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ فنقول ما هی حاجته إلی العبادة؟! مع أنّ هذه التصوّرات ناشئة من المقایسة بین صفات الخالق و المخلوق و الواجب و الممکن؟! و حیث أنّ وجودنا محدود فإنّنا نسعی وراء إشباع حاجاتنا، و أعمالنا جمیعها تقع فی هذا المسیر .. إلّا أنّ هذا غیر وارد فی وجود مطلق، فینبغی البحث عن هدف أفعاله فی غیر وجوده، فهو عین فیّاضة و مبدأ النعمة الذی یکتنف الموجودات فی کنف حمایته و رعایته و إنمائه و السلوک بها إلی الکمال، و هذا هو الهدف الواقعی لعبودیتنا .. و هذه فلسفة عباداتنا و ابتهالاتنا، فهی جمیعا دروس تربویة لتکاملنا.

و أساسا فإنّ أصل الخلق هو خطوة تکاملیة عظیمة، أی مجیء الشیء من العدم إلی الوجود، و من الصفر إلی مرحلة العدد.

و بعد هذه الخطوة التکاملیة العظیمة تبدأ مراحل تکاملیة اخری .. فجمیع المناهج الدینیة و الإلهیّة تسلک بالإنسان فی هذا المسیر! ۲- و هنا ینقدح هذا السؤال، و هو إذا کان الهدف من الخلق هو الجود- علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۳۹

العباد- من المعبود لا النفع للخالق، و هذا الجود یتمثّل فی تکامل الناس، فلم لم یخلق اللّه (الجواد الکریم) العباد کاملین من البدایة- لیکونوا فی جواره و قربه و أن یتمتّعوا ببرکات قربه و جوار ذاته المقدّسة! و الجواب علی هذا السؤال واضح .. فتکامل الإنسان لیس أمرا یمکن خلقه بالإجبار، بل هو طریق طویل مدید، و علی الناس أن یسیروه و یجوبوه و یقطّعوه بإرادتهم و تصمیمهم و أفعالهم الاختیاریة.

فمثلا- لو أخذ مال باهظ قسرا من أحد لبناء مستشفی، فهل لهذا العمل من أثر تکاملی روحی و أخلاقی فی نفسه؟! قطعا لا! لکن لو أعطی بمحض إرادته و رغبته و میله النفسی و لو درهما واحدا لهذا الهدف المقدّس فإنّه یخطو فی طریق التکامل الأخلاقی و الروحی بتلک النسبة التی ساهم فیها.

و یستفاد من هذا الکلام أنّ علی اللّه أنّ یبیّن لنا هذا المسیر بأوامره و تکالیفه و مناهجه التربویة بواسطة أنبیائه و العقل لیتمّ الإبلاغ بذلک، فنعرف هذا المسیر التکاملی و نطویه باختیارنا و إرادتنا.

۳- و ینقدح هنا سؤال- آخر أیضا- و هو أنّ کلّ هذا حسن ... فالهدف من خلقنا هو التکامل الإنسانی، أو بتعبیر آخر القرب من اللّه و حرکة الوجود الناقص نحو الوجود الکامل الذی لا نهایة له، إلّا أنّه ما الهدف من هذا التکامل؟! و الجواب یتّضح بهذه الجملة أیضا و هو أنّ التکامل هو الهدف النهائی أو بتعبیر آخر «غایة الغایات».

و توضیح ذلک: لو سألنا طالب المدرسة علام تدرس أو لم تدرس؟! فیجیب حتّی أدخل الجامعة! و لو سألناه ثانیة ما تستفید من الجامعة؟ فیقول مثلا سأکون طبیبا أو مهندسا جدیرا! فتقول له ما تصنع بشهادة «الدکتوراه» أو الهندسة؟ فیقول: لأبرز نشاطاتی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۰

و فعالیّاتی الإیجابیة المثبتة و لکی یکون ربح وفیر! فنقول له ما تصنع بالربح الوفیر؟ فیقول: لتکون حیاتی منعمة و أعیش مکرما و مرفّها.

و أخيرا نوجّه إليه هذا السؤال .. لم تريد الحياة المنعمة؟

و هنا نراه يجيب بلحن آخر فيقول: حسن ۱۳۲] لتكون حياتى منعمة و أعيش مكرما و مرفّها على: أى إنّه يكرّر جواب السؤال السابق! و هذا دليل على أنّ ذاك هو الجواب النهائى، و كما يصطلح عليه بأنّه «غاية الغايات» لعمله، و ليس وراءه جواب آخر! و إنّه هو الهدف النهائى .. كلّ هذا هو فى المسائل الماديّة و هكذا الحال فى الحياة المعنوية، فحين يسأل علام مجىء الأنبياء و نزول الكتب من السماء، و لم هذه التكاليف الشرعية و المناهج التربوية؟

فنجيب: للتكامل الإنسانى و القرب من اللّه!.

و إذا سألوا: ما المراد من التكامل الإنسانى و القرب من اللّه؟ نقول: هو القرب من اللّه، أىّ أنّ هذا هو الهدف النهائى، و بتعبير آخر أنّنا نريد كلّ شىء للتكامل و القرب من اللّه .. و أمّا القرب من اللّه فلنفسه (أى للقرب من اللّه).

۴- و ينقدح مرّة اخرى هذا السؤال أنّه

ورد فى حديث قدسى قوله تعالى:

«كنت كنزا مخفيا فأحببت أن اعرف و خلقت الخلق لكى اعرف».

فما علاقة هذا الحديث بما ذكرتم آنفا؟! فنجيب على ذلك: .. إنّه بغض النظر عن أنّ هذا الحديث من باب خبر الواحد، و لا يعتد بخبر الواحد فى المسائل الاعتقادية، فإنّ مفهوم هذا الحديث أنّ معرفة اللّه هى الوسيلة لتكامل الخلق أى أنّ اللّه أحبّ أن يستوعب فيض رحمته كلّ مكان، فلذلك خلق الخلق و علّمهم طريقه و سبيل معرفته ليسيروا نحو التكامل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۱

و الكمال! لأنّ معرفة اللّه رمز تكاملهم.

أجل، إنّ على العباد أن يعرفوا أنّ ذات اللّه هى منبع جميع الكمالات، و يسترفدوا لأنفسهم من كمالاته و يستلهموا منه فى وجودهم ليشرق فى وجودهم و مض من صفات كماله و جلاله، فالتكامل و القرب من اللّه لا ـ يتحقّقان إلّا عن طريق التخلّق بأخلاقه، و هذا التخلّق فرع معرفته «فلاحظوا بدقّة».

۵- و بملاحظة ما ذكرناه آنفا فإنّنا نقترب من النتائج فنقول: إنّ عبادة اللّه و العبودية له يعينان السير فى ما يرتضيه و أن نستودعه أرواحنا و نعشقه بقلوبنا و أن نتخلّق بأخلاقه! و إذا كانت الآيات المتقدّمة قد ذكرت «العبادة» على أنّها الهدف النهائى فمفهومها هو هذا، أى أنّه بتعبير آخر هو «التكامل الإنسانى»! أجل إنّ «الإنسان الكامل» هو العبد المخلص للّه.

۵- الرّوايات الإسلامية و فلسفة خلق الإنسان

ذكرنا آنفا مسألة الهدف من خلق الإنسان، و عالجنا هذه المسألة عن طريقين: أحدهما عن طريق تفسير آيات القرآن، و الآخر عن طريق الفلسفة، و قد أوصلنا كلّ منهما إلى نقطة واحدة.

و الآن علينا أن نتابع هذه المسألة فى المسير الثالث، أى عن طريق الرّوايات الإسلامية لنعرف نتيجتها من هذه الرّوايات.

و التدقيق أو التأمّل فى الرّوايات التالية التى هى بعض ما ورد فى هذا الباب يمنحنا العمق فى النظر!

ففى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام أنّه لمّا سئل ما معنى قول النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له. قال عليه السّلام: إنّ اللّه عزّ و جلّ خلق الجنّ و الإنس ليعبدوه و لم يخلقهم ليعصوه و ذلك قوله عزّ و جلّ: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۲

لِيَعْبُدُونِ فيسّر كلا لما خلق له، فويل لمن استحبّ العمى على الهدى»[۱۳۳].

و هـذا الحـديث إشـارة ذات معنى غزير إلى هـذه الحقيقـة، و هى أنّ اللّه لمّـا خلق النـاس لهـدف تكـاملى هيّـأ له و سائله التكوينيـة و التشريعية و جعلها فى إختياره.

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام أنّ الإمام الحسين خطب أصحابه فقال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ ما خلق العباد إلّا ليعرفوه فإذا عرفوه عبدوه فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه»[۱۳۴].

۶- الإجابة على سؤال

و يرد هنا سؤال آخر، و هو إذا كان اللّه قـد خلق العباد ليعبدوه، فعلام يختار قسم منهم طريق الكفر؟ و هل يمكن أن تتخلّف إرادة اللّه عن هـدفه؟! و فى الحقيقـة إنّ الذين يوردون هذا الإشـكال خلطوا بين الإرادة التكوينية و الإرادة التشـريعيّة. لأنّ الهدف من العبادة لم يكن إجباريا، بل العبادة توأم الإرادة و الإختيار. و بهـذا يتجلّى الهـدف بصورة تهيأة الأرضـية أو المجال .. فمثلا لو قلت إنّى بنيت هذا المسـجد ليصـلّى النـاس فيه، فمفهومه أنّنى هيّـأته لهـذا العمل! لا أنّنى أجبر الناس على الصـلاة فيه! و كـذلك فى الموارد الاخر كبناء المدرسـة للـدرس، و المستشـفى للتـداوى، و المكتبـة للمطالعة! و هكذا فإنّ اللّه هيّأ هذا الإنسان للطاعة و العبادة، و وفّر له كلّ وسائل المساعـدة من قبيـل و العقـل و العواطف و القوى المختلفـة فى الـداخل، و إرسال الأنبياء و الكتب السـماوية و المناهـج التشـريعية فى الخارج إلخ.

و من المسلّم به أنّ هذا المعنى فى المؤمن و الكافر واحد، إلّا أنّ المؤمن أفاد من هذه الإمكانات، و الكافر لم يفد!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۳

لذلك

فقـد ورد عن الإمـام الصـادق عليه السّـلام أنّه حين سـئل عن الآيـة وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ .. قال عليه السّـلام: «خلقهم للعبادة».

قال الراوى: فسألته: خاصّة أم عامّة؟! فقال عليه السّلام: «عامّة»[۱۳۵].

و

فى حديث آخر عن الإمام نفسه عليه السّلام أنّه لمّا سئل عن تفسير هذه الآية قال:

«خلقهم ليأمرهم بالعبادة»[۱۳۶].

و هى إشارة إلى أنّ الهدف لم يكن الإجبار على العبادة بل الإعداد و التهيأة له، و هذا المعنى يصدق فى حقّ عموم الناس ۱۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۴

الآيتان [سورة الذاريات (۵۱): الآيات ۵۹ الى ۶۰]

اشارة

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (۵۹) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ (۶۰)

التّفسير

هؤلاء يشاركون أصحابهم فى عذاب اللّه:

الآيتان آنفتا الـذكر اللتان هما آخر سورة الذاريات، و هما فى الحقيقة نوع من الاسـتنتاج للآيات المختلفة الواردة فى السورة ذاتها و لا سيّما الآيات التى تتحـدّث عن الأمم السالفـة كقوم فرعون و قوم لوط و ثمود و عاد، و كـذلك الآيات السابقة التى كانت تتحدّث عن الهدف من الخلق و الإيجاد.

فالآيـة الاولى تقول أنّه بعد أن أصـبح معلوما أنّ هؤلاء المشـركين قد انحرفوا عن الهدف الحقيقى للخلقة، فليعلموا أنّ لهم قسـطا وافرا من العذاب الإلهى كما كان للأقوام السالفة: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ ۱۳۸] ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۵

و يقولوا إن كان عـذاب اللّه حقّا فلم لا يصـيبنا؟! و التعبير ب «الظلم» فى شأن هذه الجماعة هو لأنّ الشـرك و الكفر من أكبر الظلم، و لأنّ حقيقة الظلم هى وضع الشىء فى غير موضعه المناسب، و من المعلوم أنّ عبادة الأصنام مكان عبادة اللّه تعدّ أهمّ مصداق للظلم، و لذلك فهم يستحقّون العاقبة التى نالها الأقدمون من المشركين.

«الذنوب»:- على وزن قبول- فى الأصل معناه «الفرس التى لها ذنب طويل»، كما تطلق الكلمة ذاتها على الدلو الكبير التى لها ذنب.

و كـان العرب فى السـابق ينزحون ماء البئر بواسـطة الحيوانات بأن يهيّئوا دلاء عظيمـة متّصـلة بحبال تعين على سـحب الـدلاء المملوءة بالماء.

و حيث كانت هـذه الـدلاء تقسّم أحيانا على الجماعات حول البئر، فتنال كلّ مجموعـة دلوا أو أكثر، فقد اسـتعملت هذه الكلمة بمعنى النصيب و السهم أيضا، و هى فى الآية محل البحث بهذا المعنى أيضا، غاية ما فى الأمر أنّها هنا تشير إلى السهم الكبير[۱۳۹].

و هل المراد من هـذه الكلمـة فى هـذه الآيـة التهديـد بعـذاب الدنيا أو عذاب الآخرة؟ قال جماعة من المفسّـرين بالمعنى الأوّل، و قال آخرون بالمعنى الثانى.

و نرى أنّ القرائن تـدلّ على أنّ هـذا العذاب هو العذاب الدنيوى، لأن العجلة لدى بعض الكفّار هى أنّهم كانوا يقولون للنبى: متى هذا الوعد .. و أين عذاب اللّه ..

و لم لا يأتينا .. إلخ. فمن الواضح أنّه إشارة إلى عذاب الدنيا[۱۴۰] هذا أوّلا.

و ثانيا إنّ التعبير ب مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ الظاهر أنّه إشارة إلى عاقبة الأمم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۶

المتقدّم ذكرها فى هذه السورة كقوم لوط و قوم فرعون و عاد و ثمود الذين نال كلّا منهم نوع من العذاب فى الدنيا و هلكوا به جميعا.

و هنا ينقدح هذا السؤال، و هو إذا كانت الآية تشير إلى عذاب الدنيا فلم لا يتحقّق الوعد الإلهى فى شأنهم؟! و هذا السؤال له جوابان:

۱- إنّ هذا الوعد تحقّق فى شأن كثير منهم كأبى جهل و جماعة آخرين فى غزوة بدر و غيرها.

۲- نزول العـذاب على جميعهم مشـروط بعـدم الرجوع نحو اللّه و عدم التوبة من الشـرك، و لمّا آمن معظمهم فى فتح مكّة .. فإنّ هذا الشرط أصبح منتفيا فلم ينزل عذاب اللّه.

و فى الآية الأخيرة استكمال لعذاب الدنيا بعذاب الآخرة إذ تقول: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِى يُوعَدُونَ

و كما أنّ هذه السورة بدئت بمسألة المعاد و القيامة، فإنّها انتهت بالتأكيد عليها كذلك ۱۴۱]!.

كلمة «الويل» تستعمل فى لغة العرب عند ما يقع فرد ما أو أفراد فى الهلاك ..

كما تعنى العذاب و الشقاء، و قال بعضهم فى الويل معنى أشدّ من العذاب.

و کلمات الویل و الویس، و الویح تستعمل فی لغة العرب لإظهار التأسّف و التأثّر، غایة ما فی الأمر .. تستعمل کلمة «ویل» لمن یعمل أعمالا قبیحة، أمّا «ویس» فتستعمل فی مقام التحقیر، و کلمة «ویح» تستعمل فی موضع الترحّم.

قال بعضهم أنّ «ویلا» بئر من آبار جهنّم أو باب من أبوابها، غیر أنّ مراد القائلین لا یعنی بأنّ هذه الکلمة جاءت فی اللغة بهذا المعنی فحسب، بل هی فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۷

الحقیقة بیان لمصداق من المصادیق.

و قد استعملت هذه الکلمة فی القرآن بکثرة، منها فی شأن الکفّار و المشرکین و الکاذبین و المکذّبین و المجرمین، و المطفّفین و المصلّین الذین هم عن صلاتهم ساهون، إلّا أنّ أکثر استعمالها فی القرآن فی شأن المکذّبین، و قد تکرّرت الآیة وَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ فی سورة المرسلات وحدها عشر مرّات!.

ربّنا، نجّنا من عذاب ذلک الیوم العظیم و من خزیه.

اللهمّ ارزقنا قبول الطاعة و التوفیق للعبودیة و الفخر بأن نکون عبیدک! اللهمّ لا تبتلنا بعاقبة المکذّبین المؤلمة الذین کذّبوا رسلک و آیاتک و أیقظنا من نومة الغافلین برحمتک یا أرحم الراحمین.

آمین ربّ العالمین انتهاء سورة الذّاریات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۴۹

سورة الطّور

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها تسع و أربعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۱

«سورة الطور»

محتوی السورة:

تترکز بحوث هذه السورة- أیضا- علی مسألة المعاد و عاقبة الصالحین و المتّقین من جهة، و المجرمین و المفسدین فی ذلک الیوم العظیم من جهة اخری رغم أنّ فیها مواضیع أخر فی مجالات مختلفة من الأمور العقائدیة أیضا-.

و یمکن علی الإجمال- أن یقسّم محتوی هذه السورة إلی ستّة أقسام.

۱- الآیات الاولی من السورة التی تبدأ بالقسم تلو القسم، و هی تبحث فی عذاب اللّه. و دلائل القیامة و علاماتها- و عن النار و عقاب الکافرین [من الآیة ۱ إلی ۱۶].

۲- القسم الآخر من هذه السورة یذکر بتفصیل نعم الجنّة و مواهب اللّه فی القیامة و ما اعدّ للمتّقین، و یتبّه علی ذلک علی نحو متتابع! .. و فی الحقیقة أنّ فی هذه السورة إشارة إلی أغلب نعم الجنّة من الآیة ۱۷- ۲۸.

۳- و فی القسم الثّالث من هذه السورة یقع الکلام عن نبوّة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و ما وجّه إلیه الأعداء من التّهم، و یردّ علیها بنحو موجز من الآیة ۲۹ إلی ۳۴.

۴- و فی القسم الرّابع بحث عن التوحید باستدلالات واضحة من الآیة ۳۵- ۴۳.

۵- و فى القسم الخامس من هذه السورة عود على مسألة المعاد و بعض أوصاف يوم القيامة من الآية ۴۴- ۴۷.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۲

۶- و أخيرا فإنّ القسم الأخير من هذه السورة الذى لا يتجاوز الآيتين يختتم الأمور المذكورة آنفا بأمر نبى الإسلام بالصبر و الاستقامة و التسبيح و الحمد للّه ..

و وعده بأنّ اللّه حاميه و ناصره.

و هكذا تتشكّل السورة من مجموعة منسجمة منطقية و عاطفية تنشدّ إليها قلوب السامعين.

و تسمية هذه السورة ب «الطور» تناسبا لما ورد فى الآية الاولى من ذكر كلمة الطور فيها.

فضيلة تلاوة هذه السورة:

ورد عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الطور كان حقّا على اللّه أن يؤمنه من عذابه و أن ينعّمه فى جنّته»[۱۴۲].

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الطور جمع اللّه له خير الدنيا و الآخرة»[۱۴۳]!

و واضح أنّ كلّ هذا الأجر و الثواب العظيم فى الدنيا و الآخرة هو لأولئك الذين يجعلون هذه التلاوة وسيلة للتفكّر و التفكّر بدوره وسيلة للعمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۳

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الطُّورِ (۱) وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ (۲) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (۳) وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (۴)

وَ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (۵) وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (۶) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (۷) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (۸)

التّفسير

هذه السورة- هى الاخرى- من السور التى تبدأ بالقسم .. القسم الذى يهدف لبيان حقيقة مهمّة، و هى مسألة القيامة و المعاد و محاسبة أعمال الناس.

و أهميّة هذه المسألة إلى درجة بحيث إنّ اللّه أقسم فى آيات مختلفة من القرآن بأنواع كثيرة من المقدّسات لتتجلّى عظمة ذلك اليوم و وقوعه حتما.

و تلوح فى بداية السورة خمسة آيات تبدأ بالقسم، و فيها معانى مغلقة تدعو إلى التفكير ممّا جعلت المفسّرين يبحثون فيها من جميع الوجوه.

يقول سبحانه و تعالى:

وَ الطُّورِ.

«الطور»- فى اللغة معناه الجبل- و لكن مع ملاحظة أنّ هذه الكلمة تكرّرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۴

فى عشر آيات من القرآن الكريم، تسع منها كانت فى الكلام على «طور سيناء» و هو الطور أو الجبل الذى نزل الوحى عنده على موسى، فيعلم أنّ المراد منه هنا فى الآية محلّ البحث (الطور ذاته) خاصّة لو أنّنا لا حظنا أنّ الألف و اللام فى هذه الكلمة هى للعهد.

فبناء على ذلك، فإنّ اللّه يقسم فى أوّل مرحلة بواحد من الأمكنة المقدّسة فى الأرض حيث نزل عليها الوحى.

و فى تفسير قوله تعالى: وَ كِتابٍ مَسْطُورٍ احتمالات متعدّدة أيضا، إذ قال بعضهم: المراد به اللوح المحفوظ. و قال آخرون: بل هو القرآن الكريم، و مضى بعض إلى أنّه «صحيفة الأعمال»، و ذهب آخر إلى أنّه «كتاب التوراة» النازل على موسى عليه السّلام.

و لكن بتناسب القسم المذكور آنفا فإنّ الآية تشير هنا إلى «كتاب موسى» أو كلّ كتاب سماوى.

فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ.

كلمة «الرقّ» مشتقّة من الرقّة، و هى فى الأصل الدقّة و اللطافة، كما تطلق هذه الكلمة على الورق أو الجلد الخفيف الذى يكتب عليه و «المنشور»: معناه الواسع، و يعتقد بعضهم أنّ هذه الكلمة تحمل فى مفهومها معنى اللمعان أيضا.

فبناء على ذلك .. وقع القسم على كتاب نشر على صفحاته أحسن ما يكتب و هو فى الوقت ذاته مفتوح و واسع غير ملتو.

وَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ.

هناك تفاسير مختلفة فى «البيت المعمور» كذلك ... إذ قال بعضهم المراد منه البيت الذى فى السماء محاذيا للكعبة، و هو معمور بطواف الملائكة و زيارتهم إيّاه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۵

و يلاحظ هذا المعنى فى روايات إسلامية مختلفة وردت فى مصادر متعدّدة[۱۴۴].

و طبقا لبعض الرّوايات فإنّ سبعين ألف ملك يزورون ذلك البيت كلّ يوم و لا يعودون إليه أبدا.

و ذهب البعض أنّ المراد منه «الكعبة» و هى بيت اللّه فى الأرض المعمور بالحجّاج و الزوّار، و هو أوّل بيت وضع للعبادة على الأرض.

و قال بعضهم المراد من البيت المعمور هو «قلب المؤمن» الذى يعمره الإيمان و ذكر اللّه.

إلّا أنّ ظاهر الآية هو واحد من المعنيين الأوّلين المذكورين آنفا، و بملاحظة التعابير المختلفة فى القرآن عن الكعبة بالبيت يكون المعنى الثانى أكثر انسجاما.

أمّا المقصود ب السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ فهو «السماء» لأنّنا نقرأ فى الآية (۳۲) من سورة الأنبياء: وَ جَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً.

كما نقرأ فى الآيتين (۲۷) و ۲۸) من سورة النازعات أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها فاللّه هو الذى أعلى سقفها و جعلها متّسقة و منتظمة.

و لعلّ الوجه- فى التعبير- بالسقف هو أنّ النجوم و الكرات السماوية إلى درجة من الكثرة بحيث غطّت السماء فصارت كأنّها السقف، و يمكن أن يكون إشارة إلى الجوّ الذى يحيط بالأرض أو ما يسمّى بالغلاف الجوّى، و هو بمثابة السقف الذى يمنع النيازك و الشهب أن تهوى إلى الأرض و تصدّ الأشعّة الضارّة من الوصول إلى الأرض.

وَ الْبَحْرِ الْمَسْجُورِ.

«للمسجور»: فى اللغة معنيان: الأوّل الملتهب، و الثّانى المملوء. و يقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۶

الراغب فى مفرداته: سجر على وزن فجر معناه إشعال النار، و يعتقد أنّ الآية تعطى هذا المعنى .. و لم يتحدّث عن المعنى الثانى، إلّا أنّ العلّامة الطبرسى يذكر أنّ المعنى الأوّل هو ما تقدّم، و كذلك تشير بعض كتب اللغة إلى ذلك.

و الآيات الاخر فى القرآن تؤيّد المعنى الأوّل أيضا كما هى الحال فى الآيتين (۷۱) و ۷۲) إذ قال سبحانه: يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ، ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ

و نقرأ

فى نهج البلاغة عن «أمير المؤمنين» فى شأن «الحديدة المحماة» إذ يقول لأخيه «عقيل»: «أ تئنّ من حديدة أحماها إنسانها للعبه و تجرّنى إلى نار سجّرها جبّارها لغضبه ...»[۱۴۵].

و لكن أين هو هذا «البحر المسجور»؟ قال بعضهم هو البحر المحيط بالأرض «أو البحار المحيطة بها» و سيلتهب قبل يوم القيامة، ثمّ ينفجر كما نقرأ ذلك فى الآية (۶) من سورة التكوير وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ و نقرأ فى الآية (۳) من سورة الإنفطار وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ إلّا أنّ بعضهم فسّر ذلك بالبحر الذى فى باطن الأرض و هو مؤلّف من مواد منصهرة مذابة، و ما ورد فى حديث عن الإمام الباقر الذى نقله «العياشى» شاهد على هذا المعنى، و قد ورد فى هذا الحديث أنّ قارون يعذّب فى البحر المسجور[۱۴۶] مع أنّ القرآن يقول فى شأنه: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ ۱۴۷].

و هذان التّفسيران لا يتنافيان، و يمكن أن تكون الآية قسما بهما معا، إذ كلاهما من آيات اللّه و من عجائب هذا العالم الكبرى.

و ممّا يلفت النظر أنّ المفسّرين لم يتناولوا بالبحث علاقة هذه الأقسام الخمسة فيما بينها، إلّا أنّ الظاهر أنّ الأقسام الثلاثة الاوّل بينها ارتباط و علاقة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۷

لأنّها جميعا تتحدّث عن الوحى و خصوصياته، فالطور محلّ نزول الوحى، و الكتاب المسطور إشارة إلى الكتاب السماوى أيضا، سواء كان التوراة أو القرآن، و البيت المعمور هو محلّ ذهاب و إيّاب الملائكة و رسل وحى اللّه.

أمّا القسمان الآخران فيتحدّثان عن الآيات التكوينية «فى مقابل الأقسام الثلاثة التى كانت تتحدّث عن الآيات التشريعيّة».

و هذان القسمان واحد منهما يشير إلى أهمّ دلائل التوحيد و علائمه و هو «السماء» بعظمتها، و الآخر يشير واحد من علائم المعاد المهمّة و دلائله، و هو الواقع بين يدى القيامة!.

فبناء على هذا فإنّ التوحيد و النبوّة و المعاد جمعت فى هذه الأقسام [أو الأيمان الخمسة.

و بعض المفسّرين يرون أنّ هذه الآيات جميعها تشير إلى موسى و سيرة تأريخه و حياته، و ذكروا ارتباط الآيات على النحو التالى:

الطور .. هو الجبل الذى نزل الوحى على موسى عنده.

و الكتاب المسطور: هو التوراة.

و البيت المعمور: مركز مجىء و إيّاب الملائكة و يحتمل أن يكون بيت المقدس.

و السقف المرفوع هو ما ذكر فى قصّة بنى إسرائيل وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ.[۱۴۸] و البحر المسجور هو البحر الملتهب الذى عوقب قارون به لأنّه خالف موسى فهوى فيه.

إلّا أنّ هذا التّفسير يبدو بعيدا، و لا ينسجم مع الرّوايات المنقولة فى المصادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۸

الإسلامية، و كما قلنا فإنّ السقف المرفوع بشهادة آيات القرآن الاخر و الرّوايات المذكورة فيه هو السماء.

تبقى لطيفة دقيقة هنا و هى ما العلاقة بين هذه الأقسام و المقسم به.

و يتّضح الجواب على هذا السؤال- مع ملاحظة ما بيّناه آنفا- و هو أنّ هذه الأقسام و التى تدور حول محور قدرة اللّه فى عالم التكوين و التشريع تدلّ على أنّ اللّه قادر على إعادة الحياة و بعث الموتى من قبورهم مرّة اخرى. و هذا هو غاية الأقسام المذكورة كما قرأنا فى الآيات الأخيرة من- الآيات محلّ البحث- إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۵۹

الآیات [سورة الطور (۵۲): الآیات ۹ الی ۱۶]

اشارة

یَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (۹) وَ تَسِیرُ الْجِبالُ سَیْراً (۱۰) فَوَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ (۱۱) الَّذِینَ هُمْ فِی خَوْضٍ یَلْعَبُونَ (۱۲) یَوْمَ یُدَعُّونَ إِلی نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (۱۳)

هـذِهِ النَّارُ الَّتِی کُنْتُمْ بِها تُکَذِّبُونَ (۱۴) أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (۱۵) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَیْکُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۶)

التّفسیر

کانت فی الآیات السابقة إشارة و تلمیح عن عذاب اللّه فی یوم القیامة- بصورة مغلقة- أمّا الآیات- محلّ البحث- ففیها توضیح و تفسیر لما مرّ، فتتحدّث أوّلا- عن بعض حالات یوم القیامة و خصائصه، ثمّ عن کیفیة تعذیب المکذّبین فتقول: یَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً[۱۴۹].

«المور»: علی وزن قول- له معان عدیدة فی اللغة. یقول الراغب فی مفرداته:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۰

المور معناه الجریان السریع. کما قال إنّ المور یطلق علی الغبار الذی تجری به الریح لکلّ جهة أیضا.

و قد ورد فی «لسان العرب» أنّ «المور» معناه الحرکة و الذهاب و الإیّاب، کما یطلق علی «الموج» و منهم من قال: المور هو الحرکة الدائرة. و من مجموع هذه التفاسیر یستفاد أنّ «المور» هو الحرکة السریعة و الدوران المقترن بالذهاب و الإیّاب و الاضطراب و التموّج، و علی هذا فإنّ النظام الحاکم علی الکرات یضطرب بین یدی یوم القیامة و تنحرف عن مداراتها و تتّجه إلی کلّ جهة ذهابا و إیّابا، ثمّ تتبدّل و تولّد سماء جدیدة بأمر اللّه کما تقول الآیة (۱۰۴) من سورة الأنبیاء: یَوْمَ نَطْوِی السَّماءَ کَطَیِّ السِّجِلِّ لِلْکُتُبِ

و نقرأ فی الآیة (۴۸) من سورة إبراهیم: یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ

ثمّ یضیف القرآن فی آیة اخری: وَ تَسِیرُ الْجِبالُ سَیْراً.

أجل، الجبال تنقلع من أمکنتها و تتحرّک و تسیر ثمّ تندکّ و تتلاشی کما تشهد بذلک آیات القرآن الاخر فتغدو کَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [۱۵۰] ثمّ تکون قاعا خالیة من کلّ شیء کما یقول القرآن: فَیَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۱۵۱].

کلّ ذلک هو إشارة إلی أنّ هذه الدنیا و ما فیها و ما علیها تندکّ و یحدث مکانها عالم جدید بأنظمة جدیدة و یکون الإنسان أمام نتائج أعماله وجها لوجه.

لذا فإنّ القرآن یضیف فی الآیة التالیة قائلا: فَوَیْلٌ یَوْمَئِذٍ لِلْمُکَذِّبِینَ ۱۵۲].

أجل، حین تعمّ الوحشة و الاضطراب جمیع الخلق لتغیّر العالم، تهیمن علی المکذّبین وحشة عظیمة و هی العذاب الإلهی .. لأنّ «الویل»: إظهار التأسّف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۱

و الحزن لوقوع حادثة غیر مطلوبة!.

ثمّ تبیّن الآیات من هم «المکذّبون» فتقول: الَّذِینَ هُمْ فِی خَوْضٍ یَلْعَبُونَ

فيزعمون أنّ آيات القرآن ضرب من الكذب و الافتراء و أنّ معجزات النّبى سحر و أنّه مجنون، و يتلقّون جميع الحقائق باللعب و يسخرون منها و يستهزئون بها و يحاربون الحقّ بالكلام الباطل غير المنطقى، و لا يأبون من أيّة تهمة أو كذب فى سبيل الوصول إلى مآربهم.

«خوض» على وزن حوض- معناه الدخول فى الكلام الباطل، و هو فى الأصل ورود الماء و العبور منه.

ثمّ تبيّن الآيات ذلك اليوم و عاقبة هؤلاء المكذّبين فى توضيح آخر: فتقول:

يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا[۱۵۳] أى يساقون نحو جهنّم بعنف و شدّة.

و يقال لهم حينئذ: هذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ

كما يقال لهم أيضا: أَ فَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ ! لقد كنتم تزعمون فى الدنيا إنّ ما جاء به محمّد سحر، و قد أخذ السحر عن ساحر آخر، فغطّى على أعيننا ليصرفها عن الحقائق و ليختطف عقولنا! و يرينا أمورا على أنّها معاجز، و يذكر لنا كلاما على أنّه وحى منزل من اللّه، إلّا أنّ جميع ذلك لا أساس له و ما هو إلّا السحر!! لذلك فحين يردون نار جهنّم يقال لهم بنحو التوبيخ و الملامة و الاحتقار و هم يلمسون حرارة النار: أ فسحر هذا أم أنتم لا تبصرون؟! كما يقال لهم هناك أيضا: اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

أجل هذه هى أعمالكم و قد عادت إليكم، فلا ينفع الجزع و الفزع و الآه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۲

و الصراخ و لا أثر لكلّ ذلك أبدا.

و هذه الآية تأكيد على «تجسّم الأعمال» و عودتها نحو الإنسان، و هى تأكيد جديد أيضا على عدالة اللّه .. لأنّ نار جهنّم مهما كانت شديدة و محرقة فهى ليست سوى نتيجة أعمال الناس أنفسهم، و أشكالها المتبدّلة هناك!.

تعقيب

۱- كيف يساق المجرمون إلى جهنّم؟

لا شكّ أنّ المجرمين يساقون و يدعّون إلى جهنّم بالتحقير و المهانة و الزجر و العذاب، إلّا أنّه تشاهد آيات متعدّدة فى هذا الصدد ذات تعابير مختلفة.

إذ نقرأ فى الآيتين (۳۰) و ۳۱) من سورة الحاقة مثلا خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ

و نقرأ فى الآية (۴۷) من سورة الدخان خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ

كما جاء التعبير بالسوق فى بعض الآيات كالآية (۸۶) من سورة مريم وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً.

و على العكس منهم المتّقون و الصالحون إذ يتلقّون بكلّ إكرام و احترام عند باب الجنّة: حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خالِدِينَ ۱۵۴].

و على هذا فليست الجنّة و النار- كلّ منهما- مركزا لرحمة اللّه أو عذابه فحسب، بل تشريفات الورود لكلّ منهما كاشفة عن هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۳

۲- الخائضون فى الأباطيل!.

بالرغم من أنّ كلام القرآن فى الآيات الآنفة كان يدور حول المشركين فى عصر النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ هذه الآيات دون شكّ عامّة، فهى تشمل جميع المكذّبين حتّى الفلاسفة الماديين الخائضين فى حفنة من الخيالات و الأفكار الناقصة، و يتّخذون حقائق عالم الوجود لعبا و هزوا، و لا يعتدون إلّا بما يقرّ به عقلهم القاصر، فهم ينتظرون أن يروا كلّ شىء فى مختبراتهم و تحت المجهر حتّى ذات اللّه المقدّسة- تعالى عن ذلك علوّا كبيرا- و إلّا فلا يؤمنون بوجوده أبدا.

هؤلاء أيضا مصداق للذين هم فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ و هم غارقون فى أمواج من الخيالات و التصوّرات الباطلة.

إنّ عقل الإنسان مهما بلغ فهو قبال نور الوحى كالشمعة أمام نور الشمس المضيئة فى العالم، فهذه الشمعة تساعد الإنسان أن يخرج من محيط المادّة المظلم و أن يفتح الأبواب نحو ما وراء الطبيعة، و أن يحلق فى كلّ جهة بنور الوحى ليرى العالم الواسع و يتعرّف على مجهولاته و خفاياه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۴

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۱۷ الى ۲۱]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ (۱۷) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (۱۸) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۹) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (۲۰) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (۲۱)

التّفسير

مواهب اللّه للمتّقين:

تعقيبا على المباحث الواردة فى الآيات المتقدّمة حول عقاب المجرمين و عذابهم الأليم تذكر الآيات محلّ البحث ما يقابل ذلك من المواهب الكثيرة و الثواب العظيم للمؤمنين و المتّقين لتتجلّى بمقايسة واضحة مكانة كلّ من الفريقين.

تقول الآية الاولى من الآيات محلّ البحث: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۵

و التعبير ب «المتّقين» بدلا من المؤمنين، لأنّ هذا العنوان يحمل مفهوم الإيمان، كما يحمل مفهوم العمل الصالح أيضا، خاصّة أنّ «التقوى» تقع مقدّمة و أساسا للإيمان فى بعض المراحل، كما تقول الآية ۲ من سورة البقرة ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ لأنّ الإنسان إذا لم يكن ذا تعهّد و إحساس بالمسؤولية و روح تطلب الحقّ و تبحث عنه- و كلّ ذلك مرحلة من مراحل التقوى- فإنّه لا يمضى فى التحقيق عن دينه و عقيدته و لا يقبل هداية القرآن أبدا.

و التعبير ب فِي جَنَّاتٍ وَ نَعِيمٍ بصيغة الجمع و التنكير لكلّ منهما، إشارة إلى تنوّع الجنّات و النعيم و عظمتهما.

ثمّ يتحدّث القرآن عن تأثير هذه النعم الكبرى على روحية أهل الجنّة فيقول فى الآية التالية: فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ ۱۵۵].

خاصّة أنّ اللّه قد طمأنهم و آمنهم من العقاب وَ وَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ

و هذه الجملة قد تكون ذات معنين .. الأوّل بيان النعمة المستقلّة قبال نعم اللّه الاخر .. و الثانى أن يكون تعقيبا على الكلام السابق، أى أنّ أهل الجنّة مسرورون من شيئين «بما آتاهم اللّه من النعم فى الجنّة»، و «بما وقاهم من عذاب الجحيم».

و التعبير ب «ربّهم» فى الجملتين يشير ضمنا إلى نهاية لطف اللّه و دوام ربوبيته عليهم فى تلك الدار.

ثمّ تشير الآية الاخرى إشارة إجمالية إلى نعم المتّقين فى الجنّة فتقول: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

و التعبير ب «هنيئا» هو إشارة إلى أنّ أطعمة الجنّة و شرابها السائغة غير المنغّصة، فهى ليست كأطعمة الدنيا و شرابها التى تجرّ الإنسان إلى الوبال عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۶

الإفراط أو التفريط بها .. إضافة إلى كلّ ذلك لا يحصل عليها بمشقّة، و لا يخاف من انتهائها، و لذلك فهى هنيئة![۱۵۶].

و من المعلوم أنّ أطعمة الجنّة هنيئة بذاتها، و لكنّ قول الملائكة لأهل الجنّة «هنيئا» هذا القول له لطفه و عذوبته الخاصّة.

و النعمة الاخرى التى يتمتّع بها أهل الجنّة هى كونهم: مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ.

فهم يلتذّون بالاستئناس إلى أصحابهم و المؤمنين الآخرين، و هذه لذّة معنوية فوق أيّة لذّة اخرى!.

و «سرر» جمع سرير، و أصل المادّة هو «السرور» و تطلق السرر على الكراسى المهيأة لمجالس السرور ليتّكأ عليها.

و «مصفوفة» من مادّة صف، و معناها أنّ هذه السرر مرتبة واحدا إلى جنب الآخر و يتشكّل منه مجلس عظيم للأنس.

و نقرأ فى آيات متعدّدة من القرآن أنّ أهل الجنّة يجلسون على سرر متقابلين. [الحجر الآية ۴۷ و الصافات الآية ۴۴].

و هذا التعبير لا ينافى ما ورد فى هذه الآية محلّ البحث، لأنّ مجالس الانس و السرور ترتّب الأسّرة فيها على شكل مستدير و مصفوفة جنبا إلى جنب، فجلّاسها على سرر مصفوفة متقابلون!.

و التعبير ب «متكئين» إشارة إلى منتهى الهدوء، لأنّ الإنسان عند الهدوء يتكئ عادة، و الذين هم فى قلق و حزن لا يرون كذلك!.

ثمّ يضيف القرآن بأنّا زوجناهم من نساء بيض جميلات ذوات أعين واسعة وَ زَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۱۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۷

هذه بعض من نعم أهل الجنّة المادية و المعنوية، إلّا أنّهم لا يكتفون بهذه النعم فحسب، و إنّما تضاف إليها نعم و مواهب معنوية و مادية أخر! وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ!.

و هذه نعمة بنفسها أيضا أن يرى الإنسان ذريّته فى الجنّة و يلتذّ برؤيتهم دون أن ينقص من عمله شىء أبدا.

و يفهم من تعبير الآية أنّ المراد من الذرية هم الأبناء البالغون الذين يسيرون فى خطّ الآباء المؤمنين و يتّبعون منهجهم.

فمثل هؤلاء الأبناء و هذه الذريّة إذا كان فى عملهم نقص و تقصير فإنّ اللّه سبحانه يتجاوز عنهم لأجل آبائهم الصالحين، و يرتفع مقامهم عندئذ فيبلغون درجة آبائهم، و هذه المثوبة موهبة للآباء و الأبناء[۱۵۸]!.

إلّا أنّ جماعة من المفسّرين يعتقدون أنّ «الذريّة» هنا تشمل الأبناء الكبار و الصغار جميعا .. غير أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأنّ الاتّباع بإيمان دليل على وصولهم مرحلة البلوغ أو مقاربتهم لها.

إلّا أن يقال أنّ الأطفال يصلون فى يوم القيامة مرحلة البلوغ و يمتحنون فمتى نجحوا فى الامتحان التحقوا بالآباء، كما جاء هذا المعنى فى الكافى إذ ورد فيه أنّه سئل الإمام عن أطفال المؤمنين فقال عليه السّلام: «إذا كان يوم القيامة جمعهم اللّه و يشعل نارا فيأمرهم أن يلقوا أنفسهم فى النار فمن ألقى نفسه سلم و كان سعيدا و جعل اللّه النار عليه بردا و سلاما و من امتنع حرم من لطف اللّه»[۱۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۸

إلّا أنّ، هذا الحديث إضافة إلى ضعف سنده يواجه إشكالات و مؤخذات فى المتن أيضا .. و ليس هنا مجال لبيانها و شرحها.

و بالطبع فإنّه لا مانع أن يلحق الأطفال بالآباء و يكونوا معهم فى الجنّة .. إلّا أنّ الكلام هو هل الآية الآنفة ناظرة إلى هذا المطلب أم لا؟

و قد قلنا إنّ التعبير ب اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ ظاهره أنّ المقصود هو الكبار.

و على كلّ حال- و حيث أنّ ارتقاء الأبناء إلى درجة الآباء يمكن أن يوجد هذا التوهّم أنّه ينقص من أعمال الآباء و يعطى للأبناء فإنّ الآية تعقّب بالقول: وَ ما أَلَتْناهُمْ ۱۶۰] مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ.

و

ينقل ابن عبّاس عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إذا دخل الرجل الجنّة سأل عن أبويه و زوجته و ولده فيقال له إنّهم لم يبلغوا درجتك و عملك. فيقول: ربّ قد عملت لى و لهم فيؤمر بالحاقهم به»[۱۶۱].

ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ القرآن يضيف فى نهاية الآية: كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ

فلا ينبغى التعجّب من عدم إنقاص أعمال المتّقين، لأنّ هذه الأعمال مع الإنسان حيثما كان، و إذا أراد اللّه أن يلحق أبناء المتّقين بهم تفضّلا منه و رحمة، فلا يعنى ذلك أنّه سينقص من ثواب أعمالهم أى شىء! و قال بعض المفسّرين: إنّ كلمة «رهين» هنا معناها مطلق، فكلّ إنسان مرهون بأعماله، سواء أ كانت صالحة أم طالحة، و لا ينقص من جزاء أعماله شىء.

و لكن مع ملاحظة أنّ هذا التعبير لا يتناسب و الأعمال الصالحة، فإنّ بعض المفسّرين قالوا: إنّ «كلّ امرئ» هنا إشارة إلى أصحاب الأعمال السيّئة! و إنّ كلّ إنسان مرهون بأعماله السيّئة فهو حبيسها و أسيرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۶۹

و يستدلّون أحيانا بالآيتين (۳۸) و ۳۹) من سورة المدثر .. كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ

غير أنّ هذا التّفسير مع الالتفات إلى سياق الآيات السابقة و اللاحقة- التى تتكلّم فى شأن المتّقين و ليس فيها كلام على المشركين و المجرمين- يبدو غير مناسب! و قبال هذين التّفسيرين الذين يبدو كلّ منهما غير مناسب- من بعض الوجوه- هناك تفسير ثالث ينسجم مع صدر الآية و الآيات السابقة و الآيات اللاحقة، و هو أنّ من معانى «الرهن» فى اللغة «الملازمة»، و إن كان معروفا أنّه الوثيقة فى مقابل الدين، إلّا أنّه يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ الرهن من معاينة الدوام و الملازمة[۱۶۲].

بل هناك من يصرّح بأنّ المعنى الأصلى للرهن هو الدوام و الثبوت، و يعدّ الرهن بمعنى الوثيقة من اصطلاحات الفقهاء، لذلك فإنّه حين يقال «نعمة راهنة» فمعناها أنّها ثابتة و مستقرّة[۱۶۳].

و يقول أمير المؤمنين فى شأن الأمم السالفة: «ها هم رهائن القبور و مضامين اللحود»[۱۶۴].

فيكون معنى كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أنّ أعمال كلّ إنسان ملازمة له و لا تنفصل عنه أبدا، سواء كانت صالحة أو طالحة، و لذلك فإنّ المتّقين فى الجنّة رهينو أعمالهم، و إذا كان أبناؤهم و ذريّاتهم معهم، فلا يعنى ذلك أنّ أعمالهم ينقص منها شىء أبدا.

و أمّا فى شأن الآية (۳۹) من سورة المدثر التى تستثنى أصحاب اليمين ممّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۰

سبق، فيمكن أن تكون إشارة إلى أنّهم مشمولون بألطاف لا حدّ لها حتّى كأنّ أعمالهم لا أثر لها بالقياس إلى ألطاف اللّه ۱۶۵] و على كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تؤكّد هذه الحقيقة و هى أنّ أعمال الإنسان لا تنفصل عنه أبدا، و هى معه فى جميع المراحل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۲ الى ۲۸]

اشارة

وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۲) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ (۲۳) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ (۲۴) وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (۲۵) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (۲۶)
فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ (۲۷) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (۲۸)

التّفسير

مواهب اخرى لأهل الجنّة:

أشارت الآيات المتقدّمة إلى تسعة أقسام من مواهب أهل الجنّة، و تشير الآيات محلّ البحث إلى خمسة أخر منها بحيث يستفاد من المجموع أنّ ما هو لازم للهدوء و الطمأنينة و الفرح و السرور و اللذّة مهيّأ لهم فى الجنّة! فتشير الآية الاولى من الآيات محلّ البحث إلى نوعين من طعام أهل الجنّة فتقول: وَ أَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَ لَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۲

«أمددناهم» مشتق من الإمداد و معناه العطاء و الزيادة و الإدامة .. أى أنّ طعام الجنّة و فواكهها لا ينقص منهما شىء بتناولهما، و هما ليسا كطعام الدنيا و فواكهها بحيث يتغيّران أو ينقصان.

و التعبير ب مِمَّا يَشْتَهُونَ يدلّ على أنّ أهل الجنّة أحرار تماما فى انتخاب الأطعمة و نوعها و كميّتها و كيفيتها، فمهما طلبوا فهو مهيئ لهم .. و بالطبع فإنّ طعام الجنّة غير منحصر بهذين النوعين اللحم و الفاكهة، إلّا أنّهما يمثّلان الطعام المهمّ، و تقديم الفاكهة على اللحم إشارة إلى أفضليّتها عليه.

ثمّ تشير الآية التالية إلى ما يشربه أهل الجنّة من شراب سائغ فتقول:

يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ حيث يناول أحدهم الآخر كؤوس الشراب الطاهر من الإثم و الإفساد، و يشربون شرابا سائغا عذبا لذيذا يهب النشاط خاليا من أى نوع من أنواع التخدير و فساد العقل! و لا يعقبه لغو و لا إثم، بل كلّه لذّة و انتباه و نشاط «جسمى و روحانى».

و كلمة «يتنازعون» من مادّة التنازع و معناه أخذ بعضهم من بعض، و قد يأتى للمخاصمة و التجاذب، لذلك قال بعض المفسّرين بأنّ أهل الجنّة يتجاذبون الشراب الطهور بعضهم من بعض على سبيل المزاح و السرور.

لكن كما يستفاد من كلمات أهل اللغة أنّ «التنازع» متى أطلق معه لفظ الكأس أو ما أشبه فمعناه أخذ الكأس من يد الآخر! و لا يعنى التخاصم أو التجاذب! و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة اللغوية و هى أنّ «الكأس» هى الإناء المملوء فإذا كان خاليا لا يطلق عليه كأس [۱۶۶].

و على كلّ حال، فحيث أنّ التعبير بالكأس يتداعى منه إلى الشراب المخدّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۳

فى الدنيا فإنّ الآية تضيف قائلة لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ و لا يصدر على أثرها عمل قبيح كما يعقب الشراب المخدّر! فشراب هذه الكأس طهور نقى يجعلهم أكثر طهارة و خلوصا.

أمّا النعمة الرابعة المذكورة لأهل الجنّة فوجود الخدم و الغلمان إذ تقول الآية:

وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ

و «اللؤلؤ المكنون» هو اللؤلؤ داخل صدفه، و هو فى هذه الحالة شفّاف و جميل إلى درجة لا توصف و إن كان خارج الصدف شفّافا و جميلا أيضا، غير أنّ الهواء الملوّث و الأيدى التى تتناوله كلّ ذلك يؤثّر فيه، فلا يبقى على حالته الاولى من الشفّافية! فالغلمان و

خدمة الجنّة هم إلى درجة من الصفاء حتّى كأنّهم اللؤلؤ المكنون كما يعبّر القرآن الكريم.

و بالرغم من أنّه لا حاجة فى الجنّة إلى الخدمة، و ما يطلبه الإنسان يجده أمامه، إلّا أنّ هذا بنفسه إكرام أو احترام آخر لأهل الجنّة! و قد ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين سئل عن أهل الجنّة فقيل له:

يا رسول اللّه إنّ الغلمان هم كاللؤلؤ المكنون فكيف حالة المؤمنين؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

و الذى نفسى بيده فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ۱۶۷].

و التعبير ب (لهم) يدلّ على أنّ كلّ مؤمن له خدمة خاصّون به، و حيث أنّ الجنّة ليست مكانا للهم و الحزن فإنّ الغلمان يلتذّون بخدمتهم المؤمنين!.

و آخر نعمة فى هذه السلسلة من النعم هى نعمة الطمأنينة و راحة البال من كلّ عذاب أو عقاب إذ تقول الآية التالية: وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۴

فمع أنّنا كنّا نعيش بين ظهرانى أهلنا و كان ينبغى أن نحسّ بالأمان و الطمأنينة، إلّا أنّنا كنّا مشفقين ... مشفقين أن تحدق بنا الحوادث المزعجة و المكدّرة لحياتنا و أن يصيبنا عذاب اللّه على حين غرّة فى أيّة لحظة.

مشفقين أن يسلك أبناؤنا طريق الضلال، فيتيهوا فى مفازة جرداء و يتحيّروا! مشفقين أن يفجؤنا أعداؤنا القساة و يضيّقوا علينا الميدان! و لكن اللّه منّ علينا برحمته الواسعة: فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ

أجل: منّ اللّه الرحيم علينا فنجّانا من سجن الدنيا و وحشتها، و أنعم علينا فى دار القرار و جنّات النعيم.

و حين يتذكّرون ماضيهم و جزئياته و يقيسونه بما هم عليه من حالة منعّمة! يعرفون قدر نعم اللّه و مواهبه الكبرى أكثر، و ستكون تلك النعم ألذّ و أدعى للقلب، لأنّ القيم تتجلّى أكثر فى القياس بين نعم الدنيا و نعم الآخرة.

و الكلام الذى ينقله القرآن على لسان أهل الجنّة هنا يشير إلى اعترافهم بهذه الحقيقة و هى أنّ كون اللّه برّا رحيما يعرفه أهل الجنّة فى ذلك الزمان أكثر من أى وقت مضى فيقولون: إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ

إلّا إنّنا نعرف هذه الصفات الآن بشكل واقعى أكثر ممّا كنّا نعرفها، إذ شملنا برحمته العظيمة قبال هذه الأعمال التى لا تعدّ شيئا و أحسن إلينا مع كلّ تلك الذنوب الكثيرة!.

أجل إنّ عرصة القيامة و نعم الجنّة مدعاة لتجلّى صفات اللّه و أسمائه، و المؤمنون يتعرّفون فى عرصة القيامة على حقيقة أسماء اللّه تعالى و صفاته أكثر من أى زمن آخر.

حتّى الجحيم أيضا تبيّن صفاته و حكمته و عدله و قدرته!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۵

ملاحظات

۱- كلمة «يتساءلون» مشتقّة من السؤال، و معناه الاستفهام، أى يسأل بعضهم بعضا، و هذا الفعل هنا يشير إلى أنّ أهل الجنّة يسأل بعضهم بعضا عن ماضيه، لأنّ تذكّر هذه المسائل و النجاة من تلك الآلام و الهموم و الوصول إلى مثل هذه المواهب كلّ ذلك بنفسه تلذّذ أيضا ... و هذا يشبه تماما «الإنسان» المسافر العائد من سفر محفوف بالمخاطر إلى محيط آمن. فهو يتحدّث مع من سافر معه عن ما كان فى سفره و يعرب عن سروره لسلامته.

۲- كلمة «مشفقين» مشتقّة من الإشفاق، و كما يقول الراغب فى مفرداته معناه التوجّه المقرون بالخوف .. فحين يتعدّى هذا اللفظ «الإشفاق» ب «من» يكون مفهوم الخوف فيها أظهر، و إذا تعدّت ب «فى» يكون مفهوم التوجّه و العناية فيها أكثر! و الأصل أنّ هذه

الكلمة مشتقّة من «الشفق» و هو النور المقرون أو الممزوج بشىء من الظلمة.

و الآن ينبغى أن يعرف ممّ كانوا مشفقين فى الدنيا و خائفين؟ و لأى شىء كانوا يتوجّهون؟! و هنا احتمالات ثلاثة و قد جمعناها فى تفسير الآية إذ لا منافاة بينها جميعا ..

«الخوف من اللّه و التوجّه إليه لنجاتهم- و الإشفاق من انحراف أهليهم و الالتفات إلى أمر التربية- و الخوف من الأعداء و التوجّه لحفظ أنفسهم فى قبالهم» و إن كان المعنى الأوّل- مع ملاحظة الآيات التالية و خاصّة فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَ وَقانا عَذابَ السَّمُومِ أقرب للنظر!

۳- التعبير «فى أهلنا» بإطلاقه يحمل مفهوما واسعا حيث يصدق على جميع الأبناء و الأزواج و الأحباب، و يشير هذا التعبير إلى أنّ الإنسان فى مثل هذا الجمع يحسّ بالأمن أكثر من أى مكان آخر، فإذا كان فيهم مشفقا، فمن المعلوم حاله إذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۶

كان فى غيرهم!! و يحتمل أيضا أنّ هذا التعبير يشير إلى أولئك المبتلين باسرة غير مؤمنة، و كانوا خائفين حتّى منهم، إلّا أنّهم فى الوقت ذاته قاوموا و حافظوا على استقلالهم بالاتّكال على اللّه و لطفه و لم يتلوّنوا بلون الآسرة.

۴- «السموم» يعنى الحرارة التى تدخل فى مسام البدن فتؤذى الإنسان، و يطلق على الريح التى تتسم بهذه السمة بريح السموم كما يطلق عذاب السموم على مثل هذا العذاب الذى تدخل حرارته مسام البدن فتؤذيه.

و أمّا إطلاق كلمة «السم» على المواد القاتلة فهو لأنّها تنفذ فى جميع أجزاء البدن! ۵- كلمة «البرّ» فى الأصل تطلق على اليابسة فى قبال البحر، ثمّ استعملت هذه الكلمة فى من يعمل عملا صالحا و واسعا حسنا، و أجدر بهذه الكلمة الذات المقدّسة، لأنّ لطفه و إحسانه عمّ العوالم كلّها.

۶- ارتباط الآيات و مضامينها قلنا أنّ هذه الآيات و الآيات المتقدّمة تذكر أربعة عشر قسما من نعم أهل الجنّة.

۱- الجنّات ۲- النعيم ۳- السرور ۴- الأمان من عذاب جهنّم ۵- تناول الطعام و الشراب السائغ فى الجنّة ۶- الاتّكاء على السرر المصفوفة ۷- الأزواج من الحور العين ۸- الحاق الذرية التى تبعت آباءها بإيمان ۹- أنواع الفواكه اللذيذة ۱۰- أنواع اللحم، ۱۱- ما تشتهى الأنفس ۱۲- كؤوس الشراب الطهور ۱۳- و يطوف عليهم غلمان لهم كأنّهم لؤلؤ مكنون ۱۴- التساؤل عن أيّام الدنيا فى مجالس يغمرها الانس!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۷

و هذه النعم بعضها مادّى و بعضها معنوى، و مع كلّ ذلك فإنّ نعم الجنّة الماديّة و المعنوية غير منحصرة بهذه النعم، بل ما هو مذكور هنا يعدّ جانب من جوانب نعم الجنّة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۲۹ الى ۳۴]

اشارة

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ (۲۹) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (۳۰) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (۳۱) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (۳۲) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (۳۳)
فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۳۴)

سبب النّزول

جاء فى رواية أنّ قريشا اجتمعت فى دار الندوة[۱۶۸] ليفكّروا فى مواجهة دعوة النّبى الإسلامية التى كانت تعدّ خطرا كبيرا على منافعهم غير المشروعة.

فقال رجل من قبيلة «عبد الدار» ينبغى أن ننتظر حتّى يموت، لأنّه شاعر على كلّ حال، و سيمضى عنّا كما مات زهير و النابغة و الأعشى «ثلاثة شعراء جاهليون» و طوى بساطهم .. و سيطوى بساط محمّد أيضا بموته. قالوا ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۷۹

و تفرّقوا فنزلت الآيات آنفة الذكر وردّت عليهم ۱۶۹].

التّفسير

أمنيات المشركين و تحدّى القرآن

كان الكلام فى الآيات المتقدّمة على قسم مهمّ من نعم الجنّة و ثواب المتّقين و كان الكلام فى الآيات التى سبقتها عن بعض عذاب أهل النار.

لذلك فإنّ الآية الاولى من الآيات محلّ البحث تخاطب النّبى فتقول:

«فتذكّر»! لأنّ قلوب عشّاق الحقّ تكون أكثر استعدادا بسماعها مثل هذا الكلام، و قد أن الأوان أن تبيّن الكلام الحقّ لها! و هذا التعبير يدلّ بوضوح أنّ الهدف الأصلى من ذكر جميع تلك النعم و مجازاة الفريقين هو تهيئة الأرضية الروحية لقبول حقائق جديدة! و فى الحقيقة فإنّه ينبغى على كلّ خطيب أنّ يستفيد من هذه الطريقة لنفوذ كلامه و تأثيره فى قلوب السامعين.

ثمّ يذكر القرآن الاتّهامات التى أطلقها أعداء النّبى الألدّاء المعاندون فيقول:

فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَ لا مَجْنُونٍ

«الكاهن» يطلق على من يخبر عن الأسرار الغيبية، و غالبا ما كان الكاهن يدّعى بأنّه له علاقة بالجنّ و يستمد الأخبار الغيبية منهم، و كان الكهنة فى الجاهلية- خاصّة- كثيرين .. و من ضمنهم الكاهنان «سطيح» و «شق»، و الكهنة أفراد أذكياء، إلّا أنّهم يستغلّون ذكاءهم فيخدعون الناس بادّعاءاتهم الفارغة.

و الكهانة محرّمة فى الإسلام و ممنوعة و لا يعتدّ بأقوال الكهنة! لأنّ أسرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۰

الغيب خاصّة بعلم اللّه و لا يطلع غيبه إلّا من ارتضى من رسول و إمام و حسب ما تقتضيه المصلحة.

و على كلّ حال فإنّ قريشا و من أجل أن تشتّت الناس و تصرّفهم عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت تتّهمه ببعض التّهم، فتارة تتّهمه بأنّه كاهن، و تارة تتّهمه بأنّه مجنون، و العجب أنّها لم تقف على تضاد الوصفين، لأنّ الكهنة أناس أذكياء و المجانين على خلافهم!! و لعلّ الجمع بين الافترائين فى الآية إشارة إلى هذا التناقض فى الكلام من قبل القائلين.

ثمّ يذكر القرآن الاتّهام الثالث الذى يخالف الوصفين السابقين أيضا فيقول:

أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

فطالما هو شاعر فعلينا أن نصبر، إذ أنّ لأشعاره رونقها و جاذبيتها، فإذا حلّ به الموت و انطوت أشعاره كما ينطوى سجل عمره و أودعت فى ضمير النسيان فسنكون حينئذ فى راحة من أمره!!.

و كما يفهم من كتب اللغة فإنّ «المنون» مشتقّ من المنّ، و هو على معنيين:

النقصان و القطع، و هـذان المعنيان أيضا بينهما مفهوم جامع! ثمّ استعملت كلمـة «المنون» فى الموت أيضا، لأنّه ينقص العـدد و يقطع المدد.

و قد يطلق «المنون» على مرور الزمان، و ذلك لأنّه يوجب الموت و يقطع العلائق و ينقص النفر، كما يطلق «المنون» على الليل و النهار أحيانا، و لعلّ ذلك للمناسبة ذاتها[۱۷۰].

و أمّا كلمـة (ريب) فأصـلها الشكّ و التردّد و الوهم فى الشـىء الذى تنكشف أسـتاره بعدئذ فتتضح حقيقته! و هذا التعبير يسـتعمل فى شأن الموت، فيقال «ريب المنون» لأنّ وقت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۱

حصوله غير معلوم لا- أصـل تحقّقه ۱۷۱]! إلّا أنّ جماعـة من المفسّـرين قـالوا إنّ المراد من «ريب المنـون» فى الآيـة محـلّ البحث هو حوادث الـدهر، حتّى أنّه نقـل عن ابن عبّاس أنّه قال حيث ما وردت كلمـة «ريب» فى القرآن فهى بمعنى الشكّ و التردّد، إلّا فى هـذه الآية من سورة الطور فمعناها الحوادث ۱۷۲].

و قـال جماعـة منهم أنّ المراد منه هو حالـة الاضـطراب، فيكون معنى «ريب المنون» على هـذا القول هو حالـة الاضـطراب التى تنتـاب أغلب الأفراد قبل الموت! و يمكن أن يعود هـذا التّفسـير (الأخير) على المعنى السابق، لأنّ حالـة الشكّ و التردّد أساس الاضـطراب، و كـذلك الحوادث التى لم يتبّأ بها من قبل، فهى تقترن بنوع من الاضـطراب و الشكّ و التردّد، و هكـذا فإنّ جميع هذه المفاهيم تنتهى إلى أصل «الشكّ و التردّد».

و بتعبير آخر، فإنّ للريب ثلاثة معان مذكورة: الشكّ، و الاضطراب، و الحوادث، و هذه جميعا من باب اللازم و الملزوم!.

و على كلّ حال، فأولئك كانوا يطمئنون أنفسـهم و يرضون خاطرهم بأنّ حوادث الزمان كفيلة بالقضاء على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانوا يتصوّرون أنّهم سـيتخلّصون من هـذه المشـكلة العظمى التى أحـدثتها دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى سائر المجتمع .. لـذلك فإنّ القرآن يردّ عليهم بجملة موجزة مقتضـبة ذات معنى غزير و يهدّد هؤلاء- عمى القلوب- مخاطبا نبيّه فيقول: قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ

فأنتم تنتظرون تحقّق تصوّراتكم الساذجة التافهة!! و أنا أنتظر أن يصيبكم عذاب اللّه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۲

و عليكم أن تنتظروا أن ينطوى بموتى بساط الإسلام!! و أنا بعون اللّه أنتظر أن أجعل الإسلام يستوعب العالم كلّه فى حياتى و أن يبقى بعد حياتى أيضا مواصلا طريقه دائما! أجل .. إنّما تعوّلون على تصوراتكم و خيالاتكم، و أنا أعتمد على لطف اللّه الخاصّ سبحانه.

ثمّ يوبّخهم القرآن توبيخا شديدا فيقول فى شأنهم: أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ ۱۷۳].

كان سـراة قريش يعرفون بين قومهم بعنوان «ذوى الأحلام»، أى أصـحاب العقول، فالقرآن يقول: أى عقل هـذا الـذى يدّعى بأنّ وحى السـماء- الذى تكمن فيه دلائل الحقّ و الصدق- شـعر أو كهانة؟! و أن يزعم بأنّ حامله «النبى» الذى عرف بالصدق و الأمانة منذ عهد بعيد، بأنّه شاعر أو مجنون!؟

فبناء على ذلك ينبغى أن يسـتنتج أنّ هذه التّهم و الافتراءات ليست ممّا تقول به عقولهم و تأمرهم به، بل أساسها طغيانهم و تعصّبهم و روح العصـيان و التمرّد .. فمـا أن وجـدوا منـافعهم غير المشـروعة فى خطر حتّى ودّعوا العقل!! و لوّوا رؤوسـهم نحو الطغيان عنادا عن اتّباع الحقّ!.

«الأحلام» جمـع حلم و معنـاه العقـل، و لكن كمـا يقـول الراغب فى مفرداته أنّ الحلم فى الحقيقـة بمعنى ضـبط النفس و التجلّـد عند الغضب، و هو واحد من دلائل العقل و الدراية، و يشترك مع الحلم على زنة العلم- فى الجذر اللغوى!.

و كلمة «الحلم» قد تأتى بمعنى الرؤيا و المنام و لا يبعد مثل هذا التّفسير فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۳

الآيـة محلّ البحث .. فكأنّ كلماتهم ناتجـة عن أحلامهم الباطلـة!! و مرّة اخرى يشـير القرآن إلى اتّهام آخر- من اتّهاماتهم- الـذى يعدّ الرابع فى سلسلة اتّهاماتهم فيقول: أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ

«تقوّله»: مشتقّ من مادّة تقوّل- على وزن تكلّف- و معناه الكلام الذى يفتعله الإنسان بينه و بين نفسه دون أن يكون له واقع ۱۷۴].

و هـذه ذريعـة اخرى من ذرائع المشـركين و الكفّار المعانـدين لئلّا يستسـلموا أمام القرآن المجيد و دعوة النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد تكرّرت الإشارة إليها مرارا عديدة فى آيات القرآن!.

غير أنّ القرآن يردّ عليهم ردّا يدحرهم و يتحدّاهم متهكما فيقول: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ

فـأنتم أنـاس مثله و لـديكم العقـل و القـدرة على البيـان و الاطلاـع و الخبرة على أنواع الكلاـم فلم لاـ يـأتى مفكّروكم و خطبـاؤكم و فصحاءكم بمثل هذا الكلام!.

و جملة «فليأتوا» أمر تعجيزى، و الهدف منه بيان عجزهم و عدم قدرتهم على مجاراة القرآن.

و هذا ما يعبّر عنه فى علم الكلام و العقائد بالتحدّى أى دعوة المخالفين إلى المعارضة و الإتيان بالمثل «فى مواجهة المعجزات!».

و على كلّ حال، فهـذه آية من الآيات التى تبيّن إعجاز القرآن بجلاء، و لا يختصّ مفهومها بمن عاصـروا النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل يشمل جميع الذين يزعمون- بأنّ القرآن كلام بشر، و أنّه مفترى على اللّه- على امتداد القرون و الأعصار، فهم مخاطبون بهذه الآية أيضا .. أى هاتوا حديثا مثله إن كنتم تزعمون بأنّه ليس من اللّه و أنّه كلام بشر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۴

و كما نعلم بأنّ نـداء القرآن فى هـذه الآيـة و الآيات المشابهـة كان عاليا أبدا، و لم يسـتطع أى إنسان خلال أربعة عشـر قرنا- منذ بعثة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتّى يومنا هذا- أن يرد بجواب إيجابى.

و من المعلوم أنّ أعـداء الإسـلام و خاصّة أصـحاب الكنيسة و اليهود ينفقون ما لا يحصـى من الأموال الطائلة للتبليغ ضدّ الإسـلام، فما كان يمنعهم أن يدعوا قسما منها تحت تصرّف أصحاب الفكر و القلم المخالفين لينهضوا بوجه معارضة القرآن و يكونوا مصداقا لقوله تعالى: فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ و هذا العجز «العمومى» شاهد حى على أصالة هذا الوحى السـماوى! يقول بعض المفسّرين فى هذا الصدد شيئا جديرا بالملاحظة فلا بأس بالالتفات و الإصغاء إليه ...

«إنّ فى هذا القرآن سرّا خاصا يشعر به كلّ من يواجه نصوصه ابتداء قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها .. إنّه يشعر بسلطان خاصّ فى عبارات هذا القرآن يشـعر أنّ هنالك شـيئا ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير و أنّ هنالك عنصرا ما ينسكب فى الحسّ بمجرّد الاسـتماع لهـذا القرآن، يـدركه بعض الناس واضـحا و يدركه بعض الناس غامضا، و لكنّه على كلّ حال موجود .. هذا العنصـر الذى ينسـكب فى الحسّ، يصـعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟! أهو المعنى الكامن فيها، أهو الصور و الضلال التى تشعّها؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاصّ المتميّز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟. أ هى هذه العناصر كلّها مجتمعة؟.

أم أنّها هى و شـىء آخر وراءها غير محدود! ذلك سرّ مستودع فى كلّ نصّ قرآنى، يشعر به كلّ من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء .. ثمّ تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبير و النظر و التفكير فى بناء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۵

القرآن كلّه»[۱۷۵].

و لمزيـد الإيضاح حول إعجاز القرآن من أبوابه المختلفـة يراجع ذيل الآية (۲۳) من سورة البقرة إذ ذكرنا هناك بحثا مفصّلا فى هذا الصدد و كذلك ذيل الآية (۸۸) من سورة الإسراء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۶

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۳۵ الى ۴۳]

اشارة

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (۳۵) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (۳۶) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (۳۷) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۳۸) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ (۳۹)
أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۰) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۱) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (۴۲) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۳)

التّفسير

ما هو كلامكم الحقّ؟

هذه الآيات تواصل البحث الاستدلالى السابق- كذلك- و هى تناقش المنكرين للقرآن و نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قدرة اللّه سبحانه.

و هى آيات تبدأ جميعها ب «أم» التى تفيد الاستفهام و تشكّل سلسلة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۷

الاستدلال فى أحد عشر سؤالا متتابعا (بصورة الاستفهام الإنكارى)، و بتعبير أجلى: إنّ هذه الآيات تسدّ جميع الطرق بوجه المخالفين فلا تدع لهم مهربا فى عبارات موجزة و مؤثّرة جدّا بحيث ينحنى الإنسان لها من دون إختياره إعظاما و يعترف و يقرّ بانسجامها و عظمتها. فأوّل ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول: أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ ۱۷۶].

و هذه العبارة الموجزة و المقتضبة فى الحقيقة هى إشارة إلى «برهان العليّة» المعروف الوارد فى الفلسفة و علم الكلام لإثبات وجود اللّه، و هو أنّ العالم الذى نعيش فيه ممّا لا شكّ- فيه- حادث (لأنّه فى تغيير دائم، و كلّ ما هو متغيّر فهو فى معرض الحوادث، و كلّ ما هو فى معرض الحوادث محال أن يكون قديما و أزليّا).

و الآن ينقدح هذا السؤال، و هو إذا كان العالم حادثا فلا يخرج عن الحالات الخمس التالية:

۱- وجد من دون علّة! ۲- هو نفسه علّة لنفسه.

۳- معلولات العالم علّة لوجوده.

۴- إنّ هذا العالم معلول لعلّة اخرى و هى معلولة لعلّة اخرى إلى ما لا نهاية.

۵- إنّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذى يكون وجوده ذاتيا له.

و بطلان الاحتمالات الأربع المتقدّمة واضح، لأنّ وجود المعلول من دون علّة محال، و إلّا فينبغى أن يكون كلّ شىء موجودا فى أى ظرف كان، و الأمر ليس كذلك! و الاحتمال الثانى و هو أن يوجد الشىء من نفسه محال أيضا، لأنّ مفهومه أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۸

يكون موجودا قبل وجوده، و يلزم منه اجتماع النقيضين [فلاحظوا بدقّة].

و كذلك الاحتمال الثالث و هو أنّ مخلوقات الإنسان خلقته، و هو واضح البطلان إذ يلزم منه الدور!.

و كذلك الاحتمال الرابع و هو تسلسل العلل و ترتّب العلل و المعلول إلى ما لا نهاية أيضا محال، لأنّ سلسلة المعلولات اللّامحدودة

مخلوقـة، و المخلوق مخلوق و يحتاج إلى خالق أوجـده، ترى هل تتحوّل الأصـفار التى لا نهايـة لها إلى عدد؟! أو ينفلق النور من ما لا نهاية الظلمة؟! و هل يولد الغنى من ما لا نهاية له فى الفقر و الفاقة؟

فبناء على ذلك لا طريق إلّا القبول بالاحتمال الخامس، أى خالقية واجب الوجود [فلاحظوا بدقّة أيضا].

و حيث أنّ الركن الأصلى لهذا البرهان هو نفى الاحتمال الأوّل و الثانى فإنّ القرآن اقتنع به فحسب.

و الآن ندرك جيّدا وجه الاستدلال فى هذه العبارات الموجزة! الآية التالية تثير سؤالا آخر على الادّعاء فى المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول: أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ

فإذا لم يوجـدوا من دون علّة و لم يكونوا علّة أنفسـهم أيضا، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السـماوات و الأرض؟! و إذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أو كل اللّه إليهم أمر خلق السماء و الأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون و بيدهم أمر الخلق أيضا!!.

من الواضح أنّهم لا يستطيعون أن يدّعوا هذا الادّعاء الباطل، لذلك فإنّ الآية تختتم بالقول: بَلْ لا يُوقِنُونَ أجل، فهم يتذرّعون بالحجج الواهية فرارا من الإيمان! ثمّ يتساءل القرآن قائلا: فإذا لم يدّعوا هذه الأمور و لم يكن لهم نصيب فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۸۹

الخلق، فهل عنـدهم خزائن اللّه أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ ۱۷۷] ليهبوا من شـاؤوا نعمـة النبوّة و العلم أو الأرزاق الآخر و يمنعوا من شاؤوا ذلك: أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ على جميع العوالم و فى أيـديهم امور الخلائق؟! انّهم لا يسـتطيعون- أن يـدّعوا أبـدا أنّ عنـدهم خزائن اللّه تعالى، و لا يملكون تسـلّطا على تـدبير العالم، لأنّ ضـعفهم و عجزهم إزاء أقل مرض بل حتّى على بعوضـة تافهـة و كذلك احتياجهم إلى الوسائل الابتدائيـة للحياة خير دليل على عـدم قـدرتهم و فقـدان هيمنتهم! و إنّما يجرّهم إلى إنكار الحقائق هوى النفس و العناد و حبّ الجاه و التعصّب و الأنانية!.

و كلمة: «مصـيطرون» إشارة إلى أرباب الأنواع التى هى من خرافات القدماء، إذ كانوا يعتقدون أنّ كلّ نوع من أنواع العالم إنسانا كان أمّ حيوانا آخر أم جمادا أم نباتا له مدبّر و ربّ خاصّ يدعى بربّ النوع و يدعون اللّه «ربّ الأرباب» و هذه العقيدة تعدّ فى نظر الإسلام «شركا» و القرآن فى آياته يصرّح بأنّ التدبير لجميع الأشياء هو للّه وحده و يصفه بربّ العالمين.

و أصل هـذه الكلمـة من «سـطر» و معناه صفّ الكلمات عنـد الكتابة، و «المسـيطر» كلمة تطلق على من له تسـلّط على شـىء ما و يقوم بتوجيهه، كما أنّ الكاتب يكون مسيطرا على كلماته (و ينبغى الالتفات إلى أنّ هذه الكلمة تكتب بالسين و بالصاد على السواء- مسيطر و مصيطر- فهما بمعنى واحد و إن كان الرسم القرآن المشهور بالصاد «مصيطر»).

و من المعلوم أنّه لا منكرو النبوّة و لا المشـركون فى العصـر الجاهلى و لا سواهما يـدّعى أيّا من الأمور الخمسـة التى ذكرها القرآن، و لذلك فإنّه يشير إلى موضوع آخر فى الآية التالية فيقول: إنّ هؤلاء هل يدعون أنّ الوحى ينزل عليهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۰

أو يدعون أنّ لهم سلّما يرتقون عليه إلى السماء فيستمعون إلى أسرار الوحى: أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ

و حيث إنّه كان من الممكن أن يـدّعوا بأنّهم على معرفـة بأسـرار السـماء فإنّ القرآن يطالبهم مباشـرة بعـد هـذا الكلام بالـدليل فيقول: فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ

و من الواضح أنّه لو كانوا يدّعون مثل هذا الادّعاء فإنّه لا يتجاوز حدود الكلام فحسب، إذ لم يكن لهم دليل على ذلك أبدا[۱۷۸].

ثمّ يضـيف القرآن قائلا: هل صـحيح ما يزعمون أنّ الملائكة إناث و هم بنات اللّه؟! أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَ لَكُمُ الْبَنُونَ ! و فى هذه الآية إشارة إلى واحـد من اعتقـاداتهم الباطلـة، و هو استيـاؤهم من البنـات بشـدّة، و إذا علموا أنّهم رزقوا من أزواجهم «بنتـا» اسودّت وجوههم من الحياء و الخجل! و مع هـذا فإنّهم كانوا يزعمون أنّ الملائكة بنات اللّه، فإذا كانوا مرتبطين بالملإ الأعلى و يعرفون أسـرار الوحى، فهل لـديهم سوى هذه الخرافات المضـحكة .. و هذه العقائد المخجلة؟! و بديهى أنّ الذكر و الأنثى لا يختلفان فى نظر القيمة الإنسانية .. و

التعبير فى الآية المتقدّمة هو فى الحقيقة من قبيل الاستدلال بعقيدتهم الباطلة و محاججتهم بها.

و القرآن يعوّل- فى آيات متعدّدة- على نفى هذه العقيدة الباطلة و يحاكمهم فى هذا المجال و يفضحهم ۱۷۹]!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۱

ثمّ يتنازل القرآن إلى مرحلة اخرى، فيذكر واحدا من الأمور التى يمكن أن تكون ذريعة لرفضهم فيقول: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

«المغرم»- على وزن مغنم و هو ضدّ معناه- أى ما يصيب الإنسان من خسارة أو ضرر دون جهة، أمّا الغريم فيطلق على الدائن و المدين أيضا.

و «المثّقل» مشتقّ من الأثقال، و معناه تحميل العبء و المشقّة، فبناء على هذا المعنى يكون المراد من الآية: ترى هل تطلب منهم غرامة لتبليغ الرسالة فهم لا يقدرون على أدائها و لذلك يرفضون الإيمان؟! و قد تكرّرت الإشارة فى عدد من الآيات القرآنية لا فى النّبى فحسب، بل فى شأن كثير من الأنبياء، إذ كان من أوائل كلمات النبيين قولهم لأممهم: لا نريد على إبلاغنا الرسالة إليكم أجرا .. ليثبت عدم قصدهم شيئا من وراء دعوتهم و لئلّا تبقى ذريعة للمتذرّعين أيضا.

و مرّة اخرى يخاطبهم القرآن متسائلا- أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فهؤلاء يدّعون أنّ النّبى شاعر و ينتظرون موته لينطوى بساطه و ينتهى كلّ شىء بموته و تلقى دعوته فى سلّة الإهمال، كما تقدّم فى الآية السابقة ذلك على لسان المشركين إذ كانوا يقولون .. نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ

فمن أين لهم أنّهم سيبقون أحياء بعد وفاة النبى؟! و من أخبرهم بالغيب؟! و يحتمل أيضا أنّ القرآن يقول إذا كنتم تدّعون معرفة الأسرار الغيبية و أحكام اللّه و لستم بحاجة إلى القرآن و دين محمّد فهذا كذب عظيم ۱۸۰].

ثمّ يتناول القرآن احتمالا آخر فيقول: لو لم يكن كلّ هذه الأمور المتقدّمة، فلا بدّ أنّهم يتآمرون لقتل النّبى و إجهاض دعوته و لكن ليعلموا أنّ كيد اللّه أعلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۲

و أقوى من كيدهم: أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۱۸۱].

و الآية الآنفة يطابق تفسيرها تفسير الآية (۵۴) من سورة آل عمران التى تقول: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ

و احتمل جماعة من المفسّرين أنّ المراد من الآية محلّ البحث هو: «انّ مؤامراتهم ستعود عليهم أخيرا و تكون وبالا عليهم ...» و هذا المعنى يشبه ما ورد فى الآية (۴۳) من سورة فاطر: وَ لا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ

و الجمع بين التّفسيرين الآنفين ممكن و لا مانع منه.

و يمكن أن يكون لهذه الآية ارتباط آخر بالآية المتقدّمة، و هو أنّ أعداء الإسلام كانوا يقولون: ننتظر موت محمّد. فالقرآن يردّهم بالقول بأنّهم ليسوا خارجين عن واحد من الأمرين التاليين .. أمّا أنّهم يدّعون بأنّ محمّدا يموت قبل موتهم حتف أنفه. فلازم هذا الادّعاء أنّهم يعلمون الغيب، و أمّا أنّ مرادهم أنّه سيمضى بمؤامراتهم فاللّه أشدّ مكرا و يردّ كيدهم إليهم، فهم المكيدون! و إذا كانوا يتصوّرون أنّ فى اجتماعهم فى دار الندوة و رشق النّبى بالتّهم كالكهانة و الجنون و الشعر أنّهم سينتصرون على النّبى فهم فى منتهى العمى و الحمق، لأنّ قدرة اللّه فوق كلّ قدرة، و قد ضمن لنبيّه السلامة و النجاة حتّى يبلغ دعوته العالمية.

و أخيرا فإنّ آخر ما يثيره القرآن من أسئلة فى هذا الصدد قوله: أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ ! و يضيف- منزّها- سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

فعلى هذا لا أحد يستطيع أن يمنعهم من اللّه و يحميهم، و هكذا فإنّ القرآن يستدرجهم و يضعهم أمام استجواب عجيب و أسئلة متّصلة تؤلّف سلسلة متكاملة مؤلّفة من أحد عشر سؤالا! و يقهقرهم مرحلة بعد مرحلة إلى الوراء!! و يضطرهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۳

إلى التنزّل من الادّعاءات ثمّ يوصد عليهم سبل الفرار كلّها و يحاصرهم فى طريق مغلق!.

كم هى رائعة استدلالات القرآن و كم هى متينة أسئلته و استجوابه! .. فلو أنّ فى أحد منهم روحا تبحث عن الحقّ و تطلبه لأذعنت أمام هذه الأسئلة و استسلمت لها.

الطريف أنّ الآية الأخيرة من الآيات محلّ البحث لا تذكر دليلا لنفى المعبودات ممّا سوى اللّه، و تكتفى بتنزيه اللّه سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

و ذلك لأنّ بطلان الوهية الأصنام و الأوثان المصنوعة من الأحجار و الخشب و غيرهما مع ما فيها من ضعف و احتياج أجلى و أوضح من أى بيان و تفصيل آخر، أضف إلى كلّ ذلك فإنّ القرآن استدلّ على إبطال هذا الموضوع بآيات متعدّدة غير هذه الآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۴

الآيات [سورة الطور (۵۲): الآيات ۴۴ الى ۴۹]

اشارة

وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (۴۴) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ (۴۵) يَوْمَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ (۴۶) وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۴۷) وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (۴۸)

وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ (۴۹)

التّفسير

إنّك بأعيننا!

تعقيبا على البحث الوارد فى الآيات المتقدّمة الذى يناقش المشركين و المنكرين المعاندين، هذا البحث الذى يكشف الحقيقة ساطعة لكلّ إنسان يطلب الحقّ، تميط الآيات محلّ البحث النقاب عن تعصّبهم و عنادهم فتقول: وَ إِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ ۱۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۵

هؤلاء المشركين معاندون إلى درجة إنكارهم الحقائق الحسيّة و تفسيرهم الحجارة الساقطة من السماء بالسحاب، مع أنّ كلّ من رأى السحاب حين ينزل و يقترب من الأرض لم يجده سوى بخار لطيف، فكيف يتراكم هذا البخار اللطيف و يتبدّل حجرا!؟

و هكذا يتّضح حال هؤلاء الأشخاص إزاء الحقائق المعنوية! أجل انّ ظلمة الإثم و عبادة الهوى و العناد كلّ ذلك يحجب أفق الفكر السليم فيجعله متجهّما حتّى تنجرّ عاقبة أمره إلى إنكار المحسوسات و بذلك ينعدم الأمل فى هدايته.

و «المركوم» معناه المتراكم، أى ما يكون بعضه فوق بعض! لذلك فإنّ الآية التالية تضيف بالقول: فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ

و كلمة «يصعقون» مأخوذة من صعق، و الإصعاق هو الإهلال، و أصله مشتقّ من الصاعقة، و حين أنّ الصاعقة تهلك من تقع عليه فإنّ هذه الكلمة استعملت بمعنى الإهلاك أيضا.

و قال بعض المفسّرين أنّ هذه الجملة تعنى الموت العامّ و الشامل الذى يقع آخر هذه الدنيا مقدّمة للقيامة.

إلّا أنّ هـذا التّفسير يبـدو بعيـدا، لأنّهم لا يبقون إلى ذلك الزمان بل الظاهر هو المعنى الأوّل، أى دعهم إلى يوم موتهم الـذى يكون بداية لمجازاتهم و العقاب الاخروى! و يتبيّن ممّا قلنا أنّ جملة «ذرهم» أمر يفيد التهديد، و المراد منه أنّ الإصـرار على تبليغ مثل هؤلاء الأفراد لا يجدى نفعا إذ لا يهتدون.

فبناء على ذلك لا ينافى هذا الحكم إدامة التبليغ على المستوى العامّ من قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۶

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا ينافى الأمر بالجهاد. فما يقوله بعض المفسّرين أنّ هذه الآية نسخت آيات الجهاد غير مقبول! ثمّ يبيّن القرآن فى الآية التالية هذا اليوم فيقول: يَوْمَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ

أجل: من يمت تقم قيامته الصغرى

«من مات قامت قيامته»

و موته بدايـة للثواب أو العقـاب الـذى يكون قسم منه فى الـبرزخ و القسم الآـخر فى القيامـة الكبرى، أى القيامـة العامّـة، و فى هـاتين المرحلتين لا تنفع ذريعة متذرّع و لا يجد الإنسان وليّا من دون اللّه و لا نصيرا.

ثمّ تضـيف الآية أنّه لا ينبغى لهؤلاء أن يتصوّروا أنّهم سيواجهون العذاب فى البرزخ و فى القيامة فحسب، بل لهم عذاب فى هذه الدنيا أيضا: وَ إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ

أجل، إنّ على الظالمين أن ينتظروا فى هـذه الـدنيا عـذابا كعذاب الأمم السابقة كالصاعقة و الزلازل و الكسف من السـماء و القحط أو القتل على أيـدى جيش التوحيـد كما كان ذلك فى معركة بدر و ما ابتلى به قادة المشـركين فيها إلّا أنّ يتيقّظوا و يتوبوا و يعودوا إلى اللّه آيبين منيبين.

و بالطبع فإنّ جماعـة منهم ابتلوا بالقحط و المحل، و منهم من قتل فى معركـة بـدر كما ذكرنا آنفا- إلّا أنّ طائفـة كبيرة تابوا و أنابوا و التحقوا بصفوف المسلمين الصادقين فشملهم اللّه بعفوه ۱۸۳].

و جملـة وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاـ يَعْلَمُونَ تشـير إلى أنّ أغلب أولئـك الـذين ينتظرهم العـذاب فى الـدنيا و الآخرة هم جهلـة، و مفهومها أنّ القليل منهم يعرف هذا المعنى، إلّا أنّه فى الوقت ذاته يصرّ على المخالفة لما فيه من اللجاجة و العناد عن الحقّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۷

و فى الآية التالية يخاطب القرآن نبيّه و يدعوه إلى الصبر أمام هذه التّهم و المثبّطات و أن يستقيم فيقول: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۱۸۴].

فـإذا مـا اتّهموك بأنّـك شـاعر أو كاهن أو مجنون فاصبر، و إذا زعموا بأنّ القرآن مفترى فاصبر، و إذا أصـرّوا على عنادهم و واصـلوا رفضهم لدعوتك برغم كلّ هذه البراهين المنطقيّة فاصبر، و لا تضعف همّتك و يفتر عزمك: فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا!.

نحن نرى كلّ شىء و نعلم بكلّ شىء و لن ندعك وحدك.

و جملـة فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا تعبير لطيف جـدّا حاك عن علم اللّه و كذلك كون النّبى مشـمولا بحماية اللّه الكاملة و لطفه! أجل، إنّ الإنسان حين يحسّ بأنّ قادرا كبيرا ينظره و يرى جميع سـعيه و عمله و يحميه من أعـدائه فإنّ إدراك هـذا الموضوع يمنحه الطاقة و القوّة أكثر كما يحسّ بالمسؤولية بصورة أوسع.

و حيث أنّ الحاجـة للّه و عبـادته و تسبيحه و تقـديسه و تنزيهه و الالتجـاء إلى ذاته المقدّسـة كـلّ هـذه الأـمور تمنـح الإنسان الدّعـة و الاطمئنان و القوّة، فإنّ القرآن يعقّب على الأمر بالصبر بالقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ

سبّحه حين تقوم سحرا للعبادة و صلاة الليل.

... و حين تنهض من نومك لأداء الصلاة الواجبة.

... و حين تقوم من أى مجلس و محفل، فسبّحه و احمده.

و للمفسّرين أقوال مختلفة فى تفسير هذه الآية، إلّا أنّ الجمع بين هذه الأقوال ممكن أيضا، سواء كان الحمد التسبيح سحرا، أو عند صلاة الفريضة، أو عند القيام من أى مجلس كان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۸

أجل، نوّر روحك و قلبك بتسبيح اللّه و حمده فإنّهما يمنحان الصفاء .. و عطر لسانك بذكر اللّه .. و استمدّ منه المدد و استعدّ لمواجهة أعدائك!.

و قد جاء فى روايات متعدّدة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين كان يقوم من مجلسه كان يسبّح اللّه و يحمده و يقول: «إنّه كفّارة المجلس»[۱۸۵].

و من ضمن ما كان يقول بعد قيامه من مجلس كما

جاء فى بعض الأحاديث عنه: «سبحانك اللهمّ و بحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك و أتوب إليك!».

و

سأل بعضهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن هذه الكلمات فقال: «هنّ كلمات علمنيهنّ جبرئيل كفّارات لما يكون فى المجلس»[۱۸۶].

ثمّ يضيف القرآن فى آخر آية من الآيات محلّ البحث قائلا: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ إِدْبارَ النُّجُومِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۱۹۸

قد فسّر كثير من المفسّرين جملة وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ بصلاة الليل، و أمّا إدبار النجوم فقالوا هى إشارة إلى «نافلة الصبح» التى تؤدّى عند طلوع الفجر و اختفاء النجوم بنور الصبح.

كما

ورد فى حديث عن على عليه السّلام أنّ المراد من «إدبار النجوم» هو «ركعتان قبل الفجر»

نافلة الصبح اللتان تؤدّيان قبل صلاة الصبح و عند غروب النجوم، أمّا «إدبار السجود» الوارد ذكرها فى الآية ۴۰ من سورة «ق» فإشارة إلى «ركعتان بعد المغرب» «و بالطبع فإنّ نافلة المغرب أربع ركع إلّا أنّ هذا الحديث أشار إلى ركعتين منها فحسب»[۱۸۷].

و على كلّ حال، فإنّ العبادة و التسبيح و حمد اللّه فى جوف الليل و عند طلوع الفجر لها صفاؤها و لطفها الخاصّ، و هى فى منأى عن الرياء، و يكون الاستعداد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۱۹۹

الروحى لها أكثر فى ذلك الوقت، لأنّ الإنسان يكون فيه بعيدا عن امور الدنيا و مشاكلها، و الاستراحة فى الليل تمنح الإنسان الدّعة، فلا صخب و لا ضجيج، و فى الحقيقة هذه الفترة تقترن بالوقت الذى عرج بالنّبى إلى السماء، فبلغ قاب قوسين أو أدنى يناجى ربّه و يدعوه فى الخلوة! و لذلك فقد عوّلت الآيات محلّ البحث على هذين الوقتين، و نقرأ حديثا

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فيه: ركعتا الفجر خير من الدنيا و ما فيها[۱۸۸].

اللهمّ وفّقنا للقيام فى السحر و مناجاتك طوال عمرنا.

اللهمّ اجعل قلوبنا بعشقك مطمئنة و نوّرها بمحبّتك و أمّلها بلطفك.

اللهمّ منّ علينا بالصبر و الاستقامة بوجه قوى الشياطين و مؤامرات أعدائك و كيدهم لنتأسّى برسولك فنعيش على هديه و نموت على سنّته.

آمين يا ربّ العالمين انتهاء سورة الطّور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۱

سورة النّجم

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها اثنان و سبعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۳

«سورة النّجم»

محتوی السّورة:

هـذه السورة کما یقول بعض المفسّرین هی أوّل سورة تلاها النّبی جهرا و بصوت عال فی حرم مکّة بعـد أن أضـحت دعوته علنا .. و أصغی إلیها المشرکون و سجد لها جمیع المسلمین حتّی المشرکون ۱۸۹].

و هـذه السورة کما یعتقـد بعض المفسّرین نزلت فی شـهر رمضان من السـنة الخامسة للبعثة[۱۹۰]! و قال بعضـهم إنّ هـذه السورة هی السورة الاولی التی نزلت فیها سجدة واجبة بمکّة[۱۹۱]. لکن مع ملاحظـة أنّ سورة العلق کما هو معروف نزلت قبلها و فی آخرها آیة سجدة واجبة فإنّ هذا القول یبدو بعیدا.

و علی کلّ حال، فإنّ هـذه السورة- لکونها مکیّة- تحمل بین ثناياها بحوثا فی الأصول الاعتقادیة خاصّة «النبوّة و المعاد» و فیها تهدید و وعید و إنذارات مکرّرة لإیقاظ الکفّار و ردعهم عن غیّهم!.

و یمکن تقسیم محتوی هذه السورة إلی سبعة أقسام:

۱- بدایة السورة تتحدّث بعد القسم العمیق المغزی. عن حقیقة الوحی و اتّصال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم مباشرة بمنزل الوحی «جبریل» و تبیّن ذلک بجلاء، و تبرئ ساحة النّبی المقدّسة عن کلّ شیء سوی الوحی المنزل علیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۴

۲- و فی قسم آخر من هـذه السـورة یجری الکلام علی معراج الرّسـول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و جـوانب منه بعبـارات موجزة و غزیرة المعنی، له علاقة مباشرة بالوحی أیضا.

۳- ثمّ یجری الکلام عن خرافات المشـرکین فی شأن الأصـنام و عبادة الملائکة و امور أخر لیس لها أی أساس إلّا الهوی و الهوس، و یعنّف المشرکین فی هذا المجال و یحذّرهم من عبادة الأوثان و یثبت هذا المعنی بمنطق قوی متین.

۴- و فی قسم آخر منها یفتح القرآن سبیل التوبة بوجه المنحرفین و عامّة المذنبین، و یؤمّلهم بمغفرة اللّه الواسـعة، و یؤکّد علی أنّ کلّا مسئول عن عمله، و لا تزر وازرة و زر اخری.

۵- و إکمالا لـهـذه الأهـداف یـأتی القسم الخـامس من هـذه السورة لیبیّن جوانب من مسألـة- المعاد- و یقیم دلیلا واضـحا علی هـذه المسألة بما هو موجود فی النشأة الاولی- الدنیا-.

۶- و کعادة القرآن فی سائر السور ترد فی هذه السورة إشارات لعواقب الأمم المؤلمة لعداوتهم للحقّ و عنادهم- کما حدث لقوم نوح و ثمود و عاد و قوم لوط لیتیقّظ الغافلون من نومتهم عن هذا الطریق.

۷- و أخیرا فإنّ السورة تختتم بالأمر بالسـجود للّه و عبادته، و من امتیازات هذه السورة قصـر آیاتها و إیقاع آیاتها الخاصّ الذی ینفذ- بمفاهیمها- نفوذا عمیقا، فیوقظ قلوب الغافلین و یحملها معه إلی السماوات العلی.

و تسمیة هذه السورة ب «النجم» هی لورود هذا اللفظ فی الآیة الاولی من السورة ذاتها.

فضیلة تلاوة هذه السورة:

وردت فی الرّوایات الإسلامیة فضائل مهمّة لتلاوة هذه السورة، ففی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة النجم أعطی من الأجر عشر حسنات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۵

بعدد من صدّق بمحمّد و من جحد به»[۱۹۲].

و نقرأ

فی بعض الرّوایات عن الإمام الصّادق علیه السّلام أنّه قال: «من کان یدمن قراءة «و النجم» فی کلّ یوم أو فی کلّ لیلة عاش محمودا بین الناس و کان مغفورا له و کان محبّبا بین الناس»[۱۹۳].

و من المسلّم به أنّ مثل هذا الثواب العظیم هو لأولئک الذین یتّخذون تلاوة هذه السورة وسیلة للتفکیر، ثمّ العمل، و أن یطبّقوا تعلیمات هذه السورة علی أنفسهم فی حیاتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۶

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ النَّجْمِ إِذا هَوی (۱) ما ضَلَّ صاحِبُکُمْ وَ ما غَوی (۲) وَ ما یَنْطِقُ عَنِ الْهَوی (۳) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحی (۴)

التّفسیر

ممّا یجدر بیانه أنّ السورة السابقة «الطور» ختمت بکلمة «النجوم» و هذه السورة بدئت ب «و النجم»- إذ أقسم به اللّه قائلا: وَ النَّجْمِ إِذا هَوی و هناک احتمالات کثیرة فی المراد من «النجم» هنا، فکلّ من المفسّرین یختار تفسیرا. إذ قال بعضهم بأنّ المراد منه هو «القرآن المجید» لأنّه یتناسب و الآیات التی تلی الآیة محلّ البحث، و هی فی شأن الوحی، و التعبیر بالنجم هو لأنّ العرب یستعملون هذا اللفظ فی ما یتمّ فی مراحل أو فواصل مختلفة و یسمّونها (أی الفواصل) «نجوما» (و تستعمل کلمة النجوم علی أقساط الدین و امور أخر من هذا القبیل أیضا).

و حیث أنّ القرآن نزل خلال ۲۳ سنة فی مراحل و مقاطع مختلفة علی النّبی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۷

صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقد سمّی نجما و المراد من «إذا هوی» نزوله علی قلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و فسّره آخرون ببعض الکواکب فی السماء کالثریا[۱۹۴] أو الشعری ۱۹۵] لأنّ لکلّ منهما أهمیّته الخاصّة!.

و قال بعضهم بأنّه الشهاب الثاقب» الذی ترمی به الشیاطین لئلّا تصعد فی السماء و العرب یسمّون الشهاب نجما.

إلّا أنّه لا دلیل مقبول علی أیّ من هذه التفاسیر الأربعة بل الظاهر من الآیة ما یقتضیه إطلاق کلمة «و النجم» القسم بنجوم السماء کافّة التی هی من أدلّة عظمة اللّه و من أسرار عالم الوجود الکبری و من المخلوقات العظیمة للّه تعالی.

و ليست هـذه هى المرّة الاولى التى يقسم القرآن فيها بموجودات عظيمـة من عالم الخلق و الإيجاد، ففى آيات أخر أيضا أقسم القرآن بالشـمس و القمر و أمثالهـا! و التعويـل على غروبهـا و أفولهـا مع أنّ طلوعها و إشـراقها يسترعى النظر أكثر، هو لأنّ غروب النجم دليل على حـدوثه كمـا أنّه دليـل على نفى عقيـدة عبـادة الكواكب كمـا ورد فى قصّـة إبراهيم الخليل عليه السّـلام فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۱۹۶].

و ينبغى الالتفـات إلى هـذا المعنى، و هو أنّ «الطلوع» فى اللغـة يعبّر عنه ب «النجم» لأنّه كما يقول الراغب فى مفرداته: أصل النجم هو الكوكب الطالع، و لذلك فإنّهم يعبّرون عن ظهور النبات على الأرض و السنّ فى اللثّة و وضوح النظرية فى الذهن ب نجم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۸

و هكذا فإنّ اللّه أقسم بطلوع الكواكب و غروبها أيضا، لأنّ ذلك دليل على حدوثها و إسارتها فى قبضة قوانين الخلق ۱۹۷].

لكن لنعرف لم أقسم اللّه بالنجم؟ الآية التالية توضّح ذلك فتقول: ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى

فهو يخطو فى مسير الحقّ دائمـا، و ليس فى أقواله و لا ـ فى أعمـاله أىّ انحراف! و التعـبير ب «الصـاحب» أى الصـديق أو المحبّ لعلّه إشارة إلى أنّ ما يقوله نابع من الحبّ و الشفقة! و الكثير من المفسّرين لم يفرّقوا بين «ضلّ» و «غوى» بل عدّوا كلّا منهما مؤكّدا للآخر، إلّـا أنّ بعضـهم يعتقـد أنّ بينهمـا فرقا و تفاوتا! فالضـلال هو أن لا يجـد الإنسان طريقا إلى هـدفه، و الغوايـة هى أن لا يخلو طريقه من إشـكال أو لا يكون مسـتقيما. فالضـلال كالكفر مثلا و الغوايـة كالفسق و الذنب .. إلّا أنّ «الراغب» يقول فى الغى: انّه الجهل الممزوج بالاعتقاد الفاسد.

فبناء على ذلك فالضلالة معناها مطلق الجهل و عدم المعرفة، إلّا أنّ الغواية جهل ممزوج أو مشوب بالعقيدة الباطلة.

و على كلّ حال فإنّ اللّه سـبحانه يريـد بهذه العبارة الموجزة أن ينفى كلّ نوع من أنواع الانحراف و الجهل و الضـلال و الخطأ عن نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أن يحبط ما وجّهه أعداؤه إليه من التّهم فى هذا الصدد.

و من أجل التأكيد على هذا الموضوع و إثبات أنّ ما يقوله هو من اللّه فإنّ القرآن يضيف قائلا: وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى

و هذا التعبير مشابه التعبير الاسـتدلالى الوارد فى الآية آنفة الذكر فى صدد نفى الضلالة و الغواية عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأنّ أساس الضلال غالبا ما يكون من اتّباع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۰۹

الهوى.

و نقرأ فى سورة ص الآية (۲۶) منها: وَ لا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

كما

ورد فى حديث معروف عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عن أمير المؤمنين: «أمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ»[۱۹۸].

و يعتقـد بعض المفسّـرين أنّ جملة ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ ناظره إلى نفى الجنون عن النّبى و جملة وَ ما غَوى ناظرة إلى نفى الشـعر عنه لأنّه ورد فى الآيـة (۲۲۴) من سورة الشـعراء قوله تعـالى: وَ الشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ (أى الشـعراء من أهل الـدنيا) و أمّا جملـة وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى فناظرة إلى نفى الكهانة، لأنّ الكهنة أفراد يعبدون الهوى.

ثمّ تأتى الآية التالية لتصرّح: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى

فهـو لا ـ يقول شـيئا من نفسه، و ليس القرآن من نسـج فكره! بـل كـلّ مـا يقوله فمن اللّه، و الـدليل على هـذا الادّعـاء كـامن فى نفسه. فالتحقيق فى آيات القرآن يكشف بجلاء أنّه لن يسـتطيع إنسان مهما كان عالما و مفكّرا- فكيف بالامّى الـذى لم يقرأ و لم يكتب فى محيـط مملوء بالخرافـات- أن يأتى بكلام غزير المحتوى كالقرآن، إذ ما يزال بعـد مضـى القرون و العهود ملهما للأفكار، و يمكنه أن يكون أساسا لبناء مجتمع صالـح مؤمن سالم! و ينبغى الالتفات- ضـمنا- إلى أنّ هذا القول ليس خاصّا بآيات القرآن، بل بقرينة الآيات

السابقة يشمل سنّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا و أنّها وفق الوحى، لأنّ هذه الآية تقول بصراحة «و ما ينطق عن الهوى».
و الحديث الطريف التالى شاهد آخر على هذا المدّعى.
يقول العلّامة السيوطى فى تفسيره الدرّ المنثور: أمر رسول اللّه يوما أن توصد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۰
جميع الأبواب المشرفة على المسجد- من بيوت الصحابة- سوى باب على فكان هذا الأمر عزيزا على المسلمين حتّى أنّ حمزة عمّ النّبى عتب عليه و قال: كيف أوصدت أبواب عمّك و أبى بكر و عمر و العبّاس؟! و تركت باب على مفتوحا «و فضّلته على الآخرين؟!» فلمّا على النّبى أنّ هذا الأمر صعب عليهم دعا الناس إلى المسجد و خطب خطبة عصماء و حمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال: «أيّها الناس ما أنا سددتها و لا أنا فتحتها و لا أنا أخرجتكم و أسكنته ثمّ قرأ: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَ ما غَوى وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى [۱۹۹].
و هذا الحديث الذى يكشف عن علوّ مقام أمير المؤمنين على بين جميع الامّة الإسلامية بعد الرّسول يدلّ على أنّه ليست أقوال النّبى طبق الوحى فحسب بل حتّى أعماله و أفعاله و تقديره و سيرته أيضا.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۱

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵ الى ۱۲]

اشارة

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (۵) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (۶) وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (۷) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (۸) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (۹)
فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (۱۰) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (۱۱) أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (۱۲)

التّفسير

أوّل لقاء مع الحبيب:

تعقيبا على الآيات المتقدّمة التى تحدّثت عن نزول الوحى على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يجرى الكلام فى هذه الآيات عن معلّم الوحى.
و لكن ينبغى قبل كلّ شىء الالتفات إلى أنّ هذه الآيات تبدو لأوّل وهلة و كأنّها محاطة بهالة من الإبهام ممّا يستلزم أن تبحث فى معطياتها و مفاهيمها بدقّة كاملة لإزالة الإبهام عنها، فتتناول أوّلا تفسيرها الإجمالى ثمّ نتناولها بالتفصيل! تقول الآية: إنّ من له تلك القدرة العظيمة هو الذى علم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى
و للتأكيد أكثر تضيف الآية بعدها إنّه ذو قدرة خارقة و متسلّط على كلّ شىء:
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۲
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى
و قد علّمه هذا التعليم عند ما كان بالأفق الأعلى: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى
ثمّ اقترب و اقترب حتّى كان بفاصلة قوسين من معلّمة أو أقل ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ثمّ أنّ اللّه تعالى أنزل عليه

الوحى فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى أَ فَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى

و هناك فى تفسير هذه الآيات نظريتان إحداهما مشهورة، و الاخرى مغمورة ...

و لكن يلزمنا أن نتناول بعض مفردات الآيات بالإيضاح ثمّ بيان التّفسيرين المختلفين.

«المرّة» .. كما يقول أرباب اللغة و أهلها معناها الفتل، و حيث أنّ الحبل كلّما فتل أكثر كان أشدّ إحكاما و قوّة .. فإنّ هذه الكلمة استعملت فى الأمور المادية أو المعنوية المحكمة و القويّة.

و قال بعض المفسّرين: المرّة مأخوذة من المرور، فمعناها العبور، لكن هذا الرأى لا ينسجم مع ما كتبه أهل اللغة فى هذا الصدد.

«تدّلى» فعل مأخوذ من التدلّى على وزن تجلّى، و معناه كما يقول الراغب فى مفرداته الاقتراب، فبناء على ذلك فهو تأكيد على جملة «دنا» الواردة قبله، و كلا الفعلين بمعنى واحد تقريبا.

على أنّ بعض المفسّرين فرّق بين الفعلين فى المعنى فقال: «التدلّى» معناه التعلّق بالشىء كتعلّق الثمر بالشجر و لذلك يقال فى الأثمار المتدلّية من أشجارها «دوالى»[۲۰۰].

«قاب» بمعنى مقدار- و «قوس» (معروف معناه) و هو ما يوضع فى وترة السهم ليرمى به فمعنى «قاب قوسين» .. قدر طول قوسين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۳

و فسّر بعضهم «القوس» بأنّه المقياس فهو مشتقّ من القياس، و حيث انّ مقياس العرب [الذراع و هو ما بين الزند و المرفق فيكون معنى «قاب قوسين» على هذا الرأى: مقدار ذراعين.

و ورد فى بعض كتب اللغة لكلمة «قاب» معنى آخر، هو الفاصلة بين محل اليد من القوس إلى نقطة انتهاء القوس.

فبناء على هذا فإنّ «قاب قوسين» معناه مجموع انحناء القوس (فلاحظوا بدقّة)[۲۰۱].

- بعد هذا كلّه لنرجع إلى التّفسيرين- فالنظرية المشهورة الاولى تقول أنّ معلّم النّبى أمين الوحى جبرئيل الذى له قدرة خارقة.

و كان يأتى النّبى بصورة رجل حسن الطلعة و يبلّغه رسالة اللّه، و ظهر للنّبى بصورته الحقيقيّة مرّتين طوال فترة رسالة النّبى و عمره الشريف.

المرّة الاولى هى ما تشير إليه الآيات محلّ البحث، إذ ظهر فى الأفق الأعلى فطبق المشرق و المغرب جميعهما، و كان عظيما حتّى أنّه هال النبى، ثمّ دنا فاقترب من النّبى فلم يكن بينهما مسافة بعيدة إلّا بمقدار ذراعين، و التعبير ب «قاب قوسين» كناية عن منتهى الاقتراب.

و المرّة الثانية- ظهر له- فى معراجه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سنبيّن ذلك فى الآيات المقبلة التى تتحدّث عن هذا الأمر بإذن اللّه.

و يرى بعض المفسّرين ممّن اختار هذه النظرية بأنّ اللقاء الأوّل الذى ظهر له جبرئيل فيها بصورته الحقيقيّة كان فى غار حراء الواقع فى جبل النور[۲۰۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۴

إلّا أنّ هذه النظرية بالرغم ممّا لها من أتباع كثيرين لا تخلو من إشكالات مهمّة:

۱- فى الآية: فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى مرجع الضمير فى «عبده» هو اللّه بلا شكّ، مع أنّه لو كان «شديد القوى» يعنى جبرئيل فإنّ جميع الضمائر فى الآيات بعده تعود عليه ... صحيح أنّه يمكن أن يعرف أنّ موضوع هذه الآية خارج عن الآيات الآخر من خلال القرائن الموجودة فيها، إلّا أنّ اضطراب السياق فى الآيات، و عدم تناسق عود الضمائر خلاف الظاهر قطعا! ۲- شَدِيدُ الْقُوى هذا التعبير الذى يعنى من له قوى خارقة إنّما يناسب ذات اللّه المقدّسة فحسب، صحيح أنّ الآية (۲۰) من سورة التكوير تعبّر عن جبرئيل ب ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ إلّا أنّ بين شَدِيدُ الْقُوى الواسع فى مفهومه و بين «ذى قوّة» المذكورة فيه كلمة «قوّة» بصيغة التنكير و الإفراد فرقا كبيرا.

۳- جاء فی الآیات التالیة أنّ النّبی رآه «عند سدرة المنتهی» (فی السماء العلیا) و لو کان المقصود منه جبرئیل فهو کان مع النّبی فی معراجه من بدایة المعراج إلی المنتهی، و لم یره النّبی عند سدرة المنتهی فحسب .. إلّا أن یقال رآه فی الأرض بصورة بشر و فی السماء بصورته الحقیقیّة .. و لا قرینة علی ذلک فی الآیات.

۴- التعبیر ب «علّمه»- و أمثاله لم یرد فی القرآن فی شأن جبرئیل أبدا، بل هو فی شأن تعلیم اللّه نبیّه محمّدا و أنبیاءه الآخرین، و بتعبیر آخر فإنّ جبرئیل لم یکن معلّم النّبی محمّد، بل أمین وحیه، و معلّمه اللّه فحسب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۵

۵- صحیح أنّ جبرئیل ملک له مقام رفیع، إلّا أنّه من المقطوع به أنّ مقام النّبی أعلی منه شأنا: کما ورد فی قصّة المعراج أنّه کان یصعد- فی المعراج- مع النّبی فوصلا إلی نقطة فتوقّف جبرئیل عن الصعود و قال للنبی:

«لو دنوت قید أنملة لاحترقت»

إلّا أنّ النّبی واصل سیره و صعوده!.

فمع هذه الحال فإنّ رؤیة جبرئیل فی صورته الأصلیة لا تتناسب و الأهمیّة المذکورة فی هذه الآیات، و بتعبیر أکثر بساطة: لم تکن رؤیة النّبی لجبرئیل علی تلک الأهمیّة .. فمع أنّ هذه الآیات اهتمّت بهذه الرؤیة اهتماما بالغا! ۶- جملة: ما کَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأی هی أیضا دلیل علی الرؤیة القلبیة لا البصریة الحسّیة لجبرئیل.

۷- ثمّ بعد هذا کلّه فما ورد من الرّوایات عن أهل البیت لا یفسّر هذه الآیات بأنّها فی رؤیة النّبی لجبرئیل، بل الرّوایات موافقة للتفسیر الثانی القائل بأنّ المراد من هذه الآیات الرؤیة الباطنیة (القلبیة) لذات اللّه المقدّسة التی تجلّت للرسول و تکرّرت فی المعراج و اهتزّ لها النّبی و هالته ۲۰۳].

ینقل الشیخ الطوسی فی أمالیه عن ابن عبّاس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «لمّا عرج بی إلی السماء دنوت من ربّی عزّ و جلّ حتّی کان بینی و بینه قاب قوسین أو أدنی»[۲۰۴].

و

ینقل الشیخ الصدوق رحمه اللّه فی علل الشرائع المضمون ذاته عن هشام بن الحکم عن الإمام موسی بن جعفر علیه السّلام من حدیث طویل أنّه قال: «فلمّا أسری بالنّبی و کان من ربّه کقاب قوسین أو أدنی رفع له حجاب من حجبه»[۲۰۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۶

و فی تفسیر علی بن إبراهیم ورد أیضا: «ثمّ دنا- یعنی رسول اللّه- من ربّه عزّ و جلّ»[۲۰۶] و قد ورد هذا المعنی فی روایات متعدّدة و لا یمکن عدم الاکتراث بهذا المعنی.

کما ورد هذا المعنی فی روایات أهل السنّة، إذ نقل صاحب «الدّر المنثور» ذلک عن ابن عبّاس من طریقین ۲۰۷].

فمجموع هذه القرائن یدعونا إلی إختیار التّفسیر الثانی القائل بأنّ المراد من «شدید القوی» هو اللّه، و أنّ النّبی کان قد اقترب من اللّه تعالی أیضا.

و یبدو أنّ ما دعا أغلب المفسّرین إلی الإعراض عن هذا التّفسیر (الثانی) و أن یتّجهوا إلی التّفسیر (الأوّل) هو أنّ هذا التّفسیر فیه رائحة التجسّم، و وجود مکان للّه، مع أنّه من المقطوع به أنّه لا مکان له و لا جسم: لا تُدْرِکُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصارَ،[۲۰۸] فَأَیْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ [۲۰۹] وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ ۲۱۰] و لعلّ مجموع هذه المسائل أیضا جعل بعض المفسّرین یظهر عجزه عن تفسیر هذه الآیات و یقول: هی من أسرار الغیب الخفیّة علینا.

قیل أنّهم سألوا بعض المفسّرین عن تفسیر هذه الآیات فقال: إذا کان جبرئیل غیر قادر علی بلوغ ذلک المکان فمن أنا حتّی أدرک معناه ۲۱۱]؟! و لکن بملاحظة أنّ القرآن کتاب هدایة و هو نازل لیتدبّر الناس و یتفکّروا فی آیاته فقبول هذا المعنی مشکل أیضا.

إلّا أنّنا إذا أخذنا بنظر الإعتبار أنّ المراد من هذه الآيات هو نوع من الرؤية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۷

الباطنية و القرب المعنوى الخاصّ فلا تبقى أيّة مشكلة حينئذ.

توضيح ذلك: ممّا لا شكّ فيه أنّ الرؤية الحسّية للّه غير ممكنة لا فى الدنيا و لا فى الاخرى .. لأنّ لازمها جسمانيّته و ماديّته، و لازم ذلك أيضا تغيّره و تحوّله و فساده و أنّه يحتاج إلى الزمان و المكان، و هو مبرّأ عن كلّ ذلك لأنّه واجب الوجود.

إلّا أنّ اللّه سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية و القلبية، و هو ما أشار إليه أمير المؤمنين فى جوابه على «ذعلب اليمانى»:

«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان و لكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[۲۱۲].

لكن ينبغى الالتفات إلى أنّ الرؤية الباطنية على نحوين: رؤية عقلانية و تحصل عن طريق الاستدلال. و اخرى رؤية قلبية، و هى إدراك فوق إدراك العقل و رؤية وراء رؤيته! هذا المقام لا ينبغى أن يدعى بمقام الاستدلال، بل هو المشاهدة، مشاهدة قلبية باطنية، و هذا المقام يحصل لأولياء اللّه على درجاتهم المتفاوتة و سلسلة مراتبهم .. لأنّ الرؤية الباطنية هى على مراتب أيضا و لها درجات كثيرة، و بالطبع فإنّ إدراك حقيقتها لمن لم يبلغ ذلك المقام فى غاية الصعوبة.

و من الآيات المتقدّمة بما فيها من قرائن مذكورة يمكن أن يستفاد أنّ نبى الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الوقت الذى كان ذا مقام مشهود و فى مقام الشهود، فإنّه بلغ الأوج فى طول عمره مرّتين فنال الشهود الكامل:

الأوّل: يحتمل أنّه كان فى بداية البعثة، و الثانى فى المعراج، فبلغ مقاما قريبا من اللّه و تكشّفت عنه الحجب الكثيرة، مقاما عجز عن بلوغه حتّى جبرئيل الذى هو من الملائكة المقرّبين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۸

و واضح أنّ تعابير مثل «فكان قاب قوسين أو أدنى» و أمثال ذلك إنّما هو كناية عن شدّة القرب، و إلّا فإنّ اللّه ليس بينه و بين عبده فاصلة مكانية لتقاس بالقوس أو الذراع، و «الرؤية» فى الآيات- هنا- ليست رؤية بصرية أيضا، بل الباطنية القلبية.

و فى البحوث السابقة فى تفسير «لقاء اللّه» الوارد فى آيات متعدّدة على أنّه من ميزات يوم القيامة مرارا قلنا إنّ هذا اللقاء على خلاف ما يتصوّر أصحاب الأفكار القصيرة، و العقول الضيّقة بأنّه لقاء حسّى و مادّى، بل هو نوع من الشهود الباطنى و إن كان فى المراحل الدنيا و لا يصل إلى مراحل لقاء الأنبياء و الأولياء للّه، فكيف بمرحلة شهود النّبى الكامل ليلة المعراج!! و مع ملاحظة هذا التوضيح تزول الإشكالات على هذا التّفسير، و إذا روعيت بعض التعابير المخالفة للظاهر فلم تعامل بالمنطق الضيق و فسّرت بما وراء المسائل المادية فما يرد من إشكالات على هذا التّفسير لا يعدّ شيئا مهمّا بالقياس إلى ما يرد من إشكالات على التّفسير الأوّل ..

فمع الالتفات إلى ما قلناه نمرّ مرورا جديدا على الآيات محلّ البحث و نعالج مضمونها من هذا المنطلق و المنظار! فعلى هذا التّفسير يبيّن القرآن نزول الوحى على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصورة التالية.

إنّ اللّه الذى هو شديد القوى علّم النّبى فى وقت بلغ حدّ الكمال و الاعتدال فى الأفق الأعلى ۲۱۳].

ثمّ قرب و صار أكثر اقترابا حتّى كان بينه و بين اللّه مقدار قاب قوسين أو أقل و هناك أوحى اللّه إليه ما أوحاه.

و حيث أنّ هذا اللقاء الباطنى يصعب تصوّره لدى البعض، فانّه يؤكّد أنّ ما رآه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۱۹

قلب النّبى كان حقّا و صادقا و لا ينبغى تكذيبه أو مجادلته.

و كما بيّنا فإنّ تفسير هذه الآيات بشهود النّبى الباطنى للّه تعالى هو أكثر صحّة و أكثر انسجاما و موافقة للرّوايات الإسلامية، و أكرم فضيلة للنبى، و مفهومها أجمل و ألطف، و اللّه أعلم بحقائق الأمور[۲۱۴].

و نختم هذا البحث بحديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آخر عن على عليه السّلام.

۱-

سئل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «هل رأیت ربّک؟ فأجاب: «رأیته بفؤادی»[۲۱۵].

۲- و

فی خطبة الإمام علی (۱۷۹) فی نهج البلاغة إذ سأله ذعلب الیمانی: هل رأیت ربّک یا أمیر المؤمنین؟ فأجاب: «أ فأعبد ما لا أراه ..» ثمّ أشار سلام اللّه علیه بتفصیل ما بیّنه آنفا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۰

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۱۳ الی ۱۸]

اشارة

وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْری (۱۳) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهی (۱۴) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوی (۱۵) إِذْ یَغْشَی السِّدْرَةَ ما یَغْشی (۱۶) ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی (۱۷)

لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری (۱۸)

التّفسیر

الرّؤیة الثّانیة:

هذه الآیات هی أیضا تتمّة للأبحاث السابقة فی شأن مسألة الوحی و ارتباط النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باللّه و الشهود الباطنی.

إذ تقول: وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْری أی مرّة ثانیة، و کان ذلک عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهی أی عند شجرة سدر فی الجنّة تدعی بسدرة المنتهی و محلّها فی جنّة المأوی عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوی إِذْ یَغْشَی السِّدْرَةَ ما یَغْشی

هذه حقائق واقعیّة شاهدها النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بامّ عینیه و ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغی ۲۱۶] لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۱

و کما نلاحظ فی هذه الآیات فإنّ البدو الإبهامی الذی کان یحیط الآیات المتقدّمة یحیط هذه الآیات أیضا التی تتضمّن ظلالا من المواضیع السابقة، و من أجل أن نفهم مفاد هذه الآیات لا بدّ من الرجوع إلی مفرداتها اللغویة أیضا.

النزلة: هی النّزول مرّة واحدة، فالنزلة الاخری تعنی نزولا آخر، و یستفاد من هذا التعبیر أنّه حدثت نزلتان، و هذا الموضوع یتعلّق بالنزلة الثانیة[۲۱۷].

و السدرة: علی وزن حرفة- طبقا لتفسیر أغلب علماء اللغة هی شجرة وریقة و ریفة الظلال و التعبیر ب سِدْرَةِ الْمُنْتَهی إشارة إلی شجرة و وریقة ذات ظلال و ریفة فی أوج السماوات فی منتهی ما تعرج إلیه الملائکة و أرواح الشهداء و علوم الأنبیاء و أعمال الناس. و هی مستقرّة فی مکان لا تستطیع الملائکة أن تتجاوزه ..

و حین بلغ جبرئیل أیضا فی معراجه مع النّبی إلی ذلک المکان توقّف عنده و لم یتجاوزه! و رغم أنّه لم یرد توضیح عن سدرة المنتهی فی القرآن الکریم، إلّا أن الأخبار و الرّوایات الإسلامیة ذکرت لها أوصافا کثیرة .. و جمیعها کاشف عن أنّ انتخاب هذا التعبیر هو لبیان نوع من التشبیه و لغاتنا قاصرة عن بیان مثل هذه الحقائق الکبری.

ففی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «رأیت علی کلّ ورقة من أوراقها ملکا قائما یسبّح اللّه تعالی»[۲۱۸].

كما

جاء عن الإمام الصادق عليه السّلام نقلا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «انتهيت إلى سدرة المنتهى و إذا الورقة منها تظلّ امّة من الأمم»[۲۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۲

و هذه التعابير تشير إلى أنّ المراد من هذه الشجرة ليس كما نألفه من الأشجار المورقة و الباسقة على الأرض أبدا، بل إشارة إلى ظلّ عظيم فى جوار رحمة اللّه و هناك محلّ تسبيح الملائكة و مأوى الأمم الصالحة.

أمّا جَنَّةُ الْمَأْوى فمعناها الجنّة التى يسكن فيها[۲۲۰] و هناك أقوال فى ما هو المراد من هذه الجنّة؟! فبعضهم قال بأنّها «جنّة الخلد» التى أعدّت للمتّقين المؤمنين و مكانها فى السماء، و الآية (۱۹) من سورة السجدة، دليلهم على مدّعاهم فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ .. فهذه الآية بقرينة ما بعدها تتحدّث عن جنّة الخلد- و لا شكّ أنّها تتحدّث عن جنّة الخلد.

إلّا أنّنا نجد فى آية اخرى قوله: وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ [۲۲۱] فاحتمل بعض المفسّرين أنّ جنّة المأوى التى فى السماء غير جنّة الخلد التى عرضها السماوات و الأرض.

لذلك فقد فسّر بعضهم «جنّة المأوى» بأنّها مكان خاصّ فى جنّة الخلد، و هى قريبة من سدرة المنتهى و معدّة للمخلصين! و ربّما فسّرها بعضهم بأنّها «جنّة البرزخ» التى تحلّ فيها أرواح الشهداء و المؤمنين بصورة مؤقتة.

و يبدو أنّ التّفسير الأخير أنسب التفاسير و أقربها، و ممّا يدلّ عليه بجلاء أنّنا نقرأ فى كثير من الرّوايات الواردة فى المعراج أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رأى جماعة متنعّمين فى الجنّة، مع أنّنا نعرف أنّه لن يدخل جنّة الخلد أحد قبل يوم القيامة، لأنّ آيات القرآن تشير بوضوح أنّ المتّقين يدخلون الجنان بعد الحساب [فى يوم القيامة] لا بعد الموت مباشرة و أنّ أرواح الشهداء أيضا فى جنّة برزخية لأنّهم أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۳

لا يدخلون جنّة الخلد قبل يوم القيامة.

و الآية: ما زاغَ الْبَصَرُ وَ ما طَغى إشارة إلى أنّ بصر النبى، و أنّ عينيه الكريمتين لم تميلا يمنة و لا يسرة و لم تجاوزا حدّهما، و ما رآه النّبى بعينيه هو عين الواقع، لأنّ «زاغ» من مادّة زيغ معناه الانحراف يمينا أو شمالا، و «طغى» من الطغيان، معناه التجاوز عن الحدّ، و بتعبير آخر إنّ الإنسان حين يرى شيئا فيخطئ رؤيته و لا يلتفت إليه بدقّة فإمّا أنّه يلتفت يمنة و يسرة أو إلى ما ورائه ۲۲۲].

و الآن و حيث فرغنا من تفسير مفردات الآى نعود إلى التّفسير العامّ للآيات.

نعود مرّة اخرى إلى النظريتين فى تفسير الآية.

فقال جماعة من المفسّرين بأنّ الآيات ناظرة إلى مشاهدة النّبى للمرّة الثانية جبرئيل فى صورته الحقيقيّة عند نزوله من المعراج عند سدرة المنتهى و لم يزغ بصره فى رؤية الملك و لم يخطئ أبدا.

و النّبى رأى فى هذه الحال بعضا من آيات اللّه الكبرى، و المقصود بها هى رؤية جبرئيل فى صورته الواقعية، أو بعض آيات السماء فى عظمتها و عجائبها، أو كلتيهما.

إلّا أنّ الإشكالات الواردة على التّفسير السابق ما تزال باقية هنا، بل تضاف إلى تلك الإشكالات إشكالات أخر و منها:

إنّ التعبير ب نَزْلَةً أُخْرى حسب هذا التّفسير ليس فيه مفهوم واضح، لكن بحسب التّفسير الثانى يكون المعنى إنّ النّبى رأى اللّه فى شهود باطنى عند معراجه فى السماء، و بتعبير آخر نزل اللّه مرّة اخرى على قلب النّبى و تحقّق الشهود الكامل فى (المنتهى إليه) القريب إلى اللّه من عباده عند سدرة المنتهى حيث جنّة المأوى و السدرة تغطّيها حجب من أنوار اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۴

و رؤيـة قلب النّبى فى هـذا الشـهود لم تكن بغير الحقّ أبدا، و لم ير سواه، و لقد رأى من دلائل عظمة اللّه فى الآفاق و الأنفس أيضا و شاهدها بعينيه.

و مسألة الشـهود الباطنى كما أشرنا إليها من قبل هى نوع من الإدراك أو الرؤية التى لا تشبه الإدراكات العقلية و لا الإدراكات الحسيّة التى يدركها الإنسان بواسطة الحواس الظاهرة، و لعلّه يشبه من بعض الجهات بعلم الإنسان بوجود نفسه و أفكاره و تصوّراته.

توضـيح ذلك .. انّنا نوقن بوجود أنفسـنا و نـدرك أفكارنا و نعرف إرادتنا و ميولنا النفسيّة، إلّا أنّ مثل هـذه المعرفة لم تحصل لا عن طريق الاستدلال و لا عن طريق المشاهدة الظاهرية بل هى نوع من الشهود الباطنى لنا، و عن هذا الطريق وقفنا على وجودنا و روحياتنا.

و لذلك فإنّ العلم الحاصل عن الشـهود الباطنى لا يقع فيه الخطأ، لأنّه لم يحصل عن طريق الاستدلال الذى قد يقع الخطأ فى مقدّماته، و لا عن طريق الحسّ الذى قد يقع الخطأ فيه بواسطة الحواس.

صحيـح أنّنـا لا نسـتطيع أن نكشف حقيقـة الشـهود الـذى حصل للنبى ليلـة المعراج فى رؤيته اللّه عزّ و جلّ إلّا أنّ المثال الـذى ذكرناه مناسب للتقريب ..

و الرّوايات الإسلامية بدورها خير معين لنا فى هذا الموضوع.

بحوث

۱- المعراج حقيقة مقطوع بها

لا خلاف بين علماء الإسـلام فى أصل معراج النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فالآيات تشـهد على ذلك سواء فى هـذه السورة محل البحث أو فى بداية سورة الإسراء، و كذلك الرّوايات المتواترة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۵

غاية ما فى الأمر أنّ بعض المفسّـرين و لأحكامهم المسـبّقة لم يسـتطيعوا أن يتقبّلوا صـعود النّبى بجسده و روحه إلى السـماء، ففسّـروه بالمعراج الروحانى و ما يشـبه حالـة الرؤيا و المنام!! مع أنّ هذا الصـعود أو المعراج الجسـمانى للنبى لا إشـكال فيه عقلا و لا من ناحية العلوم المعاصرة، و قد بيّنا تفصيل هذا الموضوع فى تفسير سورة الإسراء بشكل مبسّط!.

فبناء على هذا لا داعى للإعراض عن ظاهر الآيات و صريح الرّوايات لمجرّد الاستبعاد ..

ثمّ بعـد هـذا كلّه فالتعابير فى الآيات هـذه تشـير إلى أنّ جماعة جادلوا فى هذه المسألة، و التاريخ يقول أيضا إنّ مسألة المعراج أثارت نقاشا حادّا بين المخالفين! فلو أنّ النّبى كان يدّعى المعراج الروحانى و ما يشبه الرؤيا لم يكن لهذا النقاش محلّ من الإعراب.

۲- ما هو الهدف من المعراج؟

الهدف من المعراج هو بلوغ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم مرحلة الشهود الباطنى من جهة، و رؤية عظمة اللّه فى السماوات بالبصر الظاهرى من جهة اخرى و التى أشارت إليه آخر آية من الآيات محلّ البحث: لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى

و فى الآية الاولى من سورة الإسـراء: لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا و الاطلاع على مسائل مهمّة- كثيرة- كأحوال الملائكة و أهل الجنّة و أهل النار و أرواح الأنبياء و التى كانت مصدر إلهام للنبى طوال عمره الشريف فى تعليم و تربية الناس.

۳- المعراج و الجنّة

یستفاد من الآیات- محلّ البحث- أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرّ بالجنّة لیلة المعراج و دخلها، و سواء أ کانت هذه الجنّة هی جنّة الخلد کما قال بها جماعة من المفسّرین أو جنّة البرزخ کما اخترناه، فإنّ النّبی علی أیّة حال- رأی مسائل مهمّة من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۶

مستقبل الناس فی هذه الجنّة، و قد جاء بیان ذلک فی الرّوایات الإسلامیة، و سنشیر إلی قسم منها.

۴- المعراج فی الرّوایات الإسلامیة:

من جملة المسائل المهمّة فی قضیّة المعراج و التی کان لها دور مهمّ فی إثارة التشکیکات من قبل البعض فی أصل قضیّة المعراج هو وجود روایات ضعیفة أو مدسوسة ضمن روایاته حتّی أنّ العلّامة الطبرسی قال: یمکن تقسیم روایات المعراج إلی أربعة أقسام:

أ- الرّوایات القطعیّة لتواترها «کأصل مسألة المعراج».

ب- الرّوایات المنقولة من مصادر معتبرة، و هی مشتملة علی مسائل لا مانع عقلا من قبولها کالرّوایات الحاکیة عن مشاهدة النّبی لکثیر من آیات عظمة اللّه فی السماوات! ج- الرّوایات التی لا یتنافی ظاهرها مع ما لدینا من الأصول المستقاة من آیات القرآن و الرّوایات الإسلامیة المقطوع بها .. إلّا أنّها مع ذلک تقبل التوجیه، کالرّوایات القائلة بأنّ النّبی رأی جماعة من أهل الجنّة ینعمون فی الجنّة و جماعة من أهل النار یعذّبون فیها «فینبغی أن تؤول بأنّ المراد من الجنّة و النار هو جنّة البرزخ و ناره» .. حیث أنّ أرواح المؤمنین و الشهداء فی الاولی متنعّمة و أرواح الکفّار و المشرکین فی الثانیة «معذّبة»[۲۲۳].

د- الرّوایات المشتملة علی مطالب باطلة و عاریة عن الصحّة و محتواها یدلّ علی أنّها مدسوسة أو مجعولة، کالرّوایات القائلة بأنّ النّبی رأی اللّه بعینیه و بصره

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۷

الظاهری أو تکلّم معه أو شاهده، فهذه الرّوایات و أمثالها مجعولة قطعا، إلّا أن تفسّر بالشهود الباطنی.

بعد ملاحظة هذا التقسیم نلقی الضوء علی روایات المعراج، حیث یستفاد من مجموع هذه الرّوایات أنّ النّبی واصل معراجه إلی السماء خلال مراحل عدیدة.

۱- المرحلة الاولی: و هی ما بین المسجد الحرام و المسجد الأقصی و قد أشیر إلیها فی الآیة الاولی من سورة الإسراء: سُبْحانَ الَّذِی أَسْری بِعَبْدِهِ لَیْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الْأَقْصَی

و تقول بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نزل فی المدینة أثناء إسرائه مع جبرئیل فصلّی بها[۲۲۴].

کما صلّی أیضا فی المسجد الأقصی مع أرواح الأنبیاء العظام کإبراهیم و موسی و عیسی علیهم السّلام، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إمامهم فی الصلاة، ثمّ بدأ المعراج إلی السماوات السبع ۲۲۵] فجابهنّ سماء بعد سماء و واجه فی کلّ سماء مشاهد جدیدة، فالتقی الملائکة و النبیین فی بعضها، و الجنّة و أهلها فی بعضها، و النار و أهلها فی بعضها، و حمل من کلّ فی خاطره و روحه ذکریات قیّمة، و شاهد فی عجائب کلّ واحدة منها رمز من رموز عالم الوجود و سرّ من أسراره، و بعد عودته ذکرها لامّته صراحة أحیانا و بالکنایة أو المجاز أحیانا، و کان یستلهم منها لتربیة أمّته و تعلیمه بکثرة.

و هذا الأمر یدلّ علی أنّ واحدا من أهداف هذا السفر السماوی الاستفادة من النتائج العرفانیّة و التربویة لهذه المشاهدات، و التعبیر القرآنی الغزیر لَقَدْ رَأی مِنْ آیاتِ رَبِّهِ الْکُبْری فی هذه الآیات محلّ البحث یمکن أن یکون إشارة إجمالیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۸

لجمیع هذه الأمور.

و کما ذکرنا آنفا فإنّ الجنّة و النار اللتین رآهما النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی معراجه و الأشخاص الذین کانوا منعّمین أو معذّبین فیهما لم تکونا جنّة القیامة و نارها، بل هما جنّة البرزخ و ناره، لأنّه کما أشرنا سابقا طبقا لآیات القرآن فإنّ الجنّة و النار تکونان بعد یوم القیامة و الفراغ من الحساب معدّتین للمتّقین و المسیئین.

و أخیرا وصل النّبی إلی السماء السابعة و رأی حجبا من النور هناک حیث «سدرة المنتهی» و «جنّة المأوی» و بلغ النّبی هناک و فی العالم النورانی أوج الشهود الباطنی و القرب إلی اللّه قاب قوسین أو أدنی ... و خاطبه اللّه هناک و أوحی إلیه تعالیم مهمّة و أحادیث کثیرة نراها الیوم فی الرّوایات الإسلامیة تحت عنوان الأحادیث القدسیّة، و سنعرض قسما منها بإذن اللّه فی الفصل المقبل.

الطریف هنا هو أنّ الرّوایات الکثیرة تصرّح بأنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی أخاه و ابن عمّه علیا فی مراحل مختلفة من معراجه بصورة مفاجئة، و ما نجده من التعابیر فی هذه الرّوایات کاشف عن مدی مقام علی و فضله بعد النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و علی الرغم من کثرة الرّوایات فی شأن المعراج فهناک تعابیر مغلقة ذات أسرارا لیس من الهیّن کشف محتواها و هی کما یصطلح علیها من الرّوایات المتشابهة .. أی الرّوایات التی ینبغی إحالة تفسیرها علی أهل بیت العصمة! (لمزید الاطلاع تراجع الرّوایات فی هذا الصدد بالجزء ۱۸ من بحار الأنوار من الصفحة ۲۸۲ إلی ۴۱۰).

و قد ذکرت کتب أهل السنّة روایات المعراج بشکل موسّع بحیث نقل ثلاثون راویة من رواتهم حدیث المعراج ۲۲۶].

و هنا ینقدح السؤال التالی و هو: کیف تمّ کلّ هذا السفر الطویل و هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۲۹

المشاهدات العجیبة و المتنوّعة و الأحداث الطویلة فی لیلة واحدة، بل فی جزء منها؟! و لکن یتّضح الجواب علی السؤال بملاحظة أنّ سفر المعراج لم یکن سفرا بسیطا کالمعتاد حتی یقاس بالمعابیر المعتادة! فلا السفر کان طبیعیّا و لا وسیلته و رکوبه و لا مشاهده و لا أحادیثه و لا المعابیر الواردة فیها کمعاییرنا المحدودة و الصغیرة علی کرتنا الأرضیة فکلّ شیء کان فی المعراج خارقا للعادة! و کان وفق مقاییس خارجة عن زماننا و مکاننا.

فبناء علی هذا لا مجال للعجب أن تقع کلّ هذه الأمور بمقیاس لیلة أو أقل من لیلة من مقاییس- الکرة الأرضیة- الزمانیة [فلاحظوا بدقّة].

۵- جانب من إیحاءات اللّه و کلماته لرسوله فی لیلة المعراج:

وردت فی کتب الأحادیث روایة عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الشأن «المعراج» و هی مفصّلة و طویلة نذکر جانبا منها و فیها مطالب تکشف عن أحداث و أحادیث تلک اللیلة التأریخیة و کیف إنّها بلغت أوج السمو و الرفعة.

و نقرأ فی بدایة

الحدیث أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سأل اللّه سبحانه: یا ربّ أیّ الأعمال أفضل؟! فقال تعالی: «لیس شیء عندی أفضل من التوکّل علیّ و الرضا بما قسمت، یا محمّد! وجبت محبّتی للمتحابّین فیّ و وجبت محبّتی للمتعاطفین فیّ و وجبت محبّتی للمتواصلین فیّ، و وجبت محبّتی للمتوکّلین علیّ و لیس لمحبّتی علم و لا غایة و لا نهایة.

و هکذا تبدأ الأحادیث من المحبّة، المحبّة الشاملة و الواسعة، و أساسا فإنّ عالم الوجود یدور حول هذا المحور!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۰

و جاء فی جانب آخر: «

یا أحمد[۲۲۷] فاحذر أن تکون مثل الصبی إذا نظر إلی الأخضر و الأصفر أحبّه و إذا اعطی شیء من الحلو و الحامض اغترّ به، فقال: یا ربّ دلّنی علی عمل أتقرّب به إلیک قال: اجعل لیلک نهارا و نهارک لیلا قال: ربّ و کیف ذلک؟ قال: اجعل نومک صلاة و طعامک الجوع.

کما جاء فی مکان آخر منه:

یا أحمد محبّتی محبّة للفقراء فادن الفقراء و قرّب مجلسهم منک ادنک و بعد الأغنیاء و بعد مجلسهم منک فإنّ الفقراء أحبّائی.

و جاء فی موضع آخر أیضا:

یا أحمد أبغض الدنیا و أهلها و أحبّ الآخرة و أهلها قال یا ربّ و من أهل الدنیا و من أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنیا من کثر أکله و ضحکه و نومه و غضبه قلیل الرضا لا یعتذر إلی من أساء إلیه و لا یقبل معذرة من اعتذر إلیه، کسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصیة، أمله بعید و أجله قریب، لا یحاسب نفسه قلیل المنفعة کثیر الکلام، قلیل الخوف، کثیر الفرح عند الطعام و إنّ أهل الدنیا لا یشرکون عند الرخاء و لا یصبرون عند البلاء، کثیر الناس عندهم قلیل یحمدون أنفسهم بما لا یفعلون، و یدّعون بما لیس فیهم، و یتکلّمون بما یتمنّون و یذکرون مساوئ الناس و یخفون حسناتهم.

قال: یا ربّ، هل یکون سوی هذا العیب فی أهل الدنیا، قال: یا أحمد إنّ عیب أهل الدنیا کثیر فیهم، الجهل و الحمق، لا یتواصفون لمن یتعلّمون منه، و هم عند أنفسهم عقلاء و عند العارفین حمقاء.

ثمّ یتناول الحدیث أهل الجنّة فیقول:

یا أحمد إنّ أهل الخیر و أهل الآخرة رقیقة وجوههم کثیر حیاؤهم قلیل حمقهم،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۱

کثیر نفعهم، الناس منهم فی راحة و أنفسهم منهم فی تعب کلامهم موزون، محاسبین لأنفسهم، متعبین لها، تنام أعینهم و لا تنام قلوبهم أعینهم باکیة و قلوبهم ذاکرة، إذا کتب الناس فی الغافلین کتبوا من الذاکرین، فی أوّل النعمة یحمدون و فی آخرها یشکرون دعاؤهم عند اللّه مرفوع، و کلامهم مسموع، تفرح الملائکة بهم، الناس (الغفلة) عندهم موتی و اللّه عندهم حی قیّوم «و همّتهم عالیة فلا ینظرون إلّا إلیه» قد صارت الدنیا و الآخرة عندهم واحدة یموت الناس مرّة و یموت أحدهم فی الیوم سبعین مرّة «و یحیا حیاة جدیدة» من مجاهدة أنفسهم و مخالفة هواهم.

و إن قاموا بین یدی کأنّهم البنیان المرصوص لا أری فی قلبهم شغلا لمخلوق ... فوعزّتی و جلالی لأحیینّهم حیاة طیبة إذا فارقت أرواحهم أبدانهم و لا أسلّط علیهم ملک الموت و لا یلی قبض روحهم غیری و لأفتحنّ لروحهم أبواب السماء کلّها و لأرفعنّ الحجب کلّها دونی، و لآمرنّ الجنان فلتزیننّ.

یا أحمد إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذا طیّبت مطعمک و مشربک فأنت فی حفظی و کنفی.

و جاء فی مکان آخر منه:

یا أحمد هل تدری أیّ عیش أهنا و أیّ أبقی؟ قال اللهمّ لا، قال: أمّا العیش الهنیء فهو الذی لا یغترّ صاحبه عن ذکری و لا ینسی نعمتی و لا یجهل حقّی، یطلب رضای فی لیله و نهاره.

و أمّا الحیاة الباقیة فهی التی یعمل لنفسه حتّی تهون علیه الدنیا و تصغر فی عینه و تعظم الآخرة عنده و یؤثر هوای علی هواه و یبتغی

مرضاتى و يعظّم حقّ عظمتى و يذكر علمى به و يراقبنى بالليل و النهار عند كلّ سيّئة أو معصية و ينقّى قلبه عن كلّ ما أكره و يبغض الشيطان و وساوسه و لا يجعل لإبليس على قلبه سلطانا ... فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّا حتّى أجعل قلبه لى و فراغه و اشتغاله و همّه و حديثه من النعمة التى أنعمت على أهل محبّتى من خلقى .. و افتح عين قلبه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۲

و سمعه حتّى يسمع بقلبه و ينظر بقلبه إلى جلالى و عظمتى «و حقائق الغيب».

و أخيرا فإنّ هذا الحديث القدسى الكريم يختتم بهذه العبارات المؤثرة! ..

يا أحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء و الأرض و يصوم صيام أهل السماء و الأرض و يطوى من الطعام مثل الملائكة، و لبس لباس العارى ثمّ أرى فى قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سعتها أو رئاستها أو حليّها أو زينتها لا يجاورنى فى دارى و لأنزعنّ من قلبه محبّتى و عليك سلامى و رحمتى و الحمد للّه ربّ العالمين»[۲۲۸].

هذه الأحاديث القدسيّة «من ربّ العرش» التى تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها و تعرج به إلى حالة الشهود هى قسم من الحديث القدسى المشار إليه آنفا.

و نضيف إلى ذلك أنّنا على يقين أنّه كان بين النّبى و محبوبه فى تلك الليلة الكريمة أسرار و إشارات و كلمات اخرى لا تستطيع الآذان الإصغاء إليها و لا الأفكار الساذجة استيعابها ... و لذلك بقيت فى نفس النّبى طىّ الكتمان فلم يبح بها لأحد إلّا لخلصائه المختصّين به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۳

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۱۹ الى ۲۳]

اشارة

أَ فَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَ الْعُزَّى (۱۹) وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (۲۰) أَ لَكُمُ الذَّكَرُ وَ لَهُ الْأُنْثى (۲۱) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (۲۲) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (۲۳)

التّفسير

هذه الأصنام وليدة أهوائكم:

بعد بيان الأبحاث المتعلّقة بالتوحيد و الوحى و المعراج و آيات عظمة الواحد الأحد فى السماء، يتناول القرآن أفكار المشركين، فينقضها و يتحدّث عن معتقداتهم الخرافية .. فيقول: بعد أن أدركتم عظمة اللّه و آياته فى خلقه فهل أنّ أصنامكم مثل اللات و العزّى و الصنم الثالث و هو «مناة» بإمكانها أن تنفعكم أو تضرّكم: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ۲۲۹]؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۴

مع أنّكم تزعمون أنّ قيمة البنت دون قيمة الولد و لو بلغكم أنّ أزواجكم أنجبن بنات حزنتم و اسودّت وجوهكم!! تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى ۲۳۰] فهذه قسمة غير عادلة بينكم و بين اللّه تعالى فعلام تجعلون نصيب اللّه دون نصيبكم؟! و هكذا يتناول القرآن أفكارهم الخرافية مستهزئا بها! و يقول لهم: إنّكم ترون البنت عارا و ذلّة و تئدونها و هى حيّة فى القبر، و فى الوقت ذاته تزعمون بأنّ الملائكة بنات اللّه، و لا تعبدون الملائكة من دون اللّه فحسب بل تصنعون لها التماثيل و تجعلون لها تلك القدسيّة! و تسجدون لها و تلتجئون

إليها لحلّ مشاكلكم و تطلبون حوائجكم منها، و ذلك مثار للسخرية و الاستهزاء حقّا!.

و من هنا يبدو واضحا أنّ العرب الجاهليين كانوا يعبدون بعض هذه الأصنام على الأقل على أنّها تماثيل الملائكة، الملائكة التى يسمّون كلّا منها بربّ النوع و مدير الوجود و مدبّره، و كانوا يرون أنّ الملائكة بنات اللّه!! فحين تقرن هذه الخرافات إلى خرافة اخرى و هى نظرتهم عن البنت فإنّ التضادّ العجيب الواقع بين هذه الخرافات بنفسه خير شاهد على سخافة هذه المعتقدات، و كم هو طريف أن يبطل القرآن جميع تلك الخرافات بعدّة جمل قصيرة و موجزة و يفضحها ساخرا بها.

و من هنا يتبيّن أنّ القرآن لا ـ يقصد إمضاء ما كان عليه العرب من التفريق بين الذكر و الأنثى، بل يريد بيان ما هو مقبول و مسلّم عندهم (و هو منطق الجدل)، و إلّا فلا فرق فى نظر الإسلام و منطقه بين الذكر و الأنثى من حيث القيمة الإنسانية، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۵

الملائكة فيهم ذكر و أنثى، و لا ـ هم بنات اللّه، و ليس عند اللّه من ولد أساس، فهذه افتراضات لا أساس لها .. إلّا أنّ هذا الردّ خير جواب لمن يعتقد بهذه الخرافات.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث يقول القرآن بضرس قاطع: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ۲۳۱].

فلا دليل لديكم من العقل، و لا دليل عن طريق الوحى على مدّعاكم، و ليس لديكم إلّا حفنة من الأوهام و الخيالات الباطلة.

ثمّ يختتم القرآن الآية بالقول: إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ ما تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۲۳۲] فهذه الخيالات و الموهومات وليدة هوى النفس وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى ..

إلّا أنّهم أغمضوا أعينهم عنه و خلّفوه وراء ظهورهم و تاهوا فى هذه الأوهام و الضلالات!

بحوث

۱- أصنام العرب الثلاثة المشهورة

كان لمشركى العرب أصنام كثيرة، إلّا أنّ ثلاثة منها كانت ذات أهميّة خاصّة عندهم، و هى «اللات» و «العزّى» و «مناة».

و هناك كلام بل أقوال فى تسمية هذه الأصنام و من صنعها و مكانها و الجماعة التى تعبدها، و نكتفى بما ورد فى كتاب «بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب» هنا فحسب.

فأوّل صنم معروف اختاره العرب كان (مناة)، حيث أنّه بعد أن نقل «عمرو بن لحى» عبادة الأصنام من الشام إلى الحجاز، صنع هذا الصنم فى منطقة قريبة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۶

البحر الأحمر بين المدينة و مكّة، و كان العرب جميعهم يحترمون هذا الصنم و يقدّمون له القرابين، إلّا أنّ أكثر القبائل اهتماما بهذا الصنم قبيلتا الأوس و الخزرج .. حتّى كان فتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة- و كان النّبى متّجها من المدينة إلى مكّة- فأرسل أمير المؤمنين عليا فكسره.

و بعد أن صنع عرب الجاهلية صنم مناة، عمدوا فصنعوا صنما آخر، هو اللات من صخر ذى أربع زوايات، و جعلوه فى الطائف، فى المكان الذى توجد فيه اليوم منارة مسجد الطائف الشمالية، و كان أغلب ثقيف فى خدمة هذا الصنم، و حين أسلمت ثقيف أرسل النّبى المغيرة، فكسر ذلك الصنم، و الصنم الثالث الذى اختاره العرب هو العزّى و كان فى محلّ قريب من ذات عرق فى طريق مكّة

باتّجاه العراق و كانت قريش تهتمّ بهذا الصنم كثيرا.

و كـان العرب يهتّمون بهـذه الأصـنام الثلاثـة إلى درجـة أنّهم كـانوا يقولون عنـد الطواف حول البيت: و اللاـت و العزّى و منـاة الثالثة الاخرى فإنّهم الغرانيق العلى و إن شفاعتهم لترتجى ۲۳۳].

و كـانوا يزعمون بأنّ هـذه الأصـنام بنات اللّه «و يظهر أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ هـذه الأصـنام تماثيل الملائكـة التى كانوا يزعمون أنّها بنات اللّه!!».

العجب أنّ تسـميتها مسـتقاة من أسـماء اللّه .. غالبا غايـة ما فى الأمر كانت أسـماؤها مؤنثـة لتـدلّ على اعتقادهم .. فاللات ۲۳۴] أصلها اللاهة، ثمّ سـقط حرف الهاء فصارت الكلمة اللات، و العزّى مؤنث الأعز، و مناة من منى اللّه الشىء أى قدّره، و يعتقد بعضهم أنّ مناة من النوء و هو عبـارة عن طلوع بعض النجوم التى تصـحبها المزن و بعضـهم قالوا بأنّ مناة مأخوذة من «منى» على وزن «سـعى»، و معناه سفك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۷

الدم، لأنّ دماء القرابين كانت تسفك ۲۳۵] عندها و على كلّ حال فإنّ العرب كانوا يحترمون هذه الأصـنام حتّى أنّهم سمّوا كثيرا من رجالهم بعبد العزّى و عبد منات و ربّما سمّوا بعض قبائلهم بمثل هذه الأسماء[۲۳۶].

۲- أسماء دون مسمّيات

إنّ واحدا من أقدم أسـس الشـرك هو تنوّع الموجودات فى العالم حيث أنّ ذوى الفكر القصـير و النظر الضيّق لم يستطيعوا تصديق أنّ كلّ هذه الموجودات المتنوّعة فى السـماء، و الأرض مخلوقة للّه الأحد «لأنّهم يقيسون ذلك بأنفسـهم إذ لا يتسـنّى لهم التسلّط إلّا على أمر واحـد أو عـدّة امـور» لـذلك كـانوا يزعمون أنّ لكـلّ نوع من الموجودات ربّا يعبّر عنه «بربّ النوع» كربّ نوع البحر، و ربّ نوع الصحراء، و ربّ نوع المطر، و ربّ نوع الشمس، و ربّ الحرب، و ربّ الصلح ...

و هذه الآلهة المزعومة التى كانوا يسـمّونها الملائكة أحيانا كانت حسب اعتقادهم تحكم هذا العالم و حيثما تقع مشكلة يلتجأ إلى ربّ نوعها و حيث أنّ أرباب الأنواع لم تكن موجودات محسوسـة فقد صـنعوا لها تماثيل و عبدوها! هذه العقائد الخرافية انتقلت من اليونان إلى المناطق الاخرى حتّى وصـلت إلى الحجاز، و لكن حيث أنّ التوحيـد الإبراهيمى كان سائـدا لدى العرب فلم يمكنهم إنكار وجود اللّه، فمزجت هـذه العقائـد واحدة بالأخرى، ففى الوقت الذى يعتقدون فيه باللّه اعتقدوا بالملائكة الذين هم فى زعمهم بناته، و عبدوا الأحجار التى صنعوا منها التماثيل.

فالقرآن هـدم هـذه الخرافات بعبارة موجزة غزيرة المعنى فقال: إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ فلم يك أى شىء صادرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۸

من ربّ المطر الذى سمّيتموه أنتم، و لا من ربّ الشمس المزعوم، و لا البحر، و لا الحرب، و لا الصلح.

فكلّ شـىء صادر عن اللّه، و عالم الوجود كلّه طوع أمره، و اتّساق جميع هـذه الموجودات المختلفـة فى السـماء و الأرض و انسـجامها بعضها مع بعض دليل على وحدة الخالق، و لو كان فيهما آلهة إلّا اللّه لفسدتا.

۳- الدافع النفسى لعبادة الأصنام

عرفنا الأصل التاريخى لعبادة الأصنام إلّا أنّ لها دوافع و مبادئ نفسيّة و فكرية أيضا، و قد أشير إليها فى الآيات المتقدّمة، و ذلك هو اتّباع الظنّ و ما تهوى الأنفس!! و الخيالات و الأوهام الحاصلة للجهلاء، و من ثمّ تنتقل إلى مقلّديهم من المتحجّرين، و ينتقل هذا التقليد من نسل إلى نسل.

و بالطبع فإنّ معبودا كالصنم يتلاءم جيّدا مع أهوائهم، لأنّه ليس له سلطة على العباد، و لا معاد، و لا جنّة، و لا نار، و لا كتاب، و يعطيهم الحرية الكاملة، و إنّما يأتونه فى المشاكل فحسب، و يتصوّرون أنّه سينفعهم و أنّهم إنّما يستمدّون منه العون.

و أساسا فانّ «هوى النفس» ذاته يعدّ أكبر الأصنام و أخطرها، و هو الأصل لظهور الأصنام الاخرى.

۴- اسطورة الغرانيق مرّة اخرى:

من خلال بحثنا حول الأصنام الثلاثة التى كان العرب يهتّمون بها «أى اللات و العزّى و مناة» و يعبدونها- من خلال هذا البحث التاريخى وردت الإشارة إلى أنّ هذه الأصنام كانت تدعى بالغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى.

و «الغرانيق» جمع غرنوق على زنة عصفور و بهلول ... و الغرنوق نوع من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۳۹

الطيور الرمادية أو السوداء، و لذلك كان العرب أحيانا إذا ذكروا الأصنام قالوا بعد ذكرها: تلك الغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى.

و قد وردت هنا قصّة خرافية نقلتها بعض الكتب، و هى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين قرأ الآية: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى أضاف عليها من عنده الجملتين هاتين: تلك الغرانيق العلى و انّ شفاعتهنّ لترتجى .. فكان سببا لارتياح المشركين و عدوّه انعطافا من قبل النّبى إلى عبادة الأصنام، و حيث أنّ ختام السورة يدعو الناس للسجود .. فإنّ المسلمين سجدوا و سجد المشركون أيضا، فكان هذا الخبر مدعاة لإشاعة إسلام المشركين فى كلّ مكان! حتّى بلغ ذلك أسماع المهاجرين إلى الحبشة من المسلمين و سرّ جماعة منهم إلى درجة أنّهم أحسّوا بالأمان فعادوا من مهجرهم إلى مكّة[۲۳۷].

و لكن كما فصّلنا ذلك فى تفسير الآية ۵۲ من سورة الحجّ فإنّ هذا الادّعاء كذب مفضوح، و تبطله الدلائل و القرائن الكثيرة بجلاء.

فأولئك المفتعلون لهذه الكذبة لم يفكّروا أنّ القرآن فى ذيل هذه الآيات محلّ البحث ينقض عبادة الأصنام بصراحة، و يعدّها اتّباعا لما تهوى النفس و ظنونها، كما أنّه فى الآيات التى تلى هذه الآيات يعنّف عبادة الأصنام بصراحة و بشدّة، و يعدّها دليلا على عدم الإيمان و المعرفة، و يأمر النّبى بصراحة أن يقطع علاقته بهم و يعرض عنهم.

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يتلفّظ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهاتين الجملتين، أو أن يكون المشركون حمقى إلى درجة بحيث يصغون إلى هذه العبارة و لا يلتفتوا إلى الآيات بعدها التى تعنّف المشركين على عبادة الأصنام .. و يفرحوا و يسجدوا فى آخر ما يتلى من هذه السورة مع الساجدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۰

و الحقيقة أنّ ناسجى هذه الاسطورة سذّج للغاية و سطحيّون، و يمكن أن يكون عند قراءة النّبى للآية أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى تلا الشيطان بعدها أو الإنسان المتّصف بالشيطنة الجملتين بين المشركين الحاضرين «لأنّ هاتين الجملتين كانتا بمثابة الشعار الذى يودع المشركون بهما أسماء الأصنام» فاشتبه جماعة مؤقتا بأنّهما تتمّة للآية!! إلّا أنّه لا معنى لسجود المشركين فى انتهاء السورة، و لا لانعطاف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نحو عبادة الأصنام، لأنّ جميع آيات القرآن و سيرة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حياته كلّ ذلك يكشف عن أنّه لم يظهر أىّ انعطاف نحو الأصنام فى أى شكل و صورة، و لم يقبل بأىّ اقتراح فى هذا الصدد، لأنّ الإسلام بأجمعه كان يتلخّص فى التوحيد: لا إله إلّا اللّه! فكيف يمكن لنبى الإسلام أن يساوم على روح محتوى الإسلام الأصيل.

«و كان لنا فى هذا المجال دلائل و استدلالات ذيل الآية ۵۲ من سورة الحجّ».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۴ الى ۲۶]

اشارة

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (۲۴) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى (۲۵) وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى (۲۶)

التّفسير

الشفاعة أيضا بإذنه:

هذه الآيات أيضا تتناول بالبحث و التعقيب- موضوع عبادة الأصنام و خرافتها، و هى تتمّة لما سبق بيانه فى الآيات المتقدّمة! فتتناول أوّلا الامنيات الجوفاء عند عبدة الأصنام و ما كانوا يتوقّعون من الأصنام: أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى !.

ترى! هل من الممكن أن تشفع هذه الأجسام التى لا قيمة لها و لا روح فيها عند اللّه سبحانه؟ أو يلتجأ إليها عند المشكلات!؟ كلّا! فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى

إنّ عالم الأسباب يدور حول محور إرادته، و كلّ ما لدى الموجودات فمن بركات وجوده، فالشفاعة من اختياراته أيضا، و حلّ المشاكل بيد قدرته كذلك! ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يتحدّث عن الآخرة أوّلا، ثمّ عن الدنيا، لأنّ أكثر ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۲

يشغل فكر الإنسان هو النجاة فى الآخرة .. و حاكمية اللّه فى الدار الآخرة تتجلّى أكثر منها فى هذه الدنيا.

و هكذا فإنّ القرآن يقطع أمل المشركين تماما- بشفاعة الأصنام- و يسدّ بوجوههم هذه الذريعة بأنّها تشفع لهم «و يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه».

و هناك احتمال آخر فى تفسير الآيتين آنفتى الذكر: و هو أن يتوجّه الإنسان نحو اللّه لعدم بلوغه أمانيّه و ما يرغب إليه .. لأنّ الآية الاولى من الآيات محلّ البحث تقول: أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى؟ و هذا استفهام إنكارى، و حيث أنّ جواب هذا الاستفهام أو السؤال بالنفى قطعا، لأنّ الإنسان لا ينال كثيرا من أمانيه أبدا، و هذا يدلّ على أنّ تدبير هذا العالم بيد اخرى تتحكّم فى هذا العالم، و لذلك فإنّ الآية الثانية تقول: حيث كان الأمر كذلك فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَ الْأُولى و هذا المعنى يشبه ما جاء

فى كلام الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام: «عرفت اللّه بفسخ العزائم و حلّ العقود و نقض الهمم»[۲۳۸].

و لا يبعد الجمع بين هذا التّفسير و التّفسير السابق أيضا.

و فى آخر الآيات محلّ البحث يقول القرآن مضيفا و مؤكّدا على هذه المسألة:

وَ كَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَرْضى

فحيث لا تستطيع الملائكة على عظمتها حتّى و لو بشكل جماعى أن تشفع لأحد إلّا بإذن اللّه و رضاه، فما عسى ينتظر من هذه الأصنام التى لا قيمة لها، و هى لا تعى شيئا!؟. و حينما تتساقط النسور المحلّقة و تهوى بأجنحتها عاجزة فما تنفع البعوضة الضعيفة؟ أليس من المخجل أن تقولوا إنّما نعبدهم ليقرّبونا إلى اللّه زلفى، أو هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۳

و التعبير ب «كم» فى الآيـة يفيـد العموم، أى ليس لأـى ملـك أن يشـفع دون إذن اللّه و رضـاه، لأنّ هـذه اللفظـة تفيـد العموم فى لغة العرب، كما أنّ لفظة «كثير» تفيد العموم أحيانا و قد جاء فى الآية ۷۰ من سورة الإسراء ما يدلّ على ذلك:

وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا أى فضّلنا بنى آدم على جميع من خلقنا.

كما نجد هذا الاستعمال فى شأن الشياطين إذ نقرأ الآية ۲۲۳ من سورة الشعراء قائلة: وَ أَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ مع أنّنا نعلم أنّ جميع الشياطين كاذبون ۲۳۹].

أمّا الفرق بين «الإذن» و «الرضا» فهو- أنّ الإذن يعبّر عنه فى مقام يكشف الإنسان عن رضاه الباطنى، إلّا أنّ الرضا .. أعمّ من ذلك، و قد تستعمل كلمة «الرضا» لانسجام الطبع مع ما يفعل، و حيث أنّ الإنسان قد يأذن بشىء ما دون أن يكون راضيا فى قلبه فقد جاءت كلمة «يرضى» تأكيدا على الإذن، و إن كان الإذن و الرضا عند اللّه لا ينفصل بعضهما عن بعض و لا مجال (للتقيّة) عند اللّه!

تعقيب

۱- سعة الأمانى:

الأمل أو التمنّى إنّما ينبع من محدوديـة قـدرة الإنسان و ضـعفه الإنسان إذا كانت له علاقـة بالشـىء و لم يسـتطع أن يبلغه و يحقّقه فانّه يأخـذ صورة التمنّى عنـده .. و إذا اسـتطاع الإنسـان أن يحقّق كـلّ ما يريـده و يرغب فيه، لم يكن للتمنّى من معنى! و بالطبع قـد تكون أمانىّ الإنسان أحيانا نابعـة من روحه العاليـة و باعثا على الحركة و الجدّ و النشاط و الجهاد و سيره التكاملى .. كما لو تمنّى بأن يتقدّم الناس بالعلم و التقوى و الشخصيّة و الكرامة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۴

إلّا أنّه كثيرا مـا تكون هـذه الأحلام «و الأمانى» كاذبـة، و على العكس من الأمانى الصادقـة فانّها أساس للغفلـة و الجهل و التخـدير و التخلّف كمـا لو تمنّى الإنسـان الخلود فى الأـرض و العمر الـدائم، و أن يملـك أموالاـ طائلـة، و أن يحكم الناس جميعا و أمثال ذلك القبيل الموهوم.

و لذلك فقد رغّبت الرّوايات الإسلامية الناس فى تمنّى الخير، كما نقرأ

فى بعض ما وصـلنا عن رسو اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من تمنّى شيئا و هو للّه عزّ و جلّ رضى لم يخرج من الدنيا حتّى يعطاه»[۲۴۰].

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّه إذا لم يصل إلى ذلك فى الدنيا فسينال ثوابه ۲۴۱].

۲- كلام فى شأن الشفاعة

إنّ الآية الأخيرة- من الآيات محلّ البحث- تخبر بجلاء عن إمكان أن يشـفع الملائكة، فحيث أنّه للملائكة الحقّ أن يشفعوا بإذن اللّه و رضاه، فمن باب الأولى أن يكون للأنبياء و المعصومين حقّ الشفاعة عند اللّه.

إلّا أنّه لا ينبغى أن ننسـى أنّ الآية آنفة الذكر تقول بصـراحة إنّ هذه الشـفاعة ليست من دون قيد و شـرط. بل هى مشروطة بإذن اللّه و رضاه، و حيث أنّ إذن اللّه و رضاه لم يكونا عبثا أو اعتباطا، فينبغى أن تكون بين الإنسان و ربّه علاقة حتّى يأذن بالشفاعة للمقرّبين فى

شأنه، و من هنا فإنّ رجاء الشفاعة يكون مذهبا تربويّا للإنسان و مانعا من اليأس و قطع جميع الروابط باللّه تعالى ۲۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۵

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۲۷ الى ۳۰]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (۲۷) وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (۲۸) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا (۲۹) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (۳۰)

التّفسير

إنّ الظنّ لا يغنى من الحقّ شيئا:

هذه الآيات- محلّ البحث- كالآيات المتقدّمة، تبحث موضوع نفى عقائد المشركين.

فتقول أوّلها: إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى أجل، إنّ هذا الكلام القبيح و المخجل إنّما يصدر من أناس لا يعتقدون بيوم الحساب و لا بجزاء أعمالهم، فلو كانوا يعتقدون بالآخرة لما تجاسروا فقالوا مثل هذا الكلام، و أى كلام؟! كلام ليس لهم فيه أدنى دليل .. بل الدلائل العقليّة تبرهن على أنّه ليس للّه من ولد، و ليس الملائكة إناثا، و لا هم بنات اللّه كذلك!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۶

و التعبير ب «تسمية الأنثى» إشارة إلى ما نوّهنا عنه فى الآيات المتقدّمة، و هو أنّ مثل هذا الكلام لا معنى له. و إنّ هذا الأسماء لا مسميّات لها، و بتعبير آخر إنّها لا تعدو حدود التسمية، و لا واقع لها أبدا.

ثمّ يتناول القرآن واحدا من الأدلّة الواضحة على بطلان هذه التسمية فيقول معقّبا: وَ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً.

فالإنسان الهادف و المعتقد لا يطلق كلامه دون علم و درايه، و لا ينسب أيّة نسبة لأحد دونما دليل .. فالتعويل عن الظنّ و التصوّر إنّما هو من عمل الشيطان أو من يتّصف بالشيطانيّة .. و قبول الخرافات و الأشياء الموهومة دليل الانحراف و عدم العقل! و واضح أنّ كلمة «الظنّ» لها معنيان مختلفان، فتارة تطلق هذه الكلمة على الأوهام التى لا أساس لها، و طبقا لتعبير الآيات آنفة الذكر تعنى الخرافات و الأوهام و ما تهوى الأنفس .. و المراد من هذه الكلمة فى الآية هو هذا المعنى ذاته.

المعنى الآخر، الظنّ المعقول و هو ما يخطر فى الذهن، و يكون مطابقا للواقع غالبا، و عليه يكون مبنى العمل فى اليوم- مرة أو أكثر- كشهادة الشهود فى المحكمة و قول أهل الخبرة و ظواهر الألفاظ و أمثال ذلك، فلو أعرضنا عن مثل هذه الأمور و عوّلنا على اليقين القطعى لاضطربت الحياة و اختلّ نظامها.

و لا شكّ أنّ هذا القسم من الظنّ غير داخل فى هذه الآيات، و هناك شواهد كثيرة فى الآيات ذاتها على ذلك .. و فى الحقيقة أنّ القسم الثانى نوع من العلم العرفى لا الظنّ، فبناء على هذا لا يصحّ الاستدلال بالآية إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً و أمثالها على نفى حجيّة الظنّ بشكل مطلق.

و ينبغى الالتفات إلى هذه اللطيفة و المسألة الدقيقة .. و هى أنّ الظنّ فى اصطلاح الفقهاء و الأصوليين معناه «الإعتقاد الراجح»، إلّا أنّه

فى اللغة أوسع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۷

مفهوما، فيشمل حتّى الوهم و الاحتمالات الضعيفة، و من هذا القبيل ظنّ عبدة الأوثان- إذ كان خرافة تظهر فى أذهانهم بشكل احتمال ضعيف. ثمّ ينهض هوى النفس فيزيّن ذلك الاحتمال، و يهمل الاحتمال الآخر الذى هو أقوى من هذا الاحتمال، و يصير الاحتمال الضعيف اعتقادا راسخا مع أنّه لا أساس له أبدا.

و من أجل أن يبيّن القرآن أنّ هؤلاء الجماعة ليسوا أهلا للاستدلال و المنطق الصحيح، و قد ألهاهم حبّ الدنيا عن ذكر اللّه و جرّهم إلى الوحل فى خرافاتهم و أوهامهم يضيف قائلا: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا.

و المراد من (ذكرنا) فى إعتقاد أغلب المفسّرين هو «القرآن»، و قد يفسّر بأنّه الدلائل المنطقية و العقلية التى توصل الإنسان إلى اللّه، كما احتملوا أن يكون المراد هو ذكر اللّه الذى يقابل الغفلة عند الإنسان.

إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير ذو مفهوم واسع بحيث يشمل كلّ توجّه نحو اللّه، سواء أ كان ذلك عن طريق القرآن، أو عن طريق العقل، أو عن طريق السنّة، أو تذكّر القيامة و ما إلى ذلك! و يستفاد من هذه الآية- ضمنا- أنّ هناك علاقة بين الغفلة عن ذكر اللّه و الإقبال على الماديات، و بين زخرف الدنيا و زبرجها و أنّ بينهما تأثيرا متلازما! فالغفلة عن ذكر اللّه تسوق الإنسان نحو عبادة الدنيا، كما أنّ عبادة الدنيا تصرف الإنسان عن ذكر اللّه، فيكون غافلا عنه- و هما جميعا يقترنان مع هوى النفس، و بالطبع فإنّ الخرافات التى تنسجم مع هوى النفس تتزيّن فى نظر الإنسان و تتبدّل تدريجا إلى إعتقاد راسخ! و ربّما لا حاجة إلى التذكير أنّ الأمر بالإعراض عن هذه الفئة (أهل الدنيا) لا ينافى تبليغ الرسالة الذى هو وظيفة النّبى الأساسيّة، لأنّ التبليغ و الإنذار و البشارة كلّها لا تكون إلّا فى موارد احتمال التأثير، فحيث يعلم و يتيقّن عدم التأثير فلا يصحّ هدر الطاقات، و ينبغى الإعراض بعد إتمام الحجّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۸

كما ينبغى الإشارة إلى أنّ الأمر بالإعراض عمّن تولّى عن ذكر اللّه، ليس مختصّا بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل هو شامل لجميع الدعاة فى طريق الحقّ، ليصرفوا طاقاتهم الكريمة فى ما يحتمل تأثيرها فيه، أمّا عبدة الدنيا و موتى القلوب الذين لا أمل فى هدايتهم فينبغى- بعد إتمام الحجّة عليهم- الإعراض عنهم ليحكم اللّه حكمه فيهم!.

و فى آخر آية من الآيات محلّ البحث يثبت القرآن انحطاط أفكار هذه الفئة فيقول مضيفا: ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ

أجل، إنّ أوج أفكارهم منته إلى هذا الحدّ و هو اسطورتهم أنّ الملائكة بنات اللّه!!- و خبطهم فى الخرافات .. و هذه آخر نقطة تبلغ إليه همّتهم، إذ نسوا اللّه و أقبلوا على الدنيا و استعاضوا عن جميع شرفهم و وجودهم بالدينار و الدرهم! و هذه الجملة ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ يمكن أن تكون إشارة إلى خرافاتهم كعبادة الأصنام و جعلهم الملائكة بنات اللّه: أى أنّ منتهى علمهم هو هذه الأوهام!.

أو أنّها إشارة إلى حبّ الدنيا و الأسر فى قبضة الماديات، أى أن؟ منتهى إدراكهم هو قناعتهم بالأكل و الشرب و النوم و المتاع الفانى فى هذه الدنيا و زبرجها و زخرفها إلخ.

و قد جاء فى الدعاء المعروف فى أعمال شعبان المنقول

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «و لا تجعل الدنيا أكبر همّنا و لا مبلغ علمنا»[۲۴۳].

و تختتم الآية بالقول: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى ختام الآية يشير إلى هذه الحقيقة، و هى أنّ اللّه يعرف الضالّين جيّدا كما يعرف المهتدين أيضا، فيصبّ غضبه على الضالّين و يسبغ لطفه على المهتدين، و يجازى كلّا بعمله يوم القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۴۹

ملاحظة

رأس مال عبدة الدنيا:

الطريف أنّ الآيات الآنفة فى الوقت الذى تنسب العلم لعبدة الدنيا، إلّا أنّها تعدّهم ضالّين، و هذا يدلّ على أنّ العلوم التى لا تهدف إلى شىء سوى الماديّات فمن وجهة نظر القرآن ليست علوما، بل هى الضلالة بعينها.

و من الغريب أنّ كلّ هذه الشقوة و الحروب و سفك الدماء و الظلم و التجاوز و الفساد و التلوّث ناشئ من علوم الضلال هذه- و من الذين منتهى ما توصّلت إليه علومهم حبّ الدنيا و الحياة الفانية، و لا يتّسع أفق متطلّباتهم لأكثر من متطلّبات الحيوان.

أجل، إنّ علوم «التقنية» و المسائل الحديثة إذا لم تكن تسعى لأهداف أسمى من الماديّات، فهى الجهل بعينه، و إذا لم تؤدّ إلى نور الإيمان فهى الضلال!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۰

الآيتان [سورة النجم (۵۳): الآيات ۳۱ الى ۳۲]

اشارة

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (۳۱) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (۳۲)

التّفسير

لا تزكّوا أنفسكم:

لمّا كان الكلام فى الآيات المتقدّمة عن علم اللّه بالضالّين و المهتدين، فإنّ الآيات أعلاه تتمّة لما جاء آنفا، تقول: وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ

فالمالكية المطلقة فى عالم الوجود له وحده، و الحاكمية المطلقة على هذا العالم له أيضا، و لذلك فإنّ تدبير عالم الوجود بيده فحسب. و لمّا كان الأمر كذلك فهو وحده الجدير بالعبادة و الشفاعة! إنّ هدفه الكبير من هذا الخلق الواسع ليتألّف الإنسان فى عالم الوجود و ليسير فى مسير التكامل فى ضوء المناهج التكوينية و التشريعيّة و تعليم الأنبياء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۱

و تربيتهم، لذلك فإنّ القرآن يذكر نتيجة هذه المالكية فيختتم الآية بالقول: لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَ يَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۲۴۴].

ثمّ يصف القرآن المحسنين فى الآية التالية فيقول: الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ

و «الكبائر» جمع كبيرة، و «الإثم» فى الأصل هو العمل الذى يبعد الإنسان عن الخير و الثواب، لذلك يطلق على الذنب عادة، و «اللمم» على وزن القلم- كما يقول الراغب فى المفردات معناه الاقتراب من الذنب، و قد يعبّر عن الذنوب الصغيرة باللمم أيضا، و هذه الكلمة

فى الأصل مأخوذة من الإلمام و معناها الاقتراب من شىء دون أدائه، و قد يطلق «اللمم» على الأشياء القليلة أيضا «و إطلاقه على الذنوب الصغيرة من هذا الباب».

و قد فسّر المفسّرون «اللمم» فى هذه الحدود، فقال بعضهم: هو الذنوب الصغيرة، و قال آخرون هو نيّة المعصية دون أدائها، و فسّره غيرهم بأنّ اللمم معاص لا أهميّة لها.

و ربّما قالوا بأنّ اللمم يشمل الذنوب الصغيرة و الكبيرة على أن لا تكون معتادة و التى تقع أحيانا فيتذكّرها الإنسان فيتوب منها.

و هناك تفاسير متعدّدة لهذه الكلمة فى الرّوايات الإسلامية،

فقد جاء من الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: اللمم الرجل يلمّ به الذنب فيستغفر اللّه منه ۲۴۵] و ورد عنه أيضا أنّه قال: هو الذنب يلمّ به الرجل فيمكث ما شاء اللّه ثمّ يلمّ به بعد[۲۴۶].

كما وردت روايات اخرى فى هذا المعنى أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۲

و القرائن الموجودة فى هذه الآية تشهد على هذا المعنى أيضا .. إذ قد تصدر من الإنسان بعض الذنوب، ثمّ يلتفت إليها فيتوب منها، لأنّ استثناء اللمم من الكبائر (مع الالتفات إلى أنّ ظاهر الاستثناء كونه استثناء متّصلا) يشهد على هذا المعنى.

أضف إلى ذلك فإنّ الجملة التالية بعد الآية فى القرآن تقول: إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ!.

و هذا يدلّ على أنّ ذنبا صدر من الإنسان و هو بحاجة إلى غفران اللّه، لا أنّه قصد الاقتراب منه و نواه دون أن يرتكبه.

و على كلّ فالمراد من الآية أنّ الذين أحسنوا من الممكن أن ينزلقوا فى منزلق ما فيذنبوا، إلّا أنّ الذنب على خلاف سجيّتهم و طبعهم و قلوبهم الطاهرة- و إنّما تقع الذنوب عرضا، و لذلك فما أن يصدر منهم الذنب إلّا ندموا و تذكّروا و طلبوا المغفرة من اللّه سبحانه كما نقرأ فى الآية (۲۰۱) من سورة الأعراف إذ تشير إلى هذا المعنى: إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ

و نظير هذا المعنى فى الآية (۱۳۵) من سورة آل عمران إذ تقول فى وصف المحسنين و المتّقين: وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ فكلّ هذا شاهد على ما جاء من تفسير «اللّمم».

و نختتم بحثنا هنا بحديث للإمام الصادق عليه السّلام إذ أجاب على سؤال حول تفسير الآية- محلّ البحث-

فقال: «اللمام العبد الذى يلمّ بالذنب بعد الذنب ليس من سليقته أى من طبيعته»[۲۴۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۳

و يتحدّث القرآن فى ذيل الآية عن علم اللّه المطلق مؤكّدا عدالته فى مجازاة عباده حسب أعمالهم فيقول: هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ إِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ ۲۴۸].

و قوله: «أنشأكم من الأرض» أمّا هو باعتبار الخلق الأوّل عن طريق آدم عليه السّلام الذى خلقه من تراب، أو باعتبار أنّ ما يتشكّل منه وجود الإنسان كلّه من الأرض، حيث له الأثر الكبير فى التغذية و تركيب النطفة، ثمّ بعد ذلك له الأثر فى مراحل نمو الإنسان أيضا.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف من هذه الآية أنّ اللّه مطّلع على أحوالكم و عليم بكم منذ كنتم ذرّات فى الأرض و من يوم انعقدت نطفتكم فى أرحام الامّهات فى أسجاف من الظلمات فكيف- مع هذه الحال- لا يعلم أعمالكم؟! و هذا التعبير مقدّمة لما يليه من قوله تعالى: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى فلا حاجة لتعريفكم و تزكيتكم و بيان أعمالكم الصالحة، فهو مطّلع على أعمالكم و على ميزان خلوص نيّاتكم، و هو أعرف بكم منكم، و يعلم صفاتكم الداخلية و الخارجية.

قال بعض المفسّرين أنّ الآيتين آنفتى الذكر نزلتا فى جماعة كانوا يمدحون أنفسهم بعد أداء الصوم أو الصلاة فيقولون: إنّنا صلّينا و صمنا و قمنا بكذا و كذا.

فنزلت الآیتان و نهتهم عن تزکیة الأنفس ۲۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۴

بحوث

۱- علم اللّه المطلق

مرّة اخری یشار فی هاتین الآیتین إلی علم اللّه المطلق و سعته، إلّا أنّ التعبیر فیهما تعبیر جدید، لأنّه یستند إلی لطیفتین ۲۵۰] و هما من أشدّ حالات الإنسان خفاء و التواء .. حالة خلق الإنسان من التراب إذ ما تزال عقول المفکّرین حائرة فیها، فکیف یوجد موجود حی من موجود لا روح فیه (میّت)؟ و ممّا لا شکّ فیه أنّ هذا الأمر حدث فی السابق سواء فی الإنسان أو الحیوانات الاخر، و لکن فی أیّة ظروف؟! فالمسألة فی غایة الخفاء و الالتواء بحیث ما تزال أسرارها مطویة و مکتومة عن علم الإنسان.

و الاخری مسألة التحوّلات المفعمة بالأسرار فی وجود الإنسان فی مرحلة الجنین، فهی أیضا من الأسرار الغامضة فی کیفیة خلق الإنسان و إن کان شبح منها قد انکشف لعلم البشر، إلّا أنّ الأسئلة حول أسرار الجنین التی ما زالت دون جواب کثیرة.

فالمطّلع علی هاتین، الحالتین من جمیع أسرار وجود الإنسان و تحوّلاته و تغییراته و هادیه و مربّیه، کیف یکون غیر عالم بأعماله و أفعاله! و لا یجازی کلّا بحسب ما یقتضیه عمله! إذا، فهذا العلم المطلق أساس عدالته المطلقة!

۲- ما هی کبائر الإثم

هناک کلام طویل بین المفسّرین من جهة، و الفقهاء و المحدّثین من جهة اخری فی شأن الذنوب الکبیرة المشار إلیها فی بعض الآیات من القرآن ۲۵۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۵

فبعضهم یعتقد أنّ جمیع الذنوب تعدّ من الکبائر، لأنّ کلّ ذنب- أمام الخالق الکبیر یعدّ ذنبا کبیرا.

فی حین أنّ بعضهم ینظر إلی الذنوب نظرة نسبیّة فیری کلّ ذنب بالنسبة إلی ما هو أهمّ منه صغیرا و بالعکس.

و قال آخرون إنّ الکبائر ما جاء الوعید من قبل اللّه فی القرآن بارتکابها! و ربّما قیل إنّ الکبائر ما یجری علیها «الحدّ» الشرعی.

إلّا أنّ الأفضل أنّ یقال بأنّه مع ملاحظة أنّ التعبیر بالذنوب الکبیرة دلیل علی عظمها، فکلّ ذنب فیه أحد الشروط التالیة یعدّ کبیرا:

أ- الذنوب التی ورد الوعید من قبل اللّه فی شأنها و العذاب لمرتکبها.

ب- الذنوب المذکورة فی نظر أهل الشرع و لسان الرّوایات بأنّها عظیمة.

ج- الذنوب التی عدّتها المصادر الشرعیّة أکبر من الذنوب التی هی من الکبائر.

د- و أخیرا الذنوب المصرّح بها فی الرّوایات المعتبرة بأنّها من الکبائر!.

و قد ورد ذکر الکبائر فی الرّوایات الإسلامیة مختلفا عددها فیه، إذ جاء فی بعضها أنّها سبع

«قتل النفس، و عقوق الوالدین، و أکل الربا، و العودة إلی دار الکفر بعد الهجرة، و رمی المحصنات بالزنا، و أکل مال الیتیم، و الفرار من [الزحف الجهاد»[۲۵۲].

و قد جاء فی بعض الرّوایات ذکر هذا النصّ:

«كلّما أوجب عليه اللّه النار»

[مكان عقوق الوالدين .

و جاء فى بعض الرّوايات أنّها «عشر»، و أوصلتها روايات أخر إلى «تسع عشرة» كبيرة! و ربّما ترقّى هذا العدد إلى أكثر ممّا ذكر فى بعض الرّوايات أيضا[۲۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۶

و هذا التفاوت فى عدد الكبائر هو لأنّ الذنوب الكبيرة ليست بمرتبة واحدة، فبعضها أهمّ من بعض، و بتعبير آخر يعدّ أكبر الكبائر، فبناء على هذا لا تضادّ بين الرّوايات فى اختلاف العدد.

۳- تزكية النفس:

«تزكية النفس» قبيح إلى درجة أنّها يضرب بها المثل! فيقال تزكية المرء نفسه قبيحة.

و أساس هذا العمل القبيح و أصله عدم معرفة النفس، لأنّ الإنسان إذا عرف نفسه حقّا تصاغر أمام عظمة الخالق و رأى أعماله لا شىء لما عليه من مسئولية، و لما وهبه اللّه من النعم العظيمة، و إذا لما خطا أيّة خطوة نحو تزكية النفس.

و الغرور و الغفلة و الاستعلاء و الأفكار الجاهلية أيضا بواعث أخر على هذا العمل القبيح! و حيث أنّ تزكية النفس تكشف عن إعتقاد الإنسان بكماله فهى مدعاة إلى تخلّفه! لأنّ رمز التكامل الاعتراف بالتقصير و قبول وجود النواقص و الضعف! و من هنا نرى أولياء اللّه يعترفون بتقصيرهم أمام اللّه و ما عليهم من وظائف من قبله! و ينهون الناس عن تزكية النفس و تعظيم أعمالهم!.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية الكريمة فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ أنّه قال: «لا يفتخر أحدكم بكثرة صلاته .. و صومه و زكاته و نسكه لأنّ اللّه عزّ و جلّ أعلم بمن اتّقى»[۲۵۴].

و

يقول الإمام أمير المؤمنين على عليه السّلام فى إحدى رسائله إلى معاوية مشيرا إلى هذا المضمون فى ما يقول: «و لو لا ما نهى اللّه عنه من تزكية المرء نفسه لذكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۷

ذاكر فضائل جمّة، تعرفها قلوب المؤمنين و لا تمجّها آذان السامعين»

«يعنى بذلك نفسه عليه السّلام»[۲۵۵].

«و فى هذا الصدد أوردنا بحثا مفصّلا فى هذا التّفسير ذيل الآية ۴۹ من سورة النساء فراجع إن شئت».

و لا ننسى أن نقول إنّ الضرورات قد توجب على الإنسان أحيانا تزكية نفسه أمام الغير بكلّ ما لديه من امتيازات حتّى لا تسحق أهدافه المقدّسة، و بين هذا النوع من التعريف بالنفس و تزكية النفس المذموم اختلافا كبيرا.

و من أمثلة ذلك خطبة الإمام زين العابدين فى مسجد بنى امّية فى الشام لما أراد أن يعرف نفسه و أهل بيته لأهل الشام ليحبط مؤامرة الأمويين بكون الحسين و الشهداء معه خوارج و يفضحهم!! و

قد ورد فى بعض الرّوايات أنّه سئل الإمام الصادق عن «تزكية النفس» فقال نعم إذا اضطرّ إليه- أما سمعت قول يوسف أحيانا للضرورة-

ثمّ استدلّ بموضعين من كلام الأنبياء أحدهما اقتراح يوسف على عزيز مصر أن يكون مسئولا و مشرفا على خزائن مصر و تعقيبه: إِنِّى

حَفِيظٌ عَلِيمٌ .. و قول العبد الصالح: أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ [۲۵۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۸

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۳۳ الى ۴۱]

اشارة

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (۳۳) وَ أَعْطى قَلِيلاً وَ أَكْدى (۳۴) أَ عِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (۳۵) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (۳۶) وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (۳۷)

أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (۳۸) وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى (۳۹) وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (۴۰) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (۴۱)

سبب النّزول

ذكر أغلب المفسّرين أسبابا لنزول الآيات أعلاه، إلّا أنّها لا تنسجم كثيرا مع الآيات هذه، و ما هو معروف بكثرة شأنان للنّزول:

۱- إنّ هذه الآيات ناظرة إلى «عثمان بن عفّان» حيث كانت لديه أموال طائلة و كان ينفق منها، فقال له بعض أرحامه و اسمه «عبد اللّه بن سعد»: إذا واصلت إنفاقك فلا يبقى عندك شيء، فقال عثمان: لدى ذنوب و أريد أن أنال بإنفاقى رضا ربّى و عفوه. فقال له عبد اللّه: إن أعطيتنى ناقتك بما عليها من جهاز تحمّلت ذنوبك و جعلتها فى رقبتى، ففعل عثمان و أشهده على ما اتّفق عليه و امتنع من الإنفاق بعدئذ. «فنزلت الآيات و ذمّت هذا العمل بشدّة، و أوضحت أنّه لا يمكن لأحد أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۵۹

يحمل وزر الآخر و كلّ ينال جزاء سعيه»[۲۵۷].

۲- إنّ الآية فى شأن «الوليد بن المغيرة» إذ جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و صبا إلى الإسلام فلامه بعض المشركين و قال: تركت ما كان عليه كبراؤنا و عددتهم ضلّالا و ظننت أنّهم من أهل النار! فقال إنّى أخاف من عذاب اللّه. فقال له اللائم: إن أعطيتنى شيئا من مالك و رجعت إلى الشرك تحمّلت وزرك و جعلته فى رقبتى! ففعل الوليد بن المغيرة ذلك إلّا أنّه لم يعط من المال المتّفق عليه إلّا قليلا. فنزلت الآية و وبّخته على ارتداده من الإيمان ۲۵۸].

التّفسير

كلّ يتحمّل مسئولية أعماله:

كان الكلام فى الآيات السابقة فى أن يجزى اللّه تعالى من أساء بإساءته و يثيب المحسنين بإحسانهم .. و بما أنّه من الممكن أن يتصوّر أن يعذّب أحد بذنب غيره أو أن يتحمّل أحد وزر غيره، فقد جاءت هذه الآيات لتنفى هذا التوهّم فى المقام، و بيّنت هذا الأصل الإسلامى المهمّ أنّ كلّا يرى نتيجة عمله، فقالت أوّلا:

أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أى تولّى من الإسلام أو الإنفاق!؟ وَ أَعْطى قَلِيلًا وَ أَكْدى ۲۵۹] بمعنى أنّه أنفق القليل ثمّ امتنع و أمسك و هو يظنّ أنّ غيره سيحمل وزره يوم القيامة.

فأىّ رجل جاءهم من الغيب و «القيامة» فأخبرهم بأنّه يمكن أخذ الرشوة و تحمّل آثام الآخرين؟ أو من جاءهم من قبل اللّه فأخبرهم

بأنّ اللّه راض عن هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۰

التعامل إلّا ما تدور فى أذهانهم من أوهام؟ فهم يتّبعون ما يتوهّمون فرارا من تحمّل المسؤولية.

و بعد هذا تأتى الآية الاخرى لتبيّن اعتراض القرآن الشديد على ذلك، و بيان لأصل كلّى مطّرد فى الأديان السماوية كلّها فتقول: ترى أ هذا الذى امتنع عن الإنفاق أو الإيمان بالوعود الخيالية. و يريد أن يخلص نفسه من عذاب اللّه بإنفاقه اليسير و الزهيد من أمواله، أ تغنيه هذه الخيالات و التصوّرات: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى وَ إِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۲۶۰].

«إبراهيم»: هو ذلك النّبى العظيم الذى أدّى حقّ رسالة اللّه، و بلّغ ما أمره به و وفى بجميع عهوده و مواثيقه، و لم يخش تهديد قومه و طاغوت زمانه، ذلك الإنسان الذى امتحن بمختلف الامتحانات حتّى بلغ به أن يقدّم ولده ليذبحه بأمر اللّه، و خرج منتصرا مرفوع الرأس من جميع هذه الامتحانات و نال المقام السامى لقيادة الامّة .. كما نقرأ هذا المعنى فى الآية (۱۲۴) من سورة البقرة إذ تقول: وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً.

و قال بعض المفسّرين فى توضيح معنى الآية: أنّه بذل نفسه للنيران و قلبه للرحمن و ولده للقربان و ماله للإخوان ۲۶۱].

ثمّ تأتى الآية الاخرى لتقول: أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى

«الوزر» فى الأصل مأخوذ من «الوزر»- على زنة خطر- و معناه المأوى أو الكهف أو الملجأ الجبلى، ثمّ استعملت هذه الكلمة فى الإعباء الثقيلة! لشباهتها الصخور الجبلية العظيمة، و أطلقت على الذنب أيضا، لأنّه يترك عبئا ثقيلا على ظهر الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۱

و المراد من «الوازرة» من يتحمّل الوزر[۲۶۲].

و لمزيد الإيضاح يضيف القرآن قائلا: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى ۲۶۳].

«السعى» فى الأصل معناه السير السريع الذى لا يصل مرحلة الركض، إلّا أنّه يستعمل غالبا فى الجدّ و المثابرة، لأنّ الإنسان يؤدّى حركات سريعة فى جدّه و مثابرته سواء كان ذلك فى الخير أو الشرّ! و الذى يسترعى الانتباه أنّ القرآن لا يقول: و ان ليس للإنسان إلّا ما أدّى من عمل .. بل يقول: إلّا ما سعى. و هذا التعبير إشارة إلى أنّ على الإنسان أن يجدّ و يثابر فذلك هو المطلوب منه و إن لم يصل إلى هدفه، فالعبرة بالنيّة، فإذا نوى خيرا أعطاه اللّه ثوابه، لأنّ اللّه يتقبّل النيّات و المقاصد لا الأعمال المؤدّاة فحسب.

أمّا الآية التالية فتقول: وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى فالإنسان لا يرى غدا نتائج أعماله التى كانت فى مسير الخير أو الشرّ فحسب، بل سيرى أعماله نفسها يوم الحساب، كما نجد التصريح بذلك فى الآية (۳۰) من سورة آل عمران: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً.

كما ورد التصريح بمشاهدة الأعمال الصالحة و الطالحة عند القيامة فى سورة الزلزلة الآيتين (۷) و ۸): فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ أمّا الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فتقول: ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى ۲۶۴].

و المراد من «الجزاء الأوفى» هو الجزاء الذى يكون طبقا للعمل. و بالطبع هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۲

لا ينافى لطف اللّه و تفضّله بأن يضاعف الجزاء على الأعمال الصالحة عشرة أضعاف أو عشرات الأضعاف و مئاتها و إلى ما شاء اللّه! و ما فسّره بعضهم بأنّ «الجزاء الأوفى» معناه الجزاء الأكثر فى شأن الحسنات، لا يبدو صحيحا، لأنّ كلام هذه الآية يشمل الذنوب و الأعمال الطالحة، بل الكلام فيها أساسا على الوزر و الذنب «فلاحظوا بدقّة»!

بحوث

۱- ثلاثة اصول إسلامیة مهمّة

أشیر فی الآیات- آنفة الذکر- إلی ثلاثة اصول من الأصول الإسلامیة، و قد أکّدت علیها الکتب السماویة السابقة و هی:

أ- کلّ إنسان مسئول عن ذنبه و وزره.

ب- لیس للإنسان فی آخرته إلّا سعیه.

ج- یجزی اللّه کلّ إنسان علی عمله الجزاء الأوفی.

و هکذا فإنّ القرآن یشجب الکثیر من الأوهام و الخرافات التی یهتمّ بها عامّة الناس أو السائدة بینهم و کأنّها مذهب عقائدی! و القرآن لا ینفی- عن هذا الطریق- عقیدة العرب المشرکین الذین یعتقدون أنّ بإمکان الإنسان أن یتحمّل وزر الآخر فحسب! بل ینفی الإعتقاد الذی کان سائدا- و لا یزال- بین المسیحیین، و هو أنّ اللّه أرسل ابنه المسیح لیصلب و یذوق العذاب و الألم و یحمل علی عاتقه ذنوب المذنبین!.

و کذلک یحکم علی جماعة من القسسة و الرهبان بقبح عملهم لما کانوا یبیعونه من صکوک الغفران و منح قطع الأراضی فی الجنّة لمن یشاءون، و العفو عن المخطئین!! فکلّ هذه الأمور باطلة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۳

و منطق العقل أیضا یقتضی أنّ کلّا مسئول عن عمله، و یعود علیه عمله بالنفع أو الضرر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۲۶۳

هذا المبدأ الإسلامی یؤدّی إلی أن یسعی الإنسان إلی الخیر و أن یجتهد بدلا من الالتجاء إلی الخرافات أو أن یتحمّل آثامه غیره! و أن یتجنّب الذنب و یتّقی اللّه، و إذا ما اتّفق له أن عثرت قدمه فی معصیة، فعلیه أن یبادر إلی التوبة و یجبر ذلک بالاستغفار و العمل الصالح! و تأثیر هذه العقیدة التربویة فی الناس واضح تماما و لا یقبل الإنکار، کما أنّ أثر تلک المعتقدات الجاهلیة الفاسدة- المخرّب لا یخفی علی أحد.

و صحیح أنّ هذه الآیات ناظرة إلی السعی و المثابرة و العمل للآخرة و رؤیة الثواب فی الآخرة! إلّا أنّ الملاک و المعیار الأصلی له یتجلّی فی الدنیا أیضا .. أی أنّ الأفراد المؤمنین لا ینبغی لهم أن یتوقّعوا من الآخرین أن یعملوا لهم و یحلّوا مشاکلهم الاجتماعیة، بل علیهم أنفسهم أن ینهضوا و یجدّوا و یثابروا أبدا.

و یستفاد من هذه الآیات أصل حقوقی فی المسائل الجزائیة أیضا، و هو أنّ الجزاء أو العقاب إنّما ینال المذنب الحقیقی، و لیس لأحد أن یجعل إثم غیره فی ذمّته!

۲- سوء الاستفادة من مفاد الآیة:

کما بیّنا آنفا، فإنّ هذه الآیات بقرینة الآیات التی قبلها و الآیات التی بعدها ناظرة إلی سعی الإنسان لأمور الآخرة، إلّا أنّه مع هذه الحال- لما کان ذلک علی أساس حکم عقلی مسلّم به فیمکن تعمیم السعی و الجدّ حتّی یشمل السعی لأمور الدنیا و یشمل أیضا الجزاء الدنیوی، إلّا أنّ ذلک لا یعنی أن یتأثّر بعضهم بالمذاهب الاشتراکیة فیقول: إنّ مفهوم الآیة أنّ المالکیة إنّما تحصل عن طریق العمل فحسب، و بذلک یخطّی قانون الإرث و المضاربة و الإجارة و أمثالها!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۴

و العجب أنّه ينادى بالإسلام و يستدلّ بآيات القرآن أيضا مع أنّ مسألة الإرث من الأصول الإسلامية القطعية، و كذلك الخمس و الزكاة! علما بأنّه لم يسع الوارث إلى إرثه و لا مستحقّو الزكاة أو الخمس إليهما، و لم يقع سعى فى مواطن النذر و الوصايا و مع كلّ ذلك فإنّ القرآن الكريم ذكر هذه الأمور.

و بتعبير آخر أنّ هذا هو الأصل، إلّا أنّه غالبا ما يوجد استثناء أمام كلّ أصل، فمثلا الولد يرث أباه هذا أصل إسلامى، لكن متى قتل الولد أباه أو خرج عن الإسلام حرم حقّ الإرث.

و كذلك نتيجة سعى كلّ شخص تعود عليه أو إليه، هذا هو الأصل، إلّا أنّه لا مانع من أن يعطى مقدار من المال للآخر طبقا لقرار الإجارة بين الطرفين، و هو أصل قرآنى ۲۶۵] كذلك، أو أن ينتقل المال عن طريق النذر أو الوصية، كما صرّح به القرآن الكريم.

۳- الجواب على سؤالين

يرد هنا سؤالان و ينبغى أن نجيب عليها:

أوّلا: إذا كان ما يناله الإنسان يوم القيامة هو نتيجة سعيه، فما معنى الشفاعة إذا؟! و الثّانى: إنّنا نقرأ فى الآية (۲۱) من سورة الطور فى شأن أهل الجنّة: أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ مع أنّ الذريّة لم تسع فى هذا المضمار، ثمّ إنّنا نجد فى الرّوايات الإسلامية أنّ الإنسان إذا عمل عملا صالحا فإنّ نتيجة ذلك تنعكس على أبنائه أيضا.

و الجواب على هذه الأسئلة جملة واحدة و هى أنّ القرآن يقول أنّ الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۵

ليس له أن يأخذ أكثر من سعيه و عمله، إلّا أنّه لا يمنع أن ينال بعض الناس اللائقين نعما أخر عن طريق اللطف و التفضّل الإلهى.

فالاستحقاق شىء، و التفضّل شىء آخر! كما أنّ اللّه يضاعف الحسنات عشرات المرّات بل مئات المرّات و آلافها أحيانا.

ثمّ- الشفاعة- كما ذكرنا فى محلّه- ليست اعتباطا ..- بل هى بحاجة إلى السعى و الجدّ و إيجاد العلاقة بالشافع أيضا، و كذلك الأمر فى شأن ذريّة الأشخاص الصالحين، فإنّ القرآن يقول أيضا: وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ .

۴- صحف إبراهيم و موسى

«الصحف» جمع صحيفة، و تطلق هذه الكلمة على كلّ شىء واسع كما يقال مثلا صحيفة الوجه، ثمّ استعملوا هذه الكلمة على صفحات الكتاب.

فالمراد من صحف موسى هى التوراة النازلة عليه و أمّا صحف إبراهيم فما نزل عليه من كتاب سماوى أيضا.

ينقل المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان حديثا عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير سورة الأعلى و خلاصته ما يلى.

يسأل أبو ذرّ النّبى: يا رسول اللّه كم عدد الأنبياء؟

فيجيبه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّهم مائة الف نبى و أربعة و عشرون ألفا.

فيسأله ثانية عن الرسل منهم: كم المرسلون؟

فيجيبه النبى: ثلاثمائة و ثلاثة عشر و بقيّتهم أنبياء .. «و الرّسول هو المأمور بالإنذار و الإبلاغ فى حين أنّ النّبى أعمّ منه مفهوما».

و يسأل أبو ذرّ مرّة اخرى: كان آدم نبيّا؟! فيجيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: نعم، كلّمه اللّه و خلقه بيده.

فيسأله أبو ذرّ: كم أنزل اللّه من كتاب؟ فيجيب النبى: مائة و أربعة كتب أنزل اللّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۶

منها علی آدم عشر صحف، و علی شیث خمسین صحیفة و علی أخنوخ و هو «إدریس» ثلاثین صحیفة، و هو أوّل من خطّ بالقلم، و علی إبراهیم عشر صحائف، و التوراة و الإنجیل و الزبور و الفرقان»[۲۶۶].

۵- المسؤولیة عن الأعمال فی کتب السابقین

الذی یلفت النظر أنّ التّوراة الحالیة أوردت المضمون الذی ذکرته الآیات محلّ البحث فی کتاب حزقیل إذ جاء فیه:

«الجانی الذی یذنب سیموت، و الابن لا یحمل عبء أبیه و الأب لا یحمل ذنب ابنه»[۲۶۷].

و جاء هذا المعنی ذاته أیضا فی مورد القتل فی سفر التثنیة من التوراة.

«لا یقتل الآباء عوضا عن الأبناء و لا یقتل الأبناء عوضا عن الآباء، فکلّ یقتل بذنبه»[۲۶۸].

و بالطبع فإنّ کتب الأنبیاء الأصلیة لیست فی متناول الید، و إلّا لکان من الممکن أن نعثر علی موارد أکثر فی شأن هذا الأصل و أمثاله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۷

الآیات [سورة النجم (۵۳): الآیات ۴۲ الی ۴۹]

اشارة

وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی (۴۲) وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَکَ وَ أَبْکی (۴۳) وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْیا (۴۴) وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَیْنِ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۴۵) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنی (۴۶)

وَ أَنَّ عَلَیْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْری (۴۷) وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنی وَ أَقْنی (۴۸) وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْری (۴۹)

التّفسیر

کلّ شیء ینتهی إلیه:

فی هذه الآیات تتجلّی بعض صفات اللّه التی ترشد الإنسان إلی مسألة التوحید و کذلک المعاد أیضا.

ففی هذه الآیات و إکمالا للبحوث الواردة فی شأن جزاء الأعمال یقول القرآن: وَ أَنَّ إِلی رَبِّکَ الْمُنْتَهی

و لیس الحساب و الثواب و الجزاء فی الآخرة بید قدرته فحسب، فإنّ الأسباب و العلل جمیعها تنتهی سلسلتها إلی ذاته المقدّسة، و جمیع تدبیرات هذا العالم تنشأ من تدبیراته، و أخیرا فإنّ ابتداء هذا العالم و الموجودات و انتهاؤها کلّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۸

منه و إلیه، و تعود إلی ذاته المقدّسة.

و نقرأ فی بعض الرّوایات فی تفسیر هذه الآیة

عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إذا انتهی الکلام إلی اللّه فأمسکوا»[۲۶۹].

أی لا تتکلّموا فی ذات اللّه فإنّ العقول تحار فیه و لا تصل إلی حدّ فإنّه لا یمکن للعقول المحدودة أن تفکّر فی ما هو غیر محدود لأنّه مهما فکّرت العقول فتفکیرها محدود و حاشا للّه أن یکون محدودا.

و بالطبع فإنّ هذا التّفسير يبيّن مفهوما آخر لهذه الآية و لا ينافى ما ذكرناه آنفا و يمكن الجمع بين المفهومين فى الآية.

ثمّ يضيف القرآن فى الآية التالية مبيّنا حاكمية اللّه فى أمر ربوبيته و انتهاء امور هذا العالم إليه فيقول: وَ أَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَ أَبْكى وَ أَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَ أَحْيا وَ أَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى ۲۷۰] مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى و هذه الآيات الأربع و ما قبلها فى الحقيقة هى بيان جامع و توضيح طريف لمسألة انتهاء الأمور إليه و تدبيره و ربوبيته، لأنّها تقول: إنّ موتكم و حياتكم بيده و استمرار النسل عن طريق الزوجين بيده، و كلّ ما يحدث فى الحياة فبأمره، فهو يضحك، و هو يبكى، و هو يميت، و هو يحيى، و هكذا فإنّ أساس الحياة و المعوّل عليه من البداية حتّى النهاية هو ذاته المقدّسة.

و قد جاء فى بعض الأحاديث ما يوسع مفهوم الضحك و البكاء فى هذه الآية ففسّرت بأنّه سبحانه: أبكى السماء بالمطر و أضحك الأرض بالنبات ۲۷۱].

و قد أورد بعض الشعراء هذا المضمون فى شعره فقال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۶۹

انّ فصل الربيع فصل جميل تضحك الأرض من بكاء السماء

و ما يسترعى النظر أنّ القرآن أشار إلى صفتى الضحك و البكاء دون سائر أفعال الإنسان، لأنّ هاتين الصفتين خاصّتان بالإنسان و غير موجودتين فى الحيوانات الاخر أو نادرتان جدّا.

أمّا تصوير انفعالات الإنسان عند الضحك أو البكاء و علاقتهما بالتغيّرات فى نفس الإنسان و روحه فانّها غريبة و عجيبة جدّا، و كلّ هذه الأمور فى مجموعها يمكن أن تكون آية واضحة من آيات المدبّر الحقّ، بالإضافة إلى التناسب الموجود بين الضحك و البكاء و الحياة و الفناء! و على كلّ حال، فانتهاء جميع الأمور إلى تدبير اللّه و ربوبيته لا ينافى أصل الإختيار و حرية إرادة الإنسان، لأنّ الإختيار و حرية الإرادة فى الإنسان أيضا من قبل اللّه و تدبيره و تنتهى إليه!.

و بعد ذكر الأمور المتعلّقة بالربوبية و التدبير من قبل اللّه يتحدّث القرآن عن موضوع المعاد فيقول: وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى

«النشأة»: معناها الإيجاد و التربية، و «النشأة الاخرى» ليست شيئا سوى القيامة! و التعبير ب «عليه» من جهة أنّ اللّه لمّا خلق الناس و حمّلهم الوظائف و المسؤوليات و أعطاهم الحرية و كان بينهم المطيعون و غير المطيعون و الظلمة و المظلومون و لم يبلغ أى من هؤلاء جزاءه النهائى فى هذا العالم، اقتضت حكمته أن تكون نشأة اخرى للتحقّق العدالة.

أضف إلى ذلك فإنّ الحكيم لا يخلق هذا العالم الواسع لأيّام أو سنوات محدودة بما فيها من مسائل غير منسجمة، فلا بدّ أن يكون مقدّمة لحياة أوسع تكمن فيها قيمة هذا الخلق الواسع، و بتعبير آخر إذا لم تكن هناك نشأة اخرى فإيجاد هذا العالم لا يبلغ هدفه النهائى!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۰

و ممّا ينبغى الالتفات إليه أنّ اللّه سبحانه جعل هذا الوعد لعباده وعدا محتوما على نفسه، و صدق كلام اللّه يوجب أن لا يخلف وعده.

ثمّ يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ أَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَ أَقْنى فاللّه سبحانه لم يرفع حاجات الإنسان المادية عنه بلطفه العميم فحسب، بل أولاده غنى يرفع عنه حاجاته المعنوية من امور التربية و التعليم و التكامل عن طريق إرسال الرسل إليه و إنزال الكتب السماوية و إعطائه المواهب العديدة.

«و أغنى»: فعل مشتق من غنى و معناه عدم الحاجة.

«و أقنى»: فعل مشتقّ من قنية على وزن جزية، و معناها الأموال التى يدّخرها الإنسان ۲۷۲].

فيكون معنى الآية على هذا النحو: هو أغنى أى رفع الحاجات الفعلية، و أقنى معناه إيلاء المواهب التى تدخّر سواء فى الأمور المادية

كالحائط أو البستان و الأملاك و ما شاكلها، أو الأمور المعنوية كرضا اللّه سبحانه الذى يعدّ أكبر «رأس مال» دائم! و هناك تفسير آخر لأقنى، و هو أنّه ما يقابل أغنى، أى أنّ الغنى و الفقر بيد قدرته، نظير ذلك ما جاء فى الآية (۲۶) من سورة الرعد: اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع ما ورد عن «أقنى» من معنى فى كتب اللغة و الآية المذكورة فى هذا الصدد لا يمكن أن تكون «شاهدا» على هذا التّفسير.

أمّا آخر آية من الآيات محلّ البحث فتقول: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى

و التعويل فى القرآن على «الشعرى» النجم المعروف فى السماء بالإضافة إلى أنّه أكثر النجوم لمعانا و يطّلع عند السحر فى مقربة من الجوزاء ممّا يلفت النظر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۱

تماما .. هذا التعويل و التصريح به لأنّ طائفة من المشركين العرب كانت تعبده، فالقرآن يشير إلى أنّ الأولى بالعبادة هو اللّه لأنّه ربّ الشعرى «و ربّكم».

و ينبغى الالتفات- ضمنا- أنّ هناك نجمين معروفين باسم الشعرى أحدهما إلى الجنوب و يدعى بنجم الشعرى اليمانى «لأنّ اليمن جنوب الجزيرة العربية» و الآخر نجم الشعرى الشامى الواقع فى الجهة الشمالية «و الشام شمال الجزيرة أيضا» إلّا أنّ المعروف و المشهور هو الشعرى اليمانى.

و هناك لطائف و مسائل خاصّة فى هذا النجم «الشعرى» سنتحدّث عنه بعد قليل.

بحوث

۱- كلّ الدلائل تشير إليه

إنّ ما تثيره هذه الآيات فى الحقيقة إشارة إلى هذا المعنى، و هو أنّ أى نوع من أنواع التدبير فى هذا العالم إنّما يعود إلى ذات اللّه المقدّسة، بدءا من مسألة الموت و الحياة، إلى خلق الإنسان من نطفة لا قيمة لها، و كذلك الحوادث المختلفة التى تقع فى حياة الإنسان فتضحكه تارة و تبكيه اخرى، كلّ ذلك من تدبير اللّه سبحانه.

و النجوم و الكواكب المشرقة فى السماء تطلع و تغيب بأمره و تحت ربوبيته.

و فى الأرض الغنى و عدم الحاجة و ما يقتنيه الإنسان كلّ ذلك يعود إلى ذاته المقدّسة.

و بالطبع فإنّ النشأة الاخرى بأمره أيضا، لأنّها حياة جديدة و امتداد لهذه الحياة و استمرارها.

هذا البيان- يبرز خطّ التوحيد من جهة .. و من- جهة اخرى- خطّ المعاد، لأنّ خالق الإنسان من نطفة لا قيمة لها فى الرحم قادر على تجديد حياته أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۲

و بتعبير آخر، إنّ جميع هذه الأمور كاشفة عن توحيد أفعال اللّه و توحيد ربوبيته .. أجل كلّ هذى الأصداء من إيحائه!

۲- عجائب نجم الشعرى:

«نجم الشعری» کما أشرنا إلیه آنفا من أشدّ النجوم فی السماء لمعانا و إشراقا و هو معروف بنجم الشعری الیمانی، لأنّه یقع فی جهة جنوب الجزیرة العربیة، و حیث أنّ الیمن فی جنوب الجزیرة أیضا فقد أطلق علیه «بالیمانی»! و کانت طائفة من العرب کقبیلة «خزاعة» تقدّس هذا النجم و تعبده و تعتقد أنّه مبدأ الموجودات علی الأرض .. فتأکید القرآن علی أنّ اللّه ربّ الشعری هو لإیقاظ هذه القبیلة و أمثالها من غفوتها، لئلّا یشتبه المخلوق بالخالق و یجعل المربوب مکان الربّ کما کانت القبیلة آنفة الذکر علیه.

هذا النجم العجیب الخلقة لإشراقه الکثیر عدّ ملک النجوم و له أسرار و عجائب نشیر إلیها فی هذا البحث مع ملاحظة أنّ هذه الحقائق کانت فی ذلک العصر مجهولة عند العرب و غیرهم عن الشعری فإنّ تأکید القرآن علی هذا الموضوع ذو معنی غزیر! أ- طبقا للتحقیقات التی أجریت فی المراصد المعروفة فی العالم عن «الشعری» ظهر أنّ حرارة هذا النجم تبلغ ۱۲۰ ألف درجة سانتیغراد!.

مع العلم أنّ حرارة سطح الشمس لا تتجاوز ۶۵۰۰ درجة سانتیغراد و هذا التفاوت بین الحرارتین یبیّن مدی حرارة الشعری بالنسبة إلی الشمس.

ب- الجرم المخصوص لهذا النجم أثقل وزنا من الماء بمقدار خمسین ألف مرّة تقریبا، أی أنّ وزن اللیتر من الماء علی الشعری یعادل خمسین طنّا علی سطح الأرض! مع أنّ من بین مجموع المنظومة الشمسیة یعدّ کوکب عطارد أکثر الأجرام فی وزنه النوعی و لا یتجاوز وزنه النوعی ستّة أضعاف الوزن النوعی للماء!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۳

فینبغی أن نعرف بهذا الوصف کم هذا النجم مثیر للدهشة و العجب، و من أی عنصر یتألّف حتّی صار مضغوطا بهذا المستوی؟! ج- یظهر نجم الشعری- فی قرننا- عند فصل الشتاء إلّا أنّ هذا النجم أو الکوکب کان یظهر فی عصر منجّمی مصر فی الصیف! و هو کوکب کبیر یعادل عشرین ضعفا من کوکب الشمس، و مسافته تبعد عن الأرض أکثر من مسافة الشمس بمقدار کبیر و قد ذکروا أنّ مسافة بین الشعری و الأرض تعادل ملیون مرّة المسافة بیننا و بین الشمس.

و نعرف أنّ سرعة النور فی الثانیة ۳۰۰ ألف ألف متر (ثلاثمائة ألف کیلومتر) و أنّ نور الشمس یصل إلینا خلال ثمانی دقائق و ثلاث عشرة ثانیة مع أنّها تبعد عنّا مسافة خمسة عشر ملیون کیلو «مترا» .. فی حین أنّ شعاع الشعری لا یصلنا إلّا بعد عشر سنین، و الآن قدّروا کم هی الفاصلة بین الشعری و الأرض! د- لکوکب الشعری نجم تابع له یدور حوله و هو من نجوم السماء الغامضة.

و أوّل من اکتشفه عالم یدعی بسلlleseB عام ۱۸۴۴ م إلّا أنّه رؤی عام ۱۸۶۲ بالمجهر «التلسکوب» و یکمل هذا النجم دورته حول الشعری فی ۵۰ عاما[۲۷۳].

کلّ هذا یدلّ أنّ تعابیر القرآن إلی أیّ مدی عمیقة و ذات معنی غزیر، و فی طیّات تعابیره حقائق کامنة إذا لم یقدّر لها أن تعرف فی عصر نزولها فإنّها تتجلّی بمرور الزمان.

۳- حدیث عمیق المحتوی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم:

جاء فی بعض الأحادیث أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مرّ بقوم یضحکون فقال: لو تعلمون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۴

ما أعلم لبکیتم کثیرا و لضحکتم قلیلا فنزل علیه جبرئیل فقال: إنّ اللّه هو أضحک و أبکی فرجع النّبی إلیهم و قال ما خطوت أربعین خطوة حتّی أتانی جبرئیل فقال:

ائت هؤلاء، فقل لهم: إنّ اللّه أضحک و أبکی ۲۷۴].

و فى ذلك إشارة إلى أنّ المؤمن لا يلزمه أن يبكى دائما، فالبكاء من خوف اللّه فى محلّه مطلوب، و الضحك فى محلّه مطلوب أيضا، لأنّهما من اللّه! و على كلّ حال، فإنّ هـذه التعابير لا تنافى أصل الإختيار و حريـة الإرادة فى الإنسان، لأنّ الهـدف هو بيان علّـة العلل و خالق هـذه الغرائز و الإحساسات! و عند ما نقرأ فى الآية ۸۲ من سورة التوبـة قوله تعالى: فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيراً جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ فهـذا الأمر وارد فى المنافقين، لأنّ الآيات التى قبل هـذه الآيـة و بعـدها تشـهد بذلك! الذى يلفت النظر أنّ القرآن يقسم فى بدايـة السـورة بـالنجم فيقول: وَ النَّجْمِ إِذا هَوى و فى الآيـة محـلّ البحث يقول فى بيـان صـفات اللّه: وَ أَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى فـإذا جمعنا الآيتين جنبا إلى جنب فهمنا لم لا يصحّ عبادة الشعرى، لأنّ كوكب الشعرى يأفل أيضا، و هو أسير فى قبضة قوانين الخلق!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۵

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵۰ الى ۵۵]

اشارة

وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (۵۰) وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى (۵۱) وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى (۵۲) وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (۵۳) فَغَشَّاها ما غَشَّى (۵۴)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (۵۵)

التّفسير

ألا تكفى دروس العبرة هذه؟!

هذه الآيات- كالآيات المتقدّمة- تستكمل المسائل المذكورة فى الصحف الاولى و ما جاء فى صحف إبراهيم و موسى.

و كانت الآيات المتقدّمة قد ذكرت عشر مسائل ضمن فصلين:

الأوّل: كان ناظرا إلى مسئولية كلّ إنسان عن أعماله.

الثـانى: نـاظر إلى انتهاء جميع الخطوط و الحوادث إلى اللّه سـبحانه! أمّا الآيات محلّ البحث فتتحـدّث عن مسألـة واحـدة- و إن شـئت قلت- تتحـدّث عن موضوع واحـد ذلك هو مجازاة أربع امم من الأمم المنحرفـة الظالمة و إهلاكهم، و فى ذلك إنذار لأولئك الذين يلوون رؤوسهم عن طاعة اللّه و لا يؤمنون بالمبدأ و المعاد[۲۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۶

فتبـدأ الآيـة الاـولى من الآيـات محـلّ البحث فتقول: وَ أَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى وصف عاد ب «الاولى» إمّا لقـدمها حتّى أنّ العرب تطلق على كلّ قـديم أنّه «عاديّ» أو لوجود امّتين فى التاريـخ باسم «عاد» و الامّـة المعروفـة التى كانت نبيّها هود عليه السّـلام تدعى ب «عاد الاولى»[۲۷۶].

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: وَ ثَمُودَ فَما أَبْقى

و يقول فى شأن قوم نوح: وَ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَ أَطْغى

لأنّ نبيّهم نوحا عاش معهم زمانا طويلا، و بذل قصارى جهده فى إبلاغهم و نصحهم، فلم يستجب لدعوته إلّا قليل منهم، و أصرّوا على شركهم و كفرهم و عتوّهم و استكبار هم و إيـذائهم نبيّهم نوحـا و تكـذيبهم إيّاه و عبادة الأوثان بشـكل فظيع كما سـنعرض تفصـيل ذلك فى تفسير سورة نوح إن شاء اللّه.

و أمّا رابعة الأمم فهى «قوم لوط» المشار إليهم بقوله تعالى: وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى

و الظاهر أنّ زلزلـة شديـدة أصابت حيّهم و قريتهم فقذفت عماراتهم نحو السـماء بعد اقتلاعها من الأرض و قلبتها على الأرض، و طبقا لبعض الرّوايات كان جبرئيل قد اقتلعها بإذن اللّه و جعل عاليها سافلها و دمّرها تدميرا .. فَغَشَّاها ما غَشَّى ۲۷۷].

أجل .. لقد أمطروا بحجارة من السماء، فغشّت حيّهم و عماراتهم المنقلبة و دفنتها عن آخرها.

و بالرغم من أنّ التعبير فى هذه الآية و الآية السابقة لم يصرّح بقوم لوط، إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۷

أنّ المفسّرين فهموا منه كما فهموا من الآيـة ۷۰ من سورة التوبـة و الآية ۹ من سورة الحاقـة هـذا المعنى من عبـارة المؤتفكات، و قد احتمل بعضـهم أنّه هـذا التعبير يشـمل كلّ المـدن المقلوبة و النازل عليها العذاب من السـماء، إلّا أنّ آيات القرآن الاخر تؤيّد ما ذهب إليه المشهور بين المفسّرين!.

و قـد جاء فى الآية (۸۲) من سورة هود: فَلَمَّا جـاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ! و جاء فى تفسير على بن إبراهيم أنّ المؤتفكـة «المدينـة المقلوبـة» هى «البصـرة»! لأنّه ورد فى روايـة أنّ أمير المؤمنين عليا خاطب أهلها بالقول: يا أهل البصـرة و يا أهل المؤتفكـة و يا جند المرأة و أتباع البهيمة! غير أنّه من المعلوم أنّ هذا التعبير فى كلام الإمام على عليه السّلام هو من باب التطبيق و المصداق، لا التّفسير، لاحتمال أن يكون أهل البصـرة يومئذ فيهم شـبه بأهل المؤتفكة من الناحية الأخلاقية .. و ما ابتلى به قـوم لوط من عـذاب اللّه! و فى ختـام هـذا البحث يشـير القرآن إلى مجموع النعم الوارد ذكرهـا فى الآيـات المتقدّمـة و يلمـح إليها بصورة استفهام إنكارى قائلا: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى

فهل تشّك و تتردّد بنعم اللّه، كنعمـة الحياة أو أصل نعمـة الخلق و الإيجاد، أو نعمة أنّ اللّه هذه لا يأخذ أحدا بوزر أحد، و ما جاء فى الصـحف الاولى و أكّده القرآن؟! و هل من شاكّ بهـذه النعمـة، و هى أنّ اللّه أبعـدكم عن البلاء الـذى عمّ الأمم السابقـة بكفرهم و شملكم بعفوه و رحمته؟! أو هل هناك شكّ فى نعمة نزول القرآن و موضوع الرسالة و الهداية؟

صحيح أنّ المخاطب بالآية هو شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ مفهومها شامل لجميع المسلمين، بل الهدف الأصلى من هذه الآية إفهام الآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۸

«تتمارى»[۲۷۸] مشـتقّ من تمارى و معناه المحاجـة و المجادلـة المقرونة بالشكّ و التردّد! «آلاء» جمع: ألأ، أو إلى- على وزن فعل- و الألئ معناها النعمـة .. و بالرغم من أنّ بعض ما جاء فى الآيات المتقدّمـة و من ضـمنها إهلاك الأمم السابقـة و تعـذيبهم ليس مصداقا للنعمـة .. إلّا أنّه من جهـة كونه درسا للعبرة «للآخرين» و لأنّ اللّه لم يعـذّب المسـلمين و حتّى الكفّار المعاصـرين لهم بـذلك العـذاب يمكن اعتبار ذلك نعمة عظيمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۷۹

الآيات [سورة النجم (۵۳): الآيات ۵۶ الى ۶۲]

اشارة

هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (۵۶) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (۵۷) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (۵۸) أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (۵۹) وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ (۶۰)

وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ (۶۱) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا (۶۲)

التّفسير

اسجدوا له جميعا ..

تعقيبا على الآيات المتقدّمة التى كانت تتحدث عن إهلاك الأمم السالفة لظلمهم، تتوجّه هذه الآيات- محلّ البحث- إلى المشركين، و الكفّار و منكرى دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتخاطبهم بالقول: هـذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى النّبى أو القرآن نذير كمن سبقه من المنذرين.

و قوله عن «القرآن أو النّبى «هذا نذير من النذر الاولى» يعنى أنّ رسالة محمّد و كتابه السماوى لم يكن (أى منهما) موضوعا لم يسبق إليه، فقد أنذر اللّه أمما بمثله فى ما مضى من القرون، فعلام يكون ذلك مثار تعجّبكم؟

و قال بعض المفسّرين إنّ المراد من هذا نَذِيرٌ هو الإشارة إلى الإخبار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۰

الوارد فى الآيات المتقدّمة عن نهاية الأمم السالفة، لأنّ هذا الإخبار بنفسه نذير أيضا، إلّا أنّ التّفسيرين السابقين أنسب كما يبدو.

و من أجل أن يلتفت المشركون و الكفّار إلى الخطر المحدق بهم و يهتّموا به أكثر يضيف القرآن قائلا: أَزِفَتِ الْآزِفَةُ.

أجل، فقد اقترب و عد القيامة فأعدّوا أنفسكم للحساب، و التعبير ب «الآزفة» عن القيامة هو لاقترابها و ضيق وقتها، لأنّ الكلمة هذه مأخوذة من الأزف على وزن نجف. و معناه ضيق الوقت، و بالطبع فإنّ مفهومه يحمل الاقتراب أيضا ..

و تسمية القيامة بالآزفة فى القرآن بالإضافة إلى هذه الآية محلّ البحث، واردة فى الآية ۱۸ من سورة غافر أيضا .. و هو تعبير بليغ و موقظ، و هذا المعنى جاء بتعبير آخر فى سورة القمر (الآية الاولى) اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ، و على كلّ حال فإنّ اقتراب القيامة مع الأخذ بنظر الإعتبار عمر الدنيا المحدود و القصير يمكن إدراكه بوضوح، خاصّة ما ورد أنّ من يموت تقوم قيامته الصغرى.

ثمّ يضيف القرآن قائلا: أنّ المهمّ هو أنّه لا أحد غير اللّه بإمكانه إغاثة الناس فى ذلك اليوم و الكشف عمّا بهم من شدائد: لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ[۲۷۹].

«الكاشفة» هنا معناه مزيحة الشدائد. إلّا أنّ بعضهم فسّرها بأنّها العامل لتأخير القيامة، و بعضهم فسّرها بأنّها الكاشفة عن تاريخ وقوع يوم القيامة، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب ظاهرا.

و على كلّ حال، فالحاكم و المالك و صاحب القدرة فى ذلك الحين و كلّ حين هو اللّه سبحانه، فإذا أردت النجاة فالتجئوا إليه و إلى لطفه و إذا طلبتم الدّعة و الأمان فاستظلّوا بالإيمان به.

و يضيف القرآن فى الآية التالية قائلا: أَ فَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۱

و لعلّ هذه الجملة إشارة إلى القيامة الوارد ذكرها آنفا، أو أنّها إشارة إلى القرآن، لأنّه ورد التعبير عنه ب «الحديث» فى بعض الآيات كما فى الآية ۳۴ من سورة الطور، أو أنّ المراد من «الحديث» هو ما جاء من القصص عن هلاك الأمم السابقة أو جميع هذه المعانى.

ثمّ يقول مخاطبا: وَ تَضْحَكُونَ وَ لا تَبْكُونَ وَ أَنْتُمْ سامِدُونَ أى فى غفلة مستمرّة و لهو و تكالب على الدنيا، مع أنّه لا مجال للضحك هنا و لا الغفلة و الجهل، بل ينبغى أن يبكى على الفرص الفائتة و الطاعات المتروكة، و المعاصى المرتكبة، و أخيرا فلا بدّ من التوبة و الرجوع إلى ظلّ اللّه و رحمته! و كلمة سامدون مشتقّة من سمود على وزن جمود- و معناه اللهو و الانشغال و رفع الرأس للأعلى تكبرا و غرورا، و هى فى أصل استعمالها تطلق على البعير حين يرفل فى سيره و يرفع رأسه غير مكترث بمن حوله.

فهؤلاء المتكبّرون المغرورون كالحيوانات همّهم الأكل و النوم، و هم غارقون باللذائذ جاهلون عمّا يحدق بهم من الخطر و العواقب

الوخيمة و الجزاء الشديد الذى سينالهم.

و يقول القرآن فى آخر آية من الآيات محلّ البحث- و هى آخر آية من سورة النجم أيضا- بعد أن بيّن أبحاثا متعدّدة حول إثبات التوحيد و نفى الشرك:

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَ اعْبُدُوا.

فإذا أردتم أن تسيروا فى الصراط المستقيم و السبيل الحقّ فاسجدوا لذاته المقدّسة فحسب، إذ للّه وحده تنتهى الخطوط فى عالم الوجود، و إذا أردتم النجاة من العواقب الوخيمة التى أصابت الأمم السالفة لشركهم و كفرهم فوقعوا فى قبضة عذاب اللّه، فاعبدوا اللّه وحده.

الذى يجلب النظر- كما جاء فى روايات متعدّدة- أنّ النّبى عند ما تلا هذه الآية و سمعها المؤمنون و الكافرون سجدوا لها جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۲

و وفقا لبعض الرّوايات أن الوحيد الذى لم يسجد لهذه الآية عند سماعها هو «الوليد بن المغيرة» [لعلّه لم يستطع أن ينحنى للسجود] فأخذ قبضة من التراب و وضعها على جبهته فكان سجوده بهذه الصورة.

و لا مكان للتعجّب أن يسجد لهذه الآية حتى المشركون و عبدة الأصنام، لأنّ لحن الآيات البليغ من جهة، و محتواها المؤثّر من جهة اخرى و ما فيها من تهديد للمشركين من جهة ثالثة، و تلاوة هذه الآيات على لسان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى المرحلة الاولى من نزول الآيات عن لسان الوحى من جهة رابعة .. كلّ هذه الأمور كان لها دور فى التأثير و النفوذ إلى القلوب حتّى أنّه لم يبق أىّ قلب إلّا اهتزّ لجلال آيات اللّه و ألقى عنه. ستار الضلال و حجب العناد- و لو مؤقتا- و دخله نور التوحيد المشعّ!.

و إذا تلونا الآية- بأنفسنا- و أنعمنا النظر فيها بكلّ دقّة و تأمّل و حضور قلب و تصوّرنا أنفسنا أمام النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى جوّ نزول الآيات و بقطع النظر- عن اعتقادنا الإسلامى- نجد أنفسنا ملزمين على السجود عند تلاوتنا لهذه الآية و أنّ نحنى رؤوسنا إجلالا لربّ الجلال! و ليست هذه هى المرّة الاولى التى يترك القرآن بها أثره فى قلوب المنكرين و يجذبهم إليه دون اختيارهم، إذ ورد فى قصّة «الوليد بن المغيرة» أنّه لمّا سمع آيات فصّلت و بلغ النّبى (فى قوله) إلى الآية: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ قام من مجلسه و اهتزّ لها و جاء إلى البيت فظنّ جماعة من المشركين أنّه صبا إلى دين محمّد.

فبناء على هذا، لا حاجة أن نقول بأنّ جماعة من الشياطين أو جماعة من المشركين الخبثاء حضروا عند النّبى و لمّا سمعوا النّبى يتلو الآية: أَ فَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى بسطوا ألسنتهم و قالوا: تلك الغرانيق العلى!! و لذلك انجذب المشركون لهذه الآيات فسجدوا أيضا عند تلاوة النّبى آية السجدة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۳

لأنّنا كما أشرنا آنفا فى تفسير هذه الآيات. انّ الآيات التى تلت هذه الآيات عنّفت المشركين و لم تدع مجالا للشكّ و التردّد و الخطأ لأى أحد (فى مفهوم الآية) [لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآيتين ۱۹ و ۲۰ من هذه السورة].

و ينبغى الالتفات أيضا إلى أنّ الآية الآنفة يجب السجود عند تلاوتها، و لحن الآية التى جاءت مبتدئة بصيغة الأمر- و الأمر دالّ على الوجوب- شاهد على هذا المعنى.

و هكذا فإنّ هذه السورة ثالثة السور الوارد فيها سجود واجب، أى هى بعد سورة الم السجدة، و حم السجدة .. و إن كان بعضهم يرى بأنّ أوّل سورة فيها سجود واجب نزلت على النّبى من الناحية التاريخية- هى هذه السورة.

اللهمّ أنر قلوبنا بأنوار معرفتك لئلّا نعبد سواك شيئا و لا نسجد إلّا لك.

اللهمّ إنّ مفاتيح الرحمة و الخير كلّها بيد قدرتك، فارزقنا من خير مواهبك و عطاياك، أى رضاك يا ربّ العالمين.

اللهمّ ارزقنا بصيرة فى العبر- لنعتبر بالأمم السالفة و عاقبة ظلمها و أن نحذر الاقتفاء على آثارهم آمين يا ربّ العالمين.

انتهت سورة النّجم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۵

سورة القمر

اشارة

مكّية و عدد آياتها خمس و خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۷

«سورة القمر»

محتوى السورة:

تحوى هـذه السّورة خصوصـيات السور المكيّة التى تتنـاول الأبحـاث الأساسيّة حول المبـدأ و المعاد، و خصوصا العقوبات التى نزلت بالأـمم السالفـة، و ذلـك نتيجـة عنـادهم و لجاجتهم فى طريق الكفر و الظلم و الفساد .. ممّا أدّى بها الواحـدة تلو الاخرى إلى الابتلاء بالعذاب الإلهى الشديد، و سبّب لهم الدمار العظيم.

و نلاحظ فى هذه السورة تكرار قوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ و ذلك بعد كلّ مشـهد من مشاهد العذاب الذى يحلّ بالأمم لكى يكون درسا و عظة للمسلمين و الكفّار.

و يمكن تلخيص أبحاث هذه السورة فى عدّة أقسام هى:

۱- تبدأ السورة بالحديث عن قرب وقوع يوم القيامة، و موضوع شقّ القمر، و إصرار و عناد المخالفين فى إنكار الآيات الإلهيّة.

۲- و القسم الثانى يبحث بتركيز و اختصار عن أوّل قوم تمرّدوا على الأوامر الإلهيّة، و هم قوم نوح، و كيفيّة نزول البلاء عليهم.

۳- أمّا القسم الثالث فإنّه يتعرّض إلى قصّة قوم «عاد» و أليم العذاب الذى حلّ بهم.

۴- و فى القسم الرابع تتحـدّث الآيـات عن قوم «ثمود» و معارضـتهم لنبيّهم صالـح عليه السّـلام و بيـان معجزة الناقـة، و أخيرا ابتلاؤهم بالصيحة السماوية.

۵- تتطرّق الآيات بعد ذلك إلى الحديث عن قوم «لوط» ضمن بيان واف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۸

لانحرافهم الأخلاقى ... ثمّ عن السخط الإلهى عليهم و ابتلائهم بالعقاب الرّبانى.

۶- و فى القسم السادس تركّز الآيات الكريمـة- بصورة موجزة- الحديث عن آل فرعون، و ما نزل بهم من العذاب الأليم جزاء كفرهم و ضلالهم.

۷- و فى القسم الأخير تعرض مقارنة بين هذه الأمم و مشـركى مكّة و مخالفى الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المستقبل الخطير الذى ينتظر مشركى مكّة فيما إذا استمرّوا على عنادهم و إصرارهم فى رفض الدعوة الإلهيّة.

و تنتهى السورة ببيان صور و مشاهد من معاقبة المشركين، و جزاء و أجر المؤمنين و المتّقين.

و سورة القمر تتميّز آياتها بالقصر و القوّة و الحركية.

و قد سمّيت هذه السورة ب (سورة القمر) لأنّ الآية الاولى منها تتحدّث عن شقّ القمر.

فضيلة تلاوة سورة القمر:

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة اقتربت الساعة فى كلّ غبّ بعث يوم القيامة و وجهه على صورة القمر ليلة البدر، و من قرأها كلّ ليلة كان أفضل و جاء يوم القيامة و وجهه مسفر على وجوه الخلائق»[۲۸۰].

و من الطبيعى أن تكون النورانية التى تتّسم بها هذه الوجوه تعبيرا عن الحالة الإيمانية الراسخة فى قلوبهم نتيجة التأمّل و التفكّر فى آيات هذه السورة المباركة و العمل بها بعيدا عن التلاوة السطحية الفارغة من التدبّر فى آيات اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۸۹

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ (۱) وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (۲) وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (۳)

التّفسير

شقّ القمر!!

يتناول الحديث فى الآية الاولى حادثتين مهمّتين:

أحدهما: قرب وقوع يوم القيامة، و الذى يقترن بأعظم تغيير فى عالم الخلق، و بداية لحياة جديدة فى عالم آخر، ذلك العالم الذى يقصر فكرنا عن إدراكه نتيجة محدودية علمنا و استيعابنا للمعرفة الكونية.

و الحادثة الثانية التى تتحدّث الآية الكريمة عنها هى معجزة انشقاق القمر العظيمة التى تدلّ على قدرة البارئ عزّ و جلّ المطلقة، و كذلك تدلّ- أيضا- على صدق دعوة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال تعالى: اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَ انْشَقَّ الْقَمَرُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۰

و جدير بالذكر أنّ سورة النجم التى أنهت آياتها المباركة بالحديث عن يوم القيامة أَزِفَتِ الْآزِفَةُ تستقبل آيات سورة القمر بهذا المعنى أيضا، ممّا يؤكّد قرب وقوع اليوم الموعود رغم أنّه عند ما يقاس بالمقياس الدنيوى فقد يستغرق آلاف السنين و يتوضّح هذا المفهوم، حينما نتصوّر مجموع عمر عالمنا هذا من جهة، و من جهة اخرى عند ما نقارن جميع عمر الدنيا فى مقابل عمر الآخرة فانّها لا تكون سوى لحظة واحدة.

إنّ اقتران ذكر هاتين الحادثتين فى الآية الكريمة: «انشقاق القمر و اقتراب الساعة» دليل على قرب وقوع يوم القيامة، كما ذكر ذلك قسم من المفسّرين حيث أنّ ظهور الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و هو آخر الأنبياء- قرينة على قرب وقوع اليوم المشهود ...

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «بعثت أنا و الساعة كهاتين»[۲۸۱]

مشيرا إلى إصبعيه الكريمين.

و من جهة اخرى، فإنّ انشقاق القمر دليل على إمكانية اضطراب النظام الكونى، و نموذج مصغّر للحوادث العظيمة التى تسبق وقوع يوم القيامة فى هذا العالم، حيث اندثار الكواكب و النجوم و الأرض يعنى حدوث عالم جديد، استنادا إلى الرّوايات المشهورة التى ادّعى

البعض تواترها.

قال ابن عبّاس: اجتمع المشركون إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالوا: إن كنت صادقا فشقّ لنا القمر فلقتين، فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن فعلت تؤمنون؟» قالوا: نعم، و كانت ليلة بدر فسأل رسول اللّه ربّه أن يعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فلقتين و رسول اللّه ينادى: «يا فلان يا فلان، اشهدوا»[۲۸۲].

و لعلّ التساؤل يثار هنا عن كيفية حصول هذه الظاهرة الكونية: (انشقاق هذا الجرم السماوى العظيم) و عن مدى تأثيره على الكرة الأرضية و المنظومة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۱

الشمسية، و كذلك عن طبيعة القوّة الجاذبة التى أعادت فلقتى القمر إلى وضعهما السابق، و عن كيفيّة حصول مثل هذا الحدث؟ و لماذا لم يتطرّق التاريخ إلى ذكر شىء عنه؟ بالإضافة إلى مجموعة تساؤلات اخرى حول هذا الموضوع و التى سنجيب عليها بصورة تفصيليّة فى هذا البحث إن شاء اللّه.

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ بعض المفسّرين الذين تأثّروا بوجهات نظر غير سليمة، و أنكروا كلّ معجزة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عدا القرآن الكريم، عند ما التفتوا إلى وضوح الآية الكريمة محلّ البحث و الرّوايات الكثيرة التى وردت فى كتب علماء الإسلام فى هذا المجال، واجهوا عناءا فى توجيه هذه المعجزة الربّانية، و حاولوا نفى الظاهرة الإعجازية لهذا الحادث ...

و الحقيقة أنّ مسألة «انشقاق القمر» كانت معجزة، و الآيات اللاحقة تحمل الدلائل الواضحة على صحّة هذا الأمر كما سنرى ذلك إن شاء اللّه.

لقد كان جديرا بهؤلاء أن يصحّحوا و جهات نظرهم تلك، ليعلموا أنّ للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معجزات عديدة أيضا.

و إذا أريد الاستفادة من الآيات القرآنية لنفى المعجزات فإنّها تنفى المعجزات المقترحة من قبل المشركين المعاندين الذين لم يقصدوا قبول دعوة الحقّ من أوّل الأمر و لم يستجيبوا للرسول الأكرم بعد إنجاز المعجز، لكن المعجزات التى تطلب من الرّسول من أجل الاطمئنان إلى الحقّ و الإيمان به كانت تنجز من قبله، و لدينا دلائل عديدة على هذا الأمر فى تأريخ حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

يقول سبحانه: وَ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَ يَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.

و المراد من قوله تعالى «مستمر» أنّهم شاهدوا من الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معجزات عديدة، و شقّ القمر هو استمرار لهذه المعاجز، و أنّهم كانوا يبرّرون إعراضهم عن الإيمان و عدم الاستسلام لدعوة الحقّ و ذلك بقولهم: إنّ هذه المعاجز كانت «سحر مستمر».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۲

و هنالك بعض المفسّرين من فسّر «مستمر» بمعنى «قوى» كما قالوا: (حبل مرير) أى: محكم، و البعض فسّرها بمعنى: الطارئ و غير الثابت، و لكن التّفسير الأنسب هو التّفسير الأوّل.

أمّا قوله تعالى: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ فإنّه يشير إلى سبب مخالفتهم و عنادهم و سوء العاقبة التى تنتظرهم نتيجة لهذا الإسرار.

إنّ مصدر خلاف هؤلاء و تكذيبهم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو تكذيب معاجزه و دلائله، و كذلك تكذيب يوم القيامة، هو اتّباع هوى النفس.

إنّ حالة التعصّب و العناد و حبّ الذات لم تسمح لهم بالاستسلام للحقّ، و من جهة اخرى فإنّ المشركين ركنوا للملذّات الرخيصة

بعيدا عن ضوابط المسؤولية، و ذلك إشباعا لرغباتهم و شهواتهم، و كذلك فإنّ تلوّث نفوسهم بالآثام حال دون استجابتهم لدعوة الحقّ، لأنّ قبول هذه الدعوة يفرض عليهم التزامات و مسئوليات الإيمان و الاستجابة للتكاليف ...

نعم إنّ هوى النفس كان و سيبقى السبب الرئيسى فى إبعاد الناس عن مسير الحقّ ...

و بالنسبة لقوله تعالى: وَ كُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ، يعنى أنّ كلّ إنسان يجازى بعمله و فعله، فالصالحون سيكون مستقرّهم صالحا، و الأشرار سيكون مستقرّهم الشرّ.

و يحتمل أن يكون المراد فى هذا التعبير هو أنّ كلّ شىء فى هذا العالم لا ـ يفنى و لا يزول، فالأعمال الصالحة أو السيّئة تبقى مع الإنسان حتّى يرى جزاء ما فعل.

و يحتمل أن يكون تفسير الآية السابقة أنّ الأكاذيب و الاتّهامات لا تقوى على الاستمرار الأبدى فى إطفاء نور الحقّ و التكتّم عليه، حيث إنّ كلّ شىء (خير أو شرّ) يسير بالاتّجاه الذى يصبّ فى المكان الملائم له، حيث إنّ الحقّ سيظهر وجهه الناصح مهما حاول المغرضون إطفاءه، كما أنّ وجه الباطل القبيح سيظهر قبحه كذلك، و هذه سنّة إلهيّة فى عالم الوجود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۳

و هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها، حيث يمكن جمعها فى مفهوم هذه الآية الكريمة.

بحوث

[۱- شقّ القمر معجزة كبيرة]

شقّ القمر معجزة كبيرة للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مع ذلك فإنّ بعض الأشخاص السطحيين يصرّون على إخراج هذا الحادث من حالة الإعجاز، حيث قالوا: إنّ الآية الكريمة تحدّثنا فقط عن المستقبل و عن أشراط الساعة، و هى الحوادث التى تسبق وقوع يوم القيامة ...

لقد غاب عن هؤلاء أنّ الأدلّة العديدة الموجودة فى الآية تؤكّد على حدوث هذه المعجزة، و من ضمنها ذكر الفعل (انشقّ) بصيغة الماضى، و هذا يعنى أنّ (أشقّ القمر) شىء قد حدث كما أنّ قرب وقوع يوم القيامة قد تحقّق، و ذلك بظهور آخر الأنبياء محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

بالإضافة إلى ذلك، إن لم تكن الآية قد تحدّثت عن وقوع معجزة، فلا يوجد أى تناسب أو انسجام بينها و بين ما ورد فى الآية اللاحقة حول افترائهم على الرّسول بأنّه (ساحر) و كذلك قوله: وَ كَذَّبُوا وَ اتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ و التى تخبر الآية هنا عن تكذيبهم للرسالة و الرّسول و معاجزه.

إضافة إلى ذلك فإنّ الرّوايات العديدة المذكورة فى الكتب الإسلامية، و التى بلغت حدّ التواتر نقلت وقوع هذه المعجزة، و بذلك أصبحت غير قابلة للإنكار.

و نشير هنا إلى روايتين منها:

الاولى: أوردها الفخر الرازى أحد المفسّرين السنّة، و الاخرى للعلّامة الطبرسى أحد المفسّرين الشيعة.

يقول الفخر الرازى: «و المفسّرون بأسرهم على أنّ المراد أنّ القمر انشقّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۴

و حصل فيه الإنشقاق، و دلّت الأخبار على حديث الإنشقاق، و فى الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ... و القرآن أدلّ دليل

و أقوى مثبت له و إمكانه لا يشكّ فيه، و قد أخبر عنه الصادق فيجب إعتقاد وقوعه»[۲۸۳].

أمّا عن نظريـة بطليموس و القائلـة بأنّ (الأفلاك السـماوية ليس بإمكانها أن تنفصل أو تلتئم) فإنّها باطلة و ليس لها أى أساس أو سـند علمى، حيث إنّه ثبت من خلال الأدلّة العقليّة أنّ انفصال الكواكب فى السماء أمر ممكن.

و يقول العلّامـة الطبرسـى فى (مجمع البيان): لقـد أجمع المفسّـرون و المحـدّثون سوى عطاء و الحسـين و البلخى الـذين ذكرهم ذكرا عابرا، أنّ معجزة شقّ القمر كانت فى زمن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و نقل أنّ حذيفـة- و هو أحـد الصـحابة المعروفين- ذكر قصّة شقّ القمر فى جمع غفير فى مسـجد المدائن و لم يعترض عليه أحد من الحاضـرين، مع العلم أنّ كثيرا منهم قد عاصـر زمن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و نقل هذا الحديث فى هامش الآية المذكورة فى الدرّ المنثور و القرطبى).

و ممّـا تقـدّم يتّضـح جيّـدا أنّ مسألـة شـقّ القمر أمر غير قابـل للإنكـار، سـواء من الآيـة نفسـها و القرائن الموجودة فيهـا، أو من خلال الأحاديث و الرّوايات، أو أقوال المفسّرين، و من الطبيعى أن تطرح أسئلة اخرى حول الموضوع سنجيب عنها إن شاء اللّه فيما بعد.

۲- مسألة شقّ القمر و العلم الحديث:

اشارة

السؤال المهمّ المطروح فى هذا البحث هو: هل أنّ الأجرام السماوية يمكنها أن تنفصل و تنشقّ؟ و ما موقف العلم الحديث من ذلك؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۵

و للإجابـة على هذا السؤال و بناء على النتائج التى توصّل إليها العلماء الفلكيون، فإنّ مثل هذا الأمر فى نظرهم ليس بدرجة من التعقيد بحيث يستحيل تصوّره ... إنّ الاكتشافات العلمية التى توصّل إليها الباحثون تؤكّد أنّ مثل هذه الحوادث مضافا إلى أنّها ليست مستحيلة فقد لوحظت نماذج عديدة من هذا القبيل و لعدّة مرّات مع اختلاف العوامل المؤثّرة فى كلّ حالة.

و بعبارة اخرى: فقد لوحظ أنّ مجموعة انفجارات و انشقاقات قد وقعت فى المنظومة الشمسية، بل فى سائر الأجرام السماوية.

و يمكن ذكر بعض النماذج كشواهد على هذه الظواهر ...

أ- ظهور المنظومة الشمسية:

إنّ هذه النظرية المقبولة لدى جميع العلماء تقول: إنّ جميع كرات المنظومة الشمسـية كانت فى الأصل جزءا من الشـمس ثمّ انفصـلت عنها، حيث أصبحت كلّ واحدة منها تدور فى مدارها الخاصّ بها غاية الأمر هناك كلام فى السبب لهذا الانفصال ..

يعتقد (لا پلاس) أنّ العامل المسبّب لانفصال القطع الصغيرة من الشمس هى:

(القوّة الطاردة) التى توجـد فى المنطقـة الإسـتوائية لها، حيث أنّ الشـمس كانت تعتبر و لحـدّ الآن كتلـة ملتهبة، و ضـمن دورانها حول نفسـها فـإنّ السـرعة الموجودة فى المنطقـة الإسـتوائية لهـا تسـبّب تنـاثر بعض القطع منها فى الفضاء ممّا يجعل هـذه القطع تـدور حول مركزها الأصلى (الشمس).

و لكن العلماء الذين جاءوا بعد (لا پلاس) توصّلوا من خلال تحقيقاتهم إلى فرضية اخرى تقول: إنّ السبب الأساس لحدوث الانفصال فى الأجرام السـماوية عن الشـمس هو حالة المدّ و الجزر الشديدين التى حدثت على سـطح الشـمس نتيجة عبور نجمة عظيمة بالقرب منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۶

الأشخاص المؤيّدون لهذه النظرية الذين يرون أنّ الحركة الوضعية للشمس فى ذلك الوقت لا تستطيع أن تعطى الجواب الشافعى لأسباب هذا الانفصال، قالوا:

إنّ حالة المدّ و الجزر الحاصلة فى الشمس أحدثت أمواجا عظيمة على سطحها.

كما فى سقوط حجر كبير فى مياه المحيط، و بسبب ذلك تناثرت قطع من الشمس الواحدة تلو الاخرى إلى الخارج، و دارت ضمن مدار الكرة الامّ (الشمس).

و على كلّ حال فإنّ العامل المسبّب لهذا الانفصال أيّا كان لا يمنعنا من الإعتقاد أنّ ظهور المنظومة الشمسية كان عن طريق الإنشقاق و الانفصال.

ب- (الأستروئيدات):

الأستروئيدات: هى قطع من الصخور السماوية العظيمة تدور حول المنظومة الشمسية، و يطلق عليها فى بعض الأحيان ب (الكرات الصغيرة) و (شبه الكواكب السيارة) يبلغ قطر كبراها (۲۵) كم، لكن الغالبية منها أصغر من ذلك.

و يعتقد العلماء أنّ «الأستروئيدات» هى بقايا كوكب عظيم كان يدور فى مدار بين مدارى المريخ و المشترى تعرّض إلى عوامل غير واضحة ممّا أدّى إلى انفجاره و تناثره.

لقد تمّ اكتشاف و مشاهدة أكثر من خمسة آلاف من (الأستروئيدات) لحدّ الآن، و قد تمّ تسمية عدد كثير من هذه القطع الكبيرة، و تمّ حساب حجمها و مقدار و مدّة حركتها حول الشمس، و يعلّق علماء الفضاء أهميّة بالغه على الأستروئيدات، حيث يعتقدون أنّ بالإمكان الاستفادة منها فى بعض الأحيان كمحطّات للسفر إلى المناطق الفضائية النائية.

كان هذا نموذج آخر لانشقاق الأجرام السماوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۷

ج- الشهب:

الشهب: أحجار سماوية صغيرة جدّا، حتّى أنّ البعض منها لا يتجاوز حجم (البندقة)، و هى تسير بسرعة فائقة فى مدار خاصّ حول الشمس و قد يتقاطع مسيرها مع مدار الأرض أحيانا فتنجذب إلى الأرض، و نظرا لسرعتها الخاطفة التى تتميّز بها- تصطدم بشدّة مع الهواء المحيط بالأرض، فترتفع درجة حرارتها بشدّة فتشتعل و تتبيّن لنا كخطّ مضىء وهّاج بين طبقات الجوّ و يسمّى بالشهاب.

و أحيانا نتصوّر أنّ كلّ واحدة منها تمثّل نجمة نائية فى حالة سقوط، إلّا أنّها فى الحقيقة عبارة عن شهاب صغير مشتعل على مسافة قريبة يتحوّل فيما بعد إلى رماد.

و يلتقى مدارى الشهب و الكرة الأرضية فى نقطتين هما نقطتا تقاطع المدارين و ذلك فى شهرى (آب و كانون الثانى) حيث يصبح بالإمكان رؤية الشهب بصورة أكثر فى هذين الشهرين.

و يقول العلماء: إنّ الشهب هى بقايا نجمة مذنّبة انفجرت و تناثرت أجزاؤها بسبب جملة عوامل غير واضحة ... و هذا نموذج آخر من الإنشقاق فى الأجرام السماوية.

و على كلّ حال، فإنّ الإنفجار و الإنشقاق فى الكرات السماوية ليس بالأمر الجديد، و ليس بالأمر المستحيل من الناحية العلمية، و من هنا فلا معنى حينئذ للقول بأنّ الإعجاز لا يمكن أن يتعلّق بالحال.

هذا كلّه عن مسألة الإنشقاق.

أمّا موضوع رجوع القطعتين المنفصلتين إلى وضعهما الطبيعى السابق تحت تأثير قوى الجاذبية التى تربط القطعتين فهو الآخر أمر

ممكن.

و رغم أنّ الإعتقاد السائد قديما فى علم الهيئة القديم طبق نظرية (بطليموس) و اعتقاده بالأفلاك التسعة التى هى بمثابة قشور البصل فى تركيبها- الواحدة على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۸

الاخرى- فأىّ جسم لا يستطيع أن يخترقها صعودا أو نزولا، و لذلك فانّ أتباع هذه النظرية ينكرون المعراج الجسمانى و اختراقه للأفلاك التسعد، كما أنّه لا يمكن وفقا لهذه النظريات انشقاق القمر، و من ثمّ التئامه، و لذلك أنكروا مسألة شقّ القمر، و لكن اليوم أصبحت فرضية (بطليموس) أقرب للخيال و الأساطير منها للواقع، و لم يبق أثر للأفلاك التسعة، و أصبحت الأجواء لا تساعد لتقبّل مثل هذه الآراء.

و غنى عن القول أنّ ظاهرة شقّ القمر كانت معجزة، و لذا فإنّها لم تتأثّر بعامل طبيعى اعتيادى، و الشىء الذى يراد توضيحه هنا هو بيان إمكانية هذه الحادثة، لأنّ المعجزة لا تتعلّق بالأمر المحال.

۳- شقّ القمر تاريخيّا:

لقد طرح البعض من غير المطّلعين إشكالا آخر على مسألة شقّ القمر، حيث ذكروا أنّ مسألة شقّ القمر لها أهميّة بالغة، فإذا كانت حقيقيّة فلما ذا لم تذكر فى كتب التأريخ؟

و من أجل أن تتوضّح أهميّة هذا الإشكال لا بدّ من الإلمام و الدراسة الدقيقة لمختلف جوانب هذا الموضوع، و هو كما يلى:

أ- يجب الالتفات إلى أنّ القمر يرى فى نصف الكرة الأرضية فقط، و ليس فى جميعها، و لذا فلا بدّ من إسقاط نصف مجموع سكّان الكرة الأرضية من إمكانية رؤية حادثة شقّ القمر وقت حصولها.

ب- و فى نصف الكرة الأرضية التى يرى فيها القمر فإنّ أكثر الناس فى حالة سبات و ذلك لحدوث هذه الظاهرة بعد منتصف الليل.

ج- ليس هنالك ما يمنع من أن تكون الغيوم قد حجبت قسما كبيرا من السماء، و بذلك يتعذّر رؤية القمر لسكّان تلك المناطق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۲۹۹

د- إنّ الحوادث السماوية التى تلفت انتباه الناس تكون غالبا مصحوبة بصوت أو عتمة كما فى الصاعقة التى تقترن بصوت شديد أو الخسوف و الكسوف الكليين الذى يقترن كلّ منها بانعدام الضوء تقريبا و لمدّة طويلة.

لذلك فإنّ الحالات التى يكون فيها الخسوف جزئيا أو خفيفا نلاحظ أنّ الغالبية من الناس لم تحط به علما، اللهمّ إلّا عن طريق التنبيه المسبق عنه من قبل المنجّمين، بل يحدث أحيانا خسوف كلّى و قسم كبير من الناس لا يعلمون به.

لذا فإنّ علماء الفلك الذين يقومون بر صد الكواكب أو الأشخاص الذين يتّفق وقوع نظرهم فى السماء وقت الحادث هم الذين يطّلعون على هذا الأمر و يخبرون الآخرين به.

و بناء على هذا و نظرا لقصر مدّة المعجزة (شقّ القمر) فلن يكون بالمقدور أن تلفت الأنظار إليها على الصعيد العالمى، خصوصا و أنّ غالبية الناس فى ذلك الوقت لم تكن مهتّمة بمتابعة الأجرام السماوية.

ه- و بالإضافة إلى ذلك فإنّ الوسائل المستخدمة فى تثبيت نشر الحوادث التأريخية فى ذلك الوقت، و محدودية الطبقة المتعلّمة، و كذلك طبيعة الكتب الخطيّة التى لم تكن بصورة كافية كما هو الحال فى هذا العصر حيث تنشر الحوادث المهمّة بسرعة فائقة بمختلف الوسائل الإعلامية فى كلّ أنحاء العالم عن طريق الإذاعة و التلفزيون و الصحف ... كلّ هذه الأمور لا بدّ من أخذها بنظر الإعتبار فى محدودية الاطلاع على حادثة (شقّ القمر).

و مع ملاحظة هذا الأمر و الأمور الاخرى السابقة فلا عجب أبدا من عدم تثبيت هذه الحادثة فى التواريخ غير الإسلامية، و لا يمكن اعتبار ذلك دليلا على نفيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۰

۴- تأريخ وقوع هذه المعجزة:

من الواضح أنّه لا خلاف بين المفسّرين و رواة الحديث حول حدوث ظاهرة شقّ القمر فى مكّة و قبل هجرة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لكن الذى يستفاد من بعض الرّوايات هو أنّ حدوث هذا الأمر كان فى بداية بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۲۸۴]. فى حين يستفاد من البعض الآخر أنّ حدوث هذا الأمر قد وقع قرب هجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و فى آخر عهده بمكّة، و كان استجابة لطلب جماعة قدموا من المدينة لمعرفة الحقّ و أتباعه، إذ أنّهم بعد رؤيتهم لهذه المعجزة آمنوا و بايعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى العقبة[۲۸۵].

و نقرأ فى بعض الرّوايات أيضا أنّ سبب اقتراح شقّ القمر كان من أجل المزيد من الاطمئنان بمعاجز الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أنّها لم تكن سحرا لأنّ السحر عادة يكون فى الأمور الأرضية[۲۸۶]. و مع ذلك فإنّ قسما من المتعصّبين و المعاندين لم يؤمنوا برغم مشاهدتهم لهذا الإعجاز، و تتعلّلوا بأنّهم ينتظرون قوافل الشام و اليمن، فإنّ أيّدوا هذا الحادث و رؤيتهم له آمنوا ... و مع إخبار المسافرين لهم بذلك، إلّا أنّهم بقوا مصرّين على الكفر رافضين للإيمان ۲۸۷].

و النقطة الأخيرة الجديرة بالذكر أنّ هذه المعجزة العظيمة و الكثير من المعاجز الاخرى ذكرت فى التواريخ و الرّوايات الضعيفة مقترنة ببعض الخرافات و الأساطير، ممّا أدّى إلى حصول تشويش فى أذهان العلماء بشأنها، كما فى نزول قطعة من القمر إلى الأرض. لذا فإنّ من الضرورى فصل هذه الخرافات و عزلها بدقّة و غربلة الصحيح من غيره، حتّى تبقى الحقائق بعيدة عن التشويش و محتفظة بمقوّماتها الموضوعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۱

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴ الى ۸]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (۴) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (۵) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (۶) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (۷) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (۸)

التّفسير

يوم البعث و النشور:

تأتى هذه الآيات لتواصل البحث عن الكفّار الذين كذّبوا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يذعنوا للحقّ حيث أعرضوا عن جميع المعاجز التى شاهدوها.

و الآيات أعلاه تشرح حال هؤلاء الأفراد و موضّحة المصير البائس الذى ينتظر هؤلاء المعاندين فى يوم القيامة.

يقول سبحانه إنّ هؤلاء لم يعدموا الإنذار و الإخبار، بل جاءهم من الأخبار ما يوجب انزجارهم عن القبائح و الذنوب: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ و ذلك ليلقى عليهم الحجّة.

و بناء على هذا فلا يوجد نقص فى تبليغ الدعاة الإلهيين، و ما يوجد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۲

نقصان أو خلل يمكن فيهم، حيث ليس لديهم روح تواقة لمعرفة الحقّ و لا آذان صاغية، و نفوسهم متنكّبة عن التقوى و التدبّر فى الآيات الإلهية.

و القصد من «الأنباء» الإخبار عن الأمم و الأقوام السابقة الذين هلكوا بألوان العذاب المدمّر الذى حلّ بهم، و كذلك أخبار يوم القيامة و جزاء الظالمين و الكفّار، حيث اتّضحت كلّ تلك الأخبار فى القرآن الكريم.

و يضيف تعالى: حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ فهذه الآيات حكم إلهيّة بليغة و مواعظ مؤثّرة، إلّا أنّها لا تفيد أهل العناد[۲۸۸][۲۸۹].

تبيّن هذه الآية أن لا نقص فى «فاعلية الفاعل»، أو تبليغ الرسل. لكن الأمر يكمن فى مدى استعداد الناس و أهليتهم لقبول الدعوة الإلهيّة، و إلّا فإنّ الآيات القرآنية و الرسل و الأخبار التى وردتهم عن الأمم السابقة و الأخبار التى تنبؤهم عن أحوال يوم القيامة ... كلّ هذه الأمور هى حكمة بالغة و مؤثّرة فى النفوس الخيّرة ذات الفطرة السليمة.

الآية التالية تؤكّد على أنّ هؤلاء ليسوا على استعداد لقبول الحقّ، فأتركهم لحالهم و أعرض عنهم و تذكّر يوم يدعو الداعى الإلهى إلى أمر مخيف، و هو الدعوة إلى الحساب، حيث يقول سبحانه: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ[۲۹۰].

و على هذا تكون عبارة: يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ عبارة مستقلّة و منفصلة عن جملة:

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لكن البعض يرى أنّ كلّ واحدة من الجملتين مكمّلة للأخرى، حيث يذهبون إلى أنّ قوله تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ جاءت بصيغة الأمر للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالإعراض عن المشركين الذين يرجون الشفاعة منه يوم القيامة عند ما يدعوهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۳

الداعى الإلهى للحساب. و هذا الرأى مستبعد جدّا.

و هنا يثار السؤال التالى: هل الداعى هو اللّه سبحانه؟ أم الملائكة؟ أم إسرافيل الذى يدعو الناس ليوم الحشر عند ما ينفخ فى الصور؟ أم جميع هؤلاء؟

ذكر المفسّرون احتمالات عدّة للإجابة على هذا التساؤل، و لكن بالرجوع إلى قوله تعالى: يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ [۲۹۱] يرجّح الرأى الأوّل. رغم أنّ الآيات اللاحقة تتناسب مع كون الداعى هم الملائكة المختّصون بشؤون الحساب و الجزاء.

أمّا المراد من شَيْءٍ نُكُرٍ[۲۹۲] فهو الحساب الإلهى الدقيق الذى لم يكن معلوما من حيث وقته قبل قيام الساعة، أو العذاب الذى لم يخطر على بالهم، أو جميع هذه الأمور، ذلك لأنّ يوم القيامة فى جميع أحواله حالة غير مألوفة للبشر.

و فى الآية اللاحقة يبيّن اللّه سبحانه و تعالى توضيحا أكثر حول هذا الموضوع و يذكر أنّ هؤلاء يخرجون من القبور فى حالة: خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ.

نسبة «الخشوع» هنا للأبصار لأنّ المشهد مرعب و مخيف إلى حدّ لا تستطيع الأنظار رؤيته، لذلك فإنّها تتحوّل عنه و تطرّق نحو الأسفل.

و التشبيه هنا بالجراد المنتشر لأنّ النشور فى يوم الحشر يكون بصورة غير منتظمة لحالة الهول التى تعترى الناس فيه، كما هى حركة انتشار الجراد التى تتمثّل فيها الفوضى و الاضطراب خلافا للقسم الأكبر من حركة الطيور التى تطير وفق نظم خاصّة فى الجو، مضافا إلى أنّهم كالجراد من حيث الضعف و عدم القدرة.

نعم، إنّ حالة هؤلاء الفاقدين للعلم و البصيرة، حالة ذهول و وحشة و تخبّط فى المسير كالسكارى يرتطم بعضهم ببعض فاقدين للوعى

و الإرادة كما فى قوله

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۴

تعالى: وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى [۲۹۳] و الحقيقة أنّ هذا التشبيه هو ما ورد أيضا فى الآية (۴) من سورة القارعة حيث يقول سبحانه: يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ

و أمّا قوله تعالى: مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ فإنّ كلمة «مهطعين» تأتى من مادّة (إهطاع) أى مدّ الرقبة، و البعض يرجعها إلى النظر بانتباه أو الركض بسرعة نحو الشىء، و يحتمل أن تكون كلّ واحدة من هذه المعانى هى المقصودة، و لكن المعنى الأوّل هو الأنسب، لأنّ الإنسان عند سماعه لصوت موحش يمدّ رقبته على الفور و ينتبه إلى مصدر الصوت، و يمكن أن تكون هذه المفاهيم مجتمعة فى الآية الكريمة حيث أنّ بمجرّد سماع صوت الداعى الإلهى تمدّ الرقاب إليه ثمّ يتبعه التوجّه بالنظر نحوه، ثمّ الإسراع إليه و الحضور فى المحكمة الإلهيّة العادلة عند دعوتهم إليها.

و هنا يستولى الخوف من الأهوال العظيمة لذلك اليوم على وجود الكفّار و الظالمين، لذا يضيف سبحانه معبّرا عن حالة البؤس التى تعترى الكافرين بقوله:

يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ.

و الحقّ أنّه يوم صعب و عسير. و هذا ما يؤكّده البارئ عزّ و جلّ بقوله: وَ كانَ يَوْماً عَلَى الْكافِرِينَ عَسِيراً.[۲۹۴] و يستفاد من هذا التعبير أنّ يوم القيامة يوم غير عسير بالنسبة للمؤمنين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۵

مسألة

لماذا كان يوم القيامة يوما عسيرا؟:

و لماذا لا يكون عسيرا؟ فى الوقت الذى يحاط فيه المجرمون بكلّ أجواء الرهبة و الوحشة، و خاصّة عند ما يستلمون صحائف أعمالهم حيث يصطرخون:

يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها،[۲۹۵] هذا من جهة.

و من جهة اخرى فإنّهم يواجهون بما ليس فى الحسبان، حيث يحاسبون بدقّة حتّى على أصغر الأعمال التى أدّوها، سواء كانت صالحة أم طالحة: إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.[۲۹۶] و من جهة ثالثة، لا سبيل يومئذ للتكفير عن الذنوب و التعويض بالطاعة، و الاعتذار عن التقصير، حيث لا عذر يقبل و لا مجال للعودة مرّة اخرى إلى الحياة يقول تعالى: وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ [۲۹۷] و نقرأ كذلك فى قوله تعالى: وَ لَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [۲۹۸]. و لكن هيهات.

و من جهة رابعة فإنّ العذاب الإلهى شديد و مرعب إلى درجة تنسى الامّهات أولادها، و تسقط الحوامل أجنّتهن، و يكون الجميع يومئذ فى حيرة و ذهول و فقدان للوعى كالسكارى و ما هم بسكارى و لكنّ عذاب اللّه شديد، قال تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۶

يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَ تَرَى النَّاسَ سُكارى وَ ما هُمْ بِسُكارى وَ لكِنَّ عَذابَ اللَّهِ

شَدِيدٌ.[۲۹۹] و الدليل على اضطراب و هلع العاصين هو حالة التشبّث بالافتداء بكلّ ما فى الدنيا أملا فى الخلاص من العذاب الأليم، قال تعالى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ، وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ، وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ، كَلَّا إِنَّها لَظى [۳۰۰] إذا، هل يمكن مع كلّ هذه الأوصاف و الأوصاف الأخرى المهولة التى وردت فى آيات اخرى أن يكون ذلك اليوم يوما مريحا و بعيدا عن الهمّ و الغمّ و الشدّة؟! (حفظنا اللّه جميعا فى ظلّ لطفه و رعايته).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۷

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۹ الى ۱۷]

اشارة

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳)
تَجْرِى بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كانَ عَذابِى وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷)

التّفسير

قصّة قوم نوح عبرة و عظة:

جرت السنّة القرآنية فى كثير من الموارد أنّ اللّه سبحانه يستعرض حالة الأقوام السابقة و العاقبة المؤلمة التى انتهوا إليها إنذارا و توضيحا (للكفّار و المجرمين) بأنّ الاستمرار فى طريق الضلال سوف لن يؤدّى بهم إلّا إلى المصير البائس الذى لاقته الأقوام السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۸

و فى هذه السورة، إكمالا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة، فى إثارات و إشارات مختصرة و معبّرة حول تاريخ خمسة من الأقوام المعاندة ابتداء من قوم نوح كما فى قوله تعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ. فمضافا إلى تكذيبه و اتّهامه بالجنون صبّوا عليه ألوان الأذى و التعذيب و منعوه من الاستمرار فى أداء رسالته.

فتارة يقولون له مهدّدين و منذرين قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ [۳۰۱] و تارة اخرى يضغطون رقبته بأيديهم حتّى يفقد وعيه، و لكنّه ما أن يفيق إلى وعيه حتّى يقول: «اللهمّ اغفر لقومى فإنّهم لا يعلمون»[۳۰۲].

و خلاصة القول فإنّ قوم نوح مارسوا كلّ وسيلة لأذى نبيّهم، و مع ذلك فإنّه لم يتوقّف عن التبليغ و الإرشاد أملا فى هدايتهم.

و الجدير بالذكر أنّنا نلاحظ أنّ لفظ (التكذيب) قد ورد مرّتين، و لعلّ السبب أنّه ورد فى الحالة الاولى (مختصرا) و فى الثانية (مفصّلا).

و التعبير ب «عبدنا» إشارة إلى أنّ هؤلاء القوم المعاندين و المغرورين فى الواقع يبارزون اللّه تعالى لا مجرّد شخص «نوح».

كلمة (و ازدجر) أصلها (زجر) بمعنى الطرد، و هو الإبعاد المقترن بصوت شديد، كما أنّه يطلق على كلّ عمل يراد منه منع الشخص من الاستمرار به.

و الظريف فى هذه الآية أنّ الفعل (قالوا) أتى بصورة فعل معلوم (و ازدجر) بصيغة فعل مجهول و لعلّ ذلك للإشارة إلى أنّ عدم ذكر الفاعل هنا للترفّع عن ذكر قوم نوح بسبب سوء و قبح الأعمال التى مارسوها و التى كانت أقذر و أقبح من أقوالهم، ممّا يكون سببا فى

عدم ذكرهم بالصيغة المعلومة كما فى قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۰۹

قالُوا.

ثمّ يضيف تعالى أنّ نوح عند ما يئس من هداية قومه تماما: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ[۳۰۳].

و الغلبة المذكورة فى الآية الكريمة لم تكن غلبة فى الحجّة و الدليل أو البرهان على عدم صحّة الدعوة، و إنّما كانت تتجسّد بالظلم و الجناية و التكذيب و الإنكار و أنواع الزجر و الضغوط ... و لهذا فإنّ هؤلاء القوم لا يستحقّون البقاء، فانتقم لنا منهم و انصرنا عليهم.

نعم، فهذا النّبى العظيم كان يطلب من اللّه المغفرة لقومه ما دام يأمل فى هدايتهم و صلاحهم، و لكن عند ما يئس منهم غضب عليهم و لعنهم و دعا ربّه أنّ ينتقم منهم.

ثمّ يشير هنا إشارة معبّرة و قويّة فى كيفية العذاب الذى ابتلوا به وصبّ عليهم حيث يقول سبحانه: فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ.

إنّ تعبير انفتاح أبواب السماء لتعبير رائع جدّا، و يستعمل عادة عند هطول الأمطار الغزيرة.

(منهمر) من مادّة (همر) على وزن (صبر) و تعنى النّزول الشديد للدموع أو الماء، و يستعمل هذا التعبير أيضا عند ما يستدر الحليب من الضرع حتّى النهاية.

و العجيب هنا أنّه ورد فى أقوال المفسّرين أنّ قوم نوح كانوا قد أصيبوا بالجدب لعدّة سنوات قد خلت، و كانوا يرتقبون بتلهّف سقوط المطر عليهم، و فجأة ينزل المطر و لكن لا ليحيى أرضهم و يزيد خيرهم بل ما حقا و مميتا لهم ۳۰۴].

و يذكر أنّ الماء الذى أدّى إلى الطوفان لم يكن من هطول الأمطار فقط، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۰

كان من تفجير العيون فى الأرض حيث يقول تعالى: وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً[۳۰۵] و هكذا اختلط ماء السماء بماء الأرض بمقدار مقدّر و ملأ البسيطة: فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ.

إنّ هذا التعبير يجسّد حالة الطوفان الذى غمر الأرض، إلّا أنّ بعض المفسّرين فسّروا عبارة (قد قدر) بقولهم: إنّ كميّتى المياه المتدفّقة من الجانبين المتقابلين كانتا متساويتين فى مقاديرهما بصورة دقيقة، إلّا أنّ الرأى الأوّل هو الأرجح.

و خلاصة الأمر: إنّ الماء قد فار من جميع جهات الأرض و فجّرت العيون و هطلت الأمطار من السماء، و اتّصل الماء بعضه ببعض و شكّل بحرا عظيما و طوفانا شديدا.

و تترك الآيات الكريمة مسألة الطوفان، لأنّ ما قيل فيها من الآيات السابقة يعتبر كافيا فتنتقل إلى سفينة نجاة نوح عليه السّلام حيث يقول تعالى: وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ.

(دسر) جمع (دسار) على وزن (كتاب)، كما يقول الراغب فى المفردات، أنّها فى الأصل بمعنى الإبعاد أو النهر بشدّة مقترنا مع حالة عدم الرضا، و لكون المسمار عند ما يتعرّض للطرق الشديد يدخل فى الخشب و ما شاكل فيقال له (دسار).

و ذكر قسم من المفسّرين أنّ معنى هذه الكلمة هو (الحبل) مشيرين بذلك إلى حبال أشرعة السفينة و ما إلى ذلك، و التّفسير الأوّل هو الأرجح نظرا لذكر كلمة (ألواح).

على كلّ حال، فإنّ التعبير القرآنى هنا ظريف، لأنّه كما يقول البارئ عزّ و جلّ بأنّنا و فى وسط ذلك الطوفان العظيم، الذى غمر كلّ شىء أودعنا أمر نجاة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۱

نوح و أصحابه إلى مجموعة من المسامير و قطع من الخشب، و أنّها أدّت هذه الوظيفة على أحسن وجه، و هكذا تتجلّى القدرة الإلهيّة العظيمة.

و يمكن أن يستفاد من هذا التعبير طبيعة البساطة التى كانت عليها سفن ذلك الزمان و التى هى بعيدة عن التعقيد و التكلّف قياسا مع السفن المتقدّمة فى العصور اللاحقة. و مع ذلك فإنّ سفينة نوح عليه السّلام كان حجمها بالقدر المطلوب و طبق الحاجة، و طبقا للتواريخ فإنّ نوح عليه السّلام قد أمضى عدّة سنين فى صنعها كى يتمكّن من وضع (من كلّ زوجين إثنين) من مختلف الحيوانات فيها.

و يشير سبحانه إلى لطف عنايته للسفينة المخصّصة لنجاة نوح عليه السّلام حيث يقول سبحانه تَجْرِى بِأَعْيُنِنا أى أنّ هذه السفينة تسير بالعلم و المشيئة الإلهيّة، و تشقّ الأمواج العالية بقوّة و تستمر فى حركتها تحت رعايتنا و حفظنا.

إنّ التعبير (بأعيننا) كناية ظريفة للدلالة على المراقبة و الرعاية للشىء و يتجسّد هذا المعنى بوضوح فى قوله تعالى فى الآية (۳۷) من سورة هود:

وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا.

بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ المقصود من تَجْرِى بِأَعْيُنِنا هو الإشارة إلى الشخصيات المهمّة التى كانت على ظهر السفينة، و بناء على هذا فإنّ المقصود من قوله تعالى: تَجْرِى بِأَعْيُنِنا[۳۰۶] أنّ تلك السفينة كانت تحمل عباد اللّه الخالصين المخلصين، و نظرا لطبيعة الموارد التى استعمل فيها هذا التعبير فى الآيات القرآنية الاخرى فإنّ الرأى الأوّل هو الأصحّ.

و يحتمل أيضا أنّ المراد بجملة (بأعيننا) هو الملائكة التى كان لها الأثر فى هداية سفينة نوح عليه السّلام، و لكن هذا الرأى ضعيف أيضا لسبب أعلاه.

ثمّ يضيف تعالى: جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ[۳۰۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۲

نعم إنّ نوح عليه السّلام كسائر الأنبياء الإلهيين يعتبر نعمة إلهيّة عظيمة و موهبة من مواهبه الكبيرة على البشرية، إلّا أنّ قومه الحمقى كفروا به و برسالته ۳۰۸].

ثمّ يقول سبحانه و كنتيجة لهذه القصّة العظيمة موضع العظّة و الإعتبار: وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

و الحقيقة أنّ كلّ ما كان يستحقّ الذكر فى هذه القصّة قد قيل، و كلّما ينبغى للإنسان الواعى المتّعظ أن يدركه فهو موجود.

و استنادا إلى هذا التّفسير المنسجم مع الآيات السابقة و اللاحقة، فإنّ الضمير فى (تركناها) يرجع إلى قصّة الطوفان و ماضى نوح عليه السّلام و مخالفيه. و لكن البعض يرى أنّ المراد هو (سفينة نوح) لأنّها بقيت مدّة من الزمن شاخصة لأنظار العالم، و كلّما يراها أحد تتجسّد أمامه قصّة الطوفان الذى حلّ بقوم نوح عليه السّلام، و مع علمنا بأنّ بقايا سفينة نوح عليه السّلام كانت حتّى عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما أنّ البعض من المعاصرين ادّعى رؤية بقاياها فى جبال (آرارات) فى القفقاز، عندئذ يمكن أن يكون المعنيان مقصودين فى الآية الكريمة.

و لهذا فإنّ قصّة نوح عليه السّلام كانت آية للعالمين، و كذا سفينته التى بقيت ردحا من الزمن بين الناس ۳۰۹].

و فى الآية اللاحقة يطرح اللّه سبحانه سؤالا معبّرا و مهدّدا للكافرين الذين اتّبعوا نفس المنهج الذى كان عليه قوم نوح حيث يقول سبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِى وَ نُذُرِ.

هل هذه حقيقة واقعة، أم قصّة و اسطورة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۳

و يضيف مؤكّدا هذه الحقيقة فى آخر الآية مورد البحث فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

نعم إنّ هذا الكتاب العظيم الخالى من التعقيد و المجسّد لعناصر التأثير من حيث عذوبة ألفاظه و جاذبيتها، و حيوية عباراته و صراحتها فى عرض المطالب ترغيبا و تهديدا، و طبيعة قصصه الواقعية ذات المحتوى الغزير بالإضافة إلى قوّة دلائله و أحكامها و منطقه المتين،

و احتوائه على كلّ ما يلزم من عناصر التأثير ...

لـذا فإنّ القلوب المهيأة لقبول الحقّ و المتفاعلـة مع منطق الفطرة و المسـتوعبة لمنهـج العقل تنجذب بصورة متميّزة، و الشاهد على هذا أنّ التأريخ الإسلامى يذكر لنا قصصا عديدة عجيبة محيّرة من حالات التأثير العميق الذى يتركه القرآن الكريم على القلوب الخيّرة.

و لكن ما العمل حينما تكون النطفـة لبـذرة ما ميتة، حتّى لو هيّأ لزراعتها أخصب الأراضـى، و سـقيت بماء الكوثر، و اعتنى بها من قبل أمهر المزارعين، فإنّها لن تنمو و لن تزهر و تثمر أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۴

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۱۸ الى ۲۲]

اشارة

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۸) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (۱۹) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (۲۰) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۲۱) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۲۲)

التّفسير

مصير قوم عاد:

تسـتعرض الآيات الكريمـة أعلاه و باختصار أخبار نموذج آخر من الكفّار و المجرمين بعد قوم نوح، و هم (قوم عاد) و ذلك كتحذير لمن يتنكّب طريق الحقّ و الهداية الإلهية.

و تبدأ فصول أخبارهم بقوله تعالى: كَذَّبَتْ عادٌ.

لقد بذل هود عليه السّلام غاية جهده فى توعية قومه و تبليغهم بالحقّ الذى جاء به من عند اللّه، و كان عليه السّلام كلّما ضاعف سعيه و جهـده لانتشالهم من الكفر و الضـلال ازدادوا إصـرارا و نفورا و لجاجـة فى غيّهم و غرورهم الناشـئ من الثراء و الإمكانات الماديـة، بالإضافة إلى غفلتهم نتيجة انغماسهم فى الشهوات، جعلتهم صمّ الآذان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۵

عمّى العيون، فجازاهم اللّه بعقاب أليم و عـذاب شديد، و لهذا تشـير الآية الكريمة باختصار حيث يقول سـبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ.

كما نلاحظ التفصيل فى الآيات اللاحقة بعد هذا الإجمال حيث يقول سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ.

«صرصر» من مادّة (صرّ) على وزن (شرّ)، و فى الأصل تعنى (الإغلاق و الإحكام) و يأتى تكرارها فى هذا السياق للتأكيد، و لأنّ الرياح التى عذّبوا بها كانت باردة و شديدة و لاذعة و مصحوبة بالأزيز، لذا اطلق عليها (صرصر).

أمّا (نحس) ففى الأصل معناها (الاحمرار الشديـد) الـذى يظهر فى الأفق أحيانا، كما يطلق العرب أيضا كلمـة (نحاس) على وهـج النار الخالية من الدخان، ثمّ أطلق هذا المصطلح على كلّ (شؤم) مقابل (السعد).

«مستمر» صـفة ل (يوم) أو ل (نحس) و مفهومه فى الحالـة الاولى هو اسـتمرار حوادث ذلك اليوم كما فى قوله تعالى: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.[۳۱۰] و تعنى فى الحالة الثانية استمرار نحوسة ذلك اليوم حتّى هلك الجميع.

كما يفسّر البعض معنى (النحس) بأنّه حالة الجو المكفهر المغبّر، لأنّ العاصفة كانت مغبرة إلى درجة أنّها لم تسمح برؤية بعضهم البعض. و عند ما شاهدوا العاصفة من بعيد ظنّوا أنّها غيوم محملة بالأمطار متّجهة نحوهم، و سرعان ما تبيّن لهم أنّها ريح عاتية لا تبقى و لا تذر أمرت بعذابهم و الانتقام منهم، كما فى قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ. مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ [۳۱۱] إنّ هذين التّفسيرين غير متنافيين، و يمكن جمعهما فى معنى الآية الكريمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۶

مورد البحث.

ثمّ يستعرض سبحانه وصف الريح بقوله: تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ.

«منقعر» من مادّة (قعر) بمعنى أسفل الشيء أو نهايته، و لذا يستعمل هذا المصطلح بمعنى قلع الشيء من أساسه.

كما يحتمل أن يكون المقصود من هذا التعبير أنّ ضخامة الهياكل و قوّة الأبدان التى كان عليها قوم عاد لم تغنهم من فتك الريح بهم و هلاكهم حيث ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ قوم عاد حاولوا التخلّص من العذاب الذى باغتهم و ذلك بأن التجأوا إلى حفر عميقة و ملاجئ تحت الأرض لحفظ أنفسهم، و لكن دون جدوى حيث أنّ الريح كانت من القوّة بحيث قلعتهم من أعماق تلك الحفر و قذفت بهم من جهة إلى اخرى، حتّى قيل أنّها كانت تدحرجهم و تجعل أعلى كلّ منهم أسفله و تفصل رؤوسهم عن أجسادهم.

«أعجاز» جمع (عجز)- على وزن (رجل)- بمعنى خلف أو تحت، و قد شبّهوا بالقسم الأسفل من النخلة و ذلك حسبما يقول البعض لأنّ شدّة الريح قطّعت أيديهم و رؤوسهم و دفعتها باتّجاهها، و بقيت أجسادهم المقطّعة الرؤوس و الأطراف كالنخيل المقطّعة الرؤوس، ثمّ قلعت أجسادهم من الأرض و كانت الريح تتقاذفها.

و للسبب المذكور أعلاه، يكرّر اللّه سبحانه و تعالى إنذاره للكفّار بقوله:

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ.

فنحن كذلك فعلنا و جازينا الأقوام السالفة التى سلكت سبيل الغى و الطغيان و العصيان، فعليكم أن تتفكّروا فى مصيركم و أنتم تسلكون نفس الطريق الذى سلكوه!! و فى نهاية القصّة يؤكّد قوله سبحانه: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فهل هنالك من آذان صاغية و قلوب واعية لهذا النداء الإلهى و الإنذار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۷

الربّانى؟.

و النقطة الأخيرة الجديرة بالذكر هى تأكيد قوله سبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ حيث تكرّرت مرّتين: الأولى: فى بداية الحديث عن قصّة قوم عاد، و الثانية: فى نهايتها. و لعلّ سبب هذا الاختلاف بين قوم عاد و الأقوام الاخرى، أنّ عذاب قوم عاد كان أكثر شدّة و انتقاما، رغم أنّ جميع ألوان العذاب الإلهى شديد.

بحث

سعد الأيّام و نحسها:

الشيء المتعارف بين الناس، هو أنّ بعض الأيّام سعيدة و مباركة، و البعض الآخر نحس و مشؤوم، مع وجود اختلاف كثير فى تشخيصها.

و يدور الحديث حول مدى قبولها إسلاميا، و هل أنّها مأخوذة من تعاليم الإسلام أم لا؟.

من الناحيـة العقليـة لا يعـدّ اختلاف أجزاء الزمان من هـذه الجهة محالا، بأن يتّصف بعضـها بالنحوسة و الاخرى بالبركة و السـعد. و لا نملك أى استدلال عقلى لإثبات أو نفى هذا المعنى، و لهذا نستطيع القول: إنّ هذا الأمر بهذا القدر شىء ممكن، و لكنّه غير ثابت من الناحية العقلية.

و بناء على ذلك فإذا كانت لدينا دلائل شرعية لهذا المعنى ثبتت عن طريق الوحى فلا مانع من قبولها، بل الالتزام بها.

و حول (نحس الأيّام) تشير الآيات القرآنية مرّتين إلى هذا الموضوع، الاولى فى الآيات مورد البحث، و الثانية: فى قوله تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۸

صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ ۳۱۲][۳۱۳].

و فى مقابـل «النحوسـة» فإنّنـا نلاحـظ فى بعض الآيات القرآنيـة تعبير (مبارك) كما فى قوله تعالى حول ليلـة القـدر: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ.[۳۱۴] و قلنا إنّ «نحس» مأخوذ فى الأصل من صورة الاحمرار الشديـد فى الأفق، الذى يشـبه النار المتوهّجة الخالية من الدخان و التى يطلق عليها (النحاس). و بهذه المناسبة استعمل فى معنى الشؤم.

و من هنـا نلاحـظ أنّ القرآن الكريم لم يتطرّق لهـذه المسألـة إلّا من خلالـ إشارة مغلقـة فقط. لكنّنا حينما نقرأ فى الكتب الإسـلامية، يواجهنـا العديـد من الرّوايـات فى هـذا المجـال، مع العلم أنّ الكثير منها ضـعيف، و أنّ البعض الآخر منها موضوع أو ملفّق، أو مشوب بالخرافات. و ليست جميعا كـذلك، بل هناك ما هو معتبر منها و موضع اطمئنان كما يؤكّـد المفسّـرون صـحّة ذلك من خلال تفسـير الآيات أعلاه.

و يذكر لنا المحدّث الكبير العلّامة المجلسى روايات عديدة فى هذا المجال فى بحار الأنوار[۳۱۵].

و فى هذا المجال نستطيع إيراد الملاحظات التالية:

أ- لقـد ذكروا فى روايات عديـدة (سـعد و نحس) الأيّام، و كـذلك الحوادث التى وقعت فيها، حيث نقرأ فى الرّوايـة التالية فى أسـئلة الشامى لأمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: (أخبرنى عن يوم الأربعاء و التطيّر منه و ثفله، و أى أربعاء هو)،

قال عليه السّلام: «آخر أربعاء من الشهر، و هو المحاق، و فيه قتل قابيل هابيل أخاه، و يوم الأربعاء أرسل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۱۹

اللّه عزّ و جلّ الريح على قوم عاد»[۳۱۶].

و من هنـا فـإنّ الكثير من المفسّـرين يرتّبون أثرا على هـذه الرّوايـات، و يعتبرون أنّ آخر أربعاء من كلّ شـهر هو يوم نحس، و يطلقون عليه (أربعاء لا تدور) أى لا تتكرّر.

و نقرأ فى بعض الرّوايات أنّ اليوم الأوّل من كلّ شـهر هو سـعد و مبارك، و ذلك لأنّ آدم عليه السّـلام خلق فى هذا اليوم، و كذلك فإنّ اليوم ۲۶ من كلّ شهر يوم مبارك، حيث: (ضرب موسى فيه البحر فانفلق)[۳۱۷].

كما أنّ اليوم الثالث من كلّ شهر، هو يوم نحس، نزع عن آدم و حواء لباسهما و أخرجا من الجنّة[۳۱۸].

كما أنّ اليوم السابع من كلّ شهر هو يوم مبارك، لأنّ نوح عليه السّلام قد ركب فى السفينة (و نجا من الغرق)[۳۱۹].

و نقرأ

فى الحـديث التالى عن الإمام الصادق عليه السّـلام فى هذا المعنى حول يوم (النوروز) حيث يقول: «... يوم مبارك اسـتوت فيه سـفينة نوح على الجودى، و هو اليوم الـذى نزل فيه جبرائيـل على النبى، و هو اليوم الـذى حمـل فيه رسول اللّه أمير المؤمنين على منكبه حتّى رمى أصنام قريش من فوق البيت الحرام فهشّمها ... و هو اليوم أمر النّبى أصحابه أن يبايعوا عليا بإمرة المؤمنين ...»[۳۲۰].

و قد اقترن سعد و نحس الأيّام بذكر بعض الوقائع التأريخية الحسنة و السيّئة كما فى العديد من الرّوايات، فمثلا ما ذكر عن يوم عاشوراء الذى اعتبره الامويون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۰

يوم سعد لمّا حقّقوا فيه و بظنّهم من انتصار على أهل البيت عليه السّلام ... نلاحظ الرّوايات تنهى بشدّة عن التبرّك فى مثل هذا اليوم، كما تحذر من ادّخار الأقوات السنوية فيه، و الابتعاد عن أجواء الاحتفالات التى كان يقيمها الامويون فى هذا اليوم و كذلك تؤكّد على تعطيل الأعمال فيه.

و من ملاحظة مجموعة الرّوايات السابقة، دفع البعض أن يفسّر مسألة سعد و نحس الأيّام على أنّها مجعولة من أجل شدّ المسلمين بهذه الحوادث التاريخيّة المهمّة، و حثّهم عمليّا على تطبيق ما تستلزمه تلك الحوادث من التفاعل و ما تفرزه من معطيات، و كذلك الابتعاد عن محطّات الحوادث السيّئة و اجتناب سبلها.

و يمكن أن يصدّق هذا التّفسير فى قسم من هذه الرّوايات و لا يصدق على القسم الآخر منها، ذلك لأنّ المستفاد من البعض منها أنّ هنالك تأثيرا ملموسا فى بعض الأيّام (إيجابا و سلبا) و ليس لنا تفسير أو علم لهذا التأثير.

ب- ممّا يجدر الانتباه إليه أنّ هنالك من يفرط فى موضوع سعد و نحس الأيّام، بحيث إنّهم يمتنعون من الشروع بأى عمل إلّا بالاعتماد على هذه الخلفية، و بذلك يفوتون عليهم فرصا كثيرة يمكن الاستفادة منها.

و بدلا من التعمّق فى البحث الموضوعى الذى تحسب فيه حسابات الربح و الخسارة و الاستفادة من الفرص و التجارب الثرية ... فإنّهم يرجعون كسب الأرباح إلى سعد الأيّام و الانتكاسات و الخسارة إلى شؤم الأيّام ... و هذا المنهج يعبّر عن الانهزام من الواقع و الهروب من الحقيقة و الإفراط فى التعليل الخرافى لحوادث الحياة الذى يجب أن نحذّره و نتجنّبه بشدّة.

و الجدير بنا فى هذه المسائل أن لا نعطى آذانا صاغية لأقوال المنجّمين و الإشاعات المنتشرة فى الأجواء الاجتماعية المتخلّفة، و لا لحديث أولئك الذين يدّعون المعرفة المستقبلية لفأل الأشخاص، و نستمرّ فى حياتنا العملية بجهد حثيث و خطى ثابتة و بالتوكّل على اللّه و بروح موضوعية بعيدة عن التأثّر بهذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۱

الحكايات و الأقاويل، و نستمدّ من اللّه وحده العون و الرعاية.

ج- إنّ مسألة الاهتمام بموضوع (سعد و نحس) الأيّام بالإضافة إلى أنّها ترشدنا للكثير من الحوادث التأريخيّة ذات العظة و العبرة، فإنّها أيضا عامل للتوسّل باللّه و التوجّه إلى رحاب عظمته السامقة، و استمداد العون من ذاته القدسيّة، و هذا ما نلاحظه فى روايات عديدة.

ففى الأيّام النحسة مثلا نستطيع أن نطمئن نفسيّا لممارستنا العملية و بكلّ تفاؤل و موفّقية، و ذلك حينما ندعو اللّه و نطلب منه العون و نتصدّق على الفقراء، و نقرأ شيئا من الآيات القرآنية و نتوكّل على الذات الإلهيّة المقدّسة.

روى عن على بن عمر العطّار، أنّه قال: دخلت على أبى الحسن العسكرى يوم الثلاثاء، فقال: لم أرك أمس؟ قال: كرهت الحركة فى يوم الإثنين، قال:

«يا على من أحبّ أن يقيه اللّه شرّ يوم الإثنين، ليقرأ فى أوّل ركعة من صلاة الغداة هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ ... ثمّ قرأ أبو الحسن: فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً[۳۲۱].

و فى هذا الصدد نقرأ الرّواية التالية أيضا

عن الحلبى عن أبى عبد اللّه الصادق عليه السّلام، أ يكره السفر فى شىء من الأيّام المكروهة، الأربعاء و غيره؟ قال: «افتتح سفرك بالصدقة، و اقرأ آية الكرسى إذا بدا لك»[۳۲۲].

و

ذکر أیضا عن الحسن بن مسعود أحد أصحاب الإمام علی الهادی علیه السّلام أنّه قال: دخلت علی أبی الحسن علی بن محمّد علیهما السّلام، و قد نکبت إصبعی، و تلقّانی راکب فصدم کتفی، و دخلت فی زحمة فخرقوا علیّ بعض ثیابی. فقلت: کفانا اللّه شرّک من یوم فما أشأمک!، فقال علیه السّلام لی: «یا حسن هذا و أنت تغشانا ترمی بذنبک من لا ذنب له».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۲

قال الحسن: فأناب إلیّ عقلی، و تبیّنت خطئی، فقلت یا مولای: استغفر لی.

فقال علیه السّلام: «یا حسن، ما ذنب الأیّام حتّی صرتم تتشاءمون منها إذا جوزیتم بأعمالکم».

قال الحسن: أنا أستغفر اللّه أبدا، و هی توبتی، یا ابن رسول اللّه.

قال علیه السّلام: «و اللّه ما ینفعکم و لکنّ اللّه یعاقبکم بذمّها علی ما لا ذمّ علیها فیه، أما علمت یا حسن أنّ اللّه هو المثیب و المعاقب و المجازی بالأعمال عاجلا و آجلا؟».

قلت: بلی یا مولای.

قال علیه السّلام: «لا تعد و لا تجعل للأیّام صنعا فی حکم اللّه».

قال الحسن: بلی یا ابن رسول اللّه ۳۲۳].

إنّ هذا الحدیث الهامّ یشیر إلی أنّ التأثیر الممکن حصوله فی الأیّام مردّه إلی أمر اللّه، و لیس للأیّام تأثیر مستقل علی حیاة الإنسان، و لا بدّ من استشعار لطف اللّه دائما، الذی لا غنی لنا عنه أبدا، و بذلک لا ینبغی أن نتصوّر الحوادث التی هی بمثابة کفّارة لأعمالنا و سیئاتنا غالبا علی أنّها مرتبطة بتأثیر الأیّام و نبرّئ أنفسنا منها، و لعلّ هذا البیان أفضل طریق للجمع بین الأخبار المختلفة فی هذا الباب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۳

الآیات [سورة القمر (۵۴): الآیات ۲۳ الی ۳۲]

اشارة

کَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (۲۳) فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِی ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۲۴) أَ أُلْقِیَ الذِّکْرُ عَلَیْهِ مِنْ بَیْنِنا بَلْ هُوَ کَذَّابٌ أَشِرٌ (۲۵) سَیَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْکَذَّابُ الْأَشِرُ (۲۶) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ (۲۷)
وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَیْنَهُمْ کُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (۲۸) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطی فَعَقَرَ (۲۹) فَکَیْفَ کانَ عَذابِی وَ نُذُرِ (۳۰) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَیْهِمْ صَیْحَةً واحِدَةً فَکانُوا کَهَشِیمِ الْمُحْتَظِرِ (۳۱) وَ لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ (۳۲)

التّفسیر

العاقبة الألیمة لقوم ثمود:

تکملة للأبحاث السابقة، تتحدّث الآیات الکریمة باختصار عن ثالث قوم ذکروا فی هذه السورة، و هم (قوم ثمود) الذین عاشوا فی (حجر) الواقعة فی شمال الحجاز، لیستفاد من قصّتهم الدروس و العبر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۴

لقد بذل نبیّهم «صالح» علیه السّلام أقصی الجهد من أجل هدایتهم و إرشادهم و لکن دون جدوی.

قال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ.

قال بعض المفسّرين: أنّ كلمة (نذر) تعنى (الأنبياء المنذرين) و لذا فإنّهم يرون بأنّ تكذيب قوم ثمود لنبيّهم صالح عليه السّلام كان بمثابة تكذيب لكلّ الأنبياء، ذلك أنّ دعوة الأنبياء أجمع هى دعوة واحدة و منسجمة، لكن الظاهر أنّ (نذر) جاءت هنا جمع (إنذار) و هو الكلام الذى يتضمّن التهديد، و الذى هو الطابع العام لكلام الأنبياء جميعا عليهم السّلام.

و يستعرض سبحانه سبب تكذيبهم (الأنبياء) حيث يقول على لسان قوم ثمود: فَقالُوا أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ، إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ.

نعم، إنّ الكبرياء و الغرور و النظرة المتعالية تجاه الآخرين، بالإضافة إلى حبّ الذات كانت حاجزا عن الاستجابة لدعوة الأنبياء عليهم السّلام، لقد قالوا: إنّ (صالح) شخص مثلنا و ليست له أىّ امتيازات علينا ليصبح زعيما و قائدا نطيعه و نتّبعه، كما لا يوجد سبب لاتّباعه.

و هذا هو الإشكال الذى تورده جميع الأقوام الضالة على أنبيائها بأنّهم أشخاص مثلنا، و لذا لا يمكن أن يكونوا أنبياء إلهيين.

و استفاد قسم آخر من المفسّرين من تعبير (واحدا) أنّ قوم صالح كانوا ينظرون إلى نبيّهم أنّه شخص (عادى) و ليس له مال وفير و لا نسب رفيع يمتاز به عليهم.

كما يفسّر البعض كلمة (واحدا) أنّه شخص واحد لا يمتلك العمق و الامتداد الاجتماعى الذى يتطلّبه الموقع القيادى فى ذلك العصر، حيث النصرة و المؤازرة.

و هنالك رأى ثالث يذهب إلى أنّ المقصود بكلمة (واحدا) ليس هو الواحد العددى، بل مرادهم الواحد النوعى، أى انّه فرد من نوعنا و جنسنا و نوع البشر لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۵

يستطيع أن يبلغ رسالة سماوية حيث مقتضى ضرورة التبليغ للرسالات السماوية- حسب رأيهم- أن يكون النّبى أو الرّسول (ملكا).

و طبعا يمكن الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة.

و على كلّ حال، فإنّ ادّعاءات قوم صالح كانت واهية و غير منطقية.

(سعر) على وزن (حمر) جمع سعير، و فى الأصل بمعنى اشتعال النار و هيجانها، و فى بعض الأحيان بمعنى (جنون) لأنّ الإنسان المجنون يكون فى حالة هيجان خاصّة، لذا يقال فى بعض الأحيان ناقة مسعورة.

و يحتمل أنّ قوم ثمود أخذوا هذا التعبير من نبيّهم (صالح) عليه السّلام حيث كان يقول لهم: إذا لم تتخلّوا عن عبادة الأصنام و تستجيبون إلى دعوة اللّه فإنّكم فى «ضلال و سعر»، و كان ردّهم: أَ بَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ و على كلّ حال فإنّ ذكر كلمة (سعر) بصيغة الجمع جاءت هنا للتأكيد و الاستمرار، سواء كان معناها الجنون أو اشتعال النار.

و تزداد اللجاجة و العناد فى قوم ثمود فيتساءلون: إذا أريد نزول الوحى على إنسان، فلما ذا اختّص بصالح من بيننا، مع وجود الشخصيات الأكثر مالا و الأقوى اعتبارا: أُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا.

و فى الحقيقة أنّ هذه الأقوال لها شبه كبير بأقوال مشركى مكّة، ذلك أنّهم شكّكوا برسالة النّبى بأقوال مماثلة: ما لِهذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَ يَمْشِي فِي الْأَسْواقِ، لَوْ لا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً.[۳۲۴] و تارة يقولون: لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [۳۲۵] ثمّ تساءلوا: إذا قدّر لبشر أن يتصدّى لمهمّة الرسالة الإلهيّة، فلما ذا كان الإختيار لأشخاص مغمورين ليس لهم ظهير من عشيرة و لا كثرة من مال ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۶

هذه الإشكالات التى تحكى السطحية فى التفكير كانت تتناقلها و تتداولها أجيال المشركين جيلا بعد جيل للتشكيك فى الرسالات الإلهيّة، و ذلك لتصوّرهم أنّ من كان خلال افتراضهم أنّ من يتصدّى لهذه المهمّة لا بدّ أن يكون ذا قوّة و قوم و مال و نسب و جاه و

منصب فهو شخصية مهمّة، و هذه الأمور تدلّ على شخصية و كرامة الإنسان، فى حين أنّ أكثر العناصر الظالمة و المتجبّرة هى المتّصفة بالصفات السابقة.

و يمكن تفسير الآية أيضا- كما اختاره بعض المفسّرين- على ضوء التساؤلات التى أطلقها قوم ثمود و التى تتركّز بما يلى: ما هى علّة نزول الوحى على صالح عليه السّلام؟ و لماذا لم ينزل علينا جميعا؟، و ما هى المميّزات التى اختصر بها صالح عليه السّلام ليتميّز علينا بهذا الخصوص!؟ و هذا المعنى ورد أيضا فى سورة المدثر، الآية ۵۲ حيث يقول سبحانه فى ذلك: بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً.

ثمّ تختتم الآية بقوله سبحانه: بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ و ذلك اتّهاما لصالح عليه السّلام بالكذب فيما ادّعاه من اختصاص من الوحى به و إنذار قومه و أنّه يريد أن يتحكّم علينا و يجعل كلّ أمورنا تحت قبضته و يسيرنا وفق هواه و إرادته ..

(أشر) وصف من مادّة (أشر) على وزن (قمر) بمعنى بطر و مرح زائد عن الحدّ.

و يردّ البارئ عزّ و جلّ عليهم بصورة قاطعة بقوله: سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ.

و عند ما يدركهم العذاب الإلهى و يسوّيهم مع التراب و يحوّلهم رمادا، و بعد أن يجازيهم اللّه بأعمالهم فى يوم لا ينفع فيه مال و لا بنون ... عندئذ سيدركون حقيقة اتّهاماتهم الزائفة التى اتّهموا بها نبى من أنبياء اللّه المقرّبين، و سيعلمون أيضا أنّ هذه الافتراءات هى أحقّ بهم و ألصق.

و معلوم أنّ المراد من «غدا» هو المستقبل القريب، و إنّه حقّا لتعبير رائع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۷

و السؤال المطروح هنا: فى الوقت الذى نزلت هذه الآيات على قوم ثمود كان العذاب قد وقع عليهم مجازاة لأعمالهم، فما معنى (سيعلمون) مع أنّهم قد هلكوا؟

هنالك إجابتان على هذا السؤال:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۳۲۷

ولى: إنّ حديث الآيات الكريمة كان موجّها للنبى صالح عليه السّلام، و من المعلوم أنّ العذاب لم يكن قد نزل بهم حينئذ.

الثّانية: إنّ المقصود من (غدا) هو يوم القيامة الذى سيظهر فيه كلّ شىء بوضوح. (و التّفسير الأوّل هو الأنسب عند ملاحظة الآيات اللاحقة).

و هنا يطرح تساؤل آخر: لماذا قال تعالى: سَيَعْلَمُونَ غَداً؟ فى الوقت الذى لمس مشركو قوم ثمود صدق دعوة النّبى صالح عليه السّلام لما شاهدوه من معجزاته غير القابلة للإنكار؟

و يتّضح الجواب على هذا التساؤل إذا علمنا أنّ للعلم مراتب، و يمكن إنكاره من قبل الآخرين فى بعض مراتبه، و قد يصل العلم بهم إلى مرتبة، لا يمكن إنكارها لما تمثّله من حقيقة صارخة متجسّدة للعيان، و المقصود هنا من جملة: سَيَعْلَمُونَ غَداً هو العلم الحقيقى الذى لا يمكن إنكاره، و الذى هو حقيقة العذاب الذى سيحلّ بقوم ثمود بصورة لا ريب فيها مطلقا.

ثمّ يشير سبحانه إلى قصّة «الناقة» التى أرسلت كمعجزة و دلالة على صدق دعوة صالح عليه السّلام حيث يقول: إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَ اصْطَبِرْ.

(الناقة) أنثى البعير، و هى ليست كبقيّة النوق لما تتّصف به من خصوصيات خارقة للعادة، و طبقا للروايات المشهورة فإنّ هذه الناقة قد خرجت من بطن صخرة جبل حجّة دامغة للمنكرين و المعاندين.

معنى «الفتنة»- كما مرّ فى بحث سابق- هو التمحيص و الاختبار، و اكتشاف مدى الإخلاص و الصفاء و الاستقامة عند الإنسان.

و من الواضح أنّ قوم ثمود قد جعلوا أمام إمتحان عسير، حيث يستعرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۸

سبحانه هذا الاختبار لهم بقوله: وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۳۲۶] يوم لهم و يوم للناقة.

و مع أنّ القرآن الكريم لم يوافنا بتفاصيل أكثر حول هذا الموضوع، و لكن كما يذكر الكثير من المفسّرين فإنّ ناقة صالح عليه السّلام كانت تشرب كلّ الماء يوم يكون شربها، و يعتقد البعض الآخر أنّ هيئتها و وضعها كانا بشكل يدفع الحيوانات إلى الفرار من الماء عند ما تقترب الناقة نحوه، و لذلك فإنّهم اقترحوا حلا و هو: أن يكون الماء يوما لهم و آخر للناقة.

و على كلّ حال فإنّ هؤلاء القوم وقعوا فى مضيقة من ناحية الماء، و لم يطيقوا وجود الناقة و مشاطرتها لمائهم يوما كاملا خصوصا ما يحتمله بعض المفسّرين من شحّة الماء فى القرية (مع العلم أنّ هذا لا يتناسب مع ما ذكر فى الآيات (۱۴۶- ۱۴۸) من هذه السورة، حيث المستفاد من هذه الآيات أنّ هؤلاء القوم كانوا يعيشون فى أرض مليئة بالبساتين و العيون).

و على كلّ حال فإنّ قوم ثمود المتمرّدين عقدوا العزم على قتل الناقة، فى الوقت الذى حذّرهم نبيّهم صالح عليه السّلام من مسّها بسوء، و أخبرهم بأنّ العذاب الإلهى سيقع عليهم بعد فترة وجيزة إن فعلوا ذلك.

و نظرا لاستخفافهم بهذا التحذير (فقد نادوا أحد أصحابهم حيث تصدّى للناقة و قتلها) يقول اللّه سبحانه: فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ.

و يمكن أن يكون المراد ب (صاحب) أحد رؤساء ثمود، و كان أحد أشرارهم المعروفين و يعرف فى التاريخ ب (قدارة بن سالف)[۳۲۷].

و (تعاطى) فى الأصل بمعنى تناول الشىء، أو تبنّى الموضوع و تقال أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۲۹

عند إنجاز الأعمال المهمّة و الخطيرة و كذلك الأعمال الشاقّة، أو العمل المقابل بعوض.

كلّ هذه التفاسير تجمّع فى الآية مورد البحث، لأنّ الإقدام على القتل يستدعى جرأة و خسارة كبيرة، كما أنّه عمل شاقّ، و كذلك يستلزم اجرة فى الغالب.

(عقر) من مادّة (عقر) على وزن (ظلم) و فى الأصل بمعنى الأساس و الجذر، و إذا استعمل هذا المصطلح بخصوص الناقة فإنّه يعنى القتل و النحر.

و الجدير بالذكر أنّ قتل الناقة نسب لشخص واحد فى هذه الآية، فى الوقت الذى يلاحظ نسبة القتل فى سورة (الشمس) لقوم ثمود جميعا حيث يقول سبحانه: فَعَقَرُوها، و يمكن تعليل هذا الأمر بأنّ فعل الشخص القاتل كان نيابة عن الجميع و برضاهم، و كما نعلم فإنّ الذى يرضى بفعل قوم يكون شريكا لهم فيه ۳۲۸].

و جاء فى بعض الرّوايات أنّ (قدارة) كان قد شرب مسكرا، و قد أقدم على هذا العمل القبيح و الجناية الكبيرة و هو فى هذه الحالة.

و فى طريقة قتل الناقة أقوال كثيرة، حيث يذهب البعض إلى أنّ قتلها كان بالسيف، و يقول البعض الآخر: إنّ (قدارة) قد نصب لها كمينا وراء صخرة و ضربها بالسهم أوّلا ثمّ هجم عليها بالسيف.

و تأتى الآية الكريمة اللاحقة مؤكّدة إنذارهم قبل نزول العذاب الشديد عليهم، حيث يقول سبحانه: فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ ثمّ وقع العذاب و السخط الإلهى على هؤلاء المتمرّدين المعاندين حيث يضيف سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۰

«الصيحة» هنا تعنى الصوت العظيم الذى يأتى من السماء، و يحتمل أن يكون إشارة للصاعقة المخيفة التى ضربت قريتهم، حيث يقول سبحانه: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَ ثَمُودَ.[۳۲۹] (الهشيم) من مادّة (هشم) على وزن «حسم» و فى الأصل

بمعنى انكسار الأشياء الضعيفة كالنباتات، و تطلق عادة على النباتات اليابسة المتكسّرة التى يهيؤها الرعاة لمواشيهم بعد سحقها، كما تطلق أحيانا على النباتات اليابسة المسحوقة بأرجل الحيوانات فى الحضيرة.

(محتظر) فى الأصل من مادّة (حظر) على وزن (حفز) بمعنى المنع، و لذلك فإنّ إعداد الحظائر للحيوانات و المواشى تكون مانعة لها من الخروج و لدرء المخاطر عنها، و مفردها (الحظيرة)، و «محتظر» على وزن محتسب- هو الشخص الذى يملك مثل هذا المكان.

و الاستعراض الذى ذكرته الآية الكريمة حول عذاب قوم ثمود عجيب جدّا و معبّر للغاية، حيث لم يرسل اللّه لهم جيوشا من السماء أو الأرض للتنكيل بهم، و إنّما كان عذابهم بالصيحة السماوة العظيمة، فكانت صاعقة رهيبة، أخمدت الأنفاس، و كان انفجارا هائلا حطّم كلّ شىء فى قريتهم، فأصبحت بيوتهم و قصورهم كحظيرة المواشى، و أجسادهم المحطّمة كالنبات اليابس المرضوض المهشّم.

إنّ استيعاب هذا اللون من العذاب كان صعبا و عسيرا للأقوام السالفة، و لكنّه يسير بالنسبة لنا، و ذلك من خلال معرفتنا لتأثير الأمواج الناتجة من الإنفجارات، حيث أنّها تحطّم كلّ شىء يقع ضمن دائرة إشعاعاتها.

و من الطبيعى أنّنا لا نستطيع المقارنة بين الإنفجارات البشرية و صاعقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۱

العذاب الإلهى التى أشاعت الدمار الرهيب فى هؤلاء القوم الحمقى المستبدّين، و على بيوتهم و قصورهم، عسى أن يكون عبرة و درسا للآخرين، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

و هكذا تنهى الآيات الكريمة هذا المشهد المثير بالتأكيد على ضرورة الاستفادة من هذه الدروس البليغة، حيث التعابير الحيوية الواضحة، و القصص المعبّرة، و الإنذارات المحفّزة و التهديدات القويّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۲

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۳۳ الى ۴۰]

اشارة

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِى مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِى وَ نُذُرِ (۳۷)

وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذابِى وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰)

التّفسير

المصير الأكثر شؤما:

نلاحظ فى هذه الآيات تعبيرات قصيرة و قويّة حول قصّة «قوم لوط» و العذاب الشديد الذى حلّ بهم، و هم المجموعة الرابعة من الأقوام التى اتّصفت بالقبح و الضلال و التى استعرضتهم هذه السورة المباركة ... حيث يبدأ الحديث عنهم بقوله سبحانه: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ.

و «نذر» كما ذكر سابقا جمع (إنذار) و تعنى التهديد و التخويف، و من المحتمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۳

أن يكون المراد بها بعد ذكرها بصيغة الجمع هو الإنذارات المتعاقبة من النّبى لوط عليه السّلام لقومه، و التى كذّب بها أجمع، كما

يمكن أن يكون المقصود منها هو إشارة إلى إنذار لوط عليه السّلام و الأنبياء الذين سبقوه فى الدعوة إلى اللّه، ذلك أنّ جميع الأنبياء يسعون من أجل تثبيت حقيقة أساسية واحدة و هى العبودية للّه.

و تستعرض الآيات التالية بجمل قصيرة مشاهد من العذاب الذى نزل بقوم لوط و كيفية نجاة عائلته حيث يقول سبحانه: إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً.

و «حاصب» تعنى الريح الشديدة التى تأتى بالحجارة و الحصباء، و الحصباء هى الحصى، و يكون المقصود: إنّا أمطرناهم بالحجارة و الحصباء حتّى علت أجسادهم و دفنوا تحتها، إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ.

و تتحدّث الآيات القرآنية الاخرى عن هول العذاب الذى حلّ بقوم لوط حيث الزلازل التى قلبت مدنهم فأصبح عاليها سافلها، و بذلك أصيبت بكارثة الدمار الماحق ... و تتحدّث عن مطر الحجارة و الحصى الذى نزل عليهم بشدّة، فيقول سبحانه فى ذلك: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ.[۳۳۰] و يثار السؤال التالى و هو: هل أنّ العذاب الذى نزّل بقوم لوط كان على نوعين: الأوّل: العاصفة التى حملت الحجارة و حصى الصحراء و قذفتهم بها.

و الثانى: الأحجار السماوية من السجّيل المنضود. أو أنّهما كانا نوعا واحدا؟ حيث العواصف العظيمة المحمّلة بالحصى و الحجارة المأخوذة من الصحراء ترفعه العواصف العاتية نحو السماء ليعود مرّة اخرى إلى الأرض بعد انخفاض العواصف باتّجاهها.

و لذا فليس من المستبعد أن تأخذ العاصفة قسما من الحصى و الحجارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۴

و ترفعها إلى السماء بأمر من اللّه تعالى لتسقط مرّة اخرى على مدنهم بعد أن أصابها الزلزال العظيم، فتطمس معالمها المدمّرة، و تمحو آثار خرائبها من على وجه الأرض، و تدفن أجسادهم و تنهى كلّ أثر لهم، كى يكونوا إلى الأبد عبرة و عظة للآخرين ۳۳۱].

و الذى يفهم من الآية السابقة أنّ نجاة آل لوط كان فى وقت السحر، و السبب فى ذلك أنّ الوعد بالانتقام الإلهى من قوم لوط كان وقت الصبح، لذلك- بأمر من اللّه- قد نجت هذه العائلة المؤمنة بخروجها من المدينة آخر الليل- باستثناء زوجته التى تنكّبت و أعرضت عن دعوته- حيث لم يمض وقت طويل حتّى نزل العذاب عليهم زلزالا و عاصفة عاتية تمطرهم بالحصى و الحجارة، كما يتحدّث القرآن الكريم عن هذا المشهد المثير فى سورة هود و يقول: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۳۳۲].

و من هنا يتّضح عدم تناسب أقوال المفسّرين الذين اتّبعوا أقوال أئمّة اللغة و ذلك باعتبارهم «السحر» ما بين الطلوعين فى الآية أعلاه ۳۳۳].

و يضيف البارئ عزّ و جلّ بقوله: نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ[۳۳۴].

إنّ لوطا عليه السّلام قد أتمّ الحجّة على قومه قبل أن ينزل البلاء عليهم، حيث يوضّح اللّه سبحانه هذه الحقيقة فيقول تعالى: وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ.

(بطش) على وزن (فرش) و تعنى فى الأصل أخذ الشىء بالقوّة، و لأنّ المجرم لا يؤخذ إلّا بالقوّة ليلقى جزاءه، لذلك فإنّها تعنى المجازاة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۵

(تماروا) من (تمارى) بمعنى محادثة طرفين لإيجاد الشكّ و إلقاء الشبهة مقابل الحقّ، فهؤلاء سعوا بطرق مختلفة إلى إلقاء الشكوك و الشبهات بين الناس لإبطال تأثير إنذارات هذا النّبى العظيم «لوط» عليه السّلام.

و لم يكتف هؤلاء المعاندون بإلقاء الشبهات العقائدية بين الناس، بل بلغت بهم الوقاحة و الصلف و عدم الحياء حدّا أنّهم تجرّؤوا على ملائكة الرحمن و ضيوف النّبى الكريم المأمورين بعذاب هؤلاء القوم حينما دخلوا بيت لوط عليه السّلام بصورة شباب و سيمين،

حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ أى أنّهم طلبوا منه أن يضع ضيوفه تحت تصرّفهم.

لقد بلغ الألم الذى اعترى «لوطا» عليه السّلام حدّا لا يطاق نتيجة هذا التصرّف القبيح و المخجل لقومه، و طلب بإصرار أن يكفّوا عن هذا السلوك المشين المخجل البعيد عن الشرف و الحياء. بل و أدبى استعداده عليه السّلام لتزويج بناته لهم- إن أعلنوا توبتهم- و هذه أعلى حالات المظلومية التى يتعرّض لها هذا النّبى الكريم من قبل قوم عديمى الحياء و الإيمان و القيم الخيرة، كما فى قوله سبحانه: قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ [۳۳۵] و لم يمض وقت طويل حتّى واجهت هذه الفئة المجرمة الباغية الجزاء الأوّلى لعملهم الإجرامى حيث يقول فى ذلك سبحانه: فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ.

إنّ يد القدرة الإلهيّة امتدّت لتنتقم من هؤلاء القوم المجرمين، و ذلك بأن طمست على أعينهم، حيث يقول البعض بأنّ جبرائيل قد امر أن يخفق بجناحهم على عيونهم حيث فقدوا بصرهم حالا، و قيل أنّ بؤر أبصارهم قد أصبحت مستوية مع وجوههم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۶

و مع أنّ القرآن الكريم لم يبيّن من هم الأشخاص الذين راودوا (الملائكة) ضيوف النّبى الكريم لوط عليه السّلام، إلّا أنّ من الواضح أنّه لم يكن جميع القوم، بل أوباشهم الأكثر وقاحة و إجراما الذين تسابقوا للقيام بهذا الجرم المشين، و لذا فإنّ العذاب الذى لحقهم فى طمس عيونهم يفترض أن يكون عبرة للآخرين من قومهم. و للأسف الشديد لم يكن هنالك من يتّعظ و يعتبر بهذا الدرس الإلهى البليغ، و الذى كان مقدّمة للعذاب الإلهى المحتوم عليهم جميعا.

و يقال: أنّ سبب تأخير العذاب على قوم لوط إلى الصبح، هو أنّ هذه الحادثة كانت قد وقعت قبل يوم، لذا فقد اعطى لهؤلاء المعاندين مهلة ليلة اخرى عسى أن يفكّروا فى مصيرهم قبل نزول البلاء عليهم، و يعتبروا بهذه الثلّة السيّئة الحظّ ممّن فقدوا بصرهم.

و تذكر الرّواية أنّ الجناة الذين فقدوا بصرهم لم يتّعظوا أيضا بما أصابهم، فقد توعّدوا آل لوط أن لا يبقوا منهم أحدا، و ذلك فى طريق عودتهم إلى بيوتهم و هم يتلمّسون الجدران ليهتدوا بواسطتها إلى أهليهم [۳۳۶].

و جاءت الساعة المرتقبة حيث أمر اللّه بفنائهم و قلبت الزلزلة مدينتهم رأسا على عقب و صبّ عليهم العذاب صبّا مع أوّل خيط من أشعّة فجر ذلك اليوم، فتتمزّق أجسادهم و تتلاشى أبدانهم و تدمّر بيوتهم و تندثر قصورهم و تتحوّل إلى انقاض و خرائب، و إذا بالمطر الحجرى ينهمل عليهم و يطمس كلّ معالم الحياة لديهم حتّى لم يبق أى أثر لهم.

و ذلك ما تشير له الآية الكريمة حيث تعكس هذا المعنى باختصار و تركيز وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ.

نعم، و فى لحظات قصار انتهى كلّ شىء و لم يبق لهم أثر!!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۷

كلمة (بكرة) تعنى (أوّل اليوم) لأنّ (صبّحهم) واسع المعنى و يشمل كلّ الصباح، فى الوقت الذى يقصد فى الصباح هنا (أوّله).

و هل كان وقت العذاب الإلهى بداية طلوع الفجر، أو أنّه حصل فى بداية طلوع الشمس؟ إنّ هذا الأمر لم يعرف بالضبط و لكن تعبير (بكرة) يتناسب أكثر مع بداية طلوع الشمس.

كلمة (مستقرّ) تعنى الثبوت و الإحكام، أى بمعنى (ثابت الحكم) و يحتمل أن يكون المراد به هنا هو: أنّ العذاب الإلهى كان شديدا إلى حدّ أنّ أىّ قوة لم تكن قادرة على مواجهته.

و يقال لأنّ العذاب الدنيوى لهؤلاء القوم متّصل مع عذاب البرزخ، لذا اطلق عليه أنّه (مستقرّ).

ثمّ يضيف سبحانه مؤكّدا و مكرّرا مرّة اخرى قوله: فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ.

لكى لا يكون مجال للشكّ و التردّد فى إنذار الأنبياء لكم بعد هذا، و رغم أنّ هذه الجملة ذكرت مرّتين فى القصّة: فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ إلّا أنّه من الواضح هنا أنّ الجملة الاولى تشير إلى العذاب الذى حلّ بالمجموعة التى اقتحمت بيت لوط عليه السّلام و ما نتج من إصابتهم بالعمى مقدّمة للعذاب العامّ، و الثانية إشارة إلى العذاب الذى نزل بقوم لوط أجمع من الزلازل و الدمار و مطر الحجارة.

و فى نهاية المطاف و فى آخر آية من بحثنا هذا تتكرّر جمل الموعظة و العبرة و للمرّة الرابعة فى هذه السورة بقوله تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

نعم، لم يتّعظ قوم لوط من النـذر، و لم يتّعظوا من العـذاب الأوّل الذى أعمى أبصار البعض منهم و الذى كان بمثابة إنذار لهم فهل أنّ الآخرين الذين يرتكبون نفس الذنوب يتّعظون لدى سماع آيات القرآن هذه و ينوبوا إلى رشدهم و يندموا على ما فرط منهم؟! ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۸

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۱ الى ۴۶]

اشارة

وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (۴۱) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (۴۲) أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (۴۳) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (۴۴) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۴۵)
بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ (۴۶)

التّفسير

هل أنتم أفضل من الأقوام السابقة؟!

المجموعة الخامسة التى يتحدّث عنها القرآن فى هذه السلسلة هم قوم فرعون، و لأنّ الحديث عن هؤلاء القوم قد طرح بصورة تفصيلية فى السور القرآنية المختلفة، لذا فإنّ هذه السورة المباركة تستعرض هذه القصّة فى مقاطع مختصرة و مركّزة حول ضرورة الاستفادة من العبر التى جاءت فيها و الاتّعاظ منها ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۳۹

يقول سبحانه: وَ لَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ[۳۳۷].

المقصود من (آل فرعون) ليسوا أهل بيته و متعلّقيه فقط، بل يشمل كلّ أتباعه بصورة عامّة، لأنّ كلمة (آل) و بالرغم من أنّها تستعمل فى الغالب لأهل البيت و العائلة، إلّا أنّ معناها أوسع من ذلك، حيث تأتى بالمعنى الذى ذكر، و القرائن العامّة فى هذا المورد تؤيّد هذا المعنى الواسع لها.

(نذر) على وزن (كتب) و هى جمع نذير، و بمعنى «المنذر» سواء كان هذا المنذر إنسانا أو حادثة من الحوادث التى تحذّر الإنسان من عاقبة أعماله، و فى الحالة الاولى يمكن أن يكون المقصود فى الآية أعلاه (موسى و هارون) عليهما السّلام، و فى الصورة الثانية إشارة إلى المعجزات التسع لموسى عليه السّلام، و من خلال ملاحظة الآية التى بعدها تشير إلى أنّ المعنى الثانى هو الأنسب.

و الآية اللاحقة تكشف عن ردّ الفعل لآل فرعون من دعوة النبيين الإلهيين عليهما السّلام، و الإنذارات التى وجّهوها لهم حيث يقول اللّه سبحانه: كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها.

نعم إنّ هؤلاء المغرورين من الجبابرة و المعاندين قد أنكروا كلّ الآيات الإلهيّة و بدون استثناء، و حسبوها سحرا و كذبا و صدفة.

(آيات) لها معنى واسع تشمل الدلائل العقلية و المعجزات و الدلائل النقلية، و عند ملاحظة قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ يتبيّن لنا أنّ المقصود ب (الآيات) هنا هى المعجزات التسع لموسى عليه السّلام ۳۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۰

إنّ الإنسان إذا كان صادقا فى البحث عن الحقيقة فانّه يكفيه أن يرى واحدة منها، و خاصّة تلك التى يسبقها إنذار، ثمّ بلاء، ثمّ زوال هذا البلاء عند دعاء النّبى الإلهى، و لكن العناد، و الإصرار على الباطل و الغرور إذا ركب الإنسان، فحتّى لو أصبحت جميع السماء و الأرض آيات للّه، فلن تكون ذات تأثير على أمثال هؤلاء، و الجواب الحاسم المناسب لهم هو العذاب الإلهى الذى يقضى على النزعات الشريرة و النفوس المريضة التى يملؤها الهوى و الغرور. كما قال تعالى:

فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ تكملة للآية مورد البحث.

«أخذ» فى الأصل بمعنى تناول الشىء و أخذه باليد، و لكون المجرم يؤخذ قبل أن يعاقب، لذا فإنّها تستعمل كناية عن المجازاة.

و التعبير الآخر الذى أتى فى آخر هذه القصّة لا يوجد له شبه فى التعابير المماثلة فى القصص الاخرى، و ذلك لأنّ الفراعنة كانوا يتباهون بقوّتهم و سطوتهم و عزّهم أكثر من بقيّة الأمم، و الحديث عن قوّة سلطانهم كان فى كلّ مكان. يقول اللّه تعالى: فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ و ذلك كى يكون واضحا للجميع أنّ القوّة الحقيقة هى للّه وحده، لأنّ كلّ قوّة و عزّة اخرى غير قوّته و ما يتّصل بذاته وهميّة لا تساوى شيئا فى قبال عزّته و قدرته ... و العجيب أنّ نهر النيل العظيم الذى كان مصدر خير و ثروة لهم، هو الذى أمر بالانتقام منهم، و الأعجب من ذلك أنّ أضعف المخلوقات سلّطت عليهم كالجراد و الضفادع و القمل فجعلتهم فى حالة عجز و مسكنة لا يقدرون على دفعها، و هم الذين كانوا من السطوة و القوّة موضع حديث أهل زمانهم:

و بعد بيان هذه المشاهد المؤثّرة من قصص الأقوام المنصرمة و العذاب الإلهى العظيم الذى حلّ بهؤلاء الجبابرة المتمرّدين على الحقّ، يخاطب اللّه سبحانه فى الآية اللاحقة مشركى مكّة بقوله تعالى: أَ كُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۱

الزُّبُرِ[۳۳۹].

فما الفرق بينكم و بين قوم فرعون و قوم نوح و لوط و ثمود؟ فكما أنّ أولئك الأقوام قد عذّبوا بالطوفان تارة و الزلازل و الصواعق اخرى، اقتصاصا منهم للكفر و الظلم و الطغيان و العصيان الذى كانوا عليه ... فما المانع أن يصيبكم العذاب و يكون مصيركم نفس المصير ... فهل أنتم أفضل منهم؟ و هل أنّ كفركم و عنادكم أخفّ حدة؟ و كيف ترون أنّكم مصونون من وقوع العذاب الإلهى؟ أ ألقى إليكم كتاب من السماء يعطيكم هذا الأمان؟

و من الطبيعى أنّ مثل هذه الادّعاءات ادّعاءات كاذبة لا يقوم عليها أى دليل أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ[۳۴۰].

«جمع» بمعنى مجموع، و المقصود هنا هى الجماعة التى لها هدف و قدرة على إنجاز عمل، و التعبير هنا ب (منتصر) تأكيد على هذا المعنى لأنّه من مادّة (انتصار) بمعنى الانتقام و الغلبة.

و الجدير بالذكر هنا أنّ الآية السابقة كانت بصورة خطاب، أمّا فى الآية مورد البحث و الآيات اللاحقة، فإنّ الحديث عن الكفّار بلغة الغائب، و هو نوع من أنواع التحقير، أى أنّهم غير مؤهّلين للخطاب الإلهى المباشر.

و على كلّ حال، فإنّ ادّعاءهم بالقوّة و القدرة ادّعاء فارغ و قول هراء، لأنّ الأقوام السابقة من أمثال قوم عاد و ثمود و آل فرعون و أضرابهم كانوا أكثر قوّة و سطوة، و مع ذلك فلم تغن عنهم قوّتهم شيئا حينما واجهوا العذاب، و كانوا من الضعف كالقشّة اليابسة تتقاذفها الأمواج من كلّ مكان، فكيف بمن هو أقل عددا و أضعف حيلة و قوّة و منعة؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۲

و يواجه القرآن الكريم هؤلاء السادرين فى غيّهم بإخبار غيبى حاسم و قوى، حيث يقول: سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ[۳۴۱].

و الظريف هنا أن سيهزم من مادّة (هزم) على وزن (جزم) و فى الأصل بمعنى الضغط على الجسم اليابس لحدّ التلاشى. و لهذا السبب استعملت هذه الكلمة (هزم) فى حالة تدمير الجيوش و انكسارها.

و ربّما أشار هذا التعبير إلى النقطة التالية و هى: رغم حالة الاتّحاد و الانسجام لهؤلاء القوم ظاهرا، إلّا أنّهم كالموجودات اليابسة و

الفاقدة للروح، فبمجرّد تعرّضها إلى ضغط قوى تتهشّم، و نرى عكس ذلك فى المؤمنين المتصّفين بالقوّة المقترنة بالمرونة، حيث أنّهم إذا ثقلت عليهم المحن و اشتدّت الأزمات و أحنتهم العاصفة فإنّهم سرعان ما يستعيدوا قواهم مرّة اخرى ليواجهوا مصاعب الحياة.

«دبر» بمعنى «خلف» فى مقابل (القبل) بمعنى «أمام»، و سبب ذكر هذه الكلمة هنا لبيان حالة الفرار من ساحة المعركة بصورة كليّة.

لقد صدق هذا التنبّؤ فى معركة بدر و سائر الحروب الاخرى حيث كانت هزيمة الكفّار ساحقة، فإنّه رغم قدرتهم و قوّتهم فقد تلاشى جمعهم.

و فى آخر الآية مورد البحث يشير سبحانه إلى أنّ الهزيمة التى منى بها المشركون سوف لن تكون فى الدنيا فقط، و إنّما هى فى الآخرة أشدّ و أدهى، حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَ السَّاعَةُ أَدْهى وَ أَمَرُّ.

و على هذا التصوّر، فما عليهم إلّا أن ينتظروا هزيمة ما حقة فى الدنيا، و مصيرا سيّئا و اندحارا أمرّ و أكثر بؤسا فى الآخرة.

«أدهى» من مادّة (دهو) و (دهاء) بمعنى المصيبة و الكارثة العظيمة و التى لا مخرج منها و لا نجاة، و لا علاج لها، و تأتى أيضا بمعنى الذكاء الشديد، إلّا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۳

المقصود منها فى الآية الكريمة هو المعنى الأوّل.

نعم إنّهم سيبتلون يوم القيامة بعذاب محتّم و عاقبة بائسة لا مفرّ منها.

ملاحظة

تنبّؤ إعجازى صريح:

ممّا لا شكّ فيه أنّه عند ما نزلت هذه الآيات فى مكّة المكرّمة كان المسلمون أقليّة ضعيفة، و كان العدو فى أوج القوّة و القدرة، و لم يكن أحد يتوقّع انتصار المسلمين بهذه السرعة، فهو أمر غير قابل للتصديق فى تلك الظروف، و لا مجال للتنبّؤ به.

و كانت هجرة المسلمين بعد فترة وجيزة من هذا التاريخ حيث اكتسبوا خبرة و قوّة، ممّا جعلهم يحقّقون الإنتصار و الغلبة على المشركين فى أوّل مواجهة عسكرية معهم، و ذلك فى معركة بدر، حيث وجّه المسلمون صفعة قويّة مفاجئة لمعسكر الكفر، و لم يمض وقت طويل إلّا و نلاحظ أنّ الإيمان بالرسالة المحمديّة لم يقتصر على مشركى مكّة فحسب، بل شمل الجزيرة العربية أجمع، حيث استسلمت للدعوة الإلهيّة.

أليس هذا النبأ الغيبى الإلهى الذى واجهنا بهذه الصراحة و الجديّة معجزة؟

و من الواضح أنّ أحد عناصر الإعجاز فى القرآن الكريم هو تضمّنه للأخبار الغيبية، و هذا ما نلاحظه فى الآية مورد البحث.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۴

الآيات [سورة القمر (۵۴): الآيات ۴۷ الى ۵۵]

اشارة

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلالٍ وَ سُعُرٍ (۴۷) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (۴۸) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (۴۹) وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (۵۰) وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۵۱)

وَ كُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ (۵۲) وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (۵۳) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ (۵۴) فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ

(۵۵)

التّفسير

المؤمنون فى ضيافة اللّه:

فى الحقيقة إنّ هذه الآيات هى استمرار لبحث الآيات السابقة حول بيان أحوال المشركين و المجرمين فى يوم القيامة. و آخر آية من تلك الآيات تعكس هذه الحقيقة بوضوح، و هو أنّ يوم القيامة هو الموعد المرتقب لهؤلاء الأشرار فى الاقتصاص منهم، حيث يحمل المرارة و الصعوبة و الأهوال لهم، و التى هى أشدّ و أقسى ممّا أصيبوا به فى هذه الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۵

و تتحدّث الآية الاولى- مورد البحث- عن ذلك حيث يقول سبحانه: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ[۳۴۲].

يقول البارئ عزّ و جلّ: يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ حيث يبيّن اللّه سبحانه أنّ العذاب الإلهى واقع عليهم و لا ريب فيه، و سيواجهونه عمليّا رغم استهزائهم و سخريتهم و ادّعائهم أنّه من نسج الأساطير.

«سقر» على وزن (سفر) و فى الأصل بمعنى تغيّر لون الجلد و تألّمه من أشعّة الشمس و ما إلى ذلك. و لأنّ إمكانية تغيير لون الجلد و ألمه الشديد من خصوصيات نار جهنّم، لذا أطلق اسم (سقر) عليها. و المراد من (مسّ) هو حالة التماس و اللمس، و بناء على هذا فيقال فى أهل النار: ذوقوا لمس نار جهنّم و حرارتها اللاذعة، ذوقوا طعمها، هل هى أكاذيب و خرافات و أساطير، أم أنّها الحقيقة الصارخة؟

و يعتقد البعض أنّ (سقر) ليس اسم كلّ النار، بل هو اسم مختّص بجانب منها تكون فيه النار حامية لدرجة مذهلة و خارقة.

و

فى ثواب الأعمال عن الصادق عليه السّلام: «إنّ فى جهنّم لواديا للمتكبّرين يقال له سقر شكا إلى اللّه شدّة حرّه، و سأله أن يأذن له أن يتنفّس فأحرق جهنّم»[۳۴۳].

و لكى لا يتصوّر أنّ هذه الشدّة فى العذاب لا تتناسب مع المعاصى، يقول سبحانه: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ.

نعم إنّ عذابهم فى هذه الدنيا كان بتقدير و حساب، و كذلك سيكون عقابهم المؤلم فى الآخرة، و ليس الجزاء فقط، ذلك أنّ اللّه سبحانه خلق كلّ شىء بحساب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۶

و تقدير، فالأرض و السماء و الكائنات الحيّة و الموجودات الجامدة و أعضاء الإنسان و مستلزمات الحياة كلّها خلقت بقدر معلوم، و لا يوجد شىء فى هذا الوجود بدون حساب و تقدير، لأنّ الخلّاق عليم حكيم و مقدّر.

ثمّ يضيف تعالى إنّه ليست أعمالنا موافقة للحكمة فحسب، بل انّها مقترنة مع القدرة و الحسم، لأنّه: وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ.

و تتجسّد الإرادة الربّانية و الأوامر الإلهيّة من خلال كلمة «كن» فيترتّب على ذلك فورا وجود الشىء. (حتّى كلمة «كن» جاءت من باب ضيق البيان، و إلّا فإنّ الإرادة الإلهيّة متحقّقة بمجرّد الإرادة).

و لذلك فإنّ اليوم الذى تقوم فيه الساعة يحدث بأمر اللّه بلمح البصر، و كلّ شىء يكون فى مسار الآخرة حينئذ، و تبعث الحياة من جديد فى الأبدان.

كما أنّ المشيئة الإلهية فى مجازاة المجرمين بالصواعق و الصيحات السماوية و الزلازل و الطوفان و الرياح العاتية ... كلّ ذلك يحدث

بمجرّد الأمر الإلهى و بدون تأخير.

إنّ هـذه الإنذارات الموجّهة للعصاة و المذنبين كلّها من أجل أن يعلموا أنّ اللّه، كما هو حكيم فى أمره فإنّه حازم فى فعله، فهو حكيم فى عين الحزم، و حازم فى عين الحكمة، فليحذروا مخالفة تعاليمه و أوامره.

و فى الآية اللاحقة يخاطب الكفّار و المجرمين مرّة اخرى، و يلفت انتباههم.

إلى مصير الأقوام السابقة حيث يقول: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ.

«أشياع» جمع (شيعة) و تطلق على الأتباع الذين ينشرون و يشيعون ما يرتبط بالشخص المتّبع فى كلّ الحالات و يسندونه و يناصرونه، و إذا استعملت بمعنى (تابع) فإنّها تكون بنفس القصد.

و من الطبيعى فإنّ الأقوام السابقة لم يكونوا أتباعا و شيعة لمشركى مكّة و أمثالهم، بل العكس هو الصحيح، و لكن بما أنّ المؤيّدين لشخص ما يشبّهونه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۷

سلوكه، لذا فإنّ هذا المصطلح يطلق على الشبيه و المماثل أيضا.

و يجدر بنا القول بأنّ هذه الطائفة من مشركى مكّة كانوا يستعينون و يستفيدون من الخطّ الفكرى الذى كانت الأقوام السابقة عليه، و لهذا السبب فإنّ كلمة (أشياع) أطلقت على الأقوام السابقة.

و على كلّ حال، فإنّ الآية الكريمة تؤكّد هذه الحقيقة مرّة اخرى، و هى أنّ أعمال مشركى قريش و ممارساتهم هى نفس أعمال و ممارسات و عقائد الأقوام السابقة، لذا فلا يوجد دليل على أنّ مصيركم سوف يكون أفضل من مصيرهم، فاتّعظوا وعوا.

ثمّ يشير القرآن إلى هذا الأصل و هو أنّ صفحة أعمال الأقوام السابقة لم تنته بموتهم، بل هى باقية و مسجّلة عليهم، يقول سبحانه: وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ فكذلك أعمالكم مثبتة و محفوظة ليوم الحساب.

«زبر» جمع (زبور) بمعنى الكتاب، و هى تشير إلى صحيفة أعمال الإنسان، و يحتمل البعض أنّ المقصود هنا هو: «اللوح المحفوظ»، و لكن هذا المعنى لا يتناسب مع صيغة الجمع.

ثمّ يضيف سبحانه: وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ.

و بناء على هذا فحاسب الأعمال فى ذلك اليوم هو حساب شامل و تامّ لا يغادر صغيرة و لا كبيرة، حيث يستلم المرجمون صفحة أعمالهم كاملة، فيصعقون لهولها و يصطرخون لدقّتها وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها.[۳۴۴] «مستطر» من مادّة (سطر) فى الأصل بمعنى (صفّ) سواء ما يتعلّق بالأفراد أو الأشجار أو الكلمات التى تصف على الأوراق، و لكون المعنى الأخير أكثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۸

استعمالا، لذا يتبادر إلى الذهن معناها الأخير.

و على كلّ حال فإنّه إنذار آخر لهؤلاء العاصين و المغفّلين و الجهلة.

و لمّا كانت السنّة المتّبعة فى القرآن الكريم غالبا ما تعتمد المقارنة بين جبهة الصلاح و الهدى من جهة، و جبهة الفساد و الضلال من جهة اخرى، لأنّ فى المقارنة يبرز التفاوت و الاختلاف بصورة أفضل، فهنا أيضا بعد الحديث عن مصير الكفّار و المجرمين يشير سبحانه إشارة مختصرة إلى العاقبة السعيدة و الحبور العظيم الذى يكون من نصيب المتّقين حيث يقول سبحانه: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ نَهَرٍ.

(نهر) على وزن (قمر)، و كذلك (نهر) على وزن (قهر) و الاثنان يعنيان مجرى الماء الكثير، و لهذا يطلق على الفضاء الواسع كذلك، أو الفيض العظيم أو النور المنتشر (نهر)- على وزن قمر-.

و بغضّ النظر عن الحديث اللاحق، يمكن أن يكون هذا المصطلح فى الآية أعلاه بنفس المعنى الأصلى، أى أنّ كلمة (نهر) بمعنى نهر الماء، و لا إشكال فى كون الكلمة بصيغة المفرد، لكونها تدلّ على معنى الجنس و الجمع، فينسجم مع (جنّات) جمع «جنّة»، و يمكن أن يكون المراد منها هو اتّساع الفيض الإلهى و النور العظيم فى ظلال الجنّة و رحابها الواسعة، و بذلك تشمل المعنيين.

و لكن نقرأ هنا فى حديث للرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى نقل

عن الدرّ المنثور أنّه قال: «النهر: الفضاء و السعة، و ليس بنهر جار»[۳۴۵].

و فى آخر آية مورد البحث و التى هى آخر آية فى سورة القمر يوضّح البارئ بصورة أكثر (مستقر المتّقين) حيث يقول سبحانه أنّهم: فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ.

و يا له من وصف رائع و ظريف! حيث أنّ هذا الوصف يتميّز بخصوصيتين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۴۹

تجمعان كلّ السماوات الرائعة:

الأولى: أنّ المكان هو (مستقرّ صدق) و ليس فيه باطل، بل كلّه حقّ يجد فيه المتّقون كلّ ما وعدوا به كاملا غير منقوص.

الثانية: أنّهم فى جوار و قرب اللّه سبحانه، و هذا هو المستفاد من كلمة (عند) و الذى يشير إلى غاية القرب المعنوى. و هذا القرب هو من اللّه المالك القادر .. ما أروعه عن قرب من الربّ الكريم الوهّاب و الذى يمنح العطايا و الهبات لضيوفه المتّقين بجميل لطفه و عظيم إحسانه و واسع كرمه، حيث جميع ما فى الوجود تحت قبضته و إمرته و مالكيته، و هو المنّان الذى لا ينقصه شىء فى السماوات و الأرض، و الذى و عد المتّقين بالخير العظيم و أعدّ لهم عظيم العطايا و الإحسان.

و النقطة الجديرة بالذكر فى هاتين الآيتين و التى تتحدّث فيها عن الهبات و جزاء أصحاب اليمين، حيث فى البداية تتحدّث عن العطايا الماديّة التى تشمل البساتين الوارفة و الحدائق الغنّاء و الأنهار الجارية، ثمّ تتحدّث بعد ذلك عن الجزاء المعنوى العظيم، و الذى يتجسّد بحضورهم من المليك المقتدر. و ذلك تهيئة للإنسان من مرحلة إلى اخرى، يغمرها الشوق و الحبور، و الرغبة فى العمل الصالح، خصوصا أنّ تعابير (المليك) و (المقتدر) و (مقعد صدق) تدلّ جميعها على دوام و بقاء هذا الحضور و القرب المعنوى من الذات الإلهيّة.

بحوث

۱- التّقدير و الحساب فى كلّ شىء

تشير الآية الكريمة إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ رغم إيجازها إلى حقيقة مهمّة كامنة فى جميع الكون و حاكمة عليه، و هى دقّة الخلق و التقدير فى جميع الوجودات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۰

و مهما تطوّر العلم فانّ الإنسان يطّلع على مزيد من هذه الحسابات و التقديرات الإلهيّة الدقيقة فى عالم الوجود، و التى تشمل الكائنات المجهرية و الأجرام السماوية العظيمة.

فمثلا: نسمع عن روّاد الفضاء أنّهم طبقا للحسابات العلمية الدقيقة التى أنجزت بواسطة مئات الأفراد المتخصّصين المستخدمين العقول الإلكترونية، أنّهم سيهبطون بسفنهم الفضائية بنفس النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر، مع العلم أنّ كلّ شىء سيتغيّر فى الفترة الزمنية التى تسير فيها السفينة الفضائية بين الأرض و القمر، حيث يدور القمر حول نفسه و كذلك حول الأرض و يتغيّر مكانه بصورة

كليّة، و تدور الأرض حول نفسها، و كذلك حول الشمس و بسرعة فائقة. و لأنّ جميع هذه التغييرات و الحركات محسوبة، و مقدّرة بصورة مضبوطة و دقيقة بحيث لا تتخلّف عن هذه الأنظمة، يستطيع الفضائيون الهبوط فى النقطة المحدّدة لهم على سطح القمر نتيجة تلك الحسابات و التقديرات الدقيقة.

و يستطيع المنجّمون كذلك من التنبّؤ بالخسوف و الكسوف الجزئى و الكلّى، و قبل عشرات السنين، و فى مختلف نقاط العالم، و تلك قرائن و دلائل على دقّة المقاييس فى هذا الوجود العظيم.

و فى الكائنات الصغيرة و الديدان الدقيقة نلاحظ دقّة المقاييس و الحساب بصورة تدعو للظرافة و الإعجاب و الانبهار عند ما نشاهد طبيعة العروق و الأعصاب و الأجهزة المختلفة لهذه الكائنات.

و عند ما ندقّق فى الكائنات المجهرية كالمكروبات و الفيروسات و الأميبيات يبلغ إعجابنا أوجه لما نلاحظه من الدقّة فيها، حيث إنّ الواحد على الألف من المليم و أصغر من ذلك يدخل فى عالم الحساب، و الأعجب من ذلك حينما ندخل عالم الذرّة حيث تصل الدقة فيها إلى حدّ لا يصدّق و خارج عن الحدود المألوفة.

إنّ هذه المقاييس ليست مختّصة بالمسائل الكميّة فقط، بل إنّ التركيبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۱

الكيفية أيضا تتمتّع بنفس الخصوصيات الحسابية، فالنظام المتحكّم على روح الإنسان و ميوله و غرائزه، و كذلك المقاييس الدقيقة فى مسير المتطلّبات الفردية و الاجتماعية للإنسان إذا طرأ عليها أى تغيير فإنّ النظام الحياتى الفردى و الاجتماعى سيتعرّض للتغيّر و الانهيار.

و فى عالم الطبيعة هنالك موجودات يتغذّى بعضها على البعض الآخر، و كلّ منها يوقف حالة النمو و التكاثر لكلّ منها، فالطيور الجارحة تتغذّى على لحوم الطيور الصغيرة، و تمنع تزايدها بصورة أكثر من اللازم حتّى لا تضرّ المحاصيل الزراعية، و لذا فإنّ الطيور الجارحة معمّرة، و هذه الطيور المعمّرة قليلة البيض و الفراخ، و عدد محدود من هذه الأفراخ يستطيع العيش، حيث يستدعى نموّها و بقاؤها ظروفا خاصّة، و لو قدّر لهذه الطيور أن يكون لها فراخا كثيرة و بهذا العمر الطويل لأدّى ذلك إلى انقراض الطيور الصغيرة.

إنّ لهذه الحالة أمثلة عديدة و واسعة فى عالم الحيوان و النبات، و المطالعات المختلفة فى هذا المجال تزيدنا وعيا فى فهم الآية الكريمة: إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ.

۲- التقدير الإلهى و إرادة الإنسان

قد يتوهّم البعض من خلال ما طرحته الآية الكريمة من الإعتقاد بالتقدير و الحساب الإلهى أنّ أعمالنا و ممارساتنا التى قوم بها لا بدّ أن تكون واقعة ضمن هذا القانون فهى مخلوقة للّه تعالى أيضا و بالتالى فلسنا مسئولين عنها و لا اختبار لنا فيها.

و لكن كما قلنا سابقا فإنّ أعمالنا هى بتقدير و مشيئة البارئ عزّ و جلّ، و لن تخرج عن دائرة قدرته و إرادته أبدا، و قد جعلنا اللّه سبحانه مختارين فيها ضمن ما قدّر لنا، و لذلك عيّن لنا مسئوليات و تكاليف فلو لم نكن مختارين فإنّ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۲

المسؤوليات و التكاليف ستكون بلا معنى حيث أنّ فقدان الإرادة يجعلنا مجبورين فى أعمالنا، و هذا خلاف التقدير الإلهى.

و نلاحظ فى مقابل إفراط (الجبريين) تفريط جماعة (القدريين) أو المفوّضة الذين يذهبون صراحة إلى القول بأنّ اللّه لا يتدخّل فى أعمالنا و ممارساتنا، حيث إنّهم يحدّون و يحجمون دائرة الهيمنة الإلهيّة على الإنسان و يعتقدون باستقلاليتهم تماما عن المشيئة الإلهيّة، و بذلك سلكوا طريق الشرك من هذه الجهة.

و الحقيقة أنّ الجمع بين أصلى (التوحيد و العدل) يحتاج إلى دقّة و ضبط، فلو فسّرنا التوحيد بأنّ اللّه خالق كلّ شىء حتّى أعمالنا بشكل لا ـ نملك أى إختيار فيها فإنّنا نكون بذلك قد أنكرنا أصل العدل، لأنّ مقترفى الذنوب مجبرون على ارتكاب المعاصى ثمّ ينتظرهم الجزاء المتمثّل بالعقاب، و هذا خلاف العدالة.

و إذا فسّرنا «العدل» بأنّ اللّه تعالى ليس له أى لون من التدخّل فى أعمالنا فإنّنا سنخرج الإرادة الإلهيّة من الهيمنة علينا، و عندئذ نقع فى وادى الشرك.

و يمثّل مفهوم «الأمر بين الأمرين» الإيمان الخالص و الصراط المستقيم و خطّ الوسط بين (الجبريين و القدريين) و هو أن نعتقد بأنّنا مختارين، و اختيارنا هذا يكون ضمن الهيمنة الإلهية، حيث تستطيع الإرادة الإلهية فى أى لحظة أن تسلب منّا هذا الإختيار، و هذا ما يذهب إليه أهل البيت عليهم السّلام.

و النقطة الجديرة بالذكر أنّه وردت فى نهاية الآيات مورد البحث روايات عديدة فى ذمّ هاتين الجماعتين فى كتب تفسير أهل السنّة و الشيعة، و من جملتها نقرأ

فى حديث النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «صنفان من امّتى ليس لهم فى الإسلام نصيب المرجئة و القدرية، أنزلت فيهم آية فى كتاب اللّه: إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَ سُعُرٍ»[۳۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۳

«المرجئة» من مادّة (إرجاء) بمعنى تأخير الشىء، و هذا اصطلاح يستعمل للجبريين، لأنّهم لم يلاحظوا الأوامر الإلهيّة و ارتكبوا المعاصى لظنّهم أنّهم مجبورون، أو لاعتقادهم أنّ مصير مرتكبى الذنوب الكبيرة غير معلوم لتصوّرهم أنّ البتّ فيها مؤجّل إلى يوم القيامة[۳۴۷].

كما نقرأ

فى حديث للإمام الباقر عليه السّلام: «نزلت هذه الآية فى القدرية: ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا* كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ[۳۴۸].

إشارة إلى أنّ المقصود من التقدير و الحساب هنا أنّ اللّه سبحانه قد جعل لكلّ ذنب ما يناسبه من الحساب و الجزاء الدقيق. و هذا تفسير آخر ممّا فسّرت به الآية.

أو أنّ المقصود بها إلفات نظر الذين أنكروا التقدير الإلهى و ظنّوا أنّ اللّه تعالى ليست له تدخّل فى أعمالهم و أنّهم قادرون على كلّ شىء، و يأتى إليهم التنبيه الإلهى فى ضرورة ملاحظة القدرة الإلهية العظيمة، و إلّا فعليكم أن تذوقوا جزاء انحرافكم و هو مسّ سقر).

۳ – الأمر الإلهى كلمة واحدة

من الواضح أن لا فاصلة زمانية بين العلّة التامّة و المعلول، لذلك ورد فى اصطلاح الفلاسفة أن تقدّم العلّة على المعلول أمر رتبى، و بالنسبة إلى الإرادة الإلهية فى أمر الإيجاد و الخلق و الذى هو أوضح مصداق للعلّة التامّة، أو أنّه مصداق وحيد للعلّة التامّة يتّضح هذا المعنى أكثر.

و لذلك فإذا فسّروا الآية: وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ بكلمة (كن) فإنّها من ضيق البيان. و إلّا فإنّ كلمة (كن) مركّبة من الكاف و النون، و هى أيضا تحتاج إلى زمان، حتّى (الفاء) فى (فيكون) و التى توضّح نوعا من الزمان فإنّها من ضيق البيان كذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۴

بل حتّى تشبيه كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ[۳۴۹][۳۵۰].

و عند ما يتحدّث عن الأمر الإلهى فى يوم القيامة و يشبهه ب (لمح بالبصر) يضيف (أو هو أقرب).

و على كـلّ حال فإنّ الحـديث هنا عن الزمان حسب التعبيرات اليوميـة لنا، و كـذلك فإنّ القرآن الكريم يخاطبنا بلغتنا، و إلّا فإنّ أوامر اللّه تعالى فوق الزمان.

و ضـمنا فإنّ التعبير ب (واحـدة) يمكن أن يكون إشارة لهـذا المعنى، و هو أنّ أمرا واحـدا يكفى و لا يحتاج إلى تكرار، أو أنّها إشارة إلى أنّ أمره تعالى حول الصغير و الكبير و حتّى خلق السموات الواسعة أجمع لا يختلف عن خلقه لذرّة التراب.

و فى الأصل فإنّ الكبير و الصـغير و السـهل الصـعب يكون فى مقاييسنا الفكرية المحدودة و قدرتنا الضئيلة، أمّا عند ما يكون الحديث عن القدرة الإلهية العظيمة فإنّ هذه المفاهيم تتلاشى تماما، و يصبح الكلّ بلون واحد و شكل واحد، (فتدبّر).

و يطرح هنا «سؤال»: و هو إذا صـحّ معنى الجملـة أعلاه و هو أنّ كلّ شـىء يوجـد آنا (فى الآن) فإنّ هـذا الأمر لا يتناسب مع مشاهـدة التدرّج فى حوادث العالم.

و يتّضـح «الجواب» عنـد ما نلاحظ هذه النقطة، و هى أنّ أمره تعالى فى كلّ مكان و كلّ شـىء هو (كلمة واحدة) و التى تكون أسـرع من لمح البصر، و لكن محتوى الأمر الإلهى متفاوت و مختلف، فإذا صدر الأمر الإلهى للجنين أن يكمل دورته تسعة أشهر، فلن تزيد و تنقص لحظـة واحـدة. و الفورية هنا هى أن يكمل الجنين الدورة فى نهاية المدّة المحدّدة، و لو اعطى أمر للكرة الأرضـية أن تدور فى كلّ أربع و عشـرين ساعة مرّة حول نفسـها؟ فإنّ هذا الأمر غير قابل للتخلّف، و بتعبير آخر فإنّ تنفيذ أمره تعالى لا يحتاج إلى أىّ وقت زمانى، و الموجود هنا هو محتوى الأمر. و من خلال معرفة السنّة التدريجية للعالم المادّى و خاصيّته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۵

و طبيعة الحركة- نلاحظ أنّها تتأثّر بالزمان.

۴- بداية و نهاية سورة القمر

النقطـة الجـديرة بالـذكر أنّ «سورة القمر» بدأت بإنذار و تخويف المشـركين بقرب وقوع يوم القيامة، و انتهت بهدوء يطمئن المؤمنين الحقيقيين فى مقعـد صـدق عنـد مليـك مقتـدر، و هـذا هو الطريق المرسوم للتربيـة، حيث يبـدأ بالتحـذير و التخويف و ينتهى بطمـأنة النفوس المضـطربة و تقويم الأهواء المنحرفة و رفع الخوف و الاضـطراب و عندئذ تغمر الأرواح بالسـكينة و الهدوء بالقرب من الجوار الإلهىّ الأبدى.

و الحقيقـة أنّ الإيمـان بـأنّ اللّه هو المالـك الـذى ليس له منـازع و الحـاكم الـذى لا رادّ لحكمه فى كلّ الوجود، و اليقين بأنّ اللّه هو المقتدر، النافذة قدرته على كلّ شىء ... يبعث فى الإنسان هدوءا منقطع النظير.

و قد نقل بعض المفسّرين أنّ هذين الاسمين المقدّسين مليك و مقتدر لهما تأثير عميق فى استجابة الدعاء حتّى نقل بعض الرواة: إنّنى داخل المسجد و كنت أتصوّر بأنّه الصبح و لكن تبيّن لى عدم انقضاء الليل و بقى قسط كبير منه، و لم يكن أحد غيرى فى المسجد، و فجأة سـمعت حركة من ورائى، فخفت و لكنّى رأيت أنّ شـخصا مجهولا قد نادانى: أيّها الشـخص المملوء قلبك خوفا لا تخف و قل: «اللهم إنّـك مليك مقتـدر، ما تشاء من أمر يكون». ثمّ اطلب ما تريـد، فيقول: إنّى قرأت هـذا الـدعاء المختصـر و لم أطلب شـيئا إلّا و أجيب ۳۵۱].

ربّنـا، أنت المليـك المقتـدر فتفضّـل علينـا بـالتوفيق فى كـلّ إيمـان و عمل و تقوى، كى نكون فى مقعـد صـدق و فى جوار قربك و رحمتك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۶

إلهنا، نحن نؤمن أنّ يوم القيامة يوم رهيب و صعب و مرّ للعاصين، أملنا فى ذلك اليوم بلطفك و كرمك.

ربّاه، امنحنا روحا يقظة و عقلا واعيا لكى نتّعظ بمصير السابقين و لا نسير فى مسارهم المهلك ..

نهاية سورة القمر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۷

سورة الرّحمن

اشارة

مكّية و عدد آياتها ثمان و سبعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۵۹

«سورة الرّحمن»

محتوى السورة:

توضّح هذه السورة بصورة عامّة النعم الإلهية المختلفة، سواء كانت ماديّة أو معنوية، و التى تفضّل بها البارئ عزّ و جلّ على عباده و غمرهم بها، و يمكن تسميتها لهذا السبب ب (سورة الرحمة) أو (سورة النعمة) و لهذا فإنّها بدأت بالاسم المبارك (الرحمن) الذى يشير إلى صنوف الرحمة الإلهية الواسعة، و تنهى هذه السورة آياتها بإجلال و إكرام البارئ سبحانه، و بإقرار عباده بالنعم التى تفضّل بها عليهم (إحدى و ثلاثين مرّة) و ذلك من خلال تكرار آية: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و بناء على هذا فإنّ السياق العام للسورة يتعلّق بالحديث عن المنن و النعم الإلهيّة المختلفة و العظيمة. و من جهة اخرى فإنّنا نستطيع أن نقسّم محتويات السورة إلى عدّة أقسام:

القسم الأوّل: الذى يشمل أوّل آيات السورة حيث الحديث عن النعم الإلهية الكبيرة، سواء تلك التى تتعلّق بخلق الإنسان أو تربيته و تعليمه، أو الحساب و الميزان، و كذلك سائر الأمور الاخرى التى يتجسّد فيها الخير للإنسان، إضافة إلى الغذاء الروحى و الجسمى له.

القسم الثّانى: يتناول توضيح مسألة خلق الإنس و الجنّ.

القسم الثّالث: يتضمّن توضيح الآيات و الدلائل الإلهيّة فى الأرض و السماء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۰

القسم الرّابع: و فيه بعد تجاوز النعم الإلهية على الإنسان فى الدنيا تتحدّث الآيات عن نعم اللّه فى عالم الآخرة بدقّة و ظرافة، خاصّة عن الجنّة، و بصورة أعمّ و أشمل عن البساتين و العيون و الفاكهة و حور العين و أنواع الملابس من السندس و الإستبرق ...

و أخيرا فى القسم الخامس نلاحظ الحديث باختصار عن مصير المجرمين و جزائهم المؤلم المحسوب ... و لأنّ الأصل فى هذه السورة أنّها مختّصة ببيان الرحمة الإلهيّة، لذا لم نلاحظ تفاصيل كثيرة حول مصيرهم، خلافا لما نلاحظه فى موضوع الحديث عن النعم الخروية حيث التفصيل و الشمول الذى يشرح قلوب المؤمنين و يغمرها بالسعادة و الأمل، و يزيل عنها غبار الحزن و الهمّ، و يغرس الشوق فى نفوسهم ...

إنّ تكرار آية: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ و فى مقاطع قصيرة أعطت وزنا متميّزا للسورة، و خاصّة إذا قرىء بالمعنى المعبّر الذى يستوحى منها ... فإنّ حالة من الشوق و الانبهار تحصل لدى الإنسان المؤمن.

و لذلك فلا نعجب عند ما نقرأ

فى حديث للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول: «لكلّ شىء عروس، و عروس القرآن سورة الرحمن جلّ ذكره»[۳۵۲].

و الجدیر بالذکر أنّ مصطلح «العروس» یطلق فی اللسان العربی علی المرأة و الرجل ما داموا فی مراسیم الزواج ۳۵۳].

و بما أنّ المرأة و الرجل فی تلک المراسم فی أفضل و أتمّ الحالات و أکمل الاحترامات، و من هنا فإنّ هذا المصطلح یطلق علی الموجودات اللطیفة جدّا و موضع الاحترام.

إنّ سبب إختیار اسم (الرحمن) لهذه السورة لتتناسب التسمیة مع المضمون، و هذا واضح.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۱

فضیلة تلاوة سورة الرحمن:

إنّ اتّصاف هذه السورة بما یثیر الإحساس بالشکر علی أفضل صورة، و کذلک توضیح و بیان النعم الإلهیة (المادیة و المعنویة) فیها و التی تزید من شوق الطاعة و العبادة فی قلوب المؤمنین کلّ ذلک أدّی إلی ورود روایات کثیرة فی فضل تلاوة هذه السورة تلک التلاوة التی ینبغی أن تنفذ إلی أعماق النفس الإنسانیة و تحرکها باتّجاه الطاعات و بعیدا عن لقلقة اللسان.

و من جملة ما نقرأ

حدیث الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول: «من قرأ سورة الرحمن رحم اللّه ضعفه، و أدّی شکره، و أنعم اللّه علیه»[۳۵۴].

و

عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام أنّه قال: «لا تدعوا قراءة سورة الرحمن و القیام بها، فإنّها لا تقرّ فی قلوب المنافقین، و یأتی بها ربّها یوم القیامة فی صورة آدمی فی أحسن صورة، و أطیب ریح حتّی یقف من اللّه موقفا لا یکون أحد أقرب إلی اللّه منها فیقول لها: من الذی کان یقوم بک فی الحیاة الدنیا و یدمن قراءتک؟ فیقول:

یا ربّ فلان و فلان، فتبیض وجوهم. فیقول لهم: اشفعوا فیمن أحببتم فیشفعون حتّی لا یبقی لهم غایة و لا أحد یشفعون له، فیقول لهم: ادخلوا الجنّة و اسکنوا فیها حیث شئتم»[۳۵۵].

و

فی حدیث آخر عن أبی عبد اللّه الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند کلّ: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ لا شیء من آلائک ربّی أکذّب، فإنّ قرأها لیلا ثمّ مات مات شهیدا، و إن قرأها نهارا فمات مات شهیدا»[۳۵۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۲

الآیات [سورة الرحمن (۵۵): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الرَّحْمنُ (۱) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (۲) خَلَقَ الْإِنْسانَ (۳) عَلَّمَهُ الْبَیانَ (۴)

الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (۵) وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ یَسْجُدانِ (۶)

التّفسیر

بدایة النعم الإلهیة:

لمّا كانت هذه السورة- كما قلنا- تبيّن أنواع النعم و الهبات الإلهيّة العظيمة، فإنّها تبدأ باسم (الرحمن) و الذى يرمز إلى الرحمة الواسعة، و لو لم تكن (الرحمانية) من صفاته لم ينعم بهذا الخير العميم على عباده الصالحين و العاصين، لذلك يقول: الرَّحْمنُ ۳۵۷].

عَلَّمَ الْقُرْآنَ و بهذا فإنّ أوّل و أهمّ نعمة تفضّل بها اللّه سبحانه، هى نعمة «تعليم القرآن»، و ما أروعه من تعبير! حيث أنّنا إذا تأمّلنا جيّدا فإنّنا ندرك أنّ هذا الكتاب العظيم هو مصدر كلّ الخير و النعم و العطايا الإلهيّة العظيمة، كما أنّه وسيلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۳

للوصول إلى السعادة و الخيرات المادية و المعنوية.

و الظريف هنا أنّ بيان نعمة (تعليم القرآن) ذكرت قبل خَلَقَ الْإِنْسانَ و عَلَّمَهُ الْبَيانَ فى الوقت الذى يفترض فيه أن تكون الإشارة أوّلا إلى مسألة خلق الإنسان، و من ثمّ نعمة تعليم البيان، ثمّ نعمة تعليم القرآن، و ذلك استنادا للترتيب الطبيعى، إلّا أنّ عظمة القرآن الكريم أوجبت أن نعمل خلافا للترتيب المفترض.

و قد جاءت هذه الآية جوابا لمشركى العرب حينما طلب منهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم السجود للرحمن، فسألوه «و ما الرحمن»؟ (- الفرقان-) فأجابهم بتوضيح ذلك حيث يقول سبحانه: «الرحمن هو الذى علّم القرآن و خلق الإنسان و علّمه البيان».

و على كلّ حال فإنّ لاسم «الرحمن» أوسع المفاهيم بين أسماء البارئ عزّ و جلّ بعد اسم الجلالة (اللّه) لأنّنا نعلم أنّ للّه رحمتين: (الرحمة العامّة) و (الرحمة الخاصّة) و اسم «الرحمن» يشير إلى رحمة اللّه العامّة التى تشمل الجميع، كما أنّ اسم «الرحيم» يشير إلى «الرحمة الخاصّة» بأهل الإيمان و الطاعة، و لعلّه لهذا السبب لا يطلق اسم الرحمن على غير اللّه سبحانه (إلّا إذا كانت كلمة عبد قبله)، أمّا وصف «الرحيم» فيقال لغير اللّه أيضا، و ذلك لأنّه لا أحد لديه الرحمة العامّة سوى اللّه تعالى، الرحمة أمّا الرحمة الخاصّة فإنّها موجودة فى المخلوقات و إن كانت بصورة محدودة.

و

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام نقرأ ما يلى: «الرحمن اسم خاصّ بصفة عامّة، و الرحيم اسم عام بصفة خاصّة».

(يعنى أنّه اسم مخصوص للّه، و رحمته تشمل جميع خلقه)، لكن الرحيم اسم عام لصفة خاصّة (يعنى أنّه وصف يستعمل للّه و للخلق)، و كما عرّف القرآن المجيد الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه (رؤوف رحيم) حيث يقول سبحانه: بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ [۳۵۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۴

و هنا يطرح التساؤل التالى: من الذى علّمه اللّه سبحانه القرآن الكريم.

ذكر المفسّرون فى ذلك تفسيرات عديدة، فبعضهم قال: إنّ اللّه علّم القرآن لجبرئيل و الملائكة، و قال آخرون: إنّ اللّه سبحانه علّمه للرسول، و ذكر ثالث: أنّه علّم للإنس و الجنّ.

و لكون هذه السورة تبيّن الرحمة الإلهيّة للإنس و الجنّ و لذا أكّد سبحانه إقرارهم بنعمه إحدى و ثلاثين مرّة، و ذلك بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ لهذا فإنّ التّفسير الأخير هو الأنسب، أى أنّ اللّه علّم القرآن للإنس و الجنّ بواسطة نبيّه الكريم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۳۵۹].

و بعد ذكره سبحانه لنعمة القرآن التى لا مثيل لها ينتقل إلى أهمّ نعمة فى الترتيب المذكور و يقول: خَلَقَ الْإِنْسانَ

من الطبيعى أنّ المقصود هنا هو نوع الإنسان و ليس آدم عليه السّلام فقط، حيث سيتحدّث عنه سبحانه فى الآيات اللاحقة بصورة مستقلّة، كما أنّه ليس المقصود بذلك النّبى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع العلم أنّ الرّسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو أفضل و أعلى مصداق للإنسان.

و إطلاق كلمة (البيان) التى تأتى بعد خلق الإنسان دليل آخر على عمومية كلمة الإنسان، و بناء على هذا فإنّ التفاسير الاخرى التى

ذكرت لم تكن صحيحة.

و الحقيقة أنّ خلق الإنسان هذا الكائن الذى تتجمّع فيه كلّ عجائب الوجود، هذا الموجود الذى هو خلاصة الموجودات الاخرى، هذا العالم الصغير الذى اندرج فيه العالم الكبير، لهو نعمة منقطعة النظير حيث إنّ كلّ بعد من أبعاد وجوده المختلفة نعمة كبيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۵

و بالرغم من أنّ بداية الإنسان ليست أكثر من نطفة لا قيمة لها، بل الأصحّ أنّ بدايته عبارة عن موجود مجهرى يسبح فى نطفة لا وزن لها، إلّا أنّه فى ظلّ الرعاية الإلهيّة يسير فى مراحل التكامل بصورة يرتقى فيها إلى مقام أشرف موجود فى عالم الخلق.

أنّ ذكر اسم «الإنسان» بعد «القرآن» هو الآخر يستوجب التأمّل، ذلك لأنّ القرآن الكريم يمثّل مجموعة أسرار الكون بصورة مدوّنة «الكتاب التدوينى»، و الإنسان هو خلاصة هذه الأسرار بصورة تكوينية «الكتاب التكوينى»، كما أنّ كلّ واحدة منها هو صورة من هذا العالم الكبير.

و تشير الآية اللاحقة إلى أهمّ النعم بعد نعمة خلق الإنسان حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: عَلَّمَهُ الْبَيانَ

كلمة (البيان) لها معنى لغوى واسع، حيث تقال لكلّ شىء يوضّح و يبيّن شيئا معيّنا، و بناء على هذا فإنّها لا تشمل النطق و الكلام فحسب، بل تجمع الكتابة و الخطّ و أنواع الاستدلالات العقليّة و المنطقية التى تبيّن المسائل المختلفة و المعقّدة أيضا رغم أنّ معالم هذه المجموعة هى التكلّم و النطق.

و نظرا لتعوّدنا ممارسة الكلام، فقد نتصوّر أنّه أمر بسيط و سهل، و الحقيقة أنّ التكلّم من أعقد و أظرف أعمال الإنسان، و يمكننا القول بعدم وجود عمل على شاكلته من ناحية التعقيد و الظرافة.

فمن جهة نجد أنّ الأجهزة المختّصة لإصدار الصوت تتساعد و تتعاون مع بعضها لإيجاد الأصوات المختلفة. فالرئة تجمع الهواء لتخرجه من الحنجرة تدريجيّا، و الأوتار الصوتية تهتزّ لتولّد أصواتا مختلفة تماما، بعضها تعبّر عن حالة الرضى، و الاخرى عن الغضب، و الثالثة تعبّر عن النجدة و الإستغاثة و طلب العون، و الرابعة عن المحبّة أو العداوة و هكذا. ثمّ إنّ هذه الأصوات- بمساعدة اللسان و الشفتين و الأسنان و الحلق- تصنع الحروف الأبجدية بسرعة و ظرافة خاصّة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۶

و بتعبير آخر: إنّ الصوت الممتدّ و المتساوى الذى يخرج من الحنجرة يقطّع إلى أشكال و قياسات مختلفة حيث تتشكّل منه الحروف.

و من جهة اخرى فهناك مسألة اللغات، حيث إنّ الإنسان يبتدع لغات مختلفة حسب احتياجاته الماديّة و المعنوية، و ذلك إثر تطوّره و تقدّمه الفكرى، و العجيب هنا عدم وجود أى محدودية فى وضع اللغات، حيث نلاحظ تعدّد الألسن فى علامنا هذا بصورة يصعب إحصاؤها بصورة دقيقة، كما أنّنا نلحظ أيضا نشوء لغات جديدة و ألسن جديدة بصورة تدريجيّة مع مرور الزمن. و يعتقد البعض أنّ عدد اللغات الموجودة فى عالمنا اليوم يصل إلى ثلاثة آلاف لغة، و يذهب آخرون إلى أكثر من ذلك ۳۶۰].

و الظاهر أنّ ذلك يتعلّق باللغات و الألسن الأصليّة، أمّا إذا أخذت اللهجات المحليّة بنظر الإعتبار فإنّها ستصبح أكثر من ذلك بكثير قطعا، حيث لا حظ المتتبعون لأمور اللهجات أنّ قريتين متجاورتين تتحدّثان بلسانين مختلفين أحيانا.

و من جهة ثالثة هناك مسألة ترتيب الجمل و الاستدلال و بيان العواطف عن طريق العقل و الفكر، لأنّها تمثّل روح البيان و النطق ... و لهذا الأمر فإنّ التكلّم أمر خاصّ بالإنسان فقط.

صحيح أنّ الكثير من الحيوانات تحدث أصواتا مختلفة كى تعبّر عن احتياجاتها، إلّا أنّ عدد هذه الأصوات محدود جدّا و مبهم و غير معلوم، فى حين أنّ البيان وضع فى إختيار الإنسان بصورة واسعة و غير محدودة، لأنّ اللّه تعالى قد أعطاه القدرة الفكرية اللازمة للتكلّم.

و إذا تجاوزنا كلّ ذلك و أخذنا دور البيان فى تكامل و تقدّم الحياة الإنسانية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۷

فمن الواضح أنّ الإنسان لم يكن بمقدوره و إمكانه أن ينقل تجاربه و علومه من جيل إلى آخر بهذه السهولة و بالتالى أدّى إلى التقدّم و العلم و الدين و الأخلاق ...

و إذا ما سلبت هذه النعمة العظيمة من الإنسان ليوم واحد فإنّ المجتمع الإنسانى سوف يأخذ طريقه نحو التقهقر بسرعة، و لو أخذنا «البيان» بمعناه الواسع الذى يشمل الخطّ و الكتابة و الفنون المختلفة، فإنّه سيتّضح لدينا بصورة أكثر دوره الهامّ فى الحياة الإنسانية.

و من هنا ندرك لماذا جاءت عبارة (تعليم البيان) بعد نعمة خلق الإنسان فى سورة الرحمن التى هى مجموعة من هبات اللّه تعالى.

و يتطرّق بعد ذلك إلى النعمة الإلهيّة الرابعة و التى هى هبة من هبات اللّه العظيمة أيضا، حيث يقول تعالى: الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ [۳۶۱].

إنّ أصل وجود الشمس من أكبر النعم الإلهيّة للإنسان، لأنّ العيش فى المنظومة الشمسية بدون نور و حرارة الشمس أمر غير ممكن، و كما بيّنا سابقا فإنّ كلّ حركة فى الكرة الأرضية مصدره حرارة الشمس، حيث أنّ نمو و نضج النبات و المواد الغذائية أجمع، بالإضافة إلى سقوط الأمطار و هبوب الرياح، كلّها ببركة هذه الهبة الإلهيّة.

كما أنّ للقمر دورا هامّا فى حياة الإنسان، فبالإضافة إلى أنّه يضىء الليالى المعتمة، فإنّ جاذبيته هى علّة المدّ و الجزر فى البحار و المحيطات، و هى عامل لبقاء الحياة فى البحار، كما أنّها تقوم بدورها فى إرواء كثير من المناطق القريبة للسواحل و التى تصبّ الأنهار بالقرب منها.

و بالإضافة إلى ذلك فإنّه ثبات الانتظام لهاتين الحركتين (حركة القمر حول الأرض، و حركة الأرض حول الشمس) هو السبب فى الظهور المنتظم لليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۸

و النهار و السنين و الشهور و الفصول المختلفة، و بالتالى فإنّه سبب أساسى لانتظام الحياة الإنسانية و برمجة الأمور التجارية و الصناعية و الزراعية، و إن فقد الانتظام فيها فسوف تضطرب الحياة البشرية و تختلّ الكثير من مرتكزاتها.

و ليس لحركة هذين الكوكبين نظام دقيق جدّا فحسب، بل إنّ مقدار كثافة و جاذبية و مسافة كلّ منهما عن الأرض هى الاخرى محسوبة بدقّة و حساب (و حسبان).

و من المؤكّد أنّ اختلال كلّ واحدة من هذه الأمور سيولّد اختلالات عظيمة فى المنظومة الشمسية، و من ثمّ فى النظام الحياتى للبشر.

و العجيب هنا أنّ هذه الأجزاء عند ما انفصلت من الشمس كانت فى حالة من الاضطراب و الفوضى، إلّا أنّها ثبتت و استقرّت أخيرا بالشكل الحالى، حيث يقول فى هذا المجال أحد علماء العلوم الطبيعيّة:

«وجدت منظومتنا الشمسية- فى الظاهر- من مخلوط من مواد متنوّعة و عناصر مختلفة انفصلت عن الشمس بدرجة حرارية عالية تبلغ (۱۲/۰۰۰) درجة و بسرعة فائقة تناثرت فى الفضاء الواسع.

و بالرغم من هذا الاضطراب الظاهرى فقد لوحظ الانتظام الدقيق و الترتيب المنسّق بحيث أنّنا نستطيع أن نتنبّا بالحوادث المستقبلة حتّى بالدقائق و اللحظات، و نتيجة لهذا النظام و الترتيب نلاحظ أنّ الأوضاع الفلكية هذه باقية على هذا الحال مدّة ألف مليون سنة»[۳۶۲].

و الجدير بالذكر أنّ الشمس بالرغم من أنّها فى وسط المنظومة الشمسية و تبدو ساكنة و ثابتة، إلّا أنّها مع جميع كواكبها و أقمارها تسير فى وسط المجرّة المتعلّقة بها إلى نقطة معيّنة (تسمّى هذه النقطة بنجمة فيكا) و هذه الحركة لها أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۶۹

نظام و سرعة معينان.

ثمّ يتحوّل بنا اللّه إلى نعمة عظيمة اخرى هى الخامسة فى مسلسل ما ذكره سبحانه من النعم فى هذه السورة المباركة، حيث يوجّه النظر

إلى ألطافه فى الأرض حيث يقول: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدانِ

«النجم» يأتى أحيانا بمعنى كوكب، و يأتى اخرى بمعنى النبات الذى لا ساق له، و لمّا جاءت الكلمة هنا بقرينة «الشجر» فيكون المقصود هو المعنى الثانى، أى النباتات بدون سيقان ۳۶۳].

و هذا المصطلح معناها فى الأصل (الطلوع) و إذا أطلق على النباتات (نجم) فلأنّها تخرج من الأرض، و إذا أطلق على النجمة فلأنّها تطلع.

و من الواضح أنّ النبات مصدر جميع المواد الغذائية للإنسان، حيث يستهلك قسما مباشرا منه، و القسم الآخر تستهلكه الحيوانات الاخرى التى هى جزء أساسى من غذاء الإنسان، و من هنا فإنّ النبات هو مصدر غذاء الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

و هذا المعنى يصدق أيضا فى عالم الحيوانات البحرية، لأنّها تتغذّى على نباتات صغيرة جدّا تنبت فى البحر و توجد بكثرة هائلة تقدّر بملايين البليارات، و هى المصدر الغذائى لهذه الحيوانات البحرية. و تنمو هذه النباتات الصغيرة فى البحر بتأثير الضوء (أشعّة الشمس) التى تتحرّك بين الأمواج.

و بهذا فإنّ «النجم» أنواع من النباتات الصغيرة الزاحفة (مثل اليقطين و الخيار و أمثاله). أمّا (الشجر) فإنّه النوع الآخر من النباتات التى لها سيقان و تشمل أشجار الفاكهة و نباتات الغلّات و غير ذلك.

و تعبير (يسجدان) إشارة إلى التسليم و الخضوع أمام القدرة الإلهيّة و قوانين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۰

الخلقة و الإبداع الإلهى لأجل نفع الإنسان، هذا المسير الذى عيّنه اللّه لهم يسيرون فيه بدون أى تخلّف، و ذلك بموجب الإرادة الإلهية.

و هنا إشارة إلى الأسرار التوحيدية أيضا حيث توجد فى كلّ ورقة و كلّ بذرة آيات عجيبة من عظمة و قدرة اللّه سبحانه ۳۶۴].

كما يحتمل أن يكون المقصود من «النجم» فى الآية المذكورة هى «النجوم»، و لكن المعنى الأوّل طبقا للقرائن الموجودة فى الآية الكريمة هو الأنسب.

ملاحظة

تأمّلات فى الرّوايات

نقلت المصادر الإسلامية فى هامش الآيات أعلاه روايات من قبيل التّفسير بالمصداق واضح، حيث أنّ كلّ واحدة منها تلقى الضوء على قسم من الآيات الكريمة.

ففى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير عَلَّمَهُ الْبَيانَ يقول: «البيان الاسم الأعظم الذى به علم كلّ شىء»[۳۶۵].

و حول «الاسم الأعظم» و تفسيره فقد أوردنا بحثا فى هامش الآية ۱۸۰ من سورة الأعراف.

و نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام ذكر أنّ المقصود من «الرحمن علّم القرآن» أنّ اللّه تعالى قد علّم القرآن للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و المقصود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۱

من «خلق الإنسان» هو خلق أمير المؤمنين عليه السّلام، و «علّمه البيان» هو بيان كلّ الأمور التى يحتاجها الناس.

و من الواضح أنّ الرّوايات أعلاه لا تحدّد عمومية مفهوم هذه الآيات، بل توضّح مصاديقها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۲

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۷ الى ۱۳]

اشارة

وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ (۷) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (۸) وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (۹) وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (۱۰) فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (۱۱)

وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ (۱۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۳)

التّفسير

السماء رفعها و وضع الميزان:

هذه الآيات هى استمرار لبيان النعم الإلهيّة التى جاء ذكر خمس منها فى الآيات السابقة، حيث تحدّث عن أهمّ الهبات التى منحها اللّه سبحانه.

و فى الآية مورد البحث يتحدّث سبحانه عن النعمة السادسة، ألا و هى نعمة خلق السماء حيث يقول: وَ السَّماءَ رَفَعَها.

(السماء) فى هذه الآية سواء كانت بمعنى جهة العلو، أو الكواكب السماوية، أو جو الأرض (و الذى يعنى الطبقة العظيمة من الهواء و التى تحيط بالأرض كدرع يقيها من الأشعّة الضارّة و الصخور السماوية و حرارة الشمس، و الرطوبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۳

المتصاعدة من مياه البحار لتتكوّن الغيوم و تنزل الأمطار) ... إنّ كلّ واحدة من هذه المعانى هبة عظيمة و نعمة لا مثيل لها، و بدونها تستحيل الحياة أو تصبح ناقصة.

نعم إنّ النور الذى يمنحنا الدفء و الحرارة و الهداية و الحياة و الحركة يأتينا من السماء و كذلك الأمطار، و الوحى أيضا، و بذلك فإنّ للسماء مفهوما عامّا، مادّيا و معنويا).

و إذا تجاوزنا كلّ هذه الأمور، فإنّ هذه السماء الواسعة مع كلّ عوالمها هى آية عظيمة من آيات اللّه، و هى أفضل وسيلة لمعرفة اللّه سبحانه، و عند ما يتفكّر أولو الألباب فى عظمتها فسوف يقولون دون إختيار رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا.[۳۶۶] ثمّ يستعرض سبحانه النعمة السابعة حيث يقول تعالى: وَ وَضَعَ الْمِيزانَ

«الميزان» كلّ وسيلة تستعمل للقياس، سواء كان قياس الحقّ من الباطل، أو العدل من الظلم و الجور، أو قياس القيم و قياس حقوق الإنسان فى المراحل الاجتماعية المختلفة.

و (الميزان) يشمل كذلك كلّ نظام تكوينى و دستور اجتماعى، لأنّه وسيلة لقياس جميع الأشياء.

و «الميزان» لغة: (المقياس) و هو وسيلة لوزن الأجسام الماديّة المختلفة، إلّا أنّ المقصود فى هذه الآية،- و الذى ذكر بعد خلق السماء- أنّ لها مفهوما واسعا يشمل كلّ وسيلة للقياس بما فى ذلك القوانين التشريعيّة و التكوينية، و ليس وسيلة منحصرة بقياس الأوزان الماديّة فقط.

و من هنا فلا يمكن أن تكون الأنظمة الدقيقة لهذا العالم، و التى تحكم ملايين الأجرام السماوية بدون ميزان و قوانين محسوبة.

و عند ما نرى فى بعض العبارات أنّ المقصود بالميزان هو «القرآن الكريم»، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۴

«العدل»، أو «الشريعة»، أو «المقياس». ففى الحقيقة إنّ كلّ واحدة من هذه المعانى مصداق لهذا المفهوم الواسع الشامل.

و نستنتج من الآية اللاحقة استنتاجا رائعا حول هذا الموضوع حيث يضيف بقوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ

حيث يوجّه الخطاب لبنى الإنسان الذين يشكّلون جزءا من هذا العالم العظيم و يلفت انتباههم إلى أنّهم لا يستطيعون العيش بشكل طبيعى فى هذا العالم إلّا إذا كان له نظم و موازين، و لذلك فلا بدّ أن تكون للبشر نظم و موازين أيضا حتى يتلاءموا فى العيش مع هذا الوجود الكبير الذى تحكمه النواميس و القوانين الإلهيّة، خاصّة أنّ هذا العالم لو زالت عنه القوانين التى تسيّره فإنّه سوف يفنى، و لذا فإنّ حياتكم إذا فقدت النظم و الموازين فإنّكم ستتجهون إلى طريق الفناء لا محالة.

يا له من تعبير رائع حيث يعتبر القوانين الحاكمة فى هذا العالم الكبير منسجمة مع القوانين الحاكمة على حياة الإنسان (العالم الصغير) و بالتالى ينقلنا إلى حقيقة التوحيد، حيث مصدر جميع القوانين و الموازين الحاكمة على العالم هى واحدة فى جميع المفردات و فى كلّ مكان.

و يؤكّد مرّة اخرى على مسألة العدالة و الوزن حيث يقول سبحانه: وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ كلمة «الميزان» ذكرت ثلاث مرّات فى هذه الآيات، و كان بالإمكان الاستفادة من الضمير فى المرحلة الثانية و الثالثة، و هذا ما يدلّل، على أنّ كلمة (الميزان) هنا قد جاءت بمعان متعدّدة فى الآيات الثلاث السابقة، لذا فإنّ الاستفادة من الضمير لا تفى بالغرض المطلوب، و ضرورة التناسب للآيات يوجب تكرار كلمة «الميزان» ثلاث مرّات، لأنّ الحديث فى المرحلة الاولى، كان عن الموازين و المعايير و القوانين التى وضعها اللّه تعالى لكلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۵

عالم الوجود.

و فى المرحلة الثانية يتحدّث سبحانه عن ضرورة عدم طغيان البشر فى كلّ موازين الحياة، سواء كانت الفردية أو الاجتماعية.

و فى المرحلة الثالثة يؤكّد على مسألة الوزن بمعناها الخاصّ، و يأمر البشر أنّ يدقّقوا فى قياس و وزن الأشياء فى التعامل، و هذه أضيق الدوائر.

و بهذا الترتيب نلاحظ الروعة العظيمة للانسجام فى الآيات المباركة، حيث تسلسل المراتب و حسب الأهمية فى مسألة الميزان و المقياس، و الانتقال بها من الدائرة الأوسع إلى الأقل فالأقل ۳۶۷].

إنّ أهميّة الميزان فى أى معنى كان عظيمة فى حياة الإنسان بحيث إنّنا إذا حذفنا حتّى مصداق الميزان المحدود و الصغير و الذى يعنى (المقياس) فإنّ الفوضى و الارتباك سوف تسود المجتمع البشرى، فكيف بنا إذا ألغينا المفهوم الأوسع لهذه الكلمة، حيث ممّا لا شكّ فيه أنّ الاضطراب و الفوضى ستكون بصورة أوسع و أشمل.

و يستفاد من بعض الرّوايات أنّ (الميزان): قد فسّر بوجود (الإمام)، و ذلك لكون الوجود المبارك للإمام المعصوم هو وسيلة لقياس الحقّ من الباطل، و معيار لتشخيص الحقائق و عامل مؤثّر فى الهداية[۳۶۸]. و هكذا فى تفسير «الميزان» بالقرآن الكريم ناظر إلى هذا المعنى.

و نظرا إلى أنّ هذه الآيات تتحدّث عن النعم الإلهية، فإنّ وجود الميزان سواء فى نظم العالم أجمع أو المجتمع الإنسانى أو الروابط الاجتماعية أو مجال العمل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۶

التجارى ... فإنّها جميعا نعم من قبل اللّه سبحانه.

ثمّ ينتقل سبحانه من السماء إلى الأرض فيقول عزّ و جلّ: وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ «الأنام» فسّرها البعض بمعنى (الناس)، و فسّرها آخرون بمعنى (الإنس و الجنّ)، و فسّروها أيضا بأنّها تشمل كلّ موجود (ذى روح).

إلّا أنّ قسما من أئمّة اللغة فسّرها بمطلق (الخلق) و لكن القرائن الموجودة فى السورة و طبيعة النداءات الموجّهة للإنس و الجنّ تدلّل على أنّها المقصود هنا (الجنّ و الإنس).

نعم، إنّ الكرة الأرضية التى ذكرت هنا بعنوان هبة إلهيّة مهمّة، و فى آيات اخرى ذكرت بعنوان (مهاد) مأوى و مستقرّ للإنسان الذى لا يدرك قدرها غالبا فى الحالات الاعتيادية، إلّا أنّه فى حالة حدوث تغيّر بسيط كزلزلة مدمّرة أو بركان بإمكانه أن يدفن مدينة بأكملها تحت المواد المذابة و عتمة الدخان و لهيب النار، هنا ندرك كم أنّ هدوء الأرض نعمة عظيمة، خصوصا إذا وضعنا الأرقام التى توصّل إليها العلماء أمامنا فيما يتعلّق بسرعة حركة الأرض حول نفسها و حول الشمس ۳۶۹]، عند ذلك يتبيّن لنا أهميّة هذا الهدوء الكامن فى أعماق هذه الحركة السريعة جدّا و التى هى ليست نوعا واحدا، بل أنواع مختلفة.

التعبير ب (وضع) عن الأرض فى مقابل (رفع) عن السماء، إضافة إلى الروعة البلاغية فى هذا التقابل فهو إشارة إلى تسخير الأرض و منابعها للإنسان حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ [۳۷۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۷

و بهذا الترتيب فقد ذكر لنا سبحانه النعمة العظيمة الثامنة فى هذه السلسلة.

و فى الآية اللاحقة يستعرض ذكر النعمتين التاسعة و العاشرة من النعم الإلهية، و التى تتضمّن قسما من المواد الغذائية التى وهبها اللّه سبحانه للإنسان حيث يقول تعالى: فِيها فاكِهَةٌ وَ النَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ

«الفاكهة» تشمل كلّ نوع من الفاكهة كما يقول الراغب فى المفردات، و فسّرها البعض بأنّها تشمل جميع أنواع الفاكهة باستثناء التمر، حيث ذكر «النخيل» فى هذه السورة بصورة مستقلّة، و يمكن أن يكون ذكر النخيل بسبب أهميّة النخل و التمر لا استثناء من عموم لفظ الفاكهة.

«و قد أوردنا بحثا مفصّلا حول فوائد التمر من الناحية الغذائية و المواد الحياتية المختلفة لدى تفسير الآية ۱۱ من سورة النحل، و الآية ۲۵ من سورة مريم».

«أكمام» جمع (كم) على وزن (جن) تطلق على الغلاف الذى يغطّى الفاكهة. و (كم) على وزن (قم) القسم الخاصّ باليدين من الثوب، و (كمة) على وزن (قبة) بمعنى القبعة التى تغطّى الرأس ۳۷۱].

إنّ إختيار هذا الوصف لفاكهة شجرة النخل- و التى تكون فى البداية مختفية فى غلاف ثمّ ينشقّ الغلاف عن ثمر منظود و بشكل جميل و جذّاب- يمكن أن يكون لهذا الجمال الأخّاد، أو للمنافع الجمّة الكامنة فى هذا الغلاف، فهو بالإضافة إلى كونه يقوم بمهمّة حفظ الثمرة من الآفات لحين النمو المناسب و القدرة الملائمة و يكون دوره كرحم الامّ الذى يحافظ على الجنين فترة زمنية مناسبة قبل خروجه إلى عالم الدنيا ... فإنّه كذلك يحوى عصارة (الأسانس) الخاصّة و التى تتميّز بالمنافع الطبيّة و الغذائية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۸

كما أنّ الروعة تكمن فى الوضع الخاصّة لفاكهة هذه الشجرة أيضا، حيث تتجمّع فى كميّات كبيرة منها بصورة عنا قيد لتسهّل عملية قطف ثمارها، و لو افترضنا أنّ ثمار هذه الشجرة متناثرة كما فى شجرة التفاح فإنّ عملية قطف الثمار ستكون صعبة للغاية قياسا لطول شجرة النخل.

ثمّ يتحدّث سبحانه عن النعمة الحادية عشرة و الثانية عشرة حيث يقول سبحانه: وَ الْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَ الرَّيْحانُ

الحبوب مصدر أساسى لغذاء الإنسان، و أوراقها الطازجة و اليابسة هى غذاء للحيوانات التى هى لخدمة الإنسان، حيث يستفيد من

حليبها و لحومها و جلودها و أصوافها، و بهذا الترتيب فلا يوجد شيء فيها غير ذى فائدة.

و من جهة اخرى، فإنّ اللّه تعالى خلق الأزاهير المعطّرة و الورود التى تعطّر مشام الجسم و الروح و تبعث الاطمئنان و النشاط، و لذا فإنّ اللّه سبحانه قد أتمّ نعمه على الإنسان.

(الحبّ) يقال لكلّ نوع من أنواع الحبوب.

(عصف) على وزن «حرب» بمعنى الأوراق و الأجزاء التى تنفصل عن النبات و ينشرها الهواء فى جهات مختلفة، و يقال لها التبن أيضا.

و ذكروا أنّ «للريحان» معانى عديدة من جملتها النباتات المعطّرة، و كذلك كلّ رزق، و المعنى الأوّل هو الأنسب هنا.

و بعد ذكر هذه النعم العظيمة (المادية و المعنوية) ينقلنا فى آخر آية من البحث مخاطبا الجنّ و الإنس بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ حيث يلفت نظرهم إلى كلّ هذه النعم الكبيرة التى شملت كلّ مجالات الحياة و كلّ واحدة منها أثمن و أعظم من الاخرى ... ألا يدلّ كلّ هذا على لطف و حنان الخالق ... فكيف يمكن التكذيب بها إذا؟

إنّ هذا الاستفهام استفهام تقريرى جيء به فى مقام أخذ الإقرار، و قد قرأنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۷۹

فى بداية السورة رواية تؤكّد على ضرورة تعقيبنا بهذه العبارة (لا شيء من آلائك ربّى أكذّب) بعد كلّ مرّة نتلو فيها الآية الكريمة: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و بالرغم من أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن الإنسان فقط، و لم يأت حديث عن طائفة (الجنّ) إلّا أنّ الآيات اللاحقة تبيّن أنّ المخاطب فى ضمير التثنية هم (الجنّ) كما سنرى ذلك.

و على كلّ حال، فإنّ اللّه تعالى يضع (الإنس و الجنّ) فى هذه الآية مقابل الحقيقة التالية: و هى ضرورة التفكّر فى النعم الإلهيّة السابقة التى منحها اللّه لكم و تسألون أنفسكم و عقولكم هذا السؤال: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فإنّ لم تكذّبوا بهذه النعم، فلما ذا تتنكّرون لوليّ نعمتكم؟ و لماذا لا تجعلون شكره وسيلة لمعرفته؟ و لماذا لا تعظّمون شأنه؟

إنّ التعبير ب (أى) إشارة إلى أنّ كلّ واحدة من هذه النعم دليل على مقام ربوبية اللّه و لطفه و إحسانه، فكيف بها إذا كانت هذه النعم مجتمعة؟

تعقيب

۱- معرفة النعم طريق لمعرفة اللّه:

إذا تأمّلنا قليلا النعم التى سبق و أن تناولتها الآيات الكريمة: (نعمة القرآن، و خلق الإنسان، و تعليم البيان، و الحساب المنظّم للزمان، خلق النباتات و مختلف الأشجار، و حاكمية السماء و السنن و القوانين، و خلق الأرض بخصوصياتها المتعدّدة، و خلق الفاكهة و النخل و الحبوب و الورود و النباتات المعطّرة ...) مع جميع جزئياتها و الأسرار الخفيّة فى كلّ واحدة منها لكانت كافية لأنّ تبعث الإحساس بالشكر فى الإنسان و تدفعه إلى معرفة مبدئ هذه النعم و هو اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۰

و لهذا السبب فإنّ اللّه تعالى يأخذ الإقرار من عباده بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم، و تتكرّر الآية فى الآيات اللاحقة أيضا، و بعد ذكر نعم اخرى، بحيث يصبح عددها ۳۱ مرّة.

إنّ هذا التكرار ليس فقط لا يتنافى مع الفصاحة، بل إنّه فنّ من فنونها، و يشبه هذا الأمر التكرار الذى يؤكّده الأب لابنه الذى يغفل عن

وصاياه بصورة مستمرّة، فيخاطبه بصيغ مختلفة تأكيدا لعدم الغفلة و النسيان حيث يقول له: أنسيت يا ولدى ضعفك و طفولتك؟ أتعرف كم من الجهد بذلت من أجل تنميتك و تربيتك.

أنسيت يا ولدى كم أحضرت من الأطباء الأخصائيين يوم مرضك، و كم بذلت سعيا و جهدا فى ذلك.

أنسيت يا ولدى حينما بلغت سنّ الشباب ما بذلته من جهد فى زواجك حيث انتخبت لك زوجة من أكثر النساء عفّة و طهرا؟

أنسيت يا ولدى جهدى فى مسألة إعداد بيتك و مستلزماته؟ ... فإذا لم تنس كلّ هذا فلما ذا العناد و الطغيان و القسوة و عدم الوفاء إذا؟

إنّ اللّه تعالى يذكّر عباده الغافلين بصورة مستمرّة بنعمه المختلفة، و هكذا يسألهم بعد كلّ نعمة من هذه النعم فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ فلما ذا هذا العصيان و الطغيان فى حين أنّ طاعتى هى رمز لتكاملكم و تقدّمكم، و إنّ هذا ينفعكم و لن ينفع اللّه شيئا؟!

۲- مسألة النظم و الحساب فى الحياة:

يوجد فى جسم الإنسان أكثر من عشرين عنصرا معدنيا، و كلّ واحد منها بكيفية خاصّة و كمية معيّنة، و إذا ما حصل أقل تغيّر فى مقاديرها و نسبها فإنّ حياتنا تكون فى خطر، فمثلا فى فصل الصيف إذا تعرّق الإنسان أكثر من اللازم عندئذ يصاب بالصدمة التى قد تؤدّى إلى الموت و السبب فى ذلك بسيط جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۱

و هو نقص ماء الجسم و أملاح الدم و علاجه لا يكون إلّا بشرب الماء و تناول الأملاح الإضافية.

هذا نموذج بسيط من النظم و الحساب فى تركيب جسمنا، كما نلاحظ أحيانا أنّ دقّة المقاييس فى تركيب مخلوقات أدقّ و أظرف كالخلايا، و أدقّ منها عالم الذرّات تكون إلى درجة من الدقّة بحيث تقاس ب (واحد على الألف) و أحيانا ب (واحد على المليون) من الملمتر أو الملغرام، حيث أنّ العلماء اضطرّوا لحساب هذه الموازين الدقيقة إلى الاستعانة بالعقول الألكترونية.

هذا فى النظام الكونى، و الأمر كذلك فى الأمور الاجتماعية، حيث أنّ أى انحراف فى تطبيق قوانين العدل قد يؤدّى إلى فناء شعب.

و قد بيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرنا و ذكر كلّ ما يستحقّ الذكر بهذا الصدد حيث يقول سبحانه: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ

لقد جعل اللّه سبحانه الطغيان و التمرّد على القوانين الشرعية، مقارنا مع الطغيان و التمرّد على القوانين الكونية التى تحكم الوجود كلّه، إنّه تصوير رائع استعمله القرآن الكريم عن عالم الوجود تارة، و عالم الإنسان اخرى، كما ورد فى الآيات الكريمة. و ليس هذا فحسب، بل إنّه سبحانه شمل بوصفه هذا عالم الآخرة (يوم الحساب) و نصب الموازين، بل و حتّى طبيعة الحساب و الموازين حيث إنّها من الدقّة على قدر عجيب! ... و لهذا السبب فقد أمرنا- كما ورد ذلك فى الرّوايات الإسلامية- أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب و أن نزنها قبل أن توزن.

«و حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۲

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۴ الى ۱۸]

اشارة

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (۱۴) وَ خَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (۱۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۶) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (۱۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۱۸)

التّفسير

الصلصال و خلق، الإنسان:

إنّ اللّه تعالى بعد ذكره للنعم السابقة و التى من جملتها خَلَقَ الْإِنْسانَ

يتعرّض فى الآيات مورد البحث إلى شرح خاص حول خلق الإنس و الجنّ كدليل على قدرته العظيمة، من جهة و موضع درس و عبرة للجميع من جهة اخرى، فيقول سبحانه: خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ.

«صلصال» فى الأصل معناه (ذهاب و رجوع أو تردّد الصوت فى الأجسام الصلبة) ثمّ أطلقت الكلمة على الطين اليابس الذى يخرج صوتا، كما تطلق (الصلصلة) على الماء المتبقّى فى الوعاء، لأنّه يخرج صوتا عند حركته فى الوعاء.

و يفسّر البعض كلمة (صلصال) بمعنى الطين الخبيث الرائحة، إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأشهر و الأعرف.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۳

«فخار» من مادّة (فخر) بمعنى الشخص الذى يفخر كثيرا، و لكون الأشخاص الذين يعيشون الفراغ فى شخصياتهم و معنوياتهم يكثرون الثرثرة و الادّعاء عن أنفسهم، فإنّ هذه الكلمة تستعمل لكلّ إناء من الطين أو «الكوز»، و ذلك بسبب الأصوات الكثيرة التى يولّدها[۳۷۲].

و من هنا يستفاد بوضوح من الآيات القرآنية المختلفة حول مبدأ خلق الإنسان، أنّه كان من التراب ابتداء، قال تعالى: فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ [۳۷۳] ثمّ خرج مع الماء و أصبح طينا. هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ [۳۷۴] ثمّ أصبح بصورة طين خبيث الرائحة إِنِّى خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [۳۷۵] ثمّ أصبح مادّة فى حالة لاصقة، إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ ۳۷۶] و من ثمّ يتحوّل إلى حالة يابسة و يكون من صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ كما ذكر فى الآية مورد البحث.

هذه المراحل كم تستغرق من الوقت؟ و كم هى المدّة التى يتوقّف فيها الإنسان فى كلّ مرحلة من هذه المراحل؟، و فى أى ظروف تحدث هذه التطوّرات؟

هذه المسائل خفيت عن علمنا و إدراكنا، و اللّه وحده هو العالم بها فقط.

و من الواضح أنّ هذه التعابير تبيّن حقيقة ترتبط ارتباطا وثيقا مع الأمور التربوية للإنسان، حيث أنّ المادّة الأوّلية فى خلق الإنسان هى مادّة لا قيمة لها، و من أحقر المواد على الأرض، إلّا أنّ اللّه تعالى قد خلق من تلك المادّة الحقيرة مخلوقا ذا شأن، بل يمثّل قمّة المخلوقات على وجه الأرض، حيث أنّ القيمة الواقعيّة للإنسان هى الروح الإلهية (النفخة الربّانية) فيه، و التى ذكرت فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۴

القرآنية الاخرى (كما فى سورة الحجر/ ۲۹) و ذلك ليعرف الإنسان قيمته الحقيقيّة فى عالم الوجود و يسير فى طريق التكامل على بيّنة من أمره.

ثمّ يتطرّق سبحانه لخلق الجنّ حيث يقول: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.

«مارج» فى الأصل من (مرج) على وزن (مرض) بمعنى الاختلاط و المزج، و المقصود هنا اختلاط شعل النيران المختلفة، و ذلك لأنّ النيران أحيانا تكون بألوان مختلفة الأحمر، الأصفر، الأزرق، و أخيرا اللون الأبيض.

و يقول البعض: إنّ معنى التحرّك موجود فيها أيضا، و ذلك من (أمرجت الدابة) يعنى (تركت الحيوان فى المرتع) لأنّ أحد معانى «المرج» هو المرتع.

و لكن كيف خلق الجنّ من هذه النيران المتعدّدة الألوان؟ هذا ما لم يعرف بصورة دقيقة، كما أنّ الخصوصيات الاخرى عن هذا المخلوق، قد بيّنت لنا عن طريق الوحى الربّانى و كتاب اللّه الكريم، و لكن محدودية معلوماتنا لا تعنى السماح لنا أبدا بإنكار هذه الحقائق أو تجاوزها، خاصّة بعد ما ثبتت عن طريق الوحى الإلهى.

(و سيكون لنا إن شاء اللّه شرح مقصّل حول خلق الجنّ و خصوصيات هذا المخلوق فى تفسير سورة الجنّ).

و على كلّ حال، فإنّ أكثر الموجودات التى نتحدّث عنها هى: الماء و التراب و الهواء و النار، سواء كانت هذه الموجودات عناصر بسيطة كما كان يعتقد القدماء، أو مركّبة كما يعتقد العلماء اليوم، و لكن على كلّ حال فإنّ مبدأ خلق الإنسان هو الماء و التراب، فى حين أنّ مبدأ خلق الجنّ هو الهواء و النار، و هذا الاختلاف فى مبدأ خلقة هذين الموجودين مصدر اختلافات كثيرة بين هذين المخلوقين.

و بعد أن تحدّث عن النعم التى كانت فى بداية خلق الإنسان يكرّر تعالى قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

فى الآية اللاحقة يستعرض نعمة اخرى حيث يقول سبحانه: رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۵

وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ

بما أنّ الشمس فى كلّ يوم تشرق من نقطة و تغرب من اخرى، و بعدد أيّام السنة لها شروق و غروب، و لكن نظرا للحدّ الأكثر من الميل الشمالى للشمس و الميل الجنوبى لها، ففى الحقيقة أنّ للشمس مشرقين و مغربين و البقيّة بينهما[۳۷۷].

إنّ هذا النظام الذى هو سبب وجود الفصول الأربعة له فوائد و بركات كثيرة، و يؤكّد و يكمّل ما مرّ بنا فى الآيات السابقة، و ذلك لأنّ الحديث كان عن حساب سير الشمس و القمر، و كذلك عن وجود الميزان فى خلق السماوات، و إجمالا فإنّه يبيّن النظام الدقيق للخلقة و حركة الأرض و القمر و الشمس، و كذلك فإنّه يشير إلى النعم و البركات التى هى موضع استفادة الإنسان.

و يرى البعض أنّ المقصود بالمشرقين و المغربين هو طلوع و غروب الشمس، و طلوع و غروب القمر و يعتبرون هذا هو المناسب لتفسير الآية الكريمة الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ بِحُسْبانٍ إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب، خصوصا و أنّ الرّوايات الإسلامية قد أشارت إلى ذلك.

و من جملة هذه الرّوايات

حديث لأمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية حيث يقول: «إنّ مشرق الشتاء على حدة، و مشرق الصيف على حدّه، أما تعرف ذلك من قرب الشمس و بعدها؟»[۳۷۸].

و يتّضح بذلك معنى قوله تعالى: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ [۳۷۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۶

حيث يشير هنا إلى جميع مشارق و مغارب الشمس على طول أيّام السنة. فى الوقت الذى تشير الآية مورد البحث إلى نهاية القوس الصعودى و النّزولى لها فقط.

و على كلّ حال فإنّ اللّه تعالى يؤكّد هذه النعمة بعد نعمة خلق الإنس و الجنّ بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۱۹ الى ۲۵]

اشارة

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (۱۹) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (۲۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۱) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ (۲۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۳)

وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (۲۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۵)

التّفسير

البحار و ذخائرها الثمينة:

استمرارا لشرح النعم الإلهيّة يأتى الحديث هنا عن البحار، و لكن ليس عن خصوصيات البحار بصورة عامّة، بل عن كيفية خاصّة و مقاطع معيّنة منها تمثّل ظواهر عجيبة و آية على القدرة اللامتناهية للحقّ، بالإضافة إلى ما فيها من النعم التى هى موضع استفادة البشرية.

يقول تعالى: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ و لكن بين هذين البحرين المتلاقيين فاصل يمنع من طغيان و غلبة أحدهما على الآخر: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ

مادّة (مرج) على وزن (فلج) بمعنى الاختلاط، أو إرسال الشىء و تركه، و هنا وردت بمعنى إرسال الشىء و وضعه جنبا إلى جنب بقرينة الآية: بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۸

يَبْغِيانِ

المقصود من البحرين هما الماء العذب و الماء المالح، و ذلك بالاستدلال بقوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ وَ هذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً.[۳۸۰] و التساؤل هنا عن مكان هذين البحرين اللذين لا يمتزجان مع بعضهما، و ما هو البرزخ الموجود بينهما؟ هناك كلام كثير بين المفسّرين حول هذه المسألة، إلّا أنّ بعض التّفسيرات تدلّل على عدم اطّلاعهم على أوضاع البحار فى ذلك الزمان، منها أنّهم ذكروا أنّ المقصود من البحرين هما (بحر فارس و بحر الروم) فى الوقت الذى نعلم أنّ ماء هذين البحرين مالح، و لا يوجد بينهما برزخ.

أو قولهم: إنّ المقصود بذلك هو بحر السماء و بحر الأرض، و الذى يكون الأوّل عذبا و الثانى مالحا، فى الوقت الذى نعلم أيضا بعدم وجود بحر فى السماء باستثناء الغيوم و البخار التى يتبخّر من المحيطات.

و قالوا أيضا: إنّ المقصود من البحر العذب هو المياه التى تحت الأرض و التى لا تختلط مع مياه البحار، و البرزخ الموجود بينهما هى جدران هذه الآبار.

فى الوقت الذى نعلم أيضا أنّ الماء الموجود تحت الأرض أقلّ من أن يشكل بحرا.

نعم إنّ جزئيات الماء المخفية بين طبقات التراب و الرمل تتجمّع تدريجيّا، و تخرج عند ما يحفر بئر فى نقطة معيّنة، و هى كميّة محدودة بالإضافة إلى عدم وجود اللؤلؤ و المرجان فيها.

إذا ما هو المقصود من هذين البحرين؟

لقد أشرنا سابقا إلى هذه الحقيقة فى تفسير سورة الفرقان، و هى أنّ الأنهار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۸۹

العظيمة ذات المياه العذبة عند ما تصبّ فى البحار و المحيطات فإنّها تشكّل بحرا من الماء الحلو إلى جنب الساحل و تطرد الماء المالح إلى الخلف، و العجيب أنّ هذين الماءين لا يمتزجان مع بعضهما لمدّة طويلة بسبب اختلاف درجة الكثافة.

و تلاحظ هـذه المناظر بوضوح عند السـفر بالطائرة فى المناطق التى تكون فيها هذه الظاهرة، حيث المياه العذبة تمثّل بحرا منفصـلا فى داخل البحر المالـح و منفصـلة عنها، و عنـد ما تمتزج أطراف هـذين البحرين فإنّ المياه العذبـة الجديـدة تأخذ مكانها بحيث أنّ هذين البحرين منفصلان على الدوام بشكل ملفت للنظر.

و الظريف هنا ما يحصل فى حالـة (مـدّ البحر) فبارتفاع سـطح المحيط إلى الأعلى، فإنّ المياه العذبة ترجع إلى الداخل دون أن تختلط مع المياه المالحـة- باسـتثناء سـنوات الجدب التى تنعدم فيها الأمطار و يشحّ الماء- و تغطّى قسـما من اليابسة، لذلك فكثيرا ما تسـتثمر هذه الحالة بإيجاد أنهار و قنوات فى المناطق الساحلية حيث تسقى بهذه الطريقة الكثير من الأراضى الزراعية.

إنّ هـذه الأنهر توجـد ببركة و حركة (المدّ و الجزر) الساحليتين و تأثيرهما على مياه هذه الأنهار التى تمتلئ و تفرغ مرّتين فى كلّ يوم بالماء العذب، ممّا يتيح فرصة طيّبة لسقى مناطق واسعة من الأراضى الزراعية.

و يوجد تفسير رائع آخر لهذين البحرين، حيث قالوا: إنّ المقصود منهما يحتمل أن يكون ظاهرة (كلف استريم) و الذى سيأتى شرحها فى آخر هذه الآيات إن شاء اللّه.

و مرّة اخرى يخاطب اللّه تعالى عباده فى معرض حديثه عن هذه النعم حيث يسألهم سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و استمرارا لهذا الحديث يقول عزّ و جلّ: يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

اللؤلؤ و المرجان: وسيلتان للتجميل و الزينة، و يستفاد منهما أيضا فى معالجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۰

بعض الأمراض، كما أنّهما ثروة تجارية أيضا و وسيلة جيّدة للربح الوفير، و لهذه الموارد أشير إليهما كنعمتين إلهيتين للعباد.

أمّا «اللؤلؤ» فهو حبّة شـفّافة ثمينة تنمو فى داخل الصدف فى أعماق البحار، و كلّما كبر حجمها زاد ثمنها، و لها اسـتعمالات واسعة فى الطبّ، حيث كان الأطباء سابقا يستحضـرون منها بعض الأدويـة التى تفيد فى تقوية القلب و الأعصاب، و علاج أنواع الخفقان و تقوية الكبد و علاج اليرقان، و معالجة الخوف و الوحشة، و رفع الرائحة النتنة من الفمّ، و كذلك الحصى فى الكلية و لمثانة، و يستفاد منهما أيضا فى علاج بعض أمراض العين.

«المرجان»: فسّـر البعض المرجان بأنّه اللؤلؤ الصـغيرة، إلّا أنّه فى الحقيقة شىء آخر، فهو كائن حىّ يشبه الغصن الصغير للشجرة، و ينشأ فى أعمـاق البحـار، و كـان العلمـاء يتصوّرون لفترة زمنيـة أنّ هـذه الشـجرة نوع من أنواع النباتات، إلّا أنّه اتّضـح فيما بعـد أنّه نوع من الحيوانـات، بالرغم من أنّه يلتصق بالصـخور الموجودة فى أعماق البحر و يغطّى مساحات واسـعة أحيانا و ينمو تـدريجيّا بحيث يشـكّل جزرا تعرف بالجزر المرجانية، و ينمو المرجان غالبا فى المياه الراكدة، و يصـطاده الصـيادون من سواحل البحر الأحمر و البحر الأبيض المتوسّط و فى مناطق اخرى.

و أفضل أنواع المرجان الـذى يسـتعمل للزينة هو المرجان ذو اللون الأحمر، و كلّما كان احمراره أشدّ كانت قيمته أغلى و أثمن، و هو مادّة خصبة لتشبيهات الشعراء، كما أنّ أردأ أنواع المرجان هو المرجان الأبيض و يوجد بكثرة، و ما بين النوعين هو المرجان الأسود.

و إضافـة إلى اسـتعمال المرجان كحلىّ و زينـة، فإنّ له اسـتعمالات طبيّة حيث ذكروا له خواصا كثيرة منها أنّه يصـنع منه بعض الأدوية الخاصّة بتقوية القلب، و كذلك دفع سمّ الأفعى، و تقوية الأعصاب، و معالجة الإسهال، و نزيف الرحم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۱

و علاج الصرع ۳۸۱].

و النقطة الاخرى التى يجدر بنا ذكرها هنا أنّ بعض المفسّـرين صرّحوا بأنّ اللؤلؤ و المرجان ينشآن فقط فى المياه المالحة، ممّا أوقعهم فى إشكال فى تفسير الآية يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ فذهبوا إلى أنّ المقصود هو أحدهما كما فى الآية (۳۱) من سورة الزخرف.

إلّا أنّ مثل هذا التّفسير لا يدعمه دليل، حيث صرّح البعض بأنّ اللؤلؤ و المرجان يعيشان فى الماء العذب و المالح على السواء.

و استمرارا لهذا القسم من النعم الإلهيّة يشير سبحانه إلى موضوع (السفن) التى هى فى الحقيقة أكبر و أهمّ وسيلة لنقل البشر و حمل الأمتعة فى الماضى و الحاضر، حيث يقول سبحانه: وَ لَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ

«جوار»: جمع جارية، و هى وصف للسفن، و حذفت للاختصار لأنّ التركيز الأكثر كان على سير و حركة السفن، لذا اعتمد هذا الوصف.

كما تطلق جارية على (الأمة)، و ذلك بسبب حركتها و سعيها فى إنجاز الأعمال و الخدمات، و تطلق أيضا على الفتيات الشابّات و ذلك لجريان النشاط فيهنّ.

«منشآت» جمع (منشأ) و هو اسم مفعول من (إنشاء) بمعنى إيجاد، و الظريف هنا أنّه فى الوقت الذى يعبّر عن «منشآت» و التى تحكى أنّها مصنوعة بواسطة الإنسان، يقول سبحانه (و له) أى للّه تعالى و هو إشارة إلى أنّ جميع الخواص التى يستفاد منها فى صناعة السفن، و التى منحها اللّه للبشر المخترعين لهذه الصناعة هى للّه، و كذلك فانّه هو الذى أعطى خاصية السيولة لمياه البحر و القوّة للرياح، و أنّ اللّه تعالى هو الذى أوجد هذه الخواص فى المواد المتعلّقة بالسفينة، و هذا ما عبّر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۲

عنه القرآن الكريم بالتسخير أيضا، حيث يقول سبحانه: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ [۳۸۲] و فسّر البعض «منشأ» من مادّة (إنشاء) بمعنى ارتفاع الشيء، و اعتبروها إشارة إلى أشرعة السفن التى تستخدم كقوّة فى حركة السفينة، و ذلك بسبب دفع الرياح لها.

«أعلام»: جمع (علم) على وزن (قلم)، بمعنى (جبل) بالرغم من أنّها فى الأصل بمعنى (علامة و أثر) و الذى يخبر عن شيء معيّن، و لأنّ الجبال تكون واضحة من بعد فإنّه يعبّر عنها ب (العلم) كما أنّ لفظة (علم) تطلق أيضا على «الراية».

و بهذا فإنّ القرآن الكريم نوّه هنا بالسفن الكبيرة التى تتحرّك على سطح المحيطات و البحار، و على خلاف ما يتصوّره البعض فانّ السفن الكبيرة لا تختص بعصر الماكنة و البخار، بل لقد استفاد اليونانيون و غيرهم من السفن الكبيرة فى نقل قواتهم و جيوشهم.

و مرّة اخرى يكرّر سبحانه هذا السؤال العميق المغزى بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

بحوث

۱- البحر مركز النعم الإلهيّة

لاـ حظنا فى هذا القسم من الآيات إشارة إلى البحر و أهميّته فى الحياة البشرية، و كما نعلم فإنّ مياه البحار و المحيطات تشكّل ثلاثة أرباع سطح الكرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۳

الأرضية، و هى منبع عظيم للمواد الغذائية، و الطبية، و أدوات الزينة، و وسيلة مهمّة لنقل البشر و حمل البضائع، و الأهمّ من ذلك فإنّ نزول الأمطار و اعتدال الهواء، و حتّى قسم من هبوب الرياح هى من بركات البحار، فإذا كان سطح البحار أقلّ أو أكثر ممّا هو عليه، فإنّ الكرة الأرضية إمّا أن تصبح يابسة أو رطبة لدرجة لا يمكن العيش فيها.

لذلك نرى أنّ القرآن الكريم قد ذكّر الإنسان- لعدّة مرّات و بتعبيرات مختلفة بهذه النعمة العظيمة، و دعاه للتفكير بها، حيث يقول سبحانه: سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ الجاثية/ ۱۲.

و يقول مرّة اخرى: وَ سَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ إبراهيم/ ۳۲.

و قال سبحانه: سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ الحجّ/ ۶۵.

و إذا تجاوزنا كلّ ذلك فإنّ البحر هو دار العجائب حيث فيه أصغر النباتات المجهرية، و كذلك أطول أشجار العالم، و فيه أيضا أصغر الحيوانات و كذلك أعظمها و أضخمها.

كما أنّ الحياة فى أعماق البحار حيث لا ضوء و لا غذاء عجيبة إلى درجة أنّ الشخص لا يملّ من مطالعتها و الاطلاع عليها، و كلّما تعرف الإنسان على شىء منها إزداد شغفا بها، و العجيب أيضا أنّ قسما من الحيوانات هنالك تشعّ أضواء و تصنع مادّتها الغذائية على سطح البحر و من ثمّ تترسّب، كما أنّ أطرافها محكمة و مقاومة إلى درجة أنّها تتحمّل ضغط الماء العظيم الذى إذا وضع الإنسان فى حالته الطبيعيّة هناك فانّ عظامه تتحوّل إلى طحين.

۲- الأنهار البحرية العظيمة و الكلف استيرين

من العجائب الموجودة فى محيطات العالم هو وجود أنهار عظيمة و تيارات بحرية كبيرة، و أقوى هذه الأنهار يسمّى (گلف استيرين). إنّ هذا النهر العظيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۳۹۴

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۴

يتحرّك من سواحل أمريكا المركزية و يسير فى جميع المحيط الأطلسى حتّى يصل إلى سواحل أوروبا الشمالية.

و المعروف أنّ مياهه التى تسير من مناطق قريبة من خطّ الإستواء تكون حارة بل حتّى أنّ لونها يختلف عن لون المياه المجاورة، و العجيب أنّ عرض هذا النهر البحرى العظيم (الكلف استيرين) بحدود (۱۵۰) كم، كما أنّ أعمق نقطة فيه تبلغ مئات الأمتار، و سرعته فى بعض المناطق شديدة بحيث تبلغ فى اليوم الواحد ب ۱۶۰ كم.

إنّ اختلاف درجة حرارة هذا النهر مع المياه المجاورة بحدود ۱۰- ۱۵ درجة مئوية، لذا فإنّ ساحله الغربى يسمّى بالجدار البارد.

و الكلف أستيرين يسبّب رياحا حارّة و يدفع قسما كبيرا من حرارته باتّجاه مدن أوروبا الشمالية، حيث يؤثّر على مناخ تلك البلدان بحيث يكون معتدلا للغاية، و يحتمل أن يكون العيش صعبا للغاية فى هذه المناطق لو لم يوجد هذا المجرى العظيم.

و نكرّر مرّة اخرى أنّ (الكلف استيرين) هو أحد الأنهار فى المحيطات، و هناك أنهار اخرى كثيرة فى بحار و محيطات العالم.

إنّ السبب الأساس فى تكوين هذه الأنهار البحرية هو اختلاف حرارة المنطقة الإستوائية و المناطق القطبية و التى توجد هذه الحركة فى مياه البحار.

و يمكن استيعاب هذا الموضوع بتجربة بسيطة:

فإذا كان لدينا ماء فى وعاء كبير، و وضعنا فى جانب منه قطعة ثلجية، و فى الجهة الاخرى قطعة حديدية حارّة، و وضعنا على سطح الماء قليلا من التبن، فإنّنا سنلاحظ ظهور حركة على سطح الماء حيث يتحرّك الماء ببطء من المنطقة الحارّة باتّجاه المنطقة الباردة.

إنّ مثل هذه الحالة تحصل فى كلّ بحار العالم، و هى مصدر ظهور هذه الأنهار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۵

البحرية.

و العجيب أنّ هذه الأنهار العظيمة لا تمتزج مع المياه حولها إلّا قليلا، و تسير آلاف الكيلومترات على هذه الصورة، و بذلك تعبّر عن مصداقية الآية الكريمة مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ

و الملفت للنظر أنّ فى نقطة التقاء هذه المياه الحارّة مع المياه الباردة، تحدث ظاهرة مفيدة جدّا للإنسان، و هى حدوث حالة من

الإغماء أو الموت الجماعى للحيوانات المجهرية المعلّقة فى الماء و ذلك فى نقطة التماس و الالتقاء بين المياه الحارّة و المياه الباردة و بهذا تتوفّر فى هذه المناطق مواد غذائية كثيرة لا حصر لها و تكون سببا فى جذب قطعان الأسماك الكبير، حيث يقصد الصيادون هذه المناطق للاستفادة من صيد هذه الحيوانات، و تعتبر هذه المنطقة من أفضل المناطق فى العالم لصيد الأسماك ۳۸۳].

و هذا يمثّل أحد التفاسير للآيات أعلاه، و هو لا يتنافى مع التفاسير الاخرى، و لذا يمكن الجمع بينهما.

۳- تفسير من أعماق الآيات

نقل

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ أنّه قال: «و على و فاطمة عليهما السّلام بحران عميقان لا يبغى أحدهما على صاحبه. يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَ الْمَرْجانُ قال: الحسن و الحسين»[۳۸۴].

و نقل هذا المعنى عن بعض أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير الدرّ المنثور[۳۸۵].

و نقله العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان مع اختلاف يسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۶

و من هنا نعلم أنّ القرآن الكريم له بطون، و أنّ آية واحدة يمكن أن تكون لها معان متعدّدة بل عشرات المعانى. و التّفسير الأخير هو من بطون القرآن، و لا يتنافى مع المعانى الظاهرية له.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (۲۶) وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۲۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۲۸) يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (۲۹) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۰)

التّفسير

كلّ شىء هالك إلّا وجهه:

استمرارا لشرح النعم الإلهيّة، فى هذه الآيات يضيف سبحانه قوله: كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ و هنا يتساءل كيف يكون الفناء نعمة إلهية؟

و للجواب على هذا السؤال نذكر ما يلى: يمكن ألّا يكون المقصود بالفناء هنا هو الفناء المطلق، و إنّما هو الباب الذى يطلّ منه على عالم الآخرة، و الجسر الذى لا بدّ منه للوصول إلى دار الخلد، بلحاظ أنّ الدنيا بكلّ نعمها هى سجن المؤمن، و الخروج منها هو التحرر من هذا السجن المظلم.

أو أنّ النعم الإلهيّة الكثيرة- المذكور سابقا- يمكن أن تكون سببا لغفلة البعض و إسرافهم فيها بأنواع الطعام و الشراب و الزينة و الملابس و المراكب و غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۸

ذلك. ممّا يستلزم تحذيرا إلهيّا للإنسان، بأنّ هذه الدنيا ليست المستقّر، فالحذر من التعلّق بها، و لا بدّ من الاستفادة من هذه النعم فى طاعة اللّه .. إنّ هذا التنبيه و التذكير بالرحيل عن هذه الدنيا هو نعمة عظيمة.

الضمير فى (عليها) يرجع إلى الأرض التى ورد ذكرها فى الآيات السابقة، بالإضافة إلى القرائن الاخرى الموجودة، لذا فهو واضح.

كما أنّ المقصود مَنْ عَلَيْها هم الجنّ و الإنس مع العلم أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ الحيوانات و الكائنات الحيّة جميعا مشمولة بهذا المعنى.

و بما أنّ كلمة (من) تستعمل غالبا للعاقل، لذا فالمعنى الأوّل هو الأنسب.

صحيح أنّ مسألة الفناء لا تنحصر بالإنس و الجنّ فقط، و لا تختّص بالكائنات الموجودة على الأرض فحسب، حيث يصرّح القرآن الكريم بأنّ أهل السماء و الأرض جميعا يفنون، و ذلك فى قوله: كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ [۳۸۶] و لكن لمّا كان الحديث يدور حول أهل الأرض، لذا فهم المقصودون.

و يضيف فى الآية اللاحقة قوله سبحانه: وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ

«وجه» معناه اللغوى معروف و هو القسم الأمامى للشىء بحيث يواجهه الإنسان فى الطرف المقابل، و استعمالها بخصوص لفظ الجلالة يقصد به (الذات المقدّسة).

فسّر البعض وَجْهُ رَبِّكَ بمعنى الصفات الإلهية المقدّسة، التى عن طريقها تنزل نعم و بركات اللّه على الإنسان كالرحمة و المغفرة و العمل و القدرة.

و يحتمل أن يكون المقصود هى الأعمال التى تنجز من أجل اللّه، و بناء على هذا فالجميع يفنى، و الشىء الباقى هى الأعمال التى تنجز بإخلاص و لرضى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۳۹۹

تعالى ..

إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

أمّا ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ و الذى هو وصف ل (الوجه) فإنّه يشير إلى صفات الجمال و الجلال للّه سبحانه، لأنّ ذُو الْجَلالِ تنبّئنا عن الصفات التى يكون اللّه أسمى و أجلّ منها (الصفات السلبية). و كلمة «الإكرام» تشير إلى الصفات التى تظهر حسن و قيمة الشىء، و هى الصفات الثبوتية للّه سبحانه كعلمه و قدرته.

و بناء على هذا فإنّ معنى الآية بصورة عامّة يصبح كالآتى: إنّ الباقى فى هذا العالم هو الذات المقدّسة للّه سبحانه، و التى تتّصف بالصفات الثبوتية و المنزّهة عن الصفات السلبية.

كما فسّر البعض أنّ (ذو الإكرام) هو إشارة إلى الألطاف و النعم الإلهية التى تفضّل اللّه بها و أكرمها لخاصّة أوليائه، و من الممكن الجمع بين هذه المعانى المختلفة للآية أعلاه.

و نقرأ

فى حديث أنّ رجلا كان يصلّى فى محضر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث دعا اللّه سبحانه كذلك: «اللهمّ إنّى أسألك بأنّ لك الحمد لا إله إلّا أنت المنّان، بديع السماوات و الأرض، ذو الجلال و الإكرام، يا حىّ يا قيّوم».

فقال الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأصحابه: «أ تدرون بأى اسم دعا اللّه؟» فقالوا: اللّه و رسوله أعلم.

قال: «و الذى نفسى بيده، لقد دعا اللّه باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى»[۳۸۷].

ثمّ يخاطب الخلائق مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و مضمون الآية اللاحقة فى الحقيقة هى نتيجة للآيات السابقة، حيث يقول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۰

سبحانه: یَسْئَلُهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و لماذا لا یکون کذلک فی الوقت الذی یفنی الجمیع و یبقی وحده سبحانه، و لیس هذا فی نهایة العالم فقط، و إنّما الآن أیضا فانّ الکائنات فانیة فی مقابله و بقاءها مرتبط بمشیئته، و إذا أعرض بلطفه فسیتلاشی الکون بأجمعه، و علی هذا فهل یوجد أحد سواه یطلب أهل السماوات و الأرض قضاء حوائجهم منه و یسألونه تدبیر شؤونهم؟! التعبیر ب (یسأله) جاء بصیغة المضارع، و هو دلیل علی أنّ السؤال و الطلب فی الکائنات و مستمر من الذات الإلهیّة المقدّسة، و الجمیع یستلهمون من مبدأ فیضه، و لسان حالهم یطلب الوجود و البقاء و قضاء الحوائج، و هذا شأن الموجود الممکن الذی هو مرتبط بواجب الوجود لیس فی الحدوث فقط. و إنّما فی البقاء أیضا.

ثمّ یضیف سبحانه: کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ

نعم إنّ خلقه مستمر، و إجاباته لحاجات السائلین و المحتاجین لا تنقطع، کما أنّ إبداعاته مستمرّة فیجعل الأقوام یوما فی قوّة و قدرة، و فی یوم آخر یهلکهم، و یوما یعطی السلامة و الشباب، و فی یوم آخر الضعف و الوهن، و یوما یذهب الحزن و الهمّ من القلوب و آخر یکون باعثا له. و خلاصة الأمر أنّه فی کلّ یوم- و طبقا لحکمته و نظامه الأکمل- یخلق ظاهرة جدیدة و خلقا و أحداثا جدیدة.

و الالتفات إلی هذه الحقیقة من جهة یوضّح احتیاجاتنا المستمرّة لذاته المقدّسة، و من جهة اخری فإنّه یذهب الیأس و القنوط من القلوب، و من جهة ثالثة فإنّه یلوی الغرور و یکسر الغفلة فی النفوس.

نعم، إنّه سبحانه له فی کلّ یوم شأن و عمل.

و بالرغم من أنّ بعض المفسّرین ذکروا قسما من هذا المعنی الواسع تفسیرا للآیة، إلّا أنّ البعض ذکر فی تفسیرها، أنّها مغفرة الذنوب، و ذهاب الحزن، و إعزاز أقوام و إذلال آخرین فقط.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۱

و البعض الآخر قال: إنّها مسألة الخلق و الرزق و الحیاة و الموت و العزّة و الذلّة فقط.

و البعض الآخر عنون مسألة الخلق و الموت بالنسبة للإنسان و قال: إنّ للّه جیوشا ثلاثة: جیش ینتقل من أصلاب الآباء إلی أرحام الامّهات، و جیش یخرج إلی عالم الدنیا من أرحام الامّهات، و جیش یساق من عالم الدنیا إلی القبور.

و کما قلنا فإنّ للآیة مفهوما واسعا یشمل کلّ خلق جدید و خلقة جدیدة، و یشمل کلّ تغییر و تحوّل فی هذا العالم.

و نقرأ

فی روایة لأمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال فی أحد خطبه: «الحمد للّه الذی لا یموت و لا تنقضی عجائبه لأنّه کلّ یوم هو فی شأن، من إحداث بدیع لم یکن»[۳۸۸].

و نقرأ

فی حدیث آخر للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیره الآیة الکریمة: «من شأنه أن یغفر ذنبا و یفرّج کربا و یرفع قوما و یضع آخرین»[۳۸۹].

و لا بدّ من الانتباه لهذه النقطة أیضا: إنّ المقصود من (یوم) هو لیس (النهار) فی مقابل (اللیل) بل یشمل الأحقاب المتزامنة، و کذلک الساعات و اللحظات، و مفهومه أنّ اللّه المتعال فی کلّ زمان فی شأن و عمل.

کما أنّ البعض ذکروا شأنا نزولیا للآیة، و هو أنّها نزلت ردّا علی قول الیهود الذین یعتقدون أنّ اللّه عزّ و جلّ یعطّل کلّ الأعمال فی یوم السبت، و لا یصدر أی حکم ۳۹۰]. فالقرآن الکریم یقول: إنّ خلق اللّه و تدبیره لیس له توقّف.

و مرّة اخری- بعد هذه النعم المستمرّة و الإجابة لاحتیاجات جمیع خلقه من أهل السماوات و الأرض یکرّر قوله سبحانه: فَبِأَیِّ آلاءِ رَبِّکُما تُکَذِّبانِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۲

بحوث

۱- ما هی حقیقة الفناء؟

ما مرّ بنا فی الآیات السابقة و هو أنّ «الکلّ یفنی إلّا اللّه» لیس بمعنی الفناء المطلق، و أنّ روح الإنسان تفنی أیضا أو أنّ التراب الناشئ من بدنه بعد الموت سینعدم أیضا، إذ أنّ الآیات القرآنیة صرّحت بوجود عالم البرزخ إلی یوم القیامة[۳۹۱].

و من جهة اخری فإنّ اللّه سبحانه یذکر لمرّات عدّة أنّ الموتی یخرجون من قبورهم یوم القیامة[۳۹۲].

و یذکر سبحانه فی آیة اخری أنّ رمیم العظام یلبس الحیاة مرّة اخری بأمر اللّه ۳۹۳].

و هذه الآیات کلّها شاهد علی أنّ الفناء فی الآیة و الآیات الاخری بمعنی اضطراب نظام الجسم و الروح و قطع الارتباط بینهما و اضطراب عالم الخلقة کذلک، و حلول عالم جدید محلّ العالم السابق.

۲- استمرار الخلق و الإبداع

قلنا: إنّ الآیة الکریمة: کُلَّ یَوْمٍ هُوَ فِی شَأْنٍ تدلّ علی دوام الخلقة و استمرار الخلق، و أنّها مبعث أمل من جهة، و نافیة للغرور من جهة اخری، لذا فانّ القادة الإسلامیین یعتمدون علیها کثیرا لبعث الأمل فی النفوس، کما نقرأ ذلک فی تبعید الصحابی الجلیل «أبی ذرّ الغفاری» إلی (الربذة) حیث یذکر التاریخ أنّ علیا علیه السّلام جاء لتودیعه فواساه بکلمات مؤثّرة، ثمّ أعقبه ابنه الإمام الحسن علیه السّلام حیث خاطب أبا ذر رضی اللّه عنه بقوله «یا عمّاه» تکریما له و أعقبه أخوه سیّد الشهداء الإمام

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۳

الحسین علیه السّلام بقوله لأبی ذرّ: «یا عمّاه إنّ اللّه تعالی قادر علی أن یغیّر ما قد تری. اللّه کلّ یوم فی شأن، و قد منعک هؤلاء القوم دنیاهم و منعتهم دینک فاسأل اللّه الصبر و النصر[۳۹۴] ...

و نقرأ أیضا أنّ الإمام الحسین علیه السّلام و هو فی طریقه إلی کربلاء لقی الشاعر «الفرزدق» عند (صفاح) فسأله الإمام علیه السّلام عن خبر الناس خلفه- إشارة إلی أهل العراق- فقال: الخبیر سألت، قلوب الناس معک، و سیوفهم مع بنی أمیّة، و القضاء ینزل من السماء و اللّه یفعل ما یشاء.

فقال الإمام الحسین علیه السّلام: (صدقت للّه الأمر یفعل ما یشاء و کلّ یوم ربّنا فی شأن)[۳۹۵].

و کلّ ذلک یرینا أنّ هذه الآیة هی الآیة باعثة للأمل فی نفوس المؤمنین.

و ثمّة قصّة اخری فی هذا الصدد حیث ذکروا أنّ أحد الأمراء سأل وزیره عن تفسیر هذه الآیة، إلّا أنّ الوزیر أعلن عن عدم علمه بها و طلب مهلة لیوم غد، و رجع إلی البیت محزونا، و کان لدیه غلام أسود ذو علم و معرفة، فسأله عمّا به، فحدّث غلامه بالقصّة، فأجابه: إذا ذهبت إلی الأمیر فأخبره إذا کان یرغب فی معرفة تفسیر هذه الآیة فأنا مستعدّ لذلک ... فطلبه الأمیر و سأله، فأجابه الغلام:

یا أمیر، شأنه یولج اللیل فی النهار، و یولج النهار فی اللیل، و یخرج الحیّ من المیّت، و یخرج المیّت من الحیّ، و یشفی سقیما، و یسقم سلیما، و یبتلی معافی، و یعافی مبتلی، و یعزّ ذلیلا، و یذلّ عزیزا، و یفقر غنیّا، و یغنی فقیرا ..

فقال الأمیر: «فرّجت عنّی فرّج اللّه عنک» ثمّ أکرمه و أنعمه ۳۹۶].

۳- الحركة الجوهرية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۴

بعض المؤيدّين للحركة الجوهرية يستدلّون لإثبات مرادهم بالآيات القرآنية أو يعتبرونها إشارة لمقصودهم، و من ضمن ما يستشهدون به الآية الكريمة: كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

التوضيح: يعتقد الفلاسفة القدماء أنّ للحركة أربع مقولات عرضية هى: (أين، كيف، كم، وضع).

و بتعبير أوضح أنّ حركة الجسم تكون بتغيير مكانه و ذلك بانتقاله، و هذه هى مقولة (الأين)، أو بنموّه أو زيادة كمّيته و هذه مقولة «الكم». أو تغيّر اللون و الطعم و الرائحة (كشجرة التفاح) و هذا المقصود من «الكيف»، أو أن يدور فى مكانه حول نفسه كالحركة الوضعية للأرض و هذا ما يراد به من «الوضع».

و قد كان سائدا أنّ الحركة غير ممكنة فى جوهر و ذات الجسم أبدا، لأنّه فى كلّ حركة يجب أن تكون ذات الجسم المتحرّك ثابتة، إلّا أنّ عوارضه قد تتغيّر، فالحركة لا تتصوّر فى ذات الشىء و جوهره، بل فى اعراضه.

لكنّ الفلاسفة المتأخرّين رفضوا هذه النظرية و اعتقدوا بالحركة الجوهرية، و قالوا: إنّ أساس الحركة هى الذات، الجوهر، و التى تظهر آثارها فى العوارض.

و أوّل شخص طرح هذه النظرية بشكل تفصيلى استدلالى هو المولى صدر الدين الشيرازى حيث قال: إنّ كلّ ذرّات الكائنات و عالم المادّة فى حركة دائبة، أو بتعبير آخر: إنّ مادّة الأجسام وجود سيّال متغيّر الذات دائما، و فى كلّ لحظة له وجود جديد يختلف عن الوجود السابق له، و لكون هذه التغيّرات متّصلة مع بعضها فإنّها تحسب شيئا واحدا، و بناء على هذا فإنّ لنا فى كلّ لحظة وجودا جديدا، إلّا أنّ هذه الوجودات متصلة و مستمرة و لها صورة واحدة، أو بتعبير آخر: إنّ المادة لها أربعة أبعاد (طول و عرض و عمق و أمّا البعد الآخر فهو ما نسمّيه (الزمان) و هذا الزمان ليس بشىء إلّا مقدار الحركة فى الجوهر) لاحظوا جيّدا.

و ممّا يجدر ذكره أنّ الحركة الجوهرية لا ترتبط بمسألة الحركة فى داخل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۵

الذرّة لأنّها حركة وضعية و عرضية، أمّا الحركة فى الجوهر فلها مفهوم عميق جدّا تشمل الذات و الجوهر.

و العجيب هنا أنّ المتحرّك هو نفس الحركة.

و لإثبات هذا المقصود فإنّهم يستدلّون بدلائل عديدة لا مجال لذكرها هنا، إلّا أنّه لا بأس بالإشارة إلى نتيجة هذا الرأى الفلسفى و هو أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ إدراكنا لمسألة معرفة اللّه أوضح من أى زمان، لأنّ الخلق و الخلقة لم تكن فى بداية الخلق فحسب، بل إنّها فى كلّ ساعة و كلّ لحظة، و إنّ اللّه سبحانه مستمر فى خلقه، و نحن مرتبطون به دائما و مستفيضون من فيض ذاته و هذا معنى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ

و من الطبيعى أن لا مانع من أن يكون هذا المفهوم جزءا من المفهوم الواسع للآية الكريمة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۶

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۳۱ الى ۳۶]

اشارة

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (۳۱) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۲) يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ

الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاّ بِسُلْطانٍ (۳۳) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۴) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (۳۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۶)

التّفسير

التحدّى المشروط:

النعم الإلهيّة التى استعرضتها الآيات السابقة كانت مرتبطة بهذا العالم، إلّا أنّ الآيات مورد البحث تتحدّث عن أوضاع يوم القيامة، و خصوصيات المعاد، و فى الوقت الذى تحمل تهديدا للمجرمين، فإنّها وسيلة لتربية و توعية و إيقاظ المؤمنين، بالإضافة إلى أنّها مشجّعة لهم للسير فى طريق مرضاته سبحانه، و من هنا فإنّنا نعتبرها نعمة. لذلك بعد ذكر كلّ واحدة من هذه النعم يتكرّر نفس السؤال الذى كان يعقّب ذكر كلّ نعمة من النعم السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۷

يقول سبحانه فى البداية: سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ ۳۹۷][۳۹۸].

نعم، إنّ اللّه العالم القادر سيحاسب فى ذلك اليوم الإنس و الجنّ حسابا دقيقا على جميع أعمالهم و أقوالهم و نيّاتهم، و يعيّن لكلّ منهم الجزاء و العقاب.

و مع علمنا بأنّ اللّه سبحانه لا يشغله عمل عن عمل، و علمه محيط بالجميع فى آن واحد، و لا يشغله شىء عن شىء (و لا يشغله شأن عن شأن) و لكنّنا نواجه التعبير فى (سنفرغ) و التى تستعمل غالبا بالتوجّه الجادّ لعمل ما، و الانصراف الكلّى له، و هذا من شأن المخلوقات بحكم محدوديتها.

إلّا أنّه استعمل هنا للّه سبحانه، تأكيدا على مسألة حساب اللّه تعالى لعباده بصورة لا يغادر فيها صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها، و لا يغفل عن مثقال ذرّة من أعمال الإنسان خيرا أو شرّا، و الأظرف من ذلك أنّ اللّه الكبير المتعال هو الذى يحاسب بنفسه عبده الصغير، و علينا أن نتصوّركم هى مرعبة و مخيفة تلك المحاسبة.

(الثقلان) من مادّة (ثقل) على وزن (كبر) بمعنى الحمل الثقيل و جاءت بمعنى الوزن أيضا، إلّا أنّ (ثقل) على وزن (خبر) تقال عادة لمتاع و حمل المسافرين، و تطلق على جماعة الإنس و الجنّ و ذلك لثقلهم المعنوى، لأنّ اللّه تبارك و تعالى قد أعطاهم عقلا و شعورا و علما و وعيا له وزن و قيمة بالرغم من أنّ الثقل الجسدى لهم ملحوظ أيضا كما قال تعالى: وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها،[۳۹۹] حيث ورد أنّ أحد معانيها هو خروج الناس من القبور فى يوم القيامة، إلّا أنّ التعبير فى الآية مورد البحث جاء باللحاظ المعنوى، خاصّة و أنّ الجنّ ليس لهم ثقل مادّى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۸

التأكيد على هاتين الطائفتين بالخصوص لأنّ التكاليف الإلهيّة مختّصة بهما فى الغالب.

و بعد هذا يكرّر اللّه سبحانه سؤاله مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و تعقيبا على الآية السابقة التى كانت تستعرض الحساب الإلهى الدقيق، يخاطب الجنّ و الإنس مرّة اخرى بقوله: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ للفرار من العقاب الإلهى فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ أى بقوّة إلهية، فى حين أنّكم فاقدون لمثل هذه القوّة و القدرة.

و بهذه الصورة فإنّكم لن تستطيعوا أن تفرّوا من محكمة العدل الإلهى، فحيثما تذهبون فهو ملكه و تحت قبضته و محلّ حكومته

تعالى، و لا مناصّ لهذا المخلوق الصغير من الفرار من ميدان القدرة الإلهيّة؟ كما

قال الإمام على عليه السّلام فى دعاء كميل بن زياد المربى للروح: (و لا يمكن الفرار من حكومتك).

«معشر» فى الأصل من (عشر) مأخوذ من عدد «عشرة»، و لأنّ العدد عشرة عدد كامل، فإنّ مصطلح (معشر) يقال: للمجموعة المتكاملة و التى تتكوّن من أصناف و طوائف مختلفة.

«أقطار» جمع (قطر) بمعنى أطراف الشىء.

«تنفذوا» من مادّة (نفوذ)، و هى فى الأصل بمعنى خرق و عبور من شىء، و التعبير (من أقطار) إشارة إلى شقّ السماوات و تجاوزها إلى خارجها.

و بالمناسبة فإنّ تقديم «الجنّ» هنا جاء لاستعدادهم الأنسب للعبور من السماوات، و قد ورد اختلاف بين المفسّرين على أنّ الآية أعلاه هل تتحدّث عن القيامة، أو أنّ حديثها عن عالم الدنيا، أو كليهما؟

و لأنّ الآيات السابقة و اللاحقة تتحدّث عن وقائع العالم الآخر، فإنّ المتبادر إلى الذهن أنّ الآية تتحدّث عن الهروب و الفرار من يد العدالة الإلهية الذى يفكّر به

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۰۹

العاصون فى ذلك اليوم.

إلّا أنّ البعض بلحاظ جملة: لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ اعتبرها إشارة إلى الرحلات الفضائية للإنسانية، و قد ذكر القرآن شروطها من القدرة العلمية و الصناعية.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود منها هو عالم الدنيا و عالم القيامة، يعنى أنّكم لن تتمكّنوا من النفوذ بدون قدرة اللّه فى أقطار السماوات ليس فى هذه الدنيا فحسب، بل فى عالم الآخرة أيضا، حيث وضعت فى الدنيا وسيلة محدودة لاختباركم، أمّا فى الآخرة فلا توجد أيّة وسيلة لكم.

و فسّرها البعض تفسيرا رابعا حيث قالوا: إنّ المقصود بالنفوذ هو النفوذ الفكرى و العلمى فى أقطار السماوات، الذى يمكن للبشر إنجازه بواسطة القدرة الاستدلالية.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل مناسب أكثر، خاصّة و أنّ بعض الأخبار التى نقلت من المصادر الإسلامية تؤيّده، و من جملتها حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث يقول:

«إذا كان يوم القيامة جمع اللّه العباد فى صعيد واحد، و ذلك أن يوحى إلى السماء الدنيا أن اهبطى بمن فيك، فيهبط أهل السماء الدنيا بمثلى من فى الأرض من الجنّ و الإنس و الملائكة، ثمّ يهبط أهل السماء الثانية بمثل الجميع مرتين، فلا يزالون كذلك حتّى يهبط أهل سبع سماوات فتصير الجنّ و الإنس فى سبع سرادقات من الملائكة ثمّ ينادى مناد، يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ فينظرون فإذا قد أحاط بهم سبع أطواق من الملائكة»[۴۰۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۰

كما أنّ الجمع بين التفاسير ممكن أيضا.

و يخاطب سبحانه هاتين المجموعتين «الجنّ و الإنس» بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و التهديد هنا لطف إلهى أيضا، فالبرغم من أنّه يحمل تهديدا ظاهريا، إلّا أنّه عامل للتنبيه و الإصلاح و التربية، حيث أنّ وجود المحاسبة فى كلّ نظام هو نعمة كبيرة.

و ما ورد فى الآية اللاحقة تأكيد لما تقدّم ذكره فى الآيات السابقة، و الذى يتعلّق بعدم قدرة الجنّ و الإنس من الفرار من يد العدالة الإلهيّة حيث يقول سبحانه: يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ

«شواظ» كما ذكر الراغب فى المفردات، و ابن منظور فى لسان العرب، و كثير من المفسّرين أنّه بمعنى (الشعلة العديمة الدخان) و فسّرها آخرون بأنّها (ألسنة النار) التى تقتطع من النار نفسها حسب الظاهر، و تكون خضراء اللون. و على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يشير إلى شدّة حرارة النار.

و «نحاس» بمعنى الدخان أو (الشعل ذات اللون الأحمر مصحوبة بالدخان) و التى تكون بلون النحاس، و فسّرها البعض بأنّها (النحاس المذاب) و هى لا تتناسب فى الظاهر مع ما ورد فى الآية مورد البحث، لأنّها تتحدّث عن موجود يحيط بالإنسان فى يوم القيامة و يمنعه من الفرار من حكومة العدل الإلهى.

و كم هى عجيبة (محكمة القيامة) حين يحاط الإنسان إحاطة تامّة بالملائكة و النار الحارقة و الدخان القاتل، و لا مناص إلّا التسليم لحكم الواحد الأحد فى ذلك اليوم الرهيب.

ثمّ يضيف سبحانه قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و الكلام هنا عن النعم و الآلاء من أجل ما ذكرنا من اللطف فى الآية السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۱

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۳۷ الى ۴۵]

اشارة

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (۳۷) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۳۸) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جانٌّ (۳۹) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۰) يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ (۴۱)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۲) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (۴۳) يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (۴۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۵)

التّفسير

يعرف المجرمون بسيماهم:

تكملة للآيات السابقة يتحدّث القرآن الكريم عن بعض مشاهد يوم القيامة، و الآيات أعلاه تذكر خصوصيات من مشاهد ذلك اليوم الموعود، و عن كيفية الحساب و الجزاء و العقاب، يقول سبحانه فى بداية الحديث: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۲

فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ ۴۰۱].

و يستفاد من مجموع آيات «القيامة» بصورة واضحة أنّ النظام الحالى للعالم سوف يتغيّر و يضطرب و تقع حوادث مرعبة جدّا فى كلّ الوجود، فتتغيّر الكواكب و السيّارات و الأرض و السماء، و تحصل تغيّرات يصعب تصورها، و من جملتها ما ذكر فى الآية أعلاه، و هى انشقاق و تناثر الكرات السماوية، حيث يصبح لونها أحمر بصورة مذابة كالدهن.

(وردة) و (ورد) هو الورد المتعارف، و لأنّ لون الورد فى الغالب يكون أحمر، فإنّ معنى الاحمرار يتداعى للذهن منها.

و يأتى هذا المصطلح أيضا بمعنى «الخيل الحمر»، و بما أنّ لونها يتغيّر فى فصول السنة حين يكون فى الربيع مائلا إلى الصفرة، و فى الشتاء يحمّر، و يقتم لونها فى البرد الشديد، فتشبيه السماء يوم القيامة بها هو بلحاظ التغيّرات التى تحصل فى ألوانها فتارة يكون لونها

كالشعلة الوهاجة أحمر حارقا، و أحيانا أصفر، و اخرى أسود قاتم و معتم.

«دهـان» على وزن (كتـاب)، بمعنى الـدهن المـذاب، و تطلق أحيانا على الرسوبات المتخلّفـة للمادّة الدهنيـة، و غالبا ما تكون لها ألوان متعدّدة، و من هنا ورد هذا التشبيه حيث يصبح لون السماء كالدهن المذاب بلون الورد الأحمر، أو إشارة إلى ذوبان الكرات السماوية أو اختلاف لونها.

و فسّر البعض «الـدهان» بمعنى الجلـد أو اللون الأـحمر، و على كـلّ حال فإنّ هـذه التشبيهات تجسّـد لنا صورة من مشـهد ذلك اليوم العظيم. حيث أنّ حقيقة الحوادث فى ذلك اليوم ليس لها شبيه مع أيّة حوادث اخرى من حوادث عالمنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۳

هذا. فهذه المشاهد لا نستطيع إدراكها إلّا إذا رأيناها.

و لأـنّ الإخبـار بوقوع هـذه الحوادث المرعبـة فى يوم القيامـة- أو قبلهـا- تنـبيه و إنـذار للمؤمنين و المجرمين على السواء، و لطف من ألطاف اللّه سبحانه، يتكرّر هذا السؤال: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى الآيـة اللاحقـة ينتقل الحـديث من الحوادث الكونيـة ليوم القيامـة إلى حالة الإنسان المذنب فى ذلك اليوم، حيث يقول سـبحانه: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ

و لماذا هذا السؤال و كلّ شىء واضح فى ذلك اليوم، فهو يوم البروز، و كلّ شىء يقرأ فى وجه الإنسان.

قـد يتوهّم أنّ المعنى الوارد فى هـذه الآيـة يتنافى مع الآيات الاخرى التى تصـرّح و تؤكّد مسألة سؤال اللّه تعالى لعباده فى يوم القيامة، كما ورد فى الآية:

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ [۴۰۲] و كما فى قوله تعالى: فَوَ رَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ [۴۰۳] و يحلّ هذا الإشكال إذا علمنا أنّ يوم القيامـة يوم طويـل جـدّا، و على الإنسـان أن يجتاز محطّات و مواقف متعـدّدة فيه، حيث لا بـدّ من التوقّف فى كلّ محطّـة مـدّة زمنية، و طبقا لبعض الرّوايات فإنّ عدد هذه المواقف خمسون موقفا، و فى بعضـها لا يسأل الإنسان إطلاقا، إذ أنّ سـيماء وجهه تحكى عمّا فى داخله، كما ستبيّنه الآيات اللاحقة.

كمـا أنّ بعض المواقف الاـخرى لاـ يسـمح له بالكلاـم، حيث تشـهد عليه أعضـاء بـدنه قـال تعـالى: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۴

[۴۰۴] كما أنّ فى بعض المحطّات يسأل الإنسان و بدقّة متناهية عن كافّة أعماله ۴۰۵].

و فى بعض المواقف يسلك الإنسان سبيل الجدل و الدفاع و المخاصمة[۴۰۶].

و خلاصة القول: إنّ كلّ محطّة لها شروطها و خصوصياتها، و كلّ واحدة منها أشدّ رعبا من الاخرى.

و مرّة اخرى يخاطب سبحانه عباده حيث يقول: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

نعم إنّه لا يسأل حيث يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ ۴۰۷] فهناك وجوه تطفح بالبشر و النور و تعبّر عن الإيمان و صالح الأعمال، و اخرى مسودّة قاتمة مكفهّرة غبراء تحكى قصّة كفرهم و عصـيانهم قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ.[۴۰۸] ثمّ يضيف سبحانه: فَيُؤْخَذُ بِالنَّواصِي وَ الْأَقْدامِ

«النواصـى»: جمع ناصـية و كما يقول الراغب فى المفردات أنّ الأصل بمعنى الشـعر بمقدّمـة الرأس من مادّة (نصأ) على وزن (نصـر) و تعنى الاتّصال و الارتباط، «و أخذ بناصـيته» بمعنى أخذه من شعره الذى فى مقدّمة رأسه، كما تأتى أحيانا كناية عن الغلبة الكاملة على الشىء.

أقدام: جمع «قدم» بمعنى الأرجل.

و المعنى الحقيقى للآيـة المباركـة هـو أنّ الملائكـة تأخـذ المجرمين فى يوم القيامـة من نواصـيهم و أرجلهم، و يرفعونهم من الأـرض بمنتهى الذلّة و يلقونهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۵

جهنّم، أو أنّه كناية عن منتهى ضـعف المجرمين و عجزهم أمام ملائكة الرحمن، حيث يقذفونهم فى نار جهنّم بذلّة تامّة، فما أشدّ هذا المشهد و ما أرعبه!! و مرّة اخرى يضيف سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ لأنّ التذكير بيوم القيامة هو لطف منه تعالى.

ثمّ يقول سبحانه: هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ

و ذكر المفسّـرون تفاسـير مختلفـة حول المخاطبين المقصودين فى هذه الآية الكريمة، و هل هم حضّار المحشـر؟ أو أنّ المخاطب هو شخص الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فحسب، و قـد ذكر له هذا المعنى فى الدنيا؟ و المرجّح فى رأينا هو المعنى الثانى خاصّة، لأـنّ الفعل (يكـذّب) جاء بصـيغة المضارع. و أسـتفيد من (المجرمون) ما يحمل على الغائب، و هـذا يوضّـح أنّ اللّه تعالى قال لرسوله صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: هذه أوصاف جهنّم التى ينكرها المجرمون باستمرار فى هذه الدنيا. و قيل: إنّ المخاطب هو جميع الجنّ و الإنس حيث يوجّه لهم إنذار يقول لهم فيه: هذه جهنّم التى ينكرها المجرمون، لها مثل هذه الأوصاف التى تسمعونها، لذلك يجب أن تنتبهوا و تحذروا أن يكون مصيركم هذا المصير.

و يضيف سبحانه فى وصف جهنّم و عذابها المؤلم الشديد حيث يقول:

يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ

«آن» و «آنى» هنـا بمعنى المـاء المغلى و فى منتهى الحرارة و الإـحراق، و فى الأصـل من مادّة (إنّا) على وزن (رضا) بمعنى الوقت لأنّ الماء الحارق وصل إلى وقت و مرحلة نهائية.

و بهـذه الحالـة فـإنّ المجرمين يحترقون وسط هـذا اللهيب الحارق لنار جهنّم، و يظمأون و يسـتغيثون للحصول على ماء يروى ظمأهم، حيث يعطى لهم ماء مغلى (أو يصبّ عليهم) ممّا يزيد و يضاعف عذابهم المؤلم.

و يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ (عين حميم) الحارقة تكون بجنب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۶

جهنّم، و يلقى فيها من يسـتحقّ عذابها ثمّ فى النار يسـجرون، قال تعالى: يُسْـحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْـجَرُونَ [۴۰۹] و التعبير ب يَطُوفُونَ بَيْنَها وَ بَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ فى الآية مورد البحث، يتناسب أيضا مع هذا المعنى.

و مرّة اخرى بعد هذا التنبيه و التحذير الشديد الموقظ، الذى هو لطف من اللّه يقول البارئ عزّ و جلّ: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۴۶ الى ۵۵]

اشارة

وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ (۴۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۷) ذَواتا أَفْنانٍ (۴۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۴۹) فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ (۵۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۱) فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ (۵۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۳) مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ (۵۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۵)

التّفسير

الجنّتان اللتان أعدتا للخائفين:

يترك القرآن الكريم وصفه لأهل النار و حالاتهم البائسة لينقلنا إلى صفحة جديدة من صفحات يوم القيامة، و يحدّثنا فيها عن الجنّة و أهلها، و ما أعدّ لهم من النعم فيها، و التى يصوّرها سبحانه بشكل مشوّق و مثير ينفذ إلى أعماق القلوب فى عملية مقارنة لما عليه العاصون من عذاب شديد يحيط بهم و التى تحدّثت عنها الآيات السابقة، و ما ينتظر المؤمنين من جنّات و عيون و قصور و حور فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۸

أعلاه، يقول سبحانه: وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ

«الخوف» من مقام اللّه، جاء بمعنى الخوف من مواقف يوم القيامة و الحضور أمام اللّه للحساب، أو أنّها بمعنى الخوف من المقام العلمى للّه و مراقبته المستمرّة لكلّ البشر[۴۱۰].

و التّفسير الثّانى يتناسب مع ما ذكر فى الآية (۳۳) من سورة الرعد: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسيره لهذه الآية أنّه قال: «و من علم أنّ اللّه يراه و يسمع ما يقول، و يعلم ما يعلمه من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذى خاف مقام ربّه و نهى النفس عن الهوى»[۴۱۱].

و يوجد هنا تفسير ثالث. هو أنّ الخوف من اللّه تعالى لا يكون بسبب نار جهنّم، و الطمع فى نعيم الجنّة، بل هو الخوف من مقام اللّه و جلاله فقط.

و هنالك تفسير رابع أيضا، و هو أنّ المقصود من (مقام اللّه) هو الخوف من مقام عدالته، لأنّ ذاته المقدّسة لا تستلزم الخوف، إنّما هو الخوف من عدالته، الذى مردّه هو خوف الإنسان من أعماله، و الإنسان المنزّه لا يخشى الحساب.

و من المعروف أنّ المجرمين إذا مرّوا بالمحكمة أو السجن ينتابهم شىء من الخوف بسبب جناياتهم على عكس الأبرار حيث يتعاملون بصورة طبيعيّة مع الأماكن المختلفة.

و للخوف من اللّه أسباب مختلفة، فأحيانا يكون بسبب قبح الأعمال و انحراف الأفكار، و اخرى بسبب القرب من الذات الإلهيّة حيث الشعور بالخوف و القلق من الغفلة و التقصير فى مجال طاعة اللّه، و أحيانا اخرى لمجرّد تصوّرهم لعظمة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۱۹

اللامتناهية و ذاته اللامحدودة فينتابهم الشعور بالخوف و الضعة أمام قدسيته العظيمة .. و هذا النوع من الخوف يحصل من غاية المعرفة للّه سبحانه، و يكون خاصا بالعارفين و المخلصين لحضرته.

و لا تضادّ بين هذه التفاسير فيمكن جمعها فى مفهوم الآية.

و أمّا (جنّتان) فيمكن أن تكون الاولى ماديّة جسمية، و الثانية معنوية روحية، كما فى قوله تعالى: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ [۴۱۲] ففى هذه الآية مضافا إلى الجنّة الماديّة حيث الأنهار تجرى من تحت الأشجار و المطهّرات من الزوجات، هناك جنّة معنوية أيضا حيث الحديث عن رضوان اللّه تعالى.

أو أنّ الجنّة الاولى جزاء أعمالهم، و الجنّة الثانية تفضل على العباد و زيادة فى الخير لهم، يقول سبحانه: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ [۴۱۳] أو أنّ هناك جنّة للطاعة و اخرى لترك المعصية.

أو أنّ أحدهما للإيمان، و الثانية للأعمال الصالحة.

أو لأنّ المخاطبين من الجنّ و الإنس، لذا فإنّ كلّ واحدة من هاتين الجنّتين تتعلّق بطائفة منهما.

و من الطبيعى أن لا دليل على كلّ واحد من هذه التفاسير، و يمكن جمعها فى مفهوم هذه الآية، إلّا أنّ من الطبيعى أنّ اللّه تعالى هيّأ لعباده الصالحين نعما عديدة لهم فى الجنّة حيث مستقرّهم، و لأهل النار (مياه حارقة و سعير لا يطاق).

و مرّة اخرى: و بعد ذكر هذه النعم العظيمة يخاطب الجميع بقوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۰

ثمّ يضيف سبحانه فى وصفه لهاتين الجنّتين بقوله: ذَواتا أَفْنانٍ

«ذواتا» تثنية (ذات) بمعنى صاحب و مالك ۴۱۴].

«أفنان» جمع (فنن) على وزن (قلم) و الكلمة فى الأصل بمعنى الغصون الطريّة المملوءة من الأوراق، كما تأتى أحيانا بمعنى «النوع». و يمكن أن يستعمل المعنيان فى الآية مورد البحث، حيث فى الصورة الاولى إشارة إلى الأغصان الطرية لأشجار الجنّة، على عكس أشجار الدنيا حيث غصونها هرمة و يابسة.

كما يشير فى الصورة الثانية إلى تنوّع نعم الجنّة و أنواع الهبات فيها، لذا فلا مانع من استعمال المعنيين.

كما يحتمل أن يراد معنى آخر و هو أنّ لكلّ شجرة عدّة غصون مختلفة و فى كلّ غصن نوع من الفاكهة.

و بعد ذكر هذه النعم يكرّر سبحانه السؤال مرّة اخرى فيقول: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و لأنّ البساتين النضرة و الأشجار الزاهية ينبغى أن تكون لها عيون، أضاف سبحانه فى وصفه لهذه الجنّة بقوله: فِيهِما عَيْنانِ تَجْرِيانِ

ثمّ يطرح مقابل هذه النعمة الإضافية قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و بالرغم من أنّ الآية أعلاه لم توضّح لنا شيئا عن طبيعة هاتين العينين الجاريتين و عبّرت عنها بصيغة نكرة، فإنّ هذه الموارد عادة تكون دليلا على العظمة الإلهيّة، و قد ذكر بعض المفسّرين أنّ المقصود بهاتين العينين هما «سلسبيل» و تسنيم» قال تعالى: عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا،[۴۱۵] و قال تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۱

وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [۴۱۶] و قيل أيضا أنّ هاتين العينين هما، الاولى: «الشراب الطهور»، و الثانية:

«العسل المصفّى» و قد جاءتا كليهما فى سورة محمّد، الآية ۱۵.

و إذا فسّرنا ال «جنّتان» فى الآيات السابقة ب (الجنّتين المعنوية و المادية) فإنّ (العينين) يمكن أن تكونا عين معنوية و هى (عين المعرفة) و عين ماديّة (عيون الماء الزلال أو الحليب أو العسل أو الشراب الطهور) و لكن لا يوجد دليل خاصّ لأىّ من هذه التفاسير.

و فى الآية اللاحقة ينتقل البحث إلى فاكهة هاتين الجنّتين حيث يقول سبحانه:

فِيهِما مِنْ كُلِّ فاكِهَةٍ زَوْجانِ قسم يشاهد مثيله فى الدنيا، و الآخر لا نظير له فى هذا العالم أبدا. كما فسّرها البعض أنّهما نوعان من الفاكهة صيفى و شتوى، أو يابس و طرى، أو صغير و كبير، إلّا أنّه لا يوجد دليل واضح على أى من هذه الآراء.

إلّا أنّ من المسلّم به، أنّ الفاكهة الموجودة فى الجنّة متنوّعة و مختلفة تماما عن فواكه الدنيا و لا يقاس طعم فواكه الجنّة بطعم فواكه الدنيا و مذاقها.

ثمّ يضيف سبحانه قوله: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

لقد طرحت فى الآيات السابقة ثلاث صفات لهاتين الجنّتين، و تستعرض الآية الكريمة التالية الصفة الرابعة حيث يقول تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلى فُرُشٍ بَطائِنُها مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۴۱۷].

و فى الغالب أنّ الإنسان عند ما يتكئ يكون فى جوّ هادئ و فى أمان تامّ، و هذا التعبير يدلّل على الهدوء الكامل و الاستقرار التامّ لدى أهل الجنّة.

«فرش» على وزن «حجب»، جمع فراش، و هو الفراش الذى يبسط.

و «بطائن» جمع بطانة، و هى القماش الداخلى للفرش.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۲

و «إستبرق» بمعنى الحرير السميك.

و الشىء الظريف هنا أنّ أثمن قماش يتصوّر فى هذه الدنيا يكون بطانة لتلك الفرش، إشارة إلى أنّ القسم الظاهر لا يمكننا و صفه من حيث الجمال و الجاذبية.

حيث أنّ البطانة غالبا ما تستعمل من القماش الردىء قياسا للوجه الظاهرى، و على هذا فإنّنا نلاحظ أنّ أراد نوع من القماش فى ذلك العالم يعتبر من أثمن و أرقى أنواع القماش فى الدنيا، فكيف الحال بالثمين من متاع الجنّة؟

و من المسلّم أنّ الهبات الإلهية فى عالم الآخرة لا نستطيع وصفها بالألفاظ، و لا حتّى تصوّرها، إلّا أنّ الآيات الكريمة تعكس لنا شبحا و ظلالا عنها من خلال ألفاظها المعبّرة.

و نقرأ أيضا فى وصف المتع لأهل الجنّة حيث يحدّثنا القرآن عنهم بأنّهم يتكئون على «الأرائك»- التخت الذى له متّكأ- و «السرير» هو- التخت الذى ليس له متكأ- و الاتّكاء هنا على فرش، و علينا عندئذ أن نتصوّركم هى اللذات المتنوّعة فى الجنّة، حيث تارة يتكأ على الأرائك و اخرى على السرر المفروشة بهذه الأفرشة الثمينة، و قد تكون امور اخرى من هذه النعم لا نستطيع إدراكها نحن سكّان هذا العالم.

و أخيرا، و فى خامس نعمة يشير سبحانه إلى كيفية هذه النعم العظيمة حيث يقول: وَ جَنَى الْجَنَّتَيْنِ دانٍ

نعم لا توجد صعوبة فى قطف ثمار الجنّة كالصعوبة التى نواجهها فى عالمنا هذا.

(جنى) على وزن (بقى) و تعنى الفاكهة التى نضج قطفها. (دان) فى الأصل (دانى) بمعنى قريب.

و مرّة اخرى يخاطب الجميع سبحانه بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۳

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۵۶ الى ۶۱]

اشارة

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۵۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۷) كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ (۵۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۵۹) هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ (۶۰)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۱)

التّفسير

الجنّة و الزوجات الحسان:

فى الآيات السابقة ذكرت خمسة أقسام من هبات و خصوصيات الجنّتين، و هنا نتطرّق لذكر النعمة السادسة و هى الزوجات الطاهرات، حيث يقول سبحانه:

فِيهِنَّ قاصِراتُ الطَّرْفِ ۴۱۸] قد قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ، و ليس لهنّ معشوق سواهم. ثمّ يضيف تعالى: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ

لا جَانٌ ۴۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۴

و بناء على هذا فإنّهن بواكر و لم يمسهنّ أحد .. طاهرات من كلّ الجوانب.

نقل عن (أبى ذرّ) أنّ (زوجة الجنّة تقول لزوجها .. أقسم بعزّة ربّى إنّى لم أجد شيئا أفضل منك فى الجنّة، فالشكر للّه وحده، الذى جعلنى زوجة لك و جعلك زوجا لى)[۴۲۰].

«طرف» على وزن (حرف) بمعنى جانب العين، و بما أنّ الإنسان عند ما يريد النظر يحرّك أجفانه، لذا فقد استعمل هذا اللفظ كناية عن النظر، و بناء على هذا فإنّ التعبير بقاصرات الطرف إشارة إلى النساء اللواتى يقصرن نظراتهنّ على أزواجهنّ. و يعنى أنّهنّ يكنّ الحبّ و الودّ لأزواجهنّ فقط، و هذه هى إحدى ميزات الزوجة التى لا تفكّر بغير زوجها و لا تضمر لسواه الودّ.

و فى التعقيب على نعمة الجنّة هذه يكرّر قوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

ثمّ يتطرّق إلى المزيد من وصف الزوجات الموجودات فى الجنّة حيث يقول:

كَأَنَّهُنَّ الْياقُوتُ وَ الْمَرْجانُ حيث تكون بشرتهنّ باحمرار وصفاء و لمعان الياقوت و بياض و جمال غصون المرجان، و عند ما يختلط هذان الوصفان (الأبيض و الأحمر الشفّاف) فإنّه يمنحهنّ روعة الجمال التى لا مثيل لها.

الياقوت: حجر معدنى و يكون غالبا أحمر اللون.

و المرجان: هو حيوان بحرى يشبه أغصان الشجر، يكون أبيض اللون أحيانا و اخرى أحمر و ألوان اخرى، و الظاهر أنّ المقصود به هنا هو النوع الأبيض ۴۲۱].

و مرّة اخرى، و بعد ذكر هذه النعمة يقول سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى نهاية هذا البحث يقول عزّ و جلّ: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ ۴۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۵

و هل ينتظر أن يجازى من عمل عملا صالحا فى الدنيا بغير الإحسان الإلهى؟

و بالرغم من أنّ بعض الرّوايات الإسلامية فسّرت «الإحسان» فى هذه الآية بالتوحيد فقط، أو التوحيد و المعرفة، أو الإسلام، إلّا أنّ الظاهر أنّ كلّ واحد فى هذه التفاسير هو مصداق لهذا المفهوم الواسع الذى يشمل كلّ إحسان فى العقيدة و القول و العمل.

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «آية فى كتاب اللّه مسجّلة. قلت:

و ما هى؟ قال: قول اللّه عزّ و جلّ: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ جرت فى الكافر و المؤمن و البرّ و الفاجر، من صنع إليه معروف فعليه أن يكافئ به، و ليس المكافأة أن تصنع كم صنع حتّى تربى، فإنّ صنعت كما صنع كان له الفضل فى الابتداء»[۴۲۳].

و بناء على هذا فالجزاء الإلهى فى يوم القيامة يكون أكثر من عمل الإنسان فى هذه الدنيا. و ذلك تماشيا مع الاستدلال المذكور فى الحديث أعلاه.

يقول الراغب فى المفردات: الإحسان فوق العدل، و ذاك أنّ العدل هو أن يعطى ما عليه، و يأخذ ماله، و الإحسان أن يعطى أكثر ممّا عليه و يأخذ أقلّ ممّا له فالإحسان زائد على العدل ..

و يتكرّر قوله سبحانه مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و ذلك لأنّ جزاء الإحسان بالإحسان نعمة كبيرة من قبل اللّه تعالى، حيث يؤكّد سبحانه أنّ جزاءه مقابل أعمال عباده مناسب لكرمه و لطفه و ليس لأعمالهم، مضافا إلى أنّ طاعاتهم و عباداتهم إنّما هى بتوفيق اللّه و لطفه، و بركاتها تعود عليهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۶

بحث

جزاء الإحسان:

ما قرأناه فى الآيـة الكريمة: هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ هو قانون عام فى منطق القرآن الكريم، حيث يشـمل اللّه سـبحانه و الخلق و كافّة العباد، و المسـلمون جميعا يعلمون بعموميـة هذا القانون و عليهم مقابلة كلّ خير بزيادة، كما ذكر الإمام الصادق عليه السّـلام فى حـديثه أعلاه حيث يفترض أن يكون التعويض أفضـل من العمل المنجز (المقـدّم) و ليس مساويا له، و إلّا فإنّ المبتـدئ بالإحسان هو صاحب الفضل.

و حول أعمالنا فى حضـرة البارئ عزّ و جلّ فإنّ المسألـة تأخـذ بعـدا آخر، حيث أنّ أحـد الطرفين هو اللّه العظيم الكريم الذى شـملت رحمته و ألطافه كلّ عالم الوجود، و إنّ عطاءه و كرمه يليق بـذاته و ليس على مسـتوى أعمال عباده، و بناء على هذا فلا عجب أن نقرأ فى تأريـخ الأمم بصورة متكرّرة أنّ أشـخاصا قـد شـملتهم العنايـة الإلهيّة الكبيرة بالرغم من إنجازهم لأعمال صـغيرة، و ذلك لخلوص نيّاتهم و من ذلك القصّة التالية:

نقل بعض المفسّرين أنّ شخصا مسلما شاهد امرأة كافرة تنثر الحبّ للطيور فى الشتاء فقال لها: لا يقبل هذا العمل من أمثالك، فأجابته: إنّى أعمل هـذا سواء قبل أم لم يقبل، و لم يمض وقت طويل حتّى رأى الرجل هـذه المرأة فى حرم الكعبـة. فقالت له: يا هـذا، إنّ اللّه تفضّل علىّ بنعمة الإسلام ببركة تلك الحبوب القليلة[۴۲۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۷

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۶۲ الى ۶۹]

اشارة

وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ (۶۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۳) مُدْهامَّتانِ (۶۴) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۵) فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ (۶۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۷) فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ (۶۸) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۶۹)

التّفسير

جنّتان بأوصاف عجيبة:

بعـد بيان صـفات جنّتى الخائفين و خصوصـياتهما المتميّزة، و اسـتمرارا للبحث ينتقل الحديث فى الآيات التالية عن جنّتين بمرتبة أدنى من السـابقتين يكونـان لأشـخاص أقـلّ خوفـا و إيمانـا باللّه تعالى من الفئـة الاولى، حيث إنّ هـدف العرض هو بيان سلسـلة درجات و مراتب للجنان تتناسب مع الإيمان و العمل الصالح للأفراد.

يقول سبحانه فى البداية: وَ مِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ

ذكر تفسير أنّ لهذه الآية الأوّل: أحدهما ما بيّناه أعلاه.

و التّفسير الآخر هو أنّه توجد جنّتان أخريان غير تلكما الجنّتين لهؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۸

الأشخاص أنفسهم حيث يتجوّلون و يتنقّلون بين حدائق هذه الجنان، لأنّ طبع الإنسان ميّال للتنوّع و التبدّل.

و بالنظر إلى لحن هذه الآيات و الرّوايات التى وردت فى تفسيرها فانّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و نقرأ

حديثا للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «و جنّتان من فضّة آنيتهما و ما فيهما، جنّتان من ذهب آنيتهما و ما فيهما» (أنّ التعبير بالذهب و الفضّة يمكن أن يكون كناية عن اختلاف مرتبة و درجة كلّ من الجنّتين)[۴۲۵].

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية قال: «لا تقولنّ الجنّة الواحدة، إنّ اللّه تعالى يقول: «و من دونهما جنّتان»، و لا تقولنّ درجة واحدة، إنّ للّه تعالى يقول «درجات بعضها فوق بعض» إنّما تفاضل القوم بالأعمال»[۴۲۶].

و فى نفس الموضوع

ورد حديث للرسول محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «جنّتان من ذهب للمقرّبين، و جنّتان من ورق لأصحاب اليمين»[۴۲۷]

أى من فضّة.

ثمّ يضيف سبحانه: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

ثمّ ذكر القرآن الخصوصيات الخمس لهاتين الجنّتين التى تشبه- إلى حدّ ما- ما ذكر حول الجنّتين السابقتين، كما أنّهما تختلفان فى بعض الخصوصيات الاخرى حيث يقول سبحانه: مُدْهامَّتانِ

«مدهامتان»: من مادّة (أدهيمام) و من أصل (دهمه) على وزن (تهمه) و معناها فى الأصل السواد و ظلمة الليل، ثمّ أطلقت على الخضرة الغامقة المعتمة، و لأنّ مثل هذا اللون يحكى عن غاية النضرة للنباتات و الأشجار، ممّا يعكس منتهى السرور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۲۹

و الإنشراح، لهذا فقد استعمل لهذا المعنى.

و يضيف سبحانه مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى الآية اللاحقة يصف الجنّة وصفا إضافيا حيث يقول سبحانه: فِيهِما عَيْنانِ نَضَّاخَتانِ

«نضّاختان» من مادّة (نضخ) بمعنى فوران الماء.

و مرّة اخرى يسأل سبحانه عن الإنس و الجنّ سؤالا استنكاريا فيقول: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و تتحدّث الآية التالية حول فاكهة هاتين الجنّتين حيث تقول: فِيهِما فاكِهَةٌ وَ نَخْلٌ وَ رُمَّانٌ

لا شكّ أنّ للفاكهة مفهوما واسعا يشمل جميع أنواعها، إلّا أنّ التمر و الرمّان خصّا بالذكر هنا لأهميّتهما الخاصّة، لا كما يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ ذكرهما هو لأنّهما لا يدخلان ضمن مفهوم الفاكهة، إذ أنّ هذا التصوّر خاطئ، لأنّ علماء اللغة أنكروا ذلك، بالإضافة إلى أنّ عطف الخاصّ على العام فى الموارد التى لها امتيازات أمر معمول به و طبيعى. قال تعالى: مَنْ كانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ رُسُلِهِ وَ جِبْرِيلَ وَ مِيكالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكافِرِينَ [۴۲۸] و هنا جاءت عبارة (جبريل و ميكال) و هما من الملائكة العظام بعد ذكر لفظ الملائكة بصورة عامّة.

و يكرّر سبحانه السؤال مرّة اخرى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۰

بحث

قيمة الفاكهة:

الشيء الجدير بالذكر أنّ الآيات أعلاه خصّت الفاكهة بالذكر من بين مختلف أنواع أغذية الجنّة كما خصّت فاكهتى (الرطب و الرمّان) بالذكر من بين جميع فواكه الجنّة أيضا.

و الغريب هنا ذكر النخل بدلا من الرطب، أمّا الرمّان فقد ذكر باسمه، و لا بدّ أن يكون لكلّ واحد من هذه الفواكه خصوصية.

أمّا ذكر الفاكهة بالخصوص من بين عموم الأغذية الموجودة فى الجنّة فذلك لأهميّة الفاكهة فى تغذية الإنسان: حتّى قيل: أنّ الإنسان موجود آكل للفاكهة، و للفاكهة دور مهمّ فى وجود الإنسان و دوام حياته لا على الصعيد العلمى فقط، بل من الناحية التجريبيّة لعموم الناس أيضا.

أمّا ذكر شجرة النخيل بدل فاكهتها فيمكن أن يكون للحاظ أنّ هذه الشجرة موضع استفادة من جهات عديدة، فى حين أنّ شجرة الرمّان ليست كذلك.

فالنخلة يستفاد من ورقها فى صنع وسائل عديدة من لوازم الحياة كالفرش و القبّعات و الملابس و وسائل الحمل و النقل و الأسرّة، و يستفاد من أليافها فى امور شتّى كذلك، كما أنّ البعض منها له خواص طبية، و حتّى أنّ جذعها يستخدم كأعمدة فى البناء أو جسور لعبور الأنهار.

أمّا إختيار هاتين الفاكهتين من بين جميع فواكه الجنّة فهو بسبب تنوّعهما:

فأحدهما: ينمو فى المناطق الحارّة (النخيل). و الاخرى: تنمو فى المناطق الباردة (الرمّان). أحدهما تتميّز بالمادّة السكرية، و الاخرى تتميّز بالمادّة الحامضية، واحدة حارّة من حيث طبيعتها و الاخرى باردة، إحداهما مغذّية و الاخرى مرويّة.

كما أنّ التمر يتمتّع بالكثير من المواد الحياتية و أنواع الفيتامينات، و قد اكتشفت ثلاث عشرة مادّة حياتية فيه، و خمس أنواع من الفيتامينات بالإضافة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۱

إلى بقيّة خواصها الاخرى، (و قد بحثناها فى نهاية الآية رقم (۵) من سورة مريم فى هذا التّفسير تحت عنوان: التمر غذاء مقوّ و باعث للنشاط).

و أمّا «الرمّان» الذى عرّف فى بعض الرّوايات الإسلامية بأنّه سيّد الفواكه ۴۲۹]، فقد ذكر العلماء تفاصيل كثيرة حول فوائد هذه الفاكهة و منها تنقية الدم، و احتوائها على مقادير كبيرة من فيتامين (سى). كما ذكرت فى الكتب فوائد كثيرة اخرى للرمّان (الحلو و الحامض) كتقوية المعدة، و دفع الحمى الصفراء، و اليرقان، و الجرب (مرض جلدى) و تقوية البصر، و رفع التقيّحات المزمنة، و تقوية اللثة، و دفع الإسهال ... كما نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى التأكيد على هذه الفاكهة: «أطعموا صبيانكم الرمّان فإنّه أسرع لشبابهم»[۴۳۰].

و

جاء فى حديث آخر: «فإنّه أسرع لألسنتهم»[۴۳۱].

و

جاء فى حديث آخر للإمام الصادق عليه السّلام و الإمام الباقر عليه السّلام أنّهما قالا: «و ما على وجه الأرض ثمرة كانت أحبّ إلى رسول اللّه من الرمّان»[۴۳۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۲

الآيات [سورة الرحمن (۵۵): الآيات ۷۰ الى ۷۸]

اشارة

فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ (۷۰) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۱) حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ (۷۲) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۳) لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ (۷۴)
فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۵) مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ (۷۶) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (۷۷) تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ (۷۸)

التّفسير

زوجات الجنّة .. مرّة اخرى:

استمرار لشرح نعم الجنّتين التى ذكرت فى الآيات السابقة، تتحدّث هذه الآيات عن قسم آخر من هذه النعم التى تزخر بها جنان اللّه التى أعدّها للصالحين من عباده، حيث يقول سبحانه فى البداية: فِيهِنَّ خَيْراتٌ حِسانٌ ۴۳۳].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۳
تستعمل كلمة (خير) غالبا للصفات الجيّدة و الجمال المعنوى، أمّا «حسن» فإنّها تستعمل للجمال الظاهر. لذا فإنّ المقصود ب خَيْراتٌ حِسانٌ أولئك النسوة اللواتى جمعن بين حسن السيرة، و حسن الظاهر.
و جاء فى الرّوايات فى تفسير هذه الآية أنّ الصفات الحسنة للزوجات فى الجنّة كثيرة و من جملتها طيب اللسان و النظافة و الطهارة، و عدم الإيذاء، و عدم النظر للرجال الأجانب .. و الخلاصة أنّ جميع صفات الخير و الجمال التى يجب أن تكون فى الزوجة الصالحة موجودة فيهنّ، و هذه الصفات إشارة للصفات العالية التى يجب أن تكون فى نساء هذه الدنيا و يجسّدن الاسوة بذلك لجميع الناس و القرآن الكريم يعبّر عنهنّ باختصار رائع أنهنّ خَيْراتٌ حِسانٌ ۴۳۴].
ثمّ يضيف مستمرّا فى وصف الزوجات فى الجنّة: حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ
«حور»: جمع حوراء و أحور، و تطلق على الشخص الذى يكون سواد عينه قاتما و بياضها ناصعا، و أحيانا تطلق على النساء اللواتى يكون لون وجوههنّ أبيض.
و التعبير ب «مقصورات» إشارة إلى أنهنّ مرتبطات و متعلّقات بأزواجهنّ و محجوبات عن الآخرين.
«خيام»: جمع خيمة، و كما ورد فى الرّوايات الإسلامية، فإنّ الخيم الموجودة فى الجنّة لا تشبه خيم هذا العالم من حيث سعتها و جمالها.
و «الخيمة» كما ذكر علماء اللغة و بعض المفسّرين لا تطلق على الخيم المصنوعة من القماش المتعارف فحسب. بل تطلق أيضا على البيوت الخشبية و كذلك كلّ بيت دائرى. و قيل أنّها تطلق على كلّ بيت لم يكن من الحجر
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۴
و أشباهه ۴۳۵].
و مرّة اخرى يكرّر السؤال نفسه بقوله تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ
و يضيف سبحانه وصفا آخر لحوريات الجنّة حيث يقول: لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ ۴۳۶].
و يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الزوجين المؤمنين فى هذه الدنيا سيلتحقان فى الجنّة مع بعضهما و يعيشان فى أفضل الحالات ۴۳۷].

و يستفاد أيضا من الرّوايات أنّ درجة و مقام زوجات المؤمنين الصالحات أعلى و أفضل من حوريات الجنّة[۴۳۸] و ذلك بما قمن به فى الدنيا من صالح الأعمال و عبادة اللّه سبحانه.

ثمّ يضيف تعالى: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

و فى آخر وصف للنعم الموجودة فى هذه الجنّة يذكر سبحانه تعالى: مُتَّكِئِينَ عَلى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَ عَبْقَرِيٍّ حِسانٍ

«رفرف» فى الأصل بمعنى الأوراق الواسعة للأشجار، ثمّ أطلقت على الأقمشة الملوّنة الزاهية التى تشبه مناظر الحدائق.

«عبقرى» فى الأصل بمعنى كلّ موجود قلّ نظيره، و لذا يقال للعلماء الذين يندر وجودهم بين الناس (عباقرة) و يعتقد الكثير أنّ كلمة (عبقر) كان فى البداية اسما لمدينة (بريان) انتخبه العرب لها، لأنّ هذه المدينة كانت فى مكان غير معلوم و نادر. لذا فإنّ كلّ موضوع يقلّ نظيره ينسب لها و يقال «عبقرى»، و ذكر البعض أنّ «عبقر» كانت مدينة تحاك فيها أفضل المنسوجات الحريرية[۴۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۵

و المعنى الأصلى لهذه الكلمة متروك فى الوقت الحاضر و تستعمل كلمة «عبقرى» ككلمة مستقلّة بمعنى نادر الوجود، و تأتى جمعا فى بعض الأحيان، كما فى الآية مورد البحث.

و (حسان) جمع (حسن) على وزن «نسب» بمعنى جيّد و لطيف.

و على كلّ حال فإنّ هذه التعابير حاكية جميعا عن أنّ كلّ موجودات الجنّة رائعة: الفاكهة، الغذاء، القصور، الأفرشة ... و الخلاصة أنّ كلّ شىء فيها لا نظير له و لا شبيه فى نوعه، و لا بدّ من القول هنا أنّ هذه التعبيرات لا تستطيع أبدا أن تعكس تلك الإبداعات العظيمة بدقّة، و إنّها تستطيع- فقط- أن ترسم لنا صورة تقريبية من الصورة الحقيقيّة للموجودات فى الجنّة.

و للمرّة الأخيرة و هى (الحادية و الثلاثون) يسأل سبحانه جميع مخلوقاته من الجنّ و الإنس هذا السؤال: فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ

هل النعم المعنوية؟ أم النعم الماديّة؟ أم نعم هذا العالم؟ أم الموجودة فى الجنّة؟ إنّ كلّ هذه النعم شملت وجودكم و غمرتكم .. إلّا أنّه- مع الأسف- قد أنساكم غروركم و غفلتكم هذه الألطاف العظيمة، و مصدر عطائها و هو اللّه سبحانه الذى أنتم بحاجة مستمرّة إلى نعمه فى الحاضر و المستقبل .. فأيّا منها تنكرون و تكذّبون؟

و يختم السورة سبحانه بهذه الآية الكريمة: تَبارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ

«تبارك» من أصل (برك) على وزن (درك) بمعنى صدر البعير، و ذلك لأنّ الجمال حينما تبرك تضع صدرها على الأرض أوّلا، و من هنا استعمل هذا المصطلح بمعنى الثبات و الدوام و الاستقامة، لذا فإنّ كلمة (مبارك) تقال للموجودات الكثيرة الفائدة، و أكرم من تطلق عليه هذه الكلمة هى الذات الإلهيّة المقدّسة باعتبارها مصدرا لجميع الخيرات و البركات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۶

و استعملت هذه المفردة هنا لأنّ جميع النعم الإلهيّة- سواء كانت فى الأرض و السماء فى الدنيا و الآخرة و الكون و الخلق- فهى من فيض الوجود الإلهى المبارك، لذا فإنّ هذا التعبير من أنسب التعابير المذكورة فى الآية لهذا المعنى.

و المقصود من (اسم) هنا هو صفات اللّه تعالى خصوصا الرحمانية التى هى منشأ البركات، و بتعبير آخر فإنّ أفعال اللّه تعالى مصدرها من صافته، و إذا خلق عالم الوجود فذلك من إبداعه و نظام خلقه، و إذا وضع كلّ شىء فى ميزان فذلك ما أوجبته حكمته، و إذا وضع قانون العدالة حاكما على كلّ شىء فإنّ (علمه و عدالته) توجبان ذلك. و إذا عاقب المجرمين بأنواع العذاب الذى مرّ بنا فى هذه السورة فإنّ (انتقامه يقضى ذلك، و إذا شمل المؤمنين الصالحين بأنواع الهبات و النعم العظيمة الماديّة و المعنوية- فى هذا العالم و فى الآخرة- فإنّ رحمته الواسعة أوجبت ذلك، و بناء على هذا فإنّ اسمه يشير إلى صفاته و صفاته هى نفس ذاته المقدّسة.

و التعبير ب ذِي الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ إشارة إلى كلّ صفات جماله و جلاله: ذِي الْجَلالِ إشارة إلى الصفات السلبية، و (ذى الإكرام) إشارة إلى الصفات الثبوتية.

و الملفت للنظر هنا أنّ هذه السورة بدأت باسم اللّه (الرحمن) و انتهت باسم اللّه ذی الجلال و الإکرام) و کلاهما ینسجمان مع مجموعة مواضیع السورة.

ملاحظات

۱- فی الآیة رقم (۳۷) من هذه السورة بعد ذکر النعم الإلهیّة المختلفة المعنویة و المادیّة فی الدنیا یقول سبحانه: وَ یَبْقی وَجْهُ رَبِّکَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ

و فی نهایة السورة و بعد ذکر أنواع النعم الاخرویة یقول سبحانه: تَبارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۷

إنّ هاتین الآیتین توضّحان حقیقة مهمّة و هی أنّ جمیع الخطوط تنتهی إلی ذاته المقدّسة، و أنّ جمیع ما فی الوجود مصدره اللّه سبحانه، فالدنیا منه، و العقبی کذلک، و إنّ جلاله و إکرامه قد شمل کلّ شیء.

۲- و نقرأ

فی حدیث للرسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ رجلا کان یدعو اللّه فی حضرته حیث قال: «یا ذا الجلال و الإکرام فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قد استجیب لک فسل ۴۴۰].

و

جاء فی حدیث آخر أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم شاهد رجلا یقیم الصلاة حیث دعا بعد الرکوع و السجود و التشهّد بهذا الدعاء: اللهمّ انّی أسألک بأنّ لک الحمد، لا إله إلّا أنت وحدک لا شریک لک، المنّان بدیع السماوات و الأرض یا ذا الجلال و الإکرام یا حی یا قیّوم انّی أسألک ... فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لقد دعا اللّه باسمه العظیم الذی إذا دعی به أجاب، و إذا سئل به أعطی»[۴۴۱].

۳- نقرأ

فی حدیث للإمام الباقر علیه السّلام فی تفسیر الآیة: تَبارَکَ اسْمُ رَبِّکَ ذِی الْجَلالِ وَ الْإِکْرامِ أنّه قال: «نحن جلال اللّه و کرامته التی أکرم العباد بطاعتنا»[۴۴۲].

و من الواضح أنّ أهل البیت علیه السّلام لا یدعون لغیر اللّه، و لا یأمرون بغیر طاعته و هم هداة الطریق إلیه، و سفن النجاة فی بحر الحیاة المتلاطم. و بناء علی هذا، فإنّهم یمثّلون مصادیق جلال اللّه و إکرامه، لأنّ اللّه تعالی قد شمل الناس بنعمة الهدایة بواسطة أولیائه.

۴- ذکر البعض أنّ أوّل آیات قرئت فی مکّة علی قریش علنا هی الآیات الأوائل لهذه السورة یقول عبد اللّه بن مسعود رضی اللّه عنه قال: اجتمع یوما أصحاب رسول اللّه فقالوا: و اللّه ما سمعت قریش هذا القرآن یجهر لها به قطّ. فمن رجل یسمعهموه؟ فقال عبد اللّه بن مسعود: أنا، قالوا: إنّا نخشاهم علیک، إنّما نرید رجلا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۸

له عشیرة یمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعونی فإنّ اللّه سیمنعنی، قال: فغذا ابن مسعود حتّی أتی المنام فی الضحی، و قریش فی أندیتها، حتّی قام عند المقام ثمّ قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ رافعا بها صوته: الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ قال: ثمّ استقبلها یقرؤها قال: فتأمّلوه فجعلوا یقولون: ماذا قال ابن أمّ عبد؟ قال: ثمّ قالوا:

إنّه لیتلو بعض ما جاء به محمّد فقاموا إلیه فجعلوا یضربون فی وجهه، و جعل یقرأ حتّی بلغ منها ما شاء اللّه أن یبلغ. ثمّ انصرف إلی أصحابه و قد أثّروا فی وجهه.

فقالوا له: هذا الذی خشینا علیک، فقال: ما کان أعداء اللّه أهون علیّ منهم الآن، و لئن شئتم لأغادینّهم بمثلها غدا، قالوا: لا حسبک قد أسمعتهم ما یکرهون ۴۴۳].

و لهذا السبب فقد اعتبر ابن مسعود أوّل مسلم جهر بالقرآن فی مکّة أمام المشرکین ۴۴۴].

ربّنا، یا ذا الجلال و الإکرام، نقسم علیک بجلالک و إکرامک ألّا تحرمنا من نعم و هبات الجنّة.

ربّاه، إنّ دائرة رحمتک واسعة جدّا، و إنّنا لم نعمل عملا یلیق برحمتک، فعاملنا بما یلیق بمقام رحمانیّتک.

إلهنا، نحن لا نکذّب أیّا من نعمک، و نعتبر أنفسنا غارقین بإحسانک دائما، فأدم نعمک علینا.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الرحمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۳۹

سورة الواقعة

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها ستّ و تسعون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۱

«سورة الواقعة»

محتوی السورة:

نقل فی کتاب «تأریخ القرآن» عن ابن الندیم أنّ سورة الواقعة هی السورة الرابعة و الأربعین التی نزلت علی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ۴۴۵]، و کانت قبلها سورة (طه) و بعدها (الشعراء).

هذه السورة- کما هو واضح من لحنها، و ذکره المفسّرون أیضا- نزلت فی مکّة، بالرغم من أنّ بعضهم قال: إنّ الآیتین (۸۱، ۸۲) نزلتا فی المدینة، إلّا أنّ هذا الادّعاء لیس له دلیل، کما أنّ محتوی الآیتین الکریمتین لا یساعدان علی ذلک أیضا.

و سورة الواقعة- کما هو واضح من اسمها- تتحدّث عن القیامة و خصوصیاتها، و هذا المعنی واضح فی جمیع آیات السورة الستّ و التسعین. و لذا فإنّ هذا الموضوع هو الأساس فی البحث.

إلّا أنّنا نستطیع أن نلخّص موضوعات السورة فی ثمانیة أقسام:

۱- بدایة ظهور القیامة و الحوادث المرعبة المقترنة بها.

۲- تقسیم أنواع الناس فی ذلک الیوم إلی ثلاثة طوائف: (أصحاب الیمین، و أصحاب الشمال، و المقرّبین).

۳- بحث مفصّل حول مقام المقرّبین، و أنواع الجزاء لهم فی الجنّة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۲

۴- بحث مفصّل حول القسم الثانی فی الناس و هم أصحاب الیمین، و أنواع الهبات الإلهیّة الممنوحة لهم.

۵- بحث حول أصحاب الشمال و ما ینتظرهم من جزاء مؤلم فی نار جهنّم.

۶- بیان أدلّة مختلفة حول مسألة المعاد من خلال بیان قدرة اللّه عزّ و جلّ، و خلق الإنسان من نطفة حقیرة، و ظهور الحیاة فی النباتات، و نزول المطر، اشتعال النار .. و التی تدخل أیضا ضمن أدلّة التوحید.

۷- وصف حالة الاحتضار و الانتقال من هذا العالم إلی حیث العالم الاخروی و التی تعتبر من مقدّمات یوم القیامة.

۸- و أخیرا نظرة إجمالیة کلیّة حول جزاء المؤمنین و عقاب الکافرین.

و أخیرا تنهی السورة آیاتها باسم اللّه العظیم.

فضیلة تلاوة هذه السورة:

حول فضیلة تلاوة هذه السورة ذکرت روایات کثیرة فی المصادر الإسلامیة نقرأ منها

حدیثا لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال: «من قرأ سورة الواقعة لم یکتب من الغافلین»[۴۴۶]

و ذلک لأنّ آیات هذه السورة تتّصف بالتحریک و الإیقاظ بصورة لا تسمح للإنسان أن یبقی فی جوّ الغفلة.

و حول هذا المعنی نقرأ حدیثا آخر لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث

یقول: «شیّبتنی هود و الواقعة و المرسلات و عمّ یتساءلون»[۴۴۷]

و ذلک لأنّ الأخبار التی وردت فی هذه السورة أخبار مثیرة عن القیامة و الحشر و الحوادث المرعبة و عقاب المشرکین، و ذکر حالة الأقوام السابقة و ما حلّ بهم من البلاء.

و نقرأ أیضا

فی حدیث للإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ فی کلّ لیلة جمعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۳

الواقعة أحبّه اللّه و حبّبه إلی الناس أجمعین، و لم یر فی الدنیا بؤسا أبدا و لا فقرا و لا فاقة، و لا آفة من آفات الدنیا، و کان فی رفقاء أمیر المؤمنین»[۴۴۸].

و

جاء فی حدیث آخر أنّ عثمان بن عفّان عاد عبد اللّه بن مسعود فی مرضه الذی توفّی فیه فقال له: ماذا تشتکی؟ قال: ذنوبی، قال: فیم ترغب؟ قال: فی رحمة ربّی، قال: ألا ألتمس لک طبیبا؟ قال: أمرضنی الطبیب؟ قال: ألا آمر لک بعطیّة؟ قال: لم تأمر لی بها إذ کنت أحوج إلیها، و تأمر لی الآن و أنا مستغن عنها، قال: فلتکن هی لبناتک، قال: لا حاجة لهنّ بها فإنّی قد أمرتهنّ بقراءة سورة الواقعة، و إنّی سمعت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فاقة یقول: «من قرأ سورة الواقعة کلّ لیلة لم تصبه أبدا»[۴۴۹].

و لهذا السبب سمّیت سورة الواقعة حسب ما ورد فی روایة اخری بسورة الغنی ۴۵۰].

و من الواضح أنّنا لا نستطیع الحصول علی جمیع البرکات التی وردت لهذه السورة بالقراءة السطحیة، بل ینبغی بعد تلاوتها التفکّر و التدبّر، و من ثمّ الحرکة و العمل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة الواقعة (۵۶): الآیات ۱ الی ۱۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱) لَیْسَ لِوَقْعَتِها کاذِبَةٌ (۲) خافِضَةٌ رافِعَةٌ (۳) إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا (۴)

وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا (۵) فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا (۶) وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً (۷) فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۸) وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ (۹)

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (۱۰) أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (۱۱) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۱۲) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۱۳) وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۱۴)

التّفسير

الواقعة العظيمة:

إنّ الأحداث المرتبطة بالقيامة تذكر غالبا فى القرآن الكريم مقترنة بحوادث أساسيّة عظيمة قاصمة و مدمّرة، و هذا ما يلاحظ فى الكثير من السور القرآنية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۵

تتحدّث عن القيامة.

و فى سورة الواقعة حيث يدور البحث حول محور المعاد، نجد هذا واضحا فى الآيات الاولى منها، حيث يبدأ سبحانه بقوله: إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ[۴۵۱].

لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَةٌ و ذلك لأنّ الحوادث التى تسبقها عظيمة و شديدة بحيث تكون آثارها واضحة فى كلّ ذرّات الوجود.

«الواقعة» تشير إشارة مختصرة إلى مسألة الحشر، و لأنّ وقوعها حتمى فقد عبّر عنها ب (الواقعة) و اعتبر البعض أنّها إحدى أسماء القيامة.

كلمة (كاذبة) هنا أخذت بمعناها المصدرى، و هى إشارة إلى أنّ وقوع القيامة ظاهر و واضح إلى حدّ لا يوجد أى مجال لتكذيبه أو بحثه و النقاش فيه.

كما أنّ البعض فسّرها بمعناها الظاهرى الذى هو اسم الفاعل، حيث قالوا بعدم وجود من يكذّب هذا الأمر[۴۵۲].

و على كلّ حال فإنّ الحشر لا يقترن بتغيير الكائنات فحسب، بل إنّ البشر يتغيّر كذلك كما يقول سبحانه فى الآية اللاحقة خافِضَةٌ رافِعَةٌ[۴۵۳].

أجل، أنّها تذلّ المستكبرين المتطاولين، و تعزّ المحرومين المؤمنين و ترفع المستضعفين الصادقين بعض يسقط إلى قاع جهنّم، و بعض آخر إلى أعلى عليين فى الجنّة.

و هذه هى خاصية المبادئ الإلهيّة العظيمة.

و لذلك نقرأ

فى رواية الإمام على بن الحسين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «خافضة خفضت و اللّه أعداء اللّه فى النار، رافعة رفعت و اللّه أولياء اللّه إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۶

الجنّة»[۴۵۴].

ثمّ يستعرض القرآن الكريم وصفا أوسع فى هذا الجانب حيث يقول: إِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا.

يا له من زلزال عظيم و شديد إلى حدّ أنّ الجبال فيه تندكّ و تتلاشى، قال تعالى: وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا.

(رجّت) من مادّة (رجّ) على وزن (حجّ) بمعنى التحرّك الشديد للشيء و تقال رجرجة للاضطراب.

«بسّت» من مادّة (بسّ) على وزن (حجّ). و الأصل بمعنى تليّين الطحين و تعجنه بواسطة الماء.

«هباء» بمعنى غبار، و «منبث» بمعنى منتشر. قال البعض: إنّ «هباء» هو ذرّات الغبار الصغيرة المعلّقة بالفضاء و لا ـ ترى فى الحالة الاعتيادية، إلّا إذا دخل نور الشمس من نافذة إلى مكان مظلم.

و الآن يجب التفكير بهذه الزلزلة و الإنفجار، كم هو عظيم بحيث تتلاشى الجبال مع ما لها من القوّة و الصلابة بحيث تتحوّل إلى غبار منتشر، و الأعظم هو شدّة الصوت الذى ينتج من هذا الإنفجار الرهيب.

و على كلّ حال فقد نلاحظ فى الآيات القرآنية تعبيرات مختلفة حول وضع الجبال قبل يوم القيامة، و تكشف لنا المراحل المتعدّدة للانفجار العظيم الذى يطرأ على الجبال، حيث يقول عزّ و جلّ فى هذا الصدد:

وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً الطور/ ۱۰.

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ المرسلات/ ۱۰.

فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً الحاقّة/ ۱۴.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۷

وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا المزمل/ ۱۴ أى كالرمل المتراكم.

فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا الواقعة/ ۶ الآية محلّ البحث.

و أخيرا وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ القارعة/ ۲ أى كالصوف المنفوش حيث لا يرى منها إلّا لونها.

و من الواضح أن لا أحد يعلم إلّا اللّه بحقيقة حصول هذه التغيّرات التى لا تحملها الألفاظ، و لا تجسّدها العبارات، اللهمّ إلّا إشارات معبّرة تحكى عظمة و هول هذا الإنفجار العظيم.

و بعد بيان وقوع هذه الظاهرة العظيمة و الحشر الكبير يستعرض القرآن المجيد ذكر حالة الناس فى ذلك اليوم، حيث قسّم الناس إلى ثلاثة أقسام بقول سبحانه: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً.

لفظ (الزوج) لا يقال دائما لجنس المؤنث و المذكّر، بل تطلق هذه اللفظة على الأمور المتقارنة مع بعض، و لكون أصناف الناس فى القيامة و الحشر و النشر تكون متقارنة مع بعضها، لذا يطلق عليها لفظ أزواج.

و حول القسم الأوّل يحدّثنا القرآن الكريم بقوله: فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ[۴۵۵].

المقصود من أصحاب الميمنة هم الأشخاص الذين يعطون صحيفة أعمالهم بأيديهم اليمنى، و هذا الأمر رمز لأهل النجاة، و دليل الأمان للمؤمنين و الصالحين فى يوم القيامة، كما ذكر هذا مرارا فى الآيات القرآنية.

أو أنّ كلمة (ميمنة) من مادّة (يمن) التى أخذت من معنى السعادة، و على هذا التّفسير فإنّ القسم الأوّل هم طائفة السعداء و أهل الحبور و السرور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۸

و بالنظر إلى أنّ الآية اللاحقة تعرّف المجموعة الثانية ب أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ و التى هى مأخوذة من مادّة (شؤم) فإنّ التّفسير الأخير هو الأنسب ۴۵۶].

عبارة «ما أصحاب الميمنة» هو بيان حقيقة السعادة التى ليس لها حدّ و لا يمكن تصوّرها لهؤلاء المؤمنين، و هذه قمّة الروعة فى الوصف لمثل هذه الحالات، و يمكن تشبيه ذلك بقولنا: فلان إنسان يا له من إنسان! ثمّ يستعرض اللّه تعالى المجموعة الثانية بقوله: وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ حيث الشؤم و التعاسة، و استلام صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى التى هى رمز سوء عاقبتهم و عظيم جرمهم و جنايتهم، نتيجة عمى البصيرة و السقوط فى وحل الضلال.

و التعبير ب «ما أصحاب المشئمة» هو الآخر يعكس نهاية سوء حظّهم و شقاوتهم.

و أخيرا يصف المجموعة الثالثة أيضا بقوله سبحانه: وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۴۵۷] أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

(السابقون) ليسوا الـذين سـبقوا غيرهم بالإيمان فحسب، بل فى أعمال الخير و الأخلاق و الإخلاص، فهم أسوة و قدوة و قادة للناس، و لهذا السبب فهم من المقرّبين إلى الحضرة الإلهيّة.

و بناء على هذا، فما نرى من تفسير أسبقية السابقين بالسبق فى طاعة اللّه، أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۴۹

أداء الصـلوات الخمس، أو الجهاد و الهجرة و التوبة فإنّ كلّ واحد من هذه التفاسير تمثّل جانبا من هذا المفهوم الواسع، و إلّا فإنّ هذه الكلمة (السابقون) تشمل جميع هذه الأعمال، و الطاعات و غيرها.

و إذا فسّـرت (السابقون) كما فى بعض الرّوايات الإسـلامية بأنّها تعنى الأشخاص الأربعة و هم «هابيل»، و «مؤمن آل فرعون»، و «حبيب النجّار» الذين تميّز كلّ منهم بأسـبقيته فى قومه، و كذلك «أمير المؤمنين» عليه السّـلام الذى هو أوّل من دخل فى الإسلام من الرجال، فإنّ هذا التّفسير فى الحقيقة هو بيان للمصاديق الواضحة، و ليس تحديدا لمفهوم الآية[۴۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۴۴۹

جاء فى حديث آخر أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أ تدرون من السابقون إلى ظلّ اللّه فى يوم القيامة؟ فقال أصحابه: اللّه و رسـوله أعلم، قـال صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: (الـذين إذا أعطـوا الحـقّ قبلوه، و إذا سـألوه بـذلوه، و حكموا للنـاس كحكمهم لأنفسهم»[۴۵۹].

و جاء فى بعض الرّوايات أيضا أنّ المقصود ب (السابقون) هم‌الأنبياء المرسلون و غير المرسلين ۴۶۰].

«و نقرأ

فى حـديث لابن عبّاس أنّه قال: «سألت رسول اللّه حول هذه الآية فقال: «هكذا أخبرنى جبرائيل، ذلك على و شـيعته هم السابقون إلى الجنّة، المقرّبون من اللّه لكرامته لهم»[۴۶۱].

و كما تقدّم إنّه بيان للمصاديق الواضحة من المفهوم الذى ذكر أعلاه، الذى يشمل جميع (السابقين) فى كلّ الأمم و الشعوب.

ثمّ يوضّح- فى جملة قصيرة- المقام العالى للمقرّبين حيث يقول سبحانه:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۰

فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۴۶۲].

التعبير ب جَنَّاتِ النَّعِيمِ يشـمل أنواع النعم الماديـة و المعنويـة، و يمكن اعتبار هـذا التعبير إشارة إلى أنّ بساتين الجنّة هى وحدها مركز النعمـة و الراحة فى مقابل بساتين الدنيا التى تحتاج إلى الجهد و التعب، كما أنّ حالة المقربين فى الدنيا تختلف عن حالة المقرّبين فى الآخرة، حيث أنّ مقامهم العالى فى الدنيا كان توأما مع المسؤوليات و الطاعات فى حين أنّ مقامهم فى الآخرة سبب للنعمة فقط.

و من البـديهى أنّ المقصود من «القرب» ليس «القرب المكانى» لأنّ اللّه ليس له مكان، و هو أقرب إلينا من أنفسـنا، و المقصود هنا هو «القرب المقامى».

و يشير فى الآية اللاحقة إلى الحالة العددية فى الأمم السابقة و فى هذه الامّة أيضا حيث يقول سبحانه:

ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ أى أنّهم جماعة كثيرة فى الأمم السالفة و الأقوام الاولى.

وَ قَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ

(ثلّة) كما يقول الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ تحوّلت إلى معنى مجموعة من الأشخاص.

و أخذها البعض أيضا من (ثلّ عرشه) بمعنى سقط و انهار، يقال (سقط عرشه و انقلعت حكومته) و اعتبرها البعض (قطعة)، و ذلك بقرينة المقابلة ب (قليل من الآخرين) يكون المعنى القطعة العظيمة.

و طبقا لهاتين الآيتين فإنّ قسما كبيرا من المقرّبين هم من الأمم السابقة، و قسم قليل منهم فقط هم من امّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يثار سؤال هنا و هو: كيف يتناسب العدد القليل من مقرّبى امّة محمّد مع الأهميّة البالغة لهذه الامّة التى وصفها القرآن الكريم بأنّها من أفضل الأمم؟ قال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۱

تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ...[۴۶۳].

و للجواب على هذا السؤال يجدر الالتفات إلى نقطتين:

الاولى: إنّ المقصود من المقرّبين هم السابقون فى الإيمان، و من المسلّم أنّ السابقين لقبول الإسلام فى المصدر الأوّل منه كانوا قلّة، أوّلهم من الرجال الإمام على عليه السّلام، و من النساء خديجة (رض)، فى الوقت الذى نعلم أنّ كثرة الأنبياء السابقين و تعدّد أممهم، و وجود السابقين فى كلّ امّة يؤدّى إلى زيادتهم من الناحية العددية.

و النقطة الثانية: أنّ الكثرة العددية ليست دليلا على الكثرة النوعية، حيث يمكن أن يكون عدد السابقين فى هذه الامّة قليلا، إلّا أنّ مقامهم أفضل كثيرا، كما هو المعروف بين الأنبياء أنفسهم، إذ يختلفون باختلاف درجاتهم: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ [۴۶۴] و ممّا يلزم ذكره أنّ قسما من المؤمنين لم يندرجوا فى زمرة السابقين فى الإيمان، مع توفّر الصفات و الخصوصيات فيهم و التى تجعلهم بنفس درجة السابقين من حيث الأجر و الجزاء، لذلك فقد نقل فى بعض الرّوايات

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «نحن السابقون السابقون و نحن الآخرون»[۴۶۵].

و

جاء فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه خاطب مجموعة من أصحابه فقال لهم: «أنتم السابقون الأوّلون و السابقون الآخرون، و السابقون فى الدنيا إلى و لا يتنا، و فى الآخرة إلى الجنّة»[۴۶۶].

و من الجدير بالملاحظة أنّ بعض المفسّرين فسّر «الأوّلين و الآخرين» ب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۲

(الأوّلين فى الامّة الإسلامية و الآخرين فيها) و انسجاما مع هذا الرأى فإنّ جميع المقرّبين هم من الامّة الإسلامية.

إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآيات و الرّوايات التى وردت فى ذيل هذه الآيات، حيث أنّها عرّفت أشخاصا من الأمم السابقة بالخصوص بعنوان أنّهم من السابقين الأوّلين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

اشارة

عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (۱۵) مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ (۱۶) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ (۱۷) بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (۱۸) لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ (۱۹)

وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۲۰) وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۲۱) وَ حُورٌ عِينٌ (۲۲) كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (۲۳) جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً (۲۵) إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً (۲۶)

التّفسير

الجنّة بانتظار المقرّبين:

هـذه الآيات تتحـدّث عن أنواع نعم الجنّة التى أعـدّها اللّه سـبحانه للقسم الثالث من عباده المقرّبين، و التى كلّ واحدة منها أعظم من أختها و أكرم.

و قد لخّصت هذه النعم بسبعة أقسام:

يقول تعالى فى البداية: عَلى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْها مُتَقابِلِينَ

«سرر» جمع سرير من مادّة (سرور) بمعنى التخت الذى يجلس عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۴

المنعّمين فى مجالس الانس و السرور[۴۶۷].

(موضـون) مـن مـادّة (و ضنّ) على وزن (وزن) و هى فى الأصـل بمعنى نسـج الـدرع، ثمّ أطلقت على كـلّ منسـوج محكم الخيـوط و النسـيج. و المقصود هنا هى الأسرة الموضوعة جنبا إلى جنب بصورة متراصّة. أو أنّ لهذه الأسرة حياكة مخصوصة من اللؤلؤ و الياقوت و ما إلى ذلك، كما قال بعض المفسّرين.

و على كلّ حال، فإنّ بناء هذه الأسـرة و كيفية وضـعها، و مجلس الانس الذى يتشـكّل عليها، و أجواء السـرور و الفرح التى تغمرها، لا نستطيع وصفه بأى بيان.

و نلاحظ اسـتمرار الأوصاف الرائعة فى القرآن الكريم لسرر الجنّة، و مجالس أهلها، و منتديات أحبّتها ممّا يدلّ على أنّ من أهم نعم و ملذّات هؤلاء هى جلسات الانس هذه ...

أمّا أحـاديثهم و مـا يـدور فى حفلاـتهم فليس هنالك أحـد يعلم حقيقتها، فهل هى عن أسـرار الخلق و عجائب الكون؟ أو عن اصول المعرفة و أسـماء اللّه و صـفاته الحسـنى؟ أو عن الحوادث التى حدثت فى هذا العالم؟ أو عن الراحة التى هم عليها بعد التعب و العناء؟ أو عن امور اخرى لا نستطيع إدراكها ...؟ هذا هو سرّ لا يعلمه إلّا اللّه.

ثمّ يتحدث سبحانه عن نعمة اخرى لهم حيث يقول: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ

التعبير ب «يطوف» من مادّة (طواف) إشارة إلى استمرار خدمة هؤلاء (الطوافين) لضيوفهم.

و التعبير ب «مخلّدون» إشارة إلى خلود شبابهم و نشاطهم و جمالهم و طراوتهم، و الأصل أن جميع أهل الجنّة مخلّدون و باقون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۵

أمّا من هم هؤلاء الولدان؟

قال البعض: إنّهم أبناء البشـر من هـذه الـدنيا الـذين توفّوا قبل البلوغ، و صـحيفة أعمالهم بيضاء لم تـدنّس بعـد، فقـد بلغوا هذه المرتبة بلطف اللّه سـبحانه، و خـدمتهم للمقرّبين تقترن بارتيـاح عظيم و رغبـة عميقـة و لـذّة من أفضل اللـذّات، لأنّهم فى خدمـة المقرّبين من الحضرة الإلهيّة.

و قد ورد فى هذا المعنى حديث للإمام على عليه السّلام.

إلّا أنّنا نقرأ فى تفسير آخر أنّهم أطفال المشركين و لأنّهم لم يرتكبوا ذنبا فقد حصلوا على هذه المرتبة، و أطفال المؤمنين يلتحقون بآبائهم و امّهاتهم.

و نقرأ فى تفسير ثالث أنّهم خدّام الجنّة، حيث إنّ اللّه سبحانه قد أعدّهم لهذه المهمّة بشكل خاصّ.

و يضيف القرآن أنّ هؤلاء الولدان يقدّمون لأصحاب الجنّة أقداح الخمر و كؤوس الشراب المأخوذ من أنهار الجنّة بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۴۶۸] و شرابهم هذا ليس من النوع الذى يأخذ لباب العقل و الفكر، حيث يقول تعالى: لا يُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا يُنْزِفُونَ ۴۶۹].

إنّ الحالة التى تنتابهم من النشوة الروحية حين تناولهم لهذا الشراب لا يمكن أن توصف، إذ تغمر كلّ وجودهم بلذّة ليس لها مثيل.

ثمّ يشير سبحانه إلى رابع و خامس قسم من النعم المادية التى وهبها اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۶

للمقرّبين فى الجنّة، حيث يقول سبحانه: وَ فاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۴۷۰] وَ لَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ

إنّ تقديم الفاكهة على اللحم بلحاظ كون الفاكهة أفضل من الناحية الغذائية بالإضافة إلى نكهتها الخاصّة عند أكلها قبل الطعام.

و الذى يستفاد من بعض الرّوايات أنّ غصون أشجار الجنّة تكون فى متناول أيدى أهل الجنّة، بحيث يستطيعون بكلّ سهولة أن يتناولوا أى نوع من الفاكهة مباشرة، و هكذا الحال بالنسبة لبقيّة الأغذية الموجودة فى الجنّة. إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ تقديم الغذاء من قبل (الولدان المخلّدين) له صفاء خاصّ و لطف متميّز حيث أنّ تقديم الطعام يعبّر عن مزيد الاحترام و الإكرام لأهل الجنّة، و تضفى رونقا و بهاء أكثر على مجالس أنسهم. و من المتعارف عليه اجتماعيا بيننا أنّ تقديم الفاكهة و تقريبها من الضيوف من قبل المضيف نفسه يعبّر عن التقدير و المحبّة و الاحترام.

و خصّت لحوم الطيور بالذكر هنا لفضلها على بقيّة أنواع اللحوم، لذا فقد تكرّر ذكرها.

إنّ استعمال تعبير «يتخيّرون» بالنسبة ل (الفاكهة) و يشتهون بالنسبة ل (اللحوم) لا يدلّل على وجود اختلاف بين التعبيرين كما ذهب إليه بعض المفسّرين، بل هما بمعنى واحد بعبارتين مختلفتين، و المقصود بهما أنّ أى غذاء يشتهيه أهل الجنّة يوضع باختيارهم من قبل (الولدان المخلّدين).

ثمّ يشير سبحانه إلى سادس نعمة و هى الزوجات الطاهرات الجميلات حيث يقول سبحانه: حُورٌ عِينٌ ۴۷۱] كَأَمْثالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۷

«حور» كما قلنا سابقا جمع حوراء و أحور، و يقال للشخص الذى يكون سواد عينه شديدا و بياضها شفافا، و (عين) جمع (عيناء) و أعين، بمعنى العين الواسعة، لأنّ أكثر جمال الإنسان فى عيونه، فقد ذكر هذا الوصف خصوصا.

و قال البعض: إنّ «حور» أخذت من مادّة (حيرة) يعنى أنّهنّ جميلات إلى حدّ تصاب العيون بالحيرة عند رؤيتهنّ ۴۷۲].

«مكنون» بمعنى مستور، و المقصود هنا الاستتار فى الصدف، لأنّ اللؤلؤ عند ما يكون مختفيا فى الصدف و بعيدا عن لمس الأيدى يكون شفّافا و ناصعا أكثر من أى وقت. و بالإضافة إلى ذلك قد يكون المقصود أنهنّ مستورات عن أعين الآخرين بصورة تامّة، لا يد تصل إليهنّ و لا عين تقع عليهنّ.

و بعد الحديث عن هذه المنح، و العطايا المادية الستّة، يضيف سبحانه: جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ كى لا يتصوّر أحد أنّ هذه النعم تعطى جزافا، بل إنّ الإيمان و العمل الصالح هو السبيل لنيلها و الحصول عليها، حيث يلزم للإنسان العمل المستمرّ الخالص حتّى تكون هذه الألطاف الإلهيّة من نصيبه.

«و يلاحظ بأنّ (يعملون) فعل مضارع يعطى معنى الاستمرار».

و يتحدّث القرآن الكريم عن سابع نعمة من نعم أهل الجنّة، و هى التى تتسم بالطابع الروحى المعنوى حيث يقول تعالى: لا يَسْمَعُونَ

فِيها لَغْواً وَ لا تَأْثِيماً.

فالجوّ هناك جوّ نزيه خالص بعيد عن الدنس، فلا كذب، و لا تهم، و لا افتراءات، و لا استهزاء و لا غيبة و لا ألفاظ نابية و عبارات لاذعة .. و ليس هنالك لغو و لا كلام فارغ .. بل الموجود هناك هو اللطف و الصفاء و الجمال و المتعة و الأدب و الطهارة، و كم هو طاهر ذلك المحيط البعيد عن الأحاديث المدنّسة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۸

هى السبب فى أكثر انزعاجنا و عدم ارتياحنا فى هذه الدنيا، حيث اللغو و الثرثرة و الكلام اللامسئول و التعبيرات الجارحة! ثمّ يضيف سبحانه: إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً[۴۷۳].

و يسأل هنا: هل أنّ هذا السلام من قبل اللّه تعالى؟ أو أنّه من قبل الملائكة؟ أو هو سلام متبادل بين أهل الجنّة، أو كلّ هذه الأمور؟ الظاهر أنّ الرأى الأخير هو الأنسب، كما أشارت الآيات القرآنية الاخرى إلى ذلك ۴۷۴].

نعم إنّهم لا يسمعون شيئا إلّا السلام، سلام و تحيّة من اللّه، و من الملائكة المقرّبين، و سلامهم و تحيّتهم لبعضهم البعض فى تلك المجالس العامرة المملوءة بالصفاء و التى تفيض بالودّ و الاخوّة و الصدق.

إنّ محيطهم و أجواءهم المغمورة بالسلام و السلامة تسيطر على وجودهم، و إنّ أحاديثهم و حواراتهم المختلفة تنتهى إلى السلام و الاخوّة و الصفاء، و أساسا فإنّ الجنّة هى دار السلام و بيت السلامة و الأمن و الأمان، كما نقرأ فى قوله تعالى:

لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۴۷۵][۴۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۲۷ الى ۴۰]

اشارة

وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ (۲۷) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (۲۸) وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ (۲۹) وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ (۳۰) وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ (۳۱) وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (۳۲) لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ (۳۳) وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (۳۴) إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً (۳۵) فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً (۳۶) عُرُباً أَتْراباً (۳۷) لِأَصْحابِ الْيَمِينِ (۳۸) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (۳۹) وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ (۴۰)

التّفسير

أصحاب اليمين و هباتهم:

بعد بيان الهبات و النعم الماديّة و المعنوية (للمقرّبين) يأتى الدور فى الحديث عن (أصحاب اليمين) تلك الجماعة السعيدة التى تستلم صفحة أعمالها فى (اليد اليمنى) إشارة لنيل الفوز و النجاح فى الامتحان الربّانى.

و يشير سبحانه إلى نعم ستّ، ممّا أنعم به عليهم تمثّل مرحلة أدنى فى مقابل سبع نعم منحها سبحانه إلى المقرّبين من عباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۰

تبدأ الآيات فى الحديث عنهم أوّلا من حيث مقامهم العالى، حيث يقول عزّ و جلّ: وَ أَصْحابُ الْيَمِينِ ما أَصْحابُ الْيَمِينِ ۴۷۷].

إنّ هذا الوصف هو أروع وصف هؤلاء، لأنّ هذا التعبير يستعمل فى موارد لا تستطيع الألفاظ التعبير عنه، و هو تعبير عن المقام العالى لأصحاب اليمين.

و تشير الآية اللاحقة إلى أوّل نعمة منحت لهذه الجماعة حيث تقول: فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ[۴۷۸]. و فى الحقيقة أنّ هذا أنسب و أليق وصف توصف به أشجار الجنّة فى دائرة ألفاظنا الدنيوية، لأنّ (السدر) كما يقول أئمّة اللغة: شجر قوى معمّر يصل طوله إلى أربعين مترا أحيانا و عمره يقرب من ألفى سنة، و لها ظلّ ظليل و لطيف، و السلبية الموجودة فى هذا الشجر أنّه ذو شوك إلّا أنّ وصفه ب (مخضود) من مادّة (خضد)- على وزن (مجد)- بمعنى (إزالة الشوك) تنهى آثار هذه السلبية فى شجر سدر الجنّة.

و

جاء فى حديث: كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقولون: إنّ اللّه ينفعنا بالأعراب و مسائلهم، أقبل أعرابى يوما، فقال: يا رسول اللّه لقد ذكر اللّه فى القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أرى أنّ فى الجنّة شجرة تؤذى صاحبها؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و ما هى» قال: السدر، فإنّ لها شوكا.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أليس يقول اللّه: فى سدر مخضود، يخضده اللّه من شوكه فيجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، إنّها تنبت ثمرا يفتق الثمر منها عن إثنين و سبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر»[۴۷۹].

ثمّ يأتى الحديث عن ثانى هبة لهم حيث يقول سبحانه: وَ طَلْحٍ مَنْضُودٍ.

«الطلح»: شجرة خضراء لطيفة اللون و الرائحة، و ذكر البعض أنّها شجرة الموز

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۱

التى تتميّز بأوراق عريضة جدّا و خضراء و جميلة، و فاكهتها حلوة و لذيذة.

و «منضود»: من مادّة (نضد) بمعنى متراكم.

و ممكن أن يشير هذا التعبير إلى تراكم الأوراق أو تراكم الفاكهة أو كليهما، حتّى أنّ البعض قال: إنّ هذه الأشجار مليئة بالفاكهة إلى حدّ أنّها تغطّى سيقان و أوراق الأشجار.

و قال بعض المفسّرين: بالنظر إلى أنّ أوراق شجر السدر صغيرة جدّا، و أوراق شجر الموز كبيرة جدّا، فإنّ ذكر هاتين الشجرتين إشارة جميلة إلى جميع أشجار الجنّة التى تكون صفاتها بين صفات هاتين الشجرتين ۴۸۰].

ثمّ يستعرض سبحانه ذكر النعمة الثالثة من نعم أهل اليمين بقوله: وَ ظِلٍّ مَمْدُودٍ.

فسّر البعض هذا (الظلّ الواسع) بحالة شبيهة للظلّ الذى يكون بين الطلوعين من حيث انتشاره فى كلّ مكان، و قد نقل حديث للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذا المعنى فى روضة الكافى ۴۸۱].

و المقصود هنا أن لا حرّ فى الجنّة، و أنّ أهلها فى ظلال لطيفة و اسعد تلطّف الروح.

و ينتقل الحديث إلى مياه الجنّة حيث يقول سبحانه: وَ ماءٍ مَسْكُوبٍ

«مسكوب» من مادّة (سكب) على وزن «حرب» و تعنى فى الأصل الصبّ، و لأنّ صبّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيّار أو شلّال فإنّه بذلك يصوّر لنا مشهدا رائعا حيث إنّ خرير المياه ينعش الروح، و يبهر العيون، و هذه هى إحدى الهبات التى منحها اللّه لأهل الجنّة، و من الطبيعى أنّ هذه الجنّة المليئة بالأشجار العظيمة، و المياه الجارية، لا بدّ أن تكون فيها فواكه كثيرة، و هذا ما ذكرته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۲

الآية الكريمة، حيث يقول سبحانه فى ذكر خامس نعمة: وَ فاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ.

نعم، ليست كفواكه الدنيا من حيث محدوديتها فى فصول معيّنة من أسابيع أو شهور، أو يصعب قطفها بلحاظ الأشواك، أو العلو مثل النخيل، أو مانع ذاتى فى نفس الإنسان، أو أنّ المضيف الأصلى الذى هو اللّه و الملائكة الموكّلين بخدمة أهل الجنّة يبخلون عليهم .. كلّا، لا يوجد شىء من هذا القبيل، فالمقتضى موجود بشكل كامل، و المانع بكلّ أشكاله مفقود.

ثمّ يشير سبحانه إلى نعمة اخرى حيث يقول: وَ فُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ أى الزوجات الرفيعات القدر و الشأن.

«فرش»: جمع فراش و تعنى فى الأصل كلّ فراش يفرش و لهذا التناسب فإنّها تستعمل فى بعض الأحيان كناية عن الزوج (سواء كان رجلا أو امرأة) لذا جاء

فى الحديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: (الولد للفراش و للعاهر الحجر).

و فسّر البعض الفرش بمعناها الحقيقى و ليس كناية، و اعتبرها إشارة إلى الفرش الثمينة و التى لها قيمة عظيمة فى الجنّة. و لكن إذا فسّرت بهذه الصورة، فسيقطع ارتباط هذه الآية مع الآيات اللاحقة التى تتحدّث عن حوريات و زوجات الجنّة.

و يصف القرآن الكريم زوجات الجنّة بقوله تعالى: إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً.

و هذه الآية لعلّها تشير إلى الزوجات المؤمنات فى هذه الدنيا حيث يمنحهنّ اللّه سبحانه خلقا جديدا فى يوم القيامة، و يدخلن الجنّة و هنّ فى قمّة الحيوية و الشباب و الجمال و الكمال الظاهر و الباطن، و بشكل يتناسب مع كمال الجنّة و خلوّها من كلّ نقص و عيب.

و إذا كان المقصود بذلك (الحوريات) فإنّ اللّه تعالى خلقهنّ بصورة لا يعتريهنّ فيها غبار العجز و الضعف، و يمكن أن يكون التعبير بالإنشاء إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۳

المعنيين أيضا.

ثمّ يضيف تعالى: فَجَعَلْناهُنَّ أَبْكاراً.

و احتمال أن يكون الوصف مستمرّا، كما صرّح كثير من المفسّرين بذلك، و أشير له فى الرّوايات الإسلامية أيضا، حيث الزواج لا يغيّر وضعهنّ و يبقين أبكارا[۴۸۲].

و يضيف فى وصفهنّ بوصف آخر فيقول تعالى: عُرُباً.

(عربا) جمع (عروبة) على وزن (ضرورة) بمعنى المرأة التى يحكى وضع حالها عن مقام عفّتها و طهارتها، و عمّا تكنّه من المحبّة لزوجها، (إعراب): على وزن (إظهار) معناه هو نفس مدلول الإظهار، و يأتى هذا المصطلح أيضا بمعنى الفصاحة و لطافة الكلام، و يمكن جمع المعنيين فى هذه الآية.

و الوصف الآخر لهن أَتْراباً أى أنّها متماثلات فى الجمال و أتراب فى الظاهر و الباطن، و متماثلات فى العمر مع أزواجهنّ.

(أتراب) جمع (ترب) على وزن (ذهن) بمعنى المثل و الشبيه، و قال البعض: إنّ هذا المعنى أخذ من الترائب و هى عظام قفص الصدر، لأنّها تتشابه الواحدة مع الاخرى.

إنّ هذا الشبه و التماثل يمكن أن يكون فى أعمار الزوجات بالنسبة لأزواجهنّ، كى يدركن إحساسات و مشاعر أزواجهنّ كاملة، و بذلك تصبح الحياة أكثر سعادة و انسجاما، بالرغم من أنّ السعادة تحصل مع اختلاف العمر أحيانا، إلّا أنّ الغالب ليس كذلك. كما يمكن أن يكون المقصود بالتشابه و التساوى فى الصفات الجمالية و النفسية و حسن الظاهر و الباطن.

ثمّ يضيف تعالى: لِأَصْحابِ الْيَمِينِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۴

و هذا تأكيد جديد على اختصاص هذه الصفات و النعم الإلهيّة بهم.

و يحتمل أيضا أن تكون هذه الجملة مكمّلة لجملة إِنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إِنْشاءً[۴۸۳].

و فى نهاية هذا العرض يقول سبحانه: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَ ثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ

«ثلّة»: فى الأصل بمعنى قطعة مجتمعة من الصوف، ثمّ أطلقت على كلّ مجموعة من الناس عظيمة و متماسكة، و بهذا الترتيب فإنّ مجموعة عظيمة من أصحاب اليمين هم من الأمم السابقة، و مجموعة عظيمة من الامّة الإسلامية، لأنّ بين المجموعتين كثير من الصالحين و المؤمنين. بالرغم من أنّ السابقين للإيمان فى الامّة الإسلامية أقلّ من السابقين للإيمان فى الأمم السابقة، و ذلك لكثرة

تلك الأمم و كثرة أنبيائها.

و قال البعض: إنّ هاتين المجموعتين كلاهما من الامّة الإسلامية، قسم من أوّلهم و قسم من آخرهم، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أصحّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۵

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۴۱ الى ۵۰]

اشارة

وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ (۴۱) فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ (۴۲) وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (۴۳) لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ (۴۴) إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ (۴۵)

وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (۴۶) وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (۴۷) أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (۴۸) قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ (۴۹) لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (۵۰)

التّفسير

العقوبات المؤلمة لأصحاب الشمال:

بعد الاستعراض الذى مرّ بنا حول النعم و الهبات العظيمة التى منحها اللّه سبحانه للمقرّبين من عباده و لأصحاب اليمين من أوليائه، يتطرّق الآن إلى ذكر المجموعة الثالثة أَصْحابُ الشِّمالِ و العذاب المؤلم و العاقبة السيّئة التى حلّت بهم، فى عملية مقارنة لوضع المجموعات الثلاثة حيث يقول البارئ: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۶

أصحاب الشمال هم الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى إشارة إلى سوء عاقبتهم، و أنّهم من أهل المعاصى و الذنوب، و ممّن تكون النار مصيرا لهم، و يستعمل هذا التعبير عادة لبيان (حسن) أو (سوء) نهاية الإنسان كما فى قولنا: السعادة أقبلت علينا يا لها من سعادة!. أو المصيبة داهمتنا يا لها من مصيبة. و كذلك فى قوله تعالى: وَ أَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ

ثمّ يشير سبحانه إلى ثلاثة أنواع من العقوبات التى يواجهونها، الهواء الحارق القاتل من جهة سَمُومٍ و الماء المغلى المهلك من جهة اخرى وَ حَمِيمٍ و ظلّ الدخان الخالق الحارّ من جهة ثالثة وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ هذه الألوان من العذاب تحاصرهم و تطوقهم و تسلب منهم الصبر و القدرة ... إنّها آلام و عذاب لا يطاق، و لو لم يكن غيره من جزاء لكفاهم.

«سموم»: من مادّة (سمّ) بمعنى الهواء الحارق الذى يدخل فى مسام الجلد فتهلكهم، (و يقال للسمّ سمّا لأنّه ينفذ فى جميع خلايا الجسم).

و «حميم»: بمعنى الشىء الحارّ، و هنا جاء بمعنى الماء الحارق و الذى أشير له فى آيات قرآنية سابقة كما فى قوله تعالى يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ [۴۸۴] «يحموم»: من نفس المادّة أيضا، و هنا بمناسبة الظلّ فسّرت الكلمة بمعنى الظلّ الغليظ الأسود و الحارّ.

ثمّ يضيف البارئ مؤكّدا فيقول: لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ

المظلّة عادة تحمى الإنسان من الشمس و المطر و الهواء و لها منافع اخرى، و الظلّ المشار إليه فى الآية الكريمة ليس له من هذه الفوائد شىء يذكر.

و التعبير ب (كريم) من مادّة (كرامة) بمعنى مفيد فائدة، و لذلك فإنّ المتعارف بين العرب إذا أرادوا أن يعرفوا شيئا أو شخصا بانّه

غير مفيد يقولون (لا كرامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۷

فيه).

و من الطبيعى أنّ مظلّة من الدخان الأسود الخانق لا ينتظر منها إلّا الشرّ و الضرر (لا كرامة).

و بالرغم من أنّ أجزاء أهل النار له أنواع مختلفة مرعبة من العذاب، إلّا أنّ ذكر الأقسام الثلاثة يكفى لإعطاء فكرة عن بقيّة الأهوال.

و فى الآيات اللاحقة يذكر الأسباب التى أدّت بأصحاب الشمال إلى هذا المصير المخيف و المشؤوم، و ذلك بثلاث جمل، يقول فى البداية: إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ

«مترف»: كما ورد فى لسان العرب من مادّة ترف- على وزن (سبب)- بمعنى التنعّم، و تطلق على الشخص الذى ملكته الغفلة و جعلته مغرورا سكران، و جرّته إلى الطغيان.[۴۸۵] صحيح أنّ أصحاب الشمال ليسوا جميعا من زمرة المترفين، إلّا أنّ المقصودين فى القرآن الكريم هم أربابهم و أكابرهم.

و الملاحظ فى عصرنا الحاضر أنّ فساد المجتمعات و عوامل الانحراف و رأس الحروب و الدمار و نزيف الدم و أنواع الظلم و مركز الشهوات و الفساد فى العالم أجمع بيد «الزمرة» المترفة المغرورة، و لهذا فالقرآن الكريم قد شخّصهم و حدّد موقفه منهم ابتداء.

و هنالك رأى ثان و هو: إنّ نعم اللّه سبحانه واسعة و عديدة و لا تنحصر بالأموال فقط، بل تشمل الصحّة و الشباب و العمر .. فإذا كانت هذه النعم أو بعضها مبعثا للغرور و الغفلة، فإنّها ستكون مصدرا أساسيا للذنوب، و هذا المفهوم يسرى على أصحاب الشمال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۸

ثمّ يشير سبحانه إلى العامل الثانى الذى كان مصدرا و سببا لعذاب أصحاب الشمال، فيقول سبحانه: وَ كانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ

«الحنث» فى الأصل يعنى كلّ نوع من الذنوب، و قد استعمل هذا المصطلح فى كثير من الموارد بمعنى نقض العهد و مخالفة القسم، لكونه مصداقا واضحا للذنب، و بناء على هذا فإنّ خصوصية أصحاب الشمال ليس فقط فى ارتكاب الذنوب و لكن فى الإصرار عليها، لأنّ الذنب يمكن صدوره من أصحاب اليمين أيضا، إلّا أنّهم لا يصرّون عليه أبدا، و يستغفرون ربّهم و يعلنون التوبة إليه عند تذكّره.

و فسّر البعض «الحنث العظيم» بمعنى الشرك، لأنّه لا ذنب أعظم من الشرك.

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ[۴۸۶].

و فسّر (الحنث) بالكذب، لأنّه أعظم الذنوب، و مفتاح المعاصى، خصوصا حينما يكون الكذب توأما لتكذيب للأنبياء عليه السّلام و المعاد.

و الظاهر أنّ هذه جميعا تعتبر مصاديق للحنث العظيم.

و ثالث عمل سبب لهم هذا الويل و العذاب، هو أنّهم قالوا: وَ كانُوا يَقُولُونَ أَ إِذا مِتْنا وَ كُنَّا تُراباً وَ عِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ

و على هذا فإنّ إنكار القيامة و الذى هو بحدّ ذاته مصدر للكثير من الذنوب، هو وصف آخر لأصحاب الشمال، و مصدر لشقائهم. و تعبير كانُوا يَقُولُونَ يوضّح لنا أنّهم كانوا يصرّون و يعاندون فى إنكار يوم القيامة أيضا.

و هنا مطلبان جديران بالملاحظة و هما:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم فى معرض حديثه عن (المقرّبين) و (أصحاب اليمين) لم يعط توضيحا عن أعمالهم التى سبّبت لهم تلك النعم و ذلك الجزاء، إلّا ضمن إشارة عابرة. أمّا عند ما جاء دور الحديث عن أصحاب الشمال فقد وضّحت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۶۹

أفعالهم بصورة كافية، و ذلك ليكون إتماما للحجّة عليهم من جهة، و إظهار أنّ جزاءهم هذا كان انسجاما مع مبادئ العدالة تماما من

جهة اخرى.

و المسألة الاخرى: أنّ الذنوب الثلاثة التى أشير إليها فى الآيات الثلاثة السابقة كانت بمثابة نفى اصول الدين الثلاثة من قبل أصحاب الشمال.

ففى آخر آية تحدّث القرآن الكريم عن تكذيبهم ليوم القيامة، و فى الآية الثانية عن إنكار التوحيد، و فى الآية الاولى كانت الحديث عن المترفين و هى إشارة إلى تكذيب الأنبياء كما جاء فى قوله تعالى: وَ كَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ [۴۸۷] و التعبير ب تُراباً وَ عِظاماً لعلّه إشارة إلى أنّ لحومنا تتحوّل إلى تراب، و عظامنا إلى رميم، و مع ذلك فكيف نكون خلقا جديد؟

و لمّا كانت عودة الحياة إلى التراب أبعد من عودتها إلى العظام لذا ذكر فى البداية حيث يقول تعالى: تُراباً وَ عِظاماً.

و العجيب أنّ هؤلاء يرون مشاهد المعاد بأعينهم فى هذه الدنيا و مع ذلك فإنّهم ينكرونها[۴۸۸]. ألم يروا إلى الكثير من الموجودات الحيّة كالنباتات تموت و تجفّ و تصبح ترابا ثمّ تلبس لباس الحياة مرّة اخرى، و أساسا فإنّ الذى خلق الخلق أوّل مرّة لن يعييه إعادة الخلق ثانية، و لن يكون عليه ذلك صعبا و عسيرا و لكنّهم مع ذلك يصرّون على إنكار المعاد.

إنّهم لم يكتفوا بما ذكروا و ذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث قالوا بتعجّب: أَ وَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۴۸۹] الذين لم يبق منهم أثر و تناثرت كلّ ذرّة من تراب أجسادهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۰

فى جهة، أو أصبحت جزءا من بدن كائن آخر؟

و لكن، كما قيل مفصّلا فى نهاية سورة ياسين، فإنّ هذه التساؤلات و غيرها ليست سوى حجج واهية أمام الدلائل القويّة المتوفّرة حول مسألة المعاد.

ثمّ إنّ القرآن الكريم يأمر الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يجيبهم: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ۴۹۰].

«ميقات» من مادّة (وقت) بمعنى الزمان الذى يحدّد لعمل ما أو موعد.

و المقصود من الميقات هنا هو نفس الوقت المقرّر للقيامة، حيث يجتمع كلّ البشر للحساب، و يأتى أحيانا كناية عن المكان الذى عين لإنجاز عمل معيّن، مثل مواقيت الحجّ، التى هى أسماء أماكن خاصّة للشروع بالإحرام.

و يستفاد من التعابير المختلفة التى وردت فى الآية السابقة و التأكيدات العديدة حول مسألة الحشر، مثل: (إنّ، اللام، «مجموعون» التى جاءت بصيغة اسم مفعول، و وصف «يوم» بأنّه معلوم) ممّا يكون واضحا و مؤكّدا أنّ حشر جميع الناس ينجز فى يوم واحد، و جاء هذا المعنى فى آيات قرآنية اخرى أيضا[۴۹۱].

و من هنا يتّضح جيّدا أنّ الذين كانوا يتصوّرون أنّ القيامة تقع فى أزمنة متعدّدة حيث إنّ لكلّ امّة قيامة، هم غرباء عن آيات اللّه تماما.

و لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ معلومية يوم القيامة هى عند اللّه فقط، و إلّا فإنّ جميع البشر بما فيهم الأنبياء و المرسلون و المقرّبون و الملائكة ليس لهم علم بتوقيتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۱

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۱ الى ۵۶]

اشارة

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (۵۱) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (۵۲) فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (۵۳) فَشارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (۵۴) فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (۵۵)

هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (۵۶)

التّفسير

عقوبات جديدة للمجرمين:

هذه الآيات استمرار للأبحاث المرتبطة بعقوبات أصحاب الشمال، حيث يخاطبهم بقوله: ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۴۹۲].

كان الحديث فى الآيات السابقة حول الأجواء التى تحيط ب (أصحاب الشمال) و ينتقل الحديث فى الآيات أعلاه إلى مشربهم و مأكلهم مقارنا بمأكل و مشرب المقرّبين و أصحاب اليمين.

و الجدير بالذكر أنّ المخاطبين فى هذه الآيات هم «الضالّون المكذّبون»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۲

الذين يتّسمون مضافا إلى الضلال و الانحراف بأنّ لديهم روح العناد و الإصرار على الباطل فى مقابل الحقّ.

(زقّوم) كما ذكرنا سابقا: نبات مرّ نتن الرائحة و طعمه غير مستساغ، و فيه عصارة إذا دخلت جسم الإنسان يصاب بالتورّم، و تقال أحيانا لكلّ نوع من الغذاء المنفّر لأهل النار[۴۹۳].

و للمزيد حول (الزقّوم) يراجع نهاية الآية (۶۲) سورة الصافات، و كذلك نهاية الآية (۴۳) سورة الدخان.

و التعبير ب فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ إشارة إلى الجوع الشديد الذى يصيبهم بحيث إنّهم يأكلون بنهم و شره من هذا الغذاء النتن و غير المستساغ جدّا فيملئون بطونهم.

و عند تناولهم لهذا الغذاء السيء يعطشون. و لكن ما هو شرابهم؟! يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: فَشارِبُونَ عَلَيْهِ ۴۹۴] مِنَ الْحَمِيمِ فَشارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ

إنّ البعير الذى يبتلى بداء العطش فإنّ شدّة عطشه تجعله يشرب الماء باستمرار حتّى يهلك، و هذا هو نفس مصير الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ فى يوم القيامة.

«حميم»: بمعنى الماء الحارّ جدّا و الحارق، و تطلق عبارة (ولىّ حميم) على طبيعة العلاقة الصادقة الوديّة الحارّة، و «حمّام» مشتقّ من نفس المادّة أيضا.

(هيم) على وزن (ميم) جمع هائم، و اعتبرها البعض جمع أهيم و هيماء، و هى فى الأصل من (هيام) على وزن (فرات) بمعنى مرض العطش الذى يصيب البعير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۳

و يستعمل هذا التعبير للعشق الحادّ أو للعشّاق الذين لا يقرّ لهم قرار.

و يعتبر بعض المفسّرين أنّ معنى (هيم) هى الأراضى الرملية و التى كلّما سقيت بماء تسرّب منها فتظهر الظمأ دائما.

و فى آخر آية- مورد البحث- يشير سبحانه إلى طبيعة مأكلهم و مشربهم فى ذلك اليوم حيث يقول: هذا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ

فأين نزلهم و نزل أصحاب اليمين الذين ينعمون بالاستقرار فى ظلال الأشجار الوارفة، و يتناولون ألذّ الفواكه و أطيب الأطعمة، و

أعذب الشراب الطهور، و يطوف حولهم الولدان المخلّدون و حور العين، و هم سكارى من عشق البارئ عزّ و جلّ؟

أين أولئك؟ و أين هؤلاء؟

مصطلح (نزل) كما قلنا سابقا بمعنى الوسيلة التى يكرمون بها الضيف العزيز، و تطلق أحيانا على أوّل طعام أو شراب يؤتى به للضيوف، و من الطبيعى أنّ أهل النار ليسوا ضيوفا، و أنّ الزقّوم و الحميم ليس وسيلة لضيافتهم. بل هو نوع من الطعن فيهم، و أنّه إذا كان كلّ هذا العذاب هو مجرّد استقبال لهم، فكيف بعد ذلك سيكون حالهم؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۴

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۵۷ الى ۶۲]

اشارة

نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ (۵۷) أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ (۵۸) أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ (۵۹) نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۶۰) عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ (۶۱)

وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ (۶۲)

التّفسير

سبعة أدلّة على المعاد:

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن تكذيب الضالّين ليوم المعاد، فإنّ الآيات اللاحقة استعرضت سبعة أدلّة على هذه المسألة المهمّة، كى يتركّز الإيمان و تطمئن القلوب بالوعود الإلهيّة التى وردت فى الآيات السابقة حول «المقرّبين و أصحاب اليمين و أصحاب الشمال»، و أساسا فإنّ أبحاث هذه السورة تتركّز على بحث المعاد بشكل عامّ.

يقول سبحانه فى المرحلة الاولى: نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَوْ لا تُصَدِّقُونَ أى لم لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۵

تصدّقون بالمعاد[۴۹۵]؟! لماذا تتعجّبون من الحشر و المعاد الجسمى بعد أن تصبح أجسامكم ترابا؟ ألم نخلقكم من التراب أوّل مرّة؟ أليس حكم الأمثال واحدا؟

هذه الاستدلالات فى الحقيقة شبيهة بما جاء فى قوله تعالى: وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [۴۹۶] و فى الآية اللاحقة يشير البارئ إلى دليل ثان حول هذه المسألة فيقول:

أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ ۴۹۷] أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ

من الذى يجعل من هذه النطفة الحقيرة التى لا قيمة لها فى كلّ يوم بخلق جديد و شكل جديد، و خلق بعد خلق؟! هذه التطورات العجيبة التى بهرت العقول و اولى الألباب من المفكّرين، هل كانت من خلقكم أم من خلق اللّه تعالى؟

و هل أنّ القادر على الخلق المتكرّر يعجز عن إحياء الموتى فى يوم القيامة؟

إنّ المفاهيم التى وردت فى هذه الآية تحكى نفس المفاهيم التى جاءت فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا.[۴۹۸] و إذا تجاوزنا ذلك و أخذنا بنظر الإعتبار ما يقوله علماء اليوم حول قطرة الماء هذه (النطفة) التى فى ظاهر الأمر

لا قيمة لها، سوف يتّضح لنا الحال أكثر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۶

حيث يقولون: إنّ الحيمن (الأسبر) هو حيوان مجهرى صغير جدّا و إنّ منىّ الرجل يحتوى على عدد هائل من الحيامن فى كلّ إنزال تقدّر بين (۲- ۵) مليون حيمن و هذا يمثّل مقدار مجموع سكّان عدّة (بلدان فى العالم)[۴۹۹] هذا الحيوان المنوى يتّحد مع بويضة المرأة (أوول)، فتتكوّن البيضة المخصّبة التى تنمو بسرعة و تتكاثر بصورة عجيبة، حيث تصنع خلايا جسم الإنسان، و مع أنّ الخلايا متشابهة فى الظاهر، إلّا أنّها تتوزّع بسرعة إلى مجاميع عديدة، فقسم منها يختص بالقلب، و الآخر بالأطراف، و الثالث بالاذن و الحنجرة، و كلّ مجموعة مستقرّة فى مكانها المحدّد له، فلا خلايا الكلية تنتقل إلى خلايا القلب، و لا خلايا القلب تتحوّل إلى خلايا العين، و لا العكس.

و الخلاصة أنّ «النطفة المخصّبة» فى المرحلة الجنينيّة تمرّ بعوالم عديدة مختلفة حتّى تصبح جنينا، و كلّ هذا فى ظلّ خالقية إلهيّة مستمرّة، فى حين أنّ دور الإنسان فى هذه العملية بسيط جدّا، و يقتصر على وضع النطفة فى الرحم، و الذى ينجز بلحظة واحدة.

أ ليست هذه المسألة دليلا حيّا على مسألة المعاد؟

أو ليست هذه القدرة العظيمة تدلّل على قدرة إحياء الموتى أيضا[۵۰۰].

ثمّ يستعرض ذكر الدليل الثالث حيث يقول سبحانه: نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ

نعم، إنّنا لن نغلب أبدا، و إذا قدّرنا الموت فلا يعنى ذلك أنّنا لا نستطيع أن نمنح العمر السرمدى، بل أنّ الهدف هو أن نذهب بقسم من الناس و نأتى بآخرين محلّهم. و أخيرا نعيدكم خلقا جديدا فى عالم لا تعلمون عنه شيئا عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۷

و فى تفسير هاتين الآيتين هناك و جهة نظر اخرى و هى: أنّ الآية الثانية لم تأت لبيان هدف الآية الاولى و لكن تكملة لها، حيث يريد سبحانه أن يبيّن المعنى التالى و هو: أنّنا لسنا بعاجزين و مغلوبين على أن نذهب بقسم و نأتى بآخرين مكانهم ۵۰۱].

و يوجد تفسيران لجملة عَلى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ

الأوّل: هو نفس التّفسير المذكور أعلاه، و الذى هو المشهور بين المفسّرين، و طبقا لهذا الرأى تكون عملية تبديل الأقوام فى هذه الدنيا.

و الثانى هو: أنّ المقصود من (أمثال) هم نفس البشر الذين يبعثون فى يوم القيامة، و التعبير ب (مثل) لأنّ الإنسان لا يبعث مرّة اخرى بكلّ خصوصياته التى كان عليها، إذ أنّه سيكون فى وقت جديد و كيفيات جديدة من حيث الروح و الجسم.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف هو الاستدلال على المعاد من خلال مسألة الموت، و يمكن توضيح الدليل بالصورة التالية: إنّ اللّه الحكيم الذى خلق الإنسان و قدّر له الموت فطائفة يموتون و آخرين يولدون باستمرار، من البديهى أنّ له هدف.

فإذا كانت الحياة الدنيا هى الهدف فالمناسب أن يكون عمر الإنسان خالدا و ليس بهذا المقدار القصير المقترن مع ألوان الآلام و المشاكل.

و سنّة الموت تشهد أنّ الدنيا معبّرا و ليست منزلا و أنّها جسر و ليست مقصدا، لأنّها لو كانت مستقرّا و مقصد للزم أن تدوم الحياة فيها.

جملة وَ نُنْشِئَكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ ظاهرا إشارة إلى خلق الإنسان يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۸

و التى هى الهدف لحياة و فناء هذه الدنيا، و من البديهى لأى شخص لم ير الدار الآخرة أنّه لن يستطيع إدراكها و معرفة قوانينها و

الأنظمة المسيطرة عليها من خلال الألفاظ و الصور التى تنقل لنا عنها، نعم إنّنا نستطيع أن نرى شبحها و ظلالها فقط من التصوير اللفظى لها، و لذا فإنّ الآية أعلاه تعكس هذه الحقيقة، حيث تذكر أنّ اللّه سيخلقنا فى عالم جديد و بأشكال و ظروف جديدة لا ندرك أسرارها[۵۰۲].

و فى آخر آية- مورد البحث- يتحدّث سبحانه عن رابع دليل للمعاد حيث يقول: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ

هذا الدليل نستطيع بيانه بصورتين:

الاولى: فى المثال التالى: إذا كنا نسير فى صحراء و شاهدنا قصرا مهيبا عظيما مثيرا للإعجاب فى محتوياته و مواد بنائه و هندسته، و قيل لنا: إنّ الهدف من هذا القصر هو استعماله كمحطّة للراحة و الهدوء لعدّة ساعات فقط لقافلة صغيرة .. فإنّنا سنحكم فى أنفسنا بصورة قاطعة على عدم الحكمة فى هذا العمل، إذ من المناسب لمثل الهدف المتقدّم ذكره أن تعد خيمة صغيرة فقط.

و على هذا فإنّ خلق هذه الدنيا العظيمة و ما فيها من أجرام سماوية و شمس و قمر و أنواع المخلوقات الأرضية الاخرى، هل يمكن أن يكون لهدف صغير محدود، كأن يعيش الإنسان فيها بضعة أيّام؟ كلّا ليس كذلك، و إلّا فانّه يعنى أنّ خلق العالم سيكون بدون هدف، و لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المخلوقات العظيمة قد خلقت لموجود شريف- مثل الإنسان- ليعرف اللّه سبحانه من خلالها، معرفة تكون رأسماله الوحيد فى الدار الآخرة، فالهدف إذن هو الدار الآخرة، و هذا دليل آخر على المعاد.

و هذا البيان هو ما نجده فى الآية الشريفة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۷۹

وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا.[۵۰۳] الثانية: هو أنّنا نلاحظ مشاهد المعاد فى هذا العالم تتكرّر أمامنا فى كلّ سنة و فى كلّ زاوية و كلّ مكان، حيث مشهد القيامة و الحشر فى عالم النبات، فتحيى الأرض الميتة بهطول الأمطار الباعثة للحياة قال تعالى: إِنَّ الَّذِى أَحْياها لَمُحْيِ الْمَوْتى [۵۰۴] و قد أشير إلى هذا المعنى كذلك فى الآية ۶ من سورة الحجّ.

ملاحظة

حجيّة القياس:

إنّ هذه المسألة تطرح عادة فى اصول الفقه، و هى أنّنا لا- نستطيع إثبات الحكم الشرعى عن طريق القياس كقولنا مثلا: (إنّ المرأة الحائض التى يجب أن تقضى صومها يجب أن تقضى صلاتها كذلك)- أى يجب أن تكون استنتاجاتنا من الكلّى إلى الجزئى، و ليس العكس- و بالرغم من أنّ علماء أهل السنّة قد قبلوا القياس فى الغالب كأحد مصادر التشريع فى الفقه الإسلامى، فإنّ قسما منهم يوافقوننا فى مسألة (نفى حجيّة القياس).

و الظريف هنا أنّ بعض مؤيّدى القياس أرادوا أن يستدلّوا بمقصودهم بالآية التالية: وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى أى قيسوا النشأة الاخرى (القيامة) على النشأة الاولى (الدنيا).

إلّا أنّ هذا الاستدلال عجيب، لأنّه أوّلا: إنّ المذكور فى الآية هو استدلال عقلى و قياس منطقى، ذلك أنّ منكرى المعاد كانوا يقولون: كيف تكون للّه القدرة على إحياء العظام النخرة؟ فيجيبهم القرآن الكريم بالمفهوم التالى: إنّ القوّة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۰

كانت لها القدرة على خلقكم فى البداية هى نفسها ستكون لها القدرة لخلقكم مرّة ثانية، فى الوقت الذى لا يكون القياس الظنّى بالأحكام الشرعية بهذه الصورة أبدا، لأنّنا لا نحيط بمصالح و مفاسد كلّ الأحكام الشرعية.

و ثانيا: إنّ من يقول ببطلان القياس يستثنى قياس الأولوية، فمثلا يقول تعالى:

فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَ لا تَنْهَرْهُما و نفهم بطريق أولى ألّا تؤذيهما من الناحية البدنية.

و الآيـة مورد البحث من قبيل قياس الأولويـة و ليس لها ربط بالقياس الظنّى مورد الخلاف و النزاع، لأنّه لم يكن شـىء من المخلوقات فى البداية، و اللّه عزّ و جلّ خلق الوجود من العدم و خلق الإنسان من التراب، و لذا فإنّ إعادة الإنسان إلى الوجود مرّة اخرى أيسـر من خلقه ابتـداء، و تعكس الآيـة الكريمة التالية هذا المفهوم حيث يقول تعالى: وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ [۵۰۵] و ننهى حديثنا هذا بالحديث التالى:

«عجبا كلّ العجب للمكذّب بالنشأة الاخرى و هو يرى النشأة الاولى، و عجبا للمصدّق بالنشأة الاخرى و هو يسعى لدار الغرور»[۵۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۱

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۳ الى ۶۷]

اشارة

أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ (۶۳) أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (۶۴) لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (۶۵) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (۶۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۶۷)

التّفسير

هل أنتم الزارعون أم اللّه؟

استعرضـنا لحـدّ الآن أربعة أدلّة من الأدلّة السـبعة التى جاء ذكرها فى هذه السورة حول المعاد، و الآيات- مورد البحث و اللاحقة لها- تستعرض الأدلّة الاخرى المتبقّية و التى كلّ منها مصداق لقدرة اللّه اللامتناهية.

فالدليل الأوّل يرتبط بخلق الحبوب الغذائية، و الثانى يرتبط بخلق الماء، و الثالث يتعلّق بالنار. و هذه المحاور تشـكّل الأركان الأساسـيّة فى الحياة الإنسانية، فالحبوب النباتية أهمّ مادّة غذائية للإنسان، و الماء أهمّ عنصـر للحياة، و النار أهمّ وسـيلة لإصـلاح المواد الغذائية و سائر امور الحياة الاخرى.

يقول سبحانه فى البداية: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۲

الملفت للنظر هنـا أنّ الآيـة اسـتعملت تعبير (تحرثون) من مـادّة (حرث) على وزن (درس) و هو يعنى الزراعـة و نشـر الحبوب و تهيئتها للإنبات، و فى الآية الثانية كان التعبير ب (تزرعونه) من مادّة «زراعة» بمعنى النمو و النضج.

و من البديهى أنّ عمل الإنسان هو الحرث فقط، أمّا النمو فهو من عمل اللّه سبحانه فقط، و لذا نقل

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يقولنّ أحدكم زرعت و ليقل حرثت، فإنّ الزارع هو اللّه»[۵۰۷].

شرح هذا الدليل هو أنّ عمل الإنسان فى الزرع كعمله فى الإنجاب حيث ينثر البذرة و يتركها، و اللّه سـبحانه هو الذى يخلق فى وسـط هـذه البـذرة الحيـاة، فعنـد مـا توضع البـذرة فى محيـط مهيّـأ من حيث التربـة و الضوء و الماء، فإنّها تسـتفيد ابتـداء من المواد الغـذائية المخزونة فيها إلى أن تصـبح برعما و تولّد جذرا، ثمّ تنمو بسـرعة عجيبة مستفيدة من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض حيث تعمل أجهزة عظيمة و تحدث تغييرات عميقة فى داخل النبات، تتمخّض عن أغصان و سيقان و أوراق و ثمار .. و أحيانا تنتج البذرة الواحدة

عدّة آلاف من البذور[۵۰۸].

يقول العلماء: إنّ التركيبات الموجودة فى بناء نبات واحد أعجب و أعقد بمراتب من التشكيلات الموجودة فى مدينة صناعية عظيمة مع معاملها المتعدّدة.

هل أنّ القوّة التى لها مثل هذه القدرة تعجز عن إحياء الموتى مرّة اخرى؟

و فى الآية اللاحقة يؤكّد الدور الهامشى للإنسان فى نمو و رشد النباتات فيقول: لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ

نعم، يستطيع البارئ أن يرسل رياحا سامّة تقتل البذور قبل الإنبات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۳

و تحطّمها، أو يسلّط عليها آفة تتلفها بعد الإنبات كالجراد، أو تنزل عليها صاعقة كبيرة بحيث لا تبقى و لا تذر إلّا شيئا من التبن اليابس، و عند ذلك تضطربون و تندمون عند مشاهدتكم لمنظرها.

هل كان بالإمكان حدوث مثل هذه الأمور إذا كنتم أنتم الزارعون الحقيقيون؟ إذا فاعلموا أنّ كلّ هذه البركات من مصدر آخر.

«حطام»: من مادّة (حطم) على وزن (حتم) تعنى فى الأصل كسر الشىء، و غالبا ما تطلق على كسر الأشياء اليابسة كالعظام النخرة و سيقان النباتات الجافّة، و المقصود هنا هو التبن.

و يحتمل أيضا أنّ المقصود بالحطام هنا هو فساد البذور فى التربة و عدم نموّها[۵۰۹].

«تفكّهون»: من مادّة (فاكهة) بمعناها المتعارف، كما تطلق فكاهة على المزاح و ذكر الطرائف التى هى فاكهة جلسات الانس، و يأتى هذا المصطلح أحيانا للتعجّب و الحيرة، و الآية مورد البحث من هذا القبيل.

فى بعض الأحيان يضحك الإنسان فى الحالة العصبية و تسمّى هذه الضحكة ب (ضحكة الغضب) كما فى المزاح الذى يكون عند الظروف الصعبة و المصائب الثقيلة، و بناء على هذا فالمقصود: بالفاكهة- أحيانا- هو المزاح المقترن بالألم.

نعم تتعجّبون و تغمركم الحيرة و تقولون إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۵۱۰[۵۱۱] بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ

و إذا كنتم أنتم الزارعين الحقيقيين، فهل بإمكانكم أن تمنعوا و تدفعوا عن زرعكم الأضرار و المصير المدمّر و النتيجة البائسة؟ و هذا التحدّى يؤكّد لنا أنّ جميع امور الخلق من اللّه سبحانه، و كذلك فإنّه هو الذى ينبت من بذرة لا قيمة لها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۴

نباتات طريّة و أحيانا مئات أو آلاف البذور منها، تلك النباتات التى يتغذّى عليها الإنسان بشكل أساسى و يستفيد من أغصانها و أوراقها و أحيانا جذورها و بقيّة أجزائها غذاء للحيوان و دواء للأمراض و الأسقام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۵

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۶۸ الى ۷۴]

اشارة

أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (۶۸) أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (۶۹) لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ (۷۰) أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ (۷۱) أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ (۷۲)

نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ (۷۳) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۷۴)

التّفسير

من الذى خلق الماء و النار؟

يشير سبحانه فى هذه الآيات إلى سادس و سابع دليل للمعاد فى هذا القسم من آيات سورة الواقعة، التى تبيّن قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى، بل فى كلّ شىء.

أَ فَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ

أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ

«مزن»: على وزن (حزن) كما يقول الراغب فى المفردات تعنى (الغيوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۶

البيضاء) و فسّرها البعض بأنّها (الغيوم الممطرة)[۵۱۲].

إنّ هذه الآيات تجعل الوجدان الإنسانى أمام استفسارات عدّة كى تأخذ إقرارا منه، حيث يسأل اللّه سبحانه: هل فكّرتم بالماء الذى تشربونه باستمرار و الذى هو سرّ حياتكم؟

و هل تدبّرتم من الذى يأمر الشمس بالشروق على صفحات المحيط حيث تفصل جزئيات الماء الخالص الحلو و الطاهر من بين المياه المالحة؟

و هل علمتم من الذى يحمل هذا البخار نحو السماء؟

و من الذى يأمر البخار بالتجمّع و تشكيل غيوم الأمطار؟

و من الذى يأمر الرياح بالتحرّك و حمل الغيوم إلى الأراضى القاحلة و الميتة؟

و من الذى يمنح للطبقات العليا فى الجوّ هذه الخاصيّة من البرودة بحيث تمنح استمرار صعود البخار نحو الأعلى، كى يتحوّل البخار إلى قطرات صغيرة و ملائمة تسقط على الأرض بهدوء و تعاقب؟

و هل نعلم ماذا سيحدث لو انقطعت الشمس عن الشروق لمدّة سنة واحدة؟

أو توقّفت الرياح عن التحرّك؟

أو رفضت الطبقات العليا حفظ البخار من الصعود إلى الأعلى؟

أو حبسته من النّزول إلى الأرض؟

لا شكّ أنّ الذى سيحدث يمثّل كارثة، حيث يموت الزرع و النخيل و تهلك مزارعكم و حدائقكم و حيواناتكم، بل ستهلكون أنتم من الظمأ أيضا.

إنّ القوّة التى أعطت هذه القدرة و منحت كلّ هذه النعم و البركات العظيمة، بما أودعته من قوانين و نظم فى عالم الخلق، أ تظنّون أنّها غير قادرة على إحياء الموتى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۷

و هل أنّ إحياء الموتى غير هذا؟

أليس إحياء الأراضى الميتة نوعا من أنواع إحياء الموتى؟

نعم، إنّه دليل على ذلك، و هو دليل على التوحيد و عظمة القدرة الإلهيّة، و دليل أيضا على الحشر و المعاد.

و إذا لاحظنا فى الآيات أعلاه عملية استعراض لماء الشرب- فقط- و عدم التحدّث عن تأثيره فى حياة الحيوانات أو النباتات فإنّ السبب هو الأهميّة البالغة للماء فى حياة الإنسان نفسه، بالإضافة إلى أنّه قد أشير له فى الآيات السابقة فى الحديث الزرع، لذا لا حاجة لتكرار ذلك.

و الطريف هنا أنّ أهميّة الماء و تأثيره فى حياة الإنسان تزداد مع مرور الزمن و تقدّم الصناعة و العلم و المعرفة الإنسانية، فالإنسان الصناعى يحتاج إلى الماء بصورة متزايدة، لذلك فإنّ كثيرا من المؤسسات الصناعية العظيمة لا تكون لها القدرة على الفاعلية إلّا حينما تكون على ضفاف الأنهار العظيمة.

و أخيرا- و لإكمال البحث فى الآية اللاحقة- يقول سبحانه: لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَوْ لا تَشْكُرُونَ ۵۱۳].

نعم، لو أراد اللّه تعالى، للأملاح المذابة فى مياه البحار أن تتبخّر مع ذرّات الماء، و تصعد إلى السماء معها و تشكّل غيوما مالحة و مرّة، و تنزل قطرات المطر مالحة مرّة أيضا كمياه البحر، فهل هنالك من قوّة تمنعه؟ و لكنّه بقدرته الكاملة لم يسمح للأملاح بذلك، و لا للمكروبات- أيضا- أن تصعد إلى السماء مع بخار الماء.

و لهذا فإنّ قطرات المطر عند ما يكون الجوّ غير ملوّث تعتبر أنقى و أطهر و أعذب المياه.

«أجاج»: من مادّة (أجّ) على وزن (حجّ) و قد أخذت فى الأصل من «أجيج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۸

النار» يعنى اشتعالها و احتراقها، و يقال «أجاج» للمياه التى تحرق الفمّ عند شربها لشدّة ملوحتها و مرارتها و حرارتها.

نختتم حديثنا هذا بحديث لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث ذكر الرواة

أنّ النّبى كان إذا شرب الماء قال: «الحمد للّه الذى سقانا عذبا فراتا برحمته، و لم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا»[۵۱۴].

و أخيرا نصل إلى سابع- و آخر- دليل للمعاد فى هذه السلسلة من الآيات الكريمة، و هو خلق النار التى هى أهمّ وسيلة لحياة الإنسان و أكثرها أهميّة له فى المجالات الصناعية المختلفة، حيث يقول سبحانه: أَ فَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ

«تورون»: من مادّة «ورى» على وزن (نفى) بمعنى الستر، و يقال للنار التى تكون مخفية فى الوسائل التى لها القابلية على الاشتعال و التى تظهر بشرارة «ورى» و «ايراء»، و خروجها يكون عن.

و توضيح ذلك: إنّ لإشعال النار و إيجاد الشرارة الاولى، و التى تستحصل اليوم بواسطة الكبريت و القداحات و ما إلى ذلك، فإنّهم كانوا يحصلون عليها من الحديد و الحجر المخصّص للقدح، حيث تظهر الشرارة بضرب الواحد بالآخر، أمّا أعراب الحجاز فكانوا يستفيدون من نوعين من الشجر الخاصّ الذى ينمو فى الصحراء و هما (المرخ) و (العفار) حيث يأخذون قطعتى خشب و يضعون الاولى أسفل و العفار فوقه فتتولّد الشرارة منها كما تتولّد من الحجر المستعمل للقدح.

و فسّر أغلب المفسّرين الآية بأنّها دليل آخر على قدرة اللّه البالغة فى النار المخفية فى خشب الأشجار الخضراء كمولّد للشرر و النار، فى الوقت الذى تكون فيه الأشجار الخضراء مشبّعة بالماء، فأين الماء؟ و أين النار؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۸۹

هذا الخالق العظيم الذى يتميّز بهذه القدرة، الذى وضع الماء و النار جنبا إلى جنب الواحد داخل الآخر، كيف لا يستطيع أن يلبس الموتى لباس الحياة، و يحييهم فى الحشر.

و قد ورد دليل شبيه بهذا حول المعاد فى آخر آيات سورة «يس» أيضا يقول تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ [۵۱۵] و لكن كما ذكرنا فى تفسير الآية أعلاه فإنّ تعبير القرآن يمكن أن يكون إشارة إلى دليل أظرف، و هو حشر و تحرّر الطاقات و انطلاقها.

و بتعبير آخر: فإنّ الحديث هنا ليس فقط عن (القادحات) بل عن المواد التى لديها قابلية الاشتعال- كالخشب و الحطب- حيث تولّد عند احتراقها كلّ هذه الحرارة و الطاقة.

و توضيح ذلك: أنّه ثبت من الناحية العلمية أنّ النار التى نشاهدها اليوم عند احتراق الأخشاب هى نفس الحرارة التى أخذتها الأشجار

من الشمس على مرّ السنين و ادّخرتها فى داخلها، فنحن نتصوّر أنّ أشعّة الشمس طيلة إشراقها على الشجر خلال خمسين سنة قد ذهبت آثارها غافلين عن أنّ حرارتها قد ادّخرت فى الشجرة، و عند ما تصل شرارة النار إلى الأخشاب اليابسة تبدأ بالاحتراق و تطلق الحرارة الكامنة فيها.

و بذلك يكون هنا أيضا معاد و محشر و تحيا الطاقات من جديد مرّة اخرى، و لسان حال الأشجار يقول: إنّ الخالق الذى هيّأ لنا الحشر قادر أن يهيّأ لكم حشرا يا بنى البشر. (و لمزيد من الاطلاع فى هذا المجال راجعوا البحث المفصّل الذى بيّناه فى الآية من سورة يس).

جملة (يورون)- بمعنى إشعال النار- بالرغم من أنّها فسّرت هنا بما يستفاد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۰

منه توليد النار، إلّا أنّه لا مانع من أن تشمل الأشياء المشتعلة أيضا كالحطب باعتباره نارا خفيّة تظهر وقت توفّر الشروط المناسبة لها.

و لا تنافى بين المعنيين، حيث المعنى الأوّل يفهمه العامّة من الناس، و الثانى أدقّ، يتوضّح مع مرور الزمن و تقدّم العلم و المعرفة.

و فى الآية اللاحقة يضيف مؤكّدا الأبحاث أعلاه بقوله سبحانه: نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ

إنّ عودة النار من داخل الأشجار الخضراء تذكّرنا برجوع الأرواح إلى الأبدان فى الحشر من جهة، و من جهة اخرى تذكّرنا هذه النار بنار جهنّم.

يقول الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزاء من نار جهنّم»[۵۱۶].

أمّا تعبير مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ فإنّه إشارة قصيرة و معبّرة للفوائد الدنيوية لهذه النار، و قد ورد تفسيران لمعنى المقوين:

الأوّل: أنّ (مقوين) من مادّة (قواء) على وزن (كتاب) بمعنى الصحراء اليابسة المقفرة، و لهذا أطلقت كلمة (المقوين) على الأشخاص الذين يسيرون فى الصحارى، و لأنّ أفراد البادية فقراء، لذا فقد جاء هذا التعبير بمعنى «الفقير» أيضا.

و التّفسير الثانى: أنّ (مقوين) من مادّة (قوّة) بمعنى أصحاب القوّة، و بناء على هذا فإنّ المصطلح المذكور هو من الكلمات التى تستعمل بمعنيين متضادّين ۵۱۷].

صحيح أنّ النار هى مورد استفادة الجميع- و لكن المسافرين يستفيدون منها و يعتمدون عليها فى الدفء و الطهى و خاصّة فى أسفارهم فى الأزمنة القديمة أكثر من الآخرين.

و استفادة «الأقوياء» من النار واضحة أيضا، و ذلك لاتّساع المجالات التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۱

يستعلمون النار فيها فى امور حياتهم المختلفة، خصوصا مع اتّساع دائرة البحث العلمى كما فى عالمنا المعاصر، حيث إنّ الحرارة الناشئة من أنواع النار تحرّك عجلة المصانع العظيمة، و إذا ما تعطّلت هذه الوسيلة المهمّة و انطفأت شعلتها العظيمة- و التى جميعها من الشجر- بما فى ذلك النار المأخوذة من الفحم الحجرى أو المواد النفطية حيث ترجع إلى النباتات بصورة مباشرة أو غير مباشرة- فإنّها ستتعطّل الحياة المدنية، بل و ستنطفئ حياة الإنسان أيضا.

و بدون شكّ فإنّ النار من أهمّ كتشافات البشر، فى حين أنّ اللّه تعالى هو الذى أوجدها و دور الإنسان فيها بسيط و عادى جدّا.

لقد قفز اكتشاف النار بالإنسانية مرحلة مهمّة حيث بدأت تسير من ذلك الوقت فى مراحل جديدة من التمدّن و الرقى.

نعم هذه الحقائق جميعا عبّر عنها القرآن الكريم بجملة قصيرة: نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً وَ مَتاعاً لِلْمُقْوِينَ

و ممّا يجدر ذكره أنّ الآية أعلاه استعرضت فى البداية الفوائد المعنوية للنار، و التى تذكّرنا بيوم القيامة، و التى هى محور الحديث فى هذا البحث، ثمّ انتقلت إلى ذكر تفاصيل الفوائد الدنيوية لها، لأنّ للناحية الاولى أهميّة أكثر، بل تمثّل الأصل و الأساس فى البحث.

بعد ذكر النعم الثلاث (الحبوب الغذائية، و الماء، و النار) و التى روعى ترتيب أهميّتها وفق تسلسل طبيعى- لأنّ اهتمام الإنسان يبدأ أوّلا بالحبوب الغذائية ثمّ يمزجها بالماء و من ثمّ يطهوها و يهيّؤها للغذاء بواسطة النار- يستنتج سبحانه نتيجة مهمّة بعد ما ركّز على

أهميّة هذه النعم للإنسان و ذلك بتسبيحه و الشكر له تعالى باعتباره المصدر الوحيد لهذه النعم .. فيقول سبحانه فى آخر آية مورد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۲

البحث: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۵۱۸].

نعم، إنّ اللّه الذى خلق كلّ هذه النعم، و التى كلّ منها تذكّرنا بقدرته و توحيده و عظمته و معاده، لائق للتسبيح و التنزيه من كلّ عيب و نقص.

إنّه ربّ، و كذلك فإنّه «عظيم» و قادر و مقتدر، و بالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية هو الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ من الواضح أنّ جميع البشر هم المقصودون.

تعقيب

من المناسب هنا الإشارة إلى بعض الأحاديث الشريفة- حول الآيات أعلاه- عن الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذلك عن الإمام على عليه السّلام.

أوّلا: نقرأ

فى تفسير روح المعانى حديثا للإمام على عليه السّلام أنّه فى إحدى الليالى كان الإمام يصلّى و يقرأ سورة الواقعة- و لمّا وصل إلى الآية: أَ فَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ أَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ قال ثلاث مرّات: بعد انتهاء صلاته «بل أنت يا ربّ» و عند ما وصل إلى الآية: أَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ قال ثلاث مرّات «بل أنت يا ربّ» و عند ما وصل إلى قوله تعالى: أَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ قال ثلاث مرّات أيضا «بل أنت يا ربّ» ثمّ تلا قوله تعالى: أَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِؤُنَ قل ثلاث مرّات «بل أنت يا ربّ»[۵۱۹].

و موضع العبرة فى هذا الحديث هى ضرورة ملاحظة هذه الآيات التى وردت فى القرآن الكريم بعنوان استفهام تقريرى و أن يعطى الإنسان جوابا إيجابيا للّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۳

سبحانه الذى يتحدّث معه لتركيز هذه الحقائق فى روحه و نفسه، و عليه أن يتعمّق فى ذلك من خلال القراءة المتدبّرة الواعية، و لا يقتنع بالتلاوة الفارغة.

ثانيا: جاء

فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا تمنعوا عباد اللّه فضل ماء و لا كلأ و لا نار فإنّ اللّه تعالى جعلها متاعا للمقوين، و قوّة للمستضعفين»[۵۲۰].

ثالثا: و نقرأ

فى حديث آخر أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال حينما نزلت الآية الكريمة:

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ «اجعلوها فى ركوعكم»[۵۲۱]،

أى قولوا فى ركوعكم:

سبحان ربّى العظيم و بحمده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۴

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۷۵ الى ۸۲]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ (۷۵) وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (۷۶) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (۷۷) فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ (۷۸) لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (۷۹)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸۰) أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ (۸۱) وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (۸۲)

التّفسير

المطهّرون و معرفة أسرار القرآن:

استمرارا للأبحاث التى جاءت فى الآيات السابقة، و التى تركّز الحديث فيها حول الأدلّة السبعة الخاصّة بالمعاد، ينتقل الحديث الآن عن أهميّة القرآن الكريم باعتباره يشكّل مع موضوع النبوّة ركنين أساسيين بعد مسألة المبدأ و المعاد و التى بمجموعها تمثّل أهمّ الأركان العقائدية، فبالإضافة إلى أنّ للقرآن الكريم أبحاثا عميقة حول أصلى التوحيد و المعاد، فإنّه يعتبر تحكيما لهذين الأصلين.

يبدأ الحديث بقسم عظيم، حيث يقول سبحانه: فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ

يعتقد الكثير من المفسّرين أن (لا) التى جاءت هنا ليست بمعنى النفى حيث إنّها زائدة و للتأكيد، كما جاء نفس هذا التعبير فى الآيات القرآنية الاخرى حول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۵

القسم بيوم القيامة و النفس اللوامة و ربّ المشارق و المغارب و الشفق، و ما إلى ذلك.

فى الوقت الذى اعتبر البعض الآخر أنّ (لا) هنا جاءت للنفى، حيث قالوا: إنّ المطلب (مورد القسم) أهمّ من أن يقسم به، كما نقول فى تعبيراتنا اليوميّة: نحن لا نقسم بالموضوع الفلانى، أى نفى القسم و أنّ (لا) هنا جاءت إشارة لذلك.

إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، لأنّه قد ورد فى القرآن الكريم القسم باللّه صراحة، فهل أنّ النجوم أفضل من الذات الإلهيّة حتّى لا يقسم بها؟

و حول (مواقع النجوم) فقد ذكر المفّسرون تفسيرات عديدة لها:

الأوّل: هو المعنى المتعارف عليه من حيث مداراتها و أبراجها و مسيرها.

و الآخر: هو أنّ المقصود بذلك مواقع طلوعها و غروبها.

و الثّالث: هو سقوط النجوم فى الحشر و القيامة.

و فسّرها آخرون: بأنّ معناه هو غروب النجوم فقط.

و اعتبرها آخرون إشارة و انسجاما مع قسم من الرّوايات حول نزول آيات و سور القرآن الكريم فى فواصل زمنية مختلفة، و ذلك لأنّ «النجوم» جمع نجمة تستعمل للأعمال التى تنجز بصورة تدريجيّة.

و بالرغم من أنّ المعانى لا تتنافى حيث يمكن جمعها فى الآية أعلاه، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، و ذلك لأنّ أكثر الناس كانوا لا يعلمون أهميّة هذا القسم عند نزول الآيات، بعكس الحالة اليوم، و التى توضّح لنا أنّ لكلّ نجمة من النجوم مكانها المخصّص و مدارها و مسارها المحدّد لها بدقّة و حساب، و ذلك طبقا لقانون الجاذبية، و إنّ سرعة السير لكلّ منها محدّدة أيضا وفق قانون معيّن و ثابت.

و هذه المسألة بالرغم من أنّها غير قابلة للحساب بصورة دقيقة فى الأجرام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۶

السماوية البعيدة، إلّا أنّ المجاميع الموجودة فى المنظومة الشمسية التى تشكّل النجوم القريبة لنا، قد درست بدقّة و تبيّن أنّ نظام مداراتها دقيق إلى حدّ مدهش.

و عند ما يلاحظ الإنسان- طبقا لتصريحات العلماء- أنّ فى (مجرّتنا) فقط ألف مليون نجمة، و توجد فى الكون مجرّات كثيرة، و كلّ واحدة منها لها مسار خاصّ، عندئذ ستتوضّح لنا أهميّة هذا القسم القرآنى.

و نقرأ فى كتاب (اللّه و العلم الحديث) ما يلى:

«يعتقد العلماء الفلكيون أنّ هذه النجوم التى تتجاوز المليارات، و التى نرى قسما منها بالعين المجرّدة، و القسم الكثير منها لا يمكن رؤيته إلّا بالتلسكوبات بل إنّ قسما منها لا نستطيع مشاهدته حتّى بالتلسكوبات، اللهمّ إلّا بوسائل خاصّة نستطيع أن نصوّرها بها.

كلّ من هذه النجوم تدور فى مدارها الخاصّ، و لا يوجد أى احتمال أنّ واحدة منها تكون فى حقل الجاذبية لنجمة اخرى. أو أنّ بعضها يصطدم بالبعض الآخر، و فى الواقع أنّ حالة التصادم المفترضة مثل ما لو افترضنا أنّ سفينة فى المحيط الهادىء تصطدم مع سفينة اخرى تجرى فى البحر الأبيض المتوسّط و كلّ منها سائرة بموازاة الاخرى و بسرعة واحدة ... إنّ هذا الأمر لو لم يكن محالا فهو بعيد جدّا. كذلك الأمر بالنسبة للنجوم حيث أنّ كلا منها لها مدارها الخاصّ بها و لن تصطدم بالأخرى رغم السرعة الهائلة لكلّ منها»[۵۲۲].

و بالنظر إلى هذه الاكتشافات العلمية عن وضع النجوم، تتوضّح أهميّة القسم أعلاه، و لهذا السبب فإنّه تعالى يضيف فى الآية اللاحقة:

وَ إِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ

التعبير ب لَوْ تَعْلَمُونَ يوضّح و بشكل جلىّ أنّ معرفة البشر فى ذلك الزمان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۷

لم تدرك هذه الحقيقة بصورة كاملة، و هذه بحدّ ذاتها تعتبر إعجازا علميّا للقرآن الكريم، حيث فى الوقت الذى كانت تعتبر النجوم عبارة عن مسامير فضائية رصّعت السماء بها فانّ مثل هذا البيان القرآنى الرائع فى ظلّ ظروف و أوضاع يخيّم عليها الجهل، محال أن يصدر من بشر عادى.

و توضّح الآية اللاحقة ما هو المقصود من ذكر هذا القسم؟ حيث يقول سبحانه: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ

و بهذه الصورة فإنّه يردّ على المشركين المعاندين الذين يصرّون باستمرار على أنّ هذه الآيات المباركة هى نوع من التكهّن- و العياذ باللّه- أو أنّه حديث جنونى أو شعر، أو أنّه من قبل الشيطان .. فيردّ عليهم سبحانه بأنّه وحى سماوى و حديث بيّن و عظمته و أصالته لا غبار عليها، و محتواه يعبّر عن مبدأ نزوله، و أنّ هذا الموضوع واضح بحيث لا يحتاج لبيان المزيد.

إنّ وصف القرآن ب «الكريم» (بما أنّ الكرم بالنسبة للّه هو: الإحسان و الإنعام، و يستعمل للبشر بمعنى اتّصاف الشخص بالأخلاق و الإحسان، و بصورة عامّة فهو إشارة إلى المحاسن العظيمة)[۵۲۳] إشارة للجمال الظاهرى للقرآن من حيث الفصاحة و بلاغة الألفاظ و الجمل، و كذلك فإنّها إشارة لمحتواه الرائع، لأنّه نزل من قبل مبدأ و منشأ كلّه كمال و جمال و لطف.

نعم، إنّ القرآن كريم و قائله كريم و من جاء به كذلك، و أهدافه كريمة أيضا.

ثمّ يستعرض الوصف الثانى لهذا الكتاب السماوى العظيم حيث يقول تعالى:

فِى كِتابٍ مَكْنُونٍ

إنّه فى «لوح محفوظ» فى علم اللّه، محفوظ من كلّ خطأ و تغيير و تبديل، و طبيعى أنّ الكتاب الذى يستلهم مفاهيمه و أفكاره من المبدأ الأعلى و أصله عند

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۸

اللّه، فإنّه مصون من كلّ تحريف و خطأ و اشتباه.

و فى ثالث وصف له يقول سبحانه: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۵۲۴].

ذكر الكثير من المفسّرين- تماشيا مع بعض الرّوايات الواردة عن الأئمّة المعصومين- بعدم جواز مسّ (كتابة) القرآن الكريم بدون غسل أو وضوء.

فى الوقت الذى اعتبر بعض آخر أنّها إشارة إلى الملائكة المطهّرين الذين لهم علم بالقرآن، و نزلت بالوحى على قلب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مقابل قول المشركين الذين كانوا يقولون: إنّ هذه الكلمات قد نزلت بها الشياطين على محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

كما اعتبر بعضهم أنّها إشارة إلى أنّ الحقائق و المفاهيم العالية فى القرآن الكريم لا يدركها إلّا المطهّرون، كما فى قوله تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۵۲۵] و بتعبير آخر فإنّ طهارة الروح فى طلب الحقيقة تمثّل حدّا أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، و كلّما كانت الطهارة و القداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن و محتوياته بصورة أفضل.

إنّ التفاسير الثلاثة المارّة الذكر لا تتنافى مع بعضها البعض أبدا و يمكن جمعها فى مفهوم الآية مورد البحث.

و فى رابع و آخر وصف للقرآن الكريم يقول تعالى: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۵۲۶] إنّ اللّه المالك و البارئ لجميع الخلق، قد نزّل هذا القرآن لهداية البشر، و قد أنزله سبحانه على قلب النّبى الطاهر، و كما أنّ العالم التكوينى صادر منه و هو تعالى ربّ العالمين فكذلك الحال فى المجال التشريعى، فكلّ نعمة و هداية فمن ناحيته و من عطائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۴۹۹

ثمّ يضيف سبحانه: أَ فَبِهذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ هل أنتم بهذا القرآن و بتلك الأوصاف المتقدّمة تتساهلون، بل تنكرونه و تستصغرونه فى حين تشاهدون الأدلّة الصادقة و الحقّة بوضوح، و ينبغى لكم التسليم و القبول بكلام اللّه سبحانه بكلّ جديّة، و التعامل مع هذا الأمر كحقيقة لا مجال للشكّ فيها.

عبارة «هذا الحديث» فى الآية الكريمة إشارة للقرآن الكريم، و «مدهنون» فى الأصل من مادّة (دهن) بالمعنى المتعارف عليه، و لأنّ الدهن يستعمل للبشرة و امور اخرى، فإنّ كلمة (أدهان) جاءت بمعنى المداراة و المرونة، و فى بعض الأحيان بمعنى الضعف و عدم التعامل بجدية ... و لأنّ المنافقين و الكاذبين غالبا ما يتّصفون بالمداراة و المصانعة، لذا استعمل هذا المصطلح أحيانا بمعنى التكذيب و الإنكار، و يحتمل أن يكون المعنيان مقصودان فى الآية.

و الأصل فى الإنسان أن يتعامل بجديّة مع الشىء الذى يؤمن به، و إذا لم يتعامل معه بجديّة فهذا دليل على ضعف إيمانه به أو عدم تصديقه.

و فى آخر آية- مورد البحث- يقول سبحانه إنّكم بدلا من أن تشكروا اللّه تعالى على نعمه و رزقه و خاصّة نعمة القرآن الكبيرة، فانّكم تكذّبون به: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۵۲۷].

قال البعض: إنّ المقصود أنّ استفادتكم من القرآن هى تكذيبكم فقط، أو أن التكذيب تجعلونه وسيلة لرزقكم و معاشكم ۵۲۸].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل مناسب للآيات السابقة و لسبب النّزول أكثر من التّفسيرين الأخيرين.

و انسجاما مع هذا الرأى فقد نقل كثير من المفسّرين عن ابن عبّاس قوله:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۰

أصاب الناس عطش فى بعض أسفاره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسقوا، فسمع رجلا يقول: مطرنا بنوء كذا، فنزلت الآية (لأنّ العرب كانوا يعتقدون فى الجاهلية بالأنواء و أنّ لها الأثر فى نزول المطر، و يقصد بها النجوم التى تظهر بين آونة و اخرى فى السماء، و أنّ ظهورها يصاحبه نزول المطر، كما يعتقدون، و لهذا يقولون: مطرنا بنوء كذا، أى ببركة طلوع النجم الفلانى، و هذا بذاته أحد مظاهر

الشرک الجاهلی و عبادة النجوم)[۵۲۹].

و النقطة الجدیرة بالملاحظة هنا أنّه جاء فی بعض الرّوایات عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه فلّما کان یفسّر الآیات، و إجمالا کان یتصدّی للتفسیر عند ما تستلزم الضرورة، کما فی هذا المورد حیث أخبر صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ المقصود من وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَکُمْ أَنَّکُمْ تُکَذِّبُونَ «و تجعلون شکرکم أنّکم تکذّبون»[۵۳۰].

تعقیب

أوّلا: خصوصیة القرآن الکریم

یستنتج من الأوصاف الأربعة- التی ذکرت فی الآیات أعلاه- حول القرآن، أنّ عظمة القرآن هی فی عظمة محتواه من جهة، و عمق معناه من جهة اخری، و من جهة ثالثة فإنّ القداسة القرآنیة لا یستوعبها إلّا الطاهرون و المؤمنون، و من جهة رابعة: فی الجانب التربوی المتمیّز فیه، لأنّه نزل من ربّ العالمین، و کلّ واحدة من هذه الصفات تحتاج إلی بحث مفصّل أوضحناه فی نهایة الآیات المناسبة لکلّ موضوع.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۱

ثانیا: القرآن و الطهارة

نقرأ فی القرآن الکریم قوله تعالی: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ و قلنا: إنّ المسّ یفسّر بالمسّ الظاهری و بالمعنوی کذلک، و لا تضادّ بینهما، و هما مجموعان فی المفهوم الکلّی للآیة.

و فی القسم الأوّل نقلت روایات لأهل البیت علیهم السّلام

عن أبی الحسن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنّه قال: (المصحف لا تمسّه علی غیر طهر، و لا جنب و لا تمسّ خطّه و لا تعلّقه، إنّ اللّه تعالی یقول: لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۵۳۱].

و نقل نفس المعنی فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام مع اختلاف مختصر[۵۳۲].

و جاء فی مصادر أهل البیت علیهم السّلام من طرق مختلفة

أنّ الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «لا یمسّ القرآن إلّا الطاهر»[۵۳۳].

و حول اللمس المعنوی

نقل عن ابن عبّاس عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّه لقرآن کریم فی کتاب مکنون» قال: «عند اللّه فی صحف مطهّرة» لا یَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ قال: «المقرّبون»[۵۳۴].

و هذا المعنی یمکن الاستدلال علیه بواسطة العقل أیضا، لأنّه رغم، أنّ القرآن الکریم هو کتاب هدایة لعموم الناس، و لکنّنا نعلم أنّ الکثیر ممّن سمعوا القرآن من فم النّبی الأکرم، و رأوا هذا الماء الزلال فی عین الوحی الصافیة، إلّا أنّهم بسبب تلوّثهم بالعصبیة و العناد و الغرور لم یؤثّر فیهم أی تأثیر و لم ینتفعوا به أقلّ انتفاع، و هناک أشخاص اهتدوا به لمجرّد أنّهم سعوا و لو قلیلا لتطهیر أنفسهم و تهذیبها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۲

و جاءوا إلى القرآن بروح باحثة عن الحقّ و الحقيقة، فعلى هذا كلّما ازدادت طهارة و تقوى الإنسان فإنّه مرشّح لاستيعاب المفاهيم القرآنية بصورة أعمق، و من هنا فإنّ الآية تصدق فى البعدين (المادّى و المعنوى) و (الجسمى و الروحى).

و ممّا لا شكّ فيه أنّ شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام و الملائكة المقرّبين هم أوضح مصداق للمقرّبين الذين أدركوا حقائق القرآن الكريم بصورة متميّزة عن الجميع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۳

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۸۳ الى ۸۷]

اشارة

فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (۸۳) وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (۸۴) وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ (۸۵) فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (۸۶) تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۸۷)

التّفسير

عند ما تصل الروح إلى الحلقوم:

من اللحظات الحسّاسة التى تقلق الإنسان دائما هى لحظة الاحتضار و نهاية العمر، فى تلك اللحظة يكون كلّ شىء قد انتهى، و قد جلس أهله و أحبّاؤه ينظرون إليه بيأس كشمعة قد انتهى أمدها و ستنطفئ رويدا رويدا، حيث يودّع الحياة دون أن يستطيع أحد أن يمدّ إليه يد العون.

نعم، إنّ الضعف التامّ للإنسان يتجسّد فى تلك اللحظات الحسّاسة ليس فى العصور القديمة فحسب بل حتّى فى عالمنا المعاصر، فمع توفّر جميع الإمكانات الطبيّة و الفنيّة و الوسائل العلاجية فإنّ الضعف يتجلّى فى ساعة الاحتضار.

و تكملة لأبحاث المعاد و الردّ على المنكرين و المكذّبين فإنّ القرآن الكريم يرسم لنا صورة معبّرة و مجسّدة لهذه اللحظات حيث يقول سبحانه: فَلَوْ لا إِذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۴

بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَ أَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ و لا تستطيعون عمل شىء من أجله ۵۳۵].

و المخاطبون هنا هم أقارب المحتضر الذين ينظرون إلى حالته فى ساعة الاحتضار من جهة، و يلاحظون ضعفه و عجزه من جهة ثانية، و تتجلّى لهم قدرة اللّه تعالى على كلّ شىء، حيث أنّ الموت و الحياة بيده، و أنّهم- أى أقاربه- سيلاقون نفس المصير[۵۳۶].

ثمّ يضيف سبحانه وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ

نعم، نحن الذين نعلم بصورة جيّدة ما الذى يجول فى خواطر المحتضر؟ و ما هى الإزعاجات التى تعتريه؟ نحن الذين أصدرنا أمرنا بقبض روحه فى وقت معيّن، إنّكم تلاحظون ظاهر حاله فقط، و لا تعلمون كيفية انتقال روحه من هذه الدار إلى الدار الآخرة، و طبيعة المخاضات الصعبة التى يعيشها فى هذه اللحظة.

و بناء على هذا فالمقصود من الآية هو: قرب اللّه عزّ و جلّ من الشخص المحتضر، بالرغم من أنّ البعض احتمل المقصود بالقرب (ملائكة قبض الروح) إلّا أنّ التّفسير الأوّل منسجم مع ظاهر الآية أكثر.

و على كلّ حال فإنّ اللّه سبحانه ليس فى هذه اللحظات أقرب إلينا من كلّ أحد، بل هو فى كلّ وقت كذلك، بل هو أقرب إلينا حتّى

من أنفسنا، بالرغم من أنّنا بعيدون عنه نتيجة غفلتنا و عدم و عينا، و لكن هذا المعنى فى لحظة الاحتضار يتجلّى أكثر من أى وقت آخر.

ثمّ للتأكيد الأشدّ فى توضيح هذه الحقيقة يضيف تعالى: فَلَوْ لا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۵

إنّ ضعفكم هذا دليل أيضا على أنّ مالك الموت و الحياة واحد، و أنّ الجزاء بيده، و هو الذى يحى و يميت.

«مدينين»: جمع (مدين) من مادّة (دين) بمعنى الجزاء، و فسّرها البعض بمعنى المربوبين. و المعنى هو: يا أيّها العباد، إن كنتم تحت ربوبية موجود آخر، و مالكى نواصى أموركم، فارجعوا أرواحكم التى قبضناها، و هيهات تقدرون! و هذا دليل آخر على أنّكم فى قبضة الحكومة الإلهية.

تعقيب

۱- لحظة ضعف الجبّارين

إنّ الهدف من هذه الآيات- فى الحقيقة- هو بيان قدرة اللّه عزّ و جلّ على مسألة الموت و الحياة، كى ينتقل منها إلى مسألة المعاد و إختيار لحظات الاحتضار و الموت هنا لظهور غاية الضعف الإنسانى بالرغم من كلّ القوّة التى يتصوّرها لنفسه.

و من المفيد أن نستعرض بعض حالات الجبّارين لحظة احتضارهم بالرغم من أنّهم كانوا فى أوج القدرة حتّى يتّضح المعنى العميق لهذه الآية بصورة أفضل.

حكى المسعودى فى مروج الذهب فى أخبار المأمون و غزاته أرض الروم ما هذا ملخّصه: و انصرف من غزاته إلى منزل على (عين البديدون) المعروفة بالقشيرة فأقام هنالك، فوقف على العين فأعجبه برد مائها و صفاؤه و بياضه و طيب حسن الموضع، و كثرة الخضرة فأمر بقطع خشب طويل منبسط على العين كالجسر، و جعل فوقه كالأزج من الخشب و ورق الشجر، و جلس تحت الكنسية التى عقدت له، و الماء تحته، و طرح فى الماء درهم صحيح، فقرأ كتابته و هو فى قرار الماء لصفاء الماء، و لم يقدر أحد أن يدخل يده من شدّة برده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۷ ؛ ص۵۰۶

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۶

فبينما هو كذلك إذ لاحت سمكة نحو الذراع كأنّها سبيكة فضّة، فجعل لمن يخرجها سيفا فبدر بعض الفراشين فأخذها و صعد فلمّا صارت على حرف العين أو على الخشب الذى عليه المأمون اضطربت و انفلتت من يد الفراش فوقعت فى الماء كالحجر، فنضح من الماء على صدر المأمون و نحره و ترقوته فبلّت ثوبه، ثمّ انحدر الفرّاش ثانية فأخذها و وضعها بين يدى المأمون فى منديل تضطرب، فقال المأمون: تقلى الساعة ثمّ أخذته رعدة من ساعته، فلم يقدر يتحرّك من مكانه، فغطّى باللحف و الدواويج و هو يرتعد كالسعفة و يصيح: البرد البرد، ثمّ حوّل إلى المغرب و دثّر و أوقدت النيران حوله و هو يصيح: البرد البرد، ثمّ أتى بالسمكة و قد فرغ من قليها فلم يقدر على الذوق منها و شغله ما هو فيه عن تناول شىء منها.

و لمّا اشتدّ به الأمر سأل المعتصم بختيشوع و ابن ماسوية فى ذلك الوقت عن المأمون و هو فى سكرات الموت، و ما الذى يدلّ عليه علم الطبّ من أمره، و هل يمكن برؤه و شفاؤه، فتقدّم ابن ماسوية و أخذ إحدى يديه و بختيشوع الاخرى، و أخذا يجسّان كلتا يديه

فوجدا نبضه خارجا عن الاعتدال منذرا بالفناء و الانحلال، و التزقت أيديهما ببشرته لعرق كان يظهر منه من سائر جسده كالزيت أو كلعاب بعض الأفاعى، فأخبر المعتصم بذلك، فسألهما عن ذلك فأنكرا معرفته، و أنّهما لم يجداه فى شىء من الكتب و أنّه دالّ على انحلال الجسد، فأحضر المعتصم الأطباء حوله و هو يأمل خلاصة ممّا هو فيه، فلمّا ثقل قال: أخرجونى أشرف على عسكرى و أنظر إلى رحالى و أتبيّن ملكى، و ذلك فى الليل، فاخرج فأشرف على الخيم و الجيش و انتشاره و كثرته و ما قد وقد من النيران، فقال: يا من لا يزول ملكه، ارحم من زال ملكه، ثمّ ردّ إلى مرقده و أجلس المعتصم رجلا يشهده.

و لمّا ثقل رفع الرجل صوته ليقولها (أى الشهادة) فقال له ابن ماسوية: لا تصحّ فو اللّه ما يفرّق بين ربّه و بين ما نى فى هذا الوقت، ففتح عينيه من ساعته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۷

و بهما من العظمة و الكبر و الاحمرار ما لم ير مثله قطّ. و أقبل يحاول البطش بيديه بابن ماسويه، و رام مخاطبته فعجز عن ذلك، و قضى عن ساعته و ذلك لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة و مائتين و حمل إلى طرطوس فدفن بها[۵۳۷].

و يحتمل أن يكون لمرضه سابقة، و يقول بعض المؤرخّين: إنّ كلّ شخص شرب من ماء تلك العين مرض، أو أنّ السمكة كانت تحتوى على رشح سامّ، و كيفما كان فإنّ الحكومة بتلك العظمة قد انهارت فى بعض لحظات، و انحنى بطل ميادين الحرب أمام شراع الموت، و لم تكن القدرة لأى شخص أن يصنع شيئا للمأمون، أو على الأقل ليوصله إلى مقرّه و مسكنه.

و للتاريخ خواطر و قصص كثيرة فيها دروس و عبر من هذا القبيل.

ثانيا: هل أنّ قبض الروح يكون تدريجيّا؟

إنّ التعبير بوصول الروح إلى الحلقوم كما فى قوله تعالى: فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ كناية عن آخر لحظات الحياة، كما أنّه من المحتمل أن يكون منشؤها هو أنّ غالبية أعضاء جسم الإنسان كالأيدى و الأرجل تتعطّل عند الموت قبل بعض الأعضاء الاخرى، و الحلقوم هو العضو الأخير الذى يتوقّف عن العمل. قال تعالى:

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ [۵۳۸] (و الترقوة) هى العظام التى تحيط بأطراف الحلق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۸

الآيات [سورة الواقعة (۵۶): الآيات ۸۸ الى ۹۶]

اشارة

فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۸۸) فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ (۸۹) وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۰) فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ (۹۱) وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (۹۲)

فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (۹۳) وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (۹۴) إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (۹۵) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۹۶)

التّفسير

مصير الصالحين و الطالحين:

هـذه الآيات فى الحقيقـة نوع من الخلاصـة للآيات الاولى و الأخيرة من هذه السورة، كما أنّها تجسّد حالة التفاوت بين البشـر فى حالة الاحتضار، و كيف أنّ قسما منهم يلفظون أنفسهم بهدوء و راحة فى تلك اللحظات الصعبة، و آخرين تلوح لهم من بعيد النار الحامية، و يسيطر عليهم الخوف و الاضطراب و الهلع فيلفظون أنفاسهم بصعوبة بالغة.

يقول سبحانه فى البداية: فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَ رَيْحانٌ وَ جَنَّةُ نَعِيمٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۰۹

«روح»: على وزن (قول)- كما ذكر ذلك أئمّة اللغة- فى الأصل بمعنى التنفّس.

«الريحان»: بمعنى النبات أو الشـىء ذى العطر، ثمّ اصطلح على كلّ شىء باعث للحياة و الراحة، كما أنّ الريحان يطلق على كلّ نعمة و رزق كريم.

و بناء على هذا فإنّ الروح و الريحان الإلهيين يشملان كلّ وسائل الراحة و الطمأنينة للإنسان، و كلّ نعمة و بركة إلهيّة.

و بتعبير آخر: يمكن القول أنّ الروح إشارة إلى كلّ الأمور التى تخلّص الإنسان من الصعوبات ليتنفّس براحة، و أمّا الريحان فإنّه إشارة إلى الهبات و النعم التى تعود إلى الإنسان بعد إزالة العوائق.

و قد ذكر المفسّرون الإسلاميون تفاسير متعدّدة لهذين المصطلحين قد تصل إلى عشرة تفاسير:

فقالوا: «الروح» بمعنى الرحمة، و «الريحان» يشمل كلّ فضيلة و شرف.

و قالوا: إنّ الروح هى النجاة من نار جهنّم، و الريحان دخول الجنّة.

و ذكروا أيضا أنّ الروح بمعنى الهدوء فى القبر، و الريحان دخول الجنّة.

و فسّر آخرون الروح بمعنى كشف الكروب، و الريحان بمعنى غفران الذنوب.

و قال آخرون: الروح بمعنى النظر إلى وجه اللّه سبحانه، و الريحان الاستماع إلى كلام اللّه. و ما إلى ذلك.

و يمكن القول أنّ جميع هذه التفاسير مصاديق لهذا المفهوم الكلّى و الجامع، و الذى ذكر فى تفسير الآية أعلاه.

و الجـدير بالملاحظـة أنّ الحديث عن «جنّة النعيم» جاء بعد ذكر الروح و الريحان و قد يسـتفاد من هذا أنّ الروح و الريحان يكون من نصـيب المؤمنين فى الاحتضار و القبر و البرزخ، و أمّا الجنّة ففى الآخرة، كما نقرأ فى حـديث للإمام الصادق عليه السّـلام فى تفسـيره لهذه الآية حيث قال: فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۰

وَ رَيْحانٌ يعنى فى قبره (و جنّة نعيم) يعنى فى الآخرة[۵۳۹][۵۴۰].

ثمّ يضـيف سـبحانه: وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْـحابِ الْيَمِينِ و هم تلك الثلّة الصالحة من الرجال و النساء الذين يسـتلمون صـحيفة أعمالهم بيدهم اليمنى كعلامة للفوز و النصر و النجاح فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ

و بهـذا الـترتيب فـإنّ ملائكـة اللّه المختصّـين بقبض الروح فى لحظـات الانتقـال من هـذه الـدنيا يوصـلون سـلام أصـحاب اليمين إلى المحتضر. كما قال تعالى فى وصف أهل الجنّة و كلامهم: إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً[۵۴۱].

و يوجـد احتمـال آخر أيضـا فى تفسـير هـذه الآيـة و هو أنّ السـلام يكون من قبـل الملائكـة حين يقولون له: سـلام عليـك أيّها العبد الصالح، يا من هو من أصحاب اليمين، أى يكفيك من الافتخار و الوصف أن تكون فى صفّ هؤلاء[۵۴۲].

و تبيّن بعض الآيات القرآنية الاخرى أيضا أنّ المؤمنين و هم فى حالة الاحتضار يتلقّون سـلاما من الملائكة كما فى قوله تعالى: الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۵۴۳].

و على كلّ حال فإنّ تعبير (سـلام) تعبير ذو معنى، سواء كان من الملائكة أو من أصـحاب اليمين، فالسلام يعبّر عن الروح و الريحان و كلّ أنواع الهدوء و النعمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۱

و السلامة[۵۴۴].

و ينبغى الانتباه إلى أنّ التعبير ب «أصحاب اليمين» سببه أنّ الإنسان فى الغالب يتصدّى لإنجاز أعماله الأساسية و المهمّة بيده اليمنى، لذلك فإنّ اليد اليمنى دلالة القدرة، و المهارة و القابلية و النجاح.

و نقرأ

فى حديث للإمام الباقر عليه السّلام فى تعقيبه على نهاية هذه الآية أنّه قال: «هم شيعتنا و محبّونا»[۵۴۵].

ثمّ تستعرض الآيات الكريمة القسم الثالث الذين مرّ ذكرهم فى أوائل هذه السورة عبر التصنيف الذى ذكر و اصطلح عليهم ب (أصحاب الشمال) حيث يقول تعالى: وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۵۴۶].

نعم، إنّهم على مشارف الموت حيث يذوقون أوّل عذاب إلهى، و يتجرّعون مرارة عقاب يوم القيامة فى القبر و البرزخ، و لأنّ الحديث عن حال المحتضر فإنّ جملة فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ من الأنسب أن يكون المراد منها هو عذاب البرزخ، وَ تَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إشارة إلى عذاب يوم القيامة.

و نقل فى هذا المعنى روايات عديدة لأئمّة أهل البيت عليهم السّلام ۵۴۷].

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ كلمة (المكذّبين الضالّين) ذكرت الواحدة تلو الاخرى، حيث أنّ الاولى تشير إلى تكذيب القيامة و وحدانية اللّه سبحانه و نبوّة الرّسول، و الثانية تشير إلى الأشخاص الذين انحرفوا عن طريق الحقّ.

و هذا التعبير بالإضافة إلى أنّه يؤدّى معنى التأكيد، فإنّه يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ قسما من الأشخاص الضالّين من فصيلة الأفراد المستضعفين أو الجهلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۲

القاصرين الذين ليس لديهم إصرار و عناد على الباطل، يمكن أن تشملهم الألطاف الإلهيّة. أمّا المكذّبون المعاندون فإنّهم سيبتلون بالمصير البائس و العاقبة السيّئة التى تقدّم ذكرها.

«حميم»: بمعنى الماء الحارق أو الرياح الحارة و السموم. و (تصلية) مأخوذة من مادّة (صلى) على وزن (سعى) بمعنى الاحتراق و الدخول فى النار.

أمّا (تصلية) المتعدية فتأتى بمعنى الإحراق فقط.

و فى نهاية هذا الحديث يضيف سبحانه: إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

و المعروف بين المفسّرين أنّ «حقّ اليقين» من قبيل الإضافة البيانية، يعنى أنّ الذى تقدّم ذكره حول الأقسام الثلاثة و هم (المقرّبون و أصحاب اليمين و المكذّبون) فهو عين الحقيقة و الحقّ و اليقين.

و هنا يوجد احتمال أيضا و هو: بما أنّ لليقين درجات متعدّدة، فإنّ أعلى مرحلة له هى (حقّ اليقين) أى يقين واقعى كامل و خال من كلّ شكّ و شبهة و ريب ۵۴۸].

و ممّا قلنا يتّضح أنّ (هذا) فى هذه الآية إشارة إلى أحوال الأقسام الثلاثة الآنفة الذكر، كما احتمل البعض أيضا أنّها إشارة إلى كلّ محتويات سورة الواقعة أو القرآن أجمع، إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب.

و هنا نقطة جديرة بالذكر أيضا و هى أنّ التعبير ب (فسبّح)- الفاء تفريعيّة- هو إشارة إلى أنّ ما قيل حول الأقسام الثلاثة هو عين العدالة، و بناء على هذا اعتبر (ربّك) منزّها من كلّ ظلم، و إذا ما أريد الابتعاد عن مصير أصحاب الشمال فعلينا أن نتنزّه من كلّ شرك و ظلم المتلازمان مع إنكار القيامة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۳

و نقل کثیر من المفسّرین حول نهایة آخر الآیة بعد ما نزلت علی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم

أنّه قال: «اجعلوها فی رکوعکم»

(أی قولوا: سبحان ربّی العظیم) و عند ما نزلت: سبّح اسْمَ رَبِّکَ الْأَعْلَی

قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «اجعلوها فی سجودکم»،

أی قولوا:

سبحان ربّی الأعلی ۵۴۹].

و فی تفسیر الآیة ۷۴ من نفس السورة نقلنا ما هو شبیه بهذه الرّوایة عن بعض المفسّرین.

تعقیب

عالم البرزخ:

أشارت الآیات أعلاه إلی عالم البرزخ، و قد بیّنا عند تفسیرها أنّ الإنسان- فی حالة احتضاره و هو علی مشارف الموت یتهیّأ للانتقال من دار الدنیا إلی عالم الآخرة- سیواجه واحدة من هذه الحالات، أمّا النعم و الهبات الإلهیّة و الجزاء الربّانی بالروح و الریحان، أو العقاب و الجزاء المؤلم، و العاقبة البائسة.

کما أنّ القرائن الموجودة فی الآیات ترینا أنّ قسما ممّا یثاب به أو یعاقب علیه مرتبط بیوم القیامة، و القسم الآخر مرتبط بالقبر و البرزخ، و یعدّ هذا دلیلا علی وجود عالم البرزخ.

و

فی حدیث لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم نقرأ ما یلی: «إنّ أوّل ما یبشّر به المؤمن عند الوفاة بروح و ریحان و جنّة نعیم، و إنّ أوّل ما یبشّر به المؤمن فی قبره أن یقال له:

أبشر برضا اللّه تعالی و الجنّة قدمت خیر مقدم، و قد غفر اللّه لمن یشیّعک إلی قبرک،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۷، ص: ۵۱۴

و صدّق من شهد لک، و استجاب لمن استغفر لک»[۵۵۰].

و

فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین أنّه قال: «إنّ ابن آدم إذا کان فی آخر یوم من أیّام الدنیا و أوّل یوم من أیّام الآخرة، مثل له ماله و ولده و عمله فیلتفت إلی عمله فیقول: و اللّه إنّی کنت فیک لزاهد، و إن کنت علیّ لثقیلا، فما ذا عندک؟ فیقول:

أنا قرینک فی قبرک، و یوم نشرک حتّی أعرض أنا و أنت علی ربّک، قال: فإنّ کان للّه ولیّا أتاه أطیب الناس ریحا، و أحسنهم منظرا، و أحسنهم ریاشا، فیقول: أبشر بروح و ریحان، و جنّة نعیم، و مقدمک خیر مقدم، فیقول له: من أنت؟ فیقول: أنا عملک الصالح، ارتحل من الدنیا إلی الجنّة»[۵۵۱].

و قد سبق لنا بحث مفصّل حول عالم البرزخ فی نهایة الآیة (۱۰۰) من سورة (المؤمنون).

اللهمّ، اجعلنا فی صفّ المقرّبین و أصحاب الیمین، و خاصّة أولیائک و أحبّتک، و اشملنا بروح و ریحان و جنّة نعیم عند مشارف الموت.

اللهمّ، إنّ عذاب الحشر عذاب أليم لا يطيقه أحد، و ثوابك الاخروى عظيم لا يستوجبه أى شخص بأعماله، و إنّ رأسمالنا فى ذلك اليوم هو لطفك و كرمك يا كريم.

إلهى، أيقظنا قبل وصول القيامة الكبرى و القيامة الصغرى- و الذى هو الموت- لنعدّ أنفسنا للسفر العظيم الذى يواجهنا ..

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الواقعة

---

[۱] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۱۷۱.

[۲] (۲)- تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۵۴۷.

[۳] (۳)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۴۰.

[۴] (۱)- و تقدير الكلام هكذا« ق» و القرآن المجيد إنّك لرسول اللّه» أو .. لتبعثنّ أو أنّ البعث حقّ إلخ.

[۵] (۲)- سورة ابراهيم، ۱۰.

[۶] (۳)- سورة المؤمنون، ۳۳.

[۷] (۴)- سورة الفرقان، ۷.

[۸] (۱)- جواب إذا محذوف و يعرف من الجملة التالية و تقديرها:« إذا متنا و كنّا ترابا نرجع و نردّ أحياء ذلك رجع بعيد».

[۹] (۱)- كنّا قد بحثنا فوائد إيجاد الجبال و اتّساع الأرض و يسطها و زوجية النباتات بحثا مفصّلا فى سورة الرعد ذيل الآية(۳).

[۱۰] (۲)- يمكن أن تكون تبصرة مفعولا لأجله كما يمكن أن تكون مفعولا مطلقا .. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب، و مثل هذا يقع الكلام على كلمة« ذكرى».

[۱۱] (۱)- بحثنا هذا الموضوع فى آيات اخرى أيضا فراجع ذيل الآية(۹) من سورة فاطر و ذيل الآيات الأخيرة من سورة(يس).

[۱۲] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآيات(۷۸) من سورة الحجر و(۱۷۶) من سورة الشعراء.

[۱۳] (۱)- لمزيد الإيضاح يراجع ذيل الآية(۳۷) من سورة الدخان.

[۱۴] (۲)- فى الجملة الآنفة إيجاز حذف و تقدير الكلام فى تماميته أن يقال« أ فعيينا بالخلق الأوّل حتّى نعجز عن الثانى».

[۱۵] (۱)- سورة الأنفال، ۲۴.

[۱۶] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۰۸.

[۱۷] (۱)- كلمة إذ فى جملة(إذ يتلقّى المتلقّيان) ظرف متعلّق بمحذوف و تقديره و اذكروا إذ يتلقّى المتلقّيان و لهذا المعنى ذهب إليه جماعة من المفسّرين، إلّا أنّ جماعة اخرى يرون بأنّ إذ متعلّقة بكلمة أقرب الواردة فى الآية الآنفة إلّا أنّ التّفسير الأوّل يبدو أصحّ لأنّ كلّا من الجملتين« و نحن أقرب إليه من حبل الوريد» و« إذ يتلقّى المتلقّيان» إلخ تحتفظ باستقلالها دون أن يتقيّد كلّ بالأخرى و لا يتناسب الصدر و الذيل فى التّفسير الثانى.

[۱۸] (۲)- كلمة قعيد مفردة مع أنّ كلمة المتلقّيان تثنية لأنّ فى الآية حذفا و تقديرها إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين قعيد و عن الشمال قعيد» و قد وقع هذا الحذف بقرينة ذكر الآخر.

[۱۹] (۱)- المصدر السابق.

[۲۰] (۲)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۶۵ ذیل الآیات محل البحث، و هذا المضمون نفسه منقول عن الإمام الصادق فی کتاب الکافی و کذلک بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۸۷ فی الرّوایتین ۳۴ و ۳۵».

[۲۱] (۳)- الضمیر فی لدیه یرجع إلی کلمة قول کما یحتمل أن یکون عائدا علی الذی یلفظ القول، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۲۲] (۱)- اصول الکافی طبقا لما نقل فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۰.

[۲۳] (۱)- السّکر- علی زنة المکر- معناه فی الأصل سدّ طریق الماء، و السکر- علی زنة الفکر- معناه المحلّ المسدود، و حیث أنّ حالة الثمل تقع حاجزا و سدّا بین الإنسان و عقله فقد سمّیت بالسکر علی زنة الشکر.

[۲۴] (۲)- روح المعانی، ج ۹، ص ۱۱۸

[۲۵] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۹.

[۲۶] (۴)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۰.

[۲۷] (۱)- کلمة تحید مشتقّة من مادّة حید- علی وزن صید- و معناها العدول عن الشیء و الفرار منه.

[۲۸] (۱)- نهج البلاغة- الکلمات القصار- الکلمة ۱۴۷.

[۲۹] (۱)- فی المراد من الباء فی کلمة بالحقّ هناک احتمالات عدیدة، فمنهم قال معناه التعدیة و الحقّ معناه الموت، و یکون معنی الجملة إنّ سکرات الموت لها واقعیة أی أنّ السکرات تصحب معها الموت، و قیل أنّ الباء للملابسة، أی أنّ سکرات الموت تأتی مع الحقّ.

[۳۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۵[و یظهر أنّ المراد من الإمام محمّد بن علی هو الإمام التاسع محمّد الجواد علیه السّلام .

[۳۱] (۱)- معانی الأخبار ص ۲۸۹ باب معنی الموت الحدیث ۳.

[۳۲] (۲)- المصدر السابق.

[۳۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۶.

[۳۴] (۲)- المصدر نفسه مع شیء من التلخیص: نقرأ فی سورة مریم الآیة ۱۵ فی شأن یحیی\i: وَ سَلامٌ عَلَیْهِ یَوْمَ وُلِدَ وَ یَوْمَ یَمُوتُ وَ یَوْمَ یُبْعَثُ حَیًّا\E کما نقرأ فی شأن عیسی بن مریم فی السورة ذاتها\i وَ السَّلامُ عَلَیَّ یَوْمَ وُلِدْتُ وَ یَوْمَ أَمُوتُ وَ یَوْمَ أُبْعَثُ حَیًّا\E.

[۳۵] (۱)- التغابن، الآیة ۱۵.

[۳۶] (۲)- سورة ق، الآیة ۱۹.

[۳۷] (۳)- تفسیر روح البیان، ج ۹، ص ۱۱۸.

[۳۸] (۱)- روح المعانی، ج ۲۶، ص ۱۶۸.

[۳۹] (۱)- الإسراء، الآیة ۶۳.

[۴۰] (۲)- سورة ص، الآیة ۸۵.

[۴۱] (۱)- لدی ظرف متعلق ب« یبدل» و احتمل بعض المفسرین أنه متعلق بالقول، إلا أن المعنی الأول أنسب ..

[۴۲] (۱)- بأی کلمة متعلّق لفظ« یوم»؟ هناک ثلاثة وجوه- الوجه الأوّل أنّه متعلّق بمحذوف و تقدیره اذکروا. و الوجه الثانی أنّه متعلّق بیبدّل. و الوجه الثالث أنّه متعلّق بظلّام، إلّا أنّ الأوّل أولی.

[۴۳] (۱)- یراجع ذیل الآیة ۴۴ من سورة الإسراء.

[۴۴] (۱)- غیر بعید فیها ثلاثة أوجه إعرابیة، فیحتمل أن تکون ظرفا، کما یحتمل أن تکون حالا، و یحتمل أن تکون صفة لمحذوف تقدیره إزلافا غیر بعید.

[۴۵] (۱)- لسان العرب مادّة القلب.[ق ل ب .

[۴۶] (۲)- أصول الکافی، ج ۱- کتاب العقل و الجهل، الحدیث ۱۱.

[۴۷] (۱)- سورة الفتح، الآیة ۴.

[۴۸] (۲)- سورة الرعد، الآیة ۲۸.

[۴۹] (۳)- لاحظوا أنّ الآیتین عطفت الموضوعین« بأو» و هذا یدلّ علی أنّ واحدا منهما علی الأقل ضروری للإنسان! ..

[۵۰] (۱)- راجع تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۱۰.

[۵۱] (۲)- راجع سورة الأعراف الآیة ۵۴، سورة یونس الآیة ۳، سورة هود الآیة ۷، سورة السجدة الآیة ۴، الحدید الآیة ۴، الفرقان الآیة ۵۹.

[۵۲] (۱)- مجمع البیان- ذیل الآیات محلّ البحث-.

[۵۳] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ إدبار هنا جاءت بالکسر علی زنة« إقبال» أمّا فی الآیة محلّ البحث فجاءت أدبار بفتح الهمزة علی زنة أفکار، و هی هنا جمع دبر و معناه العقب، فیکون المعنی فی أدبار السجود أی بعد کلّ سجدة، و أمّا معنی إدبار النجوم أی عند تفرّق النجوم.

[۵۴] (۲)- مجمع البیان، ذیل الآیة محلّ البحث-.

[۵۵] (۳)- المصدر آنف الذکر.

[۵۶] (۱)- راجع اصول الکافی، طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۷.

[۵۷] (۱)- بناء علی التّفسیر الأوّل فإنّ« یوم» مفعول استمع و بناء علی التّفسیر الثّانی فإنّ مفعول استمع محذوف و تقدیره استمع حدیث ربّک فیکون نصب کلمة یوم علی فعل مقدّر من الخروج و تقدیره یخرجون یوم ینادی المنادی من مکان قریب.

[۵۸] (۲)- یری جماعة من المفسّرین أنّ المکان القریب یحتمل أن تکون صخرة بیت المقدس- تلک الصخرة الخاصّة التی عرج منها الرّسول الأکرم علیه السّلام نحو السماء فیقف المنادی علی طرفها و یصیح أیّتها العظام البالیة و الأوصال المتقطّعة و اللحوم المتمزّقة قومی لفصل القضاء و ما أعدّ اللّه لکم من الجزاء .. لکن لا دلیل بیّن علی ذلک.

[۵۹] (۱)-« سراعا» منصوب علی أنّه حال للفاعل فی« یخرجون» المحذوف و التقدیر« یخرجون سراعا» و هو مجمع لکلمة« سریع» کما فی« کرام» جمع« کریم» و البعض یری أنّ« سراع» مصدر فی موضع الحال.

[۶۰] (۲)- کتاب الخصال: طبقا لما نقل فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۹.

[۶۱] (۳)- کلمة وعید أصلها وعیدی، و حذفت یاؤها و أبقیت الکسرة لتدلّ علیها و هی مفعول للفعل یخاف.

[۶۲] (۱)- القرطبی، ج ۹، ص ۶۱۹۸.

[۶۳] (۱)- مجمع البیان- بدایة سورة الذاریات- و ثواب الأعمال طبقا لما ورد فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۲۰.

[۶۴] (۱)- الذاریات: جمع الذاریة و معناها الریح التی تحمل معها الأشیاء و تنشرها فی الفضاء.

[۶۵] (۲)- الوقر- علی زنة الفکر- معناه ذو الوزن الثقیل کما یأتی معنی ثقل السمع و الوقار ثقل الحرکات و الحلم و الهدوء أیضا.

[۶۶] (۳)- الجاریات جمع جاریة، و معناها هنا السفن کما تأتی بمعنی الأنهار لجریانها و قد ورد قوله تعالی\i:فِیها عَیْنٌ جارِیَةٌ\E فی الآیة(۱۲) من سورة الغاشیة کما تطلق الجاریة علی الشمس لجریها فی السماء، و تطلق الجاریة أیضا علی الفتاة لأنّ نشاط الشباب یجری فی کیانها.

[۶۷] (۴)- کان یدعی بعبد اللّه، و کان من المنافقین فی زمان الإمام علی، و أشدّ أعدائه و کان یزعم أنّه من أصحابه إلّا أنّه کان یتآمر علیه.

[۶۸] (۱)- أشار إلی هذا المعنی تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۸، ص ۱۹۵.

[۶۹] (۲)- ينبغى الالتفات إلى أنّ الواو فى(و الذاريات) هى للقسم، إلّا أنّ الفاء فى الآيات التى تليها عاطفة و هى تحمل مفهوم القسم كما أنّها فى الوقت ذاته بمثابة علاقة و رباط بين الأقسام الأربعة هنا.

[۷۰] (۱)- ينبغى الالتفات إلى أنّ« ما» هنا اسم موصول، و هو اسم لأنّ و خبرها لصادق.

[۷۱] (۱)- يراجع« لسان العرب» و المفردات للراغب مادّة الحبك.

[۷۲] (۱)- هناك شرح مفصّل فى تفسير هذه الآية فراجعه فى سورة« المؤمنون».

[۷۳] (۱)- كلمة« فى» بدخولها على الجنّات واضحة المعنى، لأنّ المتّقين داخل الجنان إلّا أنّ دخولها على العيون بالعطف ليس معناه أنّ المتّقين داخل العيون بل تعنى أنّهم فى جنّات تتخلّلها العيون.

[۷۴] (۲)- المراد من« قبل ذلك» .. كما قلنا سابقا يعنى قبل يوم القيامة و الدخول إلى الجنّة أى فى عالم الدنيا، إلّا أنّ بعض المفسّرين قال بأنّ قبل ذلك يعنى قبل ورود الشرع، و هو إشارة إلى تمسكّهم بالمستقلّات العقلية حتّى قبل نزول الوحى إلّا أنّ هذا المعنى يبدو بعيدا ..

[۷۵] (۳)- أشار العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان إلى هذا الحديث ج ۹ ص ۱۵۵، كما أنّ هذا الحديث منقول فى تفسير الصافى عن الكافى بهذه الصورة: كانوا أقلّ الليالى تفوتهم لا يقومون فيها(تفسير الصافى: ذيل الآية محلّ البحث).

[۷۶] (۱)- كلمة« ما» فى قوله ما يهجعون يمكن أن تكون زائدة و للتأكيد أو موصولة أو مصدرية كما ورد ذلك فى تفسير الفخر الرازى و الميزان، و قال بعضهم بأنها زائدة أو مصدرية فحسب كما جاء فى تفسير القرطبى و روح البيان، و ما احتمله بعضهم بأنها نافية فهو بعيد.

[۷۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۱۱۳.

[۷۸] (۳)- مجمع البيان ذيل الآيات محل البحث.

[۷۹] (۱)- مؤدّى ما ورد فى كنز العرفان، ج ۱، ص ۲۲۶.

[۸۰] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۷۲ باب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث الثانى.

[۸۱] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۲۷ أبواب ما تجب فيه الزكاة الباب السابع الحديث ۳.

[۸۲] (۳)- سورة البقرة، الآية ۲۷۳.

[۸۳] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۳.

[۸۴] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۵.

[۸۵] (۳)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۷.

[۸۶] (۴)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۲۷۹.

[۸۷] (۵)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۸.

[۸۸] (۶)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۶.

[۸۹] (۱)- للاطلاع على هذه الرّوايات يراجع الجزء الخامس من وسائل الشيعة و الجزء الأوّل من مستدرك الوسائل، و الجزء ۸۷ من بحار الأنوار.

[۹۰] (۲)- نزول هذه الآيات بمكّة و ورود هذا الحكم فى خصوص أهل الجنّة الصالحين و روايات أهل البيت كلّها قرائن على أنّ الحقّ فى الآية غير الزكاة ..

[۹۱] (۱)- الكاتب كرسى موريسين فى كتابه(أسرار خلق الإنسان) من ص ۳۳ إلى ۳۶.

[۹۲] (۲)- سفرة فى أعماق وجود الإنسان قسم الخلايا.

[۹۳] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۰۳ مادّة نفس.

[۹۴] (۱)- هناک کلام بین المفسّرین فی أنّ مرجع الضمیر فی« أنّه» علی أی شیء یعود؟ قال بعضهم یعود علی الرزق، و قال بعضهم یعود علی ما توعدون و قال بعضهم یعود علی النّبی و القرآن إلّا أنّ التّفسیر الأوّل أنسب.

[۹۵] (۲)- کان یدعی« عبد الملک بن قریب» و کان یعیش فی عهد هارون الرشید و له حافظة عجیبة و اطّلاعات واسعة عن تاریخ العرب و أشعارها و توفّی فی البصرة سنة ۲۱۶ الکنی و الألقاب، ج ۲، ص ۲۷.

[۹۶] (۱)- تفسیر الکشّاف، ج ۴، ص ۴۰۰.

[۹۷] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۳۳.

[۹۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۲۶.

[۹۹] (۲)- المصدر السابق.

[۱۰۰] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۲۵ الحدیث ۳۱.

[۱۰۱] (۴)- المصدر السابق، ص ۱۲۶(الحدیثان ۳۵ و ۳۷).

[۱۰۲] (۵)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۱)-« الضیف» له معنی وصفی، و یطلق علی المفرد کما یطلق علی الجمع أیضا .. و لذلک فقد وصف بالمکرمین، و ما قاله بعضهم إنّه مصدر و لا یثنّی و لا یجمع فلا یبدو صحیحا. و لکن کما یقول الزمخشری فی الکشّاف حیث إنّه کان فی الأصل مصدرا و بعد أن أصبح ذا معنی وصفی فإنّه استعمل فی المفرد و الجمع معا، فلاحظوا بدقّة.

[۱۰۴] (۲)- سلاما منصوب بفعل محذوف و تقدیره: نسلّم علیکم سلاما: أمّا سلام فهو مبتدا و خبره محذوف و أصله علیکم سلام أو سلام علیکم فکأنّ إبراهیم أراد أن یحیّهم بأحسن من تحیّتهم، لأنّ الجملة الاسمیة تدلّ علی الثبات و الدوام تفسیر الکشّاف، ج ۴، ص ۴۰۱.

[۱۰۵] (۱)- اقتباس عن روح البیان و حاشیة تفسیر الصافی ذیل الآیات محلّ البحث.

[۱۰۶] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ« خطب» لا یطلق علی کلّ عمل، بل هو خاصّ فی الأمور و الأعمال المهمّة فی حین أنّ کلمات مثل عمل، شغل، أمر، فعل، لها معان عامّة.

[۱۰۷] (۲)- ینبغی الالتفات إلی أنّه فی سورة هود جاء التعبیر هکذا: إنّا أرسلنا إلی قوم لوط، و هذا التفاوت فی التعابیر بین الآیات محلّ البحث و آیات سورة هود هو لأنّ کلا من الآیات یذکر قسما ممّا جری و بتعبیر آخر هذه المسائل کلّها واقعة، غایة ما فی الأمر أنّ بعضها مذکور فی الآیات محلّ البحث و بعضها فی الآیات الآنفة من سورة هود.

[۱۰۸] (۱)- یراجع ذیل الآیة(۸۱) من سورة هود.

[۱۰۹] (۲)- الجدیر بالنظر أن فی سورة هود بیانا لهذه القصة لکن التعابیر فیها تدل بوضوح أن لقاء الملائکة لإبراهیم کان قبل معاقبة قوم لوط و هلاکهم مع أنّ الآیات محلّ البحث فیها تعابیر تشیر إلی أنّ اللقاء تمّ بعد المعاقبة و الجزاء، و طریق الحلّ هو أن نقول أنّ الآیات الوارد ذکرها آنفا إلی قوله:« مسوّمة عند ربّک للمسرفین» هی کلام الملائکة، و أمّا الآیات الثلاث بعدها فقول اللّه یخاطب نبیّه و المسلمین یتحدّث عنها علی أنّها قصّة وقعت فیما مضی« فلاحظوا بدقّة»!

[۱۱۰] (۱)- مقتبس من کتاب القاموس المقدّس.

[۱۱۱] (۱)- الأسطوانة معربة عن کلمة ستون الفارسیة.

[۱۱۲] (۲)- فتکون الباء فی برکنه حسب التّفسیر الأوّل للمصاحبة، و حسب التّفسیر الثانی للسببیة، و حسب التّفسیر الثالث للتعدیة ..

[۱۱۳] (۱)- المراد بالملیم ذو الملامة- فهو اسم فاعل من اللوم و بابه الأفعال الام یلیم أی هو الشخص الذی یرتکب عملا یکون

بنفسه ملامـة مثل المغرب الـذی یأتی بالعجیب الغریب ... و لمزید التوضـیح فی قصّة موسـی و فرعون یراجع ذیل الآیة ۱۳۶ من سورة الأعراف.

[۱۱۴] (۲)- راجع: المفردات للراغب مادّة رمّ.

[۱۱۵] (۳)- راجع: لسان العرب و المفردات مادّة رمّ.

[۱۱۶] (۱)- الأعراف، الآیة ۷۷.

[۱۱۷] (۱)- هناک حذف فی الجملة المتقدّمة و تقدیره کما یقول« الزمخشـری» فی« الکشّاف» و أهلکنا قوم نوح من قبل، بالرغم من أنّ أهلکنا لم تکن فی الآیات المتقدّمة إلّا أنّ هذه الکلمة تستفاد منها بصورة جیّدة.

[۱۱۸] (۱)- وقع خطأ أو اشتباه عند بعض المفسّرین و غیرهم هنا، و ینبغی التنویه إلیه.

أ- قال بعض المفسّـرین أنّ للأید« معنیین»:« القدرة» و« النعمة» مع أنّ الأید تعنی القدرة لغة إلّا أنّ الید تجمع علی أیدی و جمع جمعها أیاد تأتی بمعنی القدرة و النعمة، و قد ذکرنا المعنیین أیضا فی الآیة(۱۷) من سورة ص تبعا للمرحوم الطبرسی صاحب مجمع البیان و نصحّحه هنا ..

ب- جاء فی المعجم المفهرس لمحمّد فؤاد عبد الباقی ذکر الید فی الآیة محلّ البحث بیائیین(أیید) و یظهر أنّ هذا الاشـتباه ناشـئ من بعض الرسم فی کتابة المصاحف و إلّا فإنّ المفسّرین ذکروا معنی القدرة للید.

[۱۱۹] (۱)- حدود النجوم، ص ۳۳۸ إلی ص ۳۴۰.

[۱۲۰] (۲)- حدود النجوم، ص ۳۳۸- ۳۴۰.

[۱۲۱] (۳)- بدایة العالم و نهایته، الصفحات ۷۴- ۷۷ بتلخیص.

[۱۲۲] (۴)- المصدر السابق.

[۱۲۳] (۱)- توحید الصدوق طبقا لما ورد فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۳۰.

[۱۲۴] (۲)- نقل فی تفسیر نور الثقلین فی هذا الصدد بضعة أحادیث عن الإمامین الباقر و الصادق الجزء الخامس ص ۱۳۰- ۱۳۱.

[۱۲۵] (۱)- کذلک خبر لمبتدأ محذوف و تقدیر الکلام: الأمر کذلک.

[۱۲۶] (۱)- بل فی الآیة الآنفة للإضراب.

[۱۲۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۶۱.

[۱۲۸] (۱)- سورة الملک، الآیة ۶.

[۱۲۹] (۱)- سورة الطلاق، الآیة ۱۲.

[۱۳۰] (۲)- هود الآیتان ۱۱۸ و ۱۱۹.

[۱۳۱] (۱)- قبل بنی علی الضمّ و إن سبقه الخافض لأنّه مضاف- و المضاف إلیه محذوف لفظا و تقدیره من قبل خلق الإنسان.

[۱۳۲] (۱)- حسن: خبر لمبتدأ محذوف تقدیره کلامکم أو سؤالکم حسن.

[۱۳۳] (۱)- توحید الصدوق طبقا لما نقل فی المیزان، ج ۱۸، ص ۴۲۳.

[۱۳۴] (۲)- علل الشرائع للصدوق- طبقا للمصدر الآنف.

[۱۳۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵، ص ۳۱۴ الحدیث ۷.

[۱۳۶] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۷] (۳)- یتّضح ممّا ذکرنا آنفا أنّ الألف و اللام فی« الجنّ و الإنس» للاسـتغراق، و تشـمل الآیة جمیع الأفراد، لا أنّ الألف و اللام للجنس، بحیث تشمل جماعة منهم کما ورد فی بعض التفاسیر و اللّه العالم.

[۱۳۸] (۱)- الفعل فلا یستعجلون مجزوم بلا الناهیة کما هو واضح، و النون هنا للوقایة و قد کسرت للدلالة علی أنّ یاء المتکلّم محذوفة لفظا أو رسما و مقدرة معنی ..

[۱۳۹] (۱)- یقول بعض الشعراء العرب:

لنا ذنوب و لکم ذنوبفإن أبیتم فلنا القلیب. [۱۴۰] (۲)- تراجع الآیتان(۵۷) و ۵۸) من سورة الأنعام، و الآیة(۷۲) من سورة النمل و أمثالها، و هذا التعبیر فی القرآن قد یستعمل فی شأن القیامة أیضا.

[۱۴۱] (۱)- یری بعض المفسّرین أنّ هذه الآیة تشیر إلی عذاب الدنیا. مع أنّ مثل هذا التعبیر فی القرآن یکون لیوم القیامة غالبا ..

[۱۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۶۲- تفسیر البرهان، ص ۲۴۰

[۱۴۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۴۴] (۱)- ورد فی بحار الأنوار أکثر من عشر روایات فی هذا المجال، ج ۵۸، ص ۵۵ و ما بعدها.

[۱۴۵] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۱۴۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۳۸.

[۱۴۷] (۳)- سورة القصص، الآیة ۸۱.

[۱۴۸] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۷۱.

[۱۴۹] (۱)- کلمة« یوم» منصوبة علی أنّها ظرف و هی متعلّقة باسم الفاعل« واقع» الواردة فی الآیات المتقدّمة.

[۱۵۰] (۱)- سورة القارعة، الآیة ۵.

[۱۵۱] (۲)- لمزید التوضیح یراجع التّفسیر الأمثل ذیل الآیة(۱۰۵) من سورة طه.

[۱۵۲] (۳)- إلقاء هنا للتفریع، أی حیث تکون الأرض قاعا صفصفا و لا ملجأ من اللّه فویل یومئذ للمکذّبین.

[۱۵۳] (۱)- دعّ علی وزن جدّ معناه الدفع الشدید و السوق بخشونة و عنف و« الیوم» فی الآیة منصوب علی الظرفیة أو البدلیة من یومئذ فی الآیة السابقة.

[۱۵۴] (۱)- سورة الزمر، الآیة ۷۳.

[۱۵۵] (۱)- کلمة« فاکهین» مشتقّة من فکه علی وزن نظر- و فکاهة علی وزن شباهة، و معناها کون الإنسان مسرورا، و جعل الآخرین مسرورین بالکلام العذب، و یقول الراغب فی مفرداته: الفاکهة معناها کلّ نوع من الثمار. و الفکاهة أحادیث أهل الأنس .. و قد احتمل بعضهم أنّ الآیة: فاکهین بما أتاهم ربّهم إشارة إلی تناول أنواع الفواکه و هذا المعنی یبدو بعیدا ..

[۱۵۶] (۱)- یقول الراغب فی مفرداته: الهنیء کلّ ما لا یلحق فیه المشقّة و لا یعقبه و خامة ..

[۱۵۷] (۲)-« الحور»: جمع(حوراء) و أحور، فهو جمع للمذکّر و المؤنث سواء، و یطلق علی من حدقة عینه سوداء و بیاضها شفّاف أو هو کنایة عن الجمال، لأنّ الجمال یتجلّی فی العینین قبل کلّ شیء، و العین جمع لأعین و عیناه معناه العین الواسعة، و هکذا فإنّ الحور العین مفهوما واسع یشمل الأزواج جمیعا الذکور و الإناث من أهل الجنّة فالذکور للإناث و بالعکس.

[۱۵۸] (۱)- الظاهر أنّ جملة و الذین آمنوا جملة مستقلّة و الواو للاستئناف، و قد اختبار جماعة من المفسّرین هذا المعنی« کالعلّامة الطباطبائی و المراغی و سیّد قطب» إلّا أنّ العجب أن یعدّ الزمخشری هذه الجملة معطوفة علی و زوجناهم بحور عین مع أنّه لا یتناسب هذا المعنی و مفهوم النصّ و لا ینسجم مع فصاحة القرآن و بلاغته.

[۱۵۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۳۹ بتصرّف و تلخیص.

[۱۶۰] (۱)- الفعل ألتناهم مشتق من مادّة ألت علی وزن ثبت: و معناه الإنقاص.

[۱۶۱] (۲)- تفسیر المراغی، ج ۲۷، ص ۲۶.

[۱۶۲] (۱)- لسان العرب، مادّة رهن.

[۱۶۳] (۲)- مجمع البحرين، مادّة رهن.

[۱۶۴] (۳)- نهج البلاغة، من كتاب له ۴۵.

[۱۶۵] (۱)- هناك تفاسير أخر فى أصحاب اليمين سنتناولها ذيل الآية من سورة المدثر إن شاء اللّه.

[۱۶۶] (۱)- قال الراغب فى مفرداته: الكأس: الإناء بما فيه من الشراب و قال فى مجمع البحرين كذلك فإذا خلا الإناء سمّى« قدحا».

[۱۶۷] (۱)- مجمع البيان، الكشّاف، روح البيان، أبو الفتوح الرازى.

[۱۶۸] (۱)- دار النـدوة هى دار« قصـى بن كلاب» جـدّ العرب المعروف، و كانوا يجتمعون فيها للمشاورة فى الأمور المهمّة، و كانت هذه الدار إلى جوار بيت اللّه و تفتح بابه نحو جهة الكعبة، و كانت هذه الدار ذات مركزية فى زمن قصى بن كلاب نفسه(راجع سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۲۴ و ج ص ۱۳۲).

[۱۶۹] (۱)- راجع تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۳۱.

[۱۷۰] (۱)- راجع« لسان العرب» و« المفردات للراغب» و« المنجد» و« تفسير القرطبى».

[۱۷۱] (۱)- راجع المفردات للراغب.

[۱۷۲] (۲)- القرطبى، ج ۹، ص ۶۲۴۲.

[۱۷۳] (۱)- هناك احتمالات و أقوال بين المفسّرين فى معنى« أم» هنا أ هى استفهامية أم منقطعة و بمعنى بل كلّ له رأيه فيها و إن كان الرأى الثانى أكثر ترجيحا عندهم، إلّا أنّ سياق الآيات يتناسب و المعنى الأوّل غير أنّه ينبغى أن يعرف بأنّ أم فى مثل هذه المواطن ينبغى أن تكون مسبوقة بهمزة الاستفهام و لذلك فإنّ الفخر الرازى قدر لها ما يلى:« أ أنزل عليهم ذكر أم تأمرهم أحلامهم بهذا» و هو يشير إلى أنّ الإسلام ينبغى أن يتّبع دليل أو النقل أو العقل!.

[۱۷۴] (۱)- يقول صاحب مجمع البيان: التقوّل: تكلّف و لا يقال ذلك إلّا فى الكذب.

[۱۷۵] (۱)- فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۰۵.

[۱۷۶] (۱)- هناك تفسيرات أخر و احتمالات متعدّدة فى وجوه هذه الآية، منها أنّ مفادها: هل خلقوا بلا هدف و لم يك عليهم أيّة مسئولية؟! .. و بالرغم أنّ جماعة من المفسّرين اختاروا هذا الوجه إلّا أنّه مع الالتفات لبقيّة الآية\i: أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ E يتّضح أنّ المراد هو ما ذكر فى المتن، أى خلقوا من دون علّة. أم هم علّة أنفسهم؟!.

[۱۷۷] (۱)- الخزائن جمع الخزينة و معناها مكان كلّ شىء محفوظ لا تصل إليه اليد و يدّخر فيه ما يريد الإنسان يقول القرآن فى هذا الصدد\i وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ E[الحجر الآية ۲۱].

[۱۷۸] (۱)- سلّم يعنى« المصعد» كما يأتى بمعنى أيّة وسيلة كانت و قد اختلف المفسّرون فى المراد من الآية فأىّ شىء كانوا يدعونه؟! فقال بعضهم: ادّعوا الوحى و قال آخرون هو ما كانوا يدّعونه فى النّبى بأنّه شاعر أو مجنون أو ما كانوا يدّعون من الأنداد و الشركاء للّه ... و فسّر بعضهم ذلك بنفى نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم« و لا مانع من الجمع بين هذه المعانى و إن كان المعنى الأوّل أجلى».

[۱۷۹] (۲)- كانت لنا بحوث مفصّلة فى سبب جعل العرب الملائكة بنات اللّه فى الوقت الذى كانوا يستاءون من البنات. و ذكرنا الدلائل الحيّة التى أقامها القرآن ضدّهم فليراجع ذيل الآية(۵۷) سورة النحل و ذيل الآية(۱۴۹) من سورة الصافات ..

[۱۸۰] (۱)- قال بعض المفسرين أنّ المراد بالغيب هو اللوح المحفوظ، و قال بعضهم: بل هو إشارة إلى ادّعاءات المشركين و قولهم إذ كانت القيامة فسيكون لنا عند اللّه مقام كريم. إلّا أنّ هذه التفاسير لا تتناسب و الآية محلّ البحث و لا يرتبط بعضها ببعض.

[۱۸۱] (۱)- الكيد على وزن صيد نوع من الحيلة و قد يستعمل فى التحيّل إلى سبيل الخير، إلّا أنّه غالبا ما يستعمل فى الشرّ، و تعنى

هذه الکلمة المکر و السعی أو الجدّ کما تعنی الحرب أحیانا ..

[۱۸۲] (۱)-« الکشف»: علی وزن فسق- معناه القطعة من کلّ شیء، و مع ملاحظة بقیّة التعبیر.« من السماء»: یظهر المراد منه هنا القطعة من حجر السماء، و قد دلّت علیه بعض کتب اللغة و هذه الکلمة تجمع علی کسف علی وزن عنب، إلّا أنّ أغلب المفسّرین یرون بأنّ الکلمة هنا مفردة و ظاهر الآیة أنّها مفردة أیضا، لأنّها و صفتها بالمفرد ساقطا ..

[۱۸۳] (۱)- من قال بأنّ جملة فیه یصعقون تشیر إلی یوم القیامة فسّر العذاب« فی الآیة» محلّ البحث بعذاب البرزخ فی القبر، إلّا أنّه حیث کان تفسیرها ضعیفا فهذا الاحتمال ضعیف أیضا.

[۱۸۴] (۱)- قد یکون المراد من« حکم ربّک» هو تبلیغ حکم اللّه الذی امر النّبی به، فعلیه أن یصیر عند إبلاغه، أو أنّه عذاب اللّه الذی و عد أعداؤه به أی: اصبر یا رسول اللّه حتّی یعذّبهم اللّه، أو المراد منه أوامر أی بما إنّ اللّه أمرک فاصبر لحکمه، و الجمع بین هذه المعانی و إن کان ممکنا إلّا أنّ التّفسیر الأوّل یبدو أقرب خاصّة بملاحظة فإنّک بأعیننا.

[۱۸۵] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۲۴

[۱۸۶] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۰.

[۱۸۷] (۳)- مجمع البیان ذیل الآیة(۴۰)، سورة ق، ج ۹، ص ۱۵۰.

[۱۸۸] (۱)- تفسیر القرطبی ج ۹ ص ۶۲۵۱ ذیل الآیات محلّ البحث.

[۱۸۹] (۱)- تفسیر روح البیان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۱۹۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۱] (۳)- تفسیر المراغی، ج ۲۷، ص ۴۱.

[۱۹۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۷۰.

[۱۹۳] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۳۰۵.

[۱۹۴] (۱)- الثریا مجموعة النجوم السبعة التی ستّة منها واضحة و واحد منها خافت النور و عادة یختبر بها قوّة البصر فیمتحن الناس بالنظر إلیها، و القسم بهذه المجموعة من النجوم لعلّه لمسافتها البعیدة عنّا ..

[۱۹۵] (۲)-« الشعری»: واحد من نجوم السماء و اللامعة و سیأتی البحث عن هذا النجم ذی ذیل الآیة(۴۹) من هذه السورة ذاتها بإذن اللّه، و القسم بهذا النجم لعلّه لإشراقه الشدید و لخصائصه المتمیّز بها.

[۱۹۶] (۳)- الأنعام، الآیة ۷۶.

[۱۹۷] (۱)- و ما ورد فی بعض الرّوایات من أنّ المراد بالنجم هو شخص النّبی و المراد من هوی هو نزوله من السماء فی لیلة المعراج، فهذا التّفسیر فی الحقیقة یعدّ من بطون الآیة لا من ظاهرها!

[۱۹۸] (۱)- نهج البلاغة، و من کلام له علیه السّلام رقم ۴۲.

[۱۹۹] (۱)- تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۲ من شیء من التلخیص.

[۲۰۰] (۱)- مقتبس من« روح المعانی» ذیل الآیات محلّ البحث.

[۲۰۱] (۱)- قالوا: هنا قلب فی الکلام، و أصله فکان قابی قوس.

[۲۰۲] (۲)- هذا التّفسیر و هو أنّ المراد من« شدید القوی»« جبرئیل» اختاره جماعة کثیرون منهم الطبرسی فی مجمع البیان، و البیضاوی فی أنوار التنزیل، و الزمخشری فی الکشّاف، و القرطبی فی تفسیره روح البیان، و الفخر الرازی فی تفسیره الکبیر، و سیّد قطب فی تفسیره فی ظلال القرآن، و المراغی فی تفسیره و تعبیرات العلّامة الطباطبائی فی میزانه تحمیل إلی هذا الرأی أیضا ..

[۲۰۳] (۱)- فی دعاء الندبة تعبیر یناسب هذا المعنی أیضا إذ یقول: یا ابن من دنا فتدلّی فکان قاب قوسین أو أدنی دنوا و اقترابا من

الملأ الأعلی و فی ذیل هذا الدعاء ورد بعض القاب اللّه« شدید القوی» إذ یقول: و أره سیّده یا شدید القوی ..

[۲۰۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۴۹.

[۲۰۵] (۳)- المصدر السابق

[۲۰۶] (۱)- المصدر ذاته، ص ۱۴۸.

[۲۰۷] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۳.

[۲۰۸] (۳)- سورة الأنعام، الآیة ۱۰۳.

[۲۰۹] (۴)- سورة البقرة، الآیة ۱۱۵.

[۲۱۰] (۵)- سورة الحدید، الآیة ۴.

[۲۱۱] (۶)- روح المعانی، ج ۹، ص ۲۱۹.

[۲۱۲] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

[۲۱۳] (۱)- الضمیر فی: فاستوی و الضمیر فی: و هو بالأفق الأعلی یمکن أن یعودا علی شخص النبی، کما یمکن أن یعودا علی ذات اللّه المقدّسة.

[۲۱۴] (۱)- لا بأس بذکر هذه اللطیفة هنا إجمالا و هی أنّ المعراج هل حدث للنبی مرّة فی عمره أو مرّتین؟ هناک کلام بین العلماء. و لعلّ هذه الآیات فیها إشارة إلی شهودین فی معراجین.

[۲۱۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۸۷ ذیل مبحث المعراج.

[۲۱۶] (۱)- الفعل« طغی» مضارعه یطغو، و طغی مضارعه یطغی، و باب الأول نصر ینصر، و باب الثانی فرح یفرح، و کلاهما بمعنی واحد، و من هذا القبیل صغا یصغو و صغی یصغی.

[۲۱۷] (۱)- قال بعض أصحاب(اللغة) و المفسّرین معنی النزلة هنا« مرّة» و لیس المراد منها النّزول، فالنزلة الاخری تعنی المرّة الثانیة لا غیر، لکن لا ندری لم عرفوا عن المادّة الأصلیة للنزلة فی حین أنّ غیرهم أشاروا إلیها و فسّروها بما بیّنا آنفا[فلاحظوا بدقّة].

[۲۱۸] (۲)- مجمع البیان: ذیل الآیات محلّ البحث.

[۲۱۹] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۵۵

[۲۲۰] (۱)- المأوی فی الأصل معناه الانضمام، و حیث أنّ سکون الأفراد فی محلّ ما یسبّب انضمام بعضهم لبعض فقد استعملت هذه الکلمة« المأوی» علی محلّ السکن مطلقا.

[۲۲۱] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۳۳.

[۲۲۲] (۱)- جاء فی تفسیر المیزان أنّ الزیغ هو الخطأ فی مشاهدة کیفیة الشیء و أنّ الطغیان فی البصر هو الخطأ فی أصل الرؤیة إلّا أنّه لا دلیل واضح علی هذا التفاوت .. بل ما ورد فی اللغة هو ما بیّناه فی المتن.

[۲۲۳] (۱)- جاء فی آیات القرآن« أنّ المتّقین یساقون إلی الجنّة زمرا و أنّ الکفّار یساقون إلی النار زمرا(الزّمر الآیات ۷۱- ۷۳) و جاء هذا المعنی فی سورة اخری کالآیة(۷۰) من الزخرف، و الآیتین(۸۵) و ۸۶) من سورة مریم، و الآیة(۴۷) من سورة الدخان.

[۲۲۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۳۱۹.

[۲۲۵] (۲)- طبقا لبعض آیات القرآن کالآیة السادسة من سورة الصافات\i:إِنَّا زَیَّنَّا السَّماءَ الدُّنْیا بِزِینَةٍ الْکَواکِبِ E ما نراه من العالم العلوی من النجوم و المجرّات هو فی السماء الاولی فحسب أمّا السماوات الستّ الاخری فهی فوقها ..

[۲۲۶] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۳، ص ۲۹(ذیل الآیات الاولی من سورة الإسراء بحث روائی).

[۲۲۷] (۱)- ممّا ینبغی الالتفات إلیه أنّ اسم النّبی فی کلّ مکان من هذا الحدیث ورد بلفظ أحمد إلّا فی بدایته، أجل فاسم النّبی فی

الأرض محمّد و فى السماء أحمد و لم لا يكون كذلك مع أنّ أحمد بالإضافة إلى أنّه اسم تفضيل مبين للحمد و التكريم أكثر، و قد كان على النّبى فى تلك الليلة التاريخية أن يتجاوز من« محمّد» إلى« أحمد» لأنّ الفاصلة بين أحمد واحد غير بعيدة.

[۲۲۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۷، ص ۲۱- ۳۰ بشىء من التلخيص.

[۲۲۹] (۱)- سنتحدّث عن الأصنام الثلاثة المشار إليها فى الآيات محلّ البحث بإذن اللّه، لكن ممّا ينبغى الالتفات إليه هو التعبير بمناة الثالثة الاخرى فقد ذكر لهذه الآية تفاسير عديدة أغلبها عار من الصحّة و لا أساس له و لكن المناسب من هذه التفاسير أنّ أهميّة هذه الأصنام عند مشركى العرب كانت بحسب ما ذكره القرآن فالتعبير بمناة الثالثة أى ثالث الأصنام(فى الأهميّة) عند العرب و التعبير بالأخرى هو لتأخّر رتبتها عندهم!

[۲۳۰] (۱)- ضيزى أى ناقصة و غير منصفة.

[۲۳۱] (۱)- السلطان: معناه السلطة و الغلبة، و يطلق على الدليل القاطع أنّه سلطان أيضا، لأنّه أساس الغلبة على الخصم.

[۲۳۲] (۲)-« ما» فى« ما تهوى الأنفس» موصولة، و يحتمل أن تكون مصدرية، و لا فرق كبير بينهما.

[۲۳۳] (۱)- بلوغ الإرب فى معرفة أحوال العرب، ج ۲، ص ۲۰۲ و ۲۰۳.

[۲۳۴] (۲)- كلمة« اللات» كان ينبغى أن تكتب اللاة بالتاء القصيرة و لكنّها لمّا كانت فى الوقف تبدّل هاء فتصير اللاه و يوهم لفظها بالاسم الكريم اللّه كتبت بالصورة الآنفة اللات.

[۲۳۵] (۱)- الاحتمال الأوّل جاء فى الكشّاف و الثانى فى بلوغ الإرب.

[۲۳۶] (۲)- بلوغ الإرب، ج ۲، ص ۲۰۲ و ۲۰۳.

[۲۳۷] (۱)- نقل الطبرى هذه القصّة الخرافية فى تاريخه، ج ۲، ص ۷۵ فما بعد.

[۲۳۸] (۱)- نهج البلاغة، الكلمات القصار- الكلمة رقم ۲۵۰.

[۲۳۹] (۱)- مع أنّ كلمة ملك فى الآية مفردة فقد عاد الضمير عليها جمعا فى« شفاعتهم» و ذلك لمفهوم الكلام و رعاية للمعنى!

[۲۴۰] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۲۶۱(باب تمنّى الخيرات).

[۲۴۱] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۲] (۳)- التعبير ب« من يشاء» الوارد فى الآية المتقدّمة يمكن أن يكون إشارة إلى الناس الذين يأذن اللّه لهم بالشفاعة، أو إشارة إلى الملائكة الذين يأذن اللّه لهم بالشفاعة، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۲۴۳] (۱)- جاء هذا الدعاء من دون الإشارة إلى أنّه من أعمال شهر شعبان فى مجمع البيان و فى تفاسير اخرى ذيل الآية محلّ البحث.

[۲۴۴] (۱)-« اللام» فى(ليجزى) هى لام الغاية، فبناء على ذلك الجزاء هو غاية الخلق، و إن كان بعضهم يعتقد بأنّ« ليجزى» متعلّق بأعلم فى الآية السابقة، و أنّ جملة(و للّه ما فى السماوات و الأرض) معترضة، إلّا أنّ هذا الاحتمال يبدو بعيدا ..

[۲۴۵] (۲)- الكافى، ج ۲ كتاب الإيمان و الكفر باب اللمم ۳۲۰.

[۲۴۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۴۷] (۱)- الكافى، ج ۲ باب اللمم ص ۳۲۱.

[۲۴۸] (۱)- الأجنّة: جمع جنين: الطفل الذى فى بطن امّه ..

[۲۴۹] (۲)- روح المعانى، ج ۷، ص ۵۵.

[۲۵۰] (۱)- اللطيفة: ما فيها من دقّة و خفاء.

[۲۵۱] (۲)- كما فى النساء الآية(۳۱) و الشورى الآية(۳۷) و الآيات محلّ البحث.

[۲۵۲] (۱)- الوسائل، ج ۱۱- أبواب جهاد النفس الباب ۴۶ الحديث ۱.

[۲۵۳] (۲)- لمزيد الإيضاح يراجع المصدر السابق الباب ۴۶ من أبواب جهاد النفس و قد جاء فى هذا الباب سبع و ثلاثون رواية ..

[۲۵۴] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۶۵.

[۲۵۵] (۱)- نهج البلاغة، من كتاب له برقم ۲۸.

[۲۵۶] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۶۶.

[۲۵۷] (۱)- ذكره الطبرسى فى مجمع البيان و مفسّرون آخرون أمثال الزمخشرى فى الكشّاف و الفخر الرازى فى التّفسير الكبير .. و يضيف الطبرسى أنّه ذكره ابن عبّاس و السدى و الكلبى و جماعة من المفسّرين! ..

[۲۵۸] (۲)- ذكر هذا الشأن صاحب مجمع البيان و القرطبى و روح البيان .. و روح المعانى و بعض التفاسير الاخر.

[۲۵۹] (۳)- أكدى مأخوذ من الكدية و معناه الصلابة، ثمّ أطلق على من يمسك و البخيل.

[۲۶۰] (۱)- وفّى مصدره توفية معناه البذل و الأداء التامّ ..

[۲۶۱] (۲)- روح البيان، ج ۹، ص ۲۴۶.

[۲۶۲] (۱)- أتت لفظ الوازرة لكونه وصفا للنفس المحذوفة فى الآية و مثلها تأنيث اخرى.

[۲۶۳] (۲)- كلمة« ما» فى« ما سعى» مصدرية.

[۲۶۴] (۳)- نائب الفاعل فى يجزاه ضمير يعود على الإنسان و الهاء فى يجزاه تعود على العمل(مع حذف حرف الجرّ) و تقدير الآية هكذا ثمّ يجزى الإنسان بعمله أو على عمله الجزاء الأوفى .. يقول الزمخشرى فى الكشّاف: يمكن أن لا يكون هناك حرف مقدّر لأنّه يقال يجزى العبد سعيه .. إلّا أنّه ينبغى الالتفات إلى أنّه يقال مثلا جزاه اللّه على عمله و يندر أن يقال جزاه اللّه عمله، و الجزاء الأوفى يمكن أن يكون مفعولا ثانيا أو مفعولا مطلقا.

[۲۶۵] (۱)- جاء هذا الأصل فى قصّة موسى و شعيب فى سورة القصص الآية(۲۷).

[۲۶۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۶ و ذكر هذا الحديث فى روح البيان أيضا، ج ۹، ص ۲۴۶.

[۲۶۷] (۲)- كتاب حزقيل، الفصل ۱۸ ص ۲۰.

[۲۶۸] (۳)- التوراة، سفر التثنية، باب ۲۴ الرقم ۱۶.

[۲۶۹] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لما جاء فى نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۷۰.

[۲۷۰] (۲)- هذه الأفعال و إن جاءت بصيغة الماضى إلّا أنّها تعطى معنى الفعل المضارع أيضا و الدلالة على الدوام ...(فلاحظوا بدقّة).

[۲۷۱] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۷۲.

[۲۷۲] (۱)- راجع المفردات للراغب، مادّة قنى.

[۲۷۳] (۱)- دائرة المعارف الإسلامية مادّة، شعرى.

[۲۷۴] (۱)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۳۰.

[۲۷۵] (۱)- ينبغى الالتفات بأنّ هذه المسائل أو المواضيع المشار إليها فى القرآن فى أحد عشر فصلا، كلّها بدأت بأنّ: فأوّلها جاء فى الآية ۳۸ ألا تزر وازرة وزر اخرى و آخرها و أنّه أهلك عادا الاولى.

[۲۷۶] (۱)- مجمع البيان و روح المعانى، و تفسير الرازى.

[۲۷۷] (۲)-« ما» فى ما غشّى يمكن أن تكون مفعولا به أو فاعلا نظير و السماء و ما بناها إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية .. و على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يأتى للتهويل!

[۲۷۸] (۱)- بـالرغم من أنّ باب التفاعل فی اللغـة العربیـة یـدلّ علی اشتراک طرفین فی الفعل، إلّا أن تتماری هنا مخاطب به شـخص واحد، و هو أمّا لتعدّد الحالات أو للتأکید ..« فلاحظوا بدقّة».

[۲۷۹] (۱)- الضـمیر فی لها یعود علی الآزفة و تأنیث الکاشـفة، لأنّها صفة للنفس المحذوفة، و قال آخرون هی تاء المبالغة کالتاء فی العلامة.

[۲۸۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۹(بدایة سورة القمر).

[۲۸۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۹.

[۲۸۲] (۲)- ذکر فی مجمع البیان و کتب تفسیر اخری فی هامش تفسیر الآیة مورد البحث.

[۲۸۳] (۱)- التّفسیر الکبیر، الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۸، أوّل سورة القمر.

[۲۸۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۴ حدیث(۸).

[۲۸۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۲ حدیث(۱).

[۲۸۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۳۵۵ حدیث(۱۰).

[۲۸۷] (۴)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۲۳.

[۲۸۸] (۱)-(حکمة بالغة) خبر لمبتدأ محذوف تقدیره(هذه حکمة بالغة).

[۲۸۹] (۲)- نذر جمع نذیر و یعنی(المنذرین) و المقصود بالمنذرین هی الآیات القرآنیة و أخبار الأمم و الأنبیاء الذین وصل صوتهم إلی أسـماع الناس، و یحتمل البعض أنّ(نـذر) مصدر بمعنی إنذار. لکن المعنی الأوّل هو الأنسب. و ضـمنا فإنّ(ما) فی عبارة(ما تغن بالنذر) نافیة و لیست استفهامیة.

[۲۹۰] (۳)- فی الآیة أعلاه(یوم) یتعلّق بمحذوف تقدیره(اذکر) و یحتمل البعض أنّها تتعلّق ب(یخرجون) و لکن ذلک مستبعد.

[۲۹۱] (۱)- الإسراء ۲

[۲۹۲] (۲)-(نکر) مفرد من مادّة(نکارة) و تعنی الشیء المبهم المخیف.

[۲۹۳] (۱)- الحجّ، ۲.

[۲۹۴] (۲)- الفرقان، ۲۶.

[۲۹۵] (۱)- الکهف، ۴۹.

[۲۹۶] (۲)- لقمان، ۱۶.

[۲۹۷] (۳)- البقرة، ۴۸.

[۲۹۸] (۴)- الأنعام، ۲۷.

[۲۹۹] (۱)- الحجّ، ۲.

[۳۰۰] (۲)- المعارج، ۱۱- ۱۵.

[۳۰۱] (۱)- الشعراء، ۱۱۶.

[۳۰۲] (۲)- تفسیر الکشّاف و أبو الفتوح و الرازی هامش الآیة مورد البحث

[۳۰۳] (۱)-(انتصـر): طلب العون کما فی الآیة(۴۱) سورة الشوری، و هنـا جاءت بمعنی طلب الانتقام علی أساس العـدل و الحکمة کما فسّرها البعض فی التقدیر(انتصر لی).

[۳۰۴] (۲)- روح المعانی هامش الآیة مورد البحث.

[۳۰۵] (۱)-« عیونا»: یمکن أن تکون تمیّزا للأرض و التقدیر فجرنا عیون الأرض، ثمّ إنّ العیون مفعول به منفصل و قد جاءت بصورة

تمييز كى تعبّر عن المبالغة و الأهميّة و كأنّ الأرض جميعا تحوّلت إلى عيون.

[۳۰۶] (۱)-« أعين» جمع عين، و إحدى معانيها العين الباصرة، و المعنى الآخر لها هو: الشخصية المعتبرة، و لها معان اخرى.

[۳۰۷] (۲)- يجدر بالملاحظة هنا أنّ فعل(كفر) مبنى للمجهول، و المراد به نوح عليه السّلام الذى كفر به، و ليس فعلا معلوما يشير إلى الكفّار.

[۳۰۸] (۱)- إذا لم يكن فى الآية شىء مقدّر فيكون نائب الفاعل للفعل(كفر) هو شخص نوح عليه السّلام حين أنّه عليه السّلام يكون النعمة التى(كفر) بها، أمّا إذا قلنا أنّ للآية محذوف مقدّر، فيكون تقديره(كفر به) فعندئذ تكون إشارة إلى عدم الإيمان بنوح عليه السّلام و تعاليمه.

[۳۰۹] (۲)- لقد ذكرت أبحاث مفصّلة حول قصة قوم نوح عليه السّلام فى هامش الآيات الكريمة ۲۵- ۴۹ من سورة هود

[۳۱۰] (۱)- الحاقّة، ۷

[۳۱۱] (۲)- الأحقاف، ۲۴.

[۳۱۲] (۱)- يجدر الانتباه إلى أنّ نحسات جاءت صفة للأيّام، و ذلك يعنى أنّ الأيّام المذكورة و صفت بالنحوسة، فى الوقت الذى ذكرت كلمة(يوم) فى الآية الكريمة(فى يوم نحس مستمر) إضافة ل(النحس) و ليست وصفا و لكن بقرينة الآية أعلاه يجب القول: إنّ الإضافة هنا تكون إضافة موصوف إلى صفة(يرجى الانتباه).

[۳۱۳] (۲)- فصّلت، ۱۶.

[۳۱۴] (۳)- الدخان، ۳.

[۳۱۵] (۴)- بحار الأنوار، ج ۵۹ كتاب السماء و العالم، ص ۱- ۹۱ و ما بعدها.

[۳۱۶] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۸۳ حديث(۲۵).

[۳۱۷] (۲)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۰۵.

[۳۱۸] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸.

[۳۱۹] (۴)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۱.

[۳۲۰] (۵)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۹۲.

[۳۲۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۳۹، حديث ۷.

[۳۲۲] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۸.

[۳۲۳] (۱)- تحف العقول، عن بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۲ باختصار.

[۳۲۴] (۱)- الفرقان، ۷.

[۳۲۵] (۲)- الزخرف، ۳۱.

[۳۲۶] (۱)-« محتضر» اسم مفعول من مادّة(حضور) و(شرب) بمعنى السهم و النوبة الخاصّة بالماء، و بناء على ذلك فإنّ مفهوم جملة(كلّ شرب محتضر) أى أنّ توبة كلّ شخص من الماء حاضرة له، و لا يحقّ للآخرين الحضور و التزاحم عليها.

[۳۲۷] (۲)- قدارة على وزن(منارة)- كان رجلا قبيح الشكل و السيرة، و من أكثر الأشخاص شؤما فى التاريخ.

[۳۲۸] (۱)- كما بيّنا شرح هذا الموضوع تحت عنوان(الارتباط الرسالى) فى الآية ۶۵ سورة هود.

[۳۲۹] (۱)- فصّلت، ۱۳.

[۳۳۰] (۱)- هود، ۸۲.

[۳۳۱] (۱)- توجد أبحاث اخرى حول هذا الموضوع فى الآية(۸۲) من سورة هود.

[۳۳۲] (۲)- هود، ۸۱.

[۳۳۳] (۳)- یقول الراغب فی المفردات: السحر اختلاط ظلام آخر اللیل بضیاء النهار.

[۳۳۴] (۴)- نعمة مفعول به لفعل مقدّر من نفس جنسه، أو أنّه مفعول له ل(نجّینا) الذی ورد فی الآیة السابقة.

[۳۳۵] (۱)- الحجر، ۷۱

[۳۳۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۸۵.

[۳۳۷] (۱)-(نـذر) بالإضافـة إلی کونها جمع(نـذیر)، فإنّها تعطی أیضا معنی المصـدر أو اسم المصـدر، و لکون المصدر یطلق علی المعنی الوصفی أیضا، لذا یمکن جمع الإثنین فی مفهوم واحد.

[۳۳۸] (۲)- المعجزات التسع لموسـی علیه السّـلام و بالنظر إلی الآیات القرآنیـة المختلفة فهی عبارة عن:« تبدیل العصا لثعبان عظیم»(طه/ ۲۰)(۲)« ید بیضاء» و لمعان ید موسـی علیه السّـلام کمصدر نور(طه/ ۲۲)(۳) الطوفانات المحطّمة الأعراف/ ۱۳۳(۴)(الجراد) الذی سلّط علی المزارع،(۵)(و القمل)(و هو نوع من الآفات الزراعیـة)،(۶)(الضـفادع) التی خرجت من نهر النیل و بعد مدّة قصیرة غطّت سـطحه(۷)(الـدم) حیث أصـبح لـون نهر النیـل بلون الـدم(الأـعراف/ ۱۳۳)،(۸)،(۹) عــدم نزول الأمطـار و نقص الثمرات(الأعراف/ ۱۳۰).

[۳۳۹] (۱)- الضمیر فی« کفّارکم» یرجع فی الظاهر(المشرکی العرب) بقرینة الجملة\i أَمْ لَکُمْ بَراءَةٌ فِی الزُّبُرِ\E.

[۳۴۰] (۲)- بالرغم من أنّ(نحن) ضمیر جمع فانّ خبرها(جمیع) قد جاء مفردا، و کذلک منتصر و التی جاءت خبرا بعد خبر أو صفة ل(جمیع)، و السبب فی ذلک فإنّ لفظ(جمیع) و إن کانت مفردة إلّا أنّ المعنی(جمع).

[۳۴۱] (۱)- مع العلم أنّ من المنـاسب أن یقال(یولّون الأدبار) إلّا أنّه قیل هنا:(یولّون الـدبر)، لأنّ لهـذه المعنی(جنس) حیث تکون فی حکم الجمع.

[۳۴۲] (۱)-« سعر»: کما بیّنا سابقا فی آخر الآیة(۲۴) من نفس السورة لها معنیان: الأوّل: انّها جمع سعیر بمعنی اشتعال النار.

و الثّانی: بمعنی الجنون، و الهیجان الـذی یلازمه اضـطراب التوازن الفکری، و فی الآیـة مورد البحث یمکن أن یکون بالمعنیین معا، و إذا قصـدنا المعنی الثـانی فیکون مفهوم الآیـة کـذلک: أنّهم کانوا یقولون إذا اتّبعنا إنسانا مثلنا فإذا نحن فی ضـلال و جنون، و هنا یردّ القرآن الکریم علیهم بقوله: ستعلمون یوم القیامة آثارکم و تکذیبکم للأنبیاء هو الضلال و الجنون.

[۳۴۳] (۲)- تفسیر الصافی ذیل الآیة مورد البحث.

[۳۴۴] (۱)- الکهف، ۴۹.

[۳۴۵] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۳۹.

[۳۴۶] (۱)- تفسیر روح المعانی نقل عن البخاری و الترمـذی و ابن ماجـة و ابن عـدی و ابن مردویه و ابن عبّاس، ج ۲۷، ص ۸۱، و ذکر القرطبی مثل هذا الحدیث فی تفسیره، ج ۹، ص ۶۳۸.

[۳۴۷] (۱)- مجمع البحرین مادّة(رجا).

[۳۴۸] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۸۶.

[۳۴۹] (۱)-« لمح» علی وزن(مسح) و الأصل بمعنی لمعان البرق ثمّ جاءت بمعنی النظر السریع.

[۳۵۰] (۲)- النحل، ۷۷.

[۳۵۱] (۱)- روح المعانی، ج ۲۷، ص ۸۳.

[۳۵۲] (۱)- مجمع البیان بدایة سورة الرحمن، و جاء کذلک فی الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۰.

[۳۵۳] (۲)- لسان العراب و مجمع البحرین و صحاح اللغة و.

[۳۵۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۸۷.

[۳۵۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۹۲، ص ۳۰۶.

[۳۵۶] (۳)- المصدر السابق.

[۳۵۷] (۱)- الرحمن: مبتدأ و خبرها(علّم القرآن)، و(خلق الإنسان) خبر بعد خبر، کما توجد احتمالات اخری أیضا لإعراب هذه الجملة لم تذکر هنا لعدم أهمیّتها.

[۳۵۸] (۱)- التوبة، ۱۲۸.

[۳۵۹] (۱)- اختلف المفسّرون حول أنّ المفعول الأوّل ل(علّم) هو المحذوف، أو أنّ المحذوف هو المفعول الثانی، و الأنسب أنّ المفعول الأوّل هو المحذوف حیث فی التقدیر یکون:(علّم الإنس و الجنّ القرآن).

کما یحتمل البعض أنّ(علّم) لم تأخذ أکثر من مفعول واحد بمعنی موضع العلاقة و هذا مستبعد جدّا.

[۳۶۰] (۱)- دائرة المعارف لفرید وجدی، ج ۸، ص ۳۶۴ مادّة(لغة).

[۳۶۱] (۱)-« حسبان» علی وزن(غفران) و هی مصدر بمعنی الحساب و النظم و الترتیب، و للآیة محذوف تقدیره(و الشمس و القمر تجریان بحسبان).

[۳۶۲] (۱)- سرّ خلق الإنسان، ص ۲۸.

[۳۶۳] (۱)- الراغب فی مفرداته حیث یقول: النجم ما لا ساق له من النبات.

[۳۶۴] (۱)- بحثنا تفصیلا حول معنی(سجود الموجودات المختلفة فی عالم الوجود) فی هامش الآیة رقم ۱۸ سورة الحجّ. و کذلک فی هامش الآیة ۴۴ من سورة الإسراء.

[۳۶۵] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۱۹۷.

[۳۶۶] (۱)- آل عمران، ۱۹۱.

[۳۶۷] (۱)- یقول الفخر الرازی فی تفسیر لکلمة(المیزان) فی الآیة الاولی: إنّها اسم(آلة) بمعنی وسیلة للقیاس، و فی الآیة الثانیة جاء مصدرا(یعنی الوزن)، و فی الآیة الثالثة أتی مفعولا بمعنی(جنس الموزون).

[۳۶۸] (۲)- روی هذا الحدیث فی تفسیر علی بن إبراهیم عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام و الحدیث مفصّل و قد ذکر مضمونه هنا فقط(تفسیر علی بن إبراهیم، ج ۲، ص ۳۴۳).

[۳۶۹] (۱)- سرعة الأرض حول الشمس(الحرکة الانتقالیة) ۳۵ کم فی الثانیة، و سرعة سیرها حول نفسها بحدود(۱۶۰۰) کم فی الساعة(فی المناطق الاستوائیة).

[۳۷۰] (۲)- الملک، ۱۵.

[۳۷۱] (۱)- لنا بحث مفصّل فی هذا الموضوع فی تفسیرنا هذا، ذیل الآیة(۴۷) من سورة فصّلت.

[۳۷۲] (۱)- المفردات للراغب.

[۳۷۳] (۲)- الحجّ، ۵.

[۳۷۴] (۳)- الأنعام، ۲.

[۳۷۵] (۴)- الحجر، ۲۸

[۳۷۶] (۵)- الصافات، ۱۱.

[۳۷۷] (۱)- توضیح: لما کان محور الأرض مائلا بالنسبة لسطح مدارها و بشکل زاویة بحدود ۲۳ درجة، و الأرض بهذه الصورة تدور حول الشمس، لذا فإنّ شروق الشمس و غروبها متغیّر دائما أیضا کما یبدو من ۲۳ درجة و التی تمثّل أعظم الانحراف باتّجاه

الشمال(فی بدایة الصیف) إلی ۲۳ درجة فی قمّة الانحراف باتّجاه الجنوب(بدایة الشتاء)، و یسمّی المدار الأوّل لها مدار« رأس السرطان» و المدار الثانی مدار« رأس الجدی»، و هذان هما مشرقا و مغربا الشمس، و بقیّة المدارات فی داخل هذین المدارین.

[۳۷۸] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۰(المقصود هو ارتفاع الشمس فی السماء فی فصل الصیف و نزولها فی فصل الشتاء).

[۳۷۹] (۳)- المعارج، ۴۰.

[۳۸۰] (۱)- الفرقان، ۵۳.

[۳۸۱] (۱)- دائرة المعارف فرید و جدی و کتب اخری.

[۳۸۲] (۱)- إبراهیم، ۳۲.

[۳۸۳] (۱)- دائرة المعارف(الثقافیة) ج ۱۲ ص ۱۲۲۸، و کذلک مجلة المیناء و البحر عدد ۴ ص ۱۰۰ بالإضافة إلی مصادر اخری.

[۳۸۴] (۲)- تفسیر القمّی، ج ۲، ص ۳۴۴.

[۳۸۵] (۳)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۲.

[۳۸۶] (۱)- القصص، ۸۸.

[۳۸۷] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۹۵.

[۳۸۸] (۱)- أصول الکافی مطابق نقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۳.

[۳۸۹] (۲)- مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث، و نقل هذا الحدیث أیضا فی روح المعانی من صحیح البخاری.

[۳۹۰] (۳)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۰۲.

[۳۹۱] (۱)- المؤمنون، ۱۰۰.

[۳۹۲] (۲)- سورة یس، ۵۱.

[۳۹۳] (۳)- سورة یس، ۷۹.

[۳۹۴] (۱)- الغدیر، ج ۸، ص ۳۰۱.

[۳۹۵] (۲)- الکامل لابن الأثیر، ج ۴، ص ۴۰.

[۳۹۶] (۳)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۳۷.

[۳۹۷] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ رسم الخطّ القدیم فی القرآن المجید کتبت(أیّها) فی موارد بصورة(أیّه) و التی هی فی الآیة مورد البحث و آیتین أخریین(النور آیة ۳۱، و الزخرف آیة ۴۹) فی الوقت الذی تکتب(أیّها) فی الحالات الاخری بالألف الممدودة، و الملاحظ أنّها کانت علی أساس قاعدة رسم الخطّ القدیم.

[۳۹۸] (۲)- مع کون« الثقلین» تنبیه فالضمیر فی لکم أتی جمعا و ذلک إشارة إلی مجموعتین.

[۳۹۹] (۳)- الزلزلة، ۲.

[۴۰۰] (۱)- تفسیر الصافی ص ۵۱۷ و تفسیر مجمع البیان ج ۹ ص ۲۰۵.

[۴۰۱] (۱)- توجد احتمالات متعدّدة فی أنّ(إذا) فی الآیة هل هی شرطیة، أم فجائیة، أم ظرفیة، و الظاهر أنّ الاحتمال الأوّل هو الأولی، و جزاء الشرط محذوف و یمکن تقدیره هکذا:(فإذا انشقّت السماء فکانت وردة کالدهان، کانت أهوال لا یطیقها البیان).

[۴۰۲] (۱)- الصافات، ۲۴.

[۴۰۳] (۲)- الحجر، ۹۲- ۹۳.

[۴۰۴] (۱)- سورة یس، ۶۵.

[۴۰۵] (۲)- کما ورد فی الآیة موضع البحث و الآیتین المشار لهما أعلاه.

[۴۰۶] (۳)- کما ورد فی الآیة فی سورة النحل الآیة(۱۱۱).

[۴۰۷] (۴)-(سیما) فی الأصل بمعنی العلامة، و تشمل کلّ علامة فی الوجه و سائر مواضع البدن، و لأنّ علامة الرضا و الغضب تبدو فی الوجه أوّلا، فإنّه یتداعی ذکر الوجه فی ذکر هذه المفردات.

[۴۰۸] (۵)- عبس. ۳۹- ۴۱.

[۴۰۹] (۱)- المؤمن، ۷۱- ۷۲.

[۴۱۰] (۱)- فی الصورة الاولی یکون المقام اسم مکان، و فی الثانیة یکون مصدرا(میمیّا).

[۴۱۱] (۲)- اصول الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۷ حیث یستفاد من ذیل الحدیث أنّ الإمام علیه السّلام ذکر هذا فی تفسیر الآیة\i وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَی النَّفْسَ عَنِ الْهَوی E سورة النازعات/ ۴۰ بالرغم من کون محتوی الآیتین واحد

[۴۱۲] (۱)- آل عمران، ۱۵.

[۴۱۳] (۲)- النور، ۳۸.

[۴۱۴] (۱)- یعتقد البعض أنّ أصل ذات و التی هی مفرد مؤنث کانت ذوات، و الواو حذفت للتخفیف و أصبحت ذات و لکون التثنیة ترجع الکلمة إلی أصلها، لذا أصبحت(ذواتان) و قد حذفت النون عند الإضافة، و جاء فی مجمع البحرین أنّ أصل(ذو) هو(ذوا) علی وزن(عصا) و لذلک فلا عجب أنّ مؤنثها یصبح(ذوات).

[۴۱۵] (۲)- الإنسان، ۱۸.

[۴۱۶] (۱)- المطففون، ۲۷

[۴۱۷] (۲)- متکئین حال لأهل الجنّة الذین ذکروا فی الآیات السابقة بعنوان أنّهم i وَ لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ E.

[۴۱۸] (۱)- إنّ ضمیر الجمع فی(فیهنّ) یمکن أن یرجع إلی قصور الجنّة أو الحدائق المختلفة لتلک« الجنّتین» أو« نعمها و هباتها».

[۴۱۹] (۲\)-i لَمْ یَطْمِثْهُنَ E من مادّة(طمث)، فی الأصل بمعنی دم الدورة الشهریة، و جاءت بمعنی زوال البکارة، و المراد هنا أنّ النساء الباکرات فی الجنّة لم یکنّ لهنّ أزواج قطّ.

[۴۲۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۴۲۱] (۲)- بیّنا شرحا تفصیلیا حول المرجان فی نهایة الآیة(۲۲) من هذه السورة.

[۴۲۲] (۳)- ورد السؤال« هل» هنا بصیغة الاستفهام الاستنکاری، و فی الحقیقة أنّ هذه الآیة هی نتیجة للآیات السابقة و التی تحدثت عن ستّ نعم من نعم الجنّة.

[۴۲۳] (۱)- تفسیر العیاشی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۹، تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۰۸.

[۴۲۴] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۳۱۰.

[۴۲۵] (۱)- مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث.

[۴۲۶] (۲)- المصدر السابق.

[۴۲۷] (۳)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۶ و کما ذکرنا أنّ التعبیر بالذهب و الفضّة یمکن أن یکون إشارة إلی اختلاف درجة هاتین الجنّتین.

[۴۲۸] (۱)- البقرة، ۹۸.

[۴۲۹] (۱)- نقل هذا التعبیر فی حدیث للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم(بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۶۳).

[۴۳۰] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۶۴ حیث جاء فی حدیث آخر أنّه أسرع لألسنتهم.

[۴۳۱] (۳)- المصدر السابق، ص ۱۶۵.

[۴۳۲] (۴)- الكافى، ج ۶، ص ۳۵۲.

[۴۳۳] (۱)- الضمير فى(فيهنّ) و الذى هو جمع مؤنث يمكن أن يرجع إلى مجموع الجنّات الأربع، و يمكن أن يكون إشارة إلى الجنّتين اللتين ذكرتا أخيرا، بلحاظ ما فيهما من حدائق عديدة و قصور مختلفة، و هذا أنسب لأنّه فى هذا فصل بين الجنّتين

[۴۳۴] (۱)- قال البعض: إنّ خيرات جمع(خيّرة) على وزن(سيّدة)، و قيل لها خيرات للتخفيف، و اعتبرها آخرون أنّها جمع(خيرة) على وزن(حيرة) و على كلّ حال فإنّها تعطى معنى الوصف، و ليس بمعنى(أفعل التفضيل) لأنّه لا يجمع.

[۴۳۵] (۱)- لسان العرب و مجمع البحرين و المنجد.

[۴۳۶] (۲)- حول معنى الطمث أعطينا توضيحا كافيا فى نهاية الآية رقم(۵۶) من نفس السورة.

[۴۳۷] (۳)- الرعد، ۲۳، و المؤمن، ۸.

[۴۳۸] (۴)- الدّر المنثور، ص ۱۵۱.

[۴۳۹] (۵)- تفسير أبو الفتوح الرازى نهاية الآية مورد البحث.

[۴۴۰] (۱)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۵۳.

[۴۴۱] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۵۳.

[۴۴۲] (۳)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۷۲.

[۴۴۳] (۱)- سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۶.

[۴۴۴] (۲)- اسد الغابة، ج ۳، ص ۲۵۷.

[۴۴۵] (۱)- تأريخ القرآن لمؤلّفه أبو عبد اللّه الزنجانى، ص ۵۹.

[۴۴۶] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۲، و تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۷۳.

[۴۴۷] (۲)- خصال الصدوق، الباب الرابع، حديث ۱۰.

[۴۴۸] (۱)- ثواب الأعمال، طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۳.

[۴۴۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۲.

[۴۵۰] (۳)- روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۱۱.

[۴۵۱] (۱)- تعتبر(إذا) منصوبة على الظرفية و الناصب له« ليس» الوارد فى الآية الثانية مثل أن نقول« يوم الجمعة ليس لى شغل» و يحتمل أن تكون منصوبة بفعل مقدّر تقديره(ذكر) إلّا أنّ الرأى الأوّل هو الأنسب.

[۴۵۲] (۲)- إنّ سبب كون الضمير مؤنثا لتقديره(نفس كاذبة) أو(قضيّة كاذبة) و اعتبر البعض أنّ(اللام) فى(لوقعتها) للتوقيت، إلّا أنّ الظاهر أنّها للتعدية.

[۴۵۳] (۳)-« خافضة رافعة» خبر لمبتدأ محذوف، و فى الأصل(هى خافضة رافعة).

[۴۵۴] (۱)- الخصال طبقا، نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۴.

[۴۵۵] (۱)- فى تركيب هذه الجملة توجد احتمالات عديدة و أنسبها أن نقول:« أصحاب الميمنة» مبتدأ، و« ما» استفهامية مبتدأ تان، و أصحاب الميمنة الثانية خبرها، و الخلاصة أنّ جملة(ما أصحاب الميمنة) خبر للمبتدأ الأوّل، و الفاء فى بداية الجملة تفريعيّة و تفسيرية.

[۴۵۶] (۱)- جاء فى الآيات اللاحقة استعمال أصحاب الشمال بدلا من أصحاب المشئمة.

[۴۵۷] (۲)- فى تركيب هذه الآية و الآيات اللاحقة احتمالات عديدة: الأوّل: أنّ i السَّابِقُونَ E الأولى مبتدأ، و الثانية وصف أو تأكيد له\،i أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ E مبتدأ و خبر و التى هى فى المجموع خبر لكلمة\i السَّابِقُونَ E الاولى، و يحتمل البعض الآخر أنّ i السَّابِقُونَ

السَّابِقُونَ E مبتدأ و خبر، و شبّه بشعر أبى النجم المعروف حين يقول:(أنا أبو النجم و شعرى شعرى) و الذى هو فى الواقع نوع من الوصف العالى.

و هناك احتمال آخر و هو أنّ(السابقون) الاولى هى بمعنى السابقين فى الإيمان، و السابقون الثانيـة بمعنى السابقين إلى الجنّة و التى ستكون كذلك مبتدأ و خبر.

[۴۵۸] (۱)- نقل هذا الحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۱۵.

[۴۵۹] (۲)- تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۱۳۴.

[۴۶۰] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۶.

[۴۶۱] (۴)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۹.

[۴۶۲] (۱)- الجار و المجرور الموجود فى الآية(جنّات النعيم) ممكن أن يكون متعلّق بما قبله يعنى(المقرّبين)، أو مرتبطة بحال محذوف جاء للمقرّبين و تقديره(كائنين فى جنّات النعيم)، أو يكون خبرا بعد خبر.

[۴۶۳] (۱)- آل عمران، ۱۱۰.

[۴۶۴] (۲)- البقرة، ۲۵۳.

[۴۶۵] (۳)- تفسير الصافى نهاية الآية مورد البحث.

[۴۶۶] (۴)- تفسير الصافى نهاية الآية مورد البحث

[۴۶۷] (۱)- مفردات الراغب مادّة(سر).

[۴۶۸] (۱)- أكواب جمع كوب بمعنى القدح أو الإناء الذى لا عروة له، و أباريق جمع إبريق و هى فى الأصل أخذت من الفارسية(آبريز) بمعنى الأوانى ذات اليد من جهة، و من الاخرى ذات أنبوب لصبّ السائل، و كلمة كأس تقال للإناء المملوء بالسائل لدرجة يفيض من جوانبه، و معين من مادّة(معن) على وزن(صحن) بمعنى الجارى.

[۴۶۹] (۲)-(يصدّعون) من مادّة(صداع) على وزن(حباب)، بمعنى وجع الرأس، و هذا المصطلح فى الأصل من(صدع) بمعنى(الانفلاق) لأنّ الإنسان عند ما يصاب بوجع رأس شديد فكأنّ رأسه يريد أن ينفلق من شدّة الألم، لذا فإنّ هذه الكلمة قد استعملت فى هذا المعنى.(و ينزفون) من أصل(نزف) على وزن(حذف) بمعنى سحب جميع مياه البشر بصورة تدريجيّة، و تستعمل أيضا حول(السكر) و فقدان العقل.

[۴۷۰] (۱)-(فاكهة و لحم) كلاهما معطوف على أكواب و هذه الأشياء تهدى من قبل(الولدان المخلّدون) إلى المقرّبين.

[۴۷۱] (۲)- بالرغم من تصوّر البعض أنّ(حور عين) عطف على(الولدان المخلّدون) و على هذا الرأى فإنّ ال(حور عين) يطفن- أيضا حول أصحاب الجنّة، و نظرا لعدم تناسب هذا المعنى خصوصا فى المجالس الجماعية لأهل الجنّة، لذا فالظاهر أنّه مبتدأ لخبر محذوف، و التقدير هكذا(و لهم حور عين).

[۴۷۲] (۱)- أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱ نهاية الآية مورد البحث.

[۴۷۳] (۱)- سلاما مفعول به ل(قيلا) و الذى هو مصدر، و المقصود أنّ كلامهم هنالك هو(السلام) و يحتمل أن تكون(سلاما) صفة ل(قيلا) أو مفعول به(أو مفعول مطلق) لفعل محذوف تقديره،(يسلّمون سلاما) إلّا أنّ المعنى الأوّل هو الأرجح، و سلاما(الثانية) للتأكيد.

[۴۷۴] (۲)- سورة يس ۵۸- الرعد ۲۴- يونس ۱۰.

[۴۷۵] (۳)- يجب الانتباه إلى أنّ الاستثناء فى الآية\i إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً\E هو استثناء منقطع و يفيد للتأكيد.

[۴۷۶] (۴)- الأنعام، ۱۲۷.

[۴۷۷] (۱)- إنّ الحديث عن تركيب هذه الجملة جاء فى نهاية الآية(۸) من نفس هذه السورة.

[۴۷۸] (۲)- الجار و المجرور متعلّق بعامل مقدّر و الخلاصة أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره(هم فى سدر مخضود).

[۴۷۹] (۳)- روح المعانى ج ۲۷ ص ۱۲۰، و الدرّ المنثور ج ۶ ص ۱۵۶.

[۴۸۰] (۱)- الفخر الرازى فى التّفسير الكبير نهاية الآية مورد البحث، ج ۲۹، ص ۱۶۲.

[۴۸۱] (۲)- روضة الكافى، مطابق نقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۱۶.

[۴۸۲] (۱)- روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۲۳ و بالضمن يجدر الانتباه إلى أنّ هذه الحالة، مع فاء التفريع عطفت على الآية السابقة.

[۴۸۳] (۱)- فى الصورة الاولى عبارة(أصحاب اليمين) خبر لمبتدأ محذوف، و فى التقدير تصبح هكذا:(هذه كلّها لأصحاب اليمين) و فى الصورة الثانية جار و مجرور متعلّق بأنشأناهنّ، و التّفسير الأوّل أصحّ.

[۴۸۴] (۱)- الحجّ. ۱۹.

[۴۸۵] (۱)- لسان العرب، ج ۹، ص ۱۷.

[۴۸۶] (۱)- النساء، آية ۴۸.

[۴۸۷] (۱)- الزخرف، ۲۳.

[۴۸۸] (۲)- يجب الانتباه هنا إلى تكرا حرف الاستفهام و التعبير ب(أنّ) كلّها للتأكيد.

[۴۸۹] (۳)- الهمزة فى(أو آبائنا الأوّلون) استفهامية، و الواو واو عطف و هنا قدّمت الهمزة الاستفهامية عليها.

[۴۹۰] (۱)- استعملت(إلى) فى هذه الجملة إشارة إلى أنّ القيامة تكون فى نهاية هذا العالم، و يمكن أن تكون هنا بمعنى ب« لام» كما هو فى الكثير من الآيات القرآنية وردت(لميقات).

[۴۹۱] (۲)- هور، الآية ۱۰۳، مريم، الآية ۹۵.

[۴۹۲] (۱)-(من) فى(من شجر) تبعيضية، و(من) فى(زقّوم) بيانية.

[۴۹۳] (۱)- مجمع البحرين و مفردات الراغب، و لسان العرب، و تفسير روح المعانى.

[۴۹۴] (۲)- الجدير بالذكر أنّ فى الآية السابقة كان الضمير مؤنثا(منها) يعود على(شجر من زقّوم) و فى هذه الآية كان الضمير مذكرا(عليه) يعود على الشجر، و ذلك لأنّ الشجر اسم جنس يستعمل للذكر و المؤنث، و كذلك ثمر،(مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث).

[۴۹۵] (۱)-(لولا) فى الاصطلاح تستعمل للحضّ و التحريك لإنجاز عمل ما، و كما يقول البعض فإنّها فى الأصل مركّبة من(لم) و(لا) و التى تعطى معنى السؤال و النفى ثمّ تبدّلت الميم إلى واو، و يستعمل هذا المصطلح فى مكان يتسامح فيه فرد أو أفراد فى إنجاز عمل ما، و يقال لهم: لماذا لا تعملون هكذا و هكذا؟

[۴۹۶] (۲)- سورة يس، ۷۸- ۷۹.

[۴۹۷] (۳)- جاءت« رأيتم» هنا من الرؤية بمعنى العلم و ليست المشاهدة بالعين المجرّدة.

[۴۹۸] (۴)- الحجّ، ۵.

[۴۹۹] (۱)- كتاب أوّل جامعة، ج ۱(بحث معرفة الجنين)، ص ۲۴۱.

[۵۰۰] (۲)- فى هذا الموضوع ذكرنا توضيحات اخرى فى نهاية الآية(۵) من سورة الحجّ.

[۵۰۱] (۱)- طبقا للتفسير الأوّل فإنّ الجار و المجرور فى(على أنّ نبدّل) متعلّق ب(قدّرنا) و الذى جاء فى الآية السابقة، طبقا للتفسير الثانى فإنّها متعلّقة ب(مسبوقين)(يرجى الانتباه).

[۵۰۲] (۱)- اعتبر البعض أن الآية هى إشارة إلى مسخ الأقوام السابقين فى هذا العالم، حيث إن الله سبحانه قد مسخهم بأشكال لا

یعلمونها، إلا أن هذا المعنی لا ینسجم مع ظاهر الآیة.

[۵۰۳] (۱)- سورة ص، ۳۷.

[۵۰۴] (۲)- فصّلت، ۳۹.

[۵۰۵] (۱)- الروم، ۲۷.

[۵۰۶] (۲)- ذکر هذا الحدیث فی تفسیر روح البیان و روح المعانی و القرطبی و المراغی باختلاف مختصر بعنوان خبر، و بدون تصریح باسم الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلّا أنّ ظاهر تعبیراتهم أنّ الحدیث للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و فی کتاب الکافی أیضا نقل القسم الأوّل من هذا الحدیث عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام.

[۵۰۷] (۱)- القسم الأوّل من الحدیث جاء فی تفسیر مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث، و نقل القسم الثانی فی روح البیان کإضافة علیه.

[۵۰۸] (۲)- بالرغم من أنّ الحبّة الواحدة من الحنطة لا تنبت سوی عدّة مئات من الحبوب، إلّا أنّه کما قلنا فی ج ۲ من هذا التّفسیر: أنّه قد وجد فی بعض مزارع القمح فی إحدی المحافظات الجنوبیة لإیران أنّ سنبلة واحدة تحوی علی أربعة آلاف حبّة و ذلک طبقا لما أعلنته منشورات صحفیة.

[۵۰۹] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی نهایة الآیة مورد البحث.

[۵۱۰] (۲)- لجملة\i إِنَّا لَمُغْرَمُونَ E محذوف، تقدیره(و تقولون إنّا لمغرمون).

[۵۱۱] (۳)-« مغرمون»: من مادّة(غرامة) بمعنی الضرر و فقدان الوقت و المال.

[۵۱۲] (۱)- لسان العرب مادّة مزن.

[۵۱۳] (۱)- فی هذه الجملة حذفت اللام و فی التقدیر هکذا« لو نشاء لجعلناه».

[۵۱۴] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۷، ص ۱۴۸، و تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۲۹.

[۵۱۵] (۱)- سورة یس، الآیة ۸۰.

[۵۱۶] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۹۲، و تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۳۱.

[۵۱۷] (۲)- من الجدیر بالملاحظة أنّ کلمة(متاع) تطلق علی کلّ وسیلة یستفید منها الإنسان فی حیاته.

[۵۱۸] (۱)- الباء فی(باسم ربّک) یمکن أن تکون للتعدیة(حیث إنّ الفعل المتعدّی سبّح یؤخذ بمنزلة اللازم) و احتمل البعض أیضا أنّ الباء هنا جاءت للاستعانة أو زائده أو ملابسة، إلّا أنّ المعنی الأوّل هو الأنسب.

[۵۱۹] (۲)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۱۳۰.

[۵۲۰] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۱.

[۵۲۱] (۲)- ذکر هذا الحدیث المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان بکونه حدیثا صحیحا، ج ۹، ص ۲۲۴، و جاء أیضا فی کتاب(من لا یحضره الفقیه) مطابقا لنقل نور الثّقلین، ج ۵، ص ۲۲۵، و کذلک فی تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۸.

[۵۲۲] (۱)- اللّه و العلم الحدیث، ص ۳۳.

[۵۲۳] (۱)- الراغب فی المفردات مادّة(کریم).

[۵۲۴] (۱)-« لا یمسّه» جملة خبریة یمکن أن تکون بمعنی النهی أو النفی.

[۵۲۵] (۲)- البقرة، ۲.

[۵۲۶] (۳)- تنزیل هنا مصدر بمعنی اسم مفعول أی(منزل) و هو خبر لمبتدأ محذوف، أو أنّه خبر بعد خبر.

[۵۲۷] (۱)- طبقا لهذا التّفسیر فإنّ کلمة(شکر) هنا محذوفة و تقدیرها کالتالی:« و تجعلون شکر رزقکم أنّکم تکذّبون»، أو أنّ الرزق

كناية عن(شكر الرزق).

[۵۲۸] (۲)- طبقا لهذين التّفسيرين فلا يوجد شيء مقدّر.

[۵۲۹] (۱)- نقل هذا الحديث الطبرسى فى مجمع البيان و نقل أيضا فى الدّر المنثور، ج ۶، ص ۱۶۳، و القرطبى، ج ۹، ص ۶۳۹۸: و المراغى، ج ۲۷، ص ۱۵۲، و روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۵۳ فى نهاية الآيات مورد البحث باختلاف يسير.

[۵۳۰] (۲)- تفسير الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۳، و نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۷.

[۵۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۲۶۹، الحديث(۳) و طبقا لهذا الحديث فإنّ النفى فى الآية أعلاه كناية عن النهى.

[۵۳۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۲۷۰، الحديث ۵.

[۵۳۳] (۳)- نقل هذا الحديث فى الدرّ المنثور عن عبد اللّه بن عمر و معاذ بن جبل و ابن حزم الأنصارى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ج ۹، ص ۱۶۲.

[۵۳۴] (۴)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۶۲.

[۵۳۵] (۱)- للآية محذوف تقديره(فلو لا إذا بلغت الحلقوم لا ترجعونها و لا تملكون شيئا) و هذا ما يستفاد من الآيات اللاحقة و قد لحقت تاء التأنيث بالفعل لأنّها متعلّقة بالنفس.

[۵۳۶] (۲)- احتمل البعض أنّ المخاطب هنا هو الشخص المحتضر، و هذا بعيد جدّا حسب الظاهر، لأنّ الآية اللاحقة توضّح بصورة جيّدة أنّ المخاطب هم متعلّقوا المحتضر.

[۵۳۷] (۱)- مروج الذهب، طبق لنقل سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۴.

[۵۳۸] (۲)- القيامة، ۲۶.

[۵۳۹] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۸، حديث ۱۰۳، ۱۰۴.

[۵۴۰] (۲)-« روح» من الممكن أن تكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره(فجزاؤه روح)، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره(فله روح)، و جملة(فروح و ريحان و جنّة نعيم) تكون جزاء(أمّا) و انّ الشرطية مع وجود هذا الجزاء مستغنية من الجزاء الآخر(يرجى الانتباه).

[۵۴۱] (۳)- الواقعة، ۲۶.

[۵۴۲] (۴)- و بناء على هذا فللآية تقديران، الأوّل بلحاظ أنّ(من) بيانية، و عندئذ تكون الصورة كما يلى: يقال له: سلام لك من أصحاب اليمين. أمّا الصورة الثانية فبلحاظ أنّ(من) ابتدائية فتكون بالشكل التالى: سلام لك انّك كنت من أصحاب اليمين. إلّا أنّه بملاحظة التّفسير الأوّل فإنّ له تقديرا واحدا و هو:(يقال له ...).

[۵۴۳] (۵)- النمل، ۳۲.

[۵۴۴] (۱)- حول التحيّات التى تقدّم لأصحاب الجنّة، جاء بحث مفصّل عنها فى نهاية الآية(۵۸) من سورة يونس.

[۵۴۵] (۲)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۲۸۵.

[۵۴۶] (۳)- نزل خبر لمبتدأ محذوف تقديره فجزاؤه نزل من حميم، أو مبدأ لخبر محذوف تقديره، فله نزل من حميم.

[۵۴۷] (۴)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۹.

[۵۴۸] (۱)- طبقا لهذا التّفسير فإنّ إضافه حقّ إلى كلمة(يقين) جاءت للاختصاص و التقييد، و اعتبرها البعض- أيضا- من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة و قالوا بمعنى(اليقين) الحقّ.

[۵۴۹] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، و روح المعانى، و روح البيان، القرطبى، و الدرّ المنثور، و تفسير المراغى، فى نهاية الآيات مصدر البحث.

[۵۵۰] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۶۶.

[۵۵۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۲۸، حديث ۱۰۶.

الجزء الثامن عشر

«سورة الحديد»

محتوى السورة:

نزلت هـذه السـورة فى المدينـة، و ادّعى البعض الإجمـاع على ذلـك، لـذا فـإنّ خصائصـها هى نفس خصـائص السور المدنيـة، فـإنّها بالإضافـة إلى تحكيم الضوابط العقائديـة فإنّها تسـتعرض تعليمات عمليـة عديدة خصوصا فى المجادلات الاجتماعية و الحكومية، كما نشاهد نماذج لذلك فى الآيات (۱۰، ۱۱، ۲۵) من هذه السورة.

و نستطيع أن نقسّم موضوعات هذه السورة إلى سبعة أقسام:

الأوّل: الآيات الاولى من هذه السورة لها بحث جامع و لطيف حول التوحيد و صفات اللّه تعالى، و تذكّر ما يقرب من عشرين صفة من الصفات الإلهيّة، حيث تجعل الإنسان المدرك لها فى مستوى عال من المعرفة الإلهيّة.

الثانى: يتحدّث عن عظمة القرآن، هذا النور الإلهى الذى أشرق فى ظلمات الشرك.

الثالث: يستعرض وضع المؤمنين و المنافقين فى يوم القيامة، حيث أنّ القسم الأوّل يأخذ طريقه إلى الجنّة فى ظلّ نور إيمانهم، و القسم الثانى يبقى فى ظلمات الشرك و الكفر، و بهذا تعكس السورة فى أبحاثها الأصول الإسلامية الثلاثة:

التوحيد و النبوّة و المعاد.

الرابع: تتحدّث الآيات فيه عن الدعوى إلى الإيمان و الخروج من الشرك، و عن مصير الأقوام الضالّة من الأمم السابقة.

الخامس: جزء مهمّ من هذه السورة يتحدّث حول الإنفاق فى سبيل اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸

و خصوصا فى تقوية أسس الجهاد فى سبيل اللّه، و أنّ مال الدنيا ليس له وزن و قيمة.

السادس: فى قسم قصير من الآيات- إلّا أنّه واف و مستدلّ- يأتى الحديث عن العدالة الاجتماعية و التى هى إحدى الأهداف الأساسية للأنبياء.

السابع: و فيه تتحدّث الآيات عن سلبية الرهبانية و الانزواء الاجتماعى و أنّ ذلك يمثّل ابتعادا عن الخطّ الإسلامى.

و من الطبيعى أنّ بين ثنايـا هـذه البحوث وردت نقـاط اخرى متناسـبة شـكلت فى النهايـة مجموعـة اتّجاهات بنّاءة فى مجال الإيقاظ و الهداية.

و بالضمن فإنّ تسمية هذه السورة ب (سورة الحديد) هو لما جاء فى الآية ۲۵ من السورة من ذكر كلمة الحديد.

فضيلة تلاوة سورة الحديد:

وردت فى الروايات الإسـلامية نقاط جديرة بالملاحظة حول فضيلة تلاوة سورة الحديد، و ممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود فى التلاوة هى تلاوة التدبّر و التفكّر الذى يكون توأما، مع العمل.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (من قرأ سورة الحديد كتب من الذين آمنوا باللّه و رسوله)[۱].

و نقل

فى حديث آخر عن الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه كان يتلو (المسبّحات) قبل النوم (و المسبّحات هى السور التى تبدأ

ب (سبّح للّه، أو يسبّح للّه. و هى خمس سور: سورة الحديد و الحشر و الصفّ و الجمعة و التغابن) و يقول: «إنّ فيهنّ آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹

أفضل من ألف آية»[۲].

و طبيعى أنّ الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يعيّن هذه الآية، إلّا أنّ بعض المفسّرين احتمل أن تكون آخر آية فى سورة الحشر، بالرغم من عدم وجود دليل واضح على هذا المعنى ۳].

و نقرأ حديثا

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: (من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام لم يمت حتّى يرى القائم، و إن مات كان فى جوار رسول اللّه».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۲) هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۳)

التّفسير

آيات للمتفكّرين:

قلنا: إنّ هذه السورة بدأت بقسم التوحيد، الذى يشتمل على عشرين صفة من صفات اللّه سبحانه، تلك الصفات التى بمعرفتها يصل الإنسان إلى مستوى عال من المعرفة الإنسانية باللّه، و تعمّق معرفته بذاته المقدّسة، و هذه الأوصاف و التى تشير إلى جانب من صفات جلاله و جماله، كلّما تعمّق العلماء و أهل الفكر فيها توصّلوا إلى حقائق جديدة عن الذات الإلهيّة المقدّسة.

عند ما

سئل الإمام على بن الحسين عليه السّلام عن التوحيد أجاب: «إنّ اللّه عزّ و جلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱

علم أنّه يكون فى آخر الزمان أقوام متعمّقون فأنزل اللّه تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، و الآيات فى سورة الحديد إلى قوله: عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ و من رام وراء ذلك فقد هلك»[۴].

يستفاد من هذا الحديث أنّ هذه الآيات تعطى للظمأى من طلّاب الحقيقة أقصى حدّ للمعرفة الممكنة.

و على كلّ حال فإنّ أوّل آية من هذه السورة بدأت بتسبيح و تنزيه اللّه عزّ و جلّ حيث يقول سبحانه: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

لقد انتهت السورة السابقة بأمر التسبيح، و ابتدأت هذه السورة المباركة بالتسبيح الإلهى أيضا. و الجدير بالملاحظة أنّ فى سور

المسبّحات الخمس جاءت كلمة التسبيح ثلاث مرّات بصيغة الماضى (سبّح) فى سور الحديد و الحشر و الصفّ، و فى موردين جاءت بصيغة المضارع (يسبّح) فى سور الجمعة و التغابن، و هذا الاختلاف فى التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ جميع الكائنات فى العالم قد سبّحت و تسبّح لذاته المقدّسة فى الماضى و المستقبل.

و حقيقة «التسبيح» عبارة عن نفى كلّ عيب و نقص ۵] عن الذات الإلهيّة، و شهادة جميع الكائنات فى هذا العالم بطهارة ذاته من كلّ عيب، حيث أنّ النظم و الحساب و الحكمة و العجائب فى نظام الكائنات .. هذه جميعها تذكر (اللّه) بلسان حالها و تسبّحه و تحمده و تنزّهه و تؤكّد أنّ لخالقها قدرة لا متناهية، و حكمة لا محدودة.

و لذا جاء فى نهاية هذه الآية: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

كما يحتمل أن تتمتّع جميع ذرّات الوجود بنوع من الإدراك و الشعور بحيث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲

تسبّح و تحمد اللّه عزّ و جلّ فى عالمها الخاصّ، بالرغم من عدم معرفتنا لذلك بسبب محدودية علمنا و اطّلاعنا.

من أجل تفصيل أكثر حول حمد و تسبيح الكائنات أجمع يراجع نهاية الآية (۴۴) من سورة الإسراء.

و يجدر الانتباه إلى أنّ (ما) فى جملة (سبّح للّه ما فى السماوات) لها معنى واسع بحيث تشمل كلّ موجودات العالم، أعمّ من ذوى العقول و الأحياء و الجمادات ۶].

و بعد ذكر صفتين من صفات الذات الإلهية يعنى (العزّة و الحكمة) يتطرّق إلى (مالكيّته و تدبيره، و قدرته فى عالم الوجود) و التى هى من مستلزمات القدرة و الحكمة، حيث يقول تعالى: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

إنّ مالكية اللّه عزّ و جلّ لعالم الوجود ليست مالكية اعتبارية و تشريعية، إذ أنّها مالكية حقيقيّة و تكوينيّة. و هذا يعنى أنّ اللّه سبحانه محيط بكلّ شىء، و أنّ جميع العالم فى قبضته و قدرته و تحت إرادته و أوامره، لذا فقد جاء الحديث بعد هذا الكلام عن (الإحياء و الإفناء) و القدرة على كلّ شىء.

إلى هنا ذكرت فى الآيتين الآنفتين ستّة أوصاف من صفاته الكريمة.

الاختلاف بين «العزّة» و «القدرة» هو أنّ العزّة أكثر دلالة على تحطيم المقابل و القدرة تعنى توفير الأسباب و إيجادها. و بناء على هذا فإنّهما يعدّان و صفين مختلفين بالرغم من أنّهما مشتركان فى أصل القدرة (يرجى ملاحظة ذلك).

مسألة (الإحياء و الإماتة) قد ذكرت فى آيات عديدة فى القرآن الكريم، و فى الواقع انّهما من الموضوعات التى لم تتوضّح أسرارهما المعقّدة لأى شخص، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳

لا- يوجد شخص يعلم- بوضوح- حقيقة الحياة و لا حقيقة الموت، إلّا أنّ الذى نعلمه عنهما هو آثارهما. و العجيب أنّ الحياة أقرب شىء لنا و لكنّنا لا نعرف أى شىء عن حقيقتها و أسرارها.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا أنّ جملة (يحيى و يميت) جاءت بصورة فعل مضارع ممّا يدلّل على استمرار مسألة الحياة و الموت على طول الأزمنة، و إطلاق هذين المعنيين لا يشمل حياة و موت الإنسان فى هذا العالم فقط، بل يشمل كلّ حياة و ممات بدءا من الملائكة و انتهاء بكلّ موجود حىّ من الحيوانات و النباتات المختلفة، كما أنّها لا تقتصر على الحياة الدنيا فقط، بل تشمل حياة البرزخ و القيامة أيضا.

نعم، إنّ الموت و الحياة بكلّ أشكالها بيد القدرة الإلهية المتعالية.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى ذكر خمس صفات اخرى حيث يقول: هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الوصف هنا ب الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ تعبير رائع عن أزليّته و أبديّته تعالى، لأنّنا نعلم أنّه وجود لا متناهى و أنّه (واجب الوجود) أى أنّ وجوده

من نفس ذاته، و ليس خارجا عنه حتّى تكون له بداية و نهاية، و بناء على هذا فإنّه كان من الأزل و سيبقى إلى الأبد.

إنّه بداية عالم الوجود، و هو الذى سيبقى بعد فناء العالم أيضا.

و بناء على هذا فإنّ التعبير ب الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ ليس له زمان خاصّ أبدا، و ليس فيه إشارة إلى مدّة زمنية معيّنة.

و الوصف ب الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ هو تعبير آخر عن الإحاطة الوجودية- أى وجود اللّه- بالنسبة لجميع الموجودات، أى أنّه أظهر من كلّ شىء لأنّ آثاره شملت جميع مخلوقاته فى كلّ مكان، و هو خفىّ أكثر من كلّ شىء أيضا لأنّ كنه ذاته لم يتّضح لأحد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴

و لقد عبّر بعض المفسّرين عن ذلك بأنّه: الأوّل بلا ابتداء، و الآخر بلا انتهاء، و الظاهر بلا اقتراب، و الباطن بلا احتجاب.

و عبّر البعض الآخر عنه تعبيرا رائعا آخر: الأوّل ببرّه، و الآخر بعفوه، و الظاهر بإحسانه و توفيقه إذا أطعته، و الباطن بستره إذا عصيته.

و باختصار فإنّه محيط بكلّ شىء، و إنّه (بداية و نهاية، و ظاهر و باطن) عالم الوجود.

و فسّر بعض المفسّرين (الظاهر) هنا بمعنى «الغالب» (من الظهور بمعنى الغلبة) و نلاحظ فى بعض خطب نهج البلاغة قرينة على هذا المعنى حيث يقول عليه السّلام حول خلق الأرض:

«هو الظاهر عليها بسلطانه و عظمته، و هو الباطن لها بعلمه و معرفته»[۷].

و لا مانع من جمع هذين التّفسيرين.

و على كلّ حال فإنّ أحد نتائج هذه الصفات المتقدّمة هو ما جاء فى نهاية الآية الكريمة: وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إذ أنّ من كان فى البداية و يبقى فى النهاية، و موجود فى ظاهر و باطن العالم .. سيكون عالما بكلّ شىء قطعا.

بحث

جمع الأضداد فى صفات اللّه:

من الواضح أنّ الكثير من الصفات لا يمكن جمعها فينا نحن البشر، و كذا الأمر بالنسبة للموجودات الاخرى. فمثلا: من كان فى أوّل الصفّ لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت فى آخره، و كذلك إذا كنت ظاهرا فليس بالمقدور أن تكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵

فى نفس الوقت باطنا و العكس صحيح أيضا. و السبب فى ذلك هو محدودية وجودنا، فالوجود المحدود لا يستطيع أن يكون غير ذلك، إلّا أنّ الحديث عند ما يكون عن صفات اللّه فسيتغيّر الأمر، حيث يمكن الجمع فى هذه الحالة بين الظاهر و الباطن، و بين البداية و النهاية، و ذلك لطبيعة صفات الذات الإلهيّة المقدّسة اللامتناهية، و لذلك فلا عجب هنا.

و قد وردت أحاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فيها توضيحات رائعة تساعد على تفسير هذه الآيات ذات المحتوى العميق، و من جملتها ما

ورد فى صحيح مسلم عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «اللهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شىء، و أنت الآخر فليس بعدك شىء، و أنت الظاهر فليس فوقك شىء، و أنت الباطن فليس دونك شىء»[۸].

و

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «ليس لأوّليّته ابتداء، و لا لأزليّته انقضاء، هو الأوّل لم يزل، و الباقى بلا أجل .. الظاهر لا يقال ممّ؟ و الباطن لا يقال فيم؟»[۹].

و

يقول الإمام المجتبى عليه السّلام فى خطبة له: «الحمد للّه الذى لم يكن فيه أوّل معلوم، و لا آخر متناه ... فلا تدرك العقول و أوهامها، و لا الفكر و خطراتها. و لا الألباب و أذهانها صفته، فتقول متى و لا بدع ممّا؟ و لا ظاهر على ما؟ و لا باطن فيما؟»[۱۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۴) لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (۵) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۶)

التفسير

على عرش القدرة دائما:

تحدّثت الآيات السابقة عن إحدى عشرة صفة للذات الإلهيّة المقدّسة، و تبيّن الآيات أعلاه أوصافا اخرى حيث أشير فى الآية الاولى مورد البحث إلى خمسة أوصاف اخرى من صفات جلاله و جماله.

و يبدأ الحديث عن مسألة الخلقة حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷

لقد ذكرت مسألة الخلقة فى (ستّة أيّام) سبع مرّات فى القرآن الكريم، المرّة الاولى فى الآية ۵۴ من سورة الأعراف، و الأخيرة هى هذه الآية مورد البحث (الحديد- الآية ۴).

و كما قلنا سابقا فإنّ المقصود من (اليوم) فى هذه الآيات ليس المعنى المتعارف (لليوم)، بل المقصود هو (الزمان) سواء كان هذا الزمان قصيرا أو طويلا حتّى لو بلغ ملايين السنين، و هذا التعبير يستعمل أيضا فى لغة العرب و اللغات المختلفة، كما يقال مثلا: اليوم يحكم فلان، و غدا سيكون لغيره، بمعنى الدورة الزمنية.

و قد بيّنا هذا المعنى مع شرح و أمثلة فى نهاية الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

و طبيعى أنّه لا يوجد أى مانع للّه عزّ و جلّ من خلق جميع العالم فى لحظة واحدة، و لكن فى هذه الحالة سوف لا تتجلّى عظمة اللّه و قدرته و علمه بشكل جيّد، و بعكس عظمة و قدرة و علم اللّه بصورة أقل، ذلك خلق هذه العوالم خلال ملياردات السنين و فى أزمنة و حالات مختلفة و وفقا لبرامج منظّمة و محسوبة سيدلل أكثر على قدرته و حكمته، بالإضافة إلى أنّ التدرّج فى الخلق سيكون نموذجا للسير التكاملى للإنسان، و عدم السرعة و الاستعجال فى الوصول إلى الأهداف المختلفة.

ثمّ تتطرّق الآيات إلى مسألة الحكومة و تدبير العالم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ

إنّ زمام حكومة و تدبير العالم كانت دائما بيده و لا زالت، و بدون شكّ فإنّ اللّه تعالى ليس جسما، و لذا فليس معنى «العرش» هنا هو عرش السلطة، و التعبير كناية لطيفة عن الحاكمية المطلقة للّه سبحانه و نفوذ تدبيره فى عالم الوجود.

«عرش» فى اللغة بمعنى الشىء المسقوف، و تطلق أحيانا للسقف نفسه، و يعنى أيضا التخوت العالية (عرش السلاطين).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸

و تستعمل هذه اللفظة كناية عن القدرة أيضا كما يقال فى اللغة العربية: (فلان ثلّ عرشه)[۱۱].

و على كلّ حال- و خلافا لما يتصوّره البعض ممّن أعمى اللّه بصيرتهم أنّه سبحانه و تعالى قد خلق العالم و تركه و شأنه- فإنّ زمام تدبير العالم و تسيير حكومته فى كفّ قدرته، و ارتباط أنظمة العالم، بل كلّ فرد من أفراد الوجود بذاته المقدّسة، بحيث إذا أعرض لحظة واحدة عن الكائنات و قطع فيضه عنهم فإنّ الوجود سينتهى.

و التوجّه إلى هذه الحقيقة يعطى للإنسان إدراكا و بصيرة، و هى أنّ اللّه تعالى فى كلّ مكان و مع كلّ شىء، و هو يرى و يسمع و يراقب و يدير الوجود بحكمته و لطفه.

ثمّ يستعرض نوعا آخر من علمه اللامتناهى بقوله تعالى: يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها.

و بالرغم من أنّ جميع هذه الأمور التى ذكرت فى الآيات السابقة قد جمعت فى تعبير وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إلّا أنّ توضيح هذه الأمور يعطى للإنسان توجّها أكثر فى مجال سعة علم اللّه.

نعم، إنّ جميع ما ينفذ فى الأرض يعلم به اللّه، سواء قطرات المطر و السيول.

و من بذور النبات التى تنتشر فى الأرض بمساعدة الهواء و الحشرات.

و من جذور الأشجار التى تنفذ- بحثا عن الماء و الغذاء- إلى أعماق الأرض.

و من أنواع المعادن و الذخائر التى كانت يوما على سطح الأرض ثمّ دفنت فيها.

من أجساد الموتى و أنواع الحشرات ... نعم انّه يعلم بكلّ ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹

ثمّ انّه يعلم بالنباتات التى تخرج من الأرض.

و بالعيون التى تفور من أعماق التراب و الصخور.

و بالمعادن و الكنوز التى تظهر.

و بالبشر الذين ظهروا ثمّ ماتوا.

و بالبراكين التى تخرج من أعماقها.

و بالحشرات التى تخرج من بيوتها و جحورها.

و بالغازات التى تتصاعد منها.

و بأمواج الجاذبية التى تصدر منها الجاذبية .. اللّه تعالى يعلم بذلك جزءا جزءا و ذرّة ذرّة.

و كذلك ما ينزل من السماء من قطرات المطر إلى أشعّة الشمس الباعثة للحياة.

و من الأعداد العظيمة من الملائكة إلى أنوار الوحى و الكتب السماوية.

و من أشعّة الكونية إلى الشهب و النيازك المنجذبة نحو الأرض، إنّه عالم بأجزاء كلّ ذلك.

و كذلك ما يصعد إلى السماء، أعمّ من الملائكة، و أرواح البشر، و أعمال العباد، و أنواع الأدعية، و أقسام الطيور، و الأبخرة، و الغيوم و غير ذلك، ممّا نعلمه و ممّا لا نعلمه، فإنّه واضح عند اللّه و فى دائرة علمه.

و إذا فكّرنا قليلا بأنّ فى كلّ لحظة تدخل الأرض ملايين الملايين من الموجودات المختلفة، و ملايين الملايين من الموجودات تخرج منها، و ملايين الملايين تنزل من السماء أو تصعد إليها، حيث تخرج عن العدّ و الحصر و الحدّ، و لا يستطيع أى مخلوق أن يحصيها .. إذا فكّرنا بهذا الموضوع قليلا فسنعرف مدى اتّساع علمه سبحانه.

و أخيرا فى رابع و خامس صفة له سبحانه يركّز حول نقطة مهمّة حيث يقول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰

وَ هُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

و کیف لا یکون معنا فی الوقت الـذی نعتمد علیه، لیس فی إیجادنا فحسب بل فی البقاء لحظة بلحظة- أیضا- و نسـتمدّ منه العون، إنّه روح عالم الوجود، بل هو أعلی من ذلک و أسمی.

فـاللّه معنا فی کلّ الحالات و فی کلّ الأوقات، فهو معنا یوم کنّا ذرّة تراب مهملـة، و هو معنا یوم کنّا أجنّـة فی بطون أمّهاتنا، و هو معنا طیلة عمرنا، و فی عالم البرزخ ... فهل بالإمکان- مع هذا- ألّا یکون مطّلعا علینا؟

الحقیقـة أنّ الإحسان بأنّ اللّه معنا فی کلّ مکان یعطی للإنسان عظمة و جلالا من جهة، و من جهة اخری یخلق فیه اعتمادا علی النفس و شجاعة و شهامة، و من جهة ثالثة فإنّه یثیر إحساسا شدیدا بالمسؤولیة، لأنّ اللّه حاضر معنا فی کلّ مکان، و ناظر و مراقب لأعمالنا، و هذا أکبر درس تربوی لنا. و هذا الإعتقاد یمثّل دافعا جدّیا للتقوی و الطهارة و العمل الصالح فی الإنسان، و یعتبر رمز عظمته و عزّته.

أجـل: إنّ مسألـة أنّ اللّه تعالی معنا دائما و فی کلّ مکان هی حقیقـة و لیست کنایـة و مجازا، حقیقـة مقبولـة للنفس و مربّیـة للروح، و مولّدة للخوف و المسؤولیة.

و لذا

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ من أفضل إیمان المرء أن یعلم أنّ اللّه تعالی معه حیث کان»[۱۲].

و نقرأ

فی حدیث آخر أنّ موسی علیه السّلام قال: «أین أجدک یا ربّ، قال عزّ و جلّ:

یا موسی إذا قصدت إلیّ فقد وصلت إلیّ»[۱۳].

و فی الأساس فإنّ هـذه (المعیّة) أی کون اللّه عزّ و جلّ مع عباده، ظریفة و دقیقة بحیث أنّ کلّ إنسان مؤمن متفکّر یدرکها بقدر فکره و إیمانه.

و بعد مسألة الحاکمیة و التدبیر یأتی الحدیث عن مسألة مالکیته سبحانه فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱

کلّ عالم الوجود، حیث یقول: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و أخیرا یشیر إلی مسألة مرجعیّته فیقول تعالی: وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ.

نعم، عند ما یکون الخالق و المالک و المدبّر معنا فی کلّ مکان، فمن البدیهی أن یکون رجوعنا و رجوع أعمالنا إلیه کذلک.

نحن سلکنا طریق عشقه و محبّته، و بدأنا المسیر حاملین معنا الأمل من نقطة العدم باتّجاهه، و قد سلکنا شوطا طویلا إلی أن وصلنا إلی مرتبة الوجود .. نحن من اللّه سبحانه، و إلیه نرجع، لما ذا؟ لأنّه هو المبدئ و إلیه المنتهی.

و الجدیر بالذکر أنّ الآیات الثلاث الآنفة الذکر قد جاء فیها مثل هذا الوصف أیضا: لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ

و یمکن أن یکون التکرار هنا بلحاظ أنّ الحـدیث کان- فقط- عن مسألة حیاة و موت الموجودات الحیّة، و هنا نلاحظ توسّع البحث و شمولیّته فی رجوع کلّ شیء للّه سبحانه.

و فی تلک الآیات مقدّمة عن بیان قدرة اللّه عزّ و جلّ علی کلّ شـیء، و هنا مقدّمة لرجوع کلّ شـیء إلیه، و هاتان القضیّتان تستلزمان مالکیّة اللّه عزّ و جلّ للأرض و السماء.

التعبیر ب «الأمور» جاء- هنا- بصـیغة الجمع، أی: أنّ جمیع الموجودات- و لیس الإنسان فحسب- تتحرّک باتّجاهه حرکـة دائمة و غیر قابلة للتوقّف.

و بنـاء علی هـذا فـإنّ معنی الآیـة لا ـ ینحصـر- فقـط- برجوع البشـر إلیه فی الآخرة، بالرغم من أنّ موضوع المعاد من المصادیق البارزة

لذلك الرجوع العامّ.

و فى آخر مورد للبحث يشير إلى صفتين أخريين بقوله تعالى: يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲

نعم، بالتدريج ينقص أحد الوقتين (الليل و النهار) ليضيف للآخر، و تبعا لذلك يتغيّر طول النهار و الليل فى السنة، و هذا التغيّر يكون مصحوبا بالفصول الأربعة فى السنة مع كلّ البركات التى تكون مختّصة فى هذه الفصول لبنى الإنسان.

و هناك تفسير آخر لهذه الآية و هو: إنّ شروق و غروب الشمس لن يحدثا فجأة و دون مقدّمات حتّى لا تجلب هذه الحالة المشاكل للإنسان و الموجودات الحيّة الاخرى، بل يتمّ هذا التغيير بصورة تدريجيّة، و تنتقل الموجودات رويدا رويدا من عالم الضوء فى النهار إلى ظلمة الليل، و من ظلمة الليل إلى ضوء النهار، و يعلن كلّ منهما وصولهما قبل مدّة حتّى يتهيّأ الجميع لذلك.

و الجمع بين التّفسيرين لمفهوم الآية ممكن أيضا.

و يضيف سبحانه فى النهاية: وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

فكما أنّ أشعّة الشمس الباعثة للحياة تنفذ فى أعماق ظلمات الليل، و تضىء كلّ مكان، فإنّ اللّه عزّ و جلّ ينفذ كذلك فى كلّ زوايا قلب و روح الإنسان، و يطّلع على كلّ أسراره.

و النقطة الجديرة بالملاحظة فى الآيات السابقة أنّ الحديث كان عن علم اللّه سبحانه بأعمالنا (و الله بصير عليم) و هنا الكلام عن علم اللّه عزّ و جلّ بأفكارنا و عقائدنا و ما تكنّه صدورنا، وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

كلمة (ذات) فى الاصطلاح الفلسفى تعنى (عين الشىء و حقيقته) إلّا أنّها فى اللغة بمعنى (صاحب الشىء) و بناء على هذا فإنّ (ذات الصدور) إشارة إلى النيّات و الإعتقادات التى استولت على قلوب البشر.

و كم هو رائع أن يؤمن الإنسان بكلّ هذه الصفات الإلهيّة من أعماق نفسه، و يحسّ حضوره سبحانه فى كلّ أعماله و نيّاته و عقائده، إحساسا لا يخرجه عن جادّة الطاعة و طريق العبودية، إحساسا يبعده عن طريق العصيان و السوء و الانحراف ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳

تعقيب

آيات الاسم الأعظم:

قسّم الفلاسفة و المتكلّمون الصفات الإلهيّة إلى قسمين:

أحدهما: «صفات الذات» و التى تبيّن أوصاف جلاله و جماله. و الاخرى:

«صفات الفعل» التى تبيّن الأفعال الصادرة من ذاته المباركة، كما جاء فى الآيات الستّ فى بداية هذه السورة المباركة، و التى يجدر أن تسمّى: ب (آيات المتعمّقين) تماشيا مع حديث فى هذا الصدد.

و قد وردت عشرون صفة من أوصاف الذات الإلهيّة و الأفعال بدءا من علمه و قدرته و حكمته و أزليّته و أبديّته سبحانه، إلى خلقه و تدبيره و مالكيّته و إحاطته عزّ و جلّ بكلّ الموجودات و حضوره فى كلّ مكان، هذه الأوصاف و التعابير تعطينا عمقا أكثر فى التوجّه إلى الإيمان و السعى لإضاءة مشعل وجودنا و أفكارنا المحدودة ليكون عونا أفضل فى إمدادنا بما يجعلنا فى المسير التكاملى نحو اللّه سبحانه.

و

جاء فى حديث «براءة بن عازب» أنّه قال: قلت لعلى عليه السّلام: يا أمير المؤمنين، أسألك باللّه و رسوله ألا خصّصتنى بأعظم ما خصّك به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم و اختصّه به جبرائيل، و أرسله به الرحمن، فقال عليه السّلام: «إذا أردت أن تدعو باسمه الأعظم، فاقرأ من أوّل سورة الحديد إلى آخر ستّ آيات منها عليم بذات الصدور، و آخر سورة الحشر يعنى أربع آيات ثمّ ارفع يديك فقل: يا من هو هكذا أسألك بحقّ هذه الأسماء أن تصلّى على محمّد و أن تفعل بى كذا و كذا- ممّا تريد- فو اللّه الذى لا إله غيره لتنقلبنّ بحاجتك إن شاء اللّه»[۱۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴

و فى عظمة هذه الآيات و أهميّة محتواها نكتفى بهذا الحديث، و يجب ألّا ننسى أنّ اسم اللّه العظيم ليس بالألفاظ فقط، إذ يجب التخلّق بمعانيه أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۷ الى ۱۱]

اشارة

آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۷) وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۸) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (۹) وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۰) مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۱)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶

التّفسير

الإيمان و الإنفاق أساسان للنجاة

بعد البيان الذى تقدّم حول دلائل عظمة اللّه فى عالم الوجود و أوصاف جماله و جلاله، تلك الصفات المحفّزة للحركة باتّجاه اللّه تعالى، ننتقل الآن إلى جوّ هذه الآيات المفعم بالدعوة للإيمان و العمل ..

يقول سبحانه فى البداية آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ إنّ هذه الدعوة دعوة عامّة لجميع البشر، فهى تدعو المؤمنين إلى إيمان أكمل و أرسخ، و تدعو- أيضا- غير المؤمنين إلى التصديق و الإيمان بما جاء به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم، و هذه الدعوة إلى الإيمان جاءت توأما مع أدلّة التوحيد التى تناولتها الآيات التوحيدية السابقة.

ثمّ يدعو إلى أحد الالتزامات المهمّة للإيمان و هى: (الإنفاق فى سبيل اللّه) حيث يقول تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ إنّها دعوة إلى الإيثار و التضحية، و ذلك بالإنفاق و العطاء ممّا منّ اللّه به على الإنسان، و لكن هذه الدعوة مصحوبة بملاحظة، و هى أنّ المالك الحقيقى هو اللّه عزّ و جلّ، و هذه الأموال و الممتلكات قد وضعها اللّه عند الإنسان بعنوان أمانة لفترة محدودة، كما وضعت كذلك باختيار الأقوام السابقة.

و الحقيقة أنّها كذلك، إذ مرّ بنا فى الآيات السابقة أنّ المالك الحقيقى لكلّ العالم هو اللّه سبحانه، و أنّ الإيمان بهذه الحقيقة و

العمل بها تبيّن أنّنا أمناء على ما استخلفنا به من قبل اللّه تعالى، و لا بدّ للمؤمن من أن يأخذ بنظر الإعتبار أمر صاحب الأمانة.

الإيمان بهذه الحقيقة يمنح الإنسان روح السخاء و الإيثار و يفتح قلبه و يديه على الإنفاق.

عبارة (مستخلفين) قد تكون إشارة إلى أنّ الإنسان خليفة اللّه تعالى على الأرض، أو أنّه مستخلف عن الأقوام السابقة أو كلا المعنيين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷

و تعبير (ممّا) تعبير عام و لا يشمل الأموال فحسب بل كلّ الممتلكات و الهبات الإلهيّة. و هنا يعنى أنّ للإنفاق مفهوما واسعا و لا ينحصر بالمال فقط، بل يشمل- أيضا- العلم و الهداية و السمعة الاجتماعية و رؤوس الأموال المعنوية و المادية.

ثمّ يقول تعالى فى الحثّ على الإنفاق: فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ أَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

إنّ وصف الأجر بأنّه «كبير» إشارة إلى عظمة الألطاف الإلهية و الهبات الإلهية، و أبديّتها و خلوصها و دوامها ليس فى الآخرة فحسب، بل فى عالم الدنيا أيضا حيث أنّ قسما من الأجر سوف يكون من نصيب الإنسان فى الدنيا.

و بعد الأمر بالإيمان و الإنفاق يعطى بيانا لكلّ منهما، و هو بمثابة الاستدلال و البرهان، و ذلك بصورة استفهام توبيخى ابتداء، حيث يستفسر عن علّة عدم قبول دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حول الإيمان باللّه فيقول سبحانه: وَ ما لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَ قَدْ أَخَذَ مِيثاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ يعنى أنّكم إذا كنتم مستعدّين حقيقة و صدقا لقبول الحقّ، فإنّ دلائله واضحة عن طريق الفطرة و العقل، و كذلك عن طريق النقل.

و هذا رسول اللّه قد أتى لكم بدلائل واضحة و آيات و معجزات باهرة، و هذه آثار اللّه سبحانه فى عالم الخلق و فى أنفسكم و قد أخذ نوعا من العهد التكوينى منكم، فآمنوا به، إلّا أنّكم- مع الأسف- لا تقيمون و زنا لعقلكم و فطرتكم، و كذلك لا تعيرون اهتماما لتوجيهات الوحى، و يبدو أنّكم غير مستعدّين و مهيّئين للإيمان أصلا، و قد غلب الجهل و التعصّب و التقليد الأعمى على أفكاركم و نفوسكم.

و يتوضّح ممّا قلناه أنّ المقصود من جملة إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هو أنّكم إذا كنتم مستعدّين للإيمان بشىء و تقبلون أدلّته فهذا هو محلّه، لأنّ دلائله واضحة من كلّ جهة.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هى معرفة السبب الذى يمنع هؤلاء الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸

شاهدوا الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم و سمعوا دعوته مباشرة و بلا واسطة، و شاهدوا معجزاته بأعينهم، من الإيمان بدعوته.

فى هذا الصدد نقرأ

الحديث التالى: أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم قال لأصحابه يوما: (أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيمانا؟» قالوا: الملائكة. قال: «و ما لهم لا يؤمنون و هم عند ربّهم؟» قالوا: الأنبياء. قال: «و ما لهم لا يؤمنون و الوحى ينزل عليهم؟» قالوا: نحن. قال: «و ما لكم لا تؤمنون و أنا بين أظهركم؟ و لكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بها»[۱۶].

و هذه حقيقة لا غبار عليها، و هى أنّ الأشخاص الذين يطلّون على عالم الوجود بعد سنوات طويلة من رحلة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و آله و سلّم و يشاهدون آثاره فى الكتب- فقط- و يؤمنون بأحقيّة دعوته، فإنّ لهم ميزة كبيرة على الآخرين.

إنّ التعبير ب «الميثاق» يمكن أن يكون إشارة إلى الفطرة التوحيدية أو الدلائل العقلية التى بمعرفتها يتبيّن للإنسان (نظام الخلقة)، و عبارة (بربّكم) إشارة إلى التدبير الإلهى فى عالم الخلقة، و هو شاهد على هذا المعنى أيضا.

و اعتبر البعض كلمة (ميثاق) إشارة إلى (عالم الذرّ) إلّا أنّ هذا المعنى مستبعد إلّا أن يراد به التّفسير الذى ذكرناه سابقا لعالم الذرّ[۱۷].

و جاءت الآية اللاحقة لتأكيد و توضيح نفس هذا المعنى حيث تقول: هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ

إِلَى النُّورِ وَ إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ

فسّر البعض آياتٍ بَيِّناتٍ هنا بكلّ المعجزات، و قال قسم آخر: إنّه (القرآن الكريم) إلّا أنّ مفهوم الآية واسع يستوعب كلّ ذلك، بالرغم من أنّ التعبير يُنَزِّلُ يناسب (القرآن) أكثر، هذا الكتاب العظيم الذى يمزّق حجب ظلام الكفر و الجهل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹

و الضلال و يشرق شمس الوعى و الإيمان فى النفوس، و الذى هو رحمة و نعمة إلهيّة عظيمة.

أمّا التعبير ب لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ فهو إشارة لطيفة إلى حقيقة أنّ هذه الدعوة الإلهية العظيمة إلى الإيمان و الإنفاق تمثّل مظهرا من مظاهر الرحمة الإلهيّة التى جاءت إليكم جميعا، كما أنّ جميع بركاتها فى هذا العالم و العالم الآخر ترجع إليكم.

و سؤال يثار هنا و هو: هل يوجد اختلاف بين (الرؤوف) و بين (الرحيم)؟ و ما هى خصوصيات كلّ منهما؟

ذكر المفسّرون فى ذلك آراء، و المناسب من بين كلّ الآراء التى ذكرت هو: أنّ كلمة (رؤوف) جاءت هنا إشارة إلى محبّته و لطفه الخاص بالنسبة إلى المطيعين، فى حين أنّ كلمة (رحيم) إشارة إلى رحمته بخصوص العاصين.

قال البعض: إنّ «الرأفة» تقال للرحمة قبل ظهورها، و «الرحمة» تعبير يطلق على الحالة بعد ظهورها.

ثمّ يأتى استدلال آخر على ضرورة الإنفاق حيث يقول تعالى: وَ ما لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أى أنّكم سترحلون عن هذه الدنيا و تتركون كلّ ما منحكم اللّه فيها، و تذهبون إلى عالم آخر، فلما ذا لا تستفيدون من هذه الأموال التى جعلها اللّه تحت تصرفكم بتنفيذ أمره بالإنفاق؟.

(ميراث) فى الأصل- كما قال الراغب فى المفردات- هى الأموال التى تنتقل للإنسان بدون اتّفاق مسبق، و ما ينتقل من الميّت إلى ورثته هو أحد مصاديق ذلك، و لكن لكثرة استعمالها بهذا المعنى يتداعى لسامعها هذا المعنى عند إطلاقها.

و جملة لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بمعنى ليست جميع الأموال و الثروات الموجودة فوق الأرض، بل كلّ ما هو فى السماء و الأرض و عالم الوجود يرجع إليه، حيث تموت جميع الخلائق و اللّه سبحانه هو الوارث لها جميعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰

و لأنّ للإنفاق قيما مختلفة و أحوالا متفاوتة الشرائط و الظروف، يضيف سبحانه: لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قاتَلَ ۱۸].

هناك اختلاف بين المفسّرين حول المقصود من كلمة «الفتح» التى وردت فى الآية، فقد اعتبرها البعض إشارة لفتح مكّة فى السنة الثامنة للهجرة، و اعتبرها آخرون إشارة إلى فتح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة.

و بالنظر إلى أنّ كلمة «الفتح» فسّرت (بفتح الحديبية) فى سورة: إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً فالمناسب هنا أن يكون المقصود بها فتح الحديبية أيضا. إلّا أنّ كلمة (قاتل) تناسب فتح مكّة، لأنّه لم يحصل قتال فى صلح الحديبية، بعكس فتح مكّة الذى حصل فيه قتال سريع و قصير، إذ لم يواجه بمقاومة شديدة.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من «الفتح» فى هذه الآية هو جنس الفتح، و الذى يمثّل انتصار كلّ المسلمين فى الحروب الإسلامية. و المقصود إجمالا أنّ الذين بذلوا المال و النفس فى الظروف الحرجة مفضّلون على الذين ساعدوا الإسلام بعد سكون الموج و هدوء العاصفة، لذلك و للتأكيد أكثر يضيف تعالى:

أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَ قاتَلُوا.

و العجيب هنا أنّ بعض المفسّرين الذين اعتبروا مقصود الآية هو فتح مكّة، أو فتح الحديبية، اعتبروا مصداق المنفق فى هذه الآية هو «أبو بكر». فى حين أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ عدّة حروب و غزوات حصلت بين هجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نزول آية الفتح و الذى استغرق من (۶- ۸) سنوات، و فى هذه الفترة قاتل و أنفق الآلاف من الأشخاص فى طريق الإسلام، إذ شارك فى فتح مكّة فقط عشرة آلاف شخص، طبقا لما ورد فى كتب التاريخ. و من الواضح أنّ أعدادا كبيرة فى هذه المجموعة قدّمت الكثير من

الأموال فى سبيل اللّه و أعانت الإسلام فى المجهود الحربى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱

و واضح أنّ كلمة (قبل) تعنى الإنفاق فى مشارف هذا الفتح و ليس فى بداية الإسلام و قبل إحدى و عشرين سنة.

يجدر الانتباه إلى أنّ بعض المفسّرين يصرّون على أنّ الإنفاق أفضل من الجهاد، و ذلك انسجاما مع رأيهم السابق، و يدلّلون على صحّته من خلال ما ورد فى الآية أعلاه من تقديم الإنفاق المالى على الجهاد باعتبار أنّ الوسائل و المقدّمات و الآلات الحربية، تتهيّأ بواسطته. إلّا أنّ ممّا لا شكّ فيه أنّ بذل النفس و التهيّؤ للشهادة أعلى و أفضل من الإنفاق المالى.

و على كلّ حال، بما أنّ القسمين (الإنفاق و الجهاد) مشمولان بعناية الحقّ تعالى مع اختلاف الدرجة، فيضيف فى النهاية وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى

و هذا تقدير لعموم الأشخاص الذين ساهموا فى هذا الطريق.

و كلمة (حسنى) لها مفهوم واسع، حيث تشمل كلّ ثواب و جزاء و خير فى الدنيا و الآخرة.

و لكون قيمة العمل بإخلاصه للّه سبحانه فيضيف فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

نعم، إنّه يعلم بكيفية و كميّة أعمالكم. و كذلك نيّاتكم و مقدار خلوصكم.

و لغرض الحثّ على ضرورة الإنفاق فى سبيل اللّه، و من خلال تعبير رائع يؤكّد سبحانه ذلك فى الآية مورد البحث بقوله: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فينفق ممّا آتاه اللّه فى سبيل اللّه فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ

إنّه تعبير عجيب حقّا، حيث إنّ اللّه الواهب لكلّ النعم و جميع ذرّات وجودنا- هى من بحر فيضه اللامتناهى. و بالإضافة إلى أنّنا عبيد له يعبّر عنّا بأنّنا أصحاب الأموال، و يدعونا لإقراضه ضمن شروط مغرية، حيث أنّ السائد أنّ الديون العادية تسترجع بنفس مقاديرها، إلّا أنّه سبحانه- بفضل منه- يضاعفها لنا بالمئات أحيانا و بالآلاف أحيانا اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲

و إضافة إلى ذلك فإنّه قد وعدنا بأجر كريم أيضا، و هو جزاء عظيم لا يعلمه إلّا هو.

بحوث

۱- بواعث الإنفاق

الشىء الجدير بالانتباه أنّنا نلاحظ فى الآيات السابقة تعبيرات مختلفة للحثّ على الإنفاق، أعمّ من المساعدة و المساهمة فى موضوع الجهاد أو أنواع الإنفاق الأخرى للمحتاجين، و التى يعتبر كلّ منها عاملا أساسيّا و محرّكا باتّجاه تحقيق الهدف.

و تشير الآية السابعة لمسألة استخلاف الناس بعضهم لبعض أو عن اللّه تعالى فى هذه الثروة، و بما أنّ المالكية الحقيقة للّه تعالى، و الجميع نوابا له فى هذه الأموال. فهذا الفهم يستطيع أن يفتح فى الحقيقة يد الإنسان و قلبه للإنفاق و يكون عاملا للحركة فى هذا المجال.

أمّا فى الآية العاشرة فقد ورد مفهوم آخر يتحدّث فيه عن حالة عدم استقرار الأموال و الممتلكات و بقائها بعد فناء الناس جميعا، لذا يعبّر عنها ب مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و أنّها للّه تعالى.

و فى الآية الحادية عشرة ورد تعبير مرهف بالحساسية، حيث يعتبر اللّه سبحانه الإنسان هو المقرض و أنّه تعالى هو المستقرض، و ليس فى هذا القرض ربا، بل فيه أرباح مضاعفة، و أحيانا مضاعفة بالآلاف عوض هذا القرض، بالإضافة إلى الجزاء العظيم الذى لا نستطيع

تصوّره.

إنّ هـذا كلّه لإزالـة النظرات الخاطئـة و المنحرفـة و دوافع الحرص و الحسد و حبّ الذات و طول الأمل التى تمنع من الإنفاق، لتكوين مجتمع على أسس ودّية و تعاون عميق و روح اجتماعية بنّاءة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳

۲- شروط الإنفاق فى سبيل اللّه!

إنّ التعبير ب قَرْضاً حَسَناً فى الآية أعلاه يشير إلى هذه الحقيقة و هى أنّ إعطاء القرض بحدّ ذاته (أقسام و أنواع) فبعضـها يعتبر قرضـا حسنا، و الآخر قرضا قليل الفائدة، أو حتّى عديم الفائدة أيضا.

و القرآن الكريم يبيّن شـروط القرض الحسن للّه سـبحانه كمـا وضّـح ذلـك فى الآيات المختلفـة، و بعض المفسّـرين اسـتنتجوا عشـرة شروط فى مجموع الآيات القرآنية التى تتحدّث عن الإنفاق، و هى كما يلى:

الشـرط الأوّل: انتخـاب أجود الأـموال للإنفاق و ليس من أرخصـها شأنا و قيمـة، قال سـبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ، وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ[۱۹].

ثانيـا: يجـدر أن يكـون الإنفـاق و الإقراض من الأـموال الـتى هى موضع حاجـة الشـخص المنفق، حيث يقول سـبحانه: وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ[۲۰].

ثالثا: يجب أن يكون الإنفاق للأشـخاص الـذين هم موضع حاجـة شديـدة إليه، و تؤخـذ بنظر الإعتبار الأولويات فى إنفاقه، قال تعالى: لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۲۱].

رابعا: الأفضل و الأولى فى الإنفاق أن يكون محاطا بالسّرية و الكتمان قال تعالى: وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۲۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴

خامسا: أن لا يقترن الإنفاق منّ و لا أذى أبدا، قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى ۲۳].

سادسا: أن يكون توأما مع خلوص النيّة قال تعالى: يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ ۲۴].

سابعا: الشـعور بضـئالة العطاء و أنّه صـغير لا قيمـة له حتّى و إن كان كثيرا و مهمّا، و ذلك تلبيـة لأمر اللّه و انتظارا للجزاء الـذى أعـدّه للمنفقين. قال تعالى: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ[۲۵][۲۶].

ثامنـا: أن يكون الإنفـاق ممّـا تعلّق قلبه به من الأـموال، و خاصّـة تلـك التى تكون موضع تعلّق و شـغف، قال تعالى: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۲۷].

تاسـعا: أن لا يرى المنفق أنّه هو المالك للأموال، حيث أنّ المالك الحقيقى هو اللّه سـبحانه، و يعتبر المنفق نفسه واسطة بين الخالق و المخلوق، قال تعالى:

وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۲۸].

عاشرا: أن يكون الإنفاق من المال الحلال، لأنّه هو الذى يقبل فقط من قبل اللّه سبحانه، قال تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۲۹].

و

جاء فى حديث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا يقبل اللّه صدقة من غلول»[۳۰].

و الذى ذكرناه أعلاه هو قسم مهمّ من الضوابط و الشروط اللازمة للإنفاق، و لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵

تنحصر به، و نستطیع من خلال التدقیق و التأمّل فی الآیات الکریمة و الروایات الإسلامیة أن نتعرّف علی شروط أخری أیضا.

ثمّ إنّ ما قیل من الشروط بعضها واجب ک (عدم الأذی و المنّ و الإعلان فی العطاء) و البعض الآخر مستحبّ و من شروط الکمال ک (الإیثار علی النفس) حیث إنّ عدمه لا یقلّل من قیمة الإنفاق، بالرغم من أنّ الإنفاق فی هذه الحالة لا یرتقی إلی مستوی الإنفاق العالی من حیث الدرجة.

و مع أنّ ما قیل هنا خاصّ فی الإنفاق فی سبیل اللّه (الإقراض للّه) إلّا أنّه أیضا یصدق فی کثیر من القروض العادیة، لأنّ هذه الشروط من الأمور اللازمة أو من شروط الکمال للقرض الحسن.

و حول أهمیّة الإنفاق فی سبیل اللّه فقد ذکرنا شرحا مفصّلا تفسیر الآیات من (۲۶۱- ۲۶۷) من سورة البقرة.

۳- السابقون فی الإیمان و الجهاد و الإنفاق

الأشخاص الذین یتقدّمون علی غیرهم بالإیمان و العمل الصالح فهم ذوو و عی و شجاعة و إیثار و تضحیة أکثر من الآخرین بلا شکّ، و لذا فإنّ درجات المؤمنین غیر متساویة عند اللّه، و الآیة الکریمة اعتمدت هذا المفهوم و میّزت بین الأشخاص الذین أنفقوا قبل الفتح: (سواء کان فتح مکّة أو الحدیبیة أو مطلق الفتوحات الإسلامیة) و جاهدوا أیضا، و بین الذین أنفقوا و قاتلوا من بعد.

نقل فی حدیث عن (أبی سعید الخدری) أنّه قال: «خرجنا مع رسول اللّه فی عام الحدیبیة (السنة السادسة للهجرة) حتّی إذا کان بعسفان- مکان قریب من مکّة- قال رسول اللّه: «یوشک أن یأتی قوم تحقّرون أعمالکم مع أعمالهم» قلنا: من یا رسول اللّه؟ أ قریش؟ قال: «لا، و لکنّهم أهل الیمن، هم أرقّ أفئدة و ألین قلوبا» قلنا: أهم خیر منّا یا رسول اللّه؟ قال: «لو کان لأحدهم جبل ذهب فأنفقه ما أدرک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶

مدّ[۳۱] أحدکم و لا نصفیه، ألا إنّ هذا فصل ما بیننا و بین النساء لا یتسوّی منکم من أنفق من قبل الفتح و قاتل»[۳۲].

و النقطة التالیة جدیرة بالملاحظة أیضا و هی: أنّ الإقراض للّه تعالی هو کلّ إنفاق فی سبیله، و أحد مصادیقه المهمّة الدعم الذی یقدّم للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أئمّة المسلمین من بعده، کی یستعمل فی الموارد اللازمة لإدارة الحکومة الإسلامیة.

لذا

نقل فی الکافی روایة عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه لم یسأل خلقه ممّا فی أیدیهم قرضا من حاجة به إلی ذلک، و ما کان للّه من حقّ فإنّما هو لولیّه»[۳۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الکاظم علیه السّلام حول نهایة الآیة مورد البحث: مَنْ ذَا الَّذِی یُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ... أنّه قال: «نزلت فی صلة الإمام»[۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷

الآیات [سورة الحدید (۵۷): الآیات ۱۲ الی ۱۵]

اشارة

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ (۱۳) يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قالُوا بَلى وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَ تَرَبَّصْتُمْ وَ ارْتَبْتُمْ وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۱۴) فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۵)

التفسير

انظرونا نقتبس من نوركم:

لقد بشّر اللّه المنفقين فى آخر آية من الآيات السابقة بالأجر الكريم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸

و استمرارا للبحث فالآيات أعلاه تتحدّث عن هذا الأجر، و تبيّن مدى قيمته و عظمته فى اليوم الآخر، يقول سبحانه: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ

و بالرغم من أنّ المخاطب هنا هو الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ من الواضح أنّ الآخرين يرقبون هذا المشهد أيضا، و لكن بما أنّ تشخيص المؤمنين من الأمور اللازمة للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليتفقدهم فكانت هذه العلامة: (نورهم الذى يسعى بين أيديهم ...) دالّة عليهم، و بذلك تكون معرفتهم أيسر.

و بالرغم من أنّ المفسّرين ذكروا احتمالات متعدّدة لهذا «النور إلّا أنّ المقصود منه- فى الواقع- تجسيم نور الإيمان، لأنّه سبحانه عبّر ب (نورهم) و لا عجب، لأنّ فى ذلك اليوم تتجسّد أعمال البشر، فيتجسّد الإيمان الذى هو نور هدايتهم بصورة نور ظاهرى، و يتجسّد الكفر الذى هو الظلام المطلق بصورة ظلمة ظاهرية. كما نقرأ فى الآية الكريمة: يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ۳۵].

و جاء فى الآيات القرآنية الاخرى أنّ اللّه تعالى يهدى المؤمنين من الظلام إلى النور: يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

التعبير ب «يسعى» من مادّة (سعى)- بمعنى الحركة السريعة- دليل على أنّ المؤمنين أنفسهم يسيرون بسرعة فى طريق المحشر باتّجاه الجنّة حيث مركز السعادة السرمدية، ذلك لأنّ الحركة السريعة لنورهم ليست منفصلة عن حركتهم السريعة.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ الحديث جاء عن (نورين) (النور الذى يتحرّك أمامهم، و النور الذى يكون عن يمينهم) و هذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹

قسمين مختلفين من المؤمنين:

قسم المقرّبين و أصحاب الوجوه النورانية، و هؤلاء نورهم يتحرّك أمامهم.

و القسم الثانى و هم أصحاب اليمين و يكون نورهم عن أيمانهم، و ذلك كناية عن صحيفة أعمالهم التى تعطى بأيديهم اليمنى و يخرج النور منها.

كما يوجد احتمال آخر أيضا و هو أنّ النورين إشارة إلى مجموعة واحدة، و ما يقصد بنور اليمين هو كناية عن النور الذى يصدر عن أعمالهم الصالحة و يضىء جميع أطرافهم.

و على كلّ حال فإنّ هذا النور هو دليلهم إلى الجنّة، و على ضوئه يسيرون بسرعة إليها.

و من جهة ثالثة بما أنّ مصدر هذا النور الإلهى هو الإيمان و العمل الصالح فلا شكّ أنّه يختلف باختلاف درجات الإيمان و مستوى الأعمال الصالحة للبشر، فالأشخاص ذوو الإيمان الأقوى فإنّ نورهم يضىء مسافة أطول، و الذين لهم مرتبة أقل يتمتّعون بنور يناسب مرتبتهم، حتّى أنّ نور بعضهم لا يضىء موضع أقدامهم، كما ورد فى تفسير على بن إبراهيم فى نهاية الآية مورد البحث: «يقسّم النور بين الناس يوم القيامة على قدر إيمانهم»[۳۶].

و هنا يصدر هذا النداء الملائكى باحترام للمؤمنين: بُشْراكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أمّا المنافقون الذين سلكوا طريق الظلام و الكفر و الذنوب و المعصية، فإنّ صراخهم يعلو فى مثل تلك الساعة و يلتمسون من المؤمنين شيئا من النور، لكنّهم يواجهون بالرد و النفى. كما فى قوله تعالى: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الْمُنافِقاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ۳۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰

«اقتباس» فى الأصل من مادّة (قبس) بمعنى أخذ شعلة من النار، ثمّ استعملت على أخذ نماذج اخرى أيضا.

المقصود من جملة (انظرونا) هو أن انظروا لنا كى نستفيد من نور وجوهكم لنجد طريقنا، أو انظروا لنا نظر لطف و محبّة و أعطونا سهما من نوركم، كما يحتمل أنّ المقصود هو أنّ (انظرونا) مشتقة من (الانتظار) بمعنى أعطونا مهلة قليلة حتّى نصل إليكم و فى ظلّ نوركم نجد الطريق.

و على كلّ حال يأتى الجواب على طلبهم بقوله تعالى: قِيلَ ارْجِعُوا وَراءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً.

كان من الممكن أن تحصلوا على النور من الدنيا التى تركتموها و وراءكم، و ذلك بإيمانكم و أعمالكم الصالحة، إلّا أنّ الوقت انتهى، و فاتت الفرصة عليكم و لا أمل هنا فى حصولكم على النور.

فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ و هذا الباب أو هذا الجدار من نوع خاص و أمره فريد، حيث إنّ كلا من طرفيه مختلف عن الآخر تماما، حيث: باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ

«السور» فى اللغة هو الحائط الذى يحيط بالمدن- كما كان فى السابق- للمحافظة عليها، و فيه نقاط مراقبة عديدة يستقرّ بها الحرّاس للمحافظة و رصد الأعداء تسمّى بالبرج و الأبراج.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا حيث يقول تعالى: باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَ ظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ حيث أنّ المؤمنين كسكّان المدينة داخل البستان، و المنافقين كالغرباء القسم الصحراوى، فهم فى جوّين مختلفين و عالمين متفاوتين، و يحكى ذلك عن كون هؤلاء كانوا فى مجتمع واحد جنبا إلى جنب و لكن يفصل بينهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱

حاجز عظيم من الإعتقادات و الأعمال المختلفة، ففى يوم القيامة يتجسّد نفس المعنى أيضا.

و لما ذا هذا «الباب»، و لأى الأهداف؟

للجواب على هذا التساؤل نقول: من الممكن أن يكون هذا الباب من أجل أن يرى المنافقون من خلاله نعم الجنّة و يتحسّرون عليها، أو أنّ من كان قليل التلوّث بالذنوب و قد نال جزاءه من العذاب بإمكانه أن يدخل منها و يكون مع المؤمنين فى نعيمهم.

غير أنّ هذا الحائط ليس من النوع الذى يمنع عبور الصوت حيث يضيف سبحانه: أنّ المنافقين يُنادُونَهُمْ أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ لقد كنّا نعيش معكم فى هذه الدنيا فما الذى حدث و انفصلتم عنّا و ذهبتم إلى الروح و الرحمة الإلهية و تركتمونا فى قبضة العذاب؟

قالُوا: بَلى كنّا معكم فى أماكن كثيرة فى الأزقّة و الأسواق، فى السفر و الحضر، و كنّا أحيانا جيرانا أو فى بيت واحد .. نعم كنّا معا، إلّا أنّ اختلافاتنا فى العقيدة و العمل كانت هى الفواصل بيننا، لقد كنتم تسيرون فى خطّ منفصل عن خطّنا و كنتم غرباء عن اللّه فى

الأصول و الفروع، لذا فأنتم بعيدون عنّا. ثمّ يضيفون:

لقد ابتليتم بخطايا و ذنوب كثيرة من جملتها:

۱- وَ لكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ و خدعتموها بسلوك طريق الكفر و الضلال.

۲- وَ تَرَبَّصْتُمْ و انتظرتم موت النبى و هلاك المسلمين و انهدام أساس الإسلام، بالإضافة إلى التهرّب من إنجاز كلّ عمل إيجابى و كلّ حركة صحيحة، حيث تتعلّلون و تماطلون و تسوّفون إنجازها.

۳- وَ ارْتَبْتُمْ فى المعاد و حقّانية دعوة النبى و القرآن ..

۴- و خدعتكم الآمال وَ غَرَّتْكُمُ الْأَمانِيُّ حَتَّى جاءَ أَمْرُ اللَّهِ

نعم هذه الأمانى لم تعطكم مجالا- حتّى لحظة واحدة- للتفكّر الصحيح، لقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲

كنتم مغمورين فى تصوّراتكم و تعيشون فى عالم الوهم و الخيال، و استولت عليكم أمنية الوصول إلى الشهوات و الأهداف المادية.

۵- وَ غَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إنّ الشيطان غرّكم بوساوسه فى مقابل وعد اللّه عزّ و جلّ، فتارة صوّر لكم الدنيا خالدة باقية و اخرى صوّر لكم القيامة بعيدة الوقوع. و فى بعض الأحيان غرّكم بلطف اللّه و الرحمة الإلهية، و أحيانا جعلكم تشكّون فى أصل وجود اللّه العظيم الخالق.

هذه العوامل الخمسة فهى التى فصلت خطّكم عنّا بصورة كليّة و أبعدتنا عنكم و أبعدتكم عنّا.

«فتنتم» من مادّة (فتنة) جاءت بمعانى مختلفة ك (الامتحان و الانخداع، و البلاء و العذاب، و الضلالة و الانحراف، و الشرك و عبادة الأصنام) و المعنيان الأخيران هنا أنسب أى الضلال و الشرك.

«تربّصتم» من مادّة (تربّص) فى الأصل بمعنى الانتظار، سواء كان انتظار البلاء و المصيبة أو الكثرة و النعمة، و المناسب الأكثر هنا هو انتظار موت الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انتكاسة الإسلام، أو أنّ الانتظار بمعنى التعلّل فى التوبة من الذنوب و إنجاز كلّ عمل من أعمال الخير.

«و ارتبتم» من مادّة (ريب) تطلق على كلّ شكّ و ترديد و ما سيتوقّع فيما بعد، و المعنى الأنسب هنا هو الشكّ بالقيامة أو حقّانية القرآن الكريم.

و بالرغم من أنّ مفهوم الكلمات المستعملة فى الآية واسع، إلّا أنّ من الممكن أن تكون لبيان المسائل المذكورة بالترتيب، من مسألة «الشرك» و انتظار «نهاية عمر الإسلام و الرّسول» و من ثمّ «الشكّ فى المعاد» الذى يؤدّى إلى «التلوّث العملى» عن طريق «الانخداع بالأمانى» و الشيطان، و بناء على هذا فالجمل الثلاث الاولى من الآية ناظرة إلى الأصول الثلاثة للدين، و الجملتان الأخيرتان بعد هما ناظرتان إلى فروع الدين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳

و أخيرا فإنّ المؤمنين- بلحاظ ما تقدّم- يخاطبون المنافقين بقولهم: فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَ لا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا و بهذا الترتيب يواجه المنافقون نفس مصير الكفّار أيضا، و كلّهم رهينة ذنوبهم و أعمالهم القبيحة، و لا يوجد لهم أى طريق للخلاص.

ثمّ يضيف سبحانه: مَأْواكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ ۳۸] وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

الإنسان- عادة- لكى ينجو من العقوبة المتوقّعة فى الدنيا، يتوسّل للخلاص منها إمّا بالغرامة المالية أو طلب العون و المساعدة من قوّة شفيعة، إلّا أنّه هناك- فى يوم القيامة- لا يوجد أى منهما ينقذ الكفّار و المنافقين من العذاب المحتوم عليهم.

و فى يوم القيامة- عادة- تنقطع كلّ الأسباب و الوسائل المادية المتعارف عليها فى هذا العالم للوصول إلى المقاصد المرجوة، كما تنفصم الروابط حيث يقول سبحانه: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ۳۹].

يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ[۴۰].

وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ ۴۱] يَوْمَ لا يُغْنِى مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً[۴۲].

يَوْمَ لا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً[۴۳].

فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ[۴۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ[۴۵] و بهذه الصورة يوضّح القرآن الكريم أنّ الوسيلة الوحيدة للنجاة فى ذلك اليوم هى الإيمان و العمل الصالح فى الدنيا، حتّى أنّ دائرة الشفاعة محدودة للأشخاص الذين خلطوا عملا ـ صالحا و آخر سيّئا و ليسوا من الغرباء مطلقا عن الإيمان و الذين قطعوا ارتباطهم بصورة كليّة من اللّه و أوليائه و عصوا أوامره.

ملاحظة

الإستغاثة العقيمة للمجرمين:

نظرا إلى أنّ الكثير من الناس فى يوم القيامة يجهلون طبيعة النظام المهيمن هنالك و يتصوّرون أنّ نفس أنظمة الدنيا تحكم هناك أيضا، فيحاولون استخدامها.

إلّا أنّه سرعان ما يتبيّن الخطأ الكبير الذى وقعوا فيه.

فأحيانا يتوسّل المجرمون بالمؤمنين بقولهم لهم: انْظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ... إلّا أنّه بسرعة يواجهون الردّ الحاسم، و هو أنّ منبع النور ليس هنا، إنّما فى دار الدنيا حيث تخلّفتم عنه بالغفلة و عدم المعرفة.

و أحيانا يطلب كلّ منهم العون من الآخر (الأتباع من قائدهم) فيقولون:

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ[۴۶] و هنا يواجهون الردّ المخيّب لآمالهم أيضا.

ثمّ إنّهم يستنجدون و يلتمسون العون من خزنة جهنّم حيث يقولون: ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذابِ ۴۷]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵

و أحيانا يتجاوزن ذلك و يلتمسون من اللّه أن يخفّف عنهم حيث يقولون:

رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظالِمُونَ ۴۸] و لكن هذا الطريق هو الآخر مغلق عليهم أيضا، لأنّ عهد التكليف قد انقضى و هذه دار الجزاء و العقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۶ الى ۱۸]

اشارة

أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۱۶) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۱۷) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (۱۸)

سبب النزول

وردت لنزول الآية الاولى أعلاه عدّة أسباب: منها أنّ الآية المذكورة نزلت- بعد سنة من هجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- تتحدّث عن المنافقين، و ذلك أنّهم سألوا سلمان الفارسى: حدّثنا عمّا فى التوراة، فخبّرهم أنّ القرآن أحسن القصص كما فى قوله تعالى: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷

رَبَّهُمْ ...[۴۹] و عاودوا بعدها سؤال سلمان فجاءهم هذا التوبيخ و العتاب.

و قيل كان الصحابة بمكّة مجدبين، فلمّا هاجروا أصابوا الخير و النعمة، فتغيّروا عمّا كانوا عليه، فقست قلوبهم فعوتبوا من ذلك ۵۰].

كما نلاحظ أسباب نزول اخرى للآية، و بما أنّها تتحدّث عن نزول هذه الآية فى مكّة، لذا فإنّها غير قابلة للاعتماد، لأنّ المشهور أنّ جميع هذه السورة قد نزلت فى المدينة.

التّفسير

إلى متى هذه الغفلة؟

بعد ما وجّهت الآيات السابقة مجموعة من الإنذارات الصارمة و التنبّهات الموقظة، و بيّنت المصير المؤلم للكفّار و المنافقين فى يوم القيامة، جاءت الآية الاولى مورد البحث بشكل استخلاص نتيجة كليّة من ذلك، فتقول: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ، وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ، وَ لا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلُ فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ۵۱].

«تخشع» من مادّة «خشوع» بمعنى حالة التواضع مقترنة بالأدب الجسمى و الروحى، حيث تنتاب الإنسان هذه الحالة- عادة- مقابل حقيقة مهمّة أو شخصية كبيرة.

و من الواضح أنّ ذكر اللّه عزّ و جلّ إذا دخل أعماق روح الإنسان، و سماع الآيات القرآنية بتدبّر فإنّها تكون سببا للخشوع، و القرآن الكريم هنا يلوم بشدّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸

قسما من المؤمنين لعدم خشوعهم أمام هذه الأمور. لأنّه قد ابتلى كثير من الأمم السابقة بمثل هذا من الغفلة و الجهل. و هذه الغفلة تؤدّى إلى قساوة القلب و بالتالى إلى الفسق و العصيان.

و لهذا هل نقتنع بادّعاء الإيمان، و العيش فى رفاه و الانشغال بالأكل و الشرب و نمرّ أمام هذه المسائل المهمّة ببساطة؟ و هل أنّ أعمالنا و مسئولياتنا تتناسب مع الإيمان الذى ندّعيه؟

هذه التساؤلات لا بدّ من الإجابة عنها مع أنفسنا بهدوء و موضوعية.

جملة: فَطالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ قد تكون إشارة إلى الفاصلة الزمنية بينهم و بين أنبيائهم، و يحتمل أن يكون المقصود بها طول العمر، أو طول الأمانىّ، أو عدم نزول العذاب الإلهى منذ مدّة طويلة، أو كلّ ذلك، لأنّ كلّ واحدة من هذه الأسباب يمكن أن تكون عاملا للغفلة و القساوة، و هى بدورها تسبّب الذنب و الإثم.

جاء فى حديث للإمام على عليه السّلام: «لا تعالجوا الأمر قبل بلوغه فتندموا، و لا يطولنّ عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم»[۵۲].

و نقرأ

فى حديث آخر عن لسان عيسى المسيح عليه السّلام: «لا تكثروا بالكلام بغير ذكر اللّه فتقسوا قلوبكم، فإنّ القلب القاسى بعيد من اللّه،

و لا ـ تنظروا فى ذنوب العباد كأنّكم أرباب، و انظروا فى ذنوبكم كأنّكم عبيـد، و الناس رجلان: مبتلى و معافى، فارحموا أهل البلاء، و احمدوا اللّه على العافية»[۵۳].

و لأنّ إحياء القلوب الميتـة لا يكون إلّا بالـذكر الإلهى، الحياة الروحيـة التى لن تكون إلّا بظلّ الخشوع و الخضوع و خاصّيـة فى أجواء القرآن الكريم .. لذا فإنّ القرآن يشبّه عملية إحياء القلوب الميتة بإحياء الأراضى الميتة، فكما أنّ هذه تحيا ببركة نزول الأمطار كذلك فإنّ القلوب تحيا بذكر اللّه سبحانه .. حيث يضيف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹

سبحانه فى الآية اللاحقة: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذه الآية تشـير إلى إحياء الأراضى بوسيلة المطر، كذلك فإنّ إحياء القلوب الميتة يكون بواسطة ذكر اللّه و قراءة القرآن المجيد الذى نزل من سـماء الوحى على القلب الطاهر للنبى محمّـد صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و كلاهما جـديران بالتـدبّر و التعقّل، لـذا أشـير فى الروايات السابقة إلى كليهما.

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام فى تفسيره لهذه الآية أنّه قال: «لعدل بعد الجور»[۵۴].

كما نقرأ

فى حـديث عن الإمام الباقر عليه السّـلام فى تفسـيره للآيـة: اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قال: «يحيى اللّه تعالى الأرض بالقائم بعد موتها، يعنى بموتها كفر أهلها، و الكافر ميّت»[۵۵].

و من الواضح أنّ هذه التفاسير فى الحقيقة هى بيان لمصاديقها البارزة، و لا تحدّ من مفهوم الآية أبدا.

و جاء

فى حديث آخر عن الإمام الكاظم عليه السّلام: «فإنّ اللّه يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر»[۵۶].

و يرجع مرّة اخرى فى الآيـة اللاحقـة إلى مسألـة الإنفـاق، و التى هى إحـدى ثمار شـجرة الإيمان و الخشوع، حيث يتكرّر نفس التعبير الذى قرأناه فى الآيات السابقة مع إضافة، حيث يقول تعالى: إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَ الْمُصَّدِّقاتِ وَ أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَ لَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰

أمّا لما ذا طرحت مسألة الإنفاق بعنوان القرض الحسن للّه سبحانه؟ و لما ذا كان الجزاء المضاعف الأجر الكريم؟

يمكن معرفة الإجابة على هذه التساؤلات فى البحث الذى بيّناه فى نهاية الآية (۱۱) من نفس هذه السورة.

احتمل البعض أنّ المقصود من القرض الحسن للّه فى هـذه الآيات و الآيات المشابهـة[۵۸] بمعنى الإقراض للعباد، لأنّ اللّه تعالى ليس بحاجـة للقرض، بـل إنّ العباد المؤمنين هم الـذين بحاجـة إلى القرض، و لكن بملاحظـة سـياق الآيات يفهم أنّ المقصود من «القرض الحسن» فى كلّ هذه الآيات هو الإنفاق فى سبيل اللّه، بالرغم من أنّ القرض لعباد اللّه هو من أفضل الأعمال أيضا.

و يرى «الفاضل المقداد» أيضا فى كنز العرفان فى تفسير القرض الحسن بأنّه كلّ الأعمال الصالحة[۵۹].

موعظة و توبة:

إنّ آيـة: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... من الآيات المثيرة فى القرآن الكريم، حيث تليّن القلب، و ترطّب الروح و تمزّق حجب الغفلـة و تعلن متّبهة: ألم يأن للقلوب المؤمنة أن تخشع مقابل ذكر اللّه و ما نزّل من الحقّ! و تحذّر من الوقوع فى شـراك

الغفلة كما كان بالنسبة لمن سبق حيث آمنوا و تقبّلوا آيات الكتاب الإلهى، و لكن بمرور الزمن قست قلوبهم.

لذلك نلاحظ بصورة مستمرة أنّ أفرادا مذنبين جدّا قد هداهم اللّه إلى طاعته بعد سماعهم هذه الآية التى وقعت فى نفوسهم كالصاعقة، و أيقظتهم من سباتهم و غفلتهم التى كانوا فيها، و لهذا شواهد عديدة حيث تنقل لنا كتب التاريخ العديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱

منها، حتّى أنّ البعض منهم أصبح فى صفّ الزهّاد و العبّاد، و من جملتهم العابد المعروف «فضيل بن عيّاض» الزاهد.

حيث يحكى عنه أنّه كان فى أوّل أمره يقطع الطريق بين «أبيورد» و «سرخس»، و عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ قال: (بلى و اللّه قد آن) فرجع و أوى إلى خربة فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، و قال بعضهم: حتّى نصبح، فإنّ فضيلا قد قطع الطريق علينا. فتاب الفضيل و أمّنهم.

و حكى أنّه جاور الحرم حتّى مات ۶۰].

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد رجال البصرة المعروفين قال: بينما كنت أسير فى طريق فسمعت فجأة صيحة، فذهبت متتبعا آثارها، فشاهدت رجلا مغمى عليه على الأرض، قلت: ما هذا! قالوا: رجل واعى القلب سمع آية من القرآن و اندهش، قلت: أى آية؟ قالوا: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ... و فجأة أفاق الرجل عند سماع صوتنا و بدأ بقراءة هذا الشعر المؤثّر:

أما آن للهجران أن ينصر ماو للغصن غصن البان أن يتبسّما

و للعاشق الصبّ الذى ذاب و انحنىألم يأن أن يبكى عليه و يرحما

كتبت بماء الشوق بين جوانحىكتابا حكى نقش الوشى المنمنما

قال ذلك ثمّ سقط على الأرض. مدهوشا مرّة اخرى، فحرّكناه و إذا به قد سلّم روحه إلى بارئه و ربّه ۶۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲

الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۱۹ الى ۲۰]

اشارة

وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (۱۹) اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ (۲۰)

التفسير

الدنيا متاع الغرور:

استمرارا للبحث الذى تناولته الآيات السابقة فى بيان حال المؤمنين و أجرهم عند اللّه تعالى، تضيف الآيات التالية بهذا الصدد قوله تعالى: وَ الَّذِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳

آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ

«الصدّيق» صيغة مبالغة من (الصدق) بمعنى الشخص الذى يستوعب الصدق جميع وجوده، حيث يصدّق عمله قوله، و هو النموذج التامّ للصدق.

«شهداء» جمع «شهيد» من مادّة (شهود) بمعنى الحضور مع المشاهدة سواء كانت بالعين المجرّدة أو البصيرة، و إذا أطلقت على «الشاهد» كلمة شاهد و شهيد، فالسبب هو حضوره و مشاهدته فى المكان، كما يطلق هذا المصطلح على «الشهداء فى سبيل اللّه» بسبب حضورهم فى ميدان الجهاد.

إلّا أنّ المراد من (الشهداء) فى الآية مورد البحث قد يكون الشهادة على الأعمال، كما يستفاد من الآيات القرآنية الاخرى، فالأنبياء شهداء على أعمال أممهم، و رسول الإسلام شاهد عليهم و على الامّة الإسلامية، و المسلمون أيضا شهداء على أعمال الناس ۶۲].

و بناء على هذا، فإنّ الشهادة على الأعمال مقام عال، و الذى يكون من نصيب المؤمنين.

و احتمل البعض أنّ (شهداء) هنا هو الشهداء فى سبيل اللّه، أى الأشخاص المؤمنون الذين لهم أجر و ثواب الشهادة، يحسبون بمنزلة الشهداء، لذا ذكر

فى حديث أنّ شخصا ذهب إلى الإمام الصادق عليه السّلام، فقال له: ادع اللّه أن يرزقنى الشهادة. فقال الإمام عليه السّلام أنّ المؤمن شهيد، ثمّ قرأ هذه الآية: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ..[۶۳].

و من الطبيعى أنّه يمكن الجمع بين المعنيين، خصوصا أنّ القرآن الكريم أطلق مصطلح «شهيد و شهداء» فى الغالب على الأعمال و ما إلى ذلك.

و على كلّ حال، فإنّ اللّه تعالى يصف المؤمنين الحقيقيين هنا بوصفين: الأوّل:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴

«الصدّيق» و الآخر: «الشهيد»، و هذا يرينا أنّ المقصود من المؤمنين فى الآية مورد البحث هم أصحاب الدرجات العالية فى الإيمان لا المؤمن العادى ۶۴].

ثمّ يضيف تعالى: لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَ نُورُهُمْ

إنّ هذا التعبير المختصر يشير إلى عظيم الأجر و النور الذى ينتظرهم.

و فى النهاية يضيف تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ و ذلك كى تتوضّح بهذه المقارنة النتيجة التى آلت إليها المجموعتان، و التى تتدرّج بين القمّة و القاع، حيث إنّ القسم الأوّل فى المقام العالى من دار الخلد، و القسم الثانى فى الدرك الأسفل من النار يندبون سوء حظّهم و انحطاط مصيرهم.

و بما أنّ المجموعة الاولى كانت فى أعلى مستويات الإيمان، ففى المقابل أيضا ذكرت الآية أيضا الكفر بأسوأ صوره فى الجماعة الثانية المقارن للتكذيب بآيات اللّه.

و لأنّ حبّ الدنيا مصدر كلّ رذيلة، و رأس كلّ خطيئة، فالآية اللاحقة ترسم بوضوح وضع الحياة الدنيا و المراحل المختلفة و المحفّزات و الظروف و الأجواء التى تحكم كلّ مرحلة من هذه المراحل، حيث يقول سبحانه: اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ وَ زِينَةٌ وَ تَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَ تَكاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَ الْأَوْلادِ.

و بهذه الصورة فإنّ «الغفلة» و «اللهو» و «الزينة» و «التفاخر» و «التكاثر» تشكّل المراحل الخمس لعمر الإنسان.

ففى البداية مرحلة الطفولة، و الحياة فى هذه المرحلة عادة مقترنة بحالة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵

الغفلة و الجهل و اللعب.

ثمّ مرحلة المراهقة حيث يأخذ اللهو مكان اللعب، و فى هذه المرحلة يكون الإنسان لاهثا وراء الوسائل و الأمور التى تلهيه و تبعده عن

الأعمال الجدّية.

و المرحلة الثالثة هى مرحلة الشباب و الحيوية و العشق وحبّ الزينة.

و إذا ما تجاوز الإنسان هذه المرحلة فإنّه يصل إلى المرحلة الرابعة حيث تتولّد فى نفسه دوافع العلو و التفاخر.

و أخيرا يصل إلى المرحلة الخامسة حيث يفكّر فيها بزيادة المال و الأولاد و ما إلى ذلك.

و المراحل الاولى تشخّص حسب العمر تقريبا، إلّا أنّ المراحل اللاحقة تختلف عند الأشخاص تماما، و البعض من هذه المراحل تستمر مع الإنسان إلى نهاية عمره، كمرحلة جمع المال، و بالرغم من أنّ البعض يعتقد أنّ كلّ مرحلة من هذه المراحل الخمس تأخذ سنين من عمر الإنسان مجموعها أربعون سنة، حيث تتثبّت شخصية الإنسان عند وصوله إلى هذا العمر.

كما أنّ بعض الأشخاص يمكن أن تتوقّف شخصيتهم فى المرحلة الاولى و الثانية حتّى مرحلة الهرم، و لذا فإنّ سمات هذه المرحلة تبقى هى الشاخصة فى سلوكهم و تكوين شخصياتهم، حيث اللعب و الشجار و اللهو هو الطابع العامّ لهم، و تفكيرهم منهمك للغاية فى تهيئة البيت الأنيق و الملابس الفاخرة و غير ذلك من متع الحياة الدنيا حتّى الموت .. إنّهم أطفال فى سنّ الكهولة، و شيوخ فى روحية الأطفال.

و يذكر سبحانه مثالا لبداية و نهاية الحياة و يجسّد الدنيا أمام أعين الناس بهذه الصورة حيث يقول سبحانه: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶

ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً[۶۵].

«كفّار» هنا ليس بمعنى الأشخاص غير المؤمنين، و لكن بمعنى «الزرّاع» لأنّ أصل الكفر هو التغطية، و بما أنّ الزارع عند ما ينثر البذور يغطّيها بالتراب، فقد قيل له كافر، و يقال أنّ «الكر» جاء بمعنى القبر أحيانا، لأنّه يغطّى جسم الميّت كما ورد فى (سورة الفتح الآية/ ۲۹).

و فى الحديث عن النمو السريع للنبات يقول تعالى: يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ إذ وردت هنا كلمة «الزرّاع» بدلا من الكفّار.

و يحتمل بعض المفسّرين أيضا أنّ المقصود من «الكفّار» هنا هو نفس الكفر باللّه تعالى و ذكروا عدّة توجيهات لهذا، و الظاهر أنّ هذا التّفسير لا يتناسب و سياق الآية، إذ أنّ المؤمن و الكافر شريكان فى هذا التعجّب.

(حطام) من مادّة (حطم) بمعنى التكسير و التفتيت، و يطلق على الأجزاء المتناثرة للتبن (حطام) و هى التى تأخذها الرياح باتّجاهات مختلفة.

إنّ المراحل التى يمرّ بها الإنسان مدّة سبعين سنة أو أكثر تظهر فى النبات بعدّة أشهر، و يستطيع الإنسان أن يسكن بجوار المزرعة و يراقب بداية و نهاية العمر فى وقت قصير.

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى حصيلة العمر و نتيجته النهائية حيث يقول سبحانه: وَ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوانٌ

و أخيرا تنهى الآية حديثها بهذه الجملة: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ.

«غرور» فى الأصل من مادّة (غرّ) على وزن «حرّ» بمعنى الأثر الظاهر للشىء، و يقال (غرّة) للأثر الظاهر فى جبهة الحصان، ثمّ أطلقت الكلمة على حالة الغفلة، حيث أنّ ظاهر الإنسان واع، و لكنّه غافل فى الحقيقة، و تستعمل أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷

بمعنى الخدعة و الحيلة.

«المتاع» بمعنى كلّ نوع و وسيلة يستفاد منها، و بناء على هذا فإنّ جملة (الدنيا متاع الغرور) كما جاءت فى قوله تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ تعنى أنّها وسيلة و أداة للحيلة و الخدعة للفرد و للآخرين.

و طبيعى أنّ هـذا المعنى وارد فى الأشـخاص الـذين يعتبرون الـدنيا هـدفهم النهـائى، و تكون منتهى غاياتهم، و لكن إذا كانت الهبات المادية فى هذا العالم وسيلة للوصول بالإنسان للسعادة الأبدية، فذلك لا يعدّ من الدنيا، بل ستكون جسرا و قنطرة و مزرعة للآخرة التى ستتحقّق فيها تلك الأهداف الكبيرة حقّا.

من البديهى أنّ النظر إلى الدنيا باعتبار أنّها «مقرّ» أو «جسـر» سوف يعطى للإنسان توجّهين مختلفين، الأوّل: يكون سـببا للنزاع و الفساد و التجاوز و الظلم، و الطغيان و الغفلة، و الثانى: وسيلة للوعى و التضحية و الاخوة و الإيثار.

تعقيب

۱- مقام الصدّيقين و الشهداء

وصف القرآن الكريم الأنبياء العظام و أمثالهم بأنّهم (صدّيقون) و من جملتهم إبراهيم عليه السّلام: إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[۶۶].

و وصف إدريس عليه السّلام بنفس الوصف قال تعالى: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا[۶۷].

و حول امّ المسيح السيّدة مريم عليه السّلام نقرأ قوله تعالى: وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ[۶۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸

كمـا جـاء ذكر (الصـدّيقين) على مسـتوى الأنبياء أو من معهم فى بعض الآيات القرآنيـة، كما فى قوله تعالى: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً[۶۹] و كمـا قلنا فإنّ هـذا المصـطلح صـيغة مبالغـة من مـادّة (صـدق) تقال للشـخص الـذى يحيط الصـدق كلّ وجوده، و ينعكس الصـدق فى أفكاره و أقواله و أعماله و كلّ حياته، و هذا يعكس لنا أهميّة مقام الصدق.

أمّـا (الشـهداء) فكما قلنا يمكن أن يقصـد بهم الشـهداء على الأعمال أو بمعنى الشـهداء فى سبيل اللّه، و فى الآيـة مورد البحث يمكن الجمع بين الرأيين.

و من الطبيعى أنّ «الشـهيد» فى الفكر الإسـلامى لا ينحصـر بالشـخص الـذى يقتـل فى ميـدان الجهاد، بالرغم من أنّه أوضـح مصـداق لمفهوم الشهيد، بل ينطبق على كلّ الأشخاص الذين يؤمنون بالعقيدة الإلهيّة و يسيرون فى طريق الحقّ حتّى رحيلهم من الدنيا، و ذلك تماشيا مع الروايات الإسلامية فإنّها تعدّ هؤلاء فى زمرة الشهداء.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «العارف منكم هذا الأمر المنتظر له المحتسب فيه الخير، كمن جاهد و اللّه مع قائم آل محمّد بسيفه. ثمّ قال:

بل و اللّه كمن جاهـد مع رسول بسـيفه. ثمّ قال الثالثـة: بل و اللّه كمن استشـهد مع رسول اللّه فى فسـطاطه، و فيكم آية من كتاب اللّه، قلت: و أى آية جعلت فداك؟

قال: قول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَ الشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ... ثمّ قال: «صرتم و اللّه صادقين شهداء عند ربّكم»[۷۰].

و ننهى هذا الموضوع بحديث: لأمير المؤمنين ۷۱] عند ما كان بعض أصحابه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹

يستعجلون فى أمر الجهاد و نيل الشهادة .. حيث

قـال: «لا تسـتعجلوا مـا لم يعجله اللّه لكم، فـإنّه من مـات منكم على فراشه و هـو على معرفـة حـقّ ربّه و حـقّ رسوله و أهـل بيته مـات

شهيدا»[۷۲].

۲- الحياة الدنيا .. لهو و لعب

يصف القرآن الكريم- أحيانا- الحياة الدنيا بأنّها لهو و لعب، كما فى قوله تعالى: وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ[۷۳].

و يصفها أحيانا باللهو و اللعب و الزينة و التفاخر و التكاثر، كما فى الآيات مورد البحث.

و يصفها أحيانا بأنّها (متاع الغرور) كما فى قوله تعالى وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ[۷۴].

و يصفها أحيانا بأنّها (متاع قليل) كما جاء فى: (الآية ۷۷ من سورة النساء).

و أحيانا يصفها بأنّها عارض ظاهرى سريع الزوال. «النساء»/ ۹۴.

و مجموع هذه التعبيرات و الآيات القرآنية توضّح لنا وجهة نظر الإسلام حول الحياة المادية و نعمها، حيث إنّه يعطيها القيمة المحدودة التى تتناسب مع شأنها، و يعتبر الميل إليها و الانشداد لها ناشئا من توجّه غير هادف (لعب) و (لهو) و تجمّل و (زينة) و حبّ المقام و الرئاسة و الأفضلية على الآخرين (تفاخر) و الحرص و طلب المال و الأولاد بكثرة (التكاثر) و يعتبر التعلّق بها مصدرا للذنوب و الآثام و المظالم.

أمّا إذا تحوّلت النظرة إلى هذه النعم الإلهيّة، و أصبحت سلّما للوصول إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰

الأهداف الإلهيّة، عندئذ تصبح رأسمال يشتريها اللّه من المؤمنين و يعطيهم عوضها جنّة خالدة و سعادة أبديّة، قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...[۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۱

الآيات [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۱) ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۲۲) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (۲۳) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۲۴)

التّفسير

المسابقة المعنوية الكبرى!!

بعد ما بيّنت الآيات السابقة قيمة هذه الدنيا المتواضعة الفانية، و كيف أنّ الناس فيها منهمكون فى اللذات و التكاثر و التفاخر و جمع الأموال ... تأتى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۲

مورد البحث لتدعو الناس إلى العمل للحصول على موقع فى الدار الآخرة، ذلك الموقع المتّسم بالثبات و البقاء و الخلود، و تدعوهم إلى السباق فى هذا المجال و بذل الجهد فيه، حيث يقول سبحانه: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ، وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ

و فى الحقيقة أنّ مغفرة اللّه هى مفتاح الجنّة، تلك الجنّة التى عرضها السماوات و الأرض و قد أعدّت من الآن لضيافة المؤمنين، حتّى لا يقول أحد إنّ الجنّة نسيئة و دين و لا أمل فى النسيئة، فعلى فرض أنّها نسيئة فانّها أقوى من كلّ نقد، لأنّها ضمن وعد اللّه القادر على كلّ شىء و أصدق من كلّ وعد، فكيف الحال و هى موجودة الآن و بصورة نقد؟! و قد ورد نفس هذا المعنى فى سورة آل عمران (الآية رقم ۱۳۳) مع اختلاف بسيط، حيث إنّ فى الآية مورد البحث جاءت كلمة (سابقوا) من مادّة (المسابقة) و هنا لك وردت كلمة (سارعوا) من مادّة (المسارعة)، و كلاهما قريب من الآخر بالنظر إلى مفهوم باب «المفاعلة» حيث تتجسّد غلبة شخصين أحدهما على الآخر.

و الاختلاف الآخر هو أنّها هنا لك قد جاءت بوصف: عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ و هنا جاءت: عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و إذا دقّقنا قليلا يتّضح أنّ هذين التعبيرين يوضّحان حقيقة واحدة أيضا.

و يقول سبحانه هناك: أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ و هنا يقول: أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا.

و لأنّ المتّقين ثمرة شجرة الإيمان الحقيقى، فإنّ هذين التعبيرين فى الواقع كلّ منها لازم و ملزوم للآخر.

و بهذه الصورة فإنّ الإثنين يتحدّثان عن حقيقة واحدة ببيانين مختلفين، و لهذا فما ذكره البعض من أنّ الآية (سورة آل عمران تشير إلى «جنّة المقرّبين»، و آية مورد البحث تشير إلى «جنّة المؤمنين»، صحيح حسب الظاهر.

و على كل حال فالتعبير ب (عرض) هنا ليس فى مقابل (الطول) كما قال بعض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۳

المفسّرين حيث كانوا يبحثون عن طول تلك الجنّة التى عرضها مثل السماء و الأرض، و لهذا السبب فإنّهم واجهوا صعوبة فى توجيه ذلك، حيث إنّ العرض فى مثل هذه الاستعمالات بمعنى «السعة».

و التعبير ب «المغفرة» قبل البشارة بالجنّة- الذى ورد فى الآيتين- هو إشارة لطيفة إلى أنّه ليس من اللائق الدخول إلى الجنّة و القرب من اللّه قبل المغفرة و التطهير.

و ممّا ينبغى ملاحظته أنّ المسارعة لمغفرة اللّه لا بدّ أن تكون عن طريق أسبابها كالتوبة و التعويض عن الطاعات الفائتة، و أساسا فانّ طاعة اللّه عزّ و جلّ يعنى تجنّب المعاصى، و لكنّنا نجد فى بعض الأحاديث تأكيد على القيام بالواجبات و بعض المستحبّات كالتقدّم للصفّ الأوّل فى الجماعة، أو الصفّ الأوّل فى الجهاد، أو تكبيرة الإحرام مع إمام الجماعة، أو الصلاة فى أوّل وقتها، فهذه من قبيل بيان المصداق و لا يقلّل شيئا من المفهوم الواسع للآية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۶۳

يضيف تعالى فى نهاية الآية: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

و من المؤكّد أنّ جنّة بذلك الاتّساع و بهذه النعم، ليس من السهل للإنسان أن يصل إليها بأعماله المحدودة، لذا فإنّ الفضل و اللطف و الرحمة الإلهية- فقط- هى التى تستطيع أن تمنحه ذلك الجزاء العظيم فى مقابل اليسير من أعماله، إذ أنّ الجزاء الإلهى لا يكون دائما بمقياس العمل، بل إنّه بمقياس الكرم الإلهى.

و على كلّ حال فإنّ هذا التعبير يرينا بوضوح أنّ الثواب و الجزاء لا يتناسب مع طبيعة العمل، حيث أنّه نوع من التفضل و الرحمة.

و لمزيد من التأكيد على عدم التعلّق بالدنيا، و عدم الفرح و الغرور عند إقبالها، أو الحزن عند إدبارها، يضيف سبحانه: ما أَصابَ مِنْ

مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۴

أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ[۷۶].

نعم، إنّ المصائب التى تحدث فى الطبيعة كالزلازل و السيول و الفيضانات و الآفات المختلفة، و كذلك المصائب التى تقع على البشر كالموت و أنواع الحوادث المؤلمة التى تشمل الإنسان، فإنّها مقدّرة من قبل و مسجّلة فى لوح محفوظ.

و الجدير بالانتباه أنّ المصائب المشار إليها فى الآية هى المصائب التى لا يمكن التخلّص منها، و ليست ناتجة عن أعمال الإنسان. (بتعبير آخر الحصر هنا حصر إضافى).

و الشاهد فى هذا الكلام قوله تعالى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ[۷۷] و بملاحظة أنّ الآيات يفسّر بعضها البعض الآخر يتبيّن لنا عند ما نضع هاتين الآيتين جنبا إلى جنب أنّ المصائب التى يبتلى بها الإنسان على نوعين:

الأوّل: المصائب التى تكون مجازاة و كفّارة للذنوب، كالظلم و الجور و الخيانة و الانحراف و أمثالها، فإنّها تكون مصدرا للكثير من مصائب الإنسان.

الثانى: من المصائب هو ما لا تكون للإنسان يد فيه، و تكون مقدّرة و حتمية و غير قابلة للاجتناب حيث يبتلى فيها الفرد و المجتمع، لذا فإنّ الكثير من الأنبياء و الأولياء و الصالحين يبتلون بمثل هذه المصائب.

إنّ هذه المصائب لها فلسفة دقيقة حيث أشرنا إليها فى أبحاث معرفة اللّه و العدل الإلهى و مسألة الآفات و البلايا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۵

و نقرأ فى هذا الصدد القصّة التالية: عند ما أدخل الإمام على بن الحسين عليه السّلام مغلولا مكبّلا فى مجلس يزيد بن معاوية، فالتفت يزيد إلى الإمام، و قرأ آية سورة الشورى: ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ و كان يريد أن يظهر أنّ مصائبكم كانت نتيجة أعمالكم، و بهذا أراد الطعن، بالإمام عليه السّلام بهذا الكلام، إلّا أنّ الإمام ردّ عليه فورا و قال: كلّا، ما نزلت هذه فينا، إنّما نزلت فينا: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها[۷۸].

و لنا بحث مفصّل فى هذا المجال فى تفسير الآية رقم ۳۰ من سورة الشورى ۷۹].

أتباع أهل البيت أيضا عرفوا نفس المعنى، فى هذه الآية، إذ نقل أنّ الحجّاج عند ما جىء له بسعيد بن جبير و صمّم على قتله، بكى رجل من الحاضرين. قال سعيد: و ما يبكيك؟ فأجاب: للمصاب الذى حلّ بك، قال: لا تبك فقد كان فى علم اللّه أن يكون ذلك، ألم تسمع قوله تعالى: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها[۸۰].

و من الطبيعى أنّ كلّ الحوادث التى تحدث فى هذا العالم مسجّلة فى لوح محفوظ و فى علم اللّه عزّ و جلّ اللّامحدود، و إذا أشرنا هنا إلى المصائب التى تقع فى الأرض و فى الأنفس فقط، فلأنّ موضوع الحديث بهذا الاتّجاه، كما سنرى فى الآية اللاحقة التى يستنتج منها الموضوع نفسه.

و بالضمن فإنّ جملة: إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ تشير إلى تسجيل و حفظ كلّ هذه الحوادث فى لوح محفوظ مع كثرتها البالغة، و ذلك سهل يسير على اللّه تعالى.

و المقصود من «اللوح المحفوظ» هو: العلم اللامتناهى للّه سبحانه، أو صحيفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۶

عالم الخلقة و نظام العلّة و المعلول، و التى هى مصداق العلم الفعلى للّه سبحانه «فتدبّر».

و لنلاحظ الآن ما هى فلسفة تقدير المصائب فى اللوح المحفوظ، و من ثمّ بيان هذه الحقيقة فى القرآن الكريم؟

الآية اللاحقة تزيح هذا الحجاب عن هذا السرّ المهمّ حيث يقول تعالى:

لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ

هاتان الجملتان القصيرتان تحلّان- فى الحقيقة- إحدى المسائل المعقّدة لفلسفة الخلقة، لأنّ الإنسان يواجه دائما مشاكل و صعوبات و حوادث مؤسفة فى عالم الوجود، و يسأل دائما نفسه هذا السؤال و هو: رغم أنّ اللّه رحمن رحيم و كريم ..، فلما ذا هذه الحوادث المؤلمة؟! و يجيب سبحانه أنّ هدف ذلك هو: ألا تأسركم مغريات هذه الدنيا و تنشدّوا إليها و تغفلوا عن أمر الآخرة .. كما ورد فى الآية أعلاه.

و المطلوب أن تتعاملوا مع هذا المعبر و الجسر الذى اسمه الدنيا بشكل لا تستولى على لباب قلوبكم، و تفقدوا معها شخصيّتكم و كيانكم و تحسبون أنّها خالدة و باقية، حيث إنّ هذا الانشداد هو أكبر عدوّ لسعادتكم الحقيقية، حيث يجعلكم فى غفلة عن ذكر اللّه و يمنعكم من مسيرة التكامل.

هذه المصائب هى إنذار للغافلين و سوط على الأرواح التى تعيش الغفلة و السبات، و دلالة على قصر عمر الدنيا و عدم خلودها و بقائها.

و الحقيقة أنّ المظاهر البرّاقة لدار الغرور تبهر الإنسان و تلهيه بسرعة عن ذكر الحقّ سبحانه، و قد يستيقظ فجأة و يرى أنّ الوقت قد فات و قد تخلّف عن الركب.

هذه الحوادث كانت و لا تزال فى الحياة، و ستبقى بالرغم من التقدّم العلمى العظيم، و لن يستطيع العلم أن يمنع حدوثها و نتائجها المؤلمة، كالزلازل و الطوفان و السيول و الأمطار و ما إلى ذلك .. و هى درس من قسوة الحياة و صرخة مدوّية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۷

فيها ..

و هذا لا يعنى أن يعرض الإنسان عن الهبات الإلهية فى هذا العالم أو يمتنع من الاستفادة منها، و لكن المهمّ ألّا يصبح أسيرا فيها، و ألّا يجعلها هى الهدف و النقطة المركزية فى حياته.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ القرآن الكريم استعمل لفظ (فاتكم) للدلالة على ما فقده الإنسان من أشياء، أمّا ما يخصّ الهبات و النعم التى حصل عليها فإنّه ينسبها للّه، (بما آتاكم)، و حيث أنّ الفوت و الفناء يكمن فى ذات الأشياء، و هذا الوجود هو من الفيض الإلهى.

نعم، إنّ هذه المصائب تكسر حدّة الغرور و التفاخر و حيث يقول سبحانه فى نهاية الآية: إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ.

«مختال» من مادّة (خيال) بمعنى متكبّر، لأنّ التكبّر من التخيّل، أى من تخيّل الإنسان الفضل لنفسه، و تصوّره أنّه أعلى من الآخرين. و (فخور) صيغة مبالغة من مادّة (فخر) بمعنى الشخص الذى يفتخر كثيرا على الآخرين.

و الشخص الوحيد الذى يبتلى بهذه الحالات هو المغرور الذى أسكرته النعم، و هذه المصائب و الآفات بإمكانها أن توقظه عن هذا السكر و الغفلة و تهديه إلى سير التكامل.

و من ملاحظة ما تقدّم أعلاه فإنّ المؤمنين عند ما يرزقون النعم من قبل اللّه سبحانه فإنّهم يعتبرون أنفسهم مؤتمنين عليها، و لا يأسفون على فقدانها و فواتها، و لا يغفلون و يسكرون بوجودها. إذ يعتبرون أنفسهم كالأشخاص المسؤولين عن بيت المال إذ يستلمون فى يوم أموالا كثيرة و يدفعونها فى اليوم الثانى، و عندئذ لا يفرحون باستلامها، و لا يحزنون على إعطائها.

و كم هو تعبير رائع ما

قاله أمير المؤمنين عليه السّلام حول هذه الآية: «الزهد كلّه بين كلمتين فى القرآن الكريم قال تعالى: لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۸

آتاكُمْ و من لم يأس على الماضى و لم يفرح بالآتى فقد أخذ الزهد بطرفيه»[۸۱].

و النقطة الاخرى الجديرة بالملاحظة هى أنّ هذا الأصل- وجود المصائب- فى حياة الإنسان أمر قدّر عليه طبقا لسنّة حكيمة، حيث أنّ الدنيا فى حالة غير مستقرّة، و هذا الأصل يعطى للإنسان الشجاعة لتحمّل المصائب و يمنحه الصلاة و السكينة أمام الحوادث و يكون مانعا له من الجزع و الضجر ..

و نؤكّد مرّة اخرى أنّ هذا يتعلّق- فقط- بالمصائب المقدّرة و الغير قابلة للردّ، و إلّا فإنّ المصائب و المصاعب التى تكون بسبب ذنوب الإنسان و تسامحه فى الطاعات، و الالتزامات الإلهيّة، فإنّها خارجة عن هذا البحث، و لمواجهتها لا بدّ من وضع برنامج صحيح فى حياة الإنسان.

و ننهى هذا البحث بما ذكر فى التاريخ حيث نقل عن بعض المفسّرين ما يلى:

قال: «قتيبة بن سعيد»[۸۲]: دخلت على إحدى قبائل العرب فرأيت صحراء مملوءة بجمال ميّتة لا- تعدّ، و كانت بقربى امرأة عجوز فسألتها: لمن هذه الجمال؟

قالت: لذلك الرجل الجالس فوق التل الذى تراه يغزل، فذهبت إليه و قلت: هل هذا كلّه لك؟ قال: كانت باسمى، قلت: ما الذى جرى و أصبحن بهذا الحال؟

فأجابنى- دون الإشارة إلى علّة موتهنّ- إنّ المعطى قد أخذ. قلت: هل ضجرت لما أصابك؟ و هل قلت شيئا بعد مصابك؟ قال: بلى.

و أنشد هذين البيتين:

لا و الذى أنا عبد من خلائقهو المرء فى الدهر نصب الرزء و المحن

ما سرّنى أنّ إبلى فى مباركهاو ما جرى من قضاء اللّه لم يكن

أنا راض برضى اللّه تعالى فقط و كلّما يقدّر فأنا أقبله ۸۳].

و فى آخر آية مورد البحث نلاحظ توضيحا و تفسيرا لما جاء فى الآيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۹

السابقة، و الذى يوضّح حقيقة الإنسان المختال الفخور حيث يقول عنه تعالى:

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَ يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۸۴].

نعم، إنّ الانشداد العميق لزخارف الدنيا ينتج التكبّر و الغرور، و لازم التكبّر و الغرور هو البخل و دعوة الآخرين للبخل. أمّا البخل فلأنّ التكبّر و الغرور كثيرا ما يكون بسبب ثراء الإنسان الذى يدفعه إلى أن يحرص عليه، و بالتالى يبخل فى إنفاقه، و من هنا فإنّ لازمة الغرور و التكبّر هو البخل.

أمّا دعوة الآخرين إلى البخل، فلأنّ سخاء الآخرين سيفضح غيرهم من البخلاء، هذا أوّلا، و الثانى أنّ البخيل يحبّ البخل، لذا فإنّه يدعو للشىء الذى يرغب فيه.

و لكى لا يتصوّر أنّ تأكيد اللّه سبحانه على الإنفاق و ترك البخل، أو كما عبّرت عنه الآيات السابقة ب (القرض لله) مصدره احتياج ذاته المقدّسة، فإنّه يقول فى نهاية الآية: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

بل نحن كلّنا محتاجون إليه و هو الغنى عنّا جميعا، لأنّ جميع خزائن الوجود عنده و تحت قبضته، و لأنّه جامع لصفات الكمال فإنّه يستحقّ كلّ شكر و ثناء.

و بالرغم من أنّ الآية أعلاه تتحدّث عن البخل المالى. إلّا أنّه لا ينحصر عليه، لأنّ مفهوم البخل واسع يستوعب فى دائرته البخل فى العلم و أداء الحقوق و ما إلى ذلك أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۰

الآية [سورة الحديد (۵۷): آية ۲۵]

اشارة

لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۵)

التّفسير

الهدف الأساس من بعثة الأنبياء:

ابتدأ اللّه سبحانه و تعالى عباده بالنعم فكانت رحمته و لطفه و مغفرته، و نعمه الكثيرة التى لا تحصى و التى أشير إليها فى الآيات السابقة .. و لأنّ هذه النعم تحتاج إلى تقنين فى استعمالها، و نظم و شرائط لنيل نتائجها المرجوّة، لذا فانّه يحتاج إلى قيادة تقوم بمباشرتها و الإشراف عليها و إعطاء التوجيهات الإلهية بشأنها، و هؤلاء القادة يجب أن يكونوا (قادة إلهيين) و الآية مورد البحث- التى تعتبر من أكثر الآيات القرآنية محتوى- تشير إلى هذا المعنى، و تبيّن هدف إرسال الأنبياء و مناهجهم بصورة دقيقة، حيث يقول سبحانه: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۱

وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ.

«البيّنات» هى الدلائل الواضحة، و لها معنى واسع يشمل المعجزات و الدلائل العقليّة التى تسلّح بها الأنبياء و الرسل الإلهيّون.

المقصود من (كتاب) هو نفس الكتب السماوية، و لأنّ روح و حقيقة الجميع شىء واحد، لذا فإنّ التعبير ب (كتاب) جاء بصيغة مفرد.

و أمّا «الميزان» فيعنى وسيلة للوزن و القياس، و مصداقها الحسّى هو الميزان الذى يقاس به وزن البضائع، و من الواضح أنّ المقصود هو المصداق المعنوى، أى الشىء الذى نستطيع أن نقيس به كلّ أعمال الإنسان، و هى الأحكام و القوانين الإلهيّة أو الأفكار و المفاهيم الرّبّانية، أو جميع هذه الأمور التى هى معيار لقياس الأعمال الصالحة و السيّئة.

و بهذه الصورة فإنّ الأنبياء كانوا مسلّحين بثلاث وسائل و هى: «الدلائل الواضحة»، و «الكتب السماوية»، و «معيار قياس الحقّ من الباطل» و الجيّد من الردىء. و لا يوجد مانع من أن يكون القرآن (بيّنة) أى معجزة، و هو كذلك كتاب سماوى و مبيّن للأحكام و القوانين، أى أنّ الأبعاد الثلاثة تصبّ فى محتوى واحد و هى موجودة فى القرآن الكريم.

و على كلّ حال، فإنّ الهدف من تعبئة هؤلاء الرجال العظام بهذه الأسلحة الأساسية، هو إقامة القسط و العدل.

و فى الحقيقة أنّ هذه الآية تشير إلى أحد الأهداف العديدة لإرسال الرسل، لأنّنا نعلم أنّ بعث الأنبياء و سعيهم كان من أجل أهداف عدّة:

منها: التعليم و التربية، كما جاء فى الآية التالية: هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ ...[۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۲

و الهدف الآخر كسر الأغلال و القيود التى أسّرت الإنسان، كما قال تعالى:

وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِى كانَتْ عَلَيْهِمْ ۸۶].

و الهدف الثالث إكمال القيم الأخلاقية، كما

جاء فى الحديث المشهور: «بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق»[۸۷].

و الهدف الرابع إقامة القسط و العدل، الذى أشير إليه فى الآية مورد البحث.

و بهذا الترتيب نستطيع تلخيص بعثة الأنبياء فى الأهداف التالية: (الثقافية، الأخلاقية، السياسية، الاجتماعية).

و من الواضح أنّ المقصود من الرسل فى الآية مورد البحث، و بقرينة إنزال الكتب، هم الأنبياء أولى العزم و من يمثّلهم.

و ممّا يجدر ذكره أنّ المقصود من التعبير القرآنى: لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ أى أن يتحرّك الناس أنفسهم لتحقيق القسط، و ليس المقصود أن يلزم الأنبياء على إقامة القسط، و لهذا يمكن القول بأنّه المراد من الآية و هدفها هو أن يعمل الناس بمفاهيم القسط و يتحرّكوا لتطبيقها.

و المهمّ أن يتربّى الناس على العدل و القسط بحيث يصبحون و أعين له داعين إليه، منفّذين لبرامجه و سائرين فى هذا الاتّجاه بأنفسهم.

ثمّ إنّ أى مجتمع إنسانى مهما كان مستواه الأخلاقى و الاجتماعى و العقائدى و الروحى عاليا، فإنّ ذلك لا يمنع من وجود أشخاص يسلكون طريق العتو و الطغيان، و يقفون فى طريق القسط و العدل، و استمرارا لمنهج الآية هذه يقول سبحانه: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ

نعم، إنّ هذه الأسلحة الثلاثة التى وضعت تحت تصرّف الأنبياء هى بهدف أن تكون الأفكار و المفاهيم التى جاء بها الأنبياء فاعلة و مؤثّرة، و تحقّق أهدافها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۳

المنشودة، فقد وضع الحديد و البأس الشديد فى خدمة رسل اللّه.

و بالرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّ تعبير (أنزلنا) يعكس لنا أنّ الحديد جاء من كرات سماوية إلى الأرض، إلّا أنّ الصحيح أنّ التعبير ب (الإنزال) فى مثل هذه الحالات هو إشارة إلى الهبات التى تعطى من المقام الأعلى إلى المستوى الأدنى، و لأنّ خزائن كلّ شىء عند اللّه تعالى فهو الذى خلق الحديد لمنافع مختلفة، فعبّر عنه بالإنزال، و هنا حديث لأمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسيره لهذا القسم من الآية حيث

قال: «إنزاله ذلك خلقه إيّاه»[۸۸].

كما نقرأ فى الآية (۶) من سورة الزمر حول الحيوانات حيث يقول سبحانه:

وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ

و فسّر البعض (أنزلنا) بأنّها من مادّة (نزل) على وزن (شبر) بمعنى الشىء الذى يهيّأ لاستقبال الضيوف، و لكن الظاهر أنّ المعنى الأوّل هو الأنسب.

«البأس» فى اللغة بمعنى الشدّة و القسوة و القدرة، و يقال للحرب و المبارزة (بأس) أيضا، و لذا فإنّ المفسّرين فسّروها بأنّها الوسائل الحربية، أعمّ من الدفاعية و الهجومية، و

نقل فى رواية عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «يعنى السلاح و غير ذلك»[۸۹].

و الواضح أنّ هذا من قبيل بيان المصداق.

و المقصود من «المنافع» هنا هو كلّ ما يفيد الإنسان من الحديد، و تتبيّن الأهميّة البالغة للحديد فى حياة الإنسان أنّ البشرية قد بدأت عصرا جديدا بعد اكتشافه، سمّى بعصر الحديد، لأنّ هذا الاكتشاف قد غيّر الكثير من معالم الحياة فى أغلب المجالات، و هذا يمثّل أبعاد كلمة (المنافع) فى الآية الكريمة أعلاه.

و قد أشير إلى هذا المعنى بآيات مختلفة فى القرآن، منها قوله تعالى بشأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۴

تصميم ذى القرنين على صنع سدّه العظيم: آتُونِى زُبَرَ الْحَدِيدِ[۹۰].

و كذلك قوله سبحانه: وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ ۹۱] و ذلك عند ما شمل لطفه عزّ و جلّ داود عليه السّلام بتليين الحديد له ليستطيع أن يصنع دروعا منه يقلّل فيها أخطار الحروب و هجمات العدو.

ثمّ يشير سبحانه إلى هدف آخر من أهداف إرسال الأنبياء و إنزال الكتب السماوية، و خلقه و تسخيره الوسائل المفيدة للإنسان كالحديد مثلا، حيث يقول تعالى: وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ بِالْغَيْبِ

المقصود من (علم اللّه) هنا هو التحقّق العينى ليتوضّح من هم الأشخاص الذين يقومون بنصرة اللّه و مبدئه، و يقومون بالقسط؟ و من هم الأشخاص الذين يتخلّفون عن القيام بهذه المسؤولية العظيمة؟

و مفهوم هذه الآية يشبه ما ورد فى قوله تعالى: ما كانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۹۲].

و بهذه الصورة نلاحظ أنّ المسألة هنا مسألة اختبار و تمحيص و استخراج الصفوة التى استجابت لمسؤوليتها و القيام بواجبها الإلهى، و هذا هو هدف آخر من الأهداف الأساسية فى هذا البرنامج.

و من الطبيعى أنّ المقصود ب (نصرة اللّه) أنّها نصرة الدين و المبدأ و الحاملين وحى الرسالة، و إقامة الحقّ و القسط .. و إلّا فإنّ اللّه ليس بحاجة إلى نصرة أحد، بل الكلّ محتاج إليه، و لتأكيد هذا المعنى تنتهى الآية بقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

حيث بإمكانه سبحانه أن يغيّر ما يشاء من العالم، بل يقلبه رأسا على عقب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۵

بإشارة واحدة، و يهلك أعداءه، و ينصر أولياءه .. و بما أنّ الهدف الأساس له سبحانه هو التربية و تكامل البشر، لذا فقد دعاهم عزّ و جلّ إلى نصرة مبدأ الحقّ.

تعقيب

۱- الحدود بين القوّة و المنطق

رسمت الآية أعلاه صورة وافية و مفصّلة من وجهة النظر الإسلامية فى مجال التربية و التعليم، و توسعة دائرة العدل و إقامة القسط فى المجتمع الإنسانى.

ففى البداية أكّدت الآية على ضرورة الاستفادة من الدلائل و البيّنات و الكتب السماوية، و ضوابط القيم، و بيان الأحكام و القوانين .. و ذلك لترسى أساسا لثورة فكرية و ثقافية متينة مرتكزة على قاعدة من العقل و المنطق.

إلّا أنّه فى حالة عدم جدوى تلك الوسائل و الأساليب، و حين الوصول إلى طريق مغلق فى الاستفادة من الأسلوب المتقدّم بسبب تعنّت الطواغيت، و مواجهة الاستكبار لرسل الحقّ و القسط، و الإعراض عن قيم و ضوابط و أحكام (الكتاب و الميزان) .. فهنا يأتى دور «الحديد» الذى فيه «بأس شديد» حين يوجّه صفعة قويّة على رؤوس الجبابرة بهذا السلاح كى يستسلموا للقسط و العدل و دعوة الحقّ التى جاء بها الأنبياء عليهم السّلام، و من الطبيعى أنّ نصرة المؤمنين أساسيّة فى هذا المجال.

و

ورد حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا الصدد حيث قال: «بعثت بالسيف بين يدىّ الساعة، حتّى يعبد اللّه وحده لا شريك له، و جعل رزقى، تحت ظلّ رمحى»[۹۳].

و هذا الحديث إشارة إلى أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مأمور بحمل السلاح أمام الكفر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۶

و الاستكبار، و لكن لا بلحاظ أنّ هذا هو الأصل و الأساس فى المنهج الإسلامى كما جاء ذلك صراحة فى الآية الكريمة أعلاه.

و نقرأ فى حديث آخر

عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «الخير كلّه فى السيف، و تحت السيف، و فى ظلّ السيف»[۹۴].

و

جاء عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال فى هذا الصدد: «إنّ اللّه عزّ و جلّ فرض الجهاد و عظّمه و جعله نصره و ناصره، و اللّه ما صلحت دنيا و لا دين إلّا به»[۹۵].

و نختم حديثنا

بقول آخر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يقيم الناس إلّا بالسيف، و السيوف مقاليد الجنّة و النار»[۹۶].

و بناء على هذا فإنّ القادة الإلهيين يحملون فى يد الكتب السماوية و هى مشعل الحقّ، و باليد الاخرى السيف. يدعون الناس أوّلا بالعقل و المنطق إلى الحقّ و العدل، فإنّ أعرض الطواغيت عن المنطق، و رفض المستكبرون الاستجابة لنهج الحقّ و العقل عندئذ يأتى دور السيف و القوّة لتحقيق أهدافهم الإلهية.

۲- الحديد و احتياجات الحياة الأساسية

بعض المفسّرين شرح هدف الآية أعلاه بما يلى:

إنّ الحياة الإنسانية بصورة عامّة تتقوّم بأربعة مرتكزات (الزراعة، و الحياكة، أى الصناعة،- و السكن، و السلطة)، و لهذا السبب فإنّ الحاجات الأساسية للإنسان باعتباره موجودا اجتماعيا تتركّز ب (الغذاء و السكن و اللباس) و التى لا يستطيع أن يوفّرها لنفسه بصورة فردية، و مسألة تأمينها بشكل عام لا بدّ أن تكون بواسطة المجتمع و لأنّ كلّ مجتمع لا يخلو من تزاحم المصالح، و كذلك العديد من المشاكل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۷

و التعقيدات. لهذا، فإنّه بحاجة إلى (سلطة) تجرى العدل فيه و ترعى الحقوق و تنظّم الحياة ... و الملفت هنا أنّ هذه الاسس الأربعة المتقدّمة الذكر تعتمد جميعها بشكل أساسى على الحديد، و علينا أن نتصوّركم ستكون حياة الإنسان صعبة لو لم يكن هذا المعدن (الحديد) فى خدمتها.

و لأنّ الحاجة إليه ماسّة و متزايدة، فإنّ اللّه سبحانه قد وفّره بحيث سهّل و يسّر عملية الحصول عليه، و بالرغم من عدم إغفال الدور المفيد لكلّ من الفلّزات الاخرى، إلّا أنّ الحديد يبقى له دور أساس فى حياة الإنسان.

و من هنا يتوضّح مقصود قول اللّه عزّ و جلّ: فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَ مَنافِعُ لِلنَّاسِ ۹۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۸

الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۶ الى ۲۷]

اشارة

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۶) ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ (۲۷)

التّفسير

تعاقب الرسل واحدا بعد الآخر:

للقرآن الكريم منهجه المتميّز، و من خصوصياته أنّه بعد بيان سلسلة من الأصول العامّة يشير و يذكّر بمصير الأقوام السابقة، لكى يكون ذلك شاهدا و حجّة.

و هنا أيضا يتجسّد هذا المنهج: حيث يشير فى المقدّمة إلى إرسال الرسل مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۷۹

البيّنات و الكتاب و الميزان و الدعوة إلى الإيمان بالحقّ، لنيل مرضاته سبحانه و الفوز بالسعادة الأبديّة .. ثمّ يتحدّث عن بعض الأمم السابقة و أنبيائهم و يعكس هذه الاسس فى منهج دعوتهم.

و يبدأ بشيوخ الأنبياء و بداية سلسلة رسل الحقّ، نوح و إبراهيم عليهما السّلام، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً وَ إِبْراهِيمَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ

و ممّا يؤسف له أنّ الكثيرين لم يستفيدوا من هذا الميراث العظيم، و النعم الإلهيّة الفيّاضة، و الهبات و الألطاف العميمة، حيث يقول عزّ و جلّ: فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ

نعم، لقد بدأت النبوّة بنوح عليه السّلام توأما مع الشريعة و المبدأ، و من ثمّ إبراهيم عليه السّلام من الأنبياء اولى العزم فى امتداد خطّ الرسالة، و هكذا حلقات متواصلة على مرّ العصور و القرون، فإنّ القادة الإلهيين من ذريّة إبراهيم عليه السّلام يتصدّون للقيام بمسؤولية الرسالة، إلّا أنّ المستفيد من هذا النور الإلهى العظيم هم القلّة أيضا، فى حين أنّ الغالبية سلكت طريق الانحراف.

ثمّ يشير إشارة مختصرة إلى قسم آخر من سلسلة الأنبياء الكرام التى تختتم بعيسى عليه السّلام آخر رسول قبل نبيّنا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول سبحانه: ثُمَّ قَفَّيْنا عَلى آثارِهِمْ بِرُسُلِنا.

حيث حملوا نور الهداية للناس ليضيئوا لهم الطريق، و تعاقبوا فى حملها الواحد بعد الآخر، حتّى وصل الدور إلى السيّد المسيح عليه السّلام: وَ قَفَّيْنا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ

«قفّينا» من (قفا) بمعنى الظهر، و يقال للقافية قافية بسبب أنّ بعضها يتبع بعضا، و تطلق عادة على الحروف المتشابهة فى آخر كلّ بيت من بيوت الشعر، و المقصود فى الجملة من الآية أعلاه أنّ الأنبياء جاءوا بلحن واحد و أهداف منسجمة، الواحد تلو الآخر، و بدأوا و أكملوا التعليمات التى حملوها من اللّه إلى أقوامهم ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۰

و هذا التعبير جميل جدّا، و هو إشارة لطيفة إلى مبدأ وحدة الرسالات و توحيد النبوّة.

ثمّ يشير هنا إلى الكتاب السماوى للسيّد المسيح عليه السّلام حيث يقول: وَ آتَيْناهُ الْإِنْجِيلَ و يستمرّ متحدّثا عن خصوصيات أتباعه فيقول سبحانه: وَ جَعَلْنا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَ رَحْمَةً.

و يرى بعض المفسّرين أنّ مصطلحى «الرأفة» و «الرحمة» بمعنى واحد، إلّا أنّ قسما آخر اعتبرهما مختلفين و قالوا: إنّ «الرأفة» تعنى

الرغبة فى دفع الضرر، و «الرحمة» تعنى الرغبة فى جلب المنفعة.

و لهذا تذكر الرأفة قبل الرحمة غالبا، لأنّ قصد الإنسان ابتداء هو دفع الضرر و من ثمّ يفكّر فى جلب المنفعة.

و ممّا يدلّل به على هذا الرأى ما استفيد من آية حدّ الزانى و الزانية حيث يقول سبحانه: وَ لا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ۹۸].

إنّ موضوع الرأفة و الرحمة بالنسبة للأتباع الحقيقيين للسيّد المسيح عليه السّلام لم يذكر فى هذه الآية فقط، بل ورد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى: وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۹۹] و بالرغم من أنّ الآية الكريمة أخذت بنظر الإعتبار مسيحيى الحبشة و شخص «النجاشى» بالذات، حيث آوى المسلمين و عاملهم بإحسان و محبّة خاصّة، إلّا أنّها بشكل عام تشير إلى الرأفة و الرحمة و العواطف الإيجابية للمسيحيين الحقيقيين.

و من الطبيعى ألّا يكون المقصود هنا المسيحيين الذين يمارسون أقذر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۱

الأعمال و أكثرها إجراما و انحطاطا بحقّ الشعوب المستضعفة، هؤلاء الذين تلبّسوا بلباس الإنسانية، و هم فى الحقيقة ذئاب مفترسة تصبغ حياة المحرومين بلون الدم و الظلام .. ثمّ يضيف سبحانه: وَ رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كَتَبْناها عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغاءَ رِضْوانِ اللَّهِ فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فاسِقُونَ ۱۰۰].

و ممّا تقدّم يتّضح لنا أنّ هؤلاء ليسوا ممّن لم يراعوا مبدأ التوحيد للسيّد المسيح عليه السّلام فقط، بل دنسوه بأنواع الشرك، و لم يراعوا أيضا حتّى حقّ الرهبانية التى ابتدعوها باسم الزهد، حيث وضعوا مكائد فى طريق خلق اللّه، و جعلوا من الأديرة و الكنائس مراكز لأنواع الفساد، و أوجدوا انحرافا خطيرا فى رسالة السيّد المسيح عليه السّلام.

و من مفهوم الآية يتّضح لنا أنّ الرهبانية لم تكن جزءا من رسالة السيّد المسيح عليه السّلام، إلّا أنّ أتباعه هم الذين ابتدعوها من بعده، حيث بدأت بشكل معتدل ثمّ مالت نحو الانحراف.

و طبقا لتفسير آخر فإنّ نوعا من الرهبانية و الزهد كان من مبدأ السيّد المسيح عليه السّلام، إلّا أنّ أتباعه و أصحابه ابتدعوا نوعا آخر من الرهبانية لم يقرّرها اللّه لهم ۱۰۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۲

و التّفسير الأوّل هو الأكثر شهرة، و المناسب أكثر من بعض الجهات.

و على كلّ حال، فالمستفاد من الآية أعلاه إجمالا- هو أنّ الرهبانية لم تكن فى شريعة السيّد المسيح عليه السّلام، و أنّ أصحابه ابتدعوها من بعده، و كان ينظر إليها فى البداية على أنّها نوع من أنواع الزهد و الإبداعات الخيّرة لكثير من السنن الحسنة التى تشيع بين الناس. و لا تتّخذ عنوان التشريع أو الدستور الشرعى، إلّا أنّ هذه السنّة تعرّضت إلى الانحراف- فيما بعد- و تحريف التعاليم الإلهية، بل اقترنت بممارسات قبيحة على مرّ الزمن.

و التعبير القرآنى بجملة: فَما رَعَوْها حَقَّ رِعايَتِها دليل على أنّه لو اعطى حقّها لكانت سنّة حسنة.

و ما ورد فى الآية التالية التى تتحدّث عن الرهبان و القساوسة يتناول هذا المعنى حيث يقول تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا، وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا، الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ۱۰۲] (يرجى ملاحظة ذلك).

و هكذا يتبيّن أنّ كلمة «الرهبانية» كلّما كانت بمعنى الرأفة و الرحمة فإنّها تشكّل دليل إضافيا على صحّة الادّعاء أعلاه، لأنّها ستكون بمعنى مستوى الرأفة و الرحمة التى وضعها اللّه فى قلوبهم بعنوان أنّها صفة حميدة.

و مختصر الكلام هو: إذا وجدت سنّة حسنة بين الناس تكون أصولها الكليّة و خطوطها العريضة فى دائرة المبدأ الحقّ (كالزهد، مثلا، فإنّ ذلك ليس عملا قبيحا، بل يعتبر مصداقا من مصاديق الخطّ العام للمبدأ، خاصّة إذا لم تنسب هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۳

السنّة إلی المبدأ الإلهی .. و لسوء الحظّ فإنّ جملة من الإفراطات و التفریطات وجدت بین ظهرانینا تحت قناع الدین و تحوّلت إلی سنّة سیّئة.

إنّ مراسم الأعیاد و التعازی و الوفیّات الخاصّة بعظماء الإسلام و ما یتعلّق بإحیاء ذکری الشهداء و الأحبّة الراحلین- سواء فی یوم استشهادهم، أو الیوم السابع، أو بعد مرور أربعین یوما من الشهادة أو الوفاة، و کذا ما یتعلّق بذکراهم السنویة- هو مصداق للمفاهیم الکلیّة فی الإسلام حول تعظیم شعائر اللّه تعالی، و إحیاء ذکر قادة الإسلام و عموم شهداء المسلمین، و بغضّ النظر عن الجزئیات و التفاصیل فإنّ هذه المراسم مصداق من الأصل الکلّی فقط، و لا یمکن اعتبارها مبادئ شرعیة.

و کلّما أنجزت هذه المراسم بدون تجاوز للحدود الشرعیة و عدم تدنیسها بالخرافات و الممارسات اللاشرعیّة، فإنّها- من المسلّم- مصداق لابتغاء رضوان اللّه، و مصداق سنّة حسنة، و فی غیر هذه الصورة فإنّها ستکون بدعة الشؤم و السنّة السیّئة.

«الرهبانیة» من مادّة (رهب) مأخوذة من معنی الخوف من اللّه، و یفهم أنّها کانت فی البدایة مصداقا للزهد و عدم الاهتمام بشؤون الدنیا، إلّا أنّها تعرّضت فیما بعد لانحرافات واسعة، و إذا ما لا حظنا موقف الإسلام المناهض و المقاوم للرهبانیة بشدّة فمن هذا الباب و بهذا اللحاظ. کما سنستعرض ذلک فیما یلی:

بحوث

۱- الإسلام و الرهبانیة

ذکرنا أنّ الرهبانیة أخذت من «الرهبة» التی جاءت بمعنی الخوف من اللّه، و کما یقول الراغب فی المفردات، الخوف الذی یکون ممزوجا بالزهد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۴

و الاضطراب و الترهّب یعنی: (التعبّد و العبادة) .. و الرهبانیة بمعنی: (شدّة التعبّد).

و إذا فسّرنا الآیة أعلاه بأی شکل، فإنّها ترینا أنّها کانت نوعا من الرهبانیة الممدوحة بین المسیحیین، بالرغم من أنّها لم تکن أصلا و إلزاما فیما جاء به السیّد المسیح من عند اللّه تعالی، إلّا أنّ أتباع السیّد المسیح علیه السّلام أخرجوا (الرهبانیة) من حدودها و جرّوها إلی الانحراف و التحریف، و لهذا فإنّ الإسلام ندّد فیها بشدّة، حتّی أنّ الکثیر من المصادر الإسلامیة أوردت

الحدیث المعروف: «لا رهبانیة فی الإسلام»[۱۰۳].

و من جملة الممارسات القبیحة للمسیحیین فی مجال الرهبانیة تحریم الزواج للنساء و الرجال بالنسبة لمن یتفرّغ (للرهبنة) و الانزواء الاجتماعی، و إهمال کافّة المسؤولیات الإنسانیة فی المجتمع، و الرکون إلی الصوامع و الأدیرة البعیدة، و العیش فی محیط منزو عن المجتمع .. بالإضافة إلی جملة من المفاسد التی حصلت فی الأدیرة و مراکز الرهبان، کما سنشیر إلی جوانب منها فی هذا البحث إن شاء اللّه.

و بالرغم من أنّ هؤلاء الرجال البعیدین عن الدنیا (الرهبان و الراهبات) قد أدّوا خدمات إیجابیة کثیرة کتمریض المصابین بأمراض خطرة کالجذام و ما شابهه، بالإضافة إلی القیام بالتبلیغ و الإرشاد بین أقوام بدائیة متوحّشة، و قیامهم ببرامج للدراسة و التحقیق .. إلّا أنّ هذه الأمور تعتبر قلیلة الأهمیّة قیاسا إلی المفاسد التی اقترنت معها.

و أساسا فإنّ الإنسان مخلوق اجتماعی، و تکامله المادّی و المعنوی مبتن علی هذا الأساس، و ما جاءت به الأدیان السماویة لا ینفی

دور الإنسان فى المجتمع، بل يحكم قواعده و أسسه بصورة أفضل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۵

إنّ اللّه سبحانه أوجد الغريزة الجنسية فى الإنسان لحفظ النسل، و كلّ مذهب أو قانون يتعارض مع هذه الغريزة فإنّه باطل.

الزهد الإسلامى الذى يعنى البساطة فى الحياة و الابتعاد عن الكماليات، و عدم الوقوع فى أسر المال و الموقع- لا يرتبط أصلا بمسألة الرهبانية، لأنّ الرهبانية تعنى الانفصال و الغربة عن المجتمع، و الزهد يعنى التحرّر من المادّيّات و الترفّع عن المغريات لكى تتمّ المعايشة بصورة اجتماعية أفضل.

و نقرأ فى قصّة «عثمان بن مظعون» فى موت ولده أنّه لم يعد يخرج للعمل حزنا عليه، و انشغل فى العبادة و ترك كلّ عمل سواها و جعل من بيته مسجدا ...

فعند ما وصل خبره للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أحضره و

قال له: «يا عثمان، إنّ اللّه تبارك و تعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنّما رهبانية امّتى الجهاد فى سبيل اللّه»[۱۰۴].

و ذلك إشارة إلى أنّ الإعراض عن الحياة الماديّة و الانزواء الاجتماعى، و تعطيل الأعمال بصورة سلبية، يجب أن يصبّ فى مسير إيجابى، و ذلك بالجهاد فى سبيل اللّه. ثمّ أنّ الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بيّن له بعض فضائل صلاة الجماعة، و التى هى تأكيد على نفى الرهبانية فى الشرع الإسلامى.

و

فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام عند ما سأله أخوه على بن جعفر:

الرجل المسلم هل يصلح أن يسيح فى الأرض أو يترهّب فى بيت لا يخرج منه قال عليه السّلام: «لا».

و توضيح ذلك: إنّ السياحة التى نهى عنها فى هذه الرواية، هى تلك الممارسة التى تكون على مستوى الرهبانية و يمكن أن نطلق عليها (الرهبانية السيّارة) و ذلك أنّ بعض الأفراد قبل أن يوفّروا لأنفسهم المستلزمات الأساسية لحياتهم من سكن أو عمل أو مصدر عيش .. فإنّهم يقومون بالسياحة و التجوّل فى ربوع الدنيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۶

و بدون تهيئة مستلزمات الطريق من الزاد و المال .. بل يعتمدون على أخذ المساعدات من الناس عند كلّ نقطة يصلون إليها، ظانّين أنّ ذلك نوعا من الزهد و ترك الانشغال بالدنيا.

إلّا أنّ الإسلام كما نفى الرهبانية الثابتة، فإنّه قد نفى الرهبانية السّيارة أيضا انسجاما مع التعاليم الإسلامية، فإنّ الزهد و الصلاح مهمّ للإنسان المسلم، شريطة أن يكون فى قلب المجتمع و ليس فى الانزواء و الغربة عنه و البعد منه.

۲- المصدر التأريخى للرهبانية

لم تكن الرهبانية موجودة بشكلها الحالى فى القرون الاولى للتاريخ المسيحى، و قد ظهرت بعد القرن الميلادى الثالث فى حكم الإمبراطور الرومانى (ديسيوس)- و قتاله الشديد لأتباع السيّد المسيح عليه السّلام، و نتيجة لما لحق بهم من الأذى من قبل هذا الإمبراطور المتعطّش للدماء، فإنّهم لجأوا إلى الجبال و الصحارى ۱۰۵].

و جاء هذا المعنى بصورة أدقّ فى الروايات الإسلامية حيث

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال لابن مسعود: «هل تدرى من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟

فقلت: اللّه و رسوله أعلم.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ظهرت علیهم الجبابرة بعد عیسی یعملون بمعاصی اللّه، فغضبت أهل الإیمان فقاتلوهم، فهزم أهل الإیمان ثلاث مرّات، فلم یبق منهم إلّا القلیل، فقالوا: إن ظهرنا لهؤلاء أفنونا و لم یبق للدین أحد یدعو إلیه، فتعالوا نتفرّق فی الأرض إلی أن یبعث اللّه النبی الذی و عدنا به عیسی علیه السّلام (یعنون محمّدا)- فتفرّقوا فی غیران الجبال و أحدثوا رهبانیة، فمنهم من تمسّک بدینه، و منهم من کفر».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۷

ثمّ قال: «أ تدری ما رهبانیة أمّتی؟» قلت: اللّه و رسوله أعلم.

قال: «الهجرة و الجهاد و الصلاة و الصوم و الحجّ و العمرة»[۱۰۶].

و المؤرّخ المسیحی المشهور (ویل دورانت) ینقل فی تأریخه المعروف فی ج ۱۳ بحثا مفصّلا حول الرهبانیة، حیث یعتقد أنّ ارتباط الراهبات (النساء) التارکات للدنیا) بالرهبان بدأ منذ القرن العاشر المیلادی ۱۰۷].

و بدون شکّ فإنّ هذه الظاهرة الاجتماعیة- کما هو شأن کلّ ظاهرة اخری لها أسسا روحیة بالإضافة إلی الاسس التأریخیة، حیث یمکن الإشارة إلی هذه الحقیقة، و هی أنّ مسألة ردّ الفعل الروحی للأشخاص و الأقوام تختلف فیما بینها مقابل الاندحارات و المصاعب التی یواجهوها. حیث یمیل البعض نتیجة لذلک إلی الانزواء و الانشغال بالأمور الشخصیة فقط، و یبعدون أنفسهم بصورة کاملة عن المجتمع و النشاطات الاجتماعیة، فی الوقت الذی یتعلّم آخرون من الانتکاسات و المصاعب دروس الاستقامة و الصلابة و القدرة علی تحدّی المشاکل و مقاومتها.

و من هنا فإنّ القسم الأوّل یلتمس طریق الرهبانیة أو أی سلوک مشابه له، بعکس القسم الثانی الذی یصبح أکثر تماسا بالمجتمع و أقوی فی مواجهة تحدیّاته.

۳- المفاسد الأخلاقیة و الاجتماعیة الناشئة من الرهبانیة

إنّ الانحراف عن قوانین الخلقة غالبا ما یکون مصحوبا بانفعالات سلبیة، و بناء علی هذا فلا عجب فیمن یبتعد عن الحیاة الاجتماعیة التی هی جزء من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۸

فطرته أن یصاب بردود فعل شدیدة، لذلک فإنّ الرهبانیة- لأنّ منهجها خلافا لطبیعة الإنسان و فطرته- فإنّها استبطنت مفاسد کثیرة من جملتها:

أوّلا: أنّ الرهبانیة تتعارض مع طبیعة الإنسان المدنیة و بالتالی فإنّها تؤدّی بالمجتمعات الإنسانیة إلی الانحطاط و التخلّف.

ثانیا: لیست الرهبانیة عائقا عن کمال النفس و تهذیب الروح و الأخلاق فقط، بل تجرّ إلی الانحرافات الأخلاقیة و الکسل و سوء الظنّ و الغرور و العجب و التشاؤم و ما إلی ذلک، و علی فرض أنّ الإنسان استطاع أن یصل إلی فضیلة أخلاقیة فی حالة الانزواء، فإنّها فی الواقع لا تعدّ کذلک، إذ أنّ الفضیلة أن یحرّر الإنسان نفسه من التلوث الأخلاقی فی قلب المجتمع.

ثالثا: إنّ ترک الزواج و الإعراض عنه، و الذی هو من مبادئ الرهبانیة، لیس فقط یعوق عن الکمال، بل هو سبب لظهور العقد و الأمراض النفسیة و ما إلی ذلک.

و نقرأ فی دائرة المعارف أنّ بعض الرهبان کانوا یعتبرون الاهتمام بجنس المرأة عمل شیطانی، لحدّ أنّهم منعوا وجود أنثی أی حیوان فی الدیر خوفا من الروح الشیطانیة لهذه الأنثی التی قد تدنّس روحانیّتهم و تسبّب لها انتکاسة.

و مع هـذه الحالـة فإنّ التأريخ يذكر لنا فضائح عديدة من الأديرة إلى حدّ أن وصـفها (ويل دورانت) بأنّها بيوت للفحشاء و الدعارة، و مراكز لتجمّع عبّاد البطون و طلّاب الدنيا و اللاهين، بحيث أنّ أفضل المشروبات كانت توجد فى الأديرة.

و طبقا لشـهادة التأريخ فإنّ السيّد المسيح عليه السّلام لم يتزوّج أبدا، و هذا لم يكن بسبب موقف له من سنّة الزواج، بل لقصر عمره، و انشـغاله المسـتمر فى مسـئولياته الرسالية التى كانت تسـتدعى منه السـفر و التجوّل و التبليغ فى المناطق النائية فى العالم، و هى التى لم تسمح له بالزواج.

إنّ البحث حول الرهبانية يستحقّ كتابا مستقلا، و إذا أردنا أن نستفيض فى هذا البحث فإنّنا سنخرج عن بحث التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۸۹

و ننهى بحثنـا هـذا بحـديث للإمـام على عليه السّـلام تعقيبـا على المفهوم الـذى طرحته الآيـة التاليـة حيث تقول الآيـة: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً[۱۰۸] فقد

قال عليه السّلام فى تفسيرها: «هم الرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى السوارى»[۱۰۹].

۴- إنجيل أم أناجيل!

«الإنجيل» فى الأصل مصطلح يونانى بمعنى البشارة أو تعليم جديد، و هو اسم الكتاب الذى نزّل على السيّد المسيح عليه السّلام، و جاء هذا المصطلح اثنى عشرة مرّة فى القرآن الكريم، و قد استعمل بهذا المعنى.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ ما يعرف باسم الإنجيل اليوم كتب كثيرة يعبّر عنها بالأناجيل، و المشهور منها أربعة و هى «لوقا» و «مرقس» و «متّى» و «يوحنّا» و يعتقد المسـيحيون أنّ هذه الأناجيل كتبت بواسطة أربعة من أصحاب السيّد المسيح عليه السّلام أو طلّابه، و تأريخ تأليفها يرجع إلى ثمان و ثلاثين سـنة بعـد السيّد المسـيح عليه السّـلام إلى غاية قرن بعده، و بناء على هذا فإنّ الكتاب الأصـلى للسـيّد المسـيح- الـذى هو كتـاب سـماوى مسـتقل- قـد انـدثر، و بقى بعضه فى ذاكرة طلّابه الأربعـة، حيث مزج مع أفكارهم و حرّرت هـذه الأناجيل.

و لدينا بحث مفصّل أكثر فى هذا المجال فى نهاية الآية (۳) من سورة آل عمران.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۰

الآيتان [سورة الحديد (۵۷): الآيات ۲۸ الى ۲۹]

اشارة

يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۸) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۲۹)

سبب النّزول

نقل كثير من المفسّرين أنّ للآيات أعلاه سببا للنزول خلاصته ما يلى:

بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جعفرا فى سبعين راكبا إلى النجاشى يدعوه، فقدم عليه و دعاه فاستجاب له، و آمن به، فلمّا كان عنـد انصـرافه، قال ناس ممّن آمن به من أهل مملكته، و هم أربعون رجلا: ائـذن لنا فنأتى هـذا النبى فنسـلم به، فقدموا مع جعفر،

فلمّا رأوا ما بالمسلمين من الخصاصة، استأذنوا و قالوا: يا نبى اللّه إنّ لنا أموالا و نحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة، فإن أذنت لنا انصرفنا، فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها، فأذن لهم فانصرفوا، فأتوا بأموالهم فواسوا بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۱

المسلمين، فأنزل اللّه تعالى فيهم: الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ إلى قوله تعالى: .. وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ ۱۱۰] فكانت النفقة التى واسوا بها المسلمين.

فلمّا سمع أهل الكتاب ممّن يؤمن به قوله: أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا فخروا على المسلمين فقالوا: يا معشر المسلمين: أمّا من آمن بكتابكم و كتابنا فله أجر كأجوركم فما فضلكم علينا، فنزلت: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ الآية، فجعل لهم أجرين و زادهم النور و المغفرة[۱۱۱].

التّفسير

الذين لهم سهمان من الرحمة الإلهية:

بما أنّ الحديث فى الآيات السابقة كان عن أهل الكتاب و المسيحيين، فإنّ الآيات مورد البحث مكمّلة لما جاء فى الآيات السابقة، يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ

و للمفسّرين رأيان حول طبيعة المخاطب فى هذه الآية:

الأوّل: إنّ المخاطب هم المؤمنون، حيث يبيّن لهم سبحانه أنّ الإيمان الظاهرى غير كاف للفرد، و لا بدّ أن يكون الإيمان عميقا توأما مع التقوى و العمل، كى ينالوا الأجر العظيم و الذى ستتعرّض له الآية الكريمة.

الثانى: إنّ المخاطب هنا هم مؤمنو أهل الكتاب، و يعنى: يا من آمنتم بالأنبياء و الكتب السابقة آمنوا برسول الإسلام، و لتكن تقوى اللّه نصب أعينكم كى يشملكم سبحانه بأنواع أجره و جزائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۲

و الذى يؤيّد الرأى الثانى هو ذكر (الأجر المضاعف) و الذى ورد فى نهاية الآية و المقصود به جزاء الإيمان بالأنبياء السابقين، و جزاء الإيمان برسول الإسلام.

إلّا أنّ هذا التّفسير إضافة إلى أنّه لا يتناسب مع الآية اللاحقة- كما سنوضّح- فإنّه كذلك لا ينسجم مع سبب نزول الآية و طبيعة الإطلاق الذى ورد فيها بقوله:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.

و بناء على هذا فلا بدّ من تبنّى الرأى القائل بأنّ المقصود بالمخاطب هم جميع المؤمنين الذين قبلوا- بالظاهر- دعوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لكنّهم لم يؤمنوا بها الإيمان الراسخ الذى يضىء أعماق النفوس و يتجسّد فى أعمالهم و ممارساتهم.

و تكملة للآية الكريمة يشير القرآن الكريم إلى ثلاث نعم عظيمة تحصل فى ظلّ الإيمان العميق و التقوى حيث يقول تعالى: يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

«كفل» على وزن (طفل) بمعنى الحصّة التى توفّر للإنسان حاجته، و يقال للضامن «كفيل» أيضا بهذا اللحاظ، حيث يكفل الطرف المقابل و يضمنه بنفسه ۱۱۲].

و المقصود من هاتين الحصّتين أو النصيبين هو ما جاء فى قوله تعالى: رَبَّنا آتِنا فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً.

و احتمل أيضا أنّ هذين النصيبين يمكن أن يكون أحدهما الإيمان برسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الآخر الإيمان بالأنبياء السابقين، لأنّ كلّ مسلم ملزم بموجب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۳

اعتقاده أن يؤمن بكلّ الأنبياء السابقين و الكتب السماوية و يحترمها.

و ذكر البعض أنّ المقصود هو الأجر المستمر و المتعاقب و المضاعف.

إلّا أنّ الجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضا.

و حول القسم الثانى من الجزاء و الأجر يقول تعالى: وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بذلك هو نور الإيمان الذى يسبق المؤمنين فى سيرهم يوم القيامة، و يبدّد ظلمات الحشر، حيث يتقدّمون إلى الجنّة و السعادة الأبديّة. كما جاء فى الآية الكريمة: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ يَسْعى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ ۱۱۳].

فى الوقت الذى اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى نور القرآن الذى يشعّ على المؤمنين فى الدنيا، كما جاء فى قوله تعالى: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ ۱۱۴].

إلّا أنّ للآية مفهوما مطلقا واسعا حسب الظاهر و لا يختص بالدنيا فقط و لا بالآخرة فحسب، و بتعبير آخر فإنّ الإيمان و التقوى هى التى تسبّب زوال الحجب عن قلوب المؤمنين، حيث يتبيّن لهم وجه الحقيقة واضحا و بدون حجاب، و فى ظلّ الإيمان و التقوى هذين سيكون للإنسان وعى و بصيرة حرّم غير المؤمنين منها.

جاء فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ المقصود بالنور فى الآية أعلاه هو:

«إمام تأتمون به»،

و هو فى الحقيقة بيان واحد من المصاديق الواضحة[۱۱۵].

و أخيرا فإنّ ثالث جزاء للمؤمنين المتّقين هو (غفران الذنوب) لأنّ بدونه لا يكون للإنسان هناء بأى نعمة من اللّه عليه، حيث يجب أن يكون فى البداية فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۴

مأمن من العذاب الإلهى ثمّ ينتقل إلى المسير فى طريق النور و التقوى لينال الرحمة الإلهية المضاعفة.

و فى الآية اللاحقة- و التى هى آخر آيات هذه السورة- بيان و دليل لما جاء فى الآية الآنفة الذكر حيث يقول تعالى: لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ، وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۱۱۶].

إنّه جواب لهؤلاء الكتابيّين الذين زعم قسم منهم: أنّ لهم أجرا واحدا كبقيّة المسلمين حينما رفضوا الإيمان بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمّا الذين آمنوا بالرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منهم فلهم أجران: أجر الإيمان بالرسل السابقين، و أجر الإيمان بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث يجيبهم القرآن و يردّ عليهم بأنّ المقصود بالآية هم المسلمون.

فهؤلاء هم الذين لهم أجران، لأنّهم آمنوا جميعا برسول اللّه بالإضافة إلى إيمانهم بكلّ الأنبياء السابقين، أمّا أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا برسول اللّه فليس لهم أى نصيب أو سهم من الأجر، ذلك ليعلموا أنّ الرحمة الإلهية ليست فى اختيارهم حتّى يهبوا ما يشاءون منها وفق مشتهياتهم، و يمنعوها عن الآخرين.

و هذه الآية تتضمّن كذلك جوابا لما ورد من ادّعاءات واهية من بعض اليهود و النصارى الذين اعتبروا الجنّة و الرحمة الإلهية منحصرة بهم، ظانّين أنّ غيرهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۵

محروم منها، حيث يقول سبحانه: وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ، قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صادِقِينَ ۱۱۷]

بحث

التقوى و الوعى:

لقد بيّن القرآن الكريم آثارا كثيرة للتقوى، و من جملتها إزالة الحجب عن فكر الإنسان و قلبه.

و قد أشار القرآن الكريم إلى ارتباط «الإيمان و التقوى» مع «البصيرة» منها قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً[۱۱۸] و منها قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۱۱۹] و جاء هذا المعنى صراحة فى الآيات مورد البحث حيث قال تعالى: إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا سيجعل الله لكم نورا على ضوئه تستطيعون السير.

و العلاقة بين هاتين الآيتين- بالإضافة إلى الجوانب المعنوية التى بقيت مجهولة لنا- قابلة للإدراك العقلى أيضا، لأنّ أكبر حاجز عن المعرفة و أهمّ مانع لها هو الحجاب الذى يغطّى قلب الإنسان، و الذى هو هوى النفس و النزعات الذاتية و الأمانى الفارغة، و الآمال البعيدة، و الوقوع فى أسر المادّة و مغريات الدنيا، حيث لا تسمح للإنسان أن يرى الحقائق بصورتها الطبيعية، و بالتالى فإنّ الحكم على الأشياء يكون بعيدا فى منطق العقل و الصواب.

إلّا أنّ استقرار الإيمان و التقوى فى القلوب يبدّد هذه الحجب و يزيل عتمتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۶

و ظلامها عن صفحة القلب، و يجعل الروح الإنسانية تفيض بشمس الحقيقة و تتعرّف على الحقائق بصورتها الناصعة و تشعر باللذّة و النشوة من هذا الإدراك الصحيح و العميق للأشياء، و تتفتّح أمامه السبل السليمة للأهداف المقدّسة التى يسعى نحوها و يتقدّم باتّجاهها.

نعم إنّ التقوى هى التى تعطى للإنسان الوعى و الوضوح، كما أنّ الوعى يعطى للإنسان التقوى، أى أنّ لكلّ من التقوى و الوعى تأثير متبادل بعضهما على البعض الآخر.

و نقرأ هنا

فى حديث معروف يقول: «لو لا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات».

و لإدراك هذا الحديث نصغى لما

قاله الإمام على عليه السّلام: «لا دين مع هوى، لا عقل مع هوى، من اتّبع هواه أعماه و أصمّه، و أذلّه و أضلّه»[۱۲۰].

ربّاه، احفظنا من هوى النفس و تفضّل علينا بالتقوى و البصيرة.

إلهنا، كلّ الفضل و الرحمة بيدك، فلا تحرمنا من فضلك العظيم.

ربّنا، وفّقنا لإقامة الحقّ و العدل و القسط و حراسة حدود الكتاب و الميزان و الوقوف بوجه الظالمين.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة الحديد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۷

بداية الجزء الثامن و العشرون من القرآن الكريم

سورة المجادلة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها اثنان و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۹۹

«سورة المجادلة»

محتوى السورة:

نزلت هـذه السورة فى المدينـة، و انسـجاما مع موضوعات السورة المدنيّـة فإنّها تتحـدّث فى الغالب عن الأحكام الفقهيّة، و نظام الحياة الاجتماعية، و العلاقات بين المسلمين و غيرهم .. و نستطيع أن نلخّص أهمّ أبحاثها فى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: يتحـدّث عن حكم (الظهار) الـذى كان يعتبر نوعا من الطلاق و الانفصال الـدائم، حيث قوّمه الإسـلام و جعله فى الطريق الصحيح.

الثانى: يتحدّث عن مجموعة من التعليمات الخاصّة بآداب المجالسة، و التى منها: «التفسّح» فى المجالس و منع النجوى.

الثالث: يتعرّض إلى بحث واف و مفصّل عن المنافقين، تلك الفئة التى تتظاهر بالإسـلام، إلّا أنّها تتعاون مع أعدائه، و يحذّر المسـلمين المؤمنين من الدخول فى حزب الشيطان و النفاق، و يدعوهم إلى الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه و الالتحاق بحزب اللّه.

و قد سمّيت هذه السورة ب (سورة المجادلة) و ذلك بسبب اللفظة التى وردت فى الآية الاولى منها.

فضيلة تلاوة سورة المجادلة:

لقد نقلت روايتان فى فضيلة تلاوة سورة المجادلة إحداهما عن الرّسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۰

الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الثانية عن الإمام الصادق عليه السّلام.

جاء فى الرواية الاولى: «من قرأ سورة المجادلة كتب من حزب اللّه فى يوم القيامة».

و

جاء فى الرواية الثانية: «من قرأ سورة الحديد و المجادلة فى صـلاة فريضة و أدمنها لم يعذّبه اللّه حتّى يموت أبدا، و لا يرى فى نفسه و لا فى أهله سوءا أبدا، و لا خصاصة فى بدنه».

و حيث أنّ موضوعات هـذه السورة تتناسب مع الجزاء المرتقب من اللّه تعالى، لذلك فإنّ الروايات أعلاه توضّح لنا الهدف من التلاوة من أجل العمل بمحتوياتها، و ليس بتلك التلاوة الخالية من الفكر و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۱

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجادِلُكَ فِى زَوْجِها وَ تَشْتَكِى إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (۱) الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسـائِهِمْ مـا هُنَّ أُمَّهـاتِهِمْ إِنْ أُمَّهـاتُهُمْ إِلاَّـ اللاَّـئِى وَلَـدْنَهُمْ وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُـونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَـوْلِ وَ زُوراً وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُـورٌ (۲) وَ الَّذِينَ

يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۳) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَماسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ (۴)

سبب النّزول

نقل أغلب المفسّرين أنّ للآيات الاولى فى هذه السورة سببا للنزول،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۲

و مضمونها بشكل عامّ واحد، بالرغم من وجود اختلافات فى الجزئيّات، إلّا أنّ هذه الاختلافات لا تؤثّر على ما نحتاجه من البحث التّفسيرى.

و

جاء فى تفسير القمّى: حدّثنا على بن الحسين قال: حدّثنا محمّد بن أبى عبد اللّه، عن الحسن بن محبوب، عن أبى ولّاد، عن حمران، عن أبى جعفر عليه السّلام قال: «إنّ امرأة من المسلمات أتت النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقالت: يا رسول اللّه إنّ فلان زوجى قد نثرت له بطنى و أعنته على دنياه و آخرته، لم ير منّى مكروها أشكوه إليك. قال:

فيم تشكينه؟ قالت: إنّه قال: أنت علىّ حرام كظهر أمّى، و قد أخرجنى من منزلى فانظر فى أمرى. فقال لها رسول اللّه: ما أنزل اللّه تبارك و تعالى كتابا أقضى فيه بينك و بين زوجك، و أنا أكره أن أكون من المتكلّفين، فجعلت تبكى و تشتكى ما بها إلى اللّه عزّ و جلّ و إلى رسول اللّه و انصرفت.

قال: فسمع اللّه تبارك و تعالى مجادلتها لرسول اللّه فى زوجها و ما شكت إليه و أنزل اللّه فى ذلك قرآنا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها- إلى قوله- وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

قال فبعث رسول اللّه إلى المرأة، فأتته فقال لها: جيئى بزوجك، فأتته فقال له:

أ قلت لامرأتك هذه: أنت حرام علىّ كظهر امّى؟ فقال: قد قلت لها ذلك. فقال له رسول اللّه قد أنزل اللّه تبارك و تعالى فيك و فى امرأتك قرآنا و قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها- إلى قوله تعالى- إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ، فضمّ إليك امرأتك فإنّك قد قلت منكرا من القول و زورا، و قد عفى اللّه عنك و غفر لك و لا تعد.

قال: فانصرف الرجل و هو نادم على ما قاله لامرأته، و كره اللّه عزّ و جلّ ذلك للمؤمنين بعد و أنزل اللّه: وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا يعنى ما قال الرجل لامرأته أنت علىّ كظهر أمّى.

قال: فمن قالها بعد ما عفى اللّه و غفر للرجل الأوّل فإنّ عليه «تحرير رقبة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۳

قبل أن يتماسّا- يعنى مجامعتها- ذلكم توعظون به و اللّه بما تعملون خبير فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستّين مسكينا، قال: فجعل اللّه عقوبة من ظاهر بعد النهى هذا. ثمّ قال: «ذلك لتؤمنوا باللّه و رسوله و تلك حدود اللّه» قال: هذا حدّ الظهار»[۱۲۱].

و كما قلنا فإنّ كثيرا من المفسّرين ذكروا لها هذا السبب للنزول، و من جملتهم القرطبى، و روح البيان، و روح المعانى، و الميزان، و الفخر الرازى، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازى و كنز العرفان، و كثير من كتب الحديث و التاريخ مع وجود اختلافات.

التّفسير

الظهار عمل جاهلى قبيح:

بالنظر إلى ما قيل فى سبب النزول، و كذلك طبيعة الموضوعات التى وردت فى السورة، فإنّ الآيات الاولى منها واضحة فى دلالتها حيث يقول سبحانه: قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها.

«تجادل» من المجادلة مأخوذة من مادّة (جدل) و تعنى فى الأصل (فتل الحبل) و لأنّ الجدال بين الطرفين و إصرار كلّ منهما على رأيه فى محاولة لإقناع صاحبه، اطلق على هذا المعنى لفظ (المجادلة).

ثمّ يضيف تعالى: وَ تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما.

«تحاور» من مادّة (حور) على وزن (غور) بمعنى المراجعة فى الحديث أو الفكر، و تطلق كلمة «المحاورة» على بحث بين طرفين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۴

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ نعم إنّ اللّه عالم بكلّ المسموعات و المرئيات، بدون أن يحتاج إلى حواس نظر أو سمع، لأنّه حاضر و ناظر فى كلّ مكان، يرى كلّ شىء و يسمع كلّ حديث.

ثمّ يستعرض تعالى حكم الظهار بجمل مختصرة و حاسمة تقضى بقوّة على هذا المفهوم الخرافى حيث يقول سبحانه: الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ إِنْ أُمَّهاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ

«الامّ» و «الولد» ليس بالشىء الذى تصنعه الألفاظ، بل إنّهما حقيقة واقعية عينية خارجية لا يمكن أن تكون من خلال اللعب بالألفاظ، و بناء على هذا فإذا حدث أن قال الرجل لزوجته مرّة: (أنت علىّ كظهر امّى) فإنّ هذه الكلمة لا تجعل زوجته بحكم والدته، إنّه قول هراء و حديث خرافة.

و يضيف تعالى مكمّلا الآية: وَ إِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَ زُوراً[۱۲۲].

و بالرغم من أنّ قائل هذا الكلام لا يريد بذلك الإخبار، بل إنّ مقصوده إنشائى، يريد أن يجعل هذه الجملة بمنزلة (صيغة الطلاق) إلّا أنّ محتوى ذلك واه، و يشبه بالضبط خرافة (جعل الولد) حين كانوا فى زمن الجاهلية يتبنّون طفلا معيّنا كولد لهم، و يجرون أحكام الولد عليه، حيث أدان القرآن الكريم هذه الظاهرة و اعتبرها عملا باطلا و لا أساس له، حيث يقول عزّ و جلّ: ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ ۱۲۳]، و ليس له أى واقعية.

و تماشيا مع مفهوم هذه الآية فإنّ «الظهار» عمل محرّم و منكر، و مع أنّ التكاليف الإلهية لا تشمل الممارسات السابقة، إلّا أنّها ملزمة لحظة نزول الحكم، و لا بدّ عندئذ من ترتيب الأثر، حيث يضيف اللّه سبحانه هذه الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۵

وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ.

و بناء على هذا فإذا كان المسلم قد ارتكب مثل هذا العمل قبل نزول الآية فلا بأس عليه لأنّ اللّه سيعفو عنه.

و يعتقد بعض الفقهاء و المفسّرين أنّ «الظهار» ذنب مغفور الآن، كما فى الذنوب الصغيرة حيث وعد اللّه بالعفو عنها[۱۲۴]- فى صورة ترك الكبائر- إلّا أنّه لا دليل على هذا الرأى، و الجملة أعلاه لا تقوى أن تكون حجّة فى ذلك.

و على كلّ حال فإنّ مسألة الكفّارة باقية بقوّتها.

و فى الحقيقة أنّ هذا التعبير شبيه لما جاء فى الآية (۵) من سورة الأحزاب، حيث يقول سبحانه: وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً.

و ذلك بعد نهيه عن مسألة التبنّى.

و يثار تساؤل عن الفرق الموجود بين (العفوّ) و (الغفور).

قال البعض: (العفو) إشارة إلى اللّه تعالى (الغفور) إشارة إلى تغطية الذنوب إذ أنّ من الممكن أن يعفو شخص عن ذنب ما، و لكن لا يستره أبدا، غير أنّ اللّه تعالى يعفو و يستر فى نفس الوقت.

و قيل أنّ «الغفران» هو الستر من العذاب، حيث أنّ مفهومها مختلف عن العفو بالرغم من أنّ النتيجة واحدة.

إلّا أنّ مثل هذا العمل القبيح (الظهار) لم يكن شيئا يستطيع الإسلام أن يغضّ النظر عنه، لذلك فقد جعل له كفّارة ثقيلة نسبيّا كى يمنع من تكراره، و ذلك بقوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۶

و قد ذكر المفسّرون احتمالات عديدة فى تفسير جملة: ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا حيث ذكر المقداد- فى كنز العرفان ستّة تفاسير لها، إلّا أنّ الظاهر- خصوصا بالنظر إلى جملة: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا- أنّ هؤلاء قد ندموا لقولهم و أرادوا الرجوع إلى حياتهم العائلية، و قد ذكر هذا المعنى فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا[۱۲۵].

و ذكرت تفاسير اخرى لهذا المقطع من الآية، إلّا أنّها لا تتناسب بصورة تامّة مع معنى الآية و نهايتها. منها أنّ المراد من «العود» هو تكرار الظهار، أو أنّ المقصود من العود هو العودة إلى السنّة الجاهلية فى مثل هذه الأمور، أو أنّ العود بمعنى تدارك و تلافى هذا العمل و ما إلى ذلك ۱۲۶].

«رقبة» جاءت هنا كناية عن الإنسان، و هذا بلحاظ أنّ الرقبة أكثر أعضاء الجسم حسّاسية، كما تأتى كلمة «رأس» بهذا المعنى، لذا فإنّه يقال بدلا من خمسة أشخاص- مثلا- خمسة رؤوس.

ثمّ يضيف تعالى: ذلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ

أى يجب ألّا تتصوّروا أنّ مثل هذه الكفّارة فى مقابل الظهار، كفّارة ثقيلة و غير متناسبة مع الفعل. إنّ المقصود بذلك هو الموعظة و الإيقاظ لنفوسكم، و الكفّارة عامل مهمّ فى وضع حدّ لمثل هذه الأعمال القبيحة و المحرّمة، و من ثمّ السيطرة على أنفسكم و أقوالكم.

و أساسا فإنّ جميع الكفّارات لها جنبة روحية و تربوية، و الكفّارات المالية يكون تأثيرها غالبا أكثر من التعزيرات البدنية.

و لأنّ البعض يحاول أن يتهرّب من إعطاء الكفّارة بأعذار واهية فى موضوع الظهار، يضيف عزّ و جلّ أنّه يعلم بذلك حيث يقول فى نهاية الآية:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۷

وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

إنّه عالم بالظهار، و كذلك عالم بالذين يتهرّبون من الكفّارة، و كذلك بنيّاتكم! و لكن كفّارة تحرير (رقبة) قد لا تتيسّر لجميع من يرتكب هذا الذنب كما لا حظنا ذلك- فى موضوع سبب نزول هذه الآية المباركة، حيث أنّ «أوس بن الصامت»- الذى نزلت الآيات الاولى بسببه- قال لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: إنّى غير قادر على دفع مثل هذه الكفّارة الثقيلة، و إذا فعلت ذلك فقدت جميع ما أملك. و قد يتعذّر وجود المملوك. ليقوم المكلّف بتحرير رقبته حتّى مع قدرته المالية، كما فى عصرنا الحاضر، لهذا كلّه و لأنّ الإسلام دين عالمى خالد فقد عالج هذه المسألة بحكم آخر يعوّض عن تحرير الرقبة، حيث يقول عزّ و جلّ: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا.

و هذا اللون من الكفّارة فى الحقيقة له أثر عميق على الإنسان، حيث أنّ الصوم بالإضافة إلى أنّه وسيلة لتنقية الروح و تهذيب النفس، فإنّ له تأثيرا عميقا و فاعلا فى منع تكرّر مثل هذه الأعمال فى المستقبل.

و من الواضح- كما فى ظاهر الآية- أنّ مدّة الصوم يجب أن تكون ستّين يوما متتابعا، و كثير من فقهاء أهل السنّة أفتوا طبقا لظاهر الآية، إلّا أنّه قد ورد فى روايات أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أنّ المكلّف إذا صام أيّام قلائل حتّى و لو يوما واحدا بعد صوم الشهر

الأوّل، فإنّ مصداق التتابع فى الشهرين يتحقّق، و هذا الرأى حاكم على ظاهر الآية[۱۲۷].

و هـذا يوضّـح لنـا أنّ المقصود من التتـابع فى الآيـة أعلاه و الآيـة (۹۲) من سـورة النسـاء فى موضوع كفّـارة القتـل غير المتعمّـد. أنّ المقصود هو التتابع بصورة إجمالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۸

و طبيعى أنّ مثـل هـذا التّفسـير لا يسـمع إلّا من إمام معصوم، حيث أنّه وارث لعلوم النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و هـذا النوع من الصيام يكون تسهيلا للمكلّفين.

(تراجع الكتب الفقهية فى الصوم و أبواب الظهار و كفّارة القتل، للحصول على شرح أو فى حول هذا الموضوع)[۱۲۸].

و ضـمنا فـإنّ المقصود من جملـة: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ لا ـ يعنى عـدم وجود أصـل المـال لـديه، بـل المقصود منه ألّا يوجـد لـديه فائض على احتياجاته و ضروريات حياته كى يشترى عبدا و يحرّره.

و لأنّ الكثير من الناس غير قادرين على الوفاء بالكفّارة الثانية، و هى صوم الشـهرين المتتابعين، فقد ذكر لذلك بديل آخر حيث يقول سبحانه: فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً.

و الظاهر من الإطعام أن يعطى غـذاء يشـبع الشـخص فى وجبـة طعام، إلّا أنّ الروايات الإسـلامية ذكرت أنّ المقصود بـذلك هو (مـدّ) لإطعام كلّ واحد (و المدّ يعادل ۷۵۰ غم) رغم أنّ بعض الفقهاء قد حدّدها بمدّين أى ما يعادل (۵۰۰، ۱) غم ۱۲۹].

ثمّ يشير تعالى فى تكملة الآية مرّة اخرى إلى الهدف الأساس لمثل هذه الكفّارات: ذلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ

نعم إنّ إزالة الذنوب بوسيلة الكفّارات تقوّى أسس الإيمان، و تربط الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۰۹

بالتعاليم الإلهيّة قولا و عملا.

و فى نهاية الآية يؤكّد سبحانه بصورة قاطعة على الالتزام بأوامره حيث يقول:

وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ أَلِيمٌ

و يجـدر الانتباه إلى أنّ مصـطلح (الكفر) له معانى مختلفـة، منها «الكفر العملى» الذى يعنى المعصـية و اقتراف الذنوب، و قد أريد فى الآية الكريمة هذا المعنى، و كما جاء فى الآية (۹۷) من سورة آل عمران بالنسبة للمتخلّفين عن أداء فريضة الحجّ، حيث يقول سبحانه:

وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ

«حدّ» بمعنى الشـىء الذى يفصل بين شـيئين، و من هنا يقال لحدود البلدان (حدود) و بهذا اللحاظ يقال للقوانين الإلهية إنّها حدود، و ذلك لحرمة تجاوزها، و لدينا شرح أوفى فى هذا المجال فى نهاية الآية (۱۸۷) من سورة البقرة.

ملاحظات

۱- قسم من أحكام الظهار

أشير للظهار بآيتين فى القرآن الكريم (الآية مورد البحث، و الآية رقم (۴) من سورة الأحزاب) و هو من الأعمال و العادات القبيحة فى عصـر الجاهليـة، حيث يمـارس هـذا الفعل فى حالـة سأم و ضـجر الرجل من زوجته، و كى يوقعها فى حرج و يركعها لإرادته يقول لها (أنت علىّ كظهر امّى)[۱۳۰] و كانوا يعتقـدون بعد إطلاق هذه الصـيغة أنّ الزوجة تحرم على زوجها إلى الأبد، و لا تسـتطيع أن تختار زوجا آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۰

لها.

و قد أدان الإسلام هذا التصرّف و شرّع له حکم الکفّارة.

و بناء علی هذا فکلّما جعل الرجل علی زوجته ظهارا فإنّ الزوجة تستطیع أن تراجع الحاکم الشرعی و تلزمه، إمّا أن یطلّقها بصورة شرعیة، أو یرجعها إلی حالتها الزوجیة السابقة، بعد دفعه للکفّارة بالصورة التی مرّت بنا سابقا، و هی إمّا تحریر رقبة فی حالة القدرة، أو صوم شهرین متتابعین فی حالة الاستطاعة، و إلّا فإطعام ستّین مسکینا، و هذا یعنی أنّ خصال الکفّارة لیست مخیّرة، بل مرتّبة.

۲- الظهار من کبائر الذنوب

لحن الآیات أعلاه شاهد معبّر عن هذا المضمون، و البعض یعتبرونه من الصغائر و مورد عفو، إلّا أنّها نظرة خاطئة.

۳- إذا کان الشخص غیر قادر علی أداء الکفّارة بمختلف صورها، فهل یستطیع أن یرجع إلی حیاته الزوجیة السابقة بالتوبة و الاستغفار فقط؟

هنالک وجهات نظر مختلفة بین الفقهاء حول هذه المسألة، فقسم منهم- بالاستناد علی الحدیث المنقول عن الإمام الصادق علیه السّلام ۱۳۱]- یعتقد أنّ التوبة و الاستغفار تکفی فی الکفّارات- عند عدم القدرة- إلّا فی کفّارة الظهار حیث لا تکفی التوبة و تجب الکفّارة.

فی حین یری البعض الآخر أنّ الاستغفار و التوبة تعوضان عن الکفّارة، و دلیلهم هو الروایة الأخری التی نقلت عن الإمام الصادق علیه السّلام فی هذا المجال ۱۳۲].

و یعتقد آخرون بوجوب صوم ثمانیة عشر یوما فی هذه الصورة[۱۳۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۱

و الجمع بین الروایات لا یستبعد أیضا، ففی صورة عدم القدرة بکلّ شکل من الأشکال السابقة، فإنّه یستطیع أن یرجع إلی حیاته الزوجیة مستغفرا اللّه، بالرغم من أنّ المستحبّ فی مثل هذه الحالة أن یطلّق زوجته (لأنّ مثل هذا الجمع جمع معروف و توجد له مظانّ کثیرة فی الفقه، و ذلک بالنظر إلی صحّة سند الحدیثین).

۴- یری الکثیر من الفقهاء أنّ الشخص إذا کرّر الظهار عدّة مرّات (یعنی الجملة السابقة بقصد جدّی) یجب أن یدفع عدّة کفّارات، بالرغم من أنّ التکرار حدث فی جلسة واحدة. إلّا أن یکون مقصوده من التکرار هو التأکید، و لیس الظهار الجدید.

۵- إذا قارب زوجته قبل الکفّارة وجبت علیه کفّارتان، کفّارة للظهار و کفّارة للمواقعة الجنسیة، و هذا الحکم مورد اتّفاق بین الفقهاء، و الآیات أعلاه لم تذکر هذه المسألة، إلّا أنّ روایات أهل البیت علیهم السّلام أشارت إلیها[۱۳۴].

۶- التعامل القاطع الجدّی مع مسألة الظهار، تؤکّد علی حقیقة أنّ الإسلام لا یسمح أبدا أن تهضم حقوق المرأة عن طریق تسلّط الرجال و استبدادهم، و ذلک باستثمار الأعراف و التقالید الظالمة، حیث أنّ السنّة الخاطئة و الخرافیة فی هذا المجال کلّما کانت مستحکمة کان تأثیرها المدمّر أقوی.

۷- بالنسبة لموضوع (تحریر الرقبة) و التی هی أوّل کفّارة للظهار، فبالإضافة إلی کونها إجراء مناسبا للقضاء علی ظاهرة المرأة فی قبضة الاستبداد، فإنّما تمثّل رغبة الإسلام فی القضاء علی العبودیة بکلّ طریق، و ذلک لیس فقط فی کفّارة الظهار بل فی کفّارة القتل الخطأ، و کفّارة عدم صیام شهر رمضان- الإفطار المتعمّد- و کذلک فی کفّارة مخالفة القسم، أو عدم الوفاء بالنذر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۵ الى ۷]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ (۵) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۶) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۷)

التّفسير

أولئک أعداء اللّه:

إذا كانت آخر جملة فى الآيات السابقة تحثّ الجميع بضرورة الالتزام بالحدود الإلهيّة و عدم تجاوزها، فإنّ الآيات مورد البحث لا تتحدّث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۳

الأشخاص الذين تجاوزوا حدود اللّه فحسب، بل عن الذين حاربوا اللّه و رسوله، و توضّح عاقبتهم و مصيرهم فى هذه الدنيا و العالم الآخر كذلك.

يقول سبحانه فى البداية: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

«يحادون» من مادّة (محادة) بمعنى الحرب المسلّحة و الاستفادة من الحديد و قال أيضا للحرب غير المسلّحة.

و قال البعض: إنّ (المحادّة) فى الأصل بمعنى الممانعة من مادّة (حدّ) و التى تجىء بمعنى المانع بين شيئين، و لذلك يقال للحارس (حداد)، و المعنيان من حيث النتيجة متقاربان بالرغم من أنّهما مأخوذان من أصلين مختلفين.

«كبتوا» من مادّة (كبت) على وزن (ثبت) بمعنى المنع بذلّة، و (كبتوا) إشارة إلى أنّ اللّه تعالى يجعل جزاء المحاربين للّه و رسوله الذلّة و الهوان و يمنعهم من لطفه الشامل ۱۳۵].

و هذا التعبير شبيه ما ورد فى الآية (۱۱۴) من سورة البقرة التى تتحدّث عن الأشخاص الذين يمنعون الناس من المساجد و عبادة اللّه سبحانه، و يحاربون مبدأ الحقّ حيث يقول سبحانه: لَهُمْ فِي الدُّنْيا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

أو كما ورد فى الآية (۳۳) من سورة المائدة فى الحديث عن مصير الأشخاص الذين يحاربون اللّه و رسوله و يفسدون فى الأرض حيث يقول: ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ

ثمّ يضيف البارى سبحانه: وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ

و بناء على هذا فقد تمّت الحجّة بشكل كامل، و لم يبق عذر، و حجّة للمخالفة، و مع ذلك فإن خالفوا، فلا بدّ من أن يجازوا، ليس فى هذه الدنيا فحسب، بل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۴

القيامة: وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ

و بهذه الصورة فقد أشير إلى عذابهم الدنيوى فى الجملة السابقة، و فى هذه الجملة إلى العذاب الاخروى، و الشاهد على هذا المعنى

فى الآية الكريمة التالية:

كَما كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كما أنّ الآية اللاحقة تؤكّد هذا المعنى أيضا.

و على كلّ حال فإنّ هذا التهديد الإلهى للأشخاص الذين يقفون بوجه الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و القرآن الكريم قد تحقّق، حيث واجهوا الذلّة و الانكسار فى غزوة بدر و خيبر و الخندق و غير ذلك، و أخيرا فى فتح مكّة حيث كسرت شوكتهم و أحبط كيدهم بانتصار الإسلام فى كلّ مكان.

و الآية اللاحقة تتحدّث عن استعراض زمان وقوع العذاب الاخروى عليهم حيث يقول عزّ و جلّ: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا[۱۳۶] نعم أَحْصاهُ اللَّهُ وَ نَسُوهُ

و لذا فعند ما تقدّم لهم صحيفة أعمالهم يصرخون: ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها[۱۳۷].

و هذا بحدّ ذاته عذاب مؤلم، لأنّ اللّه تعالى يذكّرهم بذنوبهم المنسيّة و يفضحهم فى مشهد الحشر أمام الخلائق.

و فى نهاية الآية يقول البارئ سبحانه: وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

و هذه فى الحقيقة بمثابة الدليل على ما ورد فى الجملة السابقة، فانّ حضور اللّه سبحانه فى كلّ مكان و فى كلّ زمان و فى الداخل و الخارج، يوجب ألّا يحصى أعمالنا- فقط- بل نيّاتنا و عقائدنا، و فى ذلك اليوم الكبير الذى هو «يوم البروز» يعرف كلّ شىء. و لكى يعلم الإنسان السبب فى صعوبة الجزاء الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۵

و لتأكيد حضور اللّه سبحانه فى كلّ مكان و علمه بكلّ شىء ينتقل الحديث إلى مسألة «النجوى» حيث يقول سبحانه: أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ

بالرغم من أنّ المخاطب فى هذه الآية هو الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ المقصود هو عموم الناس ۱۳۸]، و مقدّمة لبيان مسألة النجوى.

ثمّ يضيف تعالى: ما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ، وَ لا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سادِسُهُمْ وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ ما كانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۱۳۹].

نلاحظ هنا عدّة نقاط تستحقّ الانتباه:

۱- «النجوى» و «النجاة» فى الأصل بمعنى المكان المرتفع الذى انفصل عن أطرافه و جوانبه بسبب ارتفاعه، و لأنّ الإنسان إذا أراد التكتم على حديثه يعتزل فى مكان بعيد عن الآخرين، أو بلحاظ أنّ المتحدّث بالنجوى يريد أن ينجى أسراره من الكشف و يبعدها عن تناول أسماع الآخرين.

۲- يرى البعض أنّ «النجوى» يجب أن تكون بين ثلاثة أشخاص أو أكثر، و إذا كانت بين شخصين فيقال لها (سرار) على وزن (ستار) إلّا أنّ هذا خلاف ظاهر الآية، لأنّ الجملة: وَ لا أَدْنى مِنْ ذلِكَ تشير إلى أقلّ من ثلاثة أشخاص- أى شخصين- و من الطبيعى أنّه إذا تناجى شخصان فلا بدّ من أن يكون شخص ثالث قريب منهما، و إلّا فلا ضرورة للنجوى. إلّا أنّ ذلك لا يرتبط بما ذكرنا.

۳- و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هى أنّ الآية أعلاه تحدّثت فى البداية عن نجوى ثلاثة، و من ثمّ عن نجوى خمسة، و لم يرد الكلام عن نجوى أربعة أشخاص و التى هى بين المرتبتين (ثلاثة و خمسة)، و بالرغم من أنّ كلّ ذلك جاء من باب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۶

المثال، إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكروا له وجوها مختلفة، و أنسبها أنّ المقصود بذلك رعاية الفصاحة فى الكلام و عدم التكرار، لأنّه إذا قال تعالى (كلّ ثلاثة أشخاص يتناجون فإنّ اللّه رابعهم، و كلّ أربعة أشخاص يتناجون فإنّ اللّه خامسهم) فإنّ العدد (أربعة) يتكرّر هنا، و هذا بعيد عن البلاغة. و قال البعض: إنّ هذه الآيات نزلت حول مجموعة من المنافقين الذين كان عددهم نفس العدد المذكور.

۴- المقصود من أنّ «اللّه» رابعهم أو سادسهم هو أنّ اللّه عزّ و جلّ موجود حاضر و ناظر فی کلّ مکان و عالم بکلّ شیء، و إلّا فإنّ ذاته المقدّسة لا مکان لها، و لا یوصف بالعدد أبدا، و وحدانیّته أیضا لیست وحدة عدديّة، بل بمعنی أنّه لا شبیه له، و لا نظیر و لا مثیل.

۵- و جدیر بالذکر أنّ الحدیث فی ذیل الآیة یتجاوز النجوی، حیث تؤکّد الآیة أنّ اللّه مع الإنسان فی کلّ مکان، و سوف یطلع الإنسان علی أعماله یوم القیامة .. و تنتهی الآیة بالإحاطة العلمیة للّه سبحانه، کما ابتدأت بالإحاطة العلمیة بالنسبة لکلّ شیء.

۶- نقل بعض المفسّرین أنّ سبب نزول الآیة، ما ورد عن ابن عبّاس أنّه قال:

إنّ الآیة نزلت حول ثلاثة أشخاص، هم (ربیعة و حبیب و صفوان) کانوا یتحدّثون مع بعضهم، و قال أحدهم للآخر: هل یعلم اللّه ما نقول؟ قال الثانی: قسم یعلمه و قسم لا یعلمه. و قال الثالث: إذا کان یعلم قسما منه فإنّه یعلم جمیعه، فنزلت الآیة و أعلنت أنّ اللّه تعالی حاضر فی کلّ نجوی و فی کلّ مکان فی الأرض و فی السماء، کی یتّضح خطأ الغافلین عمی القلوب ۱۴۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۷

بحث

حضور اللّه سبحانه فی کلّ نجوی:

تقدّم آنفا أنّ اللّه تعالی لیس جسما و لیست له عوارض جسمانیة، و من هنا فلا یمکن أن نتصوّر له زمانا أو مکانا، و لکن توهّم أن یوجد مکان لا یکون للّه عزّ و جلّ فیه حاضرا و ناظرا یستلزم القول بتحدیده سبحانه.

و بتعبیر آخر فإنّ للّه سبحانه إحاطة علمیة بکلّ شیء فی الوقت الذی لا یکون له مکان، مضافا إلی أنّ ملائکته حاضرون فی کلّ مکان، و یسمعون کلّ الأقوال و الأعمال و یسجّلونها.

لذا نقرأ

فی حدیث لأمیر المؤمنین علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «إنّما أراد بذلک استیلاء أمنائه بالقدرة التی رکبها فیهم علی جمیع خلقه، و إن فعلهم فعله»[۱۴۱].

و طبیعی أنّ هذا هو بعد من أبعاد الموضوع، و أمّا البعد الآخر فیطرح فیه حضور ذات اللّه عزّ و جلّ، کما نقرأ

فی حدیث آخر هو أنّ أحد کبار علماء النصاری سأل عن أمیر المؤمنین علیه السّلام: أین اللّه؟ قال علیه السّلام: هو هاهنا و هاهنا و فوق و تحت، و محیط بنا و معنا، و هو قوله: ما یَکُونُ مِنْ نَجْوی ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ ۱۴۲].

و

فی الحدیث المعروف (الإهلیلجة) نقرأ عن الإمام الصادق علیه السّلام: إنّ اللّه تعالی سمّی «السمیع» بسبب أنّه لا یتناجی ثلاثة أشخاص إلّا هو رابعهم ... ثمّ أضاف:

یسمع دبیب النمل علی الصفا و خفقان الطیر فی الهواء، لا یخفی علیه خافیة، و لا شیء ممّا تدرکه الأسماع و الأبصار، و ما لا تدرکه الأسماع و الأبصار، ما جلّ من ذلک و ما دقّ و ما صغر و ما کبر[۱۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۸

الآیات [سورة المجادلة (۵۸): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (۸) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (۹) إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۰)

سبب النّزول

نقلت روايتان حول سبب نزول الآية الاولى أعلاه، و كلّ واحدة منهما تخصّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۱۹

قسما من الآية الكريمة.

تقول الرواية الاولى: إنّ الآية نزلت فى اليهود و المنافقين حيث كانوا يتناجون فيما بينهم بمعزل عن المؤمنين، مع الإشارة إليهم بأعينهم غمزا، فلمّا رأى المؤمنون نجواهم ظنّوا أنّ سوءا حصل لإخوانهم فى السرايا فحزنوا لذلك، و بثّوا حزنهم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمرهم الرّسول ألّا يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك و عادوا إلى مناجاتهم فنزلت الآية أعلاه و هدّدتهم بشدّة[۱۴۴].

أمّا الرواية الثانية

فقد نقل فى صحيح مسلم و البخارى و كثير من كتب التّفسير أنّ قسما من اليهود جاءوا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بدلا من قولهم له: السّلام عليكم، قالوا: أسام عليك يا أبا القاسم (و التى تعنى الموت عليك أو الملالة و التعب) فكان ردّ الرّسول عليهم (و عليكم) تقول عائشة: إنّى فهمت مرادهم و قلت: (عليكم السام و لعنكم اللّه و غضب عليكم).

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا عائشة عليك بالرفق و إيّاك العنف و الفحش، فقلت:

ألا تسمعهم يولون السام؟ فقال: و أما سمعت ما أقول عليكم فأنزل اللّه تعالى: إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ ...[۱۴۵].

التّفسير

النجوى من الشيطان:

البحث فى هذه الآيات هو استمرار لأبحاث النجوى السابقة، يقول سبحانه:

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوى ثُمَّ يَعُودُونَ لِما نُهُوا عَنْهُ وَ يَتَناجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ

و يستفاد من هذه الآية بصورة جليّة أنّ المنافقين و اليهود قد نهوا من قبل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۰

و منعوا من النجوى التى تولّد سوء الظنّ عند الآخرين و تسبّب لهم القلق، إلّا أنّهم لم يعيروا أى اهتمام لمثل هذا التحذير، و الأدهى من ذلك أنّ نجواهم كانت تدور حول ارتكاب الذنوب و مخالفة أوامر اللّه و رسوله.

و الفرق بين «الإثم» و «العصيان» و «معصية الرّسول»، هو أنّ «الإثم» يشمل الذنوب التى لها جانب فردى كشرب الخمر، أمّا «العدوان»

فإنّها تعنى التجاوز على حقوق الآخرين، و أمّا «معصية الرّسول» فإنّها ترتبط بالأمور و التعليمات التى تصدر من شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره رئيسا للدولة الإسلامية، و يتصدّى لمصالح المجتمع الإسلامى. و بناء على هذا فإنّهم يطرحون فى نجواهم كلّ عمل مخالف، و هو أعمّ من الأعمال التى تكون مرتبطة بهم أو بالآخرين أو الحكومة الإسلامية و شخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و التعبير ب (يعودون) و (يتناجون) جاء هنا بصيغة مضارع، حيث يوضّح لنا أنّ هذا العمل يتكرّر باستمرار، و قصدهم به إزعاج المؤمنين.

و على كلّ حال، فالآية جاءت بعنوان إخبار غيبى يكشف مخالفاتهم و يظهر خطّهم المنحرف.

و استمرارا لهذا الحديث فإنّ القرآن الكريم يشير إلى مورد آخر من أعمال التجاوز و المخالفة للمنافقين و اليهود، حيث يقول تعالى: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ

«حيّوك» من مادّة (تحية) مأخوذة فى الأصل من الحياة بمعنى الدعاء بالسلام و الحياة الاخرى، و المقصود بالتحية الإلهية فى هذه الآية هو: (السّلام عليكم) أو (سلام اللّه عليك) و التى وردت نماذج منها فى الآيات القرآنية عن الأنبياء و أصحاب الجنّة، و من جملتها قوله تعالى: سَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۱۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۱

و أمّا التحيّة التى لم يحيّ بها اللّه، و لم يكن قد سمح بها هى جملة: (أسام عليك).

و يحتمل أيضا أن تكون التحية المقصودة بالآية الكريمة هى تحيّة الجاهلية حيث كانوا يقولون: (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و ذلك بدون أن يتوجّهوا بكلامهم إلى اللّه سبحانه و يطلبون منه السلامة و الخير للطرف الآخر.

هذا الأمر مع أنّه كان سائدا فى الجاهلية، إلّا أنّ تحريمه غير ثابت، و تفسير الآية أعلاه له بعيد.

ثمّ يضيف تعالى أنّ هؤلاء لم يرتكبوا مثل هذه الذنوب العظيمة فقط بل كانوا مغرورين متعالين و كأنّهم سكارى فيقول عزّ و جلّ: وَ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْ لا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِما نَقُولُ و بهذه الصورة فإنّهم قد أثبتوا عدم إيمانهم بنبوّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذلك عدم إيمانهم بالإحاطة العلمية للّه سبحانه.

و بجملة قصيرة يرد عليهم القرآن الكريم: حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

و الطبيعى أنّ هذا الكلام لا ينفى عذابهم الدنيوى، بل يؤكّد القرآن على أنّه لو لم يكن لهؤلاء سوى عذاب جهنّم، فإنّه سيكفيهم و سيرون جزاء كلّ أعمالهم دفعة واحدة فى نار جهنّم.

و لأنّ النجوى قد تكون بين المؤمنين أحيانا و ذلك للضرورة أو لبعض الميول، لذا فإنّ الآية اللاحقة تخاطب المؤمنين ستكون مناجاتهم فى مأمن من التلوّث بذنوب اليهود و المنافقين حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَناجَيْتُمْ فَلا تَتَناجَوْا بِالْإِثْمِ وَ الْعُدْوانِ وَ مَعْصِيَةِ الرَّسُولِ، وَ تَناجَوْا بِالْبِرِّ وَ التَّقْوى وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

يستفاد من هذا التعبير- بصورة واضحة- أنّ النجوى إذا كانت بين المؤمنين فيجب أن تكون بعيدة عن السوء و ما يثير قلق الآخرين، و لا بدّ أن يكون مسارها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۲

التواصى بالخير و الحسنى، و بهذه الصورة فلا مانع منها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۱۲۲

لكن كلّما كانت النجوى بين أشخاص كاليهود و المنافقين الذين يهدفون إلى إيذاء المؤمنين، فنفس هذا العمل حرام و قبيح، فكيف

الحال إذا كانت نجواهم شيطانية و تآمرية، و لذلك فإنّ القرآن يحذّر منها أشدّ تحذير فى آخر آية مورد للبحث، حيث يقول تعالى: إِنَّمَا النَّجْوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا و لكن يجب أن يعلموا أنّ الشيطان لا يستطيع إلحاق الضرر بأحد إلّا أن يأذن اللّه بذلك وَ لَيْسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

ذلك لأنّ كلّ مؤثّر فى عالم الوجود يكون تأثيره بأمر اللّه حتّى إحراق النار و قطع السيف.

وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ إذ أنّهم- بالروح التوكّلية على اللّه، و بالاعتماد عليه سبحانه- يستطيعون أن ينتصروا على جميع هذه المشاكل، و يفسدوا خطط أتباع الشيطان، و يفشلوا مؤامراته.

بحثان

۱- أنواع النجوى

لهذا العمل من الوجهة الفقهيّة الإسلامية أحكام مختلفة حسب اختلاف الظروف، و يصنّف إلى خمسة حالات تبعا لطبيعة الأحكام الإسلامية فى ذلك.

فتارة يكون هذا العمل «حراما» و فيما لو أدّى إلى أذى الآخرين أو هتك حرمتهم- كما أشير له فى الآيات أعلاه- كالنجوى الشيطانية حيث هدفها إيذاء المؤمنين.

و قد تكون النجوى أحيانا (واجبة) و ذلك فى الموضوعات الواجبة السرّية، حيث أنّ إفشاءها مضرّ و يسبّب الخطر و الأذى، و فى مثل هذه الحالة فإنّ عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۳

العمل بالنجوى يستدعى إضاعة الحقوق و إلحاق خطر بالإسلام و المسلمين.

و تتصف النجوى فى صورة اخرى بالاستحباب، و ذلك فى الأوقات التى يتصدّى فيها الإنسان لأعمال الخير و البرّ و الإحسان، و لا يرغب بالإعلان عنها و إشاعتها و هكذا حكم الكراهة و الإباحة.

و أساسا، فإنّ كلّ حالة لا يوجد فيها هدف مهمّ فالنجوى عمل غير محمود، و مخالف لآداب المجالس، و يعتبر نوعا من اللامبالاة و عدم الاكتراث بالآخرين.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإنّ ذلك يحزنه»[۱۴۷].

كما نقرأ

فى حديث عن أبى سعيد الخدرى أنّه قال: كنّا نتناوب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطرقه أمر أو يأمر بشىء فكثر أهل الثوب المحتسبون ليلة حتّى إذا كنّا نتحدّث فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من الليل فقال: ما هذه النجوى ألم تنهوا عن النجوى»[۱۴۸].

و يستفاد من روايات أخرى أنّ الشيطان- لإيذاء المؤمنين- يستخدم كلّ وسيلة ليس فى موضوع النجوى فقط، بل أحيانا فى عالم النوم حيث يصوّر لهم مشاهد مؤلمة توجب الحزن و الغمّ، و لا بدّ للإنسان المؤمن فى مثل هذه الحالات أن يلتجئ إلى اللّه و يتوكّل عليه، و يبعد عن نفسه هذه الوساوس الشيطانية[۱۴۹].

۲- كيف تكون التحيّة الإلهيّة؟

من المتعارف عليه اجتماعيا فى حالة الدخول إلى المجالس تبادل العبارات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۴

التى تعبّر عن الودّ و الاحترام بين الحاضرين- كلّ منهم للآخر- و يسمّى هذا بالتحيّة، إلّا أنّ المستفاد من الآيات أعلاه أن يكون للتحيّة محتوى إلهى، كما فى بقيّة القواعد الخاصّة بآداب المعاشرة.

ففى التحيّة بالإضافة إلى الاحترام و الإكرام لا بدّ أن تقرن بذكر اللّه فى حالة اللقاء، كما فى (السّلام) الذى تطلب فيه من اللّه السلامة للطرف الآخر.

و قد ورد فى تفسير على بن إبراهيم- فى نهاية الآيات مورد البحث- أنّ مجموعة من أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما كانوا يقدمون عليه يحيّونه بقولهم (أنعم صباحا) و (أنعم مساء) و هذه تحية أهل الجاهلية فأنزل اللّه: وَ إِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ

فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «قد أبدلنا اللّه بخير تحيّة أهل الجنّة السّلام عليكم»[۱۵۰].

كما أنّ من خصوصيات السّلام فى الإسلام أن يكون مقترنا بذكر اللّه تعالى، هذا من جهة، و من جهة اخرى ففى السّلام سلامة كلّ شىء أعمّ من الدين و الإيمان و الجسم و الروح ... و ليس منحصرا بالراحة و الرفاه و الهدوء[۱۵۱].

(و حول حكم التحية و السّلام و آدابها كان لدينا بحث مفصّل فى نهاية الآية (۸۶) فى سورة النساء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۵

الآية [سورة المجادلة (۵۸): آية ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۱۱)

سبب النّزول

نقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان، و الآلوسى فى روح المعانى، و جمع آخر من المفسّرين، أنّ هذه الآية نزلت يوم الجمعة و كان رسول اللّه يومئذ فى (الصفّة) و كان يكرم أهل بدر من المهاجرين و الأنصار، فجاء ناس من أهل بدر.

قد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حيال رسول اللّه فقالوا: السّلام عليك أيّها النبى و رحمة اللّه و بركاته. فردّ النبى عليهم، ثمّ سلّموا على القوم بعد ذلك فردّوا عليهم، فقاموا على أرجلهم ينظرون أن يوسّع لهم، فعرف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما يحملهم على القيام، فشقّ ذلك على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقال لمن حوله من المهاجرين و الأنصار من غير أهل بدر! قم يا فلان، قم يا فلان، فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۶

يديه من المهاجرين و الأنصار- أهل بدر- فشقّ ذلك على من أقيم من مجلسه، و عرف النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الكراهة فى وجوههم، فقال المنافقون: أ لستم تزعمون أنّ صاحبكم هذا يعدل بين الناس؟ و اللّه ما رأيناه قد عدل على هؤلاء! إنّ قوما أخذوا مجالسهم و أحبّوا القرب من نبيّهم، فأقامهم و أجلس من أبطأ عنه .. فبلغنا

أنّ رسول اللّه قال: «رحم اللّه رجلا يفسح لأخيه»

فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا، فيفسح القوم لإخوانهم و نزلت هذه الآية[۱۵۲].

التفسير

احترام أهل السابقة و الإيمان:

تعقيبا على الموضوع الذى جاء فى الرّوايات السابقة حول ترك (النجوى) فى المجالس، يتحدّث القرآن عن أدب آخر من آداب المجالس حيث يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجالِسِ فَافْسَحُوا[۱۵۳] يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ

«تفسّحوا» من مادّة (فسح) على وزن قفل بمعنى المكان الواسع، و بناء على هذا، فإنّ التفسّح بمعنى التوسّع، و هذه واحدة من آداب المجالس، فحين يدخل شخص إلى المجلس فإنّ المرجو من الحاضرين أن يجلسوا بصورة يفسحوا بها مجالا له، كى لا يبقى فى حيرة و خجل، و هذا الأدب أحد عوامل تقوية أواصر المحبّة و الودّ على عكس النجوى التى أشير إليها فى الآيات السابقة، و التى هى أحد عوامل التفرقة و الشحناء، و إثارة الحساسيات و العداوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۷

و الشىء الملاحظ أنّ القرآن الكريم، الذى هو بمثابة دستور لجميع المسلمين لم يهمل حتّى هذه المسائل الجزئية الأخلاقية فى الحياة الاجتماعية للمسلمين، بل أشار إليها بما يناسبها ضمن التعليمات الأساسية، حتّى لا يظنّ المسلمون أنّه يكفيهم الالتزام بالمبادئ الكليّة.

جملة يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ فسّرها بعض المفسّرين بتوسّع المجالس فى الجنّة، و هو ثواب يعطيه اللّه تعالى للأشخاص الذين يراعون هذه الآداب فى عالم الدنيا، و يلتزمون بها، و بلحاظ كون الآية مطلقة و ليس فيها قيد أو شرط فإنّ لها مفهوما واسعا، و تشمل كلّ سعة إلهيّة، سواء كانت فى الجنّة أو فى الدنيا أو فى الروح و الفكر أو فى العمر و الحياة، أو فى المال و الرزق، و لا عجب من فضل اللّه تعالى أن يجازى على هذا العمل الصغير بمثل هذا الأجر الكبير، لأنّ الأجر بقدر كرمه و لطفه لا بقدر أعمالنا.

و بما أنّ المجالس تكون مزدحمة أحيانا بحيث أنّه يتعذّر الدخول إلى المجلس فى حالة عدم التفسّح أو القيام، و إذا وجد مكان فإنّه غير متناسب مع مقام القادمين و استمرارا لهذا البحث يقول تعالى: وَ إِذا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا[۱۵۴] أى إذا قيل لكم قوموا فقوموا.

و لا ينبغى أن تضجروا أو تسأموا من الوقوف، لأنّ القادمين أحيانا يكونون أحوج إلى الجلوس من الجالسين فى المجلس، و ذلك لشدّة التعب أو الكهولة أو للاحترام الخاصّ لهم، و أسباب اخرى.

و هنا يجب أن يؤثّر الحاضرون على أنفسهم و يتقيّدوا بهذا الأدب الإسلامى، كما مرّ بنا فى سبب نزول الآية، حيث كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أمر المجموعة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۸

كانت جالسة بالقرب منه بالتفسّح للقادمين الجدد لأنّهم كانوا من مجاهدى بدر، و أفضل من الآخرين من ناحية العلم و الفضيلة.

كما فسّر بعض المفسّرين (انشزوا) بمعناها المطلق و بمفهوم أوسع، حيث تشمل أيضا القيام للجهاد و الصلاة و أعمال الخير الاخرى، إلّا أنّه من خلال التمعن و التدقيق فى الجملة السابقة لها و التى فيها قيد «فى المجالس»، فالظاهر أنّ هذه الآية مقيّدة بهذا القيد، فيمتنع إطلاقها بسبب وجود القرينة.

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى الجزاء و الأجر الذى يكون من نصيب المؤمنين إذا التزموا بالأمر الإلهى، حيث يقول عزّ و جلّ: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ ۱۵۵].

و ذلك إشارة إلى أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذا أمر البعض بالقيام و إعطاء أماكنهم للقادمين، فإنّه لهدف إلهى مقدّس،

و احتراما للسابقین فی العلم و الإیمان.

و التعبیر ب (درجات) بصورة نکرة و بصیغة الجمع، إشارة إلی الدرجات العظیمة و العالیة التی یعطیها اللّه لمثل هؤلاء الأشخاص، الذین یتمیّزون بالعمل و الإیمان معا، أو فی الحقیقة أنّ الأشخاص الذین یتفسّحون للقادمین لهم درجة، و أولئک الذین یؤثرون و یعطون أماکنهم و یتّصفون بالعلم و التقوی لهم درجات أعلی.

و بما أنّ البعض یؤدّی هذه التعلیمات و یلتزم بهذه الآداب عن طیب نفس و رغبة، و الآخرون یؤدّونها عن کراهیة أو للریاء. و التظاهر .. فیضیف تعالی فی نهایة الآیة: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۲۹

بحثان

۱- مقام العلماء

بالرغم من أنّ الآیة نزلت فی مورد خاصّ، إلّا أنّ لها مفهوما عامّا، و بملاحظة أنّ ما یرفع مقام الإنسان عند اللّه شیئان: الإیمان، و العلم. و بالرغم من أنّ «الشهید» فی الإسلام یتمتع بمقام سام جدّا، إلّا أنّنا نقرأ حدیثا للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یبیّن لنا فیه مقام أهل العلم حیث

قال: «فضل العالم علی الشهید درجة، و فضل الشهید علی العابد درجة .. و فضل العالم علی سائر الناس، کفضلی، علی أدناهم»[۱۵۶].

و

عن الإمام أمیر المؤمنین علیه السّلام نقرأ الحدیث التالی: «من جاءته منیّته و هو یطلب العلم فبینه و بین الأنبیاء درجة»[۱۵۷].

و معلوم أنّ اللیالی المقمرة لها بهاء و نضرة، خصوصا لیلة الرابع عشر من الشهر، حیث یکتمل البدر و یزداد ضوؤه بحیث یؤثّر علی ضوء النجوم .. هذا المعنی الظریف

ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال: «فضل العالم علی العابد کفضل القمر لیلة البدر علی سائر الکواکب»[۱۵۸].

و الطریف هنا أنّ العابد ینجز عبادته التی هی الهدف من خلق الإنسان، و لکن بما أنّ روح العبادة هی المعرفة، لذا فإنّ العالم مفضّل علیه بدرجات.

و ما جاء حول أفضلیة العالم علی العابد فی الروایات أعلاه یقصد منه بیان الفرق الکبیر بین هذین الصنفین، لذا ورد فی حدیث آخر حول الاختلاف بینهما بدلا من درجة واحدة مائة درجة، و المسافة بین درجة و اخری بمقدار عدو الخیل فی سبعین سنة[۱۵۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۰

و واضح أیضا أنّ مقام الشفاعة لا یکون لأی شخص فی یوم القیامة، بل هی مقام المقرّبین فی الحضرة الإلهیة، و لکن نقرأ فی حدیث للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یشفع یوم القیامة ثلاثة: الأنبیاء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء»[۱۶۰].

و فی الحقیقة أنّ الموفّقیة فی طریق التکامل و جلب رضا اللّه و القرب منه مرهون بعاملین أساسین هما: الإیمان و العلم، أو الوعی و التقوی و کلّ منهما ملازم للآخر، و لا تتحقّق الهدایة بأحدهما دون الآخر.

۲- آداب المجلس فی القرآن الکریم

أشار القرآن الكريم مرّات عديدة إلى الآداب الإسلامية فى المجالس ضمن المسائل الأساسية، و منها آداب التحيّة، و الدخول إلى المجلس، و آداب الدعوة إلى الطعام. و آداب التكلّم مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و آداب التفسّح للأشخاص القادمين، خصوصا ذوى الفضيلة و السابقين فى العلم و الإيمان ۱۶۱].

و هذا يرينا بوضوح أنّ القرآن الكريم يرى لكلّ موضوع فى محلّه أهميّة و قيمة خاصّة، و لا يسمح لتساهل الأفراد و عدم اهتمامهم أن تؤدّى إلى الإخلال بالآداب الإنسانية للمعاشرة.

و قد نقلت فى كتب الحديث مئات الروايات عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة الأطهار عليهم السّلام حول آداب المعاشرة مع الآخرين. جمعها المحدّث الكبير الشيخ الحرّ العاملى فى كتابه وسائل الشيعة، ج ۸، حيث رتّبها فى ۱۶۶ بابا.

و ملاحظة الجزئيّات الموجودة فى هذه الروايات ترشدنا إلى مبلغ اهتمام الإسلام بالآداب الاجتماعية. حيث تتناول هذه الروايات حتّى طريقة الجلوس،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۱

و طريقة التكلّم و الابتسامة و المزاح و الإطعام، و طريقة كتابة الرسائل، بل حتّى طريقة النظر إلى الآخرين، و قد حدّدت التعليمات المناسبة لكلّ منها، و الحديث المفصّل عن هذه الروايات يخرجنا عن البحث التّفسيرى، إلّا أنّنا نكتفى بحديث واحد

عن الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام حيث يقول: «ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس، و الاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلامك و حسن سيرتك، و يكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك و بقاء عزّك»[۱۶۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۲

الآيتان [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۲ الى ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲) أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۳)

سبب النّزول

نقل العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان و كذلك جمع آخر من المفسّرين أنّ هذه الآية أنزلت فى الأغنياء، و ذلك أنّهم كانوا يأتون النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيكثرون مناجاته- و هذا العمل بالإضافة إلى أنّه يشغل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يأخذ من وقته فإنّه كان يسبّب عدم ارتياح المستضعفين منه، و حيث يشعرهم بامتياز الأغنياء عليهم- فأمر سبحانه ب (الصدقة) عند المناجاة، فلمّا رأوا ذلك انتهوا عن مناجاته، فنزلت آية الرخصة التى لامت الأغنياء و نسخت حكم الآية الاولى و سمح للجميع بالمناجاة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۳

حيث أنّ النجوى هنا حول عمل الخير و طاعة المعبود[۱۶۳].

و صرّح بعض المفسّرين أيضا أنّ هدف البعض من «النجوى» هو الاستعلاء على الآخرين بهذا الأسلوب. و بالرغم من أنّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان غير مرتاح لهذا الأسلوب، إلّا أنّه لم يمنع منه، حتّى نهاهم القرآن من ذلك ۱۶۴].

التّفسير

الصدقة قبل النجوى (اختبار رائع):

فى قسم من الآيات السابقة كان البحث حول موضوع النجوى، و فى الآيات مورد البحث استمرارا و تكملة لهذا المطلب.

يقول سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ناجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقَةً و كما ذكرنا فى سبب نزول هذه الآيات، فإنّ بعض الناس و خاصّة الأغنياء منهم كانوا يزاحمون الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باستمرار و يتناجون معه ... و لمّا كان هذا العمل يسبّب إزعاجا للرسول بالإضافة إلى كونه هدرا لوقته الثمين، و فيه ما يشعر بالخصوصية لهؤلاء الذين يناجونه بدون مبرّر لذا نزل الحكم أعلاه، و كان امتحانا لهم، و مساعدة للفقراء، و وسيلة مؤثّرة للحدّ من مضايقة هؤلاء لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثمّ يضيف بقوله تعالى: ذلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ أَطْهَرُ.

أمّا كون الصدقة «خير» فإنّها كانت للأغنياء موضع أجر و للفقراء مورد مساعدة، و أمّا كونها (أطهر) فلأنّها تغسل قلوب الأغنياء من حبّ المال، و قلوب الفقراء من الغلّ و الحقد، لأنّه عند ما تكون النجوى مقرونة بالصدقة تكون دائرتها أضيق ممّا كانت عليه فى الحالة المجانية، و بالتالى فإنّها نوع من التصحيح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۴

و التهذيب الفكرى و الاجتماعى للمسلمين.

و لكن لو كان التصدّق قبل النجوى واجبا على الجميع، فإنّ الفقراء عندئذ سيحرمون من طرح المسائل المهمّة كاحتياجاتهم و مشاكلهم أمام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلذا جاء فى ذيل الآية إسقاط هذا الحكم عن المجموعة المستضعفة ممّا مكّنهم من مناجاة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و التحدّث معه فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و بهذه الصورة فإنّ دفع الصدقة قبل النجوى كان واجبا على الأغنياء دون غيرهم.

و الطريف هنا أنّ للحكم أعلاه تأثيرا عجيبا و امتحانا رائعا أفرزه على صعيد الواقع من قبل المسلمين فى ذلك الوقت، حيث امتنع الجميع من إعطاء الصدقة إلّا شخص واحد، ذلك هو الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، و هنا اتّضح ما كان يجب أن يتّضح، و أخذ المسلمون درسا فى ذلك، لذا نزلت الآية اللاحقة و نسخت الحكم حيث يقول سبحانه: أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ

حيث اتّضح أنّ حبّ المال كان فى قلوبكم أحبّ من نجواكم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اتّضح أيضا أنّ هذه النجوى لم تكن تطرح فيها مسائل أساسية، و إلّا فما المانع من أن تقدّم هذه المجموعة صدقة قبل النجوى، خاصّة أنّ الآية لم تحدّد مقدار الصدقة فبإمكانهم دفع مبلغ زهيد من المال لحلّ هذه المشكلة!! ثمّ يضيف تعالى: فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

و يعكس لنا التعبير ب (التوبة) أنّهم فى نجواهم السابقة كانوا قد ارتكبوا ذنوبا، سواء فى التظاهر و الرياء، أو أذى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أذى المؤمنين الفقراء.

و بالرغم من عدم التصريح بجواز النجوى فى هذه الآية بعد هذا الحادث، إلّا أنّ تعبير الآية يوضّح لنا أنّ الحكم السابق قد رفع.

أمّا الدعوة لإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و إطاعة اللّه و رسوله فقد أكّد عليها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۵

بسبب أهميّتها، و كذلك هى إشارة إلى أنّه إذا تناجيتم فيما بعد فيجب أن تكون فى خدمة الأهداف الإسلامية الكبرى و فى طريق

طاعة اللّه و رسوله.

بحوث

۱- الملتزم الوحيد بآية الصدقة قبل النجوى

إنّ الشخص الوحيد الذى نفّذ آية الصدقة فى النجوى- كما فى أغلب كتب مفسّرى الشيعة و أهل السنّة- و عمل بهذه الآية هو الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام، كما

ينقل ذلك الطبرسى فى رواية عنه عليه السّلام أنّه قال: «آية من كتاب اللّه لم يعمل بها أحد قبل و لم يعمل بها أحد بعدى، كان لى دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا جئت إلى النبى تصدّقت بدرهم»[۱۶۵].

كما نقل هذا المضمون «الشوكانى» عن «عبد الرّزاق» و «ابن المنذر» و «ابن أبى حاتم» و «ابن مردويه»[۱۶۶].

و نقل «الفخر الرازى» هذا الحديث أيضا عن بعض المحدّثين عن ابن عبّاس و العامل الوحيد بمضمون الآية هو الإمام على عليه السّلام [۱۶۷].

و جاءت فى الدرّ المنثور- أيضا- روايات متعدّدة بهذا الصدد، فى نهاية تفسير الآيات أعلاه ۱۶۸].

و فى تفسير روح البيان نقل عن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب أنّه قال: «كان لعلى ثلاثة! لو كانت فىّ واحدة منهنّ لكانت أحبّ إلىّ من حمر النعم: تزويجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۶

فاطمة، و إعطاؤه الراية يوم خيبر و آية النجوى»[۱۶۹].

إنّ ثبوت هذه الفضيلة العظيمة للإمام على عليه السّلام قد جاء فى أغلب كتب التّفسير، و هى مشهورة بحيث لا حاجة لشرحها أكثر.

۲- فلسفة تشريع و نسخ حكم الصدقة

لما ذا كانت الصدقة قبل النجوى مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تشريعية؟ ثمّ لما ذا نسخت بعد فترة وجيزة؟

يمكن الإجابة على هذا التساؤل- بصورة جيّدة- من خلال القرائن الموجودة فى الآية محلّ البحث و من سبب النزول كذلك.

الهدف هو اختبار الأفراد المدّعين الذين يتظاهرون بحبّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الوسيلة، فاتّضح أنّ إظهار الحبّ هذا إنّما يكون إذا كانت النجوى مجانية، و لكن عند ما أصبحت النجوى مقترنة بدفع مقدار من المال تركوا نجواهم.

و مضافا إلى ذلك فإنّ هذا الحكم قد ترك تأثيره على المسلمين، و وضّح حقيقة عدم إشغال وقت الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذلك القادة الإسلاميين الكبار فى النجوى، إلّا لضرورات العمل الأساسية، لأنّ ذلك تضييعا للوقت و جلبا لسخط الناس و عدم رضاهم. فكان هذا التشريع فى الحقيقة تقنينا للنجوى المستقبلة.

و بناء على هذا فالحكم المذكور كان فى البداية مؤقتا، و بعد ما تحقّق المطلوب نسخ، لأنّ استمراره سيثير مشكلة، لأنّ هناك بعض المسائل الضرورية التى تستدعى أن يطّلع عليها النبى على انفراد. و مع بقاء حكم الصدقة فقد تهمل بعض المسائل الضرورية، و بصورة عامّة ففى موارد النسخ يكون للحكم منذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۷

البداية جانب محدود و مؤقت بالرغم من أنّ الناس أحيانا لا يعلمون بذلك و يتصوّرونه بصورة دائمة.

۳- هل الالتزام بالصدقة فضيلة؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الإمام على عليه السّلام لم يكن من طائفة الأغنياء من أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث البساطة فى حياته و زهده فى عيشه، و مع هذا الحال و احتراما للحكم الإلهى، تصدّق فى تلك الفترة القصيرة- و لمرّات عديدة، و ناجى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و هذه المسألة واضحة و مسلّمة بين المفسّرين و أصحاب الحديث كما أسلفنا.

إلّا أنّ البعض- مع قبول هذا الموضوع- يصرّون على عدم اعتبار ذلك فضيلة و حجّتهم فى ذلك أنّ كبار الصحابة عند ما أحجموا عن هذا العمل فذلك لأنّهم لم تكن لهم حاجة عند رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو لم يكن لديهم وقت كاف، أو أنّهم كانوا يفكّرون بعدم إحراج الفقراء .. و بناء على هذا فإنّها لا تحسب فضيلة للإمام على، أو أنّها لا تسلب فضيلة من الآخرين ۱۷۰].

و يبدو أنّهم لم يدقّقوا فى متن الآية التالية حيث يقول سبحانه موبّخا:

أَ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْواكُمْ صَدَقاتٍ حتّى أنّه سبحانه يعبّر فى نهاية الآية بالتوبة، و التى ظاهرها دالّ على هذا المعنى، و يتّضح من هذا التعبير أنّ الإقدام على الصدقة و النجوى مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت عملا حسنا، و إلّا فلا ملامة و لا توبة.

و بدون شكّ فإنّ قسما من أصحاب الرّسول المعروفين قبل هذا الحادث كانت لهم نجوى مع الرّسول (لأنّ الأفراد العاديين و البعيدين قلّما احتاجوا إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۸

مناجاة الرّسول).

إلّا أنّ هؤلاء الصحابة المعروفين بعد حكم الصدقة، امتنعوا من النجوى، و الشخص الوحيد الذى احترم و نفّذ هذا الحكم هو الإمام على عليه السّلام.

و إذا قبلنا ظاهر الآيات و الروايات التى نقلت فى هذا المجال و فى الكتب الإسلامية المختلفة و لم نقم أهميّة للاحتمالات الضعيفة الواهية فلا بدّ أن نضمّ صوتنا إلى صوت عبد اللّه بن عمر بن الخطاب الذى جعل هذه الفضيلة بمنزلة تزويج فاطمة، و إعطاء الراية يوم فتح خيبر، و أغلى من حمر النعم.

۴- مدّة الحكم و مقدار الصدقة:

و حول مدّة الحكم بوجوب الصدقة قبل النجوى مع الرّسول توجد أقوال مختلفة، فقد ذكر البعض أنّها ساعة واحدة، و قال آخرون: إنّها ليلة واحدة، و ذكر البعض أنّها عشرة أيّام، إلّا أنّ الأقوى هو القول الثالث، لأنّ الساعة و الليلة لا تكفى أبدا لمثل هذا الامتحان، لأنّ بالإمكان الاعتذار فى هذه المدّة القصيرة عن عدم وجود حاجة للنجوى، إلّا أنّ مدّة عشرة أيّام تستطيع أن توضّح الحقائق و تهيء أرضية للوم المتخلّفين.

أمّا مقدار الصدقة فإنّها لم تذكر فى الآية و لا فى الروايات الإسلامية، و لكن المستفاد من عمل الإمام على عليه السّلام هو كفاية الدرهم الواحد فى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۳۹

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۱۴ الى ۱۹]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۱۴) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۵) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۱۶) لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (۱۷) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ (۱۸)

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ (۱۹)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۰

التّفسير

حزب الشيطان:

هذه الآيات تفضح قسما من تآمر المنافقين و تعرض صفاتهم للمسلمين، و ذكرها بعد آيات النجوى يوضّح لنا أنّ قسما ممّن ناجوا الرّسول كانوا من المنافقين، حيث كانوا بهذا العمل يظهرون قربهم للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يتستّرون على مؤامراتهم، و هذا ما سبّب أن يتعامل القرآن مع هذه الحالة بصورة عامّة.

يقول تعالى فى البداية: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

هؤلاء القوم الذين «غضب اللّه عليهم» كانوا من اليهود ظاهرا كما عرّفتهم الآية (۶۰) من سورة المائدة بهذا العنوان حيث يقول تعالى: قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ ۱۷۱].

ثمّ يضيف تعالى: ما هُمْ مِنْكُمْ وَ لا مِنْهُمْ فهم ليسوا أعوانكم فى المصاعب و المشاكل، و لا أصدقاءكم و ممّن يكنون لكم الودّ و الإخلاص، إنّهم منافقون يغيّرون وجوههم كلّ يوم و يظهرون كلّ لحظة لكم بصورة جديدة.

و طبيعى أنّ هذا التعبير لا يتنافى مع قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۱۷۲]، لأنّ المقصود هناك أنّهم بحكم أعدائكم، بالرغم من أنّهم فى الحقيقة ليسوا منهم.

و يضيف- أيضا- و استمرارا لهذا الحديث أنّ هؤلاء و من أجل إثبات وفاءهم لكم فإنّهم يقسمون بالأيمان المغلّظة: وَ يَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ

و هذه طريقة المنافقين، فيقومون بتغطية أعمالهم المنفّرة و وجوههم القبيحة بواسطة الأيمان الكاذبة و الحلف الباطل، فى الوقت الذى تكون أعمالهم خير كاشف لحقيقتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۱

ثمّ يشير تعالى إلى العذاب المؤلم لهؤلاء المنافقين المصرّين على الباطل و المعاندين للحقّ، حيث يقول تعالى: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً و بدون شك فإنّ هذا العذاب عادل و ذلك: إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

ثمّ للتوضيح الأكثر حول بيان سمات و صفات المنافقين يقول سبحانه:

اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۱۷۳].

يحلفون أنّهم مسلمون و ليس لهم هدف سوى الإصلاح، فى حين أنّهم منهمكون بفسادهم و تخريبهم و مؤامراتهم .. و فى الحقيقة فإنّهم يستفيدون من الاسم المقدّس للّه للصدّ و المنع عن سبيل اللّه تعالى ...

نعم، إنّ الحلف الكاذب هو أحد علائم المنافقين، حيث ذكره سبحانه أيضا فى سورة المنافقين الآية (٢) فى معرض بيان أوصافهم.

و يضيف تعالى فى النهاية: فَلَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ أى مذلّ.

إنّهم أرادوا بحلفهم الكاذب تحسين سمعتهم و تجميل صورتهم، إلّا أنّ اللّه سيبتليهم بعذاب أليم مذلّ، و قبل ذلك عبّر عنه سبحانه بأنّه «عذاب شديد»، كما فى الآية (١٥) من هذه السورة، لأنّهم يحزنون قلوب المؤمنين بشدّة.

و الظاهر أنّ كلا العذابين مرتبط بالآخرة، لأنّهما ذكرا بوصفين مختلفين:

(مهين و شديد) فليس تكرارا، لأنّ وصف العذاب بهذين الوصفين فى القرآن الكريم يأتى عادة لعذاب الآخرة، بالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّ العذاب الأوّل مختّص بالدنيا أو عذاب القبر، و أنّ الثانى مختّص بعذاب الآخرة.

و لأنّ المنافقين يعتمدون فى الغالب على أموالهم و أولادهم و هما (القوّة الاقتصادية و القوّة البشرية) فى تحقيق مآربهم و حلّ مشاكلهم، فإنّ القرآن الكريم يشير إلى هذا المعنى بقوله تعالى: لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ١۴٢

[١٧۴].

و هذه الأموال ستصبح لعنة عليهم و طوقا فى أعناقهم و سببا لعذابهم المؤلم، كما يوضّح اللّه سبحانه و تعالى ذلك فى قوله: سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ[١٧۵].

و كذلك بالنسبة لأولادهم الضالّين فإنّهم سيكونون سببا لعذابهم، و أمّا الصالحون و المؤمنون فيستبرءون منهم.

نعم، فى يوم القيامة لا ملجأ إلّا اللّه، و حينئذ يتجلّى خواء الأسباب الاخرى، كما يتبيّن ذلك فى قوله تعالى: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ ١٧۶] و فى ذيل الآية يهدّدهم و يقول: أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ

و بهذه الصورة فقد وصف القرآن الكريم عذابهم أحيانا بأنّه «شديد»، و أحيانا بأنّه مذلّ و «مهين»، و ثالثة بأنّه «خالد»، و كلّ واحدة من هذه الصفات متناسبة مع طبيعة أعمالهم.

و العجيب أنّ المنافقين لا يتخلّون عن نفاقهم حتّى فى يوم القيامة أيضا، كما يوضّح اللّه سبحانه ذلك فى قوله: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ ١٧٧].

إنّ يوم القيامة يوم تتجلّى فيه الأعمال، و حقيقة الإنسان التى كان عليها فى الدنيا، و لأنّ المنافقين أخذوا هذه الحالة النفسية معهم إلى القبر و البرزخ، فإنّها ستتضح يوم القيامة أيضا، و مع علمهم بأنّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شىء و أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٨، ص: ١۴٣

علّام الغيوب، إلّا أنّهم- انسجاما مع سلوكهم المعهود- فإنّهم يحلفون أمام اللّه حلفا كاذبا.

و طبيعى أنّ هذا لا يتنافى مع اعترافهم و إقرارهم بذنوبهم فى بعض محاضر محكمة العدل الإلهى، لأنّ فى يوم القيامة محطّات و مواقف مختلفة و فى كلّ واحدة منها برنامج.

ثمّ يضيف عزّ و جلّ أنّهم بهذا اليمين الكاذب يظنّون أنّه بإمكانهم كسب منفعة أو دفع ضرر: وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْءٍ.

إنّ هذا التصور الواهى ليس أكثر من خيال، إلّا أنّ تطبّعهم على هذه الأساليب فى الدنيا و تخلّصهم ممّا يحدق بهم من أخطار بواسطة الأيمان الكاذبة و نيل بعض المنافع الدنيوية لأنفسهم، و بذلك فإنّهم يحملون هذه الملكات السيّئة معهم إلى هناك، حيث تفصح عن حقيقتها.

و أخيرا تنتهى الآية بهذه الجملة: أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكاذِبُونَ

و يمكن أن يكون التصريح مرتبطا بالدنيا، أو القيامة، أو كليهما، و بهذه الصورة سيفتضح.

و فى آخر آية مورد البحث يبيّن البارى عزّ و جلّ المصير النهائى للمنافقين العمى القلوب بقوله تعالى: اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فَأَنْساهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ

«استحوذ» من مادّة (حوذ) على وزن (موز) فى الأصل بمعنى الجزء الخلفى لفخذ البعير، و لأنّ أصحاب الإبل عند ما يسوقون جمالهم يضربونها على أفخاذها، فقد جاء هذا المصطلح بمعنى التسلّط أو السوق بسرعة.

نعم، إنّ المنافقين المغرورين بأموالهم و مقامهم، ليس لهم مصير سوى أن يكونوا تحت سيطرة الشيطان و إختياره و وساوسه بصورة تامّة، و ينسون اللّه بصورة كليّة، إنّهم ليسوا منحرفين فحسب، بل إنّهم فى زمرة الشيطان و هم أنصاره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۴

و حزبه و جيشه فى إضلال الآخرين.

يقول الإمام على عليه السّلام فى بداية وقوع الفتن و الخلافات «أيّها الناس، إنّما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، و أحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب اللّه، يتولّى فيها رجال رجالا، فلو أنّ الباطل خلص لم يخف على ذى حجى، و لو أنّ الحقّ خلص لم يكن اختلاف، و لكن يؤخذ من هذا ضغث، و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا، فهنالك استحوذ الشيطان على أوليائه، و نجا الذين سبقت لهم من اللّه الحسنى»[۱۷۸].

كما يلاحظ نفس هذا التعبير

فى كلام الإمام الحسين عليه السّلام عند ما شاهد صفوف أهل الكوفة بكربلاء كالليل المظلم و السيل العارم أمامه، حيث قال: «فنعم الربّ ربّنا و بئس العباد، أنتم أقررتم بالطاعة و آمنتم بالرّسول محمّد ثمّ أنّكم رجعتم إلى ذرّيته و عترته تريدون قتلهم، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر اللّه العظيم ثمّ أضاف عليه السّلام: فتبّا الموت لكم و لما تريدون، إنّا للّه و إنّا إليه راجعون»[۱۷۹].

و سنتطرّق إلى بحث تفصيلى حول حزب الشيطان و حزب اللّه، فى نهاية الآيات اللاحقة إن شاء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۵

الآيات [سورة المجادلة (۵۸): الآيات ۲۰ الى ۲۲]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (۲۰) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (۲۱) لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۲۲)

التّفسير

حزب اللّه .. و النصر الدائم!!

كان الحديث عن المنافقين و أعداء اللّه و بيان بعض صفاتهم و خصائصهم فى الآيات السابقة، و استمرارا لنفس البحث- فى هذه الآيات التى هى آخر آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۶

سورة المجادلة- تطرح خصوصيات اخرى لهم، و يتّضح المصير الحتمى لهم حيث الموت و الاندحار، يقول تعالى فى البداية: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ أى أذلّ الخلائق ۱۸۰].

و الآية اللاحقة فى الحقيقة دليل على هذا المعنى حيث يقول سبحانه: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ.

و بنفس القدر الذى يكون فيه اللّه قويّا عزيزا فإنّ أعداءه يكونون ضعفاء أذلّاء، و هذا بنفسه بمثابة الدليل على ما ورد فى الآية السابقة من وصف الأعداء بأنّهم فِي الْأَذَلِّينَ

و التعبير ب (كتب) يعنى التأكيد على أنّ الإنتصار قطعى.

و جملة «لأغلبنّ» مع (لام التأكيد) و (نون التوكيد الثقيلة)، هى دلالة تأكيد هذا النصر بصورة لا يكون معه أى مجال للشكّ و الريبة.

و هذا التشبيه هو نفس الذى ورد فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ، وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ ۱۸۱].

و لقد اتّضح على مرّ العصور هذا الإنتصار للمرسلين الإلهيين فى أوجه مختلفة، سواء فى أنواع العذاب الذى أصاب أعداءهم و صوره المختلفة كطوفان نوح و صاعقة عاد و ثمود و الزلازل المدمّرة لقوم لوط و ما إلى ذلك، و كذلك فى الانتصارات فى الحروب المختلفة كغزوات بدر و حنين و فتح مكّة، و سائر غزوات رسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و أهمّ من ذلك كلّه انتصارهم الفكرى و المنطقى على أفكار الشيطان و أعداء الحقّ و العدالة، و من هنا يتّضح الجواب على تساؤل من يقول: إذا كانت هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۷

الوعود قطعيّة فلما ذا استشهد الكثير من الرسل الإلهيين و الأئمّة المعصومين و المؤمنين الحقيقيين دون تحقيق النصر؟

هؤلاء المنتقدين و المتسائين لم يشخّصوا فى الحقيقة معنى الإنتصار بصورة صحيحة، فمثلا هل يمكن أن نتصوّر أنّ الإمام الحسين عليه السّلام قد اندحر لأنّه استشهد فى كربلاء هو و أصحابه، فى حين نعلم جيّدا بأنّه عليه السّلام قد حقّق هدفه النهائى فى فضح بنى اميّة، و بنى صرح العقيدة و الحرية، و أعطى الدروس لكلّ أحرار العالم، و إنّه يعتبر الآن زعيم أحرار عالم الإنسانية و سيّد شهداء الدنيا، بالإضافة إلى انتصار خطّه الفكرى و منهجه بين أوساط مجموعة عظيمة من الناس؟[۱۸۲].

و الجدير بالذكر أنّ هذا الإنتصار القطعى ثابت وفقا للوعد الإلهى بالنصر للسائرين على خطّ الأنبياء و الرسالة، و هذا يعنى انتصار مضمون و أكيد من قبل اللّه تعالى، كما فى قوله عزّ و جلّ: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ[۱۸۳].

و من الطبيعى أنّ كلّ من يطلب العون من اللّه فإنّ اللّه سوف ينصره، إلّا أنّه يجب ألّا ننسى أنّ هذا الوعد الحقيقى للّه سبحانه لن يكون بدون قيد أو شرط، حيث أنّ شرطه الإيمان و آثاره، شرطه ألّا يجد الضعف طريقه إلى نفوسنا، و لا نخاف و لا نحزن من المصائب، و نجسّد قوله تعالى: وَ لا تَهِنُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۱۸۴].

و الشرط الآخر أن نبدأ التغيير من داخل نفوسنا، لأنّ اللّه تعالى لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم قال تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۸

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ۱۸۵].

كما يجب أن نوثّق علاقتنا بالسلسلة المرتبطة بالخطّ الإلهى و نوحّد صفوفنا، و نجنّد قوانا و نخلص نيّاتنا، و نكون مطمئنّين بأنّ كلّما كان العدو قويّا، و كنّا قليلى العدّة و العدد .. فإنّنا سننتصر بالجهاد و السعى و التوكّل على اللّه تعالى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ سبب نزول الآية أعلاه أنّ قسما من المسلمين تنبّأوا أنّ اللّه سيفتح لهم أرض الروم و فارس، بعد ما شاهدوا بعض قرى الحجاز، إلّا أنّ المنافقين و المرجفين قالوا لهم: أ تتصوّرون أنّ فارس و الروم كقرى الحجاز، و أنّ بإمكانهم فتحها، عند

ذلك نزلت الآية أعلاه و وعدتهم بالنصر.

آخر آيـة مورد البحث- و التى هى آخر آية من سورة المجادلة- تعدّ من أقوى الآيات القرآنية التى تحذّر المؤمنين من إمكانية الجمع بين حبّ اللّه و حبّ أعدائه، إذ لا بدّ من إختيار طريق واحد لا غير، و إذا ما كانوا حقّا مؤمنين صادقين فعليهم اجتناب حبّ أعداء اللّه، يقول تعالى: لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ نعم، لا- يجتمع حبّان متضادّان فى قلب واحد، و الذين يدّعون إمكانية الجمع بين الإثنين، فإنّهم إمّا ضعفاء الإيمان أو منافقون، و لذلك نلاحظ فى الغزوات الإسلامية أنّ جمعا من أقرباء المسلمين كانوا فى صفّ المخالفين و الأعداء، و مع ذلك قاتلهم المسلمون حتّى قتلوا قسما منهم.

إنّ حبّ الآباء و الأبناء و الاخوان و العشيرة شىء ممدوح، و دليل على عمق العواطف الإنسانية، إلّا أنّ هذه المحبّة حينما تكون بعيدة عن حبّ اللّه فإنّها ستفقد خاصيّتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۴۹

و طبيعى أنّ من يتعلّق بهم الإنسان ليس مختصا بالأقسام الأربعة التى استعرضتها الآية الكريمة، و لكن هؤلاء أقرب عاطفيا من غيرهم للإنسان، و بملاحظة الموقف من هؤلاء سيتّضح الموقف من الآخرين.

و لذلك لم يأت الحديث عن الزوجات و الأموال و التجارة و الممتلكات، فى حين أنّ ذلك قد لوحظ فى الآية (۲۴) من سورة التوبة، حيث يقول سبحانه: قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكُمْ وَ أَبْناؤُكُمْ وَ إِخْوانُكُمْ وَ أَزْواجُكُمْ وَ عَشِيرَتُكُمْ وَ أَمْوالٌ اقْتَرَفْتُمُوها وَ تِجارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسادَها وَ مَساكِنُ تَرْضَوْنَها أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ جِهادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

و السبب الآخر فى عدم ذكر المتعلّقات الاخرى بالإنسان فى الآية مورد البحث، هو ما ورد فى سبب نزول الآية الكريمة و التى من جملتها أنّ «حاطب بن أبى بلتعة» كتب رسالة إلى أهل مكّة ينذرهم بقدوم رسول اللّه إليهم، و لمّا انكشفت الوشاية و عرف أنّ حاطب بن أبى بلتعة وراء هذا الأمر، اعتذر قائلا: «أهلى بمكّة أحببت أن يحوطوهم بيد تكون لى عندهم»[۱۸۶].

و قيل: إنّ هذه الآية قد نزلت بشأن «عبد اللّه بن أبى»، الذى كان له ولد مؤمن أراد الخير لأبيه، حيث رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يوما يشرب الماء، فطلب من رسول اللّه سؤره المتبقّى فى الإناء ليعطيه لأبيه، عسى أن يطهّر قلبه، إلّا أنّ الأب امتنع من شربه و تجاسر على رسول اللّه. عند ذلك جاء الولد يطلب من رسول اللّه الإذن فى قتل أبيه، فلم يسمح له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك و قال: «بل ترفّق به» يداريه، (و أن يتبرّأ من أعماله فى قلبه).

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى الجزاء العظيم لهذه المجموعة التى سخّرت قلوبها لعشق اللّه تعالى، حيث يستعرض خمسة من أوصافهم و التى يمثّل بعضها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۰

مددا و توفيقا من اللّه تعالى، و الآخر نتيجة العمل الخالص له سبحانه ...

و فى بيان القسم الأوّل و الثانى يقول تعالى: أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ

و من الطبيعى أنّ هذا الإمداد و اللطف الإلهى لا يتنافى أبدا مع أصل حرية الإرادة و إختيار الإنسان، لأنّ الخطوات الاولى فى ترك أعداء اللّه قد قرّرها المؤمنون ابتداء، ثمّ جاء الإمداد الإلهى بصورة استقرار الإيمان حيث عبّر عنه ب (كتب).

هل هذه الروح الإلهية التى يؤيّد اللّه سبحانه المؤمنين بها هى تقوية الاسس الإيمانية، أو أنّها الدلائل العقلية، أو القرآن، أو أنّها ملك إلهى عظيم يسمّى بالرّوح؟

ذكرت لذلك احتمالات و تفاسير مختلفة، إلّا أنّه يمكن الجمع بينهما، و خلاصة الأمر أنّ هذه الروح نوع من الحياة المعنوية الجديدة التى أفاضها اللّه تعالى على المؤمنين.

و يقول تعالى فى ثالث مرحلة: وَ يُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها.

و يضيف فى رابع مرحلة لهم: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ

إنّ أعظم ثواب معنوى و جزاء روحانى لأصحاب الجنّة فى مقابل النعم الماديّة العظيمة فى القيامة من جنان و حور و قصور هو شعورهم و إحساسهم أنّ اللّه راض عنهم و أنّ رضى مولاهم و معبودهم يعنى أنّهم مقبولون عنده، و فى كنف حمايته و أمنه، حيث يجلسهم على بساط قربه، و هذا أعظم إحساس ينتابهم، و نتيجته رضاهم الكامل عن اللّه سبحانه.

نعم، لا تصل أى نعمة إلى هذا الرضا ذى الجانبين المادّى و المعنوى، و الذى هو مفتاح للهبات و العطايا الإلهية الاخرى، لأنّه سبحانه عند ما يرضى. عن عبد فإنّه يعطيه ما يطلب منه، فهو القادر و الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۱

و ما أروع التعبير القرآنى: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ أى أنّ مقامهم رفيع إلى درجة بحيث أنّ أسماءهم تكون مقترنة باسمه، و رضاهم إلى جانب رضاه تعالى.

و فى آخر مرحلة يضيف تعالى بصورة إخبار عام يحكى عن نعم و هبات اخرى حيث يقول: أُولئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

و ليس المقصود بالفلاح هنا ما يكون فى عالم الآخرة و نيل النعم المادية و المعنوية فى يوم القيامة فحسب، بل كما جاء فى الآيات السابقة أنّ اللّه تعالى ينصرهم بلطفه فى هذه الدنيا أيضا على أعدائهم و ستكون بأيديهم حكومة الحقّ و العدل التى تستوعب هذا العالم أخيرا

بحثان

۱- العلامة الفارقة بين حزب اللّه و حزب الشيطان

أشير فى القرآن الكريم إلى حزب اللّه بآيتين، الآية مورد البحث، و الآية (۵۶) من سورة المائدة، و قد أشار فى آية واحدة إلى حزب الشيطان، و فى كلا الآيتين التى تحدّث فيهما عن حزب اللّه، أكّد على مسألة «الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه» و موالاة أهل الحقّ.

ففى آية سورة المائدة و بعد بيان مسألة الولاية و الحكم و وجوب طاعة اللّه و طاعة الرّسول، و طاعة الذين أعطوا الزكاة فى صلاة (الإمام على عليه السّلام) يقول سبحانه: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

و فى الآيات مورد البحث- أيضا- أكّد سبحانه على قطع (الودّ) مع أعداء اللّه، و بناء على هذا فإنّ خطّ «حزب اللّه» هو خطّ الولاية نفسه، و البراءة من غير اللّه و رسوله و أوصيائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۲

و فى المقابل عند ما يصف «حزب الشيطان» الذى أشير إليه فى الآيات الآنفة الذكر من هذه السورة، فإنّ أهمّ ميزة لهم هى النفاق و عداء الحقّ و الكذب و المكر، و نسيان ذكر اللّه.

و النقطة الجديرة بالذكر هنا قوله سبحانه: فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ و فى مورد آخر يقول سبحانه: أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ و بالنظر إلى أنّ الفلاح يقترن دائما مع النصر و الغلبة، لذا فإنّ معنى الآيتين واحد مع وجود قيد، هو أنّ للفلاح مفهوما أعمق من مفهوم الغلبة، لأنّه يشخّص مسألة الوصول إلى الهدف أيضا.

على عكس حزب الشيطان، حيث وصفهم سبحانه بالهزيمة و الخيبة و عدم الموفّقية فى برامجهم و التخلّف عن أهدافهم.

إنّ مسألـة الولايـة بـالمعنى الخـاصّ، و مسألـة الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه بـالمعنى العامّ، ورد التأكيـد عليهما فى كثير من الروايات الإسـلامية حتّى أنّ الصـحابى الجليل سلمان الفارسى قال لأمير المؤمنين عليه السّلام: يا أبا الحسن، ما اطلعت على رسول اللّه إلّا ضرب بين كتفى، و قال يا سلمان «هذا- و أشار إلى الإمام على- و حزبه هم المفلحون»[۱۸۷].

وحول المورد الثانى- يعنى الولاية نقرأ

فى حديث عن الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ودّ المؤمن للمؤمن فى اللّه من أعظم شعب الإيمان»[۱۸۸].

و

جاء فى حـديث آخر أنّه: «قال اللّه تعالى لموسـى: هل علمت فىّ عملا قطّ، قال: صـلّيت لك، و صـمت و تصـدّقت، و ذكرت للّه. قال اللّه تبارك و تعالى: و أمّا الصـلاة فلك برهان، و الصوم جنّـة، و الصدقـة ظلّ و الزكاة و الـذكر نور، فأى عمل عملت لى؟ قال موسـى عليه السّلام: دلّنى على العمل الذى هو لك. قال يا موسى: هل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۳

واليت لىّ وليّا؟ و هل عاديت لى عدوّا قطّ، فعلم موسى أنّ أفضل الأعمال الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه»[۱۸۹].

و

جاء فى حـديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّـلام: «لا يمحّض رجل الإيمان فى اللّه حتّى يكون اللّه أحبّ إليه من نفسه و أبيه و امّه و ولده و أهله و ماله و من الناس كلّهم»[۱۹۰].

كمـا توجـد روايـات كثيرة حول هـذا الموضوع فى جانبه الإيجابى (حبّ أولياء اللّه) و كـذلك الجانب السـلبى (البغض لأولياء اللّه) و يطول بنا ذكرها هنا، و من المناسب أن ننهى الحديث عنها

بحـديث عن الإمام الصادق عليه السّـلام حيث يقول: «إذا أردت أن تعلم انّ فيك خيرا فانظر إلى قلبك، فإن كان يحبّ أهل طاعة اللّه عزّ و جلّ و يبغض أهل معصيته، ففيك خير و اللّه يحبّك، و إن كان يبغض أهل طاعة اللّه و يحبّ أهل معصيته فليس فيك خير و اللّه يبغضك، و المرء مع من أحبّ»[۱۹۱].

۲- جزاء الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه

رأينـا فى الآيات أعلاه أنّ اللّه تعالى يثيب الأشـخاص الـذين يجعلون أساس كلّ علاقـة و ودّ هو الحبّ المرتبط باللّه، و من هنا يحبّون أحبّاء اللّه و يعادون أعداءه، و هذا الجزاء العظيم يكون على خمسة أنواع، ثلاثة فى الدنيا، و اثنان فى يوم القيامة.

و أوّل هذه النعم فى عالم الدنيا هو اسـتقرار و ثبات إيمانهم، حيث يجعل الإيمان فى قلوبهم بحيث لا تستطيع الحوادث و الأعاصير أن تؤثّر عليه، و مضافا إلى ذلك فإنّ اللّه تعالى يؤيّدهم و يقوّيهم بروحية متسامية، و فى المرحلة الثالثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۴

يجعلهم فى حزبه و ينصرهم على أعدائه.

كما يمنحهم فى الآخرة جنّة خالدة مع جميع نعمها، و بالإضافة إلى ذلك فإنّه يعلن عن رضاه المطلق عنهم.

و

جاء فى حـديث للإمام الصادق عليه السّـلام بهـذا الصـدد: «ما من مؤمن إلّا و لقلبه أذنان فى جوفه، اذن ينفذ فيها الوساوس الخنّاس، و اذن ينفذ فيها الملك، فيؤيّد اللّه المؤمن بالملك فذلك قوله: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۱۹۲].

و

فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسيره لكلام الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «إذا زنى الرجل فارقه روح الإيمان» قال عليه السّلام: «هذه روح الإيمان التى ذكرها اللّه فى كتابه حيث يقول: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۱۹۳].

و يتّضح من الأحاديث أعلاه سعة معنى «روح الإيمان» و شمولها للملك و المرتبة العالية للروح الإنسانية، و فى الضمن توضّح هذه الحقيقة و هى أنّ وجود هذه المرحلة من الإيمان للإنسان يمنعه من التلوّث بالمعاصى كالزنا و شرب الخمر و أمثالها، حيث تصبح لديه حصانة تمنعه من ذلك.

نهاية سورة المجادلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۵

سورة الحشر

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها أربع و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۷

«سورة الحشر»

محتوى السورة:

تأخذ هذه السورة بصورة متميّزة قصّة حرب المسلمين مع بعض اليهود (يهود بنى النضير) و التى انتهت بإخراجهم من المدينة و تطهير هذه المدينة المقدّسة منهم.

و هذه السورة من السور المهمّة و المثيرة و الموقظة فى القرآن الكريم، و لها انسجام قريب جدّا مع الآيات الأخيرة مع السورة السابقة، و التى وعدت «حزب اللّه» بالنصر. و النصر الوارد فى هذه السورة يعدّ مصداقا بارزا لذلك النصر الموعود.

و يمكن تلخيص موضوعات هذه السورة فى ستّة أقسام هى:

الأوّل: من هذه السورة- الذى هو آية واحدة فقط- يعتبر مقدّمة للأبحاث المختلفة التى وردت فى هذه السورة، فتتحدّث الآية عن تسبيح اللّه الحكيم العليم من قبل الموجودات جميعا.

الثّانى: الذى يبدأ من الآية الثانية إلى الآية العاشرة، و الذى يشمل تسع آيات- فإنّه يوضّح قصّة اشتباك المسلمين مع ناقضى العهد من يهود المدينة.

الثّالث: و الذى يتكوّن من الآية الحادية عشرة إلى الآية السابعة عشر- و فيه يستعرض القرآن قصّة منافقى المدينة مع اليهود و التعاون بينهما.

الرّابع: الذى يتجاوز بضع آيات- يشمل مجموعة من التوجيهات و النصائح العامّة لعموم المسلمين، و هى تمثّل استنتاجا للأحداث أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۸

الخامس: الذى يشمل آية واحدة فقط و هى الآية الحادية و العشرون- فهو عبارة عن وصف بليغ للقرآن الكريم و بيان أثره فى تطهير الروح و النفس.

القسم الأخير- الذى هو آخر قسم من السورة، و يبدأ من الآية الثانية و العشرين إلى الآية الرابعة و العشرين- فيتناول قسما مهمّا من أوصاف جلال و جمال الذات الإلهية المقدّسة، و بعض أسمائه الحسنى، و هذه الصفات تكون عونا للإنسان فى طريق معرفة اللّه سبحانه.

و بالضمن فإنّ اسم هذه السورة مأخوذ من الآية الثانية فيها، و التى تتحدّث عن «الحشر»، و الذى يعنى هنا تجمّع اليهود للرحيل عن المدينة، أو حشر المسلمين اليهود لطردهم منها، و من هنا يتّضح أنّ مقصود هذه الكلمة هنا لا يرتبط بيوم القيامة.

كما أطلق البعض على هذه السورة اسم (سورة بنى النضير) لأنّ قسما كبيرا من آياتها تتحدّث عنهم.

و أخيرا فإنّ هذه السور هى إحدى (سور المسبّحات) و التى بدأت بتسبيح اللّه، و انتهت بتسبيح اللّه أيضا.

فضيلة تلاوة هذه السورة:

ذكرت لهذه السورة فضائل عديدة منها:

ورد فى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الحشر لم يبق جنّة و لا نار، و لا عرش و لا كرسى و لا حجاب، و لا السماوات السبع و لا الأرضون السبع، و الهوام و الرياح و الطير و الشجر و الدواب، و الشمس و القمر و الملائكة، إلّا صلّوا عليه، و استغفروا له، و إن مات من يومه أو ليلته مات شهيدا»[۱۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۵۹

كما نقرأ

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام: «من قرأ إذا أمسى الرحمن و الحشر، وكّل اللّه بداره ملكا شاهرا سيفه حتّى يصبح»[۱۹۵].

و ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا من آثار التفكّر و التدبّر فى محتوى هذه السورة و عند قراءتها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۰

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ (۲) وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ (۳) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۴)

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ (۵)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۱

سبب النّزول

ذكر المفسّرون و المحدّثون و المؤرّخون بصورة مفصّلة سبب نزول هذه الآيات، و خلاصة ما ذكروه هى ما يلى:

كـان فى المدينـة ثلاـث قبائـل من اليهود و هم: «بنو النضـير»، و «بنو قريظـة»، و «بنو قينقـاع»، و يـذكر أنّهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصـلا، و إنّمـا قـدموا إليهـا و اسـتقرّوا فيهـا، و ذلك لما قرءوه فى كتبهم العقائديـة من قرب ظهور نبى فى أرض المدينـة، حيث كانوا بانتظار هذا الظهور العظيم.

و عنـد ما هاجر الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى المدينـة عقـد معهم حلفا بعدم تعرّض كلّ منهما للآخر، إلّا أنّهم كلّما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهدا فى نقض العهد.

و من جملة ذلك أنّهم نقضوا العهد بعد غزوة احد، التى وقعت فى السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب «كعب بن الأشرف» زعيم قبيلة «بنى النضير» مع أربعين فارسا إلى مكّة، و هنالك عقد مع قريش حلفا لقتال محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و جاء أبو سفيان مع أربعين شخصا، و كعب بن الأشرف مع أربعين نفرا من اليهود، و دخلا معا إلى المسجد الحرام و وثقوا العهد فى حرم الكعبة، فعلم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بذلك عن طريق الوحى.

و المؤامرة الاخرى هى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دخل يوما مع شيوخ الصحابة و كبارهم إلى حى بنى النضير، و ذلك بحجّة اسـتقراض مبلغ من المال منهم كديّة لقتيلين من طائفة بنى عامر، قتلهما (عمرو بن اميّة) أحد المسـلمين، و ربّما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتّى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتحدّث مع كعب بن الأشرف إذ حيكت مؤامرة يهودية لاغتيال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و تنادى القوم: إنّكم لا تحصـلون على هذا الرجل بمثل هذه الحالة و ها هو قد جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح و يرميه بحجر عظيم و يريحنا منه، فقام «عمرو بن جحاش» و أبدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۲

اسـتعداده لتنفيذ الأمر، و ذهب إلى السـطح لتنفيذ عمله الإجرامى، إلّا أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم علم عن طريق الوحى بـذلك، فقفل راجعا إلى المدينـة دون أن يتحـدّث بحديث مع أصـحابه، إلّا أنّ الصـحابة تصوّروا أنّ الرّسول سـيعود مرّة اخرى، و لمّا عرفوا فيما بعد أنّ الرّسول فى المدينة عاد الصحابة إليها أيضا.

و هنا أصبح من المسلّم لدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نقض اليهود للعهد، فأعطى أمرا للاستعداد و التهيّؤ لقتالهم.

و جاء فى بعض الروايات أيضا أنّ أحد شـعراء بنو النضـير هجا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بشعر يتضمّن مسّا بكرامة الرّسول و هذا دليل آخر لنقضهم العهد.

و بـدأت خطّة المسـلمين فى مواجهـة اليهود و كانت الخطوة الاولى أن أمر رسول اللّه (محمّد بن سـلمة) أن يقتل كعب بن الأشـرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، و قد نفّذ هذا العمل بعد مقدّمات و قتله.

إنّ قتـل كعب بن الأشـرف أوجـد هزّة و تخلخلا فى صـفوف اليهـود، عنـد ذلـك أعطى رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أمرا للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

و عنـد مـا علم اليهود بهـذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمـة و حصونهم القويّـة، و أحكموا الأبواب، إلّا أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

لقـد أنجز هـذا العمل لأسـباب عـدّة: منها أنّ حبّ اليهود لأموالهم قـد يخرجهم من قلاعهم بعد رؤية تلف ممتلكاتهم، و بالتالى يكون اشـتباك المسلمين معهم مباشرة، كما يوجد احتمال آخر، و هو أنّ هذه الأشجار كانت تضايق المسلمين فى مناوراتهم مع اليهود قرب قلاعهم و كان لا بدّ من أن تقلع.

و على كلّ حال، فقد ارتفع صوت اليهود عند ما شـعروا بالضيق، و هم محاصرون فى حصونهم .. فقالوا: يا محمّد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذى حدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۳

بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟

فنزلت الآية (۵) من الآيات محلّ البحث و بيّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من اللّه عزّ و جلّ.

و استمرّت المحاصرة لعدّة أيّام، و منعا لسفك الدماء اقترح رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليهم أن يتركوا ديارهم و أراضيهم و يرحلوا من المدينة، فوافقوا على هذا و حملوا مقدارا من أموالهم تاركين القسم الآخر .. و استقرّ قسم منهم فى «أذرعات الشام»، و قليل منهم فى «خيبر»، و جماعة ثالثة فى «الحيرة»، و تركوا بقيّة أموالهم و أراضيهم و بساتينهم و بيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها.

و قد حدثت هذه الحادثة بعد غزوة (احد) بستّة أشهر، إلّا أنّ آخرين قالوا:

إنّها وقعت بعد غزوة بدر بستّة أشهر[۱۹۶].

التّفسير

نهاية مؤامرة يهود بنى النضير:

بدأت هذه السورة بتنزيه و تسبيح اللّه و بيان عزّته و حكمته، يقول سبحانه:

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

و هذه فى الحقيقة مقدّمة لبيان قصّة يهود بنى النضير، أولئك الذين انحرفوا عن طريق التوحيد و معرفة اللّه و صفاته، و بالإضافة إلى كونهم مغرورين بإمكاناتهم و قدرتهم و عزّتهم و يتآمرون على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

التسبيح العامّ الوارد فى الآية لجميع موجودات الأرض و السماء، أعمّ من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۴

الملائكة و البشر و الحيوانات و النباتات و الجمادات يمكن أن يكون بلسان «القال» و يمكن أن يكون بلسان «حال» هذه المخلوقات حول دقّة النظام المثير للعجب لها فى خلق كلّ ذرّة من ذرّات هذا الوجود، و هو التسليم المطلق للّه سبحانه و الاعتراف بعلمه و قدرته و عظمته و حكمته.

و من جهة اخرى فإنّ قسما من العلماء يعتقدون أنّ كلّ موجود فى العالم له نصيب و قدر من العقل و الإدراك و الشعور، بالرغم من أنّنا لم ندركه و لم نطلع عليه، و بهذا الدليل فإنّ هذه المخلوقات تسبّح بلسانها، بالرغم من أنّ آذاننا ليس لها القدرة على سماعها، و العالم بأجمعه منشغل بحمد اللّه و تسبيحه و إن كنّا غير مطّلعين على ذلك.

الأولياء الذين فتحت لهم عين الغيب يتبادلون أسرار الوجود مع كلّ موجودات العالم، و يسمعون نطق الماء و الطين بصورة واضحة، إذ أنّ هذا النطق محسوس من قبل أهل المعرفة. (و هناك شرح أكثر حول هذا الموضوع فى تفسير الآية ۴۴ من سورة الإسراء).

و بعد بيان المقدّمة أعلاه نستعرض أبعاد قصّة يهود بنى النضير فى المدينة حيث يقول سبحانه: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ.

«حشر» فى الأصل تحريك جماعة و إخراجها من مقرّها إلى ميدان حرب و ما إلى ذلك، و المقصود منه هنا اجتماع و حركة المسلمين من المدينة إلى قلاع اليهود، أو اجتماع اليهود لمحاربة المسلمين، و لأنّ هذا أوّل اجتماع من نوعه فقد سمّى فى القرآن الكريم بأوّل الحشر، و هذه بحدّ ذاتها إشارة لطيفة إلى بداية المواجهة المقبلة مع يهود بنى النضير و يهود خيبر و أمثالهم.

و العجيب أنّ جمعا من المفسّرين ذكروا احتمالات للآيـة لا تتناسب أبدا مع محتواها، و من جملتها أنّ المقصود بالحشر الأوّل ما يقع مقابل حشر يوم القيامة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۵

و هو القيام من القبور إلى الحشر، و الأعجب من ذلك أنّ البعض أخذ هذه الآية دليلا على أنّ حشر يوم القيامة يقع فى أرض الشام التى ابعد اليهود إليها، و هذه الاحتمالات الضعيفة ربّما كان منشؤها من وجود كلمة «الحشر»، فى حين أنّ هذه الكلمة لم تكن تستعمل هذا بمعنى الحشر فى القيامة، بل تطلق على كلّ اجتماع و خروج إلى ميدان ما، قال تعالى: وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ[۱۹۷].

و كذلك ما ورد فى الاجتماع العظيم لمشاهدة المحاججة التى خاضها موسى عليه السّلام مع سحرة فرعون حيث يقول سبحانه: وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۱۹۸].

و يضيف البارئ عزّ و جلّ: ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ لقد كانوا مغرورين و راضين عن أنفسهم إلى حدّ أنّهم اعتمدوا على حصونهم المنيعة، و قدرتهم الماديّة الظاهرية. إنّ التعبير الذى ورد فى الآية يوضّح لنا أنّ يهود بنى النضير كانوا يتمتّعون بإمكانات واسعة و تجهيزات و عدد كثيرة فى المدينة، بحيث أنّهم لم يصدّقوا أنّهم سيغلبون بهذه السهولة، و ذلك ظنّ الآخرين أيضا.

و لأنّ اللّه سبحانه يريد أن يوضّح للجميع أن لا قوّة فى الوجود تقاوم إرادته، فإنّ إخراج اليهود من أراضيهم و ديارهم بدون حرب، هو دليل على قدرته سبحانه، و تحدّ لليهود الذين ظنّوا أنّ حصونهم مانعتهم من اللّه.

و لذلك يضيف- استمرارا للبحث الذى ورد فى الآية- قوله تعالى: فَأَتاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ نعم، إنّ هذا الجيش غير المرئى هو جيش الخوف الذى يرسله اللّه تعالى فى كثير من الحروب لمساعدة المؤمنين، و قد خيّم على قلوبهم، و سلب منهم قدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۶

الحركة و المقاومة، لقد جهّزوا و هيّئوا أنفسهم لقتال المهاجرين و الأنصار غافلين عن إرادة اللّه تعالى، حيث يرسل لهم جيشا من داخلهم و يجعلهم فى مأزق حرج إلى حدّ ينهمكون فيه على تخريب بيوتهم بأيديهم و أيدى أعدائهم من المسلمين.

صحيح أنّ مقتل زعيمهم «كعب بن الأشرف»- قبل الهجوم على قلاعهم و حصونهم- كان سببا فى إرباكهم و اضطراب صفوفهم، إلّا أنّ من الطبيعى أنّ مقصود الآية غير ما تصوّره بعض المفسّرين، فإنّ ما حدث كان نوعا من الإمداد الإلهى للمسلمين الذين حصل لهم مرّات عديدة حين جهادهم ضدّ الكفّار و المشركين.

و الطريف هنا أنّ المسلمين كانوا يخرّبون الحصون من الخارج ليدخلوا إلى عمق قلاعهم، و اليهود كانوا يخرّبونها من الداخل حتّى لا يقع شىء مفيد منها بأيدى المسلمين، و نتيجة لهذا فقد عمّ الخراب التامّ جميع قلاعهم و حصونهم.

و ذكرت لهذه الآية تفاسير اخرى أيضا منها: أنّ اليهود كانوا يخربونها من الداخل لينهزموا، أمّا المسلمون فتخريبهم لها من الخارج ليظفروا باليهود و يجهّزوا عليهم (إلّا أنّ هذا الاحتمال مستبعد).

أو يقال إنّ لهذه الآية معنى كنائى، و ذلك كقولنا: إنّ الشخص الفلانى هدم بيته و حياته بيده، يعنى أنّه بسبب جهله و تعنّته دمّر حياته.

أو أنّ المقصود من تخريب اليهود لبعض البيوت، هو من أجل إغلاق الأزقّة الموجودة داخل القلاع و منع المسلمين من التقدّم و لكى لا يستطيعوا السكن فيها.

أو أنّهم هدموا قسما من البيوت داخل القلعة حتّى إذا ما تحوّلت الحرب إلى داخلها يكون هنا لك مكان كاف للمناورة و الحرب.

أو أنّ مواد بناء بعض البيوت كان ثمينا فخرّبوها لكى يحملوا ما هو مناسب منها، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب من الجميع.

و فى نهاية الآية- بعنوان استنتاج كلّى- يقول تعالى: فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۷

الْأَبْصارِ.

«اعتبروا» من مادّة (اعتبار) و فى الأصل مأخوذة من العبور، أى العبور من شىء إلى شىء آخر، و يقال لدمع العين «عبرة» بسبب عبور قطرات الدموع من العين، و كذلك يقال (عبارة) لهذا السبب، حيث أنّها تنقل المطالب و المفاهيم من شخص إلى آخر، و إطلاق «تعبير المنام» على تفسير محتواه، بسبب أنّه ينقل الإنسان من ظاهره إلى باطنه.

و بهذه المناسبة يقال للحوادث التى فيها دروس و عظات (عبر) لأنّها توضّح للإنسان سلسلة من التعاليم الكلية و تنقله من موضوع إلى آخر.

و التعبير ب «اولى الأبصار» إشارة إلى الأشخاص الذين يتعاملون مع الحوادث بعين واقعية و يتوغلون إلى أعماقها.

كلمة (بصر) تقال دائما للعين الباصرة، و «البصيرة» تقال للإدراك و الوعى الداخلى ۱۹۹].

و فى الحقيقة أنّ «أولى الأبصار» هم أشخاص لهم القابلية على الاستفادة من (العبر)، لذلك فإنّ القرآن الكريم يلفت نظرتهم للاستفادة من هذه الحادثة و الاتّعاظ بها.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ المقصود من الإعتبار هو مقايسة الحوادث المتشابهة من خلال إعمال العقل، كمقارنة حال الكفّار مع حال ناقضى العهد من يهود بنى النضير، إلّا أنّ هذه الجملة لا ترتبط أبدا ب «القياسات الظنّية» التى يستفيد منها البعض فى استنباط الأحكام الدينيّة.

و العجيب هنا أنّ بعض فقهاء أهل السنّة استفادوا من الآية أعلاه لإثبات هذا المقصود، بالرغم من أنّ البعض الآخر لم يرتضوا ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۸

و الخلاصة أنّ المقصود من العبرة و الإعتبار فى الآية أعلاه هو الانتقال المنطقى و القطعى من موضوع إلى آخر، و ليس العمل على أساس التصوّر و الخيال.

و على كلّ حال فإنّ مصير طائفة «بنى النضير» بتلك القدرة و العظمة و الشوكة، و بتلك الصورة من الاستحكامات القويّة، صار موضع (عبرة) حيث أنّهم استسلموا لجماعة من المسلمين لا تقارن قوّاتها بقوّاتهم، و بدون مواجهة مسلّحة، بحيث كانوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم و تركوا بقيّة أموالهم للمسلمين المحتاجين، و تفرّقوا فى بقاع عديدة من العالم، فى حين أنّ اليهود سكنوا فى المدينة من أجل أن يدركوا النبى الموعود الذى ورد فى كتبهم، و يكونوا فى الصفّ الأوّل من أعوانه كما ذكر المؤرّخون ذلك.

و بهذا الصدد نقرأ حديثا

ورد عن الإمام الصادق حيث يقول: «كان أكثر عبادة أبى ذرّ رحمه اللّه التفكّر و الإعتبار»[۲۰۰].

و مع الأسف فإنّ كثير من الناس يفضّلون تجربة الشدائد و المحن و المصائب بأنفسهم و يذوقوا مرارة الخسائر شخصيّا، و لا يعتبرون و لا يتّعظون بوضع الآخرين و ما يواجهونه فى أمثال هذه الموارد، و

يقول الإمام على عليه السّلام «السعيد من وعظ بغيره»[۲۰۱].

و تضيف الآية اللاحقة وَ لَوْ لا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا.

و بدون شكّ فإنّ الجلاء عن الوطن و ترك قسم كبير من رؤوس الأموال التى جهدوا جهدا بليغا فى الحصول عليها، هو بحدّ ذاته أمر مؤلم لهم، و بناء على هذا فإنّ مراد الآية أعلاه أنّه لو لم يحلّ بهم هذا العذاب، فإنّ بانتظار هم عذابا آخر هو القتل أو الأسر بيد المسلمين ... إلّا أنّ اللّه سبحانه أراد لهم التيه فى الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۶۹

و التشرّد فى العالم، لأنّ هذا أشدّ ألما و أسى على نفوسهم، إذ كلّما تذكّروا أرضهم و ديارهم و مزارعهم و بساتينهم التى أصبحت بيد المسلمين. و كيف أنّهم شردوا منها بسبب نقضهم العهد و مؤامراتهم ضدّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّ ألمهم و حزنهم و متاعبهم تضاعف و خاصّة على المستوى النفسى.

نعم، إنّ اللّه أراد لهذه الطائفة المغرورة و الخائنة، أن تبتلى بمثل هذا المصير البائس.

و كان هذا عذابا دنيويا لهم، إلّا أنّ لهم جولة اخرى مع عذاب أشدّ و أخزى، ذلك هو عذاب الآخرة، حيث يضيف سبحانه فى نهاية الآية وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ.

هذه عاقبتهم فى الدنيا و الآخرة، و هى درس بليغ لكلّ من أعرض عن الحقّ و العدل و ركب هواه، و غرّته الدنيا و أعماه حبّ ذاته.

و بما أنّ ذكر هذه الحادثة مضافا إلى تجسيد قدرة اللّه و صدق الدعوة المحمّدية، فهى فى نفس الوقت تمثّل إنذارا و تنبيها لكلّ من يروم القيام بأعمال مماثلة لفعل بنى النضير، لذا ففى الآية اللاحقة يرشدنا سبحانه إلى هذا المعنى:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ ۲۰۲].

«شاقّوا» من مادّة (شقاق) و هى فى الأصل بمعنى الشقّ و الفصل بين شيئين، و بما أنّ العدو يكون دائما فى الطرف المقابل، فإنّ كلمة (شقاق) تطلق على هذا العمل.

و جاء مضمون هذه الآية باختلاف جزئى جدّا فى سورة الأنفال الآية ۱۳، و ذلك بعد غزوة بدر و انكسار شوكة المشركين، و التى تبيّن عموميّة محتواها من كلّ جهة، فى قوله تعالى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ، وَ مَنْ يُشاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۰

و الشىء الجدير بالملاحظة أنّ بداية الآية الكريمة طرحت مسألة العداء للّه و رسوله، إلّا أنّ الحديث فى ذيل الآية اقتصر عن العداء للّه سبحانه فقط، و هو إشارة إلى أنّ العداء لرسول اللّه هو عداء للّه أيضا.

و التعبير ب شَدِيدُ الْعِقابِ لا يتنافى مع كون اللّه «أرحم الراحمين» لأنّه فى موضع العفو و الرحمة فاللّه أرحم الراحمين، و فى موضع العقاب و العذاب فإنّ اللّه هو أشدّ المعاقبين، كما

جاء ذلك فى الدعاء: «و أيقنت أنّك أرحم الراحمين فى موضع العفو و الرحمة، و أشدّ المعاقبين فى موضع النكال و النقمة»[۲۰۳].

و فى الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث نلاحظ جوابا على اعتراض يهود بنى النضير على قطع المسلمين لنخيلهم- كما ورد فى شأن النزول- بأمر من رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتهيئة ظروف أفضل لقتال بنى النضير أو لزيادة حزنهم و ألمهم، فيضطرّوا للنزول من قلاعهم و منازلة المسلمين خارج القلعة .. و قد أثار هذا العمل غضب اليهود و حنقهم، فقالوا: يا محمّد، ألم تكن الناهى عن مثل هذه الأعمال؟

فنزلت الآية الكريمة مبيّنة لهم أنّ ذلك من أمر اللّه سبحانه حيث يقول البارئ:

ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللَّهِ ۲۰۴] وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ

«لينة» من مادّة (لون) تقال لنوع جيّد من النخل، و قال آخرون: إنّها من مادّة (لين) بمعنى الليونة التى تطلق على نوع من النخل، و التى لها أغصان ليّنة قريبة من الأرض و ثمارها ليّنة و لذيذة.

و تفسّر (لينة) أحيانا بألوان و أنواع مختلفة من شجر النخيل، أو النخل الكريم، و التى جميعها ترجع إلى شىء واحد تقريبا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۱

و على كلّ حال فإنّ قسما من المسلمين أقدموا على قطع بعض نخيل بنى النضير، فى الوقت الذى خالف البعض الآخر ذلك، و هنا نزلت الآية أعلاه و فصلت نزاعهم فى هذا الموضوع ۲۰۵].

و قال البعض الآخر: إنّ الآية دالّة على عمل شخصين من الصحابة، و قد كان أحدهم يقوم بقطع الجيّد من شجر النخل ليغضب اليهود و يخرجهم من قلاعهم، و الآخر يقوم بقطع الردىء من الأشجار كى يبقى ما هو جيّد و مفيد، و حصل خلاف بينهم فى ذلك، فنزلت الآية حيث أخبرت أنّ عملهما بإذن اللّه ۲۰۶].

و لكن ظاهر الآية يدلّ على أنّ المسلمين قطعوا بعض نخل (اللينة) و هى نوع جيّد من النخل، و تركوا قسما آخر، ممّا أثار هذا العمل اليهود، فأجابهم القرآن الكريم بأنّ هذا العمل لم يكن عن هوى نفس، بل عن أمر إلهى صدر فى هذا المجال، و فى دائرة محدودة لكى لا تكون الخسائر فادحة.

و على كلّ حال فإنّ هذا العمل كان استثناء من الأحكام الإسلامية الأوّلية التى تنهى عن قطع الأشجار و قتل الحيوانات و تدمير و حرق المزارع .. و العمل أعلاه كان مرتبطا بمورد معيّن حيث أريد إخراج العدو من القلعة و جرّه إلى موقع أنسب للقتال و ما إلى ذلك- و عادة توجد استثناءات جزئيّة فى كلّ قانون، كما فى جواز أكل لحم الميّت عند الضرورة القصوى و الإجبار.

جملة وَ لِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ ترينا على الأقل أنّ أحد أهداف هذا العمل هو خزى ناقضى العهد هؤلاء، و كسر لشوكتهم و تمزيق لروحيّتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۲

بحثان

۱- الجيوش الإلهيّة اللامرئية:

فى الوقت الذى تعتبر القوى الماديّة أكبر سلاح لتحقيق الإنتصار من وجهة نظر الماديين، فإنّ اعتماد المؤمنين يتمركز حول محورين (القيم المعنوية و الإمكانات المادية) و الذى قرأنا نموذجا منه فى قصّة اندحار بنى النضير كما بيّنت ذلك الآيات السابقة.

و نقرأ فى هذه الآية أحد العوامل المؤثّرة فى هذا الإنتصار حيث ألقى اللّه سبحانه الرعب فى قلوب اليهود، بحيث أخذوا يخرّبون بيوتهم بأيديهم، و تخلّوا عن ديارهم و أموالهم مقابل السماح لهم بالخروج من المدينة.

و قد ورد هذا المعنى بصورة متكرّرة فى القرآن الكريم، منها ما ورد فى قصّة اخرى حول قسم آخر من اليهود و هم (بنو قريظة). حيث اشتبكوا اشتباكا شديدا مع المسلمين بعد غزوة الأحزاب، و فى هذا المعنى يقول سبحانه: وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً.

و جاء هذا المعنى فى غزوة بدر حيث يقول تعالى: سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

و بعض هذا الخوف الذى هو عبارة عن جيش إلهى غير مرئى يكاد يكون أمرا طبيعيّا، و لكن بعضه يمثّل سرّا من الأسرار غير الواضحة لنا، أمّا الطبيعى منه فانّ المؤمنين يرون أنفسهم منتصرين سواء قتل أو تغلّب على العدوّ. و الشخص الذى يؤمن بهذا الإعتقاد لا يجد الخوف طريقا إليه، و مثل هذا الإنسان سيكون أعجوبة فى صموده و ثباته كما يكون- أيضا- مصدر خوف و قلق لأعدائه، و الذى نلاحظه فى عالم اليوم أنّ بلدانا عديدة تملك قدرات هائلة من الإمكانات العسكرية المتطورة و المادية الكبيرة، تخشى من ثلّة من المؤمنين الصادقين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۳

الذائدين عن الحقّ، و يحاولون دائما تحاشى مواجهتهم.

و

فى حديث حول هذا المعنى يقول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر»[۲۰۷].

يعنى أنّ الرعب لم يصب الأعداء فى خطّ المواجهة فحسب، بل أصاب من كان من الأعداء على مسافة شهر واحد من جيش الإسلام.

و حول جيوش الإمام المهدى عليه السّلام نقرأ أنّ ثلاثة جيوش تحت أمره و هم:

(الملائكة، و المؤمنون، و الرعب)[۲۰۸].

و فى الحقيقة، إنّ الأعداء يبدلّون كافّة إمكاناتهم لتجنّب الضربة من الخارج، إلّا أنّهم غفلوا عن أنّ اللّه سبحانه يهزمهم داخليّا، حيث أنّ الضربة الداخلية أوجع للنفس، و لا يمكن تداركها بسهولة، حتّى لو وضعت تحت تصرّفهم كلّ الأسلحة و الجيوش، فإنّها غير قادرة على أن تحقّق النصر مع فقدان المعنوية العالية و الروحية المؤهّلة لخوض القتال، و بالتالى فإنّ الفشل و الخسران أمر متوقّع جدّا لأمثال هؤلاء.

۲- مؤامرات اليهود المعاصرة

إنّ التاريخ الإسلامى اقترن منذ البداية بمؤامرات اليهود، ففى كثير من الحوادث الأليمة و الفجائع الدامية ترى أصابعهم مشهودة بشكل مباشر أو غير مباشر. و العجيب أنّ هؤلاء نزحوا إلى ديار الحجاز طمعا فى أن يكونوا فى الصفّ الأوّل من أصحاب النبى الموعود إلّا أنّهم بعد ظهوره أصبحوا من ألدّ أعدائه.

و عند ما نستقرئ حالتهم المعاصرة فإنّنا نلاحظ أيضا أنّهم متورّطون فى أغلب المؤامرات المدبّرة ضدّ الإسلام، و يتجسّد موقفهم هذا فى داخل الأحداث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۴

تارة و من خارجها اخرى، و فى الحقيقة فإنّ هذا هو موضع تأمّل و اعتبار لمن كان له قلب و بصيرة.

و الطريق الوحيد لكسر شوكتهم كما يؤكّده تاريخ صدر الإسلام، هو التعامل الحدّى و الجدّى معهم، خصوصا مع الصهاينة الذين لا يتعاملون بمبادئ العدل و الحقّ أبدا، بل منطقهم القوّة، و بغيرها لا يمكن التفاهم معهم، و مع هذا فإنّ خوفهم الحقيقى هو من المؤمنين الصادقين.

و إذا كان المسلمون المعاصرون مسلّحين بالإيمان و الاستقامة المبدئية- كأصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- فإنّ الرعب سيستحوذ على قلوب اليهود و نفوسهم، و بالإمكان عندئذ إخراجهم من الأرض الإسلامية التى اغتصبوها بهذا الجيش الإلهى.

و هذا درس علّمنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إيّاه قبل أربعة عشر قرنا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۵

الآيتان [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۶ الى ۷]

اشارة

وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۶) ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبى وَ الْيَتامى وَ الْمَساكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (۷)

سبب النّزول

بما أنّ هـذه الآيات تكملـة للآيات القرآنية السابقة التى تتحدّث عن اندحار يهود بنى النضـير، لذا فإنّ سـبب نزولها هو اسـتمرار لنفس أسباب نزول الآيات السابقة. و التوضيح كما يلى:

بعد خروج يهود بنى النضير من المدينة بقيت بساتينهم و أراضيهم و بيوتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۶

و قسم من أموالهم فى المدينة، فأشار بعض شـيوخ المسـلمين على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تماشيا مع سنّة جاهلية- حيث قالوا له خـذ الصـفوة من أموالهم و ربع ممتلكاتهم، و اترك لنا المتبقّى كى نقسّـمه بيننا، فنزلت الآيات أعلاه حيث أعلنت صـراحة أنّ هـذه الغنائم التى لم تكن بسـبب قتال، و لم تكن نتيجـة حرب، فإنّها جميعا من مختصات الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم باعتباره رئيسا للدولة الإسلامية، و يتصرّف بها كما يشاء، وفقا لما يقدره من المصلحة فى ذلك.

و سـنلاحظ أنّ الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قسّم هـذه الأموال بين المهاجرين الفقراء فى المدينـة، و على قسم من الأنصار من ذوى الفاقة[۲۰۹].

التّفسير

حكم الغنائم بغير الحرب:

إنّ هـذه الآيات- كما ذكر سابقا- تبيّن حكم غنائم بنى النضـير، كما أنّها فى نفس الوقت توضّح حكما عاما حول الغنائم التى يحصـل عليها المسلمون بدون حرب، كما ذكر ذلك فى كتب الفقه الإسلامى بعنوان (الفىء).

يقول اللّه تعالى: وَ ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَ لا رِكابٍ ۲۱۰].

«أفـاء» من مادّة (فىء) على وزن شـىء- و هى فى الأصل بمعنى الرجوع، و إطلاق كلمـة (فىء) على هـذا اللون من الغنائم لعلّه باعتبار أنّ اللّه سبحانه قد خلق هذه النعم و الهبات العظيمة فى عالم الوجود فى الأصل للمؤمنين، و على رأسهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۷

الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم الذى هو أشرف الكائنات، و بناء على هذا فإنّ الجاحدين لوجود اللّه و العاصين له بالرغم من امتلاكهم للبعض من هـذه النعم بموجب القواعد الشـرعية و العرفية، إلّا أنّهم يعتبرون غاصبين لها، و لذلك فإنّ عودة هذه الأموال إلى أصحابها الحقيقيين (و هم المؤمنون) يسمّى (فيئا) فى الحقيقة.

«أوجفتم» من مادّة (إيجاف) بمعنى السّوق السريع الذى يحدث غالبا فى الحروب.

«خيل» بمعناه المتعارف عليه (و هى اسم جنس و جمعها خيول)[۲۱۱].

«ركاب» من مادّة (ركوب) و تطلق فى الغالب على ركوب الجمال.

و الهـدف من مجموع الجملة أنّ جميع الموارد التى لم يحدث فيها قتال و فيها غنائم، فإنّها لا توزّع بين المقاتلين، و توضع بصورة تامّة تحت تصرّف رئيس الدولة الإسلامية و هو يصرفها فى الموارد التى سيأتى الحديث عنها لا حقا.

ثمّ يضيف سبحانه أنّ الانتصارات لا تكون غالبا لكم وَ لكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

نعم، لقـد تحقّق الإنتصـار على عـدو قوى و شديـد كيهود (بنى النضـير) و ذلك بالمـدد الإلهى الغيبى، و لتعلموا أنّ اللّه قادر على كلّ شىء، و يستطيع سبحانه بلحظة واحدة أن يذلّ الأقوياء، و يسلّط عليهم فئة قليلة توجّه لهم ضربات موجعة و تسلب جميع إمكاناتهم.

و لا بـدّ للمسـلمين أن يتعلّموا من ذلك دروس المعرفـة الإلهيـة، و يلاحظوا علائم حقّانية النبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و يلتزموا

منهج الإخلاص و التوكّل على الذات الإلهية المقدّسة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۸

فی جمیع ممارساتهم.

و هنا قد یتبادر سؤال و هو: إنّ الحصول على غنائم بنی النضیر لم یتمّ بدون حرب، بل إنّ المسلمین زحفوا بجیشهم نحو قلاعهم و حاصروها، و قیل أنّ اشتباکا مسلّحا قد حصل فی حدود ضیّقة بین الطرفین.

و فی مقام الجواب نقول: بأنّ قلاع بنی النضیر- کما ذکروا- لم تکن بعیدة عن المدینة، و ذکر بعض المفسّرین أنّ المسافة بین المدینة و القلاع میلان و أنّ المسلمین ذهبوا إلیها سیرا على أقدامهم، و بناء على هذا فلم یواجهوا مشقّة حقیقیة. أمّا بالنسبة لموضوع الاشتباک المسلّح فإنّه لم یثبت من الناحیة التأریخیة، کما أنّ الحصار لم یستمرّ طویلا، و بناء على هذا فإنّنا نستطیع القول بأنّه لم یحدث شیء یمکن أن نسمّیه قتالا، و لم یرق دم على الأرض.

و الآیة اللاحقة تبیّن بوضوح مورد صرف (الفیء) الوارد فی الآیة السابقة و تقول بشکل قاعدة کلیّة: ما أَفاءَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَلِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِی الْقُرْبى وَ الْیَتامى وَ الْمَساکِینِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ

و هذا یعنی أنّ هذه الغنائم لیست کباقی الغنائم الحربیة التی یکون خمس منها فقط تحت تصرّف الرّسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و سائر المحتاجین، و الأربعة الأخماس الاخری للمقاتلین.

و إذا ما صرّحت الآیة السابقة برجوع جمیع الغنائم لرسول اللّه صلّى اللّه علیه و آله و سلّم فلا یفهم من ذلک أن یصرفها جمیعا فی موارده الشخصیة، و إنّما أعطیت له لکونه رئیسا للدولة الإسلامیة، و خاصّة کونه المتصدّی لتغطیة حاجات المعوزین، لذا فإنّ القسم الأکبر یصرف فی هذا المجال.

و قد ذکر فی هذه الآیة بصورة عامّة ستّ مصارف للفیء.

۱- سهم للّه، و من البدیهی أنّ اللّه تعالى مالک کلّ شیء، و فی نفس الوقت غیر محتاج لأی شیء، و هذا نوع من النسبة التشریفیة، حتّى لا یحسّ بقیّة الأصناف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۷۹

اللاحقة بالحقارة و الذلّة، بل یرون سهمهم مرادفا لسهم اللّه عزّ و جلّ، فلا ینقص من قدرهم شیء أمام الناس.

۲- سهم الرّسول: و من الطبیعی أن یصرف لتأمین احتیاجاته الشخصیة صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و ما یحتاجه لمقامه المقدّس و توقّعات الناس منه.

۳- سهم ذوی القربى: و المقصود بهم هنا و بدون شکّ أقرباء الرّسول صلّى اللّه علیه و آله و سلّم و بنی هاشم، حیث أنّهم مستثنون من أخذ الزکاة و التی هی جزء من الأموال العامّة للمسلمین ۲۱۲].

و أساسا لا دلیل على أنّ المقصود من ذوی القربى هم أقرباء الناس جمیعا، لأنّه فی هذه الحالة ستشمل جمیع المسلمین، لأنّ الناس بعضهم أقرباء بعض.

و لکن هل هناک شرط یقضی أن یکون ذوو القربى من المحتاجین و الفقراء أو لا یشترط ذلک؟ لقد اختلف المفسّرون فی ذلک بالرغم من أنّ القرائن الموجودة فی نهایة هذه الآیة و الآیة اللاحقة توضّح لزوم شرط الحاجة.

(۴، ۵، ۶): «سهم الیتامى» و «المساکین» و «أبناء السبیل»، و هل أنّ جمیع هؤلاء یلزم أن یکونوا هاشمیین أو أنّها تشمل عموم الیتامى و المساکین و أبناء السبیل؟

اختلف المفسّرون فی ذلک، ففقهاء أهل السنّة و مفسّروهم یعتقدون أنّ هذا الأمر یشمل العموم، فی الوقت الذی اختلفت الروایات الواردة عن أهل البیت علیهم السّلام فی هذا المجال، إذ یستفاد من قسم منها أنّ هذه الأسهم الثلاثة تخصّ الیتامى و المساکین و أبناء

السبيل من بنى هاشم فقط، فى حين صرّحت روايات اخرى بعمومية هذا الحكم، و
نقل أنّ الإمام الباقر عليه السّلام قال: «كان أبى يقول: لنا سهم رسول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۰
اللّه، و سهم ذى القربى و نحن شركاء الناس فيما بقى»[۲۱۳].
و الآيات الثامنة و التاسعة من هذه السورة، التى هى توضيح لهذه الآية، تؤيّد أيضا أنّ هذا السهم لا يختّص ببنى هاشم، لأنّ الحديث دالّ على عموم فقراء المسلمين من المهاجرين و الأنصار.
و بالإضافة إلى ذلك، فقد نقل المفسّرون أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد حادثة بنى النضير قسّم الأموال المتبقية بين المهاجرين من ذوى الحاجة و المسكنة، و على ثلاثة أشخاص من طائفة الأنصار، و هذا دليل آخر على عمومية مفهوم الآية. و إذا لم تكن بعض الروايات متناسبة معها، فينبغى ترجيح ظاهر القرآن ۲۱۴].
ثمّ يستعرض سبحانه فلسفة هذا التقسيم الدقيق بقوله تعالى: كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ فيتداول الأغنياء الثروات فيما بينهم و يحرم منها الفقراء[۲۱۵].
و ذكر بعض المفسّرين سببا لنزول هذه الجملة بشكل خاصّ، و أشير له بشكل إجمالى فى السابق، و هو أنّ مجموعة من زعماء المسلمين قد جاؤوا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد واقعة بنى النضير، و قالوا له: خذ المنتخب و ربع هذه الغنائم، و دع الباقى لنا نقتسمه بيننا، كما كان ذلك فى زمن الجاهلية. فنزلت الآية أعلاه تحذّرهم من تداول هذه الأموال بين الأغنياء فقط.
و المفهوم الذى ورد فى هذه الآية يوضّح أصلا أساسيّا فى الإقتصاد الإسلامى و هو: وجوب التأكيد فى الإقتصاد الإسلامى على عدم تمركز الثروات بيد فئة محدودة و طبقة معيّنة تتداولها فيما بينها، مع كامل الاحترام للملكية
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۱
الشخصية، و ذلك بإعداد برنامج واضح بهذا الصدد يحرّك عملية تداول الثروة بين أكبر قطاع من الامّة.
و من الطبيعى ألّا نقصد من ذلك وضع قوانين و تشريعات من تلقاء أنفسنا و نأخذ الثروات من فئة و نعطيها لآخرين، بل المقصود تطبيق القوانين الإسلامية فى مجال كسب المال، و الالتزام بالتشريعات المالية الاخرى كالخمس و الزكاة و الخراج و الأنفال بصورة صحيحة، و بذلك نحصل على النتيجة المطلوبة، و هى احترام الجهد الشخصى من جهة، و تأمين المصالح الاجتماعية من جهة اخرى، و الحيلولة دون انقسام المجتمع إلى طبقتين: (الأقليّة الثريّة و الأكثرية المستضعفة).
و يضيف سبحانه فى نهاية الآية: وَ ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ
و بالرغم من أنّ هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بنى النضير، إلّا أنّ محتواها حكم عام فى كلّ المجالات، و مدرك واضح على حجيّة سنّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.
و طبقا لهذا الأصل فإنّ جميع المسلمين ملزمون باتّباع التعاليم المحمّدية، و إطاعة أوامر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و اجتناب ما نهى عنه، سواء فى مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الاقتصادية أو العبادية و غيرها، خصوصا أنّ اللّه سبحانه هدّد فى نهاية الآية جميع المخالفين لتعاليمه بعذاب شديد.

بحوث

۱- مصارف الفىء

«الفیء» کما قلنا هو الغنائم التی یحصل علیها المسلمون بدون حرب، و هذه الأموال کانت توضع تحت تصرّف الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باعتباره رئیسا للدولة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۲

الإسلامیة، و هی أموال کثیرة فی الغالب، و خاصّة فی بدایة الفتوحات الإسلامیة و یقدر لهذه الأموال أن تلعب دورا هامّا فی تنمیة الثروة فی المجتمع الإسلامی، خلافا لما کان متّبعا فی الجاهلیة حیث تقسّم هذه الأموال بین أغنیاء القوم فقط، فی حین أنّها وضعت مباشرة تحت تصرّف رئیس الدولة الإسلامیة فی التشریع الإسلامی فیصرفها کما یری حسب الأولویات.

و کما قلنا فی بحث الأنفال فإنّ هذه الأموال تشکّل قسما من «الفیء»، و القسم الآخر من الفیء هو کلّ الأموال التی یکون مالکها مجهولا، کما وضّح ذلک فی الفقه الإسلامی، و تبلغ اثنتا عشرة فقرة، و بهذا فإنّ قسما کبیرا من النعم و الهبات الإلهیّة توضع تحت تصرّف رئیس الدولة الإسلامیة عن هذا الطریق، و من ثمّ تحت تصرّف المحتاجین ۲۱۶].

و یتّضح ممّا تقدّم أن لا تضادّ بین الآیة الاولی و الآیة الثانیة، بالرغم من أنّ الآیة الاولی تضع الفیء تحت تصرّف شخص الرّسول، و الآیة الثانیة توضّح لنا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۳

ستّة أبواب لمصارف الفیء، علی أن یراعی فی صرفها الأولویات الخاصّة.

و بتعبیر آخر، فإنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا یرید الأموال لاموره الشخصیة، بل بعنوان قائد المسلمین و رئیس دولتهم یصرفها فی الأمور التی تحقّق مصلحة الدولة الإسلامیة بشکل عامّ.

و ممّا یجدر بالملاحظة أنّ هذا الحقّ ینتقل من بعد الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی الأئمّة المعصومین علیهم السّلام، و من بعدهم إلی نوّابهم، یعنی (کلّ مجتهد جامع للشرائط) لأنّ الأحکام الإسلامیة لا تعطّل، و الحکومة الإسلامیة من أهمّ المسائل التی یتعامل المسلمون معها. و قسم من هذه الاسس قنّنت ضمن الهیکل الاقتصادی العامّ للمجتمع الإسلامی، کما أنّها تمثّل مبدأ أساسیّا فی النظام الاقتصادی للدولة الإسلامیة.

۲- جواب علی سؤال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۱۸۳

کن أن یطرح هذا السؤال: کیف ألزم اللّه سبحانه جمیع الناس- بدون استثناء- بقبول التعالیم الصادرة من قبل الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بدون قید و شرط؟

و یتّضح الجواب علی هذا السؤال بملاحظة انّنا نعتبر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم معصوما، لذا کان هذا الحقّ له و لخلفائه المعصومین من بعده ضمن هذا الفهم أیضا.

و الملفت للنظر أنّ الروایات العدیدة قد أشارت لهذه المسألة أیضا، و هی أنّ اللّه سبحانه منح کلّ تلک الامتیازات للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لأنّ اللّه عزّ و جلّ اختبره و امتحنه بشکل کامل و لما له من خلق عظیم و سجایا حمیدة، لذا فوّض له مثل هذا الحقّ ۲۱۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۴

۳- القصّة المؤلمة ل (فدک)

«فدک»: إحدى القرى المثمرة فى أطراف المدينة، و تبعد ۱۴۰ كم عن خيبر تقريبا، و لمّا سقطت قلاع «خيبر» فى السنة السابعة للهجرة، الواحدة تلو الاخرى أمام قوّة المسلمين، و اندحر اليهود .. جاء ساكنو فدک يطلبون الصلح مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أعطوا نصف أراضيهم و بساتينهم لرسول اللّه و احتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، و تعهّدوا للرسول بزراعة أراضيه و أخذ الاجرة عوض الجهد الذى يبذلونه.

و من خلال ملاحظة التفاصيل التى وردت حول (الفىء) فى هذه السورة، فإنّ هذه الأرض كانت من مختصّات الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من صلاحيته أن يصرفها فى شؤونه الشخصية، أو ما يراه من المصارف الاخرى التى أشير إليها فى الآية السابعة من نفس هذه السورة، لذلک فإنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وهبها لابنته فاطمة عليها السّلام.

و هذا الحديث صرّح به الكثيرون من المؤرّخين و المفسّرين من أهل السنّة و الشيعة، و من جملة ما ورد فى تفسير الدرّ المنثور، نقلا عن ابن عبّاس فى تفسير قوله تعالى: فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ ۲۱۸] أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما نزلت هذه الآية عليه أعطى فدكا لفاطمة. (أقطع رسول اللّه فاطمة فدكا)[۲۱۹].

و جاء فى كتاب كنز العرفان، أنّه جاء فى حاشية مسند (أحمد) حول مسألة صلة الرحم أنّه نقل عن أبى سعيد الخدرى أنّ الآية أعلاه عند ما نزلت على الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم دعا الرّسول فاطمة، و قال: «يا فاطمة لک فدک»[۲۲۰].

و قد أورد الحاكم النيسابورى هذا المعنى فى تأريخه ۲۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۵

و قد ذكر ابن أبى الحديد قصّة فدک بصورة مفصّلة فى شرح نهج البلاغة[۲۲۲]، كما ذكرت كذلک فى كتب اخرى كثيرة.

إلّا أنّ بعض أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يعتقد أنّ وجود (فدک) بيد زوجة الإمام على عليه السّلام تمثّل قدرة اقتصادية يمكن أن تستخدم فى مجال التحرّک السياسى الخاصّ بالإمام على عليه السّلام. و من جهة اخرى كان هنالک موقف و تصميم على تحجيم حركة الإمام عليه السّلام و أصحابه فى المجالات المختلفة، لذا تمّت مصادرة تلک الأرض بذريعة

الحديث الموضوع: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث).

مع أنّ (فدک) كانت بيد فاطمة عليها السّلام، و ذو اليد لا يطالب بشهادة أو بيّنة. و الجدير بالذكر أنّ الإمام على عليه السّلام قد أقام الشهادة على أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد منح فدكا إلى فاطمة.

إلّا أنّهم مع كلّ هذا لم يرتّبوا أثرا على هذه الشهادة.

و قد استعملت قضيّة فدک عبر العصور التأريخية المختلفة كموضوع يراد التظاهر من خلاله بالودّ لأهل البيت عليهم السّلام من قبل بعض الخلفاء و ذلک لمآرب سياسيّة، فكانوا يرجعون فدكا لآل الرّسول تارة، و يصادرونها ثانية، و قد تكرّر هذا الفعل عدّة مرّات فى فترات حكم خلفاء بنى اميّة و بنى العبّاس.

و قصّة فدک و ما رافقها من أحداث مؤلمة وقعت فى صدر الإسلام هى من أكثر القصص ألما و حزنا، و فى نفس الوقت تكاد أن تكون من أكثر حوادث التاريخ عبرة، و لا بدّ من التوقّف عندها و التأمّل فى أحداثها المختلفة ضمن بحث محايد دقيق.

و الجدير بالملاحظة أنّه

روى مسلم فى صحيحة قال: (حدّثنى محمّد بن رافع، أخبرنا حجين، حدّثنا ليث بن عقيل، عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة، أنّها أخبرته أنّ فاطمة بنت رسول أرسلت إلى أبى بكر الصدّيق تسأله

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۶

میراثها من رسول اللّه ممّا أفاء اللّه علیه بالمدینة و فدک و ما بقی من خمس خیبر، فقال أبو بکر: إنّ رسول اللّه قال: «لا نورّث ما ترکناه صدقة إنّما یأکل آل محمّد فی هذا المال» و انّی و اللّه لا اغیّر شیئا من صدقة رسول اللّه عن حالها التی کانت علیها فی عهد رسول اللّه ... فأبی أبو بکر أن یدفع إلی فاطمة شیئا، فوجدت فاطمة علی أبی بکر فی ذلک. قال: فهجرته فلم تکلّمه حتّی توفّیت)[۲۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۷

الآیات [سورة الحشر (۵۹): الآیات ۸ الی ۱۰]

اشارة

لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِینَ الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ یَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ یَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ (۸) وَ الَّذِینَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِیمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ یُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَیْهِمْ وَ لا یَجِدُونَ فِی صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَ یُؤْثِرُونَ عَلی أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ کانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَ مَنْ یُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۹) وَ الَّذِینَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ یَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونا بِالْإِیمانِ وَ لا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذِینَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّکَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ (۱۰)

التّفسیر

السمات الأساسیة للأنصار و المهاجرین و التابعین:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۸

هذه الآیات- التی هی استمرار للآیات السابقة- تتحدّث حول طبیعة مصارف الفیء الستّة، التی تشمل الأموال و الغنائم التی حصل علیها المسلمون بغیر حرب، و قد أوضحت الآیة المعنی بالیتامی و المساکین و أبناء السبیل، مع التأکید علی المقصود من أبناء السبیل بلحاظ أنّهم یشکّلون أکبر رقم من عدد المسلمین المهاجرین فی ذلک الوقت، حیث ترکوا أموالهم و وطنهم نتیجة الهجرة، و کانوا فقراء بعد أن هجروا الدنیا من أجل دینهم.

یقول تعالی: لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِینَ الَّذِینَ أُخْرِجُوا مِنْ دِیارِهِمْ وَ أَمْوالِهِمْ ۲۲۴] یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً وَ یَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولئِکَ هُمُ الصَّادِقُونَ

هنا بیّنت الآیة ثلاثة أوصاف مهمّة و أساسیة للمهاجرین الأوائل، تتلخص ب (الإخلاص و الجهاد و الصدق).

ثمّ تتناول الآیة مسألة (ابتغاء فضل اللّه و رضاه) حیث تؤکّد هذه الحقیقة و هی: أنّ هجرتهم لم تکن لدنیا أو لهوی نفس، و لکن لرضا اللّه و ثوابه.

و بناء علی هذا ف (الفضل) هنا بمعنی الثواب. و «الرضوان» هو رضا اللّه تعالی الذی یمثّل مرحلة أعلی من مرتبة الثواب. کما بیّنت ذلک آیات عدیدة فی القرآن الکریم، و منها ما جاء فی الآیة ۲۹ من سورة الفتح، حیث وصف أصحاب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الوصف تَراهُمْ رُکَّعاً سُجَّداً یَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً.

و لعلّ التعبیر ب (الفضل) إشارة إلی أنّ هؤلاء المؤمنین یتصوّرون أنّ أعمالهم قلیلة جدّا لا تستحقّ الثواب، و یعتقدون أنّ الثواب الذی غمرهم هو لطف إلهی.

و يرى بعض المفسّرين «الفضل» هنا بمعنى الرزق، أى رزق الدنيا، فقد ورد فى بعض الآيات القرآنية بهذا المعنى أيضا، و لكن بما أنّ المقام هو مقام بيان إخلاص المهاجرين، لذا فإنّ هذا المعنى غير مناسب، و المناسب هو الجزاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۸۹

و الثواب الإلهى.

كما لا يستبعد أن يكون المراد من «الفضل» إشارة للنعم الجسمية، و «الرضوان» هو إشارة للنعم الروحية و المعنوية، و الجميع مرتبط بالآخرة و ليس بالدنيا.

ثمّ إنّ «المهاجرين» ينصرون المبدأ الحقّ دائما، و عونا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لم يتوقّفوا فى جهادهم بهذا السبيل لحظة واحدة (يرجى ملاحظة: أنّ فعل (ينصرون) بصيغة المضارع، و هو دليل على الاستمرار).

و من هنا يتّضح أنّ هؤلاء المهاجرين ليسوا من أصحاب الادّعاءات الفارغة، بل هم رجال حقّ و جهاد، و قد صدقوا اللّه بإيمانهم و تضحياتهم المستمرة.

و فى مرحلة ثالثة يصفهم سبحانه بالصدق، و مع أنّ الصدق له مفهوم واسع، إلّا أنّ صدق هؤلاء يتجسّد فى جميع الأمور: بالإيمان، و فى محبّة الرّسول، و فى التزامهم بمبدإ الحقّ ..

و من الواضح أنّ هذه الصفات كانت لأصحاب الرّسول فى زمن نزول هذه الآيات، إلّا أنّنا نعلم أنّ أشخاصا من بينهم قد فرّطوا بالنعم الإلهية التى غمرتهم، و سلكوا سبيل الضلال كالذين أشعلوا نار حرب الجمل فى البصرة، وصفين فى الشام، و حاربوا خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى كان واجب الطاعة بإجماع المسلمين، و أراقوا دماء الآلاف من المسلمين ...

و فى الآية اللاحقة يستعرض سبحانه ذكر مورد آخر من موارد صرف هذه الأموال، و من بين ما يستعرضه فى الآية الكريمة أيضا وصف رائع و معبّر جدّا عن طائفة الأنصار، و يكمل البحث الذى جاء فى الآية السابقة حول المهاجرين، فيقول سبحانه: وَ الَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَ الْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ

«تبوّؤا» من مادّة (بواء) على وزن (دواء) و هى فى الأصل بمعنى تساوى أجزاء المكان، و بعبارة اخرى يقال: (بواء) لترتيب و تسوية مكان (ما)، هذا التعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۰

كناية لطيفة لهذا المعنى، و هو أنّ طائفة الأنصار- أهل المدينة- قد هيّئوا الأرضية المناسبة للهجرة، و كما يخبرنا التاريخ فإنّ الأنصار قدموا مرّتين إلى «العقبة»- و هى مضيق قرب مكّة- و بايعوا رسول اللّه متنكّرين، و رجعوا إلى المدينة مبلّغين، و معهم «مصعب بن عمير» ليعلّمهم امور دينهم و ليهيئ الأرضية المناسبة لهجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بناء على هذا فإنّ الأنصار لم يهيّؤوا بيوتهم لاستقبال المهاجرين فحسب، بل إنّهم فتحوا قلوبهم و نفوسهم و أجواء مجتمعهم قدر المستطاع للتكيّف فى التعامل مع وضع الهجرة المرتقب.

و التعبير مِنْ قَبْلِهِمْ يوضّح لنا أنّ كلّ تلك الأمور كانت قبل هجرة مسلمى مكّة، و هذا أمر مهمّ.

و انسجاما مع هذا التّفسير، فإنّ أنصار المدينة كانوا مستحقّين لهذه الأموال، و هذا لا يتنافى مع ما نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه أعطى شخصين أو ثلاثة أشخاص من الأنصار- فقط- من أموال بنى النضير، إذ من الممكن أن لا يكون بين الأنصار أشخاص فقراء و مساكين غير هؤلاء، بعكس المهاجرين فإنّهم إن لم يكونوا مصداقا للفقير، فيمكن اعتبارهم مصداقا لأنباء السبيل [۲۲۵].

ثمّ يتطرّق سبحانه إلى بيان ثلاث صفات اخرى توضّح روحية الأنصار بصورة عامّة، حيث يقول تعالى: يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ

فلا فرق بين المسلمين فى وجهة نظرهم و المهمّ لديهم هو مسألة الإيمان و الهجرة و هذا الحبّ كان يعتبر خصوصية مستمرّة لهم.

و الأمر الآخر: وَ لا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا فهم لا يطمعون بالغنائم التى أعطيت للمهاجرين، و لا يحسدونهم عليها، و لا حتّى يحسّون بحاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۱

إلى ما اعطى للمهاجرين منها، و أساسا فإنّ هذه الأمور لا تخطر على بالهم. و هذه الصورة تعكس لنا منتهى السمو الروحى للأنصار.

و يضيف تعالى فى المرحلة الثالثة إلى وصفهم وَ يُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَ لَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ[۲۲۶].

و من هذه السمات الثلاث: «المحبّة» و «عدم الطمع» و «الإيثار»، كانت تتشكّل خصوصية الأنصار المتميّزة.

و نقل المفسّرون قصصا متعدّدة فى شأن نزول هذه الآية:

يقول ابن عبّاس: إنّ الرّسول بيّن للأنصار يوم الإنتصار على يهود بنى النضير، إذا كنتم ترومون المشاركة فى حصّة المهاجرين من الغنائم فشاطروهم بتقسيم أموالكم و بيوتكم، و إذا أردتم أن تبقى بيوتكم و أموالكم لكم فلا شىء لكم من هذه الغنائم؟ فقال الأنصار: علام نتقاسم بيوتنا و أموالنا معهم، نقدّم المهاجرين علينا و لا نطمع بشىء من الغنائم؟ فنزلت هذه الآية تعظّم هذه الروح العالية[۲۲۷].

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ شخصا أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتشكا إليه الجوع، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى منزله، فقالت زوجته: ما عندنا إلّا الماء، فقال رسول اللّه:

من لهذا الرجل الليلة، فتعهّده رجل من الأنصار و صحبه إلى بيته، و لم يكن لديه إلّا القليل من الطعام لأطفاله. و طلب أن يؤتى بالطعام إلى ضيفه و أطفأ السراج، ثمّ قال لزوجته: نوّمى الصبية، ثمّ جلس الرجل و زوجته على سماط الطعام فتظاهروا بالأكل و لم يضعوا شيئا فى أفواههم، و ظنّ الضيف أنّهم يأكلون معه، فأكل حتّى شبع و ناموا الليلة، فلمّا أصبحوا قدموا على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فنظر إليهم و تبسّم (دون أن يتكلّم)، فنزلت الآية أعلاه و أثنت على إيثارهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۲

و نقرأ فى الروايات التى وصلتنا عن طريق أهل البيت عليهم السّلام أنّ المضيف هو الإمام على عليه السّلام و أطفاله الحسن و الحسين عليهم السّلام، و المرأة التى نوّمت الصبية جياعا هى فاطمة الزهراء عليها السّلام ۲۲۸].

و يجدر الانتباه هنا إلى أنّ القصّة الاولى يمكن أن تكون سببا لنزول الآية، و القصّة الثانية من مصاديق تطبيق هذه الآية الكريمة.

و بناء على هذا فإنّ نزول الآيات حول الأنصار لا يتنافى مع كون المضيف هو الإمام على عليه السّلام.

و ذكر البعض- أيضا- أنّ هذه الآية نزلت فى مقاتلى غزوة احد، حيث أنّ سبعة أشخاص منهم جرحوا فى المعركة و قد أنهكهم العطش، فجىء بماء يكفى لأحدهم، فأبى أن يشرب و أومأ إلى صاحبه، و كان الساقى كلّما ذهب إلى أحدهم يشير إلى الآخر و يؤثره على نفسه مع شدّة عطشه، إلى أن وصل إلى الأخير فوجده قد فارق الحياة ثمّ رجع إلى الأوّل فوجده قد فارق الحياة أيضا، و حتّى انتهى إليهم جميعا و هم موتى فأثنى اللّه تعالى على إيثارهم هذا[۲۲۹].

و لكن من الواضح أنّ هذه الآية نزلت فى بنى النضير، و بسبب عمومية مفهومها فإنّها قابلة للتطبيق فى موارد متشابهة.

و فى نهاية الآية- و لمزيد من التأكيد لهذه الصفات الكريمة، و بيان تأثيرها الإيجابى العميق- يضيف سبحانه: وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

«الشحّ» كما يقول الراغب فى المفردات: البخل مقترنا بالحرص عادة.

«يوق» من مادّة وقاية، و بالرغم من أنّه بصيغة فعل مجهول، إلّا أنّه من الواضح أنّ الفاعل هو اللّه سبحانه، و يعنى أنّ كلّ شخص حفظه اللّه سبحانه من هذه الصفة الذميمة فإنّه سيفلح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۳

و نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه: أ تدرى ما الشحّ؟ فأجاب: هو البخيل، قال عليه السّلام: «الشحّ أشدّ من البخل، إنّ البخيل يبخل ممّا فى يده، و الشحيح يشحّ بما فى أيدى الناس، و على ما فى يده، حتّى لا يرى فى أيدى الناس شيئا إلّا تمنّى أن يكون له بالحلّ و الحرام، و لا يقنع بما رزقه اللّه عزّ و جلّ»[۲۳۰].

و نقرأ

فى حديث ثان: «لا- يجتمع الشحّ و الإيمان فى قلب رجل مسلم، و لا- يجتمع غبار فى سبيل اللّه و دخّان جهنّم فى جوف رجل مسلم»[۲۳۱].

و بالجملة، فما يستفاد بوضوح من الآية أعلاه أنّ ترك المرء للشحّ يوصله إلى الفلاح، و من يتّصف بهذه الصفة المذمومة فإنّه يهدم بناء سعادته.

و فى آخر آية مورد البحث يأتى الحديث عن آخر طائفة من المسلمين، الذين عرفوا بيننا باصطلاح القرآن الكريم ب (التابعين)، و الذين يشكّلون المجموعة الغالبة من المسلمين بعد المهاجرين و الأنصار الذين تحدّثت عنهم الآيات السابقة.

يقول تعالى: وَ الَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ، وَ لا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ

بالرغم من أنّ بعض المفسّرين قد حدّد مفهوم هذه الآية بمجموعة من الأشخاص الذين التحقوا بالمسلمين بعد انتصار الإسلام و فتح مكّة، إلّا أنّه لا يوجد دليل على هذه المحدوديّة الخاصّة بل تشمل جميع المسلمين إلى يوم القيامة، و على فرض أنّ هذه الآية ناضرة إلى فئة خاصّة، إلّا أنّها عامّة من حيث الملاك و المعيار و النتيجة.

و بهذا فإنّ الآيات الثلاثة المتقدّمة تشمل جميع مسلمى العالم، الذين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۴

ينضوون إلى واحدة من هذه الطوائف الثلاثة، و هم: (المهاجرون و الأنصار و التابعون).

جملة وَ الَّذِينَ جاؤُ ... حسب الظاهر عطف على لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ و ذلك لبيان هذه الحقيقة، و هى أنّ أموال «الفىء» لا تنحصر بمحتاجى المهاجرين و الأنصار فقط، بل تشمل سائر المحتاجين من المسلمين على مرّ العصور.

و يحتمل أيضا أنّ الجملة مستقلّة (بأن تكون جملة وَ الَّذِينَ جاؤُ ... مبتدأ (و يقولون) خبر) إلّا أنّ التّفسير الأوّل- بالنظر إلى انسجامه مع الآيات السابقة- هو الأنسب.

و الملاحظ هنا هو أنّ الآية تذكر ثلاث صفات للتابعين:

الاولى: أنّهم يفكّرون فى إصلاح أنفسهم، و طلب العفو و المغفرة و التوبة من اللّه تعالى.

و الثّانية: النظرة المقترنة بالإكبار و الإجلال و الاحترام إلى من سبقهم بالإيمان، و يطلبون لهم أيضا العفو و المغفرة من اللّه تعالى.

الثّالثة: أنّهم يسعون بكلّ وسيلة إلى تهذيب أنفسهم و تطهيرها من الحقد و الحسد و البغض و العداء، و يطلبون العون من اللّه الرؤوف الرحيم لمساعدتهم فى هذا الطريق.

و بهذا الترتيب فإنّ خصوصياتهم هى: (تربية النفس) و (الاحترام للسابقين فى الإيمان) و (الابتعاد عن الحسد و البغضاء).

«غلّ» على وزن (سلّ)، جاءت فى الأصل بمعنى نفوذ الشىء بخفية، و لذا يقال للماء الجارى بين الأشجار (غلل) و لأنّ الحسد و العداوة و البغضاء تنفذ فى قلب الإنسان بصورة خفيّة، يقال لها: «غل». و بناء على هذا فإنّ (الغلّ) ليس فقط بمعنى الحسد، و لكنّه مفهوم واسع يشمل الكثير من الصفات الخفيّة و القبيحة أخلاقيا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۵

و التعبیر ب (إخوان) و الاستمداد من الرؤوف الرحیم فی نهایة الآیة یحکی عن روح المحبّة و الصفاء و الاخوّة التی یجب أن تسود المجتمع الإسلامی أجمع. فکلّ شخص یتمنّی صفة حسنة لا یتمنّاها لنفسه فحسب، بل للآخرین أیضا، و لتشمل المجتمع بصورة عامّة، و بذلک تطهّر القلوب من کلّ أنواع العداء و البغضاء و الحسد و الحرص، و هذا هو المجتمع الإسلامی النموذجی.

بحث

الصحابة فی میزان القرآن و التاریخ:

یصرّ بعض المفسّرین- بدون الالتفات إلی الصفات التی مرّت بنا فی الآیات السابقة لکلّ من المهاجرین و الأنصار و التابعین- علی اعتبار جمیع الصحابة بدون استثناء متّصفین بجمیع الصفات الإیجابیة (للمهاجرین و الأنصار و التابعین) و أنّهم نموذج یقتدی بهم من حیث نزاهتهم و طهرهم و التسامح فیما بینهم، و کلّ خلاف صدر منهم أحیانا سواء فی زمن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو من بعده فإنّهم یغضّون النظر عنه، و بهذا اعتبروا کلّ مهاجر و أنصاری و تابع شخصا محترما و مقدّسا بصورة عامّة، دون الالتفات إلی أعمالهم و تقییمها حسب الموازین الشرعیة.

إلّا أنّ الملاحظ أنّ فی الآیات أعلاه رفض واضح إزاء هذا الفهم، حیث تحدّد الآیة التقییم وفق ضوابط و موازین دقیقة للمهاجرین الحقیقیین و الأنصار و التابعین.

ففی «المهاجرین»: الإخلاص و الجهاد و الصدق.

و فی «الأنصار»: المحبّة للمهاجرین و الإیثار، و الابتعاد عن کلّ حرص و بخل.

و فی «التابعین»: بناء أنفسهم، و الاحترام للسابقین فی الإیمان، و الابتعاد عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۶

کلّ بغض و حسد.

و مع کلّ هذا، کیف یمکن أن نحترم الأشخاص الذین قاتلوا الإمام علی علیه السّلام فی معرکة الجمل و شهروا سیفهم علیه، و لم یراعوا اخوته فی اللّه، و لم یطهّروا قلوبهم من البغض و الحسد تجاهه، و لا احترموا أسبقیته فی الإیمان، و بعد کلّ ذلک لا یجوز لنا انتقادهم، بل یجب علینا التسلیم و بدون نقاش لأحادیث هذا و ذاک دون تمحیص و تثبّت.

و بناء علی هذا فإنّنا فی الوقت الذی نحترم فیه السابقین فی خطّ الرسالة و الإیمان، یجدر بنا أن ندقّق فی سوابقهم و ملفّ فعالهم، سواء علی عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أو المخاضات المختلفة التی حدثت بعده فی التأریخ الإسلامی، و علی أساس الضوابط و المعاییر الإسلامیة المستلهمة من هذه الآیات المبارکات نحکم لهم أو علیهم، و عندئذ نقوّی أواصرنا مع من بقی علی العهد، و نقطعها أو نحدّدها- بما یناسب- مع من ضعفت روابطهم أو قطعوها مع تلک الموازین و الضوابط، و هذا هو المنطق الصحیح و المنسجم مع حکم القرآن و العقل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۷

الآیات [سورة الحشر (۵۹): الآیات ۱۱ الی ۱۴]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۱) لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (۱۲) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (۱۳) لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ (۱۴)

سبب النّزول

نقل بعض المفسّرين سببا لنزول الآيات أعلاه، و الذى خلاصته ما يلى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۸

إنّ قسما من منافقى المدينة- كعبد اللّه بن أبى و أصحابه- أرسلوا شخصا إلى يهود بنى النضير و أبلغهم بما يلى: أثبتوا فى أماكنكم بقوّة، و لا تخرجوا من بيوتكم، و حصّنوا قلاعكم، و سيكون إلى جنبكم ألفا مقاتل من قومنا مدد لكم، و إنّنا معكم حتّى النهاية. كما أنّ بنى قريظة و قبيلة غطفان و المتعاطفين معكم سيلتحقون بكم أيضا.

إنّ هذه الرسالة- التى وجّهها المنافق عبد اللّه بن أبى إلى اليهود بنى النضير- أوجدت لديهم الإصرار و العناد على مخالفة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الخروج عن أمره، و فى هذه الحالة انبرى (سلام) أحد كبار يهود بنى النضير إلى «حى بن أخطب» الذى كان أحد وجوه بنى النضير و قال له: لا تهتّموا بكلام عبد اللّه بن أبى، إنّه يريد أن يدفعكم لقتال محمّد و يجلس فى داره و يسلّمكم للحوادث، قال حى: نحن لا نعرف شيئا إلّا العداء ل (محمّد) و القتال له، فأجابه سلام: اقسم باللّه أنّى أراهم سيخرجوننا قريبا و يهدرون أموالنا و شرفنا و تؤسر أطفالنا و يقتل مقاتلونا[۲۳۲].

و أخيرا تبيّن الآيات أعلاه نهاية المطاف لهذا المشهد.

و يعتقد البعض أنّ هذه الآيات نزلت قبل قصّة يهود بنى النضير، حيث تتحدّث عن الحوادث المستقبلية لهذه الوقائع، و بهذا اللحاظ فإنّهم يعتبرونها إحدى المفردات الغيبية للقرآن الكريم.

و رغم أنّ التعابير التى وردت فى الآيات الكريمة كانت بصيغة المضارع و بذلك تؤيّد وجهة النظر هذه، إلّا أنّ العلاقة بين هذه الآيات و الآيات السابقة التى نزلت بعد اندحار بنى النضير و إبعادهم عن المدينة، تؤكّد لنا أنّ هذه الآيات أيضا نزلت بعد هذا الحادث، و لذا كان التعبير بصيغة المضارع بعنوان حكاية الحال.

«فتدبّر»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۱۹۹

التّفسير

دور المنافقين فى فتن اليهود:

بعد بيان ما جرى ليهود بنى النضير فى الآيات السابقة، و بيان حالة الأصناف الثلاثة من المؤمنين (المهاجرين و الأنصار و التابعين) و خصوصيات كلّ منهم فى الآيات مورد البحث، يتعرّض القرآن الكريم الآن لشرح حالة المنافقين و دورهم فى هذا الحادث، و بيان حالهم بالقياس مع الآخرين، و هذا هو منهج القرآن الكريم، حيث يعرّف كلّ طائفة بمقارنتها مع الاخرى.

و فى البداية يتحدّث مع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول سبحانه: أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ

كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ

و هكذا فانّ هؤلاء المنافقين و عدوا طائفة اليهود بأمور ثلاثة، و جميعها كانت كاذبة:

الأوّل: إذا أخرجتم من هذه الأرض فإنّنا سوف لن نبقى بعدكم نتطلّع إلى خواء أماكنكم و دياركم.

و الأمر الآخر: إذا صدر أمر ضدّكم من أى شخص، و فى أىّ مقام، و فى أى وقت، فإنّ موقفنا الرفض له و عدم الاستجابة.

و الأمر الثالث: إنّه إذا وصل الأمر للقتال فإنّنا سوف نقف إلى جانبكم و لا نتردّد فى نصرتكم أبدا.

نعم، هذه هى الوعود التى أعطاها المنافقون لليهود قبل هذا الحادث، إلّا أنّ الحوادث اللاحقة أو ضحت كذب ادّعاءاتهم و وعودهم.

و لهذا السبب يقول القرآن الكريم بصراحة وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ

كم هو تعبير رائع و مثير و مقترن بتأكيدات عديدة، من شهادة اللّه عزّ و جلّ، و كون الجملة اسمية، و كذلك الاستفادة من (إنّ) و اللام للتأكيد، و كلّها تفيد أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۰

الكذب و النفاق ممتزجان بهم لحدّ لا يمكن فصلهما، لقد كان المنافقون كاذبين دائما، و الكاذبون منافقين غالبا.

و التعبير ب (إخوانهم) يوضّح لنا طبيعة العلاقة الحميمة جدّا بين «المنافقين» و «الكفّار»، كما ركّزت الآيات السابقة على علاقة الاخوة بين المؤمنين، مع ملاحظة الاختلاف بين الفصيلتين، و هو أنّ المؤمنين صادقون فى اخوتهم لذلك فهم لا يتبرّمون بكلّ ما يؤثرون به على أنفسهم، على عكس المنافقين حيث ليس لهم وفاء أو مواساة بعضهم لبعض، و تتبيّن حقيقتهم بصورة أوضح فى اللحظات الحرجة حيث يتخلّون عن أقرب الناس لهم، بل حتّى عن إخوانهم، و هذا هو محور الاختلاف بين نوعين من الاخوة، اخوة المؤمنين و اخوة المنافقين.

و جملة: وَ لا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً تشير إلى موقف المنافقين الذى أعلنوه لليهود بأنّهم سوف لن يراعوا التوصيّات و الإنذارات التى أطلقها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيهم.

ثمّ .. للإيضاح و التأكيد الأكثر حول كذب المنافقين يضيف سبحانه:

لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ

وَ لَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ

وَ لَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ.

ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ

إنّ اللحن القاطع و القوى لهذه الآيات قد أدخل الرعب و الهلع فى قلوب المنافقين و أقلق بالهم.

و بالرغم من أنّ الآية نزلت فى مورد معيّن، إلّا أنّها- من المسلّم- لا تختص به، بل بيان أصل عامّ فى علاقة المنافقين مع سائر أعداء الإسلام، بالإضافة إلى الوعود الكاذبة التى يمنحها كلّ منهم للآخر، و تقرّر بطلان و خواء كلّ هذه الروابط و الوعود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۱

و لا يختّص هذا الأمر بما حدث تأريخيا فى صدر الإسلام، بل إنّنا نلاحظ اليوم بأعيننا نماذج و صورا حيّة لا تخفى على أحد، فى طبيعة تعامل المنافقين فى الدولة الإسلامية مع مختلف الفصائل المعادية للإسلام، و سوف تصدق أيضا فى المستقبل القريب و البعيد.

و من المسلّم أنّ المؤمنين الصادقين إذا التزموا بواجباتهم فإنّهم سينتصرون عليهم، و يحبطون خططهم.

و الآية اللاحقة تتحدّث عن سبب هذا الاندحار، حيث يقول سبحانه: لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ

و لأنّهم لا يخافون اللّه، فإنّهم يخافون كلّ شىء خصوصا إذا كان لهم أعداء مؤمنون مثلكم ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ

«رهبة» فى الأصل بمعنى الخوف المقترن بالاضطراب و الحذر، فهو خوف عميق له جذور و تظهر آثاره فى العمل.

و بالرغم من أنّ الآية أعلاه نزلت فى يهود بنى النضير و أسباب اندحارهم أمام المسلمين، إلّا أنّ مقصودها حكم عام و كلّى، لأنّه لن يجتمع فى قلب الإنسان خوفان: الخوف من اللّه، و الخوف من غيره. لأنّ كلّ شىء مسخّر بأمر اللّه، و كلّ إنسان يخشى اللّه و يعلم مدى قدرته لا ينبغى أن يخاف من غيره.

إنّ مصدر جميع هذه الآلام هو الجهل و عدم إدراك حقيقة التوحيد، و لو كان مسلمو اليوم بالمعنى الواقعى (يعنى مؤمنين موحّدين حقّا) فإنّهم لا يقفون بشجاعة أمام القوى الكبرى بإمكاناتها المادية و العسكرية فحسب، بل إنّ القوى الكبرى هى التى تخشاهم و تخاف منهم، كما نلاحظ نماذج حيّة لهذا المعنى، حيث نرى دولا كبرى مع ما لديها من الأسلحة و الوسائل المتطوّرة تخشى شعبا صغيرا لأنّه مسلّح بالإيمان و متّصف بالتضحية.

و شبيه هذا المعنى ما ورد فى قوله تعالى: سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۲

الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَ مَأْواهُمُ النَّارُ وَ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ۲۳۳].

ثمّ يستعرض دليلا واقعيا واضحا يعبّر عن حالة الخوف و الاضطراب حيث يقول سبحانه: لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ.

«قرى» جمع قرية، أعمّ من المزروعة و غير المزروعة، و تأتى أحيانا بمعنى الناس المجتمعين فى مكان واحد.

«محصّنة» من مادّة (حصن) على وزن «جسم» بمعنى مسوّرة، و بناء على هذا فإنّ (القرى المحصّنة) تعنى القرى التى تكون فى أمان بوسيلة أبراجها و خنادقها و المواضع التى تعيق تقدّم العدو فيها.

«جدر» جمع جدار، و الأساس لهذه الكلمة بمعنى الارتفاع و العلو.

نعم، بما أنّهم خرجوا من حصن الإيمان و التوكّل على اللّه، فإنّهم بغير الالتجاء و الاتّكاء على الجدران و القلاع المحكمة لا يتجرّؤون على مواجهة المؤمنين.

ثمّ يوضّح أنّ هذا ليس ناتجا عن جهل بمعرفة فنون الحرب، أو قلّة فى عددهم و عدّتهم، أو عجز فى رجالهم، بل إنّ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ.

إلّا أنّ المشهد الذى عرض يتغيّر فى حالة مواجهتهم لكم و يسيطر عليهم الرعب و الاضطراب بصورة مذهلة.

و هذا الأمر تقريبا يمثّل أصلا كليّا فى مورد اقتتال الفئات غير المؤمنة فيما بينهم، و كذلك محاربتهم للمؤمنين.

و نشاهد مصاديق هذا المعنى بصورة متكرّرة أيضا فى التأريخ المعاصر، حيث نلحظ عند اشتباك مجموعتين غير مؤمنتين مع بعضهما شدّة الفتك و قسوة الانتقام و شراسة المواجهة بينهما بصورة لا تدعو للشكّ فى قوّة كلّ منهما ... و لكن لو تغيّرت المعادلة، و أصبحت المواجهة بين مجموعة غير مؤمنة باللّه و اخرى مؤمنة مستعدّة للشهادة فى سبيل اللّه، عند ذلك نرى أعداء الحقّ يلوذون إلى القلاع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۳

المحكمة و يخفون أنفسهم فى المواضع و وراء المتاريس و خلف الأسلحة، و يسيطر عليهم الخوف و يهيمن عليهم الرعب و يملأ كلّ وجودهم، و الحقيقة أنّ المسلمين إذا جعلوا إيمانهم و قيمهم الإسلامية هى الأساس فإنّهم منتصرون و متفوقون على الأعداء بلا ريب.

و لهذا السبب- و استمرارا لما ورد فى نفس الآية- نستعرض سببا آخر من أسباب اندحار المنافقين، حيث يقول سبحانه: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَ قُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

«شتّى» بمعنى (شتيت) أى متفرّق.

إنّ القرآن الكريم فى تحليل المسائل بشكل دقيق جدّا و ملهم يؤكّد على أنّ (التفرقة و النفاق الداخلى) وليدة (الجهل و عدم المعرفة)

لأنّ الجهل عامل الشرك، و الشرك عامل للتفرقة، و التفرقة تسبّب الهزيمة. و بالعكس فإنّ «العلم» عامل لوحدة العقيدة و العمل و الانسجام و الاتّفاق، و هذه الصفات بحدّ ذاتها مصدر للانتصار.

و هكذا فإنّ الانسجام الظاهرى للعناصر غير المؤمنة و الاتفاقيات العسكرية و الاقتصادية يجب ألّا تخدعنا أبدا، لأنّ وراءها قلوب متناحرة متنافرة، و دليلها واضح و هو انهماك كلّ منهم بمنافعه المادية بشكل شديد، و بما أنّ المنافع غالبا ما تكون متعارضة، فعندئذ تبرز الاختلافات و الشحناء فيما بينهم، و لن تغنى عن ذلك العهود و الاتّفاقيات و شعارات الوحدة و الانسجام الظاهرى. فى الوقت الذى تكون فيه وحدة و انسجام المؤمنين على قواعد و اصول ربّانية كأصل الإيمان و التوحيد و القيم الإلهية، و إذا أصيب المسلمون بانتكاسة فى أعمالهم فإنّ ذلك دليل على ابتعادهم عن حقيقة الإيمان و ما لم يعودوا إلى الإيمان فإنّ وضعهم لن يتحسّن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۴

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۱۵ الى ۲۰]

اشارة

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱۵) كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ (۱۶) فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ (۱۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۸) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۱۹)

لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ (۲۰)

التّفسير

حيل الشيطان و المهالك:

يستمرّ البحث فى هذه الآيات حول قصّة بنى النضير و المنافقين و رسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۵

خصوصية كلّ منهم فى تشبيهين رائعين:

يقول سبحانه فى البداية: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ۲۳۴].

تحدّثنا هذه الآية عن ضرورة الإعتبار بما جرى لبنى النضير و القوم الذين كانوا من قبلهم و ما جرى لهم، خاصّة و أنّ الفترة الزمنية بين الحادثتين غير بعيدة.

و يعتقد البعض أنّ المقصود بقوله: الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ هم مشركو مكّة الذين ذاقوا مرارة الهزيمة بكلّ كبريائهم فى غزوة «بدر»، و أنهكتهم ضربات مقاتلى الإسلام، لأنّ هذه الحادثة لم يمرّ عليها وقت طويل بالنسبة لحادثة بنى النضير، ذلك لأنّ حادثة بنى النضير- كما أشرنا سابقا- حدثت بعد غزوة «احد»، و غزوة بدر قبل غزوة احد بسنة واحدة، و بناء على هذا فلم يمض وقت طويل بين الحادثتين.

فى الوقت الذى يعتبرها كثير من المفسّرين إشارة إلى قصّة يهود «بنى قينقاع»، التى حدثت بعد غزوة بدر، و انتهت بإخراجهم من المدينة.

و طبيعى أنّ هـذا التّفسير منـاسب أكثر- حسب الظـاهر- باعتبـاره متلائمـا أكثر مع يهود بنى النضـير، لأنّ يهود بنى قينقاع كيهود بنى النضـير كانوا ذوى ثراء و مغرورين بقـدرتهم القتاليـة، يهـدّدون رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المسـلمين بقوّتهم و قدرتهم العسكرية- كما سنذكر ذلك تفصيلا إن شاء اللّه- إلّا أنّ العاقبة لم تكن غير حصاد التيه و التعاسة فى الدنيا و العذاب فى الآخرة.

«و بـال» بمعنى (عاقبـة الشؤم و المرارة) و هى فى الأصل مأخوذة من (وابل) بمعنى المطر الغزير، لأنّ المطر الغزير غالبا ما يكون مخيفا و يقلق الإنسان من عاقبته المرتقبة، كالسيول الخطرة و الدمار و ما إلى ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۶

ثمّ يسـتعرض القرآن الكريم تشبيهـا للمنـافقين حيث يقول سـبحانه: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِينَ ۲۳۵].

ما المقصود ب «الإنسان» فى هذه الآية؟

هل هو مطلق الإنسان الـذى يقع تحت تأثير الشـيطان، و ينخدع بأحابيله و وعوده الكاذبة، و يسـير به فى طريق الكفر و الضـلال، ثمّ إنّ الشيطان يتركه و يتبرّأ منهم؟.

أو أنّ المقصود به شـخص خـاصّ أو (إنسان معيّن) كأبى جهل و أتباعه، حيث أنّ ما حصل لهم فى غزوة بـدر كان نتيجـة تفاعلهم مع الوعود الكاذبـة للشـيطان، و أخيرا ذاقوا و بـال أمرهم و طعم المرارة المؤلمـة للهزيمـة و الانكسـار، كمـا فى قوله تعالى: وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطـانُ أَعْمـالَهُمْ وَ قالَ لا غالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّى جارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَراءَتِ الْفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ وَ قالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرى ما لا تَرَوْنَ، إِنِّى أَخافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ ۲۳۶].

أو أنّ المقصود منه هنا هو (برصـيصا) عابد بنى إسـرائيل، حيث انخدع بالشيطان و كفر باللّه، و فى اللحظات الحاسمة تبرّأ الشيطان منه و ابتعد عنه، كما سيأتى شرح ذلك إن شاء اللّه ...؟

التّفسـير الأوّل هو الأـكثر انسـجاما مع مفهوم الآيـة الكريمـة، أمّـا التّفسـيران الثـانى و الثالث فنسـتطيع أن نقول عنهما: إنّهما بيان بعض مصاديق هذا المفهوم الواسع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۷

و على كـلّ حال فإنّ العـذاب الـذى يخشاه الشـيطان- فى الظاهر- هو عـذاب الـدنيا، و بناء على هـذا فإنّ خوفه جـدّى و ليس هزلا أو مزاحا، ذلك لأنّ الكثير من الأشـخاص يخشون العقوبات الدنيويـة المحـدودة، إلّا أنّهم لا يأبهون للعقوبات البعيدة المدى و لا يعيرون لها اهتماما.

نعم، هكـذا حـال المنـافقين حيث يـدفعون بحلفـائهم من خلال الوعود الكاذبـة و المكر و الحيلـة إلى اتون المعـارك و المشاكـل ثمّ يتركونهم لوحدهم، و يتخلّون عنهم، لأنّ الوفاء لا يجتمع و النفاق.

و تتحدّث الآية اللاحقة عن مصير هاتين الجماعتين (الشيطان و أتباعه، و المنافقين و حلفائهم من أهل الكفر) و عاقبتهما البائسة، حيث النار خالدين فيها، فيقول سبحانه عنهم: فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِى النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ ۲۳۷].

و هذا أصل كلّى فإنّ عاقبة تعاون الكفر و النفاق، و الشيطان و حزبه، هو الهزيمة و الخذلان، و عدم الموفّقية، و عذاب الدنيا و الآخرة، فى الوقت الـذى تكون ثمره تعـاون المؤمنين و أصـدقائهم تعاون وثيق و بنّاء، و عاقبته الخير و نهايته الإنتصار و التمتع بالرحمـة الإلهية الواسعة فى عالم الدنيا و الآخرة.

و توجّه الآيـة اللاحقة حديثها للمؤمنين بعنوان اسـتنتاج من حالة الشؤم و البؤس التى اعترت المنافقين و بنى النضـير و الشـياطين، حيث يقول تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ[۲۳۸].

ثمّ يضيف تعالى مرّة اخرى للتأكيد بقوله: وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۸

نعم، التقوى و الخوف من اللّه يدعوان الإنسان للتفكير بيوم غده (القيامة) بالإضافة إلى السعى إلى تنقية و تخليص و تطهير أعماله.

إنّ تكرار الأمر بالتقوى هنا تأكيد محفّز للعمل الصالح، كما أنّ الرادع عن ارتكاب الذنوب هو التقوى و الخوف من اللّه تعالى.

و احتمل البعض أنّ الأمر الأوّل للتقوى هو بلحاظ أصل إنجاز الأعمال، أمّا الثانى فإنّه يتعلّق بطبيعة الإخلاص فيها.

أو أنّ الأوّل ملاحظ فيه إنجاز أعمال الخير، بقرينة جملة (ما قدّمت). و الثانى ملاحظ فيه ما يتعلّق بتجنّب المعاصى و الذنوب.

أو أنّ الأوّل إشارة إلى التوبة من الذنوب الماضية، و الثانى (تقوى) للمستقبل.

إلّا أنّه لا توجد قرينة فى الآيات لهذه التفاسير، لذا فإنّ التأكّد أنسب.

و التعبير ب (غد) إشارة إلى يوم القيامة، لأنّه بالنظر إلى قياس عمر الدنيا فإنّه يأتى مسرعا، كما أنّ ذكره هنا بصيغة النكرة جاء لأهمّيته.

و التعبير ب (نفس) دلالة على مفرد، و يمكن أن تعنى كلّ نفس، يعنى كلّ إنسان يجب أن يفكّر ب (غده) بدون أن يتوقّع من الآخرين إنجاز عمل له، و ما دام هو فى هذه الدنيا فإنّه يستطيع أن يقدّم لآخرته بإرسال الأعمال الصالحة من الآن إليها.

و قيل أنّه إشارة إلى قلّة الأشخاص الذين يفكّرون بيوم القيامة، كما نقول:

(يوجد شخص واحد يفكّر بنجاة نفسه) إلّا أنّ التّفسير الأوّل هو الأنسب حسب الظاهر، كما أنّ خطاب يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا و عمومية الأمر بالتقوى، دليل على عمومية مفهوم الآية.

و أكّدت الآية اللاحقة بعد الأمر بالتقوى و التوجّه إلى يوم القيامة على ذكر اللّه سبحانه، حيث يقول تعالى: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ

و أساسا فإنّ جوهر التقوى شيئان: ذكر اللّه تعالى، و ذلك بالتوجّه و الانشداد إليه من خلال المراقبة الدائمة منه و استشعار حضوره فى كلّ مكان و فى كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۰۹

الأحوال، و الخشية من محكمة عدله و دقّة حسابه الذى لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها فى صحيفة أعمالنا .. و لذا فإنّ التوجّه إلى هذين الأساسين (المبدأ و المعاد) كان على رأس البرامج التربوية للأنبياء و الأولياء، و ذلك لتأثيرها العميق فى تطهير الفرد و المجتمع.

و النقطة الجديرة بالملاحظة أنّ القرآن الكريم يعلن هنا- بصراحة- أنّ الغفلة عن اللّه تسبّب الغفلة عن الذات، و دليل ذلك واضح أيضا، لأنّ نسيان اللّه يؤدّى من جهة إلى انغماس الإنسان فى اللذات المادية و الشهوات الحيوانية، و ينسى خالقه، و بالتالى يغفل عن ادّخار ما ينبغى له فى يوم القيامة.

و من جهة اخرى فانّ نسيان اللّه و نسيان صفاته المقدّسة و أنّه سبحانه هو الوجود المطلق و العالم اللامتناهى، و الغنى اللامحدود .. و كلّ ما سواه مرتبط به، و محتاج لذاته المقدّسة .. كلّ ذلك يسبّب أن يتصوّر نفسه مستقلا و مستغنيا عن المبدأ[۲۳۹].

و أساسا فإنّ النسيان- بحدّ ذاته- من أكبر مظاهر تعاسة الإنسان و شقائه، لأنّ قيمة الإنسان فى قابلياته و لياقاته الذاتية و طبيعة خلقه التى تميّزه عن الكثير من المخلوقات، و إذا نسيها فهذا يعنى نسيان إنسانيته، و فى مثل هذه الحالة يسقط الإنسان فى وحل الحيوانية، و يصبح همّه الأكل و الشرب و النوم و الشهوات.

و هذه كلّها عامل أساس للفسق و الفجور، بل إنّ نسيان الذات هو من أسوأ مصاديق الفسق و الخروج عن طاعة اللّه، و لهذا يقول سبحانه: أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ

و ممّا يجدر بيانه أنّ الآية لم تقل «لا تنسوا اللّه»، بل وردت بعبارة وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ أى كالأشخاص الذين نسوا اللّه

فأنساهم أنفسهم، و هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۰

فى الحقيقة بيان مصداق حسّى و واضح يمكن للإنسان أن يرى فيه عاقبة نسيان اللّه تعالى.

و الظاهر أنّ المقصود فى هـذه الآيـة هم المنافقون و الذين أشـير لهم فى الآيات السابقة، أو أنّ الملاحظ فيها هم يهود بنى النضـير، أو كلاهما.

و جـاء نظير هـذا المعنى فى قوله تعـالى: الْمُنـافِقُونَ وَ الْمُنافِقـاتُ بَعْضُـهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَـأْمُرُونَ بِـالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ ۲۴۰].

و مع وجود قـدر من التفاوت بين الآيتين، أنّه ذكر نسـيان اللّه هناك كسـبب لقطع رحمة اللّه عن الإنسان، و فى هذه الآية محل البحث سبب لنسـيان الـذات. و بالتالى فإنّ الآيتين تنتهيان إلى نقطة واحدة. «فلاحظ» و فى آخر آية- مورد البحث- يسـتعرض سـبحانه مقارنة بين هاتين الجماعتين: الجماعـة المؤمنة المتّقية السائرة باتّجاه المبدأ و المعاد، و الجماعة الغافلة عن ذكر اللّه، التى ابتليت كنتيجة للغفلة عن اللّه بنسيان ذاتها.

حيث يقول سبحانه: لا يَسْتَوِى أَصْحابُ النَّارِ وَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ.

ليس فى الـدنيا، و لا- فى المعتقـدات، و ليس فى طريقـة التفكير و المنهـج، و ليس فى طريقـة الحيـاة الفرديـة و الاجتماعيـة للإنسان و أهـدافه، و لا فى المحصّـلة الأخرويـة و الجزاء الإلهى .. إذ أنّ خطّ كلّ مجموعة من هاتين المجموعتين فى اتّجاه متعارض .. متعارض فى كـلّ شـىء و كلّ مكان و كلّ هـدف .. إحـداهما تؤكّـد على ذكر اللّه و القيامـة و إحياء القيم الإنسانيـة الرفيعـة، و القيام بالأعمال الصالحـة كـذخيرة ليوم لا ينفع فيه مال و لا بنون .. و الاخرى غارقة فى الشـهوات و اللذات المادية، و أسـيرة الأهواء و مبتلية بالنسـيان ۲۴۱] .. و بهذا فإنّ الإنسان على مفترق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۱

طريقين، إمّا أن يرتبط بالقسم الأوّل، أو بالقسم الثانى، و ليس غيرهما من سبيل آخر.

و فى نهاية الآية نلاحظ حكما قاطعا حيث يضيف سبحانه: أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ

فليس فى الـدار الآخرة فقط يوجـد (فائزون و خاسـرون) بل فى هـذه الدنيا أيضا، حيث يكون الإنتصار و النجاة و السـكينة من نصـيب المؤمنين المتّقين، كما أنّ الهزيمة و الخسران فى الدارين تكون من نصيب الغافلين.

و نقرأ فى حديث لرسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أنّه فسّر (أصحاب الجنّة) بالأشخاص الذين أطاعوه، و تقبّلوا ولاية على عليه السّلام. و أصحاب النار بالأشخاص الذين رفضوا ولاية على عليه السّلام، و نقضوا العهد معه و حاربوه ۲۴۲].

و طبيعى أنّ هذا أحد المصاديق الواضحة لمفهوم الآية، و لا يحدّد عموميتها.

بحوث

۱- التعاون العقيم مع أهل النفاق

إنّ مـا جـاء فى الآيـات أعلاه حول نقض العهـد من قبـل المنافقين و التخلّى عن حلفائهم فى المواقف الحرجـة و الحاسـمة، هو مسألة ملاحظـة فى حياتنـا العمليـة أيضا .. إنّهم شـياطين يعـدون هـذا و ذاك بالعون و الـدعم و يـدفعونهم إلى لهوات الموت، و لكن حينما تحين ساعـة الجدّ و الضـيق يتخلّون عنهم و يهربون منهم حفاظا على أنفسـهم، بالإضافة إلى أنّهم يملؤون قلوبهم بالشكّ و الوسوسة و

یدنسونهم بمختلف الذنوب.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۲

و لیعلم بهذا کلّ من یروم التعاون مع النفاق و أهله، حیث سیلقی نفس المصیر السابق.

و النموذج الذی نلاحظه فی عصرنا هو: طبیعة الاتفاقات التی تبرمها القوی الکبری و الشیاطین المعاصرین مع رؤوساء الحکومات المرتبطة بهم، و الذی نلاحظه بصورة متکرّرة أنّ هذه الدول بالرغم من أنّها وضعت کلّ ما تملک فی طبق و قدّمته لهؤلاء المستکبرین .. إلّا أنّ هؤلاء خذلوهم فی المواطن الصعبة و الساعات الحرجة، فترکوهم لوحدهم حیث تتقاذفهم أعاصیر المحن و أمواج الأزمات، و حیث یتجسّد فیهم قول اللّه تعالی کما ورد فی القرآن الکریم بشأنهم:

کَمَثَلِ الشَّیْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اکْفُرْ فَلَمَّا کَفَرَ قالَ إِنِّی بَرِیءٌ مِنْکَ إِنِّی أَخافُ اللَّهَ رَبَّ الْعالَمِینَ

۲- قصّة العابد (برصیصا)

نقل بعض المفسّرین و أئمّة الحدیث فی نهایة الآیات روایة قصیرة عن عابد إسرائیلی اسمه (برصیصا) و هذه القصّة فی الحقیقة یمکن أن تکون موضع اعتبار و عظة للبشریة أجمع، کی یتجنّبوا طریق الهلاک، و یحذروا من الوقوع فی مصیدة الشراک الشیطانیة النخرة و التی تکون نتیجتها- حتما- السقوط فی الهاویة.

و خلاصة ما جاء فی هذه القصّة ما یلی:

یدّعی «برصیصا» قد عبد اللّه زمانا من الدهر حتّی کان یؤتی بالمجانین یداویهم و یعوذهم فیبرءون علی یدیه، و انّه أتی بامرأة قد جنّت و کان لها اخوة فأتوه بها فکانت عنده، فلم یزل به الشیطان یزیّن له حتّی وقع علیها فحملت، فلمّا استبان حملها قتلها و دفنها، فلمّا فعل ذلک ذهب الشیطان حتّی لقی أحد إخوتها فأخبره بالذی فعل الراهب و انّه دفنها فی مکان کذا، ثمّ أتی بقیّة إخوتها، و هکذا انتشر الخبر فساروا إلیه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذی فعل، فامر به فصلب، فلمّا رفع

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۳

علی خشبته تمثّل له الشیطان فقال: أنا الذی ألقیت فی قلوب أهلها، و أنا و الذی أوقعتک فی هذا، فأطعنی فیما أقول أخلّصک ممّا أنت فیه، قال نعم. قال: اسجد لی سجدة واحدة، فقال: کیف أسجد لک و أنا علی هذه الحالة، فقال: أکتفی منک بالإیماء، فأومی له بالسجود فکفر باللّه و قتل، فهو قوله تعالی: کَمَثَلِ الشَّیْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اکْفُرْ ...[۲۴۳].

نعم هکذا هو مصیر من ابتلی بوسوسة الشیطان و سار فی خطّه.

۳- ما ینبغی عمله

أکّدت الآیات محل البحث وجوب اهتمام الإنسان بما یرسله من متاع سلفا لغده فی یوم القیامة، قال تعالی: وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ حیث أنّ هذه الذخیرة الاخرویة تمثّل أکبر رأسمال حقیقی للإنسان فی مشهد یوم القیامة، لذا فإنّ هذا النوع من الأعمال الصالحة یلزم إعداده و تهیئته و إرساله مسبقا، و إلّا فلا أحد یهتمّ له بعد وفاته و انقضاء أجله، و إذا أرسل شیئا فلیس له شأن یذکر.

قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تصدّقوا و لو بصاع من تمر، و لو ببضع صاع و لو بقبضة، و لو ببعض قبضة، و لو تمرة، و لو بشقّ تمرة، فمن لم یجد فبکلمة طیّبة، فإنّ أحدکم یلقی اللّه، فیقال له: ألم أفعل بک، ألم أفعل بک، أ لم أجعلک سمیعا بصیرا، أ لم أجعل لک مالا و ولدا؟ فیقول: بلی، فیقول اللّه تبارک و تعالی: فانظر ما قدّمت لنفسک، قال: فینظر قدّامه و خلفه و عن یمینه و عن

شماله، فلا يجد شيئا يقى به وجهه من النار»[۲۴۴].

و نقرأ

فى حديث آخر أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان جالسا مع عدد من أصحابه، إذ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۴

دخل قوم من قبيلة «مضر»، متقلّدين السيف و متهيئين للجهاد فى سبيل اللّه، إلّا أنّ ملابسهم رثّة، فعند ما رأى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم آثار الطاقة و الجوع عليهم، تغيّرت ملامح وجهه، فدعا الناس إلى المسجد و ارتقى المنبر، فحمد اللّه و أثنى عليه ثمّ قال: «أمّا بعد، ذلكم فإنّ اللّه أنزل فى كتابه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ ... تصدّقوا قبل أن لا تصدقوا، تصدّقوا قبل أن يحال بينكم و بين الصدقة، تصدّق امرؤ من ديناره، تصدّق امرؤ من درهمه، تصدّق امرؤ من برّه، من شعيرة، من تمره، لا يحقّرن شيء من الصدقة و لو بشقّ تمرة».

فقام رجل من الأنصار، و أعطى كيسا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فظهرت آثار الفرحة و السرور على وجهه المبارك، ثمّ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها و مثل أجر من عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئا، و من سنّ سنّة سيّئة فعمل بها كان عليه وزرها و وزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئا. فقام الناس فتفرّقوا فمن ذى دينار و من ذى درهم و من ذى طعام و من ذى و من ذى فاجتمع فقسّمه بينهم».

و قد أكّدت هذا المعنى آيات قرآنية اخرى و لمرّات عديدة، و من جملة ذلك ما ورد فى قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[۲۴۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۵

الآيات [سورة الحشر (۵۹): الآيات ۲۱ الى ۲۴]

اشارة

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۲۱) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ (۲۲) هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (۲۳) هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى يُسَبِّحُ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۴)

التّفسير

لو نزل القرآن على جبل:

تكملة للآيات السابقة التى كانت تهدف إلى تحريك النفوس و القلوب الإنسانية، و خاصّة عن طريق التذكير بالنهاية التى يكون عليها الإنسان، و المصير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۶

الذى ينتظره، و الذى يجدر أن يهيّئه فى أبهى و أفضل صورة .. تأتى هذه الآيات المباركات التى هى آخر آيات سورة الحشر، و التى

تأخذ بنظر الإعتبار مجمل ما ورد من آيات هذه السورة، لتوضّح حقيقة اخرى حول القرآن الكريم، و هى: أنّ هذا الكتاب المبارك له تأثير عميق جدّا حتّى على الجمادات، حيث أنّه لو نزل على الجبال لهزّها و حرّكها و جعلها فى وضع من الاضطراب المقترن بالخشوع ..

إلّا أنّه- مع الأسف- هذا الإنسان القاسى القلب يسمع آيات اللّه تتلى عليه و لا تتحرّك روحه و لا يخشع قلبه، يقول سبحانه: لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنّها تشبيه، و قالوا: إنّ الهدف من ذلك هو بيان أنّ هذه الآيات إذا نزلت على الجبال بكلّ صلابتها و قوّتها إذا كان لها عقل و شعور- بدلا من نزولها على قلب الإنسان- فانّها تهتزّ و تضطرب إلى درجة أنّها تتشقّق، إلّا أنّ قسما من الناس ذوى القلوب القاسية و التى هى كالحجارة أو أشدّ قسوة لا يسمعون و لا يعون و لا يتأثّرون أدنى تأثير، و جملة: وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ اعتبرت دليلا و شاهدا على هذا الفهم.

و قد حملها البعض الآخر على ظاهرها و قالوا: إنّ كلّ الموجودات فى هذا العالم- و من جملتها الجبال- لها نوع من الإدراك و الشعور الخاصّ بها، و إذا نزلت هذه الآيات عليها فانّها ستتلاشى، و دليل هذا ما ورد فى الآية (۷۴) من سورة البقرة فى وصف جماعة من اليهود، قال تعالى: ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً، وَ إِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَ إِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ

و التعبير ب (مثل) يمكن أن يكون بمعنى هذا الوصف، كما جاءت هذه الكلمة مرارا مجسّدة لنفس المعنى، و بناء على هذا، فإنّ التعبير المذكور لا يتنافى مع هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۷

و الشىء الممكن ملاحظته هنا، أنّه تعالى يقول فى البداية: إنّ الجبال تخشع و تخضع للقرآن الكريم، و يضيف أنّها تتشقّق، إشارة إلى أنّ القرآن الكريم ينفذ تدريجيّا فيها، و بعد كلّ فترة تظهر عليها آثار جديدة من تأثيرات القرآن الكريم، إلى حدّ تفقد فيه قدرتها و استطاعتها فتكون كالعاشق الواله الذى لا قرار له ثمّ تنصدع و تنشقّ ۲۴۶].

الآيات اللاحقة تستعرض قسما مهمّا من صفات جمال و جلال اللّه سبحانه، التى لكلّ واحدة منها الأثر العميق فى تربية النفوس و تهذيب القلوب. و تحوى الآيات القرآنية الثلاثة خمسة عشر وصفا للّه سبحانه، أو بتعبير آخر فإنّ ثمانى عشرة صفة من صفاته العظيمة تذكرها ثلاث آيات، و كلّ منها تتعلّق ببيان التوحيد الإلهى و الاسم المقدّس، و توضّح للإنسان طريق الهداية إلى العالم النورانى لأسماء و صفات الحقّ سبحانه، يقول تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ

هنا و قبل كلّ شىء يؤكّد على مسألة التوحيد، التى هى أصل لجميع صفات الجمال و الجلال، و هى الأصل و الأساس فى المعرفة الإلهية، ثمّ يذكر علمه بالنسبة للغيب و الشهود.

«الشهادة» و «الشهود»- كما يقول الراغب فى المفردات- هى الحضور مقترنا بالمشاهدة سواء بالعين الظاهرة أو بعين البصيرة، و بناء على هذا، فكلّ مكان تكون للإنسان فيه إحاطة حسيّة و علمية يطلق عليها عالم شهود، و كلّ ما هو خارج عن هذه الحدود يطلق عليه «عالم الغيب» و كلّ ذلك فى مقابل علم اللّه سواء، لأنّ وجوده اللامتناهى فى كلّ مكان حاضر و ناظر، فلا مكان- إذن- خارج حدود علمه و حضوره، قال تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۸

وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ[۲۴۷].

و التوجّه بهذا الفهم نحو الذات الإلهية يؤدّى بالإنسان إلى الإيمان بأنّ اللّه حاضر و ناظر فى كلّ مكان، و عندئذ يتسلّح بالتقوى، ثمّ يعتمد على رحمته العامّة التى تشمل جميع الخلائق: (الرحمن) و رحمته الخاصّة التى تخصّ المؤمنين، (و الرحيم) لتعطى للإنسان

أملا، و لتعينه فى طريق بناء نفسه و التكامل بأخلاقه و سلوكه بالسير نحو اللّه، لأنّ هذه المرحلة- الحياة الدنيا- لا يمكن للإنسان أن يجتازها بغير لطفه، لأنّها ظلمات و خطر و ضياع.

و بهذا العرض- بالإضافة إلى صفة التوحيد- فقد بيّنت الآية الكريمة ثلاثة من صفاته العظيمة، التى كلّ منها تلهمنا نوعا من المعرفة و الخشية للّه سبحانه.

أمّا فى الآية اللاحقة، فبالإضافة إلى التأكيد على مسألة التوحيد فإنّها تذكر ثمانية صفات اخرى للّه سبحانه، حيث يقول البارئ عزّ و جلّ: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ.

الْمَلِكُ الحاكم و المالك الحقيقى لجميع الكائنات.

الْقُدُّوسُ المنزّه من كلّ نقص و عيب.

السَّلامُ ۲۴۸] لا يظلم أحد، و جميع الخلائق فى سلامة من جهته.

و أساسا فإنّ دعوة اللّه تعالى هى للسلامة وَ اللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ ۲۴۹].

و هدايته أيضا باتّجاه السلامة يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ۲۵۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۱۹

و المقرّ الذى اعدّ للمؤمنين أيضا هو: بيت السلامة لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ

و تحيّة أهل الجنّة أيضا ليست بشىء سوى السّلام: إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً[۲۵۱].

ثمّ يضيف سبحانه:

الْمُؤْمِنُ ۲۵۲] يعطى الأمان لأحبّائه، و يتفضّل عليهم بالإيمان.

الْمُهَيْمِنُ الحافظ و المراقب لكلّ شىء[۲۵۳].

الْعَزِيزُ القادر الذى لا يقهر.

الْجَبَّارُ مأخوذ من (جبر) يأتى أحيانا بمعنى القهر و الغلبة و نفوذ الإرادة، و أحيانا بمعنى الإصلاح و التعويض، و مرج الراغب فى المفردات كلا المعنيين حيث يقول: «و أصل (جبر) إصلاح شىء بالقوّة و الغلبة» و عند ما يستعمل هذا اللفظ للّه تعالى، فإنّه يبيّن أحد صفاته الكبيرة، حيث أنّ نفوذ إرادته، و كمال قدرته يصلح كلّ فساد. و إذا استعملت فى غير اللّه أعطت معنى المذمّة، و كما يقول الراغب فإنّها تطلق على الشخص الذى يريد تعويض نقصه بإظهاره لأمور غير لائقة، و قد ورد هذا المصطلح عشر مرّات فى القرآن الكريم، تسع مرّات حول الأشخاص الظالمين و المستكبرين المتسلّطين على رقاب الامّة و المفسدين فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۰

الأرض و مرّة واحدة فقط عن اللّه القادر المتعال، حيث ورد بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

ثمّ يضيف سبحانه: الْمُتَكَبِّرُ.

«المتكبر» من مادّة (تكبر) و جاءت بمعنيين:

الأوّل: استعملت صفة المدح، و قد أطلقت على لفظ الجلالة، و هو اتّصافه بالعلو و العظمة و السمات الحسنة بصورة عامّة.

و الثّانى: استعملت صفة الذمّ و هو ما يوصف به غير اللّه عزّ و جلّ، حيث تطلق على الأشخاص صغار الشأن و قليلى الأهميّة .. الذين يدّعون الشأن و المقام العالى، و ينعتون أنفسهم بصفات حسنة غير موجودة فيهم.

و لأنّ العظمة و صفات العلو و العزّة لا تكون لائقة لغير مقام اللّه سبحانه، لذا استعمل هذا المصطلح هنا بمعناه الإيجابى حول اللّه سبحانه. و كلّما استعمل لغير اللّه أعطى معنى الذمّ.

و فى نهاية الآية يؤكّد مرّة اخرى مسألة التوحيد التى كان الحديث حولها ابتداء حيث يقول تعالى: سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ

و مع التوضیح المذکور فإنّ من المؤکّد أنّ کلّ موجود لا یستطیع أن یکون شریکا و شبیها و نظیرا للصفات الإلهیة التی ذکرت هنا.

و فی آخر آیة مورد للبحث یشیر سبحانه إلی ستّ صفات اخری حیث یقول تعالی:

هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ

الْبارِئُ ۲۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۱

الْمُصَوِّرُ.

و لأنّ صفات اللّه لا تنحصر فقط بالتی ذکرت فی هذه الآیة فإنّه سبحانه یشیر إلی صفة أساسیة لذاته المقدّسة اللامتناهیة، حیث یقول عزّ و جلّ: لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنی

و لهذا السبب فإنّه سبحانه منزّه و مبرّأ من کلّ عیب و نقص یُسَبِّحُ لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و یعتبرونه تامّا و کاملا من کلّ نقص و عیب.

و أخیرا- للتأکید الأکثر علی موضوع نظام الخلقة- یشیر سبحانه إلی وصفین آخرین من صفاته المقدّسة، التی ذکر أحدهما فی السابق بقوله تعالی: وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ

الاولی دلیل کمال قدرته علی کلّ شیء، و غلبته علی کلّ قوّة.

و الثانیة إشارة إلی علمه و اطّلاعه و معرفته ببرامج الخلق و تنظیم الوجود و تدبیر الحیاة.

و بهذه الصورة فإنّ مجموع ما ورد فی الآیات الثلاث بالإضافة إلی مسألة التوحید التی تکرّرت مرّتین، فإنّ مجموع الصفات المقدّسة للّه سبحانه تکون سبع عشرة صفة مرتبة بهذا الشکل:

۱- عالم الغیب و الشهادة.

۲- الرحمن.

۳- الرحیم.

۴- الملک.

۵- القدّوس.

۶- السّلام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۲

۷- المؤمن.

۸- المهیمن.

۹- العزیز.

۱۰- الجبّار.

۱۱- المتکبّر.

۱۲- الخالق.

۱۳- البارئ.

۱۴- المصوّر.

۱۵- الحکیم.

۱۶- له الأسماء الحسنی.

۱۷- الموجود الذى تسبّح له كلّ موجودات العالم.

و مع صفة التوحيد يصبح عدد الصفات ثمانى عشرة صفة. و يرجى الانتباه إلى أنّ «التوحيد» و «العزيز» جاء كلّ منها مرّتين.

و من بين مجموع هذه الصفات فإنّنا نلاحظ تنظيما خاصّا فى الآيات الثلاث و هو: فى الآية الاولى يبحث عن أعمّ صفات الذات و هى (العلم) و أعمّ صفات الفعل و هى (الرحمة) التى هى أساس كلّ أعماله تعالى.

و فى الآية الثانية يتحدّث عن حاكميته و شؤون هذه الحاكمية و صفاته ك (القدّوس و السّلام و المؤمن و الجبّار و المتكبّر) و بملاحظة معانى هذه الصفات- المذكورة أعلاه- فإنّ جميعها من خصوصيات هذه الحاكمية الإلهية المطلقة.

و فى الآية الأخيرة يبحث مسألة الخلق و ما يرتبط بها من انتظام فى مقام تسلسل الخلقة و التصوير، و كذلك البحث فى موضوع القدرة و الحكمة الإلهية.

و بهذه الصورة فإنّ هذه الآيات تأخذ بيد السائرين فى طريق معرفة اللّه، و تقودهم من درجة إلى درجة و من منزل إلى منزل، حيث تبدأ الآيات أوّلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۳

بالحديث عن ذاته المقدّسة، و من ثمّ إلى عالم الخلقة، و تارة اخرى بالسير نحو اللّه تعالى، حيث ترتفع روحيته إلى سمو الواحد الأحد، فيتطهّر القلب بالأسماء و الصفات الإلهية المقدّسة، و يربى فى أجواء هذه الأنوار و المعارف، حيث تنمو براعم التقوى على ظاهر أغصان وجوده، و تجعله لائقا لقرب جواره لكى يكون وجودا منسجما مع كلّ ذرّات الوجود، مردّدين معا ترانيم التسبيح و التقديس.

لذا فلا عجب أن تختص هذه الآية بصورة متميّزة فى الروايات الإسلامية التى سنشير إليها فيما يلى ..

ملاحظتان

۱- التأثير الخارق للقرآن الكريم

إنّ لتأثير القرآن الكريم فى القلوب و الأفكار واقعية لا تنكر، و على طول التاريخ الإسلامى لوحظت شواهد عديدة على هذا المعنى، و ثبت عمليا أنّ أقسى القلوب عند سماعها لآيات محدودة من القرآن الكريم تلين و تخضع و تؤمن بالذى جاء بالقرآن دفعة واحدة، اللهمّ عدا الأشخاص المعاندين المكابرين فقد استثنوا من ذلك حيث طبع اللّه على قلوبهم فهم لا يفقهون، و ليس هنالك من أمل فى هداية نفوسهم المدبرة عن اللّه سبحانه.

و نقرأ فى الآيات أعلاه العرض الرهيب الذى يصوّر نزول القرآن على جبل، و ما هو الأثر سيحدثه حيث الخضوع و التصدّع و الخشوع، و هذه كلّها دليل تأثير هذا الكلام الإلهى الذى نحسّ بحلاوة طعمه عند التلاوة المقرونة بحضور القلب.

۲- عظمة الآيات الأخيرة لسورة الحشر

إنّ الآيات الأخيرة لهذه السورة- التى اشتملت على قسم مهمّ من الأسماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۴

و الصفات الإلهية- آيات خارقة و عظيمة و ملهمة، و هى درس تربوى كبير للإنسان، لأنّها تقول له: إذا كنت تطلب قرب اللّه، و تريد

العظمة و الکمال .. فاقتبس من هذه الصفات نورا یضیء وجودک.

و جاء فی بعض الرّوایات أنّ «اسم اللّه الأعظم» هو فی الآیات الأخیرة من سورة الحشر[۲۵۵].

و نقرأ

فی حدیث آخر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «من قرأ آخر الحشر غفر له ما تقدّم من ذنبه و ما تأخّر»[۲۵۶].

و

جاء فی حدیث آخر أنّه قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ .. إلی آخرها، فمات من لیلته مات شهیدا»[۲۵۷].

و

یقول أحد الصحابة: سألت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عن الاسم الأعظم للّه، فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «علیک بآخر الحشر و أکثر قراءتها»[۲۵۸].

حتّی أنّه جاء

فی حدیث: «أنّها شفاء من کلّ داء إلّا السأم، و السأم:

الموت»[۲۵۹].

و الخلاصة أنّ الروایات التی جاءت فی هذا المجال کثیرة فی کتب الشیعة و أهل السنّة، و تدلّ جمیعها علی عظمة هذه الآیات و لزوم التفکّر فی محتواها.

و الجدیر بالملاحظة أنّ هذه السورة کما أنّها بدأت بتسبیح اللّه و اسمه العزیز الحکیم، فکذلک انتهت باسمه العزیز الحکیم، إذ أنّ الهدف النهائی للسورة هو معرفة اللّه و تسبیحه و التعرّف علی أسمائه و صفاته المقدّسة.

و حول أسماء اللّه- التی أشیر إلیها فی الآیات أعلاه- کان لدینا بحث مفصّل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۵

فی نهایة الآیة (۱۸) من سورة الأعراف.

اللهمّ، نقسم علیک بعظمة أسمائک و صفاتک أن تجعل قلوبنا خاشعة خاضعة أمام القرآن الکریم.

ربّنا إنّ مصیدة الشیطان خطیرة، و لا خلاص لنا منها إلّا بلطفک، فاحفظنا فی ظلّ لطفک من وساوس الشیطان.

إلهنا، تفضّل علینا بروح الإیثار و التقوی و الابتعاد عن البخل و البغض و الحسد، و جنّبنا حبّ الذات و الأنانیة ..

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة الحشر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۷

سورة الممتحنة مدنیّة

اشارة

و عدد آیاتها ثلاث عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۲۹

«سورة الممتحنة»

محتوى السورة:

تتكوّن موضوعات هذه السورة من قسمين:

القسم الأوّل: يتحدّث عن موضوع «الحبّ فى اللّه» و «البغض فى اللّه»، و ينهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و يدعو المسلمين لكى يستلهموا من سيرة الرّسول العظيم إبراهيم عليه السّلام فيما يتعلّق بموقفه من أقرب الأقربين إليه (أبيه آزر) بلحاظ ما يمليه عليه الموقف المبدئى، كما تذكر بعض الخصوصيات الاخرى فى هذا المجال و يتكرّر هذا المعنى فى نهاية السورة، كما فى بدايتها.

القسم الثانى: يتناول هذا القسم مسائل المرأة المهاجرة و ضرورة تمحيصها، كما يبيّن أحكاما اخرى فى هذا الصدد. و إختيار اسم (الممتحنة) لهذه السورة كان بلحاظ حالة التمحيص و الامتحان التى وردت فى الآية العاشرة من هذه السورة[۲۶۰].

كما ذكر اسم آخر لهذه السورة و هو (سورة المودّة) و ذلك بلحاظ النهى عن عقد الولاء و الودّ مع المشركين، و قد أكّدت عليه السورة كثيرا.

فضيلة تلاوة سورة الممتحنة:

ورد عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة الممتحنة كان المؤمنون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۰

و المؤمنات له شفعاء يوم القيامة»[۲۶۱].

و جاء

فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام: «من قرأ سورة الممتحنة فى فرائضه و نوافله، امتحن اللّه قلبه للإيمان، و نوّر له بصره، و لا يصيبه فقر أبدا، و لا جنون فى بدنه و لا فى ولده»[۲۶۲].

و من الواضح أنّ كلّ هذه النعم و الألطاف الإلهية تكون للأشخاص الذين يجسّدون مفاهيم الآيات التى وردت فى هذه السورة فى مجال الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه و الجهاد فى سبيله، و يطبّقون محتواها، و لا يكتفون بالتلاوة السطحية الفارغة من محتوى الروح، و البعيدة عن العلم و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۱

الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِى سَبِيلِى وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (۲) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۳)

سبب النّزول

صرّح أغلب المفسّرين (لكن باختلاف يسير) بأنّ هذه الآيات- أو الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۲

الاولى بصورة أخصّ- نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة.

و فى هذا الصدد نذكر ما

أورده العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان حول ذلك حيث يقول: «إنّ سارة مولاة أبى عمرو بن صيفى بن هشام أتت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من مكّة إلى المدينة بعد بدر بسنتين، فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أ مسلمة جئت؟

قالت: لا- قال: أ مهاجرة جئت؟ قالت: لا- قال: فما جاء بك؟ قالت: كنتم الأصل و العشيرة و الموالى و قد ذهب موالى و احتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى و تكسونى و تحملونى. قال: فأين أنت من شباب مكّة؟ و كانت مغنية نائحة، فقالت: ما طلب منّى بعد وقعة بدر (و هذا يدلّ على عمق النازلة التى نزلت بمشركى قريش فى بدر) فحثّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليها بنى عبد المطلّب فكسوها و حملوها و أعطوها نفقة، و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتجهّز لفتح مكّة، فأتاها حاطب بن أبى بلتعة و كتب معها كتابا إلى أهل مكّة و أعطاها عشرة دنانير و كساها بردا على أن توصل الكتاب إلى أهل مكّة و كتب فى الكتاب: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكّة إنّ رسول اللّه يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت سارة و نزل جبرائيل فأخبر النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما فعل، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليا و عمّارا و عمر و الزبير و طلحة و المقداد بن الأسود و أبا مرثد و كانوا كلّهم فرسانا و قال لهم: انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فانّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتّى أدركوها فى ذلك المكان، فقالوا لها أين الكتاب؟ فحلفت باللّه ما معها من كتاب، فنحوها و فتّشوا متاعها فلم يجدوا معها كتابا، فهمّوا بالرجوع، فقال على عليه السّلام: و اللّه ما كذّبنا و لا كذّبنا، و سلّ سيفه و قال: أخرجى الكتاب و إلّا و اللّه لأضربنّ عنقك. فلمّا رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللّه و اللّه ما كفرت منذ أسلمت و لا غششتك منذ نصحتك، و لا أحببتهم منذ فارقتهم، و لكن لم يكن أحد من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۳

المهاجرين إلّا و له بمكّة من يمنع عشيرته و كنت عريرا فيهم (أى غريبا) و كان أهلى بين ظهرانيهم فخشيت على أهلى فأردت أن أتّخذ عندهم يدا، و قد علمت أنّ اللّه ينزل بهم بأسه و أنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئا. فصدّقه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عذره، فقام عمر بن الخطاب و قال: دعنى يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما يدريك يا عمر لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فغفر لهم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. و كيفية العلاقة التى يجب أن تتحكّم بين المسلمين من جهة، و المشركين و أعداء اللّه من جهة اخرى، و التأكيد على إلغاء و تجنّب أى ولاء مع أعداء اللّه ۲۶۳].

التّفسير

نتيجة الولاء لأعداء اللّه:

علمنا ممّا تقدّم أنّ سبب نزول الآيات السابقة هو التصرّف المشين الذى صدر من أحد المسلمين (حاطب بن أبى بلتعة) و رغم أنّه لم يكن قاصدا التجسّس إلّا أنّ عمله نوع من إظهار المودّة لأعداء الإسلام، فجاءت الآيات الكريمة تحذّر المسلمين من تكرار مثل هذه التصرّفات مستقبلا و تنهاهم عنها.

يقول سبحانه فى البداية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَ عَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ مؤكّدا أنّ أعداء اللّه وحدهم هم الذين يضمرون العداء للمؤمنين و الحقد عليهم، و مع هذا التصوّر فكيف تمدّون يد الصداقة و الودّ لهم؟

و يضيف تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۴

تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ۲۶۴].

إنّهم يخالفونكم فى العقيدة، كما أنّهم شنّوا عليكم الحرب عمليّا، و يعتبرون إيمانكم باللّه- الذى هو أكبر فخر لكم و أعظم قداسة تجلّلكم- غاية الجرم و أعظم الذنب، و لهذا السبب قاموا بإخراجكم من دياركم و شتّتوكم من بلادكم .. و مع هذه الأعمال التى مارسوها معكم، هل من المناسب إظهار المودّة لهم، و السعى لإنقاذهم من يد العدالة و الجزاء الإلهى على يد المقاتلين المسلمين المقتدرين؟

ثمّ يضيف القرآن الكريم موضّحا: إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِي ۲۶۵] فلا تعقدوا معهم أواصر الولاء و الودّ.

فإذا كنتم ممّن تدّعون حبّ اللّه حقّا، و هاجرتم من دياركم لأجله سبحانه و ترغبون فى الجهاد فى سبيله طلبا لرضاه تعالى، فإنّ هذه الأهداف العظيمة لا يناسبها إظهار الولاء لأعداء اللّه سبحانه.

ثمّ يضيف عزّ و جلّ للمزيد من الإيضاح فيقول: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَ أَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَ ما أَعْلَنْتُمْ ۲۶۶][۲۶۷].

و بناء على هذا فما عسى أن يغنى الإخفاء و هو واقع بعلم اللّه فى الغيب و الشهود؟

و فى نهاية الآية نجد تهديدا شديدا لمن يجانب السبيل الذى أمر به اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۵

سبحانه بقوله: وَ مَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ

فمن جهة انحرف عن معرفة اللّه تعالى بظنّه أنّ اللّه لا- يعلم و لا- يرى ما يصنع، و كذلك انحرف عن طريق الإيمان و الإخلاص و التقوى، حينما يعقد الولاء و تقام أواصر المودّة مع أعداء اللّه، و بالإضافة إلى ذلك فانّه وجّه ضربة قاصمة إلى حياته حينما أفشى أسرار المسلمين إلى الأعداء، و يمثّل ذلك أقبح الأعمال و أسوأ الممارسات حينما يسقط الشخص المؤمن بهذا الوحل و يقوم بمثل هذه الأعمال المنحرفة بعد بلوغه مرتبة الإيمان و القداسة.

و فى الآية اللاحقة يضيف سبحانه للتوضيح و التأكيد الشديد فى تجنّب موالاتهم: إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ[۲۶۸].

أنتم تكنّون لهم الودّ فى الوقت الذى يضمرون لكم حقدا و عداوة عميقة و متأصّلة، و إذا ما ظفروا بكم فإنّهم لن يتوانوا عن القيام بأى عمل ضدّكم، و ينتقمون منكم و يؤذونكم بأيديهم و بألسنتهم و بمختلف وسائل المكر و الغدر فكيف- إذن- تتألّمون و تحزنون على فقدانهم مصالحهم؟

و الأدهى من ذلك هو سعيهم الحثيث فى ردّكم عن دينكم و إسلامكم، و العمل على تجريدكم من أعظم مكسب و أكبر مفخرة لكم، و هى حقيقة الإيمان وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ و هذه أوجع ضربة و أعظم مأساة و أكبر داهية يريدون إلحاقها بكم.

و فى آخر آية من هذه الآيات يستعرض سبحانه الجواب على «حاطب بن أبى بلتعة» و من يسايره فى منهجه من الأشخاص، حينما قال فى جوابه لرسول اللّه عن السبب الذى حدا به إلى إفشاء أسرار المسلمين لمشركى مكّة، حيث قال بلتعة: أهلى و عيالى فى مكّة، و أردت أن أمنع عنهم الأذى و أصونهم بعملى هذا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۶

(و اتّخذ عند أهلها يدا) يقول تعالى: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ

و ذلك لأنّ الأرحام و الأولاد المشركين سوف لن يجلبوا خيرا و عزّة فى الدنيا و لا نجاة فى الآخرة. إذن لماذا تتصرّفون و تعملون مثل هذا العمل الذى يوجب سخط البارئ، و ذلك بالتقرّب من أعداء اللّه و إرضاء المشركين و البعد عن أوليائه تعالى و جلب الضرر على المسلمين؟

ثمّ يضيف تعالى: يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۲۶۹].

و هذا تأكيد على أنّ مقام أهل الإيمان هو الجنّة، و أنّ أهل الكفر يساقون إلى جهنّم و بئس المصير، و هو بيان آخر و توضيح لما تقدّم سابقا من أنّ عملية الفرز و الفصل ستكون فيما بينكم، حيث ستقطع الأواصر بصورة تامّة بين الأرحام بلحاظ طبيعة الإيمان و الكفر الذى هم عليه، و لن يغنى أحد عن الآخر شيئا، و هذا المعنى مشابه لما ورد فى قوله تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ ۲۷۰].

و فى نهاية الآية يحذّر الجميع مرّة اخرى بقوله تعالى: وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

إنّه عالم بنيّاتكم، و عالم بالأعمال التى تصدر منكم، سواء كانت فى حالة السرّ أو العلن، و إذا كانت المصلحة الإلهية تقتضى عدم إفشاء أسراركم أحيانا كما فى حادثة حاطب بن أبى بلتعة، فلأنّها لحكمة أو مصلحة يراها سبحانه، و ليس لأنّه لا يعلم بها أو تخفى عليه خافية.

و فى الحقيقة إنّ علم اللّه بالغيب و الشهود، و السرّ و العلن، وسيلة مؤثّرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۷

و عظيمة فى تربية الإنسان حيث يشعر دائما بأنّه فى محضر البارئ عزّ و جلّ الرقيب على قوله و عمله، بل حتّى على نيّته، و هنا تصدق مقولة أنّ التقوى وليدة المعرفة التامّة باللّه عزّ و جلّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۸

الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۴ الى ۶]

اشارة

قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنا بِكُمْ وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ (۴) رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۵) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (۶)

التّفسير

أسوة للجميع:

إنّ منهج القرآن (من أجل التأكيد على تعاليمه القيّمة) يعتمد فى كثير من الموارد طريقة الاستشهاد بنماذج أساسية فى عالم الإنسانية و الحياة، و بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۳۹

التشديد السابق الذى مرّ بنا خلال آيات السابقة فى تجنّب عقد الولاء لأعداء اللّه، يتحدّث القرآن الكريم عن إبراهيم عليه السّلام و

منهجه القدوة كنموذج رائد يحظى باحترام جميع الأقوام و خصوصا العرب منهم.

قال تعالى: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ ۲۷۱].

إنّ حياة إبراهيم عليه السّلام الذى هو كبير الأنبياء، تلهمنا دروس العبودية للّه، و الطاعة و الجهاد فى سبيله، و الوله و الحبّ لذاته المقدّسة، إنّ هذا النبى العظيم الذى كانت الامّة الإسلامية من بركة دعائه، و هى معتزّة بالتسمية التى أطلقها عليهم، هو لكم أسوة حسنة فى هذا المجال.

و المراد من تعبير الَّذِينَ مَعَهُ هم المؤمنون الذين ساروا برفقته فى هذا الطريق بالرغم من قلّة عددهم، و هنا رأى آخر فى تفسير الَّذِينَ مَعَهُ يرى أنّ المقصود هم الأنبياء الذين كانوا يشاركونه بالرأى، أو أنّ المقصود هم الأنبياء المعاصرون له، و هو احتمال مستبعد، خاصّة إذا أخذنا ما يناسب المقام فى تشبيه القرآن الكريم لرسول الإسلام محمّد بإبراهيم عليه السّلام، و تشبيه المسلمين بأصحابه و أعوانه.

و جاء فى التواريخ أيضا أنّ جماعة فى «بابل» آمنوا بإبراهيم عليه السّلام بعد مشاهدة المعاجز التى ظهرت على يديه، و صاحبوه فى الهجرة، قال ابن الأثير فى الكامل (ثمّ إنّ إبراهيم و الذين اتّبعوا أمره أجمعوا على فراق قومهم فخرج مهاجرا)[۲۷۲].

ثمّ يضيف سبحانه لتوضيح هذا المعنى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۰

إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَ مِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۲۷۳].

و هكذا يكون الموقف القاطع و الحاسم من جانب المؤمنين إزاء أعداء اللّه، بقولهم لهم: إنّنا لا نرتضيكم و لا نقبلكم، لا أنتم و لا ما تؤمنون به من معتقدات، إنّنا نبتعد و ننفر منكم و من أصنامكم التى لا قيمة لها.

و مرّة أخرى يؤكّدون مضيفين: «كفرنا بكم»، و الكفر هنا هو كفر البراءة الذى أشير له فى بعض الروايات ضمن ما ورد فى تعدّد أقسام الكفر الخمسة[۲۷۴].

و يضيفون للمرّة الثالثة مؤكّدين بصورة أشدّ: وَ بَدا بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَ الْبَغْضاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ

و بهذا الإصرار و بهذه القاطعية و بدون أى تردّد أو مواربة يعلن المؤمنون انفصالهم و ابتعادهم و نفرتهم من أعداء اللّه حتّى يؤمنوا باللّه وحده، و هم مستمرّون فى موقفهم و إلى الأبد و لن يتراجعوا عنه أو يعيدوا النظر فيه إلّا إذا غيّر الكفّار مسارهم و تراجعوا عن خطّ الكفر إلى الإيمان.

و لأنّ هذا القانون العامّ كان له استثناء فى حياة إبراهيم عليه السّلام يتجسّد ذلك بإمكانية هداية بعض المشركين حيث يقول سبحانه معقّبا: إنّ هؤلاء قطعوا كلّ ارتباط لهم مع قومهم الكافرين حتّى الكلام الودود و الملائم: إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَ ما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ.

إنّ هذا الاستثناء- فى الحقيقة- كان فى مسألة قطع كلّ ارتباط مع عبدة الأصنام من قبل إبراهيم عليه السّلام و أصحابه، كما أنّ هذا الاستثناء كانت له شروطه و مصلحته الخاصّة، لأنّ القرائن تظهر لنا أنّ إبراهيم عليه السّلام كان يرى فى عمّه (آزر) استعدادا لقبول الإيمان.

و لمّا كان (آزر) قلقا من آثام سابقته الوثنية و عبادته للأصنام أوعده إبراهيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۱

عليه السّلام أنّه إذا تبنّى طريق التوحيد فإنّه عليه السّلام سيستغفر له اللّه سبحانه، و قد عمل بما وعده به، إلّا أنّ آزر لم يؤمن و بقى على ضلاله، و عند ما اتّضح لإبراهيم أنّه عدوّ اللّه و سوف لن يؤمن أبدا، لم يستغفر له ثانية و قطع علاقته به.

و لمّا كان المسلمون مطّلعين على منهج إبراهيم عليه السّلام فى تعامله مع «آزر» بصورة إجمالية، فقد كان من المحتمل أن يكون هذا

الموقف موضع إحتجاج لأشخاص مثل (حاطب بن أبى بلتعة) حيث كانوا يقيمون العلاقات و الارتباطات السريّة مع الكفّار، و لهذا فالقرآن الكريم يقطع الطريق على مثل هذه التصوّرات و يعلن- صراحة- أنّ هذا الاستثناء قد تمّ تحت شروط خاصّة، و كان أسلوبا لاستدراج (آزر) إلى الهدى و إدخاله فى الإيمان، و لم يكن لأهداف دنيوية آنية أو مصلحة وقتية، لذا يقول عزّ و جلّ فى بيان هذا المعنى: وَ ما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ۲۷۵].

إلّا أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا الأمر كان استثناء من التأسّى ب (إبراهيم)، و قالوا يجب الاقتداء به فى جميع الأمور إلّا فى استغفاره لعمّه آزر.

إلّا أنّ هذا المعنى بعيدا جدّا لأنّه:

أوّلا: كان عليه السّلام أسوة فى جميع الأمور و من ضمنها إتّباع هذا المنهج، و ذلك بلحاظ أنّ الشروط التى توفّرت فى (آزر) توفّرت أيضا فى بعض المشركين و عند ذلك لا بدّ من إظهاره المودّة لهم و تهيئة الأجواء الطيّبة لهم، و جذبهم للإيمان.

و ثانيا: أنّ إبراهيم عليه السّلام نبى معصوم من أنبياء اللّه العظام و من المجاهدين اللامعين، و أعماله كلّها أسوة للمؤمنين، و عندئذ لا داعى لاستثناء هذه المسألة من التأسّى به فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۲

و خلاصة القول أنّ إبراهيم عليه السّلام و أصحابه كانوا من أشدّ المخالفين و المحاربين للشرك، و لا بدّ لنا من الاقتداء بهم و أخذ الدروس و العبر من سيرتهم، بما فى ذلك ما يتعلّق بموقفه من «آزر» إذا توفّرت لنا نفس الشروط و الخصوصيات ..[۲۷۶].

و بما أنّ محاربة أعداء اللّه، و الصرامة و الشدّة معهم- خصوصا مع تمتّعهم بقدرة ظاهرية- سوف لن تكون فاعلة إلّا بالتوكّل على اللّه تبارك و تعالى، يضيف سبحانه فى نهاية الآية: رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَ إِلَيْكَ أَنَبْنا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

و نلاحظ ثلاثة امور فى هذه العبارة:

الأمر الأوّل: هو التوكّل، الثانى هو: التوبة و الإنابة، الثالث: التأكيد على حقيقة الرجوع النهائى فى كلّ شىء إليه سبحانه، حيث أنّ كلّ أمر من هذه الأمور يكون علّة و بنفس الوقت معلولا للآخر، فالإيمان بالمعاد و الرجوع النهائى إليه سبحانه يوجب التوبة، و التوبة تحيى روح التوكّل فى النفس الإنسانية[۲۷۷].

و فى الآية اللاحقة يشير القرآن الكريم إلى طلب آخر مهمّ و حسّاس لإبراهيم عليه السّلام و أصحابه فى هذا المجال، حيث يقول تعالى: رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا.

من المحتمل أن يكون ما ورد فى الآية إشارة إلى عمل «حاطب بن أبى بلتعة» و احتمال صدور شبيهه من أشخاص جهلة يكونون سببا فى تقوية الظالمين، من حيث لا يشعرون، بل يتصوّرون أنّهم يعملون لمصلحة الإسلام، أو إنّ المراد فى الحقيقة دعاء بأنّه لا تجعلنا نقع فى قبضة الكافرين فيقولوا: أنّ هؤلاء لو كانوا على الحقّ ما غلبوا، و يؤدّى هذا التوهّم إلى ضلالهم أكثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۳

و هذا يعنى أنّ المسلمين ما كانوا يأبهون بالخوف من خشية على مصالحهم أو على أنفسهم، بل لكى لا يقع مبدأ الحقّ فى دائرة الشكّ و يكون الإنتصار الظاهرى للكفّار دليلا على حقّانيتهم و هذا هو منهج الإنسان المؤمن الراسخ فى إيمانه، حيث أنّ جميع ما يقوم به و يضحّى فى سبيله لا لأجل نفسه، بل للّه سبحانه، فهو مرتبط به وحده، قاطع كلّ علاقة بما سواه، طالب كلّ شىء لمرضاته.

و يضيف فى نهاية الآية: وَ اغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

فقدرتك يا اللّه لا تقهر، و حكمتك نافذة فى كلّ شىء.

إنّ هذه الجملة قد تكون إشارة لطلب المغفرة من اللّه سبحانه و العفو عن الزلل فى حالة حصول الميل النفسى و الحبّ و الولاء لأعداء اللّه.

و هذا درس لكلّ المسلمين كى يقتدوا بهؤلاء. و إذا ما وجد بينهم شخص منحرف ك (حاطب) فليستغفروا ربّهم و لينيبوا إليه.

و مرّة اخرى يؤكّد سبحانه فى آخر آية من هذه الآيات على نفس الأمر الذى ذكر فى أوّل آية، حيث يقول تعالى: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ[۲۷۸].

لقد كانوا لنا أسوة، ليس فقط فى موقفهم ضدّ منهج الكفر و عبدة الأوثان، بل هم أسوة لنا فى الدعاء بين يدى البارئ عزّ و جلّ، و قدوة لنا فى طلب المغفرة منه كما استعرضت الآيات السابقة نماذج فى ذلك.

إنّ هذا الاقتداء فى حقيقته يتمثّل فى الذين تعلّقوا باللّه سبحانه، و نوّر الإيمان بالمبدأ و المعاد قلوبهم، و نهجوا منهج الحقّ و تحرّكوا فى طريقه .. و بدون شكّ فإنّ هذا التأسّى و الاقتداء يرجع نفعه إلى المسلمين أنفسهم قبل الآخرين، لذا يضيف سبحانه فى النهاية قوله: وَ مَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۴

و ذلك أنّ عقد الولاء مع أعداء اللّه يقوّى عودهم و شوكتهم و بالتالى إلى هزيمة المسلمين، و إذا تسلّطوا عليكم فسوف لن يرحموا صغيركم و كبيركم ۲۷۹].

بحوث

۱- نماذج خالدة

إنّ المشاريع العملية غالبا ما تكون منبثقة عن قناعات تسبقها، لأنّ العمل عادة يعبّر عن تجسيد حالة الإيمان العميق للإنسان بما يقوم به، و يكون مجسّدا لأقواله و أفكاره و متبنياته، و الحديث يخرج من القلب لا بدّ أن يكون موضع تأثّر و تفاعل قائلة نفسه به.

و فى الغالب فإنّ وجود القدوة فى حياة البشر مؤثّر فى تربيتهم و توجيههم، و لهذا السبب فإنّ النبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام، و بقيّة الأنبياء الكرام عليهم السّلام كانوا موضع هداية البشرية من خلال أعمالهم و التزاماتهم، لذا فإنّنا حينما نتحدّث عن «السنّة»، التى هى عبارة عن (قول) المعصوم و (فعله) و (تقريره)، أى أنّ كلام و عمل و سكوت المعصوم كلّه حجّة و دليل، لا بدّ من الالتزام به، و لهذا السبب فإنّ (العصمة) شرط أساسى لكلّ الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام كى يكونوا لنا أسوة و قدوة فى جميع المجالات.

و القرآن الكريم يؤكّد هذه المسألة المهمّة و الأساسية حيث يعرض للمؤمنين النماذج فى هذه المجالات و من جملتها ما جاء فى هذه الآيات، حيث يتحدّث عن النبى إبراهيم عليه السّلام و أصحابه مرّتين، كما يعرض القرآن الكريم فى سورة الأحزاب شخص الرّسول الأكرم كقدوة و أسوة للمسلمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۵

«الأسوة» هنا لها معنى مصدرى، بمعنى التأسّى و الاقتداء العملى، بالرغم من أنّها تفهم فى الاستعمالات المتداولة بأنّها تعنى الشخص موضع التأسّى.

فى غزوة الأحزاب الرهيبة عرض القرآن الكريم النبى محمّد كنموذج و أسوة فى الاستقامة و الإيمان و الإخلاص و التحلّى بالهدوء و الصبر فى غزوة مليئة بالمخاطر، فى وقت كان المسلمون موضع تمحيص، و تعرّضوا فيه إلى زلزال عصيب، و طبعا فانّ هذه المعنى لا ينحصر فى هذه المناسبة فحسب، بل إنّ شخصية رسولنا الأكرم قدوة و أسوة عظيمة لتربيتنا فى كلّ زمان و مكان.

إنّ شعار: (كونوا دعاة الناس بأعمالكم، و لا تكونوا دعاة بألسنتكم)[۲۸۰] المنقول عن الإمام الصادق عليه السّلام دليل على ضرورة أن

یکون المسلمون- أجمع و کلّ فی مجاله- أسوة و قدوة للآخرین، و بلسان العمل یمکن أن یعرّف المسلمون الإسلام للعالم، و حینئذ یمکن أن یستوعب الإسلام العالم أجمع.

۲- اللّه غنی عن الجمیع

أکّد القرآن الکریم مرارا علی نقطة مهمّة، و هی أنّ اللّه تعالی إذا أمر الإنسان بالالتزام بأحکام- و تکالیف معیّنة، فإنّ جمیع منافعها تعود بالخیر و المصلحة علیه، بالرغم من المشقّة أحیانا فی تطبیق هذه الأحکام و التکالیف. ذلک لأنّ اللّه تعالی لیس محتاجا لأی شیء فی عالم الوجود لیستعین بنا علیه، کما أنّه لیس لدیه أی نقص فی أی شیء، إضافة إلی أنّ الإنسان لا یملک شیئا لیعطیه. بل کلّ ما لدیه فهو للّه تعالی.

و

قد جاء فی الأحادیث القدسیة: «یا عبادی أنّکم لن تبلغوا ضرّی فتضرّونی و لن تبلغوا نفعی فتنفعونی، یا عبادی لو أنّ أوّلکم و آخرکم و إنسکم و جنّکم کانوا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۶

علی أتقی قلب رجل واحد منکم ما زاد ذلک فی ملکی شیئا، یا عبادی لو أنّ أوّلکم و آخرکم و إنسکم و جنّکم کانوا علی أفجر قلب رجل واحد منکم ما نقص ذلک من ملکی شیئا.

یا عبادی لو أنّ أوّلکم و آخرکم و إنسکم و جنّکم قاموا فی صعید واحد فسألونی فأعطیت کلّ إنسان مسألته ما نقص ذلک من عندی إلّا کما ینقص المحیط إذا دخل البحر.

یا عبادی إنّما هی أعمالکم أحصیها لکم ثمّ اوفیکم إیّاها فمن وجد خیرا فلیحمد اللّه و من وجد غیر ذلک فلا یلو منّ إلّا نفسه»[۲۸۱].

۳- الأصل فی العلاقات الرسالیة: (الحبّ فی اللّه و البغض فی اللّه).

إنّ أعمق رابطة تربط أبناء البشریة مع بعضهم هی الرابطة العقائدیة، حیث تبتنی علیها سائر العلاقات الاخری.

و لقد أکّد القرآن الکریم مرارا علی هذا المعنی و هذا اللون من الارتباطات، و شجب صور الروابط القائمة علی أساس الصداقة و الحمیّة الجاهلیة و المنافع الشخصیة التی تکون علی حساب مرتکزات المبدأ، إذ أنّ ذلک یعنی الاهتزاز و التصدّع فی بناء الشخصیة الرسالیة ..

و بالإضافة إلی ذلک فإنّ المعیار الأساس للإنسان هو الإیمان و التقوی، و لذا فإنّ إقامة العلاقات مع الأشخاص الذین یفقدون هذه المقوّمات أمر لا یقدم علیه الإنسان الملتزم و یحذّر من الوقوع فی شراکه، و لا بدّ من الرجوع إلی المعیار الإیمانی فی إقامة العلاقات وفق منهج الإسلام، و جعل العلاقة مع اللّه و الموقف من اللّه هو الحکم و الفصل فی طبیعة هذه العلاقة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۷

یقول الإمام الصادق علیه السّلام: «من أحبّ للّه و أبغض للّه و أعطی للّه جلّ و عزّ فهو ممّن کمل إیمانه»[۲۸۲].

و نقرأ

فی حدیث آخر عنه علیه السّلام: «من أوثق عری الإیمان، أن تحبّ فی اللّه، و تبغض فی اللّه، و تعطی فی اللّه، و تمنع فی اللّه»[۲۸۳].

و لمزيد من الاطّلاع فى مجال «الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه» يراجع التّفسير الأمثل نهاية الآية (۲۲) من سورة المجادلة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۲۴۷

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۸

الآيات [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۷) لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (۸) إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (۹)

التّفسير

مودّة الكفّار غير الحربيين:

يستمرّ الحديث فى هذه الآيات المباركات تكملة للموضوعات التى طرحت فى الآيات السابقة حول «الحبّ فى اللّه و البغض فى اللّه» و قطع العلاقة مع المشركين، بالرغم من أنّ قطع هذه الرابطة يولّد فراغا عاطفيا بالنسبة للبعض من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۴۹

المسلمين، فإنّ المؤمنين الصادقين، و أصحاب رسول اللّه المخلصين آمنوا بهذا المنهج و ثبتوا عليه، و اللّه تعالى بشّر هؤلاء ألّا يحزنوا، لأنّ الثواب هو جزاؤهم بالإضافة إلى أنّ هذه الحالة سوف لن تستمرّ طويلا حيث يقول سبحانه: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً.

و يتحقّق هذا الوعد و تصدق البشارة فى السنة الثامنة للهجرة حيث منّ اللّه على المسلمين بفتح مكّة، و دخل أهلها جماعات جماعات فى دين الإسلام الحنيف، مصداقا لقوله تعالى: يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً و عند ذلك تتبدّد غيوم الظلمة و العداء و العناد من سماء حياتهم، و تشرق نفوسهم بنور الإيمان و حرارة الودّ و أجواء المحبّة و الصداقة.

بعض المفسّرين اعتبر هذه الآية إشارة إلى زواج الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من (أمّ حبيبة بنت أبى سفيان) التى كانت قد أسلمت و صحبت زوجها «عبيد اللّه بن جحش»[۲۸۴] فى هجرته للحبشة مع المهاجرين و مات زوجها هناك، فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم شخصا إلى النجاشى و تزوّجها، و لأنّ الزواج بين القبائل العربية كان له تأثير فى تضييق دائرة العداء و بناء جسور المودّة بينهم، و هذه المسألة كان لها تأثير إيجابى على أبى سفيان و أهل مكّة.

إلّا أنّ هذا الاحتمال مستبعد، لأنّ هذه الآيات نزلت عند ما كان المسلمون على أبواب فتح مكّة، و لأنّ «حاطب بن أبى بلتعة» كان يروم من إرسال رسالته إلى مشركى مكّة إحاطتهم علما بعزم الرّسول على فتح مكّة، فى الوقت الذى نعلم أنّ «جعفر بن أبى طالب» و أصحابه رجعوا إلى المدينة قبل فتح مكّة (فتح خيبر)[۲۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۰

و على كلّ حال، إذا تباعد بعض الناس عن خطّ الإسلام و المسلمين و كانت تربطهم علاقات إيجابية مع المسلمين، ففى مثل هذه

الحالة لا ينبغى اليأس، لأنّ اللّه تعالى قادر على كلّ شىء، و يستطيع تغيير ما فى قلوبهم، فهو الذى يغفر الذنوب و الخطايا لعباده، حيث يضيف تعالى فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ قَدِيرٌ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

كلمة (عسى) تستعمل عادة فى الموارد التى يؤمل فيها أن يتحقّق شىء ما، و بما أنّ هذا المعنى يستعمل أحيانا توأما مع (الجهل) أو (العجز) فإنّ كثيرا من المفسّرين فسّروها بمعنى رجاء الآخرين من اللّه و ليس العكس، إلّا أنّنا لا نرى تعارضا فى أن يكون لهذا المصطلح المعنى الأصلى، و ذلك لأنّ الوصول إلى هدف معيّن لا بدّ له فى أحيان كثيرة من وجود الشروط المناسبة، و إذا لم تستكمل هذه الشروط فإنّ هذه الكلمة تستعمل فى مثل هذه الموارد.

و تبيّن الآيات اللاحقة شارحة و موضّحة طبيعة علاقة المودّة مع المشركين، حيث يقول سبحانه: لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و بهذه الصورة يقسّم القرآن الكريم «المشركين» إلى فئتين:

فئة: عارضوا المسلمين و وقفوا بوجوههم و شهروا عليهم السلاح و أخرجوهم من بيوتهم و ديارهم كرها، و أظهروا عداءهم للإسلام و المسلمين فى القول و العمل .. و موقف المسلمين إزاء هذه المجموعة هو الامتناع عن إقامة كلّ لون من ألوان علاقة المحبّة و صلة الولاء معهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۱

و المصداق الواضح لهذه المجموعة هم مشركو مكّة، و خصوصا سادات قريش، حيث بذل بعضهم كلّ جهدهم لحرب المسلمين و إيذائهم، و أعانوا آخرون على ذلك.

و فئة اخرى: مع كفرهم و شركهم- لا يضمرون العداء للمسلمين، و لا يؤذونهم و لا يحاربونهم و لم يشاركوا فى إخراجهم من ديارهم و أوطانهم، حتّى أنّ قسما منهم عقد عهدا معهم بالسلم و ترك العداء.

إنّ الإحسان إلى هذه المجموعة و إظهار الحبّ لهم لا مانع منه، و إذا ما عقد معهم عهد فيجب الوفاء به، و أن يسعى لإقامة علاقات العدل و القسط معهم ..

و مصداق هذه الجماعة يتجسّد بطائفة (خزاعة) الذين كانوا قد عقدوا عهدا مع المسلمين على المسالمة معهم و ترك الخصام.

و بناء على ذلك فلا مجال لقول بعض المفسّرين من أنّ هذه الآية منسوخة بما ورد فى قوله تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۲۸۶].

حيث أنّ هذه الآية من سورة التوبة تتحدّث عن المشركين الذين نقضوا العهد و مارسوا أدوارا عدائية ضدّ الإسلام و المسلمين بصورة علنية، و يتبيّن ذلك من خلال الاستدلال بالآيات اللاحقة التى تلى هذه الآية الكريمة[۲۸۷].

و قد ذكر بعض المفسّرين فى حديثه حول هذه الآية أنّ زوجة أبى بكر المطلّقة أتت بهدايا لابنتها «أسماء» من مكّة، إلّا أنّ ابنتها امتنعت عن قبولها، بل إنّها امتنعت أيضا حتّى من السماح لامّها من دخول بيتها، فنزلت الآية أعلاه و أمرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن تلتقى بامّها و تقبل هديّتها و تكرمها و تحسن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۲

ضيافتها[۲۸۸].

و تبيّن لنا هذه الرواية أنّ هذه الرواية أنّ هذا الحكم لم يكن ليشمل أهل مكّة أجمع، حيث أنّ أقليّة منهم لم تكن تضمر العداء للمسلمين، و لم يكن لهم موقف عدائى إزاء المسلمين، و بشكل عام فإنّ المستفاد من الآيات الكريمة حول طبيعة و كيفية العلاقة بين المسلمين و غيرهم هو (أصل كلّى و أساسى) لا يختصّ بذلك الوقت فقط، بل يمثّل خطّا عامّا لطبيعة هذه العلاقة فى كلّ الأزمنة

سواء اليوم أو غدا، فى حياتنا المعاصرة و المستقبلية.

و واجب المسلمين وفق هذه الاسس أن يقفوا بكلّ صلابة أمام أيّة مجموعة، أو دولة، تتّخذ موقفا عدائيا منهم أو تعيّن من أراد بالإسلام و المسلمين سوءا ..

و قطع كلّ صلّة قائمة على أساس المحبّة و الصداقة معهم.

أمّا إذا كان الكفّار فى موقع محايد إزاء الإسلام و المسلمين، أو أنّهم متعاطفون معهم، عندئذ يستطيع المسلمون أن يقيموا علاقات حسنة و يرتبطوا و إيّاهم بروابط المودّة على أن لا تكون بالصورة التى تكون بين المسلمين أنفسهم، و لا بالشكل الذى يؤدّى إلى تغلغلهم فى صفوف المسلمين.

و إذا تغيّر موقف جماعة ما، أو دولة ما، و هى من الصنف الأوّل أو حصل عكس ذلك فى موقف الصنف الثانى، فبدّلوا سيرتهم من المسالمة إلى المحاربة و العداء، فيجب أن يتغيّر معيار التعامل معهم حسب موقفهم الجديد و واقعهم الفعلى، و تبنى معهم العلائق حسبما ورد من مفاهيم طبقا للآيات أعلاه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۳

الآيتان [سورة الممتحنة (۶۰): الآيات ۱۰ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (۱۰) وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۱۱)

سبب النّزول

قال بعض المفسّرين فى سبب نزول هذه الآيات: إنّ رسول اللّه أمضى فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۴

الحديبية مع مشركى مكّة عهدا، و كان من ضمن بنود هذا العهد أنّ من أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من أهل مكّة ردّه عليهم، و من أتى أهل مكّة من أصحاب رسول اللّه فهو لهم لا يردّوه عليه، و كتبوا بذلك كتابا وقّعوا عليه.

فى هذه الفترة جاءت (سبيعة بنت الحرث الأسلمية) مسلمة، و التحقت بالمسلمين فى أرض الحديبية بعد الانتهاء من توقيع العهد، فأقبل زوجها و كان كافرا، فقال: يا محمّد، اردد علىّ امرأتى، فإنّك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك و هذه طينة الكتاب لم تجف بعد فنزلت الآية أعلاه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ ... و أمرت بامتحان النسوة المهاجرات.

قال ابن عبّاس: امتحانهنّ أن يستحلفنّ ما خرجت من بغض زوج و لا رغبة عن أرض إلى أرض، و لا التماس دنيا، و ما خرجت إلّا حبّا للّه و رسوله. فاستحلفها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحلفت باللّه الذى لا إله إلّا هو على ذلك، فأعطى رسول اللّه زوجها مهرها و ما أنفق عليها و لم يردّها عليه فكان رسول اللّه يرد من جاءه من الرجال، و يحبس من جاءه من النساء إذا امتحنهنّ ۲۸۹] و يعطى أزواجهنّ مهورهنّ.

التّفسير

تعويض خسائر المسلمين و الكفّار:

استعرضت الآيات السابقة موضوع «البغض فى اللّه» و ما يترتّب على ذلك من قطع أى صلة مع أعداء اللّه .. أمّا موضوع هذه الآيات فهو عن «الحبّ فى اللّه» و عن طبيعة العلاقة مع الذين انفصلوا عن الكفر و ارتبطوا بالإيمان.

و ينصبّ الحديث فى الآية الاولى- من هذه الآيات المباركات- عن النساء المهاجرات، حيث ضمّت هذه الآية سبع نقاط تتعلّق بالنساء المهاجرات، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۵

تناولت نقاطا اخرى تختّص بالنساء المشركات.

النقاط التى تختصّ بالنساء المهاجرات هى:

۱- إمتحان النساء المهاجرات، حيث يوجّه سبحانه الحديث إلى المؤمنين فيقول تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَ

فالأمر الأوّل هو إمتحان النساء المؤمنات، و بالرغم من تسميتهنّ بالمؤمنات إلّا أنّ إعلان الشهادتين ظاهريا لا يكفى، فمن أجل المزيد من الاطمئنان على انسجام الظاهر مع الباطن كان الأمر بالامتحان للوثوق و التأكّد.

أمّا طريقة و أسلوب هذا الامتحان فكما مرّ بنا، و هو أن يستحلفن أنّ هجرتهنّ لم تكن إلّا من أجل الإسلام، و أنّها لم تكن بسبب بغض أزواجهنّ أو علاقة مع شخص آخر، أو حبّا بأرض المدينة و ما إلى ذلك.

كما يوجد احتمال آخر حول كيفية إمتحان النسوة المهاجرات، و ذلك كما ورد فى الآية الثانية عشرة من نفس السورة قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ ...[۲۹۰].

و من الممكن أن يكون الكذب فى الحلف أيضا، فيقول البعض خلافا لما يعتقد به، إلّا أنّ التزام الكثير من الناس حتّى المشركين فى ذلك الزمان بمسألة البيعة و الحلف باللّه كان سببا فى تقليص دائرة غير الصادقين. و من هنا نلاحظ أنّ الامتحان المذكور بالرغم من أنّه لم يكن دليلا قطعيّا على الإيمان حقيقة، إلّا أنّه غالبا ما يكون كاشفا عن الحقيقة بصورة كبيرة.

لذا يضيف سبحانه فى العبارة التالية: اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۶

۲- يقول سبحانه فى الأمر اللاحق: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ.

و رغم أنّ البند المثبت فى (وثيقة صلح الحديبية) يشير إلى أنّ الأشخاص الذين أسلموا و هاجروا إلى المدينة يجب إرجاعهم إلى مكّة، إلّا أنّه خاصّ بالرجال و لا يشمل النساء، لذا فإنّ رسول اللّه لم يرجع أيّة امرأة إلى الكفّار. و إلّا فرجوع المسلمة إلى الكفّار يمثّل خطرا حقيقيّا على وضعها الإيمانى، و ذلك بلحاظ ضعفها و حاجتها إلى الرعاية المستمرّة.

۳- فى ثالث نقطة التى هى فى الحقيقة دليل على الحكم السابق يضيف تعالى: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَ لا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَ

فالإيمان و الكفر لا يجتمعان فى مكان واحد، لأنّ عقد الزواج المقدّس لا يمكن أن يربط بين محورين و خطّين متضادّين (خطّ الإيمان) من جهة و (الكفر) من جهة اخرى، إذ لا بدّ أن يكون عقد الزواج يشكّل نوعا من الوحدة و التجانس و الانسجام بين الزوجين، و هذا ما لا يمكن أن يتحقّق نتيجة الاختلاف و التضادّ التى سيكون عليها الزوجان فى حالة كون أحدهما مؤمنا و الآخر

كافرا.

و نلاحظ فى بداية صدر الإسلام حالات من هذا القبيل لزوجين أحدهما مؤمن و الآخر كافر، و لم ينه عنها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث لم يزل المجتمع الإسلامى قلقا و غير مستقرّ بعد، إلّا أنّه عند ما تأصّلت جذور العقيدة الإسلامية و ترسّخت مبادئها، أعطى أمرا بالانفصال التامّ بين الزوجين بلحاظ معتقدهما، و خاصّة بعد صلح الحديبية، و الآية- مورد البحث- هى إحدى أدلّة هذا الموضوع.

۴- كان المتعارف بين العرب أن يدفعوا للمرأة مهرها سلفا، و لهذا المعنى أشار سبحانه فى قوله فى الأمر الرابع: وَ آتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا.

بالرغم من أنّ أزواج المؤمنات كفّار فلا بدّ من إعطائهم ما أنفقوا من مهور على زوجاتهم، و ذلك لأنّ الطلاق و الانفصال قد تمّ بمبادرة من المرأة بسبب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۷

إيمانها، لذا توجب العدالة الإسلامية دفع خسارة الزوج.

و يتساءل هنا: هل المقصود من الإنفاق هو المهر فقط، أو أنّه يشمل كافّة المصاريف التى بذلها الرجل لهذا الشأن؟

رجّح أغلب المفسّرين المعنى الأوّل، و هذا هو القدر المسلّم به، بالرغم من أنّ البعض- كأبى الفتوح الرازى- يرى وجوب تحمّل كافّة النفقات الاخرى أيضا[۲۹۱].

و طبيعى أنّ دفع المهر يكون لمن عقد معاهدة صلح من الكفّار مع المسلمين، كما فى صلح الحديبية.

و أمّا من الذى يدفع المهر؟ فالظاهر أنّ هذا العمل يجب أن تتبناه الدولة الإسلامية (بيت المال) لأنّ جميع الأمور التى لم يكن لها مسئول خاصّ فى المجتمع الإسلامى يجب أن تتصدّى الدولة لإدارتها، و خطاب الجمع فى الآية مورد البحث دليل على هذا المعنى. (كما يلاحظ فى آيات حدّ السارق و الزانى).

۵- الحكم الآخر الذى يلى الحكم أعلاه، فهو قوله تعالى: وَ لا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَ

و هنا تؤكّد الآية الكريمة على ضرورة إعطاء النساء المهاجرات مهورهنّ فى حالة الرغبة بالزواج منهنّ، شاجبة التصوّر الذى يدور فى خلد البعض بأنّ النساء المهاجرات لا يستحققن مهورا جديدة بسبب استلامهنّ المهور من أزواجهنّ السابقين، و قد تحمّل بيت المال مبالغها و دفعها لأزواجهنّ السابقين.

إنّ زواجكم من هؤلاء النسوة لا يمكن أن يكون مجانيّا، و لا بدّ أن يؤخذ بنظر الإعتبار مهر يتناسب مع حرمة المرأة المؤمنة.

و من الضرورى ملاحظة أنّ انفصال المرأة المؤمنة عن زوجها الكافر لا يحتاج إلى طلاق، إلّا أنّه لا بدّ من انتهاء العدّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۸

و قد ذكر الفقيه «صاحب الجواهر» فى شرحه لكلام «المحقّق الحلّى» «و أمّا فى الزوج و الزوجة غير الكتابين، فالحكم فيهما انّ إسلام أحد الزوجين موجب لانفساخ العقد فى الحال ان كان قبل الدخول و ان كان بعده وقف على انقضاء العدّة بلا خلاف فى شىء من ذلك و لا إشكال نصّا و فتوى، بل لعلّ الاتّفاق نقلا و تحصيلا عليه»[۲۹۲].

۶- أمّا إذا كان الأمر على العكس، و كان الزوج قد آمن بالإسلام، و بقيت المرأة كافرة، فهنا تنفصل الرابطة الزوجية، فتنقطع صلة زواجهما، كما فى قوله تعالى فى تكملة الآية: وَ لا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ.

«عصم»: جمع عصمة، و هى فى الأصل بمعنى المنع، و هنا- بمعنى النكاح و الزوجية- لوجود القرائن- و صرّح البعض بأنّه النكاح الدائم- و التعبير بالعصمة أيضا مناسب لهذا المعنى، لأنّه يمنع المرأة من الزواج من أىّ شخص آخر إلى الأبد.

«الكوافر» جمع كافرة، بمعنى النساء الكافرات.

و قد بحث الفقهاء فى أنّ هذا الحكم هل هو مختّص بالنساء المشركات فقط، أم أنّه يشمل أهل الكتاب أيضا كالنسوة المسيحيات و

اليهوديات؟ و تختلف الروايات فى هذا المجال، حيث يجدر متابعتها فى كتب الفقه. إلّا أنّ ظاهر الآية مطلق و يشمل جميع النساء الكافرات، كما أنّ سبب النزول لم يحدّد ذلك.

أمّا مسألة «العدّة» فهى باقية بطريق أولى، لأنّها إذا أنجبت طفلا فسيكون مسلما لأنّ أباه مسلم.

۷- أمّا آخر حكم ذكر فى الآية الكريمة، فهو مهور النساء اللواتى ارتددن عن الإسلام و التحقن بالكفّار فانّ لكم الحقّ فى المطالبة بمهورهنّ مثلما للكفّار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۵۹

الحقّ فى المطالبة بمهور زوجاتهم اللاتى دخلن دائرة الإسلام و التحقن بالمسلمين، حيث يقول تعالى: وَ سْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَ لْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا و هذا ما توجبه العدالة و الاحترام المتقابل للحقوق.

و فى نهاية الآية- و تأكيدا لما سبق- يقول سبحانه: ذلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

إنّ هذه الأحكام المستلهمة من العلم الإلهى، الممتزجة بحكمته تعالى، و التى لاحظت فى تشريعاتها كافّة الحقوق، تنسجم مع مبادئ العدل و المرتكزات و الأصول الإسلامية، و لا بدّ من الالتفات إلى حقيقة أنّ كون جميع هذه الأحكام إلهيّة يعدّ أكبر ضمانة إجرائية لها فى قوّة التنفيذ.

و استعرضت ثانى و آخر آية من هذه الآيات متابعة لما تقدّم، بعض الأمور فى هذا الصدد يقول تعالى أنّه فى كلّ مرّة ترتدّ امرأة متزوّجة عن الإسلام و تلتحق بالكفّار، ثمّ حدثت معركة بينكم و بين الكفّار و حالفكم النصر عليهم و غنمتم منهم مغانم فأعطوا الذين ذهبت زوجاتهم إلى الكفّار: وَ إِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا.

و تمشّيا مع النصّ القرآنى فإنّ بإمكان المسلمين الذين فقدوا زوجاتهم اللواتى التحقن بمعسكر الكفر أن يأخذوا مهورهنّ من الكفّار، كما كان يحقّ للكفّار استلام مهور زوجاتهم اللواتى اعتنقن الإسلام و هاجرن إلى المدينة.

و تحدّثنا بعض الروايات أنّه فى الوقت الذى طبّق المسلمون هذا الحكم العادل، فإنّ مشركى مكّة امتنعوا عن الالتزام به و تنفيذه، لذا فقد امر المسلمون بصيانة حقّ هؤلاء الأفراد و ذلك بإعطائهم ما يعادل المهور التى دفعوها لزوجاتهم اللواتى التحقن بالمشركين من الغنائم التى حصلوا عليها قبل تقسيمها على الآخرين.

و يحتمل أن يكون هذا الحكم خاصّا بالجماعات التى لم يكن لها عهد مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۰

المسلمين، حيث من الطبيعى أنّ مثل هؤلاء لم يكونوا مستعدّين لدفع مهور أمثال هؤلاء النسوة للمسلمين، كما يمكن الجمع بين الرأيين أيضا.

«عاقبتم» من مادّة معاقبة، و هى فى الأصل من عقب (على وزن كدر) بمعنى:

(كعب القدم) و لهذا السبب فإنّ كلمة «عقبى» جاءت بمعنى الجزاء و العقوبة، أى بمعنى عقاب لعمل فيه مخالفة. لذا فإنّ المعاقبة تستعمل بمعنى القصاص، كما يستعمل هذا المصطلح أيضا (معاقبة) بمعنى (التناوب) فى أمر ما، لكون الأشخاص الذين ينجزون عملا ما بشكل متناوب، يعقب كلّ منهم الآخر.

و لذا فإنّ كلمة (عاقبتم) فى الآية أعلاه جاءت بمعنى انتصار المسلمين على الكفّار و عقابهم، و أخذ الغنائم منهم، كما جاءت أيضا بمعنى «التناوب» أى يوم ينتصر فيه الكفّار على المسلمين و يوم بالعكس.

و يحتمل أيضا المقصود من هذه العبارة هو: الوصول إلى نهاية و عاقبة عمل ما، و المراد من نهاية العمل هنا هو أخذ الغنائم الحربية.

و أى من هذه المعانى كان، فإنّ النتيجة واحدة، إلّا أنّ طرق الوصول إلى هذه النتيجة متفاوتة.

و تدعو الآية الكريمة فى نهايتها جميع المسلمين إلى الالتزام بالتقوى حيث يقول تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ

و الأمر بالتقوى هنا يمكن أن يكون بمراعاة الدقّة و العدل فى تعيين مقدار مهر الزوجة، باعتبار أنّ هذا الأمر يعتمد فيه على قول الزوج فى الغالب، و لا يوجد سبيل لإثبات هذا الحقّ إلّا أقوال الزوجين، و لاحتمال أن تسبّب الوساوس الشيطانية فى الادّعاء بمبلغ أكثر من المقدار الحقيقى للمهر، لذا يوصى بالتقوى.

و جاء فى التواريخ و الروايات أنّ هذا الحكم الإسلامى قد شمل ستّ نسوة- فقط- انفصلنّ عن أزواجهنّ المسلمين و التحقن بالكفّار، و قد أعطى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أزواجهنّ مهورهنّ من الغنائم الحربية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۱

العدل حتّى مع الأعداء:

من خلال استعراضنا الآيات الكريمة أعلاه نلاحظ عمق الدقّة و روعة الظرافة و اللطف فى طبيعة الأحكام التى وردت فيها، موضّحة إلى أى حدّ يهتمّ الإسلام بأصل العدالة و القسط فى تشريع أحكامه حتّى فى أحرج الظروف و أصعبها، لأنّه يسعى لتعميم الخير و إبعاد الأذى و الضرر حتّى عن الكفّار.

فى الوقت الذى نلاحظ أنّ العرف العامّ فى حياتنا العملية يتعامل فى الظروف و الأوقات العصيبة بخصوصية معيّنة و استثناء خاصّ و يتخلّى عن الكثير من قيم الحقّ و العدل و يدّعى أن لا مكان لإحقاق الحقّ فيها .. فى حين تؤكّد التشريعات الإلهية على تحمّل كلّ صعوبة حتّى فى أدقّ الظروف و أشدّها ضيقا منعا لهدر أىّ حقّ، لا للقريبين فقط. بل حتّى للأعداء، إذ يجب أن يحافظ على حقوقهم و ترعى حرماتهم.

إنّ مثل هذه الأحكام الإسلامية هى فى الحقيقة نوع من الإعجاز، و دليل على حقّانية دعوة الرّسول الأعظم حيث السعى بمنتهى الجهد لإقامة العدل حتّى فى أسوأ حالات الانتهاك للحرمات الإسلامية فى مجال النفس و المال كما كان عليه فعل المجتمع الجاهلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۲

الآية [سورة الممتحنة (۶۰): آية ۱۲]

اشارة

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَ لا يَسْرِقْنَ وَ لا يَزْنِينَ وَ لا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَ لا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۲)

التّفسير

شروط بيعة النساء:

استمرارا للبحث الذى تقدّم فى الآيات السابقة و الذى استعرضت فيه أحكام النساء المهاجرات، تتحدّث هذه الآية عن تفاصيل و أحكام بيعة النساء المؤمنات مع الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

لقد ذكر المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت يوم فتح مكّة عند ما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على جبل (الصفا) يأخذ البيعة من الرجال، و كانت نساء مكّة قد أتين إلى رسول اللّه من أجل البيعة فنزلت الآية أعلاه، و بيّنت كيفية البيعة معهنّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۳

و يختّص خطاب الآية برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول تعالى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ ... إلى قوله: ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و بعد هذه الآية أخذ رسول اللّه البيعة من النساء المؤمنات.

و كتب البعض حول كيفية البيعة أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مر بإناء فيه ماء، و وضع يده المباركة فيه، و وضع النسوة أيديهنّ فى الجهة الاخرى من الإناء. و قيل إنّ رسول اللّه بايع النساء من فوق الملابس.

و ممّا يجدر ملاحظته أنّ الآية الكريمة ذكرت ستّة شروط فى بيعة النساء، يجب مراعاتها و قبولها جميعا عند البيعة و هى:

۱- ترك كلّ شرك و عبادة للأوثان، و هذا شرط أساسى فى الإسلام و الإيمان.

۲- اجتناب السرقة، و يحتمل أن يكون المقصود بذلك هو سرقة أموال الزوج، لأنّ الوضع المالى السيء آنذاك، و قسوة الرجل على المرأة، و انخفاض مستوى الوعى كان سببا فى سرقة النساء لأموال أزواجهنّ، و احتمال إعطاء هذه الأموال للمتعلّقين بهنّ.

و ما قصّة (هند) فى بيعتها لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا شاهد على هذا المعنى، و لكن على كلّ حال فإنّ مفهوم الآية واسع.

۳- ترك التلوّث بالزنا، إذ المعروف تأريخيا أنّ الانحراف عن جادّة العفّة كان كثيرا فى عصر الجاهلية.

۴- عدم قتل الأولاد، و كان القتل يقع بطريقتين، إذ يكون بإسقاط الجنين تارة، و بصورة الوأد تارة اخرى (و هى عملية دفن البنات و الأولاد أحياء).

۵- اجتناب البهتان و الافتراء، و قد فسّر البعض ذلك بأنّ نساء الجاهلية كنّ يأخذن الأطفال المشكوكين من المعابر و الطرق و يدّعين أنّ هذا الطفل من أزواجهنّ (و هذا الأمر محتمل فى حالة الغياب الطويل للزوج).

و قد اعتبر البعض ذلك إشارة إلى عمل قبيح هو من بقايا عصر الجاهلية،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۴

حيث كانت المرأة تتزوّج من رجال عدّة، و عند ما يولد لها طفل تنسبه إلى أىّ كان منهم، إذا ضمنت رغبته بالطفل.

و مع الأخذ بنظر الإعتبار أنّ مسألة الزنا قد ذكرت سابقا، و لم يكن استمرار مثل هذا الأمر فى الإسلام ممكنا، لذا فإنّ هذا التّفسير مستبعد، و التّفسير الأوّل أنسب بالرغم من سعة مفهوم الآية الشريفة الذى يشمل كلّ افتراء و بهتان.

كما أنّ التعبير ب بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَ يمكن أن يكون إشارة إلى أطفال أبناء السبيل، حيث تكون وضعية الطفل الرضيع عند رضاعته فى حضن امّه بين يديها و رجليها.

۶- الطاعة لأوامر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم التى تبنى الشخصية المسلمة و تهذّبها و تربّيها على الحقّ و الخير و الهدى، و هذا الحكم واسع أيضا يشمل جميع أوامر الرّسول، بالرغم من أنّ البعض اعتبره إشارة إلى قسم من أعمال النساء فى عصر الجاهلية كالنوح بصوت عال على الموتى، و تمزيق الجيوب و خمش الخدود و ما شابه، إلّا أنّ مفهوم الطاعة لا ينحصر بذلك.

و يمكن أن يطرح هنا هذا السؤال و هو: لماذا كانت البيعة مع النساء مشروطة بهذه الشروط، فى حين أنّ بيعة الرجال لم تكن مشروطة إلّا بالإيمان و الجهاد؟

و للإجابة على ذلك نقول: إنّ الأمور الأساسية المتعلّقة بالرجال فى ذلك المحيط هو الإيمان و الجهاد، و لأنّ الجهاد لم يكن مشروعا بالنسبة للنساء لذا ذكرت شروط اخرى أهمّها ما أكّدت عليه الآية الشريفة و التى تؤكّد على صيانة المرأة من الانحراف فى ذلك المجتمع.

بحوث

۱- ارتباط بيعة النساء ببناء شخصيتهنّ الإسلامية

لقد ذكرنا فى تفسير سورة الفتح- فى نهاية الآية (۱۸)- بحثا مفصّلا حول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۵

البيعة و شروطها و خصوصياتها فى الإسلام، لذا لا ضرورة لتكرار ذلك ۲۹۳].

و ممّا يجدر التذكير به هنا أنّ مسألة بيعة النساء للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت بشروط بنّاءة و مربّية كما نصّت عليها الآية أعلاه.

إنّ هذه النقطة على خلاف ما يقوله الجهلة و المغرضون فى أنّ الإسلام حرم المرأة من الاحترام و القيمة و المكانة التى تستحقّها، فإنّ هذه الآية أكّدت على الاهتمام بالمرأة فى أهمّ المسائل و من ضمنها موضوع البيعة سواء كانت فى الحديبية فى العام السادس للهجرة أو فى فتح مكّة، و بذلك دخلن العهد الإلهى مع الرجال و تقبّلن شروطا إضافية تعبّر عن الهوية الإنسانية للمرأة الملتزمة تنقذها من شرور الجاهلية، سواء القديمة منها أو الجديدة، حيث تتعامل معها كمتاع بخس رخيص، و وسيلة لإشباع شهوة الرجال ليس إلّا.

۲- قصّة بيعة (هند) زوجة أبى سفيان

عند ما منّ اللّه على المسلمين بفتح مكّة، و جاءت النساء لبيعة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كانت «هند» زوجة أبى سفيان من ضمن النساء اللواتى جئن لبيعة الرّسول أيضا. هذه المرأة التى ينقل عنها التاريخ قصصا مثيرة فى ممارساتها الإجرامية، و ما قصّة فعلها بحمزة سيّد الشهداء فى غزوة أحد، ذلك العمل الإجرامى القبيح، إلّا مفردة واحدة من الصور السوداء لهذه المرأة المشينة.

و بالرغم من أنّ الظروف قد اضطرّتها إلى الانحناء أمام عظمة الإسلام فأعلنت إسلامها ظاهريا، إلّا أنّ قصّة بيعتها تعكس أنّها فى الواقع كانت وفّية لما ارتبطت به من عقائد جاهلية سابقة، لذا فليس عجبا ما ارتكبه آل اميّة و أبناؤهم بحقّ آل الرّسول، بصورة لم يكن لها مثيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۶

و على كلّ حال، فقد كتب المفسّرون فى قصّة بيعة هند:

«روى أنّ النبى بايعهنّ و كان على الصفا، و هند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة خوفا من أن يعرفها رسول اللّه، فقال أبايعكن على أن لا تشركن باللّه شيئا، فقالت هند:

انّك لتأخذ علينا أمرا ما أخذته على الرجال.

و ذلك انّه بايع الرجال يومئذ على الإسلام و الجهاد فقط، فقال رسول اللّه: و لا تسرقن. فقالت هند: إنّ أبا سفيان ممسك و انّى أصبت من ماله هنات فلا أدرى أ يحلّ لى أمّ لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالى فيما مضى و فيما غبر فهو لك حلال .. فضحك رسول اللّه و عرفها فقال لها: و انّك هند بنت عتبة، فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبى اللّه عفا اللّه عنك. فقال: و لا تزنين. فقالت هند: أو تزنى الحرّة، فتبسّم عمر بن الخطاب لما جرى بينه و بينها فى الجاهلية، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«و لا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربّيناهم صغارا و قتلوهم كبارا و أنتم و هم أعلم.

و كان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قتله على بن أبى طالب عليه السّلام يوم بدر. و قال النبى:

و لا تأتين ببهتان قالت هند: و اللّه إنّ البهتان قبيح و ما تأمرنا إلّا بالرشد و مكارم الأخلاق، و لمّا قال: و لا يعصينك فى معروف قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا و فى أنفسنا أن نعصيك فى شىء»[۲۹۴].

۳- الطاعة بالمعروف

إنّ من جملة النقاط الرائعة المستفادة من الآية أعلاه هو تقييد طاعة الرّسول بالمعروف، مع أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معصوم، و لا يأمر بالمنكر أبدا، و هذا التعبير الرائع يدلّل على أمر فى غاية السمو، و هو أنّ الأوامر التى تصدر من القادة الإسلاميين- مع كونهم يمثّلون القدوة و النموذج- لن تكون قابلة للتنفيذ و محترمة إلّا إذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۷

منسجمة مع التعاليم القرآنية و اصول الشريعة و عندئذ تكون مصداقا (لا يعصينك فى معروف).

و كم هى الفاصلة بعيدة بين الأشخاص الذين يعتبرون أوامر القادة واجبة الطاعة، مهما كانت و من أى شخص صدرت، ممّا لا ينسجم مع العقل و لا مع حكم الشرع و القرآن، و بين التأكيد على إطاعة المعصوم و عدم المعصية فى معروف؟! و قال أمير المؤمنين عليه السّلام فى رسالته المشهورة التى أرسلها لأهل مصر حول و الولاية مالك الأشتر، و مع كلّ تلك الصفات المتميّزة فيه:

«فاسمعوا له و أطيعوا أمره فيما طابق الحقّ فإنّه سيف من سيوف اللّه»[۲۹۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۸

الآية [سورة الممتحنة (۶۰): آية ۱۳]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ (۱۳)

التّفسير

بدأت هذه السورة بآية تؤكّد على قطع كلّ علاقة بأعداء اللّه، و تختتم هذه السورة بآية تؤكّد هى الاخرى على نفس المفهوم و الموقف من أعداء اللّه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ و بتعبير آخر فإنّ ختام السورة رجوع إلى مطلعها.

و يحذّر القرآن الكريم من أن يتّخذ أمثال هؤلاء أولياء و أن تفشى لهم الأسرار فيحيطون علما بخصوصيات الوضع الإسلامى.

و يرى البعض أنّ الآية صريحة فى أنّ المراد بالمغضوب عليهم فيها هم (اليهود) إذن أنّهم ذكروا فى آيات قرآنية اخرى بهذا العنوان، قال تعالى: فَباؤُ بِغَضَبٍ عَلى غَضَبٍ ۲۹۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۶۹

و هذا التّفسير يتناسب أيضا مع سبب النزول الذى ذكر لهذه الآية، حيث تحدّثنا بعض الرّوايات أنّ قسما من فقراء المسلمين كانوا يذهبون بأخبار المسلمين إلى اليهود مقابل إعطائهم شيئا من فواكه أشجارهم، فنزلت الآية أعلاه و نهتهم عن ذلك ۲۹۷].

و مع ذلك فإنّ للآية مفهوما واسعا حيث يشمل جميع الكفّار و المشركين، و التعبير ب «الغضب» فى القرآن الكريم لا ينحصر باليهود فقط، إذ ورد بشأن المنافقين أيضا كما فى الآية (۶) من سورة الفتح، بالإضافة إلى أنّ سبب النزول لا يحدّد مفهوم الآية.

و بناء على هذا فإنّ ما جاء فى الآية الشريفة يتناسب مع أمر واسع جاء فى أوّل آية من هذه السورة تحت عنوان (موالاة أعداء اللّه).

ثمّ تتناول الآية أمرا يعتبر دليلا على هذا النهى حيث يقول تعالى: قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكَفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ[۲۹۸].

ذلك أنّ موتى الكفّار سيرون نتيجة أعمالهم فى البرزخ حيث لا رجعة لهم لجبران ما مضى من أعمالهم السيّئة، لذلك فإنّهم يئسوا تماما من النجاة، و هؤلاء المجرمون فى هذه الدنيا قد غرقوا فى آثامهم و ذنوبهم إلى حدّ فقدوا معه كلّ أمل فى نجاتهم، كما هو الحال بالنسبة للموتى من الكفّار.

إنّ مثل هؤلاء الأفراد من الطبيعى أن يكونوا أشخاصا غير أمناء و لا يعتد بكلامهم و عهدهم، و لا اعتبار لودّهم و صداقتهم، لأنّهم يائسون تماما من رحمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۰

اللّه، و لهذا السبب فإنّهم يرتكبون أقبح الجرائم و أرذل الأعمال، و جماعة هذه صفاتها كيف تثقون بها و تعتمدون عليها و تتّخذونها أولياء؟! اللهمّ، لا تحرمنا أبدا من لطفك و رحمتك الواسعة ..

ربّنا، وفّقنا لنكون أولياء لأوليائك و أعداء لأعدائك، و ثبّت أقدامنا فى هذا السبيل ..

إلهنا، وفّقنا للتأسّى بأنبيائك و أوليائك ..

آمين يا ربّ العالمين.

نهاية سورة الممتحنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۱

سورة الصّفّ

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها أربع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۳

«سورة الصّف»

محتوى سورة الصّف:

تدور أبحاث هذه السورة إجمالا حول محورين أساسيين.

الأوّل: فضيلة الإسلام على جميع الأديان السماوية، و ضمان خلوده و بقائه.

و الثانى: وجوب الجهاد فى طريق حفظ المبدأ و ترسيخ أركانه و تطوير العمل لتقدّمه و الالتزام به.

إلّا أنّنا حينما نتأمّل فى الآيات الكريمة نلاحظ إمكانية تقسيمها إلى سبعة أقسام من خلال نظرة تفصيلية، و تشمل ما يلى:

۱- تتحدّث بداية السورة عن تنزيه و تسبيح البارئ العزيز الحكيم، و تمهّد الأرضية لتلقّى و قبول الحقائق و الموضوعات التى تليها.

۲- الدعوة إلى الانسجام بين القول و العمل، و الابتعاد عن الدعاوى الفارغة البعيدة عن المسار العملى.

۳- الدعوة إلى الجهاد بيقين ثابت و عزم راسخ.

۴- الإشارة إلى موقف اليهود من العهود و نقضهم لها، بالإضافة إلى بشارة السيّد المسيح عليه السّلام بظهور الإسلام العظيم.

۵- الضمان الإلهى لانتصار الإسلام على كافّة الأديان.

۶- الحثّ و التأكيد على الجهاد و استعراض المثوبات الدنيوية و الاخروية للمجاهدين فى سبيل الحقّ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۴

۷- استعراض مختصر لحیاة حواری السیّد المسیح علیه السّلام و الدعوة لاستلهام الدروس من سیرتهم.

و من خلال نظرة شاملة لموضوعات هذه السورة الشریفة نلاحظ أنّ المحور الأساس لها هو (الإسلام و الجهاد).

إنّ إختیار اسم «الصّف» لهذه السورة کان بلحاظ العبارة التی وردت فی الآیة الرابعة منها، و تسمّی أحیانا بسورة «عیسی» علیه السّلام، أو سورة «الحواریین».

و المعروف أنّ هذه السورة نزلت فی المدینة، و یؤیّد هذا المعنی ما ورد فیها من آیات الجهاد الذی لم یشرع فی مکّة کما هو معلوم.

فضیلة تلاوة سورة الصّف:

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حول فضیلة تلاوة سورة الصفّ أنّه قال: «من قرأ سورة عیسی کان عیسی مصلّیا علیه مستغفرا له ما دام فی الدنیا و هو یوم القیامة رفیقه»[۲۹۹].

نقرأ

فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة الصفّ و أدمن قراءتها فی فرائضه و نوافله، صفّه اللّه مع ملائکته و أنبیائه المرسلین»[۳۰۰].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۵

الآیات [سورة الصف (۶۱): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۱) یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ (۲) کَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ (۳) إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ الَّذِینَ یُقاتِلُونَ فِی سَبِیلِهِ صَفًّا کَأَنَّهُمْ بُنْیانٌ مَرْصُوصٌ (۴)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون أسبابا عدیدة لنزول الآیة الشریفة: لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ بتفاوت یسیر فیما ذکروه، و ممّا جاء فی أقوالهم ما یلی:

۱- أنّ الآیة الکریمة نزلت فی جماعة من المؤمنین کانوا یقولون: إذا لقینا العدوّ لن نفرّ و لن نرجع عنهم، إلّا أنّهم لم یفوا بما قالوا یوم «احد» حتّی شجّ وجه الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و کسرت رباعیته المبارکة.

۲- بعد بیان البارئ عزّ و جلّ الثواب العظیم لشهداء بدر، قال بعض الصحابة:

ما دام الأجر هکذا فإنّنا سوف لن نفرّ فی الغزوات المقبلة، إلّا أنّهم فرّوا فی غزوة أحد، فنزلت الآیة أعلاه موبّخة لهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۶

۳- دعا بعض المؤمنین قبل نزول حکم الجهاد أن یرشدهم اللّه إلی أفضل الأعمال لیعملوا بها و لم یمض وقت طویل حتّی أخبرهم اللّه سبحانه بأنّ (أفضل الأعمال الإیمان الخالص و الجهاد فی سبیله) إلّا أنّهم لم یتفاعلوا مع هذا التوجیه، و تعلّلوا فنزلت الآیة تلومهم و توبّخهم علی موقفهم هذا[۳۰۱].

التّفسير

المقاتلون المؤمنون صفّ حديدى منيع:

اعتبرت هذه السورة من السور المسبّحات، ذلك لأنّها تبدأ بتسبيح اللّه فى بدايتها: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ ۳۰۲].
و لم لا يسبّحونه و لا ينزّهونه من كلّ عيب و نقص: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ القدير الذى لا يقهر و الحكيم المحيط بكلّ شىء علما.
إنّ الالتفات إلى مسألة التسبيح العامّ للكائنات، الذى يتمّ بلسان الحال و القال، و كذلك النظام المدهش العجيب الحاكم فيها و الذى هو أفضل دليل على وجود خالق عزيز حكيم .. من شأنه تمكين أسس الإيمان فى القلوب، و من شأنه أيضا تمهيد الطريق لأمر الجهاد.
ثمّ يضيف البارئ عزّ و جلّ فى معرض لوم و توبيخ للأشخاص الذين لم يلتزموا بأقوالهم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ ۳۰۳].
و على الرغم من أنّ سبب نزول الآية كما مرّ بنا كان متعلّقا بالجهاد فى سبيل اللّه، و ما حدث من فرار فى غزوة احد، و لكن يستفاد من الآية سعة المفهوم الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۷

تعرّضت له، و بهذا تستوعب كلّ قول لا يقترن بعمل و يستحقّ اللوم و التوبيخ، سواء يتعلّق بالثبات فى ميدان الجهاد أو أى عمل إيجابى آخر.
و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المخاطب فى هذه الآيات هم المتظاهرون بالإيمان و المنافقون، مع أنّ الخطاب فى هذه الآية موجّه إلى الذين آمنوا، كما أنّ تعبيرات الآيات اللاحقة تبيّن لنا أنّ المخاطب بذلك هم المؤمنون، و لكنّهم لم يصلوا بعد إلى الإيمان الكامل و أعمالهم غير منسجمة مع أقوالهم.
ثمّ يضيف سبحانه مواصلا القول: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ ۳۰۴] حيث التصريحات العلنية فى مجالس السمر و الادّعاء بالشجاعة، و لكن ما أن تحين ساعة الجدّ إلّا و نلاحظ الهروب و النكوص و الابتعاد عن تجسيد الأقوال المدّعاة.
إنّ من السمات الأساسية للمؤمن الصادق هو الانسجام التامّ بين أقواله و أعماله و كلّما ابتعد الإنسان عن هذا الأصل، فإنّه يبتعد عن حقيقة الإيمان.
«المقت» فى الأصل: (البغض الشديد لمن ارتكب عملا قبيحا) و كان عرب الجاهلية يطلقون عبارة (نكاح المقت) لمن يتزوّج زوجة أبيه. و فى الجملة السابقة نلاحظ اقتران مصطلح «المقت» مع «الكبر»، و الذى هو دليل أيضا على الشدّة و العظمة، كما هو دليل على الغضب الإلهى الشديد على من يطلقون أقوالا و لا يقرنونها بالأعمال.
يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى الميزان: فرق بين أن يقول الإنسان شيئا لا يريد أن يفعله، و بين الإنسان الذى لا ينجز عملا يقوله. فالأوّل دليل النفاق، و الثانى دليل ضعف الإرادة[۳۰۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۸

و توضيح ذلك أنّ الإنسان أنّ الإنسان الذى يقول شيئا لم يقرّر إنجازه منذ البداية هو على شعبة من النفاق، أمّا إذا قرّر القيام بعمل ما، و لكنّه ندم فيما بعد فهذا دليل ضعف الإرادة.
و على كلّ حال، مفهوم الآية يشمل كلّ تخلّف عن عمد، سواء تعلّق بنقض العهود و الوعود أو غير ذلك من الشؤون، حتّى أنّ البعض قال: إنّها تشمل حتّى النذور.
و نقرأ

فى رسالـة الإمام على عليه السّـلام لمالك الأشتر أنّه قال: «إيّاك .. أن تعـدهم فتتبع موعـدك بخلفك .. و الخلف يوجب المقت عند اللّه و الناس، قال اللّه تعالى:

كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ [۳۰۶].

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق أنّه عليه السّلام قال: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفّارة فيه، فمن أخلف فبخلف اللّه بدأ، و لمقته تعرّض، و ذلك قوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ ۳۰۷].

ثمّ تطرح الآيـة اللاحقة مسألة مهمّة للغاية فى التشـريع الإسـلامى، و هى موضوع الجهاد فى سبيل اللّه، حيث يقول تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ ۳۰۸].

و نلاحـظ هنـا أنّ التأكيـد ليس على القتـال فحسب، بـل على أن يكون «فى سبيله» تعـالى وحـده، و يتجسّـد فيه- كـذلك- الاتّحـاد و الانسجام التامّ و التجانس و الوحدة، كالبنيان المرصوص.

«صف» فى الأصل لها معنى مصدرى بمعنى (جعل شىء ما فى خطّ مستو) إلّا أنّها هنا لها معنى (اسم فاعل).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۷۹

«مرصوص» من مادّة (رصاص) بمعنى معـدن الرصاص، و لأنّ هـذه المادّة توضع بعـد تـذويبها بين طبقات البناء من أجل اسـتحكامه و جعله قويّا و متينا للغاية، لذا أطلقت هذه الكلمة هنا على كلّ أمر قوى و محكم.

و المقصود هنا أن يكون وقوف و ثبات المجاهـدين أمام العـدو قويّا راسـخا تتجسّـد فيه وحـدة القلوب و الأرواح و العزائم الحديدة و التصميم القوى، بصورة تعكس أنّهم صفّ متراصّ ليس فيه تصدّع أو تخلخل ..

يقول على بن إبراهيم فى تفسيره موضّحا مقصود هذه الآية: «يصطفّون كالبنيان الذى لا يزول»[۳۰۹].

و

جاء فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السّـلام أنّه عند ما كان يهيء أصـحابه للقتال بصفّين، قال: «إنّ اللّه تعالى قد أرشدكم إلى هـذه المسؤوليـة حيث قـال سـبحانه: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ و على هـذا فاحكموا صـفوفكم كالبنيـان المرصـوص، و قـدموا الـدّارع، و أخّروا الحاسـر، و عضّوا على الأضـراس فـإنّه أنـبى للسـيوف عن إلهـام، و التووا فى أطراف الرمـاح، فـإنّه أمور للأسـنّة، و غضّوا الأبصـار فـإنّه أربط للجأش، و أسـكن للقلوب، و أميتوا الأصوات، فإنّه أطرد للفشل، و رايتكم فلا تميلوها و لا تخلوها، و لا تجعلوها إلّا بأيدى شجعانكم ...»[۳۱۰].

بحثان

۱- ضرورة وحدة الصفوف

إنّ من العوامل المهمّة و المؤثّرة فى تحقيق النصر عامل الانسجام و وحدة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۰

الصـفوف أمـام الأعـداء فى ميـادين القتـال، و هـذا المبـدأ لا يجـدر بنا الالتزام به فى الحرب العسـكرية فحسب، بل علينا تجسـيده فى الحروب الاقتصادية و السياسية .. و إلّا فسوف لن نحقّق شيئا.

إنّ التشبيه القرآنى للعـدو بأنّه سـيل عارم و مـدمّر لا يسـيطر عليه إلّا من خلال سـدّ حديدى محكم، تشبيه فى غاية الروعة و الجمال، و

التعبير بأن يكون المؤمنون ك (البنيان المرصوص) أروع تعبير جاء فى هـذا الصـدد، و ممّا لا شكّ فيه أنّ لكلّ جزء فى السـدّ أو البناء العظيم، دور معيّن فى مواجهة السـيل، و هذا الدور مهمّ و مؤثّر على جميع الأجزاء، و فى حالة قوّته و تماسكه و عدم وجود تخلخل أو تشقّق أو ثغرات فيه، يصعب عندئذ نفوذ العدوّ منه، و إذا ما حاول ذلك فإنّ الجميع يوجّهون إليه صفعة مدمّرة.

و ممّا يؤسف له أنّ أمثال هذه التعاليم الإسـلامية قد نسـيت اليوم، و اسـتبدلت حالة الوحدة و التراصّ فى مجتمعنا الإسـلامى بحالة من التشتّت و التمزّق، و أصبحت صفوفنا شتّى، و كلّ منها ينهش الآخر حتّى أدّى إلى تآكل قوانا و تفرّق جمعنا.

إنّ وحدة الصفّ ليست شعارا إعلاميا، إنّها تحتاج إلى وحدة العقيدة و التصورات و الأهداف .. و هذا ما يحتاج بالضرورة إلى خلوص النوايا و الالتزام بالمفاهيم القرآنية العظيمة، و اعتماد التربية الإلهية فى السلوك و المنهج العلمى السليم.

و إذا كان البارئ عزّ و جلّ يعلن حبّه للمجاهدين المتراصّين الذين يشكّلون وحدة متماسكة، فإنّه سبحانه فى نفس الوقت يعلن سخطه و غضبه على الجموع المسلمة إذا كانت متمزّقة و مشتّتة و نتيجته هو ما نراه الآن متجسّدا فى تسلّط مجموعة صغيرة من الصهاينة على أرضنا الإسلامية و عددنا يربو على المليار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۱

مسلم.

إلهى: تفضّل علينا بمعرفة القرآن العظيم حقّ معرفته، و وفّقنا للالتزام بتعاليمه السامية.

۲- الأقوال المجرّدة عن العمل

يترجم اللسان فى الغالب ما يكنّه القلب و ما تضـمره الروح، و إذا أصـبح اللسان فى مسار بعيد عن تصوير خلجات القلب و إرادته. فإنّ ذلك دليل على حالة النفاق، و المنافق تبدو عليه علامات الاعتلال فى الفكر و الروح.

إنّ من أعظم الابتلاءات التى تبتلى بها المجتمعات الإنسانية هو تزعزع الثقة بين صـفوفها و عدم الاطمئنان فيما بينها، و أمارة ذلك هى الأقوال البعيدة عن الالتزام و الادّعاءات الفارغة من المحتوى العملى، و أداة ذلك هم الأشخاص الذين يقولون ما لا يفعلون، و بذلك فهم يشـكّلون بؤرة عميقـة مخيّبـة فى قبـال حالاـت الانسـجام و الوحـدة و التماسـك أمام المشاكل التى تواجههم، بل يشـكّلون عاملا للضعف و التباغض و عدم الاحترام و تضييع الإمكانات و سقوط هيبتهم أمام الأعداء.

عند ما أغار جيش الشام على حدود العراق، و وصل خبر ذلك إلى

الإمام على عليه السّلام خطب فى أهل الكوفـة خطبته التى قال فيها: «أيّها الناس المجتمعـة أبـدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهى الصمّ الصلاب، و فعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون فى المجالس كيت و كيت، فإذا جاء قلتم: حيدى حياد»[۳۱۱].

و الإمام عليه السّلام يتحدّث هنا بألم عن أهل العراق، و هذا ما تعكسه كلماته التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۲

تشير التفاوت بين أقوالهم و أعمالهم.

و نقرأ

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يعنى بالعلماء من صدق فعله قوله، و من لم يصدق فعله قوله فليس بعالم»[۳۱۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۳

الآيتان [سورة الصف (۶۱): الآيات ۵ الى ۶]

اشارة

وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۵) وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۶)

التّفسير

البشارة بظهور النّبى (أحمد):

تأتى الآية الكريمة- أعلاه- مكمّلة لمحورين أساسيين تحدّثت عنهما الآيات السابقة و هما (الانسجام بين القول و العمل) و (وحدة الصفّ الإيمانى)، لتستعرض لنا زاوية من حياة النبيين العظيمين (موسى و عيسى) عليهما السّلام، و متطرّقة إلى طبيعة التناقض و الانفصام بين أقوال أتباعهم و أعمالهم، بالإضافة إلى (عدم انسجام صفوفهم) و أخيرا المصير السيء الذى انتهوا إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۴

يقول تعالى: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَ قَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

هذه الآية لعلّها إشارة إلى مخالفات بنى إسرائيل و ذرائعهم فى حياة موسى عليه السّلام، أو أنّها إشارة إلى قصّة (بيت المقدس) حيث قال بنو إسرائيل لموسى عليه السّلام: إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها- أى الجبارين- فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ ۳۱۳] و لهذا فقد بقوا فى وادى (التيه) أربعين سنة، ذاقوا فيها و بال أمرهم لتهاونهم فى أمر الجهاد، و لادّعاءاتهم الواهية.

و لكن مع الالتفات إلى الآية (۶۹) من سورة الأحزاب يظهر أنّ المراد من هذا الإيذاء هو ما كانوا ينسبونه لموسى عليه السّلام من تهم، كما يبيّن ذلك قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً.

حيث اتّهم عليه السّلام بقتل أخيه هارون عليه السّلام، و اخرى- معاذ اللّه- بالعلاقة مع امرأة فاسقة (و ذلك ضمن مخطّط قارون للتهرّب من إعطاء الزكاة)، و ثالثة بالسحر و الجنون، كما ألصقت به عليه السّلام عدّة عيوب جسمية اخرى، جاء شرحها فى تفسير الآية- أعلاه- من سورة الأحزاب ۳۱۴].

كيف يستسيغ هؤلاء أدعياء الإيمان إلصاق أمثال هذه التّهم بأنبيائهم!؟

إنّ هذه الممارسة تمثّل فى الواقع نموذجا صارخا للتناقض بين القول و العمل، ممّا حدا بموسى عليه السّلام إلى مخاطبة أصحابه: لماذا تسيؤون إلىّ مع علمكم بأنّى رسول اللّه إليكم؟

و ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الممارسات لم تبق بدون عقاب كما نقرأ ذلك فى نهاية الآية حيث، قال تعالى: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۵

و هكذا تنزل بمثل هذا الإنسان أعظم الدواهى، حيث يحرم من الهداية الإلهية و ينحرف قلبه عن الحقّ ۳۱۵].

إنّ ما يستفاد من المفهوم الذى استعرضته الآية المباركة أنّ الهداية و الضلالة و إن كانت من قبل اللّه سبحانه، إلّا أنّ مقوّماتها و أرضيتها تكون من الإنسان نفسه، حيث يقول سبحانه: فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ و ذلك ما يوضّح أنّ الخطوة الاولى من الإنسان نفسه، و يقول سبحانه من جهة اخرى: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

فإذا صدر من الإنسان ذنب و معصية فقد يسلب منه التوفيق و الهداية الإلهية و عندئذ يصاب بالحرمان الأكبر.

و قد بحثنا مفصّلا فى هذا المجال فى تفسير الآية (۳۶) من سورة الزمر، (فراجع).

و تشير الآية اللاحقة إلى مسألة تكذيب بنى إسرائيل لرسالة عيسى عليه السّلام و مخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: وَ إِذْ قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ مُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ.

و هـذا بيان من عيسـى عليه السّـلام أنّه يمثّل همزة وصل و حلقة من الرسالة بين نبيين و كتابين و امّتين، فقد سـبقته رسالة موسـى عليه السّلام و كتابه، و ستليه رسالة الإسلام على يد النبى العظيم محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و من هنا نلاحظ أنّ عيسـى عليه السّـلام لم يكن يدّعى غير الرسالة الإلهية و فى مقطع زمنى خاصّ، و أنّ ما نسب إليه من الألوهية، أو أنّه ابن (للّه) كان كذبا و افتراء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۶

محضا.

و بالرغم من أنّ قسـما من بنى إسـرائيل قـد آمنوا بالرّسول الموعود، إلّا أنّ الأكثريـة الغالبـة كان لهم موقف عدائى متشدّد تجاهه، ممّا دعاهم و سوّل لهم إنكار معاجزه الواضحة، و ذلك ما يجسّده قوله تعالى: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ

العجيب هو أنّ اليهود كانوا قد شـخّصوا الرّسول العظيم محمّد صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم قبل مشركى العرب، و تركوا أوطانهم شوقا إلى لقائه و الإيمان به، حيث اسـتقرّوا فى المدينـة ترقّبا لظهوره و لإجابـة دعوته ..، إلّا أنّ المشـركين قد سـبقوهم إلى الإيمان بالرّسول الموعود و بقى الكثير من اليهود على لجاجتهم و إصرارهم و عنادهم و إنكارهم له.

ذهب بعض المفسّـرين إلى إرجاع الضـمير فى فَلَمَّا جاءَهُمْ إلى رسول الإسلام (محمّد) كما أوضحناه أعلاه، إلّا أنّ قسما آخر يرى أنّه يعود إلى السيّد المسيح عليه السّلام، أى عند ما أتاهم المسيح بالمعاجز الواضحة أنكروها و ادّعوا أنّها سحر.

و من خلال ملاحظة الآيات اللاحقة يتبيّن لنا أنّ الرأى الأوّل أصحّ حيث يتركّز الحديث فيها على رسالة الإسلام و رسوله الكريم.

بحوث

۱- الصلة بين البشارة و تكامل الدين

إنّ التعبير ب (البشارة) عن إخبار المسـيح عليه السّلام بظهور الإسلام إشارة رائعة إلى تكامل هذا الدين قياسا لما سبقه من الأديان، إنّ دراسة الآيات القرآنية و التعاليم الإسلامية فى مجال العقائد و الأحكام و القوانين و المسائل الاجتماعية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۷

و الأخلاقيـة، و مقارنتها بما جاء فى كتب العهدين (التوراة و الإنجيل) توضّح لنا هذه الأفضـلية، و تبيّن لنا بجلاء حالة التكامل المبدئى الذى جاءت به رسالة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بالرغم من أنّ الآية المتقدّمة لم توضّح لنا موضع تثبيت هذه البشارة، و هل أنّها كانت كتاب سـماوى للمسـيح عليه السّـلام أم لا؟ إلّا أنّ الآيـات القرآنيـة الاـخرى تكشف أنّ موضع هـذه البشـارة هو الإنجيـل نفسه يقول سـبحانه: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ ..[۳۱۶]، و كذلك فى قسم من الآيات الاخرى ۳۱۷].

۲- بشارة العهدين و تعبير (فارقليطا):

ممّا لا شکّ فیه أنّ (التوراة و الإنجیل) اللذین بأیدی الیهود و النصاری لیسا من الکتب السماویة التی نزلت علی الرّسولین الإلهیین العظیمین (موسی و عیسی) علیهما السّلام. إذ أنّها (کتب) ألّفها و جمعها بعض أصحابهم أو من أتی بعدهم.

إنّ مطالعة إجمالیة لها تکشف هذه الحقیقة بوضوح، کما أنّ الیهود و المسیحیین لا ینکرون ذلک، و ممّا لا شکّ فیه أنّ قسما من تعالیم (موسی و عیسی) علیهما السّلام قد ثبتت فی هذه الکتب من خلال أقوال أتباعهم و حوارییهم، و لذا فلا یمکن اعتبار کلّ ما ورد فی العهد القدیم (التوراة و الکتب الاخری المتعلّقة به)، و کذلک العهد الجدید (الإنجیل و ما یرتبط به) مقبولا و صحیحا، کما لا یمکن رفض و إنکار جمیع ما ورد فیها أیضا.

و الموقف المناسب ممّا ورد فیهما هو اعتبار ما جاء فیها من التعالیم خلیطا من تعالیم النبیین (موسی و عیسی) علیهما السّلام و أفکار أتباعهما الآخرین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۸

و علی کلّ حال فإنّنا نلاحظ تعبیرات عدیدة فیها حول البشارة بظهور رجل عظیم لا تنطبق أوصافه و علاماته إلّا علی نبیّ الإسلام الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و جدیر بالذکر بالإضافة إلی ما تقدّم من وجود النبؤات التی وردت فی هذه الکتب و التی تنطبق علی شخص الرّسول الأعظم، فقد وردت فی إنجیل (یوحنا) کلمة (فارقلیط)[۳۱۸]. ثلاث مرّات، و حینما ترجمت کانت بمعنی (المعزی) لنقرأ النصّ فی إنجیل یوحنا: «و أنا أطلب من الأب فیعطیکم معزیا آخر لیمکث معکم إلی الأبد»[۳۱۹].

و جاء فی الباب الذی بعده: «و متی جاء المعزّی الذی سأرسله أنا إلیکم من الأب روح الحقّ الذی من عند الأب ینبثق فهو یشهد لی»[۳۲۰].

و جاء فی الباب الذی یلیه ما نصّه: «لکنّی أقول لکم الحقّ أنّه خیر لکم أن أنطلق لأنّه إن لم أنطلق لا یأتیکم المعزّی و لکن إن ذهبت أرسله إلیکم»[۳۲۱].

و الجدیر بالذکر أنّ فی المتن السریانی للأناجیل المأخوذة من الأصل الیونانی جاء بدل (المسلّی) (پارقلیطا). أمّا فی المتن الیونانی فلقد جاء (پیرکلتوس) و هو بمعنی الشخص (الممتدح) من منظور الثقافة الیونانیة و تعادل (محمّد، أحمد).

لقد شعر أسیاد المعابد و الکنیسة أنّ انتشار هذه اللفظة یوجّه ضربة قاصمة و شدیدة إلی کیانهم و مؤسساتهم، لذا فقد کتبوا (پاراکلتوس) بدل (پیرکلتوس) و التی هی بمعنی (المسلّی). و مع هذا التحریف الواضح الذی غیّروا فیه هذا النصّ الحیّ إلّا أنّهم لم یستطیعوا إلغاء البشارة الصریحة بظهور نبی عظیم فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۸۹

المستقبل ۳۲۲].

و قد ذکرنا فی تفسیرنا هذا شهادة حیّة لأحد القساوسة المعروفین، و الذی أسلم بعد مدّة، و قد أکّد بأنّ هذه البشائر کانت حول شخص باسم (أحمد) و (محمّد)[۳۲۳].

و یجدر الانتباه إلی نصّ ما ورد فی هذا الصدد فی دائرة المعارف الفرنسیة المترجمة حیث یقول:

(محمّد مؤسّس دین الإسلام و رسول اللّه و خاتم الأنبیاء، إنّ معنی کلمة (محمّد) تعنی المحمود کثیرا و هی مشتقّة من (الحمد) و التی هی بمعنی التجلیل و التمجید، و تشاء الصدفة العجیبة أن یذکر له اسم آخر من نفس الأصل (الحمد) ترادف لفظ (محمّد) یعنی (أحمد) و یحتمل احتمالا قویّا أنّ مسیحی الحجاز کانوا یطلقون لفظ (أحمد) بدلا عن (فارقلیطا).

و (أحمد) یعنی: الممدوح و المجلّل کثیرا و هو ترجمة لفظ: (پیرکلتوس) و الذی وضع بدیلا عنه لفظ (پاراکلتوس) اشتباها، و لهذا فإنّ الکتاب المسلمین الملتزمین قد أشاروا مرارا إلی أنّ المراد من هذا اللفظ هو البشارة بظهور نبی الإسلام، و قد أشار القرآن

الکریم- أیضا- بوضوح إلی هذا الموضوع فی سورة الصفّ (الآیة، ۲)[۳۲۴].

و خلاصة الحدیث أنّ المقصود ب (فارقلیطا) لیس روح القدس أو المسلّی، بل هو معادل لمفهوم (أحمد)، لذا یرجی الانتباه إلی ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۰

۳- هل أنّ اسم رسول الإسلام کان (أحمد)

إنّ الاسم المعروف للرسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم هو (محمّد) و السؤال الذی یطرح هنا أنّ الآیات مورد البحث قد ذکرته باسم (أحمد). فکیف یمکن التوفیق بین هذین الاسمین؟

و للإجابة علی هذا السؤال یجدر الالتفات إلی النقاط التالیة:

أ- جاء فی کتب التاریخ أنّ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم اسمین منذ الطفولة، حتّی أنّ الناس کانوا یخاطبونه بهما أحدهما (حمد) و الآخر (محمّد)، الأوّل اختاره له جدّه عبد المطلّب و الآخر اختارته امّه آمنة.

و قد ذکر هذا الأمر بصورة تفصیلیة فی سیرة الحلبی.

ب- و المعروف أنّ من جملة الأشخاص الذین کانوا ینادون رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسم (أحمد) هو عمّه أبو طالب، حیث نجد فی کتاب (دیوان أبی طالب) أشعارا کثیرة یذکر فیها الرّسول الکریم بهذا الاسم کما فی الأبیات التالیة:

أرادوا بقتل أحمد ظالموهمو لیس بقتله فیهم زعیم

و قال:

و إن کان أحمد قد جاءهمبحقّ و لم یأتهم بالکذب ۳۲۵]

و لأبی طالب شعر آخر فی مدح رسول اللّه نقله ابن عساکر فی تاریخه:

لقد أکرم اللّه النبی محمّدافأکرم خلق اللّه فی الناس أحمد[۳۲۶]

ج- کما یلاحظ هذا التعبیر فی شعر (حسّان بن ثابت) الشاعر المعروف فی عصر الرّسول کقوله:

مفجعة قد شفها فقد أحمدفظلّت لآلاء الرّسول تعدّد[۳۲۷]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۱

و الأشعار التی ورد فیه ذکر اسم (أحمد) بدلا عن (محمّد) کثیرة، و لا یوجد مجال لذکرها جمیعا لذا فإنّنا سننهی بحثنا بما ورد من شعر علی بن أبی طالب علیه السّلام.

أ تأمرنی بالصبر فی نصر (أحمد)و و اللّه ما قلت الذی قلت جازعا

سأسعی لوجه اللّه فی نصر (أحمد)نبی الهدی المحمود طفلا و یافعا[۳۲۸]

د- إنّ المتتبع للرّوایات التی جاءت حول معراج الرّسول کثیرا ما یلاحظ أنّ اللّه سبحانه قد خاطب رسول الإسلام فی تلک اللیلة الکریمة ب (أحمد) و من هنا یمکن القول أنّ النبی قد اشتهر فی السماء ب (أحمد) و فی الأرض ب (محمّد).

و

جاء فی حدیث عن الإمام محمّد الباقر علیه السّلام فی هذا الشأن «إنّ لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عشرة أسماء، خمسة فی القرآن و خمسة لیست فی القرآن، فأمّا التی فی القرآن، محمّد، و أحمد، و عبد اللّه، و یس، و ن»[۳۲۹].

ه- عدم اعتراض أهل الکتاب- و خاصّة النصاری منهم- علی النبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من هذه الناحیة، حیث لم یقولوا

له: بعد سماع المشركين و سماعهم آيات سورة الصفّ: إنّ الإنجيل قد بشّر بمجيء (أحمد) و أنت اسمك (محمّد) و عدم الاعتراض هذا دليل على شهرة هذا الاسم بينهم، و لو وجد مثل هذا الاعتراض لنقل لنا، خاصّة أنّ مختلف الاعتراضات قد دوّنت فى كتب التأريخ صغيرها و كبيرها.

لذا نستنتج من مجموع ما تقدّم فى هذا البحث أنّ اسم (أحمد) كان أحد الأسماء المعروفة لرسول الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم [۳۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۲

الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۷ الى ۹]

اشارة

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۷) يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (۸) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۹)

التّفسير

يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم:

لاحظنا فى الآيات السابقة موقف الإصرار و العناد لجموع أهل الكتاب من دعوة الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم رغم ما بشّر به المسيح عليه السّلام حول ظهور رسول الإسلام، و ما اقترن بذلك من بيّنات و دلائل و معاجز واضحة.

و تبيّن الآيات- مورد البحث- عاقبة هؤلاء و مصيرهم السيء و نتيجة عملهم الخائب.

فيقول تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُوَ يُدْعى إِلَى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۳

الْإِسْلامِ

نعم، إنّ أمثال هؤلاء المكذّبين لدعوة الرّسول الإلهى، الذين يعتبرون ما يأتى الرّسول به من إعجاز سحرا، و ما يتحدّث به من مبادئ إلهية سامية ضلالا و باطلا .. فإنّ هؤلاء هم أظلم الناس، لأنّهم يصدّون أنفسهم عن طريق الحقّ و الهداية و النجاة، و يصدّون سائر عباد اللّه عن منابع الفيض الإلهى و يحرمونهم من السعادة الأبدية.

و يضيف سبحانه فى نهاية الآية: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

إنّ عمل اللّه سبحانه هو الهداية للحقّ، و إنّ ذاته المقدّسة الطاهرة هى النور و الضياء السامى: اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و لا بدّ للهداية من استعداد و أرضية مناسبة فى النفس الإنسانية كى تؤثّر فيها، و هذا ما لا يحصل بالنسبة إلى الأشخاص الذين يجانبون الحقّ و يعرضون عن الحقيقة و يعادونها.

و الآية الكريمة تؤكّد مرّة اخرى على حقيقة أنّ الهداية و الضلالة بالرغم من أنّها من اللّه سبحانه، إلّا أنّ مقدّماتها و أرضيتها لا بدّ أن تبدأ من الإنسان نفسه، و لذا فلا جبر هنا.

جملة «و هو يدعى إلى الإسلام» إشارة إلى أنّ دعوة النبى الأكرم تتضمّن السلام فى الدنيا و الآخرة و نجاة الناس، و مع ذلك فمثل هذا الإنسان يحطّم أساس سعادته بيده.

لقد تكرّرت عبارة (من أظلم) خمس عشر مرّة فى القرآن الكريم و كانت آخرها فى الآية مورد البحث، بالغرم من أنّ ذكرها كان فى موارد مختلفة حسب الظاهر.

و لعلّ هذه المسألة كانت منشأ لهذا التساؤل، و هو: هل من الممكن أن يكون (أظلم الناس) يمثّل أكثر من صنف أو أكثر من جماعة، و أنّها جاءت متكرّرة بلحاظ تعدّد أقسام الظالمين؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۴

إنّ الملاحظة الدقيقة للآيات الكريمة تبيّن لنا أنّ السبب الأساس لذلك يرجع إلى مسألة منع الناس عن طريق الحقّ، و تكذيب الآيات الإلهية، و هذا هو منتهى الظلم، كما أنّ الصدّ عن الوصول إلى الهدى و السعادة الأبدية و قيم الخير، يمثّل أسوأ عمل و أعظم ظلم، حيث المنع عن الخير كلّه و فى كافّة المجالات.

ثمّ يستعرض القرآن الكريم نقطة اخرى و يبيّن لنا أنّ أعداء الحقّ ليسوا بقادرين على الوقوف بوجه مبادئ السماء و الأنوار الإلهيّة العظيمة، حيث يقول سبحانه: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ

و هنا تشبيه رائع لعمل هؤلاء الأشخاص الذين يحاولون عبثا إطفاء نور الشمس التى تضىء العالم كلّه بنفخة، إنّهم كالخفافيش التى تتصوّر أنّها قادرة على تحدّى وهج الشمس و أشعّتها الساطعة بالنوم نهارا بعيدا عن نورها، و الظهور فى ظلمة الليل و عتمته.

و تاريخ الإسلام صورة ناطقة لهذا التنبّؤ القرآنى العظيم، فرغم ضخامة المؤامرات التى حيكت ضدّه و الجهود الجبّارة المقترنة بالإمكانات الهائلة من الأعداء لطمس معالم هذا الذين و القضاء عليه منذ اليوم الأوّل لظهوره إلى يومنا هذا .. فإنّ جميعها كانت خائبة و خاسئة و ذهبت أدراج الرياح .. و قد عمد هؤلاء إلى أساليب عدّة فى حربهم القدرة ضدّ الإسلام:

فتارة اتّبعوا أسلوب الأذى و السخرية.

و اخرى عن طريق الحصار الاقتصادى و الاجتماعى ..

و ثالثة فرض الحروب، ك (أحد و الأحزاب و حنين) و تجهيز الجيوش القوية لذلك.

و رابعة عن طريق التآمر الداخلى، كما كان عمل المنافقين.

و أحيانا عن طريق إيجاد الاختلافات فى داخل الصفّ الإسلامى.

و أحيانا اخرى الحروب الصليبية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۵

و تارة احتلال الأراضى كما فى القدس المقدّسة قبلة المسلمين الاولى.

و أحيانا اعتماد أسلوب تجزئة الوطن الإسلامى الواحد إلى أجزاء عديدة تربو على الأربعين جزءا.

و تارة التأثير على شباب هذه الامّة و إضعاف متبنّياتها المبدئية و السلوكية بعيدا عن الالتزام بخطّها العقيدى الأصيل و الأخلاقية القرآنية.

و تارة تشجيع الرذيلة و الفساد الأخلاقى بين صفوف المجتمع و إشاعة وسائل الميوعة و الانحراف خاصّة بين الشباب.

و تارة السيطرة الاستعمارية عسكريا و سياسيا و اقتصاديا.

إلى غير ذلك من الأساليب و الوسائل الماكرة.

إلّا أنّ هذه الجهود و المؤامرات الشيطانية غير قادرة على التأثير و إطفاء شعلة الوهج الرسالى الذى أتى به محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بذلك تحقّق التنبؤ القرآنى فى الفشل الذريع الذى لحق بهؤلاء الذين أرادوا كيدا بالرسالة الإلهية .. بل إنّ النور الإلهى فى حالة انتشار و اتّساع يوما بعد يوم، كما تكشف ذلك لنا الإحصائيات، حيث أنّ عدد مسلمى العالم فى تزايد مستمرّ رغم الجهود المتظافرة من الصهاينة و الصليبيين و (المادّيين الشرقيين).

نعم، إنّهم يبذلون أقصى جهدهم باستمرار ليطفئوا نور اللّه و لكن لإرادة اللّه شأنا غير ذلك. و هذا الأمر بحدّ ذاته يمثّل معجزة خالدة من معاجز القرآن الكريم و هذا الدين العظيم.

و النقطة الجديرة بالذكر هنا أنّ هذا المضمون قد ورد مرّتين فى القرآن الكريم، و لكن مع قليل من الاختلاف، حيث جاء فى الآية (۳۲) من سورة التوبة كالتالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا و هنا جاء بعبارة: يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا.

يقول: الراغب فى (المفردات) فى توضيحه لهذا الاختلاف: إنّ الآية الاولى إشارة إلى الإطفاء بدون مقدّمة، إلّا أنّه فى الآية الثانية إشارة إلى الإطفاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۶

باستعمال المقدّمات التى تهيء الأرضية المناسبة لمثل هذا الأمر.

و على كلّ حال فإنّ مفهوم الآيتين يبيّن عدم إمكانية تحقيق هذا الأمر من قبل أعداء الإسلام، سواء هيّئوا الأرضية المناسبة لإطفاء النور الإلهى أو لم يهيّئوا.

و يتوضّح التأكيد الأكثر فى آخر آية- مورد البحث- حيث يعلن القرآن الكريم ذلك صراحة بقوله عزّ و جلّ: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ

إنّ التعبير ب أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِ بمنزلة بيان الرمز لغلبة الإسلام و انتصاره، لأنّ طبيعة «الهداية» و (دين الحقّ) تنطوى على هذا الإنتصار، ذلك أنّ الإسلام و القرآن هما النور الإلهى الذى تظهر آثاره أينما حلّ. و كراهية الكفّار و المشركين لن تستطيع أن تغيّر من هذه الحقيقة شيئا، و لا تقف فى طريق مسيرته العظيمة.

و من الظريف أيضا أنّنا نلاحظ أنّ هذه الآية قد وردت فى القرآن الكريم ثلاث مرّات بتفاوت يسير:

الاولى: كانت فى سورة التوبة الآية (۳۳).

و الثانية: فى سورة الفتح الآية (۳۸).

و الأخيرة: فى هذه السورة «الصفّ».

و يجب ألّا ننسى أنّ هذا التأكيد و التكرار جاء فى وقت لم يكن الإسلام قد ثبت و استقرّ فى الجزيرة العربية بعد، فكيف بنا مع هذه الآيات و قد وصل الإسلام إلى نقاط عديدة فى العالم و شمل أصقاعا مختلفة؟

و بذلك أثبتت أحداث المستقبل صدق هذا التنبؤ العظيم، و غلبة الإسلام من الناحية المنطقية على كافّة المذاهب الاخرى و قد حقّق خطوات عظيمة فى طريق التقدّم على الأعداء، و اكتسح مناطق واسعة من العالم، و هو الآن فى تقدّم مستمر، و قوّة يخشى منها عالميّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۷

و من المسلّم أنّ النتيجة النهائية كما نعتقد سوف تكون للإسلام، و ذلك عند ظهور الإمام المهدى أرواحنا فداه. إنّ هذه الآيات بذاتها دليل على هذا الظهور العظيم، و قد أوضحنا ذلك بصورة مفصّلة فى تفسير الآية (۲۳) من سورة التوبة حول المقصود من هذه الآية المباركة، و هل هو الغلبة و الإنتصار المنطقى، أم غلبة القدرة و القوّة على الأعداء؟ و كذلك حول مدى ارتباط هذا الإنتصار و تلك الغلبة بظهور الحجّة عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۸

الآيات [سورة الصف (۶۱): الآيات ۱۰ الى ۱۳]

اشارة

يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذابٍ أَلِيمٍ (۱۰) تُؤْمِنُونَ بِـاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِـكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۱۱) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۲) وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۱۳)

التّفسير

التجارة الرّابحة:

قلنـا فى بدايـة السورة أنّ الأهـداف المهمّـة لهـذه السورة هو الـدعوة إلى الإيمـان و الجهـاد فى سبيل اللّه، و ما الآيات مورد البحث إلّا تأكيد على هذين الأصـلين، من خلال مثال رائع يبعث على الحركة الإلهيّة فى روح الإنسان، و التى هى شرط انتصار الإسلام على كلّ الأديان، و قد أشير إلى هذا العامل فى الآيات الماضية.

يقول تعالى فى البداية: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۲۹۹

عَذابٍ أَلِيمٍ

بـالرغم من أنّ الإيمـان و الجهاد من الواجبات المفروضـة، إلّا أنّ الآيات هنا لم تطرحها بصـيغة الأمر. بل قـدّمتها بعرض تجارى مقترن بتعابير تحكى اللطف اللامتناهى للبارئ عزّ و جلّ، و ممّا لا شكّ فيه فإنّ (النجاة من العذاب الأليم) من أهمّ امنيات كلّ إنسان.

و لـذا فإنّ السؤال المثار هو: هل تريـدون من يدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ و هو سؤال مثير لانتباه الجميع، و قد بادر فى نفس الوقت و بدون انتظار للإجابة متحدّثا عن هذه التجارة المتعدّدة المنافع، حيث يضيف تعالى:

تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ۳۳۱].

و ممّا لا شكّ فيه أنّ اللّه سـبحانه غنى عن هـذه التجارة النافعـة و أنّ جميع منافعها تعود على المؤمنين، لذا يقول فى نهاية الآية: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

و الجـدير بالملاحظة هنا أنّ المخاطب هم المؤمنون بقرينة قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لكنّه فى الوقت نفسه يدعوهم إلى الإيمان و الجهاد.

و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى أنّ الإيمان يلزم أن يكون عميقا و خالصا للّه سبحانه، حتّى يستطيع أن يكون منبعا لكلّ خير، و حافزا للإيثار و التضحية و الجهاد، و بذا لا يعتدّ بالإيمان الاسمى السطحى.

أو أنّ التأكيد على الإيمان باللّه و رسوله هنا، هو شرح لمفهوم الإيمان الذى عرض بصورة إجمالية فى بداية الآية السابقة.

و على كـلّ حال فإنّ الإيمان بالرّسول لا ينفصل عن الإيمان باللّه تعالى، كما أنّ الجهاد بالنفس لا ينفصل عن الجهاد بالمال، ذلك أنّ جميع الحروب تستلزم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۰

وجود الوسائل و الإمكانات المالية، و من هنا فإنّنا نلاحظ أنّ البعض قادر على الجهاد بكلا النوعين (النفس و المال) و آخرين قادرون على الجهاد بالمال فقط و فى المواقع الخلفيـة للجبهـة، و بعض آخر مسـتعدّ للجهاد بالنفس و الجود بها فى سبيل اللّه لأنّهم لا يملكون سواها.

إلّا أنّ الضـرورة تستلزم أن يكون هذان النوعان من الجهاد توأمين متلازمين كلّ منهما مع الآخر لتحقيق النصر، و عند التدقيق فى الآية

المباركة نلاحظ أنّ تعالى قد قدّم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لا باعتباره أكثر أهميّة، بل بلحاظ أنّه مقدّمة للجهاد بالنفس، لأنّ مستلزمات الجهاد لا تتهيّأ إلّا عند توفّر الإمكانات الماديّة.

لقد تمّ تسليط الأضواء على ثلاثة عناصر أساسية فى هذه التجارة العظيمة و التى لا مثيل لها.

(فالمشترى) هنا هو اللّه سبحانه، و (البائع) هم المؤمنون، و (البضاعة) هى الأنفس و الأموال. و يأتى دور العنصر الرابع فى هذه الصفقة و هو الثمن و العوض لهذه المعاملة العظيمة.

يقول تعالى: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۳۳۲].

و تستعرض الآية مرحلة الجزاء الاخروى فى البداية حيث غفران الذنوب باعتبارها أهمّ عوامل القلق و عدم الراحة الفكرية و النفسية للإنسان، و عند ما يتحقّق الغفران له فمن المسلّم أنّ الراحة و الهدوء و الاطمئنان تنشر ظلالها عليه.

و من هنا نلاحظ أنّ أوّل هدية يتحف اللّه سبحانه بها عباده الذين استشهدوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۱

فى سبيل طريق الحقّ و باعوا مهجهم فى سبيل الدين العظيم، هى مغفرة الذنوب جميعا و لكن هل أنّ المقصود من غفران الذنوب الذى ورد فى الآية الكريمة هى الذنوب التى تختّص بحقّ اللّه فقط، أم تشمل ما يتعلّق بحقوق الناس أيضا؟

و يتبيّن لنا فى هذا الشأن أنّ الآية مطلقة و الدليل هو عموميتها، و نظرا إلى أنّ اللّه سبحانه قد أوكل حقّ الناس إليهم لذا تردّد البعض فى القول بعمومية الآية الكريمة، و شكّكوا فى شمولها الحقّين.

و بهذه الصورة نلاحظ أنّ الآيات أعلاه قد تحدّثت عن مرتكزين أساسين من مرتكزات الإيمان و هما: (الإيمان باللّه و الرّسول) و عن مرتكزين أساسين أيضا من مرتكزات الجهاد و هما: (الجهاد بالمال و النفس) و كذلك عن مرتكزين من الجزاء الاخروى و هما: (غفران الذنوب و الدخول فى جنّة الخلد).

كما أنّنا نقرأ فى الآية اللاحقة عن شعبتين من الهبات الإلهية التى تفضل بها البارئ على عباده المؤمنين فى هذه الدنيا حيث يقول: وَ أُخْرى تُحِبُّونَها نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ ۳۳۳].

يا لها من تجارة مباركة مربحة حيث تشتمل على الفتح و النصر و النعمة و الرحمة، و لذلك عبّر عنها البارئ سبحانه بقوله: الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و نصر كبير.

و لهذا فإنّه سبحانه يبارك للمؤمنين تجارتهم العظيمة هذه، و يزفّ لهم البشرى بقوله تعالى: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

و

جاء فى الحديث أنّه فى «ليلة العقبة»- الليلة التى التقى بها رسول اللّه سرّا بأهل المدينة قرب مكّة و أخذ منهم البيعة- قال «عبد اللّه بن رواحة» لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: اشترط لربّك و نفسك ما شئت.

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أشترط لربّى أن تعبدوه و لا تشركوا به شيئا، و أشترط لنفسى أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۲

تمنعونى ممّا تمنعون منه أنفسكم و أموالكم.

قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: (الجنّة).

قال عبد اللّه: ربح البيع لا نقيل و لا نستقيل، أى لا نفسخ و لا نقبل الفسخ ۳۳۴].

بحوث

۱- أى فتح هو «الفتح القريب»!؟

من المعروف أنّ النصر الموعود فى هذه الآيات قد تحقّق مرّات عدّة، ليس فى الجوانب العقائدية و المنطقية فحسب. بل فى الميادين الحربية أيضا.

و قد ذكر المفسّرون احتمالات عديدة حول المقصود من (الفتح القريب)، فقال البعض: إنّ المراد من الفتح القريب فى الآية هو (فتح مكّة). و قال آخرون: إنّ المقصود بها هو (فتح بلاد إيران و الروم). و قال البعض الآخر: إنّها تشمل جميع الفتوحات الإسلامية التى منّ اللّه بها على المسلمين بعد الإيمان بالإسلام و الجهاد من أجله بفترة وجيزة.

و لأنّ المخاطب فى هذه الآية لا ينحصر بصحابة رسول اللّه. بل يشمل جميع المؤمنين و على مدى التاريخ، لذا فإنّ جملة: نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَ فَتْحٌ قَرِيبٌ لها معنى واسع، و تمثّل بشارة للمؤمنين جميعا، بالرغم من أنّ المصداق الواضح لهذه الآية كان فى عصر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و فى وقت نزول هذه الآيات إبان فتح مكّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۳

۲- ما هى خصائص المساكين الطيّبة؟

أكّدت الآيات الكريمة على أنّ من ضمن أنواع النعم الإلهية فى الجنّة مسألة المسكن الهادىء، موضع استقرار النفس، الذى تحيط به الحدائق من كلّ جانب فى جنّات الخلد، و سبب التأكيد هنا على المسكن لأنّه يشكّل أحد العوامل الأساسية لراحة الإنسان و هدوئه، خصوصا إذا تميّز بالطهر و النظافة من كلّ أنواع التلوّث المادّى و المعنوى، حيث يستطيع الإنسان أن يستقرّ به و ينعم بطمأنينة الروح و راحة البال.

يقول (الراغب) فى المفردات: معنى (الطيب) فى الأصل هو الشىء الذى تلتذّ به الحواس الظاهرية و الباطنية، و هذا المعنى جامع شامل لكلّ الشروط المناسبة لسكن ما.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا أنّ القرآن الكريم يرى أنّ ثلاثة امور أساسية توجب السكينة و الطمأنينة للإنسان و هى:

ظلام الليل: وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً[۳۳۵].

الزوجة الصالحة: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها[۳۳۶].

البيوت السكنية قال تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً[۳۳۷].

۳- الدنيا موضع تجارة أولياء اللّه

جاء فى نهج البلاغة أنّ الإمام على عليه السّلام قال لرجل كثير الادّعاء و التملّق كان يذمّ الدنيا كثيرا: «أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها المخدوع بأباطيلها أ تغترّ بالدنيا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۴

ثمّ تذمّها ... إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها و دار موعظة لمن اتّعظ بها .. إلى أن قال: و متجر أولياء اللّه اكتسبوا فيها الرحمة و ربحوا فيها الجنّة ..»[۳۳۸].

و إذا شبّهت الدنيا بأنّها مزرعة الآخرة، فقد شبّهت أيضا هنا بأنّها تجارة، حيث أنّ الإنسان يبيع البضاعة (رأس المال) التى أخذها من اللّه سبحانه يبيعها عليه تعالى شأنه بأغلى الأثمان و يستلم منه سبحانه أعظم الأرباح المتمثّلة بالنعم و الهبات الإلهية المختلفة مقابل متاع حقير.

إنّ جانب الإغراء فى هذه الصفقة التجارية النافعة كان من أجل تحريك و إثارة المحفّزات الإنسانية فى طريق الخير و جلب النفع للإنسان و دفع الضرر، لأنّ هذه التجارة الإلهية لا تنحصر أرباحها فى جلب النفع و الخير فحسب، بل إنّها تدفع العذاب الأليم أيضا.

و نظير هذا المعنى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ[۳۳۹].

و تقدّم شرح آخر فى تفسير الآية الآنفة من سورة التوبة[۳۴۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۵

الآية [سورة الصف (۶۱): آية ۱۴]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ (۱۴)

التّفسير

كونوا كالحواريين:

فى الآية الأخيرة من سورة الصفّ يدور الحديث مرّة اخرى حول محور (الجهاد) الذى مرّ ذكره سابقا فى هذه السورة، إلّا أنّ الحديث عنه يستمرّ هنا فى هذه الآية- أيضا بأسلوب جديد.

لقد طرحت الآية الكريمة مسألة مهمّة غير الجنّة و النّار و ذلك بقوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ

نعم، أنصار اللّه، اللّه الذى هو منشأ جميع القدرات، و مرجعها، صاحب القدرة التى لا تقهر و اللامتناهية، هذا الربّ العظيم و الإله الجبّار يطلب من عباده النصرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۶

و العون، و هذا فخر لا مثيل له، فالبرغم من أنّ معناه و مفهومه هو إعانة و نصرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مبدئه و عقيدته، إلّا أنّه ينطوى على طلب العون و النصرة للّه سبحانه، و هذا غاية اللطف و منتهى الرحمة و العظمة.

ثمّ يستشهد بنموذج تاريخى رائد كى يوضّح سبحانه أنّ هذا الطريق لن يخلو من السالكين و العشّاق الإلهيين حيث يضيف تعالى: كَما قالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيِّينَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ

و يكون الجواب على لسان الحواريين بمنتهى الفخر و الاعتزاز: قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ و ساروا فى هذا الدرب حاملين لواء الخير و الهداية، و متصدّين لحرب أعداء الحقّ و الرسالة، حيث يقول سبحانه: فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ.

و هنا يأتى العون و النصر و الإغاثة و المدد الإلهى للطائفة المؤمنة حيث يقول سبحانه: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ

و أنتم أيضا يا حواريى محمّد، يشملكم هذا الفخر و تحيطكم هذه العناية و اللطف الإلهى، لأنّكم أنصار اللّه، و إنّ النصر على أعداء اللّه سيكون حليفكم أيضا، كما انتصر الحواريون عليهم، و سوف تكون العزّة و السمو من نصيبكم فى هذه الدنيا و فى عالم الآخرة.

و هذا الأمر غير منحصر أو مختّص بأصحاب و أعوان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، بل جميع أتباع الحقّ الذين هم فى صراع دائم ضدّ الباطل و أهله، إنّ هؤلاء جميعا هم أنصار اللّه، و ممّا لا شكّ فيه فإنّ النصر سيكون نصيبهم و حليفهم لا محالة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۷

تعقيب

من هم الحواريون؟

جاء ذكر الحواريين فى القرآن الكريم خمس مرّات، مرتين منها فى هذه السورة المباركة.

«الحواريون»: تعبير يراد به الإشارة إلى اثنى عشر شخصا من الأنصار الخواص لعيسى عليه السّلام و قد ذكرت أسماؤهم فى الأناجيل المتداولة حاليا ك (إنجيل متّى، و لوقا باب ۶).

و هذا المصطلح من مادّة (حور) بمعنى الغسل و التبييض- جعل الشىء أبيض- كما مرّ بنا سابقا، لأنّهم يتمتّعون بقلوب طاهرة و أرواح نقيّة، و كانوا يسعون دائما لغسل نفوسهم و الآخرين من دنس الذنوب و تطهيرها من الآثام، لذا اطلق عليهم هذا المصطلح.

و جاء فى بعض الرّوايات أنّ المسيح عليه السّلام أرسلهم جميعا ممثّلين عنه إلى مناطق مختلفة من العالم، و ذلك لإخلاصهم، و تضحيتهم و جهادهم و حربهم ضدّ الباطل، و كانوا أيضا ممّن يكنّون أعمق الحبّ و الولاء للمسيح عليه السّلام.

و تحدّثنا الرّوايات أنّ جميعهم قد بقى على العهد إلّا واحدا منهم فإنّه قد خان و نكص و اسمه (يهوداى أسخر يوطى) ممّا حدا المسيح عليه السّلام فى نهاية المطاف إلى طرده.

و لقد تناولنا توضيحات عديدة حول هذا فى تفسير الآية (۵۲) من سورة آل عمران.

جاء فى حديث أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال للنفر الذين لاقوه بالعقبة: «أخرجوا إلىّ اثنى عشر رجلا منكم يكونوا كفلاء على قومهم كما كفلت الحواريون لعيسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۸

بن مريم»[۳۴۱]

ممّا يعكس أهميّة هؤلاء العظام.

اللهمّ، وفّقنا للمشاركة مع أوليائك فى هذه التجارة الرابحة و الاستفادة من بركاتها العظيمة ..

ربّنا: إنّ الاختلاف و التفرقة فى صفوف المسلمين قد أضعفت مكانة المسلمين صفّا واحدا كالبنيان المرصوص فى مواجهة أعدائهم.

إلهنا، إنّ دينك القويم لم يبق يوما دون ناصر، فاكتبنا من أنصاره و حماته و أعوانه ..

آمين ربّ العالمين نهاية سورة الصفّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۰۹

سورة الجمعة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۱

«سورة الجمعة»

محتوی السورة:

تدور هذه السورة حول محورین أساسیین:

الأوّل: هو التوحید و صفات اللّه و الهدف من بعثة الرّسول و مسألة المعاد.

و المحور الثّانی: هو الأثر التربوی لصلاة الجمعة و بعض الخصوصیات المتعلّقة بهذه العبادة العظیمة.

و لکن یمکن أن نجمل الأبحاث التی وردت فی هذه السورة المبارکة بالنقاط التالیة:

۱- تسبیح کافّة المخلوقات.

۲- الهدف التعلیمی و التربوی من بعثة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

۳- تحذیر المؤمنین و تنبیههم من مغبّة الوقوع فی الانحراف الذی وقع فیه الیهود فابتعدوا عن جادّة الصواب و الحقّ.

۴- إشارة إلی قانون الموت العامّ و الشامل الذی یمثّل المعبر إلی عالم البقاء و الخلود.

۵- التأکید علی أداء فریضة صلاة الجمعة، و حثّ المؤمنین علی تعطیل العمل و الکسب من أجل المشارکة فیها.

فضیلة تلاوة سورة الجمعة:

وردت روایات کثیرة فی فضیلة تلاوة هذه السورة سواء کانت هذه التلاوة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۲

مستقلّة أو ضمن الصلوات الیومیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۳۱۲

رأ

فی حدیث عن النبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «و من قرأ سورة الجمعة أعطی عشر حسنات بعدد من أتی الجمعة، و بعدد من لم یأتها فی أمصار المسلمین».

و

ورد فی حدیث آخر عن الصادق علیه السّلام أنّه قال: «الواجب علی کلّ مؤمن إذا کان لنا شیعة أن یقرأ فی لیلة الجمعة بالجمعة و سبّح اسم ربّک الأعلی، و فی صلاة الظهر بالجمعة و المنافقین، فإذا فعل ذلک فکإنّما یعمل بعمل رسول اللّه و کان جزائه و ثوابه علی اللّه الجنّة»[۳۴۲].

و قد ورد فی الروایات التأکید الکثیر علی قراءة سورة الجمعة و المنافقون فی صلاة الجمعة، و قد ورد فی بعض الروایات أن لا تترک قراءتها ما أمکن ۳۴۳]، و مع أنّ العدول فی القراءة عن سورة «التوحید» و «قل یا أیّها الکافرون» إلی سور اخری غیر جائز، إلّا أنّ هذه المسألة مستثناة فی صلاة الجمعة، فیجوز العدول عنهما إلی سورة «الجمعة» و «المنافقون» بل عدّ ذلک مستحبّا.

و كلّ ذلك دليل على الأهميّة العالية لهذه السورة القرآنية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۳

الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (۱) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲) وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۳) ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (۴)

التّفسير

الهدف من بعثة الرّسول:

تبدأ هذه السورة كذلك بالتسبيح للّه عزّ و جلّ، و تشير إلى بعض صفات الجمال و الجلال و الأسماء الحسنى للّه. و يعتبر ذلك فى الحقيقة مقدّمة للأبحاث القادمة، حيث يقول تعالى: يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ حيث يسبّحونه بلسان الحال و القال و ينزّهونه عن جميع العيوب و النقائض الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۴

و بناء على ذلك تشير الآية أوّلا إلى «المالكية و الحاكمية المطلقة»، ثمّ «تنزّهه من أى نوع من الظلم و النقص» و ذلك لارتباط اسم الملوك بأنواع المظالم و المآسى، فجاءت كلمة «قدّوس» لتنفى كلّ ذلك عنه جلّ شأنه.

و من جانب آخر فالآية تركّز على ركنين أساسيين من أركان الحكومة هما «القدرة» و «العلم» و سنرى أنّ هذه الصفات ترتبط بشكل مباشر بالأبحاث القادمة لهذه السورة.

و نشير هنا إلى أنّ ذكر صفات الحقّ تعالى فى الآيات القرآنية المختلفة جاءت ضمن نظام و ترتيب و حساب خاصّ.

و كنّا قد تعرّضنا سابقا لتسبيح كافّة المخلوقات.

و بعد هذه الإشارة الخاطفة ذات المعنى العظيم لمسألة التوحيد و صفات اللّه، يتحدّث القرآن عن بعثة الرّسول و الهدف من هذه الرسالة العظيمة المرتبطة بالعزيز الحكيم القدّوس. حيث يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ

و ذلك من أجل أن يطهّرهم من كلّ أشكال الشرك و الكفر و الانحراف و الفساد وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و من الملفت للنظر أنّ بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه الخصوصيات التى لا يمكن تفسيرها إلّا عن طريق الإعجاز، تعتبر هى الاخرى إشارة إلى عظمته عزّ و جلّ و دليل على وجوده إذ يقول: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا ... و أبدع هذا الموجود العظيم بين أولئك الامّيين ..

«الامّيين» جمع (امّى) و هو الذى لا يعرف القراءة و الكتابة (و نسبته إلى الامّ باعتبار أنّه لم يتلقّ تعليما فى معهد أو مدرسة غير مدرسة الامّ).

و قال البعض: إنّ المقصود بها أهل مكّة، لأنّ مكّة كانت تسمّى (بامّ القرى)، و لكنّه بعيد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۵

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بها «امّة العرب» مقابل اليهود و غيرهم، و اعتبروا الآية (۷۵) من سورة آل عمران شاهدة على هذا المعنى حيث يقول:

قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ و ذلك باعتبار أنّ اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم أهل الكتاب و هم أهل القراءة و الكتابة، بينما كان العرب على العكس من ذلك.

و لكن التّفسير الأوّل أنسب.

و الجدير بالذكر أنّ الآية تؤكّد على أنّ نبى الإسلام بعث من بين هؤلاء الامّيين الذين لم يتلقّوا ثقافة و تعليما و ذلك لبيان عظمة الرسالة و ذكر الدليل على حقّانيتها، لأنّ من المحال أن يكون هذا القرآن العظيم و بذلك المحتوى العميق وليد فكر بشرى و فى ذلك المحيط الجاهلى و من شخص امّى أيضا، بل هو نور أشرق فى الظلمات، و دوحة خضراء فى قلب الصحراء، و هى بحدّ ذاتها معجزة باهرة و سندا قاطعا على حقّانيته ...

و لخّصت الآية الهدف من بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ثلاثة امور، جاء أحدها كمقدّمة و هو تلاوة الآيات عليهم، بينما شكّل الأمران الآخران أى (تهذيب و تزكية النفس) و (تعليمهم الكتاب و الحكمة) الهدف النهائى الكبير.

نعم، جاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليعطى الإنسانية و يعلّمها العلم و الأخلاق، لتستطيع بهذين الجناحين (جناح العلم و جناح الأخلاق) أن تحلّق فى عالم السعادة و تطوى مسيرها إلى اللّه لتنال القرب منه.

و الجدير بالملاحظة انّنا نجد بعض الآيات القرآنية تذكر «التزكية» قبل «التعليم» بينما تقدّم آيات اخرى «التعليم» على «التزكية». ففى ثلاثة من الموارد الأربعة التى ذكر فيها «التزكية» و «التعليم» تقدّمت التزكية على التعليم بينما تقدّم التعليم فى المورد الرابع.

و فى الوقت الذى يشار فى هذا التعبير إلى التأثير المتبادل لهذين العنصرين (الأخلاق وليدة العلم، كما أنّ العلم وليد الأخلاق) تظهر أيضا أصالة التربية و مدى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۶

الاهتمام بها. علما أنّ المقصود بالعلم العلوم الحقيقية لا العلوم التى اصطلح عليها بأنّها علم و ألبست ثوب العلم.

و يمكن أن يكون الفرق بين «الكتاب» و «الحكمة» هو أنّ الأوّل إشارة إلى القرآن و الثانى إشارة إلى سنّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يمكن أيضا أن يكون «الكتاب» إشارة إلى أصل العقائد و الأحكام الإسلامية، و الثانية إشارة إلى فلسفتها و أسرارها.

و من النقاط الجديرة بالملاحظة- كذلك- أنّ الحكمة تعنى المنع بقصد الإصلاح، و لهذا يقال للجام الفرس «حكمة» لأنّه يمنعها و يجعلها تسير فى مسارها الصحيح، و بناء على ذلك فإنّ مفهوم هذه الدلائل عقلى، و من هنا يتّضح أنّ ذكر الكتاب و الحكمة بشكل مترادف يراد منه التنبيه إلى مصدرين مهمّين من مصادر المعرفة (الوحى) و (العقل).

بعبارة اخرى: إنّ الأحكام السماوية و تعاليم الإسلام رغم أنّها نابعة من الوحى الإلهى غير أنّها يمكن تعقّلها و إدراكها بالعقل «المقصود كلّيات الأحكام».

و تعبير «الضلال المبين» إشارة مختصرة معبّرة إلى سابقة العرب و ماضيهم الجاهلى فى عبادة الأصنام. و أى ضلال أوضح و أسوأ من هذا الضلال الذى يعبد فيه الناس أحجارا و أخشابا يصنعونها بأنفسهم و يلجؤون إليها لحلّ مشاكلهم و إنقاذهم من المعضلات.

يدفنون بناتهم و هنّ أحياء ثمّ يتفاخرون بكلّ بساطة بهذا العمل قائلين: إنّنا لم ندع ناموسنا و عرضنا يقع بيد الأجانب.

كانت صلاتهم و دعاؤهم عبارة عن تصفيق و صياح إلى جانب الكعبة، و حتّى النساء كن يطفن حول الكعبة و هنّ عراة تماما، و

يحسبون ذلك عبادة.

كانت تسيطر على أفكارهم مجموعة من الخرافات و الأوهام، و كانوا يفتخرون و يتباهون بالحرب و نزف الدماء و الإغارة على بعضهم البعض. المرأة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۷

كانت تعدّ بضاعة لا قيمة لها عندهم، يلعبون عليها القمار، و يحرمونها من أبسط الحقوق الإنسانية. كانوا يتوارثون العداوة و البغضاء، و لهذا أصبحت الحروب و إراقة الدماء أمرا عاديا لديهم.

نعم لقد جاء الرّسول و أنقذهم- ببركة الكتاب و الحكمة من هذا الضلال و التخبّط و زكّاهم و علّمهم. و حقّا إنّ تربية و تغيير مثل هذا المجتمع الضالّ يعتبر أحد الأدلّة على عظمة الإسلام و معاجز نبيّنا العظيمة.

و لكن لم يكن الرّسول مبعوثا لهذا المجتمع الامّى فقط، بل كانت دعوته عامّة لجميع الناس، فقد جاء فى الآية التالية وَ آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۳۴۴].

نعم، إنّ الأقوام الآخرين الذين جاؤوا بعد أصحاب الرّسول ليتربّوا فى مدرسة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يغترفوا من معين القرآن الصافى و السنّة المحمّدية، كانوا- أيضا- مشمولين بهذه الدعوة العظيمة.

بناء على ذلك تكون الآية أعلاه شاملة لجميع الأقوام الذين يأتون بعد أصحاب الرّسول من العرب و العجم. جاء فى الحديث أنّ الرّسول بعد أن تلا هذه الآية سئل من هؤلاء؟ فأشار الرّسول إلى سلمان و قال: «لو كان الإيمان فى الثريا لنالته رجال من هؤلاء»[۳۴۵].

و جاء فى آخر الآية: وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

بعد أن يشير إلى هذه النعمة الكبيرة- أى نعمة بعث نبى الإسلام الأكرم و برنامجه التعليمى و التربوى- يضيف قائلا: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۸

و هذه الآية فى الحقيقة كالآية- ۱۶۴- فى سورة آل عمران التى تقول: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و قد احتمل بعضهم جملة ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ إشارة إلى أصل مقام النبوّة الذى يعطيه اللّه لمن يكون لائقا به، غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب، مع أنّه يمكن الجمع بين التّفسيرين بأن يقال: إنّ قيادة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانت نعمة للامّة كما أنّ مقام النبوّة نعمة عظيمة لشخص الرّسول الكريم.

و لا نجد حاجة إلى القول بأنّ تعبير مَنْ يَشاءُ لا يعنى أنّ اللّه ينزل رحمته و بركاته بدون حساب و بلا سبب، بل إنّ المشيئة هنا مرادفة للحكمة كما وصف البارى نفسه فى بداية السورة بأنّه العزيز الحكيم.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام فى معنى هذا الفضل الإلهى: «فانظروا إلى مواقع نعم اللّه عليهم حيث بعث إليهم رسولا، فعقد بملّته طاعتهم و جمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، و أسالت لهم جداول نعيمها، و التفت الملّة بهم فى عوائد بركتها، فأصبحوا فى نعمتها غرقين. و فى خضرة عيشها فكهين».

ملاحظة

الفضل الإلهى له حساب:

جاء فى الحديث أنّ جمعا من الفقراء ذهبوا إلى رسول اللّه و قالوا: «يا رسول اللّه، إنّ للأغنياء ما يتصدّقون و ليس لنا ما نتصدّق و لهم ما يحجّون و ليس لنا ما نحجّ و لهم ما يعتقون و ليس لنا ما نعتق. فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: من كبّر مائة مرّة كان أفضل من عتق رقبة، و من سبّح اللّه مائة مرّة كان أفضل من مائة فرس فى سبيل اللّه يسرجها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۱۹

و يلجمها. و من هلّل اللّه مائة مرّة كان أفضل الناس عملا فى ذلك اليوم إلّا من زاد.

فبلغ ذلك الأغنياء فقالوه. فرجع الفقراء إلى النبى فقالوا: يا رسول اللّه قد بلغ الأغنياء ما قلت فصنعوه، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ، (و هذه إشارة إلى أنّ ذلك لأمثالكم فإنّكم مشتاقون إلى الإنفاق و لا تملكون ما تنفقون).

أمّا الأغنياء فسبيل بلوغهم ثواب اللّه هو إنفاق أموالهم فى سبيله ۳۴۶].

هذا الحديث شاهد على ما ذكرنا سابقا من أنّ ثواب اللّه و فضله لا يعطى بدون حساب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۰

الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۵ الى ۸]

اشارة

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵) قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۶) وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (۷) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸)

التّفسير

الحمار الذى يحمل الأسفار:

جاء فى بعض الرّوايات أنّ اليهود قالوا: (إذا كان محمّد قد بعث برسالة فإنّ رسالته لا تشملنا) فردّت عليهم الآية مورد البحث فى أوّل بيان لها بأنّ رسالته قد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۱

أشير إليها فى كتابكم السماوى لو أنّكم قرأتموه و عملتم به.

يقول تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها أى نزلت عليهم التوراة و كلّفوا بالعمل بها و لكنّهم لم يؤدّوا حقّها و لم يعملوا بآياتها فمثلهم كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً.

لا يشعر هذا الحيوان بما يحمل من كتب إلّا بثقلها، و لا يميّز بين أن يكون المحمول على ظهره خشب أو حجر أو كتب فيها أدقّ أسرار الخلق و أحسن منهج فى الحياة.

لقد اقتنع هؤلاء القوم بتلاوة التوراة و اكتفوا بذلك دون أن يعملوا بموجبها.

هؤلاء مثلهم كمثل الحمار الذى يضرب به المثل فى الغباء و الحماقة.

و ذلك أوضح مثال يمكن أن يكشف عن قيمة العلم و أهميّته.

و يشمل هذا الخطاب جميع المسلمين الذين يتعاملون بألفاظ القرآن دون إدراك أبعاده و حكمه الثمينة. (و ما أكثر هؤلاء بين المسلمين).

و هناك تفسير آخر هو أنّ اليهود لمّا سمعوا تلك الآيات و الآيات المشابهة فى السور الاخرى التى تتحدّث عن نعمة بعث الرّسول قالوا: نحن أهل كتاب أيضا، و نفتخر ببعثة سيّدنا موسى عليه السّلام كليم اللّه، فردّ عليهم القرآن أنّكم جعلتم التوراة وراء ظهوركم و لم تعملوا بما جاء فيها.

على أى حال يعتبر ذلك تحذيرا للمسلمين كافّة من أن ينتهوا إلى ما انتهى إليه اليهود فقد شملتهم الرحمة الإلهية و نزل عليهم القرآن الكريم، لا- لكى يضعوه على الرفوف يعلوه الغبار، أو يحملوه كما تحمل التعاويذ أو ما إلى ذلك. و قد لا- يتعدّى اهتمام بعض المسلمين بالقرآن أكثر من تلاوته بصوت جميل فى أغلب الأحيان.

ثمّ يقول تعالى: بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ إذ لم يكتفوا بمخالفة القرآن عملا، بل أنكروه بلسانهم أيضا، حيث نصّت الآية (۸۷) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۲

البقرة و هى تصف اليهود قائلة: أَ فَكُلَّما جاءَكُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ

و يقول تعالى فى آخر الآية فى عبارة وجيزة: وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

صحيح أنّ الهداية شأن إلهى، و لكن ينبغى أن تهيّأ لها الأرضية اللازمة، و هى الروح التواقة لطلب الحقّ و البحث عنه، و هى امور يجب أن يهيّئها الإنسان نفسه، و لا شكّ أنّ الظالمين يفتقدون مثل هذه الأرضية.

و أوضحنا سابقا أنّ اليهود اعتبروا أنفسهم امّة مختارة، أو نسيجا خاصّا لا يشبه غيره، و ذهبوا إلى أبعد من ذلك حينما ادّعوا أنّهم أبناء اللّه و أحبّاؤه المنتقمون، و هذا ما أشارت إليه الآية (۱۸) من سورة المائدة: وَ قالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ (رغم أنّهم يقصدون الأبناء المجازيين).

و لكن القرآن شجب هذا التعالى مرّة اخرى بقوله: قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ۳۴۷].

فالأحبّاء يتمنون اللقاء دائما، و لا- يتمّ اللقاء المعنوى باللّه يوم القيامة إلّا عند ما تزول حجب عالم الدنيا و ينقشع غبار الشهوات و الهوى، و حينئذ سيرى الإنسان جمال المحبوب و يجلس على بساط قربه، و يكون مصداقا ل فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ فيدخل إلى حرم الحبيب.

إنّ خوفكم و فراركم من الموت دليل قاطع على أنّكم متعلّقون بهذه الدنيا و غير صادقين فى ادّعائكم.

و يوضّح القرآن الكريم هذا المعنى بتعبير آخر فى سورة البقرة آية (۹۶) عند ما يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۳

وَ لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَياةٍ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَ ما هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِما يَعْمَلُونَ

ثمّ يشير القرآن إلى سبب خوفهم من الموت بقوله: وَ لا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

لأنّ خوف الإنسان من الموت ناشئ من عاملين أساسيين:

الأوّل: عدم إيمان الإنسان بالحياة بعد الموت و اعتقاده أنّ الموت زوال و فناء.

و الثّانى: أعماله السيّئة التى يعتقد أنّه سيواجهها بعد مماته فى عالم الآخرة عند ما تقام المحكمة الإلهية.

و إنّما يخاف اليهود من الموت لسوء أعمالهم إذ أنّهم يعتقدون- أيضا- بيوم الحساب.

و قد وصفهم القرآن الكريم بالظالمين، و ذلك لأنّ الظلم يتّسع ليشمل جميع الأعمال السيّئة و الجرائم التى ارتكبوها، من قتلهم الأنبياء و قول الزور و غصب الحقوق و تلوّثهم بمختلف المفاسد الأخلاقية.

غير أنّ هـذا الخوف و ذلـك الفرار لا يجـدى شـيئا، فالموت أمر حتمى لا بـدّ أن يـدرك الجميع، إذ يقول تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الموت قـانون عـام يخضع له الجميع بمـا فيهم الأنبيـاء و الملائكـة و جميع النـاس كُـلُّ مَنْ عَلَيْها فـانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرام

و كذلك المثول أمام محكمة العدل الإلهى لا يفلت منها أحد، إضافة إلى علم اللّه تعالى بأعمال عباده بدقّة و بتفصيل كامل.

و بهذا سوف لا يكون هناك طريق للتخلّص من هذا الخوف سوى تقوى اللّه و تطهير النفس و القلب من المعاصـى، و بعد أن يخلص الإنسان للّه تعالى فإنّه لن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۴

يخاف الموت حينئذ.

و يعبّر

الإمام أمير المؤمنين عليه السّلام عن هذه المرحلة بقوله: «هيهات بعد اللتيا و التى، و اللّه لابن أبى طالب آنس بالموت من الطفل بثدى امّه»[۳۴۸].

بحثان

۱- العالم بلا عمل

ممّـا لا شكّ فيه أنّ لطلب العلم تبعات و مسـئوليات عديـدة، و لكن مع كثرة هـذه التبعات فإنّها لا تساوى شـيئا أمام بركاته. و أشـدّ ما يخيف الإنسان و يقلقه أن يتحمّل مصاعب طلب العلم، و يعانى فى سبيل ذلك الأمّرين دون أن يحصـد بركاته، و عندها سـيكون مثل هذا الإنسان كمثل الحمار الذى يحمل أسفارا على ظهره لا يعلم منها شيئا.

و قـد شبّه العـالم بلاـ عمل فى بعض الأمثال بأنّه (كالشـجر بلا ثمر) أو (كالسـحاب بلا مطر) أو (كالشـمعة التى تحرق نفسـها لتضـىء أطرافها و لكنّها تفنى و تزول) أو (كالحيوان الـذى يـدير الطاحونـة فإنّه يمشـى ساعات طويلـة دون أن يقطع أيّـة مسافة بل يبقى دائما يدور حول نفسه)، و ما إلى ذلك من التشبيهات التى يوضّح كلّ واحد منها جانبا من جوانب النقص حينما لا يقرن العلم بالعمل.

و قد حملت الروايات بشدّة على مثل هؤلاء العلماء الذين لا يعملون بما يعلمون،

ففى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من إزداد علما و لم يزدد هدى لم يزدد من اللّه إلّا بعدا»[۳۴۹].

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام أنّه قال: «العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۵

و العلم يهتف بالعمل فإنّ أجابه و إلّا ارتحل عنه»[۳۵۰].

و

فی روایة اخری عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعتبر العالم الذی لا یعمل بموجب علمه غیر جدیر بهذا اللقب حیث یقول: «لا یکون المرء عالما حتّی یکون بعلمه عاملا»[۳۵۱].

و لیس أفضل من العالم الذی یعمل بعلمه دون أن یستفید من مزایا العلم ذاتیا و ماديا،

فقد ورد عن أمیر المؤمنین فی خطبة له علی المنبر «أیّها الناس إذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلّکم تهتدون، إنّ العالم العامل بغیره، کالجاهل الحائر الذی لا یستفیق عن جهله بل قد رأیت أنّ الحجّة علیه أعظم و الحسرة أدوم»[۳۵۲].

و مثل هؤلاء العلماء سیکونون بلاء علی المجتمع و وبالا علیه، و سینتهی المجتمع الذی علماؤه من هذا القبیل إلی مصیر خطیر.

یقول الشاعر:

و راعی الشاة یحمی الذئب عنهافکیف إذا الرعاة لها ذئاب!

۲- لماذا أخاف الموت

قلّة من الناس فقط لا یخافون الموت و یبتسمون له و یحتضنونه و یهبون تلک النفس المتعبة لیحصلوا علی الخلود.

و الآن لماذا تخاف الموت الأغلبیة الغالبة من الناس و تخاف من أعراضه، بل حتّی من اسمه؟

إنّ السبب الأساسی وراء هذا الخوف هو عدم إیمان هؤلاء بالحیاة بعد الموت، أو إذا کانوا مؤمنین بذلک فإنّهم لم یصدّقوا به تصدیقا حقیقیّا، و لم یتمکّن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۶

من جمیع أفکارهم و إحساساتهم و مشاعرهم.

إنّ خوف الإنسان من العدم شیء طبیعی، بل إنّ الإنسان یخاف من الظلمة فی اللیل التی هی عدم النور، و أحیانا یصل بالإنسان الخوف إلی أنّه یخاف من المیّت.

و لکن إذا صدقت النفس أنّ

(الدنیا سجن المؤمن و جنّة الکافر)

و إذا أیقنت هذه النفس أنّ هذا البدن الترابی إنّما هو سجن للروح و سور یضرب الحصار علیها، إذا آمنت بذلک حقّا و کانت نظرة الإنسان إلی الموت هکذا فإنّه سوف لن یخشی الموت أبدا، و فی نفس الوقت الذی یعتزّ بالحیاة من أجل الارتقاء فی سلّم التکامل.

لهذا نجد فی قصّة عاشوراء: أنّه کلّما ضاقت حلقة الأعداء و إزداد ضغطهم علی الإمام الحسین و أصحابه ازدادت وجوههم إشراقا، حتّی أنّ الشیوخ من أصحابه کانت الابتسامة تطفو علی وجوههم فی صبیحة عاشوراء، و حینما کانوا یسألون یقولون: إنّنا سنستشهد بعد ساعات فنعانق الحور العین ۳۵۳].

و السبب الآخر الذی یجعل الإنسان یخاف من الموت هو التعلّق بالدنیا أکثر من اللازم، الأمر الذی یجعله یری الموت الشیء الذی سیفصله عن محبوبه و معشوقه التی هی الدنیا.

و کثرة السیّئات و قلّة الحسنات فی صحیفة الأعمال هی السبب الثالث وراء الخوف من الموت،

فقد جاء أنّ رجلا أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: یا رسول اللّه، ما بالی لا أحبّ الموت؟ فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: لک مال؟ قال: نعم، قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: قد قدّمته؟ قال:

لا. قال: فمن ثمّة لا تحبّ الموت»[۳۵۴]

(لأنّ صحیفة أعمالک خالیة من الحسنات).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۷

و جاء رجل آخر و سأل (أبا ذرّ) نفس السؤال فأجابه أبو ذرّ قائلا: «لأنّكم عمّرتم الدنيا و خرّبتم الآخرة، فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب»[۳۵۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۸

الآيات [سورة الجمعة (۶۲): الآيات ۹ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۹) فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۱۰) وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (۱۱)

سبب النّزول

نقل فی سبب نزول هذه الآيات و خصوصا الآية وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً روايات مختلفة جميعها تخبر عن معنى واحد، هو أنّه فی أحد السنوات «أصاب أهل المدينة جوع و غلاء سعر فقدم «دحيّة بن خليفة» بتجارة زيت من الشام و النبی يخطب يوم الجمعة فلمّا رأوه قاموا إليه بالبقيع خشية أن يسبقوا إليه فلم يبق مع النبی إلّا رهط فنزلت الآية

فقال: «و الذی نفسی بيده لو تتابعتم حتّى لا يبقى أحد منكم لسال بكم الوادی نارا».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۲۹

و قال المقاتلان: بينا رسول اللّه يخطب يوم الجمعة إذ قدم دحيّة بن خليفة بن فروة الكلبی ثمّ أخذ بنی الخزرج ثمّ أخذ بنی زيد بن مناة من الشام بتجارة و كان إذا قدم لم يبق بالمدينة عاتق إلّا أتته و كان يقدم إذا قدم بكلّ ما يحتاج إليه من دقيق أو برّ أو غيره فينزل عند «أحجار الزيت»، و هو مكان فی سوق المدينة ثمّ يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه فيخرج إليه الناس ليتبايعوا معه فقدم ذات جمعة و كان ذلك قبل أن يسلم و رسول اللّه قائم على المنبر يخطب فخرج الناس فلم يبق فی المسجد إلّا إثنا عشر رجلا و امرأة فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: لو لا هؤلاء لسوّمت عليهم الحجارة من السماء و أنزل اللّه هذه الآية[۳۵۶].

التّفسير

أكبر تجمّع عبادی سياسی اسبوعی:

كانت الأبحاث السابقة تدور حول مسألة التوحيد و النبوّة و المعاد، و كذلك ذمّ اليهود عبيد الدنيا، بينما انصبّ الحديث فی الآيات مورد البحث على الركائز الإسلامية المهمّة التی تؤثّر كثيرا على استقرار أساس الإيمان، و تمثّل الهدف الأساس للسورة، و هی صلاة الجمعة و بعض الأحكام المتعلّقة بها.

ففی البداية يخاطب اللّه تعالى المسلمين جميعا بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ وَ ذَرُوا الْبَيْعَ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

«نودى» من مادّة (نداء) و هى هنا بمعنى الأذان إذ لا نداء للصلاة غير الأذان.

و جاء فى الآية (۵۸) من سورة المائدة وَ إِذا نادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوها هُزُواً وَ لَعِباً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۰

فعند ما يرتفع الأذان لصلاة الجمعة يكون لزاما على الناس أن يتركوا مكاسبهم و معايشهم، و يذهبوا إلى الصلاة و هى أهمّ ذكر للّه.

و عبارة ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ... إشارة إلى أنّ إقامة صلاة الجمعة و ترك المكاسب و العمل فى هذا الوقت، خير و أنفع للمسلمين من حطام الدنيا و ملاذها الزائلة لو كانوا يعقلون. و إلّا فإنّ اللّه غنى عن الجميع.

هذه نظرة عابرة إلى فلسفة صلاة الجمعة و ما فيها من فضائل سنبحثها تباعا.

من الواضح أنّ لأمر ترك البيع و الشراء مفهوما واسعا يشمل كلّ عمل يمكن أن يزاحم الصلاة.

أمّا لماذا سمّى يوم الجمعة بهذا الاسم؟ فهو لاجتماع الناس فى هذا اليوم للصلاة، و هذه المسألة لها تاريخ سنبحثه فى النقاط القادمة.

و من الجدير بالملاحظة أنّ بعض الروايات جاءت حول الصلاة اليومية «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها و أنتم تسعون و أتوها و أنتم تمشون و عليكم السكينة»[۳۵۷].

و قد عبّرت الآية السابقة فيما يتعلّق بصلاة الجمعة بقولها (فاسعوا) لتعطى أهميّة بالغة لصلاة الجمعة.

المقصود من (ذكر اللّه) بالدرجة الاولى هو الصلاة، و لكنّنا نعلم أنّ خطبتى صلاة الجمعة مشتملة هى الاخرى و متضمّنة (لذكر اللّه) و هى فى الحقيقة جزء من صلاة الجمعة. و بناء على ذلك ينبغى الإسراع لحضور الخطبتين أيضا.

تضيف الآية التى تليها قائلة: فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

و رغم أنّ عبارة ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أو ما يشابهها من تعابير، وردت فى القرآن الكريم للحثّ على طلب الرزق و الكسب و التجارة، لكن الظاهر أنّ مفهوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۱

هذه الجملة أوسع من ذلك بكثير. لهذا فسّرها بعضهم بعيادة المريض و زيارة المؤمن و طلب العلم و المعرفة، و لم يحصروها بهذه المعانى كذلك.

من الواضح أنّ الانتشار فى الأرض و طلب الرزق ليس أمرا وجوبيا، و لكن- كما هو معلوم أصوليّا «أمر بعد الحظر و النهى»- دليل على الجواز و الإباحة. مع أنّ البعض فهم من هذا التعبير أنّ المقصود هو استحباب طلب الرزق و الكسب بعد صلاة الجمعة، و إشارة إلى كونه مباركا أكثر.

و جاء فى الحديث أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يمشى فى السوق بعد صلاة الجمعة.

جملة وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً إشارة إلى ذكر اللّه تعالى الذى وهب كلّ تلك البركات و النعم للإنسان. و قال بعضهم: إنّ الذكر هنا يعنى التفكّر كما

جاء فى الحديث «تفكّر ساعة خير من عبادة سنة»[۳۵۸].

و فسّرها آخرون بمعنى التوجّه إلى اللّه تعالى فى الكسب و المعاملات و عدم الانحراف عن جادّة الحقّ و العدالة.

غير أنّه من الواضح أنّ للآية مفهوما واسعا يشمل كلّ تلك المعانى، كما أنّه من المسلّم أنّ روح الذكر هو التفكّر. و الذكر الذى لا يكون مقرونا بالتفكّر لا يزيد عن كونه لقلقة لسان، و إنّ الذكر الممزوج بالتفكّر هو سبب الفوز فى جميع الحالات.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ استمرار الذكر و المداومة عليه يرسخ الخوف من اللّه و يعمّقه فى نفس الإنسان، و يجعله يستشعر ذلك فى أعماق نفسه، و يقضى نهائيا على أسباب الغفلة و الجهل اللذين يشكّلان السبب الأساس لكلّ الذنوب، و يضع الإنسان فى طريق الفلاح دائما. و هناك تتحقّق حقيقة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

فى آخر الآية- مورد البحث- ورد ذمّ عنيف للأشخاص الذين تركوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى صلاة الجمعة و أسرعوا للشراء من القافلة القادمة، إذ يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۲

وَ إِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَ تَرَكُوكَ قائِماً.

و لكن قُلْ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

فمن المؤكّد، أنّ الثواب و الجزاء الإلهى و البركات التى يحظى بها الإنسان عند حضوره صلاة الجمعة و الاستماع إلى المواعظ و الحكم التى يلقيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما ينتج عن ذلك من تربية روحية و معنوية، لا يمكن مقارنتها بأى شىء آخر. فإذا كنتم تظنّون انقطاع الرزق فإنّكم على خطأ كبير لأنّ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

التعبير ب «اللهو» إشارة إلى الطبل و سائر آلات اللهو التى كانت تستعمل عند دخول قافلة جديدة إلى المدينة. فقد كانت تستعمل كإعلان و إخبار عن دخول القافلة، إضافة إلى كونها وسيلة للترفيه و الدعاية و اللهو، كما نشاهد ما يشابه ذلك فى الغرب هذه الأيّام.

التعبير ب «انفضّوا» بمعنى الانتشار و الانصراف عن صلاة الجمعة و الذهاب إلى القافلة. فقد ورد فى سبب النزول أنّ المسلمين تركوا الرّسول فى خطبة الجمعة و تجمّعوا مع باقى الناس حول قافلة (دحيّة)- الذى لم يكن قد أسلم بعد- و لم يبق فى المسجد إلّا ثلاثة عشر شخصا أو أقل، كما جاء فى رواية اخرى.

و الضمير فى «إليها» يرجع إلى التجارة التى أسرعوا إليها، و لم يكن «اللهو» هو الهدف المقصود بل كان مجرّد مقدّمة للإعلان عن وصول القافلة إلى المدينة، و كذلك للترفيه و الدعاية للبضاعة.

التعبير ب «قائما» يكشف عن أنّ الرّسول كان واقفا يلقى خطبة الجمعة، كما

جاء فى حديث عن جابر أنّه قال: (لم أر رسول اللّه قطّ يخطب و هو جالس، و كلّ من قال يخطب و هو جالس فكذّبوه)[۳۵۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۳

و جاء فى رواية اخرى أنّه سئل عبد اللّه بن مسعود يوما: هل كان الرّسول يخطب واقفا؟ قال: أ لم تسمعوا قوله تعالى: وَ تَرَكُوكَ قائِماً[۳۶۰].

و جاء فى «الدرّ المنثور» أنّ معاوية كان أوّل شخص ألقى خطبة الجمعة و هو «قاعد».

بحوث

۱- أوّل صلاة جمعة فى الإسلام

جاء فى بعض الرّوايات أنّ مسلمى المدينة كانوا يتحدّثون مع بعضهم- قبل هجرة الرّسول إليهم- أنّ لليهود يوما يجتمعون فيه هو (السبت) و للنصارى يوما يجتمعون فيه هو (الأحد) فلما ذا لا نتّخذ نحن يوما معيّنا نذكر اللّه فيه كثيرا و نشكره؟ و انتخبوا يوما قبل السبت و كان يسمّى (يوم العروبة) و ذهبوا إلى (أسعد بن زرارة)- أحد وجهاء المدينة و قد صلّى بهم جماعة و وعظهم و سمّى ذلك اليوم بيوم الجمعة لاجتماع المسلمين به. ثمّ أمر (أسعد) أن يذبحوا كبشا ليصنعوا منه غداء و عشاء لجميع المسلمين الذين كان عددهم من القلّة بحيث كفاهم الكبش لهاتين الوجبتين. و كانت هذه أوّل جمعة تقام فى الإسلام.

أمّا أوّل جمعة أقامها الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع أصحابه فكانت بعد وصوله إلى المدينة بأربعة أيّام، و كان وصوله يوم الإثنين الثانى عشر من ربيع الأوّل، بقى بعدها أربعة أيّام فى قبا فبنوا (مسجد قبا) و تحرّكوا بعدها إلى المدينة، و كان ذلك يوم

الجمعة، و لم تكن المسافة بين قبا و المدينة طويلة (و تعتبر قبا اليوم من ضواحى المدينة).

و كان الرّسول قد وصل ضاحية (بنى سالم) عند أذان الجمعة فأقيمت صلاة الجمعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۴

هناك. و هذه هى أوّل جمعة أقامها الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الإسلام، و قد ألقى فيها خطبة كانت هى بدورها أوّل خطبة لرسول اللّه فى المدينة المنوّرة)[۳۶۱].

نقل أحد المحدّثين عن عبد اللّه بن كعب قوله: (إنّ أبى كان يترحّم على أسعد بن زرارة كلّما سمع أذان صلاة الجمعة، و عند ما سألته عن سبب ذلك أجابنى: (لأنّه كان أوّل رجل أقام صلاة الجمعة)، فقلت: كم كان عددكم ذلك اليوم؟ قال: أربعون رجلا فقط)[۳۶۲].

۲- أهميّة صلاة الجمعة

إنّ أفضل دليل على أهميّة هذه الفريضة العظيمة هو الآيات الأخيرة فى هذه السورة المباركة، التى أمرت جميع المسلمين و أهل الإيمان بمجرّد سماعهم لأذان الجمعة أن يسرعوا إليها و يتركوا الكسب و العمل، و كلّ ما من شأنه أن يزاحم هذه الفريضة، إلى الحدّ الذى نهتهم عن الذهاب إلى تلك القافلة رغم حاجتهم الماسّة إلى ما فيها من طعام إذ كانوا يعيشون القحط و المجاعة. و دعتهم إلى الاستمرار فى صلاة الجمعة حتّى النهاية.

ورد فى أحاديث اخرى فى هذا المجال- أيضا- منها الخطبة التى نقلتها جميع مصادر المسلمين عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قد جاء فيها

قوله: «إنّ اللّه تعالى فرض عليكم الجمعة، فمن تركها فى حياتى أو بعد موتى استخفافا بها أو جحودا لها، فلا جمع اللّه شمله و لا بارك له فى أمره، ألا و لا صلاة له، ألا و لا زكاة له، ألا و لا حجّ له، ألا و لا صوم له، ألا و لا برّ له، حتّى يتوب»[۳۶۳].

و

جاء فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام: «صلاة الجمعة فريضة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۵

و الاجتماع إليها فريضة مع الإمام، فإن ترك رجل من غير علّة ثلاث جمع فقد ترك ثلاث فرائض و لا يدع ثلاث فرائض من غير علّة إلّا منافق»[۳۶۴].

و

فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من أتى الجمعة إيمانا و احتسابا استأنف العمل»[۳۶۵].

أى استغفر ذنوبه و يبدأ العمل من جديد.

و الرّوايات كثيرة فى هذا المجال و لا يتّسع المجال لذكرها جميعا، لذا نحاول أن ننهى هذا البحث بحديث آخر، حيث

جاء رجل إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال:

يا رسول اللّه، إنّى تهيّأت عدّة مرّات للحجّ و لكنّى لم اوفّق. قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «عليك بالجمعة فإنّها حجّ المساكين»[۳۶۶].

و فى ذلك إشارة إلى أنّ ما يتضمّنه هذا المؤتمر الإسلامى الكبير (أى الحجّ) من بركات، موجودة فى اجتماع صلاة الجمعة.

و من الملفت للنظر أنّه قد ورد ذمّ شديد لتارك صلاة الجمعة، حتّى عدّ التاركون للجمعة فى صفّ المنافقين عند ما تكون صلاة الجمعة واجبا عينيّا (أى فى زمن حضور الإمام المعصوم عليه السّلام) و أمّا فى زمن الغيبة- و بناء على أنّه واجب مخيّر بين صلاة الجمعة و صلاة الظهر- فإنّه لا يكون مشمولا بهذا الذمّ و التقريع رغم عظمة صلاة الجمعة و أهميّتها فى هذا الوقت أيضا (للتوسّع فى ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهيّة).

۳- فلسفة صلاة الجمعة العبادية و السياسيّة

إنّ صلاة الجمعة- قبل كلّ شىء- عبادة جماعية و لها أثر العبادات عموما، حيث تطهّر الروح و القلب من الذنوب، و تزيل صدأ المعاصى عن القلوب، خاصّة و أنّها تكون دائما مسبوقة بخطبتين تشتملان على أنواع المواعظ و الحكم، و الحثّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۶

على التقوى و خوف اللّه.

أمّا من الناحية السياسيّة و الاجتماعية فهى أكبر مؤتمر اسبوعى عظيم بعد مؤتمر الحجّ السنوى، لهذا نجد الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول فى الرواية التى نقلناها سابقا من أنّ الجمعة حجّ من لا يملك القدرة على المشاركة فى الحجّ.

و يعطى الإسلام فى الحقيقة أهميّة خاصّة لثلاثة مؤتمرات كبيرة:

التجمّعات التى تتمّ يوميا لصلاة الجماعة.

التجمّع الأسبوعى الأوسع فى صلاة الجمعة.

و مؤتمر الحجّ الذى يعقد فى كلّ سنة مرّة.

و دور صلاة الجمعة مهمّ جدّا خاصّة و أنّ من واجبات الخطيب هو التحدّث فى الخطبتين عن المسائل السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و بذلك سيكون هذا التجمّع العظيم و المهيب منشأ للبركات و النعم التالية:

أ- توعية الناس على المعارف الإسلامية و الأحداث السياسية و الاجتماعية المهمّة.

ب- توثيق الاتّحاد و الانسجام بين المسلمين أكثر لإخافة الأعداء.

ج- تجديد الروح الدينية و تصعيد معنويات المسلمين.

د- إيجاد التعاون لحلّ المشكلات العامّة التى تواجه المسلمين.

و لهذا فإنّ أعداء الإسلام يخافون دائما من صلاة الجمعة الجامعة للشرائط.

و لهذا أيضا- كانت صلاة الجمعة مصدر قوّة سياسية فى أيدى حكومات العدل كحكومة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى استثمرها أحسن استثمار لخدمة الإسلام، و كذلك كانت مصدر قوّة أيضا لحكومات الجور كدولة بنى اميّة الذين استغلّوها لتحكيم قدرتهم و سيطرتهم و إضلال الناس.

و على مدى التأريخ نلاحظ أنّ أى محاولة للتمرّد على النظام تبدأ أوّلا بالامتناع عن صلاة الجمعة خلف الإمام المنصوب من قبل الحاكم، فقد جاء فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۷

قصّة عاشوراء أنّ بعض الشيعة اجتمعوا فى دار (سليمان بن صرد الخزاعى) ثمّ بعثوا رسالة إلى الإمام الحسين من الكوفة جاء فيها (.. و النعمان بن بشير فى قصر الإمارة، لسنا نجتمع معه فى جمعة، و لا نخرج معه إلى عيد، و لو قد بلغنا أنّك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتّى نلحقه بالشام إن شاء اللّه»[۳۶۷].

و

فى الصحيفة السجادية عن الإمام السجّاد عليه السّلام: «اللهمّ إنّ هذا المقام لخلفائك و أصفيائك و مواضع أمنائك، فى الدرجة الرفيعة التى اختصصتهم بها قد ابتزّوها»[۳۶۸].

و فى خطبة الجمعة يتمّ تبديد جميع الإشاعات التى كان الأعداء قد بثّوها خلال الأسبوع، و تدبّ بعد ذلك الحياة فى جموع المسلمين و يبدأ دم جديد بالتدفّق.

و من الجدير بالإشارة إليه أنّ فقه أهل البيت عليهم السّلام ينصّ على عدم جواز إقامة أكثر من جمعة واحدة فى منطقة نصف قطرها فرسخ، كما يمكن أن يشارك فى صلاة الجمعة من كان يبعد عنها بمسافة فرسخين (أى ما يعادل أحد عشر كم).

كلّ هذا يعنى أنّه لا يمكن إقامة أكثر من صلاة جمعة فى مدينة واحدة صغيرة أو كبيرة، مع أطرافها و ضواحيها، و بناء على هذا فسيكون هذا التجمّع هو أوسع تجمّع يقام فى تلك المنطقة.

و لكنّنا نجد مع الأسف أنّ هذه المراسم العبادية السياسية التى تستطيع أن تكون مصدر حركة عظيمة فى المجتمعات الإسلامية، نجدها بسبب سيطرة الحكومات الفاسدة على بعض الدول الإسلامية قد فقدت روحها و معناها، إلى الحدّ الذى لا تترك أى أثر إيجابى، و أصبحت تقام باعتبارها مراسم حكومية رسمية لا أكثر، و ذلك ممّا يحزّ بالنفس و يؤلم كثيرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۸

إنّ أهمّ صلاة جمعة تقام على طول العام هى الصلاة التى تقام قبل الذهاب إلى عرفات فى مكّة، حيث يشارك فيها عدد غفير من الحجّاج الذين تجمّعوا من مختلف أنحاء العالم. و يكون هناك تمثيل حقيقى لكلّ فئات المسلمين فى الكرة الأرضية، و من اللائق أن يهيّأ لمثل هذه الصلاة الحسّاسة خطبة عظيمة يشارك فى إعدادها أئمّة الجمع ليعرضوا فيها امور المسلمين المختلفة.

و من الطبيعى أن تعطى مثل هذه الخطبة أكلها، و تفيض بالبركات و الوعى بين المسلمين و تحلّ مشاكلهم الخطيرة.

و لكن مع شديد الأسف نرى أنّ خطبة الجمعة فى هذه الأيّام لا تتناول سوى الأمور الهامشية، أو يتمّ التحدّث عن امور معروفة للجميع، و لا يتمّ التحدّث عن الأمور الأساسية التى تهمّ المسلمين!! ألا ينبغى البكاء على ذهاب هذه الفرص الذهبية و ضياع هذه الثروة المعنوية؟! ألا يدعو ذلك إلى الأسف و يتطلّب الإسراع فى الإصلاح؟!

۴- آداب صلاة الجمعة و مضمون الخطبتين

تجب صلاة الجمعة- مع توافر الشروط اللازمة- على الرجال البالغين و الأصحاء الذين لهم القدرة على حضورها و المشاركة فيها، و لا تجب على المسافرين و المسنّين رغم جواز الحضور فيها للمسافر. و كذلك يمكن للنساء المشاركة فى صلاة الجمعة رغم أنّها غير واجبة عليهنّ.

أقلّ عدد يمكن انعقاد الجمعة به هو خمسة رجال.

صلاة الجمعة ركعتين و تقام بدلا عن صلاة الظهر، و تحسب الخطبتان اللتان يتمّ إلقاؤهما قبل صلاة الجمعة بدل الركعتين الأخيرتين.

و صلاة الجمعة كصلاة الصبح يستحبّ أن يقرأ فيها الحمد و السورة جهرا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۳۹

و يستحبّ كذلك أن تقرأ سورة الجمعة فى الركعة الاولى و المنافقون فى الركعة الثانية.

و هناك قنوتان فى صلاة الجمعة: أحدهما قبل ركوع الركعة الاولى، و الثانى بعد ركوع الركعة الثانية.

يجب إلقاء الخطبتين قبل الصلاة، كما يجب أن يقوم الخطيب واقفا لإلقاء الخطبة، و من يلقى الخطبة يجب أن يكون إمام صلاة

الجمعة. و یجب أن یرفع الخطیب صوته لیسمعه جمیع من یحضر الصلاة و یطّلع علی مضمون الخطبة.

و ینبغی السکوت و الإنصات إلی الخطیب و الجلوس فی مقابله.

و من اللائق أن یکون الخطیب فصیحا و بلیغا و مطّلعا علی أحوال المسلمین و عارفا بشؤون المجتمع الإسلامی، و شجاعا و صریح اللهجة و لا یتردّد فی إظهار الحقّ، و یجب أن تکون سیرته مدعاة للتأثیر علی الناس، و کذلک حدیثه ینبغی أن یربط الناس أکثر باللّه جلّ شأنه.

و من اللائق أن یرتدی الإمام أنظف الملابس، و یستخدم العطر، و یمشی بوقار و سکینة. و عند ما یرتقی المنبر یبدأ بالسلام علی الناس و یقف مقابلهم و یتکئ علی سیف أو عصی. و یجلس علی المنبر متی ینتهی الأذان. و یبدأ بخطبته بعد تمام الأذان.

و بحمد اللّه و یثنی علیه و یصلّی علی رسوله فی بدایة الخطبة الاولی (و یقرأ هذا القسم باللغة العربیة احتیاطا، و ما تبقّی بلسان الحاضرین).

و علیه أن یوصی الناس بتقوی اللّه، و یقرأ سورة من السور القصیرة، و یراعی هذا الأمر فی الخطبتین. و فی الخطبة الثانیة، بعد الصلاة علی النبی و أئمّة المسلمین، یدعو و یستغفر للمؤمنین و المؤمنات.

و من المناسب أن یناقش الخطیب فی خطبته شؤون المسلمین و ما یتعلّق بدینهم و دنیاهم مع التر کیز علی الأولویات. و ینبغی أن ینبّههم إلی مؤامرات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۰

الأعداء و یحثّهم ضمن برنامج طویل أو قصیر المدّة.

خلاصة القول یجب أن تتوفّر فی الخطیب عناصر الوعی و التفکیر الصحیح و المتابعة لشؤون المسلمین، لیستثمر الخطبة فی تحقیق الأهداف الإسلامیة العلیا، و یدفع المسلمین نحوها[۳۶۹].

جاء فی حدیث عن الإمام الرضا علیه السّلام أنّه قال: «إنّما جعلت الخطبة یوم الجمعة لأنّ الجمعة مشهد عام، فأراد أن یکون للأمیر سبب إلی موعظتهم و ترغیبهم فی الطاعة و ترهیبهم من المعصیة، و توقیفهم علی ما أراد من مصلحة دینهم و دنیاهم، و یخبرهم بما ورد علیهم من الآفاق، من الأهوال التی لهم فیها المضرّة و المنفعة ... و إنّما جعلت خطبتین لتکون واحدة للثناء علی اللّه و التمجید و التقدیس للّه عزّ و جلّ، و الاخری للحوائج و الأعذار و الإنذار و الدعاء و لما یرید أن یعلّمهم من أمره و نهیه ما فیه الصلاح و الفساد»[۳۷۰].

۵- شرائط وجوب صلاة الجمعة

لا شکّ فی وجوب أن یکون إمام الجمعة- ککل إمام جماعة- عادلا إضافة إلی شروط إضافیة وقع خلاف فیها و فی وجوب توفّرها.

و قد ذهب البعض أنّ هذه الصلاة من وظائف الإمام المعصوم و نائبه الخاصّ، أو بتعبیر آخر أنّها- أی صلاة الجمعة- من شؤون عصر حضور الإمام المعصوم.

هذا فی وقت یری عدد کبیر من المحقّقین أنّ حضور الإمام المعصوم شرط للوجوب التعیینی لصلاة الجمعة، و لیس شرطا فی الوجوب التخییری، حیث یمکن إقامة صلاة الجمعة فی زمان الغیبة بدلا عن صلاة الظهر، و هذا هو الحقّ، بل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۱

إنّه إذا قامت الحکومة الإسلامیة بشرائطها من قبل النائب العامّ للإمام المعصوم علیه السّلام. فالاحتیاط هو أن ینصب إمام الجمعة من قبل نائب الإمام و یشارک المسلمون فی هذه الصلاة.

ثمّة كلام كثير فى هذا الصدد و فى باقى الأمور المرتبطة بصلاة الجمعة، غير أنّ بعضها خارج عن موضوع التّفسير و يدخل فى إطار البحوث الفقهية و الحديث ۳۷۱].

اللهمّ، وفّقنا لأن ننتفع كأحسن ما يكون الانتفاع لتزكية النفوس بهذه الشعائر الإسلامية العظيمة. و إنقاذ المسلمين من قبضة الأعداء.

ربّنا، اجعلنا من المشتاقين للقائك، الذين لا يخافون من الموت، اللهمّ لا تسلبنا نعمة الإيمان بأنبيائك و التعلّم منهم و الاقتداء بهم أبدا.

آمين ربّ العالمين.

نهاية سورة الجمعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۳

سورة المنافقون

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها إحدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۵

«سورة المنافقون»

محتوى السورة:

احتوت سورة «المنافقون» على مضامين عديدة، لكن المحور الأصلى لها هو صفات المنافقين و بعض الأمور الاخرى المرتبطة بهم. و قد جاء فى ذيل السورة بعض الآيات التى حملت مواعظ و نصائح للمسلمين فى مجالات مختلفة.

و يمكن تلخيص تلك الآيات فى أربعة امور:

۱- صفات المنافقين و تتضمّن نقاطا مهمّة و حسّاسة.

۲- تحذير المؤمنين من خطط المنافقين و وجوب الانتباه إلى ذلك و رصده بشكل دقيق.

۳- حثّ المؤمنين على عدم الاستغراق فى الدنيا و زخرفها و الانشغال بذلك عن ذكر اللّه.

۴- حثّ المسلمين على الإنفاق فى سبيل اللّه، و الانتفاع من الأحوال قبل الموت و قبل اشتعال الحسرة فى نفوسهم.

و السبب فى تسمية هذه السورة بسورة «المنافقون» واضح لا يحتاج إلى شرح.

و ما يجدر بالملاحظة هو أنّ من آداب صلاة الجمعة أن تقرأ سورة المنافقين فى الركعة الثانية، ليتذكّر المسلمون على طول الأسبوع مؤامرات المنافقين و خططهم، و يكونوا على حذر دائم من تحرّكاتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۶

فضيلة تلاوة سورة المنافقين:

جاء فى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة المنافقين برأ من النفاق»[۳۷۲].

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «الواجب على كلّ مؤمن إذا كان لنا شيعة أن يقرأ فى ليلة الجمعة بالجمعة و سبّح اسم ربّك الأعلى، و فى صلاة الظهر بالجمعة و المنافقين، فإذا فعل ذلك فكإنّما يعمل بعمل رسول اللّه و كان جزاؤه و ثوابه على اللّه

الجنّة»[۳۷۳].

من الواضح أنّ فضائل كلّ سورة و آثارها، و منها هذه السورة، لا يمكن أن تكون من ثمار التلاوة الخالية من التفكّر و العمل فحسب، و الروايات أعلاه خير شاهد على ذلك، فإنّ المرور على هذه السور دون الاستفادة منها على الصعيد العملى و جعلها برنامجا للحياة، سوف لن يؤدّى إلى زوال روح النفاق و اجتثاث جذورها من نفس الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۷

الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ (۱) اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۲) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (۳) وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (۴)

التّفسير

مصدر النفاق و علامات المنافقين:

نذكر مقدّمة قبل الدخول فى تفسير هذه الآيات، و هى أنّ الإسلام طرح مسألة النفاق و المنافقين مع هجرة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه إلى المدينة، و بداية استحكام أسس الإسلام و ظهور عزّه. فلم تبرز ظاهرة النفاق فى مكّة، لأنّ الأعداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۸

كانوا لا يخشون الإسلام و يستطيعون التعبير عن كلّ شىء بدون حذر. و لا حاجة إلى التخفّى أو اللجوء إلى النفاق فى وقوفهم بوجه الإسلام.

لكن عند ما استحكم الإسلام و اتّسع فى المدينة، و أصبح أعداؤه من الضعف بحيث يصعب عليهم التجاهر فى عدائهم، بل قد يتعذّر ذلك عليهم فى بعض الأحيان، لهذا اختار أعداء الإسلام المهزومون أن يواصلوا خططهم التخريبية من خلال إظهار الإسلام و إبطان الكفر، و انخرطوا ظاهرا فى صفوف المسلمين، بينما ظلّوا محافظين على كفرهم فى باطنهم.

و هكذا تكون غالبا طبيعة أعداء كلّ ثورة و دعوة بعد اشتداد عودها و قوّة ساعدها، إذ تواجه الكثير من الأعداء و كأنّهم أصدقاء.

و من هنا نستطيع أن نفهم لما ذا نزلت كلّ تلك الآيات التى تصف المنافقين و تشرح حالهم، فى المدينة و لم تنزل فى مكّة.

و ممّا يجدر الإشارة إليه أنّ هذه المسألة- أى مسألة النفاق- غير محصورة بعصر الرّسول، بل إنّ جميع المجتمعات- و خاصّة الثورية منها- تكون عرضة للإصابة بهذه الظاهرة الخطيرة، و لذلك يجب أن يدرس القرآن الكريم و ما جاء فيه من تجارب و إرشادات من خلال هذه النظرة الحيوية، لا من خلال اعتبارها مسألة تاريخية لا علاقة لها بالواقع. و بهذا يمكن استلهام الدروس و الحكم لمكافحة النفاق و خطوط المنافقين فى المجتمعات الإسلامية فى الوقت الحاضر.

كذلك لا بدّ من معرفة صفاتهم التى ذكرها القرآن بشكل تفصيلى، ليتمّ التعرّف عليهم من خلالها استكناه خطوطهم و مؤامراتهم.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أيضا أنّ خطر المنافقين يفوق خطر باقى الأعداء، لخفائهم و عدم القدرة على تشخيصهم بسهولة من جهة، و لكونهم أعداء يعيشون فى داخل الجسم الإسلامى و ربّما ينفذون إلى قلبه نفوذا يصعب معه فرزهم و تحديدهم من جهة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۴۹

و يأتى خطرهم ثالثا من ارتباطاتهم مع سائر عناصر المجتمع بعلاقات بحيث تصعب مكافحتهم.

و لهذا نرى أنّ أكثر الضربات التى تلقّاها الإسلام على مدى التاريخ جاءته من هذا المعسكر- أى معسكر النفاق. و لهذا- أيضا- نلاحظ أنّ الإسلام شنّ حملات شديدة جدّا عليهم، و وجّه إليهم ضربات عنيفة لم يوجّهها إلى غيرهم.

و بعد هذه المقدّمة نرجع إلى تفسير الآيات.

إنّ أوّل صفة يذكرها القرآن للمنافقين هى: إظهار الإيمان الكاذب الذى يشكّل الظاهرة العامّة للنفاق، حيث يقول تعالى: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۳۷۴] و يضيف وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ

و هذه أوّل علامة من علامات المنافقين، حيث اختلاف الظاهر مع الباطن، ففى الوقت الذى يظهر المنافقون الإيمان و يدعونه بألسنتهم، نرى قلوبهم قد خلت من الإيمان تماما. و هذه الظاهرة تشكّل المحور الرئيسى للنفاق.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الصدق و الكذب على نوعين: «صدق و كذب خبرى» و «صدق و كذب مخبرى»، يكون المعيار و المقياس فى القسم الأوّل هو موافقته و عدم موافقته للواقع، بينما يكون المقياس فى القسم الثانى هو موافقته و عدم موافقته للاعتقاد، فإذا جاء الإنسان بخبر مطابق للواقع و لكنّه غير مطابق لاعتقاده، فهذا من الكذب المخبرى، و فى حالة مطابقته لعقيدته فهو صادق.

و بناء على هذا فإنّ شهادة المنافقين على رسالة الرّسول ليست من قبيل الكذب الخبرى لأنّها مطابقة للواقع، و لكنّها من نوع الكذب المخبرى إذ تخالف إعتقاد المنافقين. لذلك جاء التعبير القرآنى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۰

بعبارة اخرى: إنّ المنافقين لم يريدوا الإخبار عن واقعية رسالة رسول اللّه و إنّما أرادوا الإخبار عن اعتقادهم برسالته، و هذا من الكذب المحض.

و من الملاحظ أنّ المنافقين استخدموا كلّ الطرق لتأكيد شهادتهم، غير أنّ اللّه كذّبهم بشدّة و بنفس اللهجة التى أكّدوا فيها شهادتهم.

و هذه إشارة إلى أنّ المنافقين يجب أن يواجهوا بنفس الشدّة التى يؤكّدون فيها على صدقهم.

و نشير هنا إلى أنّ «المنافق» فى الأصل من مادّة (نفق) على وزن «نفخ» بمعنى النفوذ و التسرّب و «نفق» «على وزن شفق» أى القنوات و التجاويف التى تحدث فى الأرض، و تستغل للتخفّى و التهرّب و الاستتار و الفرار.

و أشار بعض المفسّرين إلى أنّ بعض الحيوانات كالذئاب و الحرباء و الفأر الصحراوى، تتّخذ لها غارين: الأوّل واضح تدخل و تخرج منه بصورة مستمرّة، و الآخر غير واضح و مخفى تهرع إليه فى ساعات الخطر و يسمّى «النفقاء»[۳۷۵].

و المنافق هو الذى اختار طريقا مشبوها و مخفيّا لينفذ من خلاله إلى المجتمع، و يهرب عند الخطر من طريق آخر.

و تذكر الآية اللاحقة العلامة الثانية: اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

ذلك لأنّهم يظهرون الإيمان و يبطنون الكفر، و يضعون الموانع و العراقيل فى طريق هداية الناس، و ليس هناك أقبح من أن يمنع الإنسان غيره من الاهتداء.

«جنّة» من مادّة (جنّ) (على وزن فنّ) و هى فى الأصل بمعنى إخفاء شىء من الحسّ، و يطلق هذا الاسم على (الجنّ) لأنّه مخلوق غير واضح، و يقال للدرع الذى يستر الإنسان من ضربات العدو فى لغة العرب (جنّة) و يقال أيضا للبساتين المكتّظة بالشجر بسبب استتار أراضيها فتسمّى (جنّة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۱

على كلّ حال فإنّ من علامات المنافقين التستر باسم اللّه المقدّس، و إيقاع الأيمان المغلّظة لإخفاء وجوههم الحقيقيّة، و إلفات أنظار الناس نحوهم. و بذلك يصدّونهم عن الرشد (الصدّ عن سبيل اللّه).

و بهذا يتّضح أنّ المنافقين فى حالة حرب دائمة ضدّ المؤمنين، و أنّ الظواهر التى يتخفّون وراءها لا ينبغى أن تخدع أحدا.

و قد يضطرّ الإنسان أحيانا إلى اليمين، أو أنّ هذا اليمين سيساعده على إظهار أهميّة الموضوع، بيد أنّه لا ينبغى أن يكون يمينا كاذبا أو بدون ضرورة و لا موجب.

جاء فى الآية (۷۴) من سورة التوبة: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَ لَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ.

ذكر المفسّرون مفهومين لمعنى التعبير ب فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الأوّل:

الإعراض عن طريق اللّه، و الآخر: منع الآخرين عن سلوك هذا الطريق. و قد لا يتعذّر الجمع بين المعنيين فى إطار الآية (مورد البحث) غير أنّ لجوءهم إلى الحلف باللّه كذبا يجعل المعنى الثانى أكثر مناسبة، لأنّ الهدف من القسم هو صدّ الآخرين و تضليلهم.

فمرّة يقيمون مسجد (ضرار)، و عند ما يسألون ما هو هدفكم من ذلك؟

يحلفون أن لا هدف لهم سوى الخير كما فى الآية (۱۰۷) من سورة التوبة.

و مرّة اخرى يعلنون استعدادهم للمشاركة فى الحروب القريبة السهلة التى يحتمل الحصول على غنائم فيها، و لكن حينما يدعون إلى المشاركة فى معركة تبوك الصعبة و الشاقّة تجدهم يختلقون الحجج و يلفّقون الأعذار، و يحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معكم يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ ۳۷۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۲

و فى يوم الحشر يلجأ المنافقون لنفس الأسلوب فى الحلف، كما جاء فى الآية ۱۸ من سورة المجادلة.

و بذلك يتّضح أنّ هذا السلوك صار جزءا من كيانهم، فهم لا يمتنعون عنه حتّى فى مشهد الحشر بين يدى اللّه تعالى.

و تتطرّق الآية اللاحقة إلى ذكر السبب الذى يقف وراء هذه الأعمال السيّئة، حيث يقول تعالى: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ

و المقصود بالإيمان- كما يعتقد بعض المفسّرين- هو الإيمان الظاهرى الذى يخفى وراءه الكفر.

و لكن يبدو أنّ الآية تريد أن تقول: إنّهم كانوا مؤمنين حقّا و ذاقوا طعم الإيمان و لمسوا حقّانية الإسلام و القرآن، ثمّ انتهجوا منهج الكفر مع احتفاظهم بظاهر الإيمان أو الإيمان الظاهرى. و قد سلب اللّه منهم حسّ التشخيص و حرمهم إدراك الحقائق، لأنّهم أعرضوا عن الحقّ، و أداروا له ظهورهم بعد أن شخّصوه و عرفوه حقّا.

و الواقع أنّ المنافقين مجموعتان:

المجموعة الاولى: كان إيمانها منذ البداية ظاهريا و صوريا.

و الثانية: كان إيمانها حقيقيّا فى البداية ثمّ ارتدّوا و لزموا طريق النفاق.

و الظاهر أنّ الآية- مورد البحث- تتعرّض للمجموعة الثانية.

و تشبه هذه الآية (۷۴) من سورة التوبة التى تقول: وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ

على كلّ حال فإنّ عدم قدرتهم على إدراك الحقائق الواضحة تعتبر علامة ثالثة من علامات نفاقهم.

و من الواضح أنّهم غير مجبرين على ذلك، لأنّهم قد هيّئوا مقدّماته بأنفسهم.

و توضّح الآية اللاحقة علامات المنافقين بشكل أكثر وضوحا، إذ يقول تعالى: وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ فهم يتمتّعون بظواهر جميلة و أجسام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۳

لطيفة.

وَ إِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ لأنّه ينطوى على شىء من التحسين و العذوبة.

و فى الوقت الـذى يتأثّر الرّسول بحـديث بعضـهم- كما يبدو من ظاهر التعبير- فكيف بالآخرين؟! هذا فيما يخصّ ظاهرهم، أمّا باطنهم ف كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ.

فأجسـامهم خاليـة من الروح، و وجوههم كالحـة، و كيـانهم خـاو منخور من الـداخل، ليس لهم أيّـة إرادة و لا يتمتّعون بأيّـة اسـتقلالية (كالأخشاب المسنّدة) المكدّسة.

روى بعض المفسّرين فى صفة رئيس المنافقين (عبد اللّه بن أبى) «كان عبد اللّه بن أبى رجلا جسيما صبيحا فصيحا ذلق اللسان، و قوم من المنافقين فى مثل صـفته، و هم رؤساء المدينة، و كانوا يحضـرون مجلس رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فيسـتندون فيه، و لهم جهارة المناظرة و فصاحة الألسن، فكان النبى و من حضر يعجبون بهياكلهم و يسمعون إلى كلامهم»[۳۷۷].

و كان هؤلاء يتميّزون بالضعف و الخواء فى داخلهم، لا يعرفون التوكّل و الاعتماد على اللّه و لا على أنفسهم، فهم كما يصفهم القرآن الكريم فى آية اخرى:

يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ

يسـيطر عليهم الخـوف و الرعب و سـوء الظنّ، و تغمر أرواحهم النظرة السوداء السـيّئة .. تجـدهم فى خوف دائم من ظلمهم و خيـانتهم حتّى اعتبر ذلك علامة مميّزة لهم (الخائن خائف).

و قد نبّه القرآن الكريم فى نهاية الآية قائلا: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ أى هم الأعداء الواقعيون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۴

و يضيف قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ أى كيف ينحرفون عن الحقّ.

و لا يريد القرآن بهذا التعبير الإخبار، و إنّما يريد لعنهم و ذمّهم بشدّة، و هو أشبه بالتعابير التى يستخدمها الناس فى ذمّ بعضهم البعض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۵

الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۵ الى ۸]

اشارة

وَ إِذا قِيـلَ لَهُمْ تَعـالَوْا يَسْـتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَـهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُـدُّونَ وَ هُمْ مُسْـتَكْبِرُونَ (۵) سَـواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْـتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (۶) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّمـاواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنـافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ (۷) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنـا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸)

سبب النّزول

ذكرت كتب التاريخ و التّفسير سببا مسهبا لنزول هذه الآيات، و جاء فى الكامل فى التاريخ: أنّه بعد غزوة بنى المصطلق ازدحم الناس على الماء، وردت واردة الناس و مع عمر بن الخطاب أجير له من بنى غفار يقال له: جهجاه، فازدحم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۶

هو و «سـنان الجهنى» حليف بنى عوف من الخزرج على المـاء فاقتتلا فصـرخ الجهنى: يـا معشـر الأنصـار. و صـرخ جهجـاه: يـا معشـر

المهاجرين.

فغضب عبد اللّه بن أبى سلول و عنده رهط من قومه فيهم «زيد بن أرقم» غلام حدث السنّ فقال: أو قد فعلوها؟ قد كاثرونا فى بلادنا، أما و اللّه (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل) ثمّ أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم ببلادكم و قاسمتموهم أموالكم، و اللّه لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم.

فسمع ذلك زيد فمشى به إلى النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك عند فراغ رسول اللّه من غزوه، فأخبره الخبر و عنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه مر به عبّاد بن بشر فليقتله،

فقال رسول اللّه: كيف إذا تحدّث الناس أنّ محمّدا قتل أصحابه؟ و لكن ائذن بالرحيل.

فارتحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه، فلقيه أسيد بن حضير فسلّم عليه و قال: يا رسول اللّه، لقد رحت فى ساعة لم تكن تروح فيها؟

فقال: أو ما بلغك ما قال عبد اللّه بن أبى؟ قال: و ما ذا قال؟ قال: زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل. قال أسيد: فأنت و اللّه تخرجه إن شئت، فإنّك العزيز و هو الذليل.

ثمّ قال: يا رسول اللّه، ارفق به فو اللّه لقد منّ اللّه بك و إنّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنّه ليرى أنّك قد استلبته ملكا.

و سمع عبد اللّه بن أبى أنّ زيدا أعلم النبى قوله فمشى إلى رسول اللّه فحلف باللّه ما قلت ما قال و لا تكلّمت به، و كان عبد اللّه فى قومه شريفا، فقالوا: يا رسول اللّه عسى أن يكون الغلام قد أخطأ.

و أنزل اللّه: إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ تصديقا لزيد. فلمّا نزلت أخذ رسول اللّه بأذن زيد و قال: هذا الذى أوفى اللّه باذنه، و بلغ ابن عبد اللّه بن سلول ما كان من أمر أبيه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۷

فأتى النبى فقال: يا رسول اللّه، بلغنى أنّك تريد قتل أبى، فإن كنت فاعلا فمرنى به، فأنا أحمل إليك رأسه، و أخشى أن تأمر غيرى بقتله فلا تدعنى نفسى نظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله، فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار.

فقال النبى: بل نرفق به و نحسن صحبته ما بقى معنا، فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثا عاتبه قومه و عنّفوه)[۳۷۸].

التّفسير

علامات اخرى للمنافقين:

تأتى هذه الآيات لتكمّل توضيح علامات المنافقين التى بدأتها الآيات التى سبقتها، يقول تعالى: إِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ وَ رَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَ هُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

لقد وصل بهم الكبر و الغرور مبلغا حرمهم من استثمار الفرص و الاستغفار و التوبة و العودة إلى طريق الحقّ و الصواب. و كان «عبد اللّه بن أبى» هو النموذج البارز لهذا التكبّر و الطغيان، و قد تجسّد ذلك فى جوابه على من طلب منه الذهاب إلى رسول اللّه للاستغفار، عند ما قال «لقد أمرتمونى أن أؤمن فآمنت، و قلتم: أعط الزكاة فأعطيت، لم يبق بعد إلّا أن تأمرونى بأن أسجد لمحمّد».

إنّ حبّ المنافقين لأنفسهم و عبادتهم لذواتهم، جعلتهم أبعد ما يكونون عن الإسلام الذى يعنى التسليم و الرضا و الاستسلام الكامل للحقّ.

«لووا» من مادّة (لى) و هى فى الأصل بمعنى برم الحبل، و تأتى أيضا بمعنى إمالة الرأس و هزّه إعراضا و استكبارا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۸

«يصدّون» لها معنيان كما أوضحنا ذلك سابقا، (المنع) و (الإعراض) و هذا المعنى أكثر انسجاما مع الآية- مورد البحث- بينما يكون الأوّل أى (المنع) منسجما مع الآية الاولى.

و من أجل أن لا يبقى هناك أى إبهام أو التباس قال تعالى: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

بعبارة اخرى: إنّ استغفار النبى ليس علّة تامّة للمغفرة، بل هى مقتض تؤثّر حينما تكون الأرضية مهيّأة، أى عند ما يتوبون بصدق و إخلاص و يتّخذون طريقا آخر، و يهجرون الكذب و الغرور، و يستسلمون للحقّ، هنالك يؤثّر استغفار الرّسول و تقبل شفاعته.

و عبّرت الآية (۸۰) من سورة التوبة بما يشبه ذلك حينما وصفت قسما آخر من أهل النفاق، إذ قال تعالى: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

و من الواضح أنّ العدد (سبعين) ليس هو المقصود، بل المقصود أنّ اللّه لن يغفر لهم مهما استغفر لهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ليس كلّ المذنبين من الفسّاق، فقد جاء الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لإنقاذ المذنبين، فالمقصود إذن هم تلك المجموعة من الفسّاق أو المذنبين الذين يصرّون على ذنوبهم و يركبون رؤوسهم.

و الشاهد الآخر الذى يذكره القرآن كعلامة لهم واضحة جدّا، هو قوله تعالى:

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا فلا تعطوا المسلمين شيئا من أموالكم و إمكاناتكم لكى يتفرّقوا عن رسول اللّه.

وَ لِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ

إنّ هؤلاء فقدوا الوعى و البصيرة، و لم يعرفوا أنّ كلّ ما لدى الناس إنّما هو من اللّه، و كلّ الخلق عياله. و أن تقاسم الأنصار لأموالهم مع المهاجرين إنّما هو من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۵۹

دواعى الافتخار و الاعتزاز، و لا ينبغى أن يمنّوا به على أحد.

ثمّ يقول تعالى فى إشارة اخرى إلى مقالة اخرى سيّئة من مقالاتهم يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ

و هذا نفس الكلام الذى أطلقه «عبد اللّه بن أبى»، و يريدون من ورائه أنّهم أهل المدينة الأصليّون الذين سيخرجون منها الرّسول و أصحابه من المهاجرين، بعد عودتهم من غزوة بنى المصطلق التى مرّت الإشارة إليها.

و رغم أنّ هذا الحديث صدر عن رجل واحد، لكنّه كان لسان حال المنافقين جميعا، و هذا ما جعل القرآن يعبّر عنهم بشكل جماعى «يقولون ...» فيردّهم ردّا حازما إذ يقول: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ

و لم يكن منافقو المدينة وحدهم الذين رووا هذا الكلام، بل سبقهم إلى ذلك رؤساء قريش عند ما قالوا: (سينتهى أمر هذه المجموعة القليلة الفقيرة من المسلمين إذا حاصرناهم اقتصاديا أو أخرجناهم من مكّة).

و هكذا نرى اليوم الدول المستكبرة و هى تحذّر الشعوب التى ترفض الخضوع لسيطرتها، بأنّها تملك الدنيا و خزائنها، فان لم تخضع لها تحاصر اقتصاديا لتركيعها.

و هؤلاء هم الذين طبع على قلوبهم و اتّخذوا منهجا واحدا على مدى التاريخ، و ظنّوا أنّ ما لديهم باق، و لم يعلموا أنّ اللّه قادر على إزالته و إزهاقه بلمحة بصر.

و هذا النمط من التفكير (رؤية أنفسهم أعزّاء و الآخرين أذلّاء و توهّم أنّهم أصحاب النعمة و الآخرون محتاجون إليهم) هو تفكير

نفاقى متولّد من التكبّر و الغرور من جهة، و توهّم الاستقلال عن اللّه عزّ و جلّ من جهة اخرى، فلو أنّهم أدركوا حقيقة العبودية و مالكية اللّه لكلّ شيء فمن المحال أن يقعوا فى ذلك التوهّم الخطير ..

و قد عبّرت عنهم الآية السابقة بقولها: لا يَفْقَهُونَ و هنا قالت: لا يَعْلَمُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۰

و يمكن تفسير الاختلاف فى التعبير إلى ضرورات البلاغة، أو أنّه إشارة إلى صعوبة تفهّم أنّ اللّه مالك خزائن السموات و الأرض بالشكل الحقيقى، فى الوقت الذى لا يحتاج إدراك أنّ للّه العزّة و لرسوله و للمؤمنين إلى شيء من التعمّق و الدقّة.

بحوث

۱- للمنافقين علامات عشر

يمكن أن نجمل علامات المنافقين التى ذكرتها الآيات الكريمة بعشر علامات:

۱- الكذب الصريح و الواضح وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ

۲- الاستفادة من الحلف الكاذب لتضليل الناس اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً.

۳- عدم إدراك الواقع بسبب إعراضهم عن جادّة الصواب و طريق الهداية بعد تشخصيه لا يَفْقَهُونَ

۴- تمتّعهم بظواهر مغرية و ألسنة ناعمة تخفى وراءها بواطن مظلمة خاوية، فارغة، منخورة وَ إِذا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسامُهُمْ

۵- الحياة الفارغة فى المجتمع، و رفضهم الخضوع لمنطق الحقّ، فهم كالخشبة اليابسة كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ.

۶- يغلب عليهم سوء الظنّ و الخوف و الترقّب لما ينطوون عليه من نزعة خيانية يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ

۷- استهزاؤهم بالحقّ و استهتارهم به لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ

۸- الفسق و الفجور و ارتكاب المعاصى و الذنوب إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ

۹- يتملّكهم شعور بأنّ لهم كلّ شيء، و كلّ الناس فى حاجة ماسّة إليهم هُمُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۱

الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا.

۱۰- يتصوّرون و يتخيّلون دائما أنّهم أعزّاء، بينما الآخرون أذلّة لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَ

هذا علما بأنّ علامات المنافقين لا تنحصر بهذه العلامات، فقد وردت علامات اخرى فى القرآن الكريم و نهج البلاغة و يمكن اكتشاف علامات اخرى من خلال معاشرتهم. و يمكن اعتبار العلامات العشر المذكورة أهمّ تلك العلامات.

و صفهم

أمير المؤمنين فى إحدى خطب نهج البلاغة بقوله: «أوصيكم عباد اللّه بتقوى اللّه و احذّركم أهل النفاق، فإنّهم الضالّون المضلّون، و الزالّون المزلّون، يتلوّنون ألوانا و يفتنون افتنانا و يعمدونكم بكلّ عماد، و يرصدونكم بكلّ مرصاد.

قلوبهم دويّة و صفاحهم نقيّة، يمشون الخفاء و يدبّون الضراء، و صفهم دواء و قولهم شفاء و فعلهم الداء العياء، حسدة الرخاء و مؤكّدو البلاء و مقنطو الرجاء، لهم بكلّ طريق صريع و إلى كلّ قلب شفيع و لكلّ شجو دموع، يتقارضون الثناء و يتراقبون الجزاء، و إن سألوا ألحفوا، و إن عذلوا كشفوا، و إن حكموا أسرفوا، قد أعدّوا لكلّ حقّ باطلا، و لكلّ قائم مائلا، و لكلّ حى قاتلا، و لكلّ باب مفتاحا، و لكلّ ليل مصباحا، يتوصّلون إلى الطمع باليأس ليقيموا به أسواقهم، و ينفقوا به أعلاقهم، يقولون فيشبهون و يصفون

فیموهون، قد هونوا الطریق و أضلعوا المضیق، فهم لمّة الشیطان و حمة النیران:

أُولئِکَ حِزْبُ الشَّیْطانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّیْطانِ هُمُ الْخاسِرُونَ .

۲- خطر المنافقین

۱- یمثّل المنافقون- کما ورد فی مقدّمة البحث- الخطر الأعظم الذی یواجه المجتمع، و ذلک لکونهم یعیشون داخل المجتمعات، و علی اطّلاع بکافّة الأسرار.

۲- لا یمکن التعرّف علیهم بسهولة، و یظهرون من الحبّ و الصداقة بحیث لا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۲

یستطیع الإنسان أن یری ما خلفها من البغض و الأحقاد.

۳- عدم افتضاح وجوههم الحقیقة للناس، الأمر الذی یجعل مواجهتهم بشکل مباشر عملا صعبا.

۴- امتلاکهم ارتباطات عدیدة بالمؤمنین (ارتباطات سببیة و نسبیة و غیرها).

۵- یطعنون المجتمع بشکل مباغت و من الخلف.

کلّ ذلک و غیره یجعل الخسائر التی تلحق بالمجتمع الإسلامی بسببهم کثیرة إلی الحدّ الذی لا یمکن تلافیها أحیانا. لهذا ینبغی وضع خطط حکیمة و دقیقة لدفع شرّهم، و إنقاذ الامّة من أحقادهم.

جاء فی حدیث عن الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّی لا- أخاف علی امّتی مؤمنا و لا مشرکا، أمّا المؤمن فیمنعه اللّه بإیمانه، و أمّا المشرک فیخزیه اللّه بشرکه، و لکنّی أخاف علیکم کلّ منافق عالم اللسان، یقول ما تعرفون و یفعل ما تنکرون»[۳۷۹].

مرّت بحوث مفصّلة حول المنافقین فی التّفسیر الأمثل ذیل الآیات ۸- ۱۶- سورة البقرة.

و ذیل الآیات ۶۰ إلی ۸۵ سورة التوبة.

و ذیل الآیات ۱۲- ۱۷ سورة الأحزاب.

و ذیل الآیة ۴۳- ۴۵ سورة التوبة.

و الخلاصة أنّ القرآن الکریم اهتمّ بهذه المجموعة اهتماما خاصّا أکثر من اهتمامه بأیّة فئة اخری.

۳- المنافق فارغ و منخور

تهبّ العواصف علی مدی الحیاة و تتلاطم الأمواج العاتیة، و یتمسّک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۳

المؤمنون بإیمانهم، و یضعون الخطط الحکیمة للنجاة من ذلک، فمرّة بالکرّ و الفرّ و اخری بالهجمات المتتالیة، و یبقی المنافق معرّضا للعواصف لا یقوی علی مصارعتها فینکسر و یتلاشی.

جاء فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «مثل المؤمن کمثل الزرع لا تزال الریح تمیله، و لا یزال المؤمن یصیبه البلاء، و مثل المنافق کمثل شجرة الأرز، لا تهتزّ حتّی تستحصد»[۳۸۰].

و تعنی «العزّة» فی اللغة العربیة القدرة و السلطان غیر القابل للتصدّع و التدهور، و قد جعل القرآن الکریم العزّة من الأمور التی یختصّ بها اللّه تعالی، کما فی الآیة العاشرة من سورة فاطر حیث یقول: مَنْ کانَ یُرِیدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِیعاً.

ثمّ يضيف القرآن الكريم قائلا: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ

فأولياء اللّه و أحبّاؤه يقتبسون نورا من نور اللّه فيأخذون عزّا من عزّته، و لهذا فإنّ روايات إسلامية عديدة حذّرت المؤمنين من التنازل عن عزّتهم و نهتهم عن تهيأة أسباب الذلّة فى أنفسهم، و دعتهم بإلحاح إلى الحفاظ على هذه العزّة.

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ

قال عليه السّلام «المؤمن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا .. المؤمن أعزّ من الجبل، إنّ الجبل يستفلّ منه بالمعاول و المؤمن لا يستفلّ من دينه شيء»[۳۸۱].

و

فى حديث آخر له عليه السّلام قال فيه: «لا ينبغى للمؤمن أن يذلّ نفسه. قيل له:

و كيف يذلّ نفسه؟ قال عليه السّلام: يتعرّض لما لا يطيق»[۳۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۴

و

فى حديث ثالث عن الإمام الصادق عليه السّلام جاء فيه: «إنّ اللّه تبارك و تعالى فوّض إلى المؤمن أموره كلّها، و لم يفوّض إليه أن يذلّ نفسه، أ لم تر قول اللّه سبحانه و تعالى هاهنا: وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ و المؤمن ينبغى أن يكون عزيزا و لا يكون ذليلا»[۳۸۳].

كنّا قد تطرّقنا إلى بحث هذا الموضوع فى ذيل الآية (۱۰) سورة فاطر، فى هذا التّفسير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۵

الآيات [سورة المنافقون (۶۳): الآيات ۹ الى ۱۱]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۹) وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (۱۰) وَ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (۱۱)

التّفسير

لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم!

إنّ حبّ الدنيا و التكالب على الأموال و الانشداد إلى الأرض، من الأسباب المهمّة التى تدفع باتّجاه النفاق، و هذا ما جعل القرآن يحذّر المؤمنين من مغبّة الوقوع فى هذه المصيدة الخطيرة يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ

و رغم أنّ الأموال و الأولاد من النعم الإلهية التى يستعان بها على طاعة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۶

و تحصيل رضوانه، لكنّها يمكن أن تتحوّل إلى سدّ يحول بين الإنسان و خالقه إذا ما تعلّق به الإنسان بشكل مفرط.

جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام یجسّد هذا المعنی بأوضح وجه «ما ذئبان ضاریان فی غنم لیس لها راع، هذا فی أوّلها و هذا فی آخرها، بأسرع فیها من حبّ المال و الشرف فی دین المؤمن»[۳۸۴].

اختلف المفسّرون فی معنی «ذکر اللّه» ففسّرها البعض بأنّه الصلوات الخمس، و قال آخرون: إنّه شکر النعمة و الصبر علی البلاء و الرضی بالقضاء، و قیل: إنّه الحجّ و الزکاة و تلاوة القرآن، و قیل أنّه کلّ الفرائض.

و یبدو أنّ ل (ذکر اللّه) معنی واسعا یشمل کلّ تلک المصادیق.

و لهذا وصف القرآن الکریم أولئک الذین یرحلون عن الدنیا دون أن یستثمروا نعم اللّه فی بناء الحیاة الخالدة و تعمیر الآخرة بأنّهم «الخاسرون» فقد خرجوا من هذه الدنیا و هم منشغلون بالأموال و الأمور الزائلة التی لا بقاء و لا دوام لها.

بعد هذا التحذیر الشدید یأمر اللّه تعالی بالإنفاق فی سبیله حیث یقول:

وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناکُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ فَیَقُولَ رَبِّ لَوْ لا أَخَّرْتَنِی إِلی أَجَلٍ قَرِیبٍ فَأَصَّدَّقَ وَ أَکُنْ مِنَ الصَّالِحِینَ ۳۸۵].

و الأمر بالإنفاق هنا یشمل کافّة أنواع الإنفاق الواجبة و المستحبّة، رغم قول البعض بأنّها تعنی التعجیل فی دفع الزکاة.

و الطریف أنّه جاء فی ذیل الآیة فَأَصَّدَّقَ وَ أَکُنْ مِنَ الصَّالِحِینَ لبیان تأثیر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۷

الإنفاق فی صلاح الإنسان، و إن فسّره البعض بأنّه أداء «مراسم الحجّ» کما عبّرت بعض الروایات عن نفس هذا المعنی فهو من قبیل ذکر المصداق البارز.

و أراد القرآن أن یلفت الأنظار إلی أنّ الإنسان لا یقول هذا الکلام بعد الموت، بل عند الموت و الاحتضار، إذ قال: مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ

و قال مِمَّا رَزَقْناکُمْ لیؤکّد أنّ جمیع النعم- و لیس الأموال فقط- هی من عند اللّه، و أنّها ستعود إلیه عمّا قریب، فلا معنی للبخل و الحرص و التقتیر.

علی أی حال فإنّ هناک عددا کبیرا من الناس یضطربون کثیرا حینما یجدون أنفسهم علی و شک الانتقال إلی عالم البرزخ، و الرحیل عن هذه الدنیا، و ترک کلّ ما بنوا فیها من أموال طائلة و ملاذ واسعة، دون أن یستثمروها فی تعمیر الآخرة.

عندئذ یتذکّر هؤلاء و یطلبون العودة إلی الحیاة الدنیا مهما کان الرجوع قصیرا و عابرا، لیعوّضوا ما فات، و یأتیهم الجواب وَ لَنْ یُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها.

و فی الآیة ۳۴ من سورة الأعراف فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ

ثمّ تنتهی الآیة بهذه العبارة وَ اللَّهُ خَبِیرٌ بِما تَعْمَلُونَ فقد سجل کلّ شیء عنکم و ستجدونه محضرا من ثواب و عقاب.

تعقیب

۱- طریقة التغلّب علی الاضطرابات و القلق

جاء فی أحوال الشیخ و العالم الکبیر «عبد اللّه الشوشتری» و هو من معاصری العلّامة «المجلسی» أنّه کان یحبّ ولده کثیرا، فاتّفق أنّه مرض مرضا شدیدا، فلمّا حضر أبوه المرحوم الشیخ عبد اللّه إلی المسجد لأداء صلاة الجمعة کان مشدوه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۸

البال مشتّت الشعور- و حینما بلغ قوله تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تُلْهِکُمْ أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ عَنْ ذِکْرِ اللَّهِ فی سورة المنافقون أخذ

یکرّرها مرّات عدیدة، و حینما سئل بعد الفراغ عن سبب ذلک قال: لقد تذکّرت ولدی حینما بلغت هذا المقطع من السورة، فجاهدت نفسی و روّضتها بتکرار هذه الآیة إلی الحدّ الذی اعتبرته میّتا و کأنّ جثمانه أمامی فانصرفت من الآیة[۳۸۶].

۲- النفاق العقائدی و النفاق العملی

للنفاق معنی واسع یشمل کلّ أنواع اختلاف الظاهر عن الباطن، و مصداقه البارز هو النفاق العقائدی الذی تتحدّث عنه سورة المنافقون.

أمّا النفاق العملی فهو وصف لحالة بعض الناس المؤمنین بالإسلام حقّا، و لکنّهم یرتکبون أعمالا تناقض اعتقادهم، کالکذب و نقض العهد و خیانة الأمانة.

جاء فی روایة عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ثلاث من کنّ فیه کان منافقا، و إن صام و صلّی و زعم أنّه مسلم: من إذا ائتمن خان، و إذا حدّث کذب، و إذا وعد أخلف»[۳۸۷].

و

فی حدیث آخر عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ما زاد خشوع الجسد علی ما فی القلب فهو عندنا نفاق»[۳۸۸].

و

فی حدیث آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السّلام «إنّ المنافق ینهی و لا ینتهی، و یأمر بما لا یأتی»[۳۸۹].

اللهمّ، إنّ دائرة النفاق واسعة، و لا نجاة لنا منه دون لطفک و رحمتک فأعنّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۶۹

علی ذلک.

ربّنا، اجعلنا من الذین لا تأکلهم الحسرة عند تودیعهم لهذه الدنیا.

اللهمّ، إنّ العزّة لک و لأولیائک، و خزائن السموات و الأرض لک لا لغیرک.

فأنزل علینا من برکاتک، و لا تحرمنا من فیض خزائنک.

أمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة المنافقین

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۱

سورة التّغابن

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمانی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۳۷۳

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۳

«سورة التغابن»

محتوى السورة:

هناك خلاف شديد بين المفسّرين فى مكان نزول هذه السورة، هل هو المدينة أو مكّة؟ علما بأنّ الرأى المشهور هو أنّ السورة مدنية.
و قال آخرون: إنّ الآيات الثلاث الأخيرة مدنيّة و الباقى مكيّة.
و من الواضح أنّ سياق الآيات الأخيرة فى هذه السورة ينسجم مع السور المدنية، و صدرها أكثر انسجاما مع السور المكيّة، و لكنّنا نرى أنّها مدنية طبقا للمشهور.
نقل «عبد اللّه الزنجانى» فى كتابه القيّم (تأريخ القرآن) عن فهرس «ابن النديم» أنّ سورة التغابن هى السورة المدنية الثالثة و العشرون.
و نظرا لأنّ مجموع السور المدنية يبلغ ۲۸ سورة فستكون هذه السورة من أواخر السور المدنية.
و يمكن تقسيم هذه السورة من حيث المواضيع التى احتوتها إلى عدّة أقسام:
۱- بداية السورة التى تبحث فى التوحيد و صفات و أفعال اللّه تعالى.
۲- حثّ الناس على ملاحظة أعمالهم ظاهرا و باطنا، و أن لا يغفلوا عن مصير الأقوام السابقين.
۳- فى قسم آخر من السورة يجرى الحديث عن المعاد، و أنّ يوم القيامة «يوم تغابن»، تغبن فيه جماعة و تفوز فيه جماعة، و اسم السورة مشتقّ من هذا المفهوم.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۴
۴- الأمر بطاعة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تحكيم قواعد النبوّة.
۵- و يأمر اللّه تبارك و تعالى فى القسم الأخير من السورة بالإنفاق فى سبيله، و يحذّر من الانخداع بالأموال و الأولاد و الزوجات. و تختم السورة بذكر صفات اللّه تبارك و تعالى.

فضيلة تلاوة السورة:

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «من قرأ سورة التغابن رفع عنه موت الفجأة»[۳۹۰].
و
عن الإمام الصادق عليه السّلام «من قرأ سورة التغابن فى فريضة كانت شفيعة له يوم القيامة، و شاهد عدل عند من يجيز شهادتها، ثمّ لا تفارقه حتّى يدخل الجنّة»[۳۹۱].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۵

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۲) خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (۳) يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۴)
أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۵) ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ يَهْدُونَنا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (۶)

التّفسير

يعلم ما تخفى الصدور:

تبدأ هذه السورة بتسبيح اللّه، اللّه المالك المهيمن على العالمين القادر على كلّ شىء يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ و يضيف لَهُ الْمُلْكُ و الحاكمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۶

على عالم الوجود كافّة، و لهذا السبب: وَ لَهُ الْحَمْدُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و لا حاجة للحديث عن تسبيح المخلوقات جميعا للّه الواحد الأحد بعد أن تطرّقنا إلى ذلك فى مواضع عديدة، و هذا التسبيح ملازم لقدرته على كلّ شىء و تملّكه لكلّ الأشياء، ذلك لأنّ كلّ أسرار جماله و جلاله مطوية فى هذين الأمرين.

ثمّ يشير تعالى إلى أمر الخلقة الملازم لقدرته، إذ يقول تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ و أعطاكم نعمة الحرية و الإختيار فَمِنْكُمْ كافِرٌ وَ مِنْكُمْ مُؤْمِنٌ

و بناء على هذا فإنّ الامتحان الإلهى يجد له فى هذا الجو مبرّرا كافيا و معنى عميقا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

ثمّ يوضّح مسألة الخلقة أكثر بالإشارة إلى الهدف منها، إذ يقول فى الآية اللاحقة: خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ

فإنّ هذا الخلق الحقّ الدقيق ينطوى على غايات عظيمة و حكمة بالغة، حيث يقول تعالى فى الآية (۲۷) من سورة ص: وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا.

ثمّ يتحدّث القرآن الكريم عن خلق الإنسان، و يدعونا بعد آيات الآفاق إلى السير فى آفاق الأنفس، يقول تعالى: وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ لقد صوّر الإنسان بأحسن الصور و أجملها، و جعل له من المواهب الباطنية الفكرية و العقلية ما جعل العالم كلّه ينطوى فيه. و أخيرا تنتهى الأمور إليه تعالى وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

نعم، إنّ هذا الإنسان الذى هو جزء من عالم الوجود، ينسجم من ناحية الخلقة و الفطرة مع سير هذا العالم أجمع و غاية الوجود، حيث يبدأ من أدنى المراتب و يرتقى إلى اللامحدود حيث القرب من الحقّ تبارك و تعالى.

جملة: فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ يراد بها الإشارة إلى المظهر الخارجى و المحتوى الداخلى على حدّ سواء. و أنّ التأمّل فى خلق الإنسان و صورته، يظهر مدى القدرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۷

التى خلق بها البارئ هذا المخلوق الرائع، الذى امتاز على كلّ ما سواه من المخلوقات.

و لأنّ الإنسان خلق لهدف سام عظيم، فعليه أن يكون دائما تحت إرادة البارئ و ضمن طاعته، فإنّه يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ يَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَ ما تُعْلِنُونَ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

تجسّد هذه الآية علم اللّه اللامتناهى فى ثلاثة مستويات: علمه بكلّ المخلوقات، و ما فى السموات و الأرض.

ثمّ علمه بأعمال الإنسان كافّة، سواء أضمرها أو أظهرها.

و الثالث علمه بنيّة الإنسان و عقائده الداخلية التى تحكم قلب الإنسان و روحه.

و لا شكّ أنّ معرفة الإنسان بهذا العلم الإلهى ستترك عليه آثارا تربوية كثيرة، و تحذّره بأنّ جميع تحرّكاته و سكناته و كلّ تصرّفاته و نيّاته، و فى أى مكان كانت، إنّما هى فى علم اللّه و تحت نظره تبارك و تعالى. و ممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك سيهيئ الإنسان للحركة نحو الرقى و التكامل.

ثمّ يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى أهمّ عامل فى تربيـة الإنسان و تعليمه، و هو الاتّعاظ بمصارع القرون و ما جرى على الأقوام السالفة حيث يقول: أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

ألم تمرّوا على مـدنهم المهدّمـة و آثارهم المدمّرة فى طريقكم إلى الشام و الأماكن الاخرى، فتروا بامّ أعينكم نتيجة كفرهم و ظلمهم. اقرأوا أخبارهم فى التاريـخ، بعضـهم أخـذته العواصف، و آخرون أتى عليهم الطوفان، و كان هـذا عـذابهم فى الدنيا و فى الآخرة لهم عذاب أشدّ.

ثمّ تشـير الآية اللاحقة إلى سـبب هذه العاقبة المؤلمة و هو الغرور و التكبّر على الأنبياء: ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَقالُوا أَ بَشَرٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۸

يَهْدُونَنا و بهذا المنطق عصوا و كفروا فَكَفَرُوا وَ تَوَلَّوْا و اللّه فى غنى عن طاعتهم وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ فطاعتهم لأنفسـهم و عصـيانهم عليها وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

و لو كفرت كلّ الكائنات لما نقص من كبريائه تعالى شـىء، كما أنّ طاعتهم لا تزيده شـيئا. نحن الذين نحتاج إلى كلّ هذه التعليمات و المناهج التربوية.

عبارة وَ اسْتَغْنَى اللَّهُ مطلقـة تبيّن اسـتغناء البارئ عن الوجود كلّه، و عـدم حاجته إلى شـىء أبـدا، بما فى ذلك إيمان الناس و طاعتهم، كى لا يتصوّروا- خطأ- أنّ اللّه عند ما يؤكّد على الطاعة و الإيمان فبسبب حاجة أو نفع يصيبه سبحانه.

و قـال آخرون فى معنى عبـارة اسْتَغْنَى اللَّهُ بأنّهـا إشـارة إلى الحكم و الآيـات و المواعظ التى أعطاها اللّه تعالى إيّاهم، إذ لا يحتاجون بعدها إلى شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (۷) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (۸) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۹) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۱۰)

التّفسير

يوم التغابن و ظهور الغبن:

فى أعقاب تلك الآيات التى بحثت مسألـة الخلقـة و الهـدف من الخلق، جاءت هـذه الآيات لتكمّل البحث الذى يطرح قضـيّة المعاد و القيامة، حيث يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۰

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا.

«زعم» من مادة (زعم)- على وزن طعم- تطلق على الكلام الذى يحتمل أو يتيقن من كذبه، و تارة تطلق على التصور الباطل و فى الآية المراد هو الأوّل.

و يستفاد من بعض كلمات اللغويين أنّ كلمة «زعم» جاءت بمعنى الإخبار المطلق، بالرغم من أنّ الاستعمالات اللغوية و كلمات المفسّرين تفيد أنّ هذا المصطلح قد ارتبط بالكذب ارتباطا وثيقا، و لذلك قالوا «لكلّ شيء كنية و كنية الكذب، الزعم».

على أى حال فإنّ القرآن الكريم يأمر الرّسول الأكرم فى أعقاب هذا الكلام بقوله: قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.

إنّ أهمّ شبهة يتمسّك بها منكرو المعاد هى كيفية إرجاع العظام النخرة التى صارت ترابا إلى الحياة مرّة اخرى، فتجيب الآية الكريمة: ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لأنّهم فى البداية كانوا عدما و خلقهم اللّه، فإعادتهم إلى الوجود مرّة أخرى أيسر ..

بل احتمل بعضهم أنّ القسم ب (و ربّى) هو بحدّ ذاته إشارة لطيفة إلى الدليل على المعاد، لأنّ ربوبية اللّه تعالى لا بدّ أن تجعل حركة الإنسان التكاملية حركة لها غاية لا تنحصر فى حدود الحياة الدنيا التافهة.

بتعبير آخر إنّنا لو لم نقبل بمسألة المعاد، فإنّ مسألة ربوبية اللّه للإنسان و رعايته له لا يبقى لها مفهوما البتة.

و يعتقد البعض أنّ عبارة وَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ترتبط بإخبار اللّه تعالى عن أعمال البشر يوم القيامة، التى جاءت فى العبارة السابقة، و لكن يبدو أنّها ترجع إلى المضمون الكلّى للآية. (أصل البعث و فرعه) الذى هو الإخبار عن الأعمال التى تكون مقدّمة للحساب و الجزاء.

و لا بدّ أن تكون النتيجة كما قرّرتها الآية اللاحقة و أنّه بعد أن ثبت أنّ المعاد حقّ: فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنا وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۱

و بناء على ذلك يأمرهم البارئ أن يعدوا أنفسهم بالإيمان و العمل الصالح، و يستعدّوا للبعث و يوم الجزاء.

و الإيمان هنا لا بدّ أن يرتكز على ثلاثة اصول: (اللّه) و (الرّسول) و (القرآن) التى تتضمّن الأمور الاخرى جميعا.

التعبير عن القرآن الكريم بأنّه (نور) فى آيات متعدّدة، و كذلك (أنزلنا) شاهدان آخران على ذلك. رغم وجود روايات متعدّدة عن أهل البيت عليهم السّلام فسّرت كلمة (نور) فى الآية- مورد البحث- بجود الإمام، و يمكن أن ينظر إلى هذا التّفسير على أنّ وجود الإمام يعتبر تجسيدا عمليا لكتاب اللّه، إذ يعبّر عن الرّسول و الإمام ب (القرآن الناطق) فقد جاء فى ذيل إحدى هذه الروايات عن الإمام الباقر قوله عن الآية: (و هم الذين ينورون قلوب المؤمنين)[۳۹۲].

و تصف الآية اللاحقة يوم القيامة بقولها: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۳۹۳] فإنّ أحد أسماء يوم القيامة هو «يوم الجمع» الذى ورد كرارا بتعبيرات مختلفة فى القرآن الكريم، منها ما جاء فى الآية (۴۹) و (۵۰) من سورة الواقعة: قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَ الْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلى مِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ

ثمّ يضيف تعالى ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ ۳۹۴] أى اليوم الذى يعرف فيه «الغابن» بالفوز عن «المغبون» بالغلبة، و هو اليوم الذى ينكشف فيه من هم الناس الذى غبنوا و خسرت تجارتهم؟

اليوم الذى يرى فيه أهل جهنّم مكانهم الخالى فى الجنّة و يأسفون لذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۲

و يرى أهل الجنّة مكانهم الخالى فى النار فيفرحون لذلك، فقد ورد فى أحد الأحاديث أنّ لكلّ إنسان مكانا فى الجنّة و آخر فى النار، فحينما يذهب إلى الجنّة يعطى مكانه فى جهنّم إلى أهل جهنّم، و يعطى مكان الجهنمى فى الجنّة إلى أهل الجنّة[۳۹۵].

و التعبير ب (الإرث) فى الآيات القرآنية ربّما يكون ناظرا إلى هذا المعنى.

ثمّ يتحدّث القرآن الكريم عن أحوال المؤمنين فى ذلك اليوم (يوم القيامة) أو (يوم التغابن) قائلا: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

و ستتنزّل النعم الإلهية و البركات بتحقّق الشرطين الأساسيين، الإيمان و العمل الصالح. فتحلّ المغفرة و التجاوز عن الذنوب التى تشغل تفكير الإنسان أكثر من أى شىء آخر، و كذلك دخول الجنّة، و ذلك هو الفوز العظيم الذى لا فوز بعده.

ثمّ يقول تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

و هناك عاملان أساسيان للشقاء يذكرهما القرآن، هما الكفر و التكذيب بالآيات الإلهية، و هما النقيضان الواقعيان للإيمان و العمل الصالح.

و الاختلاف الأوّل الذى تذكره الآية بين أهل الجنّة و أهل النار هو ذكره الغفران و العفو لأهل الجنّة بينما لم يذكر ذلك لأصحاب النار.

و الاختلاف الآخر هو التأكيد على خلود أهل الجنّة فى النعيم بقوله (أبدا) بينما اكتفى بالنسبة لأهل النار بذكر الخلود و البقاء فقط، فقد يكون هذا الاختلاف للإشارة إلى أنّ الذين خلطوا الإيمان بالكفر سوف يخرجون من النار و العذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۳

آخر المطاف، أو إشارة لغلبة رحمته على غضبه، علما أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ عدم ذكر (أبدا) فى الجملة الثانية كان نتيجة لذكرها فى الجملة الاولى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۴

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۱ الى ۱۳]

اشارة

ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (۱۱) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (۱۲) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (۱۳)

التّفسير

كلّ ما يصيبنا بإذنه و علمه:

فى أوّل آية مورد البحث يشير القرآن إلى أصل كلّى عن المصائب و الحوادث الأليمة التى تصيب الإنسان، و لعلّ ذلك يعود إلى أنّ الكفّار كانوا دائما يتذرّعون بوجود المصائب و البلايا لنفى العدالة الإلهية فى هذا العالم، أو يكون المراد أنّ طريق الإيمان و العمل الصالح مقرون دائما بالمشاكل، و لا يصل الإنسان المؤمن إلى مرتبة مقاومتها، و بذلك يتّضح وجه الارتباط بين هذه الآية و ما قبلها.

يقول تعالى أوّلا: ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ

فما يجرى من حوادث كلّها بإذن اللّه لا تخرج عن إرادته أبدا، و هذا هو معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۵

(التوحيد الأفعالى) و إنّما بدأ بذكر المصائب باعتبارها هى التى يستفهم عنها الإنسان دائما و تشغل تفكيره. و عند ما نقول يقع ذلك بإرادة اللّه، فإنّما نعنى «الإرادة التكوينية» لا الإرادة التشريعية.

و هنـا يطرح سؤال مهمّ و هو: إنّ كثيرا من هـذه الحوادث و الكوارث التى تنزل بالناس تأتى من ظلم الظالمين و طغيان الجبابرة، أو أنّ الإنسان يبتلى بها بسبب الغفلة و الجهل و التقصير ... فهل أنّ ذلك كلّه بإذن اللّه؟

للإجابة على هذا السؤال نرجع إلى مجموع الآيات التى وردت فى هذا المجال، فنلاحظ أنّها عرضت المصائب على نوعين:

الأوّل: ما يكون جزءا من طبيعـة تكوين الإنسان كالموت و الحوادث الطبيعيـة الاخرى، و هذه لا يسـتطيع الإنسان أن يدفعها عنه، فيقرّر القرآن الكريم بأنّ ذلك يقع بإذن اللّه.

الثّانى: هو تلـك المصائب التى تأتى من تقصـير الإنسان و من عمل يـده، و له الـدور الأساسـى فى تحقّقها، و هـذه يقول القرآن: إنّها تصيبكم بسبب أعمالكم.

و بناء على ذلك فليس للإنسان أن يستسلم للظلم و الجهل و الفقر.

و من البديهى أنّ إرادة اللّه تتدخّل فى جميع الأمور حتّى تلك الخاضـعة لإرادة الإنسان و فعله، إذ لا تأثير لجميع الأسـباب إلّا بإذنه، و كلّ شىء خاضع لإرادته و سلطانه، و يبشّر القرآن المؤمنين بقوله: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ

فالمؤمن لا تهزمه المصائب و لا ييأس و لا يجزع. و اللّه يهدى الإنسان حينما يكون شكورا لنعمه، صابرا على بلائه، مستسلما لقضائه.

و لهدايـة القلـوب معـانى كـثيرة منهـا (الصـبر) و (التسـليم) و (الشـكر) و (الرضـى) و قـول: إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ و عنـد مـا يـذكر المفسّرون أحد هذه الأمور، فإنّما يريدون بيان مصداق من مصاديق الآية لا معناها الكلّى.

و تقول الآية فى نهاية المطاف وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۶

و قـد يراد من هـذا التعبير الإشارة إلى الهدف من وراء هذه الامتحانات و الاختبارات الصـعبة، و هو إيقاظ الناس و تربيتهم و إعدادهم لمجابهة الغرور و الغفلة، و سيؤثر ذلك حتما و يدفع الإنسان إلى طاعة اللّه و رسوله، و أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ

لا يخفى أنّ إطاعـة الرّسول فرع عن إطاعـة اللّه تعالى و طاعة الرّسول تقع فى طول طاعة اللّه، فهما فى خطّ واحد، و هذا ما جعله يكرّر كلمة إطاعة.

و إذا ما حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، فإنّ طاعة اللّه تتعلّق بأصول القوانين و التشـريعات الإلهيّة، بينما طاعة الرّسول فى تفسـيرها و فى المسائل التنفيذية و فى التفاصيل، فعلى هذا تكون الاولى هى الأصل، و الثانية فرع.

ثمّ يضيف قائلا: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

نعم، إنّ الرّسول ملزم بتبليغ الرسالة، و سيتولّى البارئ جلّ شأنه محاسبتكم، و هذا نوع من التهديد الخفى الجادّ.

و يشير القرآن الكريم فى الآية اللاحقة إلى قضيّة التوحيد فى العبودية، التى تشكّل المبرّر الطبيعى لوجوب الطاعة، إذ يقول تعالى: اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ و بما أنّه كذلك إذا: عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

فليس غير اللّه يسـتحقّ العبوديـة، لأنّه لا ـ مالـك و لا ـ قـادر و لا عالم غيره، و الغنى كلّه له، و كلّ ما لـدى الآخرين فمنه و إليه، فيجب الرجوع له و الاستعانة به على كلّ شىء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۷

الآيات [سورة التغابن (۶۴): الآيات ۱۴ الى ۱۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۴) إِنَّما

أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (۱۵) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۶) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (۱۷) عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۸)

سبب النّزول

فى تفسير القمّى فى رواية أبى الجارود (عن أبى جعفر الباقر عليه السّلام فى قوله تعالى: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ و ذلك أنّ الرجل إذا أراد الهجرة تعلّق به ابنه و امرأته و قالوا: ننشدك اللّه أن لا تذهب عنّا فنضيع بعدك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۸

فمنهم من يطيع أهله فيقيم، فحذّرهم اللّه أبناءهم و نساءهم، و نهاهم عن طاعتهم، و منهم من يمضى و يذرهم و يقول: أما و اللّه لئن لم تهاجروا معى ثمّ جمع اللّه بينى و بينكم فى دار الهجرة لا أنفعكم بشىء أبدا. فلمّا جمع اللّه بينه و بينهم أمر اللّه أن يتوق بحسن وصله فقال: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۳۹۶].

التّفسير

أولادكم و أموالكم وسيلة لامتحانكم:

حذّر القرآن الكريم من مغبّة الوقوع فى الحبّ المفرط للأولاد و الأموال، الذى قد يجرّ إلى عدم الطاعة للّه و رسوله حيث قال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَ أَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ

إنّ هناك مظاهر عديدة لهذه العداوة، فأحيانا يتعلّقون بثيابكم ليحرموكم خير الهجرة، و اخرى ينتظرون موتكم ليسيطروا على أموالكم و ثروتكم، و ما إلى ذلك.

و ليس كلّ الأولاد، و لا كلّ الزوجات كذلك، لهذا جاءت «من» التبعيضيّة.

و تظهر هذه العداوة أحيانا بمظهر الصداقة و تقديم الخدمة، و حينا آخر تظهر بسوء النيّة و خبث المقصد.

و على كلّ حال فإنّ الإنسان يصبح على مفترق طريقين، فطريق اللّه و طريق الأهل و الأزواج، و لا ينبغى أن يتردّد الإنسان فى اتّخاذ طريق اللّه و إيثاره على غيره، ففيه النجاة و الصلاح فى الدنيا و الآخرة. و هذا ما أكّدت عليه الآية ۲۳ من سورة التوبة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آباءَكُمْ وَ إِخْوانَكُمْ أَوْلِياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمانِ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

و من أجل أن لا يؤدّى ذلك إلى الخشونة فى معاملة الأهل، نجد القرآن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۸۹

يوازن ذلك بقوله فى ذيل نفس الآية: وَ إِنْ تَعْفُوا وَ تَصْفَحُوا وَ تَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ فإذا ندموا و اعتذروا و التحقوا بكم فلا تتعرّضوا لهم بعد ذلك، و اعفوا عنهم و اصفحوا كما تحبّون أن يعفوا اللّه عنكم.

جاء فى حديث الإفك أنّ بعض المؤمنين أقسموا أن يقاطعوا أقرباءهم الذين ساهموا فى بثّ تلك الشائعة الخبيثة و ترويجها، و أن يمنعوا عنهم أى عون مالى، فنزلت الآية ۲۲ من تلك السورة: وَ لا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَ السَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبى وَ الْمَساكِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لْيَعْفُوا وَ لْيَصْفَحُوا أَ لا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

و كما يظهر من المعنى اللغوى فإنّ لغفران الذنب مستويات ثلاثة هى (العفو) بمعنى صرف النظر عن العقوبة، و (الصفح) فى مرتبة

أعلى، و يراد به ترك أى توبيخ و لوم، و (الغفران) الذى يعنى ستر الذنب و تناسبه، و بهذا فانّ الآية فى نفس الوقت الذى تدعو الإنسان إلى الحزم و عدم التسليم فى مقابل الزوجة و الأولاد فيما لو دعوه إلى سلوك خاطئ تدعوه كذلك إلى بذل العفو و المحبّة فى جميع المراحل و كلّ ذلك من أساليب التربية السليمة و تعميق جذور التديّن و الإيمان فى العائلة.

و تشير الآية اللاحقة إلى أصل كلّى آخر حول الأموال و الأولاد، حيث تقول:

إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ فإذا تجاوزتم ذلك كلّه فإنّ اللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

و قد تقدّم فى الآية السابقة الكلام عن عداء بعض الأزواج و الأولاد الذين يدعون الإنسان إلى الانحراف و سلوك طريق الشيطان و المعصية و الكفر، و فى هذه الآية نجد الكلام عن أنّ جميع الأموال و الأولاد عبارة عن «فتنة»، و فى الحقيقة فانّ اللّه يبتلى الإنسان دائما من أجل تربيته، و هذين الأمرين (الأموال و الأولاد) من أهمّ وسائل الامتحان و الابتلاء، لأنّ جاذبية الأموال من جهة، و حبّ الأولاد من جهة اخرى يدفعان الإنسان بشدّة إلى سلوك طريق معيّن قد لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۰

يكون فيه رضا اللّه تعالى أحيانا، و يقع الإنسان فى بعض الموارد فى مضيقة شديدة، و لذلك ورد التعبير فى الآية «إنّما» التى تدلّ على الحصر.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام فى رواية عنه «لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّى أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا و هو مشتمل على فتنة، و لكن من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن فإنّ اللّه سبحانه يقول: وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ[۳۹۷].

يلاحظ نفس هذا المعنى مع تفاوت يسير فى الآية ۲۸ سورة الأنفال.

و عن كثير من المفسّرين و المؤرخّين

(كان رسول اللّه يخطب فجاء الحسن و الحسين و عليهما قميصان أحمران يمشيان و يعثران فنزل رسول اللّه إليهما فأخذهما فوضعهما فى حجره على المنبر و قال: «صدق اللّه عزّ و جلّ: إِنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان و يعثران فلم أصبر حتّى قطعت حديثى و رفعتهما. ثمّ أخذ فى خطبته»[۳۹۸].

إن قطع الرّسول لخطبته لا يعنى أنّه غفل عن ذكر اللّه، أو عن أداء مسئوليته التبليغية، و إنّما كان على علم بما لهذين الطفلين من مقام عظيم عند اللّه، و لذا بادر إلى قطع الخطبة ليبرز مدى حبّه و احترامه لهما.

إنّ عمل الرّسول هذا كان تنبيها لكلّ المسلمين ليعرفوا شأن هذين الطفلين العظيمين ابنى على و فاطمة.

فقد ورد فى حديث نقلته المصادر المشهورة أنّ البراء بن عازب (صحابى معروف يقول: رأيت الحسن بن على على عاتق النبى و هو يقول: «اللهمّ إنّى أحبّه فأحبّه»[۳۹۹].

و

فى رواية اخرى أنّ الحسين عليه السّلام كان يصعد على ظهر الرّسول و هو ساجد،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۱

دون أن يمنعه الرّسول ۴۰۰]

، كلّ ذلك لإظهار عظمة هذين الإمامين و مقامهما الرفيع.

و جاء فى الآية اللاحقة: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَ اسْمَعُوا وَ أَطِيعُوا وَ أَنْفِقُوا خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ لقد أمر اللّه تعالى أوّلا باجتناب الذنوب، ثمّ بإطاعة الأوامر، و تعدّ الطاعة فى قضيّة الإنفاق مقدّمة لتلك الطاعة، ثمّ يخبرهم أنّ خير ذلك يعود إليكم و لأنفسكم.

قال بعضهم: إن «خيرا» تعنى (المال) و هو وسيلة لتحقيق بعض الطاعات، و ما جاء فى آية الوصية يعتبر تعزيزا لهذا المعنى كُتِبَ عَلَيْكُمْ

إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ [۴۰۱] و ذهب البعض إلى أنّ كلمة (خيرا) جاءت بمعناها الواسع، و لم يعتبروها قيدا للإنفاق، بل هى متعلّقة بالآية ككل، فانّ ثمار الطاعة- كما يقولون- تعود لكم.

و ربّما يكون هذا التّفسير أقرب من غيره ۴۰۲].

و الأمر بالتقوى بقدر المستطاع لا يتنافى مع ما جاء فى الآية (۱۰۲) من سورة آل عمران حيث تقول: اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ بل هى مكمّلة لتلك و من المسلّم أنّ أداء حقّ التقوى لا يكون إلّا بالقدر الذى يستطيعه الإنسان، إذ يتعذّر التكليف بغير المقدور.

فلا مجال لاعتبار الآية- مورد البحث- ناسخة لتلك الآية فى سورة آل عمران كما اعتقد البعض.

و للتأكيد على أهمّيّة الإنفاق ختمت الآية ب وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۲

«شحّ» بمعنى «البخل المرادف للحرص»، و من المعلوم أنّ هاتين الخصلتين السيّئتين من أكبر الموانع أمام فوز الإنسان، و تغلق عليه سبيل الإنفاق و تصدّه عن الخير، و من يتخلّص من هاتين الخصلتين السيّئتين فلا شكّ أنّه سيضمن السعادة.

هذا و توجد

رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام تقول: «من أدّى الزكاة فقد و قى شحّ نفسه»[۴۰۳].

و يبدو أنّ ذلك أحد المصاديق الحيّة فى مسألة الشحّ و ليس كلّ (الشحّ).

و

فى حديث آخر عن الصادق عليه السّلام- أيضا-: رأيت أبا عبد اللّه عليه السّلام يطوف من أوّل الليل إلى الصباح و هو يقول: «اللهمّ قنى شحّ نفسى» فقلت: جعلت فداك ما سمعتك تدعو، بغير هذا الدعاء قال: «و أى شىء أشدّ من شحّ النفس و أنّ اللّه يقول:

وَ مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [۴۰۴].

و للتشجيع على الإنفاق و التحذير من البخل، يقول تعالى: إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ

و كم هو رائع هذا التعبير الذى تكرّر مرّات عديدة فى القرآن الكريم فاللّه الخالق الواهب للنعم الذى له كلّ شىء، يستقرض منّا ثمّ يعدنا بأنّه سيعوّضنا أضعاف ذلك، إنّه لطف ما بعده لطف! و غير بعيد أن يكون ذلك إشارة إلى أهميّة الإنفاق من جهة، و إلى اللطف اللامحدود للّه تعالى الذى يغمر به عباده من جهة اخرى.

«القرض» فى الأصل بمعنى القطع، و لأنّها اقترنت بكلمة (حسن) فإنّها تعنى فصل المال عن النفس و إنفاقه فى الخير.

«يضاعفه» من مادّة «ضعف» (على وزن شعر) و كما قلنا سابقا: إنّها تشتمل على عدّة أضعاف و ليس ضعفا واحدا، كما جاء فى سورة البقرة آية ۱۶۱.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۳

و عبارة يَغْفِرْ لَكُمْ للإشارة إلى أنّ الإنفاق أحد عوامل غفران الذنوب.

«شكور» هو أحد صفات اللّه تعالى الذى يشكر عباده بمجازاتهم أفضل الجزاء و أجزل الجزاء. و كونه (حليم) أى يغفر الذنوب و لا يتعجّل العقوبة.

و يقول فى آخر الآية: عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إنّه مطّلع على أعمال عباده و منها النفقة و البذل فى سبيل اللّه. و إنّه غير محتاج لكى يستقرض من عباده و إنّما هو إظهار لكمال لطفه و محبّته لعباده.

و بناء على ذلك فإنّ الصفات الخمس- المذكورة فى هذه الآية و الآية السابقة- للّه تعالى، ترتبط كلّها بمسألة الإنفاق فى سبيله و الحثّ عليه، و الاندكاك باللّه تعالى الذى يؤدّى إلى الاقتناع عن ارتكاب الذنوب و الاعتصام بالتقوى.

ملاحظة

حدیث مهمّ:

جاء عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم «ما من مولود یولد إلّا فی شبابیک رأسه مکتوب خمس آیات من سورة التغابن»[۴۰۵].
و قد یکون المقصود بهذه الآیات الخمس آخر سورة التغابن التی تتحدّث عن الأموال و الأولاد. و کتابة هذه الآیات الخمس فی شبابیک الرأس إشارة إلی حتمیتها و کونها جزءا من کیان الإنسان و فطرته التی فطره اللّه علیها.
لعلّ التعبیر ب (شبابیک) جمع «شبّاک»- علی وزن خفّاش- بمعنی «المشتبک» إشارة إلی عظام الرأس التی تکون علی شکل قطع متداخلة مع بعضها. أو لعلّه إشارة إلی شبکات المخّ.
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۴
علی کلّ فإنّها إشارة إلی وجود هذه المعانی فی مخّ النوع البشری.
اللهمّ، أعنّا علی هذا الامتحان الکبیر، امتحان الأموال و الأولاد و الزوجات.
ربّنا، لا تبتلنا بالبخل و الحرص و شحّ النفس، فإنّه من نجا من ذلک فقد فاز.
اللهمّ، جنّبنا الغبن یوم القیامة، یوم یظهر فیه غبن العاصین و تنکشف فیه معاصیهم و ذنوبهم، و اجعلنا فی کنف لطفک و رحمتک.
آمین یا ربّ العالمین.
نهایة سورة التغابن
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۵

سورة الطّلاق

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها اثنتا عشرة آیة
الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۷
«سورة الطّلاق»

محتوی السورة:

أهمّ مسألة طرحت فی هذه السورة، کما هو واضح من اسمها، هی مسألة «الطلاق» و أحکامه و خصوصیاته، و الأمور التی تلی ذلک، ثمّ تأتی بعدها أبحاث فی المبدأ و المعاد و نبوّة الرّسول و البشارة و الإنذار.
و من هنا نستطیع أن نقسّم محتوی هذه السورة إلی قسمین.
القسم الأوّل: الآیات السبع الاول التی تتحدّث عن الطلاق و ما یرتبط به من امور، و تتعرّض إلی جزئیّات ذلک بعبارات وجیزة بلیغة، و بشکل دقیق و طریف إلی حدّ الإشباع.
القسم الثانی: و یشکّل الدافع الحقیقی للقسم الأوّل من السورة، و یدور الحدیث فیه عن عظمة اللّه و مقام رسوله و ثواب الصالحین و جزاء العاصین علی شکل مجموعة منسجمة لضمان إجزاء هذه المسألة الاجتماعیة المهمّة. و یذکر أنّ لهذه السورة أسماء اخری کسورة «النساء القصری» (علی وزن صغری) مقابل سورة «النساء» المعروفة «النساء الکبری».

فضيلة تلاوة السورة:

جاء فى حديث عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الطلاق مات على سنّة رسول اللّه»[۴۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۸

الآية [سورة الطلاق (۶۵): آية ۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّسـاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِـدَّتِهِنَّ وَ أَحْصُوا الْعِـدَّةَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً (۱)

التّفسير

شرائط الطلاق و الانفصال:

تقدّم أنّ أهمّ بحث فى هذه السورة هو بحث الطلاق، حيث يشرّع القرآن فيها مخاطبا الرّسول الأكرم، بصفته القائد الكبير للمسلمين، ثمّ يوضّح حكما عموميّا بصيغة الجمع، حيث يقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَ

هذا هو الحكم الأوّل من الأحكام الخمسة التى جاءت فى هذه الآية، و طبقا لآراء المفسّرين إنّ المراد هو أن تجرى صيغة الطلاق عند نقاء المرأة من الدورة الشهرية، مع عدم المقاربة الزوجية، لأنّه- طبقا للآية ۲۲۸ من سورة البقرة- فإنّ عدّة الطلاق يجب أن تكون بمقدار «ثلاثة قروء» أى ثلاثة طهورات متتالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۳۹۹

و هنا يؤكّد أنّ الطلاق يجب أن يكون مع بداية العدّة، و هذا يتحقّق فقط- فى حالة الطهارة و عدم المقاربة، فإذا وقع الطلاق فى حالة الحيض فإنّ بداية زمان العدّة ينفصل عن بداية الطلاق، و بداية العدّة ستكون بعد الطهارة.

و إذا كانت فى حالة طهر و قد جامعها زوجها، فإنّ الطلاق لا يتحقّق أيضا، لأنّ مثل هذه الطهارة- بسبب المقاربة- لا يمكن أن تكون دليلا على عدم وجود نطفة فى الرحم.

على كلّ حال هذا هو أوّل شرط للطلاق.

جاء فى روايات عديدة عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «مر فليراجعها، ثمّ ليتركها حتّى تطهر، ثمّ تحيض، ثمّ تطهر. ثمّ، إن شاء أمسك بعد، و إن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدّة التى أمر اللّه عزّ و جلّ أن يطلّق لها النساء»[۴۰۷].

و جاء نفس هذا المعنى فى روايات عديدة عن أهل البيت عليهم السّلام، حتّى أنّها ذكرت على أنّها تفسير للآية[۴۰۸].

ثمّ يذكر الحكم الثانى و هو حساب العدّة، حيث يقول تعالى: وَ أَحْصُوا الْعِدَّةَ.

«أحصوا» من مادّة «الإحصاء» بمعنى الحساب، و هى فى الأصل مأخوذة من «حصى» بمعناها المعروف، لأنّ كثيرا من الناس كانوا يلجأون فى حساب المسائل المختلفة إلى طريقة عدّ «الحصى» لعدم استطاعتهم القراءة و الكتابة.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ المخاطب فى «حساب العدّة» هم الرجال و ليس النساء، و ذلك لوقوع مسئولية «النفقة و السكن» على عاتق الرجال، كما أنّ «حقّ الرجوع» عن الطلاق يعود إليهم و ليس إلى النساء، و إلّا فهنّ ملزمات أيضا فى إحصاء العدّة لتعيين تكليفهنّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۰

بعد ذلك يدعو اللّه تعالى الناس جميعا إلى التقوى و اجتناب المعاصى، حيث يقول تعالى: اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ فهو ربّكم الحريص على سعادتكم، فلا تعظوا له أمرا و لا تتركوا له طاعة، و خاصّة فى «حساب العدّة» و التدقيق بها.

ثمّ يذكر الحكم «الثالث» الذى يتعلّق بالأزواج و الحكم «الرابع» الذى يتعلّق بالزوجات، يقول تعالى: لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَ لا يَخْرُجْنَ

و رغم أنّ كثيرا من الجهلة لا يلتزمون بهذا الحكم عند الطلاق، حيث يسمح الرجل لنفسه أن يخرج المرأة بمجرّد إجراء صيغة الطلاق، كما تسمح المرأة لنفسها بالخروج من بيت زوجها و الرجوع إلى أقاربها بمجرّد ذلك.

و لكن يبقى لهذا الحكم فلسفته المهمّة و حكمته البالغة، فهو بالإضافة إلى إسداء الاحترام إلى المرأة، يهيئ أرضية جيّدة للانصراف و الإعراض عن الطلاق، و يؤدّى إلى تقوية الأواصر الزوجية.

إنّ عدم الالتزام بهذا الحكم الإسلامى الخطير، الذى جاء فى نصّ القرآن الكريم، يسبّب كثيرا من حالات الطلاق التى تؤدّى إلى الفراق الدائم، بينما كثيرا ما يؤدّى الالتزام بهذا الحكم إلى الرجوع و الصلح و العودة إلى الزوجية مجدّدا.

و لكن قد تقتضى بعض الظروف إخراج المرأة و عدم القدرة على الاحتفاظ بها فى البيت، فيجىء الحكم الخامس الاستثنائى إذ يقول تعالى: إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.

كأن يكون الزوجان غير منسجمين إطلاقا، و يكون أحدهما مثلا سىء الأخلاق إلى الدرجة التى لا يمكن معها البقاء معه فى بيت واحد، و إلّا ستنشأ مشاكل جديدة و عديدة.

و يلاحظ هذا المعنى فى روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السّلام ۴۰۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۱

و لكن من الواضح أنّ ذلك لا يشمل كلّ بادرة للخلاف و عدم الانسجام، فإنّ التعبير ب «الفاحشة» يكشف عن كون ذلك العمل على قدر كبير من القبح، و خاصّة حينما وصفها بأنّها «مبيّنة».

و ربّما كان المقصود «بالفاحشة» عملا يتنافى مع العفّة، فقد جاء فى رواية عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يشابه ذلك المعنى، و أنّ الغرض من «الإخراج» هنا هو الإخراج لإجراء الحدّ، و من ثمّ الرجوع و العودة إلى البيت.

و يمكن الجمع بين هذين المعنيين.

بعد بيان هذه الأحكام يؤكّد القرآن الكريم- مرّة اخرى- بقوله: وَ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لأنّ الغرض من هذه الأحكام هو إسعاد الناس أنفسهم، و التجاوز على هذه الأحكام- سواء من قبل الرجل أو المرأة- يؤدّى إلى توجيه ضربة قويّة إلى سعادتهم.

و يقول تعالى فى لفتة لطيفة إلى فلسفة العدّة، و الحكمة من تشريعا، و عدم السماح للنساء المعتقدات بالخروج من مقرّهن الأصلى البيت، يقول: لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً.

و مع مرور الزمن يهدأ طوفان الغضب و العصبية الذى قد يسبّب الطلاق، غير أنّ مرور الزمن و حضور الزوجة إلى جانب زوجها خلال هذه الفترة فى البيت، و إظهار ندم و محبّة كلّ واحد منهما إلى الآخر، و كذلك التفكير مليّا فى عواقب هذا العمل القبيح، خاصّة مع وجود الأطفال، كلّ هذه الأمور قد تهيئ أرضية صالحة للرجوع عن هذا القرار المشؤوم، و تساهم فى تبديد الغيوم التى تكدّر سماء العلاقة الزوجية.

و فی إشارة لطیفة إلی هذا المعنی

جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام «المطلّقة تکتحل و تختضب و تطیّب و تلبس ما شاءت من الثیاب، لأنّ اللّه عزّ و جلّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۲

یقول: لَعَلَّ اللَّهَ یُحْدِثُ بَعْدَ ذلِکَ أَمْراً لعلّها تقع فی نفسه فیراجعها»[۴۱۰].

نعود إلی القول بأنّ التصمیم علی الانفصال و الطلاق یحدث فی الغالب تحت تأثیر الهیجان و الانفعالات العابر، التی قد تنتهی و تتبدّد بمرور الزمن (أی أثناء فترة العدّة) فإنّ التفکیر جیّدا فی هذا الأمر قد یؤدّی إلی رجوع أحدهما إلی الآخر، و تجاوز حالات عدیدة من الخلاف أثناء هذه الفترة، و لکن بشرط أن تراعی الأحکام الإسلامیة أثناء فترة العدّة بشکل دقیق.

و سیتّضح فیما بعد- إن شاء اللّه- أنّ ذلک کلّه یرتبط بحالة «الطلاق الرجعی».

ملاحظات

۱- أبغض الحلال إلی اللّه الطلاق

ممّا لا شکّ فیه أنّ عقد الزوجیة من جملة العقود و المواثیق القابلة للفسخ، فهناک حالات من الخلاف لا یمکن معها استمرار العلاقة الزوجیة، و إلّا فإنّها ستؤدّی إلی مشاکل و مفاسد خطیرة و عدیدة. و لهذا نجد الإسلام قد شرّع أمر الطلاق من الناحیة المبدأیة.

بینما نلاحظ المجتمعات المسیحیة التی منعت الطلاق- بأی شکل من الأشکال- تعیش مشاکل متعدّدة نتیجة لذلک، فغالبا بما یعیش الزوجان المختلفان حالة انفصال و تباعد، أو حالة طلاقة من الناحیة العملیة، رغم عدم الاعتراف بذلک من الناحیة الرسمیة. و کثیرا یلجأ الزوجان إلی إختیار زوج آخر غیر رسمی.

و بناء علی ذلک فإنّ أصل الطلاق من الضروریات التی لا یمکن إلغاؤها بأی وجه من الوجوه، و لکن ینبغی أن لا یصار إلیها إلّا فی الحالات التی یتعذّر فیها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۳

مواصلة العلاقة الزوجیة و الحیاة المشترکة.

و لهذا نجد أنّ الطلاق قد ذمّ فی روایات إسلامیة عدیدة، و ذکر علی أنّه (أبغض الحلال إلی اللّه).

ففی روایة عن الرّسول الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ما من شیء أبغض إلی اللّه عزّ و جلّ من بیت یخرّب فی الإسلام بالفرقة، یعنی الطلاق»[۴۱۱].

و

فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السّلام: «ما من شیء ممّا أحلّه اللّه أبغض إلیه من الطلاق»[۴۱۲].

و

فی آخر عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «تزوّجوا و لا تطلّقوا فإنّ الطلاق یهتزّ منه العرش»[۴۱۳].

و کیف لا یکون کذلک؟! و الطلاق هو السبب وراء مآس عدیدة تحلّ بالعوائل و الرجال و النساء، و أکثر منهم بالأطفال و الأولاد، و یمکن تقسیم تلک المآسی إلی ثلاثة أقسام:

۱- المشاکل العاطفیة:

ممّا لا شكّ فيه أنّ انتهاء العلاقة الزوجية بالطلاق و الفراق، بعد حياة مشتركة عاشها الزوج و الزوجة معا، ستترك آثارا سيّئة على الصعيد العاطفى على كلا الطرفين. و إذا أقدم أحدهما على الزواج مرّة اخرى فسيبقى ينظر بشىء من القلق و الارتياب إلى الطرف الآخر، و ربّما أعرض بعضهم عن الزواج نهائيا تحت تأثير التجربة الاولى الفاشلة.

۲- المشاكل الاجتماعية:

غالبا ما تحرم النساء المطلّقات من الحصول على الزوج المؤهّل و الكفوء مرّة اخرى، كما قد يواجه الرجال نفس المسألة حينما يبدأون يفكّرون بالزواج مرّة اخرى، و قد يضطرّ هؤلاء إلى الزواج رغم عدم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۴

قناعاتهم، الأمر الذى يؤدّى إلى فقدان السعادة و الراحة إلى الأبد. خصوصا مع وجود أطفال من الزواج الأوّل.

۳- مشاكل الأطفال:

و هذه أهمّ المشاكل حيث يحرم الأطفال من حنان و رعاية الامّ، و يعيشون فى كنف زوجة أبيهم التى لا تنظر إلى هؤلاء الأطفال أو تعاملهم كما تعامل أطفالها الحقيقيين. و بهذا سيعيش الأبناء فراغا عاطفيا من هذا الجانب لا يعوّضه شىء.

و تتكرّر نفس الصورة فيما إذا حملت المرأة أطفالها معها إلى الزوج الجديد، فإنّ هذا الزوج الجديد لا يحلّ غالبا محلّ الأب الحقيقى.

و هذا لا يعنى أنّه لا يوجد نساء أو رجال يمتلكون المحبّة و الشفقة التى تمتلكها الأمّهات أو الآباء تجاه أطفالهم، و لكن مثل هؤلاء الناس قليلون فى المجتمع و يندر الحصول عليهم.

و بناء على ذلك سيعيش هؤلاء الأطفال المحرومون من حبّ الامّ و الأب عقدا معيّنة على الصعيد الروحى و العاطفى، و ربّما يؤدّى إلى فقدانهم السلامة الروحية. و لهذا سيعانى المجتمع بأجمعه- و ليس العائلة فقط- من هؤلاء الأطفال الذين قد يشكّلون فى بعض الأحيان ظاهرة خطيرة عند ما يعيشون حالة النقص و حبّ الانتقام من المجتمع.

و عند ما وضع الإسلام كلّ تلك الموانع و الصعوبات بوجه الطلاق، فإنّما أراد أن يجنّب المجتمع الإسلامى الوقوع بتلك المشاكل. و لهذا السبب أيضا نلاحظ القرآن الكريم قد حثّ بشكل صريح كلا من الرجل و المرأة على أن يتّجها إلى العائلة و الأقرباء لحلّ الاختلاف و المشاكل التى قد تنشأ بينهما، عن طريق تشكيل محكمة صلح عائلية تعرض عليها الاختلافات و النزاعات بدل عرضها على المحاكم الشرعية و حصول الطلاق و الانفصال. (وضّحنا هذا الأمر- أى محكمة الصلح العائلية فى ذيل الآية ۳۵ سورة النساء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۵

و فى نفس الوقت نجد أنّ الإسلام شجّع كلّ ما من شأنه تقوية الأواصر العائلية و تقويتها، و شجب كلّ محاولة لإضعافها و تفكيكها.

۲- أسباب الطلاق:

لا يختلف الطلاق عن الظواهر الاجتماعية الاخرى التى تمدّ جذورها فى المجتمع و تشارك فى تكوينها أسباب و امور عديدة متشابكة. و عمليّة منعها و الوقوف بوجهها تبقى بدون جدوى ما لم يتمّ النظر إليها بشكل دقيق يتناول جميع العوامل التى تقف وراءها،

و هى كثيرة جدّا منها:

أ- التوقّعات و الآمال المفرّطة التى يبنيها كلّ واحد منهما على الطرف الثانى، فلو أنّهما جعلا توقّعهما فى دائرة محدودة و معقولة و تجنّبا التوغّل فى عالم الخيال، و أدرك كلّ واحد منهما الطرف الآخر جيّدا، و حصر التوقّع فى المجالات الممكنة، فحينئذ يمكن الحيلولة دون وقوع الكثير من حالات الطلاق.

ب- استحكام روح طلب الماديّات و وسائل الرفاه المختلفة يجعل الإنسان- و خاصّة النساء- فى حالة عدم قناعة مستمرّة، ممّا يسهّل حصول عملية الطلاق و الانفصال عند مواجهة أبسط الحوادث تحت ذرائع و حجج متنوّعة.

ج- تدخّلات الأقرباء فى الشؤون الخاصّة للزوجين، و خاصّة تلك التدخلات فى موارد الاختلافات بين الزوجين. و يعدّ ذلك من العوامل المهمّة التى تساعد على الطلاق.

و نلاحظ من خلال التجربة أنّ خلافات الزوجين إذا ما تركت لشأنها دون تدخّل من الأقارب فسوف تتلاشى و تنطفئ شيئا فشيئا. أمّا إذا تمّ دخول طرف من الأقارب و المتعلّقين دخولا متحيّزا متعصّبا، فإنّه سيؤدّى إلى إشعال هذه الخلافات و تعقيدها أكثر.

و لكن هذا لا يعنى أن يبعد الأقرباء أنفسهم عن هذه الاختلافات دائما و دون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۶

استثناء، فإنّ دخولهم حينما تكبر المشكلة و تخرج عن كونها خلافا جزئيّا جانبيّا يكون لصالح العلاقة الزوجية و دوامها، خصوصا إذا كان تدخّلا خاليا من التعصّب و الانحياز.

د- عدم التفات كلّ من الزوجة و الزوج إلى رغبات و طلبات أحدهما من الآخر، ففى الوقت الذى يحبّ الزوج أن تكون زوجته دائما جذّابة نظيفة، كذلك تحبّ الزوجة لزوجها أن يكون كذلك. و لكن هذه الرغبات غالبا ما تكون مكبوتة لا يحاول كلّ منهما إبرازها و الإعلان عنها.

و هكذا فإنّ عدم اهتمام الأزواج بهندامهم و ترك التزيين و الترتيب، و عدم الاهتمام بالنظافة، كلّ تلك الأمور تمنع الزوج أو الزوجة من الاستمرار بمشروع الزواج، خاصّة إذا كان هناك من يهتمّ بهذه المسائل فى المحيط الذى يعيش فيه هؤلاء الزوجان.

لهذا نجد الروايات الإسلامية أعطت أهميّة خاصّة لهذا الجانب،

فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لا ينبغى للمرأة أن تعطّل نفسها»[۴۱۴].

و

جاء فى حديث آخر عنه أيضا عليه السّلام: «و لقد خرجن نساء من العفاف إلى الفجور ما أخرجهنّ إلّا قلّة تهيئة أزواجهنّ»[۴۱۵].

ه- عدم تناسب المستوى الثقافى للعوائل، و كون الزوج يعيش نوعا من الثقافة العائلية لا تنسجم مع ثقافة الزوجة العائلية. و لهذا ينبغى التدقيق فى هذا الأمر قبل الإقدام على الزواج، فالمطلوب ليس فقط «الكفاءة الشرعية» أى الالتزامات الإسلامية، و إنما يجب أن تتوفّر- أيضا- «الكفاءة الفرعية» أى التماثل و التشابه فى الأمور الاخرى بين الطرفين. و إلّا فحدوث تصدع فى العائلة غير مستبعد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۷

۳- فلسفة ضبط و إحصاء العدّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ للعدّة حكمتين أساسيتين أشير إليهما فى القرآن الكريم و الروايات الإسلامية.

الاولى: مسألة حفظ النسل و اتّضاح وضع المرأة من حيث الحمل و عدمه.

و الاخرى: توفير فرصة جيّدة للرجوع عن الطلاق و العودة إلى الحياة الاولى، و القضاء على عوامل الانفصال التى تمّت الإشارة إليها

فى الآية أعلاه، علما أنّ الإسلام يؤكّد على بقاء النساء فى بيوت الأزواج أثناء العدّة، ممّا يسمح بالبحث مرّة اخرى عن وسائل للعودة، و ترك الانفصال عن بعضهما.

و خصوصا فى حالة الطلاق الرجعى ۴۱۶] حيث لا يحتاج الرجوع إلى الزوجة إلى أيّة مراسيم أو أمور رسمية. و كلّ عمل يعتبر عودة عن هذا الطريق و لو بمجرّد وضع الرجل يده على جسم المرأة، حتّى لو كان بدون شهوة، فإنّه يعتبر رجوعا عن الطلاق.

و إذا ما مرّت هذه الفترة (أى فترة العدّة) دون أن تظهر أى بادرة للصلح و التوافق، فهذا يعنى أنّهما غير مستعدّين للاستمرار فى الحياة الزوجية.

أوردنا شرحا لهذا الموضوع فى ذيل الآية (۲۲۸) سورة البقرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۸

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۲ الى ۳]

اشارة

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَ أَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (۲) وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (۳)

التّفسير

فأمسكوهنّ بمعروف أو فارقوهنّ بمعروف:

يشير فى الآية مورد البحث، و كاستمرار للأبحاث المرتبطة بالطلاق التى وردت فى الآيات السابقة، إلى عدّة أحكام اخرى، إذ يقول تعالى فى البداية:

فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

المراد ببلوغ الأجل «الوصول إلى نهاية المدّة» و ليس المقصود أن تنتهى العدّة تماما، بل تشرف على الانتهاء، فإنّ الرجوع بعد نهاية العدّة غير جائز، إلّا أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۰۹

يكون إبقاؤهنّ عن طريق صيغة عقد جديدة، و لكن هذا المعنى بعيد جدّا عن سياق و مفهوم الآية.

على أى حال فإنّ هذه الآية تطرح أهمّ الأواصر المرتبطة بالحياة الزوجية و أكثرها نضجا، و هى: إمّا أن يعيش الرجل مع المرأة بإحسان و معروف و توافق، أو أن ينفصلا بإحسان.

فالانفصال ينبغى أن يتمّ بعيدا عن الهياج و العربدة، و على اصول صحيحة، و يجب أن تحفظ فيه الحقوق و اللياقات لكى تكون أرضية صالحة و مهيّأة للعودة و الرجوع إذا ما قرّرا الرجوع إلى الحياة المشتركة فيما بعد، فإنّ العودة إذا تمّت فى جو مظلم ملبّد بالخلافات و التعدّيات، فسوف لا تكون عودة موفّقة تستطيع الاستمرار مدّة طويلة. هذا إضافة إلى أنّ الانفصال بالطريقة غير اللائقة قد يترك آثارا، ليس فقط على الزوج و الزوجة، و إنّما قد تتعدّى إلى عشيرة و أقرباء كلّ منهما، و تقطع طريق المساعدة لهما فى المستقبل.

و من اللطيف حقّا أن تحاط كلّ الصداقات و العلاقات المشتركة بين الناس بجوّ من الإحسان و الاحترام المتبادل للحقوق و الشعور بالمسؤولية، و حتّى لو وقع الطلاق فيجب أن يتمّ أيضا بإحسان و دون مشاكل، فإنّ ذلك يعتبر بحدّ ذاته نوعا من الإنتصار و الموفّقية لكلا الطرفين.

و يتّضح ممّا سبق أنّ (الإمساك بالمعروف و الطلاق بالمعروف) له معنى واسع يشمل جميع الواجبات و المستحبّات و الآداب و الأخلاق التى تقتضيها تلك العلاقة.

ثمّ يذكر القرآن الكريم الحكم الثانى حيث يقول: وَ أَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ

و ذلك لكى لا يستطيع أحد أن ينكر فى المستقبل ما جرى.

و بعض المفسّرين احتمل الإشهاد لكلا الأمرين: الطلاق و الرجوع، غير أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۰

الإشهاد ليس واجبا قطعا فى التزويج فضلا عن الرجوع. و على فرض أنّ المورد يشمل الرجوع فيكون من باب الاستحباب.

و فى الحكم الثالث يبيّن القرآن الكريم وظيفة الشهود، حيث يقول: وَ أَقِيمُوا الشَّهادَةَ لِلَّهِ حذار أن يكون ميلكم و حبّكم لأحد الطرفين مانعا عن إظهار الحقّ، و ينبغى أن تتمّ الشهادة للّه و لإظهار الحقّ، و ينبغى أن يكون الشهود عدولا، و لما كانت عدالة الشاهد لا تعنى انّه معصوم من الذنب، و لهذا يحذّرهم اللّه تعالى لكى يراقبوا أنفسهم لئلّا ينحرفوا عن جادّة الحقّ بعلم أو بغير علم.

و ينبغى أن يشار إلى أنّ تعبير ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ دليل على أنّ الشاهدين يجب أن يكونا مسلمين عادلين و من الذكور.

و لتأكيد الأحكام السابقة جميعا تقول الآية الكريمة: ذلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ.

ربّما اعتبر البعض «ذلكم» إشارة- فقط- إلى مسألة التوجّه إلى اللّه و مراعاة العدالة من جانب الشهود، غير أنّ الظاهر أنّ هذا التعبير يشمل كلّ الأحكام السابقة حول الطلاق.

و على أيّة حال فإنّ هذا التعبير دليل على الأهمية القصوى التى يولّيها القرآن الكريم لأحكام الطلاق، التى إذا تجاوزها أحد و لم يتّعظ بها فكأنّه أنكر الإيمان باللّه و اليوم الآخر.

و بسبب المشاكل المعيشية و الحياة المستقبلية فإنّ الزوجين قد ينحرفان عن جادّة الصواب عند الطلاق و الرجوع، و قد تضغط هذه الظروف على الشاهدين فتمنعانهما عن أداء الشهادة الصحيحة و العادلة، لهذا تؤكّد الآية فى نهايتها قائلة:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً و يساعده حتما على إيجاد الحلّ لمشكلاته.

وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ و لا يتصوّر تحصيله.

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ و سيكفيه ما يهمّه من أموره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۱

إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ لأنّ اللّه عزّ و جلّ قادر مطلق، و أمره نافذ فى كلّ شىء و تخضع جميع الكائنات لمشيئته و إرادته ...

و لهذا يحذّر النساء و الرجال و الشهود أن لا يخافوا قول الحقّ، و يحثّهم على الاعتماد عليه و اللجوء إليه فى تيسير الصعوبات، لأنّه قد تعهّد بأن ييسّر للمتّقين أمرهم، و يجعل لهم مخرجا و يرزقهم من حيث لا يحتسبون.

لقد تعهّد اللّه أن لا يترك من توكّل عليه يتخبّط فى حيرته، و إنّه لقادر على الوفاء بهذا التعهّد.

و رغم أنّ هذه الآيات نزلت بشأن الطلاق و الأحكام المتعلّقة به، لكنّها تحتوى مفاهيم واسعة و معانى عظيمة تشمل جميع المجالات التى يعاهد اللّه بها المتّقين، و يبعث فى نفوسهم الأمل بأنّه سيشملهم بلطفه و رعايته، فينجيهم من المآزق، و يرشدهم إلى الصواب، و يفتح أمامهم الآفاق الرحبة، و يرفع عنهم مشاكل الحياة و صعوباتها، و يبدّد الغيوم السوداء التى تلبّد سماء سعادتهم.

و فى إشارة لطيفة إلى النظام العامّ الذى يحكم التكوين و التشريع، يقول تعالى: قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً فكلّ هذه الأحكام و

الأوامر التی فرضها اللّه فی شأن الطلاق، إنّما کانت ضمن حساب دقیق و مقاییس عامّة شاملة لا یغیب عنها شیء.

و هکذا یجب أن یلتزم الناس فی جمیع المشاکل التی تنتاب حیاتهم- و لیس فقط فی مسألة الطلاق- بالموازین و الأحکام الشرعیة، و أن یواجهوا تلک الأمور بالتقوی و الصبر و طلب التوفیق من اللّه، لا أن یطلقوا ألسنتهم بالشکوی و ارتکاب الذنوب، و ما إلی ذلک و یتوسّلون بالطرق غیر المشروعة لحلّ مشاکلهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۲

بحثان

۱- التقوی و النجاة من المشاکل

إنّ تلاوة الآیات السابقة تبعث- أکثر من غیرها- الأمل فی النفوس، و تمنح القلب صفاء خاصّا، و تمزّق حجب الیأس و القنوط، و تنیر الأرواح بنور الأمل، إذ تعدّ کلّ المتّقین بحلّ مشاکلهم و تسهیل أمورهم.

جاء فی حدیث عن أبی ذرّ الغفاری أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّی لأعلم آیة لو أخذها بها الناس لکفتهم وَ مَنْ یَتَّقِ اللَّهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً فما زال یقولها و یعیدها»[۴۱۷].

و

فی حدیث آخر عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «من شبهات الدنیا، و من غمرات الموت، و شدائد یوم القیامة».

و هذا التعبیر دلیل علی أنّ تیسیر امور المتّقین لیس فی الدنیا فقط و إنّما یشمل القیامة أیضا.

و

فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من أکثر الاستغفار جعله اللّه له من کلّ هم فرجا و من کلّ ضیق مخرجا»[۴۱۸].

قال بعض المفسّرین: إنّ أوّل الآیة السابقة نزلت بحقّ (عوف بن مالک) و هو أحد أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم الذی أسر ابنه فجاء یشکو هذا الحادث و فقر حاله و ضیق ذات یده إلی الرّسول فنصحه رسول اللّه

بقوله: «اتّق اللّه و اصبر، و أکثر من قول «لا حول و لا قوّة إلّا باللّه»

ففعل ذلک و فجأة بینما هو جالس فی بیته دخل علیه ولده، فتبیّن أنّه قد استغفل الأعداء و فرّ من قبضتهم و جاء بجمل معه منهم.

لذا نزلت هذه الآیة التی تخبر عن تیسیر معضلة هذا الرجل المتّقی من حیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۳

لا یحتسب ۴۱۹].

و لا یعنی هذا إطلاقا أنّ الآیة تحثّ علی ترک السعی و بذل الجهد و الجلوس فی البیت و الرکون إلی اللّه و أن یردّد الإنسان قول «لا حول و لا قوّة إلّا باللّه» لینزل علیه الرزق من حیث لا یحتسب. إنّ ما ترید الآیة الکریمة أن ترکّز علیه هو أنّ السعی لا بدّ أن یکون معه و إلی جانبه تقوی، و إذا ما أغلقت الأبواب مع کلّ هذا حینئذ یتدخّل البارئ لفتح هذه الأبواب.

لهذا نجد فی الحدیث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق علیه السّلام (عمر بن مسلم) انقطع فترة عن الإمام،

قال الإمام علیه السّلام ما فعل عمر بن مسلم علیه السّلام قلت: جعلت فداک أقبل علی العبادة و ترک التجارة فقال: ویحه! أما علم أنّ

تارك الطلب لا يستجاب له، إنّ قوما من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لمّا نزلت: وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ أغلقوا الأبواب و أقبلوا على العبادة و قالوا: قد كفينا، فبلغ ذلك النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأرسل إليهم قال: «ما حملكم على ما صنعتم به» فقالوا:

يا رسول اللّه تكفّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إنّه من فعل ذلك لم يستجب له، عليكم بالطلب»[۴۲۰].

۲- روح التوكّل

المقصود من التوكّل على اللّه هو أن يسعى الإنسان لأن يجعل عاقبة عمله و كدحه على اللّه و يوكّلها إليه، و يدعوه لتسهيل أمره، فإنّه لطيف بعباده رحيم بهم و على كلّ شىء قدير.

و الشخص الذى يعيش حقيقة «التوكّل على اللّه» لا يجد اليأس إليه منفذا، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۴

يدبّ فى عزمه الضعف، و لا يشعر بالنقص و الصغر أمام المشاكل مهما كبرت، و يبقى يقاوم و يواجه الأحداث بقوّة و إيمان راسخين. و يعطيه هذا الإيمان و التوكّل قدرة نفسية عظيمة يستطيع معها تجاوز الصعاب.

و من جانب آخر تنهمر عليه الإمدادات الغيبية و المساعدات التى وعده اللّه.

ففى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سألت من جبرائيل: ما التوكّل؟ قال «العلم بأنّ المخلوق لا يضرّ و لا ينفع، و لا يعطى و لا يمنع، و استعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى اللّه، و لم يرج و لم يخف سوى اللّه، و لم يطمع فى أحد سوى اللّه فهذا هو التوكّل»[۴۲۱].

فالتوكّل بهذا المضمون العميق يمنح الإنسان شخصية جديدة و يكون له تأثير على جميع أعماله. لذا نقرأ

فى حديث عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه سأل اللّه عزّ و جلّ فى ليلة المعراج: إلهى أى الأعمال أفضل؟ قال تعالى: «ليس شىء عندى أفضل من التوكّل علىّ و الرضا بما قسمت»[۴۲۲].

و من الطبيعى أنّ التوكّل بهذا المعنى سيكون توأما مع الجهاد و السعى و ليس مع الكسل و الفرار من المسؤوليات.

و قد أوردنا بحثا آخر فى هذا المجال فى ذيل الآية ۱۲ سورة إبراهيم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً (۴) ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً (۵) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَ لا تُضارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى (۶) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (۷)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۶

التّفسير

أحكام النساء المطلّقات و حقوقهنّ:

من بين الأحكام المستفادة من الآيات السابقة لزوم إحصاء العدّة بعد الطلاق، و لمّا كانت الآية (۲۲۸) من سورة البقرة قد بيّنت حكم العدّة للنساء اللاتى يرين العادة الشهرية و ذلك بأن تعد ثلاث دورات شهرية متتالية و بمشاهدة الثالثة تكون المرأة قد أنهت عدّتها. فقد ذكرت الآيات محلّ البحث حكم النسوة اللواتى لا حيض لديهم لأسباب معيّنة، أو الحوامل لتكمل بحث العدّة.

يقول تعالى فى بداية الأمر: وَ اللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ فإذا شككتم فى وجود الحمل فمدّة العدّة حينئذ ثلاثة أشهر، و كذلك النسوة اللائى لم يرين الحيض و لم تحدث لهنّ العادة الشهرية بعد وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ

ثمّ يشير تعالى إلى ثالث مجموعة حيث يضيف قائلا: وَ أُولاتُ الْأَحْمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ

و بهذا اتّضح حكم المجاميع الثلاثة، مجموعتان يجب أن يحصين عدتهنّ ثلاثة أشهر، و المجموعة الثالثة- أى النساء الحوامل- تنتهى عدتهنّ بوضع الحمل، سواء كان بعد ساعة من الطلاق، أو بعد ثمانى أشهر مثلا.

و قد ذكرت ثلاثة احتمالات فى معنى عبارة إِنِ ارْتَبْتُمْ

۱- الشكّ فى وجود «الحمل» بمعنى أنّه هناك احتمال حمل بعد سنّ اليأس (خمسون سنة للنساء العاديات، و ستّون سنة للنساء القرشيات) فمن أجل هذا الاحتمال الضعيف الذى نادرا ما يقع، يجب أن تحتاط النساء فتحصى عدّتها ثلاثة أشهر[۴۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۷

۲- النساء اللائى لا يعلم بأنّهنّ وصلن إلى مرحلة اليأس أم لا.

۳- المراد هو الشكّ فى حكم هذه المسألة، فحكمها كما ورد فى هذه الآية.

و يبدو أنّ الأنسب و الأقرب هو التّفسير الأوّل فإنّ التعبير ب وَ اللَّائِي يَئِسْنَ ... يوحى أنّ هؤلاء النساء قد بلغن سنّ اليأس.

و يشار إلى أنّ حكم النساء اللائى غابت عنهنّ العادة الشهرية لمرض أو غيره هو نفس حكم اليائسات، أى يعدّدن ثلاثة أشهر (يمكن أن يستفاد هذا الحكم عن طريق قاعدة الأولوية أو مشمولا بلفظ الآية)[۴۲۴].

جملة وَ اللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ يمكن أن تكون إشارة إلى النساء اللائى بلغن سنّ البلوغ، دون أن يشاهدن العادة الشهرية. و فى هذه الصورة يجب أن يحسبن عدّتهنّ ثلاثة أشهر.

و احتملوا أن تكون الآية ناظرة لجميع النساء اللائى لم يشاهدن العادة الشهرية، سواء بلغن سنّ اليأس أم لا. غير أنّ المشهور بين فقهائنا أن لا عدّة للنساء اللائى يطلقن قبل بلوغهنّ سنّ البلوغ. و يوجد من خالف هذا الرأى و استدلّوا على ذلك ببعض الروايات، كما أنّ ظاهر الآية يوافقهم. (للتوسّع فى ذلك يجب الرجوع إلى الكتب الفقهية)[۴۲۵].

و ذكر كسبب لنزول الجملة الأخيرة فى الآية أنّ «أبى بن كعب» سأل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن أنّ القرآن لم يذكر عدّة النساء الصغيرات و النساء الكبيرات «اليائسات» و الحوامل فنزلت السابقة تبيّن أحكامهنّ ۴۲۶].

و يذكر أنّ العدّة فى هذا المورد إنّما تكون فى حقّ النساء اللائى يحتمل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۸

حقّهنّ الحمل، لأنّهنّ ذكرن فى الآية معطوفات على النساء اليائسات، و معنى ذلك أنّ حكمهنّ واحد[۴۲۷].

و أخيرا يؤكّد مرّة اخرى فى نهاية الآية على التقوى حيث يقول تعالى:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً.

ييسّر أموره و يسهّلها فى هذا العالم، و كذلك فى العالم الآخر، بألطافه سواء فى هذه القضيّة أى قضيّة الطلاق أو فى قضايا اخرى.

و للتأكيد على أحكام الطلاق و العدّة فقد أضاف تعالى فى الآية اللاحقة قائلا:

ذلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ وَ يُعْظِمْ لَهُ أَجْراً.

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود من «السيّئات» هنا «الذنوب الصغيرة» و المقصود من «التقوى» اجتناب الذنوب الكبيرة.

و بناء على ذلك فإنّ تجنّب الكبائر يؤدّى إلى غفران الصغائر، كما جاء فى الآية ۳۱ من سورة النساء. و لازم هذا أنّ مخالفة الأحكام فى هذا المجال- أى فى الطلاق و العدّة- يعدّ من الذنوب الكبيرة[۴۲۸].

و رغم أنّ السيّئات تطلق أحيانا على الذنوب الصغيرة، كما ورد فى آيات عديدة من القرآن الكريم، و لكنّها تطلق فى آيات اخرى على كلّ الذنوب أعمّ من الصغيرة و الكبيرة، نقرأ فى الآية ۶۵ من سورة المائدة: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنا عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ «و جاء ما يشابه هذا المعنى فى آيات أخر».

و من المسلّم أنّ الإيمان و الإسلام يؤدّيان إلى غفران الذنوب السابقة.

و تعطى الآية اللاحقة توضيحا أوسع و أشمل لحقوق المرأة بعد الطلاق، من حيث «السكن» و «النفقة» و امور اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۱۹

يقول تعالى فى سكن النساء المطلّقات: أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ

«وجد» على وزن (حكم)، بمعنى القدرة و التمكّن، و ذكر المفسّرون تفاسير اخرى ترجع فى النتيجة إلى نفس المعنى، إذ يقول الراغب فى المفردات: إنّ التعبير ب مِنْ وُجْدِكُمْ يعنى بما تستطيعون و بما تقدرون عليه، و بمعنى اختاروا مسكنا مناسبا قدر الإمكان للنساء المطلّقات.

و من الطبيعى أنّه حينما يكون الإسكان على نفقة الزوج و فى عهدته، فإنّ الأمور الاخرى من الإنفاق ستقع هى الاخرى على عاتق الزوج، و الشاهد على هذا المدّعى ذيل الآية الذى يتحدّث عن نفقة النساء الحوامل.

ثمّ يتطرّق تعالى لذكر حكم آخر وَ لا تُضآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَ

حذار أن يغرّكم البعض و يزرع بينكم البغض و العداوة و النفور، ممّا يؤدّى إلى إخراجكم عن جادّة الحقّ، فتحرمونهنّ حقوقهنّ الطبيعية فى السكن و النفقة، و تجعلوهنّ تحت ضغوط لا يستطعن معها إلّا الهرب و ترك كلّ شىء.

يقول تعالى فى ثالث حكم حول النساء الحوامل وَ إِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ

فما دمن حاملات فهنّ فى حالة عدّة يستحقّنّ النفقة و السكن على الزوج.

و يقول تعالى فى الحكم الرابع حول حقوق النساء المرضعات فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَ

اجرة تتناسب مع مقدار و زمان الإرضاع، و طبقا لما هو معروف و شائع عرفا و نظرا لأنّ الأطفال كثيرا ما يصبحون نقطة للنزاع و الخلاف بين الزوج و الزوجة بعد الطلاق، فقد أوضح القرآن فى الحكم الخامس هذا الأمر بشكل قاطع و لائق حيث قال: وَ أْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ و تشاوروا بينكم فى مصير الأولاد و مستقبلهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۰

و يحذّر القرآن الكريم من مغبّة أن يكون الأطفال ضحيّة الخلاف الواقع بين الزوج و الزوجة، ممّا يترك عليهم آثارا واضحة على تكوينهم الجسمى و النفسى، إذ يحرمون من حنان الامّ و الأب و شفقتهما فينبغى أن يتّقى الأبوان اللّه تعالى و يحفظا حقوق الأطفال

فإنّهم لا يستطيعون الدفاع عنها.

و جملة «و أتمروا» من مادّة «ايتمار» و تأتى أحيانا بمعنى «قبول الأمر» و أحيانا اخرى بمعنى «التشاور» و المعنى الثانى أقرب إلى معنى الآية.

و التعبير «بمعروف» تعبير جامع يشمل كلّ مشاورة فيها خير و صلاح.

و فى حالة عدم حصول التوافق و التفاهم بين الزوجين حول مصير الأطفال و قضيّة إرضاعهم، يقول القرآن فى سادس حكم فى هذا المجال وَ إِنْ تَعاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرى

إشارة إلى أنّ الخلافات إذا طالت و تعقّدت فأعطوا الأطفال إلى مرضعة اخرى، و رغم أنّ الامّ هى الأولى بذلك، لكن إذا بقى الأطفال ينتظرون، و ظلّ النزاع على حاله، فلا ينبغى أن ينسى الأطفال فى خضم هذا النزاع.

و تبيّن الآية اللاحقة سابع- و آخر حكم- فى هذا المجال حيث يقول تعالى:

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها.

فهل أنّ هذا الأمر يرتبط بالنساء اللائى يتعهدنّ رضاعة أطفالهنّ بعد الفرقة و الطلاق، أو أثناء العدّة التى أشير إليها بصورة إجمالية فى الآيات السابقة، أو أنّه يرتبط بكليهما معا.

و يبدو أنّ المعنى الأخير أنسب و أقرب، رغم أنّ بعض المفسّرين اعتبرها خاصّة بالنساء المرضعات فقط فى الوقت الذى أطلقت الآيات السابقة على هذا الأمر تعبير «أجر» و ليس «نفقة و إنفاق».

على كلّ حال لا ينبغى للذين ليس لهم القدرة أن يتشدّدوا و يعقدوا الأمور،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۱

كما أنّ الذين لا يملكون القدرة المالية غير مأمورين إلّا بالقدر الذى تسعه قدرتهم المالية و لا يحقّ للنساء مطالبتهم بأكثر من ذلك.

و بناء على هذا فالذين لديهم المقدرة و الاستطاعة ثمّ يبخلون بها فإنّهم يستحقّون اللوم و التقريع لا الذين لا يملكون شيئا.

و فى نهاية المطاف يبشّرهم اللّه تعالى بقوله: سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً أى لا تجزعوا و لا تحزنوا و لا يكن الضيق فى المعيشة سببا لخروجكم عن الطريق السوى، فإنّ الدنيا أحوال متقلّبة لا- تبقى على حال، فحذار من أن تقطع المشاكل العابرة و المرحلية حبل صبركم.

و كانت هذه الآية بمثابة بشرى أبدية للمسلمين الذين كانوا حينذاك يعيشون ضنكا ماديا و عوزا فى متطلّبات الحياة، فهى تبعث الأمل فى نفوسهم و تبشّر الصابرين.

و لم تمض فترة طويلة حتّى فتح اللّه عليهم أبواب رحمته و بركته.

بحوث

۱- أحكام الطلاق الرجعى

قلنا أنّه فى الطلاق الرجعى يستطيع الزوج متى شاء أن يرجع إلى زوجته خلال فترة العدّة إلى آخر يوم منها، بلا حاجة إلى عقد أو ما شابه، و الطريق إلى ذلك سهل يسير يمكن أن يتمّ بأى حديث أو عمل يشمّ منه رائحة العودة و يدلّ على الرجوع فى العلاقة الزوجية، و قد اختصّت بعض الأحكام التى وردت فى الآيات أعلاه مثل «النفقة» و «السكن» بحالة الطلاق الرجعى، يضاف إلى ذلك عدم خروج المرأة من بيت زوجها أثناء العدّة، فإنّها أيضا من مختصّات الطلاق الرجعى أمّا الطلاق البائن غير القابل للرجوع، (كالطلاق

للمرّة الثالثة) فإنّه غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۲

مشمول بتلك الأحكام.

أمّا حقّ النفقة و السكن فهو ثابت للنساء الحوامل إلى حين وضع الحمل.

و التعبير ب لا تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً إشارة إلى أنّ كلّ الأحكام السابقة- أو بعضها- مرتبط بالطلاق الرجعى ۴۲۹].

۲- لا يكلّف اللّه نفسا إلّا وسعها

ليس العقل وحده يحكم بذلك، و إنّما الشرع هو الآخر شاهد و دليل على ذلك. أى أنّ تكاليف البشر و مسئولياتهم إنّما هى بقدر طاقاتهم و تعبير لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا ما آتاها التى وردت ضمن الآيات السابقة هو إشارة إلى هذا المعنى.

و لكن ورد فى بعض الروايات أنّ المقصود ب ما آتاها هو «ما أعلمها» أى أنّ اللّه يكلّف الناس بقدر ما أعلمهم به. و لذا استدلّ بهذه الآية على إثبات «أصل البراءة» فى مباحث علم الأصول، فمن لا يعلم حكما ليس عليه مسئولية تجاه ذلك الحكم.

و نظرا لأنّ عدم الاطّلاع يؤدّى أحيانا إلى عدم المقدرة، فمن الممكن أن يكون المقصود هو الجهل الذى يكون مصدرا للعجز.

و بناء على هذا فإنّه سيكون للآية مفهوم واسع يشمل عدم القدرة و الجهل الذى يؤدّى إلى عدم القدرة على إنجاز التكليف.

۳- أهميّة النظام العائلى

إنّ الدقّة و الظرافة التى عالجت بها الآيات القرآنية أحكام النساء المطلّقات و حقوقهنّ و باقى الجزئيات المتعلّقة فى هذا المجال، الواردة فى آيات قرآنية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۳

اخرى، تمثّل بمجموعها المنهج و القانون الإسلامى لمواجهة هذه المشاكل.

كلّ ذلك يبرز الأهميّة الخاصّة التى يوليها الإسلام لنظام العائلة و رعاية حقوق المرأة و الأبناء. فهو يسعى لمنع وقوع الطلاق قدر الإمكان، و يحاول استئصال جذور هذا العمل البغيض، و لكن إذا وصلت هذه الجهود إلى طريق مسدود و أصبح الطلاق و الانفصال هو العلاج الوحيد، عندها يحذّر من ضياع حقوق الأطفال و يرفض أن تذهب هذه الحقوق ضحيّة هذا النزاع، حتّى أنّه شرع حكم الطلاق بطريقة يمكن فى ضوئها الرجوع عنه غالبا.

إنّ أوامر الإمساك بمعروف و الطلاق بمعروف، و كذلك عدم الإضرار و التضييق على النساء و التشدّد فى أمرهنّ، و التشاور الحسن فى شؤون الأطفال، و ما إلى ذلك كلّها شواهد على ذلك.

غير أنّ عدم اطّلاع المسلمين على هذه الأحكام و جهلهم بها، أو إعراضهم عن الالتزام بها رغم علمهم، أدّى إلى نشوء مشاكل عائلية عديدة حين الطلاق، و خاصّة فى شأن الأطفال. و ذلك نتيجة ابتعاد المسلمين عن مصدر الفيض الإلهى الذى هو القرآن. فمثلا فى الوقت الذى يدعو القرآن إلى عدم خروج النساء من بيت الزوج فى أيّام العدّة، و لا يحقّ للزوج إكراهها على الخروج أثناء تلك الفترة المحدّدة مما يؤدّى هذا الحكم إلى العدول عن الطلاق و رجوع النساء إلى الحياة الزوجية، نرى قلّة من النساء و الرجال يلتزمون بذلك بعد وقوع الطلاق، و هذا ما يدعو إلى الأسف حقّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة الطلاق (۶۵): الآيات ۸ الى ۱۱]

اشارة

وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً (۸) فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً (۹) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً (۱۰) رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً (۱۱)

التّفسير

العاقبة المؤلمة للعاصين:

فى كثير من الموارد يأتى القرآن على ذكر الأمم السابقة بعد إيراد سلسلة من الأحكام و التكاليف، لكى يرى المسلمون بأعينهم عاقبة كلّ من (الطاعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۵

و العصيان) فى تجارب الماضى و تأخذ القضيّة طابعا حسيّا.

و لم يخرج القرآن الكريم فى هذه السورة عن هذا النهج، فبعد ذكر وظائف كلّ من الرجال و النساء عند الطلاق، يحذّر العاصين و المتمرّدين من العواقب الوخيمة التى تنتظرهم بقوله فى البداية: وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّها وَ رُسُلِهِ فَحاسَبْناها حِساباً شَدِيداً وَ عَذَّبْناها عَذاباً نُكْراً[۴۳۰].

و المقصود ب «القرية» هو محل اجتماع الناس، و هو أعمّ من المدينة و القرية، و المراد هو أهلها.

«عتت» من مادّة «عتو» على وزن «غلو» بمعنى التمرّد على الطاعة.

و «نكر» على وزن «شكر» و يعنى العمل الصعب الذى لم يسبق له مثيل.

«حسابا شديدا» أى الحساب الدقيق المقرون بالشدّة و الصرامة، و يعنى العقاب الشديد الذى هو نتيجة الحساب الدقيق. و هو على كلّ حال إشارة إلى عاقبة الأقوام السابقة المتمرّدة العاصية فى هذه الدنيا، التى هلكت بعضها بالطوفان، و بعضها بالزلازل، و آخرون بالصواعق و العواصف، و أمثالهم حلّ بهم الفناء و بقت ديارهم و آثارهم عبرة للأجيال بعدهم.

لذلك يضيف تعالى فى الآية اللاحقة: فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها وَ كانَ عاقِبَةُ أَمْرِها خُسْراً.

و أى خسارة أفدح من خسران رأس المال الذى وهبه اللّه، و الخروج من هذه الدنيا- ليس فقط بعدم شراء المتاع- و إنّما بالانتهاء إلى العذاب الإلهى و الدمار.

و يرى البعض أنّ «حسابا شديدا» و «عذابا نكرا» يشيران إلى «يوم القيامة»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۶

و اعتبروا الفعل الماضى من باب الماضى المراد به المستقبل، و لكن لا داعى لهذا التكلّف، خاصّة أنّ السورة تحدّثت عن يوم القيامة فى الآيات اللاحقة، فذلك يدلّ على أنّ المراد بالعذاب هنا هو عذاب الدنيا.

ثمّ يشير تعالى إلى عقابهم الاخروى بقوله: أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذاباً شَدِيداً عذابا مؤلما، مخيفا، مذلا، فاضحا، دائما أعدّه لهم منذ الآن فى

نار جهنّم.

و الآن فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا.

إنّ الفكر و التفكّر من جهة، و الإيمان و الآيات الإلهية من جهة اخرى، تحذّركم و تدعوكم لملاحظة مصائر الأقوام السابقة المتمرّدة التى عصت أمر ربّها، و الإعتبار بذلك و الحذر من أن تكونوا مثلهم، فقد ينزل عليكم اللّه غضبه و عذابه الذى لم يسبق له مثيل إضافة إلى عذاب الآخرة.

و بعد ذلك يخاطب اللّه تعالى المؤمنين الذين يتفكّرون فى آيات اللّه بقوله:

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً و هو الشىء الذى يوجب تذكركم.

و أرسل لكم رسولا- يتلو عليكم آيات اللّه الواضحة رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ.

علما أنّ هناك خلافا بين المفسّرين فى معنى كلمة «ذكر» و لكلمة «رسولا» اعتبر بعضهم أنّ «الذكر» يعنى القرآن، بينما فسّرها البعض الآخر بأنّها تعنى (رسول اللّه) لأنّ الرّسول هو سبب تذكّر الناس، و طبقا لهذا التّفسير فإنّ كلمة «رسولا» التى تأتى بعدها تعنى شخص الرّسول، و ليس فى البين كلام محذوف.

و لكن يصبح معنى «الإنزال» هنا هو وجود الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الامّة و بعثه فيها من قبل اللّه تعالى.

و لكن إذا أخذنا «الذكر» بمعنى «القرآن» فإنّ كلمة «رسولا» لا يمكن أن تكون بدلا، و فى الجملة محذوف تقديره «أنزل اللّه إليكم ذكرا و أرسل إليكم رسولا».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۷

قال البعض: أنّ «الرّسول» يقصد به «جبرائيل» و بهذا يكون النزول نزولا حقيقيّا، نزل من السماء، غير أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع عبارة يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ لأنّ جبرائيل لم يقرأ الآيات القرآنية بصورة مباشرة على المسلمين.

و بصورة عامّة، فإنّ كلّ أى من هذه الآراء يحتوى على نقاط قوّة و نقاط ضعف، و يبقى التّفسير أو الرأى الأوّل أفضل الآراء أى أنّ «الذكر» يقصد به «القرآن» و «رسولا» يقصد به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و ذلك لأنّ القرآن الكريم أطلق على نفسه «الذكر» فى آيات كثيرة، خصوصا أنّها كانت مقرونة بكلمة «إنزال» إلى الحدّ الذى أصبح كلّما جاءت عبارة «إنزال الذكر» تداعى إلى الأذهان القرآن الكريم.

ثمّ نقرأ فى الآية (۴۴) من سورة النحل وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ

و جاء فى الآية (۶) من سورة «الحجر» وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

و إذا جاء فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السّلام أنّ المقصود من «الذكر» هو رسول اللّه و «أهل الذكر» هم «الأئمّة»، فقد يكون المقصود هو المعنى الباطنى للآية، لأنّنا نعلم أنّ «أهل الذكر» فى آية فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ النحل (۴۳) ليس خصوص أهل البيت عليهم السّلام، بل إنّ شأن نزولها هو علماء أهل الكتاب، و لكن نظرا لاتّساع معنى الذكر فإنّه يشمل رسول اللّه كأحد مصاديقه.

على أى حال فإنّ الهدف النهائى من إرسال الرّسول و إنزال هذا الكتاب السماوى، هو لإخراج الناس من الظلمات و الكفر و الجهل و ارتكاب الذنوب و المآثم و المفاسد الأخلاقية، إلى نور الإيمان و التوحيد و التقوى.

و الواقع أنّ تمام أهداف بعثة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نزول القرآن يمكن تلخيصها بهذه الجملة، و هى الخروج من الظلمات إلى النور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۸

و تجدر الإشارة إلى أنّ «الظلمات» ذكرت بصيغة الجمع بينما ذكر النور بصيغة المفرد، لأنّ الكفر و الشرك و الفساد تؤدّى إلى الفرقة و الاختلاف، بينما يؤدّى الإيمان و التوحيد و التقوى إلى الوحدة و التلاحم.

و فى ختام الآية يشير إلى أجر العاملين المخلصين بقوله: وَ مَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَ يَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً.

و أشار بالفعل المضارع «يؤمن» و «يعمل» إلى أنّ إيمانهم و عملهم الصالح ليسا محدودين بحدود الزمان و المكان، و إنّما لهما استمرار و ديمومة[۴۳۱].

و التعبير ب (خالدين) دليل على كون الجنّة خالدة، و بذلك تكون كلمة «أبدا» التى جاءت بعدها تأكيد لهذا الخلود.

و التعبير ب «رزقا» بصيغة نكرة إشارة إلى عظمة و أهميّة الأرزاق الطيّبة التى يهيّؤها اللّه لهذه الجماعة، و قد يتّسع معناها ليشمل كلّ النعم الإلهية فى الدنيا و الآخرة، لأنّ الصالحين و المتّقين لهم حياتهم الكريمة حتّى فى الحياة الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۲۹

الآية [سورة الطلاق (۶۵): آية ۱۲]

اشارة

اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً (۱۲)

التّفسير

الهدف من خلق العالم:

هذه الآية هى آخر آية من سورة الطلاق، و فيها إشارة معبّرة و صريحة إلى عظمة و قدرة البارئ جلّ شأنه فى خلق السموات و الأرض و بيان الهدف النهائى للخلق، ثمّ تكمل الآية الأبحاث التى وردت فى الآيات السابقة حول الثواب العظيم الذى أعدّه اللّه للمؤمنين المتّقين، و العهود التى قطعها على نفسه لهم فيما يخصّ حلّ مشاكلهم المعقّدة. إذ من الطبيعى أنّ الذى أوجد هذا الخلق العظيم له القدرة على الوفاء بالعهود سواء فى هذا العالم أو العالم الآخر.

يقول تعالى أوّلا: اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ

وَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَ

بمعنى أنّ الأرضين سبع كما السماوات سبع، و هذه هى الآية الوحيدة التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۰

تشير إلى الأرضين السبع فى القرآن الكريم.

و الآن لنر ما هو المقصود من السموات السبع و الأرضين السبع؟

مرّت أبحاث مطوّلة فى هذا المجال فى ذيل الآية (۲۹) من سورة البقرة، و فى ذيل الآية (۱۲) من سورة فصّلت، لذا نكتفى هنا بإشارة مقتضبة و هى:

إنّه من الممكن أن يكون المراد من عدد (۷) هو الكثرة، فكثيرا ما ورد هذا التعبير للإشارة إلى الكثرة فى القرآن الكريم و غيره، فنقول

أحيانا للمبالغة لو أتيت بسبعة أبحر لما كفت.

و بناء على هذا فسيكون المقصود بالسموات السبع و الأرضين السبع هو الإشارة إلى العدد العظيم و الهائل للكواكب السماوية و الكواكب التى تشبه الأرض.

أمّا إذا اعتبرنا العدد سبعة هو لعدد السموات و عدد الأرضين، فإنّ مفهوم هذه الآية مع الالتفات إلى الآية (۶) من سورة الصافات التى تقول: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ سيكون شيئا آخر، و هو أنّ علم البشر و معرفته مهما اتّسعت فهى محدودة و متعلّقة بالسماء الاولى التى توجد وراءها ثوابت و سيّارات ستة هى عبارة عن العوالم الاخرى التى لا تتسع لها معرفتنا المحدودة و لا ينالها إدراكنا الضيّق.

أمّا الأرضين السبع و ما حولها، فربّما تكون إشارة إلى طبقات الأرض المختلفة، لأنّ الأرض تتكوّن من طبقات مختلفة كما ثبت اليوم علميّا. أو لعلّها تكون إشارة إلى المناطق السبع التى تقسّم بها الأرض فى السابق و حاليا. علما أنّ هناك اختلافا بين التقسيم السابق و التقسيم الحالى، فالتقسيم الحالى يقسّم الأرض إلى منطقتين: منطقة المنجمد الشمالى، و المنجمد الجنوبى. و منطقتين معتدلتين، و أخريين حارتين، و منقطة استوائية. أمّا سابقا فكان هناك تقسيم آخر لهذه المناطق السبع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۱

و يمكن أن يكون المراد هنا من العدد «سبعة» المستفاد من تعبير (مثلهنّ) هو الكثرة أيضا التى أشير بها إلى الكرات الأرضية العديدة الموجودة فى العصر الراهن، حتّى قال بعض علماء الفلك: إنّ عدد الكرات المشابهة للأرض التى تدور حول الشموس يبلغ ثلاثة ملايين كرة كحدّ أدنى ۴۳۲].

و نظرا لقلّة معلوماتنا حول ما وراء المنظومة الشمسية، فإنّ تحديد عدد معيّن حول هذا الموضوع يبقى أمرا صعبا. و لكن على أى حال فقد أكّد علماء الفلك الآخرون أنّ هناك ملايين الملايين من الكواكب التى وضعت فى ظروف تشبه ظروف الكرة الأرضية، ضمن مجرّة المجموعة الشمسية، و هى تمثّل مراكز للحياة و العيش.

و ربّما ستكشف التطورات العلمية القادمة معلومات أوسع و أسرار اخرى حول تفسير مثل هذه الآيات.

ثمّ يشير تعالى إلى إدارة هذا العالم الكبير و تدبيره بقوله جلّ شأنه يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَ

و واضح أنّ المراد من «الأمر» هنا هو الأمر التكوينى للّه تعالى فى خصوص إدارة و تدبير هذا العالم الكبير، فهو الهادى و هو المرشد و هو المبدع لهذا المسار الدقيق المنظّم، و الحقيقة أنّ هذه الآية تشبه الآية (۴) من سورة السجدة حيث تقول: يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ

على أى حال فإنّ هذا العالم سيفنى و يتلاشى إذا ما رفعت عنه يد التدبير و الهداية الإلهية لحظة واحدة.

و أخيرا يشير تعالى إلى الهدف من وراء هذا الخلق العظيم حيث يقول:

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۲

كم هو تعبير لطيف، إذ يعتبر الهدف من هذا الخلق العظيم هو تعريف الإنسان بصفات اللّه فى علمه و قدرته، و هما صفتان كافيتان لتربية الإنسان.

و من ثمّ يجب أن يعلم الإنسان أنّ اللّه محيط بكلّ أسرار وجوده، عالم بكلّ أعماله ما ظهر منها و ما بطن. ثمّ يجب أن يعلم الإنسان أنّ وعد اللّه فى البعث و المعاد و الثواب و العقاب و حتمية انتصار المؤمنين، كلّ ذلك غير قابل للتخلّف و التأخّر.

نعم، إنّ هذا الخالق العظيم الذى له هذه «القدرة و العلم» و الذى يدير هذا العالم بأجمعه، لا بدّ أنّ أحكامه على صعيد تنظيم علاقات

البشر و قضایا الطلاق و حقوق النساء ستکون بمنتهی الدقّة و الإتقان.

أوردنا بحثا مفصّلا حول موضوع «الخلقة» فی ذیل الآیة (۵۶) من سورة الذاریات.

الجدیر بالذکر أنّ هناک إشارات وردت فی آیات عدیدة من القرآن الکریم تبیّن الهدف من خلق الإنسان أو الکون، و قد تبدو مختلفة، و لکن بالنظرة الدقیقة نلاحظ أنّها ترجع إلی حقیقة واحدة.

۱- فی الآیة (۵۶) من سورة الذاریات یعتبر «العبادة» هی الهدف من خلق الجنّ و الإنس وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِیَعْبُدُونِ

۲- و فی الآیة (۷) من سورة هود یضع امتحان الإنسان و تمحیصه کهدف لخلق السموات و الأرض: هُوَ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ وَ کانَ عَرْشُهُ عَلَی الْماءِ لِیَبْلُوَکُمْ أَیُّکُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

۳- فی الآیة (۱۱۹) من سورة هود یقول: إنّ الرحمة الإلهیة هی الهدف «و لذلک خلقهم».

۴- و فی الآیة مورد البحث اعتبر العلم و المعرفة بصفات اللّه هی الهدف «... لتعلموا ...».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۳

إنّ تدقیقا بسیطا فی هذه الآیات یرینا أنّ بعضها مقدّمة للبعض الآخر، فالعلم و المعرفة مقدّمة للعبودیة، و العبادة هی الاخری مقدّمة للامتحان و تکامل الإنسان، و هذا مقدّمة للاستفادة من رحمة اللّه «فتأمّل!» ربّنا قد عرفتنا بهدف خلقک العظیم فأعنا علی الوصول إلی ذلک الهدف.

اللهمّ، إنّ رحمتک واسعة و کرمک دائم و قدرتک نافذة، فأفض علینا من رحمتک.

اللهمّ، إنّک أنزلت القرآن و الرّسول لتخرج الناس من الظلمات إلی النور فأخرجنا من ظلمات الذنوب و أهواء النفوس و أنر قلوبنا بنور الإیمان و التقوی.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الطلاق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۵

سورة التّحریم

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها اثنتا عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۴۳۷

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۷

«سورة التّحریم»

محتوی السورة:

تتکوّن هذه السورة من أربعة أقسام رئیسیّة:

القسم الأوّل: یرتبط بقصّة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم مع بعض أزواجه حینما حرم بعض أنواع الطعام علی نفسه، فنزلت الآیات من ۱- ۵ و فیها لوم لزوجات الرّسول لأسباب سنذکرها فی سبب النزول.

القسم الثّانی: خطاب لکلّ المؤمنین فی شؤون التربیة و رعایة العائلة و لزوم التوبة من الذنوب، و هو من الآیة ۶- ۸.

القسم الثّالث: و هو الآیة التاسعة التی تتضمّن خطابا إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بضرورة مجاهدة الکفّار و المنافقین.

القسم الرّابع: و هو القسم الأخیر للسورة، من الآیـة ۱۰- ۱۲ و یتضـمّن توضـیحا للأقسام السابقة بذکر نموذجین صالحین للنساء، و هما (مریم العـذراء، و زوجـة فرعـون) و نمـوذجین غیر صـالحین (زوجـة نـوح، و زوجـة لوط) و یحـذّر نسـاء النـبی من هـذین النموذجین الأخیرین و یدعوهنّ إلی الاقتداء بالنموذجین الأوّلین.

فضیلة تلاوة سورة التحریم:

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة یا أیّها النّبی لم تحرّم ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۸

أحل اللّه لک أعطاه اللّه توبة نصوحا»[۴۳۳].

و

فی حـدیث عن الإمـام الصـادق قـال: «من قرأ سورة الطلاـق و التحریم فی فریضـة أعـاذه اللّه من أن یکون یوم القیامـة ممّن یخاف أو یحزن و عوفی من النار و أدخله اللّه الجنّة بتلاوته إیّاهما و محافظته علیهما لأنّهما للنبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم»[۴۳۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۳۹

الآیات [سورة التحریم (۶۶): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

یـا أَیُّهَا النَّبِیُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَکَ تَبْتَغِی مَرْضاتَ أَزْواجِکَ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ (۱) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَکُمْ تَحِلَّةَ أَیْمانِکُمْ وَ اللَّهُ مَوْلاکُمْ وَ هُوَ الْعَلِیمُ الْحَکِیمُ (۲) وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِیُّ إِلی بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِیثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَیْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهـا بِهِ قـالَتْ مَنْ أَنْبَأَکَ هـذا قالَ نَبَّأَنِیَ الْعَلِیمُ الْخَبِیرُ (۳) إِنْ تَتُوبـا إِلَی اللَّهِ فَقَـدْ صَغَتْ قُلُوبُکُمـا وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَیْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمَلائِکَةُ بَعْدَ ذلِکَ ظَهِیرٌ (۴)

عَسی رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَیْراً مِنْکُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً (۵)

اسباب النّزول

وردت روایات عدیدة فی أسباب نزول هذه السورة فی کتب الحدیث

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۰

و التّفسیر و التاریخ، عن الشیعة و السنّة، انتخبنا أشهر تلک الروایات و أنسبها و هی:

کان رسول اللّه یذهب أحیانا إلی زوجته (زینب بنت جحش) فتبقیه فی بیتها حتّی «تأتی إلیه بعسل کانت قد هیّأته له صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و لکن لمّا سـمعت عائشـة بـذلک شقّ علیها الأمر، و لذا قالت: إنّها قد اتّفقت مع «حفصة» إحدی (أزواج الرّسول) علی أن یسألاـ الرّسول بمجرّد أن یقترب من أیّ منهمـا بأنّه هل تناول صـمغ «المغافیر» (و هو نوع من الصـمغ یترشّـح من بعض أشـجار الحجاز یسـمّی «عرفـط» و یترک رائحـة غیر طیّبـة، علما أنّ الرّسول کان یصـرّ علی أن تکون رائحته طیّبـة دائما) و فعلا سألت حفصـة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم هذا السؤال یوما وردّ الرّسول بأنّه لم یتناول صـمغ «المغافیر» و لکنّه تناول عسـلا عند زینب بنت جحش، و

لهـذا أقسم بأنّه سوف لن يتناول ذلك العسل مرّة اخرى، خوفا من أن تكون زنابير العسل هـذا قد تغذّت على شـجر صـمغ «المغافير» و حذّرها أن تنقل ذلك إلى أحد لكى لا يشـيع بين الناس أنّ الرّسول قد حرّم على نفسه طعاما حلالا فيقتدون بالرّسول و يحرّمونه أو ما يشبهه على أنفسهم، أو خوفا من أن تسمع زينب و ينكسر قلبها و تتألّم لذلك.

لكنّهـا أفشت السـرّ فتبيّن أخيرا أنّ القصّـة كانت مدروسـة و معـدّة فتألّم الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لـذلك كثيرا فنزلت عليه الآيات السابقة لتوضّح الأمر و تنهى من أن يتكرّر ذلك مرّة اخرى فى بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ۴۳۵].

و جاء فى بعض الروايات أنّ الرّسول ابتعـد عن زوجاته لمـدّة شـهر بعد هذا الحادث ۴۳۶]، انتشـرت على أثرها شائعة أنّ الرّسول عازم على طلاق زوجاته، الأمر الذى أدّى إلى كثرة المخاوف بينهنّ ۴۳۷] و ندمن بعدها على فعلتهن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۱

التّفسير

التوبيخ الشديد لبعض زوجات الرّسول:

ممّا لا شكّ فيه أنّ رجلا عظيما كالرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لا يمكن أن يهمّه أمره وحـده دون غيره، بل أمره يهمّ المجتمع الإسـلامى و البشـرية جمعاء، و لهذا يكون التعامل مع أيّة دسيسة حتّى لو كانت بسيطة تعاملا حازما و قاطعا لا يسمح بتكرّرها، لكى لا تتعرّض حيثيـة الرّسول و اعتباره إلى أى نوع من التصـدّع و الخـدش و الآيات محلّ البحث تعتبر تحذيرا من ارتكاب مثل هذه الأعمال حفاظا على اعتبار الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

البداية كانت خطابا إلى الرّسول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاتَ أَزْواجِكَ

و من الواضـح أنّ هـذا التحريم ليس تحريمـا شـرعيّا، بـل هو- كمـا يسـتفاد من الآيـات اللاحقـة- قسم من قبـل الرّسول الكريم، و من المعروف أنّ القسم على ترك بعض المباحات ليس ذنبا.

و بناء على هذا فإنّ جملة لِمَ تُحَرِّمُ لم تأت كتوبيخ و عتاب، و إنّما هى نوع من الإشفاق و العطف.

تماما كما نقول لمن يجهد نفسه كثيرا لتحصيل فائدة معيّنة من أجل العيش ثمّ لا يحصل عليها، نقول له: لماذا تتعب نفسك و تجهدها إلى هذا الحدّ دون أن تحصل على نتيجة توازى ذلك التعب؟

ثمّ يضيف فى آخر الآية: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ...

و هـذا العفو و الرحمة إنّما هو لمن تاب من زوجات الرّسول اللاتى رتّبن ذلك العمل و أعددناه. أو أنّها إشارة إلى أنّ الرّسول ما كان ينبغى له أن يقسم مثل هذا القسم الذى سيؤدّى- احتمالا- إلى- جرأة و تجاسر بعض زوجاته عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يضيف فى الآية اللاحقة أنّ اللّه قد أوضح طريق التخلّص من مثل هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۲

القسم: قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ ۴۳۸] أى أعط كفّارة القسم و تحرّر منه.

و يـذكر أنّ الترك إذا كـان راجحـا على العمل فيجب الالتزام بالقسم و الحنث فيه ذنب تترتّب كفّارة عليه، أمّا فى الموارد التى يكون فيهـا الترك شـيئا مرجوحـا مثل «الآيـة مورد البحث» فإنّه يجوز الحنث فى القسم، و لكن من الأفضل دفع كفّارة من أجل الحفاظ على حرمة القسم و احترامه ۴۳۹].

ثمّ يضيف: وَ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

فقد أنجاكم من مثل هذه الأقسام و وضع لكم طريق التخلّص منها طبقا لعلمه و حكمته.

و يستفاد من بعض الروايات أنّ النبى أعتق رقبة بعد هذا القسم و حلّل ما كان قد حرّمه بالقسم.

و فى الآية اللاحقة يتعرّض لهذا الحادث بشكل أوسع: وَ إِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلى بَعْضِ أَزْواجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ

ما هذا السرّ الذى أسرّه النبى لبعض زوجاته ثمّ لم يحفظنه؟

طبقا لما أوردناه فى أسباب النزول فإنّ هذا السرّ يتكوّن من أمرين:

الأوّل: تناول العسل عند زوجته (زينب بنت جحش).

و الثانى: تحريم العسل على نفسه فى المستقبل.

أمّا الزوجة التى أذاعت السرّ و لم تحافظ عليه فهى «حفصة» حيث أنّها نقلت ذلك الحديث الذى سمعت به إلى عائشة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۳

أمّا الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقد اطّلع على إفشاء هذا السرّ عن طريق الوحى، و ذكر بعضه «لحفصة» و من أجل عدم إحراجها كثيرا لم يذكر لها القسم الثانى (و لعلّ القسم الأوّل يتعلّق بأصل شرب العسل، و الثانى هو تحريم العسل على نفسه).

و على كلّ فإنّه: فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هذا قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

و يتّضح من مجموع هذه الآيات أنّ بعض زوجات الرّسول لم يكتفين بإيذاء النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكلامهنّ، بل لا يحفظن سرّه، و حفظ السرّ من أهمّ صفات الزوجة الصالحة الوفيّة لزوجها، و كان تعامل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم معهنّ على العكس من ذلك تماما إلى الحدّ الذى لم يذكر لها السرّ الذى أفشته كاملا لكى لا يحرجها أكثر، و اكتفى بالإشارة إلى جزء منه.

و لهذا

جاء فى الحديث عن الإمام على عليه السّلام: «ما استقصى كريم قطّ، لأنّ اللّه يقول: عَرَّفَ بَعْضَهُ وَ أَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ۴۴۰].

ثمّ يتحدّث القرآن مع زوجتى الرّسول اللتين كانتا وراء هذا الحادث بقوله:

إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما.

و قد اتّفق المفسّرون الشيعة و السنّة على أنّ تلك الزوجتين هما «حفصة بنت عمر» و «عائشة بنت أبى بكر».

«صغت» من مادّة «صغو» على وزن «عفو» بمعنى الميل إلى شىء ما، لذلك يقال «صغت النجوم» «أى مالت النجوم إلى الغروب» و لهذا جاء اصطلاح «إصغاء» بمعنى الاستماع إلى حديث شخص آخر. و المقصود من «صغت قلوبكما» أى مالت من الحقّ إلى الباطل و ارتكاب الذنب ۴۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۴

ثمّ يضيف تعالى: وَ إِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذلِكَ ظَهِيرٌ.

و يتّضح من هذا كم تركت هذه الحادثة من أثر مؤلم فى قلب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و روحه العظيمة، و رغم قدرة الرّسول المتكاملة نشاهد أنّ اللّه يدافع عنه إذ يعلن حماية جبرائيل و المؤمنين له.

و من الجدير بالذكر أنّه ورد فى صحيح البخارى (ما مضمونه) عن ابن عبّاس أنّه قال: سألت عمر: من كانت المرأتان اللتان تظاهرتا على النبى من أزواجه، فقال: تلك حفصة و عائشة، قال: فقلت و اللّه إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا قال:

فلا تفعل ما ظننت أنّ عندى من علم فاسألنى فإن كان لى علم خبّرتك به، قال ثمّ قال عمر: و اللّه إن كنّ فى الجاهلية ما تعدّ للنساء أمرا حتّى أنزل اللّه فيهنّ ما أنزل و قسم لهنّ ما قسم ..»[۴۴۲].

و

فی تفسیر الدرّ المنثور، ورد أیضا عن ابن عبّاس ضمن حدیث مفصّل أنّه قال: قال عمر: «.. علمت بعد هذه الحادثة أنّ النبی اعتزل جمیع النساء، و أقام فی «مشربة أمّ إبراهیم»، فأتیته و قلت: یا رسول اللّه هل طلّقت نساءک؟ قال: لا. قلت:

اللّه أکبر، کنّا معشر قریش نغلب النساء، فلما قدمنا المدینة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا یتعلمن من نسائهم، فغضبت علی امرأتی یوما فإذا هی تراجعنی فأنکرت أن تراجعنی فقالت ما تنکر من ذلک فو اللّه إنّ أزواج النبی لیراجعنه و تهجره إحداهنّ الیوم إلی اللیل .. فقلت لابنتی حفصة لا تفعلی ذلک أبدا و إن فعلته جارتک (یعنی عائشة) لأنّک لست هی ..»[۴۴۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۵

فی آخر آیة من هذه الآیات یخاطب اللّه تعالی جمیع نساء النبی بلهجة لا تخلو من التهدید: عَسی رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَکُنَّ أَنْ یُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَیْراً مِنْکُنَّ مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَیِّباتٍ وَ أَبْکاراً.

لذا فهو ینذرهنّ ألّا یتصورن أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم سوف لن یطلّقهن، أو یتصوّرن أنّ النبی لا یستبدلهنّ بنساء أخریات أفضل منهنّ، و ذلک لیکففن عن التآمر علیه و إلّا فسیحرمن من شرف منزلة «زوجة الرّسول» إلی الأبد، و ستأخذ نساء أخریات أفضل منهنّ هذا اللقب الکریم.

بحوث

۱- صفات الزوجة الصالحة:

یضع القرآن الکریم عدّة صفات للمرأة الصالحة التی یمکنها أن تکون نموذجا یقتدی به فی انتخاب الزوجة اللائقة.

الأوّل «الإسلام» ثمّ «الإیمان» أی الإعتقاد الذی ینفذ و یترسّخ فی أعماق قلب الإنسان. ثمّ حالة «القنوت» أی التواضع و طاعة الزوج. بعد ذلک «التوبة» و یقصد أنّ الزوجة إذا ما ارتکبت ذنبا بحقّ زوجها فإنّها سرعان ما تتوب و تعتذر عن ذلک. و تأتی بعد ذلک «العبادة» التی جعلها اللّه سبحانه لیطهّر بها قلب الإنسان و روحه و یصنعها من جدید، ثمّ «إطاعة أوامر اللّه» و الورع عن محارمه.

و ممّا یذکر أنّ جماعة من المفسّرین- بل أکثرهم- اعتبروا کلمة «سائح» بمعنی «صائم» و لکن طبقا لما أورده «الراغب» فی «المفردات» فإنّ الصوم علی قسمین: «صوم حکمی»: و هو الامتناع عن تناول الطعام و الماء، و «صوم حقیقی»:

و هو امتناع أعضاء الإنسان عن ارتکاب المعاصی.

و المقصود بالصوم هنا هو المعنی الثانی، «إذ أنّ مناسبات الحال و المقام تقوّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۶

قول الراغب و تجعله مناسبا، غیر أنّه یجب أن یعلم أنّ السائح فسّر أیضا بمعنی السائر فی طریق طاعة اللّه»[۴۴۴].

و من الجدیر بالذکر أنّ القرآن لم یعط أهمیّة تذکر للباکر و غیر الباکر، فإنّه عند ما ذکر الصفات المعنویة للزوجة الصالحة ذکر هذه المسألة بصورة عابرة و دون أی ترکیز.

۲- من هم (صالح المؤمنین)؟

ممّا لا شکّ فیه أنّ صالح المؤمنین، لها معان واسعة تشمل جمیع المؤمنین الصالحین الأتقیاء الذین کمل إیمانهم، و رغم أنّ کلمة (صالح) وردت هنا بصیغة المفرد، و لکن یمکن أن یستفاد منها العموم لأنّها تتضمّن معنی الجنس ۴۴۵].

و لکن ما هو المصداق الأکمل و الأتمّ لهذا المصطلح؟

یستفاد من روایات عدیدة أنّ المقصود هو الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السّلام.

فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام یقول: «لقد عرّف رسول اللّه علیا أصحابه مرّتین: أمّا مرّة فحیث قال: «من کنت مولاه فعلی مولاه» و أمّا الثانیة فحیث نزلت هذه الآیة: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِیلُ وَ صالِحُ الْمُؤْمِنِینَ ... أخذ رسول اللّه بید علی فقال: أیّها الناس، هذا صالح المؤمنین!!؟»

و قد نقل هذا المعنی فی کتب عدیدة لعلماء أهل السنّة منهم العلّامة «الثعلبی» و «الکنجی» فی «کفایة الطالب» و «أبو حیّان الأندلسی» و «السبط ابن الجوزی»

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۷

و غیرهم ۴۴۶].

و قد أورد جمع من المفسّرین منهم «السیوطی» فی «الدرّ المنثور» فی ذیل الآیة مورد البحث و «القرطبی» فی تفسیره المعروف، و کذلک «الآلوسی» فی «روح المعانی» فی تفسیر هذه الآیة أوردوا هذه الروایة.

و بعد أن نقل مؤلّف (روح البیان) هذه الروایة عن (مجاهد) قال: و یؤیّد هذه الروایة الحدیث المعروف: «حدیث المنزلة» الذی وصف فیه الرّسول مکانة علی علیه السّلام منه بقوله لعلی «أنت منّی بمنزلة هارون من موسی» نظرا لأنّ عنوان الصالحین استعمل فی القرآن الکریم للإشارة إلی الأنبیاء. منها وَ کُلًّا جَعَلْنا صالِحِینَ (سورة الأنبیاء الآیة ۷۲) و أَلْحِقْنِی بِالصَّالِحِینَ ۴۴۷]. (حیث أطلق فی الاولی علی مجموع الأنبیاء و فی الثانیة علی یوسف).

و لکون علی بمنزلة هارون فإنّه سیکون کذلک مصداقا ل (الصالح) (فتأمّل)! خلاصة القول: أنّ هناک عددا کثیرا من الأحادیث وردت فی هذا المجال، فبعد أن نقل المفسّر المعروف (المحدّث البحرانی) فی تفسیر البرهان روایة فی هذا المجال عن محمد بن عبّاس ۴۴۸] أنّه جمع ۵۲ حدیثا تتناول هذا الموضوع من طریق الشیعة و السنّة ثم قام هو بنقل بعضها[۴۴۹].

۳- عدم رضا الرّسول عن بعض زوجاته

هناک علی طول التاریخ عظماء کثیرون لم یحظوا بزوجات تناسب شأنهم و اهتماماتهم، و نتیجة لعدم توفّر الشروط اللازمة بزوجاتهم، فقد ظلّوا یعانون من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۸

ذلک کثیرا، و قد ذکر لنا القرآن الکریم نماذج من هذه المعاناة وقعت للأنبیاء العظام.

و ربّما توضّح الآیات السابقة أنّ معاناة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من بعض أزواجه کانت من هذا القبیل، فنظرا لوجود الغیرة و التسابق فیما بینهنّ کنّ یسبّبن متاعب للنبی الکریم. فقد کنّ أحیانا یعترضن علیه أو یفشین سرّه، الأمر الذی جعل القرآن الکریم یوجّه لهنّ خطابا مباشرا بالتوبیخ و أصدر أقوی البیانات فی هذا المجال، حتّی أنّه هدّدهنّ بالطلاق. و قد لا حظنا الرّسول قد غضب علی زوجاته و أظهر عدم رضاه لمدّة شهر تقریبا بعد نزول هذه الآیات أملا فی إصلاحهنّ.

و یمکن أن نلاحظ بشکل واضح- من خلال حیاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم- أنّ بعض زوجاته لم یدرکن مقام النبوّة فحسب، بل قد یتعاملن معه کإنسان عادی، و أحیانا یتعرضنّ له بالإهانة.

و بناء علی هذا فإنّه لا معنی للإصرار علی أنّ جمیع زوجات الرّسول کنّ علی قدر عال من الکمال و اللیاقة، خصوصا مع الأخذ بالاعتبار صراحة الآیات السابقة.

و لم يكن هـذا المعنى مقتصـرا على حيـاة الرّسول فقـط، فبعـد و فـاته نقل لنا التاريـخ أمثلـة مشابهـة، خاصّـة فى قصّـة حرب الجمل و الموقف من خليفة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما جرى من امور ليس هنا مجال الخوض فيها.

و من الواضح أنّ الآيات السابقة تقول بشـكل صريح: إنّ اللّه سيعطى النبى زوجات صالحات تتوفّر فيهنّ الصفات المذكورة فى الآيات إذا طلّقكن و سرحكن، و هذا يكشف عن أنّ هناك من زوجات الرّسول ممّن لا تتوفّر فيهنّ تلك الصفات و الشروط.

و يؤيّد ذلك ما جاء فى سورة الأحزاب حول زوجات الرّسول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۴۹

۴- إفشاء السرّ

إنّ حفظ السـرّ و المحافظة عليه و عدم إفشائه، ليس فقط من صفات المؤمنين، بل هى صفة ينبغى توفّرها بكلّ إنسان ذى شخصية قويّة محترمة، و تتجلّى أهميّة هذه الصفة أكثر مع الأصدقاء و الأقرباء و بالأخصّ بين الزوج و الزوجة. و قد لا حظنا فى الآيات السابقة كيف أنّ القرآن لام أزواج النبى بشدّة و وبّخهنّ على إفشائهنّ للسرّ و عدم محافظتهنّ عليه.

ورد عـن أمير المـؤمنين قـوله: «جمـع خير الـدنيا و الآـخرة فى كتمـان السـرّ و مصادقـة الأخيـار، و جمـع الشـرّ فى الإذاعـة و مؤاخـاة الأشرار»[۴۵۰].

۵- لا تحرّموا على أنفسكم ما أحلّه اللّه لكم

من المؤكّد أنّ اللّه لم يحلّل أو يحرّم شيئا إلّا طبقا لحسابات و مصالح دقيقة، و بناء على هذا فلا مجال لأن يقوم الإنسان بتحليل الحرام أو تحريم الحلال حتّى مع القسم، فإنّ الحنث جائز فى مثل هذه الموارد.

نعم، إذا كان مورد القسم من المباحات التى يكره عملها أو الأولى تركها، يجب الالتزام بالقسم حينئذ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۰

الآيات [سورة التحريم (۶۶): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ (۶) يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۷) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۸)

التّفسير

قوا أنفسكم و أهليكم النار:

تخاطب الآيات السابقة جميع المؤمنين، و ترسم لهم المنهج الصالح لتربية الزوجات و الأولاد و الأسرة بشكل عامّ، فهى تقول أوّلا: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۱

أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

و ذلك بحفظ النفس من الذنوب و عدم الاستسلام للشهوات و الأهواء، و حفظ العائلة من الانحراف بالتعليم و التربية و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و تهيئة الأجواء الصالحة و المحيط الطاهر من كلّ رذيلة و نقص.

و ينبغى مراعاة هذا البرنامج الإلهى منذ اللحظات الاولى لبناء العائلة، أى منذ أوّل مقدّمات الزواج، ثمّ مع أوّل لحظة لولادة الأولاد، و يراعى و يلاحظ بدقّة حتّى النهاية.

و بعبارة اخرى: إنّ حقوق الزوجة و الأولاد لا تقتصر على توفير المسكن و المأكل، بل الأهمّ تربية نفوسهم و تغذيتها بالأصول و التعاليم الإسلامية و تنشئتها نشأة تربوية صحيحة.

و التعبير ب «قوا» إشارة إلى أنّ ترك الأطفال و الزوجات دون أيّة متابعة أو إرشاد سيؤدّى إلى هلاكهم و دخولهم النار شئنا أم أبينا. لذا عليكم أن تقوهم و تحذّروهم من ذلك.

«الوقود» هو المادّة القابلة للاشتعال مثل (الحطب) و هو بمعنى المعطى لشرارة النار كالكبريت- مثلا- فإنّ العرب يطلقون عليه (الزناد).

و بناء على هذا فإنّ نار جهنّم ليس كنيران هذا العالم، لأنّها تشتعل من داخل البشر أنفسهم و من داخل الصخور و ليس فقط صخور الكبريت التى أشار إليها بعض المفسّرين، فإنّ لفظ الآية مطلق يشمل جميع أنواع الصخور.

و قد اتّضح فى هذا العصر أنّ كلّ قطعة من الصخور تحتوى على مليارات المليارات من الذرّات التى إذا ما تحرّرت الطاقة الكافية فيها فسينتج عن ذلك نار هائلة يصعب على الإنسان تصوّرها.

و قال بعض المفسّرين: إنّ «الحجارة» عبارة عن تلك الأصنام التى كانوا يعبدونها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۲

و يضيف القرآن قائلا: عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ

و بهذا لا يبقى طريق للخلاص و الهروب، و لن يؤثّر البكاء و الالتماس و الجزع و الفزع.

و من الواضح أنّ أصحاب الأعمال و المكلّفين بتنفيذها، ينبغى أن تكون معنوياتهم و روحيّتهم تنسجم مع تلك المهام المكلّفين بتنفيذها. و لهذا يجب أن يتّصف مسئولو العذاب و المشرفون عليه بالغلظة و الخشونة، لأنّ جهنّم ليست مكانا للرحمة و الشفقة، و إنّما هى مكان الغضب الإلهى و محلّ النقمة و السخط الإلهيين. و لكن هذه الغلظة و الخشونة لا تخرج هؤلاء عن حدّ العدالة و الأوامر الإلهية. إنّما: يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ دون أيّة زيادة أو نقصان.

و تساءل بعض المفسّرين حول تعبير (لا يعصون) الذى ينسجم مع القول بعدم وجود تكليف يوم القيامة. و لكن يجب الانتباه إلى أنّ الطاعة و عدم العصيان من الأمور التكوينية لدى الملائكة لا التشريعية.

بتعبير آخر: إنّ الملائكة مجبولون على الطاعة غير مختارين، إذ لا رغبة و لا ميل لهم إلى سواها.

فى الآية اللاحقة يخاطب الكفّار و يصف وضعهم فى ذلك اليوم العصيب بقوله: يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

قد جاءت هذه الآية بعد الآية السابقة التى خاطب بها المؤمنين، ليكون واضحا أنّ عدم الالتزام بأوامر اللّه و عدم الاهتمام بالنساء و الأولاد و الأهل قد تكون نتيجته و عاقبته كعاقبة الكفّار يوم القيامة.

و التعبير ب إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يؤيّد هذه الحقيقة مرّة اخرى، و هى أنّ جزاء المؤمنين يوم القيامة إنّما هو أعمالهم نفسها التى

تظهر أمامهم و ترافقهم.

و ممّا يؤيّد ذلك أيضا التعبير الذى ورد فى الآية السابقة الذى يقول إنّ نار جهنّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۳

وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ.

و ممّا يجدر ذكره أنّ عدم قبول الاعتذار ناتج عن كونه نوعا من التوبة، و التوبة لا تقبل فى غير هذا العالم، سواء كان قبل دخول النار أو بعد دخولها.

و يلقى القرآن الضوء فى الآية اللاحقة على طريق النجاة من النار حيث يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً.

نعم. إنّ أوّل خطوة على طريق النجاة هى التوبة و الإقلاع عن الذنب، التوبة التى يكون هدفها رضا اللّه و الخوف منه. التوبة الخالصة من أى هدف آخر كالخوف من الآثار الاجتماعية و الآثار الدنيوية للذنوب. و أخيرا التوبة التى يفارق بها الإنسان الذنب و يتركه إلى الأبد.

و من المعلوم أنّ حقيقة التوبة هى الندم على الذنب، و شرطها التصميم على الترك فى المستقبل. و أمّا إذا كان العمل قابلا لأن يجبر و يعوّض فلا بدّ من الجبران و التعويض، و التعبير ب يُكَفِّرَ عَنْكُمْ إشارة إلى هذا المعنى. و بناء على هذا يمكننا تلخيص أركان التوبة بخمسة امور (ترك الذنب، الندم، التصميم على الاجتناب فى المستقبل، جبران ما مضى، الاستغفار).

«نصوح» من مادّة نصح، بمعنى طلب الخير بإخلاص، و لذلك يقال للعسل الخالص بأنّه (ناصح) و بما أنّ من يريد الخير واقعا يجب أن يكون عمله توأما للإتقان جاءت كلمة «نصح» أحيانا بهذا المعنى، و لذا يقال للبناء المتين بأنّه «نصاح»- على وزن كتاب- و يقال للخيّاط «ناصح»، و كلا المعنيين- أى الخلوص و المتانة- يجب توفّرهما فى التوبة النصوح ۴۵۱].

و أمّا حول المعنى الحقيقى للتوبة النصوح؟ فقد وردت تفاسير مختلفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۴

و متعدّدة حتّى أوصلها البعض إلى ۲۳ تفسيرا[۴۵۲].

غير أنّ جميع هذه التفاسير تعود إلى حقيقة واحدة و فروعها و الأمور المتعلّقة بها و شرائطها المختلفة.

و من هذه التفاسير القول بأنّ التوبة (النصوح) يجب أن تتوفّر فيها أربعة شروط: الندم الداخلى، الاستغفار باللسان، ترك الذنب، و التصميم على الاجتناب فى المستقبل.

و قال البعض الآخر بأنّها (أى التوبة النصوح) ذات شروط ثلاثة (الخوف من عدم قبولها، و الأمل بقبولها، و الاستمرار على طاعة اللّه.

أو أنّ التوبة «النصوح» التى تجعل الذنوب دائما أمام أعين أصحابها، ليشعر الإنسان بالخجل منها.

أو أنّها تعنى إرجاع المظالم و الحقوق إلى أصحابها، و طلب التحليل و براءة الذمّة من المظلومين، و المداومة على طاعة اللّه.

أو هى التى تشتمل على امور ثلاثة: قلّة الأكل، قلّة القول، قلّة النوم.

أو التوبة النصوح هى التى يرافقها بكاء العين، و اشمئزاز القلب من الذنوب و ما إلى ذلك من فروع التوبة الواقعية و هى التوبة الخالصة التامّة الكاملة.

جاء فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما سأله معاذ بن جبل عن «التوبة النصوح» أجابه قائلا: «أن يتوب التائب ثمّ لا يرجع فى الذنب كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[۴۵۳].

و بهذا التعبير اللطيف يتّضح أنّ التوبة يجب أن تحدث انقلابا فى داخل النفس الإنسانية، و تسدّ عليها أى طريق للعودة إلى الذنب، و تجعل من الرجوع أمرا مستحيلا كما يستحيل إرجاع اللبن إلى الضرع و الثدى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۵

و قـد جاء هذا المعنى فى روايات اخرى، و كلّها توضّح الدرجة العالية للتوبة النصوح، فإنّ الرجوع ممكن فى المراتب الدنيا من التوبة، و تتكرّر التوبة حتّى يصل الإنسان إلى المرحلة التى لا يعود بعدها إلى الذنب.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى آثار التوبة الصادقة النصوح بقوله: عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ

وَ يُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ.

يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِيَّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بِأَيْمانِهِمْ و يضىء لهم طريقهم فى المحشر و يوصلهم إلى الجنّة.

و هنا يتوجّهون إلى اللّه بطلب العفو: يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا وَ اغْفِرْ لَنا إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

و بذلك تكون التوبة (النصوح) لها خمس ثمرات مهمّة:

الاولى: غفران الذنوب و السيّئات.

الثانية: دخول الجنّة المملوءة بنعم اللّه.

الثالثـة: عدم الفضـيحة فى ذلك اليوم العصـيب الذى ترتفع فيه الحجب و تظهر فيه حقائق الأشـياء، و يفتضح الكاذبون الفجّار. نعم فى ذلك اليوم سيكون للرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين شأن عظيم، لأنّهم لم و لن يقولوا إلّا ما هو واقع.

الرابع: أنّ نور إيمانهم و عملهم يتحرّك بين أيديهم فيضىء طريقهم إلى الجنّة.

(و اعتبر بعض المفسّـرين أنّ «النور» الذى يتحرّك أمامهم إنّما هو نور العمل، و كان لنا تفسير آخر أوردناه فى ذيل الآية ۱۲ من سورة الحديد).

الخامس: يتجهون إلى البارى أكثر من ذى قبل، و يرجونه تكميل نورهم و الغفران الكامل لذنوبهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۶

بحثان

۱- تعليم و تربية العائلة

من الواضح أنّ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فريضة عامّة على جميع الناس و لا تخصّ بعضا دون آخر. غير أنّ مسـئولية الإنسان تجاه زوجته و أبنائه أكـد من غيرها و أشـدّ إلزاما، كما يتجلّى ذلك بشـكل واضـح من الروايات الواردة فى مصادر عديدة، و كذلك الآيات السابقـة التى تـدعو الإنسان لأن يبـذل أقصـى جهده لتربية أهله و تعليمهم، و نهيهم عن ارتكاب الذنوب و حثّهم على اكتساب الخيرات، و لا ينبغى عليه أن يقنع و يكتفى بتوفير الغذاء الجسمى لهم.

و بما أنّ المجتمع عبارة عن عدد معيّن من وحدات صـغيرة تدعى «العائلة» فإنّ الاهتمام بالعائلة و تربيتها تربية إسلامية صحيحة سيجعل أمر إصلاح المجتمع أسهل و أيسر.

و تبرز هـذه المسؤولية أكثر و تكتسب أهميّة خاصّة فى العصـر الراهن، حيث تجتاح المجتمع موجات من الفساد و الضـلال الخطرة، و تحتاج إلى وضع برنامج دقيق و مدروس لتربية العائلة لمواجهة هذه الموجات دون التأثّر بها و الانجراف مع تيارها.

فنار الآخرة ليست هى النار الوحيـدة التى يكون مصـدرها الإنسان نفسه و من داخله، بل نار الدنيا هى الاخرى تسـتمدّ وجودها من هذا الإنسان، لهذا يجب على كلّ إنسان أن يقى نفسه و عائلته من هذه النار.

جاء فى الحـديث أنّ أحد الصـحابة سأل النبى بعد نزول الآية السابقة: كيف أقى أهلى و نفسـى من نار جهنّم، فأجابه صـلّى اللّه عليه و

آله و سلّم:

«تأمرهم بما أمر اللّه، و تنهاهم عمّا نهاهم اللّه، إن أطاعوک کنت قد وقیتهم، و إن عصوک کنت قد قضیت ما علیک»[۴۵۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۷

و

فی حدیث آخر جامع و لطیف عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «ألا کلّکم راع و کلّکم مسئول عن رعیته، فالأمیر علی النـاس راع و هو مسـئول عن رعیته، و الرجـل راع علی أهل بیته و هو مسـئول عنهم، و المرأة راعیـة علی أهل بیت بعلها و ولـده و هی مسئولة عنهم، ألا فکلّکم راع و کلّکم مسئول عن رعیته»[۴۵۵].

و نختم هذا البحث

بحدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة قال فیه: «علّموا أنفسکم و أهلیکم الخیر و أدّبوهم»[۴۵۶].

۲- التوبة باب إلی رحمة اللّه

کـثیرا مـا تهجم علی الإنسـان الـذنوب و اللـوابس- خاصّـة فی بـدایات توجّهه و سـلوکه إلی اللّه- و إذا أغلقت جمیع أبواب العودة و الرجوع بوجهه، فإنّه سـیبقی فی نهجه هـذا إلی الأبـد، و لهذا نجد الإسـلام قد فتح بابا للعودة و سـمّاه «التوبة»، و دعا جمیع المذنبین و المقصّرین إلی دخول هذا الباب لتعویض و جبران الماضی.

یقول الإمام علی بن الحسـین علیه السّلام فی مناجاة التائبین: «إلهی أنت الذی فتحت لعبادک بابا إلی عفوک سمّیته التوبة، فقلت تُوبُوا إِلَی اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً فما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه!!»[۴۵۷].

و قد شدّدت الروایات علی أهمیّة التوبة إلی الحدّ الذی نقرأ

فی الحـدیث عن الإمـام البـاقر علیه السّـلام أنّه قال: «إنّ اللّه تعالی أشـدّ فرحا بتوبـة عبـده من رجل أضلّ راحلته و زاده فی لیلـة ظلماء فوجدها»[۴۵۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۸

کلّ هذه الروایات العظیمة تحثّ و تؤکّد علی هذا الأمر الحیاتی المهمّ.

لکن ینبغی التأکید علی أنّ التوبة لیست مجرّد (لقلقة لسان) و تکرار قول (استغفر اللّه) و إنّما للتوبة شروط و أرکان مرّت الإشارة إلیها فی تفسیر التوبة النصوح فی الآیات السابقة.

و کلّما تحقّقت التوبة بتلک الشروط و الأرکان فإنّها ستؤتی ثمارها و تعفی آثار الذنب من قلب و روح الإنسان تماما، و لذا

ورد فی الحـدیث عـن الإمـام البـاقر علیـه السّـلام: «التـائب مـن الـذنب کمـن لاـ ذنـب لـه، و المقیـم علی الـذنب و هـو مسـتغفر منه کالمستهزئ»[۴۵۹].

و قد وردت بحوث اخری عن التوبة فی ذیل الآیة (۱۷) من سورة النساء و فی ذیل الآیة (۵۳) من سورة الزمر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۵۹

الآیات [سورة التحریم (۶۶): الآیات ۹ الی ۱۲]

اشارة

يـا أَيُّهَـا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِـيرُ (۹) ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْـدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَـيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (۱۰) وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قـالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۱) وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ وَ كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ (۱۲)

التّفسير

نماذج من النساء المؤمنات و الكافرات:

بمـا أنّ المنـافقين يفرحون لإفشـاء أسـرار الرّسول و إذاعـة الأخبـار الداخليـة عن بيته، و يرحبون ببروز المشـاجرات و الاختلافـات بين زوجاته- التى مضت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۰

الإشارة إليها فى الآيات السابقة- بل إنّهم كانوا يساهمون فى إشاعة تلك الأخبار و إذاعتها بشـكل أوسع، نظرا لكلّ ذلك فقد خاطب القرآن الكريم الرّسول بـأن يشـدّد على المنافقين و الكافرين و يغلّظ عليهم. حيث يقول: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِـدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ اغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

الجهاد ضـدّ الكفّار قد يكون مسـلّحا أو غير مسـلّح، أمّا الجهاد ضدّ المنافقين فإنّه بدون شكّ جهاد غير مسـلّح، لأنّ التاريخ لم يحدّثنا أبدا عن أنّ الرّسول خاض مرّة معركة مسلّحة ضدّ المنافقين. لهذا

ورد فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ رسول اللّه لم يقاتل منافقا قطّ إنّما يتألّفهم»[۴۶۰].

و بناء على ذلك فإنّ المراد من الجهاد ضـدّ المنافقين إنّما هو توبيخهم و إنـذارهم و تحـذيرهم، بل و تهديدهم و فضـحهم، أو تأليف قلوبهم فى بعض الأحيان. فللجهاد معنى واسع يشـمل جميع ذلك. و التعبير ب «أغلظ عليهم» إشارة إلى معاملتهم بخشونة و فضحهم و تهديدهم، و ما إلى ذلك.

و يبقى هذا التعامل الخاصّ مع المنافقين، أى عدم الصدام المسـلّح معهم، ما داموا لم يحملوا السـلاح ضدّ الإسلام و ذلك بسبب أنّهم مسـلمون فى الظـاهر، و تربطهم بالمسـلمين روابـط كثيرة لا- يمكن معهـا محـاربتهم كالكفّـار، أمّا إذا حملوا السـلاح فيجب أن يقابلوا بالمثل، لأنّهم سوف يتحوّلون إلى (محاربين).

و لم يحـدث مثـل ذلـك أيّام حياة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم لكنّه حـدث فى خلافـة أمير المؤمنين على عليه السّـلام حيث خاض ضدّهم معركة مسلّحة.

و ذهب بعض المفسّـرين إلى أنّ المقصود من «الجهـاد ضـدّ المنافقين» الـذى ورد ذكره فى الآيـة السابقـة هو إجراء الحـدود الشـرعية بحقّهم، فإنّ أكثر الذين كانوا تجرى عليهم الحدود هم من المنافقين. و لكن لا دليل على ذلك، كما لا دليل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۱

أنّ الحدود كانت تجرى على المنافقين غالبا.

الجدير بالذكر أنّ الآية السابقة وردت أيضا و بنفس النصّ فى سورة التوبة الآية ۷۳.

و من أجـل أن يعطى اللّه تعالى درسا عمليا حيّا إلى زوجات الرّسول الأعظم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم عاد مرّة اخرى يـذكر بالعاقبة السيّئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبيين عظيمين من أنبياء اللّه، و كذلك يذكر بالعاقبة الحسـنة و المصـير الرائع لامرأتين مؤمنتين

مضحيتين كانتا فى بيتين من بيوت الجبابرة، حيث يقول أوّلا: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما، فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ۴۶۱].

و بناء على هذا فإنّ القرآن يحذّر زوجتى الرّسول اللتين اشتركتا فى إذاعة سرّه، بأنّكما سوف لن تنجوا من العذاب لمجرّد كونكما من أزواج النبى كما فعلت زوجتا نوح و لوط فواجهتا العذاب الإلهى.

كما تتضمّن الآيات الشريفة تحذيرا لكلّ المؤمنين بأنّ القرب من أولياء اللّه و الانتساب إليهم لا يكفى لمنع نزول عذاب اللّه و مجازاته.

و ورد فى كلمات بعض المفسّرين أنّ زوجة نوح كانت تدعى «و الهة» و زوجة لوط «والعة»[۴۶۲] بينما ذكر آخرون عكس ذلك أى أنّ زوجة لوط اسمها (والهة) و زوجة نوح اسمها (والعة)[۴۶۳].

و على أيّة حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبيّين عظيمين من أنبياء اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۲

و الخيانة هنا لا تعنى الانحراف عن جادّة العفّة و النجابة، لأنّهما زوجتا نبيّين و لا يمكن أن تخون زوجة نبى بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما بغت امرأة نبى قطّ».

كانت خيانة زوجة لوط هى أن أفشت أسرار هذا النبى العظيم إلى أعدائه، و كذلك كانت زوجة نوح عليه السّلام.

و ذهب الراغب فى «المفردات» إلى أنّ للخيانة و النفاق معنى واحدا و حقيقة واحدة، و لكن الخيانة تأتى فى مقابل العهد و الأمانة، و النفاق يأتى فى الأمور الدينية و ما تقدّم من سبب النزول و مشابهته لقصّة هاتين المرأتين توجب كون المقصود من الخيانة هنا هو نفس هذا المعنى.

و على كلّ حال فإنّ الآية السابقة تبدّد أحلام الذين يرتكبون ما شاء لهم أن يرتكبوا من الذنوب و يعتقدون أنّ مجرّد قربهم من أحد العظماء كاف لتخليصهم من عذاب اللّه، و من أجل أن لا يظنّ أحد أنّه ناج من العذاب لقربه من أحد الأولياء، جاء فى نهاية الآية السابقة: فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ

ثمّ يذكر القرآن الكريم نموذجين مؤمنين صالحين فيقول: وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ

من المعروف أنّ اسم زوجة فرعون (آسية) و اسم أبوها (مزاحم) و قد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السّلام أمام السحرة، و استقرّ قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أنّ الإيمان برسالة موسى و حبّ اللّه ليس شيئا يسهل كتمانه، و بمجرّد أن اطّلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة و أصرّ عليها أن تتخلّى عن رسالة موسى و ربّه، غير أنّ هذه المرأة الصالحة رفضت الاستسلام إطلاقا.

و أخيرا أمر فرعون أن تثبت يداها و رجلاها بالمسامير، و تترك تحت أشعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۳

الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. و فى تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و قد استجاب لها ربّها و جعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها فى صفّ مريم.

فى رواية عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد، و فاطمة بنت محمّد و مريم بنت عمران، و آسيا بنت مزاحم امرأة فرعون ۴۶۴].

و من الطريف أنّ امرأة فرعون كانت تستصغر بيت فرعون و لا تعتبره شيئا مقابل بيت فى الجنّة و فى جواره تعالى، و بذلك أجابت على نصائح الناصحين فى أنّها ستخسر كلّ تلك المكاسب و تحرم من منصب الملكة (ملكة مصر) و ما إلى ذلك. لسبب واحد هو

أنّها آمنت برجل راع كموسى.

و فى عبارة وَ نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَ عَمَلِهِ وَ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ تضرب مثلا- رائعا للمرأة المؤمنة التى ترفض أن تخضع لضغوط الحياة، أو تتخلّى عن إيمانها مقابل مكاسب زائلة فى هذه الدنيا.

لم تستطع بهارج الدنيا و زخارفها التى كانت تنعم بها فى ظلّ فرعون، و التى بلغت حدّا ليس له مثيل. لم تستطع كلّ تلك المغريات أن تثنيها عن نهج الحقّ، كما لم تخضع أمام الضغوط و ألوان العذاب التى مارسها فرعون. و قد واصلت هذه المرأة المؤمنة طريقها الذى اختارته رغم كلّ الصعاب و اتّجهت نحو اللّه معشوقها الحقيقى.

و تجدر الإشارة إلى أنّها كانت ترجوا أن يبنى اللّه لها بيتا عنده فى الجنّة لتحقيق بعدين و معنيين: المعنى المادّى الذى أشارت إليه بكلمة «فى الجنّة»، و البعد المعنوى و هو القرب من اللّه «عندك» و قد جمعتهما فى عبارة صغيرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۴

موجزة.

ثمّ يضرب اللّه تعالى مثلا آخر للنساء المؤمنات الصالحات، حيث يقول جلّ من قائل: وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا[۴۶۵].

فهى امرأة لا زوج لها أنجبت ولدا صار نبيّا من أنبياء اللّه العظام (من اولى العزم).

و يضيف تعالى قائلا: وَ صَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وَ كُتُبِهِ و كانَتْ مِنَ الْقانِتِينَ

كانت فى القمّة من حيث الإيمان، إذ آمنت بجميع الكتب السماوية و التعاليم الإلهية، ثمّ إنّها كانت قد أخضعت قلبها للّه، و حملت قلبها على كفّها و هى على أتمّ الاستعداد لتنفيذ أوامر البارى جلّ شأنه.

و يمكن أن يكون التعبير ب (الكتب) إشارة إلى كلّ الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء، بينما التعبير ب (كلمات) إشارة إلى الوحى الذى لا يكون على شكل كتاب.

و نظرا لرفعة مقام مريم و شدّة إيمانها بكلمات اللّه، فقد وصفها القرآن الكريم فى الآية (۷۵) من سورة المائدة (صدّيقة).

و قد أشار القرآن إلى مقام هذه المرأة العظيمة فى آيات عديدة، منها ما جاء فى السورة التى سمّيت باسمها أى (سورة مريم).

على أيّة حال فإنّ القرآن الكريم تصدّى للشبهات التى أثارها بعض اليهود المجرمين حول شخصية هذه المرأة العظيمة، و نفى عنها كلّ التّهم الرخيصة حول عفافها و طهارتها و كلّ ما يتعلّق بشخصيتها الطاهرة.

و التعبير ب فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا لإظهار عظمة و علو هذه الروح، كما أشرنا إلى ذلك سابقا. أو بعبارة اخرى: إنّ إضافة كلمة (روح) إلى «اللّه» إضافة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۵

تشريفية لبيان عظمة شىء مثل إضافة «بيت» إلى «اللّه».

و من الغريب ما كتبه بعض المفسّرين من اعتبارهم عائشة أفضل النساء، و أنّها أعظم من غيرها من النساء ذوات القدر الكبير و الشأن عند اللّه. و لقد كان حريّا بهم أن لا يتطرّقوا إلى هذا الحديث فى هذه السورة، التى نزلت لتعلن خلاف ما ذهبوا إليه و بشكل صريح لا يقبل الجدل. فإنّ كثيرا من مفسّرى و مؤرّخى أهل السنّة أكّدوا على أنّ اللوم و التوبيخ اللذين وردا فى الآيات السابقة كانا موجّهين إلى زوجتى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «حفصة» و «عائشة» و منها ما جاء فى صحيح البخارى الجزء السادس صفحة ۱۹۵ و نحن ندعو بهذه المناسبة أهل التفكير الحرّ جميعا لأن يعيدوا تلاوة آيات هذه السورة ثمّ ليتعرّفوا على قيمة و جدارة مثل هذه الأحاديث.

اللهمّ جنّبنا الحبّ الأعمى و البغض الأعمى الذى لا يقوم على البرهان بقدر ما يقوم على العصبية، و اجعلنا من المستسلمين الخاضعين

بكلّ وجودنا إلى آيات قرآنك المجيد.

ربّنا و لا تجعلنا من الذين غضب عليهم الرّسول فلم يرض أعمالهم و طريقة حياتهم.

اللهمّ هب لنا استقامة لا نتأثّر معها بالضغوط، و لا نخضع لعذاب الفراعنة و جبابرة العصر.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة التحريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۷

بداية الجزء التاسع و العشرون من القرآن الكريم

سورة الملك

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۶۹

«سورة الملك»

محتوى سورة الملك:

تمثّل هذه السورة بداية الجزء التاسع و العشرين من القرآن الكريم، و هى من السور التى نزلت جميع آياتها فى مكّة المكرّمة على المشهور، كما هو شأن غالبية سور هذا الجزء، إن لم يكن جميعها كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين ۴۶۶]، بخلاف ما عليه سور الجزء السابق حيث كانت مدنية.

و لكن كما سنرى لا حقا أنّ سورة الدهر (سورة الإنسان) من السور المدنية.

و تسمّى سورة الملك أيضا ب (المنجية)، و كذلك تسمّى ب (الواقية) أو (المانعة) بلحاظ أنّها تحفظ الإنسان الذى يتلوها من العذاب الإلهى أو عذاب القبر، و هى من السور التى لها فضائل عديدة، و قد طرحت فى هذه السورة مسائل قرآنية مختلفة، إلّا أنّ الأصل فيها يدور حول ثلاثة محاور هى:

۱- أبحاث حول المبدأ، و صفات اللّه سبحانه، و نظام الخلق العجيب و المدهش، خصوصا خلق السموات و النجوم و الأرض و ما فيها من كنوز عظيمة ..

و كذلك ما يتعلّق بخلق الطيور و المياه الجارية و الحواس كالاذن و العين، بالإضافة إلى وسائل المعرفة الاخرى.

۲- و فى المحور الثانى تتحدّث الآيات الكريمة عن المعاد و عذاب الآخرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۰

و الحوار الذى يدور بين ملائكة العذاب الإلهى و أهل جهنّم، بالإضافة إلى امور اخرى فى هذا الصدد.

۳- و أخيرا فإنّ آيات المحور الثالث تدور حول التهديد و الإنذار الإلهى بألوان العذاب الدنيوى و الاخروى للكفّار و الظالمين.

و يذهب بعض المفسّرين إلى أنّ المحور الأساس لجميع هذه السورة يدور حول مالكية اللّه سبحانه و حاكميته و التى وردت فى أوّل آية منها[۴۶۷].

فضيلة تلاوة السورة:

نقلت روايات عديدة عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى فضيلة تلاوة هذه السورة نقرأ منها ما يلى:

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة تبارك فكأنّما أحيى ليلة القدر»[۴۶۸].

و

جاء فى حديث آخر عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «وددت أن تبارك الملك فى قلب كلّ مؤمن»[۴۶۹].

و

جاء فى حديث عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام أنّه قال: «سورة الملك هى المانعة، تمنع من عذاب القبر، و هى مكتوبة فى التوراة سورة الملك، و من قرأها فى ليلة فقد أكثر و أطاب و لم يكتب من الغافلين»[۴۷۰].

و الأحاديث كثيرة فى هذا المجال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۱

و من الطبيعى أنّ جميع هـذه الآثـار العظيمـة لاـ تكون إلّا من خلال التـدبّر فى قراءة آيات هـذه السورة و العمل بها، و الاسـتلهام من محتوياتها فى الممارسات الحياتية المختلفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۲

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (۱) الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (۲) الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً ما تَرى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ (۳) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ (۴)

وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (۵)

التّفسير

عالم الوجود المتكامل:

تبـدأ آيات هـذه السورة بمسألة مالكية و حاكمية اللّه سبحانه، و خلود ذاته المقدّسة، و هى فى الواقع مفتاح جميع أبحاث هذه السورة المباركة[۴۷۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۳

يقول تعالى: تَبارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.

«تبـارك»: من مـادّة (بركـة) فى الأصـل من (برك) على وزن (ترك) بمعنى (صـدر البعير)، و عنـد ما يقال: (برك البعير) يعنى وضع صدره على الأرض. ثمّ استعملت الكلمة بمعنى الدوام و البقاء و عدم الزوال، و أطلقت كذلك على كلّ نعمة باقية و دائمة، و من هنا يقال لمحلّ خزن الماء (بركة) لأنّ الماء يبقى فيها مدّة طويلة.

و قد ذكرت الآية أعلاه دليلا ضمنيّا على أنّ الذات الإلهية مباركة، و هو مالكيته و حاكميته على الوجود، و قدرته على كلّ شيء، و لهذا السبب فإنّ وجوده تعالى كثير البركة و لا يعتريه الزوال.

ثمّ يشير سبحانه فى الآية اللاحقة إلى الهدف من خلق الإنسان و موته و حياته، و هى من شؤون مالكيته و حاكميته تعالى فيقول: الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَ الْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

«الموت»: حقيقته الانتقال من عالم إلى عالم آخر، و هذا الأمر وجودى يمكن أن يكون مخلوقا، لأنّ الخلقة ترتبط بالأمور الوجودية، و هذا هو المقصود من الموت فى الآية الشريفة، أمّا الموت بمعنى الفناء و العدم فليس مخلوقا، لذا فإنّه غير مقصود.

ثمّ إنّ ذكر الموت هنا قبل الحياة هو بلحاظ التأثير العميق الذى يتركه الالتفات إلى الموت، و ما يترتّب على ذلك من سلوك قويم و أعمال مقترنة بالطاعة و الالتزام، إضافة إلى أنّ الموت كان فى حقيقته قبل الحياة.

أمّا الهدف من الامتحان فهو تربية الإنسان كى يجسّد الاستقامة و التقوى و الطهر فى الميدان العملى ليكون لائقا للقرب من اللّه سبحانه، و قد بحثنا ذلك مفصّلا فيما سبق [۴۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۴

كما أنّ الجدير بالملاحظة فى قوله «أحسن عملا» هو التأكيد على جانب (حسن العمل)، و لم تؤكّد الآية على كثرته، و هذا دليل على أنّ الإسلام يعير اهتماما (للكيفية) لا (للكميّة)، فالمهمّ أن يكون العمل خالصا لوجهه الكريم، و نافعا للجميع حتّى و لو كان محدود الكمية.

لذا ورد فى تفسير (أحسن عملا)، روايات عدّة،

فعن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «أتمّكم عقلا، أشدّكم للّه خوفا، و أحسنكم فيما أمر اللّه به، و نهى عنه نظرا، و إن كان أقلّكم تطوّعا»[۴۷۳].

حيث أنّ العقل الكامل يطهّر العمل، و يجعل النيّة أكثر خلوصا للّه عزّ و جلّ و يضاعف الأجر.

و

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال حول تفسير (أحسن عملا): «ليس يعنى أكثر عملا، و لكن أصوبكم عملا، و إنّا الإصابة خشية اللّه و النيّة الصادقة. ثمّ قال: الإبقاء على العمل حتّى يخلص، أشدّ من العمل، و العمل الخالص هو الذى لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا اللّه عزّ و جلّ»[۴۷۴].

و تحدّثنا فى تفسير الآية: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۴۷۵]، و قلنا: أنّ الهدف من خلق الإنسان فى تلك الآية هو العبودية للّه عزّ و جلّ، و هنا نجد الهدف:

(اختباره بحسن العمل). و ممّا لا شكّ فيه أنّ مسألة الاختبار و الامتحان لا تنفكّ عن مسألة العبودية للّه سبحانه، كما أنّ لكمال العقل و الخوف من اللّه تعالى و النيّة الخالصة لوجهه الكريم- و التى أشير لها فى الروايات أعلاه، أثرا فى تكامل روح العبودية.

و من هنا نعلم أنّ العالم ميدان الامتحان الكبير لجميع البشر، و وسيلة هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۵

الامتحان هو الموت و الحياة، و الهدف منه هو الوصول إلى حسن العمل الذى مفهومه تكامل المعرفة، و إخلاص النيّة، و إنجاز كلّ عمل خيّر.

و إذا لاحظنا أنّ بعض المفسّرين فسّر (أحسن عملا) بمعنى ذكر الموت أو التهيّؤ و ما شابه ذلك، فإنّ هذا فى الحقيقة إشارة إلى مصاديق من المعنى الكلّى.

و بما أنّ الإنسان يتعرّض لأخطاء كثيرة فى مرحلة الامتحان الكبير الذى يمرّ به، فيجدر به ألّا يكون متشائما و يائسا من عون اللّه

سبحانه و مغفرته له، و ذلك من خلال العزم على معالجة أخطائه و نزواته النفسية و إصلاحها، حيث يقول تعالى:

وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ.

نعم، إنّه قادر على كلّ شيء، و غفّار لكلّ من يتوب إليه.

و بعد استعراض نظام الموت و الحياة الذى تناولته الآية السابقة، تتناول الآية اللاحقة النظام الكلّى للعالم، و تدعو الإنسان إلى التأمّل فى عالم الوجود، و التهيّؤ لمخاض الامتحان الكبير عن طريق التدبّر فى آيات هذا الكون العظيم، يقول تعالى: الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً.

بالنسبة إلى موضوع السموات السبع فقد استعرضنا شيئا حولها فى تفسير الآية (۱۲) من سورة الطلاق، و نضيف هنا أنّ المقصود من (طباقا) هو أنّ السموات السبع، كلا منها فوق الاخرى، إذ أنّ معنى (المطابقة) فى الأصل هو الشيء فوق شيء آخر.

و يمكن اعتبار «السموات السبع» إشارة إلى الكرات السبع للمنظومة الشمسية، و التى يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، حيث تبعد كلّ منها مسافة معيّنة عن الشمس أو تكون كلّ منها فوق الاخرى.

أمّا إذا اعتبرنا أنّ جميع ما نراه من النجوم الثابتة و السيارة ضمن السماء الاولى، فيتّضح لنا أنّ هنالك عوالم اخرى فى المراحل العليا، حيث أنّ كلّ واحد منها يكون فوق الآخر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۶

ثمّ يضيف سبحانه: ما تَرى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ

إنّ الآية أعلاه تبيّن لنا أنّ عالم الوجود- بكلّ ما يحيطه من العظمة- قائم وفق نظام مستحكم، و قوانين منسجمة، و مقادير محسوبة، و دقّة متناهية، و لو وقع أى خلل فى جزء من هذا العالم الفسيح لأدّى إلى دماره و فنائه.

و هذه الدقّة المتناهية، و النظام المحيّر، و الخلق العجيب، يتجسّد لنا فى كلّ شيء، ابتداء من الذرّة الصغيرة و ما تحويه من الإلكترونات و النيوترونات و البروتونات، و انتهاء بالنظم الحاكمة على جميع المنظومة الشمسية و المنظومات الاخرى، كالمجرّات و غيرها .. إذ أنّ جميع ذلك يخضع لسيطرة قوانين متناهية فى الدقّة، و يسير وفق نظام خاصّ.

و خلاصة القول أنّ كلّ شيء فى الوجود له قانون و برنامج، و كلّ شيء له نظام محسوب.

ثمّ يضيف تعالى مؤكّدا: فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ.

«فطور» من مادّة (فطر)، على وزن (سطر) بمعنى الشقّ من الطول، كما تأتى بمعنى الكسر (كإفطار الصيام) و الخلل و الإفساد، و قد جاءت بهذا المعنى فى الآية مورد البحث.

و يقصد بذلك أنّ الإنسان كلّما دقّق و تدبّر فى عالم الخلق و الوجود، فإنّه لا يستطيع أن يرى أى خلل أو اضطراب فيه.

لذا يضيف سبحانه مؤكّدا هذا المعنى فى الآية اللاحقة حيث يقول: ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ.

«كرّتين» من مادّة (كر) على وزن (شرّ) بمعنى التوجّه و الرجوع إلى شيء معيّن، و (كرّة) بمعنى التكرار و (كرّتين) مثنّاها.

إلّا أنّ بعض المفسّرين ذكر أنّ المقصود من ال (كرّتين) هنا ليس التثنية، بل الالتفات و التوجّه المتكرّر المتعاقب و المتعدّد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۷

و بناء على هذا فإنّ القرآن الكريم يأمر الناس فى هذه الآيات أن يتطلّعوا و يتأمّلوا و يدقّقوا النظر فى عالم الوجود ثلاث مرّات- كحدّ أدنى- و يتدبّروا أسرار الخلق. و بمعنى آخر فإنّ على الإنسان أن يدقّق فى خلق اللّه سبحانه مرّات و مرّات، و عند ما لا يجد أى خلل أو نقص فى هذا النظام العجيب و المحيّر لخلق الكون، فإنّ ذلك سيؤدّى إلى معرفة خالق هذا الوجود العظيم و مدى علمه و قدرته اللامتناهية، ممّا يؤدّى إلى عمق الإيمان به سبحانه و القرب من حضرته المقدّسة.

«خاسئ» من مادّة (خسأ) و (خسوء) على وزن (مدح، و خشوع) و إذا كان مورد استعمالها العين، فيقصد بهما التعب و العجز، أمّا إذا

استعملت للكلب فيقصد منها طرده و إبعاده.

«حسير» من مادّة (حسر)، على وزن (قصر) بمعنى جعل الشيء عاريا، و إذا ما فقد الإنسان قدرته و استطاعته بسبب التعب، فإنّه يكون عاريا من قواه، لذا فإنّها جاءت بمعنى التعب و العجز.

و بناء على هذا فإنّ كلمتى (خاسئ) و (حسير) اللتين وردتا فى الآية أعلاه، تعطيان معنى واحدا فى التأكيد على عجز العين، و بيان عدم مقدرتها على مشاهدة أى خلل أو نقص فى نظام عالم الوجود.

و فرّق البعض بين معنى الكلمتين، إذ قال: إن (خاسئ) تعنى المحروم و غير الموفّق، و (حسير) بمعنى العاجز.

و على كلّ حال فيمكن استنتاج أساسين من الآيات المتقدّمة:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم يأمر جميع السائرين فى درب الحقّ أن يتدبّروا و يتأمّلوا كثيرا فى أسرار عالم الوجود و ما فيه من عجائب الخلق، و أن لا يكتفوا بالنظر إلى هذه المخلوقات مرّة واحدة أو مرّتين، حيث أنّ هنالك أسرارا كثيرة و عظيمة لا تتجلّى و لا تظهر من خلال النظرة الاولى أو الثانية. بل تستدعى النظر الثاقب و المتعاقب و الدقّة الكثيرة، حتّى تتّضح الأسرار و تتبيّن الحقائق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۸

الأمر الثّانى: الذى يتبيّن لنا من خلال التدقيق فى هذا النظام، هو إدراك طبيعة الانسجام العظيم بين مختلف جوانب الوجود، بالإضافة إلى خلوه من كلّ نقص و عيب و خلل.

و إذا ما لوحظ فى النظرة الأوّلية لبعض الظواهر الموجودة فى هذا العالم (كالزلازل و السيول، و الأمراض، و الكوارث الطبيعية الاخرى، و التى تصيب البشر أحيانا فى حياتهم) و اعتبرت شرورا و آفات و فسادا، فإنّه من خلال الدراسات و التدقيقات المتأمّلة يتبيّن لنا أنّ هذه الأمور هى الاخرى تمثّل أسرارا أساسية غاية فى الدقّة[۴۷۶].

إنّ لهذه الآيات دلالة واضحة على دقّة النظام الكونى، حيث معناها أنّ وجود النظام فى كلّ شيء دليل على وجود العلم و القدرة على خلق ذلك الشيء، و إلّا، فإنّ حصول حوادث عشوائية غير محسوبة لا يمكن أبدا أن تكون منطلقا للنظام و مبدأ للحساب.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام فى حديث مفضّل المعروف عنه «إنّ الإهمال لا يأتى بالصواب، و التضادّ لا يأتى بالنظام»[۴۷۷].

ثمّ تتناول الآية التالية صفحة السماء التى يتجسّد فيها الجمال و الروعة، حيث النجوم المتلألئة فى جوّ السماء المشعّة بضوئها الساحر فى جمال و لطافة، حيث يقول سبحانه: وَ لَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَ جَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَ أَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ.

إنّ نظرة متأمّلة فى ليلة مظلمة خالية من الغيوم إلى جوّ السماء الملىء بالنجوم كاف لإثارة الانتباه فينا إلى تلك العوالم العظيمة، و خاصّة طبيعة النظم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۷۹

الحاكمة عليها، و الروعة المتناهية فى جمالها و لطافتها و عظمتها، و سكونها المقترن بالأسرار العجيبة، و الهيبة التى تلقى بظلالها على جميع العوالم، ممّا يجعل الإنسان أمام عالم ملىء بالمعرفة و نور الحقّ، و يدفعه باتّجاه عشق البارئ عزّ و جلّ الذى لا يمكن وصفه و التعبير عنه بأى لسان.

و تؤكّد الآية الكريمة- مرّة اخرى- الحقيقة القائلة بأنّ جميع النجوم التى نشاهدها ما هى إلّا جزء من المساء الاولى، و التى هى أقرب إلينا من أى سماء اخرى من السموات السبع، لذا أطلق عليها اسم (السماء الدنيا) أى السماء القريبة و التى هى أسفل جميع السموات الاخرى.

«الرجوم» بمعنى (الرصاص) و هى إشارة إلى الشهب التى تقذف كرصاصة من جهة إلى اخرى من السماء، كما أنّ (الشهب) هى بقايا النجوم المتلاشية و التى تأثّرت بحوادث معيّنة، و بناء على هذا، فإنّ المقصود بجعل الكواكب رجوما للشياطين، هو هذه الصخور المتبقّية.

أمّا كيفية رجم الشياطين برصاصات الشهب (الأحجار الصغيرة) التى تسير بصورة غير هادفة فى جو السماء، فقد بيّناه بشكل تفصيلى فى التّفسير الأمثل فى تفسير الآية (۱۸) من سورة الحجر، و كذلك فى تفسير الآية (۲۰) من سورة الصافات.

ملاحظة

عظمة عالم الخلق:

بالرغم من أنّ القرآن الكريم نزل فى مجتمع الجاهلية و التأخّر .. إلّا أنّنا عند ما نلاحظ آياته نراها غالبا ما تدعو المسلمين إلى التفكّر و التأمّل بالأسرار العظيمة التى يزخر بها عالم الوجود، الأمر الذى لم يكن مفهوما فى ذلك العصر،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۰

و هذا دليل واضح على أنّ القرآن الكريم صادر من مبدأ آخر، و أنّ العلم و المعارف الإنسانية كلّما تقدّمت فإنّها تؤكّد عظمة القرآن الكريم أكثر فأكثر.

فالكرة الأرضية التى نعيش عليها- مع كبر حجمها و سعتها- صغيرة فى مقابل مركز المنظومة الشمسية (قرص الشمس)، بحيث أنّها تساوى مليون و مائتى ألف كرة أرضية مثل أرضنا.

هذا من جهة، و من جهة اخرى فإنّ منظومتنا الشمسية جزء من مجرّة عظيمة، يطلق عليها اسم «درب التبانة»[۴۷۸].

و طبقا لحسابات العلماء الفلكيين فإنّه يوجد فى مجرتنا فقط (۰۰۰/ ۰۰۰/ ۰۰۰/ ۱۰۰)- مائة مليارد- نجمة، حيث تكون الشمس و مع ما عليها من عظمة إحدى نجومها المتوسطة.

و من جهة ثالثة فإنّ فى هذا العالم الواسع مجرّات كثيرة إلى حدّ أنّها تخرج عن الحساب و العدد، و كلّما تطوّرت التلسكوبات الفلكية العظيمة تمّ كشف مجرّات اخرى عديدة.

فما أعظم قدرة هذا الربّ الذى وضع هذه الأسرار الكبيرة مع ذلك النظام الدقيق «العظمة للّه الواحد القهّار».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۱

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۶ الى ۱۱]

اشارة

وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (۶) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ (۷) تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (۸) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (۹) وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (۱۰)

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ (۱۱)

التّفسير

لو كنّا نسمع أو نعقل:

كان الحـديث فى الآيات السابقـة عن معالم العظمـة و القـدرة الإلهية و دلائلها فى عالم الوجود، أمّا فى الآيات مورد البحث فإنّه تعالى يتحدّث عن الأشخاص الذين يعرضون و يتنكّبون عن أدلّة الحقّ، و يكابرون فى تحدّى البراهين الدامغة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۲

و يسلكون طريق الكفر و الشرك، و يقذفون أنفسهم كالشياطين فى اتون العذاب الإلهى.

يقول تعالى فى البداية: وَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ.

ثمّ يستعرض توضيحا لهذا اللون من العذاب الرهيب فيقول تعالى: إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَ هِيَ تَفُورُ.

نعم، إنّهم عنـد ما يلقون فيها بمنتهى الذلّ و الحقارة تقترن حالة إلقائهم بصدور صوت مرعب و شديد من جهنّم، حيث يسـيطر الرعب و الخوف على جميع وجودهم.

«شـهيق» فى الأصل بمعنى صوت قبيح و منكر كصوت الحمار، و يقال أنّه مأخوذ من مادّة (شـهوق) بمعنى كونه طويلا (لذا يطلق على الجبل العالى بأنّه شاهق) و من هنا فإنّه (شهيق) جاءت بمعنى الأنين الطويل.

و قال البعض: إنّ (الزفير) هو الصوت الذى يتردّد فى الحلق، أمّا (الشـهيق) فهو الصوت الذى يتردّد فى الصدر، و فى كلّ الأحوال فإنّها إشارة إلى الأصوات المرعبة و المؤلمة.

ثمّ يضيف تعالى مستعرضا شدّة غضب (جهنّم) و شدّة هيجانها و انزعاجها بقوله تعالى: تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ[۴۷۹].

إنّها حرارة هائلـة جـدّا و نار حارقـة مزمجرة كما لو وضـعنا إناء كبير على نار محتدمة فانّه لا يلبث أن يفور و يغلى بشـكل يكاد فيه أن يتلاشى و يذوب، أو كإنسان يكاد أن يتفجّر من شدّة الغضب و الثورة و الانفعال، هكذا هو منظر جهنّم، مركز الغضب الإلهى.

ثمّ يستمرّ تعالى بقوله: كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَ لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۳

فلما ذا إذن أوقعتم أنفسـكم فى هـذا المصـير البائس، و هـذا البلاء العظيم و الساعـة الرهيبـة، إنّ الملائكـة (خزنـة جهنّم) يسـتغربون و يكـادون أن يصـعقوا لما أصابكم و ما أوقعتم به أنفسـكم، فى مثل هـذه الداهيـة مع الوعى الـذى حباكم به اللّه سـبحانه و ما تفضّل به عليكم من نعمة الرسل الإلهيين و القادة من الأنبياء و المرسلين .. فكيف اخترتم لأنفسكم مقرّا كهذا؟

قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ، فَكَذَّبْنا وَ قُلْنا ما نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ.

و هكذا يأتى الاعتراف: نعم قد جاءنا الرسل إلّا أنّنا كذّبناهم و لم نسمع نداءهم المحيى للنفوس بل خالفناهم و عارضناهم و اعتبرناهم ضالّين، و أخرجناهم من بين صفوفنا، و أبعدناهم عنّا ..

ثمّ يذكر القرآن الدليل الأصـلى على شـقائهم و تعاسـتهم و لكن على لسانهم فيقول: وَ قالُوا لَوْ كُنَّا نَسْـمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا فِي أَصْـحابِ السَّعِيرِ، أجل هكذا يأتى اعترافهم بذنوبهم بعد فوات الأوان فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ.

و فى هذه الآيات و ضـمن بيان المصير المرعب لهؤلاء يشير إلى السبب الحقيقى لذلك، فمن جهة أعطاهم اللّه تعالى الاذن السامعة و العقل، و من جهة اخرى بعث إليهم الرسل و الأنبياء بالدلائل الواضـحة فلو اقترن هذان الأمران فالنتيجة هى ضـمان سـعادة الإنسان، أمّا لو كان للإنسان اذن لا يسـمع بها، و عين لا يبصـر بها، و عقل لا يفكّر به، فلو جاءه جميع الأنبياء و المرسلين بكافّة معاجزهم و كتبهم، لم ينتفع بشىء. و

قد ورد فى الحديث الشـريف، أنّ بعض المسـلمين ذكروا شـخصا عند رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أثنوا عليه، فقال صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «كيف عقـل الرجـل» فقيـل: يـا رسول اللّه نحن نسأل عن سـعيه و عبادته و خيراته و أنت تسأل عن عقله؟! فقال صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم: «إنّ الأحمق يصـيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، و إنّما يرتفع العباد غـدا فى الدرجات و ينالون الزلفى من ربّهم على قدر عقولهم!».

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۴

«سحق» علی وزن (قفل) و هی فی الأصل بمعنی طحن الشیء و جعله ناعما کما تطلق علی الملابس القدیمة، إلّا أنّها هنا بمعنی البعد عن رحمة اللّه، و بناء علی هذا فإنّ مفهوم قوله تعالی: فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِیرِ هو: فبعدا لأصحاب النار عن رحمة اللّه، و لأنّ لعنة و غضب اللّه تعالی یکون توأما مع التجسید الخارجی له، فإنّ هذه الجملة بمثابة الدلیل علی أنّ هذه المجموعة بعیدة عن رحمة اللّه بشکل کلّی.

ملاحظة

المقام السامی للعقل:

لیست هذه هی المرّة الاولی التی یشیر فیها القرآن الکریم إلی مقام العقل السامی، کما أنّها لیست المرّة الاولی التی یصرّح فیها بأنّ العامل الأساسی لتعاسة الإنسان و دخوله عوالم الخسران و الضیاع و العاقبة التعیسة، و سقوطه و فی وحل الذنوب و جهنّم .. هو عدم الاستفادة من هذه القوّة الإلهیّة العظیمة، و إغفال هذه القدرة الجبّارة، و عدم استثمار هذه الجوهرة و النعمة الربّانیة، و ذلک واضح و بیّن لکل من قرأ القرآن و تدبّر آیاته، حیث یلاحظ أنّ هذا الأمر مؤکّد علیه فی مناسبات شتّی ..

و علی الرغم من الأکاذیب التی یطلقها البعض بأنّ الدین هو وسیلة لتخدیر العقول و الإعراض عن أوامرها و متطلّباتها، فإنّ الإسلام قد وضع أساس معرفة اللّه تعالی و سلوک طریق السعادة و النجاة، ضمن مسئولیة العقل.

لذا فإنّ القرآن الکریم یوجّه نداءاته بصورة مستمرّة و فی کلّ مکان إلی (أولو الألباب) و (أولو الأبصار) و أصحاب الفکر من العلماء و المتعمّقین فی شؤون المعرفة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۵

و لقد وردت فی المصادر الإسلامیة روایات کثیرة فی هذا الصدد، بشکل لا یمکن إحصاؤه، و الطریف أنّ کتاب الکافی المعروف، و الذی هو أکثر الکتب اعتبارا فی مجال الحدیث یحتوی علی (أبواب) أو (کتب) أوّلها کتاب باسم کتاب (العقل و الجهل) و کلّ من یلاحظ الروایات التی وردت بهذا الخصوص یدرک عمق النظرة الإسلامیة إلی هذه المسألة.

و نحن هنا نقتطف منها روایتین:

جاء فی حدیث عن الإمام علی علیه السّلام أنّه قال: «هبط جبرائیل علی آدم، فقال:

یا آدم، إنّی أمرت أن أخیّرک واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنین، فقال له آدم:

یا جبرائیل و ما الثلاث؟ فقال: العقل و الحیاء و الدین، فقال آدم إنّی قد اخترت العقل، فقال جبرئیل للحیاء و الدین: انصرفا و دعاه. فقالا: یا جبرئیل، إنّا أمرنا أن نکون مع العقل حیث کان، قال: فشأنکما و عرج»[۴۸۰].

و هذا من أجمل ما یمکن أن یقال فی العقل، و طبیعة علاقته مع الحیاء و الدین، إذ أنّ العقل إذا ما انفصل عن الدین فإنّ الدین سیکون فی مهبّ الریاح و یتعرّض إلی الانحراف بسبب الأهواء و فقدان الموازن الموضوعیة الأساسیة.

أمّا «الحیاء» الذی هو المانع و الرادع للإنسان عن ارتکاب القبائح و الذنوب، فهو الآخر من ثمار شجرة العقل و المعرفة.

و هکذا نری أنّ آدم علیه السّلام کان یتمتّع بدرجة عالیة من العقل، حیث أنّه علیه السّلام اختار العقل ممّا خیّر به من الأمور الثلاث، و بذلک اصطحب الدین و الحیاء أیضا.

و نقرأ

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من كان عاقلا كان له دين و من كان له دين دخل الجنّة»[۴۸۱].

و بناء على هذا فإنّ الجنّة هى مكان اولى الألباب، و من الطبيعى أنّ المقصود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۶

من العقل هنا: هو المعرفة الحقيقيّة الراسخة و ليس ألاعيب الشياطين التى تلاحظ فى أعمال و ممارسات السياسيين و الظالمين و المستكبرين فى عالمنا المعاصر.

حيث أنّ ذلك كما

يقول الإمام الصادق هو (شبيهة بالعقل، و ليست بالعقل)[۴۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۷

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۲ الى ۱۴]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ (۱۲) وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۱۳) أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (۱۴)

التّفسير

خالق الوجود عليم بأسراره:

بعد ما بيّنا- فى الأبحاث التى تناولتها الآيات السابقة- مصير الكفّار يوم القيامة، فإنّ القرآن الكريم يتناول فى الآيات مورد البحث حالة المؤمنين و جزاءهم العظيم عند اللّه سبحانه ..

يقول فى البداية: إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ.

«الغيب» هنا إشارة لمعرفة اللّه تعالى غير المرئية، أو الإشارة إلى المعاد غير المشاهد، أو يقصد به الأمران معا.

كما يحتمل أن يكون إشارة إلى الخوف من اللّه تعالى بسبب ما عمل الإنسان من خطايا و ذنوب فى السرّ، ذلك أنّ الإنسان إذا لم يقترف ذنوبا فى السرّ، فإنّه لن يجرأ عليها فى العلانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۸

و يحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى خلوص النيّة فى الابتعاد عن الذنوب و المعاصى، و الالتزام بالأوامر الإلهية، إذ أنّ العمل السرّى يكون أبعد عن الرياء.

كما لا مانع من الجمع بين هذه الآراء.

التعبير ب (مغفرة) بصورة (نكرة)، و كذلك (أجر كبير) إشارة إلى عظمته و أهميّته، إذ أنّ هذه المغفرة و هذا الأجر من العظمة أنّه غير معروف و لا واضح للجميع.

ثمّ يضيف للتأكيد: وَ أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ.

نقل بعض المفسّرين عن (ابن عبّاس) قوله فى سبب نزول هذه الآية: (إنّ جماعة من الكفّار- أو المنافقين- كانوا يذكرون الرّسول بالسوء بدون علمه، و كان جبرئيل عليه السّلام يخبر الرّسول بذلك، و كان بعضهم يقول للآخر (أسرّوا قولكم) فنزلت الآية أعلاه

موضّحة أنّ جهرهم أو إخفاءهم لأقوالهم هو ممّا يعلمه اللّه تعالى)[۴۸۳].

و تأتى الآية اللاحقة دليلا و تأكيدا على ما ورد فى الآية السابقة، حيث يقول تعالى: أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ.

ذكرت احتمالات متعدّدة فى تفسير عبارة: أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ فقال البعض:

إنّ القصد منها هو أنّ الذى خلق القلوب يعلم ما تكنّ فيها من أسرار.

أو أنّ الربّ الذى خلق العباد هل يجهل أسرارهم.

أو أنّه تعالى الذى خلق عالم الوجود جميعا عارف و مطلع بجميع أسراره، و عندئذ هل تكون أسرار الإنسان- الذى هو جزء من هذا العالم العظيم- خافية على اللّه تعالى؟

و لإدراك هذه الحقيقة لا بدّ من الالتفات إلى أنّ مخلوقات اللّه تعالى دائما تحت رعايته، و ذلك يعنى أنّ فيض وجوده يصل كلّ لحظة إلى مخلوقاته، فإنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۸۹

سبحانه لم يخلقهم ليتركهم بدون رعاية. و فى الأصل فإنّ جميع الممكنات مرتبطة دائما بوجوده تعالى، و إذا ما فقدت تعلّقها بذاته المقدّسة لحظة واحدة فإنّها ستسلك طريق الفناء، إنّ الانتباه و إدراك طبيعة هذه العلاقة القائمة و الخلقة و الأواصر الثابتة، هى أفضل دليل على علم اللّه بأسرار جميع الموجودات فى كلّ زمان و مكان.

«اللطيف» مأخوذ فى الأصل من (اللطف) و يعنى كلّ موضوع دقيق و ظريف، و كلّ حركة سريعة و جسم لطيف، و بناء على هذا فإنّ وصف اللّه تعالى ب (اللطيف) إشارة إلى علمه عزّ و جلّ بالأسرار الدقيقة للخلق، كما جاءت أحيانا بمعنى خلق الأجسام اللطيفة و الصغيرة و المجهرية و ما فوق المجهرية.

إنّ جميع ما ذكرنا سابقا إشارة إلى أنّ اللّه اللطيف عارف و مطّلع على جميع النوايا القلبية الخفية، و كذلك أحاديث السرّ، و الأعمال القبيحة التى تنجز فى الخفاء و الخلوة .. فهو تعالى يعلم بها جميعا.

قال بعض المفسّرين فى تفسير (اللطيف): (هو الذى يكلّف باليسير و يعطى الكثير).

و فى الحقيقة فإنّ هذا نوع من الدقّة فى الرحمة.

و قال البعض أيضا: إنّ وصفه تعالى ب (اللطيف) بلحاظ نفوذه سبحانه فى أعماق كلّ شىء، و لا يوجد مكان خال منه تعالى فى العالم أجمع، فهو فى كلّ مكان و كلّ شىء.

إنّ جميع هذه الأمور ترجع إلى حقيقة واحدة، و هى التأكيد على عمق معرفة اللّه سبحانه و علمه بالأسرار الظاهرة و الباطنة لجميع ما فى الوجود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۰

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۵ الى ۱۸]

اشارة

هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ (۱۵) أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ (۱۶) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِى السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (۱۷) وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۱۸)

التّفسير

لا أمان للعاصين من عقاب اللّه:

بعد الأبحاث التى استعرضناها فى الآيات السابقة بالنسبة لأصحاب النار و أصحاب الجنّة، و الكافرين و المؤمنين، يشير تعالى فى الآيات مورد البحث إلى بعض النعم الإلهية، ثمّ إلى أنواع من عذابه، و ذلك للترغيب و التشويق بالجنّة لأهل الطاعة، و الإنذار بالنار لأهل المعصية، يقول تعالى: هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا.

فَامْشُوا فِى مَناكِبِها وَ كُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُّشُورُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۱

«ذلول» بمعنى (مطيع) و هو أجمل تعبير يمكن أن يطلق على الأرض، لأنّ هذا المركب السريع السير جدّا، مع حركته المتعدّدة، يلاحظ هادئا إلى حدّ يبدو و كأنّه ساكنا بصورة مطلقة.

يقول بعض العلماء: إنّ للأرض أربع عشرة حركة مختلفة، ثلاث منها هى:

الاولى: حركتها حول نفسها.

و الثانية: حول الشمس.

و الثالثة: مع مجموعة المنظومة الشمسية فى وسط المجرّة.

هذه الحركات التى تكون سرعتها عظيمة، هى من التناسب و الانسجام إلى حدّ لم يكن ليصدق أحد أنّ للأرض حركة لو لا إقامة البراهين القطعية على حركتها.

هذا من جهة، و من جهة اخرى. فإنّ قشرة الأرض ليست قويّة و قاسية إلى حدّ لا يمكن معه العيش فوقها، و لا ضعيفة ليّنة لا قرار لها و لا هدوء، و بذلك فإنّها مناسبة لحياة البشر تماما، فلو كان معظم سطح الكرة الأرضية مغمورا بالوحل، و المستنقعات- مثلا- فعندئذ تتعذّر الاستفادة منها، و كذلك لو كانت الرمال الناعمة تغمرها فإن قدم الإنسان تغور فيها حتّى الركب، و كذا لو كانت مكوّناتها من الصخور الحادّة القاسية فعندئذ يتعذّر المشىء عليها، و من هنا يتّضح معنى استقرار الأرض و هدوئها.

و من جهة ثالثة فإنّ بعدها عن الشمس ليس هو بالقريب منها إلى حدّ يؤدّى بحرارة الشمس إلى أن تحرق كلّ شىء على وجهها، و لا هو ببعيد عنها بحيث يتجمّد كلّ شىء على سطحها.

و كذلك بالنسبة لضغط الهواء على الكرة الأرضية، فإنّه متناسب بما يؤدّى إلى هدوء الإنسان و راحته، فهو ليس بالشديد بالصورة التى يسبّب له الاختناق، و لا بالمنخفض بالشكل الذى يتلاشى فيه معه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۲

و الأمر نفسه يقال فى الجاذبية الأرضية، هى ليست شديدة إلى حدّ تتهشّم فيها عظام الإنسان، و لا بالضعيفة التى يكون فيها معلّقا لا يستطيع الاستقرار فى مكان.

و الخلاصة: إنّ الأرض (ذلول) و مطيعة و مسخّرة لخدمة الإنسان فى جميع المجالات، و الظريف هنا بعد وصفه تعالى للأرض بأنّها (ذلول) أمره لعباده بأن يسيروا فى (مناكبها).

و «مناكب» جمع (منكب) على وزن (مغرب) بمعنى الكتف، و بذلك تسخر الأرض للإنسان و يضع قدميه عليها سائرا على كتفها و هى هادئة و متوازية و محتفظة بتعادلها.

كما تحمل فى نفس الوقت إشارة إلى ضرورة السعى فى الأرض فى طلب الرزق و الحصل عليه، و إلّا فسيكون الحرمان نصيب القاعدين و المتخلّفين عن السعى.

إنّ التعبير ب (الرزق)- هنا- تعبير جامع و شامل، حيث يعنى كافّة الموارد الأرضية، و هو أعمّ من النعم الحيوانية و النباتية و المعدنية التى فيها.

و يجب الالتفات إلى أنّ هذا ليس هو الهدف الأساس لخلقكم، إذ أنّ كلّ ذلك وسائل فى طريق (نشوركم) و بعثكم و حياتكم الأبدية.

و بعد هذا الترغيب و التشويق يستعرض تعالى أسلوب التهديد و الإنذار فيقول سبحانه: أَ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ.

نعم، إنّ البارئ تعالى إذا أمر أو أراد فإنّ هذه الأرض الذلول الهادئة تكون فى حالة هيجان و طغيان كدابة جموح، تبدأ بالزلازل، و تتشقّق و تدفنكم و بيوتكم و مدنكم تحت ترابها و حجرها، و تبقى راجفة مضطربة مزمجرة بعد أن تقضى عليكم و على مساكنكم التى متّعتم فيها برهة من الزمن.

جملة (فإذا هى تمور) يمكن أن تكون إشارة إلى قدرة اللّه سبحانه على أن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۳

يأمر الأرض أن تبتلعكم، و تنقلكم باستمرار- و أنتم فى داخلها- من مكان إلى آخر بحيث أنّ الهدوء لا يشملكم حتّى و أنتم فى قبوركم.

و هكذا تفقد الأرض استقرارها و هدوأها إلى الأبد، و تسيطر الزلازل عليها، و هذا الأمر سهل الإدراك و التصوّر للذين عاشوا فى المناطق الزلزالية، و شاهدوا كيف أنّ الزلازل تستمر عدّة أيّام أحيانا و تبقى الأرض غير مستقرّة و تسلب من سكّان تلك المناطق لذّة النوم و الأكل و الراحة، غير أنّ تصوّر هذا الأمر بالنسبة إلى عامّة الناس الذين ألّفوا هدوء الأرض أمر صعب.

التعبير ب (من فى السماء) إشارة إلى ذات اللّه المقدّسة، و لمّا كانت حاكميته على جميع السماوات و من فيها من الأمور المسلّمة، فما بالك بحاكميته على الأرض، إنّها من الأمور التى لا شكّ فيها- أيضا- بل هى من باب الاولى.

قال البعض: إنّ العبارة السابقة إشارة إلى ملائكة اللّه سبحانه فى السماء المكلّفين بتنفيذ أوامره تعالى.

ثمّ يضيف سبحانه: أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فلا يلزم حتما حدوث زلزلة لتدميركم، بل يكفى أن نأمر عاصفة رملية لتدفنكم تحت رمالها .. و حينئذ ستعلمون حقيقة إنذارى و تهديدى: فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ.

إنّ إدراك طبيعة هذا التساؤل سهل بالنسبة إلى الأشخاص الذين عاشوا فى المناطق الرملية المتحرّكة و الرياح (الحاصبة)، (و هى الرياح التى تحرّك كميّات الحصى المتراكمة و تنقلها من مكان إلى آخر) فهؤلاء يدركون إمكانية دفن البيوت أو القرى فى لحظات تحت تلال من الحصى و الرمال المتحرّكة، و كذلك القوافل السائرة فى وسط الصحراء.

و فى الحقيقة فإنّ الآيات أعلاه تؤكّد أنّ عذاب العاصين و المجرمين لا ينحصر فى يوم القيامة فقط، حيث يستطيع البارئ عزّ و جلّ أن يقضى على حياتهم فى هذه الدنيا بحركة بسيطة للأرض، أو بحركة الرياح، و إن أفضل دليل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۴

على هذه الإمكانية الإلهية هو وقوع مثل هذه الأمور فى الأمم السابقة.

لذا فإنّ اللّه تعالى يقول فى آخر آية من هذه الآيات: وَ لَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ[۴۸۴].

نعم فلقد عاقبنا قسما من هؤلاء بالزلازل المدمّرة، و أقواما آخرين بالصواعق، و بالطوفان، و بالرياح .. و بقيت مدنهم المدمّرة موضع درس و اعتبار لمن كان له قلب واع.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۵

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۱۹ الى ۲۱]

اشارة

أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ما يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (۱۹) أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ إِنِ الْكافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ (۲۰) أَمَّنْ هذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِى عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ (۲۱)

التّفسير

انظروا إلى الطير فوقكم:

فى الآيات الاولى لهذه السورة كان البحث عن قدرة اللّه سبحانه و مالكيته، و عن السموات السبع و النجوم و الكواكب .. و يستمرّ هذا اللون من الحديث فى أوّل آية- مورد البحث- و ذلك بذكر مفردة اخرى من كائنات هذا الوجود، و التى تبدو فى ظاهرها صغيرة و يقول تعالى: أ وَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافَّاتٍ وَ يَقْبِضْنَ ۴۸۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۶

هذه الأجسام بالرغم من قانون الجاذبية الأرضية تنطلق من الأرض و تحلّق ساعات فى السماء بكلّ راحة، و أحيانا أيّاما و أسابيع و شهورا، و تستمر بحركتها السريعة المرنة و بدون أى مشاكل.

فالبعض منها يفتح جناحية عند الطيران (صافات) و كأنّ هنالك قوّة خفيّة تحرّكه، و الاخرى ترفرف بأجنحتها عند الطيران بصورة مستمرة و قد تكون (يقبضن) إشارة إلى هذا المعنى.

و تطير مجاميع اخرى بتحريك أجنحتها تارة و فتحها اخرى. كما أنّ هنالك قسما آخر يحرّك أجنحته لفترة عند الطيران، و عند ما يحقّق سرعة معيّنة يجمعها بصورة كلية ك (العصفور).

و خلاصة القول: فإنّ الطيران واحد، إلّا أنّ صوره مختلفة و لكلّ طريقته و برنامجه الخاصّ به.

فمن يا ترى خلق أجسام هذه الطيور بهذه الصورة التى جعلها تستطيع السير فى الهواء بكلّ سهولة و راحة؟. و من ذا الذى وهبها هذه القدرة و علّمها الطيران، خصوصا حالات الطيران الجماعى المعقد للطيور المهاجرة، التى تستمرّ- أحيانا- شهورا عديدة، و تقطع فى رحلتها هذه الاف الكيلومترات، و تمرّ بأجواء بلدان كثيرة، و تجتاز الجبال و الوديان و الغابات و البحار حتّى تصل إلى مقصدها؟ فمن يا ترى علم و أعطى هذه الطيور كلّ هذه القوّة، و هذا الوعى و المعرفة؟

لذا يقول فى ختام الآية ما يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

إنّه اللّه تعالى الذى وضع باختيارها الوسائل و القوى و الإمكانات المختلفة للطيران، نعم، إنّ اللّه الرحمن الذى شملت رحمته الواسعة جميع الكائنات، و أعطى للطيور ما هو موضع حاجتها فى الطيران، و حافظ عليها فى السماء، هو بذاته المقدّسة يحفظ الأرض و الكائنات الاخرى. و عند ما يشاء غير ذلك فلن يكون عندئذ للطيور قدرة الطيران و لا للأرض حالة الهدوء و الاستقرار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۷

التعبير ب (الصافات و يقبضن) لعلّه إشارة إلى طيور مختلفة أو لحالات متنوّعة من الطيران ۴۸۶].

و لقد بحثنا بشكل تفصيلى عجائب عالم الطيور و غرائب مسألة الطيران فى تفسير الآية (۷۹) من سورة النحل.

ثمّ يشير تعالى فى الآية اللاحقة إلى أنّ الكافرين ليس لهم أى عون أو مدد مقابل قدرة اللّه عزّ و جلّ حيث يقول: أَمَّنْ هذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ ۴۸۷].

إنّ هؤلاء الذين هم (جند لكم) ليسوا عاجزين عن مساعدتكم و نصرتكم فحسب، بل إذا شاء الرحمن جعلها سبب عذابكم و دماركم، و حتّى هذه النعم المسخّرة لسعادتكم كالماء و الهواء و التراب و النار و التى تمثّل ركنا أساسيا من أركان حياتكم لا يمكنها أن تنقذكم من البلاء، بل إنّها نفسها إذا أمرت فإنّها ستكون موضع عذابكم و موتكم و نقمة عليكم.

نعم لقد كانت هذه النعم سببا لهلاك و دمار كثير من الأقوام العاصين و يحدّثنا التاريخ أنّ الكثير من الجبابرة و الطغاة و المتمرّدين على أوامر اللّه كان هلاكهم على يد أقرب الناس إليهم، و هذا ما يلاحظ كذلك فى عصرنا أيضا، حيث أنّ أكثر المجاميع وفاء للسلطة تثور ضدّهم و ينتقم اللّه من هؤلاء الظالمين بالظالمين الذين كانوا عونا لهم.

ألا إِنِ الْكافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ فلقد أعمت عقولهم حجب الجهل و الغرور، و لا يعتبرون أو يتّعظون بما حصل للأقوام البائدة السابقة، و لا لما يصيب الآخرين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۸

فى حياتنا المعاصرة.

«جند» فى الأصل بمعنى الأرض غير المستوية و القويّة، و التى تتجمّع فيها الصخور الكثيرة، و لهذا السبب فإنّ هذه الكلمة (جند) تطلق على العدد الكثير من الجيش.

و قد اعتبر بعض المفسّرين كلمة (جند) فى الآية- مورد البحث- إشارة إلى الأصنام، التى لا تستطيع مطلقا تقديم العون للمشركين فى يوم القيامة، إلّا أنّ للآية فى الظاهر مفهوما واسعا و الأصنام أحد مصاديقها.

ثمّ يضيف سبحانه مؤكّدا ما سبق: أَمَّنْ هذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۴۸۸].

فإذا أمر اللّه السماء أن تمتنع عن المطر، و الأرض عن الإنبات، و أمر الآفات الزراعية بالفتك بالمحاصيل .. فمن القادر غيره أن يطعمكم الطعام؟

و إذا ما قطع اللّه الرزق المعنوى عنكم و الوحى السماوى من الوصول إليكم، فمن القادر غيره على إرشادكم و إنقاذكم من براثن الضلال؟ إنّها لحقائق واضحة و أدلّة دامغة، إلّا أنّ العناد هو الذى يشكّل حجابا للإدراك و للشعور الحقّ: بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ.

و حتّى فى حياتنا المعاصرة و مع كلّ ألوان التقدّم العلمى فى الجوانب المختلفة، خصوصا فى مجال الصناعة الغذائية. فإذا ما منع اللّه المطر عن الأرض سنة واحدة فيا لها من فاجعة عظمى تحلّ بالعلم، و إذا ما أصيبت النباتات بالجراد و الآفات سنة واحدة فيا لها من كارثة كبرى تحلّ بالبشرية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۴۹۹

ملاحظة

العوامل الأربعة فى محرومية البشر:

استعرضت الآيات السابقة أهمّ العوامل التى أدّت بالعصاة و المتمرّدين على أوامر البارئ عزّ و جلّ إلى المصير البائس و العاقبة الخائبة.

و كانت أهمّ هذه العوامل: إعراض آذانهم عن الإصغاء، و عقولهم عن الفهم، و قلوبهم عن الوعى ..

كما كانت فى الآيات مورد البحث أربعة عوامل اخرى ساهمت فى العاقبة السيّئة لهؤلاء التى هى: بؤس الإنسان و ضلاله، هذه العوامل هى: (الغرور) و (اللجاجة) و (العتوّ) و (النفور).

و إذا ما أمعنا النظر جيّدا فى هذه العوامل فإنّنا نلاحظ أنّ لها ارتباطا مع العوامل السابقة، حيث أنّ هذه الصفات الرديئة تولّد حجابا

علی الآذان و العیون و البصائر، و تمنع الإنسان من إدراک الحقائق.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص ۵۰۰

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۰

الآیات [سورة الملک (۶۷): الآیات ۲۲ الی ۲۷]

اشارة

أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلی وَجْهِهِ أَهْدی أَمَّنْ یَمْشِی سَوِیًّا عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ (۲۲) قُلْ هُوَ الَّذِی أَنْشَأَکُمْ وَ جَعَلَ لَکُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِیلًا ما تَشْکُرُونَ (۲۳) قُلْ هُوَ الَّذِی ذَرَأَکُمْ فِی الْأَرْضِ وَ إِلَیْهِ تُحْشَرُونَ (۲۴) وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (۲۵) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (۲۶)
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِیئَتْ وُجُوهُ الَّذِینَ کَفَرُوا وَ قِیلَ هذَا الَّذِی کُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (۲۷)

التّفسیر

السائر سویّا علی جادّة التوحید:

تعقیبا لما ورد فی الآیات السابقة بالنسبة إلی الکافرین و المؤمنین، فإنّ اللّه تعالی یصوّر لنا- فی أوّل آیة من هذه الآیات- حالة هاتین المجموعتین ضمن تصویر رائع و لطیف، حیث یقول تعالی: أَ فَمَنْ یَمْشِی مُکِبًّا عَلی وَجْهِهِ أَهْدی أَمَّنْ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۱

یَمْشِی سَوِیًّا عَلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ

فهنا شبه المعاندین و المغرورین کمن یسیر فی جادّة متعرّجة غیر مستویة کثیرة المنعطفات و قد وقع علی وجهه، یحرّک یدیه و رجلیه للاهتداء إلی سبیله، لأنّه لا یبصر طریقه جیّدا، و لیس بقادر علی السیطرة علی نفسه، و لا بمطّلع علی العقبات و الموانع، و لیست لدیه القوّة للسیر سریعا، و بذلک یتعثّر فی سیره .. یمشی قلیلا ثمّ یتوقّف حائرا.

کما شبّه المؤمنین برجال منتصبی القامات، یسیرون فی جادّة مستویة و مستقیمة لیس فیها تعرّجات و اعوجاج، و یمشون فیها بسرعة و وضوح و قدرة و وعی و علم و راحة تامّة.

إنّه- حقّا- لتشبیه لطیف فذّ، حیث إنّ آثار هذین السبیلین واضحة تماما، و انعکاساتها جلیّة فی حیاة هذین الفریقین، و ذلک ما نلاحظه بأمّ أعیننا.

و یری البعض أنّ مصداق هاتین المجموعتین هما: (الرّسول الأکرم) و (أبو جهل) فهما مصادیق واضحة للآیة الکریمة، إلّا أنّ ذلک لا یحدّد عمومیة الآیة.

و ذکرت احتمالات متعدّدة فی تفسیر (مکبّا علی وجهه). إلّا أنّ أکثر الاحتمالات المنسجمة مع المفهوم اللغوی للآیة هو ما ذکرناه أعلاه، و هو أنّ الإنسان غیر المؤمن یکون مکبّا علی وجهه و یمشی زاحفا بیده و رجلیه و صدره.

و قیل أنّ المقصود من (مکبّا) هو المشی الاعتیادی و لکنّه مطأطئ الرأس لا یشخّص مسیره بوضوح أبدا.

کما یری آخرون أنّ المقصود ب (مکبّا) هو الشخص الذی لا یستطیع أن یحفظ توازنه فی السیر، فهو یخطو خطوات معدودة ثمّ ما

يلبث أن يسقط على الأرض و ينهض ليمشى، ثمّ تتكرّر هذه الحالة.

و يستفاد ممّا ذكره الراغب فى مفرداته أنّ المقصود ب (مكبّا) هو الشخص الذى يدور حول محور الذات و الأنانية، معرضا عن الاهتمام بغيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۲

إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر، و ذلك بقرينة المقابلة مع وضع المؤمنين و الذين عبّرت عنهم الآية ب (سويّا).

و على كلّ حال، فهل أنّ هذه الحالة (مكبّا) و (سويّا) تمثّل وضع الكفّار و المؤمنين فى الآخرة فقط؟ أم فى العالمين (الدنيا و الآخرة)؟ لا دليل على محدودية مفهوم الآية و انحصارها فى الآخرة، فهما فى الدنيا كما هما فى الآخرة.

إنّ هؤلاء الأنانيين المنشدّين إلى مصالحهم الماديّة و المنغمسين فى شهواتهم، السائرين فى درب الضلال و الهوى، كمن يروم العبور من مكان ملىء بالأحجار زاحفا على صدره، بخلاف من تحرّر من قيد الهوى فى ظلّ الإيمان حيث يكون مسيره واضحا و مستقيما و نظراته عميقة و ثاقبة.

ثمّ يوجّه اللّه تعالى الخطاب إلى الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية اللاحقة فيقول: قُلْ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ

إنّ اللّه تعالى جعل لكم وسيلة للمشاهدة و الإبصار (العين) و كذلك وسيلة و قناة للاطّلاع على أفكار الآخرين و معرفة و جهات نظرهم من خلال الاستماع (الإذن) ثمّ وسيلة اخرى للتفكّر و التدبّر فى العلوم و المحسوسات و اللامحسوسات (القلب).

و خلاصة الأمر إنّ اللّه تعالى قد وضع جميع الوسائل اللازمة لكم لتتعرّفوا على العلوم العقلية و النقلية، إلّا أنّ القليل من الأشخاص من يدرك هذه النعم العظيمة و يشكر اللّه المنعم، حيث أنّ شكر النعمة الحقيقى يتجسّد بتوجيه النعمة نحو الهدف الذى خلقت من أجله، ترى من هو المستفيد من هذه الحواس (العين و الاذن و العقل) بصورة صحيحة فى هذا الطريق؟

ثمّ يخاطب الرّسول مرّة اخرى حيث يقول تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

و فى الحقيقة فإنّ الآية الاولى تعيّن (المسير)، و الثانية تتحدّث عن (وسائل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۳

العمل) أمّا الآية- مورد البحث- فإنّها تشخّص (الهدف و الغاية) و ذلك بالتأكيد على أنّ السير يجب أن يكون فى الطريق المستقيم، و الصراط الواضح المتمثّل بالإسلام و الإيمان، و بذل الجهد للاستفادة من جميع وسائل المعرفة بهذا الاتّجاه، و التحرّك نحو الحياة الخالدة.

و الجدير بالملاحظة هنا أنّ التعبير فى الآية السابقة ورد ب (أنشأكم) و فى الآية مورد البحث ب (ذرأكم)، و لعلّ تفاوت هذين التعبيرين هو أنّه فى الأولى إشارة إلى الإنشاء و الإيجاد من العدم (أى إنّكم لم تكونوا شيئا و قد خلقكم اللّه تعالى) و فى الثانية إشارة إلى خلق الإنسان من مادّة التراب، و ذلك يعنى أنّ اللّه خلق الإنسان من التراب.

ثمّ يستعرض سبحانه قول المشركين فى هذا المجال و الردّ عليهم، فيقول تعالى: وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

إنّ المشركين يطالبون بتعيين التاريخ بصورة دقيقة ليوم القيامة، كما أنّهم يطالبون بحسم هذا الأمر الذى يتعلّق بمصير الجميع مَتى هذَا الْوَعْدُ؟.

و ذكروا احتمالين فى المقصود من (هذا الوعد): الأوّل: هو وعد يوم القيامة، و الآخر: هو تنفيذ الوعد بالنسبة للعقوبات الدنيوية المختلفة، كوقوع الزلازل و الصواعق و الطوفانات. إلّا أنّ المعنى الأوّل أكثر تناسبا حسب الظاهر، و ذلك بلحاظ ما ورد فى الآية السابقة. كما أنّ بالإمكان الجمع بين المعنيين.

و يجيبهم اللّه سبحانه على تساؤلهم هذا بقوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ

إنّ هذا التعبير يشبه تماما ما ورد فى الآيات القرآنية العديدة التى من جملتها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۴

قوله تعالى: قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى ۴۸۹].

و لا بدّ أن يكون الجواب بهذه الصورة، حيث أنّ تحديد تأريخ يوم القيامة إن كان بعيدا فإنّ الناس سيغرقون بالغفلة، و إن كان قريبا فإنّهم سيعيشون حالة الهلع و الاضطراب. و على كلّ حال فإنّ الأهداف التربوية تتعطّل فى الحالتين.

و يضيف فى آخر آية من هذه الآيات بأنّ الكافرين حينما يرون العذاب و الوعد الإلهى من قريب تسودّ وجوههم: فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فسيماهم طافحة بآثار الحزن و الندم وَ قِيلَ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ

«تدعون» من مادّة (دعاء) يعنى أنّكم كنتم تدعون و تطلبون دائما أن يجىء يوم القيامة، و ها هو قد حان موعده، و لا سبيل للفرار منه ۴۹۰].

و هذا المضمون يشبه ما جاء فى قوله تعالى مخاطبا الكفّار فى يوم القيامة:

هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۴۹۱].

و على كلّ حال، فإنّ الآية الشريفة ناظرة إلى عذاب يوم القيامة كما ذهب إليه أغلب المفسّرين، و هذا دليل على أنّ جملة مَتى هذَا الْوَعْدُ إشارة إلى موعد يوم القيامة.

يقول الحاكم أبو القاسم الحسكانى: عند ما شاهد الكفّار شأن و مقام الإمام على عليه السّلام عند اللّه تعالى. اسودّت وجوههم (من شدّة الغضب)[۴۹۲].

و نقل هذا المعنى أيضا

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّ هذه الآية نزلت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۵

بحقّ أمير المؤمنين على عليه السّلام و أصحابه ۴۹۳].

و هذا التّفسير نقل عن طرق الشيعة و أهل السنّة، و هو نوع من التطبيق المصداقى، و إلّا فإنّ هذه الآية تناولت موضوع (القيامة) و مثل هذه التطبيقات ليست قليلة فى عالم الروايات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۶

الآيات [سورة الملك (۶۷): الآيات ۲۸ الى ۳۰]

اشارة

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (۲۸) قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۲۹) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ (۳۰)

التّفسير

من الذى يأتيكم بالمياه الجارية؟

إنّ الآيـات أعلاه، التى هى آخر آيات سورة الملك، تبـدأ جميعها بكلمـة (قل) مخاطبـة الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، حيث أنّها تمثّل استمرارا للأبحاث التى مرّت فى الآيات السابقة حول الكفّار، و تعكس هذه الآيات الكريمة جوانب اخرى من البحث. يخاطب البارئ عزّ و جلّ- فى البداية- الأشـخاص الذين يرتقبون وفاة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أصـحابه، و يتصوّرون أنّ بوفاته سوف يمحى دين الإسلام و ينتهى كلّ شىء. و هذا الشعور كثيرا ما ينتاب الأعداء المخذولين إزاء القيادات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۷

القويّة و المؤثّرة، يقول تعالى مخاطبا إيّاهم: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَ مَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنا فَمَنْ يُجِيرُ الْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ

ورد فى بعض الروايـات أنّ كفّار مكّـة، كانوا دائما يسبّون الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المسـلمين، و كانوا يتمنّون موته ظنّا منهم أنّ رحيله سينهى دعوته كذلك، لذا جاءت الآية أعلاه ردّا عليهم.

كما جاء شبيه هذا المعنى فى قوله تعالى: أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۴۹۴].

لقد كانوا غافلين عن وعد اللّه سـبحانه لرسوله الأمين، بأنّ اسـمه سـيكون مقترنا مع مبدأ الحقّ الذى لا يعتريه الفناء و إذا جاء أجله فإنّ ذكره لن ينـدرس، نعم، لقـد وعده اللّه سـبحانه بانتصار هذا المبدأ، و أن ترفرف راية هذا الدين على كلّ الدنيا، و حياة الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو موته لن يغيّرا من هذه الحقيقة شيئا.

كما ذكر البعض تفسـيرا آخر لهذه الآية و هو: إنّ خطاب اللّه لرسوله الكريم- الذى يشمل المؤمنين أيضا- مع ما عليه صلّى اللّه عليه و آله و سـلّم من الإيمان الراسخ، كان يعكس الخوف و الرجاء معا فى آن واحد. فكيف بكم أنتم أيّها الكافرون؟ و ما الذى تفكّرون به لأنفسكم؟

و لكن التّفسير الأوّل أنسب حسب الظاهر.

و استمرارا لهذا البحث، يضيف تعالى: قُلْ هُوَ الرَّحْمنُ آمَنَّا بِهِ وَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ

و هـذا يعنى أنّنـا إذا آمنا باللّه، و اتّخـذناه وليّا و وكيلا لنا، فإنّ ذلك دليل واضـح على أنّه الربّ الرحمن، شـملت رحمته الواسـعة كلّ شىء، و غمر فيض ألطافه و نعمه الجميع (المؤمن و الكافر)، إنّ نظرة عابرة إلى عالم الوجود و صفحة الحياة تشهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۸

على هذا المدّعى، أمّا الذين تعبدونهم من دون اللّه فما ذا عملوا؟ و ما ذا صنعوا؟

و بالرغم من أنّ ضـلالكم واضح هنا فى هذه الدنيا، إلّا أنّه سيتّضح بصورة أكثر فى الدار الآخرة. أو أنّ هذا الضلال و بطلان دعاواكم الفارغة ستظهر فى هذه الدنيا عند ما ينتصر الإسلام بالإمدادات الإلهية على جيش الكفر بشكل إعجازى و خارق للعادة، عندئذ ستتبيّن الحقيقة أكثر للجميع.

إنّ هـذه الآيـة- فى الحقيقـة- نوع من المواساة للرسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و المؤمنين، كى لا يظنّوا أو يتصوّروا أنّهم وحدهم فى هذا الصراع الواسع بين الحقّ و الباطل، حيث أنّ الرحمن الرحيم خير معين لهم و نعم الناصر.

و يقول تعالى فى آخر آية، عارضا لمصداق من رحمته الواسـعة، و التى غفل عنها الكثير من الناس: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ

إنّ للأرض فى الحقيقة قشرتين متفاوتين: (قشرة قابلة للنفوذ) يدخل فيها الماء، و اخرى (غير قابلة للنفوذ) تحفظ بالماء، و جميع العيون و الآبـار و القنوات تولّدت من بركـات هـذا التركيب الخـاصّ للأرض، إذ لو كانت القشـرة القابلـة للنفوذ لوحـدها على سـطح الكرة الأرضـية جميعـا و لأعماق بعيـدة، فإنّ جميع المياه التى تـدخل جوف الأرض لا يقرّ لها قرار، و عندئـذ لا يمكن أن يحصل أحـد على قليـل من المـاء. و لو كـانت قشـرة الأرض غير قابلـة للنفوذ لتجمّعت المياه على سـطحها و تحوّلت إلى مسـتنقع كبير، أو أنّ المياه التى تكون على سطحها سرعان ما تصبّ فى البحر، و هكذا يتمّ فقدان جميع الذخائر التى هى تحت الأرض.

إنّ هذا نموذج صغير من رحمة اللّه الواسعة يتعلّق بموت الإنسان و حياته.

«معين» من مادّة (معن)، على وزن (طعن) بمعنى جريان الماء.

و قال آخرون: إنّها مأخوذة من (عين) و الميم زائدة. لذا فإنّ بعض المفسّرين ذهبوا إلى أنّ معنى (معين) تعنى الماء الذى يشاهد بالعين بغضّ النظر عن جريانه.

إلّا أنّ الغالبية فسّروه بالماء الجارى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۰۹

و بالرغم من أنّ الماء الصالح للشرب لا ينحصر بالماء الجارى، إلّا أنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الماء الجارى يمثّل أفضل أنواع ماء الشرب، سواء كان من العيون أو الأنهار أو القنوات أو الآبار المتدفّقة ..

و نقل بعض المفسّرين أنّ أحد الكفّار عند ما سمع قوله تعالى: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِماءٍ مَعِينٍ قال: (رجال شداد و معاول حداد) و عند نومه ليلا نزل الماء الأسود فى عينيه، و فى هذه الأثناء سمع من يقول: أتى بالرجال الشداد و المعاول الحداد ليخرجوا الماء من عينيك.

و من الواضح أنّه فى حالة عدم وجود القشرة الصلبة و غير القابلة للنفوذ، فإنّه لا يستطيع أى إنسان قوى و لا أى معول حادّ أن يستخرج شيئا من الماء[۴۹۵].

تعقيب

جاء فى الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام أنّ المراد من الآية الأخيرة من هذه السورة هو ظهور الإمام المهدى عليه السّلام و عدله الذى سيعمّ العالم.

فقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «نزلت فى الإمام القائم عليه السّلام، يقول: إن أصبح إمامكم غائبا عنكم، لا تدرون أين هو؟ فمن يأتيكم بإمام ظاهر يأتيكم بأخبار السموات و الأرض، و حلال اللّه و حرامه؟ ثمّ قال: و اللّه ما جاء تأويل هذه الآية، و لا بدّ أن يجىء تأويلها»[۴۹۶].

و الروايات فى هذا المجال كثيرة، و ممّا يجدر الانتباه له أنّ هذه الروايات هى من باب (التطبيق).

و بعبارة اخرى فإنّ ظاهر الآية مرتبط بالماء الجارى، و الذى هو علّة حياة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۰

الموجودات الحيّة. أمّا باطن الآية فإنّه يرتبط بوجود الإمام عليه السّلام و علمه و عدالته التى تشمل العالم، و التى هى الاخرى تكون سببا لحياة و سعادة المجتمع الإنسانى.

و لقد ذكرنا مرّات عدّة أنّ للآيات القرآنية معانى متعدّدة، حيث لها معنى باطن و ظاهر، إلّا أنّ فهم باطن الآيات غير ممكن إلّا للرسول و الإمام المعصوم، و لا يحقّ لأى أحد أن يطرح تفسيرا ما لباطن الآيات. و ما نستعرضه هنا مرتبط بظاهر الآيات، أمّا ما يرتبط بباطن الآيات فعلينا أن نأخذه من المعصومين عليهم السّلام فقط.

لقد بدأت سورة الملك بحاكمية اللّه و مالكيته تعالى، و انتهت برحمانيته، و التى هى الاخرى فرع من حاكميته و مالكيته سبحانه، و بهذا فإنّ بدايتها و نهايتها منسجمتان تماما.

اللهمّ، أدخلنا فى رحمتك العامّة و الخاصّة، و أرو ظمآنا من كوثر ولاية أولياءك.

ربّنا، عجّل لنا ظهور عين ماء الحياة الإمام المهدى، و اطفئ عطشنا بنور جماله ..

ربّنا، ارزقنا اذنا صاغية و عينا بصيرة و عقلا كاملا، فأقشع عن قلوبنا حجب الأنانية و الغرور لنرى الحقائق كما هى، و نسلك إليك

علی الصراط المستقیم بخطوات محکمة و قامة منتصبة ..

آمین ربّ العالمین نهایة سورة الملک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۱

سورة القلم

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها اثنتان و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۳

«سورة القلم»

محتوی السورة:

بالرغم من أنّ بعض المفسّرین شکّک فی کون السورة بأجمعها نزلت فی مکّة، إلّا أنّ نسق السورة و محتوی آیاتها ینسجم تماما مع السور المکیّة، لأنّ المحور الأساسی فیها یدور حول مسألة نبوّة رسول الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و مواجهة الأعداء الذین کانوا ینعتونه بالجنون و غیره، و التأکید علی الصبر و الاستقامة و تحدّی الصعاب، و إنذار و تهدید المخالفین لهذه الدعوة المبارکة بالعذاب الألیم.

و بشکل عامّ یمکن تلخیص مباحث هذه السورة بسبعة أقسام:

۱- فی البدایة تستعرض السورة بعض الصفات الخاصّة لرسول الإنسانیة محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و خصوصا أخلاقه البارّة السامیة الرفیعة، و لتأکید هذا الأمر یقسم البارئ عزّ و جلّ فی هذا الصدد.

۲- ثمّ تتعرّض بعض الآیات الواردة فی هذه السورة إلی قسم من الصفات السیّئة و الأخلاق الذمیمة لأعدائه.

۳- کما یبیّن قسم آخر من الآیات الشریفة قصّة (أصحاب الجنّة) و التی هی بمثابة توجیه إنذار و تهدید للسالکین طریق العناد من المشرکین.

۴- و فی قسم آخر من السورة ذکرت عدّة امور حول القیامة و العذاب الألیم للکفّار فی ذلک الیوم.

۵- کما جاء فی آیات اخری جملة إنذارات و تهدیدات للمشرکین.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۴

۶- و نلاحظ فی آیات اخری من السورة الأمر الإلهی للرسول العظیم محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأن یواجه الأعداء بصبر و استقامة و قوّة و صلابة.

۷- و أخیرا تختتم السورة موضوعاتها بحدیث حول عظمة القرآن الکریم، و طبیعة المؤامرات التی کان یحوکها الأعداء ضدّ الرّسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

انتخاب (القلم) اسما لهذه السورة المبارکة، کان بلحاظ ما ورد فی أوّل آیة منها، و ذکر البعض الآخر أنّ اسمها (ن).

و یستفاد من بعض الروایات التی وردت فی فضیلة هذه السورة أنّ اسمها «ن و القلم».

فضیلة تلاوة سورة القلم:

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى فضيلة تلاوة هذه السورة أنّه قال: «من قرأ (ن و القلم) أعطاه اللّه ثواب الذين حسن أخلاقهم»[۴۹۷].

كما نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ سورة (ن و القلم) فى فريضة أو نافلة، آمنه اللّه أن يصيبه فى حياته فقر أبدا، و أعاذه إذا مات من ضمّة القبر، إن شاء اللّه»[۴۹۸].

و هذا الأجر و الجزاء يتناسب تناسبا خاصّا مع محتوى السورة، و الهدف من التأكيد على هذا النوع من الأجر من تلاوة السورة هو أن تكون التلاوة مقرونة بالوعى و المعرفة و من ثمّ العمل بمحتواها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۵

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ن وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ (۱) ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (۲) وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (۳) وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (۴) فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ (۵) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (۶) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۷)

التّفسير

عجبا لأخلاقك السامية:

هذه السورة هى السورة الوحيدة التى تبدأ بحرف (ن) حيث يقول تعالى:

ن

و قد تحدّثنا مرّات عديدة حول الحروف المقطّعة، خصوصا فى بداية سورة (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف) و الشىء الذى يجدر إضافته هنا هو ما اعتبره البعض من أنّ (ن) هنا تخفيف لكلمة (الرحمن) فهى إشارة لذلك. كما أنّ البعض الآخر فسّرها بمعنى (اللوح) أو (الدواة) أو (نهر فى الجنّة) إلّا أنّ كلّ تلك الأقوال ليس لها دليل واضح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۶

و بناء على هذا فإنّ الحرف المقطّع هنا لا يختلف عن تفسير بقيّة الحروف المقطّعة و التى أشرنا إليها سابقا.

ثمّ يقسم تعالى بموضوعين يعتبران من أهمّ المسائل فى حياة الإنسان، فيقول تعالى: وَ الْقَلَمِ وَ ما يَسْطُرُونَ

كم هو قسم عجيب؟ و قد يتصوّر أنّ القسم هنا يتعلّق ظاهرا بمواضيع صغيرة، أى قطعة من القصب- أو شىء يشبه ذلك- و بقليل من مادّة سوداء، ثمّ السطور التى تكتب و تخطّ على صفحة صغيرة من الورق.

إلّا أنّنا حينما نتأمّل قليلا فيه نجده مصدرا لجميع الحضارات الإنسانية فى العالم أجمع، إنّ تطور و تكامل العلوم و الوعى و الأفكار و تطور المدارس الدينية و الفكرية، و بلورة الكثير من المفاهيم الحياتية .. كان بفضل ما كتب من العلوم و المعارف الإنسانية فى الحقول المختلفة، ممّا كان له الأثر الكبير فى يقظة الأمم و هداية الإنسان .. و كان ذلك بواسطة (القلم).

لقد قسّمت حياة الإنسان إلى عصرين: (عصر التأريخ) و (عصر ما قبل التأريخ) و عصر تأريخ البشر يبدأ منذ أن اخترع الإنسان الخطّ و

استطاع أن يدوّن قصّة حياته و أحداثها على الصفحات، و بتعبير آخر، يبدأ عند ما أخذ الإنسان القلم بيده، و دوّن للآخرين ما توصّل إليه (و ما يسطرون) تخليدا لماضيه.

و تتّضح عظمة هذا القسم بصورة أكثر عند ما نلاحظ أنّ هذه الآيات المباركة حينما نزلت لم يكن هنالك كتاب و لا أصحاب قلم، و إذا كان هنالك أشخاص يعرفون القراءة و الكتابة، فإنّ عددهم فى كلّ مكّة- التى تمثّل المركز العبادى و السياسى و الاقتصادى لأرض الحجاز- لم يتجاوز ال (۲۰) شخصا. و لذا فإنّ القسم ب (القلم) فى مثل ذلك المحيط له عظمة خاصّة.

و الرائع هنا أنّ الآيات الاولى التى نزلت على قلب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى (جبل النور) أو (غار حراء) قد أشير فيها أيضا إلى المنزلة العليا للقلم، حديث يقول تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۷

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ ۴۹۹].

و الأروع من ذلك كلّه أنّ هذه الكلمات كانت تنطلق من فمّ شخص لم يكن يقرأ أو يكتب، و لم يذهب للمكاتب من أجل التعليم قطّ، و هذا دليل أيضا على أنّ ما ينطق به لم يكن غير الوحى السماوى.

و ذكر بعض المفسّرين أنّ كلمة (القلم) هنا يقصد بها: (القلم الذى تخطّ به ملائكة اللّه العظام الوحى السماوى)، (أو الذى تكتب به صفحة أعمال البشر)، و لكن من الواضح أنّ للآية مفهوما واسعا، و هذه الآراء تبيّن مصاديقها.

كما أنّ لجملة ما يَسْطُرُونَ مفهوما واسعا أيضا، إذ تشمل جميع ما يكتب فى طريق الهداية و التكامل الفكرى و الأخلاقى و العلمى للبشر، و لا ينحصر بالوحى السماوى أو صحائف أعمال البشر[۵۰۰].

ثمّ يتطرّق سبحانه لذكر الأمر الذى أقسم من أجله فيقول تعالى: ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ

إنّ الذين نسبوا إليك هذه النسبة القبيحة هم عمى القلوب و الأبصار، و إلّا فأين هم من كلّ تلك النعم الإلهية التى وهبها اللّه لك؟ نعمة العقل و العلم الذى تفوّقت بها على جميع الناس و نعمة الأمانة و الصدق و النبوّة و مقام العصمة ... إنّ الذين يتّهمون صاحب هذا العقل الجبّار بالجنون هم المجانين فى الحقيقة، إنّ ابتعادهم عن دليل الهداية و موجّه البشرية لهو الحمق بعينه.

ثمّ يضيف تعالى بعد ذلك: وَ إِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ أى غير منقطع، و لم لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۸

يكون لك مثل هذا الأجر، فى الوقت الذى وقفت صامدا أمام تلك التّهم و الافتراءات اللئيمة، و أنت تسعى لهدايتهم و نجاتهم من الضلال و واصلت جهدك فى هذا السبيل دون تعب أو ملل؟

«ممنون» من مادّة (منّ) بمعنى (القطع) و يعنى الأجر و الجزاء المستمرّ الذى لا ينقطع أبدا، و هو متواصل إلى الأبد، يقول البعض: إنّ أصل هذا المعنى مأخوذ من «المنّة»، بلحاظ أنّ المنّة توجب قطع النعمة.

و قال البعض أيضا: إنّ المقصود من غَيْرَ مَمْنُونٍ هو أنّ اللّه تعالى لم تكن لديه منّة مقابل هذا الأجر العظيم. إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

و تعرض الآية اللاحقة و صفا آخر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك بقوله تعالى:

وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

تلك الأخلاق التى لا نظير لها، و يحار العقل فى سموّها و عظمتها من صفاء لا يوصف، و لطف منقطع النظير، و صبر و استقامة و تحمّل لا مثيل لها، و تجسيد لمبادئ الخير حيث يبدأ بنفسه أوّلا فيما يدعو إليه، ثمّ يطلب من الناس العمل بما دعا إليه و الالتزام به.

عند ما دعوت- يا رسول اللّه- الناس- لعبادة اللّه، فقد كنت أعبد الناس جميعا، و إذ نهيتهم عن سوء أو منكر فإنّك الممتنع عنه قبل الجميع، تقابل الأذى بالنصح، و الإساءة بالصفح، و التضرّع إلى اللّه بهدايتهم، و هم يؤلمون بدنك الطاهر رميا بالحجارة، و استهزاء بالرسالة، و تقابل وضعهم للرماد الحارّ على رأسك الشريف بدعائك لهم بالرشد.

نعم لقد كنت مركزا للحبّ و منبعا للعطف و منهلا للرحمة، فما أعظم أخلاقك؟

«خلق» من مادّة (الخلقة) بمعنى الصفات التى لا تنفكّ عن الإنسان، و هى ملازمة له، كخلقة الإنسان.

و فسّر البعض الخلق العظيم للنبى ب (الصبر فى طريق الحقّ، و كثرة البذل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۱۹

و العطاء، و تدبير الأمور، و الرفق و المداراة، و تحمّل الصعاب فى مسير الدعوة الإلهية، و العفو عن المتجاوزين، و الجهاد فى سبيل اللّه، و ترك الحسد و البغض و الغلّ و الحرص ..، و بالرغم من أنّ جميع هذه الصفات كانت متجسّدة فى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا أنّ الخلق العظيم له لم ينحصر بهذه الأمور فحسب، بل أشمل منها جميعا.

و فسّر الخلق العظيم أيضا ب (القرآن الكريم) أو (مبدأ الإسلام) و من الممكن أن تكون الموارد السابقة من مصاديق المفهوم الواسع للآية أعلاه.

و على كلّ حال فإنّ تأصّل هذا (الخلق العظيم) فى شخصية الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو دليل واضح على رجاحة العقل و غزارة العلم له و نفى جميع التّهم التى تنسب من قبل الأعداء إليه.

ثمّ يضيف سبحانه بقوله: فَسَتُبْصِرُ وَ يُبْصِرُونَ

بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ أى من منكم هو المجنون ۵۰۱].

«مفتون»: اسم مفعول من (الفتنة) بمعنى الابتلاء، و ورد هنا بقصد الابتلاء بالجنون.

نعم، إنّهم ينسبون هذه النسب القبيحة إليك ليبعدوا الناس عنك، إلّا أنّ للناس عقلا و إدراكا، يقيّمون به التعاليم التى يتلقّونها منك، ثمّ يؤمنون بها و يتعلّمونها تدريجيّا، و عندئذ تتّضح الحقائق أمامهم، و هى أنّ هذه التعاليم العظيمة مصدرها البارئ عزّ و جلّ، أنزلها على قلبك الطاهر بالإضافة إلى ما منحك من نصيب عظيم فى العقل و العلم.

كما أنّ مواقفك و تحرّكاتك المستقبلية المقرونة بالتقدّم السريع لانتشار الإسلام، ستؤكّد بصورة أعمق أنّك منبع العلم و العقل الكبيرين، و أنّ هؤلاء الأقزام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۰

الخفافيش هم المجانين، لأنّهم تصدّوا لمحاربة نور هذه الشمس العظيمة المتمثّلة بالحقّ الإلهى و الرسالة المحمّدية.

و من الطبيعى فإنّ هذه الحقائق ستتوضّح أمامهم يوم القيامة بصورة دامغة، و يخسر هنالك المبطلون، حيث تتبيّن الأمور و تظهر الحقيقة.

و للتأكيد على المفهوم المتقدّم يقول سبحانه مرّة اخرى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

و بلحاظ معرفة البارئ عزّ و جلّ بسبيل الحقّ و بمن سلكه و من جانبه و تخلّف أو انحرف عنه، فإنّه يطمئن رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه و المؤمنون فى طريق الهداية و الرشد، أمّا أعداؤه فهم فى متاه الضلالة و الغواية.

و جاء فى حديث مسند أنّ قريشا حينما رأت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقدم الإمام على عليه السّلام على الآخرين و يجلّه و يعظّمه، غمزه هؤلاء و قدحوا به صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قالوا: (لقد فتن محمّد به) هنا أنزل اللّه تعالى قرآنا و ذلك قوله: ن وَ الْقَلَمِ و أقسم بذلك، و إنّك يا محمّد غير مفتون و مجنون حتّى قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ حيث اللّه هو العالم بالأشخاص الذين ضلّوا و انحرفوا عن سواء السبيل، و هى إشارة إلى قريش التى كانت تطلق هذه الاتّهامات، كما أنّه تعالى أعرف بمن اهتدى، و هى إشارة إلى الإمام على عليه السّلام ۵۰۲].

بحثان

۱- دور القلم فی حیاة الإنسان

إنّ من أهمّ معالم التطور فی الحیاة البشریة- کما أشرنا سابقا- هو ظهور

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۱

الخطّ و ما ثبته القلم علی صحائف الأوراق و الأحجار، إذ أنّ هذا الحدث أدّی إلی فصل (عصر التاریخ) عن (عصر ما قبل التاریخ).

إنّ ما یثبته القلم علی صفحات الورق هو الذی یحدّد طبیعة الإنتصار أو الانتکاسة لمجتمع ما من المجتمعات الإنسانیة، و بالتالی فإنّ ما یسطّره القلم یحدّد مصیر البشر فی مرحلة ما أو مکان ما .. ف (القلم) هو الحافظ للعلوم، المدوّن للأفکار، الحارس لها، و حلقة الاتّصال الفکری بین العلماء، و القناة الرابطة بین الماضی و الحاضر، و الحاضر و المستقبل. بل حتّی موضوع ارتباط الأرض بالسماء قد حصل هو الآخر عن طریق اللوح و القلم أیضا.

فالقلم یربط بین بنی البشر المتباعدین من الناحیة الزمانیة و المکانیة، و هو مرآة تعکس صور المفکّرین علی طول التاریخ فی کلّ الدنیا و تجمعها فی مکتبة کبیرة.

و القلم: حافظ للأسرار، مؤتمن علی ما یستودع، و خازن للعلم، و جامع للتجارب عبر القرون و الأعصار المختلفة. و إذا کان القرآن قد أقسم به فلهذا السبب، لأنّ القسم غالبا لا یکون إلّا بأمر عظیم و ذی قیمة و شأن.

و من الطبیعی عندئذ أن یکون (القلم) وسیلة ل (ما یسطرون) من الکتابة، و نلاحظ القسم بکلیهما لقد أقسم القرآن الکریم ب (الوسیلة) و کذلک (بحصاد) تلک الوسیلة (و ما یسطرون).

و جاء

فی بعض الروایات «إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم».

نقل هذا الحدیث محدّثوا الشیعة عن الإمام الصادق علیه السّلام ۵۰۳].

و جاء هذا المعنی أیضا فی کتب أهل السنّة فی خبر معروف ۵۰۴].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۲

و جاء

فی روایة اخری: (أوّل ما خلق اللّه تعالی جوهرة)[۵۰۵].

و

ورد فی بعض الأخبار أیضا: (إنّ أوّل ما خلق اللّه العقل)[۵۰۶].

و یمکن ملاحظة طبیعة الارتباط الخاصّ بین کلّ من (الجوهرة) و (القلم) و (العقل) الذی یوضّح مفهوم کونهم أوّل ما خلق اللّه سبحانه من الوجود.

جاء فی نهایة الحدیث الذی نقلناه عن الإمام الصادق علیه السّلام إنّ اللّه تعالی قال للقلم بعد خلقه إیّاه: أکتب، و أنّه کتب ما کان و ما سیکون إلی یوم القیامة.

و بالرغم من أنّ المقصود من القلم فی هذه الروایة هو قلم التقدیر و القضاء، إلّا أنّ جمیع ما هو موجود من أفکار و علوم و تراث، و ما توصّل إلیه العقل البشری علی طول التأریخ، و ما هو مثبت من مبادئ و رسالات و تعالیم و أحکام .. یؤکّد علی دور القلم فی الحیاة الإنسانیة و مصیر البشریة.

إنّ قادة الإسلام العظام لم یکتفوا بحفظ الأحادیث و الروایات و العلوم و المعارف الإلهیة فی ذاکرتهم بل کانوا یؤکّدون علی کتابتها، لتبقی محفوظة لأجیال المستقبل ۵۰۷].

و قال بعض العلماء: (البیان بیانان: بیان اللسان، و بیان البنان، و بیان اللسان تدرسه الأعوام، و بیان الأقلام باق علی مرّ الأیّام)[۵۰۸].

و قالوا أیضا: (إنّ قوام امور الدین و الدنیا بشیئین: القلم و السیف، و السیف تحت القلم)[۵۰۹].

و قد نظّم بعض شعراء العرب هذا المعنی بقولهم:

کذا قضی اللّه للأقلام مذ بریت أنّ السیوف لها مذ أرهفت خدم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۳

(إنّ هذا التعبیر إشارة بدیعة إلی بری القلم بواسطة السکین، و جعل الشفرة الحادّة بخدمة القلم من البدایة)[۵۱۰].

و یقول شاعر آخر، فی هذا الصدد و من وحی الآیات مورد البحث:

إذا أقسم الأبطال یوما بسیفهمو عدوّه ممّا یجلب المجد و الکرم

کفی قلم الکتاب فخرا و رفعةمدی الدهر إنّ اللّه أقسم بالقلم ۵۱۱]

و إنّه لحقّ، و ذلک أنّه حتّی الانتصارات العسکریة إذا لم تستند و ترتکز علی ثقافة قویّة فإنّها لن تستقیم طویلا. لقد سجلّ المغول أکبر الانتصارات العسکریة فی البلدان الإسلامیة، و لأنّهم کانوا شعبا سطحیا فی مجال المعرفة و الثقافة فلم یؤثّروا شیئا، و أخیرا اندمجوا فی حضارة الإسلام و ثقافة المسلمین و غیّروا مسارهم.

و مجال البحث فی هذا الباب واسع جدّا، إلّا أنّنا- التزاما بمنهج التّفسیر و عدم الخروج عنه- ننهی کلامنا هنا بحدیث معبّر عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی هذا الموضوع حیث

یقول: «ثلاثة تخرق الحجب، و تنتهی إلی ما بین یدی اللّه: صریر أقلام العلماء، و وطئ أقدام المجاهدین، و صوت مغازل المحصنات»[۵۱۲].

و من الطبیعی أنّ کلّ ما قیل فی هذا الشأن، یتعلّق بالأقلام التی تلتزم جانب الحقّ و العدل، و تهدی إلی صراط مستقیم، أمّا الأقلام المأجورة و المسمومة و المضلّة، فإنّها تعتبر أعظم بلاء و أکبر خطر علی المجتمعات الإنسانیة.

۲- نموذج من أخلاق الرّسول

بالرغم من أنّ الانتصارات التی تمّت علی ید الرّسول محمّد صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۴

برعایة اللّه سبحانه و إمداده، إلّا أنّ ذلک کان اقترانا بعوامل عدیدة أیضا، و لعلّ أحد أهمّ هذه العوامل هو: سمو الأخلاق عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جاذبیته الشخصیة، إنّ أخلاقیته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کانت من العلو و الصفات الإنسانیة السامیة لدرجة أنّ ألدّ أعدائه کان یقع تحت تأثیرها کما أنّ مکارم الأخلاق التی أودعت فیه کانت تجذب و تشدّ المحبّین و المریدین إلیه بصورة عجیبة.

و إذا ما ذهبنا إلی القول بأنّ السمو الأخلاقی لرسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان معجزة أخلاقیة، فإنّنا لا نبالغ فی ذلک، کما سنوضّح لذلک نموذجا من هذا الإعجاز الأخلاقی .. ففی فتح مکّة و عند ما استسلم المشرکون أمام الإرادة الإسلامیة، و رغم کلّ حربهم للإسلام و المسلمین و شخص الرّسول الکریم بالذات، و بعد تمادیهم اللئیم و کلّ ممارساتهم الإجرامیة ضدّ الدعوة الإلهیة .. بعد کلّ هذا الذی فعلوه، فإنّ رسول الإنسانیة أصدر أمرا بالعفو العامّ عنهم جمیعا، و غضّ الطرف عن جمیع الجرائم التی صدرت منهم، و کان هذا مفاجأة للمقرّبین و البعیدین، الأصدقاء و الأعداء، و کان سببا فی دخولهم فی دین اللّه أفواجا، بمصداق قوله تعالی: وَ رَأَیْتَ النَّاسَ یَدْخُلُونَ فِی دِینِ اللَّهِ أَفْواجاً.

لقد وردت فی کتب التّفسیر و التاریخ قصص کثیرة حول حسن خلق الرّسول الکریم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی عفوه و تجاوزه و عطفه و رأفته، و تضحیته و إیثاره و تقواه ... بحیث أنّ ذکرها جمیعا یخرجنا عن البحث التّفسیری .. إلّا أنّنا سنکتفی بما یلی:

و

جاء فی حدیث عن الحسین بن علی علیه السّلام أنّه قال: سألت أبی أمیر المؤمنین عن رسول اللّه کیف کان سیرته فی جلسائه؟ فقال: کان دائم البشر، سهل الخلق، لیّن الجانب، لیس بفظّ، و لا غلیظ و لا صخّاب، و لا فحّاش، و لا عیّاب، و لا مدّاح، یتغافل عمّا لا یشتهی، فلا یؤیّس منه و لا یخیب فیه مؤمّلیه، قد ترک نفسه من ثلاث: المراء و الإکثار و ما لا یعنیه، و ترک الناس من ثلاث کان لا یذمّ أحدا و لا یعیّره، و لا یطلب عثراته و لا عورته و لا یتکلّم إلّا فی ما رجا ثوابه، إذا تکلّم أطرق

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۵

جلساؤه کأنّما علی رؤوسهم الطیر، فإذا سکت تکلّموا، و لا یتنازعون عنده الحدیث ...»[۵۱۳].

نعم لو لم تکن هذه الأخلاق الکریمة و هذه الملکات الفاضلة، لما أمکن تطویع تلک الطباع الخشنة و القلوب القاسیة، و لما أمکن تلیین أولئک القوم الذین کان یلفّهم الجهل و التخلّف و العناد، و یحدث فیهم انعطافا هائلا لقبول الإسلام ..

و لتفرّق الجمیع من حوله بمصداق قوله تعالی: لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ

و کم کان رائعا لو أحیینا و التزمنا بهذه الأخلاق الإسلامیة القدوة، و کان کلّ منّا یحمل قبسا من إشعاع خلق و أخلاق رسولنا الکریم و خاصّة فی عصرنا هذا حیث ضاعت فیه القیم، و تنکبّ الناس عن الخلق القویم.

و الروایات فی هذا الصدد کثیرة، سواء ما یتعلّق منها حول شخص الرّسول الکریم أو ما یتعلّق بواجب المسلمین فی هذا المجال، و نستعرض الآن بعضا من الروایات فی هذا الموضوع.

۱-

جاء فی حدیث أنّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّما بعثت لأتمّم مکارم الأخلاق»[۵۱۴].

و لذا فإنّ أحد الأهداف الأساسیة لبعثة الرّسول السعی لتکامل الأخلاق الفاضلة و ترکیز الخلق السامی.

۲- و

جاء فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إنّ المؤمن لیدرک بحسن خلقه درجة قائم اللیل و صائم النهار»[۵۱۵].

۳- و

ورد عنه أیضا صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما من شیء أثقل فی المیزان من خلق حسن»[۵۱۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۶

۴- و

نقل عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «أحبّکم إلی اللّه أحسنکم أخلاقا، الموطئون أکنافا، الذین یألفون و یؤلّفون. و أبغضکم إلی اللّه المشاءون بالنمیمة، المفرّقون بین الإخوان، الملتمسون للبراء العثرات»[۵۱۷].

۵- و نقرأ

فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «أکثر ما یدخل الناس الجنّة تقوی اللّه و حسن الخلق»[۵۱۸].

۶- و

جاء فی حدیث عن الإمام الباقر علیه السّلام: (إنّ أکمل المؤمنین إیمانا أحسنهم أخلاقا»[۵۱۹].

۷- و

ورد حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السّلام أنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «علیکم بحسن الخلق، فإنّ حسن

الخلق فى الجنّة لا محالة، و إيّاكم و سوء الخلق، فإنّ سوء الخلق فى النار لا محالة»[۵۲۰].

إنّ ما يستفاد من مجموع الأخبار- أعلاه- بشكل واضح و جلىّ، أنّ حسن الخلق مفتاح الجنّة، و وسيلة لتحقيق مرضاة اللّه عزّ و جلّ، و مؤشّر على عمق الإيمان، و مرآة للتقوى و العبادة .. و الحديث فى هذا المجال كثير جدّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۷

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۸ الى ۱۶]

اشارة

فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (۸) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (۹) وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (۱۰) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (۱۱) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ (۱۳) أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ (۱۴) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۵) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (۱۶)

التّفسير

اجتنب أصحاب هذه الصفات:

بعد أن تعرّضت الآيات السابقة إلى الأخلاق السامية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تلتها الآيات أعلاه مستعرضة أخلاق أعدائه ليتّضح لنا الفرق بين الأخلاقيتين، و ذلك من خلال المقارنة بينهما.

يقول تعالى فى البداية: فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ

إنّهم أناس ضالّون، و يدفعون الآخرين للتكبّر على اللّه و رسوله، و ينهونهم عن قبول مبدأ الهداية، و قد استهانوا، و استخفّوا بقيم الحقّ، و إنّ الطاعة و الاستجابة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۸

لهؤلاء سوف لن تكون نتيجتها إلّا الضلال و الخسران.

ثمّ يشير تعالى إلى جهد هؤلاء المتواصل فى إقناع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمصالحتهم و الإعراض عن آلهتهم و ضلالهم فيقول: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

إنّ من أمانيهم و رغبتهم أن تلين و تنعطف باتّجاههم، و تغضّ الطرف عن تكليفك الرسالى من أجلهم.

و نقل المفسّرون أنّ هذه الآيات نزلت حينما دعا رؤساء مكّة و ساداتها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم للسير على نهج أجدادهم فى الشرك باللّه و عبادة الأوثان، و قد نهى اللّه تعالى رسوله الكريم عن الاستجابة لهم و إطاعتهم ۵۲۱].

و نقل البعض الآخر أنّ (الوليد بن المغيرة) و كان أحد زعماء الشرك قد عرض على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أموالا طائلة، و حلف أنّه سيعطيها ل (محمّد) إذا تخلّى عن مبدئه و دينه ۵۲۲].

و الذى يستفاد من لحن الآيات- بصورة واضحة- و ممّا جاء فى التواريخ، أنّ المشركين الذين أعمى اللّه بصيرتهم، عند ما شاهدوا التقدّم السريع للإسلام و انتشاره، حاولوا إعطاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعض المكاسب فى مقابل تقديم تنازلات مماثلة، فى محاولة لترتيب نوع من الصلح معه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و هذا هو منهج أهل الباطل- دائما- فى الظروف و الأحوال التى يشعرون فيها أنّهم سيخسرون كلّ شىء و يفقدون مواقفهم، لذا فإنّهم اقترحوا عليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إعطاءه أموالا طائلة، كما اقترحوا تزويجه بأجمل بناتهم، كما عرضوا عليه جاها و مقاما و ملكا بارزا، و ما إلى ذلك من امور كانوا متعلّقين بها و

متفاعلين معها و متهالكين عليها، و يقيسون الرّسول بقياسها».

إلّا أنّ القرآن الكريم حذّر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرارا من مغبّة إبداء أى تعاطف مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۲۹

عروضهم و اقتراحاتهم الماكرة و أكّد على عدم مداهنة أهل الباطل أبدا.

كما جاء فى قوله تعالى: وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ وَ احْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ

«يدهنون» من مادّة (مداهنة) مأخوذة فى الأصل (الدهن) و تستعمل الكلمة فى مثل هذه الموارد بمعنى إظهار اللين و المرونة، و فى الغالب يستعمل هذا التعبير فى مجال إظهار اللين و الميل المذموم كما فى حالة النفاق.

ثمّ ينهى سبحانه مرّة اخرى عن اتّباعهم و طاعتهم، حيث يسرد الصفات الذميمة لهم، و التى كلّ واحدة منها يمكن أن تكون وحدها سببا للابتعاد عنه و الصدود عن الاستجابة لهم.

يقول تعالى: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ

تقال كلمة «حلّاف» على الشخص الكثير الحلف، و الذى يحلف على كلّ صغيرة و كبيرة، و هذا النموذج فى الغالب لا يتسّم بالصدق، و لذا يحاول أن يطمئن الآخرين بصدقه من خلال الحلف و القسم.

«مهين» من (المهانة) بمعنى الحقارة و الضّعة، و فسّرها البعض بأنّها تعنى الأشرار أو الجهلة أو الكاذبين.

ثمّ يضيف عزّ و جلّ: هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ

«همّاز» من مادّة (همز)، (على وزن رمز) و يعنى: الغيبة و استقصاء عيوب الآخرين.

«مشّاء بنميم» تطلق على الشخص الذى يمشى بين الناس بإيجاد الإفساد و الفرقة، و إيجاد الخصومة و العداء فيما بينهم (و ممّا يجدر الالتفات إليه أنّ هذين الوصفين وردا بصيغة المبالغة، و التى تحكى غاية الإصرار فى العمل و الاستمرار بهذه الممارسات القبيحة).

ثمّ يسرد تعالى أوصافا اخرى لهم، حيث يقول فى خامس و سادس و سابع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۰

صفة ذميمة لأخلاقهم: مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ

و من صفاتهم أيضا أنّهم ليسوا فقط مجانبين لعمل الخير، و لا يسعون فى سبيله، و لا يساهمون فى إشاعته و العون عليه .. بل إنّهم يقفون سدّا أمام أى ممارسة تدعو إليه، و يمنعون كلّ جهد فى الخير للآخرين، و بالإضافة إلى ذلك فإنّهم متجاوزون لكلّ السنن و الحقوق التى منحها اللّه عزّ و جلّ لكلّ إنسان ممّا تلطف به من خيرات و بركات عليه.

و فوق هذا فهم مدنسون بالذنوب، محتطبون للآثام، بحيث أصبح الذنب و الإثم جزءا من شخصياتهم و طباعهم التى هى منّاعة للخير، معتدية و آثمة.

و أخيرا يشير إلى ثامن و تاسع صفة لهم حيث يقول تعالى: عُتُلٍّ بَعْدَ ذلِكَ زَنِيمٍ

«عتل» كما يقول الراغب فى المفردات: تطلق على الشخص الذى يأكل كثيراً و يحاول أن يستحوذ على كلّ شىء، و يمنع الآخرين منه.

و فسّر البعض الآخر كلمة (عتلّ) بمعنى الإنسان السىء الطبع و الخلق، الذى تتمثّل فيه الخشونة و الحقد، أو الإنسان سىء الخلق عديم الحياء.

«زنيم» تطلق على الشخص المجهول النسب، و الذى ينتسب لقوم لا نسبة له معهم، و هى فى الأصل من (زنمة)، (على وزن عظمة) و تقال للجزء المتدلّى من اذن الغنم، فكأنّها ليست من الاذن مع أنّها متصلة بها.

و التعبير بشكل عام إشارة إلى أنّ هاتين الصفتين هما أشدّ قبحا و ضعة من الصفات السابقة كما استفاد ذلك بعض المفسّرين.

و خلاصة البحث أنّ اللّه تعالى قد أوضح السمات الأساسية للمكذّبين، و بيّن صفاتهم القبيحة و أخلاقهم الذميمة بشكل لا نظير له فى القرآن بأجمعه، و بهذه الصورة يوضّح لنا أنّ الأشخاص الذين وقفوا بوجه الإسلام و القرآن، و عارضوا الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا من أخسّ الناس و أكثرهم كذبا و انحطاطا و خسّة، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۱

يتتبعون عيوب الآخرين، نمّامون، معتدون، آثمون، ليس لهم أصل و نسب، و فى الحقيقة أنّنا لا نتوقّع أن يقف بوجه النور الرسالى إلّا أمثال هؤلاء الأشرار.

و يحذّر سبحانه فى الآية اللاحقة من الاستجابة لهم و التعامل معهم بسبب كثرة أموالهم و أولادهم: بقوله: أَنْ كانَ ذا مالٍ وَ بَنِينَ

و ممّا لا شكّ فيه أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن ليستسلم لهؤلاء أبدا، و هذه الآيات ما هى إلّا تأكيد على هذا المعنى، كى يكون خطّه الرسالى و طريقته العملية واضحة للجميع، و لن تنفع جميع الإغراءات الماديّة فى عدوله عن مهمّته الرسالية.

و بناء على هذا فإنّ الجملة أعلاه تأتى تكملة للآية الكريمة: وَ لا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ

إلّا أنّ البعض اعتبر ذلك بيانا و علّة لظهور هذه الصفات السلبية، حيث الغرور الناشئ من الثروة و كثرة الأولاد جرّهم و دفعهم إلى مثل هذه الرذائل الأخلاقية.

و لهذا يمكن ملاحظة هذه الصفات فى الكثير من الأغنياء و المقتدرين غير المؤمنين. إلّا أنّ لحن الآيات يتناسب مع التّفسير الأوّل أكثر، و لهذا اختاره أغلب المفسّرين.

و توضّح الآية اللاحقة ردود فعل هؤلاء الأشخاص ذوى الصفات الأخلاقية المريضة إزاء الآيات الإلهية، حيث يقول تعالى: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ

و بهذا المنطق السقيم و الحجج الواهية يعرض عن آيات اللّه عزّ و جلّ، فيضلّ و يغوى و يدعو الآخرين للغى و الضلال، و لهذا يجب عدم الاستجابة لهؤلاء و عدم السماع لهم فى مثل هذه الأمور، و الإعراض عنهم و عدم طاعتهم، و هذا تأكيد للنهى عن طاعتهم الذى تعرّضت إليه الآيات السابقة.

و توضّح لنا آخر آية- من هذه الآيات- مفردة من مفردات الجزاء الذى سيلاقيه أمثال هؤلاء فيضيف سبحانه: سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ

و هذا التعبير كاشف و معبّر عن سوء النهاية المذلّة لهؤلاء، إذ جاء التعبير أوّلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۲

بالخرطوم الذى يستعمل للفيل و للخنزير فقط، و هو دلالة واضحة فى تحقيرهم.

و ثانيا: أنّ الأنف فى لغة العرب غالبا ما يستعمل كناية عن العزّة و العظمة، كما يقال للفارس حين إذلاله: مرّغوا أنفه بالتراب، كناية عن زوال عزّته.

و ثالثا: أنّ وضع العلّامة تكون عادة للحيوانات فقط، بل حتّى بالنسبة إلى الحيوانات فإنّها لا تعلّم فى وجوهها- خصوصا أنوفها- أضف إلى ذلك أنّ الإسلام قد نهى عن مثل هذا العمل.

و مع كلّ ما تقدّم تأتى الآية الكريمة ببيان معبّر واف و واضح أنّ اللّه تعالى سيذلّ هؤلاء الطغاة الذين امتلؤا عجبا بذواتهم، المتمادين فى عنادهم و إصرارهم على الباطل، و تجاوزهم على الرّسول و الرسالة .. سيذلّهم بتلك الصورة التى تحدّثت عنها الآية و يفضحهم على رؤوس الأشهاد ليكونوا موضع عبرة للجميع.

إنّ التاريخ الإسلامى ينقل لنا كثيرا من صور الإذلال و الامتهان لأمثال هذه المجموعة المخالفة للحقّ المعاندة فى ضلالها، المكابرة فى تمسّكها بالباطل، بالرغم من تقدّم الرسالة الإسلامية و قوّتها و انتصاراتها، كما أنّ فضيحتهم فى الآخرة ستكون أدهى و أمرّ.

قال بعض المفسّرين: إنّ أكثر آيات هذه السورة كان يقصد بها (الوليد بن المغيرة) أحد رموز الشرك الذى واجه الإسلام و تعرّض

لرسوله الأمين محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ من المسلّم به أنّ هذا القصد، لا يمنع من تصميم و توسعة مفهوم الآيات الكريمة و شموليته ۵۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۳

بحثان

۱- الرذائل الأخلاقية

بالرغم من أنّ الآيات أعلاه تحدّثت عن الصفات الأخلاقية الرذيلة للمخالفين و المعاندين لرسول الإسلام محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّها فى الوقت نفسه تعكس لنا نماذج و مفردات للصفات السلبية التى تبعد الإنسان عن اللّه عزّ و جلّ، و تسقطه فى وحل الشقاء و البؤس، ممّا يستدعى من المؤمنين الملتزمين أن يكونوا على حذر منها و يراقبوا أنفسهم بدقّة من التلوّث بها، و لذا فقد أكّدت الروايات الإسلامية كثيرا على هذا المعنى. و من جملة ذلك ما يلى:

۱- نقرأ

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «ألا أنبّئكم بشراركم؟ قالوا:

بلى يا رسول اللّه، قال: المشّاءون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباعثون للبرءاء المعايب»[۵۲۴].

لقد كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يؤكّد كثيرا على البناء الأخلاقى للشخصية الإسلامية، حتّى أنّه

قال: «لا يبلّغنى أحد عن أحد من أصحابى شيئا، فإنّى أحبّ أن أخرج إليكم و أنا سليم الصدر»[۵۲۵].

۲- و أخيرا نقرأ

فى حديث عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لا يدخل الجنّة جواظ، و لا جعظرى، و لا عتل زنيم».

يقول الراوى: قلت: فما الجواظ؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كلّ جمّاع منّاع، قلت: فما الجعظرى؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: الفضّ الغيظ؟ قلت: فما العتل الزنيم؟ قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: رحب الجوف سيء الخلق أكول شروب غشوم ظلوم»[۵۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۴

۲- المداهنة و الصلح

إنّ من جملة الخصائص التى يتميّز بها تجّار السياسة، و الأشخاص و المجاميع غير الرسالية، أنّهم يتلوّنون و يتصرّفون بالشكل الذى يتماشى مع مصالحهم، فلا ضوابط و لا ثوابت تحكمهم، بل هم على استعداد دائم للتنازل عن كثير من الشعارات المدعاة من جانبهم، مقابل تحقيق بعض المكاسب أو الحصول على بعض الامتيازات. أمّا متبنّياتهم المدعاة فلا تشكّل شيئا مقدسا بالنسبة إليهم، و يحوّرونها بما تقتضيه مصالحهم، و هذا المفهوم هو ما تشير إليه الآية الكريمة حيث يقول تعالى: وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ

أمّا أهل المبادئ و الالتزام فإنّهم لا يضحّون بأهدافهم المقدّسة مطلقا و لا يساومون عليها أو يداهنون أبدا، و لن يتخلّوا عن متبنّياتهم و يقوموا بعمل أو صلح على خلاف ما تمليه عليهم مبادئهم العقائدية، خلافا لما عليه تجّار السياسة ..

إنّ هذا المقياس من أفضل الدلائل لتشخيص السياسيين المنحرفين عن غيرهم من المبدئيين، و الأشخاص الذين يسايرون هؤلاء

المنحرفين لا شكّ أنّهم بعيدون عن طريق اللّه و أوليائه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۵

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۱۷ الى ۲۵]

اشارة

إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ (۱۷) وَ لا يَسْتَثْنُونَ (۱۸) فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ (۱۹) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (۲۰) فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ (۲۱)

أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ (۲۲) فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ (۲۳) أَنْ لا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (۲۴) وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ (۲۵)

التّفسير

قصّة (أصحاب الجنّة):

فى الآيات أعلاه يستعرض لنا القرآن الكريم- بما يتناسب مع البحث الذى ورد فى الآيات السابقة- قصّة أصحاب الجنّة كنموذج لذوى المال الذين غرقوا فى أنانيتهم، فأصابهم الغرور، و تخلّوا عن القيم الإنسانية الخيّرة، و أعماهم حبّ المال عن كثير من الفضائل .. فالآيات الكريمة تذكر لنا قصّة مجموعة من الأغنياء كانت لهم جنّة (بستان مثمر) إلّا أنّهم فقدوها فجأة، و ذلك لعتوّهم و غرورهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۶

و كبرهم على فقراء زمانهم.

و يبدو أنّها قصّة معروفة فى ذلك الزمان بين الناس، و لهذا السبب استشهد بها القرآن الكريم.

يقول فى البداية: إِنَّا بَلَوْناهُمْ كَما بَلَوْنا أَصْحابَ الْجَنَّةِ.

لقد تعدّدت الرّوايات فى مكان هذه الجنّة، فقيل: إنّها فى أرض اليمن بالقرب من صنعاء، و قيل: هى فى الحبشة، و هناك قول بأنّها فى أرض الشام، و ذهب آخرون إلى أنّها فى الطائف .. إلّا أنّ المشهور أنّها كانت فى أرض اليمن.

و موضوع القصّة هو: أنّ شيخا مؤمنا طاعنا فى السنّ كان له بستان عامر، يأخذ من ثمره كفايته و يوزّع ما فضل من ثمرته للفقراء و المعوزين، و قد ورثه أولاده بعد وفاته، و قالوا: نحن أحقّ بحصاد ثمار هذا البستان، لأنّ لنا عيالا و أولادا كثيرين، و لا طاقة لنا باتّباع نفس الأسلوب الذى كان أبونا عليه .. و لهذا فقد صمّموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعا، و يحرموا المحتاجين من أى عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما تحدّثنا الآيات الكريمة عنه ..

يقول تعالى: إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ ۵۲۷].

وَ لا يَسْتَثْنُونَ أى لا يتركون منها شيئا للمحتاجين.

و عند التدقيق فى قرارهم هذا يتّضح لنا أنّ تصميمهم هذا لم يكن بلحاظ الحاجة أو الفاقة، بل إنّه ناشئ عن البخل و ضعف الإيمان، و اهتزاز الثقة باللّه سبحانه، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه يستطيع أن يترك للفقراء شيئا ممّا أعطاه اللّه.

و قيل: إنّ المقصود من عدم الاستثناء هو عدم قولهم (إن يشاء اللّه) حيث كان الغرور مسيطرا عليهم، ممّا حدا بهم إلى أن يقولوا: غدا سنذهب و نفعل ذلك،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۷

معتبرين الأمر مختصّا بهم، و غافلين عن مشيئة اللّه، و لذا لم يقولوا: (إن شاء اللّه).

إلّا أنّ الرأى الأوّل أصحّ ۵۲۸].

ثمّ يضيف تعالى استمرارا لهذا الحديث: فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ

لقد سلّط اللّه عليها نارا حارقة، و صاعقة مهلكة، بحيث أنّ جنّتهم صارت متفحّمة سوداء فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ و لم يبق منها شىء سوى الرماد.

«طائف» من مادّة (طواف)، و هى فى الأصل بمعنى الشخص الذى يدور حول شىء معيّن، كما تستعمل أحيانا كناية عن البلاء و المصيبة التى تحلّ فى الليل، و هذا المعنى هو المقصود هنا.

«صريم» من مادّة (صرم) بمعنى (القطع) و هنا بمعنى (الليل المظلم) أو (الشجر بدون الثمار) أو (الرماد الأسود) لأنّ الليل يقطع عند مجىء النهار، كما أنّ النهار يقطع عند مجىء الليل، و لذا يقال أحيانا لليل و النهار (صريمان)، و المقصود بذلك هو: البلاء السماوى الذى تمثّل بصاعقة عظيمة- فيما يبدو- أحالت البستان إلى فحم و رماد أسود، و هكذا فعل الصواعق غالبا.

و على كلّ حال فإنّ أصحاب البستان بقوا على تصوّرهم لأشجار جنّتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف: فَتَنادَوْا مُصْبِحِينَ ۵۲۹].

و قالوا: أَنِ اغْدُوا عَلى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صارِمِينَ

« (أغدوا» من مادّة (غدوة) بمعنى بداية اليوم، و لذا يقال للغذاء الذى يؤكل فى أوّل اليوم- وجبة الإفطار- غداء، بالرغم من أنّ (غداء) تقال فى التعابير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۸

المستعملة حاليا لوجبة الأكل المتناولة فى وقت الظهر.

و على ضوء المقدّمات السابقة: فَانْطَلَقُوا وَ هُمْ يَتَخافَتُونَ

لقد كانوا يتكلّمون بهدوء حتّى لا يصل صوتهم إلى الآخرين، و لا يسمعهم مسكين، و يأتى لمشاركتهم فى عملية جنى الثمر أو تناول شىء من الفاكهة.

و يرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر فى مثل هذه الأيّام، لأنّهم تعوّدوا فى كلّ سنة أن ينالهم شىء من الفاكهة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلّا أنّ تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، و السريّة التى غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحدا يتوقّع أنّ وقت الحصاد قد حان .. حيث يطّلع الفقراء على الأمر بعد انتهائه، و بهذا تكون النتيجة: وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ

«حرد» على وزن «فرد» بمعنى الممانعة التى تكون توأما مع الشدّة و الغضب، نعم إنّهم كانوا فى حالة عصبية و انفعالية من حاجة الفقراء لهم و انتظار عطاياهم، و لذا كان القرار بتصميم أكيد على منعهم من ذلك.

و تطلق كلمة (حرد) أيضا على السنوات التى ينقطع فيها المطر، و على الناقة التى ينقطع حليبها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۳۹

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۲۶ الى ۳۳]

اشارة

فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (۲۶) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (۲۷) قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ (۲۸) قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ (۲۹) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ (۳۰)

قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ (۳۱) عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ (۳۲) كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (۳۳)

التّفسير

أصحاب البستان و المصير المؤلم:

الآيات الشريفة- أعلاه- استمرار لقصّة أصحاب الجنّة، التى مرّت علينا فى الآيات السابقة .. فلقد تحرّكوا فى الصباح الباكر على أمل أن يقطفوا محصولهم الكثير، و يستأثروا به بعيدا عن أنظار الفقراء و المحتاجين، و لا يسمحوا لأى أحد من الفقراء بمشاركتهم فى هذه النعمة الإلهية الوافرة، غافلين عن تقدير اللّه ... فإذا بصاعقة مهلكة تصيب جنّتهم فى ظلمة الليل فتحوّلها إلى رماد، فى وقت كان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۰

أصحاب الجنّة يغطّون فى نوم عميق.

يقول القرآن الكريم: فَلَمَّا رَأَوْها قالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ

المقصود من (ضالّون) يمكن أن يكون عدم الاهتداء إلى طريق البستان أو الجنّة، أو تضييع طريق الحقّ كما احتمل البعض، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

ثمّ أضافوا: بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ أى أردنا أن نحرم الفقراء و المحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرمنا أكثر من الجميع، حرمنا من الرزق المادّى، و من البركات المعنوية التى تحصل عن طريق الإنفاق فى سبيل اللّه للفقراء و المحتاجين.

قالَ أَوْسَطُهُمْ أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْ لا تُسَبِّحُونَ

ألم أقل لكم اذكروا اللّه بالتعظيم و تجنّبوا مخالفته و اشكروا نعمته و امنحوا المحتاجين شيئا ممّا تفضّل اللّه به عليكم؟! لكنّكم لم تصغوا لما قلته لكم، و أخيرا وصلتم إلى هذه النتيجة البائسة فى هذا اليوم الأسود.

و يستفاد ممّا تقدّم أنّ أحدهم كان شخصا مؤمنا ينهاهم عن البخل و الحرص، إلّا أنّهم كانوا لا يسمعون كلامه، و لقد أفصح عن رأيه بقوّة بعد هذه الحادثة، و أصبح منطقه أكثر حدّة و قاطعية. و قد وبّخهم كثيرا على موقفهم من الفقراء، و وجّه لهم ملامة عنفية.

و تستيقظ ضمائرهم فى تلك اللحظة و يعترفون بخطئهم و ذنوبهم و قالُوا سُبْحانَ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ

إنّ التعبير ب (أوسطهم) فى الآية السابقة يمكن أن يكون بلحاظ حدّ الاعتدال فى العقل و الفكر و العلم و قيل: إنّه الوسط فى السنّ و العمر. إلّا أنّه مستبعد جدّا، و ذلك لعدم وجود ارتباط بين العمر و هذه المقالة الوافية المعبّرة. و الارتباط يكون عادة- بمثل هذا الكلام بين العقل و الفكر.

و التعبير ب لَوْ لا تُسَبِّحُونَ مأخوذ بلحاظ أنّ أصل و جذر كلّ الأعمال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۱

الصالحة هو الإيمان و معرفة اللّه و تسبيحه و تنزيهه.

و قد فسّر البعض «التسبيح» هنا بمعنى (شكر النعمة) و التى من ملازماتها إعانة المحرومين، و هذان التّفسيران لا يتنافيان مع بعضهما البعض، و هما مجموعان فى مفهوم الآية الكريمة.

لقد سبق تسبيحهم (الاعتراف بالذنب)، و لعلّ هذا كان لرغبتهم فى تنزيه اللّه تعالى عن كلّ ظلم بعيدا عمّا نزّل بجنّتهم من دمار و بلاء عظيم، و كأنّ لسان حالهم يقول: ربّنا إنّنا كنّا نحن الظالمين لأنفسنا و للآخرين، و لذا حقّ علينا مثل هذا العذاب، و ما أصابنا منك هو

العدل و الحكمة.

كما يلاحظ فى قسم آخر من آيات القرآن الكريم- أيضا- أنّ التسبيح قبل الإقرار بالظلم، حيث نقرأ ذلك فى قصّة يونس عليه السّلام عند ما أصبح فى بطن الحوت، و ذلك قوله: لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۵۳۰].

و الظلم بالنسبة لهذا النبى العظيم هو بمعنى ترك الأولى، كما أوضحنا ذلك فى تفسير هذه الآية.

إلّا أنّ المسألة لم تنته إلى هذا الحدّ، حيث يقول تعالى: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ

و الملاحظ من منطوق الآية أنّ كلّ واحد منهم فى الوقت الذى يعترف بذنبه، فإنّه يلقى بأصل الذنب على عاتق الآخر، و يوبّخه بشدّة، و أنّه كان السبب الأساس فيما و صلوا إليه من نتيجة بائسة مؤلمة، و كلّ منهم- أيضا- يؤكّد أنّه لم يكن غريبا عن اللّه و العدالة إلى هذا الحدّ.

نعم، هكذا تكون عاقبة كلّ الظالمين عند ما يصبحون فى قبضة العذاب الإلهى.

و مع الإقرار بالذنب فإنّ كلا منهم يحاول التنصّل ممّا لحق بهم، و يسعى جاهدا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۲

لتحويل مسئولية البؤس و الدمار على الآخرين.

و يحتمل أن يكون شعور كلّ منهم- أو غالبيتهم- بالأدوار المحدودة لهم فيما حصل، هو الذى دفع كلا منهم للتخلّى عن مسئولية ما حصل، و ذلك كأن يقترح شخص شيئا، و يؤيّده الآخر فى هذا الاقتراح، و يتبنّى ثالث هذا العمل، و يظهر الرابع رضاه بسكوته .. و من الواضح فى مثل هذه الأحوال مساهمة الجميع فى هذه الجريمة و مشاركتهم فى الذنب.

ثمّ يضيف تعالى: قالُوا يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا طاغِينَ

لقد اعترفوا فى المرحلة السابقة بالظلم، و هنا اعترفوا بالطغيان، و الطغيان مرحلة أعلى من الظلم، لأنّ الظالم يمكن أن يستجيب لأصل القانون إلّا أنّ غلبة هواه عليه يدفعه إلى الظلم، أمّا الطاغى فإنّه يرفض القانون و يعلن تمرّده عليه و لا يعترف برسميّته.

و يحتمل أن يكون المقصود بالظلم هو: (ظلم النفس)، و المقصود بالطغيان هو (التجاوز على حقوق الآخرين).

و ممّا يجدر ملاحظته أنّ العرب تستعمل كلمة (ويس) عند ما يواجهون مكروها و يعبّرون عن انزعاجهم منه، كما أنّهم يستعملون كلمة (ويح) أحيانا، و أحيانا اخرى (ويل) و عادة يكون استعمال الكلمة الاولى فى المصيبة البسيطة، و الثانية للأشدّ، و الثالثة للمصيبة الكبيرة، و استعمال كلمة (الويل) من قبل أصحاب البستان يكشف عن أنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم مستحقّين لأشدّ حالات التوبيخ.

و أخيرا- بعد عودة الوعى إلى ضمائرهم و شعورهم. بل و اعترافهم بالذنب و الإنابة إلى اللّه- توجّهوا إلى البارئ عزّ و جلّ داعين، و قالوا: عَسى رَبُّنا أَنْ يُبْدِلَنا خَيْراً مِنْها إِنَّا إِلى رَبِّنا راغِبُونَ ۵۳۱] فقد توجّهنا إليه و نريد منه انفاذنا ممّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۳

تورّطنا فيه ..

و السؤال المطروح هنا: هل أنّ هؤلاء ندموا على العمل الذى أقدموا عليه، و قرّروا إعادة النظر فى برامجهم المستقبلية، و إذا شملتهم النعمة الإلهية مستقبلا فسيؤدّون حقّ شكرها؟ أم أنّهم وبّخوا أنفسهم و كثر اللوم بينهم بصورة موقتة، شأنهم شأن الكثير من الظالمين الذين يشتدّ ندمهم وقت حلول العذاب، و ما إن يزول الضرّ الذى حاقّ بهم إلّا و نراهم يعودون إلى ما كانوا عليه سابقا من ممارسات مريضة؟

اختلف المفسّرون فى ذلك، و المستفاد من سياق الآية اللاحقة أنّ توبتهم لم تقبل، بلحاظ عدم اكتمال شروطها و شرائطها، و لكن يستفاد من بعض الرّوايات قبول توبتهم، لأنّها كانت عن نيّة خالصة، و عوضهم عن جنّتهم بأخرى أفضل منها، مليئة بأشجار العنب المثمرة.

و يقول تعالى فى آخر آيـة من هـذه الآيات، بلحاظ الاسـتفادة من هـذا الدرس و الإعتبار به: كَذلِكَ الْعَذابُ وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

و هكـذا توجّه الآيـة خطابها إلى كلّ المغرورين، الذين سـحرهم المال و أبطرتهم الثروة و الإمكانات الماديـة، و غلب عليهم الحرص و الاستئثار بكلّ شـىء دون المحتاجين .. بأنّه لن يكون لكم مصير أفضل من ذلك. و إذا ما جاءت صاعقـة و أحرقت تلك الجنّة، فمن الممكن أن تأتى صاعقـة أو عـذاب عليكم من أمثال الآفات و الحروب المحلية و العالمية المدمّرة، و ما إلى ذلك، لتذهب بالنعم التى تحرصون عليها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۴

بحثان

۱- الاستئثار بالنعم بلاء عظيم

جبل الإنسان و طبع على حبّ المال، و يمثّل هـذا الحبّ غريزة فى نفسه، لأنّ له فوائـد شتّى، و هـذا الحبّ غير مـذموم إذا كان فى حدّ الاعتدال، و جعل نصيب منه للمحتاجين، و هذا لا يعنى الاقتصار على أداء الحقوق الشرعية فقط، بل أداء بعض الإنفاقات المستحبّة.

و جاء فى الرّوايات الإسـلامية ضرورة جعل نصيب للمحتاجين الحاضرين ممّا يقطف من ثمار البساتين و حصاد الزرع. و هذا ما يعرف بعنوان (حقّ الحصاد) و هو مقتبس من الآية الشريفة: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصادِهِ ۵۳۲]، و هذا الحقّ غير حقّ الزكاة، و ما يعطى للمحتاجين الحاضرين منه أثناء قطف الثمار أو حصاد الزرع غير محدود بحدّ معيّن ۵۳۳].

إلّا أنّ التعلّق بالمال حينما يكون بصورة مفرطة و جشعة فإنّه يأخذ شكلا منحرفا و أنانيا، و قد لا يكون بحاجة إليه، فحرمان الآخرين و الاستئثار بالأموال و التلـذّذ بحيازة النعم و المواهب الإلهيـة دون سواه، مرض و بلاء كما نلاحظ فى حياتنا المعاصـرة مفردات و نماذج كثيرة فى مجتمعاتنا البشرية تعيش هذه الحالة.

و قصّة (أصـحاب الجنّة) التى حدّثتنا الآيات السابقة عنها، هى كشف و تعرية واضـحة لهذه النفسيات المريضة لأصحاب الأموال الذين يستأثرون بالخير و النعم و الهبات الإلهيـة، و يؤكّـدون بحصـرها فيهم دون سواهم .. و يتجسّـد هـذا المعنى فى الخطّة التى اعدّت من جانب أصحاب الجنّة فى حرمان المحتاجين، بالتفصيل الذى ذكرته الآيات الكريمة ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۵

و غـاب عن بـالهم أنّ آهات هؤلاء المحرومون تتحوّل فى أحيان كثيرة إلى صواعق محرقـة، تحيل سـعادة هؤلاء الأغنياء الظالمين إلى وبال، و تظهر هذه الصواعق على شكل كوارث و مفاجات و ثورات، و يشاهدون آثارها المدمّرة بامّ أعينهم، و يتحوّل ترفهم و بذخهم إلى زفرات و آهات و صرخات تشقّ عنان السماء، معلنين التوبة و الإقلاع عن الممارسات الاستئثارية، و لات ساعة متاب.

۲- العلاقة بين (الرزق) و (الذنوب)

ممّا يستفاد- ضمنا- من القصّة أعلاه وجود علاقة بين الذنب و الرزق، و ممّا يؤيّد هذا ما

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّـلام أنّه قال: «إنّ الرجل ليذنب الذنب، فيدرأ عنه الرزق، و تلا هذه الآية: إِذْ أَقْسَـمُوا لَيَصْرِمُنَّها مُصْبِحِينَ وَ لا يَسْتَثْنُونَ، فَطافَ عَلَيْها طائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَ هُمْ نائِمُونَ ۵۳۴].

و نقل عن ابن عبّاس أيضا أنّه قال: إنّ العلاقة بين الذنب و قطع الرزق، أوضح من الشمس، كما بيّنها اللّه عزّ و جلّ فى سورة ن و القلم ۵۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۶

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۳۴ الى ۴۱]

اشارة

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (۳۴) أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (۳۵) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (۳۶) أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (۳۷) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ (۳۸)

أَمْ لَكُمْ أَيْمانٌ عَلَيْنا بالِغَةٌ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَما تَحْكُمُونَ (۳۹) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذلِكَ زَعِيمٌ (۴۰) أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكائِهِمْ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (۴۱)

التّفسير

۱- استجواب كامل:

إنّ طريقة القرآن الكريم فى الكشف عن الحقائق، و استخلاص المواقف، تكون من خلال عملية مقارنة يعرضها اللّه سبحانه فى الآيات الكريمة، و هذا الأسلوب مؤثّر جدّا من الناحية التربوية .. فمثلا تستعرض الآيات الشريفة حياة الصالحين و خصائصهم و ميزاتهم و معاييرهم .. ثمّ كذلك بالنسبة إلى الطالحين و الظالمين، و يجعل كلا منهما فى ميزان، و يسلّط الأضواء عليهما من خلال عملية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۷

مقارنة، للوصول إلى الحقيقة.

و تماشيا مع هذا المنهج و بعد استعراض النهاية المؤلمة ل (أصحاب الجنّة) فى الآيات السابقة، يستعرض البارئ عزّ و جلّ حالة المتّقين فيقول: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ

«جنّات» من (الجنّة) حيث كلّ نعمة متصوّرة على أفضل صورة لها تكون هناك، بالإضافة إلى النعم التى لم تخطر على البال.

و لأنّ قسما من المشركين و المترفين كانوا يدّعون علوّ المقام و سموّه فى يوم القيامة كما هو عليه فى الدنيا، لذا فإنّ اللّه يوبّخهم على هذا الادّعاء بشدّة فى الآية اللاحقة. بل يحاكمهم فيقول: أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

هل يمكن أن يصدّق إنسان عاقل أنّ عاقبة العادل و الظالم، المطيع و المجرم، المؤثر و المستأثر واحدة و متساوية؟ خاصّة عند ما تكون المسألة عند إله جعل كلّ مجازاته و مكافآته وفق حساب دقيق و برنامج حكيم.

و تستعرض الآية (۵۰) من سورة فصّلت موقف هؤلاء الأشخاص المماثل لما تقدّم، حيث يقول تعالى: وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي، وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً، وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى

نعم، إنّ الفئة المغرورة المقتنعة بتصرّفاتها الراضية عن نفسها .. تعبر أنّ الدنيا و الآخرة خاصّة بها و ملك لها.

ثمّ يضيف تعالى أنّه لو لم يحكم العقل بما تدعون، فهل لديكم دليل نقلى ورد فى كتبكم يؤيّد ما تزعمون: أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ ۵۳۶] أى ما اخترتم من الرأى ..

إن توقّعكم فى أن تكون العناصر المجرمة من أمثالكم مع صفوف المسلمين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۸

و علی مستواهم ...، حدیث هراء لا یدعمه العقل، و لم یأت فی کتاب یعتدّ به و لا هو موضع اعتبار.

ثمّ تضیف الآیة اللاحقة أنّه لو لم یکن لدیکم دلیل من العقل أو النقل، فهل أخذتم عهدا من اللّه أنّه سیکون معکم إلی الأبد: أَمْ لَکُمْ أَیْمانٌ عَلَیْنا بالِغَةٌ إِلی یَوْمِ الْقِیامَةِ إِنَّ لَکُمْ لَما تَحْکُمُونَ

و تتساءل الآیة الکریمة عن هؤلاء مستفسرة عمّن یستطیع الادّعاء منهم بأنّه قد أخذ عهدا من اللّه سبحانه فی الاستجابة لمیوله و أهوائه، و إعطائه ما یشاء من شأن و مقام، و بدون موازین أو ضوابط، و بصورة بعیدة عن مقاییس السؤال و موازین الاستجابة؟ حتّی یمکن القول بأنّ المجرمین متساوون مع المؤمنین ۵۳۷].

و یضیف سبحانه- استمرارا لهذه التساؤلات- کی یسدّ علیهم جمیع الطرق و من کلّ الجهات، فیقول: سَلْهُمْ أَیُّهُمْ بِذلِکَ زَعِیمٌ فمن منهم یضمن أنّ المسلمین و المجرمین سواء، أو یضمن أنّ اللّه تعالی سیؤتیه کلّ ما یرید؟!.

و فی آخر مرحلة من هذا الاستجواب العجیب یقول تعالی: أَمْ لَهُمْ شُرَکاءُ فَلْیَأْتُوا بِشُرَکائِهِمْ إِنْ کانُوا صادِقِینَ

فالآیة تطلب من المشرکین تقدیم الدلیل الذی یثبت أنّ هذه الأصنام المنحوتة من الحجارة، و التی لا قیمة لها و لا شعور، تکون شریکة اللّه تعالی و تشفع لهم عنده.

و ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ (شرکاء) هنا بمعنی (شهداء).

و من خلال العرض المتقدّم نستطیع القول: إنّ هؤلاء المجرمین لإثبات ادّعاءاتهم فی التساوی مع المؤمنین فی یوم القیامة، بل أفضلیتهم أحیانا کما یذهب بعضهم لذلک، لا بدّ لهم أن یدعموا قولهم هذا بإحدی الوسائل الأربعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۴۹

التالیة: إمّا دلیل من العقل، أو کتاب من الکتب السماویة، أو عهد من اللّه تعالی، أو بواسطة شفاعة الشافعین و شهادة الشاهدین. و بما أنّ جواب جمیع هذه الأسئلة سلبی، لذا فإنّ هذا الادّعاء فارغ من الأساس و لیست له أیّة قیمة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۰

الآیات [سورة القلم (۶۸): الآیات ۴۲ الی ۴۵]

اشارة

یَوْمَ یُکْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ فَلا یَسْتَطِیعُونَ (۴۲) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَ قَدْ کانُوا یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ (۴۳) فَذَرْنِی وَ مَنْ یُکَذِّبُ بِهذَا الْحَدِیثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَیْثُ لا یَعْلَمُونَ (۴۴) وَ أُمْلِی لَهُمْ إِنَّ کَیْدِی مَتِینٌ (۴۵)

التّفسیر

العجز عن السجود:

تعقیبا للآیات السابقة التی استجوب اللّه تعالی فیها المشرکین و المجرمین استجوابا موضوعیا، تکشف لنا هذه الآیات جانبا من المصیر البائس فی یوم القیامة لهذه الثلّة المغرمة فی حبّها لذاتها، و المکثرة للادّعاءات، هذا المصیر المقترن بالحقارة و الذلّة و الهوان.

یقول تعالی: یَوْمَ یُکْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ یُدْعَوْنَ إِلَی السُّجُودِ فَلا یَسْتَطِیعُونَ ۵۳۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۱

جملة يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ كما قال جمع من المفسّرين، كناية عن شدّة الهول و الخوف و الرعب و سوء الحال، إذ أنّ المتعارف بين العرب عند مواجهتهم أمرا صعبا أنّهم يشدّون ثيابهم على بطونهم ممّا يؤدّى إلى كشف سيقانهم.

و نقرأ جواب ابن عبّاس المفسّر المعروف عند ما سئل عن تفسير هذه الآية قال: كلّما خفى عليكم شىء من القرآن ارجعوا إلى الشعر فإنّ الشعر ديوان العرب، أ لم تسمعوا قول الشاعر:

و قامت الحرب بنا على ساق.

إنّ هذا القول كناية عن شدّة أزمة الحرب.

و قيل: إنّ (ساق) تعنى أصل و أساس الشىء، كساق الشجرة، و بناء على هذا فإنّ جملة (يكشف عن ساق) تعنى أنّ أساس كلّ شىء يتّضح و يتبيّن فى ذلك اليوم، إلّا أنّ المعنى الأوّل أنسب حسب الظاهر.

و فى ذلك اليوم العظيم يدعى الجميع إلى السجود للبارئ عزّ و جلّ، فيسجد المؤمنون، و يعجز المجرمون عن السجود، لأنّ نفوسهم المريضة و ممارساتهم القبيحة قد تأصّلت فى طباعهم و شخصياتهم فى عالم الدنيا، و تطفح هذه الخصال فى اليوم الموعود و تمنعهم من إحناء ظهورهم للذات الإلهية المقدّسة.

و هنا يثار سؤال: إنّ يوم القيامة ليس بيوم تكاليف و واجبات و أعمال، فلم السجود؟

يمكن استنتاج الجواب من التعبير الذى ورد فى بعض الأحاديث، نقرأ

فى الحديث التالى عن الإمام الرضا عليه السّلام فى قوله تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَ يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ قال: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجّدا و تدمج أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود»[۵۳۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۲

و بتعبير آخر: فى ذلك اليوم تتجلّى العظمة الإلهية، و هذه العظمة تدعو المؤمنين للسجود فيسجدون، إلّا أنّ الكافرين حرموا من هذا الشرف و اللطف.

و تعكس الآية اللاحقة صورة جديدة لحالتهم حيث يقول سبحانه: خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ[۵۴۰].

هذه الآية الكريمة تصف لنا حقيقة المجرمين عند ما يدانون فى إجرامهم و يحكم عليهم، حيث نلاحظ الذلّة و الهوان تحيط بهم، و تكون رؤوسهم مطأطئة تعبيرا عن هذه الحالة المهينة.

ثمّ يضيف تعالى: وَ قَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَ هُمْ سالِمُونَ

إلّا أنّهم لن يسجدوا أبدا، لقد صحبوا روح التغطرس و العتوّ و الكبر معهم فى يوم القيامة فكيف سيسجدون؟

إنّ الدعوة للسجود فى الدنيا لها موارد عديدة، فتارة بواسطة المؤذّنين للصلاة الفردية و صلاة الجماعة، و كذلك عند سماع بعض الآيات القرآنية و أحاديث الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام .. و لذا فإنّ الدعوة للسجود لها مفهوم واسع و تشمل جميع ما تقدّم.

ثمّ يوجّه البارئ عزّ و جلّ الخطاب لنبيّه الكريم و يقول: فَذَرْنِي وَ مَنْ يُكَذِّبُ بِهذَا الْحَدِيثِ

و هذه اللهجة تمثّل تهديدا شديدا من الواحد القهّار لهؤلاء المكذّبين المتمردين، حيث يخاطب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقوله: لا تتدخّل، و اتركنى مع هؤلاء، لاعاملهم بما يستحقّونه. و هذا الكلام الذى يقوله ربّ قادر على كلّ شىء،- بالضمن- باعث على اطمئنان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين أيضا، و مشعرا لهم بأنّ اللّه معهم و سيقتصّ من جميع الأعداء الذين يثيرون المشاكل و الفتن و المؤامرات أمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۳

الرّسول و الرسالة، و لن يتركهم اللّه تعالى على تماديهم.

ثمّ يضيف سبحانه: سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ

نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «إذا أحدث العبد ذنبا جدّد له نعمة فيدع الاستغفار، فهو الاستدراج»[۵۴۱].

و الذى يستفاد من هذا الحديث- و الأحاديث الاخرى فى هذا المجال- أنّ اللّه تعالى يمنح- أحيانا- عباده المعاندين نعمة و هم غارقون فى المعاصى و الذنوب و ذلك كعقوبة لهم. فيتصوّرون أنّ هذا اللطف الإلهى قد شملهم لجدارتهم و لياقتهم له فيأخذهم الغرور المضاعف، و تستولى عليهم الغفلة .. إلّا أنّ عذاب اللّه ينزل عليهم فجأة و يحيط بهم و هم بين أحضان تلك النعم الإلهية العظيمة .. و هذا فى الحقيقة من أشدّ ألوان العذاب ألما.

إنّ هذا اللون من العذاب يشمل الأشخاص الذين وصل طغيانهم و تمردّهم حدّه الأعلى، أمّا من هم دونه فى ذلك فإنّ اللّه تعالى يتبّههم و ينذرهم عن ممارساتهم الخاطئة عسى أن يعودوا إلى رشدهم، و يستيقظوا من غفلتهم، و يتوبوا من ذنوبهم، و هذا من ألطاف البارئ عزّ و جلّ بهم.

و بعبارة اخرى: إذا أذنب عبد فإنّه لا يخرج من واحدة من الحالات الثلاث التالية:

إمّا أن ينتبه و يرجع عن خطئه و يتوب إلى ربّه.

أو أن ينزل اللّه عليه العذاب ليعود إلى رشده.

أو أنّه غير أهل للتوبة و لا للعودة للرشد بعد التنبيه له، فيعطيه اللّه نعمة بدل البلاء و هذا هو: (عذاب الاستدراج) و الذى أشير له فى الآيات القرآنية بالتعبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۴

أعلاه و بتعابير اخرى.

لذا يجب على الإنسان المؤمن أن يكون يقظا عند إقبال النعم الإلهية عليه، و ليحذر من أن يكون ما يمنحه اللّه من نعم ظاهرية يمثّل فى حقيقته (عذاب الاستدراج) و لذلك فإنّ المسلمين الواعين يفكّرون فى مثل هذه الأمور و يحاسبون أنفسهم باستمرار، و يعيدون تقييم أعمالهم دائما، كى يكونوا قريبين من طاعة اللّه، و يؤدّون حقّ الألطاف و النعم التى وهبها اللّه لهم.

جاء فى حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام قال: إنّى سألت اللّه تبارك و تعالى أن يرزقنى مالا فرزقنى، و إنّى سألت اللّه أن يرزقنى ولدا فرزقنى، و سألته أن يرزقنى دارا فرزقنى، و قد خفت أن يكون ذلك استدراجا؟ فقال: «أمّا مع الحمد فلا»[۵۴۲].

و التعبير ب (أملى لهم) إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يستعجل أبدا بجزاء الظالمين، و الاستعجال يكون عادة من الشخص الذى يخشى فوات الفرصة عليه، إلّا أنّ اللّه القادر المتعال أيّما شاء و فى أى لحظة فإنّه يفعل ذلك، و الزمن كلّه تحت تصرّفه.

و على كلّ حال فإنّ هذا تحذير لكلّ الظالمين و المتطاولين بأن لا تغرّهم السلامة و النعمة أبدا، و ليرتقبوا فى كلّ لحظة بطش اللّه بهم [۵۴۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۵

الآيات [سورة القلم (۶۸): الآيات ۴۶ الى ۵۰]

اشارة

أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (۴۶) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (۴۷) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ (۴۸) لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ (۴۹) فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (۵۰)

التّفسير

لا تستعجل بعذابهم:

استمرارا للاستجواب الذى تمّ فى الآيات السابقة للمشركين و المجرمين، يضيف البارئ عزّ و جلّ سؤالين آخرين، حيث يقول فى البداية: أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ

أى إذا كانت حجّتهم أنّ الاستجابة لدعوتك تستوجب أجرا ماديا كبيرا، و أنّهم غير قادرين على الوفاء به، فإنّه كذب، حيث أنّك لم تطالبهم بأجر، كما لم يطلب أى من رسل اللّه أجرا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۶

«مغرم» من مادّة (غرامة) و هى ما يصيب الإنسان من ضرر دون أن يرتكب جناية، و (مثقل) من مادّة (ثقل) بمعنى الثقل، و بهذا فإنّ اللّه تعالى أسقط حجّة اخرى ممّا يتذرّع به المعاندون.

و قد وردت الآية أعلاه و ما بعدها (نصّا) فى سورة الطور (آية ۴۰- ۴۱).

ثمّ يضيف و استمرارا للحوار بقوله تعالى: أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ

حيث يمكن أن يدّعى هؤلاء بأنّ لهم ارتباطا باللّه سبحانه عن طريق الكهنة، أو أنّهم يتلقّون أسرار الغيب عن هذا الطريق فيكتبونها و يتداولونها، و بذلك كانوا فى الموقع المتميّز على المسلمين، أو على الأقل يتساوون معهم.

و من المسلّم به أنّه لا دليل على هذا الادّعاء أيضا، إضافة إلى أنّ لهذه الجملة معنى (الاستفهام الإنكارى)، و لذا فمن المستبعد ما ذهب إليه البعض من أنّ المقصود من الغيب هو (اللوح المحفوظ)، و المقصود من الكتابة هو القضاء و القدر، و ذلك لأنّهم لم يدّعوا أبدا أنّ القضاء و القدر و اللوح المحفوظ فى أيديهم.

و لأنّ العناد و اللامنطقية التى كان عليها أعداء الإسلام تؤلم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تدفعه إلى أن يدعو اللّه عليهم، لذا فإنّه تعالى أراد أن يخفّف شيئا من آلام رسوله الكريم، فطلب منه الصبر و ذلك قوله تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

أى انتظر حتّى يهيء اللّه لك و لأعوانك أسباب النصر، و يكسر شوكة أعدائك، فلا تستعجل بعذابهم أبدا، و اعلم بأنّ اللّه ممهلهم و غير مهملهم، و ما المهلة المعطاة لهم إلّا نوع من عذاب الاستدراج.

و بناء على هذا فإنّ المقصود من (حكم ربّك) هو حكم اللّه المقرّر الأكيد حول انتصار المسلمين.

و قيل أنّ المقصود منها هو: أن تستقيم و تصبر فى طريق إبلاغ أحكام اللّه تعالى.

كما يوجد احتمال آخر أيضا و هو أنّ المقصود بالآية أنّ حكم اللّه إذا جاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۷

فعليك أن تستسلم لأمره تعالى و تصبر، لأنّه سبحانه قد حكم بذلك ۵۴۴].

إلّا أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

ثمّ يضيف تعالى: وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادى وَ هُوَ مَكْظُومٌ

و المقصود من هذا النداء هو ما ورد فى قوله تعالى: فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۵۴۵].

و بذلك فقد اعترف النبى يونس عليه السّلام بترك الأولى، و طلب العفو و المغفرة من اللّه تعالى. كما يحتمل أن يكون المقصود من هذا النداء هو اللعنة التى أطلقها على قومه فى ساعة غضبه. إلّا أنّ المفسّرين اختاروا التّفسير الأوّل لأنّ التعبير ب «نادى» فى هذه الآية يتناسب مع ما ورد فى الآية (۸۷) من سورة الأنبياء، حيث من المسلّم انّه نادى ربّه عند ما كان عليه السّلام فى بطن الحوت.

«مكظوم» من مادّة (كظم) على وزن (هضم) بمعنى الحلقوم، و (كظم السقاء) بمعنى سدّ فوهة القربة بعد امتلائها، و لهذا السبب يقال للأشخاص الذين يخفون غضبهم و ألمهم و يسيطرون على انفعالاتهم و يكظمون غيظهم ... بأنّهم: كاظمون، و المفرد: كاظم، و لهذا السبب يستعمل هذا المصطلح أيضا بمعنى (الحبس).

و بناء على ما تقدّم فيمكن أن يكون للمكظوم معنيان فى الآية أعلاه: المملوء غضبا و حزنا، أو المحبوس فى بطن الحوت، و المعنى الأوّل أنسب، كما ذكرنا.

و يضيف سبحانه فى الآية اللاحقة: لَوْ لا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَراءِ وَ هُوَ مَذْمُومٌ ۵۴۶].

من المعلوم أنّ يونس عليه السّلام خرج من بطن الحوت، و القى فى صحراء يابسة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۸ ؛ ص۵۵۸

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۸

عبّر عنها القرآن الكريم ب (العراء) و كان هذا فى وقت قبل اللّه تعالى فيه توبته و شمله برحمته، و لم يكن أبدا مستحقّا عليه السّلام للذمّ.

و نقرأ فى قوله تعالى: فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ۵۴۷] كى يستريح فى ظلالها.

كما أنّ المقصود من (النعمة) فى الآية أعلاه هو توفيق التوبة و شمول الرحمة الإلهية لحاله عليه السّلام حسب الظاهر.

و هنا يطرح سؤالان:

الأوّل: هو ما جاء فى الآيتين ۱۴۳، ۱۴۴ من سورة الصافات فى قوله تعالى:

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ و هذا مناف لما ورد فى الآية مورد البحث.

و للجواب على هذا السؤال يمكن القول: كانت بانتظار يونس عليه السّلام عقوبتان:

إحداهما شديدة، و الاخرى أخفّ وطأة. الاولى الشديدة هى أن يبقى فى بطن الحوت إلى يوم يبعثون، و الأخفّ: هو أن يخرج من بطن الحوت و هو مذموم و بعيد عن لطف اللّه سبحانه، و قد كان جزاؤه عليه السّلام الجزاء الثانى، و رفع عنه ما ألمّ به من البعد عن الألطاف الإلهية حيث شملته بركة اللّه عزّ و جلّ و رحمته الخاصّة.

و السؤال الآخر يتعلّق بما جاء فى قوله تعالى: فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ ۵۴۸] و إنّ ما يستفاد من الآية مورد البحث أنّه عليه السّلام لم يكن ملوما و لا مذموما.

و يتّضح الجواب على هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ الملامة كانت فى الوقت الذى التقمه الحوت توّا، و أنّ رفع المذمّة كان متعلّقا بوقت التوبة و قبولها من قبل اللّه تعالى، و نجاته من بطن الحوت.

لذا يقول البارئ عزّ و جلّ فى الآية اللاحقة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۵۹

فَاجْتَباهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ

و بذلك فقد حمّله اللّه مسئولية هداية قومه مرّة اخرى، و عاد إليه يبلّغهم رسالة ربّه، ممّا كانت نتيجته أن آمن قومه جميعا، و قد منّ اللّه تعالى عليهم بألطافه و نعمه و أفضاله لفترة طويلة.

و قد شرحنا قصّة يونس عليه السّلام و قومه، و كذلك بعض المسائل الاخرى حول تركه ل (الأولى) و استقراره فترة من الزمن فى بطن الحوت و الإجابة على بعض التساؤلات المطروحة فى هذا الصدد بشكل مفصّل فى تفسير الآيات (۱۳۹ – ۱۴۸) من سورة الصافات و كذلك فى تفسير الآيات (۸۷، ۸۸) من سورة الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۰

الآيتان [سورة القلم (۶۸): الآيات ۵۱ الى ۵۲]

اشارة

وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (۵۱) وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۵۲)

التّفسير

يريدون قتلك .. لكنّهم عاجزون

هاتان الآيتان تشكّلان نهاية سورة القلم، و تتضمّنان تعقيبا على ما ورد فى بداية السورة من نسبة الجنون إليه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من قبل الأعداء.

يقول تعالى: وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ

«ليزلقونك» من مادّة (زلق) بمعنى التزحلق و السقوط على الأرض، و هى كناية عن الهلاك و الموت.

ثمّة أقوال مختلفة فى تفسير هذه الآية:

۱- قال كثير من المفسّرين: إنّ الأعداء حينما يسمعون منك هذه الآيات العظيمة للقرآن الكريم، فإنّهم يمتلئون غضبا و غلا، و تتوجّه إليك نظراتهم الحاقدة و بمنتهى الغيظ، و كأنّما يريدون أن يطرحوك أرضا و يقتلوك بنظراتهم الخبيثة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۱

الغاضبة.

و أضاف قسم آخر فى توضيح هذا المعنى، أنّهم يريدون قتلك بالحسد عن طريق العين، و هو ما يعتقد به الكثير من الناس، لوجود الأثر المرموز فى بعض العيون و التى يمكن أن تؤثّر على الطرف الآخر بنظرة خاصّة تميت المنظور.

۲- و قال البعض الآخر: إنّها كناية عن نظرات ملؤها الحقد و الغضب، كما يقال عرفا: إنّ فلانا نظر إلىّ نظرة و كأنّه يريد التهامى أو قتلى.

۳- و يوجد تفسير آخر للآية الكريمة يحتمل أن يكون أقرب التفاسير، و هو أنّ الآية الكريمة أرادت أن تظهر التناقض و التضادّ لدى هؤلاء المعاندين، و ذلك أنّهم يعجبون و يتأثّرون كثيرا عند سماعهم الآيات القرآنية بحيث يكادون أن يصيبوك بالعين (لأنّ الإصابة بالعين تكون غالبا فى الأمور التى تثير الإعجاب كثيرا) إلّا أنّهم فى نفس الوقت يتّهمونك بالجنون، و هذا يمثّل التناقض حقّا. إذ أين الجنون و لغو الكلام و أين هذه الآيات المثيرة للإعجاب و النافذة فى القلوب؟

إنّ هؤلاء ذوى العقول المريضة لا يدركون ما يقولون و ما وقعوا فيه من التناقض فيما ينسبونه إليك.

و على كلّ حال فإنّ ما يتعلّق بموضوع حقيقة إصابة العين و صحّتها- من وجهة النظر الإسلامية أو عدمها، و كذلك من وجهة نظر العلوم الحديثة، فهذا ما سنستعرضه فى البحوث التالية إن شاء اللّه.

و أخيرا يضيف تعالى فى آخر آية: وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ

حيث أنّ معارف القرآن الكريم واضحة، و إنذاراته موقظة، و أمثاله هادفة، و ترغيباته و بشائره مربّية، و بالتالى فهو عامل و سبب ليقظة النائمين و تذكرة للغافلين، و مع هذا فكيف يمكن أن ينسب الجنون إلى من جاء به؟

و تماشيا مع هذا الرأى فإنّ (ذكر) على وزن (فكر) تكون بمعنى (المذكّر).

و فسّرها البعض الآخر بمعنى (الشرف)، و قالوا: إنّ هذا القرآن شرف لجميع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۲

العالمين، و هذا ما هو وارد- أيضا- فى قوله تعالى: وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ ۵۴۹].

إلّا أنّ (الذكر) هنا بمعنى المذكّر و المنبّه، بالإضافة إلى أنّ أحد أسماء القرآن الكريم هو (الذكر) و بناء على هذا، فإنّ التّفسير الأوّل أصحّ حسب الظاهر.

بحث

هل أنّ إصابة العين لها حقيقة؟

يعتقد الكثير من الناس أنّ لبعض العيون آثارا خاصّة عند ما تنظر لشىء بإعجاب، إذ ربّما يترتّب على ذلك الكسر أو التلف، و إذا كان المنظور إنسانا فقد يمرض أو يجنّ ..

إنّ هذه المسألة ليست مستحيلة من الناحية العقلية، حيث يعتقد البعض من العلماء المعاصرين بوجود قوّة مغناطيسية خاصّة مخفية فى بعض العيون بإمكانها القيام بالكثير من الأعمال، كما يمكن تدريبها و تقويتها بالتمرين و الممارسة، و من المعروف أنّ «التنويم المغناطيسى» يكون عن طريق هذه القوّة المغناطيسية الموجودة فى العيون.

إنّ (أشعة ليزر) هى عبارة عن شعاع لا مرئى يستطيع أن يقوم بعمل لا يستطيع أى سلاح فتّاك القيام به، و من هنا فإنّ القبول بوجود قوّة فى بعض العيون تؤثّر على الطرف المقابل، و ذلك عن طريق أمواج خاصّة ليس بأمر مستغرب.

و يتناقل الكثير من الأشخاص أنّهم رأوا بامّ أعينهم أشخاصا لهم هذه القوّة المرموزة فى نظراتهم، و أنّهم قد تسبّبوا فى إهلاك آخرين (أشخاص و حيوانات و أشياء) و ذلك بإصابتهم بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۳

لذا فلا ينبغى الإصرار على إنكار هذه الأمور. بل يجدر تقبّل احتمال وجود مثل هذا الأمر من الناحية العقلية و العلمية.

كما جاء فى بعض الرّوايات الإسلامية- أيضا- ما يؤيّد وجود مثل هذا الأمر بصورة إجمالية كما

فى الرواية التالية: «إنّ أسماء بنت عميس قالت: يا رسول اللّه إنّ بنى جعفر تصيبهم العين أ فأسترقى لهم؟ قال: نعم، فلو كان شىء يسبق القدر لسبقه العين».

(المقصود من (الرقية) هى الأدعية التى يكتبونها و يحتفظ بها الأشخاص لمنع الإصابة بالعين و يقال لها التعويذة أيضا)[۵۵۰].

و

جاء فى حديث آخر أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قال: النّبى رقى حسنا و حسينا فقال: «أعيذكما بالكلمات التامّة و أسمائه الحسنى كلّها عامّة، من شرّ السامّة و الهامّة، و من شرّ كلّ عين لامّة، و من شرّ حاسد إذا حسد» ثمّ التفت النّبى إلينا فقال: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل و إسحاق ۵۵۱].

و

جاء فى نهج البلاغة أيضا: «العين حقّ، و الرقى حقّ»[۵۵۲].

و لمّا كانت الأدعية توسّلا للبارئ عزّ و جلّ فى دفع الشرّ و جلب الخير، فبأمر من اللّه تعالى يمنع تأثير القوّة المغناطيسية للعيون، و لا

مانع من ذلک، کما أنّ للأدعیة تأثیرا فی کثیر من العوامل و الأسباب الضارّة و تبطل مفعولها بأمر اللّه تعالی.

کما یجدر الالتفات إلی هذه النقطة- أیضا- و هی: إنّ قبول تأثیر الإصابة بالعین بشکل إجمالی لا یعنی الإیمان بالأعمال الخرافیة، و ممارسات الشعوذة التی تنتشر بین العوام، إذ أنّ ذلک مخالف لأوامر الشرع، و یثیر الشکّ فی أصل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۴

الموضوع عند غیر المسلمین بهذه المسائل، کما أنّ هذه الأعمال تربک و تشوش الکثیر من الحقائق بما یدس بها من الأوهام و الخرافات، و بذلک یکون الانطباع عنها سلبیا فی الأذهان.

اللهمّ: احفظنا بحفظک من شرّ الأشرار، و مکائد الأعداء.

ربّنا، تفضّل علینا بالصبر و الاستقامة فی سبیل تحصیل رضاک.

إلهی، وفّقنا للاستفادة من نعمک اللامتناهیة و أداء شکرها قبل أن تسلب منّا.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة القلم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۵

سورة الحاقّة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها اثنتان و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۷

«سورة الحاقّة»

محتوی السورة:

تدور موضوعات سورة الحاقّة حول ثلاثة محاور:

المحور الأوّل: و هو أهمّ محاور هذه السورة، یرتبط بمسائل یوم القیامة و بیان خصوصیاتها، و قد وردت فیه ثلاثة أسماء من أسماء یوم القیامة و هی: (الحاقّة) و (القارعة) و (الواقعة).

أمّا المحور الثانی: فتدور أبحاثه حول مصیر الأقوام الکافرین، خصوصا قوم عاد و ثمود و فرعون، و تشتمل علی إنذارات شدیدة لجمیع الکفّار و منکری یوم البعث و النشور.

و تتحدّث أبحاث المحور الثالث حول عظمة القرآن الکریم، و مقام الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و جزاء المکذّبین.

فضیلة تلاوة سورة الحاقّة

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ سورة الحاقّة حاسبه اللّه حسابا یسیرا»[۵۵۳].

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام أنّه قال: (أکثروا من قراءة الحاقّة، فإنّ قراءتها فی الفرائض و النوافل من الإیمان باللّه و رسوله، و لم یسلب قارئها دینه حتّی یلقی اللّه)[۵۵۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۸

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
الْحَاقَّةُ (۱) مَا الْحَاقَّةُ (۲) وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ (۳) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ (۴)
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (۵) وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ (۶) سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها
صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (۷) فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ (۸)

التّفسير

الطغاة و العذاب الأليم:

تبدأ هذه السورة بعنوان جديد ليوم القيامة، يقول تعالى: الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَ ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ[۵۵۵] و المراد من الحاقّة هو اليوم الذى سيتحقّق حتما.

ذهب أغلب المفسّرين إلى أنّ (الحاقّة) اسم من أسماء يوم القيامة، باعتباره

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۶۹

قطعى الوقوع، كما هو بالنسبة ل (الواقعة) فى سورة (الواقعة)، و قد جاء فى الآية (۱۶) من هذه السورة الاسم نفسه، و هذا يؤكّد يقينية ذلك اليوم العظيم.

«ما الحاقّة»: تعبير لبيان عظمة ذلك اليوم، كما يقال: إنّ فلانا إنسان، يا له من إنسان، و يقصد من هذا التعبير وصف إنسانيّته دون تقييد حدّها.

و التعبير ب ما أَدْراكَ مَا الْحَاقَّةُ للتأكيد مرّة اخرى على عظمة الأحداث فى ذلك اليوم العظيم حتّى أنّ البارئ عزّ و جلّ يخاطب رسوله الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّك لا تعلم ما هو ذلك اليوم؟[۵۵۶].

و كما لا يمكن أن يدرك الجنين الذى فى بطن امّه المسائل المتعلّقة بالدنيا، فإنّ أبناء الدنيا كذلك ليس بمقدورهم إدراك الحوادث التى تكون فى يوم القيامة.

و يحتمل أنّ المقصود من (الحاقّة) هو الإشارة إلى العذاب الإلهى الذى يحلّ فجأة فى هذه الدنيا بالمشركين و المجرمين و الطغاة و أصحاب الهوى و المتمرّدين على الحقّ.

كما فسّرت (القارعة) التى وردت فى الآية اللاحقة بهذا المعنى- أيضا و بلحاظ أنّ هذا التّفسير يتناسب بصورة أكثر مع ما جاء فى الآيات اللاحقة التى تتحدّث عن حلول العذاب الشديد بقوم عاد و ثمود و فرعون و قوم لوط، فقد ذهب بعض المفسّرين إلى هذا الرأى أيضا.

و جاء فى تفسير (على بن إبراهيم) قوله: إنّ (الحاقّة هى الحذر من نزول العذاب) و هو نظير ما جاء فى الآية التالية: وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ ۵۵۷][۵۵۸] ثمّ تستعرض الآيات الكريمة اللاحقة مصير الأقوام الذين أنكروا يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۰

القيامة، و كذلك نزول العذاب الإلهى فى الدنيا، حيث يضيف تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَ عادٌ بِالْقارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ.

لقد كان (قوم ثمود) يسكنون فى منطقة جبلية بين الحجاز و الشام، فبعث اللّه النبى صالح عليه السّلام إليهم، و دعاهم إلى الإيمان باللّه ... إلّا أنّهم لم يستجيبوا له، بل حاربوه و تحدّوه فى إنزال العذاب الذى أوعدهم به إن كان صادقا، و فى هذه الحالة من التمرّد الذى هم عليه، سلّط اللّه عليهم (صاعقة مدمّرة) أنهت كلّ وجودهم فى لحظات، فخربت بيوتهم و قصورهم المحكمة، و تهاوت أجسادهم على الأرض.

و النقطة الجديرة بالملاحظة هنا هى أنّ القرآن الكريم يعبّر عن عقاب هؤلاء الأقوام المتمردين ب (العذاب الشديد)، و قد كان العذاب الشديد بصور متعدّدة حيث عبّر عنه ب (الطاغية) كما جاء فى الآية مورد البحث و اخرى بال (رجفة) كما جاء فى سورة الأعراف الآية (۷۸) و ثالثة كان بصورة (صاعقة) كما ورد فى سورة فصّلت الآية (۱۳)، و رابعة كان على شكل (صيحة) كما جاء فى سورة هود الآية (۶۷).

و فى الحقيقة فإنّ جميع هذه التعابير ترجع إلى معنى واحد، لأنّ الصاعقة دائما تكون مقرونة: بصوت عظيم، و رجفة على النقطة التى تقع فيها، و عذاب طاغ عظيم.

ثمّ تتطرّق الآية اللاحقة لتحدّثنا عن مصير (قوم عاد) الذين كانوا يسكنون فى أرض الأحقاف الواقعة (فى شبه جزيرة العرب أو اليمن) و كانوا ذوى قامات طويلة، و أجساد قوية، و مدن عامرة، و أراض خضراء خصبة، و حدائق نضرة ..

و كان نبيّهم (هود) عليه السّلام يدعوهم إلى الهدى و الإيمان باللّه ... إلّا أنّهم أصرّوا على كفرهم و تمادوا فى طغيانهم و تمرّدوا على الحقّ، فانتقم اللّه منهم شرّ انتقام، و أقبرهم تحت الأرض بعد أن سلّط عليهم عذابا شديدا مؤلما، سنوضّح شرحه فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۱

الآيات التالية.

يقول تعالى: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ.

«صرصر» على وزن (دفتر) تقال للرياح الباردة أو المقترنة بصوت و ضوضاء، أو المسمومة، و قد ذكر المفسّرون هذه المعانى الثلاث فى تفسيرها، و الجمع بين جميع هذه المعانى ممكن أيضا.

«عاتية» من مادّة (عتو) على وزن (علو) بمعنى التمرّد على القانون الطبيعى للرياح و ليست على أمر اللّه.

ثمّ تبيّن الآية التالية وصفا آخر لهذه الرياح المدمّرة، حيث يقول تعالى:

سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً.

«حسوما» من مادّة (حسم) على وزن (رسم) بمعنى إزالة آثار شىء ما، و قيل للسيف (حسام) على وزن (غلام)، و يقال: (حسم) أحيانا لوضع الشىء الحارّ على الجرح للقضاء عليه من الأساس.

لقد حطّمت و أفنت هذه الريح المدمّرة فى الليالى السبع و الأيّام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، و التى كانت تتميّز بالابّهة و الجمال، و استأصلتهم من الجذور[۵۵۹].

و يصوّر لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.

إنّه لتشبيه رائع يصوّر لنا ضخامة قامتهم التى اقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث أنّ العذاب الإلهى جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى اخرى.

«خاوية» من مادّة (خواء) على وزن (حواء) فى الأصل بمعنى كون الشىء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۲

خاليا، و يطلق هذا التعبير أيضا على البطون الجائعة، و النجوم الخالية من المطر (كما فى إعتقاد عرب الجاهلية)، و تطلق كذلك على

الجوز الأجوف الفارغ من اللب.

و يضيف فى الآية التالية: فَهَلْ تَرى لَهُمْ مِنْ باقِيَةٍ[۵۶۰].

نعم لم يبق اليوم أى أثر لقوم عاد، بل حتّى مدنهم العامرة، و عماراتهم الشامخة و مزارعهم النضرة لم يبق منها شىء يذكر أبدا.

لقد بحثنا قصّة قوم عاد بصورة مفصّلة فى التّفسير الأمثل، تفسير الآيات (۵۸- ۶۰) من سورة هود.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۳

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۹ الى ۱۲]

اشارة

وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ (۹) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً (۱۰) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (۱۱) لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (۱۲)

التّفسير

أين الآذان الواعية؟

بعد ما استعرضت الآيات الكريمة السابقة الأحداث التى مرّت بقومى عاد و ثمود، و تستمرّ هذه الآيات فى التحدّث عن الأقوام الاخرى كقوم (نوح) و قوم (لوط) لتكون درسا و عبرة لمن وعى و كان له قلب سليم .. يقول تعالى وَ جاءَ فِرْعَوْنُ وَ مَنْ قَبْلَهُ وَ الْمُؤْتَفِكاتُ بِالْخاطِئَةِ.

ال «خاطئة» بمعنى الخطأ و (لكليهما معنى مصدرى) و المراد من الخطأ هنا هو الشرك و الكفر و الظلم و الفساد و أنواع الذنوب.

ال «المؤتفكات» جمع (مؤتفكة) من مادّة (ائتفاك) بمعنى الانقلاب، و هى هنا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۴

إشارة إلى ما حصل فى مدن قوم لوط، حيث انقلبت بزلزلة عظيمة.

و المقصود ب وَ مَنْ قَبْلَهُ هم الأقوام الذين كانوا قبل قوم فرعون، كقوم شعيب، و قوم نمرود الذين تطاولوا على رسولهم.

ثمّ يضيف تعالى: فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رابِيَةً.

لقد خالف الفراعنة (موسى و هارون) عليهما السّلام و واجهوهما بمنتهى العنف و التشكيك و الملاحقة .. و كذلك كان موقف أهل مدينة (سدوم) من لوط عليه السّلام الذى بعث لهدايتهم و إنقاذهم من ضلالهم .. و هكذا كان- أيضا- موقف أقوام آخرين من رسلهم حيث التطاول. و التشكيك و الإعراض و التحدّى ..

إنّ كلّ مجموعة من هؤلاء الأقوام المتمردّين قد ابتلاهم اللّه بنوع من العذاب، و أنزل عليه رجزا من السماء بما يستحقّون، فالفراعنة أغرقهم اللّه سبحانه فى وسط النيل الذى كان مصدرا لخيراتهم و بركة بلدهم و إعمار أراضيهم و ديارهم، و قوم لوط سلّط اللّه عليهم (الزلزال) الشديد ثمّ (مطر من الحجارة) ممّا أدّى إلى موتهم و فنائهم من الوجود.

«رابية» و (ربا) من مادّة واحدة، و هى بمعنى الإضافة، و المقصود بها هنا العذاب الصعب و الشديد جدّا.

لقد جاء شرح قصّة قوم فرعون فى الكثير من سور القرآن الكريم، و جاءت بتفصيل أكثر فى ما ورد من سورة الشعراء الآية (۱۰- ۶۸) يراجع التّفسير الأمثل، و كذلك فى سورة الأعراف من الآية (۱۰۳- ۱۳۷) راجع التّفسير الأمثل، و كذلك فى سورة طه من الآية (۲۴-

۷۹) راجع التّفسير الأمثل.

و جاءت قصّة لوط أيضا فى الكثير من السور القرآنية من جملتها ما ورد فى سورة الحجر الآية (۶۱- ۷۷) فى التّفسير الأمثل.

و أخيرا تعرّض بإشارة موجزة إلى مصير قوم نوح و العذاب الأليم الذى حلّ بهم، قال تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۵

إنّ طغيان الماء كان بصورة غطّى فيها السحاب و من هنا جاء تعبير (طغى) حيث هطل مطر غزير جدّا و كأنّه السيل ينحدر من السماء، و فاضت عيون الأرض، و التقت مياههما بحيث أصبح كلّ شىء تحت الماء (القوم و بيوتهم و قصور أكابرهم و مزارعهم و بساتينهم ...) و لم تنج إلّا مجموعة المؤمنين التى كانت مع نوح عليه السّلام فى سفينة.

جملة (حملناكم) كناية عن حمل و إنقاذ أسلافنا و أجدادنا من الغرق، و إلّا ما كنّا فى عالم هذا الوجود[۵۶۱].

ثمّ يبيّن اللّه سبحانه الغاية و الهدف من هذا العقاب، حيث يقول تعالى:

لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ.

إنّنا لم نرد الانتقام منكم أبدا، بل الهداية و الخير و السعادة، كنّا نروم أن تكونوا فى طريق الكمال و النضج التربوى و الوصول إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان المكرم.

«تعيها» من مادّة (وعى) على وزن (سعى) يقول (الراغب) فى المفردات، و (ابن منظور) فى لسان العرب: إنّها فى الأصل بمعنى الاحتفاظ بشىء معيّن فى القلب، و من هنا قيل لإناء (وعاء) لأنّه يحفظ الشىء الذى يوضع فيه، و قد ذكرت هذه الصفة (الوعى) للآذان فى الآيات مورد البحث، و ذلك بلحاظ أنّها تسمع الحقائق و تحتفظ بها.

و الإنسان تارة يسمع كلاما إلّا أنّه كأن لم يسمعه، و فى التعبير السائد: يسمع بإذن و يخرجه من الاخرى.

و تارة اخرى يسمع الكلام و يفكّر فيه و يتأمّله. و يجعل ما فيه خير فى قلبه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۶

و يعتبر الإيجابى منه منارا يسير عليه فى طريق حياته ... و هذا ما يعبّر عنه ب (الوعى).

تعقيب

۱- فضيلة اخرى من فضائل الإمام على عليه السّلام

جاء فى كثير من الكتب الإسلامية المعروفة- أعمّ من كتب التّفسير و الحديث-

أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال عند نزول الآية أعلاه وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ: «سألت ربّى- أن يجعلها اذن على»،

و بعد ذلك

كان يقول الإمام على عليه السّلام: «ما سمعت من رسول اللّه شيئا قطّ فنسيته، إلّا و حفظته»[۵۶۲].

و نقل فى (غاية المرام) ستّة عشر حديثا فى هذا المجال عن طريق الشيعة و أهل السنّة، كما ينقل (المحدّث البحرانى) أيضا فى تفسير (البرهان) عن (محمّد بن عبّاس) ثلاثين حديثا فى هذا المجال نقلت عن طريق العامّة و الخاصّة.

و هذه فضيلة عظيمة لقائد الإسلام العظيم الإمام على عليه السّلام حيث يكون موضع أسرار الرّسول، و وارث علمه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لهذا السبب فإنّ الجميع كانوا يرجعون إليه- الموافق له و المخالف- بعد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ذلك عند ما يواجهون المشاكل الاجتماعية و العلمية المختلفة، و يطلبون منه التدخّل فى حلّها، كما تحدّثنا بذلك كتب التواريخ بشكل

تفصيلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۷

۲- التناسب بين (الذنب) و (العقاب)

وردت فى الآيات أعلاه تعبيرات ملفتة للنظر، فتعبير (الطاغية) جاء فى مورد العذاب الذى سلّط على قوم ثمود، و عبارة (العاتية) جاءت فى مورد العذاب الذى حلّ بقوم عاد، و بالنسبة إلى ما أصاب قوم فرعون و قوم لوط فقد ورد تعبير (الرابية) كما وردت عبارة (طغى الماء) فيما يتعلّق بطبيعة العذاب الذى شمل قوم نوح .. و الملاحظ من التعبيرات السابقة أنّها جميعا تشترك فى مفهوم واحد و هو: (الطغيان و التمرّد) و هو نتيجة طبيعية لما كانت عليه هذه الأقوام جميعا أى إنّ عذاب هؤلاء الطغاة تحقّق بطغيان بعض المواهب الإلهية للناس أعمّ من الماء و الهواء و التراب و النار.

كما أنّ هذه التعبيرات- أيضا- تؤكّد على حقيقة مهمّة، و هى أنّ العقوبات التى نواجهها فى الدنيا و الآخرة ما هى إلّا تجسيد لحقيقة أعمالنا، و أنّ أعمالنا نحن البشر تعود علينا خيرا كانت أم شرّا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۸

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۳ الى ۱۷]

اشارة

فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً (۱۴) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (۱۵) وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ (۱۶) وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ (۱۷)

التّفسير

الصّيحة العظيمة:

استمرارا لما تعرّضت له الآيات الاولى من هذه السورة، و التى كانت تتعلّق بمسألة الحشر و القيامة، تعرض لنا هذه الآيات صورة عن الحوادث العظيمة فى ذلك اليوم الرهيب بأسلوب محرّك و مؤثّر فى النفوس كى تحيط الإنسان علما بما ينتظره من حوادث ذات شأن كبير فى ذلك الموقف الرهيب.

يقول تعالى فى البداية: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ.

لقد بيّنا فيما سبق أنّ ممّا يستفاد من القرآن الكريم أنّ نهاية عالم الدنيا و بداية عالم الآخرة تكون بصوت مفاجئ عظيم، و ذلك ما عبّر عنه ب (نفخة الصور).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۷۹

و لهذا السبب استعمل البوق فى الماضى و الحاضر للاستفادة منه فى جمع و تهيئة الجيوش، و كذلك فى الإعلان عن موعد الاستراحة، حيث يتمّ العزف بألحان مختلفة حسب طبيعة الموضوع. الذى يعلن عنه، فالعزف للنوم و الاستراحة يختلف عن عزف التجمّع و التهيّؤ للحركة و التدريب ...

إنّ مسألـة انتهاء هـذا العالم، و بدايـة العالم الجديد عالم الآخرة، هى عند اللّه بسـيطة و هيّنة فى مقابل قدرته العظيمة، فبأمر واحد و فى لحظة مفاجئة ينتهى و يفنى من فى السموات و الأرضين، و بأمر آخر يلبس سبحانه الجميع لباس الحياة و يستعدّون للحساب، و هذا هو مقصود الآية الكريمة.

لقد تحدّثنا بصورة مفصّلة حول خصوصـيات (الصور) و كيفية (النفخ) فيه، و عدد النفخات، و الفاصـلة الزمنية بين كلّ نفخة، و ذلك فى تفسير سورة (الزمر) الآية ۶۸ من التّفسير الأمثل، لذا لا نرى ضرورة لتكرار ذلك.

و الشىء الوحيد الذى نذكّر به هنا هو (نفخة الصور) و كما أشرنا أعلاه فهى (نفختان): (نفخة الموت)، و (نفخة الحياة الجديدة)، لكن هل المقصود فى هـذه الآيـة الكريمـة هو (النفخة الاولى) أم (الثانية)؟ فهذا ما لا يوجد فيه رأى موحّد بين المفسّرين، لأنّ الآيات التى ستأتى لاحقا بعضـها يتناسب مع نفخة الموت، و الآخر يتناسب مع نفخة الحياة و الحشـر، إلّا أنّ منطوق الآيات بشكل إجمالى فى رأينا تتناسب أكثر مع النفخة الاولى التى تحصل فيها نهاية عالم الدنيا.

ثمّ يضيف تعالى: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً.

«دكّ» كمـا يقول الراغب فى المفردات، و فى الأصـل بمعنى (الأرض المسـتوية) و لأنّ الأرض غير المسـتوية تحتاج إلى الـدك حتّى تستوى، لذا استعمل هذا المصطلح فى الكثير من الموارد بمعنى «الدق الشديد».

كما يستفاد من مصادر اللغة أنّ أصل معنى (دك) هو (الدقّ و التخريب) و لازم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۰

ذلك الإستواء، لذا استعمل هذا المصطلح فى هذا المعنى أيضا[۵۶۳].

و على كلّ حال فإنّ المقصود من هـذه الكلمة- فى الآية مورد البحث- هو الدقّ الشديد للجبال و الأراضـى اللامسـتوية بعضـها ببعض بحيث تستوى و تتلاشى فيها جميع التعرجات.

ثمّ يضيف تعالى: فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْواقِعَةُ.

فى ذلـك اليوم العظيم لا تتلاشـى فيه الأرض و الجبال فحسب، بل يقع حـدث عظيم آخر، و ذلك قوله تعالى: وَ انْشَقَّتِ السَّماءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ واهِيَةٌ و ذلك بيان لما تتعرّض له، الأجرام السـماوية العظيمة من انفلاقات و تناثر و تلاشى، حيث تضطرب هذه الأجرام الهائلة و تتحوّل فيها النظام إلى فوضـى و التماسك إلى ضـعف، و الاسـتحكام إلى خواء بشكل عجيب. و ذلك من خلال حركات و تحوّلات مرعبة جدّا، كما يعبّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ الرحمن/ ۳۷.

و بعبارة اخرى فإنّ الأرض و السـماء الحاليتين تتدمران و تنتهيان، و يحدث عالم جديد على انقاض العالم السابق يكون أكمل و أتمّ و أعلى من عالمنا الدنيوى.

وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها.

«أرجـاء» جمع (رجـا) بمعنى جوانب و أطراف شـىء معيّن، و (الملـك) هنـا بـالرغم من ذكرها بصـيغة المفرد، إلّا أنّ المقصود بها هو الجنس و الجمع.

إنّ ملائكـة الرحمن- فى الآيـة أعلاه- يصـطفون على جوانب و أطراف السـماوات ينتظرون تلقّى أمر الواحـد الأحـد لإنجـازه بمجرد الإشارة، و كأنّهم جنود جاهزون لما يؤمرون به.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۱

ثمّ يقول تعالى: وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ.

إنّ حملـة العرش بـالرغم من أنّهم لم يشـخّصوا بصورة صـريحة فى هـذه الآيـة و هل هم من الملائكـة أم من جنس آخر؟ إلّا أنّ ظاهر تعـبير الآيـة الكريمـة أنّهم من الملائكـة، و من غير المعلـوم أنّ المقصـود ب (ثمانيـة) هـل هم ثمانيـة ملائكـة؟ أم ثمانيـة مجـاميع من

الملائكة؟ سواء كانت هذه المجاميع صغيرة أو كبيرة.

جاء فى الروايات الإسلامية أنّ حملة العرش فى عالم الدنيا أربعة أشخاص أو أربع (مجاميع) إلّا أنّهم فى يوم القيامة يكونون ضعف ذلك، كما نقرأ ذلك

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: (إنّهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم اللّه بأربعة آخرين فيكونون ثمانية)[۵۶۴].

أمّا ما يتعلّق بحقيقة العرش، و ماهية الملائكة، فذلك كما يلى:

المقصود ب (العرش) كما هو واضح ليس تختا ممّا يكون للسلاطين، و لكنّه- كما بيّنا سابقا فى تفسير كلمة (العرش)- بأنّها تعنى (مجموعة عالم الوجود) حيث أنّه عرش حكومة اللّه سبحانه، و يدبّر حكومته تعالى من خلاله بواسطة الملائكة الذين هم جاهزون لتنفيذ أمره سبحانه.

و جاء فى رواية اخرى أنّ حملة العرش فى يوم القيامة أربعة من الأوّلين، و أربعة من الآخرين، و الأشخاص الأوّلون الأربعة هم: (نوح) و (إبراهيم)، و (موسى)، و (عيسى)، أمّا الأشخاص الآخرون الأربعة فهم (محمّد) و (على) و (الحسن)، و (الحسين)[۵۶۵].

و هذا الحديث من الممكن أن يكون إشارة إلى مقام شفاعتهم للأوّلين و الآخرين، و الشفاعة- عادة- تكون لمن هم أهل لها، و ممّن لهم لياقة لنيلها، و مع ذلك فإنّه يوضّح المفهوم الواسع للعرش.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۲

أمّا إذا كان حملة العرش ثمانية مجاميع، فمن الطبيعى أن تتعهّد المجاميع للقيام بهذه المهمّة، سواء كان هؤلاء من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء، و ممّا تقدّم نلاحظ أنّ قسما من تدبير نظام و شؤون ذلك اليوم هو من مهمّة الملائكة و قسم من الأنبياء، حيث أنّ الجميع جاهزون لتنفيذ أمر اللّه، و يتحرّك بإرادته تعالى.

هنالك آراء فى أنّ الضمير فى (فوقهم) هل يرجع إلى «البشر»؟ أم إلى (الملائكة)؟ و بما أنّ الحديث فى الجملة السابقة كان حول الملائكة، فإنّ الضمير يرجع إليهم حسب الظاهر، و بهذه الصورة فإنّ الملائكة تحيط بالعالم من جميع جهاته، و لهذا فإنّ المقصود ب (من فوقهم) هو (العلو من حيث المقام).

و هنالك احتمال بأنّ حملة عرش اللّه هم أشخاص أعلى و أفضل من الملائكة، و تماشيا مع هذا الاحتمال فإنّ ما جاء فى الحديث السابق منسجم معه، حيث ورد فيه أنّ حملة عرش اللّه هم ثمانية من الأنبياء و الأولياء.

و بما أنّ الحوادث المتعلّقة بيوم القيامة ليست واضحة لنا نحن سكنة هذا العالم المحدود، لذا فليس بمقدورنا إذا إدراك المسائل المتعلّقة بحملة العرش فى ذلك اليوم. إنّ الذى نتحدّث به عن هذه الأمور ما هو إلّا شبح يتراءى لنا من بعيد فى ظلّ الآيات الإلهية، و إلّا فلا تتمّ رؤية الحقيقة بدون معايشة الواقع ۵۶۶].

و ممّا يجدر ملاحظته أنّ فى (النفخة الاولى للصور) يموت و يفنى جميع من فى السموات و الأرض، و بناء على هذا فإنّ مسألة بحث «حملة العرش» مرتبط «بالنفخة الثانية»، حيث يتمّ إحياء الجميع، و بالرغم من أنّه لم يأت ذكر للنفخة الثانية فى الآية أعلاه، إلّا أنّ ذلك يتّضح من خلال القرائن، و المطالب التى سترد فى الآيات اللاحقة تتعلّق بالنفخة الثانية أيضا[۵۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۳

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۱۸ الى ۲۴]

اشارة

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ (۱۸) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ (۱۹) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ (۲۰) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۲۱) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۲۲)

قُطُوفُها دانِيَةٌ (۲۳) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ (۲۴)

التّفسير

يا أهل المحشر: اقرؤا صحيفة أعمالى

قلنا فى تفسير الآيات السابقة أنّ (نفخ الصور) يحدث مرّتين.

الاولى: عند ما يأمر تعالى بنهاية العالم و موت الأحياء و تلاشى الوجود.

و الثانيـة: بحـدوث العالم الجديـد، عالم الآخرة حيث البعث و النشور ...، و كما ذكرنا فإنّ بداية الآيات تخبرنا عن النفخة الاولى، و لم تستعرض تفاصيل النفخة الثانية.

و استمرارا للحديث فى هذا الصدد، و خصوصيات العالم الجديد الذى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۴

سيكون عند النفخة الثانية، تحدّثنا هذه الآيات عن شىء من ذلك حيث يقول تعالى: يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ.

«تعرضون» من مادّة (عرض) بمعنى عرض شىء معيّن، بضاعة أو غيرها.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ جميع ما فى الوجود- بشرا و غيره- هو بين يدى اللّه سبحانه، سواء فى هذه الدنيا أو فى عالم الآخرة، إلّا أنّ هذا الأمر يظهر و يتّضح بصورة أشدّ فى يوم القيامة، كما فى مسألة حاكمية اللّه المطلقة و الدائمة على عالم الوجود، حيث تتّضح فى يوم القيامة أكثر من أى وقت آخر.

إنّ جملة: تَخْفى مِنْكُمْ خافِيَةٌ يمكن أن تكون إشارة إلى أنّ الأسرار الخاصّة بالإنسان و ما يحاول إخفاءه يتحوّل فى ذلك اليوم إلى حالة من الظهور و الوضوح كما يقول تعالى: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۵۶۸] فى ذلك اليوم لن يقتصر الوضوح و الظهور على أعمال البشر الخفيّة فحسب، بل على صفات و روحيات و أخلاقيات و نيّات الجميع فإنّها هى الاخرى تبرز و تظهر، و هذا أمر عظيم جدّا، بل إنّه أعظم من انفجار الأجرام السماوية و تلاشى الجبال- كما يقول البعض- حيث الفضيحة الكبرى للطالحين، و العزّة و الرفعة للمؤمنين بشكل لا نظير له، يوم يكون الإنسان عريانا ليس من حيث الجسم فقط، بل أعماله و أسراره الخفية تكون على رؤوس الأشهاد، نعم لا يبقى أمر مخفى من وجودنا و كياننا أجمع فى ذلك اليوم العظيم.

و يمكن أن يكون المراد هو الإشارة للإحاطة العلمية للّه تعالى بجميع المخلوقات، و لكن التّفسير الأوّل أنسب.

لذا يقول سبحانه بعد ذلك: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ ۵۶۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۵

إنّ الفرحة تملؤه بصورة لا مثيل لها، حتّى يكاد يطير من شدّة فرحته، حيث أنّ كلّ ذرّة من ذرّات وجوده تغمرها الغبطة و السعادة و الشكر للّه سبحانه على هذه النعم و التوفيق و الهداية التى منّ اللّه بها عليه و يصرخ (الحمد للّه).

ثمّ يعلن بافتخار عظيم فيقول: إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ ۵۷۰].

«ظنّ» فى مثل هذه الموارد تكون بمعنى (اليقين) إنّه يريد أن يقول: إنّ ما تفضّل به اللّه تعالى علىّ كان بسبب إيمانى بهذا اليوم، و الحقيقة أنّ الإيمان بالحساب و الكتاب يمنح الإنسان روح التقوى، و التعهّد و الإحسان بالمسؤولية، و هذا من أهمّ عوامل تربية

الإنسان.

ثمّ يبيّن اللّه تعالى فى الآيات اللاحقة جانبا من جزاء و أجر هؤلاء الأشخاص حيث يقول: فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ[۵۷۱].

و بالرغم من أنّ الجملة أعلاه تجسّد كلّ ما يستحقّ أن يقال فى هذا الموضوع، إلّا أنّه سبحانه يضيف للتوضيح الأكثر: فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ.

إنّ الجنّة التى تكون عالية و رفيعة بشكل لم ير أحد مثلها قطّ، و لم يسمع بها، و لم يتصور مثلها.

قُطُوفُها دانِيَةٌ[۵۷۲].

حيث لا ـ جهد مكلّف و لا مشقّة و لا صعوبة فى قطف الثمار، و لا عائق يحول من الاقتراب للأشجار المحمّلة بالثمار، و جميع هذه النعم فى متناول الأيدى بدون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۶

استثناء.

و فى آخر آية- مورد البحث- يوجّه البارئ عزّ و جلّ خطابه المملوء بالحبّ و المودّة و الاعتزاز إلى أهل الجنّة بقوله: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخالِيَةِ.

و هكذا كانت هذه النعمة العظيمة التى منحها اللّه لهؤلاء المتقين جزاء أعمالهم الصالحة التى ادّخروها ليوم كان فيه الحساب الحقّ، و أرسلوها سلفا أمامهم، و إنّ الأعمال الخيّرة و المحدودة هى التى أثمرت هذه الثمار الكبيرة حيث ظلّ الرحمة الإلهية و اللطف الربّانى.

ملاحظات

۱- تفسير آخر لكلمة (العرش)

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «حملة العرش- و العرش العلم- ثمانية، أربعة منّا، و أربعة ممّن شاء اللّه»[۵۷۳].

و

جاء أيضا فى حديث آخر لأمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «فالذين يحملون العرش، هم العلماء، الذين حمّلهم اللّه علمه»[۵۷۴].

و نقرأ

فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه قال: «العرش ليس هو اللّه، و العرش اسم علم و قدرة»[۵۷۵].

إنّ ما يستفاد من هذه الأحاديث- بشكل عام- أنّ للعرش تفسيرا آخر بالإضافة إلى التّفسير السابق الذى ذكرناه سابقا- و هو (صفات اللّه)- صفات مثل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۷

(العلم) و (القدرة)، و بناء على هذا، فإنّ حملة العرش الإلهى هم حملة علمه، و كلّما كان الإنسان أو الملك أكثر علما، كان له سهم أكبر فى حمل العرش العظيم.

و من هنا فإنّ هذه الحقيقة تتبلور بصورة أفضل و هى: أنّ العرش ليس تختا جسمانيا يشبه تخوت السلاطين، بل له معان عديدة كنائية مختلفة إذا استعمل منسوبا إلى اللّه تعالى.

۲- مقام الإمام على عليه السّلام و شيعته

جاء فی روایات عدیدة أنّ الآیة: فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ .. نزلت فی حقّ الإمام علی علیه السّلام و شیعته ۵۷۶].

۳- جواب علی سؤال

و السؤال المطروح هو: هل أنّ دعوة المؤمنین لأهل المحشر لقراءة کتاب حسابهم و صحیفة أعمالهم- طبقا لما جاء فی الآیة الکریمة: فَأَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِیَمِینِهِ فَیَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ تعنی أنّ صحیفة أعمالهم خالیة من أی ذنب؟

و فی مقام الجواب یمکن أن نستفید من بعض الأحادیث منها

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث یقول: «یدنی اللّه العبد یوم القیامة، فیقرره بذنوبه کلّها، حتی إذا رای أنّه قد هلک قال اللّه تعالی: إنّی سترتها علیک فی الدنیا و أنا أغفرها لک الیوم، ثمّ یعطی کتاب حسناته بیمینه»[۵۷۷] (۲).

و قال البعض أیضا: إنّ اللّه تعالی یبدّل سیّئات المؤمنین فی ذلک الیوم إلی (حسنات) و بذلک لا تبدو أی نقطة سوداء فی صحائف أعمالهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۸

الآیات [سورة الحاقة (۶۹): الآیات ۲۵ الی ۲۹]

اشارة

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ (۲۵) وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ (۲۶) یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ (۲۷) ما أَغْنی عَنِّی مالِیَهْ (۲۸) هَلَکَ عَنِّی سُلْطانِیَهْ (۲۹)

التّفسیر

یا لیتنی متّ قبل هذا:

کان الحدیث فی الآیات السابقة عن (أصحاب الیمن) حیث صحائف أعمالهم بأیدیهم الیمنی، و یوجّهون نداءهم إلی أهل المحشر بکلّ فخر للاطلاع علی صحیفة أعمالهم و قراءتها، ثمّ یدخلون جنّات الخلد حیث تکون مستقرّهم الأبدی.

أمّا هذه الآیات فتستعرض الطرف المقابل لأصحاب الیمین و هم (أصحاب الشمال) و تقدّم مقارنة بین المجموعتین، حیث یقول تعالی: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ بِشِمالِهِ، فَیَقُولُ یا لَیْتَنِی لَمْ أُوتَ کِتابِیَهْ ۵۷۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۸۹

وَ لَمْ أَدْرِ ما حِسابِیَهْ یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ[۵۷۹].

نعم، فی ذلک الیوم العظیم، یوم البعث و یوم البروز و الظهور، یوم الحساب و المحکمة الإلهیة العظیمة، حیث تتوضّح و تنکشف حقیقة الأعمال القبیحة و السیّئة للإنسان .. و عند ما یواجهها یبدأ یجأر و یصرخ و یطلق الزفرات الساخنة المتلاحقة من الأعماق علی المصیر السیء الذی أوصل نفسه إلیه، و الشرّ الذی جلبه علیها، و یتمنّی أن یقطع علاقته بماضیه الأسود تماما، و یتمنّی أن یموت و یفنی و یتخلّص من هذه الفضیحة الکبیرة المهلکة، و یعبّر عن هذا الشعور قوله تعالی: وَ یَقُولُ الْکافِرُ یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً[۵۸۰] و ذکرت تفاسیر اخری- أیضا- لمعنی قوله: یا لَیْتَها کانَتِ الْقاضِیَةَ منها أنّ المقصود من (القاضیة) هی الموتة الاولی، یعنی یا لیتنا لم نحی مرّة

اخرى و نبعث من جديد، فى حين كان أقبح شىء فى نظرهم هو الموت، و يتمنّى هؤلاء أن لو استمرّ موتهم و لم يواجهوا الخزى فى حياتهم الثانية فى المحكمة الإلهية العادلة.

و قيل أنّ المقصود من «القاضية» (نفخة الصور) الاولى حيث عبّر عنها ب (القارعة) أيضا، و يعنى ذلك تمنّيهم عدم حدوث النفخة الثانية، لذا فهم يقولون: يا ليت لم تكن هذه النفخة، إلّا أنّ التّفسير الذى تحدّثنا عنه فى البداية أنسب من الجميع.

ثمّ يضيف تعالى مستعرضا اعتراف المجرمين بذنوبهم فيقول: ما أَغْنى عَنِّى مالِيَهْ فالأموال التى كنت أجمعها فى الدنيا لم تنقذنى الآن و لم تعنّى و لم تدفع عنّى الأهوال أو تحلّ مشاكلى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۰

هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ فليست أموالى لم تسعفنى فى هذه الشدّة، بل أنّ قدرتى و مقامى و سلطتى هى الاخرى هلكت و زالت عنّى.

و خلاصة الأمر: إنّ الأموال و المقام و السلطان و القوّة .. كلّها لم تفدنى و لم تدفع عنّى ما أنا ملاقيه من عقاب على ما أسرفت فى السابق، و قد وقفت بين يدى محكمة العدل الإلهى، و أنا لا أملك أى قوّة تنفعنى فى هذا اليوم، فقد ذهبت قدرتى، و قطع أملى من كلّ شىء، و تعطّلت بى الأسباب. و هكذا يكون المجرمون فى نهاية الذلّ و الخزى و الندم، و لات ساعة مندم.

اعتبر البعض معنى ال (سلطان) هنا هو الدليل و البرهان الذى يكون عاملا فى الإنتصار، و بذلك يكون تفسير الآية، أنّ المذنب يقول فى ذلك اليوم: إنّى لا أملك أى دليل و حجّة أستطيع بها تبرير أعمالى فى حضرة البارئ عزّ و جلّ.

و قيل أيضا أنّ المراد من (السلطان) هنا ليس السلطة الحكومية، ذلك لأنّ الداخلين إلى جهنّم ليسوا جميعا سلاطين أو أمراء، بل إنّ المراد هو سلطة الإنسان على نفسه و حياته و إرادته، و لكن بما أنّ الكثير من أهل النار كانوا يتمتعون بسلطة و نفوذ فى عالم الدنيا، أو أنّهم كانوا من أصحاب الأموال .. لذا يمكن اعتبار وجهة النظر هذه صحيحة حسب الظاهر.

ملاحظة

بعض القصص المثيرة:

نقلت فى هذا المجال قصص كثيرة تؤكّد على المفاهيم العامّة التى احتوتها الآيات الكريمة أعلاه، كموضع شاهد و عبرة و تأييد لما ذهبت إليه الآيات المباركات، لتكون درسا لأولئك الذين جعلوا (المال و السلطان) همّهم الأوّل، و انغمسوا حتّى الأذقان فى الغفلة و الغرور و الذنوب من أجلهما، و من جملتها ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۱

يلى:

۱- نقل فى (سفينة البحار) عن كتاب (النصائح) ما نصّه: (عند ما اشتدّ مرض هارون الرشيد فى خراسان أمر بإحضار طبيب من طوس، ثمّ أوصى أن يعرض إدراره مع إدرار قسم من المرضى و الأصحاء على الطبيب، ففحص الطبيب قنانى الإدرار الواحدة بعد الاخرى، حتّى وصل إلى القنينة قال: قولوا لصاحب هذه القنينة أن يوصى، لأنّ قواه قد انهدّت و بنيته قد هدمت، فعند سماع هارون هذا الكلام يئس من حياته، و تلا هذه الأبيات الشعرية:

إنّ الطبيب بطبّه و دوائهلا يستطيع دفاع نحب قد أتى

ما للطبيب يموت بالداء الذىقد كان يبرئ مثله فيما مضى

و فى هذه الأثناء سمع الناس يتداولون خبر موته، و لكى يبطل مفعول هذه الإشاعة، أمر باستحضار دابة، و طلب أن يركب عليها، و

عنـد ما امتطى الدابـة ضـعفت أرجلها عن حمله، قال: أنزلونى، فإنّ الذى أشاع هذه الشائعة قد صدق. ثمّ أمر بجلب أكفان له، و اختار كفنـا منهـا نال إعجابه، و قال احضـروا لى قبرا بالقرب من فراشـى هـذا، ثمّ نظر إلى قبره، و تلا هـذه الآيات: ما أَغْنى عَنِّى مالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ ۵۸۱].

۲- و نقل- أيضا- فى نفس المصـدر عن العالم الكبير (الشـيخ البهائى) ما نصّه هكذا: (كان هنالك رجل كثير الحساب لنفسه و اسـمه (توبة)، حوّل عمره البالغ ستّين عاما إلى أيّام فكان مجموعها (۲۱۵۰۰) و عند ذلك قال: يا ويلى إذا لم أكن قد أذنبت فى اليوم إلّا ذنبا واحدا فإنّ مجموع ذنوبى الآن يربو على واحد و عشرين ألف ذنب؟ فكيف الاقى ربّى بواحد و عشرين ألف ذنب؟ و بينما هو فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۲

هذه الحال إذ صرخ صرخة سقط على أثرها على الأرض و سلّم روحه إلى بارئها)[۵۸۲].

۳- ورد فى كتـاب «اليتيمـة» للثعـالبى أنّه لمّـا حانت وفاة عضـد الدولـة لم يتحرّك لسانه إلّا بهـذه الآيـة ما أَغْنى عَنِّى مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۳

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۳۰ الى ۳۷]

اشارة

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (۳۰) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (۳۱) ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ (۳۲) إِنَّهُ كـانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (۳۳) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۳۴)

فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ (۳۵) وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (۳۶) لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ (۳۷)

التّفسير

خذوه فغلّوه:

استمرارا للآيات السابقة التى كانت تتحدّث عن (أصحاب الشمال) الذين يستلمون صحائف أعمالهم بأيديهم اليسرى، فتنطلق الآهات و الأنّات، و يتمنّى أحدهم الموت- يشير تعالى فى الآيات أعلاه إلى قسم من العذاب الذى يلاقونه يوم القيامة فيقول: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ «غلّوه» من مـادّة (غـلّ)، و كمـا قلنـا سابقـا أنّ المراد هو السلسـلة التى كـانوا يربطون بهـا أيـدى و أرجل المجرمين إلى أعناقهم مقترن بالكثير من المشقّة و الألم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۴

ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُها سَبْعُونَ ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ

«السلسلة» فى الأصل مأخوذة من مادّة (تسلسل) بمعنى الاهتزاز و الارتعاش، لأنّ حلقات السلسلة الحديدية تهتزّ و تتحرّك.

التعـبير ب (سـبعون ذراعـا) يمكن أن يكون من بـاب (الكـثرة) إذ أنّ العـدد سـبعين كـثيرا مـا يسـتعمل للكـثرة، كمـا يمكن أن يكون المقصود هو العدد (سبعون) نفسه، و على كلّ حال، فإنّ مثل هذا الزنجير يطوق به المجرمون بحيث يربطون به من كلّ جانب.

و قال بعض المفسّـرين: إنّ هـذه السـلاسل الطويلـة ليست لشـخص واحد. بل لمجاميع يربط كلّ منها بسلسـلة، و ذكر هذه العقوبة بعد ذكر الغلّ فى الآيات السابقة يتناسب أكثر مع هذا المعنى.

«ذراع»: بمعنى الفاصلة بين الساعة و نهاية الأصابع، (و قياسها بحدود نصف متر) و كانت وحدة الطول المستعملة عند العرب، و هى قياس طبيعى، و قال البعض إنّ (الذراع) الوارد فى الآية الكريمة هو غير الذراع المتعارف عليه، حيث أنّ كلّ وحدة منه تمثّل فواصل عظيمة، و يربط بهذا الزنجير جميع أهل جهنّم.

و نكرّر هنا مرّة اخرى قولنا أنّ المسائل المرتبطة بالقيامة لا نستطيع تصويرها بالكامل بواسطة بياننا نحن سكّان الدنيا، إلّا أنّنا نعكس شبحا- فقط- من خلال ما جاء فى الآيات و الروايات.

التعبير ب (ثمّ) فى هذه الآية يوضّح لنا أنّ المجرمين بعد دخولهم فى النار يربطون بالسلسلة ذات السبعين ذراعا، و هذه عقوبة جديدة لهم. كما يوجد احتمال أنّ هذه السلاسل الفردية أو الجماعية تكون قبل الدخول فى جهنّم، و (ثم) جاءت للتأخير فى الذكر.

و تتطرق الآيتان التاليتان لبيان السبب الرئيسى لهذا العذاب العسير، فيقول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۵

تعالى: إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ

و كلّما كان الأنبياء و الأولياء و رسل اللّه تعالى يدعونه للتوجّه إلى (الواحد الأحد) لم يكن ليقبل، و لذا فإنّ ارتباطه بالخالق كان مقطوعا بصورة تامّة.

وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ

و بهذا الشكل فإنّ هؤلاء قد قطعوا علاقتهم مع (الخلق) أيضا.

و بهذا اللحاظ فإنّ العامل الأساسى لبؤس هؤلاء المجرمين هو قطع علاقتهم مع (الخالق) و (الخلق).

و يستفاد من التعبير السابق- بصورة واضحة- أنّه يمكن تلخيص أهمّ الطاعات و العبادات و أوامر الشرع بهذين الأساسين: (الإيمان) و (إطعام) المسكين) و هذا يمثّل إشارة إلى الأهميّة البالغة لهذا العمل الإنسانى العظيم و الحقيقة كما يقول البعض: إنّ أردأ العقائد هو (الكفر) كما أنّ أقبح الرذائل الأخلاقية هو (البخل).

و الطريف فى التعبير أنّه لم يقل (كان لا يطعم)، بل قال: كان لا يحثّ الآخرين على الإطعام، إشارة إلى:

أوّلا- إنّ حلّ مشكلة المحتاجين و إشباع الجائعين لا يمكن أن يتغلّب عليها شخص واحد، بل يجب دعوة الآخرين أيضا للمساهمة بمثل هذا العمل، ليعمّ الخير و الفضل و الإحسان جميع الناس.

ثانيا: قد يكون الشخص عاجزا عن إطعام المساكين، و لكن الجميع بإمكانهم حثّ الآخرين على ذلك.

ثالثا: محاربة صفة البخل، حيث أنّ من صفات البخيل أنّه يمتنع عن العطاء و البذل، و لا يرغب أو يرتاح لبذل و عطاء الآخرين أيضا.

و ينقل أنّ شخصا من القدماء كان يأمر زوجته بأن تطبخ طعاما أكثر من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۶

حاجتهم لإعطاء المساكين، ثمّ كان يقول: (أخرجنا نصف السلسلة من أعناقنا و ذلك بالإيمان باللّه، و النصف الآخر بالإطعام)[۵۸۳].

ثمّ يضيف تعالى: فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هاهُنا حَمِيمٌ أى صديق مخلص و حميم وَ لا طَعامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ أى القيح و الدم.

و الجدير بالملاحظة هنا هو أنّ (الجزاء) و (العمل) لهؤلاء الجماعة متناسبان تماما، فبسبب قطع علاقتهم باللّه، فليس لهم هنالك من صديق و لا حميم، كما أنّ سبب امتناعهم عن إطعام المحتاجين فإنّ طعامهم فى ذلك اليوم لن يكون إلّا القيح و الدم، لأنّهم حرموا المساكين من الإطعام و تركوهم نهبا للجوع و الألم فى الوقت الذى كانوا يتمتّعون لسنين طويلة بألذّ و أطيب الأطعمة.

يقول الراغب فى المفردات: «غسلين» غسالة أبدان الكفّار فى النار، إلّا أنّ المتعارف عليه أنّ المقصود به هو الدم و القيح النازل من أجسام أهل النار، و يحتمل أنّ (الراغب) قد قصد هذا المعنى أيضا.

كما أنّ التعبير ب (الطعام) يناسب هذا المعنى كذلك.

و هنا يطرح سؤال، و هو متعلّق بما ورد فى الآية الكريمة فى قوله تعالى:

لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۵۸۴]، و قد فسّروا (الضريع) بأنّه نوع من الشوك.

و كذلك ما ورد بهذا الشأن فى قوله تعالى: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ ۵۸۵]، و قد فسّروا (الزقوم) بأنّه نبات مرّ غير مستساغ الطعم ذو رائحة نتنة حيث يكثر وجود مثل هذا النبات فى أرض (تهامة) و هو مرّ و حارق و ذو صمغ.

و السؤال هو: كيف يمكن الجمع بين هذه الآيات و الآية مورد البحث؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۷

قال البعض فى الجواب: إنّ هذه الكلمات الثلاث (الضريع، و الزقوم، و الغسلين) إشارة إلى موضوع واحد و هو (نبات خشن غير مستساغ الطعم يكون طعام أهل النار).

و قيل: إنّ أهل النّار فى طبقات مختلفة، و إنّ كلّ صنف من هذه النباتات و الأطعمة يكون غذاء لمجموعة منهم، أو طبقة من طبقاتهم.

و قيل: إنّ غذاء أهل النار هو (الزقوم و الضريع)، و شرابهم (الغسلين)، و التعبير ب (الطعام) عن الشراب فى هذه الآية ليس بالجديد.

و يضيف سبحانه فى آخر آية مورد البحث فى قوله تعالى للتأكيد: لا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخاطِؤُنَ

قال بعض المفسّرين: إنّ (خاطئ) تقال للشخص الذى يرتكب خطأ عمدا، أمّا (المخطئ) فتطلق على من ارتكب خطأ بصورة مطلقة (عمدا أو سهوا) و بناء على ما تقدّم فإنّ طعام أهل جهنّم خاصّ للأشخاص الذين سلكوا درب الشرك و الكفر و البخل و الطغيان تمردّا و عصيانا و عمدا.

ملاحظة

بداية وضع الحركات على حروف القرآن الكريم:

أخرج «البيهقى» فى شعب الإيمان عن «صعصعة بن صوحان» قال: جاء أعرابى إلى على بن أبى طالب فقال: كيف هذا الحرف «لا يأكله إلّا الخاطون» كلّ و اللّه يخطو؟ (أى إنّ جميع الناس تخطو و تمشى فهل انّ الجميع سوف يأكل من هذا الطعام؟) فتبسّم على و قال: يا أعرابى (لا يأكله إلّا الخاطئون) قال: صدقت و اللّه يا أمير المؤمنين ما كان اللّه ليسلّم عبده، ثمّ التفت على عليه السّلام إلى أبى الأسود

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۸

فقال: «إنّ الأعاجم قد دخلت فى الدين كافّة فضع للناس شيئا يستدلّون به على صلاح ألسنتهم، فرسم لهم الرفع و النصب و الخفض»[۵۸۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۵۹۹

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۳۸ الى ۴۳]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ (۳۸) وَ ما لا تُبْصِرُونَ (۳۹) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۴۰) وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ (۴۱) وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ (۴۲)

تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۳)

التّفسير

القرآن كلام اللّه قطعا:

بعد الأبحاث التى مرّت بنا فى الآيات السابقة حول القيامة و ما أعدّه اللّه سبحانه للمؤمنين و الكفّار، يبيّن البارئ عزّ و جلّ فى هذه الآيات بحثا وافيا حول القرآن و النبوّة، ليكون البحثان (النبوّة) و (المعاد) كلا منهما مكمّلا للآخر.

يقول الراغب فى البداية: فَلا أُقْسِمُ بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ

المعروف أنّ كلمة (لا) زائدة و للتأكيد فى مثل هذه الموارد، و لكن ذهب البعض إلى أنّ (لا) تعطى معنى النفى أيضا، و يعنى ذلك أنّنى لا اقسم بهذا الأمر، لأنّه أوّلا: لا توجد ضرورة لمثل هذا القسم. و ثانيا: يجب أن يكون القسم باسم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۰

اللّه، إلّا أنّ هذا القول ضعيف، و المناسب هو المعنى الأوّل، إذ ورد فى القرآن الكريم قسم باسم اللّه و بغيره فى الكثير من الآيات.

جملة بِما تُبْصِرُونَ وَ ما لا تُبْصِرُونَ لها معنى واسع، حيث تشمل كلّ ما يراه البشر و ما لا يراه، و بعبارة اخرى تشمل كلّ عالم (الشهود) و (الغيب).

و قد ذكرت احتمالات اخرى لتفسير هاتين الآيتين، منها: أنّ المقصود من عبارة بِما تُبْصِرُونَ هو عالم الخلقة، و من وَ ما لا تُبْصِرُونَ هو الخالق عزّ و جلّ.

و قيل إنّ المقصود بالأولى هو النعم الظاهرية، و فى الثانية النعم الباطنية. أو أنّ المقصود بهما: البشر و الملائكة على التوالى، أو الأجسام و الأرواح، أو الدنيا و الآخرة.

إلّا أنّ سعة مفهوم هاتين العبارتين يمنع من تحديدهما. و بناء على هذا فإنّ كلّ ما يدخل فى دائرة المشاهدة و ما هو خارج عنها مشمول للقسم، إلّا أنّه يستبعد شمولهما للبارئ عزّ و جلّ، بلحاظ أنّ جعل الخالق مقترنا بالخلق أمر غير مناسب، خصوصا مع تعبير (ما) الذى جاء فى الآية الكريمة و الذى يستعمل فى الغالب لغير العاقل.

و يستفاد ضمنا من هذا التعبير بصورة جيّدة أنّ الأمور و الأشياء التى لا يراها الإنسان كثيرة جدّا، و قد أثبت العلم الحديث هذه الحقيقة، و هى أنّ المحسوسات التى تحيطنا تشمل دائرة محدودة من الموجودات- و الأشياء غير المحسوسة- سواء فى مجال الألوان و الأصوات و الأمواج و المذاقات و غيرها- هى فى الواقع أوسع دائرة من الأمور الحسيّة.

فالنجوم التى يمكن رؤيتها فى مجموع نصفى الكرة الأرضية بحدود خمسة آلاف نجمة، طبقا لحسابات علماء الفلك، أمّا النجوم التى لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة فهى تعدّ بالمليارات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۱

و الأمواج الصوتية التى تستطيع اذن الإنسان سماعها هى أمواج محدودة، أمّا الأمواج الصوتية الاخرى التى لا تستطيع الاذن سماعها فتقدّر بالآلاف.

و بالنسبة للألوان التى نستطيع رؤيتها فهى سبعة ألوان معروفة، و قد أصبح من المسلّم اليوم وجود ما لا نهاية له من الألوان الاخرى، كلون ما وراء البنفسجى، و ما دون الأحمر، حيث لا يمكن أن تراها أعيننا.

أمّا عدد الحيوانات المجهرية التى لا ترى بالعين المجرّدة فهى كثيرة جدّا إلى حدّ أنّها ملأت جميع العالم، إذ توجد فى قطرة الماء أحيانا آلاف الآلاف منها، فما أضيق تفكير من يضع نفسه فى إطار المحسوسات المادية فقط، و يبقى جاهلا لأمور كثيرة لا تستطيع

الحواس أن تدركها، أو أنّه ينكرها أحيانا؟

لقد أثبتت الدلائل العقلية و التجريبية أنّ عالم الأرواح عالم أوسع بكثير من عالم أجسامنا، فلما ذا نحبس أنفسنا و عقولنا فى إطار المحسوسات؟

ثمّ تستعرض الآية اللاحقة جواب هذا القسم العظيم، حيث يقول تعالى بأنّ هذا القرآن هو قول رسول كريم: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ و المقصود من الرّسول هنا- بدون شكّ- هو الرّسول الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ليس جبرائيل، لأنّ الآيات اللاحقة تبيّن هذا المعنى بوضوح.

و السبب فى نسبة القرآن إلى الرّسول بالرغم من أنّنا نعرف أنّه قول اللّه تعالى، لأنّ الرّسول مبلّغ عنه، و خاصّة أنّ الآية ذكرت كلمة «رسول» و هذا يعنى أنّ كلّ ما يقوله الرّسول فهو قول مرسله، بالرغم من أنّه يجرى على لسان الرّسول، و يسمع من فمه الشريف.

ثمّ يضيف تعالى: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ ۵۸۷] وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۲

تنفى هاتان الآيتان ما نسبه المشركون و المخالفون من تهم باطلة لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إذ كانوا يقولون أحيانا: إنّه (شاعر) و إنّ هذه الآيات من شعره، كما كانوا يقولون أحيانا: إنّه (كاهن) و إنّ الذى يقوله هو (كهانة) لأنّ الكهنة أشخاص كانوا يتنبّئون بأسرار الغيب أحيانا، و ذلك لارتباطهم بالجنّ و الشياطين، و كانوا يطلقون عن قصد كلاما مسجعا و جملا موزونة.

و لأنّ القرآن الكريم أيضا كان يتنبّأ و يتحدّث عن امور غيبية، و إنّ ألفاظه و عباراته لها نظام خاصّ، لذا اتّهم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بهذه التّهم، فى حين أنّ الفرق بين الإثنين كالفرق بين الأرض و السماء.

لقد نقل البعض فى سبب نزول هذه الآية أنّ (أبا جهل) نسب قول الشعر إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أنّ (عقبة) أو (عتبة) هو الذى نسب الكهانة إلى رسولنا الكريم و كذلك الآخرون أيضا كانوا يردّدون هذه التّهم.

و فى الحقيقة فإنّ للقرآن الكريم ألفاظا منسجمة، و تعابير ذات نظم جميل تسحر الآذان و تبعث الاطمئنان فى الأرواح. إلّا أنّ هذا ليس له أى ارتباط مع شعر الشعراء، و لا مع سجع الكاهنين.

الشعر فى الغالب وليد الخيال، و معبّر عن الأحاسيس الجياشة فى النفوس، و العواطف الملتهبة، و لهذا فإنّه يجسّد حالة عدم الاستقرار و عدم التوازن صعودا و نزولا، شدّة و انخفاضا، فى الوقت الذى نلاحظ أنّ القرآن الكريم، و هو يمثّل قمّة الروعة و الجاذبية، فإنّه كتاب استدلالى و منطقى فى عرضه للمفاهيم، و عقلانى فى محتواه، و ما فيه من التنبّؤ المستقبلى لا يشكّل قاعدة أساسية للقرآن الكريم، بالإضافة إلى أنّها صادقة جميعا بخلاف ما عليه تنبّؤ الكهنة.

التعبير ب قَلِيلًا ما تُؤْمِنُونَ و قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ هو توبيخ و لوم للأشخاص الذين يسمعون الوحى السماوى مقرونا بدلائل واضحة، إلّا أنّهم يعتبرونه (شعرا) أحيانا، و (كهانة) أحيانا اخرى. و قليلا ما يؤمنون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۳

و يقول سبحانه فى آخر آية- مورد البحث- كتأكيد على هويّة القرآن الربانية: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ۵۸۸].

و بناء على هذا فإنّ القرآن الكريم ليس بشعر و لا كهانة، و ليس هو إنتاج فكر الرّسول، و لا قول جبرائيل .. بل إنّه كلام اللّه سبحانه، حيث نزل بواسطة الوحى على القلب الطاهر لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جاء هذا المعنى بعبارات مختلفة إحدى عشرة مرّة فى القرآن الكريم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۴

الآيات [سورة الحاقة (۶۹): الآيات ۴۴ الى ۵۲]

اشارة

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ (۴۴) لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (۴۵) ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ (۴۶) فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ (۴۷) وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (۴۸)

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (۴۹) وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ (۵۰) وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (۵۱) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (۵۲)

التّفسير

استمرارا للأبحاث المتعلّقة بالقرآن الكريم، تستعرض الآيات التالية دليلا واضحا يؤكّد يقينية كون القرآن من اللّه سبحانه، حيث يقول: وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ ۵۸۹].

«أقاويل»: جمع (أقوال) و (أقوال) بدورها جمع (قول) و بناء على هذا فإنّ أقاويل جمع الجمع، و المقصود منها هنا هو الحديث الكذب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۵

«و تقوّل» من مادّة (تقوّل) على وزن (تكلّف) بمعنى الحديث المصطنع الذى لا أساس له من الصحّة و الحقيقة.

جملة لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ تعنى: لأخذنا من يده اليمنى و لعاقبناه و جازيناه و كلمة «اليمين» هنا كناية عن القدرة، و ذلك بلحاظ أنّ الإنسان الذى ينجز أعمالا معيّنة بيده اليمنى يتمتّع بقدرة و قوّة أفضل.

كما أورد بعض المفسّرين احتمالات اخرى أيضا فى تفسير هذه الآية، أعرضنا عن ذكرها بلحاظ كونها غير مشهورة و لا موزونة.

«وتين» بمعنى (عرق القلب) و المقصود به هو الشريان الذى عن طريقه يصل الدم إلى جميع أعضاء جسم الإنسان، و إذا قطع فإنّ الإنسان يتعرّض للموت فورا، و هذا تعبير عن أسرع عقوبة يمكن أن يعاقب بها الإنسان.

و فسّر البعض (الوتين) بأنّه العرق الذى يكون القلب معلّقا به، أو العرق الذى يوصل الدم إلى الكبد، أو أنّه عرق النخاع الذى هو فى وسط العمود الفقرى، إلّا أنّ التّفسير الأوّل أصحّ من الجميع حسب الظاهر.

«حاجزين» جمع (حاجز) بمعنى المانع.

و قد يتساءل البعض قائلا: إذا كان الموت الفورى و الهلاك الحتمى هو عقوبة كلّ من يكذب على اللّه سبحانه، فهذا يستلزم هلاك جميع من يدّعى النبوّة كذبا و بسرعة، و هذا ما لم يلاحظ فى حياتنا العملية، حيث بقى الكثير منهم لسنين طويلة. بل حتّى معتقداتهم الباطلة بقيت أيضا فترة زمنية من بعدهم.

الجواب يتّضح جليّا بالانتباه إلى ما يلى: و هو أنّ القرآن الكريم لم يقل بأنّ اللّه يهلك كلّ مدّع يدّعى النبوّة .. بل إنّه سبحانه خصّص هذه العقوبة لشخص الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيما لو انحرف عن طريق الحقّ، فسوف لن يهمل لحظة واحدة، لأنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۶

يكون سببا لضياع الرسالة و ضلال الناس ۵۹۰].

أمّا الأشخاص الذين يدّعون ادّعاءات باطلة، و ليس لديهم أى دليل عليها، فليس هنالك ضرورة لأنّ يهلكهم اللّه فورا، لأنّ بطلان ادّعاءاتهم واضح لكلّ من يطلب الحقّ، إلّا أنّ الأمر يلتبس و يصعب حينما يكون الادّعاء بالنبوّة مقترنا بأدلّة و معاجز دامغة كما هو بالنسبة للنبى الإلهى، فإنّ ذلك ممّا يؤدّى إلى الانحراف عن طريق الحقّ.

و من هنا يتّضح بطلان ادّعاء بعض (الفرق الضالّة) لإثبات ما يقوله أسيادهم من خلال الاستشهاد بهذه الآية المباركة. فلو صحّ ذلك لكان (مسيلمة الكذّاب) و كلّ مدّع كاذب من أمثاله يستطيعون إثبات ادّعاءاتهم من خلال الاستدلال بهذه الآية أيضا.

و يـذكّر سـبحانه مرّة اخرى فى الآيـة اللاحقـة مؤكّـدا ما سـبق عرضه فى الآيات السابقـة وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ إنّ كتاب اللّه هذا أنزله للأشـخاص الذين يريدون أن يطهّروا أنفسـهم من الذنوب، و يسيروا فى طريق الحقّ، و يبحثوا عن الحقيقة، و يسعوا للوصول إليها، أمّا من لم يصل إلى هـذا الحـدّ من صـفاء النظرة و تقوى النفس، فمن المسـلّم أنّه لن يسـتطيع أن يسـتلهم تعاليم القرآن الكريم و يتـذوّق حلاوة معرفة الحقّ المبين.

إنّ التأثير العميق الفذّ للقرآن الكريم الذى يحدثه فى نفوس سامعيه و قارئيه، هو بحدّ ذاته علامة على إعجازه و حقّانيته.

ثمّ يضيف تعالى: وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ

إنّ وجود المكذّبين المعاندين لم يكن مانعا أبدا من الدليل على عدم حقّانيتهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۷

إنّ المتّقين و طلّاب الحقّ يتّعظون به، و يرون فيه سمات الحقّ، و إنّه عون لهم فى الوصول إلى طريق اللّه سبحانه.

و بناء على هـذا فكما يجـدر بالإنسان- بل يجب عليه- أن يفتـح عينه للاسـتفادة من إشـعاع النور، فإنّ عليه كـذلك أن يفتح عين قلبه للاستفادة من نور القرآن العظيم.

و يضيف فى الآية اللاحقة: وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ

إنّ هؤلاء الكفرة الـذين يتحدّون القرآن الكريم اليوم و يكذّبونه، فإنّهم غدا حيث (يوم الظهور) و (يوم البروز) و هو و فى نفس الوقت (يوم الحسـرة) يدركون مدى عظمة النعمة التى فرّطوا بها بسـبب لجاجتهم و عنادهم، و ما جلبوه لأنفسهم من أليم العذاب، ذلك اليوم الـذى يشاهـدون فيه مـا عليه المؤمنـون من نعيم و نعمـة، و عندئـذ تكون المقارنـة بين هؤلاء و بين من غضب اللّه عليهم، فعنـد ذلك سيعضّون أصابع الندم، يقول تعالى: وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا[۵۹۱].

و لكى لا يتصور أحـد أنّ التكـذيب و التشـكيك كان بلحاظ غموض و إبهام مفاهيم القرآن الكريم، فيضـيف فى الآية اللاحقة: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ

التعبير ب (حقّ اليقين) فى إعتقـاد بعض المفسّـرين هو فى قبيـل (إضافـة شـىء إلى نفسه) لأنّ (الحقّ) هو (اليقين) نفسه و (اليقين) هو (عين الحقّ) و ذاته، و ذلك كما يقال: (المسـجد الجامع) أو (يوم الخميس)، و يقال له باصـطلاح النحاة (إضافة بيانية) إلّا أنّ الأفضـل أن يقال فى مثل هذه الإضافة: إضافة (الموصوف إلى الصفة).

يعنى أنّ القرآن الكريم هو (يقين خالص) أو بتعبير آخر أنّ لليقين مراحل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۸

مختلفـة، حيث يحصل أحيانا بالـدليل العقلى كما فى حصول اليقين بوجود النار من خلال مشاهـدة دخّان من بعيد، لذا يقال لمثل هذا الأمر (علم اليقين).

و حينما نقترب أكثر و نرى اشتعال النار بامّ أعيننا، فعند ذلك يصبح اليقين أقوى و يسمّى عندئذ ب (عين اليقين).

و عند ما يكون اقترابنا أكثر فأكثر و نصبح فى محاذاة النار أو فى داخلها و نلمس حرارتها بأيدينا، فإنّ من المسلّم أنّ هذه أعلى مرحلة من مراحل اليقين، و تسمّى ب (حقّ اليقين).

و الآية أعلاه تقول: إنّ القرآن الكريم فى مثل هذه المرحلة من اليقين، و مع هذا فإنّ عديمى البصيرة ينكرونه و يشكّكون فيه.

و أخيرا يقول سبحانه فى آخر آية- مورد البحث، و التى هى آخر آية من سورة (الحاقّة)- فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ

و الجـدير بالملاحظة- هنا- أنّ مضـمون هذه الآية و الآية السابقة قد جاء بتفاوت يسـير مع ما ورد فى سورة الواقعة، و هذا التفاوت هو أنّ الآيـة وصـفت القرآن الكريم هنا بأنّه (حقّ اليقين) أمّا فى نهايـة سورة (الواقعـة) فكان الحـديث عن المجاميع المتباينـة للصالحين و الطالحين فى يوم القيامة.

ملاحظة

وصف القرآن الكريم فى هـذه الآيـات المباركـة بأوصـاف أربعـة و هى «تنزيل» و «تـذكرة» و «حسـرة» و «حقّ اليقين». حيث يقول فى البداية: تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ ثمّ يقول: وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ثمّ يقول تعالى: وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ و يضيف فى آخر وصف له بقوله: وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ

و ذلك أنّ الآية الاولى موجّهة لجميع البشر، و الثانية مختصّة بالمتّقين و الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۸، ص: ۶۰۹

الثالثة تعنى الكافرين، و الرابعة خاصّة بالمقرّبين.

اللهمّ: إنّك تعلم إنّه لا شىء أفضل من اليقين، فارزقنا منه ما يكون معه إيماننا مصداقا لحقّ اليقين.

ربّنا: إنّ يوم القيامة هو يوم الحسرة، فلا تجعلنا فى ذلك اليوم من الذين يتحسّرون لكثرة ذنوبهم، بل من قلّة طاعاتهم على الأقل ..

ربّنا: آتنا صحيفة أعمالنا بيدنا اليمنى، و أدخلنا فى جنّة عالية فى عيشة راضية.

آمين ربّ العالمين نهاية سورة الحاقّة و نهاية المجلد الثّامن عشر

---

[۱] (۱)- مجمع البيان بداية سورة الحديد.

[۲] (۱)- نفس المصدر إضافة إلى الدرّ المنثور ج ۶، ص ۱۷.

[۳] (۲)- مجمع البيان بداية سورة الحديد.

[۴] (۱)- أصول الكافى طبقا لنقل تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۳۱.

[۵] (۲)-« التسبيح» فى الأصل من مادّة(سبح) على وزن(مسح) بمعنى الحركة السريعة فى الماء و الهواء. و التسبيح أيضا هو الحركة السريعة فى مسير عبادة اللّه عزّ و جلّ(الراغب فى المفردات).

[۶] (۱)- بالرغم من أنّ(سبّح) فعل متعدّ بدون حرف جرّ حيث يقال مثلا سبّحوه إلّا أنّه هنا قد عدى باللام، و من المحتمل أن يكون ذلك للتأكيد.

[۷] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۸۶.

[۸] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۰۶.

[۹] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۱۶۳.

[۱۰] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۳۶.

[۱۱] (۱)- لقد ذكرنا توضيحات أكثر حول حقيقة العرش فى نهاية الآية(۵۴) من سورة الأعراف، و فى نهاية الآية(۲۵۵) من سورة البقرة.

[۱۲] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۱.

[۱۳] (۲)- روح البيان، ج ۹، ص ۳۵۱.

[۱۴] (۱)-« يولج» من مادّة(إيلاج) و هى الاخرى مأخوذة من مادّة(و لوج) و الولوج بمعنى الدخول و النفوذ، و الإيلاج بمعنى

الإدخال و الإنفاذ.

[۱۵] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۱.

[۱۶] (۱)- صحیح البخاری طبقا لنقل تفسیر المراغی تفسیر ظلال نهایة القرآن فی نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۷] (۲)- راجع هذا التّفسیر، نهایة الآیة(۱۷۲) من سورة الأعراف.

[۱۸] (۱)- للآیة محذوف یستفاد من المذکور، و تقدیره(لا یستوی من أنفق من قبل الفتح و قاتل و الذین أنفقوا بعد الفتح و قاتلوا).

[۱۹] (۱)- البقرة، الآیة ۲۶۷.

[۲۰] (۲)- الحشر، الآیة ۹.

[۲۱] (۳)- البقرة، الآیة ۲۷۳.

[۲۲] (۴)- البقرة، الآیة ۲۷۱.

[۲۳] (۱)- البقرة، الآیة ۲۶۴.

[۲۴] (۲)- البقرة، الآیة ۲۶۵.

[۲۵] (۳)- لهذه الآیة تفاسیر متعدّدة، أحدها ما ذکر أعلاه و ستطالعون بعون اللّه شرحا أکثر فی تفسیر سورة المدثر إن شاء اللّه.

[۲۶] (۴)- المدثر، الآیة ۶.

[۲۷] (۵)- آل عمران، الآیة ۹۲.

[۲۸] (۶)- الحدید، الآیة ۷.

[۲۹] (۷)- المائدة، الآیة ۲۷.

[۳۰] (۸)- ذکر الطبرسی قدّس سرّه هذه الشروط العشرة فی مجمع البیان و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر و الآلوسی فی روح المعانی و قد أدرجناها باختصار.

[۳۱] (۱)- الظاهر أنّ المقصود من(المدّ الواحد من الطعام) هو أقلّ من الکیلو.

[۳۲] (۲)- الدّرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۲.

[۳۳] (۳)- تفسیر الصافی، ص ۵۲۲.

[۳۴] (۴)- تفسیر الصافی، ص ۵۲۲.

[۳۵] (۱)- التحریم، الآیة ۸.

[۳۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۱، حدیث ۶۰.

[۳۷] (۲)- انظرونا من مادّة(نظر) فی الأصل بمعنی الفکر أو النظر لمشاهدة إدراک شیء، و تأتی أحیانا بمعنی التأمّل و البحث. و کلّما تعدّت ب(إلی) فإنّها تأتی بمعنی النظر إلی شیء، و کلّما تعدّت ب(فی) فإنّها تأتی بمعنی التأمّل و التدبّر، و عند ما لا تتعدّی بدون حرف جرّ کأن نقول:(نظریة و أنظرته و انتظرته) فإنّها تأتی بمعنی التأخیر أو الانتظار(من المفردات للراغب).

[۳۸] (۱)-« مولی» هنا من الممکن أن تکون بمعنی الولی، أو بمعنی الشخص أو الشیء الذی تکون له الأولویة للإنسان.

[۳۹] (۲)- البقرة، الآیة ۱۶۶.

[۴۰] (۳)- البقرة، الآیة ۲۵۴.

[۴۱] (۴)- البقرة، الآیة ۴۸.

[۴۲] (۵)- الدخان، الآیة ۴۱.

[۴۳] (۶)- الطور، الآیة ۴۶.

[۴۴] (۷)- المؤمنون، الآية ۱۰۱.

[۴۵] (۱)- المدثر، الآية ۳۸.

[۴۶] (۲)- إبراهيم، الآية ۲۱.

[۴۷] (۳)- المؤمن، الآية ۴۹.

[۴۸] (۱)- المؤمنون، الآية ۱۰۷.

[۴۹] (۱)- الزمر، الآية ۲۳.

[۵۰] (۲)- مجمع البيان، ج ۳، ص ۲۳۷ كما جاء فى تفسير الدرّ المنثور أيضا أسباب نزول كثيرة للآية من جملتها سبب النزول الثانى(الدرّ المنثور، ج ۶ ص ۱۷۵) و أتى البيضاوى أيضا فى تفسير(أنوار التنزيل) بنفس سبب النزول المذكور.

[۵۱] (۳)-(يأن) من مادّة(أنّى) من مادّة(إنا) على وزن(ندا) و من مادّة(أناء) على وزن جفاء بمعنى الاقتراب و حضور وقت الشيء.

[۵۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۳، الحديث ۸۵.

[۵۳] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۳۸.

[۵۴] (۱)- روضة الكافى مطابق لنقل الثقلين، ج ۵، ص ۲۴۳

[۵۵] (۲)- كمال الدين مطابق لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۴۲.

[۵۶] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۳۰۸.

[۵۷] (۴)- المصدّقين و المصدّقات بمعنى« المتصدقين و المتصدقات»، و عطف(أقرضوا اللّه) الذى هو« جملة فعلية» على« الجملة الاسمية» السابقة، لأنّ معنى هذه الجملة هو« الذين أقرضوا اللّه».

[۵۸] (۱)- تراجع الآية(۲۴۵ من سورة البقرة)(الحديد الآية ۱۱) و(التغابن آية ۱۷) و(المزمل آية ۲۰).

[۵۹] (۲)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۵۸.

[۶۰] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۶۹. و روح البيان، ج ۹، ص ۳۶۵. و تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۲.

[۶۱] (۲)- تفسير نور المعانى، ج ۲۷، ص ۱۵۶.

[۶۲] (۱)- يراجع التّفسير الأمثل، تفسير الآية(۷۸) من سورة الحجّ، و تفسير الآية(۴۱) من سورة النساء.

[۶۳] (۲)- تفسير العياشى طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۴۴.

[۶۴] (۱)- طبقا للتفسير أعلاه فإنّ جملة(أولئك هم الصدّيقون و الشهداء، عند ربّهم) ليس لها أى تقدير، إذ أنّ هؤلاء الجماعة من المؤمنين اعتبروا مصداقا للصدّيقين و الشهداء، إلّا أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ هؤلاء بمنزلة الصدّيقين و الشهداء، و لهم نفس الأجر، و لكن ليس لهم كامل مميّزاتهم و مفاخرهم. و يقولون: إنّ الآية تقديرها(أولئك لهم مثل أجر الصدّيقين و الشهداء).

تفسير روح المعانى، الميزان نهاية الآيات مورد البحث، و طبعا فإنّ مرجع الضمائر(لهم، و أجرهم) يختلف أيضا. إلّا أنّ هذا التّفسير لا يتناسب مع ظاهر الآية(يرجى الانتباه).

[۶۵] (۱)-« يهيج» من مادّة هيجان جاءت هنا بمعنيين الأوّل: جفاف النبات، و الآخر: التحرّك و الحيوية، و قد يرجع هذان المعنيان إلى أصل واحد، لأنّ النبات عند جفافه يكون مهيّأ للاندثار و الانتشار بحركة الرياح.

[۶۶] (۱)- مريم، آية ۴۱.

[۶۷] (۲)- مريم، الآية ۵۶.

[۶۸] (۳)- الجاثية، الآية ۷۵.

[۶۹] (۱)- النساء، الآية ۶۹.

[۷۰] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۳۸.

[۷۱] (۳)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۰.

[۷۲] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۱۹۰.

[۷۳] (۲)- الأنعام، الآیة ۳۲.

[۷۴] (۳)- آل عمران، الآیة ۱۸۵.

[۷۵] (۱)- التوبة، الآیة ۱۱۱.

[۷۶] (۱)- بالنسبة لعود الضمیر فی(نبرأها) فقد ذکروا احتمالات متعدّدة حیث اعتبر البعض أنّ مرجعها للأرض و الأنفس، و البعض الاخر اعتبرها للمصیبة، و بعض جمیعها، إلّا أنّه بالنظر إلی ذیل الآیة فإنّ المعنی الأوّل هو الأنسب لأنّه یرید أن یقول: حتّی قبل خلق السماء و الأرض و خلقکم فإنّ هذه المصائب مقدّرة.

[۷۷] (۲)- الشوری، الآیة ۳۰.

[۷۸] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم مطابق لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۴۷.

[۷۹] (۲)- کان لدینا بحث آخر فی نهایة الآیة(۷۸)،(۷۹) من سورة النساء و التی تتناسب مع الآیات مورد البحث.

[۸۰] (۳)- روح البیان ج ۹، ص ۳۷۵.

[۸۱] (۱)- نهج البلاغة، کلمات قصار ۴۳۹.

[۸۲] (۲)- قتیبة بن سعید أحد المحدّثین الذی یروی عن مالک بن أنس(منتهی الأرب).

[۸۳] (۳)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۵۳ و جاء نظیر هذا المعنی فی تفسیر روح البیان، ج ۹، ص ۳۷۶.

[۸۴] (۱)-« الذین» بدل من(کلّ مختال فخور) و تفسیر الکشّاف ذیل الآیة مورد البحث) و بالضمن یجدر الانتباه إلی أنّ البدل و المبدّل منه لیس بالضرورة أن یتطابقا فی المعرفة و النکرة.

[۸۵] (۱)- الجمعة، الآیة ۲.

[۸۶] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۵۷.

[۸۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۳۷۲ باب حسن الخلق نهایة الحدیث الأوّل.

[۸۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۰، حدیث ۱۰۰.

[۸۹] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۰، حدیث ۱۰۱.

[۹۰] (۱)- الکهف، الآیة ۹۶.

[۹۱] (۲)- سبأ، الآیة ۱۰- ۱۱.

[۹۲] (۳)- آل عمران، الآیة ۱۷۹.

[۹۳] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۷، ص ۱۸۳.

[۹۴] (۱)- فروع الکافی، ج ۵، ص ۸، حدیث ۱۱، ۱۵.

[۹۵] (۲)- المصدر السابق.

[۹۶] (۳)- فروع الکافی، ج ۵، ص ۲، حدیث ۱.

[۹۷] (۱)- مقتبس من التّفسیر الکبیر فخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۴۲.

[۹۸] (۱)- النور، الآیة ۲.

[۹۹] (۲)- المائدة، الآیة ۸۲.

[۱۰۰] (۱)- حول ترکیب و معنی هـذه الآیـة یوجـد اختلاف کثیر بین المفسّـرین، حیث اعتبرها البعض عطفا علی الرأفة و الرحمة، و أخذوا بنظر الإعتبار(حبّ) قبل الرهبانیة تقدیرا، لأنّ الرهبانیة لیست شـیئا یکون فی القلب، بل أنّ حبّها و التعلّق بها یکون فی القلب، و اعتبرها آخرون منصوبة بفعل مضمر حیث إنّ(ابتدعوها) تفسّر ذلک فی تقدیر: ابتدعوا رهبانیة، ابتدعوها.

و بالنسـبة ل(إلّا ابتغاء رضوان اللّه) توجد وجهتا نظر: الاولی: أنّها اسـتثناء منقطع، و مفهومه هو:(و لکنّهم ابتدعوها ابتغاء رضوان اللّه). و الاخری: أنّها اسـتثناء متّصل و مفهومها أنّنا قرّرنا و وضـعنا نوعا من الرهبانیة علیهم، و الهدف من ذلک هو جلب رضی اللّه تعالی، و لکنّهم حرّفوا الرهبانیـة إلی نوع آخر کـان خلافـا لرضـی اللّه، و الظـاهر أنّ التفسـیر الأـوّل فی کلاـ الموردین مناسب أکثر، لـذا یرجی الانتباه هنا.

[۱۰۱] (۲)- طبقا للتفسـیر الأوّل حسب الرأی الـذی یقول بأنّه اسـتثناء منقطع، و التّفسـیر الثانی یقول بالاسـتثناء المتّصل. و هذه النقطة أیضـا جـدیرة بالملاحظـة و هی: إذا کـانت الرهبانیـة عطف علی الرأفـة و الرحمـة کمـا اخترناه فی المتن، فإنّ المقصود من جعلها فی القلوب هو نفس المیل القلبی لهم إلی هذه المسألة، فی حین أنّ المقصود من(ما کتبناها) هو أنّ مسألة الرهبانیّة لم تکن حکم اللّه فی دین السیّد المسیح، بالرغم من أنّ اللّه تعالی قد وضع حبّها فی قلوبهم، و بناء علی هذا فلا تتنافی مع جملة(ابتدعوها).

[۱۰۲] (۱)- المائدة، الآیة ۸۲.

[۱۰۳] (۱)- جاء هذا الحدیث فی مجمع البحرین فی مادّة(رهب) کما ذکر ذلک فی النهایة لابن الأثیر.

[۱۰۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۱۴ باب النهی عن الرهبانیة، حدیث ۱.

[۱۰۵] (۱)- دائرة المعارف القرن العشرین مادّة(رهب).

[۱۰۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۴۳ بتلخیص قلیل، و نقل حدیث آخر شبیه بهذا فی الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۷۷.

[۱۰۷] (۲)- تاریخ ویل دورانت، ج ۱۳، ص ۴۴۳.

[۱۰۸] (۱)- الکهف، الآیة ۱۰۳- ۱۰۴.

[۱۰۹] (۲)- کنز العمّال، ج ۲، و الحدیث ۴۴۹۶.

[۱۱۰] (۱)- القصص، الآیة ۵۲- ۵۴.

[۱۱۱] (۲)- مجمع البیـان، ج ۹، ص ۲۴۴، و نقـل نفس المعنی فی تفسـیر أبو الفتوح الرازی و روح المعـانی مع بعض الاختلاف فی نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۱۲] (۱)- یعتقـد البعض أنّ هـذا المصـطلح مـأخوذ من(کفـل) علی وزن« عسل» و المقصود به هو ما یضـعونه علی کفل- القسـم الأخیر من الظهر- الحیوانات کی لا یسـقط الراکب، و لذلک فإنّه یقال لکلّ شـیء یسـبّب الحفظ(کفل)، و من هنا أطلق علی الضامن اسم« الکفیل» بسبب هذا المعنی.(أبو الفتوح الرازی نهایة الآیة مورد البحث).

و یسـتفاد من الراغب أنّ لهـذا المصـطلح معنیین: الأوّل هو المعنی أعلاه، و المعنی الثانی یطلق علی الشـیء الردیء الذی لا قیمة له، و التشبیه بکفل الحیوانات یکون بلحاظ أنّ کلّ شخص یرکب علی کفلها فاحتمال سقوطه وارد(یرجی ملاحظة ذلک).

[۱۱۳] (۱)- الحدید، الآیة ۱۲.

[۱۱۴] (۲)- المائدة، الآیة ۱۵.

[۱۱۵] (۳)- نقلت هذه الروایات فی تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۲، ۲۵۳.

[۱۱۶] (۱)- فی(لا) فی(لئلّا) یعلم أهل الکتاب زائدة أو أصـلیة، یوجد نقاش بین المفسّـرین حول هذه المسألة، حیث اعتبر الکثیرون أنّ(لا) زائـدة و تفیـد التأکیـد(کما ذکرنا أعلاه) و بناء علی أنّ(لا) أصـلیة، فقـد وردت معانی مختلفـة للآیة من جملتها أنّ المقصود سیکون کالتالی و هو: أن یعلم أهل الکتاب بأنّه إذا قبلوا الإیمان و الإسلام فإنّهم یستطیعون أن یهیّؤوا الفضل الإلهی لهم. و بتعبیر آخر

فإنّ نفى النفى هنا بمعنى(الإثبات) أو يكون المقصود كالتالى: نحن الذين أعطينا كلّ هذه الهبات للمسلمين حتّى لا يتصوّروا أهل الكتاب أن لا نصيب للمسلمين فى الفضل الإلهى.

إلّا أنّه بملاحظة نهاية الآية التى تقول\:i وَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ E و كذلك بملاحظة سبب نزولها الذى مرّ بنا سابقا فإنّ كون(لا) زائدة هو الأنسب ظاهرا، بل و حسب إعتقاد البعض أنّه فى الكثير من الموارد التى تشتمل الجملة على نفى، فإنّ:(لا) تكون زائدة كما فى قوله تعالى\:i ما مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ E الأعراف/ ۱۲. و فى قوله تعالى أيضا\:i وَ ما يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذا جاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ E الأنعام، الآية ۱۰۹(يرجى ملاحظة ذلك).

[۱۱۷] (۱)- البقرة، الآية ۱۱۱.

[۱۱۸] (۲)- الأنفال، الآية ۲۹.

[۱۱۹] (۳)- البقرة، الآية ۲۸۲.

[۱۲۰] (۱)- كان لنا بحث مفصّل فى هذا المجال فى نهاية الآية(۲۹) من سورة الأنفال.

[۱۲۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۴۶ مع تلخيص قليل.

[۱۲۲] (۱)-« زور» فى الأصل بمعنى الانحناء الموجود على الصدر و جاءت أيضا بمعنى الانحراف، و لأن حدود الكذب و الباطل منحرفة عن الحق، فيقال له(زور) كما يطلق على الصنم أيضا بهذا اللحاظ.

[۱۲۳] (۲)- الأحزاب، الآية ۴.

[۱۲۴] (۱)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۰ كما يلاحظ فى الميزان إشارة لهذا المعنى أيضا.

[۱۲۵] (۱)- مجمع البيان نهاية الآية مورد البحث.

[۱۲۶] (۲)- يراجع كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۰، و مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۴۷.

[۱۲۷] (۱)- يراجع وسائل الشيعة، ج ۷، ص ۲۷۱، الباب الثالث من أبواب بقية الصوم الواجب.

[۱۲۸] (۱)- إذا كان المقصود هو توالى الشهرين و ليس توالى جميع أيّامها، فإنّ هذا النوع من التوالى يحصل بمجرّد البدء فى الشهر الثانى(يرجى ملاحظة ذلك).

[۱۲۹] (۲)- المشهور بين الفقهاء- كما قلنا سابقا- هو(مدّ واحد) و دليله روايات كثيرة لعلّها بلغت حدّ التواتر، فقد ورد بعضها فى كفّارة القتل الخطأ، و بعض فى كفّارة القسم، و بعض فى كفّارة شهر رمضان، بضميمة أنّ الفقهاء لم يوجدوا أى فرق بين أنواع الكفّارات، إلّا أنّه نقل عن المرحوم الطوسى فى الخلاف و المبسوط و النهاية و التبيان أنّ مقدار الكفّارة(مدّان)، و فى هذا المجال يستدلّ الشيخ رحمه اللّه برواية أبى بصير التى وردت فى كفّارة الظهار حيث عيّن حدّها(مدّين). إلّا أنّ هذه الرواية إمّا أن تكون مخصوصة فى كفّارة الظهار، أو أنّها تحمل على الاستحباب.

[۱۳۰] (۱)-« ظهر» فى العبارة أعلاه ليس بمعناها المتعارف عليه كما قال بعض المفسّرين، بل إنّها كناية عن طبيعة العلاقة الزوجية الجاهلية، و بناء على هذا فإنّ معنى الجملة يصبح هكذا(الزوجية معك كالزوجية مع أمّى) يراجع لسان العرب مادّة ظهر و التّفسير الكبير للفخر الرازى.

[۱۳۱] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۴۴،(حديث ۱ باب ۶).

[۱۳۲] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۵۵، حديث ۴.

[۱۳۳] (۳)- كنز العرفان، ج ۲، ص ۲۹۲.

[۱۳۴] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱۵، ص ۵۲۶، الأحاديث(۱، ۲، ۳، ۴، ۵، ۶).

[۱۳۵] (۱)- فسّر بعض المفسّرين(كتبوا) بمعنى اللعنة، و لأنّ اللعنة من قبل اللّه تعالى القادر على كلّ شىء دليل على تحقيقها،

فالنتیجة هی الذلّة و الهوان لهذه المجموعة فی الدنیا، إلّا أنّ ظاهر تعبیر الآیة أنّها جملة خبریّة و لیست إنشائیة.

[۱۳۶] (۱)- یوم ظرف و متعلّق بالکافرین أو بالمهیمن، و الاحتمال الأوّل أنسب، و اختاره کثیر من المفسّرین. و احتمال البعض انّ المتعلّق مقدّر بمعنی(اذکر) مستبعد.

[۱۳۷] (۲)- الکهف، الآیة ۴۹.

[۱۳۸] (۱)-« ألم تر»: من مادّة(رؤیة) فی الأصل بمعنی المشاهدة الحسیّة، إلّا أنّها فی کثیر من الموارد جاءت بمعنی الشهود القلبی و العلم و المعرفة.

[۱۳۹] (۲)-« نجوی» بالرغم من أنّها مصدر إلّا أنّها جاءت هنا اسم فاعل، أی من قبیل(زید عادل).

[۱۴۰] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۶۵.

[۱۴۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۸، حدیث ۲۰.

[۱۴۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۹، الحدیث ۲۳.

[۱۴۳] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۵۸، حدیث ۲۱.

[۱۴۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۴۹.

[۱۴۵] (۲)- تفسیر المراغی، ج ۲۸، ص ۱۳.

[۱۴۶] (۱)- الصافات، الآیة ۱۸۱.

[۱۴۷] (۱)- تفسیر مجمع البیان نهایة الآیة مورد البحث، و الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۴ و اصول الکافی، ج ۲، ص ۴۸۳(باب المناجاة) حدیث ۱، ۲.

[۱۴۸] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۴.

[۱۴۹] (۳)- للاطلاع الأکثر علی هذه الروایات یراجع تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۶۱- ۲۶۲، حدیث ۳۱، ۳۲.

[۱۵۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، حدیث ۳۰.

[۱۵۱] (۲)- فی کتاب« بلوغ الإرب فی معرفة أحوال العرب» جاء بحث مفصّل حول تحیّة العرب فی الجاهلیة و تفسیر عبارة(أنعم صباحا) و(أنعم مساء)، ج ۲، ص ۱۹۲.

[۱۵۲] (۱)- تفسیر روح المعانی، ج ۲۸، ص ۲۵. و مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۵۲، و نقل مفسّرون آخرون نفس النصّ باختلاف قلیل کالفخر الرازی و القرطبی و السیوطی فی الدرّ المنثور و فی ظلال القرآن أیضا فی نهایة الآیة مورد البحث.

[۱۵۳] (۲)- إنّ اختلاف التعبیرین- تفسّحوا و افسحوا- عن الآخر و هو أنّ أحدهما من تفعّل، و الآخر من الثلاثی المجرّد، و یمکن أن یکون الفرق أنّ الأوّل له صفة التکلّف، و الآخر خال من هذه الصفة، یعنی کما لو قال قائل: افسحوا للشخص الذی یقدم توّا، فإنّ الجالسین بدون أن یشعروا بالتکلّف یتفسّحون،(یرجی ملاحظة ذلک).

[۱۵۴] (۱)-« انشزوا» من مادّة(نشز) علی وزن(نصر) مأخوذة من معنی الأرض العالیة، لذلک استعمل بمعنی القیام، و« المرأة الناشزة» تطلق علی کلّ من تعتبر نفسها أعلی من أن تطیع أمر زوجها، و استعمل هذا المصطلح أحیانا بمعنی الإحیاء، لأنّ هذا الأمر سبب للقیام من القبور.

[۱۵۵] (۱)-« یرفع» فی الآیة أعلاه مجزومة بسبب صیغة الأمر التی جاءت قبلها، و التی فی الحقیقة تعطی مفهوم الشرط، و یرفع بمنزلة جزاء هذا الشرط.

[۱۵۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۵۳.

[۱۵۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۸] (۳)- جوامع الجامع، مطابق لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۶۴، و القرطبی، ج ۹، ص ۶۴۷۰.

[۱۵۹] (۴)- المصدر السابق.

[۱۶۰] (۱)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۲۶، و القرطبی، ج ۹، ص ۶۴۷۰.

[۱۶۱] (۲)- جاءت هذه التعلیمات من خلال التسلسل فی الآیات التالیة: آداب التحیّة و السّلام. النساء/ ۸۶، آداب الدعوة إلی الطعام. الأحزاب/ ۵۳، آداب التکلّم مع الرّسول. الحجرات/ ۲، و آداب التفسّح. فی الآیات مورد البحث.

[۱۶۲] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۸، ص ۴۰۱.

[۱۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۵۲، و کثیر من التفاسیر الأخری نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۶۴] (۲)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۲۷.

[۱۶۵] (۱)- تفسیر الطبری، ج ۲۸، ص ۱۵.

[۱۶۶] (۲)-(البیان فی تفسیر القرآن)، ج ۱، ص ۳۷۵، و نقل سیّد قطب أیضا هذه الروایة فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۱.

[۱۶۷] (۳)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۷۱.

[۱۶۸] (۴)- تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۸۵.

[۱۶۹] (۱)- تفسیر روح البیان، ج ۶، ص ۴۰۶، کما نقل هذا الحدیث الطبرسی فی مجمع البیان، و الزمخشری فی الکشّاف، و القرطبی فی تفسیر الجامع و ذلک فی نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۷۰] (۱)- الفخر الرازی و روح البیان نهایة الآیات مورد البحث.

[۱۷۱] (۱)- المائدة، الآیة ۶۰.

[۱۷۲] (۲)- المائدة، الآیة ۵۱.

[۱۷۳] (۱)-« جنة» فی الأصل من مادة(جن) علی وزن(فن) بمعنی تغطیة الشیء، و لأن الدرع یغطی الإنسان من ضربات العدو فیقال له(جنة و مجن و مجنة).

[۱۷۴] (۱)- اعتبر بعض المفسّرین أنّ کلمة« عذاب» هنا مقدرة و قالوا: إنّ المقصود هو(من عذاب اللّه)،(القرطبی و روح البیان و الکشّاف)، و یوجد هنا احتمال آخر، و هو أنّ الآیة لیس لها تقدیر و المراد من کلمة(اللّه) هو أنّهم لا یجدون ملجأ آخر غیره.

[۱۷۵] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۸۰.

[۱۷۶] (۳)- البقرة، الآیة ۱۶۶.

[۱۷۷] (۴)-« یوم» ظرف و متعلّق ب(اذکر) المحذوفة، أو متعلّق بما قبله یعنی« لهم عذاب مهین»، أو« أولئک أصحاب النار»، إلّا أنّ الاحتمال الأوّل أنسب.

[۱۷۸] (۱)- اصول الکافی مطابق لنقل نور الثقلین، ج ۵ ص ۲۶۷.

[۱۷۹] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۶۶.

[۱۸۰] (۱)-« یحادّون» من مادّة(محادّة) بمعنی الحرب المسلّح و غیر المسلّح، أو بمعنی الممانعة(و قد أعطینا توضیحا آخر فی هذا المجال فی نهایة الآیة(۵) من نفس السورة).

[۱۸۱] (۲)- الصافات، الآیة ۱۷۱، ۱۷۳.

[۱۸۲] (۱)- للتوضیح الأشمل فی هذا المجال یراجع تفسیر الآیة(۱۷۱) من سورة الصافات.

[۱۸۳] (۲)- المؤمن، الآیة ۵۱.

[۱۸۴] (۳)- آل عمران، الآیة ۱۳۹.

[۱۸۵] (۱)- الأنفال، الآیة ۵۳.

[۱۸۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۵۵.

[۱۸۷] (۱)- نقل هذا الحدیث فی تفسیر البرهان عن کتب أهل السنّة(البرهان ج ۴ ص ۳۱۲).

[۱۸۸] (۲)- اصول الکافی ج ۲ باب الحبّ فی اللّه حدیث ۳.

[۱۸۹] (۱)- سفینة البحار ج ۱ ص ۲۰۱.

[۱۹۰] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۲۰۱.

[۱۹۱] (۳)- المصدر السابق.

[۱۹۲] (۱)- الکافی مطابق لنقل تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۲۸۸.

[۱۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۵۵، ۲۵۶، و نقل القرطبی هذا الحدیث أیضا فی بدایة هذه السورة.

[۱۹۵] (۱)- المصدر السابق.

[۱۹۶] (۱)- مجمع البیان و تفسیر علی بن إبراهیم و تفسیر القرطبی و نور الثقلین(نهایة الآیات مورد البحث) مقتبس باختصار.

[۱۹۷] (۱)- النمل، الآیة ۱۷.

[۱۹۸] (۲)- سورة طه، الآیة ۵۹.

[۱۹۹] (۱)- المفردات للراغب.

[۲۰۰] (۱)- کتاب الخصال مطابق لنقل نور الثقلین، ج ۵ ص ۲۷۴.

[۲۰۱] (۲)- نهج البلاغة، خطبة ۸۶.

[۲۰۲] (۱)-« من» شرطیة و جزاؤها محذوف و تقدیره: و من یشاقق الله یعاقبه فإن الله شدید العقاب.

[۲۰۳] (۱)- دعاء الافتتاح(من أدعیة شهر رمضان المبارک).

[۲۰۴] (۲)-« ما» فی الآیة أعلاه شرطیة و جزاؤها(فبإذن اللّه).

[۲۰۵] (۱)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۹۳، و جاء هذا المعنی فی الدرّ المنثور، ج ۹، ص ۱۸۸.

[۲۰۶] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۲۹، ص ۲۸۳.

[۲۰۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۲، ص ۵۱۹،(نهایة الآیة ۱۵۱/ آل عمران).

[۲۰۸] (۲)- إثبات الهداة، ج ۷، ص ۱۲۴.

[۲۰۹] (۱)- مجمع البیان نهایة الآیات مورد البحث و تفاسیر اخری.

[۲۱۰] (۲)-« ما» فی(ما أفاء اللّه و رسوله) موصولة فی محلّ رفع مبتدأ و ما فی i فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَیْهِ E نافیة، و مجموع هذه الجملة خبر، و هنالک احتمال ثان: و هو أنّ(ما) فی(ما أفاء) شرطیة،(و ما) الثانیة مع جملتها تکون جوابا للشرط و مجیء(الفاء) فی صدر جملة الخبر حینما تکون فیها شبهة بالشرط، فلا إشکال فیه.

[۲۱۱] (۱)- یقول الراغب فی المفردات: إنّ الخیل فی الأصل من مادّة(خیال) بمعنی التصوّرات الذهنیة، و خیلاء بمعنی التکبّر و التعالی علی الآخرین لأنّه ناتج من تخیّل الفضیلة، و لأنّ رکوب الإنسان علی الحصان یشعر بالإحساس بنوع من الفخر و الزهو غالبا، لذلک أطلق لفظ الخیل علی الحصان، و النقطة الجدیرة بالملاحظة أنّ خیل تطلق علی الحصان و کذلک علی راکبیه.

[۲۱۲] (۱)- هذا التّفسیر لم یأت به الشیعة فقط، حیث جاء ذکره فی تفاسیر أهل السنّة أیضا، کما ذکر ذلک الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، و البرسونی فی روح البیان، و سیّد قطب فی ظلال القرآن، و المراغی فی تفسیره و الآلوسی فی روح المعانی.

[۲۱۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۱، و وسائل الشیعة، ج، ص ۳۶۸، حدیث ۱۲ و باب واحد من أبواب الأنفال.

[۲۱۴] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۶، ص ۳۵۶،(حدیث ۴، باب واحد من أبواب الأنفال).

[۲۱۵] (۳)-(دولة) بفتح الدال و ضمّها بمعنی واحد، و فرّق البعض بین الإثنین و ذکر أنّ(دولة) بفتح الدال تعنی الأموال، أمّا بضمّها فتعنی الحرب و المقام، و قیل أنّ الأوّل اسم مصدر، و الثانی مصدر، و علی کلّ حال فإنّ لها أصلا مشترکا من مادّة« تداول» بمعنی التعامل من ید إلی اخری.

[۲۱۶] (۱)- الموارد الإثنی عشر للأنفال هی:

۱- الأراضی التی ترکها أهلها و رحلوا عنها ک(أراضی یهود بنی النضیر).

۲- الأراضی التی ترکها أصحابها برغبة منهم إلی رئیس الدولة الإسلامیة مثل(فدک).

۳- أراضی الموات.

۴- سواحل البحار.

۵- فمم الجبال.

۶- الودیان.

۷- الغابات و الآجام.

۸- الغنائم الحربیة الثمینة الخاصّة بالملوک.

۹- ما یختاره قائد المسلمین من الغنائم العامّة لنفسه.

۱۰- الغنائم الحاصلة من الحروب التی لم یأذن بها الحاکم الشرعی.

۱۱- المعادن.

۱۲- میراث من لا وارث له.

و من الطبیعی أنّ فی بعض الموارد أعلاه قد حصلت اختلافات بین الفقهاء إلّا أنّ الأکثریة الغالبة قد اعتبرت هذه الموارد، و یمکن مراجعة ذلک فی الکتب الفقهیة.

[۲۱۷] (۱)- الروایات التی تناولت هذا البحث عدیدة یمکن مراجعتها فی ج ۵، ص ۲۷۹- ۲۸۳ من تفسیر نور الثقلین.

[۲۱۸] (۱)- الروم، الآیة ۳۸.

[۲۱۹] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۴، ص ۱۷۷.

[۲۲۰] (۳)- کنز العمّال، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۲۲۱] (۴)- یراجع کتاب فدک، ص ۴۹.

[۲۲۲] (۱)- شرح ابن أبی الحدید، ج ۱۶، ص ۲۰۹ و ما بعدها.

[۲۲۳] (۱)- صحیح مسلم، ج ۳ ص ۱۳۸۰، حدیث ۵۲ عن کتاب الجهاد.

[۲۲۴] (۱)-« للفقراء» بدل و تفسیر لابن السبیل.

[۲۲۵] (۱)- إلّا أنّه و طبقا لتفسیر آخر فإنّ(و الذین تبوّؤا الدار) تکون مبتدأ، و(یحبّون) خبرها، و إجمالا فإنّها تشکّل جملة مستقلّة، و لا ترتبط بالجملة السابقة التی تتحدّث حول مصاریف الفیء، إلّا أنّ من الواضح أنّ التّفسیر الأوّل هو الأنسب.

[۲۲۶] (۱)-« خصاصة» من مادّة(خصاص) علی وزن(أساس) بمعنی الشقوق التی توجد فی جدران البیت، و لأنّ الفقر فی حیاة الإنسان یمثّل شقّا، لذا عبّر عنه بالخصاصة.

[۲۲۷] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۰.

[۲۲۸] (۱)- المصدر السابق.

[۲۲۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۰.

[۲۳۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۹۱، حدیث ۶۴.

[۲۳۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۲.

[۲۳۲] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۴۳۹، و جاء نفس هذا المعنی باختلافات عدیدة فی تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۱۹۹.

[۲۳۳] (۱)- آل عمران، الآیة ۱۵۱.

[۲۳۴] (۱)- هذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف تقدیره: مثلهم کمثل الذین من قبلهم.

[۲۳۵] (۱)- بالرغم من أنّ التعبیر ب(کمثل) فی هـذه الآیة و فی الآیة السابقة متشابهان، فإنّ بعض المفسّرین اعتبر الإثنین دلیلا علی مجموعة واحدة، إلّا أنّ القرائن تبیّن بوضوح أنّ الأوّل یحکی وضع یهود بنی النضیر، و الثانی یحکی وضع المنافقین، و علی کلّ حال فإنّ هذه العبارة أیضا خبر لمبتدأ محذوف تقدیره مثلهم کمثل الشیطان.

[۲۳۶] (۲)- الأنفال، الآیة ۴۸.

[۲۳۷] (۱)-« عاقبتهما» خبر« کان» و منصوب، و(إنّهما فی النار) جاءت بمکان اسم کان و« خالدین» حال لضمیر« هما».

[۲۳۸] (۲)-« ما» فی(ما قدّمت لغد) هل أنّها موصولة أو استفهامیة؟ هناک احتمالان، و الآیة الشریفة لها القدرة علی تقبّل الاحتمالین، بالرغم من أنّ الاستفهامیة أنسب.

[۲۳۹] (۱)- المیزان، ج ۱۹، ص ۲۵۳.

[۲۴۰] (۱)- التوبة، الآیة ۶۷.

[۲۴۱] (۲)- حذف المتعلّق أی متعلّق« لا یستوی» دلیل علی العموم.

[۲۴۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۹۲.

[۲۴۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۵، تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۵۱۸، و جاءت هذه القصّة مفصّلة أکثر فی روح البیان، ج ۹، ص ۴۴۶.

[۲۴۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۹۲.

[۲۴۵] (۱)- البقرة، الآیة ۱۱۰.

[۲۴۶] (۱)-« متصدع» من مادة(صدع)، بمعنی شق الأشیاء القویة، کالحدید و الزجاج، و إذا قیل لوجع الرأس: صداع، فإنه بسبب شعور الإنسان أن رأسه یرید أن یتشقق من الألم.

[۲۴۷] (۱)- الأنعام، الآیة ۵۹.

[۲۴۸] (۲)- فسّر البعض کلمة« سلام» هنا بمعنی« السلامة من کلّ عیب و نقص و آفة»، و بالنظر إلی أنّ هذا المعنی مندرج فی القدّوس و التی جاءت سابقا، بالإضافة إلی أنّ کلمة سلام تقال فی القرآن الکریم فی الغالب بمعنی إعطاء السلامة للآخرین، و أساسا فإنّ کلمة سلام تقال عند اللقاء و تعنی إظهار الصداقة و المحبّة و بیان الروابط الحمیمة مع الطرف المقابل، فإنّ ما ذکرناه أعلاه هو الأنسب حسب الظاهر.(یرجی الانتباه لذلک).

[۲۴۹] (۳)- یونس، الآیة ۲۵.

[۲۵۰] (۴)- المائدة، الآیة ۱۶.

[۲۵۱] (۱)- الواقعة، الآیة ۲۶.

[۲۵۲] (۲)- ذکر بعض المفسّرین أنّ المؤمن هنا بمعنی صاحب الإیمان، إشارة إلی أنّه أوّل شخص مؤمن بذات اللّه الطاهرة، و

صفاته و رسله(و هو اللّه تعالی) إلّا أنّ الذی ذکر أعلاه أنسب.

[۲۵۳] (۳)- فی الأصل لهذا المصطلح قولان بین المفسّرین و أرباب اللغة، حیث اعتبره البعض من مادّة(هیمن) و التی تعنی المراقبة، و الحفظ، و البعض الآخر اعتبره من مادّة(إیمان) تبدّلت الهمزة إلی الهاء بمعنی الباعث للهدوء، و ورد هذا المصطلح مرّتین فی القرآن الکریم: الاولی: حول القرآن نفسه، کما فی الآیة(۴۸) من سورة المائدة، و الثانیة: فی وصف اللّه سبحانه فی الآیة مورد البحث. و الموردان مناسبان للمعنی الأوّل،(لسان العرب و کذلک تفسیر روح المعانی و الفخر الرازی).

کما نقل أبو الفتوح الرازی فی نهایة الآیة مورد البحث عن أبی عبیدة أنّه جاء فی کلام العرب خمس کلمات فقط علی هذا الوزن:(مهیمن، مسیطر، مبیطر(طبیب الحیوانات) مبیقر(الذی یشقّ طریقه و یمضی فیه) مخیمر(اسم جبل).

[۲۵۴] (۱)- البارئ من مادّة« برء» علی وزن(قفل) و هی فی الأصل بمعنی التحرّر و التخلّص من الأمور السلبیة، و لذا یقال(بارئ) للشخص الذی یوجد شیئا غیر ناقص و موزون بصورة تامّة. و أخذه البعض- أیضا- من مادّة(بری) علی وزن(نفی) قطّ الخشب، حیث ینجز هذا العمل بقصد الموزونیة، و صرّح بعض أئمّة اللغة أیضا بأنّ البارئ هو الذی یبدأ شیئا لم یکن له نظیر فی السابق.

[۲۵۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۷.

[۲۵۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵ ص ۲۹۳.

[۲۵۷] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۸] (۴)- المصدر السابق.

[۲۵۹] (۵)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۰۱.

[۲۶۰] (۱)- قرأها البعض« ممتحنة» بفتح الحاء و ذلک بسبب حالة التمحیص و الامتحان للنسوة المهاجرات، و قرأها آخرون ممتحنة- بکسر الحاء- و ذلک لأنّ موضوعات السورة- أجمع- کانت وسیلة للامتحان و التمحیص.

[۲۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۷.

[۲۶۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۲۹۹.

[۲۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۶۹، بتلخیص مختصر، کما نقل هذا فی سبب النزول: البخاری فی صحیحه، ج ۹، ص ۱۸۵، و الفخر الرازی، و ورد کذلک فی تفسیر روح المعانی، و روح البیان، و فی الظلال، و القرطبی، و المراغی، و فی تفاسیر اخری باختلاف.

[۲۶۴] (۱)- جملة\:i تُلْقُونَ إِلَیْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ\E قالوا: إنّها حال من ضمیر(لا تتّخذوا) کما قیل: إنّها جملة استئنافیة(الکشّاف، ج ۴، ص ۵۱۲).

الباء فی(المودّة) إمّا زائدة للتأکید کما فی قوله تعالی\:i وَ لا تُلْقُوا بِأَیْدِیکُمْ إِلَی التَّهْلُکَةِ\E أو أنّها سببیّة بحذف المفعول الذی تقدیره:(تلقوا إلیهم أخبار رسول اللّه بسبب المودّة التی بینکم و بینهم) الکشّاف أیضا.

[۲۶۵] (۲)- یعتقد بعض المفسّرین أنّ هذه الجملة الشرطیة لها جزاء محذوف یستفاد من الجملة السابقة تقدیره:(و إن کنتم خرجتم جهادا فی سبیلی و ابتغاء مرضاتی لا تتولّوا أعدائی).

[۲۶۶] (۳)- الجملة أعلاه جملة استئنافیة.

[۲۶۷] (۴)- التعبیر هنا ب(ما أخفیتم) عوض(ما أسررتم) جاء تأکیدا للمبالغة، لأنّ الإخفاء مرحلة أعمق من السرّ(تفسیر الفخر الرازی نهایة الآیات مورد البحث).

[۲۶۸] (۱)- یثقفوکم من مادّة:(ثقف ثقافة) بمعنی المهارة فی تشخیص أو إنجاز شیء ما، و لهذا السبب تستعمل- أیضا- بمعنی الثقافة أو التمکّن و التسلّط المقترن بمهارة علی الشیء.

[۲۶۹] (۱)- یعتقد أکثر المفسّرین أنّ:(یوم القیامة) متعلّقة ب(یفصل) إلّا أنّ البعض الآخر یعتقد بأنّها متعلّقة ب(لن تنفعکم) و النتیجة أنّ کلا الرأیین متقاربان بالرغم من أنّ المعنی الأوّل أنسب حسب الظاهر.

کما أنّ الملاحظ أنّ البعض فسّر(یفصل) بمعنی فصل شیئین بالمعنی المتعارف، و البعض الآخر اعتبرها من(فصل) بمعنی الحکم و القضاء بین إثنین، إلّا أنّ المعنی الأوّل أصحّ.

[۲۷۰] (۲)- عبس، الآیة ۳۴- ۳۶.

[۲۷۱] (۱)- ذکر المفسرون احتمالات عدة فی إعراب هذه الجملة، و الظاهر أن(أسوة حسنة) اسم کان، و(لکم) خبرها و(فی إبراهیم) متعلق ب(أسوة حسنة) و لا بد من الالتفات ضمنا إلی أن أسوة بمعنی التأسی و الاقتداء الذی یکون أحیانا بالأعمال الجیدة و اخری بالسیئة و لذا قیدت هنا ب(الحسنة).

[۲۷۲] (۲)- الکامل فی التاریخ، لابن الأثیر، ج ۱، ص ۱۰۰.

[۲۷۳] (۱)-« براء» جمع« بریء» مثل« ظرفاء- ظریف».

[۲۷۴] (۲)- اصول الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۰۲.

[۲۷۵] (۱)- التوبة، الآیة ۱۱۴.

[۲۷۶] (۱)- یتّضح لنا ممّا تقدّم أنّ الاستثناء هنا متّصل، و المستثنی منه جملة محذوفة یدلّ علیها صدر الآیة، و تقدیرها: إنّ إبراهیم و قومه تبرّأوا منهم، و لم یکن لهم قول یدلّ علی المحبّة إلّا قول إبراهیم، و طبقا للتفسیر الثانی فإنّ الاستثناء سوف یکون منقطعا، و هذا بحدّ ذاته إشکال آخر علیه.

[۲۷۷] (۲)- یتّضح ممّا قلناه أنّ هذه الجملة هی کلام إبراهیم علیه السّلام و أصحابه، بالرغم من أنّ بعض المفسّرین احتمل کونها جملة مستقلّة و نزلت بعنوان إرشاد للمسلمین ضمن هذه الآیات، و هو احتمال بعید.

[۲۷۸] (۱)- قال بعض المفسّرین: إنّ(لمن) فی الآیة أعلاه« بدل» عن(لکم):(تفسیر الفخر الرازی، و روح المعانی، فی نهایة هذه الآیات).

[۲۷۹] (۱)- بناء علی هذا فإنّ جملة(من یتولّ) جملة شرطیة، و لها جزاء محذوف تقدیره: من یتولّ فقد أخطأ حظّ نفسه و أذهب ما یعود نفعه إلیه(مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۷۲).

[۲۸۰] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۲۷۸، مادّة عمل.

[۲۸۱] (۱)- روح البیان، ج ۹، ص ۴۷۴.

[۲۸۲] (۱)- أصول الکافی، ج ۲، باب الحبّ فی اللّه حدیث(۱، ۲).

[۲۸۳] (۲)- اصول الکافی، ج ۲، باب الحبّ فی اللّه، حدیث(۱، ۲).

و الأحادیث فی هذا المجال کثیرة جدّا و یراجع المجلّد الثانی من کتاب اصول الکافی، باب الحبّ فی اللّه، حیث نقل العلّامة الکلینی فی هذا الباب(۱۶) حدیثا حول هذا الموضوع.

[۲۸۴] (۱)- عبید اللّه بن جحش هو أخو عبد اللّه بن جحش، لم یبق علی الإسلام بل اختار المسیحیة فی الحبشة، و لهذا السبب فإنّ أمّ حبیبة انفصلت عنه، أمّا أخوه(عبد اللّه) فقد بقی مسلما و کان من مجاهدی أحد، و استشهد فی تلک الغزوة.

[۲۸۵] (۲)- إنّ خلاصة هذه القصّة قد نقلها کثیر من المفسّرین، و یمکن مراجعة شرحها فی کتاب اسد الغابة فی معرفة الصحابة، ج ۵، ص ۵۷۳.

[۲۸۶] (۱)- التوبة، الآیة ۵.

[۲۸۷] (۲)- احتمل بعض المفسّرین أنّ الآیة تمثّل رخصة عقد الولاء بالنسبة للمؤمنین الذین کانوا قد قبلوا الإسلام، إلّا أنّهم بقوا فی

مكّة، و لم يهاجروا. إلّا أنّ لحن الآيات يبيّن لنا أنّ الحديث كان مختّصا بغير المسلمين.

[۲۸۸] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۴۸۱، جاءت هذه الرواية فى صحيح البخارى و كثير من كتب التّفسير أيضا باختلافات.

[۲۸۹] (۱)- جاء سبب النزول أعلاه فى كثير من كتب التّفسير، و نحن اقتبسناه من مجمع البيان بتلخيص قليل، كما نقل الطبرسى هذا الحديث عن ابن عبّاس.

[۲۹۰] (۱)- الممتحنة، الآية ۱۲.

[۲۹۱] (۱)- تفسير أبو الفتوح الرازى، ج ۱۱، ص ۱۲۶.

[۲۹۲] (۱)- جواهر الكلام، ج ۳۰، ص ۵۴.

[۲۹۳] (۱)- يراجع فى هذا الصدد التّفسير الأمثل الآية(۱۸) سورة الفتح.

[۲۹۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۶، و جاء القرطبى فى تفسيره بهذه القصّة باختلاف يسير، و كذلك السيوطى فى الدرّ المنثور، و أبو الفتوح فى تفسير روح الجنان(فى نهاية الآيات مورد البحث).

[۲۹۵] (۱)- نهج البلاغة، رسالة رقم(۳۸) و هى رسالة قصيرة كتبها الإمام عليه السّلام لأهل مصر هى غير ما كتبه الإمام عليه السّلام من العهد المعروف لمالك الأشتر.

[۲۹۶] (۱)- البقرة، الآية ۹۰.

[۲۹۷] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۶.

[۲۹۸] (۲)- ذهب بعض المفسّرين إلى احتمالات اخرى فى تفسير هذه الآية من جملتها: أنّهم ينسوا من ثواب الآخرة كما يئس المشركون من إحياء أصحاب القبور، إلّا أنّ التّفسير الذى ذكرناه أعلاه أنسب(و ممّا يجدر الانتباه إليه أنّه طبقا للتفسير الأوّل فإنّ(من أصحاب القبور) وصف للكفّار و طبقا للتفسير الأخير فإنّها متعلّقة ب(يئس).

[۲۹۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۸، كما ذكر بقيّة المفسّرين أيضا أسباب النزول هذه باختلافات.

[۳۰۰] (۲)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۷، نور الثقلين، ج ۹، ص ۳۰۹.

[۳۰۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۷۷، نور الثقلين، ج ۹، ص ۳۰۹.

[۳۰۲] (۲)- تحدّثنا مرارا فى هذا التّفسير حول كيفية التسبيح العام لكائنات العالم و من ضمن ذلك ما ورد فى نهاية الآية(۴۴) من سورة الإسراء و نهاية الآية(۴۱) من سورة النور.

[۳۰۳] (۳)-(لم) فى الأصل كانت(لما)(مركبة من لام جارّة، و ما استفهامية) ثمّ سقطت الفها بسبب كثرة الاستعمال.

[۳۰۴] (۱)- اعتبر بعض المفسّرين(كبر) من أفعال(المدح و الذمّ)،(تفسير روح البيان نهاية الآيات مورد البحث)، كما فهم البعض منها معنى التعجّب(تفسير الكشّاف).

[۳۰۵] (۲)- الميزان، ج ۱۹، ص ۲۸۷.

[۳۰۶] (۱)- نهج البلاغة الرسالة رقم ۵۳ ص ۴۴۴ صبحى الصالح.

[۳۰۷] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، باب خلف الوعد.

[۳۰۸] (۳)-(صفّا) منصوبة على أنّها حال.

[۳۰۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۱۱.

[۳۱۰] (۲)- نهج البلاغة، خطبة(۱۲۴)، صبحى الصالح.

[۳۱۱] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۲۹.

[۳۱۲] (۱)- اصول الكافى، ج ۱(باب صفة العلماء/ حديث رقم ۲).

[۳۱۳] (۱)- المائدة، الآیة ۲۴.

[۳۱۴] (۲)- التفسیر الأمثل الآیة أعلاه من سورة الأحزاب.

[۳۱۵] (۱)-« زاغوا»: من مادّة(زیغ) بمعنی الانحراف عن الطریق المستقیم.

[۳۱۶] (۱)- الأعراف، الآیة ۱۵۷.

[۳۱۷] (۲)- المیزان، ج ۱۹، ص ۲۹۰.

[۳۱۸] (۱)- جاء هذا التعبیر فی إنجیل عربی طبع فی لندن فی مطبعة ویلیام وطسس سنة ۱۸۵۷ م.

[۳۱۹] (۲)- إنجیل یوحنا باب ۱۴، جملة ۱۶.

[۳۲۰] (۳)- إنجیل یوحنا، باب ۱۵، جملة ۲۶.

[۳۲۱] (۴)- إنجیل یوحنا، باب ۱۷، جملة ۷.

[۳۲۲] (۱)- الفرقان فی تفسیر القرآن، ج ۲۷، و ج ۲۸، ص ۳۰۶، فی تفسیر الآیة مورد البحث، و جاء فی هذا الکتاب المتن السریانی للجمل أعلاه بصورة دقیقة.

[۳۲۳] (۲)- راجع تفسیر الآیة ۴۱، من سورة البقرة.

[۳۲۴] (۳)- دائرة المعارف الکبیرة الفرنسیة، ج ۲۳، ص ۴۱۷۶.

[۳۲۵] (۱)- دیوان أبو طالب، ص ۲۵، ۲۹.

[۳۲۶] (۲)- تاریخ ابن عساکر، ج ۱، ص ۲۷۵.

[۳۲۷] (۳)- دیوان حسّان بن ثابت ص ۵۹، تحقیق محمّد عزّت نصر اللّه.

[۳۲۸] (۱)- الغدیر، ج ۷، ص ۳۵۸.

[۳۲۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۱۳، کما جاءت فی تفسیر الدرّ المنثور روایات فی هذا المجال، ج ۶، ص ۲۱۴، حیث أنّ نقلها جمیعا یطیل البحث.

[۳۳۰] (۳)- استفید فی هذا البحث و البحث السابق من کتاب(أحمد موعود الإنجیل) و(تفسیر الفرقان) أیضا.

[۳۳۱] (۱)- جملة:(تؤمنون باللّه) جملة استئنافیة تفسّر التجارة، و اعتبر البعض أنّها عطف بیان، و علی کلّ حال فإنّ هذه(الجملة الخبریة) لها معنی الأمر.

[۳۳۲] (۱)- جملة(یغفر لکم) هی بمنزلة(جزاء) لشرط محذوف مستفاد من الآیة السابقة و فی التقدیر هکذا: و إن تؤمنوا باللّه و رسوله و تجاهدوا فی سبیله .. یغفر لکم ذنوبکم ...) کما یحتمل- أیضا- أنّ الجملة جواب(الأمر) ذلک الأمر مستفاد من الجملة الخبریة(تؤمنون) و(تجاهدون).

[۳۳۳] (۱)-« اخری» صفة لموصوف محذوف مثل نعمة أو خصلة، و قال البعض أیضا: إنّ الموصوف هو(التجارة) إلّا أنّ هذا مستبعد.

[۳۳۴] (۱)(ظلال القرآن)، ج ۸، ص ۸۷.

[۳۳۵] (۱)- الأنعام، الآیة ۹۶.

[۳۳۶] (۲)- الروم، الآیة ۲۱.

[۳۳۷] (۳)- النحل، الآیة ۸۰.

[۳۳۸] (۱)- نهج البلاغة، کلمات قصار، الجملة رقم ۱۳۱ بتلخیص.

[۳۳۹] (۲)- التوبة، الآیة ۱۱۱.

[۳۴۰] (۳)- راجع تفسیر الآیة ۱۱۱ من سورة التوبة.

[۳۴۱] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۱۴.

[۳۴۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۲۰، ح ۱.

[۳۴۳] (۲)- نفس المصدر، ص ۳۲۱.

[۳۴۴] (۱)-« آخرین» عطف علی(امّیین) و ضمیر منهم متعلّق ب« المؤمنین» کما یفهم من سیاق الآیات. و احتمل بعضهم أنّه معطوف علی ضمیر« یعلّمهم». و لکن المعنی الأوّل أنسب.

[۳۴۵] (۲)- أورده الطبرسی فی(مجمع البیان) و الطباطبائی فی(المیزان) و السیوطی فی(الدرّ المنثور) و الزمخشری فی الکشّاف، و القرطبی، و المراغی فی تفسیرهما، و سیّد قطب فی تفسیره(فی ظلال القرآن) فی ذیل الآیة مورد البحث، و هو فی الأصل من(صحیح البخاری).

[۳۴۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۸۴.

[۳۴۷] (۱)- اعتبر بعض المفسرین(من دون الناس) حالا لاسم إن، بینما قال آخرون: إنها صفة لأولیاء.

[۳۴۸] (۱)- نهج البلاغة، خطبة ۵.

[۳۴۹] (۲)- المحجّة البیضاء، ج ۱، ص ۱۲۵، ۱۲۶.

[۳۵۰] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار(۳۶۶).

[۳۵۱] (۲)- اصول الکافی، ج ۱، باب استعمال العلم، حدیث ۲۲۶.

[۳۵۲] (۳)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۶۰۳.

[۳۵۳] (۱)- مقتل الحسین- المقرّم- ص ۲۶۳.

[۳۵۴] (۲)- المحجّة البیضاء، ج ۸، ص ۲۵۸.

[۳۵۵] (۱)- المحجّة البیضاء، ج ۸، ص ۲۵۸.

[۳۵۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۲۸۷، و أغلب التفاسیر الاخری.

[۳۵۷] (۱)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۹۰.

[۳۵۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۹.

[۳۵۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۶.

[۳۶۰] (۱)- تفسیر الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۲۲، و مفسّرین آخر ک(الآلوسی فی روح المعانی و القرطبی).

[۳۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۲۸۶.

[۳۶۲] (۲)- روح المعانی، ج ۲۸، ص ۸۸.

[۳۶۳] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۷، باب وجوب صلاة الجمعة، حدیث ۲۸.

[۳۶۴] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۴، حدیث ۸.

[۳۶۵] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵، حدیث ۱۰.

[۳۶۶] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۵، ص ۵، حدیث ۱۷.

[۳۶۷] (۱)- البحار، ج ۴۴، ص ۳۳۳.

[۳۶۸] (۲)- الصحیفة السجادیة، دعاء ۴۲.

[۳۶۹] (۱)- هناک خلاف فی جزئیات و أحکام صلاة الجمعة ینبغی الرجوع فیها إلی فتاوی الفقهاء، و هذا المذکور خلاصة لتلک

الآراء.

[۳۷۰] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۵، ص ۳۹.

[۳۷۱] (۱)- ذكر العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۸۹، ۹۰ هذه المسألة المهمّة و خصوصياتها الاخرى.

[۳۷۲] (۱)- مجمع البيان بداية سورة المنافقين.

[۳۷۳] (۲)- ثواب الأعمال طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۳۱.

[۳۷۴] (۱)- ذكرت« إنّ» هنا مكسورة، لأنّ لأن لام التأكيد قد جاءت فى بداية الخبر، و فى هذه الصورة يقدّم التقدير.

[۳۷۵] (۱)- روح البيان، ج ۹، ص ۵۲۹.

[۳۷۶] (۱)- التوبة، الآية ۴۲.

[۳۷۷] (۱)- الكشّاف، ج ۴، ص ۵۴۰.

[۳۷۸] (۱)- الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ج ۲، ص ۸۱- ۸۲.

[۳۷۹] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۶.

[۳۸۰] (۱)- صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۶۳.

[۳۸۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۳۶، عن الكافى.

[۳۸۲] (۳)- المصدر السابق.

[۳۸۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۸۴] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، باب حبّ الدنيا، حديث ۳.

[۳۸۵] (۲)- يلاحظ فى الآية أعلاه: أنّ« أصّدّق» منصوب و« أكن» مجزوم، و كلاهما معطوف على الآخر، لأنّ« أكن» عطف على محلّ« أصدّق» و فى التقدير هكذا:« إن أخّرتنى أصدّق و أكن من الصالحين».

[۳۸۶] (۱)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۷۱.

[۳۸۷] (۲)- سفينة البحار، ج ۲، ص ۶۰۵.

[۳۸۸] (۳)- اصول الكافى ج ۲(باب صفة النفاق حديث ۶).

[۳۸۹] (۴)- نفس المصدر، حديث ۳.

[۳۹۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۲۹۶.

[۳۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۳۹۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۴۱.

[۳۹۳] (۲)-« يوم يجمعكم» متعلّقة ب(لتبعثنّ) أو بجملة(لتنبئن) أو(خبير) أو أنّها متعلّقة بجملة محذوفة مثل« اذكر» لكن هذا بعيد. و المناسب هو أحد الاحتمالات السابقة.

[۳۹۴] (۳)-« التغابن» من باب تفاعل، و عادة ما يأتى فى حالة وجود طرفين تتعارض و تزاحم و هذا المعنى بالنسبة ليوم القيامة ربّما لظهور نتائج تعارض المؤمنين و الكفّار، أى يوم القيامة يوم ظهور التغابن، و يستفاد من بعض كلمات أهل اللغة أنّ باب التفاعل لا يأتى دوما بهذا المعنى، فهنا بمعنى ظهور الغبن(مفردات الراغب- مادّة غبن).

[۳۹۵] (۱)- نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۳۲.

[۳۹۶] (۱)- تفسير على بن إبراهيم طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۴۲، و نقل هذا المعنى باختصار أشدّ فى(الدرّ المنثور) و تفاسير اخرى لم تكن شاملة كالرواية أعلاه.

[۳۹۷] (۱)- نهج البلاغة، الجمل القصار ۹۳.

[۳۹۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۱.

[۳۹۹] (۳)- صحیح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۸۳، حدیث ۵۸.

[۴۰۰] (۱)- البحار، ج ۴۳، ص ۲۹۶، حدیث ۵۷.

[۴۰۱] (۲)- البقرة، الآیة ۱۸۰.

[۴۰۲] (۳)- علی التّفسیر الأوّل تکون« خیرا» مفعول للفعل« أنفقوا»، و علی الثانی تکون خبرا لفعل مقدّر، و تقدیره« یکن خیرا لکم».

[۴۰۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۱.

[۴۰۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۴۶.

[۴۰۵] (۱)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۲۴.

[۴۰۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۲.

[۴۰۷] (۱)- کتاب الطلاق عن صحیح مسلم، ج ۳، ص ۱۰۹۳ فما بعد.

[۴۰۸] (۲)- وسائل الشیعة، ج ۱۵، ص ۳۴۸« باب کیفیة طلاق العدّة».

[۴۰۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۰- ۳۵۱، أحادیث ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰.

[۴۱۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۲، حدیث ۳۴.

[۴۱۱] (۱)- وسائل الشیعة، ج ۱۵، ص ۲۶۶، حدیث ۱.

[۴۱۲] (۲)- نفس المصدر، حدیث ۵.

[۴۱۳] (۳)- نفس المصدر، حدیث ۷.

[۴۱۴] (۱)- مکارم الأخلاق، ص ۹۱- ۱۰۷.

[۴۱۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۶] (۱)- المقصود من« الطلاق الرجعی»- هو الطلاق الذی یحدث بإصرار و مبادرة من الرجل أوّل و ثانی مرّة-.

[۴۱۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۶، حدیث ۴۴.

[۴۱۸] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۷، حدیث ۴۵.

[۴۱۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۰۶، و بهذا المعنی جاء فی تفسیر« الفخر الرازی» و« روح البیان». مع اختلاف بسیط بعضهم قال أنّه جلب مائة بعیر.

[۴۲۰] (۲)- الکافی طبقا لنقل نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۵۴، ح ۳۵.

[۴۲۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۳۷۳، حدیث ۱۹.

[۴۲۲] (۲)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۸۳، مادّة التوکّل.

[۴۲۳] (۱)- الجواهر، ج ۳۲، ص ۲۴۹، وسائل الشیعة، ج ۱۵، باب ۴، حدیث ۷.

[۴۲۴] (۱)- طبعا المشهور بین الفقهاء أنّ المرأة عند ما تصل إلی سنّ الیأس سوف لا تکون لها عدّة مطلقا، و لکن فی مقابل ذلک کان عدد من الأصحاب المتقدّمین یقولون بوجوب العدّة، و تساعدهم بعض الروایات رغم معارضة روایات اخری. و ما یتطابق مع ظاهر الآیة هو أنّه فی حالة الشکّ فی الحمل فهناک عدّة.

[۴۲۵] (۲)(للتوسّع أکثر راجع جواهر الکلام، ج ۳۲، ص ۲۳۲ و کتب فقهیة اخری).

[۴۲۶] (۳)- کنز العرفان، ج ۲، ص ۲۶۰.

[۴۲۷] (۱)- قال الطبرسی فی مجمع البیان: إنّ التقدیر« و اللائی لم یحضن إذا ارتبتم فعدتهنّ أیضا ثلاثة أشهر».

[۴۲۸] (۲)- المیزان، ج ۱۹، ص ۳۶۷.

[۴۲۹] (۱)- راجع الکتب الفقهیّة للتوسّع فی ذلک و منها کتاب« جواهر الکلام، ج ۳۲، ص ۱۲۱».

[۴۳۰] (۱)-« کأین» علی الرّأی المشهور لعلماء الأدب اسم مرکب من« کاف» التشبیه و« أی» مع التنوین الذی دخل فی بناء هذا الاسم، و یقرأ مع الوقف کذلک، و کتب أیضا فی کتابة المصاحف و معناها کمعنی« کم» الخبریة، رغم وجود فرق بسیط بینهما.

و علی الرأی غیر المشهور فإنّها اسم بسیط و کافها و نونها جزء من الکلمة.

[۴۳۱] (۱)- ینبغی الالتفات إلی أنّ الضمائر فی الآیة بعضها بصیغة الجمع و بعضها الآخر بصیغة المفرد، و هذا یعنی انّه فی الموارد التی جاء بصیغة المفرد یکون بمعنی الجنس و الجمع أیضا.

[۴۳۲] (۱)-

\i\i تفسیر« المراغی»، ج ۲۸، ص ۱۵۱، فی حدیث نقل عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال\E:« لهذه النجوم التی فی السماء مدائن مثل المدائن التی فی الأرض\.i(تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۱۵\).E\E

[۴۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۱.

[۴۳۴] (۲)(ثواب الأعمال) طبقا لنقل تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۶۷.

[۴۳۵] (۱)- هذا الحدیث أورده فی الأصل(البخاری) فی ج ۶، من صحیحه ص ۱۹۴، و التوضیحات التی ذکرت فی الأقواس تستفاد من کتب اخری.

[۴۳۶] (۲)- تفسیر القرطبی و تفاسیر اخری ذیل الآیة مورد البحث.

[۴۳۷] (۳)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۶۳.

[۴۳۸] (۱)-« الراغب» فی« المفردات»، یقول: إذا جاءت کلمة« فرض» مع« علی» فإنّها تدلّ علی الوجوب، و أمّا إذا جاءت معها« لام» فإنّها تدلّ علی عدم المنع و بهذا یکون الفرض فی الآیة السابقة هو السماح و الإباحة و لیس الوجوب.

و عبارة« تحلّة»- مصدر من باب تفعیل- بمعنی إباحة و الحلّیة، أو بتعبیر آخر العمل علی فتح عقدة القسم، و هو الکفّارة.

[۴۳۹] (۲)- کفّارة القسم حسب ما یستفاد من الآیة(۸۶) من سورة المائدة عبارة عن إطعام عشرة مساکین، أو إکساؤهم، أو تحریر رقبة. و إن کان لا یقدر علی شیء من ذلک فصیام ثلاثة أیّام.

[۴۴۰] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۳۹۲.

[۴۴۱] (۲)- طبقا للتفسیر الذی ذکرناه و الذی اختاره أکثر المفسّرین فإنّ هناک شیئا محذوفا فی الآیة تقدیره« إن تتوبا إلی اللّه کان خیر لکما» أو تقدیر آخر مشابه، و لکن احتمل بعض آخر أنّه لیس هناک محذوف فی الآیة و جملة(صغت قلوبکما) جزاء الشرط(بشرط أن یکون المیل إلی الحقّ و لیس العکس). و لکن هذا الاحتمال بعید جدّا لأنّ الشرط جاء بصیغة الفعل المضارع بینما الجزاء بصیغة الفعل الماضی و هذا غیر جائز فی عرف أکثر النحویین، و یذکر أنّ« قلوبکما» جاءت بصیغة الجمع لا المثنی، و ذلک لتلافی اجتماع ألفاظ التثنیة بصورة متتالیة الذی لا یتناسب مع بلاغة القرآن و فصاحته.

[۴۴۲] (۱)- صحیح البخاری، ج ۶، ص ۱۹۵.

[۴۴۳] (۲)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۴۳.

[۴۴۴] (۱)-« سائح» من مادّة« السیاحة» و کانت تطلق فی الأصل بمعنی الجولان فی العالم، بدون زاد و متاع، و العیش اعتمادا علی مساعدات الناس، لذلک فالصائم الذی یمسک عن الطعام حتّی یحین وقت الإفطار، شبیه بالسائح، من هذه الناحیة، لذا أطلقت هذه اللفظة« السائح» علی« الصائم».

[۴۴۵] (۲)- یری البعض أنّ کلمة« صالح» هنا، تأتی بمعنی الجمع، نظرا لأنّ واو« صالحوا» حذفت للإضافة لذا فإنّها لم تظهر فی رسم الخطّ القرآنی إلّا أنّ هذا المعنی بعید فی نظرنا.

[۴۴۶] (۱)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۶.

[۴۴۷] (۲)- یوسف، الآیة ۱۰۱.

[۴۴۸] (۳)- یبدو أنّ محمّد بن عبّاس هنا هو(أبو عبد اللّه المعروف ب« ابن الحجّام» مؤلّف کتاب« ما أنزل من القرآن فی أهل البیت» الذی قال جمع من العلماء: إنّه لم یؤلّف کتاب مثله إلی الآن) جامع الرواة، ج ۲، ص ۱۳۴.

[۴۴۹] (۴)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۳۵۳، ذیل الحدیث ۲.

[۴۵۰] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۴۶۹، مادّة الکتمان.

[۴۵۱] (۱)- یتصوّر البعض أنّ« نصوح» اسم شخص معیّن، و ذکروا له قصّة مفصّلة، و لکن یجب الالتفات إلی أنّ« نصوح» لیس اسما لشخص، بل یعطی معنی و صفیّا رغم أنّه لا یبعد صحّة القصّة المذکورة.

[۴۵۲] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۶ و ۶۷.

[۴۵۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۱۸.

[۴۵۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۷۲.

[۴۵۵] (۱)(مجموعة ورام)، ج ۱، ص ۶.

[۴۵۶] (۲)(الدرّ المنثور)، ج ۶، ص ۲۴۴.

[۴۵۷] (۳)- المناجاة الخامسة عشر.

[۴۵۸] (۴)- اصول الکافی، ج ۲، باب التوبة، الحدیث ۸.

[۴۵۹] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب التوبة، الحدیث ۱۰.

[۴۶۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۱.

[۴۶۱] (۱)-« ضرب» أخذ هنا مفعولین، الأوّل« امرأة نوح» ذکره مؤخّرا، و الثانی« مثلا»، و یحتمل أن« ضرب» أخذت مفعولا واحدا و هو« مثلا» و کلمة« امرأة نوح» بدل.(البیان فی غریب اعراب القرآن، ج ۲، ص ۴۴۹).

[۴۶۲] (۲)-« القرطبی» ج ۱۰، ص ۶۶۸۰.

[۴۶۳] (۳)-« روح المعانی» ج ۲۸، ص ۱۴۲(و قیل أنّ اسم امرأة نوح« واغلة» أو« والغة»).

[۴۶۴] (۱)- الدرّ المنثور، ج ۶، ص ۲۴۶.

[۴۶۵] (۱)- یوجد شرح مفصّل فی کتابنا هذا فی ذیل الآیة(۹۱) من سورة الأنبیاء یتعلّق بما هو المقصود من تعبیر« الفرج».

[۴۶۶] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۸۰.

[۴۶۷] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۸۴.

[۴۶۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۲۰.

[۴۶۹] (۳)- المصدر السابق.

[۴۷۰] (۴)- المصدر السابق.

[۴۷۱] (۱)- هذه السورة هی ثانی سورة تبدأ بکلمة(تبارک) و سورة الفرقان هی الاخری بدأت بi\ تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ لِیَکُونَ لِلْعالَمِینَ نَذِیراE\i.

[۴۷۲] (۱)- یمکن مراجعة الشرح الوافی حول الامتحانات الإلهیة فی تفسیر الآیة(۱۵۵) من سورة البقرة.

[۴۷۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۲۲.

[۴۷۴] (۲)- تفسیر الصافی، الآیات مورد البحث.

[۴۷۵] (۳)- الذاریات، الآیة ۵۶.

[۴۷۶] (۱)- ذکرنا شرحا لهذا الموضوع فی مباحث(إثبات وجود اللّه) و ذلک عند جوابنا علی أدلّة الماديين فی موضوع(الآفات و البلايا)، يرجی مراجعة کتاب(خالق العالم).

[۴۷۷] (۲)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۶۳.

[۴۷۸] (۱)(المجرّات) هی: مجاميع من النجوم تعرف باسم(مدن النجوم)، و مع أنّ بعضها قريب من البعض الآخر نسبيا، إلّا أنّ الفاصلة بين بعضها و البعض الآخر تکون أحيانا ملايين السنين الضوئية.

[۴۷۹] (۱)(تميّز) بمعنی التلاشی و التشتّت و کانت فی الأصل(تتميّز).

[۴۸۰] (۱)- اصول الکافی طبقا لنقل نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۸۲.

[۴۸۱] (۲)- اصول الکافی طبقا لنور الثقلين، ج ۵، ص ۳۸۲.

[۴۸۲] (۱)- نفس المصدر أعلاه.

[۴۸۳] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳، ص ۶۶، و روح البيان، ج ۱۰، ص ۸۶، تفسير الآيات مورد البحث.

[۴۸۴] (۱)-« نکير» بمعنی(الإنکار) و جاءت هنا کناية عن العقوبة، لأنّ إنکار اللّه تعالی مقابل أفعال هؤلاء القوم جاءت عن طريق مجازاتهم، و ممّا يجب الانتباه له أنّ هذه الکلمة کانت فی الأصل(نکيری)، کما أنّ(نذير) فی الآية السابقة أصلها(نذيری)، فحذفت ياء المتکلّم و بقيت الکسرة تدلّ عليها.

[۴۸۵] (۱)-« الطير»: جمع(طائر).

[۴۸۶] (۱)- سبب ذکر(الصافات) بصورة صفة و(يقبضن) بصورة فعل مضارع، لأنّ انفتاح أجنحة الطيور برنامج علی نمط واحد و لا يحصل فيه تغيير، فی الوقت الذی نلاحظ فيه أنّ انفتاح و انقباض الأجنحة يکون عملا مکرّرا(فتأمّل).

[۴۸۷] (۲)(أم) فی هذه الجملة حرف عطف، و(من) مبتدأ و(هذا) مبتدأ(ثان) و(الذی) خبرها و(هو جند لکم) صلتها، و(ينصرکم) يکون وصفا لل(جند)، و الجملة هی خبر للمبتدأ الأوّل.(البيان فی غريب إعراب القرآن ج ۲ ص ۴۵۹) إلّا أنّ المناسب هو أن يکون(الذی) عطف بيان و(ينصرکم) خبر، لأنّ الجملة بدونه ناقصة.(فتأمّل).

[۴۸۸] (۱)- نلاحظ أنّ جزاء الشرط فی الآية محذوف تقديره(إن أمسک رزقه من يرزقکم غيره).

[۴۸۹] (۱)- الأعراف، الآية ۱۸۷.

[۴۹۰] (۲)-« تدعون» من باب(افتعال)، و من مادّة دعاء، بمعنی الطلب و الرجاء، أو من مادّة(دعوا) بمعنی الطلب أو إنکار شیء معيّن.

[۴۹۱] (۳)- الذاريات، الآية ۱۴.

[۴۹۲] (۴)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۳۰.

[۴۹۳] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۸۵.

[۴۹۴] (۱)- الطور، الآية ۳۰.

[۴۹۵] (۱)- أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۲۱۹.

[۴۹۶] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۸۷.

[۴۹۷] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۸۷.

[۴۹۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۰.

[۴۹۹] (۱)- العلق، الآیة ۱- ۵.

[۵۰۰] (۲)- اعتبر البعض أنّ(ما) فی(ما یسطرون) مصدریة، و اعتبرها بعض آخر بأنّها(موصولة) و المعنی الثانی أنسب، و التقدیر هکذا:(ما یسطرونه)، کما اعتبرها البعض أیضا بمعنی(اللوح) أو(القرطاس) الذی یکتب علیه، و فی التقدیر(ما یسطرون فیه) کما اعتبر البعض(ما) هنا إشارة لذوی العقول و الأشخاص الذین یکتبون هذه السطور، إلّا أنّ المعنی الذی ذکرناه فی المتن أنسب من الجمیع حسب الظاهر.

[۵۰۱] (۱)(الباء) فی(بأیّکم) زائدة و(أیّکم) مفعول للفعلین السابقین.

[۵۰۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۴،(نقل الطبرسی هذا الحدیث بسنده عن أهل السنّة).

[۵۰۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۳۸۹، حدیث ۳.

[۵۰۴] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳، ص ۷۸.

[۵۰۵] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰۶] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۷] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۱۸، ص ۵۶(حدیث ۱۴، ۱۶، ۱۷، ۱۸، ۱۹، ۲۰).

[۵۰۸] (۴)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۳۲.

[۵۰۹] (۵)- المصدر السابق.

[۵۱۰] (۱)- المصدر السابق.

[۵۱۱] (۲)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۱۰۲.

[۵۱۲] (۳)(الشهاب فی الحکم و الآداب)، ص ۲۲.

[۵۱۳] (۱)- معانی الأخبار، ص ۸۳(بتلخیص قلیل).

[۵۱۴] (۲)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۳۳.

[۵۱۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۱۶] (۴)- المصدر السابق.

[۵۱۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۳۳۳.

[۵۱۸] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۱۰، و جاء هذا المضمون فی وسائل الشیعة، ج ۸، فی ۵۰۴، و کذلک فی تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۰۷.

[۵۱۹] (۳)- وسائل الشیعة، ج ۸، ص ۵۰۶، حدیث ۲۱.

[۵۲۰] (۴)- روح البیان، ج ۱، ص ۱۰۸.

[۵۲۱] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۸۵، و المراغی، ج ۲۹، ص ۳۱.

[۵۲۲] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱، ص ۶۷۱۰.

[۵۲۳] (۱)- قال البعض: إنّ وضع العلامة علی الأنف قد تحقّق عملیّا فی غزوة بدر، حیث وجّهت ضربات إلی انوف بعض سادات الکفر و کبرائهم، و قد بقیت آثارها علی أنوفهم، و إذا کان المقصود فی ذلک(الولید بن المغیرة) فقد توفّی بذلّ قبل غزوة بدر.

و

\i\ جاء فی الخطبة المعروفة للإمام علی بن الحسین علیه السّلام E فی مسجد الشام قوله:« أنا ابن من ضرب خراطیم الخلق حتّی قالوا:

لا إله إلّا اللّه\»E

يقصد الإمام على عليه السّلام بحار الأنوار، ج ۴۵، ص ۱۳۸.

إنّ لهذا التعبير و بلحاظ ما جاء فى الآية مورد البحث، حيث يقول تعالى:(سنسمه على الخرطوم) دلالة فى غاية اللطف و الروعة، حيث يرينا أنّ الإرادة الإلهية قد تحقّقت على يد عبده المخلص على بن أبى طالب عليه السّلام.

[۵۲۴] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، باب النميمة/ حديث رقم ۱.

[۵۲۵] (۲)(سنن أبى داود) أو(صحيح الترمذى) مطابقا لما نقل فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۳۰.

[۵۲۶] (۳)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۹۴.

[۵۲۷] (۱)-« يصرمن» من مادّة(صرم)،(على وزن ضرب) بمعنى حصد الفاكهة، و بمعنى القطع المطلق، و جاءت أيضا بمعنى تقوية عمل ما و إحكامه.

[۵۲۸] (۱)- بالإضافة إلى التناسب الخاص الموجود بين المعنى الأوّل مع أصل القصّة، فإنّنا إذا اعتبرنا المعنى الثانى هو المقصود، كان يجب أن يقال(و لم يستثنوا) بدلا عن(و لا يستثنون).

[۵۲۹] (۲)- يقول الراغب فى المفردات: إن(تنادوا). أصلها من(نداء) مشتقّة من(ندى)، بمعنى الرطوبة المأخوذة، لأنّ المعروف أنّ الأشخاص الذين تكون فى أفواههم رطوبة كافية يتكلّمون براحة، و يتّصف كلامهم بالفصاحة.

[۵۳۰] (۱)- الأنبياء، الآية ۸۷.

[۵۳۱] (۱)-« راغبون»: من مادّة(رغبة)، هذه المادّة كلّما كانت متعدية ب(إلى) أو(فى) تكون بمعنى الميل إلى شىء معيّن، و كلّما كانت متعدّية ب(عن) تكون بمعنى الانصراف و عدم الاعتناء بشىء معيّن.

[۵۳۲] (۱)- الأنعام، الآية ۱۴۱.

[۵۳۳] (۲)- يمكن مطالعة الروايات التى جاءت فى هذا المجال فى ج ۶، من(وسائل الشيعة) أبواب زكاة الغلات، باب ۱۳، و فى(سنن البيهقى) ج ۴، ص ۱۳۳.

[۵۳۴] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۹۵،(حديث ۴۴).

[۵۳۵] (۲)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۷.

[۵۳۶] (۱)- جملة(إنّ لكم ..) مفعول به ل(تدرسون) و طبقا للقواعد فإنّها يجب أن تقرأ(أن) ب(فتح الهمزة). إلّا أنّ مجىء اللام على رأس اسم(أن) جعلها تقرأ(إن) ب(كسر الهمزة) و ذلك لأنّ الفعل يصبح معلّقا عن العمل.

[۵۳۷] (۱)- فسّر البعض مصطلح(بالغة) هنا بمعنى(مؤكّد)، و فسّرها البعض الآخر بأنّها(مستمر) و المعنى الثانى أنسب، و بناء على هذا فإنّ(الجارّ و المجرور) فى(إلى يوم القيامة) تكون متعلّقة ب(بالغة).

[۵۳۸] (۱)-« يوم» ظرف متعلّق بمحذوف تقديره:(اذكروا يوم ...)، و احتمل البعض- أيضا- أنّه متعلّق ب(فليأتوا) فى الآية السابقة، إلّا أنّ هذا المعنى مستبعد.

[۵۳۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۹۵، ح ۴۹.

[۵۴۰] (۱)-« ترهقهم» من مادّة(رهق)،(على وزن شفق) بمعنى التغطية و الإحاطة.

[۵۴۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۴۰.

[۵۴۲] (۱)- اصول الكافى نقلا عن نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۷، ح ۵۹.

[۵۴۳] (۲)- سبق كلام حول عقوبة(الاستدراج) فى الآية(۱۸۳) من سورة الأعراف، و كذلك فى الآية(۱۷۸) سورة آل عمران.

[۵۴۴] (۱)- فى هذه الصورة ستكون اللام فى(لحكم ربّك) هى لام التعليل.

[۵۴۵] (۲)- الأنبياء، الآية ۸۷.

[۵۴۶] (۳)- مع انّ(النعمة) مؤنث، إلّا أنّ فعلها(تداركه) جاء بصورة مذكر، و سبب هذا أنّ فاعل المؤنث يكون لفظيا، و أنّ الضمير المفعول أصبح فاصلا بين الفعل و الفاعل(فتأمّل!).

[۵۴۷] (۱)- الصافات، الآية ۱۴۵ و ۱۴۶.

[۵۴۸] (۲)- الصافات، الآية ۱۴۳.

[۵۴۹] (۱)- الزخرف، الآية ۴۴.

[۵۵۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۴۱.

[۵۵۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۰۰.

[۵۵۲] (۳)- نهج البلاغة، من الكلمات القصار جملة(۴۰۰)،(نقل هذا الحديث أيضا فى صحيح البخارى، ج ۷، ص ۱۷۱ باب(العين حقّ) و لما ذكرناه فالعين حقّ) و كذلك فى(المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى)، كما نقل هذا المعنى من منابع مختلفة ج ۴، ص ۴۵۱.

[۵۵۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۴۲.

[۵۵۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۵۵] (۱)- هناك وجهات نظر عدّة فى إعراب جملة(الحاقّة، ما الحاقّة)، إلّا أنّ الأنسب فى هذه الآراء هو أن يقال: إنّ(الحاقّة) مبتدأ، و(ما) الاستفهامية مبتدأ ثان و(الحاقّة) الثانية خبر للمبتدأ الثانى، و جملة(ما الحاقّة) خبر للمبتدأ الأوّل.

[۵۵۶] (۱)- ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ جملة(ما أدراك) تتحدّث عن المسائل المعلومة و المسلّمة، بينما جاءت(و ما يدريك) فى الموارد و المسائل المبهمة. مجمع البيان ج ۱۰، ص ۳۴۳، كما نقل بعض المفسّرين هذا المعنى أيضا و منهم القرطبى.

[۵۵۷] (۲)- تفسير(على بن إبراهيم) ج ۲، ص ۳۸۳، و مما يجدر الانتباه إليه أن كلمة(الحاقة) و(الحاق) من مادة واحدة.

[۵۵۸] (۳)- المؤمن، الآية ۴۵.

[۵۵۹] (۱)-« حسوما» جاءت هنا صفة ل(سبع ليال و ثمانية أيّام)، كما اعتبرها البعض(حالا) لل(ريح) أو(مفعولا به).

[۵۶۰] (۱)(باقية): صفة لموصوف مقدر، و كانت فى الأصل(نفس باقية).

[۵۶۱] (۱)- و من هنا قال البعض: إنّ للآية محذوف تقديره(حملنا آباؤكم).

[۵۶۲] (۱)- تفسير(القرطبى)، ج ۱۰، ص ۶۷۴۳، و(مجمع البيان)،(و روح المعانى)، و(روح البيان)، و(أبو الفتوح الرازى) و(الميزان) نهاية الآيات مورد البحث، و جاء هذا الحديث أيضا فى مناقب ابن المغازلى الشافعى) ص ۲۶۵(الطبعة الإسلامية).

[۵۶۳] (۱)-« أقرب الموارد»(مادّة: دك).

[۵۶۴] (۱)- تفسير(على بن إبراهيم) ج ۲، ص ۳۸۴.

[۵۶۵] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۴۶.

[۵۶۶] (۱)- تطرقنا مرارا فى هذا التّفسير إلى المعانى التى وردت حول(العرش) لغويا و قرآنيا، و من ضمن ما بحثناه حول هذه المسألة ما جاء فى نهاية الآية ۵۴ من سورة الأعراف.

[۵۶۷] (۲)- فى الحقيقة أنّه توجد آية محذوفة بتقدير« ثمّ نفخ فيه اخرى».

[۵۶۸] (۱)- الطارق، الآية ۹.

[۵۶۹] (۲)-« هاؤم» كما يقول أصحاب اللغة هى بمعنى(خذوا) و إذا كان المخاطب جمع مذكر، فيقال:(هاؤم)، و إذا جمعت جمع مؤنث(هائن) و إذا كان مفردا مذكرا كان(هاء) و تكون(بالفتح)، و إذا كان مفردا مؤنثا فإنّ(الهاء) تكون مكسورة، و للتثنية هاؤما،

یقول الراغب فی المفردات:(هاء) تستعمل بمعنی الأخذ، و(هات) بمعنی العطاء.

[۵۷۰] (۱)- ال« هاء» فی(حسابیه) تکون(هاء الاستراحة)، أو(هاء السکتة)، و لیس لها معنی خاص. أیضا فی(کتابیه).

[۵۷۱] (۲)-« الرضا» تکون عادة حالة و صفة للأشخاص، إلّا أنّه سبحانه جعلها صفة للحیاة نفسها فی الآیة أعلاه، و هذه تمثّل نهایة التأکید، یعنی أنّها حیاة یعمّها الرضا و السرور.

[۵۷۲] (۳)-« قطوف» جمع(قطف) علی وزن(حزب) بمعنی أنّ الثمر قد اقتطف، و تأتی أحیانا بمعنی الثمار المهیّئة للاقتطاف أیضا.

[۵۷۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۰۶(حدیث ۲۸).

[۵۷۴] (۲)- المصدر السابق،(حدیث ۲۶).

[۵۷۵] (۳)- المصدر السابق،(حدیث ۲۷).

[۵۷۶] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۶۶.

[۵۷۷] (۲)(فی ضلال القرآن) ج ۸، ص ۲۵۶.

[۵۷۸] (۱)- ال(هاء) فی(کتابیه) و(حسابیه) و(مالیه) و(سلطانیه) و کذلک فی الکلمات التی ستأتی فی الآیات اللاحقة هی(هاء السکتة) أو(الاستراحة) و کما قلنا فإنّ هذه الهاء لیس لها معنی خاصّ، بل إنّها تعتبر وقفا لطیفا فی مثل هذه الکلمات، و لها تناسب مع الوضع الروحی و حالة الأشخاص الذین یقولون مثل هذا الکلام(یرجی الانتباه لذلک).

[۵۷۹] (۱)- جملة(کانت القاضیة) لها محذوف تقدیره:(کانت هذه الحالة القاضیة).

[۵۸۰] (۲)- النبأ، الآیة ۴۰.

[۵۸۱] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۵۲۳، مادّة رشد.

[۵۸۲] (۱)- نفس المصدر، ص ۴۸۸ مادّة ذنب(باقتباس).

[۵۸۳] (۱)- روح المعانی، ج ۲۹، ص ۵۱.

[۵۸۴] (۲)- الغاشیة، الآیة ۶.

[۵۸۵] (۳)- الدخان، ۴۳- ۴۴.

[۵۸۶] (۱)- تفسیر(الدرّ المنثور) لجلال الدین السیوطی، ج ۸، ص ۲۷۵.

[۵۸۷] (۱)(قلیلا) فی هذه الآیة و فی الآیة اللاحقة هی صفة(لمفعول مطلق) محذوف. و(ما) زائدة و فی التقدیر هکذا،(و تؤمنون إیمانا قلیلا).

[۵۸۸] (۱)-« تنزیل» مصدر بمعنی(اسم مفعول)، و هو خبر لمبتدأ محذوف تقدیره(هو منزل من ربّ العالمین).

[۵۸۹] (۱)(من) فی(من أحد) زائدة و للتأکید.

[۵۹۰] (۱)- و هذا هو نفس ما طرح فی کتب علم الکلام بعنوان:(جعل المعجزة فی ید الکاذب) و قد قبّح هذا الأمر.

[۵۹۱] (۱)- الفرقان، الآیة ۲۷.

الجزء التاسع عشر

سورة المعارج

اشارة

مکیة و عدد ایاتها اربع و أربعون ایة «سورة المعارج»

محتوی السورة:

المعروف بین المفسّرین هو أنّ سورة المعارج من السور المکّیة، و علی أساس ما ینقله (فهرست ابن الندیم) و (کتاب نظم الدرر) و (تناسق الآیات و السور) المطابق لما نقله (تاریخ القرآن) لأبی عبد اللّه الزنجانی أنّ هذه السورة هی السورة السابعة و السبعون و التی نزلت فی مکّة.

و لکن هذا یتنافی مع کون بعض آیاتها مدنیة، و هذا لیس منحصرا فی سورة المعارج، فإنّ کثیرا من سور القرآن الکریم هی مکّیة و لکنّها تحوی علی آیة أو آیات مدنیة فی نفس الوقت، و بالعکس بعض السور المدنیة تحوی علی آیات مکّیة.

و لقد نقل العلّامة الأمینی رحمه اللّه نماذج کثیرة من هذا الموضوع فی کتابه (الغدیر)، و هناک روایات کثیرة سوف یأتی ذکرها بعد إن شاء اللّه تدل علی أنّ الآیات الأولی من هذه السورة هی آیات مدنیة.

علی أیة حال فإنّ خصوصیات السور المکّیة کالبحث حول اصول الدین و خاصّة المعاد و إنذار المشرکین و المخالفین، و هذه الخصوصیات واضحة جدّا فی هذه السورة، و علی هذا فإنّ لهذه السورة أربعة أقسام:

القسم الأوّل: یتحدث عن العذاب السریع الذی حلّ بأحد الأشخاص ممن أنکر أقوال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قال: لو کان هذا القول حقّا فلینزل علیّ العذاب. فنزل (الآیة ۱- ۳).

القسم الثّانی: ذکر الکثیر من خصوصیات یوم القیامة و مقدماتها و حالات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶

الکفار فی ذلک الیوم.

القسم الثّالث: توضح هذه السورة بعض الصفات الإنسانیة الحسنة و السیئة و التی تعیّن هذا الشخص من أهل الجنان أم من أهل النّار.

القسم الرّابع: یشمل إنذارات تخصّ المشرکین و المنکرین و تبیان مسألة المعاد و ینهی بذلک السورة.

فضیلة هذه السورة:

نقرأ

فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من قرأ (سأل سائل) أعطاه اللّه ثواب الذین هم لأماناتهم و عهدهم راعون و الذین هم علی صلواتهم یحافظون»

و

جاء فی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السّلام: «من أدمن قراءة (سأل سائل) لم یسأله اللّه یوم القیامة عن ذنب عمله و أسکنه جنّته مع محمّد». و نقل مثله عن الإمام الصّادق علیه السّلام.

من البدیهی أنّ الإنسان یحصل علی مثل هذا الثّواب العظیم إذا کانت قراءته بإیمان و عقیدة، و ثمّ یقترن ذلک بالعمل، لا أن یقرأ الآیات و السور من دون أن تؤثر فی روحه و فکره و عمله شیئا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷

الآیات [سورة المعارج (۷۰): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ (۱) لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ (۲) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ (۳)

سبب النّزول

نقل الكثير من المفسّرين و أصحاب الحديث أحاديث عن سبب نزول هذه الآية و حاصلها: أنّه عند ما نصّب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليّا عليه السّلام

فى يوم (غدير خم) قال فى حقّه: «من كنت مولاه فعلىّ مولاه» و لم ينقض مدّة حتى انتشر ذلك فى البلاد و المدن، فقدم النعمان بن حارث الفهرى على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: أمرتنا عن اللّه أن نشهد أن لا إله إلّا اللّه و أنّك رسول اللّه، و أمرتنا بالجهاد و الحج و الصّوم و الصّلاة و الزكاة فقبلناها، ثمّ لم ترض حتى نصّبت هذا الغلام فقلت من كنت مولاه فعلىّ مولاه، فهذا شىء منك أو أمر من عند اللّه.

فقال: «و اللّه، و الذى لا إله إلّا هو إنّ هذا من اللّه» فولى النعمان بن حارث و هو يقول: اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فرماه اللّه بحجر على رأسه فقتله و أنزل اللّه تعالى سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ و ما ذكرناه هو مضمون ما روى عن أبى القاسم الحسكانى فى مجمع البيان بإسناده إلى أبى عبد اللّه الصّادق عليه السّلام ۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸

هذا المعنى مروى عن كثير من المفسّرين من العامّة، فقد نقل رواة الحديث هذا المعنى بشىء من الاختلاف البسيط.

و ينقل «العلّامة الأمينى» ذلك فى كتابه (الغدير) عن ثلاثين عالما مشهورا من أهل السنّة (مع ذكر السند و النّص) و من ذلك:

تفسير غريب القرآن (للحافظ أبى عبيد الهروى).

تفسير شفاء الصدور (لأبى بكر النقاشى الموصلى).

تفسير الكشف و البيان (لأبى إسحاق الثعالبى).

تفسير أبى بكر يحيى (القرطبى).

تذكرة أبو إسحاق (الثعلبى).

كتاب فرائد السمطين (للحموينى).

كتاب درر السمطين (للشّيخ محمّد الزرندى).

كتاب السراج المنير (لشمس الدين الشّافعى).

كتاب (سيرة الحلبى).

كتاب نور الأبصار (للسّيد مؤمن الشبلنجى).

و كتاب شرح الجامع الصّغير للسيوطى من (شمس الدين الشّافعى و غير ذلك.[۲] و فى كثير من هذه الكتب علم ورد أنّ هذه الآيات قد نزلت بهذا الشأن، و بالطبع هناك اختلاف بشأن الحارث بن النعمان أو جابر بن نذر أو النعمان بن حارث الفهرى، و من الواضح أنّ هذا الأمر لا يؤثر فى أصل المطلب.

بالطبع أنّ بعض المفسّرين أو المحدّثين بفضائل الإمام على عليه السّلام من أهل السنّة يتقبلون ذلك، و لكن على مضض و عدم ارتياح، و تمسكوا بإشكالات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹

مختلفة على سبب نزول الآية، و سنوضح فى نهاية المطاف بإذن اللّه بحثا تفسيريا عن هذا الموضوع.

***

التّفسير

العذاب العاجل:

من هنا تبدأ سورة المعارج حيث تقول: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ هذا السائل كما قلنا فى سبب النزول هو النعمان بن الحارث أو النضر بن الحارث و كان هذا بمجرّد تعيين الإمام على عليه السّلام خليفة و وليّا فى (غدير خم) و انتشار هذا الخبر فى البلاد، حيث رجع مغتاظا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال: هل هذا منك أم من عند اللّه؟

فأجابه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مصرّحا: «من عند اللّه»،

فازداد غيظة و قال: اللّهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، فرماه اللّه بحجارة من السماء فقتله.[۳] هناك تفسير آخر أعم من هذا التّفسير و أعم منه، و هو أنّ سائل سأله لمن هذا العذاب الذى تتحدث عنه؟ فيأتى الجواب فى الآية الاخرى: لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ

و حسب تفسير ثالث يكون هذا السائل هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الذى دعا على الكافرين بالعذاب فنزل.

و لكن مع أنّ التّفسير الأوّل أكثر ملاءمة للآية فإنّه منطبق تماما على روايات سبب النزول.

ثمّ يضيف بأنّ هذا العذاب خاص بالكفار و لا يستطيع أحد دفعه عنهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰

لِلْكافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دافِعٌ [۴] و تصف الآية الاخرى من ينزل العذاب منه، و هو اللّه ذى المعارج فتقول الآية: مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعارِجِ أى صاحب السماء التى يعرج إليها الملائكة.

«المعرج» جمع «معرج» بمعنى المصعد أو المكان الذى منه يصعدون، إذ أنّ اللّه جعل للملائكة مقامات مختلفة يتوجهون بها إلى قربه بالتدريج، و قد وصف اللّه تعالى بذى المعارج.

نعم، الملائكة المأمورون بتعذيب الكفّار و المجرمين، و الذين هبطوا على إبراهيم عليه السّلام، و أخبروه بأنّهم قد أمروا بإبادة قوم لوط، و فعلوا ذلك إذ قلبوا بلاد أولئك القوم الفاسقين رأسا على عقب.

و هم الذين أمروا كذلك بتعذيب المجرمين الباقين.

و قيل المراد ب- (المعارج) الفضائل و المواهب الإلهية، و قيل المراد بها (الملائكة)، و لكن المعنى الأوّل هو أنسب، و هو ملائم للمفهوم اللّغوى.

ملاحظة:

إشكالات المعاندين الواهية!

كثيرا ما نرى فى مورد الآيات أو الرّوايات التى تذكر فضائل أمير المؤمنين عليه السّلام إصرار البعض إلى حدّ ما فى أن يغضّ النظر عنها، أو يقوم بتوجيهها توجيها محرّفا و يدقق فى أمرها بوسوسة بالغة، فى حين أنّ هذه الفضائل لو كانت واردة فى الآخرين لقبلوها بسهولة و بساطة.

النموذج الحى الكلام هو الإشكالات السباعية التى ذكرها ابن تيمية فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱

كتابه (منهاج السنّة) فى أحاديث مروية فى أسباب نزول الآيات المذكورة و هى:

۱- حديث قصّة يوم الغدير بعد رجوع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من حجّة الوداع أى فى السنة العاشرة للهجرة، فى حين أنّ السورة المعارج من السور المكّية و قد نزلت قبل الهجرة.

الجواب: كما بيّنا من قبل فإنّ كثيرا من السور تسمّى مكّية فى حين أنّ بعض آياتها مدنية كما يقول المفسّرون، و بالعكس فإنّ هناك سورا مدنية نزلت بعض آياتها فى مكّة.

۲- جاء فى الحديث أنّ (الحارث بن النعمان) حضر عند النّبى فى (الأبطح)، و المعروف أنّ (الأبطح)، واد فى مكّة، و هذا لا يتفق مع نزول الآية بعد حادثة الغدير.

الجواب: إنّ كلمة الأبطح وردت فى بعض الرّوايات، لا- كلّ الرّوايات، كما أنّ الأبطح و البطحاء تعنى كل أرض صحراء رملية و تجرى فيها السيول، و كذلك هناك مناطق فى المدينة تسمّى بالأبطح و البطحاء، و قد أشار العرب إلى ذلك فى كثير من أقوالهم و أشعارهم.

۳- المشهور أنّ آية: وَ إِذْ قالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ الجواب: ليس منّا من يقول: إنّ حادثة الغدير هى سبب نزول تلك الآية، بل الحديث هو فى آية: سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ و أمّا الآية (۳۳) من سورة الأنفال فهى أنّ الحارث بن النعمان قد استخدمها فى كلامه، و هذا لا يرتبط بأسباب النزول، و لكن العصبية المفرطة تجعل الإنسان غافلا عن هذا الموضوع الواضح.

۴- يقول القرآن المجيد: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ وَ ما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ الأنفال الآية (۳۳)، تقول الآية: لم ينزل العذاب أبدا ما دام الرسول فيهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲

الجواب: المعروف أنّ العذاب العام و الجماعى مرفوع عن الأمّة لأجل الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و أمّا العذاب الخاص و الفردى فقد نزل مرارا على بعض الأفراد، و التاريخ الإسلامى شاهد على أنّ أناسا معدودين مثل «أبى زمعة» و «مالك بن طلالة» و «الحكم بن أبى العاص» و غيرهم قد ابتلوا بالعذاب للعن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلم لهم أو بدون ذلك.

بالإضافة إلى ذلك فإنّ الآية السالفة لها تفاسير أخرى، و طبقا لذلك فإنّ لا يمكن الاستدلال بها فى المكان (راجع التّفسير الأمثل ذيل الآية ۳۳ الأنفال).

۵- إذا كان سبب النزول هذا صحيحا فلا بدّ أن يكون معروفا كقصّة أصحاب الفيل؟

الجواب: إنّ سبب النزول لهذه الآية معروف و مشهور، كما أشرنا من قبل، إلى حدّ ألّف فيه ثلاثون كتابا من كتب التّفسير و الحديث، و العجيب بعدئذ أن نتوقع من حادثة خاصّة أن تعطى انعكاسا و أثرا كقصّة أصحاب الفيل، فى حين أنّ تلك القصّة كانت لها صفة عامّة، و قد استولت على أنحاء مكّة، و أبيدت فيها جيوش كبيرة، و أمّا قصّة الحارث بن النعمان، فإنّها كانت تخصّ فردا واحدا فقط!.

۶- ما يستفاد من هذا الحديث هو أنّ الحارث بن النعمان كان معتقدا بأسس و اصول الإسلام، فكيف يمكن لمسلم يعاصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يبتلى بمثل هذا العذاب؟

الجواب: هذا الإحتجاج ناشئ أيضا من التعصب الأعمى، لأنّ الأحاديث المذكورة سلفا تشير إلى أنّه لم ينكر نبوّة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فحسب، بل أنّه أنكر حتى الشهادة بالوحدانية، و اعترض على الأمر الإلهى الذى صدر للرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حقّ على عليه السّلام و هذا يدل على أشدّ مراحل الكفر و الارتداد.

۷- لا نجد اسما للحارث بن النعمان فى الكتب المشهورة كالاستيعاب الذى جاء فيه ذكر الصحابة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳

الجواب: ما جاء فى هذا الكتاب و مثله من ذكر الصحابة يرتبط فقط بقسم من الصحابة، فمثلا فى كتاب (أسد الغابة) الذى يعدّ من أهم الكتب و فيه يذكر أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد عدّ منهم فقط سبعة آلاف و خمسمائة و أربعة و خمسين صحابيا، فى حين أننا نعلم أنّ الجمع الذى كان حاضرا عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى حجّة الوداع مائة ألف أو يزيدون، و ممّا لا شك فيه أنّ كثيرا من أصحاب الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يأت ذكرهم فى هذه الكتب.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴ الى ۷]

اشارة

تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (۴) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا (۵) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (۶) وَ نَراهُ قَرِيباً (۷)

التّفسير

يوم مقداره خمسين ألف سنة:

بعد إيراد قصّة العذاب الدنيوى الذى أصاب من طلب العذاب تبحث الآيات أمر المعاد و العذاب الأخروى للمجرمين فى ذلك اليوم.

فى البداية يقول تعالى: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ أى إلى الله- فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ المشهور أنّ المراد من عروج الملائكة هو العروج الروحى، و ليس العروج الجسمى، يعنى أنّهم يسرعون فى التقرب إلى المقام الإلهى و هم مهيّئون لاستلام الأوامر فى ذلك اليوم الذى يراد به يوم القيامة، و كما قلنا سابقا فى تفسير الآية (۱۷) من سورة الحاقة من أنّ المراد من الآية وَ الْمَلَكُ عَلى أَرْجائِها هو اليوم الذى يجتمعون فيه فى السماء ينتظرون لتنفيذ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵

يأمرون ۵].

و المراد بالرّوح هو (الرّوح الأمين) و هو أكبر الملائكة، و هذا ما أشير إليه أيضا فى سورة القدر حيث يقول تعالى: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ و من الطبيعى أنّ الرّوح لها معان مختلفة بحسب تناسب مع القرائن الموجودة، فمن الممكن أن يعطى فى كلّ موضوع معنى خاص، و الرّوح يراد به روح الإنسان، و كذا يراد منه القرآن، و بمعنى روح القدس، و بمعنى ملك الوحى، كلّ ذلك من معانى الرّوح، و هذا ما يشار إليه فى بقية آيات القرآن.

و أمّا المراد بكون (خمسين ألف سنة) هو ذلك اليوم الذى بحيث لو وقع فى الدنيا كان مقداره خمسين ألف سنة من سنى الدنيا، و هذا لا ينافى ما جاء فى الآية (۵) من سورة السجدة من إنّ ذلك يوم مقداره ألف سنة، و لأجل ذلك ذكر فى الرّوايات أنّ ليوم القيامة خمسين موقفا، و كلّ موقف منه يطول بمقدار ألف سنة.[۶] و احتمل البعض أيضا أنّ هذا العدد (خمسين ألف سنة) للكثرة لا العدد، أى أنّ ذلك اليوم طويل جدّا.

على أىّ حال فقد كان هذا ما يخصّ المجرمين و الظلمة و الكفار، و لهذا

روى فى حديث عن أبى سعيد الخدرى أنّه سأل سائل من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد نزول هذه الآية عن طول ذلك اليوم؟ فقال: «و الذى نفس محمّد بيده إنّه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا»[۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶

ثمّ يخاطب اللّه تعالى رسوله الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية الأخرى و يقول: فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلًا.

المراد ب (الصبر الجميل) هو ما ليس فيه شائبة الجزع و التأوه و الشكوى، و فى غير هذا الحال لا يكون جميلا.[۸] ثمّ يضيف: إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَ نَراهُ قَرِيباً إنّهم لا يصدقون بوجود مثل ذلك اليوم الذى يحاسب فيه جميع الخلائق حتى أصغر حديث و عمل لهم، و ذلك فى اليوم مقداره خمسون ألف سنة، و لكنّهم فى الواقع ما عرفوا اللّه و فى قلوبهم ريب بقدرة اللّه.

إنّهم يقولون: كيف يمكن جمع العظام البالية و التراب المتناثر فى كل حدب و صوب ثمّ يردّ إلى الحياة؟ (و قد ذكر القرآن كلامهم هذا فى كثير من آياته) ثمّ كيف يمكن أن يكون اليوم بمقدار خمسين ألف سنة.

الطريف أنّ العلم الحاضر يقول: إنّ مقدار كلّ يوم فى أى من الأجرام السماوية يختلف عن بعضها الآخر، لأنّ دوران الجرم السماوى حول نفسه مرّة واحدة تابع إلى فترة زمنية معينة، و لهذا فإنّ اليوم فى القمر بمقدار أسبوعين على ما هو فى الأرض، حتى أنّهم يقولون: يمكن أن تقل سرعة الحركة الوضعية للأرض و ذلك بمرور الزمن و يصبح اليوم الواحد فيها كالشهر أو كالسنة أو مئات السنين، و نحن لا نقول، إنّ الزمان فى يوم القيامة كذلك، بل نقول إن اليوم الذى يبلغ مقداره خمسين ألف سنة، ليس عجيبا فى مقاييس عالم الدنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۸ الى ۱۸]

اشارة

يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ (۸) وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ (۹) وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (۱۰) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (۱۱) وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ (۱۲)

وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ (۱۳) وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ (۱۴) كَلَّا إِنَّها لَظى (۱۵) نَزَّاعَةً لِلشَّوى (۱۶) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى (۱۷) وَ جَمَعَ فَأَوْعى (۱۸)

التّفسير

تضيف هذا الآيات على البحوث السابقة حول القيامة إيضاحات أكثر، حيث يقول اللّه تعالى: يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ ۹]، وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ

«المهل»: على وزن (قفل) و هو المذاب من المعدن كالنحاس و الذهب و غيرهما، و يراد له أحيانا دردى الزيت المتخلف من زيت الزيتون، و هذا هو ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸

يناسب المعنى الأوّل، و إن لم يكن هناك اختلاف فى مقام التشبيه.

«العهن»: مطلق الصوف المصبوغ ألوانا.

نعم، فى مثل ذلك اليوم تتلاشى السموات و تذوب، تتدكدك الجبال ثمّ تتناثر فى الهواء كالصوف فى مهب الرّيح، و بما أنّ الجبال

ذات ألوان مختلفة فإنّها شبهت بالصوف المصبوغ بالألوان، ثمّ يتحقق عالم جديد و حياة جديدة للبشرية بعد كلّ هذا الخراب.

و عند ما يحلّ يوم القيامة فى ذلك العالم الجديد فسيكون فيه الحساب عسيرا و مرعبا بحيث ينشغل كل بنفسه، و لا يفكر بالآخر حتى لو كان من خلّص اصدقائه و أحبائه: وَ لا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً[۱۰].

الكلّ مشغول بنفسه، و يفكر بخلاص نفسه يقول فى سورة عبس (۳۷):

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۱۱].

و لا ـ يعنى ذلك أنّ الأصدقاء و الأقرباء ينكر بعضهم بعضا، بل إنّهم يعرفونهم و يقول تعالى: يُبَصَّرُونَهُمْ ۱۲]، غاية الأمر هو أنّ هول الموقف و وحشته لا يمكنه من التفكر بغيره.

و إكمالا للحديث و توضيحا لذلك الموقف الموحش، يضيف تعالى: يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ

و ليس ببنيه فحسب بل، يودّ أن يفتدى العذاب بزوجته و أخيه أيضا وَ صاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ

وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ أى عشيرته و أقربائه الذين كان يأوى إليهم فى الدنيا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹

وَ مَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنْجِيهِ

نعم، إنّ عذاب اللّه شديد فى ذلك اليوم المهول الى حدّ يودّ الإنسان فيه أن يفدى أعزّته و هم أربع مجاميع: «الأولاد، الزوجات، الإخوان، عشيرته الأقربون الناصرون له» فيضحى بهم لخلاص نفسه، و ليس فقط أولئك بل إنّه مستعد للافتداء بمن فى الأرض جميعا لينجى نفسه! «يود»: من (الود) على وزن (حبّ) أى يحب و يتمنى، و يقول الراغب: يمكن استعمال أحد المعنيان (بل الاثنان معا).

«يفتدى»: من (الفداء) أى حفظ النفس من المصائب و المشاكل بوسيلة تسديد أو دفع شىء ما.

«الفصيلة»: هى العشيرة و العائلة التى انفصل و تولّد منها الإنسان.

«تؤيه»: من (الإيواء) من الشدائد و اللجوء إليها و يأوى إليها فى النسب.

و قال بعض المفسّرين بأنّ (ثمّ) فى ثُمَّ يُنْجِيهِ تدل على أنّهم يعملون أنّ هذا الافتداء لا ينفع شيئا، و أنّه محال (لأنّ ثمّ تأتى عادة فى المسافة و البعد).

و لكنّه يجيب على كلّ هذه الأمانى و الآمال فى قوله: كَلَّا أى لا تقبل الفدية و الافتداء.

إِنَّها لَظى نار ملتهبة تحرق كلّ من بجانبها و فى مسيرها.

نَزَّاعَةً لِلشَّوى تقلع اليد و القدم و جلد الوجه.

«لظى»: تعنى لهيب النّار الخالص، و هى اسم من أسماء جهنم أيضا، يمكن الأخذ بالمعنيين الآية.

«نزاعة»: أى أنّها تقتلع و تفصل بالتوالى.

و «شوى»: الأطراف كاليد و الأرجل، و تأتى أحيانا بمعنى الشواء، و لكن المراد هنا هو المعنى الأوّل، لأنّه عند ما تتصل النّار المحرقة و ليبها بشىء فإنّها تحرق و تفصل أوّلا الأطراف و الجوانب و فروع ذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰

و يرى بعض من المفسّرين أنّ الشوى هو جلد البدن، و البعض يقول أنّه أم الرأس، و البعض الآخر: يفسّره بلحم الساق، و قد أجمع الجميع على المعنى الأوّل الذى قلناه، و العجيب أنّه مع هذا الحال فليس فى الأمر موت! ثمّ يشير إلى من يكون فريسة لمثل هذه النّار، فيقول: تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَ تَوَلَّى وَ جَمَعَ فَأَوْعى

و بهذا فإنّ هذه النّار المحرقة تدعو أولئك المجرمين إلى نفسها سواء بلسان حالها و جاذبيتها الخاصّة المودعة فيها تجاه المجرمين، أو بلسان مقالها الذى أعطاها اللّه إيّاها: إنّها تدعو أولئك المتصفين: بهاتين الصفتين الإعراض عن الإيمان و عدم طاعة اللّه و رسوله، و

من جهـة أخرى يفكرون دائمـا بجمع الأموال من الحرام و الحلال و ادخارها من دون أن يلتفتوا إلى حقوق البائسـين و المحرومين، أو أنّهم يجهلون فلسفة المال الذى يعتبر من النعم الإلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۱۹ الى ۲۸]

اشارة

إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً (۱۹) إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (۲۰) وَ إِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (۲۱) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (۲۲) الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ (۲۳)

وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (۲۴) لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ (۲۵) وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۲۶) وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (۲۷) إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (۲۸)

التّفسير

أوصاف المؤمنين:

بعد ذكر أوصاف الصالحين و جوانب من أنواع العذاب فى يوم القيامة، يأتى هنا وصف المؤمنين للتعرف عن سبب انقسام النّاس إلى صنفين، و هنا: المعذبون و الناجون، يقول أوّلا: إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً.

إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً.

يراد ب «الهلوع» كما يقول المفسّرون و أصحاب اللغة «الحريص»، و آخرون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲

فسّروه بالجزع، و بناء على التّفسير الأوّل فإنّه يشار إلى ثلاثة أمور رذيلة يتصف بها هؤلاء و هى: الحرص، و الجزع، و البخل، و للتّفسير الثّانى صفتان هما: الجزع، و البخل، لأنّ الثّانية و الثّالثة هى تفسير لمعنى الهلوع.

و هنا احتمال آخر و هو أنّ المعنيين يجتمعان فى هـذه الكلمـة، لأنّ هاتين الصـفتين متلازمتان مع بعضـهما، فالناس الحريصون غالبا ما يكونون بخلاء، و يجزعون عند الشدائد، بالعكس أيضا صحيح.

و هنا يطرح هذا السؤال، و هو كيف أنّ اللّه خلق الإنسان للسعادة و الكمال و جعل فيه الشرّ و السوء؟

و هل يمكن أن يخلق اللّه شـيئا ذا متصـفا بصـفة، ثمّ و بعـد يـذم خلقه؟ بالإضافة إلى ذلك فإنّ القرآن الكريم يصـرّح فى سورة التين الآية (۴): لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

بالتأكيـد ليس من أن ظاهر الإنسان حسن و باطنه سـيء، بل إنّ الخلقـة الكلية للإنسان هى فى صورة «أحسن تقويم». و هناك كذلك آيات أخرى تمدح المقام الرفيع للإنسان، فكيف تتفق هذه الآيات مع الآية التى نحن بصددها؟

أجوبـة هـذه الأسـئلة تتّضـح بالالتفـات إلى نقطـة واحـدة، و هى أنّ اللّه خلق القوى و الغرائز و الصـفات فى الإنسـان كوسائـل لتكامل الإنسان و بلوغ سـعادته، لكن عنـد ما يسـتخدمها الإنسان فى الطريق المنحرف و يسـيء تـدبيرها و الاسـتفادة منها فسـتكون العاقبة هى التعاسة و الشـرّ و الفساد، فمثلا الحرص هو الذى لا يتيح فرصة الإنسان للتوقف عن السعى و الحركة و الاكتفاء بما لديه من نعمة و هو العطش المحرق الـذى يسـيطر على الإنسـان، فلو أنّ هـذه الصـفة وقعت فى الطريق العلم لوجـدنا الإنسان حريصا على التعلم، أو بعبارة

أخرى يتعطش العلم و يعشقه، و بذلك سوف يكون سببا لكماله، و أمّا إذا أخذت مسيرها فى الماديات فإنّها ستكون سببا للتعاسة و البخل، و بتعبير آخر: إنّ هذا الصفة فرع من فروع حبّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳

الذات، و حبّ الذات غريزة توصل الإنسان إلى الكمال، و لكن إذا انحرف فى مسيرة فإنّه سوف يجرّه إلى الحسد و البخل و إلى غير ذلك.

و فى هذا الشأن هناك مواهب أخرى أيضا بهذا الشكل: إنّ اللّه أودع قدرة عظيمة فى قلب الذرة، من المؤكد أنّها نافعة و مفيدة، و لكن إذا ما اسىء استخدام هذه القدرة و صنع من ذلك القنابل الفتاكة و لم يستخدم فى توليد الطاقة الكهربائية و الوسائل الصناعية و السلية الأخرى، فسيكون مدعاة للشرّ و الفساد، و بالتعمق فيما ذكرنا يمكن أن الجمع فى ما ورد فى الإنسان و ذلك من خلال الآيات القرآنية المبيّنة لحالات الإنسان ۱۳].

ثمّ تذكر الآيات الكريمة صفات الأشخاص الجيدين على شكل استثناء، و تبيّن لهم تسع صفات ايجابية بارزة، فيقول تعالى: إِلَّا الْمُصَلِّينَ

الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ

هذا هى الخصوصية الأولى لهم و أنّهم مرتبطين باللّه بشكل دائم، و هذه الرابطة تتوثق بالصلاة، الصلاة التى تنهى عن الفحشاء و المنكر، و الصلاة التى تربى روح الإنسان و تذكره دائما باللّه تعالى، و السير بهذا الاتجاه سوف يمنعه من الغفلة و الغرور، و الغرق فى بحر الشهوات، و الوقوع فى قبضة الشيطان و هوى النفس.

و من الطبيعى أنّ المراد من الإدامة على الصلاة ليس أن يكون دائما فى حال الصلاة، بل هو المحافظة على أوقات الصلاة المعينة.

من المعروف أنّ كل عمل جيد يقوم به الإنسان إنّما يترك فيه أثرا صالحا فيما لو كان مستديما، و لهذا نقرأ

فى الحديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلى اللّه ما دام و إنّ قلّ»[۱۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴

و نلاحظ

فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «إذا فرض على نفسه شيئا من النوافل دام عليه»[۱۵].

و

ورد فى حديث عنه عليه السّلام أنّه قال: «هذه الآية تعنى النافلة، آية وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (و التى تأتى فيما بعد) تعنى صلاة الفريضة».

و تجوز هذه المراعاة هنا، إذ أنّ التعبير بالمحافظة هو ما يناسب الصلاة الواجبة و التى يجب المحافظة على أوقاتها المعينة، و أمّا التعبير بالمداومة فهو ما يناسب الصلاة المستحبة و ذلك بأنّ الإنسان يمكنه الإتيان بها أحيانا و تركها أحيانا أخرى.

على كل حال بعد توضيح أهميّة الصلاة و أنّها من أهم الأعمال و من أهم أوصاف المؤمنين تنتقل الآيات إلى ذكر الصفة الثّانية فيضيف تعالى: وَ الَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ

و بهذا سوف يحافظون على ارتباطهم بالخالق من جهة، و علاقتهم بخلق اللّه من جهة اخرى.

و يعتقد بعض المفسّرين أنّ المراد هنا من «حقّ المعلوم» هو الزّكاة المفروضة التى فيها المقدار المعين، و موارد صرف ذلك المقدار هو السائل و المحروم، و لكن هذه السورة مكّية و حكم الزّكاة لم يكن قد نزل فى مكّة، و لو فرض نزوله لم يكن هناك تعيّن للمقدار، و لذا يعتقد البعض أنّ المراد من حقّ المعلوم هو شىء غير الزّكاة و الذى يجب على الإنسان منحه للمحتاجين، و الشّاهد على هذا ما

نقل عن الإمام الصّادق عليه السّلام عند ما سئل عن تفسير هذه الآية و هل هذا شيء غير الزّكاة فقال عليه السّلام: «هو الرجل يؤتيه اللّه الثروة من المال، فيخرج منه الألف و الألفين و الثلاثة و آلاف و الأقل و الأكثر، فيصل به رحمه، و يحمل به الكلّ عن قومه»[۱۶].

و الفرق بين «السائل» و «المحروم» هو أنّ السائل يفصح عن حاجته و يسأل،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵

و المحروم هو الذى لا يسأل لتعففه و حيائه، و

جاء فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «المحروم من يجد المشقّة فى كسبه و عمله و هو محارف»[۱۷].

هذا الحديث هو أيضا يوافق ذلك التّفسير المذكور سلفا، لأن مثل هؤلاء يكونون متعففين.

فى جاء فى تفسيرنا هذا فى ذيل الآية (۱۹) من سورة الذرايات بحث حول الحقّ المذكور و تفسير السائل و المحروم.

على كلّ، فإنّ هذا العمل له أثره الاجتماعى فى مجاهدة الفقر و الحرمان من جهة، و من جهة أخرى يترك آثارا خلقية جيدة على الذين يؤدّون ذلك العمل، و ينتزع ما فى قلوبهم و أرواحهم من أدران الحرص و البخل و حبّ الدنيا.

الآية الأخرى أشارت الى الخصوصية الثّالثة لهم فيضيف: وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و الخصوصية الرّابعة هى: وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ

إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ

إنّهم يؤمنون من جهة بيوم الدين، و مع الالتفات الى كلمة «يصدقون» و هو فعل مضارع يدل على الاستمرارية، فهذا يعنى إنّهم باستمرار يدركون أنّ فى الأمر حسابا و جزاء، بعض المفسّرين فسّر ذلك المعنى «بالتصديق العملى» أى الإتيان بالواجبات و ترك المحرمات، و لكن الآية ظاهرها الإطلاق، أى أنّها تشمل التصديق العلمى و العملى.

و لكن من الممكن أن هناك من يؤمن بيوم الدين و يرى نفسه ممن لا يعاقب، لذا تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ يعنى أنّهم يدركون أهمية الأمر، فلا يستكثرون حسناتهم و لا يستصغرون سيئاتهم، و لهذا

ورد فى الحديث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶

عن أمير المؤمنين عليه السّلام و هو ينصح ولده: «بنى خف اللّه أنّك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك، و أرج اللّه رجاء أنّك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك»[۱۸].

و حتى

أنّ الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان يقول: «لن يدخل الجنّة أحدا عمله».

قالوا: و لا أنت يا رسول اللّه؟

قال: «و لا أنا، إلّا أن يتغمدنى اللّه برحمته».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۲۹ الى ۳۵]

اشارة

وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ (۲۹) إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (۳۰) فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ

العادُونَ (۳۱) وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ (۳۲) وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ (۳۳)
وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۳۴) أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (۳۵)

التّفسير

القسم الآخر من صفات أهل الجنّة:

فى الآيات السابقة ذكرت أربعة أوصاف من الأوصاف الخاصّة بالمؤمنين الصادقين من أهل الجنان، و فى هذه الآيات ذكر لخمسة من الأوصاف الأخرى فيكون المجموع تسعة أوصاف.

فى الوصف الأوّل يقول اللّه عزّ و جلّ: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ ۱۹] حافِظُونَ إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸

لا شك فى أنّ الغريزة الجنسية من غرائز الإنسان الشديدة و الطاغية، و الكثير من الجرائم الكبيرة سببها هى هذه الغريزة، و لذا كانت السيطرة على هذه الغريزة و حفظ حدودها من العلامات المهمّة للتقوى، و بهذا ذكرت أهمية السيطرة على هذه الغريزة بعد تبيان أهمية الصلاة و إعانة المحتاجين و الإيمان بيوم القيامة و الإشفاق من عذاب اللّه.

و قد جاء فى الذيل الآية استثناء يدلّ على أنّ منطق الإسلام يرفض أن يقف الإنسان موقفا سلبيا تماما من هذه الغريزة و يكون كالرهبان و القسيسين يسير بخلاف قانون الخلقة، و هذا العمل غالبا ما يكون محالا و على فرض إمكانه فهو أمر غير منطقى، و لهذا نجد الرهبان من لم يستطيعوا أيضا حذف هذه الغريزة من حياتهم، و إذا لم يكونوا قد تزوجوا بالطريقة الرسمية فإنّ الكثير منهم ينصرف إلى ارتكاب الفحشاء عند الاختلاء.

الفضائح الناتجة من هذا المسلك ليست قليلة، فقد كشف المؤرخون المسيحيون مثل (ول دورانت) و غيره النقاب عن ذلك.

المراد ب- «الأزواج» الزوجات الدائمة و المؤقتة فإنّه يشمل الإثنين، و قد ظنّ البعض أنّ هذه الآية تنهى عن الزواج المؤقت و للم يعلموا أنّ ذلك هو نوع من الزواج.

و فى الآية الأخرى يؤكّد بشكل أكثر على نفس الموضوع فيضيف: فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ و بهذه الطريقة فإنّ الإسلام يخطط لمجتمع يحافظ على غرائزه الفطرية، و لا يؤدّى به إلى الغرق بالفحشاء و الفساد الجنسى و المضارّ الناتجة منه، و بالطبع أنّ للجوارى فى نظر الإسلام كثيرا من شرائط الزوجة و الضوابط القانونية للزوج و إن كان الموضوع منتف أساسا فى زماننا الحاضر.

عندئذ يشير إلى الصفات السادسة و السابعة، فيقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹

وَ عَهْدِهِمْ راعُونَ من الطبيعى أنّ لأمانة معنى واسع و ليست هى الأمانات المادية المتنوعة للناس فحسب، بل أنّها تشمل الأمانات الإلهية و أمانات الأنبياء و كلّ الأئمّة المعصومين عليهم السّلام.

إنّ كلّ نعمة من النعم الإلهية هى من أماناته تعالى، منها المقامات الاجتماعية و بالخصوص المسؤولون فى الدولة فإنّها تعتبر من أهم الأمانات، و لهذا ورد فى الحديث عن الإمام الباقر و الإمام الصّادق عليهما السّلام فى تفسير الآية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها، بأنّ المراد من الأمانات هنا «الولاية و الحاكمية»[۲۰]، و قرأنا كذلك فى سورة الأحزاب (۷۲)، إنّ التكليف و المسؤولية تعنى الأمانة الإلهية الكبيرة. إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ و الأهم من ذلك كله هو الدين و الشريعة الإلهية و كتاب اللّه، و هو من الأمانات الكبيرة التى يجب الحفاظ عليها بالسعى.

«العهـد»: و له مفهوم واسع أيضا، يشـمل العهود الإنسانيـة و كذلك العهود الإلهية، لأنّ العهد هو كل ما التزم به الإنسان لغيره، و ممّا لا شك فيه أنّ الإيمان باللّه و برسوله يعنى الالتزام بما كلّف به.

الإسلام أعطى أهمية بالغة لحفظ الأمانات و العهود و الالتزام بها، و قد عرف ذلك بأنّه أهمّ علامات الإيمان.

و لمزيد من الاطلاع راجع تفسيرنا هذا، ذيل الآية (۵۸) من سورة النساء.

و يضـيف فى الوصف الثامن: وَ الَّذِينَ هُمْ بِشَـهاداتِهِمْ قائِمُونَ لأنّ القيام بالشـهادة العادلة و ترك كتمانها من أهم بنود إقامة العدل فى المجتمع البشرى.

و قد يرفض بعض الناس أداء الشهادة بحجّة إننا لماذا نشترى عداوة هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰

و ذاك، و نسـبب المتاعب لأنفسنا بأداء الشهادة، هؤلاء أشخاص لا يبالون بالحقوق الإنسانية و يفقدون الروح الاجتماعية، و لا يؤمنون بتطبيق العدالة، و لهذا نرى القرآن الكريم فى كثير من آياته يدعو المسلمين إلى أداء الشهادة و يعدّ كتمانها ذنبا[۲۱].

و فى الوصف الأخير، و هو الوصف التاسع من هـذه المجموعـة، يعود مرّة أخرى إلى موضوع الصـلاة، كما كان البدء بالصـلاة، يقول تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ

و كما أشرنا سابقا أنّ الصلاة هنا بملاحظة القرائن تشير إلى الفريضة، و فى الآية السابقة تشير إلى النافلة.

و من الطبيعى أن الوصف الأوّل كـان إشـارة إلى المداومـة، و لكن الخطاب هنا حول حفظ آداب و شـروط الصـلاة و خصائصـها، و الآداب التى تكمن فى ظاهر الصلاة و التى تنهى عن الفحشاء و المنكر من جهة، و تقوى روح الصلاة بحضور القلب من جهة أخرى و تمحو الأخلاق الرذيلة التى تكون كحجر عشرة أمام قبولها، و لهذا لا يعتبر ذكرها مرّة أخرى من قبيل التكرار.

هذه البداية و النهاية تشـير إلى أنّ الصلاة من بين الصفات الحميدة المذكورة هى الأهم، و لم لا تكون كذلك و الصلاة هى المدرسة العالية للتربية، و أهم وسيلة لتهذيب النفوس المجتمع.

و فى النهاية تبيّن الآية الأخيرة عاقبة المتّصفين بهذه الأوصاف، كما بيّنت فى الآيات السابقة المسير النهائى للمجرمين، فيقول تعالى هنا فى جملة مختصرة و غنية بالمعانى: أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ [۲۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱

لماذا لا يكونون مكرمين؟ و هم ضـيوف اللّه، و قد وفرّ اللّه القادر الرحمن لهم جميع وسائل الضيافة، و فى الحقيقة أنّ هذين التعبيرين «جنات» و «مكرمون» إشارة إلى النعم المادية و المعنوية التى يغرق فيها هؤلاء المكرمين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۳۶ الى ۴۱]

اشارة

فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (۳۶) عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ (۳۷) أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (۳۸) كَلَّا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (۳۹) فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ (۴۰)

عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (۴۱)

التّفسير

الطمع الواهى فى الجنّة:

جاء البحث فى الآيات السابقة من هذه السورة حول علامات المؤمنين و الكفار، و مصير كلّ من المجموعتين، فى الآيات يعود ليوضح أحوال الكفار و استهزاءهم بالمقدسات.

قال البعض: إنّ هذه الآيات نزلت فى جماعة من المشركين فعند ما كان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يتلو على المسلمين آيات المعاد، كان هؤلاء الكفار يقدمون من كلّ صوب و حدب و يقولون: إذا كان هناك معاد فإنّ حالنا فى الآخرة أحسن من حال من آمن بك، كما أنّ حالنا فى هذه الدنيا أحسن منهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳

يقول القرآن الكريم فى جوابهم: فَما لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ أى يقبلون نحوك من كل جانب مسرعين.

عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ عِزِينَ أى جماعات متفرقين.

أَ يَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ بأى إيمان و بأى عمل يستحقون ذلك؟! «مهطعين»: جمع مهطع، و تعنى الذى يمدّ عنقه مقبلا على شىء بسرعة للبحث عنه، و أحيانا تأتى- فقط- بمعنى مدّ العنق لاستطلاع الأمر.

«عزين»: جمع عزة، على وزن «هبة» و تعنى جماعات فى متفرقين، و أصلها «عزو»- على وزن جذب- بمعنى النسبة، و بما أنّ كلّ جماعة يرتبط أفرادها بعضهم ببعض بنسبة معينة: أو يهدفون إلى غرض معين أطلقت كلمة «عزة» على الجماعة.

على كل حال فإنّ المشركين المتكبرين كان لهم الكثير من الادعاءات الباطلة الواهية، و كانت الرّفاهية فى حياتهم الدنيوية و غالبا ما كان يتمّ ذلك بطريق غير مشروع كالإغارة و السلب و غير ذلك ما كان يجعلهم يظنون بأنّهم قد حصلوا على هذه المقامات العالية و لمكانتهم عند اللّه، فكانوا ينسبون إلى أنفسهم المقامات الرفيعة فى يوم القيامة.

صحيح أنّهم لم يكونوا يعتقدون بالمعاد بتلك الصورة التى يبيّنها القرآن، و لكنّهم كانوا يحتملون وقوعه أحيانا، و يقولون: إذا وقع المعاد فإنّ حالنا فى العالم الآخر سيكون كذا كذا، و لعلهم كانوا يريدون بذلك الاستهزاء.

و هنا يجيبهم القرآن المجيد فيقول: كَلَّا ليس الأمر كذلك و ليس لهم حقّ الدخول إلى الجنّة إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ

فى الحقيقة أنّ اللّه يريد بهذه الجملة أن يحطم غرورهم، لأنّه يقول: إنّكم تعلمون جيدا مم خلقناكم؟ من نطفة قذرة، من ماء آسن مهين، فلما ذا كلّ هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴

الغرور؟ و يجيب ثانيا على المستهزئين بالمعاد فيقول: إذا كنتم فى شك من المعاد فتمعنوا فى حال هذه النطفة، و انظروا كيف خلقنا موجودا بديعا من قطرة ماء قذرة يتطور فيها الجنين كلّ يوم يتّخذ شكلا جديدا، أ لم يقدر خالق الإنسان من هذه النطفة أن يعيد إليه الحياة بعد دفنه.

ثالثا: كيف يطمعون فى الجنّة و فى صحائفهم كل هذه الذنوب؟ لأنّ الموجود الذى خلق من نطفة لا يمكن أن يكون له قيمة مادية، و إذا كانت له قيمة و كرامة فإنّ ذلك لإيمانه و عمله الصالح، و أولئك قد فقدوا هذه الصفات، فكيف ينتظرون الدخول إلى الجنّة؟![۲۳] ثمّ يقول تعالى مؤكّدا ذلك: فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ إِنَّا لَقادِرُونَ عَلى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَ ما نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ

لعل هذه الجملة إشارة إلى أنّنا لسنا قادرين على أن نعيد لهم الحياة بعد الموت فحسب، بل إنّنا نستطيع أن نبدله إلى أكمل الموجودات و أفضلها، و لا يمنعنا من ذلك شىء.

و على هذا فإنّ السياق هو إدامة لبحث المعاد، أو هو إشارة إلى أنّنا نهلككم جزاء لأعمالكم و لا يمنعنا من ذلك شىء، و نستبدل بكم مؤمنين و أعين، ليكونوا أنصارا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لا يضرّنا ذلك شيئا، و لهذا إن كنّا نلح عليكم أن تؤمنوا فليس

من باب العجز و الاحتياج، بل من أجل تربية البشرية و هدايتها.

يمكن أن يكون المراد ب- بِرَبِّ الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ بأن اللّه الـذى يقدر على أن يجعل للشـمس العظيمة مشـرقا و مغربا جديدين فى كل يوم، و يكون بنظام دقيق من دون أية زيادة و نقصان مدى ملايين السنين قادر على أن يعيد الإنسان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵

مرّة أخرى إلى الحياة الجديدة و يستبدلهم بقوم أفضل منهم.

ملاحظة

ربّ المشارق و المغارب:

قد يأتى تعبير المشرق و المغرب فى أحيانا بصيغة المفرد كالآية (۱۱۵) من سورة البقرة: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ و أحيانا بصيغة المثنى كما فى الآية (۱۷) من سورة الرحمن: رَبُّ الْمَشْـرِقَيْنِ وَ رَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ و أحيانا أخرى بصيغة الجمع الْمَشارِقِ وَ الْمَغارِبِ كالآية التى هو مورد بحثنا.

البعض من ذوى النظرات الضـيقة يظنون تضاد هـذه التعابير، فى حين أنّها مترابطة، و كل منها يشـير إلى بيان خاص، فالشـمس فى كلّ يوم تطلع من نقطـة جديـدة، و تغرب من نقطـة جديـدة أخرى، و على هذا الأساس لدينا بعدد أيّام السـنة مشارق و مغارب، و من جهة أخرى فـإنّ من بين كـل هـذه المشارق و المغارب هناك مشـرقان و مغربان ممتازان، إذ أن أحـدهما يظهر فى بـدء الصـيف أى الحد الأعلى لبلوغ ذروة ارتفاع الشـمس فى المدار الشـمالى، و الآخر فى بدء الشـتاء أى الحد الأدنى لنزول الشـمس فى المدار الجنوبى، (و يعبرون عن أحـدهما بمـدار «رأس السـرطان»، و عن الآـخر بمـدار «رأس الجـدى»،) و قـد اعتمـد على ذلـك لأنّهمـا واضـحان تماما، بالإضافة إلى هذين المشـرقين و المغربين الآخرين الّذين سمّيا بالمشرق و المغرب و الاعتداليان (و هو أوّل الربيع و أوّل الخريف، عند تساوى ساعات الليل و النهار فى جميع الـدنيا) و لـذا ذهب البعض إلى هـذا المعنى فى تفسـير الآية: «ربّ المشـرقين و المغربين» و هو معنى مقبول أيضا.

و أمّا ما جاء بصيغة المفرد فإنّ المراد به ماهيته، لأنّ الملاحظ فيه أصل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶

المشـرق و المغرب بـدون الالتفـات إلى الأـفراد، و بهـذا الترتيب فـإنّ لكلّ من العبارات المختلفـة أعلاه مسألـة تلفت نظر الإنسان إلى التغييرات المختلفة لطلوع و غروب الشمس، و التغيير المنتظم لمدارات الشمس.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷

الآيات [سورة المعارج (۷۰): الآيات ۴۲ الى ۴۴]

اشارة

فَـذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاـقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَـدُونَ (۴۲) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْـداثِ سِـراعاً كَـأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (۴۳) خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ (۴۴)

التّفسير

كأنّهم يهرعون إلى الأصنام!!

هـذه الآيات و هى آخر آيات سورة المعارج جاءت لتنـذر و تهـدد الكفار المعاندين و المسـتهزئين، يقول سـبحانه: فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ۲۴].

لا ـ يلزم الاسـتدلال و الموعظـة أكـثر من هـذا، فـإنّهم لا ـ يتعضـون و ليس لهم الاسـتعداد للاستيقـاظ، دعهم يخوضون فى أبـاطيلهم و أراجيفهم كما يلعب الأطفال حتى يحين يومهم الموعود، يوم البعث و يرون كل شىء بأعينهم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸

هذه الآية و بهذا التعبير وردت فى سورة الزخرف (۸۳).

ثمّ تبيّن الآيـة التاليـة اليوم الموعود، و تذكر بعض علامات ذلك اليوم المرعب فيقول تعالى: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ

يـا له من تعبير عجيب، إنّه وصف يوم القيامـة فى وقت يتجهون فيه سـراعا إلى محكمـة العـدل الإلـهى اتجاها يشـبه إسـراعهم فى يوم احتفال أو عزاء باتجاه أصنام، و لكن أين ذلك من هذا؟ إنّه فى الحقيقة استهزاء بعقائدهم المجونة التى كانوا يعتقدون بها فى الدنيا.

«الأجداث»: جمع جدث- على وزن (عبث)- و تعنى القبر.

«سراع»: جمع سريع، مثل (ظراف و ظريف) و تعنى الحركة السريعة للشىء أو الإنسان.

«نصب»: جمع نصـيب، و يقـول البعض: إنّه جمع نصب- على وزن (سـقف)- المراد منه هو مـا ينصب كعلامـة، و تطلق على الأصـنام الحجرية إذ كانوا ينصـبونها فى مكان ما ليعبدوها و يقدّم لها القرابين ثمّ يلطخون دماءها عليها، و اختلافه مع الصـنم هو أنّ الصنم كان على هيئة صورة و شكل خاص، و أمّا النصب فهو قطعة من الحجر لا شكل له، و كانوا يعبدونه لسبب ما، و نقرأ فى الآية (۳) من سورة المائدة: وَ ما ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ أى أنّ من جملة اللحوم المحرّمة هى ما يذبحون من الحيوانات على النصب.

«يوفضون»: من (إفاضة) و تعنى الحركة السريعة المشابهة لحركة الماء المنحدر من العين، و قال البعض: إنّ المراد من النصب فى الآية التى نحن بصددها هو الأعلام التى ينصبونها فى وسط الجيش أو القوافل، و على كل منهم أن يوصل نفسه بسرعة إليها، و لكن التّفسير الأوّل هو الأنسب.

ثمّ تذكر الآيات حالات أخرى لهؤلاء فتضيف: خاشِعَةً أَبْصارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹

ذِلَّةٌ[۲۵] من شدّة الهول و الوحشة و قد غرقوا فى ذلّة مهينة و فى آخر الآية يتابع قوله: ذلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كانُوا يُوعَدُونَ

نعم هذا هو اليوم الموعود الذى كان يسـخرون منه و يقولون أحيانا: لنفترض أنّ هناك يوما كهذا، فإنّ حالنا فى ذلك اليوم هو أفضل من حال المؤمنين، و لكنّهم لا يجرؤون أن يرفعوا رؤوسـهم فى ذلك اليوم لشدّة الخوف و الوحشة، و قد تعفرت وجوههم و رؤوسهم بغبار الذلّة، و غرقوا فى كل الهموم الهائلة، و من المؤكّد أنّهم يندمون فى ذلك اليوم، و لكن ما الفائدة؟

اللّهم: ألبسنا ثوب رحمتك فى ذلك اليوم المهول.

ربّنا: إنّ مصائـد الشـيطان و حبائله قويـة، و هوى النفس غالب، و الآمال الطويلة و البعيدة خداعة، فترحم علينا باليقظة و عدم الانحراف عن المسار الصحيح.

اللّهم: اجعلنا ممن آمن و وفى بعهده و بذل عمره فى طاعتك.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة المعارج***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱

سورة نوح

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمان و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳

«سورة نوح»

محتوی سورة:

هذه السورة، کما هو واضح من اسمها، تشیر إلی قصّة نوح علیه السّلام، و أشیر إلی قصّة هذا النّبی العظیم کذلک فی سورة متعددة فی القرآن المجید، منها: سورة الشعراء، و المؤمنون، و الأعراف، و الأنبیاء، و بشکل أوسع فی سورة هود، و تحدثت (۲۵) آیة حول هذا النّبی العظیم الذی یعتبر من اولی العزم (من الآیة ۲۵ إلی ۴۹).

و ما جاء فی سورة نوح عن قصّته علیه السّلام هو مقطع خاص من حیاته، و هو أقل ممّا ذکر فی بقیة السور، و هذا القسم یرتبط بدعوته المستمرة و المتتابعة إلی التوحید، و ترتبط بکیفیتها و عناصرها، و التخطیط الدقیق الماهر فی هذا الأمر الهام، و ذلک مقابل قوم معاندین و متکبرین یأنفون من الانقیاد إلی الحقّ.

بلحاظ أنّ هذه السورة نزلت فی مکة، و أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المسلمین القلائل فی ذلک الزمان کانوا یعیشون ظروفا مشابهة لظروف عصر نوح علیه السّلام و أعوانه، فإنّها تعلمهم أمور کثیرة، و کانت هذه واحدة من أهداف إیراد هذه القصّة، و منها:

۱- أنّها تذکرهم کیف یبلغون الرسالة للمشرکین عن طریق الاستدلال المنطقی المقترن بالمحبّة و المودّة، و استخدام کلّ طریقة تکون مفیدة و مؤثرة فی الدعوة.

۲- أنّها تعلّمهم الثبات و النشاط فی طریق الدعوة إلی اللّه و عدم التکاسل مهما طالت الأعوام، و مهما وضع الأعداء العوائق.

۳- أنّها تعلّمهم کیف یرغبونهم و یشجعونهم تارة، و تکون لدیهم عوامل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴

الإنذار و الرّهبة تارة أخری و الاستفادة من کلا الطریقین فی الدعوة إلی اللّه جلّ و علا.

۴- الآیات الأخیرة من هذه السورة هی تحذیر للمشرکین المعاندین، بأن عاقبتهم وخیمة إذا لم یستسلموا للحق، و تخلّفوا عن أمر اللّه.

۵- بالاضافة إلی ذلک، فإنّ هذا السورة جاءت لتهدئة مشاعر النّبی و المؤمنین الأوائل و من یعیش مثل ظروفهم، لیصبروا علی الصعوبات، و یطمئنوا فی مسیرهم بلطف من اللّه.

و بعبارة أخری فإنّ هذه السورة ترسم أبعاد الکفاح الدائم بین أصحاب الحق و أصحاب الباطل، ترسم منهج أصحاب الحق الذی یجب علیهم إتّباعه.

فضیلة هذه السورة:

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة نوح کان من المؤمنین الذین تدرکهم دعوة نوح».[۲۶]

و

فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال: «من كان يؤمن باللّه و اليوم الآخر و يقرأ كتابه فلا يدع أن يقرأ سورة: إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً فأى عبد قرأها محتسبا صابر فى فريضة أو نافلة، أسكنه اللّه مساكن الأبرار و أعطاه ثلاث جنان من جنّته كرامة من اللّه».[۲۷]

و لا يخفى أنّ الهدف من قراءة السورة هو الاقتباس من منهج و سلوك هذا النّبى العظيم من صبره و استقامته فى طريق الدعوة إلى اللّه تعالى ليدركوا دعوة النّبى، و ليس المراد القراءة الخالية من التفكير، و لا التفكر الخالى من العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (۱) قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴)

التّفسير

رسالة نوح الأولى:

قلنا: إنّ هذه السورة تبيّن من أحوال نوح عليه السّلام و ما يرتبط بأمر دعوته، و تعلم السائرين فى طريق اللّه تعالى أمورا مهمّة فى إطار الدعوة إلى الحق و بالخصوص فى قابل الأمم المعاندة، و تبدأ أوّلا بذكر فى بعثته عليه السّلام فيقول تعالى:

إِنَّا أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ

من الممكن أن يكون هذا العذاب الأليم هو عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، و الأنسب أن يكون الاثنان معا، و إن كانت القرائن فى آخر آيات هذه السورة تشير إلى أن هذا العذاب هو عذاب الدنيا.

التأكيد على الإنذار و الترهيب غالبا ما يؤثر تأثيرا بالغا، مع أنّ الأنبياء كانوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶

منذرين تارة و مبشرين تارة أخرى، كما يتمّ الاعتماد فى سائر الدينا على التحذيرات و العقوبات لضمان تطبيق القوانين.

نوح عليه السّلام الذى كان هو من أولى العزم، و صاحب أوّل شريعة إلهية، و له دعوة عالمية، جاء إلى قومه بعد صدور هذا الأمر إليه قال: قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ

الهدف هو أن تعبدوا اللّه الذى لا إله إلّا هو، و تتركوا من دونه، و تتقوا و تطيعوا أمرى الذى هو أمر اللّه: أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ

فى الحقيقة أنّ نوحا عليه السّلام قد لخّص مضمون دعوته فى ثلاث جمل: عبادة اللّه الواحد، و الحفاظ على التقوى، و طاعة القوانين و الأوامر التى جاء بها من عند اللّه و التى تمثل مجموعة من العقائد و الأخلاق و الأحكام.

ثمّ ذكر النتائج المهمّة المترتبة على استجابتهم الدعوة فى جملتين لترغيبهم فقال: يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ [۲۸] فى الحقيقة أنّ القاعدة المعروفة «الإسلام يجب ما قبله» هى قانون موجود فى كل الأديان الإلهية و التوحيدية و ليست منحصرة بالإسلام.

ثمّ يضيف: وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يستفاد جيدا من هذا الآية أنّ «الأجل» و موعد عمر الإنسان قسمان، هما: الأجل المسمّى، و الأجل النهائى، أو بعبارة أخرى الأجل الأدنى، و الأجل الأقصى أو الأجل المعلق، و الأجل الحتمى، القسم الأوّل للأجل قابل للتغير و التبديل، فقد يتدنى و يقل عمر الفرد كثيرا بسبب الذنوب و الأعمال السيئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷

و هذا نوع من أنواع العذاب الإلهى، و بالعكس فإنّ التقوى و حسن العمل و التدبير يمكن أن تكون سببا لتأخير الأجل، و لكن الأجل النهائى لا يتغير بأى حال من الأحوال، و يمكن توضيح هذا الموضوع بمثال واحد، و هو أنّه ليس باستطاعة الإنسان أن يبقى خالدا، و إذا كانت جميع الأجهزة البدنية تعمل جيدا ففى النهاية سوف يصل شيئا فشيئا إلى زمن ينتهى عمره بعجز فى القلب، و لكن تطبيق الأوامر الصحية و مجابهة الأمراض يمكن أن يطيل فى عمر الإنسان، و فى حالة عدم مراعاة هذه الأمور فإنّ من المحتمل أن يقلل ذلك من عمر و ينهى عمره بسرعة.[۲۹]***

ملاحظة

العوامل المعنوية لزيادة و نقصان العمر:

النقطة الأخرى التى يمكن استفادتها من هذه الآية هو تأثير الذنوب فى تقصير العمر، لأنّه يقول: «إنّ كنتم تؤمنون باللّه و تتقوه يهب لكم عمرا طويلا و يؤخر موتكم» و هذا يعنى أنّ الذنوب توجّه ضربات مهولة للجسم و الروح بحيث تساعد فى القضاء عليه.

و فى الرّوايات الإسلامية أيضا تأكيد كبير على هذا المعنى، منها ما

ورد فى حديث غنى المحتوى عن الامام الصادق عليه السّلام قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال، و من يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار».[۳۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۵ الى ۹]

اشارة

قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً (۶) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (۷) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (۸) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (۹)

التّفسير

استخدام مختلف الوسائل لهدايتهم، و لكن!!!

تتحدث هذا الآيات عن استمرار مهمّة نوح فى دعوته قومه و لكن هذه المرّة جاء الحديث على لسانه مخاطبا ربّه و شاكيا إليه أمره معهم بعبارة مأثرة بليغة.

خطاب نوح عليه السّلام فى هذا الإطار يمكن أن يعبّد الطريق لكلّ المبلغين الرساليين، فيقول: رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً.

و إنّنى لم أتوانى لحظة واحدة فى إرشادهم و إبلاغ الرسالة لهم، ثمّ يقول:

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً.

و من العجيب أن تكون الدعوة سببا لفرارهم، و لكن بما أنّ كلّ دعوة تحتاج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹

إلى نوع من الاستعداد و صفاء القلب و التجاذب المتبادل فليس عجيبا أن يكون هنا أثر معاكس فى القلوب الخاملة، و بمعنى آخر أنّ أعداء الحق المعاندين عند ما يستمعون لدعوة المؤمنين الرساليين يظهرون لهم المقاومة و الإصرار على العناد، و هذا ما يبعدهم عن اللّه بصورة أكثر، و يقوى عندهم روح الكفر و النفاق.

و هذا ما أشير إليه فى سورة الإسراء (۸۲): وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً.

و ما نقرأ كذلك فى آيات هذا الكتاب السماوى أنّه سبب لهداية المتقين:

... هُدىً لِلْمُتَّقِينَ [۳۱] و لهذا لا بدّ أن يكون هناك مرحلة من التقوى فى وجود الإنسان و إن كانت ضعيفة، حتى يتهيأ لقبول الحقّ، هذه المرحلة هى مرحلة (الروح الباحثة عن الحقيقة) و الاستعداد لتقبل كلمات الحق.

ثمّ إنّ نوحا عليه السّلام يضيف: وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً.

و لكى لا يسمعوا صوت الحق كانوا يضعون أصابعهم فى آذانهم، و يلفون ثيابهم حول أنفسهم أو يضعونها على رؤوسهم لئلا تصل أمواج الصوت إلى أدمغتهم! و ربّما كانوا يتقنعون لئلا تقع أعينهم على الهيئة الملكوتية لهذا النّبى العظيم، و فى الحقيقة كانوا يصرون على أن تتوقف الآذان عن السماع و العيون عن النظر! و هذا فى الواقع أمر مدهش أن يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من العداوة للحق إلى حدّ لا يعطى لنفسه فرصة النظر و السماع و التفكر.

و قد ورد فى بعض التفاسير أنّ بعض أولئك المعاندين كان يذهب بابنه إلى نوح عليه السّلام فيقول له: إحذر هذا لا يغوينك، فإنّ أبى قد جاء بى إليه و أنا صغير مثلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۰

فحذّرنى مثل ما حذّرتك ۳۲]، (حتى أكون ممّا وفى بحق الوصية و حبّ الخير).

هذا يدل على أنّ نوحا عليه السّلام كان مستمرا فى دعوته الإلهية طوال عمره الشريف و لعدّة أجيال و كان لا يعرف التعب أبدا.

و كذلك تتضمّن الآية الإشارة إلى أحد الأسباب المهمّة لتعاستهم و هو الغرور و التكبر، لأنّهم كانوا يرون أنفسهم أكبر من أن يتنازلوا لإنسان مثلهم، و إن كان ممثلا عن اللّه و تقيّا، و مهما كان قلبه عامرا بالعلم، فكان هذا الغرور و الكبر أحد الموانع المهمّة و الدائمة فى طريق الحق، و نحن نشاهد النتائج المشؤومة لذلك على طول التاريخ فى حياة أناس لا إيمان لهم.

و استمر نوح عليه السّلام فى حديثه عند المقام الإلهى، فيقول: ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً.

دعوتهم إلى الإيمان فى حلقات عامّة و بصوت جهور، ثمّ لم اكتفى بهذا: ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً قال بعض المفسّرين: إنّ نوحا عليه السّلام اتّبع فى دعوته ثلاثة أساليب مختلفة حتى يستطيع من النفوذ فى هذا الجمع المعاند و المتكبر: كان يدعو أحيانا فى الخفاء فواجه أربعة أنواع من الرفض (وضع الأصابع فى الآذان، تغطية الوجوه بالملابس، الإصرار على الكفر، و الاستكبار).

و كان يدعو أحيانا بالإعلان، و أحيانا أخرى يستفيد من طريق التعليم العلنى و السرى و لكن أيّا من هذه الأمور لم يكن مؤثرا[۳۳].

من المعلوم أنّ الإنسان إذا ما نهج طريق الباطل إلى حدّ تتعمق فى وجوده جذور الفساد و تنفذ فى أعماق وجوده حتى تتحول إلى طبيعة ثانية فيه، فإنّه سوف لا تؤثر فيه دعوة الصالحين و لا ينفع معه خطابات رسل اللّه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۱

ملاحظتان

۱- أسلوب الإبلاغ و منهجه

ما جاء فی هذا الآیات حول دعوة نوح یمثل برنامج عام لجمیع المبلغین فی طریق اللّه، و فی نفس الوقت تسلیة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه المؤمنین القلائل الذین کانوا قد التفوا حوله فی مکّة.

إنّه علیه السّلام لم یکن یتوقع أن یستجیب الناس لدعوته، و لم یکونوا یجتمعون فی وسط المدینة لیلقی فیهم خطابه الإلهی بهدوء و اطمئنان، و الناس یصغون إلیه، و یشخصون إلیه أعینهم، بل یستفاد من سیاق الآیات (کما جاء أیضا فی بعض الرّوایات) أنّه کان أحیانا یذهب إلی بیوتهم، أو أنّه یدعوهم فی الأزقة و الأسواق علی انفراد، و یبلغهم المفاهیم و یتحدّث إلیهم بتودد و تحبب و تصبر، و أحیانا کان یخاطبهم بأوامر اللّه تعالی علنا و بصوت عال، و ذلک باغتنامه فرص انعقاد المحافل أو مجالس العزاء، فکان یقابل بالإهانة و الاستهزاء و أحیانا بالضرب المبرح، و لکنّه مع ذلک کان لا ینتهی عن ذلک و یواصل مسیره.

کان صبره عجیبا، و الأعجب ما فیه رأفته، و کانت همته و استقامته الفریدة رأس ماله فی السیر فی طریق الدعوة إلی دین الحق.

و الأعجب من ذلک هو أنّ طیلة دعوته التی دامت (۹۵۰) عاما لم یؤمن به إلّا ثمانون شخصا، و لو قسمنا هذه المدّة علی عدد الأنفار یتّضح لنا أنّ مدّة هدایته لکل فرد دامت اثنتی عشرة سنة تقریبا!! لو کان المبلّغون یتعاملون بمثل هذه الاستقامة و الهمة لأصبح الإسلام عالمیا غنی المحتوی.

۲- لماذا الفرا من الحقیقة؟

یتعجب الإنسان أحیانا و یتساءل هل یمکن أن یکون هناک أناس یعیشون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۲

تحت هذه السماء لیس لدیهم الاستعداد لسماع کلمة الحق بل یفرون منه؟

و السؤال عن السماع فقط و لیس عن قبول الکلمة.

و لکن التاریخ یتحدّث عن کثرة أمثال هؤلاء، لیس فقط قوم نوح هم الذین وضعوا أصابعهم فی آذانهم و غشوا رؤوسهم و وجوههم بثیابهم عند دعوته لهم، بل هناک فئة فی عصر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلم و بصریح القرآن کانوا یستعینون بالصفیر و التهریج و الصراخ العالی لیحولوا بین صوت النّبی و هو یتلو آیات اللّه و بین الناس: وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهذَا الْقُرْآنِ وَ الْغَوْا فِیهِ لَعَلَّکُمْ تَغْلِبُونَ ۳۴].

و جاء فی تاریخ کربلاء الدامیة کذلک أنّه عند ما کان سیّد الشّهداء الإمام الحسین علیه السّلام یدعو الأعداء المنحرفین إلی الرشاد و یوقظهم کانوا یستخدمون هذا الأسلوب من الصراخ و التهریج حتی لا یسمع الناس تصوته ۳۵]، و هذه الخطة مستمرة إلی یومنا هذا، و لکن بأشکال و صور أخری، فلقد وفّر أصحاب الباطل جوا من المسلیات المفسدة کالموسیقی الراقصة و المواد المخدرة و غیر ذلک یبغون بذلک الفصل بین الناس- بالخصوص الشباب- و بین سماع أصوات أهل اللّه تعلیماتهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۳

الآیات [سورة نوح (۷۱): الآیات ۱۰ الی ۱۴]

اشارة

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (۱۲) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (۱۴)

التّفسير

ثمرة الإيمان فی الدنيا:

يستمر نوح عليه السّلام فی تبليغه المؤثر لقومه المعاندين العصاة، و يعتمد هذه المرّة على عامل الترغيب و التشجيع، و يوعدهم بانفتاح أبواب الرحمة الإلهية من كل جهة إذا ما تابوا من الشرك و الخطايا، فيقول: فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً.

و لا يطهركم من الذنوب فحسب بل: يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً[۳۶].

و الخلاصة: إنّ اللّه تعالى يفيض عليكم بأمطار الرحمة المعنوية، و كذلك

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۴

بالامطار المادية المباركة.

و من الملاحظ فی سياق هذه الآية أنّه يقول «يرسل السماء» فالسماء تكاد أن يهبط من شدّة هطول الأمطار! و بما أنّها أمطار رحمة و ليست نقمة، فلذا لا تسبب خرابا و أضرارا، بل تبعث على الإعمار و البركة و الحياة.

ثمّ يضيف: وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً و بهذا فإنّه وعدهم بنعمة معنوية كبيرة، و بخمس نعم أخرى مادية كبيرة، و النعمة المعنوية الكبيرة هی غفران الذنوب و التطهير من درن الكفر و العصيان، و أمّا النعم المادية فهی هطول الأمطار المفيدة و المباركة فی حينها، كثرة الأموال، كثرة الأولاد (الثروات الإنسانية)، الحدائق المباركة و الأنهار الجارية.

نعم، إنّ الإيمان و التقوى يبعثان على عمران الدنيا و الآخرة بشهادة القرآن المجيد، و ورد فی بعض الرّوايات انّ قوم نوح المعاندين لما امتنعوا من قبول دعوته حلّ عليهم القحط و هلك كثير من أولادهم، و تلفت أموالهم، و أصاب نساءهم العقم، و قلّ عندهنّ الإنجاب، فقال لهم: نوح عليه السّلام: إن تؤمنوا فسيدفع عنكم كل هذه البلايا و المصائب، و لكنّهم ما اتعظوا بذلك و استمروا فی غيّهم و طغيانهم حتى حلّ العذاب النهائی.

و يعود نوح عليه السّلام مرّة أخرى لينذرهم، فيقول: ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً[۳۷]، و لا تخافون عقابه و قد خلقكم فی مراحل مختلفة: و يقول أيضا: وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً.

كنتم فی البداية نطفة لا قيمة لها، ثمّ صوركم علقة ثمّ مضغة، ثمّ وهبكم الشكل الإنسانی، ثمّ ألبسكم لباس الحياة، فوهب لكم الروح و الحواس و الحركة، و هكذا طويتم المراحل الجنينية المختلفة الواحدة بعد أخرى، حتى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۵

ولدتكم أمهاتكم بهيئة الإنسان الكامل، و هكذا تستمر المراحل الأخرى و المختلفة للمعيشة فی الحياة، و أنتم خاضعون دائما لربوبيته تعالى، و تتجددون دائما، و تخلقون خلقا جديدا، فكيف لا تطأطئوا رؤوسكم أمام خالقكم؟

و لستم تتخذون أشكالا مختلفة من جهة الجسم، بل أنّ الروح هی أيضا فی تغيّر مستمر، و لكلّ منكم استعداده الخاص، ففی كل

رأس ذوق خاصّ، و فى كل قلب جحّ خاصّ، و كلكم تتغيرون باستمرار، فتنتقل مشاعر و أحاسيس الطفولة إلى أحاسيس الشبيبة، و هذه بدورها إلى الكهولة و الشيخوخة، و على هذا فإنّه معكم فى كلّ مكان هو يهديكم فى كل خطوة و يشملكم بلطفه و عنايته، فلم كل هذا الكفران و الاستهانة؟!***

ملاحظة

الرّابطة بين التقوى و العمران:

نستفيد من الآيات المختلفة فى القرآن، و منها الآيات التى هى محل بحثنا، أنّ الإيمان و العدالة سبب لعمران المجتمعات، و الكفر و الظلم و الخطايا سبب للدمار، نقرأ فى الآية (۹۶) من سورة الأعراف: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و فى الآية (۴۱) من سورة الروم نقرأ:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ و فى الآية (۳۰) من سورة الشورى: وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ و فى الآية (۶۶) من سورة المائدة: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ و آيات أخرى من هذا القبيل.

هذه الرابطة ليست رابطة معنوية، بل هناك رابطة مادية واضحة فى هذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۶

المجال أيضا.

الكفر و عدم الإيمان هو عين الإحساس بالمسؤولية، و هو الخروج عن القانون، و تجاهل القيم الأخلاقية، و هذه الأمور هى التى تسبب فقدان وحدة المجتمعات، و تزلزل أعمدة الاعتماد و الطمأنينة، و هدر الطاقات البشرية و الاقتصادية، و اضطراب العدالة الاجتماعية.

و من البديهى أنّ المجتمع الذى تسيطر عليه هذه الأمور سوف يتراجع بسرعة، و يتخذ طريقه إلى السقوط و الفناء.

و إذا كنّا نرى أنّ هناك مجتمعات تحظى بتقدم نسبى فى الأمور المادية مع كفرهم و انعدام التّقوى فيهم، فإنّ علينا أن نعرف أيضا أنّه لا بدّ أن يكون ذلك مرهونا بالمحافظة النسبية لبعض الأصول الأخلاقية، و هذا هو حصيلة ميراث الأنبياء و السابقين، و نتيجة أتعاب القادة الإلهيين و العلماء على طول القرون، و بالإضافة إلى الآيات السالفة هناك روايات كثيرة أيضا اعتمدت هذا المعنى، و هو أنّ الاستغفار و ترك المعاصى يبعث على إصلاح المعيشة و ازدياد الرّزق.

ففى حديث ورد عن الإمام على عليه السّلام: «أكثر الاستغفار تجلب الرّزق»[۳۸].

و نقل

فى حديث آخر عن الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أنعم اللّه عليه نعمة فليحمد اللّه تعالى و من استبطأ الرّزق فليستغفر اللّه، و من حزنه أمر فيقل: لا حول و لا قوّة إلّا باللّه»[۳۹].

و نقرأ

فى نهج البلاغة أيضا[۴۰]: «و قد جعل اللّه سبحانه الاستغفار سببا على الرّزق و رحمة الخلق، فقال سبحانه: اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۷

و الحقيقة أنّ الحرمان فى هذا العالم سببه العقوبات على الذنوب، و فى الوقت الذى يتوب فيه الإنسان و يتخذ طريق الطهارة و التقوى

يصرف اللّه تعالى عنه هذه العقوبات ۴۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۸

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۱۵ الى ۲۰]

اشارة

أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً (۱۵) وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً (۱۶) وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً (۱۷) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً (۱۸) وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً (۱۹)
لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً (۲۰)

التّفسير

خلقكم اللّه من الأرض كالنبات:

كان نوح عليه السّلام يبيّن للمشركين المعاندين حقائق عميقة و مستدلة، إذ كان يأخذ بهم إلى أعماق وجودهم ليرون حقائق هذه الآيات (كما مرّ فى الآيات السابقة) و دعاهم إلى ما خلق اللّه من علامات فى هذا العالم الكبير، فكان يسير بهم إلى تلك الآفاق ۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۵۹

يبدأ أوّلا بالسماء فيقول: أَ لَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَماواتٍ طِباقاً[۴۳] «طباقا»: مصدر من باب (مفاعلة) بمعنى «مطابقة»، و أحيانا تأتى بمعنى وضع الشىء فوق شىء آخر، و تأتى أحيانا أخرى بمعنى مطابقة و مماثلة شيئين أحدهما مع الآخر، و المعنيان يصدقان هنا.

و ما طبق للمعنى الأوّل أنّ السماوات بعضها فوق بعض، و كما قلنا فى سابقا حسب تفسير السموات السبع فإنّ كل ما نراه من الكواكب المتحركة و الثابتة بالعين المجرّدة أو غيرها هى من السماء الاولى، ثمّ تليها السموات الست الأخرى متطابقة بعضها فوق الأخرى، و لم يصل علم الإنسان إلى هذه المرتبة فعلا، و لكن يمكن فى المستقبل أن يتطور علم الإنسان فيكشف ما فى السموات من عجائب الواحدة بعد الأخرى ۴۴].

و على الاحتمال الثّانى فإنّ القرآن يشير إلى مطابقة و تناسق السماوات السبع فى النظم و العظمة و الجمال.

ثمّ يضيف: وَ جَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً[۴۵].

صحيح أنّ فى السماوات السبع مليارات من الكواكب المضيئة و التى هى أكثر ضياء من الشمس، و لكن ما يهمنا و ما يؤثر فى حياتنا هى هذه الشمس و كذلك القمر، هذه المنظومة الشمسية التى تضىء الشمس فيها بالنهار و القمر بدوره ينير الليل.

التعبير بالسراج للشمس و بالنور للقمر هو أنّ نور الشمس ينشأ من ذاتها كالسراج، و أمّا نور القمر فإنّه ليس من باطنه بل انعكاس لنور الشمس، و لهذا فإنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۰

كلمة نور ذات المفهوم العام هى المستخدمة فى هذا المورد، و يشاهد اختلاف التعابير فى آيات القرآن أيضا، و قد أوردنا شرحا مفصلا فى هذا الباب فى ذيل الآية (۵) من سورة يونس عليه السّلام.

ثمّ يعود ذلك إلى الإنسان فيقول: وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً[۴۶].

التعبير ب «الإنبات»، فى شأن الإنسان لأسباب، أوّلا: خلق الإنسان الأوّل من التراب.

ثانيا: إنّ المواد الغذائية التى يتناولها الإنسان و بها ينمو و يحيى هى من الأرض، فهو إمّا يتناول الخضار و الحبوب الغذائية أو الفواكه مباشرة، أو بطريق غير مباشر كلحوم الحيوانات.

ثالثا: هناك تشابه كثير بين الإنسان و النبات، و هناك كثير من القوانين التى يسرى حكمها على نمو و تغذية النباتات هى سارية أيضا على الإنسان.

و هذا التعبير فى شأن الإنسان غنى بالمعانى، و يدل على أنّ التدبير الإلهى فى مسألة الهداية ليس فقط كتدبير و عمل المعلم و حسب، بل هو كعمل الزارع الذى ينثر البذور فى محيط جيد يساعدها على النمو، و فى الآية (۳۷) من سورة آل عمران يقول اللّه تعالى بشأن مريم عليها السّلام: وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً و كلّ هذا إشارة إلى ذلك المضمون اللطيف.

ثمّ يمضى إلى مسألة المعاد و التى كانت من المسائل المعقدة عند المشركين فيقول: ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها وَ يُخْرِجُكُمْ إِخْراجاً.

كنتم فى البدء ترابا، ثمّ تعودون إلى التراب ثانية، و من كانت له القدرة على أن يخلقكم من التراب هو قادر على أن يحييكم بعد الموت.

هذا الانتقال من التوحيد إلى المعاد الذى جاء فى سياق هذه الآيات بصورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۱

لطيفة يشير إلى العلاقة القريبة بينهما، و هكذا كان نوح عليه السّلام يوضح لمخالفيه أمر التوحيد بالاستدلال عن طريق نظام الخلقة و يستدل كذلك بها على المعاد.

ثمّ يعود مرّة أخرى إلى آيات الآفاق و علامات التوحيد فى هذا العالم الكبير، و يتحدث عن نعم وجود الأرض فيقول: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِساطاً[۴۷].

ليست هى بتلك الخشونة بحيث لا يمكنكم الانتقال و الاستراحة عليها، و ليست بتلك النعومة بحيث تغطسون فيها، و تفقدون القدرة على الحركة، ليست حارقة و ساخنة بحيث تلقون مشقّة من حرّها، و ليست باردة بحيث تتعسر حياتكم فيها، مضافا إلى ذلك فهى كالبساط الواسع الجاهز المتوفر فيه جميع متطلباتكم المعيشية.

و ليست الأراضى المسطحة كالبساط الواسع فحسب، بل بما فيها من الجبال و الوديان و الشقوق المتداخلة بعضها فوق البعض و التى يمكن العبور من خلالها.

لِتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلًا فِجاجاً.

«فجاج» على وزن (مزاج)، و هو جمع فج، و بمعنى الوادى الفسيح بين الجبلين، و قيل الطريق الواسعة[۴۸].

و بهذا فإنّ نوح عليه السّلام يشير فى خطابه تارة إلى العلامات الإلهية فى السماوات و الكواكب و السماوية، و تارة أخرى إلى النعم الإلهية الموجودة فى البسيطة، و ثالثة الى وجود الإنسان الذى يعتبر بحدّ ذاته دليل على معرفة اللّه تعالى و إثبات المعاد، و لكن لم تؤثر أى من هذه الإنذارات و البشائر و الرغائب و الاستدلالات المنطقية فى قلوب هؤلاء القوم المعاندين الذين استمروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۲

مخالفتهم و كفرهم، و أخذتهم الأنفة عن الانقياد لحميد العاقبة، و سنرى عاقبة هذا العناد فى الآيات القادمة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۳

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۲۱ الى ۲۵]

اشارة

قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً (۲۱) وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (۲۲) وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً (۲۳) وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلالاً (۲۴) مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (۲۵)

التّفسير

لطف اللّه معك:

عند ما رأى نوح عليه السّلام عناد قومه و قد بذل فى سبيل هدايتهم منتهى مساعيه التى طالت مئات السنين، و ما كانوا يزدادون فيها إلّا فسادا و ضلالا، يئس منهم و توجّه إلى ربّه ليناجيه و يطلب منه أن يعاقب قومه، كما نقرأ فى هذه الآيات محل البحث، قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۴

تشير هذه الآية إلى أنّ رؤساء هؤلاء القوم يمتازون بكثرة الأموال و الأولاد، و لكنّها لا تستخدم لخدمة الناس بل للفساد و العدوان، و لا يخضعون للّه تعالى، و هذه الامتيازات الكثيرة سببت فى طغيانهم و غيهم.

و إذا ما نظرنا إلى تاريخ الإنسان لوجدنا أنّ الكثير من رؤساء القبائل هم من هذا القبيل، من الذين يجمعون المال الحرام، و لهم ذرّية فاسدة، و يفرضون فى النهاية أفكارهم على المجتمعات المستضعفة، و يكبّلونهم بقيود الظلم.

ثمّ يضيف فى قوله تعالى: وَ مَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً.

«كبّار» صيغة مبالغة من الكبر، و ذكر بصيغة النكرة، و يشير إلى أنّهم كانوا يضعون خططا شيطانية واسعة لتضليل الناس، و رفض دعوة نوح عليه السّلام، و من المحتمل أن يكون عبادة الأصنام واحدة من هذه الخطط و الأساليب، و ذلك طبقا للرّوايات التى تشير إلى عدم وجود عبادة الأصنام قبل عصر نوح عليه السّلام و أن قوم نوح هم الذين أوجدوها، و ذكر أنّ فى المدّة الزمنية بين آدم و نوح عليهما السّلام كان هناك أناس صالحون أحبّهم الناس، و لكن الشيطان «أو الأشخاص الشيطانيين» عمد إلى استغلال هذه العلاقة، و ترغّبهم فى صنع تماثيل أولئك الصالحين بحجّة تقديسهم و إجلالهم، و بعد مضى الزمن نسيت الأجيال هذه العلاقة التاريخية، و تصورت أنّ هذه التماثل هى موجودات محترمة و نافعة يجب عبادتها، و هكذا شغلوا بعبادة الأصنام، و عمد الظالمون و المستكبرون إلى إغفال الناس و تكبيلهم بحبائل الغفلة، و هكذا تحقق المكر الكبير.

و تدل الآية الأخرى على هذا الأمر، إذ أنّها تضيف بعد الإشارة إلى خفاء هذا المكر فى قوله تعالى: وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ

و لا تقبلوا دعوة نوح إلى اللّه الواحد، و غير المحسوس، و أكدوا بالخصوص على خمسة أصنام، و قالوا: وَ لا تَذَرُنَّ وَدًّا وَ لا سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْراً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۵

و يستفاد من القرائن أنّ لهذه الأصنام الخمسة مميزات و خصائص، و أنّها لقيت عناية بالغة من القوم الظالمين، و لهذا كان رؤسائهم المستغلون لهم يعتمدون على عبادتهم لها.

و هناك روايات متعددة تشير إلى وجود و ابتداع هذه الأصنام، و هى:

۱- قال البعض: إنّها أسماء خمسة من الصالحين كانوا قبل نوح عليه السّلام و عند ما رحلوا من الدنيا اتّخذوا لهم تماثيل لتبقى ذكرى،

و ذلک بتحریک و إیحاء من إبلیس، فوقّروها حتی عبدت تدریجیا بمرّ العصور.

۲- قیل أنّها أسماء خمسة أولاد لآدم علیه السّلام کان کلّما یموت أحدهم یضعون له تمثالا و ذلک لتخلید ذکراه، و بمرور الزمن نسی ذلک الغرض و أخذوا یروجون عبادتها بکثرة فی زمن نوح علیه السّلام.

۳- البعض الآخر یعتقد أنّها أسماء لأصنام فی زمن نوح علیه السّلام، و ذلک لأنّ نوحا علیه السّلام کان یمنع الناس من الطواف حول قبر آدم علیه السّلام فاتخذوا مکانه تماثیل بإیعاز من إبلیس و شغلوا بعبادتها[۴۹].

و هکذا انتقلت هذه الأصنام الخمسة إلی الجاهلیة العربیة، و انتخبت کل قبیلة واحدة من هذه الأصنام لها، و من المستبعد أن تکون الأصنام قد انتقلت إلیهم، بل إنّ الظاهر هو انتقال الأسماء إلیهم ثمّ صنعهم التماثیل لها، و لکن بعض المفسّرین نقلوا عن ابن عباس أنّ هذه الأصنام الخمسة قد دفنت فی طوفان نوح علیه السّلام، ثمّ أخرجها الشیطان فی عهد الجاهلیة و دعا الناس إلی عبادتها[۵۰].

و فی کیفیة تقسیم هذه الأصنام علی القبائل العربیة فی الجاهلیة، قال البعض: إنّ الصنم (ود) قد اتّخذته قبیلة بنی کلب فی أراضی دومة الجندل، و هی مدینة قریبة من تبوک تدعی الیوم بالجوف، و اتّخذت قبیلة هدیل (سواعا) و کانت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۶

فی بقاع رهاط، و اتّخذت قبیلة بنی قطیف أو قبیلة بنی مذحج (یغوث)، و أمّا همدان فاتّخذت (یعوق)، و اتّخذت قبیلة ذی الکلاع (نسرا)، و هی قبائل حمیر[۵۱].

و علی کل حال، فإنّ ثلاثة منها أی (یغوث و یعوق و نسر) و کانت فی الیمن و لکنّها اندثرت عند ما سیطر ذو نؤاس علی الیمن، و اعتنق أهلها الیهودیة[۵۲].

یقول المؤرخ الشهیر الواقدی: کان الصنم (ود) علی صورة رجل، و (سواع) علی صورة امرأة و (یغوث) علی صورة أسد و (یعوق) علی صورة فرس و (نسر) علی صورة نسر (الطائر المعروف).[۵۳] و بالطبع أنّ هناک أصنام أخری کانت لعرب الجاهلیة، منها «هبل» الذی کان من أکبر أصنامها التی وضعوها داخل الکعبة، و کان طوله ۱۸ ذراعا، و الصنم (أساف) المقابل للحجر الأسود، و الصنم (نائلة) الذی کان مقابل الرکن الیمانی (الزاویة الجنوبیة للکعبة) و کذلک کانت (اللات) و (العزی).[۵۴] ثمّ یضیف عن لسان نوح علیه السّلام: وَ قَدْ أَضَلُّوا[۵۵] کَثِیراً وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا ضَلالًا المراد من زیادة الضلال للظالمین هو الدعاء بسلب التوفیق الإلهی منهم: لیکون سببا فی تعاستهم، أو أنّه دعاء منه أن یجازیهم اللّه بکفرهم و ظلمهم و یسلبهم نور الإیمان، و لتحلّ محله ظلمة الکفر.

أو أنّ هذه هی خصوصیة أعمالهم التی تنسب إلی اللّه تعالی، و ذلک لأنّ کل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۷

موجود یؤثر أی تأثیر فهو بأمر من اللّه تعالی، و لیس هناک ما ینافی الحکمة الإلهیة فی مسألة الإیمان و الکفر و الهدایة و الضلالة و لا یسبب سلب الإختیار.

و بالتالی فإنّ الآیة الأخیرة فی البحث، یقول اللّه تعالی فیها:

مِمَّا خَطِیئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ یَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً.[۵۶] تشیر الآیة إلی ورودهم النّار بعد الطوفان، و ممّا یثیر العجب هو دخولهم النّار بعد الدخول فی الماء! و هذه النّار هی نار البرزخ، لأنّ بعض الناس یعاقبون بعد الموت، و ذلک فی عالم البرزخ کما هو ظاهر فی سیاق بعض الآیات القرآنیة، و کذا ذکرت الرّوایات أنّ القبر إمّا روضة من ریاض الجنّة، أو حفرة من حفر النیران.

و قیل من المحتمل أن یکون المراد بالنّار هو یوم القیامة، و لکن بما أنّ وقوع یوم القیامة أمر حتمی و هو غیر بعید، فإنّها ذکرت بصورة الفعل الماضی.[۵۷] و احتمل البعض أنّ المراد هی النّار فی الدنیا، حیث یقولون أنّ نارا قد ظهرت بین تلک الأمواج بأمر من اللّه تعالی و ابتلعتهم.[۵۸]***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۸

الآيات [سورة نوح (۷۱): الآيات ۲۶ الى ۲۸]

اشارة

وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (۲۷) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَباراً (۲۸)

التّفسير

على الفاسدين و المفسدين أن يرحلوا:

هذه الآيات تشير إلى استمرار نوح عليه السّلام فى حديثه و دعائه عليهم فيقول تبارك و تعالى: وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً.

دعا نوح عليه السّلام بهذا الدعاء عند ما يئس من هدايتهم بعد المشقّة و العناء فى دعوته إيّاهم، فلم يؤمن إلّا قليل منهم.

و التّعبير ب «على الأرض» يشير إلى أنّ دعوة نوح عليه السّلام كانت تشمل العالم، و كذا مجىء الطوفان و العذاب بعده.

«ديار»: على وزن سيار، من أصل دار، و تعنى من سكن الدّار، و هذه اللفظة تأتى عادة فى موارد النفى المطلق كقول: ما فى الدار ديّار، أى ليس فى الدار أحد.[۵۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۶۹

ثمّ يستدل نوح عليه السّلام للعنه القوم فيقول: إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً، و هذا يشير إلى أنّ دعاء الأنبياء و من بينهم نوح عليه السّلام لم يكن ناتجا عن الغضب و الانتقام و الحقد، بل إنّه على أساس منطقى، و أنّ نوحا عليه السّلام ليس ممن يتضجر و يضيق صدره لأوهن الأمور فيفتح فمه بالدعاء عليهم. بل إنّ دعا عليهم بعد تسعمائة و خمسين عاما من الصبر و التألم و الدعوة و العمل المضنى.

و لكن كيف عرف نوح عليه السّلام أنّهم لن يؤمنوا أبدا و أنّهم كانوا يضللون من كان على البسيطة و يلدون أولادا فجرة و كفّارا.

قال البعض: إنّ ذلك ممّا أعطاه اللّه تعالى من الغيب، و احتمل أنّه أخذ ذلك عن طريق الوحى الإلهى حيث يقول اللّه تعالى: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ [۶۰][۶۱] و يمكن أن يكون نوح قد توصل إلى هذه الحقيقة بالطريق الطبيعى و الحسابات المتعارفة، لأنّ القوم الذين بلّغ فيهم نوح عليه السّلام تسعمائة و خمسين عاما بأفصح الخطب و المواعظ لا أمل فى هدايتهم، ثمّ إنّ الغالبية منهم كانوا من الكفار و الأثرياء و هذا ممّا كان يساعدهم على إغواء و تضليل الناس، مثل أولئك لا يلدون إلّا فاجرا كفّارا و يمكن الجمع بين هذه الاحتمالات الثّلاثة.

«الفاجر»: يراد به من يرتكب ذنبا قبيحا و شنيعا.

«كفّار»: المبالغ فى الكفر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۰

و الاختلاف بين هذين اللفظين هو أن أحدهما يتعلق بالجوانب العملية، و الآخر بالجوانب العقائدية.

و يستفاد من هذه الآيات أنّ العذاب الإلهى إنّما ينزل بمقتضى الحكمة، فمن يكن فاسدا و مضللا و لأولاده و نسله لا يستحق الحياة بمقتضى الحكمة الإلهية، فينزل عليهم البلاء كالطوفان أو الصّاعقة و الزلازل ليمحو ذكرهم كما غسل طوفان نوح عليه السّلام تلك

الأرض التی تلوثت بأفعال و معتقدات تلک الأمة الشریرة، و بما أنّ هذا القانون الإلهی لا یختصّ بزمان و مکان معینین، فإنّ العذاب الإلهی لا بدّ أن ینزل إذا ما کان فی هذا العصر مفسدون و لهم أولاد فجرة کفّار، لأنّها سنّة إلهیة و لیس فیها من تبعیض.

و یمکن أن یکون المراد ب یُضِلُّوا عِبادَکَ الجماعة القلیلة المؤمنة التی کانت مع نوح علیه السّلام، و لعل المراد منها عموم الناس المستضعفین الذین یتأثرون بالطواغیت.

ثمّ یدعو نوح علیه السّلام، لنفسه و لمن آمن به فیقول: رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِوالِدَیَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَیْتِیَ مُؤْمِناً وَ لِلْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ لا تَزِدِ الظَّالِمِینَ إِلَّا تَباراً.[۶۲] طلب المغفرة هذا من نوح علیه السّلام کأنّه یرید أن یقول إننی و إن دعوة قومی مئات السنین و لقیت ما لقیت من العذاب و الإهانة، و لکن یمکن أن یکون قد صدر منّی الترک الأولی، فلذا أطلب العفو و المغفرة لا أبرئ نفسی أمام اللّه تعالی.

هذا هو حال أولیاء اللّه، فإنّهم یجدون أنفسهم مقصرین مع کلّ ما یلاقونه من محن و مصاعب، و لهذا تجدهم غیر مبتلین بآفات الغرور و التکبر، و لیس کالذین یتداخلهم الغرور عند إتمامهم لعمل صغیر ما یمنون به علی اللّه تعالی، و یطلب نوح علیه السّلام المغفرة لعدّة أشخاص و هم:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۱

الأوّل: لنفسه، لئلا یکون قد مرّ علی بعض الأمور المهمّة مرورا سریعا، و لم یعتن بها.

الثّانی: لوالدیه، و ذلک تقدیرا لما تحمّلاه من متاعب و مشقّة.

الثّالث: لمن آمن به، و إن کانوا قلائل، الذین اصطحبوه فی سفینته التی کانت بمثابة الدار له علیه السّلام.

الرّابع: للمؤمنین و المؤمنات علی مرّ العصور، و من هنا یوثق نوح علیه السّلام العلاقة بینه و بین عموم المؤمنین فی العالم، و یؤکّد فی النهایة علی هلاک الظالمین، و أنّهم یستحقون هذا العذاب لما ارتکبوه من ظلم.

***

بحث

نوح علیه السّلام أوّل أنبیاء أولی العزم

ذکر نوح علیه السّلام فی کثیر من الآیات القرآنیة، و مجموع السور التی ذکر فیها علیه السّلام (۲۹) سورة، و أمّا اسمه علیه السّلام فقد فقد ورد ۴۳ مرّة.

و قد شرح القرآن المجید أقساما مختلفة من حیاته علیه السّلام شرحا مفصلا، و تتعلق أکثرها بالجوانب التعلیمیة و التربویة و المواعظ، و ذکر المؤرخون أنّ اسمه کان «عبد الغفار» أو «عبد الملک» أو «عبد الأعلی»، و لقب ب «نوح» لأنّه کان کثیر النیاحة علی نفسه أو علی قومه، و کان اسم أبیه «لمک» أو «لامک»، و فی مدّة عمره علیه السّلام اختلاف، فقال البعض: ۱۴۹۰ عاما، و جاء فی بعض الرّوایات أنّ عمره ۲۵۰۰ عام، و أمّا عن أعمار قومه الطویلة فقد قالوا ۳۰۰ عام، و المشهور هو أن عمره کان طویلا، و صرح القرآن بمدّة مکثه فی قومه و هی ۹۵۰ عاما، و هی مدّة التبلیغ فی قومه، کان لنوح علیه السّلام ثلاثة أولاد، و هم (حام) (سام) (یافث) و یعتقد المؤرخون بأنّ انتساب البشر یرجع إلی هؤلاء الثلاثة، فمن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۲

ینتسب إلی حام یقطن فی القارة الإفریقیة، و المنتسبون لسام یقطنون الأوسط و الأقصی، و أمّا المنتسبون إلی یافث فهم یقطنون الصین، و قیل أنّ المدّة التی عاشها بعد الطوفان ۵۰ عاما، و قیل ۶۰ عاما.

و ورد بحث مفصل عن حياة نوح عليه السّلام فى التوراة المتواجد حاليا، إلّا أنّ هناك اختلافا كبيرا بينه و بين القرآن المجيد، و هذا الاختلاف يدل على تحريف التوراة، و قد ذكرت هذه البحوث فى الفصول ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۰ من سفر التكوين للتوراة.

و كان لنوح عليه السّلام ابن آخر يدعى (كنعان) و كان مخالفا لأبيه، إذ رفض الالتحاق به فى السفينة ففقد بقعوده هذا الشرف الانتساب إلى بيت النبوّة، و كانت عاقبته الغرق فى الطوفان كبقية الكفّار، و أمّا عن عدد المؤمنين الذين آمنوا به و ركبوا السفينة معه فقد قيل ۷۰ نفرا، و قيل ۷ أنفار، و لقد انعكست آثار كثيرة من قصّة نوح عليه السّلام فى لأدب العربى و أكثرها قد حكت عن الطوفان و سفينة النجاة.[۶۳] كان نوح عليه السّلام اسطورة للصبر و المقاومة، و قيل هو أوّل من استعان بالعقل و الاستدلال المنطقى فى هداية البشر، بالإضافة الى منطق الوحى (كما هو واضح من آيات هذه السورة) و بهذا الدليل يستحق التعظيم من قبل جميع الناس.

و ننهى ما وضحناه عن نوح عليه السّلام

بحديث عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال: «كان نوح عليه السّلام يدعو حين يمسى و يصح بهذا الدعاء: «أمسيت أشهد أنّه ما أمسى بى من نعمة فى دين أو دنيا فإنّها من اللّه لا شريك له، له الحمد بها علىّ و الشكر كثيرا، فأنزل اللّه: إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً فهذا كان شكره».[۶۴]

فى قوله تعالى: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِوالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ... قيل فى معنى البيت هنا هو بيته الخاص، و قيل المسجد، و قيل سفينة نوح، و قيل هو دينه و شريعته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۷۳

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۳

و

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «من دخل فى الولاية دخل فى بيت الأنبياء».[۶۵]

اللّهمّ ارحمنا بقبول ولاية أهل البيت عليه السّلام حتى ندخل بيت الأنبياء.

ربّنا، منّ علينا بالاستقامة كما مننت على الأنبياء كنوح عليه السّلام لنبقى دعاة إلى دينك بلا تقاعس.

اللّهم، نجّنا بسفينة نجاة لطفك و رحمتك عند نزول الطوفان غضبك و سخطك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة نوح عليه السّلام***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۵

سورة الجنّ

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمان و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۷

«سورة الجن»

محتوى السورة:

تتحدث هذه السورة حول نوع من الخلائق المستورين عن حواسنا، و هم الجن، كما سمّيت السورة باسمهم، و أنّهم يؤمنون بنبيّنا

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عن خضوعهم للقرآن و إيمانهم بالمعاد، و أنّ فيهم المؤمن و الكافر و غير ذلك، و فى هذا القسم من السورة (۱۹) آية من (۲۸) آية تصحح ما حرّف من معتقدات حول الجن، و هناك قسم آخر من السورة يشير إلى التوحيد و المعاد، و القسم الأخير يتحدث عن علم الذى لا يعلمه إلّا ما شاء اللّه.

فضيلة سورة الجن:

ورد فى حديث عن الرّسول الأكرم: «من قرأ سورة الجن اعطى بعدد كلّ جنى و شيطان صدق بمحمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كذّب به عتق رقبة».[۶۶]

و

فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «من أكثر قراءة قُلْ أُوحِيَ لم يصبه فى الحياة الدنيا شىء من أعين الجن و لا نفثهم و لا سحرهم، و لا كيدهم، و كان مع محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيقول: يا ربّ، لا أريد منه بدلا، و لا أبغى عنه حولا».

و طبعا التلاوة مقدّمة و تمهيد لمعرفة محتوى السورة و التدبّر بها، ثمّ العمل بما فيها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۸

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (۱) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (۲) وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً (۳) وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (۴)

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (۵) وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (۶)

سبب النّزول

ما جاء فى سبب نزول سورة الأحقاف فى تفسير الآيات (۲۹- ۳۲) مطابق لسبب نزول هذه السورة، و يدل على أنّ السورتين يتعلقان بحادثة واحدة، و توضح سبب النّزول باختصار كما يلى:

۱- انطلق الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلى سوق عكاظ فى الطائف بعد قدومه من مكّة ليدعو الناس إلى الإسلام، فرجع بعد رفض الناس لدعوته إلى واد يدعى وادى الجن، و بقى فيه ليلا و هو يقرأ القرآن، فاستمع إليه نفر من الجن فآمنوا به ثمّ راحوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۷۹

يدعون قومهم إليه.[۶۷] ۲- عن ابن عباس قال: كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم منشغلا بصلاة الصبح، و كان يقرأ فيها القرآن، فاستمع إليه الجن و هم يبحثون عن علّة انقطاع الأخبار من السماء، فقالوا: هذه الذى حال بيننا و بين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم ليبلغوا ما سمعوا.[۶۸] ۳- بعد وفاة أبى طالب عليه السّلام اشتدّ الأمر برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فعزم على الذهاب إلى الطائف ليبحث عن أنصار له، و كان أعيان الطائف يكذبونه و يؤذونه، و يرمونه بالحجارة حتى أدميت قدماه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فالتجأ متعبا إلى ضيعة من الضياع، فرآه غلام صاحب الضيعة و كان اسمه «عداس»، فآمن بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ثمّ رجع إلى مكّة ليلا- و صلّى صلاة الصبح و هو بنخله، فاستمع إليه نفر من الجن من أهل نصيبين أو اليمن، و كانوا قد مرّوا بذلك

الطريق فآمنوا به ۶۹].

و قد نقل بعض المفسّرين ما يشابه هذا المعنى فى أوّل السورة، و لكن جاء فى سبب نزول هذه السورة ما يخالف هذا المعنى، و هو أنّ علقمة بن قيس قال:

قلت لعبد اللّه بن المسعود: من كان منكم مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليلة الجن؟ فقال: ما كان منّا معه أحد، فقدناه ذات ليلة و نحن بمكّة فقلنا: اغتيل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو استطير، فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء، فقلنا: يا رسول اللّه، اين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، و قلنا له: بتنا الليلة بشرّ ليلة بات بها قوم حين فقدناك،

فقال: «إنّه أتانى الجن فذهبت أقرئهم القرآن»[۷۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۰

التّفسير

القرآن العجيب!!

نرجع إلى تفسير الآيات بعد ذكر ما قيل فى سبب النّزول يقول اللّه تعالى: قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً[۷۱].

التعبير ب أُوحِيَ إِلَيَ يشير إلى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يشاهد الجنّ بنفسه بل علم باستماعهم للقرآن عن طريق الوحى، و كذلك يعلم من مفهوم الآية أنّ للجن عقلا و شعورا و فهما و إدراكا، و أنّهم مكلّفون و مسئولون، و لهم المعرفة باللغات و يفرقون بين الكلام الخارق للعادة بين الكلام العادى، و بين المعجز و غير و المعجز، و يجدون أنفسهم مكلّفين بإيصال الدعوة إلى قومهم، و أنّهم هم المخاطبون فى القرآن المجيد، هذه بعض الخصوصيات لهذا الموجود المستور الحى الذى يمكن الاستفادة منها فى هذه الآية، و لهم خصوصيات اخرى سوف نبيّنها فى نهاية هذا البحث، و إنّ شاء اللّه تعالى.

إنّ لهم الحقّ فى أن يحسبوا هذا القرآن عجبا، للحنه العجيب، و لجاذبية محتواه، و لتأثيره العجيب، و لمن جاء به و الذى لم يكن قد درس شيئا و قد ظهر من بين الأميين، و كلام عجيب فى ظاهره و باطنه و يختلف عن أىّ حديث آخر و لهذا اعترفوا بإعجاز القرآن.

لقد تحدثوا لقومهم بحديث آخر تبيّنه السورة فى (۱۲) آية، و كل منها تبدأ ب (أن) و هى دلالة على التأكيد[۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۱

فيقول أوّلا: بأنّهم قالوا: يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَ لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً التعبير ب «الرّشد» تعبير واسع و جامع، و يمكن أن يستوعب كل امتياز، فهو الطريق المستقيم من دون اعوجاج، و هو الضياء و الوضوح الذى يوصل المتعلقين به إلى محل السعادة و الكمال.

و بعد إظهار الإيمان و نفى الشرك باللّه تعالى ينتقل كلامهم إلى تبيان صفات اللّه تعالى: وَ أَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَ لا وَلَداً.

«جد»: لها معان كثيرة فى اللغة، منها: العظمة، و الشدّة، و الجد، و القسمة، و النصيب، و غير ذلك، و أمّا المعنى الحقيقى لها كما يقول الراغب فى المفردات فهو «القطع»، و تأتى بمعنى «العظمة» إذا كان هناك كائن عظيم منفصل بذاته عن بقية الكائنات، و كذلك يمكن الأخذ بما يناسب بقية المعانى التابعة لها، و إذا ما أطلقنا لفظة «الجد» على والدى لأبوين فإنّما يعود ذلك إلى كبر مقامهما أو عمرهما، و ذكر آخرون معانى محدودة لهذه الكلمة فقد فسّروها بالصفات، و القدرة، و الملك، و الحاكمية، و النعمة، و الاسم، و تجتمع كل هذه المعانى فى معنى العظمة، و هناك ادعاء فى أنّ المقصود هنا هو الأب الأكبر «الجد» و تشير الرّوايات إلى أنّ الجنّ و

لقلّة معرفتهم اختاروا هذا التعبير غير المناسب، هذا إشارة إلى نهيهم عن ذكر هذه التعابير[۷۳].

و يمكن أن يكون هـذا الحـديث ناظرا إلى الموارد التى يتداعى فيها هذا المفهوم، و إلّا فإنّ القرآن يذكر هذا التعبير بلحن الموافق فى هذه الآيات، و إلّا لم و قد ذكر هذا التعبير أيضا

فى نهج البلاغة، كما فى الخطبة (۱۹۱): «الحمد للّه الفاشى فى الخلق حمده، و الغالب جنده، و المتعالى جدّه».

و ورد فى بعض الرّوايات أنّ أنس بن مالك قد قال: كان الرجل إذا قرأ سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۲

البقرة جد فى أعيننا[۷۴].

على كل حال فإنّ اسـتعمال هذه اللفظة فى المجد و العظمة مطابق لما ورد فى نصوص اللغة، و من الملاحظ أنّ خطباء الجن معتقدون بأنّ اللّه ليس له صاحبـة و لا ولـد، و يحتمل أن يكون هـذا التعبير نفى للخرافـة المتداولة بين العرب حيث قالوا: إنّ للّه بنات لزوجة من الجن قد اتّخذها لنفسه، و ورد هذا الاحتمال فى تفسير الآية (۱۵۸) من سورة الصافات: وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً.

ثمّ قالوا: وَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً.

و يحتمل أنّ التعبير ب «السـفيه» هنا بمعنى الجنس و الجمع، أى أنّ سفهاءنا قالوا: إنّ للّه زوجة و أطفالا، و اتّخذ لنفسه شريكا و شبيها، و إنّـه قـد انحرف عن الطريـق، و كـان يقـول شـططا، و احتمـل بعض المفسّـرين أنّ «السـفيه» هنـا له معنى انفرادى، و المقصـود به هو «إبليس» الذى نسب إلى اللّه نسب ركيكة، و ذلك بعد مخالفته لأمر اللّه، و اعتراضه على اللّه فى السـجود لآدم عليه السّـلام ظنّا منه أنّ له الفضل على آدم، و أنّ سجوده لآدم بعيد عن الحكمة.

و لمّا كان إبليس من الجن، و كان قد بدا منه ذلك، اشمأز منه المؤمنون من الجن و اعتبروا ذلك منه شططا، و إن كان عالما و عابدا، و لأن العالم بلا عمل، و العابد المغرور من المصاديق الواضحة للسفيه.

«شـطط» على وزن وسـط، و تعنى الخروج و الابتعـاد عن قول الحقّ، و لهـذا تسـمّى الأنهـار الكـبيرة التى ترتفع سواحلهـا عن المـاء ب «الشط».

ثمّ قالوا: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

لعـل هـذا الكلام اشـارة إلى التقليـد الأعمى للغير، حيث كانوا يشـركون باللّه و ينسـبون إليه الزوجـة و الأولاد، و فهنا يقولوا: لقـد كنّا نصدقهم بحسن ظننا بهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۳

و نقول بمقالتهم الخاطئة، و ما كنّا نظنهم يتجرءون على اللّه بهذه الأكاذيب، و لكننا الآن نخطّئ هذا التقليد المزيف لما عرفنا من الحق و الإيمان بالقرآن، و نقر بما التبس علينا، بانحراف المشركين من الجنّ.

ثمّ ذكروا احدى الانحرافات للجن و الإنس و قالوا: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً.

«رهق» على وزن (شـفق) و يعنى غشـيان الشـىء بالقهر و الغلبـة، و فسّـر بالضـلال و الذنب و الطغيان و الخوف الذى يسـيطر على روح الإنسان و قلبه و يغشـيه، و قيل إنّ هذه الآية تشـير إلى إحدى الخرافات المتداولة فى الجاهلية، و هى أنّ الرجل من العرب كان إذا نزل الوادى فى سفره ليلا قال: أعوذ بعزيز هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه ۷۵].

و بما أنّ الخرافات كانت منشأ لازدياد الانحطاط الفكرى و الخوف و الضـلال فقد جاء ذكر هذه الجملة فى آخر الآية و هى: فَزادُوهُمْ رَهَقاً.

و ذكر فى الآية بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ ممّا يستفاد منه أنّ فيهم إناثا و ذكورا[۷۶].

على كل حال فإنّ للآيـة مفهوما واسـعا، يشـمل جميع أنواع الالتجاء إلى الجنّ، و الخرافة المذكورة هى مصداق من مصاديقها، و كان

فى أوساط العرب كهنة كثيرون يعتقدون أنّ الجن باستطاعتهم حلّ الكثير من المشاكل و إخبارهم بالمستقبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۴

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۷ الى ۱۰]

اشارة

وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً (۷) وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً (۸) وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً (۹) وَ أَنَّا لا نَدْرِي أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً (۱۰)

التّفسير

كنّا من قبل نسترق السمع و لكن ...

يشير سياق الآية إلى استمرار حديث المؤمنين من الجن، و تبيان الدعوة لقومهم، و دعوتهم إلى الإسلام بالطرق المختلفة، و فيقولون: وَ أَنَّهُمْ ظَنُّوا كَما ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً.

لذا تبادروا لإنكار القرآن و تكذيب نبوّة الرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كنا عند سماعنا لآيات القرآن أدركنا الحقائق، فلا تكونوا كالإنس و تتخذوا طريق الكفر فتبتلوا بما ابتلوا به.

و هذا تحذير للمشركين ليفيقوا عند سماعهم لكلام الجن و تحكيمهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۵

و ليتمسكوا بالقرآن و بالنّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال البعض: إنّ الآية أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً تشير إلى إنكار البعث لا إلى إنكار بعثة الأنبياء، و قال آخرون: إنّ هذه الآية و التى قبلها هى من كلام اللّه تعالى و ليست من كلام مؤمنى الجنّ، و إنّها آيات عرضية جاءت فى وسط حديثهم، و المخاطبون هم مشركو العرب، و طبقا لهذا التّفسير يكون المعنى هكذا، يا مشركى العرب، إنّهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث اللّه أحدا، و لمّا سمعوا الذكر أدركوا خطأهم، و قد حان لكم أن تفيقوا، و لكن هذا القول يبدو بعيدا، بل الظاهر أن الخطاب هو لمؤمنى الجن و المخاطبون هم الكفار منهم.

ثمّ يشيرون إلى علامة صدق قولهم و هو ما يدركه الجن فى عالم الطبيعة، فيقولون: وَ أَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْناها مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَ شُهُباً[۷۷][۷۸].

و كنّا فى السابق نسترق السمع من السماء و نحصل على أخبار الغيب و نوصلها إلى أصدقائنا من الإنس و لكننا منعنا من ذلك الآن: وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً أليس هذا الوضع الجديد دليل على حقيقة التغيير العظيم الحاصل فى العالم عند ظهور الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كتاب اللّه السماوى، لماذا كانت لكم القدرة على استراق السمع و الآن سلبت منكم هذه القدرة؟ أليس معنى هذا انتهاء عصر الشيطنة و الكهانة و الخداع، و انتهاء ظلمة الجهل بشروق شمس الوحى و النّبوة؟

«شهاب» لهب من النار، و يطلق أيضا على الأنوار النّارية الممتدة فى السماء، و هى قطع حجرية صغيرة متحركة فى الفضاء الخارجى للكرة الأرضية، كما يقول علماء الفلك، و تتأثر بجاذبية الأرض عند وصولها إلى مقربة منها فتسقط على شكل شعلة نارية حارقة، لأنّها عند ما تصل إلى طبقات الهواء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۶

الكثيفة و تصطدم لها تتحول إلى شعلة نارية، ثمّ تصل إلى الأرض بصورة رماد، و قد ذكرت الشهب كرارا فى القرآن المجيد، و أنّها كالسهام ترمى صوب الشياطين الذين يريدون أن يسترقوا السمع من السماء، و قد أوردنا بحوثا مفصّلة حول كيفية إخراج الشياطين من السماء بالشهب، و ما يراد من استراق السمع، و ذلك فى ذيل الآية (۱۸) من سورة الحجر و ما يليها، و فى ذيل الآية (۱۰) من سورة الصافات و ما يليها.

«رصد» على وزن حسد، و هو التهيؤ لانتظار شىء و يعبّر عنه ب (الكمين) و تعنى أحيانا اسم فاعل بمعنى الشخص أو الشّىء الذى يمكن، و هذا ما أريد به فى هذه الآيات.

ثمّ قالوا: وَ أَنَّا لا نَدْرِى أَ شَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِى الْأَرْضِ أَمْ أَرادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً.

أى مع كل هذا فإنّنا لا ندرى أ كان هذا المنع من استراق السمع دليل على مكيدة تراد بأهل الأرض، أم أراد اللّه بذلك المنع أن يهديهم، و بعبارة أخرى أنّنا لا ندرى هل هذه هو مقدمة لنزول البلاء و العذاب من اللّه، أم مقدمة لهدايتهم، و لكن لا يخفى على مؤمنى الجن أنّ المنع من استراق السمع الذى تزامن مع ظهور نبيّنا الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو مقدمة لهداية البشرية، و انحلال جهاز الكهانة و الخرافات الأخرى، و ليس هذا إلّا انتهاء لعصر الظلام، و ابتداء عصر النّور.

و مع هذا، فإنّ الجن و لعلاقتهم الخاصّة بمسألة استراق السمع لم يكونوا يصدقون بما فى ذلك المنع من خير و بركة، و إلّا فمن الواضح أن الكهنة فى العصر الجاهلى كانوا يستغلون هذا العمل فى تضليل الناس.

و الجدير بالذكر أنّ مؤمنى الجنّ صرّحوا بالفاعل لإرادة الهدية فنسبوه إلى اللّه، و جعلوا فاعل الشّر مجهولا، و هذا إشارة إلى أنّ ما يأتى من اللّه فهو خير، و ما يصدر من الناس فهو الشرّ و فساد إذا ما أساءوا التصرف بالنعم الإلهية، ثمّ إنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۷

المفروض أن يذكر لفظ «الخير» فى مقابل «الشرّ»، و لكن بما أنّ الخير هنا تعنى الرّشد و الهداية، لذا اكتفى بذكر المصداق فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۸

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً (۱۱) وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِى الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً (۱۲) وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً (۱۳) وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (۱۴) وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (۱۵)

التّفسير

إنّ سمعنا الحقّ فأطعناه:

فى هذه الآيات يستمر مؤمنو الجن فى حديثهم و هم يبلغون قومهم الضالّين فيقولون: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ كُنَّا طَرائِقَ قِدَداً.

و يحتمل أن يكون المراد من قولهم هذا هو أن وجود إبليس فيما بينهم قد أوجد شبهة لبعضهم، بأنّ الجن متطبّع على الشرّ و الفساد و

الشيطنة، و محال أن يشرق نور الهداية فى قلوبهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۸۹

و لكن مؤمنى الجن يوضحون فى قولهم هذا أنّهم يملكون الإختيار و الحرية، و فيهم الصالح و الطالح، و هذا يوفرّ لهم الأرضية للهداية، و أساسا فإنّ أحد العوامل المؤثرة فى التبليغ هو إعطاء الشخصية للطرف المقابل، و توجيهه إلى وجود عوامل الهداية و الكمال فى نفسه.

و احتمل أيضا أنّ الجن قالوا ذلك لتبرئة ساحتهم من موضوع الإساءة فى مسألة استراق السمع أى: و إن كان منّا من يحصل على الأخبار عن طريق استراق السمع و وضعها بأيدى الأشرار لتضليل الناس، و لكن لا يعنى ذلك أنّ الجن كلهم كانوا كذلك، و لهذه الآية تأثير فى إصلاح ما اشتبه علينا نحن البشر فى عقائدنا حول الجن، لأنّ كثير من الناس يتصورون أنّ لفظة الجن تعنى الشيطنة و الفساد و الضلال و الانحراف، و سياق هذا الآية يشير إلى أنّ الجن فصائل مختلفة، صالحون و طالحون.

«قدد» على وزن (ولد) و هو جمع قد، على وزن (ضد) و تعنى المقطوع، و تطلق على الجماعات المختلفة، لأنّها تكون على شكل قطع منفصلة عن بعضها.

و فى إدامة حديثهم يحذرون الآخرين فيقولون: وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَ لَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً و إذا كنتم تتصورون أنّكم تستطيعون الفرار من جزاء و تلتجئون إلى زاوية من زوايا الأرض أو نقطة من نقاط السماوات فإنّكم فى غاية الخطأ.

و على هذا الأساس، فإنّ الجملة الأولى إشارة إلى الفرار من قبضة القدرة الإلهية فى الأرض، و الجملة الثّانية إشارة إلى الفرار المطلق، الأرض و السماء.

و يحتمل أن يكون تفسير الآية هو أنّه الجملة الأولى إشارة إلى أنّه لا يمكن الغلبة على اللّه، و الجملة الثّانية إشارة إلى أنّه لا يمكن الفرار من قبضة العدالة، فإذا لم يكن هناك طريق للغلبة و لا للفرار، فلا علاج إلّا التسليم لأمر اللّه تعالى و عدالته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۰

و أضاف مؤمنو الجن فى حديثهم قائلين: وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدى آمَنَّا بِهِ و إذ ندعوكم لهدى القرآن فإنّنا ممّن عمل بذلك أوّلا، و لذا نحن لا ندعو الآخرين إلى أمر لم نكن فاعليه.

ثمّ بيّنوا عاقبة الإيمان فى جملة قصيرة واحدة فقالوا: فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخافُ بَخْساً وَ لا رَهَقاً.

«بخس»: على وزن (شخص) و يراد به النقص على سبيل الظلم.

«رهق»: على وزن (سقف) يراد به- و كما أشرنا من قبل- غشيان السيء بالقهر، و قال البعض: إنّ البخس هو عدم نقصان شيء من حسناتهم، و الرهق: هو عدم إضافه شيء إلى سيئاتهم، قيل البخس: هو نقص الحسنات، و الرهق:

التكاليف الشاقة، على كل حال فالمراد هو أن المؤمنين مهما يعملوا من عمل كبيرا كان أو صغيرا فإنّهم يستوفون أجور ذلك بلا نقص أو قلّة، و صحيح أنّ العدالة الإلهية غير منحصرة بالمؤمنين، لكنّ الطالحين ليس لهم عمل صالح، فليس هناك ذكر لأجورهم.

و فى الآية الأخرى توضيح أكثر حول عاقبة المؤمنين و الكافرين فيقولون:

وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَ مِنَّا الْقاسِطُونَ ۷۹] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً.[۸۰] وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.

الملاحظ فى الآيات أن كلمة «المسلم» جاءت مقابل كلمة «الظالم»، و إشارة إلى أن ما يقى الإنسان من الظلم هو الإيمان، و إذا لم يكن الفرد مؤمنا فإنّه سوف يظلم بأى شكل من الأشكال، و كذا تشير إلى أنّ المؤمن الحقيقى هو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۱

المؤمن الذى لا يظلم، كما

فى حديث النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «المؤمن من آمنه الناس على أنفسهم و أموالهم».[۸۱]

و

جاء فی حدیث آخر عنه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه و یده».[۸۲]

و التعبیر ب تَحَرَّوْا رَشَداً یشیر إلی أنّ المؤمنین إنّما یتوجهون إلی الهدی بالتحقیق و التوجه الصادق، و لیس بالغفلة و الأغماض، و جزاءهم الأوفی هو نیلهم الحقائق التی بظلها ینالون النعم الإلهیة، و الظالمون هم فی أسوأ حال، حیث إنّهم حطب لجهنم، أی أنّ النار تلتهب فی أعماق وجودهم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۲

الآیات [سورة الجن (۷۲): الآیات ۱۶ الی ۱۹]

اشارة

وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْناهُمْ ماءً غَدَقاً (۱۶) لِنَفْتِنَهُمْ فِیهِ وَ مَنْ یُعْرِضْ عَنْ ذِکْرِ رَبِّهِ یَسْلُکْهُ عَذاباً صَعَداً (۱۷) وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (۱۸) وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ یَدْعُوهُ کادُوا یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً (۱۹)

التّفسیر

الفتنة باغدق النعمة:

هذه الآیات تشیر ظاهرا إلی استمرار الجن فی حدیثهم مع قومهم: (و إن کان بعض المفسّرین یعتبرون هذه الآیة معترضة بین کلام الجن) و لکن اعتراضها خلاف الظاهر، و سیاق هذه الآیات یشابه السابقة و الذی کان من کلام الجن، و لذا یستبعد أن یکون هذا الکلام هو لغیر الجن.[۸۳]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۳

علی کل حال فإنّ سیاق الآیات السابقة یشیر إلی ثواب المؤمنین فی یوم القیامة، و فی هذه الآیات یتحدث عن ثوابهم الدّنیوی فیقول: وَ أَنْ لَوِ اسْتَقامُوا عَلَی الطَّرِیقَةِ لَأَسْقَیْناهُمْ ماءً غَدَقاً ننزل علیهم مطر رحمتنا، و نذلل لهم منابع و عیون الماء الذی یهب الحیاة و بوجود الماء یوجد کل شیء و علی هذا فإنّنا نشملهم بأنواع النعم.

«غدق» علی وزن شفق، و تعنی الماء الکثیر القرآن المجید اکّد و لعدّة مرات علی أنّ الإیمان و التقوی لیست فقط منبعا للبرکات المعنویة، بل تؤدّی إلی زیادة الأرزاق و النعم و العمران، أی (البرکة و المادیة).

(لنا بحث مفصل فی هذا الباب فی نفس المجلد فی تفسیر سورة نوح علیه السّلام ذیل الآیة ۱۲ تحت عنوان الرابطة بین الإیمان و التقوی و بین العمران).

الملاحظ حسب هذا البیان أنّ سبب زیادة النعمة هو الاستقامة علی الإیمان، و لیس أصل الإیمان، لأنّ الإیمان المؤقت لا یستطیع أن یظهر هذه البرکات، فالمهم هو الاستقامة و الاستمرار علی الإیمان و التقوی، و لکن هناک الکثیر ممن تزل أقدامهم فی هذا الطریق.

و الآیة الأخری إشارة إلی حقیقة أخری بنفس الشأن، فیضیف: لِنَفْتِنَهُمْ هل أنّ کثرة النعم تتسبب فی غرورهم و غفلتهم؟ أم أنّها تجعلهم یفیقون و یشکرون و یتوجهون أکثر من ذی قبل إلی اللّه؟

و من هنا یتّضح أن وفور النعمة من إحدی الأسباب المهمّة فی الامتحان الإلهی، و ما یتفق علیه هو أنّ الاختبار بالنعمة أکثر صعوبة و تعقیدا من الاختبار بالعذاب، لأنّ طبیعة ازدیاد النعم هو الانحلال و الکسل و الغفلة، و الغرق فی الملذات و الشهوات، و هذا ما یبعد

الإنسان عن اللّه تعالى و يهيء الأجواء لمكائد الشيطان، و الذين يستطيعون أن يتخلصوا من شراك النعم الوافرة هو الذاكرون للّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۴

على كلّ حال، غير الناسين له تعالى، حيث يحفظون قلوبهم بالذكر من نفوذ الشياطين ۸۴].

و لذا يضيف تعقيبا على ذلك: وَ مَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذاباً صَعَداً.

«صعد»: على وزن (سفر) و تعنى الصعود إلى الأعلى، و أحيانا الشعب المتعرجة فى الجبل، و بما أنّ الصعود من الشعاب المتعرجة عمل شاق، فإنّ هذه اللفظة تستعمل بمعنى الأمور الشّاقة، و فسّرها الكثير بمعنى العذاب الشّاق، و هو مماثل لما جاء فى الآية (۱۷) من سورة المدّثر حول بعض المشركين: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

و لكن، أنّه مع أنّ التعبير أعلاه يبيّن كون هذا العذاب شاقّا شديدا فإنّه يحتمل أن يشير إلى اليوم الطويل، و على هذا الأساس فإنّه يبيّن فى الآيات أعلاه رابطة الإيمان و التقوى بكثرة النعم من جهة، رابطة كثرة النعم بالاختبارات الإلهية من جهة أخرى و رابطة الإعراض عن ذكر اللّه تعالى بالعذاب الشاق الطويل من جهة ثالثة، و هذه حقائق أشير إليها فى الآيات القرآنية الأخرى كما نقرأ فى الآية (۱۲۴) من سورة طه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً.

و كذا فى الآية (۴۰) من سورة النمل عن لسان سليمان عليه السّلام: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ، و ما جاء فى الآية (۲۸) من سورة الأنفال:

وَ اعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَ أَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ.

و قال مؤمنو الجن فى الآية الأخرى و هم يدعون إلى التوحيد: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً و للمساجد فى هذه الآية تفاسير عديدة منها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۵

أولا: قيل هى المواطن التى يسجد فيها للّه تعالى كالمسجد الحرام و بقية المساجد، و بشكل أعم هى الأرض التى يصلّى فيها و يسجد عليها، و هو مصداق

القول الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا».[۸۵]

و هذا ردّ لمن اتّخذ الأصنام و الأوثان للعبادة فأشرك باللّه، و من اتّخذ الكعبة معبدا للأصنام، أو انصرف إلى إحياء الطقوس المسيحية حيث (التثليث) أو عبد الأرباب الثّلاثة فى الكنائس و اللّه تعالى يقول: أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ثانيا: المراد بالمساجد السبعة الأعضاء السبعة، فيجب أن يكون وضعها على الأرض خالصا للّه، و لا يجوز أن يكون لغيره، كما ورد فى الحديث عن الإمام محمّد بن على الجواد عليهما السّلام و هو يجيب المعتصم فى مجلسه الذى كان قد جمع فيه العلماء من أهل السنة حيث سأله عن يد السارق من أى موضع يجب أن تقطع؟ فقال بعض الجالسين تقطع من الساعد و استدلوا فى ذلك بآية التيمم، و قال آخرون من المرفق و استدلوا فى ذلك بآية الوضوء، فأراد المعتصم جواب ذلك من الإمام الجواد عليه السّلام فرفض و

قال: «أعفنى عن ذلك»

فأصرّ عليه المعتصم.

فقال الإمام الجواد عليه السّلام: «ما قيل فى ذلك خطأ، و إنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع فتترك الكف». فقال: و ما الحجّة فى ذلك؟

قال الإمام عليه السّلام: «قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: السجود على سبعة أجزاء، الوجه، و اليدين، و الركبتين، و الرجلين، فإذا قطع من الكرسوع أو المرفق لم يدع له يد يسجد عليه، و قال اللّه تعالى شأنه: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ ... أى إنّ هذه الأعضاء السبعة خاصّة للّه، فما كان للّه لا يقطع»[۸۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۶

فتعجب المعتصم لجواب الإمام علیه السّلام و أمر أن تقطع ید السارق من مفصل اصول الأصابع، کما قال الإمام علیه السّلام و ذکرت فی ذلک أحادیث کثیرة.[۸۷] و لکن الأحادیث المنقولة بها الشأن هی مرسلة غالبا، أو أنّ سندها ضعیف، و هناک نقائض لها لیس من السهل الإجابة علیها، فمثلا ما هو مشهور فی أوساط الفقهاء أنّ السارق إذا ما سرق للمرّة الثّانیة تقطع الأقسام الأمامیة لقدمه، و یترکون کعب القدم سالما (هذا بعد إقامة الحدّ علیه جزاء السرقة الاولی) و الواضح أنّ الأصبع الکبیر للقدم یعتبر من المساجد السبعة، و کذا فی شأن المحارب فإنّ إحدی عقوباته هو مقطع قسم من الید و القدم.

ثالثا: قیل إنّ المراد بالمساجد هو السّجود، أی أنّ السجود یجب أن یکون دائما للّه تعالی و لا یکون لغیره، و هذا خلاف ظاهر الآیة حیث لا دلیل علیه.

و یستفاد من مجموع ما قیل أنّ ما یناسب ظاهر الآیة هو التّفسیر الأوّل، و کذا یناسب ظاهر الآیات السابقة و اللاحقة فی شأن التوحید، و تخصیص العبادة للّه، و التّفسیر الثّانی یمکن أن یکون موسعا لمعنی الآیة، و أمّا الثّالث فلا دلیل علیه.

و یضیف فی إدامة الآیة بیانا عن التأثیر غیر العادی للقرآن المجید و قیام الرّسول للدّعاء فیقول: وَ أَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللَّهِ یَدْعُوهُ کادُوا یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً[۸۸]، أی عند ما کان رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلم یقوم للصلاة، فإنّ طائفة من الجن کانوا یجتمعون علیه بشکل متزاحم.

«لبد»: علی وزن (فعل) و تعنی الأشیاء المجتمعة المتراکمة، و هذا التّعبیر بیان لتعجب الجنّ ممّا یشاهدونه من عبادته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قراءته قرآنا لم یسمعوا کلاما یماثله، و قیل فی ذلک قولان آخران:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۷

الأوّل: أنّهم- أی الجن- یبیّنون حال أصحاب الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و المجتمعین علیه المقتدین به فی صلاته إذا صلّی و المنصتین لما یتلوه کلام اللّه، و المراد من ذلک هو الاقتداء الجنّ بهم و الإیمان فی ذلک.

الثّانی: لبیان حال المشرکین، أی لمّا قام النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یعبد اللّه بالصلاة کاد المشرکون بازدحامهم أن یکونوا علیه لبدا مجتمعین متراکمین لیستهزئوا به.

و الوجه الأخیر لا یلائم هدف مبلغی الجن الذین أرادوا ترغیب الآخرین فی الإیمان و المناسب هو أحد القولین السابقین.

ملاحظة

التّحریف فی تفسیر الآیة: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ

إنّ مسألة التوسل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و بأولیاء دین اللّه علیهم السّلام تعنی اتّخاذهم وسیلة و ذریعة الی اللّه تعالی، و هذا ممّا لا یتنافی مع حقیقة التوحید و لا مع آیات القرآن، بل هی تأکید علی التوحید و علی أنّ کلّ شیء هو من عند اللّه، و أشیر إلی الشفاعة و طلب النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المغفرة للمؤمنین فی کثیر من آیات القرآن ۸۹] و بهذا یصرّ بعض المبتعدین عن التعالیم الإسلامیة و القرآن الکریم علی إنکار شیء من قبیل التوسل و الشفاعة.

و قد تذرعوا بعدة ذرائع لإثبات مقاصدهم، منها ما یقولهم: إنّ الآیة: وَ أَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً تعنی أنّ اللّه یأمر ألّا تدعوا معه أحدا، و لا ندعوا غیره أو نطلب الشفاعة من غیره! و الإنصاف أنّ ما قالوه لا یناسب سیاق الآیة و لا یرتبط هذا المعنی بالآیة، بل الهدف من الآیة نفی الشرک، أی جعل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۸

الشىء مع اللّه فى مرتبة واحدة فى العبادة أو طلب الحاجة، و بعبارة أخرى أنّ المشرك هو من يبتغى الحوائج من غير اللّه تعالى و يجعل له الخيرة و يظن أنّ قضاء حوائجه منه.

كما أنّ كلمة (مع) فى الآية: فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً تشير إلى هذا المعنى، و هو ألّا يجعل مع اللّه أحدا، و يكون ذلك مبدءا للتأثير المستقل، و ليست نفيا لتشفع الأنبياء أو جعلهم وسطاء عند اللّه تعالى، بل إنّ القرآن الكريم يطلب أحيانا ذلك من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه و أحيانا أخرى يأمر بطلب الشفاعة من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كما نقرأ فى الآية (۱۰۳) من سورة التوبة: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ

و كذا الآية (۹۷) من سورة يوسف عن لسان إخوته و هم يخاطبونه أباهم:

يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ فلم يرفض النّبى يعقوب عليه السّلام ذلك الطلب، بل وعدهم فى ذلك و قال: سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى

و لهذا فإنّ مسألة التوسل و طلب الشّفاعة كما تقدم هى من المفاهيم الصريحة فى القرآن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۹۹

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۲۰ الى ۲۴]

اشارة

قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (۲۰) قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً (۲۱) قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً (۲۲) إِلاَّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً (۲۳) حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً (۲۴)

التّفسير

الأمور كلّها بيد اللّه لا بيدى:

فى هذا الآيات يأمر اللّه تعالى نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يقول: قُلْ إِنَّما أَدْعُوا رَبِّى وَ لا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً و ذلك لتقوية قواعد التوحيد، و نفى كلّ أنواع الشرك، كما مرّ فى الآيات السابقة، ثمّ يأمره أن: قُلْ إِنِّى لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً.

ثمّ يضيف: قل لهم بأنّى لو خالفت أمر اللّه تعالى فسوف يحيق بى العذاب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۰

أيضا و لن يستطيع أحد أن ينصرنى أو يدفع عنّى عذابه: قُلْ إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً[۹۰] و على هذا الأساس لا يستطيع أحد أن يجيرنى منه تعالى و لا شىء يمكنه أن يكون لى ملجأ و هذا الخطاب يشير من جهة إلى الإقرار الكامل بالعبودية للّه تعالى، و إلى نفى كلّ أنواع الغلو فى شأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من جهة أخرى، و يشير من جهة ثالثة إلى أنّه الأصنام ليس فقط لا تنفع و لا تحمى، بل إنّ نفس الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أيضا مع ماله من العظمة لا يمكنه أن يكون ملجأ من عذاب اللّه، و ينهى من جهة الذرائع و الآمال للمعاندين الذين كانوا يطلبون من النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يريهم المعاجز الإلهية، و يثبت أن التوسل و الشفاعة أيضا لا يتحققان إلّا بإذنه تعالى.

«ملتحدا»: هو المكان الآمن و هو من أصل (لحد)، و تعنى الحفرة المتطرفة، كالذى يتّخذ للأموات فى عمق القبر حتى لا ينهال التراب على وجه الميت و يطلق على كل مكان يلجأ و يطمأن إليه.

و من الملاحظ أنّ الآية: قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لا رَشَداً و قد جعلت الضرّ فى قابل الرشد، لأنّ النفع الحقيقى يمكن فى الهداية، كما فى حديث الجن فى الآيات السابقة إذ اتّخذ الشرّ فى قبال الرشد، و الاثنان متماثلان معا.

و يضيف فى الآية الأخرى: إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَ رِسالاتِهِ ۹۱]، و قد مرّ ما يشابه هذا التعبير مرارا فى آيات القرآن الكريم، كما فى الآية (۹۲) من سورة المائدة: أَنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ

و كذا فى الآية (۱۸۸) من سورة لأعراف:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۱

قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

و قيل أيضا فى تفسير هذه الآية: إنّ المعنى: قل لن يجيرنى من اللّه أحد إلّا تبليغا منه و من رسالاته، أى إلّا أن أمتثل ما أمرنى به من التبليغ منه تعالى.[۹۲] و أمّا عن الفرق بين «البلاغ» و «الرسالات» فقد قيل: إنّ البلاغ يخص اصول الدين، و الرسالات تخصّ بيان فروع الدين.

و قيل المراد من إبلاغ الأوامر الإلهية، و الرسالات بمعنى تنفيذ تلك الأوامر، و لكن الملاحظ أنّ الإثنين يرجعان إلى معنى واحد، بقرينة الآيات القرآنية المتعددة: و كقوله تعالى فى الآية (۶۲) سورة الأعراف فيقول: أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي و غيرها من الآيات، و يحذر فى نهاية الآية فيقول: وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أَبَداً.

الواضح أنّ المراد فيها ليس كلّ العصاة، بل المشركون و الكافرون لأنّ مطلق العصاة لا يخلدون فى النّار.

ثمّ يضيف: حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ ناصِراً وَ أَقَلُّ عَدَداً.[۹۳] و فى المراد من العذاب فى: ما يُوعَدُونَ هل هو العذاب الدنيوى أم الاخروى أم الاثنان معا؟ ورد فى ذلك أقوال، و الأوجه هو أن يكون المعنى عامّا، و فيما يخصّ الكثرة و القلّة و الضعف و القوّة للأنصار فإنّه متعلق بالدنيا، و لذا فسّره البعض بأنّه يتعلق بواقعة بدر التى كانت قوّة و قدرة المسلمين فيها ظاهرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۲

و واضحة و قيل حسب الرّوايات المتعددة أنّها تخصّ الإمام المهدى (أرواحنا فده) و إذا أردنا تفسير الآية بمعانيها فإنّها تشمل كلّ ذلك.

إضافة إلى ما جاء فى الآية (۷۵) من سورة مريم عليها السّلام: حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً و على كل حال فإنّ سياق هذه الآية يشير إلى أنّ أعداء الإسلام كانوا يتبجّحون قدرات جيوشهم و كثرة جنودهم أمام المسلمين يستضعفونهم، الأنصار لهذا كان القرآن يواسيهم و يبشرهم بأنّ العاقبة ستكون بانتصارهم و خسران عدوهم.

***

ملاحظات

۱- صفاء القادة الإلهيين

إحدى خصوصيات القادة الإلهيين هى أنّهم بعكس العادة الشيطانيين، ليسوا بمغرورين و لا متكبرين و لا ممن يدّعون ما ليس فيهم.

فإذا كان فرعون ينادى لحماقته: أنّا ربّكم الأعلى! و هذه الأنهار تجرى من تحتى، فإنّ الإلهيون يرون أنفسهم من أصغر عباد اللّه لشدّة تواضعهم للّه، و ما كانوا يحسبون لأنفسهم قدرة أمام إرادة اللّه تعالى، كما نقرأ فى الآية (۱۱۰) من سورة الكهف: قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ و ورد فى موضع آخر: وَ ما أَدْرِى ما يُفْعَلُ بِى وَ لا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وَ ما أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

و نقرأ فى آية اخرى: قُلْ لا- أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا- أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا- أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ [۹۴] حتى لو وصلوا إلى ذروة القدرة المادية فإنّهم لا يغترون بها و لا يتيهون فيها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۳

كما قال سليمان عليه السّلام: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى [۹۵] و من الطريف أنّ كثيرا من الآيات القرآنية توجّه خطابات حادة إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تعاتبه ليكون فى أمره على حذر.

إنّ مجموع هذه الآيات و الآيات السابقة هى وثيقة حيّة على أحقّية هذا النّبى العظيم، و إلّا فما هو المانع من أن يدعى لنفسه المنازل العظيمة فوق ما يدركه البشر و هو يعيش فى فئة تتقبل منه ما يدّعيه و من دون احتجاج و تساؤل من الناس كما أشار التاريخ إلى ذلك فى شأن الظالمين.

نعم، إنّ هذا التعابير فى مثل هذه الآيات تكون شواهد حيّة لأحقّية دعوة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

۲- ليس المهم الكم بل الكيف!

أخذ هذا الموضوع بنظر الإعتبار فى كثير من آيات القرآن، و هو أنّ طاغوت كل زمان يتظاهر بكثرة أعوانه، كما فى شأن فرعون عند ما كان يستهين بمن مع موسى عليه السّلام فقال: إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۹۶]، و قال مشركو العرب: نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ و كان المعاند يتظاهر بأمواله و أعوانه، و يفتخر بذلك ليغيظ به المؤمنين، و يقول: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً.[۹۷] و لم يكن المؤمنون السائرون على خط الأنبياء يتأثرون بمظاهر الثروة و غيرها، بل كان قولهم هو: كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ [۹۸] و

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: «أيّها الناس لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۴

أهله»[۹۹]

إنّ تاريخ الأنبياء، و بالخصوص تاريخ حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يشير كيف أن المعاندين على كثرتهم و امتلاكهم لجميع القدرات انكسروا و عجزوا أمام القلّة القليلة من المؤمنين، و تعكس الآيات القرآنية هذا المعنى جيدا و هى تروى قصص بنى إسرائيل و فرعون و طالوت و جالوت، و كذلك ما فى واقعة بدر و الأحزاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۵

الآيات [سورة الجن (۷۲): الآيات ۲۵ الى ۲۸]

اشارة

قُلْ إِنْ أَدْرِى أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً (۲۵) عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً (۲۶) إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ

يَسْلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (۲۷) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (۲۸)

التّفسير

اللّه عالم الغيب:

لقد تبيّن فى الآيات السابقة حقيقة أنّ العصاة يبقون على عنادهم و استهزائهم حتى يأتى وعد اللّه بالعذاب، و هنا يطرح السؤال، و هو: متى يتحقق وعد اللّه؟ و قد بيّن المفسّرون سبب نزول الآية، و ذكروا أنّ بعض المشركين كالنضر بن الحارث سألوا عن وعد اللّه بعد نزول هذه الآيات أيضا، و قد أجاب القرآن على ذلك فقال: قُلْ إِنْ أَدْرِي أَ قَرِيبٌ ما تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً.

هذا العلم يخص ذاته المقدسة تعالى شأنه، و أراد أن يبقى مكتوما حتى عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۶

عباده المؤمنين، ليتحقق الاختبار الإلهى للبشرية، و إلّا فلم يؤثر الاختبار.

«أمد»: على وزن (صمد) و تعنى الزمان، و على ما يقوله الراغب فى مفرداته:

إنّ هناك اختلافا بين الزمان و الأمد، فالزمان يشمل الابتداء و الانتهاء، و أمّا الأمد فإنّها الغاية التى ينتهى إليها.

و قيل أيضا بتقارب المعنى فى الأمد و الأبد مع اختلاف، و هو أنّ الأبد يراد به المدّة غير المحدودة، و أمّا الأمد فهى المدّة المحدودة و إن طالت.

و على كل حال، فإنّنا كثيرا ما نواجه مثل هذه المعانى فى آيات القرآن، و عند ما يسأل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن يوم القيامة يجيب بأنّه ليس لهم علم بذلك، و أن علمه عند اللّه، و

ورد فى حديث أنّ جبرئيل عليه السّلام ظهر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على هيئة أعرابى، فسأله عن الساعة، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» فأعاد عليه السؤال رافعا صوته: يا محمّد متى الساعة؟ فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

«ويحك، إنّها كائنة فما أعددت لها؟» فقال الأعرابى: لم أعد كثيرا من الصلاة و الصيام، و لكن أحبّ اللّه و رسوله، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «فأنت مع من أحببت»، فقال أنس (و هو أحد الصحابة): فما فرح المسلمون بشىء كفرحهم بهذا الحديث.[۱۰۰]

ثمّ يبيّن فى هذا الحديث قاعدة كلية بشأن علم الغيب فيقول: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً.[۱۰۱] ثمّ يضيف مستثنيا: إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

أى يبلغه ما يشاء عن طريق الوحى الإلهى: فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۷

«رصد»: فى الأصل مصدر، و يراد به الاستعداد للمراقبة من شىء، و يطلق على الاسم الفاعل و المفعول، و يستعمل فى المفرد و الجمع، أى يطلق على المراقب و الحارس أو على المراقبين و الحرّس.

و يراد به هنا الملائكة الذين يبعثهم اللّه مع الوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليحيطوه من كل جانب، و يحفظوا الوحى من شرّ شياطين الجنّ و الإنس و وساوسهم: و من كل شىء يخدش أصالة الوحى، ليوصلوا الرسالات إلى العباد من دون خدش أو زيادة أو نقصان، و هذا هو دليل من الأدلة على عصمة الأنبياء عليهم السّلام المحفوظين من الزّلات و الخطايا بالإمداد الإلهى و

القوة الغيبية، و الملائكة.

فى بحثنا للآية الأخيرة التى تنهى السورة تبيان لدليل وجود الحراس و المراقبين فيقول: لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً[۱۰۲].

المراد من العلم هنا هو العلم الفعلى، و بعبارة أخرى ليس معنى الآية أنّ اللّه ما كان يعلم عن أنبيائه شيئا ثمّ علم، لأنّ العلم الإلهى أزلى و أبدى و غير متناه، بل إنّ المراد هو تحقق العلم الإلهى فى الخارج، و يتخذ لنفسه صورة عينية واضحة، أى ليتحقق إبلاغ الأنبياء و رسالات ربّهم و يتمموا الحجّة بذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۸

بحوث

۱- تحقيق موسّع حول علم الغيب

من خلال التمعن فى الآيات المختلفة للقرآن الكريم يتّضح لنا أنّ الآيات المتعلقة بعلم الغيب قسمان:

القسم الأوّل: ما يتعلق بذاته جلّ شأنه و لا يعلمه إلّا هو، كما فى الآية (۵۹) من سورة الأنعام: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ و الآية (۶۵) من سورة النمل: قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ و كما ورد فى شأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية (۵۰) من سورة الأنعام: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ

و نقرأ فى الآية (۱۸۸) من سورة الأعراف: وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ و أخيرا نقرأ فى الآية (۲۰) من سورة يونس: فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ و غيرها من الآيات.

القسم الثّانى: يطرح بوضوح اطلاع أولياء اللّه على الغيب، كما نقرأ فى الآية (۱۷۹) من سورة آل عمران: ما كانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشاءُ و نقرأ فى معاجز المسيح صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۱۰۳] و الآية السابقة مورد البحث أيضا تشير إلى أنّ اللّه تعالى يهب العلم لمن يرتضيه من رسله: (و ذلك لأنّ استثناء النفى إثبات)، و من جهة أخرى فإنّ الآيات التى تشمل الأخبار الغيبية ليست بقليلة. كالآية الثّانية حتى الرّابعة من سورة الروم: غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ و تقول الآية (۸۵) من سورة القصص: إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۰۹

و تقول الآية (۲۷) من سورة الفتح: لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ

و من المعروف أنّ الوحى السماوى الذى يهبط على الرسل هو نوع من الغيب الذى أطلعهم اللّه عليه، فكيف يمكن أن ننفى اطلاعهم بالغيب فى الوقت الذى يهبط عليهم الوحى.

بالإضافة إلى ذلك كلّه فإنّ هناك روايات كثيرة تدل على أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة المعصومين عليهم السّلام مطّلعون على الغيب، و يخبرون به أحيانا، فمثلا نجد ذلك فى قصّة «فتح مكّة» و حادث حاطب بن أبى بلتعة الذى كتب كتابا لأهل مكّة و سلمه لامرأة تدعى «سارة» لتوصله إلى مشركى مكّة، و أطلعهم فيه على نيّة الرّسول فى الهجوم على مكّة، فأخفت تلك المرأة الكتاب فى ضفائرها، قصدت الذّهاب إلى مكّة، فأرسل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إليها أمير المؤمنين عليه السّلام و معه بعض أصحابه و

قال لهم: «ستجدون امرأة عندها كتاب من حاطب إلى المشركى قريش فى منزل يسمّى (خاخ)»

فلمّا وجدوها أنكرت عليهم الكتاب، و لكنّها سرعان ما اعترفت و أخذوا منها الكتاب ۱۰۴].

و كذلك إخبارهم بحوادث معركة مؤتة، و استشهاد جعفر الطيار عليه السّلام و بعض القادة المسلمين، فى الوقت الذى كان الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يطلع الناس على ذلك فى المدينة[۱۰۵]، و الأمثلة على ذلك ليست قليلة فى حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و ورد فى نهج البلاغة أيضا أخبار كثيرة سابقة لأوانها تشير إلى حوادث مستقبلية، أخبر عنها أمير المؤمنين عليه السّلام، ممّا يدل على اطلاعه عليه السّلام بأسرار الغيب، كما

جاء فى الخطبة (۱۳) فى ذمّة أهل البصرة حيث يقول: «كأنّى بمسجدكم كجؤجؤ لسفينة قد بعث اللّه عليها العذاب من فوقها و من تحتها و غرق من فى ضمنها».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۰

و وردت فى روايات أخرى عن طريق الخاصّة و العامّة أخبار متعددة عنه عليه السّلام و هى سابقة لأوانها،

كقوله لحجر بن قيس: «إنّك من بعدى تجبر على لعنى»[۱۰۶].

و ما

قاله فى مروان: «إنّه يحمل راية الضلال بعد الكبر على أكتافه»[۱۰۷].

و ما

قاله كميل بن زياد للحجاج أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام قد أخبرنى بأنّك قاتلى.[۱۰۸]

و ما

قاله عليه السّلام فى خوارج النهروان: «إنّه لا يقتل منّا فى حربهم عشرة و لا ينجو منهم إلّا عشرة»[۱۰۹]

و قد حدث ما قال عليه السّلام.

و ما قاله حول موضع قبر الإمام الحسين عليه السّلام عند مروره بكربلاء للأصبغ بن نباتة[۱۱۰]، و فى كتاب فضائل الخمسة وردت روايات كثيرة عن كتب أبناء العامّة حول علم الإمام الخارق للعادة، و ذكرها يطول فى هذا المقام ۱۱۱].

و ذكرت أيضا روايات عديدة فى هذا الباب عن لسان الأئمّة المعصومين عليهم السّلام؛ منها ما ذكر فى كتاب الكافى المجلد الأوّل من تصاريح و إشارات متعددة فى أبواب عديدة منه.

و قد أورد المرحوم العلّامة المجلسى فى كتابه بحار الأنوار المجلد (۲۶) أحاديث كثيرة فى هذا الإطار تبلغ ۲۲ حديثا.

و مضافا إلى ذلك فإنّ روايات فى باب علم الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الائمّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۱

المعصومين عليهم السّلام بأسرار الغيب هى على حدّ التواتر، أمّا كيف نجمع بين هذه الآيات و الرّوايات التى ينفى بعضها علم الغيب لغير اللّه و إثبات البعض الآخر لغيره تعالى؟ هناك طرق مختلفة للجمع بينها:

۱- أشهر طرق الجمع هو أنّ المراد من اختصاص علم الغيب باللّه تعالى هو العلم الذاتى و الاستقلالى، و لهذا لا يعلم الغيب إلّا هو، و ما يعلمونه فهو من اللّه، و ذلك بلطفه و عنايته، و الدليل على هذا الجمع هو تلك الآية التى بحثت من قبل و التى تقول: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ

و قد أشير إلى هذا المعنى

فى نهج البلاغة عند ما كان أمير المؤمنين عليه السّلام يخبر عن الحوادث المقبلة (و هو يتصور هجوم المغول على البلاد الإسلامية)

فقال أحد أصحابه: يا أمير المؤمنين، هل عندك علم الغيب؟ فتبسّم أمير المؤمنين عليه السّلام و قال: «ليس هو بعلم غيب، إنّما هو تعلم من ذى علم».[۱۱۲]

و قد وافق على هذا الجمع كثير من العلماء المحققين.

۲- أسرار الغيب قسمان: قسم خاص باللّه عزّ و جلّ لا يعلمه إلّا هو كقيام الساعة، و غيرها ممّا يشابه ذلك، و القسم الآخر علّمه الأنبياء و الأولياء، كما

يقول على عليه السّلام فى نهج البلاغة فى ذيل تلك الخطبة المشار إليها: «و إنّما علم الغيب علم الساعة، و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ، وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۱۱۳].

ثمّ أضاف الإمام عليه السّلام فى شرح هذا المعنى.

يمكن لبعض الناس أن يعلموا بزمان وضع الحمل أو نزول المطر و مثل ذلك علما إجماليا، و أمّا العلم التفصيلى و التعرف على هذه الأمور فهو خاص بذات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۲

اللّه تعالى المقدسة و إنّ علمنا بشأن يوم القيامة هو علم إجمالى و نجهل جزئيات و خصوصيات يوم القيامة.

و إذا كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الأئمّة المعصومون عليهم السّلام قد أخبروا البعض فى أحاديثهم عمّن يولد أو عمن ينقضى عمره، فذلك يتعلق بالعلم الإجمالى.

۳- الطريق الآخر للجمع بين القسمين من الآيات و الرّوايات هو ثبوت أسرار الغيب فى مكانين: فى اللوح المحفوظ (الخزانة الخاصّة لعلم اللّه و هو غير قابل للتغيير و لا يمكن لأحد أن يعلم عنه شيئا).

و لوح المحو و الإثبات الذى هو علم المقتضيات و ليس العلّة التامة، و لهذا فهو قابل للتغيير، و ما لا يدركه الآخرون يرتبط بهذا القسم.

لذا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «إنّ للّه علما لا يعلمه إلّا هو، و علما أعلمه ملائكته و رسله، فما أعلمه ملائكته و أنبياءه و رسله فنحن نعلمه»[۱۱۴].

و

نقل عن على بن الحسين عليه السّلام أيضا أنّه قال: «لولا آية فى كتاب اللّه لحدثتكم بما كان و ما يكون إلى يوم القيامة» فقلت له: أيّة آية؟ فقال: «قول اللّه:

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ ۱۱۵].

و طبقا لهذا الجمع يكون تقسيم العلوم على أساس حتميته أو عدمه، و فى الجمع السابق يكون على أساس مقدار المعلومات.

۴- و الطريق الآخر هو أنّ اللّه تعالى يعلم بكل أسرار الغيب، و أمّا الأنبياء و الأولياء فإنّهم لا يعلمونها كلّها، و لكنّهم إذا ما شاءوا ذلك أعلمهم اللّه تعالى بها، و بالطبع هذه الإرادة لا تتمّ إلّا بإذن اللّه تعالى.

و محصلة ذلك أنّ الآيات و الرّوايات التى تقول إنّهم لا يعلمون بالغيب هى إشارة إلى عدم المعرفة الفعلية، و التى تقول إنّهم يعلمون تشير إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۳

إمكان معرفتهم لها.

و هـذا فی الحقیقة کمن یسـلم رسالة بید شـخص ما لیوصـلها إلی آخر، و یمکن القول هنا: إنّ الشـخص الموصل لها لا یعلم بمحتوی الرسالـة، و لکن یمکنه فتحهـا و التعرف علی مـا فیهـا إذا ما حصل علی الموافقـة علی قراءتها، ففی هـذه الصورة یمکن القول علی أنّه عالم بمحتوی الرسالة، و ربّما لا یسمح له ذلک.

و الدلیل علی هذا الجمع هو ما نقرأه فی الرّوایات المنقولة فی کتاب الکافی للکلینی رحمه اللّه فی باب (أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن یعلموا اعلموا) و منها

فی حدیث ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام قال: «إذا أراد الإمام أن یعلم شیئا أعلمه اللّه ذلک».[۱۱۶]

و هذا الوجه من الجمع یمکن أن یحلّ الکثیر من المشاکل المتعلقة بعلم النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و الأئمّة علیهم السّلام، منها أنّهم کانوا یتناولون مثلا الغذاء المسـموم فی حین أن تناول ما یؤدی بالإنسان إلی الهلاک غیر جائز، فکیف یکون ذلک؟ فلهذا یجب القول: إنّ فی مثل هذه الموارد ما کان یسمح لهم معرفة أسرار الغیب.

و هکـذا تقتضـی المصـلحة أحیانا فی ألّا یتعرّف النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أو الإمام علی أمر من الأمور، أو یعرض إلی اختبار لیتکامل بتجاوزه مرحلة الاختبار، کما جاء فی قصّة لیلة المبیت عند ما بات الإمام علی علیه السّلام فی فراش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سـلّم و هو لا یعلم هل أنّ الإمام علیه السّـلام سوف ینجو من المشـرکین عند ما یهجمون علی أم یستشـهد، فالمصلحة هنا تقتضی ألّا یعلم الإمام عاقبـة هـذا الأمر لیتحقق الاختبار الإلهی، و إذا کان الإمام بنجاته عنـد هجوم القوم علیه لم یکن له حینئذ أیّ، و لم یکن ما ذکر فی الآیات الکریمة و الرّوایات فی أهمیة هذا الإیثار محل من الاعراب.

نعم، إنّ مسألة العلم الإرادی هی جواب لکلّ هذه الإشکالات.

۵- هناک طریق آخر أیضا لجمع الرّوایات المختلفة فی علم الغیب (و إن کان

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۴

هـذا الطریق صادقـا فی بعض هـذه الرّوایـات) و ذلـک هو أنّ المخـاطبین فی هـذه الرّوایـات هم علی مسـتویات مختلفـة، فمن کان له الاسـتعداد الکامـل و التهیؤ لقبول مسألـة علم الغیب للأئمّـة علیهم السّـلام کـانت تسـتوفی لهم المطـالیب بتمامهـا، و أمّـا المخالفون و الضعفاء فقد کان الحدیث معهم علی قدر عقولهم.

فنقرأ مثلا فی حـدیث أنّ أبا بصـیر و عدّة من أصـحاب الإمام الصادق علیه السّـلام کانوا ذات یوم فی مجلس فدخل علیهم الإمام علیه السّلام غضبان، و عند ما جلس قال:

«یـا عجبا لأقوام یزعمون أنّا نعلم الغیب! ما یعلم الغیب إلّا اللّه عزّ و جلّ لقـد هممت بضـرب جاریتی فلانـة، فهربت منّی فما علمت فی أی بیوت الدار هی».[۱۱۷]

یقول الراوی: فلمّا قام الإمام و دخل الدّار قمنا خلفه، و قلنا له: فدتک نفوسنا قلت هذا عن جاریتک، و نحن نعلم أنّ لکم علوما کثیرة، و لا نسمّی ذلک بعلم الغیب؟ عندئذ

قال الإمام: «إنّ ما أردته کان العلم بأسرار الغیب».

یتّضح من ذلک أنّ الجالسین کانوا لا یملکون الاستعداد و التهیؤ لإدراک مثل هذه المعانی و یجهلون مقام الإمام علیه السّلام.

و یجب الالتفات إلی أنّ هذه الطریق الخمسة لا تتنافی مع بعضها، و یمکن أن تکون کلّها صادقة.

۲- الطریق الآخر لإثبات علم الغیب للأئمّة علیهم السّلام

یوجد هنا طریقان لإثبات حقیقة أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الأئمّة علیهم السّلام المعصومین یعلمون الغیب بصورة إجمالیة:

الأوّل: هو أنّنا نعلم أنّ مهمتهم لم تجدّد بمكان و زمان خاص، بل أنّ رسالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إمامة الأئمّة عليهم السّلام هى عالمية و خالدة، فكيف يمكن لمن يملك هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۵

المهمّة ألّا يعلم شيئا سوى ما يحيط به و بزمانه؟ هل يمكن لمن يتسلم مهمّة الإمرة على إمارة، و المحافظة على قسم عظيم من بلاد ما و هو لا يعلم منها شيئا، و فى نفس الوقت يطلب منه أن ينفذ المهمّة على أحسن وجه؟! و بعبارة أخرى، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو الإمام عليه أن يبيّن الأحكام الإلهية و يطبقها فى فترة حياته بحيث يلبّى احتياجات البشرية فى كلّ زمان و مكان، و هذا لا يمكن إلّا بمعرفته على الأقل لقسم من أسرار الغيب.

ثمّ هناك ثلاث آيات فى القرآن المجيد إذا وضعت إلى جانب بعضها البعض فسرعان ما يتّضح لنا ما يتعلق بعلم الغيب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأئمّة عليهم السّلام فالأوّل ما يذكره القرآن حول من أحضر عرش ملكة سبأ فى طرفة عين (و هو آصف بن برخيا) فيقول تعالى فى كتابه: قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قالَ هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ۱۱۸]، و نقرأ فى آية أخرى: قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ۱۱۹].

و من جهة أخرى

نقل فى أحاديث مختلفة فى كتب الخاصّة و العامّة أنّ أبا سعيد الخدرى قال سألت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن معنى الآية: الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ فقال: «هو وصى أخى سليمان بن داود» قلت و من المراد فى: وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ فقال: «ذاك أخى على بن أبى طالب»[۱۲۰].

فالملاحظ فيما يقوله إنّ (علم من الكتاب) الذى جاء فيما يخص «آصف» هو علم جزئى، و أمّا حينما يقول فى (علم الكتاب) الذى ورد فيما يخص عليا عليه السّلام هو علم كلى، و هذا ما يوضح الاختلاف بين المقام العلمى لآصف و بين المقام العلمى لعلى عليه السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۶

و من جهة ثالثة: نقرأ فى الآية (۸۹) من سورة النحل: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ فمن الواضح أنّ من يعلم بأسرار مثل هذا الكتاب، لا بدّ أن يكون مطّلعا على أسرار الغيب، و هذا دليل واضح على إمكان الاطلاع و المعرفة على أسرار الغيب بأمر من اللّه لإنسان هو من أولياء اللّه.

و كانت لنا بحوث ح علم الغيب فى ذيل الآية (۵۰) و (۵۹) من سورة الأنعام و الآية (۱۸۸) من سورة الأعراف.

۳- تحقيق حول خلق الجن

الجن كما جاء فى المفهوم اللغوى هو نوع من الخلق المستور، و قد ذكرت له مواصفات كثيرة فى القرآن منها:

۱- إنّهم مخلوقون من النار، بعكس الإنسان المخلوق من التراب: وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ.[۱۲۱] ۲- إنّهم يمتلكون الإدراك و العلم و التمييز بين الحق و الباطل و القدرة على المنطق و الاستدلال، (كما هو واضح من آيات سورة الجن).

۳- إنّهم مكلّفون و مسئولون (كما فى آيات سورة الجن و الرحمن).

۴- و فيهم المؤمنون و الصالحون و الطالحون: وَ أَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَ مِنَّا دُونَ ذلِكَ [۱۲۲] ۵- إنّهم يحشرون و ينشرون: وَ أَمَّا الْقاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً.[۱۲۳] ۶- لهم القدرة على النفوذ فى السماوات و أخذ الأخبار و استراق السمع، و لكنّهم منعوا من ذلك فيما بعد:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۷

وَ أَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهاباً رَصَداً.[۱۲۴] ۷- كانوا يوجدون ارتباطا مع بعض الناس لإغوائهم بما لديهم من العلوم المحدودة التابعة إلى بعض الأسرار الروحية: وَ أَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً.[۱۲۵] ۸- و يوجد فيهم من يتمتع بالقدرة الفائقة كما وجود فى أوساط الإنس:

قالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقامِكَ [۱۲۶] ۹- لهم القدرة على قضاء بعض الحوائج التى يحتاجها الإنسان وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ ۱۲۷].

۱۰- إنّ خلقهم كان قبل خلق الإنسان: وَ الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ۱۲۸] و لهم خصائص أخرى.

بالإضافة إلى ذلك فإنّه يستفاد من الآيات القرآنية أنّ الإنسان هو نوع أفضل من الجن، و بخلاف ما هو مشهور على الألسن لأنّهم أفضل منّا، و دليل اختيار الأنبياء من الإنس، و إنّهم آمنوا بنبى الإسلام الذى هو من الإنس و اتبعوه، و هكذا وجوب سجود الشيطان لآدم عليه السّلام كما صرّح القرآن بذلك، و كون الشيطان من أكابر طائفة الجن (الكهف ۵۰) هو دليل على أفضلية بنى الإنسان على الجنّ.

إلى هنا كان الحديث عن أمور تستفاد من القرآن المجيد حول هذا الخلق المستور و الخالية من كل الخرافات و المسائل غير العلمية، و لكنّنا نعلم أن السذج و الجهلاء ابتدعوا خرافات كثيرة فيما يخص هذا الكائن بما يتنافى مع العقل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۸

و المنطق، منها ما نسب إليهم الأشكال الغريبة و العجيبة و المرعبة، و أنّهم موجودات سامة و ذوات أذناب! مؤذية، و مبغضة، سيئة التصرف و السلوك إذ يمكن أن تحرق دورا بمجرّد أن يسكب إناء ماء مغلى فى بالوعة مثلا، و أوهام أخرى من هذا القبيل، فى حين أنّ أصل الموضوع إذا تمّ تطهيره من هذه الخرافات قابلا للقبول، لأننا لا نملك دليلا على حصر الموجودات الحية بما نحن نراه، بل يقول علماء العلوم الطبيعية: إنّ الكائنات التى يستطيع الإنسان أن يدركها بحواسه ضئيلة بالنسبة للموجودات التى لا تدرك بالحواس.

و فى الفترة الأخيرة و قبل أن يكشف المجهر هذه الكائنات الحية، لم يصدق أحد أنّ هناك الآلاف المؤلفة من الموجودات الجية المتواجدة فى قطرة الماء أو الدم لا يمكن للإنسان أن يراها و يقول أيضا: إنّ أعيننا ترى ألوانا محدودة، و كذا آذاننا تسمع أمواجا صوتية محدودة، و الألوان و الأصوات التى لا ندركها بآذاننا و أعيننا أكثر بكثير من تلك التى تدرك، و عند ما تكون الدنيا بهذا الشكل لا يبقى موضع للتعجب من وجود هذه الكائنات الحية، و التى لا يمكن لنا إدراكها بالحواس، و لم لا نتقبل ذلك عند ما يخبرنا انسان صادق كالنّبى العظيم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

على أى حال فإنّ القرآن المجيد قد أخبرنا من جهة بوجود الجن و خصوصياته المذكورة سلفا، و من جهة أخرى ليس هناك دليل عقلى على عدم وجود الجن، و لهذا لا بدّ من الإعتقاد بهم، و تجنب الأقوال التى لا تليق بهم كما فى خرافات العوام.

و ممّا يلاحظ أيضا أنّ لفظ الجن يطلق أحيانا على مفهوم أوسع يشمل أنواعا من الكائنات المستورة أعم من الكائنات ذوات العقل و الإدراك و لفاقدة لهما، و حتى مجاميع الحيوانات التى ترى بالعين و المختفية فى الأوكار أيضا، و الدليل على ذلك

روايات وردت عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «خلق اللّه الجن خمسة أصناف: صنف كالريح فى الهواء، و صنف حيات، و صنف عقارب، و صنف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۱۹

حشرات الأرض، و صنف كنبى آدم عليهم الحساب و العقاب»[۱۲۹].

و بالتوجه إلى هذه الرّوايات و مفهومها فسوف تحلّ الكثير من المشاكل التى تطرح فى الرّوايات و القصص الخاصّة بالجن.

ففى رواية وردت عن أمير المؤمنين عليه السّلام حيث قال: «لا تشرب الماء من ثلمة الإناء و لا عروته، فإنّ الشيطان يقعد على العروة و الثلمة».[۱۳۰]

لأنّ الشیطان هو من الجن، و لأنّ ثلمة الإناء و عروته محل لاجتماع المکروبات المتنوعة، فلا یستبعد أن یکون الجن و الشیطان بمفهومه العام شاملا لمثل هذه الکائنات، و إن کان المعنی الخاص له هو الکائن ذو فهم و شعور و إنّه مکلّف و مسئول، و الرّوایات کثیرة فی هذا الباب.

ربّنا! ألطف بنا یوم یحضر الجن و الإنس فی محکمة عدلک، و یوم یندم المسیؤون علی ما عملوا.

اللّهم! إنّ أرکان ملکک واسعة و معرفتنا و معلوماتنا محدودة فاحفظنا و صنّا من المزالق و الخطایا و الحکم بغیر الحقّ.

إلهنا! إنّ مقام رسولک الکریم من العظمة و السمو أن آمن به الجن مضافا إلی الإنس، فاجعلنا من المؤمنین بدعوته ...

آمین ربّ العالمین انتهاء سورة الجن***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۱

سورة المزّمّل

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۳

«سورة المزّمّل»

محتوی السورة:

یدل سیاق السورة علی وجود تشابه بینها و بین المکیة الأخری، و لهذا یستبعد ما قاله البعض من أنّها مدنیة، و اختلاف سیاق الآیات الأولی و الأخیرة منها یشیر إلی نزوله فی فترات متعددة و طویلة، فقد ذکر البعض: إنّه نزلت فی ثمانیة أشهر و قیل: سنة، و قیل: عشر سنوات.[۱۳۱] إنّ الکثیر من آیات هذه السورة تشیر إلی أنّها نزلت عند بدء الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لدعوته العلنیة، و اعتراض المخالفین و تکذیبهم له، و لکن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان قد أمر بالمسالمة و المجازاة لهم، و لذا یبعد احتمال نزولها جمیعا فی أوّل دعوته صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و یمکن احتمال ذلک فی شأن الآیات الأولی لها، و أمّا البقیة فلیست کذلک، لأنّ آیاتها تشیر إلی سعة الإسلام و الدعوة، و ذلک علی نطاق مکّة علی الأقل، و بروز مخالفة المخالفین و صراعهم مع الحق، و هذا ما لم یحصل فی السنوات الثلاث الأولی للدعوة.

و وردت روایات مختلفة و متفاوتة فی سبب نزول السورة أو بعض الآیات منها،

ففی بعض الرّوایات أنّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم عند ما استلم البلاغ الإلهی الأوّل رجع إلی خدیجة و فؤاده یرتجف فقال: «زملونی» فنزل جبرائیل علیه السّلام ب أَیُّهَا الْمُزَّمِّلُ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۴

فی حین أنّه جاء فی بعض الرّوایات أن شأن نزول هذه السورة یتعلق بإعلان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم دعوته، فکان أن اجتمع مشرکو قریش فی دار الندوة لیفکروا فی أمر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لیختاروا لمواجهته شعارا أو عنوانا خاصّا، فقال بعضهم: إنّه (کاهن) لکن بعضهم لم یوافق علی هذه التسمیة، فقال آخرون: إنّه (مجنون) إلّا جمعا آخر منهم لم یوافق علیه أیضا، و رجّح بعضهم أن یسمّی ب (الساحر) فلم یوافق الآخرون علی ذلک أیضا.

أخیرا قالوا: إنّه یفرق بین الأحباب، فبناء علی ذلک فهو ساحر ثمّ تفرق المشرکون، فبلغ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ما قاله

المشـركون، فـدثّر نفسـه تزّمـل بـأثوابه و ركـن إلى الرّاحـة ... فجـاءه الـوحى فى ذلـك الحيـن بسـورتى، يـا أيّهـا المزّمـل، و يـا أيّها المدثر.[۱۳۲] و الحاصل هو ما أشـرنا إليه فى أنّ ظاهر السورة مكّيـة، و نزول قسم منها بعـد الـدعوة العلنيـة و نفوذ الإسـلام النسبى فى مكّة أمر حتمى، و إن كان يحتمل نزول آيات من أوّل السورة فى أوّل البعثة.

و يتلخص محتوى السورة فى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: الآيات الأولى للسورة و التى تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بقيام الليل و الصلاة فيه، ليستعد بذلك لنقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل.

القسم الثّانى: يأمره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصبر و المقاومة و مداراة المخالفين.

القسم الثّالث: بحوث حول المعاد، و إرسال موسى بن عمران إلى فرعون و ذكر عذابه الأليم.

القسم الرّابع: فيه تخفيف لما ورد فى الآيـات الأـولى من الأـوامر الشديـدة عن قيـام الليل، و ذلك بسـبب محنـة المسـلمين و الشـدائد المحيطة بهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۵

القسم الخـامس: هو القسم الأـخير من السورة يعود ليـدعو إلى تلاـوة القرآن و إقامـة الصـلاة و إيتـاء الزّكاة، و الإنفاق فى سبيل اللّه و الاستغفار.

فضيلة السّورة:

ورد فى حديث عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من قرأ سورة المزمل رفع عنه العسر فى الدنيا و الآخرة»[۱۳۳].

و

فى حـديث آخر ورد عن الإمـام الصّـادق عليه السّـلام: «من قرأ سورة المزّمل فى العشاء الآخرة، أو فى آخر الليل كان له الليل و النهار شاهدين مع السورة، و أحياه اللّه حياة طيبة و أماته ميتة طيبة»[۱۳۴].

و من الطبيعى أنّ هذه الفضائل لا بدّ أن تكون ملازمة مع قيام الليل و قراءة القرآن و الصبر و الاسـتقامة و الإيثار و الإنفاق و العملى، و ليس بالتلاوة الخالية من العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۶

الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (۱) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلًا (۲) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (۳) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (۴)

إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (۵)

التّفسير

يشـير سـياق الآيات كما بيّنا إلى دعوة الرّسول الأكرم صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم للاسـتقامة و الاستعداد لقبول مهمّة كبيرة و ثقيلة، و هذا لا يتمّ إلّا بالبناء المسـبق للذات، فيقول: يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۱۳۵]، قُمِ اللَّيْـلَ إِلَّا قَلِيلًا، نِصْـفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ

تَرْتِيلًا.

الطريف فى هـذه الآيـات أنّ المخـاطب هو الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لكن لا ـ بعنوان يا أيّها الرّسول، أو يا أيّها النّبى، بل بعنوان يا أيّها المزمل، إشارة إلى إنّ هذا ليس زمان التزمل و الانزواء، بل زمان القيام و البناء الذاتى و الاستعداد لأداء الرسالة العظيمة، و اختيار الليل لهـذا العمل أوّلا: لأنّ أعين الأعـداء نائمـة، و ثانيا: تتعطل الأعمال المكاسب، و لهـذا فإنّ الإنسان يسـتعد للتفكر و لتربية النفس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۷

و كـذلك إختيار القرآن لأنّ يكون المادة الأولى فى البرنامـج العبادى فى الليل إنّما هو لاقتباس الدروس اللازمة فى هذا الباب، و هو يعـدّ من أفضل الوسائل لتقوية الإيمان و الاسـتقامة و التقوى و تربية النفوس، و التعبير بالترتيل الذى يراد به التنظيم و الترتيب الموزون هنـا هو القراءة بالتأنى و الانتظام اللازم، و الأداء الصـحيح للحروف، و تبيّن الحروف، و الدقّة و التأمل فى مفاهيم الآيات، و التفكر فى نتائجها.

و بديهى أنّ مثل هذه القراءة تعطى الإنسان الرّشد و النمو المعنوى السريع و الشهامة الخلقية و تهب التقوى، و إذا فسّره البعض بالصلاة فذلك لأنّ أحد أجزاء الصلاة المهمّة هى قراءة القرآن.

عبارة «قم الليل» تعنى النهوض فى مقابل النوم، و ليس الوقوف فحسب، و أمّا ما جاء من العبارات المختلفة فى هذه الآيات حول مقدار إحياء الليل فهو فى الحقيقة لتبيان التخيير، و أنّ النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم مخيّر فى الاستيقاظ فى نصف الليل أو أقل من ذلك أو أكثر لقراءة القرآن، ففى المرحلة الأولى يذكر الليل كلّه إلّا قليلا منه، ثمّ يخففه ليوصله إلى النصف، و بعدئذ إلى أقل من النصف.

و قيـل: المراد هو التخيير بين الثلث الثّانى و النصف و الثلث الأوّل، بقرينـة الآيـة التى فى آخر السورة: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ و يستفاد من هذه الآية أيضا أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن وحده الذى يقوم الليل، بل معه عـدّة من المؤمنين كانوا ملتزمين أيضا بهـذا النظام للبناء الـذاتى و التربية و الاسـتعداد متخذين النّبى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أسوة لهم.

و قال البعض: إنّ المراد من «قم الليل إلّا قليلا»، هو القيام فى الليالى كلّها إلّا بعض الليالى، و ليس الاستثناء فى أجزاء الليل، و لكن هذا القول بعيد عن الصواب حيث أنّ الليل جاء بصيغة مفرد «ليل»، و جاء التعبير بالنصف أو أقل النصف.

ثمّ يبيّن الهدف النهائى لهذا الأمر المهم و الشاق فيقول: إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۸

قَوْلًا ثَقِيلًا.

ذكر المفسّرين فى القول الثقيـل أقوالا ـ مختلفـة، لكن الملاحظ أن ثقل القول يراد به القرآن المجيـد بأبعاده المختلفـة ... ثقيل بلحاظ المحتوى و مفاهيم الآيات.

ثقيـل بلحاظ حمل على القلوب له لما يقوله القرآن: لَوْ أَنْزَلْنا هـذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۱۳۶]. ثقيل بلحاظ الوعد و الوعيد و بيان المسؤوليات.

ثقيل بلحاظ التبليغ و مشاكل طريق الدعوة.

و ثقيل فى ميزان العمل و فى عرصة القيامة، و بالتالى ثقيل بلحاظ تخطيطه و تنفيذه بشكل تام.

نعم، و إن قراءة القرآن و أن كانت سـهلة و جميلة و مؤثرة، و لكن تحقق مفاده ليس بأسهل اليسير بالخصوص فى أوائل الدعوة النّبوية فى مكّة حيث الظلام و الجهل و عبادة الأصـنام و الخرافات، إذ أنّ الأعـداء المتعصبين القساة كانوا قد تكاتفوا ضد الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و لكن الرّسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم و أصـحابه القلائـل اسـتطاعوا أن يتغلبوا على كل تلك هـذه المشاكل

باستمدادهم من تربیة القرآن، و الاستعانة بصلاة اللیل، و بالاستفادة من قربهم من ذات اللّه المقدسة، و استطاعوا بذلک حمل هذا القول الثقیل و الوصول إلی مرادهم.

***

بحوث

۱- قیام اللیل بتلاوة القرآن و الدعاء

قلنا إنّ الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و إن کان هو المخاطب فی هذه الآیات، و لکن آخر السورة یشیر إلی وجود مؤمنین کانوا معه فی هذا العمل، و السؤال هو هل أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۲۹

إحیاء اللیل کان واجبا علی الجمیع فی أوائل دعوته أم لا؟ قال البعض: إنّ هذا الأمر کان واجبا فی البدء ثمّ نسخ بالآیة الأخیرة للسورة و مدّة ذلک حوالی السنة، حتی و أنّ البعض ذهب إلی أنّ هذا الحکم کان قبل تشریع الصلوات الخمس، ثمّ نسخ هذا الحکم بعد تشریعها، و لکن المرحوم الطبرسی رحمه اللّه کما ذکر فی تفسیره «مجمع البیان» أنّ ظاهر آیات هذه السورة لا یشیر إلی النسخ، الأفضل هو القول بأنّ هذه العبادة مستحبة و سنّة مؤکّدة، و لم یکن لها طابع الوجوب إلّا لشخص النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کما فی بعض الآیات الأخری للقرآن، و لا مانع ذلک من وجوبها علی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و استحبابها علی المؤمنین، و مضافا إلی أنّ الآیات المذکورة لا تنحصر بصلاة اللیل، لأنّها لم تشغل نصف ممن اللیل أو ثلثی اللیل بل و حتی ثلثه، و ما ذکر فی الآیة هو النهوض لترتیل القرآن.

فعلی هذا کان الحکم فی البدء مستحبّا مؤکّدا ثمّ خفف، و بما أنّ بدایة کلّ عمل بالخصوص بدایة الثورة العظیمة، یحتاج إلی قدره و قوّة أکثر من أی وقت، فلا عجب فی أن یصدر مثل الأمر العظیم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أصحابه، و ذلک أن یقوموا لقسط وافر من اللیل لیتعرفوا و یتفهموا محتوی هذا العمل الجدید و علی تعالیمه الثوریة، و لتطبیق ذلک لا بدّ أن یروضوا أرواحهم بالعلم و المعرفة.

۲- معنی التّرتیل

إنّ ما أکّدت علی الآیات المذکورة هو الترتیل و لیس قراءة القرآن، و وردت روایات عن الأئمّة المعصومین علیهم السّلام فی معنی الترتیل کلّ منها یشیر إلی بعد من أبعاد هذه الکلمة الواسعة.

فقد ورد فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السّلام: «بینه بیانا و لا تهذّه هذّ الشعر و لا تنثره نثر الرمل، و لکن اقرع به القلوب القاسیة، و لا یکوننّ همّ أحدکم آخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۰

السورة»[۱۳۷].

و نقرأ

فی حدیث آخر ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام: «إذا مررت بآیة فیها ذکر الجنّة فأسأل اللّه الجنّة، و إذا مررت بآیة فیها ذکر النّار

فتعوذ باللّه من النار»[۱۳۸].

و

فى رواية اخرى عنه عليه السّلام: «هو أن تتمكث فيه و تحسن به صوتك»[۱۳۹]،

و

عنه أيضا: «أنّ القرآن لا يقرأ هذرمة، و لكن يرتل ترتيلا و إذا مررت بآية فيها ذكر النّار وقفت عندها و تعوذت باللّه من النّار»[۱۴۰].

و قد نقل عن حالات النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه كان يقطع قراءته آية آية، و يمد صوته مدّا[۱۴۱]، هذه الرّوايات و الرّوايات الأخرى المنقولة بنفس المضمون فى كتاب الكافى و نور الثقلين و الدر المنثور و بقية الكتب الأخرى من كتب الحديث و التّفسير تشير إلى ضرورة التمعن فى كلمات القرآن، و التدبّر فيها و تذكر بأنّ القرآن هو خطاب اللّه تعالى للإنسان.

و لكن و للأسف إنّ الكثير من المسلمين ابتعدوا عن هذا الواقع، و اكتفوا بالتلفظ و غدا همّهم ختمه، من دون الاهتمام بمعرفة سبب نزوله و محتواه! صحيح أنّ ألفاظ القرآن عظيمة و لقراءتها فضيلة، و لكن لا ينبغى أن ننسى أنّ هذه الألفاظ و تلاوتها هى مقدمة لبيان المحتوى.

۳- فضيلة صلاة الليل

هذه الآيات تبيّن أهمّية إحياء الليل بالعبادة و قراءة القرآن عند ما يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۱

الغافلون نياما، و كما أشرنا من قبل فإنّ العبادة فى الليل و بالخصوص عند السحر لها الأثر البالغ فى تصفية الروح و تهذيب النفوس و التربية المعنوية للإنسان و طهارة القلب و إيقاظه، و كذا فى تقوية الإيمان و الإرادة، و توكيد اركان التقوى فى الروح و القلب، و يمكن لمس ذلك بمجرّد الإختيار مرّة واحدة، و قد أكّدت الرّوايات على ذلك بالإضافة إلى ما ذكرته الآيات القرآنية.

منها

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام: «إنّ من روح اللّه تعالى ثلاثة، التهجد بالليل، و إفطار الصّائم، و لقاء الإخوان»[۱۴۲].

و

عنه أيضا عليه السّلام فى تفسير: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ قال: «صلاة الليل تذهب بذنوب النهار»[۱۴۳].

و لنا بحث مفصل فى هذا الباب فى ذيل الآية (۷۹) من سورة الإسراء، و قد نقلنا بهذا الشأن عشرة أحاديث رائعة فى أهمية صلاة الليل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۲

الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۶ الى ۱۰]

اشارة

إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا (۶) إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا (۷) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (۸) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (۹) وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا (۱۰)

التّفسير

تأثير الدعاء و المناجاة فى أعماق الليل:

تستمر هذه الآيات فى البحث حول عبادة الليل و التعاليم المعنوية الموجودة قراءة القرآن فى الليل، و هى بمنزلة بيان الدليل على ما جاء فى الآيات السالفة، فيقول تعالى: إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا[۱۴۴].

«الناشئة»: من مادة (نشأ)، على وزن نثر، و تعنى الحادثة، و قد ذكر هنا ثلاثة تفاسير لما يراد منها.

الأوّل: المراد به ساعات الليل الحادثة بالتوالى، أو أنّها تخصّ الساعات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۳

الأخيرة لليل و السحر.

و الآخر: إنّ المراد هو إحياء الليل بالصلاة و العبادة و قراءة القرآن كما

ورد فى حديث عن الإمامين الصادق و الباقر عليهما السّلام حيث قالا: «هى القيام فى آخر الليل إلى صلاة الليل»[۱۴۵].

و

فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية، قال: «قيامه عن فراشه لا يريد إلّا اللّه».[۱۴۶]

و الثّالث: الحالات المعنوية و الروحية و النشاط و الجذوة الملكوتية التى تحصل فى القلب الإنسان و روحه فى هذه الساعات الخاصّة بالليل، و التى تكون آثارها فى روح الإنسان أعمق و استمرارها أكثر، و التّفسيران الثّانى و الثّالث متلازمان، و يمكن جمعها فى ما يراد بمعنى الآية.

«وطأ»: تعنى فى الأصل وضع القدم، و تعنى كذلك الموافقة.

و التعبير ب أَشَدُّ وَطْئاً: العناء و المشقّة الحاصلة فى عبادة الليل، أو أنّه يعنى التأثيرات الثابتة و الراسخة الحاصلة من شعاع هذه العبادات فى روح الإنسان، و المعنى الثّانى أوجه.

و يحتمل أن يراد له التوافق الحاصل بين قلب الإنسان و عينه و أذنه و بالتالى تعبئتها فى طريق العبادة.

«أقوم»: من القيام، و يراد بكونها أثبت للقول و أصوب لحضور القلب.

«قيلا»: تعنى القول، و تشير هنا إلى ذكر اللّه و قراءة القرآن.

و محصلة ذلك أنّ هذه الآية من الآيات التى تحتوى على أبلغ الأحاديث حول العبادة الليلة، و رمز إظهار المحبّة مع المحبوب فى ساعات يختلى فيها الحبيب بحبيبه و أكثر من غيرها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۴

و يضيف فى الآية الأخرى: إِنَّ لَكَ فِي النَّهارِ سَبْحاً طَوِيلًا.

أى إنّك مشغول بهداية الخلق و إبلاغ الرسالة و حلّ المشاكل المتنوعة، و لا مجال لك بالتوجه التام إلى ربّك و الانقطاع إليه بالذكر، فعليك بالليل و العبادة فيه.

و هناك معنى أدق و تفسير يناسب الآيات السابقة أيضا هو: أنّك تتحمل فى النهار مشاغل ثقيلة و مساعى كثيرة، فعليك بعبادة الليل لتقوى بها روحك و تستعد للفعاليات و النشاطات الكثيرة فى النهار.

«سبح»: على وزن مدح، و تعنى فى الأصل الحركة و الذهاب و الإيّاب، و يطلق على السباحة لما فيها من الحركة المستمرة، و كأنّه يشبه المجتمع الإنسانى بالمحيط اللامتناهى الذى يغرق فيه الكثير من الناس، و أمواجه المتلاطمة تتحرك فى كل الجهات، و فيها من السفن المضطربة التى تبحث عن الملجأ الأمين، و الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو المنجى الوحيد للغريق، و قرآنه سفينة النجاة الوحيدة فى هذا المحيط، فعلى هذا السباح العظيم أن يهيء نفسه يوميا بالعبادة الليلة لإتمام هذه المهمّة و الرسالة العظيمة.

و بعد الإشارة إلى العبادة الليلية، و الإشارة الإجمالية إلى آثارها العميقة يذكّر القرآن بخمسة أوامر اخرى مكملة لتلك فيقول: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

و الطبيعى أنّ المراد ليس ذكر الاسم فحسب، بل التوجه إلى المعنى، لأنّ الذكر اللفظى مقدمة للذكر القلبى، و الذكر القلبى يبعث على صفاء القلب و الروح و يروى منهل المعرفة و التقوى فى القلب.

المراد ب «الربّ» هو الإشارة إلى التوجه إلى النعم اللامتناهية و ذلك عند الإتيان بذكره المقدس، و أن يكون ذكره ملازما مع التوجه إلى تربيته تعالى شأنه لنا، و يبيّن بعض المفسّرين مراحل لذكر الربّ تعالى.

المرحلة الاولى: ذكره تعالى كما أشير إلى ذلك.

المرحلة الثّانية: الذكر القلبى لذاته المقدسة، كما هو فى الآية (۲۰۵) من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۵

سورة الأعراف: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً.

ثمّ تبدأ المرحلة الثّالثة، و فيها يتعدى الذكر مقام الرّبوبية ليصل إلى مقام مجموعة الصفات الجمالية و الجلالية المجتمعة فى اللّه تعالى، كما هو فى الآية (۴۱) من سورة الأحزاب حيث يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً و على هذا الأساس يستمر هذا الذكر ليتكامل فى مراحلة ليوصل الذاكر نفسه إلى أوج الكمال.[۱۴۷] و يقول فى الأمر الثّانى: وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا.[۱۴۸] «التبتل»: من (البتل) على وزن (حتم)، و تعنى فى الأصل الانقطاع، و لهذا سمّيت «مريم العذراء» عليها السّلام بالبتول، لأنّها لم تتخذ لنفسها زوجا و سمّيت الزّهراء عليها السّلام بالبتول لأنّها كانت أفضل نساء عصرها فى السيرة و السلوك، و كانت بالغة درجة الانقطاع إلى اللّه تعالى.

فالتبتل هو التوجه القلبى التام إلى اللّه تعالى، و الانقطاع عن غيره إليه تعالى، و الإتيان بالأعمال الخالصة للّه، و كذا الخلوص له تعالى.

و ما

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «لا رهبانية، و لا تبتل فى الإسلام»[۱۴۹]

، فهو اشارة لما هو حاصل فى أوساط المسيحيين فى تركهم للدنيا، إذ أنّهم اعتزلوا الزواج لاعتزالهم الدنيا، و اعتزلوا بذلك الوظائف الاجتماعية، و هذا ما لم يكن حاصلا عند المسلمين، إذ أن أحدهم يعيش فى أوساط المجتمع الإنسانى و هو فى نفس الوقت متوجّه إلى اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۶

و ممّا روى عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام

«التبتل رفع اليد إلى اللّه حال الصّلاة»[۱۵۰]

و الواضح أنّ هذا هو مظهر من مظاهر الإخلاص و الانقطاع إلى اللّه.

على أىّ حال فإنّ ذلك الذكر للّه تعالى و هذا الإخلاص هما الثّروة العظيمة لأهل اللّه فى مهامهم الثقيلة لهداية الخلق.

ثمّ ينتهى إلى الأمر الثّالث فيقول: رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا و هنا تأتى مسألة إيداع الأمور إلى اللّه، و ذلك بعد مرحلة ذكر اللّه و الإخلاص، إيداع الأمور للربّ الذى بيده الحاكمية و الرّبوبية على المشرق و المغرب و المعبود الوحيد المستحق للعبادة، و هذا التعبير فى الحقيقة هو بمنزلة الدليل على موضوع التوكل على اللّه، فكيف لا يتوكل الإنسان عليه، و لا يودعه أعماله، و ليس فى العالم الواسع من حاكم و آمر و منعم و مولى و معبود غيره؟

و بالتالى يقول فى الأمر الرّابع و الخمس: وَ اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَ اهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا.

و يأتى هنا مقام الصبر و الهجران، لكثرة اتهامات الأعداء و إيذاءهم له فى طريق الدعوة إلى اللّه، فالفلاح إذا أراد قطف الورود، عليه أن يصبر و يتحمل أذى الأشواك، مضافا إلى ذلك يلزم الابتعاد عنهم و هجرانهم أحيانا، و ليبقى فى مأمن من شرّهم، و يعطيهم

بذلك درسا بالغا، و لا يعنى ذلك قطع سبل التربية و التبليغ و الدعوة إلى اللّه.

و على هذا فإنّ الآيات المذكورة آنفا تعتبر وثيقة من الأوامر تعطى للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لمن يحذو حذوه هذا المفهوم، و هو أن يستمد العون من عبادة الليل و الدعاء و التضرع إلى اللّه تعالى و يسقى هذه الشجرة بماء الذكر اللّه تعالى، و الإخلاص و التوكل و الصبر و الهجران الجميل، يا لها من صحيفة جامعة و جميلة!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۷

التعبير ب «ربّ المشرق و المغرب» إشارة إلى الحاكمية و الرّبوبية على العالم المشهور كلّه.

«الهجر الجميل»: كما أشرنا من قبل، يعنى الهجران الملازم للشفقة و الاستمرار بالدعوة إلى اللّه الذى يعتبر أحد طرق التربية فى مراحل خاصّة، و لا يتنافى ذلك مع الجهاد فى المراحل الاخرى، فلكل أمر مقام.

و بعبارة اخرى أنّ ذلك لا يعتبر من الابتعاد عنهم و عدم الاكتراث بهم، بل هو اكتراث بحدّ ذاته، و ما قيل من أنّ الجهاد نسخ هذه الآيات فليس صحيحا.

يقول المرحوم الطّبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآية: و فى هذا دلالة على وجوب الصبر على الأذى لمن يدعو إلى الدين و المعاشرة بأحس الأخلاق، و استعمال الرفق ليكونوا أقرب إلى الإجابة[۱۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۸

الآيات [سورة المزمل (۷۳): الآيات ۱۱ الى ۱۹]

اشارة

وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (۱۱) إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَ جَحِيماً (۱۲) وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً (۱۳) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا (۱۴) إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (۱۵) فَعَصى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلًا (۱۶) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً (۱۷) السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (۱۸) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا (۱۹)

التّفسير

ذرنى و المكذبين المستكبرين:

أشارت فى الآية الأخيرة من الآيات السابقة إلى أقوال المشركين البذيئة، و عدائهم و إيذائهم للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أمّا فى هذه الآيات فإنّ اللّه تعالى يهددهم بالعذاب الأليم، و يدعوهم إلى ترك ما هم عليه، و يواسى المؤمنين الأوائل، فيقول تعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۳۹

شأنه: وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهِّلْهُمْ قَلِيلًا.

أى دعنى و ايّاهم، و اترك عقابهم لى و مهلهم قليلا. لتتمّ الحجّة عليهم و لتظهر ماهيتهم الحقيقية، و يثقلوا ظهورهم بالخطايا فعندها يحلّ عليهم غضبى.

و لم يمض كثير حتى ازدادت شوكة المسلمين، و وجهوا ضرباتهم القوية لأعداء الرسالة، و ذلك فى معارك بدر و حنين و الأحزاب، و بالتالى كان العذاب الإلهى ينتظرهم فى البرزخ، حتى يخلدوا بعد ذلك فى النّار فى يوم القيامة.

و التعبير ب «أولى النعمة» إشارة الغرور و الغفلة الناجمة من كثرة الأموال و الثروة المادية، و لهذا يذكرهم القران فى النصف الأوّل من المخالفين على طول تاريخ الأنبياء، و فى الحقيقة أنّ هذه الآية مشابهة للآية (۳۴) من سورة سبأ حيث يقول تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ فى حين أنّ هؤلاء لا بدّ أن يلبوا دعوة الحق قبل غيرهم ليشكروا اللّه على ما أنعم عليهم بهذا الوسيلة.

ثمّ يقول مصرّحا: إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالًا وَ جَحِيماً.

«الأنكال»: جمع (نكل)، على وزن (فكر) و هى السلاسل الثقال، و أصلها من نكول الضعف و العجز، أى أنّ الإنسان يفقد الحركة بتقييد أعضائه بالسلاسل.

نعم، لقد تنعموا فى الدنيا و أخذوا حريتهم المطلقة، و لهذا لا بدّ لهم من القيود و النّار.

و كذا يضيف: وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً.

هذا مصير من كان يتلذذ بالطعام بعكس ما كان طعامهم فى الدنيا الحرام، حيث العذاب الأليم، و لمّا تمتع به المغرورون و المستكبرون من الراحة غير المشروعة فى هذه الدنيا، و الطعام الموصوف بالغصّة هو بحدّ ذاته عذاب أليم، ثمّ يتبع ذلك بذكر العذاب الأليم على انفراد، و هذا يشير إلى أنّ أبعاد العذاب الاخروى الذى لا يعلم شدّته و عظمته إلّا اللّه تعالى، و لهذا ورد فى حديث أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۰

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سمع قارئا يقرأ هذه فصعق.[۱۵۲] و جاء فى حديث آخر أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو الذى كان يتلو الآية فصعق ۱۵۳]، و كيف لا يكون هذا الطعام ذا غصّة فى حين الآية (۶) من سورة الغاشية تقول:

لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص ۱۴۰

كذا نقرأ فى الآية (۴۳) و (۴۴) من سورة الدخان: إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ

ثمّ يشرح ما يجرى فى ذلك اليوم الذى يظهر فيه هذا العذاب فيقول: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا.

«الكثيب»: يراد به الرمل المتراكم، و «المهيل» من هيل- على وزن كيل- هو صبّ شىء ناعم كالرمل على شىء، و يراد بالمعنى هنا الرمل الناعم و ما لا يستقر، و المعنى أنّ الجبال تتلاشى بحيث تظهر بهيئة الرمل الناعم، و إذا ما ديست بالأقدام فإنّها تطمس فيها.

و للقرآن المجيد تعابير مختلفة عن مصير الجبال فى يوم القيامة، و تحكى عن انعدامها و تبديلها بالأتربة الناعمة (أوردنا شرحا مفصلا حول المراحل المختلفة لانعدام الجبال و التعابير المختلفة للقرآن فى هذا الباب فى ذيل الآية ۱۰۵ من سورة طه).

ثمّ يقارن بين بعثة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و مخالفة الأشداء العرب، و بين نهوض موسى بن عمران بوجه الفراعنة فيقول تعالى: إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلى فِرْعَوْنَ رَسُولًا.

إنّ هدف النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هدايتكم و الإشراف على أعمالكم كما كان هدف موسى عليه السّلام هداية فرعون و أتباعه و الإشراف على أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۱

لم يكن جيش فرعون مانعا من العذاب الإلهى، و لم تكن سعة مملكتهم و أموالهم و ثراؤهم سببا لرفع هذا العذاب، ففى النهاية أغرقوا فى أمواج النيل المتلاطمة إذ أنّهم كانوا يتباهون بالنيل، فبماذا تفكرون لأنفسكم و أنتم أقل عدّة و عددا من فرعون و أتباعه و أضعف؟! و كيف تغترون بأموالكم و أعدادكم القليلة؟! «الوبيل»: من (الوبل) و يراد به المطر الشديد و الثقيل، و كذا يطلق على كل ما هو شديد و ثقيل بالخصوص فى العقوبات، و الآية تشير إلى شدّة العذاب النازل كالمطر.

ثمّ وجه الحديث إلى كفّار عصر بنىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يحذرهم بقوله: فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً[۱۵۴][۱۵۵].

بلى إنّ عذاب ذلك اليوم من الشدّة و الثقيل بحيث يجعل الولدان شيبا، و هذه كناية عن شدّة ذلك اليوم.

هذا بالنسبة لعذاب الآخرة، و هناك من يقول: إنّ الإنسان يقع أحيانا فى شدائد العذاب فى الدنيا بحيث يشيب منها الرأس فى لحظة واحدة.

على أى حال فإنّ الآية تشير إلى أنّكم على فرض أنّ العذاب الدنيوى لا ينزل عليكم كما حدث للفراعنة؟ فكيف بكم و عذاب يوم القيامة؟

فى الآية الاخرى يبيّن و صفا أدقّ لذلك اليوم المهول فيضيف: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا.

إنّ الكثير من الآيات الخاصّة بالقيامة و أشراط الساعة تتحدث عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۲

انفجارات عظيمة و زلازل شديدة و متغيرات سريعة، و الآية أعلاه تشير إلى جانب منها.

فما حيلة الإنسان الضعيف العاجز عند ما يرى تفطر السموات بعظمتها لشدّة ذلك اليوم؟![۱۵۶] و فى النّهاية يشير القرآن إلى جميع التحذيرات و الإنذارات السابقة فيقول تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ.

إنّكم مخيرون فى اختيار السبيل، فمن شاء اتّخذ إلى ربّه سبيلا، و لا فضيلة فى اتّخاذ الطريق إلى اللّه بالإجبار و الإكراه، بل الفضيلة أن يختار الإنسان السبيل بنفسه و بمحض إرادته.

و الخلاصة أنّ اللّه تعالى هدى الإنسان إلى النجدين، و جعلهما واضحين كالشمس المضيئة فى وضح النهار، و ترك الإختيار للإنسان نفسه حتى يدخل فى طاعته سبحانه بمحض إرادته، و قد احتملت احتمالات متعددة فى سبب الإشارة إلى التذكرة، فقد قيل أنّها إشارة إلى المواعظ التى وردت فى الآيات السابقة، و قيل هى إشارة إلى السورة بكاملها، أو إشارة إلى القرآن المجيد.

و لعلها إشارة إلى إقامة الصلاة و قيام الليل كما جاء فى الآيات من السورة، و المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الآية تدل على توسعة الخطاب و تعميمه لسائر المسلمين، و لهذا فإنّ المراد من «السبيل» فى الآية هو صلاة الليل، و التى تعتبر سبيل خاصّ و مهمّة تهدى إلى اللّه تعالى، كما ذكرت فى الآية (۲۶) من سورة الدهر بعد أن أشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا.

و يقول بعد فاصلة قصيرة: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۳

و هى بعينها الآية التى نحن بصدد البحث فيها[۱۵۷].

و بالطبع هذا التّفسير مناسب، و الأنسب منه أن تكون الآية ذات مفهوم أوسع حيث تستوعب هذه السورة جميع مناهج صنع الإنسان و تربيته كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

***

ملاحظة

المراحل الأربع للعذاب الإلهى

الآيات السابقة تهدد المكذبين المغرورين بأربعة أنواع من العذاب الأليم:

النكال، الجحيم، الطعام ذو الغصّة، و العذاب الأليم، هذه العقوبات فى الحقيقة هى تقع فى مقابل أحوالهم فى هذه الحياة الدنيا.

فمن جهة كانوا يتمتعون بالحرية المطلقة.

الحياة المرفهة ثانيا.

لما لهم من الأطعمة السائغة من جهة ثالثة.

و الجهة الرابعة لما لهم من وسائل الراحة، و هكذا سوف يجزون بهذه العقوبات لما قابلوا هذه النعم بالظلم و سلب الحقوق و الكبر و الغرور و الغفلة عن اللّه تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۴

الآية [سورة المزمل (۷۳): آية ۲۰]

اشارة

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضى وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۲۰)

التّفسير

فاقرؤوا ما تيسر من القرآن:

هذه الآية هى من أطول آيات هذه السورة و تشتمل على مسائل كثيرة، و هى مكملة لمحتوى الآيات السابقة، و هناك أقوال كثيرة للمفسّرين حول ما إذا كانت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۵

هذه الآية ناسخة لحكم صدر السورة أم لا، و كذلك فى مكّيتها أو مدنيتها، و يتّضح لنا جواب هذه الأسئلة بعد تفسير الآية.

فيقول تعالى: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ[۱۵۸].

الآية تشير إلى نفس الحكم الذى أمر به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى صدر السورة من قيام الليل و الصلاة فيه، و ما أضيف فى هذه الآية هو اشتراك المؤمنين فى العبادة مع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (بصيغة حكم استحبابى أو باحتمال حكم وجوبى لأنّ ظروف صدر الإسلام كانت تتجاوب مع بناء ذواتهم و الاستعداد للتبليغ و الدفاع عنه بالدروس العقائدية المقتبسة من القرآن المجيد، و كذا بالعمل و الأخلاق و قيام الليل، و لكن يستفاد من بعض الرّوايات أنّ المؤمنين كانوا قد وقعوا فى إشكالات ضبط الوقت للمدة المذكورة (الثلث و النصف و الثلثين) و لذا كانوا يحتاطون فى ذلك، و كان ذلك يستدعى استيقاظهم طول الليل و القيام حتى تتورم أقدامهم، و لذا بنى هذا الحكم على التخفيف، فقال: عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ

«لن تحصوه»: من (الإحصاء) و هو عد الشىء، أى علم أنّكم لا تستطيعون إحصاء مقدار الليل الذى أمرتم بقيامه و الإحاطة بالمقادير الثلاثة.

و قال البعض: إنّ معنى الآيـة أنّكم لا تتمكنون من المداومـة على هذا العمل طيلة أيّام السـنة، و لا يتيسـر لعامّة المكلّفين إحصاء ذلك لاختلاف الليالى طولا و قصرا، مع وجود الوسائل التى توقظ الإنسان.

و المراد ب فَتابَ عَلَيْكُمْ خفف عليكم التكاليف، و ليس التوبـة من الـذنب، و يحتمل أنّه فى حال رفع الحكم الوجوبى لا يوجـد ذنب من الأساس، و النتيجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۶

تكون مثل المغفرة الإلهية.

و أمّـا عن معنى الآيـة: فَاقْرَؤُا مـا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ فقـد قيـل فى تفسـيرها أقوال، فقال بعضـهم: إنّها تعنى صـلاة الليل التى تتخللها قراءة الآيات القرآنية، و قال الآخرون: إنّ المراد منها قراءة القرآن، و إن لم تكن فى أثناء الصـلاة، و فسّـرها البعض بخمسين آية، و قيل مائة آية، و قيل مائتان، و لا دليل على ذلك، بل إنّ مفهوم الآية هو قراءة ما يتمكن عليه الإنسان.

و بديهى أنّ المراد من قراءة القرآن هو تعلم الدروس لبناء الذات و تقوية الإيمان و التقوى.

ثمّ يـبيّن دليلاـ آخرا للتخفيف فيضـيف تعـالى: عَلِمَ أَنْ سَـيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضـى وَ آخَرُونَ يَضْـرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْـلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ و هـذا تخفيف آخر كما قلنا فى الحكم، و لـذا يكرر قوله «فاقرؤوا ما تيسـر منه»، و الواضح أنّ المرض و الأسـفار و الجهاد فى سبيل اللّه ذكرت بعنوان ثلاثـة أمثلـة للأعـذار الموجهة و لا تعنى الحصـر، و المعنى هو أنّ اللّه يعلم أنّكم سوف تلاقون، كثيرا من المحن و المشاكل الحياتية، و بالتالى تؤدى إلى قطع المنهج الذى أمرتم به، فلذا خفف عليكم الحكم.

و هنا يطرح هـذا السؤال، و هو: هل أنّ هذا الحكم ناسخ للحكم الذى ورد فى صدر السورة، أم هو حكم اسـتثنائى؟ طاهر الآيات يدل على النسـخ، و فى الحقيقة أنّ الغرض من الحكم الأوّل فى صدر السورة هو إقامة المنهج العبادى، و هذا ما حصل لمدّة معينة ثمّ نسـخ بعـد ذلك بهـذه الآية، و أصـبح أخف من ذى قبل، لأنّ ظاهر الآية يدل على وجود معذورين، فلذا حفف الحكم على الجميع، و ليس للمعذورين فحسب، و لذا لا يمكن أن يكون حكما استثنائيا بل هو حكم ناسخ.

و يرد سؤال آخر، هو: هـل أنّ الحكم المـذكور بقراءة مـا تيسّـر من القرآن واجب أم مسـتحب؟ إنّه مسـتحب، و احتمـل البعض الآخر الوجوب، لأنّ قراءة القرآن تبعث على معرفة دلائل التوحيد، و إرسال الرسل، و واجبات الدين، و على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۷

هذا الأساس تكون القراءة واجبة.

و لكن يجب الالتفـات إلى أنّ الإنسـان لا يلزم بقراءة القرآن ليلا أثناء صـلاة الليل، بل يجب على المكلّف أن يقرأ بمقـدار ما يحتاجه للتعليم و التربية لمعرفة اصول و فروع الإسـلام و حفظه و إيصاله إلى الأجيال المقبلة، و لا يختص ذلك بزمان و مكان معينين، و الحقّ هو وجوب القراءة لما فى ظاهر الأمر (فاقرؤا كما هو مبيّن فى اصول الفقه) إلّا أن يقال بقيام الإجماع على عـدم الوجوب، فيكون حينها مسـتحبا، و النتيجة هى وجوب القراءة فى صدر الإسلام لوجود الظروف الخاصّة لذلك، و اعطى التخفيف بالنسبة للمقدار و الحكم، و ظهر الاسـتحباب بالنسـبة للمقدار الميسّـر، و لكن صـلاة الليل بقيت واجبة على الرسول صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم طيلة حياته (بقرينة سائر الآيات و الرّوايات).

و نقرأ

فى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السّـلام حيث يقول: «... متى يكون النصف و الثلث نسخت هذه الآية فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ... و اعلموا أنّه لم يأت نبىّ قط إلّا خلا بصلاة الليل، و لا جاء نبى قط صلاة الليل فى أوّل الليل»[۱۵۹].

و الملاحظ فى الآيـة ذكر ثلاثـة نماذج من الأعذار، أحدها يتعلق بالجسم (المرض)، و الآخر بالمال (السـفر)، و الثالث بالدين (الجهاد فى سبيل اللّه)، و لذا قال البعض: إنّ المسـتفاد من الآية هو السعى للعيش بمثابة الجهاد فى سبيل اللّه! و قالوا: إنّ هذه الآية مدنيّة بدليل

سياقها فى وجوب الجهاد، إلّا أنّ الجهاد لم يكن فى مكّة، و لكن بالالتفات إلى قوله: سَيَكُونُ يمكن أن تكون الآية مخبرة على تشريع الجهاد فى المستقبل، أى بسبب ما لديكم من الأعذار و ما سيكون من الأعذار، لم يكن هذا الحكم دائميا، و بهذا الصورة يمكن أن تكون الآية مكّية و لا منافاة فى ذلك.

ثمّ يشير إلى أربعة أحكام اخرى، و بهذه الطريقة يكمل البناء الروحى للإنسان فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۸

وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ ما تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَ أَعْظَمَ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الأوامر الأربعة (الصلاة، الزكاة، القروض المستحبة، الاستغفار) مع الأمر بالقراءة و التدبر فى القران الذى ورد من قبل تشكّل بمجموعها منهجا للبناء الروحى، و هذا مهم للغاية بالخصوص لمن كان فى عصر صدر الإسلام.

و المراد من «الصلاة» هنا الصلوات الخمس المفروضة، و المراد من «الزكاة» الزكاة المفروضة و من إقراض اللّه تعالى هو إقراض الناس، و هذه من أعظم العبارات المتصورة فى هذا الباب، فإنّ مالك الملك يستقرض بمن لا يملك لنفسه شيئا، ليرغبهم بهذه الطريقة للإنفاق و الإيثار و اكتساب الفضائل منها و ليتربى و يتكامل بهذه الطريقة.

و ذكر «الاستغفار» فى آخر هذه الأوامر يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى و إيّاكم و الغرور إذا ما أنجزتم هذه الطاعات، و بأنّ تتصوروا بأنّ لكم حقّا على اللّه، بل اعتبروا أنفسكم مقصرين على الدوام و اعتذروا للّه.

و يرى البعض أنّ التأكيد على هذه الأوامر هو لئلا يتصور المسلّم أنّ التخفيف سار على جميع المناهج و الأوامر الدينية كما هو الحال فى التخفيف الذى امر به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أصحابه فى قيام و قراءة القرآن، بل إنّ المناهج و الأوامر الدينية باقية على متانتها و قوّتها[۱۶۰].

و قيل إنّ ذكر الزكاة المفروضة فى هذه الآية هو دليل آخر على مدنيّة هذه الآية، لأنّ حكم الزكاة نزل بالمدينة و ليس فى مكّة، و لكن البعض قال: إنّ حكم الزكاة نزل فى مكّة من غير تعيين نصاب و مقدار لها، و الذى فرض بالمدينة تعيين الأنصاب و المقادير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۴۹

ملاحظات

۱- ضرورة الاستعداد العقائدى و الثقافى

لغرض إيجاد ثورة واسعة فى جميع الشؤون الحياتية أو إنجاز عمل اجتماعى ذى أهمية لا بدّ من وجود قوّة عزم بشرية قبل كل شىء، و ذلك مع الإعتقاد الراسخ، و المعرفة الكاملة، و التوجيه و الفكرى و الثقافى الضرورى و التربوى، و التربية الأخلاقية، و هذا ما قام به النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مكّة فى السنوات الاولى للبعثة، بل فى مدّة حياته صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لوجود هذا الأساس المتين للبناء أخذ الإسلام بالنمو السريع و الرشد الواسع من جميع الجهات.

و ما جاء فى هذه السورة هو نموذج حى و منطقى لهذا المنهج المدروس، فقد خلّف القيام لثلثى الليل أو ثلثه و قراءة القرآن و التمعن فيه أثرا بالغا فى أرواح المؤمنين، و هيأهم لقبول القول الثقيل و السبح الطويل، و تطبيق هذه الأوامر التى هى أشدّ وطأ و أقوم قيلا كما يعبّر عنه القرآن، هى التى أعطتهم هذه الموفقية، و جهزت هذه المجموعة المؤمنة القليلة، و المستضعفة و المحرومة بحيث أهلتهم لإدارة مناطق واسعة من العالم، و إذا ما أردنا نحن المسلمين إعادة هذه العظمة و القدرة القديمة علينا أن نسلك هذا الطريق و هذا

المنهج، و لا یجب علینا إزالة حکومة الصهاینة بالاعتماد علی أناس عاجزین و ضعفاء لم یحصلوا علی ثقافة أخلاقیة.

۲- قراءة القرآن و التفکر

یستفاد من الرّوایات الإسلامیة أنّ فضائل قراءة القرآن لیس بکثرة القراءة، بل فی حسن القراءة و التدبر و التفکر فیها، و من الطریف أنّ هناک روایة

وردت عن الإمام الرضا علیه السّلام فی تفسیر ذیل الآیة: فَاقْرَؤُا ما تَیَسَّرَ مِنْهُ رواها عن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۰

جدّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «ما تیسّر منه لکم فیه خشوع القلب و صفاء السر»[۱۶۱]،

لم لا یکون کذلک و الهدف الأساس للقراءة هو التعلیم و التربیة.

و الرّوایات فی هذا المعنی کثیرة.

۳- السعی للعیش کالجهاد فی سبیل اللّه

کما عرفنا من الآیة السابقة فإنّ السعی لطلب الرزق جعل مرادفا للجهاد فی سبیل اللّه، و هذا یشیر إلی أنّ الإسلام یعیر أهمیة بالغه لهذا الأمر، و لم لا یکون کذلک فلأمّة الفقیرة و الجائعة المحتاجة للأجنبی لا یمکن لها أن تحصل علی الاستقلال و الرفاه، و المعروف أنّ الجهاد الاقتصادی هو قسم من الجهاد مع الأعداء، و قد نقل فی هذا الصدد قول عن الصحابی المشهور عبد اللّه بن مسعود:

«أیما رجل جلب شیئا إلی مدینة من مدائن المسلمین صابرا محتسبا فباعه بسعر یومه کان عند اللّه بمنزلة الشهداء» ثمّ قرأ: وَ آخَرُونَ یَضْرِبُونَ فِی الْأَرْضِ ۱۶۲].

اللّهم! وفقنا للجهاد بکلّ أبعاده.

ربّنا! وفقنا لقیام اللیل و قراءة القرآن الکریم و تهذیب أنفسنا بواسطة هذا النور السماوی.

ربّنا! منّ علی مجتمعنا الإسلامی بمقام الرفعة و العظمة بالإلهام من هذه السورة العظیمة.

آمین ربّ العالمین نهایة سورة المزّمل***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۱

سورة المدّثّر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ستّ و خمسون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۳

«سورة المدّثّر»

محتوی السورة:

لا شك أنّ هذه السورة هى من السور المكّية و لكن هناك تساؤل عن أنّ هذه السورة هل هى الاولى النازلة على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أم نزلت بعد سورة العلق؟

يتّضح من التمعن فى محتوى سورة العلق و المدثر أنّ سورة العلق نزلت فى بدء الدعوة، و أنّ سورة المدثر نزلت فى زمن قد امر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فيه بالدعوة العلنية، و انتهاء فترة الدعوة السرّية، لذا قال البعض أنّ سورة العلق هى أوّل سورة نزلت فى صدر البعثة، و المدثر هى السورة الاولى التى نزلت بعد الدعوة العلنية، و هذا الجمع هو الصحيح.

و مهما يكن فإنّ سياق السور المكّية التى تشير إلى الدعوة و إلى المبدأ و المعاد و مقارعة الشرك و تهديد المخالفين و إنذارهم بالعذاب الإلهى واضح الوضوح فى هذه السورة.

يدور البحث فى هذه السورة حول سبعة محاور و هى:

۱- يأمر اللّه تعالى رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإعلان الدعوة العلنية، و يأمر أن ينذر المشركين، و تمسك بالصبر و الاستقامة فى هذا الطريق و الاستعداد الكامل لخوض هذا الطريق.

۲- تشير إلى المعاد و أوصاف أهل النّار الذين واجهوا القرآن بالتكذيب و الإعراض عنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۴

۳- الإشارة إلى بعض خصوصيات النّار مع إنذار الكافرين.

۴- التأكيد على المعاد بالأقسام المكررة.

۵- ارتباط عاقبة الإنسان بعمله، و نفى كل أنواع التفكر غير المنطقى فى هذا الإطار.

۶- الإشارة إلى قسم من خصوصيات أهل النّار و أهل الجنّة و عواقبهما.

۷- كيفية فرار الجهلة و المغرورين من الحقّ.

فضيلة السورة:

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة المدثر اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمّد و كذب به بمكّة»[۱۶۳].

و

ورد فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: «من قرأ فى الفريضة سورة المدثر كان حقّا على اللّه أن يجعله مع محمّد فى درجته، و لا يدركه فى حياة الدنيا شقاء أبدا»[۱۶۴]

و بديهى أنّ هذه النتائج العظيمة لا تتحقق بمجرّد قراءة الألفاظ فحسب، بل لا بدّ من التمعن فى معانيها و تطبيقها حرفيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۵

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (۱) قُمْ فَأَنْذِرْ (۲) وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ (۳) وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ (۴)

وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (۵) وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (۶) وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (۷) فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (۸) فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (۹)

عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (۱۰)

التّفسير

قم و انذر النّاس:

لا شك من أنّ المخاطب فى هذه الآيات هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و إن لم يصرح باسمه، و لكن القرائن تشير إلى ذلك، فيقول أوّلا: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ فلقد ولى زمن النوم الاستراحة، و حان زمن النهوض و التبليغ، و ورد التصريح هنا بالإنذار مع أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مبشر و نذير، لأنّ الإنذار له أثره العميق فى إيقاظ الأرواح النائمة خصوصا فى بداية العمل.

و أورد المفسّرون احتمالات كثيرة عن سبب تدثره صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته إلى القيام و النهوض.

۱- اجتمع المشركون من قريش فى موسم الحج و تشاور الرؤساء منهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۶

كأبى جهل و أبى سفيان و الوليد بن المغيرة و النضر بن الحارث و غيرهم فى ما يجيبون به عن أسئلة القادمين من خارج مكّة و هم يناقشون أمر النّبى الذى قد ظهر بمكّة، و فكروا فى و أن يسمّى كلّ واحد منهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باسم، ليصدوا الناس عنه، لكنّهم رأوا فى ذلك فساد الأمر لتشتت أقوالهم، فاتفقوا فى أن يسمّوه ساحرا، لأنّ أحد آثار السحرة الظاهرة هى التفريق بين الحبيب و حبيبه، و كانت دعوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد أثّرت هذا الأثر بين الناس! فبلغ ذلك النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتأثر و اغتم لذلك، فأمر بالدثار و تدثر، فأتاه جبرئيل بهذه الآيات و دعاه إلى النهوض و مقابلة الأعداء.

۲- إنّ هذه الآيات هى الآيات الأولى التى نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما

نقله جابر بن عبد اللّه قال: جاوزت بحراء فلمّا قضيت جوارى نوديت يا محمّد، أنت رسول اللّه، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا، و نظرت عن شمالى فلم أر شيئا، و نظرت خلفى فلم أر شيئا، فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء و الأرض، فملئت منه رعبا، فرجعت إلى خديجة و قلت:

«دثرونى دثرونى، و اسكبوا علىّ الماء البارد»، فنزل جبرئيل بسورة: يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

و لكن بلحاظ أن آيات هذه السورة نظرت للدعوة العلنية، فمن المؤكّد أنّها نزلت بعد ثلاث سنوات من الدعوة الخفية، و هذا لا ينسجم و الروية المذكورة، إلّا أن يقال بأنّ بعض الآيات التى فى صدر السورة قد نزلت فى بدء الدعوة، و الآيات الأخرى مرتبطة بالسنوات التى تلت الدعوة.

۳- إنّ النّبى كان نائما و هو متدثر بثيابه فنزل عليه جبرائيل عليه السّلام موقظا إيّاه، ثمّ قرأ عليه الآيات أن قم و اترك النوم و استعد لإبلاغ الرسالة.

۴- ليس المراد بالتدثر التدثر بالثياب الظاهرية، بل تلبسه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنبوّة و الرسالة كما قيل فى لباس التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۷

۵- المراد به اعتزاله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و انزواؤه و استعد لإنذار الخلق و هداية العباد[۱۶۵] و المعنى الأوّل هو الأنسب ظاهرا.

و من الملاحظ أنّ جملة (فانذر) لم يتعين فيها الموضوع الذى ينذر فيه، و هذا يدل على العمومية، يعنى إنذار الناس من الشرك و عبادة الأصنام و الكفر و الظلم و الفساد، و حول العذاب الإلهى و الحساب المحشر ... إلخ (و يصطلح على ذلك بأن حذف المتعلق يدل على العموم). و يشمل ضمن ذلك العذاب الدنيوى و العذاب الاخروى و النتائج السيئة لأعمال الإنسان التى سيبتلى بها فى

المستقبل.

ثم يعطى للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خمسة أوامر مهمّة بعد الدعوة إلى القيام و الإنذار، تعتبر منهاجا يحتذى به الآخرون، و الأمر الأوّل هو فى التوحيد، فيقول: وَ رَبَّكَ فَكَبِّرْ[۱۶۶].

ذلك الربّ الذى هو مالكك مربيك، و جميع ما عندك فمنه تعالى، فعليك أن تضع غيره فى زاوية النسيان و تشجب على كلّ الآلهة المصطنعة، و امح كلّ آثار الشرك و عبادة الأصنام.

ذكر كلمة (ربّ) و تقديمها على (كبّر) الذى هو يدل على الحصر، فليس المراد من جملة «فكبر» هو (اللّه أكبر) فقط، مع أنّ هذا القول هو من مصاديق التكبير كما ورد من الرّوايات، بل المراد منه أنسب ربّك إلى الكبرياء و العظمة اعتقادا و عملا، قولا فعلا و هو تنزيهه تعالى من كلّ نقص و عيب، و وصفه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۸

بأوصاف الجمال، بل هو أكبر من أن يوصف، و لذا ورد فى الرّوايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام فى معنى اللّه أكبر:

«اللّه أكبر من أن يوصف»،

و لذا فإنّ التكبير له مفهوم أوسع من التسبيح الذى هو تنزيهه من كل عيب و نقص.

ثمّ صدر الأمر الثّانى بعد مسألة التوحيد، و يدور حول الطهارة من الدنس فيضيف: وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ، التعبير بالثوب قد يكون كناية عن عمل الإنسان، لأنّ عمل الإنسان بمنزلة لباسه، و ظاهره مبين لباطنه، و قيل المراد منه القلب و الروح، أى طهر قلبك و روحك من كلّ الأدران، فإذا وجب تطهير الثوب فصاحبه اولى بالتطهير.

و قيل هو اللباس الظاهر، لأنّ نظافة اللباس دليل على حسن التربية و الثقافة، خصوصا فى عصر الجاهلية حيث كان الاجتناب من النجاسة قليلا و إن ملابسهم وسخة غالبا، و كان الشائع عندهم تطويل أطراف الملابس (كما هو شائع فى هذا العصر أيضا) بحيث كان يسحل على الأرض، و ما

ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام فى معنى أنّه: «ثيابك فقصر»[۱۶۷]،

ناظر إلى هذا المعنى.

و قيل المراد بها الأزواج لقوله تعالى: هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَ أَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَ ۱۶۸]، و الجمع بين هذه المعانى ممكن، و الحقيقة أنّ الآية تشير إلى أنّ القادة الإلهيين يمكنهم إبلاغ الرسالة عند طهارة جوانبهم من الأدران و سلامة تقواهم، و لذا يستتبع أمر إبلاغ الرسالة و لقيام بها أمر آخر، هو النقاء و الطهارة.

و يبيّن تعالى الأمر الثّالث بقوله: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ المفهوم الواسع للرجز كان سببا لأن تذكر فى تفسيره أقوال مختلفة، فقيل: هو الأصنام، و قيل: المعاصى، و قيل: الأخلاق الرّذيلة الذميمة، و قيل: حبّ الدنيا الذى هو رأس كلّ خطيئة، و قيل هو العذاب الإلهى النازل بسبب الترك و المعصية، و قيل: كل ما يلهى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۵۹

عن ذكر اللّه.

و الأصل أنّ معنى «الرجز» يطلق على الاضطراب و التزلزل ۱۶۹] ثمّ اطلق على كل أنواع الشرك، عبادة الأصنام، و الوساوس الشيطانية و الأخلاق الذميمة و العذاب الإلهى التى تسبب اضطراب الإنسان، فسّره البعض بالعذاب ۱۷۰]، و قد اطلق على الشرك و المعصية و الأخلاق السيئة و حبّ الدّنيا تجلبه من العذاب.

و ما تجدر الإشارة إليه أنّ القرآن الكريم غالبا ما استعمل لفظ «الرجز» بمعنى العذاب ۱۷۱]، و يعتقد البعض أنّ كلمتى الرجز و الرجس مرادفان ۱۷۲].

و هـذه المعانى الثلاثـة، و إن كانت متفاوتة، و لكنّها مرتبطة بعضـها بالآخر، و بالتالى فإنّ للآية مفهوما جامعا، و هو الانحراف و العمل السيء، و تشمل الأعمال التى لا ترضى اللّه عزّ و جلّ، و الباعثة على سخر اللّه فى الدنيا و الآخرة، و من المؤكّد أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قـد هجر و اتقى ذلك حتى قبل البعثـة، و تاريخه الـذى يعترف به العدو و الصديق شاهد على ذلك، و قد جاء هذا الأمر هنا ليكون العنوان الأساس فى مسير الدعوة إلى اللّه، و ليكون للناس أسوة حسنة.

و يقول تعالى فى الأمر الرّابع: وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ.

هنـا التعلـق محـذوف أيضـا، و يـدل على سـعة المفهـوم كليته، و يشـمل المنّـة على اللّه و الخلاـئق، أى فلاـ تمنن على اللّه بسـعيك و اجتهادك، لأنّ اللّه تعالى هو الذى منّ عليك بهذا المقام المنيع.

و لا تستكثر عبادتك و طاعتك و أعمالك الصالحة، بل عليك أن تعتبر نفسك مقصرا و قاصرا، و استعظم ما وفقت إليه من العبادة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۰

و بعبـارة أخرى: لاـ تمنن على اللّه بقيامـك بالإنـذار و دعوتك إلى التوحيـد و تعظيمك للّه و تطهيرك ثيابك و هجرك الرجز، و لا تسـتعظم كـل ذلـك، بـل أعلم أنّه لو قـدمت خدمـة للنـاس سواء فى الجوانب المعنويـة كالإرشـاد و الهدايـة، أم فى الجوانب المـادية كالإنفاق و العطاء فلا ينبغى أن تقـدمها مقابل منّـة، أو توقع عوض أكبر ممّا أعطيت، لأنّ المنّـة تحبط الأعمال الصالحـة: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى ۱۷۳].

«لاـ تمنن» من مـادة «المنّـة» و تعنى فى هـذه الموارد الحـديث عن تبيـان أهميـة النعم المعطاة للغير، و هنا يتّضـح لنا العلاقـة بينه و بين الاسـتكثار، لأنّ من يستصـغر عمله لا ينتظر المكافأة، فكيف إذن بالاسـتكثار، فإنّ الامتنان يؤدى دائما إلى الاسـتكثار، و هذا ممّا يزيل قيمة النعم، و ما جاء من الرّوايات يشير لهذا المعنى:

«لا تعط تلتمس أكثر منها»[۱۷۴]

كما

جاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية: «لا تستكثر ما عملت من خير للّه»[۱۷۵]

و هذا فرع من ذلك المفهوم.

و يشـير فى الآية الأخرى إلى الأمر الأخير فى هذا المجال فيقول: وَ لِرَبِّكَ فَاصْبِرْ، و نواجه هنا مفهوما واسعا عن الصبر الذى يشمل كلّ شيء، أى اصبر فى طريق أداء الرسالة، و اصبر على أذى المشـركين الجهلاء، و اسـتقم فى طريق عبودية اللّه و طاعته، و اصبر فى جهاد النفس و ميدان الحرب مع الأعداء.

و من المؤكّـد أنّ الصبر هو ضـمان لإجراء المناهج السابقة، و المعروف أنّ الصبر هو الثروة الحقيقية لطريق الإبلاغ و الهداية، و هذا ما اعتمده القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۱

كرارا، و لهذا نقرأ

فى حديث أمير المؤمنين عليه السّلام: «اصبر من الإيمان كالرأس من الجسد»[۱۷۶]،

و لقد كان الصبر و الاعتدال أحد الأصول المهمّة لمناهج الأنبياء و المؤمنين. و كلما ازدادت عليهم المحن ازداد صبرهم.

ورد فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال حول أجر الصابرين: «قال اللّه تعالى:

إذا وجهت إلى عبـد من عبيدى مصـيبة فى بدنه أو ماله أو ولده، ثمّ اسـتقبل ذلك بصبر جميل اسـتحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا».

ثمّ أنّ الآيـات الشـريفة و فى تعقيب لأـمر ورد فى الآيات السابقـة فى إطار القيام و إنـذار المشـركين، توكّـد مرّة اخرى على الإنـذار و

التحذير، فيقول تعالى:

فَإِذا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ.

وردت احتمالات متعددة فى تركيب هذه الجملة، أفضلها ما جاء فى كتاب (البيان فى غريب إعراب القرآن) و الذى يقول: (ذلك مبتدأ و يومئذ بدل و يوم عسير خبره)، و الملاحظ أنّ (ناقور) هى فى الأصل من نقر، و يعنى الدق المؤدى إلى الإثقاب و منها سمّى المنقار، و هو ما تمتلكه الطيور لدق الأشياء و ثقبها، و لذلك يطلق اسم النّاقور على مزمار الذى يخرق صوته اذن الإنسان و ينفذ إلى دماغه.

و يستفاد من الآيات القرآنية أنّ فى نهاية الدنيا و بدء المعاد بنفخ فى الصور مرّتين، أى أن له صوتين موحشين و مرعبين يملآن مسامع العالم بأسره، أوّلهما صوت الموت، و الثّانى صوت اليقظة و الحياة، و يعبر عنهما (نفخة الصور الاولى) و (نفخة الصور الثّانية) و هذا الآية تشير إلى نفخة الصور الثّانية، و التى يكون معها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۲

يوم البعث و هو يوم صعب و ثقيل على الكفّار، و لقد كان لنا بحث مفصل حول الصور و نفخة الصور فى ذيل الآية (۶۸) من سورة الزمر.

على كل حال فإنّ الآيات المذكورة أعلاه تشير إلى حقيقة أنّ مشاكل الكفّار تظهر الواحدة بعد الأخرى فى يوم نفخة البعث، و هو يوم أليم و مفجع، و يركّع أقوى الناس.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۳

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

اشارة

ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (۱۱) وَ جَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً (۱۲) وَ بَنِينَ شُهُوداً (۱۳) وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً (۱۴) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (۱۵) كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً (۱۶) سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (۱۷)

سبب النّزول

ذكر سببان هذه الآيات، هما:

۱- اجتمعت قريش فى دار الندوة فالتفت الوليد بن المغيرة إليهم، و كان الوليد شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و قال: وحدوا قولكم، فإنّ العرب يأتونكم من كل صوب و يسألونكم عمّا خفى عنهم لما عندكم من المنزلة السامية، ثمّ قال: ماذا تقولون فى الرجل- و كان يعنى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- قالوا:

شاعر. فقبض الوليد وجهه، و قال إنّنا سمعنا الشعر و ما هو شعر، قالوا: كاهن، قال:

هل يصدر منه كلام الكهنة عند استماعكم إليه؟ هل يتحدث عن الغيب؟ قالوا:

مجنون. قال: لا يظهر عليه أثر الجنون. قالوا: ساحر: قال: كيف؟ قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه، فقال: بلى- لافتراق من كان يسلّم عن جماعته، فتفرّقوا و صاروا يمرون برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ينادونه يا ساحر يا ساحر، فسمع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و

سلّم ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۴

و اغتم لهذا الأمر، فنزلت بالآيات المذكورة فى صدر السورة حتى الآية (۲۵) لمواساة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و قيل: لما نزلت عليه: حم تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غافِرِ الذَّنْبِ وَ قابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقابِ قام إلى المسجد و الوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه مخزوم، فقال: و اللّه، لقد سمعت من محمّد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، و لا من كلام الجن، و إنّ له لحلاوة و إنّ عليه لطلاوة، و إنّ أعلاه لمثمر و أنّ أسفله لمغدق، و إنّه ليعلو و ما يعلى، ثمّ انصرف إلى منزله.

فقالت قريش: صبا- و اللّه- الوليد، و اللّه لتصبأنّ قريش كلّها، و كان يقال للوليد ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جانب الوليد حزينا، فقال له الوليد: ما أراك حزينا يا ابن أخى، قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنّك، و يزعمون أنّك مدحت كلام محمّد فقام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه، فقال: أ تزعمون أنّ محمّدا مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ فقالوا: اللّهمّ لا.

قال: أ تزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتم عليه شيئا من ذلك؟ قالوا: اللّهم لا.

قال: أ تزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللّهمّ لا.

قال: أ تزعمون أنّه كذّاب، فهل جربتم على شيئا من الكذب؟ قالوا: اللّهمّ لا، و كان يسمى الصادق الأمين قبل النبوّة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟! فتفكر فى نفسه، ثمّ نظر و عبس، فقال: ما هو إلّا ساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل و أهله و ولده و مواليه فهو ساحر و ما يقوله سحر يؤثر[۱۷۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۵

التّفسير

الوليد بن المغيرة ... الثرى المغرور:

تواصل هذه الآيات إنذار الكفّار و المشركين كما فى الآيات السابقة مع فارق، و هو أنّ الآيات السابقة كانت تنذر الكافرين بشكل عام، و هذه تنذر أفرادا معينين بتعابير قوية و بليغة بأشدّ الإنذارات، فيقول تعالى: ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً و الآيات الآتية نزلت فى الوليد بن المغيرة كما قلنا، و هو من أقطاب قريش المشهورين و (وحيدا) يمكن أن يكون وصفا للخالق جلّ شأنه، و يمكن أن يكون للمخلوق، و هناك احتمالان للمعنى الأوّل للوحيد.

الأوّل: ذرنى وحيدا مع هذا الكافر لاعذّبه عذابا شديدا.

و الآخر: دعنى و من خلقته حال كونى وحيدا لا يشاركنى فى خلقه أحد، ثمّ دبّرت أمره أحسن التدبير، و لا تحلّ بينى و بينه لكونه منكرا لنعمائى.

و أمّا المعنى الثّانى فهناك احتمالات أيضا، فقد يكون المعنى: دعنى و من خلقته حال كونه وحيدا فى بطن امّه و عند ولادته لا أموال عنده و لا أولاد، ثمّ وهبته من نعمائى.

أو أنّه سمّى نفسه بذلك كما فى المقولة المشهورة: «أنا الوحيد ابن الوحيد، ليس لى فى العرب نظير، و لا لأبى نظير[۱۷۸]»! و ذكر المعنى فى الآية استهزاء بقوله و أحسن الوجوه الأربعة أوّلها.

ثمّ يضيف تعالى: وَ جَعَلْتُ لَهُ مالًا مَمْدُوداً.

«الممدود»: يعنى فى الأصل المبسوط، و يشير إلى كثرة أمواله و حجمها.

و قيل: إنّ أمواله بلغت حدّا من الكثرة بحيث ملك الإبل و الخيول و الأراضى الشاسعة ما بين مكّة و الطائف، و قيل إنّه يملك ضياع و مزارع دائمة الحصاد، و له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۶

مائة ألف دينار ذهب، و كل هذه المعانى تجتمع فى كلمة «الممدود».

ثمّ أشار تعالى إلى قوته فى قوله: وَ بَنِينَ شُهُوداً.

إذا كانوا يعينونه على حياته، و حضورهم إنس و راحة له، و ما كانوا مضطرين لأن يضربوا فى الأرض طلبا للعيش، و يتركوا أباهم وحيدا، إذ كان له عشرة بنين كما فى الرّوايات.

ثمّ يستطرد بذكر النعم التى وهبها له، يقول تعالى: وَ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً و لم يهبه ما ينفع من المال و الأولاد فحسب، بل أغدق عليه ما يريد من جاء و قوّة.

«التمهيد»: من (المهد) و هو ما يستخدم لنوم الطفل، و يطلق على ما يتهيأ من وسائل الراحة و المقام و انتظام الأمور. و فى المجموع له معان واسعة تشمل المواهب الحياتية و الوسائل الحديثة و التوفيق.

و لكنّه كفر بما أنعم اللّه عليه و هو بذلك يريد المزيد: ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، و ليس هذا منحصرا بالوليد، بل إنّ عبيد الدنيا على هذه الشاكلة أيضا، فلن يروى عطشهم مطلقا، و لو أعطوا الأقاليم السبعة لما اكتفوا بذلك.

و الآية الأخرى تردع الوليد بشدّة، يقول تعالى: كَلَّا إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً و مع أنّه كان يعلم أنّ هذا القرآن ليس من كلام الجن أو الإنس، بل متجذر فى الفطرة، و له جاذبية خاصّة و أغصان مثمرة. فكان يعاند و يعتبر ذلك سحرا و مظهره ساحرا.

«العنيد»: من (العناد) و قيل هو المخالفة و العناد مع المعرفة، أى أنّه يعلم بأحقّية الشىء ثمّ يخالفه عنادا، و الوليد مصداق واضح لهذا المعنى.

و التعبير ب (كان) يشير إلى مخالفته المستمرة و الدائمة.

و أشار فى آخر آية إلى مصيره المؤلم بعبارات قصيرة و غنية فى المعنى، فيقول تعالى: سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً.

«سأرهقه»: من (الإرهاف) و هو غشيان الشىء بالعنف، و تعنى أيضا فرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۷

العقوبات الصعبة، جاء بمعنى الابتلاء بأنواع العذاب، و الصعود، إشارة إلى ما سيناله من سوء العذاب، و يستعمل فى العمل الشاق، إذا يشق صعود الجبل، و لذا فسّر البعض ذلك بالعذاب الإلهى، و قيل هو جبل فى النار يصعد فيه الكافر عنفا ثمّ يهوى، و هو كذلك فيه أبدا.

و يحتمل أن يراد به العذاب الدنيوى للوليد بن المغيرة، فقد ذكر التاريخ عنه أنّه بلغ ذروة الجاه و الرفاه فى حياته، ثمّ عاقبه اللّه تعالى بنقصان ماله و ولده حتى هلك ۱۷۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۸

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۱۸ الى ۲۵]

اشارة

إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ (۱۸) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۱۹) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (۲۰) ثُمَّ نَظَرَ (۲۱) ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ (۲۲) ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ (۲۳) فَقالَ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (۲۴) إِنْ هذا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (۲۵)

التّفسير

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ فى هذه الآيات توضيحات كثيرة عمّن أعطاه اللّه المال و البنين و خالف بذلك رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أى الوليد بن المغيرة، يقول تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَ قَدَّرَ.

لا بأس بالتفكير، و هو حسن، و لكن يشترط أن يكون فى طريق الحق، و تفكر ساعة أفضل من عبادة أو عمر بكامله، لما يمكن أن يتغير مصير الإنسان فيها، و أمّا إذا كان التفكر فى طريق الكفر و الفساد فهو مذموم، و تفكر «الوليد» كان من هذه النوع.

«قدّر»: من التقدير، و هو التهيؤ لنظم أمر فى الذهن و التصميم على تطبيقه، ثمّ يضيف فى مذمته: فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ بعدئذ يؤكّد ذلك فيضيف: ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ و هذا إشارة لما قيل فى سبب النّزول حيث كان يرى توحيد الأقوال فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۶۹

يقذف به الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عند ما سمّوه بالشاعر لم يقبل بذلك، فقالوا: كاهن فلم يقبل، قالوا: مجنون فرفض، فقالوا: ساحر، قال: بلى، و ذلك لمخالفتهم فكرة السحر الذى كان يفرق بين المرء و أهله، أو يجمع الواحد و الآخر، و إنّما ظهر ذلك فى عصر الإسلام، قد عبّر القرآن عن هذه الحالة التى حدثت عند الوليد بتعبير مختصر و بليغ لمطالعته للأمر و تفكره، ثمّ تقديره لذلك و إن كان أصل الاقتراح من قريش، و على كل حال فإنّ تكرار المعنى فى الآيتين دليل على دهاء الوليد فى تفكره الشيطانى، و لذا كانت شدّة تفكره سببا للتعجب.

بعدئذ يضيف اللّه تعالى: ثُمَّ نَظَرَ، أى نظر بعد التفكر و التقدير نظرة من يريد أن يقضى فى أمر مهمّ ليطمئن من استحكامه و انسجامه: ثُمَّ عَبَسَ وَ بَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَ اسْتَكْبَرَ، فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هذا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، بهذه الأقوال يظهره عداءه للقرآن المجيد، و ذلك بعد تفكره الشيطانى، و بقوله هذا صار يمدح القرآن من حيث لا يدرى، و إذا أشار إلى جاذبية القرآن الخارقة و تسخيره للقلوب، و سحر القرآن الذى يسحر القلوب كما فى قولته، و ما كان للقرآن من شبه بسحر الساحرين، بل إنّه كلام منطقى و موزون، و هذا هو دليل على نزول الوحى به، و ليس هو بكلام البشر، بل صدر من عالم ما وراء الطبيعة من علم اللّه اللامتناهى، الذى جمع فى انسجامه و استحكامه كلّ المحاسن.

«عبس»: يعبس عبوسا، و العبوس الذى يقبض وجهه.

«بسر»: من (البسور) و تعنى أحيانا العجلة فى إتمام العمل الذى لو يحن حان وقته، و أحيانا بمعنى قبض الوجه و تغيره، و المعنى الثّانى يناسب العبس، و على المعنى الأوّل يكون إشارة إلى اتّخاذ القرار العاجل فى الصاق ما لا يليق بالقرآن المجيد.

«يؤثر»: من (الأثر)، و هو ما يروى عن الماضين ممّا بقى من الآثار، و قيل من «الإيثار» بمعنى الترجيح و التقديم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۰

و ممّا يؤيد المعنى الأوّل أنّ الوليد يقول: إنّه سحر يروى و يتعلم من السحرة.

و على المعنى الثّانى فإنّه يقول: سحر تؤثر حلاوته فى قلوب الناس و بالتالى فإنّ الناس يرجحونه على غيره.

على كلّ حال هو إقرار ضمنى بإعجاز القرآن. و ليس للقرآن أى علاقة و تشبيه بأعمال السحرة، فهو كلام رصين عميق المعانى و جذاب لا نظير له كما يقول الوليد، فإنّه ليس من كلام البشر، و إن كان كذلك لكانوا قد أتوا بمثله، و هذا ما دعا إليه القرآن كرارا، فلم يستطع أحد من بلغاء العرب أن يأتى بمثله، بل سورة من مثله، و هذه هى معجزة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (۲۶) وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ (۲۷) لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ (۲۸) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (۲۹) عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ (۳۰)

التّفسير

المصير المشؤوم:

فى هذه الآيات بيان للعقوبات المؤلمة لمن أنكر القرآن و الرسالة، و كذب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو ما أشارت إليه الآيات السابقة فيقول اللّه تعالى: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ.

«سقر»: فى الأصل من «سقر» على وزن فقر، بمعنى التغير و الذوبان من أثر حرارة الشمس، هو من أحد أسماء جهنم، كثير ما ذكر فى القرآن، و اختيار هذا الاسم يشير إلى العذاب المهول لجهنّم الذى يلتهم أهلها، و قيل هى درك من دركاتها المهولة، ثمّ يبيّن عظمة و شدّة عذاب النّار فيقول: وَ ما أَدْراكَ ما سَقَرُ.

أى إنّ العذاب يكون شديدا إلى حدّ يخرج عن دائرة التصور، و لا يخطر على بال أحد، كما هو الحال فى عدم إدراك عظمة النعم الإلهية فى الجنان.

لا تُبْقِي وَ لا تَذَرُ.

قد تكون هذه الآية إشارة إلى أنّ نار جهنّم بخلاف نار الدنيا التى ربّما تركت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۲

بعض ما ألقى فيها و لم تحرقه، و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه و صفاته الجسمية و تبقى روحه و صفاته الروحية فى أمان منها، و أمّا «سقر» فلا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلّا نالته و احتوته بجميع وجوده، فهى نار شاملة تستوعب جميع من القى فيها، و قيل: إنّ المعنى لا يموتون فيها و لا يحيون، أى يبقون بين الموت و الحياة، كما جاء فى الآية (۱۳) من سورة الأعلى: لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى

أو أنّها لا تبقى على جسد شيئا من العظام أو اللحم، فيتّضح أنّ مفهوم الآية أنّها لا تحرقهم تماما، لأنّ هذا المعنى لا يتفق و الآية (۵۶) من سورة النساء حيث يقول تعالى: كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا الْعَذابَ ثمّ ينتقل إلى بيان وصف آخر للنّار المحرقة فيضيف: لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ[۱۸۰].

إنّها تجعل الوجه مظلما أسود أشدّ سوادا من الليل.

«بشر»: جمع بشرة، و تعنى الجلد الظاهر للجسد.

«لوّاحة»: من مادة (لوح) و تعنى أحيانا الظاهر، و أحيانا بمعنى التغيير، و يكون المعنى بمقتضى التّفسير الأوّل: (أنّ جهنم ظاهرة للعيان). كما جاء فى الآية (۳۶) من سورة النّازعات: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى و بمقتضى التّفسير الثّانى يكون المعنى: أنّها تغير لون الجلود.

و فى آخر آية من آيات مورد البحث يقول تعالى: عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ.[۱۸۱] إنّهم ليسوا مأمورين بالرحم و الشفقة، بل إنّهم مأمورين بالعذاب و الغلظة، و أمّا الآية الأخرى التى تليها فإنّها تشير إلى أنّ هذا العدد هم ملائكة العذاب، و قيل إنّها تشير إلى تسع عشرة مجموعة من الملائكة، و ليس تسعة عشر نفرا، و دليل ذلك قوله تعالى: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۳

و أمّا عن سبب اختیار هـذا العـدد من ملائکـة العـذاب، فلا یدری أحد عن ذلک شـیئا، و لکن احتمل البعض أنّ المراد من ذلک هو لکون أکبر عـدد للأحاد و أقل عدد للعشـرات، و قیل لکون اصول الأخلاق الرذیلة ترجع إلی ۱۹ أصل ظاهرة و باطنة، فلذا تکون کلّ رذیلـة من الرّذائـل عاملاـ للعـذاب الإـلهی، و إنّ طبقات جهنّم هی تسع عشـرة طبقـة أی بعـددها، و لکل طبقـة ملک أو مجموعـة من الملائکة مأمورین بالعذاب.

و من المؤکّد أنّ الأمور المرابطة بالقیامة و الجنان و الجحیم، و جزئیاتها و خصوصـیاتها غیر واضحة لدنیا تمام الوضوح، و نحن نعیش فی هـذا المحیط المحدود، و الذی نعرفه إنّما یتعلق بکلیاتها، لذا نجد فی الرّوایات أنّ لهذه الملائکة قدرات عظیمة بحیث یمکن لکل ملک أت یقـذف قبیلة کبیرة فی جهنّم بسـهولة، و من هنا یتّضح ضـعف و عجز أفکار أناس من قبیل أبی جهل، إذ أنّه لما سـمع بالآیة جـاء مسـتهزئا إلی قریش، و قـال: ثکلتکم أمهـاتکم ألم تسـمعوا مـا یقـوله ابن أبی کبشـة (یعنی بـذلک النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم)[۱۸۲] یقول إنّ خزنـة النّار تسـعة عشـر و أنتم الدّهم أ یعجز کل عشـرة منکم أن یبطشوا برجل منهم؟! فقال أبو الأسد الجمحی و کان شدید البطش: أنا أکفیکم سبعة شعر فاکفونی أنتم اثنین ۱۸۳] لقد أراد السفهاء أن یطفئوا بهذه السخریة نور الحق، و أن یتخلصوا بذلک من الفناء المحتم.

.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۴

ملاحظة

ملائکة العذاب تسعة عشر:

هذه الآیة تشیر بوضوح إلی عدد خزنة جهنم بأنّهم تسعة عشر نفرا أو تسعة عشرة مجموعة، و الآیات التی تلیها تعتمد علی هذا المعنی، و لکن العجب من أنّ بعض الفرق المنحرفة تصر علی قدسیة هذا العدد، و تسعی إلی أن تجعل من عدد شهور السنة و أیّام نظاما یدور حول محور هـذا العـدد، بخلاـف جمیع الموازین الطبیعیـة و الفلکیـة! و جعلوا أحکـامهم العملیـة مطابقا لـذلک النظام، و الأعجب من ذلک أنّ کاتبا من الکتاب یمکن أن تکون له علاقة بتنظیماتهم یصـرّ إصـرارا عجیبا و مضحکا علی أن یجعل کل ما فی القرآن موجّه علی أساس هذا العدد، و فی الموارد الکثیرة فی القرآن التی لا تتفق مع هذا العدد المرغوب عنده یعمد إلی إضافة أو حذف ما یرغب فیه لیتفق مع ذلک العدد أو مع مضاربه، و إیراد مطالیبها و الإجابة علیها یمکن أن تعتبر إتلافا للوقت.

نعم فالمذهب الجهنمی یجب أن یدور حول عدد جهنمی، و جماعة جهنمیون یجب أن یتوافقوا مع عدد ملائکة العذاب.

***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۵

الآیة [سورة المدثر (۷۴): آیة ۳۱]

اشارة

وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِکَةً وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِینَ کَفَرُوا لِیَسْتَیْقِنَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ یَزْدادَ الَّذِینَ آمَنُوا إِیماناً وَ لا یَرْتابَ الَّذِینَ أُوتُوا الْکِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِیَقُولَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْکافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهـذا مَثَلًا کَذلِکَ یُضِلُّ اللَّهُ مَنْ یَشاءُ

وَ يَهْدِى مَنْ يَشاءُ وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاّ هُوَ وَ ما هِيَ إِلاّ ذِكْرى لِلْبَشَرِ (۳۱)

التّفسير

لم هذا العدد من أصحاب النّار؟

ذكر اللّه سبحانه و تعالى كما قرأنا فى الآيات السابقة عدد خزنة جهنم و مأموريها و هم تسعة عشر نفرا (أو مجموعة)، و كذا قرأنا أنّ ذكر هذا العدد صار سببا للحديث بين أوساط المشركين و الكفّار، و اتّخذ بعضهم ذلك سخرية، و ظنّ القليل منهم أنّ الغلبة على أولئك ليس أمرا صعبا، الآية أعلاه و التى هى أطول آيات هذه السورة تجيب عليهم و توضح حقائق كثيرة فى هذا الصدد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۶

فيقول تعالى أوّلا: وَ ما جَعَلْنا أَصْحابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً[۱۸۴].

ملائكة أقوياء مقتدرون و كما يعبّر القرآن غلاظ شداد قساة، فى مقابل المذنبين بجمعهم الغفير و هم ضعفاء عاجزون.

ثمّ يضيف تعالى: وَ ما جَعَلْنا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا.

و هذا الاختبار من وجهين:

أوّلا: لأنّهم كانوا يستهزئون بالعدد تسعة عشر، و يتساءلون عن سبب اختيار هذا العدد، فى حين لو وضع عدد آخر لكانوا قد سألوا السؤال نفسه.

و الوجه الثّانى: أنّهم كانوا يستقلون هذا العدد و يسخرون من ذلك بقولهم:

لكل واحد منهم عشرة منّا، لتكسر شوكتهم.

فى حين أنّ ملائكة اللّه وصفوا فى القرآن بأنّ نفرا منهم يؤمرون بإهلاك قوم لوط عليه السّلام و يقلبون عليهم مدينتهم، مضافا إلى ما أشير إليه سابقا حول اختيار عدد تسعة عشر لأصحاب النّار.

ثمّ يضيف تعالى أيضا: لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ

ورد فى رواية أنّ جماعة من اليهود سألوا أحد أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن عدد خزنة النّار فقال: «اللّه و رسوله أعلم» فهبط جبرائيل عليه السّلام على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالآية عَلَيْها تِسْعَةَ عَشَرَ.[۱۸۵] و سكوت هؤلاء اليهود و عدم اعتراضهم على هذا الجواب يدلّ على أنّه موافقا لما هو مذكور فى كتبهم، و هذا مدعاة لازدياد يقينهم بنبوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و صار قبولهم هذا سببا فى تمسك المؤمنين بإيمانهم و عقائدهم.

لذا تضيف الآية فى الفقرة الأخرى: وَ يَزْدادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيماناً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۷

ثمّ تعود مباشرة بعد ذكر هذه الآية إلى التأكيد على تلك الأهداف الثلاثة، إذ يعتمد مجددا على إيمان أهل الكتاب، ثمّ المؤمنين، ثمّ على اختبار الكفّار و المشركين، فيقول: وَ لا يَرْتابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْكافِرُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا[۱۸۶].

و أمّا من يقصد به فى قوله: الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فقيل المراد منهم المنافقون، لأنّ هذا التعبير كثيرا ما ورد فيهم فى آيات القرآن كما هو فى الآية (۱۰) من سورة البقرة التى تتحدث حول المنافقين بقرينة الآيات السابقة لها و اللاحقة حيث نقرأ: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً و بهذا الدليل تمسكوا بمدنية الآية السابقة، لأنّ المنافقين نشؤوا فى المدينة عند اقتدار الإسلام و ليس بمكة، و لكن

تحقيق موارد ذكر هـذه العبـارة فى القرآن الكريم يشـير إلى أنّ هـذه العبـارة غير منحصـرة بالمنافقين، بل أطلقت على جميع الكفّار و المعاندين و المحاربين لآيات الحقّ، و عطفت أحيانا على المنافقين حيث يمكن أن يكون دليلا على ثنائيتهم، فمثلا نقرأ فى الآية (۴۹) من سورة الأنفال:

إِذْ يَقُولُ الْمُنـافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دِينُهُمْ و كـذا فى الآيات الأخرى، لـذا ليس هناك دليل على نفى مكيـة الآيـة، خصوصا لما من توافق و ارتباط كامل من الآيات السابقة لها و التى تشير بوضوح إلى مكيّتها.

ثمّ يضيف حول كيفية استفادة المؤمنين و الكفّار الذين فى قلوبهم مرض من كلام اللّه تعالى: فيقول تعالى: كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

إنّ الجمل السابقة تشير بوضوح إلى أنّ المشيئة و الإرادة الإلهية لهداية البعض و إضـلال البعض الأخر ليس اعتباطا، فإنّ المعاندين و الذين فى قلوبهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۸

مرض لا يستحقون إلّا الضلال، و المؤمنون و المسلّمون لأمر اللّه هم المستحقون للهدى.

و يقول فى نهاية الآية: وَ ما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَ ما هِيَ إِلَّا ذِكْرى لِلْبَشَرِ.

فالحـديث عن التسـعة عشـر من خزنـة النّار، ليس لتحديـد ملائكـة اللّه تعالى، بل إنّهم كثيرون جدّا أنّ الرّوايات تصـفهم أنّهم يملؤون السـموات و الأرض، و ليس هناك موضع قدم فى العالم إلّا و فيه ملك يسـبح للّه! و احتمل المفسّـرون احتمالات عديدة فى من يعود الضمير «هى»، فقيل:

يعود على الجنود و منهم خزنـة النّـار، و قيل: على سـقر، و قيل: على آيات القرآن (السورة)، و القول الأوّل أنسب و أوجه، و إن كانت بقيـة الأقوال مـدعاة للتـذكر و الإيقاظ و المعرفـة، و لأنّ الأوّل يبيّن حقيقـة أنّ اللّه تعالى إنّما اختار لنفسه ملائكـة و أخبر عن عـددهم ليكون ذكرى لمن يتعظ بها، لا لكونه غير قادر على معاقبة كل المذنبين و المعاندين.

***

ملاحظة:

عدد جنود الرّب!

حضور اللّه تعالى فى كلّ مكان و اتساع قدرته فى العالم يفهمنا أنّ ذاته المقدّسة غير محتاجة لأى ناصر أو معين، لكنّه، لإظهار عظمته للخلائق و لتكون ذكرى لمن يتعظ اختار ملائكة و جنودا كثيرين مطيعين لأمره تعالى.

و قـد ذكرت الرّوايات عبارات عجيبـة حول كثرة و عظمة و قدرة جنود اللّه و السـماع لهذه الأخبار يثير العجب و الدهشة و لا تتفق مع مقاييسنا المتعارفة، و لذا نقنع بقراءة أوّل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۷۹

خطبـة فى نهـج البلاغـة للإمام على عليه السّـلام حول هـذا الموضوع حيث يقول عليه السّـلام: «ثمّ فتق ما بين السـموات العلا، فملأهن أطوارا من ملائكته، فهم سـجود لا يركعون، و ركوع لا ينتصـبون، صافون لا يتزايلون، و مسبحون لا يسأمون، لا يغشاهم نوم العيون، و لا سـهو العقول، و لا فترة الأبـدان، و لا غفلـة النسـيان، و منهم أمناء على وحيه، و ألسـنة إلى رسـله، و مختلفون بقضائه و أمره، و منهم الحفظة لعباده و السدنة لأبواب جنانه، و منهم الثابتة فى الأرضـين السـفلى أقدامهم، و المارقة من السـماء العليا أعناقهم، و الخارجة من

الأقطار أركانهم، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم، ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم و بين من دونهم حجب العزة، و أستار القدرة، لا يتوهمون ربّهم بالتصوير و لا يجرون عليه صفات المصنوعين، و لا يحدونه بالأماكن، و لا يشيرون إليه بالنظائر»

و كما قلنا سابقا إنّ لكلمة (ملك) مفهوما واسعا حيث يشمل الملائكة الذين يملكون العقل و الشعور و الطاعة و التسليم، و كذلك كثير من عناصر و قوى عالم الوجود.

و لنا شرح مفصل حول هذا الموضوع فى تفسير الآيات الأولى لسورة فاطر و ما يليها.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۰

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۲ الى ۳۷]

اشارة

كَلَّا وَ الْقَمَرِ (۳۲) وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (۳۳) وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ (۳۴) إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ (۳۵) نَذِيراً لِلْبَشَرِ (۳۶) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (۳۷)

التّفسير

استمرارا للبحث مع المنكرين لنبوة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اليوم الآخر تؤكّد الآيات التالية فى أقسام عديدة على مسألة القيامة و الجحيم و عذابها، فيقول تعالى: كَلَّا وَ الْقَمَرِ.

«كلّا»: حرف ردع و إنكار لما تقدم أو ردع لما سيأتى، و يعنى هنا نفى تصور المشركين و المنكرين بجهنّم و عذابها، و الساخرين بخزنة جهنّم بقرينة الآيات السابقة.

و أقسم بالقمر لأنّه إحدى الآيات الإلهية الكبرى، لما فيه من الخلقة و الدوران المعظم و النور و الجمال و التغييرات التدريجية الحاصلة فيه لتعيين الأيّام باعتباره تقويما حيّا كذلك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۱

ثمّ يضيف: وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ، وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ.[۱۸۷] فى الحقيقة أنّ هذه الأقسام الثلاثة مرتبطة بعضها بالآخر و مكملة للآخر، و كذلك لأنّنا كما نعلم أنّ القمر يتجلى فى الليل، و يختفى نوره فى النهار لتأثير الشمس عليه، و الليل و إن كان باعثا على الهدوء و الظلام و عنده سرّ عشاق الليل، و لكن الليل المظلم يكون جميلا عند ما يدبر و يتجه العالم نحو الصبح المضىء و آخر السحر، و طلوع الصبح المنهى الليل المظلم أصفى و أجمل من كل شىء حيث يثير فى الإنسان إلى النشاط و يجعله غارقا فى النور الصفاء.

هذه الأقسام الثلاثة تتناسب ضمنيا مع نور الهداية (القرآن) و استدبار الظلمات (الشرك) و عبادة (الأصنام) و طلوع بياض الصباح (التوحيد)، ثمّ ينتهى إلى تبيان ما أقسم من أجله فيقول تعالى: إِنَّها لَإِحْدَى الْكُبَرِ.[۱۸۸] إنّ الضمير فى (إنّها) إمّا يرجع إلى «سقر»، و إمّا يرجع إلى الجنود، أو إلى مجموعة الحوادث فى يوم القيامة، و أيّا كانت فإنّ عظمتها واضحة.

ثمّ يضيف تعالى: نَذِيراً لِلْبَشَرِ.[۱۸۹] لينذر الجميع و يحذرهم من العذاب الموحش الذى ينتظر الكفّار و المذنبين و أعداء الحق.

و فى النهاية يؤكّد مضيفا أنّ هذا العذاب لا يخص جماعة دون جماعة، بل:

لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ فهنيئا لمن يتقدم، و تعسا و ترحا لمن يتأخر.

و احتمل البعض كون التقدم إلى الجحيم و التأخر عنه، و قيل هو تقدم النفس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۲

الإنسانية و تكاملها أو تأخرها و انحطاطها، و المعنى الأوّل و الثّالث هما المناسبان، دون الثّانى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۳

الآيات [سورة المدثر (۷۴): الآيات ۳۸ الى ۴۸]

اشارة

كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (۳۸) إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ (۳۹) فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ (۴۰) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (۴۱) ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (۴۲) قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (۴۳) وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (۴۴) وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ (۴۵) وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (۴۶) حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ (۴۷)

فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ (۴۸)

التّفسير

لم صرتم من أصحاب الجحيم؟

إكمالا للبحث الذى ورد حول النّار و أهلها فى الآيات السابقة، يضيف تعالى فى هذه الآيات: كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ.

«رهينة»: من مادة (رهن) و هى وثيقة تعطى عادة مقابل القرض، و كأن نفس الإنسان محبوسة حتى تؤدى وظائفها و تكاليفها، فإن أدت ما عليها فكت و أطلقت، و إلّا فهى باقية رهينة و محبوسة دائما، و نقل عن أهل اللغة أنّ أحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۴

معانيها الملازمة و المصاحبة[۱۹۰]، فيكون المعنى: الكلّ مقترنون بمعية أعمالهم سواء الصالحون أم المسيئون.

لذا يضيف مباشرة: إِلَّا أَصْحابَ الْيَمِينِ

إنّهم حطموا أغلال و سلاسل الحبس بشعاع الإيمان و العمل الصالح و يدخلون الجنّة بدون حساب.[۱۹۱] و هناك أقوال كثيرة حول المقصود من أصحاب اليمين:

فقيل هم الذين يحملون كتبهم بيمينهم، و قيل هم المؤمنون الذين لم يرتكبوا ذنبا أبدا، و قيل هم الملائكة، و قيل غير ذلك و المعنى الأوّل يطابق ظاهر الآيات القرآنية المختلفة، و ما له شواهد قرآنية، فهم ذو و إيمان و عمل صالح، و إذا كانت لهم ذنوب صغيرة فإنّها تمحى بالحسنات و ذلك بحكم إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ۱۹۲].

فحينئذ تغطّى حسناتهم سيئاتهم أو يدخلون الجنّة بلا حساب، و إذا وقفوا للحساب فسيخفف عليهم ذلك و يسهل، كما جاء فى سورة الإنشقاق آية (۷):

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً.

و نقل المفسّر المشهور «القرطبى» و هو من أهل السنة تفسير هذه الآية

عن الإمام الباقر عليه السّلام فقال: «نحن و شيعتنا أصحاب اليمين و كل من أبغضنا أهل البيت فهم مرتهنون».[۱۹۳]

و أورد هذا الحديث مفسّرون آخرون منهم صاحب مجمع البيان و نور

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۵

الثقلين و البعض الآخر أورده تذييلا لهذه الآيات.

ثمّ يضيف مبيّنا جانبا من أصحاب اليمين و الجماعة المقابلة لهم:

فِي جَنَّاتٍ يَتَساءَلُونَ ۱۹۴] عَنِ الْمُجْرِمِينَ ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ.

يستفاد من هذه الآيات أن الرابطة غير منقطعة بين أهل الجنان و أهل النّار، فيمكنهم مشاهدة أحوال أهل النّار و التحدث معهم، و لكن ماذا سيجيب المجرمون عن سؤال أصحاب اليمين؟ إنّهم يعترفون بأربع خطايا كبيرة كانوا قد ارتكبوها:

الاولى: قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ

لو كنّا مصلّين لذكّرتنا الصلاة باللّه تعالى، و نهتنا عن الفحشاء و المنكر و دعتنا إلى صراط اللّه المستقيم.

و الأخرى: وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ

و هذه الجملة و إن كانت تعطى معنى إطعام المحتاجين، و لكن الظاهر أنه يراد بها المساعدة و الإعانة الضرورية للمحتاجين عموما بما ترتفع بها حوائجهم كالمأكل و الملبس و المسكن و غير ذلك.

و صرّح المفسّرون أنّ المراد بها الزكاة المفروضة، لأنّ ترك الإنفاق المستحب لا يكون سببا فى دخول النّار، و هذه الآية تؤكّد مرّة أخرى على أنّ الزّكاة كانت قد فرضت بمكّة بصورة إجمالية، و إن كان التشريع بجزئياتها و تعيين خصوصياتها و تمركزها فى بيت المال كان فى المدينة.

و الثّالثة: وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ

كنّا نؤيد ما يصدر ضدّ الحقّ فى مجالس الباطل. نقوم بالترويج لها، و كنّا معهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۶

أين ما كانوا، و كيف ما كانوا، و كنّا نصدق أقوالهم، و نضفى الصحة على ما ينكرون و يكذبون و نلتذ باستهزائهم الحقّ.

«نخوض»: من مادة (خوض) على وزن (حوض)، و تعنى فى الأصل الغور و الحركة فى الماء، و يطلق على الدخول و التلوث بالأمور، و القرآن غالبا ما يستعمل هذه اللفظة فى الإشتغال بالباطل و الغور فيه.

(الخوض فى الباطل) له معان واسعة فهو يشمل الدخول فى المجالس التى تتعرض فيها آيات اللّه للاستهزاء أو ما تروج فيها البدع، أو المزاح الواقح، أو التحدث عن المحارم المرتكبة بعنوان الافتخار و التلذذ بذكرها، و كذلك المشاركة فى مجالس الغيبة و الاتهام و اللهو و اللعب و أمثال ذلك، و لكن المعنى الذى انصرفت إليه الآية هو الخوض فى مجالس الاستهزاء بالدين و المقدسات و تضعيفها و ترويج الكفر و الشرك.

و أخيرا يضيف: وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتانَا الْيَقِينُ

من الواضح أنّ إنكار المعاد و يوم الحساب و الجزاء يزلزل جميع القيم الإلهية و الأخلاقية، و يشجع الإنسان على ارتكاب المحارم، و يرفع كلّ مانع هذا الطريق، خصوصا إذا استمر إلى آخر العمر، على كل حال فإنّ ما يستفاد من هذه الآيات أنّ الكفار هم مكلّفون بفروع الدين، كما هم مكلّفون بالأصول، و كذلك تشير إلى أن الأركان الاربعة، أى الصلاة و الزّكاة و ترك مجالس أهل الباطل، و الإيمان بالقيامة لها الأثر البالغ فى تربية و هداية الإنسان، و بهذا لا يمكن أن يكون الجحيم مكانا للمصلين الواقعيين، و المؤتين الزّكاة، و التاركين الباطل و المؤمنين بالقيامة.

بالطبع فإنّ الصلاة هى عبادة اللّه، و لكنّها لا تنفع إذا لم يمتلك الإنسان الإيمان به تعالى، و لهذا فإنّ أداءها رمز للإيمان و الإعتقاد باللّه و التسليم لأوامره، و يمكن القول إنّ هذه الأمور الأربعة تبدأ بالتوحيد ينتهى بالمعاد، و تحقق العلاقة و الرابطة بين الإنسان و

الخالق، و كذا بين المخلوقين أنفسهم.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۷

و المشهور بين المفسّرين أنّ المراد من (اليقين) هنا هو الموت، لأنّه يعتبر أمر يقينى للمؤمن و الكافر، و إذا شك الإنسان فى شىء ما فلا يستطيع أن يشك بالموت و نقرأ أيضا فى الآية (۹۹) من سورة الحجر: وَ اعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ

و لكن ذهب البعض إلى أنّ اليقين هنا يعنى المعرفة الحاصلة بعد موت الإنسان و هى التى تختص بمسائل البرزخ و القيامة، و هذا ما يتفق نوعا ما مع التّفسير الأوّل.

و فى الآية الأخيرة محل البحث إشارة إلى العاقبة السيئة لهذه الجماعة فيقول تعالى: فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ

فلا تنفعهم شفاعة الأنبياء و رسل اللّه و الائمّة، و لا الملائكة و الصديقين و الشهداء و الصالحين، و لأنّها تحتاج إلى عوامل مساعدة و هؤلاء أبادوا كل هذه العوامل، فالشفاعة كالماء الزلال الذى تسقى به النبتة الفتية، و بديهى إذا ماتت النبتة الفتية، لا يكن للماء الزلال أن يحييها، و بعبارة أخرى كما قلنا فى بحث الشفاعة، فإنّ الشفاعة من (الشفع) و تعنى ضم الشىء إلى آخر، و معنى هذا الحديث هو أنّ المشفّع له يكون قد قطع قسطا من الطريق و هو متأخر عن الركب فى مآزق المسير، فتضم إليه شفاعة الشافع لتعينه على قطع بقية الطريق ۱۹۵].

و هذه الآية تؤكّد مرّة أخرى مسألة الشفاعة و تنوع و تعدد الشفعاء عند اللّه، و هى جواب قاطع لمن ينكر الشفاعة، و كذلك توكّد على أنّ للشفاعة شروطا و أنّها لا تعنى إعطاء الضوء الأخضر لارتكاب الذنوب، بل هى عامل مساعد لتربية الإنسان و إيصاله على الأقل إلى مرحلة تكون له القابلية على التشفع، بحيث لا تنقطع وشائج العلاقة بينه و بين اللّه تعالى و الأولياء.

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۸

ملاحظة:

شفعاء يوم القيامة:

نستفيد من هذه الآيات و الآيات القرآنية الأخرى أنّ الشفعاء كثيرون فى يوم القيامة (مع اختلاف دائرة شفاعتهم) و يستفاد من مجموع الرّوايات الكثيرة و المنقولة من الخاصّة و العامّة أنّ الشفعاء يشفعون للمذنبين لمن فيه مؤهلات الشفاعة:

۱- الشفيع الأوّل هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: كما نقرأ

فى حديث حيث قال: «أنا أوّل شافع فى الجنّة»[۱۹۶].

۲- الأنبياء من شفعاء يوم القيامة، كما

ورد فى حديث آخر عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «يشفع الأنبياء فى كلّ من يشهد أن لا إله إلّا اللّه مخلصا فيخرجونهم منها»[۱۹۷].

۳- الملائكة من شفعاء يوم المحشر، كما

نقل عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث قال: «يؤذن للملائكة و النّبيين و الشّهداء أن يشفعوا»[۱۹۸].

۴، ۵- الأئمّة المعصومين و شيعتهم كما قال فى ذلك أمير المؤمنين عليه السّلام حيث

قال: «لنا شفاعة و لأهل مودتنا شفاعة»[۱۹۹]

۶، ۷- العلماء و الشّهداء كما

ورد فی حدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حیث قال: «یشفع یوم القیامة الأنبیاء ثمّ العلماء ثمّ الشّهداء»[۲۰۰].

و

ورد فی حدیث آخر عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «یشفع الشّهید فی سبعین إنسانا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۸۹

من أهل بیته»[۲۰۱].

و

فی حدیث آخر نقله المجلسی فی بحار الأنوار: «إنّ شفاعتهم تقبل فی سبعین ألف نفر»[۲۰۲].

و لا منافاة بین الرّوایتین إذ أنّ عدد السبعین و السبعین ألف هی من أعداد الکثرة.

۸- القرآن کذلک من الشفعاء فی یوم القیامة کما

قال أمیر المؤمنین علیه السّلام: «و اعلموا أنّه (القرآن) شافع مشفع»[۲۰۳].

۹- من مات علی الإسلام

فقد ورد عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «إذا بلغ الرجل التسعین غفر اللّه ما تقدم من ذنبه و ما تأخر و شفّع فی أهله»[۲۰۴].

۱۰- العبادة: کما

جاء فی حدیث عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «الصّیام و القرآن یشفعان للعبد یوم القیامة»[۲۰۵].

۱۱- ورد فی بعض الرّوایات أنّ العمل الصالح کأداء الأمانة یکون شافعا فی یوم القیامة.[۲۰۶] ۱۲- و الطریف هو ما یستفاد من بعض الرّوایات من أنّ اللّه تعالی أیضا یکون شافعا للمذنبین فی یوم القیامة، کما

ورد فی الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «یشفع النّبیون و الملائکة و المؤمنون فیقول الجبار بقیت شفاعتی»[۲۰۷].

و الرّوایات کثیرة فی هذه الباب و ما ذکرناه هو جانب منها.[۲۰۸]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۰

و نکرر أنّ للشفاعة شروطا لا یمکن بدونها التشفع و هذا ما جاء فی الآیات التی بحثناها و التی تشیر بصراحة الی عدم تأثیر شفاعة الشفعاء فی المجرمین، فالمهم أن تکون هناک قابلیة للتشفع، لأنّ فاعلیة الفاعل لوحدها لیست کافیة (أوردنا شرحا مفصلا فی هذا الباب فی المجلد الأوّل فی بحث الشفاعة)***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۱

الآیات [سورة المدثر (۷۴): الآیات ۴۹ الی ۵۶]

اشارة

فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْکِرَةِ مُعْرِضِینَ (۴۹) کَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (۵۰) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (۵۱) بَلْ یُرِیدُ کُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ یُؤْتی صُحُفاً مُنَشَّرَةً (۵۲) کَلَّا بَلْ لا یَخافُونَ الْآخِرَةَ (۵۳)

کَلَّا إِنَّهُ تَذْکِرَةٌ (۵۴) فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ (۵۵) وَ ما یَذْکُرُونَ إِلَّا أَنْ یَشاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوی وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (۵۶)

التّفسیر

يفرّون من الحق كما تفرّ الحمر من الأسد:

تتابع هذه الآيات ما ورد فى الآيات السابقة من البحث حول مصير المجرمين و أهل النّار، و تعكس أوضح تصوير فى خوف هذه الجماعة المعاندة و رعبها من سماع حديث الحقّ و الحقيقة.

فيقول اللّه تعالى أوّلا: فَما لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۲۰۹] لم يفرّون من دواء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۲

القرآن الشافى؟ لم يطعنون فى صدر الطبيب الحريص عليهم؟ حقّا إنّه مثير كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ.

«حمر»: جمع (حمار) و المراد هنا الحمار الوحشى، بقرينة فرارهم من قبضة الأسد و الصياد، و بعبارة أخرى أنّ هذه الكلمة ذات مفهوم عام يشمل الحمار الوحشى و الأهلى.

«قسورة»: من مادة (قسر) أى القهر و الغلبة، و هى أحد أسماء الأسد، و قيل هو السهم، و قيل الصيد، و لكن المعنى الأوّل أنسب.

و المشهور أنّ الحمار الوحشى يخاف جدّا من الأسد، حتى أنّه عند ما يسمع صوته يستولى عليه الرعب فيركض إلى كلّ الجهات كالمجنون، خصوصا إذا ما حمل الأسد على فصيل منها، فإنّها تتفرق فى كل الجهات بحيث يعجب الناظر من رؤيتها.

و هذا الحيوان وحشى و يخاف من كل شىء، فكيف به إذا رأى الأسد المفترس؟! على كل حال فإنّ هذه الآية تعبير بالغ عن خوف المشركين و فرارهم من الآيات القرآنية المربية للروح، فشبههم بالحمار الوحشى لأنّهم عديمو العقل و الشعور، و كذلك لتوحشّهم من كل شىء، فى حين أنّه ليس مقابلهم سوى التذكرة.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتى صُحُفاً مُنَشَّرَةً[۲۱۰]، و ذلك لتكبرهم و غرورهم الفارغ بحيث يتوقعون من اللّه تعالى أن ينزل على كلّ واحد منهم كتابا.

و هذا نظير ما جاء فى الآية (۹۳) من سورة الإسراء:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۳

وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ

و كذا فى الآية (۱۲۴) من سورة الأنعام حيث يقول: قالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ

و على هذا فإنّ كلّا منهم يتنظر أن يكون نبيّا من اولى العزم! و ينزل عليه كتابا خاصّا من اللّه بأسمائهم، و مع كل هذا فليس هناك من ضمان فى أن يؤمنوا بعد كل ذلك.

و جاء فى بعض الرّوايات أنّ أبا جهل و جماعة من قريش قالوا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لا نؤمن بك حتى تأتينا بصحف من السماء عليها فلان ابن فلان من ربّ العالمين، و يأتى الأمر علنا باتباعك و الإيمان بك.[۲۱۱] و لذا يضيف فى الآية الأخرى: كَلَّا ليس كما يقولون و يزعمون، فإنّ طلب نزول مثل لهذا الكتاب و غيره هى من الحجج الواهية، و الحقيقة بَلْ لا يَخافُونَ الْآخِرَةَ.

إذا كانوا يخافون الآخرة فما كانوا يتذرعون بكل هذه الذرائع، ما كانوا ليكذبوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما كانوا ليستهزئوا بآيات اللّه تعالى، و لا بعدد ملائكته، و من هنا يتّضح أثر الإيمان بالمعاد فى التقوى و الطهارة من المعاصى و الذنوب الكبيرة، و الحقّ يقال إن الإيمان بعالم البعث و الجزاء و عذاب القيامة يهب للإنسان شخصية جديدة يمكنه أن يغير إنسانا متكبرا و مغرورا و ظالما إلى إنسان مؤمن متواضع و متق عادل.

ثمّ يؤكّد القرآن على أنّ ما يفكرون به فيما يخصّ القرآن هو تفكّر خاطئ:

كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ

فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الطريق، و دعانا إلى التبصر فيه، و أنار لنا السبيل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۴

لیری الإنسان موضع أقدامه، و فی الوقت نفسه لا یمکن ذلک إلّا بتوفیق من اللّه و بمشیئته تعالی، و ما یذکرون إلّا ما یشاء اللّه.

و لهذا الآیة عدّة تفاسیر إحداها: کما ذکرناه سابقا، و هو أن الإنسان لا یمکنه الحصول علی طریق الهدایة إلّا بالتوسل باللّه تعالی و طلب الموفقیة منه.

و طبیعی أن هذا الإمداد و التوفیق الإلهی لا یتمّ إلّا بوجود أرضیة مساعدة لنزوله.

و التّفسیر الآخر: ما جاء فی الآیة السابقة: فَمَنْ شاءَ ذَکَرَهُ یمکن أن یوجد و هما و أنّ کل شیء مرتبط بإرادة الإنسان نفسه، و أنّ إرادته مستقلة فی کل الأحوال، و تقول هذه الآیة رافعة بذلک هذا الاشتباه، إنّ الإنسان مرتبط بالمشیئة الإلهیة، و إن هذه الآیة مختارا حرّا و هذه المشیئة هی الحاکمة علی کل هذا العالم الموجود، و بعبارة اخری: إنّ هذا الاختبار و الحریة و المعطاة للإنسان فی بمشیئته تعالی و إرادته، و یمکن سلبها أنّی شاء.

و أمّا التّفسیر الثّالث فإنّه یقول: إنّهم لا یمکنهم الإیمان إلّا أن یشاء اللّه ذلک و یجبرهم، و نعلم أنّ اللّه لا یجبر أحدا علی الإیمان أو الکفر، و التّفسیر الأوّل و الثّانی أنسب و أفضل.

و فی النهایة یقول: هُوَ أَهْلُ التَّقْوی وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ.

فهو أهل لأن یخافوا من عقابه و أن یتقوا فی اتّخاذهم شریکا له تعالی شأنه، و أن یأملوا مغفرته، و فی الحقیقة، أنّ هذه الآیة إشارة إلی الخوف و الرجاء و العذاب و المغفرة الإلهیة، و هی تعلیل لما جاء فی الآیة السابقة، لذا نقرأ

فی حدیث ورد عن الإمام الصّادق علیه السّلام فی تفسیر هذه الآیة أنّه قال: «قال اللّه: أنا أهل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۵

أن اتقی و لا یشرک بی عبدی شیئا و أنا أهل إن لم یشرک بی شیئا أن ادخله الجنّة»[۲۱۲].

و بالرغم من أنّ المفسّرین- کما رأینا- قد أخذوا التقوی هنا بمعناها المفعولی، و قالوا إنّ اللّه تعالی أهل لأن یتّقی من الشرک و المعصیة، و لکن هناک احتمالا آخر، و هو أنّ تؤخذ بمعناها الفاعلی، أی أن اللّه أهل للتقوی من کلّ أنواع الظلم و القبح و من کل ما یخاف الحکمة، و ما عند العباد من التقوی هو قبس ضعیف من ما عند اللّه، و إنّ کان التعبیر بالتقوی بمعناه الفاعلی و الذی یقصد به اللّه تعالی قلیل الاستعمال، علی کل حال فإنّ الآیة قد بدأت بالإنذار و التکلیف، و انتهت بالدعوة إلی التقوی و الوعد بالمغفرة.

و نتعرض هنا بالدعاء إلیه خاضعین متضرعین تعالی:

ربّنا! اجعلنا من أهل التقوی و المغفرة.

اللّهم! إن لم تشملنا ألطافک فإنّنا لا نصل إلی مرادنا، فامنن علینا بعنایتک.

اللّهم! أعنّا علی طریق ملیء بالمنعطفات و الهموم و المصائد الشیطانیة الصعبة، و أعنا علی الشیطان المتهیئ لإغوائنا، فبغیر عونک لا یمکننا المسیر فی هذا الطریق.

آمین یا ربّ العالمین.

نهایة سورة المدّثّر***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۷

سورة القیامة

اشارة

مكيّة و عدد آياتها أربعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۱۹۹

«سورة القيامة»

محتوى السورة:

كما هو واضح من اسم السورة فإنّ مباحثها تدور حول مسائل ترتبط بالمعاد و يوم القيامة إلّا بعض الآيات التى تتحدث حول القرآن و المكذبين، و أمّا الآيات المرتبطة بيوم القيامة فإنّها تجتمع فى أربعة محاور:

۱- المسائل المرتبطة بأشراط الساعة.

۲- المسائل المتعلقة بأحوال الصالحين و الطالحين فى ذلك اليوم.

۳- المسائل المتعلقة باللحظات العسيرة للموت و الانتقال إلى العالم الآخر.

۴- الأبحاث المتعلقة بالهدف من خلق الإنسان و رابطة ذلك بمسألة المعاد.

فضيلة السورة:

فى حديث روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة القيامة شهدت أنا و جبرائيل له يوم القيامة أنّه كا مؤمنا بيوم القيامة، و جاء و وجهه مسفر على وجوه الخلائق يوم القيامة»[۲۱۳].

و نقرأ

فى حديث ورد عن الإمام الصّادق عليه السّلام قال: «من أدمن قراءة لا أُقْسِمُ و كان يعمل بها، بعثها اللّه يوم القيامة معه فى قبره، فى أحسن صورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۰

تبشّره و تضحك فى وجهه، حتى يجوز الصراط و الميزان»[۲۱۴].

و الجدير بالملاحظة أنّ ما كنّا نستفيد منه فى القرائن التى فى فضائل تلاوة السور القرآنية قد صرّح بها الإمام هنا فى هذه الرّواية حيث يقول: «من أدمن قراءة لا اقسم و كان يعمل بها»

و لذا فإنّ كل ذلك هو مقدمة لتطبيق المضمون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۱

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ (۱) وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (۲) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ (۳) بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ (۴) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ (۵) يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ (۶)

التّفسير

قسما بيوم القيامة و النفس اللوامة:

تبدأ هذه السورة بقسمين غزيرين بالمعانى، فيقول تعالى: لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامَةِ وَ لا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ و هناك أقوال للمفسّرين فى ذلك، فقيل أنّ (لا) زائدة للتأكيد و أنّها لا تنفى القسم، بل تؤكّده، و قيل و ربّما نافية، و الغاية فى ذلك هو أن يقول لا أقسم بذلك لأهمية هذا الموضوع (كالقول لا أقسم بحياتك لأنّها أعلى من القسم).

و أخذ أغلب المفسّرين بالتّفسير الأوّل، و لكن البعض الآخر بالتّفسير الثّانى حيث قالوا إنّ (لا) الزائدة لا تأتى فى أوّل الكلام بل فى وسطه، و الأوّل هو الأصح ظاهرا. لأنّ القرآن الكريم قد أقسم بأمور هى أهم من القيامة، كالقسم بذات اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۲

المقدّسة، لذا ليس هناك دليل على عدم القسم هنا بيوم القيامة، و هناك مثال لاتّخاذ لا الزائدة فى أوّل الكلام، و هو ما ورد فى أشعار «امرئ القيس» حيث استعمل «لا» الزائدة فى بداية قصائده الشعرية

لا و أبيك ابنة العامرلا يدعى القوم أنى أفر

و لكن ما نعتقده أنّ البحث ليس مهمّا حول ما إذا كانت (لا) نافية أو زائدة، و ذلك لأنّ نتيجة القولين هى واحدة و هى بيان أهمية الموضوع الذى أقسم لأجله.

المهم أنّ نرى ما هى العلاقة و الرّابطة الموجودة بين القسمين.

الحقيقة أنّ أحد دلائل وجود «المعاد» هو وجود «محكمة الوجدان» الموجودة أعماق الإنسان، و التى تنشط و تسر عند الإقدام لإنجاز عمل صالح، و بهذه الطريقة تثبت صاحبها و تكافئه، و عند ارتكاب الأعمال السيئة و الرذيلة فإنّها سوف تقوم بتقريع صاحبها و تأنّبه و تعذبه إلى حدّ أنّه قد يقدم على الانتحار للتخلص ممّا يمرّ فيه من عذاب الضمير.

و فى الحقيقة أنّ الضمير هو الذى أصدر حكم الإعدام، و تمّ تنفيذ ذلك بنفسه، إنّ دوى النفس اللوامة فى وجود الإنسان واسع جدّا، و هى قابلة للتمعن و المطالعة فى كلّ الأحوال و فى بحث الملاحظات نشير إلى ذلك بشكل واسع.

عند ما يكون (العالم الصغير) أى وجود الإنسان محكمة فى قلبه، فكيف يمكن للعالم الكبير أن لا يملك محكمة عدل عظمى؟

فمن هنا نفهم وجود البعث و القيامة بواسطة وجود الضمير الأخلاقى، و من هنا تتّضح الرابطة الظريفة بين القسمين، و بعبارة أخرى فإنّ القسم الثّانى هو دليل على القسم الأوّل.

و أمّا ما يراد ب «النفس اللوامة»[۲۱۵] فهناك أقوال كثيرة و مختلفة قد ذكرت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۳

للمفسّرين، و أحد تلك التّفاسير المشهورة هو ما ذكرناه آنفا، و هو أنّ أنّها «الوجدان الأخلاقى» الذى يلوم الإنسان فى الدنيا على المعصية و يحفّزه على إصلاح ما بدا منه.

و التّفسير الآخر هو أنّ المراد بالنفس الإنسانية بصورة عامة التى تلوم صاحبها يوم القيامة، فإذا كان مؤمنا فإنّها تلومه على عدم الإكثار من الصالحات و على قلّة الطاعة، و إن كان كافرا فإنّها تلوم على كفره و شركه و فجوره.

و أمّا الآخر: فالمراد نفس الكافر التى تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر و معصية.

و الوجه الأوّل يناسب الآية السابقة و التى تليها، أجل إنّ لمحكمة الضمير مقاما و منزلة عظيمة و لهذا يقسم اللّه بها، و يستعظم قدرها، و هى بحقّ عظيمة القدر، لأنّها أحد العوامل المهمّة لخلاص لإنسان بشرط أن تكون واعية و يقظة و غير عاجزة بسبب الذنوب و

الآثام.

و ممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ جواب القسم محذوف، و هذا ما تدل عليه الآيات التالية و التقدير «لتبعثن يوم القيامة» أو «أنّكم تبعثون» فيكون المعنى: لا أقسم بيوم القيامة و لا أقسم بالنفس اللوامة أنّكم تبعثون يوم القيامة و تجزون ما كنتم تفعلون.

و من الظريف أنّ القسم جاء بيوم القيامة على وجود يوم القيامة، و ذلك لأنّه إلى درجة من الوضوح و البداهة أنّه يمكن القسم به حتى فى مقابل المنكرين.

ثمّ يستفهم تعالى فى الآية الأخرى للتوبيخ فيضيف: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ

ورد فى رواية أنّ أحد المشركين و هو «عدى بن أبى ربيعة» كان جارا للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فسأل النّبى عن أمر القيامة فأخبره به، فقال عدى: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك، أو يجمع اللّه هذه العظام؟ فنزلت هذه الآيات و أجابته على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۴

ذلك، و لذا

قال فيه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم «اللّهم اكفنى شر جارى سوء»[۲۱۶].

و هناك نظائر لهذا المعنى فى الآيات القرآنية الأخرى، منها الآية (۷۸) من سورة (يس) حيث إنّ منكرا من منكرى المعاد كانت بيده عظاما، فقال للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ

و التعبير بكلمة «يحسب» التى هى من الحسبان و تعنى الظن، إشارة إلى أنّ المنكرين لا يؤمنون بما يقولون، بل يعتمدون على ما يظنون من الوهم.

و لكن نرى أنّه قد اعتمد على العظام خاصّة، و هذا لكون دوام بقاء العظام أكثر من غيرها من أجزاء الجسد، و لذا تكون إعادتها تكون تربا متأثرا بعيدا فى نظر عديمى الإيمان.

ثمّ إنّ العظام من الأركان المهمّة فى بدن الإنسان، لأنّها تشكل أعمدة البدن، و كلّ الحركات و التغيرات المهمّة الحاصلة فى البدن و كذلك فعاليات المختلفة تتمّ بواسطة العظام، و كثرة و تنوع أشكال و مقاييس العظام فى جسم الإنسان من عجائب الخلقة الإلهية، تتّضح أهميتها عند ما تتعطل فقرة واحدة من فقرات الظهر عن العمل و تسبب فى شلّ حركة البدن.

«البنان»: أطراف الأصابع، و قيل الأصابع، و فى المعنيين إشارة إلى أنّ اللّه تعالى ليس القادر على جمع العظام و إرجاعها إلى صورتها الأولى فحسب، بل إنّه تعالى يسوى العظام الصغيرة و الظريفة و الدقيقة للأصابع على ما كانت عليها فى الخلق الأوّل، و الأعجب من ذلك يمكنه تعالى اعادة بصمات الأصابع كما كانت عليه أيضا.

و يمكن أن يكون ذلك إشارة لطيفة إلى الخطوط الموجودة فى أطراف الأصابع و التى نادرا ما تتساوى هذه الخطوط عند شخصين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۵

و بتعبير آخر إنّ هذ الخطوط الموجودة فى أطراف الأصابع هى المعرّفة لشخص الإنسان، و لذا صار بصم الأصابع فى عصرنا هذا أمرا علميا، و بهذه الطريقة يمكن كشف الكثير من السراق و المجرمين، فيكفى فى كشف السارق وضعه أصابعه على مقبض الباب، أو زجاجة الغرفة، أو قفل الصندوق و بقاء أثر خطوط أنامله عليها، ثمّ يؤخذ من ذلك الطبع نموذج و تتمّ مقابلته مع آثار أصابع اللصوص السابقين التى أخذت منهم سلفا، و هكذا يعرف المجرم و السارق.

و فى الآية الأخرى إشارة إلى أحد العلل الحقيقة لإنكار المعاد فيقول: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ إنّهم يريدون أن يكذبوا بالبعث و ينكروا المعاد، ليتسنى لهم الظلم و ارتكاب المحارم و التنصل عن المسؤولية أمام الخلق، و ذلك لأنّ الإيمان بالمعاد و القيامة و محكمة العدل الإلهية بمثابة سدّ عظيم فى مقابل المعاصى و الذنوب و النفس الأمارة تريد كسر هذا السدّ و هذا الطوق ليفجر الإنسان مدى عمره و يعمل ما يشاء، و هذا ليس منحصرا بالأزمنة السابقة، بل إنّ إحدى علل الميول إلى المادية و إنكار المبدأ و المعاد فى

هذا العصر هو كسب الحرية للفجور و الهروب من المسؤولية، و تحطيم كل القوانين الإلهية، و إلّا فإنّ دلائل المبدأ و المعاد واضحة، و قد ورد فی تفسير على بن ابراهيم فی توضيح معنى هذه الآية حيث قال: يقدّم الذنب و يؤخر التوبة و يقول سوف أتوب.

و قيل المراد من «الفجور» و «التكذيب»، فيكون المعنى، يريد أن يكذب بالبعث الذى سوف يقع أمامه، و لكن التفسير الأوّل أنسب.

ثمّ يضيف بعد ذلك: يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ.

أجل، إنّه يستفهم مستنكرا عن وقوع يوم القيامة و يهرب ممّا كلّف به لكى يفسح لنفسه طريق الفجور أمامه، و الجدير بالذكر أنّ سؤالهم هذا عن وقت حدوث القيامة لا يعنى أنّهم يؤمنون بأصل القيامة، بل هو مقدّمة لإنكار أصل القيامة كالذى يقول: (فلان سوف يقدم من السفر) و إذا ما تأخر فترة من الزمن يعترض من ينكر قدوم ذلك المسافر فيقول: (متى سوف يأتى المسافر)؟

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۶

ملاحظات

اشارة

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۲۰۶

۱- محكمة الضمير أو القيامة الصغرى

نستفيد من آيات القرآن المجيد أنّ للنفس الإنسانية ثلاث مراحل:

۱- النفس الامارة: و هى النفس العاصية التى تدعو الإنسان إلى الرذائل و القبائح باستمرار، و تزيّن له الشهوات، و هذا ما أشارت إليه امرأة عزيز مصر حينما نظرت إلى عاقبة أمرها فقالت: وَ ما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ.[۲۱۷]؟

۲- النفس اللوامة: و هى ما أشير إليها فى الآيات التى ورد البحث فيها، و هى نفس يقظة و واعية نسبيا، فهى تزل أحيانا لعدم حصولها على حصانة كافية مقابل الذنوب، و تقع فى شبك الآثام إلّا أنّها تستيقظ بعد فترة لتتوب و ترجع إلى مسير السعادة، و انحرافها ممكن، إلّا أنّ ذلك يكون مؤقتا و ليس دائما و لا يمضى عليها كثير وقت حتى تعود إلى الملامة و التوبة.

و هذا هو ما يذكرونه تحت عنوان (الضمير الأخلاقى) و يكون هذا قويا جدّا عند بعض الأفراد، و ضعيفا و عاجزا عند آخرين، و لكن النفس اللوامة لا تموت بكثرة الذنوب عند أى انسان.

۳- النفس المطمئنة: و هى النفس المتكاملة المنتهية إلى مرحلة الاطمئنان و الطاعة و المنتهية إلى مقام التقوى و الإحساس بالمسؤولية و ليس من السهل انحرافها، و هذا ما ورد فى و قوله تعالى: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً[۲۱۸].

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۷

على كل حال فإنّ النفس اللوامة كما قلنا هى كالقيامة الصغرى فى داخل الروح و التى تقوم بمحاسبة الإنسان، و لذا تحس أحيانا بالهدوء و الاستقرار بعد القيام بالأعمال الصالحة و تمتلئ بالسرور و الفرح و النشاط.

و بالعكس فإنّها تبتلى أحيانا بكابوس الرذائل و الجرائم الكبيرة و أمواج الغم و الحيرة، و يحترق بذلك باطن الإنسان حتى يتنفر من الحياة، و ربّما يبلغ ألم الوجدان أنّه يقدم على تسليم نفسه إلى المحاكم القضائية ليرتقى منصة الإعدام لخلاص نفسه من قبضة هذا

الکابوس.

هذه المحکمة الداخلیة العجیبة لها شبه عجیب بمحکمة القیامة.

۱- إنّ القاضی و الشاهد و المنفذ للأحکام واحد، کما فی یوم القیامة: عالِمَ الْغَیْبِ وَ الشَّهادَةِ أَنْتَ تَحْکُمُ بَیْنَ عِبادِکَ ۲۱۹].

۲- إنّ هـذه المحکمـة ترفض کلّ توصـیة و رشوة و واسـطة کما هو الحال فی محکمة یوم القیامة، فیقول تعالی: وَ اتَّقُوا یَوْماً لا تَجْزِی نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَیْئاً وَ لا یُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا یُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ یُنْصَرُونَ ۲۲۰].

۳- إنّ محکمة الضـمیر تحقق و تدقق الملفات المهمّة بأقصـر مدّة و تصدر الحکم بأسرع وقت، فلا استئناف فی ذلک، و لا إعادة نظر، و لا تحتاج فی ذلک شـهورا و سـنین، و هـذا هو ما نقرأه أیضا فی محکمـة البعث: وَ اللَّهُ یَحْکُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُکْمِهِ وَ هُوَ سَرِیعُ الْحِسابِ ۲۲۱].

۴- مجازاتها و عقوباتها لیست کعقوبات المحاکم الرسمیة العالمیة، فإنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۸

شرر النیران تتقـد فی الوهلـة الاولی فی أعماق القلب و الروح، ثمّ تسـری إلی الخارج، فتعـذب روح الإنسان أوّلا، ثمّ تظهر آثارها فی الجسم و ملامح الوجه و طبیعة النوم و الأکل، فیعبّر تعالی عن ذلک فی قوله: نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ[۲۲۲].

۵- عـدم احتیاج هـذه المحکمـة إلی شـهود، بل إنّ المعلومات التی یعطیها الإنسان المتهم بنفسه و الـذی یکون شاهـدا علی نفسه هی التی تقبل منه، نافعة کانت له أم ضارة! کما تشـهد ذرات وجود الإنسان حتی یداه و جلده علی أعماله فی محکمة البعث فیقول تعالی: حَتَّی إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَیْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ ۲۲۳].

و هـذا التشبیه العجیب بین المحکمتین دلیل آخر علی فطریـة الإعتقاد بالمعاد، لأنّه کیف یمکن أن یکون فی الإنسان الذی یعتبر قطرة صغیرة فی محیـط الوجود العظیم هکـذا حسـاب و محاکم ملیئـة بالرموز و الأسـرار فی حین لا یوجـد حساب و محاکم فی هـذا العالم الکبیر؟ فهذا ما لا یصدق.

۲- أسماء القیامة فی القرآن المجید

إنّ قسـما مهمّا من معارف القرآن و مسائله العقائدیـة یـدور حول محور القیامـة و البعث، لأنّ له تأثیرا مهمّا فی تربیـة الإنسان و تکامل سلوکه، و لهـذا الیوم العظیم أسـماء کثیرة فی القرآن، و کـل منها تبیّن بعـدا من أبعاد ذلک الیوم، یمکن أن تکون هـذه الأسـماء بحدّ ذاتها انعکاس للکثیر من المسائل المتعلقة بهذا الجانب.

یقول المرحوم الفیض الکاشانی فی المحجـة البیضاء: «إنّ تحت کلّ اسم من هذه الأسـماء سرّ خفی، و لکل نعت معنی مهم لا بدّ من السعی الجاد لإدراک هذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۰۹

المعانی و معرفة أسرارها، فقد ذکر أکثر من فئة اسم لیوم القیامة یمکن الاستفادة منها أو من أکثرها فی القرآن المجید، کیوم الحسرة، یوم القیامـة، یوم المحاسـبة، یوم المسألة، یوم الواقعة، یو القارعة، یوم الراجفة، یوم الرادفة، یوم الطلاق، یوم الفراق، یوم الحساب، یوم التنـاد، یوم العـذاب، یوم الفرار، یوم الحق، یوم الحکم، یوم الفصـل، یوم الجمع، یوم الـدین، یوم تبلی السـرائر، یوم لا ـ یغنی مولی عن مولی شیئا، یوم یفر المرء من أخیه، یوم لا ینفع مال و لا بنون، یوم التغابن ...»[۲۲۴].

و لکن أشـهر أسـماء ذلـک هو الیوم «یوم القیامـة» الـذی ذکر سـبعین مرّة فی القرآن، و یحکی عن قیـام عامّـة العباد و البعث و العظیم للناس، و التوجه إلی ذلک الیوم یدفع الناس لأداء وظائفهم و تکالیفهم فی هذه الدنیا.

و باعتقادنا أنه يكفى للانتباه من نوم الغفلة و الغرور و الأخذ بعنان و زمام النفس العاصية و تربيتها و تعليمها أن نتفكر فى هذه الأسماء و نتصور حالنا فى ذلك اليوم، يوم يحضر الجميع أمام اللّه العظيم و ترفع الستائر و تظهر الأسرار و تتزين الجنان و تتوقد جهنم، و يحضر الجميع عند ميزان العدل الإلهى.

«اللّهم اجعل لنا عندك ملجأ فى ذلك اليوم»***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۰

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۷ الى ۱۵]

اشارة

فَإِذا بَرِقَ الْبَصَرُ (۷) وَ خَسَفَ الْقَمَرُ (۸) وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ (۹) يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (۱۰) كَلَّا لا وَزَرَ (۱۱) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (۱۲) يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ (۱۳) بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (۱۴) وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ (۱۵)

التّفسير

الإنسان نعم الحكم لنفسه:

أنهت الآيات السابقة بسؤال كان قد وجهه المنكرون للبعث يوم القيامة، و هو يوم القيامة متى يأتى ذلك اليوم؟ و هذه الآيات هى التى تجيب عن هذه السؤال.

فتشير أوّلا إلى الحوادث السابقة للبعث، أى إلى التحول العظيم و انعدام القوانين الحاصل فى الأنظمة الكونية فيقول تعالى: فَإِذا بَرِقَ ۲۲۵] الْبَصَرُ بمعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۱

اضطراب العين و دورانها من شدّة الخوف و الرعب وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ.

ذكرت معان متعددة للمفسّرين فى ما يراد بالجمع بين الشمس و القمر، فقيل هو اجتماعهما، أو طلوعهما كليهما من المشرق و غروبهما من المغرب، و قيل اجتماعهما بعد زوال نوريهما[۲۲۶] و يحتمل أن ينجذب القمر تدريجيا بواسطة الشمس و باتجاهها ثم اجتماعهما معا بعد ذلك، و ينتهى بالتالى ضياؤهما.

على كلّ حال فقد أشير هنا إلى ظاهرتين من أهم الظواهر الانقلابية لأواخر الدنيا، أى إلى زوال نور القمر و اجتماع الشمس و القمر مع البعض، و هو ما أشير إليه فى الآيات القرآنية الأخرى أيضا، فيقول تعالى فى سورة التكوير: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ أى إذا أظلمت الشمس، و نعلم أن ضوء القمر من الشمس، و عند ما يزول نور الشمس يزول بذلك نور القمر، و بالتالى تدخل الكرة الأرضية فى ظلام دامس و عتمة مرعبة.

و بهذه الطريقة و التحول العظيم ينتهى العالم، ثم يبدأ بعث البشرية بتحول عظيم آخر (بنفخة الصور الثانية و التى تعتبر نفخة الحياة) فيقول الإنسان فى ذلك اليوم: يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ[۲۲۷].

أجل، الكفرة و المذنبون الذين كذبوا بيوم الدين يبحثون عن ملجأ فى ذلك اليوم لشدّة خجلهم، و يطلبون سبل الفرار لثقل خطاياهم و خوفهم من العذاب، كما كانوا يبحثون عن طريق الفرار فى الدنيا عند ما كانوا يواجهون حادثة خطيرة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۲

فيقيسون ذلك اليوم بهذا! و لكن سرعان ما يقال لهم: كَلَّا لا وَزَرَ[۲۲۸].

فلا ملجأ إلّا إلى اللّه تعالى: إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ و ذكرت لهذه الآية تفاسير أخرى غير التفسير المذكور أعلاه منها: إن الحكم النهائى لذلك اليوم هو بيد اللّه تعالى.

أو إن المقر النهائى للإنسان فى الجنّة أو النّار هو بيد اللّه.

أو أن الاستقرار للمحاكمة و الحساب يومئذ يكون عنده، و لكن بالتوجه إلى الآية التى تليها نرى أن ما قلناه هو الأنسب و الأوجه.

و يعتقد البعض أن هذه الآية هى من الآيات التى تبين خط مسير التكامل الأبدى للإنسان، و هى من جملة الآيات التى تقول: وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ[۲۲۹] و يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ۲۳۰] و أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى ۲۳۱][۲۳۲].

و بعبارة أوضح أنّ الناس فى حركة دائبة فى هذا الطريق الطويل من حدود العدم إلى إقليم الوجود، و لا يزالون فى حركة فى هذا الإقليم نحو الوجود المطلق، و الوجود الأزلى، و أن هذه الحركة و السلوك التكاملى فى استمرار الى الأبد ما داموا لا ينحرفون عن هذا الصراط المستقيم حيث يدخلون فى كل يوم مرحلة جديدة من التقرب إلى اللّه تعالى، و إذا انحرفوا عن مسيرهم فإنهم سوف يسقطون و ينتهون عندئذ يضيف فى إدامة هذا الحديث: يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَ أَخَّرَ أمّا عن معنى هاتين العبارتين فقد ذكرت لهما تفاسير عديدة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۳

أوّلا: المراد هو ما قدم من الأعمال فى حياته، أو الآثار الباقية منه بعد موته، ممّا ترك بين الناس من السنن الصالحة و السيئة و التى يعملون و يسيرون بها و وصول حسناتها و سيئاتها إليه. أو الكتب و المؤلفات و الأبنية القائمة على الخير و الشرّ، و الأولاد الصالحين و الطالحين التى تصل آثارهم إليه.

و الثّانى: يمكن أن يراد به الأعمال الأولى التى أتى بها. و الأعمال الأخيرة التى أتى بها فى عمره، و بعبارة أخرى أنّه ينبّأ بجميع أعماله.

و الثّالث: أنّ المراد هو ما قدم من ماله لنفسه و ما ترك لورثته، و قيل: ما قدم من الذنوب، و ما أخر من طاعة اللّه أو بالعكس.

و الوجه الأوّل هو الأنسب، لما

ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير « (ينبّؤ) بما قدم من خير و شرّ، ما أخر من سنّة ليس بها من بعده فإن كان شرّا كان عليه مثل وزرهم، و لا ينقص من وزرهم شيئا، و إن كان خيرا كان له مثل أجورهم، و لا ينقص من أجورهم شيئا»[۲۳۳].

ثم يضيف فى الآية الأخرى و يقول: إنّ اللّه و ملائكته يطلعون العباد على أعمالهم، و إن كان لا يحتاج إلى ذلك، لأنّ نفسه و أعضاءه هم الشهود عليه فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَ لَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ

سياق هذه الآيات فى الحقيقة هو نفس سياق الآيات التى تشير إلى شهادة الأعضاء على أعمال الإنسان، كالآية (۲۰) من سورة فصلت حيث يقول اللّه تعالى: شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ

و الآية (۵) من سورة يس: وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ

و على هذا فإنّ أفضل شاهد على الإنسان فى تلك المحكمة الإلهية للقيامة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۴

هو نفسه، لأنه أعرف بنفسه من غيره، و إن كان اللّه تعالى قد أعطاه شواهد أخرى كثيرة لإتمام الحجّة عليه.

«بصيرة»: لها معنى مصدرى بمعنى (الرؤيا و الاطلاع)، و معنى وصفى (الشخص المطّلع) و لذا فسّره البعض بمعنى (الحجة و الدليل و البرهان) و الذى هو واهب للمعرفة[۲۳۴].

«معاذير»: جمع (معذرة) و تعنى فى الأصل البحث عمّا تمحى به آثار الذنوب، و قد تكون أحيانا أعذارا واقعية، و أخرى صورية و

ظاهرية.

و قيل: المعاذير جمع معذار، و هو الستر، و المعنى و إن أرخى الستور ليخفى ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه، و الأوّل أوجه.

على كل حال فإن الحاكم على الحساب و الجزاء فى ذلك اليوم العظيم هو المطّلع على الأسرار الداخلية و الخارجية، و كذلك نفس الإنسان المحاسب لنفسه، كما جاء فى الآية (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

إنّ الآيات مورد بحثنا و إن كانت تتحدث كلّها عن المعاد و القيامة، فإنّ مفهومها واسع، و لذا فإنّها تشمل عالم الدنيا، و تعلم الناس بأحوال أنفسهم و إنّه كان فيهم من يكتم و يغطى وجهه الحقيقى بالكذب و الاحتيال و التظاهر و المراءاة.

لذا

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام حيث قال: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسنا و يسرّ سيئا أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك، و اللّه سبحانه يقول: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية»[۲۳۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۵

و

ورد أيضا فى حديث صيام المريض عن الصادق عليه السّلام عند ما سأله أحد أصحابه: ما حد المرض الذى يفطر صاحبه؟ فأجاب الإمام: «بل الإنسان على نفسه بصيرة، هو أعلم بما يطيق»[۲۳۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۶

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۱۶ الى ۱۹]

اشارة

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (۱۶) إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ (۱۷) فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (۱۸) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ (۱۹)

التّفسير

إنّ علينا جمعه و قرآنه:

هذه الآيات بمثابة الجملة الاعتراضية التى تتداخل أحيانا فى كلام المتحدث. كمن يكون مشغولا بالخطابة فى مجلس ما و الناس مجتمعون فى آخر المجلس، و الحال أنّ صدر المجلس خال، فيقطع حديثه مؤقتا، و يدعو الحاضرين للتقدم لينفتح الطريق للقادمين، ثم يستأنف حديثه مجددا، أو كالأستاذ الذى يقطع حديثه لينبه طالبا، و بعد ذلك يكمل حديثه.

فعند ما يسمع شخص ما حديث الأستاذ عن طريق شريط كاسيت يرى إشكالا فى استمراريّة الحديث، و يتعجب لما يرى من عدم الترابط بين الجمل، و لكن مع التمعن فى شرائط المجلس الخاصّة يتّضح فلسفة هذه الجمل المعترضة.

بعد هذه المقدمة البسيطة نتّجه إلى تفسير الآيات التى يراد بحثها، حيث يترك اللّه تعالى الحديث عن القيامة و أحوال المؤمنين و الكفرة مؤقتا، ليعطى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۷

تذكرة مختصرة للنّبى صلّى اللّه عليه و آله حول القرآن فيقول: لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ لهذه الآية أقوال متعددة للمفسّرين، و على المجموع ذكرت لها ثلاثة تفاسير:

الأوّل: هو التفسير المشهور الذى نقل عن ابن عباس فى كتب الحديث، و هو أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان إذا نزل عليه الوحى ليقرأ عليه القرآن، تعجّل بقراءته ليحفظه و ذلك لحبه الشديد للقرآن، فنهاه اللّه عن ذلك و قال: إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

الثّانى: نعلم أن للقرآن نزولين هما: نزول دفعى، أى نزوله بتمامه على قلب النبى صلّى اللّه عليه و آله فى ليلة القدر، و نزول تدريجى و الذى كان أمده ۲۳ عامّا، و كان النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يعجل فى إبلاغ الرسالة أحيانا قبل النزول التدريجى للآيات أو قراءة ما يرافق تلك الآيات، فنهاه اللّه عن ذلك. و أمره أن يبلّغ و يتلو ما ينزل عليه فى حينه، و على هذا يكون مضمون هذه الآية كالآية (۱۱۴) من سورة طه: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ

و ليس فى هذين التفسيرين اختلاف واسع، و يكون المعنى: لا ينبغى للنّبى أن يعجل فى استلام الوحى.

الثّالث: و لم يذهب اليه إلّا القليل، و هو أنّ المخاطبين فى هذه الآيات هم المذنبون، و ذلك فى يوم القيامة حيث يأمرون بمحاسبة أنفسهم و ذكر أعمالهم، و يقال لهم: لا تعجلوا فى ذلك، و من الطبيعى أنّهم سوف يتضجرون عند ذكرهم لسيئاتهم و يمرون عليها باستعجال، فيأمرون بالتأنى فى قراءتها و اتباع الملائكة عند ذكر الملائكة لأعمالهم، و طبقا لهذا التفسير لا تكون هذه الآية كجملة معترضة، بل مرتبطة مع الآيات السابقة و اللاحقة لها. لأن جميعها تتحدث عن أحوال القيامة و المعاد، و أمّا التفسير الأوّل و الثّانى فيناسبان شكل الجملة المعترضة.

و لكن التفسير الثّالث بعيد و خاصّة مع الالتفات الى ذكر اسم القرآن فى الآيات اللاحقة، و يشير سياق الآيات إلى أن المراد هو أحد التفسيرين السابقين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۸

و لا إشكال فى الجمع بينهما بالرغم من أنّ سياق الآيات اللاحقة يؤيّد التفسير الأول أى المشهور (فتدبّر).

ثمّ يضيف: إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ ۲۳۷] و بالتالى لا تقلق على جمع القرآن، نحن نجمعه و نتلوه عليك بواسطة الوحى.

ثم يقول تعالى: فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثمّ يضيف: ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ

فيكون جمع القرآن و قراءته لك و تبيينه و تفصيل معانيه بعهدتنا، فلا تقلق على شىء، فالذى أنزل الوحى هو الذى يحفظه، و أمّا ما يعهد إليك هو اتباعك له و إبلاغك الرسالة للناس، و عن بعضهم أنّ المراد من الجمع ليس الجمع فى لسان الوحى، بل جمعه فى صدر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قراءته على لسانه أى لا- تعجل إنّ علينا أن نجمعه فى صدرك و نثبت قراءته فى لسانك بحيث تقرأه متى شئت.

على كل حال فإن هذه العبارات تؤيد التفسير الأوّل، و هو أن الوحى النازل بواسطة جبرئيل عليه السّلام عند ما كان يهبط على النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليقرأ عليه القرآن كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يكرر الآيات بسرعة لئلا ينساها. و هنا جاء الأمر من اللّه أن أهدأ و اطمئن فإنّه تعالى هو الذى يجمع الآيات و يبيّنها. و هذه الآيات تبيّن ضمنيا أصالة القرآن، و حفظه من أى تغيّر و انحراف، لأنّ اللّه تعالى عهد بجمعه و قراءته و تبيينه.

و ورد فى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان بعد نزول هذه الآيات إذا أتاه جبرئيل عليه السّلام أطرق، فإذا ذهب قرأ كما وعده اللّه ۲۳۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۰ الى ۲۵]

اشارة

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ (۲۰) وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ (۲۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ (۲۲) إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ (۲۳) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ (۲۴) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ (۲۵)

التّفسير

الوجوه الضاحكة و الوجوه العابسة فى ساحة القيامة:

ترجع هذه الآيات مرّة أخرى لتكمل البحوث المتعلقة بالمعاد.

و خصوصيات أخرى من القيامة، و كذلك تبيّن علل إنكار المعاد فيقول تعالى كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ[۲۳۹] فليس الأمر كما يتصور من أن دلائل المعاد خفيّة و لا يمكنكم الاطلاع عليها، بل إنّكم عشقتكم الدنيا. و لهذا السبب تركتم الآخرة وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ.

إنّ الشك فى قدرة اللّه تعالى و جمع العظام و هى رميم ليس هو الدافع لإنكار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۰

المعاد، بل إنّ حبّكم الشديد للدنيا و الشهوات و الميول المغرية هى التى تدفعكم الى رفع الموانع عن طريق ملذاتكم، و بما أنّ المعاد و الشريعة الإلهية توجد موانع و حدودا كثيرة على هذا الطريق، لذا تتمسكون بإنكار أصل الموضوع، و تتركون الآخرة بتمامها.

و كما ذكرنا سابقا أنّ إحدى العلل المهمّة للميول الى المادية و إنكار المبدأ و المعاد هو كسب الحرية المطلقة للانجراف وراء الشهوات و اللذات و الذنوب، و لا ينحصر هذا فى العهود السابقة، بل يتجلّى هذا المعنى فى عالم اليوم بصورة أوضح.

و هاتان الآيتان تؤكّدان ما ورد فى الآيات السابقة و التى قال فيها تعالى شأنه: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ و قال أيضا: يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ.

ثمّ ينتهى إلى تبيان أحوال المؤمنين الصالحين و الكفّار المسيئين فى ذلك اليوم، فيقول تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ.

«ناضرة»: من مادة (نضرة) و تعنى البهجة الخاصّة التى يحصل عليها الإنسان عند وفور النعمة و الرفاه، و وفورها يلازم السرور و الجمال و النورانية، أى أنّ لون محياهم تحكى عن أحوالهم، كيف أنّهم أغرقوا فى النعم الإلهية، و هذا شبيه لما جاء فى الآية (۲۴) من سورة المطفّفين: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

هذا من ناحية العطايا المادية، و أمّا عن العطايا الروحية فيقول تعالى: إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ نظرة بعين القلب و عن طريق شهود الباطن، نظرة تجذبهم إلى الذات الفريدة و إلى ذلك الكمال و الجمال المطلقين، و تهبهم اللذة الروحانية و الحال الذى لا يوصف، إذ أنّ لحظة منها أفضل من الدنيا و ما فيها. و الجدير بالذكر أن تقديم (إلى ربّها) على (ناظرة) تفيد الحصر، أى ناظرة إلى اللّه فقط لا إلى غيره.

و إذا قيل إنّ أهل الجنان ينظرون إلى غير اللّه تعالى أيضا، فإنّنا نقول: إذا نظروا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۱

إلى غيره فإنّهم سوف يرون آثار اللّه فيها، و النظر إلى الأثر هو نظر إلى المؤثر، و بعبارة أخرى أنّهم يرونه فى كلّ مكان. و يرون تجلى قدرته و جلاله و جماله فى كل شىء، و لذا فإنّ نظرهم إلى نعم الجنان لا يجرهم إلى الغفلة عن النظر إلى ذات اللّه.

و لهذا السبب ورد فى بعض الرّوايات فى تفسير هذه الآية: (إنهم ينظرون الى رحمة الله و نعمته و ثوابه)[۲۴۰] لأن النظر إلى ذلك هو بمثابة النظر إلى ذاته المقدّسة.

قال بعض الغافلين: إن هذه الآية تشير إلى شأنه فى يوم القيامة، و يقولون: إنّ اللّه سوف يرى بالعين الظاهرة فى يوم القيامة. و الحال إنّ مشاهدته بالعين الظاهرة تستلزم جسمانيته. و الوجود فى المكان، و الكيفية و الحالة الخاصّة وجود جسمانى، و نعلم أنّ ذاته المقدّسة

منزّهة عن مثل هذا الإعتقاد الملوث، كما اعتمد القرآن هذا المعنى فى آياته مرات عديدة، منها ما فى الآية (۱۰۳) من سورة الأنعام: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ و هذه الآية مطلقة لا تختص فى الدنيا.

على كل حال فإنّ عدم النظر الحسى إلى اللّه تعالى أمر واضح لا يحتاج البحث فيه أكثر من هذا، و يقرّ بذلك من له أدنى اطلاع على القرآن و المفاهيم الاسلامية.

و قال البعض فى معنى الناظرة أقوالا ـ أخرى مثلا ـ: ناظرة من مادة الانتظار، أى أنّ المؤمنين لا ينتظرون شيئا إلّا من اللّه تعالى، و حتى أنّهم لا يعتمدون على أعمالهم الصالحة و أنّهم ينتظرون رحمة اللّه و نعمته بشكل دائم.

و إذا قيل إنّ هذا الانتظار سيكون مصحوبا مع نوع من الانزعاج، و الحال أنّ المؤمن لا ـ شىء يزعجه فى الجنان؟ فيقال: إنّ ذلك الانتظار المصحوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۲

بالانزعاج هو ما لا يطمأن عقباه، أما إذا ما وجد الاطمئنان. فسيكون مثل هذا الانتظار مصحوبا بالهدوء[۲۴۱].

و الجمع بين معنى (النظر) و (الانتظار) غير بعيد، لجواز استعمال اللفظ الواحد فى المعانى المتعددة. و إذا كان المراد هو أحد المعنيين، فإن الأرجح هو المعنى الأوّل.

و ننهى هذا الكلام

بحديث مسند إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله إذ قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول اللّه تعالى تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنّة و تنجينا من النّار»؟

قال: «فيكشف اللّه تعالى الحجاب فما أعطوا شيئا أحبّ إليهم من النظر الى ربّهم»![۲۴۲]

و الظريف هو ما

ورد فى حديث عن أنس بن مالك، عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «ينظرون إلى ربّهم بلا كيفية و لا حد محدود و لا صفة معلومة»[۲۴۳]،

و هذا الحديث تأكيد على المشاهدة الباطنية لا العينية.

و فى النقطة المقابلة لهذه الجماعة المؤمنة، هناك جماعة تكون وجوههم مقطبة. وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ.

«باسرة»: من مادة (بسر) على وزن (نصر)، و هو الشىء غير الناضج و العمل الذى لم يأت حينه، و لذا يقال لفاكهة النخل غير الناضجة (بسر) على وزن (عسر) و يطلق على عبوس الوجه. و هذا الوصف هو ردّ فعل الإنسان قبل وصول العذاب و الأذى إليه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۳

فعند ما ينظر الكافرون إلى علامات العذاب و صحائف أعمالهم الخالية من الحسنات و المملوءة بالسيئات، يصيبهم الندم و الحسرة و الحزن و يعبسون وجوههم لذلك.

تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ.

يرى الكثير من المفسّرين بأنّ (الظن) هنا بمعنى العلم. أى أنّهم يوقنون بمثل هذا العذاب، و الحال أنّ بعضهم يرى أنّ (ظن) هنا بمعناها المعروف أى الاحتمال القوى، و من الطبيعى أنّهم يوقنون إجمالا ـ بأنّهم سوف يعذبون، و لكن ليس بمثل هذا العذاب الشديد[۲۴۴].

«فاقرة»: من مادة (فقرة) على وزن (ضربة) و جمعها (فقار) و تعنى حلقات الظهر، و يقال للحادثة الثقيلة التى تكسر حلقات الظهر «فاقرة»، «و الفقير» قيل له ذلك لهذا الوجه، أى أنّه مكسور الظهر[۲۴۵].

على كل حال فإنّ هذا التعبير كناية للعقوبات الثقيلة و التى تنتظر هذه الجماعة فى جهنّم، إنّهم ينتظرون عذابا قاصما، و الحال إنّ

الجماعة السابقة منتظرون لرحمة اللّه تعالى و مستعدون للقاء المحبوب. هؤلاء لهم أسوأ العذاب.

و أولئك لهم أسمى النعم الجسمانية و المواهب و اللذات الروحانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۴

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۲۶ الى ۳۰]

اشارة

كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ (۲۶) وَ قِيلَ مَنْ راقٍ (۲۷) وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ (۲۸) وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (۲۹) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ (۳۰)

التّفسير

إتماما للأبحاث المرتبطة بالعالم الآخر و مصير المؤمنين و الكفّار يأتى الحديث فى هذه الآيات عن لحظة الموت المؤلمة و التى تعتبر بابا إلى العالم الآخر فيقول تعالى: كَلَّا إِذا بَلَغَتِ التَّراقِيَ ۲۴۶] أى كلّا إنّه لا يؤمن حتى تصل روحه التراقى.

هو ذلك اليوم الذى تنفتح فيه عينه البرزخية، و تزال عنها الحجب، و يرى فيها علامات العذاب و الجزاء، و يوقف على أعماله، ففى تلك اللحظة يقرّ بالإيمان و لكن إيمانه لا ينفعه و لا يفيد حاله أبدا.

«تراقى»: جمع «ترقوة»، و هى العظام المكتنفة للنحر عن يمين و شمال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۵

و بلوغ الروح إلى التراقى كناية عن اللحظات الأخيرة من عمر الإنسان، و ذلك عند ما تخرج الروح من البدن، تتوقف الأعضاء البعيدة عن القلب (كاليدين و الرجلين) قبل غيرها، كأن الروح تطوى نفسها فى البدن تدريجيا حتى تصل إلى الحلقوم.

و فى هذه الفترة يسعى أهله و أصدقائه مستعجلين قلقين لانقاذه، يقول تعالى: وَ قِيلَ مَنْ راقٍ أى هل هناك من منقذ يأتى لإنقاذ هذا المريض؟

و يقولون هذا الحديث عن وجه العجز و اليأس، و الحال أنّهم يعلمون أنّه قد فات الآوان و لا ينفع معه طبيب.

«راق»: من مادة (رقى) على وزن (نهى) و (رقيه) على وزن (خفيفه) و هو الصعود، و لفظة (رقيه) تطلق على الأوراد و الأوعية التى تبعث على نجاة المريض، و قيل للطبيب الذى ينجى المريض و يخلصه مما هو فيه «راقى»، فيكون مفهوم الآية: ينادى أهل المريض، و أحيانا المريض نفسه من شدّة الضجر: ألا هل من داع يدعو بدعاء لينجى هذا المريض؟

و قال البعض: إنّ المعنى قول الملائكة بعضها لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة، أ ملائكة الرحمة، أم ملائكة العذاب؟

و أضاف البعض إنّ ملائكة اللّه تكره قبض روح غير المؤمن، و لذا يقول ملك الموت: من يرقى بروحه، و المعنى الأوّل أوجه و أنسب.

و فى الآية التالية إشارة إلى اليأس الكامل للمحتضر فيقول تعالى: وَ ظَنَّ أَنَّهُ الْفِراقُ أى فى هذه الحالة يصاب باليأس من الحياة و اليقين بالفراق، ثمّ: وَ الْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ و هذا الالتفاف إمّا لشدّة الأذى لخروج الروح، أو لتوقف عمل اليدين و الرجلين و تعطيل الروح منها.

و ذكرت تفاسير أخرى لهذه الآية، منها ما نقرأ

فى حديث عن الإمام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۶

الباقر عليه السّلام قال: (التفت الدنيا بالآخرة)[۲۴۷] و مثله عن على بن إبراهيم ۲۴۸].

و نقل عن ابن عباس كذلك من المراد من الآية: التفاف أمر الآخرة بأمر الدنيا.

و قال البعض: هو التفاف شدائد الموت بشدائد القيامة.

و الظاهر رجوع جميع هـذه المعانى إلى ما أوردناه فى قول الباقر عليه السّلام، و اتخـذ هـذا التفسـير لكون أحد معانى «الساق» فى لغة العرب هو الحادثة الشديدة و المصيبة و الباء العظيم.

و قال آخرون هو التفاف الساق فى الكفن. و يمكن جمع هذه التفاسير فى معنى الآية إذ لا منافاة بينها.

ثمّ يقول تعالى فى آخر آية من آيات البحث: إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَساقُ

أجل إلى اللّه تعالى المرجع حيث يحضر الخلائق عند محكمة العدل الإلهية، و هكذا ينتهى المطاف إليه، و هذه الآية أيضا تأكيد على مسألـة المعـاد و البعث الشامـل للعبـاد، و يمكن أن تكون إشارة إلى الحركـة التكامليـة للخلائق و هى متجهـة نحو الـذات المقدّسـة و اللامتناهية.

***

ملاحظة

لحظة الموت المؤلمة:

كما نعلم أنّ القرآن كثيرا ما أكّد على مسألـة الموت خصوصا عن الاحتضار، و ينـذر الجميع أنّهم سـيواجهون مثل هذه اللحظة، و قد عبّر عنها أحيانا (بسكرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۷

الموت)[۲۴۹] و أحيانـا أخرى (بغمرات الموت)[۲۵۰] و كـذلك ببلوغ الحلقوم ۲۵۱] و يعبر عنه أيضـا ببلوغ الروح إلى الـتراقى، أى العظام المكتنفة للنحر كما فى الآيات مورد البحث، و يستفاد من مجموع ذلك أنّ تلك اللحظة على خلاف ما يقوله الماديون، لحظة صعبـة و مؤلمـة، و لم لاـ يكون كـذلك و الحـال أنّهـا لحظـة انتقال من هـذا العالم إلى عالم آخر، أى إنّ الإنسان كما ينتقل من عالم الجنين إلى عالم الدنيا مصحوبا بألم شديد، فكذلك الانتقال إلى العالم الآخر بهذا الشكل.

و المسـتفاد من الرّوايات أنّ هذه اللحظة سهلة على المؤمنين، و صعبة و مؤلمة على فاقدى الإيمان، و ذلك لشوق المؤمنين للقاء اللّه و رحمته و نعمه السـرمدية بحيث لاـ يشـعرون بآلاـم لحظـة الانتقـال. و أمّـا المجموعـة الثانيـة فـإنّ الآلام تتضاعف عليهم لحظـة الانتقال لخوفهم من العقوبات من جهة، و لمصيبة فراق الدنيا التى يحبونها من جهة أخرى.

نقل

فى حديث للإمام على بن الحسين عليه السّلام عند ما سئل عن الموت، فقال:

«للمؤمن كنزع ثيـاب وسـخة قملـة، و فـك قيود و أغلال ثقيلـة، و الاسـتبدال بأفخر الثياب و أطيبها روائـح، و أوطئ المراكب، و آنس المنـازل، و للكـافر كخلع ثيـاب فـاخرة، و النقـل عن منـازل أنيسـة، و الاسـتبدال بأوسـخ الثيـاب و أخشـنها، و أوحش المنازل و أعظم العذاب»[۲۵۲].

و

فى حـديث آخر عن الإمـام الصـادق عليه السّلام عنـد مـا طلب شـخص منه أن يوصـف له الموت فقـال الإمـام عليه السّلام: «للمؤمن

كأطيب ريح يشمه فينعس لطيبه و ينقطع التعب و الألم كلّه عنه، و للكافر كلسع الأفاعى و لدغ العقارب أو أشدّ»![۲۵۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۸

على كل حال فإنّ الموت باب يؤدى إلى عالم البقاء، كما

فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين إذ قال: «لكل دار باب و باب دار الآخرة الموت»[۲۵۴].

أجل، إنّ ذكر الموت له الأثر البالغ و العميق فى كسر الشهوات و إنهاء الآمال الطويلة و البعيدة و محو آثار الغفلة عن مرآة القلب، لذا ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «ذكر الموت يميت الشهوات فى النفس و يقلع منابت الغفلة، و يقوّى القلب بمواعد اللّه و يرقّ الطبع، و يكسر أعلام الهوى، و يطفئ نار الحرص، و يحقّر الدنيا، و هو معنى ما قال النّبى: «فكر ساعة خير من عبادة سنة»[۲۵۵].

و بالطبع المراد من ذلك هو بيان أحد المصاديق الواضحة للتفكر و لا ينحصر موضوع التفكر بذلك.

و أوردنا فى ما مضى بحثا آخرا لهذا الموضوع فى ذيل الآية (۱۹) من سورة (ق).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۲۹

الآيات [سورة القيامة (۷۵): الآيات ۳۱ الى ۴۰]

اشارة

فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى (۳۱) وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۳۲) ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (۳۳) أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (۳۴) ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى (۳۵) أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً (۳۶) أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى (۳۷) ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (۳۸) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى (۳۹) أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى (۴۰)

التّفسير

خلق الإنسان من نطفة قذرة:

استمرارا للبحوث المتعلقة (بالموت) الذى يعتبر الخطوة الأولى فى السفر إلى الآخرة يتحدث القرآن فى هذه الآيات عن خواء أيدى الكفّار من الزاد لهذا السفر.

فيقول أوّلا: فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّى ۲۵۶] أى إنّ هذا الإنسان المفكر للمعاد لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۰

يؤمن إطلاقا و لم يصدّق بآيات اللّه و لم يصلّ له.

و قال تعالى: وَ لكِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

المراد من جملة فَلا صَدَّقَ عدم التصديق بالقيامة و الحساب و الجزاء و الآيات الإلهية و التوحيد و نبوة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و قال البعض: إنّها إشارة إلى ترك الكافرين للإنفاق و الصدقة بقرينة ذكرها مع الصلاة، و لكن الآية الثانية تشهد جيدا على أن النقطة المقابلة لهذا التصديق هو التكذيب، و لذا يكون التفسير الأوّل هو الأصح.

و يضيف تعالى فى الآية الأخرى: ثُمَّ ذَهَبَ إِلى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى

إنّه يظنّ بعدم اهتمامه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تكذيبه إيّاه و للآيات الإلهية قد حقق نصرا باهرا، إنّه كان ثملا من خمرة

الغرور، و اتجه إلى أهله لينقل لهم كالعادة ما كان قد حدث و ليفتخر بما صدر منه، و كان سيره و حركته تشيران إلى الكبر و الغرور.

«يتمطى»: من مادة (مطا) و أصله الظهر، و (تمطى) مدّ الظهر عن غرور و لا مبالاة. أو عن كسل، و المراد هنا هو المعنى الأوّل.

و قيل هو من مادة (مط) على وزن (خط) أى مدّ الإنسان رجله أو بقية أعضاء البدن عند ما يريد إظهار اللامبالاة أو الكسل، و لكن اشتقاقه من (مطا) أنسب مع ظاهر اللفظ[۲۵۷].

على كل حال فإنّ ذلك يشابه ما ورد فى الآية (۳۱) من سورة المطففين:

وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

ثمّ يخاطب القرآن أفرادا كهؤلاء و يهددهم فيقول تعالى:

أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۱

هناك تفاسير أخرى متعددة ذكرت لهذه الآية منها:

إنّها تهديد بمعنى لك العذاب ثم لك العذاب.

و قيل: ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى.

و قيل: الذم أولى لك و أحسن ثم أحسن.

و قيل: الويل لك ثمّ الويل لك.

و قيل: يراد به بعدا لك من خيرات الدنيا و بعدا لك من خيرات الآخرة.

و قيل: وليك و صاحبك شرّ و عذاب ثمّ وليك شرّ و عذاب.

و قيل: أولى لك ما تشاهده يوم بدر فأولى لك فى القبر ثمّ أولى لك يوم القيامة[۲۵۸].

و لا يخفى أنّ غالبية هذه المعانى تعود إلى معنى كلى و جامع، و تأخذ طابع التهديد بالعذاب، و الذمّ و الشرّ و العقاب أعم من عذاب الدنيا و البرزخ و القيامة.

و

ورد فى الرّوايات أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أخذ بيد أبى جهل ثم قال له: أَوْلى لَكَ فَأَوْلى ثُمَّ أَوْلى لَكَ فَأَوْلى

فقال أبو جهل: بأى شىء تهددنى لا تستطيع أنت و لا ربّك أن تفعلا بى شيئا، و إنّى لأعزّ أهل هذا الوادى، فأنزل اللّه سبحانه كما قال له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

ثم ينتهى القرآن فى هذا البحث إلى استدلالين لطيفين حول المعاد و أحدهما عن طريق (الحكمة الإلهية و هدف الخلقة)، و الآخر عن طريق بيان قدرة اللّه فى تحول و تكامل نطفة الإنسان فى المراحل المختلفة لعالم الجنين، فيقول تعالى عن المرحلة الألى: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً

«سدى»: على وزن (هدى) و هو المهمل الذى لا هدف له، و جاء قول العرب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۲

(إبل سدى) فى الإبل السائبة التى تترك بلا راع.

و المراد من (الإنسان) فى هذه الآية هو المنكر للمعاد و البعث، فيكون معنى الآية: كيف يخلق اللّه هذا العالم العظيم للإنسان و لا يكون له هدف ما؟ كيف يمكن ذلك و الحال أنّ كل عضو من أعضاء الإنسان خلق لهدف خاص، فالعين للنظر، و الأذن للسمع، و القلب لإيصال الغذاء و الأوكسجين و الماء إلى جميع الخلايا، حتى أنّ لخطوط أطراف أصابع الإنسان حكمة، و لكن يحسب أن لا هدف فى خلق كلّ ذلك، و هو مهمل لا تخطيط فيه و ليس له من أمر و نهى و مهام و مسئولية، فلو صنع شخص ما صنعة صغيرة لا

فائـدة فيها فإنّ الناس سوف يشـكلون عليه ذلك و يحذفون اسـمه من زمرة العقلاء. فكيف يمكن للّه الحكيم المطلق أن يخلق خلقا لا هـدف له؟! و إذا قيـل أنّ الهـدف من هـذه الحياة هو قضاء أيّام الـدنيا، هـذا الأكل و النوم المكرر الممزوج بآلاف الأنواع من الآلام و العـذاب، فـإنّ هـذا لا يمكن أن يكون مبررا لـذلك الخلق الكبير. و لـذا فإنّنا نسـتنتج من أن الإنسان قـد خلق لهـدف أكبر، أى الحياة الخالدة فى جوار رحمة اللّه و التكامل المستمر و الدائم ۲۵۹].

ثم انتهى إلى تبيان الـدليل الثّانى، فيضـيف تعالى: أَ لَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى و بعد هذه المرحلة و اسـتقرار المنى فى الرحم يتحول الى قطعة متخثرة من الدم، و هى العلقة، ثمّ أنّ اللّه تعالى يخلقها بشكل جديد و متناسب و موزون ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى

و لم يتوقف على ذلك: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى

أليس من يخلق النطفـة الصـغيرة القذرة فى ظلمة رحم الأم و يجعله خلقا جديدا كلّ يوم، و يلبسه من الحياة لباسا جديدا و يهبه شـكلا مستحدثا ليكون بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۳

ذلك إنسانا كاملا ذكرا أو أنثى ثم يولـد من امّه، بقادر على إعادته: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ! و هذا البيان فى الواقع هو لمن ينكر المعاد الجسـمانى و يعـده محالا، و ينفى العودة إلى الحياة بعـد الموت و الدفن، و لإثبات ذلك أخذ القرآن بيد الإنسان ليرجعه إلى التفكر ببدايـة خلقه، و المراحل العجيبـة للجنين ليريه تطورات هـذه المراحل، و ليعلم أنّ اللّه قادر على كلّ شـىء، و بعبارة أخرى إن أفضل دليل لحدوث الشىء هو وقوعه.

***

ملاحظتان

۱- أطوار الجنين أو البعثات المكررة!

«النطفة»: أصلها الماء القليل أو الماء الصافى، و قيل ذلك للقطرات المائية المسببة لوجود الإنسان أو الحيوان عن طريق اللقاح.

و فى الحقيقـة أنّ تحول النطفـة فى المرحلـة الجنينيـة من عجـائب عـالم الوجود و هو موضوع «علم الأجنـة» و قـد كشف عن كثير من أسراره فى القرون الأخيرة.

القرآن الكريم أكّد منـذ ذلك اليوم الـذى لم تكشف فيه هذه الأمور بعد- على ذلك مرارا باعتباره أحد علائم القدرة الإلهية، و هذا هو بحدّ ذاته من علائم عظمة هذا الكتاب السماوى العظيم و إعجازه.

و مع أنّ هـذه الآيات ذكرت بعض مراحل الجنين، فإنّ هناك آيات قرآنيـة أخرى بيّنت مراحل أكثر ممّا ذكر هنا، كصدر آيات سورة الحج و أوائل سورة المؤمنين، و ذكرنا شرحا مفصّلا فى ذيل هذه الآيات فى هذا المجال.

و الآية تتضمّن كلمة (ذلك) و هو اسم إشارة للبعيد، فيما يخص اللّه تعالى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۴

و هو كناية لعظمة مقامه تعالى، و إشارة إلى أنّ ذاته المقدّسة لا يتمكن البشر من إدراكها و معرفتها.

و

جاء فى رواية لما نزلت هذه الآية: أَ لَيْسَ ذلِكَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى أنّ رسول اللّه قال: «سبحانك اللّهم، و بلى».

و نقل هذا المعنى أيضا عن الإمامين أبى جعفر الباقر و أبى عبد اللّه الصادق عليهما السلام ۲۶۰].

۲- نظام الأجناس البشرية

لا يزال العلم قاصرا فى معرفة العوامل الاصلية التى تؤثر فى تبديل جنس المذكر أو المؤنث رغم البحوث الكثيرة التى أجريت فى هذا الصدد، صحيح أنّ بعض المواد الغذائية أو الأدوية يمكن أن تؤثر فى هذه المسألة، و لكن من اليقين أن أيّا منها لا يكون معيّنا لها، و بعبارة أخرى أن هذا هو أمر علمه عند اللّه تعالى.

و يرى من جهة أخرى التعادل النسبى المستمر بين هذين الجنسين فى كلّ المجتمعات، و إن كان عدد النساء أكثر فى أغلب المجتمعات، و ازدياد عدد الرجال فى مجتمعات أخرى، و لكن الحصيلة تشير إلى وجود التعادل النسبى بين الجنسين، فلو فرضنا أن اختل يوما هذا التعادل، و تضاعف عدد النساء مثلا إلى عشرة أضعاف، أو أن عدد الرجال تضاعف عشرة أضعاف النساء. عندئذ كيف سيختل نظام المجتمع الإنسانى؟ و ماذا سيتخلف فيه من المفاسد العجيبة بحيث تقابل المرأة عشرة رجال، أو يقابل الرجل عشر نساء، و ما يقام من غوغاء!؟

الآية السالفة تقول: فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى و هى إشارة لطيفة لموضوعين: فمن جهة تشير الى تنوع البشر، و تقسيمهم إلى هذين الجنسين فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۵

مرحلة الجنين، و من جهة أخرى تشير إلى هذا التعادل النسبى ۲۶۱].

اللّهم! نحن نشهد أنّك قادر على احياء جميع الموتى فى لحظة واحدة، و لا شىء يقف أمام قدرتك اللامتناهية ...

ربّنا! إنّنا فى ذلك اليوم الذى تصل فيه أرواحنا إلى التراقى ليس لنا أمل أو رجاء سوى رحمتك و لطفك ...

إلهنا! ارزقنا معرفة الهدف من خلقك ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة القيامة***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۷

سورة الإنسان

اشارة

(الدهر) مدنيّة و عدد آياتها واحد و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۳۹

«سورة الإنسان»

محتوى السورة:

هذه السورة رغم قصرها، فانّ لها محتويات عميقة و متنوعة و جامعة، و يمكن بنظرة واحدة تقسيمها إلى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: يتحدث عن إيجاد الإنسان و خلقه من نطفة أمشاج (مختلطة)، و كذلك عن هدايته و حرية إرادته.

القسم الثّانى: يدور الحديث فيه عن جزاء الأبرار و الصالحين، و سبب النزول الخاص بأهل البيت عليهم السّلام.

القسم الثّالث: تكرار الحديث عن دلائل استحقاق الصالحين لذلك الثواب فى عبارات قصيرة و مؤثرة.

القسم الرّابع: يشير إلى أهمية القرآن و سبيل إجراء أحكامه و منهج تربية النفس الشاق.

القسم الخامس: جاء الحديث فيه عن حاكمية المشيئة الإلهية (مع حاكمية الإنسان).

و لهذه السورة أسماء عديدة، أشهرها (الإنسان) (الدهر) و (هل أتى) و هذه الكلمات وردت فى أوائل السورة، و إن كانت الرّوايات الواردة فى فضيلتها و التى سوف يأتى ذكرها، قد ذكرت اسم (هل أتى) لهذه السورة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۰

هل أنّ هذه السورة مدنية؟

هناك أقوال فى أوساط المفسّرين حول مدنية هذه السورة أو مكيّتها، فالمفسّرون و منهم علماء الشيعة أجمعوا على أنّ السورة بتمامها أو على الأقل ما جاء فى صدرها و التى تتحدث عن الأبرار و الأعمال الصالحة هى مدنية، و سيأتى فيما بعد شرح القصة التى كانت سببا لنزول السورة، و القصة تحكى عمّا نذره أمير المؤمنين و الزهراء الحسنان عليهم السّلام و خادمتهم و فضة.

و المشهور بين علماء أهل السنة أنّها مدنية كما قال القرطبى فى تفسيره:

(و قال الجمهور مدنية)[۲۶۲]، و نذكر هنا أسماء العلماء الذين قالوا بمدنية السورة أو بعضها:

۱- الحاكم أبو القاسم الحسكانى: فقد نقل عن ابن عباس عددا من السور المكية و المدنية، و رتّبها كما نزلت، فكانت هذه السورة عنده فى قائمة السور المدنية و التى نزلت بعد سورة الرحمن و قبل سورة الطلاق ۲۶۳]، و أورد صاحب كتاب الإيضاح الأستاذ أحمد زاهر نفس المعنى و ذلك عن ابن عباس ۲۶۴].

۲- نقل فى (تاريخ القرآن) لأبى عبد اللّه الزنجانى عن كتاب (نظم الدرر و تناسق الآيات و السور) عن كبار علماء أهل السنة أنّ سورة الإنسان اعتبرت من السور المدنية[۲۶۵].

۳- و نقل كذلك فى كتاب (فهرست ابن النديم) عن ابن عباس أن سورة هل أتى هى السورة المدنية الحادية عشرة[۲۶۶].

۴- نقل فى (الإتقان) للسيوطى عن البيهقى فى (دلائل النبوة) عن عكرمة أنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۱

قال: إنّ سورة (هل أتى) مدنيّة[۲۶۷].

۵- و نقل هذا المضمون أيضا بطرق مختلفة عن ابن عباس فى (الدرر المنثور)[۲۶۸].

۶- نقل الزمخشرى فى (تفسير الكشاف) ما هو مشهور فى سبب نزول آيات صدر السورة و قال: هى فى نذر على و زوجته و ولديه عليهم السّلام ۲۶۹].

۷- و نقل كذلك جمع كثير من كبار علماء أهل السنة فى أنّ سبب نزول الآيات الواردة فى صدر السورة إِنَّ الْأَبْرارَ ... قد نزلت فى حق علىّ و فاطمة الزهراء و الحسن و الحسين عليهم السّلام و هى شهادة على مدنيّة السورة (لأن ولادة الحسن و الحسين عليهما السّلام كانت فى المدينة) كالواحدى فى (أسباب المنزل) و البغوى فى (معالم التنزيل) و سبط بن الجوزى فى (التذكرة) و الگنجى الشافعى فى (كفاية الطالب) و جمع آخر[۲۷۰].

و هذه المسألة مشهورة بكثرة لغاية أن (محمد بن إدريس الشافعى) و هو أحد الأئمة الأربعة لأهل السنة يقول فى شعره:

إلام، إلام و حتى متى؟أعاتب فى حبّ هذا الفتى!

و هل زوجت فاطم غيره؟و فى غيره هل أتى هل أتى؟![۲۷۱]

و هناك أدلّة كثيرة فى هذا الإطار و سنبيّن قسما منها عند توضيح سبب نزول الآية: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ ....

و مع ذلك كله فإنّ البعض يصرّ بعصبية على أنّ السورة مكية، و ينكرون ما قيل من الرّوايات التى وردت فى حق السورة و نزولها فى

المدينة و إنكار نزولها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۲

كذلك فى حق على و أهل بيته عليهم السّلام! و ذلك من العجب حقّا، فأينما تنتهى الآية أو الرواية إلى فضائل على و أهل البيت عليهم السّلام يعلو الصراخ و العويل و تظهر الحساسيات الشديدة و كأنّ الإسلام قد وقع فى خطر! رغم أنّهم يدّعون أنّ عليا عليه السّلام من الخلفاء الراشدين و من أئمة الإسلام العظام و أنّهم يتودّدون إلى أهل البيت عليه السّلام، و نرى من نتائج حكم الروح الأموية على أفكار هذه الجماعة و وليدة الإعلام المضلل لتلك المرحلة المشؤومة. حفظنا اللّه من جميع الشبهات.

فضيلة السورة:

فى حديث عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ سورة (هل أتى) كان جزاؤه على اللّه جنّة و حريرا»[۲۷۲].

و

ورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ سورة هل أتى فى كل غداة خميس زوجه اللّه من الحور العين مأة عذراء و أربعة آلاف ثيب و كان مع محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم»[۲۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۳

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (۱) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً (۲) إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً (۳) إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالاً وَ سَعِيراً (۴)

التّفسير

الإنسان مخلوق من النطفة التافهة:

تتحدث الآيات الأولى عن خلق الإنسان، بالرغم من أنّ أكثر بحوث هذه السورة هى حول القيامة و نعم الجنان، فتحدثت فى البدء عن خلق الإنسان، لأنّ التوجه و الالتفات إلى هذا الخلق يهيء الأرضية للتوجه إلى القيامة و البعث كما شرحنا ذلك سابقا فى تفسير سورة القيامة.

فيقول تعالى: هَلْ أَتى عَلَى الْإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً[۲۷۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۴

نعم، كانت ذرات وجود هذا الإنسان متناثرة فى كلّ صوب و بين الأتربة، بين أمواج قطرات ماء البحر. فى الهواء المتناثر فى جو الأرض، و هكذا اختفت المواد الأصلية لوجوده فى كلّ زاوية من زوايا هذه المحيطات الثلاثة، و قد ضاع بينها و لا يمكن ذكره مطلقا. و لكن هل أنّ المراد من الإنسان هنا هو نوع الإنسان، و يشمل بذلك عموم البشر، أم أنّ هذا الإنسان يختص بالنبى آدم عليه السّلام؟

الآية الأخرى التى تقول: إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ قرينة واضحة على المعنى الأوّل، و إن كان البعض يرى أنّ الإنسان فى الآية الاولى يراد به آدم عليه السّلام، و الإنسان فى الآية الثّانية يراد به أولاده، و لكن هذا الاختلاف فى هذه الفاصلة القصيرة مستبعد جداً.

و هناك أقوال فى تفسير لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً منها: إنّ الإنسان لم يكن شيئا مذكورا عند ما كان فى عالم النطفة و الجنين، و إنّما أصبح ممّن يذكر عند ما طوى مراحل التكامل فيما بعد؛

ففى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السّلام «كان الإنسان مذكورا فى علم اللّه و لم يكن مذكورا فى عالم الخلق»[۲۷۵].

و جاء فى بعض التفاسير أنّ المراد بالإنسان هنا هم العلماء و المفكرون الذين لم يكونوا مذكورين قبل انتشار العلم، و عند وصولهم إلى العلم و انتشاره بين الناس أصبح ذكرهم مشهورا فى حياتهم و بعد موتهم.

و قيل «إنّ عمر بن الخطاب» قد سمع أحدا يتلو هذه السورة فقال: «ليت آدم بقى على ما كان فكان لا يلد و لا يبتلى أولاده»[۲۷۶] و هذا من عجائب القول، لاعتراضه على مسألة الخلق.

ثمّ يأتى خلق الإنسان بعد هذه المرحلة، و اعتبار ذكره، فيقول تعالى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۵

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً.

«أمشاج»: جمع مشج، على وزن (نسج) أو (سبب)، أو أنه جمع «مشيج» على وزن (مريض) بمعنى المختلط.

و لعل ذكر خلق الإنسان من النطفة المختلطة إشارة إلى اختلاط ماء الذكور و الإناث، و قد أشير إلى ذلك فى روايات المعصومين عليهم السّلام بصورة إجمالية، أو أنّها إشارة إلى القابليات المختلفة الموجودة داخل النطفة من ناحية العوامل الوراثية عن طريق الجيّنات، أو أنّها إشارة إلى اختلاط المواد التركيبية المختلفة للنطفة، لأنّها تتركب من عشرات المواد المختلفة، أو اختلاط جميع ذلك مع بعضها البعض، و المعنى الأخير أجمع و أوجه.

و يحتمل كون «الأمشاج» إشارة إلى تطورات النطفة فى المرحلة الجنينية[۲۷۷].

«نبتليه»: إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف و التعهد و تحمل المسؤولية و الاختبار و الامتحان، و هذه هى إحدى المواهب الإلهية العظيمة الذى أكرم بها الإنسان و جعله أهلا للتكليف و تحمل المسؤولية، و بما أنّ الاختبار و التكليف لا يتمّ إلّا بعد الحصول على المعرفة و العلم فقد أشار فى آخر الآية إلى وسائل المعرفة، و العين و الأذن التى أودعها سبحانه و تعالى فى الإنسان و سخرها له.

و قيل المراد بالابتلاء هنا التطورات و التحولات الحاصلة فى الجنين من النطفة حتى ينشئه إنسانا كاملا، و لكن التمعن فى عبارة «نبتليه»، و كذلك فى كلمة «الإنسان» نجد أنّ المعنى الأوّل هو الأوجه.

و ممّا يستفاد من هذه العبارة أنّ منبع جميع إدراكات و علوم الإنسان هى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۶

إدراكاته الحسية، و بعبارة أخرى إنّ الإدراكات الحسية هى أمّ المعقولات، و هذه هى نظرية كثير من فلاسفة المسلمين و من بين فلاسفة اليونان يذهب أرسطو إلى هذه النظرية أيضا.

إنّ اختبار الإنسان بحاجة إلى عاملين آخرين، هما: «الهداية» و «الاختبار» بالإضافة إلى المعرفة و وسائلها، فقد أشارت الآية التالية إلى ذلك: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً[۲۷۸]. إنّ للهداية هنا معنى واسعا، فهى تشمل «الهداية التكوينية» و «الهداية الفطرية» و كذلك «الهداية التشريعية» و إن كان سياق الآية يؤكّد على الهداية التشريعية.

توضيح:

إنّ اللّه قد خلق الإنسان لهدف الابتلاء و الاختبار و التكامل، فأوجد فيه المقدمات لكى يصل بها إلى هذا الهدف، و وهبه القوى اللازمة لذلك، و هذه هى (الهداية التكوينية)، ثمّ جعل فى أعماق فطرته عشقا لطى هذا الطريق، و أوضح له السبيل عن طريق الإلهام الفطرى، فسمى ذلك ب (الهداية الفطرية)، و من جهة أخرى بعث القادة السماويين و الأنبياء العظام لإراءة الطريق بالتعليمات و القوانين النيّرة السماوية، و ذلك هو «الهداية التشريعية»، و جميع شعب الهداية الثلاث هذه لها صبغة عامّة، و تشمل جميع البشر.

و على المجموع فإنّ الآية تشير إلى ثلاث مسائل مهمّة مصيرية فى حياة الإنسان: «مسألة التكليف»، و «مسألة الهداية»، و مسألة «الإرادة و الإختيار» و التى تعتبر متلازمة و مكمّلة بعضها للبعض الآخر.

التعبير ب (شاكرا) و (كفورا) يعتبر أفضل تعبير ممكن فى هذه الآية، لأنّه من قابل النعم الإلهية الكبيرة بالقبول و اتخذ طريق الهداية مسلكا، فقد أدّى شكر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۷

هذه النعمة، و أمّا من خالف فقد كفرها.

و بما أنّ الإنسان لا يتمكن من تحقيق الشكر الحقيقى، فقد عبّر عن الشكر باسم الفاعل، و الحال أنّ الكفران جاء بصيغة المبالغة فقال: (كفور)، لأنّ عدم اهتمامهم بهذه النعم الكبيرة يعتبر كفرانا شديدا منهم باعتبار أنّ اللّه عزّ و جلّ وضع وسائل الهداية تحت تصرفهم، و لذا فإنّ إهمال هذه الوسائل و المواهب و الغضّ عنها و اتخاذ السبيل المنافى لها يعتبر كفرانا شديدا.

و الجدير بالذكر أنّ كلمة (كفور) تستعمل لكفران النعمة، و كذلك للكفر الاعتقادى، و هو ما أورده الراغب فى مفرداته.

و أشارت الآية الأخيرة من آيات البحث إشارة قصيرة و غنية بالمعنى إلى الذين سلكوا طريق الكفر و الكفران فتقول: إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وَ أَغْلالًا وَ سَعِيراً.

التعبير ب (اعتدنا) تأكيد على حتمية مجازاة هذه الثلّة، و بالرغم من أنّ تهيئة الشىء مسبقا هو عمل من له قدرة محدودة و يحتمل أن يعجز بعد ذلك من إنجاز العمل، و لكن هذا المعنى لا يصدق على اللّه تعالى، لأنّه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، و فى الوقت نفسه يبيّن للكافرين أنّ هذه العقوبات حتمية و وسائلها جاهزة.

«سلاسل»: جمع (سلسلة)، و هى القيد الذى يقاد به المجرم، و «الأغلال» جمع غل، و هى الحلقة التى توضع حول العنق أو اليدين و بعد ذلك يقفل بالقيد[۲۷۹].

على كلّ حال فإنّ ذكر الأغلال و السلاسل و لهيب النيران المحرقة تبيان للعقوبات التى يعاقب بها المجرمون، و هو ما أشير إليه فى كثير من آيات القرآن و يشمل ذلك العذاب و الذل، إنّ إطلاقهم لعنان الشهوات يسبب فى تعاستهم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۸

الآخرة، و إشعالهم للنيران فى الدنيا تتجسّد لهم فى الآخرة لتلهب أطرافهم.

***

ملاحظة

عالم الجنين الصاخب:

من الواضح أنّ نطفة الإنسان مركّبة من ماء الرجل و المرأة، و يسمى الأوّل (الحيمن) و الثّانى (البويضة) فالأصل وجود (النطفة) ثمّ تركيبها، و بعد ذلك تتمّ المراحل المختلفة للجنين، و هذا هو من العجائب العظيمة لعالم الخلق، و تطور العلم (علم الأجنّة) قد كشف

الكثير من أسراره و إن كانت هناك أسرار كثيرة لم يتمّ كشفها لحدّ الآن، و نذكر هنا قسما من العجائب و التى تعدّ زاوية صغيرة من عالم الجنين:

۱- «الحيمن» و هو ما يخرج مع ماء الرجل، و هو كائن حى متحرك صغير لا يرى بالعين المجرّدة، و له رأس و عنق و ذنب متحرك، و ممّا يثير العجب أنّ الرجل فى كلّ إنزال يضم ماؤه من الحيامن المليونين إلى ۵۰۰ مليون حيمن، و هو ما يعادل نفوس عدّة دول، و لكن لا يدخل من هذا العدد الهائل إلى البيضة إلّا واحد أو عدّة حيامن لإخصاب البيضة، و سبب وجود هذا العدد من الحيامن يكمن فى الخسائر التى تلحق بها فى طريقها إلى البيضة و تلقيحها، و لو لم يتوفر مثل هذا العدد لكان أمر الحمل صعبا.

۲- إنّ حجم «الرحم» قبل الحمل يكون بحجم الجوزة الواحدة، و عند انعقاد النطفة و نمو الجنين يتسع الرحم بشكل ملحوظ ليشغل مكانا واسعا، و العجب أنّ جدار الرحم يكون مطأطئا إلى حد يكون قادرا على استيعاب حجم الطفل و حركاته.

۳- إنّ الدم لا يجرى فى الرحم بواسطة العروق و الشرايين، بل يجرى بين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۴۹

عضلات الرحم بصورة ميزاب، لأنّ الرحم فى اتساع مستمر فإذا ما وجد العرق فإنّه لن يتحمل السحب و التمدد الكبير.

۴- يعتقد بعض العلماء أنّ لبيوض المرأة شحنة موجبة، و إنّ للحيمن شحنة سالبة، و لذا يجذب أحدهما الآخر، و لكن عند تخصيب الحيمن للبيضة فإنّ شحنة النطفة المتشكلة تكون سالبة. و تطرد بذلك بقية الحيامن الموجودة، و قال آخرون: عند ما يدخل الحيمن فى البيضة تترشح مادة كيميائية خاصّة لتطرد بقية الحيامن.

۵- إنّ الجنين يسبح فى كيس كبير فيه ماء غليظ يدعى ب «آمنى بوس» له خاصية مقاومة ما يقع على بطن المرأة من الضربات، و تحمل ما يقع من حركات الأم الشديدة، بالإضافة إلى ذلك فإنّه يحفظ الجنين بمعدل حرارى ثابت، و لا تؤثر فيه تغيرات الحرارة الخارجية بسرعة، و الجدير بالذكر أنّ الكيس يجعل الجنين عديم الوزن، و يمنع من حدوث الضغط على أعضاء الجنين بعضها على بعض ممّا يسبب ذلك ضررا على الجنين! ۶- تتمّ تغذية الجنين عن طريق المشيمة و حبل السرّة، أى أنّ دم الأم و المواد الغذائية و الأوكسجين يدخل إلى المشيمة ثمّ يبدأ حبل السرّة بتصفية هذه المواد لتدخل إلى قلب الجنين و تتوزع منه إلى بقية أعضاء البدن، و الطريق أنّ البطين الأيسر و الأيمن لقلب الجنين مترابطان مع بعضهما الآخر، لأنّ التصفية هنا لا تتمّ إلّا عن طريق الرئة، و ذلك لأنّ الجنين لا يتنفّس و لكنّه عند تولده تنفصل الأوعية بعضها عن البعض الآخر، و يبدأ جهاز التنفس عندئذ بالعمل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۰

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۵ الى ۱۱]

اشارة

إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً (۵) عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً (۶) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً (۷) وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً (۸) إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً (۹) إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (۱۰) فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً (۱۱)

سبب النزول

البرهان العظيم على فضيلة أهل بيت النّبى:

قال ابن عباس: إنّ الحسن و الحسین مرضا فعادهما الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی ناس معه، فقالوا: یا أبا الحسن لو نذرت علی ولدیک، فنذر علی و فاطمة و فضة جاریة لهما إن برئا ممّا بهما أن یصوموا ثلاثة أیّام (طبقا لبعض الرّوایات أنّ الحسن و الحسین أیضا قالا نحن کذلک ننذر أن نصوم) فشفیا و ما کان معهم شیء،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۱

فاستقرض علی علیه السّلام ثلاث أصواع من شعیر فطحنت فاطمة صاعا و اختبزته، فوضعوا الأرغفة بین أیدیهم لیفطروا فوقف علیهم سائل، و قال: السلام علیکم، أهل بیت محمّد، مسکین من مساکین المسلمین، أطعمونی أطعمکم اللّه من موائد الجنّة، فآثروه و باتوا لم یذوقوا إلّا الماء و أصبحوا صیاما.

فلما أمسوا و وضعوا الطعام بین أیدیهم وقف علیهم یتیم فآثروه (و باتوا مرة أخری لم یذوقوا إلّا الماء و أصبحوا صیاما) و وقف علیهم أسیر فی الثّالثة عند الغروب، ففعلوا مثل ذلک.

فلما أصبحوا أخذ علی بید الحسن و الحسین و أقبلوا إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فلما أبصرهم و هم یرتعشون کالفراخ من شدّة الجوع،

قال: «ما أشدّ ما یسوؤنی ما أری بکم» فانطلق معهم، فرأی فاطمة فی محرابها قد التصق بطنها بظهرها، و غارت عیناها، فساءه ذلک، فنزل جبرئیل علیه السّلام و قال: خذها یا محمد هنّاک اللّه فی أهل بیتک فأقرأه السورة.

و قیل: إنّ الذی نزل من الآیات یبدأ من: إِنَّ الْأَبْرارَ حتی کانَ سَعْیُکُمْ مَشْکُوراً و مجموعها (۱۸) آیة.

ما أوردنا هو نص الحدیث الذی جاء فی کتاب «الغدیر» بشیء من الاختصار کقدر مشترک و هذا الحدیث من بین أحادیث کثیرة نقلت فی هذا الباب، و ذکر فی الغدیر أنّ الرّوایة المذکورة قد نقلت عن طریق (۳۴) عالما من علماء أهل السّنة المشهورین (مع ذکر اسم الکتاب و الصفحة).

و علی هذا، فإنّ الرّوایة مشهورة، بل متواترة عند أهل السنة[۲۸۰].

و اتفق علماء الشیعة علی أنّ السورة أو ثمان عشرة آیة من السورة قد نزلت فی حق علی و فاطمة علیهما السّلام، و أوردوا هذه الرّوایة فی کتبهم العدیدة و اعتبروها من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۲

مفاخر الرّوایات الحاکیة عن فضائل أمیر المؤمنین و فاطمة و الحسن و الحسین علیهم السّلام، و اشتهارها کان مدعاة لذکرها فی الأشعار حتی أنّها وردت فی شعر (الإمام الشافعی) و تثار عند المتعصبین هنا حساسیات شدیدة بمجرّد سماعهم روایة تذکر فضائل أمیر المؤمنین علیه السّلام فیعمدون إلی اثارة العدید من الإشکالات بهذا الشأن، و منها:

۱- ادعاؤهم مکّیة السورة، و الحال أنّ القصّة حدثت بعد ولادة الإمامین الحسن و الحسین علیهما السّلام، و ما کانت ولادتهما إلّا بالمدینة! و فی أیدینا دلائل واضحة کما بیّنا فی شرح صدر السورة، إذ أنّ السورة تشیر إلی أنّها مدنّیة، و إن لم تکن بتمامها فإنّ (۱۸) آیة منها مدنیّة.

۲- قولهم: إنّ لفظ الآیة عام، فکیف یمکن تخصیص ذلک بأفراد معیّنین، و لکن عمومیة مفهوم الآیة لا ینافی نزولها فی أمر خاص، و هناک عمومیة فی کثیر من آیات القرآن، و الحال أنّ سبب نزولها الذی یکون مصداقا تامّا لها فی أمر خاص، و العجب لمن یتخذ من عمومیة مفهوم آیة ما دلیلا علی نفی سبب النزول لها.

۳- نقل بعضهم أسبابا أخری لنزول هذه السورة لا تتفق مع السبب الذی ذکرناه فی نزول الآیة، منها ما

نقله السیوطی فی الدرّ المنثور قال: إنّ رجلا- أسود کان یسأل النّبی عن التسبیح و التهلیل، فقال له عمر بن الخطاب: مه أکثرت علی

رسول اللّه، فقال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «مه یا عمر» و أنزلت علی رسول اللّه هل أتی ۲۸۱].

و

فی الدرّ المنثور عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلی رسول اللّه فقال له رسول اللّه: «سل و استفهم»، فقال: یا رسول اللّه فضّلتم علینا بالألوان و الصور و النبوة، أ فرأیت إن آمنت بما آمنت به و عملت بمثل ما عملت به إنّی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۳

لکائن معک فی الجنّة؟ قال: «نعم، و الذی نفسی بیده، إنّه لیری بیاض الأسود فی الجنّة من مسیرة ألف عام» ثمّ بیّن ما یترتب من الثواب لمن یقول لا إله إلا اللّه و سبحان اللّه و بحمده. و نزلت علیه السورة (هل أتی)[۲۸۲].

إنّ ما ذکر فی هذه الرّوایات لا یتناسب مع مضمون آیات السورة، و المتوقع هو وضع هذه الرّوایة من قبل عمال بنی امیّة و تزویرها لدحض ما تقدم و ما قیل فی سبب النزول فی حق علی علیه السّلام.

۴- الإحتجاج الآخر الذی یمکن ذکره هنا: کیف یمکن لإنسان أن یصوم ثلاثة أیّام و لا یفطر إلّا بالماء؟! إنّ هذا الإشکال مدعاة للعجب، لأنّنا نری تطبیق ذلک عند بعض الناس، إذ أنّ بعض المعالجات الطبیة تستدعی الإمساک لمدة (۴۰) یوما، و لا یتناول خلال الأربعین یوما إلّا الماء، ممّا أدّی ذلک إلی شفاء الکثیر من الأمراض بهذه الطریقة، حتی أنّ طبیبا من الأطباء غیر المسلمین یدّعی (الکسی سوفورین) کتب کتابا فی باب الآثار المهمّة فی الشفاء من جراء الإمساک مع ذکر أسلوب دقیق لذلک ۲۸۳] حتی أنّ بعض زملائنا المشترکین معنا فی تألیف کتاب التفسیر الأمثل قضی إمساکا لمدّة (۲۲) یوما.

۵- البعض الآخر أراد الاستهانة بهذه الفضیلة فجاء من طریق آخر کالآلوسی إذ یقول: إن قلنا إنّ هذه السورة لم ترد فی حق علی و فاطمة لم ینزل من قدرهم و شأنهم شیء، لأنّ اتصافهم بالأبرار أمر واضح للجمیع، ثمّ یبدأ بتبیان بعض فضائلهم فیقول: ماذا یمکن أن یقوله الإنسان فی حقّ هذین العظیمین غیر أنّ علیا علیه السّلام أمیر المؤمنین و وصی رسول اللّه، و أنّ فاطمة بضعة رسول اللّه، و أنّها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۴

جزء من الوجود المحمدی، و أنّ الحسنین روحه و ریحانتاه و سیدا شباب أهل الجنّة، و لکن لا یعنی ذلک ترک الآخرین، و من یتبع غیر هذا فهو ضال.

و لکنّنا نقول إنّنا إذا ما تغاضینا عن هذه الفضیلة، فإنّ عاقبة بقیة الأحادیث ستکون بنفس المنوال، و ربّما یحین یوم ینکر فیه البعض جمیع فضائل أمیر المؤمنین و سیّدة النساء و الحسنین علیهم السّلام، و الملاحظ أنّ أمیر المؤمنین علیه السّلام قد احتج علی مخالفیه فی کثیر من المواطن بهذه الآیات لتبیان حقوقه و فضائله و أهل بیته ۲۸۴].

ثمّ إنّ ذکر الأسیر الذی أطعموه، خیر دلیل علی نزول الآیات بالمدینة، إذ لم یکن للمسلمین أسیر بمکّة لعدم شروع الغزوات.

و الملاحظة الأخیرة التی لا بدّ من ذکرها هنا هو قول بعض العلماء المفسّرین و منهم المفسّر المشهور الآلوسی، و هو من أهل السنّة قال: إنّ کثیرا من النعم الحسیة قد ذکرت فی السورة إلّا الحور العین التی غالبا ما یذکرها القرآن فی نعم الجنان، و هذا إنّما هو لنزول السورة بحق فاطمة و بعلها و بنیها علیهم السّلام و إنّ اللّه لم یأت بذکر الحور العین إجلالا و احتراما لسیدة نساء العالمین! لقد طال الحدیث فی هذا الباب إلّا أنّنا وجدنا أنفسنا مضطرین لمجابهة و إبطال إشکالات المتعصبین و ذرائع المعاندین.

***

التّفسیر

جزاء الأبرار العظيم

أشارت الآيات السابقة الى العقوبات التى تنتظر الكافرين بعد تقسيمهم إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۵

جماعتين و هى «الشكور» و «الكفور»، و الآيات فى هذا المقطع تتحدث المكافآت التى أنعم اللّه بها على الأبرار و تذكّر بأمور ظريفة فى هذا الباب. فيقول تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً. «الأبرار»: جمع (بر) و أصله الاتّساع، و أطلق البر على الصحراء لا تساع مساحتها، و تطلق هذه المفردة على الصالحين الذين تكون نتائج أعمالهم واسعة فى المجتمع، و «البر» بكسر الباء هو الإحسان، و قال بعض: إنّ الفرق بين البر و الخير هو أنّ البر يراد به الإحسان مع التوجه و الإرادة، و أمّا الخير فإنّ له معنى أعمّ.

«كافور»: له معان متعددة فى اللّغة، و أحد معانيها المعروفة الرائحة الطيبة كالنبتة الطيبة الرائحة، و له معنى آخر مشهور هو الكافور الطبيعى ذو الرائحة القوية و يستعمل فى الموارد الطبية كالتعقيم.

على كل حال فإنّ الآية تشير إلى أنّ هذا الشراب الطهور معطّر جدّا فيلتذ به الإنسان من حيث الذوق و الشم.

و ذهب بعض المفسّرين الى أنّ «كافور» اسم لأحد عيون الجنّة. و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع عبارة «كان مزاجها كافورا». و من جهة أخرى يلاحظ أنّ «الكافور» من مادة «كفر» أى بمعنى «التغطية»، و يعتقد بعض أرباب اللغة كالراغب فى المفردات أنّ اختيار هذا الاسم هو أنّ فاكهة الشجرة التى يؤخذ منها الكافور مغطاة بالقشور و الأغلفة.

و قيل: هو إشارة إلى شدّة بياضه و برودته حيث يضرب به المثل، و الوجه الأوّل أنسب الوجوه، لأنّه يعد مع المسك و العنبر فى مرتبة واحدة، و هما من أفضل العطور.

ثمّ يشير إلى العين التى يملؤون منها كؤوسهم من الشراب الطهور فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۶

عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيراً[۲۸۵][۲۸۶].

هذه العين من الشراب الطهور وضعها اللّه تعالى تحت تصرفهم، فهى تجرى أينما شاءوا، و الظريف هو ما

نقل عن الإمام الباقر عليه السّلام إذ قال فى وصفها: «هى عين فى دار النّبى تفجر إلى دور الأنبياء و المؤمنين».

نعم فكما تتفجر عيون العلم و الرحمة من بيت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تجرى الى قلوب عباد اللّه الصالحين، كذلك فى الآخرة حيث التجسّم العظيم لهذا المعنى تتفجر عين الشراب الطهور الإلهى من بيت الوحى، و تنحدر فروعها، إلى بيوت المؤمنين!

«يفجرون»: من مادة تفجير، و أخذت من أصل (الفجر) و يعنى الشق الواسع، سواء أ كان شق الأرض أو غير ذلك، و «الفجر» نور الصبح الذى يشق ستار الليل، و أطلق على من يشق ستار الحياء و الطهارة و يتعدى حدود اللّه (فاجر) و يراد به هنا شقّ الأرض.

و الملاحظ أنّ أوّل ما ذكر من نعم الجنان فى هذه السورة هو الشراب الطهور المعطّر الخاصّ. لكونه يزيل كلّ الهموم و الحسرات و القلق و الأردان عند تناوله بعد الفراغ من حساب المحشر، و هو أوّل ما يقدم لأهل الجنان ثمّ ينتهون إلى السرور المطلق بالاستفادة من سائر مواهب الجنان.

ثمّ تتناول الآيات الأخرى ذكر أعمال «الأبرار» «و عباد اللّه» مع ذكر خمسة صفات توضّح سبب استحقاقهم لكل هذه النعم الفريدة: فيقول تعالى يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَ يَخافُونَ يَوْماً كانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً.

جملة (يوفون) و (يخافون) و الجمل التى تليها جاءت بصيغة الفعل المضارع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۷

و هذا يشير إلى استمرارية و ديمومة منهجهم، كما قلنا فى سبب النزول فإنّ المصداق الأتم و الأكمل لهذه الآيات هو أمير المؤمنين و

فاطمة الزهراء و الحسنان عليهم السّلام، لأنّهم وفوا بما نذروه من الصوم ثلاثة أيّام و لم يتناولوا فى إفطارهم إلّا الماء فى حين أنّ قلوبهم مشحونة بالخوف من اللّه و القيامة.

«مستطيرا»: يراد به الاتساع و الانتشار، و هو إشارة إلى أنواع العذاب و اتساعه فى ذلك اليوم العظيم، على كلّ حال فإنّهم وفوا بالنذور التى أوجبوها على أنفسهم، و بالأحرى كانوا يحترمون الواجبات الإلهية و يسعون فى أدائها، و خوفهم من شرّ ذلك اليوم، و آثار هذا الإيمان ظاهرة فى أعمالهم بصورة كاملة.

ثمّ يتناول الصفة الثّالثة لهم فيقول: وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً.

لم يكن مجرّد اطعام، بل اطعام مقرون بالإيثار العظيم عند الحاجة الماسّة للغذاء، و من جهة أخرى فهو إطعام فى دائرة واسعة حيث يشمل أصناف المحتاجين من المسكين و اليتيم و الأسير، و لهذا كانت رحمتهم عامّة و خدمتهم واسعة.

الضمير فى (على حبه) يعود إلى (الطعام) أى أنّهم أعطوا الطعام مع احتياجهم له، و هذا شبيه ما ورد فى الآية من سورة آل عمران: لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

و قيل: إنّ الضمير المذكور يعود إلى «اللّه» الوارد فى ما سبق من الآيات، أى أنّهم يطعمون الطعام لحبّهم الشديد للّه تعالى، و لكن مع الالتفات الى ما يأتى فى الآية الآتية يكون المعنى الأوّل أوجه.

و معنى «المسكين» و «اليتيم» و «الأسير» واضح، إلّا أنّ هناك أقوالا متعددة فيما يراد بالأسير؟ قال كثيرون: إنّ المراد الأسرى من الكفّار و المشركين الذين يؤتى بهم إلى منطقة الحكومة الاسلامية فى المدينة، و قيل: المملوك الذى يكون

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۸

أسيرا بيد المالك، و قيل هم السجناء، و الأوّل أشهر.

يرد هنا سؤال: كيف جاء ذلك الأسير إلى بيت الإمام على عليه السّلام طبقا لما ورد فى سبب النزول و المفروض أن يكون سجينا؟

و يتضح لنا جواب هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ التاريخ يؤكّد عدم وجود سجناء فى عهد النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقسّمهم على المسلمين، و يأمرهم بالحفاظ عليهم و الإحسان إليهم، فكانوا يطعمونهم الطعام و عند نفاذ طعامهم كانوا يطلبون العون من بقية المسلمين و يرافقونهم فى الذهاب الى طلب المعونة، أو أنّ الأسرى يذهبون بمفردهم لأنّ المسلمين كانوا حينذاك فى ضائقة من العيش.

و بالطبع توسعت الحكومة الإسلامية فيما بعد، و ازداد عدد الأسرى و كذلك المجرمين، فاتخذت عندئذ السجون و صار الإنفاق عليهم من بيت المال.

على كل حال فإنّ ما يستفاد من الآية أنّ أفضل الأعمال إطعام المحرومين و المعوزين، و لا يقتصر على اطعام الفقراء من المسلمين فحسب بل يشمل حتى الأسرى المشركين أيضا و قد أعتبر إطعامهم من الخصال الحميدة للأبرار.

و

قد ورد فى حديث عن النبى صلّى اللّه عليه و آله قال: «استوصوا بالأسرى خيرا و كان أحدهم يؤثر أسيره بطعامه»[۲۸۷].

و الخصلة الرابعة للأبرار هى الإخلاص، فيقول: إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَ لا شُكُوراً.

إنّ هذا المنهج ليس منحصرا بالإطعام، إذ أنّ جميع أعمالهم خالصة لوجه اللّه تعالى، و لا يتوقعون من الناس شكرا و تقديرا، و أساسا فإنّ قيمة العمل فى الإسلام بخلوص النيّة و إلّا فإنّ العمل إذا كان بدوافع غير الهية، سواء كان رياء أو لهوى النفس، أو توقع شكر من الناس أو لمكافات مادية، فليس لذلك ثمن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۵۹

معنوى و إلهى.

و قد أشار النّبى صلّى اللّه عليه و آله إلى ذلك إذ

قال: «لا عمل إلّا بالنيّة و إنّما الأعمال بالنيات».

و المراد من (وجه اللّه) هو ذاته تعالى، و إلّا فليس للّه صورة جسمانية، و هذا هو ما اعتمده و أكّده القرآن فى كثير من آياته، كما فى الآية (۲۷۲) من سورة البقرة: وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ و الآية (۲۸) من سورة الكهف التى تصف جلساء النبى صلّى اللّه عليه و آله: وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ

و يقول فى الوصف الأخير للأبرار: إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً (أى الشديد) من المحتمل أن يكون هذا الحديث لسان حال الأبرار، أو قولهم بألسنتهم.

و جاء التعبير عن يوم القيامة بالعبوس و الشديد للاستعارة، إذ أنّها تستعمل فى وصف الإنسان الذى يقبض وجهه و شكله ليؤكد على هول ذلك اليوم، أى أنّ حوادث ذلك اليوم تكون شديدة إلى درجة أنّ الإنسان لا يكون فيه عبوسا فحسب، بل حتى ذلك اليوم يكون عبوسا أيضا.

(قمطريرا): هناك أقوال للمفسّرين فى مادته، قيل هو من (القمطر)، و قيل:

مشتق من مادة (قطر)- على وزن فرش- و الميم زائدة، و قيل هو الشديد، و هو الأشهر[۲۸۸].

و يطرح هنا سؤال، و هو: إذا كان عمل الأبرار خالصا للّه تعالى، فلم يقولون:

إنا نخاف عذاب يوم القيامة؟ و هل يتناسب دافع الخوف من عذاب يوم القيامة مع الدافع الإلهى؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۰

و يتضح جواب هذا السؤال بالالتفات إلى أنّ الأبرار يسلكون السبيل على كل حال إلى اللّه تعالى، و إذا كانوا يخافون من عذاب يوم القيامة فإنّما هو لأنه عذاب إلهى، و هذا هو ما ورد فى الفقه فى باب النية فى العبادة من أنّ قصد القربة فى العبادة لا ينافى قصد الثواب و الخوف من العقاب أو حتى اكتساب المواهب المادية الدنيوية من عند اللّه (كصلاة الاستسقاء)، لأنّ كل ذلك يرجع إلى اللّه تعالى، كالداعى على الداعى، رغم أنّ أعلى مراحل الإخلاص فى العبادة تمكن فى عدم التعلّق بنعم الجنان أو الخوف من الجحيم، بل يكون بعنوان (حبّ اللّه).

و التعبير ب إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً شاهد على أنّ هذا الخوف من اللّه.

و الجدير بالذكر أنّ الوصف الثانى و الخامس من الأوصاف الخمسة، يشيران إلى مسألة الخوف. غاية الأمر أنّ الكلام فى الآية الأولى عن الخوف من يوم القيامة، و فى الثانية الخوف من اللّه فى يوم القيامة، ففى مورد وصف يوم القيامة فى أنّ شرّه عظيم، و وصفه فى مورد آخر بأنّه عبوس و شديد، و فى الحقيقة فإنّ أحدهما يصف عظمته وسعته و الآخر شدّته و كيفيته.

و أشارت الآية الأخيرة فى هذا البحث إلى النتيجة الإجمالية للأعمال الصالحة و النيّات الطاهرة للأبرار فيقول: فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَ لَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَ سُرُوراً.

(نضرة): بمعنى البهجة و حسن اللون و السرور الخاص الذى يظهر عند وفور النعمة و الرفاه على الإنسان، أجل، إنّ لون وجودهم فى ذلك اليوم يخبر عن الهدوء و الارتياح، و بما أنّهم كانوا يحسّون بالمسؤولية و يخافون من ذلك اليوم الرهيب، فإنّ اللّه تعالى سوف يعوضهم بالسرور و بالبهجة.

و تعبير «لقاهم» من التعابير اللطيفة و التى تدلّ على أنّ اللّه سوف يستقبل ضيوفه الكرام بلطف و سرور خاص و أنّه سوف يجعلهم فى سعة من رحمته.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۱

إشباع الجياع من أفضل الحسنات:

ليست هـذه الآيات مورد البحث هى الآيات الوحيـدة التى عدّت إطعام الطعام من الأعمال الصالحة للأبرار و عباد اللّه، بل إنّ كثيرا من آيات القرآن اعتمـدت هـذا المعنى و أكّدت عليه، و أشارت إلى أنّ لهـذا العمل محبوبيـة خاصّة عند اللّه، و إذا ألقينا نظرة على عالم اليوم و الـذى يموت فيه بسبب الجوع حسب الأخبار المنتشـرة ملايين الأشـخاص فى كل عالم، و الحال أنّ بقيـة المناطق تلقى بالغذاء الكثير فى القمامة تتّضح أهمية هذا الأمر الإسلامى من جهة، و ابتعاد عالم اليوم عن الموازين الأخلاقية من جهة أخرى.

و نورد هنا من باب المثال عددا من الأحاديث الإسلامية التى أكّدت على هذا الجانب:

قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله: «من أطعم ثلاث نفر من المسلمين أطعمه اللّه من ثلاث جنان فى ملكوت السموات»[۲۸۹].

و

فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام قال: «من أطعم مؤمنا حتى يشـبعه لم يدر أحد من خلق اللّه ما له من الأجر فى الآخرة، لا ملك مقرب، و لا نبى مرسل إلّا اللّه ربّ العالمين»[۲۹۰].

و

فى حـديث آخر عنـه عليـه السّلام قـال: «لئن أطعم مؤمنـا محتاجـا أحبّ إلىّ من أن أزوره، و لئن أزوره أحبّ إلىّ من أن أعتـق عشـر رقاب»[۲۹۱].

و الجـدير بالـذكر أنّ الرّوايات لم تؤكّـد على إطعام المحتاجين و الجياع فحسب، بل صـرّحت بعض الروايات أنّ إطعام المؤمنين و إن لم يكونوا محتاجين هو كعتق رقبـة العبـد، و هـذا يدلّ على أنّ الهدف لا يقتصـر على رفع الاحتياج، بل جلب المحبّة و تحكيم وشائج المودة بعكس ما هو السائد فى عالم اليوم المادى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۲

كدخول صديقين إلى المطعم و دفعهما حساب الطعام كلّ على انفراد و كأنّ اسـتضافة الأفراد سـيما إذا كثروا مدعاة للعجب فى تلك المجتمعات!! و ورد فى بعض الرّوايات أنّ إطعام الجياع بصورة عامّة من أفضل الأعمال (و إن لم يكونوا مسلمين و مؤمنين) كما جاء فى الحديث عن النّبى صـلّى اللّه عليه و آله إذ قال: «من أفضل الأعمال عند اللّه إبراد الكباد الحارة و إشباع الكباد الجائعة و الذى نفس محمد بيده لا يؤمن بى عبد يبيت شبعان و أخوه- أو قال جاره- المسلم الجائع»[۲۹۲].

بالرغم من أنّ ذيل هذا الحديث الشـريف ذكر إشباع الإنسان المسلم. و لكنه صدره يشمل كل عطشان و جائع، و لا يبعد اتساع مفهوم الحديث ل يشمل حتى الحيوانات.

و هناك روايات عديدة فى هذا الباب ۲۹۳]***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۳

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۱۲ الى ۲۲]

اشارة

وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً (۱۲) مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً (۱۳) وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا (۱۴) وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا (۱۵) قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً (۱۶)

وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا (۱۷) عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (۱۸) وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً

مَنْثُوراً (۱۹) وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً (۲۰) عالِيَهُمْ ثِيابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً (۲۱)

إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً (۲۲)

التّفسير

مكافئات الجنان العظيمة

بعد الإشارة الإجمالية فى الآيات السابقة إلى نجاة الأبرار من العذاب الأليم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۴

يوم القيامة، و وصولهم إلى لقاء المحبوب و الغرق بالسرور و البهجة، تتناول هذه الآيات شرح هذه المواهب الإلهية فى الجنان، و عددها فى هذه على الأقل خمسة عشرة نعمة، فتتحدث فى البدء عن المسكن و الملبس فتقول:

وَ جَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَ حَرِيراً.

أجل، فى مقابل كل ذلك الإيثار و الاستقامة فى وفائهم بالنذر و صيامهم، و إنفاق طعام الإفطار على المسكين و اليتيم و الأسير جعلهم اللّه فى رياض خاصّة فى الجنان، و ألبسهم أفضل الألبسة، و ليس فقط فى هذه الآية، بل صرح بهذه الحقيقة فى آيات أخرى من القرآن، و هو أنّ مكافآت القيامة إنّما تعطى للإنسان لصبره (صبر فى الطاعة، و صبر عن المعصية، و صبر عند المشكلات و المصائب).

فتجد سلام الملائكة لأهل الجنان فى الآية (۲۴) من سورة الرعد: سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ

و جاء فى الآية (۱۱۱) من سورة المؤمنون: إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِما صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفائِزُونَ

ثمّ يضيف سبحانه فى الآية التالية: مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَ لا زَمْهَرِيراً ذكر حالة (الاتكاء على الأرائك) إشارة إلى اطمئنانهم و ارتياحهم الكاملين، لأنّ الإنسان لا يجلس متكئا عادة إلّا عند الراحة و الاطمئنان و الهدوء.

و يشير ذيل الآية إلى الاعتدال الكامل فى الجنان، و لا يعنى هذا انعدام الشمس و القمر فى الجنان، بل بسبب ظلال أشجار الجنان لا تكون أشعة الشمس مؤذية.

(زمهرير): من مادة (زمهر) و هو البرد الشديد، أو شدّة الغضب أو احمرار العين من أثر الغضب، و المراد هنا هو المعنى الأول، و ورد فى الحديث: أنّ فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۵

جهنّم نقطة تتلاشى فيها الأعضاء من شدّة البرد[۲۹۴].

(أرائك): جمع «أريكة»، و تطلق فى الأصل على الأسرة التى توضع فى غرفة العروس، و المراد هنا الأسرّة الجميلة و الفاخرة.

نقل المفسر المشهور الآلوسى فى روح المعانى فى حديث عن ابن عباس قال: قال النبى صلّى اللّه عليه و آله: «بينا أهل الجنّة فى الجنّة إذ رأوا ضوءا كضوء الشمس، و قد أشرقت الجنان به فيقول أهل الجنّة يا رضوان ما هذا؟ و قد قال ربّنا لا يرون فيها شمسا و لا زمهريرا، فيقول لهم رضوان: ليس هذا بشمس، و لا قمر، و لكن على و فاطمة ضحكا، و أشرقت الجنان من ثغريهما»!

و تضيف الآية الأخرى متمّمة لهذه النعم:

وَ دانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها وَ ذُلِّلَتْ قُطُوفُها تَذْلِيلًا[۲۹۵].

ليست هنا من مشكلة لقطف الثمار، و لا شوكة لتدخل فى اليد، و لا تحتاج ذلك إلى مشقّة أو حركة! و نجد من الضرورى التذكير مرّة أخرى إنّ هناك تفاوتا كثيرا بين الأصول المتحكمة فى حياة الإنسان فى ذلك العالم و بين هذا العالم، و ما جاء حول النعم الأخروية فى هذه الآيات و الآيات القرآنية الأخرى ليس إلّا كونه إشارة بليغة إلى تلك المواهب العظيمة، و إلّا فإنّ بعض الرّوايات تصرح أنّ هناك من النعيم ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا تخطر ببال أحد.

و فى حديث لابن عباس بيّنه فى ذيل آيات هذه السورة قال: «كلما ذكره اللّه فى القرآن ممّا فى الجنّة و سمّاه ليس له مثل فى الدنيا و لكن سمّاه اللّه بالاسم الذى يعرف الزنجبيل ممّا كانت العرب تستطيبه فلذلك ذكره فى القرآن و وعدهم أنّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۶

يسقون فى الجنّة الكأس الممزوجة بزنجبيل الجنّة»[۲۹۶].

ثمّ توضح الآية الأخرى كيفية استضافة أصحاب الجنان، و أدوات الضيافة، و المستقبلين لهم، فيقول: وَ يُطافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَ أَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَا، قَوارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوها تَقْدِيراً.

تحتوى هذه الآنية على أنواع الأغذية و الأشربة المتعددة الأصناف و اللذيذة و الباعثة على النشاط، بالقدر الذى يشاءونه و يحبّونه، و الولدان المخلدون يطوفون عليهم ليعرضوا عليهم الآنية و الأكواب المليئة بما وعدهم اللّه بها.

(آنية): جمع (إناء) و هو الوعاء، و «أكواب» جمع «كوب»، و هو إناء للشراب الذى لا عروة له، و يعبر عنه أحيانا بالقدح.

«قوارير»: جمع (قارورة)، و هى الوعاء البلّورى و الزجاجى. و العجب فى قوله: أوعية بلّورية مصنوعة من الفضة! و الحال لا يوجد مثل هذا فى عالم الدنيا، و الأوعية البلّورية إنّما تصنع من رمال خاصّة و ذلك بعد اذابتها، و لكنّ اللّه الذى جعل خاصيّة فى الرمل تجعله يتحول إلى زجاج و بلّور لهو قادر أن يجعلها فى معدن آخر كالفضة.

على كل حال فإنّ المستفاد من الآية إنّ هذه الأوعية و الكؤوس تكون جامعة بين صفاء الزجاجة و شفافية البلوّر و بين بياض الفضة و جمالها، و يكون الشراب فيه متجليا، و الملاحظ أنّ هذا المعنى قد أشار إليه

الامام الصادق عليه السّلام أيضا إذ قال: «ينفذ البصر فى فضة الجنّة كما ينفذ فى الزجاج»[۲۹۷].

و فى العصر الحديث تمّ اكتشاف أنواع من الأشعة (مثل اشعة ايكس) لها قابلية النفوذ الى باطن المواد و الأجسام المعتمّة و استجلاء محتوياتها.

و عن ابن عباس قال: «إن لكل نعمة من نعم الجنان شبه فى الدنيا إلّا أكواب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۷

الفضة إذ لا شبيه لها»[۲۹۸].

ثمّ يضيف تعالى: وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا.

صرح الكثير من المفسرين بأنّ عرب الجاهلية كانوا يتلذذون بالشراب الممزوج بالزنجبيل، لأنّه كان يعطى قوّة خاصة للشراب.

و يتحدث القرآن هنا عن الشراب الطهور الممزوج بالزنجبيل، و من البديهى أنّ الفرق بين هذا الشراب و ذلك الشراب كالفرق بين السماء و الأرض و بالأخرى بين الدنيا و الآخرة.

و الجدير بالذكر أنّ العرب كانوا يستخدمون نوعين من الشراب: أحدهما يبعث على النشاط و الحركة، و الآخر مفتّر و مهدّئ و الأوّل يمزج مع الزنجبيل، أمّا الثّانى فمع الكافور، و بما أنّ حقائق عالم الآخرة لا يمكن أن يعبر عنها فى إطار ألفاظ هذا العالم، فلا سبيل إلّا استخدام هذه الألفاظ للدلالة على معان أوسع و أعلى تحكى عن تلك الحقائق العظيمة. و لفظ «الزنجبيل» غالبا ما يطلق على الجذر المعطر للتوابل الخاصّة للأغذية و الأشربة، و إن كانت الأقوال مختلفة فى معناه.

ثمّ يضيف تعالى: عَيْناً فِيها تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا[۲۹۹].

(سلسبيلا): هو الشراب الهنيء و اللذيذ جدّا الذى ينحدر بسهولة فى الحلق و يرى الكثير أنّه مأخوذ من مادة (سلاسة) المأخوذ من السيلان و لهذا يقال للكلام الجذّاب و الممتع «سليس».

و قيل أخذ من مادة (تسلسل) و هى الحركة المستمرة التى يتداعى منها السيولة و الاتصال، و على هذا فإنّ المعنّيين متقاربين، و الباء زائدة فى الصورتين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۲۶۷

قيل: هو مركب من (سال) و (سبيل) و المعنى الكنائى للإثنين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۸

هو الصائغ و الهنيء.

و قيل: لا وجود لهذه الكلمة فى اللغة عند العرب، و أنّها من إبداعات القرآن المجيد[۳۰۰].

و الأول أشهر و أوجه.

ثمّ يتحدث عن المستقبلين فى هذا الحفل البهيج المقام بجوار اللّه فى النعيم الأعلى فيقول تعالى وَ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ إِذا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً.

إنّهم مخلدون فى الجنان، و طراوة أشبابهم و جمالهم و نشاطهم خالد أيضا، و كذا استقبالهم للأبرار، لأنّ عبارة (مخلدون) و عبارة (يطوف عليهم) من جهة أخرى تبيان لهذه الحقيقة.

«لؤلؤا منثورا»: يراد به الإشارة إلى جمالهم و صفائهم و إشراق وجوههم و كذلك حضورهم فى كل مكان من المحفل الإلهى و الروحانى.

و بما أنّ من المحال وصف النعم و المواهب للعالم الآخر مهما بلغ الكلام من البيان و البلاغة، و لهذا يقول تعالى فى الآية الأخرى كلاما مطلقا: وَ إِذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَ مُلْكاً كَبِيراً[۳۰۱].

وردت فى (النعيم) و (الملك الكبير) أقوال كثيرة، منها ما

ورد فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام عند ما سئل عن معنى الآية إذ قال: (أى لا يفنى و لا يزول)[۳۰۲].

أو أنّ نعم الجنان لا توصف لكثرتها.

أو أنّ «الملك الكبير» هو استئذان الملائكة للدخول على أهل الجنان و يحيوهم بالسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۶۹

أو أنّ أهل الجنان يحصلون على ما يشاءون.

أو أنّ أقل أهل الجنان مرتبة يحصل على ملك من السعة أنّه يرى من الطريق ما يكون على بعد ألف سنة لو نظر إليه كان بينه و بين ملكه ألف سنة.

أو يراد به الملك الدائم و الأبدى المقترن مع تحقيق جميع الآمال ...

«النعيم»: يراد بها فى اللغة النعم الكثيرة و (ملك كبير) يخبر عن عظمة و اتساع رياض أهل الجنّة، و لذا فإنّ لهما معنيين واسعين بحيث يشملان جميع ما قيل فيهما.

إلى هنا أشير إلى قسم من نعم الجنان من قبيل المساكن و الأسرة و الظلال و الفواكه و الشراب و الأوانى و الجماعة المستقبلة للضيوف، و حان الآن دور زينة أهل الجنان فيقول تعالى: عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَ إِسْتَبْرَقٌ ۳۰۳].

«سندس»: ثوب رقيق من الحرير، و «الإستبرق» ثوب غليظ من الحرير، و قيل أنّه مشتق من الكلمة الفارسية «أستبر» أو «ستبر»، و قيل:

أخذ من أصل عربى (برق) أى التلألؤ.

ثم أضاف تعالى: وَ حُلُّوا أَساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ.

و هى الفضة الشفّافة اللامعة كالبلّور و أجمل من الياقوت و الدّر و اللؤلؤ.

«أساور»: جمع «أسورة» على وزن (مغفرة) و هى بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) أو «سوار» على وزن (حوار) و أخذ فى الأصل من الكلمة الفارسية، (دستوار) و عند انتقالها إلى العربية تغيّرت و اختصرت و جاءت بصورة (سوار).

إنّ اختيار اللون الأخضر للباس أهل الجنّة هو لكونه يبعث على النشاط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۰

كأوراق الأشجار الجميلة، و بالطبع إنّ للّون الأخضر أنواعا و أقساما، و لكل منها لطافة:

و ورد فى بعض آيات القرآن كالآية (۳۰) من سورة الكهف أنّ أهل الجنان يزينون بأساور من ذهب: يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ و هذا لا ينافى ما جاء فى الآية التى نحن بصدد بحثها، إذ يمكن أن يكون من باب التنويع، فمرّة هذا، و مرّة ذاك.

و يأتى هنا سؤال: أليس سوار الذهب و الفضة من زينة النساء، فكيف ذكر زينة لرجال الجنّة؟

و الجواب واضح، فهناك الكثير من المجتمعات تكون زينة الذهب و الفضة للرجال و النساء (و إن حرمّ الإسلام لبس الذهب للرجال) و لكن بالطبع هناك اختلاف بين أساور الرجال و بين أساور النساء، و نقل عن لسان فرعون فى الآية (۵۳) من سورة الزخرف: فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ و يظهر من هذا أنّ لبس الرجال للذهب فى مصر كان من علائم العظمة. بالإضافة إلى ما أشرنا إليه فى السابق أنّه لا يكفى استعمال الألفاظ العادية المتداولة فى هذه الدنيا لبيان نعم الجنان، و ليس هناك من حلّ إلّا باستعمال هذه الألفاظ للإشارة إلى تلك النعم العظيمة التى لا توصف.

ثمّ يقول تعالى فى نهاية الآية مشيرا إلى آخر نعمة و أهمّها من سلسلة النعم:

وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً.

صحيح أنّ من بين هذه النعم ورد الحديث عن الأشربة السائغة من الأكواب المترعة من عين السلسبيل، و لكنّ بينها و بين ما جاء فى هذه الآية فرق كبير، لأنّ السقاة هناك هم «الولدان المخلدون» من جهة، و الساقى هنا هو «اللّه تعالى»، يا له من تعبير عجيب! خصوصا مع ذكر كلمة (رب) الرب الذى طالما تلطف على الإنسان برعايته المستمرة له فكان مالكه و مربيه و الذى كان يأخذ بيده فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۱

مراحل التكامل حتى يوصله إلى المرحلة الأخيرة التى يريدها له، ثمّ تتجلّى ربوبيته إلى أعلى المراتب و الحدود فيسقى بيده عباده الأبرار بالشراب الطهور.

و من جهة أخرى فإنّ «الطهور» هو الطاهر و المطهر، و على هذا فإنّ هذا الشراب يطهر جسم الإنسان و روحه من كل الأدران و النجاسات و يهبه من الروحانية و النورانية و النشاط ما لا يوصف بوصف: حتى

ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «يطهرهم عن كلّ شىء سوى اللّه»[۳۰۴].

إنّ هذا الماء الطهور أفضل من أيّة نعمة و أعلى من كلّ موهبة، إذ أنّه يمزق ستار الغفلة، و يزيل الحجب، و يجعل الإنسان أهلا للحضور الدائم فى جوار القرب من اللّه تعالى، فإذا كان شراب الدنيا يزيل العقل و يبعد الإنسان عن اللّه، فإنّ الشراب الطهور يعطى من يد ساقى الجنّة، فيجرّد الإنسان عن ما سوى اللّه، ليغرق فى جماله و جلاله، و هذا أفضل ما ذكره اللّه تعالى من النعيم الخفى الموهوب فى الجنّة،

ففى حديث روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله حول عين الشراب الطهور المستقرة عند باب الجنّة قال: «فيسقون منها شربة فيطهر اللّه بها قلوبهم من الحسد! ... و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً[۳۰۵].

و الظريف فى عبارة طهور أنّها لم ترد فى القرآن إلّا فى موردين: أحدهما فى مورد المطر (الفرقان ۴۸) الذى يطهر كل شىء و يحيى البلاد الميتة، و الآخر فى مورد الآية التى نحن بصدد بحثها، و هو الشراب الخاص بأهل الجنّة.

و فى آخر آية من آيات البحث يتحدث حديثا أخيرا فى هذا الإطار فيقول:

إنّه يقال لهم من قبل ربّ العزّة بأنّ هذه النعم العظيمة ما هى إلّا جزاء أعمالكم فى الدنيا إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَ كانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً. لئلا يتصور أحد أنّ هذا الجزاء و هذه المواهب العظيمة تعطى من دون مقابل، إنّ كل ذلك جزاء السعى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۲

و العمل، و ثمرة الرياضات و جهاد النفس و بناء الذات و ترك المعاصى ۳۰۶].

ثمّ إنّ نفس بيان هذا الموضوع فيه لذّة خاصّة، إذ أنّ اللّه تعالى أو «ملائكته» يخاطب الأبرار و يقدم لهم الشكر و التقدير و يقول: إنّ هذا جزاء أعمالكم و إنّ سعيكم مشكور، بل قيل: إنّها نعمة ما فوقها نعمة و موهبة أعلى من كل المواهب و هى شكر اللّه للإنسان.

«كان»، فعل ماضى و يخبر عن الماضى، و لعلّه إشارة إلى أنّ هذه النعم كانت موفرة لكم من قبل، لأنّ من يهتم كثيرا بضيفه يهىء وسائل الضيافة له من قبل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۳

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۲۳ الى ۲۶]

اشارة

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (۲۳) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً (۲۴) وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (۲۵) وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (۲۶)

التّفسير

خمسة مبادئ مهمّة فى تنفيذ حكم اللّه:

شرعت السورة منذ البداية و حتى هذه الآية فى تبيان خلق الإنسان ثمّ المعاد و البعث، و فى هذه الآيات مورد البحث يتوجه الخطاب إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بإصدار أوامر مؤكّدة لهداية الناس و الصبر و الثبات فى هذا الطريق، و فى الواقع إنّ هذه الآيات تشير إلى أنّ نيل كل تلك النعم و المواهب الأخروية لا يتمّ إلّا بالتمسك بالقرآن و إتباع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و اطاعة أوامره.

و يقول فى البدء: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا.

قال بعض العلماء إنّ مجىء (تنزيلا) بصورة مفعول مطلق هو إشارة إلى النزول التدريجى للقرآن، إذ لا يخفى الأثر التربوى لذلك، و قيل هو إشارة إلى عظمة مقام هذا الكتاب السماوى و تأكيد نزوله من قبل اللّه تعالى، خصوصا ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۴

ورد من التأكيدات الأخرى فى الآيات الآتية (التأكيد بأنّ، و نحن، و الجملة الاسمية) و هو جواب لمن يتهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالكهانة و السحر و الافتراء على اللّه تعالى.

ثمّ يأمر النّبى بأمور خمسة، أولها الدعوة إلى الصبر و الاستقامة فيقول:

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

أى لا تخف من المشاكل و من موانع الطريق و كثرة الأعداء و عنادهم و استقم فى سيرك على الصراط المستقيم. و الجدير بالانتباه أنّ الأمر بالصبر (مع ملاحظة (فاء التفريع) فى (فاصبر) متفرع على نزول القرآن من اللّه تعالى، أى إذا كان اللّه قد أيّدك و حماك فيجب عليك أن تصبر فى هذا الطريق، و التعبير ب (الرب) إشارة لطيفة أخرى إلى نفس هذا المعنى.

و الأمر الثّانى الموجّه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله هو تحذيره من أى توافق مع المنحرفين، فيقول تعالى: وَ لا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً.

فى الحقيقة أنّ هذا الحكم هو تأكيد ثان على الحكم الأوّل، لأنّ جموع الأعداء كانوا يسعون بطرق مختلفة للتوافق مع النّبى و جرّه إلى طريق الباطل، كما نقل أنّ «عتبة بن ربيعة» و «الوليد بن المغيرة» قالا لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله: إن تركت دعوتك، فإنّنا سنغنيك حتى ترضى، و نزوجك أجمل بنات العرب، و عروض أخرى من هذا القبيل، فما كان على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هنا باعتباره المرشد الحقيقى و العظيم إلّا أن يقف أمام هذه الوساوس الشيطانية و التهديدات التى صدرت منهم بعد ذلك، و لا يستسلم للترغيب أو الترهيب.

صحيح أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن قد استسلم، و لكن هذا التأكيد يشير الى أهمية الموضوع ليكون نموذجا خالدا لسائر مرشدى طريق اللّه عزّ و جلّ رغم أنّ بعض المفسّرين ذهبوا الى أنّ (آثما) هو عتبة بن ربيعة، و «كفور» هو الوليد بن المغيرة أو أبو جهل، و هم من مشركى العرب، و لكنّ الواضح أنّ كل من (آثم) أى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۵

(العاصى) و «كفور» أى (المبالغ فى الكفر) له معنى واسع إذ يشمل جميع المجرمين و المشركين و إن كان هؤلاء الثلاثة من مصاديقها الواضحة، و الملاحظ أنّ (آثما) له مفهوم عام يستوعب بذلك (الكفور) أيضا، لذا فإنّ ذكر (كفور) كذكر الخاص بعد العام للتأكيد.

و لكن بما أنّ الصبر و الاستقامة فى مقابل هذه المشكلات العظيمة ليس بالأمر اليسير، كان من الضرورى لسلوك هذا الطريق التزّود بنوعين من الزاد، لذا يضيف القرآن فى الآية الأخرى: وَ اذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا أى فى كل صباح و مساء،. و يقول تعالى أيضا: وَ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَ سَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا.

لتتوفر لديك فى ظل ذلك الذكر و هذا السجود و التسبيح قوّة كافية و قدرة معنوية لمواجهة مشاكل هذا الطريق.

(بكرة) على وزن (نكتة) يعنى بداية اليوم، و (أصيل) نقيض بكرة، أى آخر اليوم.

و قيل إنّ إطلاق هذه اللفظة على آخر اليوم مع أنّها مشتقة من مادة (أصل) هو كون آخر اليوم يشكل الأصل و الأساس للّيل.

و يستفاد من بعض التعابير أنّ (أصيل) تطلق أحيانا على الفترة ما بين الظهر و الغروب (مفردات الراغب الأصفهانى).

و يظهر من آخرين أنّ (أصل) يقال لأوائل الليل، لأنّهم فسروا ذلك ب «العشى» و العشى هو بداية الليل كما يقال لصلاتى المغرب و العشاء بالعشائين، حتى أنّه يستفاد من بعض الكلمات أنّ «العشى» هو من زوال الظهر حتى صباح الغد[۳۰۷] و لكنّ بالالتفات إلى أنّ كلمة (أصيل) وردت فى الآية الشريفة فى مقابل «بكرة» ثمّ تحدثت الآية بعد ذلك عن العبادة الليلية. يتّضح أنّ المراد هو الطرف الآخر للنهار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۶

على كل حال فإنّ هاتين الآيتين فى الحقيقة تأكيد لضرورة التوجّه الدائم و المستمر لذات اللّه المقدسة.

و قال آخرون: إنّ المراد هو الصلوات الخمس، أو بإضافة صلاة الليل، أو خصوص صلاة الصبح و العصر و المغرب و العشاء و لكنّ الظاهر هو أنّ هذه الصلوات مصاديق من هذا الذكر الإلهى المستمر و التسبيح و السجدة لمقامه المقدس.

التعبير ب (ليلا طويلا) إشارة إلى ضرورة التسبيح لفترة طويلة من الليل،

ففى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام لمّا سئل عن المقصود من التسبيح فى هذه الآية؟ قال عليه السّلام: «هو صلاة

الليل»[۳۰۸].

و لا يستبعد أن يكون هذا التفسير من باب تبيان المصداق الواضح لما تترك صلاة الليل من الأثر البالغ فى تقوية روح الإيمان، و تهذيب النفوس. و الحفاظ على حيوية إرادة الإنسان فى طريق طاعة اللّه.

و يجب هنا الالتفات إلى أن الأوامر الخمسة المذكورة فى الآيات أعلاه و إن ذكرت بصورة منهج للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فهى فى الحقيقة دستورا يحتذى به كلّ من يخطو فى مسير قيادة المجتمع البشرى، إنّهم يجب أن يعلموا بعد الإيمان الكامل بأهدافهم و رسالتهم بضرورة احتراف الصبر و الاستقامة.

و أن لا يستوحشوا من كثرة مشاكل الطريق، لأنّ هداية المجتمع من المشاكل العظيمة، و هى كذلك دائما، و لم تثمر الرسالة إن لم يمتلك قادتها الصبر و الاستقامة.

و فى المرحلة الأخرى يجب الثبات التام أمام الوساوس الشيطانية و التى تعتبر مصداقا للآثم و الكفور، و الثبات أمام سعيهم فى حرف القادة و الأئمة بأنواع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۷

الحيل و المكائد، و أن لا ينخدعوا بالتطميع و لا يتأثروا بالتهديد، و يذكروا اللّه تعالى فى كل المراحل لاكتساب القدرة الروحية و قوة الإرادة و العزم الراسخ، و الاستمداد من العبادات الليلية، و المناجاة مع اللّه، فإذا ما روعيت هذه الأمور فالنصر حتمى، و حتى لو عرضت مصيبة أو هزيمة فإنّه يمكن إصلاحها من خلال هذه الأصول، و منهج الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و سلوكه فى دعوته نموذج مؤثر لجميع السالكين فى هذا الطريق.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۸

الآيات [سورة الإنسان (۷۶): الآيات ۲۷ الى ۳۱]

اشارة

إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا (۲۷) نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا (۲۸) إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا (۲۹) وَ ما تَشاؤُنَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۳۰) يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً (۳۱)

التّفسير

تحذير مع بيان السبيل!!

رأينا فى الآيات السابقة تحذيرا للنبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لكى لا يقع تحت تأثير كل آثم أو كفور من المجرمين، و التاريخ يشهد أنّهم كانوا يستعينون لسذاجتهم بالمال و الجاه و النساء للنفوذ فى إرادة النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عزمه على ادامة الدعوة.

الآيات أعلاه عرّفت الأعداء بشكل أكثر و قالت: إِنَّ هؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعاجِلَةَ وَ يَذَرُونَ وَراءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا. لا تتعدى أفق أفكارهم دائرة الطعام و النوم و الشهوة، و تمثل هذه اللذائذ المادّية الرخيصة أسمى غاية لهم فى الحياة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۷۹

و العجيب أنّهم قاسوا روح النّبى صلّى اللّه عليه و آله العظيمة بهذا المقياس! و لم ينتبه هؤلاء الغافلين إلى اليوم الثقيل الذى ينتظرهم، ثقيل من حيث العقوبات، ثقيل من حيث المحاسبة، و ثقيل من حيث طول الزمان و شدّة الفضيحة.

و قد جاء التعبير ب (وراءهم) مع أنّ المفروض أن يقال (أمامهم) لأنّهم نسوا ذلك اليوم، و كأنّهم تركوه وراءهم، و لكن على قول بعض المفسّرين أنّ كلمة (وراء) تستعمل أحيانا بمعنى «خلف» و أحيانا بمعنى «أمام»[۳۰۹].

الآية التالية تحذرهم من الاغترار بقوتهم و قدرتهم، إذ أنّ اللّه الذى أعطاهم إيّاها قادر على أن يستردها بسرعة متى شاء، فيقول تعالى: نَحْنُ خَلَقْناهُمْ وَ شَدَدْنا أَسْرَهُمْ وَ إِذا شِئْنا بَدَّلْنا أَمْثالَهُمْ تَبْدِيلًا[۳۱۰].

(أسر) على وزن (عصر) و أصله الربط بالقيد، و لهذا سمى الأسير بهذا الاسم لربطه و شدّه، و هنا إشارة إلى استحكام خلقة الإنسان بحيث يقدر على مزاولة مختلف النشاطات و الفعاليات المهمّة.

هنا يشير القرآن إلى نقطة حساسة، و هى الأعصاب الصغيرة و الكبيرة التى تشدّ العضلات فيما بينها كالحبال الحديدية و تربط بعضها بالبعض الآخر، و حتى المفاصل و العضلات المختلفة و قطع العظام الصغيرة و الكبيرة و أعضاء الإنسان بحيث يتكون من مجموع ذلك إنسان واحد مهيأ للقيام بأية فعالية، و على كل حال فهذه الجملة كناية عن القدرة و القوّة.

و توضّح هذه الآية ضمنا استغناء ذات اللّه المقدّسة، عنهم، و عن طاعتهم و إيمانهم، ليعلموا أنّ الإصرار على إيمانهم فى الحقيقة هو من رحمة اللّه بهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۰

و قد ورد نظير هذا المعنى فى الآية (۱۳۳) من سورة الأنعام إذ يقول: وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ ما يَشاءُ.

ثمّ أشار تعالى إلى جميع البحوث الواردة فى هذه السورة و التى تشكل بمجموعها برنامجا متكاملا للحياة السعيدة، فيقول تعالى: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا[۳۱۱].

إن علينا إيضاح الطريق، لا اجباركم على اختيار الطريق، و عليكم تمييز الحق من الباطل بما لديكم من العقل و الإدراك، و اتخاذ القرار بإرادتكم و اختياركم، و هذا فى الحقيقة تأكيدا على ما جاء فى صدر السورة فى قوله: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً.

و قد يتوهّم بعض السذّج من العبارة أعلاه أنّها تعنى التفويض المطلق للعباد، فجاءت الآية التالية لتنفى هذا التصور و تضيف: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً[۳۱۲].

و هذا فى الحقيقة إثبات لأصل مشهور هو (الأمر بين الأمرين)، إذ يقول من جهة: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ فعليكم أن تختاروا ما تريدون، و يضيف من جهة أخرى: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ أى ليس لكم لاستقلال الكامل، بل إن قدرتكم و استطاعتكم و حريتكم لا تخرج عن دائرة المشيئة الإلهية، و هو قادر على أن يسلب هذه القدرة و الحرية متى شاء.

من هذا يتّضح أنّه لا جبر و لا تفويض فى الأوامر، بل إنّها حقيقة دقيقة و ظريفة بين الأمرين، أو بعبارة أخرى: إنّها نوع من الحرية المرتبطة بالمشيئة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۱

الإلهية، إذ يمكن سلبها متى يشاء ليتسنى للعباد تحمل ثقل المسؤولية الذى يعتبر رمزا للتكامل من جهة، و من جهة أخرى أن لا يتوهموا استغنائهم عن اللّه تعالى.

و الخلاصة، أنّ هذه الآية تدعو الإنسان إلى أن لا يتوهّم أنّه مستغن عن رعاية اللّه و توفيقه. و فى نفس الوقت تؤكد حريته فى أعماله و سلوكه.

و يتضح هنا أنّ تمسك بعض المفسّرين القائلين بالجبر كالفخر الرازى بهذه الآية بسبب الخلفيات الذهنية المسبقة فى هذه المسألة، فيقول: و اعلم أنّ هذه الآية من جملة الآيات التى تلاطمت فيها أمواج الجبر و القدر![۳۱۳] نعم، إذا فصلنا هذه الآية عن الآيات السابقة فهناك محلّ لهذا الوهم. و لكن بالالتفات إلى ما ورد من تأثير الإختيار فى آية، و فى آية أخرى تأثير المشيئة الإلهية، يتّضح بصورة جيدة مفهوم (الأمر بين الأمرين).

و عجيب أن أنصار التفويض يتمسكون بتلك الآية التى تتحدث عن الإختيار المطلق فقط، و أنصار الجبرية يتمسكون بالآية التى تشير إلى الجبر فقط، و يريد كل منهما تبرير أحكامهم المسبقة بتلك الآية، و الحال أنّ الفهم الصحيح للكلام الإلهى (أو أى كلام آخر) يستوجب ضمّ الآيات جنبا إلى جنب، و ترك التعصب و القضاء بالأحكام المسبقة.

و لعلّ آخر الآية: إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً. يشير حكمه إلى هذا المعنى، لأنّ حكمة اللّه تستوجب إعطاء الحرية للعباد فى سلوك طريق التكامل، و إلّا فإنّ التكامل الإجبارى لا يعدّ تكاملا، بالإضافة إلى أنّ حكمة اللّه لا تتفق مع فرض الأعمال الخيرة على أناس و فرض الأعمال الشريرة على أناس آخرين، ثمّ أنّه يثيب الجماعة الأولى و يعاقب الثانية.

ثمّ تشير الآية الأخرى بعد ذلك إلى مصير الصالحين و الطالحين فى جملة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۲

يسيرة غنية المحتوى إذ تقول الآية: يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً و الظريف أنّ صدر الآية يقول: يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِي رَحْمَتِهِ و يقول ذيلها: وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً و هذا يشير إلى أنّ مشيئته تعالى بعقوبة الإنسان تتبع مشيئة الإنسان للظلم و المعاصى، و بقرينة المقابلة يتّضح أنّ مشيئته تعالى فى الرحمة تتبع إرادة الإنسان فى الإيمان و العمل الصالح و إقامة العدل، و لا يمكن أن يكون هذا الأمر إلّا من حكيم.

و العجيب أنّ مع هذه القرينة فهناك أفراد كالفخر الرازى ممن يتخذ صدر هذه الآية دليلا على مسألة الجبر من دون الالتفات إلى آخر الآية التى يتحدث عن حرية الإرادة فى أعمال الظالمين ۳۱۴].

اللهم! أدخلنا فى رحمتك و نجّنا من العذاب الأليم الذى ينتظر الظالمين.[۳۱۵] اللهم! أدخلنا فى رحمتك و نجّنا من العذاب الأليم الذى ينتظر الظالمين.

ربّنا! إنّك أوضحت السبيل إليك. و قد عزمنا على سلوكه، فأعنّا على ذلك.

ربّنا! إنّنا إن لم نكن من الأبرار و لكنّا نحبّهم، فاحشرنا معهم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الدهر***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۳

سورة المرسلات

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمسون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۵

«سورة المرسلات»

محتوى السورة:

المشهور أنّ هذه السورة مكيّة، و لكن صرح البعض أنّ الآية (۴۸) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ مدنية، و لكن لم يذكروا لذلك دليلا واضحا، و إذا كانت مسألة الركوع و الصلاة سببا لهذا الاستنباط فإنّ ذلك يبدو بعيدا. إذ كثيرا ما كان المسلمون يقيمون الصلاة مع الركوع فى مكّة، على كلّ حال فإنّ أكثر محتويات هذه السورة تدور حول المسائل المرتبطة بالقيامة و تهديد و إنذار المشركين و المنكرين، و من خصائص هذه السورة تكرار الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ عشر مرات بعد كل موضوع جديد، و تنبئ السورة بعد ذكر الأقسام عن القيامة و الحوادث الثقيلة و الصعبة للبعث، ثمّ تذكر عقب ذلك هذه الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

و تتحدث السورة أولا عن الوقائع المؤسفة للأقوام المذنبين الأوائل.

ثمّ تتحدث ثانيا عن جانب من خصوصيات خلق الإنسان.

و فى المرحلة الثّالثة عن بعض المواهب الإلهية فى الأرض.

و فى الرّابعة تشرح السورة جانبا من عذاب المكذبين، و فى كل من هذه المراحل إشارة إلى مواضيع موقظة و محركة، ثمّ تأكيد تلك الآية بعد ذكر كلّ موضوع من هذه المواضيع، و حتى أنّه أشار فى قسم من ذلك إلى نعم الجنان للمتقين ليمزج الإنذار بالبشارة و الترهيب بالترغيب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۶

على كل حال فإنّ هذا التكرار يذكر بتكرار بعض الآيات فى سورة الرحمن باختلاف أنّ الكلام يدور عن النعم، أمّا فى السورة فغالبا ما تتحدث عن عذاب المكذبين.

اختيار اسم (المرسلات) لهذه السورة هو لتناسبه مع الآية الأولى لهذه السورة.

فضيلة السورة:

روى عن النبى صلّى اللّه عليه و آله أنّه قال: «من قرأ سورة المرسلات كتب أنّه ليس من المشركين»[۳۱۶].

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأها عرّف اللّه بينه و بين محمد»[۳۱۷]

لا شك أنّ الثواب و الفضيلة تكون لمن يقرؤها و يتفكر و يعمل بها، لذا

روى فى حديث أنّ أحد أصحاب النّبى قال: أسرع الشيب إليك يا رسول اللّه! فقال: «شيبتنى سورة هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون»[۳۱۸].

و الملاحظ أنّ جميع هذه السور تعكس أحوال القيامة و المسائل المهولة لتلك المحكمة العظيمة، و هذه هى التى تركت أثرا فى روح النّبى المقدّسة.

من البديهى أنّ القراءة بدون تدبّر و تصميم على العمل لا يمكن أن تترك مثل هذا الأثر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۷

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱ الى ۱۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً (۱) فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً (۲) وَ النَّاشِراتِ نَشْراً (۳) فَالْفارِقاتِ فَرْقاً (۴)

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً (۵) عُذْراً أَوْ نُذْراً (۶) إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ (۷) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (۸) وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ (۹)
وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ (۱۰) وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (۱۱) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (۱۲) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (۱۳) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ (۱۴)
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۵)

التّفسير

الوعود الإلهية و جزاء المكذبين:

ذكرت فى صدر السورة ابتداء خمسة أيمان، و ذلك فى خمس آيات.

الحديث وافر فى تفسير معانيها:

يقول تعالى: وَ الْمُرْسَلاتِ عُرْفاً[۳۱۹] أى قسما بالتى ترسل تباعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۸

فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً التى تسرع فى حركتها كالعاصفة.

وَ النَّاشِراتِ نَشْراً ... التى توسّع و تنشر ما وكّلت به.

فَالْفارِقاتِ فَرْقاً ... التى تفرق و تفصل.

فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً التى تلقى بالآيات الموقظة و المذكرّة.

عُذْراً أَوْ نُذْراً[۳۲۰] إمّا لإتمام الحجة أو للانذار.

و الآن لنر ما هو مفهوم هذه الأيمان المغلقة التى تخبر عن مسائل مهمّة، و يوجد هنا ثلاث تفاسير مهمّة:

۱- إنّ هذه الأيمان الخمسة إشارة إلى الرياح و العواصف التى لها الأثر البالغ فى كثير من مسائل الطبيعة فى العالم، فيصبح معنى الآيات حينئذ: أقسم بالريح المتوالية الهبوب.

و أقسم بالأعاصير السريعة.

و أقسم بالناشرات السحاب التى تنزل المطر إلى الأراضى الميتة.

و أقسم بالرياح التى تفرّق السحاب بعد هطول المطر.

و أقسم بالرياح المذكّرة باللّه بهذه المعطيات النافعة.

(و قيل أنّ فَالْعاصِفاتِ عَصْفاً إشارة إلى أعاصير العذاب النقيضة للرياح الباعثة للحياة و التى تعتبر بدورها سببا للتذكر و اليقظة).

۲- إنّ هذه الأيمان إشارة إلى (ملائكة السماء): أى أقسم بالملائكة المرسلة تباعا إلى الأنبياء (و الملائكة المرسلين بالمناهج المعروفة)، و أقسم بأولئك المسرعين كالأعصار لتنفيذ مهامهم، و الذين ينشرون ما أنزل اللّه على الأنبياء، و أولئك الذين يفصلون بعملهم هذا الحق عن الباطل، و الذين يلقون ذكر الحق و أوامر اللّه على الأنبياء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۸۹

۳- القسم الأوّل و الثّانى ناظر إلى الرياح و الأعاصير، و القسم الثّالث و الرّابع و الخامس يتعلق بنشر آيات الحق بواسطة الملائكة، ثمّ فصل الحق عن الباطل، و بعد ذلك إلقاء الذكر و الأوامر الإلهية على الأنبياء بقصد إتمام الحجّة و الإنذار.

و ما يمكن أن يكون شاهدا على التفسير الثّالث هو:

أوّلا: فصل المجموعتين من الأقسام التى فى الآيات (بالواو)، و الحال أنّ البقية عطفت بالفاء و هى علامة ارتباطها.

ثانيا: إنّ هـذه الأيمان كما سوف نرى واردة لموضوع الآية السابعة، أى أحقيّة البعث و المعاد و واقعيته، و نعلم أنّ تغيّرا عظيما يحصل فى الدنيا عند البعث حيث العواصف الشديدة و الزلازل و الحوادث المهيبة من جهة، ثمّ تشكيل محكمة العدل الإلهية من جهة أخرى و عندها تنشر الملائكة صحائف الأعمال و تفصل بين المؤمنين و الكافرين، و تلقى بالحكم الإلهى فى هذا المجال.

و طبقا لهذا التّفسير سوف يتناسب القسم مع المقسم له، و لهذا فإنّ التّفسير الأخير أفضل.

«الذكر» فى جملة: فَالْمُلْقِياتِ ذِكْراً أمّا أن يكون بمعنى العلوم الملقاة على الأنبياء، أو الآيات النازلة عليهم، و نعلم أنّ القرآن جاء التعبير عنه بالذكر كما فى الآية (۶) من سورة الحجر: وَ قالُوا يا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ

كلمة «الملقيات» بصيغة الجمع مع أنّ ملك الوحى- أى جبرئيل عليه السّلام- واحد ليس إلّا لما يستفاد من الرّوايات أنّ جماعات كثيرة من الملائكة كانوا يصاحبون جبرئيل عليه السّلام عند نزول الآيات القرآنية، كقوله تعالى فى الآية (۱۵) من سورة عبس: بِأَيْدِى سَفَرَةٍ.

و الآن لا بدّ أن نرى الغرض من هذه الأيمان، الآية التالية ترفع الستار عن هذا المعنى، فتقول: إِنَّما تُوعَدُونَ لَواقِعٌ

إنّ البعث و النشور، و الثواب و العقاب و الحساب و الجزاء كلها حق لا ريب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۰

فيه.

و يرى البعض أنّها إشارة إلى جميع الوعود الإلهية، و تشمل و عود الصالحين و الصالحين، فى الدنيا كانت أو فى الآخرة، و لكنّ الآيات التالية توحى أنّ المراد هو الوعد بالقيامة[۳۲۱].

و هنا و إن لم يستدل فى هذه الآية على مسألة المعاد و اكتفى بالادعاء، فإنّ ظرافة الموضوع تكمن فى أنّ مواضيع الأيمان السابقة تعتبر بحدّ ذاتها دلائل للمعاد، منها إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، و هذا نموذج ممّا يحدث فى المعاد، ثمّ نزول التكاليف الإلهية على الأنبياء و إرسال الرسل ممّا لا يكون الهدف منه واضحا و مفهوما إلّا بوجود المعاد، و هذا يشير إلى أنّ واقعة البعث أمر حتمى.

و جاء ما يشابه هذا الموضوع فى الآية (۲۳) من سورة الذاريات إذ يقول اللّه تعالى: فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ القسم بالربّ يعتبر إشارة إلى أنّ ربوبية الربّ و تدبيره عالم الخلق يستوجب عدم تركه للخلق دون رزق.

ثمّ ينتهى إلى تبيان علامات ذلك اليوم الموعود، فيقول: إذا تحقّق ذلك اليوم الموعود فإنّ النجوم سوف تنطفئ و تمحى فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ

وَ إِذَا السَّماءُ فُرِجَتْ أى انشقت.

وَ إِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ أى زالت و انقلعت من مكانها.

(طمست): من مادة (طمس)- على وزن شمس- و هو محو و زوال آثار الشىء، و من الممكن أن تشير العبارة هنا إلى محو نور النجوم أو اختفائها، و لكن التفسير الأول أنسب، كقوله فى الآية (۲) من سورة التكوير: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ

نسفت: من مادة (نسف)- على وزن حذف- و فى الأصل، بمعنى وضع حبوب الغذاء فى الغربال و تحريكه لعزل القشور عن الحبوب، و يعنى هنا تفتيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۱

الجبال ثمّ نسفها فى الريح، و نستفيد من بعض آيات القرآن المجيد أنّ انقراض العالم يلازم وقوع حوادث مهولة بحيث يتلاشى نظام العالم بكامله. و حلول نظام الآخرة الجديد مكان ذلك النظام، و لا يمكن وصف تلك الحوادث بأى بيان لما فيها من الرعب و العجب، و هل يوصف حادث تنقلع فيه الجبال و تندك لتتحول إلى غبار و تكون كالصوف المنفوش؟! و كما يرى بعض المفسّرين أنّ هذه الحوادث عظيمة للغاية بحيث أنّ أشد الزلازل المهيبة فى الدنيا بالنسبة لها كفرقعة صغيرة يفرقعها الأطفال للّعب بها مقابل

أقوى قنبلة ذرية.

و على أى حال فإنّ هذه التعابير القرآنية تشير إلى الاختلاف الكبير بين أنظمة الآخرة و أنظمة الدنيا.

ثمّ أشار القرآن بعد ذلك إلى ما يجرى فى البعث، فيضيف: و فى ذلك الوقت يتمّ تعيين وقت للأنبياء و الرسل ليأتوا إلى ساحة المحشر و يدلوا بشهادتهم: وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۳۲۲] و هو كقوله: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ [۳۲۳] ثمّ يضيف تعالى: لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۳۲۴]، أى لماذا تمّ تأخير هذه الشهادة و لأى وقت؟ ثم يقول: لِيَوْمِ الْفَصْلِ يوم فصل الحق عن الباطل، فصل صفوف المؤمنين عن الكافرين، و الأبرار عن الأشرار، و يوم حكم اللّه المطلق على الجميع، و قد جاء هذا الحوار لبيان عظمة ذلك اليوم، و يا له من تعبير بليغ عميق لذلك اليوم، .. إنّه «يوم الفصل»!!.

ثمّ يبيّن عظمة ذلك اليوم أيضا، فيقول تعالى: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الْفَصْلِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۲

إنّ الرسول صلّى اللّه عليه و آله بعلمه الواسع و بنظره الحاد الذى كان يرى من خلاله أسرار الغيب لم يكن مطلقا بصورة كاملة على أبعاد عظمة ذلك اليوم، فكيف بسائر الناس: و قد قلنا مرارا إنّنا لا نستطيع الإحاطة و العلم بجميع أسرار القيامة العظيمة فنحن سجناء قفص الدنيا، و ما نتصوره عن ذلك اليوم ليس إلّا شبحا و خيالا يحكى عن مجريات الآخرة.

و فى آخر آية من آيات بحثنا هدد اللّه تعالى المكذبين بيوم القيامة تهديدا شديدا و قال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

ويل: قيل هو الهلاك، و قيل المراد به العذاب المتنوع، و قيل هو واد فى جهنّم ملىء بالعذاب، و تستخدم هذه الكلمة عادة فيما يخص الحوادث المؤسفة، و هنا تحكى الآية عن مصير المكذبين المؤلم فى ذلك اليوم ۳۲۵].

المراد بالمكذبين هنا هم المكذبون بيوم القيامة، و نعلم أنّ من لا يؤمن بيوم القيامة و محكمة العدل الإلهى و بالحساب و الجزاء يسهل عليه أن يرتكب الذنوب و الظلم و الفساد، بعكس الإيمان الراسخ بذلك اليوم فإنّه يهب الإنسان التقوى و الإحساس بالمسؤولية.

***

ملاحظات

۱- محتوى هذه الأيمان

فى الآيات السابقة ذكر أولا بالرياح و الأعاصير لما لها من الدور الهام فى عالم الخلقة، فإنّها تحرك السحاب لتقودها إلى الأراضى اليابسة و الميتة، و تصريفها بعد نزول الأمطار، و تنقل بذور النباتات من مكان إلى آخر و بذلك تنمو الغابات و المراتع، و تلقّح الرياح أيضا كثيرا من الأزهار و الثمار، و تنقل الحرارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۳

و البرودة من مناطق الأرض المختلفة إلى نقاط أخرى فتساعد بذلك على تعديل المناخ، و تأخذ الهواء الطازج الملىء بالأوكسجين من المزارع و الصحارى إلى المدن، ثم ترسل الهواء الملوث إلى الصحارى و البحار لغرض التصفية. ثم إنّها تثير مياه البحار و تجعلها أمواجا متلاطمة، و تدخل الأوكسجين إلى الموجودات المائية الحيّة، نعم إنّ للرياح و النسيم خدمات عظيمة و حياتية فى الكون.

القسم الآخر من الأيمان يتحدث عن منهج نزول الوحى بوسيلة الملائكة، فإنّ فى عالم المعنى أيضا شبها مع النسيم فى عالم المادة، الملائكة يهبطون بكلمات الوحى على قلوب أنبياء اللّه تعالى كما تنزل قطرات المطر المباركة فتنمو أزهار و ثمار المعارف الإلهية فى القلوب.

و على هـذا الأسـاس فـإنّ اللّه تعـالى قـد أقسم بمربّى عالم المادة و بمربّى عالم المعنى، و الظريف أنّ جميع هـذه الأقسام هو من أجل بيان حقيقة ذلك اليوم الذى تثمر فيه جميع المساعى و هو يوم القيامة، يوم الفصل.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۴

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۱۶ الى ۲۸]

اشارة

أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (۱۶) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (۱۷) كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (۱۸) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۱۹) أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۲۰)

فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ (۲۱) إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (۲۲) فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ (۲۳) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۲۴) أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً (۲۵) أَحْياءً وَ أَمْواتاً (۲۶) وَ جَعَلْنا فِيها رَواسِيَ شامِخاتٍ وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً (۲۷) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۲۸)

التّفسير

جزاء المكذبين بالمعاد

هـذه الآيات أيضا تحـذّر و بطرق مختلفـة المنكرين للبعث، و توقظهم ببيانات مختلفة من نوم الغفلة العميق؛ فتأخذ بأيديهم أوّلا إلى ما مضى من التاريخ لتريهم الأراضى المترامية الأطراف التى كانت ملكا للأقوام السابقين، فيقول تعالى: أَ لَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۵

إنّ آثارهم واضـحة على صـفحات البسـيطة. و ليس على صـفحات التاريـخ فحسب، أقوام- كقوم عاد و ثمود و قوم نوح و قوم لوط و قوم فرعون- عوقبوا جزاء لأعمالهم فبعض أبيدوا بالطوفان و آخرون بالصاعقة، و جماعة بقوة الرياح، و قوم بالزلزلة و أحجار السماء.

ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ لأنّها سـنّة مسـتمرة لا- تبعيض فيهـا و لا- اسـتثناء، و هل يمكن أن يعاقب جماعـة لجرم ما، و يقبل ذلك الجرم من آخرين؟! و لذا يضيف تعالى فى الآية الأخرى: كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ

هـذه الآيـة فى الحقيقـة هى بمنزلـة بيان الدليل على هلاك الأمم الأولى و يسـتتبعه هلاك الأمم الأخرى، لأنّ العذاب الإلهى ليس فيه جانب الثأر و لا الانتقام الشخصى. بل إنّه تابع لأصل الاستحقاق و مقتضى الحكمة.

و قـال البعض: إنّ المراد من (الأولين) هم الأمم المتوغلـة فى الماضـى البعيـد كقوم نوح و عاد ثمود، و (الآخرين) اللاحقون بهم من الأمم الغابرة أمثال قوم لوط و قوم فرعون و لكنّنا نلاحظ أنّ (نتبعهم) جاءت بصيغة فعل مضارع، و الحال أنّ عبارة (ألم نهلك) وردت بصـيغة الماضـى، فيتضـح من ذلك أنّ (الأولين) هم الأمم السابقـة الـذين هلكوا بالعـذاب الإلهى و (الآخرين) هم الكفار المعاصـرون للنّبى صلّى اللّه عليه و آله أو الذين يأتون إلى الوجود فيما بعد، و يتلوثون بالجرائم و المعاصى و الظلم و الفساد.

ثمّ يضيف مستنتجا: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

يَوْمَئِذٍ: إشارة إلى يوم البعث الـذى يعاقب فيه المكـذبون بالعقوبات الشديدة، و التكرار هو لتأكيد المطلب، و ما احتمله البعض من أنّ هذه الآية ناظرة إلى العذاب الدنيوى، و الآية المشابهة لها و التى وردت سابقا ناظرة إلى العذاب الأخروى يبدو بعيدا جدّا.

ثمّ يمسك القرآن بأيديهم ليأخذهم إلى عالم الجنين و يريهم عظمة اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۶

و قـدرته و كثرة مواهبه فى هـذا العالم المليء بالأسـرار، ليفهموا قدرة اللّه تعالى على المعاد و البعث من جهة و أنّهم غارقون فى نعمه اللامتناهية من جهة أخرى، فيقول تعالى: أَ لَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ أى تافه و حقير فَجَعَلْناهُ فِي قَرارٍ مَكِينٍ ۳۲۶].

مقرّ فيه ضـمان لجميع ظروف الحياة و التربيـة و النمو و المحافظة على نطفة الإنسان، فهو عجيب و ظريف و موزون بحيث يثير إعجاب كل إنسان.

ثمّ يضيف تعالى: أنّ بقاء النطفة فى ذلك المكان المكين و المحفوظ إنّما هو لمدة معينة: إِلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ

مـدة لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، مـدة مملوءة بالتغيرات و التحولات الكثيرة بحيث ترتدى النطفة فى كل يوم لباسا جديدا من الحياة يؤدى به إلى التكامل فى داخل ذلك المخبأ.

ثمّ يستنتج من قـدرته تعـالى على خلق الإنسـان الكامـل و الشـريف من نطفـة حقيرة بـأن اللّه تعالى نعم القادر: فَقَدَرْنا فَنِعْمَ الْقادِرُونَ ۳۲۷][۳۲۸] و هـذا الدليل اعتمده القرآن مرات عديدة لإثبات مسألة المعاد منها قوله تعالى فى أول سورة الحج: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَـةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَـةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْـغَةٍ مُخَلَّقَـةٍ وَ غَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ... ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۷

ثمّ يعود فى النهاية ليكرر تلك الآية و هو قوله: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الويل لأولئك الذين يرون آثار قدرة اللّه تعالى ثمّ ينكرونها، يقول أمير المؤمنين عليه السّـلام: «أيّها المخلوق السوى، و المنشأ المرعى فى ظلمات الأرحام و مضاعف الأسـتار، بدئت من سلالة من طين، و وضـعت فى قرار مكين، إلى قدر معلوم، و أجل مقسوم، تمور فى بطن أمّك جنينا لا تحير دعاء، و لا تسـمع نداء، ثمّ أخرجت من مقرّك إلى دار لم تشـهدها، و لم تعرف سـبل منافعها، فمن هـداك لاجترار الغـذاء من ثدى أمّك، و عرفك عند الحاجة مواضع طلبك و إرادتك؟!»[۳۲۹].

ثمّ يقول تعالى: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً[۳۳۰]، أَحْياءً وَ أَمْواتاً[۳۳۱].

«كفـات»:- على وزن كتاب- و (كفت)- على وزن كشف- هو جمع و ضم الشـىء للآخر، و يقال أيضا لسـرعة طيران الطيور «كفات» لجمعه لأجنحته حال الطيران السريع حتى يتمكن من شق الهواء و التقدم أسرع.

و المراد هو أنّ الأـرض مقر لجميع البشـر: إذ تجمع الأحيـاء على ظهرها و تهيء لهم جميع ما يحتاجونه، و تضم أمواتهم فى بطنها، فلو أنّ الأرض لم تكن مهيئة لدفن الأموات لسبب العفونة و الأمراض الناتجة منها فاجعة لجميع الأحياء.

نعم، إنّ الأـرض هى كالأـم التى تجمع أولادهـا حولها و تضـمهم تحت أجنحتها، و تغـذيهم، و تلبسـهم، و تسـكنهم، و تقضـى جميع حوائجهم، و تحفظ أمواتهم فى قلبها أيضا، و تمتصهم و تزيل مساوئ آثارهم.

و فسّر بعضهم «الكفات» بالطيران السريع، و الآية تشير إلى حركة الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۸

حول الشمس و الحركات الأخرى و التى كانت غير مكتشفة زمن نزول القرآن.

و لكن بملاحظة الآية الأخرى أى أَحْياءً وَ أَمْواتاً يتضح أنّ التفسـير الأوّل أنسب، و يؤيد ذلك قول أمير المؤمنين على عليه السّلام عند رجوعه من صـفين و وصوله قرب الكوفـة، حيث قال و هو ينظر إلى مقبرة خارج الكوفـة: «هـذه كفات الأموات» أى مساكنهم. ثم نظر إلى منازل الكوفة فقال: «هذه كفات الأحياء» ثم تلا هذه الآيات: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفاتاً أَحْياءً وَ أَمْواتاً[۳۳۲].

ثمّ يشير تعالى إلى إحدى النعم الإلهية العظيمة فى الأرض، فيضيف:

وَ جَعَلْنـا فِيها رَواسِـيَ شامِخاتٍ ۳۳۳] هـذه الجبـال التى قـاربت بارتفاعهـا السـماء، و اتصـلت أصولها بالبعض الآخر قـد لزمت الأرض

كالدرع من جهة لحفظها من الضغط الداخلى و الضغوط الناتجة من الجزر و المد الخارجى، و من جهة أخرى تمنع اصطكاك الرياح مع الأرض حيث تمدّ قبضتها فى الهواء لتحركه حول نفسها و كذلك تنظم حركة الأعاصير و الرياح من جهة ثالثة، و لهذا تكون الجبال باعثة على الاستقرار لأهل الأرض.

و فى آخر الآية إشارة إلى إحدى البركات الأخرى للجبال فيضيف تعالى:

وَ أَسْقَيْناكُمْ ماءً فُراتاً ماءا سائغا لكم و باعثا للحياة، و لحيواناتكم و لبساتينكم.

صحيح أنّ كل ماء مستساغ هو من المطر، و لكن للجبال الدور الأهم فى الإيفاء بهذا الغرض، فإنّ كثيرا من العيون و القنوات هى من الجبال، و مصدر الأنهار العظيمة هى من الجليد المتراكم على قمم الجبال، حيث تعتبر من الذخائر المائية المهمّة للإنسان، إنّ قمم الجبال تكون باردة على الدوام لبعدها عن سطح الأرض، و لهذا فإنّها تحافظ على الجليد المتراكم عليها لآجال طويلة حتى تتأثر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۲۹۹

بشعاع الشمس فيتحول إلى ماء و يتدفق بالتالى على شكل أنهار و جداول.

ثمّ يقول فى نهاية هذا القسم: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

أولئك الذين ينكرون كل هذه الآيات و علامات قدرة اللّه التى يرونها بأعينهم، و كذلك يشاهدون النعم الإلهية التى غرقوا فيها، ثمّ ينكرون البعث و محكمة القيامة التى هى مظهر العدل و الحكمة الإلهية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۰

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۲۹ الى ۴۰]

اشارة

انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۲۹) انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ (۳۰) لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ (۳۱) إِنَّها تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (۳۲) كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ (۳۳)

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۳۴) هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ (۳۵) وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (۳۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۳۷) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ (۳۸)

فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (۳۹) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۰)

التّفسير

لا قدرة لهم للدفاع و لا طريقا للفرار

فى هذه الآيات تبيان لمصير المكذبين بيوم القيامة، و المنكرين لتلك المحكمة الإلهية العادلة، تبيان يدخل الرعب و الرهبة فى قلب الإنسان، و يوضح أبعاد الفاجعة، يقول تعالى: انْطَلِقُوا إِلى ما كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ انطلقوا إلى جهنّم التى طالما كنتم تستهزئون بها، توجهوا إلى أنواع العذاب التى هيئتموها بأعمالكم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۱

السيئة.

(انطلقوا): من مادة (انطلاق) و هو الانتقال من غير مكث، و يظهر منه كذلك الحرية المطلقة، و هذا فى الحقيقة توضيح لحالهم فى عرصة المحشر إذ يوقفوهم للحساب مدّة طويلة، ثمّ يتركونهم و يقال لهم: انطلقوا إلى جهنّم من غير مكث أو توقف. و من الممكن أن يكون المتكلم هنا هو اللّه تعالى، أو ملائكة العذاب، و على كلّ حال فإنّه سياق ممزوج بالتوبيخ الشديد الذى يعتبر بحدّ ذاته عذابا مؤلما.

ثمّ يعمد إلى مزيد من التوضيح حول هذا العذاب، فيقول سبحانه: انْطَلِقُوا إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ توجهوا نحو ظلّ من دخان خانق له ثلاث شعب:

شعبة من الأعلى، و شعبة من الجهة اليمنى، و شعبة من الجهة اليسرى، و على هذا الأساس فإنّ دخال النّار المميت هذا يحيط بهم من كل جانب و يحاصرهم.

ثمّ يقول تعالى: لا ظَلِيلٍ وَ لا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ فليس فى هذا الظل راحة، و لا يمنع من الاحتراق بالنّار لأنّه نابع من النّار.

و ربّما كان التعبير ب (ظل) سببا لتصور وجود الظل الذى يخفف من حرارة النّار، و لكنّ هذه الآية تنفى هذا التصور و تقول: ليس هذا الظل كما تتصورون، أنّه ظل محرق و خانق، و ناتج من دخان النّار الغليظ الذى يعكس حرارة اللهب بصورة كاملة[۳۳۴] و يشهد على هذا الحديث قوله تعالى فى سورة الواقعة حول أصحاب الشمال: فِي سَمُومٍ وَ حَمِيمٍ وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ لا بارِدٍ وَ لا كَرِيمٍ [۳۳۵] و قيل: إنّ هذه الشعب الثلاث هى انعكاس للتكذيبات الثلاثة لأساس الدين، و هى التوحيد و النبوّة و المعاد، لأنّ تكذيب المعاد لا ينفصل عن التكذيب بالنبوّة و التوحيد، و قيل، إنّها إشارة إلى مبادئ الذنوب الثلاثة: القوّة الغضبية و الشهوية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۲

و الوهمية، نعم، إنّ ذلك الدخان المظلم تجسيد لظلمات الشهوات.

ثمّ يضيف وصفا آخر لتلك النار المحرقة: إِنَّها تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ[۳۳۶] ليس كشرر نار هذه الدنيا التى لا تكون أحيانا إلّا بمقدار رأس الإبرة، التعبير ب «القصر» هنا تعبير ملىء بالمعنى، و ربّما يتوهّم أحد أنّه لو قيل شرر كالجبل كان أنسب، و لكن لا ينبغى نسيان أنّ الجبال كما أشير إليها فى الآيات السابقة هى أساس أنواع البركات و عيون المياه العذبة و السائغة، و لكن قصور الظالمين هى التى تكون منشأ للنيران المحرقة و الشرر المتطاير منها[۳۳۷].

ثمّ ينتهى فى الآية الأخرى إلى وصف آخر من أوصاف هذه النّار المحرقة، فيقول تعالى: كَأَنَّهُ جِمالَتٌ صُفْرٌ[۳۳۸].

«جماله»: جمع «جمل»، و هو البعير (مثل الحجر و الحجارة) و «صفر»- على وزن قفل- جمع أصفر و يطلق أحيانا على اللون الداكن المائل إلى الأسود، و لكنّ الأوّل يبدو أنسب، لأنّ شرر النّار يكون أصفر مائلا إلى الحمرة، و فى الآية السابقة شبّه حجم الشرر بالقصر الكبير، و فى هذه الآية من حيث الكثرة و اللون و السرعة و الحركة و التفرق الجميع الجهات شبهها بمجموعة من الجمال الصفر المتجهة إلى كل صوب.

و إذا كان الشرر هكذا، فكيف بنفس النّار المحرقة، و ما جعل من العذاب الأليم فى تلك النّار؟! و يعود مرة أخرى فى آخر قسم من الآيات ليتبّه بذلك التنبيه المكرر، فيقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۳

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

ثمّ يبدأ فصلا آخر من علامات ذلك اليوم المهول، فيضيف تعالى: هذا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ۳۳۹].

نعم إنّ اللّه يختم فى ذلك اليوم على أفواه المجرمين، و المذنبين كقوله فى الآية (۶۵) من سورة يس: الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ و كذلك ما ورد فى آخرها:

وَ تُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ و طبقا لآيات أخر فإنّ جلودهم تبدأ بالتكلم و تكشف عن جميع الخفايا.

ثمّ يضيف تعالى فى القول: وَ لا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۳۴۰] ليس لهم الرخصة فى الكلام، و لا فى الاعتذار و الدفاع عن أنفسهم، لأنّ الحقائق واضحة هناك، و ليس لديهم ما يقولوه، نعم يجب أن يعاقب هذا اللسان الذى أساء الاستفادة من الحرية و سعى فى تكذيب الأنبياء، و الاستهزاء بالأولياء، و إبطال الحق و إحقاق الباطل .. يجب أن يعاقب على أعماله بالإقفال و الختم، لإبطال مفعوله، و هذا عذاب شديد و أليم بحدّ ذاته أن لا يتمكن الإنسان هناك من الدفاع عن نفسه أو الاعتذار.

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «اللّه أجل و أعدل و أعظم من أن يكون لعبده عذر و لا يدعه يعتذر به، لكنه فلج فلم يكن له عذر»[۳۴۱].

و بالطبع يستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ المجرمين يتحدثون أحيانا فى يوم القيامة، و قد ذكرنا السبب فيما سبق أنّ ذلك لتعدد المواقف فى يوم القيامة، ففى بعض المواقف يتوقف اللسان و يبدأ دور الأعضاء بالشهادة، و أحيانا أخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۴

ينطق اللسان بكلمات الحسرة و الندم و الأسف الشديد.

ثمّ يكرر تعالى فى نهاية هذا المقطع قوله: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

فى المقطع الآخر يوجه الخطاب إلى المجرمين ليحكى عمّا يجرى فى ذلك اليوم فيقول تعالى: هذا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْناكُمْ وَ الْأَوَّلِينَ جمعنا فى هذا اليوم جميع البشر من دون استثناء للحساب، و فصل الخصام فى هذه العرصة و المحكمة العظمى.

و يقول: و الآن إذا كان لكم قدرة على الفرار من العقاب فاعملوا ما بدا لكم:

فَإِنْ كانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۳۴۲].

هل يمكنكم الهرب من دائرة نفوذ حكومتى؟

أو هل يمكنكم التغلّب على قدرتى؟

أو هل تستطيعون دفع الفدية لتتحرروا؟

أو أنّ لكم القدرة على أن تخدعوا الملائكة الموكلين بكم و بحسابكم؟

اعملوا ما بدا لكم و لكن اعلموا أنّكم لا تستطيعون!! فى الحقيقة إنّه أمر تعجيزى، أى أنّ الإنسان يعجز أمام هذا الأمر، كالذى جاء فى شأن القرآن المجيد حيث يقول تعالى: إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ

(كيد): على وزن (صيد) يقول الراغب فى مفرداته: هو نوع من الاحتيال، و يكون أحيانا مذموما، و أحيانا ممدوحا، و إن كان الغالب استعماله فى الذم (كما هو الحال فى الآية محل بحثنا).

و من الطبيعى أنّهم لم يستطيعوا شيئا فى ذلك اليوم، لأنّ ذلك اليوم تنقطع فيه جميع الأسباب و الوسائل أمام الإنسان، كما ورد فى الآية (۱۶۶) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۵

البقرة: وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ

و الملاحظ أنّه يقول من جهة: ذلك اليوم (يوم الفصل) و من جهة أخرى يقول: ذلك اليوم (يوم الجمع) و كلاهما يتحققان فى وقت واحد، فيجمعون أوّلا فى تلك المحكمة العظيمة، ثمّ يفصلون كل حسب عقيدته و عمله فى صفوف مختلفة، حتى الذين ينطلقون إلى الجنان فإنّ لهم صفوفا و درجات، و المتوجهون جهنّم أيضا لهم صفوف و دركات مختلفة، نعم إنّ ذلك اليوم هو يوم فصل الحق عن الباطل، و الظالم عن المظلوم.

ثمّ أنّه تعالى أعاد تلك الجملة المهددة و المتبهة مرّة أخرى، و قال: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة المرسلات (۷۷): الآيات ۴۱ الى ۵۰]

اشارة

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ (۴۱) وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (۴۲) كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۴۳) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۴۴) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۵)
كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (۴۶) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۷) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ (۴۸) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (۴۹) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (۵۰)

التّفسير

إن لم يؤمنوا بالقرآن فبأىّ حديث يؤمنون؟!

من المعلوم فى منهج القرآن أنّه يمزج الإنذار بالبشارة، و التهديد بالترغيب، و كذلك يذكر مصير المؤمنين فى مقابل مصير المجرمين لفهم المسائل بصورة أكثر بقرينة المقابلة، و على أساس هذه السنّة المتّبعة فى القرآن، فإنّ هذه الآيات و بعد بيان العقوبات المختلفة للمجرمين فى القيامة، أشارت بصورة مختصرة و بليغة إلى وضع المتقين فى ذلك اليوم فيقول تعالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَ عُيُونٍ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۷
و الحال أنّ المجرمين كما علم من الآيات السابقة هم فى ظل الشرر و حرقة الدخان المميت.
(ظلال): جمع «ظل» سواء كان ظلا كظل الأشجار فى النهار، أو الظل الحاصل من ظلام الليل، و الحال أنّ «الفىء» يقال فقط للظل الحاصل من النور، كظل الأشجار المقابل للشمس.
ثمّ يضيف: وَ فَواكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ
من الواضح أنّ ذكر «الفواكه» و «الظلال» و «العيون» إشارة إلى جانب من المواهب الإلهية العظيمة المعطاة إلى أهل الجنان .. جانب يمكن بيانه و رسمه بلسان أهل الدنيا، و أمّا ما لا يمكن حصره بالبيان، و لم يخطر ببال أهل الدنيا فهو أعلى من هذه المراتب و أفضل.
و الظريف أنّهم فى هذا المضيف الإلهى يستضافون بأحسن الوجوه، كما هو الحال فى الآية التالية إذ يقول لهم: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هذه الجملة سواء كانت خطابا من اللّه بشكل مباشر، أو بوسيلة الملائكة تقال لهم مشفوعة باللطف و المحبّة التى هى غذاء لروحهم.
و عبارة بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إشارة إلى أنّ هذه المواهب لا تعطى لأىّ كان من دون عمل، و لا يمكن حصولها بالادعاء و التخيل و التصور، و إنّما يمكن نيلها و الحصول عليها بالأعمال الصالحة فقط.
(هنىء): على وزن (صبيح) و يقول الراغب فى مفرداته: هو كل شىء ليست فيه مشقة و لا يستتبعه قلق، و لذا يقال للماء و الغذاء السائغ (هنىء)، و يطلق أحيانا على الحياة السعيدة.
و هذا إشارة إلى أنّ فواكه الجنّة و أغذيتها و أشربتها ليست كأغذية الدنيا و أشربتها التى تترك أحيانا آثارا سيئة فى البدن، أو تترك أعراضا غير مرضية.
و هناك اختلاف بين المفسّرين فى أنّ هذه الآية تبيان لإباحة الاستفادة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۸

هذه النعم، أم أنّه أمر من اللّه تعالى؟ و لكن يجب أن يلاحظ أنّ مثل هذه الأوامر التى تقال عند الاستقبال هو نوع من الطلب للشخص المضيّف، و أنّها تقال لتعظيم الضيوف و احترامهم، و المضيّف يحب أن يؤكل طعامه أكثر لإكرام ضيفه أكثر.

ثمّ تؤكد الآية الأخرى على مسألة النعم و أنّها لا تمنح اعتباطا فيضيف: إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ

الظريف أنّ فى الآية الأولى تأكيد على «التقوى»، و فى الآية التى تليها تأكيد على «العمل»، و أمّا فى هذه الآية فقد أكّد على «الإحسان».

(التقوى): هى اتّقاء و اجتناب الذنوب و الفساد و الشرك و الكفر، و «الإحسان» هو أداء كل عمل حسن، و «العمل» يتعلق بالأعمال الصالحة، ليتضح أنّ منهج النعم الإلهية مرتبط بهذه الجماعة فقط، و ليس بمن يدعى الإيمان الكاذب، و الملوثين بأنواع الفساد، و إن كانوا فى الظاهر من أهل الإيمان.

و فى نهاية هذا المقطع يعيد تلك الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الويل لمن يحرم من كل هذه النعم و الألطاف، إذ أنّ عذاب حسرات هذا الحرمان ليس بأقل من نيران الجحيم المحرقة! و بما أنّ إحدى عوامل إنكار المعاد الاهتمام بلذّات الدنيا الزائلة و الميل إلى الحرية المطلقة للانتفاع بهذه اللذّات، و يتوجه بالحديث فى الآية التالية إلى المجرمين بلحن تهديدى فيقول: كلوا و تمتعوا بالملذات الدنيوية فى هذه الأيّام القلائل، و لكن اعلموا أنّ العذاب الإلهى ينتظركم، لأنّكم مجرمون: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ

و قد يكون التعبير ب (قليلا) إشارة إلى مدّة عمر الإنسان القصيرة فى الدنيا، و كذا المواهب الدنيوية التافهة مقابل النعم الأخروية اللامتناهية، إلّا أنّ بعض المفسّرين يرى أنّ هذا الخطاب هو للمجرمين فى الآخرة، و لكن الالتفات إلى أنّ الآخرة ليس فيها متع من مواهب الحياة للمجرمين ليتمتعوا بها، فينبغى، القول بأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۰۹

هذا الخطاب موجّه لهم فى الدنيا.

فى الحقيقة أنّ المتقين يستضافون فى الآخرة بكامل الاحترام و التقدير، و يخاطبون بهذه الجملة المليئة باللطف و الحنان: كُلُوا وَ اشْرَبُوا هَنِيئاً و أمّا عبيد الدنيا فإنّهم يخاطبون بجملة تهديدية فى هذه الدنيا: كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا قَلِيلًا.

يقول للمتقين: بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ و يقول لهؤلاء أيضا: إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ۳۴۳].

و على كل حال فإنّها تشير إلى أنّ مصدر العذاب الإلهى هو عمل الإنسان و ذنبه، الناشئ من عدم الإيمان أو الأسر فى قبضة الشهوات.

ثمّ يكرر التهديد بجملة: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ هم أولئك الذين غرّروا و خدعوا بزخارف الدنيا و لذاتها و شهواتها و اشتروا عذاب اللّه.

و أشار فى الآية الأخرى إلى عامل آخر من عوامل الانحراف و التعاسة و التلوث، و قال: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ

قال كثير من المفسّرين: إنّ هذه الآية نزلت فى «ثقيف» حين أمرهم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالصلاة فقالوا: لا ننحنى فإنّ ذلك سبّة علينا،

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا خير فى دين ليس فيه ركوع و سجود»[۳۴۴].

إنّهم لم يأبوا الركوع و السجود فحسب، بل إنّ روح الغرور و الكبر هذه كانت منعكسة على جميع أفكارهم و حياتهم، فما كانوا يسلّمون للّه، و لا لأوامر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لا يقرّون بحقوق الناس، و لا يتواضعون للّه تعالى و للناس.

فى الحقيقة أنّ هذين العاملين (الغرور و حب الشهوة) من أهم عوامل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۰

الإجرام و الذنب و الكفر و الظلم و الطغيان.

و احتمل البعض أنّ خطاب (اركعوا) يقال لهم فى القيامة، و لكن هذا الاحتمال بعيد، خصوصا بعد التمعن فى الآيات السابقة و الآتية.

ثمّ يعيد هذه الآية للمرّة العاشرة و الأخيرة إذ يقول: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

و فى آخر آية من آيات البحث- و هى آخر آية من السورة- يأتى السياق ممزوجا بالعتاب و مليئا بالملائمة، فجاءت الآية بصيغة الاستفهام التعجبى، إذ يقول فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ إنّ من لم يؤمن بالقرآن الذى لو أنزل على الجبال لتصدعت و ارتجفت، فسوف لن يسلم و لن يؤمن بأى كتاب سماوى، و لا يقبل بأى منطق عقلائى، و هذ يدّل على روح العناد و التعصب.

***

ملاحظة:

كما أشرنا سابقا فى بداية السورة إلى تكرار الآية: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ عشر مرّات. و هذا تأكيد لواقع مهم، و شبيه ذلك كثير فى حديث العظماء و البلغاء، إذ أنّ القسم الذى يعتنون به و يؤكّدون عليه يظهر مكررا فى نثرهم و أشعارهم.

و لكن بعض المفسّرين يرى أنّ لكل آية من هذه الآيات العشر معنى خاصّا، و تشير كل منها إلى تكذيب مواضيع سابقة لها، و لذا فإنّها لا تعد مكررة.

و نختم هذه السورة بجملة من تفسير روح البيان، يقول: إنّ هذه السورة نزلت على النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى غار قرب مسجد (خيف) بمنى و هو معروف، و أنا شخصيا قد زرت ذلك الغار.

اللّهم! جنّبنا أبدا التلوث بتكذيب آياتك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۱

ربّنا! جنّبنا الغرور و الهوى فإنّهما رأس كلّ خطيئة.

إلهنا! احشرنا مع المتّقين الذين ينالون رضاك و ضيافتك فى ذلك اليوم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة المرسلات***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۳

بداية الجزء الثلاثون من القرآن الكريم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۵

سورة النّبإ

اشارة

مكيّة و عدد آياتها أربعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۷

«سورة النبا»

محتويات السورة:

تمتاز أغلب السور القرآنية فى الجزء الأخير من القرآن بأنّها نزلت فى مكّة، و تؤكّد فى مواضيعها على مسألة:

المبدأ، المعاد، البشارة و الإنذار، و تتّبع أسلوب الإثارة فى الحديث، و تتعامل مع الأوتار الموقظة للضمير الإنسانى، و تمتاز معظم

آياتها بقصر العبارة المتضمنة لإشارات جمة، حيث تبث الحياة فى الأجساد الخالية من الروح، و تنقلها من عالم الغفلة و اللامبالاة إلى عالم الشعور بعظم المسؤولية الملقاة على العواتق، و إلى البناء الجاد الملتزم للشخصية الإنسانية الحقة.

و مع كل ذلك .. فلآياتها عالما خاصّا ملىء بالتفاعلات و الحركية.

و سورة النبأ لا تشذّ عن الإطار العام لطبيعة السور المكيّة، حيث تستهل السورة بسؤال يستوقف الإنسان، و تختتم بجملة زاخرة بالعبرة ...

و يمكننا تلخيص محتوى السورة بما يلى:

۱- السؤال عن «النبأ العظيم» و هو يوم القيامة كحدث بالغ الخطورة.

۲- الاستدلال على إمكانية المعاد و القيامة، من خلال الاستدلال بمظاهر القدرة الإلهية فى: السماء، الأرض، الحياة الإنسانية و النعم الرّبانية.

۳- بيان بعض علامات بدء البعث.

۴- تصوير جوانب من عذاب الطغاة الأليم.

۵- التشويق للجنّة، بوصف أجوائها الفياضة بالنعم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۸

۶- و تختم السورة بالإنذار الشديد من عذاب قريب، بالإضافة لتصوير حال الذين كفروا.

و اشتق اسم السورة من الآية (۲) .. و يطلق عليها أيضا اسم سورة (عمّ) نسبة إلى أوّل كلمة وردت فى السورة بعد البسملة.

فضل تلاوتها:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- فى فضل تلاوتها- أنّه قال: «من قرأ سورة عمّ يتساءلون سقاه اللّه برد الشراب يوم القيامة»[۳۴۵].

و

فى حديث آخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها و حفظها كان حسابه يوم القيامة بمقدار صلاة واحدة»[۳۴۶].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ عمّ يتساءلون لم يخرج سنته إذا كان يدمنها فى كل يوم حتى يزور البيت الحرام»[۳۴۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۱۹

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَساءَلُونَ (۱) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (۲) الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (۳) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۴)

ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (۵)

التّفسير

خبر هام!

تأتى الآية الأولى لتستفهم بتعجب: عَمَّ يَتَساءَلُونَ ۳۴۸]! و دون انتظار للجواب، تجيب الآية الثّانية ما سئل عنه فى الآية الأولى: عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ

ذلك الخبر: الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ

أورد المفسّرون آراء متباينة فى المقصود من «النبأ العظيم»، فمنهم من اعتبره إشارة إلى يوم القيامة، و منهم من قال بأنّه إشارة إلى القرآن الكريم، و منهم من اعتبره إشارة إلى أصول الدين من التوحيد حتى المعاد.

و قد فسّرته الرّوايات بالولاية و الإمامة (و سنشير إلى ذلك فى البحوث الآتية).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۰

و بنظرة دقيقة إلى مجموع آيات السورة و سياق طرحها، و ما ذكرته الآيات اللاحقة من ملامح القدرة الإلهية بعرض بعض مصاديقها فى السماء و الأرض، و بعد هذا العرض تؤكّد إحدى الآيات، إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً ثمّ مخالفة و عدم تقبل المشركين لمبدأ «المعاد»، كل ذلك يدعم التّفسير الأوّل القائل: بأنّ النبأ العظيم هو يوم القيامة.

«النبأ»: كما يقول الراغب فى مفرداته: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، و لا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثلاثة[۳۴۹].

فوصف «النبأ» ب «العظيم» للتأكيد على أهميته، و للبت بأنّ ما يشك فيه البعض إنّما هو: أمر واقع، بالغ الأهمية، خطير .. و كما قلنا فهذا المعنى يناسب كونه يوم القيامة أكثر ممّا يناسب بقية التفاسير.

و ربّما كانت جملة «يتساءلون» إشارة إلى الكفّار دون غيرهم، لأنّهم كثيرا ما كانوا يتساءلون فيما بينهم بخصوص «المعاد»، و ما كان تساؤلهم لأجل الفحص و التحقيق وصولا للحقيقة، بل كان لغرض التشكيك لا أكثر.

و ثمّة احتمال آخر: كون تساؤلهم كان موجها إلى المؤمنين عموما، أو إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خاصّة[۳۵۰].

و قد يتساءل أنّه إذا كان «النبأ العظيم» هو يوم القيامة، فلما ذا يقول القرآن الكريم: الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ و فى علمنا أنّ الكفار مجمعون على إنكاره؟؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۱

و الجواب: أنّ المشركين لا يقطعون فى إنكارهم للمعاد بشكل جازم، و الكثير منهم يعتقدون بصورة إجمالية ببقاء الروح بعد البدن، و هو ما يسمى ب (المعاد الروحانى).

أمّا بخصوص (المعاد الجسمانى)، فالمشركون ليسوا على وتيرة واحدة فى إنكاره، فهناك من يظهر الشكّ و التردد، كما تشير إلى ذلك الآية (۶۶) من سورة النحل .. و هناك من ينكر المعاد الجسمانى بشدّة حتى دفعهم جهلهم و عنادهم لأن ينعتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم (و العياذ باللّه) بالجنون لقوله بالمعاد الجسمانى، و قد عرفوه تارة أخرى بالكاذب على اللّه! كما أخبرت بذلك سورة سبأ فى الآيتين (۷ و ۸) ..

و عليه، فاختلاف المشركين فى «المعاد» أمر واقع و لا يمكن إنكاره.

و يضيف القرآن قائلا: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۳۵۱]، فليس الأمر كما يقولون أو يظنون.

و يجدد التأكيد: ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ

فسیعلمون فی ذلک الیوم الواقع حتما: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ ۳۵۲]، یوم ینهال العذاب الإلهی علی الکافرین فیقولون بصرخات مستغیثة: هَلْ إِلی مَرَدٍّ مِنْ سَبِیلٍ ۳۵۳].

بل و إنّ طلب العودة إلی الحیاة لجبران خطیئاتهم سیطرح فی أولی لحظات الموت، حین تزال الحجب عن عین الإنسان فیری بأمّ عینیه حقیقة عالم الآخرة، فیستیقن حیاة البرزخ و المعاد، و لا یبقی عنده إلّا أن یقول: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّی أَعْمَلُ صالِحاً فِیما تَرَکْتُ ۳۵۴].

«السین» فی «سیعلمون» حرف استقبال (یستعمل للمستقبل القریب)، و هو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۲

فی الآیة المبارکة یشیر إلی قرب وقوع یوم القیامة، و ما نسبة أیّام الدنیا للآخرة إلّا ساعة من الزمن! أمّا تکرار جملة «کلّا سیعلمون»، فقیل: للتأکید. و قیل: لبیان وقوع أمرین ..

الأوّل: قرب وقوع العذاب الدنیوی. و الثّانی: الإشارة إلی قرب عذاب الآخرة أیضا. و قد رجح المفسّرون التفسیر الأوّل.

و ثمّة احتمال آخر، و هو أنّ نمو و تطور الفکر البشری سیوصل البشریة إلی التقدم العلمی الذی یثبت بالأدلة العلمیة و الشواهد الحیّة تحقق یوم القیامة، بالشکل الذی یبطل کل حیل الإنکار و عدم الإقرار.

و یشکل علی هذا الاحتمال .. کون ما سیحصل من تطور و تقدم إنّما یختص بالأجیال القادمة، فی حین أنّ الآیة تتحدث عن المشرکین فی عهد النّبی صلّی اللّه علیه و آله، و تناولت مسألة اختلافهم فی أمر یوم القیامة.

***

بحوث

۱- «الولایة» و «النبأ العظیم»

تقدم أنّ هناک عدّة معان لل «النبأ العظیم»، مثل: القیامة، القرآن، أصول الدین .. إلّا أنّ القرائن الموجودة فی مجموع آیات السورة تدعم تفسیر «النبأ» ب «المعاد» و ترجحه علی الجمیع.

و لکنّنا نجد فی روایات أهل البیت علیهم السّلام و فی بعض روایات أهل السنّة أنّ «النبأ العظیم» بمعنی إمامة أمیر المؤمنین علی علیه السّلام، حیث کانت مثار جدال و نقاش بین جمع من المسلمین، و هناک من فسّر «النبأ العظیم» بالولایة بشکل عام.

و إلیکم ثلاث روایات، علی سبیل المثال لا الحصر:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۳

۱- ما

روی الحافظ محمّد بن مؤمن الشیرازی (أحد علماء السنّة) عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله أنّه قال فی تفسیر عَمَّ یَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ «ولایة علی یتساءلون عنها فی قبورهم، فلا یبقی میت فی شرق و لا غرب و لا فی برّ و لا فی بحر إلّا و منکر و نکیر یسألانه عن ولایة أمیر المؤمنین بعد الموت، یقولان للمیت:

«من ربّک؟ و ما دینک؟ و من نبیّک؟ و من إمامک؟»[۳۵۵].

۲- و

روی أنّ رجلا خرج یوم صفین عن عسکر الشام و علیه سلاح و فوقه مصحف و هو یقرأ: عَمَّ یَتَساءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِیمِ فخرج له علی علیه السّلام، فقال له:

«أتعرف النبأ العظيم الذى هم فيه يختلفون»؟ قال: لا.

فقال له عليه السّلام: «أنا و اللّه النبأ العظيم الذى فيه اختلفتم و على ولايته تنازعتم، و عن ولايتى رجعتم بعد ما قبلتم، و ببغيكم هلكتم بعد ما بسيفى نجوتم، و يوم الغدير قد علمتم، و يوم القيامة تعلمون ما علمتم»[۳۵۶].

۳-

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال، «النبأ العظيم الولاية»[۳۵۷].

و للجمع بين مضمون ما تناولته الروايات و ما جاء فى تفسير النبأ العظيم بالمعاد، لا بدّ من الانتباه إلى ما يلى:

۱- «النبأ العظيم» كمفهوم قرآنى- مثل سائر المفاهيم القرآنية- له من السعة ما يشمل كل ما ذكر من معان، و إذا كانت قرائن السورة تدلّ على أنّ المقصود منه «المعاد»، فهذا لا يمنع من أن تكون له مصاديق أخرى.

۲- كما هو معلوم أنّ للقرآن بطونا مختلفة و ظواهرا متعددة، و أدلة و قرائن الاستخراج مختلفة أيضا، و بعبارة أخرى: أنّ لمعانى آيات القرآن دلالات التزامية لا يعرفها إلّا من غاص فى بحر علمها و معرفتها، و لا يكون ذلك إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۴

للخاصّة من الناس.

و ليست الآية المذكورة منفردة فى أنّ لها ظاهر و باطن دون بقية آيات القرآن، حيث أنّ الأحاديث و الرّوايات الشريفة فسّرت كثير من الآيات بمعان مختلفة، بعضها ما ينسجم مع ظاهر الآية، و البعض الآخر يشير إلى المعنى الباطن لها.

و لا بدّ من التأكيد على حقيقة خطيرة، و هى: لا يجوز قطعا بأن نضع للقرآن معنى باطنا بحسب رأينا و فهمنا، بل لا بدّ من وجود قرائن و أدلة واضحة، أو بالاعتماد على تفاسير النّبى صلّى اللّه عليه و آله و الأئمّة عليهم السّلام الصحيحة، لكى لا يكون وجود بطون للقرآن ذريعة بأيد المنحرفين و المتطرفين و ذوى الأهواء ليفسّروا القرآن بحسب ما يشتهون و يرغبون.

۲- سرّ التأكيد على المعاد:

قلنا، إنّ من كبريات المسائل المهمّة التى يتمّ التأكيد عليها فى السور المكيّة للجزء الأخير من القرآن هى مسألة «المعاد» مع تصوير حياة الإنسان فى عالم البرزخ لما لهذه المسألة من أهمية و تأثير على الإنسان فى حياته الدنيا، فمجرّد أن يحسب و يفكر الإنسان بأنّ ثمّة عالم ينتظره و فيه محاسبة دقيقة و بعدها إمّا ثواب أو عقاب، فمجرّد هذا الإحساس كفيل لأن يدفع الإنسان بالتفكير فى مستقبله الأبدى، و أن يعمل على ضوء تحسبه.

فهناك محكمة .. لا تخفى عليها خافية، لا ظلم فيها و لا جور، لا تخطئ و لا تشتبه، و لا رشوة فيها و لا توصية، و فوق هذا و ذلك فلا مجال للمتهم فيها لأن يكذب أو ينكر ... إذن فلا سبيل للنجاة من عقاب الآخرة إلّا بترك الذنوب و العمل وفق مقتضيات الشرع فى هذه الحياة الفانية.

إنّ الإيمان بوجود محكمة العدل الإلهى تدفع الإنسان لأن: يتحرك ضميره،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۵

تتيقظ نفسه من غفلتها الماكرة، تحيى فيه روحية التقوى فيه و يتحسس عظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، فيبدأ بتشخيص وظائفه و تكاليفه الشرعية للقيام بها على أحسن وجه.

و أساسا فإنّ شيوع الفساد فى أى محيط يرجع إلى أمرين: ضعف التوجيه و المراقبة، و فقدان القوة القضائية الرادعة، فإذا خضعت أعمال الناس إلى توجيه مبرمج يقظ، بالإضافة إلى توفر القوانين القضائية الصارمة لكل من يشذ عن جادة القانون، فإنّ الفساد و

الاعتداء و الطغيان و الحال هذه يكاد ينعدم فى ذلك المحيط.

الحياة الدنيوية التى تفعم ببرنامج موجه إلى طريق الحق، و قوة قضائية ساعية لرضوانه جلّ شأنه، و عاملة على خدمة البشرية، تدفع الإنسان لأن يدرك بوضوح مصاديق الهداية الإلهية، و يشعر لذة حياته الروحية.

فالإيمان بوجود من: لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ[۳۵۸]، و الإيمان بحتمية «المعاد» الذى تصدقه الآية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۳۵۹]، فهكذا الإيمان كفيل بأن يخلق فى الإنسان حالة التقوى التى هى بمثابة مركز للإشعاع الرّبانى على جميع أبعاد حياته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۶

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۶ الى ۱۶]

اشارة

أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً (۶) وَ الْجِبالَ أَوْتاداً (۷) وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً (۸) وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً (۹) وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً (۱۰)
وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً (۱۱) وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً (۱۲) وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً (۱۳) وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً (۱۴) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً (۱۵)
وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً (۱۶)

التّفسير

كل شىء بأمرك يا ربّ ...

تجيب الآيات المذكورة على أسئلة منكرى المعاد و المختلفين فى هذا «النبأ العظيم» لأنّها تستعرض جوانب معينة من نظام الكون و عالم الوجود الموزون، مع تبيانها لبعض النعم الإلهية الواسعة ذات التأثير الفعال فى حياة الإنسان، و ذلك من جهة دليل على قدرة البارى عزّ و جل المطلقة، و منها قدرته على إعادة الحياة إلى الإنسان بعد موته.

و من جهة أخرى إشارة إلى أنّ الكون و ما فيه من دقّة تنظيم، لا يمكن أن يخلق لمجرّد العبث و اللهو! بل لا بدّ من وجود حكمة بالغة لهذا الخلق. فى حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۷

أنّه لو كان الموت يعنى نهاية كل شىء، فمعنى ذلك أنّ وجود العالم عبث و خال من أيّة حكمة!! و بهذا فقد استدل القرآن الكريم على حقيقة «المعاد» بطريقين:

۱- برهان القدرة.

۲- برهان الحكمة.

و قد عرضت الآيات الإحدى عشر، اثنتى عشر نعمة إلهية، بأسلوب ملؤه اللطف و المحبّة، مصحوبا بالاستدلال، لأنّ الاستدلال العقلى لو لم يقترن بالإحساس العاطفى و النشاط الروحى يكون قليل التأثير.

و تشرع الآيات بالإشارة إلى نعمة الأرض، فتقول: أَ لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً.

(المهاد): كما يقول الراغب فى المفردات: المكان الممهّد الموطأ، و هو فى الأصل مشتق من «المهد»، أى المكان المهيأ للصبى.

و فسّره بعض أهل اللغة و المفسّرين بالفراش، لنعومته و استوائه و كونه محلا للراحة.

و اختيار هذا الوصف للأرض ينم عن مغزى عميق ..

فمن جهة: نجد فى قسم واسع من الأرض الإستواء و السهولة، فتكون مهيئة لبناء المساكن و الزراعة.

و من جهة ثانية: أودع فيها كل ما يحتاجه الإنسان لحياته من المواد الأولية إلى المعادن الثمينة، سواء كان ذلك على سطحها أم فى باطنها.

و من جهة ثالثة: تحلل الأجساد الميتة التى تودع فيها، و تبيد كل الجراثيم الناشئة عن هذه العملية بما أودع فيها البارى من قدرة على ذلك.

و من جهة رابعة: ما لحركتها السريعة المنظمة و لدورانها حول الشمس و حول نفسها من أثر على حياة البشرية خاصّة، بما ينجم عنها الليل و النهار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۸

و الفصول الأربعة.

و من جهة خامسة: خزنها لقسم كبير من مياه الأمطار الغزيرة، و إخراج ذلك على شكل عيون، آبار، أنهار.

و الخلاصة: إنّ جميع وسائل الاستقرار و العيش لبنى آدم متوفرة فى هذا المهد الكبير، و قد لا يلتفت الإنسان إلى عظم هذه النعمة الرّبانية، إلّا إذا ما أصاب الأرض زلزالا ..، و عندها سيدرك معنى استقرار الأرض، و معنى كونها مهادا.

و بما أنّ نعمة استواء الأرض و سهولتها قد تهمش نعمة الجبال، فقد جاءت الآية التالية لتبيّن أهمية الجبال و دورها المهم فى حياة الإنسان: وَ الْجِبالَ أَوْتاداً.

تشكل الجبال آية ربانية زاخرة بالعطاء، و تؤدى وظائف كثيرة، منها أنّها تحفظ القشرة الأرضية من الانهيار أمام الضغط الحاصل من المواد المذابة داخلها، و ذلك لعمق تجذرها المترابط داخل الأرض .. و تحافظ عليها من تأثيرات جاذبية القمر فى عملية المد و الجزر .. و تشكل جدران الجبال سدا منيعا للتقليل من آثار الرياح الشديدة و العواصف المدمرة .. و تهيأ للإنسان الملاجئ الهادئة فى مغاراتها و بين تعرجاتها لتأمنه من ضربات العواصف المهلكة .. و تقوم بخزن المياه و ادخار أنواع المعادن الثمينة فى باطنها ..

بالإضافة لكل ما ذكر، فتوزيع الجبال على الأرض بالشكل الموجود و تعاملا مع حركة الأرض يعمل على تنظيم حركة الهواء المحيط بالكرة الأرضية بالشكل الذى يؤثر ايجابيا على الحياة فوق الأرض. و فى هذا المجال، يقول العلماء: لو كان سطح الكرة الأرضية مستويا كله، لتولدت عواصف شديدة لا يمكن السيطرة عليها جراء حركة الأرض و سكون الغلاف الجوى، و لفقدت الأرض صلاحيتها بتوفير مستلزمات السكن للإنسان، لأنّ استمرار الاحتكاك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۲۹

الحاصل من حركة الأرض الدائمة و سكون الغلاف الجوى سيؤدى بلا شك إلى زيادة حرارة القشرة الأرضية ممّا يجعل الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان.

و بعد أن بيّن القرآن هذين النموذجين من النعم الإلهية و الآيات الآفاقية، عرج إلى ذكر ما أنعم البارى على الإنسان من النعم و الآيات الانفسية فقال:

وَ خَلَقْناكُمْ أَزْواجاً[۳۶۰].

«الأزواج»: جمع زوج، المتشكل من الذكر و الأنثى، و يخرج الإنسان إلى حياة الوجود من هذين الجنسين، و يستمر وجوده فى الحياة من خلال عملية التناسل التى تساهم فى استقرار الإنسان من الناحيتين الجسمية و النفسية، كما تشير إلى هذا الآية (۲۱) من سورة الروم: وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً.

و بعبارة أخرى: إنّ كلا من الذكر و الأنثى مكمل لوجود الآخر، و عاملا على إشباع احتياجات الطرف الآخر من الناحيتين الجسمية و النفسية.

و فسّر البعض كلمة «أزواج» بالأصناف المختلفة للناس، لأنّ من معانى (أزواج): الأصناف و الأنواع، فاعتبروها إشارة إلى ذلك التباين الموجود بين البشر من حيث: اللون، الجنس، الاستعدادات و القابليات، للدلالة على عظمة البارى جلّ شأنه و العامل على تكامل المجتمع الإنسانى.

و يشير بعد ذلك إلى نعمة النوم، فيقول: وَ جَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً.

«السبات»: من السبت، بمعنى القطع، ثمّ استعملت بمعنى (تعطيل العمل) لأجل الاستراحة، و سمى «يوم السبت» بذلك لأنّ اليهود كانوا يعطلون أعمالهم فى اليوم المذكور.

و يحمل وصف «النوم» بالسبات إشارة لطيفة إلى تعطيل قسم من الفعاليات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۰

الجسمية و الروحية للإنسان عند النوم.

و يعطى التعطيل فرصة: لاستراحة أعضاء البدن .. لتجديد القوى .. لتقوية الروح و الجسد، لتجديد النشاط و رفع أىّ نوع من التعب و الآلام، و الاستعداد لتقبل المرحلية القادمة (بعد النوم) بفاعلية و نشاط متجدد.

و بالرغم من أنّ النوم يشكّل ثلث حياة الإنسان، و لكنّ الإنسان لا زال يجهل الكثير من خفاياه، بل و لا زال الإنسان (منذ القديم و حتى الآن) لا يعرف سبب تعطيل بعض فعاليات الدماغ فى مدّة معينة و تغمض العين أجفانها و تسكن جميع أعضاء البدن! و بات من المعروف ما للنوم من دور مهم فى حياة الإنسان، حتى حرص أطباء علم النفس دوما على تنظيم نوم مرضاهم بصورته الطبيعية حفاظا على حالة التوازن النفسى للمرضى.

فالذين لا ـ يتمتعون بنوم طبيعى تراهم مصابون بحدّة المزاج، القلق، الاضطراب، الكآبة، و بالمقابل، نرى الذين يتمتعون بنوم طبيعى ينهضون كل صباح بنشاط و حيوية و بقدرة جديدة.

و من بين ما يقدمه النوم من تأثير مهم على الإنسان: سرعة تقبل ذهن الإنسان للدراسة و المطالعة بعد فترة نوم طبيعية و هادئة و سرعة إنجاز الأعمال الفكرية و البدنية و لعلّ من أسهل أساليب تعذيب الإنسان هو حرمانه من النوم، خصوصا و أنّ التجارب العلمية أثبتت بأنّ قابلية الإنسان على تحمل الأرق ضعيفة جدّا، و إذا حاول أىّ إنسان أن يجرب ذلك، فلا تمضى عليه فترة وجيزة إلّا و يصاب فى سلامته و يمرض.

و كلّ ما ذكر من فوائد النوم فإنّه يختص بالنوم الطبيعى الموزون، و أمّا إذا زاد عن حدّه الطبيعى فلا يجنى صاحبه سوى الآثار السلبية لهذا الإفراط، كحال الإفراط فى الطعام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۱

و من الغريب أنّ نسبة فترة النوم تختلف من إنسان لآخر، و لا يمكن تعيين فترة محددة لكل الناس، و عليه .. فكل إنسان يعرف الفترة التى تناسبه طبيعيا بما يناسب فعالياته الجسمية و الروحية، و تجربة الإنسان هى التى تعين نسبة النوم الضرورى له.

و الأغرب من ذلك، إنّه قد يضطر الإنسان فى الحوادث و الشدائد إلى السهر و اليقظة مدّة طويلة، و لذلك تزداد مقاومته للنوم بشكل ملحوظ و لكنّه مؤقت، و قد يستكفى فى تلك الأحيان بساعة أو ساعتين من النوم لليوم الواحد، و لكن ..

سرعان ما ينتهى ذلك التمكن بمجرّد الرجوع إلى الحالة الطبيعية، بل و قد يحتاج لساعات نوم أطول من السابق للتعويض عمّا فاته من نوم! و من النادر أن نرى إنسانا يعيش حالة اليقظة لعدة أشهر، و فى قبال ذلك نرى بعض الناس ينامون أثناء المشى، بل و هناك من ينام و أنت تشاطره أطراف الحديث، و مثل هكذا أشخاص يعيشون حالة غير طبيعية و غالبا ما تكون الحوادث المؤسفة فى انتظارهم،

فالضرورة تقتضى ألّا يتركوا بدون مراقب أو مرافق.

و الخلاصـة: إنّ هـذا الحـادث العجيب و الظاهرة الغامضـة الـتى تـدعى ب «النـوم» مصـحوبة بعجائب كـثيرة و كأنّهـا معجزة من المعاجز[۳۶۱].

و مع أنّ ذكر النوم فى الآيـة قـد جاء باعتباره إحـدى النعم الإلهية، إلّا أنّ الآية المباركة قد تشـير بذلك إلى الموت، لما للنوم من شـبه بالموت، و الاستيقاظ بالبعث.

و بعد الانتهاء من ذكر نعمة النوم، ينتقل القرآن الكريم لذكر نعمة الليل، فيقول: وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۲

و تضيف الآية التالية مباشرة: وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً[۳۶۲].

الآيتان تفندان جهل الثنويون بأسـرار الخلق، حيث يقولون: إنّ النور و النهار نعمة، و الظلام و الليل شـر و عذاب، و يجعلون لكلّ منهما خالق (إله الخير و إله الشر) .. و بقليل من التأمل نجد أنّ كلًا منهما يمثل نعمة إلهية معطاءة، حيث تنبع منها نعم أخرى.

و شـبهت الآيـة الليل باللباس و الغطاء الذى يلقى على الأرض ليشـمل كل من على الأرض، و ليجبر فعاليات الموجودات الحيّة المتعبة على الأرض بالتعطل عن الحركة و ممارسة النشاطات، و يخيم الظلام و السـكون ليضـفى على الأرض الهدوء ليستريح الناس من رحلة العمل و المعاناة خلال النهار، و ليتمكنوا من مواصلة نشاطهم لليوم التالى لأنّ النوم المريح لا يتيسر للإنسان إلّا فى أجواء مظلمة.

و بالإضافـة لكـل مـا ذكر، فحلول الليـل يعنى زوال نور الشـمس و إلّـا لانعـدمت الحياة و احترقت جميع النباتات و الحيوانات فى حال استمرار شروق الشمس.

و لذا نجد القرآن الكريم يؤكّد على هذه الحقيقة، فتارة يقول: قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۳۶۳]. و تـأتى الآيـة التاليـة لتقول: وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۳۶۴] و يلاحـظ فى القرآن الكريم أنّه قـد أقسم بأمور كثيرة، و لكن قسـمه لا يتعـدى المرة الواحـدة لكل ما قسم به، ما عـدا الليل فقد جاء القسم به سبع مرات! و لمّا كان القسم بشىء دليل على أهميته، فهذا يعنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۳

فقد جاء القسم به سبع مرات! و لمّا كان القسم بشىء دليل على أهميته، فهذا يعنى أنّ للّيل أهميّة بالغة.

الأشـخاص الذين يضيئون الليل بأنوار صناعية و يسهرون ليلهم و يقضون نهارهم بالنوم، هم أناس غير طبيعيين، و ترى علامات الكسل و الخمول بادية عليهم. فى حين نرى القرويين أكثر صـحة من أهل المدن و أسـلم بدنا و حواسا، لأنّهم ينامون بعد حلول الليل بقليل و يستيقظون مبكرا.

و من منـافع الليـل الجانبيـة أنّ فيه (وقت السـحر) الـذى هو أفضـل أوقـات الـدعاء و الصـلاة و مناجـاة البارى جلّ شأنه لتربيـة و تزكية النفوس، كما تصف الآية (۱۸) من سورة الذاريات عبّاد الليل: وَ بِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۳۶۵].

و النهار بنوره الفياض نعمة ربانية عظيمة، حيث يدفع الإنسان ليتحرك و يسعى لبناء حياته و مجتمعه، و بالنور تنمو النباتات، و تمارس الحيوانات شؤون حياتها و حقّا قال البارى: وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً، بما لا يدع مجالا للتفصيل و الشرح.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۳۳۳

خاتمـة المقال: إنّ تعاقب الليل و النهار و ما فيهما من نظام دقيق آيـة بيّنة من آيات خلقه سبحانه و تعالى، إضافة إلى أنّه تقويم طبيعى لتفصيل الزمن فى حياة الإنسانية على مرّ التاريخ.

و تأتى الآية التالية لتنقلنا من عالم الأرض إلى عالم السماء حين تقول:

وَ بَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً.

قد يراد من العدد المذكور بالآية «الكثرة»، للإشارة إلى كثرة الأجرام السماوية و المنظومات الشمسية و المجرات و العوالم الواسعة لهذا الوجود، و التى تتمتع بخلق محكم و بناء رصين لا خلل فيه .. و يمكن أن يراد منه العدد، للإشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۴

إلى أنّ الكواكب و ما يبدو لنا منها إنّما تعود إلى السماء الأولى، كما أشارت الآية (۶) من سورة الصافات إلى ذلك: إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ و ثمّة سماوات ستة و عوالم أخرى وراء السماء الأولى «الدنيا» خارجة عن حدود معرفتنا.

و ثمّة احتمال آخر، و هو أنّ المراد منها طبقات الهواء المحيطة بالأرض فإنّها مع رقتها تتمتع باستحكام و قوة عجيبة بحيث تحمى الأرض من آثار الشهب الملتهبة و المتساقطة عليها باستمرار، فبمجرّد دخول الشهب فى الغلاف الجوى الرقيق نتيجة لجاذبية الأرض لها، تحترق تلك الشهب لاحتكاكها السريع بالغلاف الجوى حتى تتلاشى، و لولا تلك الطبقات الجوية المحيطة بالكرة الأرضية لكانت المدن و القرى عرضة للإصابة بتلك الصخور و الأحجار السماوية المتساقطة عليها على الدوام.

و قد توصل بعض العلماء إلى أنّ سمك الغلاف الجوى يقرب من مائة كيلومتر، و له من الأثر ما يعادل سقف فولاذى بسمك عشرة أمتار! و بذلك نحصل على تفسير آخر لما جاء فى الآية .. ... سَبْعاً شِداداً[۳۶۶].

و بعد أن أشار القرآن إجمالا إلى السماوات، يشير إلى نعمة الشمس، فيقول:

وَ جَعَلْنا سِراجاً وَهَّاجاً[۳۶۷].

«الوهّاج»: من الوهج، بمعنى النور و الحرارة التى تصدر من النار[۳۶۸].

و إطلاق هذه الصفة على الشمس، للإشارة إلى نعمتين كبيرتين و هما: (النور) و (الحرارة) و يتفرع عنهما نعم و عطايا كثيرة يزخر بها عالمنا.

و لا تتحدد فوائد نور الشمس بإضاءة الدنيا للإنسان، بل لها أثر كبير فى نمو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۵

سائر الكائنات الحيّة.

و إضافة لكل ما تقدم، فلحرارة الشمس أثر أساس فى: تكوّن الغيوم، حركة الهواء، نزول الأمطار، و سقى الأراضى اليابسة.

و لأشعة الشمس كذلك الأثر البالغ فى مكافحة الجراثيم، لاحتوائها على الأشعة ما وراء الحمراء التى تقتل الجراثيم، و لولاها لتحولت الأرض إلى مستشفى عظيمة، و لانتهت الحياة البشرية على ظهرها خلال مدّة محدودة جدّا.

و أشعة الشمس فى واقعها: نور صحى مجانى دائمى، يصلنا بكيفية لا هى بالشديدة المحرقة، و لا هى بالقليلة العديمة التأثير.

و نسبة ما يصلنا من الطاقة الشمسية قياسا مع بقية المصادر كثير جدّا، و على سبيل الفرض: فلو أردنا إنماء شجرة تفاح بواسطة نور صناعى، فستكلفنا التفاحة الواحدة مبلغا رهيبا. نعم .. فنعمة هذا السراج الوهّاج لا يمكننا تعويضها بمال كل الأغنياء[۳۶۹].

و قد قدّر حجم الشمس بما يقارب المليون و ثلاثمائة ألف مرّة نسبة إلى حجم الكرة الأرضية، و الفاصلة بين الشمس و الأرض تقدر بحدود مائة و خمسين مليون كيلومتر .. و أنّ حرارة الشمس الخارجية تصل إلى ستة آلاف درجة مئوية .. و تصل حرارتها الداخلية ما يقارب مليون درجة مئوية! و هذا النظام الموزون بحكمة بالغة، لمن الدقة بحال أنّه لو اختل قليلا (زيادة أو نقصان) لما أمكن للبشر أن يعيشوا على سطح الكرة الأرضية، و لا يسعنا المجال لنتطرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۶

لمزيد من التفصيل و البيان حول هذا الموضوع.

و بعد ذكر نعمة النور و الحرارة يتناول القرآن نعمة حياتية أخرى لها ارتباط بأشعة الشمس، و يقول: وَ أَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجاً.

«المعصرات»: جمع «معصر»، من العصر بمعنى الضغط .. و الكلمة تشير إلى أنّ الغيوم تقوم بعملية و كأنّها تعصر نفسها عصرا لكى ينهمر منها الماء على شكل أمطار[۳۷۰] (ينبغى ملاحظة أنّ «المعصرات» جاءت بصيغة اسم فاعل).

و فسّرها بعضهم بالغيوم المستعدة لإنزال الأمطار، باعتبار أنّ اسم الفاعل يأتى فى بعض الأحيان بمعنى الاستعداد للقيام بعمل ما.

و قال بعض آخر: إنّ «المعصرات» ليست صفة للغيوم، و إنّما للرياح التى تقوم بضغط و عصر الغيوم.

«الثجاج»: من الثج، بمعنى سيلان الماء بكمية كبيرة، و «ثجاج» صيغة مبالغة، و يراد بها هنا غزارة الأمطار المنهمرة نتيجة العصر الحاصل للغيوم.

و بالإضافة لكون المطر منبعا لكثير من مصادر الخير و البركة، فهو: ملطف للجو، مزيل للتلوثات الموجودة فى الجو، مخفض للحرارة و معدل للبرودة، مقلل لأسباب الأمراض، يمنح الإنسان روحا متجددة و نشاطا، و مع كل ذلك ..

فقد ذكر القرآن ثلاث فوائد أخرى له: لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَ نَباتاً.

وَ جَنَّاتٍ أَلْفافاً.

يقول الراغب فى مفرداته: «ألفافا»: أى التفّ بعضها ببعض لكثرة الشجر[۳۷۱].

و الآيتان تشيران إلى ما يستفيد منه الإنسان و الحيوان من المواد الغذائية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۷

تخرج من الأرض، فالحبوب الغذائية تشكل قسما مهمّا من المواد الغذائية «حبّا»، و الخضر تشكل القسم الآخر «و نباتا»، و تأتى الفاكهة لتشكل القسم الثالث «و جنّات».

و لا تنحصر فوائد المطر بهذه الفوائد الثلاث المذكورة فى هاتين الآيتين، فللماء دور أساسى و حيوى فى عملية حياة الكائنات الحيّة، و على الأخص الإنسان، حيث أنّ الماء يشكل ما يقارب السبعين فى المائة من بدنه، بل و يتعدى ذلك ليشمل كل كائن حىّ، كما يشير القرآن الكريم لهذه الحقيقة: وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ ۳۷۲].

و تتجاوز فوائد الماء حدود الكائن الحىّ لتشمل: المصانع، جمال الطبيعة، و أفضل الطرق التجارية و الاقتصادية هى الطرق المائية.

***

ملاحظة:

علاقة الآيات ب «المعاد»:

أشارت الآيات المبحوثة إلى أهم العطايا الرّبانية و النعم الإلهية و التى لها الدور المهم و الأساس فى الحياة البشرية: النور، الظلمة، الحرارة، الماء، التراب و النباتات.

و ذكر نظام الكون على ما فيه من دقة موزونة و محسوبة لدليل على قدرة اللّه عزّ و جلّ المطلقة من جهة، و به يسد كل ثغرات التساؤل عن قدرة اللّه على إحياء الموتى، و كما أجابت آخر سورة «يس» منكرى المعاد بالقول: أ وَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۳۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۸

و من جهة أخرى أنّه لا بدّ أن يكون لهذا الخلق العظيم من هدف، و لا يعقل أن يكون الهدف منه هو هذه الأيام المعدودة لحياتنا الدنيا، إذ ليس من الحكمة أن يكون كل هذا الخلق و بما يحمل من أنظمة و عمليات من أجل الأكل و الشرب و النوم و أمثال ذلك!

بـل لاـ بـدّ من وجوب هـدف أسـمى يتناسب و حكمـة البارى جلّ شأنه، و بعبارة أخرى .. ما النشأة الأولى إلّا تـذكيرا للنشأة الآخرة: و مرحلة متقدمة، و محطة تزود بالوقود وصولا لغاية السفر المحتوم، و كما ينبهنا القرآن الكريم: أ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ![۳۷۴].

و بعـد ذلك .. فما النوم و اليقظـة إلّا مثلا للموت و الحياة الجديـدة، و ما إحياء الأرض الميتة بنزول المطر- الشاخصة أمام أعين الناس على طول السـنة- إلّا توضـيحا لحالـة المعاد، و إشارات مليئـة بالمعانى ترمز إلى مسألـة القيامة و الحياة بعد الموت، كما جاء فى سورة فاطر: وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ[۳۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۳۹

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۱۷ الى ۲۰]

اشارة

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً (۱۷) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً (۱۸) وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً (۱۹) وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً (۲۰)

التّفسير

سيأتى اليوم الموعود:

الآية الاولى من الآيات أعلاه بمثابة نتيجة لما تعرضت له الآيات السابقة ...

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً[۳۷۶] و التعبير ب «يوم الفصل» يحمل بين ثناياه إشارات كثيرة، فسيحدث فى ذلك اليوم:

فصل الحقّ عن الباطل.

فصل المؤمنين الصالحين عن المجرمين.

فصل الوالدين عن أولادهم، و الأخ عن أخيه ...

و «الميقـات»: من الوقت، الميعـاد من الوعـد، بمعنى الوقت المعين و المقرر، و إنّمـا سـمّيت الأمـاكن التى يحرم منهـا حجـاج بيت اللّه الحرام ب «المواقيت» لأنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۰

الاجتماع فيها يكون فى وقت معين.

و يتناول القرآن الكريم بعض خصائص ذلك اليوم العظيم، فيقول: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً.

و يستفاد من آيات القرآن أنّ ثمّة نفختان عظيمتان ستحدثان باسم (نفخ الصور) .. ففى النفخة الاولى سينهار كلّ عالم الوجود، و يخرّ ميتا كلّ من فى السـموات و الأرض، و فى النفخـة الثّانيـة يتجـدّد عالم الوجود و تعود الحياة إلى الأموات مرّة اخرى، ليقول بعدها يوم القيامة.

«الصور»: بوق يسـتعمل لإعطاء إشارة التوقف أو الحركة للقوافل أو الكتائب العسكرية و ما شابهها من الاستعمالات، و تختلف الإشارة بين المجاميع التى تستعمل البوق، كلّ حسب ما تعارف عليه.

و استعمل القرآن «الصور» ككناية لطيفة للتعبير عن المحدثين العظيمين المذكورين أعلاه، و أمّا ما ورد فى الآية فيختص بنفخة الصور

الثّانية، أى: نفخة القيام و إعادة الحياة[۳۷۷].

و مع أنّ الآية أعلاه تقول: فَتَأْتُونَ أَفْواجاً، و لكنّ الآية (۹۵) من سورة مريم تقول: وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً، و الآية (۷۱) من سورة الإسراء تقول: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ فكيف يمكن تخريج ذلك؟

يمكن جمع الآيات الثلاثة بلحاظ أنّ حشر الناس أفواجا لا بعرض أنّ يتقدمهم إمام، و أمّا الحشر فرادى فبلحاظ ما ليوم القيامة من مواقف متعددة، حيث يمكن أن يكون ورود الناس فى المواقف الاولى على شكل أفواج مع أئمّتهم (سواء كانوا أئمّة هدى أم أئمّة ضلال)، و حينما يستقر بهم المآل سيقفون فى ساحة العدل الإلهى على شكل فرادى، كما تنقل لنا الآية (۲۱) من سورة (ق)

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۱

عن ذلك المشهد العظيم: وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ.

و ثمّة احتمال آخر فى معنى «فردا»: هو انفصال الإنسان فى ذلك اليوم عن أحبائه و متعلقيه، و لا يكون معه يومئذ إلّا ما كسبت يداه.

و تأتى الآية الاخرى لتقول: وَ فُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً.

فما الأبواب؟ و كيف تفتح؟

يقول البعض: إنّ المقصود بهذه الأبواب هى أبواب عالم الغيب تفتح على عالم الشهود، و تزول الحجب و يتصل عالم الملائكة بعالم الإنسان ۳۷۸].

و يرى البعض الآخر أنّها تشير إلى ما ورد فى آيات قرآنية اخرى، من قبيل:

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ۳۷۹]، و إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ۳۸۰].

فما سيحصل من أثر ذلك الإنشقاق و الإنفطار و كأنّ النجوم و الكرات السماوية أبواب تفتحت على مصراعيها.

و ثمّة من يذهب إلى أنّها إشارة إلى عدم استطاعة الإنسان فى هذه الدنيا من اختراق السماوات و السير فيها، و إن استطاع فبشكل محدود جدّا و بصعوبة بالغة، و كأن أبواب السماء موصدة أمامه، و لكنّ حال يوم القيامة سيتغير تماما، حيث ترى الإنسان يغوص فى أعماق السماء بعد تحرره من ممسكات الأرض، و كان أبواب السماء قد تفتحت له.

و بعبارة أخرى: إنّ السماوات و الأرض ستتلاشى فى ذلك اليوم ثمّ تتبدلان إلى سماء و أرض أخريين كما تشير الآية (۴۸) من سورة إبراهيم لذلك: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ و عندها. ستفتح أبواب السماء أمام أهل الأرض، و يفتح الطريق للإنسان ليسلك الصالحون سبيل الجنّة فتفتح أبوابها لهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۲

حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها وَ قالَ لَهُمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكُمْ ۳۸۱].

و حين يدخلون الجنّة يراد عليهم الملائكة للتهنئة: وَ الْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ ۳۸۲].

و تتفتح أبواب جهنم للكافرين كذلك: وَ سِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها[۳۸۳].

و بذلك يرد الإنسان حينها إلى عرصة واسعة كوسع السماوات و الأرض:

وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ ۳۸۴].

و تأتى الآية الأخيرة لتخبرنا عن حال الجبال فى ذلك اليوم الحق: وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً.

بملاحظة ما جاء فى القرآن الكريم بخصوص مصير الجبال ليوم القيامة تظهر لنا أنّ الجبال ستطويها مراحل متعاقبة، تبدأ حركتها من: وَ تَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً[۳۸۵].

ثمّ تحمل و تدك: وَ حُمِلَتِ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ فَدُكَّتا دَكَّةً واحِدَةً[۳۸۶].

فتكون تلالا من الرمال المتراكمة: وَ كانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلًا[۳۸۷].

فتصبح كأصواف منفوشة: وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۳۸۸].

فتتحول غبارا متناثرا فى الفضاء:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۳

وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا[۳۸۹].

و لا يبقى منها أخيرا إلّا الأثر، كما أشارت لذلك الآية المبحوثة، و كأنّها يلوح فى الأفق، و يصبح سطح الأرض مستويا بعد أن تمحى الجبال من فوقها:

وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً[۳۹۰].

«السراب»: من (السرب) .. هو الذهاب فى طريق منحدر، فعند ما يسير الإنسان بين المنحدرات فى الصحراء، يتراءى له من بعيد تلألؤا يظنّه ماء، و ما هو إلّا انكسار فى الأشعة يسمى (السراب)، ثمّ أطلقت كلمة السراب على كلّ ظاهر خال من المحتوى.

و بهذا تكون الآية قد أشارت إلى بداية حركة الجبال و نهاية أمرها، فيما تعرضت بقية الآيات (التى ذكرناها) إلى المراحل المختلفة بين البداية و النهاية.

فإذا كانت عاقبة الجبال على ما لها من شموخ و صلابة ستنتهى إلى غبار متناثر فى الفضاء و على صورة سراب، فما حال ذلك الإنسان الذى يتصور أنّه جبار شديد البطش عريك القوى، و لكنّه لا يستطيع أن يتحدى الجبل صلابة! ...

إنّه يوم القيامة ...

و لكن .. هل أن هذه الحوادث تتعلق بالنفخة الاولى للصور التى تحكى عن نهاية العالم، أم هى متعلقة بالنفخة الثّانية و التى تقوم القيامة بها؟! بلا شك أنّ الآية: يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً تشير إلى نفخة الصور الثّانية، لأنّها تحكى عن إحياء الأموات و محبتهم فى عرصة المحشر أفواجا، و كذا الحال بالنسبة للحوادث المذكورة فإنّها متعلقة بنفخة الصور الثّانية، إلّا أنّه من الممكن حمل بداية حركة الجبال على النفخة الاولى، و نهاية (السراب) ستكون بعد النفخة الثّانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۴

و يحتمل أيضا: إنّ كلّ ما تمرّ به الجبال من مراحل تتعلق بالنفخة الاولى للصور، و قد ذكرتا معا لقرب الفاصلة الزمنية ما بين النفختين، و جريا مع سياق بعض الآيات القرآنية التى تناولت حوادث النفختين معا، كما جاء ذلك فى سورتى التكوير و الإنفطار.

و من جميل التصوير القرآنى وصفه للجبال ب «الأوتاد» و الأرض ب «المهاد»، و تأتى الآيات لتخبر عن فناء الأرض التى هى مهد الإنسان بعد ما تقتلع الجبال حينما ينفخ فى الصور، و يتناسب هذا التصوير تماما مع معارفنا، حيث أننا لو أخرجنا أوتاد أى شىء فمعنى ذلك حكمنا على ذلك الشىء بالانهيار.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۵

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۲۱ الى ۳۰]

اشارة

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً (۲۱) لِلطَّاغِينَ مَآباً (۲۲) لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً (۲۳) لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً (۲۴) إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً (۲۵) جَزاءً وِفاقاً (۲۶) إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً (۲۷) وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً (۲۸) وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً (۲۹) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً (۳۰)

التّفسير

جهنّم .. المرصاد الرهيب:

بعـد أن بيّن القرآن الكريم فى الآيات السابقـة بعض أدلـة المعاد و تناول قسـما من حوادث يوم القيامة، يذكر فى هذه الآيات ما يؤول إليه حال المجرمين، فيقول:

إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً.

و هى: لِلطَّاغِينَ مَآباً[۳۹۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۶

و أنّهم: لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً.

«المرصاد»: اسم مكان يختفى فيه للمراقبة، و يقول الراغب فى مفرداته:

«المرصد» موضع الرصد، و المرصاد نحوه، لكن يقال للمكان الذى أختص بالترصد.

و قيل: إنّه صيغة مبالغة، و يطلق على الذى يكمن كثرا للرصد، مثل «المعمار» الذى يكثر من البناء و العمران.

و المعنى الأوّل أشهر و أنسب، و لكن .. من سيقوم بعملية الرصد فى جهنّم؟

قيل: هم و ملائكة العذاب بدلالة الآية (۷۱) من سورة مريم التى تحكى عن مرور جميع الناس صالحهم و طالحهم من جانب جهنّم أو من فوقها: وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا و خلال ذلك المشـهد تقوم ملائكـة العذاب برصد أهل النّار و التقاتهم من بين الخلق! و أمّا لو قلنا فى تفسير الآية بأنّها (صـيغة المبالغة) فسـيكون جهنّم هى المرصاد للطاغين، و تقوم بعملية جذب أهل النّار إليهـا حـال مرور الخلق و اقترابهم منهـا. و على أيـة حال، فلا يسـتطيع أىّ من الطاغين من تخطى ذلك المعبر المحتوم، فإمّا أن تخطفه ملائكة العذاب أو تجذبه جهنّم.

«المآب»: هو محل الرجوع، و يأتى أحيانا بمعنى المنزل و المقر، و هو المقصود فى هذه الآية.

و «الأحقـاب»: جمع (حقب) على وزن (قفـل)، بمعنى برهـة زمانيـة غير معينـة، و قـد قـدرها بعض بثمـانين عاما، و قيل سـبعين، و قيل: أربعين عاما.

و على أىّ من التقادير، فثمّـة مـدّة معينة للبقاء فى جهنّم، و هو ما يتعارض مع ما جاء فى آيات أخر و التى تصـرح بخلود أهل النّار فى جهنّم، و لذلك سعى المفسّرون لإيجاد ما يوضح هذا الموضوع.

المعروف بين المفسّرين: إنّ المقصود ب «الأحقاب» فى الآية هو تلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۷

الفترات الزمانية الطويلة التى تتعاقب فيما بينها، المتسلسلة بلا نهاية، فكلما تنتهى فترة تحل محلها اخرى، و هكذا.

و قـد جاء فى إحـدى الرّوايات ... إنّ الآيـة جاءت فى المذنبين من أهل الجنّة، الذين يقضون فترة فى جهنّم يتطهّرون فيها ثمّ يدخلون الجنّة، و ليست واردة فى الكافرين المخلدين فى النّار[۳۹۲].

و تشير الآيات- بعد ذلك- إلى جانب صغير من عذاب جهنّم الأليم، بالقول:

لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَ لا شَراباً.

إِلَّا حَمِيماً وَ غَسَّاقاً، إلّا ظلّ من الدخان الغليظ الخانق كما أشارت إلى ذلك الآية (۴۳) من سورة الواقعة: وَ ظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ

«الحميم»: هو الماء الحار جدّا، و «الغسّاق»: هو ما يقطر من جلود أهل النّار من الصديد و القيح، و فسّرها بعضهم بالسوائل ذات الروائح

الكريهة.

فى حين أنّ أهل الجنّة يسقيهم ربّهم جلّ شأنه بالأشربة الطاهرة، كما جاء فى الآية (۲۱) من سورة الدهر: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً، حتى الأوانى التى يشربون بها و على ما لها من الرونق فهى مختومة بالمسك، كما أشارت لذلك الآية (۲۶) من سورة المطففين: خِتامُهُ مِسْكٌ .. فانظر لعقبى الدارين! و لكن، لم هذا العذاب الأليم؟ فتأتى الآية التالية: إنّما هو: جَزاءً وِفاقاً[۳۹۳].

و لم لا يكون كذلك .. و قد أحرقوا فى دنياهم قلوب المظلومين، و تجاوزوا بتسلطهم و ظلمهم و شرّهم على رقاب الناس دون أن يعرفوا للرحمة معنى، فجزاهم يناسب ما اقترفوا من ذنوب عظام.

و كما قلنا مرارا، إنّ الآيات القرآنية حينما تشير إلى عقوبات يوم القيامة، إنّما تطرحها كجزاء لما اقترفت أيدى الناس بظلمهم، كما نقرأ فى الآية (۷) من سورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۸

التحريم: يا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (حين تجسمت أعمالكم و حضرت أمامكم).

و يذكر القرآن سبب الجزاء فيقول: إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً.

و بعبارة اخرى: إنّ عدم الإيمان بالحساب سبب للطغيان، فيكون الطغيان سببا لذلك الجزاء الأليم.

«لا يرجون»: من «الرجاء» و يأتى بمعنى «الأمل» و كذلك بمعنى «عدم الخوف»، و من الطبيعى أن يشعر الإنسان بالخوف فى حال الأمل و الانتظار، و إلّا لم يخف .. فبين الأمرين تلازم، و لهذا فالذين ليس لديهم أمل و رجاء لا يحسون بخوف أيضا.

«إنّ» فى «إنّهم»: للتأكيد. و «كانوا»: للماضى المستمر. و «حسابا»: نكرة جاءت بعد نفى لتعطى معنى العموم .. و كل هذا البيان جاء ليبيّن أنّهم ما كانوا ينتظرون حسابا مطلقا، و ما كانوا يشعرون لا خوف من ذلك! و بعبارة اخرى: إنّهم تناسوا حسابا يوم القيامة بالكلية: و لم يفرزوا له مكانا فى كلّ حياتهم! و لا جرم أنّ عاقبة أمرهم سيؤول إلى العذاب الأليم لما اقترفوه من جرائم عظمى و كبائر الذنوب.

و مباشرة يضيف القرآن القول: وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا كِذَّاباً[۳۹۴].

فقد أحكمت الأهواء النفسانية قبضتها عليهم حتى جعلتهم يكذبون بآيات اللّه تكذيبا شديدا، و أنكروها إنكارا قاطعا ليواصلوا أمانيهم الإجرامية باتباعهم المفرط لأهوائهم الغاربة.

و بما أنّ معنى «آياتنا» من الوسع بحيث يشمل كلّ آيات التوحيد و النبوّة و التكوين و التشريع و معجزات الأنبياء و الأحكام السنن، فعملية تكذيب كلّ هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۴۹

الأدلة الإلهية فى عالم التكوين و التشريع، إنّما تستحق أشدّ العقوبات المخبر عنها فى القرآن الكريم.

ينبه القرآن الطغاة على وجود الموازنة بين الجرم و العقاب فى العدل الإلهى، فيقول: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ كِتاباً[۳۹۵].

فلا تظنوا أنّ شيئا من أعمالكم سيبقى بلا حساب أو عقاب، و لا تساوركم الشكوك بعدم عدالة العقوبات المقررة لكم.

فما أكثر الآيات القرآنية التى تحكى عن حقيقة ضبط إحصاء كلّ ما يبدر من الإنسان، سواء كان من الأعمال الصغيرة أم الكبيرة، سرية أم علنية، بل و يخضع لذلك حتى عقائد و نيّات المرء.

و فى هذا المجال، يقول القرآن: وَ كُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَ كُلُّ صَغِيرٍ وَ كَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ[۳۹۶] .. و فى موضع آخر يقول: إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ ۳۹۷] ..

و فى مكان آخر يقول: وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ ۳۹۸].

و لذلك يصرخ المجرمون بالقول: يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها[۳۹۹]، حينما يستلمون كتابهم

الحاوى على كلّ ما فعلوه فى الحياة الدنيا.

و ممّا لا شك فيه، أنّ إدراك حقيقة الآيات الرّبانية بكامل القلب، سوف يدفع الإنسان لأنّ يكون دقيقا فى جميع أعماله، و سيكون اعتقاده الجازم بمثابة السدّ المنيع بينه و بين ارتكاب الذنوب، و من العوامل المهمّة و المؤثرة فى العملية التربوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۰

و يتغيّر لحن الخطاب فى الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة، فينتقل من التكلم عن الغائب إلى مخاطبة الحاضر: و يهدد القرآن بنبرات غاضبة أولئك المجرمين، و يقول: فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذاباً.

فصرخاتكم ب «يا وليتنا» و طلبكم العودة إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدتم، لن ينفعكم، و كل ما ستنالونه هو الزيادة فى العذاب و لا من مغيث.

و هذا هو جزاء أولئك الذين يواجهون دعوات الأنبياء الداعية إلى اللّه و الإيمان و التقوى، بقولهم: سَواءٌ عَلَيْنا أَ وَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْواعِظِينَ ۴۰۰].

و هذا هو جزاء الذين ينفرون من سماع و استماع ما تتلى عليهم من آيات اللّه، كما قال تعالى: وَ ما يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً[۴۰۱].

و أخيرا .. فالعذاب الأليم جزاء كلّ من لا يتورع عن اقتراف الذنوب، و لا يسعى صوب الأعمال الصالحة.

حتى

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «هذه الآية أشدّ ما فى القرآن على أهل النّار»[۴۰۲].

كيف لا.. و هى التى تحمل بين ثناياها الغضب الإلهى، و تسدّ كلّ أبواب الأمل للخلاص من جهنّم، و لا تعد أهل النّار إلّا زيادة فى العذاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۱

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۱ الى ۳۷]

اشارة

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (۳۱) حَدائِقَ وَ أَعْناباً (۳۲) وَ كَواعِبَ أَتْراباً (۳۳) وَ كَأْساً دِهاقاً (۳۴) لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ لا كِذَّاباً (۳۵) جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (۳۶) رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً (۳۷)

التّفسير

ممّا وعد اللّه المتقين:

كان الحديث فى الآيات السابقة منصبا حول خاتمة المجرمين و الطغاة و ما يلاقونه من أليم العذاب و موجباته، و ينتقل الحديث فى الآيات أعلاه لتفصيل بعض ما وعد اللّه المؤمنين و المتقين من النعم الخالدة و الثواب الجزيل، عسى أن يرعوى الإنسان و يتبع طريق الحق من خلال مقايسته لما يعيشه كلّ من الفريقين، على ضو تفكيره بمصيره الأبدى.

و كذا هو الحال فى الاسولب القرآنى، كما فى بقية السور الاخرى، فهو يضع متضادات الحالات و الأحوال فى طبق واحد، ليتمكن الإنسان بسهولة من اكتشاف خصائص و شؤون أيّا منها.

فيقول، مبتدء الحديث: إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۲

«المفاز»: اسم مکان، أو مصدر میمی من (الفوز) بمعنی الوصول إلی الخیر بسلام، و یأتی بمعنی النجاة أیضا و هو من لوازم المعنی الأوّل.

و قد جاءت «مفازا» بصیغة النکرة للإشارة إلی الفتح العظیم و الوصول إلی خیر و سعادة لا یعلم قدرهما إلّا اللّه عزّ و جلّ.

و من مفردات الفوز و السعادة: حَدائِقَ وَ أَعْناباً[۴۰۳].

«الحدائق»: جمع «حدیقة»، و هی قطعة أرض مزروعة بالورود و الأشجار و محاطة بسور لحفظها، و یقول الراغب فی مفرداته «الحدیقة» قطعة من الأرض ذات ماء، سمّیت تشبیها بحدقة العین فی الهیئة و حصول الماء فیها.

أمّا ذکر «العنب» دون بقیة الفواکه فلما له من مزایا تفضله علی بقیة الفواکه، و یقول علماء التغذیة فی هذا المجال: إضافة لکون العنب غذاء کاملا من حیث الخاصیة الغذائیة الموجودة فیه و التی تشبه حلیب الام فی کونه ثری بالمواد الغذائیة اللازمة للإنسان، إضافة لکل هذا، فهو یعطی للبدن ضعف ما یعطیه اللحم من سعرات حراریة، حتی وصف بصیدلیة متکاملة لما یحویه من مواد مفیدة.

و من خواص و فوائد العنب، أنّه: مقاوم للسموم، مفید لتصفیة الدم، یقی من الروماتیزم و النقرس، مضاد فعّال ضد زیادة السموم الحاصلة فی الدم، مقو للأعصاب و منشط و یعطی للإنسان القوّة و القدرة الکافیة لما فیه من کمیات مناسبة لأنواع (الفیتامینات).

و

قد روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی خصوص العنب أنّه قال: «خیر فواکهکم العنب».

و یتطرق القرآن إلی نعمة اخری ممّا وعد اللّه به المتقین فی الجنّة، فیقول:

وَ کَواعِبَ أَتْراباً.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۳

«الکواعب»: جمع «کاعب»، و هی البنت حدیثة الثدی، للإشارة إلی شباب زوجات المتقین فی الجنّة.

«الأتراب»: جمع «ترب»، و یطلق علی مجموعة الأفراد المتساویین فی العمر، و استعماله فی الإناث أکثر، قیل: إنّها من «الترائب» و هی: أضلاع الصدر، و ذلک لما بینهما من شبه من حیث التساوی و التماثل.

و یحتمل أن یکون المراد من «أتراب» التساوی بین نساء أهل الجنّة فی العمر، فیکون شابات متساویات فی القد و القامة و الجمال، أو تساوی العمر بینهن و بین أزواجهن من المؤمنین، لأنّ للتساوی فی العمر له أثره النفسی علی إدراک مشاعر الطرف الآخر. إلّا أن المعنی الأوّل أکثر تناسبا.

و تأتی النعمة الرابعة: وَ کَأْساً دِهاقاً.

شراب لیس کأی شراب، فلا یهب بالعقول و لا یحدر الإنسان إلی درکات الحیوانیة، بل هو مذک للعقل، منشط للروح و منعش للقلب.

«الکأس»: هو القدح المملوء بالشراب، و قد یطلق علی القدح دون الشراب أو علی شراب القدح.

«دهاقا»: بمعنی الامتلاء، عند أکثر المفسّرین و أهل اللغة، لکنّ (ابن منظور) قد ذکر معنیین آخرین هما: التتابع علی شاربیها، صافیة.

و علیه .. فیمکن حمل معنی الآیة، علی ضوء ما ذکر من معان، علی أنّ لأهل الجنّة أقداح مملوءة بشراب زلال طاهر.

و دفعا لما یتبادر إلی الأذهان من تبعات شراب الدنیا الشیطانی، یقول القرآن: لا یَسْمَعُونَ فِیها لَغْواً وَ لا کِذّاباً.

إنّ شراب الدنیا .. یذهب العقل، یفقد الإحساس، یوقع شاربه بالهذیان و اللغو .. و أمّا شراب الآخرة فنفحاته الطاهرة تضفی علی العقل و الروح نورا و صفاء.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۴

و ثمّة احتمالات بخصوص ضمير «فيها».

الأوّل: إنّه يعود إلى الجنّة.

الثّانى: إنّه يعود إلى الكأس.

فعلى الاحتمال الأوّل، يكون معنى الآية إنّ أهل الجنّة لا يسمعون فيها لغوا، كما جاء فى الآيتين (۱۰ و ۱۱) من سورة الغاشية: فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً.

و على الاحتمال الثّانى، يكون معنى الآية: إنّه سوف لا يصدر اللغو و الهذيان و الكذب من أهل الجنّة بعد شرابهم ما فى كأس الجنّة من شراب، كما جاء فى الآية (۲۳) من سورة الطور: يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ

و على أيّة حال، فالجنّة خالية من: الأكاذيب، الهذيان، التهم، الافتراءات، تبرير الباطل، بل و كلّ ما كان يؤذى قلوب المتقين فى الحياة الدنيا .. إنّها الجنّة! و خير تصوير لها ما جاء فى الآية (۶۲) من سورة مريم: لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً.

و فى آخر المطاف يذكر القرآن الكريم تلك النعمة المعنوية التى تفوق كلّ النعم علوّا: جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً.[۴۰۴] و أيّة بشارة و نعمة أسمى و أجل، من أن أكون و أنا العبد الضعيف، موضع ألطاف و إكرام اللّه جلّ و علا، فيطعمنى و يكسونى و يغرف علىّ بنعمه التى لا تحصى عددا و لا تضاهى حبّا و كرما، و فطوبى للمؤمنين فى دار الخلد و هم منعمون بكل ما لذّ و طاب.

و التعبير بكلمة «ربّ» مع ضمير المخاطب، و كلمة «عطاء»، لتبيان ما أودع من لطف خاص فى النعم التى وعد بها أهل التقوى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۵

«حسابا»: يعتقد الكثير من المفسّرين إن معناها هنا (كافيا): من أحسبه الشىء إذا كفاه حتى قال حسبى ۴۰۵].

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم ثمّ أعطاهم بكل واحدة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال اللّه عزّ و جلّ: جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً»[۴۰۶].

و نستفيد من الرواية المذكورة أنّ نعم اللّه فى الآخرة و إن كانت بصفة الفضل.

و اللطف و الزيادة، إلّا أن مقدمتها الأعمال الصالحة التى يقوم بها الإنسان فى حياته الدنيا، و عليه .. فيمكن تفسير «حسابا» فى الآية بمعنى (الحساب)، و لا مانع من إرادة كلا المعنيين- فتأمل.

و فى آخر آية من الآيات المبحوثة، يضيف: رَبِّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا الرَّحْمنِ

نعم: إنّه مالك العالم، و مدبّر ما فيه، و موجه كلّ حركاته و سكناته، إنّه الرحمن الذى شملت رحمته كلّ شىء، و هو واهب الصالحين ما وعدهم به القرآن الكريم.

و بما أنّ صفة «الرحمن» تشمل رحمة اللّه العامّة لكلّ خلقه، فيمكن حمل إشارة الآية إلى أنّ اللّه تبارك و تعالى يشمل برحمته أهل السماوات و الأرض فى الحياة الدنيا، إضافة لما وعد به المؤمنين من عطاء دائم فى الجنّة.

و ذيل الآية، يقول: لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطاباً.

و يمكن شمول «لا يملكون» جميع أهل السماوات و الأرض، أو جميع المتقين و العاصين الذين يجمعون فى عرصة المحشر للحساب و الجزاء.

و على أىّ القولين .. فالآية تشير إلى عدم القدرة على الاعتراض أو الردّ من قبل كلّ المخلوقات أمام محكمة العدل الإلهى، لأنّ حسابه جلّ اسمه من الدقّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۶

و العدل و اللطف ما لا يفسح المجال أمام أى اعتراض.

بل و لا يسمح فى ذلك اليوم بالتشفع لأىّ كان إلّا بإذن خاص منه جلّت عظمته، و هو ما تشير إليه الآية (۲۵۵) من سورة البقرة: مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ

***

بحثان

۱- ثواب المتقين و عقاب العاصين

يلاحظ ثمّة مقايسة بين الآيات المبحوثة و ما سبقها من آيات .. فقد تحدثت الآيات السابقة عن نوعين من الجزاء لكلّ من المجرمين و المؤمنين، فالآيات محل البحث تحدثت عن بعض ما للمؤمنين من ثواب و نعيم، و فيما تقدمها من آيات تحدثت عن بعض ما للمجرمين من عقوبات.

فهنا تحدثت عن «المفاز» و هناك عن «المرصاد» ...

و هنا تحدثت عن «حدائق و أعنابا» و هناك عن التخبط بالعذاب إلى مدّة لا متناهية «أحقابا» ...

و هنا كان الحديث عن «الشراب الطهور» و هناك عن الماء الحارق «حميما و غساقا» ...

و هنا تحدثت الآيات عن عطايا و مواهب «الرحمان»، و هناك عن الجزاء العادل «جزاء وفاقا» ...

و هنا الحديث عن زيارة «النعمة» و هناك زيادة «العذاب» ...

و الخلاصة: إنّ هذين الفريقين يقعان فى قطبين متنافرين من كلّ الجهات نتيجة لما كانا يعيشانه فى الحياة الدنيا من تنافر و تباعد من حيث الإيمان و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۷

۲- أشربة الجنّة!

أوردت الآيات الشريفة أوصافا متنوعة لأشربة الجنّة، و يظهر أنّ لشاربيها من اللذّة الروحية المعنوية ما لا يمكن وصفه أو خطّه بقلم.

فالآية (۲۱) من سورة الدهر، تصفه بالطهور: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً.

و الآيات (۴۵- ۴۷) من سورة الصافات، تصفه بالزلال و اللذّة و الصفاء، و أنّه لا يؤدى لأذى و لا يذهب بالعقول: يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لا فِيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ

و الآية (۵) من سورة الدهر، تصفه بأنّه مخلوط بمادة باردة ملطفة (الكافور):

يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً.

و الآية (۱۷) من سورة الدهر، تقول عنه بأنّه مخلوط بالزنجبيل: وَ يُسْقَوْنَ فِيها كَأْساً كانَ مِزاجُها زَنْجَبِيلًا.

و جاء فى الآيات المبحوثة: وَ كَأْساً دِهاقاً أى: زلالا صافيا.

و فوق كلّ هذا و ذاك، فمن هو الساقى ... إنّه اللّه تعالى!! يسقيهم بيد قدرته و على بساط رحمته، تقول الآية (۲۱) من سورة الدهر: وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ ...

اللّهمّ! اشملنا بعفوك، و اسقنا من فيض شربك يا أرحم الراحمين ...

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۸

الآيات [سورة النبإ (۷۸): الآيات ۳۸ الى ۴۰]

اشارة

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً (۳۸) ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً (۳۹) إِنَّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَ يَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً (۴۰)

التّفسير

الندم الشديد:

رأينا فى الآيات السابقة أنّها تحدثت عن بعض عقوبات الظالمين و الطواغيت، و بعض المواهب و النعم و المتعلقة بالصالحين فى يوم القيامة، و تتناول الآيات أعلاه بعض الصفات و حوادث يوم القيامة، و تشرع بالقول ب يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَ قالَ صَواباً[۴۰۷].

و بلا شك فإنّ قيام الروح و الملائكة صفّا يوم القيامة، و عدم تكلمهم إلّا بإذنه سبحانه، إنّما هو مثالا للأوامر الإلهية و طاعة، كما هو حالهم قبل قيام القيامة، فهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۵۹

بأمره يعملون و لكنّ فى يوم القيامة سيتجلّى امتثالهم للّه أكثر و بشكل أوضح.

أمّا عن المقصود بكلمة «الروح» فقد بسط المفسّرون فى كتبهم تفاسير كثيرة، حتى وصل معناها فى بعض التفسير إلى ثمانية احتمالات ۴۰۸] .. و إليك أهم ما قيل فيه:

۱- هو مخلوق من غير الملائكة و أعظم منها.

۲- هو أمين الوحى الإلهية جبرائيل أشرف الملائكة.

۳- هو أرواح أناس يقومون مع الملائكة.

۴- هو ملك عظيم الشأن، و أشرف من جميع الملائكة قاطبة (حتى جبرائيل): و هو الذى يصاحب الأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام على الدوام.

و قد جاءت كلمة «الروح» فى القرآن الكريم بصور شتى .. فتارة تأتى مجرّدة عن أيّة قرينة، و غالبا ما تأتى فى قبال الملائكة، كقوله تعالى: فى الآية (۴) من سورة المعارج: تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ و فى الآية (۴) من سورة القدر: تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ.

و نلاحظ أنّ ذكر كلمة «الروح» فى الآيتين أعلاه قد جاء بعد ذكر «الملائكة»، فى حين جاء ذكرها فى الآيات المبحوثة قبل «الملائكة» ... و يمكن حمل هذا التغاير على باب ذكر العام بعد الخاص، أو ذكر الخاص قبل العام.

و ذكرت كذلك كلمة «الروح» مع الإضافة، أو صيغة الوصف المقارن ك «روح القدس» كما جاء فى الآية (۱۰۲) من سورة النحل: قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ و ك «الروح الأمين» كما جاء فى الآية (۱۹۳) من سورة الشعراء نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

و قد أضاف سبحانه و تعالى صفة «الروح» إلى ذاته المقدسة، كما فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۰

(۲۹) من سورة الحجر: وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي و الآية (۱۷) من سورة مريم:

فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا.

و كما هو ظاهر أنّ لكلمة «الروح» فى القرآن معان متفاوتة، و قد تطرقنا لمعانيها حسب ورودها فى الآيات.

و أقرب ما يمكن التعويل عليه من معانى «الروح» فى الآية المبحوثة هو كونه أحد ملائكة اللّه العظام، و الذى يبدو من بعض الآيات أنّه أعظم من جبرائيل و بدلالة ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام قوله: «هو ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل»[۴۰۹].

و جاء فى تفسير على بن إبراهيم: «الروح ملك أعظم من جبرائيل و ميكائيل و كان مع رسول اللّه و هو مع الأئمّة»[۴۱۰].

و جاء فى تفاسير أهل السنة،

إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «الروح جند من جنود اللّه ليسوا بملائكة لهم رؤوس و أيدى و أرجل، ثمّ قرأ: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَ الْمَلائِكَةُ صَفًّا، قال: هؤلاء جند و هؤلاء جند»[۴۱۱].

(و قد بحثنا موضوع روح الإنسان و تجرّدها و استقلالها بشكل مفصل فى ذيل الآية (۸۵) من سورة الإسراء- فراجع).

و على أيّة حال، فسواء كان «الروح» من الملائكة أو من غيرهم، فإنّه سيقف يوم القيامة مع الملائكة صفّا بانتظار أوامر الخالق سبحانه، و سيكون هول المحشر بشكل بحيث لا يقوى أىّ من الخلق للتحدث معه، و الذين سيتكلمون أو يشفعون لا يقومون بذلك إلّا بعد إذنه جلّ شأنه، و ما واقع الكلام إلّا حمد اللّه و ثناؤه أو التشفع لمن هم أهلا للشفاعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۱

و

قد روى أنّه حينما سئل الإمام الصادق عليه السّلام عن هذه الآية، قال: «نحن و اللّه المأذون لهم يوم القيامة و القائلون».

فقال الراوى: و أىّ شىء تقولون؟

فقال عليه السّلام: «نمجد ربّنا، و نصلّى على نبيّنا، و نشفع لشيعتنا، فلا يردنا ربّنا»[۴۱۲].

و نستفيد من هذه الرواية: إنّ الأنبياء و الأئمّة عليهم السّلام سيقفون صفّا يوم القيامة مع الملائكة و الروح، و سيكونون من المأذون لهم فى الكلام و الشفاعة، و سيكون حديثهم منصبّا حول الذكر و الثناء و التسبيح للبارى عزّ و جلّ.

ثمّ إنّ وصف قولهم بكلمة «صوابا» للدلالة على أنّهم لا يشفعون إلّا لمن ملك مقدمات الشفاعة و التى لا تتعارض و الحساب ۴۱۳].

و يشير القرآن واصفا ذلك اليوم الذى يقوم فيه الناس و الملائكة أجمعون يوم الفصل، يوم عقاب العاصين و ثواب المتقين، يشير بقوله: ذلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ

«الحقّ»: هو الأمر الثابت واقعا، و الذى تحققه قطعى. و هذا المعنى ينطبق تماما على يوم القيامة، لأنّه سيعطى كلّ إنسان حقّه، إرجاع حقوق المظلومين من الظالمين، و تتكشف كلّ الحقائق التى كانت مخفية على الآخرين .. فانّه بحق: يوم الحقّ، و بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

و إذا ما التفت الإنسان إلى هذه الحقيقة (حقيقة يوم القيامة) فسيتحرك بدافع قوى نحو اللّه عزّ و جلّ للحصول على رضوانه سبحانه بامتثال أوامره تعالى ..

و لهذا يقول القرآن مباشرة: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً.

فجميع مستلزمات التوجه و الحركة نحو اللّه متوفرة بعد أن بيّن طريق الحقّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۲

و أشار إلی معالم سبل الشیطان، بلغ اللّه أوامره بواسطة الأنبیاء و الرسل و بالقدر الکافی، أودع فی الإنسان العقل (النّبی الباطن)، رغّب للمتقین بالمفاز، أنذر المجرمین عذابا ألیما، عیّن یوما لمحکمة العدل الإلهی بیّن أسلوب المحاکمة، و لم یبق للإنسان سوی اختیار ما یتخذه إلی ربّه مآبا، و بمحض إرادته.

و «المآب»: هو محل رجوع، و یأتی أیضا بمعنی «الطریق».

ثمّ یؤکّد القرآن علی مسألة عقاب المجرمین الذین یتوهمون أنّه یوم بعید أو نسیئة، یقول القرآن .. إنّ عقاب المجرمین لواقع، و یوم القیامة لقریب: إِنَّا أَنْذَرْناکُمْ عَذاباً قَرِیباً.

و ما عمر الدنیا بکامله إلّا ساعة من زمن الآخرة الخالد، و کما قیل: (کل ما هو آت قریب)، و تقول الآیات (۵- ۷) من سورة المعارج، فی هذا المجال:

فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِیلًا إِنَّهُمْ یَرَوْنَهُ بَعِیداً وَ نَراهُ قَرِیباً.

و

یقول أمیر المؤمنین علیه السّلام: «کل آت قریب دان»[۴۱۴].

و لم لا یکون قریبا ما دام الأساس فی العذاب الإلهی هو نفس أعمال الإنسان و التی هی معه علی الدوام: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ ۴۱۵].

و بعد أن وجّه الإنذار للناس، یشیر القرآن إلی حسرة الظالمین و المذنبین فی یوم القیامة، حین لا ینفع ندم و لا حسرة، إلّا من أتی اللّه بقلب سلیم: یَوْمَ یَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ یَداهُ وَ یَقُولُ الْکافِرُ یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً.

و ذهب بعض المفسّرین أنّ کلمة «ینظر» فی الآیة بمعنی «ینتظر»، و المراد:

انتظار الإنسان یوم القیامة لجزاء أعماله.

و فسّرها بعض آخر ب: النظر فی صحیفة الأعمال.

و قیل: النظر إلی ثواب و عقاب الأعمال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۳

و کل ما ذکر مبنی علی إهمال مسألة حضور و تجسّم الأعمال فی یوم القیامة، و معه ینتفی أیّ دور للتأویلات المذکورة.

و بنظرة إلی الآیات القرآنیة و الروایات و الأحادیث الشریفة یتبیّن لنا أنّ أعمال الإنسان تتجسم فی هذا الیوم بصورة معینة، و تظهر للإنسان فینظر إلیها علی حقیقتها فیسّر و یفرح عند رؤیته لأعماله الصالحة، و یتألم و یتحسر عن رؤیته لأعماله السیئة.

و أساسا فإنّ تجسّم الأعمال و مرافقتها للإنسان من أفضل المکافآت للمطیعین و أشدّ عقوبة للعاصین.

کما نجد فی الآیة (۴۹) من و سورة الکهف: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً، و کذا فی آخر سورة الزلزال: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ

فی جملة «ما قدمت یداه» تغلیب، لأنّ کل إنسان یؤدی أعماله غالبا بیدیه، و لکنه لا یعنی الحصر، بل یشمل جمیع ما ارتکبته الجوارح من لسان و عین و اذن، فی الحیاة الدنیا.

و ینبه القرآن الناس قبل تحقق ذلک الیوم: وَ لْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ[۴۱۶].

و علی أیّة حال، فحینما یری الکفّار أعمالهم مجسمة أمامهم سیهالهم الموقف و تصیبهم الحسرة و الندامة، حتی یقولون یا لیتنا لم نتجاوز منذ البدایة مرحلة التراب فی خلقنا، و عند ما خلقنا فی الدنیا، ثمّ متنا و تحولنا إلی التراب، فیا لیتنا بقینا علی تلک الحال و لم نبعث من جدید! فهم یعلمون بأنّ التراب بات خیرا منهم، لأنّه: تغرس به حبّة واحدة فیعطی سنابلا، و هو مصدر غنی للمواد الغذائیة و

المعدنیة و البرکات الاخری، مهد لحیاة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۴

الإنسان، و مع ما له من فوائد جمّة فهو لا یضرّ قط، بعکس ما کانوا علیه فی حیاتهم، فرغم عدم صدور أیّة فائدة منهم، فلیس فیهم إلّا الضرر و الأذی! نعم، فقد یصل الأمر بالإنسان، و علی الرغم من کونه أشرف المخلوقات، لأنّ یتمنی أن یکون و الجمادات بدرجة واحدة، لما بدر منه کفر و ذنوب! و تصور لنا الآیات القرآنیة أحوال الکافرین و المجرمین، و شدّة تأثرهم و تأسفهم و ندمهم علی ما فعلوا فی دنیاهم، یوم الفزع الأکبر، فتقول الآیة (۵۶) من سورة الزمر: یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ

و تقول الآیة (۱۲) من سورة السجدة: فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً.

أو ما یقوله کل فرد منهم- کما جاء فی الآیة المبحوثة- یا لَیْتَنِی کُنْتُ تُراباً.

***

بحث

النظرة الصائبة لمسألة «الجبر و الإختیار»

!! تعتبر مسألة (الجبر و الإختیار) من أقدم المسائل المبحوثة بین أوساط العلماء، یری فبعضهم حریة اختیار الإنسان، و منهم من یری بأنّ الإنسان مجبور فی أعماله، و کلّ منهما یمتلک جملة من الأدلة التی أوصلته لما یری.

و من اللطیف أنّ کلا الفریقین، یقبلون عملیا بأنّ الإنسان مختار فی أفعاله.

و بعبارة أخری: إنّ البحث و النقاش الدائر بین العلماء لا یتعدی دائرة البحث العلمی، أمّا علی الصعید العملی فالکل متفقون علی حریة الإختیار للإنسان.

و هذا یظهر لنا بوضوح بأنّه أصل حریة الإرادة و الإختیار من الأصول التی انطوت علیها الفطرة الإنسانیة، و لولا الوساوس المختلفة لا تفق الجمیع علی حقیقة حریة الإرادة فی الإنسان.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۵

إنّ الوجدان النوعی و الفطرة الإنسانیة عموما من أوضح أدلة الإختیار، و قد تجلت بصور متنوعة فی حیاة لإنسان.

و علیه .. فإذا کان الإنسان لا یقبل بالاختیار و یعتبر نفسه مجبورا فی أعماله فلما ذا إذن:

۱- یندم علی بعض الأعمال التی یقوم بها أو لم ینجزها، و یضع تجربته کعبرة لیعتبر به مستقبلا، فإذا لم یکون مختارا، فلما ذا الندم؟!

۲- یلام و یوبّخ کلّ من یسیء، فلما ذا یلام إن کان مجبورا فی فعله؟! ۳- یمدح و یحترم صاحب العمل الصالح.

۴- یسعی الناس جاهدین لتربیة و تعلیم أبنائهم لیضمنوا لهم مستقبلا زاهرا، و إذا کانت الأعمال جبریة، فلما ذا هذا التعلیم.

۵- یسعی العلماء قاطبة لرفع المستوی الأخلاقی فی المجتمع؟

۶- یتوب الإنسان علی ما فعل من ذنوب، أو هل للجبر من توبة؟! ۷- یتحسر الإنسان علی تقصیره فیما یطلب منه؟

۸- یحاکم المجرمون و المنحرفمون فی کل دول العالم، و یحقق معهم حسب قوانینهم؟

۹- تضع جمیع الأمم (المؤمنة أم الکافرة) العقوبات للمجرمین؟

۱۰- من یقول بالجبر یصرخ متغنیا فی وجه المحاکم لمعاقبة من اعتدی علیه؟

و الخلاصة: إن لم یکن للإنسان اختیار، فما معنی الندم؟ و لماذا یلام و یوبخ؟

أمن العقل أن يلام الإنسان على فعل فعله قهرا؟! ثمّ لماذا يمدح أهل الخير و الصلاح؟ فإن كان ما فعلوه خارج عن إرادتهم فلا معنى لتشجيعهم.

و القبول بوجود تأثير للتربية و التعليم على سلوك الإنسان يفقد (الجبر) معناه تماما، و كذا الحال بالنسبة للمسائل الأخلاقية، فلا مفهوم لها بدون الاعتراف أولا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۶

بحرية الإنسان ...

ثمّ إن كنّا قد جعلنا على أعمالنا جبرا، فهل يبق للتوبة من معنى؟! و لم الحسرة و الحال هذه؟! بل إنّ محاكمة الظالم ظلم واضح، و الأكثر ظلما معاقبته؟!! و كلّ ما ذكر يدلل على أنّ حرية الإرادة و عدم الجبر أصل تحكم به الفطرة الإنسانية، و هو ما ينسجم تماما و الوجدان البشرى العام، و الكل يعمل على ضوء هذا الأصل، و لا فرق فى ذلك بين عوام الناس أو خواص العلماء و الفلاسفة، و لا يستثنى من ذلك حتى الجبريين أنفسهم، و كما قيل فى هذا الجانب: (الجبريون اختياريون من حيث لا يعلمون).

و القرآن الكريم حافل بما يؤكّد هذه الحقيقة، و نظرا لكثرة الآيات التى تؤكّد على حرية إرادة الإنسان- مضافا الى الآية المبحوثة: فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ مَآباً- سنكتفى بذكر ثلاث آيات من القرآن الحكيم.

ففى الآية (۳) من سورة الدهر: إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً.

و فى الآية (۲۹) من سورة الكهف، يقول تعالى: فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ.

و جاء فى الآية (۲۹) من سورة الدهر أيضا: إِنَّ هذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبِيلًا.

الحديث حول (الجبر و التفويض) طويل جدّا، و قد كتبت فى ذلك كتب و مقالات عديدة، و ما ذكرناه لا يتعدى كونه إلقاء نظرة سريعة و مختصرة على ضوء (القرآن) و (الوجدان)، و نختم الحديث بذكر ملاحظة مهمّة و هى: إنّ الدوافع النفسية و الاجتماعية قد اختلطت مع الاستدلال الفلسفى عند الكثيرين ممن يقولون بالجبر.

فكثير ممن اعتقدوا بالجبر، أو (القضاء و القدر) بمعناه الجبرى إنّما توسلوا به للفرار من المسؤولية: أو أنّهم جعلوها غطاء لفشلهم الناتج عن تقصيرهم

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۷

و تساهلهم فى أداء وظائفهم، أو جعلوها مبررا لاتباع أهوائهم و نزواتهم الشيطانية.

استغل المستعمر- فى بعض الأحيان- هذه المقولة، و جدّ على نشر و تأكيد هذه العقيدة الباطلة لتحكيم سيطرته على الرقاب، بعد أن يوهم الناس بأنّهم مجبورون من قبل اللّه على أن يعيشوا تحت سطوة الحاكم الموجود قضاء و قدرا ليأمن المستعمر من المقاومة، يكسب رضاهم و تسليمهم له! فالاعتقاد بهذا الرأى ... يعنى تبرير كلّ ما يقوم به الطغاة و الجناة، و تبرير جميع ذنوب المذنبين، و بالنتيجة: لا يبقى فرق بعد بين الصالح و الطالح، و المطيع و العاصى!! ...

اللّهمّ! قنا من السقوط فى زلل العقائد المنحرفة ..

اللّهمّ! أنت المأمول و المرتجى يوم تكون جهنّم للطاغين مرصادا، و الجنّة للمتقين مفازا ...

اللّهمّ! يا واسع المغفرة، لا تخيبنا يوم نرى أعمالنا مجسمة أمامنا ..

آمين ربّ العالمين نهاية سورة النبأ***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۶۹

سورة النّازعات

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ستّ و أربعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۱

«سورة النّازعات»

محتوى السورة:

تبحث هذه السورة كسابقتها مسائل «المعاد»، و تتلخص مواضيعها عموما بستة أقسام:

۱- التأكيد مرارا على مسألة المعاد و تحققه الحتمى.

۲- الإشارة إلى أهوال يوم القيامة.

۳- عرض سريع لقصة موسى عليه السّلام مع الطاغى فرعون، تسلية للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين، و إنذارا للمشركين الطغاة، و إشارة إلى ما يترتب على إنكار المعاد من سقوط فى مستنقع الرذيلة.

۴- طرح بعض النماذج المظاهر قدرة البارى سبحانه فى السماء و الأرض، للاستدلال على إمكان المعاد و الحياة بعد الموت.

۵- تعود الآيات مرّة اخرى، لتعرض بعض حوادث اليوم الرهيب، و ما سيصيب الطغاة من عقاب و ما سينال الصالحون من ثواب.

۶- و فى النهاية، يأتى على خفاء تاريخ وقوع يوم القيامة، و التأكيد على حتمية وقوعه و قربه.

و سميت السورة ب (النازعات) لورود هذه الكلمة فى أوّل آية، و بها تبدأ السورة من بعد البسملة.

فضيلة السورة:

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة و النازعات لم يكن حبسه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۲

و حسابه يوم القيامة إلّا كقدر صلاة مكتوبة حتى يدخل الجنّة»[۴۱۷].

و

عن الإمام الصادق، أنّه قال: «من قرأها لم يمت إلّا ريّان، و لم يبعثه اللّه إلّا ريّان، و لم يدخله الجنّة إلّا ريّان»[۴۱۸].

و ليس غريبا أن ينال الإنسان بكل ما ذكر جزاء من عند اللّه، إذا ما أمعن فى محتوى السورة و تدبّر إشاراتها الموقظة للنفوس الغافلة، و المعرّفة بوظائف الإنسان فى حياته، فمن لم يكتف بترديد ألفاظ السورة، و عمل بها بعد الإمعان و التدبر فحرى أن يجزى بما وعد الحق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۳

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً (۱) وَ النَّاشِطاتِ نَشْطاً (۲) وَ السَّابِحاتِ سَبْحاً (۳) فَالسَّابِقاتِ سَبْقاً (۴)

فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً (۵)

التّفسير

القسم بالملائكة:

جاء القسم القرآنى بخمسة أشياء مهمّة، لتبيان حقيقة و حتمية تحقق يوم القيامة «المعاد»، فيقول:

وَ النَّازِعاتِ غَرْقاً .....

و قبل البدء بالتّفسير لا بدّ من توضيح معانى بعض الكلمات ..

«النازعات»: من (النوع)، و نزع الشىء جذبه من مقرّه، كنزع القوس عن كبده، و منه نزع العداوة و المحبّة من القلب ۴۱۹]. و بذلك تشمل الأمور المعنوية أيضا.

(الغرق): بالفتح (على وزن الشفق)، هو الرسوب فى الماء، (على قول كثير من أهل اللغة)، و يأتى كذلك فيمن غمره البلاء.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۴

و «الغرق»: (على وزن الفرق)، يقول عنه (ابن منظور) فى لسان العرب: إنّه اسم أقيم مقام المصدر الحقيقى، بمعنى الإغراق، و الإغراق بالنزع هو: أن يباعد السهم و يسحب القوس إلى آخر نقطة ممكنة، و يضرب مثلا للغو و الإفراط.

و من هنا يتّضح أنّ المعنى المقصود فى هذه الآية ليس الغرق فى الماء، بل هو القيام بعمل ما إلى أقصى حدّ ممكن.[۴۲۰]

«النّاشطات»: من (النشط)، هى العقد التى يسهل حلها، و بئر (إنشاط): هى القريبة القعر يخرج دلوها بجذبة واحدة، و يقال للإبل التى تتحرك من غير أن يحدى لها (النشيطة) .. فيكون المعنى عموما: هو التحرك بسهولة.

«السابحات»: من (السبح)، و هو الحركة السريعة فى الماء أو الهواء و لهذا تطلق السابحات على: السباحة فى الماء، الحركة السريعة للخيل، و أيّة حركة سريعة فى عمل ما .. و «التسبيح»: هو تنزيه اللّه تعالى من كل عيب و نقص، و أصله: الحركة السريعة فى عبادة اللّه تعالى.

«السابقات»: من (السبق)، و هو التقدم فى السير، و بما أنّ السبق لا يتمّ إلّا بالحركة الأسرع فهو يتضمّن معنى الشرعة كذلك.

«المدبرات»: من (التدبير)، و هو التفكير فى عاقبة الأمور، و أرادت الآية القيام بالأعمال على أحسن وجه.

و بعد هذه التعريفات الموجزة نشرع بالتفسير:

إنّ القسم بهذه الأمور الخمسة قد لفّته هالة من الإبهام و الغموض و تبعث على التأمل و التعمق أكثر لمعرفة المراد من هذه الأقسام و أنّها لمن تشير، و أى شىء تقصد؟

و قد عرضت تفاسير مختلفة، و قيل الكثير بخصوص هذا الموضوع، إلّا أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۵

معظمها تدور حول ثلاثة محاور:

الأوّل: إنّ القسم المذكور يتعلق بالملائكة الموكلة بقبض أرواح الكفّار و المجرمين، و لكون تلك الأرواح قد رفضت التسليم للحق، فيكون فصلها عن أجسادها بشدّة.

و يتعلق كذلك، بالملائكة الموكلة بقبض أرواح المؤمنين برفق و يسر، و سرعة فى إتمام الأمر.

و الملائكة التى تسرع فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

ثمّ الملائكة التى تتسابق فى تنفيذ الأوامر الإلهية.

و أخيرا، يتعلق القسم بالملائكة التى شؤون العالم بأمره سبحانه و تعالى.

الثّانى: تعلق القسم بالنجوم التى تغرب من أفق لتنتقل إلى أفق آخر و بحركة دائبة لا تعرف السكون.

فبعض منها تمشى الهوينا، و البعض الآخر واسعة الخطوات.

و تراها سابحة فى السماء.

و تتسابق فيما بينها.

و أخيرا، تشترك فى تدبير امور الكون، بما لها من تأثيرات، (كنور الشمس و ضياء القمر بالنسبة إلى الأرض).

الثّالث: تعلق القسم بالمجاهدين فى سبيل اللّه، أو بخيولهم الخارجة من أوطانهم بعزم شديد لتجول فى ميادين القتال بنشاط و تمكن.

و ... تتسابق فيما بينها ... مع الجول و التسابق تعمل على إرادة و تدبير امور الحرب.

و قد جمع بعض المفسّرين هذه الآراء، فبعضها مقتبس من الأوّل، و القسم الآخر من الثّانى أو الثالث، لمعنى خاص، و لكنّ الأصل فى كلّ ذلك يعود إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۶

التّفاسير الثّلاثة المذكورة[۴۲۱].

و لا يوجد أىّ تضاد بين كلّ ما ذكر، و يمكن أن تكون الآيات قد رمزت إلى كلّ هذه المعانى ... و عموما يبدو أنّ التفسير الأوّل أقرب من غيره، للأسباب التالية:

أوّلا: تناسبه مع يوم القيامة .. هو ممّا تدور السورة حوله عموما.

ثانيا: نسبة الترابط الموجودة بينه و بين الآيات المشابهة للآيات المبحوثة فى أوّل سورة المرسلات.

ثالثا: ملائمة تفسير: فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً للملائكة التى تدبّر شؤون العالم بأمر اللّه، و الذين لا يتخلفون و لو لحظة واحدة فى تنفيذ ما يؤمرون به، كما تشير الآية (۲۷) من سورة الأنبياء إلى ذلك: لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ و خصوصا أنّ (تدبير الأمر) ورد بصيغة مطلقة من دون أىّ قيد أو شرط.

و علاوة على كلّ ما تقدم فثمّة روايات فى تفسير الآيات المبحوثة يتناسب معها التفسير الأوّل، و من جملتها:

ما

روى عن على عليه السّلام فى تفسير النَّازِعاتِ غَرْقاً، إنّه قال: «إنّها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفّار عن أبدانهم بشدّة كما يغرق النازع بالقوس فيبلغ بها غاية المسد»[۴۲۲].

و روى عنه عليه السّلام فى تفسير: «و الناشطات» و «السابحات» و «فالمدبرات» ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۷

يشبه ذلك ۴۲۳].

و يمكن توجيه هذا التفسير بشكل أتم، إذا ما اعتبرنا مسألة قبض أرواح المؤمنين و الكفّار مصداق من مصاديق التّفسير و ليس كلّ محتواه، و عليه فالملائكة هم المقصودون بالأقسام المذكورة بصورة عامّة، و يتمّ تنفيذ الأمر الإلهى من قبلهم على خمس مراحل:

الحركة الشديدة الناتجة من عظمة صدور الأمر الإلهى .. الشروع بالتنفيذ بخطوات هادئة .. الإسراع فى خطوات التنفيذ ..

فالتسابق .. و من ثمّ يكون تدبير الأمر.

و على أيّة حال، فقبض الأرواح من قبل الملائكة مصداق لمفهوم كلّى، و يعتبر الأرضية الممهدة لبقية البحوث التى تتناولها السورة حول «المعاد».

***

ملاحظتان

و يبقى، بعد كلّ ما تقدم، سؤالان:

الأوّل: ما سبب مجيء «النازعات» و «الناشطات» بصيغة المؤنث؟

الثّانى: كان القسم فى الآيات الثلاثة الاولى ب «الواو»، و فى الآيتين الرابعة و الخامسة استعملت «الفاء» عوضا عن «الواو» .. فهل هى للعطف أم للتفريع؟

الجواب الأوّل: «النازعات» جمع (نازعة)، و هى الطائفة أو المجموعة من الملائكة التى تعمل على تنفيذ ما أمرت به، و كذا الحال بالنسبة ل «الناشطات» و بقية صيغ الجمع الاخرى ... و بما أنّ (الطائفة) مؤنث لفظى، فقد جاء الجمع بصيغة المؤنث السالم.

الجواب الثّانى: يمكننا القول: أنّ التسابق الحاصل هو نتيجة الحركة السريعة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۸

المقصودة فى «السابحات»، و تدبير الأمور نتيجة لمجموع هذه الحركة.

و آخر ما ينبغى قوله فى هذا المجال: إنّ القسم الوارد فى الآيات الخمسة الاولى من السورة، إنّا هو قسم على أمر محذوف (و هو جواب القسم)، و لكنّ قرينة المقام و ما تشير إليه الآيات التالية يبيّن البعث و الحشر و القيامة، و حتمية تحققها، فيكون التقدير لجواب القسم: (لتبعثن يوم القيامة و لتحشرنّ و لتحاسبن).

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۷۹

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۶ الى ۱۴]

اشارة

يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (۶) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (۷) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ (۸) أَبْصارُها خاشِعَةٌ (۹) يَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ (۱۰) أَ إِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً (۱۱) قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ (۱۲) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ (۱۳) فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (۱۴)

التّفسير

صيحة الموت المرعبة!

بعد أن أكّد القرآن الكريم على حقيقة القيامة و حتمية وقوعها فى الآيات السابقة، تتعرض الآيات أعلاه لبعض ما يصاحب يوم القيامة من علامات و أحداث، فتقول: يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، أى: يوم تحدث الزلزلة العظيمة المهولة.

ثمّ: تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ.

«الراجفة»: من (الرجف)، بمعنى الاضطراب و التزلزل، و لذا يقال للأخبار التى توقع الاضطراب بين أوساط الناس ب (الأراجيف).

«الرادفة): من (الردف)، و هو الشخص أو الشيء الذى يأتى بعد نظيره تتابعا،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۰

و لذا یقال لمن یرکب خلف آخر، (ردیفه).

و یعتقد کثیر من المفسّرین بأنّ «الراجفة»: هی الصیحة و نفخة الصور الاولی التی تعلن عن موت جمیع الخلائق، و «الرادفة» هی الصیحة و نفخة الصور الثّانیة التی یبعث فیها الخلق مرّة اخری لیعیشوا یوم القیامة[۴۲۴].

و علیه، فالآیتان تشیران إلی نفس ما أشارت إلیه الآیة (۶۸) من سورة الزمر:

وَ نُفِخَ فِی الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ مَنْ فِی الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِیهِ أُخْری فَإِذا هُمْ قِیامٌ یَنْظُرُونَ

و قیل: «الراجفة»: إشارة إلی الزلزلة التی تدمّر الأرض، و «الرّادفة»: إشارة إلی الزلزلة التی تدمّر السماوات ..

و التّفسیر الأوّل کما یبدو أقرب للصواب.

و تأتی الآیة الاخری لتقول: قُلُوبٌ یَوْمَئِذٍ واجِفَةٌ.

فقلوب العاصین شدیدة الاضطراب خوفا من الحساب و الجزاء.

«واجفة»: من (الوجف)، بمعنی سرعة السیر، و (أوجفت البعیر): حملته علی الإسراع، و تستعمل أیضا للاضطراب الشدید لما یصاحبه من اهتزاز و إسراع.

و یکون التزلزل الداخلی من الشدّة بحیث یظهر علی وجوه کلّ المذنبین، و لذا یقول القرآن: أَبْصارُها خاشِعَةٌ[۴۲۵].

فیبدو الاضطراب و الخوف ظاهرا علی أعین المذنبین، و تتوقف حرکتها و کأنّها قد فقدت حاسة النظر لما أصابها من خوف شدید.

و فی الآیة التالیة ینتقل الحدیث من أخبار یوم القیامة إلی الحیاة الدنیا:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۱

یَقُولُونَ أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ.

«الحافرة»: من (الحفر)، بمعنی شقّ الأرض، و ما ینتج من ذلک یسمی (حفرة)، یقال: حافر الفرس، تشبیها لحفرة الأرض فی عدوه، و «الحافرة»: کنایة لمن یرد من حیث جاء، کما لو سار إنسان علی أرض، فیترک فیها حفرا لتحمل آثار قدمه، ثمّ یعود إلی نفس تلک الحفر، فالحافرة: تعنی الحالة الاولی ۴۲۶].

و تستمر الآیة فی سرد کلامهم: أَ إِذا کُنَّا عِظاماً نَخِرَةً[۴۲۷].

فهکذا هو حال و دأب منکری المعاد و علی الدوام باستفسارهم الدائم حول المعاد، و بقولهم المعروف: کیف للعظام البالیة النخرة و التی تحولت إلی ذرات تراب أن تعود مرّة اخری جسما کاملا و الأکثر من هذا .. أن تسری فیه الحیاة و لکنّهم لم یفقهوا إلی أنّهم خلقوا من ذلک التراب، فکیف أصبحوا بهذه الهیئة الحیّة بعد أن لم یکونوا شیئا؟

«نخرة»: صفة مشبهة، من (النخر)، بمعنی الشجرة المجوفة البالیة، و التی إذا دخل فیها الهواء أعطت صوتا معینا، مثله (النخیر)، و عمم الاستعمال لیشمل کلّ شیء بال فی حال تآکل و تلاش.

و لا یکتفی منکر و المعاد بحال الاعتراض علی ما وعدهم به الباری سبحانه، بل و تحولوا إلی حال الاستهزاء بأحد اصول دین اللّه!:

قالُوا تِلْکَ إِذاً کَرَّةٌ خاسِرَةٌ.

و ثمّة احتمال آخر فی تفسیر هذه الآیة یقول: إنّهم جادون فی قولتهم غیر مستهزئین، لأنّهم یعتقدون أن لو کان ثمّة عود و رجعة فهی عبث زائد و خاسر، إذ لو کانت الحیاة الطیبة هی التی نعیشها، فلما ذا لا تخلد؟ و إن کانت سیئة فما فائدة العود؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۲

و یمکن اعتبار «الحافرة» الواردة فی: أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِی الْحافِرَةِ قرینة لهذا الاحتمال، بلحاظ کونها بمعنی (الحفرة).

و لکنّ المعروف بین المفسّرین هو التّفسیر الأوّل.

و قد عبّرت الآية السابقة عن قولهم بصيغة المصارع «يقولون» اشارة إلى دوام ترديدهم لما يقولون به، فى حين ذكر الفعل فى الآية المبحوثة بصيغة الماضى «قولوا» إشارة إلى أنّهم قليلا ما يقولون ذلك.

و فى آخر آية من الآيات المبحوثة يعود القرآن الكريم إلى مسألة القيامة، و بلسان قاطع، يقول: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

فالأمر ليس بمستصعب على الخالق القادر، فما أن يصدر الأمر الإلهى لنفخة الصور الثّانية حتى تعود الحياة ثانية إلى جميع الخلائق، نعم .. فتشرع كلّ تلك العظام النخرة و ما صار منها ترابا للتجمع على الهيئة الاولى، و ليخرج الناس من قبورهم بعد أن تسرى فيهم روح الحياة! «الزجرة»: بمعنى صيحة بشدّة و انتهار، و يراد بها: نفخة الصور الثّانية.

«زجرة واحدة»: إشارة إلى سهولة الأمر أمام قدرة اللّه سبحانه و تعالى، و إلى سرعة تنفيذ أمره سبحانه (لقيام القيامة) ... فبصوت واحد من ملائكة القيامة، أو من صور إسرافيل يرتدى جميع الأموات لباس الحياة من جديد ليحضروا عرصة المحشر للحساب.

«الساهرة»: من (السهر)، و هو الأرق، و قيل: لأرض القيامة «الساهرة» لذهاب النوم عن العيون لما سيصابون به من أهوال مرعبة. و قيل: الساهرة: اسم للصحراء، لأنّ جميع الصحارى مخيفة، و كأنّ الخوف فيها يطرد النوم من العين ۴۲۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۳

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۱۵ الى ۲۶]

اشارة

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۱۵) إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۶) اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۱۷) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى (۱۸) وَ أَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى (۱۹)

فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (۲۰) فَكَذَّبَ وَ عَصى (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (۲۲) فَحَشَرَ فَنادى (۲۳) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (۲۴)

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (۲۵) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (۲۶)

التّفسير

افتراء فرعون!

يشير القرآن الكريم بهذه المقاطع البيانية إلى بعض مشاهد قصّة موسى عليه السّلام و فرعون، و التى تتناول عاقبة الطغاة عبر التاريخ، و ما حدى بفرعون من مصير أسود، ليستذكر مشركو قريش و طغاتهم تلك الواقعة، و ليعلموا أن من كان أقوى منهم لم يتمكن من مقاومة العذاب الإلهى.

و يشير البيان القرآنى كذلك، إلى المؤمنين بأن لا يخافوا من قوّة الأعداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۴

الظاهرية، لأنّ دمارهم و هلاكهم على اللّه أسهل من أن يتصور .. فهذا البيان القرآنى إذا، تسلية لقلوب المؤمنين و ترطيبا لخواطرهم.

فيتوجه الحديث إلى النبىّ عليه السّلام بصيغة الاستفهام: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى ليشوق السامع و يهيئه لاستماع القصّة ذات العبر.

ثمّ يقول: إِذْ ناداهُ رَبُّهُ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً ۴۲۹].

«طوى»: يمكن أن يكون اسما لأرض مقدّسة، تقع فى الشام بين (مدين) و (مصر)، و هو الوادى الذى كلّم اللّه تعالى فيه موسى عليه

السّلام أوّل مرّة.

و قد رود الاسم أيضا فى الآية (۱۲) من سورة طه: إِنِّی أَنَا رَبُّکَ فَاخْلَعْ نَعْلَیْکَ إِنَّکَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُویً

و قد تكون «طوى» صفة من (الطى)، إشارة إلى ما انطوت عليه تلك الأرض من القداسة و البركة.

أو كما يقول الراغب فى مفرداته، إشارة إلى حالة حصلت له على طريق الاجتباء، فكان ينبغى عليه السير فى طريق طويل، ليكون لائقا لنزول الوحى و لكن اللّه تعالى طوى له هذا الطريق و قرّب له الهدف.

ثمّ أشار القرآن إلى تعليمات اللّه عزّ و جلّ إلى موسى عليه السّلام فى الواد المقدّس:

اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى فَقُلْ هَلْ لَکَ إِلى أَنْ تَزَکَّى و بعد التزكية و تطهير الذات تصبح لائقا للقاء اللّه، و سوف أهديك إليه عسى أن تخشع و تترك ما أنت عليه من المنكرات: وَ أَهْدِیَکَ إِلى رَبِّکَ فَتَخْشى

و لمّا كانت كلّ دعوة تحتاج إلى دليل صحتها، يضيف القرآن القول: فَأَراهُ الْآیَةَ الْکُبْرى ۴۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۵

و لكن، ما الآية الكبرى؟ هل هى عصا موسى عليه السّلام التى تحولت إلى أفعى عظيمة، أو إخراج يده بيضاء، أم كليهما؟ (على اعتبار أنّ الألف و اللام فى «الآية الكبرى» إشارة إلى الجنس). و على أيّة حال، فالمهم فى المسألة إنّ موسى عليه السّلام استند فى بدء دعوته على معجزة «الآية الكبرى».

لقد وردت فى الآيات الأربعة المذكورة جملة ملاحظات، هى:

۱- طغيان فرعون يمثل علّة الأمر الإلهى لذهاب موسى عليه السّلام إليه ... و تبيّن لنا هذه الملاحظة: إنّ من جملة الأهداف المهمّة فى حركة الأنبياء هى هداية الطغاة أو مجاهدتهم.

۲- راح موسى عليه السّلام يدعو فرعون بلين و رفق و أسلوب جميل، و بأسلوب مرغّب دعاه لأن يتطهر (طهارة مطلقة من الشرك و الكفر، و من الظلم و الفساد) و تنقل لنا الآية (۴۴) من سورة طه هذا المعنى: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَیِّناً.

۳- و ثمّة إشارة لطيفة وردت بخصوص رسالة الأنبياء عليهم السّلام، فدعوتهم للحق تعتمد على محاولة تطهير الناس و إعادتهم إلى فطرتهم السليمة.

كما و أشار البيان القرآنى إلى أنّ المخاطبة قد تمّت بكلمة «تزكّى» بدلا من (ازكيك)، للدلالة على أنّ التزكية الحقّة إنّما هى تلك النابعة من الذات، و لا تبنى باسس موضوعية خارجية.

۴- ذكرت الهداية بعد التزكية، للدلالة على أنّ التزكية مقدّمة و بمثابة الأرضية المهيئة للهداية.

۵- إنّ تعبير «إلى ربّك» فى حقيقة تأكيد على أنّ من أهديك إليه هو مالكك و مربيك، فلم الميل عنه؟! ۶- «الخشية» نتيجة للهداية: وَ أَهْدِیَکَ إِلى رَبِّکَ فَتَخْشى و بما أنّ الخشية لا تحصل إلّا بمعرفة حقّة، فتكون ثمرة شجرة الهداية و التوحيد هى الإحساس بالمسؤولية الملقاة على العواتق أمام جبار السماوات و الأرض، و لهذا تقول الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۶

(۲۸) من سورة فاطر: إِنَّما یَخْشَى اللَّهَ، مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۳۸۶

ابتدأ موسى عليه السّلام أسلوب دعوته بالهداية العاطفية ثمّ تدرج إلى الهداية العقلية و المنطقية حتى أرى فرعون الآية الكبرى.

و قد بيّن لنا البيان القرآنى أفضل طرق الدعوة و الإرشاد، حيث ينبغى إحاطة من يراد هدايته بالرعاية و العطف و تحسيسه بحسن نيّة الداعية أو المرشد، و من ثمّ تأتى مرحلة الدليل المنطقى و الحوار العلمى.

لكنّ فرعون المتجبّر قابل كلّ تلك المحبّة، اللطف، الدعوة بالحسنى و الآية الكبرى، قابل كلّ ذلك بالتجبّر الأعمى و الغرور الأبله: فَكَذَّبَ وَ عَصى

و كما يظهر من الآية المباركة فإنّ التكذيب مقدمة العصيان و مرحلة سابقة له، كما هو حال التصديق الإيمان باعتباره مقدّمة للطاعات.

و ازداد فرعون عنوّا: ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى ۴۳۱].

و قد هددت معجزة موسى عليه السّلام كل وجود فرعون الطاغوتى، ممّا دعاه لأن يبذل كل ما يملك من قدرة لأجل إبطال مفعول المعجزة، فتراه و قد أمر أتباعه و جنوده لجمع كلّ سحرة البلاد- على كثرتهم فى تلك الحقبة الزمنية- و نودى فى الناس بأمره ليشاهدوا مشهد إبطال المعجزة من قبل السحرة، و ليظهروا مثلها!!:

فَحَشَرَ فَنادى

مع أنّ كلمة «حشر» ذكرت بصورة مطلقة مبهمة، و لكننا نستطيع معرفة تفصيل الأمر من خلال الآيات القرآنية الاخرى، ففى الآيتين (۱۱۱ و ۱۱۲) من سورة الأعراف، يكمل تفصيل ذلك: وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ

و كذا الحال بالنسبة لكلمة «نادى»، فيمكننا التوصل لمعناها من خلال الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۷

(۳۹) من سورة الشعراء، و التى تناولت نفس الموضوع: وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ

و لم يكتف فرعون بكذبه و عصيانه، و مقاومته لدعوة الحق و الوقوف أمامها، بل و تعدى حدود المخلوق بصورة مفرطة جدّا، و افترى على اللّه و على نفسه بأقبح ادعاء، حينما ادعى نفسه الربوبية على شعبه و أمرهم بطاعته!: فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى

نعم .. فحينما يقبع المتجبّر فى عرش الغرور، و حينما تلّفه أمواج الأنانية المفرطة، حينها .. سيجرفه تيار الإفراط لأن يدعى لنفسه الربوبية، بل و يجره فقدان بصيرته، و انحسار فطرته بين ظلمات أنانيته لأن يدعى أنّه (ربّ الأرباب)!! و أوصل فرعون قولته إلى الناس ليخبرهم بأنّه لا يعارض ما لهم من أصنام يعبدونها، لكنّه فوقها جميعا فهو (المعبود الأعلى)! و ألطف ما فى الأمر، إنّ فرعون نفسه كان أحد عبدة الأصنام، بشهادة الآية (۱۲۷) من سورة الأعراف: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ فادعاؤه بأنّه (الربّ الأعلى) قد سرى حكمه حتى على آلهته لتكون من عبيده! .. نعم، فهكذا هو هذيان الطواغيت.

و قد ادعى فرعون بأكثر من (ربّ الأرباب)، ليضيف إلى هذيان الطغاة حماقة، حينما ورد قوله فى الآية (۳۸) من سورة القصص: ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي ...

و على أيّة حال، فقد حلّ بفرعون منتهى التكبر و الطغيان، فأخذه جبّار السماوات و الأرض سبحانه أخذ عزيز مقتدر: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى ۴۳۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۸

«النكال»: لغة: العجز و الضعف. و يقال لمن يتخلف عن دفع ما استحق عليه (نكل). و (النكل)- على وزن فكر- القيد الشديد الذى يعجز معه الإنسان على عمل أىّ شىء.

و «نكال»: فى الآية يقال للعذاب الإلهى الذى يؤدى إلى عجز الإنسان، و يخيف الآخرين، فيعجزهم عن ارتكاب الذنب.

«نكال الآخرة»: عذاب جهنّم الذى سينال فرعون و أصحابه و من سار على خطوه، و «عذاب الاولى»: إشارة إلى إغراق فرعون و أصحابه فى نهر النيل.

و تقديم «نكال الآخرة» على عذاب الدنيا، لأهميته و شدّة بطشه.

و قيل: «الاولى»: تشير إلى كلمة فرعون الاولى فى مسير طغيانه حين ادّعى (الالوهية)، كما جاء فى الآية (۳۸) من سورة القصص.

و «الآخرة»: إشارة الى آخر كلمة نطق بها فرعون حين ادّعى (الرّبوبية العليا)، فعذّبه اللّه بالغرق فى الحياة الدنيا نتيجة ادّعاءيه الباطلين.

و قد أشير لهذا المعنى فيما

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام قوله: «إنّ الفترة ما بين قوله الاولى و الآخرة كانت أربعين عاما، و قد أخّر اللّه تعالى عذابه كلّ هذه المدّة إتماما للحجّة عليه»[۴۳۳].

و يوافق هذا المعنى صيغة الفعل الماضى الواردة فى الآية «أخذ» و الذى يفهم منه تنفيذ كلّ العقاب فى الدنيا، و تعضده الآية التالية التى تعدّ العذاب عبرة للآخرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۸۹

و يستخلص القرآن نتيجة القصّة: إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى

فتبيّن الآية بكلّ وضوح، إنّ وسائط سلك طريق الإعتبار مهيئة لمن سرى فى قلبه الخوف و الخشية من اللّه، و اعترته مشاعر الإحساس بالمسؤولية، و من رأى العبرة بعين معتبرة اعتبر.

نعم .. فقد أغرق فرعون، و أهلك ملكه و دولته، و صار درسا شاخصا لكل فراعنة و طواغيت و مشركى الزمان، و عبرة لمن سار على نهجه الفاسد لكل عصر و مصر، و لا يجنى من سار على خطاه سوى ما جنيت به يداه، و هى سنّة اللّه، و لا تغيير و لا تبديل لسنّته جلّ شأنه.

***

بحث

بلاغة القرآن:

بنظرة ممعنة فى الآيات الإحدى عشر المبحوثة، تتجلى لنا ذروة فصاحة و بلاغة القرآن الكريم، فبعبارات موجزة و سريعة، عرضت قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون و بتفصيل بيانى محكم، حيث تناولت: بيان سبب الرسالة، هدف دعوة الرسالة، وسائل التطهير، كيفية الدعوة، أسس مواجهة مخططات الأعداء، نماذج من الادعاءات الباطلة، و الانتقام من الطغاة ... فكل هذا و ما حمل بين ثناياه من دروس حيّة للإنسانية، قد ورد فى هذه الآيات القليلة الموجزة!***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۰

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۲۷ الى ۳۳]

اشارة

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها (۲۷) رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها (۲۸) وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها (۲۹) وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها (۳۰) أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها (۳۱)

وَ الْجِبالَ أَرْساها (۳۲) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۳)

التّفسير

اللمسات الرّبانية فى عالم الطبيعة و نظام الكون:

ينتقل البيان القرآنى مرّة اخرى إلى عالم القيامة، بعد ذكر تلك اللمحات البلاغية فى قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون، فيعرض صورا من قدرة اللّه المطلقة فى عالم الوجود، ليستدل به على إمكان المعاد، و يشرح بعض النعم الإلهية على البشرية (التى لا تعدّ و لا تحصى)، ليحرك فيهم حس الشكر و الذى من خلاله يتوصلون لمعرفة اللّه.

و ابتدأ الخطاب باستفهام توبيخى (لمنكرى المعاد) هل أنّ خلقكم (و إعادتكم إلى الحياة بعد الموت) أصعب من خلق السماء: أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۱

السَّماءُ بَناها[۴۳۴].

و الآية فى واقعها جواب لما ذكر من قولهم فى الآيات السابقة: أَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحافِرَةِ- أى هل يمكن أن نعود إلى حالتنا الاولى- فكلّ إنسان و مهما بلغت مداركه و مشاعره من مستوى، ليعلم أنّ خلق السماء و ما يسبح فيها من نجوم و كواكب و مجرّات، لهو أعقد و أعظم من خلق الإنسان ... و إذا فمن له القدرة على خلق السماء و ما فيها من حقائق، أ يعقل أن يكون عاجزا عن إعادة الحياة مرّة اخرى إلى الناس؟! و يضيف القرآن فى بيان خلق السماء، فيقول شارحا بتفصيل: رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها.

«سمك»:- على وزن سقف- لغة: بمعنى الارتفاع، و جيئت بمعنى (السقف) أيضا، و على قول الفخر الرازى فى تفسيره: إنّ الشىء المرتفع لو قيس ارتفاعه من الأعلى إلى الأسفل فالنتيجة تسمّى (عمق)، أمّا لو قيس الارتفاع من الأسفل إلى الأعلى فهو (سمك)[۴۳۵].

«سواها»: من (التسوية)، بمعنى التنظيم، و هى تشير إلى دقّة التنظيم الحاكمة على الأجرام السماوية، و إذا اعتبرنا «سمكها» بمعنى «سقفها»، فهى إشارة إلى الغلاف الجوى الذى حفّ و أحاط بالكرة الأرضية كالسقف المحكم البناء، و الذى يحفظها من شدّة آثار الأحجار السماوية، و الشهب، و الأشعة الكونية و المميتة و المتساقطة عليها باستمرار.

و قيل: إنّ «سواها» إشارة إلى كروية السماء و إحاطتها بالأرض، حيث أنّ التسوية هنا تعنى تساوى الفاصلة بين أجزاء هذا السقف نسبة إلى المركز الأصلى (الأرض)، و لا يتحقق ذلك من دون كروية الأرض و ما حولها (السماء).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۲

و قيل أيضا: إنّ الآية تشير إلى ارتفاع السماء و الأجرام السماوية و بعدها الشاسع عن الأرض، بالإضافة لإشارتها للسقف المحفوظ المحيط بالأرض.

و على أيّة حال، فالآية قد نهجت بذات سياق الآية (۵۷) من سورة المؤمن:

لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

ثمّ تنتقل بنا الآية التالية إلى إحدى الأنظمة الحاكمة فى هذا العالم الكبير، الكبير، (نظام النور و الظلمة)،: وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها.

فلكلّ من النور و الظلمة دور أساس و مهم جدّا فى حياة الإنسان و سائر الأحياء من حيوان و نبات، فلا يتمكن الإنسان من الحياة دون النور، لما له من ارتباط وثيق فى حركة و إحساس و رزق و أعمال الإنسان، و كذا لا يتمكن من تكملة مشوار حياته من غير الظلمة، و التى تعتبر رمز الهدوء و السكينة.

«أغطش»: من (الغطش)، بمعنى الظلام، و لكنّ الراغب فى مفرداته يقول:

و أصله من «الأغطش» و هو الذى فى عينه شبه عمش.

«الضحى»: انبساط الشمس و امتداد النهار[۴۳۶].

و تنتقل بنا الآية الاخرى من السماء إلى الأرض، فتقول: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها.

«دحاها»: من «الدحو» بمعنى الانبساط، و فسّرها بعضهم: وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها.

و للمعنيين أصل واحد، لوجود التلازم بينهما.

و يقصد بدحو الأرض، إنّها كانت فى البداية مغطاة بمياه الأمطار الغزيرة التى انهمرت عليها من مدّة طويلة، ثمّ استقرت تلك المياه تدريجيا فى منخفضات الأرض، فشكلت البحار و المحيطات، فيما علت اليابسة على أطرافها، و توسعت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۳

تدريجيا، حتى وصلت لما هى عليه الآن من شكل، (و حدث ذلك بعد خلق السماء و الأرض)[۴۳۷].

و بعد دحو الأرض، و إتمام صلاحيتها لسكنى و حياة الإنسان، يأتى الحديث فى الآية التالية عن الماء و النبات معا: أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها.

و يظهر من التعبير القرآنى، إنّ الماء قد نفذ إلى دخل الأرض بادئ ذى بدء، ثمّ خرج على شكل عيون و أنهار، حتى تشكلت منهما البحيرات و البحار و المحيطات.

«المرعى»: اسم مكان من (الرعى)[۴۳۸]، و هو حفظ و مراقبة امور الحيوان من حيث التغذية و ما شابهها.

و لهذا، تستعمل كلمة (المراعاة) بمعنى المحافظة و المراقبة و تدبير الأمور، و كلّ من يسوس نفسه أو غيره يسمّى (راعيا)، و لذا جاء فى الحديث الشريف:

«كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته».

ثمّ ينتقل البيان القرآنى إلى «الجبال»، حيث ثمّة عوامل تلعب الدور المؤثر فى استقرار و سكون الأرض، مثل: الفيضانات، العواصف العاتية، المدّ و الجزر، و الزلازل .. فكل هذه العوامل تعمل على خلخلة استقرار الأرض، فجعل اللّه عزّ و جلّ «الجبال» تثبيتا للأرض، و لهذا تقول الآية: وَ الْجِبالَ أَرْساها[۴۳۹].

«أرسى»: من (رسو)، بمعنى الثبات، و أرسى: فعل متعد، أى، ثبّت الجبال فى مواقعها.

و تلخص الآية التالية ما جاء فى الآيات السابقة: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۴

نعم .. فالسماء رفعها.

خلق نظام النور و الظلمة.

دحى الأرض.

أخرج من الأرض ماء و نباتا.

أرسى الجبال لحفظ الأرض.

هيأ مستلزمات عيش الإنسان، و سخر له كلّ شيء.

كلّ ذلك، ليغرف الإنسان من نعم اللّه، و لكى لا يغفل عن طاعة اللّه و الوصول لساحة رضوانه جلّ شأنه.

و ما جاء فى الآيات يبرز قدرته سبحانه على المعاد من جهة، و يدلل من جهة اخرى على وجود اللّه تعالى و عظمة شأنه، ليدفع المخلوق إلى الإذعان بسلامة سلك طريق معرفة اللّه و توحيده.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۵

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۳۴ الى ۴۱]

اشارة

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى (۳۴) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى (۳۵) وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى (۳۶) فَأَمَّا مَنْ طَغى (۳۷) وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۳۸)

فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوى (۳۹) وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى (۴۰) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى (۴۱)

التّفسير

التنزّه عن الهوى:

و تتجه عدسة آيات القرآن الكريم لتعرض لنا جوانبا من صور عالم القيامة، و تبدأ بتصوير تلك الداهية المذهلة التى تصيب من عبد أهواءه فى الحياة الدنيا:

فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى ۴۴۰].

«الطامة»: من (الطم)- على زنة فنّ- و هو فى الأصل بمعنى ملء الفراغ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۶

و الحفر، و يطلق بالطامة على كلّ شىء بلغ حدّه الأعلى، و لهذا فقد أطلقت على الحوادث المرّة و الصعاب الكبار، و هى فى الآية تشير إلى يوم القيامة لما فيها من دواهى تغطى بهولها كلّ هول، و اتبعت ب «الكبرى» زيادة فى التأكيد على أهمية و خطورة يوم القيامة.

و يضيف: حال حلول الحدث ... سيفلت الجميع من نياط غفلتهم، و يتذكروا ما زرعوا لحياتهم: يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ ما سَعى

و أنى للتذكر بعد فوات الأوان! و إذا طلبوا الرجوع إلى الدنيا لإصلاح ما أفسدوا و يتداركوا الأمر، فسيقرعون ب كَلَّا.

و إذا ما اعتذروا تائبين، فلا محيص عن ردّهم، بعد أن أوصدت أبواب التوبة بأمر الجبّار الحكيم.

و عندها: لا يبقى لهم إلّا الحسرة و الندامة، و الهم و الغم، و كما تقول الآية (۲۷) من سورة الفرقان: يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ

و ثمّة نكتة فى الآية ترتبط بصيغة الفعل «يتذكر»، فقد جاء الفعل مضارعا ليدل على استمرارية التذكر، فالإنسان أمام ذلك المنظر الرهيب، و قد أزيلت الحجب عن قلبه و روحه، سيرى الحقائق بعينها شاخصة أمامه، و لا ينسى حينها ما اكتسبت يداه من أعمال.

و تشخص الآية التالية ما سيقع: وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى

فالجحيم موجودة، كما تشير إلى ذلك الآية (۵۴) من سورة العنكبوت: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ و لكن حجب الدنيا تمنعنا من رؤيتها، و أمّا فى يوم الفصل، يوم البروز، فسيبرز كلّ شىء و لا يستثنى من ذلك جهنّم.

و جملة «لمن يرى»، تشير إلى رؤية جهنّم من قبل الجميع بلا استثناء (الصالح و الطالح)، فهى غير خافية عن الأنظار.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۷

و قيل: إنّها لمن سيكون له نظر فى يوم القيامة، لأنّ الآية (۱۲۴) من سورة طه قد صرّحت بأنّ البعض سيحشر أعمى: وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى و يعتمد ستكون أكثر المفسّرين على التّفسير الأوّل لمناسبته للمقام، لأنّ رؤية جهنّم من قبل العاصين ستكون أكثر إيلاما لهم، إضافة إلى أنّ العمى المشار إليه، ربّما يكون فى موقف معين من مواقف يوم القيامة، و ليس دائما[۴۴۱].

و فى الآيات الثلاثة التالية، يشير القرآن إلى حال المجرمين و الطغاة يوم القيامة: فَأَمَّا مَنْ طَغى وَ آثَرَ الْحَياةَ الدُّنْيا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ

الْمَأْوى ۴۴۲].

و الآية الاولى تشير إلى فساد عقائد الطغاة، لأنّ الطغيان ينشأ من الغرور، و الغرور من نتائج عدم معرفة البارى جّل شأنه.

و بمعرفة عظمة و جلال اللّه يتصاغر الإنسان و يتصاغر حتى يكاد لا يرى لنفسه أثرا، و عندها سوف لن تزل قدمه عن جادة العبودية الحقة، ما دام سلوكه يصب فى رافد معرفة اللّه.

و الآية الثانية تشير إلى فسادهم العملى، لأنّ الطغيان يوقع الإنسان فى شراك اللذائذ الوقتية الفانية ذروة الطموح و منتهى الأمل، فينساق واهما لأنّ يجعلها فوق كلّ شىء! و الأمران فى واقعهما كالعلة و المعلول، فالطغيان و فساد العقدة مفتاح فساد العمل و حبّ الدنيا المفرط، و لا يجران إلّا إلى سوء عقبى الدار، نار جهنّم خالدين فيها أبدا.

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام، أنّه قال: «و من طغى ضل على عمل بلا حجّة»[۴۴۳]

، فالغرور يرى صاحبه الهوى حقّ: على الرغم من عدم امتلاكه الدليل أو

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۸

الحجّة، و بالرغم من مخالفة المنطق له!.

و يأتى الدور فى الآيتين التاليتين لوصف أهل الجنّة: وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوى

فالشرط الأوّل للحصول على نعم الجنّة و الاستقرار بها هو الخوف من اللّه من خلال معرفته (معرفة اللّه و الخوف من التمرد و العصيان على أوامره)، و الشرط الثانى هو ثمرة و نتيجة الشرط الأوّل أى الخوف و المعرفة و يتمثل فى السيطرة على هوى النفس و كبح جماحها، فهوى النفس من أقبح الأصنام المعبودة من دون اللّه، لأنّه المنفذ الرئيسى لدخول معترك الذنوب و المفاسد، و لذا ف «أبغض إله عبد على وجه الأرض: الهوى».

و هوى النفس هو الطابور الخامس فى قلب الإنسان، نعم ... فالشيطان الخارجى لا يتمكن من النفوذ إلى داخل الإنسان ما لم يوافقه الشيطان الداخلى فى منحاه، و يفتح له أبواب الدخول، كما تشير إلى ذلك الآية (۴۲) من سورة الحجر: إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ

***

ملاحظات

۱- مقام الرّب؟

جاء فى الآية (۴۰) ... مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ...، و لم يقل (من خاف ربّه)،، فما ذا يقصد بهذا المقام؟

طرحت احتمالات عديدة فى جواب السؤال المذكور:

۱- المقام: مواقف القيامة، و هى المقامات التى سيقف فيها الإنسان بين يدى ربّه للحساب، فسيكون «مقام ربّه»- على ضوء هذا الاحتمال- بمعنى (مقامه عند ربّه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۳۹۹

۲- المقام: علم اللّه و مقام مراقبته للإنسان، بدلالة الآية (۳۳) من سورة الرعد: أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ

و بدلالة ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: قوله: «من علم أنّ اللّه يراه، و يسمع ما يقول، و يعلم من خير أو شرّ فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذى خاف مقام ربّه و نهى النفس عن الهوى»[۴۴۴].

۳- مقام العدالة الإلهية، لأنّ العبد لا يخاف من ذات اللّه المقدّسة بل خوفه من عدل اللّه حسابه و فى الحقيقة إنّ هذا الخوف ناشئ من قياس أعماله بميزان العدل، فالمجرمون ترتعد فرائصهم و تهتزّ دواخلهم حين رؤية القاضى العادل، و لا يتحملون سماع اسم المحكمة و المحاكمة، بعكس من لم يقم بأى ذنب، فرؤيته للقاضى ستكون مغايرة لما داخل المجرم من إحساسات ... و لا تباين بين هذه التفسيرات الثلاثة، و يمكن ادغامها فى معنى الآية.

۲- علاقة الطغيان بعبادة الدنيا

رسمت الآيات المبحوثة و بأسلوب رائع اصول سعادة و شقاء الإنسانية، فجسدت بريشتها البيانية زبدة تعاليم الأنبياء و الأولياء عليهم السلام.

فشقاء الإنسان يكمن فى طغيانه و عبادته لجواذب الدنيا، و سعادته فى خوفه من اللّه و تركه ما يبعد عن ساحة رضوانه سبحانه و تعالى.

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام، أنّه قال: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: إتّباع الهوى و طول الأمل، فأمّا اتّباع الهوى فيصد عن الحقّ، و أمّا طول الأمل فينسى الآخرة»[۴۴۵].

و ... هوى النفس: يضع حجابا على عقل الإنسان، يزيّن له الأعمال القبيحة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۰

يشغل الإنسان بنفسه، يسلبه قدرة التمييز بين الصالح و الطالح و التى هى أعظم نعمة على الإنسان، و بها يتميزّ الإنسان عن الحيوان، و هذا هو ما أشارت إليه الآية (۱۸) من سورة يوسف فى و قول نبىّ اللّه يعقوب عليه السّلام لأولاده: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً.

و باب الحديث أوسع بكثير من أن يلخص بوريقات، و لكننا سنكتفى بذكر حديثين عن أئمّة الهدى من أهل البيت عليهم السّلام، لتناولهما مختلف جوانب الموضوع:

فعن الإمام الباقر عليه السّلام، أنّه قال: «الجنّة محفوفة بالمكاره و الصبر، فمن صبر على المكاره فى الدنيا دحل الجنّة، و جهنّم محفوفة باللذات و الشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها و شهوتها دخل النّار»[۴۴۶].

و

عن الإمام الصادق، أنّه قال: «لا تدع النفس و هواها، فإنّ هواها فى رداها، و ترك النفس و ما تهوى داؤها، و كفّ النفس عمّا تهوى دواؤها»[۴۴۷].

و لا يدخل اتباع الهوى جهنّم فقط، فله من الآثار السلبية حتى فى الحياة الدنيا، و من نتائجه: فقدان الأمن، و تخلخل النظام، و نشوب الحروب، و سفك الدماء، و إثارة النزاعات و الأحقاد ...

۳- فريقان لا ثالث لهما

تحدثت الآيات محل البحث عن فريقين من الناس، أمّا من طغى و عبد هواه فمأواه جهنّم خالدا فيها، و أمّا من اتقى و خاف مقام ربّه فالجنّة مأواه أبدا.

و ثمّة فريق ثالث لم تتطرق له الآيات، و هو المؤمنين الذين قصروا فى أداء بعض الأعمال و الوظائف، أو أصابهم بعض تلوثات هوى

النفس الأمارة بالسوء، فهؤلاء و إن كانوا فريقا ثالثا- حسب لظاهر- إلّا أنّهم سرعان ما يلتحقون بأحد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۱

الفريقين، فأمّا من يحمل أرضية شموله بالعفو الإلهى فسيلتحق بركب المتقين، و أمّا من ثقلت كفة ذنوبه فسيحشر مع القابعين فى أودية النّار، و لكنها لا تكون مكانهم و مأواهم الأبدى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۲

الآيات [سورة النازعات (۷۹): الآيات ۴۲ الى ۴۶]

اشارة

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها (۴۲) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها (۴۳) إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها (۴۴) إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها (۴۵) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها (۴۶)

التّفسير

يوما لقيامة: الوقت المجهول!

تتعرض الآيات أعلاه لإجابة المشركين و منكرى المعاد حول سؤالهم الدائم عن وقت قيام الساعة (يوم القيامة): فتقول أوّلا: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها[۴۴۸].

و القرآن فى مقام الجواب يسعى إلى إفهامهم بأنّه لا أحد يعلم بوقت وقوع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۳

القيامة، و يوجه البارى خطابه إلى حبيبه الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، بأنّك لا تعلم وقت وقوعها، و يقول: فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها.

فما خفّى عليك (يا محمّد)، فمن باب أولى أن يخفى على الآخرين، و العلم بوقت قيام القيامة من الغيب الذى اختصه اللّه لنفسه، و لا سبيل لمعرفة ذلك سواه إطلاقا! و كما قلنا، فسّر خفاء موعد الحق يرجع لأسباب تربوية، فإذا كان ساعة قيام القيامة معلومة فستحل الغفلة على جميع إذا كانت بعيدة، و بالمقابل ستكون التقوى اضطرارا و الورع بعيدا عن الحرية و الإختيار إذا كانت قريبة، و الأمران بطبيعتهما سيقتلان كلّ أثر تربوى مرجو.

و ثمّة احتمالات اخرى قد عرضها بعض المفسّرين، و منها: إنّك لم تبعث لبيان وقت وقوع يوم القيامة، و إنّما لتعلن و تبيّن وجودها (و ليس لحظة وقوعها).

و منها أيضا: إنّ قيامك و ظهورك مبيّن و كاشف عن قرب وقوع يوم القيامة بدلالة ما

روى عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حينما جمع بين سبابتيه و قال: «بعثت أنا و القيامة كهاتين»[۴۴۹]

و لكنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره و أقرب.

و تقول الآية التالية: إِلى رَبِّكَ مُنْتَهاها.

فاللّه وحده هو العالم بوقت موعدها دون غيره و لا فائدة من الخوض فى معرفة ذلك.

و يؤكّد القرآن هذا المعنى فى الآيتين: (۳۴) من سورة لقمان: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، و فى الآية (۱۸۷) من سورة الأعراف: قُلْ إِنَّما

عِلْمُها عِنْدَ رَبِّى

و قيل: المراد بالآية، تحقق القيامة بأمر اللّه، و يشير هذا القول إلى بيان علّة ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۴

ورد فى الآية السابقة، و لا مانع من الجمع بين التّفسيرين.

و تسهم الآية التالية فى التوضيح: إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها.

إنّما تكليفك هو دعوة الناس إلى الدين الحقّ، و إنذار من لا يأبى بعقاب أخروى أليم، و ما عليك تعيين وقت قيام الساعة.

مع ملاحظة، أنّ الإنذار الموجه فى الآية فيمن يخاف و يخشى و عقاب اللّه، هو يشابه الموضوع الذى تناولته الآية (۲) من سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ

و يشير البيان القرآنى إلى أثر الدافع الذاتى فى طلب الحقيقة و تحسس المسؤولية الملقاة على عاتق الإنسان أمام خالقه، فإذا افتقد الإنسان إلى الدافع المحرك فسوف لا ـ يبحث فيما جاءت به كتب السماء، و لا ـ يستقر له شأن فى أمر المعاد، بل و حتى لا يستمع لإنذارات الأنبياء و الأولياء عليهم السّلام.

و تأتى آخر آية من السورة لتبيّن أنّ ما تبقى من الوقت لحلول الوعد الحق ليس إلّا قليلا ـ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها.

فعمر الدنيا و حياة البرزخ من السرعة فى الانقضاء ليكاد يعتقد الناس عند وقوع القيامة، بأنّ كلّ عمر الدنيا و البرزخ ما هو إلّا سويعات معدودة! و ليس ببعيد .. لأنّ عمر الدنيا قصير بذاته، و ليس من الصواب أن نقايس بين زمنى الدنيا و الآخرة، لأنّ الفانى ليس كالباقى.

«عشيّة»: العصر. و «الضحى»: وقت انبساط الشمس و امتداد النهار.

و قد نقلت الآيات القرآنية بعض أحاديث المجرمين فى يوم القيامة، فيما يختص بمدّة لبثهم فى عالم البرزخ ..

فتقول الآية (۱۰۳) من سورة طه: يَتَخافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً، و يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْماً.

و تقول الآية (۵۵) من سورة الروم: وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۵

لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ.

و اختلاف تقديرات مدّة اللبث، يرجع لاختلاف القائلين، و كلّ منهم قد عبّر عن قصر المدّة حسب ما يتصور، و القاسم المشترك لكلّ التقديرات هو أنّ المدّة قصيرة جدّا و يكفى طرق باب هذا الموضوع بإيقاظ الغافل من خدره.

اللّهمّ! هب لنا الأمن و السلامة فى العوالم الثلاث، الدنيا و البرزخ و القيامة ...

يا ربّ! لا ينجو من عقاب و شدائد يوم القيامة إلّا من رحمته بلطفك، فاشملنا بخاصة لطفك و رحمتك ..

إلهى! اجعلنا ممن يخاف مقامك و ينهى نفسه عن الهوى، و لا تجعل لنا غير الجنّة مأوى ..

آمين ربّ العالمين نهاية سورة النّازعات***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۷

سورة عبس

اشارة

مكيّة و عدد آياتها اثنتان و أربعون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۰۹

«سورة عبس»

محتوى السورة:

تبحث هذه السورة على قصرها مسائل مختلفة مهمّة تدور بشكل خاص حول محور المعاد، و يمكن ادراج محتويات السورة فى خمسة مواضيع أساسية.

۱- عتاب إلهى شديد لمن واجه الأعمى الباحث عن الحقّ بأسلوب غير لائق.

۲- أهمية القرآن الكريم.

۳- كفران الإنسان للنعم و المواهب الإلهية.

۴- بيان جانب من النعم الإلهية فى مجال تغذية الإنسان و الحيوان لاثارة حسّ الشكر فى الإنسان.

۵- الإشارة إلى بعض الوقائع و الحوادث الرهيبة و مصير المؤمنين و الكفّار ذلك اليوم العظيم.

و تسمية هذه السورة بهذا الاسم بمناسبة الآية الاولى منها.

فضيلة السورة:

ورد فى الحديث النّبوى الشريف أنّ: «من قرأ سورة «عبس» جاء يوم القيامة و وجهه ضاحك مستبشر»[۴۵۰]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۰

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَ تَوَلَّى (۱) أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى (۲) وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (۳) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى (۴)

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى (۵) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (۶) وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (۷) وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى (۸) وَ هُوَ يَخْشى (۹)

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (۱۰)

سبب النّزول

تبيّن الآيات المباركة عتاب اللّه تعالى بشكل إجمالى، عتابه لشخص قدّم المال و المكانة الاجتماعية على طلب الحق ... أمّا من هو المعاتب؟ فقد اختلف فيه المفسّرون، لكنّ المشهور بين عامّة المفسّرين و خاصتهم، ما يلى:

إنّها نزلت فى عبد اللّه بن ام مكتوم، إنّه أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يناجى عتبة بن ربيعة و أبا جهل بن هشام و العباس بن عبد المطلب و أبى و اميّة بن خلف يدعوهم إلى اللّه و يرجو إسلامهم (فإنّ فى إسلامهم إسلام جمع من أتباعهم، و كذلك توقف عدائهم و محاربتهم للإسلام و المسلمين)، فقال: يا رسول اللّه، أقرئنى و علمنى ممّا علمك اللّه، فجعل يناديه و يكرر النداء و لا يدرى أنّه مشتغل مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهة فى وجه رسول اللّه لقطعه كلامه، و قال فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۱

نفسه: يقول هؤلاء الصناديد، إنّما أتباعه العميان و العبيد، فأعرض عنه و أقبل على القوم الذين يكلمهم، فنزلت الآية.

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعد ذلك يكرمه، و إذا رآه

قال: «مرحبا بمن عاتبنى فيه ربّى»، و يقول له: «هل لك من حاجة».

و استخلفه على المدينة مرّتين فى غزوتين ۴۵۱].

و الرأى الثّانى فى شأن نزولها: ما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّها نزلت فى رجل من بنى اميّة، كان عند النّبى، فجاء ابن ام مكتوم، فلما رآه تقذر منه و جمع نفسه عبس و أعرض بوجهه عنه، فحكى اللّه سبحانه ذلك، و أنكره عليه»[۴۵۲].

و قد أيّد المحقق الإسلامى الكبير الشريف المرتضى الرأى الثّانى.

و الآية لم تدل صراحة على أنّ المخاطب هو شخص النّبى الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنّ الآيات (۸- ۱۰) فى السورة يمكن أن تكون قرينة، حيث تقول: وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى وَ هُوَ يَخْشى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خير من ينطبق عليه هذا الخطاب الربّانى.

و يحتجّ الشريف المرتضى على الرأى الأوّل، بأنّ ما فى آية عَبَسَ وَ تَوَلَّى لا يدل على أنّ المخاطب هو النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، حيث أنّ العبوس ليس من صفاته مع أعدائه، فكيف به مع المؤمنين المسترشدين! و وصف التصدّى للأغنياء و التلهى عن الفقراء ممّا يزيد البون سعة، و هو ليس من أخلاقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الكريمة، بدلالة قول اللّه تعالى فى الآية (۴) من سورة (ن)، و التى نزلت قبل سورة عبس، حيث وصفه البارى: وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ

و على فرض صحة الرأى الأوّل فى شأن النزول، فإنّ فعل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الحال هذه لا يخرج من كونه (تركا للأولى)، و هذا ما لا ينافى العصمة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۲

و للأسباب التالية:

أوّلا: على فرض صحة ما نسب إلى النّبى فى إعراضه عن الأعمى و إقباله على شخصيات قريش، فإنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بفعله ذلك لم يقصد سوى الإسراع فى نشر الإسلام عن هذا الطريق، و تحطيم صف أعدائه.

ثانيا: إنّ العبوس أو الانبساط مع الأعمى سواء، لأنّه لا يدرك ذلك، و بالإضافة إلى ذلك فإنّ «عبد اللّه بن ام مكتوم» لم يراع آداب المجلس حينها، حيث أنّه قاطع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مرارا فى مجلسه و هو يسمعه يتكلم مع الآخرين، و لكن بما أنّ اللّه تعالى يهتم بشكل كبير بأمر المؤمنين المستضعفين و ضرورة اللطف معهم و احترامهم فإنّه لم يقبل من رسوله هذا المقدار القليل من الجفاء و عاتبه من خلال تنبيهه على ضرورة الاعتناء بالمستضعفين و معاملتهم بكل لطف و محبّة.

و يمثل هذا السياق دليلا على عظمة شأن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فالقرآن المعجز قد حدد لنبىّ الإسلام الصادق الأمين أرفع مستويات المسؤولية، حتى عاتبه على أقل ترك للأولى (عدم اعتنائه اليسير برجل أعمى)، و هو ما يدلل على أنّ القرآن الكريم كتاب إلهى و أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم صادق فيه، حيث لو كان الكتاب من عنده (فرضا) فلا داعى لاستعتاب نفسه ...

و من مكارم خلقه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- كما ورد فى الرواية المذكورة- إنّه كان يحترم عبد اللّه بن ام مكتوم، و كلما رآه تذكر العتاب الرّبانى له.

و قد ساقت لنا الآيات حقيقة أساسية فى الحياة للعبرة و التربية و الاستهداء بها فى صياغة مفاهيمنا و ممارستنا، فالرجل الأعمى الفقير المؤمن أفضل من الغنى المتنفذ المشرك، و أنّ الإسلام يحمى المستضعفين و لا يعبأ بالمستكبرين.

و نأتى لنقول ثانية: إنّ المشهور بين المفسّرين فى شأن النّزول، هو نزولها فى شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكن ليس فى

الآية ما يدل بصراحة على هذا المعنى.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۳

التّفسير

عتاب ربّانى!

بعد أن تحدثنا حول شأن نزول الآيات، ننتقل إلى تفسيرها:

يقول القرآن أولا: عَبَسَ وَ تَوَلَّى

لماذا؟: أَنْ جاءَهُ الْأَعْمى

وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى و يطلب الإيمان و التقوى و التزكية.

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرى فإن لم يحصل على التقوى، فلا أقل من أن يتذكر و يستيقظ من الغفلة، فتنفعه ذلك ۴۵۳].

و يستمر العتاب ...: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى من اعتبر نفسه غنيا و لا يحتاج لأحد.

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى تتوجّه إليه، و تسعى فى هدايته، فى حين أنّه مغرور لما أصابه من الثروة و الغرور يولد الطغيان و التكبر، كما أشارت لهذا الآيتان (۶ و ۷) من سورة العلق: ... إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى [۴۵۴] وَ ما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى أى فى حين لو لم يسلك سبيل التقوى و الإيمان، فليس عليك شىء.

فوظيفتك البلاغ، سواء أمن السامع أم لم يؤمن، و ليس لك أن تهمل الأعمى الذى يطلب الحقّ، و إن كان هدفك أوسع ليشمل هداية كلّ أولئك الأغنياء المتحجرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۴

و تأتى العتاب مرّة اخرى تأكيدا: وَ أَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى فى طلب الهداية ...

وَ هُوَ يَخْشى ۴۵۵]، فخشيته من اللّه هى التى دفعته للوصول إليك، كى يستمع إلى الحقائق ليزكّى نفسه فيها، و يعمل على مقتضاها.

فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۴۵۶].

و يشير التعبير ب «أنت» إلى أنّ التغافل عن طالبى الحقيقة، و مهما كان يسيرا، فهو ليس من شأن من مثلك، و إن كان هدفك هداية الآخرين، فبلحاظ الأولويات، فإنّ المستضعف الظاهر القلب و المتوجه بكلّه إلى الحقّ، هو أولى من كلّ ذلك الجمع المشرك.

و على أيّة حال: فالعتاب سواء كان موجه إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو إلى غيره، فقد جاء ليكشف عن اهتمام الإسلام أو القرآن بطالبى الحق، و المستضعفين منهم بالذات.

و على العكس من ذلك حدّة و صرامة موقف الإسلام و القرآن من الأثرياء المغرورين إلى درجة أنّ اللّه لا يرضى بإيذاء رجل مؤمن مستضعف.

و علّة ذلك، إنّ الطبقة المحرومة من الناس تمثل: السند المخلص للإسلام دائما ... الأتباع الأوفياء لأئمّة دين الحق، المجاهدين الصابرين فى ميدان القتال و الشهادة، كما تشير إلى هذا المعنى

رسالة أمير المؤمنين عليه السّلام لمالك الأشتر: «و إنّما عماد الدين و جماع المسلمين و العدّة للأعداء العامّة من الأئمّة، فليكن صغوك لهم و ميلك معهم»[۴۵۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۵

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۱۱ الى ۲۳]

اشارة

كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ (۱۱) فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ (۱۲) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (۱۳) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (۱۴) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (۱۵) كِرامٍ بَرَرَةٍ (۱۶) قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ (۱۷) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (۱۸) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (۱۹) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (۲۰) ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ (۲۱) ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ (۲۲) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ (۲۳)

التّفسير

تأتى هذه الآيات المباركة لتشير إلى أهمية القرآن و طهارته و تأثيره فى النفوس، بعد أن تناولت الآيات التى سبقتها موضوع (الإعراض عن الأعمى الذى جاء لطلب الحق)،، فتقول كَلَّا فلا ينبغى لك أن تعيد الكرّة ثانية.

إِنَّها تَذْكِرَةٌ، إنّما الآيات القرآنية تذكرة للعباد، فلا ينبغى الإعراض عن المستضعفين من ذوى القلوب النقية الصافية و التوجه إلى المستكبرين، أولئك الذين ملأ الغرور نفوسهم المريضة.

و يحتمل أيضا، كون الآيات، كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ جواب لجميع التهم الموجهة ضد القرآن من قبل المشركين و أعداء الإسلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۶

و فتقول الآية: إنّ الأباطيل و التهم الزائفة التى افتريتم بها على القرآن من كونه شعر أو سحر أو نوع من الكهانة، لا يمتلك من الصحة شيئا، و إنّما الآيات القرآنية آيات تذكرة و إيمان، و دليلها فيها، و كلّ من اقترب منها سيجد أثر ذلك فى نفسه (ما عدا المعاندين).

و تشير الآية التالية إلى اختيارية الهداية و التذكّر: فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ ۴۵۸].

نعم، فلا- إجبار و لا إكراه فى تقبل الهدى الرّبانى، فالآيات القرآنية مطروحة و أسمعت كلّ الآذان، و ما على الإنسان إلّا أن يستفيد منها أو لا يستفيد.

ثمّ يضيف: أنّ هذه الكلمات الإلهية الشريفة مكتوبة فى صحف (ألواح و أوراق): فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ.

«الصحف»: جمع (صحيفة) بمعنى اللوح أو الورقة، أو أىّ شىء يكتب عليه.

فالآية تشير إلى أنّ القرآن قد كتب على ألواح من قبل أن ينزّل على النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و وصلت إليه بطريق ملائكة الوحى، و الألواح بطبيعتها جليلة القدر و عظيمة الشأن.

و سياق الآية و ارتباطها مع ما سبقها من آيات و ما سيليها: لا- ينسجم مع ما قيل من أنّ المقصود بالصحف هنا هو، كتب الأنبياء السابقين.

و كذا الحال بالنسبة لما قيل من كون «اللوح المحفوظ»، لأنّ «اللوح و المحفوظ» لا- يعبر عنه بصيغة الجمع، كما جاء فى الآية: «صحف».

و هذه الصحف المكرمة: مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ.

فهى مرفوعة القدر عند اللّه، و أجلّ من أن تمتد إليها أيدى العابثين و ممارسات المحرّفين، و لكونها خالية من قذارة الباطل، فهى أطهر من أن تجد فيها أثرا لأىّ تناقض أو تضاد أو شك أو شبهة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۷

و هى كذلك: بِأَيْدِى سَفَرَةٍ، سفراء من الملائكة.

و هؤلاء السفراء: كِرامٍ بَرَرَةٍ.

«سفرة»: جمع (سافر) من (سفر) على وزن (قمر)، و لغة: بمعنى كشف الغطاء عن الشىء، و لذا يطلق على الرسول ما بين الأقوام (السفير) لأنّه يزيل و يكشف الوحشة فيما بينهم، و يطلق على الكاتب اسم (السافر)، و على الكتاب (سفر) لما يقوم به من كشف موضوع ما و عليه ... فالسفرة هنا، بمعنى: الملائكة الموكلين بإيصال الوحى الإلهى إلى النّبى، أو الكاتبين لآياته.

و قيل: هم حفّاظ و قرّاء و كتّاب القرآن و العلماء، الذين يحافظون على القرآن من أيدى العابثين و تلاعب الشياطين فى كلّ عصر و مصر.

و يبدو هذا القول بعيدا، لأنّ الحديث فى الآيات كان يدور حول زمان نزول الوحى على صدر الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ليس عن المستقبل.

و ما

ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام، فى و قوله: «الحافظ للقرآن العامل به مع السفرة الكرام البررة»[۴۵۹].

بجعل الحافظين للقرآن العاملين به فى درجة السفرة الكرام البررة، فليسوا هم السفرة بل فى مصافهم، لأنّ جلالة مقام حفظهم و عملهم، يماثل ما يؤديه حملة الوحى الإلهى.

و نستنتج من كلّ ما تقدم: بأنّ من يسعى فى حفظ القرآن و إحياء مفاهيمه و أحكامه ممارسة، فله من المقام ما للكرام البررة.

«كرام»: جمع (كريم)، بمعنى العزيز المحترم، و تشير كلمة «كرام» فى الآية إلى عظمة ملائكة الوحى عند اللّه و علو منزلتهم.

و قيل: «كرام»: إشارة إلى طهارتهم من كلّ ذنب، بدلالة الآيتين (۲۶ و ۲۷) من سورة الأنبياء: بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۸

«بررة»: جمع (بار)، من (البرّ)، بمعنى التوسع، و لذا يطلق على الصحراء الواسعة اسم (البر)، كما يطلق على الفرد الصالح اسم (البار) لوسعة خير و شمول بركاته على الآخرين.

و «البررة»: فى الآية، بمعنى: إطاعة الأمر الإلهى، و الطهارة من الذنوب.

و من خلال ما تقدم تتوضح لنا ثلاث صفات للملائكة.

الاولى: إنّهم «سفرة» حاملين وحيه جلّ شأنه.

الثّانية: إنّهم أعزاء و مكرمون.

الثالثة: طهرة أعمالهم عن كلّ تقاعس أو مفسدة.

و على الرغم من توفير مختلف وسائل الهداية إلى اللّه، و منها ما فى صحف المكرمة من تذكير و توجيه .. و لكنّ الإنسان يبقى عنيدا متمردا: قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ ۴۶۰].

«الكفر»: فى هذا الموضوع قد يحتمل على ثلاثة معان ... عدم الإيمان، الكفران و عدم الشكر ... جحود الحق و ستره بأىّ غطاء كان و على كلّ المستويات، و هو المعنى الجامع و المناسب للآية، لأنّها تعرضت لأسباب الهداية و الإيمان، فيما تتحدث الآيات التى تليها عن بيان النعم الإلهية التى لا تعد و لا تحصى.

قُتِلَ الْإِنْسانُ كناية عن شدّة غضب البارى جلّ و علا، و زجره لمن يكفر بآياته.

ثمّ يتعرض البيان القرآنى إلى غرور الإنسان الواهى، و الذى غالبا ما يوقع صاحبه فى هاوية الكفر و الجحود السحيقة: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۱۹

لقد خلقه من نطفة قذرة حقيرة، ثمّ صنع منه مخلوقا موزونا مستويا قدّر فيه جميع أموره فى مختلف مراحل حياته: مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ

فلم لا يتفكر الإنسان بأصل خلقته؟! لم ينسى تفاهة مبدأه؟! ألّا يجدر به أن يتأمل فى قدرة البارى سبحانه، و كيف جعله موجودا بديع الهيئة و الهيكل من تلك النطفة الحقيرة القذرة!! ألا يتأمل!! ..

فالنظرة الفاحصة الممعنة فى خلق الإنسان من نطفة قذرة و تحويله إلى هيئته التامّة المقدرة من كافة الجهات، و مع ما منحه اللّه من مواهب و استعدادات ... لأفضل دليل يقودنا بيسر إلى معرفته جلّ اسمه.

«قدّره»: من (التقدير)، و هو الحساب فى الشىء ... و كما بات معلوما أنّ أكثر من عشرين نوعا من الفلزات و أشباه الفلزات داخلة فى التركيب (البيولوجى) للإنسان، و لكلّ منها مقدارا معينا و محسوبا بدقّة متناهية من حيث الكمية الكيفية، بل و يتجاوز التقدير حدّ البناء الطبيعى للبدن ليشمل حتى الاستعدادات و الغرائز و الميول المودعة فى الإنسان الفرد، بل و فى المجموع العام للبشرية، و قد وضع الحساب فى مواصفات تكوينية ليتمكن الإنسان بواسطتها من الوصول إلى السعادة الإنسانية المرجوة.

و تتجلّى عظمة تقدير الخالق سبحانه فى تلك النطفة الحقيرة القذرة التى تتجلّى بأبهى صورها جمالا و جلالا، حيث لو جمعنا الخلايا الأصلية للإنسان (الحيامن) لجميع البشر، و وضعناها فى مكان واحد، لكانت بمقدار حمصة! نعم ...

فقد أودعت فى هذا المخلوق العاقل الصغير كلّ هذه البدائع و القابليات.

و قيل: التقدير بمعنى التهيئة.

و ثمّة احتمال آخر، يقول التقدير بمعنى إيجاد القدرة فى هذه النطفة المتناهية فى الصغر.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۰

فما أجلّ الإله الذى جعل فى موجود ضعيف كلّ هذه القدرة و الاستطاعة، فترى النطفة بعد أن تتحول إلى الإنسان تسير و تتحرك بين أقطار السماوات و الأرض، و تغوص فى أعماق البحار و قد سخرت لها كلّ ما يحيط بها من قوى ۴۶۱].

و لا مانع من الأخذ بالتفاسير الثلاث جملة واحدة.

و يستمر القرآن فى مشوار المقال: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ... يسّر له طريق تكامله حينما كان جنينا فى بطن امّه، يسّر له سبيل خروجه إلى الحياة من ذلك العالم المظلم.

و من عجيب خلق الإنسان أنّه قبل خروجه من بطن امّه يكون على الهيئة التالية: رأسه إلى الأعلى و رجليه إلى الأسفل، و وجهه متجها صوب ظهر امّه، و ما أن تحين ساعة الولادة حتى تنقلب هيئة فيصبح رأسه إلى الأسفل كى تسهل و تتيسّر ولادته! و قد تشذ بعض حالات لولادة، بحيث يكون الطفل فى بطن امّه فى هيئة مغايرة للطبيعة، ممّا تسبب كثير من السلبيات على وضع الام عموما.

و بعد ولادته: يمرّ الإنسان فى مرحلة الطفولة التى تتميز بنموه الجسمى، ثمّ مرحلة نمو الغرائز، فالرشد فى مسير الهداية الايمانية و الروحية، و يساهم العقل و دعوة الأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام فى تركيز معالم شخصية و بناء الإنسان و رحيا و إيمانيا.

و بلاغة بيان القرآن قد جمعت كلّ ذلك فى جملة واحدة: ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ

و الملفت للنظر أنّ الآية المباركة تؤكّد على حرية اختيار الإنسان حين قالت أنّ اللّه تعالى يسّر و سهّل له الطريق الى الحق، و لم تقل أنّه تعالى أجبره على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۱

سلوك ذلك الطريق.

و تشير الآية التالية إلى الأمر الحتمى الذى به تطوى آخر صفحات مشوار الحياة الدنيا: ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ

و من المعلوم أنّ «الإماتـة» من اللّه تعالى و الدفن على ظاهره من عمل الإنسان، و لمّا كانت عملية الدفن تحتاج إلى نسبة من الذكاء و العقل بالإضافة إلى توفر بعض المستلزمات الضرورية لذلك، فقد نسب الدفن «فأقبره» إلى اللّه تعالى.

و قيل: نسب اللّه ذلك إليه، باعتبار تهيئة الأرض قبرا للإنسان.

قيل: تمثل الآية حكما شرعيا، و أمرا إلهيا فى دفن الأموات.

و على أيّة حال، فالدفن من عناية و لطف و تكريم اللّه للإنسان، فلولا أمره سبحانه بالدفن لبقيت أجساد الإنسان الميتة على الأرض و تكون عرضة للتعفن و التفسخ و طعما للحيوانات الضارية و الطيور الجارحة، فيكون الإنسان و الحال هذه فى موضع الذّلة و المهانة، و لكنّ لطف البارى عزّ و جلّ على الإنسان فى حياته و بعد مماته أوسع ممّا يلتفت فيه الإنسان لنفسه أيضا.

و حكم دفن الأموات (بعد الغسل و التكفين و الصلاة)، يبيّن لنا ... إنّه ينبغى على الإنسان أن يكون طاهرا محترما فى موته، فكيف به يا ترى و هو حىّ؟! و ذكر الموت فى الآية باعتباره نعمة ربّانية، أضفى بها البارى على الإنسان ..

و بنظرة تأملية فاحصة سنجد حقيقة ذلك، فالموت فى حقيقة عبارة عن:

أوّلا: مقدمة للخلاص من أتعاب و صعاب هذا العالم، و الانتقال إلى عالم أوسع.

ثانيا: فسح المجال لتعاقب الأجيال على الحياة الدنيا لمتابعة مشوار التكامل البشرى بصورة عامّة، و لولا الموت لضاقت الأرض بأهلها، و لما كان ممكنا أن تستمر عجلة الحياة على الأرض.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۲

و أشارت الآيات (۲۶- ۲۸) من سورة الرحمن إلى نعمة الموت، بالقول:

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَ الْإِكْرامِ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ! فالموت على ضوء الآية المباركة من مفردات النعم الكبيرة للبارى جلّ شأنه على البشرية.

نعم .. فالدنيا و جميع ما تحويه من نعم ربّانية لا تتعدى كونها سجن المؤمن، و الخروج منها إطلاق سراح من هذا السجن الكئيب.

و إذا كانت النعم سببا لوقوع الإنسان فى غفلة عن اللّه، فالموت خير رادع لا يقاظه و تحذيره من الوقوع فى ذلك الشرك، فهو و الحال هذه نعمة جليلة الشأن.

أضف إلى ذلك كلّه، إنّ الحياة لو دامت فسوف لا يجنى الإنسان منها سوى الملل و التعب، فهى ليست كالآخرة التى تحمل بين ثناياها النشاط و السعادة الأبدية.

و ينتقل البيان القرآنى إلى يوم القيامة: ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ

«أنشره»: من (النشر)، بمعنى الانبساط بعد الجمع، فالكلمة تشير بأسلوب بلاغى رائع إلى جمع كلّ حياة الإنسان عند الموت لتنشر فى محيط أكبر و أعلى (يوم القيامة).

و مع أنّ الآية السابقة لم تشر إلى مشيئة اللّه فى عمليتى الموت و الإقبار ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ إلّا أنّ «النشر» قد اقترن بمشيئته سبحانه فى الآية المبحوثة ثُمَّ إِذا شاءَ أَنْشَرَهُ .. يمكن حمل ذلك على كون إشارة لعدم معرفة أىّ مخلوق بوقت حدوث يوم القيامة، و أمّا الموت فهو معروف إجمالا، حيث كلّ إنسان يموت بعد عمر طبيعى.

و تأتى الآية الأخيرة من الآيات المبحوثة لتبيّن لنا ما يؤول إليه الإنسان من ضياع فى حال عدم اعتباره بكلّ ما أعطاه اللّه من المواهب، فالرغم من حتمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۳

تسلسل حياة الإنسان من نطفة حقيرة، مرورا بما يطويه من صفحات الزمن العابرة، حتى يموت و يقبر، لكنّه .. كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ [۴۶۲].

جاءت «لمّا»،- التى عادة ما يستعمل للنفى المصاحب لما ينتظر و يتوقع- كإشارة إلى ما وضع تحت اختيار و عين الإنسان من نعم إلهية و هداية ربّانية و أسباب التذكير، لأجل أن يرجع الإنسان إلى ما فطر عليه و يؤدى ما عليه من مسئولية و تكاليف، و لكنّه مع كلّ ذلك فلا زال غير مؤد لما عليه! و ثمّة احتمالات فيمن عنتهم الآية:

الأوّل: إنّهم السائرون فى طريق الكفر و النفاق، إنكار الحق، الظلم و العصيان، بقرينة الآية (۳۴) من سورة إبراهيم: إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

الثّانى: إنّهم جميع البشر .. لأنّ المؤمن و الكافر يلتقون معا فى عدم بلوغهما لدرجة العبودية الحقة و الطاعة الكاملة التى تليق بجلالة و عظمة و لطف البارى جلّ شأنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۴

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۲۴ الى ۳۲]

اشارة

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ (۲۴) أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا (۲۵) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (۲۶) فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا (۲۷) وَ عِنَباً وَ قَضْباً (۲۸) وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا (۲۹) وَ حَدائِقَ غُلْباً (۳۰) وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا (۳۱) مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ (۳۲)

التّفسير

فلينظر الإنسان إلى طعامه:

تحدثت الآيات السابقة حول مسألة المعاد، و الآيات القادمة تتناول نفس الموضوع بشكل أوضح، و يبدو أنّ الآيات المبحوثة- و انسياقا مع ما قبلها و ما بعدها- تتطرق لذات لبحث تبيّن مفردات قدرة البارى جلّ شأنه على كلّ شىء كدليل على إمكان تحقق المعاد، فما يقرّب إمكانية القيامة إلى الأذهان هو إحياء الأراضى الميتة بإنزال المطر عليها، العملية تمثل إحياء بعد موت مختصة فى عالم النبات.

ثمّ إنّ البيان القرآنى فى الآيات أعلاه قد طرح بعض مفردات الأغذية التى جعلها اللّه تحت تصرف الإنسان و الحيوان، لتثير عند الإنسان الإحساس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۵

بضرورة شكر المنعم الواهب، و هذا الإحساس بدوره سيدفع الإنسان ليتقرب فى معرفة بارئه و مصوّره.

و شرعت الآيات بقولها: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ ۴۶۳] كيف خلقه اللّه تعالى؟! الغذاء من أقرب الأشياء الخارجية من الإنسان و أحد العوامل الرئيسية فى بناء بدنه، و لولاه لتقطّعت أنفاس الإنسان و أسدلت ستارة نصيبه من الحياة، و لذلك جاء التأكيد القرآنى على الغذاء و بالذات النباتى منه من دون بقية العوامل المسخرة لخدمة هذا المخلوق الصغير فى حجمه.

و من الجلى أنّ «النظر» المأمور به فى الآية جاء بصيغة المجاز، و أريد به التأمل و التفكير فى بناء هذه المواد الغذائية، و ما تحويه من تركيبات حياتية، و ما لها من تأثيرات مهمّة و فاعلة فى وجود الإنسان، وصولا إلى حال التأمل فى أمر خالقها جلّ و علا.

أمّا ما احتمله البعض، من كون «النظر» فى الآية هو النظر الظاهرى (أى المعنى الحقيقى للكلمة)، و على أساس طبى، حيث أنّ النظر إلى الغذاء يثير إلى الغدد الموجودة فى الفم لإفراز موادها كى تساعد عملية هضمه فى المعدة، فيبدو هذا الاحتمال بعيدا جدّا، لأنّ

سياق الآية و بربطها بما قبلها و ما بعدها من الآيات لا ينسجم مع هذا الاحتمال.

و بطبيعة الحال إنّ الذين يميلون إلى هذا الاحتمال هم علماء التغذية الذين ينظرون إلى القرآن الكريم من زاوية تخصصهم لا غير.

و قيل أيضا: نظر الإنسان إلى غـذاءه فى حال جلوسه حول مائـدة الطعام، النظر إلى كيفيـة حصوله ... فهل كان من حلال أم من حرام؟ هل هو مشروع أم غير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۶

مشروع؟ أى ينظر إلى طعامه من جانبيه الأخلاقى و التشريعى.

و قد ذكر فى بعض روايات أهل البيت عليهم السّلام، إنّ المراد ب «الطعام» فى الآية هو (العلم) لأنّه غذاء الروح الإنسانية.

و من هذه الروايات ما

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام فى تفسير الآية، إنّه قال: «علمه الذى يأخذه عمن يأخذه»[۴۶۴].

و قد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام ما يشابه معنى الرواية أعلاه ۴۶۵].

و إذا كان المستفاد من ظاهر الآية هو الطعام الذى يدخل فى عملية بناء الجسم، فلا يمنع من تعميمه ليشـمل الغذاء الروحى أيضا، لأنّ الإنسان فى تركيبته مكوّن من جسم و روح، فكما أنّ الجسم يحتاج إلى الغذاء المادى فكذا الروح بحاجة إلى الغذاء المعنوى.

و فى الوقت الـذى ينبغى على الإنسـان أن يكون فيه دقيقـا متابعـا لأمر غـذائه و باحثا عن منبعه: و هو المطر المحيى الأرض بعـد موتها (كما سيأتى فى الآيات التالية)، فعليه أيضا أن يهتم فى أمر غذاءه الروحى و باحثا فى منشئه، و هو غيث الوحى الإلهى النازل على قلب الحبيب المصـطفى صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم، و الـذى خزن فى صـدور المعصومين عليه السّـلام من بعده، حيث ينبع من صـفحات قلوبهم الطاهرة ليسقى الموات عسى أن تثمر ألوان الثمار الإيمانية اللذيذة من فضائل أخلاقية و عقائدية.

نعـم ... ينبغى على الإنسـان أن يكـون دقيقـا فى متابعـة مصـدر و منبـع علمـه ليطمئن لغـذائه الروحى، و ليـأمن بالنتيجـة من مـدلهمات الخطوب التى تؤدى لمرض الروح أو هلاكها.

و بواسطة الدلالة الالتزامية، يستفاد من الآية المباركة ضرورة النظر فى حليّة و حرمة الغذاء، و ذلك عن طريق قياس الأولوية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۷

و ثمّة من يقول: إنّ المعنى كلّ من «الطعام» و «النظر» من الوسع بحيث يشمل كلّ ما ذكره أعلاه، و لكن .. من المخاطب فى الآية؟

الجميع مخـاطبون، سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فعلى كلّ إنسان أن ينظر إلى طعامه و يتفكر فيما أودع فيه من أسـرار و عجائب كما و كيفية، و عسى الضال- و الحال هذه- أن يجد ضالته فيترك طريق الضلال و يسلك طريق الحقّ، و لكى يزداد المؤمنون إيمانا.

فالأغذية بما تحمل و تقدم تعتبر عالما مضـيئا و آيات باهرة تنير درب الباحثين عن الحق فى لجج الضـياع و الجهالة، و توصل الباحثين عن الأمان إلى شاطئ النجاة.

ثمّ يدخل القرآن فى شرح تفصيلى لماهية الغذاء و مصدر تشكيله، فيقول أَنَّا صَبَبْنَا الْماءَ صَبًّا.

«الصب»: إراقة الماء من أعلى، و جاء هنا بمعنى هطول المطر.

و «صبأ»: تأكيد، و للإشارة إلى غزارة الماء.

نعم .. فالماء مصدر رئيسى للحياة، و هو على الدوام ينزل من السماء و بغزارة ليجسد لطف اللّه تعالى على خلقه.

كيف لا، و كلّ العيون و الآبار و القنوات و الأنهار قد استمدت أساس وجودها من الأمطار.

و عليه .. فلاـ بـدّ للإنسـان حين ينظر إلى طعـامه أن يربـط ذلك بنظام المطر، و يـدقق النظر فى عمليـة تكوين الغيوم و كيفيـة حـدوث الأمطار.

فالماء المتبخر من سطح البحار، يتجمع فى الفضاء على شكل غيوم، و تتحرك تلك الغيوم بفعل الرياح إلى طبقات الجو الباردة، فتبدأ

بعملية التكاثف حتى تصل لدرجة الهطول، فترى ذلك البخار، و قد تحول إلى قطرات ماء زلال خال من أىّ أملاح مضرة و قد تطهر عن كلّ قذارة، و ليستقر فى آخر مطافه على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۸

الأرض ليعطيها القوّة و الحركة و الحياة.

و بعد ذكر نعمة الماء و ما له من أثر حيوى و مهم فى نمو النباتات، ينتقل البيان القرآنى إلى الأرض، فيقول: ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا.

يذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ الآية تشير إلى عملية شقّ الأرض بواسطة النباتات التى تبدأ بالظهور على سطح الأرض بعد عملية بذر الحبوب، و العلمية بحدّ ذاتها مدعاة للتأمل، إذ كيف يمكن لهذا العشب الصغير الناعم أن يفتت سطح التربة مع مالها من صلابة و خشونة! بل و نرى فى المناطق الجبلية أنّ سويقات نباتاتها و قد ظهرت من بين حافات صخورها الصلدة! فأيّة قدرة هائلة قد أودعت فيها، سبحانك يا ربّ و أنت الخلاق العليم.

و قيل: تشير الآية إلى شقّ الأرض بالآيات الزرّاعة من قبل الإنسان، أو تشير إلى ما تقوم به الديدان من حرث الأرض و تشقيقها من خلال ممارساتها لنشاطاتها الحياتية المختصة بها.

صحيح أنّ الإنسان هو الذى يقوم بعملية الحرث، و لكنّ جميع أسبابه و وسائله من اللّه عزّ و جلّ، لذا فقد نسبت عملية شقّ الأرض إلى البارى جلّ اسمه.

و ثمّة تفسير ثالث يقول: إنّ شقّ الأرض فى الآية إشارة إلى تفتت الصخور التى كانت على سطح الأرض.

و لهذا التفسير مرجحات عديدة ...

و توضيح ذلك: كان سطح الكرة الأرضية مغطى بطبقة عظيمة من الصخور، و قد تشققت تلك الطبقة الصخرية بفعل غزارة هطول الأمطار المتتالية عليها، ممّا جعلتها علس شكل ذرات منتشرة على معظم سطح الأرض، فتحولت إلى تربة صالحة للزراعة.

و حتى يومنا المعاش ... نلاحظ قسما كبيرا من الأتربة التى تحملها مياه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۲۹

الأنهار أو المصحوبة مع السيول، نلاحظها و قد كونت طبقات من التربة الصالحة للزراعة بعد أن تستقر على الأرض يتبخر الماء عنها أو تمتصه الأرض.

فالآية تمثل إحدى مفردات الإعجاز العلمى للقرآن، لأنّها تناولت موضوع الأمطار و تشقق الأرض و تهيئها للزراعة، بشكل علمى دقيق، و الآية لم تتحدث عن شىء قد حدث، بل حدث و لا زال، يبدو أنّ هذا التفسير ينسجم مع ما تطرحه الآية التالية بخصوص عملية الإنبات ... مع ذلك، فلا ضير من قبول التفاسير الثلاثة للآية و من جهات مختلفة.

و بعد ذكر ركنين أساسيين فى عملية الإنبات- أى الماء و التراب- ينتقل القرآن بالإشارة إلى ثمانية مصادر لغذاء الإنسان أو الحيوان: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا.

تعتبر الحبوب من الأغذية الرئيسية للإنسان و الحيوان معا، و تتوضح أهميتها فيما لو عمّ الجفاف- على سبيل المثال- فمدّة عام واحد، حيث يعمّ القحط و تنتشر المجاعة فى كلّ مكان.

«حبّا»: جاءت فى الآية نكرة، لتعظيم شأنها، أو لتشير إلى تنوع أصناف الحبوب، و ذهب البعض إلى أنّ الحنطة الشعير هما المرادان دون بقية الحبوب، و لكن ليس هناك من دليل على هذا التخصيص، و إطلاق الكلمة يدل على شمول كلّ المحبوب.

ثمّ يضيف: وَ عِنَباً وَ قَضْباً.

و قد اختارت الآية العنب دون البقية لما أودع فيه من مواد غذائية غنية بالمقويات، حتى قيل عنه بأنّه غذاء كامل.

و مع أنّ «العنب» يطلق على الشجرة و الثمرة، و بالرغم من ورود كلا الاستعمالين فى الآيات القرآنية، لكنّ المناسب هنا الثمرة دون

الشجرة.

«قضبا»: هو الخضروات التى تحصد بين فترة اخرى، و ما أريد منها بالذات، تلك الخضراوات التى تؤكل من غير طبخ (تؤكل طرية)، و قد جاء ذكرها بعد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۰

العنب لأهميتها الغذائية، و قد أكّد هذا المعنى علم التغذية الحديث.

و تستعمل كلمة (القضيب) بمعنى القطف و القطع أيضا، و (القضيب): غصن الشجرة، و (سيف قاضب) بمعنى: قاطع.

و روى عن ابن عباس قوله: إن «القضيب» فى هذه الآية هو (الرطب)، و لكنّ هذا المعنى بعيد جدّا للإشارة إلى الرطب فى الآية التالية.

و قيل أيضا: «القضب» الوارد فى الآية، بمعنى ثمار النباتات الزاحفة (كالخيار و البطيخ و ما شابهه)، أو النباتات الأرضية (كالبصل و الجزر ... إلخ).

و لا يبعد من إرادة كلّ الخضروات التى تؤكل طريقة و النباتات الزاحفة و كذا الأرضية فى معنى «القضب» المشار إليه فى الآية.

ثمّ يضيف وَ زَيْتُوناً وَ نَخْلًا و من الواضح أنّ ذكر هاتين الفاكهتين لما لهما من الأهمية الغذائية للإنسان، حيث يعتبر الزيتون و الثمر من أهم الأغذية المقوية و الصحية و المفيدة للإنسان.

و تأتى المرحلة التالية: وَ حَدائِقَ غُلْباً.

«الحدائق»: جمع (حديقة)، و هى الأرض المزروعة و المحاطة بسور يحفظها، و هى الأصل بمعنى: قطعة الأرض التى تحتوى على الماء، و سميّت حديقة تشبيها بحدقة العين من حيث الهيئة و حصول الماء فيها.

و يحتمل إشارة الآية إلى أنواع الفواكه، باعتبار أنّ الحدائق غالبا ما تزرع بأشجار الفاكهة.

«غلب»: على وزن (قفل)، جمع (أغلب) و (غلباء)، بمعنى غليظ الرقبة، فلآية إذن ترمز إلى الأشجار الشاهقة المتينة.

ثمّ يضيف: وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا.

«الأبّ»: (بتشديد الباء): هو المرعى المهيأ للرعى و الحصد، و هو فى الأصل بمعنى «التهيؤ»، اطلق على المرعى لما فيه من أعشاب يكون بها مهيئا لاستفادة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۱

الحيوانات منه.

و ذكر جمع من المفسّرين- من كلا الفريقين- فى ذيل الآية: إنّ عمر بن الخطاب قرأ يوما على المنبر: فَأَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَ عِنَباً وَ قَضْباً إلى قوله تعالى:

وَ أَبًّا .. قال: كلّ هذا قد عرفناه، فما الأبّ! ثمّ رمى عصا كانت فى يده، فقال: هذا لعمر اللّه هو التكلف، فما عليك أن لا تدرى ما الأبّ!! اتّبعوا ما تبيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربّه![۴۶۶].

و أغرب من ذلك، ما ورد فى (الدر المنثور) عن أبى بكر حينما سئل عن ذلك، أنّه قال: (أىّ سماء تظلنى و أىّ أرض تقلنى إذا قلت فى كتاب اللّه ما لا أعلم)! و قد اتّخذ كثير من علماء السنّة من الحديثين المذكورين على أنّه: لا ينبغى لأحد التكلم فيما لا يعلم، و على الأخص فى كتاب اللّه.

و لكن، يبقى فى الذهن إشكال ... إذ كيف يكون لخليفة المسلمين أن لا يفقه كلمة وردت فى القرآن الكريم، مع كونها ليست من معضلات اللغة؟!! و هذا ما يوصلنا إلى ضرورة وجود قائد الإلهى فى كلّ عصر، و أن يكون عارفا بجميع المسائل الشرعية، و منزّها عن الخطأ (معصوما).

و لذلك،

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام، إنّه حينما سمع بما قاله الخليفة .. قال: «سبحان اللّه أما علم أنّ الأبّ هو الكلأ و المرعى، و أنّ قوله تعالى: وَ فاكِهَةً وَ أَبًّا اعتداد من اللّه بإنعامه على خلقه، فيما غذّاهم به، و خلقه لهم و لأنعامهم، ممّا تحيى به أنفسهم و تقوم به أجسادهم»[۴۶۷].

و يواجهنا سؤال: إذا كانت الآيات السابقة ذكرت بعض أنواع الفاكهة، و الآية المبحوثة تناولت الفاكهة بشكل عام، هذا بالإضافة إلى ذكر ل «حدائق» فى الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۲

السابقة و التى قيل أنّ ظاهرها يشير إلى الفاكهة ... فلم هذا التكرار؟

الجواب: إنّ تخصيص ذكر العنب و الزيتون و التمر (بقرينة ذكر النخل)، إنّما جاء ذكرها لأهميتها المميزة على بقية الفاكهة[۴۶۸].

أمّا لماذا ذكرت بشكل منفصل عن الفاكهة؟ فيمكن حمله على ما للحدائق من منافع خاصّة بها، و لا تشترك الفاكهة فيها، كجمالية منظرها و عذوبة نسيمها و ما شابه ذلك، بالإضافة إلى استعمال أوراق الأشجار و جذورها و قشور جذوعها كمواد غذائية (كالشاى و الزنجبيل و أمثالها)، أمّا بالنسبة للحيوانات، فأوراق الأشجار المختلفة من أفضل أغذيتها عموما ... فالآيات إذن كانت فى صدد الحديث عن غذاء الإنسان و الحيوان.

و لذلك ... جاءت الآية التالية لتوضيح هذا المعنى: مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ

«و المتاع»: هو كلّ ما يستفيد منه الإنسان و يتمتع به.

***

بحث

الغذاء النافع:

ذكرت الآيات المبحوثة ثمانية أنواع من المواد الغذائية النباتية لسد احتياجات الإنسان و الحيوانات، و هذا التأكيد على الأغذية النباتية يعطى ما للنباتات و الحبوب و الفاكهة من أهمية غذائية تفوق فى دورها على الأغذية الحيوانية التى تأتى فى نظر القرآن فى المرتبة الثّانية من حيث الأهمية.

و قد اهتم علماء التغذية حديثا بما ورد فى القرآن الكريم فيما يخصّ مجال عملهم، و يكشف هذا الاهتمام بدوره عن عظمة القرآن و قوّة ما فيه ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۳

و على أيّة حال، فالتأمل فى هذه الأمور يزيد الإنسان معرفة بعظمة و لطف الخالق جلّ شأنه، و يوسّع اطلاعه فى تحسس نعم البارى جلّ اسمه على الخلائق أجمعين.

نعم .. فالاهتمام فى مسألة غذاء الإنسان (الجسمى و الروحى) من حيث النوعية و طريقة كسبه، يدفع الإنسان للتقرب أكثر من جادة معرفة اللّه و سلوك طريق رضوانه سبحانه، كما و يدفع إلى تهذيب و تزكية النفس من أدران الشرك و قذارة الذنوب.

نعم .. فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ تمثل الآية المباركة: أقصر تعبير لمعنى واسع و متشعب.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۴

الآيات [سورة عبس (۸۰): الآيات ۳۳ الى ۴۲]

اشارة

فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ (۳۳) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (۳۴) وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ (۳۵) وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ (۳۶) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (۳۷) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (۳۸) ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (۳۹) وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ (۴۰) تَرْهَقُها قَتَرَةٌ (۴۱) أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (۴۲)

التّفسير

صيحة البعث ...

و ينتقل الحديث فى هذه الآيات إلى يوم القيامة و تصوير حوادثه، و ما سيؤول فيه من أحوال المؤمنين الكافرين، كلّ بما كسبت يداه و قدّم.

فمتاع الحياة الدنيا و إنّ طال فهو قليل جدّا فى حساب حقيقة الزمن، و أنّ خالق كلّ شىء لعظيم فى خلقه و شأنه، و أنّ المعاد حق و لا بدّ من حتمية وقوعه.

و يقول القرآن الكريم: فَإِذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ[۴۶۹]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۵

«الصّاخة»: من (صخّ)، و هو الصوت الشديد الذى يكاد أن يأخذ بسمع الإنسان، و يشير فى الآية إلى نفخة الصور الثّانية، و هى الصيحة الرهيبة التى تعيد الحياة إلى الموجودات بعد موتها جميعا ليبدأ منها يوم الحشر.

نعم، فالصيحة من الشدّة بحيث تذهله عن كلّ ما كان مرتبطا به، سوى نفسه و أعماله.

و لذا، تأتى الآية التالية، و لتقول مباشرة: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ

ذلك الأخ الذى ما كان يفارقه و قد ارتبط به بوشائج الاخوة الحقة! و كذلك: أُمِّهِ وَ أَبِيهِ

حتى: وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ

فوحشة و رهبة يوم القيامة لا تنسى الأخ و الام و الأب و الزوجة و الأولاد فحسب، بل و تتعدى إلى الفرار منهم، و عند ما ستتقطع كلّ روابط و علاقات الإنسان الفرد مع الآخرين ... فحينها سوف لا يهتم إلّا نفسه و ما قدّم، و سينسى:

امّه التى كانت تحبّه و تفديه ..

و أبو الذى ربّاه و احترمه ..

و زوجته التى لا تعرف غيره ..

و أولاده .. ثمرة كبده و قرة عينه ..

و قيل: إنّما يكون الفرار للتهرب من الحقوق التى لهم عليه، و هو عاجز عن أدائها.

و قيل أيضا: إنّما يفر المؤمنون خاصّة من أقربائهم من غير المؤمنين و غير المتقين، خوفا من الإصابة بما سيصيب أولئك من عقاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۶

و يبدو أنّ التفسير الأوّل أنسب و لا مانع من الجمع بينهما.

و لكن ... ما سرّ تسلسل ذكر الأخ، ثمّ الامّ، فالأب من بعدها، و من ثمّ الزوجة و الأولاد؟

يعتقد بعض بأنّ التسلسل قد لوحظ فيه شدّة العلاقة ما بين الفار و من يرتبط بهم، و قد تسلسل الذكر من الأدنى حتى الأعلى، ليعطى لهذا التصوير بعدا بلاغيا، فهو من أخيه، ثمّ من أمّه و أبيه، ثمّ من زوجته و بنيه.

و لكن: يصعب الخروج بقاعدة كلية تختص فى ترتيب العلائق بين الناس، فالناس ليسوا سواسية فى هذا الجانب، فقد نجد من يكون مرتبطا بأخيه أكثر من أىّ إنسان الآخر، و نجد ممن لا يقرّب على علاقته بامّه شىء، و ثمّة من تكون زوجته رمز حياته، أو من يفضل ابنه حتى على نفسه ... إلخ.

و ثمّة عوامل اخرى تدخل فى التأثير على علاقة الإنسان بأخيه و أبيه و زوجته و بنيه، و على ضوئها لا يمكننا ترجيح أفضلية أىّ منهم على الآخر من جميع الجهات، و عليه فلا يمكن القطع بأنّ التسلسل الوارد فى الآية قد جاء على أثر أهمية و شدة العلاقة.

و لكن ... لم الفرار؟ ... لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

«يغنيه»: كناية لطيفة عن شدّة انشغال الإنسان بنفسه فى ذلك اليوم، و لما سيرى من حوادث مذهلة، تأخذه كاملا، فكرا و قلبا.

و

قد سئل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الحميم، و هل يذكره الرجل يوم القيامة؟ فقال:

«ثلاثة مواطن لا يذكر (فيها) أحد أحدا: عند الميزان، حتى ينظر أ يثقل ميزانه أم يخف؟ .. و عند الصراط، حتى ينظر أ يجوزه أم لا؟ .. و عند الصحف، حتى ينظر بيمينه يأخذ الصحف أم بشمال؟ .. فهذه ثالثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه و لا حبيبه و لا قريبه و لا صديقه، و لا بنيه و لا والديه، ذلك قوله تعالى: لِكُلِّ امْرِئٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۷

مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۴۷۰].

و ينقل البيان القرآنى ليصور لنا حال العباد بقسميهم فى ذلك اليوم، فتقول:

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ أى مشرقة و صبيحة.

ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ.

وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ.

تَرْهَقُها قَتَرَةٌ أى تغطيها ظلمات و دخان.

أُولئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ.

«مسفرة»: من (الأسفار)، بمعنى الظهور بياض الصبح بعد ظلام الليل.

«غبرة»: على وزن (غلبة)، من (الغبار).

«قترة»: من (القتار)، و هو شبه دخان يغشى من الكذب، و قد فسّره بعض أهل اللغة ب (الغبار) أيضا، و لكن ذكرهما فى آيتين «الغبرة و القترة» متتاليتين منفصلتين يشير إلى اختلافهما فى المعنى.

«الكفرة»: جمع (كافر)، و الوصف يشير إلى فاسدى العقيدة.

«الفجر»: جمع (فاجر)، و الوصف يشير إلى فاسدى العمل.

و نستخلص من كلّ ما تقدّم، إنّ آثار فساد العقيدة لدى الإنسان و أعماله السيئة ستظهر على وجهه يوم القيامة.

و قد اختير الوجه، لأنّه أكثر أجزاء الإنسان تعبيرا عمّا يخالجه من حالات الغبطة و السرور أو الحزن و الكآبة، فبإمكانك و بكلّ وضوح أن تعرف أنّ فلانا مسرورا أم حزينا من خلال رؤيتك لما انطبع على وجهه، و حالات: السرور، و الحزن، و الخوف، و الغضب، و الخجل و ما شابه، لها بصمات خاصّة على ملامح و تقاسيم الوجه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۸

و على أيّة حال .. فالوجوه الضاحكة المستبشرة، تحكى عن: الإيمان و طهارة القلب و صلاح الأعمال.

و بعكس الوجوه المقابلة و الدالة على: ظلام الكفر، قبح الأعمال، و كأنّ وجوههم قد غطاها الغبار، تراها مسودة، و تحيط بها هالة من الدخان ..

و ترى معانى الغم و الألم و الأسف قد تجسدت على الوجوه، كما تشير إلى ذلك الآية (۴۱) من و سورة الرحمن: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ ... فيكفى لمعرفة حال الإنسان فى يوم القيامة من خلال النظر إلى وجهه.

***

بحث

أسس البناء الذاتى:

لقد حملت السورة المباركة بين طياتها برنامجا تربويا جامعا لنباء النفس و تزكيتها:

۱- فقد أمرت بكسر حاجز الغرور و التكبر، و التحلى بالتأمل فى بدء خلق الإنسان، فهذا الذى ابتدأ وجوده من نطفة قذرة، لا ينبغى عليه أن يتطاول و يرى نفسه أكبر من حجمها الطبيعى.

۲- التمسك بطرق الهداية الرّبانية (هداية الوحى، تعاليم الأنبياء و برامج الأولياء الصالحين، و كذا الهداية الحاصلة عن العقل بدراسة قوانين و أنظمة عالم التكوين)، فهو أفضل زاد فى مشوار طريق البناء.

۳- و تأمر بالإنسان للتفكر فى طعامه- من أين جاء كيف صار، و ما سرّ اختلاف ألوانه و أنواعه- ليصل إلى عظمة الخلاق و مدى لطفه و رحمته على عباده، و لا بدّ للإنسان من السعى فى كسب لقمة الحلال و التى تعتبر من أهم أركان التربية السليمة، و ذلك لما لها من آثار نفسية و شرعية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۳۹

۴- و إذا ما أعطت السورة كلّ هذه الأهمية لغذاء البدن، فهى تدفع الإنسان للتحرى عن سلامة غذاءه الروحى، لأنّ فعل التعليمات المنحرفة و التوجيهات الفاسدة الباطلة كفعل الغذاء المسموم، فهى تنخر فى البناء الروحى و تعرض حياة الإنسان للخطر.

و ممّا يحزّ فى نفوس المؤمنين أن يروا قسما من الناس و قد تكالبوا على غذاء البدن بكلّ دقة و اعتناء، و أهملوا الغذاء الروحى فترى (مثلا) من يقرأ أىّ كتاب و إن كان فاسد و مفسد، و يستمع لأىّ حديث و إن كان ضالا مضلا، دون أن يضع لتوجيهاته أىّ ضابط بقيد أو شرط! و قد جسّد أمير المؤمنين عليه السّلام هذا المعنى

بقوله: «ما لى أرى الناس إذا قرب إليهم الطعام ليلا تكلفوا إنارة المصابيح، ليبصروا ما يدخلون بطونهم، و لا يهتمون بغذاء النفس، بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم، ليسلموا من لواحق الجهالة و الذنوب، فى اعتقاداتهم و أعمالهم»[۴۷۱].

و

روى شبيه هذا القول عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام: «عجبت لمن يتفكر فى مأكوله، كيف لا يتفكر فى معقوله، فيجنب بطنه ما يؤذيه، و يودع صدره ما يرديه»[۴۷۲].

۵- ثمّ تذكّر السورة بصيحة البعث الرهيبة التى تضع الإنسان وجها لوجه أمام ما قدّمت يداه من أعمال فى الحياة الدنيا ...

فعلى الإنسان أن يتفكر فى أمر آخرته، و عليه أن يعمل ليكون ضاحك الوجه مستبشرا فى ذلك اليوم المحتوم، و أن يجهد بكلّ ما أمكنه للتخلص ممّا يؤدى به لأن يكون عبوسا حزينا.

اللّهمّ، وفقنا لتربیة و تزکیة و أنفسنا ..

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۰

اللّهم، لا تحرمنا من نعمة التوجه الصحیح الشاخص لساحة رضوانک ..

اللّهم، أیقظنا من غفلتنا و اجعل عاقبتنا علی خیر ...

آمین ربّ العالمین نهایة سورة عبس***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۱

سورة التّکویر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۳

«سورة التکویر»

محتوی السورة:

کثیر من القرائن المختلفة فی السورة تدل علی أنّها مکّیة: نسبة الجنون إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم من قبل أعداء الإسلام، و هذا ما کان یحدث کثیرا فی مکّة، خصوصا فی بدایة الدعوة المحمّدیة، لتصور الأعداء أنّهم بافتراءتهم تلک سیصرفون أنظار الناس عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و دعوته الإلهیة.

و علی أیّة حال، فالسورة تدور حول محورین أساسیین:

المحور الأوّل: هو ما شرعت به السورة من تبیان علائم یوم القیامة، و ما یواجه العالم من تغییرات قبیل یوم القیامة.

المحور الثّانی: الحدیث عن عظمة القرآن و من جاء به، و أثره علی النفس الإنسانیة، بالإضافة إلی تکرار الیمین و القسم فی آیات عدّة لإیقاظ الإنسان من غفلته.

فضیلة السورة:

وردت أحادیث کثیرة تبیّن أهمیة السورة و فضل تلاوتها، و منها: ما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ سورة: إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ أعاذه اللّه تعالی أن یفضحه حین تنشر صحیفته»[۴۷۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۴

و

فی حدیث آخر، أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من أحبّ أن ینظر إلیّ یوم القیامة فلیقرأ:

إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ [۴۷۴].

و

روی الحدیث بشکل آخر: «من سرّه أن ینظر إلی یوم القیامة (کأنّه رأی عین) فلیقرأ: إِذَا الشَّمْسُ کُوِّرَتْ و إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و إِذَا

السَّماءُ انْشَقَّتْ .

(لأنّ هذه السور تعرض علائم يوم القيامة و أحداثه بشكل و كأنّ التالى لها يشاهد يوم القيامة بعينه).[۴۷۵] و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج۱۹ ؛ ص۴۴۴

فى حديث آخر، سئل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن ظهور آثار كبر السن عليه، فقال:

«شيبتنى هود و الواقعة و المرسلات و عمّ يتساءلون و إذا الشمس كورت».[۴۷۶]

و

عن الإمام الصّادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ عبس و تولّى و إذا الشمس كوّرت كان كان تحت جناح اللّه من الخيانة و فى ظلّ اللّه و كرامته، و فى جنانه، و لا يعظم ذلك على ربّه إن شاء اللّه».

و تلاوة القرآن المقصودة فى الأحاديث أعلاه، ينبغى أن يكون بشروطها من: التأمل، الإيمان، و العمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۵

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱ الى ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (۱) وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ (۴)

وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (۵) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ (۶) وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (۷) وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ (۸) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (۹)

التّفسير

يوم تطوى الكائنات فيه!

نواجه فى بداية السورة، إشارات قصيرة، مثيرة و مرعبة لما سيجرى لنهاية العالم المذهلة- بداية يوم القيامة- فتنقل الإنسان فى فكره و أحاسيسه إلى مفاجئات ذلك اليوم الرهيب، قد تحدثت تلك الإشارات عن ثمانية علائم من و يوم القيامة.

و أول مشهد عرضته عدسة العرض القرآنى، هو: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ

«كورت»: من (التكوير)، بمعنى الطى و الجمع و اللّف (مثل لف العمامة على الرأس)، و أخذ هذا المعنى من كتب اللغة و التفسير و المختلفة.

و استعملت كذلك بمعنى: (الرومى) أو (إطفاء شىء) .. و المعنيان- كما يبدو-

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۶

مستمدان من المعنى الأصلى.

و على أيّة حال، فالمقصود هو: خود نور الشمس و ذهابه، و تغيّر نظام تكوينها.

و كما بات معلوما ... فالشمس فى وضعها الحالى، عبارة عن كرة مشتعلة، على هيئة غازية ملتهبة، و تتفجر الغازات على سطحها بصورة شعلات هائلة محرقة، قد يصل ارتفاعها إلى مئات الآلاف من الكيلو مترات! و لو قدّر وضع الكرة الأرضية وسط شعلة منها، فإنّها

تستحيل فورا إلى رماد و كتلة من الغازات!! و لكن ... عند حلول وقت نهاية العالم، و الاقتراب من يوم القيامة، سيخمد ذلك اللهب المروع، و ستجمع تلك الشعلات، فيطفأ نور الشمس، و يصغر جمها ... و هو ما أشير إليه بالتكوير.

و جاء فى (لسان العرب): (كورت الشمس: جمع ضوءها و لف كما تلف العمامة).

و قد أيّد العلم الحديث هذه الحقيقة، من خلال اعتقاده و بعد دراسات علمية كثيرة، بأنّ الشمس تسير تدريجيا نحو الظلام و الانطفاء.

و يأتى المشهد الثّانى: وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ

«انكدرت»: من (الانكدار)، بمعنى السقوط و التناثر، و اشتق من (الكدورة)، و هى السواد و الظلام.

و يمكن جمع المعنيين فى الآية، لأنّ النجوم فى يوم القيامة ستفقد إشعاعها و تتناثر و تسقط فى هاوية الفناء، كما تشير إلى ذلك الآية (٢) من سورة الإنفطار:

وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ و الآية (٨) من سورة المرسلات: فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ

و المشهد الثّالث: وَ إِذَا الْجِبالُ سُيِّرَتْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ۴۴۷

و قد ذكرنا مراحل فناء الجبال، ابتداء من السير و الحركة و انتهاء بتحولها إلى غبار متناثر (فراجع تفسير الآية (٢٠) من سورة النبأ).

و ثمّ يأتى در و المشهد الرّابع: وَ إِذَا الْعِشارُ عُطِّلَتْ

«العشار»: جمع (عشراء)، و هى الناقة التى مرّ على حملها عشرة أشهر، فأضحت على أبواب الولادة، بعد ما امتلأت أثداؤها باللبن.

و هى من أحبّ و أثمن النوق لدى العرب زمن نزول الآية المباركة.

«عطلت): تركت لا راعى لها.

فهول و وحشة القيامة، سينسى الإنسان أحبّ و أثمن ما يمتلكه.

و قال العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: و قيل: العشار، السحاب تعطل فلا تمطر. أى: إنّ الغيوم ستظهر فى ذلك اليوم، و لكن لا تمطر (و يمكن أن يكون الغيوم ناشئة من الغازات و المختلفة، أو تكون غيوما ذرية، أو طبقات من الغبار الناتج من تدمير الجبال .. و كلّ ذلك لا تمطر).

و يضيف الطبرسى قائلا: قال الأزهرى: لا أعرف هذا فى اللغة.

و ثمّة علاقة بين ما ذهب إلى الشيخ الطريحى فى (مجمع البحرين) بقوله:

العشار: بمعنى الناقة الحامل ثمّ اطلق على كلّ حامل، و بين إطلاقها فى الآية. فلا غيوم غالبا ما تكون محملة بالأمطار، و لكن الغيوم التى ستظهر فى السماء على أعتاب ذلك اليوم سوف لا تكون حاملة بالمطر- فتأمل.

و قيل: «العشار»: هى البيوت أو الأراضى الزراعية التى ستتعطل بذلك اليوم، و ستخلو من الناس و الزراعة.

و أشهر ما فسّرت به الآية هو التفسير الأوّل.

و ينتقل المشهد الخامس إلى الوحوش: وَ إِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ

فالحيوانات الوحشية التى تراها فى الحالات العادية تبتعد الواحدة عن الأخرى خوفا من الافتراس و البطش، ستراها و قد جمعت فى محفل واحد، و كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج١٩، ص: ۴۴۸

منها لا يلتفت إلى ما حوله لما سيطاب به من رهبة و أهوال ذلك اليوم الخطير، و كأنّها تقصد من اجتماعها هذا التخفيف عن شدّة خوفها و فزعها!! و نقول: إذا اضمحلت كلّ خصائص الوحشية للحيوانات غير الأليفة نتيجة لأهوال يوم القيامة، فما سيكون مصير الإنسان حينئذ؟! و يعتقد كثير من المفسّرين بأنّ الآية تشير إلى حشر الحيوانات الوحشية فى عرصة يوم القيامة لمحاسبتها على قدر ما

تحمل من إدراك، و يستدلون بالآية (۳۸) من سورة الأنعام على ذلك، و التى تقول: وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَ لا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِى الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۴۷۷].

و ما يمكننا قوله: إنّ الآية تتحدث عن علائم نهاية الدنيا المهولة، و بداية عالم الآخرة، و عليه .. فالتّفسير الأوّل أنسب.

و تصوّر البحار فى المشهد السادس: وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

«سجّرت»: من (التسجير)، بمعنى إضرام النّار.

و إذا خالج القدماء التعجب و الاستغراب لهذا الوصف القرآنى، فقد بات اليوم من البديهيات الكسبية، لما يتركب منه الماء من عنصرى الأوكسجين و الهيدروجين، القابلات للاشتعال بسرعة، و لا يستبعد أن يوضع الماء- فى إرهاصات يوم القيامة- تحت ضغط شديد ممّا يؤدى إلى تجزئة و تفكيك عناصره، و عند ما سيتحول إلى كتلة ملتهبة من النّار.

و قيل: «سجّرت»: بمعنى (امتلأت)، كما يقال للنور الممتلئ بالنّار (مسجّر)، و على ضوء هذا المعنى، يمكننا أن نتصور امتلاء البحار ممّا سيتسبب من الزلازل الحادثة و تدمير الجبال فى إرهاصات يوم القيامة، أو ستمتلئ بما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۴۹

يتساقط من أحجار و صخور سماوية، فيفيض ماؤها على اليابسة ليغرق كلّ شىء.

و يأتى درو المشهد السابع: وَ إِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ

فتبدأ المآلفة بخلاف حال الدنيا ... فالصالحون مع الصالحين، و المسيؤون مع المسيئين، و أصحاب اليمين مع أصحاب اليمين، و أصحاب الشمال مع أصحاب الشمال، فإذا ما جاور المؤمن مشركا، أو تزوج الصالح من غير الصالحة فى الحياة الدنيا، فتصنيف يوم لقيامة غير ذلك، فهو يوم الفصل الحق.

و ثمّة احتمالات اخرى، منها:

ردّ الأرواح إلى أجسادها ..

زواج الصالحين بالحور العين ..

قرن الضالين بالشياطين ..

لحوق الإنسان بحميمه، بعد أن فرّق الموت بينهما ..

قرن الإنسان بأعماله.

و التّفسير الأوّل أقرب، بدلالة الآيات (۷- ۱۱) من سورة الواقعة: وَ كُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ، وَ أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْئَمَةِ وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ

فبعد أن تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية عن ستة تحولات، كمقدمات يوم القيامة، تأتى الآية أعلاه لتخبر عن اولى خطوات يوم القيامة، المتمثلة بالتحاق كلّ شخص بقرينه.

و نصل إلى المشهد الثّامن: وَ إِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ

«الموءودة»: من (الوأد) على وزن (وعد)، بمعنى دفن البنت حيّة بعد ولادتها.

و قيل: الوأد بمعنى الثقل، و توسع معناه (لما ذكر)، لما فيه من دفن البنات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۰

القبر و إلقاء التراب عليهن.

و أطلق الأئمّة الأطهار عليهم السّلام مفهوم الوأد، ليشمل كلّ قطع رحم و قطع مودّة ...

حينما

سئل الإمام الباقر عليه السّلام عن معنى الآية، قال: «من قتل فى مودّتنا».[۴۷۸]

و فى رواية اخرى: إنّ الدليل على ذلك هو آية القربى: قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى ۴۷۹].

و لا شك أنّ التفسير الأوّل ينسجم مع ظاهر الآية، و لكن المفهوم و الملاك قابلان للتوسع و الشمول.

***

ملاحظات

۱- وأد البنات

تعتبر عادة (الوأد)- و التى أشار إليها القرآن الكريم مرارا- من أقبح جرائم و عادات عصر جاهلية ما قبل الإسلام.

و إذا كان البعض قد حصرها فى قبيلة (كندة) أو بعض القبائل الصغيرة المتناثرة هنا و هناك دون بقية القبائل العربية الاخرى، فالمسلم به إنّها كانت من الشيوع بحيث تناول القرآن الكريم ذكرها لأكثر من مرّة و بتأكيد شديد.

و لكن، حتى مع افتراضنا لندرة هذا العمل القبيح، فإنّه من القباحة و الشناعة ما يدعونا لبحثه و دراسته ...

يقول المفسّرون: كانت المرأة فى الجاهلية إذا ما حان وقت ولادتها، حفرت حفرة و قعدت على رأسها، فإن ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة، و إن ولدت غلاما حبسته، و قال شاعرهم مفتخرا:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۱

سميتها إذا ولدت (تموت)و القبر صهر ضامن ذميت ۴۸۰]

و ثمّة أسباب كثيرة وراء هذه الجريمة البشعة، منها:

احتقار المجتمع الجاهلى للمرأة ...

وجود الفقر الشديد فى تلك الحقبة الزمنية، و المرأة كانت مستهلكة غير منتجة، إضافة لعدم اشتراكها فى الغارات التى تقوم بها القبيلة لتوفير لقمة العيش.

الخوف من وقع النساء أسرى فى شباك الأعداء، نتيجة للمعارك التى كانت دائرة على الدوام بين القبائل، لأنّ فى هكذا أسر جرح للشرف و إذلال شديد.

و تجمعت هذه الأسباب (بالإضافة لأسباب اخرى) فأدت إلى ظهور عادة (الوأد) الوحشية بين أفراد القبائل فى ذلك العصر القابع تحت ظلام الجهل المقيت.

و ممّا يؤسف له، إنّ جاهلية القرون الأخيرة قد كررت تلك الممارسات البشعة و بصور اخرى، حتى وصل ببعض الدول تدّعى التمدن و التحضر لأنّ تقنن و تقرّ (حرية) إسقاط الجنين! نعم، فالحال واحدة .. فإذا كان أهل الجاهلية الاولى يقتلون البنت، فمتمدنى هذا العصر يقتلون الأطفال و هم فى بطون أمهاتهم (بنتا أو ابنا)!! و للحصول على تفاصيل هذا الموضوع، راجع ذيل الآية (۵۹) من سورة النحل.

۲- أهمية المرأة فى الإسلام

بإمكان أن نستشف مدى اهتمام الإسلام بالمرأة و بالدم الإنسانى (خصوصا دم الأبرياء)، من خلال اهتمام البارى جلّ شأنه بمسألة و أد البنات، و يكفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۲

القرآن الكريم دلالـة على أن قدّم ذكر بحث مسألة الوأد فى محكمة العدل الإلهى يوم القيامة على مسألة نشـر صـحف الأعمال و بقية المسائل الأخرى، لما فيها من قباحة و شناعة فى حق المرأة كإنسانة لها حقّ الحياة كما للرجل من حقّ.

۳- من الإنسان .. الموءودة أم الوائد؟

لو أمعنا النظر فى أسـلوب كلام الآية، لرأينا أنّ السؤال سيوجه يوم القيامة إلى الموءودة دون الرائد على الذنب الذى قتلت من أجله، و كأنّ القاتل لا قيمـة له حتى يسأل عن قباحـة جريمته، بالإضافـة إلى الاكتفاء بشـهادة الموءودة لإثبات جريمـة الوائد عليه ... فالموءودة تعامل يوم القيامة باعتبارها إنسان محترم له حقوقه، و الرائد مهمل مهان.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۳

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۰ الى ۱۴]

اشارة

وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (۱۰) وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ (۱۱) وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (۱۲) وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (۱۳) عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ (۱۴)

التّفسير

يوم يرى الإنسان ما قدّم!!

فبعـد مرحلـة الفناء العام، تأتى مرحلـة الظهور الجديـد للعالم، لتقام محكمـة العـدل الالهى. و من خطوط هذه المرحلة: وَ إِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ

«الصحف»: جمع (صحيفة) بمعنى المبسوط من الشىء، كصحيفة الوجه، و الصحيفة التى يكتب عليها.

فستنشـر الصـحف التى دوّنت فيها أعمال الناس من قبل الملائكة و كلّ سيعرف جزاءه بعد الاطلاع على صحيفة أعماله، كما تشير إلى ذلك الآية (۱۴) من سورة الإسراء: اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

و سيكون نشر الصحف أمام الملأ العام لتقرّ عيون المحسنين سرورا، و يقاسى المسيؤون العذاب النفسى.

ثمّ يضيف: وَ إِذَا السَّماءُ كُشِطَتْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۴

«كشطت»: من (الكشط) على وزن (كشف)، بمعنى قلع جلد الناقة، كما قال الراغب فى مفرداته، و أمّا فى (لسان العرب) فتعنى: كشف الغطاء عن الشىء، و «تكشط السحاب» أى، تقطع و تفرّق.

و ما يراد من «كشطت» فى الآيـة، هو: رفع الحجب الفاصلة بين العالمين الدنيوى و العلوى، التى تمنع رؤية الناس للملائكة أو الجنّة و النّار، فيرى الإنسان حينها عالم الوجود شاخص أمام ناظريه شخوصا حقيقيا، و كما تصور الآيات التالية ذلك، حيث أنّ الجنّة ستقترب من الإنسان ليرى نعيمها، و تزداد النّار سعيرا لاهبة.

نعم، أو ليس يوم القيامة (يوم البروز) .. فلا الحقائق ستخفى، و لا يكون للحجب أثرا.

فالآية و ما سبقها و سيلحقا إذن (حسب التفسير أعلاه) قد تحدثت عن المرحلة الثّانية للقيامة- مرحلة ما بعد البعث- فما ذكره كثير من المفسرين، من كون الآية تشير إلى انهيار و تحطم السماوات، و المتعلق بحوادث المرحلة الاولى للقيامة (مرحلة الفناء العام)، يبدو أنّه بعيد، لأنّه لا ينسجم مع معنى «كشطت» من جهة اخرى.

و يتأكد ذلك بوضوح من خلال الآية: وَ إِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ

فجهنّم موجودة فى كل الأوقات، و لكنّ حجب الدنيا هى المانعة من رؤيتها، فالآية على سياق الآية (۴۹) من سورة التوبة: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ و كما أنّ جهنّم موجودة فالجنّة كذلك بدلالة آيات قرآنية كثيرة[۴۸۱].

و يبّين البيان القرآنى بذات السياق السابق: وَ إِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ

و هذا المعنى هو تكرار لما جاء فى الآية (۹۰) من سورة الشعراء:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۵

وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ

«أزلفت»: من (زلـف) على وزن (حرف) .. و «زلفى»: على وزن (كبرى)، بمعنى القرب، فيمكن أن يكون المراد هو: القرب المكانى، أو القرب الزمانى، أو القرب من حيث الأسباب و المقدمات، و يمكن أيضا أن تحمل الكلمة جميع ما ذكر من معان.

فستكون الجنّة قريبة من المؤمنين من حيث: المكان، زمان دخولها، من حيث تسهيل أسبابها لهم.

و قد تجلت مكانة المؤمنين عند اللّه حينما صرحّت الآية باقتراب الجنّة من المؤمنين، و لم تقل: اقترب المؤمنين من الجنّة.

و كما قلنا آنفا ... فالجنّة و النّار موجودتان فى كلّ وقت، و لكن مع حلول يوم القيامة تكون الجنّة و النّار أشدّ اشتعالا من أى وقت مضى.

و تأتى الآية الأخيرة (من الآيات المبحوثة) لتتم ما جاء قبلها من جمل، حيث تمثل جزاء الشرط للجمل السابقة و التى وردت فى (۱۲) آية: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ

فستحضر أعمال الإنسان كاملة، و لا من محيص من العلم و الاطلاع بها فى عالم الشهود و المشاهدة.

و قد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مرات عديدة فى آيات مباركات، منها ...

الآية (۴۹) من سورة الكهف: وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً، و الآية الأخيرة من سورة الزلزال: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

فالآية إذن ... تبيّن مسألة (تجسم الأعمال) فى يوم القيامة، فأعمالنا التى نتصورها قد انتهت و فنت فى عالمنا الدنيوى، هى ليست كذلك، فكل عمل قمنا به سيتجسم بصورة ما، ليحضر أمام أعيننا فى عرصة المحشر الرهيبة.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۶

بحثان

۱- تناسق الآيات

تمّت الإشارة إلى (۱۲) حادثة من حوادث يوم القيامة، فالحوادث الستة الأولى قد ارتبطت بمرحلة الفناء العام للعالم (المرحلة الأولى)، و الستة الثّانية قد اختصت بمرحلة عودة الحياة بعد الموت من جديد.

و كان الحديث فى الستة الأولى عن: ذهاب ضوء الشمس، تساقط و تناثر النجوم، إزالة الجبال عن واقعها و تحولها إلى غبار منتشر، إضرام البحار نارا، نسيان المال و الثروة، اجتماع الحيوانات الوحشية فى مكان واحد ...

فيما كان الحديث فى لستة الثانية عن: حشر الناس فرادى، سؤال الموءودة عن ذنبها الذى قتلت من أجله!، و نشر الصحف، ارتفاع الحجب عن صفحة السماء، اشتعال أوار جهنّم و اقترب الجنّة، و اطلاع الإنسان على كل أعماله مجسدة.

و رغم قصر جمل الآيات إلّا أنّها حملت الكثير من المعانى و بأسلوب مثير يعمل على تحريك ضمير الإنسان و يدفعه للتوغل فى أعماق التأمل و الفكر ...

و قد جسّمت الآيات نهاية العالم بتصوير رائع، بحيث قربت إلى الأذهان كيفية حدوث القيامة، كل ذلك فى عبارات وجيزة و بألفاظ سهلة، و كلّ هذا يعطى مدى قوّة بيان و بلاغة القرآن الكريم ... فما أجمل و أعذب القرآنية، و ما أغزرها بالمعانى و الإشارات!!

۲- هل ستنطفئ المنظومة الشمسية، و هل ستخمد النجوم؟؟

قبل البدء بالإجابة لا بدّ من بيان بعض ما توصل إليه العلم الحديث بخصوص المنظومة الشمسية:

إنّ الشمس (التى تعتبر مركز المنظومة الشمسية) متوسطة الحجم نسبة إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۷

بقية النجوم السابحة فى السماء، و لكنّها نسبة إلى الأرض كبيرة جدّا، حيث قدّر العلماء حجمها بما يعادل (۰۰۰، ۳۰۰، ۱) مرة بقدر حجم الأرض، و نظرا لبعدها عن الأرض، (حيث قدرت ب (۰۰۰، ۰۰۰، ۱۵۰) كيلومتر)، فترى لناظرينا بهذا الحجم المحدود ...

و يكفينا أن نتلمس عظمة حجم الشمس، فيما لو فرضنا بإدخال الكرة الأرضية مع القمر فى باطن الشمس و بذات الفاصلة الموجودة حاليا ما بين الأرض و القمر، ففى هذه الحال. سوف لا يواجه القمر أية صعوبة بالدوران حول الأرض من دون أن يخرج من سطح الشمس! أمّا درجة حرارة سطح الشمس فتبلغ (۰۰۰، ۶) درجة مئوية، و تصل درجة حرارة أعماق الشمس إلى عدّة ملايين درجة مئوية!! و إذا ما أردنا أن نزن الشمس بالأطنان، فسيواجهنا العدد (۲) و بيمينه (۲۷) صفرا، أى (ملیارى مليار مليار طن)! و تصل ألسنة نيران سطح الشمس فى بعض الأوقات إلى ارتفاع (۰۰۰، ۶۰) كيلومتر، و بإمكان تلك الألسنة أن تلف الأرض و ما عليها و بكل يسر، لأنّ قطر الكرة الأرضية لا يتجاوز ال (۰۰۰، ۱۲) كيلومتر.

و مصدر حرارة و نور الشمس الخارجة منها، على خلاف ما يتصوره البعض من كونهما ناشئين من احتراق شى ما، و كما يقول مؤلف كتاب (ولادة و موت الشمس)، أن لو كانت الشمس، عبارة عن جرم من الفحم الحجرى الخالص، لما استمرت لهذا اليوم، و لو قدّرنا بدأ احتراقها منذ عصر أول فراعنة مصر، لكان فى يومنا المعاش قد احتراق بأكمله و نفد، و إذا ما قيل بأيّة مادة أخرى غير الفحم الحجرى، فلا تغيّر من النتيجة الحاصلة.

و حقيقة الأمر، أنّ مفهوم الاحتراق لا ينطبق على الشمس، بقدر ما ينطبق عليها مفهوم الطاقة الحاصلة من التجزئة الذريّة، و لمّا كانت الطاقة عظيمة جدّا،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۸

فذرات الشمس فى حالة تجزئة و تبديل إلى طاقة و بشكل مستمر.

و استنادا إلى حسابات العلماء: فإنّ كلّ ثانية تمرّ من عمر الشمس ينتقص من وزنها ما يقارب «اربعة ملايين طنا»! أمّا حجمها فلم يمسسه أىّ شى من التغيير رغم مرور السنين المديدة على عمرها! و ينبغى التسليم أنّ خاتمة الشمس لا بدّ منها، و عجلة الزمن الدائبة ستوصل إلى ذلك الحدث، و لا بدّ من مجىء ذلك اليوم الذى سيشهد اضمحلال حجم هذا الجرم الكبير و إخماد نوره، كما هو حال و شأن بقية النجوم ۴۸۲].

فالعلم الحديث إذن، قد أثبت الحقائق العلمية التى طرحها قبل ألف و أربعمائة سنة إلّا دليل قاطع على ما نقول.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۵۹

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۱۵ الى ۲۵]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (۱۵) الْجَوارِ الْكُنَّسِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ (۱۷) وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ (۱۸) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (۱۹) ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (۲۰) مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (۲۱) وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (۲۲) وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (۲۳) وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (۲۴)

وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (۲۵)

التّفسير

نزل به رسول كريم:

بعد أن تناولت الآيات السابقة مواضيع: المعاد، مقدمات يوم القيامة، و حوادث يوم القيامة ... تأتى الآيات أعلاه لتطرق عن: أحقّية القرآن و صدق نبوّة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الآيات فى حقيقتها تأكيد على ما جاء فى الآيات السابقة لموضوع «المعاد»، إضافة لذكرها صور بيانية منبهة على هذه الحقيقة.

و تشرع الآيات ب: فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۴۸۳]، الْجَوارِ الْكُنَّسِ

«الخنّس»: جمع (خانس)، من (خنس) و هو الانقباض و الاختفاء، و يقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۰

للشيطان: «الخنّاس»، لأنّه إذا ذكر اللّه تعالى، و كما ورد فى الحديث الشريف:

«الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر اللّه خنس».[۴۸۴] «الجوار»: جمع (جارية)، و هى الشىء الذى تتحرك بسرعة.

«الكنّس»: جمع (كانس)، من (كنس)، على وزن (شمس)، و هو الاختفاء، و «كناس» الطير و الوحش: بيت يتخذه.

و لكن ... ما هى الأشياء المقصودة بهذا القسم؟

يعتقد كثير من المفسّرين، إنّها الكواكب ۴۸۵] الخمسة السيارة التى فى منظومتنا الشمسية، و التى يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى و زحل).

و نقول توضيحا: لو تأملنا السماء عدّة ليال، لرأينا أنّ نجوم السماء أو القبة السماوية تظهر و تغيب بشكل جماعى من دون أن تتغير الفواصل و المسافات فيما بينها، و كأنّها لئالئ خيطت على قطعة قماش داكن الألوان، و هذه القطعة تتحرك من المشرق إلى المغرب،

إلّا خمسة كواكب قد خرجت عن هذه القاعدة، فنراها تتحرك و ليس بينها و بين بقية النجوم فواصل ثابتة، و كأنّها لئالئ قد وضعت على تلك القطعة وضعا، من دون أن تحيّط بها! و هذه الكواكب الخمس هى المقصود فى هذا التفسير، و ما نلاحظه من حركتها إنّما تكون لقربها منّا لا نتمكن من تمييز حركات بقية النجوم لعظم المسافة فيما بيننا و بينها.

و من جهة أخرى: ينبغى التنويه إلى أنّ علماء الفلك يطلقون على هذه الكواكب اسم (الكواكب المتحيرة)، لأنّها لا تتحرك على خط مستقيم ثابت،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۱

فتراها تسير باتجاه معين من الزمن ثمّ تعود قليلا و من ثمّ تتابع مسيرها الأوّل و هكذا ... و لهؤلاء العلماء من البحوث العلمية فى تحليل هذه الظاهرة.

و عليه ... يمكن حمل إشارة الآيات إلى الكواكب السيّارة «الجوار»، التى فى سيرها لها رجوع «الخنس»، ثمّ تختفى عند طلوع الفجر و شروق الشمس ... فهى تشبه غزالا يتصيد طعامه فى الليل و ما أن يحّل النهار حتى يختفى عن أنظار الصيادين و الحيوانات المفترسة فيذهب إلى «كناسه»، و لذا وصفت الكواكب ب «الكنّس».

و ثمّة احتمال آخر: «الكنّس»: اختفاء الكواكب فى ضوء الشمس.

أى إنّها حينما تدور حول الشمس، تصل فى بعض الوقت إلى نقطة مجاورة للشمس فيختفى نورها تماما عن الأبصار، و هو ما يعبّر عنه علماء الفلك ب (الاحتراق).

و «الكنّس»: فى نظر بعض آخر: إشارة إلى دخول الكواكب فى البروج السماوية، و ذلك الدخول يشبه اختفاء الغزلان فى أماكن أمنها.

و كما هو معروف، إنّ كواكب مجموعتنا الشمسية لا- تنحصر بهذه الكواكب الخمس، بل ثمة ثلاثة كواكب أخرى (أورانوس، بلوتون، نبتون) و لكنّها لا ترى بالعين المجرّدة لبعدها عنّا، و للكثير من هذه السيّارات قمرا أو أقمارا، فعدد كواكب هذه المجموعة بالإضافة إلى الأرض هو تسعة كواكب.

و «الجوى»: توصيف جميل لحركة الكواكب، حيث شبّه بحركة السفن على سطح البحر.

و على أيّة حال، فكأنّ القرآن الكريم يريد بهذا القسم الملىء بالمعانى الممتزجة بنوع من الإبهام، كأنّه يريد إثارة الفكر الإنسانى، و توجيهه صوب الكواكب السيّارة ذات الوضع الخاص على القبة السماوية، ليتأمل أمرها و قدرة و عظمة خالقها سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۲

و ثمّة احتمالات أخرى فى هذا الموضوع أهملناها لضعفها.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال فى تفسير الآيات المذكورة: «هى خمسة أنجم: زحل، و المشترى، و المريخ، و الزهرة، و عطارد»[۴۸۶].

و يعرض لنا القرآن لوحة أخرى: وَ اللَّيْلِ إِذا عَسْعَسَ

«عسعس»: من (العسعسة)، و هى رقة الظلام فى طرفى الليل (أوله و آخره) و منه اطلاق لفظ «عسس» على حرّاس الليل، و بالرغم من اطلاق هذه المفردة على معنيين متفاوتين، و لكن المراد منها فى هذه الآية هو آخر الليل فقط بقرينة الآية التالية لها، و هو ما يشابه القسم الوارد فى الآية (۳۳) من سورة المدثر:

وَ اللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ.

و الليل، من النعم الإلهية الكبيرة، لأنّه: سكن للروح و الجسم، معدّل لحرارة الشمس، و سبب لإدامة حياة الموجودات ... أمّا التأكيد

على نهايته فيمكن أن يكون بلحاظ كونه مقدمة استقبال نور الصباح، إضافة لما لهذا الوقت بالذات من فضل كبير فى حال العبادة و المناجاة و الدعاء، و يمثل هذا الوقت أيضا نقطة الشروع بالحركة و العمل فى عالم الحياة.

و يأتى القسم الثّالث و الأخير من الآيات: وَ الصُّبْحِ إِذا تَنَفَّسَ

فما أروع الوصف و أجمله! فالصبح كموجود حى قد بدأ أوّل أنفاسه مع طلوع الفجر، ليدّب الروح من جديد فى كلّ الموجودات، بعد أن تقطعت أنفاسه عند حلول ظلام الليل! و يأتى هذا الوصف فى سياق ما ورد فى سورة المدّثّر، فبعد القسم بإدبار الليل، قال: وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ، فكأنّ الليل ستارة سوداء قد غطت وجه الصبح، فما أن أدبر الليل حتى رفعت تلك الستارة فبان وجه الصبح مشرقا، و أسفر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۳

للحياة من جديد.

و تجسّد الآية التالية جواب القسم للآيات السابقة: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ

فالجواب موجّه لمن اتّهم النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باختلاق القرآن و نسبته إلى البارى جلّ شأنه.

و قد تناولت و ما بعدها خمسة أوصاف لأمين وحى اللّه جبرائيل عليه السّلام، و هى الأوصاف التى ينبغى توفرها فى كلّ رسول جامع لشرائط الرسالة ...

فالصفة الأولى: إنّه «كريم»: إشارة إلى علو مرتبته و جلالة شأنه.

و من صفاته أيضا: ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ۴۸۷].

«ذى العرش»: ذات اللّه المقدّسة. مع أنّ اللّه مالك كلّ عالم الوجود، فقد وصف «بذى العرش» لما للعرش من أهمية بالغة على على غيره (سواء كان العرش بمعنى عالم ما وراء الطبيعة، أو بمعنى مقام العلم المكنون).

أمّا وصفه ب «ذى قوّة» (أى: صاحب قدرة)، لما للقدرة العظيمة و القوّة الفائقة من دور مهم و فعّال فى عملية حمل و إبلاغ الرسالة، و عموما ... ينبغى لكل رسول أن يكون صاحب قدرة معينة تتناسب و حدود رسالته، و على الإخلاص فى مجال عدم نسيان ما يرسل به.

«مكين»: صاحب منزلة و مكانة، و بدون ذلك لا يتمكن الرسول من أداء رسالته على أتمّ وجه، فلا من كونه شخصا جليلا، لائقا، و مقربا للمرسل.

و ممّا لا شك فيه إنّ التعبير ب «عند» لا يراد منه الحضور المكانى، لأنّ البارى جل شأنه لا يحده مكان، و المراد هو الحضور المقامى و القرب المعنوى.

و تتناول الآية التالية الصفة الرابعة و الخامسة: مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ

«ثمّ»: إشارة إلى البعيد، و يراد بها: إنّ أمين الوحى الإلهى نافذ الكلمة فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۴

عالم الملائكة، و مطاع عندهم، و إنّه فى ذروة الأمانة فى عملية إبلاغ الرسالة.

و ما نستشفّه من الرّوايات: إنّ جبرائيل عليه السّلام ينزل أحيانا و بصحبته جمع كبير من الملائكة فى حال إبلاغه للآيات القرآنية المباركة، و هو ما يوحى بأنّه مطاع بينهم، و هو ما ينبغى أن يكون فى كل أمّة تتبع رسولا، فلا بدّ من طاعتها له.

و

روى ... أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لجبرائيل عليه السّلام عند نزول هذه الآيات: «ما أحسن ما أثنى عليك ربّك!: ذى قوّة عند العرش مكين، مطاع ثمّ أمين، فما كانت قوتك؟ و ما كانت أمانتك؟

فقال: أمّا قوّتى فإنّى بعثت إلى مداين لوط و هى أربع مداين فى كلّ مدينة أربعمائة ألف مقاتل سوى الذرارى، فحملتهم من الأرض

السفلى حتى سمع أهل السماوات أصواب الدجاج و نباح الكلاب، ثم هويت بهّن فقلبتهّن. و أمّا أمانتى، فإنّى لم أؤمر بشىء فعدوته إلى غيره»[۴۸۸].

و ينفى القرآن ما نسب إلى النبّى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: وَ ما صاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ

«الصاحب»: هو الملازم و الرفيق و الجليس، و الوصف هذا مضافا الى أنّه يحكى عن تواضع النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع جميع الناس ... فلم يرغب يوما فى الاستعلاء على أحد منكم، فإنّه قد عاش بينكم حقبة طويلة، و جالسكم، فلمستم عن قرب رجاحة عقله و حسن درايته و أمانته، فكيف تنسبون له الجنون؟! و كلّ ما فى الأمر إنّه قد جاءكم بعد بعثته بتعاليم تخالف تعصبكم الأعمى و تحارب أهواءكم الجاهلية، فما راق لكم الانضباط و الترابط، و حبذتم الانفلات و التراخى، فوليتم الأدبار عن تعاليمه الربانية و نسبتم إليه الجنون، فرارا من هدى دعوته المباركة! و نسبة الجنون إلى النبّى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليس بالشىء الجديد فى مسير دعوة السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۵

فقد واجه جميع أنبياء اللّه عليهم السّلام هذا الافتراء الفارغ من قبل جهلة و كفرة عصورهم، و قد حدثنا القرآن الكريم بتلك الوقائع: كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۴۸۹].

فالعاقل فى منطق الجاهلية، من يخضع للعادات و التقاليد المعاشة و إن كانت فاسدة منحطة، و من يطلق لجماح أهواءه و شهواته العنان، و من لا يفكر بأىّ إصلاح أو تغيير لأنّه خروج على السائد المتعارف عليه! و بناء على هذا المقياس الأعمى ... فكلّ الأنبياء فى نظر عبدة الدنيا مجانين ...

و يؤكّد القرآن على الارتباط الوثيق ما بين النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جبرائيل عليه السّلام: وَ لَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ و هو «الأفق الأعلى» الذى تظهر فيه الملائكة، حيث شاهد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبرائيل عليه السّلام.

و قد استدلّ بعض المفسّرين بالآية (۷) من سورة النجم على التفسير أعلاه، و التى تقول: وَ هُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى

و لكننا نرى أنّ الآية مع بقية آيات السورة تتحدث عن حقيقة أخرى، فراجع إلى ما ذكرناه فى تفسيرنا هذا.

و قال بعض: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قد رأى جبرائيل عليه السّلام فى صورته الحقيقة مرّتين، الأولى عند بداية البعثة النبوية المباركة، حيث ظهر له فى الأفق الأعلى و قد غطى الشرق و الغرب حتى بهر النبىّ بعظمة هيئته، و الثّانية رآه عند معراجه إلى السماوات العلى و اعتبروا الآية المبحوثة إشارة لتلك الرؤيتين.

و ثمّة من يذهب فى تفسير الآية من كونها تشير إلى مشاهدة اللّه عزّ و جلّ بالشهود الباطنى، (و لمزيد من الإيضاح، راجع ذيل الآيات (۵- ۱۳) من سورة النجم).

و تأتى الصفة الخامسة: وَ ما هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۶

فهو ليس ممن يقبرون فى صدورهم ممّا يوحى إليه، و لا يبخل و لا يتوانى عن الإبلاغ و يوصله إلى كلّ الناس كاملا و بأمانة.

«ضنين»: من (ضنّة) على وزن (منّة)، أى: البخل بالأشياء الثمينة و النفيسة، فالأنبياء عليهم السّلام منزّهون عن ذلك، و إذا ما بخل الآخرون بما صار فى حوزتهم من علم محدود، فالنّبى فوق ذلك و أنزه مع ماله من منبع علم إلهى.

و تقول آخر الآيات المبحوثة: وَ ما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ

فالآيات القرآنية ليست كحديث الكهنة الذى يأخذوه من الشياطين، و دليلها معها، حيث أنّ حديث الكهنة محشو بالأكاذيب و التناقضات، و يدور حول محور ميولهم و رغباتهم، فى حين لا يشاهد ذلك فى الآيات القرآنية إطلاقا.

و الآية تجيب على إحدى افتراءات المشركين، حين اتهموا النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأنّه كاهن و كلّ ما جاء به قد أخذه من

الشياطين! فحديث الشيطان! لا يتعدى أن يكون باطلا و ضلالا فى حين أنّ الآيات الرّبانية كلّها نور و هداية، و هذا ما يشعر به كلّ من يواجه القرآن و منذ وهلته الأولى.

«رجيم»: من (الرجم)، و (رجام) على وزن (لجام) بمعنى أخذ الحجارة، و تطلق على رمى الحجار على الأشخاص أو الحيوانات، و يستعار الرجم للرمى ب: الظّن، التوهم، الشتم و الطرد، و «الشيطان الرجيم» بمعنى المطرود من رحمة اللّه.

***

بحث

مؤهلات الرّسول:

الصفات الخمسة التى ذكرتها الآيات المباركة جبرائيل عليه السّلام باعتباره رسول الوحى الإلهى إلى النبىّ الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، هى ذات الصفات التى ينبغى توفرها فى كلّ رسول، و بما يناسب نوع و درجة رسالته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۷

فلكى يكون الرسول لائقا لحمل الرسالة، لا بدّ من تحلّيه بركائز أخلاقية و نفسية عالية، أى يكون «كريما» محترما.

و لا بدّ من كونه قادر متمكن «ذى قوّة»، حتى يتمكن من إبلاغ رسالته بكل ما تحمل، و من دون أن يصيبه أىّ ضعف أو فتور أو هوان.

و ينبغى أن تكون ذو منزلة رفيعة و مقام مرموق عند المرسل، «مكين»، لكى يكون طبيعيا مستقرا فى استلامه الرسالة، و لا يناله أىّ خوف أو ارتباك فى حال إيصاله لأجوبة الرسالة إلى أىّ كان.

و من المؤهلات اللازمة، أن يكون له أعوان و يطيعونه بأمر الرسالة، و لا يتخاذلون عن طاعته، «مطاع».

و أخيرا، لا بدّ من كونه «أمينا» فى النقل، ليعتمد المرسل عليه فيما يريد أن يوصله إليه من الرسالة، فلا بدّ من الأمانة بكلّ معناها و الابتعاد عن الخيانة و لو بأدنى زواياها.

فمتى ما توفرت المؤهلات اللازمة للرسول فيه كان جديرا بأداء حق الرسالة، و لذلك نرى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان ينتخب رسله بدقة من بين أصحابه، و أفضل نموذج حى لذلك، إرساله أمير المؤمنين عليه السّلام بإيصال الآيات الأولى من سورة براءة إلى مشركى مكّة، فى ظروف قد شرحناها عند تفسيرنا لتلك السورة.

و

عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «رسولك ترجمان عقلك، و كتابك أبلغ ما ينطق عنك»[۴۹۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۸

الآيات [سورة التكوير (۸۱): الآيات ۲۶ الى ۲۹]

اشارة

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (۲۶) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (۲۷) لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (۲۸) وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۲۹)

التّفسير

إلى اين ... أيّها الغافلون؟!

أكّدت الآيات السابقة ببيان جلى حقيقة كون القرآن كلام اللّه ... فمحتواه ينطق عن كونه كلاما رحمانيا و ليس شيطانيا، و قد نزل به رسول كريم مقتدر و أمين، و قام بتبليغه النّبى الصادق الأمين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى لم يبخل فى البلاغ فى شىء، و ما تهاون عن تعليم الناس فيما أرسل به.

فيما توبخ الآيات أعلاه أولئك الذين عادوا القرآن و انحرفوا عن خطّ سير الرسالة الربّانية الهادية، فتقول لهم بصيغة الاستفهام التوبيخى: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ

لم تركتم طريق الهداية؟! أو من العقل أن تصدّوا عن النور و تتجهوا صوب الظلام؟! ألا ترحمون أنفسكم؟! و كيف تعملون على هدم أركان سعادتكم و سلامتكم؟! ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۶۹

و تأتى الآية الثّانية لتقول: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ فالآية تتحدث بلسان الوعظ و التذكير، عسى أن يستيقظ من تملكه نوم غفلته.

لا يمكن للهداية و التربية أن تؤدّى فعلها بوجود المرشد الناجح فقط، بل لا بدّ من توفر عنصر الاستعداد و تقبل الهداية من قبل الطرف الآخر، و لذلك ...

فبعد الوعظ و التذكير جاءت الآية التالية لتبيّن هذه الحقيقة: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ

فالآية الاولى: إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ قد ذكرت عمومية الفيض الإلهى فى القرآن الكريم، فيما خصصت الآية التالية: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ عملية الاستفادة من هذا الفيض الجزيل و حددته بشرط الاستقامة.

و هذه القاعدة جارية فى جميع النعم و المواهب الإلهية فى العالم، فإنّها عامّة التمكين، خاصّة الاستفادة، فمن لا يملك الإرادة و التصميم على ضوء الهدى القرآنى لا يستحق فيض رحمة اللّه و نعمه.

و الآية الثّانية من سورة البقرة: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ تدخل فى سياق هذا المعنى.

و على أيّة حال، فالآية تؤكّد مرّة اخرى على حرية الإنسان فى اختياره الطريق الذى يرضاه، سواء كان طريق حقّ، أم طريق باطل.

و يفهم من «يستقيم»، أنّ طريق السعادة الحقّة، طريق مستقيم، و ما دونه لا يكون كذلك، و لولا الإفراط و التفريط و الوساوس الشيطانية و أغشية الضلال ..

لسار الإنسان على هذه السبل المنجية، باستجابته لنداء الفطرة و اتباعه الخط المستقيم، و الخط المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للهدف المنشود.

و لكى لا يتصور بأنّ مشيئة و إرادة الإنسان مطلقة فى سيره على طريق المستقيم، و لكى يربط الإنسان مشيئة بمشيئة و توفيق اللّه عزّ و جلّ، و جاءت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۰

الآية التالية و لتقول: وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ و الآيتان السابقتان تبيّنان فلسفة «أمر بين الأمرين» التى أشار إليها الإمام الصادق عليه السّلام، فمن جهة، إنّ الإرادة و القرار بيدكم، و من جهة اخرى، يلزم تلك الإرادة و ذلك القرارة ما يشاء اللّه ربّ العالمين ... و إنّ خلقتم أحرارا مختارين، فالحرية و الإختيار منه جلّ اسمه، و لولا إرادته ذلك لما كان.

فالإنسان ليس بمجبور على أعماله مطلقا، و لا هو بمختار بكلّ معنى الإختيار، و لكن ... كما

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «لا جبر و لا تفويض الأمر بين الأمرين»،

فكـلّ مـا للإنسـان من: عقل، فهم قـدرة بدنيـة، و قـدرة على اتخاذ القرار، كلّ ذلك من اللّه عزّ و جلّ، فهو من جهـة فى حالـة الحاجة الدائمة للاتصال به جلّ شأنه، و لو شاء اللّه لتوقف كلّ شـىء و انتهى، و هو من جهة اخرى مسئول عن أعماله لما له من حرية و اختيار على تنفيذها.

و يفهم من «ربّ العالمين»، إنّ المشـيئة الإلهية تقضى بهداية و تكامل الإنسان و كلّ الموجودات، فاللّه لا يريد أن يضل أو يذنب أحد من الخلق، بل يريد أن يسـعد كلّ الخلق فى جوار رحمته و رضوانه، و بمقتضـى ربوبيته فهو الموفّق و المعين لكلّ من يريد أن يسلك طريق التكامل.

و الخطأ القاتل الـذى وقع فيه المتجبرة، إنّهم تمسّـكوا بالآية الثّانية دون الاولى و ربّما كان المفوضة قد تمسّـكوا بالآية الاولى مفصولة عن الآية الثانية لها .. و الفصل فيما بين آيات القرآن كثيرا ما يوقع فى هاوية الضلال و الخروج بنتائج خاطئة باطلة، و ينبغى التعامل مع الآيات القرآنية على كونها كلّ مترابط، لا آيات فرادى.

و قيل: إنّه لمّا نزل قوله تعالى: لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ قال أبو جهل:

جعل الأمر إلينا إن شئنا استقمنا و إن شئنا لم نستقم، فأنزل اللّه تعالى: وَ ما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۱

تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ۴۹۱].

اللّهمّ! لا توفيق إلّا منك، فوفقنا للسير على طريق رضوانك ...

اللّهمّ! لقد رغبنا فى سلوك طريقك و منهجك، فاجعل مشيئتك أن تأخذ بأيدينا فى هذا الطريق ...

اللّهمّ! إنّا نخاف أهوال الحشر و القيامة، لخلو صحائف أعمالنا من الحسنات، فعاملنا بعفوك و لطفك، و لا تشدد علينا بعدلك ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة التّكوير***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۳

سورة الإنفطار

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع و عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۵

«سورة الإنفطار»

محتوى السورة:

لا- تشـذ السورة عن سـياق سور الجزء الأـخير من القرآن الكريم، و تـدور حول محور المسائل المتعلقـة بيوم القيامـة، تتضـمّن مجموع آياتها المواضيع التالية:

۱- أشراط الساعة، و هى الحوادث الهائلة التى سيشهدها العالم أواخر لحظات عمره و عند قيام الساعة.

۲- التذكير بالنعم الإلهية الداخلة فى كلّ وجود الإنسان، و كسر حالة غرور الإنسان، و تهيئته المعاد.

۳- الإشارة إلى ملائكة تسجيل أعمال الإنسان.

۴- بيان عاقبة المحسنين و المسيئين فى يوم القيامة.

۵- لمحات سریعة عمّا سیجری فی ذلک الیوم العظیم.

فضیلة السورة:

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه قال: «من قرأ هاتین السورتین: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ و إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و جعلهما نصب عینه فی صلاة الفریضة و النافلة، لم یحجبه من اللّه حجاب، و لم یحجزه من اللّه حاجز، و لم یزل ینظر إلی اللّه و ینظر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۶

اللّه إلیه حتی یفرغ من حساب الناس»[۴۹۲].

و لا شک أنّ حصول ثواب السورتین إنّما یتمّ وضعهما فی أعماق روحه، و بنی علی أسسها أرکان نفسه و عمله، و لا لمن یلوکهما فی لسانه و لا غیر!***

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۷

الآیات [سورة الانفطار (۸۲): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ (۱) وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ (۲) وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ (۳) وَ إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (۴)

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ (۵)

التّفسیر

عند ما یحلّ الحدث المروع!

تقدّم لنا الآیات (مرّة اخری) مشاهدا مروعة من یوم القیامة، فتخبر عن تفطّر السماء من هول الکارثة: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ

ثمّ تنتقل إلی ما سیصیب الکواکب و نظامها: وَ إِذَا الْکَواکِبُ انْتَثَرَتْ

فسینهدم العالم العلوی، و ستحدث الإنفجارات العظیمة المهیبة فی کلّ النجوم السماویة، و سیتخلخل نظام المنظومات الشمسیة، فتخرج النجوم من مساراتها لتصطدم الواحدة بالأخری و تتلاشی ... فینتهی عمر العالم، و یتناثر کلّ شیء لیبنی علی أنقاضه عالم جدید آخر.

«انفطرت»: من (الإنفطار)، بمعنی الإنشقاق، و قد ورد التعبیر فی آیات اخری کالآیة الاولی من سورة الإنشقاق: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ و الآیة (۱۸) من

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۸

سورة المزمل: السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ

«انتثرت»: من (النثر) علی وزن (نصر)، بمعنی نشر الشیء و تفریقه، و «الانتثار»: هو الانتشار و التفرق. و باعتبار أنّ انتشار النجوم یؤدّی إلی تفرقها فی السماء (کحبات العقد المنفرط) فقد فسّرها الکثیر من المفسّرین ب (سقوط النجوم)، و هو من لوازم معنی الانتثار.

«الکواکب»: جمع (کوکب)، و له معان کثیرة، منها: النجوم بشکل عام، و الزهرة بشکل خاص، النبت إذا طال، البیاض الذی یظهر فی

سواد العين، لمعان الحديد: بريقه و توقده و «غلام كوكب»: ممتلئ إذا ترعرع و حسن وجهه، و كوكب كلّ شيء: معظمه، مثل كوكب الشعب و كوكب السماء و كوكب الشمس.

و الكوكب أيضا: الماء، السيف، سيد القوم ... إلخ.

و على ما يبدو أنّ المعنى الحقيقى هو (النجم المتلألئ)، و ما دون ذلك معان مجازية استعملت لعلاقة المشابهة.

و لكن، ما هى العوامل التى ستؤدى بالكواكب إلى التناثر و التفرق فى الفضاء مع فقدانها لنظامها الذى يحكمها؟

هل بسبب فقدان التعادل الموجود فى الجاذبية فيما بينها؟ أم ثمّة قوّة هائلة ستفعل ذلك؟ أم بسبب التوسع المستمر الحاصل فى العالم- كما يقول ذلك العلم الحديث؟ ...

لا يستطيع أىّ أحد أن يتكهن السبب بدّقة ... و كلّ ما نعلمه أنّ هذه الأمور تهدف إلى تعريف الإنسان بما سيحدث بالمستقبل الآت، و تدعوه لخلاص نفسه من أهوالها، و هو الكائن الضعيف وسط تلك الحوادث الجسام؟! فالآيات تحذر الإنسان من أن يتخذ العالم الفانى هدفا لوجوده، فيتصوره محل خلوده، لأنّ ذلك سيؤول إلى تلوث قلب الإنسان (شاء أم أبى)، و ما ينتج عن التلوث سوى الذنوب المؤدّية إلى عذاب الجحيم ...

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۷۹

و ينتقل البيان القرآنى من السماء إلى الأرض، فيقول: وَ إِذَا الْبِحارُ فُجِّرَتْ أى اتصلت.

مع أنّ البحار متصلة فيما بينها قبل حلول ذلك اليوم (ما عدا البحيرات)، لكنّ اتصالها سيكون بشكل آخر، حيث ستفيض جميعها و تتمزق حدودها و تصير بحرا واحدا لتشمل كلّ الأرض، بسبب الزلازل المرعبة و تحطم الجبال و سقوطها فى البحار ... هذا أحد تفاسير الآية السادسة من سورة التكوير (الآنفة الذكر) وَ إِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ

و ثمّة احتمال آخر بخصوص الآية المبحوثة و الآية (۶) من سورة التكوير، يقول: يراد ب «فجّرت» و «سجّرت» الإنفجار و الاحتراق، لأنّ مياه البحار و المحيطات ستتحول إلى قطعة من نار لأهب.

و كما أشرنا سابقا، فالماء يتكون من عنصرين شديدى الاشتعال (الأوكسجين و الهيدروجين) فلو تحلل الماء إلى عنصريه فسيكفيه شرارة صغيرة لجعله قطعة ملتهبة من النيران.

و تتناول الآية التالية عرضا لمرحلة القيامة الثانية، مرحلة تجديد الحياة و إحياء الموتى، فتقول: إِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ... و اخرج الموتى للحساب.

«بعثرت»: قلب ترابها و أثير ما فيها.

و احتمل (الراغب) فى مفرداته: إنّ «بعثرت» تكونت من كلمتين، (بعث) و (أثيرت)، فجاء المعنى منهما، كقولنا: «بسملة» من «بسم» و لفظ الجلالة «اللّه».

و على آيّة حال، فإننا نرى شبيه هذا المعنى قد ورد فى سورة الزلزال:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها أى الأموات (بناء على المشهور من تفاسيرها)، و فى الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة النّازعات: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

و توضح الآيات إنّ إحياء الموتى و إخراجهم من القبور سيكون مفاجئا و سريعا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۰

و بعد ذكر كلّ تلك العلائم لما قبل البعث و لما بعده، تأتى النتيجة القاطعة:

عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ

نعم، فستتجلى حقائق الوجود: و سيصير كلّ شيء بارز إنّه «يوم البروز» و سيرى الإنسان كلّ أعماله محضرة بخيرها و شرّها، لأنّه يوم

إزالة الحجب، و رفع مبررات الغرور و الغفلة، و عندها ... سيعلم الإنسان ما قدّم لآخرته، و ما ترك بعده من آثار حسنها و سيئها، مثل: الصدقة الجارية، فعل الخير، عمارة الأبنية، الكتب التى ألفها، ما سنّ من السنن ... فإن كان ما خلّفه خالصا للّه فسينال حسناته، و إن كانت نيّة أفعاله غير خالصة للّه فستصل إليه سيئات تبعاته.

و هذه نماذج من الأعمال التى ستصل نتائجها إلى الإنسان بعد الموت، و هو:

المراد من «و أخّرت».

صحيح أنّ الإنسان يعلم بما عمل فى دنياه بصورة إجمالية، لكنّ حبّ الذات و الإشتغال بالشهوات و النسيان غالبا ما ينسيه ما قدّمت يداه، فيتغافل عن النظر إلى ما بدّ منه، أمّا فى ذلك اليوم الذى سيتحول و يتغير فيه كلّ شىء حتى روح الإنسان فسيلتفت إلى ما قام به من عمل بكلّ دقّة و تفصيل، كما تشير إلى ذلك الآية (۳۰) من سورة آل عمران: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ، فكلّ سيرى كلّ أعماله حاضرة مجسمة أمام عينه.

و قيل: «ما قدّمت»، إشارة إلى أعمال أوّل عمر الإنسان، و «أخّرت»، إشارة إلى أعمال آخر عمره.

و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب من جميع الجهات.

و يراد ب «نفس» الواردة بالآية، كلّ نفس إنسانية.

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۱

بحث

ما يخلفه الإنسان بعد موته:

المستفاد من الرّوايات الشريفة، بالإضافة لما ورد فى الآيات المباركة أعلاه، إنّه ثمّة أعمال و آثار يخلفها الإنسان بعد موته، و ما ينجسم من تلك الأعمال و الآثار حتى يوم القيامة يبقى مرتبطا بذات الفاعل الأصلى، فإن كانت الأعمال خيّرة فستصله حسنات تتمة العمل و استمراره، و إن كانت شريرة فلا يجنى منها سوى الهون و العذاب.

فعن الإمام الصادق ۷، أنّه قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلّا ثالث خصال: صدقة أجراها فى حياته، فهى تجرى بعد موته، و سنّة هدى سنّها، فهى تعمل بها بعد موته، و ولد صالح يستغفر له»[۴۹۳].

و

فى رواية اخرى: «ست خصال يتنفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، مصحف يقرأ منه، و قليب (بئر) يحفره، و غرس يغرسه، و صدقة ماء يجربه، و سنة حسنة يؤخذ بها بعده»[۴۹۴].

فيما أكّدت بعض الرّوايات على (العلم) الذى يخلّفه بعده.[۴۹۵] و قد حذّرت كثير من الرّوايات من أن يسنّ الإنسان سنّة سيئة، لأنّ الفاعل الأوّل ستتابع عليه آثام تلك السنة إلى يوم القيامة.

و كذلك حثت و شوقت على استنان السنن الحسنة، لينتفع الفاعل الأوّل لها بثوابها الجارى إلى يوم القيامة.

و

ذكر العلّامة الطبرسى حديثا فى هذا المضمار .. إنّ سائلا قام على عهد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فسأل، فسكت القوم، ثمّ أنّ رجلا أعطاه، فأعطاه القوم .. فقال

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۲

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «من استن خيرا فاستن به فله أجره، و مثل أجور من اتبعه، غير منتقص من أجورهم، و من استن شرّا فاستن به فعليه وزره، مثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم» فتلا حذيفة بن اليمان قوله تعالى: عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَ أَخَّرَتْ [۴۹۶].

و

عن أمير المؤمنين عليه السّلام، أنّه قال: «فكيف بكم لو تناهت بكم الأمور و بعثرت القبور، هناك تبلو كلّ نفس ما أسلفت، و ردّوا إلى اللّه مولاهم الحق، و ضل عنهم ما كانوا يفترون»[۴۹۷].

فتعكس هذه الآيات و الرّوايات أبعاد مسئولية الإنسان أمام أعماله، و تبيّن عظم المسؤولية، فأثار فعل الخيرات أو المنكرات يتصل إليه و إن امتدت الآلاف السنين بعد موته![۴۹۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۳

الآيات [سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۶ الى ۱۲]

اشارة

يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (۶) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (۷) فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ (۸) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (۹) وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ (۱۰)
كِراماً كاتِبِينَ (۱۱) يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ (۱۲)

التّفسير

لا داعى للغرور:

تنتقل الآيات أعلاه من المعاد إلى الإنسان، ببيان إيقاظى عسى أن ينتبه الإنسان من غفلة ما فى عنقه من حقّ و ما على عاتقه من مسئوليات جسام أمام خالقه سبحانه و تعالى، فتخاطب الآية الاولى الإنسان باستفهام توبيخى محاط بالحنان و الرأفة الرّبانية: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ

فالقرآن يذكّر الإنسان بإنسانيته، و ما لها من إكرام و أفضلية، ثمّ جعله أمام «ربّ» «كريم»، فالرّب و بمقتضى ربوبيته هو الحامى و المدبّر لأمر تربية و تكامل الإنسان، و بمقتضى كرمه أجلس الإنسان على مائدة رحمته، و رعاه بما أنعم عليه ماديا و معنويا و دون أن يطلب منه أىّ مقابل، بل و يعفو عن كثير من ذنوب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۴

الإنسان لفضل كرمه ...

فهل من الحكمة أن يتمرد هذا الموجود المكرّم على هكذا ربّ رحيم كريم؟! و هل يحقّ لعاقل أن يغفل عن ذكر ربّه و لو للحظة واحدة، و لا يطيع أمر مولاه الذى يتضمن سعادته و فوزه؟! و لهذا

فقد ورد عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند تلاوته للآية المباركة أنّه قال: «غرّه جهله»[۴۹۹].

و من هنا، يتقرّب لنا هـدف الآية، فهى تدعو الإنسان لكسـر حاجز غروره و تجاوز حالة الغفلة، و ذلك بالاسـتناد على مسألة الربوبية و الكرم الإلهى، و ليس كما يحلو للبعض من أن يصور هدف الآية، على أنّه تلقين الإنسان عذره، فيقول:

غرّنى كرمـك! أو كما قيل للفضـيل بن عياض: «لو أقامك اللّه و يوم القيامـة بين يـديه، فقال: ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ماذا كنت تقول له؟ قال: أقول: غرّنى ستورك المرخاة»[۵۰۰].

فهـذا ما يخالف تماما، لأنّها فى صـدد كسـر حالـة غرور الإنسان و إيقاظه من غفلته، و ليست فى صدد إضافة حجاب آخر على حجب الغفلة! فلا ينبغى لنا أن نذهب بالآية بما يحلو لنا و نوجهها فى خلاف ما تهدف إليه! «غرّك»: من (الغرور)، و «الغرّة»: غفلة فى اليقظة، و بعبارة اخرى: غفلـة فى وقت لا ينبغى فيه الغفلـة، و لما كانت الغفلة أحيانا مصدرا للاسـتعلاء و الطغيان فقد اسـتعملت (الغرور) بهذه المعانى.

و الغرور): كلّ ما يغرّ الإنسان من مال، جاه، شـهوة و شـيطان، و قـد فسّـر الغرور بالشـيطان، لأنّه أخبث من يقوم بهذا الدور الدنىء فى الدّنيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۵

و ذكر فى تفسير «الكريم» آراء كثيرة، منها: إنّه المنعم الذى تكون جميع أفعاله إحسان، و هو لا ينتظر منها أىّ نفع أو دفع ضرر.

و منها: هو الذى يعطى ما يلزمه و ما لا يلزمه.

و منها: هو من يعطى الكثير بالقليل.

و لو جمعنا كلّ ما ذكر و بأعلى صورة لدخل فى كرم اللّه عزّ و جلّ، فيكفى كرم اللّه جلالا أنّه لا يكتفى عن المذنبين، بل يبدل (لمن يستحق) سيئاتهم حسنات.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّـلام عند تلاوته لهذه الآية، أنّه قال: (إن الإنسان) «أدحض مسئول حجّة، و أقطع مغترّ معذرة، لقد أبرح (أى اغتر) جهالة بنفسه.

يا أيّها الإنسان، ما جرّأك على ذنبك، و ما غرّك بربّك، و ما أنسك بهلكة نفسك؟

أمّا من دائك بلول (أى شفاء)، أم ليس من نومتك يقظة؟ أما ترحم نفسك ما ترحم من غيرك؟ فلربّما ترى الضاحى من حرّ الشمس فتظلّه، أو ترى المبتلى بألم يمض جسـده فتبكى رحمـة له! فما صبرك على دائك، و جلـدك على مصابك، و عزاك عن البكاء على نفسـك و هى أعزّ الأـنفس عليـك، و كيف لاـ يوقظـك خوف بيات نقمـة (أى تبيت بنقمـة من اللّه) و قـد تورطت بمعاصـيه مـدارج سطواته! فتـداو من داء الفترة فى قلبك بعزيمة، و من كرى (أى النوم) الغفلة فى ناظرك بيقظة، و كن للّه مطيعا و بذكره آنسا، و تمثل (أى تصور) فى حـال توليـك عنه إقباله عليك، يـدعوك إلى عفوه و يتغمـدك بفضـله و أنت متول عنه إلى غيره، فتعالى من قوى ما أكرمه! و تواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته! ...»[۵۰۱].

و تعرض لنا الآية التالية جانبا من كرم اللّه و لطفه على الإنسان:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۶

الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِى أَىِّ صُورَةٍ ما[۵۰۲] شاءَ رَكَّبَكَ

فالآية قد طرحت مراحل خلق الإنسان الأربعة .. أصل الخلقة، التسوية، التعديل، و من ثمّ التركيب.

ففى مرحلة الاولى: يبدأ خلق الإنسان و من نطفة فى ظلمات رحم الام.

و فى مرحلة الثّانية: مرحلة «التسوية و التنظيم» و فيها يقدر البارى سبحانه خلق كلّ عضو من أعضاء الإنسان بميزان متناهى الدّقة.

فلو أمعن الإنسان النظر فى تكوين عينه اذنه أو قلبه، عروقه و سائر أعضاءه، و ما أودع فيها من ألطاف و مواهب و قدرات إلهية، لتجسم

أمامه عالما من العلم و القدرة و اللطف و الكرم الإلهى.

عطاء ربّانى قد شغل العلماء آلاف السنين بالتفكير و البحث و التأليف، و لا زالوا فى أوّل الطريق ...

و فى المرحلة الثّالثة: يكون التعديل بين «القوى» و «الأعضاء» و تحكيم الارتباط فيما بينها.

و بدن الإنسان قد بنى على هذين القسمين المتقاربين، ف اليدين، الرجلين، العينين، الأذنين، العظام، العروق، الأعصاب و العضلات قد توزعت جميعها على هذين القسمين متجانس و مترابط.

هذا بالإضافة إلى أنّ الأعضاء فى عملها يكمل بعضها للبعض الآخر، فجهاز التنفس مثلا يساعد فى عمل الدورة الدموية بدورها تقدم يد العون إلى عملية التنفس، و لأجل ابتلاع لقمة غذاء، لا تصل إلى الجهاز الهضمى إلّا بعد أن يؤدّى كلّ من: الأسنان، اللسان، الغدد و عضلات الفم دوره الموكل به، و من ثمّ تتعاضد أجزاء الجهاز الهضمى على إتمام عملية الهضم و امتصاص الغذاء، لينتج منه القوّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۷

اللازمة للحركة و الفعالية ...

و كلّ ما ذكر، و غيره كثير، قد جمع قصيرة رائعة ... فَعَدَلَكَ

و قيل: «عدلك» إشارة إلى اعتدال قامة الإنسان، و هو ما يمتاز به عن بقية الحيوانات، و هذا المعنى أقرب للمرحلة القادمة و لكن المعنى الأوّل أجمع.

و فى المرحلة الرابعة: تكون عملية «التركيب» و إعطاء الصورة النهائية للإنسن نسبة إلى بقية الموجودات.

نعم، فقد تكرم البارى بإعطاء النوع الإنسانى صورة موزونة عليها مسحة جمالية بديعة قياسا مع بقية الحيوانات، و أعطى الإنسان فطرة سليمة، و ركّبه بشكلّ يكون فيه مستعدا لتلقى كلّ علم و تربية.

و من حكمة البارى أن جعل الصور الإنسانية مختلفة متباينة، كما أشارت إلى ذلك الآية (۲۲) من سورة الروم: وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ و لولا الاختلاف المذكور لاختل توازن النظام الاجتماعى البشرى.

و مع الاختلاف فى المظهر فإنّ البارى جلّ شأنه قدّر الاختلاف و التفاوت فى القابليات و الاستعدادات و الأذواق و الرغبات، و جاء هذا النظم بمقتضى حكمته، و به يمكن تشكيل مجتمع متكامل سليم و كلّ حوائجه ستكون مؤمّنة.

و تلخص الآية (۴) من سورة التين خلق اللّه للإنسان بصورة إجمالية: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

و الخلاصة: فالآيات المبحوثة، إضافة لآيات أخر كثيرة تهدف و بشكلّ دقيق إلى تعريف الإنسان المغرور بحقيقته، منذ كان نطفة قذرة، مرورا بتصويره و تكامله فى رحم امّه، حتى أشدّ حالات نموه و تكامله، و تؤكّد على أنّ حياة الإنسان فى حقيقتها مرهونة بنعم اللّه، و كلّ حىّ يفعم برحمة اللّه فى كل لحظات حياته، و لا بدّ لكلّ حى ذى لبّ و بصيرة من أن يترحل من مطية غروره و غفلته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۸

و يضع طوق عبودية المعبود الأحد فى رقبته، و إلّا فالهلاك الحتمى.

و تتناول الآية التالية منشأ الغرور و الغفلة: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ

فالكرم الإلهى، و لطف البارى منعمه ليست بمحفز لغروركم، و لكنكم آليتم على عدم إيمانكم بالقيامة، فوقعتم بتلك الهاوية الموهمة.[۵۰۳] و لو دققنا النظر فى حال المغرورين و الغافلين، لرأينا أنّ الشك بيوم القيامة أو إنكاره هو الذى استحوذ على قلوبهم و ما دونه مجرّد مبررات واهية، و من هنا يأتى لتشديد على أصل المعاد، فلو قوى الإيمان بالمعاد فى القلوب لارتفع الغرور و انقشعت الغفلة عن النفوس.

«الدين»: يراد به هنا، الجزاء يوم الجزاء، و ما احتمله البعض من أنّه (دين الإسلام) فبعيد عن سياق حديث الآيات، لأنّها تتحدث عن «المعاد».

و تـأتى الآيات التاليـة لتوضـح أنّ حركات و سـكنات الإنسان كلّها مراقبـة و محسوبـة و لا بـدّ الإيمان بالمعاد و إزالـة عوامل الغفلـة و الغرور، فتقول .. وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ۵۰۴].

و هؤلاء الحفظة لهم مقام كريم عند اللّه تعالى و دائبين على كتابة أعمالكم:

كِراماً كاتِبِينَ

يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

و «الحافظين»: هم الملائكة المكلفون بحفظ و تسجيل أعمال الإنسان من خير أو شرّ، كما سـمّتهم الآية (۱۷) من سورة (ق) بالرقيب العتيد: ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ، كما و ذكرتهم الآية (۱۶) من نفس السورة:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۸۹

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَ عَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ.

و ثمّة آيات قرآنية اخرى تشير إلى رقابة الملائكة لما يفعله الإنسان فى حياته.

إنّ نظر و شـهادة اللّه عزّ و جـلّ على أعمـال الإنسـان، ممّـا لا ـ شك فيه، فهو الناظر لما يبـدر من الإنسان قبل أىّ أحـد، و أدق من كلّ شىء، و لكنّه سـبحانه و لزيـادة التأكيـد و لتحسـيس الإنسـان بعظم مسـئولية مـا يؤديه، فقـد وضع مراقـبين يشـهدون على الإنسـان يوم الحساب، و منهم هؤلاء الملائكة الكرام.

و قـد فصّـلنا أقسـام المراقبين الـذين يحفون بالإنسـان من كلّ جهـة، و ذلك ذيل الآيتين (۲۰ و ۲۱) من سورة فصّـلت، و نوردهـا هنا إجمالا، و هى على سبعة أقسام.

أوّلا: ذات اللّه المقدّسة، كما فى قوله تعالى: وَ لا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۵۰۵].

ثانيا: الأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام، بدلالة قوله تعالى: فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً[۵۰۶].

ثالثا: أعضاء بدن الإنسان، بدلالة قوله تعالى: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۵۰۷].

رابعا: جلد الإنسان و سـمعه و بصره، بدلالة قوله تعالى: حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ۵۰۸].

خامسا: الملائكة، بدلالة قوله تعالى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۰

وَ جاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَ شَهِيدٌ[۵۰۹]، و بدلالة الآية المبحوثة أيضا.

سادسا: الأرض .. المكان الذى يعيش عليه الإنسان، بدلالة قوله تعالى:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها[۵۱۰].

سابعا: الزمان الذى تجرى فيه أعمال الإنسان، بدلالة ما

روى عن الإمام على عليه السّـلام فى و قوله: «ما من يوم يمرّ على ابن آدم إلّا قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم أنا يوم جديـد و أنا عليك شهيد»[۵۱۱].

و

فى كتاب الإحتجاج للشـيخ الطبرسـى: إنّ شـخصا سأل الإمام الصادق عليه السّـلام عن علّـة وضع الملائكة لتسـجيل أعمال الإنسان فى حين أنّ اللّه عزّ و جلّ عالم السرّ و أخفى؟

فقال الإمام عليه السّـلام: «اسـتعبدهم بذلك، و جعلهم شـهودا على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة اللّه مواظبة، و عن معصـيته أشدّ انقباضا، و كم من عبد يهم بمعصـية فذكر مكانهما فارعوى و كفّ، فيقول ربّى يرانى، و حفظتى علىّ بذلك يشهد،

و أنّ برأفته و لطفه وكّلهم بعباده، يذبّون عنهم مردة الشياطين، و هوام الأرض، و آفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن اللّه، إلى أن يجيء أمر اللّه عزّ و جلّ»[۵۱۲].

و يستفاد من هذه الرواية أنّ للملائكة وظائف اخرى إضافة لتسجيلهم لأعمال الإنسان كحفظ الإنسان من الحوادث و الآفات و وساوس الشيطان.

(و قد بحثنا موضوع وظائف و مهام الملائكة بتفصيل فى ذيل الآية (۱) من سورة فاطر- فراجع).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۱

و قد وصفت الآيات المبحوثة هؤلاء الملائكة بأنّهم «كرام»، ليكون الإنسان أكثر دقّة فى مراقبة نفسه و أعماله، لأنّ الناظر كلّما كان ذا شأن كبير، تحفظ الإنسان منه أكثر و أكثر و استحى من فعل المعاصى أمامه.

و علّة ذكر «كاتبين» للتأكيد على إنّهم لا يكتفون بالمراقبة و الحفظ دون تسجيل ذلك بدقّة متناهية.

و ذكر: يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ تأكيد آخر على كونهم مطلعين على كلّ الأعمال و بشكل تام، و استنادا إلى اطلاعهم و معرفتهم يسجلون ما يكتبونه.

فالآيات تشير إلى حرية إرادة الإنسان، و تشير إلى كونه مختارا، و إلّا فما قيمة تسجيل الأعمال؟ و هل سيبقى للتحذير و الإنذار من معنى؟

و تشير أيضا إلى جدّية و دقّة الحساب و الجزاء و الإلهى.

و يكفى فهم و استيعاب هذه الإشارات البيانية الرّبانية لإنقاذ الإنسان من وقوعه فى هاوية المعاصى، و تكفيه الإشارات عظة ليزكى و يعرف مسئوليته و يعمل بدروه.

***

بحث

كتبة صحائف الأعمال:

لم تكن الآيات المبحوثة الدليل الوحيد على وجود المراقبين لأعمال الإنسان، و الكاتبين لها بخيرها و شرّها، بل ثمّة آيات كثيرة و روايات عديدة تناولت ذلك ... و من جملة ما ورد من الأحاديث بهذا الشأن.

۱- سؤال عبد اللّه بن موسى بن جعفر عليه السّلام لأبيه عن الملكين .. هل يعلمان بالذنب إذا أراد العبد أن يفعله، أو الحسنة؟

فقال الإمام عليه السّلام: «ريح الكنيف و ريح الطيب سواء؟».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۲

قال: لا.

قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيّب الريح، فيقول صاحب اليمين لصاحب الشمال: قم فإنّه قد همّ بالحسنة، فإذا فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده، فأثبتها له، و إذا همّ بالسيئة خرج نفسه منتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين، قف فإنّه قد همّ بالسيئة، فإذا هو فعلها كان لسانه قلمه و ريقه مداده، و أثبتها عليه»[۵۱۳].

فالرواية تبيّن ما للنيّة من أثر على كامل وجود الإنسان، و أنّ الملائكة يسجلون ما وقع من فعل من الإنسان و لكنّهم مطلعين على فعل الواقع قبل وقوعه، و عليه فتسجيلهم لأعمال الإنسان دقيق جدّا، و لا يفوتهم شيئا إلّا و كتبوه فى صحيفته.

و الرواية أيضا، تأتى فى سياق الحديث النبوى الشريف: «إنّما الأعمال بالنيات» للتأكيد على ما لنيّة الإنسان من أثر على فعله الحسن أو السيء.

و تبيّن أيضا، بأنّ وسائل الكتابة هى جوارح الإنسان الناوى للفعل، فلسانه القلم و ريقه المداد! ۲- و ثمّة روايات تؤكّد على أنّ الملائكة مأمورة بتسجيل النوايا الحسنة دون النوايا السيئة، و منها:

«إنّ تبارك و تعالى جعل لآدم فى ذريته من همّ بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة، و من همّ بحسنة و عملها كتبت له بها عشرا، و من همّ بسيئة و لم يعملها لم تكتب له، و من همّ بها و عملها كتبت عليه سيئة».[۵۱۴]

فالرواية تبيّن منتهى اللطف الرّبانى الفصل الإلهى على الإنسان، و تحث الإنسان على الأعمال الصالحة .. فنيّته السيئة لا تسجل عليه، و فعله السيء يكتب عليه وفق موازين العدل، فى حين أنّ نيّته الحسنة و فعله الحسن يسجلان

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۳

له وفق اللطف و التفضل الإلهى ...

۳- و

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «يهمّ العبد بالحسنة فيعملها، فإن هو لم يعملها كتب اللّه له حسنة بحسن نيّته، و إن هو عملها كتب اللّه له عشرا، و يهمّ بالسيئة أن يعملها، فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء و إن عملها اجّل سبع ساعات، و قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات و هو صاحب الشمال: لا- تعجل عسى أن يتبعها بحسنة تمحوها، فإن اللّه عزّ و جلّ يقول: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ أو الاستغفار فإنّ هو قال: استغفر اللّه الذى لا- إله إلّا هو، عالم الغيب و الشهادة، العزيز الحكيم، الغفور الرحيم، ذو الجلال و الإكرام و أتوب إليه، لم يكتب عليه شيء، و إن مضت سبع ساعات و لم يتبعها بحسنة أو استغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السيئات: اكتب على الشقى المحروم»[۵۱۵].

۴- و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام: «إنّ المؤمنين إذا أقبلا على المساءلة قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما فإنّ لهما سرّا و قد ستر اللّه عليهما»![۵۱۶]

۵- و

فى خطبة لأمير المؤمنين عليه السّلام، قال فيها بعد أن دعى الناس فيها لتقوى اللّه: «اعلموا عباد اللّه، إنّ عليكم رصدا من أنفسكم، و عيونا من جوارحكم، و حفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، و عدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج و لا يكنّكم منهم باب ذو رتاج «أى إحكام»، و إنّ غدا من اليوم قريب»[۵۱۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۴

الآيات [سورة الانفطار (۸۲): الآيات ۱۳ الى ۱۹]

اشارة

إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۱۳) وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (۱۴) يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ (۱۵) وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ (۱۶) وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۷)

ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ (۱۸) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (۱۹)

التّفسير

«يوم ... لا تملك نفس لنفس شيئا»:

بعد ذكر الآيات السابقة لتسجيل أعمال الإنسان من قبل الملائكة، تأتى الآيات أعلاه لتتطرق إلى نتائج تلك الرقابة، و ما سيصل إليه كلّ من المحسن و المسىء من عاقبة، فتقول الآية الاولى: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ

و الثّانية: وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ

«الأبرار»: جمع (بار) و «برّ» على وزن (حق)، بمعنى: المحسن، و (البرّ) بكسر الراء- كلّ عمل صالح ... و الآية تريد العقائد السليمة، و النيات و الأعمال الصالحة.

«نعيم»: و هى مفرد بمعنى النعمة، و يراد به هنا «الجنّة»، و جاءت بصيغة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۵

النكرة لبيان أهمية و عظمة هذه النعمة، التى لا يصل لإدراك حقيقتها إلّا اللّه سبحانه و تعالى، و اختيرت كلمة «نعيم» بصيغة الصفة المشبهة، للتأكيد على بقاء و استمرار هذه النعمة، لأنّ الصفة المشبهة عادة ما تتضمّن ذلك.

«الفجّار»: جمع (فاجر) من (فجر)، و هو الشقّ الواسع، و قيل للصبح فجر لكونه فجر الليل، أىّ شقّه بنور الصباح، و (الفخور): شقّ ستر الديانة و العفة، و السير فى طريق الذنوب.

«جحيم»: من (الجحمة)، و هى تأجج النّار، و تطلق الآيات القرآنية (الحجيم) على جهنّم عادة.

و يمكن أن يراد بقوله تعالى: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ الحال الحاضر، أىّ: إنّ الأبرار يعيشون فى نعيم الجنّة حاليّا، و إنّ الفجّار قابعون فى أودية النّار، كما يفهم من إشارة الآية (۵۴) من سورة العنكبوت: إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ

و قال بعض: المراد من الآيتين هو حتمية الوقوع المستقبلى، لأنّ المستقبل الحتمى و المضارع المتحقق الوقوع يأتى بصيغة الحال فى اللغة العربية، و أحيانا يأتى بصيغة الماضى.

فالمعنى الأوّل أكثر انسجاما مع ظاهر الآية، إلّا أنّ المعنى الثّانى أنسب للحال، و اللّه العالم.

و تدخل الآية التالية فى تفصيل أكثر لمصير الفجّار: يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى أنّ الفجّار هم فى جهنّم حاليا، فسيكون إشارة هذه الآية، إلى أنّ دخولهم جهنّم سيتعمق، و سيحسون بعذاب نارها، بشكل أشدّ.

«يصلون»: من (المصلى) على وزن (سعى)، و «صلى النّار»: دخل فيها، و لكون الفعل فى الآية قد جاء بصيغة المضارع، فإنّه يدل على الاستمرار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۶

و الملازمة فى ذلك الدخول.

و لزيادة التفصيل، تقول الآية التالية: وَ ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ

اعتبر كثير من المفسّرين كون الآية دليلا على خلود الفجّار فى العذاب، و خلصوا إلى أنّ المراد ب «الفجّار» هم «الكفّار»، لكون الخلود فى العذاب يختص بهم دون غيرهم.

ف «الفجّار»: إذن: هم الذين يشقون ستر التقوى و العفة بعدم إيمانهم و تكذيبهم بيوم الدين، و لا يقصد بهم- فى هذه الآيات- أولئك الذى يشقّون الستر المذكور بغلبة هوى النفس مع وجود حالة الإيمان عندهم.

و إتيان الآية بصيغة زمان الحال تأكيدا لما أشرنا إليه سابقا، من كون هؤلاء يعيشون جهنّم حتّى فى حياتهم الدنيا (الحالية) أيضا ... وَ

ما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ فحياتهم بحدّ ذاتها جهنّما، و قبورهم حفرة من حفر النيران (كما ورد فى الحديث الشريف)، و عليه فجهنّم القبر و البرزخ و جهنّم الآخرة ... كلّها مهيأة لهم.

كما و تبيّن الآية أيضا: إنّ عذاب أهل جهنّم عذاب دائم ليس له انقطاع، و لا يغيب عنهم و لو للحظة واحدة.

و لأهمية خطب ذلك اليوم العظيم، تقول الآية التالية: وَ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ

ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ

فإذا كانت وحشة و أهوال ذلك اليوم قد أخفيت عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- و هو المخاطب فى الآية- مع كلّ ما له من علم ب القيامة، المبدأ، المعاد .. فكيف يا ترى حال الآخرين؟!! ..

و الآيات قد بيّنت ما لأبعاد يوم القيامة من سعة و عظمة، بحيث لا يصل لحدّها أىّ وصف أو بيان، و كما نحن (السجناء فى عالم المادة) لا نتمكن من إدراك حقيقة النعم الإلهية المودعة فى الجنّة، فكذا هو حال إدراكنا بالنسبة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۷

لحقيقة عذاب جهنّم، و عموما لا يمكننا إدراك ما سيجرى من حوادث فى ذلك اليوم الرهيب المحتوم.

و ينتقل البيان القرآنى للتعبير عن إحدى خصائص ذلك اليوم، و بجملة وجيزة، لكنها متضمّنة لحقائق و معان كثيرة: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ

فستتجلّى حقيقة أنّ كلّ شىء فى هذا العالم هو بيد اللّه العزيز القهّار، و ستبان حقيقة حاكمية اللّه المطلقة و مالكيته على كلّ من تنكر لهذه الحقيقة الحقّة، و ستنعدم تلك التصورات الساذجة التى حكمت أذهان المغفلين بكون فلان أميرا و رئيسا أو حاكما، و سينهار أولئك البسطاء الذين اعتبروا أن قدراتهم مستقلة بعد أن أكل الغرور نفوسهم و تكالب التكبر على تصرفاتهم فى الحياة الدنيا الفانية.

و تشهد على الحقيقة- بالإضافة إلى الآية المذكورة- الآية (۱۶) من سورة المؤمن حيث تقول: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ.

و تشير الآية (۳۷) من سورة عبس إلى انشغال الإنسان بنفسه فى ذلك اليوم دون كلّ الأشياء الاخرى، و لو قدّر أن يمنح قدرا معينا من القدرة، لما نفع بها أحد دون نفسه!، حيث تقول الآية: لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

حتّى

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام، أنّه تناول ذلك الموقف بقوله: (إن الأمر يومئذ و اليوم كله لله، ...) و إذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلّا اللّه»[۵۱۸]

و هنا ... يواجهنا السؤال التالى: هل يعنى ذلك، إنّ الآية تتعارض و شفاعة الأنبياء و الأوصياء و الملائكة؟

و يتّضح جواب السؤال المذكور من خلال البحوث التى قدمناها بخصوص موضوع (الشفاعة) فقد صرّح الحكيم فى بيانه الكريم، إنّ الشّفاعة لن تكون إلّا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج۱۹، ص: ۴۹۸

بإذنه، و إنّ الشّفاعة غير مطلقة، حسب ما تشير إليه الآية (۲۸) من سورة الأنبياء لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى اللّهم! إنّ الخلائق تنتظر رحمتك و لطفك فى ذلك اليوم الرهيب، و نحن الآن نتوقع لطفك.

إلهنا! لا تحرمنا من الطافك و عناياتك فى هذا العالم و العالم الآخر.

ربّنا! أنت الحاكم المطلق فى كلّ مكان و زمان، فاحفظنا من التورط فى شباك الذنوب و السقوط فى وادى الشرك و اللجوء الى الغير ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الإنفطار انتهى المجلد التاسع عشر***

[۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۵۲.

[۲] (۱)- الغدیر، ج ۱، ص ۲۳۹- ۲۴۶.

[۳] (۱)- الباء فی(بعذاب واقع) حسب هذا التفسیر باء زائدة للتأکید و فی نظر البعض تعنی(عن)، و هذا ممّا یطابق التّفسیر الثّانی(یجب الالتفات إلی أنّ السؤال إذا کان بصیغة الطلب یتعدی بمفعولین و إذا کان بمعنی الاستفسار یکون مفعوله الثّانی مع(عن).

[۴] (۱)-(واقع) صفة للعذاب و(للکافرین) صفة ثانیة و(لیس له دافع) صفة ثالثة و قد احتمل أن(الکافرین) له علاقة ب-(العذاب) و إذا کانت(اللام) تعنی(علی) فإنّها ستتعلق ب-(واقع).

[۵] (۱)- وردت تفاسیر اخری لعروج الملائکة لا یمکن الاعتماد علی أیّ منها و من ذلک: المراد من الزمان هی الفترة التی بدأت الملائکة بالصعود و النزول منذ بدایة الدنیا إلی نهایتها تکون مقدار خمسین ألف سنة، و هذا هو عمر الحیاة و لکن الآیات التی تلیها تدلّ علی أنّ الحدیث یخصّ یوم القیامة و لا یخصّ الدّنیا(فتدبّر).

[۶] (۲)- نقل هذا الحدیث فی أمالی الشّیخ بإسناده إلی أمیر المؤمنین علیه السّلام و هو مطابق لما نقله الحویزی فی کتابه نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۱۳.

[۷] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۵۳، و القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۶۱.

[۸] (۱)- بسطنا الکلام فی معنی الصبر الجمیل فی التفسیر الأمل، ج ۷(من الطبعة العربیة) فی قصّة النّبی یعقوب و یوسف علیهما السّلام.

[۹] (۱)- ل(یوم) احتمالات متعددة فی الإعراب، و لکن الأفضل أن یکون بدلا من(قریبا) فی الآیة السابقة أو متعلقا بفعل محذوف مثل(اذکر).

[۱۰] (۱)-« الحمیم»: تقدم أنه فی الأصل یعنی الماء المغلی و المحرق ثمّ اطلق کذلک علی الأصدقاء المخلصین و الحقیقیین.

[۱۱] (۲)- وردت تفاسیر اخری، منها: لا یسأل أحد عن أحوال الآخر لأنّ أحوالهم ظاهرة فی وجوههم، و إذا کانت ظاهرة فلا مبرر للسؤال، و لا یمکن أحد تحمل المسؤولیة، مسئولیة أعماله عن الآخرین و لکن التّفسیر الأوّل هو الأصح.

[۱۲] (۳)- مع أنّ« حمیم» قد جاء فی المرحلتین بصورة المفرد، فقد جاء فی« یبصرونهم» ضمیر بصورة الجمع لأنّ له معنی جنسی.

[۱۳] (۱)- هناک توضیح آخر أوردناه تحت عنوان« الإنسان فی القرآن الکریم» فی ذیل الآیة(۱۳) لسورة یونس من هذا التّفسیر.

[۱۴] (۲)- المعجم المفهرس لألفاظ الحدیث، ج ۲، ص ۱۶۰.

[۱۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۱۵.

[۱۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۱۷، حدیث ۲۵- ۲۷.

[۱۷] (۱)- المصدر السابق.

[۱۸] (۱)- جامع الأخبار ص ۱۱۳

[۱۹] (۱)-« فروج» جمع« فرج» و هو کنایة عن الآلة التناسلیة.

[۲۰] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۳۸۰.

[۲۱] (۱)- البقرة، ۲۸۳ و ۱۴۰، المائدة، ۱۰۶، الطلاق، ۲.

[۲۲] (۲)-« فی جنات» خبر ب-« أولئک» و« مکرمون» خبر ثان أو أنّه خبر و« فی جنات» متعلق به« تمعن».

[۲۳] (۱)- هناک احتمالات أخری فی تفسیر هذه الآیة: أنّ المراد من جملة« ممّا یعلمون» هو أنّنا خلقناهم و وهبنا لهم العقل و الشعور لا کالحیوانات و البهائم، و لهذا فإنّهم مسئولون عن أعمالهم، و هناک مراد آخر و هو أنّنا خلقناهم لأهداف هم یعلمونها و هی التکلیف و الطاعة، و لکن هذه الاحتمالات بعیدة، و لذا فإنّ أکثر المفسّرین ذهبوا إلی المعنی المذکور سابقا.

[۲۴] (۱)-« یخوضوا» من أصل خوض- علی وزن حوض- و تعنی فی الأصل الحرکة فی الماء، ثمّ جاءت بصیغة الکنایة فی موارد یغطس فیه الإنسان فی الباطل.

[۲۵] (۱)-« ترهقهم» من أصل(رهق) علی وزن(سقف) و یراد به غشیان الشیء بقهر.

[۲۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۵۹.

[۲۷] (۲)- المصدر السّابق.

[۲۸] (۱)-« من» فی هذه الجملة زائدة و للتأکید، لأنّ الإیمان باللّه یبعث علی غفران جمیع الذنوب السابقة، هذا ما یرتبط بحق الناس، و أمّا من باب الذنوب و حکم الحرمة أیضا یکون مشمولا بالمغفرة، و ما احتمل بعض المفسّرین(کالفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر و العلّامة الطباطبائی قدس سرّه فی المیزان) من أنّ(من) هنا تبعیضیة و هی تخص الذنوب السابقة لا الآتیة یبدو بعیدا، لأنّ الذنوب الآتیة غیر مذکورة فی سیاق الآیة.

[۲۹] (۱)- کان لنا بحث آخر حول الأجل النهائی و الأجل المعلق و ذلک فی ذیل الآیة(۲) من سورة الأنعام.

[۳۰] (۲)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۴۸۸، مادة(ذنب).

[۳۱] (۱)- البقرة، ۳.

[۳۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۱

[۳۳] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۳۶.

[۳۴] (۱)- فصلت، ۲۶

[۳۵] (۲)- بحار الأنوار، ج، ۴۵، ص ۸.

[۳۶] (۱)-« مدرارا»: من أصل(درّ) علی وزن(جرّ) و تعنی فی الأصل انسکاب الحلیب من ثدیی الام و یعطی معنی هطول الأمطار، و مدرارا صیغة للمبالغة.

[۳۷] (۱)-« الوقار»: الثقل و العظمة، و« ترجون» من أصل رجاء بمعنی الأمل و هو ملازم للخوف، و معنی الآیة لماذا لا تخضعون لعظمة اللّه تعالی.

[۳۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۲۴.

[۳۹] (۲)- المصدر السّابق.

[۴۰] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۳.

[۴۱] (۱)- لنا شرح آخر فی هذا الباب تحت عنوان« الذنوب و هدم المجتمعات» فی تفسیرنا هذا، ذیل الآیة(۵۲) من سورة هود علیه السّلام.

[۴۲] (۱)- هذا الخطاب تابع لکلام نوح علیه السّلام، أو أنّها جمل مستقلة و معترضة من اللّه تعالی إلی المسلمین، و هو محل بحث بین المفسّرین، و الکثیر منهم یرجح أن یکون ذلک تابعا لکلام نوح علیه السّلام، و سیاق الآیات یشیر أیضا إلی ذلک، و إذا ما وردت جملة:

(و قال نوح) بعد هذه الآیات فإنّها تشیر إلی أنّ نوح علیه السّلام قد انتهی من کلامه مع الناس و توجه بعد ذلک إلی اللّه تعالی لیشکو من قومه.

[۴۳] (۱)-« طباقا»: یحتمل أن یکون مفعول مطلق أو حال.

[۴۴] (۲)- أوضحنا الکلام فی التفاسیر المختلفة للسماوات السبع فی ذیل الآیة(۲۹) من سورة البقرة.

[۴۵] (۳)- من هنا أنّ ضمیر« فیهنّ» و الذی یرجع فی الظاهر إلی« السماوات السبع» لا یثیر مشکلة لأنّ الخطاب فی النور و الضیاء هو لنا، لأجل هذا لا یلزم أن نجعل« فی» بمعنی« مع» أو نجعل الضمیر« هن» بمعنی« السماء الدنیا»(فتدبّر).

[۴۶] (۱)- یجب أن تلفظ هذه الکلمة حسب القاعدة« إنباتا» لکن لهذه الآیة تقدیر هو:« أنبتکم من الأرض فنبتم نباتا» تفسیر(الفخر الرازی و أبو الفتوح الرازی).

[۴۷] (۱)- بساط من أصل بسط بمعنی و بسط الشیء، و لهذا فإنّ کلمة« بساط» تطلق علی کل شیء واسع و أحد مصادیقها« البساط».

[۴۸] (۲)- مفردات الراغب، مادة(فج).

[۴۹] (۱)- مجمع البیان، تفسیر علی بن ابراهیم، تفسیر أبو الفتوح الرازی، و تفاسیر اخری ذیل الآیات التی هی مورد البحث.

[۵۰] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۸۷.

[۵۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۴، و أعلام القرآن، ص ۱۳۱.

[۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۳] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۴.

[۵۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۵] (۵)- الضمیر فی« أضلوا» یعود إلی أکابر قوم نوح علیه السّلام بقرینة الآیة السابقة\:i وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَکُمْ E و احتمل بعض المفسّرین أنّ الضمیر یعود إلی(الآلهة) لأنّها سببت فی ضلالهم و جاء ما یشابه ذلک فی الآیة(۳۶) من سورة ابراهیم علیه السّلام و بصورة ضمیر جمع المؤنث لا ضمیر جمع المذکر، و هذا الاحتمال بعید.

[۵۶] (۱)-« من» فی i خَطِیئاتِهِمْ E بمعنی باء السببیة أو(لام التعلیل) و(ما) زائدة للتأکید.

[۵۷] (۲)- الفخر الرازی ینقل ذلک فی تفسیره بعنوان قول من الأقوال فی ج ۳۰، ص ۱۴۵.

[۵۸] (۳)- تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۳۸۰.

[۵۹] (۱)- قال البعض أنّ الأصل کان(دیوار) علی وزن حیوان ثمّ بدلت الواو ب(یاء) و أدغمت فی الباء الاولی و صارت دیار(البیان فی غرائب القران، ج ۲، ص ۴۶۵، تفسیر الفخر الرازی، ذیل هذه الآیات).

[۶۰] (۱)- هود، ۳۶.

[۶۱] (۲)- ورد هذا المعنی أیضا فی الرّوایات کما فی تفسیر الثقلین، ج ۵، ص ۴۲۸.

[۶۲] (۱)-« تبار»: تعنی الهلاک، و قیل الضرر و الخسارة.

[۶۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۱.

[۶۴] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۲۹۱، ح ۳.

[۶۵] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۲۹.

[۶۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۵.

[۶۷] (۱)- تفسیر علی بن ابراهیم علی ما نقله تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹(مع الاختصار).

[۶۸] (۲)- صحیح البخاری، مسلم، و مسند طبقا لما نقله صاحب(فی ظلال القرآن) ج ۷، ص ۴۲۹(باختصار).

[۶۹] (۳)- مجمع البیان، ج ۹، ص ۹۲، و سیرة ابن هشام، ج ۲، ص ۶۲- ۶۳(باختصار).

[۷۰] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۶۸.

[۷۱] (۱)- نفر: على قول أصحاب اللغة و التّفسير: الجماعة من ۳ الى ۹.

[۷۲] (۲)- المشهور بين علماء النحو أنّ(إن) فى مقول القول يجب أن تقرأ بالكسر كما هى فى الآيات الاولى، و أمّا فى الآيات الأخرى المعطوفة عليها فإنّها بالفتح، و لهذا اضطر الكثير من المفسّرين أن يجعلوا لهذه الآيات تقديرات أو مبررات أخرى، و لكن ما الذى يمنعنا من القول أنّ لهذا القاعدة أيضا شواذ، و هى جواز القراءة بالفتحة فى موارد يكون العطف فيه على مقول القول، و ما يدل على ذلك آيات هذه السورة.

[۷۳] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۸، و نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۵، و ذكر هذا المعنى فى تفسير على بن إبراهيم.

[۷۴] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۰۱.

[۷۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۶۹، و روح المعانى، ج ۲۸، ص ۸۵.

[۷۶] (۲)- نقل عن بعضهم فى تفسير الآية أعلاه أنّ لجوء جماعة من الإنس بالجن ادّى إلى أن يتمادى الجن فى طغيانهم و ظنوا أن بيدهم زمام الأمور المهمّة، و التّفسير الأوّل أوجه(و الضمير حسب التّفسير الأوّل فى(زادوا) يرجع إلى الجن، و الضمير« هم» يرجع إلى الإنس، بعكس التّفسير الأوّل).

[۷۷] (۱)-« لمسنا» من لمس، و تعنى هنا الطلب و البحث.

[۷۸] (۲)-« حرس» على وزن قفص، جمع حارس، و قيل اسم جمع لحارس، و تعنى الشديد الحفاظ.

[۷۹] (۱)-« القاسط» من أصل(قسط) و تعنى التقسيم العادل، فإن أتت على وزن(أفعال)،(أقساط) فإنّها تعنى إجراء العدالة، و إذا استعملت بصورة الثّلاثى المجرّد كما فى هذه الآية فإنّها تعطى معنى الظلم و الانحراف عن سبيل الحقّ.

[۸۰] (۲)-« تحروا»: من أصل تحرى و تعنى توخيه و قصده.

[۸۱] (۱)- تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۱۹۵.

[۸۲] (۲)- أصول الكافى، ج ۲، باب المؤمن و علاماته و صفاته.

[۸۳] (۱)- من الملاحظ أنّ السبب الوحيد الذى دعا المفسّرين إلى أن يعتبروا هذا الكلام من كلام اللّه تعالى و أنّها جملة اعتراضية هو ضمائر(المتكلم مع الغير) ففى موضع يقول: لأسقيناهم ماء غدقا، و فى موضع آخر يقول: لنفتنهم فيه، و لكن لا ضمير عند ما نعتبر هذه التعابير من باب النقل، كما لو تحدث شخص عن صاحبه فيقول: إنّ فلانا يعتقد بأنّى شخص حسن،(بالطبع هو لم يستعمل كلمة(أنا) و إنّما استعمل كلمة(هو) و لكن القائل يختار مثل هذا التعبير).

[۸۴] (۱)- احتمل بعض المفسّرين أن يكون المراد من« الطريقة» هو سبيل الكفر و زيادة النعم الحاصلة نتيجة للاستقامة فى هذه الطريقة فى الحقيقة هى مقدمة العقوبات و مصداق الاستدراج فى النعم، و لكن هذا التّفسير لا يتناسب أبدا مع سياق الآيات السابقة و اللاحقة.

[۸۵] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۲، ص ۹۷۰، الحديث ۳.

[۸۶] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۹۰(أبواب حدّ السرقة الباب الرّابع الحديث ۵).

[۸۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۹ و ۴۴۰

[۸۸] (۲)- ما يطابق هذا التّفسير و كون هذه الآية من حديث مؤمنى الجنّ فإنّ إتيان الضمير الغائب بدل المتكلم هو من باب الالتفات، أو من باب أنّ بعضهم يبيّن حال البعض الآخر.

[۸۹] (۱)- بحثنا مسألة(الشفاعة فى نظر القرآن و الحديث) بحثا مفصلا فى ذيل الآية(۴۸) من سورة البقرة و حول حقيقة(التوسل) فى ذيل الآية(۳۵) من سورة المائدة.

[۹۰] (۱)- قيل فى سبب نزول هذا الآية: إن كفار قريش قالوا للنبى صلى الله عليه و آله و سلم عد إلى ديننا لنجيرك فنزلت الآية

جوابا علی قولهم(تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۱، ص ۲۹۳).

[۹۱] (۲)- بما أن البلاغ یتعدی ب(عن) فقد قال البعض: إن(من) بمعنی(عن) و یتعلق بمحذوف تقدیره(کائنا) فیکون المعنی(إلا بلاغا کائنا من الله).

[۹۲] (۱)- هذه الجملة مستثناة من الجملة السابقة\i لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً\E حسب هذا التّفسیر و مستثناة من الآیة السابقة حسب التّفسیر الأوّل.

[۹۳] (۲)-« متی»: تأتی عادة لبیان الغایة و النهایة للشیء و قیل فی ذلک و جهان:

الأوّل: إنّ الغایة جملة محذوفة و تقدیرها(و لا یزالون یستهزؤن و یستضعفون المؤمنین حتی إذا رأوا ما یوعدون ...).

الثّانی: إنّ الغایة هی للآیة\i یَکُونُونَ عَلَیْهِ لِبَداً\E و التی مرّت سابقا، و الأوّل أوجه.

[۹۴] (۱)- الأنعام، ۵۰.

[۹۵] (۱)- النمل، ۴۰.

[۹۶] (۲)- الشعراء، ۵۴.

[۹۷] (۳)- الکهف، ۳۴.

[۹۸] (۴)- البقرة، ۲۴۹.

[۹۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۱۰۰] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۹، ص ۱۰۵.

[۱۰۱] (۲)- عالم الغیب خبر لمبتدأ محذوف، و التقدیر: هو عالم الغیب، و قیل: صفة أو بدل لربّی فی الآیة السابقة.

[۱۰۲] (۱)- أرجع بعض المفسّرین ضمیر(لیعلم) إلی الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و قالوا: المراد من ذلک هو أنّ اللّه قد جعل لأسرار الوحی و الرسالة حفظة و حراسا، و لیعلم الرّسول أنّ الملائکة قد أبلغوا إلیه الوحی الإلهی فتطمئن نفسه و لا یتردد فی أصالة الوحی، و لکن هذا القول فی غایة البعد، و ذلک لأنّ حمل الرسالة من عمل النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لا من عمل الملائکة و عبارة الرّسول فی الآیة السابقة و الرسالات فی الآیات التی مضت تخصّ شخص الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و لذا فإنّ التّفسیر الأوّل هو الأوجه.

[۱۰۳] (۱)- آل عمران، ۴۹.

[۱۰۴] (۱)- شرح هذه الحادثة و دلیله فی هذا المجلد فی تفسیر سورة الممتحنة.

[۱۰۵] (۲)- کامل ابن الأثیر، ج ۲، ص ۲۳۷،(حادثة غزوة مؤتة).

[۱۰۶] (۱)- مستدرک الصحیحین، ج ۲، ص ۳۵۸.

[۱۰۷] (۲)- طبقات ابن سعد، ج ۵، ص ۳۰.

[۱۰۸] (۳)- الإصابة لابن حجر، ج ۵، القسم ۳، ص ۳۲۵.

[۱۰۹] (۴)- الهیثمی فی المجمع، ج ۶، ص ۲۴۱.

[۱۱۰] (۵)- الریاض النضرة، ج ۳، ص ۲۲۲.

[۱۱۱] (۶)- فضائل الخمسة، ج ۲، ص ۲۳۱ الی ۲۵۳.

[۱۱۲] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۸.

[۱۱۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۱۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۶۰، الحدیث ۵، هناک روایات متعددة فی هذا الإطار قد نقلت من هذا المصدر.

[۱۱۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۱۲، الحدیث ۱۶.

[۱۱۶] (۱)- کتاب الکافی باب(أنّ الأئمّة إذا شاءوا أن یعلموا أعلموا) الحدیث ۳، و نقلت روایات عدیدة فی هذا الباب بنفس المضمون.

[۱۱۷] (۱)- اصول الکافی، ج ۱، باب نادر فیه ذکر الغیب الحدیث ۳.

[۱۱۸] (۱)- النّمل، ۴۰.

[۱۱۹] (۲)- الرّعد، ۴۳.

[۱۲۰] (۳)- راجع الجزء الثالث من(إحقاق الحقّ) ص ۲۸۰- ۲۸۱، و نور الثقلین، ج ۲، ص ۵۲۳.

[۱۲۱] (۱)- الرحمن، ۱۵.

[۱۲۲] (۲)- الجن، ۱۱.

[۱۲۳] (۳)- الجن، ۱۵.

[۱۲۴] (۱)- الجن، ۹.

[۱۲۵] (۲)- الجن، ۶.

[۱۲۶] (۳)- النمل، ۳۹.

[۱۲۷] (۴)- سبأ، ۱۲- ۱۳.

[۱۲۸] (۵)- الحجر، ۲۷.

[۱۲۹] (۱)- سفینة البحار، ج ۱، ص ۱۸۶(مادة الجن).

[۱۳۰] (۲)- الکافی، ج ۶، ص ۳۸۵، کتاب الأشربة، باب الأوانی، الحدیث ۵.

[۱۳۱] (۱)- راجع تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۲۷۶، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۷.

[۱۳۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۶، ص ۲۷۶.

[۱۳۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۵.

[۱۳۴] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۳۵] (۱)-« مزّمل»: أصلها متزمل، و هی من التزمل، و تعنی لف الثوب علی نفسه، و لهذا جاء لفظ الزمیل، أی المصاحب و الرفیق.

[۱۳۶] (۱)- سورة الحشر، ۲۱.

[۱۳۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۸، ذکر ذلک فی کتاب الکافی، ج ۲، باب(ترتیل القرآن بالصوت الحسن) و کذا فی کتب اخری مع الاختصار.

[۱۳۸] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۳)- المصدر السّابق.

[۱۴۰] (۴)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۴۷.

[۱۴۱] (۵)- مجمع البیان، ذیل الآیات التی بصدد البحث.

[۱۴۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۷، ص ۱۴۳.

[۱۴۳] (۲)- المصدر السّابق.

[۱۴۴] (۱)-« الناشئة»: اسم فاعل و احتمل کونها مصدرا کالعاقبة.

[۱۴۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۸.

[۱۴۶] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۴۸، الحدیث، ۱۶.

[۱۴۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۷۷(مع الاقتباس).

[۱۴۸] (۲)-« التبتل»: یجب أن یکون التبتل هنا حسب القاعدة مفعول مطلق و هو مصدر من باب(تفعل) و لکنّه جاء علی وزن تفعیل، لحفظ توافق أواخر الآیات، و یمکن أن یکون مصدر إشارة إلی أن الانقطاع إلی اللّه لا- یکون کلّه اکتسابیا، و لا یکون هبة بتمامه أیضا، بل یکون ذلک بشروط السعی و العمل الجاد للعبد المتقی من جهة، و بلطف اللّه و عنایته من جهة اخری.

[۱۴۹] (۳)- المفردات، و مجمع البحرین باب البتل.

[۱۵۰] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۵۰، ح ۲۷.

[۱۵۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۷۹.

[۱۵۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۰.

[۱۵۳] (۲)- روح المعانی، ج ۲۹، ص ۱۰۷.

[۱۵۴] (۱)- یوما مفعول به لتتقون، و« تتقون» ذلک الیوم یراد به تتقون عذاب ذلک الیوم، و قیل(یوم) ظرف ل(تتقون) أو مفعول به ل(کفرتم) و الاثنان بعیدان.

[۱۵۵] (۲)-« شیب» جمع(أشیب) و یراد به المسن، و هی من أصل مادة شیب- علی وزن عیب- و المشیب یعنی تغیر لون الشعر إلی البیاض.

[۱۵۶] (۱)-« المنفطر»: من الانفطار بمعنی الإنشقاق، و الضمیر(به) یعود للیوم، و المعنی السماء منشقة بسبب ذلک الیوم و السماء جائزة للوجهین أی أنّه تذکر و تؤنث.

[۱۵۷] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۱۴۷.

[۱۵۸] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ(نصفه) و(ثلثه) معطوف علی أدنی و لیس علی(ثلثی اللیل) فیکون المعنی أنّه یعلم أنّک تقوم بعض اللیالی أدنی من ثلثی اللیل أو نصفه أو ثلثه. کذا الالتفات إلی أن أدنی تقال لما یقرب من الشیء، و هنا إشارة إلی الزمن التقریبی.

[۱۵۹] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ۴۵۱.

[۱۶۰] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۱۵۶.

[۱۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۲.

[۱۶۲] (۲)- مجمع البیان، و تفسیر أبی الفتوح، و تفسیر القرطبی، ذیل الآیة مورد البحث و قد نقل القرطبی حدیثا عن الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یشابه هذه الحدیث، فیستفاد من ذلک أنّ عبد اللّه بن مسعود قد ذکر الحدیث عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لیس هو من قوله.

[۱۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۳.

[۱۶۴] (۲)- المصدر السابق.

[۱۶۵] (۱)- أورد الفخر الرازی هذه التفاسیر الخمسة بالإضافة إلی احتمالات أخری فی تفسیره الکبیر، و اقتبس منه البعض الآخر من المفسّرین(تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۰، ص ۱۸۹- ۱۹۰).

[۱۶۶] (۲)- الفاء من(فکبر) زائدة للتأکید بقول البعض، و قیل لمعنی الشرط، و المعنی هو: لا تدع التکبیر عند کلّ حادثة تقع،(یتعلق هذا القول بالآیات الاخری الآتیة أیضا).

[۱۶۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۵.

[۱۶۸] (۲)- البقرة، ۱۸۷.

[۱۶۹] (۱)- مفردات الراغب.

[۱۷۰] (۲)- المیزان، فی ظلال القرآن.

[۱۷۱] (۳)- راجع الآیات، ۱۳۴- ۱۳۵ من سورة الأعراف، و الآیة ۵ من سورة سبأ، و الآیة ۱۱ من سورة الجاثیة، و الآیة ۵۹ من سورة البقرة، و الآیة ۱۶۲ من سورة الأعراف، و الآیة ۳۴ من سورة العنکبوت.

[۱۷۲] (۴)- و ذکر ذلک فی تفسیر الفخر الرازی بصورة احتمال، ج ۳۰، ص ۱۹۳.

[۱۷۳] (۱)- البقرة، ۲۶۴.

[۱۷۴] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۵۴، و تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۰۰.

[۱۷۵] (۳)- المصدر السابق.

[۱۷۶] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، ۸۲.

[۱۷۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۶؛ نقل المفسّرون سبب النزول هذا مع الاختلاف البسیط کالقرطبی و المراغی و الفخر الرازی فی ظلال القرآن و المیزان و غیر ذلک.

[۱۷۸] (۱)- تفسیر ذیل الآیات المذکورة للفخر الرازی، و الکشاف و المراغی و القرطبی، و یستفاد من بین الرّوایات الواردة فی معنی الوحید أنّه ولد الزنا الذی لیس له أب، و لا قرینة للرّوایة فی تفسیر الآیة و لیس لمعنی الروایة تناسب مع الآیة.

[۱۷۹] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۲۹، ص ۱۳۱.

[۱۸۰] (۱)- لواحة: خبر مبتدأ محذوفة تقدیره(هی لواحة).

[۱۸۱] (۲)-(علیها) خبر مقدم، و تسعة عشر مبتدأ مؤخر، و هی مبنیة علی الفتح، و لذا لم ترفع فی الظاهر، و قیل إنّ سببه یتضمّن معنی واو العاطفة.

[۱۸۲] (۱)- قال البعض فی علّة تسمیة قریش النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بهذا الاسم، فقد قیل لوجود رجل یدعی أبو کبشة، و هو من خزاعة قد تنحی عن عبادة الأصنام فی عصر الجاهلیة، و کان النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم حینئذ یعارض عبادة الأصنام بشدّة فنسبوا الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی أبی کبشة، و قیل إنّ أبی کبشة أحد أجداد امّ النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و لکن علی کلّ حال لا شک فی أنّهم أرادوا بذلک السخریة لأنّ الکبش فی لغة العرب تستخدم فی المدح و یسمّی بذلک الأبطال و القواد.

[۱۸۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۸۸، و تفاسیر اخری.

[۱۸۴] (۱)- أصحاب النّار: ذکرت هذه العبارة فی کثیر من آیات القرآن و کلّها تعنی الجهنمیین، إلّا فی هذا الموضع فإنّها بمعنی خزنة جهنم، و ذکر هذه العبارة یشیر إلی أنّ کلمة« سقر» فی الآیات السابقة تعنی جهنّم بکاملها و لیس قسما خاصّا منها.

[۱۸۵] (۲)- نقل هذا الحدیث البیهقی، و ابن أبی حاتم، و ابن مردویه عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم(تفسیر المراغی، ج ۲۹، ص ۱۳۴).

[۱۸۶] (۱)- یجب الالتفات إلی أنّ اللام فی(لیستیقن) هی لام التعلیل و فی(لیقول) لام العاقبة و یمکن أن یکون قد تکرر لهذا الدلیل فی حین لو کان بمعنی واحد لما کان هناک ضرورة للتکرار، و بعبارة اخری أن تیقن المؤمنین هو لإرادة و أمره، و أمّا حدیث الکفّار فلیس من إرادته و أمره تعالی شأنه، بل هو عاقبة هذا الأمر.

[۱۸۷] (۱)-« أسفر» من مادة(سفر) علی وزن(قفر) و یعنی انجلاء الملابس و انکشاف الحجاب، و لذا یقال للنساء المتبرجات(سافرات) و هذا التعبیر یشمل تشبیها جمیلا لطلوع الشمس.

[۱۸۸] (۲)-« كبر»: جمع كبرى و هى كبيرة، و قيل المراد بكون سقر إحدى الطبقات الكبيرة لجهنّم، هذا المعنى لا يتفق مع ما أشرنا إليه من قبل و كذا مع الآيات.

[۱۸۹] (۳)-« نذيرا»: حال للضمير فى« أنّها» الذى يرجع إلى سقر، و قيل هو تمييز، و لكنه يصح فيما لو كان النذير مصدرا يأتى بمعنى(الإنذار)، و المعنى الأوّل أوجه.

[۱۹۰] (۱)- لسان العرب مادة: رهن.

[۱۹۱] (۲)- قال الشّيخ الطوسى فى التبيان أن الاستثناء هنا هو منقطع و قال آخرون كصاحب(روح البيان) أنّه متصل، و هذا الاختلاف يرتبط كما ذكرنا بالتفسيرات المختلفة لمعنى الرهينة، و ما يطابق ما اخترناه من التّفسير هو أن الاستثناء هنا منقطع و على التفسير الثّانى يكون متصلا.

[۱۹۲] (۳)- سورة هود، الآية ۱۱۴.

[۱۹۳] (۴)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۷۸.

[۱۹۴] (۱)-« يتساءلون»: و هو و إن كان من باب(تفاعل) الذى يأتى عادة فى الأعمال المشتركة بين اثنين أو أكثر، و لكنه فقد هذا المعنى هنا كما فى بعض الموارد الأخرى، و لمعنى يسألون، و تنكير الجنات هو لتبيان عظمتها و(فى جنات) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو فى جنات.

[۱۹۵] (۱)- التّفسير الأمثل، المجلد الأوّل، ذيل الآية(۴۸) من سورة البقرة.

[۱۹۶] (۱)- صحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۳۰.

[۱۹۷] (۲)- مسند أحمد، ج ۳، ص ۱۲.

[۱۹۸] (۳)- مسند أحمد، ج ۵، ص ۴۳.

[۱۹۹] (۴)- الخصال للصدوق رحمه اللّه، ص ۶۲۴.

[۲۰۰] (۵)- سنن ابن ماجة، ج ۲، ص ۱۴۴۳.

[۲۰۱] (۱)- سنن أبى داود، ج ۲، ص ۱۵.

[۲۰۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۱۰۰، ص ۱۴.

[۲۰۳] (۳)- نهج البلاغة الخطبة، ۱۷۶.

[۲۰۴] (۴)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۸۹.

[۲۰۵] (۵)- مسند أحمد، ج ۲، ص ۱۷۴.

[۲۰۶] (۶)- مناقب ابن شهر آشوب، ج ۲، ص ۱۴.

[۲۰۷] (۷)- صحيح البخارى، ج ۹، ص ۱۴۹.

[۲۰۸] (۸)- للاستيضاح يمكن مراجعة كتاب مفاهيم القرآن، ج ۴، ص ۲۸۸- ۳۱۱.

[۲۰۹] (۱)-« ما» مبتدأ و(لهم) خبر و(معرضين) حال الضمير لهم(و عن التذكرة) جار و مجرور و متعلق بالمعرضين، و قيل تقديم(عن التذكرة) على(معرضين) دلالة على الحصر أى أنّهم أعرضوا عن التذكرة المفيدة فقط، على كل حال فإنّ المراد من التذكرة هنا كلّ ما هو نافع و مفيد و على رأسها القرآن المجيد.

[۲۱۰] (۱)-« صحف»: جمع صحيفة، و هى الورقة التى لها وجهان، و تطلق كذلك على الرسالة و الكتاب.

[۲۱۱] (۱)- تفسير القرطبى، و المراغى، و تفاسير اخرى.

[۲۱۲] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۰۵.

[۲۱۳] (۱)- مجمع البیان، ۱۰-، ص ۳۹۳.

[۲۱۴] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۱۵] (۱)- اللوامة: صیغة مبالغة و تعنی کثیرة اللوم.

[۲۱۶] (۱)- أورد هذه الروایة المراغی، و کذلک ذکرت فی روح المعانی، و تفسیر الصافی بتفاوت یسیر.

[۲۱۷] (۱)- یوسف، ۵۳.

[۲۱۸] (۲)- الفجر، ۲۷- ۲۸.

[۲۱۹] (۱)- الزمر، ۴۶.

[۲۲۰] (۲)- البقرة، ۴۸.

[۲۲۱] (۳)- الرعد، ۴۱.

[۲۲۲] (۱)- الهمزة، ۶- ۷.

[۲۲۳] (۲)- سورة فصلت، ۲۰.

[۲۲۴] (۱)- المحجة البیضاء، ج ۸، ص ۳۳۱.

[۲۲۵] (۱)-« برق»: من مادة برق- علی وزن فرق- و هو الضوء الظاهر من بین السحب و یطلق علی کل ما هو وضاء، و« برق البصر» فی هذه الآیة إشارة إلی الحرکة الشدیدة، و الاضطراب الشدید للبصر من شدة الهول و الخوف، و قیل هو سکون حدقة العین و النظر بدهشة إلی نقطة و غالبا ما تکون علامة الرعب، و هناک شواهد کثیرة علی هذا المعنی فی أشعار العرب تشیر إلی إبراق البصر یراد به التحیر، و التفسیر الأول أوجه.

[۲۲۶] (۱)- یقول الطبرسی فی« مجمع البیان» الجمع ثلاثة أنواع: جمع فی المکان، و جمع فی الزمان، و جمع الأوصاف فی الشیء الواحد(کاجتماع العلم و العدالة فی الإنسان) و لکن الجمع الذی یراد به اشتراک شیئین فی الصفة کزوال نوریّ القمر و الشمس معا هو تعبیر مجازی(إذ لا بدّ من الاستفادة من القرینة) مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۹۵.

[۲۲۷] (۲)-« المفر»: اسم مکان من الفرار، و احتمله البعض الآخر مصدرا و لکنه بعید.

[۲۲۸] (۱)-« وزر»: علی وزن قمر، و تعنی فی الأصل الملاجئ الجبلیة و أمثالها، و منها یطلق علی الوزیر لما یلتجأ به فی الأمور، و علی کل حال فإنّها تعنی فی هذه الآیة کل نوع من الملجأ و المخبأ.

[۲۲۹] (۲)- التغابن، ۳.

[۲۳۰] (۳)- الإنشقاق، ۶.

[۲۳۱] (۴)- النجم، ۴۲.

[۲۳۲] (۵)- هناک نظرات أخری فی تفسیر هذه الآیات وضحنا ذلک فی تذییلها.

[۲۳۳] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۰۶ و مثله فی تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۸۹۱.

[۲۳۴] (۱)-« التاء»: مصدر علی الاحتمال الأوّل، و تاء التأنیث علی الاحتمال الثّانی، لأنّه یراد بالإنسان هنا الجوارح أو النفس، فالتأنیث مجازی، و قیل إن التاء تاء المبالغة للأخبار بشدّة معرفة الإنسان بنفسه.

[۲۳۵] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۳۹۶(و أورد الشیخ الصدوق فی من لا یحضره الفقیه فی کتاب الصیام، ج ۲، ص ۱۳۳ باب حد المرض الذی یفطر صاحبه الحدیث ۱۹۴۱).

[۲۳۶] (۱)- المصدر السّابق.

[۲۳۷] (۱)- یجب الانتباه إلی أن« القرآن» فی هذه الآیة و الآیة التی تلیها هو مصدر و یراد به القراءة.

[۲۳۸] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۷.

[۲۳۹] (۱)- قال البعض إن(كلّا) إشارة الى نفى تدبرهم للقرآن المجيد، و ليس هذا المعنى صحيحا لأن المخاطب هو نفس النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و لها جانب اعتراضى كما قلنا فى الآيات المتعلقة بالقرآن، و أمّا الآيات التى نحن بصدد البحث فيها فإنّها تتميم للآيات السابقة حول القيامة.

[۲۴۰] (۱)- تفسير روح الثقلين، ج ۵، ص ۴۳۶۴ و ۴۶۵.

[۲۴۱] (۱)- يعتقد البعض أنّ(النظر) الذى يعنى الانتظار لا يتعدى ب(إلى) بل يتعدى بدون حرف الجر، و لكن هنا شواهد من أشعار العرب تشير إلى أن(النظر) الذى يعنى الانتظار يتعدى كذلك ب(إلى)(راجع مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۹۸؛ و تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۰۰).

[۲۴۲] (۲)- روح المعانى، ج ۲۹، ص ۱۴۵.

[۲۴۳] (۳)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۰۴.

[۲۴۴] (۱)- من جملة الشواهد التى جاءوا بها لهذا الموضوع هو أنّ الظن إذا كان بمعنى العلم فيجب أن يكون(أن) بعد(تظن) مخففة من الثقيلة و الحال هو(أن) مصدر بقرينة إعمالها النصب.

[۲۴۵] (۲)-« فاقرة»: صفة الموصوف محذوف و تقديره(داهية فاقرة) و(تظن) فعل و(وجوه) فاعله، و فى التقدير(أرباب الوجوه) أو(ذوات الوجوه).

[۲۴۶] (۱)-« إذا»: أداة شرطية و جزاؤه محذوف، و التقدير(إذا بلغت التراقى انكشف له حقيقة الأمر، و وجد ما عمله)، و الفاعل فى(بلغت) هو(النفس) و هو محذوف و يعرف بقرينة الكلام.

[۲۴۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۶۵.

[۲۴۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۴۹] (۱)-i وَ جاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِ E سورة ق آية ۱۹.

[۲۵۰] (۲)- الأنعام، الآية ۹۳.

[۲۵۱] (۳)-i فَلَوْ لا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ E سورة الوقعة آية ۸۳.

[۲۵۲] (۴)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۵۵.

[۲۵۳] (۵)- بحار الأنوار ج ۶ ص، ۱۵۲.

[۲۵۴] (۱)- شرح النهج لابن أبى الحديد، ج ۲، ص ۳۴۵.

[۲۵۵] (۲)- بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۳۳.

[۲۵۶] (۱)- الضمير فى(صدق و صلى) يعود إلى الإنسان المنكر للمعاد، و هو ما يستفاد منه فى سياق الكلام، و قد أشير إلى ذلك فى صدر السورة.

[۲۵۷] (۱)- لأنه إذا اعتبر من مادة(مطا) فإن ظاهر اللفظ لم يظهر عليه تغيير، و الحال إذا كان من مادة(مط) فيكون أصل جملة(يتمطى) هو(يتمطط) حيث بدلت الطاء الآخر بالياء.

[۲۵۸] (۱)- المطابق لبعض التفاسير أن(أولى) هنا هو(أفعل تفضيل) و طبقا للتفاسير الأخرى فإن(أولى) فعل ماض من باب أفعال من مادة(ولى) فيكون المعنى(قاربك اللّه العذاب) و قيل(أولى) من(أسماء الأفعال) و تعنى(قارب) و الأولى هو الأوجه.

[۲۵۹] (۱)- كان لنا بحث آخر فى هذا الإطار فى ذيل الآية(۱۱۵) من سورة المؤمنين.

[۲۶۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۰۲.

[۲۶۱] (۱)- إنّ المشهور هو زیادة عدد النساء علی الرجال فی کلّ المجتمعات، و هذا هو أحد الدلائل علی تعدد الزوجات، و هو أمرّ مقبول، و هـذا ممّا لا ینافی التعادل النسبی، فمثلا یکون عدد مجتمع ما ۵۰ ملیون نسـمة، فمن الممکن أن یکون عدد النساء ۲۶ ملیونا، و الرجال ۲۴ ملیونا، أی أن التفاوت بینهما بحـدود العشـر أو أقل من ذلک، أمّا أن یکون عدد النساء أضـعاف عدد الرجال فهذا ما لم یلاحظ فی أی مجتمع.

[۲۶۲] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۹۰۹.

[۲۶۳] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۰۵.

[۲۶۴] (۳)- المصدر السابق.

[۲۶۵] (۴)- تاریخ القرآن، ص ۵۵.

[۲۶۶] (۵)- المصدر السابق.

[۲۶۷] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۲۲۱.

[۲۶۸] (۲)- المصدر السابق.

[۲۶۹] (۳)- الکشاف، ج ۴، ص ۶۷۰.

[۲۷۰] (۴)- إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۵۷- ۱۷۰(مع ذکر أسماء و صفحات کتبهم).

[۲۷۱] (۵)- المصدر السابق.

[۲۷۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۰۲.

[۲۷۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۷۴] (۱)-« هل»: یراد بها(قد) أو أنّها بمعنی الاسـتفهام التقریری أو الإنکاری، و لکن الظاهر فیها الاسـتفهام التقریری، فیکون معنی الجملة:(ألیس قد أتی علی الإنسان حین من الدهر لم یکن شیئا مذکورا).

[۲۷۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۰۶.

[۲۷۶] (۲)- المصدر السابق.

[۲۷۷] (۱)- یجب الالتفـات إلی أن النطفـة جـاءت بصـیغة المفرد، و جـاءت صـفتها بصورة الجمع، و هی« أمشاج»، باعتبار أنّ النطفة ترکبت من أجزاء مختلفـة، و أنّهـا فی حکم الجمع، و یعتقـد البعض کالزمخشـری فی الکشـاف أنّ« أمشـاج» مفرد رغم أنّها من أوزان الجمع.

[۲۷۸] (۱)-« شاکرا» و کفورا» یعتقـد الکثیر أنّهما حال لضـمیر المفعول فی(هـدیناه) و یحتمل أن یکون خبرا ل(یکون) محذوف و تقدیره(إمّا یکون شاکرا و إمّا یکون کفورا).

[۲۷۹] (۱)- وضّحنا شرحا مفصلا حول معنی الأغلال فی ذیل الآیة(۸) من سورة یس.

[۲۸۰] (۱)- نقلت هذه الروایة فی کتاب الغدیر، ج ۳، ص ۱۰۷ إلی ۱۱۱ و فی کتاب إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۵۷ إلی ۱۷۱ عن ۳۶ نفر من علماء أهل السنّة مع ذکر المأخذ.

[۲۸۱] (۱)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۲۹۷.

[۲۸۲] (۱)- المصدر السابق.

[۲۸۳] (۲)- اسم الکتاب(الصوم طریقة حدیثة لشفاء الأمراض).

[۲۸۴] (۱)- احتجاج الطبرسی و خصال الصدوق طبقا لما نقله الطباطبائی فی المیزان ج ۲۰ ص ۲۲۴.

[۲۸۵] (۱)- وردت احتمالات عدیـدة فی سـبب نصب(عینا) و أوجه الأقوال هو أنّه منصوب لنزع الخافض و تقدیره(من عین) و قیل

بدل من(کافورا) أو منصوب بالاختصاص أو المدح، أو مفعول لفعل مقدر و التقدیر(یشربون عینا) و لکن الأوّل أوجه کما تقدم.

[۲۸۶] (۲)-« یشرب»: یتعدی بالباء و بدونها، و یمکن أن تکون الباء فی(بها) بمعنی(من).

[۲۸۷] (۱)- کامل ابن الأثیر، ج ۲، ص ۱۳۱.

[۲۸۸] (۱)- مفردات الراغب، لسان العرب، المنجد، القرطبی، مجمع البیان.

[۲۸۹] (۱)- أصول الکافی، ج ۲ باب(إطعام المؤمن) الحدیث ۳.

[۲۹۰] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۶.

[۲۹۱] (۳)- المصدر السابق، الحدیث ۱۸.

[۲۹۲] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۶۹ و الملاحظ أن العلّامة المجلسی أورد عنوانا فی هذا الباب و ذکر فیه ۱۱۳ حدیث یتعلق بإطعام المؤمن و إشباعه و لبسه و أداء دینه. و لبعض منها عمومیة.

[۲۹۳] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۴] (۱)- الدر المنثور ج ۶ ص ۳۰۰.

[۲۹۵] (۲)-« قطوف»: علی وزن(ظروف) جمع(قطف) علی وزن(حفظ) أو جمع(قطف) علی وزن(حذف) و الأوّل وصف و الثّانی مصدر، و یعنی الفواکه المقطوفة أو قطف الفاکهة.

[۲۹۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۲۹۷] (۲)- المصدر السابق.

[۲۹۸] (۱)- روح المعانی، ج ۲۹، ص ۱۵۹.

[۲۹۹] (۲)-« عینا»: محله فی الأعراب- کما تقدم- أن یکون منصوبا بنزغ الخافض.

[۳۰۰] (۱)- قیل إن« السلسبیل» هو ما لا ینصرف عادة للعملیة و العجمة و التنوین الموجود للاتساق مع الآیات السابقة لها.

[۳۰۱] (۲)- قیل إنّ(ثمّ) هنا ظرف مکان و ل(رأیت) معنی فعل لازم و التقدیر(إذا رمیت ببصرک ثمّ رأیت نعیما و ملکا کبیرا) و یحتمل أن یکون(ثمّ) اسم إشارة للبعد و مفعولا لرأیت.

[۳۰۲] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۳۰۳] (۱)-« عالیهم»: هناک احتمالان لمحله من الاعراب، الأول کونه ظرفا و یراد به فوق، فیکون معنی الآیة(فوقهم ثیاب سندس) و الآخر کونه لا یرجع للضمیر« هم» المذکور فی الآیات السابقة، بل یرجع إلی(الأبرار) فیکون المعنی(حال کونهم یعلوهم ثیاب سندس خضر).

[۳۰۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۱.

[۳۰۵] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۸۵ ذیل الحدیث ۶۰.

[۳۰۶] (۱)- إن لهذه الآیة تقدیر مثل(یقال لهم) أو(یقول اللّه لهم).

[۳۰۷] (۱)- مفردات الراغب.

[۳۰۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۱۳.

[۳۰۹] (۱)- جاء فی تفسیر(روح البیان) أن کلمة(وراء) إذا أضیفت إلی الفاعل فإنّها تعنی الخلف، و إذا أضیفت إلی المفعول فإنّها بمعنی« الأمام» روح البیان، ج ۸، ص ۴۳۹.

[۳۱۰] (۲)- فی هذه الآیة حذف، و فی التقدیر(بدلناهم أمثالهم) کلمة(تبدیل) غالبا ما تأخذ مفعولین و هنا الضمیر(هم) مفعول أوّل و(أمثالهم) مفعول ثان.

[۳۱۱] (۱)- قیل أن فی الآیـة حـذف، و التقـدیر:(فمن شاء اتخـذ إلی رضـی ربّه سبیلا) و لکن الحق عـدم احتیاج الآیة للتقدیر، لأن جمیع طرق التکامل تنتهی إلی اللّه تعالی.

[۳۱۲] (۲)- جمع من المفسـرین قالوا أن جملـة(إن یشاء اللّه) محلها من الإعراب منصوبة علی الظرفیة فیکون المعنی:(ما تشاءون إلا وقت مشیئة اللّه) و یحتمل أن التقدیر هنا(شیئا) فیکون المعنی:(و ما تشاءون إلا شیئا یشاء اللّه).

[۳۱۳] (۱)- تفسیر الفخر الرازی ج ۳۰ ص ۲۶۲.

[۳۱۴] (۱، ۲)- لمزید من التوضیح حول آیات(المشیئة) راجع تفسیر الآیة ۳۷ سورة الزمر.

[۳۱۵] (۱، ۲)- لمزید من التوضیح حول آیات(المشیئة) راجع تفسیر الآیة ۳۷ سورة الزمر.

[۳۱۶] (۱)- مجمع البیان ج ۱۰ ص ۴۱۴.

[۳۱۷] (۲)- المصدر السابق.

[۳۱۸] (۳)- الخصال للشیخ الصدوق باب الأربعة حدیث ۱۰.

[۳۱۹] (۱)-« عرفا»: بمعنی متتابعا، و أصـله بمعنی(عرف الفرس) المتساقط بعضـها علی البعض الآخر، و فسـر أحیانا بالعمل الحسن و المعروف.

[۳۲۰] (۱)-« عذرا أو نذرا»: محله من الإعراب النصب علی أنّه(مفعول لأجله) و قیل(حال).

[۳۲۱] (۱)- العطف بالفاء أیضا یقوی هذا المعنی.

[۳۲۲] (۱)-(أقّتت) أصلها(وقّتت) من مادة(وقت) إذ أن الواو المضمومة بدلت إلی الهمزة، و یعنی توقیت الوقت لرسل اللّه تعالی، و هذا واضح إذ لا یعین لهم وقت بل یتعیّن لعملهم، أی لشهادتهم علی الأمم، و لذا قیل إن فی الآیة حذفا.

[۳۲۳] (۲)- الأعراف، الآیة ۶.

[۳۲۴] (۳)- طبقـا لهـذا التفسـیر فـإن الضـمیر فی(أجلت) یعود إلی شـهادة الأنبیـاء و الرسل علی الأمم، و هو ما یسـتفاد منه فی الآیة السابقـة، و قیل إنّه یعود إلی جمیع الأمور المرتبطـة بالأنبیاء و ما أعطوا من الأخبار بالثواب و العقاب و حوادث القیامة و غیرها، و قیل: إنّهـا إشارة إلی جمیع الأمور التی وردت فی الآیات السابقـة کظلام النجوم و غیرها، و لکن من الواضـح أن التّفسـیر الأوّل أنسب، لأنّ مرجع الضمیر فی الآیة متصل بذلک.

[۳۲۵] (۱)- ورد مزید من التوضیح فی باب معنی(ویل) و اختلافه مع(ویس) و(ریح) فی ذیل الآیة(۶۰) من سورة الذاریات.

[۳۲۶] (۱)-(قرار): هو محل الاستقرار و(مکین) یعنی محفوظ، و أصله من المکانة المشتقة من التمکن(و تأتی المکانة أحیانا بمعنی المنزلة).

[۳۲۷] (۲)- للآیة حذف تقدیره(فنعم القادرون نحن) أی أن المحذوف هو المخصوص بالمدح.

[۳۲۸] (۳)- قال بعض المفسّرین إن معنی الآیة هکذا:(إنا قدرنا النطفة بمقاییس ضـروریة و مقادیر مختلفة، و خصوصیات فی جسم الإنسان و روحه، فنعم القادرون) و لکن هذا المعنی یبدو بعیدا لأن متن القرآن و القراءة المعروفة له غیر مشددة و لذا یبدوا بعیدا و إن قال بعض إن المادة الثلاثیة المجردة وردت بمعنی التقدیر، و لکن فی الاستعمالات العادّیة لا تستعمل کلمة(قادر) بهذا المعنی.

[۳۲۹] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶۳.

[۳۳۰] (۲)-« کفاتا»: مفعول ثانی ل(جعلنا) و هو مصدر قد جاء بصیغة اسم فاعل.

[۳۳۱] (۳)-« أحیاء و أمواتا»: حال لضمیر مفعول محذوف تقدیره(کفاتا لکم أحیاء أمواتا).

[۳۳۲] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۱۷(نقلا عن تفسیر علی بن إبراهیم).

[۳۳۳] (۲)-« رواسـی»: جمع راسـیة، و هی الثابتات، و(شامخات) جمع شامخ، أی عال، و تأتی بعض العبارات کالقول(شـمخ بأنفه)

كناية عن التكبر(مفردات الراغب).

[۳۳۴] (۱)-(لا ظليل): صفة ل(ظل) و لهذا جاء مجرورا.

[۳۳۵] (۲)- الواقعة، ۴۲- ۴۴.

[۳۳۶] (۱)-(شرر): على وزن(ضرر) جمع شرارة، و هو ما يتطاير من النّار، و أخذت من مادة(الشر).

[۳۳۷] (۲)- نقل بعض المفسّرين كالفخر الرازى عن ابن عباس فى تفسير« القصر» فقال: أعواد فى الصحراء كانوا يقطعونها ثمّ يجمعوها و يضعوها فوق بعض للشتاء(لا يستبعد هذا التفسير أيضا و ذلك لما كانوا يشبهون الأعواد المجموعة و المتراصة بالقصر العالى).

[۳۳۸] (۳)- لعلّ ضمير(كان) يعود على(قصر) أو إلى(الشرر) و بما أنّ(شرر) بصيغة الجمع فلا يمكن ذلك من دون تأويل إلّا أن نجعل(شرر) اسم جمع.

[۳۳۹] (۱)- يجب الالتفات إلى أن(يوم) هنا غير منوّن، لأنه أضيف إلى مفهوم الجملة(لا ينطقون).

[۳۴۰] (۲)- قد يتساءل عن السبب فى كون جملة(فيعتذرون) مرفوعة فى حين أن القاعدة تنص على النصب و حذف النون، قيل: أنّهم تركوا الاعتذار، لأنّهم لا عذر لهم و ليس لعدم الإذن الإلهى.

[۳۴۱] (۳)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۹۰، الحديث ۲۲.

[۳۴۲] (۱)- النون فى(فكيدون) مكسورة و جاءت الكسرة محل ياء المتكلم، و أصلها(فكيدونى) فحذفت الياء و بقيت الكسرة لتدل على الياء، و ضمير المتكلم يعود إلى ذات اللّه المقدّسة طبقا لظاهر الآيات، و احتمال رجوعه إلى شخص النبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعيد جدّا.

[۳۴۳] (۱)- لهذه الآية حذف و تقديره على قول مجمع البيان:(كلوا و تمتعوا قليلا فإن الموت كائن لا محالة) و لكن يبدو أن التقدير الأنسب هو(كلوا و تمتعوا قليلا و انتظروا العذاب فإنّكم مجرمون).

[۳۴۴] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۱۹ و نقل هذا المعنى أيضا الآلوسى فى روح المعانى و القرطبى فى تفسيره و الزمخشرى فى الكشّاف و روح البيان ذيل الآية التى هى مورد البحث.

[۳۴۵] (۱)- مجمع البيان، ۱۰، ۴۲۰.

[۳۴۶] (۲)- تفسير البرهان، ۴، ۴۱۹.

[۳۴۷] (۳)- مجمع البيان، ۱۰، ۴۲۰.

[۳۴۸] (۱)-« عمّ»: مخفف(عمّا)، و هى مركبة من(عن) و(ما) الاستفهامية.

[۳۴۹] (۱)- مفردات الراغب، مادة(نبأ).

[۳۵۰] (۲)- مع أنّ باب(التفاعل) غالبا ما يشير إلى الفعل المقابل، إلّا أنه- أحيانا- قد يعطى معنى الفعل الثلاثى المجرّد أو معان أخرى ..(و ذكر بعض أهل اللغة خمسة معان للتفاعل:

۱- اشتراك اثنين أو أكثر فى فعل ما.

۲- المطاوعة، مثل(تباعد).

۳- إظهار خلاف الواقع، مثل(تمرض).

۴- الوقوع التدريجى، مثل(توارد).

۵- معنى فعل ثلاثى، مثل(تعالى) بمعنى(علا).

[۳۵۱] (۱)- المعروف بين أوساط علماء اللغة بأن« كلّا» حرف ردع، و لكنّ ثمّة من قال باستعمالات أخرى لهذا الحرف و لكنها

نادرة، و هی: أ- حرف تأکید. ب- بمعنی(ألا) الاستفتاحیة. ج- حرف جواب بمنزلة(نعم).(راجع مجمع البحرین و کتب اللغة).

[۳۵۲] (۲)- الزمر، الآیة ۶.

[۳۵۳] (۳)- الشوری، الآیة ۴۴.

[۳۵۴] (۴)- المؤمنون، ۹۹- ۱۰۰.

[۳۵۵] (۱)- رسالة الإعتقاد لأبی بکر محمد بن مؤمن الشیرازی(علی ما ذکر فی إحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸۴).

[۳۵۶] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۹، ص ۴۲۰.

[۳۵۷] (۳)- تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۴۱۹.

[۳۵۸] (۱)- سبأ، الآیة ۳.

[۳۵۹] (۲)- الزلزلة، الآیة ۷- ۸.

[۳۶۰] (۱)- جملةi\ وَ خَلَقْناکُمْ أَزْواجاًE\ و ما بعدها، جاءت بصیغة الإثبات، أمّا ما احتمله البعض من کونها جملا منفیة معطوفة علی قوله تعالیi:\ أَ لَمْ نَجْعَلِ E\ المتقدم فی الآیة الأولی فبعید و یحتاج إلی تقدیر لا موجب.

[۳۶۱] (۱)- للتزود من عجائب عالم النوم، راجع ما بحثناه فی تفسیر الآیة(۳۴) من سورة الروم. و کذا الرؤیا و عجائبها فی ذیل الآیة(۴) من سورة یوسف.

[۳۶۲] (۱)-« المعاش»: إمّا أن یکون اسم زمان أو اسم مکان، بمعنی زمان و مکان الحیاة .. و یمکن أن یکون مصدرا میمیا، فیکون له محذوف، و التقدیر:(سببا لمعاشکم). و المعاش: من العیش، أی الحیاة، إلّا أنّ تعبیر الحیاة یمکن إطلاقه علی الباری عزّ و جلّ و الملائکة، فیما تختص کلمة العیش بحیاة الإنسان و الحیوان.

[۳۶۳] (۲)- القصص، الآیة ۷۲.

[۳۶۴] (۳)- القصص، الآیة ۷۲.

[۳۶۵] (۱)- راجع بحوثنا حول أسرار اللیل و النهار، و نظام النور و الظلمة فی ذیل الآیات(۷۱- ۷۳) من سورة القصص، فی ذیل الآیة(۴۷) من سورة الفرقان، فی ذیل الآیة(۱۸) من سورة الذاریات.

[۳۶۶] (۱)- لزیادة المعلومات، راجع ذیل الآیة(۲۹) من سورة البقرة.

[۳۶۷] (۲)-« جعلنا»: فی هذا الموضوع بمعنی(خلقنا)، فلذلک أخذت مفعولا واحدا.

[۳۶۸] (۳)- مفردات الراغب: مادة(وهج) .. و فی لسان العرب: الوهج: حرارة الشمس و النار من بعید.

[۳۶۹] (۱)- ورد فی کتاب عالم النجوم من تألیف(آنتری وایت) حسابا للنور و الحرارة الواصلین من الشمس إلی الأرض، یقول صاحب الکتاب: لو أردنا أن ندفع أجورا مقابل ما یصلنا من نور و حرارة الشمس مجانا بما یساوی ما ندفعه من أجور الکهرباء عادة، فعلی سکان الأرض أن یدفعوا لکل ساعة من النور و الحرارة ملیار و سبعمائة ملیون دولار، و إذا حسبنا ما علینا أن ندفع خلال سنة واحدة فسنصل إلی رقم خیالی من الدولارات، و بهذا یظهر قیمة ما وهبنا اللّه تعالی من ثروة طائلة دون مقابل.

و یقول مؤلف کتاب(من العوالم البعیدة): إنّ أهل الأرض لو أرادوا الحصول علی ما یصلهم من نور الشمس من مصابیح توضع فی مکان الشمس للزم لکل منهم خمسة ملایین ملیار مصباح ذو مائة واط.

[۳۷۰] (۱)- یقول بعض العلماء: إنّ الغیوم حین تتراکم تخضع لنظام معین، حیث تقوم بعصر نفسها فتتساقط قطرات الأمطار منها، و هذا فی واقعة یکشف عن إحدی المعاجز العلمیة للقرآن فی استعماله لهذا التعبیر(راجع کتاب- الهواء و الأمطار).

[۳۷۱] (۲)-(ألفاف): جمع لفیف- کما یقول کثیر من أهل اللغة و التفسیر- و قال بعضهم: جمع لف(بضم اللام). و قال بعض آخر: جمع لف(بکسر اللام). و قال آخرون: هی جمع لا مفرد له .. و لکنّ المشهور هو القول الأوّل.

[۳۷۲] (۱)- الأنبياء، الآية ۳۰.

[۳۷۳] (۲)- سورة يس، الآية ۸۱.

[۳۷۴] (۱)- المؤمنون، الآية ۱۱۵.

[۳۷۵] (۲)- فاطر، الآية ۹.

[۳۷۶] (۱)- استعمال(كان) فی هذا المورد لبيان حتمية الوقوع لذلك اليوم.

[۳۷۷] (۱)- تطرقنا لهذا الموضوع بشكل مفصل فی ذيل الآية(۶۸) من سورة الزمر، فراجع.

[۳۷۸] (۱)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ذيل الآية المذكورة.

[۳۷۹] (۲)- الإنشقاق، ۱.

[۳۸۰] (۳)- الإنفطار، ۱.

[۳۸۱] (۱)- الزمر، ۷۳.

[۳۸۲] (۲)- الرعد، ۲۳.

[۳۸۳] (۳)- الزمر، ۷۱.

[۳۸۴] (۴)- آل عمران، ۱۳۳.

[۳۸۵] (۵)- طور، ۱۰.

[۳۸۶] (۶)- الحاقة، ۱۴.

[۳۸۷] (۷)- المزمل، ۱۴.

[۳۸۸] (۸)- القارعة، ۵.

[۳۸۹] (۱)- الواقعة، ۵ و ۶.

[۳۹۰] (۲)- طه، ۱۰۵ و ۱۰۶.

[۳۹۱] (۱)- يوجد محذوف فی الآية، و التقدير:(كانت للطاغين مآبا).

[۳۹۲] (۱)- تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۹۴، ح ۲۳ و ۲۶.

[۳۹۳] (۲)-« جزاء»: مفعول مطلق لفعل محذوف تظهره قرينة الكلام،« وفاقا»: صفة الجزاء، و التقدير: يجازيهم جزاء ذا وفاق!

[۳۹۴] (۱)-« كذّابا»- بكسر الكاف- إحدى صيغ المصدر من باب التفعيل، بمعنى التكذيب، و قال بعض أهل اللغة: إنّه مصدر ثلاثی مجرّد معادل لكذب .. و على أية حال، فهو: مفعول مطلق لكذبوا، و جاء للتأكيد.

[۳۹۵] (۱)-« كلّ»: مفعول به لفعل مستتر يدل عليه الفعل« أحصيناه». و« كتابا»: مفعول مطلق لأحصينا، لأنّه بمعنى كتبنا، و اعتبره البعض: حالا.

[۳۹۶] (۲)- القمر، ۵۲ و ۵۳.

[۳۹۷] (۳)- يونس، ۲۱.

[۳۹۸] (۴)- سورة يس، ۱۲.

[۳۹۹] (۵)- الكهف، ۴۹.

[۴۰۰] (۱)- الشعراء، ۱۳۶.

[۴۰۱] (۲)- الإسراء، ۴۱.

[۴۰۲] (۳)- تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۶۹۰؛ و تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۳۰۷؛ و تفسير الصافی فی ذيل الآية المذكورة.

[۴۰۳] (۱)-« الحدائق»: بدل« مفازة»، أو عطف بیان لها.

[۴۰۴] (۱)-« جزاء»: حال لإعطاء النعم التی ذکرت فی الآیات السابقة، فیکون التقدیر: أعطاهم جمیع ذلک جزاء من ربّک، و احتمل البعض: إنّه مفعول مطلق لفعل محذوف، و اعتبره آخرون: إنّه مفعول لأجله، لکنّ التّفسیر الأوّل أقرب.

[۴۰۵] (۱)- تفسیر البیضاوی فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۰۶] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۹۵، ح ۲۹.

[۴۰۷] (۱)-« یوم» ظرف متعلق بفعل« لا یملکون»- حسب اعتقاد کثیر من المفسّرین- و ثمّة احتمال آخر: إنّه متعلق بکل ما جاء فی الآیات السابقة، فیکون التقدیر:(کل ذلک یکون یوم یقوم الروح).

[۴۰۸] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۰۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۷.

[۴۱۰] (۲)- تفسیر علی بن إبراهیم، ج ۲، ص ۴۰۲.

[۴۱۱] (۳)- تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۰۹.

[۴۱۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۷.

[۴۱۳] (۲)- بحثنا مسألة« الشفاعة» من حیث: شروطها، خصائصها و فلسفتها، مع الإجابة علی الإشکالات الواردة بشأنها فی تفسیر الآیة(۴۸) من سورة البقرة.

[۴۱۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۳.

[۴۱۵] (۲)- العنکبوت، ۵۴.

[۴۱۶] (۱)- الحشر، ۱۸.

[۴۱۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۸.

[۴۱۸] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۹] (۱)- مفردات الرغب، مادة(نزع).

[۴۲۰] (۱)- راجع: لسان العرب، تفسیر مجمع البیان، تفسیر الکشّاف، و مجمع البحرین.

[۴۲۱] (۱)- و ثمّة رأی یقول: المقصود بهذا القسم، تلک الحرکات الطبیعیة و الإرادیة و الصناعیة للموجودات، فمثلا: تتحرک النطفة حرکة طبیعیة، فتنفصل من صلب الأب لتستقر فی رحم الام، ثمّ تدیم مسیرها بهدوء، و لتسرع بعد ذلک، ثمّ تبدأ المواد الحیاتیة بالتسابق فی النطفة حتی یتشکل فی النهایة إنسان کامل الهیئة لتقوم بتدبیره، و کذا الحال بالنسبة للحرکات الإرادیة حیث یبدأ الإنسان باتخاذ قرار معین و بعده یتحرک بهدوء لتجسید اولی خطوات التنفیذ، ثمّ یسرع الخطوات، و یتسابق مع الآخرین، و یقوم بکلّ ذلک لتدبیر أمره و حیاته الاجتماعیة و الوسائل الصناعیة لا تبتعد عن هذا التسلسل، کما فی المراحل التی تطویها الطائرة فی مسیرها.(إلّا أنّ هذا التفسیر یفتقد الدلیل).

[۴۲۲] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۹۷، الحدیث ۴.

[۴۲۳] (۱)- المصدر السابق، الحدیث ۷- ۸- ۱۲.

[۴۲۴] (۱)- ینبغی ملاحظة أنّ فعل(رجف) قد یأتی متعدیا و قد یأتی لازما، فعلی الحالة الاولی تکون« الراجفة» بمعنی الزلزلة العظیمة التی تزلزل کلّ الأرض و الموجودات، و علی الحالة الثّانیة تعنی الأرض دون غیرها- فتأمل.

[۴۲۵] (۲)- یعود ضمیر« أبصارها» إلی القلوب، التی تشیر هنا إلی معنی(النفوس و الأرواح)، و ترجع الإضافة إلی أنّ مرکز تأثیرات حواس الإنسان إنّما من روحه، و ما یظهر من اضطراب و خوف علی الأعین هو نتیجة لما یسیطر علی الروح من خوف.

[۴۲۶] (۱)- اسم فاعل هنا بمعنی اسم المفعول، فالحافرة إذا بمعنی المحفورة.

[۴۲۷] (۲)- و تقدیر الجملة مع محذوفها:(أ إذا کنّا عظاما نخرة نرد أحیاء) أو(أ إنا لمبعوثون).

[۴۲۸] (۱)- لسان العرب: سهر، مجمع البیان: ج ۱۰، ص ۴۲۹؛ و تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۹۹۰.

[۴۲۹] (۱)- اعتبر أکثر المفسّرین« إذ» ظرف زمان متعلق ب« حدیث» و یصح الإعتبار لو کانت بمعنی نفس الحادثة و لیست حکایتها ..

و ثمّة احتمال آخر، یقول« إذ»: ظرف متعلق بفعل محذوف تقدیره(اذکر)، فالتقدیر:(اذکر إذ ناداه ...)- فتأمل.

[۴۳۰] (۲)- إنّ الفاصلة الزمنیة ما بین توجیه الأمر الإلهی إلی موسی علیه السّلام و بین إرائة المعجزة کانت کبیرة، و لکنّ البیان القرآنی اختصرها فی هذا الموضع.

[۴۳۱] (۱)- یمکن اعتبار« ثمّ» فی الآیة إشارة إلی المدّة التی استغلها فرعون لیدرس و یخطط لکیفیة مواجهة موسی علیه السّلام، لأنّ« ثمّ» عادة ما تستعمل للتعبیر عن الفاصلة الزمنیة بین الأحداث.

[۴۳۲] (۱)-« نکال»: منصوب بنزع الخافض، و التقدیر:(فأخذه اللّه بنکال الآخرة) و یحتمل کونه مفعول مطلق للأخذ، بمعنی(نکّل)، فیکون التقدیر:(نکّل اللّه ناکال الآخرة).

[۴۳۳] (۱)- و فی مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۳۲، روایة اخری تحمل نفس المضمون عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و أکثر تفصیلا، نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۰۰.

[۴۳۴] (۱)- فی الآیة حذف، و التقدیر:(أم السماء أشدّ خلقا). و« بناها»: جملة استئنافیة، و هی مقدّمة للآیات التالیة.

[۴۳۵] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، الآیة المبحوثة.

[۴۳۶] (۱)- یرجع ضمیرا« لیلها» و« ضحاها» إلی السماء، فنسبة النور و الظلمة إلی السماء باعتبار أنّ لهما منشأ سماویا.

[۴۳۷] (۱)- فسّر بعض المفسّرین« بعد ذلک» فی الآیة، بمعنی(إضافة لهذا)، فیکون معنی الآیة:(إضافة إلی ما فی الآیات السابقة فالأرض دحاها).

[۴۳۸] (۲)- و اعتبره البعض: مصدرا میمیا، بمعنی الحیوانات السائمة، و لکنّ المعنی المذکر أعلاه أقرب.

[۴۳۹] (۳)- بحثنا مفصلا موضوع الجبال و أهمیتها فی حیاة الإنسان و فی تثبیت الأرض، فی ذیل الآیة(۳) من سورة الرعد- فراجع.

[۴۴۰] (۱)- یقول بعض المفسّرین، إنّ جواب الشرط فی« إذا» الشرطیة، یأتی فی الآیات i فَأَمَّا مَنْ طَغی\ ...E\i وَ أَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ\ ...E و لکن الأفضل أن نقول: إنّ الجزاء محذوف یدل علیه ما فی الآیات التالیة، و التقدیر:(فإذا جاءت الطامة الکبری، یجز کلّ إنسان بما عمل)، و قیل: یستفاد جزاء الشرط من\«i یَوْمَ یَتَذَکَّرُ الْإِنْسانُ E»- و لکنّه بعید.

[۴۴۱] (۱)- لزیادة التوضیح، راجع ذیل الآیة(۱۲۴) من سورة طه.

[۴۴۲] (۲)- تقدیر الآیة الثالثة مع محذوفها:(هی المأوی له) أو(هی مأواه)، و حذف الضمیر لوضوحه.

[۴۴۳] (۳)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۰۶، الحدیث ۴۳.

[۴۴۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۹۷.

[۴۴۵] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۴۲.

[۴۴۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۰۷، الحدیث ۴۵.

[۴۴۷] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۴۶.

[۴۴۸] (۱)- جاءت کلمة« المرسی» بهذا الموضع مصدرا، علی مالها من استعمال اخری، فتأتی تارة اسم زمان و مکان، و تارة اخری اسم مفعول من« الإرساء»، معناها المصدری هو: الوقوع و الثبات، و یستخدم المرسی کمکان لتوقف السفن، و فی تثبیت الجبال علی

سطح الأرض، و كقوله تعالى فى الآية(۴۱) من سورة هود\:i وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها\E، و الآية(۳۲) من سورة النازعات\:i وَ الْجِبالَ أَرْساها\E.

[۴۴۹] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۲۹، ص ۲۹، و ذكرت ذات الموضوع فى: تفاسير(مجمع البيان)،(القرطبى)،(فى ظلال القرآن) بالإضافة لتفسير اخرى، فى ذيل الآية(۱۸) من سورة محمّد.

[۴۵۰] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۵.

[۴۵۱] (۱)- تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۷.

[۴۵۲] (۲)- المصدر السابق.

[۴۵۳] (۱)- و الفرق بين الآية و التى قبلها، هو أنّ الحديث قد جرى حول التزكية و التقوى الكاملة، فى حين أنّ الحديث فى الآية المبحوثة يتناول تأثير التذكر الإجمالى، و إن لم يصل إلى مقام التقوى الكاملة، و ستكون النتيجة استفادة الأعمى المستهدى من التذكير، سواء كانت الفائدة تامّة أم مختصرة.

و قيل: إنّ الفرق بين الآيتين، هو أنّ الأولى تشير إلى التطهير من المعاصى، و الثانية تشير إلى كسب الطاعات و إطاعة أمر اللّه عزّ و جلّ.

و الأوّل يبدو أقرب للصحة.

[۴۵۴] (۲)- يقول الراغب فى مفرداته:(غنى و استغنى و تغنى و تغانى) بمعنى واحد، و يقول فى(تصدّى): إنّها من(الصدى)، أى الصوت الراجع من الجبل.

[۴۵۵] (۱)- يراد بالخشية هنا: الخوف من اللّه تعالى، الذى يدفع الإنسان ليتحقق بعمق وصولا ـ لمعرفته جلّ اسمه، و كما يعبر المتكلمون عنه ب .. وجوب معرفة اللّه بدليل دفع الضرر المحتمل.

و احتمل الفخر الرازى: يقصد بالخشية، الخوف من الكفّار، أو الخوف من السقوط على الأرض لفقدانه البصر. و هذا بعيد جدّا.

[۴۵۶] (۲)-« التلهى»: من(اللهو). و يأتى هنا بمعنى الغفلة عنه و الاستغفال بغيره، ليقف فى قبال« التصّدى».

[۴۵۷] (۳)- نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

[۴۵۸] (۱)- يعود ضمير:« ذكره» إلى ما يعود إليه ضمير« إنّها»، و سبب اختلاف الصيغة بين الضميرين هو أنّ ضمير« إنّها» يرجع إلى الآيات القرآنية، و« ذكره» إلى القرآن، فجاء الأوّل مؤنثا و الثّانى مذكرا.

[۴۵۹] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۳۸.

[۴۶۰] (۱)-« قتل الإنسان»: نوع من اللعن، و هو أشدّها عن الزمخشرى فى(الكشاف).« ما»، فى« ما أكفره»: للتعجب، التعجب من السير فى متاهات الكفر و الضلال، مع ما للحق من سبيل واضحة، و توفير مختلف مصاديق و اللطف و الرحمة و الرّبانية التى توصل الإنسان إلى شاطئ النجاة.

[۴۶۱] (۱)- يقول الراغب فى مفردات:« قدّره»(بالتشديد): أعطاه القدرة، و يقال: قدّرنى اللّه على كذا و قوانى عليه».

[۴۶۲] (۱)- قيل: أتت« كلّا» هنا بمعنى(حقّا) ... إلّا أنّ سياق الآية و ظاهر الكلمة لا يؤيدان ذلك و لعل المعنى المشهور(الردع) هو المطلوب، لوجود الكثير ممن يعتقد مغرورا و مدعيّا بأنّه قد أدّى وظائفه الشرعية على أتمّ أداء، فتأتى الآية لتقول رادعة بأنّه لم يؤد وظائفه بعد.

[۴۶۳] (۱)- يمكن اعتبار جملة« فلينظر»: جزاء شرط مقدّر، و التقدير:(إن كان الإنسان فى شك من ربّه و من البعث فلينظر إلى طعامه).

[۴۶۴] (۱)- تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۲۹.

[۴۶۵] (۲)- المصدر السابق.

[۴۶۶] (۱)- تفسیر الآیة المذکورة فی: تفسیر روح المعانی، تفسیر القرطبی، تفسیر فی ظلال القرآن، الدر المنثور، و تفسیر المیزان.

[۴۶۷] (۲)- إرشاد المفید، ص ۱۰۷، و عنه تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۳۱۹.

[۴۶۸] (۱)- بحثنا مفصّلا موضوع الأهمیة الغذائیة للزیتون و العنب و التمر فی هذا التفسیر ضمن تفسیر الآیة(۱۱) من سورة النحل- فراجع.

[۴۶۹] (۱)- ثمّة احتمالات کثیرة فی تعیین جزاء الشرط لهذه الجملة الشرطیة ... الأوّل: إنّه محذوف بدلالة الآیات التالیة، التقدیر:(فإذا جاءت الصاخة فما أعظم أسف لکافرین)- تفسیر المراعی. و الثانی: و فی(مجمع البیان) قیل: إنّه i لِکُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ یَوْمَئِذٍ شَأْنٌ یُغْنِیهِ E. و الثالث: أمّا فی(روح المعانی)، فقد احتمل: إنّه مستفاد من جملة\i یَوْمَ یَفِرُّ الْمَرْءُ\E، و التقدیر:(فإذا جاءت الصاخة یفر المرء من أخیه).

[۴۷۰] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۲۹.

[۴۷۱] (۱)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۸۴.

[۴۷۲] (۲)- المصدر السابق.

[۴۷۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۱.

[۴۷۴] (۱)- المصدر السابق.

[۴۷۵] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۰۱۷، و یحتمل أن یکون معنی هذا الحدیث شامل للحدیث السابق.

[۴۷۶] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۱۳.

[۴۷۷] (۱)- بحثنا موضوع حشر و حساب الحیوانات فی هذا التفسیر ذیل الآیة(۳۸) من سورة الأنعام، فراجع.

[۴۷۸] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۳۲، ح ۱۱.

[۴۷۹] (۲)- المصدر السابق، ح ۷.

[۴۸۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

[۴۸۱] (۱)- آل عمران، الآیة ۱۳۳؛ و الحدید، الآیة ۲۱ ... إلخ.

[۴۸۲] (۱)- اقتبس هذا الکلام من ثلاثة کتب:(ولادة و موت الشمس)،(النجوم من دون تلسکوب) و(بناء الشمس).

[۴۸۳] (۱)- تعرض المفسّرون فی بحوث عدیدة لکلمة« لا»، هل هی: نافیة، زائدة، للتأکید ... و قد تناولنا ذلک مفصلا فی أول سورة القیامة(فی نفس هذا الجزء)، فراجع.

[۴۸۴] (۱)- لسان العرب: مادة(خنس).

[۴۸۵] (۲)- الفرق بین النجوم و الکواکب، إنّ الأولی شموس کشمسنا، و الثانیة عبارة عن أجسام باردة کالأرض، تنعکس علیها أشعة الشمس فتضیء، و یمکن تمییزها علی صفحة السماء بثبوت نورها، فی حین تکون النجوم متلألئة بالنور.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البیان: ج ۱۰، ص ۴۴۶.

[۴۸۷] (۱)-« مکین»:(المکانة)، و هی المقام و المنزلة، و ما یستفاد من مفردات الراغب و غیره من المفسّرین، إنّه اسم مکان من(الکون) و لکثرته فی الکلام فقد استعمل علی صیغة الفعل فقیل:(تمکن) و(تمسکن).

[۴۸۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۶، و ورد هذا المضمون فی تفسیر(الدر المنثور) فی ذیل الآیة المبحوثة.

[۴۸۹] (۱)- الذاریات: الآیة ۵۲.

[۴۹۰] (۱)- نهج البلاغة: الکلمات القصار(۳۰۱).

[۴۹۱] (۱)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۶۲؛ و فی روح البیان، ج ۱۰، ص ۳۵۴.

[۴۹۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۷، نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۰(عن ثواب الأعمال: ص ۱۲۱).

[۴۹۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۲۵۷.

[۴۹۴] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹۵] (۳)- منیة المرید، ص ۱۱.

[۴۹۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۹.

[۴۹۷] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۶.

[۴۹۸] (۳)- لمزید من التفصیل. راجع تفسیر الآیة(۲۵) من سورة النحل.

[۴۹۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۴۹؛ و الدر المنثور، و روح المعانی، و روح البیان، و القرطبی، عند تفسیر الآیة المبحوثة.

[۵۰۰] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۱] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۳.

[۵۰۲] (۱)-« ما»: زائدة، و احتملها البعض(شرطیة)، و لکنّ الرأی الأوّل أقرب للصواب.

[۵۰۳] (۱)-« کلا» حرف ردع لإنکار شیء ذکر و توهم، لکن ... أی إنکار قصدته الآیة؟ ثمة احتمالات عدیدة للمفسرین فی ذلک، و أهمها ما ذکر أعلاه، أی أن« کلا» جاءت لتنفی کل أسباب و منابع الغرور و الغفلة و تجعلها فی إنکار القیامة و التکذیب به فقط. و هو ما ورد بعد« بل» و هذا ما اختاره الراغب فی مفردات(فی مادة: بل)، و قال بعد ذکره للآیة: قیل لیس هاهنا ما یقتضی أن یغرهم به تعالی و لکن تکذیبهم هو الذی حملهم علی ما ارتکبوه.

[۵۰۴] (۲)- قیل: إن« الواو» هنا حالیة، کما فی روح المعانی و روح البیان، و لکن احتمال کونها(استئنافیة) أقرب للحال.

[۵۰۵] (۱)- یونس، الآیة ۶۱.

[۵۰۶] (۲)- النساء، الآیة ۴۱.

[۵۰۷] (۳)- النور، الآیة ۲۴.

[۵۰۸] (۴)- فصلت، الآیة ۲۱.

[۵۰۹] (۱)- سورة ق، الآیة ۲۱.

[۵۱۰] (۲)- الزلزال، الآیة ۴.

[۵۱۱] (۳)- سفینة البحار، ج ۲، ص ۷۳۹(مادة: یوم).

[۵۱۲] (۴)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۲.

[۵۱۳] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، ص ۴۲۹، باب« من یهمّ بالحسنة أو السیئة» الحدیث ۳.

[۵۱۴] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۱- ۲.

[۵۱۵] (۱)- المصدر السابق، الحدیث ۴.

[۵۱۶] (۲)- اصول الکافی، ج ۲، ص ۱۸۴، الحدیث ۲؛ و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۱۰.

[۵۱۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

[۵۱۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۰.

الجزء العشرون

نهاية تجربة و بداية تجربة اخرى

ها نحن بفضل اللّه و منّه و توفيقه فى نهايـة المطاف مع «التّفسير الأمثل»، بعـد جولـة فى كتاب اللّه اسـتغرقت خمسـة عشـر عاما: و من المناسب أن يكون لنا مع القارئ الكريم، الذى رافقنا فى هذه الرحلة الطويلة، حديث نسـتعرض فيه عصارة تجربتنا مع هذا التّفسير على أن يكون مفيدا للسائرين على طريق الدراسة و التعمّق فى القرآن الكريم.

۱- خلال جولتنا فى رحاب كتاب اللّه ازددنا تفهّما لما ورد فى الحديث الشـريف بشأن وصف القرآن، بل تلمّسنا هذه الأوصاف بكلّ وجودنا، و رأينا بأم أعيننا. من ذلك ما

ورد عن النّبى عليه أفضل الصـلاة و السّلام أنّه قال فى القرآن: «له نجوم، و على نجومه نجوم، و لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، و منازل الحكمة».[۱]

و عن على بن موسى الرضا عليه السّلام أنّه فى جواب من سأله: ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس إلّا غضاضة؟

قـال: «لأنّ اللّه تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس، فهو فى كلّ زمان جديـد و عنـد كلّ قوم غض إلى يوم القيامة».[۲]

نعم: إنّه الشجرة الطيبة التى تُؤْتِى أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها و هو البحر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶

الواسع العميق الذى يجد فيه الغواص درّا جديدا كلما ازداد فيه غوصا.

هذه الحقيقة تتّضح لكلّ السالكين طريق القرآن، و تبعث فيهم الشوق و الاندفاع نحو طلب المزيد من مائدة كتاب اللّه، و نحو مواصـلة هذا الطريق حتى نهاية رحلة العمر.

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قال فى حديثه عن القرآن: «فيه ربيع القلب، و ينابيع العلم، و ما للقلب جلاء غيره».[۳]

و هـذه حقيقـة اخرى تلمّسـناها خلال جولتنا فى رحاب القرآن الكريم. و كلما عاش الإنسان جوّ القرآن أكثر يحسّ بتفتـح جديـد فى القلب و الروح. و هذا الإحساس واضح لكلّ من دخل غمار التجربة. و باب الدخول مفتوح لمن أراد أن يجرّب.

۲- من خلال هـذه الجولـة التّفسـيرية تبيّن مـدى شـمول التعـاليم القرآنيـة، و اتضـح أنّ القرآن الكريم لم يترك مجالا من المجالات الحيويّة فى الساحة الإنسانية دون أن يبيّن أصولها و يعيّن إطارها (التفاصيل تكفلت السنّة ببيانها).

من هنـا لا- يحتـاج الإنسان المسـلم فى تنظيم حياته السياسـية و الاقتصاديـة و الاجتماعيـة إلى أن يولّى وجهه شـطر مـدارس الشـرق أو الغرب، و كما

قال أمير المؤمنين على عليه السّلام: «و اعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة و لا لأحد قبل القرآن من غنى».[۴]

مشكلة المسلمين تكمن فى عدم معرفتهم بما بين ظهرانيهم من كنز عظيم:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمأو الماء فوق ظهورها محمول

و هنا نشير مرّة اخرى إلى أن معارف القرآن و تعاليمه لا يمكن أن نتلقاها من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷

كتـاب اللّه العزيز إلّا إذا جلسـنا عنـده متتلمـذين متعلمين. أمّا إذا أقبلنا على القرآن بذهنيـة مملوءة بأحكام مسـبقة ملتقطـة من مـدارس الشـرق و الغرب، فسوف نلجأ إلى زجّ آيات القرآن فى إطار مفاهيم غريبة عليه، لتنسـجم مع ما نحمله من أحكام و نظريات مسـبقة، و بذلك نحرم من عطاء القرآن، و نحوله إلى «آلة» لتبرير أخطائنا و إسناد أفكارنا الناقصة.

۳- بعـد هذه الجولة القرآنية التى تلمّسـنا فيها الحياة القرآنية بكلّ ما تحمله من عطاء ثرّ لحياة الفرد و الجماعة، لا بدّ أن نسـجّل أسـفنا

لما يحمله كثير من المسلمين من نظرة إلى القرآن ... نظرة تجعل القرآن محاطا بهالة من القدسية غير أنّه معزول عن الحياة. تتلمس الثواب و البركة فى التلاوة، و الفضيلة فى الحفظ، دون أن ترى فيه منهجا للحياة.

لقد نسى هؤلاء أنّ القرآن مدرسة للفرد المسلم و للجماعة المسلمة، يرسم لها طريقها فى جميع المجالات، و يوجهها الوجهة الصحيحة فى كلّ المنعطفات، و هنا تكمن عظمة القرآن و قدسيته.

كثيرة هى مدارس القرآن و خلاوى التحفيظ و مجلس التلاوة فى عالمنا الإسلامى، و كم يدور فيها من البحوث حول طريقة التجويد و الترتيل! لكن الحديث عن المنهج العملى الذى يطرحه القرآن قليل، و الالتزام بهذا المنهج أقلّ.

و نحن فى هذا التّفسير قلّما تعرّضنا لسورة دون أن نبيّن أنّ التلاوة التى بيّنت السنّة فضائلها إنّما هى التلاوة المتبوعة بالفكر و العمل ... فضيلة التلاوة أن يكون مقدمة للتفكر، أن يؤدى التفكر إلى العمل.

نسأل اللّه سبحانه و تعالى أن يوفق علماء المسلمين لطرح منهج القرآن بين أبناء الامّة، و أن يوفق اتباع القرآن إلى العمل به فى كلّ جوانب حياتهم، و هذه كلمتنا الأخيرة فى التّفسير الأمثل، و ندع بقية الحديث إلى (التّفسير الموضوعى).

و الحمد للّه ربّ العالمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹

سورة المطفّفين

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ستّ و ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱

«سورة المطفّفين»

محتوى السّورة:

لقد جرى الحديث بين المفسّرين بخصوص نزولها بين مكّة و المدينة، و بملاحظة أسباب نزول الآيات الاولى من السّورة، و التى تتعلق بالذين يخسرون الميزان، فسيظهر أنّ نزولها كان فى المدينة.

و لكنّ طبيعة بقية الآيات تأتى تماما مع سياق الآيات المكّية، حيث أنّها تتحدث و بعبارات موجزة و مثيرة عن حوادث يوم القيامة، و على الخصوص الآيات الأخيرة من السّورة و التى تنقل لنا حالة استهزاء الكفّار بالمسلمين، و هو ما ينسجم مع أوضاع مكّة فى أوائل الدعوة المباركة، حينها كان المؤمنون عصبة قليلة و الكفّار كثرة من حيث العدد. و لعل ذلك هو الذى دفع بالمفسّرين لاعتبار قسم من الآيات مكّية و القسم الآخر مدنية.

و عموما، فالسّورة أقرب منها للسور المكّية من السور المدنية، و على أية حال، فبحوث السّورة تدور حول محاور خمس: هى:

۱- تحذير و إنذار شديد للمطفّفين.

۲- الإشارة إلى أنّ منشأ الذنوب الكبيرة إنّما يأتى من عدم رسوخ الإيمان بالبعث و المعاد.

۳- عرض لجوانب من عاقبة «الفجّار» فى ذلك اليوم العظيم.

۴- عرض لجوانب ما ينتظر المحسنين فى الجنّة من نعم إلهية و عطاء ربّانى جزيل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲

۵- الإشارة لآثار استهزاء الكفّار بالمؤمنين فى الحياة الدنيا، و انعكاس الحال فى يوم القيامة.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة المطفّفين سقاه اللّه من الرحيق المختوم»[۵].

و

عن الإمام الصّادق عليه السّلام: أنّه قال: «من قرأ فى فرائضه وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ أعطاه الأمن يوم القيامة من النّار، و لم تره، و لم يرها ...»[۶].

و بطبيعة الحال، فكلّ هذا الثواب و الفضيلة و البركة، سينالها من جعل قراءتها مقدمة للعمل على هديها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (۱) الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (۲) وَ إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (۳) أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (۴)

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (۵) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ (۶)

سبب النّزول

قال ابن عباس: لمّا قدم نبىّ اللّه المدينة، كانوا من أبخس النّاس كيلا، فأنزل اللّه هذه الآية، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

و قيل: كان تجار المدينة تجارا يطففون، و كانت بياعاتهم المنابذة و الملامسة و المخاطرة، فنزلت هذه الآية،

فخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقرأها عليهم و قال: «خمس بخمس»، قيل يا رسول اللّه، و ما خمس بخمس؟

قال: «ما نقص قوم العهد إلّا سلط اللّه عليهم عدّوهم! و ما حكموا بغير ما أنزل اللّه إلّا فشا فيهم الفقر! و ما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴

و لا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات و أخذوا بالسنين! و لا منعوا الزكاة إلّا حبس عنهم المطر!»[۷].

و روى العلّامة الطبرسى فى مجمع البيان: إنّ رجلا كان فى المدينة يقال له (أبو جهينة) كان له صاعان، يكيل بأحدهما و يكتال بالآخر، فنزلت هذه الآيات.[۸]

التّفسير

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

بدأ الحديث فى هذه السّورة بتهديد شديد للمطفّفين: وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ

و تمثل الآية فى حقيقة توجيهها، إعلان حرب من اللّه عزّ و جلّ على هؤلاء الظالمين، الذين يأكلون حقّ النّاس بهذه الطريقة القذرة.

«المطفّفين»: من (التطفيف) و أصله من (الطف)، و هو جوانب الشىء و أطرافه، و إنّما قيل لكربلاء ب (وادى الطف)، لوقوعها على ساحل نهر الفرات، و (الطفيف):

الشىء النزر، و (التطفيف): البخس فى الكيل و الوزن، و نقص المكيال، و هو أن لا تملأه إلى أصباره.

«ويل»: تأتى بمعانى: حلول الشرّ، الحزن، الهلاك، المشقّة من العذاب، واد مهيب فى نار جهنم، و تستعمل عادة فى اللعن و بيان قبح الشىء، و رغم صغر الكلمة إلّا أنّها تستبطن مفاهيم كثيرة.

و

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «و لم يجعل اللّه الويل لأحد حتى يسميه كافرا، قال اللّه عزّ و جل: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵

و ما نستفيده من هذه الرّواية هو: إنّ التطفيف فيه وجه من الكفر.

و تتطرق الآيتين التاليتين إلى طريقة عمل المطففين، فتقول الآية الأولى:

الَّذِينَ إِذَا اكْتالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۱۰].

و تقول الآية الثّانية: إِذا كالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ و ذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ الآية أرادت ب «المطفف» من يأخذ عند الشراء أكثر من حقّه، و يعطى عند البيع أقل من الحقّ الذى عليه، و ال «ويل» إنّما جاء بلحاظ هاتين الجهتين.

و لكن ما ذهب أولئك المفسّرون غير صحيح، بدلالة «يستوفون» التى تعنى أخذهم بالكامل، و ليس ثمّة ما يدلّ على أخذهم أكثر من حقّهم، و يمكننا توجيه (الذم) الحاصل، باعتبار أخذهم حقّهم كاملا عند الشراء، و ينقصون من حقّ الآخرين عند البيع، كمن يريد أن يذم شخصا بقوله: ما أغربك من رجل، تراك تأتى فى الموعد المقرر عند ما تكون دائنا، و تتهرب من أداء ما عليك عند ما تكون مدينا.

فأخذ الحقّ فى موعده المقرر ليس عملا سيّئا، و لكن حصول الحالتين (أعلاه) فى شخص واحد هو الشىء.

و قد جاء ذكر «الكيل» فى الآيتين عند حالة الشراء، و ذكر «الكيل» و «الوزن» عند حالة البيع، و ربّما يرجع ذلك لأحد سببين:

الأوّل: كان تجار تلك الأزمان الكبار يستعملون (المكيال) عند شرائهم للكميات الكبيرة من المواد، لأنّه لم يكن عندهم ميزان كبير يستوعب تلك المواد الكثيرة.

(و قيل: إنّ (الكر)، كان فى الأصل اسما لمكيال كبير ... و الكر: مصطلح

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶

يستعمل لقياس سعة الماء).

أمّا فى حالة البيع، فكانوا يكيلون لبيع الجملة، و يزنون لبيع المفرد.

الثّانى: إنّهم كانوا يفضلون استعمال المكيال عند الشراء، لصعوبة الغش فيه، و يستغلون الميزان عند البيع لسهولة الغش فيه! و ممّا ينبغى الالتفات إليه .. إنّ الآيات و إن تحدثت عن التطفيف فى الكيل و الوزن، و لكن، لا ينبغى حصر مفهومها بهما، فالتطفيف يشمل حتى العدد، و ليس من البعيد أن تكون الآيات قد أشارت إلى إنقاص ما يؤدى من خدمة مقابل أجر، كما لو سرق العامل أو الموظف من وقت عمله، فإنّه و الحال هذه سيكون فى حظيرة «المطففين» المذمومين بشدّة فى الآيات المباركة المذكورة.

و يتوسع البعض فى مفهوم الآية أكثر و أكثر حتى يجعل أىّ تجاوز لحدود اللّه، و أىّ إنقاص أو إخلال فى الروابط الاجتماعية أو

انحلال فى الضوابط الأخلاقية، إنّما هو مفردات و مصاديق لهذا المفهوم.

و مع أنّ ظاهر ألفاظ الآية لا يرمز إلى هذه المعانى، و لكنّها لا تخلو من مناسبة.

و لذا، فقد ورد عن ابن عباس، أنّه قال: (الصلاة مكيال، فمن وفى، و فى اللّه له، و من طفف، قد سمعتم ما قال اللّه فى المطففين)[۱۱].

و يهدد القرآن الكريم المطففين، باستفهام توبيخى: أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ

لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

يوم عظيم فى: عذابه، حسابه و أهواله.

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعالَمِينَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷

أى، إنّهم لو كانوا يعتقدون بالبعث و الحساب: و أنّ أعمالهم مسجلة و ستعرض كاملة فى محكمة العدل الإلهى بخيرها و شرّها، و كبيرها و حقيرها، لو كانوا يعتقدون ذلك، لما ظلموا أحدا، و لأعطوا النّاس حقوقهم كاملة.

و قد اعتبر كثير من المفسّرين: إنّ «الظن» الوارد فى الآية من «يظن» بمعنى (اليقين): كما هو فى الآية (۲۴۹) من سورة البقرة: قالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ و هذه الآية كانت تتحدث عن المراحل المختلفة لإيمان و استقامة بعض بنى إسرائيل.

و ممّا يشهد على ما ذكر أيضا، ما

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام فى تفسير الآية: أَ لا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ أنّه قال: «أليس يوقنون أنّهم مبعوثون»؟[۱۲] و روى عنه عليه السّلام أيضا، أنّه قال: «الظن ظنان، ظنّ شك و ظنّ يقين، فما كان من أمر المعاد من الظنّ فهو ظنّ يقين، و ما كان من أمر الدّنيا فهو على الشك»[۱۳].

و احتمل البعض: إنّ «الظنّ» الوارد فى الآية، هو ذات «الظنّ» المتعارف عليه فى زماننا، و هو غير اليقين، فيكون إشارة إلى أنّ الإيمان بالقيامة يترك أثرا فى روح الإنسان، يجعله يتنزّه عن الوقوع فى الذنوب و الظلم، حتى و إن كان ذلك الإيمان بنسبة «الظنّ» .. فكيف به إن كان يقينا؟! و يصطلح العلماء على هذا المعنى، عنوان (دفع الضرر المظنون) أو (دفع الضرر المحتمل).

فيكون مفهوم الآية، على ضوء ما ورد: ليس المطففين العاصين لا يملكون اليقين بوجود يوم القيامة، بل إنّهم لا يظنون بذلك أيضا.

(و يبدو أنّ التّفسير الأوّل أنسب).

و «الظنّ»- كما يقول الراغب فى مفرداته- اسم لما يحصل عن إمارة، و متى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸

قويت أدت إلى العلم، و متى ضعفت جدّا لم يتجاوز حدّ التوهم.

و عليه .. فاصطلاح «الظنّ»- بخلاف ما يتبادر إليه الذهن فى زماننا- يشمل العلم و الظنّ، و يستعمل فى الحالتين.

***

ملاحظة

التطفيف من عوامل الفساد فى الأرض:

تعرض القرآن الكريم للتطفيف فى الوزن مرارا، و من ذلك ما جاء فى الآيات (۱۸۱- ۱۸۳) من سورة الشعراء، حينما خاطب شعيب

عليه السّلام قومه قائلا: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ فالتطفيف فى الوزن و الكيل من الفساد فى الأرض، و ذلك لما تنتج عنه من مفاسد اجتماعية ذات أبعاد واسعة.

كما جاء التأكيد فى الآيتين (٧ و ٨) من سورة الرحمن على ضرورة الالتزام بالعدالة حين استعمال الميزان، بعد الإشارة إلى أن العدل أصل قد روعى فيه حتى نظام الخلق فى عالم الوجود: وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ

و لذا، نجد أئمّة أهل البيت عليهم السّلام قد أولوا هذا الموضوع اهتماما بالغا، حتى

روى عن الأصبغ بن نباتة، أنّه قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السّلام يقول على المنبر: «يا معشر التجار! الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر، الفقه ثمّ المتجر» إلى أن قال:

«التاجر فاجر، و الفاجر فى النّار، إلّا من أخذ الحقّ و أعطى الحقّ»[١۴].

و

فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام أنّه قال: «كان أمير المؤمنين عليه السّلام بالكوفة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ١٩

يغتدى كل يوم بكرة من القصر، فيطوف فى أسواق الكوفة سوقا سوقا، و معه الدّرة على عاتقه (لمعاقبة المخالفين)، فينادى: يا معشر التجّار اتقوا اللّه عزّ و جلّ، فإذا سمعوا صوته عليه السّلام ألقوا ما بأيديهم، و أرعوا إليه بقلوبهم، و سمعوا بآذانهم، فيقول عليه السّلام: قدموا الإستخارة، و تبركوا بالسهولة، و اقتربوا من المبتاعين، و تزيّنوا بالحلم، و تناهوا عن اليمين، و جانبوا الكذب، و تجافوا عن الظلم، و أنصفوا المظلومين، و لا تقربوا الربا، و أوفوا الكيل و الميزان، و لا تبخسوا النّاس أشياءهم، و لا تعثوا فى الأرض مفسدين، فيطوف عليه السّلام فى جميع أسواق الكوفة ثمّ يرجع فيقعد للناس»[١۵].

و بشأن نزول الآيات،

قال النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «و لا طففوا الكيل إلّا منعوا النبات و أخذوا بالسنين».

و زبدة ما تقدم: يعتبر التطفيف فى الميزان من العوامل الأساسية فى عذاب و هلاك بعض الأمم السالفة، حيث أدى ذلك إلى اختلال النظام الاقتصادى عندهم من جهة، و إلى نزول العذاب الإلهى عليهم من جهة أخرى.

و قد حثّت الرّوايات الواردة فى خصوص آداب التجارة على الأخذ ناقصا و العطاء راجحا، أى بعكس سلوكية من ذمتهم الآيات المبحوثة، فهم يأخذون بدقّة و يعطون ناقصا.[١۶] و كما قلنا فى تفسير الآية، فثمّة من يذهب إلى أنّ مفهوم التطفيف أوسع من أن يحدد بالكيل و الميزان، و يمتد ليشمل أىّ انقاص فى عمل، و أىّ تقصير فى أداء وظيفة فردية أو اجتماعية أو إلهية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ٢٠، ص: ٢٠

الآيات [سورة المطففين (٨٣): الآيات ٧ الى ١٠]

اشارة

كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ (٨) كِتابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠)

التّفسير

و ما أدراك ما سجّين؟!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن المطفّفين، و عن ارتباط الذنوب بعدم الإيمان الراسخ بالمعاد و يوم القيامة، تشير الآيات أعلاه إلى ما ستؤول إليه عاقبة المسيئين و الفجار يوم حلول اليوم المحتوم، فتقول: كَلَّا فليس الأمر كما يظن هؤلاء عن المعاد و أنّه ليس هنا حساب و كتاب، بل إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ

وَ ما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ

كِتابٌ مَرْقُومٌ

و توجد نظرتان فى تفسير الآية أعلاه:

الاولى: المراد من «كتاب»: هو صحيفة الأعمال، التى لا تغادر صغيرة و لا كبيرة، من الأفعال الإنسان إلّا و أحصتها.

و المراد ب «سجّين»: هو الكتاب الجامع لكل صحائف أعمال الإنسان عموما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱

و ما نستفيده من الآيات المذكورة و آيات اخرى: إنّ أعمال جميع المسيئين تجمع فى كتاب يسمّى «سجّين»، و أعمال جميع الصالحين و الأبرار تجمع فى كتاب آخر، اسمه «علّيين».

و «سجّين»: من (السجن)، و هو (الحبس)، و له استعمالات متعددة، فهو:

السجن الشديد، الصلب الشديد من كلّ شيء، اسم لوادى مهول فى قعر جهنم، موضع فيه كتاب الفجّار، و نار جهنم أيضا.

و قال: «الطريحى» فى «مجمع البحرين» فى «سجّين»: و فى التّفسير هو كتاب جامع ديوان الشرّ، دوّن اللّه فيه أعمال الكفرة و الفسقة من الجنّ و الإنس ...[۱۷] أمّا القرائن التى تؤيد هذا التّفسير، فهى:

۱- غالبا ما وردت كلمة «كتاب» فى القرآن الكريم بمعنى (صحيفة الأعمال).

۲- ظاهر الآية التالية: كِتابٌ مَرْقُومٌ يشير إلى أنّها تفسير ل «سجّين».

۳- قيل: إنّ «سجّين» و «سجّيل» بمعنى واحد، و كما هو معلوم أنّ «سجّيل» بمعنى (كتاب كبير).[۱۸] ۴- و تشير آيات قرآنية اخرى إلى أنّ أعمال الإنسان تضبط فى عدّة كتب، حتى لا يبقى عذر للإنسان فى حال حسابه.

و أولى تلك الكتب، صحيفة الأعمال المعدّة لكلّ شخص، فالصالح سيعطى كتابه فى يمينه، و المسيء سيعطى كتابه فى شماله.

و هذا المعنى كثير ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم.

و الكتاب الثّانى، هو ما تسجّل فيه أعمال الأمم، و يمكن أن نسميه ب (صحيفة أعمال الأمم) و الآية (۲۸) من سورة الجاثية تشير إلى هذا بقولها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲

كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا.

و ثالث الكتب، هو صحيفة أعمال جميع الأبرار و الفجّار، التى وردت الإشارة إليهما فى الآيات المبحوثة و ما سيأتى من الآيات، باسم «سجّين» و «علّيين».

و خلاصة القول: إنّ «سجّين» عبارة عن ديوان جامع لكافة صحائف الفجّار و الفسقة، و أطلق عليه هذا الاسم باعتبار أنّ ما فيه يؤدى إلى حبس أصحابه فى جهنم، أو أنّ هذا الديوان موجود فى قعر جهنم.

على عكس كتاب الأبرار فإنّه فى أعلى علّيين ... فى الجنّة.

الثّانية: إنّ «سجّين»، هى «جهنم» ... و هى سجن كبير لجميع المذنبين، أو هى محل شديد من جهنم.

و «كتاب» الفجّار، أى: ما قرر لهم من عاقبة و مصير.

فيكون التقدير على ضوء هذا التّفسير: إنّ جهنم هى المصير المقرر للمسيئين، و قد استعمل القرآن كلمة «كتاب» بهذا المعنى فى مواضع عدّة، و من ذلك ما تناولته الآية (۲۴) من سورة النساء حين بيّنت حرمة الزواج من المتزوجات:

كِتابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ أى، إنّ هذا الحكم (و ما سبقه من أحكام)، هى أحكام قررها اللّه عليكم، و كذلك ما جاء فى الآية (۷۵) من سورة الأنفال: وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ أى فيما قرره اللّه و جعله من أحكام.

و ممّا يؤيد هذا التّفسير ما جاء فى الرّوايات من أنّ «سجّين» هى «جهنم» ...

ففى تفسير على بن إبراهيم، قال فى تفسير: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ما كتب اللّه لهم من العذاب لفى سجّين.

و

عن الإمام الباقر عليه السّلام، أنّه قال: «السجّين الأرض السابعة، و علّيون السماء السابعة»،

(إشارة إلى أخفض و أعلى مكان)[۱۹].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳

و روى فى روايات عديدة، إنّ الأعمال التى لا تليق بالقرب منه جلّ شأنه تسقط فى سجّين: كما

نقل الأثر عن سيد البشر صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قوله: «إنّ الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجا فإذا صعد بحسناته يقول اللّه عزّ و جلّ اجعلوها فى سجّين، إنّه ليس إيّاى أراد فيها!»[۲۰]

و من كلّ ما تقدم، نصل إلى أنّ «سجّين»: مكان شديد جدّا فى جهنم، توضع فيه أعمال المسيئين أو صحيفة أعمالهم، أو يكون مصيرهم الحبس فى ذلك المكان (السجّن).

و على ضوء هذا التّفسير، تكون الآية: كِتابٌ مَرْقُومٌ تأكيدا للآية: إِنَّ كِتابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ و ليس تفسيرا لها، لأن العقاب قد قرر لهم، و هو قطعى و حتمى.

«مرقوم»: من (رقم) على وزن (زخم)، و هو الخطّ الغليظ، و لكون هكذا خطّ من الوضوح بحيث لا إبهام فيه، فقد استعملته الآية للإشارة إلى قطعية ما قرر لهم من مصير من غير أىّ إبهام أو إغفال.

و على أيّة حال، فلا مانع من الجمع بين التّفسيرين لأنّ «سجّين» حسب التّفسير الأوّل بمعنى الديوان الجامع لكلّ أعمال المسيئين، و حسب التّفسير الثّانى بمعنى: «جهنم» أو قعرها، فالأمران على صورة علّة و معلول، فإذا كانت صحيفة أعمال الإنسان السيئة فى ذلك الديوان الجامع، فإنّ مقام الديوان هو قعر جهنم.

و تأتى الآية التالية لتقول: وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ

التكذيب الذى يوقع فى ألوان من الذنوب، و منها التطفيف و الظلم.

و بملاحظة كلمة «ويل» الواردة فى أوّل أية و آخر آية، تبيّن شدّة العلاقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴

الموجودة ما بين تلك الأعمال السيئة و إنكار المعاد، حيث بدأ الحديث بالويل للمطفّفين، و مرورا بالفجّار و من ثمّ الويل للمكذبين بيوم الدين.

و سيتوضح هذا الترابط بشكل أدق فى الآيات التالية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

اشارة

الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (۱۱) وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (۱۲) إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (۱۳) كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ (۱۴) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (۱۵)
ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ (۱۶) ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (۱۷)

التّفسير

صدأ الذنوب:

بعد ما ذكرت آخر آية من الآيات السابقة مصير المكذّبين، تأتى الآيات أعلاه لتشرح حالهم، فتقول: الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ و هو يوم القيامة.
و تقول أيضا: وَ ما يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ
فإنكار القيامة لا يستند على المنطق السليم و التفكير الصائب و الاستدلال العقلى، بل هو نابع من حبّ الاعتداء و ارتكاب الذنوب و الآثام (الصفة المشبهة «أثيم» تدل على استمرار الشخص فى ارتكاب الذنوب).
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶
فهم يريدون الاستمرار بالذنوب و الإيغال بالاعتداءات و بكامل اختيارهم، و من دون أىّ رادع يردعهم من ضمير أو قانون، و هذا الحال شبيه ما أشارت إليه الآية (۵) من سورة القيامة: بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسانُ لِيَفْجُرَ أَمامَهُ و عليه، فهو يكذّب بيوم الدين.
و على هذا الأساس، فإنّ للممارسات السيئة أثر سلبى على عقيدة الإنسان، مثلما للعقيدة من أثر على سلوكية و توجيهات الإنسان، و هذا ما سيتوضح أكثر فى تفسير الآيات القادمة.
و تشير الآية التالية للصفة الثّالثة لمنكرى المعاد، فتقول: إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا قالَ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ
فبالاضافة لكون منكر المعاد معتد و أثيم، فهو من الساخرين و المستهزئين بآيات اللّه، و يصفها بالخرافات البالية[۲۱]، و ما ذلك إلّا مبرر واه لتغطية تهربه من مسئولية آيات اللّه عليه.
و لم تختص الآية المذكورة بذكر المبررات الواهية لأولئك الضالّين المجرمين فرارا من الاستجابة لنداء الدعوة الربانية، بل ثمّة آيات أخرى تناولت ذلك، منها الآية (۵) من سورة الفرقان: وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا، و الآية (۱۷) من سورة الأحقاف، حكاية عن قول شاب طاغ وقف أمام والديه المؤمنين مستهزءا بنصائحهما قائلا: ما هذا إِلَّا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ
و قيل فى شأن نزول الآية: إنّها نزلت بشأن (النضر بن حارث بن كلدة)، ابن خالة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كان من رؤوس الكفر و الضلال.
و لا يمنع نزول الآية فى شخص معين، من تعميم ما جاء فيها لكلّ من يشارك
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷
ذلك الشخص فى الصفة و الحال.
فالطغاة، كثيرا ما يتذرعون بأعذار واهية، عسى أن يتخلصوا من لوم و تأنيب الضمير من جهة .. و من اعتراضات النّاس و رجال الحق من جهة اخرى، و العجيب أنّ الطغاة من الحماقة و التحجّر بحيث أنّ أسلوب مواجهتهم للأنبياء عليهم السّلام و على مرّ التاريخ قد جاء على وتيرة واحدة، و كأنّهم قد وضعوا لأنفسهم مخططا لا ينبغى الحيد عنه، فعند مواجهتهم لدعوة الأنبياء عليهم السّلام بتعاليم السماء، ليس عندهم سوى أن يقولوا: سحر، كهانة، جنون، أساطير! و يعرى القرآن مرّة اخرى جذر طغيانهم و عنادهم، بالقول: كَلَّا بَلْ رانَ

عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ

ما أشـد تقريع العبارة! فقد احتوى صدأ أعمالهم كلّ قلوبهم، فأزيل عنها ما جعل اللّه فيها من نور الفطرة الاولى و ذهب صـفائها، و لذا .. فلا يمكن لشمس الحقيقة أن تشرق بعد فى أفق قلوبهم، و لا يمكن لتلك القلوب التعسة من أن تتقبل نفوذ أنوار الوحى الإلهى إلى دواخلها.

«ران»: من (الرين) على وزن (عين)، و هو: الصدأ يعلو الشىء الجليل (كما يقول الراغب فى مفرداته)، و يقول عنه بعض أهل اللغة: إنّه قشرة حمراء تتكون على سطح الحديد عند ملامسته لرطوبة الهواء، و هى علامة لتلفه، و ضياع بريقه و حسن ظاهره.

و قيل: ران عليه: غلب عليه، و رين به: وقع فى ما لا يستطيع الخروج منه و لا طاقة له به ۲۲] و كل هـذه المعانى هى من لوازم المعنى الأوّل.

و سنتناول موضوع تأثير الرين على صفاء القلب و نورانيته فى البحوث

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸

القادمة.

و يستمر البيان القرآنى: كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ

و هو أشدّ ما سيعاقبون به، مثلما منزلة اللقاء باللّه و درجة القرب منه هى من أعظم نعم الأبرار و الصالحين و أكثرها لذة و استئناسا.

«كلّا»: عادة ما تستعمل لنفى ما قيل سابقا، و للمفسرين أقوال فى تفسيرها:

القول الأوّل: إنّها تأكيد ل «كلّا» المتقدمة فى الآية السابقة، أى: يوم القيامة ليس بأسطورة كما يزعمون.

و القول الثّانى: «كلّا» بمعنى لا يمكن إزالة الرين الذى فقأ البصيرة فى قلوبهم، فهم محرومون من رؤية جمال الحقّ فى هذا العالم و فى عالم الآخرة أيضا.

القول الثّالث: إنّ الآيـة تجيب زعم أولئك من أنّ القيامة (حتى على فرض وجودها!) فهم سـينعمون بها كما (يتصورون) بأنّهم منعمين فى الدنيا، (و قد تناولت الآيات الأخرى ما جاء فى زعمهم)[۲۳].

و لكنّ أحلامهم ستتلاشى أمام حقيقة وقوع القيامة، و ما سينالونه من شديد العذاب.

نعم، فأعمال الإنسان فى دنياه ستتجسم له فى آخرته شاء أم أبى، و لما كان أولئك قد أغلقوا عيونهم عن رؤية الحق، و رانت أعمالهم على قلوبهم، فسيحجبون عن ربّهم فى ذلك اليوم العظيم، و عنـدها فسوف لن يتمتعوا برؤيـة جمال الحق أبـدا، و سـيحرمون من نعمة اللقاء بالحبيب الحقيقى، الذى لا حبيب سواه.

و: ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ

فـدخولهم جهنم نتيجـة طبيعيـة لاحتجابهم عن اللّه تعالى و أثر لازم له، و ممّا لا شك فيه إنّ لهيب الحرمان من لقاء اللّه أشـدّ إيلاما و إحراقا من نار جهنم!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹

و تقول الآية التالية: ثُمَّ يُقالُ هذَا الَّذِى كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

يقال لهم ذلك توبيخا و لوما لزيادة تعذيبهم روحيا، و هو ما ينتظر كلّ من عاند الحق و تخبط متاهات الضلال.

***

ملاحظتان

۱- لم كانت الذنوب صدأ القلب؟!

تناول القرآن الكريم فى مواضع متعددة ما للذنوب من تأثيرات سلبية على إظلام القلب و تلويثه، فقد جاء فى الآية (۳۵) من سورة المؤمن: كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ.

و قال فى موضع آخر: خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَ عَلى سَمْعِهِمْ وَ عَلى أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ ۲۴].

و جاء فى الآية (۴۶) من سورة الحج: فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

نعم .. فأسوأ ما للاستمرار فى الذنوب من آثار: اسوداد القلب، فقدان نور العلم، موت قدرة التشخيص بين ما هو حق و باطل.

فآثار ما تقترفه الجوارح من ذنوب تصل إلى القلب و تحوله إلى مستنقع آسن، و عندها لا يقوى الإنسان على تشخيص طريق خلاصه، فيهوى فى حفر الضلالة التى توصله لأدنى دركات الانحطاط، و تكون النتيجة أن يرمى ذلك الإنسان مفتاح سعادته بنفسه من يده، و لا يجنى حينها إلّا الخيبة و الخسران.

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنه قال: «كثرة الذنوب مفسدة للقلب».[۲۵]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰

و

فى حديث آخر: «إنّ العبد إذا أذنب ذنبا نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه، و إن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الرين الذى ذكر اللّه فى القرآن: كَلَّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ ۲۶].

و روى الحديث (بتفاوت يسير) عن الإمام الباقر عليه السّلام ۲۷].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «تذاكروا و تلاقوا و تحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب، إنّ القلوب لترين كما يرين السيف، و جلائه الحديث».[۲۸]

و من الثابت فى علم النفس، أنّ للأعمال الأثر الكبير على نفسية و روحية الإنسان، فنفسية الإنسان تتكيف تدريجيا على ضوء تلك الآثار، و بالنتيجة سينعكس ذلك على فكر و آراء الإنسان.

و ينبغى التنويه إلى: أنّ روح الإنسان تتعامل طرديا مع الذنوب، فمع استمرار الذنوب تغوص الروح فى أعماق الظلام لحظة بلحظة، حتى تصل إلى درجة يبدأ الإنسان يرى سيئاته حسنات، و ربّما يتفاخر بها! و عندها .. ستغلق أمامه أبواب العودة: إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ و هذه الحال من أخطر ما تعرض للإنسان فى حياته الدنيوية من حالات.

۲- حجاب الروح!

حاول كثير من المفسّرين أن يجعل للآية: كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون تقديرا، و احتاروا بين أن يجعلوا التقدير (الحجاب عن رحمة اللّه)، أم الحجاب عن إحسانه، أم كرامته، أم ثوابه ...

و لكنّ ظاهر الآية لا يبدو فيه الاحتياج لتقدير، فإنّهم سيحجبون عن ربّهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱

على الحقيقة، بينما سينعم الصالحون الطاهرون بقرب اللّه و جواره ليفعموا بلذيذ لقاء الحبيب، و الرؤية الباطنية لهذا الحبيب الأمل،

بينما الكفرة الفجرة ليس لهم من هذا الفيض العظيم و النعمة البالغة من شيء.

و بعض المؤمنين المخلصين يتنعمون بهذا اللقاء حتى فى حياتهم الدنيا، فى حين لا يجنى المجرمون المعمية قلوبهم سوى الحرمان ... فهؤلاء فى حضور دائم، و أولئك فى ظلام و ابتعاد! فلمناجاة المؤمنين مع بارئهم حلاوة لا توصف، و أمّا من اسودت قلوبهم فتراهم غرقى فى بحر ذنوبهم و تتقاذفهم أمواج الشقاء، (أعاذنا اللّه من ذلك).

و

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام فى دعاء كميل: «... هبنى صبرت على عذابك فكيف اصبر على فراقك».

***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲

الآيات [سورة المطففين (۸۳): الآيات ۱۸ الى ۲۸]

اشارة

كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (۱۸) وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ (۱۹) كِتابٌ مَرْقُومٌ (۲۰) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (۲۱) إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ (۲۲) عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ (۲۳) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (۲۴) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (۲۵) خِتامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ (۲۶) وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (۲۷)

عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (۲۸)

التّفسير

عليّون فى انتظار الأبرار:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن الفجّار و كتابهم و عاقبة أمرهم، ينتقل الحديث فى هذه الآيات للطرف المقابل لهؤلاء، فتتحدث عن الأبرار الصالحين و ما سيالون إليه من حسن مآب، و يبدأ الحديث بالقول: كَلَّا إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ

«عليّين»: جمع (علّى) على وزن (ملّى)، و هو المكان المرتفع، أو الشخص

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳

الجالس فى مكان مرتفع، و يطلق أيضا على ساكنى قمم الجبال.

و قد فسّر فى الآية ب (أشرف الجنان) أو (أعلى مكان فى السماء).

و قيل: إنّما استعمل اللفظ بصيغة الجمع للتّأكيد على معنى (العلو فى علو).

و على أيّة حال، فما عرضناه بخصوص تفسير «سجّين» يصدق على «عليّين» أيضا، بقوليه:

الأوّل: أنّ المقصود من «كتاب الأبرار» هو صحيفة أعمال الصالحين و المؤمنين، فجميع الأعمال تجمع فى هذا الديوان العام، و هو ديوان عالى المقام و شريف القدر.

الثّانى: أنّ صحيفة أعمال الأبرار تكون فى أشرف مكان، أو فى أعلى مكان فى الجنّة، و هذا يكشف عن علو شأنهم و رفعة كرامتهم عند اللّه عزّ و جلّ.

و

جاء فى الحديث النّبوى الشريف: «عليّون فى السماء السابعة تحت العرش»[۲۹].

و هذا بالضبط هو المحل المضاد تماما لمحل صحيفة أعمال «الفجار»، حيث وضعت فى أسفل طبقات جهنم.

و ذهب قسم من المفسّرين إلى أنّ ال «كتاب» هنا يرمز لمعنى (المصير)، أو (الحكم القطعى الإلهى) بخصوص نيل الصالحين درجات الجنّة العلى.

و لا يضرّ من الجمع بين التّفسيرين، فأعمال الأبرار مجموعة فى ديوان عام، و محل ذلك الديوان فى أعلى نقطة من السماء، و يكون الحكم و القضاء الإلهى كذلك مبنىّ على كونهم فى أعلى درجات الجنّة.

و لأهمية و عظمة شأن «عليّين» .. تأتى الآية التالية لتقول: وَ ما أَدْراكَ ما عِلِّيُّونَ إنّه مقام من المكانة بحيث يتجاوز حدود التصور و الخيال و القياس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴

و الظن، بل و حتى أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و على ماله من علو شأن و مرتبة مرموقة، فلا يستطيع من تصور حجم أبعاد عظمته.

و يبدأ البيان القرآنى بتقريب ال «عليّين» إلى الأذهان: «كتاب مرقوم» و هذا على ضوء تفسير «عليّين» بالديوان العام لأعمال الأبرار، أمّا على ضوء التّفسير الآخر فسيكون معنى الآية: إنّه المصير الحتمى الذى قرره اللّه و سجّله لهم، بأن يكون محلهم فى أعلى درجات الجنّة، (بناء على هذا التّفسير فستكون الآية «كتاب مرقوم» مفسّرة لكتاب الأبرار و ليس لعليّين).

و كذلك: يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ أى يشاهدونه، أو عليه يشهدون عليه.

ثمّة من ذهب إلى أنّ «المقربون» فى الآية، هم ملائكة مقرّبون عند اللّه عزّ و جلّ، ينظرون إلى ديوان أعمال الصالحين، أو ينظرون إلى مصيرهم المحتوم.

و لكنّ الآيات التالية تظهر بوضوح بأنّ المقرّبين، هم نخبة عالية من المؤمنين لهم مقام مرموق، و بإمكانهم مشاهدة صحيفة أعمال الأبرار و الصالحين.

و يمكن أن نستفيد هذا المعنى من الآيتين (۱۰ و ۱۱) من سورة الواقعة:

وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ... و من الآية (۸۹) من سورة النحل:

وَ يَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ جِئْنا بِكَ شَهِيداً عَلى هؤُلاءِ.

و ينتقل الحديث إلى عرض بعض جوانب جزاء الأبرار: إِنَّ الْأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ

«النعيم»: هو النعمة الكثيرة- على قول الراغب فى مفرداته- و جاءت بصيغة نكرة لتعظيم شأنها، أى إنّهم فى نعيم مادى و معنوى لا حدّ لوصفه.

و ينقلنا البيان القرآنى لجوانب من نعيم الأبرار: عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ ۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵

«الأرائك»: جمع (أريكة)، و هى سرير منجّد مزّين خاص بالملوك، أو سرير فى حجلة، و جاءت فى الآية بمعنى، الأسرة المزينة التى يتكئ عليها أهل الجنّة.

و ثمّة من يذهب إلى أنّها معربة من «أرك» بمعنى قصر الملك فى الفارسية، أو القلعة فى وسط المدينة، و بما أنّ القلعة فى وسط المدينة تكون للملوك عادة اطلق عليها هذه الكلمة، أو بمعنى عرش السلطان الذى يقال عنه بالفارسية «أراك»، ثمّ سمّيت العاصمة به (أراك) و «عراق» معرب «أراك» بمعنى مقر السلطان.

فيما يقول آخرون أنّها من (الأراك) و هو شجر معروف تصنع من الأسرة، و قيل أيضا، إنّما سمّيت بذلك لكونها مكانا للإقامة من

(الأروك) و هو الإقامة.[۳۱] و جاءت «ينظرون» مطلقة، لإعطاء مفهوم السعة و الشمول، فمسموح لهم النظر إلى لطف البارى و جماله، و إلى نعم الجنّة الباهرة، و إلى ما أودع فيها من رونق و بهاء ... و ذلك لأنّ لذة النظر من اللذائذ الإنسانية التى تدخل الغبطة و السرور فى الإنسان بشكل كبير و ملموس.

ثمّ يضيف: تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

إشارة إلى أنّ ما يبدى على وجوههم من علائم النشاط و السرور و الغبطة، إنّ هو إلّا انعكاس لسعادتهم الحقّة، بعكس أهل جهنّم الذين لا يبدو على وجوههم إلّا علائم الغم و الحسرة و الندم و الشقاء.

«نضرة»: إشارة إلى النشاط و الأريحية التى تظهر على وجوههم. (كما أسلفنا القول).

و بعد ذكر نعم: «الأرائك»، «النظر»، «الاطمينان و السعادة» .. تذكر الآية التالية نعمة شراب الجنّة، فتقول: يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ

إنّه ليس كشراب أهل الدنيا الشيطانى، بما يحمل من خبث دافع إلى المعاصى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶

و الجنون، بل هو شراب طاهر يذكى العقول و يدب النشاط و الصفاء فى شاربه.

و «الرحيق»- كما اعتبره المفسّرين-: هو الشراب الخالص الذى لا يشوبه أىّ غش أو تلوث.

و «مختوم»: إشارة إلى أنّه أصلى و يحمل كلّ صفاته المميزة عن غيره من الأشربة و لا يجاريه شراب قطّ، و هذا بحدّ ذاته تأكيد آخر على خلوص الشراب و طهارته.

و الختم بالصورة المذكورة يظهر مدى الاحترام الخاص لأهل الجنّة، حيث أنّ ذلك الإحكام و تلك الأختام مختصة لهم، و لا يفتحها أحد سواهم ۳۲].

و تقول الآية التالية: خِتامُهُ مِسْكٌ

فختامه ليس كختوم أهل الدنيا التى تلوث الأيدى، و أقل ما فيها أنّها فى حال فتحها ترمى فى سلة الأوساخ، بل هو شراب طاهر مختوم، و إذا ما فتح ختمه فتفوح رائحة المسك منه! و قيل: «ختامه» يعنى (نهايته)، فعند ما ينتهى من شراب الرحيق، ستفوح من فمه رائحة المسك، على خلاف أشربة أهل الدنيا، التى لا تترك فى الفم إلّا المرارة و الرائحة الكريهة، و لكنّه بعيد بملاحظة الآية السابقة.

و يقول العلّامة الطبرسى فى (مجمع البيان): «التنافس»: تمنّى كلّ واحد من النفسين مثل الشىء النفسى الذى للنفس الاخرى أن يكون له.

و فى (مجمع البحرين): نافست فى الشىء: إذا رغبت فيه على وجه المباراة فى الكرم، (سباق سالم و نزيه).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷

و فى (مفردات الراغب): «المنافسة»: مجاهدة النفس للتشبّه بالأفاضل و اللحوق بهم من غير إدخال ضرر على غيره.

و جاء مضمون الآية فى الآية (۲۱) من سورة الحديد: سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ و ما جاء فى الآية (۱۳۳) من سورة آل عمران: وَ سارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ

و على آية حال، فدقّة تعبير الآية و شفافيته، من أجمل تعابير التشجيع للوصول إلى النعيم الخالد، من خلال ترسيخ الإيمان فى قلوب و تجسيد الأعمال الصالحة على سوح الواقع، و الآية قطعة بلاغية رائعة[۳۳][۳۴] و نصل لآخر وصف شراب الأبرار فى الجنّة: وَ مِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ أى أنّه ممزوج بالتسنيم، (عينا يشرب بها المقرّبون)[۳۵].

و من خلال الآيتين أعلاه، يتّضح لنا بأنّ «التسنيم» هو أشرف شراب فى الجنّة، و «المقرّبون» يشربون منه بشكل خالص، فيما يشربه «الأبرار» ممزوجا بالرحيق المختوم.

أمّا وجه تسمية ذلك الشراب أو العين ب «تسنيم»، (علما بأنّ التسنيم فى اللغة هو عين ماء يجرى من علو إلى أسفل)، فقد قال البعض

فيه: إنّه شراب خاص موجود فى الطبقات العليا من الجنّة .. و قال آخرون: إنّه نهر يجرى فى الهواء فينصب فى أوانى أهل الجنّة.

و الحقيقة، فللجنّة ألوان من الأشربة، منها ما يجرى على صورة أنهار، كما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸

تشير إلى ذلك آيات قرآنية كثيرة[۳۶]، و منها يقدّم فى كؤوس مختومة، كما فى الآيات أعلاه، و يأتى ال «تسنيم» فى قمّة أشربة الجنّة، و له من العطاء على روح شاربه ما لا يوصف بوصف أبدا.

و نعود لنكرر القول مرّة أخرى: إنّ حقيقة النعم الإلهية فى عالم الآخرة لا يمكن لأىّ كان من أن يتكلم عنها بلسان أو يوصفها بقلم أو يتصورها فى ذهن، و كلّ ما يقال عنها لا يتعدى عن كونه صورا تقريبية على ضوء ما يناسب محدودية الإنسان.

و الآية (۱۷) من سورة السجدة: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ خير دليل على ذلك.

بحثان

۱- من هم «الأبرار» و «المقرّبين»؟

ورد ذكر «الأبرار» و «المقربين» كثيرا فى القرآن الكريم، و ما أعدّ لهم من درجة رفيعة و ثواب عظيم، حتى أنّ أولى الألباب تمنوا أن تكون وفاتهم مع الأبرار، كما تقول الآية (۱۹۳) من سورة آل عمران: وَ تَوَفَّنا مَعَ الْأَبْرارِ.

و تناولت الآيات (۵- ۲۲) من سورة الدهر ما أعدّ لهم من ثواب جزيل، كما و تناولت الآية (۱۳) من سورة الإنفطار، و الآيات المبحوثة بعض ما ينتظرهم من ألطاف إلهية.

فمن هم يا ترى؟

«الأبرار»: هم أصحاب النفوس الزكية الأبية الطاهرة، و معتنقى العقائد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹

الصائبة، و الذين لا يعملون إلّا ما فيه الخير و الصلاح.

و «المقربون»: هم الذين لهم مقام القربة عند اللّه عزّ و جلّ.

فبين الأبرار و المقربين عموم و خصوص مطلق، حيث كلّ المقرّبين أبرار، و ليس كلّ الأبرار مقرّبين.

و

روى عن الإمام الحسن المجتبى عليه السّلام، أنه قال: «كلما فى كتاب اللّه عزّ و جلّ من قوله: «إنّ الأبرار» فو اللّه ما أراد به إلّا علىّ بن أبى طالب و فاطمة و أنا و الحسين»[۳۷]

و ممّا لا يشوبه شك، أنّ الخمسة الطيبة، تلك الأنوار القدسيّة، و هى أفضل مصاديق الأبرار و المقربين.

و كما ذكرنا فى تفسيرنا لسورة الدهر التى تحدثت بشكل رئيسى عن أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السّلام، و قلنا بأنّ الآيات الثمانية عشر قد تناولت فضائلهم عليهم السّلام، و لكن لا يمنع من انطباق على غير الخمسة الطيبة عليهم السّلام.

۲- خمور الجنّة

تبيّن لنا مختلف الآيات فى القرآن الكريم أنّ ثمة ألوان من الأشربة و الخمور الطاهرة بأسماء و كيفيات مختلفة، تباين خمور أهل

الدنیا الملوثة من جمیع جهاتها، فهذه: تأخذ بلبّ الإنسان صوب التیه، توصل شاربها لحال الجنون، کریهة الطعم و الرائحة، و تزرع عند شاربها العداوة و البغضاء، تؤدی إلی سفک الدماء و تبث الرذیلة و الفساد ... أمّا تلک: تذکی عقل شاربها و تصفو به، و تزیده نشاطا و حیویة، ذات عطر لا یوصف و طهارة خالصة، و یغوص شاربها فی نشوة روحیة نقیة راقیة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰

و ذکرت السّورة المبحوثة نوعین منها: الرحیق المختوم و «التسنیم» فی حین ذکرت سورة الدهر أنواعا اخری، و فی سور اخری- و قد تعرضنا لها فی محلها.

و تؤکّد الأحادیث و الرّوایات علی أنّ تلک الأشربة خالصة لمن تنزّه عن الولوغ فی خمور الدنیا الخبیثة.

فعن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال لأمیر المؤمنین علیه السّلام: «یا علیّ من ترک الخمر للّه سقاه اللّه من الرحیق المختوم»[۳۸].

و

فی حدیث آخر أنّه علیه السّلام سأله عن هذا الترک أنّه حتی لو کان: «لغیر اللّه»؟، قال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «نعم و اللّه، صیانة لنفسه فیشکره اللّه تعالی عن ذلک»[۳۹].

نعم، فهؤلاء من أولی الألباب، الذین تناولت ذکرهم الآیة (۱۹۳) من سورة آل عمران، و اولی الألباب مع الأبرار فی تناول تلک الأشربة الطاهرة.

و

روی عن الإمام زین العابدین علیّ بن الحسین علیه السّلام أنّه قال: «من سقی مؤمنا من ظمأ سقاه اللّه من الرحیق المختوم»[۴۰].

و

جاء فی حدیث آخر: «من صام للّه فی یوم صائف، سقاه اللّه من الظمأ من الرحیق المختوم»[۴۱]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱

الآیات [سورة المطففین (۸۳): الآیات ۲۹ الی ۳۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا کانُوا مِنَ الَّذِینَ آمَنُوا یَضْحَکُونَ (۲۹) وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ یَتَغامَزُونَ (۳۰) وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَکِهِینَ (۳۱) وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ (۳۲) وَ ما أُرْسِلُوا عَلَیْهِمْ حافِظِینَ (۳۳)

فَالْیَوْمَ الَّذِینَ آمَنُوا مِنَ الْکُفَّارِ یَضْحَکُونَ (۳۴) عَلَی الْأَرائِکِ یَنْظُرُونَ (۳۵) هَلْ ثُوِّبَ الْکُفَّارُ ما کانُوا یَفْعَلُونَ (۳۶)

سبب النّزول

ذکر المفسّرون سببین لنزول هذه الآیات:

الأوّل: إنّها نزلت فی علی بن أبی طالب علیه السّلام، و ذلک .. إنّه کان فی نفر من المسلمین جاؤوا إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فسخر منهم المنافقون، و ضحکوا، و تغامزوا ... فنزلت الآیة قبل أن یصل علی علیه السّلام و أصحابه إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و ذکر الحاکم أبو القاسم الحسکانی فی کتابه (شواهد التنزیل) عن ابن عباس قال: إِنَّ الَّذِینَ أَجْرَمُوا منافقو قریش، و الَّذِینَ آمَنُوا علی

بن أبى طالب عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲

و أصحابه.[۴۲] الثّانى: إنّها نزلت فى مشركى قريش، أبى جهل و الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و أشياعهم، كانوا يستهزءون بفقرائهم كعمار و صهيب و خباب و بلال و غيرهم ۴۳].

التّفسير

بالأمس كانوا يضحكون من المؤمنين .. أمّا!!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم التى تنتظر الأبرار و الصالحين فى الحياة الآخرة، تبدأ الآيات أعلاه بتبيان جوانب ممّا يعانوه من مصائب و مشاكل فى الحياة الدنيا بسبب إيمانهم و تقواهم ...

و أنّ ما سيناله الأبرار من ثواب جزيل ليس اعتباطيا.

فالآيات تنقل لنا أساليب الكفار القذرة التى كانوا يتعاملون بها مع المؤمنين البررة، و قد صنّفتها فى أربعة أساليب:

الأسلوب الأوّل: إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ فأصل الطغيان و التكبر و الغرور و الغفلة الذى زرع فى نفوسهم، يدفعهم للضحك على المؤمنين و الاستهزاء بهم و النظر إليهم بسخرية و احتقار! و هذا هو شأن كلّ من غرّته أحابيل الشيطان فى مواجهة من آمن و اتقى، و على مرّ الأيّام.

و جاء وصفهم ب «أجرموا» بدلا من «كفروا»، للإشارة إلى إمكان معرفة الكافرين من خلال أعمالهم الإجرامية، فالكفر دائما مصدرا للجرائم و العصيان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳

و الأسلوب الثّانى: وَ إِذا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغامَزُونَ فحينما يمرّ المشركون على مجموعة من المؤمنين يغمزون بأعينهم و يشيرون إليهم بالقول: انظروا إلى هؤلاء الفقراء المعدمين .. إنّهم أصبحوا مقرّبين عند اللّه! انظروا إلى هؤلاء الحفاة العراة .. إنّهم يدّعون نزول الوحى الإلهى لهم! انظروا إليهم .. فإنّهم يعتقدون بأنّ العظام البالية ستعود إلى الحياة مرّة اخرى!! و ما شابه ذلك، من الكلمات الرخيصة و الموهنة ..

و يبدو أنّ ممارسة الضحك من قبل المشركين يكون حينما يمرّ المؤمنون من أمامهم و هم متجمعون، فى حين يمارسون الأسلوب الثّانى و هو الإشارات الساخرة و الغمز و اللمز حين مرورهم هم أمام جمع من المؤمنين، لعدم تمكنهم من الضحك العلنى أمام جمع المؤمنين.[۴۴] «يتغامزون»: من (الغمز)، و هو الإشارة بالجفن أو اليد طلبا إلى ما فيه معاب، و عبّرت الآية بهذا اللفظ «التغامز» للإشارة إلى اشتراكهم جميعا فى ذلك الفعل.

و لكنّهم لم يكتفوا بالنيل من المؤمنين فى حضورهم من خلال الضحك و التغامز، بل تعدوا إلى حال غيابهم أيضا، حيث تنقل لنا الآية التالية، الأسلوب الثّالث بقولها: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ

و كأنّهم فى ضحكهم و تغامزهم قد نالوا فتحا كبيرا! فتأخذهم نشوة تصور الغفلة و الجهل لأن يتباهوا فيما قاموا به من فعل قبيح، و يبقون على حالة السخرية و الاستهزاء بالمؤمنين رغم غياب المؤمنين عنهم! ...

«فكهين»: جمع (فكه)، و هى صفة مشبهة من (الفكاهة) بمعنى التمازح و الضحك، مأخوذة من (الفاكهة)، و كأن لذة الخوض فى هكذا حديث و سخرية كلذة أكل الفاكهة، كما و يطلق على حديث ذوى الأنس اسم (فكاهة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴

«الأهل»: هم العائلة و الأقرباء، و قد تشمل الأصدقاء المقرّبين أيضا.

و الأسلوب الرّابع: وَ إِذا رَأَوْهُمْ قالُوا إِنَّ هؤُلاءِ لَضالُّونَ

لما ذا؟ لأنّهم تركوا ما كان شائعا من عبادة الأصنام، و الخرافات التى يعتبرونها هداية! و اتجهوا نحو الإيمان باللّه و التوحيد الخالص.

و لأنّهم باعوا لذة الدنيا الحاضرة بنعيم الآخرة الغائبة! ...

و يمكن أن تكون هذه المواجهة قد حدثت بعد انتهاء مرحلة الاستهزاء، بعد أن غلّف الأمر بطابع الجديّة و رأوا ضرورة المواجهة الشديدة، لأنّ حال المشركين و الكافرين على مرّ التاريخ فى مواجهتهم لدعوة و رسالات الأنبياء عليهم السّلام تبدأ بالسخرية و عدم المبالاة، و كأنّهم لم يشاهدوا بعد من الدين الجديد ما يوجب الوقوف أمامه بجدّ و حزم، و لكن بمجرّد إحساسهم بأنّ الدين الإلهى راح ينفذ إلى قلوب النّاس، و رؤيتهم لازدياد أتباعه، سيزداد إحساسهم بالخطر، فيدخلون مرحلة المواجهة العنيفة مع الدين الجديد.

فتشير الآية إلى أوّل خطوة جادة من قبل المجرمين فى قبال المؤمنين، التى تتبعها خطوات و خطوات حتى تصل الحال إلى المواجهة الدموية الحادّة.

و غالبا ما لا ـ يكون المؤمنون من أثرياء أو وجهاء القوم، و لذلك ينظر إليهم باحتقار و يهزأ بدينهم و إيمانهم، فى مجتمع يسوده التمايز الطبقى بشكل راسخ و ظاهر.

فيقول القرآن الكريم فى الآية التالية: وَ ما أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حافِظِينَ فبأى حقّ إذن يهزأون بهم، و يقفون أمامهم؟! تنقل لنا الآية (۲۷) من سورة هود ما قاله المستكبرين من أثرياء قوم نوح عليه السّلام: وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ و تنقل لنا الآية (۳۱) من نفس السّورة جواب نوح عليه السّلام: وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵

فجواب نوح عليه السّلام عام يشمل حتى أولئك المغرورون فى صدر الإسلام .. فما شأنكم و هؤلاء؟! و عليكم أن تنظروا إلى هذا الدين، و إلى النّبى الذى جاء بهذا الدين، و لا تنظروا إلى من آمن به و اتبعه! ...

و تبقى أساليب الذين يعادون الحقّ محدودة فى إطار الحياة الدنيا، و لكن إذا كان يوم القيامة، فستختلف الحال تماما: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ

فيوم القيامة، يوم مجازات الأعمال و إجراء العدالة الإلهية، و العدالة تقتضى بأن يستهزأ المؤمنون بالكافرين المعاندين للحقّ، و الاستهزاء فى ذلك اليوم أحد ألوان عذاب الآخرة الأليم الذى ينتظر أولئك المغرورون و المستكبرون.

و

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «المستهزئين بالنّاس فى الدنيا يرفع لأحدهم يوم القيامة باب من أبواب الجنّة، فيقال له: هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، ثمّ يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم، فيجىء بكربه و غمّه، فإذا أتاه أغلق دونه، فما يزال كذلك حتى أنّه ليفتح له الباب فيقال: هلم هلم، فلا يأتيه من اياسه»[۴۵] ..

(و هنا يضحك المؤمنون الذين يطلعون عليه و على بقية الكفار من جنتهم).

و تقول الآية التالية: عَلَى الْأَرائِكِ يَنْظُرُونَ

ماذا ينظرون؟

إنّهم ينظرون إلى: نعم اللّه التى لا ـ توصف و لا تنفد فى الجنّة، و إلى كلّ ما فازوا به من الألطاف الإلهية و الكرامة، و إلى ما أصاب الكفار و المجرمين من العذاب الأليم خاسئين ...

و فى آخر آيات السّورة، يقول القرآن مستفهما:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶

هَلْ ثُوِّبَ الْكَفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ ۴۶].

فهذا القول سواء صدر من اللّه، أو من الملائكة، أو من المؤمنين، فهو فى كلّ الحالات يمثل طعنا و استهزاء بأفكار و ادعاءات أولئك المغرورون، الذين كانوا يتصورون أنّ اللّه سيثيبهم على أعمالهم القبيحة، و يأتيهم النداء ردّا على خطل تفكيرهم: هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ ما كانُوا يَفْعَلُونَ

و اعتبر كثير من المفسّرين أنّ الآية (جملة مستقلة)، فى حين اعتبرها آخرون تابعة للآية التى قبلها، أى: إنّ المؤمنين سيجلسون على الأرائك ينظرون هل أن الكفار نالوا جزاءهم العادل؟

فإن كانوا يرجون ثوابا فليأخذوه من الشيطان! ... و لكن هل بإمكان هذا اللعين المطرود من رحمة اللّه أن يثيبهم على ما عملوا له؟!

«ثوّب»: من (الثوب) على وزن (جوف) و هو رجوع الشىء إلى حالته الاولى التى كان عليها، و «الثواب»: ما يرجع إلى الإنسان جزاء أعماله، و يستعمل للخير و الشرّ أيضا، و لكن استعماله للخير هو الغالب ۴۷].

و عليه، فالآية تشير إلى الطعن بالكفار كنتيجة طبيعية لاستهزاءهم بالمؤمنين و بآيات اللّه فى الحياة الدنيا، و ما عليهم إلّا أن يتقبلوا جزاء ما كسبت أيديهم.

بحث

الاستهزاء ... سلاح بائس:

من الحراب التى طالما شهرت فى وجوه الأنبياء عليهم السّلام عبر التاريخ .. حربة الاستهزاء و السخرية، و عكست لنا الآيات القرآنية مرارا تلك الصور التى تحكى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷

هذا الموضوع، و لا عجب فى ذلك حين صدور الاستهزاء من الناس ابتلوا بالظلم و الكفر، لأنّ مصدر كفرهم و ظلمهم هو عقدة الغرور و التكبر التى تدفعهم للنظر إلى الآخرين بعين التحقير و التصغير.

و لم ينفلت زماننا المعاش من مدار تلك الأساليب القديمة، فما زال الإعلام الكافر و عبر وسائله التقنية، ما زال يبذل كلّ ما فى جهده فى استعمال ذات الحربة القديمة، عسى أن يخرج الحقّ و أتباعه من الميدان، و بواجهات عدّة، و منها تلك التى يسمّونها برامج الترفيه و الفكاهة.

و لكنّ المؤمنين أقوى من أن تزلزلهم تلك الألاعيب الماكرة الواهية، و هم مطمئنون تماما بالوعد الإلهى الحق، كما ورد فى الآيات أعلاه.

و ما استعمال أساليب السخرية و الغمز و الضحك فى قبال دعوة تدعو إلى الحق إلّا كاشف عن جهالة و غرور أولئك المساكين.

فحتى على فرض عدم الإيمان بالدين الحق، أو ليس المنطق السليم و الحجّة القاطعة هى سلاح الإنسان العاقل؟ فأين هم من إنسانيتهم أمام ما يمارسونه؟! ..

اللّهمّ! قنا من الغرور و التكبر.

اللّهمّ! ارزقنا طلب الحق و زيّنا بالتواضع.

اللّهمّ! اجعل صحيفة أعمالنا فى «عليين» و جنبها من الوقوع فى «سجّين» ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة المطفّفين

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹

سورة الإنشقاق

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس و عشرون آية

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱

سورة الإنشقاق

محتوى السّورة

لا تخرج السّورة عن الإطار العام لسور الجزء الأخير من القرآن الكريم، فتبدأ بوصف علامات أشراط القيامة و ما سيحدث من أحداث مروعة فی نهاية العالم و بداية يوم القيامة، ثمّ تتحدث ثانيا عن القيامة و الحساب و ما ستؤول إليه عاقبة كلّ من الصالحين و المجرمين، ثمّ تعطف السّورة فی المرحلة الثّالثة لتوضيح ماهية الأعمال و العقائد التی تجر الإنسان إلى سخط اللّه و خلوده بالعذاب مهانا، و فی الرّابعة تنتقل السّورة لعرض مراحل سير الإنسان فی حياتيه (الدنيا و الآخرة) و فی آخر مطاف السّورة يدور الحديث خامسا عن جزاء الأعمال الحسنة و السيئة

فضيلة السّورة:

روی عن النّبی الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأ سورة «انشقت» أعاذه اللّه أن يؤتيه كتابه وراء ظهره»[۴۸].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «من قرأ هاتين السّورتين و جعلهما نصب عينه فی صلاة الفريضة و النافلة لم يحجبه اللّه من حاجة، و لم يحجزه من اللّه حاجز، و لم يزل ينظر إليه حتى يفرغ من حساب النّاس»[۴۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲

الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱ الى ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ (۱) وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۲) وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (۳) وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ (۴)

وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ (۵) يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ (۶) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ (۷) فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً (۸) وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۹)

التّفسير

نحو الكمال المطلق:

تبدأ السّورة فى ذكرها لأحداث نهاية العالم المهولة بالإشارة إلى السماء فتقول: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ ۵۰] (فتلاشت نجومها و أجرامها و اختل نظام الكواكب فيها)، كإشارة الآيتين (۱ و ۲) من سورة الإنفطار التى أعلنت عن نهاية العالم بخرابه و فنائه: إِذَا السَّماءُ انْفَطَرَتْ وَ إِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ

و تحكى الآية التالية حال السماء: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ

فلا يتوهم أن السماء بتلك العظمة بإمكانها اظهار أدنى مقاومة لأمر اللّه .. بل ستستجيب لأمر اللّه خاضعة طائعة، لأنّ إرادته سبحانه فى خلقه هى الحاكمة، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳

يحق لأى مخلوق أن يعصى أمره جلّ و علا.

«أذنت»: من (الاذن) على وزن (أفق)، و هى آلة السمع و تستعار لمن كثر استماعه، و فى الآية: كناية عن طاعة أمر الآمر و التسليم له.

«حقّت»: من (الحق)، أى: و حق لها أن تنقاد لأمر ربّها.

و كيف لها لا تسلّم لأمره عزّ و جلّ، و كلّ وجودها و فى كلّ لحظة من فيض لطفه، و لو انقطع عنها بأقل من رمشة عين لتلاشت.

نعم، فالسماء و الأرض مطيعتان لأمر ربّهما منذ أوّل خلقهما حتى نهاية أجلهما، كما تشير الآية (۱۱) من سورة فصّلت عن قولهما فى ذلك: قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ

و قيل: يراد ب «حقّت»: إنّ الخوف من القيامة سيجعل السماء تنشق .. و لكنّ التّفسير الأول أنسب.

و فى المرحلة التالية تمتد الكارثة لتشمل الأرض أيضا: وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ

فالجبال- كما تقول آيات قرآنية اخرى- ستندك و تتلاشى، و ستستوى الأرض فى كافة بقاعها، لتلمّ جميع العباد فى عرصتها، كما أشارت الآيات (۱۰۵- ۱۰۷) من سورة طه إلى ذلك: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً! فمحكمة ذلك اليوم من العظمة بحيث تجمع فى عرصتها جميع الخلق من الأولين و الآخرين، و لا بدّ للأرض من هذا الانبساط الواسع.

و قيل فى معنى الآية: إنّ اللّه عزّ و جلّ سيمدّ الأرض يوم القيامة أكثر ممّا هى عليه الآن لتسع حشر الخلائق جميعا[۵۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴

و فى ثالث مرحلة تقول الآية التالية: وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ

و المعروف بين المفسّرين أنّ الآية تشير إلى إلقاء الأرض بما فيها من موتى فيخرجون من باطن القبور إلى ظاهر الأرض، مرتدين لباس الحياة من جديد.

و قد تناولت آيات اخرى هذا الموضوع، كالآية (۲) من سورة الزلزال:

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها، و الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة النازعات: فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المعادن و الكنوز المودعة فى الأرض ستخرج مع الأموات أيضا.

و ثمّة احتمال آخر فى تفسير الآية، يقول: إنّ المواد المذابة التى فى باطن الأرض ستخرج نتيجة الزلازل الرهيبة التى تقذفها إلى الخارج، فتملأ الحفر و المنخفضات الموجودة على سطح الأرض، و ستهدأ الأرض بعد أن يخلو باطنها من هذه المواد.

و الجمع بين المعانى التى وردت فى تفسير الآية، ممكن.

و ...: وَ أَذِنَتْ لِرَبِّها وَ حُقَّتْ

فتسليم الموجودات لما سيحدث من كوارث كونية مدمرة ينم عن جملة امور، فمن جهة: إنّ الفناء سيعم الدنيا بكاملها بأرضها و

سمائها و إنسانها و كلّ شـىء آخر، و من جهة اخرى: فالفناء المذكور يمثل انعطافة حادّة فى مسير عالم الخليقة، و مقدّمة للدخول فى مرحلة وجود جديدة، و من جهة ثالثة، فكلّ ما سيجرى سينبأ بعظمة قدرة الخالق المطلقة، و خصوصا فى مسألة المعاد.

نعم، فسيرضخ الإنسان، بعد أن يرى بأمّ عينيه وقوع تلك الحوادث العظام، و سيرى حصيلة أعماله الحسنة و السيئة.

و تبيّن الآية التالية معالم طريق الحياة للإنسان مخاطبة له: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵

«الكدح»:- على وزن مدح- السعى و العناء الذى يخلق أثرا على الجسم و الروح، و يقال: ثور فيه كدوح، أى آثار من شدّة السعى.

و جاء فى (تفسير الكشّاف) و (روح المعانى) و (تفسير الفخر الرازى):

الكدح: جهد النفس فى العمل و الكد فيه حتى يؤثر فيها، من كدح جلده: إذا خدشه.

و الآية تشير إلى أصل أساسى فى الحياة البشرية، فالحياة دوما ممزوجة بالتعب و العناء، و إن كان الهدف منها الوصول إلى متاع الدنيا، فكيف و الحال إذا كان الهدف منها هو الوصول إلى رضوان اللّه و نيل حسن مآب الآخرة؟! فالحياة الدنيا قد جبلت على المشقة و التعب و الألم، حتى لمن يرفل بأعلى درجات الرفاه المادى.

و ما ذكر «لقاء اللّه» فى الآية إلّا لتبيان أنّ حالة التعب و العناء و الكدح حالة مستمرة إلى اليوم الموعود، و لا يتوقف إلّا بانتهاء عجلة حياة الدنيا، و لا فرق فى توجيه معنى «اللقاء» سواء كان لقاء يوم القيامة و الوصول إلى عرصة حاكمية اللّه المطلقة، أو بمعنى لقاء جزاء اللّه من عقاب أو ثواب، أو بمعنى لقاء ذاته المقدسة عن طريق الشهود الباطنى.

نعم، فراحة الدنيا لا تخلو من تعب، و الراحة الحقة .. هناك، حيث ينعم الإنسان بين فيافى جنان الخلد.

و كان نداء الآية مخاطبا عموم «الإنسان»، ليشير إلينا بأن اللّه عزّ و جلّ قد وضع القدرة و القوّة اللازمة لهذه الحركة الإلهية المستمرة فى وجود و تكوين هذا المخلوق، و الذى جعل من أشرف المخلوقات قاطبة.

و استعمال كلمة «ربّ» فيه إشارة إلى ثمّة ارتباط ما بين سعى و كدح الإنسان من جهة و ذلك البرنامج التربوى الذى أعدّه الخالق لمخلوقه فى عملية توجيه الإنسان نحو الكمال المطلق من جهة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶

نعم، فمشوار حركة الوجود قد بدأ من العدم، و الأقدام سائرة فى خطوها صوب لقاء اللّه، شاء ذلك الموجود أمّ أبى.

و قد تحدثت لنا آيات قرآنية اخرى عن السير التكاملى المستمر للمخلوقات نحو خالقها سبحانه و تعالى، و منها.

الآية (۴۲) من سورة النجم: وَ أَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى

و الآية (۱۸) من سورة فاطر: وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ .. بالإضافة إلى آيات مباركات أخر.

و إلى ذلك المطاف، ستنفصل البشرية إلى فريقين: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً، وَ يَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

فالذين ساروا على هدى المخطط الربّانى لحركة الإنسان على الأرض، و كان كلّ عملهم و سعيهم للّه دائما، و كدحوا فى السير للوصول إلى رضوانه سبحانه، فسيعطون صحيفة أعمالهم بيمينهم، للدلالة على صحة إيمانهم و قبول أعمالهم و النجاة من وحشة ذلك اليوم الرهيب، و هو مدعاة للتفاخر و الاعتزاز أمام أهل المحشر.

و حينما توضع أعمال هؤلاء فى الميزان الإلهى الذى لا يفوته شـىء مهما قلّ و صغر، فإنّه سبحانه و تعالى: سييسّر حسابهم، و يعفو عن سيئاتهم، بل و يبدل لهم سيئاتهم حسنات.

أمّا ما المراد من «الحساب اليسير»؟ فذهب بعض إلى أنّه العفو عن السيئات و الثواب على الحسنات و عدم المداقة فى كتاب الأعمال.

و حتى

جاء فى الحديث الشريف: «ثلاث من كنّ فيه حاسبه اللّه حسابا يسيرا، و أدخله الجنّة برحمته.

قالوا: و ما هی یا رسول اللّه؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷

قال: تعطی من حرمک، و تصل من قطعک، و تعفو عمّن ظلمک»[۵۲].

و جاء فی بعض الرّوایات، أنّ الدقّة و التشدید فی الحساب یوم القیامة تتناسب و درجة عقل و إدراک الإنسان.

فعن الإمام الباقر علیه السّلام، أنّه قال: «إنّما یداق اللّه العباد فی الحساب یوم القیامة علی ما آتاهم من العقول فی الدنیا»[۵۳].

و وردت أقوال متفاوتة فی تفسیر کلمة «الأهل» الواردة فی الآیة إِلی أَهْلِهِ

فمنهم من قال: هم الزوجة و الأولاد المؤمنین، لأنّه سیلتحق بهم فی الجنّة، و هی بحدّ ذاتها نعمة کبیرة، لأنّ الإنسان یأنس بلقاء من یحب، فکیف و سیکون معهم أبدا فی الجنّة! و منهم من قال: الأهل: الحور العین اللاتی ینتظرنّهم فی الجنّة.

و آخرین قالوا: هم الاخوة المؤمنین الذین کانوا معه فی الدنیا.

و لا مانع من قبول کلّ هذه الأقوال فی معنی الآیة و ما رمزت له.

بحثان

۱- خذ العلم من علیّ علیه السّلام

فی تفسیر الآیة المبارکة: إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ

روی عن أمیر المؤمنین علیه السّلام أنّه قال: «إنّها تنشق من المجرّة»[۵۴].

و الحدیث یعتبر من الإعجاز العلمی لأمیر المؤمنین علیه السّلام، حیث أنّه قد کشف

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸

الستار عن حقیقة علمیة قائمة لم یکن قد سبقها من علماء تلک الأزمان أحد قبله علیه السّلام، و بقیت هذه الحقیقة خافیة عن أنظار النّاس (سوی الراسخین فی العلم)، إلی أن تمّ صنع التلسکوبات الکبیرة، فتوصل علماء الفلک المعاصرین إلیها.

فعالم الوجود، یتکون من مجموعة مجرات، و المجرة عبارة عن مجموعة عظیمة من النجوم و المنظومات الشمسیة، و لذا فقد اطلق علی المجرات اسم (مدن النجوم).

و من هذه المجرات، مجرة (درب التبانة) المعروفة و التی یمکن مشاهدتها بالعین المجردة، و المتکونة من مجموعة من النجوم و الشموس علی شکل دائرة، و یبدو لنا طرفها البعید عنّا بصورة سحاب أبیض، و ما هو فی حقیقته إلّا مجموعة من النجوم، تبدو لنا بهذه الصورة نتیجة لبعدها و عجز عیوننا عن تشخیصها.

و ما نراه لیلا علی سطح السماء هو طرفها القریب.

و منظومتنا الشمسیة جزء من هذه المجرة العظیمة.

و کما یقول حدیث أمیر المؤمنین علیه السّلام، فإنّ النجوم التی نراها فی السماء الیوم، ستنفصل عن المجرة، و بها تنشق السماء.

فمن کان یعلم فی زمانه علیه السّلام إنّ النجوم المتناثرة علی القبة السماویة هی جزء من مجرّة عظیمة؟! نعم، لا یعلم بذلک، إلّا من کان قلبه متصلا بعالم الغیب، و من یستقی من علم اللّه تعالی استقاء.

۲- الدنیا دار بلاء

التعبیر ب «کادح» للإشارة إلی أن طریق الحیاة شاق و صعب، و خوضه یستلزم العناء و الألم و المشاکل، فی کافة خطوات المسیر و لا یستثنی من ذلک الروح أو البدن، بل کلیهما و بکلّ ما یحملان من جوارح و جوانح لا یخلوان من التأثر بهذه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۹

الطبیعة الحاکمة علی الحیاة الدنیا.

و

یحدثنا الإمام علی بن الحسین زین العابدین علیه السّلام، فیما روی عنه أنّه قال: «الراحة لم تخلق فی الدنیا و لا لأهل الدنیا، إنّما خلقت الراحة فی الجنّة و لأهل الجنّة، و التعب و النصب خلقا فی الدنیا، و لأهل الدنیا، و ما اعطی أحد منها جفنة إلّا أعطی من الحرص مثلیها، و من أصاب من الدنیا أکثر، کان فیها أشد فقرا لأنّه یفتقر إلی النّاس فی حفظ أمواله، و یفتقر إلی کلّ آلة من آلات الدنیا، فلیس فی غنی الدنیا راحة ...».

و

جاء فی آخر حدیثه علیه السّلام: «کلّا ما تعب أولیاء اللّه فی الدنیا للدنیا، بل تعبوا فی الدنیا للآخرة».[۵۵]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۰

الآیات [سورة الانشقاق (۸۴): الآیات ۱۰ الی ۱۵]

اشارة

وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ (۱۰) فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً (۱۱) وَ یَصْلی سَعِیراً (۱۲) إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً (۱۳) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ (۱۴)

بَلی إِنَّ رَبَّهُ کانَ بِهِ بَصِیراً (۱۵)

التّفسیر

الذین یستلمون کتابهم من وراء ظهرهم:

بعد أن عرضت الآیات السابقة أحوال فریق أصحاب الیمین، تأتی الآیات أعلاه لتعرض لنا أحوال الفریق الآخر، و توصف لنا کیفیة إعطاء کتاب کلّ منهم مشرعة لتقدیم المشاهد الاخری: وَ أَمَّا مَنْ أُوتِیَ کِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ .. فیصرخ و ینادی الویل لی لقد هلکت فَسَوْفَ یَدْعُوا ثُبُوراً.

وَ یَصْلی سَعِیراً ذکرت الآیة بأن المجرمین سیؤتون کتبهم من وراء ظهورهم، فی حین أنّ آیات اخری تقول بأنّ المذنبین سیعطی کتاب کلّ منهم بیده الشمال.

فهل من تألیف فیما بین العرضین؟

للمفسّرین جملة آراء فی ذلک، منها:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۱

قیل: إنّ یدهم الیمنی تغلّ إلی أعناقهم، و یعطون الکتاب بالید الیسری من وراء ظهورهم إیغالا فی إذلالهم و إخجالهم.

و قیل: إنّ کلتی یدیهم تربط من خلفهم- کما یفعل بالأسیر- و یعطون الکتاب بالید الیسری من وراء الظهر.

و قیل أیضا: ستکون وجوه المجرمین من الخلف، بدلالة الآیة (۴۷) من سورة النساء: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّها عَلی أَدْبارِها، فیعطون کتبهم من وراء ظهورهم و بیدهم الیسری، کی یقرءوها بأنفسهم.

و الأنسب أن نقول: سیأخذ أصحاب الیمین کتبهم بافتخار و مباهاة فی یدهم الیمنی، و کلّ منهم یقول: هاؤُمُ اقْرَؤُا کِتابِیَهْ ۵۶]، و لکن المجرمین سیأخذون کتبهم بأیدیهم الیسری و بسرعة و یضعونها وراء ظهورهم خجلا و ذلا، و لکی لا یطّلع علی ما فیها أحد، و لکن، هیهات ... فکلّ شیء حینئذ بارز، کیف لا و هو «یوم البروز»! ...

یَدْعُوا ثُبُوراً: یصرخ بالویل و الثبور، کما هو متعارف علیه عند نزول بلاء، أو وقوع حادث شدید الخطورة.

و «الثبور»: الهلاک.

و لکنّ صراخه سوف لا یدر علیه نفعا أبدا، و لا بدّ من نیله جزاء ما اقترف: وَ یَصْلی سَعِیراً أی یدخل نار جهنم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۶۱

تبیّن الآیة التالیة علّة تلک العاقبة المخزیة: إِنَّهُ کانَ فِی أَهْلِهِ مَسْرُوراً.

سرورا ممتزجا بالغرور، و غرورا احتوشته الغفلة و الجهل بربّ الأرباب سبحانه و تعالی، فالسرور المقصود فی الآیة، هو ذلک السرور المرتبط بشدّة بالدنیا و المنسی لذکر الآخرة.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۲

و بدیهی فالسرور و الارتیاح لیس مذموم بذاته، و لکنّ السرور المذموم هو الذی یغفل فیه الإنسان عن ذکر مولاه عزّ و جلّ، و یغرق به فی بحر شهواته الموصل إلی التیه و الضلالة و الجهل. أمّا سرور المؤمن بلطف اللّه و نعمائه، و بشاشته عند مصاحبة إخوانه، فما أحلاها و أزکاها.

و یتقرب لنا المعنی من خلال الآیة التالیة: إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ یَحُورَ.

فاعتقاده الفاسد و ظنّه الباطل الدائر علی نفی المعاد، مصدر سروره و غروره و هو ما سیوصله إلی الشقاء الأبدی، لأنّه ابتعد عن ساحة رضوانه سبحانه و تعالی بعد أن أوقعته شهواته فی هاویة الاستهزاء بدعوة الأنبیاء علیهم السّلام الربانیة، حتی أوصلته حالته المرضیة تلک لأنّ یستمر فی استهزاءه و سخریته حتی فی حال عودته إلی أهله، کما أشارت الآیة (۳۱) من سورة المطففین: وَ إِذَا انْقَلَبُوا إِلی أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَکِهِینَ و کما وردت الإشارة أیضا علی لسان علماء بنی إسرائیل حینما خاطبوا قارون الثری المغرور الجاهل: لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ [۵۷] «لن یحور»: لن یرجع، من (الحور)- علی زنة غور- بمعنی: الرجوع، التردد، الذهاب، و الإیاب (سواء کان فی العمل أو الفکر)، و «حار الماء» فی الغدیر: تردد فیه، و یقال «المحور»: للعود الذی تجری علیه البکرة و تدور حوله و المحاورة و (الحوار): المراودة فی الکلام، و (تحیر فی الأمر): تردد فیه بین أن یقدم أو لا یقدم.

و قیل: أصل الکلمة (حبشی).

و روی عن ابن عباس أنّه قال: (ما کنت أدری ما معنی «حور» حتی سمعت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۳

أعرابیة تقول لابنتها: «حوری» أی ارجعی)[۵۸].

و ربّما کان استعمال کلمة «الحواری» فی نعت أصحاب عیسی علیه السّلام أو أی مقرّبین لأحد، ربّما کان لکثرة ترددهم علیه.

و قیل: حورت الشیء، أیّ بیضته، و سمّی أنصار عیسی علیه السّلام الحواریین لتبییضهم قلوب النّاس بالمواعظ الهادیة، و «الحور العین» إشارة إلی بیاضهنّ، أو لشفّافیة بیاض عیونهنّ.

و قيل أيضا: إنّ سبب تسميتهنّ ب «الحور العين» يعود إلى تحير العين فى جمالهنّ الخارق.

و على أيّة حال، فيقصد من الكلمة فى الآية المبحوثة، الرجوع و المعاد، لإيضاح أنّ عدم الإيمان بالمعاد يؤدى إلى الوقوع فى اتون الغفلة و الغرور و ارتكاب المعاصى.

و لنفى العقائد الضالة، تقول الآية: بَلى إِنَّ رَبَّهُ كانَ بِهِ بَصِيراً.

فكل أعمال الإنسان تسجل و تحصى عليه، لتعرض يوم الحساب فى صحيفته.

و الآية تشارك الآية السابقة: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ فى كونها دليلا على المعاد أيضا. فتأكيد الآيتين على كلمة «ربّ» يدل على أن الإنسان فى سيرة التكاملى صوب ربّه لا ينتهى بالموت، و أنّ الحياة الدنيا لا يمكنها أن تكون هدفا و غاية لهذا الخلق العظيم و هذا المسار التكاملى ...

و كذلك كون اللّه «بصيرا» بأعمال الإنسان و تسجيلها لا بدّ من اعتباره مقدمة للحساب و الجزاء و إلّا لكان عبثا، و هذا ما لا يكون.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۴

الآيات [سورة الانشقاق (۸۴): الآيات ۱۶ الى ۲۵]

اشارة

فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (۱۶) وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ (۱۷) وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (۱۸) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ (۱۹) فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (۲۰) وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ (۲۱) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (۲۲) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ (۲۳) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۲۴) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۲۵)

التّفسير

سنّة التغيّر!

لمزيد من إيضاح ما ورد فى الآيات السابقة بخصوص سير الإنسان التكاملى نحو خالقه سبحانه و تعالى ... تأتى الآيات لتقول: فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ

وَ اللَّيْلِ وَ ما وَسَقَ أى: و ما جمع.

وَ الْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ أى: إذا اكتمل.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۵

«لا» فى «لا اقسم»: زائدة، و جاءت للتأكيد.

و ثمّة من اعتبرها (نافية)، أى: لا اقسم، لأنّ الأمر من الوضوح ما لا يحتاج فيه إلى قسم، أو أنّ القسم بهذا الموضوع لا يليق و أهميته، أو أنّ ما اقسم به من الأهمية بحيث يليق أنّ لا يقسم به.

إلّا أنّ الأوّل (كونها زائدة جاءت للتأكيد) أقرب من البقية.

«الشفق»: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس، و (الإشفاق):

عناية مختلطة بخوف، لأنّ (المشفق) يحب المشفق عليه و يخاف ما يلحقه ۵۹].

و يقول الفخر الرازى: تركيب لفظ «الشفق» فى أصل اللغة لرقّة الشىء، و منه يقال: ثوب شفق، كأنّه لا تماسك له لرقته، و (الشفقة): رقة القلب.

(و الظاهر أنّ قول الراغب أقرب للصواب).

و على أيّة حال، ف «الشفق» هو وقت الغروب، و قد اختلف فى تعيين وقته ما بين الحمرة التى تظهر فى الأفق الغربى عند بداية الليل، و بين ما يظهر بعد الحمرة من بياض، و المشهور بين العلماء و المفسّرين هو التعيين الأوّل، و هو المستعمل على لسان الأدباء أيضا حيث يشبهون دماء الشهداء بالشفق.

إلّا أنّ البعض اختار التعيين الثّانى، على ما يبدو عليه من ضعف، و خصوصا إذا ما اعتبرنا (الرّقة) هى الأصل اللغوى للكلمة، حيث أنّها ستتناسب مع الحمرة الخفيفة الرقيقة دون الثّانى.

و على أية حال، فقد جاء القسم بالشفق للفت الأنظار إلى ما فى هذه الظاهرة السماوية الجميلة من معان، فمنه تعلن حالة التحول العام من النهار إلى الليل، إضافة لما يتمتع به من بهاء و جمال، و كونه وقت صلاة المغرب.

و أمّا القسم بالليل، فلما فيه من آثار كثيرة و أسرار عظيمة (و قد تناولنا ذلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۶

مفصلا)[۶۰].

«ما وسق»[۶۱]: إشارة إلى عودة الإنسان و الحيوانات و الطيور إلى مساكنها عند حلول الليل (بلحاظ كون الوسق بمعنى جمع المتفرق)[۶۲]، فيكون عندها سكنا عاما للكائنات الحيّة، و هو من أسرار و آثار الليل المهمّة، كما أشارت الآية (۶۱) من سورة غافر إلى ذلك: اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

إِذَا اتَّسَقَ من (الاتساق)، و هو الاجتماع و الإطراد، و تريد الآية به، اكتمال نور القمر فى الليلة الرابعة عشر من الشهر القمرى، حيث يكون بدرا.

و لا يخفى ما لروعة البدر فى تمامه، فنوره الهادىء الرقيق يكسو سطح الأرض، و هو من الرقّة و اللطافة بحيث لا يكسر ظلمة الليل و سكونه، و لكنّه ينير درب سالكيه! فهو آية كبرى من آيات اللّه، و لذا جاء القسم به.

و ينبغى الالتفات إلى الصلة الموجودة فيما أقسمت الآيات بهن: (الشفق، الليل، ما اجتمع فيه، و القمر فى حالة البدر) و جميعها موضوعات مترابطة و يكمل بعضها البعض الآخر، و تشكل بمجموعها لوحة فنية طبيعية رائعة، و تحرّك عند الإنسان التأمل و التفكير فى عظمة و دقّة و قدرة الخالق فى خلقه، و يمكن للإنسان العاقل بتأمل هذه التحولات السريعة من التوجه إلى قدرته جلّ شأنه على المعاد ما يحمل بين طياته من تغيّرات فى عالم الوجود.

و الأمر المثير هو أنّ القرآن الكريم يشير هنا إلى امور متتابعة الوقوع، فعند ما تغيب الشمس يظهر الشفق معلنا عن بداية حلول الليل، الذى تتجه الكائنات الحية فيه إلى بيوتها، ثمّ يخرج القمر بدرا تامّا (علما بأنّ البدر فى ليلة تمامه يخرج مع

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۷

بداية الليل!).

ثمّ يأتى جواب القسم الوارد فى الآيات أعلاه: لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ إشارة إلى المراحل و التحولات التى يمرّ بها الإنسان فى حياته.

و قد ذكرت تفاسير مختلفة لهذه الآية المباركة، منها:

۱- يقصد بها تلك الحالات المختلفة التى يمرّ بها الإنسان فى كدحه و سيره المضنى نحو اللّه جلّ و علا، فيبدأ بحالة الدنيا، ثمّ ينتقل إلى عالم البرزخ و منه إلى القيامة و الآخرة (مع ملاحظة أنّ «طبق» من (المطابقة)، و هى جعل الشىء فوق شىء آخر بقدرة، و جاءت أيضا بمعنى، المنازل التى يطويها الإنسان فى عملية صعوده).

۲- يقصد بها تلك الحالات التى يمرّ بها الإنسان منذ كونه نطفة حتى يموت، (و قد عدّها البعض (۳۷) حالة).

۳- يقصد بها تلك الحالات التى يعيشها الإنسان فى حياته من: سلامة و مرض، سرور و غم، اليسر و العسر، السلم و الحرب ... إلخ.

۴- يقصد بها تلك الحالات الصعبة التى ستواجه الإنسان يوم القيامة حتى يفرغ من حسابه، و يتجه إلى مصيره (الجنّة أو النّار).

۵- يقصد بها تلك الحالات التى مرّت بها الأقوام السالفة بحلاوتها و مرّها، و كذلك الإشارة إلى ألوان التكذيب و الإنكار الذى يقع فى هذه الأمّة، و هذا المعنى قد ورد فى حديث ما روى عن الإمام الصادق عليه السّلام.

و لا يمنع من اعتبار كلّ ما جاء فى التفاسير أعلاه مصاديق لمعنى الآية.

و قيل: إنّ شخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هو المخاطب فى الآية، و الآية تشير إلى طبقات السماء التى طواهنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى معراجه.

و لكن، بلحاظ وجود الضم على «الباء» فى «لتركبنّ»، يتّضح لنا أنّ المخاطب جمع و ليس فرد هذا من جهة، و لو رجعنا إلى الآيات السابقة لرأينا النداء موجه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۸

إلى النّاس كافة من جهة اخرى، و عليه، فهذا التّفسير بعيد عن مرام الآية.

و على آية حال، فعدم استقرار الإنسان على حال ثابتة يدلل على فقر الإنسان و احتياجه، لأنّ كلّ متغيّر حادث، و كلّ حادث له محدث، كما و إنّ عدم استقرار هذا العالم علامة على حركة الإنسان المستمرة نحو اللّه و المعاد، و كما قالت الآية: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ

و من كلّ ما سبق ... يخرج القرآن الكريم بنتيجة: فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ

فمع وضوح أدلة الحق، مثل أدلة: التوحيد، معرفة اللّه، المعاد، بالإضافة إلى ما من الآفاق فى آيات مثل: خلق ... الليل و النهار، الشمس و القمر، النور و الظلمة، شروق الشمس و غروبها، الشفق، ظلمة الليل، اكتمال القمر بدرا، و كذلك الآيات التى فى نفس الإنسان منذ أن يكون نطفة فى رحم امّه، و ما يطويه من مراحل حتى يكتمل جنينا، مرورا بما يمرّ به من حالات فى حياته الدنيا، حتى يدركه الموت ...

فمع وجود كل هذه الأدلة و الآيات لم لا يؤمنون؟! ..

و ينتقل بنا العرض القرآنى من كتاب (التكوين) إلى كتاب (التدوين)، فيقول:

وَ إِذا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ

القرآن كالشمس يحمل دليل صدقه بنفسه، و تتلألأ أنوار الإعجاز من بين جنباته، و يشهد محتواه على أنّه من الوحى الإلهى و كل منصف يدرك جيدا لدى قراءته له أنّه فوق نتاجات عقول البشر و لا يمكن أن يصدر من انسان مهما كان عالما، فكيف بإنسان لم يتلق تعليما قط و قد نشأ فى بيئة جاهلية موبوءة بالخرافات! ...

و يراد ب «السجود» هنا: الخضوع و التسليم و الطاعة[۶۳]، أمّا السجود المتبادر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۶۹

إلى الذهن بوضع الجبين على الأرض، فهو أحد مصاديق مفهوم السجود، و لعل هذا هو ما ورد فى الرّوايات من سجود النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند قراءته لهذه الآية.

و السجود فى هذه الآية مستحب عند فتاوى فقهاء أهل البيت عليهم السّلام، فيما يوجب ذلك فقهاء المذاهب الأربع، إلّا (مالك)، فإنّه يقول بالسجود عند الانتهاء من تلاوة السّورة[۶۴].

و تأتى الآية التالية لتقول: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ

و التعبير عن ممارسة تكذيب الكافرين فى الآية بصيغة المضارع المستمر، للإشارة إلى تكذيبهم المتعنت المستمر و إصرارهم و لجاجتهم و ليس تكذيبهم بسبب ضعف أدلة الحق، بل من أجل روح التعصب الأعمى للأسلاف و الدنيا و المصالح المادية و الحاكمة على قلوبهم المريضة، و أهوائهم الشيطانية.

و ببيان جدّى و تهديد جدّى، تقول الآية التالية: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُوعُونَ

فاللّه تعالى أعلم بدافع و نيّة و هدف ذلك التكذيب، و مهما تستروا على ما فعلوا فلا يجزون إلّا بما كسبت أيديهم.

«يوعون»: من (الوعاء) و هو الظرف، كما هو مستقى من

قول أمير المؤمنين عليه السّلام فى نهج البلاغة: «إنّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها».

ثمّ ... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ

عادة ما تستعمل «البشارة» للأخبار السارة، و جاءت هنا لتنم عن نوع من الطعن و التوبيخ.

و الحال، إنّ البشارة الحقّة للمؤمنين خالصة بما ينتظرهم من نعيم، و ما للكاذبين إلّا الغرق فى بحر من الحسرة و الندم، و ما هم إلّا فى عذاب جهنم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۰

يخلدون.

و يستثنى المؤمنون من تلك البشرى المخزية: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون»: من (المنّ)، و هو القطع و النقصان، (و منه «المنون» بمعنى الموت).

و إذا ما جمعنا كلّ هذه المعانى، فستكون النعم الاخروية على عكس الدنيوية الناقصة و المنقطعة و المقترنة بمنّة هذا و ذاك، حيث أنّها لا تنقطع و لا تنقص و ليس فيها منّة.

أمّا الاستثناء الذى ورد فى الآية السابقة، ففيه بحث: هل أنّه «متصل» أو «منقطع».

قال بعض المفسّرين: إنّه منقطع، أى: إنّ القرآن الكريم انتقل بالآية من الحديث حول الكفار الذى عرض فى الآيات السابقة، إلى الحديث عن المؤمنين و ما ينتظرهم من أجر و ثواب.

و الأقرب لسياق الآيات أن يكون الاستثناء متصلا، و فى هذه الحال يكون هدفه فتح الطريق أمام الكفار للعودة و تشجيعهم على ذلك، لأنّ الآية تقول: إنّ العذاب الأليم المذكور فى الآية السابقة سوف لا يصيب من يؤمن منهم و يعمل صالحا و علاوة على ذلك، سيكون له أجر غير ممنون.

بحث

و قد استنبط العلّامة الطبرسى، فى كتابه مجمع البيان، من الآيات الأخيرة للسورة ما يلى:

أوّلا: حرية إرادة الإنسان و اختياره.

فقال: قوله سبحانه: فَما لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ و لا يَسْجُدُونَ دلالة على أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۱

السجود فعلهم، لأنّ الحكيم لا يقول: مالك لا تؤمن و لا تسجد، لمن يعلم أنّه لا يقدر على الإيمان و السجود.

ثانيا: إنّ الذمّ على ترك السجود دليل على أنّ الكفار كما أنّهم مكلفون بأصول الدين كذلك بفروعه أيضا. (هذا القول مبنىّ على اعتبار كلمة السجود الواردة فى الآية يراد منها (سجود الصلاة)، أو حتى إذا اعتبرنا الكلمة بمفهومها العام، فهى تتضمّن سجود الصلاة كذلك).

اللّهمّ! يسّر علينا الحساب يوم حشر الخلق فى ساحة عدلك ...

اللّهمّ! الكلّ إليك راجعون، فاهدنا الصراط المستقيم فيمن هديت ..

ربّنا! نحن مسلّمون و مطأطئون برؤوسنا إجلالا لقرآنك فوفقنا للعمل بتعليماته و ارشاداته .. و ارزقنا العمل بكتابك الكريم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الإنشقاق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۳

سورة البروج

اشارة

مكيّة و عدد آياتها اثنتان و عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۵

«سورة البروج»

محتوى السّورة:

كان المؤمنون فى بداية الدعوة المحمّدية- خصوصا فى مكّة- يعانون من شدّة التضييق و أقسى ألوان التعذيب الجسدى و النفسى، الذى انهال به عدوّهم من الكفّار على أن يتركوا إيمانهم بترك عقيدة الحق و الارتداد عن الدين القويم! و بملاحظة كون السّورة مكيّة، فيظهر إنّها نزلت لتقوية معنويات المؤمنين لمواجهة تلك الظروف الصعبة، و لترغيبهم على الصمود أمام الصعاب و الثبات على الإيمان و ترسيخه فى القلوب.

و تناولت السّورة قصّة «أصحاب الأخدود»، الذين حفروا خندقا و سجّروه بالنيران، و هددوا المؤمنين بإلقائهم فى تلك النّار إن لم يعودوا إلى كفرهم! و أحرقوا مجموعة منهم بالنّار و هم أحياء، و مع ذلك لم يرجعوا عن دينهم ..

و تعد السّورة فى بعض آياتها بعذاب جهنم الأليم لأولئك الذين يؤذون المؤمنين و يعذبونهم على إيمانهم، و تذمهم ذما شديدا، فى حين تبشر المؤمنين الصابرين بالجنّة و الفوز بنعيمها.

و فى جانب آخر من السّورة، تعرض لنا مقتطفات من قصّتى فرعون و ثمود و قوميهما الجناة الطغاة، و ما آلوا إليه من ذلّ و هلاك، كلّ ذلك تذكيرا لكفّار مكّة الذين هم أضعف قوّة و أقل جندا من أولئك، فعسى أن يرعووا عمّا هم فيه من جهة، و تسلية لقلب الحبيب المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من كان معه من المؤمنين من جهة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۶

اخرى.

و تختم السّورة فى آخر مقاطعها بالإشارة إلى عظمة القرآن الكريم، و إلى الأهمية البالغة لهذا الوحى الإلهى.

و عموما، فالسّورة من سور المقاومة و الثبات و الصبر أمام ضغوط الظالمين و المستكبرين، و آياتها تتضمّن الوعد الإلهى بنصر المؤمنين.

و سمّيت بسورة «البروج» بلحاظ ذكر الكلمة فى أول آية من السّورة بعد ذكر البسملة.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأ هذه السّورة أعطاه اللّه من الأجر بعدد كلّ من اجتمع فى جمعة و كلّ من اجتمع يوم عرفة عشر حسنات، و قراءتها تنجى من المخاوف و الشدائد».[۶۵]

و بملاحظة أنّ أحد تفاسير وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ- من آيات السّورة- هو يومى الجمعة و عرفة من جهة، و أنّ السّورة حكاية مقاومة و بسالة المؤمنين السابقين أمام الشدائد و الضغوط من جهة اخرى، و بملاحظة ذلك سيتّضح لنا التناسب الموجود ما بين هذا الثواب الجزيل لمن يقرءها و بين محتوى السّورة، و أنّ الأجر و الثواب إنّما يحصل لمن قرأها بتأمل معانيها، و عمل على ضوء هديها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۷

الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱ الى ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ (۱) وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (۲) وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ (۳) قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴)

النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹)

التّفسير

الإيمان الراسخ أقوى من حفر النيران!

كما نعلم جميعا، بأنّ المسلمين فى صدر الإسلام الأوّل، كانوا يعيشون فى مكّة تحت ظروف قاسية، بعد أن كشّر أعدائهم بقباحة تلك الأنياب القذرة، فانهالوا على المؤمنين بأصناف العذاب و ألوانه ..

و لمّا كان الهدف من نزول السّورة، و بما عرضته من صور الأولين هو إنذار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۸

هؤلاء الظالمين المغرورين بأنّ مصيرهم سيكون مثل مصير الأقوام السالفة من جهة، و من جهة اخرى لتثبيت المؤمنين، و تقوية عزائمهم فى صراعهم أمام أذى و اضطهاد أهل مكّة.

ابتدأت السّورة ب: وَ السَّماءِ ذاتِ الْبُرُوجِ

«البروج»: جمع (برج) و هو القصر، و قيل: هو الشىء الظاهر، و تسمية القصور و الأبنية العالية بالبروج لظهورها و وضوحها، و قيل للمحلات الخاصة من السور المحيط بالبلد و التى يجتمع فيها الحراس و الجنود (البروج) لظهورها الخاص، و يقال للمرأة التى تظهر زينتها (تبرجت).

و الأبراج السماوية: إمّا أن يكون المراد منها النجوم الزاهرة و الكواكب المنيرة فى السماء، أو المجموعات من النجوم تتخذ مع بعضها شكل شىء معروف فى الأرض، و تسمى ب «الصور الفلكية»، و هى إثنا عشر برجا، و فى كلّ شهر تحاذى الشمس أحد هذه البروج، (طبيعى أن الشمس لا تتحرك تلك الحركة، و إنّما الأرض، تدور حول الشمس فيبدو لنا تغيّر موضع الشمس بالنسبة إلى الصور الفلكية أو الأبراج).[۶۶] و القسم بهذه البروج يشير إلى عظمة أمرها، التى لم تكن معلومة للعرب الجاهليين وقت نزول الآية بينما أصبحت معلومة تماما فى هذا الزمان و الأقوى أنّ المراد منها هو النجوم المتلألئة ليلا فى القبة السماوية.

و لذا نقرأ فیما

روی عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، أنّه حینما سئل عن تفسیر الآیة قال: «الکواکب»[۶۷].

و تقول الآیة الثّانیة: وَ الْیَوْمِ الْمَوْعُودِ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۷۹

الیوم الذی وعد به جمیع الأنبیاء و المرسلین علیهم السّلام، و الذی تحدثت عنه مئات الآیات القرآنیة المبارکة، الیوم الذی یلتقی فیه جمیع الخلق من الأولین و الآخرین للحساب، إنّه یوم القیامة الحق.

و فی القسم الثّالث و الرّابع یقول: وَ شاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ.

و قد تعرض المفسّرون للآیة بمعان متباینة، وصلت إلی ثلاثین معنی، و أدناه أهم ما ذکر منها:

۱- «الشاهد»: هو النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بدلالة الآیة (۴۵) من سورة الأحزاب: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً.

و «المشهود»: هو یوم القیامة، بدلالة الآیة (۱۰۳) من سورة هود: ذلِکَ یَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِکَ یَوْمٌ مَشْهُودٌ.

۲- «الشاهد»: هو ما سیشهد علی أعمال النّاس، کأعضاء بدنه، بدلالة الآیة (۲۴) من سورة النور: یَوْمَ تَشْهَدُ عَلَیْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَ أَیْدِیهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ بِما کانُوا یَعْمَلُونَ و «المشهود»: هم النّاس و أعمالهم.

۳- «الشاهد»: هو یوم «الجمعة»، الذی یشهد اجتماع فی صلاة مهمّة، و «المشهود»: هو یوم «عرفة»، الذی یشهده زوّار بیت اللّه الحرام، و هو ما روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و الإمام الباقر علیه السّلام و الإمام الصادق علیه السّلام ۶۸].

۴- «الشاهد»: عید الأضحی.

و «المشهود»: یوم عرفة.

و

روی أنّ رجلا دخل مسجد رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فإذا رجل یحدث عن رسول اللّه، قال: فسألته عن الشاهد و المشهود، فقال: (نعم، الشاهد یوم الجمعة، و المشهود یوم عرفة)، فجزته إلی آخر یحدث عن رسول اللّه، فسألته عن ذلک

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۰

فقال: (أمّا الشاهد فیوم الجمعة، و أمّا المشهود فیوم النحر)، فجزتهما إلی غلام کأنه وجه الدینار، و هو یحدّث عن رسول اللّه، فقلت أخبرنی عن «و شاهد و مشهود» فقال: «نعم، أمّا الشاهد فمحمّد، و أمّا المشهود فیوم القیامة، أما سمعت اللّه سبحانه یقول: یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْناکَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً، و قال ذلِکَ یَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذلِکَ یَوْمٌ مَشْهُودٌ .. فسألت عن الأول، فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثّانی، فقالوا: ابن عمر، و سألت عن الثّالث: فقالوا: الحسن بن علی علیهما السّلام ۶۹]

۵- «الشاهد»: اللیالی و الأیّام .. و «المشهود»: بنو آدم، حیث تشهد علی اعمالهم، بدلالة ما جاء فی دعاء الإمام زین العابدین علیه السّلام الذی یقرأ کلّ صباح و مساء:

«هذا یوم حادث جدید، و هو علینا شاهد عتید، إن أحسنّا و دعنا بحمد، و إن أسأنا فارقنا بذنب».[۷۰]

۶- «الشاهد»: الملائکة .. و «المشهود»: القرآن.

۷- «الشاهد»: الحجر الأسود .. و «المشهود»: الحجاج الذین یأتون و یلمسونه:

۸- «الشاهد»: الخلق .. و «المشهود»: الحق.

۹- «الشاهد»: الامّة الإسلامیة .. و «المشهود»: الأمم الاخری، بدلالة الآیة (۱۴۳) من سورة البقرة: لِتَکُونُوا شُهَداءَ عَلَی النَّاسِ

۱۰- «الشاهد»: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. و «المشهود»: سائر الأنبياء عليهم السّلام، بدلالة الآية (۴۱) من سورة النساء: وَ جِئْنا بِكَ عَلى هؤُلاءِ شَهِيداً.

۱۱- «الشاهد»: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. و «المشهود»: أمير المؤمنين عليه السّلام.

و إذا ما أدخلنا الآيـة فى سياق الآيات السابقـة لها، فسنصل إلى أنّ «الشاهد» هو كلّ من سيقوم بالشـهادة يوم القيامة، كشـهادة: النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و كلّ نبىّ على امّته،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۱

الملائكة، بالإضافة إلى شهادة: أعضاء بدن الإنسان، الليل و النهار .. إلخ ..

و «المشهود»: النّاس أو أعمالهم.

و بهذا، يدغم الكثير من التّفاسير المذكورة مع بعضها لتشكل مفهوما واسعا للآية المباركة.

و يخرج عن هذا الإدغام تلك التّفاسير التى تشير إلى: يوم الجمعة، يوم عرفة و يوم الأضحى.

و إن كـانت الأيّام المـذكورة ستشـهد على أعمال الإنسان يوم الحشـر، بل و كلّ يوم يجتمع فيه المسـلمون يكاد يكون صورة مصـغرة للحشر على رقعة الحياة الدنيا.

و مع كلّ ما ذكر تتّضح صـلة التآلف ما بين التّفاسـير المذكورة أعلاه، حيث من الممكن جمعها تحت مظلة شمول مفهوم الآية، و هذا بحـد ذاته يعكس لنا عظمة القرآن الكريم باحتوائه على هكذا مفاهيم و اصـطلاحات .. ف «الشاهد» ينطبق على كلّ من و ما يشـهد، و كذا «المشهود» ينطبق على كلّ من و ما يشهد عليه، و ما ورودهما بصيغة النكرة إلّا لتعظيمهما، و هو ما ينعكس على كلّ التّفاسير.

و ثمّة علاقة خاصة بين الأقسام الأربع و بين ما اقسم به .. فالسماء و ما فيها من بروج تحكى عن نظام و حساب دقيق، و «اليوم الموعود» يوم حساب و كتاب دقيق أيضا، و «شاهـد و مشـهود» أيضا وسـيلة للحساب الـدقيق على أعمال الإنسان، و كلّ ذلك لتـذكير الظالمين الـذين يعـذّبون المؤمنين، عسـى أن يكّفوا عن فعلتهم السـيئة، و لإعلامهم بأن كلّ ما يفعله الإنسان يسـجل عليه و بحساب دقيق جدّا و سيواجه بها فى اليوم الموعود بين عتبات ساحـة العدل الإلهى، فسيشـهد على أعمال النّاس الملائكة الموكلون لهذا الأمر و أعضاء بدن ذات الإنسان و كذا الليل و النهار و .. و .. و ..، و ستكون الشهادة فى يوم لا ينفع فيه مال و لا بنين إلّا من أتّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۲

اللّه بقلب سليم![۷۱].

و بعد هذه الأقسام الأربع، تقول الآية التالية: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ.

و المقصود هم الظالمين لا من القى فى النّار، فالجملة انشائية و المراد هو اللعن و الدعاء عليهم.

و الأخدود ملىء بالنّار الملتهبة: النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ.

و كان الظالمون جالسون على حافة الأخدود يشاهدون المعذبين فيها: إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ.

وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ.

«الأخـدود»:- على قول الراغب فى مفرداته-: شقّ فى الأرض مسـتطيل غائص، و الجمع أخاديد، و أصل ذلك من «خدّ» الإنسان، و هو تقعر بسـيط يكتنـف الأنـف من اليمين و الشـمال (و عنـد البكـاء تسـيل الـدموع من خلالـه) ثمّ اطلق مجـازا على الخنـادق و الحفر فى الأرض، ثمّ صار معنى حقيقيا لها.

أمّا من هم الذين عذّبوا المؤمنين؟ و متى؟ فللمفسّرين و أرباب التواريخ آراء مختلفة، سنستعرضها إنشاء اللّه فى بحوث قادمة.

و لكنّ القـدر المسـلم به، إنّهم حفروا خنـدقا عظيما و وجّروه بالنيران، و أوقفوا المؤمنين على حافـة الخندق و طلبوا منهم واحدا واحدا بـترك إيمـانهم و الرجـوع إلى الكفر، و مـن رفض القى بيـن ألسـنة النيران حيـا ليـذهب إلى ربّـه صـابرا محتسـبا! «الوقـود»: مـا يجعل

للاشتعال، و «ذات الوقود»: إشارة الى كثرة ما فيها من الوقود، و شدّة اشتعالها، فالنّار لا تخلو من وقود، و لعل ما قيل من أن «ذات الوقود» بمعنى ذات اللهب الشديد، يعود للسبب المذكور، و ليس كما ذهب به البعض من كون «الوقود» يطلق على معنيين: «الحطب» و على «شعلة النّار» أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۳

و تأسفوا لعدم التفات المفسّرين لهذه النكتة! و الآيتان: إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ، وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، تشيران إلى ذلك الجمع من النّاس الذين حضروا الواقعة، و هم ينظرون إلى ما يحدث بكل تلذذ و برود و فى منتهى قساوة القلب (سادية)! و قيل: الإشارة إلى المأمورين بتنفيذ التهديد، و إجبار المؤمنين على ترك إيمانهم.

و قيل أيضا: إنّهم كانوا فريقين، فريق يباشر التعذيب، و آخر حضر للمشاهدة، و قد أشرك الجميع فى هذا العمل لرضايتهم به.

و هذه صورة طبيعية الوقوع، حيث هناك من يأمر (الرؤساء)، و من ينفذ (المرؤسون)، و ثمّة المشاهدون من غير الآمر و المأمور.

و قيل أيضا: ثمّة فريق منهم كان مكلفا بمراقبة عملية التنفيذ لرفع تقاريرهم إلى السلطان عن كيفية أداء المأمورين لواجباتهم السلطانية.

و لا يبعد وجود كلّ ما ذكر من أصناف فى ذلك المشهد المروع، كما و بالإمكان الجمع بين كلّ الآراء المطروحة.

و مجيء فعل جملة «يفعلون» بصيغة المضارع، للإشارة إلى أنّ ذلك العمل قد استغرق وقتا طويلا، و ما كان بالحدث السريع العابر.

و تقول الآية التالية: وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

نعم، فجرمهم الوحيد إنّهم آمنوا باللّه الواحد الأحد دون تلك الأصنام الفاقدة للعقل و الإحساس.

«نقموا»: من (النقم)- على زنة قلم- و هو الإنكار باللسان أو بالعقوبة، و منه (الانتقام).

هكذا عقوبة لا تجرى إلّا على ذنب عظيم، و أين الإيمان باللّه العزيز الحميد من الذنب؟! إنّه الانحطاط الكبير الذى وصل إليه أولئك القوم، قد صوّر لهم أعزّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۴

و أفضل ما ينبغى للإنسان أن يفتخر به (الإيمان باللّه) على أنّه جرم كبير و ذنب لا يغتفر! ...

و ينقل لنا القرآن فى الآية (۵۹) من سورة المائدة شبيه هذه الحادثة، حينما قال السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السّلام لفرعون عند ما توعدهم بالعقاب المؤلم، فقالوا له: وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا.

و ذكر «العزيز الحميد» جواب لما اقترفوا من جريمة بشعة، و احتجاج على أولئك الكفرة، إذ كيف يكون الإيمان باللّه جرم و ذنب؟!

و هو أيضا، تهديد لهم، بأن يأخذهم اللّه العزيز الحميد جراء ما فعلوا، أخذ عزيز مقتدر.

و تأتى الآية الاخرى لتبيّن صفتين أخريين للعزيز الحميد: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.

فالصفات الأربعة المذكورة، تمثل رمز معبوديته جلّ و علا، فالعزيز و الحميد ..

ذو الكمال المطلق، و مالك السماوات و الأرض و الشهيد على كلّ شيء .. أحقّ أن يعبد وحده دون غيره، لا شريك له.

إضافة إلى كونها بشارة للمؤمنين، بحضور اللّه سبحانه و تعالى و رؤيته لصبرهم و ثباتهم على الإيمان، فيدفع فيهم الحيوية و النشاط و القوّة.

و من جهة اخرى تهديد للكفار، و إفهامهم بأن عدم منع ارتكاب مثل هذه الجرائم الخبيثة، ليس لعجز أو ضعف منه جلّ شأنه، و إنّما ترك العباد يفعلون ما يرونه هم، امتحانا لهم، و سيريهم فى عاقبة أمرهم جزاء ما فعلوا، و ما للظالمين إلّا العذاب المهين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۵

بحثان

۱- من هم أصحاب الأخدود؟

قلنا إنّ «الأخدود» هو الشق العظيم فى الأرض، أو الخندق .. و هو فى الآية إشارة إلى تلك الخنادق التى ملأها الكفار نارا ليردعوا فيها المؤمنين بالتنازل عن إيمانهم و الرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر و ضلال.

و لكن .. متى حدث ذلك؟ فى أىّ قوم؟ و هل حدث مرّة واحدة أم لمرّات؟ فى منطقة أم مناطق؟

جرى بين المفسّرين و المؤرخين مخاض طويل بخصوص الإجابة عن هذه الأسئلة.

و المشهور: إنّ الآية قد اشارت إلى قصة (ذو نواس)، و هو آخر ملوك «حمير»[۷۲] فى أرض «اليمن».

و كان «ذو نواس» قد تهوّد، و اجتمعت معه حمير على اليهودية، و سمّى نفسه (يوسف)، و أقام على ذلك حينا من الدهر، ثمّ أخبر أنّ «بنجران» (شمال اليمن) بقايا قوم على دين النصرانية، و كانوا على دين عيسى عليه السّلام و حكم الإنجيل، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهودية، و يدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية و الدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم و حرص الحرص كلّه، فأبوا عليه و امتنعوا من اليهودية و الدخول فيها، و اختاروا القتل، فاتخذ لهم أخدودا و جمع فيه الحطب، و أشعل فيه النّار، فمنهم من احرق بالنّار، و منهم من قتل بالسيف، و مثّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد من قتل و احرق بالنّار عشرين ألفا.[۷۳] و أضاف بعض آخر: إنّ رجلا من بنى نصارى نجران تمكّن من الهرب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۶

فالتحق بالروم و شكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، و لكنّى سأكتب كتابا إلى ملك الحبشة النصرانى و أطلب منه مساعدتكم.

ثمّ كتب رسالته إلى ملك الحبشة، و طلب منه الانتقام لدماء المسيحيين التى أريقت فى نجران، فلمّا قرأ الرسالة تأثّر جدّا، و عقد العزم على الانتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتائبه إلى اليمن و التقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، و أصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة.[۷۴] و ذكر بعض المفسّرين: إنّ طول ذلك الخندق كان أربعين ذراعا، و عرضه اثنى عشر ذراع، (و كلّ ذراع يقرب من نصف متر، و أحيانا يقصد به ما يقرب من متر كامل).

و قيل: إنّها كانت سبعة أخاديد، و كلّ منها بالحجم الذى ذكرناه.[۷۵] و ذكرت القصّة فى كتب تاريخية و تفسيرية كثيرة، بتفاصيل متفاوتة، منها: ما ذكره المفسّر الكبير الطبرسى فى (مجمع البيان)، و أبو الفتوح الرازى فى تفسيره، و الفخر الرازى فى (تفسيره الكبير)، و الآلوسى فى (روح البيان)، و القرطبى فى تفسيره، و كذلك ابن هشام فى الجزء الأوّل من كتاب (السيرة) ص ۳۵ .. و غيرهم كذلك.

و قد تبيّن ممّا ذكرناه بأن العذاب الإلهى قد أصاب أولئك الذين قاموا بتعذيب المؤمنين، و انتقم منهم فى دنياهم جراء ما هدروا من دماء زكية بريئة، و أنّ عذاب نار الآخرة لفى انتظارهم.

و أوّل من أوجد المحارق البشرية فى التاريخ هم اليهود، و سرت هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۷

الممارسة الخبيثة على أيدى الطواغيت المجرمين، حتى شملت اليهود أنفسهم، كما حدث فى ألمانيا النّازية حينما احرق جمع كبير من اليهود فى محارق هتلر كما هو المشهور، فذاقوا «عذاب الحريق» فى دنياهم قبل آخرتهم.

كما أصاب الخزى و العذاب (ذو نواس اليهودى) و هو مؤسس هذا الأسلوب القذر من الجريمة.

ذكرنا ما اشتهر بين أرباب التاريخ و التّفسير من قصّة أصحاب الأخدود، و ثمّة روايات تذكر بأنّ هذه الجريمة البشعة ما اقتصرت على

أهل اليمن فقط و لم تقف عند عصر (ذو نواس)، حتى قيل عشرة أقوال فى ذلك.

و

روى عن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «إنّهم كانوا مجوس، أهل كتاب، و كانوا متمسكين بكتابهم، فتناول ملكهم الخمرة فوقع على أخته، و بعد أن أفاق ندم، فأعلن حلية زواج الاخت، فلم يقبل النّاس، فهددهم فلم يقبلوا، فخدّ لهم الأخدود، و أوقد فيه النيران، و عرض أهل مملكته على ذلك، فمن أبى قذفه فى النّار، و من أجاب خلّى سبيله»[۷۶].

هذا فى أصحاب فارس .. أمّا أصحاب أخدود الشام، فهم قوم مؤمنون أحرقهم (أنطياخوس)[۷۷].

و قيل أيضا: إنّ هذه الواقعة تعود لأصحاب نبىّ اللّه دانيال من بنى إسرائيل، و قد أشير إلى ذلك فى كتاب دانيال من التوراة.

و اعتبر الثعلبى: إنّهم هم الذين احرقوا فى أخدود فارس ۷۸] و لا يبعد انطباق قصة «أصحاب الأخدود» على كلّ ما ذكر، و إنّ كان المشهور منها قصّة (ذو نواس) فى أرض اليمن.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۸

۲- الإيمان الثابت

فى قصص الأولين و ما يجرى عند الآخرين، ثمّة وقائع رائعة فى الثبات على الإيمان فقد تحمل البعض الحرق فى النّار و أشدّ من ذلك على أن يترك طريق الحقّ أو العدول عن دينه.

و ها هى «آسية» زوجة فرعون شاخصة بما تحملت من عذاب بسبب تصديقها بنبىّ اللّه موسى عليه السّلام و إيمانها برسالته، حتى انتهى بها المطاف للارتواء من كأس الشهادة.

و

فى حديث عن الإمام على عليه السّلام أنّه قال: «إنّ اللّه بعث رجلا حبشيا نبيّا، و هم حبشية، فكذّبوه فقاتلهم، فقتلوا أصحابه، فأسروه و أسروا أصحابه، ثمّ بنوا له حيرا، ثمّ ملأوه نارا، ثمّ جمعوا النّاس فقالوا: من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه فى النّار، فجعل أصحابه يتهافتون فى النّار، فجاءت امرأة معها صبى لها ابن شهر، فلمّا هجمت هابت و رقت على ابنها، فنادى الصبى: لا تهابى، و ارمينى و نفسك فى النّار، فإنّ هذا و اللّه فى اللّه قليل فرمت بنفسها فى النّار و صبيها، و كان ممن تكلم فى المهد»[۷۹].

و يفهم من هذه الرّواية، إنّ فى الحبشة قسم رابع قد انطبقت عليهم قصّة «أصحاب الأخدود».

و من تاريخنا .. هناك قصّة عمار بن ياسر و أبويه و أمثالهم، و أهم من كلّ ذلك ما جرى للحسين عليه السّلام و أصحابه فى ميدان التضحية و الفداء (كربلاء)، و كيف أنّهم قد تسابقوا على شرف نيل و سام الشهادة، كما هو معروف فى التاريخ.

و ها هو عصرنا يرينا الكثير من صور التضحية و الفداء فى سبيل إعلاء كلمة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۸۹

الحقّ و حفظ الدين القويم.

و ينبغى القول هنا: إنّ بقاء الدين الإلهى (على مرّ العصور) مرتهن على ما تقدّم فى سبيله من تضحيات مقدسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۰

الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱۰ الى ۱۶]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ (۱۰) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (۱۱) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (۱۲) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ (۱۳) وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (۱۴)

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (۱۵) فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ (۱۶)

التّفسير

العذاب الالهى للمجرمين:

بعد ذكر عظم جريمة أصحاب الأخدود التى ارتكبت ضد المؤمنين بحرقهم و هم أحياء، يشير القرآن الكريم فى هذه الآيات إلى ما ينتظر أولئك الجناة من عذاب إلهى شديد، و يشير أيضا إلى ما اعدّ للمؤمنين من ثواب و نعيم جراء صبرهم و ثباتهم على إيمانهم باللّه.

فتقول الآية الاولى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۱

عَذابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذابُ الْحَرِيقِ

«فتنوا»: من مادة (فتن)،- على زنة متن- و هو إدخال الذهب النّار لتظهر جودته من رداءته، و قد استعملت (الفتنة) بمعنى (الاختبار)، و بمعنى (العذاب و البلاء)، و بمعنى (الضلال و الشرك) أيضا.

و هى فى الآية بمعنى (العذاب)، على غرار ما جاء فى الآيتين (۱۳ و ۱۴) من سورة الذاريات: يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ

ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا: تدلّ على أنّ باب التوبة مفتوح حتى لأولئك الجناة المجرمين، و تدلّ أيضا على مدى لطف البارى جلّ و علا على الإنسان حتى و إن كان مذنبا، و فى الجملة تنبيه لأهل مكّة ليسارعوا فى ترك تعذيب المؤمنين و يتوبوا إلى اللّه توبة نصوح.

فباب التوبة لا يغلق بوجه أحد، و ذكر العقاب الإلهى الشديد الأليم إنّما جاء لتخويف الفاسدين و المنحرفين عسى أن يرعووا و يعودوا إلى الحق مولاهم.

و قد ورد فى الآية لونين من العذاب الإلهى، عَذابُ جَهَنَّمَ و عَذابُ الْحَرِيقِ للإشارة إلى أن لعذاب جهنم ألوان عديدة، منها (عذاب النّار)، و تعيين «عَذابُ الْحَرِيقِ» للإشارة أيضا إلى أن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات و أحرقوهم بالنّار، سوف يجازون بذات أساليبهم، و لكن، أين هذه النّار من تلك؟! فنار جهنم قد سجّرت بغضب اللّه، و هى نار خالدة و يصاحب داخليها الذلّ و الهوان، أمّا نار الدنيا، فقد أوقدها الإنسان الضعيف، و دخلها المؤمنون بعزّة و إباء و شرف ملتحقين بصفوف شهداء رسالة السماء الحقة.

و قيل: إنّ عَذابُ جَهَنَّمَ جزاء كفرهم، و عَذابُ الْحَرِيقِ جزاء ما اقترفوا بحق المؤمنين الأخيار من جريمة بشعة.

و تعرض لنا الآية التالية ما سيناله المؤمنون من ثواب: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۲

وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ذلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ.

و أىّ فوز أرقى و أسمى من الوصول إلى جوار اللّه، و التمتع فى نعيمه الذى لا يوصف! نعم، فمفتاح ذلك الفوز العظيم هو (الإيمان و

العمل الصالح)، و ما عداه فروع لهذا الأصل.

عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إشارة إلى أنّ العمل الصالح لا يختص بشىء محدد، بل ينبغى أن يكون محور حياة الإنسان هو: «العمل الصالح».

«ذلك»: إشارة للبعيد، و استعملت هنا لتبيان عظمة و أهمية المشار إليه، أىّ: إنّ فوزهم الكبير من عظمة الشأن، بقدر لا يخطر على بال أحد.

و يعود القرآن مرّة اخرى لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين، فيقول: إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ.

و لا تظنوا بأن القيامة أمر خيالى، أو إنّ المعاد من الأمور التى يشك فى صحة تحققها، بل: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ.

«البطش»: تناول الشىء بصولة و قهر، و باعتباره مقدّمة للعقاب، فقد استعمل بمعنى العقاب و المجازاة.

«ربّك»: تسلية للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تأكيد دعم اللّه اللامحدود له.

و الجدير بالملاحظة، إنّ الآية تضمّنت جملة تأكيدات، لتبيان صرامة التهديد الإلهى بجديّة و قطع.

ف «البطش» يحمل معنى الشدّة المؤكّدة، و الجملة الاسمية عادة ما تأتى للتأكيد، و وصف البطش بأنّه «شديد»، و كذا وجود «إن»، و وجود لام التأكيد فى «لشديد»، هذا بالإضافة إلى التأكيد المتضمّن فى قوله تعالى: إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَ يُعِيدُ كدليل إجمالى على المعاد[۸۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۳

ثمّ يعرض لنا القرآن الكريم خمسة أوصاف للبارى جلّ شأنه: وَ هُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ الذى يغفر للتائبين و يحب المؤمنين.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ صاحب الحكومة المقتدرة على عالم الوجود و ذو المجد و العظيمة.

فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ.

«الغفور» و «الودود»: كلاهما صيغة مبالغة، و يشيران إلى منتهى الغفران و الود الإلهى، «الغفور» لعبادة المذنبين، و «الودود» المحب لعباده الصالحين.

فذكر هذه الأوصاف بعد ما تضمّنته الآيات السابقة من تهديد و وعيد، يبيّن أنّ طريق العودة إلى اللّه سالك و أنّ باب التوبة مفتوح لكلّ من ولغ فى الذنوب، فالبارى جلّت عظمته فى الوقت الذى هو شديد العقاب فهو الغفور الرحيم أيضا.

و على هذا الضوء ف «الودود» جاء بصيغة اسم الفاعل، و ليس كما قيل من أنّه اسم مفعول، ليكون المعنى: بأنّ اللّه له محبّون كثيرون، فهذا المعنى لا ينسجم مع الصفة السابقة «الغفور» و لا يتناسب مع سياق الكلام.

و صفة: «ذو العرش» كناية عن قدرته و حاكميته و مالكيته سبحانه و تعالى، و يتبيّن بهذا الوصف أنّ حكم عالم الوجود بيده جلّ و علا، فما شاء كان، و قوله تعالى: فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ من لوازم هذه الحاكمية المطلقة.

ف «ذو العرش» تشير إلى قدرته تعالى على: المعاد، إحياء الموتى و معاقبة الجبابرة و المجرمين و الذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات.

«المجيد»: من (المجد)، و هو السعة فى الكرم و الجلال، و هى من الصفات المختصة باللّه سبحانه، و قلّما تستعمل لغيره.[۸۱] و بنظرة بسيطة إلى هذه الصفات المذكورة سيتراءى أمامنا ذلك الانسجام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۴

و الترابط فيما بينها فالغفور و الودود لمن له القدرة وسعة الكرم كى يفعل ما يريد، لا يمنعه شىء و لا يصد إرادته أمر، لأنّ إرادته فى مطلق القوّة و الدوام و لا يصيبها تردد أو فسخ، سبحانه و تعالى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۵

الآيات [سورة البروج (۸۵): الآيات ۱۷ الى ۲۲]

اشارة

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (۱۷) فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ (۱۸) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (۱۹) وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ (۲۰) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (۲۱)

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (۲۲)

التّفسير

ألم تر ما حلّ بجيش فرعون و ثمود؟!

فيما تعرضت الآيات السابقة لقدرة اللّه المطلقة و حاكميته، و لتهديد الكفار الذين يفتنون المؤمنين .. تتعرض الآيات أعلاه لما يؤكّد هذا التهديد ...

فتخاطب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قائلة: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ.

تلك الكتائب الجرارة التى وقفت بوجه أنبياء اللّه عليهم السّلام بتصورها الساذج بأنّها ستقف أمام قدرة اللّه عزّ و جلّ.

و تشير إلى نموذجين واضحين، أحدهما من غابر الزمان، و الآخر فى زمن قريب من صدر دعوة الإسلام: فِرْعَوْنَ وَ ثَمُودَ.

فأحدهما ملك الشرق و الغرب، و الآخر وصلت مدنيته لأن يحفر الجبال لبناء البيوت و القصور الفخمة، و لهما من الجبروت ما لم يستطع أحد من الوقوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۶

بوجههم، و لكنّ العزيز الجبار أهلكهم بالماء و الهواء، مع ما لهاتين المادتين من لطافة و ليونة، و ما يمثلانه باعتبارهما من الوسائل المهمّة المستلزمة لأساسيات حياة الإنسان، فقد أغرقت أمواج و تيارات نهر النيل ذلك الطاغى (فرعون) و جنوده، فيما سلّط اللّه الهواء القارص بأعاصير مدمرة اجتاحت قوم ثمود حتى قطعت دابرهم، فأهلكوا جميعهم.

القرآن الكريم يذكّر مشركى مكّة بذلك النموذجين ليعرفوا أنفسهم أمام اللّه تعالى، فإنّ كان اللّه قد أهلك تلك الجيوش العظيمة و بما تملك من عناصر القوّة بماء و هواء، فهل سيبقى لزمام أمورهم من شىء، و هم أضعف من أولئك! علما بأنّ البشر أمام اللّه بكلّ ما يحملون من قوّة فهم سواء، فلا فرق بين ضعيف و قوى ..

فأين الخالق من المخلوق! و إنّما اختير قوم «فرعون» و «ثمود» دون بقية الأقوام السالفة كنموذجين للعصاة و الضالين، باعتبارهما كانا يمتلكان قدرة و قوّة مميزة على بقية الأقوام، و أهل مكّة على معرفة بتاريخهما إجمالا.

و تقول الآية التالية: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ

فآيات و دلائل الحق ليست بخافية على أحد، و لكن العناد و اللجاجة هما اللذان يحجبان عن رؤية طريق الحق و الإيمان.

و كأن «بل» تشير إلى أنّ عناد و تكذيب أهل مكّة أشدّ و أكثر من قوم فرعون و ثمود و هم مشغولون دائما بتكذيب الحق و إنكاره و يستخدمون كلّ وسيلة فى هذا الطريق، (بلحاظ أن «بل» تستعمل عادة للاضراب: أى للعدول من شىء إلى شىء آخر).

و عليهم أن يعلموا بقدرة اللّه: وَ اللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ.

فلا يدل الإمهال على الضعف أو العجز، و لا يعنى عدم تعجيل إنزال العقوبة الإلهية بأنّهم قد خرجوا عن قدرته جلّ شأنه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۷

و ما مجىء مِنْ وَرائِهِمْ إلّا للتعبير عن كونهم فى قبضة القدرة الإلهية من جميع الجهات، و هو محيط بهم، و ليس لهم من مخلص عن

العذاب بحكم العدل الإلهى.

و ثمّة من يذهب بإرادة الإحاطة العلميّة فى الآية، أى .. إنّ اللّه تعالى محيط بأعمالهم من كلّ جهة، فلا يغيب عنه سبحانه أى قول أو عمل أو نيّة.

و تقول الآية التالية: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ذو مكانة سامية و مقام عظيم.

فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، لا تصل إليه يد العبث، و الشيطنة، و لا يصيبه أىّ تغيير أو تبديل، أو زيادة أو نقصان.

فلا تبتأس يا محمّد بما ينسبونه إليك افتراء، كأن يتهموك بالشعر، السحر، الكهانة و الجنون .. فأصولك ثابتة، و طريقك نيّر، و القادر المتعال معك.

«مجيد»:- كما قلنا- من (المجد)، و هو السعة فى الكرم و الجلال، و هو ما يصدق على القرآن تماما، فمحتواه واسع العظمة، و معانيه سامية على كافة الأصعدة العلميّة، العقائدية، الأخلاقية الوعظ و الإرشاد، و كذا فى الأحكام و السنن.

«لوح»- بفتح اللام-: هو الصفحة العريضة التى يكتب عليها، و (اللوح)- بضم اللام-: العطش، و الهواء بين السماء و الأرض.

الفعل الذى يشتق من الأوّل يأتى بمعنى الظهور و الانكشاف.

و يراد باللوح هنا: الصفحة التى كتب فيها القرآن، لكنّها ليست كالألواح المتعارفة عندنا، بل (و على قول ابن عباس): إنّ اللوح المحفوظ طوله ما بين السماء و الأرض و عرضه ما بين المشرق و المغرب! و يبدو أنّ اللوح المحفوظ، هو «علم اللّه» الذى يملأ الشرق و الغرب، و مصان من أىّ اختلاق أو تحريف.

نعم، فالقرآن من علم المطلق، و ما فيه يشهد على أنّه ليس نتيجة إشراقة عقلية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۸

فى عقل بشر، و لا هو بنتاج الشياطين.

و يحتمل أن يكون هو المقصود به «ام الكتاب» و «كتاب مبين» الواردان فى الآية (۳۹) من سورة الرعد: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ و الآية (۵۹) من سورة الأنعام: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ

علما بأنّ تعبير (لوح محفوظ) لم يرد فى القرآن إلّا فى هذا الموضع فقط.

اللّهم! زدنا معرفة بكتابك العظيم ...

اللّهم! ضمّنا بين جناح رحمتك يوم يفوز المؤمنون، و قنا غضبك يوم يهلك الكافرون و المجرمون فى عذاب الحريق ...

اللّهم! أنت الغفور الودود الرحيم، فعاملنا بمقتضى صفاتك، و لا تعاملنا بمقتضى أعمالنا ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة البروج

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۹۹

سورة الطّارق

اشارة

مكيّة و عدد آياتها سبع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۱

«سورة الطّارق»

محتوى السّورة:

تدور مواضيع السّورة حول محورين:

۱- محور المعاد و القيامة.

۲- محور القرآن الكريم و أهميته القيمة تبتدأ السّورة بجملة أقسام تبعث على التأمل و التفكير، ثمّ تشير إلى المراقبين الإلهيين على الإنسان.

و تنتقل السّورة لإثبات إمكانية المعاد من خلال الإشارة الى كيفية خلق الإنسان من نطفة.

فالقادر على خلق الإنسان من نطفة نتنة لقادر على إعادة حياته بعد موته.

و تعرض لنا السّورة بعد ذلك معالم المرحلة التالية من خلال تبيان بعض ملامح يوم القيامة، ثمّ تذكر جملة أقسام اخرى للتأكيد على أهمية القرآن، و من ثمّ نختم بإنذار الكفار بالعذاب الإلهى.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه اللّه بعدد كلّ نجم فى السماء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۲

عشر حسنات»[۸۲].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «من كانت قراءته فى الفريضة ب (و السماء و الطارق) كان له عند اللّه يوم القيامة جاه و منزلة، و كان من رفقاء النبيّين و أصحابهم فى الجنّة»[۸۳]

و بديهى، أنّ التأمل بمحتوى السّورة و العمل على ضوءها هو الذى يضمن حصول ثوابها، و حركة اللسان الفارغة عن كل محتوى و تطبيق، لا تغنى عن الحق شيئا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۳

الآيات [سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ (۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ (۲) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (۳) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ (۴)

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ (۵) خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ (۶) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ (۷) إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ (۸) يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ (۹)

فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰)

التّفسير

ممّ خلق الإنسان؟!

تبتدأ السّورة- كمثيلاتها من سور الجزء الأخير من القرآن الكريم- بعدّة أقسام بليغة تبعث على التأمل، و هى مقدمة لبيان أمر مهم.

وَ السَّماءِ وَ الطَّارِقِ .. وَ ما أَدْراكَ مَا الطَّارِقُ .. النَّجْمُ الثَّاقِبُ

«الطارق»: من (الطرق)- على زنـة برق- و هو الضـرب، و لهـذا قيل (الطريق) لما تطرقه أرض المشاة، و (المطرقة) هى الآلة التى يطرق بها الحديد و غيره.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۴

و يقال للقادم ليلا (الطارق)، لأنّ البيوت عادة ما تغلق أبوابها ليلا، فكلّ قادم يلزمه و الحال هذه طرق الباب.

و عند ما جاء المنافق (الأشـعث بن قيس) لزيارة أمير المؤمنين عليه السّلام ليلا، جلب معه الحلوى، ظنا منه أنّ هذه الحلوى ستجعل من أمير المؤمنين عليه السّلام ظهيرا له فى قضية معينة.

فذكر الأمير عليه السّلام هذه الواقعة متعجبا و ذاما:

«و أعجب من ذلك طرقنا بملفوفة فى وعائها».[۸۴]

و يفسّـر القرآن الكريم «الطارق» بقوله: النَّجْمُ الثَّاقِبُ النجم اللامع الـذى مع علوّه الشاهق و كأنّه يريـد أن يثقب سـقف السـماء، و كأنّ نوره المتشعشع يريد أن يثقب ستار الليل الحالك، فيجلب الأنظار بميزته هذه.

و لكن، أىّ نجم هو الطارق؟ هل هو الثريا (لبعـدها الغائر فى عمق السـماء)، زحل، الزهرة، أم الشـهب (لما لها من نور جذّاب)، أم كل النجوم؟

ثمّـة احتمالاـت متباينـة فى هـذا الموضوع، و لكن وجود صـفة «الثاقب» لهـذا النجم تعطى الإشارة إلى أنّ النجوم المتلألئـة التى تثقب أنوارها ظلمة الليل، و تجذب الأنظار إليها، هى المرادة و ليس كلّ نجم.

و فسّرت بعض الرّوايات «النجم الثاقب» بكوكب (زحل) من المنظومة الشمسية لشدّة نوره و لمعانه.

و

روى أنّ منجما سأل الإمام الصادق عليه السّـلام، بقوله: فما يعنى بالثاقب؟ قال: «لأنّ مطلعه فى السـماء السابعة، و أنّه ثقب بضوءه حتى أضاء السماء الدنيا، فمن ثمّ سمّاه اللّه النجم الثاقب»[۸۵].

و يعتبر (زحل) من أبعد النجوم أو الكواكب فى مجموعتنا الشمسية التى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۵

يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، و يقع فى المدار السابع للشمس، و لذا عبّر عنه الإمام عليه السّلام بأنّه فى السماء السابعة.

و ما لهذا الكوكب من خصائص تؤهله لأن يقسم به، فهو أبعد ما يمكن رؤيته من منظومتنا الشمسـية، لذا فالعرب يشـبهون كلّ عال به، و يطلقون عليه أحيانا (شـيخ النجوم)[۸۶]، و له حلقـات رائعـة تحيـط به، و له أيضـا ثمانيـة أقمار، و تعتبر من حلقاته من أعجب ظواهر السماء.

و مع كلّ ما توصل إليه علماء الفلك بخصوصه، فثمّة أسرار لم يكشف عنها الستار بعد.

و قيل: إنّ لزحل عشرة أقمار، يمكن رؤية ثمانية منها بالناظور العادى (تلسكوب)، و لا يمكن رؤية الآخرين إلّا بالنواظير الكبيرة[۸۷].

و ممّا لا شك فيه، إنّ هذه الحقائق ما كانت مكتشفة فى عصر نزول الآية المباركة، و توصل إليها بعد قرون من نزولها.

و على أيـة حال، فيمكن تفسـير: النَّجْمُ الثَّاقِبُ بكوكب زحل، على اعتبار كونه أحـد مصاديقه الواضـحة، و لا ينافى تفسـيره بأيـة نجوم اخرى عالية و وضاءة، فالتّفسير المصداقى كثير الاستعمال فى رواياتنا.

و فى الآية (۱۰) من سورة الصافات: إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَـةَ فَأَتْبَعَهُ شِـهابٌ ثاقِبٌ فوصف «الشـهاب» بأنّه «ثاقب» يحمل الإشارة لاحتمال أنّ تكون الظاهرة السـماوية المـذكورة هى ظاهرة «الشـهب»، لتكون أحـد تفاسـير الآية المبحوثة، و يؤيد ذلك أيضا بعض ما ذكر فى شأن نزول الآية.[۸۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۶

و لنرى لأى شيء كان هذا القسم: إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ[۸۹].

يحفظ عليه أعماله، و تسجل كل أفعاله، ليوم الحساب.

كما جاء فى الآيات (۱۰- ۱۲) من سورة الإنفطار: وَ إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كاتِبِينَ يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ

فلا تظنوا بأنّكم بعيدون عن الأنظار، بل أينما تكونوا فثمّة عليكم ملائكة مأمورين يسجلون كلّ ما يبدر منكم .. و هذا ما له الأثر البالغ فى عملية إصلاح و تربية الإنسان. مع أنّ الآية لم تحدد هوية «الحافظ»، و لكن الآيات الاخرى تبيّن بأن «الحفظة» هم الملائكة و أنّ «المحفوظ» هو أعمال الإنسان من الطاعات و المعاصى.

و قيل: يراد بها حفظ الإنسان من الحوادث و المهالك، و لولا ذلك لما خرج الإنسان من الدنيا بالموت الطبيعى، و الأطفال بالخصوص.

أو المراد هو: حفظ الإنسان من وساوس الشيطان، و لو لا هذا الحفظ لما سلم أحد من وساوس شياطين الجنّ و الأنس.

و بلحاظ ما تتطرق إليه الآيات التالية (حول المعاد و الحساب الإلهى)، يكون التّفسير الأول أقرب من غيره و أنسب، و لو أنّ الجمع بين هذه التفاسير الثلاثة غير بعيد عن مراد الآية.

و العلاقة ما بين المقسوم به و ما أقسم له وثيقة، حيث أنّ السماء العالية و النجوم التى تتحرك فى مسارات منظمة، دليل على وجود النظم و الحساب الدقيق فى عالم الوجود، فكيف يمكن أنّ نتصور بأنّ أعمال الإنسان دون باقى الأشياء لا تخضع لهذه السّنة، لتبقى سائبة بلا ضبط و تسجيل و ليس عليها من حافظ؟!! ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۷

ثمّ يستدل القرآن الكريم على المعاد فى مقابل من يقول باستحالة المعاد:

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ

و بهذا .. أخذ القرآن الكريم بأيدى الجميع و أرجعهم إلى أول خلقهم، مستفهما عمّا خلق منه الإنسان.

و بدون أن ينتظر الجواب من أحد يجيب القرآن على استفهامه: خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ و هو ماء الرجل الذى تسبح فيه الحيا من، و يخرج بدفق.

و يستمر فى تقريب المراد: يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ

«الصلب»: الظهر: و «الترائب»: جمع (تريبة)، و هى- على ما هو مشهور بين علماء اللغة- عظام الصدر العليا و ضلوعه.

و كما يقول ابن منظور فى لسان العرب: قال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر.

و ذكرت معان اخرى للترائب، منها: إنّها القسم الأمامى للإنسان (فى قبال الصلب، الذى هو ظهر الإنسان)، إنّها اليدان و الرجلان و العينان، إنّها عظام الصدر، أو ما يلى الترقوتين منه، و قيل: أربعة أضلاع من يمين الصدر و أربعة من يساره.

و أدناه، نذكر بعض الآراء الكثيرة للمفسّرين بخصوص المراد من «الصلب و الترائب» الواردة فى الآية المباركة.

۱- «الصلب» إشارة إلى الرجال، و «الترائب» إشارة إلى النساء، لأنّ فى الرجال مظهر الصلابة، و فى النساء مظهر الرقة و اللطافة.

و عليه، فالآية بصدد ذكر حيمن الرجل و بويضة المرأة، و منهما تتشكل نطفة خلق الإنسان.

۲- «الصلب» إشارة إلى ظهر الرجل، و «الترائب» إشارة إلى صدره، فيكون مراد الآية نطفة الرجل التى تقع ما بين ظهره و صدره.

۳- إرادة، خروج الجنين من رحم امّه، لأنّه يكون بين ظهرها و الجزء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۸

الأمامى لبدنها.

۴- قيل: إنّ فى الآيتين سرّا من أسرار التنزيل، و وجها من وجوه الأعجاز، إذ فيهما معرفة حقائق علميّة لم تكن معروفة حينذاك و قد كشف عنها العلم أخيرا.

و إذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا فى منشأ خصيّة الرجل و مبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات، التى حيرت الألباب، فقد ثبت أن خصيّة الرجل و مبيض المرأة فى بداية ظهورهما فى الجنين يقعان فى مجاورة كلية الجنين، أى بين وسط الفقرات (الصلب) و الأضلاع السفلى للصدر (الترائب) ثمّ مع نمو الجنين ينتقلان تدريجيا إلى الأسفل، و بما أن تكون الإنسان يمثل تركيبا من نطفة الرجل و المرأة و المحل الأصلى لجهاز توليد النطفة فيهما هو بين الصلب و الترائب، أختار القرآن لذلك هذا التعبير. و هذا ما لم يكن معروفا حينذاك.

و بعبارة اخرى: إنّ كلّ من الخصيّة و المبيض فى بدء تكوينهما يجاور الكلى و يقع بين الصلب و الترائب، أى ما بين منتصف العمود الفقرى تقريبا و مقابل أسفل الضلوع.[۹۰] و يشكل على هذا التّفسير ب: إنّ القرآن إنّما يقول: ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ فهو يمرّ من بينهما حال الخروج، فى حين لا يقول التّفسير المذكور ذلك، و يشير إلى محل توليده بينهما أثناء النمو الجنينى، بالإضافة إلى أنّ تفسير «الترائب» بأسفل الضلوع لا يخلو من نقاش.

۵- مراد الآية، هو المنى، لأنّه فى الحقيقة مأخوذ من جميع أجزاء البدن، و لذا عند ما يقذف إلى الخارج فإنّه يقترن مع انفعال و هيجان البدن كلّه و بعده فتور البدن بأجمعه، فيكون مقصود «الصلب» و «الترائب» فى هذه الحال تمام قسمى بدن الإنسان، الإمامى و الخلفى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۰۹

۶- و قيل أيضا: إنّ المصدر الأساس لتكوين المنى هو النخاع الشوكى الواقع فى ظهر الإنسان، ثمّ القلب و الكبد، فالأوّل يقع تحت أضلاع الصدر، و الآخر بين المكانين المذكورين، و على هذا الأساس قالت الآية: مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ

و يكفينا الرجوع إلى الآيات المبحوثة لدفع الغموض الحاصل، فالآيات تشير إلى ماء الرجل دون المرأة، بقرينة «ماء دافق»، و هذا لا يصدق إلّا على الرجل، و عليه يعود الضمير فى «يخرج».

و عليه، فينبغى إخراج المرأة من هذه الدائرة، ليكون البحث منصبا على الرجل فقط، و هو المشار إليه فى الآية.

و «الصلب و الترائب» هما ظهر الرجل و قسمه الأمامى، لأنّ ماء الرجل إنّما يخرج من هاتين المنطقتين ۹۱].

و هذا التّفسير واضح، خال من أىّ تكلف، ينسجم مع ما ورد فى كتب اللغة بخصوص المصطلحين.

كما و يمكن أن تكون الآية قد أشارت إلى حقيقة علمية مهمّة لم يتوصل إلى اكتشافها بعد، و ربّما المستقبل سيكشف ما لم يكن بالحسبان.

و نصل مع القرآن إلى نتيجة ما تقدم من الذكر الحكيم: إِنَّهُ عَلى رَجْعِهِ لَقادِرٌ.

فالإنسان ترابا قبل أن يكون نطفة، ثمّ مرّ بمراحل عديدة مدهشة حتى أصبح إنسانا كاملا، و ليس من الصعوبة بحال على الخالق أن يعيد حياة الإنسان بعد أن نخرت عظامه و صار ترابا، فالذى خلقه من التراب أوّل مرّة قادر على إعادته مرّة اخرى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۰

و قد ورد هذا المعنى فى الآية (۵) من سورة الحج: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، بالإضافة إلى الآية (۶۷) من سورة مريم: أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً.

و تصف لنا الآية التالية ذلك اليوم الذى سيرجع فيه الإنسان: يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ[۹۲].

«تبلى»: من (البلوى)، بمعنى الاختبار و الامتحان، و هو هنا الظهور و البروز، لأنّ الامتحان يكشف عن حقيقة الأشياء و يظهرها.

«السرائر»: جمع (سريرة)، و هى صفات و نوايا الإنسان الداخلية.

نعم، فأسرار الإنسان الدفينة ستظهر فى ذلك اليوم، «يوم البروز» و «يوم الظهور»، فسيظهر على الطبيعة كلّ من: الإيمان، الكفر، النفاق، نيّة الخير، نيّة الشر، الإخلاص، الرياء ...

و سيكون ذلك الظهور مدعاة فخر و مزيد نعمة للمؤمنين، و مدعاة ذلّة و مهانة و حسرة للمجرمين ...

و ما أشد ما سيلاقى من قضى وطرا من عمره بين النّاس بظاهر حسن و نوايا خبيثة! و ما أتعسه حينما تهتك أقنعته المزيفة فيظهر على حقيقته أمام كلّ الخلائق! و ربّما ذلك من أشدّ عذاب جهنم عليه ...

و تصف لنا الآية (۴۱) من سورة الرحمن هيئتهم بالقول: يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيماهُمْ و كذا الآيات (۳۸- ۴۱) من سورة عبس: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ.

نعم، فكما إنّ «الطارق» و النجوم الاخرى تظهر من خفائها ليلا على صفحة السماء، فكذا حال الإنسان فى عرصة يوم القيامة، فالحفظة و المراقبين الإلهيين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۱

المكلفين لتسجيل أعمال الإنسان سيظهرون كلّ شيء، كظهور ضوء النجم فى الليل الداج.

عن معاذ بن جبل أنّه قال سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: و ما هذه السرائر التى تبلى بها العباد فى الآخرة؟

فقال: «سرائركم هى أعمالكم من الصلاة و الصيام و الزكاة و الوضوء و الغسل من الجنابة و كلّ مفروض، لأنّ الأعمال كلّها سرائر خفيّة، فإن شاء الرجل قال صليت و لم يصل، و إنّ شاء قال توضيت و لم يتوضأ، فذلك قوله تعالى يوم تبلى السرائر»[۹۳].

و لكن أشدّ صعاب ذلك اليوم على الإنسان: فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ.

فلا يملك تلك القوّة التى تخفى أعماله و نياته، و ليس له ذلك الظهير الذى يعينه عن الخلاص من عذاب اللّه سبحانه و تعالى.

و قد ورد هذا المعنى فى آيات قرآنية اخرى، ففى ذلك اليوم: لا ناصر و لا معين، و لا يقبل فداء، و لا رجعة، و ليس من وسيلة للفرار من قبضة العدل حينها، إلّا وسيلة واحدة للنجاة و هى «الإيمان و العمل الصالح» فقط.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۲

الآيات [سورة الطارق (۸۶): الآيات ۱۱ الى ۱۷]

اشارة

وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ (۱۱) وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ (۱۲) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (۱۳) وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ (۱۴) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (۱۵) وَ أَكِيدُ كَيْداً (۱۶) فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً (۱۷)

التّفسير

خواء خطط الأعداء:

بعد أن تضمّنت الآيات السابقة استدلالا على المعاد، بطريق توجيه الإنسان إلى بداية خلقه، تعود هذه الآيات إلى المعاد مرّة اخرى، لتشير إلى بعض الأدلة الاخرى عليه فتقول: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ .. وَ الْأَرْضِ ذاتِ الصَّدْعِ .. إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ .. وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ

«الرجع»: من (الرجوع)، بمعنى العود، و يطلق على الأمطار اسم (الرجع) لأنّها تبدأ من مياه الأرض و البحار، ثمّ تعود إليها تارة اخرى عن طريق الغيوم، أو لأنّ هطول المطر يكون فى فواصل زمنية مختلفة.

و يسمّى الغدير رجعا .. إمّا للمطر الذى فيه، و إمّا لتراجع أمواجه، و تردده فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۳

مكانه ۹۴].

«الصدع»: هو الشق فى الأجسام الصلبة.

و بملاحظة معنى «الرجع» فى الآية السابقة، نصل إلى أنّ مراد الآية بالصدع هو شق الأرض اليابسة بالأمطار، و خروج النباتات منها.

فالقسمان يشيران إلى إحياء الأراضى الميتة بالأمطار، و هذا ما تكرر ذكره فى القرآن الكريم كدليل على إمكانية المعاد، كما فى قوله تعالى فى الآية (۱۱) من سورة «ق»: وَ أَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ

و هنا تتجسد بلاغة الأسلوب القرآنى، من خلال ربطه الدقيق فيما بين ما يقسم به و ما يقسم له.

و بعبارة اخرى، فالسّورة قد استندت إلى المقارنة فيما بين خلق الإنسان من نطفة و بين إحياء الأرض الميتة بالأمطار، فى استدلالها، و جاء شبيه هذا الاستدلال فى الآية (۵) من سورة الحج: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَ ... وَ تَرَى الْأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَتْ وَ أَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

و قيل أيضا: إنّ الآية: وَ السَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ تشير إلى دوران الكواكب فى مسارات معينة، كدوران الأرض حول نفسها و حول الشمس، و حركة الكواكب السيّارة للمنظومة الشمسية، و كذلك شروق و غروب الشمس و القمر و النجوم، حيث أنّ كلّ هذه الحركات تتضمّن الرجوع و العودة.

و هذا الرجوع علامة لرجوع النّاس العام إلى الحياة.

و لكن من خلال ما تقدم يظهر لنا أنّ التّفسير الأوّل أنسب و أقرب لقرائن السّورة، حيث أنّه أشارة إلى مسألة شقّ الأرض مع أدلة المعاد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۴

«القول الفصل»: هو القول أو الحديث الذى يفرق بين الحق و الباطل، و قيل:

هو فى الآية يشير إلى المعاد، بقرينة الآيات السابقة، و قيل أيضا: هو إشارة إلى القرآن، و هناك بعض الرّوايات عن أهل البيت عليهم السّلام تؤيد هذا المعنى. و قد ورد التعبير عن القيامة ب «يوم الفصل» فى الكثير من الآيات القرآنية.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد هو الإشارة إلى الآيات القرآنية و التى تتضمّن الحديث عن المعاد، و بذلك يتمّ الجمع بين التّفسيرين.

فقد روى عن الإمام على عليه السّلام: «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّها ستكون فتنة!» قلت: فما المخرج منها يا رسول اللّه؟! قال: «كتاب اللّه فيه نبأ من قبلكم، و خبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه اللّه، و من ابتغى الهدى فى غيره أضله اللّه».[۹۵]

و تسلّى الآيات التالية قلب النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و المؤمنين من جهة، و تتوعد أعداء الإسلام من جهة اخرى: إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً، فالكفار يخططون من جهة، و أنا أخطط لإحباط تلك الخطط من جهة اخرى .. وَ أَكِيدُ كَيْداً.

فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً، حتى يروا عاقبتهم! نعم، إنّهم دوما يكيدون فى حربك و الحرب ضد دينك.

فتارة بالاستهزاء ..

و اخرى بالحصار الاقتصادى ..

و مرّة بتعذيب المؤمنين ..

و اخرى يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه كى تنتصروا ..

و يقولون عنك: ساحرا، كاهنا، مجنونا ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۵

و يمارسون النفاق: بأن يؤمنوا بك صباحا و يكفروا مساء، كى يؤثّروا على البسطاء ..

و يقولون لك: أبعد الفقراء و المستضعفين عنك حتى نتّبعك و أحيانا يقولون: آمن ببعض آلهتنا حتى نؤمن بك ..

و يكيدون لإبعادك و قتلك ..

و الخلاصة: فشغلهم الشاغل هو: التخطيط المستمر لمواجهتك، لتفريق من آمن بك، و الضغط على أصحابك، أو قتلك لإطفاء نور اللّه بذلك! و لا يعلمون بأنّ اللّه متمّ نوره و لو كرهوا.

«الكيد»[۹۶]: ضرب من الاحتيال و التغلب على المشكل بتهيئة المقدمات، و فيه جنبة خفية، و قد يكون مذموما و ممدوحا كقوله تعالى: كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ۹۷]، و إن كان يستعمل فى المذموم أكثر.

و مراد الآية هو كيد الأعداء كما هو واضح، و قد تعرضنا لبعض نماذجه أعلاه، فيما تناولت هذا الموضوع آيات قرآنية كثيرة.

و لكن .. ما المقصود بالكيد الإلهى؟

قيل: إنّه الإمهال الذى ينتهى بالأخذ الشديد و العذاب الأليم.

و قيل أيضا: إنّه نفس العذاب الذى ينتظرهم.

و الأنسب أن يقال: إنّه تلك الألطاف الإلهية التى غمرت النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و من معه من المؤمنين، و ما كان يصيب أعداء الإسلام من فشل مخططاتهم و خيبة مساعيهم.

و يحمل التاريخ الإسلامى بين طياته شواهد كثيرة على هذا المعنى.

و تأمر الآيات النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- على الأخص- بأن يمهلهم و لا يتعجل على

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۶

عذابهم، و أنّ يتمّ الحجّة عليهم، فعسى أن يعود قسم منهم إلى رشده و يسلم و أساسا فالعجلة لمن يخاف الفوت، و هذا ما لا يصدق على القاهر القادر سبحانه و تعالى.

و الملاحظ فى الآية، إنّها شرعت ب فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ فيما أكّدت ذلك بقولها «أمهلهم»، فالأوّل من باب (التفعيل)، و الثّانى من باب (الأفعال) و قد جاء للتأكيد دون تكرار اللفظ بعينه.

«رويدا»: من (الرود)- على وزن عود- و هو التردد فى طلب الشىء يرفق، و لها هنا معنى مصدريا مع تصغير، أى أمهلهم مهلة صغيرة[۹۸].

و بهذا يوصى اللّه عزّ و جلّ نبيّه الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذه الجملة المختصرة ثلاث مرات بامهال و مداراة الكافرين و هذا فى الحقيقة درس للمسلمين فى الكيفية التى ينبغى العمل بها عند مواجهة أعداءهم، و خصوصا إذا ما كانوا أعداء أقوياء و شرسين، فلا بدّ من الصبر و التأنى و الدقّة فى حساب خطوات المواجهة، و ينبغى عدم التسرع فى العمل، و كذا عدم تنفيذ القرارات غير المدروسة.

مضافا إلى التبليغ و الدعوة إلى الحق لا بدّ فيها من تجنب العجلة و التسرّع حتّى تتاح الفرصة لكلّ من يمكن هديه، فلا بدّ من تفهيم الإسلام بكل لطف و سعة صدر مع الدليل القاطع، و بهذا تتمّ الحجّة على الآخرين.

أمّا السبب فى طلب الإمهال القليل، ففيه احتمالين:

الأوّل: كان الإمهال لحين حدوث معركة بدر، حيث أحرز المسلمون فيها نصرا مبينا على الكفار بعد مدّة قليلة من نزول الآية.

و معركة بدر أوّل ضربة موجعة تلقاها المشركون من المسلمين، ثمّ تلتها ضربات فى معركة الأحزاب و معركة خيبر و غيرها، ممّا أفشل مخططات الكفرة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۷

لدحر الإسلام.

و حينما وافى عمر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الأجل، كان نور الإسلام قد غطى كلّ أرجاء شبه الجزيرة العربية، و لم يمض قرن واحد على عمر الرسالة الخاتمة حتى تفيئت معظم أجزاء العالم تحت ظله الآمن.

الثّانى: لأنّ عذاب القيامة سيقع حتما، و كلّ حتمى الوقوع قريب.

و على أيّة حال، فقد بدأت السّورة بالقسم بالسماء و النجوم، و انتهت بتهديد الكافرين و المتآمرين على الحقّ، و فيما بين البدء و الانتهاء، تعرضت إلى بعض أدلة المعاد بأسلوب رائع و مؤثر، و إلى بيان شيّق للرقابة الإلهية على أعمال الإنسان، بالاضافة إلى ما قدمته من تسلية لترطيب خواطر المؤمنين، بلسان فى غاية اللطف البليغ.

اللّهم، ردّ كيد أعداء دينك، و لا سيما المتأخرين منهم الذين عاثوا فى الأرض فسادا، و اقطع دابر المتجبرين ...

اللّهم، سدّ عوراتنا يوم تبلى السرائر ...

اللّهم، لا قوّة لنا و لا ناصر سواك، فلا تكلنا لغيرك ...

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الطّارق***

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۱۹

سورة الأعلى

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۱

«سورة الأعلى»

محتوى السّورة:

تحتوى السّورة على قسمين من المواضيع:

القسم الأوّل: يحوى خطابا إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، يأمره البارى سبحانه فيه بالتسبيح و أداء الرسالة، ثمّ ذكر سبعا من صفات اللّه عزّ و جلّ، لها صلة ربط بالأمر الرّبانى إلى النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

القسم الثّانى: يتحدث عن المؤمنين الخاشعين، و الكافرين الأشقياء، و يتناول باختصار العوامل التى تؤدى إلى كل من السعادة و الشقاء الحقّ.

و فى آخر السّورة، يأتى التأكيد على أنّ ما جاء فى هذه السّورة ليس هو حديث القرآن الكريم فقط، بل و تناولته كتب و صحف الأولين أيضا، كصحف إبراهيم و موسى عليهما السّلام.

فضيلة السّورة:

روى عن النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد كلّ حرف أنزل اللّه على إبراهيم و موسى و محمّد عليهم السّلام»[۹۹].

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام أيضا، أنّه قال: «من قرأ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى فى فرائضه أو نوافله قيل له يوم القيامة ادخل الجنّة من أىّ أبواب الجنّة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۲

شئت إن شاء اللّه»[۱۰۰].

و ورد فى روايات عديدة: إنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، كانوا إذا قرءوا سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قالوا: «سبحان ربّى الأعلى»[۱۰۱].

و

روى عن أحد أصحاب أمير المؤمنين عليه السّلام، إنّه قال: صليت خلفه عشرين ليلة، و ليس يقرأ إلّا سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى و قال: «لو تعلمون ما فيها لقرأها الرجل كلّ يوم عشرين مرّة، و أنّ من قرأها فكأنّما قرأ صحف موسى و إبراهيم الذى وفى»[۱۰۲].

و خلاصة القول:

فيبدو أنّ السّورة من الأهمية بحيث:

«كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يحب هذه السّورة: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى كما روى عن الإمام على عليه السّلام ۱۰۳].

و قد اختلف فى مكان نزول الآية، فمع أنّ المشهور، نزولها فى مكّة، لكنّ ثمّة من يقول بنزولها فى المدينة.

و يرجح العلّامة الطباطبائى (قدّس سرّه) أن يكون قسمها الأوّل مكّيا و الآخر مدنيا، فيقول: و سياق الآيات فى صدر السّورة سياق مكّى، و أمّا ذيلها، أعنى قوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى إلخ فقد ورد فى طرق أئمّة أهل البيت عليهم السّلام، و أنّ المراد به «زكاة الفطرة» و «صلاة العيد»، و من المعلوم أنّ الصوم و ما يتبعه من زكاة الفطرة و صلاة العيد إنّما شرّعت بالمدينة بعد الهجرة[۱۰۴].

و يحتمل أيضا أنّ الأمر بالصلاة العيد و الزكاة الواردين فى آخر السّورة، هما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۳

أمران عامان، و ما صلاة و زكاة الفطرة إلّا مصداقان لهما، و التّفسير بالمصداق كثير فى روايات أهل البيت عليهم السّلام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۱۲۳

عليه .. فلا يبعد أن تكون السّورة كلّها مكّية كما هو المشهور، بقرينة انسجام مقاطع الآيات الاولى منها و الأخيرة أيضا.

و يصعب اعتبار كون بعضها مكّى و الآخر مدنى، خصوصا و أنّ الرّوايات تذكر، بأنّ كلّ مجموعة من المسلمين حينما يصلون المدينة، كانوا يقرءون هذه السّورة لأهل المدينة[۱۰۵].

فمن المستبعد أن يقرأ صدر السّورة فى مكّة، و من ثمّ ينزل ذيلها فى المدينة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۴

الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (۱) الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى (۲) وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدى (۳) وَ الَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعى (۴)
فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى (۵)

التّفسير

تسبيح اللّه:

تبدأ السّورة بخلاصة دعوة الأنبياء عليهم السّلام، حيث التسبيح و التقديس أبدا للّه الواحد الأحد، فتخاطب النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقول: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى
يذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ المراد بال «اسم» هنا هو (المسمى)، فى حين قال آخرون هو (اسم اللّه) سبحانه و تعالى.
و ليس ثمّة فرق كبير بين القولين، فالإسم يدّل على المسمى.
و على أيّة حال، فمراد الآية أن لا يوضع اسمه جلّ شأنه فى مصاف أسماء الأصنام، و يجب تنزيه ذاته المقدسة من كلّ عيب و نقص، و من كلّ صفات المخلوق و عوارض الجسم، أى أن لا يحد.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۵
فينبغى على المؤمنين ألّا يتعاملوا مع اسمه الجليل كتعامل عبدة الأصنام، بأن يضعوا اسمه تعالى مع أسماء أصنامهم، و لا يفعلوا كما يفعل المجسمة، ممن وقعوا فى خطأ كبير و فاحش حينما نسبوا إلى البارى جلّ جلاله الصفات الجسمية.
الْأَعْلَى أى الأعلى من كلّ: أحد، تصوّر، تخيّل، قياس، ظن، وهم، و من أى شرك بشقيه الجلى و الخفى.
رَبِّكَ إشارة إلى أنّه غير ذلك الرّب الذى يعتقد به عبدة الأصنام.
و بعد ذكر هاتين الصفتين (الربّ و الأعلى)، تذكر الآيات التالية خمس صفات تبيّن ربوبية اللّه العليا ..: الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى فَسَوَّى من (التسوية)، و هى الترتيب و التنظيم، و يضم هذا المفهوم بين جناحيه كلّ أنظمة الوجود، مثل: النظام السماوى بنجومه و كواكبه، و الأنظمة الحاكمة على المخلوقات فى الأرض، و لا سيما الإنسان من حيث الروح و البدن.
أمّا ما قيل، من كونها إشارة إلى نظام اليد أو العين أو اعتدال القامة، فهذا فى واقعه لا يتعدى أن يكون إلّا بيان لمصداق محدود من مصاديق هذا المفهوم الواسع.
و على أيّة حال، فنظام عالم الخليقة، بدءا من أبسط الأشياء، كبصمات الأصابع التى أشارت إليها الآية (۴) من سورة القيامة بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ و انتهاء بأكبر منظومة سماوية، كلها شواهد ناطقة على ربوبية اللّه سبحانه و تعالى، و أدلة إثبات قاطعة على وجوده عزّ و جلّ.
و بعد ذكر موضوعى الخلق و التنظيم، تنتقل بنا الآية التالية إلى حركة الموجودات نحو الكمال: وَ الَّذِى قَدَّرَ فَهَدى
و المراد ب (قدّر)، هو: وضع البرامج، و تقدير مقادير الأمور اللازمة للحركة باتجاه الأهداف المرسومة التى ما خلقت الموجودات إلّا لأجلها.
و المراد ب (هدى) هنا، هى: الهداية الكونية، على شكل غرائز و سنن طبيعية
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۶
حاكمة على كل موجود (و لا فرق فى الغرائز و الدوافع سواء كانت داخلية أم خارجية).

فمثلا، إنّ اللّه خلق ثـدى المرأة و جعل فى اللبن لتغذية الطفل، و فى ذات الوقت جعل عاطفة الامومة شديدة عند المرأة، و من الطرف الآخر جعل فى الطفل ميلا غريزيا نحو ثـدى امّه، فكلّ هـذه الاسـتعدادات و الـدوافع و شدّة العلاقة الموجودة بين الام و الابن و الثدى مقدّر بشكل دقيق، كى تكون عملية السير نحو الهدف المطلوب طبيعية و صحيحة.

و هذا التقدير الحكيم ما نشاهده بوضوح فى جميع الكائنات.

و بنظرة ممعنة لبناء كلّ موجود، و ما يطويه فى فترة عمره من خطوات فى مشوار الحياة، تظهر لنا بوضوح الحقيقة التالية: (ثمّة برنامج و تخطيـط دقيق يحيط بكل موجود، و ثمّـة يـد مقتـدرة تهـديه و تعينه على السير على ضوء ما رسم له)، و هـذه بحـد ذاتها علامـة جليّة لربوبية اللّه جلّ و علا.

و قـد اختص الإنسان بهدايـة تشـريعية إضافـة للهدايـة التكوينية يتلقاها عن طريق الوحى و إرسال الأنبياء عليهم السـلام، لتكتمل أمامه معالم الطريق من كافة جوانبه.

و توصلنا الآية (۵۰) من سورة طه لهذا المعنى، و ذلك لمّا نقلت لنا سؤال فرعون إلى موسـى عليه السّـلام بقوله: فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى فأجابه عليه السّلام: رَبُّنَا الَّذِى أَعْطى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى

و قد فهم قول موسـى عليه السّـلام بشـكل مجمل فى زمانه، و حتى فى زمان نزول الآية المباركة فى صدر الدعوة الإسلامية، و لكنّ .. مع دوران عجلـة الأيّـام، و تقـدم العلوم البشـرية، توصـل الإنسان إلى معارف كثيرة و منها ما يختص بمعرفـة أنواع أحوال الموجودات الحيّـة، فتوضـح قول موسـى عليه السّـلام أكثر فـأكثر، حتى كتبت آلاف الكتب فى موضوع (التقـدير) و (الهدايـة التكوينيـة)، و مع ما توصل إليه العلماء من معلومات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۷

باهرة، إلّا إنّهم يؤكّدون على أنّ ما بقى خافى عليهم، هو أكثر بكثير ممّا توصـلوا لمعرفته! و تشـير الآية التالية إلى النباتات، و ما يخصّ غذاء الحيوانات منها: وَ الَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعى

و استعمال كلمة أَخْرَجَ فيه وصف جميل لعملية تكوّن النباتات، حيث إنّه يتضمّن وجودها داخل الأرض فأخرجها البارى منها.

و ممّا لا شك فيه إنّ التغذية الحيوانية هى مقدمة لتغذية الإنسان، و بالنتيجة فإنّ فائدة عملية تغذية الحيوان تعود إلى الإنسان.

ثمّ: فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى

«الغثاء»: هو ما يطفـح و يتفرق من النبات اليابس على سـطح الماء الجارى، و يطلق أيضا على ما يطفـح على سـطح القدر عند الطبخ، و يستعمل كناية عن: كلّ ضائع و مفقود، و جاء فى الآية بمعنى: النبات اليابس المتراكم.

«أحوى»: من (الحوة)- على زنة قوّة- و هى شدّة الخضرة، أو شدّة السواد، و كلاهما من أصل واحد، لأنّ الخضرة لو اشتدّت قربت من السواد، و جاء فى الآية بمعنى: تجمع النبات اليابس و تراكمه حتّى يتحول لونه تدريجيا إلى السواد.

و يمكن أن يكون اختيار هذا التعبير فى مقام بيان النعم الإلهية، لأحد أسباب ثلاث:

الأوّل: إنّ حال هذه النباتات يشـير بشـكل غير مباشـر إلى فناء الدنيا، لتكون دوما درسا و عبرة للإنسان، فهى بعد أن تنمو و تخضـر فى الربيع، شـيئا فشـيئا ستيبس و تموت بعـد مرور الأيّـام عليهـا، حتى يتحول جمالهـا الزاهى فى فصـل الربيع إلى سواد قاتم، و لسان حالها يقول بعدم دوام الدنيا و انقضائها السريع.

الثّانى: إنّ النباتـات اليابسـة عنـد مـا تتراكم، فسـتتحول بمرور الوقت إلى سـماد طبيعى، ليعطى الأرض القـدرة اللازمـة لإخراج نباتات جديدة اخرى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۸

الثّالث: إنّ الآية تشير إلى تكوّن الفحم الحجرى من النباتات و الأشجار.

فكما هو معلوم، إنّ الفحم الحجرى، و الذى يعتبر من المصادر المهمّة للطاقة، قد تكوّن من النباتات و الأشجار التى يبست منذ ملايين السنين، و دفنت فى الأرض حتى تحجرت و اسود لونها بمرور الزمان.

و يعتقد بعض العلماء، بأنّ مناجم الفحم الحجرى قد تكوّنت من جراء النباتات اليابسة المدفونة فى داخل الأرض منذ (۲۵۰) مليون سنة تقريبا! و لو أخذنا بنظر الاعتبار مقدار الاستهلاك الفعلى للفحم الحجرى فى العالم، لوجدنا أنّها تؤمن احتياج النّاس لأكثر من (۴۰۰۰) سنة.

و تفسير الآية بالمعنى الأخير دون غير بعيد حسب الظاهر، و لا يستبعد أن تكون الآية قد أرادت كل ما جاء فى المعانى الثلاث أعلاه.

و على أيّة حال، فللغثاء الأحوى منافع كثيرة .. فهو غذاء جيد للحيوانات فى الشتاء، و يستعمل كسماد طبيعى للأرض، و كذا يستعمله الإنسان كوقود.

فما ذكرته الآيات من صفات الربوبية، الأعلى، الخلق، التسوية، التقدير، الهداية و إخراج المرعى، توصلنا إلى الربوبية الحقّة للّه جلّ و علا، و بقليل من التأمل يتمكن أىّ إنسان من إدراك هذا المعنى، ليصل نور الإيمان إلى قلبه، فيشكر المنعم على ما أعطى.

بحث

مسألة التقدير و الهداية العامّة للموجودات، التى تناولتها الآيات الآنفة الذكر كمظهر من مظاهر ربوبية اللّه عزّ و جلّ، تعتبر من المسائل الحيوية و التى كلما تقدم الزمان و توسعت مدارك و علوم الإنسان، إزداد فى الوصول إلى حقائق جديدة تضاف إلى معلوماته السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۲۹

فالاكتشافات العلمية الجديدة فى كلّ يوم تحيطنا علما لرؤية وجوه جديدة رائعة لتقدير اللّه مخلوقاته و هدايته لها.

و يزيّن المفسّرون تفاسيرهم ببعض النماذج من تلك الأسرار الرائعة فى خصوص الهداية التكوينية لحركة الحيوانات، و اعتمد البعض على ما ذكره العالم المعروف (كريسى موريسن) فى كتابه (أسرار خلق الإنسان)، و إليكم مختصرا ممّا جاء فيه:

۱- تقطع الطيور المهاجرة- فى بعض الأحيان- آلاف الكيلومترات فى السنة، عابرة الصحارى و الغابات و البحار، و عند عودتها تعرف طريق موطنها الأصلى بكل دقّة، و لا تضل عنه أبدا.

و من النحل ما يبتعد عن خليته لمسافات بعيدة جدّا، و لكنّه يعود إلى خليته بكلّ سهولة و يسر، فى حين نرى الإنسان فى حال عودته إلى وطنه يحتاج إلى عناوين و علامات دقيقة، حتى لا يضل الطريق! ۲- الحشرات تتمتع بعيون مجهرية ذات دقّة فائقة حيّرت عقول العلماء، من حيث بنائها و قدرتها على النظر فى حين أن عيون الصقور تلسكوبية تعينها على النظر لمسافات بعيدة جدّا.

۳- حينما يسير الإنسان بين عتمة الليل الداكنة فلا بدّ له من إضاءة تعينه فى مسيره، إلّا أنّ كثيرا من الطيور تصل أهدافها فى حلكة الليل الدامس، مستعينة بما لعيونها من قدرة على التحسس بالأشعة ما دون الحمراء! و لبعضها مراكز حسّاسة تشبه فى عملها الرادارات المتطورة! ۴- للكلاب حاسة شم مميزة، تستطيع من خلالها معرفة أىّ كائن حى يقع فى طريقها، و هذا ما لا يتوفر عند الإنسان، بالرغم من التقدم التقنى الذى وصل إليه.

۵- حاسة السمع عند جميع الحيوانات أقوى و أدق من سمع الإنسان بدرجات، على الرغم من استعمال الإنسان للأجهزة العلمية المتطورة فى سمعه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۰

بحيث يستطيع أن يستمع إلى حركة أجنحة ذبابة على بعد عدّة كيلومترات منه! و لعل السرّ فى هذا التفاوت بين قدرة حواس الإنسان و الحيوان، يرجع إلى القدرة العقلية المودعة فى الإنسان، و التى بها يسد كلّ نقص، فيما لا تمتلك الحيوانات هذه القدرة الفعالة ۶- و

ثمّة حركة عجيبة عند بعض الأسماك الصغيرة، فهى تقضى السنين من عمرها فى البحار، و لكن حين يحين وقت وضع البيض، فإنّها تترك البحار متجهة إلى تلك الأنهار التى فيها ولدت، فتسير بعكس التيار لمدّة طويلة حتى تصل إلى مسقط رأسها، المكان المناسب لتكاثرها! ۷- و الأعجب منها حياة بعض الأسماك و حيوانات الماء التى تسلك فى حياتها عكس الصنف السابق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۱

الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۶ الى ۱۳]

اشارة

سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى (۶) إِلاَّ ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى (۷) وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى (۸) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (۹) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى (۱۰)

وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (۱۱) الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى (۱۲) ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (۱۳)

التّفسير

التوفيق الرّبانى:

فيما كان الحديث فى الآيات السابقة عن ربوبية اللّه و توحيده جلّ شأنه، و الهداية العامّة للموجودات، و كذا عن تسبيح الرّب الأعلى .. تأتى الآيات أعلاه لتتحدث عن: القرآن و النّبوّة، و هداية الإنسان، و كذا البيان القرآنى للتسبيح.

فتقول الآية الاولى مخاطبة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى

فلا تتعجل نزول القرآن، و لا تخف من نسيان آياته، فالذى أرسلك بهذه الآيات لهداية البشرية كفيل بحفظها، و يخطها على قلبك الطاهر بما لا يمكن لآفة النسيان من قرض و لو حرف واحد منها أبدا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۲

و تدخل الآية فى سياق الآية (۱۱۴) من سورة طه: وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً، و كذا الآية (۱۶) من سورة القيامة:

لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَ قُرْآنَهُ تدخل فى سياقهما.

و لإثبات قدرته سبحانه و تعالى، و أنّ كلّ خير منه، تقول الآية: إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى

و لا يعنى هذا الاستثناء بأنّ النسيان قد أخذ من النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم وطرا، و إنّما هو لبيان أنّ قدرة حفظ الآيات هى موهبة منه سبحانه و تعالى، و مشيئته هى الغالبة أبدا، و إلّا لتزعزعت الثقة فى قول النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و بعبارة اخرى، إنّما جاء الاستثناء لتبيان الفرق بين علم اللّه تعالى الذاتى، و علم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم المعطى له من بارئه.

و الآية تشبه إلى حد ما ما جاء فى الآية (۱۰۸) من سورة هود، بخصوص خلود أهل الجنّة: وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.

ف خالِدِينَ فِيها دليل على عدم خروج أهل الجنّة منها أبدا، فإذن .. عبارة إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ تكون إشارة إلى حاكمية الإرادة و القدرة الإلهية، و ارتباط كلّ شىء بمشيئته جلّ و علا، سواء فى بداية الوجود أم فى البقاء.

و ممّا يشهد على ذلك أيضا .. أنّ حفظ بعض الأمور و نسيان اخرى تعتبر حالة طبيعية بين بنى آدم، و لكنّ اللّه تعالى ميزّ حبيبه

المصطفى بأن جعل فيه ملكة حفظ جميع آيات القرآن، و الأحكام و المعارف الإسلامية، حينما خاطبه ب: سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى

و قيل: أريد بهذا الاستثناء تلك الآيات التى نسخ محتواها و نسخت تلاوتها أيضا.

و لكن لعدم ثبوت وجود هكذا آيات، فلا يمكننا الاعتماد على هذا القول

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۳

الآنف أعلاه.

و قيل أيضا: إنّ الاستثناء يختص بقراءة بعض الآيات، فعلى هذا يكون مفهوم الآية هو: إنّنا سنقرئك آيات القرآن إلّا بعض الآيات التى أراد اللّه عزّ و جلّ أن تبقى فى مخزون علمه ..

و لا يتوافق هذا القول مع سياق الآية.

أمّا جملة: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَ ما يَخْفى فلبيان علّة أمر تضمّنته جملة سَنُقْرِئُكَ أى: إنّ العليم جلّ اسمه عالم بجميع حقائق الوجود، أمّا ما يوحيه إليك، فهو ما يحتاج إليه البشر، و يصلك بالكامل دون أن ينقص منه شىء.

و قيل أيضا: إنّ مراد الآية هو: على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن لا يتعجل فى أخذ الوحى، و أنّ لا يخشى نسيانه، فاللّه الذى يعلم الأمور ما خفى منها و ما ظهر، سوف لا يتركه و قد تعهد له بالحفظ.

و على أيّة حال، فمن معاجز النبىّ الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، قابليته على حفظ الآيات و السور الطوال بعد تلاوة واحدة من جبرائيل عليه السّلام، دون أنّ ينسى منها شيئا أبدا.

و تخاطب الآية التالية النبىّ الكريم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مسلية له: وَ نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى ۱۰۶].

أى، إخبار النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بصعوبة الطريق فى كافة محطاته، من تلقى الوحى و حفظه حتى البلاغ و النشر و التعليم و العمل به، و تطمئنه بالرعاية و العناية الربانية، بتذليل صعابه من خلال تيسيرها له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و يمكن كذلك أن تكون إشارة الآية إلى أن طبيعة الرسالة الإسلامية و التكاليف التى تضمّنتها، طبيعة سهلة و سمحة، خالية من الحرج و المشقّة.

و هذا المعنى يعطى شمولية أكثر لمفهوم الآية، بالرغم من أنّ أكثر المفسّرين قد حددوا الآية ببعد واحد من أبعاد مفهومها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۴

و حقّا، فلو لا- توفيق اللّه و تيسيره للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لما أمكنه من التغلب على كل تلك المشاكل و الصعاب التى واجهته فى حياته الرسالية، و حياته الشريفة تنطق بذلك.

فنراه بسيطا فى لباسه، قنوعا فى طعامه، متواضعا فى ركوبه، و تارة ينام على الفراش و اخرى على التراب بل و على رمال الصحراء أيضا.

فليس فى حياته الشريفة أىّ تكلف، و لا أدنى تشريف من التشريفات الزائفة الواهية المحيطة بزعماء و رؤساء أىّ قوم أو أمّه.

و بعد أن تبيّن الآيات العناية الرّبانية للنّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تنتقل إلى بيان مهمته الرئيسية: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى

قيل: الإشارة هنا إلى أنّ التذكير بحدّ ذاته نافع، و قليل أولئك من الذين لا ينتفعون به، و الحد الأدنى للتذكير هو إتمام الحجّة على المنكرين، و هذا بنفسه نفع عظيم ۱۰۷].

و لكن ثمّة من يعتقد أنّ فى الآية محذوف، و التقدير: (فذكّر إن نفعت الذكرى أو لم تنفع)، و هذا يشبه ما جاء فى الآية (۱۸) من سورة النحل: وَ جَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ، فذكر «الحر» و أضمر (البرد) لوضوحه بقرينة المقابلة.

و هناك من يؤكّد على أنّ الجملة الشرطية فى الآية، لها مفهوم، و المراد: أنّه يجب عليك التذكير إذا كان نافعا، فإن لم يكن نافعا فلا يجب.

و قيل: «إن»:- فى الآية- ليست شرطية، و جاءت بمعنى (قد) للتأكيد و التحقيق، فيكون مراد الآية: (ذكر فإنّ الذكرى مفيدة و نافعة).

و يبدو لنا أنّ التّفسير الأوّل مرجح على بقية التّفاسير الثّلاث، بقرينة سلوك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۵

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى نشره الإسلام، تبليغه الحق، فإنّه كان يعظ و ينذر الجميع.

و تقسم الآيات التالية النّاس إلى قسمين، من خلال مواقفهم تجاه الوعظ و الإنذار، الذى مارسه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ...: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى نعم، فإذا ما فقد الإنسان روح «الخشية»، و الخوف ممّا ينبغى أن يخاف منه، و إذا لم تكن فيه روحية طلب الحق- و التى هى من مراتب التقوى- فسوف لا تنفع معه المواعظ الإلهية، و لا حتّى تذكيرات الأنبياء ستنفعه، على هذا الأساس كان القرآن «هدى للمتقين».

و تذكر الآية التالية القسم الثّانى، بقولها: وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۱۰۸].

و جاء عن ابن عباس، إنّ الآية السابقة: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشى نزلت فى (عبد اللّه بن ام مكتوم)[۱۰۹]، ذلك البصير المؤمن الذى جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم طلبا للحق و التبصر به.

و روى، إنّ الآية: وَ يَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى نزلت فى (الوليد بن المغيرة) و (عتبة بن ربيعة) من رؤوس الشرك و الكفر[۱۱۰].

و قيل: يراد بالأشقى، المعاندين للحق بعداء، فالنّاس على ثلاثة أقسام: إمّا عارف و عالم، و إمّا متوقف شاك، أو معاند، و أفراد الطائفة الاولى و الثّانية ينتفعون من التذكير طبيعيا، فيما لا ينفع القسم الثّالث منهم، و ليس للتذكير من أثر عليه سوى إتمام الحجّة.

و يفهم من سياق الآية، أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان ينذر و يعظ حتى المعاندين، لكنّهم كانوا يتجنبونه و يهربون منه.

يبدو من خلال الآيتين الآنفتى الذكر أنّ «الشقاء» يقابل «الخشية» فى حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۶

أنّ (السعادة) هى التى تقابله، و لعل هذا التقابل يستبطن حقيقة كون أساس سعادة الإنسان مبنية على إحساسه بالمسؤولية و خشيته.

و يعرض لنا القرآن عاقبة القسم الثّانى: الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى .. ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى

أىّ، لا يموت ليخلص من العذاب، و لا يعيش حياة خالية من العذاب، فهو أبدا يتقلقل بالعذاب بين الموت و الحياة! و لكن ما هى «النّار الكبرى»؟

قيل: إنّها أسفل طبقة فى جهنم، و أسفل السافلين، و لم لا يكون ذلك و هم أشقى النّاس و أشدّهم عنادا للحق.

و قيل أيضا: إنّ وصف تلك النّار ب «الكبرى» مقابل (النّار الصغرى) فى الحياة الدنيا.

و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنّم، و قد أطفئت سبعين مرّة بالماء ثمّ التهبت و لولا ذلك ما استطاع آدمى أن يطيقها»[۱۱۱].

و فى وصف نسبة بلاء الدنيا إلى بلاء الآخرة، يقول أمير المؤمنين عليه السّلام، فى دعاء كميل: «على أنّ ذلك بلاء مكروه قليل مكثه، يسير بقاؤه، قصير مدّته ...».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۷

الآيات [سورة الأعلى (۸۷): الآيات ۱۴ الى ۱۹]

اشارة

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى (۱۴) وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى (۱۵) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا (۱۶) وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (۱۷) إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى (۱۸)

صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى (۱۹)

التّفسير

أسس دعوة الأنبياء جميعا عليهم السّلام:

بعد أن عرضت الآيات السابقة صورة العذاب و معاناة أهله، يأتى الحديث عن الذين نفعتهم الذكرى، ممن استمعوا إلى دعوة الهدى فطهروا أنفسهم من المعاصى و الآثام، و خشعت قلوبهم لذكر اللّه .. و يقول القرآن: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّى

وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى

فأساس الفلاح بالنجاة من العذاب و الفوز بالنعيم الخالد، يعتمد على ثلاثة أركان رئيسية: «التزكية»، «ذكر اسم اللّه» و «الصلاة».

و قيل فى معنى «التزكية» عدّة أقوال:

الا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۸

أوّل: تطهير الروح و تزكيتها من الشرك، بقرينة الآيات السابقة، و باعتبار أن التطهير من الذنوب و عبادة اللّه، يعتمد بالأساس على التطهير من الشرك، فهو مقدمته اللازمة.

الثّانى: تطهير القلب من الرذائل الأخلاقية، و القيام بالأعمال الصالحة، بدلالة آيات الفلاح الواردة فى كتاب اللّه الكريم، كالآيات الاولى من سورة المؤمن التى ذكرت أعمالا صالحة بعد أن قالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و كذا الآية (۹) من سورة الشمس التى قالت، بعد ذكر مسألة التقوى و الفجور: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاها.

الثّالث: «زكاة الفطرة» التى تؤدى يوم عيد الفطر، لأنّها تدفع أوّلا ثمّ يصلى صلاة العيد، و هذا المعنى قد ورد فى جملة رّوايات، رويت عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۱۲]، كما و روى فى كتب أهل السنة ما يؤيد هذا المعنى نقلا عن أمير المؤمنين عليه السّلام ۱۱۳].

و يواجه القول الثّالث بالإشكال التالى: إنّ سورة الأعلى مكيّة، فى حين أن تشريع زكاة الفطرة و صوم شهر رمضان و صلاة العيد قد نزل فى المدينة.

فأجاب البعض: لا مانع من اعتبار أوائل آيات السّورة مكّية و أواخرها مدنية، فتكون الآيات المبحوثة مدنية.

و يحتمل أن يكون التّفسير المذكور من قبيل بيان مصداق واضح للآية، و ليس مطلق مراد الآية.

الرّابع: يراد ب «التزكية» فى الآية بمعنى: إعطاء الصدقة.

المهم أن «التزكية» ذات مداليل واسعة تشمل: تطهير الروح من الشرك، تطهير الأخلاق من الرذائل، تطهير الأعمال من المحرمات و الرياء، تطهير الأموال و الأبدان بإعطاء الزكاة و الصدقات فى سبيل اللّه،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۳۹

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِها.

و بهذا تجمع كلّ الأقوال المذكورة لتدخل فى مفهوم التزكية الواسع المداليل.

و الجدير بالذكر أنّ الآيات محل البحث تتحدث عن التزكية أولا، ثمّ ذكر اللّه ثمّ الصلاة.

و قد أشار بعض المفسّرين إلى هذه المراتب، بعد أن جدولها بالمراحل العملية الثلاثة للمكلف:

الاولى: إزالة العقائد الفاسدة من القلب.

الثّانية: حضور معرفة اللّه و صفاته و أسمائه فى القلب.

الثّالثة: الإشتغال بخدمته و فى سبيله جلّ و علا.

و يمكن القول: إنّ الصلاة فرع لذكر اللّه، فإذا لم يذكر الإنسان ربّه، لم يسطع نور الإيمان فى قلبه، و عندها فسوف لن يقوى على الوقوف للصلاة، و الصلاة الحقّة هى تلك التى يصاحبها التوجّه الكامل و الحضور التام بين يديه عزّ و جلّ و هذان التوجّه و الحضور إنّما يحصلان من ذكره سبحانه و تعالى.

أمّا ما ذكره البعض، من أنّ ذكر اللّه هو قول «اللّه أكبر» أو «بسم اللّه الرّحمن الرّحيم» فى بداية الصلاة، فإنّما هو بيان لأحد مصاديق الذكر ليس إلّا.

و يشير البيان القرآنى إلى العامل الأساس فى عملية الانحراف عن جادة الفلاح: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا .. وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَ أَبْقى

و نقل الحديث النّبوى الشريف هذا المعنى، بقوله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[۱۱۴].

فالإنسان العاقل لا يجيز لنفسه أن يبيع الدار الباقية بأمتعة فانية، و لا أن يستبدل اللذائذ المحدودة و المحفوفة بألوان الآلام بالنعم الخالدة و النقية الخالصة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۰

و تختم السّورة ب: إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى .. صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى ۱۱۵].

و لكن، ما المشار إليه ب «هذا»؟

فبعض قال: إنّه إشارة إلى الأمر بالتزكية و ذكر اسم اللّه و الصلاة و عدم إيثار الحياة الدنيا على الآخرة.

و ذلك من أهم تعاليم جميع الأنبياء عليهم السّلام، كما و ورد هذا الأمر فى جميع الكتب السماوية.

و اعتبره آخرون: إنّه إشارة لجميع ما جاء فى السّورة، حيث أنّها ابتدأت بالتوحيد مرورا بالنبوة حتى ختمت بالأعمال.

و على أيّة حال، فهذا التعبير يبيّن أهميّة محتوى السّورة، أو خصوص الآيات الأخيرة منها، حيث اعتبرها من الأصول الأساسية للأديان، و ممّا حمله جميع الأنبياء عليهم السّلام إلى البشرية كافة.

«الصحف»: جمع و (صحيفة)، و هى اللوح الذى يكتب عليه.

و نستدل بالآية الأخيرة بأنّ لإبراهيم و موسى عليهما السّلام كتبا سماوية.

و

روى عن أبى ذر رضى اللّه عنه، إنّه قال: قلت يا رسول اللّه، كم الأنبياء؟

فقال: «مائة ألف نبى و أربعة و عشرون ألفا».

قلت: يا رسول اللّه، كم المرسلون منهم؟

قال: «ثلاثمائة و ثلاثة عشر، و بقيتهم أنبياء».

قلت: كان آدم عليه السّلام نبيّا؟

قال: «نعم، كلمة اللّه و خلقه بيده .. يا أبا ذرّ، أربعة من الأنبياء عرب: هود و صالح و شعيب و نبيّك». قلت: يا رسول اللّه، كم أنزل اللّه من كتاب؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۱

قال: «مائة و اربعة كتب، أنزل اللّه منها على آدم عليه السّلام عشر صحف، و على شيث خمسين صحيفة، و على أخنوخ و هو إدريس ثلاثين صحيفة، و هو أوّل من خط بالقلم، و على إبراهيم عشر صحائف، و التوراة و الإنجيل و الزّبور و الفرقان»[۱۱۶].

(أنزلت على موسى و عيسى و داود و محمّد على نبيّنا و آله و عليهم السلام).

و «الصحف الاولى»: مقابل «الصحف الأخيرة» التى أنزلت على المسيح عليه السّلام و على النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

بحث

شرح الحديث الشريف: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»

لما كان تفضيل الآخرة على الدنيا من الأمور الجليّة لدى المؤمنين، فكيف تصيب الغفلة الإنسان المؤمن فيقع فى فخ الخطايا و الذنوب؟! و يكمن الجواب فى جملة واحدة: عند غلبة الشهوات على وجود الإنسان و مصدر قوّة الشهوات هو: حبّ الدنيا.

يتضمّن حبّ الدنيا: حبّ المال، المقام، الشهوة الجنسية، حبّ التفوق، حبّ الذات، و حبّ الانتقام ... إلخ .. و إذا ما غلب هذا الحبّ على وجود الإنسان فسيهتز كيانه بإعصار شديد و لا تستطيع كلّ معارف و علوم و عقائد الإنسان من أن تقف أمام جموحه، حتى يصل الإنسان لفقدان قدرة التشخيص، فيقدم بالنتيجة الدنيا على الآخرة.

ف

«حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»

أمر محسوس و مجرّب فى حياتنا و حياة الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۲

الآخرين و هو دائم الوقوع أمام ناظرينا.

و عليه .. فلا سبيل لقطع جذور المعاصى إلّا بإخراج حبّ الدنيا و عشقها من القلب.

ينبغى علينا أن ننظر إلى الدنيا بواقعية و عقلائية، فالدنيا ليست أكثر من مرحلة انتقالية أو معبر أو مزرعة الآخرة، فما يبذر اليوم يحصد غدا، و لا بدّ للإنسان أن العاقل ن يختار الطريق الذى يوصله إلى الهدف المنشود فيما إذا وقف بين مفترق طريقين، واحد يؤدى للحصول على متاع الدنيا الزائل، و الآخر يوصل إلى نيل رضا البارى سبحانه و تعالى.

و نظرة- و إن كانت سريعة- إلى ملفات الجرائم سترينا واقعية الحديث المذكور، و إذا ما تأملنا فى بواعثها الحقيقة، فسيتوضح الحديث أكثر فأكثر.

و لا تخرج علل الحروب و سفك الدماء (حتى بين الاخوة و الأصدقاء) عن هذا الإطار المهلك (حبّ الدنيا).

فكيف النجاة، و كلنا أبناء هذه الدنيا و «لا يلام الولد على حبّه لامه» كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السّلام؟! إنّ زورق النجاة من تلاطم أمواج و هيجان حبّ الدنيا لا يبنى إلّا بالتربية الفكرية و العقائدية، و من ثمّ تهذيب النفس و مجاهدتها، بالإضافة إلى الإعتبار من عواقب عبدة الدنيا.

فما كانت عاقبة الفراعنة مع كلّ ما كان لهم من قوّة؟! و أين هو الآن قارون و كنوزه التى لا يقدر مجموعة من الرجال على حمل مفاتيحها إلّا بشقّ الأنفس؟! و حتى القوى المتسلطة فى عصرنا المعاش، ليس لهم سوى فترة زمنية محدودة، فترى عروشها تتهاوى، و هم بين فار و مختبئ فى أقذر المكانات و بين من سيلفه التراب، لينتقل بعدها إلى العالم الذى كان يكذّب وجوده .. أو ليس ذلك أفضل واعظ لنا؟!

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۳

سئل عن أیّ الأعمال أفضل عند اللّه؟

قال: «ما من عمل بعد معرفة اللّه عزّ و جلّ و معرفة رسوله أفضل من بغض الدنیا، فإنّ لذلک لشعبا کثیرة، و للمعاصی شعب.

فأوّل ما عصی اللّه به «الکبر»، معصیة إبلیس حین أبی و استکبر و کان من الکافرین، ثمّ «الحرص» و هی معصیة آدم و حواء حین قال اللّه عزّ و جلّ لهما: فَکُلا مِنْ حَیْثُ شِئْتُما وَ لا تَقْرَبا هـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَکُونا مِنَ الظَّالِمِینَ فأخذا ما لا حاجة بهما إلیه، فدخل ذلک علی ذریتهما إلی یوم القیامة، و ذلک إنّ أکثر ما یطلب ابن آدم ما لا حاجة به إلیه، ثمّ «الحسد» و هی معصیة ابن آدم حیث حسد أخاه فقتله، فتشعب من ذلک حبّ النساء، و حبّ الدنیا[۱۱۷]، و حبّ الرئاسة، و حبّ الراحة، و حبّ الکلام، و حبّ العلو و الثروة، فصرن سبع خصال فاجتمعن کلّهن فی حبّ الدنیا، فقال الأنبیاء و العلماء بعد ذلک: حبّ الدنیا رأس کلّ خطیئة»[۱۱۸].

اللّهم، اخرج حبّ الدنیا من قلوبنا ..

اللّهم، خذ بأیدینا إلی صراطک القویم، و أبلغنا مغرمنا ..

اللّهم، إنّک تعلم الجهر و ما یخفی، فاغفر لنا ما ظهر من ذنوبنا و ما خفی ..

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الأعلی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۵

سورة الغاشیة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ست و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۷

«سورة الغاشیة»

محتوی السّورة:

تدور محتویات السّورة علی ثلاثة محاور:

الأوّل: بحث «المعاد»، و بیان حال المجرمین بما فیه من شقاء و تعاسة، و وصف حال المؤمنین و هم یرفلون بنعیم لا ینضب.

الثّانی: بحث «التوحید»، و یتناول موضوع خلق السماء و الجبال و الأرض، و نظر الإنسان إلیها.

الثّالث: بحث «النبوّة»، مع عرض لبعض وظائف النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و عموما، فالسّورة تسیر علی منهج السور المکّیة فی تقویة أسس الإیمان و الإعتقاد.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة فی الحدیث النبوی الشریف: «من قرأها حاسبه اللّه حسابا یسیرا».[۱۱۹]

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام، أنّه قال: «من أدمن قراءة هَلْ أَتاکَ حَدِیثُ الْغاشِیَةِ فی فرائضه أو نوافله غشاه اللّه برحمته فی الدنیا و الآخرة، أو أعطاه الأمن یوم القیامة من عذاب النّار»[۱۲۰].

و بديهى أنّ الثواب المذكور لا يحصل إلّا لمن تلاها بتأمل و عمل.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۸

الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ (۱) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ (۲) عامِلَةٌ ناصِبَةٌ (۳) تَصْلى ناراً حامِيَةً (۴)

تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (۵) لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (۶) لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (۷)

التّفسير

المتعبون .. الأخسرون!

تبتدأ السّورة بذكر اسم جديد ليوم القيامة: هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْغاشِيَةِ.

«الغاشية»: من (الغشاوة)، و هى التغطية، و سمّيت القيامة بذلك لأنّ حوادثها الرهيبة ستغطى فجاءة كلّ شىء.

و قيل: بما أنّ الأوّلين و الآخرين سيجمعون فى ذلك اليوم، فالقيامة تغشاهم جميعا.

و قيل أيضا: يراد بها نار جهنم، لأنّها ستغطى وجوه الكافرين و المجرمين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۴۹

و يبدو لنا التّفسير الأوّل أنسب من غيره.

و ظاهر الآية: إنّها خطاب للنبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما حوته من صيغة الاستفهام فلبيان عظمة و أهمية يوم القيامة.

و يبدو بعيدا ما احتمله البعض من كون خطاب الآية موجّه إلى كلّ إنسان.

و تصف الآيات التالية، حال المجرمين فى يوم القيامة، فتقول أوّلا: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خاشِعَةٌ.

لا شك أنّ الوضع النفسى و الروحى، تنعكس آثاره على وجه صاحبه، لذا فسترى تلك الوجوه و قد علتها علائم الخسران و الخشوع لما أصابها من ذلّ و خوف و وحشة و هم بانتظار ما سيحل بهم من عذاب مهين أليم.

و قيل: «الوجوه» هنا، بمعنى وجهاء القوم و رؤساء الكفر و الطغيان، لما سيكون لهم من ذل و هوان و عذاب أشد من غيرهم.

و لكنّ المعنى الأوّل أنسب و تصف حال تلك الوجوه ثانيا: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ.

فكلّ ما سعوا و كدوّا فيه فى الحياة الدنيا سوف لا يجنون منه إلّا التعب و النصب، و ذلك: لأنّ أعمالهم غير مقبولة عند اللّه، و ما جمعوه من أموال و ثروات قد ذهبت لغيرهم، و لا يملكون من ذكر صالح يعقبهم فى الدنيا و لا ولد صالح يدعو و يستغفر اللّه لهم، فما اصدق هذا القول بحقّهم: عامِلَةٌ ناصِبَةٌ.

و قيل: المراد، إنّهم يعملون فى الدنيا، و لهم التعب و الألم فى الآخرة.

و قيل أيضا: إنّ المجرمين سيقومون بأعمال شاقّة داخل جهنم، زيادة فى عذابهم.

و يبدو التّفسير الأوّل أصح من غيره.

و خاتمة مطاف تلك الوجوه التعبة الذليلة أنّ: تَصْلى ناراً حامِيَةً.

«تصلى»: من (صلى)- على زنة نفى- و هو دخول النّار و البقاء فيها،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۰

و الاحتراق بها[۱۲۱].

و لن يقف عذابهم عند هذا الحد، بل أنّهم و بسبب حرارة النيران يصيبهم العطش الشديد و حينئذ: تُسْقى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ.

«آنية»: مؤنث آنى من (الأنى)- على زنة حلى- و هو التأخير، و يستعمل لما يقرب وقته، و جاء فى الآية بمعنى: الماء الحارق الذى بلغ أقصى درجة حرارته و جاء فى الآية (۲۹) من سورة الكهف: وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً و تحكى لنا الآية التالية عن طعام المجرمين: لَيْسَ لَهُمْ طَعامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ و قد تعددت الآراء فى معنى «الضريع».

فقال بعض: نبت ذو شوك لا صق بالأرض، تسمّيه قريش (الشبرق) إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو (الضريع)، لا تقربه دابة و لا بهيمة و لا ترعاه، و هو سم قاتل.[۱۲۲] و قال الخليل (أحد علماء اللغة): الضريع نبات أخضر منتن الريح، يرمى به البحر.

و عن ابن عباس: هو شجر من نار، و لو كانت فى الدنيا لأحرقت الأرض و ما عليها.

و

جاء فى الحديث النبوى الشريف: «الضريع شىء يكون فى النّار يشبه الشوك، أشدّ مرارة من الصبر، و أنتن من الجيفة، و أحر من النّار، سمّاه اللّه ضريعا».

و قال بعض آخر: هو طعام يضرعون عنده و يذلون، و يتضرعون منه إلى اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۱

(و يذكر أن (الضرع) بمعنى الضعف و الذلة و الخضوع).[۱۲۳] و لا تعارض بين هذه التفاسير، و يمكن قبولها كلها فى تفسير الآية المذكورة.

و تصف لنا الآية التالية ذلك الطعام: لا يُسْمِنُ وَ لا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ

فهو ليس لسد جوع أو تقوية بدن، و إنّما هو طعام يغص به، ايغالا فى العذاب، كما ورد هذا المعنى فى الآية (۱۳) من و سورة المزمل: وَ طَعاماً ذا غُصَّةٍ وَ عَذاباً أَلِيماً.

فالذين شرهوا فى تناول ألذ المأكولات فى دنياهم، على حساب ظلم النّاس و التجاوز على حقوقهم، و منعوا لقمة العيش عن كثير من المحرومين، فليس فى طعام آخرتهم سوى العذاب الأليم.

و نعود لنكرر القول: إنّ ما نصفه و نتصوره عن نعيم الجنّة و عذاب جهنم، لا يتعدى عن كونه مجرد إشارات و أشباح نراها من بعيد و نحن نعيش فى سجن الدنيا المحدود، و إلّا فحقيقة ما سينعم به أهل الجنّة و ما يعانيه أهل النّار فمما لا يمكن لأحد وصفه!.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۲

الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۸ الى ۱۶]

اشارة

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ (۸) لِسَعْيِها راضِيَةٌ (۹) فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ (۱۰) لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً (۱۱) فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ (۱۲) فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (۱۳) وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ (۱۴) وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ (۱۵) وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (۱۶)

التّفسير

صور من نعيم الجنّة:

بعد ذكر ما سيتعرض له أهل النّار، تنتقل عدسة السّورة لتنقل لنا مشاهدا رائعة لنعيم أهل الجنّة .. ليتوضح لنا الفرق ما بين القهر الإلهى و الرحمة الإلهية، و ما بين الوعيد و البشارة.

فتقول الآية الاولى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ، على عكس وجوه المذنبين المكسوة بعلائم الذلة و الخوف.

«ناعمة»: من (النعمة)، و تشير هنا إلى الوجوه الغارقة فى نعمة اللّه، وجوه طرية، مسرورة و نورانية، كما أشارت لهذا الآية (۲۴) من سورة المطففين: تَعْرِفُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۳

فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ

و ترى الوجوه: لِسَعْيِها راضِيَةٌ.

على عكس أهل جهنّم، فوجوههم «عاملة ناصبة»، أمّا أهل الجنّة، فقد حان وقت حصادهم لما زرعوا فى دنياهم، و حصلوا على أحسن ما يتمنون، فتراهم فى غاية الرضى و السرور.

و ما زرعوا سيتضاعف ناتجة بإذن اللّه و لطفه أضعافا مضاعفة، فتارة عشرة أضعاف، و اخرى سبعمائة ضعف، و ثالثة يجازون على ما عملوا بغير حساب، كما أشارت الآية (۱۰) من سورة الزمر إلى ذلك بقولها: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ و يدخل البيان القرآنى فى التفصيل أكثر: فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ.

«عالية»: قيل بإرادة المكان (فى طبقات الجنّة العليا)، و قيل أريد بها المقام الرفيع، و مع أنّ التّفسير الثّانى أرجح، إلّا أنّه لا مانع من الجمع بينهما:

و كذا ..: لا تَسْمَعُ فِيها لاغِيَةً.[۱۲۴] فليس هناك ثمّة: جدال، كلام نفاق، عداوة، حقد، حسد، كذب، تهمة، افتراء، غيبة و لا أىّ إيذاء، بل و لا حتى الكلام الفارغ.

فهل يوجد مكان أهدأ و أجمل من ذلك؟! و لو تأملنا حقيقة مشاكلنا فيما بيننا، لرأينا أنّ الغالب منها ما كان ناشئا عن سماع هكذا أحاديث، و التى تؤدى إلى عدم الاستقرار النفسى، و إلى تهديم أركان الترابط الاجتماعى فينهار النظام و تشتعل نيران الفتن لتأكل الأخضر و اليابس معا.

و بعد ذكر القرآن لما يتمتع به أهل الجنّة من نعمة روحية، يبيّن بعض النعم المادية فى الجنّة: فِيها عَيْنٌ جارِيَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۴

ظاهر كلمة «عين» فى الآية، إنّها عين واحدة بدليل مجيئها نكرة، إلّا أنّه بالرجوع إلى بقية الآيات فى القرآن الكريم، يتبيّن لنا إنّها للجنس، فهى و الحال هذه تشمل عيونا مختلفة، و من قرائن ذلك ما جاء فى الآية (۱۵) من سورة الذاريات: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ

و قيل: فى كلّ قصر من قصور أهل الجنّة، ثمّة «عين جارية»، و هو المراد فى الآية، و من ميزة تلك الأنهار أنّها تجرى حسب رغبة أهل الجنّة، فلا داعى معها لشقّ أرض أو وضع سد.

و ينهل أهل الجنّة أشربة طاهرة و متنوعة، فتلك العيون و على ما لها من رونق و روعة، فلكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصّة به.

و ينتقل الوصف إلى أسرة الجنّة: فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ.

«سرر»: جمع (سرير)، و هو من (السرور)، بمعنى المقاعد التى يجلس عليها فى مجالس الانس و السرور[۱۲۵].

و جعلت تلك الأسرة من الارتفاع بحيث يتمكن أهل الجنّة من رؤية كلّ ما يحيط بها و التمتع بذلك.

يقول ابن عباس: إذا أراد أن يجلس عليها، تواضعت له حتى يجلس عليها، ثمّ ترتفع إلى موضعها.[۱۲۶] و يحتمل أيضا: وصفت بالمرفوعة إشارة إلى رفعتها و علو شأنها.

و قيل: إنّها من الذهب المزين و المرصع بالزبرجد و الدرّ و الياقوت.

و لا مانع من الجمع بين ما ذكر.

و لمّا كان شرب الشراب يستلزم ما يشرب به، فقد قالت الآية التالية:

وَ أَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۵

و متى ما أرادوا الشرب ارتفعت تلك الأكواب لتصل بين أيديهم و قد ملئت من شراب تلك العيون، فيستلذون بما لا وصف له عند أهل الدنيا.

«أكواب»: جمع (كوب)، و هو القدح، أو الظرف الذى له عروة.

و بالاضافة إلى ذكر ال «أكواب» فقد ذكر القرآن الكريم تعابير اخرى لها، مثل: «أباريق» جمع (إبريق) و هو ظرف معروف، و «كأس» بمعنى القدح المملوء بالشراب، كما جاء فى الآيتين (۱۷) و (۱۸) من سورة الواقعة: يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوابٍ وَ أَبارِيقَ وَ كَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ و يستمر الحديث عن جزئيات نعيم الجنّة: وَ نَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ.

«نمارق»: جمع (نمرقة)، و هى الوسادة الصغيرة التى يتكأ عليها.

«مصفوفة»: إشارة إلى تعددها بنظم خاص، ليظهر أنّ لأهل الجنّة جلسات انس جماعية، التى لا يتخللها أى لغو و باطل، و يدور الحديث فيها حول الألطاف الإلهية و نعمة الخالدة، و عن الفوز الحقيقى الذى أبعدهم عن عذاب الآخرة، و كيف أنّهم قد نجوا و خلصوا من الآم و أتعاب الدنيا.

ثمّ تكون الإشارة إلى فرش الجنّة الفاخرة: وَ زَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ.

«زرابية»: جمع (زرب) أو (زربيّة)، و هى الفرش و البسط الفاخرة ذات المتكأ.

ذكرت الآيات المبحوثة سبع نعم رائعة من نعم الجنّة، و كلّ منها أكثر روعة من الاخرى.

و الخلاصة: فمنزل الجنّة لا مثيل له من كلّ الجهات، فهو الخالى من أى ألم أو عذاب أو حرب أو جدال .. و تجد فيه كلّ ألوان الثمار و الأنعام و العيون الجارية و الأشربة الطاهرة و الولدان المخلدين و الحور العين و الأسرة المرصعة و الفرش الفاخرة و أقداح جميلة فى متناول اليد و جلساء أصفياء، إلى غير ذلك ممّا لا يمكن عدّه بلسان أو وصفه بقلم و لا حتى تخيله إذا ما سرحت المخيّلة فى عالمها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۶

الرحب! ..

و كلّ ما ذكر و غيره سيكون فى انتظار من آمن و عمل صالحا، بعد حصوله على إذن الدخول إلى تلك الدار العالية.

و فوق هذا و ذاك فثمّة «لقاء اللّه»، الذى ليس من فوز يوازيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۷

الآيات [سورة الغاشية (۸۸): الآيات ۱۷ الى ۲۶]

اشارة

أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (۱۷) وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (۱۸) وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (۱۹) وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ

سُطِحَتْ (۲۰) فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (۲۱)

لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (۲۲) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ (۲۳) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ (۲۴) إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ (۲۵) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ (۲۶)

التّفسير

الإبل .. من آيات خلق اللّه:

بعد أن تحدثت الآيات السابقة بتفصيل عن الجنّة و نعيمها، تأتى هذه الآيات لتوضيح معالم الطريق الموصل إلى الجنّة و نعيمها.

فمفتاح المعرفة «معرفة اللّه»، و وصولا لهذا المفتاح تذكر الآيات أربعة نماذج لمظاهر القدرة الإلهية و بديع الخلقة، داعية الإنسان للتأمل، عسى أن يصل إلى ما ينبغى له أن يصل إليه.

و تشير أيضا إلى أنّ قدرة اللّه المطلقة هى مفتاح درك المعاد ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۸

فتقول الآية الاولى: أَ فَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ

و لكن، لم اختص ذكر «الإبل» قبل غيره؟

للمفسّرين حديث طويل فى ذلك، لكنّ الواضح إنّ الآيات فى أوّل نزولها كانت تخاطب أهل مكّة قبل غيرهم، و الإبل أهم شىء فى حياة أهل مكّة فى ذلك الزمان، فهى معهم ليل نهار و تنجز لهم ضروب الأعمال و تدر عليهم الفوائد الكثيرة.

أضف إلى ذلك أنّ لهذا الحيوان خصائص عجيبة قد تفرّد بها عن بقية الحيوانات، و يعتبر بحق آية من آيات خلق اللّه الباهرة.

و من خصائص الإبل:

۱- لو نظرنا إلى موارد الاستفادة من الحيوانات الأليفه، فسنرى أنّ قسما منها لا يستفاد إلّا من لحومها، و القسم الآخر يستفاد من ألبانها على الأغلب، و قسم لا يستفاد منه إلّا فى الركوب، و قسم قد تخصص فى حمل و نقل الأثقال، و لكنّ الإبل تقدم كلّ هذه الخدمات (اللحم، اللبن، الركوب و الحمل).

۲- قدرة حمل و تحمل الإبل أكثر بكثير من بقية الحيوانات الأهلية، حتى أنّها لتبرك على الأرض فتوضع الأثقال عليها ثمّ تنهض بها، و هذا ما لا تستطيع فعله بقية الحيوانات الأهلية.

۳- تتحمل العطش لأيّام متتالية (بين السبعة إلى عشرة أيّام)، و قابليتها على تحمل الجوع مذهلة.

۴- يطلق عليها اسم (سفينة الصحراء)، لما لها من قابلية فائقة على طى مسافات طويلة فى اليوم الواحد، رغم الظروف الصحراوية الصعبة، فلا يعرقل حركتها صعوبة الأرض أو كثرة المنخفضات الرملية، و هذا ما لا نجده فى أى حيوان أخر و بهذه المواصفات.

۵- مع إنّها تتغذى على أى شوك و أىّ نبات، فهى تشبع بالقليل أيضا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۵۹

۶- لعينها و اذنها و أنفها قدرة كبيرة على مقاومة الظروف الجوية الصعبة فى الصحراء، و حتى العواصف الرملية لا تقف حائلا أمام مسيرها.

۷- و الإبل مطيعة و سهلة الانقياد، لدرجة أنّ بإمكان طفل صغير أن يأخذ بزمام مجموعة كبيرة من الإبل و تتحرك معه حيث يريد.

و الخلاصة: إنّ ما يتمتع به هذا الحيوان من خصائص تدفع الإنسان لأن يلتفت إلى قدرة الخالق سبحانه و تعالى.

و ها هو القرآن ينادى بكلّ وضوح: يا أيّها الضالون فى وادى الغفلة ألّا تتفكرون فى كيفية خلق الإبل، لتعرفوا الحق و تخرجوا من

ضلالكم؟! و لا بدّ من التذكير، بأنّ «النظر» الوارد فى الآية، يراد به النظر الذى يصحبه تأمل و دراسة.

و ينتقل بنا البيان القرآنى فى الإبل إلى السماء: وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

السماء التى حيّرت العقول بعظمتها و عجائبها و ما فيها من نجوم و ما لها من بهاء و روعة .. السماء التى يتصاغر وجود الإنسان أمامها ليعد لا شىء بالنسبة لها ..

السماء التى لها من دقّة التنظيم و الحساب الدقيق ما بهر فيها عقول العلماء المتخصصين.

ألا ينبغى للإنسان أن يتفكر فى أمر مدبر هذا الخلق، و ما الأهداف المرجوة من خلقه؟! فكيف أصبحت تلك الكواكب فى مساراتها المحدودة؟ و ما هو سرّ استقرارها فى أماكنها و بكلّ هذه الدقّة؟ و لم لم يتغيّر محور حركتها بالرغم من مرور ملايين السنين عليها؟!!! و مع تطور الاكتشافات العلميّة الحديثة، نرى أنّ عالم السماء و ما يحويه يزداد عظمة و جلالا بدرجات ملموسة نسبة إلى ما كان عليه قبلا ...

مع كلّ هذا و ذاك، ألا يكون أمر خلق السماء مدعاة للتأمل و التفكير،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۰

و الخضوع و التسليم لربوبية الخالق الواحد الأحد؟! و ينقلنا إلى الجبال: وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ

الجبال التى تشمخ بتعمق جذورها فى باطن الأرض، و تحيط بالأرض على شكل حلقات و سلاسل لتقلل من شدّة الزلازل الناشئة من ذوبان المواد المعدنية فى باطن الأرض، و كذا ما لها من دور فى حفظ الأرض من عملية المدّ و الجزر الناشئة من تأثيرات الشمس و القمر .. الجبال التى لو لا وجودها بهذه الهيئة لما توفرت ظروف عيش الإنسان على سطح الأرض، لما تمثله من سد منيع أمام قوّة أثر العواصف .. و أخيرا، الجبال التى تحفظ الماء فى داخلها لتخرجه لنا على صورة عيون فياضة نعم الأرض ليخضر بساطها بأنواع المزارع و الغابات.

و لعل ذلك كلّه كان وراء وصفها «أوتادا» فى القرآن الكريم.

فهى عموما .. مظهر الابهة و الصلابة و الشموخ، و هى مصدر خير و بركة معطاة، و لعل ذلك من علل تفتح ذهنية الإنسان عندها، كما و ليس من العبث أن يتّخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جبل النور و غار حراء محلا لعبادته قبل البعثة المباركة.

«نصبت»: من (النصب)، و هو التثبيت، و ربّما رمز هذا التعبير إلى بداية خلق الجبال أيضا.

فقد توصل العلم الحديث إلى أنّ تكّون الجبال يعتمد على عوامل عديدة و قسمها إلى عدّة أنواع:

فمنها: ما تكون نتيجة للتراكمات الحاصلة على الأرض.

و منها: ما تكون من الحمم البركانية.

و منها: ما تكون نتيجة لتفتت الأرض بواسطة الأمطار.

و كذا منها: ما تكون نتيجة للترسبات الحاصلة فى أعماق البحار و من بقايا الحيوانات (كالجبال و الجزر و المرجانية).

نعم، فالجبال و بكلّ ما فيها و لها تعدّ آية من آيات القدرة الإلهية، لمن رآها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۱

بعين بصيرة و لبّ شغول.

ثمّ إلى الأرض: وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ

فلينظر الإنسان إلى كيفية هطول الأمطار على الجبال لتسيل من بعدها محملة الأتربة كى تتكون بها السهول الصافية، لتكون صالحة للزراعة من جهة و مهيئة لما يعمل بها الإنسان من جهة اخرى .. و لو كانت كلّ الأرض عبارة عن جبال و وديان، فما أصعب الحياة على سطحها و الحال هذه! و لا بدّ لنا من التأمل و التفكير فى من جعلها تكون على هذه الهيئة الملائمة تماما لحياة الإنسان؟ ..

و لكن، ما علاقة الربط بين الإبل و السماء و الجبال و الأرض، حتى تذكرها الآيات بهذا التوالى؟

يقول الفخر الرازى فى ذلك: إنّ القرآن نزل على لغة العرب، و كانوا يسافرون كثيرا لأنّ بلدتهم بلدة خالية من الزراعية، و كانت أسفارهم فى أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها فى المهامة و القفار مستوحشين، منفردين عن النّاس، و من شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر فى الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، و ليس هناك شىء يشغل به سمعه و بصره، و إذا كان كذلك لم يكن له بدّ من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر فى ذلك وقع بصره أوّل الأمر على الجمل الذى ركبه، فيرى منظرا عجيبا، و إذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، و إذا نظر يمينا و شمالا لم ير غير الجبال، و إذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنّه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة و الانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر و الحسد على ترك النظر، ثمّ إنّه فى وقت الخلوة فى المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع اللّه بينها فى هذه الآية[۱۲۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۲

و إذا ما ابتعدنا المحيط العربى القديم و ما كان فيه، و توسعنا فى مجال تأملنا ليشمل كلّ محيط البشرية، لتوصلنا إلى أنّ هذه الأشياء الأربع تدخل فى حياة الإنسان بشكل رئيسى، حيث من السماء مصدر النور و الأمطار و الهواء، و الأرض مصدر نمو أنواع النباتات و ما يتغذى به، و كذا الجبال فبالإضافة لكونها رمز الثبات و العلو ففيها مخازن المياه و المواد المعدنية بألوانها المتنوعة، و ما الإبل إلّا نموذج شاخص متكامل لذلك الحيوان الأهلى الذى يقدّم مختلف الخدمات للإنسان.

و عليه، فقد تجمعت فى هذه الأشياء الأربع كلّ مستلزمات «الزراعة» و «الصناعة» و «الثروة الحيوانية»، و حرى بالإنسان و الحال هذه أن يتأمل فى هذه النعم المعطاءة، كى يندفع بشكل طبيعى لشكر المنعم سبحانه و تعالى، و بلا شك فإنّ شكر المنعم سيدعوه لمعرفة خالق النعم أكثر فأكثر.

و بعد هذا البحث التوحيدى، يتوجه القرآن الكريم لمخاطبة النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ .. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ.

نعم، فخلق السماء و الأرض و الجبال و الحيوانات ينطق بعدم عبثية هذا الوجود، و أنّ خلق الإنسان إنّما هو لهدف ...

فذكّرهم بهدفية الخلق، و بيّن لهم طريق السلوك الربّانى، و كن رائدهم و قدوتهم فى مسيرة التكامل البشرى.

و ليس باستطاعتك إجبارهم، و إن حصل ذلك فلا فائدة منه، لأنّ شوط الكمال إنّما يقطع بالإرادة و الإختيار، و ليس ثمّة من معنى للتكامل الإجبارى.

و قيل: إنّ هذا الأمر الإلهى نزل قبل تشريع «الجهاد»، ثمّ نسخ به! و ما أعظم هذا الاشتباه!! فرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مارس عملية التذكير و التبليغ منذ الوهلة الاولى للبعثة الشريفة و استمر على هذا النهج حتى آخر لحظة من حياته الشريفة المباركة، و لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۳

تتوقف العملية عن الممارسة من بعده، حيث قام بهذه المهمّة الأئمّة عليهم السّلام و العلماء من بعدهم، حتى وصلت ليومنا و سوف لن تتوقف بإذن اللّه تعالى، فأىّ نسخ هذا الذى يتكلمون عنه! ثمّ إنّ عدم إجبار النّاس على الإيمان يعتبر من ثوابت الشريعة الإسلامية السمحاء، أمّا هدف الجهاد فيتعلق بمحاربة الطغاة الذين يقفون حجر عثرة فى طريق دعاة الحقّ و طالبيه.

و ثمّة آيات اخرى فى القرآن قد جاءت فى هذا السياق، كالآية (۸۰) من سورة النساء: وَ مَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً، و كذا الآية (۱۰۷) من سورة الأنعام، و الآية (۴۸) من سورة الشورى- فراجع «مصيطر»: من (السطر)، و هو المعروف فى الكتب، و (المسيطر): الذى ينظم السطور، ثمّ استعمل لكلّ من له سلطة على شىء، أو يجبر أحدا على عمل ما.

و فى الآيتين التاليتين .. يأتى الاستثناء و نتيجته: إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ ..

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ.

و لكن، إلى أية جملة يعود الاستثناء؟

ثمّة تفاسير مختلفة فى ذلك:

الأوّل: إنّه استثناء لمفعول الجملة «فذكّر»، أى: لا ضرورة لتذكير المعاندين الذين رفضوا الحق جملة و تفصيلا، كما جاء فى الآية (۸۳) من سورة الزخرف:

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَ يَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ

الثّانى: إنّه استثناء لجملة محذوفة، و التقدير: فذكّر إنّ الذكرى تنفع الجميع إلّا من تولى و كفر، كما جاء فى الآية (۹) من سورة الأعلى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى (على أن يكون لها معنا شرطيا).

الثّالث: إنّه استثناء من الضمير «عليهم» فى الآية السابقة، أى: (إنّك لست

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۴

عليهم بمصيطر إلّا من تولّى و كفر فأنت مأمور بمواجهتها)[۱۲۸].

كلّ ما ذكر من تفاسير مبنىّ على أنّ الاستثناء متصل، و لكن ثمّة من يقول بأنّ الاستثناء منقطع، فيكون معناه بما يقارب معنى (بل)، فيصبح معنى الجملة: (بل من تولّى و كفر فإنّ اللّه متسلط عليهم) أو (إنّه سيعاقبهم بالعذاب الأكبر).

و من بين هذه التفاسير، ثمّة تفسيران مناسبان.

الأوّل: القائل بالاستثناء المتصل لجملة لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ فيكون إشارة لاستعمال القوّة فى مواجهة من تولى و كفر.

الثّانى: القائل بالاستثناء المنفصل، أىّ، سينالهم العذاب الأليم، الذى ينتظر المعاندين و الكافرين.

و يراد ب الْعَذابَ الْأَكْبَرَ «عذاب الآخرة» الذى يقابل عذاب الدنيا الصغير نسبة لحجم وسعة عذاب الآخرة، بقرينة الآية (۲۶) من سورة الزمر: فَأَذاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لَعَذابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ.

و كذلك يحتمل إرادة نوع شديد من عذاب الآخرة، لأنّ عذاب جهنم ليس بمتساو للجميع.

و بحدّية قاطعة، تقول آخر آيتين فى السّورة: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ .. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ

و الآيتان تتضمّنان التسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى مواجهته لأساليب المعاندين، لكى لا يبتئس من أفعالهم، و يستمر فى دعوته.

و هما أيضا، تهديد عنيف لكلّ من تسول له نفسه فيقف فى صف الكافرين و المعاندين، فيخبرهم بأنّ حسابهم سيكون بيد جبار شديد! بدأت سورة الغاشية بموضوع القيامة و ختمت به أيضا، كما تمّت الإشارة فيما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۵

بين البدء و الختام إلى بحث التوحيد و النّبوة، و هما دعامتا المعاد.

كما و تضمّنت السّورة عرضا لبعض ما سيصيب المجرمين من عقاب، و عرضت فى قبال ذلك ما سينعم به المؤمنون فى جنّات النعيم الخالدة.

كما و أكّدت السّورة على حرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يسلكه، و ذكّرت بعودة الجميع إلى مولاهم الحق، و هو الذى سيحاسبهم على كلّ ما فعلوا فى دنياهم كما و بيّنت السّورة أن مهمّة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم هى إبلاغ الرسالة، و أنّه غير مسئول عن كفر و انحراف النّاس و ذنوبهم، و هذه هى مهمّة مبلغى طريق الحقّ.

اللّهم، ارحمنا يوم تعود الخلائق إليك و يكون حسابهم عليك ..

اللّهم، نجّنا برحمتك الكبرى من عذابك الأكبر ..

اللّهم، إنّ مواهب أهل الجنّة التى أوردت هذه السّورة قسما منها عظيمة و مذهلة. فإن كنّا لا نستحقها بأعمالنا فتفضل علينا بها بلطفك و رحمتك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الغاشية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۷

سورة الفجر

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثلاثون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۶۹

«سورة الفجر»

محتوى السّورة:

كبقية السور المكيّة، فسورة الفجر ذات آيات قصار و أسلوب واضح و مصحوب بالإنذار و التحذير ..

و تقدّم لنا الآيات الاولى أقساما نادرة فى نوعها لتهديد الجبارين بالعذاب الإلهى.

و تنقل لنا بعض آياتها ما حلّ ببعض الأقوام السالفة ممن طغوا فى الأرض و عاثوا فسادا (قوم عاد، ثمود و فرعون)، و جعلهم عبرة لاولى الأبصار، و درسا قاسيا لكلّ من يرى فى نفسه القوّة و الاقتدار من دون اللّه.

ثمّ تشير باختصار إلى الامتحان الربّانى للإنسان، و تلومه على تقصيره فى فعل الخيرات ..

و فى آخر ما تتحدث عنه السّورة هو «المعاد» و ما سينتظر المؤمنين ذوى النفوس المطمئنة من ثواب جزيل، و أيضا ما سينتظر المجرمين و الكافرين من عقاب شديد.

فضيلة السّورة:

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «من قرأها فى ليال عشر غفر اللّه له، و من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۰

قرأها سائر الأيّام كانت له نورا يوم القيامة»[۱۲۹].

كما و

روى عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «اقرأوا سورة الفجر فى فرائضكم و نوافلكم فإنّها سورة الحسين بن على، من قرأها كان مع الحسين بن على يوم القيامة فى دوحته من الجنّة».[۱۳۰]

يمكن أن يكون وصف السّورة بسورة الإمام الحسين عليه السّلام بلحاظ أنّه أفضل مصاديق ما جاء فى آخر آياتها، حيث فيما ورد عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآية الأخيرة من السّورة: إنّ «النفس المطمئنة» هو الحسين بن على عليهما السّلام.

أو قد يكون بلحاظ ل «ليال عشر» المقسوم بها فى أوّل السّورة، حيث من ضمن تفاسيرها أنّها: ليالى محرم العشرة، المتعلقة بشهادة الإمام الحسين عليه السّلام و على أيّة حال، فثوابها لمن تبصر فى قراءتها و عمل على ضوءها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۱

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْفَجْرِ (۱) وَ لَيالٍ عَشْرٍ (۲) وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ (۴)
هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (۵)

التّفسير

و الفجر ..!

بدأت السّورة بخمسة أقسام:
الأوّل: وَ الْفَجْرِ .. و الثّانى: وَ لَيالٍ عَشْرٍ.
«الفجر»: فى الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، و قيل للصبح «الفجر» لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.
و كما هو معلوم فالفجر فجران، كاذب و صادق.
الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذى يظهر فى السماء، و يشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته فى الأفق، و قسمه العريض فى وسط السماء.
الفجر الصادق: هو النور الذى يبدأ من الأفق فينتشر، و له نورانية و شفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطى أفق الشرق ثمّ ينتشر فى السماء.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۲
و يعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل و ابتداء النهار، و عنده يمسك الصائمون، و تصلى فريضة الصبح.
و فسّر «الفجر» فى الآية بمعناه المطلق، أى: بياض الصبح.
و لا شك فهو من آيات عظمة اللّه سبحانه و تعالى، و يمثل انعطافا فى حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، و منها الإنسان، و يمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، و عند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة و العمل، و يعلن انتهاء فترة النوم و السكون.
و قد أقسم اللّه تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.
و فسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم و بداية السنة الجديدة.
و فسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمّة و لاتصاله بالليالى العشرة الاولى من ذى الحجّة.
و قيل أيضا: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.
و لكنّ مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهى تضم كلّ ما ذكر.
و ذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام ..
و عليه، فبزوغ نور الإسلام و نور المصطفى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى ظلام عصر الجاهلية هو من مصاديق الفجر، و كذا بزوغ نور قيام المهدى (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف) فى وسط ظلام العالم (كما جاء فى بعض الرّوايات)[۱۳۱].

و من مصادیقه أیضا، ثورة الحسین علیه السّلام فی کربلاء الدامیة، لشقها ظلمة ظلام بنی امیّة، و تعریة نظامهم الحاکم بوجهه الحقیقی أمام النّاس.

و یکون من مصادیقه، کلّ ثورة قامت أو تقوم علی الکفر و الجهل و الظلم علی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۳

مرّ التاریخ.

و حتی انقداح أوّل شرارة یقظة فی قلوب المذنبین المظلمة تدعوهم إلی التوبة، فهو «فجر».

و ممّا لا شک فیه أنّ المعانی هی توسعة لمفهوم الآیة، أمّا ظاهرها فیدل علی «الفجر» المعهود.

و المشهور عن «لیال عشر»: إنّهن لیالی أوّل ذی الحجّة، التی تشهد أکبر اجتماع عبادی سیاسی لمسلمی العالم من کافة أقطار الأرض، (و ورد هذا المعنی فیما رواه جابر بن عبد اللّه الأنصاری عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم)[۱۳۲].

و قیل: لیالی أوّل شهر محرم الحرام.

و قیل أیضا: لیالی آخر شهر رمضان، لوجود لیلة القدر فیها.

و الجمع بین کلّ ما ذکر ممکن جدّا.

و ذکر فی بعض الرّوایات التی تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدی» المنتظر» «عجّل اللّه تعالی فرجه الشریف» .. و «لیال عشر» هم الأئمّة العشر قبله علیهم السّلام ..

و «الشفع»- فی الآیة- هما علیّ و فاطمة علیهما السّلام.

و علی أیّة حال، فالقسم بهذه اللیالی یدّل علی أهمیتها الاستثنائیة نسبة لبقیة اللیالی، و هذا هو شأن القسم ۱۳۳]، و لا مانع من الجمع بین کلّ ما ذکر من معان.

و یأتی القسم الثّالث و القسم الرّابع: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ.

للمفسّرین آراء کثیرة فیما أرید ب «الشفع و الوتر» حتی ذکر بعضهم عشرین قولا[۱۳۴]، فیما ذهب آخرون لذکر (۳۶) قولا فی ذلک ۱۳۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۴

و أهم تلک الأقوال، ما یلی:

۱- مراد الآیة العددان الزوجی و الفردی، فیکون القسم بجمیع الأعداد، تلک الأعداد التی تدور علیها و بها کلّ المحاسبات و الأنظمة و المغطیة لجمیع عالم الوجود، و کأنّه سبحانه و تعالی یقول: قسما بالنظم و الحساب.

و حقیقة الحساب و النظم فی عالم الوجود، تمثل الاسس الواقعیة التی تقوم علیها الحیاة الإنسانیة.

۲- المراد ب «الشفع» المخلوقات، لوجود قرین لکلّ منها، و المراد ب «الوتر» الباری جلّ شأنه، لعدم وجود شبیه له و لا نظیر.

إضافة إلی أنّ الممکنات تترکب من (ماهیة) و (وجود)، و هو ما یعبّر عنه بالفلسفة ب (الزوج الترکیبی)، أمّا الوجود المطلق الخالی من الماهیة فهو «اللّه» حده، (و أشارت بعض الرّوایات المنقولة عن المعصومین علیهم السّلام إلی ذلک)[۱۳۶].

۳- المراد ب «الشفع و الوتر» جمیع المخلوقات، لأنّها من جهة بعضها زوج و البعض الآخر فرد.

۴- المراد ب «الشفع و الوتر» الصلاة، لأنّ بعضها زوجی و البعض الآخر فردی، (و ورد هذا المعنی فی بعض روایات أهل البیت علیهم السّلام أیضا)[۱۳۷] .. أو هما رکعتی الشفع و رکعة الوتر فی آخر صلاة اللیل.

۵- المراد ب «الشفع» یوم الترویة (الثامن من شهر ذی الحجة، حیث یستعد الحجاج للوقوف علی جبل عرفات)، و «الوتر» یوم عرفة (حیث یکون حجاج بیت اللّه الحرام فی عرفات .. أو «الشفع» هو یوم عید الأضحی (العاشر من ذی الحجّة، و «الوتر» هو یوم عرفة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۵

و وردت الإشارة إلى هذا المعنى فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أيضا[۱۳۸] و المهم .. إنّ الألف و اللام فى «الشفع و الوتر» إن كانا للتعميم، فكلّ المعانى تجتمع فيهما، و كلّ معنى سيكون مصداق من مصاديق «الشفع» و «الوتر»، و لا داعى و الحال هذه إلى حصر التّفسير بإحدى المعانى المذكورة، بل كلّ منها تطبيق على مصداق بارز.

أمّا إذا كانا للتعريف، فستكون إشارتهما إلى زوج و فرد خاصين، و فى هذه الحال سيكون تفسيران من التّفاسير المذكورة أكثر من غيرهما مناسبة و قربا مع مراد الآية، و هما:

الأوّل: المراد بهما يومى العيد و عرفة، و هذا ما يناسب ذكر الليالى العشر الاولى من شهر ذى الحجّة، و فيهما تؤدى أهم فقرات مناسك الحج.

الثّانى: أنّهما يشيران إلى «الصلاة»، بقرينة ذكر «الفجر»، و هو وقت السحر و وقت الدعاء و التضرع إلى اللّه عزّ و جلّ.

و قد ورد هذان التّفسيران فى روايات عن أئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السّلام.

و نصل هنا، إلى القسم الخامس: وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ[۱۳۹].

فما أدّق هذا التعبير و أجمله؟! فقد نسب السير إلى الليل، و ذلك لأنّ «يسر» من (سرى) و هو السير ليلا على قول الراغب فى مفرداته.

و كأنّ الوصف يقول: بأنّ الليل موجود حسى، له حس و حركة، و هو يخطو فى ظلمته وصولا لنور النهار.

نعم، قسما بالظلام السائر نحو النور، قسما بالظلام المتحرك، لا الثابت الذى يثير الخوف و الرعب فى الإنسان، و الليل يكون ذا قيمة فيما لو كان سائرا نحو النور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۶

و قيل: هو ظلمة الليل التى تتحرك على سطح الكرة الأرضية، و الليل نافع بحركته و تناوبه مع النهار على سطح الأرض، لينعم نصفها بالسبات و النوم، و ينعم النصف الآخر بالحركة و العمل تحت نور الشمس الرائع.

اختلف المفسّرون فى مراد الآية من «الليل»، هل هو مطلق الليل أم ليلة مخصوصة، فإن كانت الألف و اللام للتعميم فجميع الليالى، كآية من آيات اللّه و مظهر من مظاهر الحياة المهمّة.

و إن كانت الألف و اللام للتعريف، فليلة عيد الأضحى، بلحاظ الآيات السابقة، حيث يتجه حجاج بيت اللّه الحرام من (عرفات) إلى (المزدلفة)- المشعر الحرام- و يقضون ليلهم فى ذلك الوادى المقدس، و عند الصبح يتجهون نحو (منى).

(و قد ورد فى هذا روايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السّلام)[۱۴۰].

و الذين حضروا مثل تلك الليلة فى عرفات و مشعر، قد رأوا كيف يتحرك أكثر من مليون مسلم و هم متجهون من عرفات إلى المشعر و كأن الليل بكلّه يتحرك و تشاطره فى ذلك الأرض و كذا الزمان.

و هناك يتلمس الإنسان معنى وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ بكلّ دقائقه.

و على أيّة حال، فالليل سواء كان بمعناه المطلق أم المحدد فهو من آيات عظمة الخالق سبحانه و تعالى، و هو من الضرورات الحياتية فى عالم الوجود.

فالليل يكيّف حرارة الجو، و يعم على جميع الكائنات الاستقرار و السكون بعد جهد الحركة و التنقل، و فوق هذا و ذاك ففيه أفضل أوقات الدعاء و المناجاة مع اللّه جلّ و علا.

و أمّا ليلة عيد الأضحى (ليلة الجمع) فهى من أعجب الليالى فى ذلك الوادى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۷

المقدس (المشعر الحرام).

و تتجسد تلك العلاقة الموجودة بين الأشياء الخمس التى أقسم بها (الفجر، ليال عشر، الشفع، الوتر، الليل إذا يسر) إذا ما اعتبرناها ضمن أيّام ذى الحجّة و مراسم الحج العظيمة.

و فى غير هذا فسيكون إشارة إلى مجموعة من حوادث عالم التكوين و التشريع المهمّة، و التى تبيّن جلال و عظمة الخالق سبحانه و تعالى.

ثمّ تأتى الآية التالية لتقول: هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ. «الحجر» هنا بمعنى: العقل، و فى الأصل بمعنى (المنع)، كأن يقال: حجر القاضى فلانا، أو كأن يطلق على الغرفة (حجرة) لأنّها محل محفوظ و يمنع دخوله من قبل الآخرين، و كذلك يقال للحضن (حجر)- على وزن فكر- لحفظه و إحاطته، و اطلق على العقل (حجر) لمنعه الإنسان عن الأعمال السيئة، كما أنّ مصطلح (العقل) هو بمعنى (المنع) أيضا، و منه (العقال) الذى به تربط أرجل البعير ليمنعه من الحركة.

و لكن ... أين جواب القسم؟

ثمّة احتمالان، هما:

الأوّل: قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ.

الثّانى: جواب القسم محذوف و تدلّ عليه الآيات التالية، التى تتحدث عن عقاب الطغاة، و التقدير: (قسما بكلّ ما قلناه لنعذبنّ الكافرين و الطغاة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۸

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۶ الى ۱۴]

اشارة

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ (۶) إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ (۷) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ (۸) وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ (۹) وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ (۱۰)

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (۱۱) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ (۱۲) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ (۱۳) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ (۱۴)

التّفسير

إمهال الظالمين .. و الانتقام!

بعد أن تضمّنت الآيات الاولى خمسة أقسام حول معاقبة الطغاة، تأتى هذه الآيات لتعرض لنا نماذج من طواغيت الأرض من الذين توفرت لهم بعض سبل القوّة و القدرة، فأهوتهم أهوائهم فى قاع الغرور و الكفر و الطغيان، و تبيّن لنا الآيات المباركة ما حلّ بهم من عاقبة أليمة، محذرة المشركين فى كلّ عصر و مصر على أن يرعووا و يعودوا إلى رشدهم بعد أن يعيدوا حسابهم و يستيقظوا من غفلتهم، لأنّهم مهما تمتعوا بقوّة و قدرة فلن يصلوا لما وصل إليه الأقوام السالفة، و ينبغى الاتعاظ بعاقبتهم، و إلّا فالهلاك و العذاب الأبدى و لا غير سواه.

و تبتدأ الآيات ب: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۷۹

المراد «بالرؤية» هنا، العلم و المعرفة لما وصلت إليه تلك الأقوام من الشهرة بحال بحيث أصبح من جاء بعدهم يعرف عنهم الشىء

الكثير و كأنّه يراهم بامّ عينيه و لذا جاء فى الآية: أَ لَمْ تَرَ.

و مع أنّ المخاطب فى الآية هو النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، إلّا أنّ الخطاب موجّه إلى الجميع.

«عـاد»: هم قوم نبى اللّه هود عليه السّلام، و يـذكر المؤرخون أنّ اسم «عـاد» يطلق على قبيلتين .. قبيلـة كانت فى الزمن الغابر البعيـد، و يسميها القرآن الكريم ب «عاد الاولى»، كما فى الآية (۵۰) من سورة النجم، (و يحتمل أنّها كانت قبل التاريخ).

و يحددون تاريخ القبيلة الثّانية بحدود (۷۰۰) سنة قبل الميلاد، و كانت تعيش فى أرض الأحقاف أو اليمن.

و كان أهل عاد أقوياء البنيـة، طوال القامـة، لـذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشـداد، هـذا بالإضافـة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدّم مدنى، و كانت مدنهم عامرة و قصورهم عالية و أراضيهم يعمها الخضار.

و قيل: إنّ «عاد» هو اسم جدّ تلك القبيلة، و كانت تسمى القبيلة ب (عادة).

و يضيف القرآن قائلا: إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ.

اختلف المفسّرون فى علام يطلق اسم «إرم». هل هو شخص أم قبيلة أم مدينة؟

ينقل الزمخشرى فى الكشاف عن بعضهم، قوله: إنّ عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح، و سمّيت القبيلة باسم الجدّ و هو (إرم).

و يعتقد آخرون: إنّ (إرم) هم «عاد الاولى»، و «عاد» هى القبيلة الثّانية، يقال أيضا: إنّ «إرم» هو اسم مدينتهم.[۱۴۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۰

و ما يناسب الآية التالية، أن يكون (إرم) هو اسم مدينتهم.

«عماد»: بمعنى العمود و جمعه «عمد» و هى على ضوء التّفسير الأوّل، تشير إلى ضخامة أجسادهم كأعمدة البناء، و على ضوء التّفسير الثّانى تشير إلى عظمة أبنيتهم و علو قصورهم و ما فيها من أعمدة كبيرة.

و على القولين فهى: إشارة إلى قدرة و قوّة قوم عاد.[۱۴۲] و لكنّ التّفسير الثّانى (أعمدة قصورهم العظيمة) أنسب.

و لذا تقول الآية التالية: الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِى الْبِلادِ.

و الآيـة تبيّن أنّ المراد ب «إرم» المدينـة و ليس شـخص أو قبيلة، و لعل هذه الآية هى التى دعت بعض كبار المفسّرين من اختيار هذا التّفسير، و نراه كذلك راجحا[۱۴۳].

و قد ذكر بعض المفسّرين قصّة اكتشاف مدينة «إرم» العظيمة فى صحارى شبه الجزيرة العربية و صحارى عدن، و تحدثوا بتفصيل عن رونقها و بنائها العجيب، و لكنّ القصّة أقرب للخيال منها للواقع.

و على أيّة حال، فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل فى حينها، و مـدنهم من أرقى المـدن من الناحيـة المدنية، و كما أشار إليها القرآن الكريم: الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِى الْبِلادِ.

و ثمّة قصص كثيرة عن «جنّة شـداد بن عاد» فى كتب التاريـخ، حتى أنّها أصبحت مضـربا للأمثال لما شاع عنها بين النّاس و على مرّ العصور، إلّا أنّ ما ورد بين متون كتب التاريخ لا يخرج عن إطار الأساطير التى لا واقع لها.

و تذكر الآية التالية جمع آخر من الطغاة السابقين: وَ ثَمُودَ الَّذِينَ جابُوا الصَّخْرَ بِالْوادِ، و صنعوا منها البيوت و القصور.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۱

«ثمود»: من أقـدم الأقوام، و نبيّهم صالـح عليه السّلام، و كـانوا يعيشون فى (وادى القرى) بين المدينـة و الشـام، و كانوا يعيشون حياة مرفهة، و مدنهم عامرة.

و قيل: «ثمود» اسم جدّ القبيلة، و قد سميت به ۱۴۴].

«جابوا»: من (الجوبـة)- على زنـة توبـة- و هى الأرض المقطوعـة، ثمّ استعملت فى قطع كلّ أرض، و جواب كلام، هو ما يقطع الهواء فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع، (أو لأنّه يقطع السؤال و ينهيه).

و على أيّة حال، فمراد الآية: قطع أجزاء الجبال و بناء البيوت القوية، كما أشارت إلى ذلك الآية (۸۲) من سورة الحجر- حول ثمود أنفسهم-: وَ كانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ و الآية (۱۴۹) من سورة الشعراء، و التى جاء فيها: ... بُيُوتاً فارِهِينَ

و قيل: قوم ثمود أوّل من قطع الأحجار من الجبال، و صنع البيوت المحكمة فى قلبها.

«واد»: فى الأصل (وادى)، و هو الموضع الذى يجرى فيه النهر، و منه سمى المفرج بين الجبلين واديا، لأنّ الماء يسيل فيه.

و المعنى الثّانى أكثر مناسبة بقرينة ما ورد فى القرآن من آيات تتحدث عن هؤلاء القوم، و ما ذكرناه آنفا يظهر بأنّهم كانوا ينحتون بيوتهم فى سفوح الجبال ۱۴۵].

و

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۱۸۱

روى: إنّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما وصل إلى وادى ثمود- شمال الجزيرة العربية- فى طريقه إلى تبوك، قال و هو راكب على فرسه: «أسرعوا، فهى أرض ملعونة»[۱۴۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۲

ممّا لا شكّ فيه أنّ ثمود قوم قد وصلوا إلى أعلى درجات التمدن فى زمانهم، و لكنّ ما يذكر عنهم فى بعض كتب التّفسير، يبدو و كأنّه مبالغ فيه أو اسطورة، كأن يقولوا: إنّهم بنوا ألفا و سبعمائة مدينة من الحجر! و تتعرض الآية التالية لقوم ثالث: وَ فِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتادِ.

أى: ألم تر ما فعل ربّك بفرعون الظالم المقتدر؟! «أوتاد»: جمع (وتد)، و هو ما يثبّت به.

و لم وصف فرعون بذى الأوتاد؟

و ثمّة تفاسير مختلفة:

الأوّل: لأنّه كان يملك جنودا و كتائبا كثيرة، و كانوا يعيشون فى الخيم المثبتة بالأوتاد.

الثّانى: لما كان يستعمل من أساليب تعذيب من يغضب عليهم، حيث غالبا ما كان يدق على أيديهم و أرجلهم بأوتاد ليثبتها على الأرض، أو يضعهم على خشبة و يثبتهم بالأوتاد، أو يدخل الأوتاد فى أيديهم و أرجلهم و يتركهم هكذا حتى يموتوا.

و ورد هذا الكلام فى رواية نقلت عن الإمام الصادق عليه السّلام ۱۴۷].

و تنقل كتب التاريخ إنّه قد عذّب زوجته «آسية» بتلك الطريقة البشعة حتى الموت، لأنّها آمنت بما جاء به موسى عليه السّلام و صدّقت به.

الثّالث: «ذى الأوتاد»: كناية عن قدرة و استقرار الحكم.

و لا تنافى فيما بين التفاسير الثلاثة، و يمكن إدخالها جميعها فى معنى الآية.

و ينتقل القرآن العرض ما كانوا يقومون به من أعمال: الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلادِ .. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۳

الفساد الذى يشمل كلّ أنواع الظلم و الاعتداء و الانحراف، و الذى هو نتيجة طبيعية من نتائج طغيانهم، فكلّ من يطغى سيؤول أمره إلى الفساد لا محال.

و يذكر عقابهم الأليم و بعبارة موجزة: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ «السوط»: هو الجلد المضفور الذى يضرب به، و أصل السوط: خلط الشىء بعضه ببعض، و هو هنا كناية عن العذاب، العذاب الذى يخلط لحم الإنسان بدمه فيؤذيه أشدّ الإيذاء.

و

جاء فى كلام أمير المؤمنين عليه السّلام عن الامتحان: «و الذى بعثه بالحقّ للتبلبلن بلبلة و لتغربلن غربلة و لتساطن سوط القدر»[۱۴۸].

«صبّ عليهم»: تستعمل فى الأصل لانسكاب الماء، و هنا إشارة إلى شدّة و استمرار نزول العذاب، و يمكن أن يكون إشارة لتطهير الأرض من هؤلاء الطغاة أمّا أنسب معانى «السوط» فهو المعروف بين النّاس به.

فعلى إيجاز الآية، لكنّها تشير إلى أنواع العذاب الذى أصابهم، فعاد أصيبوا بريح باردة، كما تقول الآية (۶) من سورة الحاقة: وَ أَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ، و أهلك قوم ثمود بصيحة سماوية عظيمة، كما جاء فى الآية (۵) من سورة الحاقة أيضا: فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، و الآية (۵۵) من سورة الزخرف تنقل صورة هلاك قوم فرعون: فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ

و تحذر الآية التالية كلّ من سار على خطو أولئك الطواغيت: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ.

«المرصاد»: من (الرصد)، و هو الاستعداد للترقب، و هو فى الآية يشير إلى عدم وجود أىّ ملجأ أو مهرب من رقابة اللّه و قبضته، فمتى شاء سبحانه أخذ المذنبين بالعقاب و العذاب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۴

و بديهى، أنّ التعبير لا يعنى أنّ اللّه تعالى له مكان و كمين يرصد فيه الطواغيت، بل كناية عن إحاطة القدرة الإلهية بكلّ الجبارين و الطغاة و المجرمين، و سبحانه و تعالى عن التجسيم و ما شابه.

و

قد ورد فى معنى الآية عن الإمام على عليه السّلام قوله: «إنّ ربك قادر على أن يجزى أهل المعاصى جزاءهم»[۱۴۹].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام، أنّه قال: «المرصاد قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة عبد»[۱۵۰].

و هذا مصداق جلّى للآية، حيث أنّ المرصاد الإلهى لا ينحصر بيوم القيامة و الصراط، بل هو تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم حتى فى هذه الدنيا، و ما عذاب تلك الأقوام الآنفة الذكر إلّا دليل واضح على هذا.

«ربّك»: إشارة إلى أنّ هذه السنّة الإلهية لم تقف عند حدّ الذين خلوا من الأقوام السالفة، بل هى سارية حتى على الظالمين من امّتك يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم .. و فى ذلك تسلية لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تطمينا لقلوب المؤمنين، فالوعد الإلهى قد أكّد على عدم انفلات الأعداء المعاندين من قبضة القدرة الإلهية أبدا أبدا، و فيه تحذير أيضا لأولئك الذين يؤذون النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و يظلمون المؤمنين، تحذير بالكف عن ممارساتهم تلك و إلّا سيصيبهم ما أصاب الأكثر منهم قدرة و قوّة، و عندها فسوف لن تقوم لهم قائمة إذا ما أتتهم ريح عاصفة أو صيحة مرعبة أو سيل جارف يقطع دابرهم.

روى عن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أنّه قال: «أخبرنى الروح الأمين أنّ اللّه لا إله غيره إذا وقف الخلائق و جميع الأولين و الآخرين، أتى بجهنّم ثمّ يوضع عليها صراط أدق من الشعر و أحدّ من السيف، عليه ثلاث قناطر ... الاولى: الأمانة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۵

و الرحم، و الثّانية: عليها الصلاة، و الثّالثة: عليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره، فيكلّفون الممر عليها، فتحبسهم الرحم و الأمانة، فإن نجوا منها حبستهم الصلاة، فإن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين جلّ ذكره، و هو قول اللّه تبارك و تعالى: إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ[۱۵۱].

و

عن الإمام على عليه السّلام: «و لئن أمهل اللّه الظالم فلن يفوت أخذه، و هو له بالمرصاد، على مجاز طريقه، و بموضع الشجى من مساغ ريقه»[۱۵۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۶

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۱۵ الى ۲۰]

اشارة

فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (۱۵) وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ (۱۶) كَلَّا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (۱۷) وَ لا تَحاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۱۸) وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا (۱۹)
وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا (۲۰)

التّفسير

موقف الإنسان من تحصيل النعمة و سلبها!

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن عقاب الطغاة، و تحذيرهم و إنذارهم، تأتى هذه الآيات لتبيّن مسألة الابتلاء و التمحيص و أثرها على الثواب و العقاب الإلهى، و تعتبر مسألة الابتلاء من المسائل المهمّة فى حياة الإنسان.
و تشرع الآيات ب: فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
و كأنّه لا يدرى بأنّ الابتلاء سنّة ربّانية تارة يأتى بصورة اليسر و الرخاء
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۷
و اخرى بالعسر و الضراء.
فلا ينبغى للإنسان أن يغتر عند الرخاء، و لا أن ييأس عند ما تصيبه عسرة الضراء، و لا ينبغى له أن ينسى هدف وجوده فى الحالتين، و عليه أن لا- يتصور بأن الدنيا إذا ما أرخت نعمها عليه فهو قد أصبح مقرّبا من اللّه، بل لا بدّ أن يفهمها جيّدا و يؤدّى حقوقها، و إلّا فسيفشل فى الامتحان.
و من الجدير بالملاحظة، أنّ الآية ابتدأت بالحديث عن إكرام اللّه تعالى للإنسان «فأكرمه و نعمه»، فى حين تلومه على اعتقاده بهذا الإكرام فى آخرها:
فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ و ذلك .. لأنّ الإكرام الأوّل هو الإكرام الطبيعى، و الإكرام الثّانى بمعنى القرب عند اللّه تعالى.
وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ
فيأخذه اليأس، و يظن إنّ اللّه قد ابتعد عنه، غافلا- عن سنّة الابتلاء فى عملية التربية الربّانية لبنى آدم، و التى تعتبر رمزا للتكامل الإنسانى، فمن خلال نظرة و معايشة الإنسان للابتلاء يرسم بيده لوحة عاقبته، فأمّا النعيم الدائم، و أمّا العقاب الخالد.
و توضح الآيتان بأنّ حالة اليسر فى الدنيا ليست دليل قرب اللّه من ذلك الإنسان، و كذا الحال بالنسبة لحالة العسر فلا تعنى بعد اللّه عن عبده، و كلّ ما فى الأمر أنّ الحالتين صورتان مختلفتان للامتحان الذى قررته الحكمة الإلهية، ليس إلّا.
و تأتى الآية (۵۱) من سورة فصّلت فى سياق الآيتين: وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ
و كذا الآية (۹) من سورة هود: وَ لَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُسٌ كَفُورٌ.
و تنبهنا الآيتان أيضا، بأن لا نقع فى خطأ التشخيص، فنحكم على فلان بأن
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۸

اللّه راضى عنه لأنّه يفعم بالنعم الإلهيـة، و أن فلان قـد سـخط عليه اللّه لأنّه محروم من نعم كثيرة، و لا بـدّ لنا من الرجوع إلى المعايير الثابتة عند القيام بعملية التشخيص و التقييم، فالعلم و الإيمان و التقوى هى أسس التقييم، و ليس ظاهر التمتع بحالة السراء ..

فما أكثر الأنبياء الذين تناوشـتهم أنياب البلايا و المصائب، و ما أكثر الكافرين و الطغاة الذين تنعموا بمختلف ملاذ الدنيا، إنّها من سنن طبيعة الحياة الدنيا، و لكن ..

أين الأنبياء من الكافرين و .. عقبى الدار؟! فالآية إذن، تشير إلى فلسفة البلاء، و ما يصيب الإنسان من محن و إحن فى دنياه.

و توجه الآيتـان التاليتـان نظر إلى الإنسان و الأعمال التى تؤدّى بحقّ للبعـد عن اللّه، و توجب عقابه: كَلَّا فليس الأمر كما تظنون من أنّ أموالكم دليل على قربكم من اللّه، لأنّ أعمالكم تشهد ببعدكم عنه، بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ .. وَ لا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ

و الملاحظ أنّ الآية لم تخص اليتيم بالإطعام بل بالإكرام، لأنّ الوضع النفسى و العاطفى لليتيم أهم بكثير من مسألة جوعه.

فلاـ ينبغى لليتيم أن يعيش حالـة الانكسار و الذلـة بفقـدان أبيه، و ينبغى الاعتناء به و إكرامه لسـدّ الثغرة التى تسـببت برحيل أبيه، و قد أولت الأحاديث الشريفة و الرّوايات هذا الجانب أهمية خاصّة، و أكّدت على ضرورة رعاية و إكرام اليتيم.

فعـن الإمـام الصـادق عليـه السّـلام، إنّه قـال: «مـا من عبـد يمسـح يـده على رأس يـتيم رحمـة له إلّـا أعطـاه اللّه بكـلّ شـعرة نـورا يـوم القيامة»[۱۵۳].

و تقول الآية (۹) من سورة الضحى: فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۸۹

و هـذه الـدعوة الربّانيـة تقابل ما كان سائدا فى عصور الجاهلية، كيف و كانوا يتعاملون مع اليتامى، و لا تنفصل جاهلية اليوم عن تلك الجاهليـة، فنرى من لم يـدخل الإيمـان قلبه، كيف يتوسـل بمختلف الحيـل و الألاـعيب لسـرقة أموال اليتـامى، و الأشـد من هـذا فإنّهم يتركون اليتامى جانبا بلا اهتمام و لا رعايـة ليعيشوا غمّ فقـدان الآباء و بأشدّ صورة! فإكرام اليتيم لا ينحصـر بحفظ أموالهم- كما يقول البعض- بل يشمل حفظ الأموال و غيرها.

«تحـاضون»: من (الحض)، و هو الترغيب، فلاـ يكفى إطعـام المسـكين بـل يجب على النّاس أن يتواصوا و يحث بعضـهم البعض الآخر على ذلك لتعم هذه السنّة التربوية كلّ المجتمع ۱۵۴].

و قد قرنت الآية (۳۴) من سورة الحاقـة عـدم الإكرام بعـدم الإيمان باللّه عزّ و جلّ: إِنَّهُ كانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ ۱۵۵].

و تعرض الآية التالية ثالث أعمالهم القبيحة: وَ تَأْكُلُونَ التُّراثَ أَكْلًا لَمًّا[۱۵۶].

ممّا لا شكّ فيه أنّ الاستفادة من الميراث المشروع عمل غير مذموم، و لذا فيمكن أن يكون المذموم فى الآية أحد الأمور التالية:

الأـوّل: الجمـع بين حقّ الإنسـان و حقّ الآـخرين فى الميراث، لأـنّ كلمـة «لمّ» بمعنى الجمع، و فسّـرها الزمخشـرى فى الكشّـاف بمعنى الجمع بين الحلال و الحرام.

و كانت عادة العرب فى الجاهلية أن يحرموا النساء و الأطفال من الإرث لاعتقادهم بأنّه نصيب المقاتلين (لأنّ أكثر أموالهم تأتيهم عن طريق السلب و الإغارة).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۰

الثّانى: عـدم الإنفاق من الإرث على المحرومين و الفقراء من الأقرباء و غيرهم، فإن كنتم تبخلون بهـذه الأموال التى وصـلت إليكم بلا عناء، فأنتم أبخل فيما تكدّون فى تحصيله، و هذا عيب كبير فيكم.

الثّـالث: هو أكل إرث اليتامى و التجاوز على حقوق الصـغار، و ذلك من أقبـح الـذنوب، لأنّ فيه اسـتغلال فاحش لحقّ من لا يسـتطيع الدفاع عن نفسه.

و الجمع بين هذه التّفاسير الثلاث ممكن ۱۵۷].

ثمّ يأتى الذّم الرّابع: وَ تُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا[۱۵۸].

فأنتم .. عبدة دنيا، طالبى ثروة، عشاق مال و متاع .. و من يكون بهذه الحال فمن الطبيعى أن لا يعتنى فى جمعه للمال، أ كان من حلال أم من حرام، و من الطبيعى أيضا أن يتجاوز على الحقوق الشرعية المترتبة عليه، بأن لا ينفقها أو ينقص منها .. و من الطبيعى كذلك إنّ القلب الذى امتلأ بحبّ المال و الدنيا سوف لا يبقى فيه محل لذكر اللّه عزّ و جلّ.

و لذا نجد القرآن الكريم بعد ذكره لمسألة امتحان الإنسان، يتعرض لأربعة اختبارات يفشل فيها المجرمين.

إكرام اليتيم.

إطعام المسكين.

أسهم الإرث.

و جمعه من طريق مشروع و غير مشروع.

و جمع المال بدون قيد أو شرط.

و الملاحظ أنّ الاختبارات المذكورة إنّما تدور حول محور الأموال، للإشارة ما للمال من مطبات مهلكة، و لو تجاوزها الإنسان لسهلت عليه بقية العقبات فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۱

طريقه نحو التكامل و الرقى و السمو.

و ثمّة من يكون متذبذبا فى الأمانة (بين أن يؤدى أو يخون)، و هكذا إنسان غالبا ما تصرعه و وساوس الشيطان و ترميه فى جانب الخيانة .. أمّا أولئك الصادقون فى إيمانهم فهم الأمناء حقّا فى الرعاية و الاهتمام لأداء الحقوق الواجبة و المستحبة للآخرين، و لا تراهم يتهاونون بأدنى درجات التهاون، و مثلهم هو الذى يتمكن من صعود سلم الرفعة و السمو على طريق الإيمان و التقوى.

و الخلاصة: من تجاوز اختبار المال بنجاح، فهو أهل للاعتماد، و من أهل التقوى و الورع، و هو خير أخ و صديق، و غالبا ما تراه صالحا فى كافة مجالات حياته و المجتمع.

و لذلك، نرى الاختبارات هنا دارت حول محور المال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۲

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۲۱ الى ۲۶]

اشارة

كَلاَّ إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (۲۱) وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (۲۲) وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى (۲۳) يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي (۲۴) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ (۲۵)

وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ (۲۶)

التّفسير

يوم لا تنفع الذكرى!

بعد أن ذمت الآيات السابقة الطغاة و عبدة الدنيا و الغاصبين لحقوق الآخرين، تأتى هذه الآيات لتحذرهم و تهددهم بوجود القيامة و الحساب و الجزاء.

فتقول أوّلا: «كلا» (فليس الأمر كما تعتقدون بأن لا حساب و لا جزاء، و أنّ اللّه قد أعطاكم المال تكريما و ليس امتحانا) .. إِذا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا.

«الدك»: الأرض اللينة السهلة، ثمّ استعملت فى تسوية الأرض من الارتفاعات و التعرجات، و (الدكان): المحل السوى الخالى من الارتفاعات و (الدكة): المكان السوى المهيأ للجلوس.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۳

و جاء تكرار «دكّا» فى الآية للتأكيد.

و عموما، فالآية تشير إلى الزلازل و الحوادث المرعبة التى تعلن عن نهاية الدنيا و بداية يوم القيامة، حيث تتلاشى الجبال و تستوى الأرض، كما أشارت لذلك الآيات (۱۰۶- ۱۰۸) من سورة طه: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُها قاعاً صَفْصَفاً لا تَرى فِيها عِوَجاً وَ لا أَمْتاً.

و بعد أن ينتهى مرحلة القيامة الاولى (مرحلة الدمار)، تأتى المرحلة الثّانية، حيث يعود النّاس ثانية للحياة ليحضروا فى ساحة العدل الالهى: وَ جاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا.

نعم، فسيقف الجميع فى ذلك المحشر لإجراء الأمر الالهى و تحقيق العدالة الربّانية، و قد بيّنت لنا الآيات ما لعظمة ذلك اليوم، و كيف أنّ الإنسان لا سبيل له حينها إلّا الرضوخ التام بين قبضة العدل الالهى.

وَ جاءَ رَبُّكَ كناية عن حضور الأمر الالهى لمحاسبة الخلائق، أو أنّ المراد:

ظهور آيات عظمة اللّه سبحانه و تعالى، أو ظهور معرفة اللّه عزّ و جلّ فى ذلك اليوم، بشكل بحيث لا يمكن لأىّ كان إنكاره، و كأنّ الجميع ينظرون إليه بأم أعينهم.

و بلا شك، إنّ حضور اللّه بمعناه الحقيقى المستلزم للتجسيم و التحديد بالمكان، هذا المعنى ليس هو المراد، لأنّ سبحانه و تعالى مبرّأ من الجسمية و خواص الجسمية[۱۵۹].

و قد ورد هذا المعنى فى كلام للإمام على بن موسى الرضا عليهما السّلام ۱۶۰].

كما و تؤيد الآية (۳۳) من سورة النحل هذا التّفسير بقولها:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۴

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ

صَفًّا صَفًّا: إشارة إلى ورود الملائكة عرصة يوم القيامة على هيئة صفوف، و يحتمل تعلق الصفوف بكلّ السماوات.

و تقول الآية التالية: وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَ أَنَّى لَهُ الذِّكْرى

و ما نستنبطه من الآية، إنّ جهنم قابلة للحركة، فتقرب للمجرمين، كما هو حال حركة الجنّة للمتقين: وَ أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۱۶۱].

و ثمّة من يعطى للآية معنى مجازيا، و يعتبرها كناية عن ظهور الجنّة و النّار أمام أعين المحسنين و المسيئين.

و لكن، لا دليل على الأخذ بخلاف الظاهر، و من الأفضل التعامل مع ظاهر الآية، لأنّ حقائق عالم القيامة لا يمكن فهمها و تصورها بشكل دقيق لمحدودية عالمنا أمام ذلك العالم من جهة؟ و لاختلاف القوانين و السنن التى تحكم ذلك العالم من جهة اخرى .. ثمّ، ما المانع فى تحرك كلّ من الجنّة و النّار فى ذلك اليوم؟

و

روى: لمّا نزلت هذه الآية، تغيّر وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و عرف فى وجهه حتى اشتدّ على أصحابه ما رأوا من

حاله، و انطلق بعضهم إلى على بن أبى طالب عليه السّلام فقالوا: يا على لقد حدث أمر قد رأيناه فى نبىّ اللّه، فجاء على عليه السّلام فاحتضنه ثمّ قال: «يا نبىّ اللّه بأبى أنت و أمى، ما الذى حدث اليوم؟».

قال: «جاء جبرائيل عليه السّلام فأقرأنى وَ جِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ

قال: فقلت: كيف يجاء بهم؟

قال: يجىء بها سبعون ألف ملك يقودونها بسبعين ألف زمام، فتشرد شردة لو تركت لأحرقت أهل الجمع، ثمّ أتعرض لجهنم، فتقول: ما لى و لك يا محمّد، فقد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۵

حرّم اللّه لحمك علىّ، فلا يبقى أحد إلّا قال: نفسى نفسى، و إنّ محمّدا يقول: ربّ أمّتى أمّتى»[۱۶۲].

نعم، فحينما يرى المذنب كلّ تلك الحوادث تهتز فرائصه و يتزلزل رعبا، فيستيقظ من غفلته و يعيش حالة الهمّ و الغمّ، و يتحسر على كلّ لحظة مرّت من حياته بعد ما يرى ما قدّمت يداه، و لكن. هل للحسرة حينها من فائدة؟! و كم سيتمنى المذنب لو تسنح له الفرصة ثانية للرجوع إلى الدنيا و إصلاح ما أفسد، و لكنّه سيرى أبواب العودة مغلقة، و لا من مخرج! ...

و يودّ التوبة .. و هل للتوبة من معنى بعد غلق أبوابها؟! و يريد أن يعمل صالحا .. و لكن أين؟ فقد طويت صحائف الأعمال، و يومها يوم حساب بلا عمل! ..

و عندها .. بملإ يصرخ كيانه: يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي

و فى قولته نكتة لطيفة، فهو لا يقول قدّمت لآخرتى بل «لحياتى»، و كأنّ المعنى الحقيقى للحياة لا يتجسد إلّا فى الآخرة.

كما أشارت لهذه الآية (۶۴) من سورة العنكبوت: وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ

نعم، ففى دنياهم: يسرقون أموال اليتامى، لم يطعموا المساكين، يأخذون من الإرث أكثر ممّا يستحقون و يحبّون المال حبّا جمّا.

و فى أخراهم، يقول كلّ منهم: يا ليتنى قدّمت لحياتى الحقيقية الباقية .. و لكنّ التمنى ليس أكثر من رأس مال المفلسين.

و تشير الآية التالية إلى شدّة العذاب الإلهى: فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ.

نعم، فمن استخدم فى دنياه كلّ قدرته فى ارتكاب أسوء الجرائم و الذنوب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۶

فلا يجنى فى آخرته إلّا أشد العذاب ...

فيما سينعم المحسنون و الصالحون فى أحسن الثواب، و يخلدون بحال ما لا عين رأت و لا اذن سمعت، فاللّه «أرحم الراحمين» لمن أخلص النيّة و عمل، و «أشدّ المعاقبين» لمن تجاوز حدود هدف خلقه.

و تكمل الآية التالية تصوير شدّة العذاب: وَ لا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَدٌ.

فوثاقه ليس كوثاق الآخرين، و عذابه كذلك، كلّ ذلك بما كسبت يداه حينما أوثق المظلومين فى الدنيا بأشدّ الوثاق، و مارس معهم التعذيب بكلّ وحشية، متجرد عن كلّ ما وهبه اللّه من إنسانية.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۷

الآيات [سورة الفجر (۸۹): الآيات ۲۷ الى ۳۰]

اشارة

يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (۲۷) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً (۲۸) فَادْخُلِي فِي عِبادِي (۲۹) وَ ادْخُلِي جَنَّتِي (۳۰)

التّفسير

الشّرف العظيم:

و تنتقل السّورة فى آخر مطافها إلى تلك النفوس المطمئنة ثقة باللّه و بهدف الخلق، بالرغم من معايشتها فى خضم صخب الحياة الدنيا، فتخاطبهم بكلّ لطف و لين و محبّة، حيث تقول: يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ .. ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً .. فَادْخُلِي فِي عِبادِي .. وَ ادْخُلِي جَنَّتِي

فهل ثمّة أجمل و ألطف من هذا التعبير! ...

تعبير يحكى دعوة اللّه سبحانه و تعالى لتلك النفوس المؤمنة، المخلصة، المحبّة و الواثقة بوعده جلّ شأنه .. دعوتها لتعود إلى ربّها و مالكها و مصلحها الحقيقى ...

دعوة مفعمة برضا الطرفين، رضا العاشق على معشوقه، و رضا المعشوق على عاشقه ....

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۸

و تتوج تلك النفوس الطاهرة بتاج العبودية، لتدخل فى صف المقرّبين عند اللّه، و لتحصل على إذن دخول جنان الخلد، و ما قوله تعالى: «جنتى» إلّا للإشارة إلى أنّ المضيف هو اللّه جلّ جلاله ... فما أروعها من دعوة! و ما أعظمه و أكرمه من داع! و ما أسعده من مدعو! و يراد بالنفس هنا: الروح الإنسانية.

«المطمئنة»: إشارة إلى الاطمئنان الحاصل من الإيمان، بدلالة الآية (۲۸) من سورة الرعد: أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ

و يعود اطمئنان النفس، لاطمئنانها بالوعود الإلهية من جهة، و لاطمئنانها لما اختارت من طريق ..

و هى مطمئنة فى الدنيا سواء أقبلت عليها أم أدبرت، و مطمئنة عند أهوال حوادث يوم القيامة الرهيبة أيضا.

أمّا (الرجوع إلى اللّه)، فهو- على قول جمع من المفسّرين- رجوع إلى ثوابه و رحمته ..

و لكنّ الأنسب أن يقال: إنّه رجوع إليه جلّ و علا- رجوع إلى جواره و قربه بمعناها الروحى المعنوى، و ليست بمعناها المكانى و الجسمانى.

و ثمّة سؤال يرد إلى الذهن .. متى ستكون دعوته المباركة، هل ستكون بعد مفارقة الروح البدن، أم فى يوم القيامة؟؟

لو أخذنا بظاهر الآيات المباركة، فسياقها يرتبط بالقيامة، و إن كان تعبير الآية ذو شمولية.

«راضية»: لما ترى من تحقق الوعود الإلهية بالثواب و النعيم بأكثر ممّا كانت تتصور، و شمول العبد برحمة و فضل اللّه سيدخل فى قلبه الرضا بكلّ ما يحمل الرضا من معان و أكثر.

«مرضيّة»: لرضا اللّه تبارك و تعالى عنها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۱۹۹

فعبد بما ذكر من أوصاف، بلا شكّ مكانه الجنّة، و ذلك لأنّه عمل بكلّ ما يملك فى سبيل رضوان معبوده الأحد الصمد، و وصل فى عمله لمقام الرضا التام و التسليم الكامل لخالقه تبارك و تعالى، حتى نال و سام حقيقة العبودية، و دخل طائعا و واثقا فى صف عباد اللّه الصالحين ..

و قد خصّ بعض المفسّرين سبب نزول هذه الآيات فى (حمزة سيد الشهداء)، و لكن بلحاظ كون السّورة مكّية، فيمكن اعتبار ذلك

أحد تطبيقات (مصاديق) الآيات و ليس شأنا للنزول، كما هو الحال فى ما ذكرنا فى أوّل السّورة بشأن الإمام الحسين عليه السّلام.

روى أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام قد سأله قائلا: جعلت فداك يا ابن رسول اللّه، هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لا- و اللّه، إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك، فيقول له ملك الموت: يا وليّ اللّه، لا تجزع، فو الذى بعث محمّدا لأنا أ برّبك و أشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر، قال: و يمثل له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة من ذريتهم عليهم السّلام، فيقال له: هذا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمّة عليهم السّلام رفقاؤك، قال: فيفتح عينيه فينظر، فينادى روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول: «يا أيّتها النفس المطمئنة (إلى محمّد و أهل بيته) ارجعى إلى ربّك راضية (بالولاية) مرضيّة (بالثواب) فادخلى فى عبادى (يعنى محمّدا و أهل بيته) و ادخلى جنّتى»، فما شىء أحبّ إليه من استلال روحه و اللحوق بالمنادى»[۱۶۳].

اللّهمّ! اجعل نفوسنا مطمئنة ليشملنا خطابك الكريم ..

اللّهمّ! و لا ينال ذلك إلّا بلطفك، فاغمرنا به ..

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۰

اللّهمّ! منّ علينا بكرمك الذى لا ينفد، و اجعلنا من النفوس المطمئنة ..

اللّهمّ! لا يكون الاطمئنان إلّا بذكرك، فوفقنا إليه بفضلك ..

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفجر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۱

سورة البلد

اشارة

مكيّة و عدد آياتها عشرون آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۳

«سورة البلد»

محتوى السّورة:

هذه السّورة المباركة على قصرها تحمل حقائق كبرى:

۱- فى بداية هذه السّورة، بعد قسم ذى محتوى عميق، تقرّر الآية أنّ حياة الإنسان فى هذه الدنيا مقرونة بمشاكل و أتعاب؛ و بذلك تعدّ الإنسان من جهة ليصارع العقبات، و من جهة اخرى تبعده عن طلب الراحة المطلقة فى هذا العالم، فالراحة المطلقة و النعيم المطلق فى الحياة الآخرة لا غيرها.

۲- فى مقطع آخر من هذه السّورة، إشارة إلى أهم النعم الإلهية، ثمّ ذكر جحود الإنسان بهذه النعم.

۳- و فى آخر هذه السّورة تقسيم النّاس إلى: «أصحاب الميمنة» و «أصحاب المشئمة»، ثمّ يأتى ذكر جانب من أعمال المجموعة الأولى و صفاتها (المجموعة المؤمنة الصالحة) و ما ينتظرها من جزاء، ثمّ المجموعة الثّانية، (و هى الكافرة المجرمة) و ما تواجهه من مصير.

عبارات السّورة قاطعة قارعة، و الجمل قصيرة ذات إيقاع قوى، و الألفاظ واضحة مؤثرة معبّرة، و شكل آياتها تدلّ على أنّها مكّية.

فضيلة السّورة:

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه اللّه الأمن من غضبه يوم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۴

القيامة»[۱۶۴].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «من كان قراءته فى فريضته «لا اقسم بهذا البلد» كان فى الدنيا معروفا أنّه من الصالحين، و كان فى الآخرة معروفا أنّ له من اللّه مكانا، و كان يوم القيامة من رفقاء النّبيين و الشّهداء و الصّالحين»[۱۶۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۵

الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ (۱) وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ (۲) وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ (۴)

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (۵) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً (۶) أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (۷)

التّفسير

لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ[۱۶۶]

فى مواضع كثيرة يبدأ القرآن بالقسم عند تعرّضه للحقائق الهامة ... بالقسم الذى يؤدى بدوره إلى حركة فى الفكر و العقل .. بالقسم المرتبط ارتباطا خاصّا بالموضوع المطروح.

و فى هذا الموضع تبدأ الآية بالقسم: قسما بهذه المدينة المقدسة مكّة: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ لتقرر حقيقة من حقائق حياة الإنسان، هى إنّ هذه الحياة مقرونة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۶

بالآلام و الأسقام.

وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ لم يرد ذكر «مكّة» فى الآية صريحا، لكن الدلالات تشير إلى أن المقصود بالبلد مكّة، فالسّورة مكّية، و أهميّة هذه المدينة المقدّسة لا تبلغها مدينة، و المفسّرون مجمعون على ذلك.

أرض مكّة مشرّفة و معظمة، لأنّ فيها أوّل مركز للتوحيد و لعبادة اللّه سبحانه، و كان هذا المركز مطاف أنبياء اللّه العظام ... و لذلك أقسم اللّه بها ... و لكنّ السّورة تشير إلى عامل آخر أضفى على هذه المدينة شرفا و كرامة: وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ ... فالبلد استحق أن يقسم به اللّه لوجودك أنت أيّها النّبى الكريم فيه! فلا يتصورن كفار مكّة أنّ القرآن يقسم ببلدهم تكريما لهم و لأوثانهم، لا فهذا البلد مكرم لما يحمله من تاريخ الرسالات السماوية .. و لما يحتضنه من رسالة خاتمة، و نبى خاتم.

و فى الآية تفسير آخر يعتبر (لا) فى الآية السابقة نافية و يكون المعنى: «لا اقسم بهذا البلد المقدس حال كون حرمته قد هتكت و

الأنفس و الأموال و الأعراض فيه قد أحلّت و أبيحت».

و يكون ذلك- على هذا التّفسير- توبيخا و تقريعا لكفار قريش و هم الذين يعتبرون أنفسهم خدمة الحرم و سدنته، و يكنّون له احتراما يفوق كلّ احترام حتى أن الرجل منهم يرى قاتل أبيه فيه فلا يتعرّض له ... بل حتى قيل إنّ الرجل يحمل معه شيئا من لحاء أشجار مكّة فلا يتعرّض له أحد. فلما ذا إذن لم تراعوا هذه الآداب و التقاليد فى حقّ النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم؟! لما ذا تماديتم فى إيذائه و إيذاء صحابته، حتى سولت لكم أنفسكم استباحة دمه؟! و قد ورد هذا التّفسير فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۷

أيضا[۱۶۷].

وَ والِدٍ وَ ما وَلَدَ للمفسّرين آراء عديدة عن المقصود بالوالد و الولد فى الآية.

قيل: إنّ الوالد إبراهيم الخليل و الولد إسماعيل الذبيح.

و التّفسير هذا يتناسب مع القسم بمكّة ... و نعلم أنّ إبراهيم و ابنه رفعا القواعد من البيت، و بذلك وضعا حجر أساس البلد الأمين. و العرب فى الجاهلية كانوا يجلّون إبراهيم و ابنه و يفخرون فى الانتساب إليهما.

و قيل: إنّ المقصود بالوالد و الولد آدم و ذرّيته.

و قيل: آدم و الأنبياء من ذرّيته.

و قيل: كلّ والد و ما ولد. متوالى الأجيال.

و تعاقبها بالولادة من أعجب بدائع الكون، و لذلك خصّ بها اللّه تعالى بالقسم و لا يستبعد الجمع بين هذه التفاسير و إن كان الأوّل أنسب.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ.

و هذا هو الهدف النهائى للقسم «الكبد» كما يقول الطبرسى فى مجمع البيان فى الأصل بمعنى «الشدّة» و لذا يقال للّبن إذا استغلظ «تكبّد اللّبن» و لكن كما يقول الراغب فى مفرداته أنّ «كبد» ألم يصيب الكبد، ثمّ اطلق على كلّ ألم و مشقّة.

نعم ... الإنسان يمرّ فى دورة حياته بمراحل كلّها مشوبة بالألم و مقرونة بالعناء. منذ أن يستقرّ نطفة فى رحم امه حتى ولادته، ثمّ بعد ولادته فى مراحل طفولته و شبابه و شيخوخته يعانى من ألوان و المشاق و الآلام، هذه طبيعة الحياة، و من توقّع منها غير ذلك خيّبت ظنّه. يقول الشاعر:

طبعت على كدر و أنت تريدهاصفوا من الأكدار و الأقذار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۸

و مكلّف الأيّام ضد طباعهامتطلب فى الماء جذوة نار

و هذه الحالة تشمل كلّ أبناء البشر دونما استثناء، بمن فيهم أنبياء اللّه و أولياؤه الصالحون.

و إذا خيل إلينا أن ثمّة مجتمعات تبدو بعيدة عن الآلام و الأتعاب و تعيش فى دعة و رفاه، فذلك نتيجة نظرة سطحية، و لو تعمقنا فى دراسة هذه المجتمعات، و نظرنا إليها عن كثب لتلمسنا ما تعانيه من عميق الألم و شدّة النصب .. ثمّ إذا كان هناك استثناءات مكانية و زمانية محدودة من هذه الحالة العامة فلا ينتقض القانون العام للحياة أَ يَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ.[۱۶۸] فما يحيط بالإنسان من مكابدة يدلّ على ضعف قدرته، هذه الحقيقة تردّ على أولئك الذين يمتطون مركب الغرور، و يخالون أنّهم فى مأمن من العقاب الإلهى أو أنّهم مانعتهم حصونهم و مناصبهم و ثرواتهم، فيرتكبون الذنوب و يمارسون العدوان و يديرون ظهورهم لشريعة اللّه.

و يحتمل أنّ المقصود هم الأثرياء الذين يتصورون أنّ لا أحد بإمكانه سلب ثروتهم منهم ... و قيل أنّ المراد من الآية الأشخاص الذين يتصورون بأنّه لا أحد يحاسبهم على أعمالهم.

و لكن مفهوم الآية عام بإمكانه أن يستوعب جميع هذه التّفاسير.

و قيل إنّ الآيـة أشارت إلى «أبى الأسد بن كلدة» و هو رجل من «جمح» كان قويا شديد الخلق بحيث يجلس على أديم عكاظى فتجرّه عشرة رجال من تحته فينقطع و لا يبرح من مكانه ۱۶۹].

غير أن إشارة الآية إلى فرد، أو أفراد مغرورين لا يمنع شمولية مفهومها.

يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالًا لُبَداً.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۰۹

إشارة إلى قول الـذين يطلب منهم أن ينفقوا أموالهم فى الخيرات، فيأبون و يقولون بغرور: إننا أنفقنا فى هـذا السبيل كثيرا من الأموال، بينما لم ينفق هؤلاء شيئا، و إنّ أعطوا لأحد شيئا فللرياء و لتحقيق هدف شخصى.

و قيـل إنّهـا نزلت فى نفر أنفقوا الأـموال الطائلـة فى معادة الرّسول و الرسالـة، و تباهوا بـذلك، يؤيـد ذلك قول «عمرو بن عبـدود» فى حرب الخنـدق حين عرض عليه على عليه السّـلام الإسـلام قال: فأين ما أنفقت فيكم مالا لبـدا؟[۱۷۰] أى أنفقت مالا كثيرا فى عـداوة النّبى.

و قيل إنّها نزلت فى بعض رجال قريش و هو «الحرث بن عامر»، و ذلك أنّه أذنب ذنبا، فستفتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فأمره أن يكفّر. فقال: لقد ذهب مالى فى الكفارات و النفقات، منذ دخولى دين محمّد[۱۷۱].

و الجمع بين التّفاسير المذكورة جائز، و إن كان التّفسير الأوّل أكثر انسجاما مع سياق الآيات التالية:

و الفعل «أهلكت» يوحى إبادة الأموال و عدم الحصول على عائد منها.

و «لبد»: تعنى الشىء المتراكم، و هنا تعنى المال الوفير.

أَ يَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ.

إنّه غافل عن هـذه الحقيقة ... حقيقة اطلاع البارى تعالى على كلّ الأمور و على ظواهر الأعمال، بل على ما يختلج فى أعماق النفس و القلب، و ما يدور فى الخلد و النّية ... و هل من المعقول أن لا يحيط المطلق الحق بكلّ شـىء؟! هؤلاء الغافلون دفعهم جهلهم لأن يروا أنفسهم بمعزل عن الرقابة الإلهية.

نعم، اللّه سبحانه يعلم مصدر حصولهم على هذه الأموال، و يعلم السبيل الذى أنفقوها فيه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۰

و

روى عن ابن عباس أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربعة: عن عمره فيما أفناه، و عن ماله من اين جمعه، و فى ما ذا أنفقه، و عن عمله ماذا عمل به، و عن حبّنا أهل البيت»[۱۷۲].

بعبارة موجزة: كيف يعترى الإنسان الغرور و يـدعى القـدرة و حياته ممزوجـة بالآلام و الأكدار؟! و كيف يدعى أنّه أنفق مالا كثيرا فى سبيل اللّه بينما البارى سـبحانه عليهم بنواياه، عليم بالطريق غير المشروع للحصول على هذه الأموال، و عليم بأهداف الرياء و الذاتية فى إنفاق هذه الأموال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۱

الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۸ الى ۱۰]

اشارة

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (۸) وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ (۹) وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ (۱۰)

التّفسير

نعمة العين و اللسان و الهداية:

استتباعا للآيات السابقة و ما دار فيها من حديث عن الغرور و الغفلة فى الطاغين، تذكر هذه الآيات الكريمة جانبا من أهم ما أنعم اللّه به على الإنسان من نعم مادية و معنوية ... كى تكسر روح الغرور، و تدفع إلى التفكير فى خالق هذه النعم، و لكى تحرّك روح الشكر فى نفس الكائن البشرى و من ثمّ تسوقه إلى معرفة الخالق:

أَ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ؟ وَ لِساناً وَ شَفَتَيْنِ؟ وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ فى هذه العبارات القصيرة إشارة إلى ثلاث نعم مادية هامّة و نعمة معنوية كبرى هى بمجموعها من أعظم النعم الإلهية: نعمة العين و اللسان و الشفة من جانب، و نعمة الهداية و معرفة الخير و الشرّ من جانب آخر.

«النجد» فى الأصل يعنى المكان المرتفع، و يقابلها «تهامة» و هى الأرض

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۲

المنخفضة، و هنا كناية عن الخير و الشرّ و عن سير السعادة و الشقاء[۱۷۳].

و يكفى أن نذكر فى النعم السابقة أنّ:

«العين» أهم وسيلة لارتباط الإنسان بالعالم الخارجى، عجائب العين تدفع الإنسان حقّا إلى الخضوع أمام خالقه، الطبقات السبع للعين و هى المسماة بالقرنية، و المشيمية، و العنبية، و الجلدية، و الزلالية، و الزجاجية، و الشبكية، لكلّ منها تركيب عجيب دقيق مدهش، روعيت فيها القوانين الفزيائية و الكيمياوية المتعلقة بالنور و انعكاساته على أدق وجه، حتى إن أعقد أجهزة التصوير تعتبر تافهة مقارنة بهذا العضو.

لو لم يكن فى الكون سوى الإنسان، و لم يكن من وجود الإنسان سوى العين، لكانت مطالعة هذا العضو كافية وحدها لمعرفة علم اللّه الواسع و قدرته الجبّارة جلّ و علا.

و أمّا «اللسان»، فهو أهم وسائل ارتباط الإنسان بغيره من أبناء جلدته، و نقل المعلومات و تبادلها بين أبناء البشر فى الجيل الواحد و فى الأجيال المتعاقبة، و بدون هذه الوسيلة الهامّة من وسائل الارتباط ما كان بإمكان الإنسان إطلاقا أن يرتقى إلى ما ارتقى إليه فى العلم و المعرفة.

و «الشفتان»: تلعبان أوّلا ـ دورا فى هامّا فى النطق، إذ أن الشفتين مخرج لكثير من الحروف، و الشفتان تقومان بدور أيضا فى هضم الطعام و المحافظة على رطوبة الفم، و شرب الماء، ترى لو انعدمت الشفتان فما ذا كان وضع الإنسان فى أكله و شربه و نطقه و المحافظة على ماء فمه و حتى جمال وجهه و شكله؟! إنّ درك الحقائق يتمّ أوّلا بالعين و اللسان ... و لذلك تقدم ذكرهما فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۳

السياق ... ثمّ تبع ذلك ذكر الهداية، الهداية العقلية و الفطرية وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ و يشمل التعبير أيضا «الهداية التشريعية» التى ينهض بمسؤوليتها الأنبياء و الأولياء.

نعم ... لقد أنعم اللّه على الإنسان بالبصر و البصيرة، و أنعم عليه بهداية الإرشاد إلى الطريق و التحذير من مغبة الانحراف عنه، كى

تكتمل الحجّة على الإنسان.

و مع كلّ هذه النعم، نعم الهداية، لو انحرف الإنسان عن جادة الحقّ، فلا يلومنّ إلّا نفسه.

عبارة وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ إضافة لما لها من مدلول على مسألة الإختيار و حرية الإنسان، تدلّ أيضا على ما يتطلبه طريق الخير من جهد و عناء، لأنّ «النجد» مكان مرتفع و تسلق المكان المرتفع يتطلب كدا و سعيا و جهدا، غير أن طريق الشرّ له مشاكله و مصاعبه أيضا، فأولى بالإنسان أن يبذل الجهد و السعى على طريق الخير.

مع ذلك، فانتخاب الطريق بيد الإنسان ... الإنسان هو الذى يتحكم فى عينه و لسانه فيم يستعملها ... فى الحلال أو الحرام، و هو الذى يختار إحدى الجادتين «الخير» أو «الشر».

و

فى الحديث القدسى أن اللّه سبحانه يخاطب أبناء آدم يقول: «يا ابن آدم إنّ نازعك لسانك فيما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق، و إن نازعك بصرك إلى بعض ما حرمت عليك فقد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق ...»[۱۷۴].

فاللّه سبحانه منح هذه النعم، و منح وسائل السيطرة عليها، و تلك من الألطاف الإلهية الكبرى.

و الملفت للنظر أنّ الآيات التى نحن بصددها أشارت إلى الشفتين بعد اللسان،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۴

و لكن لم تشر إلى الجفنين بعد ذكر العين، و لعل ذلك يعود إلى أهمية الشفتين فى الكلام و الطعام و غيرها من الأمور أهمية تفوق بكثير أهمية الجفنين، و قد يعود أيضا إلى أن السيطرة على اللسان أهم و أخطر بكثير من السيطرة على العين.

بحوث

۱- عجائب العين

العين يشبهونها عادة بآلة التصوير (الكاميرا)، فهى تلتقط الصور من عدستها الدقيقة، بدلا من أن تعكسها على اللوح الحساس (الفيلم) كما تفعل الكاميرا، تعكس الصور على شبكية العين، و من ثمّ تنتقل عن طريق الأعصاب البصرية إلى الدماغ.

آلة التصوير الدقيقة الظريفة هذه قد تلتقط يوميا ملايين الصور، غير أنّها من جهات مختلفة لا يمكن مقارنتها حتى بأعقد و أحدث أجهزة التصوير، لأنّه:

۱- فتحة تنظيم النور (ديافراغم) فى جهاز العين، و هو بؤبؤ العين، يعمل بشكل تلقائى أمام تغيير النور، فيتقلص أمام النور القوى، و يتسع أمام النور الضعيف، بينما أجهزة التصوير بحاجة إلى تنظيم بيد المصور.

۲- عدسة العين خلافا لأنواع عدسات أجهزة التصوير تتغير بتغير بعد الصورة عنها، فيكون قطرها حينا ۵، ۱ ملم، و يصل أحيانا إلى ۸ ملم، و هذا التغيير يتمّ بواسطة عضلات تتقلص و تنبسط حسب بعد الصورة المرئية، فعدسة العين تستطيع أن تعمل ما تعمله مئات العدسات الزجاجية.

۳- العين تستطيع أن تتحرك فى الجهات الأربع بمساعدة العضلات و تلتقط الصور فى الأنحاء المختلفة.

۴- و المهم، أن أجهزة التصوير بحاجة إلى تبديل أفلامها، فإذا انتهت حلقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۵

فيلم، فلا بدّ من فيلم آخر. لكن عين الإنسان تلتقط الصور طوال عمر الإنسان دون أن تحتاج إلى تعويض شىء، و يعود السبب إلى أن

الشبکیة التی تنعکس علیها الصور تحتوی علی نوعین من الخلایا «المخروطیة»، و «الأسطوانیة» فیها مادة حساسة للغایة تجاه النور تتحلل بأقل شعاع من نور فی الشبکیة و تتحول إلی أمواج تنتقل إلی الدماغ، ثمّ یزول الأثر و تستعد الشبکیة لالتقاط صور جدیدة.

۵- أجهزة التصویر مصنعة من مواد قویّة جدّا، لکن جهاز العین لطیف و ظریف إلی درجة کبیرة، لذلک وضع فی محفظة عظیمة مستحکمة، و العین مع ظرافتها و لطافتها أکثر دواما بکثیر من الحدید و الفولاد.

۶- مسألة تنظیم النور ذات أهمیة فائقة للمصورین، و قد یطول الزمن بالمصور کی یستطیع تنظیم إضاءة الصورة، بینما تستطیع العین فی جمیع ظروف النور القوی و المتوسط و الضعیف بل حتی فی الظلام شریطة وجود بصیص من النور أن تلتقط الصور، و هذا من عجائب العین.

۷- حین ننتقل فجأة من النور إلی الظلمة، أو حین تنطفئ مصابیح الغرفة فی اللیل، لا تستطیع أعیننا فی البرهة الاولی أن تری شیئا، ثمّ بالتدریج تعتاد العین علی الظرف الجدید فتری ما حولها، و هذا التعوّد هو تعبیر بسیط عن التحول المعقد الذی یحدث فی العین، و یؤدی خلال لحظات بسیطة إلی الانسجام بین العین و الظروف الجدیدة.

و عکس ذلک یحدث عند ما ننتقل من الظلام إلی النور، فالعین فی البدایة لا تتحمل النور القوی، و لکن بعد لحظات تتواءم مع الظرف الجدید، و مثل هذه الخصائص لا توجد إطلاقا فی أجهزة التصویر.

۸- أجهزة التصویر تستطیع أن تصور زاویة محدودة ممّا یقع أمامها، بینما عین الإنسان تستطیع أن تلتقط کلّ ما فی نصف الدائرة الافقیة أیامها بزاویة مقدارها ۱۸۰ درجة تقریبا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۶

۹- من عجائب العینین أنّهما تلتقطان الصورة لتعکساها معا فی نقطة واحدة، و إذا اختل هذه التنظیم تصاب العین بالحول و یری الفرد الشیء الواحد شیئین.

۱۰- و من الطریف أن صورة الأجسام تنعکس علی الشبکیة مقلوبة، بینما لا نری نحن الأشیاء مقلوبة.

۱۱- سطح العین یجب أن یبقی رطبا دائما، و إذا جفّ اضرّ بالعین کثیرا، و هذه الرطوبة تفرزها الغدد الدمعیّة، فتدخل العین من جانب و تخرج عن طریق قنوات دقیقة تقع فی جانب من العین إلی الأنف، فترطب الأنف أیضا.

و إذا جفت الغدد الدمعیة، تتعرض العین للخطر، و تتعذر حرکة الأجفان، و إن زاد نشاط هذه الغدد أکثر من المطلوب یسیل الدمع باستمرار علی الوجه، و إذا انسدّ طریق القنوات التی تدفع الدمع من العین إلی الأنف، فلا بدّ للفرد أن ینشغل دائما بتجفیف الماء المتصبب علی وجهه.

۱۲- ترکیب الدمع معقد فیه أکثر من عشرة عناصر تشکل معا أفضل سائل للحفاظ علی العیم.

بعبارة موجزة عجائب العین من الکثرة بحیث تتطلب کتابة المجلدات الضخام، و لیست هی أکثر من شحمة صغیرة، و حقّا ما قاله أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «اعجبوا لهذا الإنسان ینظر بشحم و یتکلم بلحم، و یسمع بعظم، و یتنفس من خرم»[۱۷۵].

۲- عجائب اللسان

اللسان بدوره من الأعضاء الهامة فی بدن الإنسان، و ینهض بأعباء هامّة فهو عامل مهم فی مضغ الطعام و بلعه، یدفع باللقمة إلی الأسنان و یلتقطها دون أن

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۷

یتعرض هو للقطع.

و قد يحدث نادرا أن يقع اللسان فى مصيدة الأسنان أثناء الأكل، فنستغيث من الألم، و نفهم عندئذ مدى مهارة اللسان فى تجنب الانزلاق تحت الأسنان مع أنّه ملاصق لها!! و اللسان بعد ذلك ينظف جوف الفم و الأسنان من بقايا الطعام.

و أهم من ذلك، دور اللسان فى الكلام بتحركه السريع المتواصل المنظم فى الجهات الست، و هو دور عجيب، و الإمعان فيه يثير الدهشة و الحيرة فقد يسرّ اللّه تعالى للإنسان وسيلة سهلة للتكلم و فى متناول الجميع فلا يصيبها تعب و لا نصب و لا ملل و لا تكلّف الإنسان خرجا!! و أعجب من ذلك موضوع استعداد الإنسان للكلام، و هذا الاستعداد أودعه اللّه فى الإنسان ليستطيع من خلال تكوين الجمل باشكال لا تعدّ و لا تحصى أن يبيّن ما لا نهاية له من الغايات.

و أهم من ذلك أيضا تنوّع اللغات و قابلية الإنسان على وضع لغات مختلفة، و تتّضح هذه الأهمية من خلال مطالعة مفردات آلاف اللغات المنتشرة فى العالم ...

حقّا «العظمة للّه الواحد القهار!».

۳- هداية النجدين

«النجد» كما ذكرنا الارتفاع أو الأرض المرتفعة، و «النجدين» هنا طريق الخير و طريق الشر، و

ورد فى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «يا أيّها النّاس! هما نجدان: نجد الخير و نجد الشرّ، فما جعل نجد الشرّ أحبّ إليكم من نجد الخير».[۱۷۶]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۸

تحمل «التكليف» و المسؤولية غير ممكن دون شك، بغير المعرفة و الوعى و حسب هذه الآية فإنّ اللّه سبحانه منح الإنسان هذه المعرفة.

و هذه المعرفة يحصل عليها الإنسان من ثلاثة طرق: من الإدراكات العقلية و الاستدلال، و من طريق الفطرة و الوجدان دون الحاجة إلى الاستدلال، و من طريق الوحى و تعاليم الأنبياء و الأوصياء عليهم السّلام، و كل ما يحتاجه البشر ليطوى مسيرة تكامله قد بيّنه اللّه سبحانه له بواحد من هذه الطرق أو فى كثير من الحالات بالطرق الثلاثة معا.

و يلاحظ أن الحديث المذكور يصرّح بأن نجد الشرّ ليس أحبّ إلى طبع الإنسان من نجد الخير، و هذا يردّ على القائلين بأن الإنسان مطبوع على الشرّ و إن سلوك طريق الشرّ أيسر له و أسهل.

و من المؤكّد أن البيئة الاجتماعية لو خلت من التربية الخاطئة و الانحرافات لوفرت الأجواء لرغبة متزايدة فى الإنسان نحو الخير، و لعل تعبير «نجد» و هى الأرض المرتفعة لطريق الخير يعود إلى أن الأرض المرتفعة ذات هواء أنقى و جوّ أبهج، و إنّما اطلق النجد للشرور أيضا من باب التغليب ۱۷۷].

و قيل أيضا أنّ التعبير بالنجدين إشارة إلى ظهور طريقى الخير و الشرّ و بروزهما، كبروز و ظهور الأرض المرتفعة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۱۹

الآيات [سورة البلد (۹۰): الآيات ۱۱ الى ۲۰]

اشارة

فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (۱۱) وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ (۱۲) فَكُّ رَقَبَةٍ (۱۳) أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (۱۴) يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ (۱۵)

أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ (۱۶) ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (۱۷) أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ (۱۸) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ (۱۹) عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ (۲۰)

التّفسير

العقبة!

بعد ذكر النعم الكبيرة فى الآيات السابقة، تنحى هذه الآيات باللائمة على أولئك الذين يكفرون بهذه النعم، و لا يسخرونها على طريق النجاة، يقول سبحانه:

فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ[۱۷۸]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۰

و ما المقصود من العقبة؟ الآيات التالية تفسّرها:

وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ.

من هنا فالعقبة التى لم يتهيأ الكافرون بأنعم اللّه لاجتيازها هى: فك رقبة عبد من الرقبة أى تحريره أو إطعام فى يوم الضائقة الاقتصادية و المجاعة، يتيما ذا قربى أو فقيرا قد لصق بالتراب من شدّة فقره، العقبة هى مجموعة أعمال الخير التى تتجه لخدمة النّاس و الأخذ بيد الضعفاء و المعوزين، كما إنّها أيضا مجموعة من المعتقدات الصحيحة الخالصة تشير إليها الآيات التالية.

نعم، إن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير لما لأغلب النّاس من التصاق بالمال و الثروة.

ليس الإسلام و الإيمان بالقول و الادعاء، بل أمام كلّ إنسان مسلم و مؤمن عقبات يجب أن يجتازها الواحدة بعد الاخرى، مستمدا العون من اللّه سبحانه و من روح الإيمان و الإخلاص.

بعضهم ذهب إلى أنّ «العقبة» هنا تعنى أهواء النفس التى حثّ الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على مقاومتها و مجاهدتها، و يسمى ذلك «الجهاد الأكبر»، و استنادا إلى هذا التّفسير يكون فك الرقبة و إطعام المسكين من المصاديق البارزة لاجتياز عقبة هوى النفس.

و من المفسّرين من قال إنّ «العقبة» هى الصراط الصعب يوم القيامة، كما جاء

فى حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۱

«إن أمامكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون، و أنا أريد أن أخفف عنكم لتلك العقبة»[۱۷۹].

و هذا الحديث طبعا لا يمكن أن يكون تفسيرا للآية، غير أن بعض المفسّرين فهموا منه ذلك، و هذا الفهم لا يتناسب مع التّفسير الصريح لكلمة «العقبة» فى الآيات التالية، إلّا إذا اعتبرنا العقبة الكؤود يوم القيامة تجسيدا للطاعات الثقيلة الصعبة فى هذا العالم، و اجتياز تلك العقبات فرع لاجتياز هذه الطاعات «تأمل بدقّة».

تعبير «اقتحم» فى الآية أصله من «الاقتحام» و هو الدخول فى عمل صعب مخيف (مفردات الراغب)، أو الولوج و العبور بشدّة و مشقّة (تفسير الكشّاف) و هذا يعنى أن اجتياز هذه العقبة ليس بالأمر اليسير، كما أنّه تأكيد على ما ورد فى أوّل السّورة بشأن ما يكابد الإنسان فى حياته: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ.

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «إنّ الجنّة حفت بالمكاره و إنّ النّار حفت بالشهوات»[۱۸۰].

ملاحظات

و هنا يلزم الالتفات إلى عدّة ملاحظات:

۱- المقصود من «فك رقبة» على الظاهر هو تحرير العبد و الرقيق.

روى أنّ أعرابيا جاء إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: يا رسول اللّه علمنى عملا يدخلنى الجنّة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۲

أجابه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «إن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة[۱۸۱] أعتق النسمة و فك الرقبة».

فقال الأعرابى: أو ليسا واحدا؟! قال: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، و فك الرقبة أن تعين فى ثمنها» ثمّ قال: «و الفىء على ذى الرحم الظالم، فإنّ لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن و أمر بالمعروف و انه عن المنكر، فإنّ لم تطق ذلك، فكفّ لسانك إلّا من الخير»[۱۸۲].

۲- قال بعض المفسّرين أن معنى «فك رقبة» تحرير الفرد رقبته من الذنوب بالتوبة، أو تحرير نفسه من العذاب الإلهى بتحمل الطاعات، غير أن ما جاء فى الآيات التالية من توصية باليتيم و المسكين يؤيد أن المقصود هو تحرير رقبة العبد.

۳- «المسغبة» من «سغب» على وزن «غضب» و هو الجوع، و «يوم ذى مسغبة» أى وقت المجاعة، و الجياع موجودون فى المجتمع عادة، و الآية إنّما تؤكّد على إطعامهم فى زمان الجماعة لأهمية الموضوع، و إلّا فإنّ الجياع هو دائما من أفضل الأعمال.

و

روى عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من أشبع جائعا فى يوم سغب داخله اللّه يوم القيامة من باب من أبواب الجنّة لا يدخلها إلّا من فعل مثل ما فعل»[۱۸۳].

۴- «المقربة» بمعنى القرابة و الرحم، و التأكيد على الأقرباء من اليتامى فى الآية إنّما هو لمراعاة الأولوية و للتأكيد على تصاعد المسؤولية تجاههم، لا لحصر الإطعام بهذا القسم من اليتامى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۳

ثمّ إنّ غمط حقوق اليتامى فى ذلك العصر خاصة على يد الأقرباء استدعى التحذير من هذه العقبة بالذات.

و ذهب «أبو الفتوح الرازى» إلى أنّ «المقربة» ليست من القرابة، بل من «القرب» إشارة إلى التصاق بطون الجياع من شدّة الجوع ۱۸۴]. و نستبعد كثيرا هذا المعنى فى تفسير الآية.

۵- «المتربة» مصدر ميمى من «ترب»، و ساكن التراب من شدّة فقره هو ذو المتربة، و التأكيد على هذا النمط من المساكين لأولويتهم أيضا، إذ إطعام أى مسكين عمل مستحسن.

و

روى أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام ممّا يؤتى به فيأخذ من كلّ شىء شيئا فيضع فى تلك الصفحة ثمّ يأمر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية: فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ثمّ يقول: «علم اللّه عزّ و جلّ أنّه ليس كلّ إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنّة»[۱۸۵].

م ثمّ تواصل الآية التالية بيان طبيعة هذه العقبة، و سبل اجتيازها فتقول: ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ.

فالقادرون على اجتياز هذه العقبة متحلون بالإيمان و متواصون بالصبر و الاستقامة على الطريق، و متواصون بالرحمة و العطف.

و بهذا السياق القرآنى لبيان طبيعة العقبة نفهم أن القادرين على اجتيازها هم المتحلون بالإيمان و الخلق الكريم كالتواصى بالصبر و الرحمة، و ذوو أعمال البّر و الإحسان كتحرير العبيد و إطعام الأيتام و المساكين، إنّهم بعبارة أولئك الذين يلجون ميادين الإيمان و الأخلاق و العمل و يخرجون منها ظافرين منتصرين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۴

العطف بالحرف «ثمّ» لا- يعنى دائما التأخير الزمنى، أى لا يعنى أن عملية الإطعام و الإنفاق يجب أن تتقدم على الإيمان، بل إن هذا الحرف فى مثل هذه الموارد- كما صرّح بذلك جمع من المفسّرين- لبيان علو المرتبة، إذ من المؤكّد أنّ رتبة الإيمان و التوصية بالصبر و المرحلة أسمى و أعلى من مساعدة المحتاجين، بل الأعمال الصالحة تنبثق من ذلك الإيمان و تلك الأخلاق، و كلّ ما يفعله الإنسان تجد جذوره فى معتقداته و أخلاقياته.

و احتمل بعضهم أن «ثمّ» تفيد هنا التأخير الزمنى، لأن أعمال الخير قد تكون منطلقا للتوجه نحو الإيمان، و هى بخاصة ذات تأثير فى ترسيخ دعائم الأخلاق، إذ أن أخلاق الإنسان تبدأ بشكل «فعل» ثمّ تتحول إلى «حالة» ثمّ تتحول إلى «عادة» ثمّ تصبح «ملكة».

و التعبير بكلمة «تواصوا» و تعنى تبادل التوصية، لها دلالة اجتماعية هامّة، هى إن عملية التواصى بالسير على طريق الحق و بالاستقامة على طاعة اللّه و مكافحة جموح الأهواء النفسية، و بالحبّ و الرحمة ليست عملية فردية يل يجب أن يتخذ طابعا اجتماعيا عامّا فى كلّ المجتمع الإيمانى، و كلّ الأفراد مسئولون أن يوصى بعضهم الآخر بحفظ هذه الأصول. و عن هذا الطريق أيضا تتعمق عرى التلاحم و الاجتماعى.

و قال بعضهم إنّ «الصبر» فى الآية إشارة إلى توطين النفس على طاعة اللّه و الاهتمام بأوامره، و «المرحمة» إشارة إلى علاقة الودّ مع النّاس، و نعلم أن أساس الدين هو تنظيم هذه الرابطة بين العبد و ربّه، و بين الإنسان و أخيه الإنسان.

و فى خاتمة هذه الأوصاف تذكر السّورة مكانة المتحلين بها فتقول: أُولئِكَ أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ.

فصحيفة أعمالهم تسلّم إليهم، فى محضر اللّه سبحانه و تعالى، بيدهم اليمنى.

و يحتمل أن تكون «الميمنة» من «اليمن» و البركة، أى إنّ أصحاب هذه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۵

الصفات ذوو بركة لأنفسهم و لمجتمعهم.

ثمّ تتعرض الآية لتصوير حالة الفاشلين فى اجتياز «العقبة» فتقول:

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِنا هُمْ أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ.

و «المشئمة» من «الشؤم» تقابل «الميمنة» من «اليمن»، أى إنّ هؤلاء الكافرين مشئومون لا- يمن فيهم و لا بركة، بل هم عامل شقاء لأنفسهم و لمجتمعهم ثمّ إنّ علامة شؤم الفرد يوم القيامة تسلّمه صحيفة أعماله بيده اليسرى، و من هنا ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ «المشئمة» هى اليسار مقابل اليمين، أى إنّ الذين كفروا بآيات اللّه الذين يتسلمون صحائف أعمالهم بيدهم اليسرى خاصّة و أنّ مادة «شؤم» جاءت فى اللغة بمعنى اليسار أيضا[۱۸۶].

و فى الآية الأخيرة من السّورة إشارة قصيرة ذات دلالة عميقة إلى جزاء هذه الفئة الأخيرة: عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ.

و «الإيصاد» إحكام الغلق، و واضح أنّ الإنسان- حين يكون فى غرفة حارّة الجوّ- يتوق إلى فتح أبوابها، ليهبّ عليه نسيم يلطف الهواء، فما بالك إذا كان فى محرقة جهنّم و الأبواب كلها موصدة عليه؟! اللّهم! قنا عذاب جهنّم إنّ عذابها كان غراما ...

اللّهم! وفقنا لاجتياز ما يعترى طريقنا من عقبات .. و لا توفيق إلّا بك.

اللّهم! اجعلنا من أصحاب الميمنة: و احشرنا مع الصالحين و الأبرار.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة البلد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۷

سورة الشّمس

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۲۹

«سورة الشّمس»

محتوى السّورة:

هـذه السّورة هى فى الواقع سورة تهـذيب النفس، و تطهير القلوب من الأدران، و معانيها تـدور حول هـذا الهدف، و فى مقدمتها قسـم بأحد عشـر مظهرا من مظاهر الخليقة و بذات البارى سبحانه، من أجل التأكيد على أن فلاح الإنسان يتوقف على تزكية نفسه، و السّورة فيها من القسم ما لم يجتمع فى سورة اخرى.

و فى المقطع الأخير من السّورة ذكر لقوم «ثمود» باعتبارهم نموذجا من أقوام طغت و تمردت، و انحدرت- بسبب ترك تزكية نفسها- إلى هاوية الشقاء الأبدى، و العقاب الإلهى الشديد.

و هذه السّورة القصـيرة- فى الواقع- تكشف عن مسألة مصيرية هامّة من مسائل البشرية، و تبيّن نظام القيم فى الإسلام بالنسبة إلى أفراد البشر.

فضيلة السّورة:

يكفى فى تلاوة هذه السّورة أن نذكر

حديثا عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها فكأنّما تصدّق بكلّ شىء طلعت عليه الشمس و القمر»[۱۸۷]

و من المؤكّد أنّ هذه الفضيلة الكبرى لا ينالها إلّا من استوعب محتواها بكلّ وجوده، و وضع مهمّة تهذيب النفس نصب عينيه دائما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۰

الآيات [سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱ الى ۱۰]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها (۱) وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها (۲) وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها (۳) وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها (۴)

وَ السَّماءِ وَ ما بَناها (۵) وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها (۶) وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها (۷) فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها (۸) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها (۹)

وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها (۱۰)

التّفسير

أكبر عـدد من القسم القرآنى تتضـمّنه هـذه السّورة، هو فى حساب «أحد عشـر»، و فى حساب آخر «سـبعة» أقسام ... و يبيّن أن السّورة تتعرض لموضوع خطير هام ... موضوع عظيم كعظمة السماء و الأرض و الشمس و القمر ... موضوع حياتى مصيرى.

لنبدأ أولا بشرح ما جاء فى السّورة من قسم، لنتعرض بعد ذلك إلى الموضوع الآية الاولى تقول: وَ الشَّمْسِ وَ ضُحاها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۱

و لقد ذكرنا آنفا أن القسم فى القرآن يستهدف مقصدين:

الأوّل: بيان أهمية ما جاء القسم من أجله.

و الثّانى: أهميـة ما أقسم به القرآن، لأنّ القسم عادة يكون بالمهم من الأمور من هنا تعمل هذه الأقسام على تحريك الفكر فى الإنسان كى يمعن النظر فى هذه الموضوعات الهامّة من عالم الخليقة، و ليتخذ منها سبيلا إلى اللّه سبحانه و تعالى.

«الشـمس» ذات دور هـام و بنّاء جـدّا فى الموجودات الحيـة على ظهر البسـيطة فهى إضافـة إلى كونها مصـدرا للنور و الحرارة- و هما عاملان أساسيان فى حياة الإنسان- تعتبر مصدرا لغيرهما من المظاهر الحياتية، حركة الرياح، و هطول الأمطار، و نمو النباتات، و جريان الأنهر و الشلالات، بل حتى نشوء مصادر الطاقة مثل النفط و الفحم الحجرى ... كل واحد منها يرتبط- بنظرة دقيقة- بنور الشمس.

و لو قدر لهذا المصباح الحياتى أن ينطفئ يوما لساد الظلام و السكوت و الموت فى كل مكان.

«الضـحى» فى الأصل انتشار نور الشـمس، و هذا ما يحدث حين يرتفع قرص الشـمس عن الأفق و يغمر النور كل مكان، ثمّ يطلق على تلك البرهة من اليوم اسم «الضحى»، و القسم بالضحى لأهميته، لأنّه وقت هيمنة نور الشمس على الأرض.

و القسم الثّـالث بـالقمر: وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاهـا. و هـذا التعبير- كمـا ذهب إلى ذلـك جمع من المفسّـرين- إشارة إلى القمر حين يكتمل و يكون بدرا كاملا فى ليلة الرابع عشر من كلّ شهر، ففى هذه الليلة يطل القمر من أفق المشرق متزامنا مع غروب الشمس. فيسطع بجماله النّير و يهيمن على جوّ السماء، و لجماله و بهائه فى هذه الليلة أكثر من أيّة ليلة اخرى جاء القسم به فى الآية الكريمة.

و احتمل بعضـهم أن يكون فى تعبير الآيـة إشارة إلى تبعية القمر بشـكل دائم للشـمس، و اكتساب النور من ذلك المصدر المشعّ، غير أن عبارة وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها تكون فى هذه الحالة قيدا توضيحيا.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۲

و ثمّة احتمالات اخرى ذكرت فى تفسير الآية لا تستحق الذكر.

و القسم الرابع بالنهار: وَ النَّهارِ إِذا جَلَّاها.

و «التجلية» هى الإظهار و الإبراز. و اختلف المفسّـرون فى مرجع الضـمير فى «جلّاها» قال أكثرهم يعود إلى الأرض أو الدنيا، أى: قسما بالنهار إذا أظهر الأرض بضوئه. و ليس فى الآيات السابقة إشارة إلى الأرض، و لكنها تتّضح من قرينة المقام.

و بعضـهم قال إن الضـمير يعود إلى الشمس، و يكون القسم بالنهار حين يجلّى الشمس، صحيح أنّ الشمس تظهر النهار و لكن يمكن أن نقول مجازا إنّ النهار يجلّى الشمس. غير أنّ التّفسير الأوّل أنسب.

على كـلّ حـال، القسم بهـذه الظاهرة السـماوية الهامّـة، يبيّن أهميتها الكبرى فى حياة البشـر و فى جميع الأحياء، فالنهار رمز الحركـة و الحياة، و كلّ الفعاليات و النشاطات و مساعى الحياة تتمّ عادة فى ضوء النهار.

و القسم الخامس بالليل: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشاها[۱۸۸].

بالليل بكلّ ما فيه من بركة و عطاء ... إذ هو يخفّف من حرارة شـمس النهار، ثمّ هو مبعث راحة جميع الموجودات الحية و اسـتقرارها، و لو لا ظلام الليل لما كان هناك هدوء و اسـتقرار، لأنّ استمرار سطوع الشمس يؤدى إلى ارتفاع فى درجة الحرارة و تلف كلّ شىء، و نفس هذه المشكلة تحدث لو اختل الوضع الحالى لنظام الليل و النهار، فعلى ظهر القمر، حيث ليله يعادل أسبوعين من كرتنا الارضية و نهاره يعادل أيضا أسبوعين، ترتفع درجة الحرارة إلى ما يقارب ثلاثمائة درجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۳

مئويـة فى وسط النهار، و معها لا يبقى موجود حى نعرفه، على قيـد الحياة، و فى وسط الليل تنخفض درجة الحرارة كثيرا تحت الصـفر بحيث يتجمد حتما أى موجود حيّ لو قدّر له أن يكون هناك.

و يلاحـظ أن الأفعـال المـذكورة فى الآيـات السابقـة وردت بصـيغة الماضـى بينما وردت فى هـذه الآيـة بصـيغة المضارع، و لعل هـذا الاختلاـف يشـير إلى أنّ ظهور الليـل و النهـار من الحوادث التى لاـ تختص بزمان معين، بل تشـمل الماضـى و الحاضـر. من هنا كانت الأفعال ماضية تارة و مضارعة اخرى لبيان عمومية هذه الحوادث فى مجرى الزمان.

و فى القسمين السادس و السابع تحلّق بنا الآية إلى السماوات و خالق السماوات: وَ السَّماءِ وَ ما بَناها.

أصل خلقة السماوات بما فيها من عظمة مدهشة من أعظم عجائب الخليقة.

و بناء كلّ هذه الكواكب و الأجرام السماوية و ما يحكمها من أنظمة أعجوبة اخرى ... و أهم من كلّ ذلك ... خالق هذه السماوات.

و يلاحـظ فى عبـارة «وَ مـا بَناهـا» أنّ «ما» تسـتعمل فى العربيـة لغير العاقل، و لا يصـح اسـتعمالها فى موضع الحـديث عن البارى العليم الحكيم سبحانه. و لذا ذهب بعض إلى أنّها مصدرية لا موصولة، و بذلك يكون معنى الآية الكريمة: «و السماء و بنائها» غير أنّ الآيات التالية: وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها، لا يدع بما لا للشك أن «ما» موصولة، و تعود إلى اللّه سـبحانه خالق السـماوات، و ورد فى مواضع أخرى من القرآن الكريم استعمال «ما» للعاقل، كقوله سبحانه:

فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ.

من المفسّـرين من قال إنّ «ما» اسـتعملت هنا لتطرح مسألة المبدأ بشـكل مبهم كى يسـتطيع البشر بالدراسة و النظر أن يتوصلوا إلى علم بالمبدأ سبحانه و حكمته، ليتبدل بعد ذلك «ما» إلى «من» أى من الشىء المجهول الذى يعبّر عنه ب «ما» إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۴

معلوم، غير أن التّفسير الأوّل أنسب.

القسم الثامن و التاسع بالأرض و خالق الأرض: وَ الْأَرْضِ وَ ما طَحاها.

بالأـرض التى تحتضن حيـاة الإنسان و جميع الموجودات الحيّـة ... الأرض بجميع عجائبها: بجبالها، و بحارها، و سـهولها، و وديانها، و غاباتهـا، و عيونها، و أنهارها، و مناجمها، و ذخائرها ... و بكلّ ما فيها من ظواهر يكفى كلّ واحـد منها لأن يكون آيـة من آيات اللّه و دلالة على عظمته.

و أعظم من الأرض و أسـمى منها خالقها الـذى «طحاها» و «الطحو» بمعنى البسط و الفرش، و بمعنى الذهاب بالشـىء و إبعاده أيضا. و هنـا بمعنى «البسـط»، لأنّ الأرض كانت مغمورة بالماء، ثمّ غاض الماء فى منخفضات الأرض، و برزت اليابسـة، و انبسـطت، و يعبّر عن ذلك أيضا بدحو الأرض، هذا أوّلا.

و ثانيا: كانت الأرض فى البداية على شـكل مرتفعات و منخفضات و منحدرات شديدة غير قابلة للسـكن عليها. فهطلت أمطار مسـتمرة سوّت بين هذه التعاريج، و تسطحت الأرض فكانت صالحة لمعيشة الإنسان و للزراعة.

يرى بعض المفسّـرين أنّ فى الآيـة إشـارة عـابرة إلى حركـة الأـرض، لأنّ من معانى «الطحو» الـدفع الـذى يمكن أن يكون إشارة إلى حركة الأرض الانتقالية حول الشمس، أو إلى حركتها الوضعية حول نفسها، أو إلى الحركتين معا.

و أخيرا القسم الحادى عشر و القسم الثّانى عشر بالنفس الإنسانية و بارئها:

وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها.

قيل إنّ المراد بالنفس هنا روح الإنسان، و قيل إنّه جسمه و روحه معا.

و لو كان المراد من النفس الروح، «سواها» تعنى إذن نظمها و عـدّل قواها ابتـداء من الحواس الظاهرة و حتى قوّة الإدراك، و الذاكرة،

و الانتقال، و التخيل، و الابتكار، و العشق، و الإرادة، و العزم و نظائرها من الظواهر المندرجة فى إطار «علم النفس».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۵

و لو كان المراد من النفس الروح و الجسم معا، فالتسوية تشمل أيضا ما فى البدن من أنظمة و أجهزة يدرسها علم التشريح و علم الفسلجة.

و فى القرآن الكريم وردت «نفس» بكلا المعنيين، بمعنى الروح، كقوله سبحانه فى الآية (۴۲) من سورة الزمر: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها ...

و بمعنى الجسم، كقوله سبحانه فى الآية (۳۳) من سورة القصص: قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

و الأنسب هنا أن يكون معنى النفس هنا شاملا للمعنيين لأن قدرة اللّه سبحانه تتجلى فى الإثنين معا.

و يلاحظ أن الآية ذكرت كلمة «نفس» نكرة و فى ذلك إشارة إلى ما فى النفس من عظمة تفوق قدرة التصوّر و إلى ما يحيطها من إبهام، يجعلها موجودا مجهولا.

و هذا ما حدا ببعض العلماء المعاصرين أن يتحدث عن الإنسان فى كتابه تحت عنوان: «الإنسان ذلك المجهول».

الآية التالية تتناول أهم ظاهرة فى الخليقة و تقول: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها.

نعم، حين اكتملت خلقة الإنسان و تحقق وجوده، علّمه اللّه سبحانه الواجبات و المحظورات. و بذلك أصبح كائنا مزيجا فى خلقته من «الحمأ المسنون» و «نفخة من روح اللّه»، و مزيجا فى تعليمه من «الفجور» و «التقوى». أصبح بالتالى كائنا يستطيع أن يتسلق سلّم الكمال الإنسانى ليفوق الملائكة، و من الممكن أن ينحط لينحدر عن مستوى الأنعام و يبلغ مرحلة بَلْ هُمْ أَضَلُ و هذا يرتبط بالمسير الذى يختاره الإنسان عن إرادة.

«ألهمها» من الإلهام، و هو فى الأصل بمعنى البلع و الشرب، ثمّ استعمل فى إلقاء الشىء فى روع الإنسان من قبل اللّه تعالى، و كأن الإنسان يبتلع ذلك الشىء و يتشرّبه بجميع وجوده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۶

و جاء بمعنى «الوحى» أيضا. بعض المفسّرين يرى أن الفرق بين «الإلهام» و «الوحى»، هو إنّ الفرد الملهم لا يدرى من أين أتى بالشىء الذى ألهم به، و فى حالة الوحى يعلم بالمصدر و بطريقة وصول الشىء إليه.

«الفجور» من مادة «فجر» و تعنى- كما ذكرنا سابقا- الشق الواسع و سمّى بياض الصبح بالفجر لأنّه يشقّ ستار الظلام. و لما كانت الذنوب تهتك ستار الدين فإنّها سمّيت بالفجور.

المقصود بالفجور فى الآية طبعا الأسباب و العوامل و الطرق المؤدية إلى الذنوب.

و «التقوى» من الوقاية و هى الحفظ، و تعنى أنّ يصون الإنسان نفسه من القبائح و الآثام و السيئات و الذنوب.

و يلزم التأكيد أنّ الآية الكريمة: فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها لا تعنى أنّ اللّه سبحانه قد أودع عوامل الفجور و التقوى فى نفس الإنسان، كما تصوّر بعضهم، و استنتج من ذلك دلالة الآية الكريمة على وجود التضاد فى المحتوى الداخلى للإنسان! بل تعنى أنّ اللّه تعالى علّم الإنسان هاتين الحقيقتين و ألهمه إيّاهما، و بيّن له طريق السلامة و طريق الشرّ، و مثل هذا المفهوم ورد فى الآية (۱۰) من سورة البلد: وَ هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ

بعبارة اخرى، إنّ اللّه سبحانه قد منح الإنسان قدرة التشخيص و العقل، و الضمير اليقظ بحيث يستطيع أن يميّز بين «الفجور» و «التقوى» عن طريق العقل و الفطرة، لذلك ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الآية تشير فى الحقيقة إلى مسألة «الحسن و القبح العقليين» و قدرة الإنسان على إدراكهما.

و من بين النعم الطائلة التى أسبغها اللّه على الإنسان تركز هذه الآية على نعمة الهام الفجور و التقوى، و إدراك الحسن و القبح، لأنها

من أهم المسائل المصيرية التى تواجه حياة الإنسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۷

بعد هذه الأقسام المهمّة المتتالية يخلص السياق القرآنى إلى النتيجة فيقول:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها.

و التزكية تعنى النمو، «و الزكاة» فى الأصل بمعنى النمو و البركة، و

ورد عن على عليه السّلام قوله: «المال تنقصه النفقة و العلم يزكو على الإنفاق»[۱۸۹].

ثمّ استعملت الكلمة بمعنى التطهير، و قد يعود ذلك إلى أن التطهير من الآثام يؤدى إلى النمو و البركة، و الآية الكريمة تحتمل المعنيين.

نعم، الفلاح لمن ربّى نفسه و نمّاها، و طهّرها من التلوّث بالخصائل الشيطانية و بالذنوب و الكفر و العصيان.

و المسألة الأساسية فى حياة الإنسان هى هذه «التزكية»، فإن حصلت سعد الإنسان و إلّا شقى و كان من البائسين.

ثمّ يعرج السياق القرآنى على المجموعة المخالفة فيقول: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها.

«خاب»: من الخيبة، و هى فوت الطلب، كما يقول الراغب فى المفردات و الحرمان و الخسران.

«دسّاها» من مادة «دس» و هى فى الأصل بمعنى إدخال الشىء قسرا، و جاء فى الآية (۵۹) من سورة النحل قوله سبحانه: أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ إشارة إلى عادة الجاهليين فى و أد البنات، أى إدخالهن فى التراب كرها و قسرا و منه «الدسيسة» التى تقال للأعمال الخفية و الضارة.

و ما هى المناسبة بين معنى الدسّ، و قوله سبحانه: وَ قَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها.

قيل: إنّ هذا التعبير كناية عن الفسق و الذنوب، فأهل التقوى و الصلاح يظهرون أنفسهم، بينما المذنبون يخفونها، و يذكر أنّ العرب الكرماء جرت عادتهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۸

على نصب خيامهم على المرتفعات، و إشعال النيران قربها فى الليل، لتكون بادية للمارّة ليل نهار، بينما أهل البخل و اللؤم يقبعون فى المنخفضات كى لا يأتيهم أحد.

و قيل: إنّ المقصود اندساس المذنبين بين صفوف الصالحين.

و قيل: إنّ المذنب يدس نفسه أو هويته الإنسانية فى المعاصى و الذنوب.

و قيل: إنّه يخفى المعاصى و الذنوب فى نفسه.

و التعبير- على كل حال- كناية عن التلوث بالذنوب و المعاصى و الخصائل الشيطانية، و بذلك يقع فى المنطقة المقابلة للتزكية.

و الآية تحتمل فى مفهومها الواسع كلّ هذه المعانى.

و بهذا المعيار يتمّ تمييز الفائزين عن الفاشلين فى ساحة الحياة. «تزكية النفس و تنميتها بروح التقوى و طاعة اللّه» أو «تلوثها بأنواع المعاصى و الذنوب».

الإمامان الباقر و الصادق عليهما السّلام قالا فى تفسير الآية الكريمة: «قد أفلح من أطاع و خاب من عصى»[۱۹۰].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال حين تلا الآية: «اللّهم آت نفسى تقواها، أنت وليها و مولاها، و زكّها أنت خير من زكّاها»[۱۹۱].

و هذا الحديث يدل على أن اجتياز تعاريج المسيرة الحياتية و العبور من العقبة لا يتيسّر حتى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم إلّا

بتوفيق اللّه تعالى، أى لا يتيسّر إلّا بعزم العبد و تأييد البارى، و لذلك

ورد فى حديث آخر عن الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير الآيتين قوله: «أفلحت نفس زكّاها اللّه و خابت نفس خيبها اللّه من كلّ خير»[۱۹۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۳۹

ملاحظات

۱- ارتباط القسم القرآنى بجواب القسم

ما الارتباط بين هذه الأقسام الأحد عشر المتتالية فى السّورة، و بين الحقيقة التى جاءت الأقسام لتأكيدها؟

يظهر أنّ اللّه سبحانه و تعالى يريد أن يقول لعباده: إنّى و فرت لكم كلّ الوسائل المادية و المعنوية لسعادتكم، فبنور الشمس و القمر أضأت لكم الحياة و باركتها و نظمت لكم الليل و النهار و الحركة و السكون، و مهدّت الأرض لحياتكم.

و من جهة اخرى، خلقت أنفسكم بكلّ الكفاءات اللازمة، و وهبتكم الضمير اليقظ، و ألهمتكم معرفة حسن الأمور و قبحها، فلا ينقصكم شىء إذن لطىّ طريق السعادة، لماذا إذن- مع كلّ هذا- لا تزكون أنفسكم و تستسلمون للدسائس الشيطانية؟

۲- دور الشمس فى عالم الحياة

الحديث عن الشمس- و هى مركز المنظومة الشمسية و أميرة كواكبها- يدور تارة حول عظمتها و هو ما تطرقنا إليه سابقا، و تارة اخرى حول بركاتها و آثارها، و هذا ما سنعرض له بتلخيص فى النقاط التالية:

۱- حياة البشر و جميع الموجودات الحية الأخرى بحاجة فى الدرجة الاولى إلى الحرارة و النور، و الحاجة إلى هذين الأمرين الحياتيين تؤمنها بشكل كامل متعادل هذه الكرة العظيمة المتوهجة.

۲- جميع المواد الغذائية يتمّ إعدادها بوسيلة نور الشمس، حتى الأحياء فى قاع البحار و المحيطات تتغذى على النباتات التى تنمو على سطح المحيطات أو فى خضمّ الأمواج مستفيدة من نور الشمس ثمّ تترسب إلى القيعان.

۳- كل الألوان و مظاهر الجمال المشهودة فى الطبيعة ترتبط بشكل من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۰

الأشكال بنور الشمس، و هذه مسألة علمية ثابتة و خاصّة فى الفيزياء.

۴- الأمطار التى تحيى الأرض بعد موتها تهطل من الغيوم و الغيوم أبخرة متصاعدة من البحار و المحيطات نتيجة لسطوع الشمس عليها، مصادر المياه التى تتغذى من الأمطار بما فيها الأنهار و العيون و القنوات و الآبار العميقة هى إذن من بركات نور الشمس.

۵- الرياح التى تؤدى مهمّة تلطيف الجو، و تنقّل السحب، و تلقيح النبات، و نقل الحرارة من المناطق الحارة على الكرة الأرضية إلى المناطق الباردة، و نقل البرودة من المناطق الباردة إلى الحارة، إنّما تفعل ذلك بفضل سطوع نور الشمس، و تغيير درجة الحرارة فى المناطق المختلفة من المعمورة.

۶- مصادر الطاقة بما فيها الشلالات، و السدود العظيمة فى المناطق الجبلية، مصادر النفط و مناجم الفحم كلّها ترتبط بشكل من الأشكال بالشمس، و لولاها لما وجدت هذه المصادر، و لتبدلت الحركة على وجه الأرض إلى سكون.

۷- بقاء نظام المنظومة الشمسية مدين للتعادل القائم بين قوى الجذب و الدفع الموجودة بين كرة الشمس من جهة، و السيارات التى تدور حولها من جهة اخرى.

و بذلك تنهض الشمس بدور فعّال فى حفظ هذه السيارات فى مدارها.

من مجموع ما ذكرنا نفهم السبب فى بدء القسم فى هذه السّورة المباركة بالشمس.

و هكذا القمر و نور النهار و ظلام الليل، و الكرة الأرضية، لكلّ واحد منها دور هام فى حياة الإنسان و غير الإنسان، و لذلك جاء القسم بها جميعا، و أهم من كلّ ذلك الإنسان بروحه و جسمه فهو أعجب من الجميع و أشدّ غموضا و سرّا منها.

و سنعود إلى أهمية تهذيب النفس فى نهاية السّورة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۱

الآيات [سورة الشمس (۹۱): الآيات ۱۱ الى ۱۵]

اشارة

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْواها (۱۱) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها (۱۲) فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْياها (۱۳) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها (۱۴) وَ لا يَخافُ عُقْباها (۱۵)

التّفسير

عاقبة مرّة للطغاة:

عقب التحذير الذى أطلقته الآية السابقة بشأن عاقبة من ألقى بنفسه فى أو حال العصيان، قدمت هذه الآيات مصداقا تاريخيا واضحا لهذه السنّة الإلهية، و تحدثت عن مصير قوم «ثمود» بعبارات قصيرة قاطعة ذات مدلول عميق.

«الطغوى» و «الطغيان» بمعنى واحد و هو تجاوز الحد، و فى الآية تجاوز الحدود الإلهية و العصيان أمام أوامره ۱۹۳].

«قوم ثمود» من أقدم الأقوام التى سكنت منطقة جبلية بين «الحجاز» و «الشام». كانت لهم حياة رغدة مرفهة، و أرض خصبة، و قصور فخمة، غير أنّهم لم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۲

يؤدوا شكر هذه النعم، بل طغوا و كذبوا نبيّهم صالحا، و استهزءوا بآيات اللّه، فكان عاقبة أمرهم أن أبيدوا بصاعقة سماوية.

ثمّ تستعرض السّورة مقطعا بارزا من طغيان القوم و تقول: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها.

و «أشقى» ثمود، هو الذى عقر الناقة التى ظهرت باعتبارها معجزة بين القوم، و كان قتلها بمثابة إعلان حرب على النّبى صالح.

ذكر المفسّرون أنّ اسم هذا الشقى «قدار بن سالف» و

روى أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى بن أبى طالب عليه السّلام: من أشقى الأولين؟

قال: عاقر الناقة.

قال: صدقت، فمن أشقى الآخرين؟

قال: قلت لا أعلم يا رسول اللّه.

قال: الذى يضربك على هذه، و أشار إلى يافوخه ۱۹۴]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص ۲۴۲

الآیة التالیة تفاصیل أکثر عن طغیان قوم ثمود:

فَقالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ناقَةَ اللَّهِ وَ سُقْیاها المقصود من «رسول اللّه» نبیّ قوم ثمود صالح علیه السّلام، و عبارة «ناقة اللّه» إشارة إلی أنّ هذه الناقة لم تکن عادیة، بل کانت معجزة، تثبت صدق نبوة صالح، و من خصائصها- کما فی الرّوایة المشهورة أنّها خرجت من قلب صخرة فی جبل لتکون حجة علی المنکرین.

«الناقة» منصوبة بفعل محذوف، و التقدیر «ذروا ناقة اللّه و سقیاها»، و یستفاد من مواضع اخری فی القرآن الکریم أنّ النّبی صالحا علیه السّلام کان قد أخبرهم أنّ ماء القریة یجب تقسیمه بینهم و بین الناقة، یوم لهم و یوم للناقة:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۳

وَ نَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَیْنَهُمْ کُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ[۱۹۵].

و حذّرهم من أن الإساءة إلی الناقة: وَ لا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَیَأْخُذَکُمْ عَذابُ یَوْمٍ عَظِیمٍ ۱۹۶].

الآیة التالیة تقول: فَکَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها، و «العقر»- علی وزن کفر- معناه الأساس و الأصل و الجذر، و «عقر الناقة» قطع أساسها و إهلاکها.

و قیل: «العقر» بتر أسافل أطراف الناقة، ممّا یؤدی إلی سقوطها و هلاکها.

و یلاحظ أنّ قاتل الناقة شخص واحد أشارت إلیه الآیة بأشقاها، بینما نسب العقر إلی کلّ طغاة قوم ثمود: «فعقروها»، و هذا یعنی أنّ کلّ هؤلاء القوم کانوا مشارکین فی الجریمة، و ذلک أوّلا: لأنّ مثل هذه المؤامرات یخطط لها مجموعة ثمّ ینفذها فرد واحد أو أفراد.

و ثانیا: لأنّ هذه الجریمة تمّت برضا القوم فهم شرکاء فی الجریمة بهذا الرضا، و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «إنّما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم اللّه بالعذاب لما عموه بالرضی، فقال سبحانه: فَعَقَرُوها فَأَصْبَحُوا نادِمِینَ [۱۹۷]

و عقب هذا التکذیب أنزل اللّه علیهم العقاب فلم یترک لهم أثرا: فَدَمْدَمَ عَلَیْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاها.

«دمدم» تعنی أهلک، و تأتی أحیانا بمعنی عذّب و عاقب و أحیانا بمعنی سحق و استأصل، و بمعنی سخط أو أحاط[۱۹۸].

و «سوّاها» من التسویة و هی تسویة الأبنیة بالأرض نتیجة صیحة عظیمة و صاعقة و زلزلة، أو بمعنی إنهاء حالة هؤلاء القوم، أو تسویتهم جمیعا فی العقاب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۴

و العذاب، حتی لم یسلم أحد منهم.

و من الممکن أیضا الجمع بین هذه المعانی.

الضمیر فی «سوّاها» یعود إلی قبیلة ثمود، و قد یعود إلی مدنهم و قراهم التی سوّاها ربّ العالمین مع الأرض.

و قیل إنّ الضمیر یعود إلی مصدر «دمدم» أیّ إنّ اللّه سوّی غضبه و سخطه علی القوم لیشملهم جمیعا علی حدّ سواء، و التّفسیر الأوّل أنسب.

و من الآیة نستنتج بوضوح أنّ عقاب هؤلاء القوم کان نتیجة لذنوبهم و کان متناسبا مع تلک الذنوب، و هذا عین الحکمة و العدالة.

فی تاریخ الأمم نری غالبا بروز حالة الندم فیهم حین یرون آثار العذاب و لجوءهم إلی التوبة، أمّا قوم ثمود، فالغریب أنّهم حین رأوا علامات العذاب طفقوا یبحثون عن نبیّهم صالح لیقتلوه ۱۹۹]. و هذا دلیل علی ارتکاسهم فی العصیان و الطغیان أمام اللّه و رسوله.

لکن اللّه نجّا صالحا و أهلک قومه شرّ إهلاک.

و تختتم السّورة الحدیث عن هؤلاء القوم بتحذیر قارع لکل الذین یتجهون فی نفس هذه المسیرة المنحرفة فتقول: وَ لا یَخافُ عُقْباها.

كثيرون من الحكّام قادرون على إنزال العقاب لكنّهم يخشون من تبعات عملهم، و يخافون ردود الفعل التى قد تحدث نتيجة فعلهم، و لذلك يكفّون عن المعاقبة. قدرتهم- إذن- محفوفة بالضعف و علمهم ممزوج بالجهل. لا يعلمون مدى قدرتهم على مواجهة التبعات. بينما اللّه سبحانه قادر متعال، علمه محيط بكلّ الأمور و عواقبها، و قدرته على مواجهة النتائج لا يشوبها ضعف، فهو سبحانه و تعالى لا يخاف عقباها، و لذلك فإنّ مشيئته فى العقاب نافذة حازمة.

فالطغاة- إذن- عليهم أن يتنبّهوا و يحذروا غضب اللّه و سخطه و نقمته.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۵

و الضمير فى «عقباها» يعود إلى «الدمدمة» و الهلاك.

بحوث

۱- ملخص حديث قوم ثمود

قوم «ثمود»- كما ذكرنا- كانوا يقطنون أرضا بين الشام و يثرب تسمى (وادى القرى) ... يعبدون الأوثان ... و يمارسون ألوان الآثام. بعث اللّه سبحانه فيهم «صالحا» عليه السّلام يدعوهم إلى طريقة الهداية و النجاة، لكنّهم أبوا إلّا أن يعكفوا على أوثانهم و يمارسوا طغيانهم.

و عند ما طلبوا من نبيّهم معجزة، أرسل اللّه إليهم «ناقة» بطريق إعجازى من قلب جبل، و لكنّهم كلفوا بامتحان يتلخص فى تقسيم ماء المدينة بينهم و بين الناقة ... يوم لها و يوم لهم. و فى الأثر أنّ القوم كانوا يستفيدون من لبن الناقة فى يوم منعهم من الماء، لكن المعجزة لم تخفف من غلواء لجاجهم و عنادهم، فخططوا لقتل الناقة و القتل صالح أيضا لأنّهم رأوا فيه عقبة أمام شهواتهم و ميولهم.

خطة «قتل الناقة» نفذت كما ذكرنا على يد شقى قسىّ اسمه «قدار بن سالف»، و كان ذلك فى الحقيقة إعلان حرب على اللّه، لأنّهم أرادوا بقتل هذه الناقة التى كانت معجزة نبىّ اللّه صالح أن يطفئوا نور الهداية، عندئذ أنذرهم صالح أن يتمتعوا فى بيوتهم بما شاؤوا من اللذات ثلاثة أيّام لينزل العذاب بعدها عليهم جميعا. (سورة هود- الآية ۶۵).

هذه الأيّام الثلاثة كانت فى الواقع فرصة لإعادة النظر، و آخر مهلة للعودة و التوبة، لكنّهم أبوا إلّا طغيانا بل ازدادوا عتوّا، و هنا حلّ عليهم العذاب الإلهى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۶

و جاءت الصيحة السماوية[۲۰۰] لتدك أرضهم، و لتبيدهم فى دورهم: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ [۲۰۱].

تفاصيل قصّة ثمود وردت فى المجلد السادس من هذا التّفسير.

۲- أشقى الأولين و أشقى الآخرين

جمع من علماء الشيعة و السنة منهم الثعلبى، و الواحدى، و ابن مردويه، و الخطيب البغدادى، و الموصلى، و أحمد بن حنبل، و غيرهم باسنادهم عن عمار بن ياسر، و جابر بن سمرة، و عثمان بن صهيب، عن النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لعلى عليه السّلام: «يا على! أشقى الأولين عاقر الناقة، و أشقى الآخرين قاتلك، و فى رواية: من يخضب هذه من هذا (و أشار إلى لحيته و يافوخه)»[۲۰۲].

و ثمّة تشابه فى الواقع بين قاتل ناقة صالح، قدار بن سالف، و قاتل أمير المؤمنين عليه السّلام، عبد الرحمن بن ملجم المرادى. لم يكن الاثنان يحملان عداء شخصيا، بل كان هدف الإثنين إطفاء نور اللّه و القضاء على معجزة و آية من آيات اللّه، و كما إنّ العذاب الإلهى عمّ قوم ثمود بعد حادثة الناقة، كذلك عمّ المسلمين بعد استشهاد أمير المؤمنين عليه السّلام داهية دهماء تمثلت فى التسلط الأموى المتجبّر الذى سام المسلمين سوء العذاب.

و يذكر أنّ الحاكم الحسكانى أورد روايات كثيرة مستفيضة فى هذا المجال ۲۰۳]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۷

۳- أهمية تهذيب النفس

كلما ازداد عدد أقسام (جمع قسم) القرآن ازدادت أهمية الموضوع، و فى هذه السّورة المباركة أكبر عدد من الأقسام، خاصّة و أنّ القسم بالذات الإلهية المقدسة تكرر ثلاث مرات، ثمّ جاء التركيز على أن النجاح و الفلاح فى تزكية النفس، و أن الخيبة و الخسران فى ترك التزكية.

و هذه فى الواقع أهم مسألة فى حياة الإنسان، و القرآن الكريم إذ يطرح هذه الحقيقة إنّما يؤكّد على أنّ فلاح الإنسان لا يتوقف على الأوهام و لا على جمع المال و المتاع و نيل المنصب و المقام، و لا على أعمال أشخاص آخرين (كما هو معروف فى المسيحية بشأن ارتباط فلاح الإنسان بتضحية السيد المسيح) ... بل الفلاح يرتبط بتزكية النفس و تطهيرها و سمّوها فى ظل الإيمان و العمل الصالح.

و شقاء الإنسان ليس أيضا وليد قضاء و قدر و بالإجبار، و لا نتيجة مصير مرسوم، و لا بسبب فعل هذا و ذاك، بل هو فقط بسبب التلوث بالذنوب و الانحراف عن مسير التقوى.

و فى الأثر أن زوج العزيز (زليخا) قالت ليوسف لما أصبح حاكم مصر:

«إنّ الحرص و الشهوة تصير الملوك عبيدا، و أن الصبر و التقوى يصير العبيد ملوكا، فقال يوسف: قال اللّه تعالى: إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [۲۰۴].

و عنها أيضا قالت لما رأت موكب يوسف مارا من أمامها:

«الحمد للّه الذى جعل الملوك بمعصيتهم عبيدا، و جعل العبيد بطاعتهم ملوكا»[۲۰۵] نعم، عبادة النفس تؤدى إلى وقوع الإنسان فى أغلال الرقية بينما تزكية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۸

نعم، عبادة النفس تؤدى إلى وقوع الإنسان فى أغلال الرقية بينما تزكية النفس توفّر أسباب التحكم فى الكون.

ما أكثر الذين وصلوا بعبوديتهم للّه تعالى درجة جعلتهم أصحاب ولاية تكوينية، و مكنتهم بإذن اللّه أن يؤثروا فى حوادث هذا العالم و أن تصدر منهم الكرامات و خوارق العادات!! إلهى! أعنّا على أنفسنا و على كبح جماح أهوائنا.

إلهى! لقد ألهمتنا «الفجور» و «التقوى» فوفقنا للاستفادة من هذا الإلهام.

إلهى! دسائس الشيطان خفية غامضة فى نفس الإنسان، فوفقنا لمعرفتها.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الشّمس

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۴۹

سورة اللّيل

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها إحدی و عشرون آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۱

«سورة اللّیل»

محتوی السّورة:

هـذه السّورة مکّیـة تحمـل کلّ خصائص السور المکّیـة من قصـر فی الآیات، و حرارة فی طرح المحتوی، و ترکز أساسا علی القیامـة و علی ما فی ذلک الیوم من جزاء و عقاب.

بعد القسم بثلاث ظواهر فی بدایة السّورة یأتی تقسـیم النّاس إلی منفقین متّقین، و بخلاء منکرین، و تذکر عاقبة کلّ مجموعة؛ الیسـر و السعادة و الهناء للمجموعة الاولی، و العسر و الضنک و الشقاء للمجموعة الثّانیة.

و فی مقطع آخر من السّورة إشارة إلی أنّ الهدایة من اللّه سبحانه لعباده هی إنذارهم من النّار یوم القیامة.

ثمّ تذکر السّورة فی نهایتها من یدخل هذه النّار و من ینجو منها، مع ذکر أوصاف الفریقین.

فضیلة تلاوة السّورة:

ورد فی فضیلة تلاوة هذه السّورة

عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّ قال: «من قرأها أعطاه اللّه حتی یرضی، و عافاه من العسر و یسّر له الیسر»[۲۰۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۲

الآیات [سورة اللیل (۹۲): الآیات ۱ الی ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ اللَّیْلِ إِذا یَغْشی (۱) وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّی (۲) وَ ما خَلَقَ الذَّکَرَ وَ الْأُنْثی (۳) إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتَّی (۴)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطی وَ اتَّقی (۵) وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنی (۶) فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْیُسْری (۷) وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنی (۸) وَ کَذَّبَ بِالْحُسْنی (۹)

فَسَنُیَسِّرُهُ لِلْعُسْری (۱۰) وَ ما یُغْنِی عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّی (۱۱)

سبب النّزول

روی عن ابن عبـاس فی نزول هـذه السّورة: «أنّ رجلاـ کانت له نخلـة فرعها فی دار رجل فقیر ذی عیال، و کان الرجل إذا جاء فـدخل الدار و صـعد النخلة لیأخذ منها التمر، فربّما سـقطت التمرة فیأخذها صبیان الفقیر، فینزل الرجل من النخلة حتی یأخذ التمر من أیدیهم، فإنّ وجدها فی فیّ أحدهم أدخل إصـبعه حتی یأخذ التمرة من فیه. فشـکا ذلک الرجل إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و أخبره بما یلقی من صاحب النخلة، فقال له النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: اذهب. و لقی رسول اللّه صاحب النخلة فقال:

تعطینی نخلتک المائلة التی فرعها فی دار فلان و لک بها نخلة فی الجنّة؟ فقال له

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۳

الرجل: إنّ لى نخلا كثيرا، و ما فيه نخلة أعجب إلىّ تمرة منها.

قال: ثمّ ذهب الرجل، فقال رجل كان يسمع الكلام من رسول اللّه: يا رسول اللّه: أ تعطينى ما أعطيت الرجل نخلة فى الجنّة إن أنا أخذتها؟ قال: نعم.

فذهب الرجل و لقى صاحب النخلة فساومها منه فقال له: أشعرت أنّ محمّدا أعطانى بها نخلة فى الجنّة فقلت له يعجبنى تمرتها و إنّ لى نخلا كثيرا فما فيه نخلة أعجب إلىّ ثمرة منها؟

فقال له الآخر: أ تريد بيعها؟

فقال: لا إلّا أن أعطى ما لا أظنه أعطى.

قال: فما مناك؟

قال: أربعون نخلة فقال الرجل: جئت بعظيم، تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة؟! ثمّ سكت عنه، فقال له: أنا أعطيك أربعين نخلة.

فقال له: اشهد إن كنت صادقا، فمرّ إلى أناس فدعاهم فأشهد له بأربعين نخلة، ثمّ ذهب إلى النّبى فقال: يا رسول اللّه إنّ النخلة صارت فى ملكى، فهى لك.

فذهب رسول اللّه إلى صاحب الدار، فقال له: النخلة لك و لعيالك، فأنزل اللّه تعالى: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى السّورة و عن عطاء قال: اسم الرجل (أبو الدحداح)»[۲۰۷]

التّفسير

التقوى و الإمداد الإلهى:

هذه السّورة المباركة أيضا تبتدئ بثلاثة أقسام تثير التفكير فى المخلوقات و فى الخالق.

تقول: وَ اللَّيْلِ إِذا يَغْشى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۴

فالقسم الأوّل بالليل حين يغطّى ... يغطّى بظلامه نصف الكرة الأرضية ... أو يغطّى قرص الشمس، و هذا القسم تأكيد على أهمية الليل و دوره الفاعل فى حياة الأفراد، من تعديله لحرارة الشمس، و نشره السكينة على كل الموجودات الحية، و توفير الجوّ لعبادة المتهجّدين و مناجاة الصالحين.

و يستمر السياق القرآنى فى القسم بالقول: وَ النَّهارِ إِذا تَجَلَّى ۲۰۸].

و النهار يبدأ من اللحظة التى يطلع فيها الفجر، فيشقّ قلب ظلام الليل، ثمّ يمتدّ ليملأ كلّ السماء، و يغمر كلّ شىء بالنور ... بهذا النور الذى هو رمز الحركة و الحياة، و العامل على نمو كلّ الموجودات الحية.

فى القرآن الكريم تركيز على مسألة نظام «النور» و «الظلمة» و دورهما فى حياة البشر، لأنّهما من نعم اللّه الكبرى و من آياته العظمى سبحانه.

ثمّ القسم الأخير فى السّورة بالخالق المتعال: وَ ما خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى

فوجود الجنسين فى عالم «الإنسان» و «الحيوان» و «النبات» ... و المراحل التى تمرّ بها النطفة منذ انعقادها حتى الولادة ... و الخصائص التى يمتاز بها كلّ جنس متناسبة مع دوره و نشاطه ... و الأسرار العميقة المخبوءة فى مفهوم الجنسية ... كلّها من دلالات و آيات عالم

الخليقة الكبير ... و بها يمكن الوقوف على عظمة الخالق.

و التعبير ب «ما» عن الخالق سبحانه كناية عن عظمة الذات الإلهية، و ما يحيط بهذه الذات من غموض تجعله سبحانه فوق كلّ وهم و خيال و ظن و قياس.

قال بعضهم أن «ما» فى الآية مصدرية، و معناها أقسم بخلق الذكر و الأنثى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۵

و هذا الاحتمال ضعيف فى معنى الآية.

الحقيقة أنّ القسمين الأوّل و الثّانى يشيران إلى الآيات «الآفاقية»، و القسم الثّالث إلى الآيات «الأنفسية»[۲۰۹].

ثمّ يأتى الهدف النهائى من كلّ هذه الأقسام بقوله سبحانه: إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى اتجاهات سعيكم مختلفة، و نتائجها مختلفة أيضا، هذا يعنى أن أفراد البشر لا يستقرون فى حياتهم على حال ... بل هم فى سعى مستمر ... و فى استثمار دائم للطاقة التى أودعها اللّه فى نفوسهم ... فانظر أيّها الإنسان فى أى مسير تبذل هذه الطاقة التى هى رأس مال وجودك ... فى أىّ اتجاه ... و فى سبيل أيّة غاية؟! حذار من تبديد كلّ هذه الطاقات فى سبيل نتيجة تافهة ... و حذار من بيعها بثمن بخس! «شتى» جمع «شتيت» من مادة «شتّ» أىّ فرّق الجمع، و هنا بمعنى التفرق و التشعب فى المساعى من حيث الكيفية و الهدف و النتيجة.

ثمّ يأتى تقسيم النّاس على قسمين، و يبيّن خصائص كلّ قسم، يقول سبحانه:

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَ اتَّقى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى

المقصود من الإعطاء فى قوله: «أعطى» هو الإنفاق فى سبيل اللّه و مساعدة المحتاجين.

و التأكيد على «التقوى» عقب الإعطاء قد يشير إلى ضرورة تنزيه النية و إخلاص القصد عند الإنفاق، و إلى الحصول على المال من طريق مشروع، و إنفاقه فى طريق مشروع أيضا، و إلى خلوه من المنّ و الأذى ... فكلّ هذه الصفات تجتمع فى عنوان التقوى.

قال بعض إن «أعطى» إشارة إلى العبادات المالية و «اتقى» إشارة إلى سائر

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۶

العبادات العملية من أداء الواجبات و ترك المحرمات، غير أن التّفسير الأوّل أنسب مع ظاهر الآية، و مع سبب نزولها.

و «الحسنى» مؤنث «أحسن» إشارة إلى مثوبة اللّه و جزاءه الأوفى، و التصديق بالحسنى هو الإيمان بها، و فى سبب النزول ذكرنا أن «أبا الدحداح» أنفق أمواله لإيمانه بما سيعوضه اللّه فى الآخرة. و الحسنى وردت بهذا المعنى أيضا فى قوله سبحانه: وَ كُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى [۲۱۰].

قيل إن المقصود هو «الشريعة الحسنى»، و التصديق بالحسنى هو الإيمان بالإسلام، الذى هو أكمل الأديان.

و قيل إنّها كلمة «لا إله إلّا اللّه»، و قيل: إنّها الشهادتان.

غير أنّ سياق الآيات و سبب النزول و ذكر «الحسنى» بمعنى «الجزاء الحسن» فى كثير من الآيات كلّه يرجح التّفسير الأوّل.

عبارة فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى قد تكون إشارة إلى التوفيق الإلهى و إلى تيسير الطاعة لمثل هؤلاء الأفراد، أو فتح طريق الجنّة أمامهم و ما يقابلونه من استقبال الملائكة و تحيتهم، أو كلّ ذلك.

من المؤكّد أنّ الذين سلكوا طريق الإنفاق و التقوى، و اطمئنوا إلى جزاء اللّه و ثوابه فى الآخرة، تتذلل أمامهم المشاكل و ينعمون فى الدنيا و الآخرة بالسكينة و الاطمئنان.

أضف إلى ما سبق، قد يكون الإنفاق المالى شاقا و ثقيلا على طبع الإنسان فى البداية، و لكن بتوطين النفس على ذلك و الاستمرار فيه، يتحول إلى أمر ميسور ...

بل أمر فيه لذّة و ارتياح.

ما أكثر الأفراد الأسخياء الذين ينشرحون لحضور الضيف على مائدتهم، و لا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۷

يرتاحون إذا خلت مائدتهم يوما من ضيف ... و هذا نوع من تيسير الأمور لهؤلاء.

و لا يفوتنا أن نذكر أيضا أنّ الإيمان بالمعاد و بثواب الآخرة يهون المشاكل و الصعاب، و يجعل بذل المال بل النفس ميسورا، و يخلق الدافع نحو طلب الشهادة فى ميادين الجهاد عن رغبة مقرونة باحساس باللذة و النشوة.

«اليسرى» من اليسر، و هى فى الأصل بمعنى إسراج الفرس و الجامها و إعدادها للركوب. ثمّ أطلقت الكلمة على كلّ عمل سهل ممهّد[۲۱۱].

و فى الجهة المقابلة تقف المجموعة الاخرى التى تتحدث عنها الآيات التالية:

وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ اسْتَغْنى وَ كَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى

«من بخل» فى هذه المجموعة مقابل «من أعطى» فى تلك.

كلمة «استغنى» أىّ طلب الغنى، قد تكون إشارة إلى ذريعتهم لبخلهم، و وسيلتهم لاكتناز المال، أو قد تكون إشارة إلى ظنهم بأنّهم مستغنون عن ثواب الآخرة، عكس الطائفة الاولى المنشدة إلى مثوبة اللّه، أو قد تكون بمعنى الإحساس بالاستغناء عن طاعة اللّه و بالتالى التخبط المستمر فى الآثام.

من بين هذه التفاسير الثلاثة يبدو التّفسير الأوّل أنسب، و إن أمكن أيضا الجمع بين الثلاثة.

المقصود من التكذيب بالحسنى، هو إنكار ثواب الآخرة، أو إنكار الدين الإلهى.

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى ... و التيسير للعسر بالنسبة لهذه المجموعة، يقابله التيسير لليسر للمجموعة الاولى التى يشملها اللّه بتوفيقه، و ييسر لها طريق الطاعة و الإنفاق، و بذلك تتذلل أمامها مشاكل الحياة ... أمّا هذه المجموعة فتحرم التوفيق، و يتعسّر عليها شقّ الطريق و تواجه الضنك و النصب فى الدنيا و الآخرة، و هؤلاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۸

البخلاء الخاوون من الإيمان يشقّ عليهم فعل الخير و خاصّة الإنفاق، بينما هو للمجموعة الاولى مقرون باللذة و الإنشراح.[۲۱۲] ثمّ يأتى التحذير لهؤلاء البخلاء المغفلين بالآية: وَ ما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى

لا يستطيع أن يصطحب ماله من هذه الدنيا، و لا يستطيع هذا المال- إذا اصطحبه- أن يقيه من السقوط فى نار جهنّم.

«ما» فى الآية قد تكون نافية، و قد تكون للاستفهام الإنكارى، أىّ ماذا يجديه المال إذا سقط فى حفرة القبر أو فى هاوية جهنّم؟!

«تردى» من (الردى) بمعنى الهلاك، و بمعنى السقوط من مكان مرتفع يؤدى إلى الهلاك، و قيل إن أصل الكلمة بمعنى السقوط: و لما كان السقوط من مكان مرتفع يؤدى إلى الهلاك، فقد أطلقت الكلمة و أريد بها الهلاك، و التردى فى الآية قد يعنى السقوط فى القبر، أو فى جهنّم، أو بمعنى الهلاك الذى هو جزاء هؤلاء.

و بهذا ... تحدثت الآيات الكريمات عن مجموعتين: الاولى: مؤمنة، تقية، سخية؛ و الثّانية: خاوية الإيمان، عديمة التقوى، بخيلة و نموذج المجموعتين موجود فى سبب نزول الآيات بوضوح.

المجموعة الاولى، طوت طريقها بيسر بتوفيق اللّه، و اتجهت نحو الجنّة و نعيمها، بينما المجموعة الثّانية، واجهت فى مسيرتها الحياتية المشاكل المتفاقمة جمعت الأموال الطائلة، و تركتها و ولت تجرّ أذيال الحسرة و الهّم و الويال، و لم تنل سوى العقاب الإلهى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۵۹

الآيات [سورة الليل (۹۲): الآيات ۱۲ الى ۲۱]

اشارة

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (۱۲) وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى (۱۳) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (۱۴) لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (۱۵) الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۱۶) وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (۱۷) الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى (۱۸) وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (۱۹) إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (۲۰) وَ لَسَوْفَ يَرْضى (۲۱)

التّفسير

الإنفاق و النجاة من النّار:

عقب الآيات الكريمة السابقة التى قسمت النّاس على مجموعتين: مؤمنة سخية، و عديمة الإيمان بخيلة، و بيّنت مصير كلّ منهما، تبدأ هذه الطائفة من الآيات بالتأكيد أن على اللّه الهداية لا- الإجبار و الإلزام، و يبقى الإنسان هو المسؤول عن اتخاذ القرار اللازم، و أن انتخاب الطريق المستقيم يعود بالنفع على الإنسان نفسه و لا حاجة للّه سبحانه بعمل خير يقدمه الفرد. يقول تعالى: إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى الهدى عن طريق التكوين (الفطرة و العقل) أو عن طريق التشريع (الكتاب و السنة) ... فقد بيّنا ما يلزم و أدينا الأمر حقّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۰

و بعد وَ إِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولى ۲۱۳] فلا حاجة بنا لإيمانكم و طاعتكم، و لا طاعتكم تجدينا نفعا و لا معصيتكم تصيبنا ضرّا، و كلّ منهج الهداية لصالحكم أنفسكم.

حسب هذا التّفسير الهداية تعنى «اراءة الطريق». و يحتمل أن تكون الآيتان لتشجيع المؤمنين الأسخياء، و التأكيد على أنّ اللّه سبحانه سيشملهم بمزيد من الهداية، و ييسر لهم الطريق فى هذه الدنيا و فى الآخرة، فاللّه قادر على ذلك لأنّ له الآخرة و الاولى.

صحيح أنّ الدنيا مقدمة على الآخرة زمنيا، و لكن الآخرة أهم و هى الهدف النهائى، و لذلك تقدم ذكرها على الدنيا فى الآية الإنذار و التحذير من سبل الهداية، و لذلك قال سبحانه: فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى

«تلظى» من اللظى، و هو الشعلة المتوهجة الخالصة و الشعلة الخالصة من الدخان ذات حرارة أكبر، و تطلق «لظى» أحيانا على جهنم ۲۱۴].

ثمّ تشير الآية إلى المجموعة التى ترد هذه النّار المتلظية الحارقة و تقول:

لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى

و فى وصف الأشقى تقول الآية: الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى

معيار الشقاء و السعادة- إذن- هو الكفر و الإيمان و ما ينبثق عنهما من موقف عملى، إنّه لشقى حقّا هذا الذى يعرض عن كلّ معالم الهداية و عن كلّ الإمكانات المتاحة للإيمان و التقوى ... بل إنّه أشقى النّاس.

عبارة الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى قد يكون التكذيب إشارة إلى الكفر، و التولى إشارة إلى ترك الأعمال الصالحة، إذ هو ملازم للكفر، و قد يشير الفعلان إلى ترك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۱

الإيمان، و يكون التكذيب بنبىّ الإسلام، و التولى الإعراض عنه.

كثير من المفسّرين يعالجون هنا مسألة ترتبط بما طرحته الآية من اختصاص جهنم بالكافرين: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى ... الَّذِى كَذَّبَ وَ تَوَلَّى و هذا يتنافى مع آيات اخرى و روايات تتحدث عن شمول عذاب جهنم للمؤمنين المذنبين أيضا.

و الآيتان استدل بهما المرجئة فى قولهم: لا تضرّ مع الإيمان معصية!.

و لتوضيح ما يبدو هنا من تعارض يجب الالتفات إلى مسألتين: الاولى- المقصود بصلى جهنم هنا الخلود فيها، و الخلود مختص بالكافرين، و القرينة على هذا القول تلك الآيات التى تتحدث عن دخول غير الكافرين أيضا جهنم.

و الاخرى، أنّ الآيتين المذكورتين و ما بعدهما حيث يقول تعالى: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى تريد بمجموعها أن تبيّن فقط حال مجموعتين: عديمة الإيمان البخيلة، و المؤمنة السخية التقية، و تذكر أنّ مصير الاولى جهنم، و الثّانية الجنّة، و لا تتطرق أساسا إلى المجموعة الثّالثة و هى المؤمنة المذنبة.

بعبارة اخرى الحصر هنا من النوع الإضافى، أى كأن الجنّة خلقت للمجموعة الثّانية فقط، و جهنم للمجموعة الاولى فحسب، و بهذا البيان تتّضح الإجابة على إشكال آخر بشأن التضاد بين الآيتين اللتين نحن بصددهما و ما يلى من آيات تحصر النجاة بالأتقى.

ثمّ تتحدث السّورة عن مجموعة قد جنّبت النّار و أبعدت عنها، تقول الآية:

وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى

و من هو هذا الأتقى؟ تقول الآية الكريمة: الَّذِى يُؤْتِى مالَهُ يَتَزَكَّى

و عبارة «يتزكى» تشير إلى قصد القربة، و خلوص النية، سواء أريد منها معنى النمو الروحى و المعنوى، أم قصد بها تطهير الأموال، لأنّ التزكية جاءت بمعنى «التنمية»، و بمعنى «التطهير». قال تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۲

وَ تُزَكِّيهِمْ بِها، وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۲۱۵]، أى تربيهم و تنميهم بها.

و للتأكيد على خلوص النيّة فى إنفاقهم تقول الآية: وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى فلا أحد قد أنعم على هذا «الأتقى» ليكون إنفاقه جزاء على هذه النعمة.

بل هدفه رضا اللّه لا غير: إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى

بعبارة اخرى: كثير من الإنفاق بين النّاس يتمّ ردّا على إنفاق مشابه سابق من الجانب الآخر، طبعا ردّ الإحسان بالإحسان عمل صالح، لكن حسابه يختلف عمّا يصدر عن الأتقياء من إنفاق مخلص.

الآيات المذكورة أعلاه تقول: إنفاق المؤمنين الأتقياء ليس رياء و لا ردّا على خدمات سابقة قدمت إليهم، بل دافعها رضا اللّه لا غير، و من هنا كان إنفاقهم ذا قيمة كبرى.

التعبير بكلمة «وجه» هنا يعنى «الذات»، أى رضا ذات البارى تقدست أسماؤه.

و عبارة «ربّه الأعلى» تشير إلى أن هذا الإنفاق يتمّ عن معرفة كاملة ... عن معرفة بربوبية البارى تعالى، و علم بمكانته السامية العليا، و هذا الاستثناء ينفى أيضا كلّ نية منحرفة، مثل الإنفاق من أجل السمعة و الوجاهة و أمثالها ... و يجعله منحصرا فى طلب رضا اللّه سبحانه ۲۱۶].

و فى خاتمة السّورة ذكر بعبارة موجزة لما ينتظر هذه المجموعة من أجر عظيم تقول الآية: وَ لَسَوْفَ يَرْضى

نعم، و لسوف يرضى، فهو قد عمل على كسب رضا اللّه، و اللّه سبحانه سوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۳

يرضيه، إرضاء مطلقا غير مشروط إرضاء واسعا غير محدود ... إرضاء عميق المعنى يستوعب كلّ النعم ... إرضاء لا يمكننا اليوم حتى تصوّره ... و أى نعمة أكبر من هذا الرضى! نعم، اللّه أعلى، و جزاؤه أعلى، و لا أعلى من رضا العبد رضا مطلقا.

احتمل بعض المفسّرين أن يكون الضمير فى «يرضى» عائدا إلى اللّه سبحانه أى إنّ اللّه سوف يرضى عن هذه المجموعة، و هذا الرضا أيضا نعمة ما بعدها نعمة.

نعمة رضا اللّه عن هذا العبد بشكل مطلق غير مشروط، و من المؤكّد أنّ هذا الرضا يتبعه رضا العبد الأتقى.

فالإثنان متلازمان، و قد جاء فى الآية (۸) من سورة البينة قوله سبحانه:

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ و قوله تعالى فى الآية (۲۸) من سورة الفجر:

راضِيَةً مَرْضِيَّةً. لكنّ التّفسير الأوّل أنسب.

بحثان

۱- حول سبب نزول سورة الليل

يقول الفخر الرازى: اجمع المفسّرون منّا على أنّ المراد منه (أى من قوله تعالى: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى أبو بكر (رض)، و اعلم أنّ الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرّواية، و يقولون أنّها نزلت فى حقّ على بن أبى طالب عليه السّلام.

ثمّ يعرب الرازى عن وجهة نظره فى هذا المجال و يقول: و إنّما قلنا إنّه لا يمكن حملها على على بن أبى طالب لأنّه قال فى صفة هذا الأتقى وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى و هذا الوصف لا يصدق على على بن أبى طالب لأنّه كان فى تربية النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّه أخذه من أبيه، و كان يطعمه و يسقيه و يكسوه و يربيه، و كان الرّسول منعما عليه نعمة يجب جزاؤها، أمّا أبو بكر فلم يكن للنّبى عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۴

الصلاة و السلام عليه نعمة دنيوية، بل أبو بكر كان ينفق على الرّسول عليه السّلام ۲۱۷].

نحن لا نتطرق عادة فى هذا التّفسير لمثل هذه المسائل. لكن مثل هذه المحاولات الرامية إلى إثبات الأحكام الذهنية المسبقة بالاستناد إلى آيات قرآنية يبلغ بها الأمر أن تنسب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ما لا يليق بمقامه الشامخ ۲۱۸]، ممّا يستدعينا أن نتوقف عندها قليلا.

أوّلا: ما يقوله الفخر الرازى بشأن إجماع أهل السنة على نزول السّورة فى أبى بكر منقوض بما أورده كثير من مفسّرى أهل السنة منهم القرطبى فى تفسيره عن ابن عباس بشأن نزول كلّ سورة «الليل» فى «أبى الدحداح»[۲۱۹].

و القرطبى حين يصل إلى تفسير الآية: وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى يعيد القول أنّ المقصود به أبو الدحداح، و هذا المفسّر يورد ما ذكره أكثر المفسّرين بشأن نزول السّورة فى أبى بكر، غير أنّه لا يقبل هذا الرأى.

ثانيا: ما قيل بشأن اتفاق الشيعة على نزول الآية فى علىّ عليه السّلام غير صحيح أيضا، إذ أورد كثير من مفسّرى الشيعة قصّة أبى الدحداح على أنّها سبب نزول السّورة.

نعم، لقد روى عن الإمام الصادق عليه السّلام بأن «الأتقى» شيعة على و أتباعه، و الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى هو أمير المؤمنين على عليه السّلام، لكن الظاهر أنّ هذه الرّوايات لا تتحدث عن سبب النزول، بل هى من قبيل ذكر المصاديق الواضحة و البارزة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۵

ثالثا: «الأتقى» فى السّورة ليست هنا بمعنى أتقى النّاس، بل بمعنى المتقى، و الشاهد على ذلك كلمة «الأشقى» التى هى لا تعنى أشقى النّاس، بل هم الكفار الذين يبخلون بأموالهم فلا ينفقونها، أضف إلى ذلك أنّ الآية نزلت فى حياة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أ يصح أن يكون أبو بكر مقدّما فى التقوى على النّبى نفسه؟! لماذا نلجأ إلى إثبات أحكامنا الذهنية المسبقة إلى كل وسيلة حتى الحط من شخصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

إنّه قيل أنّ للنّبى حسابا آخر، نقول: لماذا لم يكن للنّبى حساب آخر فى الآيـة: وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى ففى هذه الآية يرفض الفخر الرازى أن تكون فى على، لأنّه مشمول بنعم النّبى الدنيوية.

رابعا: أى إنسان ليست لأحد نعمة عليه فى حياته، و لم يقدم له أحد هدية أو يدعوه لضيافة؟! هل كان أبو بكر كذلك فى حياته؟ ألم يستجب لضيافة أو يقبل هدية أو خدمة دنيوية طوال حياته؟! هل هذا معقول؟ المقصود من الآية الكريمة:

وَ ما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى ليس إذن أن يكون هذا الأتقى غير مشمول بأية نعمة دنيوية من أحد.

بل المقصود إن إنفاقه ليس من أجل حق نعمة أغدقت عليه، أى أنّه حين ينفق، فإنّما ينفق فى سبيل اللّه لا فى سبيل خدمة أسديت إليه و يريد أن يجزى عليها.

خامسا: آيات سورة الليل تنبئ أنّ السّورة نزلت فى واقعة ذات قطبين:

«الأتقى» و «الأشقى»، و إنّ اعتبرنا قصة أبى الدحداح سببا للنزول، فالقطبان يتضحان، و إن قلنا إنّ الأتقى أبو بكر فيبقى السؤال عمن هو «الأشقى».

الشيعة لا يصرون على نزول الآية فى على عليه السّلام ففى شأنه نزل كثير من القرآن، و لكن إن كان نزولها فى على، يتبيّن من جهة اخرى من هو «الأشقى»، إذ ورد فى تفسير الآية (۱۲) من سورة الشمس: إِذِ انْبَعَثَ أَشْقاها روايات كثيرة بطرق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۶

أهل السنة أن المقصود من الأشقى قاتل على بن أبى طالب عليه السّلام. (و هذه الرّوايات جمعها- كما ذكرنا- الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل).

بالاختصار، رأى الفخر الرازى فى هذه الآية ضعيف غاية الضعف و ملىء بالاشتباه، و لذلك رفضه الآلوسى فى روح المعانى و قال: «... و استدل بذلك الإمام على أنّه (أبو بكر) أفضل الامّة و ذكر أنّ فى الآيات ما يأبى قول الشيعة أنّها فى على و أطال الكلام فى ذلك و أتى بما لا يخلو عن قيل و قال»[۲۲۰].

۲- فضيلة الإنفاق فى سبيل اللّه

الإنفاق فى سبيل اللّه، و مساعدة المحرومين عن إخلاص نيّة و بدون منّة ممّا أكّد عليه القرآن الكريم فى مواضع عديدة و اعتبره من علامات الإيمان.

و الرّوايات تؤكّد كثيرا على هذا المفهوم، و تعدّ الإنفاق المنطلق من دافع رضا اللّه و البعيد عن كل رياء و منّ و أذى من أفضل الأعمال.

و فى نهاية المطاف نورد بعض هذه الرّوايات:

۱-

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من الإيمان حسن الخلق، و إطعام الطعام:

و إراقة الدّماء»[۲۲۱].

(النحر فى سبيل اللّه).

۲-

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «إنّ أحبّ الأعمال إلى اللّه إدخال السرور على المؤمن، شبعة مسلم أو قضاء دينه»[۲۲۲]

۳-

عن الإمـام جعفر بن محمّـد الصادق علیه السّـلام قال: «ما أری شـیئا یعـدل زیارة المؤمن إلّا إطعامه، و حقّ علی اللّه أن یطعم من أطعم مؤمنا من طعام الجنّة»[۲۲۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۷

۴- و

سأل رجل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: أی الأعمال أفضل؟ قال: «اطعام الطعام و اطیاب الکلام»[۲۲۴].

۵- و مسک الختام

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من عال أهل بیت من المسلمین یومهم و لیلتهم غفر اللّه ذنوبه»[۲۲۵].

اللّهمّ! وفقنا لأن نکون من العاملین علی هذا الطریق.

اللّهمّ! اجعل أعمالنا خالصة لوجهک الکریم.

اللّهمّ! إنا نتضرع إلیک أن تشملنا بنعمتک و رحمتک حتی ننعم بالرضی و تکون عنّا راضیا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة اللّیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۶۹

سورة الضّحی

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۱

«سورة الضّحی»

محتوی السّورة:

هذه السّورة نزلت فی مکّة، و حسب بعض الرّوایات أنّها نزلت حین کان الرّسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم متألما بسـبب تأخر نزول الوحی، و تقوّل الأعـداء نتیجـة هـذا الانقطاع المؤقت، نزلت السّورة کغیث علی قلب النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و أمدته بطاقة جدیدة، و قطعت ألسن الأعداء.

هذه السّورة تبدأ بقسمین، ثمّ تبشر النّبی بأن اللّه لا یترکه أبدا.

ثمّ تبشّـره بعطاء ربّانی تجعله راضـیا ثمّ تعرض له صورا من حیاته السابقة تتجسّد فیها الرحمة الإلهیة التی کانت تشمله دائما و تحمیه و تسنده فی أشدّ اللحظات.

و فی نهایة السّورة تتکرر الأوامر الإلهیة برعایة الیتیم و السائل، و بإظهار النعم الإلهیة (شکرا لهذه النعم).

فضیلة السّورة:

و یکفی فی فضیلة هذه السّورة ما

روی عن النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم قال: «من قرأها کان ممن یرضاه اللّه، و لمحمّد أن یشـفع له، و له عشـر حسـنات بعدد کلّ

یتیم وسائل»[۲۲۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۲

و فضیلة التلاوة هذه هی طبعا من نصیب من یقرأ و یعمل بما یقرأ.

جدیر بالذکر أنّ الرّوایات تذکر هذه السّورة و السّورة التی تلیها: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ علی أنّها سورة واحدة، و لذلک لا بدّ من قرائتهما معا بعد سورة الحمد فی الصلاة (لوجوب قراءة سورة کاملة بعد الحمد فی الصلاة حسب مذهب أهل البیت علیهم السّلام)، و نظیر ذلک فی سورتی «الفیل» و «لإیلاف».

و لو أمعنا النظر فی سورتی الضحی و الإنشراح لألفینا ارتباط موضوعاتهما ارتباطا وثیقا یحتّم أن تکون الثّانیة استمرارا للأولی و إنّ فصلت بینهما البسملة.

علماء الفقه (فی مدرسة أهل البیت) یجمعون علی عدم کفایة واحدة من السّورتین بعد الحمد فی الصلاة، و لهم بحوث فی کتب الفقه بشأن وحدتهما و تلاوتهما.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۳

الآیات [سورة الضحی (۹۳): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَ الضُّحی (۱) وَ اللَّیْلِ إِذا سَجی (۲) ما وَدَّعَکَ رَبُّکَ وَ ما قَلی (۳) وَ لَلْآخِرَةُ خَیْرٌ لَکَ مِنَ الْأُولی (۴)

وَ لَسَوْفَ یُعْطِیکَ رَبُّکَ فَتَرْضی (۵)

سبب النّزول

روی عن ابن عباس قال: احتبس الوحی عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خمسة عشر یوما، فقال المشرکون إنّ محمّدا قد ودعه ربّه و قلاه، و لو کان أمره من اللّه تعالی لتتابع علیه، فنزلت السّورة و

روی أنّه لمّا نزلت السّورة قال النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم لجبرائیل علیه السّلام: «ما جئت حتی اشتقت إلیک، فقال جبرائیل: و أنا کنت أشدّ إلیک شوقا و لکنّی عبد مأمور و ما نتنزل إلّا بأمر ربّک».

و قیل: سألت الیهود رسول اللّه عن ذی القرنین و أصحاب الکهف و عن الروح،

فقال: سأخبرکم غدا،

و لم یقل إن شاء اللّه، فاحتبس عنه الوحی هذه الأیّام، فاغتم لشماتة الأعداء فنزلت السّورة تسلیة لقلبه، (و نستبعد هذه الرّوایة لأنّ اتصال الیهود بالنّبی و طرحهم الأسئلة علیه کان فی المدینة لا فی مکّة عادة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۴

و قیل: إنّ المسلمین قالوا ما ینزل علیک الوحی یا رسول اللّه. فقال: و کیف ینزل علیّ الوحی و أنتم لا تنقون براجمکم (هی عقد الأصابع یجتمع فیها الوسخ) و لا تقلمون أظفارکم)[۲۲۷].

و اختلفت الرّوایات فی مدّة انقطاع الوحی، قیل اثنا عشر یوما، و قیل خمسة عشر، و قیل تسعة عشر، و قیل خمسة و عشرون، و قیل أیضا أربعون.

و فى رواية إنّها ليلتان أو ثلاث.

التّفسير

يعطيك فترضى:

فى بداية السّورة المباركة قسمان: الأوّل بالنّور، و الثّانى بالظلمة، و يقول سبحانه:

وَ الضُّحى و هو قسم بالنهار- حين تغمر شمسه كلّ مكان.

وَ اللَّيْلِ إِذا سَجى أى إذا عمّت سكينته كلّ مكان.

«الضحى» يعنى أوائل النهار، أى حين يرتفع قرص الشمس فى كبد السماء، و يعم نورها الأرض، و هو فى الحقيقة أفضل ساعات النهار، لأنّه- على حدّ تعبير بعضهم- شباب النهار، و فيه لا يكون الجوّ حارا فى فصل الصيف، و يكون الدفء قد عمّ فى فصل الشتاء و تصبح خلاله روح الإنسان مستعدة لممارسة النشاط.

«سجى» من السّجو أو السّجو، أى سكن و هدأ، و تأتى الكلمة أيضا بمعنى غطّى، و أقبل ظلامه. و الميت الملفوف بالكفن «مسجّى»، و فى الآية بمعنى سكن و هدأ، و الليلة الخالية من الرياح تسمى «ليلة ساجية» أى هادئة، و البحر حين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۵

يستقر و يخلو من الأمواج الصاخبة يسمى «بحر ساج».

و المهم فى الليل- على أى حال- هدوؤه و سكينته ممّا يضفى على روح الإنسان و أعصابه هدوء و ارتياحا، و يعدّه لممارسة نشاط يوم غد، و هو لذلك نعمة مهمّة استحقت القسم بها.

بين القسمين و محتوى السّورة تشابه كبير و ارتباط وثيق. النهار مثل نزول نور الوحى على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و الليل كانقطاع الوحى المؤقت، و هو أيضا ضرورى فى بعض المقاطع الزمنية.

و بعد القسمين، يأتى جواب القسم، فيقول سبحانه: ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ ما قَلى

«قلى» من «قلا»- على وزن صدا- و هو شدّة البغض، و من القلو أيضا بمعنى الرّمى. و كلا المعنيين يعودان إلى أصل واحد- فى رأى الراغب الأصفهانى- فكأن المقلّو هو الذى يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله.

على أى حال، فى هذا التعبير سكن لقلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تسلّ له، ليعلم أن التأخير فى نزول الوحى إنّما يحدث لمصلحة يعلمها اللّه تعالى، و ليست- كما يقول الأعداء- لترك اللّه نبيّه أو لسخطه عليه. فهو مشمول دائما بلطف اللّه و عنايته الخاصّة، و هو دائما فى كنف حماية اللّه سبحانه.

وَ لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى

أنت فى هذه الدنيا مشمول بالطاف اللّه تعالى، و فى الآخرة أكثر و أفضل. أنت آمن من غضب اللّه فى الأمد القريب و البعيد. و باختصار أنت عزيز فى الدنيا و الآخرة ... فى الدنيا عزيز و فى الآخرة أعزّ ...

قيل إن «الآخرة» و «الأولى» يشيران إلى بداية عمر النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و نهايته، أى إنّك ستستقبل فى عمرك نصرا و نجاحا أكثر ممّا استدبرت. و فى ذلك إشارة إلى اتساع رقعة انتشار الإسلام و انتصارات المسلمين المتلاحقة على الأعداء،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۶

و فتوحهم فى الغزوات، و نموّ دوحة التوحيد، و اندثار آثار الشرك و عبادة الأوثان.

و لا مانع من الجمع بين التّفسيرين.

و تأتى البشرى للنبى الكريم لتقول له:

وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هذا أعظم أكرام و أسمى احترام من ربّ العالمين لعبده المصطفى محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فالعطاء الرّبانى سيغدق عليه حتى يرضى ...

حتى ينتصر على الأعداء و يعّم نور الإسلام الخافقين، كما أنّه سيكون فى الآخرة أيضا مشمولا بأعظم الهبات الإلهية.

النّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره خاتم الأنبياء، و قائد البشرية، لا يمكن أن يتحقق رضاه فى نجاته فحسب، بل إنّه سيكون راضيا حين تقبل منه شفاعته فى أمته. و من هنا جاءت الرّوايات لتؤكد أن هذه الآية أكثر آيات القرآن الكريم دلالة على قبول الشفاعة منه عليه أفضل الصلاة و السلام.

و

فى حديث رواه محمّد بن على عليهما السّلام عن عمّه محمّد الحنفية عن أبيه أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال: أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أشفع لامّتى حتّى ينادينى ربّى: أرضيت يا محمّد؟ فأقول: نعم يا ربّ رضيت»

ثمّ إنّ أمير المؤمنين التفت إلى جماعة و قال:

«يا أهل العراق تزعمون أن أرجى آية فى كتاب اللّه عزّ و جلّ: يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ ... الآية، و إنّا أهل البيت نقول أرجى آية فى كتاب اللّه: وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى و هى و اللّه الشفاعة ليعطيها فى أهل لا إله إلّا اللّه حتى تقول: ربّ رضيت».[۲۲۸]

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: دخل رسول اللّه على فاطمة عليها السّلام و عليها كساء من خلة الإبل و هى تطحن بيدها و ترضع ولدها فدمعت عينا رسول اللّه لما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۷

أبصرها فقال: «يا بنتاه تعجلى مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة فقد أنزل اللّه علىّ و لسوف يعطيك ربّك فترضى»[۲۲۹].

بحث

فلسفة انقطاع الوحى:

يتبيّن من الآيات الكريمة فى هذه السّورة أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يملك لنفسه شيئا إلّا من عند اللّه ... لم يكن له اختيار حتى فى نزول الوحى. متى ما شاء اللّه ينزل الوحى و متى ما شاء ينقطع، و لعل انقطاع الوحى كان ردّا على أولئك الذين كانوا يطالبون النّبى بمعاجز مقترحة وفق أذواقهم، أو كانوا يقترحون عليه تغيير بعض الأحكام و النصوص، و كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول لهم: قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ ...[۲۳۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۸

الآيات [سورة الضحى (۹۳): الآيات ۶ الى ۱۱]

اشارة

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (۶) وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (۷) وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (۸) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (۹) وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (۱۰) وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (۱۱)

التّفسير

الشكر على كلّ هذه النعم الإلهية:

ذكرنا أنّ هدف هذه السّورة المباركة تسلية قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بيان الطاف اللّه التى شملته، و هذه الآيات المذكورة أعلاه تجسد للنّبى ثلاث هبات من الهبات الخاصّة التى أنعم اللّه بها على النّبى، ثمّ تأمره بثلاثة أوامر.

أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى

فقد كنت يا محمّد فى رحم امّك حين توفى والدك فآويتك إلى كنف جدّك عبد المطلب (سيد مكّة).

و كنت فى السادسة حين توفيت والدتك، فزاد يتمك، لكننى زدت حبّك فى قلب «عبد المطلب».

و كنت فى الثامنة حين رحل جدّك «عبد المطلب»، فسخرت لك عمّك «أبا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۷۹

طالب»، و ليحافظ عليك كما يحافظ على روحه.

نعم، كنت يتيما فآويتك.

و قيلت فى معنى هذه الآية آراء اخرى تبتعد عن ظاهرها. كقولهم إنّ اليتيم هو الفريد فى فضائله و خصائله الحميدة، فتقول مثلا للجوهرة الفريدة «درّة يتيمة» ... و يكون المعنى حينئذ أنّ اللّه وجدك فى فضائلك فريدا ليس لك نظير، و لذلك اختارك للنبوّة.

و كقولهم: إنّك كنت يوما يتيما، و أصبحت ملاذا للأيتام و قائدا للبشرية.

المعنى الأوّل دون شك أنسب و بظاهر الآية الصق.

ثمّ يأتى ذكر النعمة الثّانية:

وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى

نعم، لم تكن أيّها النّبى على علم بالنبوّة و الرسالة، و نحن أنزلنا هذا النور على قلبك لتهدى به الإنسانية، و هذا المعنى ورد فى قوله تعالى أيضا: ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا.[۲۳۱] واضح أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان فاقدا لهذا الفيض الإلهى قبل وصوله مقام النبوّة، فاللّه سبحانه أخذ بيده و هداه و بلغ به هذا المقام، و إلى هذا تشير الآية (۳) من سورة يوسف: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هذَا الْقُرْآنَ وَ إِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ

من المؤكّد أنّه لو لا الهداية الإلهية و الإمداد الغيبى ما استطاع الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يهتدى المسير نحو الهدف المقصود.

من هنا فإنّ المقصود من الضلالة فى كلمة «ضالا» فى الآية ليس نفى الإيمان و التوحيد و الطهر و التقوى عن النّبى، بل بقرينة الآيات التى أشرنا إليها تعنى نفى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۰

العلم بأسرار النبوّة و بأحكام الإسلام، و تعنى عدم معرفة هذه الحقائق، كما أكّد على ذلك كثير من المفسّرين. لكنّه صلّى اللّه عليه و

آله و سلّم بعد البعثة اهتدى إلى هذه الأمور بعون اللّه تعالى. (تأمل بدقّة).

فى الآية (۲۸۲) من سورة البقرة، عند ذكر الشهادة و سبب استشهاد أكثر من شاهدة واحدة فى كتابة عقود الدّين يقول سبحانه: أَنْ تَضِلَّ إِحْداهُما فَتُذَكِّرَ إِحْداهُمَا الْأُخْرى

و الضلالة فى هذه الآية تعنى «النسيان» بقرينة قوله «فتذكر».

و فى الآية تفاسير اخرى من ذلك.

إنّك كنت خامل الذكر غير معروف، و اللّه أنعم عليك من المواهب الفريدة ممّا جعلك معروفا فى كلّ مكان.

و من هذه التفاسير، إنّك تهت و ضللت الطريق مرّات فى عهد الطفولة (مرّة فى شعاب مكّة حين كنت فى حماية عبد المطلب، و مرّة حين كانت حليمة السعدية تأتى بك إلى مكّة لتسلمك إلى عبد المطلب فتهت فى الطريق. مرّة ثالثة حين كنت برفقة عمّك أبى طالب ضمن قافلة متجهة إلى الشام فضللت الطريق فى ليلة ظلماء و اللّه سبحانه هداك فى كلّ هذه المرات و أعادك إلى حضن جدّك أو عمّك).

و يذكر أنّ كلمة «ضال» تعنى «المفقود» و تعنى «التائه». ففى عبارة: «الحكمة ضالة المؤمن»، الضالة تعنى الشىء المفقود.

و من ذلك جاءت هذه المفردة أيضا بمعنى المخفى و الغائب و لذا ورد فى الآية (۱۰) من سورة السجدة قوله تعالى على لسان منكرى المعاد: أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، أى ء إذا غبنا و اختفينا فى بطن الأرض.

و إذا كانت كلمة «ضالا» فى الآية تعنى «المفقود» فلا يبرز إشكال فى الموضوع ... و لكن إذا كانت بمعنى «التائه» فالمقصود منها عدم الاهتداء إلى طريق النبوّة و الرسالة قبل البعثة، و بعبارة اخرى لم يكن النّبى مالكا لشىء فى ذاته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۱

الوجودية، و ما كان عنده فمن اللّه، و بهذا المعنى يندفع كلّ إشكال أيضا.

وَ وَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى ۲۳۲].

لقد جعلناك تستأثر باهتمام «خديجة» هذه المرأة المخلصة الوفية لتضع كلّ ثروتها تحت تصرفك و من أجل تحقيق أهدافك، و بعد ظهور الإسلام رزقك مغانم كثيرة فى الحروب ساعدتك فى تحقيق أهدافك الرسالية الكبرى.

و

عن على بن موسى الرضا عليه السّلام فى تفسير هذه الآيات قال: أَ لَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى قال: فردا لا مثيل فى المخلوقين، فآوى النّاس إليك. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا أى ضالة فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك. وَ وَجَدَكَ عائِلًا، تعول أقواما بالعلم فأغناهم بك»[۲۳۳].

هذه الرّواية تتحدث طبعا عن بطون الآية، و إلّا فإنّ ظاهرها هو ما ذكرناه.

و لا يتصورنّ أحد أنّ تفسير الآيات بظاهرها يحط من مكانة النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، أو يضفى عليه صفات سلبية من قبل البارى تعالى، بل إنّها فى الواقع بيان ما أغدق اللّه على نبيه من ألطاف و إكرام و احترام، حين يتحدث المحبوب عن ألطافه بحق العاشق الواله، فإنّ حديثه هذا هو عين اللطف و المحبّة، و هو دليل على عنايته الخاصّة، و العاشق بسماعه هذه الألفاظ تسرى فى جسده روح جديدة، و تصفو نفسه و يغمر قلبه سكينة و هدوء.

فى الآيات التالية ثلاثة أوامر تصدر إلى الرسول باعتبارها نتيجة الآيات السابقة ... و الخطاب، و إن كان متجها إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فإنّه يشمل أيضا كل المسلمين.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۲

«تقهر» من القهر- كما يقول الراغب- الغلبة مع التحقير، و لكن تستعمل فى كل واحد من المعنيين، و معنى التحقير هنا هو المناسب.

و هذا يدل على أنّ هناك مسألة أهم من الإطعام و الإنفاق بشأن الأيتام، و هى اللطف بهم و العطف عليهم و إزالة إحساسهم بالنقص العاطفى، و لذا

جاء فى الحديث المعروف عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمرّ على يده نور يوم القيامة»[۲۳۴].

كأنّ اللّه يخاطب نبيّه قائلا: لقد كنت يتيما أيضا و عانيت من آلام اليتم، و الآن عليك أن تهتم بالأيتام كل اهتمام و أن تروى روحهم الظمأى بحبّك و عطفك.

وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ.

«نهر» بمعنى ردّ بخشونة، و لا يستبعد أن تكون مشتركة فى المعنى مع «نهر» الماء، لأنّ النهر يدفع الماء بشدّة.

و فى معنى «السائل» عدّة تفاسير.

الأوّل: أنّه المتجه بالسؤال حول القضايا العلمية و العقائدية و الدينية، و الدليل على ذلك هو أنّ هذا الأمر تفريع ممّا جاء فى الآية السابقة: وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى فشكر هذه الهداية الإلهية يقتضى أن تسعى أيّها النّبى فى هداية السائلين، و أن لا تطرد أى طالب للهداية عنك.

و التّفسير الآخر: هو الفقير فى المال و المتاع، و الأمر يكون عندئذ ببذل الجهد فى هذا المجال، و بعدم ردّ هذا الفقير السائل يائسا.

و الثّالث: أنّ المعنى يشمل الفقير علميا و الفقير ماديا، و الأمر بتلبية احتياجات السائل فى المجالين، و هذا المعنى يتناسب مع الهداية الإلهية لنبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مع إيوائه حين كان يتيما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۳

و ذهب بعضهم إلى حصر معنى السائل فى طالب المعرفة العلمية، زاعما أنّ كلمة السائل لم ترد فى القرآن الكريم بمعنى طالب المال و المتاع ۲۳۵]، بينما تكرر فى القرآن هذا المعنى كقوله تعالى: وَ فِى أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَ الْمَحْرُومِ ۲۳۶] و بهذا المعنى أيضا وردت فى المعارج- ۲۵، و فى البقرة- ۷۷.

وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

و الحديث عن النعمة قد يكون باللسان، و بتعابير تنمّ عن غاية الشكر و الامتنان، لا عن التفاخر و الغرور. و قد تكون بالعمل عن طريق الإنفاق من هذه النعمة فى سبيل اللّه، إنفاقا يبيّن مدى هذه النعمة. هذه هى خصلة الإنسان السخى الكريم ... يشكر اللّه على النعمة، و يقرن الشكر بالعمل، خلافا للسخفاء البخلاء الذين لا يكفون عن الشكوى و التأوه، و لا يكشفون عن نعمة و لو حصلوا على الدنيا و ما فيها، وجوههم يعلوها سيماء الفقر، و كلامهم مفعم بالتذمّر و الحسرة، و عملهم يكشف عن فقر! بينما

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه»[۲۳۷]

من هنا يكون معنى الآية: بيّن ما أغدق اللّه عليك من نعم بالقول و العمل، شكرا على ما أغناك اللّه إذ كنت عائلا.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ النعمة فى الآية هى النعمة المعنوية و منها النبوّة و القرآن، و الأمر للنبىّ بالإبلاغ و التبيين، و هذا هو المقصود من الحديث بالنعمة.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى شاملا للنعم المادية و المعنوية، لذلك

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير هذه الآية قوله: «حدث بما أعطاك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۴

اللّه، و فضلك، و رزقك، و أحسن إليك و هداك»[۲۳۸].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من اعطى خيرا فلم ير عليه، سمّى بغيض اللّه، معاديا لنعم اللّه»[۲۳۹].

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قال: «إنّ اللّه جميل يحب الجمال، و يحب أن يرى أثر النعمة على عبده»[۲۴۰]

بحوث

۱- القيادة المنطلقة من المعاناة و الآلام

الآيات الكريمة فى هذه السّورة، ضمن سردها النعم الإلهية على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، تعكس أيضا مسألة يتم النبىّ فى صباه، و ظروفه المادية الصعبة التى عاناها، و الأتعاب و الآلام التى قاساها، و من بين هذه الآلام انطلق، و يجب أن يكون كذلك.

القائد الإلهى الإنسانى يجب أن يذوق مرارة العيش، و يتلمس بنفسه الظروف القاسية، و يشعر بكل وجوده الحرمان، كى يستطيع أن يتفهم صحيح ما تعانيه الفئات المحرومة، و يتحسّس آلام النّاس و معاناتهم فى معيشتهم.

يجب أن يفقد أباه فى صغره كى يشعر بآلام الأطفال الأيتام، و لا بدّ أن يبقى جائعا لأيّام و أن ينام عاصب البطن، كى يفهم بكل وجوده آلام الجياع.

لذلك كان صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تغرورق عينه بالدموع حين يرى يتيما، و كان يظمّ ذلك اليتيم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۵

إلى صدره و يداعبه بكل حرارة.

يجب أن يتفهّم ما يعانيه مجتمعه من فقر ثقافى، كى يعتزّ بكل من يأتيه لطلب معرفة أو علم، و يستقبله بصدر رحب.

ليس النبىّ الخاتم وحده، بل قد يكون كلّ الأنبياء منطلقين من حياة المعاناة و الألم، و هكذا كلّ القادة الحقيقيين الناجحين كانوا كذلك ... و يجب أن يكونوا كذلك.

من كان يرفل فى نعومة العيش، و فى الثراء و القصور، و كان ينال كلّ ما يريد، كيف يستطيع أن يدرك آلام المحرومين، و كيف يستطيع أن يتفهم معاناة الفقراء و البائسين ليهب لمساعدتهم؟!

فى حديث عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام: «ما بعث اللّه نبيّا قطّ حتى يسترعيه الغنم يعلّمه بذلك رعية النّاس»[۲۴۱].

و فى رعى الغنم دروس فى تحمل الآلام، و فى الصبر أمام موجود ضعيف قليل الشعور، كما إنّه استلهام لدروس التوحيد و العرفان من خلال حياة الصحراء و العيش فى أحضان الطبيعة.

و فى رواية أنّ «موسى بن عمران» سأل ربّه عن سبب اختياره لمقام النبوّة، فجاءه الجواب: أتذكر يوما أنّ حملا قد فرّ من قطيع غنمك فتبعته حتى أخذته ثمّ قلت له: لماذا أتعبت نفسك، ثمّ حملته على كتفك، و جئت به إلى القطيع، و لذلك اخترتك راعيا لخلقى، و هذا يعنى أنّ اللّه تعالى رأى فى موسى قدرة فائقة على التحمّل تجاه هذا الحيوان ممّا يدلّ على قوّة روحية فائقة أهلته لهذه المنزلة الكبيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۶

۲- الاهتمام بالأيتام

لا يخلو مجتمع من أيتام فقدوا الأب فى صغرهم، و هؤلاء الأطفال يجب أن يتمتعوا بحماية من مختلف الجهات.

فمن الناحية العاطفية، يشعر هؤلاء بنقص، إذا لم يسدّ فإنّهم سيشبّون أفرادا غير سالمين، و كثيرا ما يكونون قساة مجرمين خطرين. و من الناحية الإنسانية يجب أن يعيش هؤلاء فى حماية و رعاية كسائر أبناء المجتمع، أضف إلى ذلك يجب أن يشعر أفراد المجتمع بضمان مستقبل أبنائهم الذين قد يصابون باليتم فى يوم من الأيّام.

الأيتام قد يكونون أصحاب تركة مالية يجب أن تصان بكلّ دقّة، و قد يكونون معدمين ماليا فيجب الاهتمام بهم من هذه الناحية، و الآخرون يتحملون مسئولية التعامل مع هؤلاء بكل اهتمام و رفق كى يزيلوا عنهم غبار عناء الوحدة.

لذلك ركزت آيات القرآن الكريم و نصوص الشريعة الأخرى على هذه المسألة ذات البعد الأخلاقى و البعد الاجتماعى و الإنسانى.

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن، فيقول اللّه لملائكته يا ملائكتى من أبكى هذا اليتيم الذى غيب أبوه فى التراب؟

فتقول الملائكة: أنت أعلم، فيقول اللّه تعالى: «يا ملائكتى، فإنّى أشهدكم أن لمن أسكته و أرضاه أن أرضيه يوم القيامة»[۲۴۲].

و أكثر من ذلك

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «إذا بكى اليتيم وقعت دموعه فى كف الرحمن»[۲۴۳].

و

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «أنا و كافل اليتيم كهاتين فى الجنّة إذا اتقى اللّه عزّ و جلّ،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۷

و أشار بالسبابة و الوسطى»[۲۴۴].

و لأهمية هذه المسألة قرنها على أمير المؤمنين فى وصيته المعروفة بالصلاة و القرآن و

قال: «اللّه اللّه فى الأيتام فلا تغبّوا أفواههم و لا يضيعوا بحضرتكم»[۲۴۵].

و

عن أحد الصحابة قال: كنّا جلوسا عند رسول اللّه فأتاه غلام فقال: غلام يتيم و أخت لى يتيمة، و أمّ لى أرملة، أطعمنا ممّا أطعمك اللّه، أعطاك اللّه ممّا عنده حتى ترضى، قال: ما أحسن ما قلت يا غلام، أذهب يا بلال فأتنا بما كان عندنا فجاء بواحدة و عشرين تمرة، فقال: سبع لك و سبع لأختك و سبع لامّك، فقام إليه معاذ بن جبل فمسح رأسه و قال: جبر اللّه يتمك و جعلك خلفا من أبيك و كان من أبناء المهاجرين.

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: رأيتك يا معاذ و ما صنعت.

قال: رحمته.

قال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لا يلى أحد منكم يتيما فيحسن ولايته، و وضع يده على رأسه إلّا كتب اللّه له بكل شعرة حسنة و محا عنه بكلّ شعرة سيئة، و رفع له بكلّ شعرة درجة»[۲۴۶].

فى المجتمعات الكبيرة مثل مجتمعاتنا اليوم، لا يمكن للمسلمين أن يكتفوا طبعا بالأعمال الفردية، بل لا بدّ أن تتمركز القوى لرعاية الأيتام وفق برنامج اقتصادى و ثقافى و تعليمى مدروس، كى ينشأ هؤلاء الأيتام أفرادا لائقين للمجتمع الإسلامى. و هذا يتطلب تعاونا اجتماعيا عاما.

۳- التحدّث بالنعم

إظهار نعمة الربّ، حين يكون بدافع الشكر و الثناء، لا على سبيل التفاخر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۸

و الاستعلاء، يدفع الإنسان نحو التكامل على سلّم العبودية، كما إنّ له أيضا آثارا اجتماعية إيجابية، و آثارا نفسية تبعث على السكينة و الاستقرار.

الإنسان الذاكر لنعم ربّه لا يشتدّ عليه ضغط النواقص. إذا أصيب فی عضو من أعضاء بدنه يخفف عليه ألم الإصابة شكره على سلامة بقية الأعضاء، و إذا فقد شيئا لا يجزع لأنّه شاكر على ما بقی عنده من امكانات.

هؤلاء الذاكرون لنعم اللّه لا يعتريهم يأس و قنوط فی الشدائد و الهزات، و لا يصيبهم قلق و اضطراب، قلوبهم هادئة و نفوسهم مطمئنة و قدرتهم على مواجهة المشاكل كبيرة.

إلهی! نعمك أكثر من أن نحصيها و نتحدث بها، فلا تسلبها عنّا، بل زدها بكرمك.

ربّاه! نحن فی هذه الدنيا مغمورون ببحر كرمك فلا تحرمنا من عطائك يوم القيامة.

يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نكون فی مساعدة المحرومين مسارعين، و لحقوق الأيتام محافظين.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الضحى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۸۹

سورة الشّرح

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ثمانی آيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۱

«سورة ألم نشرح»

محتوى السّورة:

المعروف أنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الضحى» و محتواها يؤيد ذلك، لأنّها تسرد أيضا قسما من الهبات الإلهية لرسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

فی سورة «الضحى» عرض لثلاث هبات إلهية بعضها مادية و بعضها معنوية، و فی هذه السّورة ذكر لثلاث هبات أيضا غير أنّ جميعها معنوية، و تدور السّورة بشكل عام حول ثلاثة محاور. الأوّل: بيان النعم الثلاث، و الثّانی: تبشير النّبی بزوال العقبات أمام دعوته، و الثّالث: الترغيب فی عبادة اللّه الواحد الأحد.

و لذلك ورد عن أهل البيت عليم السّلام ما يدلّ أنّ هاتين السّورتين سورة واحدة كما ذكرنا، و وجب قراءتهما معا فی الصلاة لوجوب قراءة سورة كاملة بعد الحمد.

و من أهل السنة من ذهب إلى ذلك أيضا، كما نقل الفخر الرازی عن طاوس و عمر بن عبد العزيز أنّهما يقرءانها معا فی الصلاة و يحذفان البسملة بينهما (حسب فتاوى فقهاء مذهب أهل البيت قراءة البسملة فی كليهما واجبة، و ما نقله المرحوم الطبرسی بشأن حذف

بعض الفقهاء البسملة هنا لا یبدو صحیحا).

و الفخر الرازی بعد نقل آراء القائلین بوحدة السّورتین، یرد علیهم مستدلا بالفرق الموجود بین السّورتین، ذلک لأن سورة و الضحی- فی رأیه- نزلت حین کان الرّسول متألما و مغتما لما ناله من أذی الکفار، بینما السّورة التالیة نزلت فی حالة انشراح الرّسول و ابتهاجه [۲۴۷].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۲

و هذا استدلال غریب، فالسورتان کلاهما تتحدثان عمّا مضی من حیاة الرّسول، و کان ذلک حین تجاوز النّبی کثیرا من مشاکل الدعوة، و حین أصبح قلبه الطاهر مفعما بالأمل و السرور. کلا السّورتین تتحدثان عن الهبات الإلهیة و تذکّران بأیّام المحن و الصعاب کی یکون ذلک تسلیة لقلب الرّسول الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و تصعیدا للأمل فی نفسه.

علی أی حال ارتباط محتوی السّورتین ارتباطا وثیقا أمر لا یقبل الشک، و هکذا الکلام فی سورتی الفیل و قریش کما سیأتی إن شاء اللّه.

بشأن مکان نزول السّورة، یتبیّن ممّا سبق أنّها نزلت فی مکّة، و لکن آیة:

وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ حدث بالبعض إلی الإعتقاد أنّها نزلت فی المدینة، حیث ارتفع ذکر النّبی و شاع صیته فی کل مکان، و لیس هذا الدلیل بقانع، لأنّ النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم ذاع صیته قبل الهجرة رغم کل العقبات و المشاکل و کان الحدیث عن دعوته علی الألسن فی جمیع المحافل، کما إنّ خبر الدعوة انتشر فی الحجاز عامّة و المدینة خاصّة من خلال الوافدین علی مکّة فی موسم الحج.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة عن النّبی الأکرم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها أعطی من الأجر کمن لقی محمّدا مغتما ففرّج عنه»[۲۴۸].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۳

الآیات [سورة الشرح (۹۴): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

أَ لَمْ نَشْرَحْ لَکَ صَدْرَکَ (۱) وَ وَضَعْنا عَنْکَ وِزْرَکَ (۲) الَّذِی أَنْقَضَ ظَهْرَکَ (۳) وَ رَفَعْنا لَکَ ذِکْرَکَ (۴)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۵) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ یُسْراً (۶) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (۷) وَ إِلی رَبِّکَ فَارْغَبْ (۸)

التّفسیر

نعم إلهیة:

سیاق الآیات ممزوج بالحب و الحنان و بألطاف ربّ العالمین لنبیّه الکریم.

أهم هبة إلهية تشير إليها الآية الاولى: أ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ

«الشرح»: فى الأصل- كما يقول الراغب- توسعة قطع اللحم بتحويلها إلى شرائح أرق. و «شرح الصدر» سعته بنور إلهى و بسكينة و اطمئنان من عند اللّه، و «شرح معضلات الحديث» التوسّع فيه و توضيح معانيه الخفية، و «شرح الصدر» فى الآية كناية عن التوسعة فى فكر النّبى و روحه، و لهذه التوسعة مفهوم واسع،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۴

تشمل السعة العلمية للنّبى عن طريق الوحى و الرسالة، و تشمل أيضا توسعة قدرة النّبى فى تحمله و استقامته أمام تعنت الأعداء و المعارضين.

و لذلك حين امر موسى بن عمران عليه السّلام بدعوة فرعون: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى دعا ربّه و قال: رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَ يَسِّرْ لِي أَمْرِي ۲۴۹].

و فى موضع آخر يخاطب اللّه نبيّه بقوله سبحانه: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ۲۵۰] أى لا تكن كيونس الذى ترك الصبر فوقع فى المشاكل و لاقى أنواع الإرهاق.

و شرح الصدر يقابله «ضيق الصدر»، كما فى قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ ۲۵۱].

و لا يمكن أساسا لقائد كبير أن يجابه العقبات دون سعة صدر. و من كانت رسالته أعظم (كرسالة النّبى الأكرم) كانت الضرورة لشرح صدره أكبر، ... كى لا تزعزعه العواصف و لا تثنى عزمه الصعاب و لا تبعث فى نفسه اليأس مكائد الأعداء، و لا يضيق بالملتوى من الأسئلة. و هذه كانت أعظم هبة إلهية لرسول ربّ العالمين.

لذلك

روى عنه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: لقد سألت ربّى مسألة وددت أنّى لم أسأله. قلت:

أى ربّ إنّه قد كان أنبياء قبلى منهم من سخرت له الريح و منهم من كان يحى الموتى. قال، فقال: ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قال: قلت: بلى. قال: ألم أجدك ضالا فهديتك؟ قال: قلت: بلى أى ربّ، قال: ألم أشرح لك صدرك و وضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى أى ربّ ۲۵۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۵

و هذا يعنى أنّ نعمة شرح الصدر تفوق معاجز الأنبياء. و المتمعّن فى دراسة حياة الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ما فيها من مظاهر تدل على شرح عظيم لصدره تجاه الصعاب و المشاق يدرك بما لا يقبل الشك أن الأمر لم يتأت لرسول اللّه بشكل عادى، بل إنّه حتما تأييد إلهى ربّانى.

و قيل أنّ شرح الصدر إشارة لحادثة واجهت الرّسول فى طفولته حين نزلت عليه الملائكة فشقّت صدره و أخرجت قلبه و غسلته، و ملأته علما و حكمة و رأفة و رحمة.[۲۵۳] المقصود طبعا من القلب فى هذه الرّواية ليس القلب الجسمانى، بل إنّه كناية و إشارة إلى الإمداد الإلهى من الجانب الروحى، و إلى تقوية إرادة النّبى و تطهيره من كل نقص خلقى و وسوسة شيطانية.

و لكن، على أى حال، لا يتوفر عندنا دليل على أنّ الآية الكريمة مختصة بالحادثة المذكورة، بل لها مفهوم واسع، و قد تكون هذه القصّة أحد مصاديقها.

و بسعة الصدر هذه اجتاز الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم العقبات و الحواجز و الصعاب على أفضل وجه، و أدّى رسالته خير أداء.

ثمّ يأتى ذكر الموهبة الثّانية.

وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ أى ألم نضع عنك الحمل الثقيل.

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

«الوزر» بمعنى الثقل، و منها «الوزير» الذى يحمل أعباء الدولة، و سمّيت الذنوب «وزرا» لأنّها تثقل كاهل صاحبها.

«انقض» من (النقض) أى حلّ عقدة الحبل، أو فصل الأجزاء المتماسكة من البناء، و «الانتقاض» صوت انفصال اجزاء البناء عن بعضها، أو صوت فقرات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۶

الظهر حين تنوء بعبء ثقيل.

و الكلمة تستعمل أيضا فى نكث العهود و عدم الالتزام بها، فيقال نقض عهده.

و الآية تقول إذن، اللّه سبحانه وضع عنك أيّها النّبى ذلك الحمل الثقيل القاصم الظهر.

و أى حمل وضعه اللّه عن نبيّه؟ القرائن فى الآيات تدل على أنّه مشاكل الرسالة و النّبوّة و الدعوة إلى التوحيد و تطهير المجتمع من ألوان الفساد، و ليس نبىّ الإسلام وحده بل كلّ الأنبياء فى بداية الدعوة واجهوا مثل هذه المشاكل الكبرى، و تغلبوا عليها بالإمداد الإلهى وحده، مع فارق فى الظروف، فبيئة الدعوة الإسلامية كانت ذات عقبات أكبر و مشاكل ... نزوله.

و قيل أيضا: أنّ «الوزر» يعنى ثقل «الوحى» فى بداية نزوله.

و قيل: إنّه عناد المشركين و تعنتهم.

و قيل: إنّه أذاهم.

و قيل: إنّه الحزن الذى ألمّ بالنّبى لوفاة عمّه أبى طالب و زوجه خديجة.

و قيل: أيضا إنّه العصمة و إذهاب الرجس.

و الظاهر أنّ التّفسير الأوّل أنسب من غيره و التفاسير الأخرى تفريع من التّفسير الأوّل.

و فى الموهبة الثّالثة يقول سبحانه.

وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ فاسمك مع اسم الإسلام و القرآن قد ملأ الآفاق، و أكثر من ذلك اقترن اسمك باسم اللّه سبحانه فى الأذان يرفع صباح مساء على المآذن. و الشهادة برسالتك لا تنفك عن الشهادة بتوحيد اللّه فى الإقرار بالإسلام و قبول الدين الحنيف.

و أى فخر أكبر من هذا؟ و أى منزلة أسمى من هذه المنزلة.

و

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى تفسير هذه الآية قال: «قال لى جبرائيل قال اللّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۷

عزّ و جلّ: إذا ذكرت ذكرت معى».

(و كفى بذلك منزلة).

و التعبير بكلمة (لك) تأكيد على رفعة ذكر النبىّ رغم كل عداء المعادين و موانع الصّادين.

و قد ذكرنا أنّ هذه السّورة مكيّة، بينما الآية الكريمة تتحدث عن انتشار الإسلام، و تجاوز عقبات الدعوة، و إزالة الأعباء التى كانت تثقل كاهل الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و ارتفاع ذكر النّبى فى الآفاق ... و هذا ما حدث فى المدينة لا فى مكّة.

قيل: إنّ السّورة تبشّر النّبى بما سيلقاه فى المستقبل، و كان ذلك سببا لزوال الحزن و الهم من قلبه، و قيل أيضا: إنّ الفعل الماضى هنا يعنى المستقبل.

و لكن الحق أنّ قسما من هذه الأمور قد تحقق فى مكّة خاصّة فى أواخر السنين الثلاث عشرة الاولى من الدعوة قبل الهجرة، تغلغل الإيمان فى قلوب كثير من النّاس و خفّت وطأة المشاكل، و ذاع صيت النّبى فى كلّ مكان، و تهيأت الأجواء لانتصارات أكبر فى المستقبل.

شاعر النّبى «حسان بن ثابت» ضمّن معنى الآية الكريمة فى أبيات جميلة، و قال:

و ضمّ الإله اسم النّبى إلى اسمهإذ قال فى الخمس المؤذن أشهد

و شقّ له من اسمه ليجلّهفذو العرش «محمود» و هذا «محمّد»

الآية التالية تبشّر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بأعظم بشرى، و تقول:

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً و يأتى التأكيد الآخر:

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً لا تغتمّ أيّها النّبى، فالمشاكل و العقبات لا تبقى على هذه الحالة، و دسائس الأعداء لن تستمر، و شظف العيش و فقر المسلمين سوف لا يظلّ على هذا المنوال.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۸

الذى يتحمل الصعاب، و يقاوم العواصف سوف ينال يوما ثمار جهوده، و ستخمد عربدة الأعداء، و تحبط دسائسهم، و يتمهّد طريق التقدم و التكامل و يتذلل طريق الحق.

بعض المفسّرين ذهب إلى أنّ هذه الآيات تشير إلى فقر المسلمين فى معيشتهم خلال الفترة الاولى من الدعوة، لكن المفهوم الواسع للآيات يستوعب كلّ ألوان المشاكل. أسلوب الآيتين يجعلهما لا تختصان بشخص النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و بزمانه، بل بصورة قاعدة عامّة مستنبطة ممّا سبق. و تبشّر كلّ البشرية المؤمنة المخلصة الكادحة، و تقول لها: كلّ عسر إلى جانبه يسر، و لم ترد فى الآية كلمة «بعد» بل «مع» للدلالة على الاقتران.

نعم، كلّ معضلة ممزوجة بالانفراج، و كلّ صعوبة باليسر، و الاقتران قائم بين الإثنين أبدا.

و هذا الوعد الإلهى يغمر القلب نورا و صفاء. و يبعث فيه الأمل بالنصر، و يزيل غبار اليأس عن روح الإنسان ۲۵۴].

و

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «و اعلم أنّ مع العسر يسرا، و أنّ مع الصبر النصر، و أنّ الفرج مع الكرب ...».[۲۵۵]

و

روى أنّ امرأة شكت زوجها لأمير المؤمنين على عليه السّلام، لعدم إنفاقه عليها، و كان الزوج معسرا فأبى على أن يسجن الزوج و قال للمرأة: إنّ مع العسر يسرا (و دعاها إلى الصبر)[۲۵۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۲۹۸

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ أى إذا انتهيت من أداء أمر مهم فابدأ بمهمّة اخرى، فلا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۲۹۹

مجال للبطالة و العطل. كن دائما فى سعى مستمر و مجاهدة دائمة، و اجعل نهاية أية مهمّة بداية لمهمّة اخرى.

وَ إِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ أى فاعتمد على اللّه فى كلّ الأحوال.

اطلب رضاه، واسع لقربه.

الآيتان- حسب ما ذكرناه- لهما مفهوم واسع عام يقضى بالبدء بمهمّة جديدة بعد الفراغ من كلّ مهمّة. و بالتوجه نحو اللّه فى كلّ المساعى و الجهود، لكن أغلب المفسّرين ذكروا معانى محددة لهما يمكن أن يكون كلّ واحد منها مصداقا للآيتين.

قال جمع منهم: المقصود، إنّك إذا فرغت من فريضة الصلاة فادع اللّه و اطلب منه ما تريد.

أو: عند فراغك من الفرائض انهض لنافلة الليل.

أو: عند فراغك من امور الدنيا ابدأ بأمور الآخرة و الصلاة و عبادة الربّ.

أو: عند فراغك من الواجبات توجه إلى المستحبات التى حثّ عليها اللّه.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء انهض إلى العبادة.

أو: عند فراغك من جهاد الأعداء ابدأ بجهاد النفس.

أو: عند انتهائك من أداء الرسالة انهض لطلب الشفاعة.

الحاكم الحسكانى- عالم أهل السنة المعروف- روى عن الإمام الصادق عليه السّلام فى «شواهد التنزيل» فى تفسير الآية إنّها تعنى: «إذا فرغت فانصب عليّا بالولاية»[۲۵۷].

القرطبى فى تفسيره روى عن بعضهم أنّ معنى الآية: «إذا فرغت فانصب إماما يخلفك». (لكنّه ردّ هذا المعنى)[۲۵۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۰

موضوع «الفراغ» فى الآية لم يذكر، و كلمة «فانصب» من النصب أى التعب و المشقّة، و لذلك فالآية تبيّن أصلا عاما شاملا. و هدفها أن تحث النّبى باعتباره القدوة- على عدم الخلود إلى الراحة بعد انتهائه من أمر هام. و تدعوه إلى السعى المستمر.

انطلاقا من هذا المعنى يتّضح أنّ التفاسير المذكورة للآية كلّها صحيحة، و لكن كل واحد منها يقتصر على مصداق معين من هذا المعنى العام.

و ما أعظم العطاء التربوى لهذا الحثّ، و كم فيه من معانى التكامل و الإنتصار!! البطالة و الفراغ من عوامل الملل و الخمول و التقاعس و الاضمحلال. بل من عوامل الفساد و السقوط فى أنواع الذنوب غالبا.

و حسب الإحصائيات، مستوى الفساد عند عطلة المؤسسات التعليمية يرتفع إلى سبعة أضعاف أحيانا.

و بإيجاز، هذه السّورة تبيّن بمجموعها عناية ربّ العالمين الخاصّة للنّبى الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تسلية قلبه أمام المشاكل، و وعده بالنصر أمام عقبات الدعوة، و هى فى الوقت ذاته تحيى الأمل و الحركة و الحياة فى جميع البشرية المهتدية بهدى القرآن.

ملاحظتان

۱- الآية الكريمة فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ تعنى- كما جاء فى روايات عديدة- نصب أمير المؤمنين على بالخلافة بعد الانتهاء من أمر الرسالة (كمصداق من المفهوم العام للآية).

«الآلوسى» فى «روح المعانى» بعد أن ينقل عن بعض «الإمامية» هذا التّفسير يقول: هؤلاء قرءوا «فانصب» بكسر الصاد. وهب أن قراءتها كذلك فلا تنهض أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۱

تكون دليلا على نصب على بن أبى طالب. ثمّ ينقل عن الزمخشرى فى الكشّاف قوله: لو أمكن للشيعة مثل هذا التّفسير، فالنواصب (أعداء على) يمكنهم أن يفسّروا الآية على أنّها أمر بالنصب (ببغض على)[۲۵۹].

ترى هل أنّ الشيعة بحاجة إلى تغيير قراءة الآية كى يستدلوا بها على ولاية على؟! لا طبعا، بل هذه القراءة المعروفة تكفى للتفسير المذكور. لأنّها تقول: إذا فرغت من مهمّة مثل مهمّة الرسالة فابدأ بمهمّة أخرى كمهمّة الولاية، و هذا مقبول باعتباره أحد مصاديق. و نعلم أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم- حسب حديث الغدير المعروف و أحاديث أخرى منتشرة فى الصحاح و المسانيد- كان فى سعى مستمر هى هذا المجال.

و لكن المؤسف جدّا أنّ يدفع التعصب برجل عالم مثل «الزمخشرى» لأنّ يجيز لنفسه القول أنّ النواصب يمكنهم أن يفسّروا الآية أيضا على أنّها أمر ببغض على!! أى تعبير ركيك هذا فى حق شخص يؤمن به الزمخشرى على أنّه الخليفة الرابع للمسلمين! حقّا إنّ مزالق

التعصب سیئة! ۲- العالم المعتزلی المعروف «ابن أبی الحدید» یروی فی «شرح نهج البلاغة» عن «الزبیر بن بکار» و هو رجل- کما یقول ابن أبی الحدید- غیر شیعی و غیر خصم لمعاویة، بل فارق علیّا و التحق بمعارضیه- و الزبیر هنا یروی عن ابن «المغیرة بن شعبة» یقول: دخلت مع أبی علی معاویة، فکان أبی یأتیه، فیتحدث معه، ثمّ ینصرف إلیّ فیذکر معاویة و عقله، و یعجب بما یری منه، إذ جاء ذات لیلة، فأمسک عن العشاء، و رأیته مغتمّا فانتظر ساعة، و ظننت أنّه لأمر حدث فینا، فقلت: ما لی أراک مغتمّا منذ اللیلة؟ فقال: یا بنی، جئت من عند أکفر النّاس

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۲

و أخبثهم، قلت: و ما ذاک؟ قال: قلت له (لمعاویة) و قد خلوت به: إنّک قد بلغت سنایا أمیر المؤمنین، فلو أظهرت عدلا، و بسطت خیرا فإنّک قد کبرت، و لو نظرت إلی إخوتک من بنی هاشم، فوصلت أرحامهم، فو اللّه ما عندهم الیوم شیء تخافه، و إنّ ذلک ممّا یبقی لک ذکره و ثوابه، فقال: هیهات هیهات! أیّ ذکر أرجو بقاءه! ملک أخو تیم (أبو بکر) فعدل و فعل ما فعل، فما عدا أن هلک حتی هلک ذکره؛ إلّا أنّ یقول قائل: أبو بکر؛ ثمّ ملک أخو عدیّ، فاجتهد و شمّر عشر سنین، فما عدا أن هلک حتی هلک ذکره؛ إلّا أن یقول قائل: عمر؛ و إنّ ابن أبی کبشة (رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم) لیصاح به کلّ یوم خمس مرات: «أشهد أنّ محمّدا رسول اللّه»، فأیّ عمل یبقی؛ و أی ذکر یدوم بعد هذا لا أبا لک! لا و اللّه دفنا دفنا»[۲۶۰].

لو أمعنا النظر فی هذه الرّوایة لعلمنا مدی المأساة التی حلّت بالمسلمین حتی تولی أمرهم البیت الأموی ... و إنّا للّه و أنّا الیه راجعون.

إلهی! خلصنا من حبّ الذات، و اغمر قلوبنا بحبّک.

با ربّ! لقد وعدت بالیسر حین یشتد العسر ... فیسّر علی المسلمین و هم یعانون مؤامرات الأعداء و دسائس الطامعین یا اللّه! زد نعمک علینا و وفقنا لأن نکون من الشاکرین.

أمین یا ربّ العالمین نهایة سورة ألم نشرح

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۳

سورة التّین

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمانی آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۵

«سورة التّین»

محتوی السّورة و فضیلتها:

هذه السّورة تدور آیاتها حول حسن خلقة الإنسان و مراحل تکامله و نموّه و انحطاطه. و تبدأ بقسم عمیق المعنی، تذکر عوامل انتصار الإنسان و نجاته و تنتهی بالتأکید علی مسألة المعاد و حاکمیة اللّه المطلقة.

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطاه اللّه خصلتین: العافیة و الیقین ما دام فی دار الدنیا، فإذا مات أعطاه اللّه من الأجر بعدد من قرأ هذه السّورة صیام یوم»[۲۶۱].

هذه السّورة نزلت مکّة، و الآیة: (و هذا البلد الأمین) قسم بمکّة و دلیل علی مکّیة السّورة لاستعمال اسم الإشارة للقریب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۶

الآيات [سورة التين (۹۵): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ التِّينِ وَ الزَّيْتُونِ (۱) وَ طُورِ سِينِينَ (۲) وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (۳) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (۴)
ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (۵) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (۶) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (۷) أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (۸)

التّفسير

تبدأ السّورة بالقسم أربع مرّات لبيان أمر مهم:
وَ التِّينِ، وَ الزَّيْتُونِ
وَ طُورِ سِينِينَ ۲۶۲].
وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۷
التِّينِ و الزَّيْتُونِ ثمرتان معروفتان، و اختلف المفسّرون فى المقصود بالتين و بالزيتون، هل هما الفاكهتان المعروفتان أم شيء آخر.
بعضهم ذهب إلى أنّهما الفاكهتان بما لهما من خواص غذائية و علاجية كبيرة.
و بعض آخر قال: المقصود منهما جبلان واقعان فى مدينتى «دمشق» و «بيت المقدس» لأنّ المكانين منبثق كثير من الرسل و الأنبياء ...
و بذلك ينسجم هذان القسمان مع ما يليهما من قسمين بأراض مقدّسة.
و قال آخرون: إنّ تسمية الجبلين بالتين و الزيتون يعود إلى وجود أشجار التين على أحدهما و الزيتون على الآخر.
و قال بعضهم: إنّ التين إشارة إلى عهد آدم، إذ أنّ آدم و حواء طفقا يضعان على عوراتهما من ورق التين فى الجنّة، و الزيتون إشارة إلى عهد نوح لأنّه اطلق فى آخر مراحل الطوفان حمامة فعادت و هى تحمل غصن الزيتون، ففهم نوح عليه السّلام أن الأرض بدأت تبتلع ماءها و ظهرت اليابسة. (لذلك اتخذ غصن الزيتون رمزا للسلام).
و قيل: إنّ التين إشارة إلى مسجد نوح الذى بنى فوق جبل الجودى. و الزيتون إشارة إلى بيت المقدّس.
ظاهر الآية يدلّ على أنّ المقصود هو الفاكهتان المعروفتان، و لكن القسمين التاليين يجعلان تفسير التين و الزيتون بالجبلين أو المركزين المقدسين أنسب.
طُورِ سِينِينَ قيل هو: طور سيناء، و هو الجبل المعروف فى صحراء سيناء حيث أشجار الزيتون المثمرة، و حيث ذهب موسى لمناجاة ربّه، و «سيناء» تعنى المبارك، أو كثير الأشجار، أو الجميل.
و قيل: إنّه جبل قرب الكوفة فى أرض النجف.
و قيل: إنّ سينين و سيناء بمعنى واحد و هو كثير البركة.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۸
وَ هذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۲۶۳]، و البلد الأمين مكّة، الأرض التى كانت فى عصر الجاهلية أيضا بلدا آمنا و حرما إليها، و لا يحق لأحد فيها أن

يتعرض لأحد، المجرمون و القتلة كانوا فى أمان إن وصلوا إليها أيضا.

هذه الأرض لها فى الإسلام أهمية عظمى، الحيوانات و النباتات و الطيور فيها آمنة فما بالك بالإنسان.

و يذكر أنّ كلمة «التين» وردت فى هذا الموضع من القرآن فقط، بينما كلمة الزيتون تكررت فى ستة مواضع باللفظ و فى موضع بالإشارة حيث يقول سبحانه:

وَ شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْناءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَ صِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ۲۶۴] و هى شجرة الزيتون.

إذا حملنا كلمتى «التين» و «الزيتون» على معناهما الظاهر الابتدائى، فالقسم بها ذو دلالة عميقة أيضا.

«التين» فاكهة ذات مواد غذائية ثرّة، و لقمة مغذية و مقوية لمختلف الأعمار، و خالية من القشر و النواة و الزوائد.

علماء الأغذية يقولون:

يمكن الاستفادة من التين كسكّر طبيعى للأطفال و يمكن للرياضيين و لمن يعانون ضعف الشيخوخة أن يستفيدوا من التين للتغذية.

يقال إنّ أفلاطون كان يحبّ التين إلى درجة اطلق بعضهم على هذه الفاكهة اسم محبوب الفلاسفة، و سقراط كان يرى فى التين عاملا على جذب المواد النافعة و رفع المواد الضارة.

جالينوس كان قد وضع نظام تغذية خاص للأبطال من التين، و كان الرومان و اليونان القدماء يغذون أبطالهم بالتين.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۰۹

علماء التغذية يقولون: التين ملىء بالفيتامينات المختلفة و السكر، و يمكن الاستفادة منه لعلاج كثير من الأمراض، و حين تخلط نسب متساوية من التين و العسل يكون الخليط مفيدا لقرحة المعدة، و تناول التين اليابس يقوى الفكر، و بإيجاز التين، لما فيه من عناصر معدنية تؤدى إلى تعادل قوى البدن و الدم، يعتبر غذاء لمختلف الأعمار و الظروف.

و

روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «التين يذهب بالبخر و يشدّ الفم و العظم، و ينبت الشعر، و يذهب بالداء، و لا يحتاج معه إلى دواء».

و

قال عليه السّلام: «التين أشبه شىء بنبات الجنّة»[۲۶۵].

و حول الزيتون، فإنّ العلماء الذين قضوا عمرهم فى دراسة خواص النباتات يعيرون أهمية بالغة للزيتون و زيته. و يعتقدون أنّ الفرد إن أراد أن يعيش فى سلامة دائمة فلا بدّ له أن يستفيد من هذا الأكسير الحياتى.

زيت الزيتون صديق حميم لكبد الإنسان، و له تأثير فعّال فى معالجة عوارض الكلى، و حصى الصفراء، و التشنجات الكليوية و الكبدية، و إزالة الإمساك.

و لذلك ورد ذكر شجرة الزيتون فى القرآن الكريم بعبارة: شَجَرَةٍ مُبارَكَةٍ.

و زيت الزيتون مفعم أيضا بأنواع الفيتامينات و فيه الفوسفور و الكبريت و الكلسيوم و الحديد و البوتاسيوم و المنغنيز.

الضمادات التى تحضّر من زيت الزيتون و الثوم مفيدة لأنواع الآلام الروماتيسمية، و حصى كيس الصفراء تزول بتناول زيت الزيتون ۲۶۶].

و

روى عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «ما أفقر بيت يأتدمون بالخل و الزيت

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۰

و ذلك أدام الأنبياء»[۲۶۷]،

و الزيت هو زيت الزيتون.

و

عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «نعم الطعام الزيت، يطيب النكهة، و يذهب بالبلغم، و يصفى اللون، و يشدّ العصب، و يذهب بالوصب (المرض و الألم و الضعف) و يطفئ الغضب».[۲۶۸]

و مسك الختام

حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى هذا المجال قال: «كلوا الزيت و ادهنوا به فإنّه من شجرة مباركة»[۲۶۹].

ثمّ يأتى جواب القسم.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ

«تقويم» يعنى تسوية الشىء بصورة مناسبة، و نظام معتدل و كيفية لائقة، و سعة مفهوم الآية يشير إلى أنّ اللّه سبحانه خلق الإنسان بشكل متوازن لائق من كلّ الجهات، الجسمية و الروحية و العقلية، إذ جعل فيه ألوان الكفاءات، و أعدّه لتسلق سلّم السموّ، و هو- و إن كان جرما صغيرا- وضع فيه العالم الأكبر، و منحه من الكفاءات و الطاقات ما جعله لائقا لوسام: وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ۲۷۰]، و هذا الإنسان هو الذى يقول فيه اللّه سبحانه بعد ذكر انتهاء خلقته: فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ و هذا الإنسان بكل ما فيه من امتيازات، يهبط حين ينحرف عن مسيرة اللّه إلى «أسفل سافلين».

لذلك تقول الآية التالية:

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ

يقال إن قمم الجبال الشماء إلى جانبها دائما و ديان عميقة. و إزاء منحنيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۱

الصعود فى التكامل الإنسانى توجد منحنيات نزول فظيعة، و لم لا يكون كذلك و هو الموجود الملىء بالكفاءات الثرّة التى إن سخرها على طريق الصلاح يبلغ أسمى قمم الفخر و إن استعملها على طريق الفساد يخلق أكبر مفسدة، و ينزلق طبعا إلى «أسفل سافلين».

و لكن الآية التالية تقول:

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ

«ممنون»: من «المن» و تعنى هنا القطع أو النقص، من هنا فالأجر غير مقطوع و لا منقوص، و قيل: إنّه خال من المنّة، لكن المعنى الأوّل أنسب.

قيل: إنّ قوله: ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ تعنى ضعف الجسم و الذاكرة فى شيخوخة الإنسان، و لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع الاستثناء المذكور فى الآية التالية، و لذلك نختار التّفسير الأوّل.

الآية التالية تخاطب هذا الإنسان الكافر بأنعم ربّه و المعرض عن دلائل المعاد و تقول له: فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ

تركيب وجودك من جهة، و بنيان هذا العالم الواسع من جهة اخرى يؤكّدان أن هذه الحياة الخاطفة لا يمكن أن تكون الهدف النهائى من خلقتك و خلقة هذا العالم الكبير.

هذه كلّها مقدمات لعالم أوسع و أكمل، و بالتعبير القرآنى، هذه «النشأة» الاولى» تنبئ عن «النشأة الاخرى»، فلم لا يتذكر الإنسان؟! وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ [۲۷۱] عالم النبات كلّ عام يجسّد مشهد الموت و البعث أمام عين الإنسان، و تطور الجنين خلقا بعد خلق، إنّما هو فى كلّ خلق معاد و حياة جديدة، فكيف- مع كلّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۲

هذا- ينكر يوم الجزاء؟! ممّا تقدم يتّضح أنّ المخاطب فى الآية هذا النوع من الأفراد.

و قيل: إنّ المخاطب شخص النّبى، و المقصود من الآية هو: مع وجود أدلة المعاد، أى شخص أو أى شىء يستطيع تكذيبك، و هذا التّفسير يبدو بعيدا.

و اتضح أيضا أنّ المقصود من «الدين» ليس هو الشريعة بل هو يوم الجزاء، الآية التالية تؤيد ذلك.

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ

هذا سؤال يستهدف حثّ الإنسان على الاعتراف بأنّه سبحانه أحكم الحاكمين فى صنائعه و أفعاله، فكيف يترك هذه الخلائق فلا يجازيهم.

و

روى عن الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه حين كان يقرأ سورة التين، و يتلو قوله سبحانه:

أَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ يقول: «بلى و أنا على ذلك من الشاهدين»[۲۷۲].

يا ربّ! نشهد نحن أيضا أنّك أحكم الحاكمين.

ربّنا! لقد خلقتنا فى أحسن تقويم، فوفقنا لأن تكون أعمالنا و أخلاقنا فى أحسن وجه.

إلهنا! يسّر لنا طريق الإيمان و الصالح بلطفك و رحمتك.

أمين يا ربّ العالمين نهاية سورة التين

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۳

سورة العلق

اشارة

مكيّة و عدد آياتها تسع عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۵

«سورة العلق»

محتوى السّورة:

المشهور بين المفسّرين أنّها أوّل ما نزل من القرآن، و محتواها يؤيد ذلك أيضا، و قال آخرون إنّ أوّل ما نزل سورة «الحمد» و قيل سورة «المدثر» و هو خلاف المشهور.

هذه السّورة تبدأ بأن تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالقراءة. ثمّ تتحدث عن خلقة الإنسان بكل عظمته من قطعة دم تافهة.

و فى المرحلة التالية تتحدث السّورة عن تكامل الإنسان فى ظل لطف اللّه و كرمه، و عن تعليمه و تمكينه من القلم.

ثمّ تتطرق إلى طغيان الإنسان رغم كلّ ما توفرت له من هبات إلهية و إكرام ربّانى.

و تشير بعد ذلك إلى ما ينتظر أولئك الصادين عن طريق الهداية و المانعين لأعمال الخير من عقاب.

و فى ختام السّورة أمر بالسجود و الاقتراب من ربّ العالمين.

فضيلة السّورة:

روى فى فضيلة هذه السّورة عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۶

قرأ فى يومه أو ليلته اقرأ باسم ربّك ثمّ مات فى يومه أو ليلته مات شهيدا و بعثه اللّه شهيدا، و أحياه كمن ضرب بسيفه فى سبيل اللّه مع رسول اللّه».

هذه السّورة المباركة سمّيت سورة «العلق» و «اقرأ» و «القلم» لمناسبة هذه الكلمات فيها[۲۷۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۷

الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (۳) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (۵)

سبب النّزول

ذكرنا أنّ أكثر المفسّرين يذهبون إلى أنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن، و قيل إنّ المفسّرين يجمعون على نزول الآيات الخمس الأوائل فى بداية نزول الوحى على الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و مضمون الآيات يؤيد ذلك.

و جاء فى الرّوايات أن محمّدا صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كان فى غار حراء حين نزل عليه جبرائيل و قال له: اقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقارئ، فاحتضنه جبرائيل و ضغطه و قال له: اقرأ يا محمّد و تكرر الجواب. ثمّ أعاد جبرائيل عمله ثانية و سمع نفس الجواب. و فى المرّة الثّالثة قال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ... إلى آخر الآيات الخمس الأوّل من السّورة.

قال ذلك و اختفى عن أنظار النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

رسول اللّه أحسّ بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحى عليه فذهب إلى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۸

خديجة و

قال: «زملونى و دثرونى»[۲۷۴].

«الطبرسى» فى مجمع البيان يروى عن الحاكم النيسابورى قصّة أوّل نزول الوحى ما ينبئ أنّ سورة الحمد كانت أوّل ما نزل على النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: إنّ رسول اللّه قال لخديجة إنّى إذا خلوت وحدى سمعت نداء. فقالت: ما يفعل اللّه بك إلّا خيرا، فو اللّه إنّك لتؤدى الأمانة و تصل الرحم و تصدق الحديث، قالت خديجة:

فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل و هو ابن عمّ خديجة فأخبره رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول ثمّ ايتنى فأخبرنى، فلمّا خلا ناداه يا محمّد: قل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ... حتى بلغ و لا الضّالين، قل لا إله إلّا اللّه، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الذى بشر به ابن مريم، و إنّك على مثل ناموس موسى، و إنّك نبىّ مرسل، و إنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، و لئن أدركنى ذلك لأجاهدنّ معك، فلمّا توفى ورقة، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لقد رأيت القس فى الجنّة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بى و صدّقنى»[۲۷۵].

جدير بالذكر أنّ فى بعض كتب التّفسير و التاريخ كلاما حول حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فى هذه البرهة الزمنية لا تتناسب أبدا مع شخصية النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و تستند حتما إلى أحاديث مختلفة أو إلى إسرائيليات، من ذلك أنّ النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم اغتم كثيرا لدى نزول الوحى عليه أوّل مرّة، و خشى أن يكون إلقاءات شيطانية! و من ذلك أنّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم همّ مرّات أن يلقى بنفسه من أعلى الجبل! و أمثال هذه الخزعبلات التى لا ـ تنسجم إطلاقا مع ما ذكرته كتب السيرة حول ما يتمتع به الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من رجاحة فى العقل، و ضبط كبير فى النفس، و صبر وسعة صدر، و ثقة بالدور الكبير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۱۹

الذى ينتظره.

و يبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الرّوايات للطعن فى الإسلام و للحط من شخصية النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

التّفسير

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ

الآية الاولى فيها خطاب للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تقول له:

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ الَّذِى خَلَقَ ۲۷۶]، قيل إنّ مفعول اقرأ محذوف و تقديره: اقرأ القرآن باسم ربّک، و استدلّ بعضهم بهذه الآية على أنّ البسملة جزء من سور القرآن ۲۷۷].

و قيل: إنّ الباء هنا زائدة، أى اقرأ اسم ربّک، و هذا بعيد لأنّ المناسب و هذه الحالة أن يقال اذكر اسم ربّک لا اقرأ ...

و يلاحظ هنا قبل كلّ شىء التركيز على مسألة الربوبية، و نعلم أنّ «الربّ» يعنى «المالک المصلح»، أى الشخص الذى يملک شيئا، و يتعهد إصلاحه و تربيته أيضا.

و لإثبات ربوبية اللّه جاء ذكر الخلقة ... خلقة الكون، إذ إن أفضل دليل على ربوبيته خالقيته، فالذى يدبّر العالم هو خالقه.

و هذا فى الحقيقة ردّ على مشركى العرب الذين قبلوا خالقية اللّه، و أو كلوا الربوبية و التدبير إلى الأوثان، ثمّ إنّ ربوبية اللّه و تدبيره لنظام الكون أفضل دليل على إثبات ذاته المقدسة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۰

ثمّ اختارت الآية التالية «الإنسان» باعتباره أهم مظاهر الخليقة و قالت:

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ

«العلق» فى الأصل الالتصاق بشىء، و لذلک سمّى الدم المنعقد المتلاصق، و هكذا الحيوان الذى يلتصق بالجسم لمصّ الدم، ب «العلق» و النطفة بعد أن تطوى المراحل الجنينية الاولى تتحول إلى قطعة دم متلاصقة هى العلق، و هى مع تفاهتها الظاهرية تعتبر مبدأ خلقة الإنسان، و الآية تركز على هذه الظاهرة لتبيّن قدرة الرّب العظيمة على خلق هذا الإنسان العجيب من هذه العلقة التافهة.

و قيل: إنّ العلق فى الآية يعنى الطين الذى خلق منه آدم، و هو أيضا مادة متلاصقة، و بديهى أنّ الرّب الذى خلق آدم من طين لازب يستحق كلّ تمجيد و ثناء.

و قيل أيضا: أنّ العلق يعنى «صاحب العلاقة»، و فيه إشارة إلى الروح الاجتماعية للإنسان، و العلاقة الموجودة بين أفراد البشر هى فى الواقع أساس تكامل البشر و تطور الحضارات.

و قال آخرون: إنّ العلق إشارة إلى نطفة الرجل (الحيمن)، و هى تشبه دودة العلق إلى حدّ كبير، و هذا الموجود المجهرى يسبح فى ماء النطفة، و يتجه إلى بويضة المرأة فى الرحم، و يلقحها و يكون منها النطفة الكاملة للإنسان.

و القرآن الكريم بطرحه هذه المسألة يسجل معجزة علمية اخرى من معاجزه، إذ لم تكن هذه الأمور معروفة أبدا فى عصر نزوله.

و من بين التفاسير الأربعة، يبدو أنّ التّفسير الأوّل أوضح، و إن كان الجمع بين التّفاسير الأربعة ممكن أيضا.

ممّا تقدم نفهم أنّ «الإنسان» فى الآية هو آدم حسب أحد التّفاسير و هو مطلق الإنسان حسب التفاسير الثلاثة الاخرى.

و للتأكيد، تقول الآية مرّة اخرى:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۱

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۲۷۸].

قيل: إنّ «اقرأ» فى هذه الآية تأكيد لإقرأ فى الآية السابقة، و قيل: إنّها تختلف عن الآية الاولى، فالاولى قراءة النبىّ لنفسه، و فى الثّانية القراءة للناس غير أنّ الرأى الأوّل أنسب، إذ لا يوجد دليل على اختلاف الإثنين.

و هذه الآية فى الواقع جواب على

قول الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لجبرائيل: ما أنا بقارئ،

و هذه الآية تقول: إنّك قادر على القراءة بكرم الرّب و فضله و منّه.

ثمّ تصف الآيتان التاليتان الربّ الأكرم:

الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ

و هاتان الآيتان أيضا تتجهان إلى الجواب على

قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: ما أنا بقارئ،

أى إنّ اللّه الذى علم البشر بالقلم و كشف لهم المجاهيل، قادر على أن يعلم عبده الأمين القراءة و التلاوة.

جملة الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ تحتمل معنيين.

الأوّل: أنّ اللّه علم الإنسان الكتابة، و أعطاه هذه القدرة العظيمة التى هى منبثق تاريخ البشر، و منطلق جميع العلوم و الفنون و الحضارات.

و الثّانى: المقصود أنّ اللّه علم الإنسان جميع العلوم عن طريق القلم و بوسيلة الكتابة.

و بإيجاز إمّا أن يكون التعليم، تعليم الكتابة، أو تعليم العلوم عن طريق الكتابة.

و هو- على أى حال- تعبير عميق المعنى فى تلك اللحظات الحساسة من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۲

بداية نزول الوحى

بحثان

۱- بداية نزول الوحى مقرون ببداية حركة علمية

هذه الآيات كما ذكرنا هى أوّل ما نزل على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على ما ذهب إليه أغلب المفسّرين أو جميعهم، و

بـذلک بـدأ فصل جدیـد فی تاریخ البشـریة، و أضـحت الإنسانیة مشـمولة بأعظم الألطاف الإلهیة و بأکمل الأدیان و خاتمها. و اسـتمرّ نزول الوحی حتی اکتمل التشریع الإلهی بمصداق قوله سبحانه:

الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الْإِسْلامَ دِیناً[۲۷۹]، و بـذلک أتمّ اللّه نعمته علی الأجیـال البشـریة المتعاقبة حتی یرث اللّه الأرض و من علیها.

و المهمّ فی الأمر أنّ هذه الآیات نزلت علی نبیّ امی لم یتعلم القراءة و الکتابة و فی بیئة اجتماعیة تسودها الامیة و الجهل لتتحدث أوّل مـا تتحـدث عن العلم و عن القلم مباشـرة بعـد ذکر نعمـة الخلق! هـذه الآیـات تتحـدث فی الواقع أوّلا ـ عن تکامـل «جسم» الإنسان من موجود تافه هو «العلقة»، ثمّ عن تکامل «روحه» بواسطة التعلیم و التعلّم خاصّة عن طریق القلم.

حین نزلت هذه الآیات لم تکن بیئة الحجاز وحدها بل کان العالم المتحضر فی ذلک العصر أیضا لا یعیر أهمیة تذکر للقلم.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۳

أمّا الیوم فإنّنا نعلم أنّ القلم محور کل الحضارات و العلوم، و کلّ تقدم فی أی مجال من المجالات، و نعلم تفوق أهمیة «مداد العلماء» علی «دماء الشهداء»، لأنّ هذا المداد هو الذی یکون الأساس القویم لدماء الشهداء و السند المتین له.

و لا نکون مغالین إذا قلنا أنّ مصیر المجتمعات البشریة مرتبط بما تفرزه الأقلام.

إصلاح المجتمعات البشریة یبدأ من الأقلام الملتزمة المؤمنة، و فساد المجتمعات أیضا ینطلق من الأقلام المسمومة.

و لأهمیة القلم یقسم القرآن به و بما یفرزه، أی بآلة الکتابة و بمحصولها: ن وَ الْقَلَمِ وَ ما یَسْطُرُونَ ۲۸۰].

نعلم أنّ حیاة البشریة تقسم علی مرحلتین:

عصر التاریخ.

و عصر ما قبل التاریخ.

و عصـر التاریخ یبدأ من اسـتعمال القلم و الکتابة و القراءة ... من زمن اقتدار الإنسان علی أن یکتب بالقلم، و أن یخلف تراثا للأجیال، من هنا فتاریخ البشریة مقرون بتاریخ ظهور القلم و الخط.

و حول دور القلم فی حیاة البشریة کان لنا وقفة طویلة فی بدایة تفسیر سورة القلم.

من هنا فإنّ أساس الإسـلام أقیم منـذ البدایة علی أساس العلم و القلم ... و لذلک اسـتطاع قوم متخلفون أن یتقدموا فی العلم و المعرفة حتی تـأهّلوا- بـاعتراف الأعـداء و الأصـدقاء- لتصـدیر علومهم إلی العـالم! إن علم المسـلمین و معـارفهم هو الـذی مزّق ظلام القرون الوسطی فی أوروبا و أدخلها عصر الحضارة. و هذا ما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۴

یعترف به علماء أوروبا أنفسهم فیما کتبوه فی حقل تاریخ الحضارة الإسلامیة و فی تراث الإسلام.

و مـا أبشع و أفظع أن تکون أخلاـق أمّـة کتلـک تمتلـک بین ظهرانیهـا دینا کهـذا متخلفـة فی میادین العلم و المعرفـة و محتاجـة إلی الآخرین بل و تابعة لهم!!

۲- باسم اللّه فی کلّ حال

بدأت دعوة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم باسم اللّه و ذکره: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّکَ

و اسـتمرت حیـاة الرّسول مقرونـة فی کلّ حال بـذکر اللّه ... اقترن الـذکر بأنفاسه ... بقیامه ... بجلوسه ... بنومه ... بمشـیه ... برکوبه ... بترجله ... بتوقفه ... کان کلّه باسم اللّه.

عند ما كان يستيقظ يقول: «الحمد للّه الذى أحيانا بعد ما أماتنا و إليه النشور».

يقول ابن عباس: بتّ ليلة مع النّبى، و عند ما استيقظ رفع رأسه إلى السماء، و تلا الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ ... ثمّ قال: «اللّهم لك الحمد أنت نور السماوات و الأرض و من فيهنّ ... اللّهم لك أسلمت و بك آمنت و عليك توكلت و إليك أنبت ...».

حين كان يخرج من البيت يقول: «بسم اللّه، توكلت على اللّه، اللّهم إنّى أعوذ بك أن أضلّ، أو أضل، أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل، أو يجهل علىّ».

و حين يرد المسجد يقول: «أعوذ باللّه العظيم و بوجهه الكريم و سلطانه القديم من الشيطان الرجيم».

و حين يرتدى لباسا جديدا يقول: «اللّهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره و خير ما صنع له و أعوذ بك من شرّه و شرّ ما صنع له».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۵

و حين يعود إلى المنزل يقول: «الحمد للّه الذى كفانى و أوانى، و الحمد للّه الذى أطعمنى و سقانى».

و بذلك فإنّ حياة الرّسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بكل مرافقها كانت مقرونة بذكر اللّه و اسمه الكريم.[۲۸۱]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۶

الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۶ الى ۱۴]

اشارة

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (۶) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (۷) إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (۸) أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (۹) عَبْداً إِذا صَلَّى (۱۰) أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (۱۱) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (۱۲) أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۱۳) أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (۱۴)

التّفسير

سبب الطغيان:

استتباعا للآيات السابقة التى تحدثت عن النعم المادية و المعنوية الإلهية على الإنسان ... و النعم التى تستلزم شكر الإنسان و تسليمه أمام اللّه، هذه الآيات تبدأ بالقول: ليست نعم اللّه تحيى روح الشكر فى الإنسان دائما، بل إنّه يطغى:

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى ۲۸۲] و متى يكون ذلك؟ فيما لو رأى نفسه مستغنيا و غير محتاج.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۷

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى ۲۸۳].

هذه طبيعة أغلب أفراد البشر ... الأفراد الذين لم يتربوا فى مدرسة العقل و الوحى، حين يرون أنفسهم مستغنين غير محتاجين يعمدون إلى الطغيان، و ينسلخون من عبودية اللّه، و يرفضون الاعتراف بأحكامه، و يصمّون أذانهم عن ندائه، و لا يراعون حقّا و لا عدلا.

لا- الإنسان و لا أى مخلوق آخر قادر على أن يستغنى، بل كلّ الموجودات الممكنة بحاجة إلى لطف اللّه و نعمه، و إذا انقطع فيضه سبحانه عنها لحظة واحدة، ففى هذه اللحظة بالذات تفنى بأجمعها، غير أنّ الإنسان يحسّ خطأ أحيانا أنّه مستغن غير محتاج. و القرآن يشير إلى هذا الإحساس بعبارة دقيقة يقول: أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى لم يقل أن استغنى.

قيل: إنّ المقصود بالإنسان فى الآية أبو جهل الذى كان يطغى أمام الدعوة لكن مفهوم الإنسان هنا عام، و أمثال أبى جهل مصاديق له.

يبدو أنّ الهدف من الآية الفات نظر الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بمنعطفات الطبيعة البشرية كى لا يتوقع قولا سريعا من النّاس لدعوته، و ليعدّ نفسه لإنكار المنكرين و معارضة الطغاة المستكبرين، و ليعلم أنّ الطريق أمامه وعر ملىء بالمصاعب.

ثمّ يأتى التهديد لهؤلاء الطغاة المستكبرين و تقول الآية التالية:

إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى و هو الذى يعاقب الطغاة على ما اقترفوه، و كما إنّ رجوع كلّ شىء إليه، و ميراث السماوات و الأرض له سبحانه: وَ لِلَّهِ مِيراثُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۲۸۴] فكل شىء فى البداية منه، و لا مبرّر للإنسان أن يشعر بالاستغناء و يطغى.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۸

ثمّ تتحدث الآيات التالية عن بعض أعمال الطغاة المغرورين، مثل صدّهم عباد اللّه عن السير فى طريق الحقّ.

أَ رَأَيْتَ الَّذِى يَنْهى

عَبْداً إِذا صَلَّى ! ألا يستحق مثل هؤلاء عذابا سحيقا؟! و فى الحديث أن أبا جهل قال: «هل يعفّر محمّد وجهه بين أظهركم (أى هل يسجد محمّد بينكم) قالوا: نعم، قال: فبالذى يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته. فقيل له: ها هو ذاك يصلّى، فانطلق ليطأ على رقبته، فما فاجأهم إلّا و هو ينكص على عقبيه، و يتقى بيديه. فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟! قال: إنّ بينى و بينه خندقا من نار، و هؤلاء، و أجنحة. و

قال نبىّ اللّه: و الذى نفسى بيده لو دنا منّى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا. فأنزل اللّه سبحانه: أَ رَأَيْتَ الَّذِى يَنْهى إلى آخر السّورة»[۲۸۵]

حسب هذه الرّواية: الآيات التى نحن بصددها لم تنزل فى بداية البعثة، بل نزلت حين أعلنت الدعوة، و لذلك قيل إنّ الآيات الخمس الاولى هى التى كانت أوّل ما نزل من الوحى و الباقى بعد ذلك بمدّة.

على أى حال، سبب نزول الآيات لا يمنع من سعة مفهومها.

الآيات التالية تأكيد على نفس المفاهيم.

أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى

أى أ رأيت إن كان هذا العبد المصلّى على الهدى أو أمر بالتقوى فهل يصح نهيه؟ ألا يستحق من ينهاه النّار؟

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۲۹

أَ رَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى و لو كذّب هذا الطاغية بالحق و تولى و أعرض عنه فما ذا سيكون مصيره؟

أَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى و يثبت كلّ شىء ليوم الجزاء و الحساب.

و التعبير بالقضية الشرطية فى الآيتين إشارة إلى أن هذا الطاغى المغرور ينبغى أن يحتمل- على الأقل- أنّ النّبى على طريق الهداية و دعوته تتجه إلى التقوى ... و هذا الاحتمال وحده كاف لصده عن الطغيان.

من هنا فمفهوم الآيات ليس فيه ترديد فى هداية النّبى و دعوته إلى التقوى، بل ينطوى على إشارة دقيقة إلى المعنى المذكور.

بعض المفسّرين أرجع الضمير فى «كان» و «أمر» إلى الشخص الطاغى الناهى، مثل أبى جهل، و يكون المعنى عندئذ: أ رأيت إن قبل هذا هداية الإسلام، و أمر بالتقوى بدلا من نهيه عن الصلاة، فما أنفع ذلك له! لكن التّفسير الأوّل أنسب!

ملاحظة

عالم الوجود محضر اللّه:

حين يؤمن الإنسان بأنّه فى كلّ حركاته و سكناته بين يدى اللّه، و أنّ عالم الوجود محضر اللّه سبحانه و تعالى، لا يخفى عليه شىء من عمل الفرد بل من نواياه، فإنّ ذلك سيؤثر على منهج هذا الإنسان فى الحياة تأثيرا بالغا، و يصدّه عن الانحراف، إذا كان إيمانه- طبعا- متوغلا فى قلبه، و كان اعتقاده قطعى لا تردد فيه.

جاء فى الحديث: «اعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۰

يقال أنّ عارفا تاب بعد ذنب، و كان بعد ذلك يبكى كثيرا قيل له: لم هذا البكاء؟ ألا تعلم أنّ اللّه تعالى غفور؟ قال: بلى، قد يعفو سبحانه. و لكن كيف أبعد عن نفسى الإحساس بالخجل، و قد رآنى أذنب؟!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۱

الآيات [سورة العلق (۹۶): الآيات ۱۵ الى ۱۹]

اشارة

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (۱۵) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (۱۶) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (۱۷) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (۱۸) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ (۱۹)

التّفسير

السجود و التقرب:

بعد الحديث فى الآيات السابقة عن الطغاة الكافرين الصادين عن سبيل اللّه، توجّه هذه الآيات أشدّ التهديد لهم و تقول: كَلَّا لا يكون ما يتصور (لأنّه تصور أن يصدّ عن عبادة اللّه بوضعه قدمه على رقبة النّبى).

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نعم، إذا لم ينته من إثمه و طغيانه سنجرّه بالقوّة من شعر مقدمة رأسه (و هى الناصية)، و ثمّ وصف الناصية هذه بأنّها كاذبة خاطئة و هو وصف لصاحبها ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ.

«لنسفعا»: من السفع، و ذكر له المفسّرون معانى متعددة: الجرّ بالشدّة، الصفع على الوجه، تسويد الوجه (الأثافى الثلاثة التى يوضع عليها القدر تسمى «سفع»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۲

لأنّها تسوّد بالدخان)، و وضع العلامة و الإذلال ۲۸۶].

و الأنسب المعنى الأوّل، و إن كانت الآية تحتمل معانى اخرى أيضا.

و هل حدوث هذا السفع بالناصية فى يوم القيامة، حيث يسحب أبو جهل و أمثاله من مقدمة شعر الرأس إلى جهنم، أم فى الدنيا، أم فى كليهما؟ لا يستبعد أن يكون فى كليهما، و الشاهد على ذلك الرّواية التالية:

«لمّا نزلت سورة الرحمن، علم القرآن ... قال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لأصحابه: من يقرؤها منكم على رؤوساء قريش؟ فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود و قال:

أنا يا رسول اللّه، فأجلسه عليه السلام، ثمّ قال: من يقرأها عليهم؟ فلم يقم إلّا ابن مسعود، ثمّ ثالثا كذلك إلى أن أذن له، و كان عليه

السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه و صغر جثته. ثمّ إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السّورة، فقام أبو جهل فلطمه فشقّ أذنه و أدماه، فانصرف و عيناه تدمع. فلمّا رآه النّبى عليه السلام رق قلبه و أطرق رأسه مغموما، فإذا جبريل عليه السلام يجىء ضاحكا مستبشرا، فقال: يا جبريل تضحك و ابن مسعود يبكى! فقال: ستعلم.

فلمّا ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى المجاهدين، فأخذ يطالع القتلى: فإذا أبو جهل مصروع يخور ... فصعد على صدره، فلمّا رآه أبو جهل قال: يا رويعى الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعبا. فقال ابن مسعود:

الإسلام يعلو و لا يعلى عليه.

فقال أبو جهل: بلغ صاحبك أنّه لم يكن أحد أبغض إلىّ منه فى حياتى، و لا أحد أبغض إلىّ منه فى حال مماتى.

روى أنّه عليه السلام لما سمع ذلك قال: «فرعونى أشدّ من فرعون موسى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۳

فإنّه قال آمنت و هو قد زاد عتوا».

ثمّ قال أبو جهل لابن مسعود: اقطع رأسى بسيفى هذا، لأنّه أحدّ و أقطع. فلمّا قطع رأسه لم يقدر على حمله، فراح يجرّه على ناصيته إلى رسول اللّه، (و بذلك تحقق قوله سبحانه: (لنسفعن بالناصية) فى هذه الدنيا أيضا»[۲۸۷].

«الناصية»: شعر مقدم الرأس، و (السفع بالناصية) يراد به الإذلال و الإرغام، لأنّ أخذ الشخص بناصيته يفقده كلّ حركة و يجبره على الاستسلام.

«الناصية» تستعمل لمقدمة رأس الأفراد، و للجزء النفيس من الشىء كأن نقول «ناصية البيت».

و وصف الناصية بأنّها «كاذبة خاطئة» يعنى أنّ صاحبها كاذب فى أقواله و خاطئ فى أعماله، كما كان أبو جهل.

و لقد وردت بعض الرّوايات الصحيحة بأنّ السّورة- عدا المقطع الأوّل منها- قد نزلت فى أبى جهل إذ مرّ برسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو يصلى عند المقام فقال (يا محمّد ألم أنهك عن هذا؟ و توعده فأغلظ له رسول اللّه و انتهره ...) و لعلها هى التى أخذ فيها رسول اللّه بخناقه و قال له: (أولى لك ثمّ أولى) فقال: يا محمّد بأى شىء تهددنى؟ أما و اللّه و إنّى لأكثر هذا الوادى ناديا)[۲۸۸].

و هنا نزلت الآية التالية تقول لأبى جهل: فليدع هذا الجاهل المغرور كل قومه و عشيرته و ليستنجد بهم.

فَلْيَدْعُ نادِيَهُ

و نحن سندع أيضا زبانية جهنم:

سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ ليعلم هذا الجاهل الغافل أنّه عاجز عن فعل أى شىء و إنّه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۴

فى قبضة خزنة جهنم كقشة فى مهبّ الريح.

«النادية» من مادة (ندا) و هو المكان الذى يجتمع فيه القوم، و تارة يطلق على مركز التفريح، لأنّ القوم فيه ينادى بعضهم بعضا، أو من «النّدا» بمعنى الكرم، لأنّ الأفراد يكرم فيه بعضهم بعضا. و منه أيضا «الندوة» و هى مكان يتشاور فيه الجماعة. و «دار الندوة» مقر معروف لتشاور قريش.

و «النادى» فى الآية يقصد به القوم الذين يجتمعون فى النادى. و أرادت منه الآية أولئك الذين يستند إليهم أمثال أبى جهل من أهل و عشير و أصحاب.

و «الزبانية» جمع «زبنية» و هو فى الأصل بمعنى الشرطة من مادة «زبن»- على زنة متن- و هو الدفع و الردع و الإبعاد. و هنا بمعنى

ملائكة العذاب و خزنة جهنم.

و فى آخر آية من السّورة و هى آية السجدة يقول سبحانه: كَلَّا أى ليس الأمر كما يتصور بأنّه قادر على أن يمنع سجودك: لا تُطِعْهُ وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ فأبو جهل أقل من أن يستطيع منع سجودك أو الوقوف بوجه دينك، فتوكل على اللّه و أعبده و اسجد له، و بذلك تقترب منه سبحانه على هذا المسير أكثر فأكثر.

و يستفاد ضمنيا من هذه الآية أن «السجود» عامل اقتراب من اللّه، و لذا

ورد فى الحديث: «أقرب ما يكون العبد من اللّه إذا كان ساجدا».

و فى روايات أهل البيت عليهم السّلام أنّ القرآن يتضمّن أربعة مواضع فيها سجود واجب و هى فى «ألم السجدة» و «فصلت» و «النجم» و فى هذه السّورة «العلق» و بقية المواضع السجدة فيها مستحبة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۵

ملاحظة

الطغيان و الإحساس بالاستغناء:

أغلب مفاسد العالم مصدرها الفئات المرفهة و المستكبرة فى المجتمع. و هذه الفئات كانت دائما فى مقدمة أعداء دعوة الأنبياء. و هؤلاء يطلق عليهم القرآن أحيانا: الْمَلَأُ[۲۸۹] و أحيانا المترفين ۲۹۰] و أحيانا الْمُسْتَكْبِرِينَ ۲۹۱].

المجموعة الاولى: هم الأشراف المنتفشون فى الظاهر، الفارغون فى الداخل.

و الثّانية: هم الغارقون فى الرخاء و يعيشون فى سكرة و غرور بمعزل عن الآم الآخرين.

و الثّالثة: هم الراكبون رؤوسهم كبرا و غرورا و الغافلون عن اللّه و عن الخلق.

و دافع كلّ أولئك إحساسهم بالاستغناء، و هذه طبيعة أفراد أفق تفكيرهم ضيق، تسكرهم النعمة، و يزلزل توازنهم المال و المقام، فيغطون فى شعور بالاستغناء ينسيهم ذكر اللّه، بينما نعلم أنّ نسمة من الهواء قادرة على أن تطوى سجل أيّامهم، و أنّ حادثة كسيل أو زلزال أو صاعقة قادرة على أن تبيد أموالهم ...

و أنّ شرقة بالماء قادرة على أن تخطف أرواحهم.

أية غفلة هذه تصيب جماعة تجعلهم يشعرون بالاستغناء، و تدفعهم إلى امتطاء مركب الغرور ليصولوا و يجولوا فى الساحة الاجتماعية!! نستجير باللّه من هذا الجهل و من هذه الغفلة و الطغيان! و للتغلب على هذه الحالة يكفى أن يلتفت الإنسان قليلا إلى ضعفه الشديد و إلى قدرة اللّه المطلقة، و أن يتصفح تاريخ السابقين ليرى مصير أقوام أكثر منه قوّة و مكنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۶

اللّهم احفظنا من الكبر و الغرور فهما أساس الابتعاد عنك.

ربّنا! لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فى الدنيا و الآخرة يا ربّ العالمين! وفقنا لأن نمرّغ فى التراب انوف هؤلاء المستكبرين المغرورين الذين يصدون عن سبيلك، و أن نحبط مخططاتهم و مؤامراتهم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة العلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۷

سورة القدر

اشارة

مکیة و عدد آیاتها خمس آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۳۹

«سورة القدر»

محتوی السّورة:

محتوی السّورة کما هو واضح من اسمها بیان نزول القرآن الکریم فی لیلة القدر، و بیان أهمیة هذه اللیلة و برکاتها.

و حول مکان نزولها فی مکّة أو المدینة، المشهور بین المفسّرین أنّها مکیة، و احتمل بعضهم أنّها مدنیة، لما روی أنّ النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رأی فی منامه «بنی امیة» یتسلقون منبره، فصعب ذلک علی النّبی و آله، فنزلت سورة القدر تسلّیه (لذلک قیل إن ألف شهر فی السّورة هی مدّة حکم بنی امیة). و نعلم أنّ منبر النّبی أقیم فی مسجد المدینة لا فی مکّة[۲۹۲].

لکن المشهور- کما قلنا- أنّها مکیة، و قد تکون الرّوایة من قبیل التطبیق لا سببا للنزول.

فضیلة السّورة:

و یکفی فی فضیلة السّورة تلاوتها ما

روی عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها أعطی من الأجر کمن صام رمضان و أحیا لیلة القدر»[۲۹۳].

و

عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام قال: «من قرأ إنّا أنزلناه بجهر کان کشاهر سیفه فی سبیل اللّه، و من قرأها سرّا کان کالمتشحط بدمه فی سبیل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۰

اللّه»[۲۹۴].

و واضح إنّ کل هذه الفضائل فی التلاوة لا تعود علی من یقرأها دون أن یدرک حقیقتها، بل إنّها نصیب من یقرأها و یفهمها و یعمل بها ... من یقدر القرآن حقّ قدره و یطبق آیاته فی حیاته.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۱

الآیات [سورة القدر (۹۷): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِی لَیْلَةِ الْقَدْرِ (۱) وَ ما أَدْراکَ ما لَیْلَةُ الْقَدْرِ (۲) لَیْلَةُ الْقَدْرِ خَیْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (۳) تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَ الرُّوحُ فِیها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْرٍ (۴)

سَلامٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ (۵)

التّفسير

ليلة القدر ليلة نزول القرآن:

يستفاد من آيات الذكر الحكيم أنّ القرآن نزل فى شهر رمضان: شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ۲۹۵]، و ظاهر الآية يدل على أن كل القرآن نزل فى هذا الشهر.

و الآية الاولى من سورة القدر تقول:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

اسم القرآن لم يذكر صريحا فى هذه الآية، و لكن الضمير فى «أنزلناه» يعود إلى القرآن قطعا. و الإبهام الظاهرى فى ذكر اسم القرآن إنّما هو لبيان عظمته

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۲

و أهميته.

عبارة إِنَّا أَنْزَلْناهُ فيها إشارة اخرى إلى عظمة هذا الكتاب السماوى. فقد نسب اللّه نزوله إليه، و بصيغة المتكلم مع الغير أيضا، و هى صيغة لها مفهوم جمعى و تدل على العظمة.

نزول القرآن فى ليلة «القدر» و هى الليلة التى يقدر فيها مصير البشر و تعين بها مقدراتهم، دليل آخر على الأهمية المصيرية لهذا الكتاب السماوى.

لو جمعنا بين هذه الآية و آية سورة البقرة لاستنتجنا أنّ «ليلة القدر» هى إحدى ليالى شهر رمضان، و لكنّها أية ليلة؟ القرآن لا يبيّن لنا ذلك، و لكن الرّوايات تتناول هذا الموضوع بإسهاب. و سنتناولها فى نهاية تفسير هذه السّورة إن شاء اللّه.

و هنا يطرح سؤال له طابع تاريخى و له ارتباط بما رافق أحداث حياة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم من نزول القرآن. من المؤكّد أنّ القرآن الكريم نزل تدريجيا خلال (۲۳) عاما. فكيف نوفق بين هذا النزول التدريجى و ما جاء فى الآيات السابقة بشأن نزول القرآن فى شهر رمضان و فى ليلة القدر؟

الجواب على هذا السؤال كما ذكره المحققون يتلخص فى أنّ للقرآن نزولين:

النزول الدفعى، و هو نزول القرآن بأجمعه على قلب النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو على البيت المعمور، أو من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

و النزول التدريجى، و هو ما تمّ خلال (۲۳) سنة من عصر النبوّة (ذكرنا شرح ذلك فى تفسير الآية ۳ من سورة الدخان).

و قال بعضهم إن ابتداء نزول القرآن كان فى ليلة القدر لا كلّه، و لكن هذا خلاف ظاهر الآية التى تقول: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

و يذكر أنّ تعبير الآيات عن نزول القرآن يكون مرّة بكلمة «إنزال» و مرّة أخرى بكلمة «تنزيل». و يستفاد من كتب اللغة أن التنزيل للنزول التدريجى،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۳

و الإنزال له مفهوم واسع يشمل النزول الدفعى أيضا[۲۹۶]. و هذا التفاوت فى التعبير القرآنى قد يكون إشارة إلى النزولين المذكورين.

فى الآيتين التاليتين يبيّن اللّه تعالى عظمة ليلة القدر و يقول سبحانه:

وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

و التعبير هـذا يوضـح أنّ عظمـة ليلـة القـدر كبيرة إلى درجـة خفيت على رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم أيضا قبل نزول هـذه الآيات، مع ما له من علم واسع.

و «ألف شهر» تعنى أكثر من ثمانين عاما، حقّا ما أعظم هذه الليلة التى تساوى قيمتها عمرا طويلا مباركا.

و جاء فى بعض التفاسـير أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل اللّه ألف شهر، فعجب المسـلمون من ذلك فأنزل اللّه إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَـةِ الْقَـدْرِ وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَـةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَـهْرٍ، التى لبس فيها ذلك الرجل السلاح فى سبيل اللّه ألف شهر[۲۹۷].

و روى أنّ أربعة أشـخاص من بنى إسـرائيل عبدو اللّه تعالى ثمانين سـنة من دون ذنب، فتمنى الصحابة ذلك التوفيق لهم، فنزلت الآية المذكورة.

و هل العـدد (ألف) فى الآيـة للعـدّ أو التكثير؟، قيل إنّه للتكثير، و قيمة ليلة القدر خير من آلاف الأشـهر أيضا، و لكن الرّوايات أعلاه تبيّن أنّ العدد المذكور للعدّ، و العدد عادة للعد إلّا إذا توفرت قرينة واضحة تصرفه إلى التكثير.

و لمزيد من وصف هذه الليلة تقول الآية التالية:

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ.

و «تنزل» فعل مضارع يدل على الاستمرار (و الأصل تتنزل) ممّا يدل على أنّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۴

ليلة القدر لم تكن خاصّة بزمن النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و بنزول القرآن، بل هى ليلة تتكرر فى كل عام باستمرار.

و مـا المقصود ب «الروح»؟ قيل: إنّه جبرائيل الأمين، و يسـمىّ أيضا الروح الأمين. و قيل: إنّ الروح بمعنى الوحى بقرينـة قوله تعالى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا[۲۹۸].

و للروح تفسير آخر يبدو أنّه أقرب، هو أنّ الروح مخلوق عظيم يفوق الملائكة.

و

روى أنّ الإمام الصادق عليه السّلام سئل عن الروح و هل هو جبرائيل، قال:

«جبرائيل من الملائكة، و الروح أعظم من الملائكة، أليس أنّ اللّه عزّ و جلّ يقول:

تنزل الملائكة و الروح»؟[۲۹۹]

فالإثنان متفاوتان بقرينة المقابلة. و ذكرت تفاسير اخرى للروح هنا نعرض عنها لافتقادها الدليل.

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أى لكل تقدير و تعيين للمصائر، و لكل خير و بركة. فالهدف من نزول الملائكة فى هذه الليلة إذن هو لهذه الأمور.

أو بمعنى بكل خير و تقدير، فالملائكة تنزل فى ليلة القدر و معها كل هذه الأمور[۳۰۰].

و قيل: المقصود أنّ الملائكة تنزل بأمر اللّه، لكن المعنى الأوّل أنسب.

عبارة «ربّهم» تركز على معنى الربوبية و تدبير العالم، و تتناسب مع عمل الملائكة فى تلك الليلة حيث تنزل لتدبير الأمور و تقديرها، و بذلك يكون عملها جزء من ربوبية الخالق.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۵

بإيجاز الآية الكريمة تقول: الملائكة و الروح تتنزل فى هذه الليلة بأمر ربّهم لتقدير كلّ أمر من الأمور.

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ و الآية الأخيرة هذه تصف الليلة بأنّها مفعمة بالخير و السلامة و الرحمة حتى الصباح.

القرآن نزل فيها، و عبادتها تعادل عبادة ألف شهر، و فيها تنزل الخيرات و البركات، و بها يحظى العباد برحمة خاصّة، كما إنّ الملائكة و الروح تتنزل فيها ...

فهى إذن ليلـة مفعمة بالسـلامة من بدايتها حتى مطلع فجرها. و الرّوايات تذكر أنّ الشـيطان يكبل بالسـلاسل هذه الليلة فهى ليلة سالمة مقرونة بالسلامة.

و إطلاق كلمـة «سـلام» على هـذه الليلـة بمعنى «سـلامة» (بـدلا من سالمـة) هو نوع من التأكيـد كأن نقول فلان عدل، للتأكيد على أنّه عادل.

و قيل: إنّ إطلاق كلمة (سـلام) على تلك الليلة يعنى أنّ الملائكة تسـلّم باستمرار على بعضها أو على المؤمنين، أو أنّها تأتى إلى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و خليفته المعصوم، تسلّم عليه.

و من الممكن أيضا الجمع بين هذه التفاسير.

إنّها على أى حال ليلة ملؤها النور و الرحمة و الخير و البركة و السلامة و السعادة من كلّ الجهات.

و

سئل الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام عمّا إذا كان يعرف ليلة القدر، قال:

«كيف لا نعرف و الملائكة تطوف بنا فيها».

و جاء فى قصّة إبراهيم عليه السّلام أنّ عددا من الملائكة جاءت إليه و بشرته بالولد و سلمت عليه (هود- ۶۹) و فى الرّواية أنّ إبراهيم أحسّ بلـذة من سـلام الملائكـة لا تعـدلها لـذّة، إذن، فأيـة لـذّة و بركـة و لطف فى سـلام الملائكة على المؤمنين و هى تتنزل فى ليلة القدر!! و حين القى إبراهيم عليه السّلام فى نار نمرود، جاءت إليه الملائكة و سلمت عليه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۶

فتحولت النّار إلى جنينة. ألا تتحول نار جهنم ببركة سلام الملائكة على المؤمنين فى ليلة القدر إلى برد و سلام.

نعم هذه كرامة لامّة محمّد و تعظيم لها حيث تنزل الملائكة هناك على الخليل عليه السّلام و تنزل هنا على امّة الإسلام ۳۰۱]

بحوث

۱- ما هى الأمور التى تقدّر فى ليلة القدر؟

فى سبب تسمية هذه الليلة بليلة القدر قيل الكثير من ذلك:

۱- لأنّها الليلـة التى تعيّن فيها مقـدرات العباد لسـنة كاملة، يشـهد على ذلك قوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ، فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۳۰۲] هذه الآية الكريمة تنسـجم مع ما جاء من الرّوايات تقول: فى هذه الليلة تعيّن مقدرات النّاس لسـنة كاملة، و هكذا أرزاقهم، و نهاية أعمارهم، و أمور أخرى تفرق و تبيّن فى تلك الليلة المباركة.

هـذه المسألة طبعا لا تتنافى مع حرية إرادة الإنسان و مسألة الإختيار، لأنّ التقدير الإلهى عن طريق الملائكة إنّما يتمّ حسب لياقة الأفراد و ميزان إيمانهم و تقواهم و طهر نيّتهم و أعمالهم.

أى يقدر كلّ فرد ما يليق له؛ و بعبارة اخرى، أرضية التقدير يوفرها الإنسان نفسه، و هذا لا يتنافى مع الإختيار بل يؤكّده.

۲- و قال بعض إنّها سمّيت بالقدر لما لها من قدر عظيم و شرف كبير (فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۷

القرآن جاء قوله سبحانه: ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۳۰۳].

۳- و قيل لأنّ القرآن بكل قدره و منزلته نزل على رسول الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بواسطة الملك العظيم فى هذه الليلة.

۴- إنّها اللیلة التی قدّر فیها نزول القرآن.

۵- إنّها اللیلة التی من أحیاها نال قدرا و منزلة.

۶- و قیل أیضا لأنّها اللیلة التی تنزل فیها الملائکة حتی تضیق بهم الأرض لکثرتهم. لأنّ القدر جاء بمعنی الضیق أیضا کقوله تعالی: وَ مَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ۳۰۴].

کل هذه التفاسیر یستوعبها المفهوم الواسع للیلة القدر مع أنّ التّفسیر الأوّل أنسب و أشهر.

۲- أیة لیلة هی لیلة القدر؟

لا شک أنّ لیلة القدر من لیالی شهر رمضان، لأنّ الجمع بین آیات القرآن یقتضی ذلک. فالقرآن نزل فی شهر رمضان من جهة (البقرة- ۱۸۵)، و من جهة اخری تقول آیات السّورة التی نحن بصددها أنّه نزل فی لیلة القدر.

و لکن، آیة لیلة من شهر رمضان؟ قیل فی ذلک کثیر، و ذکرت تفاسیر عدیدة من ذلک: أنّها أوّل لیلة من شهر رمضان المبارک، اللیلة السابعة عشرة، اللیلة التاسعة عشرة، اللیلة الحادیة و العشرون، اللیلة الثّالثة و العشرون، اللیلة السابعة و العشرون، و اللیلة التاسعة و العشرون.

و المشهور فی الرّوایات أنّها فی العشر الأخیرة من شهر رمضان، و فی اللیلتین الحادیة و العشرین أو الثّالثة و العشرین. لذلک ورد فی الرّوایات أنّ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۸

النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان یحیی کل اللیالی العشر الأخیرة من الشهر المبارک بالعبادة.

و روی عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّها اللیلة الحادیة و العشرون أو الثّالثة و العشرون. و عند ما أصر علیه أحدهم فی تعیین واحدة بین اللیلتین لم یزد الإمام علی أن

یقول: «ما أیسر لیلتین فیما تطلب!!»[۳۰۵].

ثمّة روایات متعددة عن أهل البیت علیهم السّلام ترکز علی اللیلة الثّالثة و العشرین.

بینما روایات أهل السنة ترکز علی اللیلة السابعة و العشرین.

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «التقدیر فی لیلة القدر تسعة عشر، و الإبرام فی لیلة إحدی و عشرین، و الإمضاء فی لیلة ثلاث و عشرین»[۳۰۶].

لیلة القدر إذن محاطة بهالة من الإبهام سنذکر سببه فیما یلی.

۳- لماذا خفیت لیلة القدر؟

الإعتقاد السائد أنّ اختفاء لیلة القدر بین لیالی السنة، أو بین لیالی شهر رمضان المبارک یعود إلی توجیه النّاس إلی الاهتمام بجمیع هذه اللیالی؛ مثلما أخفی رضاه بین أنواع الطاعات کی یتجه النّاس إلی جمیع الطاعات، و أخفی غضبه بین المعاصی، کی یتجنب العباد جمیعها، و أخفی أحباءه بین النّاس کی یحترم کلّ النّاس، و أخفی الإجابة بین الأدعیة لتقرأ کل الأدعیة، و أخفی الاسم الأعظم بین أسمائه کی تعظم کل أسمائه، و أخفی وقت الموت کی یکون النّاس دائما علی استعداد.

و یبدو أن هذا دلیل مقبول:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۴۹

۴- هل کانت لیلة القدر معروفة بین الأمم السابقة؟

من ظاهر آیات هذه السّورة نفهم أنّ لیلة القدر لیست خاصّة بزمان نزول القرآن و عصر الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، بل تتکرر کلّ سنة حین یرث اللّه الأرض و من علیها.

التعبیر بالفعل المضارع «تنزل» الدال علی الاستمرار، و هکذا التعبیر بالجملة الاسمیة سَلامٌ هِیَ حَتَّی مَطْلَعِ الْفَجْرِ الدالة أیضا علی الدوام یؤید ذلک.

مضافا إلی ذلک الرّوایات التی ربّما بلغت حدّ التواتر فی تأیید هذه المسألة.

و لکن هل کانت هذه اللیلة فی الأمم السابقة؟

روایات متعددة تصرّح أنّ هذه اللیلة من المواهب الإلهیة علی هذه الامّة، و

عن النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّ اللّه وهب لامّتی لیلة القدر لم یعطها من کان قبلهم».

و فی تفسیر الآیات التی نحن بصددها روایات تؤید ذلک أیضا.

۵- لیلة القدر خیر من ألف شهر

لماذا کانت خیرا من ألف شهر ... الظاهر لأهمیة العبادة و الإحیاء فیها. و ما جاء من روایات بشأن فضیلة لیلة القدر و فضیلة العبادة فیها فی کتب الشیعة و أهل السنة کثیر، و یؤید هذا المعنی.

أضف إلی ذلک، فإنّ نزول القرآن فی هذه اللیلة، و نزول البرکات و الرحمة الإلهیة فیها یجعلها خیرا من ألف شهر.

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: لعلی بن أبی حمزة الثمالی: «فاطلبها (أی لیلة القدر) فی لیلة إحدی و عشرین و ثلاث و عشرین و صل فی کل واحدة منهما مائة رکعة و أحیهما إن استطعت إلی النور، و اغتسل فیهما» قال: قلت: فإن لم أقدر علی ذلک و أنا قائم؟

قال: فصلّ و أنت جالس.

قال: قلت: فإن لم أستطع؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۰

قال: فعلی فراشک، لا علیک أن تکتحل أوّل اللیل بشیء من النوم إنّ أبواب السماء تفتح فی رمضان و تصفد (تقیّد) الشیاطین، و تقبل أعمال المؤمنین .. نعم الشهر رمضان!»[۳۰۷].

۶- لما ذا انزل القرآن فی لیلة القدر؟

لیلة القدر- کما علمنا- لیلة تقدیر مصائر البشر لسنة کاملة حسب ما یلیق بکلّ فرد. فینبغی أن یکون الإنسان فیها مستیقظا و فی حالة

تقرب إلی اللّه و تکامل علی طریق بناء الشخصیة الإسلامیة لیرفع من مستوی لیاقته لمزید من رحمة اللّه.

نعم، فی اللحظات التی یتقرر فیها مصیرنا ینبغی أن لا نکون غافلین، و إلّا فسیواجهنا المصیر المؤلم.

و القرآن ... باعتباره الکتاب القادر علی أن یرسم للبشریة مستقبلها و مصیرها و یهدیها إلی طریق سعادتها و هدایتها، یجب أن ینزل فی لیلة القدر ... لیلة تعیین المصیر ... و ما أجمل هذه العلاقة بین «القرآن» و «لیلة القدر»، و ما أعمق معنی الارتباط بین الإثنین!!

۷- هل لیلة القدر واحدة فی المعمورة؟

نعم أن بدء الشهر القمری لیس واحدا فی جمیع البلدان. و قد یکون یومنا هذا أوّل الشهر فی بلد و یکون الثّانی فی بلد آخر. من هنا لا یمکن أن تکون لیلة القدر لیلة معینة فی السنة. علی سبیل المثال قد تکون لیلة الثّالث و العشرین فی الحجاز هی لیلة الثّانی و العشرین فی ایران و العراق. و بهذا یکون لکل بلد لیلة قدر! و هل هذا ینسجم مع ما جاء فی الرّوایات المؤکّدة علی أنّ لیلة القدر لیلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۱

معینة؟

الجواب یتّضح بالالتفات إلی ما یلی:

اللیل هو ظل نصف الکرة الأرضیة علی النصف الآخر من هذه الکرة، و نعلم أن هذا الظل یتحرک بتحرک الکرة الأرضیة، و یدور دورة کاملة فی أربع و عشرین ساعة من هنا یمکن أن تکون لیلة القدر دورة کاملة لیل حول الأرض، أی تکون هذه اللیلة مدّة أربع و عشرین ساعة من دوران الظلام حول الکرة الأرضیة بأجمعها، تبدأ من نقطة و تنتهی عند نقطة اخری. (تأمل بدقّة).

اللّهم! منّ علینا بیقظة و وعی کی نتزوّد من فضیلة لیلة القدر.

ربّنا! آمالنا منشدّة إلی لطفک و کرمک، فقدّر لنا وفق ما نأمله فیک.

یا ربّ العالمین! لا تجعلنا من محرومی هذا الشهر فما بعد هذا الحرمان حرمان.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة القدر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۳

سورة البیّنة

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها ثمانی آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۵

«سورة البیّنة»

محتوی السّورة:

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت فی المدینة، و محتواها یؤید ذلک، إذ تحدثت فی مواضع متعددة عن أهل الکتاب، و المسلمون واجهوا أهل الکتاب فی المدینة غالبا.

أضف إلی ذلک أنّ السّورة تحدثت عن الصلاة و الزکاة، و الزکاة- و إن شرعت فی مکّة- اتخذت طابعها الرسمی الواسع فی

المدينة.

هذه السّورة تناولت رسالة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما فيها من دلائل بيّنة، هذه الرسالة التى كان أهل الكتاب ينتظرونها، حين ظهرت أعرض عنها فريق منهم لما وجدوا فيها من خطر على مصالحهم الشخصية.

و السّورة تقرر حقيقة وجود الإيمان و التوحيد و الصلاة و الصيام فى كل الأديان و دعوات الأنبياء باعتبارها أصولا ثابتة خالدة.

و فى مقطع آخر من السّورة بيان عن مواقف أهل الكتاب و المشركين تجاه الإسلام ... بعضهم آمن و عمل صالحا فهو خير المخلوقات، و بعضهم كفر و أشرك فهو شرّ البريّة.

هذه السّورة أطلق عليها لمناسبة ألفاظها اسماء متعددة أشهرها: «البينة» و «لم يكن» و «القيمة».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۶

فضيلة السّورة:

روى فى فضيلة تلاوة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «لو يعلم النّاس ما فى (لم يكن) لعطلوا الأهل و المال و تعلموها».

فقال رجل من خزاعة: ما فيها من الأجر يا رسول اللّه؟

فقال: «لا يقرأها منافق أبدا و لا عبد فى قلبه شكّ فى اللّه عزّ و جلّ، و اللّه إنّ الملائكة المقربين ليقرؤونها منذ خلق اللّه السماوات و الأرض لا يفترون عن قراءتها، و ما من عبد يقرؤها بليل إلّا بعث اللّه ملائكة يحفظونه فى دينه و دنياه و يدعون له بالمغفرة و الرحمة، فإن قرأها نهارا اعطى عليها من الثواب مثل ما أضاء عليه النهار و أظلم عليه الليل»[۳۰۸].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۷

الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (۱) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (۲) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (۳) وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (۴)

وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (۵)

التّفسير

ذلك دين القيّمة:

فى بداية السّورة ذكر لأهل الكتاب (اليهود و النصارى) و مشركى العرب قبل ظهور الإسلام، فهؤلاء كانوا يدّعون أنّهم غير منفكين عن دينهم إلّا بدليل واضح قاطع.

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ.

و «البيّنة» التى أرادوها: رسول من اللّه يتلو عليهم كتابا مطهّرا من ربّ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۸

العالمين:

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً.

و هذه الصحف فيها من الكتابة ما هو صحيح و ثابت و ذو قيمة.

فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ.

كان هـذا ادعاؤهم قبل ظهور الإسـلام، و حينما ظهر و نزلت آياته تغيّر هؤلاء، و اختلفوا و تفرقوا. و ما تفرقوا إلّا بعد أن جاءهم الدليل الواضح و النبىّ الصادح بالحق.

وَ ما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ.

ممّا تقـدم، الآيات الاولى لهـذه السّورة المباركة تتحدث عن أهل الكتاب و المشـركين الذين كانوا يدعون أنّهم سوف يقبلون الدعوة إنّ جاءهم نبىّ بالدلائل الساطعة.

لكنّهم أعرضوا حين ظهر، و جابهوه، إلّا فريق منهم آمن و اهتدى.

و هـذا المعنى يشـبه مـا جـاء فى قوله تعالى: وَ لَمَّا جاءَهُمْ كِتابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ وَ كانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكافِرِينَ ۳۰۹].

نعلم أنّ أهـل الكتـاب كـانوا ينتظرون مثل هـذا الظهور، و لا بـدّ أن يكون مشـركو العرب مشاركين لأهل الكتاب فى هـذا الانتظار لما كانوا يرون فيهم من علم و معرفة، و لكن حين تحققت آمالهم غيّروا مسيرهم و التحقوا بأعداء الدعوة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۳۵۸

ع من المفسّرين لهم رأى آخر فى تفسير الآيـة، يقولون: مقصود الآيـة هو أنّ أهل الكتاب و المشـركين لم يكونوا منفكّين عن دينهم حقيقة- لا ادعاء- حتى تأتيهم البيّنة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۵۹

و هـذا يعنى أنّ هؤلاء آمنوا بعد ما جاءتهم البيّنة، لكن الآيات التالية تدل على غير ذلك، اللّهم إلّا إذا قيل أنّ المقصود إيمان مجموعة منهم و إن كانت قليلة و تكون المسألة من قبيل ما يسمى فى المنطق «موجبة جزئية».

و لكن على أى حال نستبعد هذا التّفسير، و يبدو أنّ الفخر الرازى لهذا السبب وصف الآية الاولى من هذه السّورة بأنّها أعقد آية فى القرآن لتعارضها مع الآيات التالية، و لحل هذا التعارض ذكر طرقا متعددة أفضلها هو الذى ذكرناه أعلاه.

ثمّة تفسير ثالث للآيـة هو أنّ اللّه لا يترك أهل الكتاب و المشـركين لحالهم حتى يتمّ الحجّة عليهم و يرسل إليهم البيّنـة و يبيّن لهم الطريق. و لذلك أرسل إليهم نبىّ الإسلام لهدايتهم.

بناء على هذا التّفسير، هذه الآية تشير إلى قاعدة اللطف التى يتناولها علم الكلام و تقرر أن اللّه يبعث إلى كلّ قوم دلائل واضحة ليتمّ الحجّة عليهم ۳۱۰].

على أى حال، «البيّنة» فى الآية هى الدليل الواضح، و مصداقها حسب الآية الثّانية شخص «رسول اللّه» و هو يتلو عليهم القرآن.

«صحف» جمع «صحيفة»، و تعنى ما يكتب عليه من الورق، و المقصود بها هنا محتوى هذه الأوراق، إذ نعلم أنّ الرّسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لم يكن يتلو شيئا عليهم من الأوراق.

و «مطهرّة» أى طاهرة من كلّ ألوان الشـرك و الكذب و الباطل. و من تلاعب شياطين الجن و الإنس. كما جاء أيضا فى قوله تعالى: لا

يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ ۳۱۱] جملة فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ إشارة إلى أنّ ما فى هذه الصحف السماوية خال من

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۰

الانحراف و الاعوجاج. من هنا فإنّ هذه «الكتب» تعنى المكتوبات، أو تعنى الأحكام و التشريعات المنصوصة من اللّه، لأنّ الكتابة جاءت بمعنى تعيين الحكم أيضا، كقوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۳۱۲].

و بهذا يكون معنى «قيمة» السويّة و المستقيمة، أو الثابتة و المستحكمة، أو ذات قيمة، أو كل هذه المعانى مجتمعة.

و يحتمل أيضا أن يكون المعنى هو أن القرآن فيه الكتب السماوية القيّمة السابقة لأنّه يضم جميع محتوياتها و زيادة.

و يلفت النظر تقدم ذكر أهل الكتاب على المشركين فى الآية الاولى، و الاقتصار على ذكر أهل الكتاب فى الآية الرابعة دون ذكر المشركين، بينما الآية تريد الإثنين.

و هذا يعود ظاهرا إلى أنّ أهل الكتاب كانوا هم الروّاد فى هذه المواقف، و كان المشركون تابعين لهم. أو لأنّ أهل الكتاب كانوا أهلا لذم أكثر لما عندهم من علماء كثيرين، و بذلك كانوا ذا مستوى أرفع من المشركين. معارضتهم- إذن- أفظع و أبشع و تستحق مزيدا من التقريع.

ثمّ يتوالى التقريع لأهل الكتاب، و من بعدهم للمشركين، لأنهم اختلفوا فى الدين الجديد، منهم مؤمن و منهم كافر، بينما: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَ يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَ يُؤْتُوا الزَّكاةَ[۳۱۳].

ثمّ تضيف الآية القول:

وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۱

قيل فى معنى «و ما أمروا ...» أن المقصود هو: إنّ التوحيد و الصلاة و الزكاة من المسائل الثابتة فى دين أهل الكتاب، لكنّهم لم يبقوا أو فياء لهذه التعاليم.

و قيل: المقصود هو إنّ دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص و الصلاة و الزكاة و أمثالها من التعاليم. و هذه امور معروفة فلما ذا يعرضون عنها؟.

يبدو أنّ المعنى الثّانى أقرب. لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الاختلاف فى قبول الدين الجديد، و المناسب هنا أن يكون المراد فى «أمروا ...» هو الدين الجديد أيضا.

أضف إلى ذلك أنّ المعنى الأوّل يصدق على أهل الكتاب وحدهم، بينما المعنى الثّانى يشمل المشركين أيضا.

المقصود ب «الدين» فى عبارة مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ قد يكون «العبادة».

و عبارة «إلّا ليعبدوا اللّه» فى الآية تؤكّد هذا المعنى.

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود مجموع الدين و الشريعة، أى أنّهم أمروا أن يعبدوا اللّه و أن يخلصوا له الدين و التشريع فى جميع المجالات. و هذا المعنى يتناسب أكثر مع المفهوم الواسع للدين. و جملة وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ تؤيد هذا المعنى لأنّها طرحت الدين بمفهومه الواسع.

«حنفاء» جمع «حنيف»، من الفعل الثّلاثى حنف، أى عدل عن الضلال إلى الطريق المستقيم، كما يقول الراغب فى المفردات. و العرب تسمى كلّ من حج أو ختن «حنيفا» إشارة إلى أنّه على دين إبراهيم.

و «الأحنف» من كانت رجله عوجاء. و يبدو أنّ الكلمة كانت فى الأصل تستعمل للانحراف و الاعوجاج، و النصوص الإسلاميّة استعملتها بمعنى الانحراف عن الشرك إلى التوحيد و الهداية.

و من الممكن أن تكون المجتمعات الوثنية قد أطلقت على من يترك الأوثان و يتجه إلى التوحيد اسم «حنيف»، أى منحرف. ثمّ

أصبحت الكلمة بالتدريج اسما

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۲

لسالكى طريق التوحيد و من مستلزمات الكلمة الإخلاص فى التوحيد و الاعتدال التام و اجتناب أى إفراط أو تفريط؛ غير أنّ هذه معان ثانوية للكلمة.

جملة وَ ذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ[۳۱۴] إشارة إلى أنّ الأصول المذكورة فى الآية و هى: التوحيد الخالص، و الصلاة (الارتباط باللّه) و الزكاة (الارتباط بالنّاس) من الأصول الثابتة الخالدة فى جميع الأديان، بل إنّها قائمة فى أعماق فطرة الإنسان.

ذلك لأنّ مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، و فطرته تدعوه إلى معرفة المنعم و شكره، ثمّ إنّ الروح الاجتماعية المدنية للإنسان تدعوه إلى مساعدة المحرومين.

من هنا، هذه التعاليم لها جذور فى أعماق الفطرة، و هى لذلك كانت فى تعاليم كلّ الأنبياء السابقين و تعاليم خاتم النبيين صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۳

الآيات [سورة البينة (۹۸): الآيات ۶ الى ۸]

اشارة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (۶) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (۷) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (۸)

التّفسير

خير البريّة و شرّها:

الآيات السابقة تحدثت عن انتظار أهل الكتاب و المشركين لبيّنة تأتيهم من اللّه، لكنّهم تفرقوا من بعد ما جاءتهم البيّنة.

هذه الآيات تذكر مجموعتين من النّاس مختلفتين فى موقفهما من الدعوة «كافرة» و «مؤمنة» تذكر الكافرين أوّلا بالقول: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَ الْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ.

و إنّما قال «كفروا» لكفرهم بالدين المبين، و إلّا فإنّ كفرهم ليس بجديد.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۴

و عبارة أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ عبارة قارعة مثيرة، تعنى أنّه لا يوجد بين الأحياء و غير الأحياء موجود أضل و اسوأ من الذين تركوا الطريق المستقيم بعد وضوح الحق و إتمام الحجّة، و ساروا فى طريق الضلال، مثل هذا المعنى ورد أيضا فى قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ۳۱۵].

و فى قوله سبحانه يصف أهل النّار: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ۳۱۶].

و هذه الآية التى نحن بصددها تذهب فى وصف هؤلاء المعاندين إلى أبعد ممّا تذهب إليه غيرها، لأنّها تصفهم بأنّهم شرّ المخلوقات، و هذا بمثابة بيان الدليل على خلودهم فى نار جهنم.

و لم لا يكونون شرّ المخلوقات و قد فتحت أمامهم جميع أبواب السعادة فاعرضوا عنها كبرا و غرورا و عنادا.

تقديم ذكر «أهل الكتاب» على «المشركين» فى هذه الآية أيضا، قد يعود إلى ما عندهم من كتاب سماوى و علماء و من صفات صريحة لنبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كتبهم، لذلك كانت معارضتهم أفظع و أسوأ.

الآية التالية تذكر المجموعة الثّانية، و هم المؤمنون و تقول: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ.

و الآية التالية تذكر جزاء هؤلاء المؤمنين، و ما لهم عند اللّه من مثوبة:

جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ، ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ

يلاحظ أنّ الحديث عن المؤمنين مقرون بذكر الأعمال الصالحة، باعتبارها ثمرة دوحة الإيمان. و فى ذلك إشارة إلى أن ادعاء الإيمان وحده لا يكفى، بل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۵

لا بدّ أن تشهد عليه الأعمال الصالحة. لكن الكفر وحده- و إن لم يقترن بالأعمال السيئة- مبعث السقوط و الشقاء. أضف إلى أن الكفر عادة منطلق لانواع الذنوب و الجرائم و الانحرافات.

عبارة أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ تبيّن بجلاء أن الإنسان المؤمن ذا الأعمال الصالحة أفضل من الملائكة، فعبارة الآية مطلقة و ليس فيها استثناء و الآيات الاخرى تشهد على ذلك أيضا، مثل آية سجود الملائكة لآدم، و مثل قوله سبحانه:

وَ لَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ ۳۱۷].

هذه الآية تحدثت عن الجزاء المادى الذى ينتظر المؤمنين، و عن الجزاء المعنوى الروحى لهم، و هو رضا اللّه عنهم و رضاهم عنه.

إنّهم راضون عن اللّه لأنّ اللّه أعطاهم ما أرادوه، و اللّه راض عنهم لأنّهم أدّوا ما أراده منهم، و إنّ كانت هناك زلة فقد غفرها بلطفه و كرمه. و أية لذة أعظم من أن يشعر الإنسان أنّه نال رضا المحبوب و وصاله و لقاءه.

نعم، نعيم جسد الإنسان جنات الخلد، و نعيم روحه رضا اللّه و لقاؤه.

جملة ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ تدل على أن كل هذه البركات تنطلق من «خشية اللّه». لأنّ هذه الخشية دافع للحركة صوب كلّ طاعة و تقوى و عمل صالح.

بعض المفسّرين قرن هذه الآية، بالآية (۲۸) من سورة فاطر حيث يقول سبحانه: إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ و خرج بنتيجة هى أنّ الجنّة للعلماء طبعا لا بدّ أن نأخذ بنظر الإعتبار وجود مراتب و مراحل للخشية و هكذا مراتب للعلم.

قيل أيضا أن «الخشية» أسمى من «الخوف»، لأنّها خوف مقرون بالتعظيم و الاحترام.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۶

بحوث

۱- على عليه السّلام و شيعته خير البريّة

ثمّة روايات كثيرة بطرق أهل السنة فى مصادرهم الحديثية المعروفة، و هكذا فى المصادر الشيعية، فسّرت الآية: أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ بأنهم على و شيعته.

«الحاكم الحسكانى النيسابورى» عالم أهل السنة المعروف فى القرن الخامس الهجرى نقل هذه الرّوايات فى كتابه المشهور «شواهد التنزيل» بطرق مختلفة، و يزيد عدد هذه الرّوايات على العشرين نذكر منها على سبيل المثال ما يلى:

۱-

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت آیة: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ قال رسول اللّه لعلی: «هو أنت و شیعتک تأتی أنت و شیعتک یوم القیامة راضین مرضیین و یأتی عدوک غضبانا مقحمین»[۳۱۸].

۲- و

عن أبی برزة قال: حینما تلا رسول اللّه هذه الآیة قال: «هم أنت و شیعتک یا علی، و میعاد ما بینی و بینک الحوض»[۳۱۹].

۳- و

عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری قال: کنّا جالسین عند النبیّ جوار الکعبة، فاقدم علینا علی، و حین رآه النبیّ قال: «قد أتاکم أخی»، ثمّ التفت إلی الکعبة، و قال: «و ربّ هذه البیّنة! إنّ هذا و شیعته هم الفائزون یوم القیامة».

ثمّ التفت إلینا و قال: «أما و اللّه إنّه أوّلکم إیمانا باللّه، و أقومکم بأمر اللّه، و أوفاکم بعهد اللّه، و أقضاکم بحکم اللّه، و أقسمکم بالسویة، و أعدلکم فی الرعیة و أعظمکم عند اللّه مزیة» قال جابر: فأنزل اللّه: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ فکان علی إذا أقبل قال أصحاب محمّد قد أتاکم خیر البریة بعد رسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۷

اللّه ۳۲۰].

نزول هذه الآیة جوار الکعبة لا یتنافی مع مدنیة السّورة. إذ من الممکن أن تکون من قبیل النزول المجدد، أو التطبیق، أضف إلی ذلک أنّ نزول هذه الآیات لا یستبعد أن یکون خلال أسفار النّبی إلی مکّة من المدینة، خاصّة أنّ الراوی (جابر بن عبد اللّه الأنصاری) قد التحق بالنّبی فی المدینة.

بعض هذه الأحادیث رواها ابن حجر فی الصواعق، و محمّد الشبلنجی فی نور الأبصار[۳۲۱].

و جلال الدین السیوطی نقل القسم الأعظم من الرّوایة الأخیرة عن ابن عساکر عن جابر بن عبد اللّه الأنصاری ۳۲۲].

۴-

فی «الدر المنثور» عن ابن عباس قال: «حین نزلت آیة: إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ. قال رسول اللّه لعلی: «هو أنت و شیعتک یوم القیامة راضین مرضیین».

۵- و

فی الدر المنثور أیضا عن ابن مردویه عن علی علیه السّلام قال: «قال لی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: ألم تسمع قول اللّه إِنَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الْبَرِیَّةِ؟ أنت و شیعتک و موعدی و موعدکم الحوض، إذا جاءت الأمم للحساب تدعون غرّا محجلین»[۳۲۳].

کثیر من علماء السنة، سوی من ذکرنا، نقلوا مثل هذه الرّوایات فی کتبهم منهم: الخطیب الخوارزمی فی المناقب، و أبو نعیم الأصفهانی فی کفایة الخصام، و العلّامة الطبری فی تفسیره، و ابن صباغ المالکی فی الفصول المهمّة، و العلّامة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۸

الشوکانی فی فتح الغدیر، و الشیخ سلیمان القندوزی فی ینابیع المودة، و الآلوسی فی روح المعانی.

باختصار هذا الحدیث من الأحادیث المعروفة المشهورة المقبولة لدی أکثر علماء الإسلام، و فیه بیان لفضیلة کبری من فضائل علی و أتباعه.

و هذه الرّوایات تدل ضمنا أنّ کلمة «الشیعة» باعتبارها اسما لأتباع علی علیه السّلام کانت قد شاعت منذ عهد رسول اللّه صلّی اللّه علیه

و آله و سلّم بين المسلمين على لسان الرّسول نفسه.

و أولئك الذين يخالون أنّ الكلمة هذه ظهرت فى عصور متأخرة فى خطأ كبير.

۲- ضرورة إخلاص النيّة فى العبادة

بعض علماء اصول الفقه استدلوا بالآية: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ على لزوم «قصد القربة» فى العبادات، و أن الأصل فى الأوامر أنّها تعبدية لا توصلية. و هذا يتوقف على كون «الدين» فى الآية بمعنى العبادة كى يصحّ الاستدلال بها على لزوم الإخلاص فى العبادات ... و يتوقف على أن يكون (الأمر) فى الآية بشكل مطلق كى يكون مفهومها لزوم قصد القربة فى كل الأوامر (عداما خرج منها بدليل). غير أنّ مفهوم الآية ليس كذلك على الظاهر. فالمقصود إثبات التوحيد مقابل الشرك، أى إنّ هؤلاء لم يؤمروا إلّا بالتوحيد، و بهذا لا ترتبط المسألة بالأحكام الفرعية.

۳- منحنى الصعود و السقوط

من آيات هذه السّورة المباركة يستفاد أنّ الإنسان فريد بين مخلوقات الكون فى البون الشاسع الذى يفصل بين منحنى ارتفاعه و سمّوه و بين منحنى سقوطه و هبوطه. لو كان من الذين آمنوا و عملوا الصالحات (عبارة «عملوا الصالحات» تشمل كلّ الأعمال الصالحة لا بعضها) فهو أفضل خلق اللّه؛ و إنّ سلك

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۶۹

طريق الكفر و الضلالة و العناد هبط إلى هوة سحيقة و كان شرّ خلق اللّه.

هذا البون الشاسع بين الاتجاهين- رغم خطورته و حساسيته- له دلالة كبيرة على مكانة النوع البشرى و قابليته للتكامل. و طبيعى أن يكون إلى جانب هذه القابلية العظيمة إمكان عظيم للهبوط و السقوط.

ربّنا! نستمد العون من فضلك و إحسانك لبلوغ درجة «خير البرية» ربّنا! اجعلنا من شيعة ذلك الرجل الصالح الذى كان أجدر من نال هذه الدرجة.

ربّنا! منّ علينا بإخلاص يجعلنا متفانين فى حبّك و عبادتك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة البيّنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۱

سورة الزّلزلة

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثمانى آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۳

«سورة الزلزلة»

محتوى السّورة:

اختلف المفسّرون فى مكّية هذه السّورة أو مدنيتها. كثيرون ذهبوا إلى أنّها مدنية. بينما ذهب بعض إلى أنّها مكّية لما تتناوله آياتها من حديث حول «المعاد» و «أشراط الساعة» (علامات يوم القيامة) ... و هى موضوعات الآيات المكّية عادة. و لكنّ ثمّة رواية عن «أبى سعيد الخدرى» أنّه سأل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حين نزول هذه السّورة عن آية: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ... و أبو سعيد انضم إلى المسلمين فى المدينة[۳۲۴].

و لا تأثير لمكيتها أو مدنيتها على مفاهيمها التى تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: تتحدث أوّلا عن علامات البعث و يوم القيامة ... ثمّ عن شهادة الأرض على جميع أعمال العباد ... و بعد ذلك تقسم النّاس إلى مجموعتين صالحة و طالحة و تبيّن أنّ كلّ مجموعة ترى ثمار عملها.

فضيلة السّورة:

وردت فى فضيلة هذه السّورة نصوص تحمل إشارات هامّة من ذلك ما

روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها فكأنّما قرأ البقرة و أعطى من الأجر كمن قرأ ربع القرآن»[۳۲۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۴

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «لا تملوا من قراءة» إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها فإنّه من كانت قراءته بها فى نوافله لم يصبه اللّه عزّ و جلّ بزلزلة أبدا، و لم يمت بها و لا بصاعقة و لا بآفة من آفات الدنيا حتى يموت»[۳۲۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۵

الآيات [سورة الزلزلة (۹۹): الآيات ۱ الى ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (۱) وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (۲) وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها (۳) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (۴)

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (۵) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (۶) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (۷) وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (۸)

التّفسير

يوم يرى النّاس أعمالهم:

هذه السّورة تبدأ- كما ذكرنا فى محتواها- ببيان صور من الأحداث الهائلة المفزعة التى ترافق نهاية هذا العالم و بدء البعث و النشور. تقول:

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها[۳۲۷].

وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۶

عبارة «زلزلها» تعنى أنّ الأرض بأجمعها تهتز فى ذلك اليوم (خلافا للزلازل العادية الموضعية عادة) أو أنّها إشارة إلى الزلزلة المعهودة، أى زلزلة يوم القيامة[۳۲۸].

و «الأثقال» ذكر لها المفسّرون معانى متعددة. قيل إنّها البشر الذين يخرجون من أجداثهم على أثر الزلزال. كما جاء فى قوله سبحانه: وَ أَلْقَتْ ما فِيها وَ تَخَلَّتْ ۳۲۹].

و قيل إنّها الكنوز المخبوءة التى ترتمى إلى الخارج، و تبعث الحسرة فى قلوب عبّاد الدنيا[۳۳۰].

و يحتمل أيضا أن يكون المقصود إخراج المواد الثقيلة الذائبة فى باطن الأرض، و هو ما يحدث أثناء البراكين و الزلازل، فإنّ الأرض فى نهاية عمرها تدفع ما فى أعماقها إلى الخارج على أثر ذلك الزلزال العظيم.

يمكن الجمع بين هذه التفاسير.

فى ذلك الجو الملىء بالرهبة و الفزع، تصيب الإنسان دهشة ما بعدها دهشة فيقول فى ذعر: ما لهذه الأرض تتزلزل و تلقى ما فى باطنها؟

وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها.

و ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الإنسان فى الآية هو الكافر الذى كان شاكا فى المعاد و البعث، و لكن الظاهر أنّ الإنسان هنا له معنى عام يشمل كل أفراد البشر. فالدهشة من وضع الأرض فى ذلك اليوم لا يختص بالكافرين.

و هل هذا السؤال التعجبى يرتبط بالنفخة الاولى أو الثّانية؟ أى هل يرتبط

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۷

بنهاية الأرض أم بالبعث؟

الظاهر أنّها النفخة الاولى حيث تحدث الزلزلة الكبرى و ينتهى فيها هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن تكون نفخة البعث و النشور، و إخراج النّاس من الأجداث و الآيات التالية ترتبط بالنفخة الثّانية.

و لما كان القرآن يتحدث فى مواضع مختلفة عن أحداث النفختين معا، فالتّفسير الأوّل أنسب لما ورد من ذكر الزلزال المرعب فى نهاية العالم. و فى هذه الحالة يكون المقصود من أثقال الأرض معادنها و كنوزها و المواد المذابة فيها.

و أهم من ذلك أنّ الأرض:

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها.

تحدّث بالصالح و الطالح، و بأعمال الخير و الشر، ممّا وقع على ظهرها. و هذه الأرض واحد من أهم الشهود على أعمال الإنسان فى ذلك اليوم. و هى إذن رقيبة على ما نفعله عليها.

و

فى حديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أ تدرون ما أخبارها»؟ قالوا: اللّه و رسوله أعلم. قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد و أمة بما عملوا على ظهرها.

تقول عمل كذا و كذا، يوم كذا، فهذا أخبارها»[۳۳۱].

و

فى حديث آخر عن النّبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «حافظوا على الوضوء و خير أعمالكم الصلاة، فتحفظوا من الأرض فإنّها امّكم، و ليس فيها أحد يعمل خيرا أو شرّا إلّا و هى مخبرة به»[۳۳۲].

و

عن أبى سعيد الخدرى قال: متى كنت فى بيداء فارفع صوتك بالأذان لأنّى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۸

سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: «لا يسمعه جن و لا إنس و لا حجر إلّا يشهد له»[۳۳۳].

و هل إن تحديث الأرض يعنى أنّها تتكلم فى ذلك اليوم بأمر اللّه، أم إن المقصود ظهور آثار أعمال الإنسان على ظهر الأرض؟

واضح أنّ كل عمل يقوم به الإنسان يترك آثاره حتما على ما حوله، و إن خفيت علينا هذه الآثار اليوم، تماما مثل آثار أصابع اليد التى تبقى على مقبض الباب، و فى ذلك اليوم تظهر كل هذه الآثار، و حديث الأرض ليس سوى هذا الظهور الكبير؛ تماما كما نقول لشخص نعسان: عينك تقول إنّك كنت سهرانا أمس.

أى إنّ آثار السهر عليها واضحة.

و ليس هذا الموضوع بغريب اليوم بعد الاكتشافات العلمية و الاختراعات القادرة فى كلّ مكان و فى لحظة أن تسجل صوت الإنسان و تصور أعماله و حركاته فى أشرطة يمكن طرحها فى المحكمة كوثائق إدانة لا تقبل الإنكار.

لو كانت شهادة الأرض فيما مضى عجيبة، فليست اليوم بعجيبة و نحن نرى شريطا رقيقا يمكن أن يكون بحجم أزرار اللباس قادرا على أن يحتفظ بكثير من الأعمال و الأقوال.

و

فى حديث عن على عليه السّلام قال: «صلوا المساجد فى بقاع مختلفة، فإنّ كلّ بقعة تشهد للمصلّى عليها يوم القيامة»[۳۳۴].

و

عنه عليه السّلام أيضا حينما كان يفرغ من تقسيم بيت المال يصلى ركعتين و يقول:

«اشهدى أنّى ملأتك بحق و فرغتك بحق»[۳۳۵].

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها[۳۳۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۷۹

فما فعلته الأرض إنّما كان بوحى ربّها، و هى لا تتوانى فى تنفيذ أمر الرّب.

و عبارة «اوحى» إنّما هى لبيان أنّ حديث الأرض خلاف طبيعتها، و لا يتيسر ذلك سوى عن طريق الوحى الإلهى.

قيل: إنّ المقصود هو أنّ اللّه يوحى للأرض أن تخرج أثقالها.

و التّفسير الأوّل أصح و أنسب، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ

«أشتات» جمع «شتّ»- على وزن شط- و هو المتفرق و المبعثر. أى إنّ النّاس يردون ساحة المحشر متفرقين مبعثرين. و قد يكون التفرق و التبعثر لورود أهل كلّ دين منفصلين عن الآخرين.

أو قد يكون لورود أهل كلّ نقطة من نقاط الأرض بشكل منفصل.

أو قد يكون لورود جماعة بأشكال جميلة مستبشرة، و جماعة بوجوه عبوسة مكفهرة إلى المحشر.

أو إن كلّ أمّة ترد مع إمامها و قائدها كما فى قوله تعالى: يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُناسٍ بِإِمامِهِمْ ۳۳۷].

أو أنّ يحشر المؤمنون مع المؤمنين و الكافرون مع الكافرين.

الجمع بين هذه التفاسير ممكن تماما لأنّ مفهوم الآية واسع.

«يصدر» من الصدور، و هو خروج الإبل من بركة الماء مجتمعة هائجة و عكسه الورود. و هى هنا كناية عن خروج الأقوام من القبور و ورودهم على المحشر للحساب.

و يحتمل أيضا أن يكون صدور النّاس فى الآية من المحشر و التوجه نحو مستقرهم فى الجنّة أو النّار.

المعنى الأوّل أكثر تناسبا مع الآيات السابقة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۰

المقصود من عبارة لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ هل هو: ليروا جزاء أعمالهم.

أو ليروا صحيفة أعمالهم و ما سجل فيها من حسنات و سيئات أو المشاهدة الباطنية، بمعنى المعرفة بكيفية الأعمال.

أو أنّها تعنى «تجسم الأعمال» و رؤية الأعمال نفسها؟! التّفسير الأخير أنسب مع ظاهر الآية. و هذه الآية أوضح الآيات الدالة على تجسم الأعمال. حيث تتخذ الأعمال فى ذلك اليوم أشكالا تتناسب مع طبيعتها و تنتصب أمام صاحبها. و تكون رفقتها سرورا و انشراحا أو عذابا و بلاء.

ثمّ ينتقل الحديث إلى جزاء أعمال المجموعتين المؤمنة و الكافرة، الصالحة و الطالحة.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ

وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

و هنا أيضا تفسيرات مختلفة لرؤية الأعمال هل هى رؤية جزاء الأعمال، أم صحيفة الأعمال، أو العمل نفسه.

ظاهر الآية يدل أيضا على مسألة «تجسم الأعمال» و مشاهدة العمل نفسه، صالحا أم سيئا، يوم القيامة. حتى إذا عمل ما وزنه ذرة من الذرات يره مجسما يوم القيامة.

«مثقال» فى اللغة بمعنى الثقل، و بمعنى الميزان الذى يقاس به الثقل و المعنى الأوّل هو المقصود فى الآية.

و «الذرة» ذكروا لها معانى متعددة من ذلك، النملة الصغيرة، و الغبار الذى يلصق باليد عند وضعها على الأرض، و ذرات الغبار العالقة فى الجو التى تتّضح عند ما تدخل حزمة ضوء من ثقب داخل غرفة مظلمة.

و الذرة تطلق اليوم على أصغر جزء من أجزاء المادة و التى منها تصنع «القنبلة الذرية»، مع احتفاظه بخواص المادة الأصلية. و لا ترى بأقوى المجاهر، و تشاهد

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۱

آثارها فقط، و تعرف خواصها بالمحاسبات العلمية ..

مهما كان مفهوم الذرة فهو هنا أصغر وزن.

هذه الآية على أى حال تهزّ كيان الإنسان الواعى من الأعماق، و تشير إلى أنّ حساب اللّه فى ذلك اليوم دقيق و حساس للغاية. و ميزان أعمال النّاس دقيق إلى درجة يحصى أقلّ أعمال الإنسان.

بحوث

۱- الدقّة فى تحرى الأعمال

الآيتان المذكورتان و آيات اخرى مشابهة تدلّ دلالة واضحة على الدقّة المتناهية فى تحرّى الأعمال و فى المحاسبة يوم القيامة، كقوله سبحانه: يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ[۳۳۸].

و «الخردل» بذر صغير جدّا لنبات معروف يضرب به المثل لصغره.

هـذه التعابير القرآنيـة تـدلّ على أنّ أصـغر الأعمال يحاسب عليها فى تلك المحاسـبة الكبرى، و هذه الآيات تحذر أيضا من استصـغار الذنوب الصغيرة، أو التهاون فى أعمال الخير و الصغيرة. فما يحاسب عليه اللّه سبحانه- مهما كان- ليس بقليل الأهمية.

لذلك قال بعض المفسّرين إنّ هذه الآيات نزلت حين كان بعض الصـحابة يتهاون فى إنفاق الأموال القليلة، و كانوا يقولون: إنّ الأجر يتوقف على إنفاق ما نحبّ، و الأشياء الصغيرة لا نحبها. و هكذا كانوا يستهينون بالذنوب الصغيرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۲

فنزلت الآيات و حثتهم على فعل الخيرات مهما قلت و نهتهم عن الذنوب مهما صغرت.

۲- جواب على سؤال

يطرح هنا سؤال بشأن ما تحدثت عنه الآيات و هو أنّ الإنسان يرى كلّ أعماله صالحة أم طالحة، صغيرة أم كبيرة. فكيف ينسجم ذلك مع الآيات التى تطرح مفاهيم «الإحباط» و «التكفير» و «العفو» و «التوبة»؟

فآيات «الإحباط» تقرر أنّ بعض السيئات مثل الكفر يذهبن الحسنات: لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ۳۳۹].

و آيات «التكفير» تقول: إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ۳۴۰] و آيات «العفو و التوبة» توضح محو الذنوب بتوبة العبد و عفو الرب.

فكيف تنسجم هذه المفاهيم مع رؤية كلّ أعمال الخير و السوء؟

و الجواب: أنّ الآيـات المـذكورة أعلاه و التى تنص على رؤيـة أعمال الخير و أعمال السوء يوم القيامـة هو أصل كلى و قانون عام. و كلّ قانون قد يكون له استثناءات. و آيات العفو و التوبة و الإحباط و التكفير هى من هذه الاستثناءات.

و ثمّـة جواب آخر هو إنّه فى حالـة الإحباط و التكفير تحـدث فى الواقع موازنـة و كسـر و انكسار تماما مثل «المطالبات» و «القروض» التى يقل بعضـها على حساب بعض، و حينما يرى الإنسان نتيجـة هـذه الموازنـة فإنّما رأى فى الواقع كلّ أعماله الصالحـة و الطالحة. و مثل هذا يصدق أيضا على «العفو» و «التوبة» لأنّ العفو لا يتمّ دون لياقة، و التوبة هى بنفسها من الأعمال الصالحة.

بعضهم ذكر هنا جوابا لا يبدو صحيحا، و هو أنّ الكفار يرون نتيجة أعمالهم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۳

الصالحة فى هذه الدنيا، و هكذا المؤمنون ينالون جزاء أعمالهم السيئة فى هذا العالم.

و الظاهر أنّ الآيات التى نحن بصددها ترتبط بالقيامة لا بالدنيا، أضف إلى ذلك ليست هناك قاعدة كليّة تقضى أن يرى كل مؤمن و كافر نتيجة أعماله فى هذه الدنيا.

۳- الآية الجامعة

روى عن عبد اللّه بن مسعود قال: إنّ أحكم آية فى القرآن: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يسميها «الجامعة»[۳۴۱].

و حقّا، لو تدبر الإنسان فى محتوى هذه الآية تكفيه دافعا إلى طريق الخير و ناهيا عن طريق الفساد و الانحراف.

لذا ورد أنّ رجلا جاء النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قال له: علمنى ممّا علمك اللّه.

فأوكله النبىّ صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم إلى أحد أصـحابه ليعلمه القرآن، فعلمه: إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ إلى آخر السّورة. فنهض الرجل و قال: هذه تكفينى ... و فى رواية قال:

تکفینی هذه الآیة.

عن زید بن أسلم (رض) أنّ رجلا- جاء إلی النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: علمنی ما علمک اللّه، فدفعه إلی رجل یعلمه القرآن فعلمه إذا زلزلت الأرض حتی بلغ فمن یعمل إلخ ... قال الرجل: حسبی. فأخبر بذلک النبیّ صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فقال: «دعه فقد فقه الرجل»[۳۴۲]

و

عن أبی سعید الخدری قال: لما أنزلت هذه الآیة فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ، وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ قلت: یا رسول اللّه إنّی لراء عملی؟ قال: نعم.

قلت: الکبار الکبار. قال: نعم. قلت: الصغار الصغار. قال: نعم. قلت وا ثکلی امی،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۴

قال: ابشر یا أبا سعید فإنّ الحسنة بعشر أمثالها یعنی إلی سبعمائة ضعف، و اللّه یضاعف لمن یشاء و السیئة بمثلها أو یعفو اللّه، و لن ینجو أحد بعمله. قلت: و لا أنت یا نبیّ اللّه؟ قال: و لا أنا إلّا أن یتغمدنی اللّه منه بالرحمة[۳۴۳].

ربّنا! عند ما لا یکون فی ذلک الیوم لرسولک العظیم ملاذ سوی عفوک و رحمتک، فکیف بنا و کیف حالنا ...

إلهنا! إذا کانت أعمالنا هی الأصل فی نجاتنا فالویل لنا، و إن اسعفنا کرمک فهنیئا لنا ..

اللّهمّ! لیس لنا فی ذلک الیوم الذی تتجسد فیه الأعمال صغیرها و کبیرها إلّا لطفک العمیم و رحمتک الواسعة.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الزلزلة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۵

سورة العادیات

اشارة

مدنیّة و عدد آیاتها إحدی عشرة آیة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۷

«سورة و العادیات»

محتوی السّورة:

اختلف المفسّرون کثیرا فی مکان نزول هذه السّورة، کثیر منهم اعتبرها مکّیة، و جمع منهم قال إنّها مدنیة.

قصر مقاطع الآیات، و استنادها إلی القسم، و تناولها موضوع المعاد قرائن تدل علی مکیتها.

لکن مضمون القسم فی السّورة و ارتباطه بمسائل الجهاد- کما سیتضح- و هکذا الرّوایة القائلة بنزول هذه السّورة بعد غزوة (ذات السلاسل)[۳۴۴] دلائل علی مدنیة السّورة. حتی لو فسرنا مضمون القسم فی السّورة بحرکة الحجاج نحو منی و المشعر فهو دلیل علی أنّها مدنیة أیضا.

صحیح أن مراسم الحج بأکثر مناسکه کانت شائعة بین عرب الجاهلیة بتأثیر من سنة إبراهیم. لکنّها کانت ممزوجة بالخرافات ممّا یجعل قسم القرآن بها مستبعدا.

من مجموع كل ذلك نرجح أن تكون السّورة مدنية.

ممّا تقدم يتّضح أيضا محتوى السّورة، فهى تبدأ بالقسم بأمور محفّزة محركة.

ثمّ تتناول بعض مظاهر الضعف البشرى كالكفر و البخل و حب الدّنيا. ثمّ تشير السّورة إشارة قصيرة معبّرة إلى مسألة المعاد و إحاطة اللّه بعباده.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۸

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات، بعدد من بات بالمزدلفة، و شهد جمعا»[۳۴۵].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ و العاديات و أدمن قراءتها بعثه اللّه مع أمير المؤمنين يوم القيامة خاصّة، و كان فى حجره و رفقائه»[۳۴۶].

و فى بعض الرّوايات أن سورة «و العاديات» تعادل نصف القرآن ۳۴۷].

و من الواضح أن كل هذه الفضيلة إنّما هى نصيب من جعل السّورة منهاجا لحياته و آمن بكل محتواها و عمل بها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۸۹

الآيات [سورة العاديات (۱۰۰): الآيات ۱ الى ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً (۱) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (۲) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (۳) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (۴)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (۵) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (۶) وَ إِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (۷) وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (۸) أَ فَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (۹)

وَ حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (۱۰) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (۱۱)

سبب النّزول

روى أن هذه السّورة نزلت بعد واقعة ذات السلاسل و كانت الحادثة على النحو التالى:

فى السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نبأ تجمّع اثنى عشر ألف راكب فى أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و عليّا عليه السّلام و يبيدوا الجماعة المسلمة.

و بعث النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جمعا من أصحابه إليهم فكلّموهم، و لكن دون جدوى.

فأرسل النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عليّا عليه السّلام مع جمع غفير من المهاجرين و الأنصار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۰

لمحاربتهم. فحثوا الخطى إلى منطقة العدو و طووا الطريق فى الليل، فحاصروا العدوّ، و عرضوا عليهم الإسلام أوّلا، و حين أبوا شنوا

هجومهم و الجوّ لمّا يزل فى ظلام، و دحروهم، فقتلوا جماعة و أسروا النساء و الأطفال و غنموا أموالا كثيرة.

و نزلت سورة «و العاديات»، و جيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، و فى ذات اليوم صلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بالنّاس الغداة و قرأ «و العاديات»، فلما فرغ من صلاته قال أصحابه هذه سورة لم نعرفها،

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «نعم إن عليّا ظفر بأعداء اللّه و بشرنى بذلك جبرائيل عليه السّلام فى هذه الليلة. فقدم على بعد أيّام بالغنائم و الأسارى ۳۴۸].

و قيل: إن هذه الواقعة من المصاديق البارزة للآية و ليست سببا لنزولها.

التّفسير

قسما بالمجاهدين الواعين:

قلنا إن هذه السّورة تبدأ بالقسم بأمور محفّزة منبّهة. تقسم أولا بالخيول الجارية المندفعة (إلى ميدان الجهاد) و هى تحمحم و تتنفس بشدّة:

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً.[۳۴۹] و يمكن أن يكون القسم هذا بإبل الحجاج المتجهة من عرفات إلى المشعر الحرام، و من المشعر الحرام إلى منى و هى تتنفس بشدّة.

«العاديات» جمع عادية، من «العدو»، و هو المغادرة و الابتعاد بالقلب.

فتكون «العداوة» أو بالحركة الخارجية فيكون (العدو) و هو الركض، أو بالمعاملات فيسمى (العدوان). و «العاديات» فى الآية هى الجاريات بسرعة،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۱

«الضبح» صوت الخيل و هى تتنفس بشدّة عند الجرى.

كما ذكرنا من قبل لهذه الآية تفسيران:

الأوّل: أنّ المقسوم به فى الآية الخيل السريعة الجرى نحو ميدان الجهاد.

و لما كان الجهاد أمرا مقدسا، فهذه الحيوانات فى جريها فى هذا المسير المقدس تنال من المكانة و اللياقة ما تستحق أن يقسم بها.

الثّانى: أنّ المقسوم به الإبل الجارية فى موسم الحج بين المواقف المشرفة و هى تنقل الحجاج. لذلك كانت ذا قداسة تستحق القسم بها.

روى عن ابن عباس قال: بينما أنا جالس فى حجر إسماعيل إذ أتانى رجل فسأل عن «العاديات ضبحا» فقلت له: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه ثمّ تأوى إلى الليل فيصنعون طعامهم و يورون نارهم. فانفتل عنّى و ذهب إلى على بن أبى طالب عليه السّلام و هو تحت سقاية زمزم. فسأله عن العاديات ضبحا، فقال: سألت عنها أحدا قبلى؟ قال: نعم، سألت عنها ابن عباس فقال: الخيل حين تغير فى سبيل اللّه.

قال: فاذهب فادعه لى فلمّا وقف على رأسه قال: تفتى النّاس بما لا علم لك به؟! و اللّه إن كانت لأوّل غزوة فى الإسلام بدر، و ما كانت معنا إلا فرسان. فرس للزبير و فرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات الخيل، بل العاديات ضبحا الإبل من عرفة إلى مزدلفة و من مزدلفة إلى منى. قال ابن عباس فرغبت عن قولى و رجعت إلى الذى قاله على عليه السّلام.[۳۵۰]

و يحتمل أيضا أن يكون «للعاديات» هنا معنى واسع يشمل خيول المجاهدين و إبل الحجاج. و يكون معنى رواية ابن عباس أنّه لا

ينحصر المعنى بالخيول إذ لا يصدق هذا المعنى فى كل مكان. و من مصاديقه هو إبل الحجاج.

هذا التّفسير أنسب من عدّة جهات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۲

ثمّ يأتى القسم التالى بهذه العاديات التى تورى النيران بحوافرها:

فَالْمُورِياتِ قَدْحاً.

و هى خيل المجاهدين التى تجرى بسرعة فائقة فى ميدان القتال، بحيث تنقدح النّار من تحت أرجلها جرّاء احتكاك حوافرها بصخور الأرض.

أو هى الإبل التى تجرى بين مواقف الحج، فتتطاير الحصى و الحجارة من تحت أرجلها و ترتطم بحصى و حجارة أخرى فتنقدح النيران.

أو مجاميع الحجيج التى تورى النّار فى المواقف للطعام.

أو كناية عن الذين يضرمون نيران الحرب و الجهاد.

أو الألسن التى تشعل النّار فى قلب الأعداء ببيانها القامع.

أو إنّها- كما يقول بعض المفسّرين- المجموعة الساعية فى رفع حاجات النّاس، مؤدية أهدافها. و يقال للمنجح فى حاجته: ورى زنده.

ظاهر الآية يؤيد التّفسيرين الأولين، و بقية التفاسير يبدو أنّها بعيدة.

«الموريات» جمع «مورية»، و الإيراء يعنى إضرام النّار، و «القدح» ضرب الحجارة أو الخشب أو الحديد بما يشبهه لتوليد النّار.

و القسم الثّالث بالتى تغير صباحا على الأعداء:

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً.

و كانت العرب- كما يقول الطبرسى فى مجمع البيان- تقترب ليلا من منطقة العدو و تكمن له، و تشّن غارتها فى الصباح.

و فى سبب نزول الآية (أو أحد مصاديقها الواضحة) رأينا أن جيوش المسلمين بقيادة على عليه السّلام استفادت من ظلام الليل، و اتجهت نحو معسكر الأعداء، و كمنت له، ثمّ شنت غارتها فى الصباح كالصاعقة. و دحرت العدوّ قبل أن يبدى مقاومة.

و لو اعتبرنا القسم بإبل الحجاج، فالمغيرات فى الآية هى قوافل الإبل فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۳

صباح العيد من المشعر إلى منى.

«المغيرات» جمع «مغيرة». و الإغارة: الهجوم على العدو، و قيل إن الكلمة تتضمّن معنى الهجوم بالخيل، و لكن موارد استعمالها يبيّن أن هذا القيد- إن كان موجودا فى الأصل- فقد حذف بالتدريج.

و ما أورده بعضهم من احتمال أن تكون «المغيرات» هى القبائل المهاجمة المتجهة إلى ميدان القتال، أو المسرعة إلى منى، فبعيد، لأن الآية: وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً هى بالتأكيد وصف للخيل أو الإبل، لا أصحابها. و هذه الآية استمرار لتلك.

ثمّ تشير الآية التالية إلى سرعة هذه العاديات فى هجومها، و ذلك بإثارتها الغبار فى كل جانب:

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً[۳۵۱].

أو أنّ الغبار يثور من كل صوب نتيجة هجوم إبل الحجاج من المشعر الحرام على منى.

«أثرن» من الإثارة، و هى نشر الغبار و الدخان فى الجو. و قد تأتى بمعنى الهياج، أو انتشار أمواج الصوت فى الفضاء.

«النقع» هو الغبار، و أصل الكلمة انغماس الماء أو الانغماس فى الماء و الانغماس فى التراب يشبهه، و لذلك اتخذ نفس الاسم. و «النقيع» الماء الراكد.

و فى آخر خصائص هذه «المغيرات» تذكر الآية أنّها ظهرت بين الإعداء فى الفجر:

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً[۳۵۲].

هجومها كان مباغتا خاطفا بحيث استطاعت خلال لحظات أن تشق صفوف

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۴

العدوّ و تشن حملتها فى قلبه، و تشّتت جمعه. و هذا نتيجة ما تتحلّى به من سرعة و يقظة و استعداد و شهامة و شجاعة.

أو إنّها إشارة إلى ورود الحجاج من المشعر إلى قلب منى.

و قيل إنّ المقصود محاصرة الأعداء. و هذا يصحّ لو كان الفعل «فوسّطن» بتشديد السين، و القراءة المشهورة ليست كذلك. فالصحيح هو المعنى الأوّل.

نستخلص ممّا سبق أن القسم فى الآيات بهذه الخيول التى هى أولا تسرع إلى ميدان الجهاد بنفس شديد، ثمّ تزيد سرعتها حتى يتطاير الشرر من تحت حوافرها فيشقّ عتمة الليل ... و بعدها تقترب من منطقة العدو، فتباغته، و عند انبلاج عتمة الليل تشنّ هجوما شديدا يثير الغبار فى كل جانب، ثمّ تتوغل إلى قلب العدوّ و تشتت صفوفه.

القسم إذن- بهذه الخيول المقتدرة! ... بفرسانها الشجعان! ... بأنفاس مركب المجاهدين! ... بشرارات النيران المتطايرة من تحت حوافرها! ... بذلك الهجوم المباغت! ... بذرات الغبار المنتشرة فى الفضاء! ... بدخولها قلب صفوف الأعداء و تحقيق النصر الحاسم عليهم! هذه التعابير- و إن لم ترد كلها صراحة فى الآيات- فهى مجموعة كلها فى الدلالات الضمنية للكلام.

من هنا يتّضح أن الجهاد له منزلة عظيمة حتى أن أنفاس خيل المجاهدين استحقت أن يقسم بها ... و هكذا الشرر المتطاير من حوافر هذه الخيول ... و الغبار الذى تثيره فى الجو ... نعم حتى غبار ساحة الجهاد له قيمة و عظمة.

و قيل: أنّ المقصود بهذه الأقسام قد يكون النفوس التى تستطيع أن تنقل كمالها إلى الآخرين، و تقدح شرارة العلم بأفكارها، و تهجم على أهوائها النفسية، و تثير الشوق الإلهى فى نفسها و نفوس الآخرين، و تستقر أخيرا فى قلب سكنة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۵

العليين.[۳۵۳] واضح أن هذا لا يمكن أن يعتبر تفسيرا للآيات، بل هو تشبيهات تخطر فى الذهن لمناسبة تفسير الآية.

ثمّ يأتى جواب القسم، و يقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ.

نعم، الإنسان البعيد عن التربية الصحيحة ... و الذى لم تشرق فى قلبه أنوار المعارف الإلهية و تعاليم الأنبياء ... الإنسان الخاضع لأهوائه و شهواته الجامحة هو حتما كفور بالنعمة و بخيل ... إنّه لكنود.

و «كنود» اسم للأرض التى لا تنبت، و تطلق على الإنسان الكفور و البخيل أيضا.

المفسّرون ذكر و الكلمة «كنود» معانى كثيرة، منهم «أبو الفتوح الرازى» نقل ما يقارب من خمسة عشر معنى، و لكنّها غالبا فروع للمعنى الأصلى الذى ذكرناه، من ذلك:

۱- الكنود، الذى يهوّل من مصائبه و ينسى النعم.

۲- هو الذى يأكل نعم اللّه وحده، و يمنعها عن الآخرين. و

ورد عن الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: أ تدرون من الكنود؟ قيل: اللّه و رسوله أعلم. قال: الكنود الذى يأكل وحده و يمنع رفده، و يضرب عبده ۳۵۴].

۳- الكنود، الذى لا يواسى اخوته فى مشاكلهم و مصائبهم.

۴- من كان خيره شحيح.

۵- من یمنع نعمته عن الآخرین و یجزع فی المشاکل و المصائب.

۶- من ینفق النعم الإلهیة فی المعاصی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۶

۷- من ینکر نعمة اللّه.

و هذه المعانی- کما ذکرنا- مصادیق و تفریعات لمعنی الکفران و البخل.

کلمة (الإنسان) فی مثل هذه الاستعمالات القرآنیة تعنی الأفراد المتطبعین علی الشر و الشهوات الجامحة و الطغیان، و قیل: إنّه الإنسان الکافر.

فهذه الصفة لا یمکن إطلاقها علی مطلق الإنسان. فثمّة أفراد لیسوا بقلیلین من امتزج الشکر و العطاء بدمائهم، و رفضوا البخل و الکفران، و استطاعوا بفضل الإیمان باللّه أن یتحرروا من الذاتیة و الأهواء الدنیئة و یحلقوا فی أجواء معرفة اسماء اللّه و صفاته و التخلق بالأخلاق الإلهیة.

وَ إِنَّهُ عَلی ذلِکَ لَشَهِیدٌ.

فهو بصیر بنفسه، و أن استطاع أن یخفی سریرته فلا یستطیع أن یخفیها عن اللّه و عن ضمیره، اعتراف بهذه الحقیقة أم لم یعترف.

قیل: إن الضمیر فی (إنّه) یعود إلی اللّه، أی إن اللّه شهید علی وجود صفة الکنود فی الإنسان.

و لکن الآیات السابقة و اللاحقة تحمل ضمائر تعود علی الإنسان. و بذا نستبعد هذا الاحتمال، و إن رجحه کثیر من المفسّرین.

و احتمل بعضهم أن یکون المعنی شهادة الإنسان علی عیوبه و ذنوبه یوم القیامة کما ورد فی مواضع متعددة من القرآن.

و هذا التّفسیر لا یقوم علی دلیل، لأنّ مفهوم الآیة واسع یشغل شهادة الإنسان علی کنوده فی هذه الدنیا أیضا.

صحیح أن الإنسان یعجز أحیانا عن معرفة نفسه، و بذلک یخدع ضمیره، و تصبح الصفات الذمیمة- بتسویل الشیطان و تزیینه- حسنة ممدوحة لدیه. و لکن صفة الکنود و هی الکفران و البخل واضحة إلی درجة لا یستطیع أن یخدع ضمیره و أن یغطی علیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۷

وَ إِنَّهُ لِحُبِّ الْخَیْرِ لَشَدِیدٌ.

أی إنه شدید الحبّ للمال و المتاع.[۳۵۵] و هذا الانشداد المفرط بالمال و الثروة هو سبب هذا البخل و الکفران.

کلمة (الخیر) لها معنی واسع یشمل کل نعمة. کثیر من النعم مثل العلم و المعرفة و التقوی و الجنّة و السعادة لیست مذمومة، و لا ینکر علیها القرآن. لذلک فسر الخیر فی الآیة بأنه (المال). یدل علی ذلک قرینة المقام و الآیة السابقة، و آیات أخری کقوله سبحانه: کُتِبَ عَلَیْکُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَکَ خَیْراً الْوَصِیَّةُ لِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ ۳۵۶].

إطلاق «الخیر» علی المال فی الآیة یعود إلی أن المال فی حد ذاته شیء حسن، و یستطیع أن یکون وسیلة لأنواع الخیرات. لکن الإنسان الکنود یصرفه عن هدفه الأصلی، و ینفقه فی طریق ذاتیاته و أهوائه.

و فی استفهام استنکاری یقول سبحانه:

أَ فَلا یَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِی الْقُبُورِ.

وَ حُصِّلَ ما فِی الصُّدُورِ و انکشف ما فی نفسه من کفر و ایمان، و ریاء و إخلاص و غرور و تواضع و سائر نیات الخیر و الشر.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ یَوْمَئِذٍ لَخَبِیرٌ. نعم، فهو علیهم أعمالهم و نیاتهم و سیجازیهم وفقها.

«بعثر» من «البعثرة» و هی البعث و الإثارة و الإخراج و بعثرة ما فی القبور:

بعث الموتی و إخراجهم من القبور.

«ما» اسم موصول لغیر العاقل عادة، و إنّما قال سبحانه:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۸

ما فِی الْقُبُورِ إمّا لکون الأفراد أمواتا، أو لأنّهم لا یزالون فی حالة إبهام بالنسبة لهویتهم.

و التعبیر بـالقبور لا یتنافی مع عـدم وجود قبر لبعض الأفراد، کالـذین یغرقون فی البحر، أو المندرسـة قبورهم، و المتفرق تراب رفاتهم. لأن أغلب النّاس لهم قبور، أضف إلی ذلک أن القبر یمکن أن یکون له معنی واسع یشمل کل محل فیه تراب جسد الإنسان، و إن لم یکن بشکل قبر اعتیادی.

«حصّیل» من التحصیل، و هـو فی الأصـل یعنی إخراج اللب من القشـر، و کـذلک تصـفیة المعـادن، و اسـتخراج الـذهب و أمثـاله من الخامات. ثمّ استعملت لمطلق الاستخراج و الفصل. و الکلمة فی الآیة تعنی فصل الخیر عن الشر فی القلوب ...

الإیمان عن الکفر، أو الصفات الحسنة عن الصفات السیئة ... أو النوایا الحسنة عن الخبیثة ... تفصل فی ذلک الیوم و تظهر، و ینال کل فرد حسب ذلک جزاؤه. کما قال سبحانه فی موضع آخر: یَوْمَ تُبْلَی السَّرائِرُ[۳۵۷].

و التعبیر بکلمة «یومئذ» یعنی أن اللّه (فی ذلک الیوم) خبیر بأعمال العباد و سرائرهم.

و نعلم أنّ اللّه سـبحانه علیم دائمـا بـذات الصـدور. فـالتعبیر «یومئـذ» هو لأـن ذلـک الیوم یوم الجزاء، و اللّه یجـازیهم علی أعمـالهم و عقائدهم.

هذا التعبیر- کما قال بعض المفسّرین- یشبه قول الذی یهدد شخصا فیقول:

سأعرف ماذا دهاک، فهو یعرف أمره الآن أیضا، و القصد أنه سیریه نتیجة ذلک.

نعم، اللّه سـبحانه علیم و خبیر بأسـرارنا و ما تنطوی علیه نفوسـنا کاملا. لکن أثر هـذا العلم سـیکون أظهر و أوضـح عنـد الجزاء. و هذا التحذیر لو دخل دائرة إیمان البشر لکان سدا منیعا بینهم و بین الذنوب العلنیة و الخفیة، و الخارجیة و الباطنیة،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۳۹۹

و لا یخفی علی أحد ما لهذا الإعتقاد من آثار تربویة.

مسائل:

۱- ارتباط قسم هذه السّورة بأهدافها

من الأسـئلة التی تطرح حول هـذه السّورة سؤال حول الارتباط بین ما فی هذه السّورة من قسم بخیول المجاهدین، و قوله سـبحانه: «إن الإنسان لربه لکنود».

فمواضع القسم فی القرآن یشاهد فیها ارتباط بین القسم و المقسم به.

و فصاحة القرآن و بلاغته تقتضی ذلک.

قـد یکون الارتباط فی هـذه السّورة أن القرآن یقول: ثمة أفراد من بنی الإنسان یضـحّون علی طریق الجهاد و یبذلون النفس و النفیس فی سبیـل اللّه، فکیف و الحـال هـذه یسـتولی علی بعض النّاس البخل و الکفران، فلا یؤدّون فریضـة شـکر النعم و لا یبـذلون فی سبیل اللّه؟! صـحیح أن القسم فی الآیات بالخیل، لکن الخیل إنّما اکتسـبت أهمیتها لأنها مرکب المجاهدین. فالقسم إذن بجهاد المجاهدین. (و هکذا الأمر إذا کان القسم بإبل الحجاج).

و قیل أیضا أن الارتباط المـذکور یحصل بأن هذه الحیوانات تجری علی طریق رضا اللّه، فلما ذا لا تخضع أنت أیّها الإنسان له، و أنت أشرف المخلوقات و أحق من غیرک؟! و المناسبة الأولی أوضح.

۲- هل الإنسان کنود بطبیعته؟

قد یستفاد من قوله سبحانه: إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَکَنُودٌ أن البخل و الکفران

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۰

صفة لازمة لطبیعة الإنسان، فکیف یتناسب هذا مع ما یمتلکه الإنسان من ضمیر یقظ و شعور فطری یدعوه إلی شکر المنعم و إلی التضحیة؟

مثل هذا السؤال یطرح فی المواضع التی تتحدث عن صفة بارزة من صفات الضعف الإنسانی کقوله سبحانه عن الإنسان بأنه ظلوم و جهول ۳۵۸] و إنّه هلوع ۳۵۹] و إنّه یؤوس و کفور[۳۶۰] و إنّه لیطغی ۳۶۱].

فهل نقاط الضعف هذه قائمة فی طبیعة الکائن البشری؟ کیف یمکن أن یکون هذا و القرآن یقول: وَ لَقَدْ کَرَّمْنا بَنِی آدَمَ وَ حَمَلْناهُمْ فِی الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّیِّباتِ وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلًا[۳۶۲] جواب هذا السؤال یتّضح لو عرفنا أن الإنسان له بعدان وجودیان. و لذلک یستطیع فی منحناه الصعودی أن یرتقی إلی أعلی علیین، و فی منحناه النزولی إلی أسفل سافلین.

إذا خضع للتربیة الإلهیة و استلهم نداء العقل، و بنی نفسه کان مصداقا لقوله سبحانه: وَ فَضَّلْناهُمْ عَلی کَثِیرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِیلًا.

و إذا أعرض عن الإیمان و التقوی، و خرج عن خط أولیاء اللّه کان موجودا ظلوما کفارا و یؤوسا و کفورا و هلوعا و کنودا.

من هنا فلا تناقض بین هذه الآیات، و کل منها یشیر إلی واحد من بعدی وجود الإنسان.

نعم، فی داخل فطرة الإنسان تمتد جذور کل الحسنات و المفاخر و الفضائل، کما إن فیه استعدادا لما یقابل هذه الفضائل.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۱

و لذلک لا یوجد فی عالم الخلقة موجود یفصل بین قوسه الصعودی و قوسه النزولی هذا القدر من البون الشاسع. (تأمل بدقّة).

۳- عظمة الجهاد

القرآن تعرض للحدیث عن مسألة الجهاد و عظمة المجاهدین فی سبیل اللّه فی مواضع عدیدة. و لکن الحدیث فی هذه السّورة فرید فی تعظیمه للجهاد إذ عدّ حتی أنفاس خیل المجاهدین و شرر حوافرها و الغبار الذی تثیره عظیمة استحقت أن یقسم بها.

و رکزت الآیات بشکل خاص علی السرعة و العمل الخاطف للمجاهدین باعتباره أحد عوامل النصر فی الحروب، و علی المباغتة باعتبارها عاملا آخر من عوامل الإنتصار فی الحرب.

و کلّ هذه تعالیم فی منهج الجهاد.

و یلفت النظر فی سبب نزول الآیة أنّ علیّا علیه السّلام أمر أن تسرج الخیل فی ظلام اللیل و أن تعدّ إعدادا کاملا، و حینما انفلق الفجر و زالت العتمة صلی بالنّاس الصبح، و شنّ هجومه مباشرة، و ما أن انتبه العدوّ حتی وجد نفسه تحت وطأة خیل جیش الإسلام.

هذه الحملة السریعة المباغتة جعلت إصابات المسلمین أقلّ ما یمکن، و حسمت الحرب خلال ساعات، و هذه المسائل انعکست جمیعا فی آیات هذه السّورة بشکل دقیق رائع.

واضح أنّ محور التکریم فی هذه السّورة لیس الخیل أو شرارة حوافرها أو الغبار المتصاعد من تحت أرجلها بل هو «الجهاد»، ثمّ «عدّته» التی تشمل کلّ أنواع أجهزة الحرب فی أی زمان ... تشمل کلّ أنواع «القوّة» المذکورة بشکل عام مطلق إلی جانب ذکر «رباط الخیل» فی الآیة (۶۰) من سورة الأنفال.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۲

ربّنا! وفقنا للجهاد و التضحية فى سبيل رضاك.

إلهنا! النفس الجامحة تجنح إلى الكفران ... فاحفظنا من أخطارها.

اللّهم! أنت عليم بسرائرنا و خبير بأعمالنا ما ظهر منها و ما بطن فارفق بنا بلطفك و فضلك يا أرحم الراحمين.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة و العاديات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۳

سورة القارعة

اشارة

مكيّة و عدد آياتها إحدى عشرة آية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۵

«سورة القارعة»

محتوى السّورة:

تتناول هذه السّورة بشكل عام المعاد، و مقدماته، بتعابير حادّة، و بيان مؤثر، و إنذار صريح و واضح، حيث تصنّف النّاس يوم القيامة، إلى صنفين أو جماعتين:

الجماعة التى تكون أعمالها ثقيلة فى ميزان العدل الإلهى، فتحظى جزاء بذلك، حياة راضية سعيدة فى جوار الرحمة الإلهية، و جماعة أعمالها خفيفة الوزن، فتعيش فى نار جهنم الحارّة المحرقة.

و قد أشتقّ اسم هذه السّورة، أى (القارعة) من الآية الاولى فيها.

فضيلة السّورة:

يكفى فى فضيلة هذه السّورة أن نقرأ الحديث الشريف

المروى عن الإمام الباقر عليه السّلام: «من قرأ القارعة آمنه اللّه من فتنة الدّجال أن يؤمن به، و من قيح جهنم يوم القيامة إن شاء اللّه»[۳۶۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۶

الآيات [سورة القارعة (۱۰۱): الآيات ۱ الى ۱۱]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (۱) مَا الْقارِعَةُ (۲) وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (۳) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (۴)

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (۵) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (۶) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (۷) وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (۸) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (۹)

وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ (۱۰) نارٌ حامِيَةٌ (۱۱)

التّفسير

الحادثة القارعة:

هذه الآيات تصف القيامة و تقول:

الْقارِعَةُ ... مَا الْقارِعَةُ؟! «القارعة» من القرع، و هو طرق الشيء بالشيء مع إحداث صوت شديد.

و سمّيت العصا و المطرقة بالمقرعة لهذه المناسبة. بل سمّيت كلّ حادثة هامّة صعبة بالقارعة. (تاء التأنيث قد تكون إشارة للتأكيد).

الآية الثّالثة تخاطب حتى النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و تقول له: وَ ما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۷

و هذا يدل على أنّ عظمة هذه الحادثة القارعة إلى درجة لا تخطر على فكر أحد.

على أى حال، أكثر المفسّرين ذكروا أنّ «القارعة» أحد أسماء القيامة، و لكن لم يوضحوا هل أنّه اسم لمقدمات القيامة إذ تقرع هذه الدنيا، و ينطفئ نور الشمس و القمر، و تغور البحار، إذا كانت القارعة هذه فوجه تسميتها واضح.

أو إنّه اسم للمرحلة التالية .. أى مرحلة احياء الموتى، و ظهور عالم جديد، و تسميتها «القارعة»- فى هذه الحالة- لما تبعثه من خوف و ذعر فى القلوب ..

الآيات التالية بعضها يتناسب مع حادثة انهدام العالم، و بعضها مع إحياء الموتى، و لكن الاحتمال الأوّل أنسب، و إن ذكرت الحادثتان كلاهما فى هذه الآيات متتابعتين. (مثل كثير من المواضع القرآنية الاخرى التى تخبر عن يوم القيامة) و فى وصف ذلك اليوم العجيب يقول سبحانه:

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ

«الفراش» جمع فراشة، و هى الحشرة المعروفة ذات الألوان الزاهية، و قيل إنّها الجراد. و يبدو أنّ هذا المعنى مستلهم من قوله تعالى حيث يصف النّاس يوم القيامة كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ[۳۶۴]، لكن المعنى اللغوى للكلمة هو الحشرة المعروفة.

و التشبيه بالفراش قد يكون لأن هذه الحشرات تلقى بنفسها بشكل جنونى فى النّار، و هذا ما يفعله أهل السيئات إذ يلقون بأنفسهم فى جهنّم.

و يحتمل أن يكون التشبيه لما يصيب جميع النّاس فى ذلك اليوم من حيرة.

و إن كان الفراش بمعنى الجراد فوجه التشبيه هو إنّ الجراد- خلافا لكل الحيوانات التى تطير بشكل جماعى- ليس لها مسير مشخص فى حركتها، و كل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۸

منها يطير فى اتجاه.

و يطرح هنا السؤال أيضا بشأن مشاهد الحيرة و التشتت و الفزع و الاضطراب، هل هى من أثر الحوادث المرعبة المرافقة لنهاية العالم، أم حوادث بدء القيامة و الحشر و النشر؟ جواب السؤال يتّضح ممّا ذكرناه أعلاه.

ثمّ تذكر الآية التالية وصفا آخر لذلك اليوم و تقول:

وَ تَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

و «العهن» هو الصوف المصبوغ.

و «المنفوش» هو المنشور و يتمّ ذلك عادة بآلة الحلج الخاصّة.

سبق أن ذكرنا أنّ القرآن الكريم فى مواضع متعددة يتحدث عن الجبال عند قيام القيامة بأنّها تتحرك أوّلا، ثمّ تدكّ و تتلاشى و أخيرا تصبح بشكل غبار متطاير فى السماء. و هذه الحالة الأخيرة تشبهها الآية بالصوف الملون المحلوج ...

الصوف المتطاير فى مهبّ الريح، لم يبق منه إلّا ألوان ... و هذه آخر مراحل انهدام الجبال.

هذا التعبير (العهن المنفوش) قد يكون إشارة إلى الألوان المختلفة للجبال، فإنّ لها ألوان شتّى.

هذه العبارة تدل على أنّ الآيات أعلاه، تتحدث عن المرحلة الاولى للقيامة و هى مرحلة العالم و نهايته. ثمّ تتطرق الآيات التالية إلى الحشر و النشر و إحياء الموتى و تقسيمهم إلى مجموعتين:

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ أى إن ميزان عمله ثقيل.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ، وَ أَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ، فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ، وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ ۳۶۵] نارٌ حامِيَةٌ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۰۹

«موازين» جمع ميزان، و هو وسيلة للوزن، تستعمل فى وزن الأجسام، ثمّ استعملت فى المعايير المعنوية.

و ذهب بعضهم إلى أنّ أعمال الإنسان تتجسم فى ذلك اليوم، و تصبح قابلة للوزن، و توزن حقيقة بميزان الأعمال.

و قيل أيضا أنّ صحيفة أعمال الفرد هى التى توزن، فإن كانت تحمل صالحا ثقلت، و إلّا خفت أو انعدم وزنها.

و فى الواقع، ليس من الضرورى أن يكون الميزان هو الآلة المعروفة ذات الكفتين، بل هو كلّ وسيلة لتقويم الوزن، كما ورد فى الحديث: «إنّ أمير المؤمنين و الأئمّة من ذريّته عليهم السّلام هم الموازين»[۳۶۶].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام حين سئل عن معنى الميزان قال: «الميزان العدل»[۳۶۷].

و بهذا نفهم أنّ أولياء اللّه و قوانين العدل الإلهى هى موازين يعرض عليها النّاس و أعمالهم و يتمّ قياس الوزن على مقدار الشبه و المطابقة.

واضح أنّ المقصود بثقل الموازين و خفتها هو ثقل الأشياء التى توزن بها و خفة تلك الأشياء.

و التعبير بكلمة (موازين) بصيغة الجمع يعود إلى أن كل واحد من أولياء اللّه و كل قانون من القوانين الإلهية إنّما هو ميزان. أضف إلى ذلك أن تنوع مواصفات الكائن البشرى و أعماله يحتاج إلى تنوع فى الموازين.

الراغب فى المفردات يقول:

و ذكر فى مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتبارا بالمحاسب (بكسر السين) و فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۰

مواضع الجمع اعتبارا بالمحاسبين ۳۶۸] (بفتح السين).

بعض المفسّرين قال: إنّ الموازين جمع الموزون، أى العمل الذى يوزن فثقل الموازين و خفتها إذن هو ثقل نفس الأعمال و خفتها. لا ثقل الميزان و خفته ۳۶۹].

نتيجة الإثنين طبعا واحدة، و لكن من طريقين مختلفين.

فى هذا الموضوع شرح أكثر فصلناه فى تفسير الآيتين ۸ و ۹ من سورة الأعراف، و الآية (۱۰۵) من سورة الكهف، و الآية (۱۰۲) من سورة المؤمنون.

وصف العيشة بأنّها «راضية» وصف رائع عن حياة ملؤها النعمة و رغد العيش لأهل الجنّة فى القيامة. الرضا فى تلك الحياة عميق إلى درجة قال إنّها «عيشة راضية»، و لم يقل «مرضية». أى استعمل بدل اسم المفعول اسم الفاعل لمزيد من التأكيد[۳۷۰].

هذه ميزة الحياة الآخرة بشكل خاص. لأنّ الحياة الدنيا- مهما كان فيها من رفاه و نعمة و رغد عيش و رضا- لا تخلو من المكدرات.

الحياة الأخرى هى وحدها المليئة بالرضا و الأمن و السلام و هدوء البال.

كلمـة «أم» فى قوله: فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ تعنى المأوى و الملجأ، لأنّ «الأم» هى مأوى ابنائها و ملاذهم، و يكون معنى الآيـة: إنّ هؤلاء المـذنبين الذين خفت موازينهم لا ملاذ لهم سوى جهنم، و ويل لمن كان ملجؤه جهنم.

و قيل: «أم» تعنى «الـدماغ»، لأنّ العرب تطلق على الـدماغ اسم «أم الرأس» و يكون معنى الآية أنّ رؤوس هؤلاء هاوية فى جهنم، بعبارة اخرى إنّ هؤلاء يلقون على رؤوسهم فى نار جهنم. و نستبعد هذا الاحتمال، لعدم انسجامه مع الآية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۱

التالية: وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ .

«هاوية» من (هوى)، أى سقط، و الهاوية اسم لجهنّم لأنّها محل سقوط المذنبين. و هى إشارة أيضا إلى عمق نار جهنم.

و إذا اعتبرنا (أم) بمعنى دماغ فتكون هاوية بمعنى ساقطة. و التّفسير الأوّل أصح و أنسب.

«حامية» من (حمى)- على وزن نفى- و هو شدّة الحرارة. و «حامية» هنا إشارة إلى قدرة نار جهنم على الإحراق.

و قوله سبحانه: وَ ما أَدْراكَ ما هِيَهْ، نارٌ حامِيَةٌ تأكيد على شدّة عذاب نار جهنم و على أنّها فوق تصور كلّ البشر.

بحث

سبب ثقل ميزان الأعمال:

الأعمال الصالحات هى دون شك متفاوتة فى قيمتها و وزنها. من هنا فالنصوص الإسلامية ركزت على بعض الأعمال أكثر من غيرها و اعتبرتها سببا لثقل ميزان الأعمال يوم القيامة.

من ذلك

حـديث عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم قـال فى تفسـير لا- إله إلّا اللّه: «يعنى بوحـدانيته، لا يقبل اللّه الأعمال إلّا بها، و هى كلمة التقوى، يثقل اللّه بها الموازين يوم القيامة»[۳۷۱].

و

عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام قال حول الشهادتين: «خف ميزان ترفعان منه، و ثقل ميزان توضعان فيه»[۳۷۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۲

و

عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السّلام: «ما فى الميزان شىء أثقل من الصلاة على محمّد و آل محمّد» ...

ثمّ يقول فى ذيل الرّواية: و إن الرجل لتوضع أعماله فى الميزان فيميل به فيخرج الصلاة فيضعها فى ميزانه فيرجح.[۳۷۳] و

عن الامام الباقر عليه السّلام قال: «من كان ظاهره أرجح من باطنه خف ميزانه»[۳۷۴].

و نختتم هذه الرّوايات بقول لسـلمان الفارسـى تلميذ مدرسة الوحى جوابا لرجل استهدف اهانته و قال له: من أنت، و ما قيمتك! فقال: «أمّا أولى و أولك فنطفـة قـذرة، و أمّا أخرى و أخرك فجيفـة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، و نصـبت الموازين، فمن ثقلت موازينه فهو الكريم، و من خفت موازينه فهو اللئيم»[۳۷۵].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۴۱۲

لّهمّ! اجعل میزان عملنا ثقیلا بحبّ محمّد و آل محمّد.

ربّنا! ما بوسعنا أن نصل إلی «عیشة راضیة» إلّا بلطفک و کرمک ... فأعنّا بفضلک علی هذا الطریق.

إلهنا! نار جهنّم حامیة ... و لا طاقة لنا بها فأطفئ لظاها لنا بماء رحمتک و کرمک.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة القارعة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۳

سورة التّکاثر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثمانی آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۵

«سورة التّکاثر»

محتوی السّورة:

یعتقد کثیر من المفسّرین أنّ هذه السّورة نزلت فی مکّة، و ما فیها من ذکر للتفاخر و التکاثر إنّما یرتبط بقبائل قریش التی کانت تتباهی علی بعضها بأمور وهمیّة.

و بعضهم- کالمرحوم الطبرسی فی مجمع البیان- یری أنّها مدنیة، و ما فیها من ذکر للتفاخر قد ورد بشأن الیهود أو طائفتین من الأنصار، لکن مکیتها أصح لشبهها الکبیر بالسور المکّیة.

هذه السّورة تتناول فی مجموعها تفاخر الأفراد علی بعضهم استنادا إلی مسائل موهومة، و تذم ذلک و تلوم علیه، ثمّ تحذرهم من حساب المعاد و عذاب جهنم و ممّا سیسألون یوم ذاک عن النعم التی منّ اللّه بها علیهم.

اسم السّورة مستل من الآیة الأولی فیها.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها لم یحاسبه اللّه بالنعیم الذی أنعم علیه فی دار الدنیا، و أعطی من الأجر کأنّما قرأ ألف آیة»[۳۷۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۶

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «قراءة هذه السّورة فی الفریضة و النافلة یعادل ثواب شهادة شهید»[۳۷۷].

واضح أنّ کلّ هذا الثواب إنّما هو لمن یقرأها و لمن یطبقها فی برنامج حیاته و یتفاعل معها روحیا و نفسیا.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۷

الآیات [سورة التکاثر (۱۰۲): الآیات ۱ الی ۸]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (۱) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (۲) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (۴)
كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (۵) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (۶) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (۷) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (۸)

سبب النّزول

المفسّرون- كما أشرنا- يعتقدون أنّ السّورة نزلت فى قبائل كانت تتفاخر على بعضها بكثرة الأموال و الأنفس حتى أنّها كانت تذهب إلى المقابر و تعدّ موتاها لترفع احصائية أفراد القبيلة.
بعضهم قال: إنّ المقصود قبيلتان من قريش فى مكّة، و بعضهم قال إنّهما قبيلتان من قبائل الأنصار فى المدينة، و قيل: إنّه إشارة إلى تفاخر اليهود على غيرهم، و يبدو أن الأوّل أصح لمكان مكّية هذه السّورة.
سبب النزول- مهما كان- فهو لا يحد قطعا معنى الآية.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۸

التّفسير

بلاء التكاثر و التفاخر:

الآيات الاولى توجّه اللوم إلى المتكاثرين المتفاخرين و تقول:
أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ فى الأنفس و الأموال.
حتى إنّكم ذهبتم إلى المقابر لتستكثروا أفراد قبيلتكم: حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ.
و احتمل بعض المفسّرين فى تفسير الآية أنّ المعنى هو: إنّكم انشغلتم بالتكاثر و التفاخر حتى لحظة موتكم و ورودكم إلى المقابر.
لكن المعنى الأوّل أكثر انسجاما مع عبارة حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ و مع سبب النزول، و خطبة نهج البلاغة كما سنشير إلى ذلك.
«ألهاكم» من «اللهو» و هو الانشغال بالأعمال الصغيرة و الانصراف عن المهام الكبيرة. و الراغب يفسّر اللهو بالعمل الذى يشغل الإنسان و يصرفه عن مقاصده و أهدافه.
«التكاثر» يعنى التفاخر و المباهاة «زرتم» من الزيارة و «زور» (على وزن قول) فى الأصل بمعنى أعلى الصدر، ثمّ استعمل للقاء و المواجهة. و «زور» (على وزن قمر) بمعنى انحراف أعلى الصدر، و الكذب لانحرافه عن الحق سمّى (زورا)- على وزن نور-.
«المقابر» جمع مقبرة، و هى مكان دفن الميت. و زيارة المقابر إمّا أن تكون كناية عن الموت. أو بمعنى الذهاب إلى المقابر و إحصاء الموتى بهدف التكاثر فى الأنفس و التفاخر بالعدد (حسب التّفسير المشهور).
و ذكرنا أن المعنى الثّانى أصح. و أحد شواهده
كلام لأمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السّلام، بعد أن تلا: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ قال:
«يا له أمر ما أبعده! و زورا ما أغفله! و خطرا ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أى مدّكر و تناوشوهم من مكان بعيد. أ فبمصارع آبائهم يفخرون؟! أو بعديد الهلكى

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۱۹

یتکاثرون؟! یرتجعون منهم أجسادا خوت، و حرکات سکنت، و لأن یکونوا عبرا أحق من أن یکونوا مفتخرا!!»[۳۷۸].

هذه الخطبة قسم من خطبة عظیمة یقول عنها ابن أبی الحدید المعتزلی:

«و أقسم بمن تقسم الأمم کلّها به؛ لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسین سنة و إلی الآن أکثر من ألف مرّة، ما قرأتها قط إلّا و أحدثت عندی روعة و خوفا و عظة، و أثرت فی قلبی وجیبا، و فی أعضائی رعدة، و لا تأملتها إلّا و ذکرت الموتی من أهلی و أقاربی، و أرباب ودی، و خیلت فی نفسی أنّی أنّا ذلک الشخص الذی وصف علیه السلام حاله.

و کم قد قال الواعظون و الخطباء و الفصحاء فی هذا المعنی! و کم وقفت علی ما قالوه و تکرر وقوفی علیه! فلم أجد لشیء منه مثل تأثیر هذا الکلام فی نفسی؛ فإمّا أن یکون ذلک لعقیدتی فی قائله، أو کانت نیة القائل صالحة، و یقینه کان ثابتا، و إخلاصه کان محضا خالصا، فکان تأثیر قوله فی النفوس أعظم و سریان موعظته فی القلوب أبلغ»[۳۷۹].

و یقول فی مکان آخر: «ینبغی لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة فی مجلس و تلی علیهم أن یسجدوا» ثمّ یشیر إلی قول معاویة حول فصاحة الإمام علی علیه السّلام:

«و اللّه ما سنّ الفصاحة لقریش غیره».

الآیات التالیة فیها تهدید شدید لهؤلاء المتکاثرین، تقول: کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ فلیس الأمر کما ترون، و به تتفاخرون. بل سوف تعلمون عاجلا نتیجة هذا التکاثر الموهوم.

لمزید من التأکید یقول سبحانه: ثُمَّ کَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ

جمع من المفسّرین ذهبوا إلی أنّ الآیتین تکرار لموضوع واحد و تأکید علیه.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۰

و کلتاهما تشیران إلی العذاب الذی ینتظر هؤلاء المتکاثرین المتفاخرین.

و بعضهم قال: إنّ الأولی إشارة إلی عذاب القبر و البرزخ و الثّانیة إلی عذاب القیامة.

و

روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «ما زلنا نشک فی عذاب القبر حتی نزلت ألهاکم التکاثر، إلی قوله: کلا سوف تعلمون، یرید فی القبر، ثمّ کلا سوف تعلمون، بعد البعث»[۳۸۰].

فی التّفسیر الکبیر للفخر الرازی عن زر بن حبیش أحد أصحاب الإمام علی علیه السّلام قال: کنّا فی شک فی عذاب القبر حتی سألنا علیّا فأخبرنا أن هذه الآیة دلیل علی عذاب القبر.

کَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْیَقِینِ کلا لیس الأمر کما تظنون أیّها المتفاخرون المتکاثرون. فلو إنّکم تعلمون الآخرة علم الیقین، لما اتجهتم إلی التفاخر و المباهاة بهذه المسائل الباطلة.

و لمزید من التأکید و الإنذار تقول لهم الآیات التالیة:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِیمَ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَیْنَ الْیَقِینِ، ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ فی ذلک الیوم علیکم أن توضحوا کیف أنفقتم تلک النعم الإلهیة. و هل استخدمتموها فی طاعة اللّه أم فی معصیته، أم أنّکم ضیعتم النعمة و لم تؤدّوا حقّها؟

بحوث

۱- منبع التفاخر و التکاثر

من آیات السّورة یتبیّن أنّ أحد العوامل الأساسیة للتفاخر و التکاثر و المباهات هو الجهل بجزاء الآخرة و عدم الإیمان بالمعاد.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۱

کما إنّ جهل الإنسان بضعفه و مسکنته ... ببدایته و نهایته ... من العوامل الاخری الباعثة علی الکبر و الغرور و التفاخر. و لهذا فإنّ القرآن الکریم بهدف کسر روح التفاخر و التکاثر فی الأفراد، یقصّ علینا فی مواضع کثیرة مصیر الأقوام السالفة، و کیف إنّها کانت تمتلک کلّ وسائل القوّة و المنعة، لکنّها أبیدت بوسائل بسیطة ... بالریح ... بالصاعقة ... بالزلزال ... بالسیل ... بعبارة اخری بالماء و الهواء و التراب .. و أحیانا بالسجّیل و بطیر أبابیل!! فلم- و الحال هذه- کلّ هذا التفاخر و الغرور؟! ثمّ عامل آخر لهذه الظاهرة هو الإحساس بالضعف و عقدة الحقارة الناتجة عن الفشل. و الأفراد الفاشلون من أجل أن یغطوا علی فشلهم یلجأون إلی الفخر و المباهات و لذلک

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال: «ما من رجل تکبر أو تجبّر إلّا لذلة وجدها فی نفسه»[۳۸۱].

و

عن الإمام محمّد بن علی الباقر علیه السّلام قال: «ثلاثة من عمل الجاهلیة: الفخر بالأنساب، و الطعن بالأحساب و الاستسقاء بالأنواء (طلب الماء بواسطة النجوم)»[۳۸۲].

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «أهلک النّاس اثنان: خوف الفقر، و طلب الفخر»[۳۸۳].

و الحق أنّ أهم عوامل الحرص و البخل و الخلود إلی الدنیا و المنافسات المخربة، و کثیر من المفاسد الاجتماعیة هو هذا الخوف الوهمی من الفقر و التفاخر و التعالی بین الأفراد و الأمم و القبائل.

و لذا

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «ما أخشی علیکم الفقر و لکن أخشی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۲

علیکم التکاثر»[۳۸۴].

«التکاثر» کما أشرنا یعنی فی الأصل التفاخر، و لکنّه یعنی أحیانا حبّ الاستزادة من المال و جمعه، کما

ورد فی الحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «التکاثر فی الأموال: جمعها من غیر حقّها، و منعها من حقها، و شدّها فی الأوعیة»[۳۸۵].

هذا البحث الموسّع نختمه

بحدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی تفسیر أَلْهاکُمُ التَّکاثُرُ قال:

«یقول ابن آدم: مالی مالی؛ و ما لک من مالک إلّا ما أکلت فأفنیت، أو لبست فأبلیت، أو تصدقت فأمضیت»[۳۸۶].

نعم، حقّا لا یعود علی الإنسان شیء من ماله الذی جمعه و عدده، و تساهل- أحیانا- فی حلاله و حرامه، إلّا ما یأکل و یشرب و یلبس، أو ما ینفقه فی سبیل اللّه و ما ینفقه علی الاحتیاجات الشخصیة قلیل، فما أفضل أن یزید حظه من ماله بالإنفاق!

۲- الیقین و مراحله

«الیقین» یقابل «الشک»، کما إنّ «العلم» یقابل «الجهل»، و الیقین یعنی وضوح الشیء و ثبوته. و یستفاد من الرّوایات أنّ الیقین هو أعلی

مراحل الإيمان.

الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام يجعل الإيمان أعلى من الإسلام درجة، و التقوى أعلى من الإيمان درجة، و اليقين أعلى من التقوى درجة ثمّ

يقول: «و لم يقسم بين النّاس شىء أقل من اليقين».

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۳

و

يسأل الراوى: ما هو اليقين؟ يقول: «التوكل على اللّه، و التسليم للّه، و الرضا بقضاء اللّه، و التفويض إلى اللّه!»[۳۸۷].

علوّ مقام اليقين على مقام التقوى و الإيمان و الإسلام أكدت عليه روايات أخرى ۳۸۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «من صحة يقين المرء المسلم أن لا يرضى النّاس بسخط اللّه، و لا يلومهم على ما لم يؤته اللّه ... إنّ اللّه بعدله و قسطه جعل الروح و الراحة فى اليقين و الرضا، و جعل الهم و الحزن فى الشك و السخط».

و من هذه النصوص و أمثالها نفهم جيدا أنّ الإنسان- حين يصل إلى مقام اليقين- تغمر قلبه و روحه طمأنينة خاصّة.

و مع هذا، فلليقين مراتب، أشارت إليها الآية أعلاه و الآية (۹۵) من سورة الواقعة: إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ و هى ثلاثة:

۱- علم اليقين: و هو الذى يحصل للإنسان عند مشاهدته الدلائل المختلفة، كأن يشاهد دخانا فيعلم علم اليقين أن هناك نارا.

۲- عين اليقين: و هو يحصل حين يصل الإنسان إلى درجة المشاهدة كأن يرى بعينه مثلا النّار.

۳- حقّ اليقين: و هو كأن يدخل الإنسان النّار بنفسه و يحسّ بحرقتها، و يتصف بصفاتها. و هذه أعلى مراحل اليقين.

يقول المحقق الطوسى: اليقين اعتقاد جازم مطابق ثابت، لا يمكن زواله، و هو فى الحقيقة مؤلف من علمين، العلم بالمعلوم و العلم بأن خلاف ذلك العلم محال،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۴

و له مراتب: علم اليقين، و عين اليقين، و حقّ اليقين ۳۸۹].

إنّه ذكر عند النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أنّ بعض أصحاب عيسى عليه السّلام كان يمشى على الماء

فقال صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «لو كان يقينه أشدّ من ذلك لمشى على الهواء»

فالحديث- كما ترى- يومئ إلى أنّ الأمر يدور مدار اليقين باللّه سبحانه و محو الأسباب الكونية عن الاستقلال فى التأثير، فإلى أى مبلغ بلغ ركون الإنسان إلى القدرة المطلقة الإلهية انقادت له الأشياء على قدره ۳۹۰].

۳- الجميع يرى جهنم

الآية الكريمة: لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ لها تفسيران:

الأوّل: إنّها تتحدث عن مشاهدة الجحيم فى الآخرة، و هو خاص بالكفّار، أو لعامة الجن و الإنس، إذ تنص بعض الآيات على أنّه ما من أحد إلّا وارد جهنّم.

الثّانى: إنّها تتحدث عن الشهود القلبى فى عالم الدنيا. و فى هذه الحالة تكون الآية جوابا لقضية شرطية هى: لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم (فى هذه الدنيا بعين بصيرتكم). لأنّ الجنّة و جهنّم مخلوقان، و لهما الآن وجود خارجى.

و لكن- كما ذكرنا- التّفسير الأوّل أنسب مع الآيات التالية التى تتحدث عن يوم القيامة. من هنا، فالقضية قطعية و ليست شرطية.

۴- أیّ نعیم یسأل عنه یوم القیامة؟

الآیة الأخیرة من السّورة تقول: ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ یَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِیمِ قیل إنّ النعیم المسؤول عنه هو نعمة السلامة، و فراغ البال، و قیل: إنّه الصحة و السلامة و الأمن،

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۵

و قیل: الآیة تشمل کل هذه النعم.

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «النعیم: الرّطب، و الماء البارد».

و روی أنّ أبا حنیفة سأل الإمام جعفر بن محمّد الصادق عن تفسیر هذه الآیة قال الإمام: «ما النعیم عندک یا نعمان» قال: القوت من الطعام و الماء البارد، فقال علیه السّلام «لئن أوقفک اللّه یوم القیامة بین یدیه حتی یسألک عن کلّ أکلة أکلتها و شربة شربتها لیطولن وقوفک بین یدیه». قال: فما النعیم جعلت فداک؟ قال الامام: «نحن أهل البیت النعیم الذی أنعم اللّه بنا علی العباد و بنا ائتلفوا بعد أن کانوا مختلفین و بنا ألّف اللّه بین قلوبهم و جعلهم إخوانا بعد أن کانوا أعداء و بنا هداهم اللّه للإسلام و هی النعمة التی لا تنقطع و اللّه سائلهم عن حقّ النعیم الذی أنعم اللّه به علیهم و هو النّبی و عترته»[۳۹۱].

من کلّ هذه الرّوایات- التی یبدو أنّها مختلفة فی ظاهرها- نفهم أنّ النعیم له معنی واسع جدّا یشمل کلّ المواهب الإلهیة المعنویة منها مثل: الدین و الإیمان و الإسلام و القرآن و الولایة، و أنواع النعم المادیة الفردیة منها و الاجتماعیة. بید أن النعم التی لها أهمیّة أکبر مثل: نعمة «الإیمان و الولایة» یسأل عنها أکثر. هل أدّی الإنسان حقّها أم لا؟ و الرّوایات التی تنفی شمول الآیة للنعم المادیة یظهر أنّها ترید أن تقول: لا ینبغی أن نترک المصادیق الأهم للآیة و نتمسک بالمصادیق الأصغر. إنّه تحذیر- فی الواقع- إلی النّاس بشأن سلسلة مراتب المواهب و النعم الإلهیة، و بأنّهم یتحملون إزاءها مسئولیة ثقیلة.

و کیف یمکن أن لا یسأل عن هذه النعم؟ و هی ثروة کبیرة و هبت للبشریة یجب أن تقدر کل واحدة منها حقّ قدرها و أن یؤدّی شکرها، و أن یستثمر کل منها

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۶

فی موضعها.

اللّهمّ! أدم علینا نعمک التی لا تحصی، خاصّة نعمة الإیمان و الولایة.

ربّنا! وفقنا لأداء حق کل هذه النعم.

إلهنا! زد علینا من نعمک الکبری، و لا تسلبها منا أبدا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة التکاثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۷

سورة العصر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۲۹

«سورة و العصر»

محتوى السّورة:

المعروف أنّ هذه السّورة مكّية، و احتمل بعضهم أنّها مدنية. و يشهد على مكّيتها لحنها و مقاطعها القصيرة.
شمولية هذه السّورة تبلغ درجة حدت ببعض المفسّرين إلى أن يرى فيها خلاصة كل مفاهيم القرآن و أهدافه. بعبارة اخرى: هذه السّورة- رغم قصرها- تقدم المنهج الجامع و الكامل لسعادة الإنسان.
تبدأ السّورة من قسم عميق المحتوى بالعصر. و سيأتى تفسيره. ثمّ تتحدث عن خسران كلّ أبناء البشر خسرانا قائما فى طبيعة حياتهم التدريجية. ثمّ تستثنى مجموعة واحدة من هذا الأصل العام، و هى التى لها منهج ذو أربع مواد:
الإيمان، و العمل الصالح، و التواصى بالحق، و التواصى بالصبر، و هذه الأصول الأربعة هى فى الواقع المنهج العقائدى و العملى الفردى و الاجتماعى للإسلام.

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ «و العصر» فى نوافله بعثه اللّه يوم القيامة مشرقا وجهه، ضاحكا سنّه، قريرة عينه، حتى
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۰
يدخل الجنّة»[۳۹۲].
و واضح أنّ كل هذه الفضيلة و هذه البشرى نصيب من طبق الأصول الأربعة المذكورة فى حياته، لا أن يقنع فقط بقراءتها.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۱

الآيات [سورة العصر (۱۰۳): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
وَ الْعَصْرِ (۱) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (۲) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ (۳)

التّفسير

طريق النجاة الوحيد:

فى بداية هذه السّورة نواجه قسما قرآنيا جديدا، يقول سبحانه:
وَ الْعَصْرِ.
كلمة (العصر) فى الأصل الضغط، و إنّما اطلق على وقت معين من النهار لأنّ الأعمال فيه مضغوطة. ثمّ أطلقت الكلمة على مطلق الزمان و مراحل تاريخ البشرية، أو مقطع زمانى معين، كأن نقول عصر صدر الإسلام. و لذلك ذكر المفسّرون فى معنى العصر احتمالات

كثيرة:

۱- قيل: إنّه وقت العصر من النهار، بقرينة وجود مواضع اخرى أقسم اللّه فيها بأوّل النهار كقوله تعالى: وَ الضُّحى ۳۹۳] أو وَ الصُّبْحِ إِذا أَسْفَرَ[۳۹۴].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۲

و إنّما أقسم بالعصر لأهميته، إذ هو فى وقت من النهار يحدث فيه تغيير فى نظام المعيشة و حياة البشر، الأعمال اليومية تنتهى، و الطيور تعود إلى أوكارها، و قرص الشمس يميل إلى الغروب، و يتجه الجو إلى أن يكون مظلما بالتدريج.

هذا التغيير يلفت نظر الإنسان إلى قدرة اللّه المطلقة فى نظام الكون، و هو فى الواقع أحد علامات التوحيد، و أية من آيات اللّه تستحق أن يقسم بها.

۲- قيل: إنّه كلّ الزمان و تاريخ البشرية المملوء بدروس العبرة، و الأحداث الجسيمة. و هو لذلك عظيم يستحق القسم الإلهى.

۳- بعضهم قال: إنّه مقطع خاص من الزمان مثل عصر البعثة النبوية المباركة، أو عصر قيام المهدى المنتظر عليه السّلام، و هى مقاطع زمنية ذات خصائص متميزة و عظمة فائقة فى تاريخ البشر. و القسم فى الآية إنّما هو بتلك الأزمنة الخاصّة[۳۹۵].

۴- بعضهم عاد إلى الأصل اللغوى للكلمة، و قال إنّ القسم فى الآية بأنواع الضغوط و المشاكل التى تواجه الإنسان فى حياته، و تبعث فيه الصحوة و توقظه من رقاده، و تذكره باللّه سبحانه، و تربّى فيه روح الاستقامة.

۵- قيل: إنّها إشارة إلى «الإنسان الكامل» الذى هو فى الواقع عصارة عالم الوجود و الخليقة.

۶- و أخيرا قيل إنّ الكلمة يراد بها صلاة العصر، لأهميتها الخاصّة بين بقية الصلوات، لأنّها (الصلاة الوسطى) التى أمر اللّه أن يحافظ عليها خاصّة.

مع أنّ التفاسير أعلاه غير متضادة، و يمكن أن تجتمع كلّها فى معنى الآية، و يكون القسم بكل هذه الأمور الهامّة، و لكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان و تاريخ البشرية. لأنّ القسم القرآنى- كما ذكرنا مرارا- يتناسب مع الموضوع الذى أقسم اللّه من أجله و من المؤكّد أن خسران الإنسان فى الحياة ناتج عن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۳

تصرّم عمرهم، أو أنّه عصر بعثة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، لأنّ المنهج ذا المواد الأربع فى ذيل هذه السّورة نزل فى هذا العصر.

تتّضح ممّا سبق عظمة آيات القرآن و سعة مفاهيمها. فكلمة واحدة تحمل من المعانى العميقة ما يجعلها صالحة لكل هذه التفاسير المتنوعة.

الآية التالية تحمل الموضوع الذى جاء القسم من أجله، يقول سبحانه:

إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ الإنسان يخسر ثروته الوجودية شاء أم أبى. تمرّ الساعات و الأيّام و الأشهر و الأعوام من عمر الإنسان بسرعة، تضعف قواه المادية و المعنوية، تتناقص قدرته باستمرار.

نعم، إنّه كشخص عنده ثروة عظيمة، و هذه الثروة يؤخذ منها كلّ يوم شىء باستمرار رغم إرادته، هذه طبيعة الحياة الدنيوية ... طبيعة الخسران المستمر! القلب له قدرة معينة على الضربان، و حين تنفد هذه القدرة يتوقف القلب تلقائيا دون علّة من عيب أو مرض. هذا إذا لم يكن توقف الضربان نتيجة مرض.

و هكذا سائر الأجهزة الوجودية للإنسان، و ثروات قدراته المختلفة.

«خسر» و خسران، كما يقول الراغب، انتقاص رأس المال، و ينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال خسر فلان، و إلى الفعل فيقال: خسرت تجارته. قال تعالى: تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ. و يستعمل ذلك فى المقتنيات الخارجية كالمال و الجاه فى الدنيا و هو الأكثر، و فى

المقتنیات النفسیة کالصحة و السلامة و العقل و الإیمان و الثواب، و هو الذی جعله اللّه تعالی الخسران المبین، و قال: «الذین خسروا أنفسهم و أهلیهم یوم القیامة، ألا ذلک هو الخسران المبین»[۳۹۶].

الفخر الرازی فی تفسیر هذه الآیة ینقل عن أحد الصالحین ما ملخصه أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۴

تعلم معنی هذه الآیة الکریمة من بائع ثلج کان یصیح و یقول: ارحموا من یذوب رأس ماله، ارحموا من یذوب رأس ماله ۳۹۷] علی أی حال، الدنیا فی المنظور الإسلامی سوق تجارة. کما

یقول الإمام علی بن محمّد الهادی علیه السّلام: «الدنیا سوق ربح فیها قوم و خسر آخرون»[۳۹۸]

الآیة الکریمة التی نحن بصددها تقول: کلّ النّاس فی هذه السوق الکبری خاسرون إلّا مجموعة تسیر علی المنهج الذی تبیّنه الآیة التالیة.

نعم، هناک طریق واحد لا غیر لتفادی هذا الخسران العظیم القهری الإجباری، و هو الذی تبیّنه آخر آیات هذه السّورة.

إِلَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ تَواصَوْا بِالْحَقِّ وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ بعبارة اخری: ما یستطیع أن یحول دون هذا الخسران الکبیر، و أن یبدله إلی منفعة کبیرة و ربح عظیم هو أنّه مقابل فقدان رأس المال، یحصل علی رأس مال أغلی و أثمن، یستطیع أن یسدّ مسدّ رأس المال المفقود، بل أن یکون أفضل و أکثر منه عشرات، بل مئات، بل آلاف المرات.

کلّ نفس من أنفاس الإنسان یقربه خطوة نحو الموت،

أمیر المؤمنین علی علیه السّلام یقول: «نفس المرء خطاء إلی أجله»[۳۹۹].

و هکذا کلّ ضربة من ضربات القلب تقرب الإنسان من الموت من هنا لا بدّ من المبادرة إلی ملء الفراغ الذی یولده هذا الخسران الحتمی.

هناک من ینفق رأس مال عمره و حیاته مقابل الحصول علی مال قلیل أو کثیر، علی بیت صغیر أو فخم.

هناک من ینفق کل رأس المال هذا من أجل الوصول إلی منصب أو مقام.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۵

و هناک من ینفقه فی سبیل أهوائه و ملذاته.

لیس أی واحد من هذه الأمور- دون شک- یمکن أن یکون ثمنا لتلک الثروة العظیمة ... ثروة العمر ... ثمنها الوحید رضا اللّه سبحانه و مقام قربه لا غیر.

قال أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: «إنّه لیس لأنفسکم ثمن إلّا الجنّة فلا تبیعوها إلّا بها»[۴۰۰].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام فی دعاء شهر رجب: «خاب الوافدون علی غیرک و خسر المتعرضون إلّا لک».

و من هنا کان أحد أسماء یوم القیامة «یوم التغابن» کما جاء فی قوله سبحانه:

ذلِکَ یَوْمُ التَّغابُنِ ۴۰۱]. أی ذلک الیوم الذی یظهر من هو المغبون و الخاسر.

إنّه لتنظیم رائع فی علاقة العبد بربّه. فهو سبحانه من جهة یشتری رأس مال وجود الإنسان: إِنَّ اللَّهَ اشْتَری مِنَ الْمُؤْمِنِینَ ...[۴۰۲].

و من جهة أخری یشتری سبحانه رأس المال القلیل: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ ۴۰۳].

و من جانب آخر یدفع مقابل ذلک ثمنا عظیما یبلغ أحیانا عشرة أضعاف و أحیانا سبعمائة ضعف، و أحیانا أکثر: فِی کُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ، وَ اللَّهُ یُضاعِفُ لِمَنْ یَشاءُ[۴۰۴].

و کما

ورد فى الدعاء: «يا من يقبل اليسير و يعفو عن الكثير».

و من جهة رابعة، فإنّ كلّ رؤوس أموال الإنسان و ثرواته قد وهبها اللّه إيّاه ...

و اللّه بفضله و منّه و لطفه يعود ليشترى هذه الثروات نفسها بأغلى الأثمان!

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۶

بحث

منهج السعادة ذو المواد الأربع:

من المهم أن نقف و لو قليلا عند المنهج الذى وضعه القرآن الكريم للنجاة من ذلك الخسران ... إنّه منهج يتكون من أربعة أصول هى:

الأصل الأوّل: «الإيمان» و هو البناء التحتى لكلّ نشاطات الإنسان، لأنّ فعاليات الإنسان العملية تنطلق من أسس فكره و اعتقاده، لا كالحيوانات المدفوعة فى حركاتها بدافع غريزى.

بعبارة اخرى، أعمال الإنسان بلورة لعقائده و أفكاره، و من هنا فإن جميع الأنبياء بدأوا قبل كلّ شىء بإصلاح الاسس الاعتقادية للأمم و الشعوب. و حاربوا الشرك بشكل خاص باعتباره أساس أنواع الرذائل و الشقاوة و التمزق الاجتماعى.

و الآية الكريمة قالت: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا فذكرت الإيمان بمعناه المطلق ليشمل الإيمان بكلّ المقدسات، ابتداء من الإيمان باللّه و صفاته، حتى الإيمان بالقيامة و الحساب و الجزاء و الكتب السماوية و أنبياء اللّه و أوصيائهم.

الأصل الثّانى: «العمل الصالح»، و هو ثمرة دوحة الإيمان. تقول الآية:

... وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا ـ العبادات فحسب، و لا الإنفاق فى سبيل اللّه وحده، و لا الجهاد فى سبيل اللّه فقط، و لا الاكتفاء بطلب العلم ... بل كلّ الصالحات التى من شأنها أن تدفع إلى تكامل النفوس و تربية الأخلاق و القرب من اللّه، و تقدم المجتمع الإنسانى.

هذا التعبير يشمل الأعمال الصغيرة، كرفع الحجر من طريق النّاس و الأعمال الجسام مثل إنقاذ ملايين النّاس من الضلالة و الانحراف و نشر الرسالة الحقة و العدالة فى أرجاء العالم.

و ما ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير وَ عَمِلُوا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۷

الصَّالِحاتِ بأنّه المواساة و المساواة للأخوة فى اللّه، إنّما هو من قبيل بيان المصداق الواضح للآية.

قد تصدر الأعمال الصالحة من أفراد غير مؤمنين، لكنّها غير متجذرة و غير ثابتة و غير واسعة. لأنّها لا تنطلق من دافع إلهى عميق، و لا تحمل صفة الشمولية.

القرآن ذكر «الصالحات» هنا بصيغة الجمع مقرونة بالألف و اللام لتدل على معنى العموم و الشمول. و لتبيّن أن طريق تفادى الخسران الطبيعى الحتمى بعد الإيمان، هو أداء الأعمال الصالحة جميعا، و عدم الاكتفاء بعمل واحد أو بضع أعمال صالحات حقّا، لو رسخ الإيمان فى النفس، لظهرت على الفرد مثل هذه الآثار.

الإيمان ليس فكرة جامدة قابعة فى زوايا الذهن، و ليس اعتقادا خاليا من التأثير. الإيمان يصوغ كلّ وجود الإنسان وفق منهج معين.

الإيمان مثل مصباح منير مضىء فى غرفة. فهو لا يضىء الغرفة فحسب، بل إن أشعته تسطع من كلّ نوافذ الغرفة إلى الخارج بحيث يرى كل مار نوره بوضوح.

و هكـذا، حين يسـطع مصـباح الإيمان فى قلب إنسان، فإنّ نوره ينعكس من لسان الإنسان و عينه و أذنه و يـديه و رجليه. حركات كلّ واحدة من هذه الجوارح تشهد على وجود نور فى القلب تسطع أشعته إلى الخارج.

و من هنا اقترن ذكر الصالح فى أغلب مواضع القرآن بذكر الإيمان باعتبارها لازما و ملزوما. فقال سـبحانه: مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً[۴۰۵]. و يقول تعالى عن أولئك الذين تركوا الدنيا دون عمل صالح، إنّهم يصرون على العودة إلى الدنيا و يقولون: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّى أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ۴۰۶].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۸

و يقول سبحانه لرسله: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً[۴۰۷].

و لما كان الإيمان و العمل الصالـح لا يكتب لهما البقاء إلّا فى ظلّ حركـة اجتماعيـة تسـتهدف الـدعوة إلى الحق و معرفته من جهة، و الـدعوة إلى الصبر و الاسـتقامة على طريق النهوض بأعباء الرسالـة، فإنّ هـذين الأصـلين تبعهما أصـلان آخران هما فى الحقيقة ضـمان لتنفيذ أصلى «الإيمان» و «العمل الصالح».

الأصل الثّالث: «التواصـى بالحق»، أى الـدعوة العامّة إلى الحق، ليميز كلّ أفراد المجتمع الحق من الباطل، و يضـعوه نصب أعينهم، و لا ينحرفون عنه فى مسيرتهم الحياتية.

«تواصوا» كما يقول الراغب تعنى أن يوصى بعضهم إلى بعض.

و «الحق» فى الأصـل الموافقـة و المطابقـة للواقع. و ذكر للكلمـة معانى قرآنيـة متعـددة من ذلك، و القرآن، و الإسـلام، و التوحيـد، و العدل، و الصدق، و الوضوح، و الوجوب و أمثالها من المعانى التى ترجع إلى نفس المعنى الأصلى الذى ذكرناه.

عبارة تَواصَوْا بِالْحَقِ تحمل على أى حال معنى واسعا يشمل الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و يشمل أيضا تعليم الجاهل و إرشاده، و تنبيه الغافل، و الدعوة إلى الإيمان و العمل الصالح.

واضح أن المتواصين بالحق يجب أن يكونوا بدورهم من العاملين به، و المدافعين عنه.

الأصل الرّابع: «التواصى بالصبر»، و الاستقامة، إذ بعد الإيمان و الحركة فى المسيرة الإيمانية تبرز فى الطريق العوائق و الموانع و السرور. و بدون الاستقامة و الصبر لا يمكن المواصلة فى إحقاق الحقّ و العمل الصالح و الثبات على الإيمان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۳۹

نعم، إحقاق الحق فى المجتمع لا يمكن من دون حركة عامّة و عزم اجتماعى، و من دون الاستقامة و الوقوف بوجه ألوان التحديات.

«الصبر» هنـا يحمل مفهوما واسـعا يشـمل الصبر على الطاعـة، و الصبر على دوافع المعصـية، و الصبر إزاء المصائب و الحوادث المرّة، و فقدان الإمكانات و الثروة و الثمرات ۴۰۸].

ممّا تقدم نفهم أنّ الأصول الأربعة التى ذكرتها هذه السّورة المباركة تشـكل المنهج الجامع لحياة الإنسان و سـعادته. و لذلك ورد فى الرّوايات أنّ أصـحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم كانوا إذا اجتمعوا لا يفترقون إلّا بعد تلاوة سورة «و العصر» و يتذاكروا فى مضامينها[۴۰۹].

و المسـلمون اليوم إذا طبقوا هذه الأصول الأربعة فى حياتهم الفردية و الاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل و تدهور و تخلف، و لبدلوا ضعفهم و هزيمتهم انتصارا، و لاقتلعوا شرّ الأشرار من على ظهر الأرض.

ربّنا! تفضّل علينا بالصبر و الاستقامة و التواصى بالحق و التواصى بالصبر.

إلهنا! كلّنا فى خسران، و لا يمكن أن نجبر هذا الخسر إلّا بلطفك.

اللّهمّ! إنا نسألك توفيق العمل بالمواد الأربع التى ذكرتها فى هذه السّورة من كتابك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة العصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۱

سورة الهمزة

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها تسع آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۳

«سورة الهمزة»

محتوی السّورة:

هـذه السّورة و هی من السور المکّیـة، تتحـدث عن أناس کرسوا کلّ همهم لجمع المال، و حصـروا کلّ قیم الإنسان الوجودیة فی هذا الجمع. ثمّ هم یسخرون من الذین لا یملکون المال و بهم یستهزئون.

هؤلاء الأثریاء المستکبرون و المغرورون المحتالون أسکرهم الطغیان فراحوا یستهینون بالآخرین و یعیبونهم، و یتلذذون بما یفعلون من غیبة و استهزاء.

السّورة تتحـدث فی النهایـة عن المصـیر المؤلم الـذی ینتظر هؤلاء، و کیف أنّهم یلقون فی جهنّم صاغرین، و أنّ نار جهنّم تتجه بلظاها أوّلا إلی قلوبهم المليئة بالکبر و الغرور، و تحرقها بالنّار، بنار مستمرة.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة

عـن النـبیّ صـلّی اللّـه علیـه و آلـه و سـلّم قـال: «مـن قرأ سـورة الهمزة اعطی مـن الأـجر عشـر حسـنات بعـدد مـن اسـتهزأ بمحمّـد و أصحابه»[۴۱۰].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «من قرأ ویل لکلّ همزة فی فریضة من فرائضه، نفت عنه الفقر و جلبت علیه الرزق و تدفع عنه میتة السوء»[۴۱۱].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۴

الآیات [سورة الهمزة (۱۰۴): الآیات ۱ الی ۹]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

وَیْلٌ لِکُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (۱) الَّذِی جَمَعَ مالاً وَ عَدَّدَهُ (۲) یَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (۳) کَلاَّ لَیُنْبَذَنَّ فِی الْحُطَمَةِ (۴)

وَ ما أَدْراکَ مَا الْحُطَمَةُ (۵) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (۶) الَّتِی تَطَّلِعُ عَلَی الْأَفْئِدَةِ (۷) إِنَّها عَلَیْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (۸) فِی عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (۹)

سبب النّزول

قال جمع من المفسّرين إنّ آيات هذه السّورة نزلت فى (الوليد بن المغيرة) الذى كان يغتاب النّبى و يطعن فيه و يستهزئ به.
و قيل إنّها نزلت فى أفراد آخرين من رؤوس المشركين و أعداء الإسلام مثل (الأخنس بن شريق) و (اميـة بن خلف) و (العاص بن وائل).
و لكن، إنّ قبلنا أسباب النزول هذه فلا ينفى ذلك شمولية مفاهيم الآيات، بل إنّها تستوعب كلّ الذين يحملون هذه الصفات.
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۵

التّفسير

الويل للهمّازين و اللمّازين:

تبدأ هذه السّورة بتهديد قارع و تقول:
وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ... لكلّ من يستهزئ بالآخرين، و يعيبهم، و يغتابهم، و يطعن بهم، بلسانه و حركاته و بيده، و عينه و حاجبه.
«الهمزة» و «اللمزة» صيغتا مبالغة، الاولى من الهمز، و هى فى الأصل الكسر.
العائبون المغتابون يكسرون شخصية الآخرين، و لذلك اطلق عليهم اسم (الهمزة).
و «اللمزة» من اللمز، و هو اغتياب الآخرين، و الصاق العيوب بهم.
للمفسّرين آراء متعددة فى معانى هاتين الكلمتين، هل معناهما واحد، و هو المغتابون النّاس العائبون عليهم، أو إنّ معناهما مختلف.
قال بعضهم إنّ معناهما واحد، و ذكرهما معا للتأكيد.
و قيل: الهمزة هو المغتاب، و اللمزة: العائب.
و قيل: الهمزة هم العائبون بإشارة اليد و الرأس. و اللمزة من يعيب بلسانه.
و قيل: الاولى إشارة إلى العائب فى حضور الشخص، و الثّانية للعائب فى الغيبة.
و قيل: الاولى تعنى العائب فى العلن، و الثّانية للعائب فى الخفاء، و بإشارة العين و الحاجب.
و قيل: إنّ الاثنتين بمعنى الذى ينبز النّاس بألقاب قبيحة مستهجنة.
و عن ابن عباس فى تفسير الكلمتين قال: «هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الناعتون للناس بالعيب»[۴۱۲].
يبدو أن ابن عباس استلهم هذا التّفسير من
كلام لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حيث يقول:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۶
«ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء المعايب»[۴۱۳].
من مجموع آراء اللغويين فى الكلمتين يستفاد أنّهما بمعنى واحد. و لهما مفهوم واسع يشمل كلّ ألوان إلصاق العيوب بالنّاس و غيبتهم و الطعن و الاستهزاء بهم، باللسان و الإشارة و النميمة و الذم.
التعبير بكلمة (ويل) يحمل تهديدا شديدا لهذه الفئة. و القرآن يتشدّد تجاه هؤلاء الأفراد و يذكرهم بعبارات لا نظير لها فى ذكر سائر المذنبين. فحين يذكر المنافقين الذين يسخرون من المؤمنين يتهددهم بعذاب أليم و يقول: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۴۱۴].

مثل ذلك ذكره القرآن بشأن المنافقين المستهزئين بالنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية (۵) من سورة (المنافقون).

الإسلام، أساسا، ينظر إلى شخصية الإنسان و كرامته باحترام بالغ، و يعدّ أى عمل يؤدّى إلى إهانة الآخرين ذنبا كبيرا، و

ورد عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أذل النّاس من أهان النّاس»[۴۱۵].

فى هذا المجال ذكرنا شرحا أوفى فى تفسير الآيتين (۱۱ و ۱۲ من سورة الحجرات.

ثمّ تذكر الآية التالية منبع ظاهرة اللمز و الهمز فى الأفراد، و ترى أنّها تنشأ غالبا من كبر و غرور ناشئين بدورهما من تراكم الثروة لدى هؤلاء الأفراد، و تقول: الَّذِى جَمَعَ مالًا وَ عَدَّدَهُ بطريق مشروع أو غير مشروع.

فهو انشدّ بالمال انشدادا جعله منشغلا دائما بعدّ المال و الالتذاذ ببريق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۷

الدرهم و الدينار.

تحول الدرهم و الدينار عنده إلى وثن و يرى فيه شخصيته و ينظر من خلاله أيضا إلى شخصية الآخرين. و من الطبيعى أن يكون تعامل مثل هذا الإنسان الضال الأبله بالسخرية و الاستهزاء مع المؤمنين الفقراء.

«عدده» من (عدّ) بمعنى حسب. و قيل من (العدّة) بمعنى تجهيز الأموال ليوم الشدّة.

و قيل: أنّها تعنى أمسكه و حفظه.

و المعنى الأوّل أظهر.

على أى حال، هذه الآية تقصد الذين يدخّرون الأموال و لا ينظرون إليها باعتبارها وسيلة بل هدفا، و لا يحدهم قيد أو شرط فى جمعها، حتى و لو كان من طريق الحرام و الاعتداء على حقوق الآخرين و ارتكاب كلّ دنيئة و رذيلة، و يعتبرون ذلك دليلا على عظمتهم و شخصيتهم.

هؤلاء لا يريدون المال لسد حاجاتهم الحياتية، و لذلك يزداد حرصهم على جمع المال كلّما كثرت أموالهم. و إلّا فإن المال فى الحدود المعقولة و من الطرق المشروعة ليس بمذموم، بل إنّ القرآن الكريم عبّر عنه فى موضع بأنّه «فضل اللّه» حيث يقول تعالى: وَ ابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

و فى موضع آخر يسميه خيرا، كقوله سبحانه: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ.

مثل هذا المال ليس بالتأكيد مبعث طغيان، و لا وسيلة تفاخر، و لا دافع سخرية بالآخرين. لكن المال الذى يصبح معبودا و هدفا نهائيا، و يدعو أصحابه من أمثال «قارون» إلى الطغيان، هو العار و الذلة و المأساة و مبعث البعد عن اللّه و الخلود فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۸

النّار.

و مثل هذا المال لا يمكن جمعه و عدّه إلّا بالسقوط فى أو حال الحرام. لذلك

ورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قال: «لا يجتمع المال إلّا بخمس خصال:

بخل شديد، و أمل طويل، و حرص غالب، و قطيعة رحم، و إيثار الدنيا على الآخرة»[۴۱۶].

لأنّ الأفراد الأسخياء البعيدين عن الآمال الوهمية الطويلة يهتمون بحلال أموالهم و حرامها، و يساعدون الأقربين، و لا تتراكم الثروة عندهم غالبا، و إن زادت عائداتهم.

فى الآية التالية يقول سبحانه:

يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ ۴۱۷].

«أخلده» جاء فى الآية بصيغة الماضى، و يعنى أن هذا الهمزة اللمزة يحسب أنّ ماله قد صيّر منه موجودا خالدا، لا يستطيع الموت أن

يصل إليه، و لا عوامل المرض و الحوادث قادرة أن تنال منه، فالمال فى نظره هو المفتاح الوحيد لحل كلّ مشكلة، و هو يملك هذا المفتاح.

ما أتفه هذا التفكير!! قارون بكل ما كان يملكه من كنوز لا تستطيع العصبة أولو القوّة أن تحمل مفاتحها، لم يستطيع أن يستخدم أمواله لتأخير مصيره الأسود ساعة واحدة: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ ۴۱۸].

الأموال التى كان يمتلكها الفراعنة: ... مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ ۴۱۹]، تحولت فى ساعة إلى غيرهم:

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۴۹

كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ ۴۲۰].

لذلك فإنّ هؤلاء اللاهين بأموالهم، حين تزول من أمام أعينهم الحجب و الأستار يوم القيامة يرفعون عقيرتهم بالقول: ما أَغْنى عَنِّى مالِيَهْ، هَلَكَ عَنِّى سُلْطانِيَهْ ۴۲۱].

الإنسان- أساسا- يهرب من الفناء و العدم و يميل إلى الخلود، و هذه الرغبة الداخلية هى من أدلة المعاد و أنّ الإنسان مخلوق للخلود، و إلّا ما كانت فيه غريزة حبّ الخلود.

لكنّ الإنسان المغرور الأنانى الدنيوى يخال خلوده كامنا فى أشياء هى ذاتها عامل فنائه و انعدامه. على سبيل المثال: المال و المقام اللذان هما غالبا من أعداء بقائه يحسبهما وسيلة لخلوده.

من هنا يتبيّن أنّ الظنّ بقدرة المال على الإخلاد، هو الذى يدفع إلى جمع المال، و جمع المال أيضا عامل على الاستهزاء و السخرية بالآخرين عند هؤلاء الغافلين.

القرآن الكريم يردّ على هؤلاء و يقول:

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ كلّا، ليس الأمر كما يتصور، فسرعان ما يقذف باحتقار و ذلّة فى نار محطّمة وَ ما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ، نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ، الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ.

«لينبذنّ» من نبذ، أى- كما يقول الراغب فى مفرداته- رمى الشىء لتفاهة قيمته.

أى إنّ اللّه سبحانه يرمى هؤلاء المغرورين المتعالين يوم القيامة فى نار جهنّم كموجودات تافهة لا قيمة لها ليروا نتيجة كبرهم و غرورهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۰

«الحطمة» صيغة مبالغة من «حطّم» أى هشّم. و هذا يعنى أنّ نار جهنّم تهشّم أعضاء هؤلاء. و يستفاد من بعض الرّوايات أن «الحطمة» ليست كلّ نار جهنّم، بل هى طبقة رهيبة فى حرارتها.[۴۲۲] مفهوم تهشّم الأعضاء بدل احتراقها فى نار جهنّم، ربّما صعب فهمه فى الماضى. و لكن المسألة اليوم ليست بعجيبة بعد أن اتضحت شدّة تأثير أمواج الإنفجار، و تبيّن أن الأمواج الناتجة عن انفجار كبير قادرة على تهشيم الإنسان، بل تهشيم العمارات الضخمة بأعمدتها الحديدية المستحكمة.

عبارة «نار اللّه» دليل على عظمة هذه النّار، و «الموقدة» تعنى استعارها المستمر.

و العجيب أنّ هذه النّار ليست مثل نار الدنيا التى تحرق الجلد أوّلا ثمّ تنفذ إلى الداخل، بل هى تبعث بلهبها أوّلا إلى القلب، و تحرق الداخل و تبدأ أوّلا بالقلب ثمّ بما يحيطه، ثمّ تنفذ إلى الخارج.

ما هذه النّار التى تبعث بشررها إلى قلب الإنسان أوّلا؟! ما هذه النّار التى تحرق الداخل قبل الخارج؟! كلّ شىء فى القيامة عجيب، و مختلف كثيرا عن هذا العالم، حتّى إحراق نارها.

لما ذا لا تكون كذلك، و قلوب هؤلاء الطاغين مركز للكفر و الكبر و الغرور، و بؤرة حبّ الدنيا و الثروة و المال؟! لما ذا لا تسيطر نار

الغضب الإلهى على قلوب هؤلاء قبل أى شىء آخروهم فى هذه الدنيا احرقوا قلوب المؤمنين بسخريتهم و همزهم و لمزهم؟! العدالة الإلهية تقتضى أن يرى هؤلاء جزاء يشبه أعمالهم.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۱

الآيات الأخيرة من السّورة تقول:

إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ، فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ.

و «مؤصدة» من الإيصاد، بمعنى الأحكام فى غلق الباب. و لذلك تسمى الغرف الكائنة فى داخل الجبال المخصصة لجمع الأموال «الوصيد».

هؤلاء فى الحقيقة يقبعون فى غرف تعذيب مغلقة الأبواب لا طريق للخلاص منها، كما كانوا يجمعون أموالهم فى الخزانات المغلقة الموصدة.

و «العمد» جمع عمود و «ممددة» تعنى طويلة.

جمع من المفسّرين قال إنّها الأوتاد الحديدية العظيمة التى تغلق بها أبواب جهنّم حتى لم يعد هناك طريق للخروج منها أبدا، و هى بذلك تأكيد على الآية السابقة التى تقول: إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ.

و قيل إنّها إشارة إلى نوع من وسائل التعذيب و الجزاء تشبه تلك التى يغلّ بها الشخص فى رجله فيفقد قدرة الحركة و هذا جزاء ما كانوا يمارسونه من تعذيب للناس الأبرياء فى هذه الدنيا.

و بعضهم أضاف تفسيرا ثالثا استمده من الاكتشافات العلمية، و هو أن شعلة من نيران جهنّم تسلّط على هؤلاء مثل أعمدة طويلة. يقولون: إنّ الاكتشافات الأخيرة أثبتت أنّ أشعة اكس الخاصّة (اشعة رونتجن) تختلف عن سائر الأشعة الاخرى التى تنتشر بشكل مخروطى، و ذلك أنّها تنتشر بشكل عمودى، و قادرة على النفوذ فى جميع الأجزاء الداخلية للإنسان بما فى ذلك القلب. و لذلك يستفاد منها فى تصوير الأعضاء الداخلية. و الأشعة التى تخرج من نار جهنّم شبيهة بالأشعة المذكورة[۴۲۳].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۲

و من بين هذه التفاسير، التّفسير الأوّل أنسب. (و استنادا إلى بعض التفاسير عبارة فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ تبيّن حالة جهنّم، و بعضها الآخر يرى أنّها بيان لحالة أهل جهنّم).

بحثان

۱- الكبر و الغرور أساس الذنوب الكبيرة

الاستعلاء و التكبر على الآخرين بلاء عظيم يصيب الإنسان فيدفعه إلى ارتكاب أنواع المعاصى، الغفلة عن اللّه، و الكفران بالنعم، و الانغماس فى الأهواء و الشهوات، و الاستهانة بالآخرين، و الاستهزاء بالمؤمنين ... كلّها من الآثار المشؤومة لهذه الصفة الدنيئة، الأفراد الذين يعانون من عقد النقص ما أن تتوفر لهم مكنة حتى يستفحل فيهم الكبر و الغرور بحيث لا يقيمون للآخرين وزنا، و يودى ذلك إلى انفصالهم عن المجتمع و انفصال المجتمع عنهم.

يغرقون فى عالم و همى، و يرون أنفسهم موجودا متميزا، حتى يبلغ الأمر بهم أن يروا أنفسهم من المقربين إلى اللّه. و هذا يدفعهم إلى الاستهانة بأرواح الآخرين و أعراضهم و أموالهم، و ينشغلون بالهمز و اللمز، و يخالون أنّهم بإلصاق العيب بالآخرين و ذمهم يزيدون من عظمتهم و شخصيتهم.

و فی بعض الرّوایات شبه هؤلاء الأفراد بالعقرب اللاسعة. (و إذا کان لسع العقرب عن طبیعة فیها، فلسع هؤلاء عن حقد و ضغینة).

و

جاء فی حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «رأیت لیلة الإسراء قوما یقطع اللحم من جنوبهم ثمّ یلقمونه، و یقال: کلوا ما کنتم تأکلون من لحم أخیکم، فقلت: یا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۳

جبرائیل من هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الهمازون من أمتک اللمازون»[۴۲۴].

کما أشرنا من قبل، کان لنا وقفة أطول فی هذا المجال عند تفسیر سورة الحجرات.

۲- الحرص علی جمع المال

بشأن المال و الثروة، اختلفت و جهات نظر النّاس بین أفراط و تفریط، بعضهم أسبغ علی المال أهمیة فائقة فجعله مفتاح حلّ کلّ المشاکل. و إلی ذلک ذهب الشاعر فی قوله:

فصاحة سبحان و خط ابن مقلةو حکمة لقمان و زهد ابن أدهم

إذا اجتمعت فی المرء و المرء مفلسفلیس له قدر بمقدار درهم

و لذلک فإنّ دأب هؤلاء الأفراد جمع المال، و لا یدخرون وسعا علی هذا الطریق و لا یتقیدون بقید، و لا یهتمون بحلال أو حرام و مقابل هذه المجموعة هناک من لا یعیر أیة أهمیة للمال و الثروة، یمتدحون الفقر و یشیدون به، و یرون فی المال عائقا للتقوی و للقرب الإلهی.

و إزاء ذاک الإفراط و هذا التفریط، تقف النصوص الإسلامیة لتبیّن أنّ المال مطلوب، و لکن بشروط، أوّلها أن یکون وسیلة لا غایة.

و الآخر، أن لا یکون الإنسان له أسیرا، بل أن یکون علیه أمیرا.

و الثّالث: أن یأتی بالطرق المشروعة و أن ینفق فی سبیل رضا اللّه.

الرغبة فی مثل هذا المال لیس دلیلا علی حبّ الدنیا، بل هو دلیل علی الانشداد بالآخرة. و لذلک

ورد عن الإمام الصادق علیه السّلام أنّه لعن الذهب و الفضة، فتعجب أحد أصحابه و سأل الإمام فأجابه: «لیس حیث تذهب إلیه إنّما الذهب

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۴

الذی ذهب بالدین، و الفضة التی أفاضت الکفر»[۴۲۵].

و

عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام قال: «السکر أربع سکرات: سکر الشراب، و سکر المال، و سکر النوم، و سکر الملک»[۴۲۶].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إن کان الحساب حقّا فالجمع لماذا؟ و إن کان الخلف من اللّه عزّ و جلّ حقّا فالبخل لماذا؟»[۴۲۷].

کثیرون هم الذین ینشغلون حتی آخر حیاتهم بجمع المال، ثمّ یترکونه للآخرین. هم مسئولون عن حسابه، و الآخرون ینالون ثماره، سئل أمیر المؤمنین علی علیه السّلام: من أعظم النّاس حسرة؟

قال: «من رأى ماله فى ميزان غيره، و أدخله به النّار، و أدخل وارثه به الجنّة»[۴۲۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير قوله تعالى: كَذلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ حَسَراتٍ عَلَيْهِمْ قال: «هو الرجل يدع المال لا ينفقه فى طاعة اللّه بخلا ثمّ يموت فيدعه لمن يعمل به فى طاعة اللّه أو فى معصيته».

ثمّ قال الإمام: «فإن عمل به فى طاعة اللّه رآه فى ميزان فزاده حسرة، و قد كان المال له أو عمل به فى معصية اللّه فهو قوّاه بذلك المال حتى عمل به فى معاصى اللّه»[۴۲۹].

نعم، رؤية الإنسان للمال قد تصير من المال و ثنا خطرا، و قد تجعل منه وسيلة لسعادة كبرى.

نختتم هذه الوقفة بما ورد عن ابن عباس عن كلام عميق الدلالة قال: «إنّ أوّل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۵

درهم و دينار ضربا فى الأرض نظر إليهما إبليس فلما عاينهما أخذهما فوضعهما على عينيه، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ صرخ صرخة، ثمّ ضمهما إلى صدره، ثمّ قال:

أنتما قرّة عينى! و ثمرة فؤادى، ما ابالى من بنى آدم إذا أحبّوكما أن لا يعبدوا! وثنا! حسبى من بنى آدم أن يحبّوكما»[۴۳۰].

اللّهمّ! احفظنا من سكرة المال و المقام و الدنيا و الشهوات.

ربّنا! نجنا من سيطرة الشيطان و عبودية الدرهم و الدينار.

إلهنا! لا نجاة لنا من «الحطمة» المهشمة إلّا بفضلك فار أف بنا يا كريم.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الهمزة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۷

سورة الفيل

اشارة

مكيّة و عدد آياتها خمس آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۵۹

«سورة الفيل»

محتوى السّورة:

هذه السّورة- كما يظهر من اسمها- تشير إلى الحادثة التاريخية التى اقترنت بولادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و فيها نجّى اللّه سبحانه الكعبة من شرّ جيش كافر كبير تجهّز من اليمن ممتطيا الفيل.

هذه السّورة تذكّر النّاس بتلك القصّة العجيبة التى كان كثير من أهل مكّة يحفظون أحداثها فى ذاكرتهم لأنّها وقعت فى الماضى القريب.

التذكير بهذه القصّة فيه تحذير للكفّار المغرورين المعاندين، كى يفهموا ضعفهم تجاه قدرة اللّه تعالى الذى أباد جيشا عظيما بطير أبابيل تحمل حجارة من سجّيل، و هو سبحانه إذن قادر على أن يعاقب هؤلاء المستكبرين المعاندين.

فلا قدرتهم أعظم من قدرة أبرهة، و لا عدد أفرادهم يبلغ عدد ذلك الجيش السّورة المباركة تقول لكفّار قريش:

إنّكم رأيتم الواقعة بأعينكم فلما ذا لا تترجلون من مطية غروركم.

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال: «من قرأ فى الفريضة أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ شهد له يوم القيامة كلّ سهل و جبل و مدر بأنّه كان من المصلين و ينادى يوم القيامة مناد:

صدقتم على عبدى، قبلت شهادتكم له أو عليه، ادخلوا عبدى الجنّة و لا تحاسبوه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۰

فإنّه ممن أحبّه و أحبّ عمله»[۴۳۱].

واضح أنّ كلّ هذه الفضيلة و هذا الثواب لمن كانت قراءته باعثا على انكسار روح الغرور فى نفسه، و على السير فى طريق رضا اللّه سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۱

الآيات [سورة الفيل (۱۰۵): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (۵)

سبب النّزول

اشارة

ورد عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام أنّه قال: كان أبو طالب يضرب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بسيفه إلى أن قال: فقال أبو طالب: يا بن أخ إلى النّاس كافة أرسلت أم إلى قومك خاصّة؟ قال: لا بل إلى النّاس أرسلت كافة الأبيض و الأسود و العربى و العجمى و الذى نفسى بيده لأدعون إلى هذا الأمر الأبيض و الأسود و من على رؤوس الجبال و من فى لجج البحار، و لأدعون السنة فارس و الروم فحيرت قريش و استكبرت و قالت: أما تسمع إلى ابن أخيك و ما يقول و اللّه لو سمعت بهذا فارس و الروم لاختطفتنا من أرضنا و لقلعت الكعبة حجرا حجرا، فأنزل اللّه تبارك و تعالى: وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ إلى آخر الآية و أنزل فى قولهم لقلعت الكعبة حجرا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۲

حجرا أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ إلى آخر الآية[۴۳۲].

قصّة أصحاب الفيل:

ذكر المفسّرون و المؤرخون هـذه القصّة بأساليب مختلفة و اختلفوا فى سـنة وقوعها. لكن أصل القصّة متوافرة، و نحن نذكرها استنادا إلى الرّوايات المعروفة فى «سيرة ابن هشام» و «بلوغ الأرب» و «بحار الأنوار» و «مجمع البيان» بتلخيص:

«ذو نـواس» ملـك اليمـن اضـطهد نصـارى نجران قرب اليمـن كى يتخلـوا عـن دينهم (ذكر القرآن قصّة هـذا الاضـطهاد فى موضـوع أصحاب الأخدود فى سورة البروج، و بيّناها بالتفصيل هناك).

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) و توجه إلى قيصر الروم الذى كان على دين المسيح، و شرح له ما جرى.

و لمـا كـانت المسافـة بين الروم و اليمن بعيـدة، كتب القيصـر إلى النجاشـى (حـاكم الحبشـة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، و أرسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهّز النجاشى جيشا عظيما يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) و وجهه إلى اليمن. و كان (أبرهة) أيضا من قواد ذلك الجيش.

اندحر (ذو نواس) و أصبح (أرياط) حاكما على اليمن، و بعد مدّة ثار عليه أبرهة و أزاله من الحكم و جلس فى مكانه.

بلغ ذلك النجاشـى، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة أعلن استسـلامه الكامل للنجاشـى و وفاءه له. حين رأى النجاشى منه ذلك عفا عنه و أبقاه فى مكانه.

و (أبرهـة) من أجل أن يثبت ولاءه، بنى كنيسـة ضـخمة جميلـة غايـة الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، و قرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۳

يحجّوا إليها بدل (الكعبة)، و ينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن.

أرسـل أبرهـة الوفود و الـدعاة إلى قبائـل العرب فى أرض الحجاز، يـدعونهم إلى حـجّ كنيسـة اليمن، فأحسّ العرب بالخطر لارتباطهم الوثيق بمكّة و الكعبة و نظرتهم إلى الكعبة على أنّها من آثار إبراهيم الخليل عليه السّلام.

تـذكر بعض الرّوايـات أنّ مجموعـة من العرب جـاؤوا خفيـة و أضـرموا النّيار فى الكنيسـة. و قيـل إنّهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن اعتراضهم على فعل أبرهة و يهينوا معبده.

غضب أبرهـة و قرر أن يهـدم الكعبـة هـدما كاملا للانتقام و لتوجيه أنظار العرب إلى المعبـد الجديـد، فجهّز جيشا عظيما كان بعض أفراده يمتطى الفيل، و اتجه نحو مكّة.

عند اقترابه من مكّة بعث من ينهب أموال أهل مكّة، و كان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهـة) قاصـدا إلى مكّة و قـال له: ابحث عن كبير القوم و قـل له إنّ أبرهـة ملـك اليمن يـدعوك. أنا لم آت لحرب، بل جئت لأهدم هذا البيت، فلو استسلمتم، حقنت دماؤكم.

جاء رسول أبرهـة إلى مكّة و بحث عن شـريفها فـدلوه على عبـد المطلب، فحـدثه بحـديث أبرهة، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربكم، و للبيت ربّ يحميه.

ذهب عبد المطلب مع القاصد إلى النجاشـى، فلما قدم عليه جعل النجاشـى ينظر إليه و راقه حسـنه و جماله و هيبته، حتى قام من مكانه احتراما و جلس على الأرض و اجلس عبـد المطلب إلى جواره لأنّه ما أراد أن يجلس عبـد المطلب على سـرير ملكه ثمّ قال لمترجمه اسأله ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: نهبت إبلى فمرهم بردّها علىّ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۴

فاندهش أبرهة و قال لمترجمه: قل له إنّه احتل مكانا فى قلبى حين رأيته، و الآن قد سقط من عينى. أنت تتحدث عن إبلك و لا تذكر الكعبة و هى شرفك و شرف أجدادك، و أنا قدمت لهدمها؟! قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، و للبيت ربّ يحميه؟! عاد عبد المطلب

إلى مكّة، و أخبر أهلها أن يلجأوا إلى الجبال المحيطة بها، و ذهب هو و جمع معه إلى جوار البيت ليدعو فأخذ حلقة باب الكعبة و انشد أبياته المعروفة:

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبن صليبهم و محالهم أبدا محالك جروا جميع بلادهم و الفيل كى يسبوا عيالك و لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع عيالك و انصر على آل الصليب و عابديه اليوم آلك ثمّ لاذ عبد المطلب و جمع من قريش بإحدى شعاب مكّة و أمر أحد ولده أن يصعد على جبل (أبو قبيس) ليرى ما يجرى.

عاد الابن مسرعا إلى أبيه و أخبره أن سحابة سوداء تتجه من البحر (البحر الأحمر) إلى أرض مكّة. استبشر عبد المطلب و صاح: «يا معشر قريش ادخلوا منازلكم فقد أتاكم اللّه بالنصر من عنده».

من جانب آخر، توجه أبرهة راكبا فيله المسمى «محمودا» مع جيشه الجرار مخترقا الجبال و منحدرا إلى مكّة، لكن الفيل أبى أن يتقدم، أمّا حينما يوجهوه نحو اليمن يهرول، تعجب أبرهة من هذا و تحيّر.

و فى هذه الأثناء وصلت طيور قادمة من جانب البحر كأنها الخطاطيف و هى تحمل حجرا فى منقارها و حجرين فى رجلها، بحجم الحمّصة، و ألقوها على جيش أبرهة، فأهلكتهم. و قيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۵

و يخرج من الجانب الآخر.

ساد الجيش ذعر عجيب، فهلك منه من هلك، و فرّ من استطاع الفرار، صوب اليمن، و كانوا يتساقطون فى الطريق.

(أبرهة) أصيب بحجر، و جرح، فأعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، و هناك فارق الحياة.

و قيل: إنّ مرض الحصبة و الجدرى شوهد لأوّل مرّة فى أرض العرب فى تلك السنة.

و قيل: إنّ أبرهة جاء بفيل واحد كان يركبه و اسمه محمود. و قيل: بل ثمانية أفيال، و قيل: عشرة، و قيل: اثنى عشر.

و فى هذا العام ولد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حسب الرّواية المشهورة، و قيل إنّ بين الحادثتين ارتباطا.

على أى حال، فإن أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، و أصبح مبدأ تاريخ العرب ۴۳۳].

***

التّفسير

كيد ابرهة:

يخاطب اللّه رسوله صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى الآية الاولى من السّورة و يقول له: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ

لقد جاؤوا بجيش جرار مجهّز بالعدّة و العدد ليهدموا الكعبة. و اللّه سبحانه دحرهم بجيش فى ظاهره صغير بسيط. و أباد الفيلة بطير صغير، و هدم الآلة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۶

الحربية المتطورة فى ذلك الزمان بحجارة من سجيل. ليتّضح ضعف هذا الإنسان المغرور المتكبر أمام قدرة اللّه.

التعبير بجملة أَ لَمْ تَرَ فى الآية، مع أنّ الحادثة وقعت قبل ولادة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أو مقترنة بولادته، يعود إلى أنّ الحادثة المذكورة قريبة العهد من عصر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، كما إنّها بلغت من الشهرة و التواتر و كأن النّبى رآها بعينه المباركة. هذا إلى أن جمعا من معاصرى الرسول كانوا قد رأوها بأعينهم.

عبارة بِأَصْحابِ الْفِيلِ إشارة إلى ما كان مع الجيش المهاجم من فيلة جاؤوا بها من اليمن ليرعبوا العرب و خيولهم ۴۳۴].

أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ! لقد استهدفوا الكعبة ليهدموها و ليقيموا بدلها كعبة اليمن، و ليدعوا قبائل العرب إلى حج هذا المعبد الجديد. لكنّه سبحانه حال دون تحقق هدفهم، بل زاد الكعبة شهرة و عظمة بعد أن ذاع نبأ أصحاب الفيل فى جزيرة العرب، و أصبحت قلوب المشتاقين تهوى إليها أكثر من ذى قبل، و أسبغ على هذه الديار مزيدا من الأمن.

كيدهم إذن صار فى تضليل، أى فى ضلال حيث لم يصلوا إلى هدفهم.

ثمّ تشرح الآيات التالية بعض جوانب الواقعة.

وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ

«أبابيل» لم تكن فى لهجات العرب المعروفة اسما لطائر، بل إنّها صفة، قيل إنّ معناها جماعات متفرقة. أى إنّ هذه الطير كانت تأتى على شكل مجموعات و الكلمة لها معنى الجمع. و قيل: إنّ مفرده (أبابلة) و هى المجموعة من الطير أو الخيل أو الإبل، و قيل إنّ الكلمة جمع لا مفرد له من لفظه.

على أى حال عبارة «طيرا أبابيل» تعنى طيرا على شكل مجموعات.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۷

و المشهور أنّ هذه الطير كانت تشبه الخطاطيف قدمت من صوب البحر الأحمر فى اتجاه أصحاب الفيل.

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۴۳۵].

و كما ذكرنا فى قصّة أصحاب الفيل، فإنّ كلّ واحدة من هذه الطير كانت تحمل ثلاث حجارات أصغر من الحمصة، واحدة فى منقارها و اثنين فى ارجلها.

و ما أن تسقط هذه الحجارة على أحد حتى تهلكه.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

و «العصف» هو النبات الجاف المتهشّم، أى هو (التبن) بعبارة اخرى. و قيل إنّه قشر القمح حين يكون فى سنبله. و المناسب هنا هو المعنى الأوّل.

و قال «مأكول» إشارة إلى أنّ هذا التبن قد سحق مرّة أخرى بأسنان الحيوان، ثمّ هشّم ثالثة فى معدته، و هذا يعنى أنّ أصحاب الفيل، قد تلاشوا بشكل كامل عند سقوط الحجارة عليهم.

و هذا التعبير إضافة إلى ما له من معنى الإبادة التامة، يحمل معنى التفاهة و الضعف ممّا صار إليه هؤلاء المهاجمون الطغاة المستكبرون و المتظاهرون بالقوّة.

بحوث

۱- المعجزة (للبيت ربّ يحميه)

القرآن الكريم يذكر هذه القصّة الطويلة فى عبارات قليلة قصيرة قارعة، و فى غاية الفصاحة و البلاغة، و يركز على نقاط تساعد على تحقيق الأهداف القرآنية المتمثلة فى إيقاظ المتعنتين المغرورين و بيان ضعف الإنسان أمام قدرة الجبار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۸

المتعال.

هـذه الحادثـة تبيّن أنّ المعجزات و الخوارق لا تسـتلزم- كما ظنّ بعض- وجود النّبى و الإمام، بل تظهر فى كلّ ظرف يشاء اللّه فيه أن تظهر. و الهدف منها إظهار عظمة اللّه سبحانه و حقانية دينه.

هـذا العقـاب العجيب الأعجـازى، يختلـف عمّـا نزل من عقـاب على امم اخرى مثـل طوفـان قـوم نـوح، و زلزال قـوم لوط و إمطـارهم بالحجارة، و صاعقة قوم ثمود؛ فهذه سلسلة حوادث طبيعية يتمثل إعجازها فى حدوثها فى تلك الظروف الخاصّة.

أمّا قصّة إبادة جيش أبرهة بحجارة من سجّيل، ترميها طير أبابيل، و ليست كالحوادث الطبيعية.

تحليق هذه الطيور الصـغيرة، و اتجاهها نحو ذلك الجيش الخاص، و رميه بالحجارة التى تسـتطيع أن تهشّم أجساد جيش ضخم ... كلّ تلك امور خارقة للعادة. و لكنّها- كما نعلم- ضئيلة جدّا أمام قدرة اللّه تعالى.

اللّه الذى خلق داخل هذه الحجارة قدرة ذرية لو تحررت لولدت انفجارا هائلا، لقادر على أن يجعل فى هذه الحجارة خاصـية تسـتطيع أن تحوّل جيش أبرهة إلى (عصف مأكول).

لسـنا فى حاجة لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المعاصـرين فى تفسير هلاك جيش أبرهة بمكروبات وباء الحصبة و الجدرى ۴۳۶] أو أن نقول إنّ هذه الحجارة كانت ذرات متكافئة أزيلت الفراغات بينها فأصبحت ثقيلة للغاية، و قادرة على أن تخترق الأجساد.

كلّ هذه تبريرات تستهدف إعطاء صفة طبيعية لهذه الحادثة. و لسنا بحاجة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۶۹

إليها. كلّ ما نعلمه هو أنّ هـذه الحجارة كانت لها خاصـية غريبة فى تهشـيم الأجسام. و لم يخبرنا القرآن بأكثر من ذلك، و ليس الأمر بمتعذر أمام قدرة اللّه سبحانه.

۲- أشد الجزاء بأبسط وسيلة

يلاحظ أنّ هذه القصّة تتضـمّن بيان قدرة اللّه أمام المسـتكبرين و الطغاة على أفضل وجه ... و لعل العقاب الذى حلّ بأبرهة و جيشه لا يبلغه عقاب، إذ على أثره تهشّم جيش و تحول إلى (عصف مأكول).

ثـمّ إنّ إبـادة هـذا الجيش الجرار بكـلّ مـا كـان يمتلكـه من قـدرة و شوكـة كـانت بواسـطة أحجـار صـغيرة، و بواسـطة طيـور صـغيرة كالخطاطيف. و فى هذا تحذير و إنذار لكلّ الطغاة و المستكبرين فى العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة اللّه سبحانه.

و قد يوكل اللّه سـبحانه أداء هذه المهام الكبرى لموجودات أصـغر، مثل المكروبات التى لا ترى بالعين المجردة، لتتكاثر و تتناسل فى مدّة وجيزة و تصيب أمما قوية بالأوبئة المختلفة كالطاعون، و تبيدهم خلال مدّة قصيرة.

«سد مأرب» العظيم فى اليمن- كما جاء ذكره فى تفسـير سورة سـبأ- كان وسـيلة لعمران كبير و مدنية عظيمة و قوية لقوم سـبأ، و حين طغى هؤلاـء القوم، جـاء أمر إبـادتهم عن طريق فأر صـحراوى أو عـدد من الفئران- كما تـذكر بعض الرّوايات- فثقبت السـد، و اتسـع الثقب تـدريجيا بالمـاء، و تحطم السـد العظيم، و اكتسـح المـاء كـلّ مـا بنـاه القوم و أغرق الأـفراد أو شـردهم إلى كلّ حـدب وصوب متفرقين حيارى، و هذه من مظاهر قدرة اللّه سبحانه.

۳- أهداف قصّة الفيل

من السّورة التالية (سورة لإيلاف) نفهم أنّ أحد أهداف سورة الفيل التذكير

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۰

بنعمـة إلهيـة كبرى منّ اللّه سـبحانه بها على قريش، و تفهيمهم أنّه لو لا لطف اللّه سـبحانه و فضـله لما بقى أثر لمكّة و لا للكعبـة و لا لقريش ... لعل ذلك يكون عاملا على كبح جماح هؤلاء المغرورين، و على قبول دعوة الدين المبين.

من جهة اخرى هذه الحادثة اقترنت بولادة رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و كانت ممهّدة للبعثة المباركة، و إرهاصا[۴۳۷] من إرهاصات بزوغ فجر الإسلام.

و القصـة من ناحيـة ثالثـة تهديـد لكـل طغاة العالم، من قريش و غير قريش؛ ليعلموا أنّهم لا يسـتطيعون أبـدا أن يقاوموا أمام قـدرة اللّه تعالى، فما أجدر بهم أن يعودوا إلى رشدهم، و يخضعوا لأمر اللّه، و يستسلموا للحق و العدل.

ثمّ هى من جانب رابع تبيّن أهميـة هـذا البيت الكبير. الأعـداء الـذين اسـتهدفوا هـدم الكعبة، و نقل مركزية هذا الحرم الإبراهيمى إلى مكان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبرة للأجيال، و ما زاد من أهمية هذا المركز المقدس.

و من جهة خامسة، هذه الحادثة تؤكّد مشيئة اللّه سبحانه فى جعل هذا الحرم آمنا استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السّلام.

۴- حادثة تاريخية قطعية

حادثـة «أصـحاب الفيل» كانت من الأهمية و الشـهرة بين العرب بحيث جعلوها مبدأ للتاريخ. و القرآن الكريم بدأ الحديث عن القصّـة بعبارة أَ لَمْ تَرَ مخاطبا نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الذى لم ير هذه الحادثة. و هى دلالة اخرى على قطعية وقوع الحادثة.

أضف إلى ذلك أنّ النّبى- حين تلا هذه الآيات على المشـركين- لم ينكر عليه أحد، و لو كان أمرا مشكوكا لاعترضوا عليه، و لسجل المؤرخون هذا الاعتراض كما سجلوا سائر الاعتراضات؛ خاصّة و أنّ القرآن بدأ الموضوع بجملة أَ لَمْ تَرَ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۱

كما إنّ عظمة هذا البيت الكريم تتبيّن ضمنيا بهذا الإعجاز التاريخى القطعى.

اللّهمّ! و فقنا لصيانة هذا المركز التوحيدى العظيم.

اللّهم! طهّر هذا البيت من أولئك الذين يكتفون بحفظ ظواهره و يصادرون رسالته التوحيدية الحقيقية.

ربّنا! ارزقنا زيارة البيت بوعى و عرفان.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۳

سورة قريش

اشارة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۴۷۳

يّة و عدد آياتها أربع آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۵

«سورة قريش»

محتوى السّورة:

هذه السّورة فی الحقیقة مکملة لسورة الفیل، و آیاتها تدل علی ذلک.

تتضمّن هذه السّورة بیان نعمة اللّه علی قریش و لطفه لهم و محبّته له، کی یحرک فیهم دافع الشکر و یحثهم علی عبادة ربّ هذا البیت العظیم الذی یستمدون منه کلّ مفاخرهم و شرفهم.

و کما إنّ سورة «و الضحی» و سورة «ألم نشرح» تعتبران سورة واحدة- کما ذکرنا- کذلک سورة «الفیل» و سورة «قریش» هما سورة واحدة، و ارتباط موضوعهما یدل علی ذلک أیضا.

و لذلک وجب قراءتهما معا فی الصلاة لمن یری وجوب قراءة سورة کاملة بعد الحمد.

لمزید من التوضیح تراجع کتب الفقه فی أبواب الصلاة.[۴۳۸]

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أنّه قال: «من قرأها اعطی من الأجر عشر حسنات بعدد من طاف بالکعبة و اعتکف بها»[۴۳۹].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۶

هذه الفضیلة دون شک لمن عبد ربّ البیت حقّ عبادته، و صان حرمة البیت کما یجب، و تشربت نفسه برسالة هذا المرکز التوحیدی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۷

الآیات [سورة قریش (۱۰۶): الآیات ۱ الی ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

لِإِیلافِ قُرَیْشٍ (۱) إِیلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّیْفِ (۲) فَلْیَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَیْتِ (۳) الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (۴)

التّفسیر

ربّ هذا البیت یجب أن یعبد:

فی سورة «الفیل» جاء ذکر إبادة أصحاب الفیل الذین جاؤوا لهدم الکعبة و هذه السّورة التی تعتبر امتدادا للسورة السابقة تقول: نحن جعلنا أصحاب الفیل کعصف مأکول: لِإِیلافِ قُرَیْشٍ ۴۴۰]، أی لکی تأتلف قریش فی هذه الأرض المقدسة و تتهیأ بذلک مقدمات ظهور نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

«إیلاف» مصدر آلف، و «آلفه» أی جعله یألف، أی جعله یجتمع اجتماعا مقرونا بالانسجام و الأنس و الالتیام. و قال بعضهم: «الإیلاف» من المؤالفة، و هی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۸

العهد و المیثاق، و لا تناسب بین هذا المعنی و بین الکلمة و هی مصدر باب الأفعال، و بین محتوی السّورة.

على كـلّ حـال، المقصود إيجاد الألفـة بين قريش و هـذه الأرض المقدسـة و هى مكّـة و البيت العتيق، لأنهم و كلّ أهل مكّـة اختاروا السـكن فى هذه الأرض لمكانتها و أمنها. كثير من أهل الحجاز كانوا يحجّون البيت كلّ سـنة، و يقترن حجّهم بنشاط أدبى و اقتصادى فى هذا البلد الأمين.

كلّ ذلك كان يحـدث فى ظل الجو الآمن. و لو أنّ هـذا الأمن قـد انعدم أو أنّ الكعبة قد انهدمت بفعل هجوم أبرهة و أمثاله لما كان لأحد ألفة بهذه الأرض.

كلمة «قريش» فى الأصل نوع من الأحياء البحرية الضخمة التى تبتلع كلّ ما يصادفها، كما يقول المفسّرون و اللغويون، و عن ابن عباس فى معنى قريش قال:

«لدابة تكون فى البحر من أعظم دوابه، يقال لها القريش، لا تمرّ بشىء من الغث و السمين إلّا أكلته»! و استشهد لذلك بأبيات ممّا قالته العرب.

من هنا فإنّ انتخاب هذا الاسم لهذه القبيلة يعود إلى اقتدار هذه القبيلة و قوتها، و إلى استغلال هذه القوّة فى الانقضاض على الآخرين.

و قيل إنّ قريش من القرش، و هو الاكتساب، لأنّ قريشا كانت مشغولة دوما بالتجارة و الكسب.

و قيل: إنّ معنى «القرش» التفتيش و المراجعة، و سمّيت قريش بذلك لتفقدها أحوال الحجاج و المسارعة لمساعدتهم.

و «القرش» فى اللغـة ورد بمعنى الاجتماع أيضا، و إذا كان هـذا المعنى مقصودا فى التسـمية فـذلك يعود إلى ما كانت تتصف به هذه القبيلة من اجتماع و انسجام.

على أى حال اسم قريش لم يقترن بسـمعة طيبة. فهم و إن كانوا عشـيرة الرسول- إلّا أنّهم ناصـبوا الإسلام أشدّ العداء، و لم يألوا جهدا فى وضع العراقيل أمام الدعوة و الوقوف بوجهها و تعذيب الدعاة، و بعد انتصار الإسلام عليهم،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۷۹

عمدوا إلى التآمر الخفى على المسلمين، ثمّ بعد وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم خلقوا أحداثا مؤلمة لا ينساها لهم تاريخ الإسلام أبدا. و نعلم أنّ بنى امية و بنى العباس الذين أقاموا حكومة الجبابرة و الطواغيت كانوا من قريش.

القرائن التاريخية تشـير إلى أنّ هذه القبيلة كانت فى الجاهلية أيضا تسـتثمر النّاس و تسـتغلهم. و لذلك وجدت فى الإسـلام خطرا على مصالحها لدعوته إلى تحرير الإنسان، و شنت عليه حربا لا هوادة فيها، إلى أن اندحرت أمام قدرة الإسلام.

إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَ الصَّيْفِ ۴۴۱].

مكّـة تقع فى واد غير ذى زرع، و الرعى فيها قليل، لـذلك كانت عائـدات أهل مكّـة غالبا من قوافل التجارة، فى فصل الشـتاء يتجهون إلى أرض اليمن فى الجنوب حيث الهواء معتـدل، و فى فصل الصـيف إلى أرض الشام فى الشـمال حيث الجوّ لطيف. و الشام و اليمن كانا من مراكز التجارة آنئذ، و مكّة و المدينة حلقتا اتصال بينهما.

هذه هى رحلة الشتاء ... و رحلة الصيف.

و المقصود ب «إيلافهم» فى الآيـة أعلاه قـد يكون جعلهم يألفون الأرض المقدّسـة خلال رحلاتهم و ينشـدّون إليها لما فيها من آمن، كى لا تغريهم أرض اليمن و الشام، فيسكنون فيها و يهجرون مكّة.

و قـد يكون المقصود إيجـاد الألفـة بينهم و بين سائر القبائل طوال مـدّة الرحلتين، لأنّ النّاس بـدأوا ينظرون إلى قوافل قريش باحترام و يعيرونها أهمية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۰

خاصّة بعد قصّة اندحار جيش أبرهة.

قريش لم تكن طبعـا مسـتحقة لكل هـذا اللطف الإلهى لما كانت تقترفه من آثام، لكن اللّه لطف بهم لما كان مقـدّرا للإسـلام و النّبى

الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يظهرا من هذه القبيلة و تلك الأرض المقدّسة.

الآية الاخيرة تقول: إنّ هذه النعم الإلهية التى أغدقت على قريش ببركة الكعبة يجب أن تدفعهم إلى عبادة ربّ البيت لا الأوثان.

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ

الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ... الـذى جعل تجارتهم رائجـة مريحـة و مربحة، و دفع عنهم الخوف و الضـرر، كلّ ذلك باندحار جيش أبرهة.

و بفضل دعاء إبراهيم الخليل عليه السّـلام مؤسـس الكعبـة. لكنّهم لم يقـدّروا هذه النعمة، فبدلوا البيت المقدس ببيت للأوثان، و ذاقوا فى النهاية و بال أمرهم.

اللّهمّ! هب لنا توفيق العبادة و الطاعة و شكر النعم و حراسة هذا البيت العظيم.

ربّنا! زد فى عظمة هذا المركز الإسلامى الكبير و اجعله حلقة اتصال بين المسلمين.

إلهنا! اقطع دابر الأعداء الظالمين القتلة المتلاعبين بمقدرات هذا المركز الإسلامى الكبير.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة قريش

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۱

سورة الماعون

اشارة

مكيّة و عدد آياتها سبع آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۳

«سورة الماعون»

محتوى السّورة:

هذه السّورة- على رأى أكثر المفسّـرين- مكّية، و لحنها الذى يتحدث عن القيامة و أعمال منكرى القيامة بمقاطع قصيرة و قارعة يؤيد ذلك.

السّورة بشكل عام تذكر صفات و أعمال منكرى القيامة فى خمس مراحل.

فهؤلاء نتيجة لتكذيبهم بذلك اليوم، لا ينفقون فى سبيل اللّه و على طريق مساعدة اليتامى و المساكين. ثمّ هم يتساهلون فى الصـلاة، و يعرضون عن مساعدة المحتاجين.

و فى سـبب نزول السّورة قيل إنّها نزلت فى «أبى سـفيان» الـذى كان ينحر فى اليوم اثنين من الإبل و يطعم أصـحابه، و لكن يتيما جاءه يوما يطلب منه شيئا فضربه بعصاه و طرده.

و قيل: إنّها نزلت فى «الوليد بن المغيرة»، و قيل: فى «العاص بن وائل».

فضيلة السّورة:

ورد فى فضيلة هذه السّورة

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «من قرأ أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فى فرائضه و نوافله قبل اللّه صلاته و صيامه، و لم

يحاسبه بما كان منه فى الحياة الدنيا»[۴۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۴

الآيات [سورة الماعون (۱۰۷): الآيات ۱ الى ۷]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (۱) فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (۲) وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (۳) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (۴)
الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (۵) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (۶) وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ (۷)

التّفسير

إنكار المعاد و آثاره المشؤومة:

هذه السّورة المباركة تبدأ بسؤال موجّه للنّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عن الآثار المشؤومة لإنكار المعاد و تقول:
أَ رَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ
و تجيب عن السؤال:
فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ، وَ لا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ «الدين» هنا «الجزاء» أو يوم الجزاء، و إنكار يوم الجزاء له عواقبه الوخيمة و انعكاسات على أعمال الإنسان. و فى هذه السّورة ذكرت خمسة آثار لهذا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۵

الإنكار منها: «طرد اليتيم، و عدم الحثّ على إطعام المسكين». أى إنّ الشخص المنكر للمعاد لا يطعم المساكين، و لا يدعو الآخرين إلى إطعامهم.

و احتمل بعض أن يكون المقصود من الدين هنا القرآن أو الإسلام.

و المعنى الأوّل أنسب. و نظيره ورد فى قوله تعالى: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۴۴۳] و قوله سبحانه: فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۴۴۴]. و فى هذه الآيات ورد «الدين» بمعنى يوم الجزاء أيضا بقرينة الآيات الأخرى.

«يدع» أى يدفع دفعا شديدا، و يطرد بخشونة.

و «يحضّ» أى يحرضّ و يرغب الآخرين على شىء، و الحضّ مثل الحثّ، إلّا أن الحث- كما يقول الراغب- يكون بسوق و سير، و الحضّ لا يكون بذلك.

و صيغة المضارع فى الفعلين (يدع) و (يحضّ) تدل على استمرارهم على مثل هذا العمل فى حق الأيتام و المساكين.

و يلاحظ هنا بشأن الأيتام، أنّ العواطف الإنسانية تجاه هؤلاء أكثر أهمية من إطعامهم و إشباعهم. لأنّ آلام اليتيم تأتى من فقدانه مصدر العاطفة و الغذاء الروحى و التغذية الجسمية تأتى فى المرحلة التالية.

و مرّة اخرى نرى القرآن يتحدث عن إطعام المساكين، و هو من أهم أعمال البرّ، و فى الآية إشارة إلى أنّك إذا لم تستطع إطعام المساكين، فشجّع الآخرين على ذلك.

الفاء فى «فذلك» لها معنى السببية، و تعنى أنّ التكذيب بالمعاد هو الذى يسبب هذه الانحرافات. و الحقّ أنّ المؤمن بالمعاد و بتلك

المحكمة الإلهية الكبرى و بالحساب و الجزاء يوم القيامة، إيمانا راسخا تظهر عليه الآثار الإيجابية لهذا الإيمان فى كلّ أعماله. و لكن فاقد الإيمان و المكذب بيوم الدين تظهر آثار

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۶

التكذيب عليه متمثلة فى الجرأة على ارتكاب الذنوب و الجرائم بشكل محسوس.

و يتواصل وصف هؤلاء المكذبين بالدين فتقول الآيات التالية: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ

لا يقيمون للصلاة وزنا، و لا يهتمون بأوقاتها، و لا يراعون أركانها و شروطها و آدابها.

«ساهون» من السهو، و هو فى الأصل الخطأ الذى يصدر من الإنسان عن غفلة، سواء كان مقصرا فى المقدمات أم لم يكن. فى الحالة الاولى لا يكون الساهى معذورا، و فى الحالة الثّانية معذور. و المقصود فى الآية السهو المقرون بالتقصير.

و يلاحظ أنّ الآية لم تقل «فى صلاتهم ساهون»، لأنّ السهو فى الصلاة يعرض لكلّ فرد، و لكنّها قالت: «عن صلاتهم ساهون». فهم يسهون عن الصلاة بأجمعها.

واضح أنّ هذه الحالة لو اتفق وقوعها مرّة أو مرات لأمكن أن يكون ذلك عن قصور. لكن الذى يسهو عن صلاته دائما فهو المهمل لصلاته، لعدم إيمانه بها و إذا صلى أحيانا فلخوف من ألسن النّاس و أمثال ذلك.

إضافة لما ذكرناه من معانى لكلمة «ساهون» ذكر المفسّرون معانى اخرى من ذلك تأخير الصلاة عن وقت فضيلتها. أو إشارة إلى المنافقين الذين ما كانوا يؤمنون بثواب الصلاة و لا بعقاب تركها. أو المقصود الذين يراؤون فى صلاتهم (بينما جاء ذكر هذا المعنى فى الآية التالية).

الجمع بين هذه التفاسير ممكن طبعا، و إنّ كان التّفسير الأوّل أنسب.

على أى حال، حين يكون الساهون عن الصلاة مستحقين للويل، فما بالك بتاركى الصلاة؟! الصفة الرابعة و الخامسة للمكذبين بالدين تذكرها الآيتان الأخيرتان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۷

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَ يَمْنَعُونَ الْماعُونَ

من المؤكّد أنّ أحد عوامل التظاهر و الرياء عدم الإيمان بيوم القيامة، و عدم الانشداد بطلب الثواب الإلهى. و إلّا كيف يمكن للإنسان أن يترك مثوبة اللّه و يتجه إلى النّاس ليتزلف إليهم؟! «الماعون» من «المعن» و هو الشىء القليل. و كثير من المفسّرين قالوا إنّ المقصود من «الماعون» الأشياء البسيطة التى يستعيرها أو يقتنيها النّاس و خاصّة الجيران من بعضهم، مثل حفنة الملح، و الماء، و النّار (الثقاب)، و الأوانى و أمثالها.

واضح أنّ الذى يبخل فى إعطاء مثل هذه الأشياء إلى غيره إنسان دنىء عديم الإيمان. أى إنّه بخيل إلى درجة الإباء عن إعطاء مثل هذه الأشياء. بينما يمكن لهذه الأشياء البسيطة أن تسدّ الاحتياجات الكبيرة. و منعها يؤدى إلى بروز مشاكل كثيرة فى حياة الأفراد.

و قيل: إنّ الماعون يعنى الزكاة. لأنّ الزكاة تشكل نسبة قليلة من أصل المال قد تبلغ عشرة بالمائة و أحيانا خمسة بالمائة و أحيانا اثنين و نصف بالمائة.

منع الزكاة طبعا من أفظع السيئات، لأنّ الزكاة تحل كثيرا من مشاكل المجتمع الاقتصادية.

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام فى تفسير الماعون قال: «هو القرض يقرضه، و المتاع يعيره، و المعروف يصنعه»[۴۴۵].

و

فى رواية اخرى عن الصادق عليه السّلام فسّر الماعون بنفس المعنى السابق. فسأله سائل قال: لنا جيرانا إذا أعرناهم متاعا كسروه و أفسدوه فعلينا جناح أن نمنعهم؟

فقال: «لا لیس علیکم جناح أن تمنعوهم إذا کانوا کذلک»[۴۴۶].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۸

و فی معنی الماعون ذکرت احتمالات اخری ذکر القرطبی منها اثنی عشر رأیا یرجع کثیر منها إلی معنی مشترک و المهم ما ذکرناه أعلاه.

ذکر هاتین الصفتین بشکل متوال (الریاء و منع الماعون) کأنه إشارة إلی أن هؤلاء المکذبین بالدین یؤدون ما للّه بنیة النّاس، و ما للناس یمنعونه عنهم، و من هنا لا یصیب أی ذی حقّ حقّه.

مسک الختام

حدیث عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من منع الماعون جاره منعه اللّه خیره یوم القیامة، و وکّله إلی نفسه، و من وکّله إلی نفسه فما أسوأ حاله»؟![۴۴۷]

تعقیب

۱- تلخیص موضوعات سورة الماعون

فی هذه السّورة القصیرة، ذکر اللّه سبحانه مجموعة من الصفات الرذیلة التی إن اتصف بها شخص فهی دلیل عدم إیمانه و دنائته و حقارته. و یلاحظ أنّها جمیعا فروع لظاهرة التکذیب بیوم الدین أی بیوم الجزاء.

إهانة الیتامی، و ترک إطعام المساکین، و التهاون فی الصلاة، و الریاء، و عدم التعاون مع النّاس حتی فی إعارة الأشیاء الصغیرة ... تشکل بمجموعها طبیعة حیاة هؤلاء المکذبین.

من هنا فهؤلاء أناس بخلاء ذاتیون أنانیون متظاهرون لا ارتباط لهم بالخالق و لا بخلقه ... أناس خلت نفوسهم من نور الإیمان و الشعور بالمسؤولیة، لا بثواب اللّه یفکرون، و لا من عذابه یخشون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۸۹

۲- التظاهر و الریاء بلاء اجتماعی کبیر

قیمة کلّ عمل تتوقف علی دافعه، و بالتعبیر الإسلامی، أساس کلّ عمل نیة عامله.

الإسلام یرکز علی النیة فی تقویم الأعمال. لذلک

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «إنّما الأعمال بالنیات، و لکل امرئ ما نوی».

و

جاء فی ذیل هذا الحدیث: «فمن غزی ابتغاء ما عند اللّه فقد وقع أجره علی اللّه عزّ و جلّ و من غزی یرید عرض الدنیا أو نوی عقالا لم یکن له إلّا ما نوی»[۴۴۸].

و هذا یعود إلی أنّ النیة هی التی تصوغ شکل العمل دائما. من کان یعمل للّه جعل أساس عمله مستحکما، و سعی بکل جهده إلی أن یستفید منه النّاس أکثر الاستفادة. لکن المتظاهر المرائی یکتفی بزخرفة الظاهر و تنمیقه من دون أن یهتم بعمق العمل و باطنه و بحاجة المحتاجین إلیه.

المجتمع الذی یتعود علی الریاء لا یبتعد عن اللّه و عن الأخلاق الحسنة و الملکات الفاضلة فحسب، بل تصبح کلّ برامجه الاجتماعیة فارغة خالیة المحتوی، لا تتعدی مجموعة من المظاهر، و إنّها لمأساة أن یکون مصیر الفرد و مصیر المجتمع بهذا الشکل.

الرّوایات فی ذم الریاء کثیرة، بعضها و صفته بأنّه نوع من الشرک. و هنا نذکر ثلاثا منها:

۱-

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «سیأتی علی النّاس زمان تخبث فیه سرائرهم، و تحسن فیه علانیتهم، طمعا فی الدنیا، لا یریدون به ما عند ربّهم، یکون دینهم ریاء، لا یخالطهم خوف، یعمهم اللّه بعقاب، فیدعونه دعاء الغریق، فلا یستجیب لهم!»[۴۴۹]

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۰

۲- و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم أیضا قال: «إنّ المرائی یدعی یوم القیامة بأربعة أسماء: یا کافر! یا فاجر! یا غادر! یا خاسر! حبط عملک، و بطل أجرک، فلا خلاص لک فالتمس أجرک ممن کنت تعمل له»[۴۵۰].

۳- و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق علیه السّلام قال مخاطبا زرارة (أحد أصحابه): «من عمل للناس کان ثوابه علی النّاس یا زرارة! کلّ ریاء شرک»[۴۵۱].

اللّهمّ! إخلاص النیّة أمر عسیر فأعنا علیه بفضلک.

ربّنا! هب لنا إیمانا یجعل معیار تفکیرنا ثوابک و عقابک، و یساوی فی أنظارنا بین سخط المخلوقین و رضاهم فی السلوک إلیک.

إلهنا! اغفر برحمتک زلاتنا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الماعون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۱

سورة الکوثر

اشارة

مکیّة و عدد آیاتها ثلاث آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۳

«سورة الکوثر»

محتوی السّورة:

المشهور أنّ هذه السّورة نزلت فی مکّة، و قیل: فی المدینة، و قیل: من المحتمل أنّها نزلت مرّتین فی مکّة و المدینة، لکن الرّوایات فی سبب نزول السّورة تؤید أنّها مکّیة.

ذکر فی سبب نزول السّورة: أنّ «العاص بن وائل» رأی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یخرج من المسجد، فالتقیا عند باب بنی سهم، و تحدثا، و أناس من صنادید قریش جلوس فی المسجد. فلما دخل «العاص» قیل له من الذی کنت تتحدث معه؟ قال:

ذلک الأبتر. و کان قد توفی عبد اللّه بن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و هو من خدیجة، و کانوا یسمون من لیس له ابن أبتر. قسمته قریش عند موت ابنه أبتر. (فنزلت السّورة تبشر النّبی بالنعم الوافرة و الکوثر و تصف عدوّه بالأبتر)[۴۵۲].

و لمزیـد من التوضـیح نذکر أنّ النّبی کان له ولدان من ام المؤمنین خدیجة علیها السّـلام أحدهما «القاسم» و الآخر «الطاهر» و یسـمی أیضـا عبـد اللّـه. و تـوفی کلاهمـا فی مکّـة. و أصـبح النّبی من دون ولـد. هـذه المسألـة و فرت للأعـداء فرصـة الطعن بـالنّبی فسـمّوه الأبتر[۴۵۳].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۴

و العرب حسب تقالیـدها کانت تعیر أهمّیـة بالغـة للولـد، و تعتبره امتـدادا لمهام الأب. بعد وفاة عبد اللّه خال الأعداء أنّ الرسالة سوف تنتهی بوفاة الرّسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

السّورة نزلت لتردّ علی هؤلاء الأعداء بشـکل إعجازی و لتقول لهم: إنّ عدوّ الرسول هو الأبتر، و أن الرسالة سوف تسـتمر و تتواصل و هذه البشری بددت من جهة آمال الأعداء و طیبت خاطر النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بعد أن اغتم من لمز الأعداء و تآمرهم.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضیلة هذه السّورة عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من قرأها سقاه اللّه من أنهار الجنّة، و اعطی من الأجر بعدد کلّ قربان قربه العباد فی یوم عید، و یقربون من أهل الکتاب و المشرکین»[۴۵۴]

اسم هذه السّورة (الکوثر) مأخوذة من أوّل آیة فیها.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۵

الآیات [سورة الکوثر (۱۰۸): الآیات ۱ الی ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ (۱) فَصَلِّ لِرَبِّکَ وَ انْحَرْ (۲) إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ (۳)

التّفسیر

أعطیناک الخیر العمیم،

الحـدیث فی کلّ هذه السّورة موجّه إلی النّبی الأکرم صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم (مثل سورة و الضـحی، و سورة ألم نشـرح)، و أحد أهداف هذه السور تسلیة قلب النّبی إزاء رکام الأحداث المؤلمة و طعون الأعداء.

تقول له أوّلا:

إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ.

و «الکوثر»: من الکثرة، و بمعنی الخیر الکثیر، و یسمی الفرد السخی کوثرا.

و فی معنی «الکوثر»

ورد أنّه لما نزلت سورة الکوثر صعد رسول للّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم المنبر فقرأها علی النّاس. فلما نزل قالوا: یا رسول اللّه ما هذا الذی أعطاک اللّه؟

قال: «نهر فى الجنّة أشدّ بياضا من اللبن، و أشدّ استقامة من القدح، حافتاه قباب

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۶

الدر و الياقوت ...»[۴۵۵].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام فى معنى الكوثر قال: «نهى فى الجنّة أعطاه اللّه نبيّه عوضا من ابنه»[۴۵۶].

و قيل: هو حوض النّبى الذى يكثر النّاس عليه يوم القيامة.

و قيل: هو النّبوة و الكتاب، و قيل: هو القرآن. و قيل: كثرة الأصحاب و الأشياع. و قيل: هو كثرة النسل و الذرية و قد ظهرت الكثرة فى نسله من ولد فاطمة عليها السّلام حتى لا يحصى عددهم، و اتصل إلى يوم القيامة مددهم، و

روى عن الصادق عليه السّلام أنّه الشفاعة[۴۵۷]

الفخر الرازى نقل خمسة عشر رأيا فى تفسير الكوثر، و لكن هذه التفاسير تبيّن غالبا المصاديق البارزة لمعناها الواسع و هو «الخير الكثير».

نعلم أنّ اللّه سبحانه أعطى رسوله الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نعما كثيرة، منها ما ذكره المفسّرون فى معنى الكوثر و غيرها كثير، و كلّها يمكن أن تكون تفسيرا مصداقيا للآية.

على أى حال، كلّ الهبات الإلهية لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى كل المجالات تدخل فى إطار هذا الخير الكثير، و من ذلك انتصاراته على الأعداء فى الغزوات، بل حتى علماء أمته الذين يحملون مشعل الإسلام و القرآن فى كلّ زمان و مكان.

و لا ننسى أنّ كلام اللّه سبحانه تعالى لنبيّه فى هذه السّورة كان قبل ظهور الخير الكثير. فهو إخبار بالمستقبل القريب و البعيد، إخبار إعجازى يشكل دليلا آخر على صدق دعوة الرسول الأعظم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

هذا الخير الكثير يستوجب شكرا عظيما، و إنّ كان المخلوق لا يستطيع أداء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۷

حقّ نعمة الخالق أبدا. إذ أنّ توفيق الشكر نعمة اخرى منه سبحانه. و لذا يقول سبحانه لنبيّه:

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ.

نعم، واهب النعم هو سبحانه. لذلك ليس ثمّة معنى للعبادات إن كانت لغيره.

خاصّة و إن كلمة (ربّ) تعنى استمرار النعمة و التدبير و الربوبية.

بعبارة اخرى، العبادات، سواء كانت صلاة أم نحرا، تختص بالربّ و ولى النعمة، و هو اللّه سبحانه و تعالى.

و الأمر بالصلاة و النحر للربّ مقابل ما كان يفعله المشركون من سجودهم للأصنام و نحرهم لها، بينما كانوا يرون نعمهم من اللّه. و تعبير (لربّك) دليل واضح على وجوب قصد القربة فى العبادات.

كثير من المفسّرين يعتقدون أنّ الآية تقصد صلاة عيد الأضحى و النحر فيه.

لكن مفهوم الآية عام و واسع. و صلاة عيد الأضحى و النحر فيه من مصاديق الآية البارزة.

عبارة «و انحر» من النحر، و هو ذبح الناقة. و قد يكون ذلك لأهمية الناقة بين أنواع الأضاحى. و المسلمون الأوائل كانوا يعتزون بالإبل. و نحرها يحتاج إلى إيثار كثير.

و ذكر للآية المباركة تفسيران آخران.

۱- المقصود من كلمة (و انحر) أن استقبل القبلة فى الصلاة. لأنّ النحر أعلى الصدر، و العرب تستعمل الكلمة لاستقبال الشىء فيقولون: منازلنا تتناحر، أى تتقابل.

۲- المقصود رفع الید عند النحر لدی التکبیر و لذا

ورد فی الرّوایة أنّه لما

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۸

نزلت هـذه السّورة قال النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لجبریل: «ما هـذه النحیرة[۴۵۸] التی أمرنی بهـا ربّی؟» قـال: «لیست بنحیرة، و لکنّه یأمرک إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع یدیک إذا کبرت و إذا رکعت، و إذا رفعت رأسک من الرکوع و إذا سجدت، فإنّه صلاتنا و صلاة الملائکة فی السماوات السبع. فإن لکلّ شیء زینة، و إنّ زینة الصلاة رفع الأیدی عند کلّ تکبیرة»[۴۵۹].

و

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام فی تفسیر الآیة أنّه أشار بیده و قال: «هکذا».

أی استقبل بیدیه القبلة فی افتتاح الصلاة (رفع یدیه جاعلا کفه مقابل القبلة)[۴۶۰].

و التّفسیر الأوّل أنسب، لأنّ المقصود هو الردّ علی أعمال المشرکین الذین کانوا یعبدون و ینحرون لغیر اللّه، و لکن لا مانع من الجمع بین هذه المعانی، خاصّة و قد وردت بشأن رفع الید عند التکبیر روایات کثیرة فی کتب الشیعة و السنة.

و بذلک یکون للآیة مفهوم جامع یشمل هذه المعانی أیضا.

و فی آخر آیة یقول اللّه سبحانه لنبیّه ردّا علی ما وصمه به المشرکون: إِنَّ شانِئَکَ هُوَ الْأَبْتَرُ.

«الشانئ» هو المعادی من «الشنان»- علی وزن ضربان- و هو العداء و الحقد.

و «أبتر» فی الأصل هو الحیوان المقطوع الذنب ۴۶۱]. و صدر هذا التعبیر من أعداء الإسلام لانتهاک الحرمة و الإهانة. و کلمة (شانئ) فیها ایحاء بأنّ عدوک لا یراعی أیة حرمة و لا یلتزم بأی أدب، أی أنّ عداوته مقرونة بالفظاظة و الدناءة.

و القرآن یقول لهؤلاء الأعداء فی الواقع: إنّکم أنتم تحملون صفة الأبتر لا رسول

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۴۹۹

اللّه.

من جهـة اخری، کمـا ذکرنـا فی سـبب نزول السّورة، قریش کانت تترقب انتهاء الرسالـة بوفاة النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم لأنّهم کانوا یقولون: إنّ النّبی بلا عقب. و القرآن یقول للنّبی: «لست بلا عقب، بل شانئک بلا عقب».

بحوث

۱- فاطمة علیها السّلام و الکوثر

قلنـا إنّ «الکوثر» له معنی واسع یشـمل کـل خیر وهبه اللّه لنـبیّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم، و مصـادیقه کـثیرة، لکن کثیرا من علمـاء الشیعة ذهبوا إلی أنّ «فاطمة الزهراء علیها السّلام» من أوضح مصادیق الکوثر، لأنّ روایة سبب النزول تقول: إنّ المشرکین وصموا النّبی بالأبتر، أی بالشخص المعدوم العقب، و جاءت الآیة لتقول: إِنَّا أَعْطَیْناکَ الْکَوْثَرَ.

و من هنا نستنتج أن الخیر الکثیر أو الکوثر هو فاطمة الزهراء علیها السّلام، لأن نسل الرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم انتشر فی العالم بواسـطة هـذه البنت الکریمـة ... و ذریـة الرسول من فاطمة لم یکونوا امتدادا جسـمیا للرسول صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فحسب، بل کانوا امتـدادا رساليا صانوا الإسـلام وضـحوا من أجل المحافظـة علیه و کان منهم أئمّة الدین الإثنی عشـر، أو الخلفاء الإثنی عشـر بعد النّبی کمـا أخبر عنهم رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم فی الأحـادیث المتواترة بین السـنة و الشـیعة، و کـان منهم أیضـا الآلاف

المؤلفة من کبار العلماء و الفقهاء و المحدثین و المفسّرین وقادة الامّة.

و الفخر الرازی فی استعراضه لتفاسیر معنی الکوثر یقول: القول الثّالث «الکوثر» أولاده. قالوا لأنّ هذه السّورة إنّما نزلت ردّا علی من عابه علیه السّلام بعدم الأولاد فالمعنی أنّه یعطیه نسلا یبقون علی مرّ الزمان، فانظر کم قتل من أهل البیت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۰

ثمّ العالم ممتلئ منهم و لم یبق من بنی امیة فی الدنیا أحد یعبأ به، ثمّ أنظر کم کان فیهم من الأکابر من العلماء کالباقر و الصادق و الکاظم و الرضا علیهم السّلام و النفس الزکیة و أمثالهم ۴۶۲].

۲- إعجاز السّورة

هذه السّورة تتضمّن فی الواقع ثلاثة من أنباء الغیب و الحدیث عن المستقبل.

فهی أوّلا تتحدث عن إعطاء الخیر الکثیر للنّبی (أعطیناک الکوثر) و هذا الفعل و إن جاء بصیغة الماضی، قد یعنی المستقبل الحتمی الوقوع. و هذا الخیر الکثیر یشمل کلّ الانتصارات و النجاحات التی أحرزتها الدعوة الإسلامیة فیما بعد. و هی ما کانت متوقعة عند نزول السّورة فی مکّة.

من جهة اخری، السّورة تخبر النّبی بأنّه سوف لا یبقی بدون عقب، بل إنّ ذریته ستنتشر فی الآفاق.

و من جهة ثالثة، تخبر السّورة بأنّ عدوّه هو الأبتر، و هذه النبوءة تحققت أیضا، فلا أثر لعدوه الیوم، بنو امیة و بنو العباس الذین عادوا النّبی و أبناءه کانوا ذا نسل لا یحصی عدده، و لم یبق الیوم منهم شیء یذکر.

۳- «إنّا» بصیغة الجمع، لما ذا؟

یلاحظ فی السّورة و فی مواضع اخری من القرآن أن اللّه سبحانه ذکر نفسه بصیغة الجمع (ضمیر المتکلم مع الغیر): إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ.

هذا التعبیر لبیان عظمته جلّت قدرته. فالعظماء حین یتحدثون عن أنفسهم، فلا یعنون بشخصهم فقط بل یخبرون عمن تحت إمرتهم. و هی کنایة عن القدرة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۱

و العظمة و عن وجود من یأتمر بأمرهم.

الآیة الکریمة مؤکّدة بحرف (إنّ) تأکیدا آخر، و عبارة «أعطیناک» تعنی هبة اللّه سبحانه لنبیّه هذا الکوثر، و لم یقل آتیناک. و هذه بشارة کبیرة للنّبی تسلی قلبه أمام تخرصات الأعداء، و تثبت قدمه و تبعد الوهن عن عزیمته؛ و لیعلم أن سنده هو اللّه مصدر کلّ خیر و واهب ما عنده من خیر کثیر.

ربّنا! لا تحرمنا ممّا أنعمت به علی نبیّک من خیر کثیر.

ربّنا! إنّک تعلم مدی حبّنا لرسولک و لذریته الطاهرة، فاحشرنا فی زمرتهم.

ربّنا! عظمة رسولک و عظمة رسالته لا تبلغها عظمة، اللّهمّ فزدها عزّة و منعة و شوکة.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الکوثر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۳

سورة الكافرون

اشارة

مكيّة و عدد آياتها ستّ آيات

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۵

«سورة الكافرون»

محتوى السّورة:

هـذه السّورة نزلت فی مكّة لحنها و محتواها يؤيدان ذلك. و سبب نزولها الذی سنبيّنه بإذن اللّه دليل آخر على مكّيتها، و نستبعد ما ذهب إليه بعضهم من أنّها مدنية.

من لحن السّورة نفهم أنّها نزلت فی زمان كان المسلمون فی أقلية و الكفار فی أكثرية، و النّبی يعانی من الضغوط التی تطلب منه أن يهادن المشركين. و أمام هذه الضغوط كان النّبی يعلن صموده و إصراره على المبدأ، دون أن يصطدم بهم.

و فی هذا درس عبرة لكل المسلمين أن لا يساوموا أعداء الإسلام فی مبادئ الدين مهما كانت الظروف. و أن يبعثوا اليأس فی قلوبهم متى ما بادروا الى هـذه المساومة. و فی هذه السّورة تكرر مرّتين نفی عبادة الإنسان المسلم لما يعبده الكافرون، و هو تأكيد يستهدف بّث اليأس فی قلوب الكافرين. كما تكرر مرّتين نفی عبادة الكافر لما يعبده المسلمون من إله واحد أحد. و هذا دليل على تعنتهم و لجاجهم. و نتيجة ذلك هو الفصل العقائدی الحاسم بين منهج التوحيد و متاهات الشرك: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ

فضيلة السّورة:

ورد فی فضيلة هـذه السّورة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأ قل يا أيّها الكافرون فكأنّما قرأ ربع القرآن و تباعدت عنه مردة الشياطين، و برأ من الشرك،

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۶

و يعافی من الفزع الأكبر»[۴۶۳].

و عبارة (ربع القرآن) قد تعنی أن مسألة مواجهة الشرك و الكفر تحتل ربع القرآن و جاءت عصارتها فی هذه السّورة المباركة. و إنّما كانت هذه السّورة عاملا على تباعد مردة الشياطين عن قارئها، لأنّها رفض حاسم للشرك و المشركين، و الشرك أهم حبائل الشيطان.

و النجاة فی يوم القيامة (أو المعافاة من الفزع الأكبر على حدّ تعبير الرّواية) تتوقف بالدرجة الأولى على التوحيد و رفض الشرك. و هو ما دارت حوله مضامين هذه السّورة.

و

فی رواية أخرى أن رجلا- أتى النّبی صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال: جئت يا رسول اللّه لتعلمنی شيئا أقوله عند منامی قال: «إذا أخذت مضجعك فاقرأ قل يا أيّها الكافرون، ثمّ نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك»[۴۶۴].

و

عن جبير بن مطعم قال: قال لی رسول اللّه: «أ تحب يا جبير أن تكون إذا خرجت سفرا من أمثل أصحابك هيئة و أكثرهم زادا»؟

قلت: نعم بأبی أنت و أمی يا رسول اللّه.

قال: «فاقرأ هذه السور الخمس: قل يا أيّها الكافرون، و إذا جاء نصر اللّه و الفتح، و قل هو اللّه أحد، و قل أعوذ برب الفلق، و قل أعوذ

برب النّاس. و افتتح قراءتک ببسم اللّه الرحمن الرحیم».

و

عن الإمـام الصادق علیه السّـلام قال: «کان أبی یقول: قل یا أیّها الکافرون ربع القرآن. و کان إذا فرغ منها قال: أعبـد اللّه وحـده، أعبد اللّه وحده»[۴۶۵].

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۷

الآیات [سورة الکافرون (۱۰۹): الآیات ۱ الی ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ (۱) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (۲) وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۳) وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (۴)

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (۵) لَکُمْ دِینُکُمْ وَ لِیَ دِینِ (۶)

سبب النّزول

جاء فی الرّوایـة أن السّورة نزلت فی نفر من قریش منهم «الحارث بن قیس السـهمی» و «العاص بن أبی وائل» و «الولیـد بن المغیرة»، و «أمیـة بن خلف» و غیرهم من القرشـیین قالوا: هلم یا محمّـد فاتبع دیننا نتبع دینک، و نشـرکک فی أمرنا کلّه، تعبـد آلهتنا سـنة و نعبد آلهتک سـنة. فإن کان الـذی جئت به خیرا ممّا بأیـدینا کنّا قـد شـرکناک فیه و أخـذنا بحظنا منه. و إن کان الذی بأیدینا خیرا ممّا فی یدیک کنت قد شرکتنا فی أمرنا و أخذت بحظک منه.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «معاذ اللّه أن أشرک به غیره».

قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقک و نعبد آلهتک.

فقال: «حتی انظر ما یأتی من عند ربّی».

فنزل قل یا أیّها الکافرون- السّورة.

فعدل رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم إلی المسجد

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۸

الحرام و فیه الملأ من قریش، فقام علی رؤوسهم، ثمّ قرأ علیهم حتی فرغ من السّورة فأیسوا عند ذلک، فآذوه و آذوا أصحابه»[۴۶۶].

التّفسیر

لا أهادن الکافرین:

قُلْ یا أَیُّهَا الْکافِرُونَ و الخطاب إلی قوم مخصوصـین من الکافرین کما ذکر کثیر من المفسّـرین، و الألف و اللام للعهـد. و إنّما ذهب المفسّرون إلی ذلک لأن الآیات التالیة تنفی أن یعبد الکافرون ما یعبده المسلمون و هو اللّه سبحانه فی الماضی و الحال و المستقبل. و المجموعة المخاطبة بهذه الآیات بقیت بالفعل علی کفرها و شـرکها حتی آخر عمرها. بینما دخل کثیر من المشرکین بعد فتح مکّة فی

دين اللّه أفواجا.

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ فهذه مسألة مبدئية لا تقبل المساومة و المهادنة و المداهنة.

وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ لما تأصّل فيكم من لجاج و عناد و تقليد أعمى لآبائكم، و لما تجدونه فى الدعوة من تهديد لمصالحكم و للأموال التى تدر عليكم من عبدة الأصنام.

و لمزيد من التأكيد و بث اليأس فى قلوب الكافرين، و لبيان حقيقة الفصل الحاسم بين منهج الإسلام و منهج الشرك قال سبحانه:

وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ، وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ فعلى هذا لا معنى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۰۹

لإصراركم على المصالحة و المهادنة معى حول مسألة عبادة الأوثان فإنّه أمر محال لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ

أسئلة:

۱- لما ذا بدأت السّورة بفعل الأمر «قل»

«قل» فعل أمر موجه من اللّه سبحانه لنبيه كى يبلّغ الكافرين و يقول لهم:

... يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ ... إلى آخر السّورة، فلما ذا بدأ النّبى تلاوة السّورة بكلمة «قل»، و هى موجهة إليه لا إلى الكافرين؟ أما كان من الأفضل أن تبدأ السّورة بيا أيّها الكافرون ...؟

الجواب يتضح لو التفتنا إلى محتوى السّورة. مشركو العرب كانوا قد دعوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم ليهادنهم بشأن الأوثان و عليه أن يرّد عليهم و يرفض الاستسلام لهم. و إذا لم يبدأ الكلام ب «قل» يصبح الأسلوب أسلوب خطاب طاب اللّه لهم.

و هذا لا ينسجم مع قوله: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و ما شابهه.

أضف إلى ذلك أن كلمة «قل» كانت موجودة فى النص الذى جاء به جبرائيل من اللّه تعالى. و النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مكلف بالمحافظة على النص القرآنى بحذافيره. و هذا يدل على أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و جبرائيل عليه السّلام ليس لهما أى دور فى صياغة النص القرآنى و ليس لهما حق أى تغيير فيه: بل يأتمران بما أمرهما اللّه. و هذا المعنى تؤكده الآية الكريمة: قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَ ۴۶۷].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۰

۲- أ كان عبدة الأصنام منكرين للّه؟

نعلم أن عبدة الأصنام لم يكونوا منكرين للّه سبحانه، و القرآن يؤيد ذلك فى قوله سبحانه: وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۴۶۸].

كيف إذن تقول الآية الكريمة: لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ، وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ.

الجواب: أن الكلام فى هذه السّورة يدور حول العبادة لا الخلقة، و يتّضح أن عبدة الأصنام كانوا يعتقدون أن «اللّه» خالق الكون، لكنّهم كانوا يرون ضرورة «عبادة» الأصنام كى تكون واسطة بينهم و بين اللّه، أو لاعتقادهم بأنّهم ليسوا أهلا لعبادة اللّه، بل لا بدّ من عبادة أصنام جسمية، و القرآن الكريم يرد على هذه الأوهام و يقول: إنّ العبادة للّه وحده لا للأصنام و لا لكليهما!

۳- لم هذا التكرار؟

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ ... وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ الآيتان تكرران معنى واحدا، و هكذا وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ ... وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ تكررت أيضا، لماذا؟ للمفسّرين فى جواب هذا السؤال آراء مختلفة.

ذهب بعضهم إلى أن الهدف من التكرار التأكيد و بثّ اليأس فى قلوب المشركين، و فصل المسيرة الإسلامية بشكل كامل عن مسيرتهم، و تثبيت فكرة عدم إمكان المهادنة بين التوحيد و الشرك. بعبارة أخرى القرآن الكريم قابل دعوة المشركين إلى المساومة و المهادنة و إصرارهم على ذلك و تكرارهم لدعوتهم، بتكرار فى الردّ عليهم.

ورد أن «أبا شاكر الديصانى» و هو من زنادق عصر الإمام الصادق عليه السّلام سأل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۱

أحد أصحاب الصادق عليه السّلام و هو «أبو جعفر الأحول» (محمّد بن على النعمانى المعروف بمؤمن الطاق) عن سبب هذا التكرار، و هل الشخص الحكيم يرد فى كلامه مثل هذا التكرار؟

أبو جعفر الأحول أعياه الجواب، فتوجه إلى المدينة، و دخل على الإمام الصادق عليه السّلام و سأله عن ذلك، أجابه الإمام: كان سبب نزولها و تكرارها أن قريشا قالت لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة فأصابهم بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا تعبد آلهتنا سنة قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ، لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ و فيما قالوا نعبد إلهك سنة وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ و فيما قالوا تعبد آلهتنا سنة وَ لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ و فيما قالوا نعبد إلهك سنة وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ

ذهب أبو جعفر الأحول بالجواب إلى أبى شاكر، فلما سمعه قال: «هذا ما حمله الإبل من الحجاز»[۴۶۹]! (يشير بذلك إلى أن هذا ليس كلامك بل كلام الصادق).

و قيل إن هذا التكرار يعود إلى أن الجملة الأولى تركز على الحال، و الجملة الثّانية تركز على المستقبل، و يكون معنى الجملتين لا أعبد ما تعبدون فى الحال و المستقبل. و لا يوجد شاهد فى الآية على هذا التّفسير.

ثمة تفسير ثالث لهذا التكرار هو إن الأولى تشير إلى الاختلاف فى المعبود و الثّانية إلى الاختلاف فى العبادة. أى لا أعبد الذى تعبدون، و لا أعبد عبادتكم لأن عبادتى خالصة من الشرك و لأنها عبادة عن وعى و عن أداء للشكر لا عن تقليد أعمى ۴۷۰].

و الظاهر أن هذا التكرار للتأكيد كما ذكرنا أعلاه، و جاءت الإشارة إليه أيضا

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۲

فى حديث الإمام الصادق عليه السّلام.

و هناك تفسير رابع للتكرار هو إن الآية الثّانية تقول: لا أعبد ما تعبدون الآن.

و الآية الرابعة تقول: ما أنا عابد (فى الماضى) معبودكم، فما بالكم اليوم. هذا التّفسير يستند إلى التفاوت بين فعلى الآيتين، فى الثّانية الفعل مضارع «تعبدون»، و فى الآية الرابعة «عبدتم» بصيغة الماضى و نحن لا نستبعده ۴۷۱].

و إن كان هذا يحل مسألة تكرار الآيتين الثّانية و الرابعة، و تبقى مسألة تكرار الآيتين الثّالثة و الخامسة على حالها.[۴۷۲]

۴- هل الآية لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ تعنى جواز عبادة الأصنام؟!

قد يتصور أنّ هذه الآية لها مفهوم «السلام العام» و تجيز حتى لعبدة الأصنام أن يظلوا عليها عاكفين، لأنّها لا تصرّ على قبول دين

الإسلام.

لکن هذا التصور فارغ لا یقوم علی أساس، لحن الآیات یوضح بجلاء أنّها نوع من التحقیر و التهدید، أی دعکم و دینکم فسترون قریبا و بال أمرکم، تماما مثل ما ورد فی قوله تعالی: وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا: لَنا أَعْمالُنا وَ لَکُمْ أَعْمالُکُمْ سَلامٌ عَلَیْکُمْ لا نَبْتَغِی الْجاهِلِینَ ۴۷۳].

و الشاهد الواضح علی ذلک مئات الآیات الکریمة التی ترفض الشرک بکل ألوانه، و تعتبره عملا لا شیء أبغض منه، و ذنبا لا یغفر.

و هناک إجابات اخری علی هذا السؤال مثل تقدیر محذوف و تکون العبارة:

لکم جزاء دینکم و لی جزاء دینی.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۳

و قیل أیضا: «الدین» هنا بمعنی الجزاء، و لا محذوف فیها و مفهومها لکم جزاؤکم و لی جزائی ۴۷۴].

و التّفسیر الأوّل أنسب.

۵- هل هادن الشرک یوما؟

السّورة تطرح حقیقة التضاد و الانفصال التام بین منهج التوحید، و منهج الشرک، و عدم وجود أی تشابه بینهما، التوحید یشدّ الإنسان باللّه بینما الشرک یجعل الإنسان غریبا عن اللّه.

التوحید رمز الوحدة و الانسجام فی جمیع المجالات، و الشرک مبعث التفرقة و التمزق فی کلّ الشؤون.

التوحید یسمو بالإنسان علی عالم المادة و الطبیعة، و یربطه بما وراء الطبیعة بالوجود اللامتناهی لربّ العالمین، بینما الشرک یجعل الإنسان یرسف فی أغلال الطبیعة، و یربطه بموجودات ضعیفة فانیة.

من هنا فالنّبی الأعظم صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و سائر الأنبیاء الکرام لم یهادنوا الشرک لحظة واحدة، بل جعلوا مقارعته فی رأس قائمة أعمالهم.

السائرون علی طریق اللّه من الدعاة و العلماء الإسلامیین یتحملون مسئولیة مواصلة هذه المسیرة، و علیهم أن یعلنوا براءتهم من الشرک و المشرکین فی کلّ مکان.

هذا هو طریق الإسلام الأصیل.

اللّهم! جنبنا کلّ شرک فی أفکارنا و أعمالنا.

ربّنا! وساوس المشرکین فی عصرنا خطرة أیضا، فاحفظنا من الوقوع فی

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۴

حبائلهم.

الهنا! منّ علینا بشجاعة و صراحة و حزم لنکون کما کان نبیّک صلّی اللّه علیه و آله و سلّم رافضین لکلّ مساومة مع الکفر و الکافرین و الشرک و المشرکین.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الکافرون

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۵

سورة النّصر

اشارة

مدنيّة و عدد آياتها ثلاث آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۷

«سورة النّصر»

محتوى السّورة:

هذه السّورة نزلت فى المدينة بعد الهجرة، و فيها بشرى النصر العظيم و دخول النّاس فى دين اللّه أفواجا، و تدعو النّبى أن يسبح اللّه و يحمده و يستغفره شكرا على هذه النعمة.

فى الإسلام فتوحات كثيرة، و لكن فتحا بالمواصفات المذكورة فى السّورة ما كان سوى «فتح مكّة»، خاصّة و أن العرب- كما جاء فى الرّوايات- كانت تعتقد أن نبىّ الإسلام صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لا يستطيع أن يفتح مكّة إلّا إذا كان على حق ... و لو لم يكن على حقّ فربّ البيت يمنعه كما منع جيش أبرهة، و لذلك دخل العرب فى دين اللّه بعد فتح مكّة أفواجا.

قيل: إنّ هذه السّورة نزلت بعد «صلح الحديبية» فى السنة السادسة للهجرة، و قبل عامين من فتح مكّة.

و ما احتمله بعضهم من نزول هذه السّورة بعد فتح مكّة فى السنة العاشرة للهجرة فى حجّة الوداع فبعيد جدّا، لأنّ عبارات السّورة لا تنسجم و هذا المعنى، فهى تخبر عن حادثة ترتبط بالمستقبل لا بالماضى.

و من أسماء هذه السّورة «التوديع» لأنّها تتضمّن خبر وفاة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

و

فى الرّواية أنّ هذه السّورة لما نزلت قرأها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على أصحابه ففرحوا و استبشروا، و سمعها العباس فبكى، فقال النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: «ما يبكيك يا عم؟»

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۸

فقال: أظنّ أنّه قد نعيت إليك نفسك يا رسول اللّه، فقال: «إنّه لكما تقول»[۴۷۵].

و ظاهر السّورة ليس فيه إنباء عن قرب رحلة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بل عن الفتح و النصر، فكيف فهم العباس أنّها تنعى إلى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم نفسه؟ يبدو أنّ دلالة السّورة على اكتمال الرسالة و تثبيت الدين هو الذى أوحى بقرب ارتحال الرسول إلى جوار ربّه.

فضيلة السّورة:

وردت فى فضيلة السّورة

عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «من قرأها فكأنّما شهد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فتح مكّة»[۴۷۶].

و

عن الإمام الصادق عليه السّلام قال: «من قرأ إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ فى نافلة أو فريضة نصره اللّه على جميع أعدائه، و جاء يوم القيامة و معه كتاب ينطق، قد أخرجه اللّه من جوف قبره، فيه أمان من حرّ جهنّم»[۴۷۷].

واضح أنّ هذه الفضيلة لمن قرأ هذه السّورة فسلك مسلك رسول اللّه و عمل بسيرته و سنته، لا أن يكتفى بلقلقة اللسان.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۱۹

الآيات [سورة النصر (۱۱۰): الآيات ۱ الى ۳]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ (۱) وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (۲) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (۳)

التّفسير

عند انبلاج فجر النصر:

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَ الْفَتْحُ، وَ رَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ اسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً.
هـذه الآيات الثلاث القصار فى ألفاظها العميقـة فى محتواها تتضـمّن مسائل دقيقة كثيرة نسـلط عليها الضوء كى تساعدنا فى فهم معنى السّورة.
۱- «النصر»: فى الآية أضيف إلى اللّه «نصر اللّه» و فى كثير من المواضع القرآنية نجد نسبة النصر إلى اللّه. يقول سبحانه أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ۴۷۸]، و يقول: وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۴۷۹].
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۰
و هـذا يعنى أن النصـر فى أى حال لا يكون إلّا بإرادة اللّه، نعم، لا بدّ من إعداد القوّة للغلبة على العدو، لكن الإنسان الموحّد يؤمن أنّ النصر من عند اللّه وحده، و لذلك لا يغتّر بالنصر، بل يتجه إلى شكر اللّه و حمده.
۲- فى هذه السّورة دار الحديث عن نصرة اللّه، ثمّ عن «الفتح» و الانتصار، و بعدها عن اتساع رقعة الإسلام و دخول النّاس فى دين اللّه زرافات و وحدانا.
و بين هذه الثلاثة ارتباط علة و معلول. فبنصـر اللّه زرافات يتحقق الفتح، و با الفتح تزال الموانع من الطريق و يدخل النّاس فى دين اللّه أفواجا.
بعد هذه المراحل الثلاث- التى يشكل كل منها نعمة كبرى- تحّل المرحلة الرابعة و هى مرحلة الشكر و الحمد.
من جهة أخرى نصر اللّه، و الفتح هدفهما النهائى دخول النّاس فى دين اللّه و هداية البشرية.
۳- «الفتح» هنا مذكور بشكل مطلق، و القرائن تشير- كما ذكرنا- أنه فتح مكّة الذى كان له ذلك الصدى الواسع المذكور فى الآية.
«فتح مكّة» فتح فى الواقع صفحة جديدة فى تاريخ الإسلام، لأن مركز الشرك قد تلاشى بهذا الفتح، انهدمت الأصنام، و تبددت آمال المشركين و أزيلت السدود و الموانع من طريق إيمان النّاس بالإسلام.
من هنا، يجب أن نعتبر فتـح مكّة بداية مرحلة تثبيت أسـس الإسـلام و اسـتقراره فى الجزيرة العربية ثمّ فى العالم أجمع. لذلك لا نرى بعد فتح مكّة مقاومة من المشركين (سوى مرّة واحدة قمعت بسرعة) و كان النّاس بعده يفدون على النّبى من كل أنحاء الجزيرة ليعلنوا إسلامهم.
۴- فى نهايـة السّورة يأمر اللّه سـبحانه نبيّه (بل كل المؤمنين) بثلاثـة أمور ليجسّـد آلاء الشـكر و ليتخـذ الموقف الإيمانى المناسب من النصر الإلهى و هى: «التسبيح» و «الحمد» و «الاستغفار».
الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۱

«التسبيح» تنزيه اللّه من كل عيب و نقص.

و «الحمد» لوصف اللّه بالصفات الكمالية.

و «الاستغفار» إزاء تقصير العبد.

هـذا الإنتصـار الكبير أدى إلى تطهير الساحـة من أفكـار الشـرك، و إلى تجلى جمال اللّه و كماله أكثر من ذى قبل، و إلى اهتـداء من ضلّ الطريق إلى اللّه.

هـذا الفتح العظيم أدى إلى أن لا يظن فرد بأن اللّه يترك أنصاره وحدهم (و لذلك جاء أمر التسبيح لتنزيهه من هذا النقص) و إلى أن يعلم المؤمنون بأن وعده الحق (موصوف بهذا الكمال)، و إلى أن يعترف العباد بنقصهم أمام عظمة اللّه.

أضف إلى ما سبق، أن الإنسان- عند النصر- قد تظهر عليه ردود فعل سلبية فيقع فى الغرور و التعالى، أو يتخذ موقف الانتقام و تصفية الحسابات الشخصية، و هذه الأوامر الثلاثة تعلمه أن يكون فى لحظات النصر الحساسة ذاكرا لصفات جلال اللّه و جماله و أن يرى كل شىء منه سبحانه، و يتجه إلى الاستغفار كى يزول عنه غرور الغفلة و يبتعد عن الانتقام.

۵- رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مثل كل الأنبياء معصوم، فلما ذا الاستغفار؟

الجواب أن هذا تعليم لكل الأمة لأنه:

أوّلا: خلال أيّام المواجهة بين الإسـلام و الشـرك مرّت فترات عصـيبة على المسلمين، و تفاقمت فى بعض المراحل مشاكل الدعوة، و ضـاقت صـدور بعضـهم و سـاور بعضـهم الآـخر شـكوك فى وعـد اللّه. كمـا قال سـبحانه فيهم عنـد غزوة «الأحزاب»: وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا[۴۸۰].

و الآن إذ تحقق الإنتصار فقـد اتضـح خطل تلك الظنون، و لا بـدّ من «الاسـتغفار» ثانيا: الإنسان لا يسـتطيع أن يؤدى حقّ الشـكر، مهما حمد اللّه و أثنى عليه.

و لذلك لا بدّ له بعد الحمد و الثناء أن يتجه إلى استغفاره سبحانه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۲

ثالثـا: بعـد الإنتصـار تبـدأ عـادة وسـاوس الشـيطان، فتبرز ظـاهرة الغرور تـارة و ظـاهرة الانتقام تارة أخرى. و لا بـدّ إذن من ذكر اللّه و استغفاره باستمرار حتى لا تظهر هذه الحالات، و لتزول إن ظهرت.

رابعا: إعلام هذا النصـر يعنى انتهاء مهمّة النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم تقريبا كما ذكرنا فى بداية السّورة، و انتهاء عمره المبارك و التحاقه بالرفيق الأعلى. و لذا

جاء فى الرّوايات أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم بعـد نزول هـذه السّورة كان يكثر من قول: «سـبحانك اللّهم و بحمـدك، اللّهم اغفر لى إنّك أنت التواب الرحيم».

۶- عبارة إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً تبيّن علّة الاستغفار. أى استغفره و تب إليه لأنّه سبحانه تواب.

و قـد تكون العبـارة تسـتهدف تعليم المسـلمين العفو، فكما إن اللّه تواب كـذلك أنتم ينبغى أن تقبلوا توبـة المـذنبين بعـد الإنتصار ما أمكنكم ذلك. و أن لا تطردوهم ما داموا منصـرفين عن المخالفـة و التآمر. و لـذلك اتخذ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم فى فتح مكّة- كما سنرى- موقف الرحمة و الرأفة مقابل الأعداء الحقودين.

التسبيح و الحمد و الاسـتغفار دأب كل الأنبياء الكرام عند تحقق النصـر. يوسف عليه السّـلام حين جلس على سـرير الحكم فى مصر و عـاد إليه والـداه و اخوته بعـد فراق طويل قال: رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَ أَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ [۴۸۱] و عند ما حضر عرش ملكة سبأ أمام سليمان عليه السّلام قال: هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَ أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ[۴۸۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۳

بحث

عند فتح مكّة:

فتح مكّة- كما ذكرنا- فتح صفحة جديدة فى تاريخ الإسلام، و دحر الأعداء بعد عشرين عاما من المقاومة. و تطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك و الأوثان، و الإسلام تأهب لدعوة بقية أصقاع العالم.

ملخص الواقعة على النحو التالى:

بعد صلح الحديبية، عمد المشركون إلى نقض العهد، و إلى خرق بنود وثيقة الصلح، و اعتدوا على المتحالفين مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. فشكى المتحالفون ذلك إلى الرسول، فقرر النّبى أن يهب لحمايتهم.

من جهة أخرى، الظروف فى مكّة- حيث مركز الوثنية و الأصنام و الشرك و النفاق- توفرت لتطهيرها. و هذه مهمّة كان لا بدّ من أدائها فى وقت من الأوقات.

لذلك استعد النّبى للحركة بأمر اللّه سبحانه صوب مكّة.

فتح مكّة تمّ فى ثلاث مراحل. المرحلة التمهيدية و فيها تمّ تعبئة القوى اللازمة و اختيار الظروف الزمانية المساعدة، و جمع المعلومات الكافية عن العدوّ، و المرحلة الثّانية كانت فتح مكّة بأسلوب ماهر خال من التلفات. و المرحلة الأخيرة هى مرحلة عطاء الفتح و آثاره.

۱- هذه المرحلة اتصف بالدقّة المتناهية. و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم سيطر على الطريق بين مكّة و المدينة سيطرة تامّة حتى لا يسرب خبر هذا الاستعداد الإسلامى إلى مكّة، و لكى يتمّ الفتح بشكل مباغت. و هذا أدى إلى فتح مكّة دون إراقة دماء تقريبا.

انقطاع اخبار المدينة عن مكّة كان متقنا، حتى أن نفرا من ضعاف الإيمان اسمه «حاطب بن أبى بلتعة» كتب رسالة إلى قريش يخبرهم بأمر المسلمين فى المدينة، و بعثها بيد امرأة من قبيلة «مزينة» اسمها «كفود»، أو «سارة». فعلم بها

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۴

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بطريق إعجازى، و بعث عليّا عليه السّلام إلى المرأة، فوجدها فى منزل بين مكّة و المدينة. أخذ منها الرسالة و أعادها إلى المدينة، و قد أوردنا قصّتها فى تفسير الآية الأولى من سورة الممتحنة.

النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استخلف أحد المسلمين على المدينة، و توجه فى العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة إلى مكّة، و وصلها بعد عشرة أيّام.

فى الطريق التقى الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بعمّه العباس و هو يهاجر من مكّة إلى المدينة.

فطلب منه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يرسل متاعه إلى المدينة و يلتحق بالمسلمين، و أخبره بأنّه آخر مهاجر.

۲- وصل المسلمون إلى مشارف مكّة و عسكروا عند «مرّ الظهران» على بعد عدّة كيلومترات من مكّة. و فى الليل أشعلوا نيران كثيرة لإعداد الطعام (و لعلهم فعلوا ذلك لإثبات تواجدهم الواسع). رأى جمع من أهل مكّة هذا المنظر فتحيروا.

أخبار الزحف الإسلامى كانت لا تزال خافية على قريش فى تلك الليلة خرج «أبو سفيان» و معه عدد من سراة قريش للاستطلاع خارج مكّة. و فى نفس الليلة قال العباس عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: يا سوء صباح قريش. و اللّه لئن باغتها رسول اللّه فى ديارها فدخل مكّة عنوة إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فاستأذن رسول اللّه و خرج على بغلته لعله يرى أحدا متجها إلى مكّة

فیخبرهم بمکان رسول اللّه فیأتونه فیستأمنونه.

و بینما العباس یطوف بأطراف مکّة إذ سمع صوت أبی سفیان و معه القرشیون الذین خرجوا یتجسّسون. فقال: أبو سفیان: ما رأیت نیرانا أکثر من هذه! فقال له أحد مرافقیه: هذه نیران خزاعة. فقال أبو سفیان: خزاعة أذلّ من ذلک. نادی العباس أبا سفیان، فسأله أبو سفیان علی الفور: ما وراءک؟ قال العباس: هذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المسلمین أتاکم فی عشرة آلاف.

قال أبو سفیان: ما تأمرنی؟

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۵

أجابه العباس: ترکب معی فأستأمن لک رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فو اللّه لئن ظفر بک لیضربنّ عنقک.

فخرجا یرکضان نحو رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، فکلما مرّا بنار من نیران المسلمین یقولون: عم رسول اللّه علی بغلة رسول اللّه. (أی إن المارّ لیس بغریب). حتی مرّا بنار عمر بن الخطاب. فما أن أبصر به عمر حتی قال له: أبو سفیان! الحمد للّه الذی أمکن منک بغیر عقد و لا عهد! دخل العباس و أبو سفیان علی رسول اللّه و تبعهما عمر فدخل أیضا و قال للرسول: یا رسول اللّه هذا أبو سفیان عدوّ اللّه قد أمکن اللّه منه بغیر عهد و لا عقد فدعنی اضرب عنقه.

فقال العباس: یا رسول اللّه إنی قد أجرته.

و کثر الکلام بین العباس و عمر

فقال رسول اللّه للعباس: اذهب فقد أمّنّاه حتی تغدو علّی به بالغداة.

فلما کان من الغد جاء العباس بأبی سفیان إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فلما رآه قال:

ویحک یا أبا سفیان! «ألم یأن لک أن تعلم أن لا إله إلا اللّه؟».

قال: بلی، بأبی أنت و أمی لو کان مع اللّه غیره لقد أغنی عنّی شیئا.

فقال النّبی: «ویحک ألم یأن لک أن تعلم أنّی رسول اللّه؟» فقال: بأبی أنت و أمی، أما هذه ففی النفس منها شیء. فقال: له العباس: ویحک تشهّد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقک! فتشهّد.

فقال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم للعباس: «اذهب فاحبس أبا سفیان عند خطم الجبل بمضیق الوادی حتی تمرّ علیه جنود اللّه».

قال العباس: یا رسول اللّه إن أبا سفیان یحب الفخر فاجعل له شیئا یکون فی قومه.

فقال صلّی اللّه علیه و آله و سلّم: «من دخل دار أبی سفیان فهو آمن ... و من دخل المسجد فهو

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۶

آمن، و من أغلق بابه فهو آمن».

خرج العباس و أجلس أبا سفیان عند خطم الجبل فمرّت علیه القبائل، فیقول له العباس: هذه أسلم ... هذه جهینة ... حتی مرّ رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی کتیبته الخضراء مع المهاجرین و الأنصار متسربلین بالحدید لا یری منهم إلا حدق عیونهم. فقال:

و من هؤلاء؟ قال العباس: هذا رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم فی المهاجرین و الأنصار.

فقال أبو سفیان: لقد أصبح ملک ابن أخیک عظیما.

قال العباس: ویحک إنّها النبوة.

فقال: نعم إذن.

ثمّ قال له العباس: الحق بقومک سریعا فحذّرهم.

فخرج حتی أتی مکّة فصرخ فی المسجد:

يا معشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به. ثمّ قال: من دخل دارى فهو آمن. و من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق بابه فهو آمن ... و قال: يا معشر قريش اسلموا تسلموا.

فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته و قالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلى لحيتى و اقسم لئن أنت لم تسلمى لتضربن عنقك، ادخلى بيتك! فتركته.

ثمّ بلغ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم مع جيش المسلمين منطقة «ذى طوى» و هى مرتفع يشرف على بيوت مكّة. فتذكر الرسول ذلك اليوم الذى خرج فيه مضطرا متخفيا من مكّة. و ها هو يعود إليها منتصرا، فوضع رأسه تواضعا للّه و سجد على رحل ناقته شكرا له سبحانه.

ثمّ ترجّل النّبى الأكرم صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فى «الحجون» إحدى محلات مكّة، و فيها قبر خديجة عليها السّلام، و اغتسل، ثمّ ركب ثانية بجهاز الحرب و دخل المسجد الحرام و هو يتلو سورة الفتح. ثمّ كبر و كبر جند الإسلام معه، فدوى صوت التكبير فى أرجاء

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۷

مكّة.

ثمّ نزل من ناقته، و اقترب من الكعبة، و جعل يسقط الأصنام واحدا بعد الآخر و هو يقول: جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً.

و كان عدد من الأصنام قد نصب فوق الكعبة، و لم تصل إليها يد الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فأمر عليّا أن يصعد على كتفه المباركة و يرمى بالأصنام فامتثل على أمر الرسول.

ثمّ أخذ مفاتيح الكعبة، و فتحها و محا ما كان على جدرانها من صور الأنبياء.

-۳

بعد الإنتصار الرائع السريع أخذ رسول اللّه حلقة باب الكعبة، و توجّه إلى أهل مكّة و قال لهم: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، و ابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

و أمر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم جيشه أن لا يتعرضوا لأحد، و أن لا يريقوا دم أحد.

و أمر فقط بقتل ستة أفراد- حسب الرّوايات- ممن كانوا خطرين و متوغلين فى عدائهم للإسلام. و حين بلغه أن سعد بن عبادة- و هو أحد حملة الوية الجيش الإسلامى- يصيح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة.

أمر عليّا عليه السّلام أن يأخذ منه الرّاية و يدخل بها مكّة دخولا رقيقا و يقول: اليوم يوم المرحمة!!

و بهذا الشكل فتحت مكّة دون إراقة دماء و كان لعفو الرسول و رحمته الأثر الكبير فى القلوب، فدخل النّاس فى دين اللّه أفواجا. و دوّى خبر الفتح فى أرجاء الجزيرة العربية و ذاع صيت الإسلام، و تعززت مكانة المسلمين ۴۸۳].

و

جاء فى كتب التاريخ أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم عند ما وصل الكعبة قال: لا إله إلا اللّه وحده وحده، أنجز وعده، و نصر عبده، و هزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مال أو مأثرة أو دم تدعى فهو تحت قدمى هاتين! ...

(و بذلك الغى كل مخلفات الجاهلية و طوى جميع ملفاتها).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۸

هذا المشروع الإسلامى الجبار اقترن بالعفو العام، لينقل قبائل الجزيرة العربية من ماضيهم المظلم إلى نور الإسلام بعيدا عن كل ألوان الصراع و التخبط الجاهلى.

و هذا ساعد کثیرا علی انتشار الإسلام و أصبح قدوة لحاضرنا و مستقبلنا.

اللّهمّ! إنّک قادر أن تعید للمسلمین عزّتهم و عظمتهم فی ظلّ الاقتداء بسنّة رسولک المصطفی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

ربّنا! اجعلنا فی زمرة السائرین الحقیقیین علی طریق نبیّ الإسلام صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

إلهنا! وفقنا لإقامة حکومة العدل الإسلامیّة و نشر رایتها فی العالم لیدخل النّاس طواعیة فی دین اللّه أفواجا.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة النصر

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۲۹

سورة تبّت

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها خمس آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۱

«سورة تبت»

محتوی السّورة:

هـذه السّورة مکّیة و نزلت فی أوائل الدعوة العلنیة. و هی السّورة الوحیدة التی تحمل هجوما شدیدا بالاسم علی أحد أعداء الإسـلام و النّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم آنذاک و هو أبو لهب. و من السّورة یتضح أنّه کان یحمل عداء خاصا للنّبی صـلّی اللّه علیه و آله و سلّم و یمارس هو و زوجه کل أنواع الأذی بحقّه.

القرآن یصرّح بأنّهما أهل جهنّم، و لیس لهما طریق للنجاة، و تحققت هذه النبوءة القرآنیة، و کلاهما مات علی الکفر.

فضیلة السّورة:

ورد فی فضـیلة هذه السّورة عن رسول اللّه صـلّی اللّه علیه و آله و سـلّم أنّه قال: «من قرأها رجوت أن لا یجمع اللّه بینه و بین أبی لهب فی دار واحدة»[۴۸۴].

بدیهی أن هذه الفضیلة نصیب من بقراءتها یفصل مسیرته عن مسیرة أبی لهب، لا من یقرأها بلسانه و یعمل عمل أبی لهب فی أفعاله.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۲

الآیات [سورة المسد (۱۱۱): الآیات ۱ الی ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ (۲) سَیَصْلی ناراً ذاتَ لَهَبٍ (۳) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴)

فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)

سبب النّزول

عن ابن عباس قال: عند ما نزلت وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ أمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن ينذر عشيرته و يدعوهم إلى الإسلام (أى أن يعلن دعوته).

صعد النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم على جبل الصفا و نادى: «يا صباحاه»! (و هو نداء يطلقه العرب حين يهاجمون بغتة كى يتأهبوا للمواجهة، و إنّما اختاروا هذه الكلمة لأنّ الهجوم المباغت كان يحدث فى أوّل الصبح غالبا).

عند ما سمع أهل مكّة هذا النداء قالوا: من المنادى؟ قيل: محمّد. فاقبلوا نحوه، و بدأ ينادى قبائل العرب بأسمائها، ثمّ قال لهم: أ رأيتم لو أخبرتكم أن العدوّ مصبحكم أو ممسيكم، أما كنتم تصدقونى.

قالوا: بلى. قال: فإنّى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تبّا لك. لهذا دعوتنا جميعا؟! فأنزل اللّه هذه السّورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۳

و قيل: إن امرأة أبى لهب (و اسمها أم جميل) علمت أن هذه السّورة نزلت فيها و فى زوجها. جاءت إلى النبىّ صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و النّبى لا يراها، حملت حجرا و قالت: سمعت أن محمّدا هجانى، قسما لو وجدته لألقمن فمه هذا الحجر. أنا شاعرة أيضا. ثمّ أنشدت اشعارا فى ذم النّبى و الإسلام ۴۸۵].

خطر أبى لهب و امرأته على الإسلام لم يكن منحصرا فيما ذكرناه. و إذ نرى القرآن يحمل عليهما بشدّة و يذمهما بصراحة، فلأسباب أخرى، سنشير إليها فيما بعد.

التّفسير

تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ

هذه السّورة- كما ذكرنا فى سبب نزولها- ترد على بذاءات أبى لهب عم النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ابن عبد المطلب. و كان من ألد أعداء الإسلام، و حين صدح النّبى بدعوته و أعلنها على قريش و أنذرهم بالعذاب الإلهى قال: «تبا لك أ لهذا دعوتنا جميعا»؟!

و القرآن يرد على هذا الإنسان البذى و يقول له:

تَبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ وَ تَبَ

«التّب» و «التاب» يعنى الخسران المستمر كما يقول الراغب فى مفرداته أو هو الخسران المنتهى بالهلاك كما يقول الطبرسى فى مجمع البيان.

و بعض اللغويين قال إنّه القطع و البتر. و هذا المعنى الأخير هو النتيجة الطبيعية للخسران المستمر المنتهى بالهلاك.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۴

الهلاك و الخسران فى الآية يمكن أن يكون دنيويا، و يمكن أن يكون معنويا أخرويا، أو كليهما.

و هنا يثار تساؤل بشأن سبب ذم هذا الشخص باسمه- و هو خلاف نهج القرآن- و بهذه الشدّة.

يتّضح ذلك لو عرفنا مواقف أبى لهب من الدعوة.

اسمه «عبد العزى» و كنيته «أبو لهب» و قيل إنّه كنى بذلك لحمرة كانت فى وجهه.

و امرأته «أم جميل» أخت أبى سفيان، و كانت من أشدّ النّاس عداوة و أقذعهم لسانا تجاه النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و دعوته.

و فى الرّواية عن «طارق المحاربى» قال: بينا أنا بسوق ذى المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيّها النّاس قولوا لا إله إلّا اللّه تفلحوا». و إذا

برجل خلفه یرمیه قد أرمی ساقیه و عرقوبیه و یقول: یا أیّها النّاس إنّه کذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا هو محمّد یزعم أنّه نبیّ. و هذا عمّه أبو لهب یزعم أنّه کذاب ۴۸۶].

و

فی روایة عن «ربیعة بن عباد» قال: کنت مع أبی أنظر إلی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یتبع القبائل، و وراءه رجل أحول و وضیء الوجه. یقف رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم علی القبیلة فیقول: «یا بنی فلان. إنّی رسول اللّه إلیکم. آمرکم أن تعبدوا اللّه و لا تشرکوا به شیئا، و أن تصدقونی و تمنعونی حتی أنفذ عن اللّه ما بعثنی به». و إذا فرغ من مقالته قال: الآخر من خلفه: یا بنی فلان. هذا یرید منکم أن تسلخوا اللات و العزی و حلفاءکم من الجن، إلی ما جاء به من البدعة و الضلالة، فلا تسمعوا له، و لا تتبعوه. فقلت لأبی: من هذا؟ قال: عمّه أبو لهب ۴۸۷].

و فی روایة أخری: و کان من عظیم خطر أبی لهب ضد الدعوة الإسلامیة أنّه

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۵

کلما جاء وفد إلی النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم یسألون عنه عمّه أبا لهب- اعتبارا بکبره و قرابته و أهمیته- کان یقول لهم: إنّه ساحر، فیرجعون و لا یلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتی نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبا له و تعسا[۴۸۸].

من هذه الرّوایات نفهم بوضوح أن أبا لهب کان یتتبع النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم غالبا کالظلّ.

و ما کان یری سبیلا لإیذائه إلّا سلکه. و کان یقذعه بأفظع الألفاظ. و من هنا کان أشدّ أعداء الرسول و الرسالة. و لذلک جاءت هذه السّورة لتردّ علی أبی لهب و امرأته بصراحة و قوّة[۴۸۹]. إنّه الوحید الذی لم یوقع علی میثاق حمایة بنی هاشم للرسول صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و وقف فی صف الأعداء، و اشترک فی عهودهم. من کلّ ما سبق نفهم الوضع لاستثنائی لهذه السّورة.

ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ فلیس با مکان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الالهی سَیَصْلی ناراً ذاتَ لَهَبٍ

من الآیة الأولی نفهم أنّه کان ثریا ینفق أمواله فی محاربة النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم.

و أبو لهب ناره ذات لهب یصلاها یوم القیامة. و قیل: یصلاها فی الدنیا قبل الآخرة. و «لهب» جاءت بصیغة النکرة لتدل علی عظمة لهب تلک النّار.

لا أبا لهب و لا أی واحد من الکافرین و المنحرفین تغنیه أمواله و مکانته الاجتماعیة من عذاب اللّه، کما یقول سبحانه: یَوْمَ لا یَنْفَعُ مالٌ وَ لا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ [۴۹۰] بل لم تغنه فی الدنیا من سوء المصیر. حیث جاء فی الرّوایة، أنّ أبا لهب لم یشترک فی بدر، بل أرسل من ینوب عنه. و بعد اندحار المشرکین و عودتهم إلی مکّة، هرع أبو لهب لیسأل أبا سفیان عن الخبر. فأخبره أبو سفیان بالهزیمة و قال:

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل ؛ ج ۲۰ ؛ ص۵۳۵

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۶

«و ایم اللّه ما لمت النّاس. لقینا رجالا بیضا علی خیل بلق بین السماء و الأرض ...» قال أبو رافع (مولی العباس) و قد کان جالسا: تلک الملائکة. فرفع أبو لهب یده فضرب وجهه ضربة شدیدة، ثمّ حمله و ضرب به الأرض، ثمّ برک علیه یضربه و کان رجلا ضعیفا.

و ما أن شهدت أم الفضل (زوجة العباس)، و کانت جالسة أیضا، ذلک حتی أخذت عمودا و ضربت أبا لهب علی رأسه و قالت: تستضعفه إن غاب عنه سیّده؟! فقام مولیا ذلیلا.

قال أبو رافع: فو اللّه ما عاش إلّا سبع لیال حتی رماه اللّه بالعدسة (مرض یشبه الطاعون) فمات. و قد ترکه أبناه لیلتین أو ثلاثة ما یدفنانه حتی أنتن فی بیته.

فلما عيّرهما النّاس بذلك أخذ و غسل بالماء قذفا عليه من بعيد، ثمّ أخذوه فدفنوه بأعلى مكّة و قذفوا عليه الحجارة حتى واروه ۴۹۱].

وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۴۹۲]، فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ.

الآيتان تتحدثان عن «أم جميل» امرأة أبى لهب، و أخت أبى سفيان، و عمّة معاوية. و تصفانها بأنّها تحمل الحطب كثيرا، و فى رقبتها حبل من ليف النخيل.

و لماذا وصفها القرآن بأنّها حمالة الحطب؟

قيل: لأنّها كانت تأخذ الحطب المملوء بالشوك و تضعه على طريق رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لتدمى قدماه.

و قيل: إنّه كناية عن النميمة.

و قيل: إنّه كناية عن شدّة البخل، فهى مع كثرة ثروتها أبت أن تساعد الفقراء و كانت شبيهة بحمال الحطب الفقير.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۷

و قيل: إنّها فى الآخرة تحمل أوزارا ثقيلة على ظهرها.

و بين هذه المعانى، المعنى الأوّل أنسب، و إن كان الجمع بينها غير مستبعد أيضا.

«الجيد» هو الرقبة، و جمعه أجياد. و قال بعض اللغويين: الجيد و العنق و الرقبة لها معنى واحد، مع تفاوت هو إن الجيد أعلى الصدر، و العنق القسم الخلفى من الرقبة، و الرقبة لجميعها، و قد يسمّى الإنسان بها كقوله سبحانه: فَكُّ رَقَبَةٍ أى فك الإنسان و إطلاق سراحه ۴۹۳].

«مسد» هو الحبل المفتول من الألياف. و قيل: حبل يوضع على رقبتها فى جهنّم، له خشونة الألياف و حرارة النّار و ثقل الحديد.

و قيل: إنّ نساء الأشراف كن يرين شخصيتهنّ فى وسائل الزينة و خاصّة القلادة الثمينة. و اللّه سبحانه يلقى فى عنقها يوم القيامة حبل من ليف للإهانة. أو إن التعبير أساسا للتحقير و الإهانة.

و قيل: إنّ هذه العبارة تشير إلى أنّ أم جميل أقسمت أن تنفق ثمن قلادتها الثمينة على طريق معاداة الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم. و لذلك تقرر لها هذا العذاب.

ملاحظات

۱- إعجاز آخر

علمنا أن هذه الآيات نزلت فى مكّة و القرآن أخبر بتأكيد كامل أن أبا لهب و امرأته من أهل النّار، أى سوف لا يؤمنان أبدا. و هكذا كان كثير من مشركى مكّة آمنوا عن إيمان أو عن استسلام. لكن هذين الزوجين لم يؤمنا لا حقيقة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۸

و لا ظاهرا. و هذا من أنباء الغيب فى القرآن. و فى القرآن الكريم مثل هذه الأخبار فى آيات أخرى.

و تشكل بمجموعها فصلا من فصول إعجاز القرآن تحت عنوان «الأخبار الغيبية». و كان لنا بحوث عندها.

۲- جواب عن سؤال

القرآن أخبر عن أبى لهب بأنّه سيصلى النّار، أى أنّه سيموت كافرا و لن يؤمن أبدا. و بهذا لا يمكن لأبى لهب أن يؤمن لأن نبوءة

القرآن ستكون عندئذ كاذبة.

و إلّا سيكون أبو لهب مجبرا على الكفر. و ليس له اختيار؟! مثل هذا السؤال يطرح عن علم اللّه سبحانه فى مبحث الجبر و التفويض. و هو إنّ اللّه سبحانه يعلم من الأزل بكل شيء. بطاعة المطيعين و معصية المذنبين أيضا.

ألا يكون العصاة بذلك مجبرين على الذنب؟ و إن لم يكونوا كذلك ألا يتبدل علم اللّه إلى جهل؟! الفلاسفة الإسلاميون أجابوا عن هذا السؤال منذ القديم و قالوا إنّ اللّه سبحانه يعلم ما يفعله كل شخص بالاستفادة من حريته و اختياره. ففى هذه الآيات مثلا يعلم اللّه منذ البداية أنّ أبا لهب و زوجته سيختاران بإرادتهما و عن رغبتهما طريق الكفر، لا بالإجبار.

بعبارة أخرى، عنصر الحرية و الإختيار أيضا جزء ممّا هو معلوم عند اللّه تعالى. إنّه على علم بما يعمله العباد و هم مختارون متمتعون بالإرادة و الحرية.

و من المؤكّد أنّ مثل هذا العلم و الإخبار عن المستقبل، تأكيد على الإختيار، لا على الإجبار. (تأمل بدقّة).

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۳۹

۳- ليس من أهلك هذه السّورة المباركة تؤكّد مرّة أخرى أنّ القرابة لا قيمة لها إن لم تكن مقرونة برباط رسالى. و حملة الرسالة الإلهية كانوا لا يلينون أمام المنحرفين و الجبابرة و الطغاة مهما كانت درجة قربهم منهم.

مع أنّ أبا لهب كان من أقرب أقرباء الرسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، فقد عامله الإسلام مثل سائر المنحرفين و الضالين حين فصل مسيرة العقائدى و العملى عن خط التوحيد، و وجّه إليه أشدّ الردّ و أحدّ التوبيخ. و على العكس ثمّة أفراد بعيدون عن الرسول نسبا و قومية و لغة، كانوا بسبب ارتباطهم الرسالى من القرب من الرّسول صلّى اللّه عليه و آله و سلّم حتى

قال فى أحدهم: «سلمان منّا أهل البيت»[۴۹۴].

صحيح أن آيات هذه السّورة توجّه التقريع لأبى لهب و زوجه، و لكن كان ذلك لما اتصفا به من صفات. من هنا فإن كل فرد أو جماعة على هذه الصفات سيواجهون مصيرا مشابها أيضا.

اللّهم! طهر قلوبنا من كل لجاج و عناد! ربّنا! كلنا من مصيرنا وجلون، فبفضلك و منّك اجعل عواقب أمورنا خيرا.

إلهنا! نحن نعلم أنّ الأموال و القرابة لا تغنى عنّا شيئا يوم الفزع الأكبر.

فاشملنا برحمتك و لطفك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة تبّت

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۱

سورة الإخلاص

اشارة

مكّية و عدد آياتها أربع آيات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۳

«سورة الإخلاص»

محتوى السّورة:

هذه السّورة، كما هو واضح من اسمها، (سورة الإخلاص، أو سورة التوحيد) تركز على توحيد اللّه، و فى أربع آيات قصار تصف

التوحید بشکل جامع لا یحتاج إلی أیة إضافة و فی نزول السّورة

روی عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ الیهود سألوا رسول اللّه فقالوا: أنسب لنا ربّک فلبث ثلاثا لا یجیبهم. ثمّ نزلت قل هو اللّه أحد إلی آخرها».

قیل إنّ السائل عبد اللّه بن صوریا الیهودی، و قیل: إنّه عبد اللّه بن سلام سأل رسول اللّه ذلک بمکّة ثمّ آمن و کتم إیمانه. و قیل: إنّ مشرکی مکّة سألوه ذلک ۴۹۵].

و قیل إنّ نصاری نجران هم الذین سألوا النّبی ذلک.

و لا تضاد بین هذه الرّوایات، إذ قد یکون هؤلاء جمیعا سألوا الرسول نفس هذا السؤال، فکان الجواب لهم جمیعا، و هو دلیل آخر علی عظمة هذه السّورة.

فضیلة السّورة:

وردت فی فضیلة هذه السّورة نصوص کثیرة تدل علی مکانة هذه السّورة بین سور القرآن من ذلک.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۴

ورد عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «أ یعجز أحدکم أن یقرأ ثلث القرآن فی لیلة»؟

قیل: یا رسول اللّه و من یطیق ذلک؟

قال: «اقرأوا قل هو اللّه أحد»[۴۹۶].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام قال: «إنّ رسول اللّه صلّی علی سعد بن معاذ. فلمّا صلّی علیه قال: لقد وافی من الملائکة سبعون ألف ملک، و فیهم جبرائیل یصلون علیه. فقلت: یا جبرائیل بم استحق صلاتهم علیه؟ قال: بقراءة قل هو اللّه أحد قاعدا و قائما و راکبا و ماشیا و ذاهبا و جائیا»[۴۹۷].

و

عن الإمام الصادق علیه السّلام أیضا قال: «من مضی به یوم واحد فصلی فیه الخمس صلوات و لم یقرأ فیها بقل هو اللّه أحد، قیل له: یا عبد اللّه لست من المصلین»[۴۹۸].

و

عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم قال: «من کان یؤمن باللّه و الیوم الآخر فلا یدع أن یقرأ فی دبر الفریضة بقل هو اللّه أحد. فإنّه من قرأها جمع له خیر الدنیا و الآخرة و غفر اللّه له و لوالدیه و ما ولدا».

و یستفاد من روایات اخری أنّ قراءة هذه السّورة عند دخول البیت تزید الرزق و تدفع الفقر[۴۹۹].

و الرّوایات فی فضیلة هذه السّورة أکثر من أن تستوعبها هذه السطور، و ما نقلناه جزء یسیر منها.

و لکن کیف تعادل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ثلث القرآن؟

قیل: لأنّ القرآن یشمل «الأحکام» و «العقائد» و «التاریخ». و هذه السّورة

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۵

تبیّن قسم العقائد بشکل مقتضب.

و قیل: إنّ القرآن علی ثلاثة أقسام: المبدأ، و المعاد، و ما بینهما. و هذه السّورة تشرح القسم الأوّل.

و واضح أنّ ثلث موضوعات القرآن تقریبا تدور حول التوحید. و جاءت عصارتها فی هذه السّورة.

و نختتم حديثنا

بروايـة اخرى عن الإمـام على بن الحسـين عليه السّـلام حول عظمـة هـذه السّورة قـال: «إنّ اللّه عزّ و جلّ علم أنّه يكون فى آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل اللّه تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. و الآيات من سورة الحديـد إلى قوله تعالى: وَ هُوَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[۵۰۰].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۶

الآيات [سورة الإخلاص (۱۱۲): الآيات ۱ الى ۴]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (۱) اللَّهُ الصَّمَدُ (۲) لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ (۳) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (۴)

التّفسير

أحد- صمد:

جوابا عن الأسئلة المكررة التى طرحت من قبل الأفراد و الجماعات بشأن أوصاف اللّه سبحانه تقول الآية:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ[۵۰۱].

الضـمير (هو) فى الآيـة للمفرد الغائب و يحكى عن مفهوم مبهم، و هو فى الواقع يرمز إلى أن ذاته المقدّسة فى نهاية الخفاء، و لا تنالها أفكار الإنسان المحـدودة و إن كانت آثاره أظهر من أى شـىء آخر، كما ورد فى قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ [۵۰۲]

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۷

ثمّ بعد الضمير تكشف الآية عن هذه الحقيقة الغامضة و تقول: اللَّهُ أَحَدٌ.

و قُلْ فى الآية تعنى أن أظهر هذه الحقيقة و بيّنها.

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّـلام قال بعد بيان معنى «قل» فى الآية (و هو الذى ذكرناه): «إن الكفار نبهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك. فقالوا:

هـذه آلهتنا المحسوسـة المدركـة بالأبصار. فأشـر أنت يا محمّـد إلى إلهك الـذى تدعو إليه حتى نراه و ندركه و لا نأله فيه. فانزل اللّه تبارك و تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فالهاء تثبيت للثابت، و الواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار و لمس الحواس».[۵۰۳]

و

عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «رأيت الخضر عليه السّلام فى المنام قبل بدر بليلة، فقلت له: علمنى شيئا أنصر به على الأعداء. فقال: قل: يا هو، يا من لا هو إلّا هو.

فلمّا أصبحت قصصتها على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فقال لى: يا على علمت الاسم الأعظم»[۵۰۴].

و

كان على عليه السّـلام يذكر اللّه تعالى بهذا الذكر يوم صفين. فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: «اسم اللّه

الأعظم و عماد التوحيد ...».[۵۰۵]

«اللّه» اسم علم للبارى سبحانه و تعالى. و مفهوم كلام الإمام على عليه السّلام أن جميع صفات الجلال و الجمال الإلهية أشير إليها بهذه الكلمة. و من هنا سميت باسم اللّه الأعظم.

هذا الاسم لا يطلق على غير اللّه، بينما أسماء اللّه الأخرى تشير عادة إلى واحدة من صفات جماله و جلاله مثل: العالم و الخالق و الرازق، و تطلق غالبا على غيره أيضا مثل: (رحيم، و كريم، و عالم، و قادر ...).

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۸

و لفظ الجلالة مشتق من معنى وصفى. قيل من «وله» أى تحيّر، لأنّ العقول تحير فى ذاته المقدّسة. و فى ذلك

ورد عن أمير المؤمنين على عليه السّلام قال: «اللّه معناه المعبود الذى يأله فيه الخلق، و يؤله إليه، و اللّه هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام و الخطرات».[۵۰۶]

و قيل: إن لفظ الجلالة مشتق من «آله» بمعنى عبد، و الإله: هو المعبود. حذفت همزته و ادخل عليه الألف و اللام فخص بالبارى تعالى.

و مهما يكن الأصل المشتق منه لفظ الجلالة، فهو اسم يختص به سبحانه و يعنى الذات الجامعة لكل الأوصاف الكمالية، و الخالية من كل عيب و نقص.

هذا الاسم المقدّس تكرر ما يقارب من «ألف مرّة» فى القرآن الكريم، و لم يبلغه أى اسم من الأسماء المقدّسة فى مقدار تكراره. و هو اسم ينير القلب، و يبعث فى الإنسان الطاقة و الطمأنينة، و يغمر وجوده صفاء و نور.

«أحد»: من الواحدة، و لذلك قال بعضهم: أحد و واحد بمعنى واحد، و هو المتفرد الذى لا نظير له فى العلم و القدرة و الرحمانية و الرحيمية، و فى كل الجهات.

و قيل: إنّ بين «أحد» و «واحد» فرق هو إن «أحد» تطلق على الذات التى لا تقبل الكثرة لا فى الخارج و لا فى الذهن. و لذلك لا تقبل العدّو لا تدخل فى زمرة الأعداد، خلافا للواحد الذى له ثان و ثالث، فى الخارج أو فى الذهن. و لذلك نقول: لم يأت أحد. للدلالة على عدم مجىء أى إنسان. و إذا قلنا: لم يأت واحد فمن الممكن أن يكون قد جاء اثنان أو أكثر.[۵۰۷] و لكن هذا الاختلاف لا ينسجم كثيرا مع ما جاء فى القرآن الكريم و الرّوايات.

و قيل: فى «أحد» إشارة إلى بساطة ذات اللّه مقابل الأجزاء التركيبية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۴۹

الخارجية أو العقلية (الجنس، الفصل، و الماهية، و الوجود). بينما الواحد إشارة إلى وحدة ذاته مقابل أنواع الكثرة الخارجية.

و

فى رواية عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: «الأحد المتفرد، و الأحد و الواحد بمعنى واحد، و هو المتفرد الذى لا نظير له، و التوحيد الإقرار بالوحدة و هو الانفراد».

و

فى ذيل الرّواية هذه جاء «إن بناء العدد من الواحد، و ليس الواحد من العدد. لأن العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين. فمعنى قوله: اللّه أحد. أى المعبود الذى يأله الخلق عن إدراكه و الإحاطة بكيفيته، فرد بإلهيته، متعال عن صفات خلقه»[۵۰۸].

و فى القرآن الكريم «واحد» و «أحد» تطلقان معا على ذات اللّه سبحانه.

و من الرائع فى هذا المجال ما

جاء فى كتاب التوحيد للصدوق: أنّ أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: يا أمير المؤمنين، أتقول: إن اللّه واحد؟

فحمل النّاس عليه و قالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب (أى تشتت الخاطر)؟ فقال: أمير المؤمنين عليه السّلام: «دعوه فإنّ الذى يريده الأعرابى هو الذى نريده من القوم. ثمّ قال: يا أعرابى، إنّ القول فى أنّ اللّه واحد على أربعة أقسام. فوجهان منها لا يجوزان على اللّه عزّ و جلّ، و وجهان يثبتان فيه، فأمّا اللذان لا يجوزان عليه فقول القائل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز، لأنّ ما لا ثانى له لا يدخل فى باب الأعداد. أمّا ترى أنّه كفر من قال إنّه ثالث ثلاثة؟

و قول القائل: هو واحد من النّاس يريد به النوع من الجنس، فهذا ما لا يجوز (قوله على اللّه) لأنّه تشبيه، و جلّ ربّنا و تعالى عن ذلك.

و أمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه، فقول القائل: هو واحد ليس له فى الأشياء شبه، كذلك ربّنا. و قول القائل: إنّه عزّ و جلّ أحدىّ المعنى، يعنى به أنّه لا ينقسم فى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۰

وجود و لا عقل و لا وهم، كذلك ربّنا عزّ و جلّ»[۵۰۹].

و باختصار: اللّه أحد و واحد لا بمعنى الواحد العددى أو النوعى أو الجنسى بل بمعنى الوحدة الذاتية. بعبارة أوضح: وحدانيته تعنى عدم وجود المثل و الشبيه و النظير.

الدليل على ذلك واضح: فهو ذات غير متناهية من كلّ جهة، و من المسلم أنّه لا يمكن تصور ذاتين غير متناهيتين من كلّ جهة. إذ لو كان ثمّة ذاتان، لكانت كلتاهما محدودتين، و لما كان لكل واحدة منهما كمالات الأخرى. (تأمل بدقّة).

اللَّهُ الصَّمَدُ و هو وصف آخر لذاته المقدّسة. و ذكر المفسّرون و اللغويون معانى كثيرة لكلمة «صمد».

الراغب فى المفردات يقول: الصمد، هو السيد الذى يصمد إليه فى الأمر، أى يقصد إليه. و قيل: الصمد الذى ليس بأجوف.

و فى معجم مقاييس اللغة، الصمد له أصلان: أحدهما القصد، و الآخر: الصلابة فى الشىء ... و اللّه جلّ ثناؤه الصمد؛ لأنّه يصمد إليه عباده بالدعاء و الطلب ۵۱۰].

و قد يكون هذان الأصلان اللغويان هما أساس ما ذكر من معانى لصمد مثل:

الكبير الذى هو فى منتهى العظمة، و من يقصد إليه النّاس بحوائجهم، و من لا يوجد أسمى منه، و من هو باق بعد فناء الخلق.

و

عن الإمام الحسين بن على عليه السّلام أنّه ذكر لكلمة «صمد» خمسة معان هى:

الصمد: الذى لا جوف له.

الصمد: الذى قد انتهى سؤدده (أى فى غاية السؤدد) الصمد: الذى لا يأكل و لا يشرب.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۱

الصمد: الذى لا ينام.

الصمد: الذى لم يزل و لا يزال.

و

عن محمّد بن الحنفية (رض) قال: الصمد القائم بنفسه الغنى عن غيره. و قال غيره: الصمد، المتعالى عن الكون و الفساد[۵۱۱].

و

عن الإمام على بن الحسين عليه السّلام قال: «الصمد الذى لا شريك له، و لا يؤوده حفظ شىء، و لا يعزب عنه شىء.

(أى لا يثقل عليه حفظ شىء و لا يخفى عنه شىء)»[۵۱۲].

و ذهب بعضهم إلى أنّ «الصمد» هو الذى يقول للشىء كن فيكون.

و

فى الرّواية أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن على عليه السّلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، أمّا بعد فلا تخوضوا فى القرآن، و لا تجادلوا فيه، و لا تتكلّموا فيه بغير علم. فقد سمعت جدى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم يقول: من قال فى القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النّار، و أنّه سبحانه قد فسّر الصمد فقال: اللّه أحد، اللّه الصمد، ثمّ فسّره فقال: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد ...»[۵۱۳].

و

عن ابن الحنفية قال: قال على عليه السّلام تأويل الصمد: «لا اسم و لا جسم، و لا مثل و لا شبه، و لا صورة و لا تمثال، و لا حدّ و لا حدود، و لا موضع و لا مكان، و لا كيف و لا أين، و لا هنا و لا ثمّة، و لا ملأ و لا خلأ، و لا قيام و لا قعود، و لا سكون و لا حركة، و لا ظلمانى و لا نورانى، و لا روحانى و لا نفسانى، و لا يخلو منه موضع و لا يسعه موضع، و لا على لون، و لا على خطر قلب، و لا على شمّ رائحة، منفى عنه

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۲

هذه الأشياء»[۵۱۴].

هذه الرّواية توضح أنّ «الصمد» له مفهوم واسع ينفى كلّ صفات المخلوقين عن ساحته المقدّسة، لأنّ الأسماء المشخصة و المحدودة و كذلك الجسمية و اللون و الرائحة و المكان و السكون و الحركة و الكيفية و الحد و الحدود و أمثالها كلها من صفات الممكنات و المخلوقات، بل من أوصاف عالم المادة، و اللّه سبحانه منزّه منها جميعا.

فى العلوم الحديثة اتضح أنّ كلّ مادة فى العالم تتكون من ذرات. و كلّ ذرة تتكون من نواة تدور حولها الإلكترونات. و بين النواة و الإلكترونات مسافة كبيرة نسبيا. و لو أزيلت هذه الفواصل لصغر حجم الأجسام إلى حدّ كبير مدهش.

و لو أزيلت الفواصل الذرية فى مواد جسم الإنسان مثلا، و كثفت هذه المواد، لصغر جسم الإنسان إلى درجة عدم إمكان رؤيته بالعين المجرّدة، مع احتفاظه بالوزن الأصلى!!.

و بعضهم استفاد من هذه الحقائق العلمية ليستنتج أنّ الآية تنفى عن اللّه كلّ ألوان الجسمانية، لأنّ واحدا من معانى «الصمد» هو الذى لا جوف له، و لما كانت كل الأجسام تتكون من ذرات، و الذرات جوفاء، فالصمد نفى الجسمية عن ربّ العالمين. و بذلك تكون الآية من المعاجز العلمية فى القرآن.

و لكن، يجب أن لا ننسى المعنى الأصلى لكلمة «صمد» و هو السيد الذى يقصده النّاس بحوائجهم، و هو كامل و مملوء من كلّ الجهات، و بقية المعانى و التفاسير الاخرى المذكورة للكلمة قد تعدو إلى نفس هذا المعنى.

الآية التالية تردّ على معتقدات اليهود و النصارى و مشركى العرب و تقول:

لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۳

إنّها ترد على المؤمنين بالتثليث (الربّ الأب، و الربّ الابن، و روح القدس).

النصارى تعتقد أنّ المسيح ابن اللّه، و اليهود ذهبت إلى أنّ العزير ابن اللّه:

وَ قالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَ قالَتِ النَّصارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْواهِهِمْ يُضاهِؤُنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۵۱۵].

و مشركو العرب كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات اللّه: وَ خَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَ بَناتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۵۱۶].

و يستفاد من بعض الرّوايات أن الولادة فى قوله: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ لها معنى واسع يشمل كلّ أنواع خروج الأشياء المادية و اللطيفة منه، أو خروج ذاته المقدّسة من أشياء مادية أو لطيفة.

و

فى نفس الرسالة التى كتبها الإمام الحسين بن على عليه السّلام إلى أهل البصرة يجيبهم عن تساؤلهم بشأن معنى الصمد قال فى تفسير: لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ: «لَمْ يَلِدْ لم يخرج منه شىء كثيف كالولد و سائر الأشياء الكثيفة التى تخرج من المخلوقين، و لا شىء لطيف كالنفس، و لا يتشعب منه البداوات (الحالات المختلفة) كالسنة و النوم، و الخطرة و الهم، و الحزن و البهجة، و الضحك و البكاء، و الخوف و الرجاء، و الرغبة و السأمة، و الجوع و الشبع، تعالى أن يخرج منه شىء، و أن يتولد منه شىء كثيف أو لطيف، وَ لَمْ يُولَدْ لم يتولد من شىء، و لم يخرج من شىء كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها كالشىء من الشىء و الدابة من الدابة، و النبات من الأرض، و الماء من الينابيع، و الثمار من الأشجار، و لا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، و السمع من الاذن، و الشم من الأنف، و الذوق من الفم، و الكلام من اللسان، و المعرفة و التمييز من القلب،

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۴

و كالنّار من الحجر ...»[۵۱۷].

بناء على هذه الرّواية، للتولد معنى واسع يشمل خروج و تفرع كلّ شىء من شىء، و هذا فى الحقيقة المعنى الثّانى للآية. و معناها الأوّل هو المعنى الظاهر الذى ينفى أن يكون البارى سبحانه من أب أو أن يكون له ابن أضف إلى ذلك، المعنى الثّانى قابل للفهم عند تحليل المعنى الأوّل. لأنّ اللّه سبحانه إنّما لم يكن له ولد لأنّه منزّه عن عوارض المادة، و هذا المعنى يصدق بشأن سائر عوارض المادة الاخرى.

ثمّ تبلغ الآية الأخيرة غاية الكمال فى أوصاف اللّه تعالى.

وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ[۵۱۸] أى ليس له شبيه و مثل إطلاقا.

«الكفو»: هو الكفء فى المقام و المنزلة و القدر. ثمّ أطلقت الكلمة على كلّ شبيه و مثيل.

استنادا إلى هذه الآية، اللّه سبحانه منزّه عن عوارض المخلوقين و صفات الموجودات و كلّ نقص و محدودية. و هذا هو التوحيد الذاتى و الصفاتى، مقابل التوحيد العددى و النوعى الذى جاء فى بداية تفسير هذه السّورة.

من هنا فهو تبارك و تعالى لا شبيه له فى ذاته، و لا نظير له فى صفاته، و لا مثيل له فى أفعاله، و هو متفرد لا نظير له من كلّ الجهات.

أمير المؤمنين على عليه السّلام يقول فى إحدى خطب نهج البلاغة: «لم يلد فيكون مولودا، و لم يولد فيصير محدودا ... و لا كفء له فيكافئه، و لا نظير له فيساويه»[۵۱۹].

هذا التّفسير الرائع يكشف عن أسمى معانى التوحيد و أدقّها.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۵

سلا اللّه عليك يا أمير المؤمنين.

بحوث

الأوّل: التوحيد

التوحيـد، يعنى وحدانيـة ذات اللّه تعالى و نفى أى شبيه و مثيل له. و إضافـة إلى الـدليل النقلى المتمثل فى النصوص الدينية ثمّة دلائل عقلية كثيرة أيضا تثبت ذلك نذكر قسما منها باختصار:

۱- برهان صـرف الوجود: و ملخصه أن اللّه سـبحانه وجود مطلق لا يحده قيد و لا شـرط، و مثل هذا الوجود سـيكون غير محدود دون شـك، فلو كـان محـدودا لمنى بالعـدم، و الـذات المقدّسـة التى ينطلق منهـا الوجود لاـ يمكن أن يعترضـها العـدم و الفناء، و ليس فى الخارج شىء يفرض عليه العدم، و لذلك لا يحدّه حدّ.

من جهـة اخرى لا يمكن تصوّر وجودين غير محدودين فى العالم. إذ لو كان ثمّة وجودان لكان كلّ واحد منهما فاقدا حتما لكمالات الآـخر، أى لاـ يملـك كمالاـته و من هنا فكلاهما محـدودان. و هـذا دليل واضـح على وحدانيـة ذات واجب الوجود (تأمل بدقّـة) ۲- البرهان العلمى: عنـد ما ننظر إلى الكون الذى يحيط بنا، نلاحظ فى البداية موجودات متفرقة ... الأرض و السـماء و الشـمس و القمر و النجوم و أنواع النباتات و الحيوانات. و كلما ازددنا إمعانا فى النظر ألفينا مزيـدا من الترابط و الانسـجام بين أجزاء هذا العالم و ذراته، و ظهر لنا أنّه مجموعة واحدة تتحكم فيها جميعا قوانين واحدة.

و مهما تقدم العلم البشرى اكتشف مزيدا من ظواهر وحدة أجزاء هذا العالم

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۶

و انسجامها؛ حتى أنّ ظاهرة بسيطة (مثل سقوط تفاحة من الشجرة) يؤدى إلى اكتشاف قانون عام يحكم كلّ أجزاء الكون. (مثل قانون الجاذبية الذى اكتشفه نيوتن).

هذه الوحدة فى نظام الوجود، و القوانين الحاكمة عليه، و الانسجام التام بين أجزائه كلّها ظواهر تشهد على وحدانية الخالق.

۳- برهان التمانع: (الدليل العلمى الفلسـفى)، و هو دليل آخر على إثبات وحدانية اللّه، مسـتلهم من قوله سـبحانه: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۵۲۰].

توضيح هذا الدليل جاء فى المجلد ۱۰ الصفحة ۱۴۵ من هذا التّفسير تحت عنوان: برهان التمانع.

۴- دعوة الأنبياء إلى اللّه الواحـد الأحـد: و هو دليل آخر على وحدانيـة اللّه، إذ لو كان هناك خالقان كلّ واحـد منهما واجب الوجود فى العالم، لاسـتلزم أن يكون كلّ واحـد منهما منبعا للفيض. فلا يمكن لوجود ذى كمال مطلق أن يبخل فى الإفاضـة لأنّ عـدم الفيض نقص بالنسبة للوجود الكامل. و حكمته تستوجب أن يشمل الجميع بفيضه.

و هـذا الفيض له نوعـان: فيض تكوينى (فى عـالم الخلقـة)، و فيض تشـريعى (فى عـالم الهدايـة). من هنا لو كان هناك آلهـة متعـددة لوجب أن يأتى مبعوثون منهم جميعا، ليواصلوا فيضهم التشريعى إلى النّاس.

أمير المؤمنين على عليه السّـلام يقول لابنه الحسن عليه السّـلام و هو يوصـيه: «و اعلم يا بنى أنّه لو كان لربّك شـريك لأتتك رسله، و لرأيت آثار ملكه و سلطانه، و لعرفت أفعاله و صفاته، و لكنّه إله واحد كما وصف نفسه»[۵۲۱].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۷

هـذه كلّها دلائل وحدانيـة ذاته. أمّا الـدليل على عدم وجود أى تركيب و أجزاء فى ذاته المقدسة فواضح، إذ لو كان له أجزاء خارجية لكان محتاجا إليها طبعا.

و الاحتياج لا يعقل لواجب الوجود.

و إذا كان المقصود أجزاء عقليـة (التركيب من الماهية و الوجود، أو من الجنس و الفصل) فهو محال أيضا. لأنّ التركيب من الماهية و الوجود فرع لمحدوديـة الموجود. بينما وجوده سـبحانه غير محدود. و التركيب من الجنس و الفصل فرع من أن يكون للموجود ماهية. و ما لا ماهية له، ليس له جنس و لا فصل.

الثّانی: فروع دوحة التوحید

تذکر للتوحید عادة أربعة فروع:

۱- توحید الذات: (و هو ما شرحناه أعلاه).

۲- توحید الصفات: أی إنّ صفاته لا تنفصل عن ذاته، و لا تنفصل عن بعضها. علی سبیل المثال العلم و القدرة فی الإنسان عارضان علی ذاته. ذاته شیء، و علمه و قدرته شیء آخر. کما إنّ علمه و قدرته منفصلان عن بعضهما.

مرکز العلم روح الإنسان، و مرکز قدرته الجسمیة ذراعة و عضلاته. لکن صفات اللّه لیست زائدة علی ذاته، و لیست منفصلة عن بعضها. بل هو وجود کلّه علم، و کلّه قدرة، و کلّه أزلیة و أبدیة.

و لو لم یکن ذلک لاستلزم الترکیب، و إن کان مرکبا لاحتاج إلی الأجزاء و المحتاج لا یکون واجبا للوجود.

۳- التوحید الأفعالی: و یعنی أنّ کلّ وجود و کلّ حرکة و کلّ فعل فی العالم یعود إلی ذاته المقدّسة، فهو مسبب الأسباب و علة العلل. حتی الأفعال التی تصدر منّا هی فی أحد المعانی صادرة عنه. فهو الذی منحنا القدرة و الإختیار و حریة الإرادة. و مع أنّنا نفعل الأفعال بأنفسنا، و أنّنا مسئولون تجاهها. فالفاعل

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۸

من جهة هو اللّه سبحانه لأنّ کلّ ما عندنا یعود إلیه: (لا مؤثر فی الوجود إلّا اللّه).

۴- التوحید فی العبادة: أی تجب عبادته وحده دون سواه، و لا یستحق العبادة غیره. لأنّ العبادة یجب أن تکون لمن هو کمال مطلق. و مطلق الکمال، لمن هو غنی عن الآخرین، و لمن هو واهب النعم و خالق کلّ الموجودات و هذه صفات لا تجتمع إلّا فی ذات اللّه سبحانه.

الهدف الأصلی للعبادة هو الاقتراب من ذلک الکمال المطلق، و الوجود اللامتناهی، هو السعی لإنارة النفس بقبس من صفات کماله و جماله ... و ینتج عن ذلک الابتعاد عن الأهواء و الشهوات و الاتجاه نحو بناء النفس و تهذیبها.

هذا الهدف لا یتحقق إلّا بعبادة اللّه، و هو الکمال المطلق.

الثّالث: التوحید الأفعالی

اشارة

توحید الأفعال له بدوره فروع کثیرة نشیر إلی ستة من أهمها:

۱- توحید الخالقیة

و القرآن الکریم یقول: قُلِ اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْءٍ[۵۲۲].

و دلیله واضح، فحین ثبت بالأدلة السابقة أنّ واجب الوجود واحد، و کلّ ما عداه ممکن الوجود، یترتب علی ذلک أنّ خالق کلّ الموجودات واحد أیضا.

۲- توحید الربوبیة

أی إنّ اللّه وحده هو مدبّر العالم و مربّیه و منظّمه. کما جاء فی قوله تعالی:

قُلْ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ[۵۲۳].

دلیل ذلک أیضا وحدة واجب الوجود، و توحید الخالق فی عالم الکون.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۵۹

۳- التوحید فی التقنین و التشریع

یقول سبحانه: وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ۵۲۴].

لما ثبت أنّه سبحانه هو المدیر و المدبّر، فلیس لأحد غیره حتما صلاحیة التقنین. إذ لا سهم لغیره فی تدبیر العالم کی یستطیع أن یضع قوانین منسجمة مع نظام التکوین.

۴- التوحید فی المالکیة

سواء «الملکیة الحقیقیة» أی السلطة التکوینیة علی الشیء، أم «الملکیة الحقوقیة» و هی السلطة القانونیة علی الشیء، فهی له سبحانه، کما یقول فی کتابه العزیز: وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ۵۲۵] و یقول سبحانه: وَ أَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۵۲۶].

و الدلیل علی ذلک هو نفس الدلیل علی توحید الخالقیة، و حین یکون هو سبحانه خالق کلّ شیء فهو مالک کلّ شیء أیضا. فکلّ ملکیة یجب أن تستمد وجودها من مالکیته.

۵- توحید الحاکمیة

لا بدّ للمجتمع البشری من حکومة، لأنّ الحیاة الاجتماعیة تتطلب ذلک، فلا یمکن بدون حکومة أن تقسم المسؤولیات، و تنظم المشاریع، و یحال دون التعدی و التجاوز.

و من جهة أخری، مبدأ الحریة یقرر أن لا أحد له حق الحکومة علی أحد، إلّا

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۰

إذا سمح بذلک المالک الأصلی و الصاحب الحقیقی. من هنا فالإسلام یرفض کلّ حکومة لا تنتهی إلی الحکومة الإلهیة و من هنا أیضا نری شرعیة الحکم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم و للأئمّة المعصومین علیه السّلام ثمّ للفقیه الجامع للشرائط بعدهم.

و من الممکن أن یجیز النّاس أحدا لیحکمهم. و لکنّ اتفاق النّاس بأجمعهم غیر ممکن فی مجتمع عادة، و لذلک لا یمکن إقامة مثل هذه الحکومة عملیا[۵۲۷].

جدیر بالذکر أن توحید الربوبیة یرتبط بعالم التکوین، و توحید التقنین یرتبط بعالم التشریع.

یقول سبحانه: إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۵۲۸].

۶- توحید الطاعة

اللّه سبحانه هو وحده «واجب الإطاعة» فی هذا الکون. و هو تعالی مصدر مشروعیة إطاعة غیره. أی إنّ إطاعة غیره یجب أن تعدّ إطاعة له.

دلیل ذلک واضح أیضا، حین تکون الحاکمیة له دون سواه فیجب أن یکون هو المطاع دون غیره، و لذلک نحن نعتبر إطاعتنا للأنبیاء علیهم السّلام و الأئمّة المعصومین و من ینوب عنهم هی انعکاس عن طاعتنا للّه. یقول تعالی: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ۵۲۹].

و یقول سبحانه: مَنْ یُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ ۵۳۰].

کلّ واحد من المواضیع المذکورة أعلاه تحتاج إلی شرح و تفصیل، و نحن نکتفی بهذه الخلاصة کی لا نخرج عن إطار هذا التّفسیر.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۱

إلهی! ثبت أقدامنا علی خط التوحید ما حیینا.

ربّنا! فروع الشرک مثل فروع التوحید کثیرة و لا نجاة لنا من الشرک إلّا بلطفک، فاشملنا بفضلک.

إلهنا! اجعل حیاتنا مع التوحید، و مماتنا مع التوحید، و احشرنا مع حقیقة التوحید.

آمین یا ربّ العالمین نهایة سورة الإخلاص

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۳

سورة الفلق

اشارة

مکّیة و عدد آیاتها خمس آیات

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۵

«سورة الفلق»

محتوی السّورة:

قیل: أنّها مکّیة، و بعض المفسّرین قال إنّها مدنیة.

تتضمّن السّورة تعالیم للنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم خاصّة، و للناس عامّة تقضی أن یستعیذوا باللّه من شرّ کلّ الأشرار، و أن یوکلوا أمرهم إلیه، و یأمنوا من کل شرّ فی اللجوء إلیه.

و بشأن نزول السّورة ذکرت الرّوایة المنقولة فی أغلب کتب التّفسیر أنّ النّبی أصیب بسحر بعض الیهود، و مرض علی أثر ذلک فنزل جبرائیل و أخبره أنّ آلة السحر موجودة فی بئر. فأرسل من یخرجها، ثمّ تلا هذه السّورة، و تحسنت صحته.

المرحوم الطبرسی و محققون آخرون شککوا فی هذه الرّوایة التی ینتهی سندها إلی عائشة و ابن عباس لما یلی:

أوّلا: السّورة کما هو مشهور مکّیة و لحنها مثل لحن السور المکّیة، و النّبی جابه الیهود فی المدینة و هذا یدل علی عدم أصالة الرّوایة.

ثانیا: لو کان الیهود بمقدورهم أن یفصلوا بسحرهم ما فعلوه بالنّبی حسب الرّوایة لاستطاعوا أن یصدوه عن أهدافه بسهولة عن طریق السحر، و اللّه سبحانه قد حفظ نبیّه کی یؤدی مهام النّبوة و الرسالة.

ثالثا: لو کان السحر یفعل بجسم النّبی ما فعله لأمکن أن یؤثر فی روحه أیضا، و تکون أفکاره بذلک لعبة بید السحرة، و هذا یزلزل مبدأ الثقة بالنّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و القرآن الکریم یردّ علی أولئک الذین اتهموا النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم بأنّه مسحور إذ قال: وَ قالَ

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۶

الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً انْظُرْ کَیْفَ ضَرَبُوا لَکَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا یَسْتَطِیعُونَ سَبِیلًا[۵۳۱].

«مسحور» فی الآیة تشمل من أصیب بسحر فی عقله أو فی جسمه، و هی دلیل علی ما نذهب إلیه.

علی أی حال لا یجوز أن نمسّ من قداسة مقام النبوّة بهذه الرّوایات المشکوکة، أو أن نعتمد علیها فی فهم الآیات.

فضيلة السّورة:

روى فى فضيلة هذه السّورة عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال: «أنزلت على آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوذتان»[۵۳۲].

و

عن أبى جعفر محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و قل هو اللّه أحد قيل له: يا عبد اللّه أبشر فقد قبل اللّه و ترك»[۵۳۳].

و

عن النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم قال لأحد أصحابه: «ألا أعلمك سورتين هما أفضل سور القرآن، أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول اللّه. فعلمنى المعوذتين. ثمّ قرأ بهما فى صلاة الغداة، و قال لى اقرأهما كلما قمت و نمت».[۵۳۴]

واضح أنّ هذه الفضيلة نصيب من جعل روحه و عقيدته و عمله منسجما مع محتوى السّورة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۷

الآيات [سورة الفلق (۱۱۳): الآيات ۱ الى ۵]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (۱) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (۲) وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (۳) وَ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (۴)

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (۵)

التّفسير

بربّ الفلق أعوذ:

يخاطب اللّه سبحانه نبيّه باعتباره الاسوة و القدوة، و يقول له:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ «الفلق»: من فلق أى شقّ و فصل؛ و سمى طلوع الصبح بالفلق لأنّ ضوء الصبح يشق ظلمة الليل؛ و مثله الفجر، اطلق على طلوع الصبح لنفس المناسبة.

و قيل: إنّ الفلق يعنى ولادة كلّ الموجودات الحيّة، بشرية كانت أم حيوانية أم نباتية. فولادة هذه الموجودات تقترن بفلق حبّتها أو بيضتها. و الولادة من أعجب مراحل وجود هذه الأحياء، لأنّها تشكل طفرة فى مراحل وجودها، و انتقالا من عالم إلى عالم آخر. يقول سبحانه: إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۸

الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِ ۵۳۵].

و قيل: إنّ الفلق له معنى واسع يشمل كلّ خلق، لأنّ الخلق، هو شقّ ستار العدم ليسطع نور الوجود.

و كلّ واحد من هذه المعانى الثلاثة (طلوع الصبح- و ولادة الموجودات الحيّة- و خلق كلّ موجود) ظاهرة عجيبة تدل على عظمة البارى و الخالق و المدبّر، و وصف اللّه بذلك له مفهوم عميق.

فى بعض الرّوايات جاء أنّ الفلق بئر عظيم فى جهنّم تبدو و كأنّها شقّ فى داخلها. و قد تكون الرّوايـة إشارة إلى أحد مصاديقها لا أن تحدّ المفهوم الواسع لكلمة «الفلق».

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ ... من كلّ موجود شرّير من الإنس و الجن و الحيوان و حوادث الشرّ و النفس الأمارة بالسوء، و هذا لا يعنى أنّ الخلق الإلهى ينطوى فى ذاته على شرّ، لأنّ الخلق هو الإيجاد، و الإيجاد خير محض. يقول سبحانه: الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ ۵۳۶].

بل الشرّ يعرض المخلوقات حين تنحرف عن قوانين الخلقة، و تنسلخ عن المسير المعين لها. على سبيل المثال، أنياب الحيوانات وسيلة دفاعية تستخدمها أمام الأعداء، كما نستخدم نحن السلاح للدفاع مقابل العدو. لو أنّ هذا السلاح استخدم فى محله فهو خير، و إن لم يستعمل فى محله كأن صوب تجاه صديق فهو شرّ.

جدير بالذكر أنّ كثيرا من الأمور نحسبها شرّا و فى باطنها خير كثير، مثل الحوادث و البلايا التى تنفض عن الإنسان غبار الغفلة و تدفعه إلى التوجه نحو اللّه هذه ليس من الشرّ حتما.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۶۹

وَ مِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ

«غاسق»: من الغسق، و هو- كما يقول الراغب فى المفردات- شدّة ظلمة الليل فى منتصفه. و لذلك يقول القرآن الكريم فى إشارته إلى نهاية وقت صلاة المغرب:

... إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ ... و ما قاله بعضهم فى الغسق أنّه ظلمة أوّل الليل فبعيد خاصّة و أن أصل الكلمة يعنى الامتلاء و السيلان. و ظلمة الليل تكون ممتلئة حين ينتصف الليل. و أحد المفاهيم الملازمة لهذا المعنى الهجوم، و لذلك استعملت الكلمة فى هذا المعنى أيضا.

«غاسق»: تعنى إذن فى الآية: الفرد المهاجم، أو الموجود الشرّير الذى يتستر بظلام الليل لشنّ هجومه. فليست الحيوانات الوحشية و الزواحف اللاسعة وحدها تنشط فى الليل و تؤذى الآخرين بل الأفراد الشرّيرين يتخذون من الليل أيضا ستارا لتنفيذ أهدافهم الخبيثة.

«وقب»: من الوقب، و هو الحفرة، ثمّ استعمل الفعل «وقب» للدخول فى الحفرة؛ و كأن هذه الموجودات الشريرة المضرة تستغل ظلام الليل، فتصنع الحفر الضارة لتحقق مقاصدها الخبيثة. و قد يكون الفعل يعنى: نفذ و توغّل.

مِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِى الْعُقَدِ.

«النفاثات»: من «النفث» و هو البصق القليل، و لما كان البصق مقرونا بالنفخ، فاستعملت نفث بمعنى نفخ أيضا.

كثير من المفسّرين قالوا إنّ «النفاثات» هى النساء الساحرات. و هى صيغة جمع للمؤنث و مبالغة من نفث. و هذه النسوة كن يقرأن الأوراد و ينفخن فى عقد، و بذلك يعملن السحر. و قيل: إنّها إشارة للنساء اللاتى كن يوسوسن فى أذن الرجال و خاصّة الأزواج ليثنوهم عن عزمهم و ليوهنوا إرادتهم فى أداء المهام الكبرى. و ما أكثر الحوادث المؤلمة التى أدت إليها وساوس أمثال هذه النسوة

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۰

طوال التاريخ! و ما أكثر نيران الفتنة التى أشعلتها، و العزائم التى أرختها و أوهنتها! الفخر الرازى يقول النساء يتصرفن فى قلوب الرجال لنفوذ محبّتهن فى قلوبهم ۵۳۷].

و هذا المعنى فى عصرنا أظهر من أى وقت آخر، إذ إنّ إحدى أهم وسائل نفوذ الجواسيس فى أجهزة السياسة العالمية استخدام النساء، اللائى ينفثن فى العقد، فتنفتح مغاليق الأسرار فى القلوب و يحصلن على أدقّ الأسرار.

و قيل: إنّ النفاثات هى النفوس الشريرة، أو الجماعات المشككة التى تبعث بوساوسها عن طريق وسائل إعلامها لتوهن عزيمة الجماعات و الشعوب.

و لا يستبعد أن تكون الآية ذات مفهوم عام جامع يشمل كلّ أولئك و يشمل أيضا النمامين و الذين يهدمون بنيان المحبّة بين الأفراد.

و ينبغى التأكيد على أنّ السّورة لا تتضمّن أية دلالة على أن المقصود بآياتها سحر الساحرين. و على فرض أنّها تشير إلى سحر

الساحرين، فإنّها لا تشكل دليلا على صحة سبب النزول الذى ذكره المفسّرون للسورة، بل تدل على أنّ النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم استعاذ باللّه من شرّ الساحرين. تماما مثل الفرد السالم الذى يستعيذ باللّه من السرطان و هو لم يصب به أصلا.

وَ مِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ.

هذه الآية تبيّن أنّ الحسد أسوأ الصفات الرذيلة و أحطها، لأنّ القرآن وضعه فى مستوى أعمال الحيوانات المتوحشة و الثعابين اللاسعة و الشياطين الماكرة.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۱

بحوث

۱- أخطر مصادر الشرّ و الفساد

السّورة تبدأ بأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستعيذ باللّه من شرّ ما خلق. ثمّ تبيّن ثلاثة أنواع من الشرور كتوضيح للآية:

شرّ المهاجمين القساة الذين يتسترون بالليل لشن هجومهم.

و شرّ الموسوسين الذين يوهنون بأحابيلهم إرادة الأفراد و إيمانهم و عقيدتهم و أواصر الحبّ و الودّ بينهم.

و شرّ الحاسدين.

من هذه العبارات المجملة نستطيع أن نستنتج أن أخطر مصادر الشرّ و الفساد هى هذه الثلاثة المذكورة فى السّورة. و هذا يستدعى التأمل و التعمق.

۲- تناسب الآيات

يلاحظ أنّ أوّل آية فى السّورة تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أن يستعيذ بربّ الفلق، من شرّ ما خلق. و انتخاب «ربّ الفلق» قد يعود إلى أنّ الموجودات الشريرة تطفئ نور السلامة و الهداية. لكن اللّه سبحانه ربّ الفلق ... ربّ فلق الظلمات.

۳- تأثير السحر

فى تفسير الآيتين ۱۰۲ و ۱۰۳ من سورة البقرة، فى الجزء الأوّل من هذا التّفسير تحدثنا بالتفصيل عن حقيقة السحر فى الازمنة الغابرة، و رأى الإسلام فى السحر، و كيفية تأثيره. و هناك ذكرنا قبولنا لتأثير السحر بشكل عام، و لكن لا بالصورة التى يتخيلها المتخيلون و الخرافيون. و من أراد مزيدا من التوضيح فى هذا المجال فليراجع بحثنا المذكور.

و من اللازم أن نذكر هنا أنّ آيات هذه السّورة لو كانت تستهدف أمر النّبى

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۲

بالاستعاذة من سحر الساحرين، فهذا لا يعنى أن النّبى تعرض لتأثير السحر. بل إنّها تشبه استعاذة النّبى باللّه من كلّ خطأ و ذنب. أى إنّه مصون من هذه العوارض بلطف اللّه و فضله، و لو لا فضله لما سلم من تأثير السحر هذا من جهة.

و من جهة اخرى، لا يوجد دليل كما قلنا على أن معنى، النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ هو السحرة أو الساحرات.

۴- شرّ الحاسدين

«الحسد» خصلة سيئة شيطانية تظهر فى الإنسان نتيجة عوامل مختلفة مثل:

ضعف الإيمان، و ضيق النظر، و البخل. و هو يعنى طلب و تمنّى زوال النعمة من شخص آخر.

الحسد منبع كثير من الذنوب الكبيرة.

عن الإمام محمّد بن على الباقر عليه السّلام قال: «إنّ الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب»[۵۳۸].

و

عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «أفة الدين الحسد و العجب و الفخر»[۵۳۹].

ذلك لأن الحسود يعترض فى الواقع على حكمة اللّه و على ما آت اللّه من نعمة لهذا الفرد أو ذاك. كما يقول سبحانه: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۵۴۰].

و قد يبلغ الحسد بالحاسد إلى أن يوقع نفسه فى كلّ تهلكة من أجل زوال النعمة من الشخص المحسود، كما هو معروف فى حوادث التاريخ.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۳

و فى ذم الحسد يكفى أن أوّل قتل حدث فى العالم كان من قابيل على أثر حسده لأخيه هابيل.

«الحساد» كانوا دوما عقبة على طريق الأنبياء و الأولياء. و لذلك يأمر اللّه نبيّه أن يستعيذ بربّ الفلق من شرّ حاسد إذا حسد.

المخاطب فى هذه السّورة و السّورة التالية شخص رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم، و لكنّه خوطب لأنّه القدوة و النموذج، و كلّ المسلمين يجب أن يستعيذوا باللّه من شرّ الحاسدين.

اللّهمّ! إنّا نعوذ بك من شرّ الحاسدين إلهنا! احفظنا من شرّ الوقوع فى حسد الآخرين.

ربّنا! استرنا بسترك من شرّ النفاثات فى العقد، و من كلّ الموسوسين المشككين فى مسيرتنا إليك.

آمين يا ربّ العالمين نهاية سورة الفلق

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۵

سورة النّاس

اشارة

مكّية و عدد آياتها ستّ آيات

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۷

«سورة النّاس»

محتوى السّورة:

الإنسان معرض دائما لوساوس الشيطان. و شياطين الجن و الإنس يسعون دائما للنفوذ فى قلبه و روحه. و مقام الإنسان فى العلم مهما ارتفع، و مكانته فى المجتمع مهما سمت يزداد تعرضه لوساوس الشياطين ليبعدوه عن جادة الحق.

و ليبيدوا العالم بفساد العالم.

هذه السّورة تأمر النّبى صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره القدوة و الأسوة أن يستعيذ باللّه من شرّ الموسوسين.

محتوى هـذه السّورة شبيه بمحتوى سورة الفلق، فكلاهمـا يـدوران حول الاسـتعاذة باللّه من الشـرور و الآفات، مع فارق أن سورة الفلق تتعرض لأنواع الشرور، و هذه السّورة تركز على شرّ (الوسواس الخناس).

و اختلف المفسّرون فى مكان نزول هذه الآية. قيل إنّها مكّية، و قيل إنّها مدنية، و لحن الآيات يزيد احتمال مكّيتها.

هذه السّورة و سورة الفلق نزلتا معا حسب الرّوايات. و سورة الفلق على رأى الكثيرين مكّية. و هذه السّورة يمكن أن تكون مكّية أيضا.

و فضيلة السّورة:

وردت فى فضـيلة هذه السّورة روايات متعددة منها ما روى أنّ رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و آله و سـلّم اشـتكى شكوى شديدة، و وجع وجعا شديدا. فأتاه جبرائيل

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۸

و ميكائيل عليه السّـلام فقعـد جبرائيل عنـد رأسه و ميكائيل عنـد رجليه، فعوّذه جبرائيل بقل أعوذ بربّ الفلق و ميكائيل بقل أعوذ بربّ النّاس ۵۴۱].

و ذكرنا ما

روى عن الإمام الباقر عليه السّلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و قل هو اللّه أحد قيل له: يا عبد اللّه ابشر فقد قبل اللّه و ترك»[۵۴۲].

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۷۹

الآيات [سورة الناس (۱۱۴): الآيات ۱ الى ۶]

اشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (۱) مَلِكِ النَّاسِ (۲) إِلهِ النَّاسِ (۳) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (۴)

الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ (۵) مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ (۶)

التّفسير

بربّ النّاس أعوذ:

فى هذه السّورة يتجه الخطاب إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم باعتباره الأسوة و القدوة:

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلهِ النَّاسِ يلاحظ أن الآيات ركزت على ثلاث من صـفات اللّه سـبحانه هى (الربوبيـة و المالكيـة و الألوهية) و ترتبط كلها ارتباطا مباشرا بتربية الإنسان و نجاته من براثن الموسوسين.

المقصود من الاسـتعاذة بـاللّه ليس طبعـا ترديـد الاسـتعاذة باللسان فقط، بل على الإنسان أن يلجأ إليه جلّ و علا فى الفكر و العقيـدة و العمل أيضا، مبتعدا عن الطرق الشيطانية و الأفكار المضللة الشيطانية، و المناهج و المسالك الشيطانية و المجالس و المحافل الشيطانية، و متجها على طريق المسيرة الرحمانية، و إلّا فإن

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۰

الإنسان الذى أرخى عنان نفسه تجاه وساوس الشيطان لا تكفيه قراءة هذه السّورة و لا تكرار ألفاظ الاستعاذة باللسان.

على المستعيذ الحقيقى أن يقرن قوله «ربّ النّاس» بالاعتراف بربوبية اللّه تعالى، و بالانضواء تحت تربيته؛ و أن يقرن قوله «ملك النّاس» بالخضوع لمالكيته، و بالطاعة التامة لأوامره؛ و أن يقرن قوله: «إله النّاس» بالسير على طريق عبوديته، و تجنب عبادة غيره.

و من كان مؤمنا بهذه الصفات الثلاث؛ و جعل سلوكه منطلقا من هذا الإيمان فهو دون شك سيكون فى مأمن من شرّ الموسوسين.

هذه الأوصاف الثلاثة تشكل فى الواقع ثلاثة دروس تربوية هامّة ... ثلاث سبل وقاية ... و ثلاث طرق نجاة من شرّ الموسوسين، إنّها تؤمن على مسيرة الإنسان من الأخطار.

مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ

كلمة «الوسواس» أصلها- كما يقول الراغب فى المفردات- صوت الحلى (اصطكاك حلية بحلية). ثمّ اطلق على أى صوت خافت. ثمّ على ما يخطر فى القلب من أفكار و تصورات سيئة، لأنّها تشبه الصوت الباهت الذى يوشوش فى الأذن.

«الوسواس»: مصدر، و يأتى بمعنى اسم الفاعل بمعنى الموسوس، و هى فى الآية بهذا المعنى.

«الخنّاس» صيغة مبالغة من الخنوس و هو التراجع، لأنّ الشياطين تتراجع عند ذكر اسم اللّه؛ و الخنوس له معنى الاختفاء أيضا، لأن التراجع يعقبه الاختفاء عادة.

فقوله سبحانه: مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ أى أعوذ باللّه من شرّ الموسوس ذى الصفة الشيطانية الذى يهرب و يختفى من ذكر اسم اللّه.

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۱

الشياطين يمزجون أعمالهم دائما بالتستر. و يرمون بالقاءاتهم فى الإنسان بطريقة خفية حتى يخال الإنسان أن هذه الإلقاءات من بنات أفكاره، و هذا ما يؤدى إلى ضلاله و غوايته.

عمل الشيطان هو التزيين، و إخفاء الباطل تحت طلاء الحق، و الكذب فى قشر من الصداق، و الذنب فى لباس العبادة، و الضلال خلف ستار الهداية.

و بإيجاز، الموسوسون متسترون، و طرقهم خفية، و فى هذا تحذير لكل سالكى طريق اللّه أن لا يتوقعوا رؤية الشياطين فى صورتهم الأصلية، أو رؤية مسلكهم على شكله المنحرف. أبدا ... فهم موسوسون خناسون ... و عملهم الحيلة و المكر و الخداع و التظاهر و الرياء و إخفاء الحقيقة.

لو أنّ هؤلاء أماطوا اللثام عن وجههم الحقيقى، و لم يخلطوا الحق بالباطل؛ لو أن هؤلاء قالوا كلمتهم صريحة واضحة «لم يخف على المرتادين» كما يقول أمير المؤمنين على عليه السّلام نعم لم يخف فى هذه الحالة على روّاد طريق الحق. و لكنّهم يأخذون شيئا من هذا و شيئا من ذاك فيخلطونه و بذلك تنطلى حيلتهم على الآخرين أو كما

يقول على عليه السّلام: «فهنالك يستولى الشيطان على أوليائه»[۵۴۳].

عبارة «يوسوس» و عبارة «فى صدور النّاس» تأكيد على هذا المعنى.

جملة مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ تنبيه على حقيقة هامّة هى إن «الوسواس الخناس» لا ينحصر وجوده فى مجموعة معينة، و لا فى فئة خاصّة، بل هو موجود فى الجن و الإنس ... فى كل جماعة و فى كل ملبس، فلا بدّ من الحذر منه أينما كان، و الاستعاذة باللّه منه فى كل أشكاله و صوره.

أصدقاء السوء، و الجلساء المنحرفون، و أئمة الظلم و الضلال، و الولاة الجبابرة الطواغيت، و الكتاب و الخطباء الفاسدون، و المدارس الإلحادية و الالتقاطية

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۲

المخادعـة، و وسائل الإعلام المزوّرة الملفّقـة، كلها هی و أمثالها تندرج ضـمن المفهوم الواسع للوسواس الخناس و تتطلب من الإنسان أن يستعيذ باللّه منها.

ملاحظات

۱- لما ذا نستعيذ باللّه؟!

الإنسـان معرض للانـحراف فی كل لحظـة، و حين يأمر اللّه نبيّه أن يسـتعيذ به من شـر «الوسواس الخناس» فإن ذلك دليل على إمكان الوقوع فی شراك الموسوسين الخناسين.

مع أنّ النّبی صـلّی اللّه عليه و آله و سلّم فی مأمن من الانحراف بفضل اللّه و مدده الغيبی و خضوعه التام للّه، فالآيات تأمره أن يستعيذ بـاللّه من شـرّ الوسواس الخناس، فما بالك بغيره من النّاس! و لا يجوز للإنسان أن ييأس أمام مخاوف الموسوسـين. فملائكـة اللّه تهبّ للأخـذ بناصـية المؤمنين و السـائرين على طريق اللّه. فـالمؤمنون ليسوا وحيـدين فی ساحـة صـراع الحق مع الباطـل، بل ملائكـة اللّه فی عونهم: إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ[۵۴۴].

و لكن، على أی حـال، لا يجوز للإنسان أن يغترّ و أن يحسب نفسه غنيا عن الموعظـة و التـذكير و الإمـداد الإلهی. يجب الاسـتعاذة به سبحانه دائما و يجب أن يكون الإنسان على وعی و حذر باستمرار.

۲- لما ذا تكررت كلمة «النّاس»

فی سبب تكرار كلمة «النّاس» فی السّورة، قيل: إن كل واحد منها لها معنى

الامثل فی تفسير كتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۳

خاص.

و لكن يظهر أن التكرار تأكيد على عمومية هذه الصفات الثلاث الإلهية، و هی فی المواضع الثلاثة بمعنى واحد.

۳- معنى الخناس على لسان الرّواية

روی عن رسول اللّه صـلّی اللّه عليه و آله و سـلّم قـال: «مـا من مؤمن إلّا و لقلبه فی صـدره أذنان: أذن ينفث فيها الملك، و أذن ينفث فيها الوسواس الخناس، فيؤيد اللّه المؤمن بالملك، فهو قوله سبحانه: وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ [۵۴۵].

و

روی عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال: «لما نزلت هذه الآية:

وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَـةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَـهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ صـعد إبليس جبلا بمكّة يقال له ثوير، فصـرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا:

يا سيدنا لم دعوتنا؟

قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟

فقام عفریت من الشیاطین فقال: أنا لها بکذا و کذا.

قال: لست لها.

فقام لها آخر فقال مثل ذلک. فقال: لست لها.

فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بماذا؟

قال: أعدهم و أمنیهم حتی یواقعوا الخطیئة ... فإذا واقعوا الخطیئة أنسیتهم الاستغفار.

فقال: أنت لها فوکّله بها إلی یوم القیامة»[۵۴۶].

اللّهمّ! احفظنا من شرّ کلّ وسواس خناس.

الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل، ج ۲۰، ص: ۵۸۴

ربّنا! التآمر دقیق، و العدوّ متربّص، و المخططات خفیة رهیبة، و لا نجاة لنا منها إلّا بلطفک و فضلک.

یا کریم! بفضلک و بمنّک و بنعمتک استطعنا بعد جولة استغرقت ما یقرب من خمسة عشر عاما فی کتابک الکریم أن ننهی هذا التّفسیر.

یا غفور و یا رحیم! تعلم أننا فی هذه اللحظات الأخیرة من کتابة هذا التّفسیر مغمورون بفرحة ممزوجة بالشکر فنبتهل إلیک و نتضرع أن تغفر لنا زلاتنا فإنّک أرحم الراحمین.

و تقبل منّا یا ربّ هذا الجهد المتواضع بکرمک، و اجعله لنا ذخرا یوم نلقاک.

و آخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمین نهایة سورة النّاس انتهی تألیف هذا التّفسیر فی الثامن من ذی القعدة سنة ۱۴۰۷ هجریة

---

[۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۷.

[۲] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۵.

[۳] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۱.

[۶] (۲)- ثواب الأعمال، ص ۱۲۲، و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۷.

[۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۸۸؛ و کذلک ... أبو الفتوح و المراغی فی تفسیریهما.

[۸] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۲.

[۹] (۳)- اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۲؛ و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۷.

[۱۰] (۱)-« علی النّاس»: اشارة إلی ما لهم لدی النّاس، و التقدیر:(إذا کالوا ما علی النّاس) و ذلک عند الأخذ منهم، و هو ما نستفیده من(کال علیه) .. أمّا(کاله) أو(کال له) فهو عند العطاء.

[۱۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۲.

[۱۲] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۳۸.

[۱۳] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۲۸.

[۱۴] (۱)- اصول الکافی، ج ۵، ص ۱۵۰، الحدیث ۱.

[۱۵] (۱)- المصدر السابق، الحديث ۳.

[۱۶] (۲)- و لمزيد من الاطلاع ... راجع وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۲۹۰، أبواب التجارة، الباب ۷.

[۱۷] (۱)- و لم يوضح الطريحى أن هذا التفسير لمعصوم كان أم لغيره.

[۱۸] (۲)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۷۰، و مجمع البحرين، مادة(سجل).

[۱۹] (۱)- تفسير على بن إبراهيم، ج ۳، ص ۴۱۰؛ و عنه نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۰، الحديث ۱۵.

[۲۰] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۰، الحديث ۱۹.

[۲۱] (۱)-« أساطير»: جمع(اسطورة) من(السطر)، و غالبا ما تستعمل فى وصف الشخصيات الموهومة و الأحاديث الملفقة و القصص الكاذبة.

[۲۲] (۱)- راجع: المنجد، و تفسير الفخر الرازى فى الآية المبحوثة.

[۲۳] (۱)- كما فى الآية(۳۲) من سورة الكهف\i: وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً\E، كما و جاء نظير ذلك فى الآية(۵۰) من سورة فصلت.

[۲۴] (۱)- البقرة، الآية ۷.

[۲۵] (۲)- تفسير الدر المنثور: ج ۶، ص ۳۲۶.

[۲۶] (۱)- المصدر السابق، ص ۳۲۵.

[۲۷] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۱، الحديث ۲۲.

[۲۸] (۳)- المصدر السابق، الحديث ۲۳.

[۲۹] (۱)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۰۵۳، و مجمع البحرين: مادة(علو).

[۳۰] (۱)- المبتدأ محذوف فى الآية، التقدير:(هم على الأرائك ينظرون)« ينظرون»، حال، أو أن جملة« على الأرائك»: خبر ثان، نسبة إلى« إنّ» الواردة فى الآية السابقة.

[۳۱] (۱)- لمزيد من الإيضاح .. راجع مفردات الراغب، و لسان العرب(مادة: أرك).

[۳۲] (۱)- عملية ختم الأشياء(كانت و لا زالت)، تستعمل للاطمينان على سلامة تلك الأشياء من التلاعب بها، فمثلا .. لكى يطمأن على سلامة وصول شىء معين إلى صاحبه المراد، فإنّه يوضع فى ظرف خاص مغلق، و إذا ما كان الشىء بدرجة عالية من الأهمية، فلا يكتفى بالغلق، بل يربط بسلك أو ما شابه و من ثمّ يوضع على عقدته شىء من الشمع أو الطين و يختم بختم معين، كل ذلك للتأكيد من وصوله إلى المراد بدون أن تمتد إليه يد التلاعب.

[۳۳] (۱)- يتّضح من تفسير الآية، أنّ اسم الإشارة« ذلك» يعود على جميع نعم الجنّة، و شرابها بالذات لما وصف فيه فى الآية.

[۳۴] (۲)-« الواو» و« الفاء» فى i وَ فِى ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ E، كلاهما حرف عطف، و إذا ما سئل عن علة وجودهما معا، فالجواب هو: يوجد شرط محذوف، و التقدير:« و إن أريد تنافس فى شىء فليتنافس فى ذلك المتنافسون»، فحذفت أداة الشرط و الجملة الشرطية و قدمت« فى ذلك».

[۳۵] (۳)- قيل فى سبب نصب« عينا» عدّة وجوه .. منها: لأنّها حال التسنيم، تمييز، مدح و اختصاص .. و التقدير:(أعنى).

و« الباء» فى« بها»: زائدة، أو بمعنى(من) و هو الأنسب.

[۳۶] (۱)- كالآية(۱۵) من سورة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم.

[۳۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۳، الحديث ۳۳.

[۳۸] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۴، الحديث ۴۰.

[۳۹] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۳۷.

[۴۰] (۳)- المصدر السابق، الحدیث ۳۵.

[۴۱] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۶.

[۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۷- کما و ذکر کثیر من المفسّرین مسألة نزولها فی علی بن أبی طالب، و مشرکی مکّة، کما فی تفسیر القرطبی، و روح البیان، و الکشّاف، و تفسیر الفخر الرازی ... إلخ.

[۴۳] (۲)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۷۶.

[۴۴] (۱)- ذکر المفسّرون احتمالین فی ضمیر« مرّوا» و« بهم»، فارجع بعضهم الأوّل الی المشرکین و الثّانی إلی المؤمنین، و قال البعض الآخر عکس ذلک، و یبدو أن الاحتمال الأول أقرب بلحاظ ما ذکر أعلاه.

[۴۵] (۱)- تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۲۸.

[۴۶] (۱)- الاستفهام فی الآیة .. استفهام تقریری.

[۴۷] (۲)- مفردات الراغب: مادة(ثوب).

[۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۵۸.

[۴۹] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۳۶.

[۵۰] (۱)-« إذا» أداة شرط، حذف جزاؤها، و التقدیر:(إذا السماء انشقت ... لاقی الإنسان ربّه فحاسبه و جازاه).

[۵۱] (۱)- الفخر الرازی، فی تفسیره للآیة المذکورة.

[۵۲] (۱)- مجمع البیان، فی تفسیر الآیة.

[۵۳] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۳۷.

[۵۴] (۳)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۸۷؛ و فی الدر المنثور، ج ۶، ۳۲۹.

[۵۵] (۱)- الخصال، للشیخ الصدوق رحمه اللّه: الجزء الأول، باب: الدنیا و الآخرة ککفتی المیزان، الحدیث ۹۵.

[۵۶] (۱) سورة الحاقة، الآیة ۱۹.

[۵۷] (۱) سورة القصص، الآیة ۷۶.

[۵۸] (۱) مفردات الراغب، و تفسیر الفخر الرازی، و غیرهما.

[۵۹] (۱) مفردات الراغب.

[۶۰] (۱) راجع تفسیر الآیات(۷۱- ۷۳) من سورة القصص.

[۶۱] (۲)« ما»: موصولة، و احتمال کونها(مصدریة) ضعیف، ضمیرها محذوف، و التقدیر:(و ما وسقه).

[۶۲] (۳) و جاء« الوسق»، أیضا بمعنی حمل بعیر، أو ستین صاعا(و کل صاع یقرب من ثلاثة کیلوات)، و هو مأخوذ من الاجتماع أیضا.

[۶۳] (۱) و من الشواهد علی هذا المعنی، بالإضافة إلی شهادة الآیات السابقة و اللاحقة، إنّ السجود بمعنی وضع الجبین علی الأرض عند تلاوة القرآن إنّما یجب فی مواضع محدودة جدّا و یستحب فی مواضع اخری، و فی مواضع اخری لا- هو بالواجب و لا بالمستحب- و حینما تقول الآیة\i:وَ إِذا قُرِئَ عَلَیْهِمُ الْقُرْآنُ لا یَسْجُدُونَ E فقد أطلقت القول، و الإطلاق و الحال هذه یراد به التسلیم للقرآن.

[۶۴] (۱) روح البیان، ج ۱، ص ۱۳۸۲.

[۶۵] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۴۵.

[۶۶] (۱)- و الأبراج الاثنا عشر هی: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، المیزان، العقرب، القوس، الجدی، الدلو و الحوت.

[۶۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۱.

[۶۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۶۶.

[۶۹] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۴۳، و ذکر مضمونه کل من(أبو الفتوح الرازی) و(الطبرسی) فی تفسیرهما.

[۷۰] (۲)- الصحیفة السجادیة: الدعاء السادس.

[۷۱] (۱)- و علیه، فجواب القسم محذوف و یدل علیه قوله تعالی\:i قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ\E أو\:i إِنَّ الَّذِینَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِینَ وَ الْمُؤْمِناتِ E. و التقدیر:(اقسم بهذه الأمور إنّ الذین فتنوا المؤمنین و المؤمنات معذبون ملعونون کما لعن أصحاب الأخدود).

[۷۲] (۱)- حمیر: إحدی قبائل الیمن المعروفة.

[۷۳] (۲)- تفسیر علی بن ابراهیم القمی، ج ۲، ص ۴۱۴.

[۷۴] (۱)- قصص القرآن، للبلاغی، ص ۲۸۸.

[۷۵] (۲)- تفسیر روح المعانی، و تفسیر أبی الفتوح الرازی، عند تفسیر الآیات المذکورة.

[۷۶] (۱)- مجمع البیان، و عنه المیزان فی تفسیر الآیة.

[۷۷] (۲)- تفسیر الثعلبی، ص ۲۷۵.

[۷۸] (۳)- المصدر السابق.

[۷۹] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۳۷۷، عن تفسیر العیاشی.

[۸۰] (۱)- و هذا یشبه دلیل الآیة(۷۹) من سورة« یس\»:i قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ E، یقال: إنّ الفارابی تمنی لو کان أرسطو« الفیلسوف الیونانی المعروف» حیّا لیری جمال هذا الدلیل المحکم فی القرآن الکریم.

[۸۱] (۱)- جاءت کلمة« المجید» فی الآیة مرفوعة(طبق القراءة المشهورة)، تکون صفة للّه تعالی و لیس صفة للعرش، و إلّا لکانت مجرورة.

[۸۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۶۹.

[۸۳] (۲)- ثواب الأعمال، ص ۱۲۲، و عنه نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۴۹.

[۸۴] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

[۸۵] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۵۰، ح ۴.

[۸۶] (۱)- دائرة المعارف دهخدا مادة زحل.

[۸۷] (۲)- دائرة المعارف دهخدا مادة زحل.

[۸۸] (۳)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۳۹۷.

[۸۹] (۱)-« إن» فی الآیة: نافیة، و« لمّا»: بمعنی(إلّا).

[۹۰] (۱)- تفسیر المراغی، ج ۳۰، ص ۱۱۳.

[۹۱] (۱)- عند ما تتحدث الآیات القرآنیة الاخری عن خلق الإنسان، فإنّها غالبا ما تشیر إلی نطفة الرجل، باعتبارها أمرا محسوسا(راجع الآیة ۴۶ من سورة النجم، و الآیة ۳۷ من سورة القیامة).

[۹۲] (۱)-« یوم» ظرف زمان متعلق بالرجع فی الآیة السابقة.

[۹۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۷۲. و مثله فی تفسیر الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۶.

[۹۴] (۱)- مفردات الراغب، مادة(رجع).

[۹۵] (۱)- تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۰۰؛ و تفسير المراغى، ج ۳۰، ص ۱۱۸؛ عن صحيح الترمذى و سنن الدارمى.

[۹۶] (۱)- مفردات الراغب.

[۹۷] (۲)- سورة يوسف، الآية ۷۶.

[۹۸] (۱)- ف« رويدا» فى محل مفعول مطلق، و المعنى: أمهلهم إمهالا قليلا، أمّا ما قيل من كونها تحمل معنى الأمر، فهو بعيد، لأنّ ذلك سيستلزم للآية ثلاثة أوامر.

و مع أنّ« رويدا» جاءت بمعنى الأمر، و على صيغة اسم فعل، لكن الأنسب لها فى هذا الموضع أن تكون منصوبة كمفعول مطلق.

[۹۹] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۵۳.

[۱۰۰] (۱)- المصدر السابق.

[۱۰۱] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۴۴.

[۱۰۲] (۳)- المصدر السابق.

[۱۰۳] (۴)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۲.

[۱۰۴] (۵)- تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۸۶.

[۱۰۵] (۱)- للتفصيل- راجع الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۳۷.

[۱۰۶] (۱)- قال بعض المفسّرين: إنّ مفهوم الآية هو:« نيسّر اليسرى لك»، و إنّما حصل فيها التقديم و التأخير للتأكيد، و هذا على أن لا تكون« نيسرك» بمعنى(نوفقك)، و إلّا لم تكن هناك حاجة للتقديم و التأخير.

[۱۰۷] (۱)- و ما فى الآية بخلاف ما جاء فى الآية(۶) من سورة البقرة\i: سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ E، لأنّها تختص بفئة قليلة من النّاس، و إلّا فأكثر النّاس يتأثرون بالبلاغ المبين، و إن كانوا بدرجات متفاوتة، و عليه .. فالجملة الشرطية فى الآية المبحوثة من قبيل القيد بالغالب الأعم.

[۱۰۸] (۱)- يعود ضمير« يتجنبها» على« الذكرى» الواردة فى الآيات السابقة.

[۱۰۹] (۲)- تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۱۱۰.

[۱۱۰] (۳)- تفسير الكشّاف؛ روح المعانى(فى ذيل الآيات المبحوثة).

[۱۱۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۸: ص ۲۸۸، الحديث ۲۱.

[۱۱۲] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۵۶، الحديثين(۱۹ و ۲۰).

[۱۱۳] (۲)- روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۱۰، و تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۷۴۰.

[۱۱۴] (۱)- و روى الحديث بصور عدّة عن الإمام الصادق عليه السّلام و الإمام السجاد عليه السّلام، و ورد معنى الحديث عن الأنبياء عليهم السّلام أيضا، ممّا يشير إلى أهميته البالغة.

[۱۱۵] (۱)- يمكن أن تكون« صحف إبراهيم و موسى» توضيحا للصحف الاولى، كما و يمكن أن تكون إشارة لأحد مصاديق الصحف، و إلّا فهى تشمل جميع كتب الأنبياء السابقين.

[۱۱۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۷۴۶.

[۱۱۷] (۱)- يبدو أنّ« حبّ الدنيا» هنا، بمعنى(حبّ البقاء فى الدنيا)، باعتباره كأحد الشعب السبعة، و يبدو أنّه يرادف(طور الأمد).

[۱۱۸] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۳۹، باب حبّ الدنيا و الحرص عليها، الحديث ۸، و فى هذا الباب توجد رواية اخرى بهذا الشأن.

[۱۱۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۷۷.

[۱۲۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۲۱] (۱)- صلی بالنّار، لزمها و احترق بها.

[۱۲۲] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۱۹.

[۱۲۳] (۱)- بحثنا موضوع طعام أهل النّار، الـذی یسـمیه القرآن تارة ب« الضـریع» و اخری ب« الزقوم» و ثالثة ب« غسـلین»، و ما بینها من تفاوت .. فی ذیل الآیة(۳۶) من سورة الحاقة.

[۱۲۴] (۱)-« لاغیة»: بالرغم من کونها اسم فاعل، و لکنّها تأتی بما یرادف(اللغو)، أی(ذات لغو).

[۱۲۵] (۱)- مفردات الراغب، مادة(سرّ).

[۱۲۶] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۷۹.

[۱۲۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۱۵۸.

[۱۲۸] (۱)- و نسـتفید من حدیث شریف ورد فی(الدرّ المنثور) .. أنّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم کان مأمورا بمحاربة عبدة الأصنام، و فی غیر ذلک فهو مأمور بالتذکیر.

[۱۲۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۱.

[۱۳۰] (۲)- مجمع البیان، ۱۰، ص ۴۸۱.

[۱۳۱] (۱)- راجع تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۵۷، الحدیث ۱.

[۱۳۲] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۷۴.

[۱۳۳] (۲)- جاءت« لیال عشر» بصیغة النکرة للدلالة علی عظمتها و أهمیتها، و إلّا فهی تنطبق علی کلّ ما ذکر أعلاه.

[۱۳۴] (۳)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۱۶۴.

[۱۳۵] (۴)- نقل ذلک کلّ من: العلّامة الطباطبائی فی المیزان عن بعض المفسّرین فی الجزء ۲۰، ص ۴۰۶ .. و فی کتاب روح المعانی عن کتاب التحریر و التحییر، ج ۳۰، ص ۱۲۰.

[۱۳۶] (۱)- روی ذلک أبو سعید الخدری عن النّبی صلّی اللّه علیه و آله و سلّم راجع مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۵.

[۱۳۷] (۲)- المصدر السابق.

[۱۳۸] (۱)- المصدر السابق.

[۱۳۹] (۲)-« یسر»: فی الأصل(یسری) من(السری)، و حذفت الیاء للتخفیف، و لمناسبة الآیات السابقة.

[۱۴۰] (۱)- راجع تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۱.

[۱۴۱] (۱)- تفسیر الکشّاف، ج ۴، ص ۷۴۷، و ذکر ذلک أیضا القرطبی فی تفسیره، و غیره.

[۱۴۲] (۱)- و علی ضوء التّفسیر الأوّل یکون التعبیر ب« ذات» لأنّ الطائفة و القبیلة مؤنث لفظی.

[۱۴۳] (۲)-« إرم» ممنوع من الصرف، لذا فقد نصب فی حالة الجر.

[۱۴۴] (۱)-« ثمود»: من(الثمـد)، و هو الماء القلیل الـذی لا مادة له، و المثمود: إذا کثر علیه السؤال حتی فقـد مادة ما له، و یقال أنّها کلمة أعجمیة(مفردات الراغب).

[۱۴۵] (۲)- الباء فی« الواد»: تعطی معنی الظرفیة.

[۱۴۶] (۳)- روح البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۵(ما مضمونه).

[۱۴۷] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۱، الحدیث(۶)، کما نقله عن علل الشرائع.

[۱۴۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۶.

[۱۴۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۷.

[۱۵۰] (۲)- المصدر السابق.

[۱۵۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۳، عن روضة الکافی الحدیث ۴۸۶، اقتباس.

[۱۵۲] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۹۷.

[۱۵۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۵، ص ۱۲۰(الطبعة القدیمة).

[۱۵۴] (۱)-« تخاضون»: فی الأصل(تتحاضون)، و حذفت إحدی التائین للتخفیف.

[۱۵۵] (۲)-« طعام» هو فی الآیة ذو معنی مصدری أی:(إطعام).

[۱۵۶] (۳)-« لمّ»: بمعنی الجمع، و تأتی بمعنی الجمع مع الإصلاح أیضا.

[۱۵۷] (۱)-« تراث»: فی الأصل(وراث)، ثمّ أبدلت الواو تاء.

[۱۵۸] (۲)-« الجم»: بمعنی الکثیر، کما جاء فی(مصباح اللغة)، و(المقاییس)، و(الجمّة) الشعر المتجمع فی مقدمة الرأس.

[۱۵۹] (۱)- یقول الفخر الرازی فی تفسیره: إن فی الآیـة محـذوف، تقدیره(أمر) أو(قهر) أو(جلائل آیات) أو(ظهور و معرفة) .. و ظهرت هذه التقدیرات فی کتب غیره من المفسرین أیضا، و خصوصا التقدیر الأول.

[۱۶۰] (۲)- راجع تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۴۱۶.

[۱۶۱] (۱)- سورة الشعراء، الآیة ۹۰.

[۱۶۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۸۳؛ و عنه المیزان، ج ۲۰، ص ۴۱۵، و مثله فی تفسیر الدّر المنثور.

[۱۶۳] (۱)- الکافی، ج ۳، ص ۱۲۷، باب إنّ المؤمن لا یکره علی قبض روحه، الحدیث ۲.

[۱۶۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۰.

[۱۶۵] (۲)- ثواب الأعمال، نقلا عن نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۸.

[۱۶۶] (۱)-(لا): زائد للتأکید، و قیل إنّها نافیة(لمزید من التوضیح راجع مطلع سورة القیامة).

[۱۶۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۶۸] (۱)-« أن» فی الآیة مخففة من الثقیلة و التقدیر: أنّه لن یقدر علیه أحد.

[۱۶۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۷۰] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۰، الحدیث ۱۰.

[۱۷۱] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

[۱۷۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۴، و بهذا المعنی أیضا ورد فی تفسیر روح البیان، ج ۱۰، ص ۴۳۵.

[۱۷۳] (۱)- روی عن أمیر المؤمنین علی علیه السّلام أنّه قیل له: إنّ أناسا یقولون فی قوله(و هدیناه النجدین) أنّهما الثدیان(أی ثدیا الأم) فقال:« لا، هما الخیر و الشرّ» مجمع البیان، ذیل الآیات المذکورة، و ضمنا التعبیر ب« نجد» علی الخیر من أجل عظمته و فی مورد الشرّ من باب التغلیب.

[۱۷۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۱.

[۱۷۵] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، رقم ۸.

[۱۷۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۴؛ و تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۵۵.

[۱۷۷] (۱)- کما یقال للشمس و القمر: القمران.

[۱۷۸] (۱)- الظاهر أن(لا) فی الآیة« نافیة» و« خبریة» و نستبعد أن تکون علی وجه الدعاء علی ضمیر الفعل أو أن تکون استفهامیة، و الإشکال الوحید الذی یرد علی أنّها خبریة هو عدم تکرارها لأنّ(لا) النافیة حین تدخل علی الفعل الماضی تکرر عادة کقوله سبحانه\:i فَلا صَدَّقَ وَ لا صَلَّی E، و لم تتکرر فی الآیة. و یذکر« الطبرسی» فی« مجمع البیان» مواضع من أقوال العرب لم تتکرر فیها(لا) النافیة مع دخولها علی الفعل الماضی، و إلی ذلک ذهب أیضا« الفخر الرازی» و« القرطبی»، و قیل إنّ(لا) إذا کانت بمعنی« لم» لا یلزم تکرارها و بعضهم احتمل التکرار فی التقدیر و المعنی: فلا اقتحم العقبة و لا فک رقبة، و لا أطعم فی یوم ذی مسغبة.

[۱۷۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۱۸۰] (۲)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۶.

[۱۸۱] (۱)- أی لقد طرحت بوضوح سؤالک، و إن کنت أجملت فی الکلام.

[۱۸۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۳.

[۱۸۳] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۱۸۴] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۹۶.

[۱۸۵] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۲۹۵، نقلا عن الکافی.

[۱۸۶] (۱)- تفسیر أبی الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۹۷، و لسان العرب، مادة شأم.

[۱۸۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۶.

[۱۸۸] (۱)- و فی ضمیر« یغشاها» ذهب المفسّرون إلی اتجاهین، منهم من قال: إنّه یعود إلی« الأرض» لأنّ اللیل یسدل استاره علی الأرض. و منهم من قال إلی« الشمس» إذ اللیل یحجب وجه الشمس، و المعنی هذا مجازی طبعا، لأنّ اللیل لا یحجب الشمس حقیقة، بل یظهر بعد غروب الشمس. و الواقع أنّ الضمیر فی الآیة السابقة إن عاد إلی« الأرض» فهنا یعود إلیها أیضا. و إن عاد إلی الشمس یعود إلیها هنا أیضا.

[۱۸۹] (۱)- نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۱۴۷.

[۱۹۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۸.

[۱۹۱] (۲)- المصدر السابق.

[۱۹۲] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۵۷.

[۱۹۳] (۱)- ذکر بعض علماء اللغة أن« الطغوی» مشتقّة من مادة ناقص واوی(طغو) و« الطغیان» من مادة ناقص یائی(طغی).

[۱۹۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۹، و وردت الروآیة باختصار فی تفسیر القرطبی، ج ۶، ص ۷۱۶۸.

[۱۹۵] (۱)- القمر، الآیة ۲۸.

[۱۹۶] (۲)- الشعراء، الآیة ۱۵۶.

[۱۹۷] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۰۱.

[۱۹۸] (۴)- مفردات الراغب، و لسان العرب، و مجمع البیان.

[۱۹۹] (۱)- روح البیان، ج ۲۰، ص ۴۴۶.

[۲۰۰] (۱)- الصیحة السماویة أو الصاعقة، صوت عظیم تصحبه هزّة شدیدة و حرائق، و هی بالتعبیر العلمی شرارة کهربائیة کبری تحدث نتیجة تفریغ کهربائی من الغیوم المحملة بشحنات موجبة إلی الأرض ذات الشحنات السلبیة.

[۲۰۱] (۲)- هود، الآیة ۶۷.

[۲۰۲] (۳)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۸۷.

[۲۰۳] (۴)- شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۳۳۵- ۳۴۳.

[۲۰۴] (۱)- المحجة البیضاء، ج ۵، ص ۱۱۶.

[۲۰۵] (۲)- المحجة البیضاء، ج ۵، ص ۱۱۷.

[۲۰۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۹.

[۲۰۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۱.

[۲۰۸] (۱)- یلاحظ فی السّورة المبارکة أن الفعل« یغشی» بصیغة المضارع، أمّا« تجلّی» فبصیغة الماضی، قیل إنّ ذلک یعود إلی عصر نزول السّورة، حیث کانت الجاهلیة فی بدایة الدعوة مخیّمة بظلامها علی الأرض، و فی هذه الحالة سیکون القسم بظلام الجاهلیة، و لیس ذلک بجیّد، و من الأفضل القول إن هذا الفعل الماضی یفید معنی المضارع لوقوعه بعد« إذا» الشرطیة؛ أو إنّ أصل الفعل« تتجلی» حذفت إحدی التائین، عندئذ سیکون الفعل مؤنثا، و لا یکون فاعله« نهار» بل سیکون التقدیر:« إذا تتجلی الشمس فیه».

[۲۰۹] (۱)- هذا التقسیم للآیات مستلهم من قوله سبحانه\:i سَنُرِیهِمْ آیاتِنا فِی الْآفاقِ وَ فِی أَنْفُسِهِمْ E.

[۲۱۰] (۱)- النساء، ۹۵.

[۲۱۱] (۱)- تفسیر الکشّاف، ج ۴، ص ۷۶۲.

[۲۱۲] (۱)-« الیسری» مؤنث أیسر، و« العسری» مؤنث أعسر، إنّما جاءا بصیغة المؤنث إمّا لأنّهما صفتان للأعمال و التقدیر: فسنیسره لأعمال یسری ... أو- لأعمال عسری، أو صفتان لحوادث الحیاة، و إن کان الموصوف مفردا فقد یکون« طریقة» أو« خلة».

[۲۱۳] (۱)-« للام» فی(للآخرة) و(للأولی) و کذلک فی(للهدی) لام تأکید تدخل علی خبر إنّ، و دخلت هنا علی اسمها لتقدم الخبر.

[۲۱۴] (۲)- تلظی أصلها تتلظی حذفت إحدی التائین للتخفیف.

[۲۱۵] (۱)- التوبة، الآیة ۱۰۳.

[۲۱۶] (۲)-« ابتغاء» منصوبة علی الاستثناء، و الاستثناء فی الآیة منقطع، أی إنّ المستثنی لیس من جنس المستثنی منه أی: ما لأحد عنده من نعمة إلّا ابتغاء وجه ربّه، و یجوز أن یکون النصب علی أنّ الکلمة مفعول له علی المعنی، لأنّ معنی الکلام، لا یؤتی ماله إلّا ابتغاء وجه ربّه.

[۲۱۷] (۱)- الفخر الرازی التّفسیر الکبیر، ج ۳۱، ص ۲۰۵.

[۲۱۸] (۲)- المدرسة الأمویة کان لها أثرها بدرجة و اخری علی کثیر من العلماء علی مرّ التاریخ، و تقوم علی أساس الحطّ من شخصیة رسول اللّه صلّی اللّه علیه و آله و سلّم، و نفی کلّ منقبة لعلی و اله علیهم السّلام« المترجم».

[۲۱۹] (۳)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۸.

[۲۲۰] (۱)- لا ننسی أنّ نذکر أنّ الآلوسی رجل متعصّب نسبیا للمدرسة الأمویة، لکنّه مع ذلک لم یوافق الفخر الرازی فی رأیه.

[۲۲۱] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۶۵، ح ۳۸.

[۲۲۲] (۳)- المصدر السابق، ح ۳۵.

[۲۲۳] (۴)- اصول الکافی، ج ۲، باب إطعام المؤمن، ح ۱۷.

[۲۲۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۸۸، ح ۱۱۳.

[۲۲۵] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۸۹، ح ۲.

[۲۲۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۳.

[۲۲۷] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۴.

[۲۲۸] (۱)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۹۵، الحدیث رقم ۱۲، فی الأصل تفسیر أبو الفتوح الرازی، ج ۱۲، ص ۱۱۰.

[۲۲۹] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۷۶۵.

[۲۳۰] (۲)- یونس، الآیة ۱۵.

[۲۳۱] (۱)- الشوری، الآیة ۵۲.

[۲۳۲] (۱)-« العائل» فی الأصل کثیر العیال، و جاءت أیضا بمعنی الفقیر، و هی فی الآیة بهذا المعنی، و یستفاد من کلام الراغب أنّ(عال) إذا کانت أجوفا یائیا فهی بمعنی افتقر، و إن کانت أجوفا واویا فبمعنی کثر عیاله.(و لا نستبعد أن یکون المعنیان متلازمین).

[۲۳۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۳۴] (۱)- المصدر السابق.

[۲۳۵] (۱)- تفسیر محمّد عبده، جزء عم، ص ۱۱۳.

[۲۳۶] (۲)- الذاریات، الآیة ۱۹.

[۲۳۷] (۳)- نهج الفصاحة، حدیث ۶۸۳.

[۲۳۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۷.

[۲۳۹] (۲)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۹۲، و قریب من هذا المعنی فی الکافی، ج ۶، کتاب الزی و التجمیل، حدیث ۲.

[۲۴۰] (۳)- فروع الکافی، ج ۶، ص ۴۳۸.

[۲۴۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۶۴: ح ۷.

[۲۴۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۴۳] (۲)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۱، ص ۲۱۹.

[۲۴۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۹۷، ح ۲۳.

[۲۴۵] (۲)- نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم ۴۷.

[۲۴۶] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

[۲۴۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲.

[۲۴۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۷.

[۲۴۹] (۱)- طه، الآیة ۲۵- ۲۶.

[۲۵۰] (۲)- القلم، الآیة ۴۸.

[۲۵۱] (۳)- الحجر، الآیة ۹۷.

[۲۵۲] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۰۸.

[۲۵۳] (۱)- تفسیر الدر المنثور(نقلا عن تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۴۵۲) و تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲. و هذه الرّوایة ذکرها البخاری و الترمذی و النسائی أیضا فی قصّة المعراج.

[۲۵۴] (۱)- ممّا ذکرنا یتّضح أنّ الألف و اللام فی(العسر) للجنس لا للعهد، و(یسرا) وردت نکرة، لکنّها تعنی الجنس أیضا، و تنکیرها فی مثل هذه المواضع للتعظیم.

[۲۵۵] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۰۴، حدیث ۱۱، ۱۳.

[۲۵۶] (۳)- المصدر السابق.

[۲۵۷] (۱)- شواهد التنزیل: ج ۲، ص ۳۴۹، الأحادیث ۱۱۱۶ إلی ۱۱۱۹.

[۲۵۸] (۲)- القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۱۹۹.

[۲۵۹] (۱)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۱۷۲؛ تفسیر الکشاف، ج ۴، ص ۷۷۲.

[۲۶۰] (۱)- ابن أبی الحدید، شرح نهج البلاغة، ج ۵، ص ۱۲۹.

[۲۶۱] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۰.

[۲۶۲] (۱)- قیل إنّ« سینین» جمع« سینه» و هی شجرة: و لما کان« طور» اسم جبل، فیکون القسم بالجبل المغطی بالأشجار، و قیل إن سینین اسم الأرض التی یرسو علیها ذلک الجبل. و قیل إنّه یعنی کثیر الخیر و البرکة، و جمیل، بلسان أهل الحبشة(روح المعانی، ج ۳۰، ص ۱۷۳).

[۲۶۳] (۱)-« الأمین» علی وزن فعیل بمعنی فاعل أی« ذو الأمانة» أو بمعنی مفعول أی الأرض المأمونة لسکنتها.

[۲۶۴] (۲)- المؤمنون، الآیة ۲۰.

[۲۶۵] (۱)- الکافی، ج ۶، ص ۳۵۸. و أورده العلّامة المجلسی فی بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۸۴ روایات متعددة فی حقل خواص التین، و المعلومات العلمیة عن هذه الفاکهة منقولة عن کتاب« أوّل جامعة و آخر رسول»(فارسی)، ج ۹، ص ۹۰ و ما بعدها.

[۲۶۶] (۲)- أول جامعة و آخر رسول، ج ۹، ص ۱۳۰ و ما بعدها.

[۲۶۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۱۸۰، حدیث ۶.

[۲۶۸] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۸۳، حدیث ۲۲.

[۲۶۹] (۳)- المصدر السابق، ج ۱۸۲، حدیث ۱۶.

[۲۷۰] (۴)- الإسراء، الآیة ۷۰.

[۲۷۱] (۱)- راجع أدلة المعاد فی تفسیر سورة الواقعة.

[۲۷۲] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۲.

[۲۷۳] (۱)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۷۸.

[۲۷۴] (۱)- التّفسیر الکبیر، ج ۱۲، ص ۹۶(بتلخیص قلیل)، و هذا المعنی أورده کثیر من المفسّرین بإضافات و زوائد لا یمکن قبول بعضها.

[۲۷۵] (۲)- تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۴.

[۲۷۶] (۱)- الراغب فی المفردات یقول: إنّ القراءة تعنی ضم الحروف و الکلمات إلی بعضها. و لذلک لا یقال لنطق الحرف قراءة.

[۲۷۷] (۲)- الباء فی هذه الحالة للملابسة.

[۲۷۸] (۱)- جملة« و ربّک الأکرم» جملة استئنافیة مکونة من مبتدأ و خبر.

[۲۷۹] (۱)- المائدة، الآیة ۳.

[۲۸۰] (۱)- القلم، الآیة ۱.

[۲۸۱] (۱)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۶۱۹ و ما یلیها بتلخیص.

[۲۸۲] (۱)- حسب المعنی الذی ذکرناه للآیة(کلا) هنا للردع بالنسبة لما یستلزمه مضمون الآیات السابقة و قیل أیضا أنّها بمعنی« حقّا» للتأکید.

[۲۸۳] (۱)- جملة« أن رآه استغنی» مفعول لأجله، و التقدیر: لأنّ ... و الرؤیة هنا بمعنی العلم و لذا نصبت مفعولین، و یحتمل أیضا أن تکون الرؤیة هنا حسّیة. و« استغنی» تکون عندئذ بمثابة الحال.

[۲۸۴] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۸۰.

[۲۸۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۵.

[۲۸۶] (۱)- التّفسیر الکبیر، ج ۳۲، ص ۲۳.

[۲۸۷] (۱)- الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۲۳.

[۲۸۸] (۲)- تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۶، ص ۳۹۴۲ ذیل الآیة.

[۲۸۹] (۱)- الأعراف، الآیة ۶۰.

[۲۹۰] (۲)- سبأ، الآیة ۳۴.

[۲۹۱] (۳)- المؤمنون، الآیة ۶۷.

[۲۹۲] (۱)- روح المعانی: ج ۳۰، ص ۱۸۸، و الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۷۱.

[۲۹۳] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۱۶.

[۲۹۴] (۱)- المصدر السابق.

[۲۹۵] (۱)- البقرة، الآیة ۱۸۵.

[۲۹۶] (۱)- مفردات الراغب، مادة نزل.

[۲۹۷] (۲)- الدر المنثور، ج ۸، ص ۵۶۸.

[۲۹۸] (۱)- الشوری، الآیة ۵۲.

[۲۹۹] (۲)- تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۸۱.

[۳۰۰] (۳)- حسب التّفسیر الأوّل(من) هنا بمعنی لام التعلیل أی لأجل کلّ أمر. و بناء علی التّفسیر الثّانی(من) تعنی باء المصاحبة.

[۳۰۱] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۳۶.

[۳۰۲] (۲)- الدخان، الآیة ۳- ۴.

[۳۰۳] (۱)- الحج، الآیة ۷۴.

[۳۰۴] (۲)- الطلاق، الآیة ۷.

[۳۰۵] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۲۵، الحدیث ۵۸.

[۳۰۶] (۲)- المصدر السابق، الحدیث ۶۲۶.

[۳۰۷] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۲۶، مقطع من الحدیث ۵۸.

[۳۰۸] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۱.

[۳۰۹] (۱)- البقرة، الآیة ۸۹.

[۳۱۰] (۱)- یجب ملاحظة أن« منفکین» جمع(منفک) یمکن أن تکون اسم فاعل أو اسم مفعول، فعلی التّفسیرین الأوّل و الثّانی تعطی معنی اسم الفاعل، و علی التّفسیر الثّالث معنی اسم المفعول، فلاحظ.

[۳۱۱] (۲)- فصلت، الآیة ۴۲.

[۳۱۲] (۱)- البقرة، الآیة ۱۸۳.

[۳۱۳] (۲)- جملة« و ما أمروا» قد تکون حالیة أو استئنافیة. و اللام فی« لیعبدوا» لام الغرض، و المقصود هنا الغرض الذی یعود علی العباد، لا الغرض الذی یعود علی اللّه کما تصور بعض المفسّرین و أدی بهم هذا التصور إلی إنکار« لام الغرض» فی مثل هذه المواضع. کل أفعال اللّه معللة بالأغراض، لکنّها أغراض تعود علی العباد. بعضهم اعتبر اللام هنا بمعنی« أن» کما فی قوله تعالی: i\ یُرِیدُ اللَّهُ لِیُبَیِّنَ لَکُمْ E النساء، الآیة ۲۶.

[۳۱۴] (۱)- دین القیمة، مضاف مضاف إلیه، و لیس صفة و موصوف و مفهومها أنّه دین ورد فی الکتب السابقة مستقیم و ذو قیمة أو أنّه دین فیه احکام و تعلیمات ذات قیمة، فعلی هذا جاءت الکلمة بصیغة المؤنث لأنّها صفة للکتب أو الملة و الشریعة.

[۳۱۵] (۱)- الأنفال، الآیة ۲۲.

[۳۱۶] (۲)- الأعراف. الآیة ۱۷۹.

[۳۱۷] (۱)- الاسراء، الآیة ۷۰.

[۳۱۸] (۱)- شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۳۵۷، الحدیث ۱۱۲۶.

[۳۱۹] (۲)- المصدر السابق، ص ۳۵۹، الحدیث ۱۱۳۰.

[۳۲۰] (۱)- المصدر السابق، ص ۳۶۲، الحدیث ۱۱۳۹.

[۳۲۱] (۲)- الصواعق المحرقة، ص ۹۶؛ و نور الأبصار، ص ۷۰ و ۱۰۱.

[۳۲۲] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۷۹.

[۳۲۳] (۴)- المصدر السابق.

[۳۲۴] (۱)- روح المعانی، ج ۳۰، ص ۳۰۸.

[۳۲۵] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۴.

[۳۲۶] (۱)- اصول الکافی علی ما فی نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۴۷، ح ۴.

[۳۲۷] (۱)- إذا شرطیة، یحتمل أن یکون جزاء شرطها« یومئذ تحدث أخبارها» أو« یومئذ یصدر النّاس أشتاتا»، أو أنّ الجزاء محذوف و الجملة جاءت جوابا لسؤال: متی الساعة؟ و التقدیر: إذا زلزلت الأرض زلزالها تقوم الساعة.

[۳۲۸] (۱)- بالمعنی الأوّل الإضافة لها معنی العموم، و فی الحالة الثانیة معنی العهد. ثمّ إنّ الزلزال بکسر الزای مصدر، و الزلزال بفتح الزای اسم مصدر، و هذه القاعدة جاریة فی الفعل الرباعی المضاعف مثل(صلصال) و(وسواس).

[۳۲۹] (۲)- الإنشقاق، الآیة ۴.

[۳۳۰] (۳)-« أثقال» جمع ثقل- علی وزن فکر- بمعنی الحمل، و قیل إنّه جمع ثقل، علی وزن عمل، و هو متاع البیت أو المسافر. و المعنی الأوّل أنسب.

[۳۳۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۴۹.

[۳۳۲] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۶.

[۳۳۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۳۴] (۲)- لئالئ الأخبار، ج ۵، ص ۷۹(الطبعة الجدیدة).

[۳۳۵] (۳)- المصدر السابق.

[۳۳۶] (۴)- الباء فی(بأنّ) للسببیة و اللام فی(لها) بمعنی إلی کما ورد فی قوله تعالی\i:وَ أَوْحی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ E(النحل، الآیة ۶۸).

[۳۳۷] (۱)- الاسراء الآیة ۷۱.

[۳۳۸] (۱)- لقمان، الآیة ۱۶.

[۳۳۹] (۱)- الزمر، الآیة ۶۵.

[۳۴۰] (۲)- هود، الآیة ۱۱۴.

[۳۴۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۱۶۴.

[۳۴۲] (۲)- تفسیر روح البیان، ج ۱۰، ص ۴۹۵.

[۳۴۳] (۱)- الدر المنثور، ج ۸، ص ۵۹۴

[۳۴۴] (۱)- واقعة حدثت فی السنة الثامنة للهجرة، و فیها أسر عدد کبیر من الکفار، فشدوا بالحبال مکبلین و لذا سمیت الواقعة بذات السلاسل، و سیأتی شرحها فی الآیات.

[۳۴۵] (۱)-« جمع» من اسماء المشعر الحرام، لاجتماع النّاس فیه، أو لجمع صلاة المغرب و العشاء فیه.

[۳۴۶] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۷.

[۳۴۷] (۳)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۸۳.

[۳۴۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۶۶ و ما بعدها. و« مجمع البیان» ج ۱۰، ص ۵۲۸. و بعض کتب التاریخ الأخری.

[۳۴۹] (۲)- القاعدة أن تکون: و العادیات عدوا، و لکن« الضبح» لملازمته العدو ناب عنه، فکانت و العادیات ضبحا. و قیل إن ضبحا مفعول مطلق لفعل محذوف تقدیره: و العادیات یضبحن ضبحا.

[۳۵۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۲۹، و أورد القرطبی هذه الرّوایة فی تفسیره، ج ۱۰، ص ۷۲۴۵.

[۳۵۱] (۱)- الضمیر فی(به) یعود إلی العدو المذکور فی(و العادیات ضبحا) فهی باء السببیة، أی بسبب هذا العدو یثور الغبار و یملأ الجو، و احتمل بعضهم أن یکون مرجع الضمیر زمان أو مکان ذلک الهجوم. و تکون الباء عندئذ ظرفیة. و الصحیح المعنی الأوّل.

[۳۵۲] (۲)- مرجع الضمیر فی(به) و معنی الباء هو نفسه الذی ذکرناه فی الآیة السابقة.

[۳۵۳] (۱)- تفسیر البیضاوی، ص ۴۶۵.

[۳۵۴] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۳۰.

[۳۵۵] (۱)- اللام فی« لحبّ الخیر» قد تکون لام التعدیة أو لام العلة، إن کانت للتعدیة فیکون المعنی هو الذی ذکرناه، و إن کانت للتعلیل یکون المعنی: إنّ الإنسان بسبب حبّه للمال بخیل. و الأوّل أنسب.

[۳۵۶] (۲)- البقرة، الآیة ۱۸۰.

[۳۵۷] (۱)- الطارق، الآیة ۹.

[۳۵۸] (۱)- الأحزاب، الآیة ۷۲.

[۳۵۹] (۲)- المعارج، الآیة ۱۹.

[۳۶۰] (۳)- هود، الآیة ۹.

[۳۶۱] (۴)- العلق، الآیة ۶.

[۳۶۲] (۵)- الإسراء، الآیة ۷۰.

[۳۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۳۰.

[۳۶۴] (۱)- القمر، الآیة ۷.

[۳۶۵] (۱)-« ماهیة»، أصلها« ما هی»، و الهاء ألحقت بها للسکت.

[۳۶۶] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۱.

[۳۶۷] (۲)- تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۵.

[۳۶۸] (۱)- المفردات، ص ۵۲۲.

[۳۶۹] (۲)- هذا الاحتمال ذکره الزمخشری فی الکشّاف، و الفخر الرازی فی التّفسیر الکبیر، و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره.

[۳۷۰] (۳)- قیل أیضا أنّ« راضیة» بمعنی(ذات رضا). أو قدروا محذوفا کأن تکون عیشة مرضیة لأصحابها. و التّفسیر المذکور أعلاه

أنسب من غيره.

[۳۷۱] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۹ الحديث ۸ و ۱۲.

[۳۷۲] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۷، ج ۵، ص ۶۵۹، ح ۷.

[۳۷۳] (۱)- المصدر السابق.

[۳۷۴] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۰، الحديث ۱۳.

[۳۷۵] (۳)- المصدر السابق، الحديث ۱۴.

[۳۷۶] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۲.

[۳۷۷] (۱)- المصدر السابق، بتلخيص.

[۳۷۸] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۱.

[۳۷۹] (۲)- شرح نهج البلاغة، ج ۱۱، ص ۱۵۳.

[۳۸۰] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۴.

[۳۸۱] (۱)- اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۳۶: باب الكبر، الحديث ۱۷.

[۳۸۲] (۲)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۹۱.

[۳۸۳] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۹۰، الحديث ۱۲.

[۳۸۴] (۱)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۸۷.

[۳۸۵] (۲)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۲، الحديث ۸.

[۳۸۶] (۳)- صحيح مسلم، نقلا عن مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۴.

[۳۸۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۴۳.

[۳۸۸] (۲)- الميزان، ج ۶، ص ۱۸۷.

[۳۸۹] (۱)- على ما فى بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۴۳.

[۳۹۰] (۲)- الميزان، ج ۶، ص ۲۰۰« ذيل الآية ۱۰۵ من سورة المائدة».

[۳۹۱] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۵.

[۳۹۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۵.

[۳۹۳] (۱)- و الضحى، الآية ۱.

[۳۹۴] (۲)- المدثر، الآية ۳۴.

[۳۹۵] (۱)- عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السّلام قال فى تفسير آية\:i وَ الْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ\E: العصر عصر خروج القائم(أى خروج الإمام المهدى المنتظر سلام اللّه عليه). نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۶۶، الحديث ۵.

[۳۹۶] (۱)- مفردات الراغب، مادة خسر.

[۳۹۷] (۱)- تفسير الفخر الرازى، ج ۳۲، ص ۸۵.

[۳۹۸] (۲)- تحف العقول، ص ۳۶۱، كلمات الإمام الهادى عليه السّلام.

[۳۹۹] (۳)- نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۷۴.

[۴۰۰] (۱)- المصدر السابق، الكلمة ۴۵۶.

[۴۰۱] (۲)- التغابن، الآية ۹.

[۴۰۲] (۳)- التوبة، الآیة ۱۱۱.

[۴۰۳] (۴)- الزلزال، الآیة ۷.

[۴۰۴] (۵)- البقرة الآیة ۲۶۱.

[۴۰۵] (۱)- النحل، الآیة ۹۷.

[۴۰۶] (۲)- المؤمنون، الآیة ۱۰۰.

[۴۰۷] (۱)- المؤمنون، الآیة ۵۱.

[۴۰۸] (۱)- حول حقیقة الصبر و مراحله و شعبه، فصلنا الحدیث فی تفسیر الآیة(۱۵۳) من سورة البقرة.

[۴۰۹] (۲)- الدر المنثور، ج ۶، ص ۳۹۲.

[۴۱۰] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۳۶.

[۴۱۱] (۲)- المصدر السابق.

[۴۱۲] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۹۲.

[۴۱۳] (۱)- اصول الکافی، ج ۲، باب النمیمة، الحدیث ۱.

[۴۱۴] (۲)- التوبة، الآیة ۸۰.

[۴۱۵] (۳)- بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۴۲.- الجمعة، الآیة ۱۰.

[۴۱۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۷.

[۴۱۷] (۲)-« ماله» یمکن أن تکون مکونة من(مال) مضاف إلی ضمیر الغائب. و یمکن أن تکون(ما) موصولة، و بعدها صلتها. جملة(أخلده) فعل ماض یتحمل معنی المضارع، أو بمعنی موجبات الخلود.

[۴۱۸] (۳)- القصص، الآیة ۸۱.

[۴۱۹] (۴)- الدخان، الآیة ۲۵- ۲۷.

[۴۲۰] (۱)- الدخان، الآیة ۲۸.

[۴۲۱] (۲)- الحاقة، الآیة ۲۸- ۲۹.

[۴۲۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۷ و ۱۹، الحدیث ۶۰ و ۶۴.

[۴۲۳] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۷، الحدیث ۵.

[۴۲۴] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۷، الحدیث ۵.

[۴۲۵] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۱۴۱، الحدیث ۱۷.

[۴۲۶] (۲)- المصدر السابق، ص ۱۴۲.

[۴۲۷] (۳)- التوحید للصدوق، نقلا عن نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۸.

[۴۲۸] (۴)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۱۴۲.

[۴۲۹] (۵)- المصدر السابق، الحدیث ۲۰.

[۴۳۰] (۱)- المصدر السابق، ص ۱۳۷، الحدیث ۳.

[۴۳۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۸، الحدیث ۱.

[۴۳۲] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۶۶۹، الحدیث ۸.

[۴۳۳] (۱)- سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۸- ۶۲؛ و بلوغ الإرب، ج ۱، ص ۲۵۰- ۲۶۳؛ و بحار الأنوار، ج ۱۵، ص ۱۳۰ و ما بعدها؛ و

مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۲.

[۴۳۴] (۱)- الفيل، لفظه مفرد، و له هنا معنى الجنس و الجمع.

[۴۳۵] (۱)- سجّيل كلمة فارسية مأخوذة من دمج كلمتين هما« سنگ» و« گل». و تعنى الطين المتحجّر.

[۴۳۶] (۱)- تفسير جزء عم، محمّد عبده، ص ۱۵۸. و ذكر المؤرخون طبعا انتشار وباء الحصبة و الجدرى فى بلاد العرب لأوّل مرّة فى نفس ذلك العام، لكن هذا لا ينهض دليلا على أن هلاك جيش أبرهة بتلك الأوبئة.

[۴۳۷] (۱)-« الإرهاص»، هو المعجزة الّتى، تسبق ظهور النّبى، لتمهّد لدعوته. و الكلمة فى الأصل تعنى الأساس و الحجر الأوّل الذى يقام عليه البناء، و كذلك بمعنى الاستعداد.

[۴۳۸] (۱)- أورد الحر العاملى، فى كتابه وسائل الشيعة، ج ۴، ص ۷۴۳، باب ۱۰ من أبواب قراءة الصلاة، روايات عدّة فى هذا المضمار.

[۴۳۹] (۲)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۳.

[۴۴۰] (۱)-« اللام» فى« لإيلاف» بمعنى العلة، و جار و مجرور متعلق ب« جعل» فى السّورة السابقة فى آية\i فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ E أو أحد الأفعال التى كانت فى السّورة، بينما يرى البعض أن الجار و المجرور يتعلقان بجملة« فليعبدوا» القادمة، لكن هذا الاحتمال لا يتفق مع مضمون الآيات، و المعنى الأوّل أحسن.

[۴۴۱] (۱)-« إيلافهم» بدل من فى الآية السابقة، و(هم) مفعول أوّل، و(رحلة الشتاء) مفعول ثان، و قيل أنّه ظرف، و قيل منصوب بنزع الخافض، أى إيلافهم من رحلة الشتاء و الصيف(يبدو أن المعنى الثّانى و الثّالث أنسب).

« رحلة» فى الأصل من« رحل»- على زنة شهر- بمعنى الغطاء الذى يغطى به ظهر الدابة لركوبها، ثمّ أطلقت على الإبل أو السفر بواسطته أو بوسائط اخرى.

[۴۴۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۶.

[۴۴۳] (۱)- الإنفطار، الآية ۹.

[۴۴۴] (۲)- التين، الآية ۷.

[۴۴۵] (۱)- الكافى، نقلا عن نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۷۹، الحديث ۱۸.

[۴۴۶] (۲)- المصدر السابق، الحديث ۱۹.

[۴۴۷] (۱)- نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۷۹، الحديث ۲۰.

[۴۴۸] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۳۵، ح ۱۰.

[۴۴۹] (۲)- اصول الكافى، ج ۲، باب الرياء، الحديث ۱۴.

[۴۵۰] (۱)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۵۱(ذيل الحديث ۱۶).

[۴۵۱] (۲)- وسائل الشيعة، ج ۱، ص ۴۹(ذيل الحديث ۱۱).

[۴۵۲] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۹.

[۴۵۳] (۲)- كان للرّسول ابن آخر من« مارية القبطية» اسمه إبراهيم. ولد فى الثامنة للهجرة بالمدينة، و لكنّه توفى أيضا قبل بلوغ الثّانية من عمره، و حزن عليه الرسول كثيرا.

[۴۵۴] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۸.

[۴۵۵] (۱)- مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۴۹.

[۴۵۶] (۲)- المصدر السابق.

[۴۵۷] (۳)- المصدر السابق.

[۴۵۸] (۱)-« النحیرة» آخر الشهر، لأنّ الإنسان یستقبل فیه الشهر الجدید. و سؤال النّبی لجبریل عن هذا الاستقبال للشهر الجدید، لذلک قال له جبریل: لیست بنحیرة.

[۴۵۹] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۰.

[۴۶۰] (۳)- المصدر السابق.

[۴۶۱] (۴)- مجمع البیان، ج ۱، ص ۵۴۸.

[۴۶۲] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۱۲۴.

[۴۶۳] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۱.

[۴۶۴] (۲)- المصدر السابق.

[۴۶۵] (۳)- المصدر السابق.

[۴۶۶] (۱)- ذکر سبب النزول هذا کثیر من المفسّرین علی اختلاف یسیر بینهم فی العبارات منهم الطبرسی فی مجمع البیان، و القرطبی فی تفسیره، و أبو الفتوح الرازی فی تفسیره، و السیوطی فی الدر المنثور.

[۴۶۷] (۱)- یونس- ۱۵

[۴۶۸] (۱)- لقمان- ۲۵

[۴۶۹] (۱)- تفسیر علی بن إبراهیم، ج ۲، ص ۴۴۵.

[۴۷۰] (۲)- بناء علی هذا التّفسیر« ما» فی الآیتین الثّانیة و الثّالثة موصولة، و فی الرابعة و الخامسة مصدریة(ذکر هذا التّفسیر أبو الفتوح الرازی ضمن ذکره لاحتمالات تفسیر الآیة ج ۱۲، ص ۱۹۲، و أشار إلیه الطبرسی أیضا).

[۴۷۱] (۱)- بناء علی هذا(عابد) و هو اسم فاعل یکون فی الآیة بمعنی الماضی أیضا.

[۴۷۲] (۲)- یجب الالتفات إلی أن« ما الموصولة» و إن استعملت غالبا فی غیر ذوی العقول، تستعمل أیضا فی العاقل. و فی القرآن شواهد.

[۴۷۳] (۳)- سورة القصص، الآیة ۵۵.

[۴۷۴] (۱)- و یلاحظ أن کلمة(دین) فی الآیة\i وَ لِیَ دِینِ E مکسورة، و کسرتها تدل علی یاء محذوفة أی: و لی دینی.

[۴۷۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۴، هذه الرّوایة وردت بألفاظ مختلفة(المیزان، ج ۲۰، ص ۵۳۲).

[۴۷۶] (۲)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۳.

[۴۷۷] (۳)- المصدر السابق.

[۴۷۸] (۱)- البقرة، الآیة ۲۱۴.

[۴۷۹] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۲۶؛ الأنفال، الآیة ۱۰.

[۴۸۰] (۱)- الأحزاب، الآیة ۱۰.

[۴۸۱] (۱)- یوسف- الآیة ۱۰۱.

[۴۸۲] (۲)- النمل، الآیة ۴۰.

[۴۸۳] (۱)- بتلخیص عن الکامل لابن الأثیر، ج ۲، و تفسیر مجمع البیان، تفسیر سورة النصر.

[۴۸۴] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۸.

[۴۸۵] (۱)- تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۳۲۴(بتلخیص قلیل) و الرّوایة بنفس المضمون ذکرها الطبرسی فی مجمع البیان، و ابن

الأثیر فی الکامل، ج ۲، ص ۶۰ و فی الدر المنثور، و أبی الفتوح الرازی و الفخر الرازی، و فی ظلال القرآن، فی تفسیر هذه السّورة.

[۴۸۶] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۵۹.

[۴۸۷] (۲)- فی ظلال القرآن، ج ۸، ص ۶۹۷.

[۴۸۸] (۱)- تفسیر الفرقان، ج ۳۰، ص ۵۰۳.

[۴۸۹] (۲)- المصدر السابق.

[۴۹۰] (۳)- الشعراء، الآیتان ۸۸- ۸۹.

[۴۹۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۲۲۷.

[۴۹۲] (۲)-« امرأته» معطوف علی ضمیر مستتر فی« سیصلی» و« حمالة» حال منصوب. و قیل إنّها منصوبة بالشتم، کما ذهب إلی ذلک الزمخشری فی الکشاف، و التقدیر: أذّم حمالة الحطب. و المعنی الأوّل أفضل.

[۴۹۳] (۱)- التحقیق فی کلمات القرآن الکریم، ج ۲، ص ۱۵۸.

[۴۹۴] (۱)- أوضحنا هذه المسألة أکثر فی تفسیر الآیة(۴۶) من سورة هود بمناسبة الحدیث عن ابن نوح علیه السّلام.

[۴۹۵] (۱)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۳۹۰.

[۴۹۶] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۰۵، الحدیث ۴۲، نقلا عن مجمع البیان.

[۴۹۷] (۲)- المصدر السابق، ص ۷۰۰، الحدیث ۱۲؛ نقلا عن کتاب ثواب الأعمال.

[۴۹۸] (۳)- المصدر السابق، ص ۶۹۹، الحدیث ۱.

[۴۹۹] (۴)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۱، و کتب الحدیث و التّفسیر الاخری.

[۵۰۰] (۱)- اصول الکافی، ج ۱، باب النسبة، الحدیث ۳.

[۵۰۱] (۱)- قیل« هو» فی الآیة ضمیر الشأن، و اللّه مبتدأ. و الأفضل أن نعتبر« هو» إشارة إلی ذاته المقدّسة، و قد کانت مجهولة لدی السائل، و تکون بذلک« هو» مبتدأ و« اللّه» خبرا و« أحد» خبر بعد الخبر.

[۵۰۲] (۲)- فصلت، الآیة ۵۳.

[۵۰۳] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۱، الحدیث ۱۲، بتلخیص.

[۵۰۴] (۲)- المصدر السابق.

[۵۰۵] (۳)- المصدر السابق.

[۵۰۶] (۱)- المصدر السابق.

[۵۰۷] (۲)- المیزان، ج ۲۰، ص ۵۴۳.

[۵۰۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۲.

[۵۰۹] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۰۶، الحدیث ۱.

[۵۱۰] (۲)- معجم مقاییس اللغة، ابن فارس، ج ۳، ص ۳۹.

[۵۱۱] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۳.

[۵۱۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۱۳] (۳)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۵.

[۵۱۴] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۳۰؛ الحدیث ۲۱.

[۵۱۵] (۱)- التوبة، الآیة ۳۰.

[۵۱۶] (۲)- الأنعام، الآیة ۱۰۰.

[۵۱۷] (۱)- بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۲۴.

[۵۱۸] (۲)-« أحد» اسم کان و« کفوا» خبرها.

[۵۱۹] (۳)- نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

[۵۲۰] (۱)- الأنبیاء، الآیة ۲۲.

[۵۲۱] (۲)- نهج البلاغة، وصیته لابنه المجتبی(قسم الرسائل، الرسالة ۳۱).

[۵۲۲] (۱)- الرعد، الآیة ۱۶۰.

[۵۲۳] (۲)- الأنعام، الآیة ۱۶۴.

[۵۲۴] (۱)- المائدة، الآیة ۴۴.

[۵۲۵] (۲)- آل عمران، الآیة ۱۸۹.

[۵۲۶] (۳)- الحدید، الآیة ۷.

[۵۲۷] (۱)- لذلک إذا تعینت حکومة عن طریق الانتخابات و بأکثریة الأصوات، فلا بدّ من تنفیذ الفقیه الجامع للشرائط کی تکون لها شرعیة إلهیة.

[۵۲۸] (۲)- الأنعام، الآیة ۵۷.

[۵۲۹] (۳)- النساء، الآیة ۵۹.

[۵۳۰] (۴)- النساء، الآیة ۸۰.

[۵۳۱] (۱)- الفرقان، الآیتان ۸ و ۹.

[۵۳۲] (۲)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۱۶، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۷.

[۵۳۳] (۳)- المصدر السابق.

[۵۳۴] (۴)- المصدر السابق.

[۵۳۵] (۱)- الأنعام، الآیة ۹۵.

[۵۳۶] (۲)- ألم السجدة، الآیة ۷.

[۵۳۷] (۱)- تفسیر الفخر الرازی، ج ۳۲، ص ۱۹۶.

[۵۳۸] (۱)- بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۳۷.

[۵۳۹] (۲)- المصدر السابق، ص ۲۴۸.

[۵۴۰] (۳)- النساء، الآیة ۵۴.

[۵۴۱] (۱)- نور الثقلین، ج ۵، ص ۷۶۴۵، و مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۶۷، و ۵۶۹.

[۵۴۲] (۲)- المصدر السابق.

[۵۴۳] (۱)- نهج البلاغة، الخطبة ۵۰.

[۵۴۴] (۱)- فصلت، الآیة ۳۰.

[۵۴۵] (۱)- مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۵۷۱.

[۵۴۶] (۲)- تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۵۵۷.

تعریف مرکز

بسم الله الرحمن الرحیم

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية للبحوث والتحريات الكمبيوترية
اصبهان

للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩